

وَأَحَبُّ النَّفْسِ

تأليف :

أحمد بن أحمد محمد عبد الله الطويل

عضو اللجنة العلمية لمراجعة مصحف المدينة النبوية

ولجنة الإشراف على التسجيلات القرآنية

بمجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف

قدّم له: معالي الدكتور / عبد الله بن عبد المحسن الشري

والأستاذ الدكتور / صالح بن غانم السدّان

ونخبة من العلماء المتخصّصين

توزيع

دار البحوث والدراسات الإسلامية

بجدة

فَأَحْبَبُ النَّفْسِ

تأليف :

أَحْمَدُ بْنُ أَحْمَدَ مُحَمَّدَ عَبْدَ اللَّهِ الطَّوِيلِ

عُضُو الدَّجَنَةِ الْعِلْمِيَّةِ لِمُرَاجَعَةِ مُصْحَفِ الْمَدِينَةِ النَّبَوِيَّةِ
وَلَجَنَةِ الْإِشْرَافِ عَلَى التَّسْجِيلَاتِ الْقُرْآنِيَّةِ
بِمُجَمَّعِ الْمَلِكِ فَهْدٍ لَطَبَاعَةِ الْمُصْحَفِ الشَّرِيفِ

قَدَّمَ لَهُ: مَعَالِي الدُّكْتُورُ / عَبْدُ اللَّهِ بْنُ عَبْدِ الْمُحْسِنِ الشُّرْكِي
وَالْأُسْتَاذُ الدُّكْتُورُ / صَالِحُ بْنُ غَانِمِ السَّدْلَانِ
وَنُحْبَةً مِنَ الْعُلَمَاءِ الْمُتَخَصِّصِينَ

المجلد الأول

الفاتحة والبقرة إلى الآية ٢٠٣

الطبعة الأولى ١٤٣٨ هـ - ٢٠١٦ م

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

إني قد رأيت أنه لا يكتب إنسانا
كتابا في يومه إلا قال في غده:
لو غير هذا لكان أحسن،
ولو زيد كذا لكان يستحسن
ولو قدم هذا لكان أفضل
ولو ترك هذا لكان أجمل
وهذا من أعظم العبر
وهو دليل على استيلاء
النقص على جملة البشر

العماد الأصفهاني

وقال الشاطبي إمام القراء:

وَإِنْ كَانَ خَرَقٌ فَأَدْرِكُهُ بِفَضْلِهِ مِنْ الْحِلْمِ وَلْيُضْلِحْهُ مَنْ جَادَ مَقُولًا

هذا: ورحم الله من أهدى إلينا عيوبنا .

للتواصل: هاتف متحرك ٠٠٩٦٦٥٦٣٨٩١٩٣٥

أحمد بن أحمد الطويل

١/٨٥٢/م
٢٨/١١/١٤٣٠هـ
المرفقات: كتاب

تصدير

الحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم على نبينا محمد، وعلى آله وصحبه أجمعين.

أما بعد: فقد اطلعت على جزء من كتاب (واحة التفسير) من تصنيف الأخ الشيخ أحمد بن أحمد الطويل، وفقه الله، فألفيته سالكا مسلِكَ أهل العلم بالتأويل، ألمَّ بجوانب كثيرة من فنونه، كالتقديم بين يدي السورة بما ورد فيها من فضائل، ومناسبة ترتيبها مع ما قبلها، وتلخيص ما اشتملت عليه من موضوعات، وعُني ببيان ما في الألفاظ من وجوه القراءات، معزوةً إلى روايتها من مشاهير القراء، مع توجيهها في اللغة والنحو.

ونسج على منوال أهل التفسير بالمأثور، فيستهل إيضاح الآية بما ورد فيها من أسباب النزول، ثم ما يبينها من غيرها من آي القرآن، ثم من السنة، ثم مما أُرث عن مفسري الصحابة رضوان الله عليهم، ثم مما أُرث عن مفسري التابعين رحمهم الله.

ويوثق ما يذكر من خبر أو أثر، بعزوه لمصدره الذي أخرجه من الصحاح والسنن والمسانيد والمعاجم، وكتب التفسير المسندة، ويتمم الإفادة ببيان حال المرويات من الصحة والضعف، معتمداً في ذلك على أئمة هذا الشأن من الحفاظ النقاد.

حتى إذا استوفى ما في الآية من تفسير مأثور، عمَدَ إلى ما فيها من مفردات أو جمل، تحتاج إلى إيضاح وبيان، فعطف عليها بما يجلي معناها ويقربه للقاريء المستفيد، في كلمات فصيحة وعبارات جزلة، وأسلوب سهل متقارب.

وذيل تفسير الآيات المحكمات بالكلام على ما يتصل بمعناها من واقع الناس، دون تكلف ولا تعسف، مع استنباط فوائد في التربية والسلوك الاجتماعي، وإيضاح بعض الأحكام التي اشتملت عليها الجمل القرآنية.

أسأل الله تعالى أن يُعم النفع بتفسيره هذا، ويثيبه على ما أودع فيه من علم، حصله من طول بحث اقتضاه جهداً كبيراً وصبراً كثيراً، والحمد لله رب العالمين.

د. عبد الله بن عبدالمحسن التركي

الأمين العام لرابطة العالم الإسلامي

٢٨/١١/١٤٣٠هـ

الرقم ٣٥٨ / ٣١ ش
التاريخ ١٤٣١ / ٤ / ٢٦ هـ

تقريظ

الحمد لله، والصلاة والسلام على خير خلق الله، محمد بن عبدالله، وعلى آله وصحبه ومن اهتدى بهداه أما بعد:

فقد اطلعت على أجزاء من التفسير الموسوم باسم (واحة التفسير) لمؤلفه/ الشيخ أحمد بن أحمد محمد عبدالله الطويل، فألفيته قد اتبع فيه النحو التالي:

أولاً: يكتب مقدمة لكل سورة يبين فيها فضائلها ومحتوياتها وأغراضها في وحدة موضوعية للسورة.

ثانياً: يضع عناوين مناسبة للآيات، يشرح تحتها المعنى الإجمالي باستفاضة، ويذكر أسباب النزول ومعاني المفردات، ويوضح الجوانب المتعلقة بها من الناحية الفقهية والاجتماعية والأخلاقية وغيرها.

ثالثاً: يعتمد على تفسير القرآن بالقرآن وبالسنة وأقوال الصحابة والتابعين، ويُخرِّج الآيات والأحاديث والآثار من مصادرها الأصلية، وينهج منهج السلف فيما يتعلق بالأسماء الصفات.

رابعاً: يربط الآيات بالواقع المعاصر وغير المعاصر، ويبين ما فيها من عبر وهدايات، وينبه على البدع والخرافات.

خامساً: يذكر القراءات العشر في الحاشية ويوجهها، ويذكر المتفق عليه والمختلف فيه من عد أي القرآن الكريم.

وبالجملة فهو تفسير نافع مفيد، فيه إضافة جديدة للمكتبة الإسلامية.

أسأل الله تعالى أن ييسر طبعه ونشره، ويعم نفعه ويثيب كاتبه ويأجره خيراً.

وصلّى الله على نبينا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

أ.د. صالح بن غانم السدلاي

أستاذ الفقه المقارن بجامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية

تقريظ

الحمد لله الذي علّم بالقلم، علّم الإنسان ما لم يعلم، والصلاة والسلام على من كلّفه ربّه بيان القرآن الكريم وعلى آله وصحبه أجمعين، أما بعد :

فقد أنعم الله عليّ بحضور بعض دروس (واحة التفسير) لفضيلة شيخنا العلامة المقرئ المفسر الشيخ أحمد بن أحمد بن عبد الله الطويل، أثناء إلقائه لها بجامع أبي هريرة رضي الله عنه بحي العريجا الأوسط بالرياض، والذي أشرف بإمامته، كما أنني اطلعت على جزء منه مصورًا فألفيته نهج بتفسيره أسلوبًا فريدًا حيث اختار موضوعًا للآيات التي يفسرها وجعله عنوانًا لها وحشد لتفسيرها آيات من مختلف السور وأحاديث وآثارًا حرص - قدر الإمكان - على المقبول منها، ثم نزلها على الواقع من خلال ضرب أمثلة معاصرة ليحقق أحد أهدافه من تأليف التفسير، ألا وهو التيسير على الدعاة بل والعلماء بجمع أطراف الموضوع الذي يحتاجونه.

وسلك شيخنا الفاضل في تفسيره لآيات الصفات منهج سلف الأمة، وهو إثبات المعاني الصحيحة للصفات بعيدًا عن التكيف والتأويل والتمثيل على منهاج قول الله تعالى ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ [الشورى: ١١] كما عني المؤلف بأسباب النزول وبالمعنى الإجمالي للسورة عمومًا والآيات خصوصًا، وفي الآيات الخاصة بالسيرة، أطنب في ذكر مواقفها الجهادية والتربوية وكذلك فعل في قصص النبيين عليهم الصلاة والسلام، واهتم فضيلته بمناقشة أقوال الفقهاء في آيات الأحكام، وحتى لا يقطع على القارئ حبل أفكاره جعل القراءات في الحاشية، وفي العموم يُعدُّ هذا الكتاب إضافة مفيدة للمكتبة الإسلامية فيما يتعلق بالتفسير بالمأثور يحتاج إليه كل مسلم، ولذا فهو ضرورة لكل بيت من بيوت المسلمين لا سيما الدعاة والوعاظ والعلماء المتخصصين.

والله أسأل أن يجعل ذلك في موازين حسنات شيخنا الفاضل، وأن يضيفه إلى رصيده مع ما بذله ويبدله من تعليم كتاب الله عز وجل، كما أساله أن يجعل هذه الشهادة خالصة لوجهه الكريم، وأن لا يحرمنا مثل أجره، وأن ينفعني وإخواني به، وصلى الله على نبينا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

قاله وكتبه

الدكتور محمد جاد بن أحمد صالح المصري

المستشار الشرعي

إمام وخطيب جامع أبي هريرة بحي العريجا الأوسط بالرياض

تقريظ

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، وعلى آله وصحبه ومن والاه، أما بعد:

فقد اطلعت على كتاب (واحة التفسير) لمؤلفه فضيلة الشيخ العلامة المقريء أحمد بن أحمد بن محمد بن عبد الله الطويل، ويقع في خمسة عشر مجلدًا يزيد المجلد عن ست مئة وخمسين صفحة، في نهاية كل مجلد فهرس لموضوعات السورة، فوجدته قد نهج فيه منهجًا فريدًا، حيث قام بجعل عناوين للآيات وتحت هذا العنوان يشرح الآية شرحًا إجمالياً مستفيضًا، ويورد ما يخدم هذه الآية من الآيات الأخرى المماثلة أو المشابهة، مع تخريج كل آية، ثم يضع الأحاديث التي تخدم هذا المعنى مع تخريجها والحكم عليها من مصادرها الأصلية، وإن كان هناك أحكامًا فقهية ذكرها وعزاها للقائلين بها من الأئمة الأربعة، ثم يورد الآثار وأقوال السلف التي توضح المعنى، وقد غني بأسباب النزول لتوضيح المعاني وشرح المعنى الإجمالي للآيات ويبسط القول فيما يتعلق بالسيرة النبوية فيتحدث عن الغزوات وما فيها من مواقف جهادية وتربوية، ولم يُضمّن تفسيره الإسرائيليات وما في معناها، ومع ذلك فقد غني ببيان منهج الرسل في الدعوة إلى الله، وأبدع بسرد قصصهم أيما إبداع، ويربط ذلك بالواقع كلما أمكن ذلك، ويضرب عليه أمثلة معاصرة، بحيث يمكن للداعية أن يجد موضوعًا متكاملًا عند تفسير الآية أو الآيات يتناوله بالحديث، ولا يتكلف عناء البحث في المراجع.

وقد بدأ كل سورة بتفسير موضوعي يُجمل ما فيها ويستغرق صفحات عدة قبل البدء في التفسير بما يجعل القارئ يلم بمحتويات السورة وما فيها من موضوعات.

وأسلوب التفسير سهل سلس، بحيث يستفيد منه العامة والخاصة فهو يخلو غالبًا من اللغويات والتحليل اللفظي إلا ما لا بد منه لفهم المعنى.

ورأيته فيما قرأت متبعًا منهج أهل السنة وأقوال السلف فيما يتعلق بالعقيدة والاسماء

والصفات وأنواع الشرك والبدع، كما أنه ذكر القراءات العشر الكبرى في حاشية الكتاب حتى لا يقطع المعنى على القاريء العادي مع توجيه القراءات وعزوها ومصادرها، وكذا عدّ أي القرآن المتفق عليها والمختلف فيها.

وقد غني المؤلف كذلك عناية خاصة بتفسير سورة الفاتحة فتناول جميع جوانبها من معاني وأحكام وقراءات وإعراب وتجويد وغير ذلك، كما اعتنى بتفسير آيات الصيام والحج عناية فيها إلمام بكل ما يتعلق بهما من أحكام واتجاهات ومعاني ومناسك وما إلى ذلك، وهو يعتمد إلى الآيات التي في تفسيرها أقوال واتجاهات فيرجح أقواها سنداً وأدلة ثابتة صحيحة.

وهذا الكتاب إضافة جديدة للمكتبة الإسلامية فيما يتعلق بتفسير القرآن الكريم. والله أسأل أن يبارك في هذا التفسير، وأن ينفع به مؤلفه، وأن يجعله في موازين حسناته، وأن ينفع به قراءه والمطلعين عليه، وينصر به دينه ويعلي به كلمته، وصلى الله وسلم على نبينا وحبيينا محمد وعلى آله وصحبه ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين.

قاله وكتبه

الدكتور/ نمر بن محمد الحميداني

محاماة - استشارات

مدير عام الشؤون الدينية بالأمن العام سابقاً

تقريظ

الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله، وآله وصحبه ومن والاه. أما بعد:

فقد اطلعت على أجزاء من هذا السفر النفيس، والذي دبجته يراعة الشيخ المقرئ أحمد بن أحمد الطويل، وفقه الله ونفع به وبعلمه، فوجدته محرراً ميسراً جامعاً نافعاً، سهل العبارة قريب المأخذ، يُعنى بالمعاني والمضامين، ويعالج المشكلات من خلال الآيات، ويجعل من القرآن منهاج حياة ودستور عمل.

أسأل الله الذي وفق الشيخ أحمد لإتمام هذا التفسير الواضح أن ينفع به، ويجعله خالصاً لوجهه الكريم، وفي ميزان حسناته، وأن يقيض الله له القبول والانتشار.

د/ محمد بن عبدالعزيز الخضير

أستاذ التفسير بكلية المعلمين بجامعة الملك سعود. ١٤٣١/١/٩ هـ

تقريظ

الحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم على رسوله الأمين نبينا محمد وآله وصحبه أجمعين أما بعد: فقد اطلعت على كتاب (واحة التفسير) للشيخ المقرئ أحمد بن أحمد الطويل، حفظه الله، فألفيته تفسيراً جامعاً شاملاً بذل فيه مؤلفه جهداً كبيراً، وساق فيه الكثير من النصوص عن العلماء المتقدمين والمتأخرين، وأفاد من كتب المفسرين واعتنى بتخريج الأحاديث والقراءات وعدّ الآي من مصادرها.

وأشرت عليه بالحيطة عند تفسير الآيات بالنظريات الحديثة وإن نقلها بعض المسلمين فإنها تضعف مع تقادم زمنها وربما يثبت بطلانها تماماً. واقتربت على الشيخ أن يخرج من تفسيره المبسوط مختصراً في مجلد واحد ليكون أسهل حملاً وأكثر انتشاراً ومن أراد التوسع عاد للأصل. أسأل الله أن يجعله عملاً صالحاً نافعاً مقبلاً.

كتبه العبد الفقير إلى الله

الدكتور/ عبدالعزيز بن عبد الرحمن المقم

١٤٣٠/٨/٣

تقديم

الحمد لله الذي نزل الفرقان على عبده ليكون للعالمين نذيرًا، والصلاة والسلام على من أرسله الله هاديًا ومبشرًا ونذيرًا وداعيًا إلى الله بإذنه وسراجًا منيرًا، صلى الله عليه وعلى آله وصحبه وسلم تسليمًا كثيرًا، أما بعد:

فلقد اطلعت على جزء من كتاب الشيخ الجليل / أحمد بن أحمد الطويل، المسمى (واحة التفسير) فوجدت مؤلفه قد سار فيه على نهج المفسرين الذين عُتُوا بالتفسير بالمأثور، حيث عني بتفسير القرآن بالقرآن ثم بما صح من تفسير القرآن بالسنة النبوية، مع تخريج الأحاديث والآثار وبيان الحكم عليها من أقوال أهل العلم بالحديث، ثم بعد ذلك ينقل شيئًا مما ورد عن الصحابة والتابعين في الآية، كما عني بأسباب النزول، وقرب بعض معاني المفردات والجمل القرآنية للقاريء المطالع لتفسيره ذلك، كما أوضح الأحكام التي تحتاج إلى توضيح، مع العناية بالقراءات القرآنية.

وقدّم ذلك كله بأسلوب سهل قريب يفهمه القاريء؛ بيد أنه أسلوب عربي فصيح، بعيد عن التعقيد، مرتفع عن الكلام المبتذل.

نسأل الله أن ينفع به الإسلام والمسلمين، ويثيب مؤلفه على ما بذل خيرًا، وأن يجعل عمله في سجل حسناته، فهو بحق إضافة قيمة لمكتبة التفسير.

وكتبه

د. أحمد بن محمد عمر الأنصاري

دكتورة في التفسير وعلوم القرآن، والمشرّف العلمي بدار الفرقان الخيرية.
وإمام جامع الأمير مساعد بن سعود بن عبدالعزيز آل سعود بالرياض.

تقديم

إن الحمد لله نحمده ونستعينه ونستهديه، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدا عبده ورسوله صلى الله عليه وعلى آله وصحبه وسلم تسليماً كثيراً، أما بعد:

فقد طالعت جزءاً من كتاب: (واحة التفسير) تأليف الشيخ/ أحمد بن أحمد الطويل، فوجدته كتاباً اتبع فيه مؤلفه منهجاً علمياً صحيحاً حيث يذكر تفسير السورة ويقدم لها بتقدمة يوضح فيها فضلها ومناسبتها لما قبلها ذاكراً أهم الموضوعات التي اشتملت عليها السورة، واهتم بالقراءات القرآنية عزّوا وتوجيهاً ثم يفسر القرآن بالقرآن وبالسنة والآثار، ويعزو ذلك إلى المصادر الأصلية التي استقى منها الأحاديث أو الآثار، ذاكراً درجتها صحة وضعفاً معتمداً على أقوال أهل الحديث المتقدمين والمتأخرين في الحكم، كما ربط الآيات المفسرة بالواقع كلما وجد لذلك سبيلاً، مع بعض الوقفات التربوية، مما يجعل عمله هذا قيماً مفيداً للمكتبة القرآنية.

نسأل الله أن ينفع به كاتبه وقارئه والأمة الإسلامية جمعاء، وأن يجزي الله المؤلف خير الجزاء، إنه ولي ذلك والقادر عليه، وصلى الله وسلم على نبينا محمد وآله وصحبه أجمعين ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين.

بكتبه

د. نبيل بن محمد إبراهيم آل إسماعيل

عضو هيئة التدريس بجامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية

١٤٣٠/٤/١٦ هـ

خُطْبَةُ الْحَاجَةِ

إن الحمد لله، نحمده ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا، ومن سيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له.

وأشهد أن لا إله إلا الله، وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تَقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُمْ مُسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٢].

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ [النساء: ١].

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا ﴿٧٠﴾ يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾^(١) [الأحزاب: ٧٠، ٧١].

والصلاة والسلام على خاتم الأنبياء وأشرف المرسلين، ورحمة الله للعالمين سيدنا محمد، وعلى آله وأصحابه، والتابعين لهم بإحسان إلى يوم الدين.

((أما بعد: فإن أصدق الحديث كتاب الله، وإن أفضل الهدى هدى محمد ﷺ، وشرّ الأمور محدثاتها، وكلّ محدثة بدعة، وكل بدعة ضلالة.^(٢)

(١) تسمى هذه الخطبة (خطبة الحاجة) كما أطلق عليها العلماء، وكان النبي ﷺ يعلمها أصحابه ويستفتح بها خطبة النكاح وغيرها، وكان السلف الصالح رضوان الله عليهم يفتتحون بها كتبهم، ثم يذكر صاحب الخطبة أو الحاجة خطبته أو حاجته بعد هذه المقدمة، وقد وردت هذه الخطبة المباركة عن ستة من الصحابة رضي الله عنهم، انظر: تحقيقها للشيخ محمد ناصر الدين الألباني في رسالة بعنوان (خطبة الحاجة) المكتب الإسلامي طبعة سنة ١٤٠٠هـ، وقد استقصى بعض طرقها، ومنها: رواية أبي الأحوص، عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه، قال: علّمنا رسول الله ﷺ وذكرها، وقد أخرجها أبو داود ٢١١٨ في باب خطبة النكاح بإسناد صحيح، كما في «صحيح سنن أبي داود» باختصار السند للشيخ الألباني برقم (١٨٦٠)، وهي في «مسند الإمام أحمد» برقم ٤١١٦ و أبي يعلى ٥٢٣٤ وعبد الرزاق ١٠٤٤٩ والترمذي ١١٠٥، وفي «سنن النسائي الكبرى» ١٠٣٢٧، وابن ماجه ١٨٩٢ وغيرهم، وكلهم عن ابن مسعود رضي الله عنه. وهو حديث صحيح، وإسناده صحيح على شرط مسلم، ورجاله ثقات رجال الشيخين غير أبي الأحوص فمن رجال مسلم، وللحديث طرق أخرى.

(٢) من حديث طويل عن جابر في مسند أحمد (١٤٣٣٤) بهذا اللفظ، قال محققوه: حديث صحيح، وهذا إسناده حسن من أجل مصعب بن سلام وقد تُويع. وعند البيهقي في الأسماء والصفات ص ١٨٩ واللالكائي في شرح أصول الاعتقاد: زيادة (وكل ضلالة في النار) موقوفاً على ابن مسعود بإسناد ضعيف، ينظر: تحقيق المسند (٢٣٨/٢٢ و ٢٣٥/٢٣).

سَبَبُ كِتَابَةِ التَّفْسِيرِ

ثم إنني قد عملتُ إمامًا وخطيبًا في وزارة الأوقاف المصرية مدة عشر سنوات، وعملتُ إمامًا وخطيبًا للمسجد الجامع بمستشفى القوات المسلحة في الرياض مدة اثنين وثلاثين عامًا، وتعلمتُ أن الخطيب الجيد هو الذي يُحضّر الخطبة تحضيرًا جيدًا، ويأتي لمستمعيه في كل جمعة بموضوع جديد، يشتغل بإعداده طوال الأسبوع، ويلقيه ارتجالًا لا تحريرًا.

وفي المناسبات المتكررة كالصيام والحج والعيدين وعرفة وعاشوراء... إلخ، يتكلم في الموضوع نفسه ولكن بأسلوب مختلف وأدلة أخرى من زاوية جديدة، مع الربط بالأحداث المحلية والدولية، فجمهور المسجد الواحد ثابتٌ غالبًا مع بعض الزيادة والنقص.

وفي مقبّل حياتي الدعوية جلستُ مع أحد الوعاظ في مصر، فقال لي: إنه عمل إمامًا وخطيبًا، ثم كرر خطبة جمعة سبق له أن ألقاها من ثمانية أشهر، فقال له بعض المصلّين: لقد سمعنا هذه الخطبة يا شيخ، قال: فقلت في نفسي: من أين آتي لكم في كل أسبوع بجديد؟ قال: فتركتُ الأوقاف، والتحقتُ بالوعظ في الأزهر، وها أنا الآن أتجول في ثلاثين مسجدًا، لمدة شهر كامل بخطبة واحدة، ألقياها كل يوم في مكان، للنساء صباحًا و للرجال مساءً، كما هو متبع عندهم.

قلتُ في نفسي: هذا عجزٌ وتقصيرٌ، وعزمتُ على عدم تكرار شيء سبق أن قلته قبل ذلك.

وبناءً عليه فقد ألزمت نفسي باختيار خطبة جديدة لكل أسبوع تُناسب الظرف ومقتضى الحال، ثم عمدتُ إلى الموضوعات الطويلة المسلسلة، مثل: قصص الأنبياء، الكبائر، الأخلاق، الأسرة، الغزوات، العبادات، اليوم الآخر، المعاملات، آيات الأحكام، آفات اللسان... وكل سلسلة منها تأخذ شهورًا، وربما أعوامًا.

ثم رأيتُ أن أربط الناس بكتاب الله تعالى، فهو جامعٌ لكل العلوم، وبدأتُ من أول سورة الفاتحة حتى وصلتُ إلى سورة السجدة، حيث تركتُ المسجد لبلوغي سن التقاعد بعد أن شرحت على المنبر أكثر من عشرين جزءًا من القرآن، دون كتابة ولا تسجيل، وقد استغرق هذا اثني عشر عامًا تقريبًا، ثم طَلَبَ مني كثيرٌ من الإخوة كتابة هذا التفسير؛ ليعم النفع.

ووجدتُ أن بعضهم قد سجّله لنفسه ولمن يُحب على أشرطة كاسيت، فحصلتُ على

نسخة منه، وفرَّغها لي بعض الإخوة في الحاسب الآلي -جزاهم الله خيرًا- ووجدت صعوبة في تحقيقها وإعدادها للطبع؛ لسوء التسجيل وبعْد الصوت، وانقطاع الكلام في التفريغ، واختلاف أسلوب الكلام عن الكتابة، وحاجته إلى التوثيق، فاستعنت بالله تعالى على نية بدء الكتابة من أول القرآن .

هذا: وإن القرآن الكريم زادُ المسلم، وقُوته الأساس، لاسيما كل مَنْ يتصدى للدعوة والإرشاد، فالقرآن زادٌ لا يَنْقُذُ، ومَعِينٌ لا يَنْصُبُ، جَمَعَ العلوم كلها من عقيدة وعبادة وتشريع وهداية، وأخلاق وآداب وعلاقات، وفَلَكٌ وعلوم وتاريخ، وحِكم وأحكام وطب وحساب وسياسة واقتصاد...

وكتب التفسير كثيرة، ولها توجُّهات شتى، وكل قارئ يجد ما يبتغيه في كتاب من كتبه، ولكن المسلم العادي غير المتخصص في العلوم الشرعية يصعبُ عليه أن يخرج بعبرة عامة، أو فائدة سريعة من هذه الكتب غالبًا، وكذا مَنْ يريد تحضير موعظة يلقيها على الناس على ضوء بعض الآيات، فإنه يصعب عليه غالبًا أن يخرج بموعظة عامة من هذه الكتب وحدها.

وقد ذكر لي بعض الإخوة من العرب المسلمين المقيمين في كندا وأمريكا وبريطانيا أنهم يجتمعون بصفة دورية في المساجد والمراكز الإسلامية، ويُوكلُ إلى كل منهم تحضير درس في التوحيد أو التفسير أو الحديث أو السيرة أو التاريخ؛ ليلقيَه على إخوانه، وإنَّ أشقَّ درسٍ عليهم في التحضير هو درس التفسير.

قال: فبعض التفاسير يكتفي بذكر معنى الألفاظ، وبعضها يستطرد في ذكر الأسانيد والأقوال المأثورة المترادفة، وبعضها أسلوبه أدبي طويل، وبعضها يَجْنَحُ إلى الناحية الفقهية أو العلمية أو اللغوية والبلاغية، وبعضها يشتمل على الآثار الضعيفة والإسرائيليات... إلخ.

قال: ولا يكاد أحدنا يجد تفسيرًا للمعاني سهلًا يسيرًا يستطيع أن يفهم منه الآيات فهمًا مباشرًا.

قلت: وكذلك الأمر بالنسبة لخطيب الجمعة أو الداعية والمرشد، فهو بحاجة إلى تفسير يعتمد على آية أو آيات من القرآن، والأحاديث صحيحة المتن والسند المتصلة بها، والقصة المرفَّقة للقلب، وسبب النزول، ومراعاة واقع المسلمين،

والاستفادة من الأقوال المأثورة في التفاسير القديمة، ومن الأسلوب الوعظي والأدبي في التفاسير الحديثة، والاعتماد على المصادر الأصلية في الحديث والسيرة والفقه والدعوة والثقافة الإسلامية ذات العلاقة، مع تقريب المعاني بأسلوب يتلاءم مع شرائح المجتمع، وتوثيق المادة العلمية التي يتوخّاها، و ربط ذلك كله بالأحداث الجارية محليا وعالميا، كأن القرآن ينتزل على واقع الناس وأحوالهم اليومية.

فعقدت العزم على ذلك، وقد شجعني عليه الأخ الدكتور (محمد حجاج) حيث مَوَّل تخزين ما أكتبه في الحاسب، جزاه الله خيرا.

منهجي في التفسير

١- المادة العلمية: تقوم على تفسير القرآن بالقرآن، وتفسيره بالسنة الصحيحة وأقوال السلف، وأسباب النزول، والقول السديد لأئمة التفسير المعتبرين قديماً وحديثاً، وما تجود به القريحة من ربط المعاني بالواقع، وربط الآيات ببعضها، وكون الإسلام يُصلح كل زمان ومكان.

٢- خرّجتُ الآيات والأحاديث وحكمتُ عليها، واستفدتُ ممن سبقوني في تخريجي لكثير من الأحاديث، لا سيما تخريج مسند الإمام أحمد، بإشراف الدكتور/ عبدالله التركي، وكذا سنن النسائي الكبرى، والدر المنثور للسيوطي (المحقق)

وما ورد من الأحاديث في فضائل الأعمال بسند فيه كلام، وكان متنه صحيحاً، وله شواهد أخرى، وفيه موعظة وحكمة وفائدة، فقد أوردته -مع التنبيه عليه- على أنه كلام مأثور، حسن بليغ، فيه حكمة وموعظة، وليس على أنه حديث نبوي، وهو قليل نادر.

٣- أثبتُ وجوه القراءات العشر الكبرى المتواترة من طريق طيبة النشر في القراءات العشر، في كلمات الفرش وبعض الأصول لأنها تتكرر، وجعلت ذلك في الحاشية لمن يهمله الاطلاع عليها، وحتى لا تنقطع متابعة القارئ العادي للتفسير، بوجوه القراءات، وقد لا يستوعبها، فالقراءات هي اختلاف ألفاظ الوحي، ورواية حفص كغيرها من الروايات العشرين لأئمة القراءات العشر، وكلها قرآن موحي به من عند الله لا فرق بينها، ولكن الهمم قاصرة، اكتفت برواية واحدة في الغالب.

وقد نبّهتُ على بعض أحكام التجويد، والوقف والابتداء، كما نبّهت على بعض كلمات الرسم العثماني ومخالفتها للرسم الإملائي.

وقد أخذت المادة العلمية في قراءات القرآن، من أمّات كتب القراءات كالنشر في القراءات العشر لابن الجزري، وإتحاف فضلاء البشر، لأحمد الدميّاطي البنا، والمهذب في القراءات العشر للدكتور محمد سالم محيسن، والبدور الزاهرة لأبي حفص النشار وغيرها.

٤- ذكرتُ مجمل عدد آي كل سورة في أول مقدمتها عند علماء العدد، ثم ذكرت الخلاف

عند رأس كل آية مختلف في عدّها بين مصاحف الأمصار الستة، وهي: مصحف: المدني الأول، والمدني الأخير، والمكي، والبصري، والشامي، والكوفي، فعزّوتها إليه في الحاشية، وقد أخذت ذلك من أمّات كتب الفواصل (عد الآي) مثل (البيان في عدّآي القرآن) لأبي عمرو الداني، مخطوطة، و (بشير اليسر) شرح ناطمة الزهر للشاطبي، و(المحرر الوجيز في عدّآي الكتاب العزيز) شرح أرجوزة العلامة محمد المتولى.

وهكذا أثبتّ مجمل عدد آيات كل سورة في أولها، عند مختلف المصاحف العثمانية، التي أرسلها عثمان بن عفان ؓ إلى الأمصار الإسلامية، وأثبتّ الآيات المختلف في عدّها في مواطنها، وقد أخذت ذلك من أمّات كتب الفواصل (عد الآي).

ومن باب حفز الهمم، والترغيب في الإقبال على تلاوة كتاب الله عزوجل، ذكرت عدد كلمات وحروف كل سورة؛ لتُعلم التجارة الرابعة مع الله تعالى في تلاوة كل سورة من القرآن، الحرف بحسنة، والحسنة بعشر أمثالها، وقد أخذت ذلك من الإتيان للسيوطي، ومن مقدمتان في علوم القرآن، آرثر جفري، ومن تفسير الخازن.

٥- أخبار بني إسرائيل مسكوتٌ عنها شرعاً، لا تُصدق ولا تُكذّب، وما كان منها لا يتعارض مع الكتاب والسنة فلا مانع من إirاده، إذا كان فيه عبرة أو موعظة أو فائدة أو موافقة تاريخية تتفق مع ثوابت الإسلام.

٦- كل سورة من القرآن الكريم وحدةٌ واحدة متكاملة، وقد جعلتُ كل مجلد من هذا التفسير يبدأ بسورة وينتهي بسورة، عدا المجلد الأول، فإن سورة البقرة طويلة لا يتحملها مع الفاتحة مجلد واحد، ولذا قسمتها مع المجلد الثاني، فالأصل هو تقسيم القرآن إلى سور، أما الأجزاء والأحزاب والأرباع فإنها كثيراً ما تقطع السياق، وتفصل المعنى، وهو تقسيم غير توقيفي.

وعلامات هذه التجزئة عُثر عليها في القرن الرابع الهجري؛ ولذا لم أعتمد عليه في التقسيم واعتمدت تقسيم السور^(١).

(١) قام بتقسيم القرآن إلى أجزاء وأرباع نصر بن عاصم تلميذ أبي الأسود الدؤلي بأمر الحجاج بن يوسف الثقفي، ووجد مصحف في أواسط القرن الرابع الهجري فيه علامات هذه الأجزاء والأحزاب والأرباع، ولم تُعرف قبل ذلك. ينظر: الجزء الأول ص ٦٥ وما بعدها، من (فن الترتيل وعلومه) للمؤلف.

٧- وضعتُ رقم كل آية يُراد تفسيرها في أولها، ثم أثبتُ الآية كاملة غالباً بين قوسين، بعد وضع عناوين لموضوعات الآيات، وكتبْتُ ما فيها من قراءات بالحاشية، وقد أضمتُ آيتين أو أكثر في الآيات القصيرة؛ لضرورة اتصال المعنى، وأجعل الآية غنيّة بما يخدمها من الآيات المشابهة أو المماثلة، والأحاديث الموضّحة لها، مع تخريجها والحكم عليها، وذكر كثير من مصادرها ومراجعها، وذكرت أسباب النزول، والأحكام الفقهية إن وُجدت، والآثار صحيحة المعنى، والمعنى الإجمالي لها، مع التركيز على الجانب الوعظي والرقائق، بما يفيد القارئ والواعظ، ويربط العبد بربه.

٨- هذا التفسير سهل العبارة، واضح المعنى، غزير المعنى الإجمالي، ليس فيه اشتغال بأوجه البلاغة أو النحو، ولا التحليل اللفظي للكلمات إلا ما لا يُفهمُ المعنى إلا به.

٩- سورة الفاتحة وآيات الصيام والحج خصصتها بمزيدٍ من البحث فضلاً عن التفسير لأهمية سورة الفاتحة وعدم تكرارها في المصحف، ولأن أحكام الصيام والحج ذكراً غالباً مرة واحدة في سورة واحدة هي سورة البقرة، بخلاف الصلاة والزكاة والأخلاق ونحو ذلك، فقد جاء ذكرها في سور متعددة ومناسبات كثيرة، وهذه الثلاث: الفاتحة والصيام والحج، جاءت كلها في المجلد الأول فحسب من هذا التفسير، وليس لها نظير في التفسير كله، عدا الكلام عن البيت الحرام في سورتي آل عمران والحج.

١٠- استخدمتُ لبعض المراجع أكثر من طبعة، بعضها مُحَقَّق وبعضها غير مُحَقَّق، مثل: تفسير الطبري، ومسند الإمام أحمد، وسنن النسائي الكبرى، وفتح الباري، وتفسير ابن كثير، والدر المنثور وغيرها، وذلك بسبب السفر والتنقل، وقد استعنت بكثير من كتب التفسير القديمة والحديثة، وهي كتب معروفة، كتفسير ابن عطية والطبري والقرطبي، وابن كثير والبغوي وابن الجوزي، والشوكاني والخازن وابن عاشور والشنقيطي والسعدي وغيرها، واستعنت بالمراجع الأصلية في الحديث والفقه والقراءات وعلوم القرآن وغيرها.

١١- المذكور أولاً من كتب الحديث في الحاشية هو صاحب اللفظ الموجود في المتن، سواء أكان مسند الإمام أحمد، أم صحيح مسلم أم البخاري، أم غيرهم، ثم أتبعه ببقية المراجع، فلا يؤخذ علينا تقديم صحيح مسلم - مثلاً - على صحيح البخاري

مثلاً، أو تقديم مسند أحمد عليهما ونحو ذلك.

١٢- ومن المعلوم أن حوادث الدهر تتغير، ومن الأحداث التي صاحبت كتابة هذا التفسير: أطفال الحجارة في فلسطين، ومفاوضات قيام دولتين في فلسطين، وحرب غزة عام ١٤٣٠هـ، ومن ذلك احتلال العراق، وأحداث أفغانستان والشيكان والبوسنة والهرسك وكشمير والصومال وغير ذلك، وكثر تناول مصطلح الإرهاب والتطرف حتى أطلقه بعض الناس على كل متمسك بدينه ملتزم به، فكان لهذه الحوادث لمسات في هذا التفسير.

هذا: وأرجو أن أكون قد وفقت إلى تفسير وعظي للقرآن الكريم، يستفيد منه العامة والدعاة والوعاظ على النحو المطلوب.

وأسأل الله تعالى أن ينفع به كل من أطلع عليه، وأن يجعله صدقة جارية لي بعد مماتي، وأن يكون خالصاً لوجهه الكريم، وألا يحرمني الأجر والمثوبة، وأن يغفر لي عجزتي وتقصيري ويعفو عن هفواتي وزلاتي، ورحم الله من أهدى إلينا عيوبنا، ومنه ﷻ العون والتوفيق والسداد.

الفقير إلى عفو ربه

أحمد بن أحمد محمد عبد الله الطويل

مدينة الرياض

غرة شهر شعبان ١٤٣١هـ



تفسير سُورَةِ الْفَاتِحَةِ (١)

مَبَاحِثُ سُورَةِ الْفَاتِحَةِ

المبحث الأول: نزول السورة وأسمائها.

المبحث الثاني: فضل سورة الفاتحة ومشروعية الرقية بها.

المبحث الثالث: مقاصد سورة الفاتحة خمسة.

المبحث الرابع: الاستعاذة.

المبحث الخامس: البسملة. وفيه مطلبان:

المطلب الأول: الافتتاح بالبسملة في الصلاة وغيرها.

والمطلب الثاني: التحليل اللفظي للبسملة.

المبحث السادس: البسملة بين القُرَّاء والفقهاء وعلماء عدِّ الآي. وفيه ثلاثة مطالب:

المطلب الأول: البسملة عند القُرَّاء.

المطلب الثاني: البسملة عند علماء العدد.

المطلب الثالث: البسملة عند الفقهاء والمحدثين.

المبحث السابع: الحمد لله.

المبحث الثامن: صفة الرحمة.

المبحث التاسع: يوم الدين.

المبحث العاشر: العبادة والاستعاذة.

المبحث الحادي عشر: طلب الهداية.

المبحث الثاني عشر: أصناف الناس.

المبحث الثالث عشر: حكم قراءة الفاتحة في الصلاة.

المبحث الرابع عشر: التجويد والقراءات والإعراب في سورة الفاتحة.

المبحث الخامس عشر: في رحاب الصلاة من التكبير إلى التسليم.

الْمُبْحَثُ الْأَوَّلُ: نُزُولُ السُّورَةِ وَأَسْمَاؤُهَا

أولاً: نزول سورة الفاتحة : الفاتحة أول سورة نزلت كاملة، دفعة واحدة، على النبي ﷺ بمكة المكرمة، على ما عليه جمهور العلماء، وقيل: إنها نزلت مرة أخرى بالمدينة المنورة حين حُوت القبلة من بيت المقدس إلى الكعبة، ونزل قبلها مطلع سورة العلق والمزمل والمدثر والقلم، فهي خامس سورة في ترتيب النزول، وفيها براعة الاستهلال لافتتاح القرآن الكريم.

ويؤكد كونها نزلت بمكة، أن الصلاة فُرضت بها، وليس هناك صلاة بدون الفاتحة. وقد جاءت الإشارة إليها في سورة مكية هي سورة الحجر في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَاكَ سَبْعًا مِّنَ الْمَثَانِي وَالْقُرْآنَ الْعَظِيمَ﴾ [الحجر: ٨٧] والسبعُ المثاني هي سورة الفاتحة على الأرجح؛ لأنها تُتلى في الصلاة، فتقرأ في كل ركعة. وجمهورُ العلماء على أن أول ما نزل من القرآن قوله تعالى: ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ﴾ [العلق: ١] الآيات الخمس الأولى من سورة العلق.

والفاتحة أول سورة في ترتيب المصحف؛ لأنها تشبه دياجة الخطبة، وتتضمن مقاصد القرآن، وهذا الترتيب للسر في المصحف، ترتيب توقيفي على الراجح؛ لأنه بأمر النبي ﷺ، وهو يختلف عن ترتيب نزول القرآن، حسب الوقائع والأحداث.

عدد كلماتها: سبع وعشرون كلمة.

وعدد حروفها: مئة وأربعون حرفاً، وقد بين النبي ﷺ أن من يقرأ القرآن، له بكل حرف حسنة، والحسنة بعشر أمثالها، والله يضاعف لمن يشاء.

وعدد آياتها: سبع آيات باتفاق، فمن عدَّ البسملة آية من علماء عدَّ آي القرآن الكريم أسقط من العدد قوله تعالى: ﴿أَنعَمْتَ عَلَيْهِمْ﴾، ومن أسقط البسملة من العدد عدَّ قوله تعالى: ﴿أَنعَمْتَ عَلَيْهِمْ﴾ آية، وقد عدَّ المصحف المكي والكوفي «البسملة» آية، وأسقط ﴿أَنعَمْتَ عَلَيْهِمْ﴾ من العدد، وأسقط بقية علماء العدد «البسملة» وعدَّوا ﴿أَنعَمْتَ عَلَيْهِمْ﴾ آية. والمصحف الذي بأيدينا هو المصحف الكوفي؛ لأنه برواية حفص عن عاصم الكوفي، وهو أحد المصاحف التي أرسلها عثمان ؓ إلى الأمصار الإسلامية.

ثانيًا: أَسْمَاؤها: وقد ذكر المفسرون لسورة الفاتحة أكثر من عشرين اسمًا، ذكر القرطبي منها اثني عشر اسمًا، وعدّد الزمخشري في الكشاف عشرةً منها، وذكر الألويسي في روح المعاني والسيوطي في الإتقان أنها نيفٌ وعشرون اسمًا، ومن هذه الأسماء:

١- الفاتحة: أو فاتحة الكتاب، أي: بدايته.

٢- وتُسمّى أم الكتاب: أو أم القرآن؛ لأن القرآن يتبعها، كما يتبع الجيش أمّه، أي: رايته.

٣- وتُسمى سورة الحمد: أي السورة التي ذُكر فيها الحمد، كما يُقال سورة الأنفال؛ لأن السورة تُسمّى باسم بعضها.

٤- وتُسمّى السبع المثاني: لأنها سبع آيات تُتلى، أي: تكرر وتُعاد في الصلاة.

٥- ومن أسمائها: القرآن العظيم؛ لاشتمالها على مقاصده الأساسية.

٦- وتُسمّى سورة الرقية: لمشروعية قراءتها في الرقية.

٧- وتُسمّى: الشفاء والشفافية والواقية؛ وكلها بمعنى الرقية.

٨- ومن أسمائها: سورة الصلاة؛ لحديث: «قَسَمْتُ الصَّلَاةَ بَيْنِي وَبَيْنَ عَبْدِي نِصْفَيْنِ...» الحديث^(١) والمراد بالصلاة: الفاتحة، وسُمّيت سورة الصلاة؛ لأنها ركنٌ وشرطٌ فيها.

٩- وتُسمّى الأساس: لأنها أساس القرآن وأصله، وأول سورة منه.

١٠- وتُسمّى الكافية: أي التي تكفي عما عداها، ولا يكفي عنها ما سواها.

١١- وتُسمّى أيضًا: سورة: الكثر، والنور، والتفويض، والمناجاة، وتعليم المسألة، وغير ذلك.

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «الحمد لله» أم القرآن، وأم الكتاب، والسبع المثاني^(٢).

وعنه رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «هي أم القرآن، وهي فاتحة الكتاب، وهي السبع المثاني، وهي القرآن العظيم»^(٣).

(١) يأتي ذكره وتخريجه في المبحث الثاني.

(٢) «صحيح سنن الترمذي» باختصار السند للشيخ الألباني (٦٦/٣) ورقم (٢٤٩٨)، وصحيح سنن أبي داود (١٣١) وهو في «المسند» (٩٧٩٠)، والبخاري (٤٧٠٤).

(٣) «المسند» (٩٧٨٨، ٩٧٩٠) قال محققوه: إسناده صحيح على شرط الشيخين، وأخرجه الطبري (١٠٥/١) وابن أبي حاتم.

الْمَبْحَثُ الثَّانِي: فَضْلُ الْفَاتِحَةِ وَمَشْرُوعِيَّةُ الرُّقِيَةِ بِهَا

أولاً: فضل سورة الفاتحة

١- إنها أعظم سور القرآن الكريم:

عن أبي سعيد بن المعلى رضي الله عنه قال: كنت أصلي في المسجد، فدعاني رسول الله ﷺ فلم أجب حتى صليت، ثم أتيتُهُ، فقال: «ما منعك أن تأتي؟» فقلت: يا رسول الله، إني كنت أصلي، فقال: «ألم يقل الله ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾» [سورة الأنفال: ٢٤] ثم قال: «لأعلمنك سورة هي أعظم السور في القرآن قبل أن تخرج من المسجد» ثم أخذ بيدي، فلما أراد أن يخرج، قلت: يا رسول الله، ألم تقل: «لأعلمنك سورة هي أعظم سورة في القرآن»، قال: «﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ هي السبع المثاني والقرآن العظيم الذي أوتيته»^(١).

٢- وسورة الفاتحة فُتِحَ لها باب خاص، ونزل بها ملك خاص، غير جبريل عليه السلام

عن ابن عباس رضي الله عنه قال: بينما جبريل عليه السلام قاعدٌ عند النبي ﷺ سمع نقيضاً من فوقه، فرفع جبريل رأسه فقال: هذا باب من السماء فُتِحَ اليوم، لم يُفْتَح قطُّ إلا اليوم، فنزل منه ملك، فقال: هذا ملك نزل إلى الأرض، لم ينزل قطُّ إلا اليوم، فسلم وقال: أبشر بئورين قد أوتيتهما، لم يُؤْتِهما نبيٌّ قبلك: فاتحة الكتاب، وخواتيم سورة البقرة، لم تقرأ بحرف إلا أوتيته^(٢).

فسورة الفاتحة نورٌ، نزل بها ملك خاص، وفتِحَ لها باب خاص، وحين نزلت سُمِعَ

(١) أخرجه البخاري بأرقام: (٤٤٧٤، ٥٠٠٦) وأبو داود (١٤٥٨) والنسائي (١٣٩/٢) برقم (٩١٢) وفي «الكبرى» (٨٠١٠، ١١٢٧٥) وهو في «جامع الأصول» (٤٦٥/٨) رقم (٦٢٣٤) و«المسند» (٤٥٠/٣)، ٤/٢١٢ برقم (١٥٧٣٠، ١٧٨٥١) باسناد صحيح على شرط الشيخين وابن ماجه (٣٧٨٥) والدارمي (٤٤٥/٢) وابن حبان (٧٧٧) والبيهقي (٣٦٨/٢) وغيرهم.

(٢) أخرجه مسلم برقم (٨٠٦) والنسائي (٦٣٨/٢) برقم (٩١١) وفي «الكبرى» (٨٠١٤، ٨٠٢١، ١٠٥٥٨) وابن حبان (٧٧٨) والطبراني (١٢٢٥٥) والحاكم (٥٥٨/١) وانظر: «جامع الأصول» حديث رقم (٦٢٣٩) والترمذي: (٢٨٧٥) و«المسند» (٤١٣/٢) عن أبي بن كعب رضي الله عنه.

إبليس رنّة^(١) أي: صيحة حزينة.

٣- وسورة الفاتحة لا يوجد مثلها في الكتب السماوية

عن أبي هريرة ؓ أن النبي ﷺ قال لأبي بن كعب ؓ: «أَتَحِبُّ أَنْ أُعَلِّمَكَ سُورَةً لَمْ يُنْزَلْ فِي التَّوْرَةِ وَلَا فِي الْإِنْجِيلِ وَلَا فِي الزَّبُورِ وَلَا فِي الْقُرْآنِ مِثْلُهَا؟» قال: نعم، قال: «كَيْفَ تَقْرَأُ فِي الصَّلَاةِ؟» قال: فَقَرَأُ أَمَّ الْقُرْآنِ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، مَا أُنْزِلَ فِي التَّوْرَةِ وَلَا فِي الْإِنْجِيلِ وَلَا فِي الْقُرْآنِ مِثْلُهَا، وَإِنِهَا سَبْعٌ مِنَ الْمِثَالَيْنِ وَالْقُرْآنُ الْعَظِيمُ الَّذِي أُعْطِيَتْهُ»^(٢).

٤- وفي حديث أبي هريرة ؓ قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: قال الله ﷻ: «قَسَمْتُ الصَّلَاةَ بَيْنِي وَبَيْنَ عَبْدِي نِصْفَيْنِ، وَلِعَبْدِي مَا سَأَلَ، فَإِذَا قَالَ الْعَبْدُ ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: حَمْدُنِي عَبْدِي، وَإِذَا قَالَ: ﴿الزَّكَاةَ أَتَمِّمُ﴾ قَالَ اللَّهُ ﷻ: أَتَمَّنِي عَلَيَّ عَبْدِي، فَإِذَا قَالَ: ﴿مَلِكِ يَوْمِ الدِّينِ﴾ قَالَ: مَجْدُنِي عَبْدِي»، وقال مرة: «فَوْضَ إِلَيَّ عَبْدِي، فَإِذَا قَالَ: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ قَالَ: هَذَا بَيْنِي وَبَيْنَ عَبْدِي، وَلِعَبْدِي مَا سَأَلَ، فَإِذَا قَالَ: ﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ» قال: هَذَا لِعَبْدِي، وَلِعَبْدِي مَا سَأَلَ»^(٣).

٥- وعن أنس ؓ قال: كان النبي ﷺ في مسير فتزل، ونزل رجل إلى جانبه، قال:

(١) جاء هذا عن أبي هريرة عند ابن أبي شيبة (٥٢٢/١٠) والطبراني في «الكبير» (٤٧٨٨) قال الهيثمي: شبيهه بالمرفوع، ورجاله رجال الصحيح: «مجمع الزوائد» (٣١١/٦).

(٢) قال الترمذي (٢٨٧٥): هذا حديث صحيح، وهو في «صحيح سنن الترمذي» (٢٣٠٧) وفي «جامع الأصول» رقم (٦٢٦٣) ورواه أيضًا الإمام أحمد في مسنده برقم (٨٦٨٢، ٩٣٤٥) بإسناد صحيح ورجال ثقات وبنحوه النسائي في «الكبرى» (١١٢٠٥) ومالك في «الموطأ» حديث رقم (٦٢٣٥، ٦٢٣٧) «جامع الأصول»، وعند ابن خزيمة (٨٦١) وصححه البغوي في «شرح السنة» (١١٨٦) وهو في صحيح الترغيب والترهيب برقم ١٤٥٣.

(٣) «صحيح مسلم» برقم (٣٩٥) ومصنف عبد الرزاق (٢٧٦٧) و«سنن النسائي الكبرى» برقم (٨٠١٣) و«المسند» (٧٨٣٦) وأبو داود (٨٢١) وصحيح أبي داود (٧٣٤) والترمذي (٢٩٥٣) والنسائي (٩٠٨) وفي صحيح سنن النسائي (٢٧٢) وابن ماجه (٣٧٨٤) وصحيح سنن ابن ماجه (٣٠٥١) وابن حبان (٧٧٦).

فالتفت النبي ﷺ فقال: (ألا أخبرك بأفضل القرآن؟) قال: بلى. فتلا ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾^(١)

وجاء في الأثر: أنزلت عليّ آية لم تنزل على نبي غير سليمان بن داود وغيري، وهي: ﴿يَسِرُّهُ اللَّهُ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ﴾^(٢)

ومن أجل هذا الفضل الذي اختصت به سورة الفاتحة شرع الله لنا قراءتها في كل صلاة من بين سور القرآن كلها، وتوقف قبول الصلاة على قراءتها، ومن لم يقرأها في الصلاة فصلاته باطلة، فضلاً عن مشروعيتها قراءتها في الصباح والمساء، والاستشفاء بها، ونحو ذلك.

ثانياً: الرقية بالفاتحة: وسورة الفاتحة يُرقى بها، ويُستشفى بها من المرض، ومن العين والحمى، ولدغ الحية والعقرب، ومن كل داء وسُم.

ولذا فإن من أسمائها: الشفاء والشافية والرقية والواقية والكافية.

أخرج الإمام مسلم وغيره عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: نزلنا منزلاً، فأتتنا امرأة، فقالت: إن سيد الحيِّ سليمٌ (لدغ) فهل فيكم من راقٍ؟ فقام معها رجل منا، ما كنا نظنه يُحسن رقية، فرقاه بفاتحة الكتاب، فبرأ، فأعطوه غنماً، وسَقَوْنا لبناً، فقلنا: أكنْت تُحسن رقية؟ فقال: ما رقيته إلا بفاتحة الكتاب، قال: قلت: لا تُحرِّكوها (أي: الغنم) حتى تأتي النبي ﷺ فأتينا النبي ﷺ فذكرنا ذلك له، فقال: «ما كان يُدريه أنها رقية؟! اقسموا، واضربوا لي بسهم معكم»^(٣).

وفي رواية البخاري: أن الرجل أُمِرَ لَهُ بثلاثين شاة، وأن النبي ﷺ قال: «خذوها واضربوا لي بسهم»^(٤).

وفي البخاري وغيره عن ابن عباس رضي الله عنهما أن النبي ﷺ قال: «إن أحقَّ ما أخذتم عليه أجرًا

(١) صححه الألباني في صحيح الترغيب والترهيب برقم ١٤٥٤ ورواه ابن حبان في صحيحه والحاكم وقال: صحيح على شرط مسلم.

(٢) البيهقي في «الشعب» (٢٣٢٨) وأبو عبيد في «الفضائل» ص ١١٥ وابن مردويه، ورواه الدار قطني برقم (٢٩) وفي سننه عبد الكريم ويزيد بن أبي خالد، متكلم فيهما.

(٣) «صحيح مسلم» برقم (٢٢٠١) وفي البخاري برقم (٥٧٣٦، ٥٧٤٩).

(٤) البخاري (٢٢٧٦، ٥٠٠٧) ومسلم (٢٢٠١).

كتابُ الله»^(١) أي: على قراءته في الرقية، على ألا يمتحن الإنسان ذلك ويتخذها وسيلة للتكسب، ومعاودة الرقية وبيع الماء والزيت والعسل وغير ذلك، وعلى ألا يختلي بمن يرقىها من النساء، ولا ينظر إلى ما لا يحل له النظر إليه.

وفي رواية أبي داود في حديث الرقية أن الراقي: أخذ يثقلُ على سيد الحي، ويقرأ: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ أي: سورة الفاتحة، قال: فكأنما أنشطَ من عقالٍ.

وفي رواية الترمذي: أن أبا سعيد هو الذي رقاها، وأنه قرأ سورة ﴿الْحَمْدُ﴾ سبع مرات.

وكان أبو سعيد ضمنَ نفرٍ من الصحابة في سفر، وقد نزلوا هذا الحي، فأبى أهله أن يضيّقوهم، فلُدغ سيد هذا الحي، وبحثوا له عن راقٍ أو علاج، فأبى أبو سعيد أن يرقّيه إلا بأجر؛ جزاء يُخلهم وعدم استضافتهم لهم^(٢).

قال تعالى: ﴿وَنُزِّلَ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلَّا خَسَارًا﴾ [الإسراء: ٨٢].

والمراد بالظالم: الكافر، فهو الذي لا ينتفع بالقرآن ولا يستفيد منه؛ لأن الله تعالى جعل هذا القرآن شفاءً ورحمة للمؤمنين لا لغيرهم، كما قال تعالى: ﴿فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ﴾ [البقرة: ٢].

وقال سبحانه: ﴿يَتَأْتِيَهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَتْكُمْ مَوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَاءٌ لِّمَا فِي الصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ [يونس: ٥٧].

وقال جل شأنه: ﴿قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدًى وَشِفَاءٌ وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِي آذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى﴾ [فصلت: ٤٤].

ثالثاً: الرقية بالتسمية وحدها:

وكما تشرع الرقية بالفاتحة، فإنها تُشرع أيضاً بالبسملة وحدها.

عن عثمان بن أبي العاص الثقفي ؓ أنه شكا إلى رسول الله ﷺ وجعاً يجده في جسده منذ أسلم، فقال له رسول الله ﷺ: «ضَعْ يَدَكَ عَلَى الَّذِي تَأَلَّمَ مِنْ جَسَدِكَ، وَقُلْ: بِسْمِ اللَّهِ

(١) البخاري (٥٧٣٧) والبيهقي (١٢٤/٦).

(٢) ينظر: طرق الحديث وروايته في «جامع الأصول» (٥٦٦/٧) حديث رقم (٥٧٢٠).

ثلاثًا، وقل سبع مرات: أعوذ بالله وقدرته، من شر ما أجد وأحاذر»، وفي رواية «أعوذ بعزة الله وقدرته...»^(١).

وفي حديث ابن عباس أن النبي ﷺ قال: «مَنْ عاد مريضًا لم يحضر أجله، فقال عنده سبع مرات: أسأل الله العظيم رب العرش العظيم أن يشفيك إلا عافاه الله ﷻ من ذلك المرض»^(٢).

رقيا جبريل للنبي ﷺ

١- عن أبي سعيد ؓ: أن جبريل عليه السلام أتى النبي ﷺ فقال: «يا محمد اشتكيت؟ قال: نعم، قال: بسم الله أريقك، من كل شيء يؤذيك، من شر كل نفس أو عين حاسدٍ، الله يشفيك، بسم الله أريقك»^(٣).

٢- وعن عائشة ؓ قالت: كان إذا اشتكى رسول الله ﷺ رقاها جبريل ؑ، قال: «بسم الله يُبريك، ومن كل داءٍ يشفيك، ومن شر حاسد إذا حسد، وشر كل ذي عين»^(٤).

٣- وعنهما ؓ: أن النبي ﷺ كان يقول للمريض: «بسم الله، تُربة أرضنا، بريقة بعضنا، يُشفي به سقيمنا بإذن ربنا»^(٥) وفي كلام النووي الآتي شرح لهذا المعنى.

قال الحافظ ابن حجر في الفتح: يدل على أنه ﷺ كان يتفل عند كل رقية.

(١) أخرجه مسلم برقم (٢٢٠٢) وابن ماجه (٣٥٢٣) ومالك في «الموطأ» (٩٤٢/٢) والترمذي (٢٠٨١) وأبو داود (٣٩١) وهو في «جامع الأصول» (٥٦٤/٧) حديث رقم (٥٧١٨) وفي «المسند» (١٧٩٠٧)، إسناده صحيح ورجاله ثقات، وأخرجه النسائي في عمل اليوم والليلة ١٠٠٠.

(٢) حديث صحيح أخرجه أبو داود (٣١٠٦) والنسائي في عمل اليوم والليلة ١٠٤٨ والطبراني في الدعاء (١١١٤) والحاكم (٤٣٢/١)، والمسند (٢١٣٧، ٢١٨٢) وهو حديث صحيح. كما قال محققوه، والترمذي (٢٠٨٣).

(٣) أخرجه مسلم (٢١٨٦) والترمذي (٩٧٢) وهو في «جامع الأصول» (٥٦٣/٧) حديث رقم (٥٧١٥) وأخرجه النسائي في «عمل اليوم والليلة» (١٠٠٥) وابن ماجه (٣٥٢٣) بأسانيد صحيحة.

(٤) في صحيح مسلم، برقم ٢١٨٥ وانظر مسند أحمد (٢٥٢٧٢) وابن سعد (٢١٣/٢) وعن أبي سعيد الخدري في مسلم (٢١٨٦) وأبي هريرة في المسند (٩٧٥٧)، وهو برقم (١٤٤٣) في «مختصر صحيح مسلم» للمنزري بتحقيق الألباني.

(٥) أخرجه البخاري (٥٧٤٥) ومسلم (٢١٩٤) وأبو داود (٣٨٩٥) و المسند (٢٤٦١٧).

ونُقل عن النووي: أنه أخذ من ريق نفسه على إصبعه السَّبابة، ثم وضعها على التراب فَعَلِقَ به شيء منه، ثم مسح به الموضع العليل، أو الجريح.

قيل: إن التراب ينفع في تجفيف الجروح، وإيقاف الدم، قلتُ: والمواد الطَّيِّبة تُؤدي الغرض نفسه، أما النَفْثُ أو الرِّيق: فلبركة أسماء الله الحسنى، وبركة الرسول ﷺ وما يُتلى من القرآن، والأدعية من الراقي، والمراد بأرضنا: أرض المدينة، والصحيح أنه يشمل كل أرض، قال القرطبي: فيه دلالة على جواز الرقي من كل الآلام^(١).

رابعاً: تَلَازُمٌ وعلاج:

تشتمل سورة الفاتحة على العبادة والاستعانة، وبالعباداة والاستعانة تتحقق السعادة الأبدية للعبد، وينجو من الأمراض المهلكة.

فأعظم أمراض القلب: الرياء والكبر، ودواء الرياء: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ ودواء الكبر: ﴿وإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾.

يقول ابن تيمية: و﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ تدفع الرياء ﴿وإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ تدفع الكبرياء، فإذا عوفي العبد من مرض الرياء بـ ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ ومن مرض الكبر بـ ﴿وإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ عوفي من أمراضه وأسقامه، ورفل في ثوب العافية، وتمت عليه النعمة، وكان من الْمُنْعَم عليهم، غير المغضوب عليهم: وهم أهل الفساد في القصد، الذين عرفوا الحق وعدلوا عنه، ولا الضالين: وهم أهل فساد العلم الذين جهلوا الحق ولم يعرفوه، وحُقَّ لسورة تشتمل على هذا أن يُستشفى بها من كل مرض، وصدق الله العظيم: ﴿يَأْتِيهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَتْكُمْ مَوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَاءٌ لِّمَا فِي الصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ (٥٧) قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ [يونس: ٥٧، ٥٨].



(١) «فتح الباري» (١٠/١٧٠) ط دار إحياء التراث العربي، بيروت.

الْمَبْحَثُ الثَّالِثُ: مَقَاصِدُ سُورَةِ الْفَاتِحَةِ الْخَمْسَةِ

اشتملت سورة الفاتحة على أهم مقاصد القرآن الكريم على وجه الإجمال، ثم فَصَّلَ ما أجملته في القرآن كله؛ فقد اشتملت سورة الفاتحة على التوحيد والإيمان باليوم الآخر والعبادة وطلب الهداية، والثبات على الإيمان، وفيها أخبارٌ وقصصُ الأمم السابقة، وفيها معارجُ السعداء ومنازل الأشفياء.

وقد نزل القرآن لبيان حقوق الخالق على خلقه، وحاجة الخلق إلى خالقهم، وتنظيم الصلة بين الخالق والمخلوق.

وقبل الإشارة إلى حقوق الخلق والخالق، وتنظيم الصلة بين العباد ورب العباد قررت السورة توحيد الله تعالى وتنزيهه عما لا يليق بجلاله، واستحقاقه لهذه العبادة وحده دون سواه. وبيّنت آيات سورة الفاتحة أن الناس محاسبون ومُجَزَّوْنَ على أعمالهم، إن خيراً فخير، وإن شراً فشر.

ففي ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ بيان لحقوق الله تعالى على خلقه.

وفي ﴿أَهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ تنظيم للصلة بين المخلوقين والخالق.

وفيها طلب الهداية بمناجاة العبد ربه وبيانٌ لحاجة الخلق إلى خالقهم.

وفي ﴿غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ﴾ إشارة إلى جميع طوائف المُبْطِلِينَ الخارجين عن الصراط المستقيم، وبيان أسباب هذا الخروج، وهي لا تتعدى الغضب عليهم، أو وقوع الضلال منهم.

وبهذا استحققت الفاتحة أن يطلق عليها «أم القرآن» بل «القرآن العظيم».

اشتمالها على جميع ما جاء في القرآن الكريم:

والفاتحة مُتَضَمِّنَةٌ لِمُجْمَلِ ما فَصَّلَ في القرآن الكريم:

١- فالإشارة إلى توحيد الألوهية جاءت في اسم الجلالة ﴿الله﴾.

من ﴿إِسْمِ اللهِ﴾ و﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ﴾

٢- والإشارة إلى توحيد الربوبية جاءت في قوله تعالى ﴿رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾.

٣- والإشارة إلى توحيد الأسماء والصفات وجميع صفات الجلال والكمال جاءت في قوله تعالى ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾. ولفظ (الحمد)

٤- والإشارة إلى اليوم الآخر، وما فيه من عدل وفضل، وما فيه من بعث وحشر ونشر، وحساب وجزاء، جاءت في قوله تعالى ﴿مَلِكِ يَوْمِ الدِّينِ﴾.

٥- والإشارة إلى كافة أنواع العبادات والإخلاص فيها جاءت في قوله ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾.

٦- والإشارة إلى إثبات النبوات، وإلى قصص الأنبياء والمرسلين والصالحين، وإلى إثبات صفة القدر، وأن العبد حرّ مختار، والرد على أهل البدع والضلال، جاء ذلك في قوله سبحانه: ﴿أَهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾.

٧- وجاء الحثُّ على السير على نهج الأنبياء والصالحين والاهتداء بهديهم في قوله جل شأنه: ﴿صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ﴾.

٨- والحديث عن أهل الكتاب وأهل الزيغ والضلال، جاء في نهاية السورة: ﴿غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ﴾.

وهذه جملة المقاصد التي جاء بها القرآن الكريم، بل التي جاءت بها الكتب السماوية والشرائع الإلهية جميعاً:

وعلى هذا ففي سورة الفاتحة خمسة مقاصد:

المقصد الأول: تَوْحِيدُ اللَّهِ سبحانه: اشتملت السورة على التعريف بالمعبود جَلَّ في علاه، وعلى توحيد الخالق سبحانه، وتَضَمَّنَتْ سورة الفاتحة خلاصة وجيزة لعقائد الإسلام، واجتثاث جذور الشرك التي كانت فاشية في الأمم، ومقتضى ذلك توحيد العبادة، والتوجه بها إلى الله سبحانه، فهو جَلَّ شأنه المعبود بحق دون سواه، يرشد إلى ذلك قوله تعالى: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾.

ففيها تعليم وإرشاد إلى كيفية التمجيد والثناء والحمد لله تعالى، ولا يكون ذلك إلا عن نعمة، وأهمها نعمة الخلق والإيجاد، وَمَنْ كَانَ كَذَلِكَ فهو جدير بالعبادة وحده؛ ولذلك فقد اشتملت السورة على ثلاثة أسماء لله تعالى، هي مرجع الأسماء الحسنى والصفات العليا، وعليها مدارها، وهي: (الله، الرب، الرحمن).

والحمد يتضمن الاعتراف بالألوهية والربوبية والأسماء والصفات وتوحيدها . . . إلخ .

وربوبيته سبحانه لخلقه ليست مبنية على القهر والجبروت، بل مبنية على الرحمة، فهو سبحانه الرحمن الرحيم، وهذا بيان لحقيقة العلاقة بين الله تعالى وبين خلقه، وأنها مبنية على الرحمة التي تَغْمُرُ الخلائق كلهم، وبخاصة العبد المؤمن .

وقد فصل القرآن الكريم جانب التوحيد، ونهى عن الشرك في عشرات السور منه، واعتنى بذلك أيما عناية، حيث كان التوحيد هو المهمة الأساس في الفترة المكية، وهي أطول مدّتي الرسالة .

المقصد الثاني: الإيمان باليوم الآخر: واشتملت السورة على أهم أركان الإيمان، بعد الإيمان بالله تعالى؛ وهو إثبات المعاد والجزاء على الأعمال، والإيمان باليوم الآخر وما فيه من بعث وسؤال وحشر ونشر وحساب وجنة ونار، وغير ذلك مما فصله القرآن الكريم في العديد من السور والآيات، لا سيما القرآن المكي، الذي يُعنى بغرس العقيدة في النفوس أولاً، في مثل جُزْأَيَّ (عمّ وتبارك) .

وإذا كان في الدنيا نوع من التقاضي بين الناس، وألوان من الجزاء على الأعمال، فإن الله سبحانه هو المُتفرد بالحكم العادل يوم القيامة، وهو سبحانه مَلِكُ هذا اليوم ومالكه .

وَمَنْ يَمْلِكُ مصير العباد، ومآلهم الدائم يوم الآخرة، فهو المالك الحقيقي لما قبله في الدنيا من باب أولى، وإذا كان في الدنيا نوعٌ مُلْكٍ لبعض ملوك الأرض، فإن المُلْكَ كُلَّهُ لله تعالى في الدنيا والآخرة، وهو ملك حقيقي لا يحول ولا يزول وإلى هذا يشير قوله تعالى ﴿مَلِكِ يَوْمِ الدِّينِ﴾ .

ويوم الدين هو يوم الحساب والجزاء، الذي يُدان فيه العباد إلى ربّ الأرض والسماء .

وقد أشار القرآن الكريم إلى الإيمان بالله تعالى والإيمان باليوم الآخر، إلى جوار العمل الصالح في كثير من آياته، وبيّن أن ذلك هو أساس الفوز بالسعادة الأخروية، قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّٰدِقِينَ مَنْ ءَامَنَ بِاللّٰهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَعَمِلُوا صَالِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [البقرة: ٦٢] .

والمراد: إيمان كل أمة برسولها قبل أن تُنسخ رسالته، ولا يقبل الله إيمان أي من

أرباب الشرائع السابقة بعد مجيء الرسالة الخاتمة، إلا بالإيمان بمحمد ﷺ والعمل بشريعته .

قال تعالى: ﴿وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَسِرِينَ﴾ [آل عمران: ٨٥].

وما من أحد يسمع برسالة محمد ﷺ ثم لا يؤمن بها إلا مات كافراً والعياذ بالله .

المقصد الثالث: التكاليف الشرعية: أما جانب العبادات: مما يتعلق بالصلاة والزكاة والصيام والحج والأذان والذبح والنذر والدعاء والاستغاثة والاستعاذة والرجاء والخوف والتوكل والاستعانة وما إلى ذلك، وتوجيه هذه العبادات إلى الله تعالى وحده، فقد أشار إليه قوله تعالى: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾.

وقد تَضَمَّنَتْ هذه الآية عهداً وثيقاً بين الناس وربهم، يُحَقِّقُ رسالتهم في الوجود، فلا عبادة إلا لله، ولا توكل إلا على الله، ولا استعانة إلا بالله، وقد فصل القرآن الكريم أنواع العبادة في أكثر سُورِهِ، في حديثه عن أركان الإسلام الأربعة، وفصل القرآن الاستعانة بالله تعالى في آيات التوكل والإنابة ونحوها .

المقصد الرابع: قصص الأنبياء والمرسلين: أما جانب النبوات والرسالات في سورة الفاتحة، فيشير إليه قوله تعالى: ﴿أَهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ ① صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ ② .

فالقرآن الكريم كتابٌ هداية وإرشاد، يهدي للتي هي أقوم، ويدعو إلى الطريق المستقيم، ويأمر بالعدل والقسط والوسطية والاستقامة، والسعادة في الدارين لا تتم إلا بترك الانحراف والضلال وسُبُلِ الغواية والاعوجاج، ولا يكون ذلك إلا عن طريق الرسل والكتب المنزلة، والرسل هم أَوَّلُ الذين أنعم الله عليهم، ولا سبيل إلى هداية البشر، ولا إلى معرفة الحق من الضلال، والخير من الشر، إلا عن طريق الرسل .

وقد فصل القرآن الكريم ما أجمَلَتْهُ سورةُ الفاتحة من الحديث عن أنبياء الله ورُسُلِهِ في عشرات السور، إلى جانب الحديث عن الصَّديِّقين والشهداء والصالحين، مما يأخذ بيد المسلم إلى طريق الهداية وسبيل الرشاد، وطريق الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصَّديِّقين والشهداء والصالحين وحَسَنَ أولئك رفيقاً .

وهذا الجانب من قصص الأنبياء والمرسلين تناولته السور المكية، فالهداية هي التطبيق العملي لدعوة الأنبياء، وهي طريق الإنسان إلى معرفة ربه سبحانه.

ولعل هذا هو السر في اختيار هذه السورة؛ ليقراها المسلم في صلاته وجوباً في اليوم الواحد سبع عشرة مرة، ثم يُكثر منها في النوافل وغيرها ما شاء الله له.

المقصد الخامس: أهل الكتاب:

أما أهل الكتاب من اليهود والنصارى الذين فصل القرآن الكريم الحديث عنهم في سُورهِ المدنية، وأوضح زِيغَهُم وضلالهم، وأسباب غضب الله تعالى عليهم، فقد أجملت سورة الفاتحة هذه المعاني في قوله تعالى: ﴿غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ﴾.

ومعلوم أن مقاصد القرآن الكريم تتناول جانب العقيدة والنبوة والرسالة والعبادة والهداية، التي هي الهدف من القصص والأخبار القرآنية، وهذا ما أجملته سورة الفاتحة، وفصله القرآن الكريم.



الْبَحْثُ الرَّابِعُ: الاستعاذة : (أَعُوذُ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ)

١- الحكمة في التعوذ: يستعيز المسلم بالله سبحانه من الشيطان الرجيم، في جميع أقواله وأفعاله المشروعة، وفي ذلك اعتصام بِجَنَابِ الله تعالى من كيد الشيطان ومكره، واستجارة بالله سبحانه من همزه ونفخه ونفثه، كأنه يقول: أستجير بالله تعالى من الشيطان الرجيم أن يضرني في ديني أو دُنْيَاي، أو يصدني عن فعل ما أمرت به، أو يحثني على فعل ما نهيت عنه؛ فإنَّ الشيطان لا يكفه عن الإنسان إلا الله تعالى.

وأعتصم بحول الله تعالى وقوته أن يقطع هذا الشيطان -الملعون المذموم- العلاقة بيني وبين ربي، وألجأ إلى الله تعالى وألوذ بحماه، وأوي إلى رُكْنِهِ الشديد أن يغويني الشيطان أو يضلني أو يُفْسِدَ عليَّ صلاتي، وفي هذه الاستعاذة إقرار بأن الشيطان عدوٌّ مبینٌ للإنسان، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا إِنَّمَا يَدْعُو حِزْبَهُ لِيَكُونُوا مِنْ أَصْحَابِ السَّعِيرِ﴾ [فاطر: ٦].

والمسلم باستعاذته بالله من الشيطان الرجيم، يعترف بعجزه وضعفه أمام حِيلِ الشيطان ووساوسه، وأنه لا يَقْوَى على مقاومة الشيطان وحده.

ويعترف أيضًا بقوة الله تعالى وقدرته، وأنه وحده القادر على دفع جميع الثغرات، ومنها كيد الشيطان؛ إذ لا يقدر على دفعها عن العبد إلا الله سبحانه، فالمسلم إذن يستعين بالله تعالى ويلجأ إليه ويسأله أن يدفع عنه كيدَ عدوه؛ حيث لا يقدر على ذلك إلا الله سبحانه.

ولفظ ﴿الشَّيْطَانُ﴾ مشتق من (شَطَنَ) بمعنى (بُعَدَ) أي: أنه بعيد عن الخير وبعيد عن طباع البشر.

و﴿الرَّجِيمُ﴾ بمعنى المرحوم، أي: المطرود من رحمة الله تعالى، والمطرود عن الخير كله، و(الاستعاذة) طلب العوذ بمعنى اللجوء إلى الله تعالى، واللياذ بحماه من هذا الشيطان، وقد أمرنا أن نستعِذ بالله من الشيطان الرجيم عند بدء القراءة فقال: ﴿فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ﴾ [النحل: ٩٨] والأمر في الآية للوجوب.

قال جعفر الصادق: إنه لا بُدَّ قبل القراءة من التعوذ، وأما سائر الطاعات فإنه لا يتعوذ منها، والحكمة في ذلك أن العبد قد يَنْجُسُ لِسَانَهُ بالكذب، أو الغيبة، والنميمة ونحو ذلك، فأمره الله تعالى بالتعوذ؛ ليعودَ لِسَانُهُ طاهرًا، فيقرأ بلسان طاهر كلامًا أنزل من رب طيب طاهر^(١).

إن بعض أجهزة التحليل الصوتي أو التحليل الضوئي قد تتمكن من الوصول إلى معرفة شيء من المهام العلمية، سواء رُكبت هذه الأجهزة في أقمار صناعية، أم في محطات فضائية، أم في أطباق طائرة، لكنها حين تحاول التجسس في نطاق المملأ الأعلى فإنها تكون قد سَعَتْ إلى حتفها ودحرها، ومن ثم فإن الوحي الإلهي في مأمن تام من استراق الإنس أو الجن؛ سواء أكان ذلك التجسس على الكوكب الأرضي أم على غيره من الكواكب ﴿لَا يَسْمَعُونَ إِلَى آلَمٍ إِلَّا أَعْلَىٰ وَيُقَذَّفُونَ مِنْ كُلِّ جَانِبٍ﴾ (٨) دُحُورًا وَهُمْ عَذَابٌ وَأَصِيبٌ [الصفات: ٨، ٩].

(١) تفسير الفخر الرازي.

٢- ضعف الشيطان أمام قوة الإيمان:

وقد حمل الشيطان على عاتقه إغواء بني آدم، وإتيانهم من جميع الجهات، والعودة لهم بكل مَرَصِدٍ، إلا عباد الله المخلصين، الذين قويت إرادتهم، وأصبح إيمانهم أقوى من كيد الشيطان، فإنه لا سلطان له عليهم، فقد أعان الله تعالى رسوله ﷺ على شيطانه حتى أسلم، وأصبح زِمَامُهُ بيد رسول الله ﷺ بحيث لا يقوى على كيده، وكذلك عمر رضي الله عنه كان أقوى من الشيطان بقوة إيمانه، فما سلك عمر فجاً إلا وسلك الشيطان فجاً غيره.

وهكذا كل مسلم قوي الإيمان، يتحصن بالله تعالى من كيد الشيطان، فيستعبد به سبحانه، ويلوذ بحماه في صباحه ومساءه، وغُدُوّه ورواحه، وأقواله وأفعاله، ولذا: أمرنا بقراءة المعوذات (الإخلاص والفلق والناس) في صباحنا ومساءنا، وعند النوم، وفي أدبار الصلوات، لا سيما المغرب والفجر، أي: في أول النهار وآخره، وعند النوم، وكذا قراءة آية الكرسي، وآخر سورة البقرة؛ دُبُرُ كل صلاة طلباً للتحصن من الشيطان، فضلاً عن أن ذلك عبادة، وفيه أجر من الله تعالى.

ومن فضل الله تعالى علينا، أن الشيطان يضعف ويخنس ويبطل عمله بتلاوة آيات التحصن، نعوذ بالله تعالى من شره، قال تعالى: ﴿وَمَا يَنْزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [الأعراف: ٢٠٠].

وقال سبحانه: ﴿وَمَا يَنْزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ [فصلت: ٣٦].

وقال جل شأنه: ﴿وَقُلْ رَبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزَاتِ الشَّيْطَانِ﴾ (٩٧) وَأَعُوذُ بِكَ رَبِّ أَنْ يَحْضُرُونِ ﴿[المؤمنون: ٩٧، ٩٨].

٣- السوسة في الصلاة: والاستعاذة بالله تعالى من الشيطان، تطهر القلب من كل ما

يشغل العبد عن ربه، لا سيما إذا وقف بين يدي الله تبارك وتعالى يناجيه في صلاته، فهي تطرد عنه وسوسة الشيطان وهواجسه التي تُنْقِص من أجر الصلاة أو تذهب بها.

عن أبي علاء: أن عثمان بن أبي العباس رضي الله عنه أتى النبي ﷺ فقال: يا رسول الله، إن الشيطان قد حال بيني وبين صلاتي، يُلَبِّسها عليّ، فقال الرسول ﷺ: «ذاك شيطان يقال له: خنزب، فإذا أحسسته فتعوذ بالله منه، وانفل عن يسارك ثلاثاً، قال:

فعلت ذلك فأذهبه الله عني»^(١).

وقد ورد عن أبي سعيد الخدري، وعائشة رضي الله عنهما أن النبي ﷺ إذا قام من الليل فاستفتح صلاته وكَبَّرَ قال: «سبحانك اللهم وبحمدك وتبارك اسمك وتعالى جدُّك ولا إله غيرك»^(٢) ثم يقول: «لا إله إلا الله» ثلاثاً ثم يقول: «أعوذ بالله من الشيطان الرجيم من همزه ونفخه ونفثه»^(٣).

وهمز الشيطان: الجنون، ونفخه: الكبر؛ لأن المتكبر ينتفخ في نفسه، ونفثه: أي الشعر المذموم؛ لأن الشعر يخرج من الفم، ويلفظه اللسان، وينفثه شياطين الإنس والجن.

٤- كل مُتَمَرِّدٍ من الإنس أو الجن فهو شيطان:

فهناك شيطان الإنس وشيطان الجن، وهو المتمرد من كل منهما، وكلاهما يؤذي وَيُضَرُّ وَيُغْوِي، فالمتنرد بُعِدَتْ أخلاقه عن الخير، وابتعد عن بني جنسه، فناسب إطلاق الشيطان عليه، قال تعالى: ﴿وَيَوْمَ يُحْشَرُهُمْ جَمِيعًا يَمَعَشَرُ الْجِنَّ فَدِ اسْتَكْبَرْتُمْ مِنَ الْإِنْسِ وَقَالَ أَوْلِيَاؤُهُمْ مِنَ الْإِنْسِ رَبَّنَا اسْتَمْتَعَ بَعْضُنَا بِبَعْضٍ وَبَلَّغْنَا آجَلَنَا الَّذِي أَجَلْتَ لَنَا قَالَ النَّارُ مَثْوَاكُمْ خَالِدِينَ فِيهَا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ﴾ [الأنعام: ١٢٨].

وقال تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَاطِينَ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ زُخْرَفَ الْقَوْلِ غَرُورًا وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ﴾ [الأنعام: ١١٢].

ودليل إطلاق مسمى الشيطان على المتمرد من الدواب، قول عمر رضي الله عنه وقد رَكِبَ بِرَدُونًا فتبختر به فقال: (لقد حملتموني على شيطان، والله لقد أنكرت نفسي) فناسب إطلاق الشيطان عليه.

وكل من شيطان الإنس والجن يضل ويغوي، ويتسبب في جلب الشر ودفع الخير، لكن

(١) أخرجه مسلم كما في «جامع الأصول» ج ٦ رقم (٤٣٧٦) وهو في «صحيح مسلم» برقم (٢٢٠٣).

(٢) أبو داود (٧٧٦) والترمذي (٢٤٢) والمسند (١١٤٧٣، ١١٦٥٧) بإسناد ضعيف لِيَتَرَدَّ (الضُّبَعِيُّ) به - جعفر بن سليمان - وهو مختلف فيه، قال محققو المسند: قال الترمذي: وقد تكلّم في إسناد حديث أبي

سعيد، وقال ابن خزيمة: لا نعلم في هذا خبراً ثابتاً عن النبي ﷺ، وضعفه النووي في المجموع

(٢٧٨/٣) وهو عند ابن ماجه (٨٠٦) والحاكم (٢٣٥/١) والبيهقي (٣٣/٢) وعبدالرزاق (٢٥٥٤)

والدارقطني (٢٩٩/١) وانظر الألباني في «الإرواء» (٣٤١).

(٣) ينظر: أبو داود (٢٤٢) باب ما يقوله عند افتتاح الصلاة، وصحيح سنن أبي داود (٧٠١).

الشیطان یكون خفیاً، یوسوس من الداخل، والإنسان یكون ظاهراً ماثلاً أمام العینین یُحَسِّنُ ویزین العمل السیئ للمرء فیراه حسناً، ویَقْلِبُ الخیر شراً والمعروف منكرًا، وشیطان الإنسان یمكن مصانعتُهُ ومداراته وكف شره، بإسداء الجمیل إلیه وبذل المعروف له، قال تعالى: ﴿وَلَا تَسْتَوِی الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِی هِیَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِی بَیْنَكَ وَبَیْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِیٌّ حَمِیمٌ﴾ [فصلت: ٣٤] وقال: ﴿خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِیَّتِ﴾ [الأعراف: ١٩٩].

أما شیطان الجن فلا یقدر علیه إلا قوِّیَّ الإیمان، ولا یکف أذاه إلا الله سبحانه؛ لأنه شریر بطبعه، ولا یکف عن أذى خلقه، وشیطان الدواب یؤذی كذلك، من غیر تعرُّضٍ له بالأذى.

فكل متمرّد من شیاطین الإنس والجن والحوان یؤذی، ولا یردُّ أذاهم إلا الله سبحانه.

وقد أمرنا سبحانه أن نستعید بالله، ونستعین به على كفّ شرورهم، فهو وحده القادر على ذلك، وفي الاستعاذة بالله من الشیطان الرجیم تحصُّنٌ وكفٌّ لذلك كله.

عن سلیمان بن صُرَد قال: استبَّ رجلان عند النبی ﷺ فغضب أحدهما، فاشتد غضبه حتى انتفخ وجهه وتغیر، فقال النبی ﷺ: «إني لأعلم كلمة لو قالها لذهب عنه الذي یجد»، فانطلق إلیه الرجل فأخبره بقول النبی ﷺ وقال: تعوذ بالله من الشیطان الرجیم، فقال: أترى بی بأسٌ؟ أمجنونٌ أنا؟ اذهب^(١).

٥- موضع الاستعاذة في الصلاة وخارجها: وتكون الاستعاذة في الركعة الأولى فقط قبل البسملة، أي: في افتتاح الصلاة فحسب، ویؤتی بها سرّاً، سواء أكانت الصلاة سریة أم جهریة، ولا تشرع الاستعاذة في غیر الركعة الأولى، أما خارج الصلاة فیُسَرُّ بها حال كون القراءة سرّاً، ویُجهر بها حال الجهر بالقراءة، سواء أكان ذلك في بدء السورة أم في أوسطها، فإن كانت التلاوة من أول السورة خارج الصلاة فعلى القارئ أن يستعید ویُسَمِّلَ، سواء أوقَّف على كل من الاستعاذة والبسملة أم وصلهما ببعضهما في نفس واحد، وسواء أوصلهما معاً بأول السورة أم قطعهما عنها.

(١) «المسند» (٢٧٢٠٥) قال محققوه: وإسناده صحیح على شرط الشیخین، والحديث في البخاري (٦٠٤٨)

ومسلم (٢٦١٠) و«الكبرى» للنسائي (١٠٢٢٤) والطبراني في «الكبرى» (٦٤٨٩) وابن أبي عاصم (٢٣٥١)

وابن حبان (٥٦٩٢) وشرح السنة للبغوي (١٣٣٣).

والأولى الوقف على كل من الاستعاذة والبسملة، ثم البدء بأول السورة، فكل منهما آية، والوقف على رؤوس الآي سنة، ولا يصح للقارئ في بدء السورة أن يستعيز ولا ييسمل؛ لأن البسملة لا بد من الإتيان بها في أول السورة، سواء أكان ذلك على اعتبار أنها آية من السورة، أم على أنها للفصل بين السور، أو للتمنن والتبرك، فيؤتى بها على كل حال.

أما إذا كانت التلاوة في وسط السورة، فللقارئ أن يأتي بالبسملة بعد الاستعاذة، وله أن يستعيز ولا ييسمل، وينبغي ألا يقتصر على الحالة الثانية حتى لا يظن الناشئة أن الإتيان بالبسملة بعد الاستعاذة في وسط السورة غير جائز، وهذا غير صحيح، وسواء أكان هذا في سورة التوبة أم في غيرها، إلا أنه لا يجوز له أن ييسمل في أول سورة براءة، وله البسملة وعدمها في أثنائها.

٦- أحكام الاستعاذة:

وفيما يأتي بيان لتعريفها وحكمها وصيغتها، والإسرار بها أو الجهر، وأوجهها مع البسملة:

أ- التعريف: الاستعاذة هي: اللجوء إلى الله تعالى، والاعتصام بجناحه، والتحصن به سبحانه من الشيطان الرجيم.

ب- موضعها: وإذا أراد المسلم أن يشرع في القراءة، فإنه ينبغي له أن يبدأها بالاستعاذة، بدليل قوله تعالى: ﴿فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ﴾ [النحل: ٩٨] أي: إذا أردت قراءة القرآن فاستعذ بالله، سواء أكانت القراءة من أول السورة أم في أثنائها.

ج - صيغتها: واللفظ الوارد في سورة النحل: (أعوذ بالله من الشيطان الرجيم) هو المختار عند الجمهور في الصلاة وغيرها، وإذا زاد المسلم عليه مثل: (أعوذ بالله السميع العليم من الشيطان الرجيم) كما قال تعالى: ﴿وَلَمَّا يَنْزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ [فصلت: ٣٦] أو قال بعد الشيطان الرجيم: (من همزه ونفخه ونفته) فهو جائز لحديث أبي سعيد عن رسول الله ﷺ أنه كان إذا قام إلى الصلاة استفتح، ثم يقول: «أعوذ بالله السميع العليم من الشيطان الرجيم من همزه ونفخه ونفته»^(١).

(١) قال الترمذي برقم (٢٤٢): هذا أشهر حديث في هذا الباب، وانظر: الإلباني في «إرواء الغليل» ج ٢ رقم (٣٤٢) وانظر: ابن قدامة في «المغني» ج ١ ص ٤٥٧ والحديث في «صحيح سنن أبي داود» (٧٠١) وفي سنن أبي داود (٧٧٦) والبيهقي (٣٥/٢).

قال تعالى: ﴿وَقُلْ رَبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزَاتِ الشَّيْطَانِ﴾ [المؤمنون: ٩٧].

وهي ليست آية من القرآن بالاتفاق.

د- حكمها: جمهور العلماء على حمل الأمر بالاستعاذة الوارد في آية سورة النحل على النذب والاستحباب، وحمله بعضهم على الوجوب بحيث لو تركها يكون آثمًا، وهو ظاهر الأمر بها ولا صارف عنه إلى النذب، سواء أكانت القراءة سرًا أم جهرًا، في الصلاة أم في غيرها، والجمهور على أن الاستعاذة سنة في الصلاة فلا تبطل بتركها.

هـ- الجهر بها: يُجهر بالاستعاذة إذا كانت قراءة القارئ جهرًا لنفسه، أو كان هناك من يستمع إليه؛ إشعارًا ببدء القراءة، وذلك في غير الصلاة، أما في الصلاة فيؤتى بها سرًا قبل البسملة في الركعة الأولى فقط سواء أكانت الصلاة سرية أم جهرية.

وإذا كان هناك مقرأ، أو درس قرآني، فإن الذي يبدأ الحلقة أو الدرس يستعيز جهرًا، ولا يلزم إعادتها من بقية من يقرؤون في الحلقة، ويرى ابن الجزري أن استعاذة كل واحد جهرًا أولى.

أقول: وكذا إن كان كل واحد منهم يقرأ من مكان مختلف، وليست القراءة متتابعة.

وإذا قُطعت القراءة لأمر يتعلق بها، أو لأمر خارج عن الإرادة، كالعطاس أو الكحة، فلا تُعاد الاستعاذة، أما إذا قُطعت لأمر لا يتعلق بالقراءة فإنها تُعاد.

و- الإسرار بالتعوذ: ويُسر القارئ بها إذا كانت القراءة سرًا، أو كانت في الصلاة، أو كان القارئ يقرأ مع جماعة ولم يكن هو البادئ بالتلاوة، بأن كانت القراءة موصولة في حلقة أو مجلس قرآن أو طلاب يقرءون، كل واحد يقرأ بعد الآخر، فإنه يكفي بالاستعاذة جهرًا عند البدء بالقراءة، دون قراءتها من كل واحد فيهم.

ز- أوجه أول السورة

١- قطع الجميع: أي قطع الاستعاذة عن البسملة عن أول السورة.

٢- قطع الاستعاذة عن البسملة، ووصل البسملة بأول السورة.

٣- وصل الأول بالثاني وقطع الثالث (الأول: الاستعاذة، والثاني: البسملة، والثالث: أول السورة).

- ٤- وصل الجميع : أي وصل الاستعاذة بالبسملة بأول السورة .
- ح - أول براءة: أما الابتداء بأول سورة براءة، فليس فيها إلا وجهان :
 - الوقف على الاستعاذة والبدء بأول السورة دون البسملة .
 - وصل الاستعاذة بأول السورة من غير بسملة كذلك .
- أما إذا أوصل القارئ آخر الأنفال بأول براءة ، فهو مخير بين ثلاثة أوجه هي : وصل السورتين ببعضهما دون استعاذة ولا بسملة . أو الوقف على آخر الأنفال مع التنفس ثم يبدأ أول براءة أو يسكت بين السورتين سكته خفيفة دون تنفس ثم يبدأ أول براءة .
- ط- أوجه الاستعاذة أثناء السورة: ولاقتران الاستعاذة بغير أول السورة وجهان :
 - الوقف على الاستعاذة ، والابتداء بأول الآية .
 - وصل الاستعاذة بأول الآية .
- ي- أما إذا استعاذ القارئ وبسمل ، وقرأ من أثناء السورة فله الأوجه الأربعة السابقة
- ومن المعلوم أن القارئ مخير في وسط السورة بين الإتيان بالبسملة أو تركها، بما في ذلك (براءة) والإتيان بها أفضل، والقطع في كل الوجوه أفضل؛ لأن فيه الوقف على رؤوس الآي وهو سنة.

الإتيان بالبسملة بعد الاستعاذة في أثناء السورة:

- وإذا بدأ القارئ في أثناء السورة بآية تتعلق بالله تعالى، أو تتعلق برسوله ﷺ، أو تتعلق بالمؤمنين، أو بالجنة ونعيمها، ونحو ذلك، فإن المقام يقضي أن يؤتى بالبسملة بعد الاستعاذة، حتى لا يعود الضمير على الشيطان في مثل ﴿هُوَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ﴾ غافر ٦٨ ومثل ﴿اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ﴾ البقرة ٢٥٥ ومثل ﴿هُوَ الَّذِي يُصَلِّي عَلَيْكُمْ﴾ الأحزاب: ٤٣ ومثل ﴿يَنْسَاءَ النَّبِيِّ﴾ الأحزاب ٣٠، ٣٢ وهكذا .
- أما إذا بدأ القارئ بكلام عن النار أو عن الشيطان، أو عن غير المسلمين ونحو ذلك، جاز له أن يبسمل بعد الاستعاذة، أو يكتفي بالاستعاذة .

الْمَبْحَثُ الْخَامِسُ: الْبَسْمَلَةُ، ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾ وفيه مطلبان:

المطلب الأول: الافتتاح بالبسملة في الصلاة وغيرها

(أ) يبدأ المسلم قراءته أو صلاته مفتتحاً ومتميناً ومتبركاً بـ (بسم الله)

وقد افتتح الله سبحانه القرآن الكريم بالبسملة، وافتتح كل سورة منه بها، والمسلم يبدأ جميع شؤونه الدينية والدنيوية باسم الله تعالى وحده، لا باسم ملك من الملوك، ولا باسم شعب من الشعوب، ولا أمة من الأمم، ولا عظيم من العظماء، ولا باسم مبدأ من المبادئ، أو تنظيم أو حزب، أو مذهب أو فكر.

وحينما نزل الوحي على رسول الله ﷺ، كان اللفظ الأول يتضمن الأمر بالبسملة ﴿أَقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ﴾، وفيه الإشارة إلى بدء الأمور ذات الشأن باسم الله تعالى وحده، والنبى ﷺ كان يقرأ البسملة في أول كل سورة، وفي ذلك إرشادٌ لنا أن نستفتح بالبسملة جميع شؤوننا، وكل أقوالنا وأفعالنا.

والمعنى: باسم الله أبدأ، باسم الله أفعل، باسم الله أقول، باسم الله أتحرّك، باسم الله أنام، باسم الله أستيقظ، باسم الله أعمل، باسم الله أصلي، باسم الله أجامع أهلي، باسم الله أكل، باسم الله أشرب، وهكذا، ولفظ (اسم) يعم جميع الأسماء الحسنی.

فالمسلم يتبرأ من أن يكون هذا الشيء الذي يقوله أو يفعله باسمه أو باسم غيره، وإنما هو باسم الله الذي يُستمدُّ منه العون والقوة والعناية، فلا استعانة له إلا به سبحانه، عليه توكلت، وبه أقدمت، وبه أحجمت، وقد علّمنا القرآن أن نضع التوحيد مكان التثليث الذي يبدأ به النصارى شئونهم: باسم الأب والابن والروح القدس.

فاسم الجلالة ﴿الله﴾ هو الاسم العلم على الذات الإلهية، وهو المألوم، أي المعبود، المستحق لإفراده بالعبادة، لما اتصف به من صفات الألوهية، وهي من صفات الكمال.

﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ صِفَتَانِ لموصوف واحد هو الله سبحانه، بخلاف الأب والابن والروح القدس، فكل من الثلاثة عندهم عِلْمٌ على ذات مستقلة عن الأخرى: الله، وعيسى، وجبريل، أو مريم، والله سبحانه هو ذو الرحمة الواسعة العظيمة التي وسعت كل شيء، وعمّت كل حيٍّ، وكتبها للمتقين المتبعين لأنبيائه ورسله، فهؤلاء لهم الرحمة المطلقة، ومن عداهم فلهم نصيب منها، ونعم الله كلها أثر من آثار رحمته.

(ب) نتائج الافتتاح بالبسملة: والاستفتاح بالبسملة في كل شيء ذي بال يُرجى منه ثلاث نتائج:

النتيجة الأولى: الاعتقاد بأن الله تعالى سيحفظ المسلم بالبسملة من كل شر؛ لأن مجرد ذكر اسم الله تعالى فيه تَيْمُّنٌ وَتَبَرُّكٌ، وإحالة دون وقوع الشرور، وفيه حفظ وبُعد عن نزغات الشيطان ومضلاته ومغرياته.

النتيجة الثانية: أَنَّ بدء الأعمال والأقوال الصحيحة باسم الله تعالى سوف يوجه الإنسان الوجهة القويمة منذ البداية، ويأخذ بيده إلى الطريق الصحيح.

النتيجة الثالثة: أن المسلم بالبسملة سيلقى عون الله تعالى وبركته؛ لأن الله تعالى يتوجه إلى العبد إذا يَمُّ وجهه شَطْرَهُ، ويأخذ بيده.

ففي البسملة تبرك واستعانة بالله تعالى وحده، وإلا كان الأمر الذي يُقدّم عليه خاليًا من الخير والبركة.

(ج) ومن الأمور التي يُسْتَحَبُّ ذكر البسملة في أولها

١- أول الحديث أو المحاضرة أو الندوة أو الاجتماع أو الخطبة، ما عدا خطبتي الجمعة والعيدين والاستسقاء والكُسُوف لورود الأمر ببدءها بالحمد.

والبدء بالبسملة أول الكلام الهام مأخوذ من افتتاح القرآن باسم الله تبارك وتعالى، وَيُسْتَأْنَسُ له بالأثر: «كُلُّ أَمْرٍ ذِي بَالٍ لَا يُبْدَأُ فِيهِ بِسْمِ اللَّهِ، فَهُوَ أَقْطَعُ».

وفي رواية: «أبتر» وفي رواية: «أجزم»^(١).

وفي رواية: «لا يبدأ فيه بحمد الله» بدل «بسم الله»^(٢).

وفيما يلي ذكر للدعاء المقرون بالبسملة أو البسملة وحدها، في كثير من حالات المسلم اليومية:

٢- عند دخول الخلاء؛ لحديث أنس رضي الله عنه: «بسم الله، اللهم إني أعوذ بك من الخبث والخبائث»^(٣).

٣- وعند الوضوء؛ لحديث أبي هريرة رضي الله عنه: «لا وضوء لمن لم يذكر اسم الله عليه»^(٤).

٤- وعند الأكل؛ لقول النبي ﷺ لعمر بن أبي سلمة رضي الله عنه: «سم الله، وكل بيمينك، وكل مما يليك»^(٥).

ولحديث عائشة رضي الله عنها: «إذا أكل أحدكم طعاماً فليقل: بسم الله، فإن نسي في

(١) ضعيف، يُنظر في تخريجه والحكم عليه: «إرواء الغليل» للشيخ الألباني حديث رقم ١ وقال السيوطي: أخرجه الحافظ عبد القادر الزُّهَّارِي في الأربعين بسند حسن عن أبي هريرة مرفوعاً، «الدر المنثور» (١/ ٤٥) وقد روى هذا الحديث بلفظ (بسم الله) موصولاً ومرسلاً، وأخرجه الخطيب في كتابه (الجامع لأدب السامع) قال فيه السخاوي: غريب، وقال الحافظ: في سنده ضعف.

(٢) وهذه رواية أبي هريرة في «سنن النسائي الكبرى» (١٠٢٥٥) والتحفة (١٥٢٣٢) وأبي داود (٤٨٤٠) وابن ماجه (١٨٩٤) و«مسند أحمد» (٨٧١٢) وصحيح ابن حبان (١، ٢) وفي الموارد (٥٧٨) والنسائي في «عمل اليوم والليلة» (٤٩٤) وضعفه الألباني في «ضعيف سنن أبي داود» (١٠٣١)، ولفظ أحمد (لا يفتتح بذكر الله).

(٣) ينظر: الأذكار، الإمام النووي ص ٢١ وزيادة (بسم الله) أخرجه سعيد بن منصور وابن السني (٢٠) وبدونها جاء في الصحيحين وغيرهما في «جامع الأصول» (٣١٢/٤) والحديث عن أنس رضي الله عنه في البخاري (١٤٢) ومسلم (٣٧٥) وأبو داود (٤، ٥) والترمذي (٥) والنسائي (١٩).

(٤) أخرجه الترمذي (٢٥، ٢٦) وأحمد وغيرهما بإسناد صحيح عن أبي هريرة، «صحيح الجامع الصغير» ج ١ حديث رقم (٤٤٤) وهو في «المسند» برقم (٩٤١٨) وعن أبي سعيد (١١٣٧٠، ١١٣٧١) ورواه أبو داود (١٠١) عن أبي هريرة وابن ماجه (٣٩٩). والطبراني في «الدعاء» (٣٧٩) قال العلامة أحمد شاكر: إسناده جيد حسن.

(٥) أخرجه الشيخان عن عمر بن أبي سلمة، «الأذكار» ص ١٩٩ وهو في البخاري (٥٣٧٦) ومسلم (٢٠٢٢).

أوله فليقل: باسم الله في أوله وآخره»^(١).

٥- وعند دخول المسجد؛ لحديث أبي حميد وأبي أسيد: «بسم الله والصلاة والسلام على رسول الله، اللهم اغفر لي ذنوبي وافتح لي أبواب رحمتك»^(٢).

٦- وعند الخروج من المسجد: «بسم الله والصلاة والسلام على رسول الله، اللهم إني أسألك من فضلك»^(٣).

٧- وعند دخول المنزل: لحديث أبي مالك الأشعري رضي الله عنه. «بسم الله ولجنا وبسم الله خرجنا وعلى الله ربنا توكلنا»^(٤).

٨- وعند الخروج من المنزل؛ لحديث أنس رضي الله عنه: «بسم الله توكلت على الله ولا حول ولا قوة إلا بالله»^(٥).

٩- وعند ركوب السيارة وغيرها؛ لحديث علي بن أبي طالب عليه السلام: «بسم الله والحمد لله، سُبْحَانَ الَّذِي سَخَّرَ لَنَا هَذَا وَمَا كُنَّا لَهُ مُقْرِنِينَ، وَإِنَّا إِلَى رَبِّنَا لَمُنْقَلِبُونَ»^(٦).

١٠- وعند وضع الثياب لحديث أنس رضي الله عنه: «بسم الله الذي لا إله إلا هو»^(٧).

١١- وعند تعطل السيارة أو الدابة ونحوهما: «بسم الله»^(٨).

(١) «صحيح سنن الترمذي» باختصار السند للشيخ الألباني (١٥٨/٣) وهو في «سنن الترمذي» (١٨٥٨) وأبي داود (٣٧٦٧).

(٢) يُنظر الروايات الواردة في ذلك في الأذكار للنووي ص ٢٥ وقد رواه مسلم (٧١٣) والترمذي (٣١٤) وابن ماجه (٧٢٢) وأبو داود (٤٦٥) والنسائي (٥٣/٣) وفي «عمل اليوم والليلة» (١٧٧) وابن السني (١٥٦).

(٣) المراجع السابقة.

(٤) حسن إسناده الشيخ ابن باز في «تحفة الأخيار» ص ٢٨ وأخرجه أبو داود، كما في «مشكاة المصابيح» حديث رقم (٢٤٤٤، ٧٥٥/٢) وهو في سنن أبي داود برقم: (٥٠٩٦).

(٥) أخرجه أبو داود (٥٠٩٥) والترمذي (٣٤٢٦) والنسائي في «عمل اليوم والليلة» (٨٩) وهو في «مشكاة المصابيح» حديث رقم (٢٤٤٣، ٧٥٤/٢) وصحيح الترمذي (١٥١/٣).

(٦) صحيح الترمذي (١٥٦/٣) و«سنن الترمذي» (٣٤٤٦) وأبو داود (٢٦٠٢) والنسائي في «اليوم والليلة» (٥٠٢) وسنده صحيح.

(٧) «صحيح الجامع الصغير» (٢٠٣/٣) برقم (٣٦١٠). وابن السني (٢٧٤٠).

(٨) سنن أبي داود (٢٩٦/٤) برقم (٤٩٨٢) عن أبي المليح عن رجل.

- ١٢- وعند القيام من النوم؛ لحديث حذيفة رضي الله عنه أنه قال: وإذا استيقظ من منامه (أي: النبي ﷺ) قال: «الحمد لله الذي أحيانا بعدما أماتنا وإليه النُّشور»^(١).
- ١٣- وعند الجماع؛ لما جاء في الصحيحين وغيرهما عن ابن عباس رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال: «لو أن أحدكم إذا أراد أن يأتي أهله، قال: بسم الله، اللهم جنبنا الشيطان، وجنب الشيطان ما رزقنا، فإنه إن يُقَدَّرَ بينهما ولد لم يضره الشيطان أبداً»^(٢).
- ١٤- وعند النوم؛ لحديث أبي هريرة رضي الله عنه: «باسمك ربي وضعتُ جنبي وبك أرفعه فإن أمسكت نفسي فارحمها، وإن أرسلتها فاحفظها بما تحفظ به عبادك الصالحين»^(٣).
- وفي حديث حذيفة رضي الله عنه قال: كان النبي ﷺ إذا أراد أن ينام قال: «باسمك اللهم أموتُ وأحيا»^(٤).
- ١٥- وفي الصباح والمساء كما في حديث عثمان بن عفان رضي الله عنه أن النبي ﷺ كان يقول: «بسم الله الذي لا يضرُّ مع اسمه شيء في الأرض ولا في السماء وهو السميع العليم»^(٥).
- ١٦- وعند الرقية كما في حديث عثمان بن أبي العاص رضي الله عنه شكا إلى رسول الله ﷺ وجعاً يجده في جسده، فقال له رسول الله ﷺ: «ضع يدك على الذي تألم من جسدك وقل: بسم الله ثلاثاً، وقل سبع مرات: أعوذ بالله وقدرته من شر ما أجد وأحاذر»، وفي لفظ: «أعوذ بعزة الله وقدرته»^(٦).
-
- (١) البخاري من حديث حذيفة (٦٣١٤) ومسلم من حديث البراء (٢٧١١) وابن السُّنِّي: (٢٧٤).
- (٢) أخرجه الشيخان في البخاري (١٤١، ٣٢٧١، ٥١٦٥) ومسلم (١٤٣٤) وأحمد برقم (١٨٦٧، ٢١٧٨، ٢٥٥٥، ٢٥٩٧) عن ابن عباس، ينظر «صحيح الجامع الصغير» ج ٢ حديث رقم (٥١١٧) و«المشكاة» (٧٤٨/٢) وأبو داود (٥٠٤٩) وابن ماجه (٣٨٨٠) والترمذي (٣٤١٧) و«المسند» (٢٣٢٧١) وابن حبان (٥٥٣٢) والسنن «الكبرى» للنسائي (١٠٥١٥).
- (٣) أخرجه الشيخان عن أبي هريرة، «المشكاة» (٧٣٦/٢) وهو في «صحيح مسلم» برقم (٢٧١٤) و«صحيح البخاري» (٦٣٢٠، ٧٣٩٣) والترمذي (٣٣٩٨).
- (٤) البخاري (٦٣١٢، ٦٣١٤، ٦٣٢٤) وفي الأدب المفرد له (١٢٠٥) يُنْظَر: «مشكاة المصابيح» الحديث رقم (٢٣٨٢) و«مختصر صحيح مسلم» حديث رقم (١٨٩٧) وهو بلفظ (اللهم باسمك).
- (٥) أخرجه أبو داود برقم: (٥٠٨٨) والترمذي برقم: (٣٣٨٨) وقال حسن صحيح غريب، وابن ماجه (٣٨٦٩) والطيالسي (٧٩) وانظر «المسند» برقم (٤٤٦، ٤٧٤، ٥٢٨). قال محققوه: إسناده حسن، وله طرق وألفاظ متقاربة.
- (٦) «صحيح مسلم» (١٧٢٨/٤) برقم (٢٢٠٢) وأبو داود (٣٨٩١) وابن ماجه (٣٥٢٢) والترمذي (٢٠٨٠) و«المسند» (١٦٢٦٨) وابن حبان (٢٩٦٤) و«الكبرى» للنسائي (٧٥٠٤) وفي التحفة (٩٧٧٤).

١٧- وعند الذبح كما جاء عن أنس رضي الله عنه عن النبي ﷺ أنه كان يقول: «بسم الله، الله أكبر، اللهم صل على محمد وعلى آله وسلم»^(١).

١٨- وعند إدخال الميت القبر كما جاء عن ابن عمر رضي الله عنهما أن النبي ﷺ قال: «إذا وضعتُم موتاكم في القبر فقولوا: بسم الله، وعلى سنة رسول الله»^(٢).

هذا: والأذكار الواردة فيما ذكرت وغيرها كثيرة، منها ما هو بلفظ (الحمد) أو لفظ (اللهم) مما لم نتعرض له هنا، وغير ذلك من مختلف الصيغ الواردة في هذا المقام مما هو في الكتب الخاصة بذلك كالأذكار للنووي، والوابل الصيب لابن تيمية، وعمل اليوم والليلة لابن السني والنسائي وغير ذلك.



المطلب الثاني: التحليل اللفظي للبسملة

اشتملت البسملة على الألفاظ التالية: الباء، اسم، لفظ الجلالة، الرحمن، الرحيم. أولاً: الباء من لفظ ﴿بِسْمِ﴾ تدل على البدء، وهي متعلقة بفعل محذوف يناسب المقام، فالقارئ يبدأ قراءته باسم الله، والكاتب يبدأ كتابته بسم الله، وهكذا. وقد حذفت الألف التي بعد الباء تخفيفاً؛ لكثرة استعمالها.

ثانياً: لفظ ﴿بِسْمِ﴾ يدل على ذات من الذوات، أو معنى من المعاني، فيذكر بعده هذا الاسم أو هذا المعنى؛ كي يوضحه ويفسره، وهو مشتق من السُّمُو، وهو العلو والرفعة، أو هو مشتق من السَّمة، أي: العلامة.

(١) «الأذكار» ص ١٧٢ وهو في «صحيح مسلم» (١٩٦٦) وأبي داود (٢٧٩٥) والترمذي (١٤٩٤) وابن ماجه (٣١٢٠).

(٢) سنن أبي داود (٣/٣١٤) برقم (٣٢١٣) و«المسنَد» (٤٨١٢) قال محققوه: رجاله ثقات رجال الشيخين، وأخرجه ابن حبان (٣١٠٩، ٣١١٠) والنسائي في «الكبرى» (١٠٨٦٠، ١٠٨٦١). وأبو يعلى (٥٧٥٥) وابن حبان (٣١١٠) قال الحاكم (٣٦٦/١): هذا حديث صحيح الإسناد على شرط الشيخين ولم يخرجاه.

ثالثاً: اسم الجلالة ﴿الله﴾ وهو علم على الذات الإلهية، سبحانه وتعالى، لا يشاركه فيه غيره. قيل: إنه اسم الله الأعظم؛ لأنه يُوصَفُ بكل الصفات، وهذا اللفظ وحده ﴿الله﴾ هو العلم، وما عداه صفات له سبحانه، ويطلق عليها كلها (الأسماء الحسنى) وكل اسم منها صفة في المعنى، بخلاف لفظ الجلالة فهو الاسم الوحيد الخالي من الصفة، وجميع الصفات (الأسماء الحسنى) تدل على ذات الله تعالى وعلى الصفة أيضاً، ولفظ الجلالة يدل عليها كلها.

وصفات الجلال والكمال والجمال أخص باسم ﴿الله﴾ تعالى. وصفات الفعل والقدرة والتدبير والتفرد بالضر والنفع ونفوذ المشيئة وكمال القوة أخص باسم (الرب).

وصفات الإحسان والبر والحنان والمنة والرأفة واللفظ أخص باسم ﴿الرحمن﴾.

(الله) و(الإله)

الصحيح أن لفظ الجلالة (الله) غير مشتق، وأنه علم لا يطلق إلا على الذات العلية، وقيل: هو اسم مشتق من الإله، وهو المألوه المعبود، أي: المستحق لإفراده بالعبادة، لا يشاركه فيه غيره، ومعناه: المعبود بحق.

وأما الثاني (الإله): فهو يطلق على كل معبود بحق أو لا، فالأصنام تسمى آلهة، وكل ما يُعبد من دون الله يقال له: (إله) بالنسبة لمن عبده، ثم غلب لفظ (الإله) على ما يعبد بحق، وهو الله تعالى..

ولفظ (الله) لا يطلق إلا على المعبود بحق، وهو خالق هذا الكون سبحانه.

ولفظ (الإله) يطلق عليه سبحانه وعلى غيره، أي: المعبود بحق أو باطل، فهو اسم جنس لكل ما عُبد.



الْمُبْحَثُ السَّادِسُ: الْبَسْمَلَةُ لَدَى الْقُرْءِ وَالْفُقَهَاءِ وَالْمُحَدِّثِينَ وَعُلَمَاءِ عَدِّ الْأَيِّ
وَفِيهِ ثَلَاثَةُ مَطَالِبَ:

الْمَطْلَبُ الْأَوَّلُ: الْبَسْمَلَةُ عِنْدَ الْقُرْءِ

أولاً: أول السورة: أجمع القراء العشرة على الإتيان بالبسملة عند الابتداء بأول كل سورة عدا براءة، بأن كان القارئ قد تنفس في نهاية السورة التي قبلها، وابتدأ بالسورة التي بعدها، أو كان مبتدئاً للقراءة أصلاً، وهذا حكم عام في جميع السور ولا سيما الفاتحة.

ثانياً: في وسط السورة: وأما الابتداء بأواسط السور فيجوز لكل القراء الإتيان بالبسملة أو تركها، لا فرق بين براءة وغيرها.

ثالثاً: بين السورتين: وأما حكم ما بين كل سورتين، فاختلف القراء فيه على النحو التالي:

١- قرأ قالون وابن كثير وعاصم والكسائي وأبو جعفر بالفصل بالبسملة بين كل سورتين.

٢- وقرأ حمزة وخلف بوصل السورتين من غير بسملة.

٣- وورد عن ورش وأبي عمرو وابن عامر ويعقوب ثلاثة أوجه وهي:

(أ) البسملة. (ب) السكت من غير تنفس ولا بسملة. (ج) وصل السورتين بدون بسملة.

ولا خلاف في أن البسملة جزء آية في سورة النمل، ولا خلاف في تركها من أول براءة لجميع القراء.

رابعاً: أوجه ما بين السورتين

إذا وصل القارئ آخر السورة التي بعدها أو غيرها سوى براءة فله ثلاثة أوجه:

١- قطع الجميع: أي قطع السورة عن البسملة عن أول السورة التالية.

٢- قطع آخر السورة، ووصل البسملة بأول السورة الأخرى، سواء التي تليها أم لا.

٣- وصل الجميع: أي وصل آخر السورة بالبسملة بأول السورة التي تليها.

ويمتنع وصل آخر السورة بالبسملة والوقف عليها، ثم الابتداء بأول السورة؛ لأن البسملة لأول السور لا لأواخرها.

خامساً: أوجه ما بين الأنفال وبراءة: إذا وصل القارئ آخر الأنفال بأول براءة فله ثلاثة أوجه:

١- وصل آخر الأنفال بأول التوبة بدون بسملة.

٢- الوقف مع التنفس على آخر الأنفال ثم بدء براءة بدون بسملة.

٣- قطع الصوت بدون تنفس على آخر الأنفال لمدة يسيرة، ثم الإتيان بأول براءة بدون بسملة.

أما إذا وصل القارئ أول سورة براءة بآخر سورة مما بعدها على غير ترتيب المصحف (كآخر الكهف مع أول براءة) فليس له إلا القطع، ويمتنع الوصل والسكت؛ لعكس ترتيب المصحف، وكذلك لو كرر السورة نفسها^(١).

وهذه الأوجه جائزة بين آخر آية سورة قبل براءة وبينها.

وترك البسمة في أول سورة براءة، لعدم تواتر الرواية بها عن رسول الله ﷺ، ولترك كتابتها في المصحف، فقد حذفت لحذفها منه، وتقرأ في سائر السور لثبوتها فيها.

أما علة الحذف؛ فقليل: لأن البسمة آية أمان، وبراءة نزلت لنقض عهد المشركين، وإعلان الحرب عليهم، وهذا لا يتناسب مع الأمان، فالبسمة رحمة وبراءة عذاب^(٢).

وعدم وجود البسمة في أولها أمر توقيفي بتعليم الله لرسوله، وترتيبها بعد سورة الأنفال ثابت من العرضتين الأخيرتين للقرآن بين جبريل والرسول ﷺ، إذ عارضه القرآن كله في شهر رمضان الذي كان قبل موته ﷺ وفق ترتيب آيات سور المصحف كما هي عليه الآن، والأثر الوارد عن عثمان في ذلك وهو أن الرسول ﷺ مات دون أن يبين موضع سورة براءة من القرآن أثر غير صحيح.

المطلب الثاني: البسمة عند علماء العدد

أجمع علماء عدد الآي (علم الفواصل) على عدم عد البسمة آية من أوائل السور، وإن رسمت في المصحف، ومن علماء العدد من عد البسمة آية في أول الفاتحة، ومنهم من أسقطها.

وأجمع علماء العدد على أن عدد أي سورة الفاتحة إجمالاً سبع آيات باتفاق:

(١) الشيخ عبد الفتاح المرفعي، «هداية القارئ» ص ٥٧٦. والتجويد الواضح للمؤلف ص ٦٣.

(٢) ورد هذا عن ابن عباس وأنه سأل علياً فأجابته بذلك، انظر: الشيخ عبد الفتاح القاضي «الوافي بشرح الشاطبية» ص ٤٨، وانظر: «الكشف عن وجوه القراءات السبع» ج ١ ص ١٩.

عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: « (الحمد لله رب العالمين) سبع آيات (بسم الله الرحمن الرحيم) إحداهن، وهي السبع المثاني، والقرآن العظيم، وهي أم القرآن، و فاتحة الكتاب»^(١).

فهي سبع آيات على أي حال عند جميع علماء عدّ أي القرآن الكريم، وإن اختلفوا في تفصيل ذلك، فمن عد (البسملة) أسقط ﴿أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ﴾، ومن عد ﴿أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ﴾ أسقط (البسملة).

وقد عدّ المصحف المكي والكوفي (البسملة) آية وأسقط ﴿أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ﴾، من العدد، وعد المصحف المدني الأول والأخير والبصري والشامي ﴿أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ﴾ آية، وأسقط (البسملة) من العدد.

والمصحف الذي بين أيدينا برواية (حفص عن عاصم) الكوفي، وهو يعدّ (البسملة) آية من الفاتحة، ولا يعدّ ﴿أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ﴾ وموافقة الرسم العثماني شرط في صحة القراءة.

واختلاف علماء العدد في عد (البسملة) آية أو تركها من سورة الفاتحة هو سبب اختلاف الفقهاء في قراءتها أو عدم قراءتها، وفي الإصرار أو الجهر بها في الصلاة.

واختلاف علماء العدد مبني على اختلاف القراءات المتواترة الواردة في البسملة بين إثباتها وعدمه، وكلها صحيحة قطعية؛ لثبوتها عن رسول الله ﷺ.

واختلاف علماء الفواصل في عدّ أي سور القرآن بالزيادة أو النقصان يرجع إلى عدّ بعض الألفاظ واعتبارها آية عند بعضهم، وعدم عدّها آية عند الآخرين دون نقص أو زيادة في الآيات نفسها.

مثاله: أن المصحف الكوفي يعتبر ﴿أَلْفَاةً﴾ الأولى آية، وغير المصحف الكوفي لا يعتبرها آية، ويسقطها من العدد، فيزيد المصحف الكوفي بذلك آية في سورة القارعة عن غيره، وليس هناك زيادة حرف ولا نقص حرف من السورة.

ومثل: ﴿مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾ في سورة البينة، يعدها المصحف البصري والشامي آية، ويسقطها غيرهما ويضمها للآية التي بعدها.

(١) الطبراني في «الأوسط» (٥١٠٢) والبيهقي (٤٥/٢) واللفظ له، وقال الهيثمي: رجاله ثقات «مجمع الزوائد» (١٠٩/٢).

وسبب ذلك، أن النبي ﷺ وقف عليها مرة وتركها أخرى، أما ما وقف عليه دائماً، أو وصله دائماً فلا خلاف فيه.



المطلب الثالث: البسملة عند الفقهاء والمحدثين

أولاً: هل البسملة آية من القرآن أم لا؟

اختلف الفقهاء في عد البسملة آية من سورة الفاتحة، ومن أول كل سورة في القرآن، على أقوال أربعة:

الأول: مذهب مالك^(١) أنها ليست آية من القرآن، لا من الفاتحة ولا من غيرها، وإنما هي للتبرك.

الثاني: مذهب أبي حنيفة أنها آية من القرآن، أنزلت للفصل بين السور^(٢).

الثالث: مذهب أحمد أنها آية من أول الفاتحة دون غيرها من السور^(٣).

الرابع: مذهب الشافعي^(٤) أنها آية في القرآن كله، من الفاتحة ومن غيرها في بدايات السور.

ولا خلاف في عدم وجود البسملة في أول سورة براءة، وأنها جزء من آية في سورة النمل.

(١) والأوزاعي وابن جريير والطبري وداود، وحكاه الطحاوي عن أبي حنيفة وصاحبيه (أبي يوسف ومحمد).

(٢) انظر: «بدائع الصنائع للكسائي» نشر دار العربي، بيروت، سنة ١٣٩٤هـ ج ١ ص ٦٣، وكتاب «الاختيار لتعليل المختار» لأبي عبد الله بن محمود بن مودود الموصلي الحنفي، دار الموفق، بيروت ط الثالثة سنة (١٣٩٥)هـ، ج ١ ص ٥٠.

(٣) وذلك في إحدى الروايتين عنه، وقال به إسحاق وأبو عبيدة وأهل مكة والعراق، ومحمد بن كعب وغيرهم، راجع: «المغني» لابن قدامة نشر مكتبة الرياض، ج ١ ص ٤٧٧، ص ٤٨٠، والرواية الثانية لأبي حنيفة.

(٤) ورواية عن أحمد، وحكاه ابن عبد البر عن ابن عباس وابن عمر وابن الزبير وعطاء وطاوس ومكحول، وحكاه ابن كثير عن أبي هريرة وعلي وسعيد بن جبيرة والزهرري وابن المبارك، وبعض فقهاء مكة وقرائها.

ثانيًا: حكم قراءة البسملة في الصلاة سرًّا وجهرًا

للفقهاء في قراءة البسملة في الصلاة والإسرار بها أو الجهر ثلاثة مذاهب:

الأول: مذهب مالك أنها لا تُقرأ في الصلاة المفروضة، لا سرًّا ولا جهرًا، لا في الفاتحة ولا في غيرها، ويجوز قراءتها في النوافل^(١).

الثاني: مذهب أبي حنيفة وأحمد^(٢) أنها تقرأ سرًّا في الصلاة ولا يجهر بها، وقد يجهر بها عند أحمد لمصلحة راجحة^(٣).

الثالث: مذهب الشافعي أنه يُجهر بها في الصلاة الجهرية، ويُسر بها في الصلاة السرية^(٤).

وسبب الخلاف في ذلك هو: هل البسملة آية من الفاتحة ومن كل سور القرآن أم لا؟ فمن ذهب إلى أنها آية أوجب قراءتها، ومن ذهب إلى أنها ليست آية، منع قراءتها، وإليك دليل كل منهم.

ثالثًا: أدلة الجهر بالبسملة في الصلاة، وكونها آية.

(أ) دليل الشافعية: استدل الشافعية على أن البسملة آية من الفاتحة وغيرها، ويجهر بها في الصلاة الجهرية بأحاديث منها:

١- حديث أم سلمة رضي الله عنها أن النبي ﷺ قرأ في الصلاة: ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾

(١) انظر: «بداية المجتهد ونهاية المقتصد» لابن رشد، نشر دار الكتب الحديثة بالقاهرة ج ١ ص ١٢٤، ١٣٣، وكتاب «الكافي في فقه أهل المدينة» لابن عبد البر، يوسف بن عبد الله القرطبي، ط أولى سنة ١٣٩٨ هـ مكتبة الرياض الحديثة ج ١ ص ٢٠١، وفيه: أن من جهر بالبسملة في الفريضة فلا حرج، ومن أهل المدينة من يقول: لا بد من البسملة في الصلاة كابن عمر، وابن شهاب.

(٢) وجمهور أهل الحديث والرأي وفقهاء الأمصار.

(٣) كجهر الإمام أحمد بها عندما صلى في المدينة للتعليم وإحياء السنة؛ نظرًا لقول بعض أهل المدينة بعدم قراءتها، انظر: «مجموع الفتاوى» لابن تيمية، باب صفة الصلاة ج ٢٢ ص ٢٧٤.

(٤) انظر: «المجموع شرح المذهب للنووي» ط دار الفكر، ج ٣ ص ٣٣٢، و«فقه السنة» لسيد سابق، ط دار الفكر بيروت، ج ١ ص ١١٥ وغيرهما.

وعدها آية، وفي رواية: كان يقطع قراءته آية آية: ﴿يَسْمِ اللَّهَ الرَّحْمَنَ الرَّحِيمَ﴾^(١).

وعُدَّ البسملة آية وقُطِعَها عما بعدها لا يُعلم إلا من الجهر بها، وقد نص الحديث على أن ذلك كان في الصلاة، ولفظ (في الصلاة) نص عليه مَنْ سَمِعَ البسملة من الرسول ﷺ، وهى أم سلمة رضي الله عنها راوية الحديث.

٢- حديث أبي هريرة رضي الله عنه أنه النبي ﷺ قال: «إِذَا قَرَأْتُمْ ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ فَاقْرَءُوا ﴿يَسْمِ اللَّهَ الرَّحْمَنَ الرَّحِيمَ﴾ إِنَّهَا أَمُّ الْقُرْآنِ، وَأَمُّ الْكِتَابِ، وَالسَّبْعُ الْمَثَانِي، وَبِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ إِحْدَى آيَاتِهَا»^(٢).

وفي لفظ له: «﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ سَبْعُ آيَاتٍ، إِحْدَاهُنَّ ﴿يَسْمِ اللَّهَ الرَّحْمَنَ الرَّحِيمَ﴾»^(٣).

ويُفهم من الحديث إطلاق لفظ ﴿الْحَمْدُ﴾ على سورة الفاتحة، وأن البسملة آية منها.

٣- حديث أنس رضي الله عنه أنه سئل عن قراءة النبي ﷺ فقال: «كَانَتْ قِرَاءَتُهُ مَدًّا، ثُمَّ قَرَأَ ﴿يَسْمِ اللَّهَ الرَّحْمَنَ الرَّحِيمَ﴾»^(٤).

ففي الحديث أن النبي ﷺ كان يعطي المدود الطبيعية حقها، وضرب المثل على

(١) أخرجه أبو داود والترمذي والبيهقي والدارقطني وأحمد والحاكم وابن خزيمة وغيرهم، انظر: تصحيحه وتخريجه للشيخ الألباني في «إرواء الغليل» ج ٢، حديث رقم (٣٤٣) قال الدارقطني: إسناده صحيح ورواته كلهم ثقات، وقال الحاكم: صحيح على شرط الشيخين، وصححه ابن خزيمة والنووي وغيرهما، والحديث في «المسند» (٢٦٥٨٣) قال محققوه: صحيح لغيره، وهذا سند رجاله ثقات، رجال الشيخين، وهو عند أبي داود (٤٠٠١) والترمذي (٢٩٢٧) وأبي يعلى (٧٠٢٢) والطبراني في «الكبير» (٦٠٣/٢٣) والدارقطني في «السنن» (٣١٢/١) والحاكم (٢٣١/٢) والبيهقي في «السنن» (٤٤/٢) وابن خزيمة (٤٩٣).

(٢) رواه الدارقطني برقم (١١٩٠) والبيهقي بإسناد صحيح، انظر: «صحيح الجامع الصغير» ج ١ حديث (٧٤٢) و«سلسلة الأحاديث الصحيحة» حديث رقم (١١٨٣) وقال ابن حجر: أخرجه الدارقطني ورجح في العلل أنه موقوف.

(٣) عن عبد الحميد بن جعفر، عن نوح بن أبي بلال، عن سعيد المقبري عن أبي هريرة عن الدارقطني برقم (١١٩٠) وانظر: (١١٩٤).

(٤) أخرجه البخاري كما في «جامع الأصول» ج ٢، رقم (٩١٨) والدارقطني: برقم (١١٧٧) وفي «المسند» (١٢١٩٨، ١٣٠٥٠، ١٤٠٧٦)، وابن حبان (٦٣١٦).

ذلك بسورة الفاتحة، وأن النبي ﷺ كان يمد ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ مدًا طبيعيًا بمقدار حركتين .

ولا يُعلم كون البسملة آية إلا من الجهر بها، وقد نص الحديث على أن النبي ﷺ قرأ البسملة في أول الفاتحة .

٤- أخرج الحاكم وغيره بسنده عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يجهر بـ﴿يَسْمِ اللّٰهُ الرَّحْمٰنُ الرَّحِيْمُ﴾^(١) .

٥- حديث أنس أيضًا قال: بينما رسول الله ﷺ ذات يوم بين أظهرنا إذ أغفي إغفاءة، ثم رفع رأسه مبتسمًا، فقلنا: ما أضحكك يا رسول الله؟ قال: نزلت عليّ آنفًا سورة، فقرأ: ﴿يَسْمِ اللّٰهُ الرَّحْمٰنُ الرَّحِيْمُ﴾ ﴿إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ﴾^(٢) .

فأثبت النبي ﷺ البسملة في أول سورة الكوثر، وهو دليل ثبوتها آية في أول السور، وغير ذلك من الأحاديث .

ومن الآثار الواردة في ذلك ما رواه الدارقطني عن علي رضي الله عنه أنه سئل عن السبع المثاني فقال: ﴿الْحَمْدُ لِلّٰهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ فقليل: إنما هي ست، فقال: ﴿يَسْمِ اللّٰهُ الرَّحْمٰنُ الرَّحِيْمُ﴾ أي: أن البسملة هي الآية السابعة^(٣) .

فهذه الأحاديث تدل على أن البسملة آية من أول كل سورة، وأنه يُجهر بها في القراءة الجهرية في الصلاة وغيرها؛ لأن النبي ﷺ قرأها جهراً ونقلها عنه الصحابة كما سبق بيانه .

(١) قال الحاكم: رواه عن آخرهم ثقات، وأقره الذهبي، ينظر: «المستدرک علی الصحیحین» ج ١ ص ٢٣٣، ورواه أيضًا الدارقطني والخطيب من طريق آخر، ينظر: «تدريب الراوي» (١/٢١٥).

(٢) أخرجه الستة، «جامع الأصول» ج ٢ حديث رقم (٧٨٧) ورقم (٩١٩) وانظر: «صحيح الجامع» رقم (١٥١٠) وهو في مسلم (٤٠٠) وأبي داود (٧٨٤، ٤٧٤٧) والنسائي في «السنن الكبرى» (٩٧٩) و«المسند» (١١٩٩٦).

(٣) «سنن الدارقطني» برقم (١١٩٤).

وقد أثبت الجهر بالبسمة أحاديث أخرى جاءت من طرق كثيرة لم أذكرها؛ لأن معظمها لا يخلو من مقال، وهي أكثر من طرق الإسرار بالبسمة في الصلاة.

هذا: وقد كُتبت البسمة في المصاحف التي بعث بها عثمان رضي الله عنه إلى الأمصار الإسلامية، في أول كل سورة من القرآن، ما عدا براءة، وتواتر ذلك وثبت بالإجماع، ولم يُكتب في المصحف ما ليس منه مع تشدد الصحابة في ذلك، بمنع كتابة الأعشار، وأسماء السور، ونقط الإعجام، وما وُجد من ذلك أخيراً كتب بمداد مختلف، والجهر بالبسمة أخذ به الشافعي ومن وافقه، وهو الطريق الثابت في الرسم بين دفتي المصحف.

(ب) أدلة الجمهور (الأحناف والحنابلة والمالكية): في الإسرار بالبسمة

حجة المالكية في عدم قراءة البسمة أصلاً في الفريضة، وحجة الأحناف والحنابلة في قراءتها سرّاً في الصلاة الجهرية أو السرية، أحاديث؛ جاء منها: أن النبي ﷺ كان يفتح صلاته بالحمد؛ من ذلك:

١- حديث أنس قال: صليت خلف النبي ﷺ وأبي بكر وعمر وعثمان، فكانوا يستفتحون بـ ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾، وفي رواية مسلم: لا يذكرون ﴿إِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾^(١).

٢- حديث عائشة رضي الله عنها قالت: كان رسول الله ﷺ يفتح الصلاة بالتكبير، والقراءة بـ ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾^(٢).

(١) أخرجه الشيخان البخاري (٧٤٣) ومن (١١٧-١٢٧) ومسلم (٣٩٩) ومن (٥٠-٥٢) و«المسند» (١١٩٩١) ومالك وأبو داود (٧٨٢) والنسائي في «الكبرى» (٩٨١) والترمذي (٢٤٦) وابن ماجه (٨١٣) وابن حبان (١٧٩٩) انظر: طرق الحديث في «جامع الأصول» ج ٥ حديث رقم (٣٤١٩)، وقد ذكر ابن رشد في «بداية المجتهد» ج ١ ص ١٣٣ أن أهل الحديث قالوا: إن النقل فيه مضطرب اضطراباً لا تقوم به حجة، فروي مرفوعاً وموقوفاً، وذكر فيه الجهر والإسرار، وأنه روي من عشرة طرق فيها بُعد واضطراب، وانظر: «طريق الرشيد إلى تخريج أحاديث ابن رشد» للشيخ عبد اللطيف بن إبراهيم ج ١، رقم (٢٥٣) فقد قال: وروي بألفاظ متعددة لكنها متقاربة المعنى، ويصدق بعضها بعضاً، وقال الحافظ ابن حجر: إنه يصعب أن يصحب أنس النبي ﷺ عشر سنين ثم يصحب أبا بكر وعمر وعثمان خمساً وعشرين سنة، فلم يسمع منهم البسملة جهراً مرة واحدة، بل لكون أنس لا يحفظ هذا الحكم؛ لبعده عهده به، انظر: «فتح الباري» ج ٢ ص ١٢، ٢١٢، وصح أن أبا سلمة سأل: أكان رسول الله يقرأ البسملة أم الحمد؟ فقال للسائل: إنك تسألني عن شيء ما أحفظه، انظر: «الراية» لابن حجر (١/١٣٦). أما حديث عبد الله بن مغفل عن الترمذي والنسائي فمعروف بضعفه كما في تحقيق عبد القادر الأرناؤوط علي جامع الأصول و«تدريب الراوي» (١/٢١٥) و«جامع الأصول» ج ٥ حديث رقم (٤٣٢٠)، وإن كان الزيلعي في «نصب الراية» قد رفع الجهالة عن ابن مغفل بسبب رواية ثلاثة من أهل الحديث عنه، فعلم من هذا أن الحديث لا يخلو من مقال، وأنه معلول المتن، قال ابن عبد البر: اختلف في ألفاظ هذا الحديث اختلافٌ كثيرٌ متدافعٌ مضطربٌ، منهم من يقول: صليت خلف رسول الله وأبي بكر وعمر، ومنهم من يذكر عثمان، ومنهم من يقتصر على أبي بكر وعثمان، ومنهم من لا يذكر، فكانوا يقرؤون بسم الله الرحمن الرحيم، ومنهم من قال: فكانوا يفتتحون القراءة بالحمد لله رب العالمين، ومنهم من قال: فكانوا يقرؤون بسم الله الرحمن الرحيم، قال: وهذا اضطراب لا تقوم معه صحة لأحد، عن «تدريب الراوي» (٢١٤) في شرح تقريب النوى للسيوطي، تحقيق د/أحمد عمر هاشم.

(٢) أخرجه مسلم وأبو داود «جامع الأصول» ج ٥ حديث رقم (٣٥٨٢) وهو في مسلم (٤٩٨) وأبي داود (٧٨٣) وابن ماجه (٧٨٣) وابن حبان (١٧٦٨) والطيالسي (١٥٤٧) و«المسند» (٢٤٠٣٠) وعبد الرزاق في «المصنف» (٣٠٥٠)، (٢٥٤٠) وأبو يعلى (٤٦٦٧).

٣- حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «قال الله ﻻ : قسمتُ الصلاة بيني وبين عبدي نصفين، ولعبدني ما سأل، فإذا قال العبد: الحمد لله رب العالمين، قال الله تعالى: «حمدني عبدي»^(١) ولم يذكر البسملة.

وقال الأحناف: إن كتابة البسملة في المصحف يدل على أنها قرآن، ولا يدل على أنها آية من كل سورة.

ورأى مالك أن أهل المدينة لا يقرءون البسملة في صلاتهم في مسجد المدينة، فلو كانت آية من الفاتحة لوجب قراءتها معها في الصلاة، ولكنها كُتبت للتبرك وليست بقرآن.

والأحاديث المذكورة تدل على عدم قراءتها في الصلاة، وأنها ليست من الفاتحة، وإنما نزلت للفصل بين السور^(٢).

٤- وفي حديث أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «إن سورة في القرآن ثلاثين آية شفعت ل صاحبها حتى غُفر له ﴿تَبَارَكَ الَّذِي يَدْرِى إِلَهُ الْمَلِكِ﴾»^(٣).

والبسملة ليست منها، وكذلك سورة الكوثر ثلاث آيات، ليست منها البسملة.

قلت: لعل الأرجح أن البسملة آية معدودة من سورة الفاتحة، وأنها نزلت للفصل بين كل سورتين كما قال الأحناف، ويؤيده حديث ابن عباس رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ كان لا يعرف فصل السورة حتى ينزل: ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾ فإذا نزلت عرف أن السورة قد ختمت^(٤).

(١) أخرجه مسلم ومالك وأبو داود والترمذي والنسائي، انظر: الحديث في «جامع الأصول» ج ٥ حديث رقم (٣٤٢٤) وينظر تخريجه في المبحث الثاني والسادس السابقين.

(٢) نقلاً عن الشيخ محمد علي الصابوني في «تفسير آيات الأحكام» ط ثلاثة سنة ١٤٠٠هـ، ج ١ ص ٥١ بتصرف.

(٣) أخرجه النسائي في «الكبرى» (١٠٤٧٨، ١١٥٤٨) وأبو داود (١٤٠٠) والترمذي (٢٨٩١) وابن ماجه (٣٧٨٦) و«المسند» (٧٩٧٥) وابن حبان (٧٨٨، ٧٨٧).

(٤) أخرجه أبو داود بإسناد صحيح (٧٨٨) انظر: «صحيح سنن أبي داود» للشيخ الألباني ج ١ ص ١٤٩، حديث رقم (٧٨٨) والبخاري (٢١٨٧) «كشف الأستار» والطبراني (١٢٥٤٤) والحاكم (٢٣١/١) والبيهقي في «السنن» (٥١٣/١).

وعن سعيد بن جبير أنهم كانوا لا يعرفون انقضاء السورة حتى تنزل: ﴿يَسْمِعُ اللَّهُ الرَّخْمَ﴾ فإذا نزلت علموا أن السورة قد انقضت ونزلت أخرى^(١).

وعليه: فإنه يجوز الجهر بالبسملة في أول سورة الفاتحة في الصلاة وغيرها في القراءة الجهرية لعدّها آية منها، وللأدلة الواردة في ذلك، وهي أحاديث صحيحة وصریحة في الحكم.

وتُقرأ جهراً كذلك للفصل بها بين السورتين كما هي في المصحف؛ ولحديث ابن عباس السابق؛ وللتيمن والتبرك؛ ومعرفة أول السورة من آخرها، وذلك حال وصل السورة بالسورة في الصلاة وغيرها.

ويُجهر بها كذلك عند البدء بالسورة في الصلاة وغيرها لإجماع القراء على ذلك، ولأحاديث الجهر بها.

ويمكن تلخيص حالات الجهر فيما يأتي:

- ١- عند البدء بأول السورة في القراءة الجهرية.
- ٢- عند وصل السورة بالسورة للفصل بينهما؛ حتى لا يكون القرآن كله سورة واحدة، وللتيمن والتبرك، كما في صلاة التراويح وغيرها.
- ٣- في أول سورة الفاتحة على سبيل الجواز في القراءة الجهرية، في الصلاة المكتوبة والمسنونة، وفي غير الصلاة.

رابعاً: الجمع بين أدلة الجهر والإسرار:

أي: الجمع بين أدلة الجهر بالبسملة وأدلة الإسرار بها في الصلاة.

يبدو من مجموع الأدلة أن النبي ﷺ كان يجهر بالبسملة في أول الدعوة، ثم أسر بها بسبب استهزاء المشركين؛ فقد كانوا إذا سمعوه يقرأ بالبسملة في الصلاة وفيها: ﴿الرَّخْمَ﴾ قالوا: لا نعرف إلا رحمن الإمامة، يعنون (مسيلمة الكذاب) فكانوا يسمونه (رحمن الإمامة).

فأمر النبي ﷺ أن يخفض صوته بالقراءة في قوله تعالى: ﴿وَلَا تَجْهَرُ بِصَلَاتِكَ وَلَا تُخَافُتْ﴾

(١) أبو عبيد في «فضائل القرآن» ص ١١٤ .

بِهَا وَابْتِغَ بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلًا^(١) [الإسراء: ١١٠] ونص الحديث على أن النبي ﷺ كان إذا قرأ: ﴿يَسْمِعُ اللَّهُ الْخَفِيَّ وَالْجَهْلِيَّ﴾ يستهزئ منه المشركون، ويقولون: (محمد يذكر إله اليمامة)^(٢)؛ فيكون المراد بـ (صلاتك) في الآية (البسملة).

وهذا لا يتعارض مع عموم الأمر بخفض الصوت في الصلاة بالقراءة كما في الروايات الأخرى لأسباب النزول^(٣)، فإن البسملة من القراءة في الصلاة.

قال الحكيم الترمذي^(٤): وقد استمر العمل على ذلك بخفض الصوت بالبسملة إلى يومنا، مع عدم النسخ وزوال العلة، فبقي ذلك إلى يومنا هذا على ذكر الرسم، وإن زالت العلة^(٥).

ويستفاد من ذلك: أن النبي ﷺ كان يجهر بالبسملة في أول الدعوة، ولما استهزأ المشركون منه أسرَّ بها، ولما هاجر إلى المدينة كان يجهر بها تارة ويسرُّ أخرى، واختلفت الروايات بناء على ذلك، وحمل أحاديث الإسرار بها على ما بعد ذلك مع زوال العلة وعدم النسخ، وهو من باب الاختلاف المباح.

(١) والحديث أخرجه الطبراني في «الكبير» و«الأوسط» عن سعيد بن جبير، قال: الهيثمي في «مجمع الزوائد» ج ٢ ص ١٠٨: رجاله موثقون، وأخرجه أيضاً ابن أبي شيبة في «المصنف» والبيهقي وغيرهما عن ابن عباس كما قال السيوطي في «الدر المنثور» ج ٤ ص ٢٠٧، وحكاه الحافظ ابن حجر عن أبي داود من طريق سعيد بن جبير، وقد أعله بالإرسال في «الدرية» (١٣٦/١) وقال في ص ١٣٣: وأصله مرسل بإسناد رجال ثقات.

(٢) أخرجه الدارقطني والطبراني في «الأوسط» من طريق يحيى بن طلحة اليربوعي عن عباد بن العوام عن شريك موصولاً، وقد أخرجه البخاري من طريق أبي بشر عن سعيد بن جبير عن ابن عباس قال: نزلت هذه الآية: ﴿وَلَا يَجْهَرُ بِصَلَاتِكَ وَلَا تُخَافُ بِهَا﴾ ورسول الله مخف بمكة، كان إذا صلى بأصحابه رفع صوته بالقرآن، فإذا سمعه المشركون سبوا القرآن... الحديث في «المسند» (١٥٥، ١٨٥٣) وانظر: «الدرية في تخريج أحاديث الهداية» لابن حجر (١٣٤/١) و«فتح الباري» (٨/٣٢٩).

(٣) انظرها في «الدر المنثور» ٢٠٧/٤ الطبعة القديمة.

(٤) محمد بن علي بن حسن بن بشير، أبو عبد الله، المؤذن، الحكيم، الترمذي، محدث، حافظ، صوفي، صاحب «نوادير الأصول في معرفة أخبار الرسول»، عاش إلى حدود سنة ٣٢٠ نحوًا من تسعين سنة (معجم المؤلفين ١/٣١٥).

(٥) نقلاً من «الفتح الرباني لترتيب مسند الإمام أحمد» بتصرف ج ٣ ص ١٩٠.

ويمكن حمل أحاديث الإسرار بها أيضًا على أن النبي ﷺ يفتح صلاته بسورة الحمد لا بلفظ ﴿الْحَمْدُ﴾ وفيه تمسك بظاهر الحديث، ويقال لسورة الفاتحة: سورة الحمد، ولا يقال لها: سورة البسملة.

قلت: والمتأمل في أحاديث أنس في الباب يجد أنها نقلت الإسرار والجهر، وكلاهما صح من طرق، فدل هذا على جوازهما معًا، وقد تَمَسَّك أهل كل بلد بما جاء في مذهبهم، وربما تعصَّبوا له، وهذه هي مذاهبهم في الجهر بالبسملة في الصلاة وغيرها:

١- قيل: يُسن الجهر بالبسملة، كقول الشافعي ومَن وافقه.

٢- وقيل: لا يسن الجهر بها، كما هو قول الجمهور من أهل الحديث والرأي وفقهاء الأمصار.

٣- وقيل: يُخَيَّر بين الجهر والإسرار، كما يُروى عن إسحاق، وهو قول ابن حزم وغيره^(١).

وقال ابن القيم: وكان النبي ﷺ يجهر بـ ﴿بِسْمِ اللَّهِ﴾ تارة، ويخفيها أكثر مما يجهر بها^(٢).

وقد أجمع العلماء على صحة صلاة من أسر ومن جهر بالبسملة^(٣) على أن الجهر الدائم بالبسملة، يوحي بأن الإسرار بها لا يجوز، والإسرار الدائم بالبسملة يوحي بأن الجهر بها بدعة، فالأولى أن يُسَرَّ بها تارة ويُجهر بها أخرى جمعًا بين الأدلة.

خامسًا: بين القراء والفقهاء

١- لم يُروَ عن أحد من أئمة القراءة جوازُ ابتداء القراءة في أول السورة بدون البسملة سوى براءة، واختلافهم في ذلك إنما هو في حالة وصل السورتين معًا، فمنهم من أثبتها، ومنهم من حذفها.

واتفقوا جميعًا على قراءة البسملة في أول الفاتحة وإن وصلت بغيرها.

٢- ولا خلاف في أن البسملة كتبت في أول كل سورة في المصحف سوى براءة، وأن

(١) انظر: «مجموع الفتاوى» ج ٣ ص ٤٣٦.

(٢) «زاد المعاد» بتحقيق شعيب وعبد القادر الأرناؤوط ج ١ ص ٢٠٦.

(٣) «تفسير ابن كثير» (١/١١٨) الطبعة الثانية دار طيبة.

الصحابة رضوان الله عليهم أجمعوا على ذلك، ولم يكتبوا في المصحف مثلاً (أمين) أو (صدق الله العظيم).

٣- وموافقة رسم المصحف شرط في صحة القراءة، وقد كُتبت البسمة في ثلاث عشرة ومئة سورة، وهؤلاء الأئمة الأعلام أئمة القراءات هم أهل الرواية المنقولة بالسمع والتلقي، شيوخاً عن شيوخ، في التلاوة والأداء، حتى وصل إلينا السند بالتواتر القطعي عن رسول الله ﷺ.

٤- وعلى ذلك فإن مذهب الإمام مالك ومن معه في أن البسمة ليست آية أصلاً لا من الفاتحة ولا من غيرها لا يوافق قاعدة أصولية، ولا قراءة صحيحة، والقول بأنها ليست قرآناً لا يتفق مع أمر النبي ﷺ لكتاب الوحي قائلاً لهم: «اجعلوها في أول كل سورة»، ويخالف رسم المصحف، وهو شرط في صحة القراءة، كما يخالف إجماع الصحابة وأئمة القراءة، وهم الناقلون للبسمة بالتواتر عن رسول الله ﷺ، ووجوه القراءات مقدمة على أقوال الفقهاء؛ لأن الفقه يُستنبط منها، والقراءات قرآن منزل من عند الله تعالى.

سادساً: بين قراءة حمزة ومذهب مالك:

١- من الثابت أن (حمزة الكوفي) وهو من القراء السبعة و(خلف العاشر) وهو آخر القراء العشرة، كل منهما يتدئ القراءة بالبسمة كسائر القراء في أول السورة، لا سيما الفاتحة، ولكنهما يسقطان البسمة حالة وصل السورة بالسورة؛ لأن البسمة عندهما ليست آية معدودة من أول كل سورة، وإنما هي للتبرك والفصل، أما الإتيان بالبسمة في أول السورة فليعلم انتهاء السورة السابقة وابتداء السورة الآتية.

٢- وعلى هذا: فلا مطعن في قراءة حمزة وخلف بالموازنة مع مذهب مالك، للفرق بينهما وبين مذهبه، ومالك لا يعدُّ البسمة آية مطلقاً لا من الفاتحة ولا من غيرها.

٣- وجميع القراء بما فيهم (حمزة وخلف) اتفقوا على الإتيان بالبسمة في أول الفاتحة، وإن وُصلت بغيرها، والرواية المذكورة عن (حمزة وخلف) بوصل السورتين بدون البسمة بينهما، إنما تتناول جميع سور القرآن عدا الفاتحة.

٤- قال الإمام ابن الجزري: ولذلك لم يكن بينهم - أي القراء - خلاف في إثبات

البسملة أول الفاتحة سواء وُصلت بسورة قبلها أم ابتدئ بها^(١).

الخلاصة

- ١- تقرأ البسملة في القراءة السرية، ومنها الصلاة بإجماع القراء والفقهاء، إلا مالكا.
- ٢- وتقرأ جهرا بإجماع القراء واختلاف الفقهاء عند ابتداء السور، ولا سيما الفاتحة، في الصلاة الجهرية وخارج الصلاة.
- ٣- يفصل بين السورتين بالبسملة؛ لصحة الدليل في ذلك؛ ولكون البسملة نزلت للفصل والتبرك؛ ولكتابتها في المصحف.
- ٤- البسملة آية من الفاتحة، ويؤتى بها للفصل بين السورتين بعدها.
- ٥- يؤتى بالبسملة جهرا في الصلاة حال وصل السورة بالسورة للإشعار بانتهاء سورة وبدء سورة أخرى.
- ٦- يؤتى بالبسملة في أول السورة اتفاقا، ووسطها اختيارا، وبين السورتين للفصل بينهما، وأثناء سورة التوبة.
- ٧- الأوجه التي بين الأنفال وبراءة ليس فيها بسملة؛ لعدم تواتر الرواية بنزول البسملة في أولها؛ ولعدم كتابتها في المصحف.
- ٨- بعض الفقهاء يعد البسملة آية في القرآن كله، وبعضهم يعدّها آية في الفاتحة فقط، وبعضهم يجعلها آية للفصل غير معدودة في القرآن كله، وبعضهم لا يجعلها آية لا في العد ولا للفصل، وهو بجانب الصواب.
- ٩- من القراء من بسمّل بين السورتين حال وصلهما، ومنهم من سكت بينهما بدون تنفس، ومنهم من وصلهما بدون البسملة.
- ١٠- عدم الإتيان بالبسملة جهرا في أول الفاتحة أحيانا، وحال وصل السورة بالسورة في الصلاة وغيرها، يشعر بأن قراءتها جهرا بدعة، وهو بجانب للصواب، وفيه تعصب للمذهب، وترك للأخذ بالأدلة.

(١) «النشر في القراءات العشر» ص ٢٦٢.

الْمَبْحَثُ السَّابِعُ: الْحَمْدُ لِلَّهِ ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾

القرآن كتاب قِيَمٌ: يُنْذِرُ وَيُبَشِّرُ، وفيه عِلْمُ الأولين والآخرين.

١- الحمد لله: ثناء أثنى الله تعالى به على نفسه ليعلمنا كيف نُثني عليه سبحانه،

وكيف نشكره على نعمه التي لا تعد ولا تحصى.

ومن أعظم نعم الله تعالى علينا أن مَكَّن أجسادنا من عبادته وأداء فرائضه، وبسط لنا في الرزق ونعيم العيش، وَيَسَّرَ لنا الأسباب التي تؤدي إلى الخلود في دار النعيم، فالله تعالى خلق الخلق، ورزقهم، وسخر لهم ما في السموات وما في الأرض، وقبل نزول هذه الآية: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ لم يكن الإنسان يعرف كيف يحمده الله تعالى ويشكره على نعمه التي لا تعد ولا تحصى.

يقول الطبري: الحمد لله: الشكر خالصاً لله تعالى بما أنعم على عباده من النعم التي لا يحصيها العدد، ولا يحيط بها غيره أحد؛ في توفيقنا لطاعته، وتمكُّن أجسامنا لأداء فرائضه مع ما قَسَمَ لهم في دنياهم من الرزق، وغذاهم به من نعيم العيش، فلربنا الحمد على ذلك كله أولاً وآخرًا^(١).

٢- الحمد حق لله وحده: لفظ ﴿الْحَمْدُ﴾ مقرونًا بالألف واللام، يستغرق جميع أنواع المحامد، فالحمد كله حق واجب لله تعالى، وهو وحده المستحق للحمد دون سواه، والحمد هو الثناء الحسن على الله تعالى بصفات الكمال، وبأفعاله الدائرة بين الفضل والعدل، فله سبحانه الحمد بكل الوجوه، وإذا كان الإنسان لا يُحصى نعم الله تعالى عليه فكيف يستطيع أن يقوم بما يجب عليه إزاءها من شكر الله تعالى والثناء عليه وحمده؟! ومع ذلك فإن الله تعالى يعلمنا كيف نحمده.

وقد أجمع القراء العشرة على رفع الدال من لفظ ﴿الْحَمْدُ﴾؛ لأنها تدل على ثبوت الحمد واستقراره لله تعالى.

واللام من لفظ ﴿لِلَّهِ﴾ للاستحقاق، أي: أن الحمد كله مستحقٌّ ومُسْتَقَرٌّ وثابت لله

(١) من تفسير الآية في سورة الفاتحة للطبري بتصرف.

تعالى على نعمه .

ومن هذه النعم ما ليس للمخلوق فيها يدٌ: كالخلق والرزق والإحياء والإماتة... ، فالجائع يحمد الله تعالى عند الشبع، والمريض يحمده سبحانه عند الشفاء، والفقير يحمده عند الغنى، والمحروم يحمده عند العطاء، وهكذا، وهذا هو سر الجمع بين لفظ ﴿الْحَمْدُ﴾ ولفظ ﴿رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾.

ومن المحامد ما يُحمد عليها المخلوق، كَشُكْرِ من صنع لك معروفًا، والحقيقة أن الله تعالى هو الذي أجرى الخير على يد العبد، وجعله سببًا مباشرًا لهذه النعمة، وذلك كحمد من أسدى إليك معروفًا، وما يُثَنَّى به على الأنبياء والصالحين، باعتبار أن الله تعالى هو الذي خلق الفاعل، وأعطاه ما فعل، وحبَّه إليه وقوّاه عليه، والعبد كان الأداة المنفّذة لذلك.

ومن ذلك شكر الوالدين؛ لأنهما كانا السبب المباشر في إيجاد العبد، مع أن الله تعالى هو الذي خلق الوالد والولد، ومثل شكر المعلم، والمُتَصَدِّق، وكذا مَنْ شفع لك شفاعته حسنة، أو تسبب لك في جلب خير أو دفع ضرر، فهو يُحَمَّدُ وَيُشْكِرُ على معروفه؛ لأن الله تعالى أجراه على يديه، وهو سبحانه مصدر النعم.

٣- حَمْدُ اللَّهِ تَعَالَى نَوْعَانِ:

(أ) حمد مُسْتَحَقٌّ واجب لذات الله ﷻ؛ لأنه متصف بصفات الكمال، وهو المانع المعطي، وهو مصدر النعم، فهو أحق بالحمد من كل محمود.

(ب) وحمد على إحسانه تعالى إلى عباده، وتفضله عليهم بالنعم، وهو نوع من الشكر.

٤- حمد الناس وشكرهم: وحمد الناس وشكرهم على ما قدموه للإنسان من معروف جرى على أيديهم بفضل الله تعالى، أمر مطلوب شرعًا.

- في الحديث عن أبي هريرة ؓ أن رسول الله ﷺ قال: «لَا يَشْكُرُ اللَّهُ مَنْ لَا يَشْكُرُ النَّاسَ»^(١).

(١) أخرجه أبو داود والترمذي وغيرهما بإسناد صحيح، «جامع الأصول» حديث رقم (١٠٣٣) وفي «المسند» برقم (٧٩٣٩، ٩٩٤٤) وعن الأشعث بن قيس برقم (٢١٨٣٨، ٢١٨٤٧) والحديث في «صحيح سنن الترمذي» (٢٠٣٧) و«صحيح سنن أبي داود» (٤٠٢٦) وفي «صحيح الجامع الصغير» (٤٥٤١) و«مشكاة المصابيح» (٣٠٢٥).

- وفي الحديث أيضاً عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال: «... ومن صنع إليكم معروفاً فكافئوه، فإن لم تجدوا ما تكافئوه فادعوا له حتى تروا أنكم قد كافأتموه»^(١).

وعدم مكافأة الناس على ما أسدوه من معروف جحْدُ لهم، وكُفْرُ لمعروفهم عليه.

- وعن جابر بن عبد الله رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «مَنْ أُعْطِيَ عَطَاءً فَلْيَجْزْ بِهِ إِنْ وَجَدَ، وَإِنْ لَمْ يَجِدْ فَلْيُثْنِ بِهِ، فَإِنْ مَنَ اثْنَى بِهِ فَقَدْ شَكَرَهُ، وَمَنْ كَتَمَهُ فَقَدْ كَفَرَ...»^(٢).

فإن لم يجد العبد ما يكافئ به، فلا أقل من شكر اللسان والاعتراف بالجميل والدعاء.

روى أسامة بن زيد رضي الله تعالى عنهما أن رسول الله ﷺ قال: «مَنْ صُنِعَ إِلَيْهِ مَعْرُوفٌ فَقَالَ لِفَاعِلِهِ: جَزَاكَ اللَّهُ خَيْرًا، فَقَدْ أَبْلَغَ فِي الشَّاءِ»^(٣).

وحمد الناس قد يكون على الصفات اللازمة التي لا تنفع غير صاحبها، كما يقال: حمدته لفروسيته وبطولته، وقد يكون على الصفات المتعدية التي يكون نفعها لغير فاعلها، كما يقال: حمدته لكرمه وإحسانه.

ولا يتحقق الحمد إلا بحب المحمود سبحانه، والحب يقتضي إخلاص العبادة، وامتنال الأوامر واجتناب النواهي، وتقديم ذلك على هوى النفس، فالحمد والتوحيد أصلان متلازمان.

لذا: فإن الداعي ينبغي له أولاً أن يحمد الله تعالى ويشني عليه؛ ليكون ذلك أدعى إلى الإجابة.

ولهذا: فإن خطب الجُمُع والأعياد وغيرها افتُتحت بالحمد؛ لأن الحمد هو أفضل الدعاء، وبه افتتح الله سبحانه سور: (الفاتحة والأنعام والكهف وسبأ وفاطر) وحمده تعالى على النعم السابقة يَغْلُقُ على الحامد أبواب النيران.

(١) «سلسلة الأحاديث الصحيحة» حديث رقم (٢٥٤) وانظر: المسند (٥٧٠٣) بنحوه، صحيح لغيره كما قال محققوه، وأخرجه ابن أبي شيبة (٢٢٨/٣) وهو في المسند أيضاً (٥٣٦٥) بإسناد صحيح على شرط الشيخين، وفي الطيالسي (١٨٩٥) والنسائي الكبرى (٢٣٤٨).

(٢) أخرجه أبو داود والترمذي، وهو حديث صحيح، انظر: «جامع الأصول» حديث رقم (١٠٣٢) وهو في «صحيح سنن أبي داود» (٤٠٢٨) و«صحيح سنن الترمذي» (٢١٢٠).

(٣) أخرجه الترمذي بإسناد حسن، يُنْظَرُ: «جامع الأصول» حديث رقم (١٠٣١) ورقم (١٠٣٧) وهو في «صحيح سنن الترمذي» (١٦٥٧) و«مشكاة المصابيح» (٣٠٢٤) والروض النضير برقم (٨).

وحمده تعالى على النعم المتجددة في المستقبل يفتح أبواب الجنات، فتأثيره في الماضي ستر أبواب الحجاب، وتأثيره في المستقبل يفتح أبواب معرفة الله تعالى.

٥- الفرق بين الحمد والشكر: الحمد يكون باللسان، والشكر يكون بالقلب واللسان والجوارح، أي: بالقول والفعل والنية، والحمد نقيض الذم، والشكر نقيض الكفر، والحمد أعم من الشكر؛ لأن الشكر يكون مقابل النعمة، بخلاف الحمد، فإنه يكون مستحقاً لذات الله تعالى.

ويجب أن يُترجم الشكر باللسان، إلى العمل الذي يمتد إلى العقيدة والعبادة والسلوك والمعاملة، ولكي يكون المرء حامداً لله تعالى، فلا بد أن تكون أقواله وأفعاله وأحاسيسه ومشاعره وانفعالاته كلها لوجه الله تعالى، ففي ذلك دليل يشهد على صحة القول والفهم.

وحمد الله تعالى بالقلب يكون باعتقاد أنه سبحانه موصوف بصفات الكمال والجلال.

وحمد الجوارح يكون بفعل ما أمره الله به، وترك ما نهى عنه.

وحمد اللسان يكون بذكر الله تعالى وشكره.

٦- العموم والخصوص بين الحمد والشكر: وفي بيان العموم والخصوص بين الحمد والشكر والفرق بينهما يقول الشيخ محمد بن عبد الوهاب: والفرق بين الحمد والشكر: أن الحمد يتضمن المدح والثناء على المحمود بذكر محاسنه، سواء أكان إحساناً إلى الحامد أم لم يكن، والشكر لا يكون إلا على (إحسان المشكور).

فمن هذه الوجوه: الحمد أعم من الشكر؛

والله تعالى يُحمد على ما لهُ من الأسماء الحسنى، وما خلقهُ في الآخرة والأولى.

وأما الشكر: فإنه لا يكون إلا على الإنعام، فهو أخص من الحمد من هذه الوجهة، لكنه يكون بالقلب واللسان واليد، فمن هذا الوجه: الشكر أعم من جهة أنواعه، والحمد أعم من جهة أسبابه^(١).

فدل هذا على أن الحمد أعم من الشكر، وأن العبد إذا قال: الحمد لله والشكر لله،

(١) من «تفسير سورة الفاتحة» للشيخ محمد بن عبد الوهاب، تحقيق د/فهد بن عبد الرحمن الرومي.

فإن ذلك يكون شاملاً لِقَمَّتِي الثناء على الله تعالى إذا ترجم حمد اللسان وشكره إلى العمل، ومن أعظم نعم الله تعالى على العبد أن يلهمه شُكْرَه وحمده، فثواب الحمد لا يفنى، ونعيم الدنيا لا يبقى.

قال تعالى: ﴿الْمَالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَالْبَاقِيَةُ خَيْرٌ عِنْدَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلًا﴾ [الكهف: ٤٦].

٧- الحمد في السُّنَّة: وهناك كثير من الأحاديث التي تُبين فضل الحمد وعظيم الأجر عليه، منها:

١- أن حمد الله تعالى يسبب رضا:

عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الله تعالى ليرضى عن العبد يأكل الأكلة فيحمده عليها، أو يشرب الشربة فيحمده عليها»^(١).

٢- وحمد الله تعالى كلمة ثقيلة تملأ ميزان العبد بالحسنات:

عن أبي مالك الأشعري رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «الطهور شطر الإيمان، والحمد لله تملأ الميزان، وسبحان الله والحمد لله تملآن أو تملأ ما بين السماء والأرض...»^(٢).

٣- والله تعالى يصدق عبده إذا حمده:

عن أبي هريرة وأبي سعيد الخدري رضي الله عنهما عن النبي ﷺ قال: «إذا قال العبد: لا إله إلا الله، له الملك وله الحمد، قال الله: صدق عبدي لا إله إلا أنا، لي الملك ولي الحمد»^(٣).

٤- وحينما يحمد العبد ربه في صلاته فإن الله تعالى يجيبه ويردُّ عليه:

(١) أخرجه أحمد ومسلم والترمذي والنسائي، «صحيح الجامع الصغير» ج ٢ حديث رقم (١٨١٢) ورقمه في «المسند» (١١٩٧٣، ١٢١٦٨) بإسناد صحيح على شرط الشيخين وفي مسلم (٢٧٣٤)، والترمذي (١٨١٦) وفي «الشماثل» له (١٩٤) وابن أبي شيبه (٣٤٤/١٠) و«سنن النسائي الكبرى» (٦٨٧٢).

(٢) أخرجه أحمد ومسلم والترمذي، «صحيح الجامع الصغير» ج ٤ حديث (٣٨٥٢) ورقمه في «المسند» (٢٢٩٠٢، ٢٢٩٠٨) حديث صحيح، ومسلم (٢٢٣) والترمذي (٣٥١٧) والطبراني (٣٤٢٣) وابن ماجه (٢٨٠) وابن حبان (٨٤٤) وابن أبي شيبه (٦/١).

(٣) يُنظر الحديث بتمامه في صحيح «سنن ابن ماجه» باختصار السند للألباني (٣١٧/٢) حديث رقم (٣٠٦١) وهو في السلسلة الصحيحة (١٣٩٠) والتعليق الرغيب (١٦٥/٤).

وفي الحديث القدسي عن أبي هريرة: «قسمت الصلاة بيني وبين عبدي... إذا قال عبدي: الحمد لله رب العالمين، قال الله تعالى: حمدني عبدي...»^(١).

٥- والحمد أفضل الدعاء، عن جابر بن عبد الله رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «أفضل الذكر: لا إله إلا الله، وأفضل الدعاء: الحمد لله»^(٢).

٦- وحمد الله تعالى يزيد النعم والعطاء، ويُعوض العبد أفضل مما أخذ منه:

قال تعالى: ﴿لَئِنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ﴾ [إبراهيم: ٧].

وعن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «ما أنعم الله على عبد نعمة، فقال: الحمد لله، إلا كان الذي أُعطي أفضل مما أخذ»^(٣).

٧- وعن ابن عمر رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ حدثهم: «أن عبداً من عباد الله قال: يارب لك الحمد كما ينبغي لجلال وجهك وعظيم سلطانك، فَعَصَلْتُ على الملكين، فلم يدريا كيف يكتبانها، فصعدا إلى الله تعالى، وقالا: ياربنا إن عبداً قد قال مقالة لا ندري كيف نكتبها، قال: وهو أعلم بما قال عبده، ماذا قال عبدي؟ قالا: يارب، إنه قال: لك الحمد يارب كما ينبغي لجلال وجهك وعظيم سلطانك، فقال الله لهما: اكتبها كما قال عبدي حتى يلقاني فأجزيه بها»^(٤).

٨- والملائكة تتسابق إلى كتابة أجر الحمد حين الرفع من الركوع:

عن رفاعه ابن رافع رضي الله عنه قال: كنا نصلي وراء النبي ﷺ فلما رفع رأسه من الركعة قال:

(١) أخرجه مسلم ومالك وأبو داود والترمذي والنسائي، «جامع الأصول» ج ٥ حديث رقم (٣٤٢٤) وهو في مسلم (٣٩٥) وأبي داود (٨٢١) والترمذي (٢٩٥٣) وابن ماجه (٨٣٨) و«المسند» (٧٨٣٦) وابن حبان (١٧٨٤، ١٧٨٩) والنسائي في «الكبرى» (٩٨٣، ٧٩٥٨).

(٢) أخرجه الترمذي (٣٣٨٣) والنسائي في «الكبرى» (١٠٦٦٧) وابن ماجه (٣٨٠٠) وابن حبان (٨٤٦) والبيهقي في الشعب (٤٣٧١) وحسنه الألباني في صحيح «سنن ابن ماجه» (٣٠٦٥) والحاكم بإسناد حسن، وانظر: «صحيح الجامع» ج ١ رقم (١١١٥) والسلسلة الصحيحة (١٤٩٧) والمشكاة (٤٣٠٦).

(٣) أخرجه ابن ماجه بإسناد صحيح (٣٨٠٥) كما في «صحيح الجامع الصغير» ج ٥ رقم (٥٤٣٩) وهو في صحيح «سنن ابن ماجه» (٣٠٦٧) والبيهقي (٣٠٦٧).

(٤) أخرجه أحمد وابن ماجه وإسناده متصل ورواته ثقات، ينظر «الترغيب والترهيب» (٤٤٠/٢) تعليق مصطفى عماره، وأخرجه النسائي (٢٢٠/٢) باب فضل الحامدين، و انظر حديث أنس في المسند (١٢٦١٢) بنحوه، وإسناده قوي كما قال محققوه.

«سمع الله لمن حمده» وقال رجل وراءه: ربنا ولك الحمد حمداً كثيراً طيباً مباركاً فيه، فلما انصرف قال: «من المتكلم آنفاً؟» قال: أنا، قال: «رأيت بضعة وثلاثين ملكاً يتدرونها أيهم يكتبها أول»^(١).

وكما يحمد العبد ربه في الرفع من الركوع فإنه يدعو بين السجدين.

عن عبد الله بن عباس رضي الله عنه قال: إن النبي ﷺ كان يقول بين السجدين: «اللهم اغفر لي وارحمني واجبرني واهدني وارزقني»^(٢).

٩- والحمد من الأدعية التي تقال في الركوع والسجود إلى جوار غيره من الأدعية، عن عائشة رضي الله تعالى عنها قالت: كان رسول الله ﷺ يكثر أن يقول في ركوعه وسجوده: «سبحانك اللهم ربنا وبحمدك، اللهم اغفر لي» يتأول القرآن^(٣).

يعنى يتأول قول الله تعالى: ﴿فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَأَسْتَغْفِرْهُ﴾ [النصر: ٣].

وعنها رضي الله عنها قالت: افتقدت النبي ﷺ ذات ليلة، فظننت أنه ذهب إلى بعض نسائه، فتحسست، ثم رجعت، فإذا هو راکع -أو ساجد- يقول: «سبحانك اللهم وبحمدك، لا إله إلا أنت» فقلت: بأبي أنت وأمي، إني لفي شأن، وإنك لفي آخر^(٤).

وعن ابن أبي أوفى رضي الله عنه قال: كان رسول الله ﷺ إذا رفع ظهره من الركوع قال: «سمع الله لمن

(١) هذه رواية البخاري برقم (٧٩٩) و«الموطأ» وأخرجه أيضاً أبو داود برقم (٧٧٠) والنسائي في «الكبرى» (٦٥٣) وهو في «جامع الأصول» (٢٠١/٤) حديث رقم (٢١٧٣) وفي «المسند» (١٨٩٩٦) وابن حبان (١٩١٠).

(٢) أخرجه الترمذي في صحيح سننه (٢٣٣) بهذا اللفظ وصحيح «سنن ابن ماجه» (٨٩٨) وفي «صحيح سنن أبي داود» (٧٥٦) بلفظ: (وعافني) بدل (واجبرني) بإسناد حسن وصححه الحاكم، يُنظر: «جامع الأصول» حديث رقم (٢١٧٤).

(٣) أخرجه الجماعة إلا «الموطأ» والترمذي، «جامع الأصول» برقم (٢١٥٧) وهو في «سنن النسائي الكبرى» (٧١٣) بهذا اللفظ وفي البخاري (٧٩٤، ٤٢٩٣) ومسلم (٢١٩)، (٤٨٤)، وأبو داود (٨٧٧) وابن ماجه (٨٨٩) و«المسند» (٢٤١٦٣) وابن حبان (١٩٢٩، ١٩٣٠).

(٤) هذه رواية مسلم برقم (٤٨٥) والنسائي، أخرجه أيضاً «الموطأ» والترمذي وأبو داود، «جامع الأصول» برقم (٢١٥٩) وهو في «المسند» (٢٥١٧٨) وفي «سنن النسائي الكبرى» (٧٢١، ١٠١٥٩).

حمده، اللهم ربنا لك الحمد، ملء السموات وملء الأرض، وملء ما شئت من شيء بعد»^(١).

١٠- والحمد لله، أحب شيء إلى الله تعالى :

ففي حديث أنس أن النبي ﷺ قال: «التأني من الله، والعجلة من الشيطان، وما شيء أكثر معاذير من الله، وما شيء أحب إلى الله من الحمد»^(٢).

وهكذا الكثير من صيغ ﴿الْحَمْدُ﴾ التي جاءت مفردة ومضمومة مع غيرها، في كثير من مواطن الدعاء والعبادة.

رب العالمين: أما قوله تعالى: ﴿رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ فإن هذه الجملة تتألف من جزأين:

﴿رَبِّ﴾ وهي تشير إلى وحدة الربوبية، فالرب سبحانه هو الذي خلق الخلق، ورباهم وحباهم بنعمه، لم يُنكر ذلك مؤمن ولا كافر ولا منافق، فالكل مقرر بأن الله هو الخالق الرازق المحيي المميت المدبر.

ولفظ ﴿الْعَالَمِينَ﴾ تشير إلى وحدة البشر؛ لأنها تنظم الخلق جميعاً، ومنهم البشر، ومرجعهم إلى رب واحد وأم واحدة ﴿وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ مِنَ الْمَاءِ بَشَرًا فَجَعَلَهُ نَسَبًا وَصِهْرًا وَكَانَ رَبُّكَ قَدِيرًا﴾ [الفرقان: ٥٤] ﴿يَتَأْتِيَ النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاهُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاهُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتَقْوَاهُ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾ [الحجرات: ١٣].

ولفظ «الرب» في اللغة يطلق على: المالك، والسيد المطاع، والمصلح، والمربي، والحاكم، والعاقل، والكفيل، والرئيس، والرقيب، والمؤسس... وغير ذلك، والله وحده هو ﴿رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ بكل هذه المعاني جملة وتفصيلاً، فهو سيد العوالم كلها من العرش إلى الفرش، وهو المربي لجميع العالمين، بخلقه لهم، وإنعامه عليهم، وتربيته لهم، ورزقه لهم، وهدايته لهم، ومن ذلك تربيته لأوليائه تربية خاصة فيوفقه للإيمان الكامل، ويدفع عنهم الصوارف والعوائق، ويعصمهم من الشرور والآثام.

(١) أخرجه مسلم عن ابن عباس برقم (١٩٠٦) مختصراً وعن أبي سعيد الخدري (٤٧٧) مطولاً وأخرجه الترمذي وأبو داود، ينظر روايات الحديث في «جامع الأصول» (١٩٩/٤) حديث رقم (٢١٦٨) وفي «سنن النسائي الكبرى» برقم (٦٥٩، ٦٥٧).

(٢) البيهقي في «شعب الإيمان» (٤٣٦٧) وصححه الألباني في «السلسلة الصحيحة» (١٧٩٥).

ولا يُطلق لفظ «الرب» معرّفًا غير مضاف إلا على الله تعالى، فإذا أضيف بأن قيل: رب الدار، أو رب الناقة، فإنه قد يراد به غير الله تعالى.

فالرب: هو المعبود، الخالق الرازق المالك المتصرف، المربي جميع العوالم بأصناف النعم، فقد خلقهم ورزقهم ورباهم بنعمه، وهداهم لما يحفظ حياتهم ونسلهم، وسخر بعضهم لبعض؛ لتستقيم شؤون الحياة ومصالح العباد، كما سخر لهم ما في الأرض جميعًا من شمس وحيوان ونبات وغذاء...

فهو السيد المطاع، الذي لا يُطاع سواه، وهو مالك الدنيا ويوم الدين، وهو المصلح شؤون خلقه، وكما هداهم الله تعالى لما يُصلح حياتهم، ويحفظ بقاءهم، هداهم أيضًا لما فيه سعادتهم في الدار الآخرة.

وقيل: إن لفظ «الرب» مشتق من التربية، بمعنى أن الله تعالى هو مربّي العباد، والمدير لأمورهم، والمصلح لشؤونهم، وهذه التربية نوعان:

١- تربية عامة لجميع خلقه: فالإنسان والحيوان والنبات والجماد والطيور... إلخ، كل ذلك مخلوق ومربوب لله تعالى.

٢- تربية خاصة: وهي إعداد فئة من البشر إعدادًا خاصًا؛ كتربية الأنبياء والصالحين تربية روحية مسلّمة من كل شر، مع وجود الصوارف والعوائق والشهوات والشبهات، وإخلاصهم له سبحانه.

٧- التوحيد في آخر القرآن وأوله

(أ) اشتملت سورة الناس على توحيد الألوهية في قوله تعالى: ﴿إِلَهِ الْنَّاسِ﴾ كما اشتملت عليه سورة الفاتحة في قوله تعالى: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ﴾.

(ب) واشتملت سورة الناس على توحيد الربوبية في قوله: ﴿رَبِّ الْنَّاسِ﴾ كما اشتملت عليه سورة الفاتحة في قوله سبحانه: ﴿رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾.

(ج) وكلتا السورتين اشتملتا على إثبات «الملك» لله تعالى في الدنيا والآخرة في قوله تعالى: ﴿مَلِكِ الْنَّاسِ﴾ بسورة الناس، وقوله: ﴿مَلِكِ يَوْمِ الدِّينِ﴾ بالفاتحة، وهما آخر

وأول سورة في القرآن .

والتوحيد هو أول مأمور به في القرآن الكريم، ويناقضه الشرك وهو أول منهي عنه .

والتوحيد هو أول فاتحة القرآن الكريم وهو خاتمته .

فاسم الجلالة من ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ إشارة إلى توحيد الألوهية :

ولفظ ﴿رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ إشارة إلى توحيد الربوبية .

ولفظ ﴿الْكَرِيمِ الْيَمِينِ﴾ إشارة إلى توحيد الأسماء والصفات .

وهذه هي أنواع التوحيد التي قامت دلالة استقراء نصوص الشرع عليها، وفي خاتمة القرآن العظيم ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ ﴿١﴾ مَلِكِ النَّاسِ ﴿٢﴾ إِلَهِ النَّاسِ ﴿٣﴾﴾ فأشار سبحانه إلى توحيده في ربوبيته، وفي ألوهيته، وهما تستلزمان توحيده تعالى في أسمائه وصفاته .

والتوحيد هو الغاية من خلق الله تعالى لخلقه، قال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات: ٥٦] أي: يوحدوني، والتوحيد هو الغاية من بعثة الرسل والأنبياء، قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾ [النحل: ٣٦] .

فالتوحيد هو البداية، وهو النهاية، وهو الغاية من خلق الجن والإنس، وهو الغاية من بعثة الأنبياء والرسل، وهو مفتتح القرآن، وخاتمته، وهو أول أمر فيه، ومن أجله أسست الملة، ونُصبت القِبلَة، وجُردت سيوف الجهاد، وحُلِقَت الجنة والنار .

والمراد بـ ﴿الْعَالَمِينَ﴾ في الآية كل موجود ما عدا الله سبحانه، وهو شامل لأصناف المخلوقات في السموات والأرض، والبر والبحر، في كل زمان ومكان، وهو جمع عالم، وهو جمع لا واحد له من لفظه، وهو اسم لكل أصناف الأمم؛ فالإنس عالم، والملائكة عالم، والجن عالم، والطير عالم، والنبات عالم، والجماد عالم، والدواب عالم... إلخ، وجميع العوالم مُفْتَقَرَةٌ إلى الله تعالى ومربوبة له .

قيل: وأهل كل قرن وزمان، عالم، يدل على عالم زمانه، وخَصَّه بعضهم بمن يعقل (الإنس والجن والملائكة والشياطين) .

قال تعالى: ﴿وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّا أُمَمٌ أَسْأَلُكُمْ﴾ [الأنعام: ٣٨] .

الْمُبْحَثُ الثَّامِنُ: صِفَةُ الرَّحْمَةِ ﴿الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ﴾

صفتان مشتقتان من الرحمة، و «رحمن» أشد مبالغة من «رحيم» وزيادة المبنى تدل على كثرة المعنى، فهما صفتان لمعنى واحد هو «الرحمة» وهى تعني: الرقة والعطف والحنو والمغفرة، والرحمة من الله تعالى نِعَمٌ وفضل، ومن الأدميين رقة وعطف ولين جانب.

قال أبو الأعلى المودودي في تفسيره لسورة الفاتحة:

«رحمن» صيغة مبالغة، وهى تُعَبَّرُ عن صفات الإحسان والرحمة، وتُظَهِّرُهَا فى أعلى وأرقى مراتبها، إلا أنها تَعْجِزُ عن التعبير عن كمال صفات الله تعالى غير المحدودة، ولهذا أضيفت لها كلمة أخرى من نفس الأصل، وهى ﴿الرَّحِيمُ﴾؛ لِيُسَدَّ هذا النقص.

و ﴿الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ﴾ اسمان دالان على أن الله سبحانه ذو الرحمة الواسعة العظيمة المطلقة الشاملة التى وسعت كل شيء، رحمة عامة بجميع خلقه، ورحمة خاصة بعباده المؤمنين.

قال تعالى: ﴿وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالَّذِينَ هُمْ بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ ٥ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ﴾ [الأعراف: ١٥٦، ١٥٧].

و ﴿الرَّحْمَنُ﴾ صفة قائمة بذات الله ﷻ (وصف ذاتي ثابت له سبحانه).

أما ﴿الرَّحِيمُ﴾: فهي صفة تتعلق بالمرحوم، وهو (فعل الرحمة) الذى يرحم الله به عباده، ويخص به منهم المؤمنين، وهو يدل على تجدد واستمرار رحمة الله تعالى بخلقه.

و ﴿الرَّحْمَنُ﴾ هو المنعم بنعم عامة تشمل الكافر والمؤمن.

و ﴿الرَّحِيمُ﴾ أي: المنعم بنعم خاصة بالمؤمنين فقط، فهو تخصيص بعد تعميم.

والله سبحانه هو المنعم بجلال النعم، وهو المنعم بدقائقها.

وقد اشتملت البسملة على ثلاثة من أسماء الله الحسنى وصفاته العليا وهى:

﴿اللَّهُ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ﴾، ولفظ الجلالة منها هو العَلَمُ على الذات الإلهية، و ﴿الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ﴾ صفتان للفظ الجلالة، فالله تعالى هو نفسه الرحمن الرحيم، وفيها تدرج معنوي، وتحول منطقي، من أخص الأسماء، وهو الاسم الأعظم للذات الإلهية ﴿اللَّهُ﴾ إلى أخص الصفات وهى ﴿الرَّحْمَنُ﴾ إلى رحمة خاصة وهى ﴿الرَّحِيمُ﴾.

وقد عَلَّمَنَا القرآن أن نضع التوحيد مكان التثليث الذي يبدأ به النصارى شؤونهم باسم الأب والابن والروح القدس، وهذه ثلاثة مختلفة، فالأب غير الابن، والابن غير الروح القدس (جبريل)، وكل واحد منهما يدل على ذات غير الذات الأخرى، فهي آلهة ثلاثة.

أما ﴿الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ﴾ فهما صفتان لذات واحدة هو الله سبحانه، كما يقال: فلان كريم شجاع عفيف...

فالأول ذات، وما بعده صفات، ويُضاف إليهما وصف رابع في الآية التي بعدها هي ﴿مَلِكِ يَوْمِ الدِّينِ﴾، فهذه صفات ثلاث لموصوف واحد وهو الاسم الوحيد ﴿اللَّهُ﴾ المذكور أولاً.

ولفظ ﴿الرَّحْمَنُ﴾ يُضَارِعُ لفظ الجلالة، فلا يطلق إلا على الله سبحانه، ولا يتصف به غيره، ولا يتسمَّى به مخلوق.

ومن أسمائه الحسنی ما يسمى بها غيره، ومنها ما لا يسمى بها غيره، لا سيما ما كان مُعَرَّفًا منها، بالألف واللام، ولفظ الجلالة هو أعظم الأسماء الحسنی، ولفظ ﴿الرَّحْمَنُ﴾ هو أعظم صفات الله سبحانه، وقد جمعتهما آية الإسراء: ﴿قُلِ ادْعُوا اللَّهَ أَوْ ادْعُوا الرَّحْمَنَ أَيًّا مَا تَدْعُوا فَلَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى﴾ [آية: ١١٠]

فما أحرى بالمؤمنين أن يحمدوا ربهم ويشكروه بامتثال أوامره واجتناب نواهيه!

وهكذا وَصَفَ الله ﷻ نفسه بأنه رحمن رحيم في (البسملة)، ثم جاء هذا الوصف نفسه في آية مستقلة بعد ذلك؛ لتأكيد هذا المعنى وتقويته، ولتثبيت الصلة بين الخالق والمخلوق، وبيان طبيعتها، وأنها تقوم على الرحمة العامة والخاصة.

وليس هذا تكرار لما جاء في (البسملة) وإنما لَمَّا ذكر سبحانه أنه رب العالمين، وكأنَّ لفظ ﴿رَبِّ﴾ يُنبئ عن معنى الكبرياء والسيادة والغلبة والقهر، فربما توهم السامع أن هذا «الرب» قهار جبار، لا يرحم العباد، فيدخل في نفسه الفزع واليأس والخوف والقنوط؛ لذلك جاءت هذه الآية.

﴿الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ﴾ بعد ﴿رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ لتؤكد أن الرب -جلّ وعلا- رحمن رحيم، وأن رحمته وسعت كل شيء، وأن ربوبيته ربوبية رحمة، وليست ربوبية قهر وجبروت..

قال القرطبي في تفسيره: وصف نفسه تعالى بعد ﴿رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ بأنه «رحمن رحيم»؛ لأنه لما كان في اتصافه برب العالمين ترهيب، قرّنه بالرحمن الرحيم لما تضمن من الترغيب؛ ليجمع في صفاته بين الرهبة منه والرغبة إليه، فيكون أعون على طاعته وأمتع. كما قال تعالى: ﴿يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَيَخْتَارُ إِنَّ إِلَهَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ [الحجر: ٤٩، ٥٠].

وقال سبحانه: ﴿غَافِرِ الذَّنْبِ وَقَابِلِ التَّوْبِ شَدِيدِ الْعِقَابِ﴾ [غافر: ٣]. وقال جل شأنه: ﴿إِنَّ رَبَّكَ لَسَرِيعُ الْعِقَابِ وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [الأعراف: ١٦٧]. وقال ﷺ: ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِلنَّاسِ عَلَى ظُلْمِهِمْ وَإِنَّ رَبَّكَ لَشَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ [الرعد: ٦]. وقال أيضاً: ﴿اعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ وَأَنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [المائدة: ٩٨]. وفي صحيح مسلم وغيره عن أبي هريرة ؓ أن رسول الله ﷺ قال: «لو يعلم المؤمن ما عند الله من العقوبة ما طمع بجنّته أحد، ولو يعلم الكافر ما عند الله من الرحمة ما قنط من جنّته أحد»^(١).

فهذه الآية ليست تكراراً لما سبق، وإنما لها مناسبتها وضرورتها بالنسبة للآية قبلها، والآية بعدها.

فقد تدرّجتِ السورة تدرّجاً معنوياً ومنطقياً؛ حيث بدأت بتوحيد الألوهية، ممثلاً في لفظ الجلالة ﴿يَسْمِعُ اللَّهُ﴾ وهو أخص الأسماء الحسنى، والعلم الوحيد على الذات، ثم أتبعته بأخص الصفات، وهي الرحمة العامة الشاملة للمؤمن والكافر، ثم الرحمة الخاصة بالمؤمنين، من باب الخصوص بعد العموم، أو من باب تقوية وتمام الرحمة غير المحدودة.

ثم ثنت بتوحيد الربوبية الممثل في ﴿رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ فهي صفات ثلاث: «رحمن، رحيم، رب» لمسمى واحد هو «الله»، وأعقبت ذلك بالرحمة ثانياً؛ لأنه سبحانه رحمن رحيم في ألوهيته وربوبيته، فالرحمة من صفات الله تعالى، وهي قريبة من المحسنين المهتدين التائبين.

قال سبحانه: ﴿إِنَّ رَحْمَتَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ الْمُحْسِنِينَ﴾ [الأعراف: ٥٦].

(١) «صحيح مسلم» برقم (٢٧٥٥) و«صحيح البخاري» برقم (٦٤٦٩) بنحوه.

فمن تباعد عن الله بإحسانه، تباعد الله عنه برحمته .

قال سبحانه: ﴿وَمَنْ يَقْنُطْ مِنْ رَحْمَةِ رَبِّهِ إِلَّا الضَّالُّونَ﴾ [الحجر: ٥٦].

فالمهتدون يطمعون في رحمة الله تعالى بمقتضى هدايتهم .

قال تعالى: ﴿وَرَبُّكَ الْغَفُورُ ذُو الرَّحْمَةِ﴾ [الكهف: ٥٨، والأنعام: ١٣٣].

وقال أيضاً: ﴿فَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ لَكُنْتُمْ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ [البقرة: ٦٤].

وقال جل شأنه: ﴿كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ﴾ [الأنعام: ٥٤].

وقال سبحانه: ﴿إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرءُوفٌ رَحِيمٌ﴾ [البقرة: ١٤٣].

وقال ﷺ: ﴿إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾ [البقرة: ٣٧] وغير ذلك من عشرات الآيات .

وللرحمة جوانب للخير وجوانب للشر في حياة الناس، كالرحمة التي تستدعي كف العقاب عن الظالمين، وكرحمة الأم الرعناء التي تهمل تأديب ولدها مهما أساء؛ لأن الرحمة لا تتنافى مع التأديب والعقاب المناسب، أما الله سبحانه، فإنه لا يرحم إلا في الخير، قال تعالى: ﴿وَقُلْ رَبِّ أَعْفِرْ وَارْحَمْ وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّاحِمِينَ﴾ [المؤمنون: ١١٨]، وقد وَسَّعَ ربنا كل شيء رحمة وعلماً ﴿رَبَّنَا وَسِّعَتْ كَلًّا شَيْءٌ رَحْمَةً وَعِلْماً فَاغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا وَاتَّبَعُوا سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ﴾ [غافر: ٧].

فبرحمته يهدي عباده إلى سبيل السعادة، وبرحمته يغفر للمسيئين، وبرحمته يُدخل المؤمنين الجنة، وبرحمته يجيب المضطر إذا دعاه، وقد كتب الله على نفسه الرحمة، ووصف نفسه بأنه أرحم الراحمين، وخير الراحمين، وأنه سبحانه ذو رحمة واسعة، وأن رحمته وسعت كل شيء .

في الصحيحين وغيرهما عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إِنَّ لِلَّهِ مِثْرَةَ رَحْمَةٍ، أَنْزَلَ مِنْهَا رَحْمَةً وَاحِدَةً بَيْنَ الْجَنِّ وَالْإِنْسِ وَالْبَهَائِمِ وَالْهَوَامِ، فِيهَا يَتَعَاطَفُونَ، وَبِهَا يَتَرَاحَمُونَ، وَبِهَا تَعَطَّفُ الْوَحُوشُ عَلَى وَلَدِهَا، وَأَخَّرَ اللَّهُ تَسْعًا وَتِسْعِينَ رَحْمَةً، يَرْحَمُ بِهَا عِبَادَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ حَتَّى تَرْفَعَ الدَّابَّةُ حَافِرُهَا عَنْ وَلَدِهَا خَشْيَةً أَنْ تَصِيبَهُ»^(١).

(١) لفظ مسلم برقم (٢٧٥٢) وانظر: «صحيح البخاري» برقم (٦٠٠٠، ٦٤٦٩).

وفي رواية البخاري: «جعل الله الرحمة مئة جزء، فأمسك عنده تسعة وتسعين، وأنزل في الأرض جزءًا واحدًا، فمن ذلك الجزء يتراحم الخلائق، حتى ترفع الدابة حافرها عن ولدها خشية أن تصيبه»^(١).

وفي الصحيحين وغيرهما عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال: قدم على النبي ﷺ سبي، فإذا امرأة من السبي قد تحلب ثديها، تسعى، إذا وجدت صبيًا في السبي أخذته فألصقته ببطنها وأرضعته، فقال لنا النبي ﷺ: «أترون هذه المرأة طارحة ولدها في النار، وهي تقدر أن تطرحه؟ قلنا: لا، فقال: الله أرحم بعباده من هذه بولدها»^(٢).

فرحمة الله تعالى وسعت كل شيء، ولكن رحمته تعالى مقرونة بحكمته، وقد كتبها سبحانه للذين يتقون ويؤتون الزكاة، ويؤمنون بآيات الله جل وعلا، ويتبعون الرسول النبي الأمي: ﴿قَالَ عَذَابِي أُصِيبُ بِهِ مَنْ أَشَاءُ وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالَّذِينَ هُمْ بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ﴾ [الذين يتبعون الرسول النبي الأمي] [الأعراف: ١٥٦، ١٥٧].

ومن رحمة الله تعالى بعباده أن رحمته سبقت غضبه، وأن من تقرب إلى الله شبرًا تقرب منه ذراعًا، ومن تقرب منه ذراعًا تقرب منه باعًا، ومن أتى ربه يمشي أتاه هرولة. ومن لقي ربه بقراب الأرض خطايا وهو لا يشرك به شيئًا لقيه بقرابها مغفرة.



(١) «اللؤلؤ والمرجان فيما اتفق عليه الشيخان» حديث رقم (١٧٥١) وهو في البخاري برقم (٦٠٠٠) ومسلم برقم (٢٧٥٢).

(٢) «اللؤلؤ والمرجان» حديث رقم (١٧٥٠) وهو في البخاري (٥٩٩٩) وفي مسلم (٢٧٥٤).

المُبْحَثُ التَّاسِعُ: يَوْمُ الدِّينِ ﴿مَلِكِ يَوْمِ الدِّينِ﴾

كلمة «مالك» مأخوذة من «المَلِك» بكسر الميم، أو من «المُلْك» بضم الميم، وبضمها أحصر؛ لأن «المَلِك» بكسر اللام يكون نافذ الأمر في ملكه، وهي تدل على ذات وصفه...؛ حيث لا يوجد «مَلِك» بكسر اللام بدون «مُلْك» بضم الميم.

أما «المُلْك» بضم الميم، فهو يدل على الصفة والعرض، ولا يدل على الذات و«مالك» اسم فاعل تدل على الذات والصفة، أي: تدل على وجود «مُلْك» بضم الميم، وتدل على وجود «مَلِك» بكسر اللام، يملك هذا المُلْك.

والمَلِك في الحقيقة هو الله تعالى؛ إذ لا مالك إلا هو، وإطلاق «مَلِك» على غير الله تعالى إنما هو على سبيل المجاز.

فالمالك هو من اتصف بصفة الملك، ومن آثارها أنه يأمر وينهي، ويثيب ويعاقب، ويتصرف في ملكه كما يشاء.

وقد أفاد القرطبي: أن «مَلِك» بكسر الميم صفة ذاتية لله تعالى، وأن «مالك» اسم فاعل، وهي صفة فعلة سبحانه، وبضم الميم جاءت آيات كثيرة في القرآن الكريم، منها قوله تعالى:

١- ﴿يَوْمَ هُمْ بَرْزُورٌ لَا يَخْفَىٰ عَلَى اللَّهِ مِنْهُمْ شَيْءٌ لِّمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ﴾ [غافر: ١٦].

٢- وقوله: ﴿وَيَوْمَ تَشْقُقُ السَّمَاءُ بِالْغَمِّ وَتُزَلُّ الْمَلَائِكَةُ تَنْزِيلًا ۝١٥ الْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ لِلرَّحْمَنِ وَكَانَ يَوْمًا عَلَى الْكَافِرِينَ عَسِيرًا﴾ [الفرقان: ٢٥، ٢٦].

٣- وقوله أيضًا: ﴿وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ وَيَوْمَ يَقُولُ كُنْ فَيَكُونُ قَوْلُهُ الْحَقُّ وَلَهُ الْمُلْكُ يَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ عَلَيْكَ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةُ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ﴾ [الأنعام: ٧٣].

وكلها تشير إلى صفة المُلْك، وصاحب الذات الذي يملك هذا الملك يشار إليه في الآية الأولى بقوله تعالى: ﴿لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ﴾ وفي الثانية بقوله: ﴿لِلرَّحْمَنِ﴾ وفي الثالثة: بضمير الإشارة في ﴿وَلَهُ الْمُلْكُ﴾.

١- وفي الصحيحين وغيرهما عن أبي هريرة مرفوعاً: «أُخِنِعَ الْأَسْمَاءُ عِنْدَ اللَّهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ: رَجُلٌ تَسَمَّى بِمَلِكِ الْأَمْلاكِ (أي: ملك الملوك) لَا مَالِكَ إِلَّا اللَّهُ، وَلَهُ الْمُلْكُ»^(١).

وفيه إشارة إلى عدم جواز التسمية بـ«ملك الملوك» أو بمعناها «شاه شاه» إذ إن هذا من خصائص الله تعالى وحده، ولا يطلق على غيره سبحانه.

٢- وعن ابن أنيس أن رسول الله ﷺ قال: «يَحْشُرُ اللَّهُ الْعِبَادَ، فَيَنَادِيهِمْ بِصَوْتٍ يَسْمَعُهُ مَنْ بَعْدَ كَمَا يَسْمَعُهُ مَنْ قُرْبُ: أَنَا الْمَلِكُ أَنَا الدِّيانُ»^(٢).

٣- وعن أبي هريرة ؓ عن النبي ﷺ قال: «يَقْبِضُ اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى الْأَرْضَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، وَيَطْوِي السَّمَاءَ بِيَمِينِهِ، ثُمَّ يَقُولُ: أَنَا الْمَلِكُ، أَيْنَ مَلُوكُ الْأَرْضِ؟»^(٣).

مناسبة الآية لما قبلها: لما وصف الله تعالى نفسه بالرحمة العامة والخاصة، وأدى ذلك إلى تغليب جانب الرجاء عند العباد أتبعه ببيان أنه سبحانه هو المالك ليوم الفصل والجزاء، وأن رحمته السابق ذكرها في الآية قبلها، والعدل يوم الحساب المذكور في هذه الآية قرينان؛ ليكون المرء على وَجَلٍ من عمله، ويدرك أن لعمله يوماً تظهر له فيه ثمرته من خير أو شر، فيجمع بذلك بين الرغبة والرغبة، والخوف والرجاء، حتى لا يغتر أحد في رحمة الله تعالى وشفقته، فيأمن مكر الله ﷻ، وَيُهْمِلُ الْعَمَلَ لَذَلِكَ الْيَوْمِ، وحتى يعلم أنه محاسب على ما كسبت يده، وأن الدنيا مزرعة للآخرة، وعليه أن يتزود فيها بالعمل الصالح، ويحسن اختيار الزاد ليوم المعاد.

وهذه الآية: ﴿مَلِكِ يَوْمِ الدِّينِ﴾ تتحدث عن الدار الآخرة عقب الآيتين: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ ﴿الْخَيْرِ النَّاصِرِ﴾ وهما يتحدثان غالباً عن الحياة الدنيا، وكلا الحياتين متصل، والموت بينهما فاصل برزخي حتى يتكامل فناء العالم، والحياة الأولى هي دار

(١) أخرجه الشيخان وأبو داود والترمذي، «صحيح الجامع الصغير» ج ١ حديث رقم (٢٣٥) وهو في البخاري (٦٢٠٥، ٦٢٠٦) ومسلم (٢١٤٣) وفي «صحيح سنن الترمذي» (٢٢٨٣) وفي «صحيح سنن أبي داود» (٤١٥٠).

(٢) أخرجه البخاري في كتاب التوحيد عن جابر بن عبد الله عن ابن أنيس قبل الحديث رقم (٧٤٨١) ك (٩٧) ب (٣٢).

(٣) أخرجه البخاري برقم (٤٨١٢، ٦٥١٩، ٧٣٨٢) ومسلم (٢٧٨٧).

العمل، والحياة الآخرة هي دار الجزاء والخلود، ولا بُدَّ أن يكون الجزاء من جنس العمل، فمن وجد خيرًا فليحمد الله تعالى، ومن وجد غير ذلك فلا يلومنَّ إلا نفسه.

وَالْخُلُقُ في يوم القيامة أحوج ما يكونون إلى رحمة الله تعالى في ذلك اليوم المجموع له الناس، وذلك اليوم المشهود.

ولهذا: جاءت هذه الآية ﴿مَلِكِ يَوْمِ الدِّينِ﴾ بعد الآية قبلها ﴿الْزَّيْنِ﴾.

ولم يرد لفظ ﴿الْزَّيْنِ﴾ في القرآن الكريم إلا مصاحبًا للمواقف العصية، كقوله تعالى: ﴿الْمَلِكُ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ لِلرَّحْمَنِ وَكَانَ يَوْمًا عَلَى الْكَافِرِينَ عَسِيرًا﴾ [الفرقان: ٢٦].

مناسبة الآية لما بعدها: ولعل في تقديم ﴿يَوْمِ الدِّينِ﴾ وهو الجانب الأخروي، على العبادة لله تعالى والاستعانة به في الدنيا الواردتين في ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ يفيد أن جانب الدين مقدم على جانب الدنيا.

لماذا خص يوم الدين بالذكر؟

ويوم الدين: هو يوم الحساب والجزاء على الأعمال، اليوم الذي يدان فيه الناس بأعمالهم خيرها وشرها، وفي ذلك اليوم يظهر للخلق تمام الملك، وكمال العدل، الذي يعلو كل شيء، فيغفر لمن يشاء، ويعذب من يشاء؛ لأنه سبحانه صاحب السلطان المطلق بقوته غير المحدودة.

وتظهر الحكمة في تخصيص يوم الدين بالذكر، في قوله تعالى: ﴿يَوْمَ لَا تَمْلِكُ نَفْسٌ لِنَفْسٍ شَيْئًا وَالْأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِلَّهِ﴾ [الانفطار: ١٩].

حيث تنقطع أملاك الخلائق كلهم، فيستوي الملوك والرعايا، والأغنياء والفقراء، الكل خاضع خاشع لله تعالى ينتظر الحساب والجزاء ﴿وَخَشَعَتِ الْأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَنِ فَلَا تَسْمَعُ إِلَّا هَمْسًا﴾ [طه: ١٠٨].

وقد خص يوم الدين بالملك حيث لا يدعى فيه أحد مُلْكًا، ولا يتكلم أحد إلا بإذنه ﴿يَوْمَ يَقُومُ الرُّوحُ وَالْمَلَائِكَةُ صَفًّا لَا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ وَقَالَ صَوَابًا﴾ [النبا: ٣٨] وإلا فهو سبحانه رب العالمين، مالك للدين والدنيا؛ لأن من ملك الآخرة فهو مالك للدنيا من

باب أولى، وهو سبحانه مالك الأزمنة والأمكنة جميعاً، وَخَصَّ التَّنْبِيهَ عَلَى يَوْمِ الدِّينِ لما فيه من الأمور العظام والأهوال الجسام، والناس في أيامنا لا يكادون يذكرون الحياة الآخرة، فقد طغت عليهم الحضارة المادية؛ فأنستهم لقاء الله.

وفي الأثر: «الكَيْسُ من دان نفسه وعمل لما بعد الموت»^(١).

(ومعنى دان نفسه أي: حاسبها).

ويوم القيامة هو أهم قضايا المؤمن التي يجب أن يهتم بها ويحاسب نفسه عليها، ويعمل في الدنيا من أجلها؛ إذ يترتب عليها السعادة الأبدية، أو الشقاء الأبدي، والعياذ بالله تعالى.

والمَلِكُ الحق تام المُلْك، له دار عذاب هي النار، يُعَذَّبُ بها من يشاء، ممن هم من أهلها، وعملوا لها في الدنيا، وله دار نعيم، أعدها لمن عمل لها في الدنيا.

وإذا قرأ العبد: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾^(٢) الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ يُقِفُ هُنِيهَةً عِنْدَ نَهَايَةِ كُلِّ آيَةٍ مِنْهَا، ينتظر جواب الله تعالى له ورده عليه وهو يقول سبحانه: «حمدني عبدي» «أثنى عليَّ عبدي» «مجدني عبدي» وعينه تَقَرُّ بمناجاته لربه، وذُكِرَ العبد أصول أسماء الله الحسنى، وصفاته العليا (الله، الرحمن، الرحيم) يجعله يطير فرحاً وسروراً بإجابة الله تعالى له.

المَبْحَثُ العَاشِرُ: الْعِبَادَةُ وَالِاسْتِعَانَةُ ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾

أولاً: العبادة ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾

١- نَقُلُ الكلام من أسلوب الغيبة في ﴿مَلِكٍ يَوْمَ الدِّينِ﴾ إلى أسلوب الخطاب في ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ من أساليب البلاغة؛ لما فيه من الالتفات، وتنوع العبارة، وتفنن القول، وفي هذا تنشيط للسامع، وإيقاظ له، وتحريك همته للاستماع.

وهذا الأسلوب مناسب بعد الثناء على الله تعالى، كأن العبد بعد أن أثنى على ربه أقبل

(١) أخرجه أحمد برقم (١٧١٢٣) بإسناد ضعيف، كما قال محققوا المسند، لضعف أبي بكر بن أبي مريم، وبقية رجال الإسناد ثقات عن شداد، وأخرجه الترمذي (٢٤٥٩) وابن ماجه (٤٢٦٠) والحاكم (٥٧/١) وغيرهم عن شداد بن أوس، وانظر: «ضعيف الجامع الصغير» برقم (٤٣١٠).

عليه، فاقترَب منه سبحانه، وحضر بين يديه، وخاطبه بقوله: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾.

٢- وقَدِّم المفعول وهو ﴿إِيَّاكَ﴾ على الفعل وهو ﴿نَعْبُدُ﴾ لإفادة التعظيم والاهتمام، وقَصِّر العبادة على الله ﷻ، واختصاصها به جل شأنه دون سواه.

٣- والتعبير بالنون في ﴿نَعْبُدُ﴾ بدل الهمزة في «أعبد» للإشعار بأن المسلم يناجي ربه باسم الجماعة التي انتظم بين يدي ربه في صفوفها، فهو لا يعبد الله تعالى بمفرده، ولا يناجيه ويدعوه منفردًا، وإنما يعبد ربه ويناجيه ويدعوه مع إخوانه المسلمين أن يحقق لهم خيرى الدنيا والآخرة، وهو وإن صلى منفردًا إلا أنه مع إخوانه المسلمين بمشاعره وأحاسيسه وعقله وقلبه، مما يُفهم منه قيمة الجماعة وأهميتها في الإسلام، والعمل على تقويتها، ودعم الروابط والأخوة الإسلامية، والوحدة الإيمانية، والتعاون على البر والتقوى، وأنهم جميعًا كالجسد الواحد، والبنيان المرصوص.

ومن هنا فضِّلَت صلاة الجماعة على صلاة الفرد بسبع أو بخمس وعشرين درجة، فضلًا عما يتبع ذلك من أنه وهو في طريقه إلى المسجد كلما رفع قدمًا ووضع قدمًا رُفِعَتْ له درجة، وحُطَّت عنه خطيئة، ويتجلى هذا المظهر في صلاة الجمعة والعيدين ويبلغ قِمَّتَه في وقفة عرفات.

٤- تعريف العبادة: والعبادة في اللغة لها ثلاثة معانٍ:

(أ) العبادة. (ب) الطاعة والتسليم. (ج) الخضوع والعبودية.

وكلها مرادة من العبد، فهو يعبد الله تعالى ويطيعه ويخضع له، ويُسَلِّم وجهه إليه.

والعبادة شرعًا: اسم جامع لكل ما يحبه الله ويرضاه من الأقوال والأعمال الظاهرة والباطنة.

٥- العبد: والعبد هو الإنسان، حرًّا كان أم رقيقًا، ذكرًا كان أم أنثى؛ لأن الجميع مريبوب لله تعالى.

٦- العبادة والعبودية: والعبادة أبلغ من العبودية؛ لأن العبادة غاية التذلل والخضوع والحبِّ للمعبود، والعبودية: تمام الانقياد والطاعة لله تعالى.

فالعبادة تعني: غاية الذل والخضوع لله تعالى مع المحبة والتفاني والإخلاص للمعبود

سبحانه، وهي الغاية والهدف الذي خُلق الإنسان من أجله، قال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات: ٥٦] وهي نوع من شكر الخالق سبحانه على نعمه التي لا تُعدُّ ولا تُحصى.

قال تعالى: ﴿بَلِ اللَّهَ فَاعْبُدْ وَكُنْ مِنَ الشَّاكِرِينَ﴾ [الزمر: ٦٦] فقرن العبادة بالشكر، وكان النبي ﷺ يصلي حتى تتفطر قدماه، ولما سئل عن السبب، مع أن الله تعالى قد غفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر قال: «أفلا أكون عبدًا شكورًا»^(١).

وقُدمت العبادة على الاستعانة من باب تقديم العام على الخاص، ولأن العبد يحتاج في جميع عبادته إلى الاستعانة بالله، فإن لم يُعنه الله لم يحصل له ما يريد من فعل الأوامر وترك النواهي.

والعبادة مطلوبة من العبد حتى يوافيه الأجل ﴿وَأَعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّى يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ﴾ [الحجر: ٩٩] واليقين هو الموت، والعبادة أعلى مراتب الدين، وأرقى درجات الطاعة حين تكون على أكمل وجه وأحسن صورة، جاء في الحديث عن معنى الإحسان: «أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك»^(٢) ولا بد فيها من الإخلاص الخالي من الرياء ومن الشرك، وأن تكون موافقة لهدي النبي ﷺ كي تكون سبيلًا إلى النجاة.

والعبودية هي أشرف ما ينتسب به العبد إلى ربه، وأعظم ما يتقرب به إلى الله تعالى.

ولأمر ما: كان وصفُ النبي ﷺ بالعبودية، وشرفُ الإضافة والانتساب إليه سبحانه، وقد تحقق هذا الوصف للنبي ﷺ بعد شق صدره وصفاء روحه، وإعداداه للالتقاء بالملائكة الكرام، وإخوانه من الرسل والأنبياء عليهم السلام، وفرضية الصلاة عليه وعلى أمته، وكان ذلك في ليلة الإسراء: ﴿سُبْحَنَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَا الَّذِي بَنَيْنَا لَهُ دِينَارًا لِّلْزَيْتِ مَنْ ءَايَنَّا إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ [الإسراء: ١] وحين عُرجَ به ﷺ إلى السموات العلا: ﴿فَأَوْحَىٰ إِلَىٰ عَبْدِهِ مَا أَوْحَىٰ﴾ [النجم: ١٠].

(١) من حديث المغيرة بن شعبة في البخاري (١١٣٠) ومسلم (٢٨١٩) والترمذي (٤١٢) وابن ماجه (١٤١٩) و«سنن النسائي الكبرى» (١٣٢٧) و«المسند» (١٨٩٨) وابن ماجه (٣١١).

(٢) من حديث الإسلام والإيمان والإحسان عن عمر ؓ في «صحيح مسلم» (٨) والبخاري (٥٠) عن أبي هريرة.

وجاء الوصف بالعبودية للنبي ﷺ في تشريفه بالرسالة، وهي أشرف الفضائل وأعلى المنازل ﴿تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا﴾ [الفرقان: ١].

﴿وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا﴾ [البقرة: ٢٣].

وهي أشرف وصف للأنبياء والمرسلين: ﴿وَاذْكُرْ عَبْدَنَا إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ﴾ [ص: ٤٥].

وأشرف وصف للأبرار من عباد الله: ﴿وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا﴾ [الفرقان: ٦٣].

٧- شمول العبادة: وأُطلِقت العبادة لتشمل كل عبادة؛ كالصلاة والزكاة والصيام والحج والنذر والدعاء والاستعانة والاستغاثة والمحبة... إلخ.

والتعبد المطلق هو شغل كل وقت بما يناسبه من طاعة.

فإن رأى المجاهدين فهو معهم، وإن رأى الذاكرين فهو معهم، وإن رأى المتصدقين فهو معهم، وإن رأى المحسنين فهو معهم، وإن رأى الضيف قام بواجبه، وإن رأى الملهوف أغاثه، وإن كان مع الزوجة والأولاد أحسن معاملتهم، وإن رأى الجاهل أقبل على تعليمه، وإن سمع الأذان أظهر الاستجابة والتلبية، وعند تلاوة القرآن يُقبل بتدبر وخشوع، وإن وجد متخاصمين أسرع إلى الصلح بينهما، وإن قصده صاحب حاجة أو شفاعنة حسنة لدى مسؤول انبرى لقضائها، فهو دائماً مسارعٌ في سبيل الله، خادماً لعباد الله.

والنية تفرق العادة من العبادة في الأكل والشرب والنوم والعمل وإتيان الرجل أهله، وغير ذلك من سائر الأقوال والأفعال، فإذا أكلت لإشباع بطنك فهو عادة، وإذا أكلت بنية التقوى على طاعة الله وعلى أداء العمل المشروع فهو عبادة، وهكذا سائر الأمور.

٨- نوعا العبادة:

(أ) عبودية عامة لأهل السموات والأرض جميعاً: وهى عبودية لا خيار للعبد في تركها، كما قال تعالى: ﴿إِنْ كُلُّ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا آتَى الرَّحْمَنِ عَبْدًا﴾ [مريم: ٩٣].

فجميع الكائنات تُسَبِّح بحمد الله: ﴿تُسَبِّحُ لَهُ السَّمَوَاتُ السَّبْعُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِنْ لَا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا﴾ [الإسراء: ٤٤].

وجميع الكائنات تسجد وتصلي لله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَسْجُدُ لَهُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ وَالْجِبَالُ وَالشَّجَرُ وَالدَّوَابُّ وَكَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ الْعَذَابُ﴾ [الحج: ١٨].

وهذه العبادة تقع من جميع الخلائق دون تسويف ولا عصيان ولا مخالفة، عدا الإنس والجن، فبعضهم يؤمن وبعضهم يكفر.

وهذه العبادة هي مقتضى أداء الأمانة التي عرضها الله على السماوات والأرض والجبال، فأبين أن يحملنها، وأشفقن منها، وعدم حمل الكائنات للأمانة، معناه أداؤها فوراً دون تأخير ولا تأجيل، كما هو شأن الإنسان الذي قبل ذلك.

(ب) وعبودية خاصة بالإنسان:

وهي عبادة المطيعين لربهم، المحبين له عن طوعية واختيار، وهو مقتضى حمل الأمانة والقيام بها، ولأن من الناس من يعصي الله ويخالف الغرض الذي خلق من أجله، فقد استثنى الله سبحانه من جميع الكائنات (الإنسان) وفي حكمه (الجن) فقال سبحانه: ﴿وَكَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ﴾ أي: لا يسجد ولا يطيع ثم قال: ﴿وَكَثِيرٌ﴾ أي من الناس ﴿حَقَّ عَلَيْهِ الْعَذَابُ﴾، أما سائر الكائنات فإنها تطيع بلا استثناء ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُسَبِّحُ لَهُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْطَّيْرِ صَفَّاتٍ كُلُّ قَدْ عَلِمَ صَلَاتَهُ وَتَسْبِيحَهُ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ﴾ [النور: ٤١].

ومن قام بواجب الطاعة فهو المحب المتبع لله والرسول، ومن زعم أنه وصل إلى مقام يسقط عنه فيه العبادة فهو كافر زنديق؛ كمن يدعي أن الصلاة تسقط عنه لأمرٍ ما؛ كادعاء نسب، أو منزلة عالية، أو أنه يصلي في الحرم وهو في بلده، يلبس على الناس دينهم، أو أنه ليس بحاجة إلى التكليف الشرعية؛ لأنه منتبه عن الفحشاء والمنكر، أو لأنه من نسل الرسول ﷺ، أو من سلالة فلان أو علان، أو أن الله تعالى أسقط صلاة الجماعة عن ذرية فاطمة رضي الله عنها، أو غير ذلك.

٩- تحقيق العبودية: ولا تتحقق العبادة إلا بأصلين عظيمين:

أحدهما: إخلاص العبادة لله تعالى دون شرك ولا رياء.

ثانيهما: متابعة الرسول ﷺ وعدم الابتداع في الدين.

قال تعالى: ﴿مَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا﴾ [الكهف: ١١٠].

والعمل الصالح هو الذي لا يشوبه شرك ولا بدعة، بأن يكون عملاً خالصاً لوجه الله تعالى، صواباً موافقاً لهدي محمد ﷺ.

والناس -بحسب هذين الأصلين- منقسمون إلى أربعة أقسام:

الأول: المخلص في عبادته، المتبع لما جاء به محمد ﷺ، وهم أهل الإخلاص والمتابعة.

الثاني: مَنْ لا إخلاص عنده ولا متابعة، فعمله ليس خالصاً لله تعالى ولا موافقاً للشرع.

الثالث: مَنْ هو مخلص لله تعالى في عبادته، ولكن على غير متابعة للرسول ﷺ عن جهل منه أو عمد.

الرابع: مَنْ كانت أعماله على المتابعة، لكنها لغير الله تعالى، كطاعة المرائين.

ولا تصح العبادة إلا إذا كانت خالصة لله تعالى، موافقة لهدي محمد ﷺ، ولا سبيل إلى النجاة إلا بذلك.

١٠- عبادة القلب واللسان والجوارح

وتكون العبادة بقول اللسان، واعتقاد القلب، وعمل الجوارح.

فالعبادة تنتظم الجسم والروح والعقل والقلب، وهي اسم جامع لهذه المراتب الأربع:

١- **عبادة القلب**: اعتقاد ما أخبر الله به عن نفسه على لسان رسله، وعن أسمائه وصفاته وأفعاله، وملائكته، ولقائه، وجنته وناره.

٢- **وعمل القلب**: كمحبته لله تعالى، والتوكل عليه، والإنابة إليه، والخوف منه، والرجاء فيه، والإخلاص له، والرضى بقضائه وقدره... إلخ.

٣- **وقول اللسان**: تبليغ أوامر الله سبحانه، والقيام بذكره، والدعوة إليه، وبيان الحق وبطلان البدع، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر... إلخ.

٤- **وأعمال الجوارح**: كالصلاة، والجهاد، وأنواع الذكر؛ كالسجود والتكبير والتهليل، ومساعدة العاجز، وكثرة الخطى إلى المساجد، وإصلاح ذات البين... إلخ.

والأعمال الصادرة من القلب واللسان والجوارح إما أن تكون واجبة، أو محرمة، أو مستحبة، أو مكروهة، وإليك الأمثلة:

١- واجب القلب: كالإخلاص والمحبة، والتوكل.

ومحرمات القلب: كالعُجب والرياء والكبر.

٢- واجب اللسان: كالنطق بالشهادتين، ورد السلام، وتلاوة ما يلزم من القرآن.

والمستحب: كالذكر، ومطلق التلاوة. والمكروه: كالكلام بما لا فائدة فيه.

والحرام: كالغيبة والنميمة والكذب والبهتان والسب والفحش.

وعبودية الجوارح مقسمة على الحواس الخمس:

كوجوب الإنصات لخطبة الجمعة، وتلاوة القرآن عند قصد السماع... وتحريم سماع الكفر والبدعة والمعازف... واستحباب سماع العلم... وتحريم النظر بشهوة إلى الأجنيات... واستحباب النظر في كتب العلم... وكراهية فضول النظر... وذوق الطعام واجب عند الاضطرار، وحرام إن كان مسكرًا، ومكروه إن كان مشتبهاً فيه. وكذلك الشم واللمس... إلخ.

قال تعالى: ﴿إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا﴾ [الإسراء: ٣٦].

١١- السعادة في العبادة:

والعبادة الحقّة تُترجم إلى أعمال صالحة يؤديها القلب واللسان والجوارح، وهي تحقق للعبد السعادة في الدنيا والآخرة، قال تعالى: ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهٗ حَيٰوةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [النحل: ٩٧].

وهذه العبادة الصحيحة من شأنها أنها ترفع أسباب الشقاء التي تعاني منها الإنسانية اليوم، ومن أهمها:

اتخاذ الهوى والشیطان معبودين من دون الله باتباع إشارته، وتنفيذ مطلوبه، والافتتان بمظاهر الحياة، وتقليد المجتمع في الصغيرة والكبيرة من فتنه الشهادات الدراسية،

والمناصب الرفيعة، وتحصيل الأموال، والمساكن الفاخرة، والفرش الوثيرة، ونظر النساء إلى غيرهن في الذهب والفضة والضرورات والكماليات.

ولا بأس بكل ذلك إن صحبه الخلق والدين وجاء من حله، ولم يكن سبباً للتطاول على الآخرين، وكان في مقدور الإنسان، أما أن يستدين الناس ويتحملوا ما لا يطيقون، أو تمتد أيديهم إلى الحرام في سبيل المظاهر الخادعة، ومواكبة المجتمع، وتقليد الناس، فسبب ذلك هو الفراغ الديني.

لقد أصبح الناس يُقاسون بما يركبون من سيارات ونحوها، وما يسكنون من قصور وغيرها، وما يُخدمون من خدم وحشم، وما يلبسون من ثياب، وهكذا، فترتفع النظرة إليهم بارتفاع القيمة المادية، وتنخفض بانخفاضها، وينصرف الناس عن المقياس الحقيقي مقياس الدين والخلق والتقوى والعمل الصالح، وهو ميزان التفاضل عند رب العالمين، قال تعالى: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاهُ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَيْرٌ﴾ [الحجرات: ١٣] ولقد عرف السلف هذه الحقيقة، ولم تفتنهم مظاهر الحياة، فكانت لهم شخصيتهم المستقلة، فسادوا في الدنيا، وسعدوا في الآخرة.

ثانياً: الاستعانة ﴿وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾

والاستعانة هي الاعتماد على الله تعالى في جلب المنافع ودفع المضار، ففيها طلب المعونة من الله تعالى؛ لدفع العجز، وللمساعدة على ما يَعجز المستعين عن أدائه، وفيها اعتراف بتقصير العبد حال وقوفه بين يدي الله تبارك وتعالى، وطلبه منه سبحانه الاستعانة والهداية.

فكأن العبد يقول: نحن نشد عونك يا رب، ونطلب مساعدتك، ونتوجه إليك، ونسألك قضاء حاجاتنا وأداء متطلباتنا، وفي ذلك عهد بين العبد وربّه ألا يستعين إلا به سبحانه، وفيه تبرؤ من الحول والطول والقوة، وفيه تفويض الأمر لله تعالى، كما قال تعالى: ﴿فَاعْبُدْهُ وَوَكَّلْ عَلَيْهِ﴾ [هود: ١٢٣] أي: استعن به واعتمد عليه سبحانه.

وقد جمعت هذه الآية بين العبادة والاستعانة، وهي الوسيلة للقيام بعبادته جل شأنه، فإياك نستعين على طاعتك وعلى أمورنا كلها، وفي ذلك طلب العون من الله تعالى، فإن مما يدعو به المسلم عقب الصلاة كما جاء في حديث معاذ ؓ: «اللهم أعني على ذكرك

وشكرك وحسن عبادتك»^(١).

والاستعانة هي الوسيلة التي يتم بها الحصول على خيري الدنيا والآخرة، وأطلقت الاستعانة لتشمل كل استعانة مشروعة؛ كالاكتفاء على الله تعالى، والتوكل عليه، والدعاء والرجاء، وطلب المدد، وقضاء الحاجات.

وطلب الاستعانة لا يقتصر على التوفيق في العبادة، بل يشملها ويشمل غيرها، وكل ذلك مختص بالله تعالى.

والاستعانة نوعان:

١- نوع خاص بالله تعالى: لا يُطلب إلا منه ﷻ، ولا يُقصد غيره فيه، ويكون ذلك في الأمور التي لا يُقدَّرُ عليها إلا الله سبحانه؛ كالاستعاذة، والمدد، وجلب الخير، ودفع الضر، وإجابة الدعاء، والاستغاثة، وطلب النجاح والشفاء، وطلب الولد والرزق.

ومن استعان بولي أو نبي فيما لا يقدر عليه إلا الله، أو اتخذه واسطة بينه وبين ربه؛ فقد أشرك بالله تعالى.

٢- ونوعٌ هو في مقدور الناس: كالاستعانة بشخص في حمل شيء لا يستطيع حمله، أو الاستعانة به في إنهاء معاملة أو مصلحة مشروعة، أو الاستعانة به في أن يشفع له شفاعة حسنة لدى مسؤول للتوصل إلى حقه، أو لدفع الضرر عنه، كذلك كل ما يعجز عنه الإنسان من أمور الدنيا ويحتاج إلى مساعدة غيره فيه، ويكون ذلك في الأمور التي تدخل في قدرة الإنسان وتصرفه، فهي استعانة جائزة مشروعة.

الأخذ بالأسباب: وكلمة الاستعانة تُشعر بوجوب العمل، والأخذ بالأسباب؛ لأن الاستعانة طلب العون من الله تعالى على أداء عمل أو إتمامه، وذلك في كل ما للإنسان فيه كسب؛ كطلب الشفاء من الله تعالى مع بذل سبب العلاج وأخذ الدواء، وطلب الرزق مع بذل السبب، وطلب النصر على العدو مع مجاهدته وإعداد العدة، وطلب النجاح في

(١) أخرجه أبو داود برقم (١٥٢٢) والنسائي في «الكبرى» (١٢٢٧، ٩٨٥٧) عن معاذ، انظر: «جامع الأصول» حديث رقم (٢٠٩١/٤) وهو في «المسند» (٢٢١١٩، ٢٢١٢٦) بإسناد صحيح ورجال ثقات كما قال محققوه، وابن حبان (٢٠٢٠) و البزار في مسنده (٢٦٦١) وابن خزيمة (٧٥١).

الامتحان من الله تعالى مع الجِد والاجتهاد في تحصيل الدروس، وهكذا.

وكل مَنْ ترك الأخذ بالأسباب يكون قد جانب الصواب، وكل من اعتمد على الله تعالى دون أن يبذل الأسباب فقد أخطأ الاعتقاد، فإن العبد لا يستغني عن العون الإلهي مهما أوتي من قوة وحصافة، ولا بد له من العمل والتوكل، ولا ينفع التوكل بدون عمل، ولا ينفع عمل بدون توكل واستعانة.

وقد اشتملت هذه الآية ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ على توحيد الربوبية والاستعانة به ﷻ، وهي أفضل الوسائل للإعانة على العبادة، والتعبد يكون باسم الله، واسم الرحمن، واسم الرب، والمسلم يعبد الله تعالى بألوهيته، ويستعين بربوبيته.

عن الحسن: أن الله تعالى أنزل مئة وأربعة كتب جمع معانيها في أربعة هن: التوراة، والإنجيل، والقرآن، والزبور، وجمع معانيها في القرآن، وجمع معاني القرآن في الفاتحة، وجمع معاني الفاتحة في: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾^(١).

وإذا قرأ العبد ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾^(٢) أَخْرَجَ الْخَيْرَ النَّجِيًّا لَا مَلِكَ يَوْمَ الدِّينِ ﴿وعند التلفظ بـ ﴿وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ تَعْمُرُهُ السَّكِينَةُ وَالطَّمَأْنِينَةُ؛ لأنه قد توكل على الله، وألقى إليه مقاليد أموره في الدنيا والآخرة؛ ليعينه سبحانه على الوصول إليها.



الْمُبْحَثُ الْحَادِي عَشَرَ: طَلَبُ الْهَدَايَةِ ﴿أَهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾

(أ) الهداية في الآية بمعنى: طلب التوفيق والإرشاد إلى الحق، والدلالة عليه، والثبات على الصراط إلى الممات.

والمعنى: أَلْهِمْنَا يَا رَبَّنَا وَوَفَّقْنَا وَأَرْشِدْنَا وَدُلَّنَا عَلَى طَرِيقِ الْخَيْرِ وَالْهُدَى وَالْفَلَاحِ. وهو الطريق الموصل إلى الله تعالى وإلى جنته بمعرفة الحق والعمل به ولزوم دين الإسلام وترك ما سواه.

(ب) المناسبة: ولما كان الجانب الديني في الاستعانة المذكورة في الآية قبلها هو

(١) «كتاب الصلاة» لابن القيم ص ٢٤٢ وأخرجه البيهقي عن الحسن في «شعب الإيمان» (٢٣٧١).

الأهم، كان طلب المسلم للهداية أهم ما ينبغي على العبد أن يُلحَّ في دعائه لله تعالى بشأنه؛ لأن طلب الهداية من الله تعالى، والاستعانة به سبحانه على تحقيقها، أهم ما يشغل المسلم، وأول أمر يُعنيه هو الحاجة إلى الهداية، والعبد وإن كان من المهتدين إلا أنه محتاج ليل نهار إلى سؤال الهداية من ربه، وتثبيتها عليها، وازدياده منها، واستمراره عليها، وهو مُفْتَقِرٌ في كل ساعة إلى إجابة الدعاء.

ومن هنا فإن المسلم يُرَدُّ طلب الهداية من الله تعالى، وهو يناجيه في صلاته كلها، فريضة أو نافلة، آناء الليل وأطراف النهار وما بين ذلك، عشرات المرات في اليوم الواحد.

قال ابن القيم: ولما كان سؤال الله الهداية إلى الصراط المستقيم، أَجَلَ المطالب لنيل أشرف المواهب، علَّم الله عباده كيفية سؤاله، وأمرهم أن يقدِّموا بين يدي الدعاء حُمدَهُ سبحانه، والثناء عليه، وتمجيده، ثم ذكَّروهم عبوديته وتوحيده، فهاتان وسيلتان إلى مطلوبهم:

١- تَوْشُّلٌ إِلَيْهِ سبحانه بأسمائه وصفاته.

٢- تَوْشُّلٌ إِلَيْهِ بعبوديته والاستعانة به سبحانه.

وهاتان الوسيلتان لا يكاد يُرَدُّ معهما الدعاء.

وقد اشتملت سورة الفاتحة في نصفها الأول على هذين النوعين من التَّوَشُّلِ، ثم كان الدعاء بعدهما في النصف الثاني، بطلب الهداية من الله تعالى، وسلوك طريق الذين أنعم الله عليهم بالاستقامة والسعادة في الدارين.

وقد جَمَعَتْ سورة الفاتحة بين التَّوَشُّلِ بالحمد والثناء، والتَّوَشُّلِ بالتوحيد والعبودية، ثم جاء سؤال أهم المطالب، وهو طلب الهداية بعد هاتين الوسيلتين، فالداعي حينئذ حقيق بالإجابة بمحض فضل الله تعالى عليه.

فنصف سورة الفاتحة الأول يشتمل على نوعي التَّوَشُّلِ المشروع؛ وهما: التَّوَشُّلُ إِلَى الله تعالى بأسمائه وصفاته، والتَّوَشُّلُ إِلَيْهِ سبحانه بالعبادة والعمل الصالح.

وقد جاء النوع الأول في حمد الله تعالى والثناء عليه وتمجيده.

وجاء النوع الثاني في تَوَجُّهِ العبد بعبادته إِلَى الله وحده واستعانت به سبحانه.

وبعد ذلك يكون العبد حَرِيًّا بِإِجَابَةِ الدُّعَاءِ، وقد طلب من ربه أن يهديه إلى أعدل الطرق وأقومها، ويُبعده عن طريق أهل الغضب والضلال، بعد أن قدَّم بين يدي ربه دواعي الإجابة، فيكون جديرًا بالهداية.

١- فالتوسل المشروع يكون بأسماء الله تعالى الحسنی وصفاته العليا، كما قال تعالى: ﴿وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ فَادْعُوهُ بِهَا﴾ [الأعراف: ١٨٠] أي: ادعوا الله تعالى متوسلين إليه بأسمائه الحسنی.

كأن يقول العبد: اللهم إني أسألك برحمتك التي وسعت كل شيء أن ترحمني وتغفر لي، وكما في حديث الرجل الذي سأل ربه الجنة في تشهده بأسمائه الحسنی وصفاته العليا.

وهو حديث أنس رضي الله عنه أن النبي ﷺ سمع رجلاً يقول في تشهده: اللهم إني أسألك بأن لك الحمد، لا إله إلا أنت، المنان، يا بديع السموات والأرض، يا ذا الجلال والإكرام، يا حي يا قيوم، إني أسألك الجنة، وأعوذ بك من النار، فقال ﷺ: «لقد سأل الله باسمه الأعظم الذي إذا دُعي به أجاب، وإذا سُئِلَ به أعطى»^(١).

فهذا توسل إليه سبحانه بأسمائه وصفاته.

٢- ويكون التوسل المشروع أيضاً بالعبادة والعمل الصالح الذي قدَّمه العبد بنفسه، كما في قصة الثلاثة الذين آواهم الغار وانطبقت عليهم الصخرة، فدعا كل منهم ربه بعمل صالح عمله، حيث دعا الأول ربه ببره لوالده، ودعا الثاني بحفظ الأمانة وتنميتها لصاحبها، ودعا الثالث بترك شهوته خوفاً من الله تعالى، بعد أن تمكن من المرأة، وقد بين شعبها الأربع، فرفع الله عنهم الصخرة، والحديث في الصحيحين.

ومن ذلك قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا إِنَّنَا ءَامِنَا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ﴾ [آل عمران: ١٦] وقوله تعالى: ﴿رَبَّنَا إِنَّنَا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِي لِلْإِيمَانِ أَنْ ءَامِنُوا بِرَبِّكُمْ فَءَامَنَّا رَبَّنَا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّئَاتِنَا وَتَوَفَّنَا مَعَ الْأَبْرَارِ﴾ [آل عمران: ١٩٣].

ومن ذلك حديث عبد الله بن بريدة عن أبيه قال: سمع النبي ﷺ رجلاً يدعو ويقول:

(١) رواه أبو داود برقم (١٤٩٥) والنسائي وأحمد في «المسند» برقم (١٢٦١١) قال محققوه: حديث صحيح وإسناد قوي، والبخاري في «الأدب المفرد» (٧٠٥) وابن حبان (٨٩٣) وغيرهم بإسناد صحيح.

اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ أَنِّي أَشْهَدُ أَنَّكَ أَنْتَ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ، الْأَحَدُ الصَّمَدُ، الَّذِي لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ، وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ، فَقَالَ: «لَقَدْ سَأَلْتَ اللَّهَ بِالْإِسْمِ الَّذِي إِذَا سُئِلَ بِهِ أُعْطِيَ، وَإِذَا دُعِيَ بِهِ أَجَابَ»^(١).

فهذا توسل إلى الله تعالى بعمل صالح هو الشهادة والتوحيد.

(ج) والهداية تتعدى بنفسها وبغيرها:

١- والهداية قد تتعدى بنفسها، كما قال تعالى: ﴿وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ﴾ [البلد: ١٠] أي: طريق الخير والشر.

٢- وقد تتعدى الهداية باللام، كما قال تعالى على لسان أهل الجنة: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هَدَانَا لِهَذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْدِيَ لَوْلَا أَنَّ هَدَانَا اللَّهُ﴾ [الأعراف: ٤٣] أي: الحمد لله الذي وفقنا لهذا وجعلنا له أهلاً.

٣- وقد تتعدى الهداية بإلى، كما قال تعالى: ﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ○ صِرَاطِ اللَّهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾ [الشورى: ٥٢، ٥٣].

وقد فرّق بعضهم بين الفعل المتعدي بنفسه؛ فقالوا: معناه الدلالة على الخير، وبين المتعدي بغيره؛ فقالوا: معناه إيصال الخير إلى العبد.

(د) طلب الزيادة من الهداية: والمهتدي يطلب من الله تعالى زيادة الهدى، كما قال سبحانه: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا زَادَهُمْ هُدًى وَآتَاهُمْ تَقْوَاهُمْ﴾ [محمد: ١٧]

وكما قال جل شأنه: ﴿إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ آمَنُوا بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَاهُمْ هُدًى﴾ [الكهف: ١٣].

(هـ) أنواع الهداية؛ الهداية نوعان:

النوع الأول: خلق الهداية وإيجادها في نفس العبد.

وهذه الهداية خاصة بالله تعالى لا يملكها غيره، وعلى هذا المعنى يُحمل مثل:

(١) رواه أحمد (٣٤٩/٥) برقم (٢٢٩٥٢، ٢٢٩٦٥) بإسناد صحيح ورجال ثقات رجال الشيخين، والترمذي (٣٤٧٥) والنسائي في «الكبرى» (٨٠٥٨) وابن حبان (٨٩٢) وأبو داود (١٤٩٣) وغيرهم.

١- قول الله تعالى: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ﴾ [القصص: ٥٦].

٢- وقوله سبحانه: ﴿إِنْ تَحَرَّصَ عَلَى هُدَاهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ يُضِلُّ وَمَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ﴾ [النحل: ٣٧].

٣- وقوله جل شأنه: ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَأَمَنَّ مِنَ فِي الْأَرْضِ كُلَّهُمْ جَمِيعًا أَفَأَنْتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّى يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ﴾ [يونس: ٩٩].

والله تعالى لا يهدي مَنْ سبق في علمه أنه لا يهتدي من أهل الضلال والزيف والظلم، كما قال تعالى: ﴿وَمَا يُضِلُّ بِهِ إِلَّا الْفَاسِقِينَ﴾ [البقرة: ٢٦].

وكما قال سبحانه: ﴿وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ [الصف: ٧] وقال أيضاً: ﴿فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ﴾ [الصف: ٥] ففَسَقُهُمْ وظَلَمَهُمْ وَزَيَّغَهُمْ وكَفَرَهُمْ هو السبب.

النوع الثاني: الهداية بمعنى الدعوة إلى الله تعالى، والدلالة على الخير، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وهذا النوع من الهداية، هو وظيفة الرسل والأنبياء والدعاة والمصلحين، وهي المرادة في قوله تعالى: ﴿أَهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾.

وفي قوله تعالى: ﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ لَا صِرَاطَ لِلَّهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ إِلَّا إِلَى اللَّهِ تَصِيرُ الْأُمُورُ﴾ [الشورى: ٥٢، ٥٣].

(و) ومن الهدايات التي يطلبها العبد من ربه، أن يطلب منه:

١- الهداية بالتوبة عن المعاصي مما أَلَمَّ به من ذنوب وآثام اقترفها وهو على غير هدى.

٢- ويطلب منه أن يهديه؛ بمعنى يُوفقه إلى الثبات والاستمرار على الاستقامة إن كان مهتدياً في حاضره.

٣- ويطلب من الله تعالى أن يهديه في المستقبل كما حصل له من الهداية في الماضي.

٤- ويطلب أن يزيده الله هداية فوق هدايته، وتقوى على تقواه.

٥- ويطلب منه أن يوفقه إلى تمام الهداية في الأمور التي هُدي فيها من وجه دون وجه.

فالمسلم يطلب من ربه أن يهديه في جميع أنواع هذه الهدايا إلى أفضل الأحوال.

أ - وأهل هذه الهداية المختصون بنعمته سبحانه هم مَنْ عرفوا الحق وعملوا به.

ب - دون مَنْ عرفوا الحق ولم يعملوا به، ممن غضب الله عليهم؛ بسبب النكوص بعد الاهتداء.

ج - ودون مَنْ فقدوا طريق الهداية، فعبدوا الله بغير علم، فضَلُّوا وأضلُّوا، ولم يُوقِّفُوا إلى الوصول إليه.

وقد كان النبي ﷺ يطلب من ربه وهو متوجه إليه في صلاته، أن يهديه إلى أعدل الطرق وأقومها، ويعلمنا ذلك، فكان يقول في دعاء استفتاح الصلاة:

١ - «واهدني لأحسن الأخلاق، لا يهدي لأحسنها إلا أنت، واصرف عني سيئها، لا يصرف عني سيئها إلا أنت»^(١).

٢ - وكان عليه الصلاة والسلام أيضاً يستفتح صلاته بطلب الهداية من ربه بقوله:

«اللهم رب جبريل وميكائيل وإسرافيل، فاطر السموات والأرض، عالم الغيب والشهادة، أنت تحكم بين عبادك فيما كانوا فيه يختلفون، اهدني لما اختلف فيه من الحق بإذنك، إنك تهدي من تشاء إلى صراط مستقيم»^(٢).

٣ - وبعد الفراغ من الصلاة كان عليه الصلاة والسلام يحرص أيضاً على طلب الهداية من ربه فيقول: « اللهم إني أسألك رحمة من عندك تهدي بها قلبي، وتجمع بها أمري، وتُلِّمُّ بها شعبي، وتردُّ بها غائبي، وترفع بها شاهدي، وتزكي بها عملي، وتُلْهِمَنِي بها رشدي، وتردُّ بها أُلْفَتِي، وتعصمني من كل سوء » ثم يقول: «اللهم اجعلنا هادين مهتدين، غير ضالين ولا مضلين، سَلَمًا لأوليائك، وحرَبًا على أعدائك، نُحِبُّ بحبك مَنْ أَحَبَّك، ونعادي بعداوتك مَنْ خالفك، اللهم هذا الدعاء وعليك الإجابة، اللهم هذا

(١) من حديث طويل أخرجه مسلم والترمذي وأبو داود والنسائي عن علي بن أبي طالب ؓ، «جامع الأصول» حديث رقم (٢١٨١) (٢٠٦/٤).

(٢) أخرجه مسلم برقم (٧٧٠) عن عائشة، والترمذي (٣٤٢٠) وأبو داود (٧٦٧) والنسائي في «الكبرى» (١٣٢٤) عن عائشة ؓ، ويُنظر: «جامع الأصول» (٢٣٥/٤) حديث رقم (٢٢١٣) وهو في «المسند» (٢٥٢٢٥) وابن حبان (٢٦٠٠).

الجهد وعليك التكلان»^(١).

وإذا كان رسول الله ﷺ هذا حاله في الحرص على طلب الهداية من ربه لا سيما في افتتاح الصلاة وبعد الفراغ منها، وهو النبي المصطفى المختار، فإننا أحوج ما نكون إلى الإكثار من طلب الهداية، والأخذ بأسباب تحصيلها.

(ز) مراتب الهداية: وقد بين ابن القيم^(٢) أن الهداية على عشرة مراتب:

- ١- تكليم الله تعالى يقظةً بلا واسطة، كتكليم موسى ﷺ، وفي ذلك هداية خاصة له.
- ٢- مرتبة الوحي المختصة بالأنبياء، وفيها هدايتهم للاقتداء بهم.
- ٣- مرتبة إرسال الرسل لهداية البشر بعد اجتباؤهم واصطفائهم.
- وهذه المراتب الثلاث، هداية خاصة بالأنبياء؛ بتكليمهم، والوحي إليهم، وإرسالهم.
- ٤- مرتبة التحديث، أي: الإلهام والتوفيق والسداد، وهي هداية من الله تعالى كحديث أبي هريرة ؓ عن رسول الله ﷺ أنه قال: «لقد كان في الأمم قبلكم محدثون، فإن يكن في هذه الأمة، فعمربن الخطاب»^(٣).
- ٥- مرتبة الإفهام، كقوله تعالى: ﴿فَفَهَّمْنَاهَا سُلَيْمَانَ﴾ [الأنبياء: ٧٩] وهي نوع هداية.
- ٦- مرتبة بيان الحق وتمييزه من الباطل، كقوله تعالى: ﴿وَمَا كَاَنَّ اللَّهُ لِيُضِلَّ قَوْمًا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَهُمْ حَتَّىٰ يُبَيِّنَ لَهُمَ مَا يَتَّقُونَ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ [التوبة: ١١٥].
- ٧- مرتبة البيان الخاص المستلزم للهداية الخاصة، كقوله تعالى: ﴿إِنْ تَحَرَّصَ عَلَىٰ هُدَاهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ يُضِلُّ وَمَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ﴾ [النحل: ٣٧].
- ٨- مرتبة الإسماع، كقوله تعالى: ﴿وَلَوْ عَلِمَ اللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَّأَسْمَعَهُمْ﴾ [الأنفال: ٢٣].
- ٩- مرتبة الإلهام، كقوله تعالى: ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا﴾ ﴿فَالْهَمَّهَا هُوَرَهَا وَقَوْلَهَا﴾ [الشمس: ٧، ٨].

(١) من حديث أخرجه الترمذي عن ابن عباس بسند ضعيف، يُنظر: «جامع الأصول» حديث رقم (٢١٨٩) وهو دعاء حسن، ومعناه صحيح.

(٢) من تفسير سورة الفاتحة له بتصريف.

(٣) أخرجه البخاري عن أبي هريرة (٣٤٦٩، ٣٦٨٩) وينظر: «جامع الأصول» حديث رقم (٦٤٣٤) و (٦٤٣٥) (٦٠٩/٨).

١٠- مرتبة الهداية: بالرؤيا الصادقة، وهي جزء من أجزاء النبوة.

(ح) وللهداية طرق أربعة:

١- الإلهام الفطري: وهو يكون مع الطفل حين ولادته، فهو يلتقم ثدي أمه، ويمتصه بإلهام فطري.

٢- حواس الإنسان: السمع والبصر والذوق والشم والحس، وهي تنمو مع الإنسان، ولكنها تخطئ كثيراً.

٣- الإرشاد الإلهي عن طريق الرسالات السماوية والكتب المنزلة.

٤- العقل: وهو مناط التكليف، وبه تدرك الحقائق، وتصحح أخطاء الحواس، وهو مُخْتَلِف في الناس.

وقد لا ينتفع الإنسان بهذه الحواس، فتقصر أو تضعف، ويضل العقل أو ينصرف، وقد يجهل المرء دينه أو يُعرض عنه.

لهذا وغيره، شرع لنا سبحانه أن نسأله الهداية إلى الصراط المستقيم؛ فلا تقصر الحواس، ولا تضعف العقول، ولا تحيد عن الدين الحنيف، وفي هذا الإيجاز منتهى الإعجاز.

فاللهم ثبتنا على الإيمان، ووفقنا لصالح الأعمال، واجعلنا ممن سلك طريق الإسلام الموصل إلى جناتك جنات النعيم.

(ط) الصراط المستقيم هو دعوة الرسل: الصراط المستقيم، هو الطريق الواضح الذي لا عوج فيه، وهو الدين الحق الذي لا يقبل الله من العباد غيره، والقرآن الكريم متضمن لهذا الصراط، وهو عين ما جاء به الإسلام في دعوة الرسل، فهو الطريق الذي نَصَبَهُ الله تعالى لعباده على ألسنة الرسل، وَجَعَلَهُ مَوْضِعًا إِلَيْهِ سبحانه، وهو مضمون الشهادتين.

وقد وصف الله تعالى الصراط، بأنه مستقيم، ثم وَضَّحَ وَبَيَّنَّ هذا الصراط، بأنه صراط الذين أنعم الله عليهم، ويُنسب الصراط إلى الله تعالى؛ لأنه شَرَعَهُ وَنَصَبَهُ، ويضاف إلى العباد؛ لأنهم أهل سلوكه.

(ي) صراط الدنيا وصراط الآخرة: وَمَنْ هُدِيَ إِلَى الصِّراطِ الْمُسْتَقِيمِ فِي الدُّنْيَا، هُدِيَ إِلَى الصِّراطِ الْمَوْصِلِ إِلَى الْجَنَّةِ، وعلى قدر استقامة العبد على الصراط في الدنيا، على

قدر ثبوت قدمه على الصراط الحسي، وهو الجسر المنصوب على متن جهنم يوم القيامة، فعلى قدر سير العبد على الصراط في الدنيا يكون سيره على ذاك الصراط في الآخرة. والهداية إلى الصراط الأخروي وطلب الثبات عليه، والنجاة منه، هداية خاصة بالطريق إلى الجنة يوم القيامة، فهي نوع من الهداية بالمؤمنين، وهو داخل ضمن مراد الآية.

(ك) **المرور على الصراط:** ويوم القيامة ينصب الصراط على متن جهنم فتختلف أحوال الناس وهم يمرون عليه، فالمؤمنون يسعى نورهم بين أيديهم وبأيمانهم، والكافرون يكونون في ظلمات لا يبصرون، والمنافقون يكونون في بصيص من نور، ثم يسلب منهم فيتخبطون. وهكذا فإن الناس في المرور على الصراط يوم القيامة أصناف:

فمنهم من يمر عليه كالبرق الخاطف، ومنهم من يمر كالريح المرسلة، ومنهم من يمر كالفرس الجواد، ومنهم من يمر كركاب الإبل، ومنهم من يعدو عدواً، ومنهم من يمشى مشياً، ومنهم من يزحف زحفاً، ومنهم من يُخطفُ خطفاً ويُلقى في جهنم ﴿ثُمَّ نَجَّى الَّذِينَ اتَّقَوْا وَنَذَرُ الظَّالِمِينَ فِيهَا جِثَا﴾ [مريم: ٧٢].

(ل) **العوائق:** فلينظر العبد في الصوارف والشواغل والعوائق، التي تعوقه عن السير على الصراط يوم القيامة، من الشهوات والشبهات وهو في الدنيا؛ فإن الكلاليب التي بجني الصراط على متن جهنم تخطفه وتعوقه عن المرور عليه يوم القيامة، فإن قويت هذه الشهوات وكثرت في الدنيا، فإن الأمر يكون كذلك هناك.

وعلى قدر سير العبد على طريق الهدى في الدنيا، فإنه سيكون كذلك في الآخرة حدو القدة بالقدة، جزاءً وفاقاً، وقد ضرب النبي ﷺ المثل لأصحابه لتقريب هذا المعنى إلى الأمة.

عن النواس بن سمعان ؓ قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الله تبارك وتعالى ضرب مثلاً صراطاً مستقيماً على كنف الصراط داران (وفي رواية: سوران) لهما أبواب مفتحة، على الأبواب ستور، وداع يدعو إلى دار السلام، ويهدي من يشاء إلى صراط مستقيم»^(١).

(١) ينظر الحديث في «صحيح سنن الترمذي» (٢٢٩٥) ورقمه في السنن ٨٥٩ وهو في «المسند» (١٧٦٣٤)، (١٧٦٣٦) حديث صحيح بأطول من هذا، وفي «السنن الكبرى» للنسائي (١١٢٣٣) والحاكم (٧٣/١) والبيهقي في «الشعب» (٧٢١٦).

فالأبواب التي على كَنَفِي الصراط، حدود الله تعالى، فلا يقع أحد في حدود الله تعالى حتى يكشف الستر، والذي يدعو من فوقه واعظ ربه.

ويقول ابن مسعود رضي الله عنه: **خَطَّ لَنَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ خَطًّا، وَقَالَ: «هَذَا سَبِيلُ اللَّهِ»** ثم خط خطوطاً عن يمينه وعن يساره، وقال: **«هَذِهِ سُبُلٌ، وَعَلَى كُلِّ سَبِيلٍ مِنْهَا شَيْطَانٌ يَدْعُو إِلَيْهِ»** ثم قرأ قوله تعالى: **﴿وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ﴾** ^(١) [الأنعام: ١٥٣].

وفسره رزين عن ابن مسعود رضي الله عنه: أن الصراط هو الإسلام، وأن الأبواب هي محارم الله تعالى في قلب كل مؤمن ^(٢).



المَبْحَثُ الثَّانِي عَشَرَ: أَصْنَافُ النَّاسِ ﴿صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ﴾

الناس في هذه الآية ثلاث طوائف:

- ١- المؤمنون من أمة محمد ﷺ أو من غيرهم من الأمم السابقة في زمن رسلهم.
 - ٢- المغضوب عليهم؛ وهم اليهود الذين لم يعملوا بالتوراة في زمن نبيهم، ولم يؤمنوا بعيسى ولا بمحمد عليهما السلام، وكذا كُلُّ مَنْ شاكلهم.
 - ٣- الضالون؛ وهم النصارى الذين لم يتمسكوا بتعاليم الإنجيل الصحيح في زمن نبيهم، ولم يؤمنوا بمحمد ﷺ بعد بعثته، وكذا كل من كان مثلهم.
- وقد أرشدنا الله سبحانه إلى أن نسأله الهداية إلى طريق الصَّنَفِ الأول: (الذين أنعم

(١) حديث صحيح أخرجه أحمد وورزين عن ابن مسعود برقم (٤١٤٢، ٤٤٣٧) بإسناد حسن من أجل عاصم بن أبي النجود، وباقي رجاله ثقات رجال الشيخين غير ابن عباس فمن رجال البخاري كما قال محققو المسند، وأخرجه الطيالسي (٢٤٤) والدارمي (٢٠٨) وابن أبي عاصم (١٧) والبزار في «الزوائد» (٢٢١٠) والحاكم (٣١٨/٢) وأبو نعيم في «الحلية» (٢٦٣/٦) والنسائي في «السنن الكبرى» (١١١٠٩) والبيهقي في «شعب الإيمان»، والترمذي مختصراً عن النواس، ينظر: «مشكاة المصابيح» (٦٧/١) رقم (١٩١).

(٢) ينظر: «مسند الإمام أحمد» (١٨٢/٤، ١٨٣).

عليهم)، وأن نبزاً من الصنفين الآخرين، فكلاهما هالك.

الصنف الأول: المنعم عليهم: هذا تفسيراً للصرط المستقيم المذكور في الآية السابقة، فالمسلم يطلب من ربه ليل نهار أن يهديه إلى طريق الذين أنعم عليهم، وهم الذين أطاعوا الله والرسول وليس في قلوبهم ذرة إلا وهي معمورة بحب الله تعالى، والذين أنعم الله عليهم، هم النبيون والصديقون والشهداء والصالحون.

فهؤلاء قد أنعم الله عليهم بالسعادة في الدنيا والآخرة؛ لأنهم أهل الهداية والاستقامة والطاعة وامتنال الأوامر واجتناب النواهي، وهذه النعمة، نعمة مطلقة، شاملة، موجبة للفلاح الدائم، وإلا فكل الخلق يعيش في نعمة الله تعالى، ومنهم الكافر، فالنعمة المطلقة لأهل الإيمان، ومطلق النعمة للمؤمن والكافر، وفيه نسبة النعمة إلى الله تعالى دون غيره، حتى لا يُنسب الشر إلى الله تعالى، من باب الأدب مع الله تعالى.

والذين أسبغ الله عليهم نعمه ليسوا من الذين ينحرفون عن صراطه المستقيم، أو يجلبون على أنفسهم نيران غضبه ولعته، وإنما يستجلبون رضى الله تعالى، ويتعدون عن أسباب غضبه وتنكب الصراط.

والمُنعم عليهم هم صفوة البشر المطيعون لله والرسول، يبدأ وصفهم بالنبوة وينتهي بالصلاح، قال تعالى: ﴿وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَٰئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَٰئِكَ رَفِيقًا﴾ (٦٩) ذَلِكَ الْفَضْلُ مِنَ اللَّهِ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ عَلِيمًا ﴿[النساء: ٦٩، ٧٠].

وقال سبحانه بعد أن ذكر عدداً من الأنبياء والمرسلين، ممن أنعم الله عليهم من ذرية آدم، وممن حُمِلوا مع نوح، وممن هدى الله: ﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ مِنْ ذُرِّيَةِ آدَمَ وَمِمَّنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ وَمِنْ ذُرِّيَةِ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْرَءِيلَ وَمِمَّنْ هَدَيْنَا وَاجَبَيْنَا إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُ الرَّحْمَنِ خَرَوْا سُجَّدًا وَبُكِيًا﴾ [مريم: ٥٨].

ومن هؤلاء الذين عتّمهم الآية: أنبياء وصديقون وشهداء وصالحون.

وصراط الذين أنعم الله عليهم، هو الصراط المستقيم، الذي لا اعوجاج فيه.

وعلى كل مسلم ألا يغفل عن طلب العون من الله تعالى، ونعمة الهداية هي أكبر النعم

التي امتنَّ الله بها على عباده، إذ إن الهداية لا ينالها إلا المطيعون الموفقون الصالحون، والمُنعم عليهم هم المؤمنون المتقون، الذين عرفوا الحق، فاتبعوه وعملوا به في مقابلة مَنْ يأتي ذكرهم، وهم الذين عرفوا الحق ولم يعملوا به وأنكروه، والذين ضلوا عن الصراط وأخطؤوا الطريق الصحيح.

الصنف الثاني: اليهود ﴿غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ﴾

عن عبد الله بن شقيق العُقَيْلِي قال: أخبرني مَنْ سمع النبي ﷺ وهو بوادي القُرى على فرس له، وسأله رجل من بني القين فقال: مَنْ المغضوب عليهم يا رسول الله؟ قال: «اليهود» قال: فَمَنْ الضالون؟ قال: «النصارى»^(١).

وعن الشريد بن سُويد قال: مرَّ رسول الله ﷺ وأنا جالس هكذا، وقد وضعتُ يدي اليسرى خلف ظهري، واتكأْتُ على إِيَّةِ يدي، فقال: «أَتَقْعُدُ قِعْدَةَ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ»^(٢).

وقد غضب الله عليهم؛ لأنهم عرفوا الحق ولم يعملوا به، ومن ذلك معرفتهم بأوصاف محمد ﷺ وعدم الإيمان به.

فغير المُنعم عليهم صنفان: صنف خرج عن الحق بعد علمه به، وأعرض عنه بعد أن استبان له، وهم المغضوب عليهم.

وصنف لم يعرفوا الحق أبداً أو عرفوه على وجه غير صحيح، فهم في عماية وضلال، وكلا المسلكين فاسد؛ لأنه حادٌّ عن صراط الإسلام، فكل من اليهود والنصارى وأمثالهم، ضال مغضوب عليه، لكن أخص أوصاف اليهود الغضب، كما قال تعالى فيهم: ﴿مَنْ لَعَنَهُ اللَّهُ وَغَضِبَ عَلَيْهِ﴾ [البائدة: ٦٠] وقال تعالى عنهم: ﴿بَاءُوا بِغَضَبٍ عَلَىٰ غَضَبٍ﴾ [البقرة: ٩٠].

(١) «المسند» (٢٠٣٥١) (٢٠٧٣٦) بنحوه والبيهقي (٣٣٦/٦) وعبدالرزاق في تفسيره (٣٧/١) قال محققو المسند: إسناده صحيح ورجاله ثقات، وأخرجه أيضاً الطبري (١٨٧/١).

(٢) «المسند» (١٩٤٥٤) قال محققوه: فيه ابن جريج مدلس وقد عنعن، وبقية رجاله ثقات رجال الشيخين، وهو في «صحيح سنن أبي داود» (٤٠٥٨) وفي سنن أبي داود برقم (٤٨٤٨) وابن حبان (٥٦٧٤) والحاكم (٢٦٩/٤) وقال: صحيح الإسناد ولم يخرجاه ووافقه الذهبي، والطبراني في الكبير (٧٢٤٢).

الصنف الثالث: النصارى ﴿وَلَا الضَّالِّينَ﴾

الضال هو الذي حادَّ عن السبيل وسلك غير المنهج القويم .

والضالون: هم النصارى ومن على شاكلتهم، ممن فقد العلم وأخطأ الطريق الصحيح، فهام على وجهه ولم يهتدِ إلى الحق .

وأخصُّ أوصاف النصارى الضلال، فهم قد ضلوا عن طريق التوحيد؛ فنسبوا لله تعالى الشريك والولد، فضلوا في أنفسهم وأضلوا غيرهم، كما قال تعالى عنهم: ﴿قَدْ ضَلُّوا مِنْ قَبْلُ وَأَضَلُّوا كَثِيرًا وَضَلُّوا عَنْ سَوَاءِ السَّبِيلِ﴾ [المائدة: ٧٧].

والضلال سلوك الطريق غير السوي، وهو ضد الهدى والرشاد .

وفي حديث عدي بن حاتم، أن النبي ﷺ قال: «إن المغضوب عليهم اليهود، وإن الضالين النصارى»^(١).

وعن أبي ذر رضي الله عنه قال: سألت رسول الله ﷺ عن المغضوب عليهم: قال: «اليهود» قلت: الضالين؟ قال: «النصارى»^(٢).

وهذا من باب التمثيل باليهود والنصارى وليس من باب الحصر، وإلا فإن الآية تشمل كل من انطبق عليه الوصف .

وفي السيرة عن زيد بن عمرو بن نُفَيْل، أنه لما خرج مع جماعة من أصحابه إلى الشام يطلبون الدين الحنيف، قال له اليهود: إنك لن تستطيع الدخول معنا حتى تأخذ نصيبك من غضب الله، فقال: أنا من غضب الله أفراً، وقالت له النصارى: إنك لن تستطيع الدخول معنا حتى تأخذ نصيبك من سخط الله، فقال: لا أستطيعه، فاستمر على فطرته مجاناً دين المشركين وعبادة الأوثان، ولم يدخل في اليهودية ولا النصرانية .

(١) أخرجه الترمذي بإسناد حسن، ينظر: «جامع الأصول» حديث رقم (٤٧١) (٧/٢)، وهو في صحيح سنن الترمذي (٢٢٥٤) وفي «المسند» (١٩٣٨١) من حديث طويل فيه عباد بن حُبَيْش، وبقية رجاله ثقات رجال الشيخين وابن أبي حاتم (٤٠، ٤١) وابن حبان (٦٢٤٦، ٧٢٠٦).

(٢) ينظر هذا وغيره في «الفتح الرباني لترتيب مسند الإمام أحمد» (٦٨/١٨)، وقد أورد الهيثمي نحوه بسند صحيح والأثر عند ابن مردويه كما في «تفسير ابن كثير» (٤٦/١) و«الدر المنثور» (٨٥/١).

والآية عامة في كل مَنْ غضب الله عليه، وكل من ضل وحاد عن الصواب، ومَنْ عرف حقيقة اليهود والنصارى حالياً أيقن بانطباق وصف الغضب والضلال عليهم واستحقاقهم له، فاللهم اجعلنا ممن أنعمت عليهم وأبعدنا عن طريق المغضوب عليهم والضالين.

مع الفاتحة آية آية:

ثم يبدأ - المسلم - قراءة الفاتحة متميماً ومتبركاً باسم الله تعالى، الذي يبدأ باسمه جميع شؤونه، فباسمه تعالى قامت السموات والأرض، وأثار صنعه تعالى في الكون دالةً عليه سبحانه، ويده الحول والطول، وهو جل شأنه الموصوف بالرحمة التي شملت المؤمن والكافر، فرحمته وسعت كل شيء، ونعمته وسعت كل حي، وهو سبحانه الموصوف بالرحمة الخاصة بالمؤمنين، وبالرحمة العامة للخلق أجمعين، وكأنَّ المسلم يشاهد ربه وهو يُحسن إلى جميع خلقه، ويُعِدُّ عليهم نعمه، ومنها هذه العبادة، وهذه الرحمة هي التي تصل بين العبد وخالقه، فمنه الرحمة ومنهم العبادة، وكأنَّ المسلم يشاهد نصيبه من الرحمة، وهو قائم بين يدي ربه يدعو ويعبده ويناجيه ﴿يَسْمِعُ اللَّهُ الْمُخْتَصِمَ﴾.

ثم يحمد المسلم ربه على عظيم نعمه، وكريم فضله أن هداه للإسلام، ووفقه للإيمان، وتفضل عليه بالتربية والإنعام، وهو يستشعر نعمة الله عليه، وفضله وإحسانه بقلبه وعقله، وهو وحده المستحق لكل الحمد؛ لأنَّ نِعَمَهُ تَعْمُ جميع المخلوقات ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾.

وهذه النعم تفضل من الله تعالى وإحساناً إلى خلقه، فهو سبحانه ليس إلهاً ظالماً؛ لأنه رب العالمين وخالقهم ورازقهم، بل تقوم العلاقة بينه سبحانه وبين خلقه على الرحمة فهو جل شأنه: ﴿الْمُخْتَصِمُ﴾.

وهذه الرحمة مقرونة بالعدل، فهناك الحساب والجزاء بعد الفضل والإنعام.

والمسلم يضع نصب عينيه ما يحصل في اليوم الآخر من الأحوال والأهوال، من جزاء المحسنين، وعقاب المسيئين، فيستحضر هذا الملك القاهر، وهذا المجد العظيم الذي لا يليق إلا بالله تعالى، لا سيما يوم يُدان الخلائق، وتغنو الوجوه لعظمته سبحانه، وتخضع الأصوات لجبروته، فلا تسمع إلا همساً، ولا يتكلم أحدٌ إلا بإذنه، فهو سبحانه: ﴿مَلِكِ يَوْمِ الدِّينِ﴾.

فإذا قرأ العبد: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ ﴿الْمُخْتَصِمُ﴾ لا مَلِكِ يَوْمِ الدِّينِ فإنه يقف

عند نهاية كل آية منها هُنيئَةً، ويتنظر جواب الله تعالى له حين يرد عليه قائلاً: «حمدني عبدي» «أثني عليَّ عبدي» «مجدني عبدي» وقلبه يطير فرحاً وسروراً بإجابة الله تعالى له، وتقرُّ عينه بمناجاته لربه، وذكر أصول أسماء الله الحسنی وصفاته العليا (الله، الرب، الرحمن).

وهذا الجزاء الأخروي يحتاج إلى بحث عن وسائل النجاة وطرقها، فيلجأ العبد إلى ربه بالعبادة، ويُقبل عليه، وَيَسْتَغْرِقُ في مُشاهدة أنواره بمناجاته لربه، وضراعه إليه، ووقوفه بين يديه، فكأنه يرى ربَّه سبحانه، فإن لم يكن قد وصل إلى هذه الدرجة، فلْيَعْلَمْ أن الله تعالى يراه ويطلع عليه، وهي مرتبة الإحسان التي قال عنها النبي ﷺ: «أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك» وكأنَّ الحجاب الذي بين العبد وبين ربه قد انكشف له وهو يخاطبه بقوله: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾.

ثم يستحضر المسلم فاقته وحاجته إلى الهداية، فهو محتاج إليها في كل طرفة عين، وهو أشد ما يكون حاجة إلى مَنْ يهديه سواء السبيل، فليسأل ربه الهداية من فضله، وكأنه قد أبصر طريق الإسلام الذي اشتمل على سعادة الدارين، وعليه أن يحرص على التمسك به والتزامه ﴿أَهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾.

وكان المسلم حين يقرأ: ﴿صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ﴾ يرى بعينه درجات أهل السعادة، وأصحاب الكرامة في الجنة؛ من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين، وحين يقرأ: ﴿غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ﴾ كأنه ينظر إلى دركات الفاسقين والكفار في النار، ويرى بعينه عواقبهم الوخيمة ﴿صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ﴾.

التأمين (أمين): وحين يفرغ المسلم من هذا الدعاء والثناء يُشْرَعُ له أن يَطْبَعَهُ بالتأمين، كالخاتم عليه، موافقاً بذلك تأمين إمامه، وتأمين الملائكة الكرام؛ ليحظى بالقبول والإجابة، فاللهم استجب (أمين).

ولفظ أمين من أسماء الأفعال، معناها: اللهم استجب، وليست من الفاتحة بالإجماع، ويستحب الإتيان بها مع رفع الصوت للإمام في الصلاة الجهرية ويندب قولها للمنفرد، ويقولها المأموم فرضاً.

(أ) في الصحيحين عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه أن رسول الله ﷺ قال: «إذا آمَنَ

الإمام فأمنوا، فإنه من وافق تأمينه تأمين الملائكة غُفر له ما تقدم من ذنبه»^(١).

وفيه دليل على تأمين الملائكة، وغفران الذنوب، وأن ذلك من أشد المواطن على غيظ الشيطان ودحره.

(ب) وكان النبي ﷺ يرفع صوته ويمده بها، ويُسمع من يليه، وكان المسجد يرتج بها^(٢).

والتأمين مستحبٌ بعد كل دعاء، فهو كالطابع على الصحيفة، وبه يُختم الدعاء، ويكون مظنة للإجابة.

(ج) وعن أبي هريرة ؓ أن رسول الله ﷺ كان إذا تلا: ﴿غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ﴾ قال: آمين حتى يسمع من يليه من الصف الأول^(٣).

وقد آمن ابن الزبير ومن وراءه حتى إن للمسجد للجة^(٤).

وقال عطاء: أدركت مئتين من الصحابة في هذا المسجد، إذا قال الإمام: ولا الضالين، سمعت لهم رجة آمين^(٥).

(د) وعن عائشة ؓ أن النبي ﷺ قال: «ما حسدْتُكم اليهودُ على شيء ما حسدْتُكم على السلام والتأمين خلف الإمام»^(٦).

ويستحب للمأموم أن يوافق الإمام في التأمين، فلا يسبقه ولا يتأخر عنه، وينبغي على الإمام أن يرفع بها صوته حتى يُسمع من خلفه.

(١) رواه الجماعة ينظر «صحيح الجامع الصغير» ج ١ حديث رقم (٣٨٨) وهو في البخاري (٧٨٠، ٦٤٠٢) ومسلم (٤١٠) وأبو داود (٩٣٦) والترمذي (٢٥٠) والنسائي (٩٢٤) وابن ماجه (٨٥١) و«المسند» (٩٩٢١) ومالك (٨٧ / ١) والشافعي في «الأم» (١ / ١٠٩).

(٢) من حديث أبي هريرة في سنن ابن ماجه برقم (٨٥٣) وينظر نص الحديث الذي أخرجه الترمذي في «جامع الأصول» ج ٢ حديث رقم (٤٢٨) وانظر: «المسند» (١٨٨٤٢) وأبو داود (٩٣٢) والنسائي (٩٣١).

(٣) أخرجه أبو داود بإسناد حسن، «جامع الأصول» ج ٥ حديث رقم (٣٤٢٧) وأخرجه أيضاً ابن ماجه (٨٥٥).

(٤) ينظر صحته في الأحاديث الضعيفة برقم (٩٥٢).

(٥) أخرجه البيهقي بسند ضعيف، ينظر: «تمام المنة» للشيخ الألباني (١٧٩ / ١).

(٦) أخرجه أحمد وابن ماجه بإسناد صحيح، «صحيح الجامع» ج ٥ رقم (٥٤٨٩) وهو في «المسند» برقم (٢٥٠٢٩) و«صحيح سنن ابن ماجه» (٨٥٦) والبيهقي في «السنن» (٥٦ / ٢) و«سنن ابن ماجه» (٩٩٧).

الْمُبْحَثُ الثَّلَاثُ عَشَرَ: حُكْمُ قِرَاءَةِ الْفَاتِحَةِ فِي الصَّلَاةِ

١- يرى جمهور العلماء أن قراءة الفاتحة في كل ركعة من ركعات الصلاة ركن من أركانها، سواء أكانت الصلاة فرضاً أم نفلاً، سرّاً أم جهراً، وسواء أكان المصلي إماماً أم مأموماً أم منفرداً، فلا تصح الصلاة بدونها مع القدرة عليها؛ لأن ذلك شرط في صحتها، وإليه ذهب مالك والشافعي وأحمد.

٢- وذهب الثوري والكوفيون وأبو حنيفة إلى أن الصلاة تُجزئ بقراءة ما تيسر من القرآن؛ آية طويلة، أو ثلاث آيات قصار، أو سورة قصيرة.

٣- وذهب الحسن البصري وغيره إلى أن قراءة الفاتحة واجبة مرة واحدة في كل صلاة.

أدلة المخالفين لقول الجمهور والرد عليها:

وقد استدل أبو حنيفة ومن معه بقوله تعالى: ﴿فَأَقْرءُوا مَا يَسَّرَ مِنْهُ﴾ [المزمل: ٢٠] وبحديث المسيء في صلاته، وفيه أن النبي ﷺ قال له: «ثم اقرأ ما تيسر من القرآن»^(١).

قالوا: وهذا يدل على أن المصلّي يقرأ أي شيء ييسر له من القرآن، وهو مردود بأن المراد بالقراءة في الآية: هو تلاوة القرآن بعد الفاتحة بما ييسر منه، وذلك في صلاة التهجد، كما يدل عليه أول الآية: ﴿إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدْنَىٰ مِنْ ثُلُثِي اللَّيْلِ وَنِصْفَهُ وَثُلُثَهُ﴾ [المزمل: ٢٠]، وليس المراد قراءة الفاتحة نفسها.

أما حديث المسيء في صلاته، فهو يشير أيضاً إلى القراءة بعد الفاتحة بما ييسر من القرآن، ويوضحه ويفسره الرواية الأخرى للحديث: «ثم اقرأ بأم القرآن»^(٢).

وقالوا في حديث: «لا صلاة لمن لم يقرأ بفاتحة الكتاب» أي: لا صلاة كاملة، فهو نفْيٌ للكمال، لا لحقيقة الصلاة وصحتها.

(١) ينظر الحديث بتمامه للشيخين وغيرهما في «جامع الأصول» ج ٥ بحديث رقم (٣٥٧٨).

(٢) ينظر الحديث الذي قبله في «جامع الأصول» برقم (٣٥٧٧).

من أدلة الجمهور:

واستدل الجمهور على وجوب قراءة الفاتحة في كل ركعة من الصلاة بأحاديث؛ منها:

١- ما رواه الجماعة عن عبادة بن الصامت أن رسول الله ﷺ قال: «لا صلاة لمن لم يقرأ بفاتحة الكتاب»^(١).

٢- وما رواه أحمد وابن ماجه وغيرهما عن عائشة ؓ قالت: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «من صلى صلاة لم يقرأ فيها بفاتحة الكتاب فهي خداج»^(٢).

٣- وعن أبي هريرة ؓ أن رسول الله ﷺ قال: «لا تُجزئ صلاة لا يُقرأ فيها بفاتحة الكتاب»^(٣).

٤- وفي الحديث عن أبي سعيد رضي الله عنه: «أمرنا أن نقرأ بفاتحة الكتاب وما تيسر»^(٤).

٥- وروى أبو هريرة ؓ أن النبي ﷺ قال: «من صلى صلاة لم يقرأ فيها بفاتحة الكتاب فهي خداج، يقولها ثلاثاً»^(٥).

٦- وعن أبي هريرة أيضاً أن النبي ﷺ أمره أن يخرج فينادي: «لا صلاة إلا بفاتحة الكتاب، فما زاد»^(٦).

(١) أخرجه الجماعة إلا مالكاً، ينظر: «جامع الأصول» ج ٥ حديث رقم (٣٤٢٤) وهو في «المسند» برقم (٢٢٦٧٧) وفي البخاري (٢٩٩، ٧٥٦) ومسلم (٣٩٤) ومن (٣٨-٣٤) وأبو داود (٨٢٢) وابن ماجه (٨٣٧) والترمذي (٢٤٧) وابن حبان (١٧٨٢).

(٢) صحيح لغيره، وهذا إسناد حسن كما في «المسند» (٢٥٠٩٩، ٢٦٣٥٦) وهو عند ابن أبي شيبة (٣٦٠/١) والطحاوي في «شرح مشكل الآثار» (١٠٨٧) وابن ماجه (٨٤٠) والطبراني في «الأوسط» (٧٤٢٢).

(٣) رواه ابن خزيمة وابن حبان وأبو حاتم، ينظر: «صحيح ابن خزيمة» (٢٤٨/١) بحديث رقم (٤٩٠) صحيح الإسناد.

(٤) ينظر: «جامع الأصول» ج ٥ حديث رقم (٣٤٢٥) وقد أخرجه أبو داود بإسناد صحيح، ولفظ الحديث لمسلم (٣٩٥) وهو في البخاري (٧٥-٧٢٢١٨) وعند أبي داود (٨٢١) وابن ماجه (٨٣٨، ٣٧٨٤) والترمذي (٢٩٥٣) و«المسند» (٧٨٣٦) وابن حبان (٧٧٦).

(٥) أخرجه مسلم ومالك والترمذي والنسائي، «جامع الأصول» ج ٥ حديث رقم (٣٤٢٤) وهو في «المسند» برقم (١٠٣٢١٩، ٧٤٠٦، ٩٩٣٢).

(٦) هذا لفظ أبي داود برقم (٢١٩، ٢٢٠) وعن عبادة بن الصامت (٨٢٢) بلفظ (فصاعداً) وعن أبي سعيد (٨١٨) بلفظ (وما تيسر) وهو في «المسند» برقم (٩٥٢٩) و«صحيح سنن ابن ماجه» (٦٨٥) وابن أبي شيبة (٣٦٠/١) والبيهقي (٣٧/٢) وانظر: «جامع الأصول» حديث (٣٤٢٤).

والمراد في الأحاديث السابقة نفي حقيقة الصلاة؛ أي: أن صلاة العبد بدون قراءة سورة الفاتحة لا تصح.

٧- ويؤيد قول الجمهور حديث مسلم وغيره عن أبي قتادة أنه قال: كان رسول الله ﷺ يصلي بنا فيقرأ في الظهر والعصر في الركعتين الأوليين بفاتحة الكتاب وسورتين، ويُسمعننا الآية أحياناً، وكان يُطَوِّل في الركعة الأولى من الظهر، ويُقَصِّر في الثانية، وكذلك الصبح، وفي رواية: ويقرأ في الركعتين الأخيرتين بفاتحة الكتاب^(١).

٨- ولم يثبت أن النبي ﷺ صلى ركعة واحدة، أو أي صلاة بدون الفاتحة، ولا أحداً من خلفائه، أو أصحابه وأتباعه بإحسان، رضي الله تعالى عنهم أجمعين.

وما دامت الأحاديث قد صحت في قراءة الفاتحة في الصلاة في كل ركعة منها، فلا مجال للخلاف في ذلك، وقد ثبت أن النبي ﷺ كان يقرأ الفاتحة في كل ركعة من ركعات الفرض والنفل، ولم يثبت خلاف ذلك، وقد قال ﷺ في حديث مالك ابن الحويرث: «صلوا كما رأيتموني أصلي»^(٢).

حكم من لم يحفظ الفاتحة

الأصل أن الصلاة لا تجزئ إلا بقراءة الفاتحة، فإن كان المصلي لا يحسنها، ويحسن سبع آيات غيرها من القرآن كان عليه أن يقرأها، وإن كان غير عربي ولم يحفظ شيئاً من القرآن كان له أن يذكر الله تعالى قُدْرَ الفاتحة بالتسبيح والتحميد والتهليل والتكبير.

عن رفاعه بن رافع رضي الله عنه: أن النبي ﷺ علّم رجلاً الصلاة، فقال: «إن كان معك قرآن فاقراً، وإلا فاحمده وكبره وهله ثم اركع»^(٣).

(١) هذه رواية أبي داود والنسائي، انظر: رواية الشيخين وغيرهما في «جامع الأصول» ج ٥ حديث رقم (٣٤٤٦) والحديث في «صحيح مسلم» برقم (٤٥١) بهذا اللفظ وفي البخاري (٧٧٦، ٧٧٩) وأبي داود (٧٩٨، ٨٠٠) وابن ماجه (٨٢٩) و«المسند» (٢٢٥٢٠) وابن حبان (١٨٢٩) و«السنن الكبرى» للنسائي (١٠٤٩).

(٢) «المسند» (٢٠٥٣١) والبخاري برقم (٦٢٨، ٦٣١، ٦٠٠٨) ومسلم برقم (٦٧٤).

(٣) ينظر الحديث بتمامه في «جامع الأصول» ج ٥ برقم (٣٥٧٧).

هل يقرأ المأموم الفاتحة؟

أجمع العلماء على أن قراءة الفاتحة تسقط عن المأموم إذا أدرك الإمام حال ركوعه.

أما إذا أدركه قائماً قبل الركوع، فهل تكفيه قراءة الإمام للفاتحة أم لا بد له من قراءتها؟

(أ) ذهب الشافعي وأحمد إلى وجوب قراءة الفاتحة خلف الإمام، سواء أكانت الصلاة سرية أم جهرية، وأن صلاته لا تصح بدونها، مستدلاً بحديث عبادة بن الصامت السابق: «لا صلاة لمن لم يقرأ بفاتحة الكتاب».

(ب) وذهب مالك إلى أن المأموم يقرأ الفاتحة خلف الإمام في الصلاة السرية دون الجهرية، وإن تركها في الصلاة السرية فقد أساء ولا شيء عليه، واستدل بالحديث السابق، ويمنع القراءة في الصلاة الجهرية؛ لوجوب الاستماع إلى الإمام وهو يقرأ، لقوله تعالى: ﴿وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنْصِتُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ [الأعراف: ٢٠٤].

(ج) وذهب أبو حنيفة إلى أن المأموم لا يقرأ شيئاً في الصلاة السرية، ولا في الصلاة الجهرية أخذاً من الآية السابقة، ولحديث جابر: «من كان له إمام فقراءة الإمام قراءة له»^(١).

ولحديث أبي هريرة: «إنما يجعل الإمام ليؤتم به؛ فإذا كبر فكبروا، وإذا قرأ فأنصتوا»^(٢).

وما عليه الجمهور من أن على المأموم أن يقرأ الفاتحة في الصلاة السرية والجهرية معاً هو الذي يُجمع به بين الأدلة خروجاً من الخلاف.

(١) حديث حسن أخرجه أحمد برقم (١٤٦٤٣) وابن ماجه عن جابر برقم (٨٥٠) وانظر: «صحيح الجامع» حديث رقم (٥٦٣٦٣ / ٣٤٤).

(٢) حديث صحيح أخرجه البخاري (٧٣٤) ومسلم (٤١٤) وأبو داود (٦٠٣) وابن ماجه (٨٤٦)، (١٢٣٩) و«المسند» (٩٤٣٨) وابن حبان (٢١٠٧، ٢١١٥) والنسائي في «الكبرى» (٩٩٥، ٩٩٦) عن أبي هريرة «صحيح الجامع» رقم (١٠٤٦) (٢/ ٢٨٧).

الْمَبْحَثُ الرَّابِعُ عَشَرَ: التَّجْوِيدُ وَالْقِرَاءَاتُ وَالْإِعْرَابُ فِي سُورَةِ الْفَاتِحَةِ

أولاً: من أحكام التجويد في سورة الفاتحة

١- الوقف في سورة الفاتحة: يسن للقارئ أن يقف عند رأس كل آية منها؛ لحديث أم سلمة رضي الله تعالى عنها أنها سُئِلَتْ عن قراءة رسول الله ﷺ قالت: كان يقطع قراءته، يقول: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ ثم يقف ﴿الْخَيْرُ الْخَيْرُ﴾ ثم يقف... الحديث. وفي رواية أخرى قالت: «يقطع قراءته آية آية»^(١).

والفاتحة سبع آيات باتفاق، فإذا عدَّ القارئ البسملة آية؛ فالآية السابعة من ﴿صِرْطَ الدِّينِ﴾ إلى ﴿وَلَا الضَّالِّينَ﴾ وإذا لم يعد القارئ البسملة آية؛ فإن الآية السابعة هي ﴿عَبْرَ الْمَنْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ﴾، والمصحف الذي بأيدينا برواية حفص عن عاصم وفق خط المصحف الكوفي أحد المصاحف العثمانية التي أرسلها عثمان رضي الله عنه إلى الأمصار، وهو يعدُّ البسملة آية، ويعدُّ من ﴿صِرْطَ الدِّينِ﴾ إلى آخر السورة آية.

٢- الممدود في سورة الفاتحة:

(أ) في قوله تعالى ﴿وَلَا الضَّالِّينَ﴾ مدان:

المد الأول: مد لازم يُمد ست حركات، بقدر تكرار الحرف - وهو الضاد - ست مرات، ويقال: يمدُّ بقدر حركة الإصبع قبضاً أو بسطاً، ست مرات، قولاً واحداً لجميع القراء، وهذا المد موجود في الألف التي بعد الضاد وقبل اللام المشددة، وهكذا كل مد لازم في القرآن.

والمد الثاني: موجود في الياء من ﴿وَلَا الضَّالِّينَ﴾ وهو مد عارض للسكون؛ لوجود (النون بعدها ساكنة للوقف) ويُمَدُّ قدر حركتين أو أربع أو ست، وكذا بقية المد العارض للسكون في القرآن.

(١) ينظر طرق الحديث في «جامع الأصول» ج ٢ حديث رقم (٩١٩) وهو في «صحيح سنن الترمذي» من رواية ابن أبي مليكة (٢٣٣٦) وعند أبي داود والنسائي من رواية أم سلمة وفي «إرواء الغليل» (٣٤٣) و«مشكاة المصابيح» (٢٢٠٥) و«المسند» (٢٦٥٨٣) وشرح «مشكل الآثار للطحاوي» (٥٤٠٥) والدارقطني (١١٧٥).

(ب) وفي سورة الفاتحة مدود عارضة للسكون، نظرًا للوقوف عليها، وهي: نهاية كل آية في السورة، آية البسملة ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ ونهاية الآية الثالثة وما بعدها: ﴿الرَّحِيمُ﴾ و﴿الَّذِينَ﴾ و﴿نَسْتَعِينُ﴾ و﴿الْمُسْتَقِيمُ﴾ والياء مع النون من ﴿وَلَا الضَّالِّينَ﴾، فيقف القارئ على كل رأس آية، من هذه الآيات السبع، ويمدّها كلها بمقدار واحد، يلتزم به في قراءته كلها، حركتين أو أربعًا أو ستًا، ولا يجوز أن يمدّ آية، حركتين، والثانية أربعًا، وإنما يوحد المدود في جميع الآيات، وكذلك الشأن في القرآن كله.

(ج) مدود طبيعية في سورة الفاتحة تمتد حركتين فقط، وهي كلمات: (الله، الرحمن، لله، إياك، وإياك، الصراط، صراط، الذين، المغضوب).

ثانيًا: ملحوظات من باب اللحن الجلي

وهناك ملحوظات مستقرّة من تتبع بعض من سمعناهم يقرؤون الفاتحة، منها ما يتعلق بالإعراب في الألفاظ التالية يخطئ فيها بعض العامة وهي:

- ١- ﴿الْحَمْدُ﴾ بضم الدال، فلا يكسرها القارئ ولا يفتحها.
- ٢- ﴿رَبِّ﴾ بكسر الباء مشددة، فلا تُفتح ولا تُضم.
- ٣- ﴿الْعَالَمِينَ﴾ بفتح اللام الثانية، فلا تُكسر.
- ٤- ﴿الرَّحْمَنِ﴾ بكسر النون، فلا تُضم ولا تفتح.
- ٥- ﴿مَلِكٍ﴾ بكسر الكاف، فلا تفتح ولا تضم.
- ٦- ينبغي تشديد الياء من ﴿إِيَّاكَ﴾ و﴿وإِيَّاكَ﴾ دون غنٍ ولا مدٍ للهمز قبلها.
- ٧- ﴿نَعْبُدُ﴾ بضم الباء، فلا تُفتح ولا تُكسر.
- ٨- ويلاحظ عدم إشباع ضمة الدال من ﴿نَعْبُدُ﴾ حتى لا يتولد منها واو في النطق، ولا تفتح الباء ولا تكسر كما يفعل بعض الناس.
- ٩- ﴿نَسْتَعِينُ﴾ بفتح النون الأولى، فلا تُكسر كما يفعل بعض العامة.
- ١٠- ﴿الْمُسْتَقِيمُ﴾ بعض العامة يقف عليها بالنون.

- ١١- ويراعى فتح همزة الوصل عند البدء بها من لفظ ﴿الْحَمْدُ﴾ وكسرها من لفظ ﴿أَهْدِنَا﴾ مع مراعاة الشدة والجهر في الدال حتى لا تشبه التاء في النطق، وما عدا ذلك فهو لحن.
- ١٢- وينبغي عدم ترقيق الصاد من لفظ ﴿الصِّرَاطُ﴾ و﴿صِرَاطُ﴾ حتى لا تُنطق سيناً، وحفص يقرؤها بالصاد، مع مراعاة تفخيم الطاء حتى لا تختلط بالتاء.
- ١٣- ﴿أَنْعَمْتَ﴾ التاء مفتوحة فلا تُضم ولا تُكسر.
- ١٤- ويراعى عدم مد السكون الذي على الياء من ﴿عَلَيْهِمْ﴾ وصلاً ولا وقفاً، وإنما تُسَكَّنُ سكوناً جازماً حال الوصل أو الوقف عليها.
- ١٥- والياء من لفظ ﴿غَيْرِ﴾ ساكنة والراء مكسورة، فلا يمدُّ السكون الذي في الياء، ولا يحرف كسر الراء.

١٦- والضاد من لفظ ﴿الْمَغْضُوبِ﴾ ولفظ ﴿الضَّالِّينَ﴾ حرف مستطيل، يمتد الصوت عند النطق به فيشمل حافة اللسان كلها، ويرتفع اللسان إلى سقف الحلق، ثم يُضغَطُ عليه فينجس الصوت، ويستغرق مدة تُقدَّرُ بنصف حركة؛ للتمكن من نطقها، مع عدم الفصل بينها وبين الحرف الذي يليها، وعدم القلقلة فيها، ومراعاة الإطباق والاستعلاء فيها حتى لا تُشبه الدال أو التاء، ولا ينبغي إخراج اللسان فيها حتى لا تلتبس بالطاء، فهي من الضلال وليست من الظل ونحوه، وتُشدَّدُ ضاد ﴿الضَّالِّينَ﴾ من غير غنة، ولا ركنة عليها، كما تُشدَّدُ اللام التي بعدها من غير وقف عليها ولا غنة لها.

ثالثاً: القراءات المتواترة في سورة الفاتحة: وقد وردت هذه القراءات في أربع كلمات:

الكلمة الأولى: ﴿الْكَافِرِ الرَّجِيمِ مَلِكٍ..﴾

قرأ السوسي عن أبي عمرو من طريق الشاطبية، ويعقوب البصري من طريق المصباح بإدغام الميم الأولى في الثانية حال وصل الآية الثانية بالثالثة، وهي ﴿مَلِكٍ يَوْمَ الدِّينِ﴾ ويجوز المد والقصر والتوسط في الياء التي قبل الميم الأولى عند الإدغام حال الوصل، وعند الوقف عليها لجميع القراء باعتبارها رأس آية، والوقف على رؤوس الآي سنة.

وقرأ بقية القراء بعدم الإدغام بين الميمين وصلاً، والإظهار هو الأصل، وإدغام فرع عنه طلباً للخفة في النطق، وهما لغتان للعرب.

الكلمة الثانية: ﴿مَلِكٍ﴾ من قوله تعالى: ﴿مَلِكٍ يَوْمَ الدِّينِ﴾.

قرأ عاصم والكسائي ويعقوب وخلف العاشر بإثبات ألف بعد الميم لفظاً.

وقرأ بقية القراء العشرة وهم: نافع وابن كثير وأبو عمر وابن عامر وحمزة وأبو جعفر بحذف الألف، وقد رسمت في المصحف بدون ألف لاحتمال القراءتين هكذا ﴿مَلِكٍ﴾ والألف الصغيرة التي فوق الميم من علامات الضبط إشارة إلى قراءة الإثبات، ﴿مَلِكٍ﴾ بإثبات الألف، صفة مشبهة؛ معناها: الرب والسيد؛ أي: قاضى يوم الدين، و﴿مَلِكٍ﴾ بحذف الألف، أعم من ﴿مَلِكٍ﴾ بإثبات الألف؛ لأنه قد يكون المالك غير ملك، ولا يكون الملك إلا مالِكًا.

الكلمة الثالثة: ﴿الصَّارِطُ﴾ من ﴿أَهْدِنَا الصِّرَاطَ﴾ و﴿صِرَاطَ﴾ من ﴿صِرَاطَ الَّذِينَ﴾

قرأ قبل عن ابن كثير ورويس عن يعقوب، بالسين فيهما، وقرأ خلف عن حمزة بإشمام الصاد صوت الزاي، بحيث يتولد منهما حرف مزدوج ليس بصاد ولا زاي؛ وهو حرف فرعي عن حروف الهجاء، وذلك في الكلمتين معاً، ووافقه (خلاد عن حمزة) في الكلمة الأولى دون الثانية، وهي لغة العرب، وقرأ بقية القراء بالصاد الخالصة.

والأصل في الكلمة السين، وإنما أبدلت صادًا لأجل الطاء التي بعدها، والإشمام الذي في الصاد نظرًا للجهر والإطباق الذي في الطاء.

فقراءة السين على الأصل، وقراءة الصاد لموافقة رسم المصحف، وقراءة الإشمام لمجاورة الطاء وخفته على اللسان، والقراءات الثلاث سبعة متواترة.

الكلمة الرابعة: ﴿عَلَيْهِمْ﴾ من ﴿أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ﴾ بالنسبة للهاء التي فيها قرأ بضمها وصلًا ووقفًا حمزة ويعقوب، إتباعًا لضم الميم، فالأصل فيها الضم، وقرأ بقية القراء بكسر الهاء وصلًا ووقفًا؛ لمجانسة الكسرة للياء، والضم لغة قريش والحجازيين، والكسر لغة قيس وتميم وبني سعد.

وأما بالنسبة إلى الميم: فقد قرأ ابن كثير وأبو جعفر وقالون عن نافع بخلف عنه بضم ميم الجمع حالة الوصل مع وصلها بواو لفظًا؛ لأن الأصل في الميم الضم، وقرأ بقية القراء بإسكان الميم طلبًا للخفة.

وهذه القراءات يُقرأ بها تعبُّداً وتعلُّماً وفي الصلاة، وأن تكون القراءة لكل السورة برواية واحدة كرواية قالون أو ورش عن نافع مثلاً.

ولا يوجد في سورة الفاتحة قراءات أخرى متواترة غير ما ذكرتُ، سوى قراءات شاذة تُعلم، ويُؤخذ منها الأحكام، ووجوه اللغة، ولا يقرأ بها، وينبغي التنبيه على عدم تواترها.

رابعاً: القراءات الشاذة في سورة الفاتحة في تسع كلمات:

القراءة الشاذة هي التي لم تثبت بطريق التواتر، وإنما انفرد بنقلها أئمة القراءات الشاذة الأربعة أو أحدهم، وهم: (ابن محيص، ويحيى اليزيدي، والحسن البصري، والأعمش) وهم من أهل المثة الهجرية الثانية، كانوا أئمة في القراءات بمكة والعراق.

والشذوذ فيها ليس من جهة عدم صحتها، وإنما من جهة ثبوتها بطريق الآحاد وعدم التواتر فيها؛ ولهذا فهي تُدون في الكتب وتُعلم، ويُحتج بها في وجوه الإعراب، ويُعمل بمعناها، ويُستنبط منها الأحكام الشرعية، وقواعد اللغة، وغير ذلك.

ولا يجوز القراءة بها تعبُّداً، ولا في الصلاة، ويُنكَّرُ على مَنْ قرأ بها في الصلاة أو غيرها، وسوف نذكر القراءات الشاذة الواردة في سورة الفاتحة لمجرد العلم بها دون العمل، وقد جاءت هذه القراءات في تسع كلمات هي:

١- الاستعاذة: اختار الحسن البصري في التعوذ هذه الصيغة: (أعوذ بالله السميع العليم من الشيطان الرجيم، إن الله هو السميع العليم) مع إدغام هاء لفظ الجلالة الأخير في هاء (هو) بعدها.

واختار الأعمش هذه الصيغة: (أعوذ بالله من الشيطان الرجيم، إن الله هو السميع العليم) وورد عنه الإدغام والإظهار في الهاءين السابق ذكرهما (إن الله هو) وقد جاءت الصيغتان في الأحاديث النبوية الصحيحة.

٢- البسملة: وثبت الحسن البصري البسملة في أول الفاتحة فقط، ويتركها في غيرها، لا فرق عنده بين أوائل السور وأواسطها، فهي عنده آية من الفاتحة فقط، وللتبرك وُضِعَتْ في أول بقية السور، وهذا موافق لبعض القراءات المتواترة.

- ٣- ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ قرأ الحسن بكسر الدال حيث وقع في القرآن على الإتياع؛ أي: أن الحرف الأول وهو الدال تابع للحرف الثاني وهو اللام الأولى من لفظ الجلالة، على الإتياع؛ للتجانس بينهما، وهي لغة، وجمهور القراء برفع الدال على الابتداء والخبر.
- ٤- ﴿مَلِكٍ﴾ قرأ الأعمش بإثبات الألف ونصب الكاف، على أنه نعت مقطوع، أو منادى حُذِفَ منه حرفُ النداء، كأنه قال: أمدح مالك، أو يا مالك.
- ٥- ﴿نَعْبُدُ﴾ قرأ الحسن (يُعَبِّد) بياء مضمومة بدل النون وباء مفتوحة على البناء للمجهول، والأصل: أنت تُعَبِّد، على الالتفات.
- ٦- ﴿نَسْتَعِينُ﴾ قرأ المطوعي عن الأعمش بكسر النون، وهو لغة تميم وهذيل وأسد وربيعة.
- ٧- ﴿الصِّرَاطِ﴾ قرأ الحسن (صراطا) بالتنكير.
- ٨- ﴿غَيْرِ﴾ قرأ ابن محيصن بنصب الراء، على أن (غيرَ) حال من الضمير في ﴿عَلَيْهِمْ﴾ أو معمول لمحذوف تقديره (أعني) أو نحوه.
- ٩- ﴿عَلَيْهِمْ﴾ قرأ الحسن بصلة ميم الجمع بياء؛ لمناسبة الكسر الذي قبلها، وكذا في كل القرآن عنده، وهو يصل الميم بواو إن كان قبلها ضم للمناسبة أيضاً نحو (أنفسهم)، فهو يتبع الميم لما قبلها كسراً أو ضمّاً^(١).

خَامِسًا: إِغْرَابُ سُورَةِ الْفَاتِحَةِ

﴿يَسْمِ﴾ الباء حرف جر زائد، وقال الكسائي: لا موضع لها من الإعراب.

(اسم) مجرور بالباء، عند القراء والكوفيين، والجار والمجرور من ﴿يَسْمِ﴾ في موضع نصب بالفعل المحذوف، على معنى: ابتدأتُ باسم الله، أو: أبدأُ بسم الله، وعند البصريين أن الباء وما بعدها من ﴿يَسْمِ﴾ في موضع رفع بالمبتدأ المحذوف، والجار والمجرور خبره، والتقدير: ابتدائي كائن باسم الله، فالباء متعلقة بالكون والاستقرار؛

(١) ينظر فيما سبق البنا الدمياطي «إتحاف فضلاء البشر» سورة الفاتحة، والقراءات الشاذة للشيخ عبد الفتاح القاضي، وهناك قراءات شاذة أخرى ذكرها أبو البقاء العكبري في كتابه «تعليل القراءات الشاذة» وهو مخطوط عرف به الدكتور على حسين البواب في مجلة كلية اللغة العربية في العدد الثاني عشر سنة ١٤١٢ هـ.

أي: متعلقة بمحذوف عندهما.

وقد حذفت الألف التي بين الباء والسين من اللفظ؛ لأنها ألف وصل، وأصلها هكذا (باسم) وحذفت من الخط لكثرة استعمالها؛ لأن الباء لا تنفصل عن الحرف الذي بعدها، أو لأنها ليست من اللفظ، أو لأن الأصل (سِم) بكسر السين، أو (سُم) بضم السين، ثم جيء بالباء، وحذفت الكسرة، فصارت ﴿يَسْمِ﴾ وهو لغةٌ فيها، وعلى هذا القول الأخير؛ فإن ﴿يَسْمِ﴾ ليس فيها ألف أصلاً، وثبتت الألف في غير هذا اللفظ بالذات، كقولك (باسم ربك) أو (لاسم الله بركة).

﴿يَسْمِ اللَّهِ﴾ ﴿يَسْمِ﴾ مضاف، ولفظ الجلالة ﴿اللَّهُ﴾ مضاف إليه.

ولفظ (اسم) من التسمية، والتسمية معناها: التلّفظ بالاسم، الذي هو لفظ الجلالة، والألف من ﴿اللَّهُ﴾ ألف وصل، ومن العرب من يقطعها للزومها.

وأصلها (الإله) مصدر في موضع المفعول، أي: المألوه، وهو المعبود؛ لأنه من أله يأله، إذا عبّد، وقيل: أصل الهمزة واو؛ لأن الإله تتولّه له القلوب؛ أي: تتحير.

﴿الرَّحْمَنِ﴾ صفة للفظ الجلالة، لا يُثَنَّى ولا يُجمع، فأدغمت اللام في الراء؛ لأنهما حرفان متقاربان في المخرج، ولكثرة دوران لام التعريف.

﴿الرَّحِيمِ﴾ نعت أيضاً، وجمعه (رحماء) فهما صفتان مشتقتان من الرحمة، إلا أن الأول أبلغ من الثاني، وهما مجروران على الصفة، وحذفت الألف التي بعد الميم؛ لكثرة استعمالها. ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ ﴿الْحَمْدُ﴾ مرفوع على الابتداء.

﴿لِلَّهِ﴾ جار ومجرور، متعلق بمحذوف تقديره: الحمد واجب أو ثابت لله، وهو في محل رفع خبر للمبتدأ، الذي هو ﴿الْحَمْدُ﴾.

﴿رَبِّ﴾ مجرور على أنها صفة، أو بدل مع لفظ الجلالة، والرب مصدر، ثم جعل صفة.

﴿الْعَالَمِينَ﴾ مخفوض بالإضافة، والياء علامة على الخفض، وهو جمع عالم، بفتح اللام، مشتق من العلامة عند من جعله لجميع الخلائق، أو هو جمع عالم بكسر اللام مشتق من العلم عند من جعله لمن يعقل.

﴿الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾ صفتان للفظ ﴿رَبِّ﴾ وصفة المجرور مجرور.

﴿مَلِكٍ﴾ بدون ألف، مجرور على أنه صفة أو بدل من لفظ الجلالة ﴿الله﴾ وهو مضاف و ﴿يَوْمٍ﴾ مضاف إليه، وقرئ ﴿مَلِكٍ﴾ بألف بعد الميم، اسم فاعل؛ فيكون مجروراً على البدل لا على الصفة؛ لأن المعرفة لا توصف بالنكرة، ولفظ ﴿مَلِكٍ﴾ نكرة، وفي الكلام مفعول محذوف، تقديره: مالك أمر يوم الدين، أو مالك يوم الدين الأمر.

و ﴿مَلِكٍ﴾ مضاف وليس ظرفاً؛ لأنه لا يصح فيه تقدير (في). و ﴿الَّذِينَ﴾ مضاف إليه. و ﴿إِيَّاكَ﴾ مفعول مقدم على الفعل والفاعل، وهو منصوب بـ ﴿نَعْبُدُ﴾ بعدها.

و (إيا) عند الخليل وسيبويه اسم مضمّر، و(الكاف) حرف خطاب عند سيبويه لا موضع لها، ولا تكون اسماً، وعند الخليل اسم مضمّر أضيفت (إيا) إليه.

﴿وإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ الواو حرف عطف، وما بعدها معطوف على ما قبلها.

﴿أَهْدِنَا﴾ فعل بلفظ الأمر، و (نا) في محل نصب ومعناه: الدعاء والطلب؛ لأنه صادرٌ من أدنى إلى أعلى، وهو مجزوم، وفعل الأمر مبني على السكون عند البصريين، ومعرّب عند الكوفيين مجزوم بحذف الياء، فأصله هدى، والنون والألف مفعول أول لهدى.

﴿الصِّرَاطَ﴾ مفعول ثانٍ لهدى. ﴿صِرَاطَ﴾ بدل من الصراط.

﴿الَّذِينَ﴾ في موضع خفض بالإضافة، وهو اسم موصول مبني، صلته ﴿أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ﴾ والعائد الهاء والميم. ﴿أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ﴾ داخل في الصلة، فهو صلة الموصول ﴿الَّذِينَ﴾ والهاء والميم يعودان على ﴿الَّذِينَ﴾، ﴿غَيْرِ﴾ مجرور على أنه بدل من ﴿الَّذِينَ﴾ أو نعت له، أو بدل من الهاء والميم في ﴿عَلَيْهِمْ﴾ و﴿غَيْرِ﴾ مضاف، و ﴿الْمَعْصُومِ﴾ مضاف إليه.

﴿عَلَيْهِمْ﴾ في موضع رفع؛ لأنه اسم ما لم يُسم فاعله، والواو بعدها حرف عطف، و﴿لَا﴾ زائدة للتوكيد عند البصريين، أو بمعنى غير عند الكوفيين.

﴿وَلَا الضَّالِّينَ﴾ عطف على ما قبله.

(أمين) اسم فعل بمعنى: اللهم استجب، وهو مبني، وحُرك بالفتح لوقوع الياء قبل آخره، كما فتحت أين^(١)

(١) الإعراب مقتبس من كتاب: «إملاء ما منَّ به الرحمن من وجوه الإعراب والقراءات في جميع القرآن» على هامش حاشية الجمل، لأبي البقاء بن الحسن العكبري ج ١ سورة الفاتحة.

الْمُبْحَثُ الْخَامِسُ عَشَرَ: فِي رَحَابِ الصَّلَاةِ مِنَ التَّكْبِيرِ إِلَى التَّسْلِيمِ

١- تمهيد: الصلاة عماد الدين، وركنه المتين، والمسلم مطالب بتدبر سورة الفاتحة في تلاوته بصفة عامة، وفي صلاته بصفة خاصة، فلا يليق بالمسلم أن يقف بين يدي الله تعالى ويأتي بأفعال وأقوال لا يحاول فهم معناها، ولا يليق به أن يناجي ربه في صلاته بكلام لا يدرك معناه، وقد أمر سبحانه بتدبر القرآن وحض عليه في قوله تعالى:

﴿أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا﴾ [النساء: ٨٢].

﴿أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا﴾ [محمد: ٢٤].

ولو وقف الإنسان بين يدي مسؤول من الخلق، وشرده عنه بذهنه وهو يحادثه؛ لكان ذلك جرمًا كبيرًا يُعاقب عليه، فكيف به وهو واقف بين يدي رب العباد، وملك الملوك، وهو سبحانه يُجيب عبده حال قراءته للفاتحة: «حمدني عبدي» «أثنى عليَّ عبدي» «مجدني عبدي»، «هذا بيني وبين عبدي، ولعبي ما سأل».

وعدم تدبر القرآن نوعٌ من هجره، وقد شكَا الرسول ﷺ إلى ربه عدم تدبر أمته للقرآن، وهجرهم له، فقال تعالى: ﴿وَقَالَ الرَّسُولُ يَرَبِّ إِنَّ قَوْمِي اتَّخَذُوا هَذَا الْقُرْآنَ مَهْجُورًا﴾ [الفرقان: ٣٠].

ولا ينبغي للقارئ أن يصرفه عن التأمل والتدبر؛ انشغاله بتحسين القراءة، والحرص على أداء الحروف والألفاظ، والمبالغة في ذلك.

وتحسين الصوت بالقراءة أمرٌ مطلوب، رغب الإسلام فيه، وحث عليه، وهو يُعين على الخشوع والخضوع، ولكن الذي لا ينبغي هو صرف الهمة إلى الألفاظ، والمبالغة فيها، وانشغال القلب بها أكثر من انشغاله بالمعنى، فيصرفه هذا التكلف عن تدبر المغاني، وفقه الآيات، وفهم مقاصدها وأهدافها.

وقد مدح - سبحانه - الخاشعين في صلاتهم، وبيّن أن الخشوع في الصلاة من صفات المؤمنين الذين فازوا بالفلاح يوم القيامة، فقال تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ ﴿١﴾ الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ﴾ [المؤمنين: ١، ٢] فكان الخشوع في الصلاة هو أول صفاتهم وأخصها.

ومما يعين على الخشوع في الصلاة، تدبر قراءة سورة الفاتحة، وما يقرأه المسلم

أو يستمع إليه في الصلاة من القرآن الكريم، وتأمله له بوعي وإدراك وإقبال على الله تعالى، والتأمل أيضًا في أفعال الصلاة من قيام وركوع وسجود واعتدال، وكذا ما يقرؤه المسلم بعد ذلك من أذكار.

إِنَّ فَهَمَ سورة الفاتحة، وتحليل ألفاظها، ومعرفة مقاصدها وأهدافها يُعِينُ على الخشوع في الصلاة، وعلى دعم الصلة بين العبد وربّه، وصدق العروج إليه سبحانه بالقلب والروح آناء الليل وأطراف النهار في الصلوات الخمس.

٢- الله أكبر: يقف المسلم بين يدي الله تبارك وتعالى متطهرًا، مستقبلاً القبلة مستحضراً عظمة الله تعالى، كأنه يستقبل وجهه الكريم، ناوياً في قلبه أداء فرضه أو نافلته، بادئاً صلاته بالتكبير، مستشعراً بأن الله تعالى أكبرُ من كل شيء في الوجود، أكبر من الدنيا وما فيها وما عليها، أكبر من المال والبنين، أكبر من المنصب والجاه، يقف بين يدي ربه يدعوه ويناجيه ويخاطبه، فلا يليق أن يُشغَلَ عنه بغيره، ولا أن يفكر فيما سواه.

والتكبير من العبد إقرار لله تعالى بالكبرياء والعظمة، وبراءة للمصلي من صفة الكبر، حتى لا ينازع ربه صفة من صفاته، وحتى يتحلى بصفة التواضع، وإذا تواضع العبد لله رفعه؛ لأنه صار في مقام العبودية، وهو سبحانه يحب المتواضعين، ولا يحب المستكبرين.

٣- دعاء الاستفتاح: يستفتح المؤمن صلاته بالثناء على الله تعالى، وتوجيه وجهه إليه سبحانه، متبرئاً من الشرك وأهله، سائلاً ربه التوبة وغفران الذنوب، ومقرراً بأن حياته ومماته وصلاته ونُسُكُه لله وحده لا شريك له، متوجهاً بجسمه وعقله وقلبه إلى خالق هذا الكون ومبدعه، فاطر السموات والأرض، فهو وحده المستحق للعبادة دون سواه، وكأنَّ المسلم حين يقرأ دعاء الاستفتاح، يشاهد ربه بقلبه، وينزّهه عن جميع النقائص، ويقر باستحقاقه للحمد والثناء كله، فهو الذي لا يضر مع اسمه شيء في الأرض ولا في السماء، تعالى جدّه، وارتفعت عظمته فوق كل شيء، سبحانه أن يكون له شريك في ملكه، أو في إلهيته وربوبيته، أو أفعاله وصفاته، فإليه وجهتُ وجهي، ومنه وحده أطلب غفران ذنبي.

ومن أدعية استفتاح الصلاة:

(أ) اللهم باعد بيني وبين خطاياي كما باعدت بين المشرق والمغرب، اللهم نقني من خطاياي

كما يُنقى الثوب الأبيض من الدنس، اللهم اغسلني بالثلج والماء والبرد^(١).

(ب) وجهت وجهي للذي فطر السموات والأرض حنيئاً وما أنا من المشركين، إن صلاتي ونسكي ومحياي ومماتي لله رب العالمين، لا شريك له، وبذلك أمرت وأنا أول المسلمين، اللهم أنت الملك لا إله إلا أنت، أنت ربي وأنا عبدك، ظلمت نفسي، واعترفت بذنبي، فاغفر لي ذنوبي جميعاً، إنه لا يغفر الذنوب إلا أنت، واهدني لأحسن الأخلاق، لا يهدي لأحسنها إلا أنت، واصرف عني سيئها، لا يصرف عني سيئها إلا أنت، لبيك وسعديك، والخير كله في يديك، والشر ليس إليك، وأنا بك وإليك، تباركت وتعاليت، أستغفرك وأتوب إليك^(٢).

(ج) سبحانك اللهم وبحمدك، وتبارك اسمك، وتعالى جدُّك، ولا إله غيرك^(٣).

٤- الاستعاذة: ثم يعتصم المسلم بجانب الله تعالى من كيد الشيطان ومكره، ويستجير به من همزه ونفخه ونفثه، مُقرّاً ومعتزّاً بعداوتة له، وبِعِزِّه وضعفه أمام حِيلِه ووساوسه، ويُعلن أنه باستعاذته بالله تعالى يأوي إلى ركن شديد، ويعتصم بحول الله تعالى وقوته من عدوّه اللدود الذي يريد أن يقطع الصلة بينه وبين ربه (أعوذ بالله من الشيطان الرجيم).

٥- التسيب في الصلاة: وفي التسيب أثناء الركوع والسجود إقبالاً على الله تعالى، وتنزيه له سبحانه، وتقديسٌ لعظمته، واقترابٌ من ساحة رضوانه ﴿وَأَسْجُدْ وَاقْتَرِبْ﴾ [العلق: ١٩] ﴿فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ﴾ [الواقعة: ٧٤] ﴿سَبِّحْ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى﴾ [الأعلى: ١].

وفي الدعاء بين السجدين وبعد الركوع تعبُّدٌ وتضرع وخشية وإناابة، وقد خُصَّ القيام

(١) أخرجه البخاري (٧٤٤) ومسلم (٥٩٨) وأبو داود (٧٨١) والنسائي في «الكبرى» (٩٧٠، ٧١، ٦٠) وابن ماجه (٨٠٥) و«المسند» (٧١٦٤) وابن حبان (١٧٧٦) كلهم عن أبي هريرة، وانظر: «جامع الأصول» حديث رقم (٢١٤٦).

(٢) أخرجه مسلم (٢٠١، ٧٧١) والنسائي في «الكبرى» (٩٧٣) وأبو داود (٧٤٤) والترمذي (٢٦٦) عن علي بن أبي طالب ومحمد بن سلمة، وانظر: «جامع الأصول» حديث رقم (٢١٥١) وهو في ابن ماجه (٨٦٤) و«المسند» (٨٠٢) وابن حبان (١٧٧١) والبخاري في جزء رفع اليدين (١، ٩).

(٣) من حديث أبي سعيد الخدري أخرجه الترمذي (٢٤٢) وأبو داود (٧٧٥) وابن ماجه (٨٠٤) و«المسند» (١١٤٧٢) وهو حديث ضعيف كما سبق بيانه في المبحث الرابع وانظر: «جامع الأصول» ج ٤ حديث رقم (٢١٥٢) وينظر حديث رقم (٢١٨٨).

بالقراءة، والركوع والسجود بالذكر والتسبيح، حال انخفاض المسلم وخضوعه وخشوعه مع وصف الله تبارك وتعالى بالعظمة والعلو، وهو يضاد الكبر ويعالجه.

٦- **التشهد:** كان الناس في الجاهلية يُحيون ملوكهم وأكابرهم بأنواع من التحيات المختلفة من تقبيل للأرض، أو سجد، أو قيام، أو ركوع، أو انحناء، أو تسليم مع تعظيم، كما نرى ذلك بين يدي بعض الملوك والرؤساء؛ وكان بعضهم يقول: أنعم صباحاً، أو لك البقاء والنعمة، أو أطال الله بقاءك، أو تعيش ألف عام.

قال الحسن: كان أهل الجاهلية يتمسحون بأصنامهم ويقولون: لك الحياة الطيبة، فلما جاء الإسلام أمر أن يجعلوا أطيب التحيات وأزكاها وأفضلها لله تعالى، فقد ألغى الإسلام جميع أنواع التحيات التي كانت تُحيّا بها ملوك الأرض وأصنامها، وجمع الإسلام كل هذه التحيات ونحوها لله تعالى خاصة، وأمر أبناءه أن يتوجهوا بها إلى الحي القيوم، فهو وحده المستحق لجميع التحيات والتعظيمات، ولجميع ما يُحيّى به البشر عظماءهم وملوكهم، ومن عجب أن يبقى شيء من رواسب الجاهلية يُعظّم به بعض الملوك والحكام إلى وقتنا هذا...!!

وهذه التحيات هي التي حيّا بها الرسول ربه ليلة الإسراء والعروج حيث قال: «التحيات لله والصلوات والطيبات»، وقد أمر المسلم أن يقرأ هذه التحيات حين يعرّج إلى ربه في صلاته، أي: أن التحيات بجميع ألوانها مستحقّة لله وحده، فهو الحي الدائم الذي لا يزول ملكه، خالق الخلق وموجدهم من العدم.

والصلوات: بأقوالها وأفعالها وأذكارها ودعائها يُراد بها تعظيم الله تعالى، فهو وحده المستحق لها، والصلاة لغيره كفر وشرك.

والطيبات: من الأقوال والأفعال والصفات والأسماء، وكل ما يُثنى به على الله تعالى، وكل ما طاب من الكلمات والأعمال، لا يليق إلا بجلال الله سبحانه، حيث لا يُعبد إلا الله، ولا يُثنى إلا على الله، فهو سبحانه طيب، لا يقبل إلا طيباً، ولا يصدر منه إلا الطيب، ولا يصعد إليه إلا طيب.

كل ذلك مستحق لله وحده، ولا يليق بغيره سبحانه، والمصلي يجلس بين يدي ربه جلسة الراغب الراهب، يسأل ربه ما لا غنى له عنه، ويقدم التحيات بين يدي سؤاله،

ويتوسل إلى الله بعبادته والثناء عليه، والشهادة له وحده بالوحدانية، ولرسوله بالرسالة، ثم يُتبع ذلك بالصلاة على مَنْ نالت أمته هذه النعمة على يديه، ثم الصلاة على آله تكميلاً لقرة عينه، وهي أفضل صيغ الصلاة على الرسول، ثم يثنّي فيصلّي على أبي الأنبياء إبراهيم عليه السلام وآله.

٧- السلام عليك أيها النبي ورحمة الله وبركاته: السلام من أنواع التحيات، وقد شرع للمسلم أن يبدأ بالسلام على أشرف خلق الله وأحبههم إليه، وأقربهم منه منزلة، وهو تنزيه للنبي ﷺ حيّاً وميتاً من جميع النقائص، ودعاءً له بالرحمة، وثناءً عليه، وتعظيمً له.

والمسلم يستحضر في قلبه وهو يتشهد، عظمة الله عز وجل وهو يقف بين يديه، كأنه يراه، وهو الذي أرسل إليه نبيه محمداً الذي يسلم عليه في صلاته ويقول: (السلام عليك أيها النبي ورحمة الله وبركاته)، وفي ذلك استحضار وترديد ومحاكاة لما حيّا الله تعالى به رسوله ليلة العروج، والعبء وهو يصلي يعرج إلى ربه في صلاته ويخاطبه ويناجيه، ويقوم في حضرته بين يديه صباحاً ومساءً، وهو يردد هذه الصيغة التي حيّا الله تعالى بها رسوله.

وقد رد النبي ﷺ تحية ربه بقوله: (السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين)، وهو دعاء بالوقاية والسلامة من جميع الآفات والنقائص، ودعاء يصيب كلّ عبدٍ صالحٍ في السموات والأرض إلى يوم القيامة.

وكان الناس في الجاهلية يقولون: السلام على الله من عباده، فنهوا عن ذلك، قال ابن مسعود: كنا نقول في الصلاة خلف رسول الله ﷺ: السلام على الله، السلام على فلان، فقال لنا رسول الله ﷺ ذات يوم: «إن الله هو السلام، فإذا قعد أحدكم في الصلاة فليقل: التحيات لله، والصلوات والطيبات، السلام عليك أيها النبي ورحمة الله وبركاته، السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين، أشهد أن لا إله إلا الله، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله»^(١).

وأمر أن يستبدلوا ذلك بهذه العبارة: (السلام علينا وعلى عباده الصالحين) وكأننا لمّا بدأنا بالتحيات لله أراد سبحانه أن يرد علينا بالتحية، ولّمّا لم يكن في مقدورنا أن نسمع كلام الله تعالى، فقد أجرى رد التحية على لساننا: (السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين).

(١) مسلم (٣٠١/١) برقم (٤٠٢) والبخاري برقم (٨٣١، ١٢٠٢، ٦٣٢٨) وأبو داود (٩٦٨، ٩٦٩) وابن ماجه (٨٩٩) و«المسند» (٣٦٢٢) وابن حبان (١٩٤٨، ١٩٤٩).

وفي النطق بالشهادتين في التشهد أثناء الصلاة إقراراً بالتوحيد والرسالة، وتجديداً للعهد مع الله تعالى على الإيمان به، والاستمرار على العمل بشريعته، واتباع هدي رسوله، وفيه تعظيم للنبي ﷺ، وإظهار دينه، كما عظم إبراهيم أبو الأنبياء ورسالته، فالمصلي يطلب من ربه أن يكون محموداً محبوباً مباركاً كما هو الشأن في أبيه إبراهيم.

٨- الدعاء في نهاية التشهد: ثم يذكر العبد ربه في نهاية الصلاة بما شرعه له من الأدعية في نهاية التشهد؛ كما قال ﷺ: «اللهم إني أعوذ بك من عذاب القبر، وأعوذ بك من عذاب جهنم، ومن فتنة المحيا والممات، وفتنة المسيح الدجال»^(١).

وبعد الاستعاذة بالله تعالى من أسباب الفتن ومجامع الشر يتخير العبد من أحب الدعاء له ولوالديه وجميع المؤمنين، ثم يُسَلِّم على الملائكة ومن معه من المؤمنين، ويلتفت يميناً وشمالاً.

٩- الذكر بعد الصلاة: ثم يُقبل العبد على الدنيا من جديد، بعد الفراغ من صلاته ذاكرةً ربه بما شرعه له من الاستغفار والثناء، وأنه وحده المعطي المانع، وأن الإنسان لا ينفعه نسبه وحسبه أو غناه وجاهه، ثم يسبح الله ثلاثاً وثلاثين، ويحمده ثلاثاً وثلاثين، ويكبره ثلاثاً وثلاثين ويقول تمام المائة: لا إله إلا الله، وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد، وهو على كل شيء قدير، ويقرأ آية الكرسي والمعوذات

وفي صلاتي الفجر والمغرب يزيد المسلم على هذه الأذكار: (لا إله إلا الله وحده لا شريك له له الملك وله الحمد يحيي ويميت وهو على كل شيء قدير) عشر مرات.

وبعد: فهذه مباحث خمسة عشر، خُصت بها سورة الفاتحة، وتناولت جميع ما يتعلق بجوانبها المختلفة، أسأل الله تعالى أن ينفع بها، وأن يغفر لي ما كان من نقص أو خلل، وألا يحرمني الأجر والثوبة على ما بذلته من جهد المقل، وصلى الله على نبينا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

تمت مباحث سورة الفاتحة وملحقاتها والله الحمد والمنة.

(١) من حديث أبي هريرة في مسلم (٥٨٨) وأبي داود (٩٨٣) وابن ماجه (٩٠٩).

تَفْسِيرُ سُورَةِ الْبَقَرَةِ (٢)

أ- في فضل سورة البقرة

١- وسورة البقرة هي سنام القرآن، ومن الأحاديث الواردة في فضلها، ما جاء في صحيح مسلم وغيره من حديث أبي أمامة الباهلي رضي الله عنه قال: سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: «اقرأوا القرآن، فإنه يأتي يوم القيامة شفيعاً لأصحابه، اقرأوا الزهراوين: البقرة وسورة آل عمران؛ فإنهما تأتيان يوم القيامة كأنهما غمامتان، أو كأنهما غيايتان، أو كأنهما فرقان من طير صواف، تُحاجَّان عن أصحابهما، اقرأوا سورة البقرة؛ فإن أخذها بركة، وتركها حسرة، ولا يستطيعها البطلة»^(١).

والغياية: كل شيء أظلك فوق رأسك كالسحابة، والزهراء: النيرة المضيئة، والغمامة: السحابة والفرقان: بكسر الفاء، القطيعان أو الجماعتان والبطلة: هم السحرة، سُمُوا بطلة: لأن ما يأتون به باطل، فسمُّوا بطلة باسم عملهم، وصواف: أي مصطفة متضامنة.

وسورة البقرة فيها إبطالٌ للسحر، وفيها بيان أن تعليمه وتعلُّمه كُفر، وفيها إبطالٌ للعين أيضاً، ولا يستطيع السحرة أن يفعلوا شيئاً في البيت الذي يُداوم فيه على تلاوة سورة البقرة، كل ثلاثة أيام.

٢- وفي حديث بريدة رضي الله عنه مرفوعاً قال: كنت جالساً عند النبي ﷺ فسمعتَه يقول: «تعلَّموا سورة البقرة وآل عمران فإنهما الزهراوان، تُظِلَّان صاحبهما يوم القيامة، كأنهما غمامتان»^(٢).

(١) «صحيح مسلم» برقم (٨٠٤) و«المسند» برقم (٢٢١٤٦) وابن حبان (١١٦) والطبراني (٧٥٤٢) والحاكم (٥٦٤/١) والبيهقي (٣٩٥١٢).

(٢) أحمد (٣٥٢/٥) برقم (٢٢٩٥٠) بإسناد حسن، من حديث طويل، والدارمي في «فضائل القرآن» (٢/٤٥٠) وصححه الحاكم (٥٦٠/١) على شرط مسلم ووافقه الذهبي من حديث بريدة، ولفظه بزيادة (أو غيايتان، أو فرقان من طير صواف) وقال الألباني في صحيح الترغيب والترهيب (١٤٦٦) حسن صحيح، وأخرجه البغوي في شرح السنة (١١٩٠٠) والتفسير (٣٣/١).

ففي الحديث بيان أنهما يُظْلان قارئهما يوم تدنوا الشمس من الرؤوس، ويوم لا ظل إلا ظل الله تبارك وتعالى، كما في حديث السبعة الذين يظلهم الله في ظله يوم لا ظل إلا ظله.

٣- وفي الحديث عن النواس بن سمعان رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «يُؤْتَى بالقرآن يوم القيامة وأهله الذين كانوا يعملون به، تَقْدُمُهُ سورة البقرة وآل عمران كأنهما غمامتان، أو ظِلَّتَانِ سَوْدَاوانِ تُحَاجَّانِ عَنْ صَاحِبِهِمَا»^(١).

ومن فضل سورة البقرة أنها تطرد الشياطين من البيت الذي تُقْرَأ فيه، وحدثت بعض الأحاديث طرد الشياطين، بثلاثة أيام تُقْرَأ فيها سورة البقرة في البيت، كما في الحديث الآتي، كي يعاود المسلم قراءتها في بيته بين الحين والآخر، كل ثلاثة أيام.

٤- ففي صحيح مسلم وغيره عن أبي هريرة ؓ أن النبي عليه الصلاة والسلام قال: «لا تجعلوا بيوتكم مقابر؛ فإن الشيطان ينفر من البيت الذي تُقْرَأ فيه سورة البقرة». ولفظ الترمذي «وإن البيت الذي تُقْرَأ فيه سورة البقرة لا يدخله شيطان»^(٢).

وجعل البيوت كالقبور، يكون أيضاً بترك صلاة النوافل فيها، وبترك قراءة القرآن فيها، وتعميرها يكون بقراءة القرآن وبالصلاة فيها، إن الشيطان لا يدخل البيت الذي تُقْرَأ فيه سورة البقرة.

ومن يحفظ سورة البقرة فهو أمير القوم ولو كان أصغرهم، وقد أمر النبي ﷺ صغير السن الذي يحفظ سورة البقرة، على كبار القوم، وكان ﷺ يُقَدِّمُهُ على غيره في صلاة الجنازة، والقرآن يشفع لقارئه يوم القيامة.

والملائكة تشارك المسلم في الاستماع للقرآن، والدواب تخشع وتهتز حين تُقْرَأ سورة البقرة:

٥- فقد أخرج البخاري ومسلم وغيرهما ما معناه: أن (أُسَيْدَ بْنَ حُضَيْرٍ) كان يقرأ سورة

(١) ينظر الحديث في «صحيح مسلم» (٨٠٥) والترمذي (٢٨٨٣) وأحمد (١٨٣/٤) برقم (١٧٦٣٧) والترمذي (٢٨٨٣).

(٢) أخرجه مسلم عن أبي هريرة برقم (٧٨٠) في صلاة المسافرين والترمذي في «فضائل القرآن» برقم (٢٨٧٧) والنسائي في «السنن الكبرى» برقم (٨٠١٥) وأحمد (٧٨٢١) وغيرهم، وهو في صحيح الترغيب والترهيب برقم (١٤٥٨).

البقرة في الليل، وكانت عنده فرسٌ مربوطة، كلما قرأ جالت الفرس وتحركت، فإذا سكّت سكنت، وكان ابنه (يحيى) قريباً منها، فخاف على نفسه أن تطأه الفرس، فابتعد عنها، فرفع (أسيّد) رأسه إلى السماء، فإذا مثل الظلّة فوق رأسه، فيها أمثال المصابيح، وعرجت الفرس في الجوّ ولم يرها، فلما أصبح (أسيّد) حدّث النبي ﷺ بما حصل، فقال له النبي ﷺ «أوتدري ما ذاك؟» قال: لا، قال: «تلك الملائكة دنت لصوتك، ولو قرأت لأصبحث ينظر الناس إليها لا تتوارى منهم»^(١).

فهؤلاء هم الملائكة المكرمون يقتربون من (أسيّد) يستمعون لسورة البقرة.

وهذه هي الحيوانات تخشع وتتاثر وتهتزّ لسماع القرآن، كما أن الجبال تتصدّع من خشية الله تعالى، ﴿لَوْ أَنزَلْنَا هَذَا الْقُرْآنَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُ خَاشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ اللَّهِ﴾ [الحشر ٢١] فما بالكم بالإنسان وما أودع الله فيه من عقل وفكر؟!

٦- وعن سهل بن سعد رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ «إن لكل شيء سناماً وإن سنام القرآن سورة البقرة»^(٢)

٧- وعن النعمان بن بشير رضي الله عنهما عن النبي ﷺ قال: «إن الله كتب كتاباً قبل أن يخلق السموات والأرض بألفي عام، أنزل منه آيتين ختم بهما سورة (البقرة) لا يُقرآن في دار ثلاث ليال فيقربها شيطان»^(٣)

(١) ينظر النص في «صحيح البخاري» معلقاً برقم (٥٠١٨) و«المسند» (٨١/٣) و«صحيح مسلم» (٧٩٥، ٧٩٦) والنسائي في «فضائل الصحابة» برقم (١٤٠) وفي «الكبرى» (٨٠١٦، ٨٢٤٤) والطبراني في «المعجم الكبير» برقم (٥٦١) وما بعده، وابن حبان (٧٧٦) و«المستدرک» (٥٥٤/١) ولهذا الحديث ألفاظ وهو في صحيح الترغيب والترهيب برقم (١٤٦٤).

(٢) رواه ابن حبان في صحيحه، ورواه الترمذي عن حكيم بن جبير عن أبي صالح عن أبي هريرة وقال: حديث غريب، وقال الألباني في صحيح الترغيب والترهيب برقم (١٤٦١-١٤٦٢) حسن لغيره.

(٣) رواه الترمذي وقال: حديث حسن غريب والنسائي وابن حبان والحاكم، وصححه الألباني في صحيح الترغيب والترهيب برقم (١٤٦٧).

ب - مُقَدِّمَةُ السُّورَةِ

سورة البقرة هي السورة الثانية في ترتيب المصحف، والسابعة والثمانون في ترتيب النزول، نزلت بعد سورة المطففين وقبل سورة آل عمران. وسورة البقرة أطول سورة في كتاب الله عز وجل، فهي جزءان ونصف الجزء وهي أول ما نزل بالمدينة.

ابتدأ نزولها بعد الهجرة، وظل مفتوحاً حتى نزلت آخر آية في القرآن، وفيها أطول آية في القرآن الكريم، وهي آية المداينة، وفيها أفضل آية في كتاب الله جلّ شأنه، هي آية الكرسي، وسورة البقرة ست وثمانون ومئة آية في المصحف الكوفي الذي بين أيدينا، وفق رواية حفص عن عاصم^(١).

وكلماتها: ستة آلاف ومئة وإحدى وعشرون كلمة، وحروفها: خمسة وعشرون ألفاً، وخمس مئة حرف.

وسُمِّيت (سورة البقرة) لذكر قصة البقرة فيها.

وفي حديث عبد الرحمن بن زيد أن ناساً كانوا يكرهون أن يقولوا: سورة البقرة، وآل عمران، حتى يقولوا: السورة التي يُذكر فيها البقرة، والسورة التي يذكر فيها آل عمران، فسمعوا عبد الله بن مسعود وهو يرمي الجمرات مستقبل الكعبة يقول: والذي لا إله غيره، رمى الذي أنزلت عليه سورة البقرة^(٢).

وما ورد في ذلك عن أنس رضي الله عنه: لا تقولوا سورة البقرة، ولكن قولوا: السورة

(١) وسبع وثمانون ومئة آية في المصحف البصري، وخمس وثمانون ومئة آية في بقية المصاحف وهي: المدني الأول، والمدني الأخير، والمكي، والشامي، وهي المصاحف التي أرسلها عثمان رضي الله عنه إلى الأمصار، وسبب هذا الاختلاف: أن النبي ﷺ وقف على آيات دائماً، ووصل كلمات دائماً، فلم يختلف في الوقف على الأول ووصل الثاني، وهناك آيات وقف عليها النبي ﷺ مرة ووصلها مرة، فأخذ بعضهم بالأول، وأخذ الآخرون بالثاني.

(٢) الحديث أخرجه أحمد في «المسند» (٤٠٨٩، ٤١١٧) والبخاري (١٧٤٧، ١٧٥٠) ومسلم (١٢٩٦) وأبو داود (١٩٧٤) والترمذي (٩٠١) والنسائي (٣٠٧١) وابن ماجه (٣٠٣٠).

التي يُذكر فيها البقرة، فهو أثر ضعيف^(١).

وقد صحَّ ذكر اسم السورة مباشرةً في كثير من الأحاديث، منها حديث عوف بن مالك الأشجعي، قال: قمت مع رسول الله ﷺ ليلةً فقام، فقرأ سورة البقرة؛ لا يمر بآية رحمة إلا وقف فسأل، ولا يمر بآية عذاب إلا وقف فتعوّذ، ثم ركع بقدر قيامه، يقول في ركوعه: «سبحان ذي الجبروت والملكوت والكبرياء والعظمة» ثم سجد بقدر قيامه، ثم قال في سجوده مثل ذلك، ثم قام فقرأ بـ (آل عمران) ثم قرأ سورة سورة^(٢).

وهي سورة مدنية بالإجماع، ابتدأ نزولها على رسول الله ﷺ بعد الهجرة النبوية، بعدما أُقيمت الدولة الإسلامية في المدينة النبوية واجتثت جذور الوثنية في مكة، وأصبحت الدولة بحاجة إلى منهج إلهي يرسم لها الطريق والشريعة التي تسير عليها، فكانت سورة البقرة، حيث قسّمت الناس في أولها إلى مؤمنين وكافرين ومنافقين، ثم دعت الجميع إلى عبادة الله الواحد، فقد ذكر الله سبحانه أن أصناف الخلق ثلاثة:

١- المؤمنون المستجيبون لله والرسول، وهم المتقون المقربون الأبرار.

٢- والكفار الذين جحدوا واستكبروا عن الإيمان بالله ورسوله.

٣- والمنافقون في عقيدتهم وفي سلوكهم وأعمالهم.

وبيّن سبحانه أن هذا القرآن يستفيد منه ويهتدى به أهل التقوى فقط، فقال تعالى:

﴿فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ﴾.

وقد أنزله الله تعالى لهداية الناس كافة فهو ﴿هُدًى لِّلنَّاسِ﴾ [البقرة: ١٨٥].

أما الكفار فإنهم لن يهتدوا به أبداً ﴿سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾.

ومنافقو العقيدة كفاراً أيضاً، قال تعالى ﴿وَاللَّهُ مُحِيطٌ بِالْكَافِرِينَ﴾.

وبعد هذا التقسيم، دعاهم جميعاً إلى عبادة الله وتوحيده، فهي الغاية التي خُلِقوا من

(١) وقد أخرجه الطبراني (٥٧٥٥) والبيهقي، «مجمع الزوائد» (٢٥٨٢) قال الهيثمي: وفيه عيسى بن ميمون وهو متروك، (١٥٧/٧).

(٢) «صحيحه الألباني، سنن أبي داود» (٧٧٦) وهو في سنن الترمذي (٢٩٨) والنسائي (١٠٤٨، ١١٣١).

أجلها ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات: ٦٥]

وقد خاطب الله المؤمنين المتقين في أربع آيات، وخاطب الكفار في آيتين اثنتين، وخاطب المنافقين في ثلاث عشرة آية، وضرب لهم الأمثال الموضحة؛ لأن المنافق مُحيرٌ، له ظاهرٌ وباطنٌ، غير معلوم الحقيقة لعامة الناس، كالمؤمن والكافر، فكلاهما معروفٌ، لا يحتاج إلى عناء بحث كالمنافق.

وخُتم هذا المقطع ببيان مصير كل من المتقين والكافرين يوم لقاء رب العالمين.

وذكرت السورة بعد ذلك قصة خلق آدم، وبيان فضله بالعلم والمعرفة، وامتناع إبليس من السجود له حسداً وكبراً وعلواً.

ج - بدء الحديث عن بني إسرائيل (اليهود):

وتحدثت سورة البقرة في نصفها الأول عن بني إسرائيل، وهم أول شعب ذو رسالة كبرى، بعد الحديث عن بدء الخلق وقصة آدم وإبليس، ومن ثمَّ إلى الحديث عن القبلية وتحويلها، فخصَّتهم بأول حديث يُوجَّه من القرآن إلى اليهود المجاورين للنبي ﷺ في المدينة وما حولها، تخاطبهم وتحدثهم وتدعوهم إلى الإيمان بالله وحده، وتشير في أول آية منها إلى أنهم ليسوا على شيء بما زيفوه، وأن هذا القرآن هو كتاب الهداية للبشر جميعاً.

د - اثنتا عشرة وصية لليهود بعد النداء الأول لهم في القرآن:

وفي أول نداء لبني إسرائيل أوصاهم الله تعالى باثنتي عشرة وصية، وهي:

١- وجوب الوفاء بالعهود والمواثيق ﴿وَأَوْفُوا بِعَهْدِي أُوفِ بِعَهْدِكُمْ﴾. [الآية: ٤٠]

٢- وجوب الخوف من الله تعالى: ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ﴾. [الآية: ٤٠].

٣- وجوب الإيمان بخاتم الرسل ﷺ ﴿وَعَامِنُوا بِمَا أَنزَلْتُ مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَكُمْ﴾. [الآية: ٤١]

٤- عدم الكفر بخاتم النبيين ﴿وَلَا تَكُونُوا أَوَّلَ كَافِرٍ بِهِ﴾. [الآية: ٤١].

٥- عدم بيع الآخرة بالدنيا ﴿وَلَا تَشْتَرُوا بِآبَاتِي ثَمَنًا قَلِيلًا﴾. [الآية: ٤١]

٦- الأمر بتقوى الله تعالى ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ﴾. [الآية: ٤١]

- ٧- عدم خلط الباطل بالحق ﴿وَلَا تَلْبِسُوا الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ﴾. [الآية: ٤٢]
- ٨- عدم كتمان أوصاف النبي ﷺ الموجودة لديهم في التوراة الأصلية ﴿وَتَكْنُبُوا الْحَقَّ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾. [الآية: ٤٢]
- ٩- الأمر بإقامة أصول الإسلام وفروعه كالصلاة والزكاة ﴿وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ﴾. [الآية: ٤٣]
- ١٠- الركوع مع الراكعين من أمة محمد ﷺ ﴿وَأَزْكَوْا مَعَ الرَّاكِعِينَ﴾. [الآية: ٤٣]
- ١١- عدم مخالفة الأقوال للأفعال ﴿أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنْسَوْنَ أَنْفُسَكُمْ﴾. [الآية: ٤٤]
- ١٢- الاستعانة بالصبر والصلاة على أمور الدنيا والآخرة ﴿وَأَسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ﴾. [الآية: ٤٥]
- هـ - عشر من نعم الله تعالى على اليهود: وتحدثت السورة في الربع الثالث منها عقب النداء الثاني لبني إسرائيل عن عشر من النعم التي أنعم الله تعالى بها عليهم، وهي:
- ١ - نجاتهم من ظلم فرعون وبطشه ﴿وَإِذْ نَجَّيْنَاكَ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكَ سُوءَ الْعَذَابِ﴾. [الآية: ٤٩].
- ٢- فَرَقُ البحر وجَعْلُهُ طَرَقًا يابسة بعدد أسباط بني إسرائيل ﴿وَإِذْ فَرَقْنَا بِكُمْ الْبَحْرَ فَأَنْجَيْنَاكَ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ﴾. [الآية: ٥٠].
- ٣- عفو الله عنهم بعد عبادتهم للعجل ﴿ثُمَّ عَفَوْنَا عَنْكُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ﴾. [الآية: ٥٢].
- ٤- نزول التوراة على موسى عليه السلام ﴿وَإِذْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَالْفُرْقَانَ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾. [الآية: ٥٣].
- ٥- قبول توبتهم من عبادة العجل ﴿فَتُوبُوا إِلَى بَارِيكُمْ﴾ إلى قوله تعالى: ﴿فَنَابَ عَلَيْكُمْ﴾. [الآية: ٥٤].
- ٦- بَعَثَ من مات منهم بالصاعقة حين طلبوا رؤية الله تعالى جهرة ﴿ثُمَّ بَعَثْنَاكَ مِنْ بَعْدِ مَوْتِكَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾. [الآية: ٥٦].
- ٧- تظليل الغمام لهم وهم في صحراء سيناء ﴿وَوَهَبْنَا لَكُمْ الْغَمَامَ﴾. [البقرة: ٥٧]

٨- نزول المن والسلوى عليهم: ﴿وَأَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْمَنَّاءَ وَالسَّلْوَىٰ كُلَّوْا مِنْ طَبَقَتِ مَا رَزَقْنَكُمْ﴾ [البقرة: ٥٧].

٩- دخول أريحا أو بيت المقدس: ﴿وَإِذْ قُلْنَا ادْخُلُوا هَذِهِ الْقَرْيَةَ فَكُلُوا مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ رَغَدًا وَادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا وَقُولُوا حِطَّةٌ نَغْفِرْ لَكُمْ خَطِيئَتَكُمْ وَسَيَزِيدُ الْمُحْسِنِينَ﴾ [البقرة: ٥٨]

١٠- تفجير الحجر وخروج الماء منه بعدد الأسباط: ﴿فَقُلْنَا اضْرِبْ بِعَصَاكَ الْحَجَرَ فَانفَجَرَتْ مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا﴾ [البقرة: ٦٠]

و - اثنتان وثلاثون مخالفة من اليهود في أوائل سورة البقرة:

وتناولت السورة اثنتان وثلاثون مخالفة من مخالفات اليهود ذكرت في الجزء الأول منها، ومجمل هذه المخالفات هي:

١- عدم إيمانهم بالتوراة إلا تحت وطأة التهديد برفع الجبل فوقهم قال تعالى:

﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطُّورَ خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ وَاذْكُرُوا مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [البقرة: ٦٣]

وقال سبحانه: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطُّورَ خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ وَأَسْمِعُوا قَالُوا سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا﴾ [البقرة: ٩٣]

وقال جل شأنه: ﴿وَإِذْ نَقَّنا الْجَبَلَ فَوْقَهُمْ كَأَنَّهُ ظُلَّةٌ وَظَنُوا أَنَّهُ وَاقِعٌ بِهِمْ خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ وَاذْكُرُوا مَا﴾ [الأعراف: ١٧١].

٢- صيد السمك في يوم العبادة وقد نهوا عنه، قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ عَلَّمْتُمُ الَّذِينَ آغَدُوا مِنْكُمْ فِي السَّبْتِ فَقُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ﴾ [البقرة: ٦٥]

وقال سبحانه: ﴿وَسَأَلْتَهُمْ عَنِ الْقَرْيَةِ الَّتِي كَانَتْ حَاضِرَةَ الْبَحْرِ إِذْ يَعْدُونَ فِي السَّبْتِ إِذْ تَأْتِيهِمْ حِيتَانُهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرَعًا وَيَوْمَ لَا يَسْبِتُونَ لَا تَأْتِيهِمْ كَذَلِكَ نَبْلُوهُمْ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ﴾ [الأعراف: ١٦٣].

٣- التشدد والتعنت في ذبح البقرة، مع قسوة القلب وعدم الاعتبار بإحياء الموتى:

قال تعالى: ﴿وَإِذْ قُلْتُمْ نَفْسًا فَاذْرَئْهُمْ فِيهَا وَاللَّهُ خَرَجَ مَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ ﴿٧٦﴾ فَقُلْنَا اضْرِبُوهُ بَعْضَهَا

كَذَلِكَ يُحْيِي اللَّهُ الْمَوْتَى وَرُبِّيْكُمْ ءَايَتِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٧٣﴾ ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً وَإِنَّ مِنَ الْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ أَلْنَاْ نَهْرٌ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَاءٌ يَسْقَىٰ فَيَخْرُجُ مِنْهُ الْغَاءُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَاءٌ يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ وَمَا اللَّهُ بِغَفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٧٤﴾ [البقرة].

٤- تحريفهم لكلام الله تعالى في التوراة، كتغيير عقوبة الزاني المحصن من الرجم إلى الجلد والتشهير به، قال تعالى: ﴿أَنْظِمُوْهُ أَنْ يُؤْمِنُوْا لَكُمْ وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلِمَ اللَّهِ ثُمَّ يَحْرِفُوْنَهُ مِنْ بَعْدِ مَا عَقَلُوْهُ وَهُمْ يَعْلَمُوْنَ﴾ ﴿٧٥﴾ [البقرة].

وقال سبحانه: ﴿فَوَيْلٌ لِلَّذِيْنَ يَكْتُبُوْنَ الْكِتٰبَ بِأَيْدِيْهِمْ ثُمَّ يَقُوْلُوْنَ هٰذَا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ لِيَشْتَرُوْا بِهِ ثَمَنًا قَلِيْلًا فَوَيْلٌ لَهُمْ مِّمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيْهِمْ وَوَيْلٌ لَهُمْ مِّمَّا يَكْسِبُوْنَ﴾ ﴿٧٦﴾ [البقرة].

٥- رؤساء اليهود يغيرون أوصاف النبي ﷺ في التوراة، والجَّهَال يتبعونهم: قال تعالى: ﴿وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ ءٰمَنُوا قَالُوا ءٰمَنُوا قَالُوا وَإِذَا خَلَا بِغَضِبِهِمْ إِلَىٰ بَعْضٍ قَالُوا اتَّخَذْتُهُمْ يَمًا فَتَحَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ لِيُخَاجِجَكُمْ بِهِ عَنْ رَبِّكُمْ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ ﴿٧٦﴾ [البقرة].

٦- دعواهم أن النار لن تمسهم إلا أياماً معدودة هي التي عبدوا فيها العجل: قال تعالى حكاية عنهم: ﴿وَقَالُوا لَنْ تَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّامًا مَّعْدُوْدَةً قُلْ اتَّخَذْتُمْ عِنْدَ اللَّهِ عَهْدًا فَلَنْ يُخْلِفَ اللَّهُ عَهْدَهُ ؕ أَأَمْ تَقُوْلُوْنَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُوْنَ﴾ ﴿٨٦﴾ [البقرة].

وقال سبحانه: ﴿ذٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لَنْ تَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّامًا مَّعْدُوْدَتٍ وَغَرَّبُوا فِي دِيْنِهِمْ مَا كَانُوا يَفْعَلُوْنَ﴾ ﴿٩٤﴾ [آل عمران].

٧- عدم التزامهم بمواثيق الخلق والخالق على حد سواء قال تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرٰءِيْلَ لَا تَعْبُدُوْنَ إِلَّا اللَّهَ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَٰنًا وَذِي الْأَقْرَبِيْنَ وَالْيَتٰمَى وَالْمَسْكِيْنَ وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا﴾ [البقرة: ٨٣].

٨- أربعة أمثلة لنقض اليهود عهودهم، ومن ذلك قتل اليهودي لليهودي المتحالف مع قبيلة أخرى، وإخراج اليهودي المتحالف مع غيره من داره، وكل ذلك مخالفة لما ورد في التوراة:

قال تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ لَا تَسْفِكُوْنَ دِمَآءَكُمْ وَلَا تَخْرُجُوْنَ أَنْفُسَكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ ثُمَّ أَقْرَرْتُمْ وَأَنْتُمْ تَشْهَدُوْنَ﴾ ﴿٨٤﴾ ثُمَّ أَنْتُمْ هَٰؤُلَاءِ تَقُولُونَ أَنْفُسَكُمْ وَتَخْرُجُونَ فَرِيقًا مِنْكُمْ مِنْ دِيَارِهِمْ تَظَاهَرُونَ عَلَيْهِمْ بِالْإِثْمِ وَالْفُتُوْرِ وَإِنْ يَأْتُوكُمْ أُسْكِرْ تُوَدُّوهُمْ وَهُوَ مُحَرَّمٌ عَلَيْكُمْ إِخْرَاجُهُمْ أَفَتُؤْمِنُونَ

يَبْغِضُ الْكِتَابَ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ فَمَا جَزَاءُ مَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ مِنْكُمْ إِلَّا خِزْيٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يُرَدُّونَ إِلَى أَشَدِّ الْعَذَابِ وَمَا اللَّهُ بِغَفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٨٥﴾ [البقرة].

٩- تكذيبهم لرسول الله وقتلهم لهم، قتل زكريا ويحيى عليهما السلام:

قال تعالى: ﴿أَفَكُلَّمَا جَاءَكُمْ رَسُولٌ بِمَا لَا تَهْوَى أَنْفُسُكُمْ اسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ ﴿٨٧﴾﴾ [البقرة].

وقال سبحانه: ﴿وَإِذْ قُلْتُمْ يَمْسُكُنَا لَنْ نَصِيرَ عَلَى طَعَامٍ وَاحِدٍ...﴾ إلى قوله تعالى ﴿وَيَقْتُلُونَ النَّبِيَّاتِ بِغَيْرِ الْحَقِّ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ ﴿٦١﴾﴾ [البقرة].

وقال جل شأنه: ﴿... قُلْ فَلِمَ تَقْتُلُونَ أَنْبِيَاءَ اللَّهِ مِنْ قَبْلُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿٩١﴾﴾ [البقرة]

١٠- كفرهم بمحمد ﷺ وعدم الإيمان به بعد بعثته، مع اعترافهم به قبل بعثته:

قال تعالى: ﴿وَقَالُوا قُلُوبُنَا غُلْفٌ بَلْ لَعَنَهُمُ اللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَقَلِيلًا مَّا يُؤْمِنُونَ ﴿٨٨﴾ وَلَمَّا جَاءَهُمْ كِتَابٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا مِنْ قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَمَّا جَاءَهُمْ مِمَّا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ فَلَعَنَهُ اللَّهُ عَلَى الْكَافِرِينَ ﴿٨٩﴾﴾ [البقرة]

وقال سبحانه: ﴿وَلَمَّا جَاءَهُمْ رَسُولٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَهُمْ نَبَذَ فَرِيقٌ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ كِتَابَ اللَّهِ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ كَأَنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٠١﴾﴾ [البقرة]

١١- التعصب الديني عند اليهود قال تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ ءَامِنُوا بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ قَالُوا تَوْفَرُ بِمَا أَنْزَلَ عَلَيْنَا وَيَكْفُرُونَ بِمَا وَرَاءَهُ وَهُوَ الْحَقُّ مُصَدِّقًا لِمَا مَعَهُمْ﴾ [البقرة: ٩١]

١٢- عبادتهم للعجل الذهبي قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ جَاءَكُمْ مُوسَى بِالْبَيِّنَاتِ ثُمَّ اتَّخَذْتُمُ الْعِجْلَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَنْتُمْ ظَالِمُونَ ﴿٩٦﴾﴾ [البقرة]

وقال سبحانه: ﴿وَاتَّخَذَ قَوْمُ مُوسَى مِنْ بَعْدِهِ مِنْ حُلِيِّهِمْ عِجْلًا لَّهُمْ خَوَافٌ أَلَمْ يَرَوْا أَنَّهُ لَا يُكَلِّمُهُمْ وَلَا يَهْدِيهِمْ سَبِيلًا اتَّخَذُوهُ وَكَانُوا ظَالِمِينَ ﴿١٤٨﴾﴾ [الأعراف]

وقال جل شأنه: ﴿إِنَّ الَّذِينَ اتَّخَذُوا الْعِجْلَ سَيَنَالُهُمْ غَضَبٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَذَلَّةٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُفْتَرِينَ ﴿١٥٦﴾﴾ [الأعراف]

وقال تعالى حكاية عنهم: ﴿قَالُوا لَنْ نَبْرَحَ عَلَيْهِ عَنكِفِينَ حَتَّىٰ يَرْجِعَ إِلَيْنَا مُوسَىٰ﴾ ﴿٩١﴾ [طه]

١٣- ترك العمل بما في التوراة وإعلان العصيان:

قال تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطُّورَ خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ وَأَسْمِعُوا قَالُوا سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَأُشْرِبُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْعِجْلَ بِكُفْرِهِمْ قُلْ بِسْمَا يَأْمُرُكُمْ بِهِ إِيْمَنُكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ ﴿٩٣﴾ [البقرة]

وقال سبحانه: ﴿ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ فَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ لَكُنْتُمْ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ ﴿٩٤﴾ [البقرة].

١٤- دعواهم حق الامتياز على البشر، وأنهم شعب الله المختار:

وقال تعالى: ﴿قُلْ إِنْ كَانَتْ لَكُمْ أَلْدَارُ الْآخِرَةِ عِنْدَ اللَّهِ خَالِصَةً مِنْ دُونِ النَّاسِ فَتَمَنَّوْا الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ ﴿٩٤﴾ [البقرة]

وقال سبحانه: ﴿قُلْ يَتَّيْمِنَ الَّذِينَ هَادُوا إِنْ رَعَمْتُمْ أَنْكُمْ أَوْلِيَاءُ لِلَّهِ مِنْ دُونِ النَّاسِ فَتَمَنَّوْا الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ ﴿٩٦﴾ [الجمعة]

١٥- شدة حرصهم على الدنيا: قال تعالى: ﴿وَلَنَجْذِثَهُمْ أَخْرَصَ النَّاسِ عَلَىٰ حَيَوةٍ وَمَنْ الَّذِينَ أَشْرَكُوا يَوَدُّ أَحَدُهُمْ لَوْ يُعَمَّرَ أَلْفَ سَنَةٍ وَمَا هُوَ بِمُزَحَّزِّجٍ مِنَ الْعَذَابِ أَنْ يُعَمَّرَ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ﴾ ﴿٩٦﴾ [البقرة]

١٦- عداوتهم لرسول الوحي جبريل - عليه السلام - لأنه ينزل على الأنبياء بالعذاب:

قال تعالى: ﴿قُلْ مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِجِبْرِيلَ فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلَىٰ قَلْبِكَ بِإِذْنِ اللَّهِ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَهُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ ﴿٩٧﴾ مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِلَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَرُسُلِهِ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَالَ فَإِنَّ اللَّهَ عَدُوٌّ لِلْكَافِرِينَ ﴿٩٨﴾ [البقرة]

١٧- نقض اليهود الدائم للعهود والمواثيق، فكلما عاهدوا عهداً نبذة فريق منهم:

قال تعالى: ﴿أَوْكَلِمَا عَاهَدُوا عَهْدًا نَبَذَهُ فَرِيقٌ مِنْهُمْ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ ﴿١٠٠﴾ [البقرة]

١٨- تعلم السحر وتعليمه والعمل به: قال تعالى: ﴿وَاتَّبَعُوا مَا تَتْلُوا الشَّيَاطِينُ عَلَىٰ مُلْكٍ سُلَيْمَنَ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَنُ وَلَكِنَّ الشَّيَاطِينَ كَفَرُوا يُعَلِّمُونَ النَّاسَ السِّحْرَ وَمَا أُنْزِلَ عَلَى الْمَلَائِكَةِ بِإِذْنِ

هَرُوتَ وَمَرْوَتَ وَمَا يَعْلَمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّى يَقُولَا إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ... ﴿البقرة: ١٠٢﴾

١٩- إساءتهم ومغالطتهم للرسول ﷺ وتلاعبهم بالمصطلحات: قال تعالى: ﴿يَتَأْتِيَهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَقُولُوا رَعَيْنَا وَفُتُونَا وَاسْمَعُوا وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ ﴿البقرة: ١٧٤﴾

٢٠- حسدهم للنبي الخاتم ﷺ لأن الرسالة قد انتقلت منهم إلى العرب:

قال تعالى: ﴿مَا يَوْذُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَلَا الْمُشْرِكِينَ أَنْ يُنَزَّلَ عَلَيْكُمْ مِنْ خَيْرٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَاللَّهُ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾ ﴿البقرة: ١٧٥﴾
وَقُرْنِ الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى بِالْمُشْرِكِينَ الْوَثْنَيْنِ فِي حَسَدِهِمُ لِلْمُسْلِمِينَ وَلصاحب الرسالة ﷺ
٢١- تشكيكهم في الإسلام والطعن فيه بسبب قضية النسخ في القرآن:

قال تعالى: ﴿مَا نَنْسَخْ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِنْهَا أَوْ مِثْلَهَا أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ ﴿البقرة: ١٧٦﴾

وقال سبحانه: ﴿وَإِذَا بَدَلْنَا آيَةً مَكَانَ آيَةٍ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُزِيلُ قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ مُفْتِرٌ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ ﴿النحل: ١١١﴾

٢٢- الكشف عن نوايا اليهود تجاه المسلمين بتمنيهم كفرهم: ﴿وَدَّ كَثِيرٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّوكُمْ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِهِمْ مِنْ بَعْدِ مَا بَيَّنَّ لَهُمُ الْحَقُّ...﴾ ﴿البقرة: ١٠٩﴾

وقال سبحانه: ﴿وَدُّوا لَوْ تَكْفُرُونَ كَمَا كَفَرُوا فَتَكُونُونَ سَوَاءً﴾ ﴿النساء: ٨٩﴾

وقال جل شأنه: ﴿إِنْ يَشْفَقْكُمْ يَكُونُوا لَكُمْ أَعْدَاءً وَيَبْسُطُوا إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ وَأَلْسِنَتَهُمُ يَأْسُوءُ وَوَدُّوا لَوْ تَكْفُرُونَ﴾ ﴿المتحنة: ٢﴾

٢٣- زعمهم أن الجنة خلقت لهم: ﴿وَقَالُوا لَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَنْ كَانَ هُودًا أَوْ نَصْرَى تِلْكَ ءَامَانِيَّتُهُمْ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ ﴿البقرة: ١١٣﴾

٢٤- تكذيب كل من اليهود والنصارى للآخر: ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ لَيْسَتِ النَّصْرَى عَلَى شَيْءٍ وَقَالَتِ النَّصْرَى لَيْسَتِ الْيَهُودُ عَلَى شَيْءٍ وَهُمْ يَتْلُونَ الْكِتَابَ﴾ ﴿البقرة: ١١٣﴾
وَأثارت السورة الخلاف بين اليهود والنصارى وادعاء كل فريق منهم أنه المُحِقُّ.

- ٢٥- تخريب مساجد الله، وعلى رأسها المسجد الأقصى:
- قال تعالى: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ مَنَعَ مَسَاجِدَ اللَّهِ أَنْ يُذْكَرَ فِيهَا أَسْمُهُ وَاسْمَى فِي خَرَابِهَا أُولَئِكَ مَا كَانَ لَهُمْ أَنْ يَدْخُلُوهَا إِلَّا خَائِفِينَ لَهُمْ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ [البقرة: ١١٤]
- ٢٦- قولهم عزيز ابن الله كما قال تعالى: ﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا سُبْحَنَهُ﴾ [البقرة: ١١٦]
- وقال جل شأنه: ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ عُزَيْرٌ ابْنُ اللَّهِ﴾ [التوبة: ٣٠]
- ٢٧- مشابهة اليهود للوثنيين في جراتهم على الله تعالى وطلبهم رؤيته عياناً:
- وقال جل شأنه: ﴿وَإِذْ قُلْتُمْ يَمُوسَى لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَىٰ اللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْكُمُ الصَّاعِقَةُ وَأَنْتُمْ نَظَرُونَ﴾ [البقرة: ٢٤٧]
- وقال سبحانه: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ لَوْلَا يُكَلِّمُنَا اللَّهُ أَوْ تَأْتِينَا آيَةٌ كَذَلِكَ قَالَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ مِثْلَ قَوْلِهِمْ تَشَبَهَتْ قُلُوبُهُمْ قَدْ بَيَّنَّا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾ [البقرة: ٢٤٨]
- ٢٨- محاولتهم إخراج المسلمين من دينهم:
- قال تعالى: ﴿وَلَنْ رَضَىٰ عَنْكَ الْيَهُودُ وَلَا النَّصْرَىٰ حَتَّىٰ تَبِيعَ مِلَّتَهُمْ﴾ [البقرة: ١٢]
- وقال جل شأنه: ﴿وَوَدُّوا لَوْ تَكْفُرُونَ كَمَا كَفَرُوا فَتَكُونُونَ سَوَاءً﴾ [النساء: ٨٩]
- ٢٩- إعراضهم عن الإيمان بمحمد ﷺ وهو دعوة إبراهيم عليه السلام ﴿وَمَنْ يَرْغَبْ عَنْ مِلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلَّا مَن سَفِهَ نَفْسَهُ وَلَقَدْ اصْطَفَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ﴾ [البقرة: ١٢٠]
- ٣٠- دعواهم أن دينهم أفضل الأديان، ونبههم أفضل الأنبياء، وكتابهم أفضل الكتب: ﴿وَقَالُوا كُونُوا هُودًا أَوْ نَصَارَىٰ تَهْتَدُوا قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ [البقرة: ١٣٥]
- ٣١- التشكيك في الإسلام بسبب تحويل القبلة: ﴿سَيَقُولُ السُّفَهَاءُ مِنَ النَّاسِ مَا وَلَّهُمْ عَن قِبْلَتِهِمُ الَّتِي كَانُوا عَلَيْهَا قُلْ لِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ [البقرة: ١٤٢]
- ٣٢- كفرهم بمحمد ﷺ مع شدة معرفتهم له ﴿الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ وَإِنَّ فَرِيقًا مِنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ١٤٦]

وتحدثت السورة عن فضائل المسجد الحرام، وعن إبراهيم الخليل الذي رفع قواعد البيت، وبينت أن الإسلام هو دين التوحيد الذي جاء به إبراهيم عليه السلام، وأن اليهود والنصارى ليستا على ملة إبراهيم، كما تحدثت عن تحويل القبلة وطعنهم فيها.

وبعد الحديث عن اليهود بإسهاب رسمت السورة المنهج الرباني للبشرية جميعاً.

وبينّت ما يتعلق بجانب العقيدة، وتحدثت عن أركان الإسلام الخمسة، وعن أركان الإيمان الستة، وبينت ما يتعلق بجانب العبادة: من صلاة وصيام وزكاة وصدقة وحج وغير ذلك، كما بينت أحكام المعاملات بين الناس: من بيع وشراء وربا ورهن وغير ذلك، وبينت أحكام الأسرة المسلمة: من زواج وطلاق ومُتعة وخُلَع وخطبة وعدة ورضاع وغير ذلك، وتناولت حكم الجهاد في سبيل الله بالنفس والمال.

وتكررت مادة التقوى في هذه السورة بضْعاً وثلاثين مرة، ولا تشبهها سورة أخرى.

ز- وأقامت سورة البقرة خمسة أدلة محسوسة على البعث بعد الموت:

١- في توبة عبدة العجل القائلين لموسى ﷺ ﴿لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى نَرَى اللَّهَ جَهْرَةً﴾ [البقرة]

فكانت عقوبتهم أن أخذتهم الصاعقة وهم ينظرون، فماتوا عن آخرهم

﴿ثُمَّ بَعَثْنَاهُمْ مِنْ بَعْدِ مَوْتِهِمْ لَمَلَكُكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [البقرة: ٥٦]

٢- وفي قصة البقرة، في شأن القتل الذي أحياه الله تعالى حين ضرب ببعضها:

﴿كَذَلِكَ يُحْيِي اللَّهُ الْمَوْتَى﴾ [البقرة: ٧٣]

٣- وفي قصة: ﴿الَّذِينَ خَرَجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَهُمْ أُلُوفٌ حَذَرَ الْمَوْتِ فَقَالَ لَهُمُ اللَّهُ مُوتُوا ثُمَّ

أَحْيَاهُمْ﴾ [البقرة: ٢٤٣]

٤- وفي قصة الذي مرَّ على قرية وهي خاوية على عروشها، فاستعظم عودة الحياة إليها

﴿فَأَمَاتَهُ اللَّهُ مِائَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُ﴾ [البقرة: ٢٥٩]

٥- وفي قصة طيور إبراهيم الأربعة، وقد قطعها وخلطها ونثرها على رؤوس الجبال،

وقال الله له: ﴿ثُمَّ ادْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا﴾ [البقرة: ٢٦٠] فأراه كيفية إحياء الموتى بعينه.

وذكرت السورة أربعة توجيهات لتربية النفس المؤمنة لمواجهة الأحداث الجسام. وهي: (ذكر الله تعالى، وشكره، والاستعانة بالصبر والصلاة، وحب الشهادة في سبيل الله). وأرسّت قواعد الإيمان الصحيح في السعي بين الصفا والمروة، ووجوب بذل العلم، والنظر في هذا الكون، للاستدلال به على وحدانية الخالق سبحانه، وبينت أن محبة المؤمن لربه تفوق كل محبة، وأن المسؤولية يوم القيامة فردية، وأن التحليل والتحرير حق الله وحده.

ح - أربعون حُكْمًا تشريعيًا للمسلمين في سورة البقرة:

وقد ذكرت سورة البقرة في النصف الثاني منها أربعون حُكْمًا تشريعيًا يجب العمل بها إلى قيام الساعة، لأن السورة بدأ نزولها بعد الهجرة إلى المدينة بمشارة، وبقيت مفتوحة نحو عشر سنوات حتى نزل فيها آخر آية من القرآن ﴿وَأَتَقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ﴾ [الآية: ٢٨١]، فَشَرَعْتُ للناس جُلَّ أحكام دينهم ودنياهم، ومنها أحكام:

١ - القصاص وحكمته ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقَصَاصُ فِي الْقَتْلِ﴾ [الآية: ١٧٨]

وجاءت الحكمة منه في قوله تعالى ﴿وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَوةٌ﴾ [الآية: ١٧٩]

٢- الوصية عند الموت ﴿لِلْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ﴾ وقد نُسخَت الوصية للوالدين بآية الموارث، وبقيت الوصية لغير الورثة من الأقارب في [الآية: ١٨٠]

٣- الصيام وأحكامه ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ﴾ [الآيات: ١٨٣-١٨٥ وآية ١٨٧]

٤- الدعاء وأدابه ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ﴾ [الآية: ١٨٦]

٥- الاعتكاف وأحكامه ﴿وَلَا تُبْشِرُوهُمْ وَأَنْتُمْ عَاكِفُونَ فِي الْمَسْجِدِ﴾ [الآية: ١٨٧]

٦- الصيام المستمر عن أكل الحرام، بعد الصيام عن الحلال مدة مُعَيَّنة:

﴿وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ﴾ [الآية: ١٨٨]

٧- مراحل تشريع الجهاد في سبيل الله بالنفس: ﴿وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ [الآية: ١٨٨].

٨- مقابلة الاعتداء بمثله، قال تعالى: ﴿الشَّهْرُ الْحَرَامُ بِالشَّهْرِ الْحَرَامِ وَالْحُرُمَتُ قِصَاصٌ فَمَنِ اعْتَدَى عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدَى عَلَيْكُمْ﴾ [الآية: ١٩٥]

٩- عدم الجهاد في سبيل الله بالمال لدفع الصائل ومقاومة المحتل: إلقاء بالنفس إلى التهلكة [الآية : ١٩٥].

١٠ - تفصيل أحكام الحج والعمرة ﴿وَأَتِمُّوا الْحَجَّ وَالْعُمْرَةَ لِلَّهِ﴾ [الآيات: ١٩٦ - ٢٠٠]

١١- القتال في سبيل الله فرض على الأمة ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهُ لَكُمْ﴾ [الآية: ٢١٦]

١٢- جواز القتال في الأشهر الحرم، لإزالة العوائق من طريق الدعوة، ورد العدوان عن الإسلام وأهله: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الشَّهْرِ الْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ﴾ [الآية: ٢١٧]

١٣- التدرج في تحريم الخمر: ﴿قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنْتَفِعٌ لِلنَّاسِ﴾ [الآية: ٢١٩]

١٤- إصلاح مال اليتيم بالمحافظة عليه وتنميته ﴿قُلْ إِصْلَاحٌ لَّهُمْ خَيْرٌ﴾ [الآية: ٢٢٠]

١٥- النهي عن زواج الوثنيات ﴿وَلَا تَنْكِحُوا الْمُشْرِكَةَ حَتَّى تُؤْمِنَ﴾ [الآية: ٢٢١]

١٦- النهي عن إتيان النساء في الحيض ﴿فَاعْتَزِلُوا النِّسَاءَ فِي الْمَحِيضِ﴾ [الآية: ٢٢٢]

١٧- بيان موضع الحرث من المرأة وتحريم إتيانها في الدبر:

﴿نِسَاؤُكُمْ حَرْثٌ لَكُمْ فَأْتُوا حَرْثَكُمْ أَنَّى شِئْتُمْ﴾ [الآية: ٢٢٣]

١٨- أحكام الأيمان ﴿لَا يُؤَاخِذُكُمُ اللَّهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ وَلَكِنْ يُؤَاخِذُكُمْ بِمَا كَسَبَتْ قُلُوبُكُمْ﴾ [الآيتان: ٢٢٤ - ٢٢٥]

١٩- حكم الإيلاء: ﴿لِلَّذِينَ يُؤْلُونَ مِنْ نِسَائِهِمْ تَرَبُّصُ أَرْبَعَةِ أَشْهُرٍ﴾ [الآية: ٢٢٦]

٢٠- عدة المطلقة، وبيان حقوق المرأة وواجباتها ﴿وَالْمُطَلَّقَاتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنْفُسِهِنَّ ثَلَاثَةَ قُرُوءٍ﴾ [الآية: ٢٢٨]

٢١- الطلاق الرجعي: ﴿الطَّلَاقُ مَرَّتَانٍ﴾ [الآية: ٢٢٩]

٢٢- الطلاق على عوض: ﴿فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا فِيمَا افْتَدَتْ بِهِ﴾ [الآية: ٢٢٩]

٢٣- طلاق البائن بينونة كبرى: ﴿فَإِنْ طَلَّقَهَا فَلَا تَحِلُّ لَهُ مِنْ بَعْدُ حَتَّى تَنْكِحَ زَوْجًا غَيْرَهُ﴾ [الآية: ٢٣٠]

٢٤- عضل الزوج للمرأة: ﴿وَلَا تُنْسِكُوهُنَّ ضِرَارًا لِنَعْدُو﴾ [الآية: ٢٣١]

٢٥- عضل الأولياء للمرأة: ﴿فَلَا تَعْضُلُوهُنَّ أَنْ يَنْكِحْنَ أَزْوَاجَهُنَّ إِذَا تَرَاضَوْا بَيْنَهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ﴾ [الآية: ٢٣٢]

٢٦- الرضاعة والحضانة: ﴿وَالْوَالِدَاتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَادَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ لِمَنْ أَرَادَ أَنْ يُنِمَّ الرِّضَاعَةُ وَعَلَى الْمَوْلُودِ لَهُ رِزْقُهُنَّ وَكِسْوَتُهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ﴾ [الآية: ٢٣٣]

٢٧- عدة المتوفى عنها زوجها: ﴿وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنْكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا يَتَرَبَّصْنَ بِأَنْفُسِهِنَّ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا﴾ [الآية: ٢٣٤]

٢٨- عدم التعرض الصريح للمتوفى عنها زوجها بالخطبة أثناء العدة: ﴿وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا عَرَّضْتُمْ بِهِ مِنْ خِطْبَةِ النِّسَاءِ أَوْ أَكْنَنْتُمْ فِي أَنْفُسِكُمْ﴾ [الآية: ٢٣٥]

٢٩- متعة المطلقة قبل تسمية المهر وقبل الدخول بها: ﴿وَمَتَّعُوهُنَّ عَلَى التُّوسِيعِ قَدَرُهُ وَعَلَى الْمُقْتَرِ قَدَرُهُ﴾ [الآية: ٢٣٦]

٣٠- المطلقة بعد تحديد المهر وقبل الدخول بها لها نصف المهر، ولا متعة لها: ﴿وَإِنْ طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَمْسُوهُنَّ وَقَدْ فَرَضْتُمْ لَهُنَّ فَرِيضَةً فَنِصْفُ مَا فَرَضْتُمْ إِلَّا أَنْ يَعْفُونَ أَوْ يَعْفُوا أَلَّذِي يَدِيهِ عَقْدَةُ الزَّكَاجِ﴾ [الآية: ٢٣٧]

٣١- متعة المتوفى عنها زوجها، على القول بعدم النسخ: ﴿وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنْكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا وَصِيَّةً لِأَزْوَاجِهِمْ مَتَاعًا إِلَى الْحَوْلِ غَيْرَ إِخْرَاجٍ﴾ [الآية: ٢٤٠]

٣٢- متعة المطلقة المدخول بها: ﴿وَالْمُطَلَّقَاتُ مَتَاعٌ بِالْمَعْرُوفِ﴾ [الآية: ٢٤١]

٣٣- التمسك بالعروة الوثقى: ﴿لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ﴾ [الآية: ٢٥٦]

٣٤- النفقة في سبيل الله: أجزاها ومبطلاتها [الآيات ٢٦١-٢٦٨] وغيرها.

٣٥- أحكام النذر: ﴿وَمَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ نَفَقَةٍ أَوْ نَذَرْتُمْ مِنْ نَذْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُهَا﴾ [الآية: ٢٧٠]

٣٦- أحكام الربا: ﴿الَّذِينَ يَأْكُلُونَ الرِّبَا لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ الَّذِي يَتَخَبَّطُهُ الشَّيْطَانُ مِنَ الْمَسِّ...﴾ [الآيات: ٢٧٥-٢٨٠]

٣٧- أحكام الدين: ﴿إِذَا تَدَايَنْتُمْ بِدِينٍ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى فَاكْتُبُوهُ﴾ [الآية: ٢٨٢]

٣٨- حل التجارة الحاضرة: ﴿إِلَّا أَنْ تَكُونَ تِجَارَةً حَاضِرَةً تُدِيرُونَهَا بَيْنَكُمْ﴾ [الآية: ٢٨٢]

٣٩- الرهن عند تعسر كتابة الدين: ﴿وَإِنْ كُنْتُمْ عَلَى سَفَرٍ وَلَمْ تَجِدُوا كَاتِبًا فَرِهَنَّ مَقْبُوضَةً﴾ [الآية: ٢٨٣]

٤٠- النهي عن كتمان الشهادة: ﴿وَلَا تَكْتُمُوا الشَّهَادَةَ﴾ [الآية: ٢٨٣]

هذا: وقد تحدثت سورة البقرة عن قصة طالوت وجالوت في حديث الملاء من بني إسرائيل الذين تمموا القتال ثم تخاذلوا عنه، وذكرت السورة مبطلات أجر الصدقة: الرياء والمن والأذى.

وفي موازنة بين النفقة في سبيل الله، وأكل الربا، ضربت لهما السورة الأمثلة، ورغبت في الصدقة، وبينت أنها تضاعف إلى سبع مئة ضعف فأكثر، وأن الربا يمحقه الله ويُرْبى الصدقات، وشئت آيات السورة على أكل الربا حرب من الله ورسوله إن لم يتب، ورغبت في النفقة، وحرمت الربا، وذكرت أحكام الدين والتجارة الحاضرة والرهن.

ط- دعائم الاقتصاد الإسلامي: أرست سورة البقرة في ست آيات منها معالم الاقتصاد الإسلامي، وبينت أنه يتمثل في الزكاة والصدقة والتكافل الاجتماعي، ولا يقوم على الربا الذي يسود العالم، وقد جاء ذلك في أربعة عشر آية تتحدث عن آداب إنفاق المال في وجوه الخير، وتبع ذلك ست آيات تحدثت عن الربا، وهو الوجه المقابل للصدقة والتكافل الاجتماعي، وقد خُتِمت هذه الجولة بربط العبد بربه وحثه على تقوى الله تعالى، والحذر من عقابه يوم العودة إليه بعد البعث والنشر ﴿وَأَتَقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ﴾ ولا يكتمل قيام كيان اقتصادي عالمي إلا بعد وجود البديل عن الربا، وهو يتمثل في أحكام الدِّين وكتابه والإشهاد عليه، ووجود التجارة الحاضرة يدًا بيد، والإشهاد على البيع والشراء وجواز الرهن عند تعسر الكتابة.

وبهذه الدعائم الثلاث: علاج مشكلة الفقر، ووجود البديل عن الربا، وحلول المضاربة والمشاركة والمراوحة ونحوها محلّ الربا، يقوم الاقتصاد الإسلامي، وهو لا يحتاج إلى تغيير مباني البنوك ولا إلى تغيير أثارها، ولا تغيير السجلات أو الحاسوب الذي يُدَوَّن فيه المضاربات، وإنما يحتاج إلى معرفة الآلية الإسلامية، وصدق التوجّه، وعدم التعامل فيما حرّمه الإسلام، كالخمر والميسر ونحوهما، وصياغة هذه التعاملات بالصيغة الإسلامية، كالمشاركة والمراوحة والمضاربة والقرض الحسن والزكاة والصدقة، وقد ظهرت بوادر الحرب على أكلة الربا في عصرنا، في الانهيار الاقتصادي العالمي وتأثيره على أكبر البنوك في العالم، وعلى أقوى دول العالم اقتصادياً وسياسياً وعسكرياً، نسأل الله السلامة والعافية.

وخُتِمت السورة بآيتين نزلتا من كنز تحت العرش، بعد دعاء شامل يتضمن الخصائص الإسلامية.

تَفْسِيرُ السُّورَةِ

مَعْنَى حُرُوفِ الْهَجَاءِ مِنْ فَوَاتِحِ السُّورِ

١- ﴿الْم﴾^(١)

ابتدأ الله سبحانه سورة البقرة بالألف واللام والميم، ثلاثة حروف هجائية مقطّعة، والصور المفتحة بحروف الهجاء تسع وعشرون سورة، تبدأ بحرف واحد إلى خمسة أحرف، وهي خمسة أقسام:

أولاً: منها ما بُدئ بحرف واحد، وعددها ثلاث سور، هي سورة (ص)، و(ق)، و(ن).

ثانياً: ومنها ما بدئ بحرفين اثنين، وعددها تسع سور، هي (طه، و طس النمل، ويس، وحم في سور ست هي: غافر وفصلت والزخرف والدخان والجاثية والأحقاف).

ثالثاً: ومنها ما بُدئ بثلاثة أحرف، وقد وقع ذلك في ثلاث عشرة سورة، هي:

(الم) في ست سور، هي: (البقرة وآل عمران والعنكبوت والروم ولقمان والسجدة).

و(الر) في خمس سور، هي: (يونس وهود ويوسف وإبراهيم والحجر).

و(طسم) في سورتين هما: (الشعراء والقصص).

رابعاً: ومنها ما بُدئ بأربعة أحرف وذلك في سورتين اثنتين، هما: الأعراف (المص)

والرعد (المر).

(١) قرأ أبو جعفر بالسكت عل كل حرف من هذه الحروف الثلاثة هكذا: (ألف، لام، ميم) من غير تنفس، ويلزم منه إظهار اللام وعدم إدغامها في الميم بعدها، على أن كلا منها حرف هجائي مستقل منفصل عما بعده وإن اتصل رسماً، وقرأ بقية القراء العشرة بعدم السكت، وهم نافع وابن كثير وأبو عمر وابن عامر وعاصم وحمزة والكسائي ويعقوب وخلف، وفي اللام والميم مدّان لآزمان الأول مثقل والثاني مخفف، يمد كل منهما مدّاً لازماً ست حركات، وبين ميم (لام) والميم بعدها إدغام مثلين صغير، لسكون الميم الأولى وتحرك الثانية، ويصحّب ذلك غنة بمقدار حركتين. وهذه الكلمة (الم) عدّها المصحف الكوفي آية، وهي غير معدودة آية في بقية المصاحف العثمانية: المدني الأول والمدني الأخير والبصري والمكي والشامي.

خامسا: ومنها ما بدئ بخمسة أحرف، وهو سورتان، هما: مريم (كهيعص) والشورى (حم عسق).

وهذه الحروف لا يعلم حقيقة معناها إلا رب العالمين.

وافتاح بعض السور بهذه الحروف الهجائية له ثلاث فوائد عظيمة:

الفائدة الأولى: أن المشركين كانوا يمتنعون من سماع القرآن الكريم، حتى لا يصيب قلوبهم، ويؤثر في نفوسهم، فكانوا يتفقون ويتعاهدون - فيما بينهم - أن لا يستمعوا إلى القرآن حتى لا يتأثروا به، كما قال تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَسْمَعُوا لِهَذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [فصلت: ٢٦].

وقد كان زعماء المشركين مع عنادهم، يسارق بعضهم بعضاً، فيخرج في جنح الليل المظلم ليستمع إلى القرآن خفية من الناس؛ لما له من تأثير على القلوب والاسماع.

فهذا أبوسفیان وأبوجهل والأخنس، خرج كلٌ منهم ليلاً من وراء الآخرين ليستمع إلى الرسول ﷺ وهو يصلي في بيته ويقرأ القرآن، وجلس كلٌ منهم في مكان بحيث لا يراه الآخر، حتى إذا طلع الفجر تفرقوا، فجمعهم الطريق، فتلاوموا، وتعاهدوا على عدم العودة.

وعاد كل منهم من وراء الآخرين في الليلة التالية، وتكرر ما حدث ثلاث ليالٍ.

فذهب الأخنسُ إلى أبي جهل يسأله عن رأيه فيما سمع من محمد ﷺ، قال أبوجهل: تنازعنا وبنو عبد مناف الشرف، أطعموا فأطعمنا، وحملوا فحملنا، وأعطوا فأعطينا، حتى كُنَّا كَفَرَسِي رِهَان، فقالوا: منا نبي يأتيه الوحي من السماء.

قال أبوجهل: فمتى ندرك مثل هذه؟! فوالله لا نؤمن به أبداً ولا نصدقه^(١).

فكان المشركون يخشون من تأثير القرآن على قلوب سامعيه، وكانوا يستقبلون الوافدين إلى مكة يحذرونهم من مجالسة محمد ﷺ والاستماع إليه.

وكان النبي ﷺ يأتي قومه، وهم في أسواقهم ومنتدياتهم ليقراً عليهم القرآن، وهم في حالة هرج ومرج، بحاجة إلى ما ينبههم إلى الإصغاء والاستماع بغير ما ألفوه من أدوات

(١) «سيرة ابن هشام» باختصار (١/٣٣٧).

التنبيه: كالهاء والباء وأدوات الاستفتاح.

فأنزل الله سبحانه مثل هذه الحروف (الم. الر. طس. طسم) ليشدهم إلى ما يتلى عليهم؛ كي يجذب انتباههم، ويؤثر في نفوسهم، فيتساءلون: ما معنى هذه الحروف؟ فيؤدي ذلك إلى حب سماعهم للقرآن الكريم، وكفى بهذا فائدة، وهي من وسائل الدعوة إلى الله عز وجل.

الفائدة الثانية: أن المشركين قد أنكروا أن يكون القرآن وحياً نزل على رسول الله ﷺ، فتحداهم الله تعالى أن يأتوا بمثله، أو بمثل عشر سور منه، أو بمثل أقصر سورة منه، فعجزوا في الحالات الثلاث، وهم أرباب الفصاحة والبلاغة، فكأنه تعالى يقول لهم: إن هذا القرآن الذي عجزتم عن الإتيان بمثل سطر واحد منه مكوّن من هذه الحروف الهجائية التي تنطقونها، مكوّن من الألف واللام والميم والطاء والسين، فدل هذا على إعجاز القرآن الكريم.

الفائدة الثالثة: أننا نتعلم من هذه الحروف امثال ما أمرنا الله به، واجتناب ما نهانا عنه، وإن لم ندرك للأمر أو النهي حكمة، فإذا كنا لا ندرك معنى هذه الحروف فحريّ بنا ألا ندرك العلة والحكمة في كل أمر ونهي، فالمسلم يتقاد ويستسلم لله تعالى في جميع أوامره ونواهيه، وإن لم يدرك لها حكمة أو علة.

والمؤمن مثابٌ على تلاوة كل حرف هجائي من كتاب الله تعالى، سواء فهم المعنى أم لا، كما جاء في حديث ابن مسعود رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال:

«من قرأ حرفاً من كتاب الله فله به حسنة، والحسنة بعشر أمثالها، لا أقول: (الم) حرف، ولكن: ألف حرف، ولام حرف، وميم حرف»^(١).

(١) صححه الألباني في «صحيح سنن الترمذي» (٢٣٢٧) وهو في السنن (٣٠٨٧) وفي مشكاة المصابيح (٢١٣٧) وفي تخريج الطحاوية (١٣٩) والحاكم (٥٥٥/١) والبيهقي في «شعب الإيمان» (١٩٣٣)، (١٩٨٣) وغيرهم.

أَصْنَافُ النَّاسِ فِي تَلَقِّي هَذَا الْكِتَابِ

٢- ﴿ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ^(١) هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ^(٢)﴾

وهذا القرآن العظيم المشار إليه بهذه الحروف، لاشك أنه من عند الله، فلا ترتابوا فيه؛ فهو الكتاب العظيم على الحقيقة، المشتمل على ما لم تشتمل عليه كتب المتقدمين والمتأخرين من العلوم والحقائق فهو الكتاب الحق، الناسخ للتوراة والإنجيل وغيرهما، لاشك فيه بوجه من الوجوه، إذ كيف يُشك في وهو الكتاب المتضمن علم اليقين، المزيل للشك والريب، ونفي الريب عن هذا الكتاب يستلزم نفي التهمة والطعن فيه على وجه القطع، والريب أبلغ من الشك، لأنه شك مع تهمة وظن، بخلاف الشك فهو مجرد تردد في الشيء.

وهذا الكتاب ينتفع بما فيه ويهتدي بهديه من هو مستعدُّ للهداية بفطرته ومحض اختياره، ممن يخافون الله تعالى ويتبعون أحكامه.

والهدي: ما تحصل به الهداية من الضلالة والشبهة، وما به الهداية إلى طريق الاستقامة، وما فيه سعادة الدنيا والآخرة، فهو مرشد للعباد في بيان الحق من الباطل، والخير من الشر، وجميع الأصول والفروع.

وقد حذف معمول (هدى) لإرادة العموم، فهدايته عامة وليست خاصة، والمتنفعون بهذه الهداية هم المتقون من عباد الله، فهو ﴿هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ﴾ لأنهم الذين ينتفعون بهديه، قال تعالى: ﴿قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا هُدًى وَشَفَاءٌ﴾ [فصلت: ٤٤]

وقال سبحانه في وصف القرآن: ﴿هُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [النمل].

وغيرهم لا يتأثر ولا ينتفع، فهو عليهم عمى، ولا يزيدهم إلا خسارة، مع أن القرآن

(١) قرأ حمزة بخلف عنه بمد (لا) مدًا متوسطًا، مبالغة في النفي، وقرأ بقية القراء ومعهم حمزة في وجهه الآخر بالقصر، على أنها لمجرد النفي.

(٢) قرأ ابن كثير بصلة هاء الضمير بياء لفظية، وقرأ الباكون بترك الصلة، وأدغم أبو عمرو ويعقوب بخلف عنهما هاء (فيه) في هاء (هدى) والباكون بالإظهار.

نزل لهداية الناس جميعا كما قال تعالى ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنْزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِّنَ الْهُدَى وَالْفُرْقَانِ﴾ [البقرة: ١٨٥]

وقال تعالى: ﴿قَدْ جَاءَكُمْ مِنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُبِينٌ ﴿١٥﴾ يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانُكُم سُبُلَ السَّلَامِ وَيُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ وَيَهْدِيهِمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿١٦﴾﴾ [المائدة]

وقال أيضاً: ﴿تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْحَكِيمِ ﴿٢﴾ هُدًى وَرَحْمَةً لِّلْمُحْسِنِينَ ﴿٣﴾﴾ [لقمان]

وقال سبحانه: ﴿إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَفُصُّ عَلَى نَبِيٍّ إِسْرَءِيلَ أَكْثَرَ الَّذِي هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿٧٦﴾ وَإِنَّهُ لَهْدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٧٧﴾﴾ [النمل]

وهو كتاب يخرج الناس من الظلمات إلى النور:

﴿كِتَابٌ أُنْزِلَتْهُ إِلَيْكَ لِيُخْرِجَ النَّاسَ مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ﴾ [إبراهيم: ١]

والهداية نوعان: هداية البيان والإرشاد، وهداية التوفيق، والمتقون حصلت لهم الهدايتان، وغيرهم لم تحصل لهم هداية التوفيق، أما هداية الإرشاد دون توفيق للعمل بها، فليست هداية تامة، ولا يحصل بها فائدة.

قال تعالى: ﴿يَتَأْتِيَ النَّاسُ قَدْ جَاءَتْكُمْ مَوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَاءٌ لِّمَا فِي الصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٥٧﴾﴾ [يونس]

وغير المؤمن لا يتفع بهذا النور بل يزداد خسرانا وهلاكاً ولا يهتدي، كما قال تعالى: ﴿وَنُزِّلَ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلَّا خَسَارًا ﴿٨١﴾﴾ [الإسراء]

وقال سبحانه: ﴿قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدًى وَشِفَاءٌ وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِي آذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى ﴿٤٤﴾﴾ [فصلت: ٤٤]

فالقرآن هدى لجميع الخلق في حد ذاته، ولكن الأشقياء لم يقبلوا هدى الله، ولم يرفعوا به رأساً فقامت عليهم به الحجة.

والمتقون هم الصنف الأول من البشر، ويأتي وصفهم في آيتين اثنتين، وهم عباد الله المتقون المهتدون إلى ما فيه صلاح عاجلهم وأجلهم.

فالتقوى هي امتثال الأوامر واجتناب النواهي، وعدم الاسترسال في الصغائر ظاهراً وباطناً، خوفاً من عقابه تعالى واتقاءً لغضبه سبحانه.

قال الحسن في وصف المتقين: إنهم (اتقوا ما حُرِّمَ عليهم، وأدَّوا ما افْتَرَضَ عليهم).

وقال ابن عباس رضي الله عنهما: هم (الذين يحذرون من الله عقوبته في ترك ما يعرفون من الهدى، ويرجون رحمته بالتصديق بما جاء به، وهم الذين يتقون الشرك، ويعملون بالطاعات^(١)).

والتقوى أن تجعل بينك وبين عذاب الله وقاية، بامتنال أوامره واجتناب نواهي، وهي أن يطاع الله فلا يعصى، ويذكر فلا ينسى، ويشكر فلا يكفر.

وسئل معاذ بن جبل رضي الله عنه: من المتقون؟ فقال: (قوم اتقوا الشرك وعبادة الأوثان، وأخلصوا لله العبادة)^(٢).

وقال أبوهريرة رضي الله عنه لمن سأل عن التقوى: (هل وجدت طريقاً ذا شوك؟ قال: نعم، قال: فكيف صنعت؟ قال: إذا رأيت الشوك عدلت عنه، أو جاوزته، أو قصرت عنه، قال: ذاك التقوى)^(٣).

والتقوى: ألا يراك الله حيث نهاك، وألا يفقدك حيث أمرك.

وتمام التقوى أن يجعل العبد بينه وبين الحرام حجاباً؛ فيترك ما فيه شبهة خشية أن يكون من الحرام:

«فمن اتقى الشبهات فقد استبرأ لدينه وعرضه، ومن وقع في الشبهات وقع في الحرام»^(٤).

وقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ﴾ [التوبة]

وقال سبحانه: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِن تَتَّقُوا اللَّهَ يَجْعَلْ لَكُمْ فُرْقَانًا وَيُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾ [الأأنفال]

(١) «تفسير الطبري» بتحقيق الأخوين الفاضلين: محمود وأحمد محمد شاكر (١/٢٣٢).

(٢) أخرجه ابن أبي حاتم.

(٣) «تفسير القرطبي» (١/١٤١).

(٤) جزء من حديث النعمان بن بشير في البخاري ٥٢ ومسلم: ١٥٩٩، ١٠٧.

وقال جل شأنه: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تَقَاتِهِ﴾ [آل عمران: ١٠٢].

وقال سبحانه ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ﴾ [النساء: ١] وقال: ﴿وَلَقَدْ وَصَّيْنَا الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَإِيَّاكُمْ أَنْ اتَّقُوا اللَّهَ﴾ [النساء: ١٣١].

خَمْسَةُ أَوْصَافٍ لِلصِّنفِ الْأَوَّلِ مِنَ الْبَشَرِ وَهُمْ الْمُتَّقُونَ

٣- ﴿الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ^(١) بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ^(٢) وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ^(٣) يُنفِقُونَ

وقد وصف الله سبحانه المتقين في صدر سورة البقرة بخمس صفات هي جماع العقائد والعبادات والأعمال الظاهرة والباطنة، لأن التقوى تجمعها وتشملها وهذه الأوصاف هي:

الوصف الأول: الإيمان بالغيب: فالمتقون هم الذين يصدقون بالغيب الذي جاء في كتاب الله تعالى، لا يقفون عند المحسوس، ولا يؤمنون بالمادة وحدها، وإنما يؤمنون بما أخبر الله به، وبما أخبر به رسوله ﷺ، يؤمنون بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر، والجنة والنار، وبالقدر خيره وشره، وكل ذلك غيبٌ لم يروه، فهم يؤمنون به كما أخبر الله تعالى، وهذا معنى: ﴿الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ﴾.

فحقيقة الإيمان: التصديق اليقيني التام بما أخبر به الرسل، فانقادت له الجوارح وعملت به، وهذا الإيمان يميز بين المسلم والكافر، لأن المؤمن يؤمن بكل ما أخبر الله به، أو أخبر به رسوله، سواء شاهده أو لم يشاهده، وسواء فهمه وعقله، أو لم يهتد إليه عقله وفهمه، وبهذا يخرج الزنادقة الذين كذبوا بما لم يحيطوا بعلمه.

والإيمان في لغة العرب هو التصديق، أي: تصديق القول بالعمل، قال تعالى على لسان إخوة يوسف عليه السلام: ﴿وَمَا أَنْتَ بِمُؤْمِنٍ لَنَا وَلَوْ كُنَّا صَادِقِينَ﴾ [يوسف: ١٧].

والإيمان: كلمة جامعة تشمل الإقرار بأركانه الستة التي هي: الإيمان بالله وملائكته

(١) قرأ ورش وأبو جعفر وأبو عمرو بخلف عنه بإبدال همزة (يؤمنون) واوًا في حالي الوصل والوقف، وأثبت الهمزة ساكنة بقية القراء.

(٢) فَخَّم الأزرق عن ورش لام (الصلاة) ورفَّعها الباقون، وهما لغتان، والترقيق أشهر.

(٣) وَصَلَّ مِيمَ (رزقناهم) بواو مع المد الطبيعي ابن كثير وأبو جعفر وقالون بخلف عنه، وسكَّنوها الباقون.

وكتبه ورسله واليوم الآخر، والإيمان بالقدر خيره وشره.

والغيب: هو كل ما غاب عن العباد معرفته، مثل البعث والقيامة والجنة والنار، وكل ما أخبر الله به من الغيوب الماضية والمستقبلية، ومنها الإيمان بصفات الله تعالى وأنه ليس كمثله شيء وهو السميع البصير.

والمؤمن يصدّق بالغيب قولاً وعملاً واعتقاداً، وكل ما لا يدرك بالحواس ولا بالعقل فهو غيبٌ، فإذا آمن به المرء تصدّى للاستماع له، وعلى رأس ذلك ما أخبرت به الرسل، من وجود الله تعالى، ومن وجود العالم العلوي، والثواب والعقاب.

عن ثُوَيْلَةَ بنت أسلم قالت: صليت الظهر أو العصر في مسجد بني حارثة، فاستقبلنا مسجد إيلياء فصلينا سجدةً، ثم جاءنا من يُخبرنا أن رسول الله ﷺ قد استقبل البيت الحرام، فتحوّل الرجال مكان النساء، والنساء مكان الرجال، فصلينا السجدة الباقية ونحن مستقبلو البيت الحرام، فبلغ رسول الله ﷺ ذلك فقال: «أولئك قوم آمنوا بالغيب»^(١).

وعن أبي جمعة الأنصاري قال: كنا مع رسول الله ﷺ ومعنا معاذ بن جبل عشر عشرة، فقلنا: يا رسول الله، هل من أحد أعظم منا أجراً؟ أمنا بك واتبعناك، قال: «ما يمنعكم من ذلك ورسول الله بين أظهركم، يأتيكم بالوحي من السماء، بل قوم يأتون من بعدكم، يأتهم كتاب بين لَوْحَيْنِ، فيؤمنون به، ويعملون بما فيه، أولئك أعظم منكم أجراً»^(٢).

الوصف الثاني: إقامة الصلاة: فالمتقون: هم الذين يقيمون الصلاة، ويحافظون على أدائها ومواقيتها وركوعها وسجودها ووضوئها، والخشوع فيها، والصبر عليها، وهذا معنى ﴿وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ﴾. أي يؤدونها ظاهراً بأركانها وشروطها وواجباتها وسننها وهيأتها، ويؤدونها باطناً بحضور القلب وتدبر القول والفعل، وخشوع الجوارح والأعضاء، وهذه الصلاة هي التي تنهي فاعلها عن الفحشاء والمنكر، إذ ليس للعبد من

(١) ابن أبي حاتم (٧٣) واللفظ له، والطبراني (٥٣٠) قال الهيثمي: رجاله موثّقون، «مجمع الزوائد» (١٤/٢).

(٢) أخرجه البخاري في خلق أفعال العباد (٨) والذهبي في ميزان الاعتدال (٢٩١/٢) والطبراني (٣٥٣٧)،

(٣٥٤١) وصححه الحاكم والذهبي (٨٥/٤) وحسنه وقوى إسناده ابن حجر في «فتح الباري» (٦/٧).

وانظر: «المسند» (١٦٩٧٦، ١٦٩٧٧) بإرسناد صحيح رجال ثقات، كما قال محققوه.

صلاته إلا ما عقل .

والصلاة: تشمل الدعاء بخشوع وخضوع لله تعالى، وقد عرف العرب الصلاة بركوعها وسجودها، كما جاء على لسان إبراهيم عليه السلام: ﴿رَبَّنَا لِيَقِيمُوا الصَّلَاةَ﴾ [إبراهيم: ٣٧].

الوصف الثالث: الإنفاق في سبيل الله: فهم الذين ينفقون أموالهم التي رزقهم الله إياها، وهي نفقة عامة تشمل إخراج الزكاة والنذر والكفارة، وتشمل الصدقة في سبيل الله، والنفقة المستحبة، وتشمل النفقة الواجبة على الأهل، وعلى من يعولهم الإنسان ويلزمه نفقتهم، وهذا معنى ﴿وَمِمَّا رَزَقْنَهُمْ يُنفِقُونَ﴾ وهذه النفقة يخرجها العبد من رزق الله الذي ملكه الله إياه، فهي من باب شكر النعمة ومواساة المحتاجين، وكثيرا ما يجمع القرآن بين الصلاة والزكاة، لأن الصلاة فيها إخلاص للمعبود سبحانه، والزكاة فيها إحسان ونفع لعباد الله.

وكانت الصدقات في صدر الإسلام قُرُبات إلى الله تعالى قدر الطاقة، حتى نزلت آيات سورة براءة بفرض الزكاة وبيان أنصبتها في سبع آيات منها .

الْوَصْفُ الرَّابِعُ: الْإِيمَانُ بِكُتُبِ اللَّهِ جَمِيعًا

٤- ﴿وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ وَبِالْآخِرَةِ^(٢) هُمْ يُوقِنُونَ﴾.

وقد تضمنت الآية الرابعة الوصفين الأخيرين من أوصاف المتقين، وهما الوصف الرابع والخامس، فهم قد آمنوا بقلوبهم، ونطقوا بألسنتهم، وعملوا بجوارحهم، وهم الذين يؤمنون بالقرآن الذي نزل على محمد ﷺ، ويؤمنون بالسنة التي جاء بها، وهذا معنى: ﴿وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ﴾ وهو القرآن والسنة، والخطاب للرسول ﷺ المكلف بتبليغ القرآن إلى الناس، قال تعالى: ﴿وَأَنْزَلَ اللَّهُ عَلَيْكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ

(١) قرأ بقصر المد المتفصل في (بما أنزل) ونظائرها في القرآن ابن كثير وأبو جعفر وقرأ بالإشباع فيه الأزرق عن ورش وحزمة، ولهشام القصر والتوسط، ولابن ذكوان التوسط والإشباع، ولشعبة التوسط وفوق التوسط، أي: مده خمس حركات، ولحفص القصر والتوسط وفوق التوسط، وللكسائي وخلف العاشر التوسط فقط، ولقالون والأصبهاني وأبي عمرو ويعقوب: القصر، وفوق القصر، والتوسط.

(٢) قرأ ورش بنقل حركة الهمزة من (الآخرة) إلى الساكن قبلها وهو اللام والباقون بعدم النقل.

تَكُنْ تَعْلَمُ ﴿[النساء: ١١٣]﴾ فالمتقون يؤمنون بجميع ما جاء به محمد ﷺ، فلا يؤمنون ببعضه دون بعض، ولا يجحدونه أو يؤولونه على غير مراد الله ورسوله.

والمتقون يؤمنون أيضاً بالرسل السابقين، وبالكتب التي نزلت عليهم، وهي التوراة التي نزلت على موسى، والإنجيل الذي نزل على عيسى، والزبور الذي نزل على داود، وصحف إبراهيم وموسى وغيرهما، وهذا معنى ﴿وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ﴾ أي: من الكتب المنزلة على الرسل السابقين، ولا يفرقون بين أحد منهم: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَلَمْ يُفَرِّقُوا بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ أُولَئِكَ سَوْفَ يُؤْتِيهِمْ أَجْرُهُمْ﴾ [النساء: ١٥٢].

على أن هذه الرسائل وهذه الكتب كانت لأزمة معينة، ولأوقات محددة، وأمكنة إقليمية، لا تتجاوزها إلى أرجاء الدنيا، وكلها كانت تُمهّد للرسالة الخاتمة، وكل رسالة منها أنهت صلاحية الرسالة التي قبلها، حتى خُتمت بالرسالة القائمة إلى يوم الساعة، وهي رسالة محمد ﷺ.

قال تعالى: ﴿نَزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابُ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَأَنزَلَ التَّوْرَةَ وَالْإِنجِيلَ ﴿٣﴾ مِنْ قَبْلُ هَٰذَا لِلنَّاسِ وَأَنزَلَ الْفُرْقَانَ﴾ [آل عمران: ٢، ٣].

وقال أيضاً: ﴿يَتْلُوهَا الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَالْكِتَابُ الَّذِي نَزَلَ عَلَى رَسُولِهِ وَالْكِتَابُ الَّذِي أُنْزِلَ مِنْ قَبْلُ﴾ [النساء: ١٢٦].

وفي حديث أبي موسى الأشعري ؓ أن رسول الله ﷺ قال: «ثلاثة يُؤْتون أجراً مرتين يوم القيامة: رجلٌ من أهل الكتاب آمن بنبه وأمن بي، ورجلٌ مملوك أدى حق الله وحق مواليه، ورجلٌ أدب جاريته فأحسن تأديبها ثم أعتقها وتزوجها»^(١).

والوصف الخامس: الإيمان باليوم الآخر ﴿وَبِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ﴾

وسُمِّي اليوم الآخر؛ لأنه لا يوم بعده، فهو اسم لما يكون بعد الموت، والإيمان به أحد أركان الإيمان، وهو أعظم باعث على الرغبة والرغبة، والكفار لا يؤمنون به، كما

(١) البخاري (٩٧، ٢٥٤٧، ٢٥٥١، ٣٠١١) ومسلم (١٥٤) وأبو داود (٢٠٥٣) والترمذي (١١١٦) وابن ماجه (١٩٥٦). و«المسند» (١٩٥٣٢) بإسناد صحيح على شرط الشيخين، وابن حبان (٢٢٧، ٤٠٥٣) والنسائي في «السنن الكبرى» (٥٤٧٧) وعبد الرزاق (١٣١١٢) وغيرهم.

قال تعالى ﴿وَلَا يَزَالُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي مَرِيضَةٍ مِّنْهُ حَتَّى تَأْتِيَهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً أَوْ يَأْتِيَهُمْ عَذَابٌ يَوْمٍ عَقِيمٍ﴾ (٥٥) [الحج].

والآخرة: وصفٌ للدار الباقية التي لا تغنى، كما قال تعالى ﴿وَلِئَلَّ الدَّارَ الْآخِرَةَ لِهِيَ الْحَيَوَانُ﴾ [العنكبوت: ٦٤]، ووصفت بذلك؛ لأنها آخرة بالنسبة للأولى التي كانت قبلها، فهي آخرة لتقدم الأولى عليها، أو لتأخرها عن الخلق، كما سميت الدنيا دنيا؛ لدنوها من الخلق.

فالمتمقون هم الذين يؤمنون باليوم الآخر على وجه الخصوص، ويؤمنون بما فيه من بعث وحشر وحساب وميزان وثواب وعقاب وجنة ونار ﴿وَبِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ﴾. واليقين هو العلم التام الموجب للعمل الذي ليس فيه أدنى شك.

الْمُتَّقُونَ هُمُ أَهْلُ الْهُدَى وَالْفَلَاحِ

٥- ﴿أُولَئِكَ^(١) عَلَى هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾

وهؤلاء المتقون هم أولياء الله، الذين جعلوا بينهم وبين عذاب الله وقاية، بامتثال أوامره واجتناب نواهيه، فأطاعوا ربهم، وذكروه وشكروه، ورضوا بالقليل، وعملوا بالتنزيل واستعدوا ليوم الرحيل، فخافوا لقاء الله وابتعدوا عن معاصيه، وأصحاب هذه الصفات على نور وبصيرة في الدنيا، وهم المفلحون الفائزون بجنة النعيم يوم لقاء رب العالمين، وهم الذين علم الله عنهم في الأزل أنهم ينتفعون بهذا القرآن، ويهتدون به هداية توفيق وإرشاد ودلالة، وهذه الهداية تضمنت صحة العقيدة واستقامة الأعمال.

وفي هذا تعريض بدم الكفار لعدم تصديقهم بخاتم الرسل ﷺ، وما أنزل عليه من ربه، وعدم الاهتداء بهديه.

(١) (أولئك) مدٌ متصل، أشبع المد فيه الأزرق وحزمة وابن ذكوان من طريق الأخفش، وقرأ قالون والأصبهاني عن ورش وابن كثير وأبو عمرو وأبو جعفر ويعقوب بالتوسط والإشباع وفوق القصر، وقرأ ابن عامر بخلف ابن ذكوان والكسائي وخلف العاشر بالتوسط والإشباع، وقرأ عاصم بالتوسط والإشباع وفوق التوسط، وذهب آخرون إلى أن المد المتصل له مرتبتان: طولى لحزمة والأزرق وابن ذكوان من طريق الأخفش، ووسطى للباقيين (انظر اتحاف فضلاء البشر لأحمد البنا ص ٣٧ والمهذب للدكتور محمد سالم محيسن، والبدور الزاهرة للشارح (١/ ١٢٤)، والنشر لابن الجزري).

وأصحاب هذه الصفات هم الفائزون الموفقون الناجون من النار لاستقامتهم على منهج الله تعالى، وقد حصر الله الفلاح فيهم، لأنه لا سبيل إلى الفلاح إلا بسلوك طريقهم، وماعداه فهو من سبل الشقاء والهلاك، نسأل الله السلامة والعافية.

والى هنا ينتهي الكلام عن المتقين.

وَصَفَانِ لِلصَّنْفِ الثَّانِي مِنَ الْبَشَرِ، وَهُمْ الْكُفَّارُ

الْوَصْفُ الْأَوَّلُ: قَطْعُ الطَّمَعِ فِي إِسْلَامِهِمْ:

٦- ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ ^(١) ءَأَنذَرْتَهُمْ ^(٢) أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٦﴾

ويأتي وصف الكفار في آيتين اثنتين؛ فأمرهم معروف لا يحتاج إلى تفصيل، وهم لن يؤمنوا لأن حواسهم معطلة وقلوبهم مقفلة: وذلك لأن الكفار الجاحدون المستكبرون، الذين صار الكفر وصفًا لازماً لهم، لا يردعهم عنه رادع، ولا ينجع فيهم تذكير، فهم مستمرّون على كفرهم سواء أُنذرتهم أم لم تنذرهم، فلا فائدة في وعظهم، ولا فائدة في إنذارهم بإعلامهم وتخويفهم، ولا فائدة في الحديث إليهم؛ لإصرارهم على الباطل وعدم إيمانهم، وهذا إخبارٌ بعلم الله تعالى عن الكفار، لإقامة الحجة عليهم، وقطع طمع الرسول ﷺ في إيمانهم حتى لا يأسى عليهم ولا يُذهب نفسه عليهم حسرات.

لقد علم الله منهم الكفر أولاً فكتبه عليهم، وسجلته الملائكة عليهم في اللوح المحفوظ، وطبع الله على قلوبهم بمقتضى كفرهم وزيف قلوبهم وفساد فطرتهم وانحرافهم ﴿فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ﴾ [الصف: ٥] ﴿وَمَا يُضِلُّ بِهِ إِلَّا الْفَاسِقِينَ﴾ [البقرة: ٢٦].

وأصل الكفر عند العرب: تغطية الشيء وستره، فكأن الكفر يغطي الإيمان ويستره، ويسمى الليل كافرًا؛ لأنه يغطي النور بظلمته، ويسمى المزارع كافرًا؛ لأنه يسترُ الحَبَّ في الأرض ويغويه.

(١) ضَمَّ الهاء من (عليهم) حمزة ويعقوب، وكسرها الباقون.

(٢) قرأ قالون وأبو عمرو وأبو جعفر بتسهيل الهمزة الثانية من (أُنذرتهم) مع إدخال ألف بين الهمزتين، وقرأ الأصهباني عن ورش وابن كثير ورويس بتسهيل الهمزة الثانية من غير إدخال، وللأزرق تسهيل الهمزة الثانية مع عدم الإدخال وإبدالها حرف مد مع الإشباع، ولهشام ثلاثة أوجه: تسهيل الثانية، وتحقيقها مع الإدخال، وتحقيقها من غير إدخال، وقرأ الباقون وهم الكوفيون وابن ذكوان بتحقيق الهمزتين.

ويُراد به في الآية: تغطية الإيمان ونكرائه وكتمانه وستره؛ لأن الإيمان موجودٌ في أصل الفطرة، والذي تنحرف فطرته عن الحق، يغطي هذا الإيمان الذي في داخله ويستره. هذا هو معنى الكفر: ستر الحق وتغطيته، والقطع بعدم إيمان الكفار بمقتضى ما علمه الله تعالى منهم قبل أن يخلقهم.

وقد جاءت آيات كثيرة في هذا المعنى، منها قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ ۖ وَلَوْ جَاءَتْهُمْ كُلُّ آيَةٍ حَتَّى يَرَوْا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ ٩٧﴾ [يونس]. وبالنسبة لأهل الكتاب الذين علم الله أنهم لن يؤمنوا، قال تعالى فيهم: ﴿وَلَيْنَ آتَيْتَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ بِكُلِّ آيَةٍ مَا تَبِعُوا قِبْلَتَكَ﴾ [البقرة: ١٤٥].

وقد كان النبي ﷺ شديد الحرص على إيمان الناس وهدايتهم وسعادتهم، فأخبر الله رسوله بأهل السعادة وأهل الشقاء، وأبلغه بأن مهمته البلاغ والإنذار، حتى لا يهلك نفسه حزناً على عدم إيمانهم: ﴿فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً﴾ [فاطر: ٨] ﴿فَلَعَلَّكَ بَنِيعٌ نَفْسَكَ عَلَى آثَرِهِمْ إِنْ لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِذَا الْحَدِيثِ أَسَفًا ٦﴾ [الكهف].

﴿لَعَلَّكَ بَنِيعٌ نَفْسَكَ أَلَّا يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ ٣﴾ إِنْ شَأْنُ نَزَّلَ عَلَيْهِمْ مِنَ السَّمَاءِ آيَةً فَظَلَّتْ أَعْيُنُهُمْ لَهَا خَاضِعِينَ ٤﴾ [الشعراء].

الوصف الثاني: أَنَّ أَجْهَزَةَ الْإِسْتِقْبَالِ فِيهِمْ مُعْطَلَةٌ

٧- ﴿خَتَمَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَعَلَى سَمْعِهِمْ وَعَلَى أَبْصَارِهِمْ ١ غِشَاوَةً ٢﴾ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ٧﴾

الطبع أو الختم على القلب: أخبر عنه النبي ﷺ بأنَّ الذنوب إذا تتابعت على القلوب أغلقتها، وإذا أغلقتها أتاها الختم من قِبَلِ الله تعالى، فلا يخرج منها كفرٌ، ولا يدخلها إيمانٌ. وقد جاء هذا بالنسبة للمؤمن الذي بلغت به المعاصي حد انغلاق القلب عليها، كما في

(١) أمال ألف (أبصارهم) أبو عمرو ودوري الكسائي وابن ذكوان بخلف عنه وقللها الأزرق.

(٢) وقف الكسائي على (غشاوة) بالإمالة.

حديث أبي هريرة أن النبي ﷺ قال: «إن المؤمن إذا أذنب ذنبًا كانت نكتة سوداء في قلبه، فإن تاب ونزع واستعجب صُقل قلبه، وإن زاد زادت؛ حتى تملو قلبه» فذلك الرأ الذي قال الله فيه: ﴿كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ (١) [المطففين]

قال تعالى في إحاطة علمه بأحوالهم: ﴿وَنُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ وَأَبْصَرَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ [الأنعام: ١١٠].

وطبع القلوب سببه إصرارهم على الكفر واختيارهم له، كما قال تعالى: ﴿بَلْ طَبَعَ اللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [النساء: ١٥٥].

والفتن تُعرض على القلوب، فإذا أُشربها القلب تركت فيه نكتة سوداء، وإذا أنكرها تركت فيه نكتة بيضاء، فالقلب الأبيض لا تضربه فتنة، والقلب الأسود لا يعرف معروفًا ولا يُنكر منكرًا.

ثم ذكر الله سبحانه الموانع المانعة للكفار من الإيمان، فذكر أنها الختم على القلوب والأسماع، فلا ينفذ إليها الإيمان، وأنها غطاء الأبصار، التي تمنعها من النظر إلى ما ينفع.

أي: ولمَّا علم الله تعالى اختيار الكفار لطريق الضلال، ختم على قلوبهم وعلى سمعهم؛ فطمست، ولم تؤدِّ وظائفها المنوطة بها، ولم تتفع بما خلقت لأجله، وهي عبادة الله عز وجل.

وقد جعل الله على أبصارهم أغطية، فلا تُبصر طريق الحق والهداية، بعدما تبين لهم الهدى من الضلال، والنعيم من العذاب، الذي أعدّه الله لهم في الآخرة جزاء عنادهم وكفرهم، واختيارهم طريق الضلال بسبب فسقهم وزيغهم وفساد فطرتهم، فهذه طرق الخير قد سُدت عليهم، فلا مطمع في إيمانهم، ولا خير يرجى فيهم.

كما قال تعالى: ﴿وَمَا يُضِلُّ بِهِ إِلَّا الْفَاسِقِينَ﴾ [البقرة: ٢٦] ﴿وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴾ [الصف: ٥] ﴿وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ [الصف: ٧].

ذلكم قول الله تعالى: ﴿خَتَمَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَعَلَى سَمْعِهِمْ﴾.

(١) «سنن الترمذي» برقم (٣٣٣٤) و«سنن النسائي الكبرى» برقم (١١٦٥٨) و«سنن ابن ماجه» برقم (٤٢٤٤)، والمسند (٧٩٥٢) بإسناد قوي كما قال محققوه، والحاكم (٥١٧/٢) والبيهقي في السنن (١٨٨/١٠) وفي الشعب (٧٢٠٣).

على البصر، والختم يكون على القلب والسمع، كما قال تعالى: ﴿وَخَتَمَ عَلَى سَمْعِهِ وَقَلْبِهِ وَجَعَلَ عَلَى بَصَرِهِ غِشَاوَةً فَمَنْ يَهْدِيهِ مِنْ بَعْدِ اللَّهِ﴾ [الجاثية: ٢٣]

والغشاوة هي الغطاء، وقد أفرَدَ السمع؛ لأن المسموع واحدٌ لكل الناس، وجمع القلب والبصر: لأن مفهوم العقل ورؤية البصر يتعددان بتعدد الناس.

فيدخل تحت جنس الكفار: كل مَنْ لم يعترف بوجود الله تعالى؛ كالشيعيين والوثنيين والملاحدة.

ويدخل تحته كل من لم يؤمن باليوم الآخر وما فيه من بعثٍ وحسابٍ وجزاءٍ.

وكل من عبدَ وثناً أو صنماً من دون الله؛ كالبودية وعُبادَ البقر والهندوس والسيخ، وعبدَ الشيطان، وعبدَ إله الخير وإله الشر، فهو كافر.

وكل من جحد رسالة محمد ﷺ أو اعتقد أنه رسولٌ إلى العرب خاصة؛ كاليهود والنصارى وغيرهم، فهو كافر.

وكذا أهل الشرك الأكبر الذين ينسبون لله تعالى الزوجة والشريك والولد، وسائر الملل والنحل من المشركين والكفار، كل هذا داخل تحت ملة الكفر.

هذا: والكفر نوعان:

أ- كفر أكبر، مخرج من الملة، يحبط الأعمال ويُبطل ثوابها، ويخلد صاحبه في النار، وهو كفر اعتقادي، وهذا الكفر خمسة أنواع:

١- كفر التكذيب. قال تعالى: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُ أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْكَافِرِينَ﴾ [العنكبوت]

٢- كفر الإباء والاستكبار مع التصديق قال تعالى: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى وَاسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ﴾ [البقرة].

٣- كفر الشك والظن، قال تعالى: ﴿وَدَخَلَ جَنَّتَهُ وَهُوَ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ قَالَ مَا أَظُنُّ أَنْ تَبِيدَ هَذِهِ أَبَدًا﴾ [٣٥] وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً ﴿[الكهف]

٤- كفر الإعراض، قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا عَمَّا أُذِرُوا مُعْرِضُونَ﴾ [٣] ﴿[الأحقاف]

٥- كفر النفاق، قال تعالى: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ ءَامَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا فَطُبِعَ عَلَى قُلُوبِهِمْ﴾ [المنافقون: ٣]

ب- وكفر أصغر لا يخرج من الملة، ولا يحبط الأعمال، لكن ينقصها بحسبه، ولا يخلد صاحبه في النار وقد يتوب الله عليه، وهو كفر عملي، يشمل جميع الذنوب التي سماها الكتاب أو السنة كفراً وهو لا يَصِلُ إلى حد الكفر الأكبر مثل كفر النعمة: ﴿وَصَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ ءَامِنَةً مُطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِّنْ كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللَّهِ﴾ [النحل: ١١٢] ومثل حديث «سباب المسلم فسوق وقتاله كفر».

ومثل الحلف بغير الله، ومنه الرياء والشرك الخفي.

عَشْرَةُ أَوْصَافٍ لِلصِّنفِ الثَّالِثِ مِنْ أَصْنَافِ الْبَشَرِ وَهُمْ الْمُنَافِقُونَ

٨- ﴿وَمِنَ النَّاسِ^(١) مَن^(٢) يَقُولُ ءَامَنَّا بِاللَّهِ وَيَأْتُوا الْآخِرَ وَمَا هُمْ بِمُؤْمِنِينَ

وقد جاء وصفهم في ثلاث عشرة آية؛ وكما وصف جل شأنه المتقين بخمس صفات ووصف الكفار بأنهم لا يؤمنون وأن الله قد ختم على قلوبهم؛ وصف المنافقين أيضاً بعشر صفات، ولم تصرح الآية بذكر صفتهم، مطابقة لحالهم في إخفاء نفاقهم:

وأصل كلمة النفاق: من نافقاء اليربوع، وهو حيوانٌ له نفق في جوف الأرض، وله منفذ من أمام ومنفذ من خلف، فإذا أتيته من هنا ظهر من هناك، وهم فريق من الناس يقولون بألسنتهم ما ليس في قلوبهم، فيظهرون الإيمان ويبطنون الكفر حقناً لدمائهم أو تحقيقاً لغرض دنيوي.

قال ابن عباس رضي الله عنه: نزلت هذه الآيات في منافقي أهل الكتاب، كانوا إذا لقوا المؤمنين يظهرون الإيمان والتصديق ويقولون: إنا لنجد في كتابنا نعته ووصفه^(٣).

والنفاق على نوعين:

النوع الأول: نفاق في العقيدة: وهو الذي ظهر في المدينة وانتشر أمره بعد أن صار

(١) للدوري عن أبي عمرو الفتح والإمالة في لفظ (الناس) المجرور حيث وقع في القرآن.

(٢) قرأ خلف عن حمزة بإدغام النون في الياء من (من يقول) من غير غنة، وكذا إذا وقع بعد النون واواً مثل:

(غشاوة ولهم) في الآية السابقة ونظائرهما في القرآن كله، والباقيون بالغنة مع الإدغام.

(٣) «تفسير الفخر الرازي» (٢/ ٦١).

للإسلام قوة ودولة، حيث أعزّهم الله وأذلّ غيرهم، فعادوا الإسلام سرّاً، وأظهروا الإيمان بألستهم خوفاً ومخادعة، وهذا النفاق يخرج من الملة، وهو الذي يخلّد صاحبه في النار ﴿إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرَكِ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ وَلَنْ يَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا﴾ (١٤٥) إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا ﴿النساء﴾. وهذا النفاق هو الذي جاء وصفه في هذه الآيات.

النوع الثاني: نفاق في السلوك والعمل:

كما قال النبي ﷺ: «أربعٌ من كنَّ فيه كان منافقاً خالصاً، ومن كانت فيه واحدة منهم كانت فيه خصلة من النفاق حتى يدعها؛ من إذا حدث كذب، وإذا وعد أخلف، وإذا أؤتمن خان»^(١) -وفي رواية- «وإذا خاصم فجر وإذا عاهد غدر»^(٢).

وهذا النفاق العملي من أكبر الذنوب ولكنه أدنى من نفاق العقيدة.

وقد ظهر النفاق في المدينة بعد انتصار المسلمين في غزوة بدر، وكان على رأسهم (عبد الله بن أبي بن سلول) فقد كان سيد الأوس والخزرج، وكانوا قد عزموا على أن يملكوه عليهم، فلما جاء النبي ﷺ حقد عليه وأبطن في قلبه عداوته والكيد له وللإسلام وأهله، وظهر النفاق في أهل المدينة وفي اليهود، وكان منهم: الجد بن قيس، ومتعب بن قشير، والجلال بن سويد، وعبد الله بن سبأ، وليد بن الأعصم، والأخنس بن شريق، وزيد القينقاعي، ووديعة بن ثابت، ومخشن بن حمير، وأبو عفاك، وعصماء بنت مروان، وبشير بن أبيرق، وثعلبة بن حاطب، وبشر المنافق.

قال ابن عباس ؓ المنافقون على عهد رسول الله ﷺ كانوا ثلاث مئة من الرجال ومئة وسبعين من النساء، والذين تخلفوا في غزوة تبوك كانوا بضعة وثمانين.

الوصف الأول من صفات المنافقين: أنهم كذّبةٌ:

لأنهم يقولون بألستهم ما ليس في قلوبهم، اعتقاداً منهم -لجهلهم- أنهم يخدعون الله

(١) ينظر «صحيح البخاري» برقم (٣٤، ٣١٧٨، ٢٤٥٩)، ومسلم (٥٨) وأبوداود (٤٦٨٨) والترمذي (٢٦٣٢).

(٢) «صحيح البخاري» برقم (٢٣٢٧) والنسائي في السنن الكبرى: (٨٦٨١) والمسند (٦٧٦٨) وابن حبان: (٢٥٤) والحديث عن عبدالله بن عمرو بن العاص.

تعالى والذين آمنوا، فالمنافق يخالف قوله فعَلَهُ، وسِرَّهُ علانيته، ومَدْخَلَهُ مخرجه، ومخبره مظهره، فهو يظهر الخير ويبطن الشر، يُظهر المودة وحسن الصحبة، ويبطن الغل والحسد، يظهر الحرص على المصلحة، ويبطن إفسادها وتقويض أركانها.

فأول صفة من صفات المنافقين في عقيدتهم أنهم كذبة، يظهرون ما لا يبطنون، أظهروا الإسلام وأبطنوا الكفر، يظهر للمؤمن المحبة ويُبطن له العداوة، يقول كلامًا معسولًا ويُكِنُّ في قلبه بغضاءً وكرهيةً، ﴿وَمِنَ النَّاسِ﴾ الناس: جمعٌ لا واحد له من لفظه، وواحد (إنسان وإنسانة) أو أصله (أناس) أسقطت الهمزة وأدغمت اللام في اللام.

وأجمع المفسرون على أن المراد بالناس في الآية: المنافقون، وهم ﴿مَنْ يَقُولُ ءَامَنَّا بِاللَّهِ وَيَأْتُونَ الْآخِرَ﴾ والله تعالى يكذبهم في دعواهم بقوله: ﴿وَمَا هُمْ بِمُؤْمِنِينَ﴾ في الحقيقة، ولكنهم كذابون منافقون، لأن الإيمان الحقيقي هو ما تواطأ عليه القلب واللسان.

الْوَصْفُ الثَّانِي لِلْمُنَافِقِينَ: أَنَّهُمْ مُخَادِعُونَ:

٩- ﴿يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَمَا يُخَادِعُونَ^(١) إِلَّا أَنْفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ﴾

المخادعة: أن يُظهر المخادع لمن يُخادعه شيئًا ويُبطن خلافه كي يظفر بمقصوده ممن يخادع، والمنافقون يحتالون على الله تعالى وعلى عباده الصالحين، فيسلكون هذا المسلك في أمور الدنيا والدين، ولكنهم لا يضررون إلا أنفسهم، فيفضحهم الله في الدنيا ويخزيهم، ولهم في الآخرة عذاب مؤلم بسبب كذبهم وفجورهم.

والمنافقون يظنون أنهم أذكاء يخدعون الله تعالى، ويخدعون الناس بإخفاء بواطنهم، فهم ﴿يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ حين أسروا الكفر وأظهروا الإيمان، وهم في الحقيقة يخدعون أنفسهم ولا يخدعون رب العالمين ومخادعته لهم جاء من باب المشاكلة اللفظية، ومعناها: معاقبتهم على سوء صيغتهم، فهو وحده يعلم حقيقة أمرهم، يعلم بواطنهم وظواهرهم، وسوف يعاقبهم على أفعالهم وأقوالهم، ﴿وَمَا يُخَادِعُونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ﴾؛ لأن

(١) وقرأ نافع وابن كثير وأبو عمرو (وَمَا يُخَادِعُونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ) لمناسبة اللفظ الأول (يُخَادِعُونَ اللَّهَ) ويجوز أن تكون المفاعلة من الجانبين، ويجوز أن تكون من جانب واحد، فخداعهم لأنفسهم ضررهم لها بتمنيهم الباطل، وخداع الله لهم عقوبتهم على مكربهم، وقرأ الباقون (يُخَادِعُونَ) من خَدَعَ الثلاثي.

الضرر يعود عليهم.

قال تعالى: ﴿إِنَّ الْمُنَافِقِينَ يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَهُوَ خَدِيعُهُمْ﴾ [النساء: ١٤٢] فهم يضرون أنفسهم دون أن يشعروا، والله تعالى لا يتضرر من خداعهم، والمؤمنون لا يضرهم كيدهم شيئاً، فعاد خداعهم على أنفسهم، وإن حققوا بعض المكاسب من وراء هذا المكر، فسلمت أموالهم وحقت دماءهم، ولكن عاقبتهم وخيمة، فيها ذل وهلاك وخزي وندامة.

الْوَصْفُ الثَّالِثُ: الْمَكْرُ وَمَرَضُ الْقُلُوبِ:

١٠- ﴿فِي قُلُوبِهِمْ مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضًا وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ^(١) بِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ^(٢)﴾

أي: أن السبب في نفاق المنافقين أنَّ قلوبهم فيها مرض، مرض الشهوات والشبهات ليس مرضاً جسدياً ولا حسياً إنما هو مرضٌ في الدين؛ مرضٌ معنويٌّ، شكٌ ونفاقٌ وشبهات، وكفر في العقيدة ﴿فِي قُلُوبِهِمْ مَّرَضٌ﴾ ومن مرض الشهوات: حب الزنى والفواحش وسائر المعاصي كما قال تعالى ﴿فَيَطْمَعَ الَّذِي فِي قَلْبِهِ مَرَضٌ﴾ [الأحزاب: ٣٢]. قال تعالى مبينا ما يترتب على حب المعاصي: ﴿فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضًا﴾ أي زادهم ريبة وشكاً، ابتلاء من الله سبحانه، كما قال تعالى: ﴿وَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَى رِجْسِهِمْ وَمَاتُوا وَهُمْ كَافِرُونَ﴾ [التوبة: ١٢٥]. فالمنافق مولع بحب الشهوات والشبهات، وبسبب مكره وخداعه يزداد حباً للمعاصي والفواحش، فيغرق في الربا ويغرق في الزنى وغيرهما، ويكره أهل الطاعة والإيمان.

وكما يزداد المنافق نفاقاً والكافر كفراً فإن المؤمن يزداد إيماناً، قال تعالى: ﴿قَالَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا فَزَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ﴾ [التوبة: ١٢٤] والمهتدي يزداد هدى ﴿وَالَّذِينَ أَهْتَدُوا زَادَهُمْ هُدًى﴾ [محمد: ١٧]. والمعافى من حصل له اليقين وصدق الإيمان، فصبر على أداء الطاعات، وصبر على ترك الشهوات والشبهات، ورفل في ثوب العافية والهداية.

(١) عد هذه الكلمة (أليم) آية المصحف الشامي، وأسقطها غيره من العدد.

(٢) قرأ نافع وابن كثير وأبو عمرو وابن عامر وأبو جعفر ويعقوب (بِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ) بضم الباء وفتح الكاف وتشديد الذال مضارع كَذَبَ المضعف المعدى من التكذيب لله والرسول، والمفعول محذوف تقديره (يكذبونه) والباقون وهم عاصم وحمزة والكسائي وخلف بفتح الباء وسكون الكاف وتخفيف الذال من كَذَبَ اللازم هكذا (يَكْذِبُونَ) وهو من الكذب الذي اتصفوا به، كما أخبر الله عنهم.

ثم توعّد الله سبحانه المنافقين بالعذاب الموجه يوم لقائه؛ جزاء نفاقهم وتكذيبهم فقال: ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ﴾.

كما قال تعالى: ﴿يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ جَمِيعًا فَيَحْلِفُونَ لَهُ كَمَا يَحْلِفُونَ لَكَ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ عَلَىٰ شَيْءٍ أَلَّا إِنَّمَا هُمْ الْكَاذِبُونَ﴾ (٨) [المجادلة].

والنفاق ينشأ عنه صفات ذميمة كثيرة منها: الكذب والخوف والخداع والجهل والسفه واللؤم والعزلة والجبن وعداوة الناس والعجز والغرور وجفاء الطبع وفساد الرأي، فهؤلاء المنافقون لم يخدعوا الله تعالى؛ لعلمه بما يُسرّون، ولم يخادعوا المؤمنين؛ لأن الله تعالى يدفع عنهم الضرر الذي يلحق بهم من مكرهم وخداعهم، وإنما يخدعون أنفسهم؛ لأن الضرر يعود عليهم، والمريض إذا لم يُعالج يزداد مرضه، وينشأ عنه أمراض أخرى، فإن الانحراف يبدأ يسيرا ثم تنفجر الزاوية وتزداد، وكان المنافقون يدعون في السر إلى تكذيب الرسول ﷺ وإلقاء الشبه في طريق دعوته، والتحالف مع المشركين ضد المسلمين كلما وجدوا إلى ذلك سبيلاً.

الْوَصْفُ الرَّابِعُ: دَعَوَى أَنَّهُمْ مُصْلِحُونَ:

١١ - ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ﴾ (٢) (١١)

وإذا نُهي المنافقون عن الإفساد في الأرض بالكفر والمعاصي وإيذاء العباد وموالاته غير المسلمين ونحو ذلك، قلبوا الحقائق، وادّعوا أنهم مصلحون، ففعلوا الباطل وجعلوه حقاً.

أي: أنهم يدعون الإصلاح وهم المفسدون في الحقيقة، فهم يزعمون أنهم يفعلون الأصلح، والواقع أنهم مفسدون ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ﴾ بالمعاصي وبالكفر والشك في دين الله وبإثارة الفتن والقلاقل في المجتمعات، وبموالات الكفار، وإفشاء أسرار المؤمنين، والكذب عليهم، وتضييع فرائض الله، وارتكاب ما حرم الله؛ يكون

(١) قرأ هشام والكسائي ورويس بإشمام كسرة القاف حركة الضم من (قيل) فينطق القاريء بجزء من الضمة أولاً يليه جزء من الكسرة وهو الأكثر، وهذه لغة قيس وعقيل، وقرأ بقية القراء بالكسر الخالص وهي لغة عامة العرب، وكذا جميع نظائرها في القرآن.

(٢) لم يَغْد هذه الكلمة (مصلحون) آية، المصحف الشامي وعدّها غيره.

جوابهم: ﴿إِنَّمَا تَحْنُ مُصْلِحُونَ﴾، وقد أفسدوا أنفسهم، وأفسدوا أبناءهم، ومن يقتدي بهم، وأفسدوا المجتمع بإلقاء العداوة وإثارة الفتن بين أبنائه، وإلقاء العقبات في طريق المصلحين، والمُفسِدُ لا يكون مصلحاً؛ لأنه ليس لديه دين ولا خلق يمنعه من الإفساد في الأرض، والأرض تعمر بالطاعة والإيمان واستغلال ثرواتها في نفع العباد والبلاد، وتفسد بالمعاصي والكفر والنفاق.

الْوَصْفُ الْخَامِسُ: الْإِفْسَادُ فِي الْأَرْضِ:

١٢- ﴿أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ وَلَكِنْ لَا يَشْعُرُونَ﴾

ثم رد الله تعالى عليهم مُبَيِّنًا لهم أن الفساد ديدنهم وشأنهم، وأن ما هم عليه من النفاق هو عين الفساد، فالسَّفَهَ مقصورٌ عليهم، وهم لا يعلمون ما هم فيه من ضلال وخُسران، ومن ذلك أن أحدهم إذا نُهي عن الفساد في الأرض بالكفر والمعاصي وإهلاك الحرث والنسل، أظهر أنه من أهل الصلاح والإصلاح، قلباً للحقائق، وجمعاً بين فعل الباطل واعتقاده حقاً، وفي الآية ردُّ الله عليهم دعواهم، فلا أعظم فساداً ممن صد عن سبيل الله، وخادع أولياء الله، ووالى أعداءه.

ومن الإفساد في الأرض: قتل البرّاء، وإحراق الممتلكات، والتعدي على منشآت الدولة، وفساد الأنظمة، والجور في الحكم، والجهر بالمنكرات، والغش والرشوة، واستغلال النفوذ، وأكل أموال الناس بالباطل، وترويع الآمنين، وإتلاف ما على وجه الأرض من ثروات ومتاع وحبوب وثمار وأشجار ونبات، وطيّر وحيوان، ومنشآت وممتلكات عامة أو خاصة ونحو ذلك.

الْوَصْفُ السَّادِسُ: أَنَّهُمْ سُفَهَاءُ:

١٣- ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ ءَامِنُوا كَمَا ءَامَنَ النَّاسُ قَالُوا أَنُؤْمِنُ كَمَا ءَامَنَ السُّفَهَاءُ﴾

والمنافقون فيهم صفة الكبرياء والعلو، فهم يصفون الذين دخلوا في الإسلام -من أهل الكتاب- بأنهم سفهاء، كعبد الله بن سلام وغيره، من أكابر أحبار اليهود، كما يصفون كذلك ضعفاء المسلمين بالسَّفَهَ ممن دخلوا في الإسلام: كبلال وصُهيبي وعمّار.

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ﴾ أي: قيل لهؤلاء المنافقين وأمثالهم إلى قيام الساعة: ﴿ءَامِنُوا﴾ إيماناً حقيقياً يتواطأ فيه القلب واللسان، بلا نفاق ولا خداع ولا كذب، ﴿كَمَا ءَامَنَ النَّاسُ﴾ أي كما آمن غيركم ممن دخلوا في الإسلام؛ يكون جوابهم: ﴿أَتُؤْمِنُ كَمَا ءَامَنَ السُّفَهَاءُ﴾ فهم يرمونهم بالسفه وضعف العقل والرأي، وسوء التصرف في تدبير الأمور.

والمنافقون في عصر التنزيل يطلقون لفظ (السفهاء) على أصحاب النبي ﷺ، زعمًا منهم أن إيمانهم جعلهم يتركون أوطانهم، ويُعادون غير المؤمنين، ويُلقون بأنفسهم في ساحات الحرب والقتال، ويبذلون أموالهم على الآخرين، فيجعلون ذلك سفهًا، ويصفون أنفسهم برجاجة العقل وسداد الرأي!!

الْوَصْفُ السَّابِعُ: أَنَّهُمْ جُهَلَاءُ

﴿...^(١) أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ السُّفَهَاءُ وَلَكِنْ لَا يَعْلَمُونَ﴾

ومن جهلهم أنهم اختاروا طريق الضلال، وأعرضوا عن النظر في الأدلة الصحيحة؛ ولذلك يقول سبحانه ردًا عليهم: ﴿أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ السُّفَهَاءُ﴾ على الحقيقة ﴿وَلَكِنْ لَا يَعْلَمُونَ﴾، والسفيه: هو الجاهل الضعيف، قليل المعرفة بالمنافع والمضار، فهو لا يعلم مصالح نفسه، ويسعى فيما يضرها، وهؤلاء قد فوّتوا على أنفسهم أعظم المصالح، وخسروا أجلّ المطالب، حين استبدلوا الإيمان بالكفر والنفاق، فوقعوا في أودية الحسرات، وباؤوا بالخسران والهلاك، وهم لا يعلمون سوء ما فعلوه ولا قُبْح ما ارتكبوه، فقد أوبقوا دنياهم وأخراهم، وهذا هو السفه الحقيقي.

وقد سمّى الله من لا يُحسن التصرف في الأموال من النساء والصبيان سفهاء، فقال: ﴿وَلَا تُؤْتُوا السُّفَهَاءَ أَمْوَالَكُمُ﴾ [النساء: ٥] والمنافقون يريدون بهذا الوصف المؤمنين وأصحاب النبي ﷺ، فوصف الله المنافقين بأنهم هم الجُهَلَاءُ في اعتقادهم واختيارهم طريق الضلال؛ لأنهم أعرضوا عن النظر في الدليل، وباعوا أخراهم بدنياهم، وهذا غاية السفه.

(١) قرأ نافع وابن كثير وأبو عمرو وأبو جعفر ورويس بتحقيق همزة (السفهاء) وإبدال همزة (ألا) واوًا خالصة حالة وصل الهمزة الأولى بالثانية في كلمتي (السفهاء ألا)، وقرأ الباقون بتحقيق الهمزتين على الأصل.

الْوَصْفُ الثَّامِنُ: التَّدْبِذُ وَالسُّخْرِيَّةُ:

١٤- ﴿وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ ءَامَنُوا قَالُوا ءَامَنُوا وَإِذَا خَلَوْا إِلَىٰ شَيَاطِينِهِمْ قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزَؤُنَ^(١)﴾

إنهم يتآمرون على المسلمين في الظلام مع رؤسائهم من اليهود وغيرهم -من شياطين الإنس- على تمزيق الصف الإسلامي، والقضاء على الإسلام وأهله، كما قال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَاطِينَ الْإِنسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُورًا﴾ [الأنعام: ١١٢]، فهم إذا خالطوا المؤمنين أظهروا لهم الإيمان والحب بألستهم ليحصلوا على مقصودهم منهم، فإذا رجعوا إلى أتباعهم ومن هم على شاكلتهم، قالوا: نحن معكم فيما تعتقدون، وإنما خدعنا هؤلاء القوم، فإظهروا لهم حُبنا وأننا على طريقتهم، وإلا فتحن لسننا معهم، ولسنا على دينهم، وهم بهذا أرادوا أن يجمعوا بين عشرة الكافرين وصحبة المؤمنين، فلم يستقم لهم هذا ولا ذاك، لأن الضدين لا يجتمعان.

قال تعالى: ﴿وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ أي: قابلوهم والتقوا بهم ﴿قَالُوا ءَامَنَّا﴾ صدقنا بالإسلام قبلكم، ﴿وَإِذَا خَلَوْا إِلَىٰ شَيَاطِينِهِمْ﴾ أي: انصرفوا إلى زعمائهم الكفرة ﴿قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ﴾ على ملة الكفر، ﴿إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزَؤُنَ﴾ أي: نحن نسخر من المسلمين ونستهزئ بهم، ونستخف بهم، فنظهر لهم الصلاح؛ لنأمن شرهم ونقف على أسراره.

الْوَصْفُ التَّاسِعُ: أَنَّهُمْ طُغَاةُ:

١٥- ﴿اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ وَيَمُدُّهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ^(٢) يَعْمَهُونَ^(٣)﴾

قال سبحانه في الرد عليهم: ﴿اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ﴾ أي يمهلهم ويزيدهم حيرة وضلالاً؛ ليضلوا ﴿فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ يترددون ويتخبطون، وهو سبحانه سيجازيهم ويعاقبهم على استهزائهم، بعد أن يمهلهم ويتركهم في ضلالهم حيارى مترددين، عقوبة لهم، ثم لا يمهلهم بل يجازيهم على سوء صنيعهم يوم القيامة، فإذا كان استهزاؤهم قد راج بين الناس

(١) قرأ أبو جعفر بحذف الهمزة وصلاً ووقفاً من (مستهزؤون) مع ضم الزاي، ولورش ثلاثة مد البدل وكذا حمزة وقفًا، وله أيضًا: تسهيلها بين الهمزة والواو، وإبدالها ياء خالصة وحذف الهمزة مع ضم الزاي.

(٢) أمال الألف من (طغيانهم) دوري الكسائي وفتحها الباقون.

وصدّقه فإنه لا يخفى على الله سبحانه، وهو الذي سيتولى جزاءهم.

وهذا هو معنى استهزاء الله بهم، ومن عقابه لهم أنه يستدرجهم ويزيدهم من النعم، فيزعمون أن هذا من رضي الله عنهم.

قال تعالى: ﴿يَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُم بِهِ مِنْ مَالٍ وَبَيْنٍ ۖ وَسَارِعُوا فِي الْخَيْرَاتِ﴾ [المؤمنون]،

وقال جل شأنه: ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّمَا نُثَمِّلِي لَهُمْ خَيْرٌ لِّأَنفُسِهِمْ إِنَّمَا نُمِّلِي لَهُمْ لِيَزْدَادُوا إِثْمًا﴾ [آل عمران: ١٧٨].

ومن عقاب الله تعالى لهم أيضا أنه يعطيهم يوم القيامة مع المؤمنين نورا ظاهرا يمشون به على الصراط ثم يقطعه عنهم، فيبقوا في الظلمة بعد النور متحيرين، وهذا جزاء موافق لصنيعهم في الدنيا من إظهار الإيمان وإبطان الكفر:

قال تعالى: ﴿يَوْمَ يَقُولُ الْمُنْفِقُونَ وَالْمُنْفِقَاتُ لِلَّذِينَ آمَنُوا انظُرُونَا نَقَسَ مِنْ تَوَكُّبِكُمْ قِيلَ أَرْجِعُوا وَرَاجِعُوا فَالْتَمِسُوا نُورًا﴾ [الحديد: ١٣]

وعندما ينقطع عنهم النور يستجدون بالمؤمنين ﴿يَتَادُّونَهُمْ أَلَمْ نَكُنْ مَعَكُمْ قَالُوا بَلَىٰ وَلَكِنَّكُمْ فَتَنْتُمْ أَنْفُسَكُمْ وَتَرَبَّصْتُمْ وَارْتَبْتُمْ وَغَرَّتْكُمُ الْأَمَانُ حَتَّىٰ جَاءَ أَمْرُ اللَّهِ وَغَرَّكُمْ بِاللَّهِ الْغُرُورُ﴾ [الحديد]

الْوَصْفُ الْعَاشِرُ: أَنَّهُمْ عَلَى ضَلَالٍ

١٦- ﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ اشْتَرُوا الضَّلَالَةَ بِالْهُدَىٰ^(١) فَمَا رَحِمَتْ جُنُوحَهُمْ وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ﴾

ثم بيّن سبحانه مصيرهم في الآخرة، وذكر أن تجارتهم في النفاق غير رابحة، وأنهم قد باعوا الهدى واشتروا الضلالة، بمعنى: أنهم أخذوا الضلالة، ورغبوا فيها رغبة المشتري في السلعة، ببذل الثمن النفيس فيها، فالضلالة كالسلعة، والهدى كالثمن، فبُست التجارة وبُست الصفقة، باختيار الشقاء على السعادة، إنهم تركوا الهدى، فما ربحوا في تجارتهم، وما كانوا على هدى في ضلالتهم؛ لأنهم فقدوا رأس المال وهو الإيمان، وفقدوا ربحه وهو العمل الصالح، وباعوا أنفسهم في صفقة خاسرة ﴿فَمَا رَحِمَتْ جُنُوحَهُمْ﴾ بل خسروا فيها أعظم خسارة ﴿وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ﴾، بل تحقق ظلالهم وعدم هدايتهم.

(١) أمال الألف من (بالهدى) حمزة والكسائي وخلف، وقَلَّلها الأزرق بخلفه.

كما قال تعالى: ﴿وَمَنْ يَبَدِّلِ الْكُفْرَ بِالْإِيمَانِ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ﴾ [البقرة: ١٠٨] إنهم لم يكسبوا شيئاً؛ بل خسروا الربح ورأس المال، وهذا هو الخسران المبين؛ ولذا نفى الله عنهم الهداية وشبههم بمن يريد الربح فيفقد رأس ماله.

﴿قُلْ إِنَّ الْخَاسِرِينَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَأَهْلِيَهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ أَلَا ذَلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ﴾ [الزمر]

والسبب أن المنافقين عدلوا عن الهدى إلى الضلال، وبذلوا الهدى ثمنًا للضلالة فخسرت تجارتهم، وخاب بيعهم، ومن كان هذا منهجه فلن يهتدى أبداً. ولأن حال المنافق يخفى على الناس، كان بحاجة إلى ضرب الأمثال:

الْمَثَلُ الْأَوَّلُ لِلْمُنَافِقِينَ: مَثَلُ نَارِيٍّ

١٧- ﴿مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْقَدَ نَارًا فَلَمَّا أَضَاءَتْ مَا حَوْلَهُ ذَهَبَ اللَّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِي ظُلُمَةٍ لَا يُبْصِرُونَ﴾ [١٧]

ثم ضرب سبحانه للمنافقين مثلين عظيمي يكشف عن حالهما غاية الكشف؛ ليتضح شأنهما: مثلاً نارياً ومثلاً مائياً، وبالمثال يتضح المقال:

أما المثل الأول فهو المثل الناري، هذا المثل يصف رجلاً كان في ظلمة شديدة، وبرد قارس، فأوقد ناراً ليستضيء ويستدفئ بها، فلما أضاءت هذه النار ما حولها؛ أبصر الرجل ورأى ما حوله، فأمن على نفسه من المخاوف واستدفأ بها وقتاً يسيراً من الزمن، فبينما هو كذلك وإذ بهذه النار تنطفئ، فذهب عنه النور وعاد إلى الظلمة، فهو لم ينتفع منها بشيء في الحقيقة، وهذا يُشبه المنافق الذي يُظهر إسلامه؛ ويظهر الخير للناس كي ينتفع به في الدنيا في ظاهر الأمر؛ فيحقق دمه وماله بذلك، وينتفع انتفاعاً مؤقتاً لا يفيد في الآخرة.

﴿مَثَلُهُمْ﴾ أي مثل المنافقين الذين آمنوا ظاهراً برسالة محمد ﷺ ولم يؤمنوا باطنًا، ثم كفروا فصاروا يتخبطون في ظلمات ضلالهم ﴿كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْقَدَ نَارًا﴾ في الصحراء في ليلة مظلمة ﴿فَلَمَّا أَضَاءَتْ مَا حَوْلَهُ﴾ وانتفع بها بعض الوقت ﴿ذَهَبَ اللَّهُ بِنُورِهِمْ﴾ انطفأت النار وأغتمت، ثم لم يلبثوا أن ذهب الله بنورهم وأزاله عنهم ﴿وَتَرَكَهُمْ فِي ظُلُمَةٍ لَا يُبْصِرُونَ﴾، فهم لا يهتدون إلى طريق ولا مخرج، وهذه الظلمات التي تركوا فيها، منها: ظلمة

الليل، وظلمة الصحراء الموحشة، والظلمة الحاصلة بعد النور، فهم (في ظلمات) يقابلها: ظلمة القبر، وظلمة الكفر، وظلمة النفاق، وظلمة المعاصي، وظلمة عذاب النار يوم القيامة.

فإضاءة النار كإضاءة الإيمان الذي أظهره، ومجيء الظلمة كحقيقة الكفر الذي في قلوبهم، وفي سورة الحديد شرح وبيان لهذا المثل ﴿يَوْمَ يَقُولُ الْمُنْفِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ لِلَّذِينَ آمَنُوا انظُرُونَا نَقْتَسِمَ مِنْ ثُورِكُمْ بَلْ أَرْجِعُوا وَرَاءَكُمْ فَالْتَمِسُوا نُورًا فَضُرِبَ بَيْنَهُم بِسُورٍ لَّهُ بَابٌ بَاطِنُهُ فِيهِ الرَّحْمَةُ وَظَاهِرُهُ مِنْ قِبَلِهِ الْعَذَابُ﴾ [سورة الحديد: ١٣] وسواء أكان هؤلاء القوم قد دخلوا في الإسلام نفاقاً من أول الأمر، أم أنهم كفروا بعد إيمان؛ ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ ءَامَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا فَطُبِعَ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ﴾ [المنافقون: ٣].

وفي الآية توحيد النور وجمع الظلمات؛ لأن الحق واحد، والباطل متعدد، وقد دخلوا في الإسلام أولاً، ثم تحولوا عنه إلى الكفر أو النفاق، فهم لم ينتفعوا بإيمانهم في كلتا الحالتين لأنهم:

١٨ - ﴿صُمُّ بُكْمٌ عُمَىٰ فَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾

والسبب في ذلك أن المنافق قد عطل سمعه وبصره ولسانه؛ فلم ينتفع بها ويستعملها فيما خلقت من أجله، فهم صم عن سماع الحق والخير والهدى، فكأنهم لا يسمعون، وبكم عن النطق بالحق، فكأنهم لا يتكلمون، وعمى عن رؤية الحق وإبصار نور الهداية، فكأنهم لا يبصرون، فهم لا يرجعون عن ضلالهم ونفاقهم ويعودون للإسلام، لأنهم تركوا الحق بعد ما عرفوه فلا يرجعون إليه، بخلاف من ترك الحق عن جهل وضلال، فهو أقرب رجوعاً منهم.

الْمَثَلُ الثَّانِي لِلْمُنَافِقِينَ: مَثَلُ مَائِيٍّ

١٩ - ﴿أَوْ كَصَيِّبٍ مِنَ السَّمَاءِ فِيهِ ظُلُمَاتٌ وَرَعْدٌ وَبَرْقٌ ۚ يَجْعَلُونَ أَصْنَعَهُمْ فِيْٓ أَآذَانِهِمْ ۚ مِنَ الصَّوَاعِقِ حَذَرَ الْمَوْتِ ۗ وَاللَّهُ مُحِيطٌ بِالْكَافِرِينَ﴾

هذا المثل يصف حيرة المنافقين وقلقهم وخوفهم بمطر نزل من السماء بغزارة، على

(١) وصل ابن كثير الهاء من (فيه) بحرف مد وقصرها الباقون.

(٢) قرأ خلف عن حمزة بترك الغنة في هذه الألفاظ الثلاثة: (ظلمات ورعد وبرق يجعلون) مع الإدغام.

(٣) آمال الألف بعد الذال من (آذانهم) دوري الكسائي.

جماعة في صحراء موحشة، وهذا المطر فيه ظلمات ورعد وبرق، ظلمة الليل وظلمة السحاب وظلمة المطر، وفيه صوت يُسمع من السحاب، وضوء يشاهد مع السحاب، فإذا ظهر البرق في تلك الظلمات، فإنه يترك ميضاً من النور يمكن للمنافق أن يرى من خلاله، ويسير في ضوئه وقتاً يسيراً من الزمن، وإذا أظلم عليهم وقفوا، وبينما هم كذلك وإذ بهذا البرق يتوقف فجأة، فينقطع هذا الضوء، ويصبح المرء حائرًا مترددًا بين ظلمات الجوّ، وقصف الرعد، ولمعان البرق، والصواعق المحرقة. وهكذا حال المنافقين إذا سمعوا أوامر القرآن ونواهيهِ ووعده ووعيدهِ، جعلوا أصابعهم في آذانهم وأعرضوا عنه، كما يضع من يسمع الرعد أصبعه في أذنيه خشية الموت، وطمعاً في السلامة عنه.

﴿أَوْ كَصَيْبٍ﴾ أي: مطر غزير نزل من السماء، وذلك حين يسوق الملك السحاب بسيف من حديد في يده؛ فينزل الماء، ويُسمع الصوت، ويظهر لمعان البرق، كما ورد في الآثار:

عن سعيد بن جبير عن ابن عباس قال: أقبلت يهودٌ إلى رسول الله ﷺ يسألونه عن خمسة أشياء، منها أنهم قالوا: يا أبا القاسم، أخبرنا ما هذا الرعد؟ قال: «ملك من ملائكة الله موكل بالسحاب، بيده أو في يده مخاريق من نار، يزجر به السحاب ويسوقه حيث أمره الله تعالى» قالوا: فما هذا الصوت الذي يُسمع؟ قال: «صوته» قالوا: صدقت^(١).

وفي هذا المطر ظلمات ورعد وبرق يبعث على الفزع والرعب؛ ولذا فهو خائفٌ قلقٌ من شدة الهول، ﴿يَجْعَلُونَ أَصْنَعَهُمْ فِيْءِ أَذَانِهِمْ﴾ خوفاً من الهلاك، ﴿وَاللَّهُ مُحِيطٌ بِالْكَافِرِينَ﴾ فهم لا يفوتونه ولا يُعجزونه، وهو سبحانه يُحصي أعمالهم ويحفظها وسيُجازيهم عليها ويعاقبهم. والآية التالية تستكمل صورة هذا المثل المائي:

(١) من حديث طويل في «المسند» بتصحيح أحمد شاكر رقم (٢٤٨٣) وأفاد محققو المسند بإشراف د/ التركي أنه حديث حسن دون قصة الرعد، فقد تفرد بها بكير بن شهاب، وقد أثنى عليه الذهبي وأبو حاتم، كما في المسند (٢٥١٤) دون قصة الرعد، وأنكروا القصة. وهو في «سنن الترمذي» (٣١١٧) «وصحيح سنن الترمذي» برقم (٢٤٩٢) بتصحيح الألباني له، وكذا في السلسلة الصحيحة (١٨٧٢) وأخرجه النسائي في «السنن الكبرى» برقم (٩٠٢٤) وهو في «تحفة الأشراف» (٣٩٤/٤) ونسبه الهيثمي في «مجمع الزوائد» (٢٤٢/٨) إلى أحمد والطبراني وقال: رجالهما ثقات.

هذا: ولا أرى فيما قيل عن بكير، ما يستوجب إنكار القصة، أو تجريحه، والله أعلم.

٢٠- ﴿يَكَادُ الْبَرْقُ يَخْطَفُ أَبْصَارَهُمْ^(١) كُلَّمَا أَضَاءَ لَهُمْ مَشَوْا فِيهِ وَإِذَا أَظْلَمَ عَلَيْهِمْ قَامُوا وَلَوْ شَاءَ^(٢) اللَّهُ لَذَهَبَ^(٣) بِسَمْعِهِمْ وَأَبْصَرِهِمْ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ^(٤)﴾ .

أي: يوشك هذا البرق -من شدة لمعانه- أن يسلب أبصارهم: ﴿يَكَادُ الْبَرْقُ يَخْطَفُ أَبْصَرَهُمْ﴾ ، فكلما ظهر لهم وميض من البرق وشعاع من النور مشوا فيه: ﴿كُلَّمَا أَضَاءَ لَهُمْ مَشَوْا فِيهِ﴾ ، فإذا انطفأ عليهم وقفوا في أماكنهم حيارى مترددين لا يبصرون الطريق ﴿وَإِذَا أَظْلَمَ عَلَيْهِمْ قَامُوا﴾ ، والله سبحانه قادرٌ -في كل وقت- على أن يسلبهم أسماعهم وأبصارهم ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَذَهَبَ بِسَمْعِهِمْ وَأَبْصَرِهِمْ﴾ ، وفي هذا تحذير وتخويف لهم بالعقوبة الدنيوية ليحذروا فيرتدعوا عن نفاقهم والله قادرٌ على كل شيء في كل وقت: ﴿إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ . لا يعجزه شيء .

وهكذا غير المؤمن بدين الإسلام، وبرسول الإسلام، فإن عمله الصالح لا يفيد شيئاً . والأدلة في هذا متضاربة؛ كقوله تعالى ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَلُهُمْ كَسَرِمْ يَجْعَلُ يَحْسَبُهُ الْقَظْمَانُ مَاءً حَتَّى إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا وَوَجَدَ اللَّهَ عِنْدَهُ فَوَفَّاهُ حِسَابَهُ﴾ [النور: ٣٩] .

﴿مَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ أَعْمَلُهُمْ كَرَمَادٍ اشْتَدَّتْ بِهِ الرِّيحُ فِي يَوْمٍ عَاصِفٍ﴾ [إبراهيم: ١٨] .

وهكذا وصف الله المنافقين في هذه الآيات بعشرة أوصاف قبيحة، تدل على رسوخهم في الضلال؛ وهي: الكذب والخداع والمكر والسّفه والاستهزاء والإفساد في الأرض والجهل والضلال والتذبذب والسخرية بالمؤمنين .

عن أبي سعيد رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «القلوب أربعة: قلبٌ أجرد، فيه مثل السراج يُزهر، وقلبٌ أغلف مربوطٌ على غلافه، وقلبٌ منكوسٌ، وقلبٌ مُضْفَحٌ، فأما القلبُ الأجرد فقلبُ المؤمن، سراجُه فيه نورُه، وأما القلبُ الأغلف فقلبُ الكافر، وأما القلبُ المنكوس فقلبُ المنافق الخالص، عَرَفَ ثم أنكر، وأما القلبُ المضفح فقلبٌ فيه إيمان ونفاق، ومثلُ الإيمان فيه كمثُلُ البقلة، يُمِدُّها الماء الطيّب، ومثلُ النفاق فيه كمثُلُ

(١) أمال ألف (أبصارهم) أبو عمرو ودوري الكسائي والصوري عن ابن ذكوان بخلف عنه، وقلّ لها الأزرق .

(٢) أمال الألف من (شاء) ابن ذكوان وحمزة وخلف العاشر والدا جوني بخلف عن هشام .

(٣) أدغم باء (لذهب) في الباء بعدها أبو عمرو ويعقوب بخلف عنهما .

الْقُرْحَةَ، يُمْدُّهَا الْقِيحَ وَالدَّمَ، فَأَيُّ الْمَدَّتَيْنِ غَلَبَتْ عَلَى الْآخَرَى غَلَبَتْ عَلَيْهِ»^(١).

والمصفح هو الذي له وجهان، والأجرد: الخالي من الغلاف والنفاق. والأغلف: الذي له غلاف يمنع دخول الحق فيه، والمنكوس: المقلوب.

وعن عبد الله بن عمرو رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «ثَلَاثٌ مَنْ كُنَّ فِيهِ كَانَ مُنَافِقًا خَالِصًا، وَمَنْ كَانَتْ فِيهِ وَاحِدَةٌ مِنْهُنَّ كَانَتْ فِيهِ خِصْلَةٌ مِنَ النِّفَاقِ حَتَّى يَدْعَاهَا؛ مَنْ إِذَا حَدَّثَ كَذَبَ، وَإِذَا وَعَدَ أَخْلَفَ، وَإِذَا أُؤْتِمِنَ خَانَ»^(٢).

وفي لفظ مسلم: «أربع من كنَّ فيه... والرابعة: وإذا خاصم فجر»^(٣).

دَعْوَةُ النَّاسِ جَمِيعًا إِلَى أَصْلَيْنِ: هُمَا الْإِيمَانُ بِاللَّهِ تَعَالَى وَبِخَاتَمِ رُسُلِهِ

٢١- ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾

ثم وَجَّهَ الله سبحانه وتعالى النداء إلى البشر جميعًا بمختلف فرقهم وطوائفهم؛ المؤمنين والكفار والمنافقين، فأمرهم أن يعبدوا الله وحده، الذي أوجدهم من العدم وربَّاهم بنعمه، وأن يدينوا له بالإسلام دون غيره، فهو كلمة الله الأخيرة إلى جميع خلقه. وهذا الإسلام يقوم على أصليْنِ عظيمين:

الأصل الأول: الإيمان بالله وحده، وهو مقتضى شهادة أن لا إله إلا الله، وكلمة التوحيد هذه تعني إخلاص العبادة والتوجه بها إلى الله وحده.

والأصل الثاني: هو الإيمان بمحمد ﷺ وبما جاء به من عند الله؛ باتباع أمره واجتناب نهيه، وتقديم طاعته ومحبته على هوى النفس وطاعتها، وهو مقتضى أشهد أن محمدًا رسول الله.

وقد دلَّت سورة البقرة في صدرها على هذين الأصلين العظيمين، وبَيَّنت عاقبة المكذِّبين

(١) «المسند» (١٧/٣) برقم (١١١٢٩) قال محققوه: بإسناد ضعيف، لضعف ليث، وانقطاع أبو البخري، لأنه لم يدرك أبا سعيد الخدري، وباقي رجاله ثقات رجال الشيخين، وأخرجه الطبراني في الصغير (١٠٧٥) وأبو نعيم في الحلية (٣٨٥/٤) وقال ابن كثير (١٩٣/١): وهذا إسناد جيد حسن، ط دار طيبة.

(٢) «صحيح البخاري» برقم (٣٤) و«صحيح مسلم» برقم (٥٨).

(٣) «صحيح مسلم» برقم (٥٨) و«صحيح البخاري» (٣٤، ٢٤٥٩، ٣١٧٨).

والكافرين بهما، كما بيّنت النعيم الذي أعدّه الله سبحانه للمتقين المصدّقين؛ المؤمنين بهذين الأصلين.

وإلى الأصل الأول يشير قول الله سبحانه: ﴿يَتَأْتِيهَا النَّاسُ أَعْبُدُوا رَبَّكُمْ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ﴾، وإلى الأصل الثاني يشير قوله تعالى: ﴿وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِثْلِهِ﴾.

أما الأصل الأول: وهو توحيد الله سبحانه، فإن مقتضى هذا التوحيد أن الذي تفرّد بالخلق - سبحانه - هو وحده الذي يتفرّد بالعبادة؛ لأنه قد خلق الخلق وحده، فهو إذن مستحقّ للعبادة دون سواه، فلا يُتخذ معه أنداد ولا شركاء، لا شرك أكبر، ولا شرك أصغر، ولا شرك خفي، فلا يُرجى غير الله، ولا يُعتقد النفع والضّر إلا من عند الله، ولا يُخاف إلا من الله سبحانه، ولا يُدعى غير الله، ولا يُذبح أو يُنذر لغير الله، ولا يُتوسط إليه بأحد من خلقه، ولا يُشرك معه غيره في جميع أموره.

ولا يجوز أن يقول العبد لأحد من خلق الله - قضى له مصلحة أو قدّم له معروفًا: (لولا الله وأنت ما كان كذا).

ولا أن يقول له: (ما شاء الله وفلان) فإنه من باب الشرك، وقد خاطب الله في الآية الناس جميعًا، من لدن نزول القرآن إلى قيام الساعة، فأمرهم جميعًا بإخلاص العبادة لله وحده والإيمان بخاتم النبيين ﷺ، فربّهم هو الذي أوجدهم من العدم، ورباهم بنعمه، وقد أمرهم بعبادته؛ لعلهم يتقون الله تعالى، فالتقوى هي الغاية من العبادة.

والعبادة تعني: امتثال أوامر الله تعالى واجتناب نهيه، وتصديق خبره.

الأصل الأول: التوحيد وأدلتُهُ الأربعة

ثم أقام الله سبحانه أربعة أدلة على وحدانيته سبحانه، وتفرده بالخلق والرزق والإحياء والإماتة... واستحقاقه للعبادة دون سواه؛ لأنه سبحانه لا يرضى لهم الضلال ولا عذاب النار:

الدليل الأول: نعمة خلق الإنسان:

أي: أن الله سبحانه هو الذي خلق هذا الكون بما فيه، وخلق الناس على مختلف ألسنتهم

وألوانهم، وخلق الأمم السابقة واللاحقة، وأوجدهم من العدم، ورباهم بنعمه الظاهرة والباطنة، وهو سبحانه مستحق للعبادة بمقتضى هذا الخلق؛ لأنه من خصائص الألوهية، فاعبدوه لذاته، واعبدوه؛ لأنه خلقكم وخلق الذين من قبلكم من الأمم السابقة، وأوجدهم من العدم، خلقهم من تُراب، بخلق أبيهم آدم منه، وخلق ذريته من نطفة، والغرض من خلق الخلق هو تقوى الله وعبادته ﴿لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾، فقد خلقكم سبحانه لهدفٍ وغاية: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ ﴿٥٦﴾ [الذاريات].

هذا الهدف: هو أن يعرفوا الله سبحانه، ويعمروا الأرض التي يسكنوها، ويكونوا خلفاء لمن سبقهم فيها، من عالم الجن ونحوه؛ ليقيموا منهج الله فيها، وهذه الغاية: هي تقوى الله سبحانه وطاعته عز وجل، ﴿لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ أي لعلكم تتصفون بالتقوى وتكونون من أهلها، فإنكم إن عبدتم الله تعالى، اتقيتم سخطه وعذابه وحصلت لكم النجاة وصرتم من المتقين.

الدليل الثاني: نعمة الأرض التي نعيش فوقها

٢٢- ﴿الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ فِرَاشًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنْ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَكُمْ فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أُنْدَادًا وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ ﴿٢٢﴾

قد يغفل الإنسان عن بعض نعم الله تعالى؛ لأنه يتقلب فيها صباح مساء، ومنها هذه الأرض التي نعيش فوقها بما فيها من نعم لا تحصى؛ لأنه يألفها وقد يغيب عنه أن الله سبحانه قد فرشها وبسطها ومهدّها، وجعلها كالفراش أو البساط الذي يُفرش للإنسان ليمشي فوقه، وهو مظنة الراحة وسهولة الحركة فوق هذه الأرض التي جعلها الله سبحانه مستقرة؛ وأمسكها بالجبال لكي لا تميد بالناس في وسط المحيطات والبحار والأنهار، ليستقروا فوقها، وأمدّها الله سبحانه بالعناصر التي تُصلح حياة الإنسان، ولو فقد منها عنصرٌ واحدٌ ما استقامت حياة الناس، فمثلاً: لو فقد الإنسان عنصر الهواء -من فوق الأرض- ما استطاع أن يلتقط أنفاسه، ولو فقد عنصر الماء ما عاش إلا زمناً يسيراً.

وهكذا، فالله سبحانه قد أمدّ هذه الأرض بالعناصر المكتملة المعروفة، والمقررة في مختلف العلوم التجريبية؛ لكي يحيا الإنسان عليها ويعيش فوقها، وهي مع ذلك مُسخرةً مدلّلة للإنسان كي يمشي في مناكبها ويأكل من رزقه سبحانه، ذلكم قول الله سبحانه

﴿الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ فِرَاشًا﴾. تستقرون عليها، وتتفنون بالأبنية والزراعة والحراثة، وتتقلون من مكان إلى مكان، وغير ذلك من وجوه الانتفاع.

وهذا كقوله تعالى: ﴿اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ فِرَاشًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَصَوَّرَكُمُ فَأَحْسَنَ صُورَكُمْ وَرَزَقَكُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ ذَلِكَمُ اللَّهُ رَبُّكُمُ فَتَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ [غافر].

الدليل الثالث: نعمة جعل السماء بناءً:

وهل تستفيد أنت أيها المخلوق من هذه السماء؟ ربما لا يستشعر الإنسان هذه النعمة العظيمة، وبشيء من التأمل والفكر يُدرِك أن حياة الإنسان فوق هذه الأرض مرتبطة بالسماء، وأن صلة السماء بالأرض وثيقة، وأنه لا يمكن للإنسان أن يعيش على وجه هذه الأرض بدون السماء، فالسماء سقفٌ للأرض، أودع الله فيها ما هو ضروري لكم كالشمس والقمر والنجوم، وهي مرفوعة كالسقف فوق البيت، والأرض مفروشة كالبساط، والإنسان كمالك البيت، وفيه أنواع النبات وأصناف الحيوان وغيرهما، خلقها الله لصالح الإنسان، فيجب عليه أن يشكر من سخَّر له هذه الكائنات.

قال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا السَّمَاءَ سَقْفًا مَّحْفُوظًا وَهُمْ عَنْ آيَاتِهَا مُعْرِضُونَ﴾ [الأنبياء: ٢٢]. السماء سقفٌ للأرض، فهي تمدُّها بالطاقة، تمدُّها بالحرارة، وتمدُّها بالضوء، وتمدُّها بالماء والمطر وغير ذلك، وبغير هذه العناصر لا يمكن للإنسان أن يعيش فوق هذه الأرض، ذلكم قول الله سبحانه ﴿وَالسَّمَاءَ بِنَاءً﴾، وكل ما علا الإنسان فهو سماء والمراد بالسماء هنا السحاب.

الدليل الرابع على وحدانية الله سبحانه في هذه الآية: نعمة الماء:

وهو المادة الأساس لكل كائن حي ﴿وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ﴾ [الأنبياء: ٣٠] فلا يمكن لأي كائن في الأرض -من شجر أو نبات أو إنسان أو حيوان أو طير- أن يعيش بغير نعمة الماء.

عن ابن عباس رضي الله عنه قال: يرسل الله الريح، فتحمل الماء من السحاب فيمر به السحاب، فتدِرُّ كما تدر الناقة، وتحتاج مثل العزالي، غير أنه متفرق^(١).

(١) رجاله ثقات، «تهذيب الكمال» (١١٤/٧) وقد أخرجه أبو الشيخ في «العظمة» (٧١٣) وابن أبي حاتم.

والعزالي: جمع عزلاء، والمراد: مصب الماء، كما قال تعالى:

﴿يُنْبِتُ لَكُمْ بِهِ الزَّرْعَ وَالزَّيْتُونَ وَالنَّخِيلَ وَالْأَعْنَابَ وَمِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ﴾ [النحل: ١١].

وهذا الماء يُخرج الثمرات التي يأكل منها الإنسان ويتغذى بها؛ ولذا فإن الله سبحانه اقتصر على ذكر الثمرات: ﴿وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَكُمْ﴾.

به ترزقون فتقتاتون وتعيشون.

قال سبحانه مرتباً على خصائص الألوهية وأدلة التوحيد: ﴿فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَنْدَادًا﴾ أي: أن الله الذي خلقكم ورزقكم وأمدكم بوسائل الحياة، هو وحده المستحق للعبادة، فلا تجعلوا له نظراء في العبادة، ولا تجعلوا له شركاء تعبدونهم وتحبونهم ﴿وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ تفرد به بالخلق والرزق، واستحقاقه للعبادة دون سواه، لا تجعلوا له شريكاً أكبر، ولا شريكاً أصغر، ولا شريكاً خفياً.

عن عبد الله بن مسعود ؓ قال: قلت: يا رسول الله: أي الذنب أعظم؟ قال: «أن تجعل لله نداً وهو خلقك»^(١).

وفي حديث معاذ رضي الله عنه عن النبي: «أتدرون ما حق الله على عباده؟ أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئاً»^(٢).

وفي حديث حذيفة ؓ عن النبي ﷺ قال: «لا يقولن أحدكم: ماشاء الله وشاء فلان؛ ولكن ليقل: ماشاء الله، ثم شاء فلان»^(٣).

(١) «صحيح البخاري» برقم (٤٤٧٧، ٤٧٦١، ٦٠٠١) و«صحيح مسلم» برقم (٨٦) وأبو داود (٢٣١٠) والترمذي (٣١٢٨) و«المسند» (٣٦١٢).

(٢) البخاري برقم (٢٨٥٦، ٥٩٦٧، ٦٢٦٧، ٦٥٠٠، ٧٣٧٣) ومسلم برقم (٣٠).

(٣) رواه أبو داود في السنن برقم (٤٩٨٠) و«المسند» (٢٣٢٦٥، ٢٣٣٤٧، ٢٣٣٨١) قال محققوه: حديث صحيح، وإسناد رجاله ثقات، و«السلسلة الصحيحة» (١٣٨) والنسائي في «الكبرى» (١٠٨٢١) وفي عمل اليوم والليلة (٩٨٥) وابن ماجه (٢١١٨) وابن أبي شيبة (١١٧/٩) والطيالسي ٤٣٠.

وقال رجلٌ للنبي ﷺ: ما شاء الله وشئت، فقال: «أجعلتني لله ندًا، قل: ما شاء الله وحده»^(١).

قال ابن عباس ؓ: (الأنداد هو الشرك، أخفى من ديب النمل على صفاة سوداء في ظلمات الليل) وهو أن يقول: والله، وحياتك يا فلانة، وحياتي، ويقول: لولا كلبة هذا لأتانا اللصوص، ولولا البطُّ في الدار لأتى اللصوص، وقول الرجل لصاحبه: ما شاء الله وشئت، وقول الرجل: لولا الله وفلان... لا تجعل فيها فلانًا؛ فإن هذا كله به شرك^(٢).

هذا: وقد جمعت هذه الآية بين الأمر بعبادة الله وحده في قوله ﴿اعْبُدُوا رَبَّكُمْ﴾ والنهي عن عبادة غيره في قوله ﴿فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَنْدَادًا﴾ وذكر الدليل على وجوب عبادة الله تعالى وبطلان عبادة من سواه في قوله ﴿الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ﴾ وقوله ﴿الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ الْأَرْضَ فِرَاشًا﴾ الآية واستهل ذلك بذكر الرب ﴿اعْبُدُوا رَبَّكُمْ﴾ وفيه توحيد الربوبية المتضمن للخلق والرزق والتدبير، وفي هذا إقرار بوحداية الله تعالى.

إنَّ وجود الله تعالى وآثار قدرته ووحدايته أمرٌ فطريٌّ لا يحتاج إلى دليل:

١- سُئل أعرابيٌّ عن الدليل على وحداية الله عز وجل، فقال الأعرابي بفطرته وسجيته: يا سبحان الله! البعرة تدل على البعير، وأثر الأقدام يدل على المسير، فسماء ذات أبراج، وأرض ذات فجاج، وبحار ذات أمواج، كيف لا تدل على اللطيف الخبير؟!

٢- وسأل بعضُ الزنادقة الإمام أبا حنيفة عن الدليل على وحداية الله سبحانه وتعالى، فقال لهم: أمهلوني بعض الوقت، فإني مشغولٌ بأمر هام، قالوا: وما ذاك؟ قال: يقولون: إن بالبحر سفينةً مليئةً بالتجارة، ومليئةً بالناس، ومع ذلك فهي تذهب وتجيء وتخوض غمار البحر، وتلاطم الأمواج بنفسها، دون أن يكون لها سائقٌ، أو قائدٌ يقودها، أو حارسٌ يحرسها، قالوا: لا يقول هذا عاقلٌ، هذا كلامٌ غير معقول، سفينةٌ موقرةٌ بالتجارة والناس وهي تذهب وتجيء في عرض البحر منتظمة، دون وجود قائد يقودها؟! هذا كلام

(١) عن يزيد بن الأصم عن ابن عباس، «سنن النسائي الكبرى» برقم (١٠٨٢٥) و«سنن ابن ماجه» برقم (٢١١٧) وصححه الألباني في «صحيح سنن ابن ماجه» برقم (١٧٢٠) وأحمد شاكر في «المسند» برقم (١٨٣٩، ١٩٦٤، ٢٥٦١) وهو حديث صحيح لغيره وصحيح «الأدب المفرد» (٦٠١) و«السلسلة الصحيحة» (١٣٩) والبيهقي في «الأسماء والصفات» (٢٩٣).

(٢) رواه ابن أبي حاتم بإسناد حسن، وقال ابن حجر: سنده قوي «العجاب في بيان الأسباب» (ص ٥١).

غير معقول! قال أبو حنيفة: وهل يُعقل أن يكون هذا الكون بعُلُوِّه وسُفْلِيه، وهو يسير وَفَق هذا النظام المحكم الدقيق، دون وجود صانع صَنَعَهُ؟! فأقبل عليه الزنادقة، وأسلموا وحسُن إسلامُهم.

٣- وسئل الإمام الشافعي دليلاً عن وحدانية الله سبحانه، فقال: هذه ورقة التوت، شكلها واحدٌ، وطعمُها واحدٌ، يأكلها الدود فتصبح حريراً، ويأكلها النحل فتخرج عسلًا، وتأكلها البهائم فتخرج رَوْتًا وبعراً، وتأكلها الطُيَّاء فتخرج مِسْكَاً، فسبحان الخلاق العظيم!!

٤- وسئل الإمام أحمد عن وحدانية الله تعالى، فقال: ههنا حصنٌ حصينٌ أُمْلَسَ، ليس له بابٌ ولا منفذ، ظاهره كالفضة البيضاء، وباطنه كالذهب الإبريز، فبينما هو كذلك إذ انصدع جداره، فخرج منه حيوانٌ سميعٌ بصيرٌ، وصوتٌ مليحٌ، فمن يستبعد هذا، كيف يتصور أن يوجد هذا الكون بدون موجد؟!^(١)

٥- قال يحيى بن زكريا عليهما السلام: «إِنَّ اللَّهَ أَمَرَنِي بِخَمْسِ كَلِمَاتٍ أَنْ أَعْمَلَ بِهِنَ، وَأَمْرُكُمْ أَنْ تَعْمَلُوا بِهِنَ، وَأُولَهُنَّ: أَنْ تَعْبُدُوا اللَّهَ، لَا تَشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا، فَإِنَّ مَثَلَ ذَلِكَ مَثَلُ رَجُلٍ اشْتَرَى عَبْدًا مِنْ خَالِصِ مَالِهِ، بَوْرَقٍ أَوْ ذَهَبٍ فَجَعَلَ يَعْمَلُ وَيُؤْدِي غَلَّتَهُ -أَيَّ عَمَلِهِ- إِلَى غَيْرِ سَيِّدِهِ، فَأَيْتَكُمْ يَسْرُهُ أَنْ يَكُونَ عَبْدُهُ كَذَلِكَ؟ وَإِنَّ اللَّهَ خَلَقَكُمْ وَرَزَقَكُمْ، فَاعْبُدُوهُ وَلَا تَشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا، وَأَمْرُكُمْ بِالصَّلَاةِ، فَإِنَّ اللَّهَ يَنْصِبُ وَجْهَهُ لَوَجْهِ عَبْدِهِ مَا لَمْ يَلْتَفِتْ، فَإِنْ صَلَّيْتُمْ فَلَا تَلْتَفِتُوا»^(٢) الحديث.

الْأَصْلُ الثَّانِي الَّذِي يَقُومُ عَلَيْهِ هَذَا الدِّينُ: الْإِيمَانُ بِمُحَمَّدٍ ﷺ

٢٣- ﴿وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾^(٣)

والإيمانُ بمحمد ﷺ يقتضي بالضرورة الإيمانَ بالوحي الذي نزل عليه من عند الله

(١) ينظر فيما سبق «تفسير ابن كثير» (١/١٩٧).

(٢) من حديث طويل عن الحارث الأشعري في «المسند» (٤/١٣٠) برقم (١٧١٧٠) قال محققوه: وهو حديث صحيح. وقال ابن كثير: هذا حديث حسن، وأخرجه الطبراني في الكبير (٣٤٢٧) والطيالسي (١١٦١) والترمذي (٢٨٦٣) وابن خزيمة (١٨٩٥) وابن حبان (٢٢٣٣) وغيرهم.

تعالى وهو هذا القرآن الكريم، الذي يتحدثى البشر إلى يوم القيامة، بإعجازه وبلاغته وعلومه وأخباره .

١- لقد تحدّى الله تعالى الكفار والمشركين في مكة أن يأتوا بمثل هذا القرآن فعجزوا، وذلك في قوله تعالى: ﴿أَمْ يَقُولُونَ نَقُولُ بَلْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ (٣٣) فليأتوا بحديثٍ مثله إن كانوا صدّيقين ﴿٣٤﴾ [الطور] أي: فليأتوا بقرآنٍ مثل هذا القرآن .

وقد نفى الله سبحانه وتعالى إمكانية ذلك فقال: ﴿قُلْ لَّيْنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا﴾ (٨٨) [الإسراء] .

٢- ثم تحدّاهم أن يأتوا بمثل عشر سور منه فعجزوا، كما في قوله تعالى: ﴿أَمْ يَقُولُونَ أَفَرَّغْنَاهُ قُلْ فَاتُوا بِعَشْرِ سُوَرٍ مِثْلِهِ مُفْتَرِيَاتٍ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ (١٣) [هود] .

قال تعالى في الرد عليهم: ﴿بَلْ كَذَّبُوا بِمَا لَمْ يُحِطُوا بِعِلْمِهِ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُ كَذَّابَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الظَّالِمِينَ﴾ (٣٩) [يونس] .

٣- ثم تحدّاهم أن يأتوا بمثل أقصر سورة منه فعجزوا، وقد جاء هذا التحدي في السور المكيّة في سورة الطور (٣٤) وسورة يونس (٣٨) وهود (١٣) والإسراء (٨٨)، وهي سور مكية، ومع عجزهم فقد شهدوا له بالاعجاز، واعترفوا أنه ليس من كلام البشر، حتى قال الوليد بن المغيرة في وصف القرآن: والله إن له لحلاوة، وإنّ عليه لطلاوة، وإنّ أسفلهُ لمغدق، وإنّ أعلاه لمثمر، وإنه ليعلو وما يعلى .

وتحدّاهم أيضًا في السور التي نزلت في المدينة أن يأتوا بكلام يُشبه القرآن في نظمه وبلاغته ومعانيه كما في هذه السورة ﴿وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِمَّا نَزَّلْنَا عَلَى عَبْدِنَا﴾ وهذا من أعظم أوصاف النبي ﷺ لقيامه بالعبودية الحقّة لله تعالى ﴿فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِثْلِهِ﴾ .

أي: إن كنتم - أيها المعاندون للرسول، الزاعمون أنه غير صادق - في شك من صدق محمد ﷺ ومن القرآن الذي نزل عليه من عند الله فأتوا بسورة من مثله؛ أي: ما يشبهه ﴿وَادْعُوا شُهَدَاءَكُمْ﴾ ورؤساءكم، واستعينوا بمن تريدون من الإنس والجن لتحقيق غرضكم، ﴿إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ في دعواكم، فأنتم تعلمون أنه بشر مثلكم، وأنه أُمي من العرب لا

يكتب، وقد أتاكم بهذا الكتاب وأخبركم أنه من عند الله، وقلتم: إنه تقوله وافتراه، فإن كان الأمر كذلك فأنتم أرباب الفصاحة والبلاغة، فعارضوا هذا القرآن.

والتحدّي بالقرآن موجّه إلى جميع الخلق، وهو قائمٌ إلى قيام الساعة، فالقرآن لا يُؤتى بمثله، ولا يُعارض كلام الخالق بكلام المخلوق أبدًا.

عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «ما من نبي من الأنبياء إلا قد أُعطي من الآيات ما مثله آمن عليه البشر، وإنما كان الذي أوتيته وحياً أوحاه الله إليّ، فأرجو أن أكون أكثرهم تابعاً يوم القيامة»^(١)، فهذا القرآن:

(أ) معجزٌ بأسلوبه ونظمه: قال عنه أعداؤه: لقد سمعت قولاً، والله ما سمعت مثله قط، والله ما هو بالسحر ولا بالشعر ولا بالكهانة... والله ليكونن لقوله الذي سمعت نبأ^(٢).

فإن شئت أن تُشعر سمعك وذوقك الفرق بينه وبين كلام البشر -نثره ونظمه- فأت بقارئٍ حسن الصوت يتلو بعض الآيات، وقارنها بخطب وشعر المصاحف المفوّهين.

(ب) والقرآن معجزٌ في بلاغته: ولا يعرف ذلك إلا من أُوتي حظاً عظيماً من مختار كلام البلغاء المنظوم والمثثور، والمرسل والمسجوع، فالقرآن ببلاغته يبلغ وجدان السامع، ويصيب موضع الإقناع من عقله وتأثيره المجرد دون شرح ولا توضيح، بل يباشر العقول والقلوب.

(ت) والقرآن معجزٌ في أحكامه وتشريعاته: فهو يشتمل على أصول العقائد وأحكام العبادات، وقوانين الفضائل والآداب، والتشريع المدني والسياسي والجنائي والاجتماعي والاقتصادي والعسكري، التي تُصلح كل زمان ومكان.

(ث) والقرآن معجزٌ بعلومه في كل شيء: بما في ذلك الإنسان والحيوان والجماد والنبات، والشمس والقمر، والليل والنهار، والنجوم والأفلاك، والهواء والسحاب، والماء والدخان، وفيه أصول العمران، وسُنن الاجتماع، وهو في هذا وغيره يسلم من

(١) هذا لفظ مسلم برقم (١٥٢) وهو في «صحيح البخاري» برقم (٤٩٨١، ٧٢٧٤) و«المسند» (٨٤٩١)،

٩٨٢٨ والنسائي في «السنن الكبرى» (٧٩٧٧) والبيهقي في «الدلائل» (١٢٩/٧).

(٢) من كلام عتبة، كما في تفسير ابن كثير (١٦٣/٧).

التعارض والاختلاف في الماضي والحاضر والمستقبل، وكل ما يرد على ذلك فهو من التحريف والتضليل والحق والجحود من أعداء الإسلام.

(ج) والقرآن معجزٌ في كل ما هو مجهولٌ للبشر: من المسائل العلمية والتاريخية التي لم تكن معروفة في عصر نزوله، ولا يزال العلم الحديث يكشف عن أسرارها في العلوم الكونية، والفنون الطبيعية، وفي كل عصرٍ ومصرٍ ولا يسع جهابذة العلم التجريبي إلا الإذعان والتصديق بما جاء به محمد ﷺ.

(ح) والقرآن معجزٌ باشماله على أخبار الغيب: كقصص الرسل مع أقوامهم، وأخبار المستقبل، كيوم القيامة وما فيه، وكل ما غاب عنا ولم نره، أو أخبر به القرآن، كحرب الروم والفُرس، وقاتل أولي البأس الشديد.

(خ) والقرآن معجزٌ بسلامته من الاختلاف: والتناقض والتعارض والأخطاء اللفظية والمعنوية، مع طول الزمن وكثرة الأمم وتقدم المعارف والعلوم، وإذا ثبت أن القرآن معجزٌ ثبت أن محمدًا ﷺ صادقٌ فيما جاء به من عند الله.

التَّحْدِي بِالْقُرْآنِ قَائِمٌ إِلَى قِيَامِ السَّاعَةِ

٢٤- ﴿إِن لَّمْ تَفْعَلُوا وَلَنْ تَفْعَلُوا فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ﴾ (٢٤)

وقد نفى الله سبحانه بأن معارضة القرآن لا تكون في الحاضر، ولا فيما مضى ولا فيما هو آتٍ، ﴿إِن لَّمْ تَفْعَلُوا وَلَنْ تَفْعَلُوا﴾ أي: إن لم تفعلوا في الماضي، ولن تفعلوا في المستقبل، وعجزتم غاية العجز، وكنتم من المكذِّبين للقرآن، المعارضين له، الجاحدين لرسالة محمد ﷺ؛ فاعلموا أن هذا دليل نواضح على صدقة وصدق ما جاء به، فيجب عليكم اتباعه، وإلا فإنَّ النار مصيركم ﴿فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ﴾ أعدها الله للكافرين وجعل حطبها الناس والحجارة، واتقاء هذه النار ليس قاصرًا على عجزهم عن الإتيان بمثل هذا القرآن أو معارضته، بل يكون بتصديق النبي ﷺ والإيمان بما جاء به من عند الله تعالى، وهذا من لوازم الإيمان بالقرآن، وفي هذه الآية معجزتان:

الأولى: أنهم لم ولن يعارضوا هذا القرآن.

الثانية: أنهم لا يأتون بمثله في المستقبل، وهذا من الإخبار بالغيب.

وشأن القرآن دائماً إذا ذكر الجنة أن يذكر النار إلى جوارها، وإذا ذكر الترغيب أن يذكر التهيب، وإذا ذكر الوعد أن يذكر الوعيد، وإذا ذكر الرجاء أن يذكر الخوف، وهكذا؛ للحث على العمل وللعبارة والاتعاظ؛ ولذا فإن هذه الآيات قسّمت الناس -بعد دعوتهم إلى عبادة الواحد القهار- إلى صنفين: المكذّبين والمؤمنين، وبيّنت عاقبة كل منهما، وقد ذكرت هذه الآية الصنف الأول، الذين تحدّاهم القرآن أن يأتوا بمثل أقصر سورة منه، وهم المكذّبون بما جاء به محمد ﷺ.

والقرآن يخوّفهم عذاب النار في الآخرة، التي أَعَدَّها الله للكفار، وهي تختلف عن نار الدنيا؛ فإن وقودها ليس الحطب، وليس الغاز، وليس الكهرباء؛ بل وقودها الناس والحجارة، كما قال تعالى:

﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنْتُمْ لَهَا وَرَدُونَ﴾ [الأنبياء]

وقال سبحانه: ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا فَوْاْ أَنفُسُكُمْ وَأَهْلِكُمْ نَارًا وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ﴾ [التحریم: ٦].

وفي الآية دلالة على أن الجنة والنار مخلوقتان، وعلى أن الموحدين العصاة المرتكبين لبعض الكبائر لا يخلدون في النار، لأن الخلود يكون للكافر والمشرک الذي مات على شركه وكفره، أما غيرهما فهو إلى مشيئة الله تعالى.

والمراد بالناس: الكفار.. والناس والحجارة، هم الحطب الذي توقد به نار جهنم والعياذ بالله، ﴿أُعِدَّتْ﴾ هذه النار ﴿لِلْكَافِرِينَ﴾.

١- وفي الموطأ عن عطاء بن يسار عن زيد بن أسلم: إنَّ شدة الحر من فيح جهنم، فإذا اتصل بها الآدمي اشتعل ونضج جلده، وإذا اتصلت بها الحجارة صُهرت^(١).

٢- وعن أبي هريرة ؓ أن رسول الله ﷺ قال: «ناركم هذه التي توقدون جزءاً من سبعين جزءاً من نار جهنم»، قالوا: يا رسول الله، إن كانت لكافية، قال: «فإنها فضّلت عليهن بتسعة وستين جزءاً، كلهن مثل حرها»^(٢).

(١) حديث مرسل في «الموطأ» من رواية أبي مصعب برقم (٣٨) ومن رواية يحيى برقم (١٥٤).

(٢) «صحيح البخاري» برقم (٣٢٦٥) و«صحيح مسلم» برقم (٢٨٤٣) و«المسند» (٧٣٢٧) ومالك في «الموطأ» (٩٩٤/٢) والبيهقي في «البعث» (٥٤٧).

٣- وعنه ﷺ أن النبي ﷺ قال: «تَحَاجَّتِ الْجَنَّةُ وَالنَّارُ، فَقَالَتِ النَّارُ: أُوثِرْتُ بِالْمُتَكَبِّرِينَ وَالْمُتَجَبِّرِينَ، وَقَالَتِ الْجَنَّةُ: مَا لِي لَا يَدْخُلْنِي إِلَّا ضَعَفَاءُ النَّاسِ وَسُقَطُهُمْ، قَالَ اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى لِلْجَنَّةِ: أَنْتَ رَحِمَتِي أَرْحَمُ بِكَ مِنْ أَشَاءَ مِنْ عِبَادِي، وَقَالَ لِلنَّارِ: إِنَّمَا أَنْتَ عَذَابِي، أَعَذَّبُ بِكَ مِنْ أَشَاءَ مِنْ عِبَادِي، وَلِكُلِّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا مَلُؤُهَا، فَأَمَّا النَّارُ فَلَا تَمْتَلِئُ حَتَّى يَضَعَ رَجُلُهُ، فَتَقُولُ: قَطُّ، قَطُّ، قَطُّ، فَهَنَّاكَ تَمْتَلِئُ، وَيُزَوِّي بَعْضُهَا إِلَى بَعْضٍ، وَلَا يَظْلِمُ اللَّهُ عِزَّ وَجَلَّ مِنْ خَلْقِهِ أَحَدًا، وَأَمَّا الْجَنَّةُ فَإِنَّ اللَّهَ عِزَّ وَجَلَّ يُنْشِئُ لَهَا خَلْقًا»^(١).

٤- وأخرج مسلمٌ عن أبي هريرة أيضًا قال: كنا مع رسول الله ﷺ، إذ سمع وجبة، فقال النبي ﷺ: «تَدْرُونَ مَا هَذَا؟» قال: قلنا: الله ورسوله أعلم، قال: «هَذَا حَجَرٌ رُمِيَ بِهِ فِي النَّارِ مِنْ سَبْعِينَ خَرِيفًا، فَهُوَ يَهْوِي فِي النَّارِ إِلَى الْآنَ، حَتَّى انْتَهَى إِلَى قَعْرِهَا»^(٢).

نَعِيمٌ أَهْلُ الْإِيمَانِ وَالْعَمَلِ الصَّالِحِ

٢٥- ﴿وَبَشِّرِ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ^(٣) كُلَّمَا رُزِقُوا مِنْهَا مِنْ ثَمَرَةٍ رِزْقًا قَالُوا هَذَا الَّذِي رُزِقْنَا مِنْ قَبْلُ وَأَتُوا بِهِمْ مُتَشَبِهًا وَلَهُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ مُطَهَّرَةٌ وَهُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٢٥﴾﴾.

وبعد ذكر جزاء الكافرين، يأتي في هذه الآية ذكر جزاء الصنف الأول من البشر، وهم من آمن بالله تعالى ربًّا وإلهًا واحدًا معبودًا، وآمن بمحمد ﷺ نبيًّا ورسولًا، وعمل صالحًا بجوارحه كي يصلح دنياه وآخره، فكان من الصالحين الذين يصلحون لمجاورة الرحمن في جنته فلهم جنات من حدائق عجيبة وبساتين في الآخرة تجري من تحت قصورها وأشجارها وبساتينها الأنهار، هذه الأنهار ليس لها جداول ولا حُفَرٌ تجري فيها، وإنما تجري بقدرة الله عز وجل ﴿تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾، التي تفجر فيها، من أنهار اللبن والعسل والماء والخمر، يُصْرَفُونَهَا كَيْفَ شَاءُوا.

(١) «صحيح البخاري» برقم (٥٣٣)، و(٧٤٤٩) و«صحيح مسلم» برقم (٢٨٤٦).

(٢) «صحيح مسلم» برقم (٢٨٤٤) والوجبة هي صوت السقوط.

(٣) قرأ ورش بنقل حركة الهمزة إلى الساكن قبلها، وقرأ حمزة بخلف عن خلاد بالسكت على (ال) وصلًا وله وقفًا السكت والنقل، ولا بن ذكوان وحفص وإدريس عن خلف العاشر السكت على (ال) بخلف عنهم.

ففي الجنة ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر، قال تعالى: ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [السجدة]

وقال سبحانه: ﴿فِيهَا أَنْهَارٌ مِّن مَّاءٍ غَيْرِ آسِنٍ وَأَنْهَارٌ مِّن لَّبَنٍ لَّمْ يَنْغَيَّرْ طَعْمُهُ وَأَنْهَارٌ مِّنْ خَمْرٍ لَّذَّةٍ لِلشَّارِبِينَ وَأَنْهَارٌ مِّنْ عَسَلٍ مُّصَفًّى وَلَهُمْ فِيهَا مِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ وَمَغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ﴾ [محمد: ١٥].

وقال عز وجل: ﴿وَفِيهَا مَا شَتَّهِهِ الْأَنْفُسُ وَكَلَّذُ الْأَعْيُنُ وَأَنْتَرُ فِيهَا خَلِيدُونَ﴾ [الزخرف: ٧١]

ففيها كل ما تشتهيه الأنفس، وتلذ الأعين، على وجه لا ينقطع ولا يفنى.

والله سبحانه وتعالى في الآية التي معنا ذكر نعيمين اثنين من نعيم الجنة:

النعيم الأول: هو ثمر الجنة:

الذي يطعمه المؤمن فيها، وقد وصفه الله سبحانه، بأنه يأتي لأهل الجنة في صورة الثمر الذي ألفوه وعرفوه في الدنيا، كي لا يستنكروا شكله، فإذا أكلوه وجدوا الطعم مختلفاً والمذاق مختلفاً، تقول الملائكة للعبد حين يرى هذا الثمر مطابقاً لثمر الدنيا في لونه وشكله: كُلْ يَا عَبْدَ اللَّهِ، فاللون واحد، والطعم مختلف، ﴿كُلَّمَا رُزِقُوا مِنْهَا مِنْ ثَمَرٍ رِزْقًا قَالُوا هَذَا الَّذِي رُزِقْنَا مِن قَبْلُ﴾ هذا شكل الفاكهة التي كانت في الدنيا، في المظهر والهيئة، قال تعالى: ﴿وَأُتُوا بِهِ مُتَشَابِهًا﴾ اللون واحد، والطعم مختلف، أي: أَنَّ ثمر الجنة يتفق في شكله مع ثمر الدنيا ويختلف في طعمه ومذاقه.

عن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه قال: «إِنَّ اللَّهَ لَمَّا أَخْرَجَ آدَمَ مِنَ الْجَنَّةِ زَوَّدَهُ مِنْ ثَمَارِ الْجَنَّةِ وَعَلَّمَهُ صِنْعَةَ كُلِّ شَيْءٍ، فَتَمَارَكُم هَذِهِ مِنْ ثَمَارِ الْجَنَّةِ، غَيْرَ أَنَّ هَذِهِ تَغْيِرُ وَتِلْكَ لَا تَغْيِرُ»^(١).

النعيم الثاني: نعيم الزوجات من الحور العين

وقد وصفهن ربُّنا بصفات: فَهُنَّ أَزْوَاجٌ مُّطَهَّرَاتٌ مِنَ الْحَيْضِ وَالنَّفَاسِ وَالْمَنِيِّ وَالْوَلَدِ وَالْحَمْلِ وَالْإِنْجَابِ، وَمِنَ الْبَوْلِ وَالْغَائِطِ، وَمِنَ النَّخَامَةِ وَالْبَزَاقِ وَالْقَذَارَةِ، وَالرَّائِحَةِ الْكَرِيهَةِ، وَغَيْرَ ذَلِكَ مِمَّا هُوَ شَأْنُ الْإِنْسَانِ فِي الدُّنْيَا، أَزْوَاجٌ مُّطَهَّرَاتٌ مِنْ كُلِّ هَذَا،

(١) إسناده صحيح، وهو موقوف لفظاً، مرفوع حكماً، ينظر تحقيق الشيخ: أحمد شاكر على «تفسير الطبري» (٣٩٣/١).

ومطَهَّرَاتٍ مِنَ الْغِلِّ وَالْغِيَرَةِ وَالْحَقْدِ وَالْحَسَدِ وَالْكَذِبِ وَسُوءِ الْخُلُقِ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِمْ مِّنْ غِلٍّ إِخْوَانًا عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَابِلِينَ﴾ (٤٧) [الأعراف].

وَهُنَّ قَاصِرَاتُ الطَّرَفِ عَلَىٰ أَزْوَاجِهِنَّ لَا يَرَيْنَ غَيْرَهُنَّ، وَهِنَّ فِي الْجَنَّةِ دَائِمُونَ لَا يَمُوتُونَ وَلَا يَخْرُجُونَ مِنْهَا، وَهِنَّ مُتَحَبِّبَاتٌ لِأَزْوَاجِهِنَّ بِالْخُلُقِ الْحَسَنِ، وَحُسْنِ التَّبَعْلِ وَالْأَدَبِ الْقَوْلِيِّ وَالْفِعْلِيِّ، وَهِنَّ خَيْرَاتٌ حَسَنَاتٌ.

وهذه جملة من الأحاديث في هذا المعنى:

١- في صحيح مسلم عن جابر بن عبد الله رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إِنَّ أَهْلَ الْجَنَّةِ يَأْكُلُونَ وَيَشْرَبُونَ، وَلَا يَتَفَلُونَ وَلَا يَبُولُونَ وَلَا يَتَغَوَّطُونَ وَلَا يَتَمَخَّطُونَ»، قَالُوا: فَمَا بِالْطَّعَامِ؟ قَالَ: «جُشَاءٌ وَرَشْحٌ كَرَشْحِ الْمَسْكِ، يُلْهَمُونَ التَّسْبِيحَ وَالتَّحْمِيدَ كَمَا تُلْهَمُونَ النَّفْسَ»^(١) إِنَّهُمْ فِي الْجَنَّةِ يُلْهَمُونَ الْحَمْدَ وَالتَّسْبِيحَ كَمَا يُلْهَمُونَ النَّفْسَ، طَعَامُهُمْ جُشَاءٌ، وَرَشْحُهُمْ كَرَشْحِ الْمَسْكِ. فَالتَّسْبِيحُ يَجْرِي عَلَى أَلْسِنَتِهِمْ كَمَا يَجْرِي النَّفْسُ فِي الْإِنْسَانِ، لَا يَشْغَلُهُمْ عَنْهُ شَاغِلٌ، وَفَضُولُ طَعَامِهِمْ يَخْرُجُ جُشَاءً وَتَنْفَسًا وَرَشْحًا.

٢- وفي الصحيحين وغيرهما عن أبي هريرة رضي الله عنه أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «إِنَّ أَوَّلَ زَمْرَةٍ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ عَلَى صُورَةِ الْقَمَرِ لَيْلَةَ الْبَدْرِ، ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ عَلَى أَشَدِّ كَوْكَبٍ دُرِّيٍّ فِي السَّمَاءِ إِضَاءَةً، لَا يَبُولُونَ، وَلَا يَتَغَوَّطُونَ وَلَا يَتَقَلَّبُونَ، وَلَا يَتَمَخَّطُونَ، أَمْشَاتُهُمُ الذَّهَبُ، وَرَشْحُهُمُ الْمَسْكُ، وَمَجَامِرُهُمُ الْأَلْوَةُ وَأَزْوَاجُهُمُ الْحُورُ الْعَيْنُ عَلَى خَلْقِ رَجُلٍ وَاحِدٍ، عَلَى صُورَةِ أَبِيهِمْ آدَمَ، سَتُونَ ذِرَاعًا فِي السَّمَاءِ»^(٢)

٣- وفي لفظ البخاري أيضًا: «وَلِكُلِّ وَاحِدٍ مِنْهُمْ زَوْجَتَانِ يُرَى مَخْ سَوْقُهُمَا مِنْ وَرَاءِ اللَّحْمِ الْحَسَنِ، لَا اخْتِلَافَ بَيْنَهُمْ وَلَا تَبَاغُضَ، قُلُوبُهُمْ قَلْبٌ وَاحِدٌ، يَسْبِّحُونَ اللَّهَ بَكْرَةً وَعَشِيًّا»^(٣).

٤- وعن أبي هريرة رضي الله عنه قَالَ: قُلْنَا: يَا رَسُولَ اللَّهِ، حَدِّثْنَا عَنِ الْجَنَّةِ، مَا بَنَّاوْهَا؟ قَالَ: «لَبْنَةٌ مِنْ

(١) «صحيح مسلم» برقم (٢٨٣٥).

(٢) «صحيح مسلم» برقم (٢٨٣٤) و«صحيح البخاري» برقم (٣٣٢٧) وهذا لفظه وانظر (٣٢٤٥، ٣٢٤٦).

(٣) «صحيح البخاري» برقم (٣٢٤٥، ٣٢٤٦، ٣٢٥٤، ٣٣٢٧) وينظر مسلم برقم (٢٨٣٤) و«المسند»

(٧٤٨٦، ٧١٦٥).

ذهب، ولبنة من فضة، وحَصَبَاؤُهَا اللَّوْلُؤُ والياقوت، ومِلَاطُهَا المسك، وتُرْبُتُهَا الزعفران، مَنْ يَدْخُلُهَا يَنْعَمُ لَا يَبْأَسُ، وَيَخْلُدُ لَا يَمُوتُ، لَا تَبْلَى ثِيَابُهُ، وَلَا يَفْنَى شَبَابُهُ»^(١).

٥- وأقل نعيم في الجنة خيرٌ من الدنيا وما فيها، كما جاء عن سهل بن سعد الساعدي رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ «موضع سوط أحدكم في الجنة خيرٌ من الدنيا وما فيها»^(٢).

٦- وعن أبي هريرة أيضًا أن النبي ﷺ قال: «لقاب قوس أحدكم من الجنة خيرٌ مما طلعت عليه الشمس أو تغرب»^(٣).

٧- ومن أراد نعيم الجنة والفوز برضوان الله تعالى فعليه أن يسرع ويبادر بالطاعات:

عن أبي بن كعب رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «من خاف أدلج، ومن أدلج بلغ المنزل، ألا إن سلعة الله غالية، ألا إن سلعة الله الجنة، جاءت الراجفة، تبثعها الرادفة، جاء الموت بما فيه»^(٤).

٨- ونعيم الجنة فوق الوصف والخيال:

جاء عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «أول زمرة تدخل الجنة وجوههم كالقمر ليلة البدر، والزمرة الثانية كأحسن كوكب دري في السماء، لكل امرئ منهم زوجتان، على كل زوجة سبعون حلة، يُرى مُخ ساقهن من وراء الحُلُل»^(٥).

(١) «صحيح سنن الترمذي» (٢٠٥٠) وفي «المسند» حديث طويل برقم (٨٠٤٣، ٩٧٤٤) قال محققوه: وهو حديث صحيح بطرقه وشواهده، وابن حبان (٧٣٨٧) والبيهقي في «البعث» (٢٨٤)، و عبد بن حميد ١٤٢٠ وهو في سنن الترمذي (٢٥٢٦).

(٢) البخاري (٢٨٩٢، ٣٢٥٠) وانظر: «صحيح مسلم» (١٨٨١) وهو في الترمذي (١٦٤٨، ١٦٦٤) وابن ماجه (٤٣٣٠) والتحفة (٤٧١٦).

(٣) البخاري (٢٧٩٣، ٣٢٥٣) و«المسند» (١٠٢٦٠) وينظر: «صحيح مسلم» (١٨٨٢).

(٤) أخرجه الحاكم (٣٠٨/٤) وصححه الألباني في «السلسلة الصحيحة» (٩٥٤) ونصفه الأول في «سنن الترمذي» عن أبي هريرة (٢٤٥٠) والحاكم (٣٠٧/٤) و«السلسلة الصحيحة» (٢٣٣٥).

(٥) «المسند» (١١٢٦) وهو حديث صحيح لغيره و«صحيح سنن الترمذي» (٢٠٥٨) والبيهقي في «البعث» (٣٢٨) وابن أبي شيبة (١٠٩/١٣)، و الترمذي ٢٥٣٥ وقال: حديث حسن، والطبراني في الأوسط (٩١٩) والبغوي في شرح السنة (٤٣٧٤).

٩- وعن معاذ بن جبل رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «لا تؤذي امرأة زوجها في الدنيا إلا قالت زوجته من الحور العين: قاتلك الله، فإنما هو عندك دخیل، يوشك أن يفارقك إلينا»^(١).

١٠- ونعيم الجنة لا يحول ولا يزول، كما جاء في حديث ابن عمر رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال: «يدخل أهل الجنة الجنة، وأهل النار النار، ثم يقوم مؤذن بينهم: يا أهل النار لا موت، ويا أهل الجنة لا موت، كل خالد فيما هو فيه»^(٢) ويكون ذلك بعد أن يؤتى بالموت في صورة كبش أملح فيذبح على الصراط ثم يقال للفريقين: خلود دائم، لا موت فيها أبداً^(٣).

ضَرْبُ الْأَمْثَالِ الضَّعِيفَةِ فِي الْقُرْآنِ لَيْسَتْ مَنَفَذًا لِلتَّشْكِيكِ فِيهِ

٢٦- ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَسْتَحْيِي أَنْ يَضْرِبَ مَثَلًا مَّا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا فَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا فَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَيَقُولُونَ مَاذَا أَرَادَ اللَّهُ بِهَذَا مَثَلًا يُضِلُّ بِهِ كَثِيرًا وَيَهْدِي بِهِ كَثِيرًا وَمَا يُضِلُّ بِهِ إِلَّا الْفَاسِقِينَ﴾^(١)
لَمَّا ضَرَبَ اللَّهُ سَبْحَانَهُ وَتَعَالَى مَثَلًا لِلْمُنَافِقِينَ بِالنَّارِ فِي قَوْلِهِ:

﴿مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْقَدَ نَارًا﴾ وضرب لهم المثل الثاني بالماء الغزير، كمطر شديد نزل من السماء، فيه ظلمات ورعد وبرق، قال المنافقون: الله أعلى وأجل من أن يضرب المثل بمثل هذا، وكان هذا مَنَفَذًا للتشكيك في القرآن، فهم يشككون الناس في كلام الله تعالى حتى ينكروه، ولا يعترفوا به، فأنزل الله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَسْتَحْيِي أَنْ يَضْرِبَ مَثَلًا مَّا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا﴾.. كان هذا شأن المنافقين واليهود بالمدينة.
وفي العهد المكي لما ضرب الله سبحانه المثل بالعنكبوت في قوله:

(١) ابن ماجه (٢٠١٤) وصححه الألباني في صحيح سنن ابن ماجه (١٦٣٧) وفي آداب الزفاف (١٧٨)، و«السلسلة الصحيحة» (١٧٣).

(٢) البخاري (٦٥٤٤) ومسلم (٢٨٥٠) وعبد بن حميد (٧٦١).

(٣) انظر الحديث بنحوه عن أبي هريرة في «صحيح سنن ابن ماجه» (٣٤٩٣) وفي سنن ابن ماجه ٤٣٢٧ وفي التعليق الرغيب (٢٧٨/٤) وتخريج شرح العقيدة الطحاوية (٥٧٦) والحاكم (٨٣/١).

﴿مَثَلُ الَّذِينَ أَخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ أُولَئِكَ كَمَثَلِ الْعَنْكَبُوتِ اتَّخَذَتْ بَيْتًا وَإِنَّ أَوْهَرَ
الْبُيُوتِ لَبَيْتُ الْعَنْكَبُوتِ﴾ [العنكبوت: ٤١].

و ضرب المثل بالذباب في قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَنْ يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَلَوْ
اجْتَمَعُوا لَهُ وَإِنْ يَسْلُبْهُمُ الذُّبَابُ شَيْئًا لَا يَسْتَفِيدُوهُ مِنْهُ ضَعُفَ الطَّالِبُ وَالْمَطْلُوبُ﴾ [الحج: ٧٣].

و ذكر سبحانه النملة و النحل وغيرهما في الكائنات ، قال المشركون لا يشبه هذا
الكلام الذي فيه العنكبوت والبعوض والذباب أن يكون كلام الله ، لماذا يضرب الله المثل
بالأشياء الخسيسة؟! أما يستحي أن يضرب المثل بمثل ذلك .

فأنزل الله سبحانه يبين أنه جل شأنه كما خلق البعوض خلق الجمل والفيل ، وخلق
الصغير والكبير ، والقوي والضعيف والجليل والحقير ، لبيان أن لله حكمة في خلقه
للشيء الكبير كما أن له حكمة من خلق الشيء الصغير ، وأن هذه الأمثال يضربها الله
سبحانه ليوضح للناس بالمثل الشيء المضروب له ، كي يفهموه ويدركوا حقيقته ، والله لا
يستحي من الحق ، وكأن في هذا جواباً لمن أنكر ضرب الأمثال بالأشياء الصغيرة ،
واعترض على الله تعالى في ذلك .

فإذا كان المثل المضروب لهم شيئاً عظيماً ، صوّره لهم ومثّله بالشيء العظيم ، كما
ضرب المثل له سبحانه بالنور والضياء فقال: ﴿اللَّهُ نُورُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ مَثَلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ
فِيهَا مِصْبَاحٌ الْمِصْبَاحُ فِي زُجَاجَةٍ الزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ يُوقَدُ مِنْ شَجَرَةٍ مُبَارَكَةٍ زَيْتُونَةٍ﴾ [النور: ٣٥]

فهذا مثل لله تعالى مضروب بالنور ؛ لأن المضروب له شيء عظيم هو نور الله سبحانه ،
وإذا كان المضروب له المثل شيئاً حقيراً ، فالله سبحانه يضرب له المثل بما يناسبه ، وهذا
من تعليم الله تعالى لعباده ورحمته بهم ، فيجب أن تتلقى بالقبول والشكر ، وليس
بالاعتراض عليها :

عن الربيع بن أنس قال : هذا مثلٌ ضربه الله للأنبياء ؛ إن البعوضة تحيا ما جاعت ، فإذا
سمنت ماتت ، وهؤلاء الذين ضرب الله لهم المثل إذا امتلأوا من الدنيا رياءً أخذهم الله
عند ذلك ، ثم تلا : ﴿فَلَمَّا دَسَوْا مَا دُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّى إِذَا فَرِحُوا

يَمَّا أُوتُوا أَخَذْتَهُمْ بَغْتَةً فَإِذَا هُمْ مُبْلِسُونَ ﴿٤٤﴾ ^(١) [الأنعام] وهكذا .

والله سبحانه يتحدى البشر أن يخلقوا أو هن شيء؛ كالذباب مثلاً لإثبات العجز لكل ما يعبد من دون الله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَنْ يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَلَوْ اجْتَمَعُوا لَهُ﴾ أي: وإن تعاونوا جميعاً على خلقه .

﴿وَأِنْ يَسْأَلُهُمُ الذُّبَابُ شَيْئًا﴾ من أعينهم أو غيرها لا يمكنهم أن يستردوه من الذباب، أو أن يعيدوه مرة ثانية، وهذه حقيقة علمية ثابتة، يقول سبحانه: ﴿ضَعُفَ الطَّلَبُ وَالْمَطْلُوبُ﴾ [الحج: ٧٣]

والطالب هو المعبود من دون الله، والمطلوب هو الذباب، فكلاهما ضعيف .

ويقول جل شأنه: ﴿وَتِلْكَ الْأَمْثَلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا الْعَالِمُونَ﴾ [العنكبوت].

وهذه الأمثلة المضروبة للناس ابتلاءً وامتحاناً، فالمؤمن بالله وبمحمد وبالقرآن يقول: هذا كلام الله، وهذا وحي الله؛ فيزداد إيماناً ويزداد هدى، بفهمه وتفكيره، معتقداً أنه الحق الثابت الذي لا يجوز إنكاره؛ وإن خفي عليه وجه الحق فيه، لعلمه بأن الله تعالى لم يضربه عبثاً، بل ضربه لحكمة بالغة ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا فَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ﴾ فيكون ذلك سبباً لهديته، كما قال تعالى: ﴿وَيَهْدِي بِهِ كَثِيرًا﴾ .

وضربُ المثل من الأمور المستحسنة عقلاً، الشائعة عند العرب، والكافر هو الذي يضل، فيفسق ويخرج عن طاعة الله سبحانه .

﴿وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَيَقُولُونَ مَاذَا أَرَادَ اللَّهُ بِهَذَا مَثَلًا﴾ فيعترضون ويتحIRON، ويزدادون كفراً إلى كفرهم، كما ازداد المؤمنون إيماناً على إيمانهم، فالله جل شأنه لا يستحي أن يضرب أي مثلاً مهما كان، قلّ أو كثر، صغر أو كبر، جلّ أو حقّر ﴿بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا﴾ أي: ما هو أقل منها وأدنى درجة، وقد ضرب النبي ﷺ المثل بجناح البعوضة .

ومن أمثلة العرب: هو أحقر من ذرة، وأجمع من نملة، وألح من ذبابة .

وهذا المثل يكون سبباً في هداية سليم الفطرة ويكون سبباً في ضلال من انحرف عن الفطرة الصحيحة، فهو لقوم محنة وضلالة وزيادة شر إلى شرهم، ولقوم منحة ورحمة

(١) «تفسير الطبري» (٣٩٨/١) بتصرف، وأخرج ابن أبي حاتم مثله بسند جيد عن أبي العالية .

وزيادة خير إلى خيرهم ﴿يُضِلُّ بِهِ كَثِيرًا وَيَهْدِي بِهِ كَثِيرًا﴾ وإضلال الضالين عدل من الله سبحانه، فالله تعالى لا يظلم أحداً؛ لأنه لا يُصَرِّفُ عن الحق إلا الخارجون عن طاعته، فالمؤمن يزداد به إيماناً، والكافر يزداد به ضلالاً.

﴿فَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا فَرَّادَتْهُمْ إِيْمَانًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿١٢٤﴾ وَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فَرَّادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَى رِجْسِهِمْ﴾ [التوبة: ١٢٤، ١٢٥].

﴿وَمَا يُضِلُّ بِهِ إِلَّا الْفَاسِقِينَ﴾ والفاسق: هو الخارج عن طاعة الله التارك لاتباع أمره، الناكث لعهد، والفسق كلمة تشمل الكفر والنفاق والعصيان، والمراد بالفاسق في الآية هو الكافر بدليل الآية التي بعدها، فإنها فسرت أهل الضلال بأوصاف أهل الكفر.

والفسق نوعان: فسق مخرج من الملة كالمذكور في هذه الآية، وفسق غير مخرج من الملة كقوله تعالى ﴿إِنْ جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَأٍ فَتَبَيَّنُوا﴾ [الحجرات: ٦].

ثَلَاثَةُ أَوْصَافٍ لِأَهْلِ الْفِسْقِ

٢٧- ﴿الَّذِينَ يَنْقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ أُولَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴿٧﴾﴾.

ثم وصف الله تعالى الفاسقين بثلاثة أوصاف:

الوصف الأول: أنهم ﴿الَّذِينَ يَنْقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ﴾

فهم يخالفون دينه، وينقضون المواثيق والعهود التي بينهم وبين الله، والتي بينهم وبين الخلق، فلا يبالون بها، ولا يقيمون لها وزناً، فيتركون الأوامر، ويرتكبون النواهي، ولا يوفون بالتزاماتهم، والعهد هو وصية الله إلى خلقه فيما أمر به أو نهي عنه على ألسنة الرسل، وما جاءت به الكتب.

وأعظم عهد هو التوحيد والإيمان الذي أخذه الله على الناس جميعاً حين أخرجهم من صلب آدم، وهو المذكور في قوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي ءَادَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ شَهِدْنَا﴾ [الأعراف: ١٧٢] فقد شهدوا واعترفوا وأقروا بالتوحيد، وهم نطفٌ في أصلاب آبائهم، وهذه هي الفطرة، ومقتضى التوحيد،

وهو العهد الذي أخذه الله عليهم.

ويدخل في ذلك، العهد المأخوذ على بني إسرائيل في قوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَءِيلَ لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا﴾ [البقرة: ٨٣].

وَأَلَّا يَكْتُمُوا مَا فِي التَّوْرَةِ؛ بل ليسينوه للناس كما في قوله تعالى:

﴿وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُ﴾ [آل عمران: ١٨٧]

وقال جلَّ شأنه: ﴿وَلَقَدْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَءِيلَ وَبَعَثْنَا مِنْهُمُ اثْنَيْ عَشَرَ نَقِيبًا﴾

[المائدة: ١٢]

وقال سبحانه: ﴿لَقَدْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَءِيلَ وَارْسَلْنَا إِلَيْهِمْ رَسُولًا﴾ [المائدة: ٧٠].

ويدخل فيه أيضًا العهد الذي أخذه الله على جميع الأنبياء؛ من الإيمان بمحمد ﷺ عند بعثته في قوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَا آتَيْنَاكُمْ مِنْ كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنْصُرُنَّهُ﴾ [البقرة: ٨١].

وأكد سبحانه هذه العهود والمواثيق وقواها بإرسال الرسل وإنزال الكتب، ولكن الكفار الذين انحرفوا عن الفطرة ينقضون هذا العهد الذي بينهم وبين رب العالمين، وينقضون أيضًا عهد الإيمان بمحمد ﷺ.

الوصف الثاني: ﴿وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ﴾

أي: يقطعون كل ما أمر الله بوصله، كالأرحام، والأخوة الإيمانية، والموالاتة، والمحبة في الله، وأخوة العقيدة. وفي الحديث «حُسن العهد من الإيمان»^(١).

وعن أنس رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «ألا لا إيمان لمن لا أمانة له، ولا دين لمن لا عهد له»^(٢).

(١) من حديث عائشة عند الحاكم (١٦/١) والبخاري في «التاريخ» (٣١٩/١) وصححه الألباني في «السلسلة الصحيحة» (٢١٦).

(٢) حديث حسن ورجال إسناده ثقات أخرجه أحمد (١٢٣٨٣) والبخاري في «الكشف» (١٠٠) وأبو يعلى (٢٨٦٣) وابن حبان (١٩٤) والطبراني في «الأوسط» (٢٦٠٦) والبيهقي في «الشعب» (٤٣٥٤)، وابن أبي شيبه (١١/١١).

ويدخل في ذلك ما أمر الله بوصله من الإيمان به والقيام بحق العبادة والطاعة له، ويدخل فيه ما أمر الله بوصله من الإيمان بمحمد ﷺ ومحبته وتعزيزه وطاعته فيما أمر ونهي.

ويدخل فيه صلة الأرحام والأقارب لا سيما الوالدين، والقيام بحقوق سائر الخلق.

الوصف الثالث: ﴿وَيُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ﴾ بالفتن والمعاصي والذنوب.

قال أبو العالية: ست خصال من المنافقين: إذا حدثوا كذبوا، وإذا وعدوا أخلفوا، وإذا ائتمنوا خانوا، ونقضوا عهد الله من بعد ميثاقه، وقطعوا ما أمر الله به أن يوصل، وأفسدوا في الأرض^(١).

أما المؤمنون فقاموا بهذه الحقوق ووصلوها، وأما الفاسقون فقطعوها ونبذوها.

ثم بين سبحانه الجزاء المرتب على ذلك فقال: ﴿أُولَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾ والخسران قد يكون كفرا، وقد يكون معصية، وقد يكون تفريطا في ترك مستحب، وهذا مذكور في قوله تعالى ﴿إِنَّ الْإِنْسَانَ لِفِي خُسْرٍ﴾ وهو عام في كل مخلوق، إلا من اتصف بالإيمان والعمل الصالح والتواصي بالحق والتواصي بالصبر.

و الخاسرون في الآية هذه ، هم الذين خسروا الدنيا والآخرة ، كما يخسر الرجل في تجارته ربحه ورأس ماله ؛ وذلك لأنهم خسروا رحمة الله التي خلقها لعباده يوم القيامة، وحرّموا منها وهم أحوج الخلق إليها، وهم الهالكون يوم القيامة بسبب كفرهم ومعاصيهم، أما في الدنيا فقد خسروا حظوظهم الدنيوية فذهبت عنهم ولم يبقَ منها شيء، وكل عمل صالح لا بد لقبوله من الإيمان، فمن لا إيمان له، لا يقبل منه عمل صالح .

وقد وصف الله سبحانه المؤمنين بضد هذه الصفات في سور الرعد فقال: ﴿إِنَّمَا يَذْكُرُ أُولَٰئِكَ الْأَلْبَابَ ۚ الَّذِينَ يُؤْفُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَلَا يَنْقُضُونَ الْمِيثَاقَ ۖ وَالَّذِينَ يَصِلُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ وَيَخَافُونَ سُوءَ الْحِسَابِ ۖ﴾ [الرعد].

ثم ذكر ما يقابلهم في قوله ﴿وَالَّذِينَ يَنْقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ ۚ أُولَٰئِكَ لَهُمُ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ ۖ﴾ [الرعد].

(١) «تفسير ابن كثير» (٢١١/١).

الإحياء والإماتة من دلائل وحدانية الله تعالى

٢٨- ﴿كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَكُنْتُمْ أَمْوَاتًا فَأَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمَيِّتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ^(١)﴾

ثم يقيم الله سبحانه الأدلة على وحدانيته ووجوب الإيمان به مرة أخرى، فيقول سبحانه متعجباً ومنكراً وموبخاً: ﴿كَيْفَ﴾ أيها الفسقة ﴿تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ﴾ وتذكرون وحدانيته وتشركون معه غيره ﴿وَكُنْتُمْ أَمْوَاتًا﴾ أي عدماً لا وجود لكم ﴿فَأَحْيَاكُمْ﴾ ونفخ فيكم من روحه، وأوجدكم في الدنيا وأسبغ عليكم نعمه ﴿ثُمَّ يُمَيِّتُكُمْ﴾ إذا انتهت آجالكم المحددة ويجازيكم في قبوركم، ﴿ثُمَّ يُحْيِيكُمْ﴾ يوم القيامة للحساب والنشور ﴿ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ في الآخرة فيجازيكم على ما قدمت أيديكم، الجزء الأوفى.

فلا ينبغي للإنسان أن يكفر بالله ما دام تحت تصرفه وتديره في الدنيا، و سيعود إليه في الآخرة فيحاسبه ويجازيه، كما قال تعالى ﴿قَالُوا رَبَّنَا آمَنَّا أَتَيْنَاكَ وَحِيدِينَ﴾ [غافر: ١١].

قال قتادة في معنى الآية: كانوا أمواتاً في أصلاب آبائهم، فأحياهم الله، فأخرجهم، ثم أماتهم الموتة التي لا بد منها، ثم أحياهم للبعث يوم القيامة، فهما حياتان وموتتان^(٢).

قال ابن عباس ؓ: ﴿وَكُنْتُمْ أَمْوَاتًا﴾ أموات الذكر، في أصلاب آبائكم نطفاً، لا تعرفون ولا تذكرون ﴿فَأَحْيَاكُمْ﴾ بإنشائكم بشراً سوياً، حتى ذكركم وعرفتم وحييتهم ﴿ثُمَّ يُمَيِّتُكُمْ﴾ بقبض أرواحكم، وإعادتكم أمواتاً، لا تعرفون ولا تذكرون في البرزخ إلى يوم تبعثون ﴿ثُمَّ يُحْيِيكُمْ﴾ بنفخ الأرواح فيكم يوم البعث^(٣).

والمعنى: كيف تكفرون بالله وكنتم نطفاً في أصلاب آبائكم، فجعلكم بشراً أحياء ثم يميتكم ثم هو محييكم بعد ذلك، وباعثكم يوم الحشر للثواب والعقاب، وهو المنعم عليكم بما خلق لكم في الأرض من معاش ودلكم على وحدانية ربكم^(٤).

(١) قرأ أبو يعقوب (والله تَرْجَعُونَ) بفتح التاء وكسر الجيم من (رجع) اللازم وقرأ الباقون (تُرْجَعُونَ) بضم التاء وفتح الجيم من (أرجع) المتعدي.

(٢) الطبري (٤٤٦/١).

(٣) ابن جرير (٤٢٤/١) وابن أبي حاتم (٣٠١).

(٤) ابن جرير الطبري (٤٢٧/١).

فلا يليق بكم أن تكفروا به، بل يجب عليكم أن تؤمنوا به وتتقوه وتشكروه وتخافوا عذابه وترجوا ثوابه.

فهذه أدلة قاطعة وبراهين ساطعة على وحدانية الله تعالى، فكيف تنكرون ذلك أيها المشركون؟

العَالَمُ السُّفْلِي وَالْعُلْوِي فِي خِدْمَةِ الْإِنْسَانِ

خَلَقُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ:

٢٩- ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ أَسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ فَسَوَّاهُنَّ سَبْعَ سَمَوَاتٍ وَهُوَ^(١) بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾

والله سبحانه قد خلق لكم هذه الأرض وخلق جميع ما فيها للانتفاع والاستمتاع والاعتبار، وهي اسم للعالم الكروي السفلي المشتمل على البر والبحر، ويعمره الإنسان والحيوان وفيه المعادن والنبات، وخلق لكم كل ما فيها من النعم، وسخرها لكم لتتفعوا بها، وتصلحوها، وتعيشوا فوقها، وتسعدوا بكل ما فيها من الحلال الطيب، فهو الذي خلق لكم ما في الأرض جميعًا، فالآية تبين أن الله تعالى خلق كل ما في الأرض من نعم لأجل الإنسان، ولكن هذا الخلق لا يستلزم إباحة كل ما فيها، فقد قيد الشرع ذلك بالحلال الطيب.

وفي الآية دليل على أن الأصل في الأشياء الإباحة، لأنها سقت في معرض الامتنان، ويفهم من ذلك تحريم كل ما فيه ضرر، لأن الله تعالى خلقها لنفعنا لا لمضرتنا، كما يفهم منها تحريم كل خبيث لأنه يقابل الطيب كما في قوله تعالى: ﴿أُحِلَّ لَكُمْ الطَّيِّبُ﴾ [المائدة: ٥]

وقوله ﴿وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبِيثَاتِ﴾ [الأعراف: ١٥٧] وهو منطوق الآية.

وقد خلق الله سبحانه الأرض في يومين قبل خلق السماء، وقدّر فيها أقواتها وأرزاقها في يومين، ثم استوى سبحانه إلى السماء فخلق سبع سموات في يومين، كما جاء في

(١) قرأ بإسكان الهاء من (وهو) قالون وأبو عمر والكسائي وأبو جعفر، للتخفيف، وهو لغة أهل نجد، وقرأ غيرهم بضم الهاء على الأصل وهو لغة أهل الحجاز.

سورة فصلت الآيات (٩- ١٢).

ثم دحى الأرض بعد خلقها وخلق السموات، كما جاء في سورة النازعات ﴿وَالْأَرْضَ بَعْدَ ذَلِكَ دَحَاهَا﴾ [النازعات] أي: خلق الله الأرض أولاً، ثم خلق السماء، ثم دحى الأرض، أي: بسطها ومهدها، وجعلها صالحة للسكنى والمعيشة فيها، ﴿أَخْرَجَ مِنْهَا مَاءَهَا وَمَرْعَاهَا﴾ [٣١] وَالْجِبَالَ أَرْسَاهَا [٣٢] مَتَّعَا لَكُمْ وَلَأَنعِمَنَّكُمْ [النازعات].

والدحية: الشكل البيضاي كالكرة، وهذا الشكل لا يتعارض مع بسط الأرض وفرشها، فإن سطح الأرض يراه الرائي من كل جهة، فهي مدللة ومسخرة على أية حال، وكانت الأرض في غاية الحرارة ثم أخذت تبرد حتى جمدت وتكونت منها قشرة جامدة، ثم تشققت، وهبطت منها أماكن وارتفعت منها أماكن.

﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا﴾ خلق لكم كل ما في الأرض من نعم لتتفعلوا بها ﴿ثُمَّ أَسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ﴾ وهي الجو المحيط بالكرة الأرضية ﴿فَسَوَّيْنَهَا سَبْعَ سَمَوَاتٍ﴾ وفيها الأجرام العلوية من الكواكب السيارة المنتظمة مع الأرض في النظام الشمسي ﴿وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ وعلمه سبحانه محيط بجميع ما خلق.

وقد بين ابن إسحاق في شرح هذه الآيات أن الله تعالى خلق أولاً النور والظلمة، ثم ميّز بينهما فجعل الظلمة ليلاً، والنور نهاراً، ثم خلق السموات من دخان الماء، وجعل في السماء الدنيا: الشمس والقمر والنجوم، بعد أن دحى الأرض وأرساها بالجبال وخلق فيها الدواب والأقوات، وتم ذلك في ستة أيام^(١).

خَلَقَ الْإِنْسَانَ وَاسْتَخْلَفَهُ فِي الْأَرْضِ

٣٠- ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [٣٠]

(١) «تفسير الطبري» (٤٣٣/١)

(٢) قرأ نافع وابن كثير وأبو عمرو وأبو جعفر بفتح الياء من (إِنِّي أَعْلَمُ) وصلوا وسكنها الباقون.

وبعد أن عدد الله سبحانه بعض نعمه على خلقه ذكر أباهم الأول آدم عليه السلام لبيان فضله، فتحدث عن بدء خلقه، وعداوة إبليس له، وما حلَّ بآدم من تغميد الله له برحمته وتوبته عليه حين تاب وأناب إلى ربه، وما حلَّ بإبليس من لعنة الله عليه عاجلاً، واستحقاقه العذاب المقيم آجلاً، ولأن الحديث عن خلق الأرض وما فيها لنفع الإنسان يحتاج إلى بيان الهدف والغاية التي خلق الله الإنسان من أجلها، وهي التعرف على الله تعالى وعبادته، يجعله خليفة في أرضه لمن كان قبله من الخلائق فقد ذكر تعالى قصة خلق الإنسان الأول.

روى الضحاك عن ابن عباس رضي الله عنهما: أن أول من سكن الأرض الجن، فأفسدوا فيها، وسفكوا الدماء، فأرسل إليهم إبليس جنده، فألحقهم بجزر البحار وأطراف الجبال.

ثم خلق آدم فأسكنه إياها ليعمرها، ويخلف بعضه بعضاً فيها على مدى القرون، وقيموا أمر الله وحكمه فيها، وعلى رأسهم (الخليفة الأعظم) أي حاكمهم في كل زمان ومكان، يقيم لهم منهج الله ويحقق العدالة بينهم.

والحديث عن خلق الأرض يحتاج إلى بيان الذنب الأول الذي وقع من (إبليس) حين امتنع عن الامتثال لأمر الله تعالى، ولم يسجد لآدم كما أمره الله سبحانه، فتشير الآيات التالية إلى أن الله تعالى كما خلق لنا ما في الأرض جميعاً من الحلال الطيب وسخره لنا، فإنه سبحانه سخر لنا هذا الكون بما فيه: الشمس والقمر والليل والنهار والماء والهواء، وخلق سبحانه وتعالى الملائكة قبلهم وأسكنهم السماء، وخلق الجن قبلهم، وأسكنهم الأرض، وخلق الجنة والنار، وجعلهما ثواباً وعقاباً لعباده.

ولما خلق الله تعالى النار، قالت الملائكة وقد خافت من عذاب الله سبحانه: لمن خلقت يارب هذه النار؟ أشفقوا على أنفسهم أن يكون قد وقع منهم معصية، وهم المحضون لطاعة الله عز وجل ﴿لَا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ [التحريم: ٦] فحسبوا أن يكون قد وقع منهم مخالفة اقتضت وجود خلق آخر، فقالوا: يا ربنا علّمنا وأرشدنا، ما الحكمة في خلق هؤلاء مع أن من شأنهم الإفساد في الأرض، ونحن أطوع لأمرك؟ ﴿وَنَحْنُ سَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ﴾ قالوا ذلك دفاعاً عن أنفسهم، قال الله سبحانه: خَلَقْتُ النَّارَ لِمَنْ عَصَانِي. وأخبرهم جل شأنه أنه جاعل في الأرض خليفة ﴿وَإِذْ قَالَ

رُبُّكَ لِلْمَلَكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً ﴿٣٠﴾ أي: أنه سبحانه وتعالى تتجه إرادته إلى خلق مخلوق آخر غير الملائكة وغير الجن، وهذا المخلوق:

١- خَلَفَ الجن الذين كانوا في الأرض قبل آدم.

٢- أو يخلف بعضه بعضًا قرونًا بعد قرون، وجيلًا بعد جيل.

٣- أو أنه يكون خليفة لله في أرضه بإقامة حدوده، وتنفيذ شريعته، وحفظ نظام الأمة، والحكم بين الناس بالعدل. والخليفة الأول هو آدم، أما ذريته فيخلف بعضهم بعضًا.

قال القرطبي: والآية أصلٌ في نصب إمام وخليفة، يُسمع له ويطاع، لتجتمع به الكلمة، وتنفذ به الأحكام.

كما قال تعالى: ﴿يَدَاوُدُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ فَاحْكُم بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ﴾ [ص: ٢٦] وقال: ﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ﴾ [النور: ٥٥]

وقال أيضًا: ﴿وَهُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلَائِفَ فِي الْأَرْضِ﴾ [الأنعام: ١٦٥].

وقد كانت خلافة أبي بكر للنبي ﷺ بمقتضى تقديمه له في الصلاة وهو في مرضه.

وكانت خلافة عمر، بعهد أبي بكر له بذلك، وكانت الخلافة بعد عمر، شورى بين ستة من أصحاب النبي ﷺ، مات وهو عنهم راضٍ.

وإذا انتزع أحدُ الخلافة بالقوة، وتغلب على الناس بالسلاح، دانت له الناس، حتى يستتب الأمن وتُحقن دماء المسلمين، ومن هذا القبيل كانت خلافة عبد الملك بن مروان.

والخروج على الحاكم الجائر -الخارج على حكم الله، الذي لا يقيم الدين في دنيا الناس- لا يكون إلا ممن يأنس في نفسه جدوى هذا الخروج، حتى لا يضيق الخناق على الإسلام والمسلمين، ويضر أكثر مما ينفع؛ لأن شرط الخلافة هو إقامة الدين في الناس كما جاء في حديث عبد الله بن عمر رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال:

«إن هذا الأمر في قريش لا يعاديهم أحد إلا كبه الله في النار على وجهه؛ ما أقاموا الدين»^(١)

وفي حديث أنس بن مالك رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «اسمعوا وأطيعوا، وإن استعمل عليكم عبدٌ حبشي كأن رأسه زبيبة»^(١).

وفي حديث عبد الله بن عمر رضي الله عنهما أن النبي ﷺ قال: «السمع والطاعة على المرء المسلم فيما أحب وكره، ما لم يؤمر بمعصية، فإذا أمر بمعصية فلا سمع ولا طاعة»^(٢).

فإن خالفوا أمر الله تعالى فغيرهم ممن يطع الله تعالى وينفذ أوامره أولى منهم، وهذا الحديث بالنسبة للقرشيين، فمن عداهم من باب أولى.

ونعود إلى سياق الآية، فقد قالت الملائكة هذا القول استفسارًا واستعلامًا، وليس اعتراضًا ولا حسدًا ولا استنكارًا، لما أخبرهم الله تعالى أنه جاعل في الأرض خليفة قالوا: ﴿أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ﴾ قالت الملائكة ذلك دفاعًا عن أنفسهم وقياسًا على ما رأوا من وقوع المفساد والمعاصي من الجن في الأرض، وقد وقع بينهم خلافٌ وسفكٌ للدماء، وهكذا يكون من المخلوق الجديد، قالوا ذلك ظنًا منهم أنه سيحدث مثله، وأخبروا أنهم قائمون بعبادة الله مسبحين له ومعظمين دون إفساد في الأرض ﴿وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ﴾ ونزهك بما يليق بجلالك، ﴿وَنُقَدِّسُ لَكَ﴾ أى نعظمك أو نطهر أنفسنا لك بالأخلاق الحميدة، ومحبتك وخشيتك.

فبين الله سبحانه: أنه يعلم ما فيه مصلحة العباد ويعلم الظواهر والسرائر، وحكمكم هذا بمقتضى الظاهر، ﴿قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ من المصلحة الراجحة في خلقكم.

أخرج الحاكم بسند صحيح عن ابن عباس رضي الله عنه أن الجن كانوا في الأرض قبل خلق آدم بألفي عام، فأفسدوا في الأرض، وسفكوا الدماء، فلما أفسدوا في الأرض، بعث الله عليهم جنودًا من الملائكة فضربوهم حتى ألحقوهم بجزائر البحور، فقالت الملائكة: ﴿أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا﴾ كما فعل الجن، فقال تعالى: ﴿إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾^(٣).

(١) البخاري (٦٩٣٠، ٧١٤٢).

(٢) البخاري (٢٩٥٥، ٧١٤٤) ومسلم (١٨٣٩).

(٣) ينظر: «المستدرک» (٢/٢٦١) وقد صححه الحاكم ووافقه الذهبي.

مراحل خلق آدم خمس :

(أولاً) المرحلة الترابية: فقد قبض الله سبحانه وتعالى قبضة من جميع أنحاء الأرض، ليدخل منها الإنسان الأول؛ فكان هذا الإنسان على اختلاف تربة الأرض، منه الأحمر والأبيض والأسود وبين ذلك، ومنه الخبيث والطيب وبين ذلك :

١- فقد جاء عن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الله تبارك وتعالى خلق آدم من قبضة قبضها من جميع الأرض، فجاء بنو آدم على قدر الأرض، جاء منهم الأحمر والأسود والأبيض وبين ذلك، والسهل والحزن وبين ذلك، والخبيث والطيب وبين ذلك»^(١).

٢- وعن سعيد بن جبيرة عن ابن عباس رضي الله عنه قال: بعث رب العزة ملك الموت، فأخذ من أديم الأرض، من عذبتها ومالحها، فخرج منه آدم، ومن ثم سمي آدم؛ لأنه خلق من أديم الأرض^(٢).

٣- وكان خلق آدم في يوم الجمعة، كما جاء في الحديث عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «خير يوم طلعت عليه الشمس يوم الجمعة، فيه خلق الله آدم، وفيه أُدخل الجنة، وفيه هبط منها، وفيه مات، وفيه تيب عليه، وفيه تقوم الساعة»^(٣).

٤- ولما خلق الله آدم قال له: اذهب فسلّم على أولئك؛ نفرّ من الملائكة، فاستمع ما يحيونك به، فإنها تحيتك وتحيّة ذريتك، فقال: السلام عليكم، فقالوا: السلام عليك ورحمة الله، فزادوه: ورحمة الله، فكل من يدخل الجنة على صورة آدم -ستون ذراعاً-

(١) حديث صحيح رواه أحمد في «المسند» (٤/٤٠٠) برقم (١٩٥٨٢، ١٩٦٤٢) إسناده صحيح ورجاله ثقات، كما قال محققوه، وصححه أحمد شاكر في تحقيقه «لتفسير الطبري» برقم (٦٤٥) وصححه الألباني في «السلسلة الصحيحة» برقم (١٦٣٠) وأبو داود (٤٦٩٣) والترمذي (٦٧١٤) وقال: حسن صحيح، وصححه الحاكم ووافقه الذهبي في «المستدرک» (٢/٢٦١) و«الطبقات الكبرى» لابن سعد وعبد بن حميد (٥٤٨).

(٢) أخرجه ابن جرير في التفسير، قال الشيخ أحمد شاكر: (١/٤٨٠) هذا إسناده صحيح، ورواه الطبري في «التاريخ» أيضًا (١/٤٦) ورواه ابن سعد في «الطبقات» وابن أبي حاتم وابن عساکر.

(٣) رواه مسلم في صحيحه برقم (٨٥٤) والنسائي في السنن (٣/٨٩) وأبو داود (١٠٤٦).

فلم يزل الخلق ينقص حتى الآن^(١).

٥- وفي صحيح مسلم وغيره عن أنس رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «لما صَوَّرَ الله آدم تركه ما شاء الله أن يتركه، فجعل إبليس يطيف به، ينظر ما هو، فلما رآه أجوف عرف أنه خلق خلقاً لا يتمالك»^(٢) ولفظ أبي الشيخ «قال: خلق لا يتمالك ظفرت به»^(٣).

وورد أن الله تعالى أرسل جبريل إلى الأرض ليأتي منها بطين لخلق آدم فاستعادت بالله تعالى أن ينقص منها شيء فأعازها، وهكذا ميكائيل، ثم أرسل ملك الموت فاستعادت بالله أن ينقص منها شيء، فقال ملك الموت: وأنا أعوذ بالله أن أرجع ولم أنفذ أمره، فأخذ من أماكن عدة من وجه الأرض تربة حمراء وبيضاء وسوداء، فخرج بنو آدم مختلفين^(٤).

فاختلاف ألوان الناس واختلاف طبائعهم ومشاربهم على وفق اختلاف تربة الأرض التي خلقهم الله سبحانه وتعالى منها.

(ثانياً) مرحلة الطين اللازب: فقد خلط هذا التراب بالماء وعُجن به، وصار طيناً لزجاً متماسكاً ﴿إِنَّا خَلَقْنَاهُمْ مِنْ طِينٍ لَّازِبٍ﴾ [الصفات: ١١] والطين اللازب: هو الذي يلتزق بعضه ببعض.

(ثالثاً) مرحلة الحمأ المسنون: وذلك أن الطين بعد أن يعجن بالماء يبقى مدة فيتغير لونه ويكون أقرب إلى السواد، ثم ييبس ويجف.

(رابعاً) مرحلة الصلصال: فقد مرت على الإنسان الأول فترة، جف فيها هذا الطين اللزج ويبس، وأصبح صلصالاً كالفخار، والصلصال: هو الشيء المنفوخ المجوف الذي يُسمع له صوتٌ إذا قُرِع، بخلاف الشيء المصمت الذي لا جوف له، ولا يكون له

(١) جاء هذا في حديث صحيح، رواه الشيخان عن أبي هريرة في البخاري برقم (٣٣٢٦، ٦٢٢٧) ومسلم برقم (٢٨٤١) و«المسند» (٨١٧١).

(٢) «صحيح مسلم» برقم (٢٦١١) و«المسند» (١٢٥٣٩) والطيلالسي (٢١٣٦) وأبو يعلى (٣٣٢١) وابن حبان (٦١٦٣).

(٣) أبو الشيخ في «العظمة» (١٠٣٣، ١٠٤٠) والبيهقي في «الأسماء والصفات» (٨١٩).

(٤) ينظر: رواية ابن مسعود في الطبري (٤٥٩/١).

صلصلة إذا قُرع باليد ﴿خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ صَلْصَلٍ كَالْفَخَّارِ﴾ [الرحمن] وذلك بعد أن مضى عليه هذه المدة، وهي أربعون عامًا، ولم تمسه نار.

وإلى ذلك يشير قول الله سبحانه: ﴿هَلْ أَتَى عَلَى الْإِنْسَانِ حِينٌ مِّنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُن شَيْئًا مَّذْكُورًا﴾ [الإنسان] ﴿هَلْ﴾ بمعنى: قد، و﴿حِينٌ مِّنَ الدَّهْرِ﴾ أي: مدة من الزمن تقدر بأربعين عامًا قبل أن يُنفخ فيه الروح.

وورد أن عمر بن الخطاب ؓ سمع رجلاً يقرأ هذه الآية: ﴿هَلْ أَتَى﴾... فقال: ليتها تمت، أي: ليت الإنسان بقي شيئاً غير مذكور، أي: طيناً لازباً، يقولها من مخافة عذاب الله يوم القيامة^(١).

(خامساً) مرحلة النفخ في الروح: ثم نفخ الله تعالى في آدم من روحه، فصار لحمًا ودمًا وعظمًا، ثم خلقه وسوّاه وعدله، فصار إنساناً في أحسن تقويم، سميعاً بصيراً متكلمًا. وسُمّي آدم؛ لأنه خُلِقَ من أديم الأرض.

ورد أن النفخ بدأ من رأسه، فكان آدم ينظر إلى جسده ويُعجبه ما يُصبح منه لحمًا ودمًا يتحرك وتذب فيه الحياة، فلما أتت النفخة إلى سُرته، ذهب لينهض، فلم يقدر، ذلكم قول الله تعالى: ﴿خُلِقَ الْإِنْسَانُ مِنْ عَجَلٍ﴾ [الأنبياء: ٣٧] وقوله ﴿وَكَانَ الْإِنْسَانُ مَجْجُولًا﴾ [الإسراء: ١١]. فلما تمت فيه النفخة عطس، فقالت له الملائكة: قل: الحمد لله، فقال: الحمد لله. فقال الله له: يرحمك الله يا آدم^(٢).

وفي حديث أنس رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «لما نفخ الله في آدم الروح، فبلغ الروح رأسه عطس، فقال: الحمد لله رب العالمين، فقال الله تبارك وتعالى: يرحمك الله»^(٣).

وقد ذكر آدم في القرآن خمسا وعشرين مرة في خمس وعشرين آية.

وهذه المراحل أجملها القرآن في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ سُلَالَةٍ مِّنْ

(١) ينظر: تعليق الشيخ أحمد شاكر في «تفسير الطبري» (ص ٤٦٦).

(٢) ينظر: رواية ابن عباس ورواية ابن مسعود في تفسير الطبري (١/٤٥٦، ٤٦٠).

(٣) ابن حبان (٦١٦٥) قال محققه: إسناده صحيح.

طِينِ ﴿١٢﴾ [المؤمنون] هذا بالنسبة للإنسان الأول، آدم عليه السلام، والسلالة التي خلق منها هي التراب، والطين، والصلصال الذي يشبه الفخار.

أما خلق ذرية آدم فهي تمر بخمس مراحل أيضًا، جاءت في قول الله تعالى وهو يصف أطوار خلق الإنسان، وهذه الأطوار هي:

١- النطفة. ٢- والعلقة. ٣- والمضغة. ٤- والعظام.

٥- واللحم الذي نُفَخ فيه من روح الله.

قال تعالى: ﴿ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَّكِينٍ ﴿١٣﴾ ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظْمًا فَكَسَوْنَا الْعِظْمَ لَحْمًا ثُمَّ أَنْشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ ﴿١٤﴾﴾ [المؤمنون].

وكما خلق الله تعالى آدم من تراب وخلق ذريته من نطفة تعود إلى التراب وتتكون منه، فإنه سبحانه خلق الملائكة من نور، وجعلهم أجسامًا هوائية لطيفة لها قدرة على التشكل بأشكال مختلفة، أما الجن فقد خلقوا قبل الإنس من مارج من نار.

عن عائشة رضي الله عنها أن رسول الله ﷺ قال: «خلقت الملائكة من نور، وخلق الجان من مارج من نار، وخلق آدم مما وصف لكم»^(١).

هذا: والإنسان يمر بخمس مراحل في أطواره كلها وهي:

(أولاً) دار الإقرار: وهي الدار التي أقر فيها بتوحيد الله تعالى، حين أخرج الله تعالى ذرية بني آدم من ظهور آبائهم، وأخذ عليهم العهد والميثاق ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ شَهِدْنَا﴾ [الأعراف: ١٧٢].

(ثانياً) دار الأطوار: وهي بطن الأم التي يتكون فيها الإنسان، ويمر بمراحل الخلق: نطفة ثم علقه ثم مضغة ثم عظاماً ثم بشراً سوياً.

(١) «صحيح مسلم» برقم (٢٩٩٦) و«المسند» (٢١٥٩٤، ٢٥٣٥٤) قال محققوه: إسناده صحيح على شرط الشيخين وهو في «مصنف عبد الرزاق» (٢٠٩٠٤) وابن حبان (٦١٥٥) وغيرهم.

(ثالثًا) دار الأدوار: وهي هذه الدنيا، والمدة التي يعمرها الإنسان فيها، وما يكتسب خلالها من خير أو شرٍّ، يؤهله للنعيم أو الجحيم في الآخرة.

(رابعًا) دار الانتظار: وهي مدة البرزخ أو القبر التي ينتظر فيها الإنسان انقضاء أجل الدنيا، وانتهاء الأجيال والقرون التي يخلف بعضها بعضًا في هذه الحياة.

(خامسًا) دار القرار: وهي الدار الآخرة، التي يكون فيها البعث والحشر والنشر والحساب والجزاء على الأعمال بالجنة أو النار، وهي الدار التي يستقر فيها الخلائق في حياة أبدية.

فَضْلُ بَنِي آدَمَ عَلَى غَيْرِهِمْ بِالْعِلْمِ وَالْمَعْرِفَةِ

٣١- ﴿وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلَائِكَةِ فَقَالَ أَنْبِئُونِي^(١) بِأَسْمَاءِ هَؤُلَاءِ^(٢) إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ^(٣)﴾

أراد الله عز وجل أن يُظهر للملائكة فضل آدم، وأنه أكثر علمًا وأكثر معرفة من غيره من المخلوقات، وأنه الأقدر على استخراج كنوز الأرض وعلى عمارتها والإقامة فيها، فعلم الله سبحانه وتعالى آدم أسماء الأشياء كلها، علمه إياها بعد أن تم خلقه.

وبعد خلق آدم عليه السلام علمه الله سبحانه أسماء المخلوقات، وأولها أسماء ذريته، وأسماء الملائكة، قيل: واسم كل شيء خلقه الله سبحانه مثل: الدابة والأرض والجبل والبحر والطير... ليُظهر للملائكة فضل المخلوق الجديد، ويبيّن أنه سيد هذه الأرض، وأنه قادر على استخراج كنوزها وإعمارها.

كما علمه الأسماء والألفاظ والمعاني، حتى المكبر من الأسماء والمصغر، ثم عرض

(١) قرأ أبو جعفر (فقال أنبئوني) بحذف الهمزة وضم الباء ولحمزة وقفًا حذف الهمزة وتسهيلها بين بين وإبدالها ياء خالصة.

(٢) قرأ قالون والبيزي بتسهيل الهمزة الأولى من (هؤلاء إن) بين بين وسهل الثانية الأصهباني وأبو جعفر، وللأزرق تسهيل الهمزة الثانية وإبدالها حرف مد مشبع وإبدالها ياء خالصة ولقنبل إسقاط الأولى مع المد والقصر، وله تسهيلها وإبدالها حرف مد مشبع، وأسقط أبو عمرو الهمزة الأولى مع المد والقصر، ولرويس الإسقاط والتسهيل وحققها الباقون.

سبحانه هذه الأسماء على الملائكة قائلاً لهم: أخبروني بأسماء هذه الأشياء إن كنتم صادقين في أنكم أولى بالاستخلاف في الأرض من آدم ﴿وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا﴾.

مثل الأعلام الشخصية، وأسماء الأجناس من الحيوانات والنبات والحجر والكواكب والثمار والأشجار والملائكة واللغات... إلخ.

وقد يكون هذا التعليم بطريقة التلقين، أو أن الله تعالى قد ألهمه وألقى في رُوعه أسماء الأشياء التي يراها بعد أن خلق فيه قوة النطق وعلمه البيان.

ومعنى ذلك أن آدم وضع أسماء المسميات ﴿ثُمَّ عَرَضَهُمْ﴾ أي عرض الله تعالى مسميات الأشياء لا أعيانها ﴿عَلَى الْمَلَائِكَةِ فَقَالَ أَنْبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلَاءِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ في أن الإنسان (آدم وذريته) لا فائدة من خلقه، وأنكم أولى بالاستخلاف في الأرض منهم، وفي هذا إشارة إلى أهمية استخلاف الإنسان في الأرض.

٣٢- ﴿قَالُوا سُبْحَنَكَ لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ﴾

قالت الملائكة: نزهك يا ربنا، فنحن لا نعرض عليك ولا نخالف أمرك، فليس لنا علم بشيء بوجه من الوجوه إلا ما علمتنا إياه، فضلاً منك وكرماً، وأنت وحدك العليم بشؤون خلقك، لا يعزب عنه مثقال ذرة في السموات ولا في الأرض ولا أصغر من ذلك ولا أكبر، وله الحكمة التامة التي لا يخرج عنها مخلوق، ولا يشذ عنها مأمور، فأنت الحكيم في تدبيرك، تضع كل شيء في موضعه اللائق به، فأظهروا عجزهم وقصورهم عن معرفة أسماء الأشياء، وأقروا واعترفوا بعلم الله وحكمته وتعليمه لهم ما لا يعلمون.

٣٣- ﴿قَالَ يٰٓأَدَمُ أَنْبِئْهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ فَلَمَّا أَنْبَأَهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنِّي (١) أَعْلَمُ الْغَيْبِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ﴾

وفي أول نداء من الله تعالى لآدم، قال له: أخبرهم بأسماء هذه الكائنات والمخلوقات التي عجزوا عن معرفتها، فلما أنبأ الملائكة وأخبرهم بأسماء المسميات قال تعالى

(١) قرأ نافع وابن كثير وأبو عمرو وأبو جعفر بفتح باء الإضافة من (إني أعلم) في الموضعين للتخفيف، وقرأ غيره بإسكانها مديّة على الأصل، وهما لغتان.

للملائكة: لقد أخبرتكم أنني أعلم ما خفي عنكم في السموات والأرض، مما غاب عنكم ولم تشاهدوه، وأعلم ما تظهرونه وما تكتُمونه، وأعلم ما كان وما سيكون مما لا علم لكم به في السموات والأرض.

والمعنى: أن الله تعالى لا يخفى عليه شيء سواء أسروه أو أعلنوه، وليس المراد أن الملائكة تكتُم شيئاً عن الله سبحانه.

قِصَّةُ آدَمَ وَإِبْلِيسَ وَالْدُّرُوسُ الْمُسْتَفَادَةُ مِنْهَا

٣٤- ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ^(١) اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى وَاسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ

ثم أمر الله سبحانه الملائكة أن تسجد لآدم إكراماً له، سجدوا تحية بالانحناء، أو تسجد لله الذي خلق آدم، عبودية لله تعالى، فامتثلوا أمر الله تعالى وبأدروا كلهم بالسجود.

وهذا السجود يحتمل ثلاثة معانٍ:

المعنى الأول: سجد تحية وتعظيم واحترام وتكريم بالانحناء، فلم يكن فيه وضع للجهة على الأرض، كسجود إخوة يوسف له إظهاراً لفضله.

المعنى الثاني: أن يكون المراد بالسجود سجوداً حقيقياً لله الذي خلق آدم، كسجود العبادة، وآدم يكون أمامهم كالقِبلة، كما جعلت الكعبة قبلة للصلاة.

المعنى الثالث: أن يكون المراد بالسجود سجود تحية وتكريم لخلق آدم عليه السلام بوضع الجبهة على الأرض، بدون تقديس ولا تعظيم، على أن هذا كان جائزاً ثم نُسخ.

(١) قرأ أبو جعفر بخلف ابن وردان عنه بضم التاء من (للملائكة اسجدوا) اتباعاً لضم الجيم والباقون بالكسر، والوجه الثاني لابن وردان إشمام كسرة التاء لحركة الضم، والمراد بالإشمام مزج حركة الكسر بحركة الضم.

وفي حديث معاذ رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «ولو كنت أمرا أحدا أن يسجد لأحد لأمرت المرأة أن تسجد لزوجها»^(١).

وقد عُرف السجود منذ أقدم العصور، فقد وجد في القرن التاسع عشر قبل الميلاد صورة (حمورابي) راکعاً أمام الشمس، وُجد في الآثار المصرية، صور أسرى الحرب سُجِّدًا لفرعون.

وهيئة السجود تختلف باختلاف العوائد، وتختلف باختلاف الشرائع، وسجود الملائكة لآدم من عمل العالم الأعلى، ولا يدخل تحت تكاليف أهل الأرض، وقد نسخ الإسلام ما كان في الشرائع الأخرى من السجود لغير الله، وأصبح السجود لغير الله تعالى في الإسلام محرماً^(٢).

والخطاب بالأمر بالسجود موجّه إلى الملائكة وإلى إبليس؛ لأنه كان معهم يُقيم بينهم، ولم يكن منهم، وهو أصل الجن، كما أن آدم أصل الإنس، قال تعالى: ﴿فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى﴾ [طه: ١١٦] أي: كفر كفراً عميقاً بسبب استكباره وامتناعه عن السجود، فاستكبر على آدم وخرج عن طاعة الله نتيجة الكفر الذي تنطوي عليه نفسه، فتبينت عداوته لله ولآدم، وتبين كفره واستكباره، وكان إبليس قبل هذا الامتناع يعبد الله تعالى مع الملائكة، وقد جاء استثناءه منهم؛ لأنه كان مع الملائكة ولم يكن من جنسهم على الأصح، كما أخبر الله تعالى بذلك في قوله: ﴿إِلَّا إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ﴾ [الكهف: ٥٠].

قال الحسن: ما كان إبليس من الملائكة طرفة عين قط، وإنه لأصل الجن، كما أن آدم أصل الإنس^(٣).

(١) ينظر حديث معاذ بن جبل في المسند برقم (٢١٩٨٦) قال محققوه: صحيح لغيره، وحديث عبد الله بن أبي أوفى برقم (٤٠٣ ٤٩٩ ١٩٤٠) في المسند أيضاً، وكذا حديث عائشة برقم (٢٤٤٧١) وهو حديث جيد، وعن حديث ابن أبي أوفى قال الألباني في صحيح سنن الترمذي: حسن صحيح، وكذا في السلسلة الصحيحة (١٢٠٣) وفي الإرواء (٥٥/٧) وهو في سنن الترمذي (١٨٥٣).

(٢) ينظر: «تفسير التحرير والتنوير» لابن عاشور (٤٢٢/١).

(٣) قال الشيخ أحمد شاكر: هذا إسناد صحيح عن الحسن، «تفسير الطبري» (٥٠٦/١).

ولو كان إبليس من الملائكة، ما عصى الله أبداً، ولا امتنع من السجود لله تعالى، ولا من تنفيذ أمره حين أمره به.

وهذه أول معصية عُصي الله تعالى بها، وهي معصية الكبر والامتناع من السجود لآدم، وقد اغترَّ إبليس بعنصر الخلق الذي خُلق منه وهو النار، ووازن بينه وبين العنصر الذي خُلق منه آدم وهو التراب ﴿قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِّمَّنْ خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِن طِينٍ﴾ [ص: ٧٦] وظن إبليس أن النار أفضل من الطين، وهو مخطئ في تقديره، فالتراب أو الطين أفضل من النار؛ لأن التراب متواضع متطامن لا يعلو ولا يرتفع، يسير الماء في جداوله وأنهاره، ومنه كل شيء حي، ومنه يخرج الزرع والثمر والشجر، ولا حياة للمخلوقات بدونه.

أما النار: فإنها تحرق وتُدمر، ولها لهيب ودخان، يشبه الكبر في علوه وارتفاعه، وفي إيذائه للأعين والصدور وغيرهما.

وكانت العقوبة التي أنزلها الله سبحانه وتعالى بإبليس -جزاء كبره- أن طرده من الجنة، وحقت عليه لعنة الله سبحانه وتعالى إلى يوم القيامة.

ولو كان إبليس من الملائكة ما عصى الله سبحانه، ولا امتنع من السجود له، على أن إبليس قد خُلق من مادة غير المادة التي خلقت منها الملائكة، فالملائكة خلقوا من النور، وخلق إبليس من النار، يقول الله سبحانه: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الْجِنِّ﴾ أي من فصيلة أخرى وخلق آخر؛ ولذا وقعت منه المعصية والخروج عن طاعة الله تعالى ﴿فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ﴾.

وإبليس اسمٌ للشيطان الأول، فمنه الشياطين، وهو من الإبلas أي البعد عن الخير، واليأس من الرحمة، ثم إن إبليس له ذرية، والملائكة ليست لهم ذرية، يقول سبحانه: ﴿أَفَتَتَّخِذُونَهُ وَذُرِّيَّتَهُ أَوْلِيَاءَ مِن دُونِي وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّ﴾ [الكهف: ٥٠]

والملائكة لا يأكلون ولا يشربون، ولا يتناكحون ولا يتناسلون، ولا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون، والجن يتوالدون كما يتوالد بنو آدم ويأكلون ويشربون، ويحدث منهم العصيان والطاعة.

في صحيح مسلم وغيره عن أبي هريرة ؓ قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا قرأ ابن آدم

السجدة فسجد اعتزل الشيطان يبكي، يقول: يا ويله، -وفي رواية: يا ويلناه- أمر ابن آدم بالسجود فسجد، فله الجنة، وأمرت بالسجود فعصيت فلي النار^(١).

جَنَّةُ آدَمَ: أمر الله سبحانه وتعالى آدم بعد خلقه وتكريمه وإسجاد الملائكة له أن يسكن الجنة، ولعل المراد بالجنة المكان المرتفع من الأرض ذو الثمار والأزهار والمياه والمنظر الحسن والمقر الذي يقي من لفح الشمس.

وقد ذهب جمهور السلف إلى أن المراد بالجنة، جنة الخلد التي وعد الله بها المؤمنين وهي في العالم العلوي، وظواهر الآيات والأخبار المروية تشير إلى هذا، و(ال) في الجنة للعهد، أي جنة معهودة لآدم يشاهدها.

وذهب أبو مسلم الأصفهاني وأبو القاسم البلخي وبعض المعتزلة إلى أنها جنة في الأرض، خلقها الله لإسكان آدم وحواء.

ونقل البيضاوي أنها بستان في فلسطين أو العراق.

وفي التوراة في الإصحاح الثاني من سفر التكوين: (وأخذ الرب الإله آدم ووضعه في جنة عدن... فأخرجه الرب الإله من جنة عدن ليعمل في الأرض التي أُخِذَ منها).

وقال سُراخ التوراة: إن جنة عدن في الأرض.

والقائلون بهذا يقولون: إن الجنة دار الثواب، وهي دار كمال، لا يناسب أن يحصل فيها العصيان، وهي دار خلد لا يخرج منها من دخل فيها^(٢).

كما قال تعالى في وصف المتقين: ﴿لَا يَمَسُّهُمْ فِيهَا نَصَبٌ وَمَا هُمْ مِنْهَا بِمُخْرَجِينَ﴾ [الحجر].

وبعد أن أصبح آدم في هذه الجنة وحيداً فريداً، لا أنيس له ولا جليس،

(١) «صحيح مسلم» برقم (٨١) والبخاري في «التفسير» (١/٦٣) وهو في «سنن ابن ماجه» (١٠٥٢) والبيهقي في السنن (٣١٢/٢) وفي «الشعب» (١٤٨٧) والمسنند (٩٧١٣) بإسناد صحيح على شرط الشيخين، كما قال محققوه، وأخرجه ابن خزيمة (٥٤٩)، وابن حبان (٢٧٥٩).

(٢) ينظر: «تفسير التحرير والتنوير» لابن عاشور (١/٤١١). وانظر سورة طه في الجزء الثامن من هذا التفسير، الآية (١١٧).

ألقى الله عليه النوم، فلما استيقظ وجد هذا المخلوق الجديد إلى جانبه.

وفي حديث أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «استوصوا بالنساء، فإن المرأة خلقت من ضلع، وإن أعوج شيء في الضلع أعلاه، فإن ذهبت تقيمه كسرته، وإن تركته لم يزل أعوج، فاستوصوا بالنساء»^(١).

وقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا﴾ [النساء: ١]

وفي هذا إشارة إلى أن الله تعالى خلقها من ضلع آدم الأقصر الأيسر، ومن هنا كان عطف الرجل على المرأة، وحنو المرأة على الرجل.

وسميت حواء؛ لأنها خلقت من كائن حي، فلما قام من نومه وجدها إلى جواره فأنس إليها وأراد أن يمد يده عليها، فقالت له الملائكة: لا تفعل يا آدم ولا تقربها حتى تُعطي مهرها، قال وما مهرها؟ قالوا: أن تصلي على محمد ﷺ قال: ومن محمد؟ قالوا له نبي من ذريتك يُبعث آخر الزمان^(٢).

قيل: إن خلق حواء كان بعد أن سكن آدم الجنة، وقيل: قبل أن يسكنها.

وفي هذه الآية: إثبات صفة الكلام لله تعالى، وفيها بيان علمه وحكمته، وأن العبد إذا خفيت عليه الحكمة في أمرٍ ما، فعليه أن يتهم عقله، ويُقر بحكمة الله فيها.

وفي الآية بيان فضيلة العلم، وفضل آدم، وبيان عداوة إبليس للإنسان. قال تعالى:

الدَّرْسُ الْمُسْتَفَادُ مِنْ مُخَافَةِ أَوَّلِ نَهْيِ إِلَهِي

٣٥- ﴿وَقُلْنَا يَتَادُمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا^(٣) وَلَا نَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ

فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ﴾

أسكن الله آدم وحواء الجنة، وأمرهما أن يأكلا ويتمتعاً من جميع الثمار وجميع

(١) البخاري برقم (٣٣٣١، ٥١٨٦) و«صحيح مسلم» برقم (١٤٦٨) وينظر خبران عن ابن مسعود وابن إسحاق في «تفسير الطبري» (٥١٣/١) وفي ابن كثير والشوكاني وغيرهما.

(٢) ينظر: «مقدمة السيرة الحلبية» ولم أقف له على سند صحيح

(٣) أبطل السوسي وأبو جعفر همزة (شئتما) ياء وكذا حمزة عند الوقف، وأثبت الهمزة ساكنة الباقون

الأشجار التي في الجنة أكلاً هنيئاً بلا عناء ولا تقتير إلا شجرة واحدة مرئية لهما، هذه الشجرة لا يعنينا أن تكون هي سنبلة القمح، أو شجرة العنب، أو التفاح أو التين، أو غير ذلك، والله أعلم بحقيقتها، ففيها أقوال كثيرة لا نفع في تفصيلها، المهم أنها شجرة منع الله سبحانه آدم وحواء أن يقرباها لئلا يظلما نفسيهما بارتكاب ما نهى الله عنه فيحرما من دار النعيم، وقد دلّت الآية على أن النهي للتحريم، لأنه رتب الظلم عليه.

وقد ضمن الله لآدم وهو في الجنة، وضمن لذريته من بعده هذه الأربع:

﴿إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَىٰ ﴿١٨﴾ وَأَنَّكَ لَا تَظْمَأُ فِيهَا وَلَا تَصْحَىٰ ﴿١٩﴾﴾ [طه] قال تعالى:

٣٦- ﴿فَأَزَلَّهُمَا الشَّيْطَانُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ وَقُلْنَا اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَىٰ حِينٍ ﴿٣٦﴾﴾

وجاء الشيطان ليوسوس إلى آدم وحواء، ولم يزل كذلك حتى حملهما على الزلل، ﴿وَقَاسَمَهُمَا إِنِّي لَكُمَا لَمِنَ النَّاصِحِينَ ﴿٣٦﴾﴾ [الأعراف]

فاغترّاه وأطاعاه، فأخرجهما مما كانا فيه من النعيم، وأهبطوا إلى دار التعب والنصب.

وكان الشيطان قد أخذ على عاتقه وأقسم أن يقعد للإنسان بكل مرصد، وبكل طريق، ليضلّه ويغويه، وطلب من ربه أن يمهلّه إلى يوم القيامة دون أن يموت ليتمكن من إغواء بني آدم، وأنظره الله سبحانه إلى وقت معلوم، هو الوقت الذي ينتهي فيه أجله، ويموت فيه كل كائن حي، ووسوس الشيطان لآدم وحواء وأقسم لهما أنه ناصح أمين، وأن الله تعالى ما منعهما من الأكل من هذه الشجرة إلا لسببين:

السبب الأول: حتى لا يكون آدم وحواء ملكين من الملائكة.

السبب الثاني: حتى لا يكتب لهما الخلود والبقاء.

وسمى الله الشجرة -التي نهى إبليس عن الأكل منها- شجرة الخلد أي التي يخلد في الدنيا من أكل منها، كما ذكر الله تبارك وتعالى ذلك عنه في قوله:

(١) قرأ حمزة (فأزلهما) من الزوال، أي نحاها وأبعدهما عن نعيم الجنة، وقرأ باقي القراء (فأزلهما) من الزلل، أي الوقوع في المعصية، وهي الأكل من الشجرة

﴿وَقَالَ مَا نَهَاكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَذِهِ الشَّجَرَةِ إِلَّا أَنْ تَكُونَا مَلَكَينِ أَوْ تَكُونَا مِنَ الْخَالِدِينَ﴾ [الأعراف: ٢٠]
وقوله: ﴿قَالَ يَتْلَاكُم هَلْ أَذُنُكَ عَلَى شَجَرَةِ الْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَّا يَبْلُ﴾ [طه: ١٢٠].

وفي لحظة من لحظات الضعف الإنساني نسي آدم خلالها عهد ربه الذي أخذه عليه نسياناً، ولم يعزم على مخالفة أمر الله سبحانه، كما قال جل شأنه: ﴿وَلَقَدْ عَهِدْنَا إِلَى آدَمَ مِنْ قَبْلِ فَتَنِ الْجَنَّةِ فَلَمْ يَجِدْ لَهُ عَزْماً﴾ [طه: ١١٥] أي: لم يكن عنده تصميم أكيد، ولا عزم قوي على الأكل من الشجرة، وإنما هي لحظة ضعف ونسيان من آدم عليه السلام، وهكذا شأن ابن آدم حين تقع منه معصية، أن يكون ارتكابها منه سهواً وجهلاً لا عمدًا، وأن يكون ذلك في لحظة ضعف إنساني وليس عن تصميم.

وهذا العصيان من آدم عليه السلام أمرٌ مُراد لله عز وجل، لعمارة هذه الأرض وسكناها، فأكل آدم وحواء من الشجرة، وكانت النتيجة الأولى بمجرد أن أكلا من الشجرة، أن ظهرت لهما الشهوة الكامنة فيهما، فظهرت العورة لآدم وحواء وبدت الرغبة الجنسية بينهما ﴿وَوُفِّقَا يَخْضِفَانِ عَلَيْهِمَا مِنْ وَرَقِ الْجَنَّةِ وَنَادَاهُمَا رَبُّهُمَا أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَنْ تِلْكَ الشَّجَرَةِ وَأَقُلْ لَكُمَا إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُبِينٌ﴾ [الأعراف: ٢٢].

وقد بين لنا سبحانه عداوة الشيطان في قوله ﴿إِنَّ هَذَا عَدُوٌّ لَكَ وَلِزَوْجِكَ﴾ [طه: ١١٧]
ثم حذرنا سبحانه من فتنه وعداوته والوقوع في حبائله، كما حدث لآدم من قبل ﴿يَبْنِيْ آدَمَ لَا يَفْنَيْكُمْ الشَّيْطَانُ كَمَا أَخْرَجَ أَبَوَيْكُم مِّنَ الْجَنَّةِ﴾ [الأعراف: ٢٧].

ذلكم قول الله تعالى: ﴿فَأَزَلَّهُمَا الشَّيْطَانُ عَنْهَا﴾ أوقعهما في الخطيئة بأن وسوس لهما حتى أكلا من الشجرة ﴿فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ﴾ تسبب في إخراجهما من الجنة ونعيمها ﴿وَقُلْنَا اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ﴾ أي آدم وحواء والشيطان، وذلك أن آدم وذريته أعداء لإبليس وذريته ومن المعلوم أن العدو يجتهد في ضرر عدوه وإيصال الشر إليه بكل طريق، وحرمانه من كل خير، قال تعالى: ﴿إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا إِنَّمَا يَدْعُوا حِزْبَهُ لِيَكُونُوا مِنْ أَصْحَابِ السَّعِيرِ﴾ [فاطر: ١٠٢].

وقال سبحانه: ﴿أَفَنَتَّخِذُونَهُ وَذُرِّيَّتَهُ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِي وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّ بِئْسَ لِلظَّالِمِينَ بَدَلًا﴾ [الكهف: ١٠٥]
ثم ذكر سبحانه نهاية الإهباط إلى الأرض فقال: ﴿وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ﴾ دار إقامة وسكنى واستقرار ﴿وَمَتَّعَ إِلَىٰ حِينٍ﴾ أي: ولكم فيها انتفاع بخيراتها إلى انتهاء آجالكم، ثم

تنتقلون إلى الدار التي خلقتم لها، و خلقت لكم.

قال في معجم البلدان (١٦٣/٢ و ٢١٥/٣): (وفي سرنديب الجبل الذي هبط عليه آدم عليه السلام يقال له: الرَّهُون) وهكذا قال ابن بطوطة في رحلته: ليس مرادي منذ وصلت هذه الجزيرة إلا زيارة القدم الكريمة، قدّم آدم عليه السلام، وهم - في جزيرة سيلان - يسمونه (بابا) ويسمون حواء (ماما)، ويرجح أن آدم دفن عند سفح جبل أبي قبيس^(١)، قال تعالى:

٣٧- ﴿فَلَقَّيْ عَادَمُ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَتٍ^(٢) فَتَابَ عَلَيْهِ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾

ثم أقبل آدم تائبًا إلى ربه، وثبوت آدم عليه السلام ثابتة بدليل أن الله سبحانه أوحى إليه بكلمات يقولها ليتوب عليه ﴿فَلَقَّيْ عَادَمُ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَتٍ﴾ ألهمه ولقّنه إياها توبة واستغفارًا ﴿فَتَابَ عَلَيْهِ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ﴾ لمن تاب من عباده ﴿الرَّحِيمُ﴾ بهم، حيث وفقهم للتوبة وعفا عنهم، فهذا هو الوحي الإلهي المنزل على آدم عليه السلام وهو مقتضى التلقي عن الله تعالى، وهذه الكلمات جاء نصها في سورة الأعراف: ﴿قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنْفُسَنَا وَإِنْ لَمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ [الأعراف].

وقد وفق الله آدم إلى التوبة، ثم قبل منه توبته، وأكل آدم وحواء من الشجرة أمرٌ مقدّر في الأزل.

عن أبي هريرة ؓ أن رسول الله ﷺ قال: «تَحَاجَّ آدَمُ وَمُوسَى، فَحَجَّ آدَمُ مُوسَى، قَالَ مُوسَى: أَنْتَ آدَمُ الَّذِي أَغْوَيْتَ النَّاسَ وَأَخْرَجْتَهُمْ مِنَ الْجَنَّةِ؟ قَالَ لَهُ آدَمُ: أَنْتَ مُوسَى الَّذِي أَعْطَاكَ اللَّهُ عِلْمَ كُلِّ شَيْءٍ وَاصْطَفَاكَ بِرِسَالَتِهِ؟ قَالَ: نَعَمْ، قَالَ: فَتَلُومَنِي عَلَى أَمْرٍ قُدِّرَ قَبْلَ أَنْ أُخْلَقَ»^(٣).

وفي حديث جُنْدُبِ الْبَجَلِيِّ ؓ قال: قال رسول الله ﷺ: «اِحْتَجَّ آدَمُ وَمُوسَى، فَقَالَ مُوسَى: يَا آدَمُ، أَنْتَ الَّذِي خَلَقَكَ اللَّهُ بِيَدِهِ، وَنَفَخَ فِيكَ مِنْ رُوحِهِ، وَأَسْجَدَ لَكَ مَلَائِكَتَهُ،

(١) ينظر: أطلس القرآن د. شوقي أبو خليل ص ١٢ و مابعدھا.

(٢) قرأ ابن كثير (فتلقى آدم من ربه كلمات) على أن آدم مفعول مقدم وكلمات فاعل مؤخر كأنه قال: فجاءته كلمات. وقرأ الباقون: (فتلقى آدم من ربه كلمات) على أن آدم فاعل وكلمات مفعول به.

(٣) البخاري (٦٦١٤) ومسلم (٢٦٥٢) وأبو داود (٤٧٠١) والترمذي (٢١٣٤) والنسائي في «السنن الكبرى»

(١٠٩٨٥، ١١١٨٧) وابن ماجه ٨٠.

وأسكنك جنته، وفعلت ما فعلت، فأخرجت ولدك من الجنة؟! فقال آدم: أنت موسى الذي بعثك الله برسالاته، وكلمك، وآتاك التوراة، وقربك نجياً، أنا أقدم أم الذكور؟ قال رسول الله ﷺ: فحج آدم موسى، فحج آدم موسى^(١). قال تعالى:

٣٨- ﴿قُلْنَا اهْبِطُوا مِنْهَا جَمِيعًا فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى فَمَن تَبَعَ هُدَايَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ (٢) وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ (٣٨)

ذكر سبحانه الأمر بهبوط آدم وحواء وإبليس من الجنة مرة ثانية ليرتب عليه نتيجة الاهتداء باتباع الرسل والعمل بما في الكتب، وهكذا: فقد كانت العقوبة أن أمر الله سبحانه آدم وحواء وإبليس أن يهبوطوا وينتقلوا من أرض الجنة إلى حيث العناء والشقاء ﴿قُلْنَا اهْبِطُوا مِنْهَا جَمِيعًا﴾ أي اخرجوا من هذا النعيم وتحولوا عنه، والهبوط هو التحول والانتقال، وهذا تكرار للهبوط الأول، وليس هبوطاً ثانياً كما قال تعالى: ﴿اهْبِطُوا مِصْرًا﴾ أي انزلوا مدينة من المدن، والأمر بالهبوط جاء في سورة طه لآدم وحواء فقط ﴿قَالَ اهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًا﴾ [طه: ١٢٣] لأنهما اللذان أكلا من الشجرة وباشرا ذلك.

وعلى القول بأن المراد بالجنة دار الثواب في الآخرة، قيل: إن آدم هبط بسرنديب في الهند، وهبطت حواء في جدة، ثم تكون العودة الدائمة إلى الجنة - دار الثواب والنعيم - التي لا نزول منها، وهو مرتب على اتباع هدى الله سبحانه.

كما خاطب جل شأنه ذرية آدم في قوله ﴿فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى فَمَن تَبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَى﴾ [طه: ١٢٣].

وفي هذه الآية أمّنهم الله تعالى من الخوف والحزن، فهم في طمأنينة دائمة في الدنيا والآخرة، لا يندمون على ما مضى ولا يفزعون من المستقبل ﴿فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى فَمَن

(١) النسائي في «السنن الكبرى» (٣٣٨، ١١٣١٨) وأبو يعلى (١٥٢٨) والطبراني (١٦٦٣) قال الهيثمي في «مجمع الزوائد» (١٩١/٧): رجاله رجال الصحيح، وفي المسند (٩٩٩٠) بإسناد صحيح على شرط مسلم (محققوه) وانظر المسند أيضاً برقم (٧٣٧٨، ٧٥٨٨) عن أبي هريرة.

(٢) قرأ يعقوب (فلا خوف عليهم) بفتح الفاء، على أن (لا) نافية للجنس، وقرأ الباقر بالرفع والتنوين، على أن (لا) ملغاة، لا عمل لها.

(٣) وضم الهاء من (عليهم) حمزة ويعقوب وكسرها الباقر.

اتَّبَعَ هُدَاىَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَى ﴿طه: ١٢٣﴾ وهذا إخبار من الله تعالى بأنه سوف يبعث الرسل، ويُزَلُّ الكتب، فالذين يتبعون هُدَى الله الذي أنزله في كُتُبِهِ على لسان رسله لا يخافون من مستقبلهم ولا يحزنون على ماضيهم كما قال تعالى: ﴿فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَى﴾ أي: لن يضل طريق الصواب في الدنيا والآخرة، وهكذا فقد نفى الله سبحانه عمن اتبع هُدهاء أربعة أشياء: الخوف والحزن، وبنيهما يتحقق الأمان التام، ويندفع الضلال والشقاء، وبنيهما تتحقق السعادة الدنوية والأخروية، فيحصل كل مرغوب، ويزول كل مرهوب، والمؤمن مكفول في الجنة ضامنٌ لمقومات الحياة الأساسية للإنسان، وهى المأكل والمشرب والملبس والمسكن، ولن يشقى فيها ولن يُطرد من الجنة، وإنما سيكون فيها دائماً كما قال تعالى: ﴿وَمَا هُمْ مِنْهَا بِمُخْرَجِينَ﴾ [الحجر: ٤٨].

وقال سبحانه: ﴿إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَى ﴿١٧٨﴾ وَأَنَّكَ لَا تَظْمَأُ فِيهَا وَلَا تَصْحَى ﴿١٧٩﴾﴾ [طه].

وقد نهانا تعالى عن اتباع الشيطان؛ لأنه يزين المعصية للعبد، ويوقع الشهوة في نفسه وهو لا يراه، كما قال تعالى ﴿يَنْبِئُ آدَمَ لَا يَفْلِتَنَّكُمْ الشَّيْطَانُ كَمَا أَخْرَجَ أَبَوَيْكُمْ مِنَ الْجَنَّةِ يَنْزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوْءَ تَهُمَا إِنَّهُ يَرَئَكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُ مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ إِنَّا جَعَلْنَا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٧٧﴾﴾ [الأعراف].

وقد أمر الله نبيه أن يقول: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ ﴿١﴾﴾ إلى قوله: ﴿مِنْ شَرِّ الْوَسْوَاسِ الْخَنَّاسِ ﴿٤﴾ الَّذِي يُوَسْوِسُ فِي صُدُورِ النَّاسِ ﴿٥﴾ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ﴾ وقال ﷺ فيما يرويه أنس رضي الله عنه: «إن الشيطان يجري من ابن آدم مجرى الدم»^(١).

وقد أمر إبليس قبل ذلك أن يهبط من الجنة حين امتنع من السجود لآدم ﴿قَالَ فَاهْبِطْ مِنْهَا فَمَا يَكُونُ لَكَ أَنْ تَتَكَبَّرَ فِيهَا﴾ [الأعراف: ١٣] فمُنِعَ من كرامة الجنة، وهذا هبوط آخر يخرج بمقتضاه من الجنة، وقيل: أهبط في المرة الأولى إلى سماء الدنيا وفي الثانية إلى الأرض، ثم ذكر سبحانه مصير من لم يتبع هُدَى الله، فكفروا كَذَبَ بآيات الله، فقال:

(١) حديث صحيح أخرجه أحمد في «المسند» برقم (١٢٥٩٢، ١٤٠٤٢) بإسناد صحيح ورجال ثقات، والشيخان: مسلم (٢١٧٤) والبخاري (٢٠٣٥، ٣٢٨١) وأبو داود من حديث أنس «الجامع الصغير» (٢٠٣٦).

٣٩- ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ ﴿٣٩﴾

وأما الذين كفروا بالله وكذبوا ما جاء به الرسل وأعرضوا عن دلائل التوحيد ولم يتبعوا دين الله، ولم يعملوا بما جاء من عند الله، وماتوا على ذلك، فأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون لا يخرجون منها أبداً، ولا يخفف عنهم شيء من عذابها ولا هم ينصرون.

بَدَأُ قِصَّةِ بَنِي إِسْرَآئِيلَ: وَفِي أَوَّلِهَا: اثْنَتَا عَشْرَةَ وَصِيَّةً لَهُمْ

٤٠- ﴿يٰٓبَنِي إِسْرَآءِيلَ^(١) اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَوْفُوا بِعَهْدِي أُوفِ بِعَهْدِكُمْ وَإِنِّي فَآرِهُبُونَ^(٢)﴾

وبعد قصة آدم عليه السلام، تأتي قصة أول أمة لها رسالة كبرى، وهم بنو إسرائيل حيث تتصدى الآيات لفريق من الناس -هم اليهود- ممن كفر بآيات الله تعالى، وكذب رسوله محمداً ﷺ كما كذب قبله عيسى عليه الصلاة والسلام فتناديهم على وجه التقرير والتوبيخ بهذا النداء الذي لم يرد في القرآن إلا لبني آدم عموماً ﴿يٰٓبَنِي آدَمَ﴾.

والنداء الآخر في القرآن ﴿يٰٓبَنِي إِسْرَآءِيلَ﴾ والمراد بهم (اليهود) فتحدث عنهم السورة بدءاً من هذه الآية الأربعين في سورة البقرة ﴿يٰٓبَنِي إِسْرَآءِيلَ﴾ الأولى، إلى الآية السادسة والسبعين بعد المئة، أي ما يساوي نصف السورة تقريباً.

والنصف الأول من هذه الآيات يسرد على وجه الإجمال، النعم التي أنعم الله تعالى بها على اليهود.

والنصف الثاني يتناول عشرين مخالفة من مخالفات اليهود، ونبدأ ذلك بنبرة عن بني إسرائيل:

(١) سهل الهمزة من (إسرائيل) مع المد والقصر أبو جعفر وحققها الباقون، ولا مدّ فيه لورش؛ لأنه مستثنى من البدل، ولا ترقق الراء؛ لأنه اسم أعجمي.

(٢) قرأ يعقوب (فارهبوني)، (فاتقوني) بإثبات ياء بعد النون عند الوقف عليهما مراعاة للأصل وهي لغة الحجازيين، وقرأ الباقون بالحذف للتخفيف وموافقة للرسم وهي لغة هذيل.

مَنْ إِسْرَائِيلُ؟

إِسْرَائِيلُ^(١): اسمٌ أعجميٌّ، مركب من كلمتين (إسرا) ومعناها: (عبد)، و(إيل) ومعناها: (الله)؛ لأن (إل) بلسان العرب معناها (الله) كما قال تعالى ﴿لَا يَرْقُبُونَ فِي مُؤْمِنٍ إِلَّا وَلَا ذِمَّةً﴾ [التوبة: ١٠].

قال بعض أهل العلم: (الإل) هو الله، وكل اسم يرجع إلى (إيل) فهو معبد له، مثل: جبريل، ميكائيل، إسرافيل^(٢) فمعنى الكلمة (عبد الله) أو (صفوة الله).

وإِسْرَائِيلُ: اسمٌ لنبي الله يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم، وقد أطلق اليهود هذا الاسم الشريف، على الأرض المحتلة تيمناً من اليهود باسم أبيهم، وجلباً لعاطفة التدين لديهم، وشخذاً للهمم اليهودية في الهجرة إلى الأرض المقدسة والدفاع عنها من منطلق ديني، وتلمساً لنسبة فلسطين إليهم، للاستماتة في البقاء بها، غمطاً للحق الفلسطيني الثابت قبل ستة آلاف عام، وتجاهلاً للفتح الإسلامي على يد عمر رضي الله عنه، وإنكاراً منهم بأن الإسلام - وهو الدين الخاتم - هو صاحب السيادة على الأرض جميعاً، فالوحي الذي نسخ رسالة موسى هو الذي جاء برسالة عيسى، وهو الذي نسخ رسالة عيسى وجاء برسالة محمد ﷺ حتى يرث الله الأرض ومن عليها.

وإِسْرَائِيلُ الذي هو نبي الله يعقوب عليه السلام قد أنجب اثني عشر ولداً هم أصل الأسباط كما سَمَّاهم القرآن الكريم، وكل ولد منهم له ذرية، فهم اثنتا عشرة عشيرة أو قبيلة، أكبرهم (يهودا) الابن الأكبر ليعقوب، وهو أبو اليهود، وهو الذي أشار بقتل يوسف عليه السلام.

وسُمي اليهود يهوداً: نسبة إليه مع إبدال الذال دالاً تخفيفاً، أو من قولهم كما حكى الله تبارك وتعالى عنهم: ﴿إِنَّا هُدْنَاكَ إِلَيْكَ﴾ [الأعراف: ١٥٦] أي: تبنا ورجعنا إليك.

والقرآن الكريم حين يخاطب اليهود أو بني إسرائيل في القرآن الكريم، يقول: يا بني

(١) وسبب هذه التسمية: أن نبي الله يعقوب قد هاجر خوفاً من أخيه عيسى، فعرض له ملكٌ وهو في طريق هجرته فسأله ما اسمك؟ قال: يعقوب، قال: بل أنت إسرائيل؛ لأنك جاهدت الناس.

(٢) ينظر في «تفسير الطبري» الآثار من (١٦٢٠ - ١٦٢٨).

إسرائيل، يعني: يا أولاد العبد الصالح، رسول الله يعقوب عليه السلام، يا ذرية نبي الله يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم، والقرآن يُلاطفهم ويُلاينهم، ويُخوّفهم ويُوبّخهم، ويذكّرهم بنعم الله تعالى عليهم، ويُقيم عليهم الحجج والبراهين في أساليب متعددة من خطابه لهم.

وأول حديث خاطب به القرآن الكريم اليهود كان في سورة البقرة، وهي سورة مدنية، وجّه فيها القرآن الكريم الخطاب إلى اليهود؛ لكي يُقُوا بعهدهم مع الله في الميثاق الذي أخذه عليهم في التوراة من الإيمان بمحمد ﷺ، وكان المفروض أن يكون اليهود المجاورون للمدينة هم أول من يؤمن بمحمد ﷺ؛ لأنه جاء وصفه في كتابهم صريحاً، أي في التوراة غير المحرّفة، فكان من المفروض أن يكونوا أول من يؤمن به حيث كان قدومهم إلى المدينة وسكنهم فيها انتظاراً لهذا النبي المذكور في كتبهم، ولكن النتيجة كانت على العكس، فكانوا هم أول من كفر بمحمد ﷺ، وأول من باع الآخرة بالدنيا، فاشترؤا بآيات الله ثمنًا قليلاً، وأول من خلط الحق بالباطل، فغيروا أوصاف النبي ﷺ الصادقة الصحيحة في كتابهم، حرفوها وغيروها بأهوائهم، وما تُمليه عليهم مناصبهم ورياستهم.

وقد وجّه الله سبحانه النداء إلى بني إسرائيل في سورة البقرة ثلاث مرات؛ مرة في أول القصة الآية (٤٠)، ومرة عند بدء ذكر النعم التي أنعم الله بها على بني إسرائيل في الآية (٤٧)، ومرة في الآية (١٣٢).

النداء الأول لبني إسرائيل: سورة البقرة ليست من القرآن المكي الذي يتحدث عن القصص القرآني، وإنما هي من القرآن المدني الذي يشير إلى القصة إشارة، ويُذكّر بالقصص تذكيراً.

وفي هذا النداء الأول لبني إسرائيل يذكّرهم القرآن بمغبة كتمان أوصاف محمد ﷺ ﴿يَبْنَى إِسْرَءِيلَ﴾ يا ذرية يعقوب، وهذا نداءً باسم القبيلة، ولم ينادهم باسم الشريعة؛ لأن اليهودية قد دخل فيها غير اليهود، كقبيلة حمير وغيرها، ﴿أَذْكُرُوا نِعْمَتِي الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ﴾ أي: اذكروا هذه النعم الكثيرة وفيها نجاتكم من آل فرعون، وأن جعلت فيكم النبوة والرسالة، وأنزلت عليكم المن والسلوى، وفجّرت لكم الحجر، وظللّتكم بالغمام... إلخ. اذكروها باللسان ولا تجحدوها، واشكروها بالقلب وعمل الجوارح، وقوموا بهذه الوصايا التي أوجبها الله عليكم.

وأعظم وصايا بني إسرائيل اثنتا عشرة وصية، وجملتها:

- ١- الوفاء بالعهد ﴿وَأَوْفُوا بِعَهْدِي﴾.
- ٢- الخوف من الله ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ فَارْهَبُون﴾.
- ٣- الإيمان بالقرآن ورسول الإسلام ﴿وَعَامِنُوا بِمَا أُنزِلَتْ مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَكُمْ﴾.
- ٤- عدم إنكار أوصاف محمد ﷺ ابتغاء عرض الدنيا ﴿وَلَا تَشْتَرُوا بِآيَاتِي ثَمَنًا قَلِيلًا﴾.
- ٥- تقوى الله تعالى ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ فَاتَّقُون﴾.
- ٦- عدم خلط الحق بالباطل ﴿وَلَا تَلْبِسُوا الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ﴾.
- ٧- عدم كتمان الحق الصريح كأوصاف النبي ﷺ ﴿وَتَكْتُمُوا الْحَقَّ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾.
- ٨- إقامة الصلاة ﴿وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ﴾.
- ٩- إيتاء الزكاة ﴿وَأَتُوا الزَّكَاةَ﴾.
- ١٠- الركوع مع الراكعين من أمة محمد ﷺ ﴿وَأَزْكُوا مَعَ الرَّاكِعِينَ﴾ وذلك بدخولكم في الإسلام.
- ١١- عدم مخالفة القول للعمل ﴿أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنْسَوْنَ أَنْفُسَكُمْ﴾.
- ١٢- استعينوا على جميع أموركم بالصبر والصلاة ﴿وَأَسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ﴾.

الوصية الأولى: الوفاء بالعهد

يا معشر يهود: أين أنتم من أبيكم يعقوب الذي كان شاكرًا لنعم الله، حافظًا لعهد الله، مالكم خالفتم سنة أبيكم وعصيتم أمره، فحاربتم رسله، ثم ذكَّركم - سبحانه - ببعض نعمه عليهم، لعلهم يثوبون إلى رشدكم، فإن النعم لا تقابل بالعصيان وقتل الأنبياء وكتمان الحق ونقض العهد، فاذكروا نعمي عليكم.

﴿وَأَوْفُوا بِعَهْدِي﴾ أي أتموا وصيتي إليكم ونفذوا عهدي الذي عاهدتكم عليه من الإيمان بمحمد ﷺ على وجه الخصوص، والإيمان بكتبي ورسلي جميعًا، والعمل بشرائعي ﴿أَوْفِ بِعَهْدِكُمْ﴾ الذي وعدتكم به من الرحمة في الدنيا والنجاة في الآخرة، فأثيبكم عليه وأدخلكم الجنة فخافون، ولا تخافوا أحدًا غيري، فاحذروا غضبي وعقابي إن نقضتم العهد وكفرتكم بي.

ومن الوفاء بالعهد: حفظ اليمين، والوصية، واتباع الأوامر واجتناب النواهي، والتصديق بالرسالة الأخيرة، وإقامة شرع الله.

الوصية الثانية: اجعلوا خوفكم من الله وحده

ثم أمرهم الله بالسبب الحامل لهم على الوفاء بالعهد وهي الرهبة والخشية من الله تعالى، فلا تخافوا غيري، ولتكن قلوبكم عامرة بخشيته تعالى، فإن ذلك يعينكم على طاعته والبعد عن معاصيه، فإنَّ مَنْ خشي الله تعالى، حملته هذه الخشية على امتثال الأوامر واجتناب النواهي ﴿وَإِنِّي فَأَزْهَبُون﴾ والرهبة شدة الخوف.

وفي هذه الآية: تذكير لليهود بالعهد الذي قطعوه على أنفسهم من الإيمان بالله تعالى واتباع رسله، والقيام بفريضتي الصلاة والزكاة، وتوقير رسل الله تعالى، والإيمان بخاتم النبيين، وإنفاق المال في وجوه الخير، فإنهم إن فعلوا ذلك غفر الله لهم ذنوبهم، وأكرمهم في الآخرة بجنات النعيم.

قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَءِيلَ وَبَعَثْنَا مِنْهُمُ اثْنَيْ عَشَرَ نَقِيبًا وَقَالَ اللَّهُ إِنِّي مَعَكُمْ لَئِنْ أَقَمْتُمُ الصَّلَاةَ وَآتَيْتُمُ الزَّكَاةَ وَآمَنْتُمْ بِرُسُلِي وَعَزَّرْتُمُوهُمْ وَأَقْرَضْتُمُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا لَأُكَفِّرَنَّ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَلَأُدْخِلَنَّكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ فَمَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ مِنْكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ ﴿١٢﴾﴾ [المائدة]

الْوَصِيَّةُ الثَّلَاثَةُ: دَعْوَةُ الْيَهُودِ إِلَى الْإِيمَانِ بِمُحَمَّدٍ ﷺ وَكِتَابِهِ

٤١- ﴿وَأَمِنُوا بِمَا أُنزِلَتْ مُصَدِّقًا لِمَا مَعَكُمْ وَلَا تَكُونُوا أَوَّلَ كَافِرٍ بِهِ﴾

هذا شروع في دعوة بني إسرائيل إلى الإيمان بما جاء به محمد ﷺ وهو القرآن المصدق لما في صحيح التوراة، والعمل بما فيه من الفضائل والبعد عن الرذائل، فلو أن موسى عليه السلام كان حيًّا ما وسعه إلا اتباع محمد ﷺ، فصدقوا يا بني إسرائيل بالقرآن الذي أنزلته على محمد ﷺ موافقًا لما جاء في صحيح التوراة، وهذا يستلزم الإيمان بمن أنزل عليه هذا القرآن، الذي لا يخالف صحيح التوراة ولا يناقضها ﴿وَلَا تَكُونُوا أَوَّلَ﴾ فريق ﴿كَافِرٍ بِهِ﴾ من أهل الكتاب - وعندكم فيه من العلم ما ليس عند غيركم - فتكونوا أئمة الكفر، تتحملون آثام مَنْ اقتدى بكم ممن يأتي بعدكم.

فيا معشر يهود آمنوا بما أنزلت على رسولي محمد ﷺ من القرآن المصدق لكتابكم: التوراة والإنجيل، المعهود إليكم فيهما أنه رسولي ونبيي المبعوث بالحق، وكذا بقية الكتب وهي: الزبور وكتاب أشعياء وأرمياء وحزقيال ودانيال وغيرها، ولا تكونوا أول من كذب بمحمد ﷺ ووجد نبوته مع علمكم به، فإنه قد كان من المتوقع أن تكونوا أول فريق من أهل الكتاب يؤمن بمحمد ﷺ وفق وعدكم أنكم أول من سيؤمن بالنبي الذي حان زمن رسالته كما هو ثابت في التوراة لديكم، وقلتم للمشركين الوثنيين من أهل مكة: إننا أول من سيفتح عليه ونؤمن به ونتصر به عليكم، كما جاء ذلك في قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا جَاءَهُمْ كِتَابٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَهُمْ وَكَأَنُومًا مِنْ قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَمَّا جَاءَهُمْ مَا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ فَلَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾ [البقرة] ولكنكم أنكرتم رسالة محمد ﷺ عند مجيئه خوفاً على زعامتكم ومنزلتكم عند قريش، وأنتم بهذا قد بعتم آخرتكم بدنياكم.

الْوَصِيَّةُ الرَّابِعَةُ: لَا تُنْكِرُوا أَوْصَافَ مُحَمَّدٍ ﷺ فِي التَّوْرَةِ ﴿وَلَا تَشْتَرُوا بِآيَاتِي ثَمَنًا قَلِيلًا﴾

ثم ذكر سبحانه السبب المانع من الإيمان وهو اختيار العرض الأدنى على السعادة الأبدية، فقال: ﴿وَلَا تَشْتَرُوا﴾ أي: ولا تستبدلوا ﴿بِآيَاتِي﴾ وهي الحجج الدالة على صدق محمد ﷺ من أوصافه التي لديكم، ولا تغيروا أحكام الله في كتابكم، كعقوبة الرجم، وغيرها مما حرم عليكم ولا تكذبوا بالقرآن المنزل على محمد وتستبدلوا بذلك ﴿ثَمَنًا قَلِيلًا﴾ من حُطام الدنيا الزائل بالخوف على زعامتكم، وهذا هو السبب المانع من الإيمان بخاتم النبيين، فاتبعوا هدى النبي محمد بن عبدالله، وما جاء به من الوحي، لأنه يصدق ما جاء به موسى، فيؤيده ويعضده، فكيف تفرقوا بين الرسولين والكتابين؟

واحذروا أن تكونوا أول المكذبين بهذا النبي، فتكونوا مفتاح فتنة، وأسوة في الصد عن سبيل الله، وإياكم أن تشتروا بآياتي التي عرفتموها عن محمد ﷺ عرض الدنيا الزائل فتكتموا الحق وتشهدوا الزور، وتأخذوا الرشوة أو تأكلوا الربا.

الْوَصِيَّةُ الْخَامِسَةُ: أَمْرُهُمْ بِتَقْوَى اللَّهِ تَعَالَى ﴿وَإِنِّي فَأَتَّقُونَ﴾

فخافوا الله واتقوه، فإن من اتقى الله قَدِمَ الإيمان بالله على الثمن القليل، ولا تكفروا بخاتم الأنبياء والمرسلين ﴿وَإِنِّي فَأَتَّقُونَ﴾ واركبوا معصيتي، وافعلوا ما أمرتكم به،

واجتنبوا ما نهيتكم عنه، فاجعلوا بينكم وبين عذاب الله وقاية .

قال طلق بن حبيب: التقوى: أن تعمل بطاعة الله، رجاء رحمة الله، على نور من الله، وأن تترك معصية الله على نور من الله تخاف عقاب الله^(١).

ومن التقوى: عدم كتمان الحق الذي عرفتموه -يا أهل الكتاب - في كتبكم من صفات محمد ﷺ، ووفائكم بما قطعتموه على أنفسكم من أنكم ستكونون أول من سيؤمن به عند مبعثه .

الْوَصِيَّةُ السَّادِسَةُ: لَا تُحَرِّفُوا التَّوْرَةَ الْحَقِيقِيَّةَ وَتَخْلِطُوهَا بِالْبَاطِلِ

٤٢- ﴿وَلَا تَلْسُوا الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ وَتَكْتُمُوا الْحَقَّ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾

أي: لا تخلطوا التوراة الصحيحة بما تغيرون وتحرّفون به كلام الله، وهذا التلّيس يكون بخلط الحق بالباطل حتى لا يتميز أحدهما من الآخر، فإياكم - يا معشر يهود- أن تمزجوا الصدق بالكذب، لتروّجوا على الناس باطلكم، فتذكروا شيئاً من الحق، ليصدقكم الناس في الباطل كحال الكهنة والشياطين، والمطلوب من أهل العلم أن يظهروا الحق ويميزوه من الباطل ليهتدى به المهتدون، وتقوم به الحجة على المخالفين المعاندين، ولتسبين سبيل المهتدين من سبيل المجرمين.

الْوَصِيَّةُ السَّابِعَةُ: لَا تَكْتُمُوا مَا فِي التَّوْرَةِ مِنْ وُجُوبِ الْإِيمَانِ بِمُحَمَّدٍ ﷺ:

وهذا أمرٌ بعدم جحد الحق وإنكاره ﴿وَتَكْتُمُوا الْحَقَّ﴾ الذي جاءكم على لسان نبيكم موسى فتخفوه وتظهروا غيره ﴿وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ أنكم كاذبون في افتراءكم وبهتانكم، فلا تخلطوا الصدق بالكذب وتكتموا صفة محمد مع معرفتكم أنه الرسول الخاتم.

وفي هذه الآية نهى الله تعالى اليهود عن شيئين:

أحدهما: خلط الحق بالباطل، السابق ذكره في الوصية السادسة.

وثانيهما: عدم كتمان الحق، الذي جاء في هذه الوصية.

فإياكم أن تكتموا ما عندكم من المعرفة بخاتم النبيين، ومن الوحي الذي جاء به من عند

(١) رواه ابن أبي حاتم (١٤٧/١).

الله، وأنتم تجدونه مكتوبًا عنكم؟ فكيف تجحدون ما تعلمون؟ وهذا الكتمان فيه ضرر عظيم على الناس بإضلالهم عن الهدى، وهذا يُفضي بهم إلى عذاب النار وبئس المصير.

الْوَصِيَّةُ الثَّامِنَةُ: أَمْرُ الْيَهُودِ بِالْدُّخُولِ فِي الْإِسْلَامِ وَأَدَاءِ أَصُولِهِ وَفُرُوعِهِ وَأَوَّلُهَا الصَّلَاةُ

٤٣- ﴿وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ﴾

ومن هذه الوصايا لبني إسرائيل بعد أمرهم بالدخول في الإسلام؛ أمرهم الله تعالى بأداء فروع الإسلام ومنها إقامة الصلاة بأدائها مستوفية الأركان والشروط والواجبات والسنن والآداب، فبعد أن ذكّرهم القرآن الكريم بالأسس التي يقوم عليها كل دين، ولا يختلف فيها دينٌ عن آخر، أمرهم بإقامة العبادات فقال: ﴿وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ﴾ يأتي هذا في سياق خطاب اليهود، حيث يأمرهم الله تعالى بإقام الصلاة مع المسلمين المصدقين بمحمد ﷺ وبما جاء به من عند الله.

فكونوا مع المؤمنين في أحسن أعمالهم، ومن أخص ذلك وأكمله: أداء الصلاة، فإن فعلتم ذلك فقد جمعتم بين الأعمال الظاهرة والباطنة وبين العبادة القلبية والبدنية.

الْوَصِيَّةُ التَّاسِعَةُ: أَمْرُهُمْ بِأَدَاءِ الزَّكَاةِ ﴿وَأَتُوا الزَّكَاةَ﴾

ثم أمرهم الله تعالى: أن يخضعوا لحكم الله ورسوله، فيؤدوا زكاة أموالهم ويتصدقوا على المحتاجين، وقد كان أحبار اليهود والمنافقون يأمرّون الناس بإقام الصلاة وإيتاء الزكاة ولا يفعلونها، فأدوا زكاة أموالكم، لتزكوا بها نفوسكم، وتطهر بها أموالكم، ويذهب الشح عنكم، فيرضى عنكم ربكم، ويحط عنكم خطاياكم، والآية عامة تخاطب أمة الدعوة وأمة الإجابة بما جاء به محمد ﷺ ويدل عليه:

الْوَصِيَّةُ الْعَاشِرَةُ: أَمْرُهُمْ بِصَلَاةِ الْجَمَاعَةِ

وذلك في قوله تعالى: ﴿وَأَزْكُوا مَعَ الزَّكَاةِ﴾ أي: صلوا مع المصلين، وكونوا مع المسلمين أيها اليهود، وانخرطوا في سلوكهم، فادخلوا في الإسلام، واخضعوا مع الخاضعين، وامثلوا ما أمر الله به، واجتنبوا ما نهى عنه.

والتعبير بجزء من العبادة يدل على فرضيتها، وقد عبر الله سبحانه بالركوع عن الصلاة، وفي الآية أمر بصلاة الجماعة ووجوبها.

وفي محافظتكم على هذه العبادات: تطهير لقلوبكم، وتأليف لها، وتزكية لنفوسكم، فإن لم تفعلوا فسيلحقكم الخزي في الدنيا والعذاب في الآخرة.

الْوَصِيَّةُ الْحَادِيَةُ عَشْرَةَ: عَدَمُ مُخَالَفَةِ الْقَوْلِ لِلْعَمَلِ:

٤٤- ﴿أَتَأْمُرُونَ^(١) النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنْسَوْنَ أَنْفُسَكُمْ وَأَنْتُمْ نَتْلُونَ الْكِتَابَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾

الأولى بالقارىء أن يبدأ تلاوته بـ (يا بني إسرائيل) الأولى أو الثانية، لأن هذه الآية متعلقة بما قبلها، وليست بداية معنى.

وجاءت الوصية هنا توبيخاً لبني إسرائيل على أنهم يأمرون غيرهم بالمعروف ولا يفعلونه وهم يقرؤون التوراة ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ وهذه أسس متفق عليها بين الديانات جميعاً، فالبر كلمة جامعة للخير والمعروف، وقد نُهي العبد أن يأمر غيره بما لا يفعل وينسى نفسه، وكان أحرار اليهود إذا رأوا من يدخل الإسلام، فهو يأمر غيره ممن دخلوا في الإسلام أن يثبتوا وهذا القائل نفسه لم يدخل الإسلام، فهو يأمر غيره ممن دخلوا في الإسلام أن يثبتوا عليه، مع أنه لم يُسلم بعد، وكانوا أيضاً يتهون الناس عن الكفر بالتوراة ويتركون أنفسهم كفاراً بالقرآن، ويجحدون ما يعلمون صحته من نبوة محمد ﷺ وكانوا يحكمون بين الناس بإبطال الحق وإحقاق الباطل مقابل رشوة تقدم لهم، فالقرآن الكريم وبخهم ونعى عليهم أن يأمرؤا غيرهم بالبر، أي: بالثبات على دين محمد ﷺ أو الثبات على اليهودية، وينهون غيرهم عن الرشوة وينسون أنفسهم، فلا يدخلون في الإسلام ولا يتهون عن فعل المنكر، ويأخذون الرشوة، ويأكلون السحت ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾، والعقل يحث صاحبه على أن يكون أول فاعل لما يأمر به، وأول تارك لما ينهي عنه، فمن أمر غيره بالخير ولم يفعله، أو نهاه عن الشر ولم يتركه، دل ذلك على عدم عقله وجهله.

والآية عامة في كل من يخالف قوله فعله، كما قال تعالى ﴿كَبُرَ مَقْتًا عِنْدَ اللَّهِ أَنْ

(١) قرأ ورش وأبو جعفر وأبو عمرو بخلف عنه بإبدال همزة (أأمرؤن) ألفاً وكذا حمزة وفقاً.

تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ ﴿٣﴾ [الصف] وقد وصف الله بني إسرائيل بأنهم كانوا لا يتناهون عن منكر فعلوه، ولَعَنَهُمْ لمخالفة أقوالهم لأفعالهم، حيث كان الرجل منهم ينهي غيره عن الإثم، ثم لا يمنعه ذلك من أن يكون أكيله وشريبه وقعيده، فَلَعَنُوا على لسان داود وعيسى ابن مريم. وكما قال تعالى على لسان نبي الله شعيب: ﴿وَمَا أُرِيدُ أَنْ أَمْلِكَكُمْ إِلَّا مَا أَنهَضَكُمْ عَنْهُ﴾ [هود: ٨٨] والنفس مجبولة على عدم الانقياد لمن يخالف قوله فعله، والاقتداء بالأفعال أبلغ من الاقتداء بالأقوال.

وفي الحديث عن أسامة بن زيد رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «يُجاء بالرجل يوم القيامة فيلقى في النار، فتندلق أفتاب بطنه فيدور كما يدور الحمار برحاه، فيطيف به أهل النار فيقولون: أي فلان، ما شأنك؟ أليس كنت تأمرنا بالمعروف وتنهانا عن المنكر؟ قال: كنت آمركم بالمعروف ولا آتيه، وأنهاكم عن المنكر وآتيه»^(١).

وفي حديث أنس بن مالك رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «رأيت ليلة أُسري بي رجلاً تُقرض شفاهم بمقاريض من نار، قلت: من هؤلاء يا جبريل؟ قال: هؤلاء خطباء أمتك، الذين يأمرون الناس بالبر وينسون أنفسهم»^(٢).

وليس في الآية أن الإنسان إذا لم يفعل ما أمر به، أنه يترك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، لأن الإنسان يجب عليه أن يأمر نفسه وينهاها، ويأمر غيره وينهاه، وترك أحدهما لا يكون رخصة في ترك الآخر.

(١) من حديث أسامة في «صحيح البخاري» برقم (٣٢٦٧، ٧٠٩٨) و«صحيح مسلم» برقم (٢٩٨٩) وفي مسند أحمد (٢١٧٨٤) والبخاري في «التفسير» بسنده عن البخاري (٦٨/١).

(٢) أخرجه ابن مردويه وابن حبان في «الموارد» برقم (٣٥) وفي «تفسير ابن أبي حاتم» (١٥١/١) و«المسند» بزيادة (وهم يتلون الكتاب أفلا يعقلون) برقم (١٢٢١١، ١٣٤٢١، ١٣٨٥٦) حديث صحيح كما قال محققوه، والبخاري في «الكشف» (٣٣٢٢١، ٣٣٢٢٢) وابن حبان (٥٣) وابن أبي حاتم (٤٧٢) وأبو نعيم في «الحلية» (٣٨٦/٢) والبيهقي في «الشعب» (٤٩٦٥، ٤٩٦٧) وصححه الألباني في «السلسلة الصحيحة» (٢٩١).

الْوَصِيَّةُ الثَّانِيَّةُ عَشْرَةَ: الْأَسْتَعَانَةُ بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ عَلَى جَمِيعِ الْأُمُورِ

٤٥ - ﴿وَأَسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى الْخَاشِعِينَ﴾

ثم أمرهم الله سبحانه أن يستعينوا بالصبر والصلاة على أمور الدنيا والدين فقال: ﴿وَأَسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ﴾ استعينوا بالصبر على جميع أموركم، ومن ذلك: الصبر على طاعة الله حتى يؤديها، والصبر عن معصية حتى يتركها، والصبر على أقدار الله المؤلمة دون سخط، ومن يتصبر يُصَبِّرْهُ الله، واستعينوا على جميع أموركم بالصلاة فهي ميزان الإيمان، وفرق المسلم من الكافر، وهي التي تنهى فاعلها عن الفحشاء والمنكر وكان النبي ﷺ إذا حزبه أمرٌ صلى^(١).

وقال تعالى لنبية: ﴿فَاصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا وَمِنْ آنَاءِ اللَّيْلِ فَسَبِّحْ وَأَطْرَافَ النَّهَارِ لَعَلَّكَ تَرْضَى﴾ [طه]

وهذا أمرٌ له ﷺ بالصبر والصلاة عند حلول النوائب والشدائد.

والأحاديث الواردة في شأن الصبر كثيرة، منها:

١- ما ورد في الصبر على أقدار الله تعالى كقوله ﷺ من حديث ابن عباس رضي الله عنهما: «واعلم أن النصر مع الصبر، وأن الفرج مع الكرب، وأن مع العسر يسراً»^(٢).

٢- وفي الصبر على ضيق العيش، حديث عبد الله بن عمرو رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «قد أفلح من أسلم، وكان رزقه كفافاً، وصبر عليه»^(٣).

٣- وفي الصبر على أذى الناس قوله ﷺ من حديث ابن عمر رضي الله عنهما: «المسلم الذي يُخالط الناس

(١) من حديث حذيفة بن اليمان، وهذا اللفظ أصح - على ضعفه - من لفظ (فزح إلى الصلاة) وقد رواه أحمد في «المسند» (٣٨٨/٥) ط. الحلبي ورقمه في «المسند» (٢٣٢٩٩) بإسناد ضعيف، لجهالة محمد بن عبيد، كما قال محققوه، ورواه أبو داود (١٣١٩) والطبري (٢٦٠/١) والبخاري في التاريخ الكبير (١/١٧٢).

(٢) الحديث بطوله في «المسند» (٢٨٠٣، ٢٧٦٣، ٢٦٦٩) قال محققوه حديث صحيح، و«صحيح سنن الترمذي» (٢٠٤٣) والبيهقي في «الشعب» (١٩٥) وفي «الأسماء والصفات» (١٢٦).

(٣) «المسند» (٦٥٧٢، ٦٦٠٩) ومسلم (١٠٥٤/١٢٥) والترمذي (٢٣٤٨) وابن ماجه (٤١٣٨) والبيهقي (١٩٦/٤) وفي «الشعب» (٩٧٢٣).

ويصبر على أذاهم من المسلم الذي لا يُخالط الناس ولا يصبر على أذاهم»^(١).

٤- والصبرُ خير عطاء يمنحه الله تعالى لعباده، عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «إنه من يستعفف يعفه الله، ومن يستغن يغنه الله، ومن يتصبر يُصبره الله، ولم تُعطوا عطاءً خيراً وأوسع من الصبر»^(٢).

وهكذا الأحاديث الواردة في شأن الصلاة كثيرة، وكان أنبياء الله تعالى إذا أصابهم شيء فزعوا إلى الصلاة^(٣).

ولمّا نُعي إلى ابن عباس رضي الله عنه أخوه قثم -وهو في سفر- استرجع وتنحّى عن الطريق وأناخ راحلته وصلى، ثم عاد إلى راحلته وهو يقرأ هذه الآية^(٤).

وبين سبحانه أن أداء الصلاة شاقٌّ وثقيلٌ على غير المؤمن الخاشع الذي يخشى لقاء ربه، وأمرهم أن يكونوا من الخاشعين الخاضعين لله عز وجل، فقال تعالى: ﴿وَإِنَّمَا لِكَبِيرَةٍ إِلَّا عَلَى الْخَاشِعِينَ﴾. فإنها عليهم سهلة خفيفة، لأن رجاء ما عند الله تعالى يجعل العبد منشراح الصدر ترقباً للثواب وخشية من العقاب، بخلاف غيره، فليس هناك ما يدعوه إلى هذا الانشراح ولذا ثقلت عليه، ثم وصف الله تعالى الخاشعين بقوله:

٤٦- ﴿الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلاقُوا رَبِّهِمْ وَأَنَّهُمْ إِلَيْهِ رَاجِعُونَ﴾

ثم وصف الله سبحانه الخاشعين في صلاتهم الذين لا يثقل عليهم أداؤها بأنهم يوقنون بيوم يلقون فيه ربهم، فيرجعون إليه عند البعث والحشر بعد الموت، ويحاسبهم فيه على النقيير والقطمير، فيثيبهم دار النعيم المقيم وهم في الغرفات آمنون، أما من لم يؤمن بلقاء ربه، فإن الصلاة عليه شاقة، وهو في الشقاء والعقاب الشديد يوم لقاء رب العالمين.

(١) البخاري في «الأدب المفرد» (٣٨٨) والترمذي (٢٥٠٧) وابن ماجه (٤٠٣٢) و«السلسلة الصحيحة» (٩٣٩).

(٢) البخاري (١٤٦٩، ٦٤٧٠) ومسلم (١٠٥٣) وأبو داود (١٦٤٤) والترمذي (٢٠٢٤) والنسائي (٢٥٨٧) و«المسند» (١٠٩٨٩) وغيره و«الموطأ» من رواية أبي مصعب (٢١٠٧).

(٣) كما في حديث صهيب في «المسند» (١٨٩٣٧) و«سنن النسائي الكبرى» (١٠٤٥٠) وابن حبان (١٩٧٥) وقال محققو المسند: إسناده صحيح على شرط الشيخين.

(٤) صحح إسناده العلامة أحمد شاکر كما في «تفسير الطبري» (١٤/٢) وهو في «المستدرک» (٢/٢٦٩) وصححه الحاكم ووافقه الذهبي، و(قثم) شقيق عبد الله بن عباس.

والظنُّ في لغة العرب: يطلق على الشك وعلى اليقين، والشاكُّ في لقاء الله كافرٌ، فالظن في هذه الآية بمعنى اليقين كما قال تعالى: ﴿وَرَبَّآ الْمَجْرِمُونَ النَّارَ فَظَنُّوا أَنَّهُمْ مُوَافِعُوهَا وَلَمْ يَجِدُوا عَنْهَا مَصْرِفًا ۝٥٣﴾ [الكهف] فالذين رأوا النار بأعينهم يوقنون بها ولا يشكون فيها.

قال تعالى عمن يأخذ كتابه بيمينه: ﴿إِنِّي ظَنَنْتُ أَنِّي مُلَاقٍ حِسَابِيَّةٍ ۝١٠﴾ [الحاقة]

فكيف يشك وهو من أهل اليمين، وقد استلم كتابه بيمينه، وعرف مصيره، والظن: بمعنى اليقين معروف في لغة العرب، وهؤلاء الذين يستعينون بالصبر والصلاة يؤمنون يقينًا باليوم الآخر وما فيه من بعث وحساب وجزاء وجنة ونار.

وورود هذه الوصايا الاثني عشر في القرآن الكريم يعني توجيهها إلى أمة محمد ﷺ وإلى أن يرث الله الأرض ومن عليها، كما أمر الله بها بني إسرائيل من قبل.

النِّدَاءُ الثَّانِي لِבَنِي إِسْرَائِيلَ يُذَكِّرُهُمْ بِعَشْرِ نِعَمٍ قَابَلُوهَا بِالْكَفْرِ وَالْجُحُودِ

٤٧- ﴿يَبْنَى إِسْرَءِيلَ أَذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكَ وَأَنِّي فَضَّلْتُكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ ۝٤٧﴾

معنى تفضيل بني إسرائيل: هذا التفضيل موقوت ومشروط: تفضيل بني إسرائيل كان على أُمِّ عَصْرِهِمْ، كالعرب والروم والفرس والهند والصين؛ لأن هذه الأمم كانت أهل شرك ووثنية، واليهود كانوا أهل كتاب يؤمنون بالله ورسوله موسى عليه السلام، فهم بلا شك أفضل من الوثنيين المشركين، وهذه الأفضلية لا تنسحب على أهل التوحيد من النصارى الذين قالوا: إن عيسى عبد الله ورسوله، والأفضلية في الإسلام منوطة بالإيمان بخاتم الرسل ﷺ عند مجيئه، فيكون حكمهم كغيرهم من المسلمين، وإلا فهم كفار؛ لأن من لم يؤمن بمحمد ﷺ فهو كافرٌ مستحق لنار جهنم.

ومن جهة أخرى فإن الله سبحانه وتعالى جعل في بني إسرائيل ملوكًا وسادة وأنبياء في زمانهم، كما جاء ذلك في قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يَقُولُوا أَذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَعَلَ فِيكُمْ أَنْبِيَاءَ وَجَعَلَكُمْ مُلُوكًا وَءَاتَاكُمْ مَا لَمْ يُوْتِ أَحَدًا مِّنَ الْعَالَمِينَ ۝١٠﴾ [المائدة] وهذا من تفضيل الله تعالى لهم على غيرهم في زمانهم.

وهكذا فقد أنعم الله عليهم بنعم لم تحدث لغيرهم، منها: أن الله تعالى أكثرَ فيهم الأنبياء والرسل دون غيرهم من الأمم، وجعل فيهم ملوكًا وحُكَّامًا وآتاهم ما لم يؤتِ

أحدًا من العالمين: كالمن والسلوى، وتظليل الغمام لهم، وتفجير الماء من الحجر، وفلتي البحر، وإنجائهم من الغرق، ومن استعباد فرعون.

فإن هم شكروا هذه النعم، وآمنوا بما في التوراة - ومنها: الإيمان بمحمد الذي جاء بعد عيسى - وآمنوا بعيسى الذي جاء بعد موسى؛ فإنهم بذلك ينخرطون في سلك المسلمين، والأكرم عند الله هو الأتقى؛ ولكنهم كفروا بعيسى وبمحمد، وعتوا عن أمر ربهم، وعصوا رسله، وقتلوا الأنبياء، وكفروا بالله وبرسله، فكانت النتيجة أن حَقَّت عليهم لعنة الله وغضبه، فباؤوا بغضب من الله، وضربت عليهم الذلة والمسكنة، فتفضيل الله تعالى لهم الوارد في هذه الآية: ﴿وَأَنِّي فَضَّلْتُكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾ وغيرها مما يُشبهها؛ لأنهم كانوا مؤمنين، وغيرهم من الأمم غير مؤمن، وهذا الإيمان موقوتٌ بزمان محدد ومكانٍ مُعَيَّن.

والمعنى: فَضَّلْتُ أسلافكم بما كان فيهم من أنبياء وملوك وَفَضَّلْتُهم بإيمانهم، وكفر غيرهم في وقتهم، ونِعِمُّ الآباءُ نِعَمٌ على الأبناء، أي: فضلتكم على عالمي زمانكم، حينما كنتم متبعين لموسى عليه السلام مؤمنين به غير مُحرِّفين للتوراة، أما بعد أن حرَّقتم التوراة، وكفرتم بالله، ووصفتموه سبحانه بالبخل والفقر، وأشركتم به، وكذبتم الوحي الذي نزل على عيسى ومحمد، وعصيتم رسل الله، وقتلتم الأنبياء، فقد بدَّل الله تعالى بهذا التفضيل الذلة والمسكنة واللعنة والغضب ﴿وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ وَالْمَسْكَنَةُ وَبَاءُوا بِغَضَبٍ مِّنَ اللَّهِ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّنَ بِغَيْرِ الْحَقِّ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ﴾ [البقرة: ٦١] ومثلها في آل عمران الآية (١١٢).

قال قتادة: فَضَّلُوا على العالم الذي كانوا فيه، ولكل زمان عالم^(١)

وقال ابن زيد في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ آخَرْتَهُمْ عَلَىٰ عِلْمٍ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾ [الدخان]

هذا لمن أطاعه واتبع أمره، وقد كان فيهم القردة، وهم أبغض خلقه إليه^(٢)

فالأفضلية غير مستمرة، وغير قائمة بعد نزول هذه الآية ونظائرها من القرآن الكريم؛ لأن شرطها قد فُقد، وانتهى العمل بها بمجيء الأمة التي بعدهم.

(١) عبد الرزاق (١/٤٤).

(٢) الطبري (٢/٢٤).

وَأُمَّةٌ مُحَمَّدٌ ﷺ قَدْ نَصَّ اللَّهُ سُبْحَانَهُ عَلَى أَنَّهَا خَيْرُ الْأُمَمِ فِي قَوْلِهِ ﴿كُتِبَ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾ [آل عمران: ١١٠]

وفي الحديث عن بهز بن حكيم عن أبيه عن جده أن النبي ﷺ قال: «أنتم تَمُون سبعين أمة، أنتم خيرها وأكرمها على الله»^(١).

تَحْذِيرُ الْيَهُودِ مِنْ يَوْمٍ لَا يَنْفَعُ فِيهِ مَالٌ وَلَا بَنُونَ

٤٨ - ﴿وَأَنْفُوا يَوْمًا لَا يَجْرِي فِيهِ نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئًا وَلَا يُقْبَلُ^(٢) مِنْهَا شَفَعَةٌ وَلَا يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ﴾

في هذه الآية وعظ وتذكير وحث لبني إسرائيل أن تتعلق قلوبهم بالخالق، وتنقطع عمن لا يملك مثقال ذرة من جلب نفع ولا دفع ضرر، حيث يحذّرهم الله تعالى ويخوّفهم عذابه وعقوبته أن تحلّ بهم يوم القيامة، يوم لا يُغني فيه أحد عن أحد، ولا يجزي والد عن ولده، ولا مولود عن والده، وأصلّ الجزاء في كلام العرب: القضاء والتعويض.

فالمعنى: لا تقضي نفسٌ عن نفسٍ شيئاً لزمها لغيرها، ولا تدفع عنها شيئاً، إذ إنه ربما قضى والدٌ عن ولده في الدنيا ديناً أو غرامة، أو دفع عنه صدقة أو كفارة، ونحو ذلك، أما قضاء الحقوق يوم القيامة فهو الحسنات والسيئات.

جاء في الحديث عن أبي هريرة ؓ أن رسول الله ﷺ قال: «رحم الله عبداً كانت عنده لأخيه مظلمة في عرض أو مال أو جاه، فاستحلّه قبل أن يؤخذ منه، وليس ثمّ دينارٌ ولا درهمٌ، فإن كانت له حسنات أخذوا من حسناته، وإن لم تكن له حسنات حملوا عليه من سيئاتهم»^(٣).

وكما في حديث أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «أتدرون من المفلس؟»

(١) رواه الترمذي (٨٢/٤) برقم (٣٠٠١) وقال: هذا حديثٌ حسن، وعبد بن حميد (٤١١، ٤٠٩) وابن ماجه (٤٢٨٧) والدارمي (٢٧٦٠) ورواه الطبري في التفسير برقم (٨٧٣) وهو في المسند عن معاوية بن حيدة برقم (٢٠٠١٥، ٢٠٠٢٥) بإسناد حسن، كما قال محققوه.

(٢) قرأ ابن كثير وأبو عمرو ويعقوب (ولا تقبل) بقاء التانيث، وقرأ الباقر (ولا يقبل) بياء التذكير؛ لأن تانيث (شفاعة) تانيث لفظي.

(٣) حديث صحيح، رواه الترمذي عن هناد (٢٩٢/٣) وقال: هذا حديث حسن صحيح، ورواه مالك عن أبي هريرة وغيرهما.

قالوا: المفلس فينا من لا درهم له ولا متاع، قال: «إن المفلس من أمتي من يأتي يوم القيامة بصلاة وصيام وزكاة، ويأتي وقد شتم هذا، وقذف هذا، وسفك دم هذا، وأكل مال هذا، فيعطى هذا من حسناته وهذا من حسناته، فإن فُيِّتَ حسناته - قبل أن يقضي ما عليه - أخذ من سيئاتهم فطُرحَ عليه، ثم طرح في النار»^(١).

وعن ابن عباس رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «لا يموتن أحدكم وعليه دين، فإنه ليس هناك دينار ولا درهم، إنما يقسمون هنالك الحسنات والسيئات».

وأشار رسول الله ﷺ بيده يمينًا وشمالًا^(٢).

وغير ذلك من الآيات والأحاديث التي تفيد أنه إذا كان يوم القيامة فإنه لا تقضي نفس عن نفس شيئًا لزمها غيرها؛ لأن القضاء في الآخرة لا يكون إلا من الحسنات والسيئات. ذلكم قول الله تعالى: ﴿وَأَتَقُوا يَوْمًا لَا تَجْرَىٰ نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئًا﴾.

أما الشفاعة في الدنيا فمعناها: أن يطلب المرء قضاء حاجته ممن يستطيع قضاءها، ويوم القيامة لا يقبل الله شفاعة أحد لأحد إلا من أذن له الرحمن ورضي له قولًا، وقد كان اليهود يزعمون أنهم أبناء الله وأحباؤه، وأن آباءهم سيشفعون لهم عند الله، فأخبرهم الله تعالى وأخبر سائر خلقه بقوله: ﴿وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَعَةٌ﴾ فالشفاعة لا تقبل من الكافر ولا له، وصح في الحديث عن جابر رضي الله عنه: «إن شفاعتي لأهل الكبائر من أمتي»^(٣).

وصح أيضًا عن أبي موسى رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «ليس من نبي إلا وقد أُعطي دعوة، وإنني اختبأت دعوتي شفاعة لأمتي، وهي نائلة إن شاء الله من لا يشرك بالله شيئًا»^(٤).

وبهذا يتبين أن الله تعالى يصفح عن عباده المؤمنين بشفاعة محمد ﷺ وأن عدم قبول الشفاعة إنما هو لمن مات على كفره ولم يتب.

(١) من حديث أبي هريرة في «صحيح مسلم» برقم (٢٥٨١).

(٢) «أخرجه الطبري» (٣٠/٢) قال الشيخ أحمد شاكر: هذا إسناد صحيح متصل عن ابن عباس.

(٣) من حديث جابر في «المستدرک» (٣٨٢/٢) والبيهقي في «البعث» (١) وصححه الألباني في «ظلال الجنة» (٣٨٥).

(٤) من حديث أبي موسى في «المسند» (١٩٧٣٥)، بنحوه، وهو صحيح لغيره، كما قال محققوه، وأخرجه ابن أبي شيبة في المصنف (٤٣٣/١١) وقال الهيثمي في مجمع الزوائد (٢٥٨/٨): رواه أحمد متصلاً ومرسلًا والطبراني ورجاله رجال الصحيح.

وَالْعَدْلُ بِفَتْحِ الْعَيْنِ: هُوَ الْفِدْيَةُ وَالْبَذْلُ مِنْ غَيْرِ جِنْسِ الشَّيْءِ ﴿وَلَا يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ﴾ أَي: وَلَا يَقْبَلُ مِنْهَا أَيُّ فِدَاءٍ تَدْفَعُهُ لِرَفْعِ الْعَذَابِ عَنْهَا، وَلَوْ افْتَدَى نَفْسَهُ بِمِلءِ الْأَرْضِ ذَهَبًا، فَلَيْسَ هُنَاكَ مَنْ يَنْقُذُهُمْ مِنْ عَذَابِ اللَّهِ؛ لَا مَالٌ، وَلَا جَاهٌ، وَلَا وَلَدٌ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَإِنْ تَعَدَّلَ كُلُّ عَدْلٍ لَا يُؤْخَذُ مِنْهَا﴾ [الأنعام: ٧٠].

وَقَالَ سُبْحَانَهُ: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ أَنَّهُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُ مَعَهُ لَيَفْتَدُوا بِهِ مِنْ عَذَابِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَا تُقْبَلُ مِنْهُمْ﴾ [المائدة: ٣٦].

وَالْعَدْلُ بِكَسْرِ الْعَيْنِ: هُوَ الشَّيْءُ الْمِمَّاثِلُ أَوْ الْمَعَادِلُ مِنْ جِنْسِهِ، وَالْكَفَّارُ لَا يَقْبَلُ مِنْهُمْ فِدْيَةً وَلَا شَفَاعَةً وَلَيْسَ لَهُمْ مَنْ يَنْصُرُهُمْ مِنْ عَذَابِ اللَّهِ، وَلِذَا خَتَمَتِ الْآيَةُ بِقَوْلِهِ تَعَالَى ﴿وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ﴾ فَلَا سَبِيلَ لِدَفْعِ الْعَذَابِ عَنْهُمْ.

عَشْرُ نِعَمٍ وَمِنْ عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ

٤٩- ﴿وَإِذْ نَجَّيْنَاكُمْ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ يُدَبِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ فِي ذَلِكَ بَلَاءٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَظِيمٌ﴾

ابْتَدَأَ الْقُرْآنُ الْكَرِيمُ بِذِكْرِ عَشْرَةٍ مِنَ النِّعَمِ الَّتِي أَنْعَمَ اللَّهُ بِهَا عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ، يَذْكُرُهُمْ بِهَا تَذْكِيرًا، وَيَشِيرُ إِلَى هَذِهِ النِّعَمِ إِشَارَةً؛ لِأَنَّهُ سُبْحَانَهُ يَتَحَدَّثُ فِي الْقُرْآنِ الْمَدْنِيِّ إِلَى قَوْمٍ قَرَأُوا هَذِهِ النِّعَمَ فِي الْقُرْآنِ الْمَكِّيِّ، وَعَرَفُوهَا فِي أَمَاكِنَ أُخْرَى مِنَ الْقُرْآنِ، فَصُلَّتْ فِيهَا، كَمَا فِي سُورَةِ الْأَعْرَافِ، وَطِهَ، وَالشُّعْرَاءِ، وَالْدُخَانِ، وَغَيْرِهَا مِنَ السُّورِ الْمَكِّيَّةِ الَّتِي تَحَدَّثَتْ بِالتَّفْصِيلِ عَنِ الْقِصَصِ الْقُرْآنِيِّ، فَالْمَقَامُ هُنَا مَقَامُ تَذْكِيرٍ لِبَنِي إِسْرَائِيلَ بِنِعَمِ اللَّهِ عَلَيْهِمْ، كَيْ يَحْمِلَهُمْ ذَلِكَ عَلَى الْإِعْتِرَافِ بِمَا جَاءَ فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ وَالْقُرْآنِ مِنْ أَوْصَافِ مُحَمَّدٍ ﷺ وَعَلَامَاتِهِ، وَزَمَانِ مَجِيئِهِ، وَأَلَّا يَكْفُرُوا بِهِ، بَلْ عَلَيْهِمْ أَنْ يَنْخَرِطُوا فِي سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ.

وَلِذَلِكَ: فَإِنَّ الْقُرْآنَ الْكَرِيمَ قَبْلَ هَذِهِ النِّعَمِ خَوَّفَهُمْ يَوْمَ الْحِسَابِ وَالْجَزَاءِ، وَبَيَّنَّ لَهُمْ أَنَّهُ يَوْمٌ لَا تَقْبَلُ فِيهِ الشَّفَاعَةُ، وَلَا الْفِدْيَةُ، وَلَا يَوْجَدُ مَنْ يَنْصُرُهُمْ مِنْ عَذَابِ اللَّهِ.

وَمَجْمَلُ هَذِهِ النِّعَمِ الْعَشْرُ هِيَ:

١- نَجَاتِهِمْ مِنْ ذُبْحِ فِرْعَوْنَ وَاسْتِعْبَادِهِ لَهُمْ. ﴿وَإِذْ نَجَّيْنَاكُمْ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ﴾ [الآية: ٤٩]

- ٢- فَرَقُ الْبَحْرِ لَهُمْ وَنَجَاتُهُمْ مِنَ الْغَرَقِ. ﴿وَإِذْ فَرَقْنَا بِكُمُ الْبَحْرَ﴾ [الآية: ٥٠]
- ٣- الْعَفْوُ عَنْهُمْ بَعْدَ عِبَادَةِ الْعَجَلِ. ﴿ثُمَّ عَفَوْنَا عَنْكُمْ...﴾ [الآية: ٥٢]
- ٤- نَزُولُ التَّوْرَةِ عَلَى نَبِيِّهِمْ. ﴿وَإِذْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَالْفُرْقَانَ﴾ [الآية: ٥٣]
- ٥- قَبُولُ تَوْبَتِهِمْ مِنْ عِبَادَةِ الْعَجَلِ. ﴿فَنَابَّ عَلَيْكُمْ﴾ [الآية: ٥٤]
- ٦- بَعَثَ مِنْ مَاتَ مِنْهُمْ بِالصَّاعِقَةِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ﴿ثُمَّ بَعَثْنَاكَ مِنْ بَعْدِ مَوْتِكَ﴾ [الآية: ٥٦]
- ٧- تَظْلِيلُ الْغَمَامِ لَهُمْ وَهُمْ فِي التَّيْهِ. ﴿وَوَضَّلْنَا عَلَيْكُمْ الْغَمَامَ﴾ [الآية: ٥٧]
- ٨- نَزُولُ الْمَنِّ وَالسَّلْوَى عَلَيْهِمْ. ﴿وَأَنْزَلْنَا عَلَيْكُمْ الْمَنَّاءَ وَالسَّلْوَى﴾ [الآية: ٥٧]
- ٩- مَرَّاسِمُ دُخُولِ بَيْتِ الْمَقْدَسِ. ﴿وَادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا﴾ [الآية: ٥٨]
- ١٠- تَفْجِيرُ الْمَاءِ لَهُمْ مِنَ الْحَجَرِ. ﴿فَأَنْفَجَرْتُمْ مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا﴾ [الآية: ٦٠]
- جاءت هذه النعم مجملة تَلَوَّ بعضها في الربع الثالث من سورة البقرة:
- النَّعْمَةُ الْأُولَى: نَجَاتُهُمْ مِنْ فِرْعَوْنَ وَآلِهِ:

أول نعمة أنعم الله بها على بني إسرائيل: (نجاتهم من آل فرعون) حيث كان ملوك مصر يُسمَّونَ الفراعنة، فيقال: فرعون مصر، كما يقال: قيصر الروم، وكسرى الفرس، وتبع اليمن، وجموعها: فراعنة وقيصرة وأكاسرة، وتبابعة، وقد ذكر محمد بن إسحاق: أن فرعون الذي كان في عهد موسى عليه السلام كان اسمه (الوليد بن مصعب بن الريان)^(١).

وأفادت بعض الروايات أن مدة مُلكِ فرعون موسى كانت أربع مئة سنة^(٢).

وعن الشدي: أن فرعون رأى في منامه أن ناراً أقبلت من بيت المقدس، وأهلك المصريين، ولم تمس بني إسرائيل بسوء، فجمع فرعون الكهنة والعرافين وسألهم عن تأويل الرؤيا، فقالوا: إن مولوداً يولد من بني إسرائيل يكون زوال ملكك على يديه، فأمر بقتل الذكور، وإبقاء الإناث لاسترقاقهن وإبقائهن في البيوت للخدمة كالجواري، فأخذ فرعون يأمر بقتل من يولد من الذكور.

(١) ينظر: «تاريخ الطبري» (١/١٩٩)، وقد ذكر هذا الاسم في كثير من كتب التاريخ والتفسير.

(٢) «تفسير الطبري» (٢/٤٣) وابن أبي حاتم (١/١٠٥).

ولما عمَّ القتل في الصغار، ومات الشيوخ ذهبوا إلى فرعون واشتكوا إليه ذلك، فأمر بقتل الذكور عامًّا وإبقائهم عامًّا آخر؛ فوُلد (هارون) في العام الذي لا قتل فيه، ووُلد (موسى) في العام الذي فيه القتل^(١) ﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضِعُّ طَائِفَةً مِنْهُمْ يَذِخُّ أُنْيَاءَهُمْ وَيَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ﴾ [القصص: ٤].

وقال ابن عباس رضي الله عنهما: تذاكر فرعون وجلساؤه ما كان الله وعد به إبراهيم خليله أن يجعل في ذريته أنبياء وملوكًا فأجمعوا أمرهم على قتل الذكور^(٢).

والله تعالى يخاطب الموجودين من بني إسرائيل في عهد النبي ﷺ فيقول: ﴿وَإِذْ يُخَيِّنُكُمْ﴾ أي نجينا آبائكم من بطش آل فرعون فقد كانوا يذبحون أبناءكم، ويستبشرون نساءكم، فأنتم بين قتل ومذلّ بالأعمال الشاقة، ومستبقي من النساء لأغراض شهوانية، وهذا في غاية الإذلال والإهانة، فأنقذكم الله من بطشهم، ومنّ عليكم بالنجاة وإغراق عدوكم، وهذا ابتلاء عظيم من رب العالمين، وبرسالة موسى نجّى الله بني إسرائيل من قتلهم وإذلالهم باستعبادهم^(٣).

فاذكروا هذه النعمة يا أبناء نبي الله يعقوب إن كنتم تعقلون.

وكان دخول بني إسرائيل مصر في عصر يوسف عليه السلام لما كان عزيز مصر، وكان ذلك أيام الهكسوس سنة ١٩٠٠ قبل الميلاد، وانتهى بقاءهم فيها سنة ١٧٠٠ قبل الميلاد، وكانوا يسكنون في جهة تسمى أرض (جاسان) وهي معروفة اليوم بـ(صفط الحنة) بين الزقازيق وأبي حماد، في محافظة الشرقية، وسخر فرعون بني إسرائيل أثناء هذه المدة في خدمة المزارع والمباني وصناعة الطوب وبناء المدن، وحمل الأثقال..

(١) «تاريخ الطبري» (١/ ٢٠٠).

(٢) «أخرجه الطبري» في تفسيره من طريق سعيد بن جبير موقوفًا على ابن عباس برقم (٨٩٢) وعن أبي العالية عند ابن أبي حاتم (٥٠٥) وانظر: «تفسير القاسمي» (١/ ٤٤) ورجاله ثقات إلا الإصبيغ يُعَرَّب، والخبر ليس من غرائب.

(٣) وجاءت رواية في هذه القصة أيضًا عن مجاهد وابن اسحاق وغيرهما، ولعل المعنى مأخوذ عن أهل الكتاب.

قيل: ثم خشي فرعون أن يكون الإسرائيليون أعوانًا لأعدائه من ملوك العمالقة فأمر باستئصالهم^(١).

لقد منَّ الله عليهم بنجاتهم من عذاب فرعون وقتله لهم ﴿وَلَقَدْ نَجَّيْنَا بَنِي إِسْرَءِيلَ مِنَ الْعَذَابِ الْمُهِينِ (٢٥) مِنْ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ كَانَ عَلِيًّا مِنَ الْمُسْرِفِينَ (٢٦)﴾ [الدخان].

وكانت ولادة موسى بن عمران من سبط لاوي بن يعقوب في مصر سنة ألف وخمسمائة قبل الميلاد، وكان اسم أمه (يوخاند) من سبط لاوي، وكان زوجها قد توفي حين ولادة موسى عليه السلام، فأخفته ثلاثة أشهر خوفًا عليه من القتل، ثم صنعت له صندوقًا وألقتة في اليم بالقرب من قصر فرعون بـ (عين شمس).

عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «ليلة أُسري بي رأيت موسى، وإذا هو رجل ضرب (أي: نحيف) رجلٌ كأنه من رجال شنوءة (حيٌّ من اليمن) ورأيت عيسى فإذا هو رجل ربعة، أحمر، كأنما خرج من ديماس (أي: من الحمام لنضرته وكثرة ماء وجهه) وأنا أشبه ولد إبراهيم به، ثم أتيت بإنائين في أحدهما لبن، وفي الآخر خمر، فقال: اشرب أيهما شئت، فأخذت اللبن فشربته، فقيل: أخذت الفطرة، أما إنك لو أخذت الخمر غوت أمتك»^(٢).

وكان نجاة بني إسرائيل من عدوهم في يوم عاشوراء، كما في حديث ابن عباس أن النبي ﷺ لما قَدِم المدينة وجد اليهود يصومون عاشوراء، فقال: «ما هذا اليوم الذي تصومون؟» قالوا: هذا يومٌ صالحٌ نجى الله فيه بني إسرائيل من عدوهم، فصامه موسى، فقال رسول الله ﷺ «نحن أحق بموسى منكم» فصامه وأمر بصيامه^(٣).

وفي هذه الآية امتنانُ الله تعالى على بني إسرائيل بنجاتهم من استعباد فرعون لهم وتسخيرهم في الأعمال الشاقة، وذبح المواليد الذكور واستبقاء الإناث.

(١) «تفسير التحرير والتنوير» (١/٤٩٣).

(٢) «صحيح البخاري» برقم (٣٣٩٤، ٣٤٣٧، ٤٧٠٩، ٥٥٧٦) و«صحيح مسلم» برقم (١٦٨).

(٣) البخاري (٢٠٠٤، ٣٣٩٧) ومسلم (١١٣٠) والنسائي (٢٨٣٤، ١١٢٣٧) و«المسند» (٢٦٤٤، ٢٨٣١،

٣١٦٤) والبيهقي (٢٨٩/٤).

النَّعْمَةُ الثَّانِيَّةُ: فَزَقُ الْبَحْرُ وَنَجَّاهُمْ مِنَ الْغَرَقِ

٥٠- ﴿وَإِذْ فَرَقْنَا بِكُمُ الْبَحْرَ فَأَنجَيْنَاكُمْ وَأَغْرَقْنَا ءَالَ فِرْعَوْنَ وَأَنَّهُمْ نَظَرُونَ﴾ ﴿٥٠﴾

وذلك أن الله تعالى أمر موسى أن يخرج بني إسرائيل من مصر، كما جاء في قوله تعالى ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ أَن أَسْرِ بِعِبَادِيٰ إِنَّكَ مُتَّبَعُونَ﴾ ﴿٥١﴾ [الشعراء]

وقوله: ﴿وَلَقَدْ أَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ أَن أَسْرِ بِعِبَادِيٰ فَاضْرِبْ لَهُمْ طَرِيقًا فِي الْبَحْرِ يَبَسًا لَا تَخَفْ دَرَكًا وَلَا تَخْشَىٰ﴾ ﴿٥٦﴾ [طه]

فخرج موسى وقومه من مصر وكان عددهم ست مئة وعشرين ألفاً، أعمارهم ما بين عشرين إلى ستين سنة، ولم يعدوا ما دون العشرين لصِغَرِهِ وَلَا مَا فَوْقَ السِّتِينَ لِكِبَرِهِ^(١).

وسرى بهم موسى - ﷺ - ليلاً حتى وصل إلى ساحل البحر الأحمر، على خليج السويس، ولحقه فرعون وجنوده عند شروق الشمس، وكان عددهم نحو سبعين ألفاً على خيول دُهم، سوى الجند الذين كانوا على خيول ذات ألوان^(٢) وأدركوهم، فنظر موسى ومعه بنو إسرائيل، فوجد البحر أمامه والعدو خلفه ولم يكن له مخرج ولا مُنصرف.

ونظر فرعون إلى جند موسى فقال: ﴿إِنَّ هَؤُلَاءَ لَشِرْذِمَةٌ قَلِيلُونَ﴾ ﴿٥٤﴾ وَإِنَّهُمْ لَفَآئِطُونَ ﴿٥٥﴾ [الشعراء] قال فرعون ذلك احتقاراً لهم، أو لأن عددهم كان أكبر بكثير كما في بعض الروايات، قال تعالى: ﴿فَاتَّبَعُوهُمْ مُشْرِقِينَ﴾ ﴿٦١﴾ فَلَمَّا تَرَوْا الْجَمْعَانَ قَالَ أَصْحَابُ مُوسَىٰ إِنَّا لَمَذْكُونٌ ﴿٦١﴾ قال موسى: ﴿كَلَّا إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ﴾ [الشعراء: ٦٢].

قال يوشع بن نون^(٣) أين أَمْرُكَ ربك يا موسى؟ فأشار موسى إلى البحر، فاقتحم يوشع بفرسه البحر ثلاث مرات وهو يرجع، وعندئذ أمر الله موسى أن يضرب البحر بعصاه، وماذا عسى أن تفعل عصا بالبحر حين يُضرب بها في العادة؟ وكان الله سبحانه قد أمر البحر أن يتفلق حين يضربه موسى بعصاه، فبات البحر ينتظر طلب موسى، معجزة من رب العالمين، أيد بها موسى عليه السلام، فهي العصا التي انقلبت حية تسعى، قال تعالى:

(١) كما جاء في رواية السُّدي في «تاريخ الطبري» (٢١٣/١).

(٢) «تاريخ الطبري» (٢١٧/١).

(٣) كما جاء تعيينه في بعض الروايات، ينظر: «تفسير عبد الرزاق» (٦٧/١).

﴿فَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ أَنِ اضْرِبْ بِعَصَاكَ الْبَحْرَ فَانْفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَالطَّوْدِ الْعَظِيمِ﴾ [الشعراء] انفلق البحر، أو انشق اثني عشر طريقًا بعدد أسباط بني إسرائيل، فظهرت اليابسة، وجف الماء، وصار متراكمًا بعضه فوق بعض كالطود، أي الجبل الشامخ، حيث جمّد الله المياه، وأوقفها في عرض البحر متراكمة كالجبل الأشم، وصارت الأرض في قاع البحر جامدة يابسة، وأمر الله موسى وبني إسرائيل أن يعبروا البحر، فعبروه بإذن الله تعالى.

ولما وصل موسى وبني إسرائيل إلى الجهة المقابلة أراد موسى أن يضرب البحر مرة أخرى حتى لا يلحقهم فرعون وجنوده، فقال الله تعالى له: ﴿وَأَتْرُكُ الْبَحْرَ رَهَوًّا﴾ أي: لا تضرب البحر بعصاك مرة ثانية، واتركه ساكنًا هادئًا كما هو على حالته ﴿إِنَّهُمْ جُنْدٌ مُّعْرَفُونَ﴾ [الدخان: ٢٤].

لقد أراد الله لفرعون ومن معه الغرق والهلاك ليكون عبرة وعظة للناس إلى يوم القيامة، نظر فرعون، فرأى الطريق ممهدًا يابسًا أمامه في عرض البحر، فنزل هو وجنوده البحر ليلحق بموسى وقومه، فكانت النتيجة أن أغرق الله فرعون ومن معه، وبعد أن اكتمل دخولهم البحر هاب حصان فرعون أن يتقدم، فعرض له جبريل على فرس أنثى يشتهيها الحصان الذكر، فقرّبها منه، فلما شمّها تبعها، وقربهم الله منهم، كما قال تعالى: ﴿وَأَرْزَقْنَاهُمْ مِنَ الْآخِرِينَ﴾ [الشعراء] فلما دخل آخرهم -وهم أولهم أن يخرج- صدر الأمر الإلهي فانطبق عليهم البحر وهو يتلاطم الأمواج، فأغرقهم الله جميعًا، وغشيه من اليم ما غشيه، ونطق فرعون بكلمة التوحيد في وقت لا تنفع فيه التوبة، وفي هذا يقول سبحانه مذكّرًا بني إسرائيل بهذه النعمة عليهم: ﴿وَإِذْ فَرَقْنَا بِكُمُ الْبَحْرَ فَأَمْنَيْنَاكُمْ وَأَغْرَقْنَا آلَ فِرْعَوْنَ وَأَنْتُمْ نَنْظُرُونَ﴾ [٥٠] أي: وأنتم يا بني إسرائيل على ساحل البحر تنظرون إلى آية انفلاق البحر لموسى، وتنظرون إلى هلاك فرعون ومن معه، وأمواج البحر تتلاطم بفرعون وآله، وقد أنجاكم الله وأغرقهم، فهل من معتبر؟!

وكان خروج موسى ببني إسرائيل من مصر سنة ألف وأربع مئة وستين قبل الميلاد في زمن منفتاح الثاني وهو فرعون الذي كان في زمن موسى عليه السلام، وتوفي موسى قرب أريحا سنة ألف وثلاث مئة وثمانين قبل الميلاد.

عِبَادَةُ بَنِي إِسْرَائِيلَ لِلْعَجَلِ

٥١ - ﴿وَإِذْ وَعَدْنَا^(١) مُوسَىٰ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً ثُمَّ اتَّخَذْتُمُ^(٢) الْعَجَلَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَنْتُمْ ظَالِمُونَ ﴿٥١﴾﴾

طلب اليهود من موسى عليه السلام -بعد أن نجاهم الله من البحر وأغرق عدوهم- أن يكون لهم كتابٌ وشريعة، فسألوه أن يُنزل الله عليهم كتابًا يعملون بمقتضاه، فأخبر الله موسى بموعد اللقاء ومكانه لنزول التوراة عليه في طور سيناء، وأمره ربُّه أن يصوم ويتطهر ويتقرب إليه جل شأنه مدة ثلاثين ليلة، ولأمرٍ ما أمره الله بإتمامها أربعين ليلة.

قيل: لأنه قد تسوَّك في نهايتها، فزاده الله عشراً، وهي شهر ذي القعدة وعشر من ذي الحجة، ومكث موسى على جبل الطور أربعين ليلة، وكان قد تعجَّل الخروج إلى ربه شوقاً للقاءه، فقرَّبه الله منه، وأنزل عليه التوراة في ألواح من برد^(٣) قال تعالى: ﴿وَوَعَدْنَا مُوسَىٰ ثَلَاثِينَ لَيْلَةً وَأَتَمَمْنَاهَا بِعَشْرِ قَتْمٍ مِيقَتُ رَبِّهِ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً﴾ [الأعراف: ١٤٢] وكان موسى قد استخلف على قومه هارون، أخاه الأكبر وقال له: ﴿أَخْلَفْنِي فِي قَوْمِي وَأَصْلِحْ وَلَا تَتَّبِعْ سَبِيلَ الْمُفْسِدِينَ﴾ [الأعراف: ١٤٢] واستبطأ بنو إسرائيل موسى، حين زاد عشرة أيام بعد الثلاثين يوماً، حيث لم يكن لهم علم بها، فكانت فتنتهم بعبادة العجل في هذه العشر، وقيل: إنهم أخطؤوا في عد الليالي فاحتسبوا عشرين يوماً بليلة.

واستغل (موسى بن ظفر السامري) غيبة موسى عليه السلام في هذه العشر، أو أنه قد غALT القوم في عد المدة، وكان السامري منافقاً يُظهر الإسلام والإيمان بموسى عليه السلام، وكان موسى السامري من (باجرما) وهي قرية قرب (الركة) من أرض الجزيرة، فدخل أرض مصر وانخرط في بني إسرائيل.

وكان قومه يعبدون البقر، فكان حب عبادة البقر في نفسه.

وكان السامري مع بني إسرائيل حين نجوا من الغرق، ورأى جبريل وهو على فرس

(١) قرأ أبو عمرو وأبو جعفر ويعقوب بحذف الألف من (واعدنا) على أن الوعد من الله تعالى وقرأ الباقر بألف بعد الواو من المواعدة، فالله تعالى وعد موسى الوحي، وموسى وعد الله المجيء.

(٢) أظهر الذال من (اتخذتم) ابن كثير وحفص ورويس، وأدغمها في التاء الباقر.

(٣) جاء ذلك عن أبي العالية في «تفسير الطبري» (٢/ ٦٢).

أَنْثَى؛ لِتُغْرِى حِصَانِ فِرْعَوْنَ بِاقْتِحَامِ الْيَمِّ قَبْلَ غَرَقِهِمْ.

وكان السامري قد رأى جبريل على الفرس أيضًا حين كان يأتي لموسى عليه السلام وهو طفلٌ رضيع ليغذيه حين خافت عليه أمه من الذبح.

فلما جاء جبريل إلى موسى ليذهب به إلى لقاء ربه لنزول التوراة عليه -وعاينه السامري- قال: إنه فرس الحياة؛ لأنه رآه عدة مرات، فأخذ قبضة من تحت حافر الفرس، وكان ابن مسعود يقرأ: (فقبضت قبضة من أثر حافر الرسول)^(١).

وكان مع بني إسرائيل حُلِيِّ وأمتعة أخذوها من أهل مصر، وخرجوا بها معهم واعتبروها غنائم مستباحة لهم؛ ولذا: فإن فرعون كان يحرص على اللحاق بهم قائلًا: إنهم لم يخرجوا بأنفسهم حتى ذهبوا بأموالكم معهم^(٢).

وكان نساء بني إسرائيل قد استعرن الذهب من أهل مصر للتخلي به في عرس لهن، وكان الفيء أو الغنائم لا تحل لأحد قبل محمد ﷺ فطلب منهم هارون أن يجعلوه في حفرة حتى تأكله النار، فلما وضعوه في الحفرة جاء السامري بتلك القبضة التي في يده وقذفها فيه، فصنع لهم عجلًا من ذهب، هذا العجل صُمِّمَ بشكلٍ هندسيٍّ له صوتٌ وخوار تدخل الريح في دبره وتخرج من فمه، وقال لهم: هذا إلهكم وإله موسى، ولكن موسى ترك إلهه هنا وذهب يطلبه في جبل الطور، فأمن به بنو إسرائيل، واتخذوا العجل الذي صاغه السامري معبودًا من دون الله، وكانوا بعبادتهم للعجل ظالمين لأنفسهم؛ لأنهم وضعوا العبادة في غير موضعها، والعبادة لا تكون إلا لله تعالى.

ولما جاء موسى عليه السلام ووجد أن ذلك قد حدث في غيبته غضب، وأخذ برأس أخيه ولحيته يجره إليه، وكان هارون قد نصحهم وحذرهم من عبادة العجل قائلًا: ﴿يَقَوْمُ إِنَّمَا فُتِنْتُمْ بِهِ وَإِنَّ رَبَّكُمُ الرَّحْمَنُ فَاتَّبِعُونِي وَأَطِيعُوا أَمْرِيَ﴾ [طه: ٩٠] ولكنهم أصروا على

(١) «تفسير الطبري» (٢/٦٤) قلت: وهي قراءة تفتقد ركنًا من أركان القراءة الصحيحة؛ وهو موافقة رسم المصحف، فهي تعلم ولا تقرأ وليست قرآنًا يتلى.

(٢) «تاريخ الطبري» (١/٢١٦).

الاستمرار في عبادة العجل، قال موسى لهارون: ما منعك أن تتبعني وتلحق بي أنت ومن معك حين رأيتمهم عبدوا العجل، كما حكى الله ذلك عنه ﴿قَالَ يَهْرُونُ مَا مَنَعَكَ إِذْ رَأَيْتَهُمْ ضَلُّوا ۖ أَلا تَتَّبِعَنِ أَفَعَصَيْتَ أَمْرِي﴾ [طه]

قال هارون مجيباً له: ﴿إِنِّي خَشِيتُ أَنْ تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِي إِسْرَءِيلَ وَلَمْ تَرْقُبْ قَوْلِي﴾ [طه]: [٩٤] أي فرقت - يا هارون - بين المؤمن منهم والكافر، ممن تبعك منهم وممن تبع السامري، وخشيت أن تقول: إنك تركتهم وذهبت، وقد أمرتني بالبقاء فيهم حتى تعود، وبهذا فإن هارون عليه السلام قد اجتهد فأثر الوحدة الوطنية على قيام الفتنة بين الفريقين، وآثر أن يبقى بينهم جمعاً لوحدة الصف.

وكانت توبة بني إسرائيل من عبادتهم لهذا العجل أن يقتل بعضهم بعضاً، وكانت عقوبة السامري في الدنيا وخيمة، فقد أصابه الله بما هو أعظم من مرض الإيدز، بما ينفر الناس منه فلا يقربهم ولا يقربونه ﴿فَإِنَّ لَكَ فِي الْحَيَوةِ أَنْ تَقُولَ لَا مِسَاسَ﴾ [طه: ٩٧] كالأجرب، أو صاحب المرض المعدي الذي لا يمس أحداً ولا يمسّه أحد، أما في الآخرة فعذابه أشد وأعظم ﴿وَإِنَّ لَكَ مَوْعِدًا لَّنْ تُخْلَفَهُ﴾ [طه: ٩٧].

أما العجل فقد سحقه موسى، وحكّه بالمبرد، ثم ذراه في اليم ﴿وَأَنْظُرْ إِلَيْكَ إِلَهَكَ الَّذِي ظَلْتَ عَلَيْهِ عَاكِفًا لَّنُحَرِّقَنَّهُ ثُمَّ لَنَنْسِفَنَّهُ فِي الْيَمِّ نَسْفًا﴾ [طه: ٩٧]:

النَّعْمَةُ الثَّالِثَةُ عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ: عَفْوُ اللَّهِ عَنْهُمْ بَعْدَ عِبَادَتِهِمُ الْعِجْلَ

٥٢- ﴿ثُمَّ عَفَوْنَا عَنْكُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾

هذا عفو من الله تعالى عن بني إسرائيل بعد عبادتهم العجل وعدم تعجيل العقوبة لهم؛ فقد طلب الله سبحانه منهم التوبة، بأن يرجعوا إلى طاعة ربهم وما يرضيه عنهم؛ حتى تتم لهم النجاة من عقاب الله في الآخرة وتكون لهم المثوبة.

فاذكروا - أيها اليهود المعاصرون ومن يأتي بعدكم - حين قبلنا توبة آبائكم وتجاوزنا عن فعلتهم المنكرة، ولا تتماذوا في الكفر والضلال، فإن هذا خير لكم من الخلود في

النار، واشكروا الله بقلوبكم وألستكم وجوارحكم، وهذا العفو عنهم بعد عبادتهم للعجل من أجل نعم الله عليهم، لعلهم يشكرون خالقهم، ويستعملون نعمه فيما خلقت لأجله.

النِّعْمَةُ الرَّابِعَةُ عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ: نُزُولُ التَّوْرَةِ عَلَى مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ

٥٣- ﴿وَإِذْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَالْفُرْقَانَ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾

الكتاب: هو التوراة المكتوبة في الألواح.

والفرقان: وصفٌ للتوراة؛ لأنها تفرق بين الحق والباطل، والهدى والضلال.

قال ابن عباس: الفرقان جماع اسم التوراة والإنجيل والزبور والقرآن، فهو يطلق على كل كتاب نزل من عند الله، وذلك أن بني إسرائيل بعد أن تابوا ورجعوا إلى الله سبحانه، أنزل عليهم التوراة، وأيد موسى بالفرقان كما طلبوا.

وقيل: المراد بالفرقان: المعجزات الفارقة بين الحق والباطل، كالعصا واليد، لعلكم يا بني إسرائيل تعودون إلى رشدكم وتسلكون سبل الهداية، ولكن ذلك لم يحدث.

والتوراة تجمع بين كونها كتاباً منزلاً وشرعاً يفرق بين الحلال والحرام، وبين الكفر والإيمان فيصح إطلاق اسم (الفرقان) على التوراة، ويصح إطلاقه على المعجزات التي أيد الله بها موسى، وهو أيضاً من أسماء القرآن الكريم.

قال تعالى: ﴿تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ﴾ [الفرقان: ١].

فاذكروا - أيها اليهود - هذه النعمة العظيمة وهي نزول التوراة عليكم، واهتدوا بهدى الله الذي جاء فيها، ولا تغيروها ولا تحرفوها، ولكن بني إسرائيل امتدت أيديهم إلى التوراة فحرفوها، وتركوا العمل بها، ولم ينتفعوا بما فيها، فكانوا كالذي يحمل أسفاراً، ولا يفقه ما فيها، ولا يستفيد منها.

النَّعْمَةُ الْخَامِسَةُ عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ: قَبُولُ تَوْبَتِهِمْ مِنْ عِبَادَةِ الْعِجْلِ بِقَتْلِ أَنْفُسِهِمْ

٥٤ - ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يَنْقُورِ إِنَّكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنْفُسَكُمْ بِاتِّخَاذِكُمُ الْعِجْلَ فَتُوبُوا إِلَى بَارِيكُمْ (١) فَاقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ ذَلِكَ خَيْرٌ لَكُمْ عِنْدَ بَارِيكُمْ (٢) فَنَابَ عَلَيْكُمْ (٣) إِنَّهُ هُوَ التَّوَابُ الرَّحِيمُ ﴿٥٤﴾﴾

أي: اذكروا يا بني إسرائيل حين ظلمتم أنفسكم بما لم يكن لكم فعله من عبادتكم للعجل، مما أوجب لكم العقوبة، وكلٌّ من يوجب العقوبة على نفسه فهو ظالمٌ لها، وبعد فراق موسى إياكم ارتددتم عن دين الله، وعكفتم على عبادة العجل الذهبي ﴿فَتُوبُوا إِلَى بَارِيكُمْ فَاقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ﴾ بأن يقتل بعضهم بعضًا، هذا تشريعٌ لا يكون إلا عن وحي، وهو أن يقتل من لم يعبد العجل، مَنْ عبده قتلاً حقيقياً، فإن القتل حكم المرتد ﴿ذَلِكَ خَيْرٌ لَكُمْ عِنْدَ بَارِيكُمْ﴾؛ فاستجاب القوم لما أمرهم به موسى من التوبة إلى الله تعالى من عبادة العجل وقتلوا أنفسهم ﴿فَنَابَ عَلَيْكُمْ﴾ أي قَبِلَ منكم توبتكم.

جاء في التوراة التي بين يدي اليهود اليوم: دعا موسى إليه من يرجع إلى الرب، فأجابه بنو (لاوي) فأمرهم بأن يأخذوا السيوف ويقتل بعضهم بعضاً ففعلوا، وقتل في ذلك اليوم نحو ثلاثة آلاف (٢) ﴿إِنَّهُ هُوَ التَّوَابُ الرَّحِيمُ﴾ والتوبة هي الأوبة، والإنابة والرجوع إلى الخالق سبحانه، ولكن الردة لها توبة خاصة.

والتوبة المطلوبة منهم هي توبة المرتد، والذي ارتدَّ عن دينه ولم يرجع عن رده، توبته لا تكون إلا بالقتل؛ لذا أمرهم الله سبحانه أن يقتل مَنْ لم يعبد العجل منهم من عبده، وهذا حكمٌ خاصٌ في حق مَنْ عَبَدَ العجل؛ أن يقتل البريء منهم المجرم، ولكنَّ القوم فيهم الأخ، وفيهم الأب، وفيهم الابن، فكيف يقتل أحدهم أقرب الناس إليه.

فأرسل الله تعالى عليهم ظلمة شديدة حتى لا يرى بعضهم بعضاً، وأخذ بعضهم يقتل بعضاً حتى قُتل منهم عدد كبير (٣) ثم كشف الله عنهم السحابة وأمرهم أن يكفُّوا عن القتل بعد

(١) للدوري عن أبي عمرو في همزة (بارئكم) ثلاثة أوجه هي: إسكان الهمزة، واختلاس كسرتها، وكسر الهمزة كسراً خالصاً، وللسوسي وجهان: الإسكان، والاختلاس، والباقون بالكسرة الخالصة، وكلها لغات.

(٢) عن «تفسير المنار» (١/ ٣٢٠).

(٣) ذكرت بعض الآثار أنهم سبعون ألفاً، وجاء في التوراة أنهم ثلاثة آلاف ولا يوجد دليل صحيح في ذلك.

أن أخذ موسى وهارون يبيكان ويتضرعان إلى الله تعالى قائلين: يارب، هلكَتْ بنو إسرائيل، البقية، البقية، فأجابهما الله تعالى^(١) بعد أن نفَّذُوا ما أمروا به، وأقاموا حد الردة على أنفسهم، فتاب الله عليهم، وقَبِل توبتهم، إنه هو التَّوَاب القابل للتوبة، الرحيم بخلقه، فاذكروا - أيها اليهود - نعمتنا عليكم بقبول توبتكم بعد أن ظلمتم أنفسكم بعبادة العجل.

وقال بعض المتأخرين من أهل التفسير لاسيما أهل المدرسة العقلية^(٢): ليس المراد في الآية حقيقة القتل؛ بل المراد التوبة النصوح والإخلاص فيها، وقال بعضهم: إن عقوبة القتل قد نُسخَت قبل الفعل.

ولعل القول الأول هو الأصح لما ورد فيه من آثارٍ كثيرة ذكرها الطبري والسيوطي وغيرهما، كما نصَّت التوراة على أنهم فعلوا ذلك فعلا، وليس لغيره ما يشهد له.

ويشهد للقول الأول ما أخرجه الطبري بسند صحيح عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: أمر موسى قومه - عن أمر ربه عز وجل - أن يقتلوا أنفسهم، قال: فاحتبى الذين عكفوا على عبادة العجل فجلسوا، وقام الذين لم يعكفوا على العجل، وأخذوا الخناجر بأيديهم، وأصابتهم ظُلْمة شديدة، فجعل يقتل بعضهم بعضًا، فانجلت الظلمة عنهم، وقد أَجْلَوْا عن سبعين ألف قتيل، كلٌّ منهم كانت له توبة، وكلٌّ من بقي كانت له توبة^(٣).

الْيَهُودُ يَطْلُبُونَ رُؤْيَا اللَّهِ عَيَانًا:

٥٥ - ﴿وَإِذْ قُلْتُمْ يَمُوسَىٰ لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَىٰ اللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْكُمُ الصَّاعِقَةُ وَأَنْتُمْ نَظَرُونَ﴾

أي: واذكر - أيها المخاطب - حين قال بنو إسرائيل لموسى: لن نصدِّق أنك رسول الله، ولا نصدق أنك كليم الله، حتى نرى الله عيانًا، فكانت عقوبتهم أن نزلت بهم صاعقة أهلكتهم وهم يرون الموت بأعينهم.

(١) تراجع الآثار الواردة في «تفسير الطبري» وابن كثير والباغوي وغيرهما، وهذا المعنى من مجموعها.

(٢) والعقل لا يُعتدَّ به فيما يخالف صريح الكتاب والسنة الصحيحة، ولا يستقل وحده في معرفة الحسن والقبيح ونحو ذلك.

(٣) وجاء مثله عن مجاهد وقتادة وغيرهما عند تفسير الآية في الطبري وابن كثير وغيرهما.

وذلك أن موسى عليه السلام لما رجع إلى قومه -بعد نزول الألواح عليه- وجد منهم سبعين رجلاً قد اعتزلوا العجل مع هارون ولم يعبدوه، ولما أحرق موسى العجل -فبرَدَه بالمبرد وذراه في اليم- خرج بهؤلاء الذين لم يعبدوا العجل؛ ليعتذروا إلى الله عز وجل عن عبادة بعضهم للعجل، بعد أن أمرهم أن يصوموا ويتطهروا، ويُطَهِّروا ثيابهم، ففعلوا، ولما وصلوا إلى طور سيناء -لميقات وقته له ربه- طلبوا منه أن يُسمِعَهُمْ كلام الله سبحانه الذي يكلمه به!! فأجاب الله تعالى مطلبهم، وأسمعهم كلامه، بعد أن غشيهم الغمام وخرُّوا لله سجداً، وضُرب دونهم الحجاب، ودخل موسى في عمود غمام، ودنا القوم منه حتى دخلوا في الغمام، وسمعوه وهو يكلمهم ربه، حيث قال جل شأنه مخاطباً موسى عليه السلام: ﴿إِنِّي أَنَا اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدْنِي وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي﴾ [طه] فقالوا بعد أن انكشف عن موسى الغمام وأقبل نحوهم: يا موسى، لن نصدِّق أن هذا الكلام الذي نسمعه هو كلام الله حقيقة، ولن نؤمن لك حتى نرى الله عياناً.

وقيل: إن الذي طلب ذلك من موسى كانوا نحو عشرة آلاف، وليس هؤلاء السبعين، وهذا تكذيبٌ منهم لرسول الله موسى عليه السلام؛ بطلبهم أن يروا ربهم جهرة عياناً بيانياً، وهي جُرْأة كبيرة على الله سبحانه ليس لها نظير في تاريخ الأمم والرسل.

فكانت النتيجة أن أخذتهم الصاعقة في عقوبة دنيوية، حيث أرسل الله عليهم ناراً محرقة، أهلكتهم ودمرتهم، واحداً تلو الآخر، وظلوا ميتين نهائياً يوماً وليلة، وكل من كان حياً منهم ينظر إلى الذي مات قبله، ولما هلكوا جميعاً أخذ موسى يبكي ويتضرع ويقول: ماذا أقول لبنى إسرائيل، لو شئت يارب أهلكتهم وإياي قبل مجيئنا لموعد طلب العفو والتوبة، فهل أرجع إلى قومي وليس معي واحد منهم، وهم خيار القوم؟

﴿أَتَمَلِكُنَا بِمَا فَعَلَ السُّفَهَاءُ مِنَّا إِنْ هِيَ إِلَّا فِتْنَتُكَ تُضِلُّ بِهَا مَن تَشَاءُ وَتَهْدِي مَن تَشَاءُ أَنتَ وَلِيُّنَا فَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا وَأَنْتَ خَيْرُ الْغَافِرِينَ﴾ (١٥٥) وَكَتُبْنَا لَكَ فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ إِنَّا هُنَا وَإِلَيْكَ ﴿[الأعراف: ١٥٥، ١٥٦] وبهذا يذكر الله تعالى يهود اليوم ويهود الأمس ويهود الغد بعدم استقامتهم وجرأتهم على الله عز وجل، مع كثرة النعم وإقامة الحجج عليهم.

فيهود اليوم يَحْرِقُونَ المسجد الأقصى، ويحفرون حوله يريدون أن يَهْدُمُوهُ، ويقيموا

هيكلاً مزعوماً لنبي الله سليمان، مع عدم إيمانهم بنبوته ورسالته، وهم يهدمون البيوت على ساكنيها من الرُّضْع والنساء والشيوخ.

وهم يجعلون العالم كله يعيش في قلق ورعب وعدم استقرار.

وهم يعيشون في الأرض فساداً بكل طريق ديني وسياسي وعسكري واقتصادي وأخلاقي... إلخ.

ويهود الأمس سألوا نبيهم موسى عليه السلام أن يجعل لهم إلهاً غير الله، ومرة عبدوا العجل من دون الله، ومرة قالوا له: لن نصدّقك حتى نرى الله جهرة، وأخرى يقولون: اذهب أنت وربك فقاتلا إنا ههنا قاعدون.

ولما قال لهم: ادخلوا الباب سجداً، دخلوه على أستاذهم، ولما قال لهم: قولوا حطة، قالوا: حنطة في شعيرة، وهم الذين قالوا: إن الله فقير ونحن أغنياء، وقالوا: يد الله مغلولة، ووصفوه جل شأنه بما لا يليق بجلاله.

والله تعالى يُعَلِّمُ يهود بني إسرائيل أنهم -في تكذيبهم محمداً ﷺ وجحودهم نبوته، وعدم الإقرار بما جاء به- هم في هذا كسائر مَنْ تقدمهم من اليهود، ومن يأتي بعدهم منهم، إنهم يفعلون ذلك مع عظيم نعم الله عليهم وعدم قيامهم بواجب الشكر له سبحانه، فاذكروا يا بني إسرائيل حين أخذتكم هذه العقوبة بسبب تعنتكم، واشكروا نعمة الله عليكم، إذ بعثكم بعد موتكم.

النُّعْمَةُ السَّادِسَةُ: بَعَثُ مَنْ مَاتَ مِنْهُمْ فِي الدُّنْيَا بِالصَّاعِقَةِ

٥٦- ﴿ثُمَّ بَعَثْنَاكَ مِنْ بَعْدِ مَوْتِكَ لَمَّا كُنْتُمْ تَشْكُرُونَ﴾ (٥٦)

وبعد أن ماتت هذه النخبة من اليهود بالصاعقة لم يزل موسى يناشد ربه حتى أحياهم الله سبحانه بعد أن أماتهم يوماً وليلة؛ لاستيفاء آجالهم في الدنيا، وهذه نعمة أخرى عظيمة، يذكّر الله تعالى بها بني إسرائيل كي يشكروه سبحانه، فيؤمنوا بما جاء به محمد ﷺ.

وفي هذه الآية دليلٌ حسيٌّ ماديٌّ على حقيقة البعث بعد الموت، وأن الله سبحانه القادر على إحياء اليهود بعد أن أهلكهم بالصاعقة، قادرٌ على أن يميّتنا وبيعثنا مرة أخرى.

﴿يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [المطففين: ٦].

وهذا أول خمسة أدلة حسية في هذه السورة على البعث بعد الموت.

والثاني: في قصة البقرة ﴿فَقُلْنَا أَضْرِبُوهُ بِعَصَاهُ كَذَلِكَ يُعَذِّبُ اللَّهُ الْمُؤْتَفِكِينَ﴾. (الآية ٧٣)

والثالث: في قصة الذين خرجوا من ديارهم وهم ألوف حذر الموت فقال لهم الله موتوا ثم أحياهم. (الآية ٢٤٣)

والرابع: في قصة الذي مر على قرية حيث أماته الله مئة عام ثم بعثه. (الآية ٢٥٩)

والخامس: في قصة خليل الرحمن ﴿رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُخْرِجُ الْمَوْتَى﴾. (الآية ٢٦٠)

النَّعْمَةُ السَّابِعَةُ: تَخْلِيلُ الْغَمَامِ لِبَنِي إِسْرَائِيلَ

٥٧- ﴿وَوَهَبْنَا عَلَى الْغَمَامِ﴾

ثم ذكر سبحانه نعمته على اليهود وهم في صحراء سيناء في فترة التيه، حيث أمدهم بالظلال وسعة الأرزاق، اذكروا نعمتنا عليكم أيها اليهود حين كان موسى وبنو إسرائيل في التيه، مدة الأربعين سنة، وهم في صحراء سيناء حيث أصابهم حر الشمس، فسألوا موسى ظلًّا، فظللهم الله سبحانه بسحاب أبيض رقيق، يقيهم حرَّ الشمس.

فالغمام: هو ما يُغطي وجه السماء عن الناظر إليها، وهو بمنزلة السحاب الذي يغطي الجو ويستره ويواريه.

وجعل لهم عمودًا من نور يضيء لهم ليلاً كالقمر، وجعل ثيابهم لا تتسخ ولا تبلى.

النَّعْمَةُ الثَّامِنَةُ: نُزُولُ الْمَنَّ وَالسَّلْوَى عَلَيْهِمْ

﴿وَأَنْزَلْنَا عَلَيْكُمُ الْمَنَّ وَالسَّلْوَى كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾

أظل الله بني إسرائيل في أرض التيه بالغمام، ووقاهم حر الشمس، فقالوا لموسى عليه السلام: هذا المأوى وهذا المسكن، فأين الأكل؟ فأنزل الله عليهم المن، وهو نوع من الحلوى، كالصمغ يقع على الشجر، يشبه العسل في حلاوته وطعمه وشكله، يقطفونه من على الشجر، أمام أماكنهم التي هم فيها.

والمن: اسم جامع لكل رزق حسن، يحصل بلا تعب، ومنه الكمأة والزنجبيل والخبز ونحو ذلك.

عن سعيد بن زيد بن عمرو بن نفيل أن النبي ﷺ قال: «الكمأة من المن، وشفأؤها ماء للعين»^(١).

قال قتادة: كانت السلوى طيرًا أقرب إلى الحُمرة، تحشرها عليهم ريح الجنوب، فكان الرجل منهم يذبح منها قدر ما يكفيه يومه ذلك، فإذا تعدى فسَد، ولم يبقَ عنده، حتى إذا كان يومُ سادسه ليوم جُمعته أخذ ما يكفيه ليوم سادسه ويوم سابعه^(٢).

وقال وهب بن منبه: هو طير سمين مثل الحمام، كان يأتيهم فيأخذون منه من سبت إلى سبت^(٣). إنهم لم يشكروا الله تعالى على هذه النعمة بل قالوا يا موسى: قد قتلنا المنُّ بحلاوته، نريد اللحم، فأرسل الله عليهم السلوى، وهو اسم طائر يشبه الطير السمانى؛ نوعٌ من الطير، شهى طعمه، ولذيذ أكله، وقيل: هو بعينه، وكان يأتيهم أسرابًا متلاحقة، يكاد يغطي الأرض حتى يصل إلى أماكنهم، فينزل عليهم من المن والسلوى ما يكفيههم ويُقيتهم، ويقال لهم: ﴿كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ﴾ فهذا من نعم الله عليكم، فقالوا: هذا الطعام فأين الشراب؟ فأمر الله موسى أن يضرب الحجر بعصاه، فانفجرت منه اثنتا عشرة عينًا، فشرب كل سبط من عين، ثم قالوا: أين اللباس؟ فكانت ثيابهم تطول معهم، كما تطول الصبيان، ولا يتمزق لهم ثوبٌ، قاله السدي.

وكان هذا بعد خروجهم من مصر باثنين وأربعين يومًا وبعد أن اشتاقوا إلى اللحم والخبز. ولكنهم لم يشكروا نعم الله عليهم ولم يمتثلوا، فبدّلوا وغيّروا وكفروا بأنعم الله، واستمروا على قساوة القلوب وكثرة الذنوب، فعاقبهم الله على ظلمهم، قال تعالى: ﴿وَمَا ظَلَمُونَا﴾ بتلك الأفعال المخالفة لأوامرنا، لأن الله تعالى لا تضره معصية العاصين، ولا تنفعه طاعة الطائعين، ولذا: فقد ضرب الله عليهم الذلة والمسكنة وحقّت عليهم اللعنة والغضب؛ لأنهم كفروا بهذه النعم، وظلموا أنفسهم؛ لأن عاقبة الظلم تعود عليهم ﴿وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾.

(١) «المسند» (١٦٢٥، ١٦٣٦) بإسناد صحيح على شرط الشيخين كما قال محققوه، والبخاري (٤٤٧٨)

ومسلم (٢٠٤٩) والترمذي (٢٠٦٧) والنسائي في «السنن الكبرى» (٦٦٦٧) وابن ماجه (٣٤٥٤).

(٢) عبد الرزاق (٤٦/١) والطبري (٧٠٥/١) وابن أبي حاتم (٥٦٢).

(٣) الطبري (٧٠٦/١) وابن أبي حاتم (٥٦٣).

النِّعْمَةُ التَّاسِعَةُ: مَرَّاسِمُ دُخُولِ بَيْتِ الْمُقَدَّسِ

٥٨- ﴿وَإِذْ قُلْنَا ادْخُلُوا هَذِهِ الْقَرْيَةَ فَكُلُوا مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ رَغَدًا وَاَدْخُلُوا أَبْوَابَ سُجَّدًا وَقُولُوا حِطَّةٌ نَغْفِرَ لَكُمْ خَطِيئَتِكُمْ^(١) وَسَنَزِيدُ الْمُحْسِنِينَ^(٢)﴾

ومن نعم الله على اليهود بعد عصيانهم له، أن أمرهم بدخول القرية ليسكنوها ويحصل لهم فيها الرزق الوفير، وأن يدخلوها خاضعين متذللين، يحيط الله عنهم خطاياهم ويجزيهم جزاء حسناً في الدارين.

وذلك أنه بعد أن أحيا الله السبعين الذين اختارهم موسى لميقات ربه بعد موتهم، وبعد مدة التيه -أربعين سنة- خرج بنو إسرائيل من صحراء سيناء، بعد تخاذلهم عن حرب الجبارين، فأمرهم الله أن يدخلوا القرية التي امتنعوا من دخولها في حرب العمالقة. وهذه القرية للمفسرين فيها رأيان:

الرأي الأول: أنها بيت المقدس، فيكون الأمر لهم بالدخول حيثذ هو موسى عليه السلام. والرأي الثاني: أنها قرية أريحا، ويكون الأمر لهم هو يوشع بن نون؛ لأنه الذي فتحها بعد موت موسى، وهي قرية الجبارين العمالقة من بقية قوم عاد.

ولعل الأولى أن القرية هي أريحا، وهي من أرض بيت المقدس، وليس بينهما مسافة تذكر، وقد أمرهم الله تعالى أن يدخلوها ساجدين شكراً لله تعالى، وأن يسألوه سبحانه غفران الذنوب وحثّ الخطايا عنهم، قائلين: (لا إله إلا الله)؛ لأنها تحطّ الذنوب والخطايا.

وفي سورة الأعراف ﴿وَإِذْ قِيلَ لَهُمْ اسْكُنُوا هَذِهِ الْقَرْيَةَ﴾ [الأعراف: ١٦١] ومرحلة السكنى تلي مرحلة الدخول، فأية البقرة تعني دخول القرية، وآية الأعراف تعني السكنى والإقامة فيها، ووعدهم الله سبحانه في كلتا الحالتين أن يعيشوا عيشة رغيدة،

(١) قرأ نافع وأبو جعفر (يُغْفِرُ لَكُمْ) بياء التذكير المضمومة، وقرأ ابن عامر (تُغْفِرُ لَكُمْ) بقاء التأنيث المضمومة، وقرأ الباقر (نَغْفِرُ لَكُمْ) بالنون المفتوحة، وأدغم الراء في اللام أبو عمرو بخلف عن الدوري.
(٢) أمال الألف التي بعد الياء من (خطاياكم) الكسائي، وقللها الأزرق بخلف عنه، وأمّال الألف التي بعد الطاء الدوري عن الكسائي بخلف عنه.

موسى عليهم فيها، وأن يأكلوا منها حيث شاؤوا، كما قال تعالى: ﴿فَكُلُوا مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ رَغَدًا﴾ وطلب منهم أن يكون هذا الدخول للقرية على صفة معينة، فعليهم أن يدخلوها ساجدين خاضعين خاشعين مُنحنيين لله عز وجل، شكرًا له سبحانه على دخولها، بعد أن امتنعوا من دخولها وقت وجود العمالة فيها، وتخاذل اليهود عن قتالهم، فقال الله لهم على لسان نبيهم: ﴿وَادْخُلُوا آلَ بَابِ سُجَّدًا﴾ أي: ادخلوها خاشعين خاضعين لله، وكان دخولهم لها على يد نبي الله يوشع بن نون بعد موت موسى وهارون عليهما السلام في أصحاب القولين، وتم ذلك عشية يوم جمعة، وطلب الله منهم أن يقولوا عند دخول القرية: (حِطَّةٌ).

قال ابن عباس: المراد بالباب أحد أبواب بيت المقدس، وهو يدعى باب حطة. وقال مجاهد: باب حطة من باب بيت المقدس، أمر موسى قومه أن يدخلوا ويقولوا: حطة، وطُوطى لهم الباب ليخفصوا رؤوسهم، فلما سجدوا قالوا: حِطَّةٌ^(١)، هذا معنى قول الله تعالى:

﴿وَقُولُوا حِطَّةٌ﴾ أي: اسألوا الله التوبة والمغفرة عند دخول القرية، فقولوا: يا ربنا تجاوز عنا وَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا، وَحُطِّ عَنَّا خَطَايَانَا، وَهَذَا كَقَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى لِنَبِيِّهِ: ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ ۖ وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجًا ۝ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ ۚ إِنَّهُمْ كَانَ تَوَّابًا ۝﴾ أي: بعد أن أتم الله عليك النعمة بفتح مكة، وانتشار الإسلام، وحجة الوداع؛ لم يبق إلا شكر النعمة والثناء على المنعم.

وهكذا أمر بنو إسرائيل بشكر النعمة عند دخول القرية، فقد أمرهم الله بأمرين: فعل وقول.

أما الفعل: فهو أن يدخلوا القرية منحنين خاضعين خاشعين لله عز وجل مستشعرين عظمته سبحانه.

وأما القول: فهو أن يقولوا: (حطة) أي: حُطِّ عَنَّا خَطَايَانَا، فاسألوا الله غفران ذنوبكم عند دخولكم القرية وأنتم ناوين الإقامة بها وَحَطَّ الرِّحَالُ.

وربما كان هذا القول (حطة) كان معروفًا لديهم، للدلالة على العجز والسؤال كالشحاذين؛ كي لا يحسب لهم أهل القرية حسابًا، ولا يأخذوا حذرهم منهم.

(١) ابن أبي حاتم (٥٧٤) والطبري (٧١٤/١).

ثم رتب سبحانه على تنفيذ ذلك غفران الذنوب وتكفير الخطايا ﴿تَغْفِرْ لَكُمْ خَطَايَاكُمْ﴾ أي: نستجب لكم ونسترها عليكم، ومن يزد إحسانًا وتقربًا إلى الله تعالى يزد الله من فضله ﴿وَسَنَزِيدُ الْمُحْسِنِينَ﴾ بأعمالهم خيرًا وثوابًا.

عُقُوبَةُ الْمُتَخَذِلِينَ عَنْ دُخُولِ الْأَرْضِ الْمُقَدَّسَةِ

٥٩- ﴿فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا قَوْلًا^(١) غَيْرَ الَّذِي قِيلَ لَهُمْ فَأَنزَلْنَا عَلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا رِجْزًا مِّنَ السَّمَاءِ يَمَّا كَانُوا يَفْسُقُونَ^(٢)﴾

فما كان من القوم الضالين الجائرين إلا أن بدّلوا قولًا غير الذي قيل لهم، وفعلًا غير الذي طُلب منهم، وقد وصفهم الله بالظلم لسوء قولهم وفعلهم، فبدّل أن يدخلوا القرية خاضعين منحنين دخلوها وهم يزحفون على مقاعدهم وأدبارهم، وبدّل أن يقولوا: (حِطَّة) قالوا: (حبة من شعير) أو قالوا: (حبة حِنطَة) أي: أنهم أوّلوا وبدّلوا وقالوا: (حنطة) بدل (حطة) أي: أننا نحتاج إلى الطعام.

وقد حدث هذا من بعضهم وليس من جميعهم، لأن الله تعالى قال: ﴿فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ ولم يقل فبدلوا لأنهم لم يكونوا كلهم.

في الصحيحين وغيرهما عن أبي هريرة ؓ قال: قال رسول الله ﷺ: «قيل لبني إسرائيل: ادخلوا الباب سُجَّدًا وقولوا حطة، فبدلوا، فدخلوا يزحفون على أستاههم، وقالوا: حبة في شعرة»^(٣).

قال ابن عباس ؓ: فدخلوا من قبل أستاههم وقالوا: حنطة؛ استهزاء^(٤).

فماذا كانت النتيجة؟ ﴿فَأَنزَلْنَا عَلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ وهم اليهود ﴿رِجْزًا مِّنَ السَّمَاءِ﴾ أرسل

(١) قرأ أبو جعفر بإخفاء التنوين عند الغين.

(٢) قرأ هشام ورويس والكسائي بإشمام كسرة القاف صوت الضم في (قيل).

(٣) «صحيح البخاري» برقم (٣٤٠٣، ٤٤٧٩، ٤٦٤١) و«صحيح مسلم» برقم (٣٠١٥) و«سنن الترمذي» برقم

(٢٩٥٦) والنسائي في «السنن الكبرى» (١٠٩٩٠) وابن أبي حاتم (٥٧٥).

(٤) الطبري (٧٢٥/١) وابن أبي حاتم (٥٧٢) والحاكم (٢٦٢/٢).

الله عليهم وباءٌ أهلكهم ودمَّرهم ﴿يَمَّا كَانُوا يَفْسُقُونَ﴾ أي: بسبب كفرهم وخروجهم على طاعة الله، وتبديل قوله تعالى استهزاءً وسخرية، ومخالفة للهيئة التي أمروا أن يدخلوا عليها القرية.

والرَّجَز - بكسر الراء المشددة - هو العذاب، وبضم الراء هو الأوثان، كما في قوله تعالى: ﴿وَالرَّجَزَ فَاهْجُزْ﴾ [المذثر: ٥] والعذاب المراد على المعنى الأول هو الخراج الصغير كالدمامل، وهو نوعٌ من الطاعون والجذري ونحوهما من الأمراض المعدية.

وفي الحديث عن أسامة بن زيد رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «إن هذا الوجع والسُّقْم رَجَزٌ عُذِّبَ به بعضُ الأمم قبلكم»^(١)

وفي لفظ: «إن هذا الطاعون رَجَزٌ وبقية عذاب، عُذِّبَ به أناسٌ من قبلكم فإذا كان بأرض وأنتم بها فلا تخرجوا منها، وإذا بلغكم أنه بأرض فلا تدخلوها»^(٢).

وقال ابن عباس: كل شيء في كتاب الله من الرَّجَز يعني به العذاب.

وتبين هذه الآية ما قابل اليهود به هذه النعم من نُكرانٍ وجحودٍ وعصيانٍ وغلُوٍّ، وما حلَّ بهم من عقابٍ، بسبب سخط الله سبحانه وغضبه عليهم. والآيات تحذرنَا أن نصنع مثل ما صنع اليهود، حتى لا يحلَّ بنا مثل ما حلَّ بهم.

وهاتان الآيتان تشيران إلى تخاذل بني إسرائيل عن دخول الأرض المقدسة وهي القصة التي في سورة المائدة، ومجملها تاريخيًا كما تضمنتها كتبهم: أنه في السنة الثانية من خروج بني إسرائيل من مصر ووصولهم إلى حدود أرض كنعان (الأرض المقدسة) في مدينة (قادس) أرسل موسى اثني عشر رجلًا، من كل سبط رجل، ليتجسسوا على أرض كنعان، فأتوا مدينة (حبرون) فوجدوا فيها خيراتٍ كثيرة، فرجعوا إلى قومهم بعد أربعين يومًا، وأخبروهم بذلك، وأنها مدينة حصينة جدًّا، فأشار (يوشع وكالب) بدخولها.

(١) حديث صحيح أصله في البخاري برقم (٣٤٧٣، ٦٩٧٤) (٥٧٢٨) ومسلم (٢٢١٨) وفي «المسند» (٢٠٧/٥) و«تفسير ابن أبي حاتم» (١٨٦/١) و«تفسير الطبري» (١١٦/٢).

(٢) ينظر تخريجه للشيخ أحمد شاكر في «تفسير الطبري» (١١٧/٢) وهو حديث صحيح جاء في «المسند» (٢١٧٥١) بنحوه، وإسناده صحيح على شرط الشيخين، ومسلم (٢٢١٨) والنسائي في «الكبرى» (٧٥٥٣).

أما العشرة الآخرون، فأشاعوا في بني إسرائيل أنها أرض تأكل سكانها، وأن سكانها جابرة، فخاف بنو إسرائيل وجئوا عن القتال، فقام (يوشع وكالب) وقالوا: لا تخافوا العدو، فإنهم لُقمة لنا، والله معنا، فلم يستمع لهم القوم، وأوحى الله إلى موسى أن بني إسرائيل أساءوا الظن بربهم، وأنه مهلكهم، فاستشفع لهم موسى، فعفا الله عنهم، ولكنه حرّم عليهم دخول الأرض المقدّسة، وحرّم عليهم إقامة وطن لهم بها، وكتب عليهم أن يتيهوا في الصحراء أربعين سنة، حتى يفنى هذا الجيل، فلم يدخلها أحد من الحاضرين إلا يوشع وكالب، وأرسل على المشبطين العشرة وباء فأهلكهم^(١).

النَّعْمَةُ الْعَاشِرَةُ: تَفْجِيرُ الْمَاءِ مِنَ الْحَجَرِ لِسُقْيَاهُمْ

٦٠- ﴿وَإِذِ اسْتَسْقَىٰ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ فَقُلْنَا اضْرِبْ بِعَصَاكَ الْحَجَرَ فَانْفَجَرَتْ مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرِبَهُمْ كُُلُوا وَاشْرَبُوا مِنْ رِزْقِ اللَّهِ وَلَا تَعْتُوا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾

واذكر - أيها الرسول - حين طلب موسى من ربه سقيا قومه، وذلك أن بني إسرائيل عطشوا وهم في التيه، فطلبوا من موسى عليه السلام أن يسقيهم، فأمر الله سبحانه موسى أن يضرب بعصاه (المعجزة) التي ألقاها في مجلس فرعون فابتلعت ثعابين السحرة، أمره أن يضرب بها حجرا معينا خفيفا، كان يحمله معه في أسفاره، ويضربه بعصاه إذا أراد الماء، فيخرج منه اثنتا عشرة عينا من الماء بعدد عشائر بني إسرائيل، ويضربه مرة أخرى فيجفّ ماؤه وييسس، وهو حجرٌ معيّن له أوجهٌ أربعة.

وقيل: إن الله أمره أن يضرب أيّ حجر من حجارة الأرض، فهو اسم جنس - وهو هنا حجر طوري - وعبر عنه في (سفر الخروج) بالصخرة.

وقيل: إنه الحجر الذي وضع موسى عليه ثوبه حين اغتسل، فقال له جبريل: ارفع هذا الحجر فإن لك فيه معجزة، حيث تنفجر أو تنبجس منه المياه، كما في سورة الأعراف.

(١) ينظر بتصرف: «تفسير التحرير والتنوير» (١/٥١٣).

(٢) أمال ألف (استسقى) حمزة والكسائي وخلف وقللها ورش بخلف عن الأزرق.

والانجاس: هو أول الانفجار، فعبر هنا بنهايته، وعبر في سورة الأعراف ببدأيته، والخطاب في هذه السورة موجّه لليهود؛ لأن السورة مدنيّة، أما في سورة الأعراف فإنه بضمير الغائب إخبارٌ عنهم؛ لأن السورة مكّيّة.

والمعنى: فانفجرت منه اثنتا عشرة عيناً من الماء، في كل جهة من جهاته الأربع ثلاث عيون، بعدد قبائل اليهود الاثني عشر، وإعلام كل قبيلة منهم بالعين الخاصة بها؛ حتى لا يتنازعو ولا يتزاحموا على الماء، وحتى لا يتقاتلوا عليه ﴿قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَشْرِبَهُمْ﴾ أي: الموضع المعيّن الذي يشرب منه كل سبط، وقلنا لهم: كلوا من المن والسلوى، واشربوا من هذه المياه التي تفجّرت من الحجر، وكل ذلك من رزق الله ﴿كُلُوا وَاشْرَبُوا مِنْ رِزْقِ اللَّهِ﴾ ولا تُقَابِلُوا هذه النعم بمعصية الله فيسلبكم إياها ﴿وَلَا تَعْوُوا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾ وفي هذا تحذيرٌ لهم من البطر والغرور، وعدم استعمال النعمة في غير موضعها، وتحذيرٌ لهم ولغيرهم من الإفساد في الأرض، ومن جحود النعمة، وعدم شكر المنعم.

مُقَابَلَةُ النِّعَمِ بِالْإِسْتِخْفَافِ وَالْجُحُودِ

٦١- ﴿وَإِذْ قُلْتُمْ يَهُودُؤُا لَن نَّصْبِرَ عَلَى طَعَامٍ وَاحِدٍ فَادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُخْرِجْ لَنَا مِمَّا تُثْبِتُ الْأَرْضُ مِنْ بَقَلِهَا وَفَقَائِبِهَا وَفُومَهَا وَعَدْسِهَا وَبَصَلِهَا قَالَ أَتَسْتَبْدِلُونَ الَّذِي هُوَ أَدْنَى بِالَّذِي هُوَ خَيْرٌ أَحْبَبُوا مَضْرًا^(١) فَإِنَّ لَكُمْ مَا سَأَلْتُمْ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ^(٢) الذِّلَّةُ وَالْمَسْكَنَةُ وَبَاءُوا بِعَصَابٍ مِنَ اللَّهِ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّنَ^(٣) بِغَيْرِ الْحَقِّ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ﴾

تشير هذه الآية إلى عنت بني إسرائيل، وعدم شكرهم لأنعم الله تعالى عليهم، حيث قابلوها هذه النعم بسوء الاختيار، والتمرد على نعم الله، وعدم التأدب مع رسولهم، ومع

(١) قرأ بها الحسن والأعمش، ينظر: «اتحاف فضلاء البشر» ص ١٣٧ .

(٢) قرأ أبو عمرو بكسر الهاء والميم وصلًا، وقرأ حمزة والكسائي وخلف العاشر بضم الهاء والميم وصلًا، وقرأ الباقر ومنهم حفص بكسر الهاء وضم الميم وصلًا .

(٣) قرأ نافع بالهمز في (النبيين) على الأصل، لأنه من النبأ ويكون من قبيل المد المتصل عنده، وقرأ الباقر بياء مشددة على الإبدال والإدغام .

المنعم سبحانه، فما كان منهم إلا أن قالوا لموسى: ﴿لَنْ نَضِيرَ عَلَى طَعَامٍ وَجَدِ﴾ ثابت لا يتغير من المن والسلوى، وقد تذكّرنا السمك -الذي كنا نأكله في مصر- والقثاء والبطيخ والبصل والثوم، ونريد أنواعاً من البقول والخضراوات، مثل الكرفس والنعناع والخيار وغير ذلك من الأطعمة التي ألفوها في مصر، في فترة الذل والهوان والاستعباد، تحت قهر فرعون واستضعافه وإهانته لهم، والفؤم هو البر، وقيل: الثوم أو الحمص.

قال لهم موسى مستنكراً وموبّخاً ومعنفاً: ﴿أَسْتَبْدِلُونَ الَّذِي هُوَ أَدْفَ بِالَّذِي هُوَ خَيْرٌ﴾ عجباً لكم! أطلبون ما هو أقل شأناً من الرزق النافع الذي اختاره الله لكم ﴿أَهْبِطُوا مِصْرًا فَإِنَّ لَكُمْ مَّا سَأَلْتُمْ﴾ أي: انزلوا أي مدينة من المدن، وأي أرض زراعية، تجدون فيها ما طلبتم، ولما قدّموا اختيارهم على اختيار الله تعالى، وآثروا شهوتهم على رضى الله سبحانه؛ لزمهم صفة الذل والمسكنة، ورجعوا بغضب الله؛ لإعراضهم عن دينه.

ويرى بعض المفسرين أخذاً من قراءة شاذة: (اهبطوا مصر) بعدم التنوين، ويكون المراد بها انزلوا مصر المعروفة التي خرجتم منها، ويقال لهم ذلك على وجه التهكم والتبكيت: أي عودوا إلى ما كنتم فيه من ضيم وضعف، بعد أن أنقذكم الله من فرعون على يد موسى عليه السلام، وبعد أن تقاعستم وقعدتم عن الجهاد، وعن قتال العمالقة، وبعد عدم شكركم على ما أنعم الله به عليكم وأنتم في التيه من أكل وشرب، بلا كسب ولا مشقة ولا سعي ولا تعب، وبعد أن ظللكم الله بالغمام، ارجعوا إلى حياة الذل والهوان التي كنتم فيها قبل ذلك، واتركوا معالي الأمور، فإنها ليست لكم ولستم أهلاً لها.

ومن الثابت تاريخياً أن بني إسرائيل لم يعودوا إلى مصر بعد أن خرجوا منها مع موسى عليه السلام، ويبين هذا المعنى ويوضحه تنمة الآية في قوله سبحانه: ﴿وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ وَالْمَسْكَنَةُ﴾ فضرِبُ الذلة والمسكنة على اليهود لم يكن في هذا الوقت من التاريخ، أي: لم يكن في عهد موسى عليه السلام، ولا في وقت التيه الذي تتحدث عنه هذه الآيات، وإنما عجّل القرآن الكريم بذكره هنا بمناسبة قوله تعالى: ﴿أَهْبِطُوا مِصْرًا فَإِنَّ لَكُمْ مَّا سَأَلْتُمْ﴾ حيث قال سبحانه بعدها: ﴿وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ وَالْمَسْكَنَةُ وَبَاءُوا بِغَضَبِ رَبِّهِمْ﴾ وضرِبُ الذلة والمسكنة عليهم جاء بعد أجيال من عهد موسى عليه السلام، أي: بعد أن

كفروا بآيات الله، وبعد أن قتلوا أنبياءهم، ونَشَرُوهم بالمناشير، وبعد أن حَرَفُوا التوراة، وكنتموا صفة محمد ﷺ التي فيها... إلخ.

ولا يوجد في تاريخ أمة من الأمم على مدى الزمن أنهم قتلوا الأنبياء ونشروهم بالمنشار كما فعل بنو إسرائيل بيحيى وزكريا وأشعياء وغيرهم صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين، وقَبَحَ الله من أساء إليهم بقول أو فعل.

ثم بيَّن سبحانه السبب في ضرب الذلة والمسكنة عليهم، فقال: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ﴾ فيجحدونها ولا يؤمنون بها ﴿وَيَقْتُلُونَ النَّبِيَّاتِ بِغَيْرِ الْحَقِّ﴾ فمنهم من باشر القتل، ومنهم من سكت عنه ولم يدافع عن الأنبياء.

وقد قتل ملك اليهود (منسي) نبي الله (أشعياء) سنة سبع مئة قبل الميلاد؛ نشره على جذع شجرة، وقتلوا نبي الله (أرمياء) رميًا بالحجارة في منتصف القرن السابع قبل الميلاد، وقتل (هيردوس العبراني) ملك اليهود نبي الله (زكريا وابنه يحيى عليهما السلام).

جاء في حديث عبد الله بن مسعود رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «أشد الناس عذابًا يوم القيامة رجلٌ قتل نبيًّا، أو قتل نبيًّا، وإمام ضلالة، وممثل من الممثلين»^(١) أي: مصوِّر من المصوِّرين.

﴿ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ﴾ يتجاوزون حدود الله.

فهذه أربعة أسباب لغضب الله عليهم وهي:

١- كفرهم بآيات الله. ٢- وقتلهم الأنبياء بغير حق.

٣- وعصيائهم وتمردهم على نعم الله. ٤- وتجاوزهم الحدَّ في الفساد والطغيان.

وَضَرَبُ الذلة والمسكنة على اليهود أمرٌ قائمٌ إلى يوم الساعة، وإن علت كلمتهم، وإن علوا

(١) «المسند» (٤٠٧/١) برقم (٣٨٦٨) بإسناد حسن، وصححه الشيخ أحمد شاكر في تصحيح «المسند»، ونسبه الهيثمي في «مجمع الزوائد» (٢٣٦/٥) إلى أحمد والبخاري، وقال: رجالهما ثقات، وقد حسنه الشيخ قبل الوادعي في حاشية «تفسير ابن كثير» (١٨٦/١) وصححه الألباني في «السلسلة الصحيحة» (٢٨١) وهو في الطبراني الكبير (١٠٤٩٧)، والمراد بالممثل: المصور الذي ينحت التماثيل المجسدة.

بماديتهم، وإن وجدوا من ينصرهم في حِقبة من الزمن، أو في وقت من الأوقات، فإنَّ وعد الله سبحانه بذلُّهم ومُسكنتهم وغَضبه عليهم لابد وأن يظلَّ متحقِّقًا بإذن الله تعالى، والعبرة بالنهاية والنصر الأخير، وهو للمؤمنين بمشيئة الله تعالى، تحقيقًا لوعد الله سبحانه ﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكَ لَيَبْعَنَ عَلَيْهِمُ إِلَى يَوْمِ الْفَيْكَةِ مَنْ يُسُوُّهُمْ سُوءَ الْعَذَابِ﴾ [الأعراف: ١٦٧] وقديماً استولى الصليبيون على بيت المقدس ردحاً من الزمن، ووقتاً غير قصير، ثم مكَّن الله سبحانه الإسلام والمسلمين فاستردوا بيت المقدس من أيديهم.

وفي تجمُّع اليهود في فلسطين في وقتنا الحاضر بدايةً لنهايتهم إن شاء الله تعالى.

وهم وإن وجدوا تأييداً غريباً وأمريكياً، وإن كثرت في أيديهم المادَّة التي يجمعونها عن طريق المرأة والشهوة والربا وسائر طرق الفساد، وإن توفَّر لديهم أحدث الأسلحة الفتَّاكة، والرؤوس النووية، أقول: إن حدث كل ذلك فهو ليس مستمراً إن شاء الله، والمسلمون في كل وقت بحاجة إلى الاستفادة من هذا الدرس، بسبب الابتعاد عن منهج الله سبحانه، وعدم الأخذ بأسباب النصر، وأولها: التصنيع الحربي، وذلك بعد قوة الصِّلَة بالله تعالى، ويبدو هذا واضحاً في تفكُّك كلمة المسلمين، وتفكُّك وحدتهم، وقبضة حكام الجور عليهم.

ويوم يرفع القوم راية الجهاد في سبيل الله، لإعلاء كلمة الله، ويزرعونها في نفوس أطفالهم وشبابهم، ويوالون في الله، ويبغضون في الله، ويقىمون شرع الله فيما شجر بينهم، ويتوجهون إليه وحده بالعبادة والاستعانة والاستغاثة وما إلى ذلك؛ فإنهم في هذه الحالة يكونون جديرين بالنصر والهيمنة على القدس الشريف، مسرى رسول الله ﷺ أولى القبلتين وثالث الحرمين.

إن اليهود يقاتلوننا عن عقيدة، فلا بد من العقيدة في قتالهم، وإذا استوتينا معهم في المعاصي تفوقوا علينا بقوة السلاح، لقد أكثر اليهودُ من الفساد في الأرض في العصر الحاضر، ووعدُ الله سبحانه لا يتخلَّف، وقد قال جل شأنه: ﴿وَإِنْ عُدْتُمْ عُدْنَا﴾ [الإسراء: ٨] أي: وإن عدتم يا بني إسرائيل إلى الإفساد في الأرض عُدنا إلى الانتقام منكم، ولكن على أيدي قوم وصفهم ربهم بقوة الإيمان وحب الجهاد وإثار الشهادة على الحياة ﴿فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الْآخِرَةِ لِيَسْتَوْفُوا وَجُوهَكُمْ وَلِيَدْخُلُوا الْمَسْجِدَ كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَلِيُتَبَرَّكُوا مَا عَلَوْا تَبَرُّكاً﴾ [الإسراء: ٧].

ومن مظاهر الذلِّ والمسكنة لليهود في دولة الإسلام -أول تكوينها- فرضُ الجزية عليهم ودفعها للمسلمين حقبة من الزمن، كما في قوله تعالى: ﴿قَتِلُوا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حَتَّى يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَنْ يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ﴾ [التوبة] وتحرير المسجد الأقصى لا يكون على يد تاركٍ للصلاة، ولا شارب خمر، ولا آكل ربا، ولا يكون بأموالٍ خبيثة، ولا على يد غير مطيع لله ورسوله، ولا مجامل على حساب الدين والعقيدة، ولا موالي لأعداء الله..

لقد فتح عمر بن الخطاب رضي الله عنه، بيت المقدس وحررها صلاح الدين، فَمَنْ لَهَا الآن يشبه عمر وصلاح الدين؟! إن الأقصى قضية العالم الإسلامي وليس قضية العرب وحدهم، ويوم يكون للمسلمين جميعاً جيشٌ إسلاميٌّ واحد لا يخضع لأهواء الحكام، فيرفع راية التوحيد والجهاد، ويعمل على نصره الأقليات المسلمة في العالم، وعلى نشر الدعوة، وفتح بلاد الكفر، واستعادة مجد الإسلام في إسبانيا وتركيا وروسيا وغيرها، ويوم يُسخر المسلمون طاقاتهم المادية للتصنيع الحربي ويعتمدوا على أنفسهم في أسلحتهم سيفرح المؤمنون يومئذ بنصر الله تعالى.

هذا: وخطاب الله تعالى في هذه الآيات ونحوها لليهود، يشمل اليهود الذين كانوا في عصر التنزيل ومن يأتي بعدهم إلى قيام الساعة.

فِرْيَةُ شَعْبِ اللَّهِ الْمُخْتَارِ

تَمَثُّلُ الشَّرَائِعِ السَّمَاوِيَّةِ فِي الْعَقِيدَةِ، فِي زَمَنِ كُلِّ مِنْهَا، وَمِنْهَا الْيَهُودِيَّةُ:

٦٢- ﴿إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّابِئِينَ^(١) مَنْ ءَامَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ^(٢) عَلَيْهِمْ^(٣) وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [١١]

هذه الآية فيها حكم على الفرق الكتابية، وإخبار عنهم قبل بعثة محمد ﷺ، والصائبية

(١) قرأ نافع وأبو جعفر بحذف الهمزة من (الصائبين) وقرأ الباقون بالهمز، ووقف عليها حمزة بتسهيل الهمزة بين بين، ويحذفها موافقة للرسم.

(٢) قرأ بنصب الفاء من (ولا خوف) يعقوب ونَوَّهَهَا مرفوعة الباقون.

(٣) ضم الهاء من (عليهم) حمزة ويعقوب، وكسرهما الباقون.

فرقة كانت على التوحيد ثم عبدوا الكواكب والنجوم.

ولمّا ذم الله اليهود وذكر معاصيتهم، أوهم هذا أن الذم يشملهم جميعًا.

ولمّا ذكر الله بني إسرائيل خاصة في الآيات السابقة، ذكر تعالى بعد ذلك حكمًا عامًّا يشمل الطوائف كلها ليتضح الحق ويزول الإشكال.

ولمّا كان اليهود يترفعون على البشر، ويزعمون أنهم يتميزون عنهم، حيث يدّعي اليهود أنهم شعب الله المختار، وأنهم أبناء الله وأحباؤه، وأن الجنة قد أوجدها الله تعالى من أجلهم، وأنهم لن يدخلوا النار إلا أيامًا معدودة؛ هي مدة عبادتهم للعجل.

لذلك: فإن الله سبحانه وتعالى يرد عليهم ويجيبهم في قانون عام تسجله هذه الآية من سورة البقرة: ﴿إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالْصَّالِحِينَ﴾ ... الخ.

وقد اشتملت هذه الآية على أربعة أصناف من الناس وهم:

١- المؤمنون من أمة محمد، والمؤمنون: لقبٌ للأمة الإسلامية في عُرف القرآن؛ لأنهم آمنوا بمحمد ﷺ وآمنوا بمن قبله من الرسل.

٢- واليهود أتباع موسى ﷺ وهم بنو إسرائيل، وقد أطلق عليهم لقب (يهود) بعد موت سليمان سنة تسع مئة وخمس وسبعين قبل الميلاد، نسبة لأحد الأسباط (يهودا) ولأنهم يدينون باليهودية، ومن قولهم ﴿إِنَّا هَذَاكَ إِلَيْكَ﴾ أي: تبنا إليك، وبعد موت سليمان انقسمت بنو إسرائيل إلى مملكتين:

(أ) مملكة لابن سليمان، تبعه فيها سبط يهوذا وسبط بنيامين، وكانت تلقب (مملكة يهوذا) ومقرها (أورشليم)

(ب) ومملكة غلام سليمان، وكان شجاعًا نجيبًا، فتبعه الأسباط العشرة، وجعل مقر مملكته (السامرة) واستمر وجودهم في السامرة نحو قرنين ونصف، ثم انقرض مُلكهم على يد الآشوريين، فاستأصلوهم، وأخذوا من بقي منهم عبيدًا لهم، ومن ذلك التاريخ لم يبقَ لليهود وجودٌ إلا في أورشليم من أبناء يهوذا وبنيامين، وقد استمر تواجدهم فيها إلى سنة ١٢٠ قبل الميلاد، فجاء الرومان وأجلّوهم الجلاء الأخير، ففرقوا في العالم، فالتحق بهم آخرون من غير سبط يهوذا وبنيامين، وانتسبوا إلى اليهودية.

٣- أما النصارى فهم أتباع عيسى عليه السلام، نسبة إلى الناصرة، مكان نشأة عيسى عليه السلام، وهو المكان الذي خرجت منه مريم إلى بيت المقدس فولدت عيسى في بيت لحم، ولذلك فالنصارى يقولون: يشوع الناصري.

يقول ابن مسعود رضي الله عنه: نحن أعلم من أين تسمت اليهود باليهودية؛ من كلمة موسى عليه السلام: ﴿إِنَّا هَذَا إِلَيْكَ﴾ [الأعراف: ١٥٦] وتسمت النصارى بالنصرانية من كلمة عيسى عليه السلام: ﴿كُونُوا أَنْصَارَ اللَّهِ﴾ ^(١) [الصف: ١٤].

قلت: ونسب اليهود إلى أبيهم (يهوذا) بن يعقوب عليه السلام. وقال قتادة: إنما سُموا نصارى، بقرية يقال لها: ناصرة، ينزلها عيسى ابن مريم، فهو اسمٌ تسموا به ولم يؤمروا به ^(٢).

وقال ابن عباس: سُميت النصارى نصارى؛ لأن قرية عيسى كانت تُسمى ناصرة ^(٣).

٤- واضطربت أقوال المفسرين في الصابئة لاشتباه أحوالهم وتكثفهم في دينهم بسبب تسلط الأمم عليهم، فالقسم الذي تغلب عليه الفرس اختلط بالمجوسية والذي غلب عليه الروم اختلط بالنصرانية.

ف قيل أولاً: هم الحنفاء الذين لم يرق لهم عبادة الأصنام في الجاهلية، فعبدوا الله تعالى على ملة إبراهيم، وهم بهذا التوحيد قد صبؤوا عن دين قريش وعن دين المشركين بعبادتهم لله الواحد القهار، وهم بهذا قد سبقوا اليهودية والنصرانية في عبادة الله وحده، ويؤمنون بأن الله خالق هذا العالم، ويقرون بمعاد الأبدان، ثم ارتبطت عقيدتهم بعد ذلك بالكواكب والنجوم حتى وُصِّموا بالوثنية، وهم اليوم قلة تعيش في شمال العراق، تحيط عقيدتها بشيء من السرية، خشية أن تتحوّر وتتغير بمرور الوقت ^(٤).

وقيل ثانياً: إن الصابئين قومٌ كانوا يقولون: لا إله إلا الله، ويتجهون إلى الكعبة، ويقرؤون الزبور، وليسوا بيهود ولا نصارى.

(١) ابن أبي حاتم (٩٠٤٣).

(٢) ابن جرير (٣٤/٢).

(٣) ابن سعد (٥٣/١) وابن جرير (٣٤/٢).

(٤) ينظر: أطلس القرآن د. شوقي أبو خليل ص ١٤٠.

قال أبو العالية: هم قوم من أهل الكتاب يقرؤون الزبور^(١).

وقيل ثالثاً: هم فرقة من النصارى.

وقيل رابعاً: هم من بقي على الفطرة ولم يتبع ديناً مُعِيناً؛ لأن الدعوة لم تبلغه، وقيل غير ذلك.

وعن أبي الزناد: الصابئون قومٌ مما يلي العراق، وهم بِكُوَيْثَى -مدينة بالعراق- يؤمنون بالنبين كلهم^(٢).

وقال وهب بن منبه: الصابئ الذي يعرف الله وحده، وليست له شريعةٌ يعمل بها، ولم يُحْدِثْ كُفْراً^(٣).

قلت: والأصل في معنى الصابئ هو الخارج عن دين قومه إلى دينٍ غيره، كالمرتد عن الإسلام إلى دين آخر، والعياذ بالله.

والصابئة: طائفة دينية كانت ولا تزال تعيش في شمال العراق، وهم عربٌ ما بين النهرين بالعراق، وقد عُرف بهذا اللقب فرقة يهودية نصرانية في العراق، يقومون بالتعميد كالنصارى.

والمراد بالصابئين في الآية: الأمة الصابئة وهم المتدينون بدين الصابئة، وهذا الدين دينٌ قديمٌ، ظهر في بلاد الكلدان بالعراق، وانتشر أتباعه بين الخابور ودجلة والفرات، فكانوا في واسط بالعراق وفي حران بالشام، وقد انتقلوا منها إلى بغداد وغيرها في العصر العباس الأول، فلما ظهر الفرس على العراق منعوهم من عبادة الأصنام، كما منع الروم الصابئين في الشام والجزيرة، فلما تنصّر قسطنطين حملهم بالسيف على التنصر، فانتهدت عبادة الأوثان فيهم من ذلك الوقت، وأصبحوا ينتمون إلى النبي يحيى وزكريا عليهما السلام.

ولهم كتبٌ يزعمون أن الله أنزلها على شيث بن آدم عليهما السلام، والنصارى ينسبونهم إلى يوحنا وهو يحيى عليه السلام، وقد كانوا من قبل يعبدون الكواكب السَّيَّارة والقمر وبعض النجوم مثل نجم القطب الشمالي.

(١) الطبري (٣٧/٢) وابن أبي حاتم (٦٣٩).

(٢) ابن أبي حاتم (٦٤١، ٦٦٢٩).

(٣) «تفسير ابن أبي حاتم» (٦٤٤، ٦٦٣٠).

وهم يؤمنون بخالق العالم، وأنه واحدٌ حكيمٌ مقدّسٌ لا يشبه الحوادث، غير أنهم يتقربون إلى الله بواسطة مخلوقات مُقَرَّبِينَ إليه، وهي أرواحٌ طاهرةٌ يزعمون أنها تسكن الكواكب وتنزل إلى نفوس البشر، فكانت عبادتهم للكواكب بقصد التقرب بها إلى الله، وألزموا أنفسهم (بالعفة والعدالة والحكمة والشجاعة والأعمال الصالحة وتجنب الرذائل) ولديهم ثلاث صلوات كل يوم، وقبلتهم مهبط ريح الشمال، ويتطهرون قبل الصلاة وقبل القراءة، ويصومون ثلاثين يوماً في السنة موزعة على ثلاثة مواقيت من العام، ويغتسلون للجنابة والحيض، ويغسلون موتاهم ويكفنونهم ويدفنونهم في الأرض، وتَحْرُمُ العزوبة عندهم، ويتزوج الرجل ما شاء، والزواج مقتصر على الصابئة فيما بينهم.

قال ابن حزم في الفصل: كان الذي ينتحله الصابئون أقدم الأديان على وجه الأرض والغالب على الدنيا، إلى أن أحدثوا فيه الحوادث، فبعث الله إبراهيم بالحنيفية، ولذا قيل: إنهم كانوا على دين نوح يتبعون المعلمين الأولين لدين الصابئة وهما شيث وإدريس^(١).

وقد اقتصرت الآية على ذكر اليهود والنصارى والصابئة دون غيرهم كالمجوسية والدهرية والزنادقة؛ لأن هؤلاء الثلاث أقرب إلى الدخول في الإسلام؛ لأنهم يؤمنون بالله خالق هذا العالم، بخلاف غيرهم.

والذين ذُكروا في هذه الآية من الأصناف الأربعة: المسلمون واليهود والنصارى والصابئون وغيرهم من كل من آمن منهم بالله، واليوم الآخر، وعمل صالحاً، فهذه ثلاثة شروط:

١- الإيمان بالله تعالى إيماناً كاملاً يشمل الإيمان بنبي ذلك الزمن والعمل بشرعه، ومن ذلك ما بشرت به التوراة والإنجيل من بعثة محمد ﷺ.

٢- الإيمان باليوم الآخر وما فيه من بعثٍ وحشرٍ وحسابٍ وجزاءٍ.

٣- العمل الصالح القائم على الإخلاص والمتابعة.

وكان ذلك في وقت الرسالة، التي عاصروها قبل نسخها؛ لأن كل رسالة حادثة تُبطل ما قبلها حتى مجيء خاتمة الرسالات إلى يوم القيامة.

(١) ينظر في هذا: «الملل والنحل» لابن حزم، و«دائرة المعارف الإسلامية» و«تفسير الطاهر بن عاشور» للآية.

فكل أمة يُقْبَلُ منها الإيمان برسولها وما جاء في شريعته، مدة بقاء هذه الرسالة، ولا يقبل غير الإسلام بعد ما بُعث محمد ﷺ قال تعالى: ﴿وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ [آل عمران].

فكل من ثبت من هؤلاء على دينه ولم يتركه ولم يبدله، وأقر بالبعث والحساب والجزاء وعمل صالحاً حتى تُوفِّي على ذلك في زمن الرسالة القائمة؛ فله ثواب عمله يوم لقاء ربه، ولا يخاف من مستقبله في الدار الآخرة، ولا يحزن على ما فاتته في الدنيا وما مضى من حياته.

ومن هؤلاء: سلمان الفارسي، فقد قيل بنزول الآية فيه وفي أمثاله ممن آمن برسوله ثم أدرك الإسلام فأمن بمحمد ﷺ فيكون له أجره مرتين، ومن مات على دين عيسى قبل أن يسمع بمحمد فهو على خير، ومن سمع بمحمد ﷺ ولم يؤمن به فقد هلك^(١).

ذلكم قول الله تعالى ﴿مَنْ ءَامَنَ﴾ أي من آمن منهم ﴿بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ بشرط أن يقع ذلك قبل انتهاء صلاحية رسالة موسى بمجيء رسالة عيسى، وقبل انتهاء صلاحية رسالة عيسى بالإسلام الخاتم، وقبل أن تصل دعوة الإسلام إلى الصابئين، ورسالة محمد ﷺ تنسخ كل ما قبلها من رسالات، ولا يقبل الله غير الإسلام ديناً من أحدٍ بعد بعثته ﷺ إلى قيام الساعة.

والآية تفتح باب الإنابة لهم، فعلم بهذا أن الآية تتعلق بمؤمني أمة محمد ﷺ ومؤمني الأمم السابقة قبل بعثته ﷺ، وأنها لا تشمل اليهود والنصارى وغيرهم ممن بقي على دينه ولم تبلغه نبوة أخرى.

وفي الحديث عن أبي هريرة ؓ أن رسول الله ﷺ قال: «والذي نفس محمد بيده، لا يسمع بي أحد من هذه الأمة يهودي ولا نصراني ثم يموت ولم يؤمن بالذي أرسلت به إلا كان من أصحاب النار»^(٢).

(١) ينظر الأثر الوارد في ذلك عن مجاهد في «تفسير الطبري» (١٥٥/٢) وانظر ما جاء عن السُّدِّي في شأن سلمان الفارسي عند ابن أبي حاتم (٦٣٦).

(٢) من حديث أبي هريرة في «المسند» (٨٢٠٣، ٨٦٠٩) بنحوه، وسنده صحيح على شرط الشيخين، والحديث في صحيح مسلم (١٥٣)، وهذا لفظه وأخرجه البغوي (٥٦) وأبو عوانة (١٠٤/١).

وانظر تفسير آية [سورة المائدة ٦٩] المماثلة لهذه الآية، ولمناسبة السياق فقد قدم فيها الصابئون على النصارى وليس فيها ﴿فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ﴾ وانظر آية سورة الحج ١٧ وفيها ضم المجوس والوثنيين إلى الأصناف الأربعة، وبيان أن الله تعالى يفصل بين الجميع يوم القيامة.

اِثْنَانِ وَثَلَاثُونَ مُخَالَفَةً مِنْ مُخَالَفَاتِ الْيَهُودِ جَاءَتْ فِي النِّصْفِ الْأَوَّلِ مِنْ سُورَةِ الْبَقَرَةِ:
الْمُخَالَفَةُ الْأُولَى: عَدَمُ الْإِيمَانِ بِالتَّوْرَةِ إِلَّا بَعْدَ رَفْعِ الْجَبَلِ فَوْقَهُمْ

٦٣- ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطُّورَ خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ وَاذْكُرُوا مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾

وبعد تعداد هذه النعم العشر على بني إسرائيل، والتعقيب عليها بأن الله تعالى لا يقبل منهم البقاء على ديانتهم المنسوخة، بل لابد لهم من الدخول في الإسلام والتصديق بمحمد ﷺ؛ يسجل الله سبحانه وتعالى على اليهود إحدى وثلاثين نوعاً من الجرائم في سورة البقرة وحدها.

من ذلك أن موسى ﷺ لما رجع بالتوراة من عند الله -تبارك وتعالى- وفيها أمره ونهيها قالوا: لا والله لن نقبل قولك حتى نرى الله جهرة فيظهر علينا ويقول: هذا كتابي فخذوه، ويكملنا كما يكلمك. وكان الله سبحانه قد أخذ على اليهود العهد والميثاق أن يؤمنوا بالتوراة ويعملوا بما فيها، وحين جاء موسى بالتوراة وقرأوها استقلوها ورأوا أن التكاليف التي فيها شاقة، فامتنعوا عن العمل بما فيها، فكان عقاب الله تعالى لهم أن أمر جبل طور سيناء فانقلع من أصله، وأمر جبريل أن يرفع هذا الجبل فوق رؤوسهم قدر قامة، وظللهم الجبل وصار فوقهم إرهاباً وتخويفاً لهم؛ حتى يؤمنوا بالتوراة ويعملوا بما فيها، وكان بنو إسرائيل أسفل منه فرفعه الله فوقهم وقال: لتأخذنَّ أمري ولأرمينكم^(١).

وهذا ما يشير إليه قول الله سبحانه: ﴿وَإِذْ نَفَقْنَا أَلْجَلَ فَوْقَهُمْ كَأَنَّهُ ظِلَّةٌ وَظَنُوا أَنَّهُ وَافِعٌ بِهِمْ خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ وَاذْكُرُوا مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [الأعراف]

وكذا الآية الثالثة والتسعون من هذه السورة ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطُّورَ﴾

لقد رفع الله الجبل فوقهم تهديداً لهم وقال: خذوا الكتاب وإلا طرحناه عليكم، ونظروا

(١) انظر «تفسير الطبري» (٤٩/٢، ٥٠) عن ابن عباس وقتادة.

إلى الجبل كأنه واقع عليهم فخافوا، ودبَّ الرُّعبُ في قلوبهم فأمنوا بالتوراة، وسكنوا خضوعًا لله سبحانه، وسجدوا على شقِّ واحد، أي: سجدوا على نصف وجوههم، والنصف الآخر ينظر إلى الجبل فوقهم خوفًا من أن يقع عليهم، فصار هذا سنة في اليهود؛ يسجدون على نصف وجوههم، أي: على شق واحد، ويقولون: بهذه السجدة رفع الله عنا العذاب.

وإلى هذا تشير الآية التي معنا: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ﴾ أي: واذكروا يا بني إسرائيل حين أخذنا العهد المؤكَّد منكم بالإيمان بالله تعالى والتوجُّه له وحده بالعبادة ﴿وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمْ﴾ جبل ﴿الطُّور﴾ وقلنا لكم ﴿خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ﴾ خذوا الكتاب الذي أعطيناكم بجدِّ واحفظوه واعملوا به ﴿وَاذْكُرُوا مَا فِيهِ﴾ من وعدٍ ووعدٍ وحلالٍ وحرامٍ وترغيبٍ وترهيبٍ ﴿لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ أي: كي تخافوا عقابي فتعملوا بطاعتي وتُقلعوا عما أنتم فيه من معصيتي، والميثاق هو العهد. والطور: هو الجبل الذي أنزلت عليه التوراة، وأخذ التوراة: العمل بما فيها، فكان منهم أن آمنوا بها وعملوا بما فيها تحت وطأة التهديد برفع الجبل فوق رؤوسهم هذا هو ظاهر القرآن.

والذي جاء في التوراة أن الجبل من شدة الزلازل وما ظهر حوله من السحاب والدخان والرعد صار يلوح للرائي كأنه سحابة^(١). قال تعالى:

٦٤- ﴿ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ فَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ لَكُنْتُمْ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾

ولكن هذا الإيمان من اليهود، كان بصورة مؤقتة، حيث لم يستمروا على العمل بما في التوراة: ﴿ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ﴾ أي: تركتم العمل بما في التوراة ونبذتم وراء ظهوركم ما أخذناه عليكم من العهود والمواثيق كشأنكم دائمًا، وهذا الإعراض موجب لأن يحل بكم أعظم العقوبات ﴿فَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ﴾ بالتوبة والإمهال والتجاوز عن خطاياكم ﴿لَكُنْتُمْ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ بسبب إعراضكم عن العمل بما في التوراة مرة ثانية ولولا إمهال الله لهم لعذبهم في الدنيا وصاروا من الهالكين.

والخاسر من خسر دنياه وأخراه، فلم يربح في الدنيا ولم يفلح في الآخرة.

(١) الفصل التاسع عشر من «سفر الخروج»، والفصل الخامس من «سفر التثنية»، وآية الأعراف تقول: (كأنه ظلة) ولم يرد في تفسير الآية حديث صحيح ومنطوق الآية واضح.

الْمُخَافَةُ الثَّانِيَةُ: صَيْدُ الْيَهُودِ السَّمَكِ فِي يَوْمِ الْعِبَادَةِ وَقَدْ نُهُوا عَنْهُ

٦٥- ﴿وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ الَّذِينَ اعْتَدَوْا مِنْكُمْ فِي السَّبْتِ فَقُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ﴾ (٦٥)

جاء عن ابن عباس رضي الله عنه أنه لم يبعث الله نبياً إلا أمره بالجمعة، وأخبره بفضلها وعظيمها، وأن الساعة تقوم فيها، فأخبر موسى قومه بفضلها، فقالوا: إن السبت هو أفضل الأيام؛ لأنه اليوم الذي انقطع الله فيه عن كل عمل، بعد فراغه يوم الجمعة من خلق السموات والأرض والأقوات في ستة أيام، فهو يوم السبوت، أي: الهدوء والراحة من العمل، تنفرغ فيه للعبادة، وهكذا قال النصارى مفضلين يوم الأحد؛ لأن الله تعالى بدأ فيه بخلق السموات، وهدى الله أمة محمد ﷺ لفضل يوم الجمعة فاستجابت لأمر نبيها^(١).

وقد حرّم الله العمل على اليهود في يوم السبت ابتلاءً وعقوبةً لهم، بعد أن أعطاهم الجمعة فلم يقبلوها، فكان سبحانه يبتليهم في يوم السبت بظهور السمك طافياً على وجه الماء، فيصطادونه، أو يجمعونه ليلاً حتى تأتي ليلة الأحد فيصطادونه، متأولين أو محتالين على طريقتهم، ويخالفون أمر الله سبحانه.

والقصة مذكورة في سورة الأعراف على وجه التفصيل في قوله تعالى: ﴿وَسَأَلْتَهُمْ عَنِ الْفَرَكَةِ الَّتِي كَانَتْ حَاضِرَةَ الْبَحْرِ إِذْ يَعْدُونَ فِي السَّبْتِ إِذْ تَأْتِيهِمْ حِيتَانُهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرَعًا وَيَوْمَ لَا يَسْبِتُونَ لَا تَأْتِيهِمْ كَذَلِكَ نَبْلُوهُمْ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ﴾ (١٢٦) وَإِذْ قَالَتْ أُمَّةٌ مِنْهُمْ لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا اللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا قَالُوا مَعَذَرَةَ إِلَى رَبِّكَ وَلَعَلَّهُمْ يَنْفِقُونَ﴾ (١٢٧) فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ أَنْجَيْنَا الَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ السُّوءِ وَأَخَذْنَا الَّذِينَ ظَلَمُوا بِعِصَمٍ بَعْضٍ بَعْضٍ يَوْمَ كَانُوا يَفْسُقُونَ﴾ (١٢٨) فَلَمَّا عَتَوْا عَنْ مَا نُهُوا عَنْهُ قُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ﴾ (١٢٩) [الأعراف].

وفي سورة البقرة أشير إليها إشارة في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ الَّذِينَ اعْتَدَوْا مِنْكُمْ فِي السَّبْتِ﴾ أي: الذين تجاوزوا حدود الله ظلماً وبغيًا حين حرم عليهم الصيد في يوم السبت بسبب ذنوبهم، فنصبوا فيه الشباك واصطادوا الحيتان:

١- فكان منهم فرقة خالفت واصطادت، وهم من سكان العقبة، على خليج صغير من البحر الأحمر، وكان اسمها (أيلة) وهي غير (إيلياء) التي هي القدس.

(١) ينظر الخبر في «تفسير الطبري» (٤٦٧/٢) وما بعدها.

٢- وفرقة أمسكت ونهت غيرهم عن الاصطياد فيه .

٣- وفرقة سكتت ولم تخالف حكم الله تعالى .

والذين نهوا عن الاعتداء بالصيد يوم السبت لم يساكنوا المخالفين لأمر الله، وانفصلوا عنهم حتى لا يخالطوهم، واقتسموا القرية بجدار بينهم .

فكانت العقوبة للذين اصطادوا وللذين لم ينهؤهم عن المنكر، أن قال الله لهم: ﴿كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ﴾ ولما أبطأ المعتدون في السبت ولم يخرجوا من بيوتهم تسوّر عليهم الناهون الجدار فوجدوهم قردة، يثب بعضهم على بعض .

فالصحيح: أن الله سبحانه قد مسخهم قردة حقيقيين كما قال تعالى: ﴿فَلَمَّا عَتَوْا عَنْ مَا نُهُوا عَنْهُ قُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ﴾ [الأعراف] وأن هذا المسخ لم يستمر أكثر من ثلاثة أو سبعة أيام، إذ إن المسخ لا يبقى بصفة دائمة، فمُسَخُوا قردة وخنازير ثم ماتوا بعد سبعة أيام أو ثلاثة، ولم يأكلوا ولم يشربوا ولم يتناسلوا .

عن ابن مسعود رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «إن الله لم يجعل لمسخ نسلاً ولا عقباً، وقد كانت القردة والخنازير قبل ذلك»^(١) .

قال ابن عباس رضي الله عنه: مسخهم الله قردة بمعصيتهم، ولم يعيش مسخ قط فوق ثلاثة أيام، ولم يأكل ولم يشرب ولم ينسل^(٢) .

وفي حديث أبي هريرة رضي الله عنه: «لا تتركبوا ما ارتكبت اليهود، فتستحلوا محارم الله بأدنى الحيل»^(٣) .

فاحذروا - أيها المخاطبون - أن يصيبكم ما أصابهم إذا تجرأتم على معصيتي ومخالفة أمري ونهيي .

(١) «صحيح مسلم» برقم (٢٦٦٣) وفي «المسند» برقم (٤١١٩)، (٣٧٠٠) بإسناد صحيح على شرط مسلم، ورجال ثقات كما قال محققوه، وأخرجه ابن أبي شيبة (١٠/١٩٠) وابن أبي عاصم في السنة (٢٦٢) وأبو يعلى (٥٣١٣) والنسائي في الكبرى (١٠٠٥٩) .

(٢) الطبري (٥٩/٢) .

(٣) «إبطال الحيل» ص ٤٦ وقال ابن كثير: هذا إسناد جيد .

وهذه القصة وقعت في زمن داود عليه السلام فأطلع الله نبيه عليها، وكانت متواترة لدى علماء اليهود وأحبارهم، وليست مسطورة في الأسفار القديمة. قال تعالى:

٦٦- ﴿فَجَعَلْنَاهَا نَكَالًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهَا وَمَا خَلْفَهَا وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ﴾ ﴿٦٦﴾

وقد جعل الله سبحانه عقوبتهم عبرة لكل من خالف أمر الله تعالى، فارتكب ما نهى الله تعالى عنه إلى يوم القيامة حتى تقوم الحجة على العباد، ويرتدعوا عن معاصيهم، ولكي تكون موعظة نافعة للمتقين، لأن من عداهم لا ينتفعون ﴿فَجَعَلْنَاهَا نَكَالًا﴾ أي: جعلنا هذه القصة وما تشتمل عليه من عقوبة عبرة وعظة لمن يأتي بعد أهل هذه القرية من الأجيال المتعاقبة، ولمن كان قبلها ممن بقي منهم، وذلك لمن يتقون الله بامثال أمره واجتناب نهيه، فهم الذين ينتفعون بالموعظة.

فالضمير في ﴿فَجَعَلْنَاهَا﴾ يعود على العقوبة، ويراد بما ﴿بَيْنَ يَدَيْهَا﴾ من حضرها من الأمم ومن هم في وقتها، ويراد بما خلفها من يأتي بعدهم.

والقرية التي حصل فيها الصيد هي القرية المظلة على البحر وهي: خليج العقبة. وفي سورة المائدة يبين سبحانه أن عقوبة المسخ هذه أشد عقوبة من الله تعالى لأشرف خلق الله، فيقول جل شأنه ﴿قُلْ هَلْ أُنَبِّئُكُمْ بِشَرٍّ مِّنْ ذَلِكَ مُنُوبَةً عِندَ اللَّهِ مَن لَّعَنُ اللَّهُ وَعَضَبَ عَلَيْهِ وَجَعَلَ مِنْهُمْ الْفِرَّةَ وَلِخَنَازِيرٍ وَعَبَدَ الطَّاغُوتِ أُولَٰئِكَ شَرٌّ مَّكَانًا وَأَضَلُّ عَن سَوَاءِ السَّبِيلِ﴾ ﴿٦٠﴾ [المائدة].

الْمُخَالَفَةُ الثَّالِثَةُ: التَّشَدُّدُ وَالتَّعَنُّتُ فِي ذَبْحِ الْبَقَرَةِ:

٦٧- ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَذْبَحُوا بَقَرَةً قَالُوا أَنَتَّخِذُهَا هُزُوًا ^(١) قَالَ أَعُوذُ بِاللَّهِ أَن أَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ﴾ ﴿٦٧﴾

وقصة البقرة لم تذكر في مكان آخر من القرآن، ولذلك فقد فصلت في هذه السورة،

(١) قرأ أبو عمرو بإسكان راء (يأمركم) واختلاس ضميتها للتخفيف، وقرأ الباقون بالضم الكامل ومعهم أبو عمرو في الوجه الثالث وهو الضم الكامل على الأصل.

(٢) قرأ حفص بإبدال الهمزة واوًا من (هزوا) مع ضم الزاي، وقرأ حمزة وصلًا وخلف العاشر وصلًا ووقفًا بالهمزة وإسكان الزاي، والباقون بالهمز وضم الزاي، ولحمزة وقفًا النقل والحذف وإبدال الهمزة واوًا.

وسُمِّيت السورة باسمها، أي: اذكروا - يا معشر يهود - حين قتلتم قتيلاً، واختلقتُم في معرفة قاتله، حتى تفاقم الأمر، وتحاكمتم إلى موسى، فأمركم أن تذبحوا بقرة، وكان من الواجب عليكم الامتثال وعدم الاعتراض، ولكنكم شددتُم على أنفسكم بكثرة الأسئلة، فشدد الله عليكم وعيّن لكم بقرة خاصة، ولما ذبحتموها وضربتم القتل بعصوٍ منها، كما أمركم نبيكم، بعث الله الميت فتكلّم وأخبر عن قاتله.

وملخص القصة: أن رجلاً من بني إسرائيل كان غنياً موسراً، وليس له ولدٌ وارثٌ، فجاء ابن أخيه وعجّل قتله بيده ليرثه ويتزوج ابنته التي منعه من الزواج بها، فقتله ثم ألقاه أمام بيت آخر في حي آخر، وذهب يطلب الثأر والدّية له، ويدّعي أن أهل هذا الحي قتلوه، ورفّع الأمر إلى موسى عليه السلام، فاختلفوا فيمن قتله، فسأل موسى ربه أن يبيّن لهم القاتل، فأمرهم أن يذبحوا بقرة، حتى يضربوا القتل بجزء منها، فينطق المقتول ويعرفهم من قتله، ولو أنهم أتوا بأية بقرة وذبحوها لأجزأتهم وكانوا منفذين لأمر الله سبحانه^(١)، ولكن الحوار الذي تسجله سورة البقرة بين موسى واليهود درسٌ مستفادٌ للمسلمين، يتعلمون منه كيف تكون المفاوضات مع اليهود؟ وطبيعتهم في التشدد والتعنّت و الجدل دائماً على مثل هذه الصورة التي كانت بينهم وبين موسى، وهي نفسها صورة المفاوضات مع اليهود في كل زمان ومكان.

وفي الحديث عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «ذروني ما تركتكم، فإنما هلك من كان قبلكم بكثرة سؤالهم واختلافهم على أنبيائهم فإذا نهيتكم عن شيء فاجتنبوه، وإذا أمرتكم بشيء فأتوا منه ما استطعتم»^(٢).

فاذكروا - يا بني إسرائيل - جناية أسلافكم وكثرة تعنتهم وجدالهم حين قال لهم موسى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَذْبَحُوا بَقَرَةً﴾ أي بقرة كانت، ﴿قَالُوا أَلَنُخَذُّنَا هُزُؤًا﴾ أنهزاً بنا وتسخر منا، فردّ عليهم موسى قائلاً: ﴿أَعُوذُ بِاللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ﴾ أستجير بالله أن أكون من المستهزئين، والجاهل هو الذي يتكلم بما لا فائدة فيه، ويسخر من الناس،

(١) تنظر روايات القصة في «تفسير الطبري» (٣٣٧/١) و«ابن كثير» (٢٩٤/١) و«تفسير ابن أبي حاتم» (٢١٤/١).

(٢) مسلم برقم (١٣٣٧، ٢٣٥٧) وأحمد (٧٣٦٧، ١٠٢٥٥). حديث صحيح وإسناد جيد، وأخرجه الحميدي (١١٢٥) وابن حبان (١٨) وأبو يعلى (٦٦٧٦) وعبد الرزاق (٢٠٣٧٢).

بخلاف العاقل فهو يرى أن ذلك من أكبر العيوب.

السُّؤَالُ الْأَوَّلُ عَنْ سِنِّ الْبَقَرَةِ:

فلما علموا صدق موسى ﷺ، أخذوا يطلبون أوصافاً للبقرة تعجيزاً وتردداً:

٦٨- ﴿قَالُوا أَدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَنَا مَا هِيَ قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَا فَارِصٌ وَلَا يَكُرُّ عَوَانُ بَيْتِكَ ذَلِكَ فَافْعَلُوا مَا تُؤْمَرُونَ﴾ ﴿٦٨﴾

طلب اليهود من موسى أن يسأل ربه أن يوضح لهم سن وصفة هذه البقرة: أكبرة هي أم صغيرة أم متوسطة؟ ﴿قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَا فَارِصٌ﴾ ليست كبيرة هرمة ﴿وَلَا يَكُرُّ﴾ صغيرة لم تلد ﴿عَوَانُ بَيْتِكَ ذَلِكَ﴾ فهي وسط؛ متوسطة العمر، ولدت بطناً أو بطنين ﴿فَافْعَلُوا مَا تُؤْمَرُونَ﴾ لتصلوا إلى معرفة القاتل وامثلوا أمر ربكم.

السُّؤَالُ الثَّانِي عَنْ لَوْنِ الْبَقَرَةِ:

٦٩- ﴿قَالُوا أَدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَنَا مَا لَوْنُهَا قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ صَفْرَاءُ فَاقِعٌ لَوْنُهَا تَسُرُّ النَّظِيرَ﴾ ﴿٦٩﴾

لم يكتفوا بذلك بل سأله ثانية: ما لونها؟ ﴿قَالُوا أَدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَنَا مَا لَوْنُهَا﴾ فحدده لهم قائلاً: ﴿إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ صَفْرَاءُ فَاقِعٌ لَوْنُهَا تَسُرُّ النَّظِيرَ﴾.

وهذا لونٌ محددٌ معين، فهي بقرة شديدة الصفرة صافية اللون، حسنة المنظر والهيئة والخلقة، تَسُرُّ من ينظر إليها، فبادروا إلى ما أمرتم به من ذبح البقرة.

السُّؤَالُ الثَّالِثُ عَنْ مَا هِيَ الْبَقَرَةُ:

٧٠- ﴿قَالُوا أَدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَنَا مَا هِيَ^(١) إِنَّ الْبَقَرَ تَشَبَهَ عَلَيْنَا وَإِنَّا إِن شَاءَ اللَّهُ لَمُهْتَدُونَ﴾

ثم قالوا للمرة الثالثة: نريد معرفة صفات أخرى غير سنّها ولونها ووصفها، فإن البقر كثير، وقد اشتبه علينا ماذا نختار؟ هل هذه البقرة من شأنها أن تحرث الأرض، وتسقي الزرع؟ أم أنها بقرة لا تعمل شيئاً من هذا القبيل ﴿قَالُوا أَدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَنَا مَا هِيَ إِنَّ الْبَقَرَ تَشَبَهَ

(١) وقف يعقوب بهاء السكت على (ما هي) في جميع المواضع والباقون بدونها.

عَلَيْنَا ﴿فَهِىَ بَقْرَةٌ مَعِينَةٌ لِّسَ لَهَا نَظِيرٌ، ثُمَّ قَالُوا: ﴿وَإِنَّا إِن شَاءَ اللَّهُ لَمُهْتَدُونَ﴾ وَفِي هَذَا التَّعْلِيقِ تَأْدِيبٌ مَعَ اللَّهِ تَعَالَى فِي رَدِّ الْأَمْرِ إِلَيْهِ، وَوَعْدٌ مِنْهُمْ بِالْإِمْتِثَالِ وَتَنْفِذِ أَمْرِ اللَّهِ تَعَالَى، وَلَوْ لَمْ يَقُولُوا: إِن شَاءَ اللَّهُ لَمْ يَهْتَدُوا إِلَيْهَا أَبَدًا.

ذَبْحُ الْبَقَرَةِ بَعْدَ اسْتِكْمَالِ أَوْصَافِهَا

٧١- ﴿قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقْرَةٌ لَا ذَلُولٌ تُثِيرُ الْأَرْضَ وَلَا تَسْقِي الْحَرْثَ مُسَلَّمَةٌ لَا شِئَةَ فِيهَا^(١) قَالُوا أَتَنَزَّحَتْ بِالْحَقِّ فَذَبَحُوهَا وَمَا كَادُوا يَفْعَلُونَ ﴿٧١﴾﴾

أَجَابَهُمْ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿إِنَّهَا بَقْرَةٌ لَا ذَلُولٌ﴾ أَي: غَيْرُ مَذْلُومَةٍ لِلْعَمَلِ فِي حِرَاةِ الْأَرْضِ لِلزَّرْعَةِ، وَغَيْرُ مَعْدَةٍ لِسَقْيِ الْأَرْضِ وَهِيَ ﴿مُسَلَّمَةٌ﴾ بَرِيَّةٌ مِنَ الْعُيُوبِ ﴿لَا شِئَةَ فِيهَا﴾ لَا بَيَاضَ فِيهَا وَلَا سُودَ وَلَا فِيهَا لَوْنٌ آخَرُ غَيْرُ الصُّفْرِ، وَلَيْسَ فِيهَا مَا يُمَيِّزُهَا عَنْ غَيْرِهَا، وَلَا لَوْنٌ فِيهَا يَخَالِفُ لَوْنَ جِلْدِهَا ﴿قَالُوا أَتَنَزَّحَتْ بِالْحَقِّ﴾ أَي: وَضَحَتْ وَبَيَّنَّتْ لَنَا الْحَقَّ الَّذِي عَرَفْنَا بِهِ وَصَفَ الْبَقْرَةَ الْمُرَادَ ذَبْحَهَا.

وَهَذَا الْقَوْلُ هَرَاءٌ؛ لِأَنَّ كُلَّ وَصْفٍ وَصَفَهُ مُوسَى قَبْلَ هَذِهِ الْآيَةِ هُوَ وَصْفٌ كَافٍ يَبِينُ الْبَقْرَةَ الْمُرَادَةَ، فَقَدْ جَاءَهُمْ مُوسَى بِالْحَقِّ مِنْ أَوَّلِ مَرَّةٍ، وَمَعَ هَذَا فَهَمْ يَقُولُونَ: ﴿أَتَنَزَّحَتْ بِالْحَقِّ﴾ كَأَنَّهُ لَمْ يَسْبِقْ لَهُمْ وَصْفٌ صَحِيحٌ لِهَذِهِ الْبَقْرَةِ!!

وَبَعْدَ هَذِهِ الْمَرَاوِغَةِ الطَّوِيلَةِ قَرَرُوا ذَبْحَ الْبَقْرَةِ بَعْدَ أَنْ قَارَبُوا أَلَّا يَفْعَلُوا، فَأَخَذُوا يَبْحَثُونَ عِدَّةَ سَنَوَاتٍ عَنِ الْبَقْرَةِ الَّتِي يَنْطَبِقُ عَلَيْهَا هَذِهِ الْأَوْصَافُ فَلَمْ يَجِدُوهَا إِلَّا عِنْدَ ابْنِ بَارٍّ بِوَالِدِيهِ، وَقَدْ أَمَرَهُ أَبُوهُ قَبْلَ أَنْ يَمُوتَ -وَهُوَ طِفْلٌ صَغِيرٌ، وَأَوْصَى أُمَّهُ أَيْضًا- أَلَّا يَبِيعَ هَذِهِ الْبَقْرَةَ إِلَّا بِمَلَأْ جِلْدِهَا ذَهَبًا، فَاشْتَرَوْهَا بِمَلَأْ جِلْدِهَا ذَهَبًا بَعْدَ مُحَاوَلَاتٍ وَمَسَاوِمَاتٍ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ الْوَلَدِ وَأُمِّهِ، حَيْثُ شَدَّدُوا فَشَدَّدَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ، قَالَ تَعَالَى: ﴿فَذَبَحُوهَا وَمَا كَادُوا يَفْعَلُونَ﴾ أَي: لَثَمْنَهَا الْبَاهِظُ، وَخَوْفًا مِنَ الْفُضِيحَةِ إِنْ أَطْلَعَهُمُ اللَّهُ عَلَى الْقَاتِلِ، وَلَكَثْرَةِ لَجَاجِهِمْ، وَأَنَّهُ لَوْ كَانَ هُنَاكَ طَرِيقٌ آخَرٌ لِلتَّشَدُّدِ وَالتَّعَنُّتِ وَالتَّلَكُّؤِ وَالتَّبَاطُؤِ لَسَلَكُوهُ، وَلَوْ لَمْ يَقُولُوا: ﴿إِن شَاءَ اللَّهُ﴾ مَا وَجَدُوهَا أَبَدًا^(٢).

(١) قرأ حمزة بخلف عنه بمد اللام أربع حركات من (لا شية فيها) مبالغة في النفي والباقون بالقصر.

(٢) وقصة البقرة جاء ذكرها عند اليهود في الفصل الحادي والعشرين من «سفر التثنية»، السفر الرابع وفي «الدر المنثور» (١/٤٠٢-٤٠٩) روايات مستفيضة عنها.

قال عكرمة يبلغ به النبي ﷺ: لو أن بني إسرائيل أخذوا أدنى بقرة فذبوها أجزأت عنهم، ولكنهم شددوا، ولولا أنهم قالوا: ﴿وَإِنَّا إِنْ شَاءَ اللَّهُ لَمُهْتَدُونَ﴾ ما وجدوها^(١)

وقد استدل العلماء مِنْ حَضَرِ صفات هذه البقرة -حتى تعينت- استدلوا بذلك على صحة بيع السلم في الحيوان، كما وصف النبي ﷺ -في الحديث- إبل الدية في قتل الخطأ، وشبه العمد، بصفات معينة، وجاء في حديث عبد الله بن مسعود ؓ عن النبي ﷺ أنه قال: «لا تُبَاشِرِ المرأةَ المرأةَ فتنتعها لزوجها كأنه ينظر إليها»^(٢).

فالوصف بالنسبة للمرأة لا يجوز إلا لحاجة كزواج أو شهادة.

أَصْلُ الْقَضِيَّةِ

٧٢- ﴿وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْسًا فَادَرَأْتُمْ فِيهَا وَاللَّهُ مُخْرِجٌ مَّا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ﴾^(٧٢)

ثم بين جل شأنه أصل القضية وبدايتها فقال جل شأنه: ﴿وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْسًا فَادَرَأْتُمْ فِيهَا وَاللَّهُ مُخْرِجٌ مَّا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ﴾^(٧٢) قيل: إن هذه الآية هي أول القصة، ومعنى اَدْرَأْتُمْ: اختلفتم وتخاصمتم فيمن قتلها، كلٌّ يريد أن يدفع الجريمة عن نفسه، والله معلنٌ ما كنتم تسرونه من أمر القتل.

دَلِيلٌ مَحْسُوسٌ عَلَى الْبَغْثِ بَعْدَ الْمَوْتِ

٧٣- ﴿فَقُلْنَا أَضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا كَذَلِكَ يُخَيِّ اللَّهُ الْمَوْتَى﴾^(٣) وَيُرِيكُمْ ءَايَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾^(٧٣)

أي: اضربوا القتيل بجزء من البقرة المذبوحة، بلسانها أو بذيلها أو بغضروف الكتف أو بغير ذلك؛ فإن الله سيبعثه حيًّا ويخبر عن قتله! فضرَبوه بفخذها على الأرجح، فأخى الله القتيل وبعثه بعد موته، ونطق وأخبر عن قتله، ثم مات مرة ثانية.

عن أبي العالية قال: أمرهم موسى أن يأخذوا عظمًا منها فيضربوا به القتيل ففعلوا، فرجعت إليه روحه، فسمي لهم قاتله، ثم عاد ميتًا كما كان، فأخذ قاتله، وهو الذي أتى

(١) «تفسير سعيد بن منصور» (١٩٣).

(٢) «صحيح البخاري» برقم (٥٢٤٠، ٥٢٤١) و«السنن الكبرى» للسنائي (٩١٨٦، ٩١٨٧، ٩١٨٨).

(٣) أمال (الموتى) حمزة والكسائي وخلف وقللها أبو عمرو بخلف عنه وكذا الأزرق عن ورش.

موسى فشكا إليه، فقتله الله على أسوأ عمله.

وفي رواية ابن وهب: ضربوه ببعضها فإذا هو قاعدٌ، قالوا: من قتلك؟ قال: ابن أخي^(١).

وقال ابن عباس رضي الله عنه: إن أصحاب بقرة بني إسرائيل طلبوها أربعين سنة، حتى وجدوها عند رجل في بقر له، وكانت بقرة تُعجبه، فجعلوا يعطونه بها فيأبى، حتى أعطوه مِلءَ مَسْكِيهَا دنانير، فذبحوها، فضربوه ببعضٍ منها فقام تَشَحُّبٌ أوداجُه دماً، فقالوا له: مَنْ قتلك؟ قال: قتلني فلان^(٢).

وهذا من الأدلة المحسوسة على بعث الخلق يوم القيامة بعد موتهم، وهو الدليل الثاني في هذه السورة وهو معنى قوله تعالى: ﴿كَذَلِكَ يُخَيِّئُ اللَّهُ الْمَوْتَى وَيُرِيكُمْ ءَايَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾.

الْحِجَارَةُ الصَّمَاءُ أَلَيْنُ مِنْ قُلُوبِ الْيَهُودِ

٧٤- ﴿ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُم مِّنْ بَعْدِ ذَلِكَ فَهِيَ^(٣) كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسَوَةً وَإِنَّ مِنَ الْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ أَلْنَاْهَرٌ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشَّقُّ فَيَخْرُجُ مِنْهُ الْمَاءُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشَبَةٍ لَّهِ وَمَا اللَّهُ بِغَفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ^(٤)﴾

وهذه المعجزة حدثت لموسى على مرأى من اليهود، فهل انتفعوا واستفادوا من هذا الدرس، فرقت قلوبهم ولائث؟ والله سبحانه يبين طبيعة اليهود في قوله عنهم: ﴿ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُم مِّنْ بَعْدِ ذَلِكَ﴾ فاشتدت وتصلبت فلم ينفذ إليها خيرٌ، ولم تَلِنْ أمام الآيات الباهرة التي أريتكم إياها ﴿فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسَوَةً﴾ هذا وصفُ العليِّ القدير لليهود، وفيه بيان أن قلوبهم أقسى وأغلظ وأصلب من الحجارة الصماء، فقد رأيتم -أيها اليهود- المقتول

(١) «تفسير الطبري» (٢/٢٣١).

(٢) ابن أبي حاتم (٧٥٠) وانظر القصة بطولها عن وهب بن منبه في «الدر المنثور» (١/٤١٩ - ٤٢٦) وعند أبي الشيخ في «العظمة» مختصراً (١٢٧٩).

(٣) قرأ قالون وأبو عمرو والكسائي وأبو جعفر بإسكان الهاء (فهى) وكسرها غيرهم ووقف عليها يعقوب بهاء السكت قولاً واحداً.

(٤) قرأ ابن كثير (عما يعملون) بياء الغيب، على الالتفات من الخطاب إلى الغيبة، وقرأ الباقون بقاء الخطاب على نسق ما قبله.

يُضْرَبُ ببعض البقرة فيجلس حيًّا، وينطق بإذن الله، ومع ذلك فإن قلوبكم لم تَلِنْ، فكذبتم بالحق بعد معاينته وأنكرتم قتل القتيل!! فالحجارة أطوعُ إلى الله منكم، حيث إن الحجر يتفجر منه الماء، كما حدث من حجر موسى - ﷺ - حيث انفجرت منه اثنتا عشرة عينًا.

والحجرُ يهبط متأثرًا من خشية الله، وقد رأوا ذلك بأعينهم، حين طلب موسى من ربه أن ينظر إليه سبحانه، فتجلَّى ربه للجبل فذُكَّ الجبل، وخرَّ موسى مغشيًا عليه، وهي آية تخضع لها الجبال، وتلين لها الحجارة، ولكن اليهود أقسى وأنكى وأغلظ.

﴿لَوْ أَنزَلْنَا هَذَا الْقُرْآنَ عَلَى جَبَلٍ لَّرَأَيْنَاهُ خَضِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ اللَّهِ﴾ [الحشر: ٢١].

وقد عذر الله الحجارة ولم يعذر اليهود، من بعد ما أراهم إحياء الموتى وما كان من أمر القتيل، فبين أن من الحجارة لما يتسع وينفرج حتى يتصبب منه الماء، فتكون أنهارًا جارية، ومنها ما يتشقق فتخرج منه العيون والينابيع، ومنها ما يسقط من أعلى الجبال من خشية الله وتعظيمه، فهي ألينُ من قلوب اليهود، وهذا معنى: ﴿وَلَإِنْ مِّنَ الْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ أَلْأَنْهَارُ﴾ فتدفق منه بغزارة، وفي هذا بيان لفضل الحجارة على قلوبهم ﴿وَلَإِنْ مِّنْهَا لَمَا يَشْقُقُ﴾ يتصدع وينشق فينبع الماء من العيون والآبار والينابيع ﴿فَيَخْرُجُ مِنْهُ أَلْمَاءٌ وَلَإِنْ مِّنْهَا لَمَا يَهِيْطُ مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ﴾ وخشوع الجبل: خشوعٌ حقيقي، وبهذه الأمور الثلاثة كان للحجارة فضل على قلوبكم:

عن جابر بن سُرّة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «إني لأعرف حجرًا بمكة كان يُسَلِّمُ عليَّ قبل أن أبعث، إني لأعرفه الآن»^(١).

فالجبال تسبح بحمد الله، وتسجد لله، والحجر الأسود يشهد لمن استلمه بحق، وقد حنَّ الجذعُ لرسول الله، وسلَّم الحجر والشجر على رسول الله ﷺ.

قال مجاهد: كلُّ حجر يتفجر منه الماء، أو يتشقق عن ماء، أو يتردى من رأس جبل فهو من خشية الله عز وجل، نزلَ بذلك القرآن، وهي جماداتٌ أودع الله فيها العلم والحكمة، ولكن قلوب اليهود لا ترقُّ ولا تلين، فهي أقسى وأشد من الحجارة.

(١) «صحيح مسلم» (٣٠٢/٢) برقم (٢٢٧٧) وفي «المستد» برقم (٢٠٨٢٨، ٢٠٨٩٣) بإسناد حسن، وابن أبي شيبة (٤٦٤/١١) وابن حبان (٦٤٨٢) والبغوي (٣٧٠٩).

هذه أوصافٌ ثلاثة للحجارة بعضها أقسى من بعض، وهي مع صلابتها تتأثر بالماء الرقيق فينفذ منها، ذلكم وصف رب العالمين لليهود وهو العليم الخبير ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ﴾ [الملك: ١٤] ثم توعد الله اليهود بقوله: ﴿وَمَا اللَّهُ بِغَفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ يا معشر المكذبين بآياته الجاحدين لنبوته رسوله، فهو سبحانه حافظٌ لأعمالهم محصٍ لها، وسوف يعاقب هذه القلوب القاسية في الدار الآخرة على أعمالهم الخبيثة.

الْمُخَالَفَةُ الرَّابِعَةُ: تَحْرِيفُ الْيَهُودِ لِكَلَامِ اللَّهِ تَعَالَى:

٧٥- ﴿أَفَنظَمُونَ أَنْ يُؤْمِنُوا لَكُمْ وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلِمَ اللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُ مِنْ بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ (٧٥)

وبعد هذا الوصف التحليلي لطبيعة اليهود قطع سبحانه وتعالى طمع الرسول ﷺ وأصحابه والدعاة إلى الله تعالى في كل زمان ومكان، في إيمان اليهود ودخولهم في الإسلام، لما هم عليه من الغلظة والجفوة وقسوة القلب، فقد كان بين اليهود - في ضواحي المدينة - وبين الأنصار حلفٌ على أن يناصر بعضهم بعضاً، ويُقاتل بعضهم مع بعض، وكان بينهم جوارٌ ورباطٌ، وكان المسلمون من الأنصار يطمعون في أن يدخل اليهود في الإسلام، فقطع الله سبحانه وتعالى هذا الأمل، ويأس المسلمين من دخول اليهود في الإسلام قائلاً سبحانه:

﴿أَفَنظَمُونَ﴾ يا أصحاب محمد، ويا معشر المؤمنين - في كل زمان ومكان - وترجون من اليهود ﴿أَنْ يُؤْمِنُوا لَكُمْ﴾ أنسيتم أفعال بني إسرائيل، وطمعت نفوسكم في تصديق اليهود بدينكم، وتطلعتم إلى ذلك؟! إن الإيمان لا يدخل إلا إلى القلوب اللينة السهلة، وهؤلاء قلوبهم أقسى من الحجارة، فالإيمان لن يدخل قلوبهم.

والخطاب موجّهٌ إلى الجماعة المسلمة، لبيان أن اليهود في كل زمان ومكان لا يمكن أن يدخلوا في دين الإسلام إلا نادراً، كما لم يدخلوا في النصرانية قبله.

والمعنى: لا تطمعوا أيها المسلمون في إيمان اليهود، فإنهم يحرفون كلام الله من بعد ما علموه، ليؤهموا الناس أنه من عند الله، وإذا كان هذا حالهم مع كتابهم، فلا يرجى منهم إيمان بغيره.

وقد بين سبحانه أن اليهود فريقان: الأحرار، أي: علماء اليهود وهم المحرّفون للتوراة، وفريق آخر: جهلاء أميون وهم الموصوفون بالنفاق المقلّدون لغيرهم.

أما أحرار اليهود، فقد كانوا أهل رئاسة في الدين والعلم، وقد قرؤوا أوصاف النبي ﷺ في التوراة، وعرفوها، كما قال تعالى: ﴿الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ [البقرة]

أي: أن اليهود والنصارى ﴿يَعْرِفُونَهُ﴾ أي يعرفون محمدًا ﷺ ﴿كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ﴾ الذين من أصلابهم، فلما جاء محمد ﷺ مطابقًا للأوصاف التي عندهم في التوراة آمن فريق من أحرارهم كعبد الله بن سلام وتميم الداري، وفريق آخر خافوا على الرئاسة أن تُنزع منهم، وخافوا على مناصبهم وعلى أنفسهم، وغيّروا أوصاف النبي ﷺ في التوراة وحرفوها وبدّلوها، كما توضح ذلك الآية التاسعة والسبعون من هذه السورة.

ومن مظاهر تحريف اليهود لأوصاف الرسول ﷺ:

١- أن النبي ﷺ موصوف في التوراة المنزلة من عند الله بأنه (أكحل العينين) ﷺ، فغيّروا ذلك إلى (أزرق العينين).

٢- وموصوف بأنه ﷺ (رَبْعَة) فغيّروا هذا الوصف إلى أنه (طويل).

٣- وموصوف ﷺ بأنه (أجعد الشعر) فغيّروا ذلك بأنه (سهل الشعر).

وغير ذلك من الأوصاف التي حرّفوها وبدّلوها بتغيير الألفاظ، أو بصرفها إلى غير معناها الصحيح.

فكان الأميون إذا سألوا أهل العلم بالتوراة عن صفات النبي ﷺ يذكرون لهم هذه الأوصاف المغيَّرة والمحرّفة والمبدّلة، وكان عامة اليهود يسمعون هذه الصفات ثم يطبقونها على النبي ﷺ فيجدونها مختلفة، فيكون هذا سببًا لتكذيبهم لرسول الله ﷺ.

وعن عكرمة عن ابن عباس رضي الله عنهما في معنى الآية قال: (أحرار يهود وجدوا صفة محمد ﷺ مكتوبة في التوراة: أكحل، أعين، رَبْعَة، جعد الشعر، حسن الوجه، فلما وجدوه في التوراة محوه حسدًا وبغيًا، فأتاهم نفرٌ من قريش، من أهل مكة، فقالوا:

أتجدون في التوراة نبياً أمياً؟ فقالوا: نعم نجده: طويلاً، أزرق، سبط الشعر، فأنكرت قريش، وقالوا: ليس هذا منا^(١) فهذا التحريف يشمل تحريفهم لما في التوراة، وكتمانهم أوصاف النبي ﷺ فيها، وتبديلهم أحكام الله تعالى.

وعن الصنف الأول من اليهود -وهم الأخبار- يقول الله تعالى: ﴿وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلِمَ اللَّهِ﴾ عن طريق الوحي بواسطة الرسول ﴿ثُمَّ يَحْرِفُونَهَا﴾ بصرفه إلى غير معناه الصحيح أو بتحريف ألفاظه ﴿مِنْ بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ﴾ وعلموه حقيقة ﴿وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ أنهم يحرفونه.

ومما عقَلوه وحرفوه -عن علم- تغيير أحكام الله تعالى في الحلال والحرام، فكان الحبرُ منهم إذا جاءه صاحب الحق برشوة أخرج له التوراة الصحيحة، وإذا جاءه من هو على باطل برشوة أخرج له التوراة المحرّفة، وإن جاءه أحدٌ بغير رشوة يسأل شيئاً أمره بالحق^(٢).

قال عكرمة: إن امرأة من اليهود أصابت فاحشة، فجاءوا إلى النبي ﷺ يبتغون منه الحكم رجاء الرخصة، فدعا رسول الله ﷺ عالمهم وهو ابن صوريا، فقال له: «احْكُم» فحملوه على حمار وجعلوا وجهه إلى ذنب الحمار، فقال له رسول الله ﷺ: «أبحكم الله حكمت؟» قال: لا، ولكن نساءنا كنَّ حساناً، فأسرع فيهن رجالنا، فغيّرنا الحكم، وفيه أنزلت: ﴿وَإِذَا خَلَا بِعَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ﴾^(٣).

وهذا الفريق المحرّف هم العلماء منهم، كانوا يحرفون كلام الله بعد فهمه ومعرفته، كتبديلهم لصفة النبي ﷺ وكانوا يحرفون شرع الله في التوراة، كتحريفهم لآية الرجم فيها وغير ذلك.

أخرج البخاري وغيره بسنده عن ابن عمر ؓ أن اليهود جاؤوا إلى رسول الله ﷺ فذكروا رجلاً منهم وامرأة زنيا، فقال لهم رسول الله ﷺ: «ما تجدون في التوراة في شأن الرجم؟» فقالوا: نفضحهم ويُجلدون، فقال عبد الله بن سلام: كذبتُم؛ إن فيها الرجم، فأتوا بالتوراة فانشروها، فوضع أحدهم يده على آية الرجم، فقرأ ما قبلها وما بعدها،

(١) رواه ابن أبي حاتم بإسناد حسن وله شواهد كثيرة.

(٢) «أخرجه الطبري» عن ابن زيد برقم (١٣٣١) بتصرف.

(٣) «أخرجه ابن أبي حاتم» (٧٨٠) بتصرف.

فقال عبد الله بن سلام: ارفع يدك، فرفع يده فإذا فيها آية الرجم، فقالوا: صدق محمد، فيها آية الرجم، فأمر بهما رسول الله ﷺ فرُجِمَا، قال عبد الله: فرأيت الرجل يجنأ على المرأة يقبها الحجارة^(١).

الْمُخَالَفَةُ الْخَامِسَةُ: نِفَاقُ كِبَارِ الْيَهُودِ وَجَهْلُ الْأُمِّيِّينَ مِنْهُمْ:

٧٦، ٧٧- ﴿وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ ءَامَنُوا قَالُوا ءَامَنُوا وَإِذَا خَلَا بِغَضُوبِهِمْ إِلَىٰ بَعْضِ قَالُوا أَتُحَدِّثُونَهُمْ بِمَا فَتَحَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ لِيُحَاجُّوكُمْ بِهِ عِنْدَ رَبِّكُمْ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٧٦﴾ أَوَلَا يَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُرْسِرُونَ وَمَا يَحْتَفِلُونَ ﴿٧٧﴾﴾

هذا إخبار عن منافقي اليهود في كل زمان ومكان، وأنهم يُظهرون للمسلمين ما ليس في قلوبهم، فإذا لم يكن عندهم أحد من غير دينهم قال بعضهم لبعض: أتحدثون المسلمين بما تعرفونه من صدق محمد ﷺ ليكون هذا حجة لهم عليكم؟ أفلا تعقلون ما هو حجة عليكم فتركوه، وإن أسر اليهود ما يعتقدونه عن صحة الإسلام وصدق رسوله بزعم عدم إقامة الحجة عليهم فإن الله تعالى يعلم سرهم ونجواهم فيظهر لعباده حقيقة أمرهم.

وكان من شأن المنافقين من رؤساء اليهود المحرّفين لكلام الله تعالى أنهم إذا التقوا بالمؤمنين يقولون لهم خداعاً ونفاقاً: آمنا بمحمد ﷺ وأوصافه جاءت مطابقة لما في التوراة ﴿وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ ءَامَنُوا قَالُوا ءَامَنَّا﴾ بدينكم ورسولكم المبشّر به في التوراة، فإذا خلوا إلى إخوانهم من اليهود وبخوهم؛ لأنهم أخبروا أتباع محمد ﷺ بما عرفوه من صفاته في التوراة ﴿وَإِذَا خَلَا بِغَضُوبِهِمْ إِلَىٰ بَعْضِ قَالُوا﴾ لا تحدثوا العرب بهذا، فإنكم كنتم تقولون قبل بعثته: نحن أول من يفتح عليه بالإيمان قبل المشركين الوثنيين، فلما بُعث ﷺ أرسل إليهم عليّاً عليه السلام يدعوهم إلى الوفاء بما قالوا، فقال بعضهم لبعض: من أخبر محمداً بهذا؟ ما خرج هذا إلا منكم ﴿أَتُحَدِّثُونَهُمْ بِمَا فَتَحَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ﴾ من العلم ببعثة محمد ﷺ وبأوصافه في التوراة ﴿لِيُحَاجُّوكُمْ بِهِ عِنْدَ رَبِّكُمْ﴾ أي ليقموا عليكم به الحجة عند ربكم يوم القيامة ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ أن هذا حجة عليكم، حيث تعترفون به ولا تصدقونه فاحذروا، وقد كانوا يرسلون الجواسيس على النبي ﷺ يظهرون الإسلام ويبطنون اليهودية.

(١) «صحيح البخاري» برقم (١٣٢٩، ٣٦٣٥) ومسلم برقم (١٦٩٩).

وقد عَنَّمَهُمُ النَّبِيُّ ﷺ عَلَى ذَلِكَ وَأَخْبَرَهُمْ بِهِ يَوْمَ قَرِيطَةَ وَهُمْ فِي حَصُونِهِمْ، فَقَالَ: يَا إِخْوَانُ الْقَرْدَةِ، وَيَا إِخْوَانُ الْخَزَائِرِ، وَيَا عِبْدَةَ الطَّاغُوتِ، وَحَكَى قَوْلَهُمُ الْمَذْكُورَ فِي الْآيَةِ: ﴿أَتُحَدِّثُونَهُمْ بِمَا فَتَحَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ لِيُحَاجُّوكُمْ بِهِ عِنْدَ رَبِّكُمْ﴾ ﴿٧٧﴾ فَعَجَبُوا مِنْ ذَلِكَ؛ لِأَنَّهُ أَوْصَافُ النَّبِيِّ ﷺ مَوْجُودَةٌ فِي كِتَابِهِمْ قَبْلَ أَنْ يُولَدَ؛ فَأَخَذَ بَعْضُهُمْ يَلُومُ بَعْضًا كَيْفَ وَصَلَتْ هَذِهِ الْمَعْلُومَاتُ إِلَيْهِ ﷺ وَيَقُولُونَ لِبَعْضِهِمْ: لَا تَخْبِرُوهُمْ بَعْدَ ذَلِكَ بِمِثْلِ مَا أَخْبَرْتُمُوهُمْ بِهِ مِنْ قَبْلُ، وَلَا تَقُولُوا لَهُ مَا فِي كِتَابِكُمْ، مِنْ أَنَّهُ نَبِيٌّ مَبْعُوثٌ، حَتَّى لَا يَكُونَ هَذَا حُجَّةً عَلَيْكُمْ عِنْدَ رَبِّكُمْ، فَلَمَّا بَلَغَ النَّبِيُّ ﷺ قَالَ: «لَا يَدْخُلُنَ عَلَيْنَا قَصَبَةُ الْمَدِينَةِ إِلَّا مِنْ مَوْءِنٍ» وَقَصَبَةُ الْمَدِينَةِ: وَسْطُهَا وَجُوفُهَا، فَقَالَ رُؤَسَاؤُهُمْ مِنْ أَهْلِ الْكُفْرِ وَالنَّفَاقِ: اذْهَبُوا فَقُولُوا: آمَنَّا، وَاكْفَرُوا إِذَا رَجَعْتُمْ. فَكَانُوا يَأْتُونَ الْمَدِينَةَ صَبَاحًا وَيَرْجِعُونَ بَعْدَ الْعَصْرِ، فَذَلِكُمْ قَوْلُ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿وَقَالَتْ طَائِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ ءَامِنُوا بِالَّذِي أُنْزِلَ عَلَى الَّذِينَ ءَامَنُوا وَجَءَ النَّهَارِ وَكُفَرُوا ءَاخِرُ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ ﴿٧٨﴾ [آل عمران]

وكانوا إذا دخلوا المدينة قالوا: نحن مسلمون، ليتعرفوا على أخبار النبي ﷺ وأحواله، فلما أخبر الله تعالى نبيه ﷺ بذلك منعهم من دخول المدينة^(١).

قال تعالى: أَيْفَعْلُونَ كُلَّ هَذِهِ الْجَرَائِمِ؟! ﴿أَوْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ أَوْ لَا يَعْلَمُ هَؤُلَاءِ الَّذِينَ يَلُومُونَ غَيْرَهُمْ عَلَى مَا يَقُولُونَ مِنَ الْإِخْبَارِ بِنُبُوءَةِ مُحَمَّدٍ ﷺ وَنَعْتِهِ، وَيُظْهِرُونَ الْإِيمَانَ بِهِ وَيُيَطِّنُونَ الْكُفْرَ ﴿أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسْرُوكُمْ وَمَا يُعْلِنُونَ﴾ ﴿٧٩﴾ فَهُوَ سُبْحَانَهُ يَعْلَمُ كُلَّ مَاخْفِي وَكُلَّ مَا ظَهَرَ مِنْ أَقْوَالِهِمْ وَأَفْعَالِهِمْ.

٧٨- ﴿وَمِنْهُمْ أُمِّيُونَ لَا يَعْلَمُونَ الْكِتَابَ إِلَّا أَمَانِيًّٓ (٢) وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ﴾ ﴿٧٨﴾

أما الفريق الثاني من اليهود فهم الجُهلاء الأميون، وهم لا يعرفون من التوراة إلا أكاذيب مختلطة اختلقها واخترعها أخبارهم ظناً وافتراءً وأوهاماً.

ومن هذه الأكاذيب التي سماها القرآن الكريم بالأماني: أنهم لا يعرفون إلا أنهم شعب الله المختار، وأنهم أبناء الله وأحباؤه، وأن النار لن تمسهم إلا أياماً معدودة، وأن الجنة

(١) ينظر الأثر عن ابن زيد في الطبري برقم (١٣٤٩) وفي ابن كثير (٢/١٣١) وغيرهما.

(٢) قرأ أبو جعفر (إلا أمانى) بياء مخففة، وشددها غيره.

قد خلقت لهم دون غيرهم، هذه الأكاذيب المختلفة هي ما يعرفه الجهلاء الأميون من أحبار اليهود ﴿وَمِنْهُمْ أَتَمِيُونُ﴾ أي: عوامٌ وجهلة لا تعرف شيئاً مما نزل على رسل الله، ولا وبعضهم لا يعرف القراءة والكتابة، وبالتالي فهم لا يعلمون شيئاً عن التوراة ولا عن أوصاف النبي ﷺ فيها، فهم ﴿لَا يَعْلَمُونَ الْكِتَابَ﴾ أي: التوراة ﴿إِلَّا أَمَانِي﴾ أكاذيب وأقاويل مختلطة، وظناً وتخرصاً ﴿وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ﴾ فما يعلمونه أقاويل من الرؤساء والأحبار لا أساس لها من الصحة، بل هي ظنون فاسدة.

والمعنى: ومن أهل الكتاب عوام ليس لهم حظ من كتاب الله إلا التلاوة فقط، فهم مقلدون لأهل العلم، ولا يعرفون إلا ظنوناً وأكاذيب. وهكذا: فقد بينت هذه الآيات أن العلماء من اليهود متمسكون بما هم عليه من ضلال، والعوام مقلدون لهم، والمنافقون منهم مذنبون مترددون، فلا مطمع لكم في إيمانهم بحال.

وقد وصف الله تعالى أمة محمد ﷺ بالأُمة فقال: ﴿هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾ [الجمعة: ٢] وفي الحديث عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما أن النبي ﷺ قال: «إنا أمة أُمِّيَّة لَا تَكْتُبُ وَلَا تَحْسِبُ»^(١). والأمة الأُمِّيَّة هي التي لم ينزل عليها كتاب من عند الله.

والأُمِّيَّة: معجزة محمد ﷺ في إتيانه بهذا الكتاب -المعجز في فصاحته وبلاغته وعلومه- فالنبي ﷺ أعلمُ الخلق مع أنه نشأ أُمِّيًّا، والأُمِّيَّة صفة مدحٍ بالنسبة للنبي ﷺ، وهي صفة ذمٍّ بالنسبة لليهود.

والأُمِّيُّ عند العرب: هو الذي لا يقرأ ولا يكتب، وبالنسبة لمعرفة العلوم المختلفة فكل إنسان له مجالٌ معين من العلم في باب منه أو أكثر، فهو أُمِّيٌّ جاهلٌ في بقية العلوم، فعالم الطب يجهل الهندسة، وعالم الفلك أو الجيولوجيا يجهل علوم الكيمياء وهكذا، ولكن هناك قدرٌ من العلم الشرعي لا بد منه لكل مسلم، وهو معرفة الحلال والحرام، والفرائض والنوافل، والأوامر والنواهي، وأبواب الشرك والبدع، إذ لا تصح عقيدته ولا

(١) حديث صحيح رواه البخاري برقم (١٩٠٠، ١٩١٣) ومسلم برقم (١٠٨٠) وأبو داود برقم (٢٣١٩) والنسائي في «الكبرى» برقم (٢٤٦١، ٢٤٦٢) كما في «الجامع الصغير» برقم (٢٥٢١) و«المسند» برقم (٤٨٦٦) وابن حبان برقم (٣٤٤٩).

عبادته إلا بما كان خالصاً لله من الشرك، صواباً موافقاً لما جاء في الهدي النبوي، وكل من يجهل هذا فهو أكبرُ أميٍّ، فيما لا بد من معرفته بالضرورة، وإن كان من حَمَلَة الدكتوراة في ميدان من ميادين العلم التجريبي أو النظري.

أما الأماي في قوله تعالى عن اليهود: ﴿لَا يَعْلَمُونَ الْكِتَابَ إِلَّا أَمَانِي﴾ فهي الأكاذيب والإفك وافتراء الباطل كما قال تعالى: ﴿مَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا ابْتِغَاءَ الظَّنِّ﴾ [النساء: ١٥٧].

ومنه قول عثمان ؓ للرجل الذي دخل عليه لقتله وقال له: اخلعها وندعك، أي اترك الخلافة ولا تقتلك، فقال عثمان: ويحك! ما كشفتُ امرأة في جاهلية ولا إسلام، ولا تَغْنَيْتُ ولا تَمْنَيْتُ، ولا وضعتُ يميني على عورتي منذ بايعت رسول الله ﷺ، ولست خالغاً قميصاً كسانيه الله عز وجل^(١).

والشاهد: (ولا تمنيتُ) أي: لم أختلق كذباً ولم أقل باطلاً.

وقد جاءت هذه اللفظة أيضاً في قوله ﷺ: قد اختبأت عند الله خصالاً: إني لرابُعُ الإسلام، وزوَّجني رسول الله ابنته ثم ابنته، وبايعته بيدي اليمنى، فما مسستُ بها ذكري، ما تغنيت ولا تمنيت، ولا شربت خمرًا في الجاهلية ولا في الإسلام^(٢). رضي الله عن عثمان وأرضاه، فقد قال ﷺ: «اللهم ارضَ عن عثمان فإنني عنه راضٍ»^(٣). وقال عنه بعد تجهيزه جيش العُسرة: «ما ضرَّ عثمان ما فعل بعد اليوم»^(٤).

الْوَعِيدُ الشَّدِيدُ لِمَنْ يُحَرِّفُونَ كَلَامَ اللَّهِ تَعَالَى

٧٩- ﴿فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ يَكْتُمُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَذَا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ لِيَشْتَرُوا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا فَوَيْلٌ لَهُمْ مِمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ^(٥) وَوَيْلٌ لَهُمْ مِمَّا يَكْسِبُونَ﴾

توعّد الله سبحانه من يحرفون كلامه بكتمان الحق وإظهار الباطل، وتبأويل معناه على

(١) ، (٢) خبر مقتل عثمان في «تاريخ الطبري» (١٣٠/٥).

(٣) ، (٤) ينظر: البداية والنهاية ٥/٥ ط دار الحديث بالقاهرة.

(٥) ضم يعقوب الهاء من (أيديهم) وكسرهما الباقون، ووصل الميم بحرف مد طبعي ابن كثير وأبو جعفر وقالون بخلف عنه.

غير وجهه، ابتغاء عرض من أعراض الدنيا، أو إرضاء للحكام، توعدّهم على تحريفهم كلام الله تعالى من جهة، وعلى ما يصل إليهم من متاع الدنيا مقابل هذا التحريف، من جهة أخرى، بأن لهم شدة العذاب وشدة الحسرة يوم لقاء الله.

وهكذا: قال سبحانه متوعدًا الفريق الأول الذين يحرفون كلام الله تعالى، ويغيرون صفات محمد ﷺ: ﴿فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ يَكْتُبُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ﴾ هلاكٌ ودمارٌ لأخبار الشؤ من اليهود الذي يكتبون التوراة بأيديهم فيحرفونها ويقولون: هذا من عند الله؛ ليأخذوا في مقابل ذلك عرضًا دنيويًا، فلهم من الله عقوبتان: عقوبة على تحريفهم كلام الله، وعقوبة على أخذهم الرشوة ونحوها مقابل هذا التغيير، وهذا الثمن مهما كثر فهو قليل بالنسبة لعذابهم وقليل بالنسبة للأجر الذي حُرّموا منه.

والويلُ: وعيدٌ بالهلاك والعذاب، أو هو وادٍ في جهنم.

عن أبي سعيد رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «ويلٌ وادٍ في جهنم يهوي فيه الكافر أربعين خريفًا قبل أن يبلغ قعره»^(١) توعدّ الله به رؤساء اليهود الذين يحرفون التوراة ﴿ثُمَّ يَقُولُونَ﴾ للعوام إذا سألوهم: هذا من عند الله، لماذا؟ ﴿لِيَشْتَرُوا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا﴾ خوفًا على زوال رئاستهم وزعامتهم، وشراء شيء من حطام الدنيا ومتاعها.

وقد تكلم السلف والخلف في حكم بيع المصحف أخذًا من قوله تعالى في هذه الآية وأمثالها: ﴿لِيَشْتَرُوا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا﴾ فمنهم من منع ومنهم من رخص، ولعلّ الصحيح في هذا ما قاله الشعبي: لا بأس ببيع المصاحف، إنهم لا يبيعون كتاب الله، إنما يبيعون الورق وعمل أيديهم، فهو بيعٌ للورق وصناعة المطابع وعمل الأيدي.

ومما يدخل في هذا الحكم من يتخذ القرآن حرفةً يتكسّب منها، ولا يقال: إن القارئ يأخذ أجرًا على حبس الوقت؛ لأن الأصل ألا يتخذ القرآن مهنة له، أما تعليم القرآن فقد

(١) «المسند» برقم (١١٧١٢) بإسناد ضعيف، وأبو يعلى (١٣٨٣) وابن أبي حاتم (٧٥/٧٩٨٣) والحاكم في «المستدرک» (٥٩٦/٤) وقال: حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه ووافقه الذهبي، ولكن الألباني ضعفه في «ضعيف سنن الترمذي» (٦١٧). وقال الترمذي (٢٥٧٦، ٣١٦٤) هذا حديث غريب لا نعرفه مرفوعًا إلا من حديث ابن لهيعة.

صَحَّ الحديث بجواز أخذ الأجرة عليه^(١).

قال السُّدي وقتادة: كتب ناسٌ من اليهود كتابًا من عندهم، يبيعونه من العرب، ويحدثون أنه من عند الله، ليأخذوا به ثمنًا قليلًا، فلهم الويلُ بسبب التحريف ولهم الويلُ بسبب الرشاوي. وكان لهؤلاء الرؤساء والأخبار مُخَصَّصات ورشاوي موسمية يأخذونها من العامة، وقد كرَّر سبحانه ﴿فَوَيْلٌ لَهُمْ﴾ مرتين لتأكيد عذابهم وهلاكهم ﴿فَوَيْلٌ لَهُمْ مِمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ﴾ فغَيَّرَتْ وبَدَّلَتْ وحرَّفت كلام الله في التوراة ﴿وَوَيْلٌ لَهُمْ مِمَّا يَكْسِبُونَ﴾ في مقابل تحريفهم من المال الحرام، وما يكسبون من المعاصي وهو كسبٌ حرامٌ يتحملون وزره ووزر من عمل به إلى يوم القيامة.

وقد نهى الإسلام عن سؤال أهل الكتاب في شيء، نظرًا لتحريفهم كلام الله.

فقد أخبر الزهري عن عبد الله بن عباس رضي الله عنهما أنه قال: يا معشر المسلمين، كيف تسألون أهل الكتاب عن شيء؟ وكتابكم الذي أنزل الله على نبيه أحدثُ الأخبار بالله، تقرأونه غصًّا لم يُشَبَّ، وقد حدَّثكم الله أن أهل الكتاب قد بدَّلوا كتاب الله وغيروه، وكتبوا بأيديهم الكتاب، وقالوا: هو من عند الله ليشتروا به ثمنًا قليلًا، أفلا ينهاكم ما جاءكم من العلم عن مساءلتهم؟ ولا والله ما رأينا منهم أحدًا قطُّ سألكم عن الذي أنزل إليكم^(٢).

وهذه الآية تشير إلى فقد التوراة بعد تخريب بيت المقدس في زمن بختنصر، ثم في زمن القائد الروماني طيطس، وذلك أن التوراة الحقيقية كان موسى عليه السلام قد أمر بوضعها في تابوت العهد، وأمر بنشرها كل سبع سنين، ووُضِعَ التابوت في خيمة الاجتماع، ثم وضعه سليمان في الهيكل، فلما غزاهم بختنصر سنة ٥٨٨ قبل الميلاد أحرق الهيكل والمدينة كلها بالنار، فاحترقت التوراة الأصلية مع التابوت في الهيكل، ثم خرب بيت المقدس مرة أخرى سنة ٤٠ ميلادية في زمن الملك الروماني طيطس، وتفرَّق اليهود في العالم.

(١) عبد الرزاق (١٤٥٢٧) وأبو عبيد ص ٢٣٩ وابن أبي داود (١٧٧) وانظر أقوال السلف في هذا الصدد في «الدر المنثور» (١/ ٤٣٧-٤٤٦)، وحكم ذلك مبين في كتابنا (فقّ الترتيل وعلومه) الجزء الأول.

(٢) «صحيح البخاري» برقم (٢٦٨٥، ٧٣٦٣، ٧٥٢٢، ٧٥٢٣) وابن أبي حاتم (٨٠٤) والبيهقي في «الشعب» (٥٢٠٤) وعبد الرزاق في «المصنف» (١٩٢١٥) مختصرًا.

ولما رأى كبارهم أن التَّوراة قد حُرِّقت، وأنهم بلا مأوى، أجمعوا أمرهم على كتابة توراة تتضمن ما يجمع شتاتهم في فلسطين حتى يعودوا إليها، فحرفوا التوراة بما يخدم قضيتهم، وكتبوها من حفظهم وأوراقهم، كتابة سياسية خرافية في العقيدة إذ نسبوا فيها إلى الله تعالى ما لا يليق بجلاله.

فَكَتَبَ سِفرُ التَّشْيَةِ، يَهُودِيٌّ كَانَ مُقِيمًا فِي مِصرَ فِي عَهْدِ مَلِكِ الْيَهُودِ (يُوشَا) وَدَخَلَ فِي الْكُتُبِ الْخَمْسَةِ، الَّتِي هِيَ مَجْمُوعُ التَّورَةِ، الْكَثِيرَ مِنْ تَحْرِيفِ (عَزِير) الْمَسْمُوعِ عِنْدَهُمْ (صَمُوئِيل)؛ وَلِذَا قَالُوا: ﴿عُزِّرُ بْنُ اللَّهِ﴾؛ لِأَنَّهُ ادَّعَى أَنَّهُ ظَفَرَ بِالتَّورَةِ، وَبَدَّلَ عَلَى هَذَا التَّحْرِيفِ أَنَّهُمْ لَمَّا كَانُوا يَرْمُمُونَ بَيْتَ الْمَقْدَسِ فِي زَمَنِ الْمَلِكِ (يُوشَا) وَجَدَ أَحَدَ الْكَهَنَةِ (سِفر الشريعة) وَسَلَّمَهُ لِكَاتِبِ الْمَلِكِ، فَلَمَّا قَرَأَهُ الْكَاتِبُ عَلَى الْمَلِكِ مَزَّقَ ثِيَابَهُ وَتَابَ، وَأَمَرَ الْكَهَنَةَ بِتَغْيِيرِ كِلَامِ (سِفر الشريعة) الْمَوْجُودِ لَدَيْهِمْ وَفَقَ هَذَا السِّفَرُ الَّذِي وَجَدَهُ الْكَاهِنُ فِي بَيْتِ الرَّبِّ. فَهَذَا دَلِيلٌ قَوِيٌّ عَلَى أَنَّ التَّورَةَ قَدْ فُقِدَتْ مِنْهُمْ، وَأَنَّ الْمَكْتُوبَ مِنْهَا بَعْدَ ذَلِكَ مُحَرَّفٌ^(١).

الْمُخَالَفَةُ السَّادِسَةُ: دَعَا الْيَهُودُ أَنَّ النَّارَ لَنْ تَمْسَهُمْ إِلَّا مُدَّةَ عِبَادَتِهِمْ لِلْعِجْلِ:

جَزَاءُ اللَّهِ الْعَادِلُ يَتَسَاوَى فِيهِ الْيَهُودُ وَغَيْرُهُمْ

٨٠- ﴿وَقَالُوا لَنْ تَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّامًا مَعْدُودَةً قُلْ أَتَّخَذْتُمْ عِنْدَ اللَّهِ عَهْدًا فَلَنْ يُخْلَفَ اللَّهُ عَهْدَهُ أَمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ (٨٠)

ومن الأمانِيِّ والأكاذيب التي يعتقدها اليهود أنهم قالوا: لن تمسنا النار في الآخرة إلا أيامًا قليلة العدد، قال الله تعالى عنهم: ﴿وَقَالُوا لَنْ تَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا﴾ تحلة القسم، بعدد أيام عبادتنا للعجل، أي: أنهم لا يُعَذَّبُونَ في النار إلا أربعين يومًا، هي مقدار الأيام التي عبدوا فيها العجل، أو أن النار لن تمسهم في الآخرة إلا سبعة أيام بمقدار عمر هذه الدنيا، وهي في زعمهم سبعة آلاف سنة، وأنهم سيعذبون يومًا عن كل ألف سنة.

قال ابن عباس ؓ: إن اليهود كانوا يقولون: مدة الدنيا سبعة آلاف سنة، وإنما نُعَذَّبُ لكل ألف سنة من أيام الدنيا يومًا واحدًا في النار، وإنما هي سبعة أيام معدودات ثم

(١) ينظر: «سفر الملوك الثاني»، «الإصحاح الحادي والعشرين»، و«تفسير التحرير والتنوير» (١/٥٧٨)

ينقطع العذاب، فأنزل الله الآية^(١).

وقيل: إنهم وجدوا في التوراة مكتوبًا أن ما بين طرفي جهنم مسيرة أربعين سنة، وزعموا أن المسير إلى أصل الجحيم -وهي شجرة الزقوم- ينتهي بهذا العدد ثم تذهب جهنم وتنتهي^(٢).

وزعم اليهود أن المسلمين يخلّفونهم في جهنم بعد عذابهم فيها أربعين يومًا.

جاء في الأثر: كَذَبْتُمْ، بل أنتم فيها خالدون مخلدون، لا نَلْحَقُكُمْ ولا نَخْلُفُكُمْ فيها إن شاء الله^(٣).

ولما قدّم يهود خبير شاةً مسمومة إلى النبي ﷺ سألهم: «من أبوكم؟» فقالوا: فلان، قال: «بل كذبتكم أبوكم فلان» قالوا: صدقت، ثم سألهم: «من أهل النار؟» فقالوا: نكون فيها مدة يسيرة ثم تخلفونا فيها، فقال ﷺ: «اخسؤوا فيها، والله لا نخلفكم فيها أبدًا» ثم سألهم: «هل جعلتم في هذه الشاة سمًا؟» قالوا: نعم يا أبا القاسم، وكانوا قد قالوا له: إن كذبتك عرفت كذبنا، قال ﷺ: «فما حملكم على ذلك؟» قالوا: أردنا إن كنت كاذبًا أن نستريح منك، وإن كنت نبيًا لم يضرك^(٤).

وقال عكرمة: خاصمت اليهود رسول الله ﷺ فقالوا: لن ندخل النار إلا أربعين ليلة، وسيخلفنا فيها قومٌ آخرون -يعنون محمدًا ﷺ وأصحابه- فقال: ﷺ بيده على رؤوسهم: «بل أنتم خالدون مخلدون لا يخلفكم إليها أحد» فأنزل الله الآية يُلَقِّنُ رسوله الجواب ولحن الحجة.

وهكذا: يزكى اليهود أنفسهم ويشهدون لها بالنجاة من عذاب الله والفوز بثوابه وأن النار لن تمسهم إلا أيامًا معدودة، وقد رد الله عليهم بقوله: ﴿قُلْ أَخَذْتُ عِنْدَ اللَّهِ عَهْدًا﴾ بأن النار لا تمسكم إلا سبعة أيام أو أربعين يومًا؟ ﴿فَلَنْ يُخْلِفَ اللَّهُ عَهْدَهُ﴾ إن كان الله قد

(١) «سيرة ابن هشام» (٥٣٨/١) والطبري (١٧٥/٢) وابن أبي حاتم (٨١٣) والطبراني (١١١٦٠) وأسباب النزول» للواحدي ص ١٧.

(٢) ينظر الأثر (١٤٠٤) عن ابن عباس في «تفسير الطبري» وابن أبي حاتم (٨١٧) والواحدي ص ١٧.

(٣) حديث مرسل عن عكرمة وابن زيد، ينظر: ابن جرير (١٧٤/٢) وابن أبي حاتم (٨١٥).

(٤) ينظر «المسند» (٤٥١/٢) برقم (٩٨٢٧) و«صحيح البخاري» برقم (٣١٦، ٤٢٤٩، ٥٧٧٧) و«سنن النسائي الكبرى» برقم (١١٣٥٥) والدارمي (٣٣/١) والبيهقي في «الدلائل» (٢٥٦/٤).

وعدكم بذلك، فأين ذلك العهد؟ أو هل ادخرتم عند الله عهدًا بتوحيده وعدم الإشراك به ترجون به مثوبة الله ويكون لكم عند الله به حجة وبرهان؟ ﴿أَمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ بافتراءكم الكذب.

فأخبر سبحانه أن صدق دعواهم متوقف على أمرين:

إما أن يكونوا قد اتخذوا عند الله عهدًا، فتكون دعواهم صحيحة.

وإما أن يكونوا متقولين عليه، فتكونوا دعواهم كاذبة، وهذا أبلغ في خزيهم وعذابهم.

وقد علم الله أنهم لم يتخذوا عنده عهدًا، فتعين أنهم متقولون على الله ما لا يعلمون، وهذا من أشنع القبائح. قال تعالى:

٨١- ﴿بَلَىٰ مَنْ كَسَبَ سَيِّئَةً وَأَحَاطَتْ بِهِ خَاطِئَتُهُ^(١) فَأُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ^(٢) هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾

ثم بيّن سبحانه الجزاء العادل، والقانون الإلهي، الذي يشمل الخلق جميعًا في الإسلام والمسيحية واليهودية وغيرها فقال تعالى ردًا على تحريف اليهود، وعلى قولهم أن النار لن تصيبهم في الآخرة إلا أياما معدودة: ﴿بَلَىٰ﴾ جوابًا لهم وبيانًا بأن النار تمسهم أبدًا وليست مدة معينة، فليس الأمر كما زعموا، ولكن ﴿مَنْ كَسَبَ سَيِّئَةً﴾ أي: أن من يكتسب ذنبًا يبلغ به الكفر أو الشرك ويموت عليه ﴿وَأَحَاطَتْ بِهِ خَاطِئَتُهُ﴾ أي: وأحاط به ذنبه الذي هو الشرك والكفر من كل جانب كما قال تعالى: ﴿إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا﴾ [الكهف: ٢٩] فاشوّد قلبه وأظلم بسبب تراكم المعاصي وكبائر الذنوب، مُسْتَحِلًّا لها، فهو خالد مخلّد في النار ﴿فَأُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ كما قال تعالى: ﴿وَمَنْ جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَكُبَّتْ وَجُوهُهُمْ فِي النَّارِ﴾ [النمل: ٩٠] فالمراد بالسيئة: الكفر والشرك، وكل ذنب توعد الله عليه بالنار، وقد سُئِلَ الحسن عن المراد بالخطيئة؟ قال: اقرؤوا القرآن، فكل آية وعد الله عليها النار فهي الخطيئة^(٣).

(١) قرأ نافع وأبو جعفر (وأحاطت به خطيئاته) بالجمع، ليطابق اللفظ كثرة الذنوب، وقرأ باقي القراء بالإفراد، على أن الخطيئة: اسم جنس.

(٢) أمال (النار) أبو عمرو ودوري الكسائي وابن ذكوان بخلف عنه وقللها الأزرق.

(٣) الطبري من طريق وكيع (١٨٤/٢).

وقال الربيع بن خثيم: هو الذي يموت على خطيئته قبل أن يتوب^(١).

والإحاطة بصاحبها بمعنى أنها لم تدع له منفذاً، وهذا لا يكون إلا الشرك، لأن من كان معه إيمان لا تحيط به خطيئته.

وأنتم - أيها اليهود - من هذا القبيل، كذبتكم الله تعالى، وأحاطت بكم خطاياكم، فأشركتم بالله وكفرتكم برسول الله، فأنتم مخلّدون في النار، مُلّازمون لها ملازمة دائمة لا تنقطع، وهذا هو حكم الله الثابت.

ومما يتصل بهذا المعنى: أن من يرتكب ذنباً ثم لا يتوب منه، فإن هذا الذنب يترك علامة سوداء على قلبه، فإذا أذنب ذنباً آخر وآخر ولم يتب فإنه يُطمس على قلبه ويسودّ، فتحيط به خطيئته، ويُطبع على قلبه فلا يقبل الإيمان والعياذ بالله، وهذا هو الران المذكور في قوله تعالى: ﴿كَلاَّ بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ [المطففين] وفي حديث ابن مسعود رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «إياكم ومحقرات الذنوب، فإنهن يجتمعن على الرجل حتى يهلكنه» وإن رسول الله ضرب لهن مثلاً: «كمثل قوم نزلوا أرض فلاة، فحضر صنيع القوم، فجعل الرجل ينطلق فيجيء بالعود، والرجل يجيء بالعود، حتى جمعوا أعواداً وأججوا ناراً، فأنضجوا ما قذفوا فيها»^(٢).

وهذا من باب الإصرار على الصغيرة واعتيادها.

والقضاء الفصل في معاملة الناس جميعاً هو الحسنات والسيئات ﴿لَيْسَ بِأَمَانِيكُمْ وَلَا أَمَانِي أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَ بِهِ وَلَا يَجِدْ لَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا﴾ [النساء] ﴿وَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَٰئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ نَقِيرًا﴾ [النساء].

وبعد بعثة النبي ﷺ لا يقبل الله تعالى من أحد من خلقه عملاً صالحاً، ما لم يكن مؤمناً برسالة محمد ﷺ وليس باقٍ على يهوديته أو نصرانيته أو غيرهما. قال تعالى:

(١) ابن أبي شيبة (٣٩٧/١٣) والطبري (١٨٣/٢).

(٢) «مسند أحمد» (٤٠٢/١) برقم (٣٨١٨). وهو حديث حسن لغيره، وهو عند الطيالسي في مسنده (٤٠٠٥) والبيهقي في الشعب (٢٨٥) والطبراني في الكبير (١٠٥٠٠) والأوسط (٢٥٥٠).

٨٢- ﴿وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٨٢﴾﴾

أي: وأما المؤمنون الذين صدّقوا بالله ورُسله واليوم الآخر، ولم يموتوا على الكفر والشرك، وعملوا بما يتفق مع شرع الله أعملاً صالحة خالصة لوجهه الكريم، متبعين فيها سنة خاتم النبيين فهم أهل النعيم الدائم والسعادة الأبدية، يخلّدون في الجنة خلوداً أبدياً لا ينقطع.

مُخَالَفَةُ الْيَهُودِ السَّابِعَةُ: عَدَمُ الْإِلْتِرَامِ بِحُقُوقِ اللَّهِ وَحُقُوقِ الْعِبَادِ

بُنُودُ الْمِيثَاقِ الْمَأْخُودِ عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ مُكَوَّنٌ مِنْ عَشْرَةِ مَوَادٍ:

٨٣- ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَءِيلَ لَا تَعْبُدُونَ^(١) إِلَّا اللَّهَ وَيَالُولِئِينَ إِحْسَانًا وَذِي الْقُرْبَىٰ
وَالْيَتَامَىٰ وَالسَّكِينِ وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا^(٢) وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ إِلَّا
قَلِيلًا مِّنْكُمْ وَأَنتُمْ مُّعْرِضُونَ ﴿٨٣﴾﴾

بنود هذا الميثاق من أصول الدين وشرائعه التي أمر الله بها خلقه في كل رسالة، لاشتمالها على المصالح العامة، فلم يدخلها النسخ، كأصل الدين، ولها نظائر في القرآن الكريم خاطب الله بها هذه الأمة كقوله تعالى: ﴿وَأَعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا﴾ [النساء: ٣٦] وآية البر وغيرهما.

تذكر هذه الآية شيئاً مفصّلاً عن الميثاق الذي أخذه الله على بني إسرائيل السابقين واللاحقين وهم تحت سقف الجبل حين رفعه الله عليهم لمّا لم يعملوا بما في التوراة فارتجفوا خوفاً ورعباً ورهبة من سقوط الجبل فوقهم، وأعلنوا إيمانهم بها والعمل بما فيها، فأخذ الله عليهم الميثاق وعلى جميع من يأتي بعدهم في ظلّ اليهودية، أن يعملوا بما في التوراة، وقيموا حكم الله فيها، وهذا الميثاق المأخوذ على بني إسرائيل في هذه الآية موجود في الإسلام، وفي جميع الشرائع السماوية. وهذه هي بنوده، مكوّنة من عشر مواد:

(١) قرأ ابن كثير وحمة والكسائي (لا يعبدون إلا الله) بياء الغيب جرياً على السياق، وقرأ الباقون بياء الخطاب، حكاية لما خاطبوا به، ليتناسب مع (وقولوا للناس حسناً).

(٢) قرأ حمزة والكسائي ويعقوب وخلف العاشر (وقولوا للناس حسناً) على أنه صفة لمصدر محذوف أي: قولاً حسناً، وقرأ الباقون (حُسْنًا) على أنه مصدر.

المادة الأولى: الإيمان بالله وحده:

والتوجه إليه بالعبادة دون سواه ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَءِيلَ لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ ۖ﴾ وهذا هو أساس دعوة الرسل، وأصل كل شريعة، فكلُّ رسول جاء إلى قومه ليقول لهم: ﴿اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ ۖ﴾ والتوحيد يقتضي بالضرورة ترك الشرك بالله، وهو الذنب الذي لا يُغفر إذا مات العبد عليه ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ﴾ [النساء: ٤٨، ١١٦] ﴿قُلْ أَغْفِرَ اللَّهُ تَأْمُرُونِي أَنْ أَعْبُدَ أَيُّهَا الْجَاهِلُونَ﴾ [الزمر]

وهو أول عهد أخذه الله عليهم وعلى غيرهم، وهو حق الله تعالى، ولا يقبل عمل بدونه. والشرك بالله يُحيط عمل أيِّ مخلوق، ولو كان رسول الله ﷺ كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَوْحَىٰ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكَتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ [١٥] بَلِ اللَّهَ فَاعْبُدْ وَكُنْ مِنَ الشَّاكِرِينَ﴾ [الزمر]

وقال سبحانه: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنْ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾ [النحل: ٣٦] وقال جل شأنه: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ﴾ [الأنبياء] ولكن اليهود نقضوا هذا العهد وقالوا: عزيز ابن الله، ونسبوا إلى الله تعالى ما لا يليق بالبشر، وبعد بيان حق الله تعالى شرعت الآية في بيان حقوق العباد وبدأت بالأهم فالأهم.

المادة الثانية: البر بالوالدين والإحسان إليهما:

﴿وَالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا﴾ وإن كانا مشركين أو ظالمين أو أساءا التربية، فلهما المرتبة الثانية بعد التوحيد: وهذا يعم الإحسان بالقول والفعل، والنهي عن الإساءة إليهما بالقول أو الفعل، وترك الإحسان إليهما إساءة، وهو محرم.

عن عبد الله بن مسعود ؓ قال: قلت: يا رسول الله، أي العمل أفضل؟ قال: «الصلاة على وقتها» قلت: ثم أي؟ قال: «بر الوالدين» قلت: ثم أي؟ قال: «الجهاد في سبيل الله»^(١) فهذا برُّ الوالدين في المرتبة الثانية بعد الصلاة؛ لأن للوالدين الفضل المباشر في

(١) «صحيح البخاري» برقم (٥٢٧، ٢٧٨٢، ٥٩٧٠) و«صحيح مسلم» برقم (٨٥).

وجود العبد في الحياة بعد الله سبحانه .

المادة الثالثة: الإحسان إلى الأقارب والأرحام:

﴿وَذِي الْقُرْبَىٰ﴾ من جهة الأب أو الأم، أو من جهتهما بصلتهم، ورعاية المحتاج منهم، والسؤال عنهم، ومودّتهم سيّما من يُكِنُّ للإنسان البغض والعداوة، فإن الإحسان والصدقة إليهم تستجلب مودّتهم وتمحو عداوتهم.

المادة الرابعة: الإحسان إلى اليتامى:

﴿وَالْيَتَامَىٰ﴾ وهم من كانوا دون سن البلوغ ممن مات آباؤهم وهم فقراء، ليس عندهم ميراث ولا معاش يكفيهم، ويكون ذلك الإحسان برعايتهم وكفالتهم وحسن تربيتهم وتعليمهم؛ حتى يمكنهم الكسب والعمل، ومن يبلغ منهم سنّ الحُلم لا يقال له يتيماً.

عن قيس بن سعد عن يزيد بن هرمز أن نجدة كتب إلى ابن عباس رضي الله عنهما يسأله عن سهم ذي القربى، لمن هو؟ وعن اليتيم، متى ينقضي يّتمه؟ وعن المرأة والعبد يشهدان الغنيمة؟ وعن قتل أطفال المشركين؟ فقال ابن عباس: لولا أن أردّه عن شيء يقع فيه ما أحبته، وكتب إليه: إنك كتبت إليّ تسألني عن سهم ذي القربى، لمن هو؟ وأنا كنا نراها لقربة رسول الله ﷺ فأبى ذلك علينا قومنا، وعن اليتيم متى ينقضي يّتمه؟ قال: إذا احتلم، أو أونس منه خيراً، وعن المرأة والعبد يشهدان الغنيمة، فلا شيء لهما، ولكن يحذيان ويعطيان، وعن قتل أطفال المشركين، فإن رسول الله ﷺ لم يقتلهم، وأنت فلا تقتلهم، إلا أن تعلم منهم ما علم الخضر من الغلام حين قتله^(١). فهذه أربعة أسئلة:

أولها: أن يُتَمَّ اليتيم ينتهي إذا بلغ سن الحلم أو أنس منه الرُّشد.

وثانيها: أن سهم ذوي القربى من الغنائم والفيء لقربة رسول الله ﷺ.

وثالثها: أن العبد والمرأة ليس لهما حقٌّ واجب في الغنيمة، ولكن إذا حضراها يُعطَيَا

(١) صححه أحمد شاكر في «المسند» برقم (٢٦٨٥) وإسناده صحيح على شرط مسلم كما قال محققوه، وانظر ٢٢٣٥ وصححه الألباني في «إرواء الغليل» على شرط مسلم (٨٢/٥). وأخرجه البيهقي في السنن الكبرى (٥٣/٩) وانظر صحيح مسلم (١٨١٢).

شَيْئًا نَظِييًّا لَخَاطَرِهِمْ كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَإِذَا حَضَرَ الْقِسْمَةَ أُولُو الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسْكِينُ فَأَرْزُقُوهُمْ مِنْهُ وَقُولُوا لَهُمْ قَوْلًا مَعْرُوفًا﴾ [النساء: ٨].

ورابعها: أن أطفال المشركين دماءهم معصومة ومُصانة في الإسلام.

المادة الخامسة: الإحسان إلى المساكين:

﴿وَالْمَسْكِينُ﴾ وهم الذين لا يجدون ما يكفي لسدّ فاقتهم وستر عورتهم، وكانوا معتدلين في الإنفاق بمستوى الفقير، غير مبدّدين للمال في وجوه مكروهة أو محرّمة أو في الترف والكماليات وهم من أهل الزكاة والصدقة.

المادة السادسة: مخاطبة الناس بالكلام الطيب الحسن الجميل:

﴿وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا﴾ أي: قولوا لجميع الناس قولًا حسنًا وكلامًا طيبًا وعاملوهم معاملة حسنة، كل بما يناسب حاله، فمن احتاج إلى المال أو المساعدة فساعدوه، والكلمة الطيبة صدقة وإن كان الطرف المقابل فظًّا غليظًا: قال تعالى ﴿وَقُلْ لِّعِبَادِي يَقُولُوا الَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ الشَّيْطَانَ يَنْزِعُ بَيْنَهُمْ﴾ [الإسراء: ٥٣]

ومن القول الحسن: الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وتعليم العلم، وبذل السلام، وطلاقة الوجه، والرد الجميل، ومقابلة السيئة بالإحسان.

ولما كان الإنسان لا يسع الناس بما له، أمره الله تعالى بالإحسان إليهم في القول، وفيه نهي لهم عن الكلام الفاحش البذيء، فلا يشتم ولا يسب ولا يخاصم، بل يكون حسن الخلق، واسع الحلم، صبورًا على ما يناله من أذى.

المادة السابعة: المحافظة على أداء الصلاة في أوقاتها مع الجماعة:

﴿وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ﴾ أدوها تامة في مواقيتها ﴿إِنَّ الصَّلَاةَ كَانَتْ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ كِتَابًا مَّوْقُوتًا﴾

[النساء: ١٠٣]

والمراد: تمام الركوع والخشوع والتلاوة فيها مع المداومة عليها في أوقاتها والمحافظة على أركانها وشروطها وآدابها، حتى تؤدي به إلى الانتهاء عن الفحشاء والمنكر. وهكذا أرشدتهم إلى العبادات التي تُحسن الصلة بينهم وبين الخالق والمخلوق، فأمرهم بالصلاة والزكاة.

المادة الثامنة: إخراج الزكاة المفروضة عليهم لمستحقيها:

﴿وَأَتُوا الزَّكَاةَ﴾ وكانت الزكاة المقبولة عند اليهود تنزل ناراً من السماء فتحملها، فأمرُوا بإخراج الزكاة، وأداء صدقة التطوع فإنها طهارة للمال وتركية للنفس.

وبعد ذكر هذه التكاليف الثمانية بين ﷺ شأن اليهود في النقص المستمر للعهد والمواثيق بعد التعقيب على ما جاء في هذه الآية ﴿ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ﴾ أي: أعرضتم ولم تعملوا بما أمرتم به فأشركتم بالله، وعققتهم الوالدين، وأسأتم إلى الأقارب واليتامى والمساكين وقتلتم للناس أفحش الأقوال، وتركتم الصلاة، ومنعتم الزكاة، وقطعتم ما أمر الله به أن يوصل ﴿إِلَّا قَلِيلًا مِّنْكُمْ﴾ ممن حافظ على العهد وظل متبعاً للحق حتى توفاه الله على ذلك أو أدرك الحق الذي جاء به محمد فآمن به وصدقه كعبد الله بن سلام، ﴿وَأَن تَرَوْا مُعْصِرِينَ﴾ مستمرون في هذا التولي، فهو وصف ثابت لكم، لأن من يتولى قد يكون له نية الرجوع، وهؤلاء ليس لهم رغبة ولا نية رجوع، ولذا وصفهم الله تعالى بالإعراض بعد التولي.

المادة التاسعة: أَخَذُ الْعَهْدِ الْمُؤَكَّدِ عَلَيْهِمْ أَلَّا يَسْفِكَ بَعْضُهُمْ دَمَ بَعْضٍ

٨٤- ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ لَا تَسْفِكُونَ دِمَاءَكُمْ وَلَا تُخْرِجُونَ أَنْفُسَكُمْ مِنْ دِينِكُمْ ثُمَّ أَقْرَضْتُمْ وَأَنْتُمْ تَشْهَدُونَ﴾

أي: وأخذنا عليكم العهد المؤكَّد أن لا يقتل أحدكم أحداً دون حدٍّ ولا قصاصٍ، وقد كان هذا يحدث وقت تنزل الوحي بالمدينة، وذلك أن الأوس والخزرج كانا بينهما قتال قبل الإسلام، فلما نزل الوحي، وكان في المدينة فرق اليهود الثلاث، حالفت كل فرقة منهم فريقاً من الأوس والخزرج، فإذا حدث بينهما قتال، استعان كل حليف بحليفه من اليهود، فكان اليهودي يقتل اليهودي، ويخرجه من داره، فإذا وضعت الحرب أوزارها، وكان بينهما أسرى، فدى بعضهم بعضاً، وكان الله قد أخذ عليهم الميثاق ألا يقتل بعضهم بعضاً، ولا يخرج بعضهم بعضاً من داره، وإذا وجده أسيراً وجب عليه فداؤه، فعملوا بالأخير وتركوا ما قبله، فوبخهم الله تعالى على إيمانهم ببعض الكتاب، وهو فداء الأسير، وكفرهم ببعض، وهو القتل والإخراج، وكانت قريظة والنضير حلفاء الأوس، وبنو قينقاع حلفاء الخزرج، وكل منهما يقاتل مع حليفه.

المادة العاشرة: ألا يُخرج بعضهم بعضاً من داره:

وألا يتسببوا في إخراج أنفسهم من ديارهم، فإن اليهودي حين يقتل اليهودي أو يخرج من داره، فكأنما قتل نفسه أو أخرجها من داره، ولذا عبر الله تعالى بالنفس دون الآخر، فقال: ﴿وَلَا تُخْرِجُونَ أَنْفُسَكُمْ مِّنْ دِيَارِكُمْ﴾ أي: لا يعتدي بعضهم على بعض فيخرجه من داره أو يجليه من وطنه، فقد أخذ الله عليكم - أيها اليهود - العهد بلزوم الميثاق والعمل بهذه التكاليف العشرة، فاعترفتم وأقررتم بها وأنتم تشهدون على أنفسكم بلزوم اتباعها والعمل بها.

وفي الآية توبيخٌ لليهود السابقين والحاليين واللاحقين على تضييع أحكام التوراة التي كانوا يقرون بها ويشهدون على ما فيها من العهود والمواثيق، وإن كان الخطاب موجهاً لليهود المدينة في عصر النبوة إلا أنه عام في اليهود في كل زمان ومكان.

ومجمل بنود هذا الميثاق: أن يعبدوا الله وحده، وأن يحسنوا إلى الآباء والأمهات، ويصلوا الأرحام، ويعطفوا على الأيتام، ويؤدوا حقوق المساكين، ويحثوا الناس على الخير، ويؤدوا الصلاة بفروضها وحدودها، ويخرجوا زكاة أموالهم، وألا يسفكوا دماء بعضهم ولا يخرج بعضهم بعضاً من داره، وهذا مثل المؤمنين في توادهم وتراحمهم وتعاطفهم كمثل الجسد الواحد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالحمى والسهر، فهل وفى اليهود بهذه العهود والمواثيق؟ هذا ما تشير إليه الآية التالية:

المُخَالَفَةُ الثَّامِنَةُ: أَرْبَعَةُ أَمْثَلَةٍ لِنَقْضِ الْيَهُودِ عُهُودَهُمْ:

٨٥- ﴿ثُمَّ أَنْتُمْ هَؤُلَاءِ تَقُولُونَ أَنْفُسَكُمْ وَتُخْرِجُونَ فَرِيقًا مِّنْكُمْ مِّن دِيَارِهِمْ تَظَاهَرُونَ^(١) عَلَيْهِمْ^(٢) بِالْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَإِن يَأْتُوكُمْ أُسْرَى^(٣)

(١) قرأ عاصم وحزمة والكسائي وخلف العاشر (تظاهرون) بتخفيف الظاء، على أن أصلها تتظاهرون، فحذفت إحدى التاءين، وقرأ الباقر (تظاهرون) بالتشديد على إدغام التاء في الظاء.

(٢) ضم الهاء من (عليهم) حمزة ويعقوب وكسرها الباقر.

(٣) قرأ حمزة (أسرى) جمع أسير، وقرأ الباقر (أسارى) جمع أسرى، فيكون جمعا للجمع.

تُفْدُوهُمْ^(١) وَهُوَ^(٢) مُحَرَّمٌ عَلَيْكُمْ إِخْرَاجُهُمْ أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الْكِتَابِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ فَمَا جَزَاءُ مَنْ يَفْعَلُ ذَلِكَ مِنْكُمْ إِلَّا خِزْيٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يُرَدُّونَ إِلَى أَشَدِّ الْعَذَابِ وَمَا اللَّهُ بِغَفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ^(٣)

إن اليهود لم يقوموا بشيء من هذه المواثيق السابق ذكرها بل نقضوها، ولم يعملوا بها، وفي هذه الآية بيان لنبذهم للمواثيق التي أخذها عليهم رب العالمين، ولم ينفذوا منها إلا ما وافق هواهم، فأمنوا ببعض الكتاب وكفروا ببعض.

قال السدي: أخذ الله عليهم أربعة عهود: ترك القتل لبعضهم، وترك الإخراج لأحد من داره، وترك المظاهرة، أي: ترك التعاون والتناصر عليهم بالإثم والعدوان، وفداء الأسير، فأعرضوا عن كل ما أمروا به إلا الفداء، فاستباحوا -ضمن ما استباحوا- سفك الدماء، وعملوا بما فرض عليهم من فداء الأسرى، فأمنوا ببعض الكتاب وكفروا ببعض. هذا: وقد ذكرت الآية أربع حالات فيها إيمان ببعض الكتاب دون بعض:

أولاً: قتل اليهودي لليهودي الآخر المتحالف مع قبيلة أخرى:

ذلكم قوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَنْتُمْ﴾ يا ﴿هَؤُلَاءِ﴾ بعد أخذ الميثاق عليكم، يقتل بعضكم بعضاً حين يقاتل مع حلفائه، فيقتل اليهودي المقاتل له مع قبيلة أخرى، هذه واحدة.

ثانياً: فإن بعضكم يخرج بعضاً من داره، وقد مُنِعْتُمْ من ذلك ﴿وَتُخْرَجُونَ فَرِيقًا مِنْكُمْ مِّن دِيَارِهِمْ﴾، وحين تخرجون إخوانكم اليهود من ديارهم فكأنما أخرجتم أنفسكم.

ثالثاً: فإن كل فريق منكم يتعاون مع الأعداء على إخوانه ويتقوى بهم عليه ظلمًا وبغيًا وعدوانًا.

وهذا معنى: ﴿تَظَاهَرُونَ عَلَيْهِمْ بِالْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ﴾ أي: يساند بعضهم بعضاً ويتخذونهم حلفاء يتعاونون معهم على إخراجهم بالإثم والعدوان، وأنتم في هذه البنود الثلاثة مخالفون للعهد والميثاق الذي أخذ عليكم.

(١) قرأ ابن كثير وأبو عمرو وابن عامر وحمزة وخلف العاشر (تفدوهم) بفتح التاء وسكون الفاء من فدى وقرأ الباقون (تفادوهم) من باب المفاعلة.

(٢) سكن الهاء من (وهو) قالون وأبو عمرو والكسائي وأبو جعفر، وضمها الباقون.

(٣) قرأ نافع وابن كثير وشعبة ويعقوب وخلف العاشر (يعملون) بياء الغيبة، لمناسبة (يردون إلى أشد العذاب) وقرأ الباقون بقاء الخطاب، لمناسبة (وإذ أخذنا ميثاقكم).

رابعاً: التعاون على فك الأسرى من اليهود:

﴿وَإِنْ يَأْتُوكُمْ أُسْرَىٰ تَفْدُوهُمْ﴾ أي أن اليهود يتعاونون على فك أسراهم ويخالفون في قتل قتل بعضهم بعضاً وإخراجهم من ديارهم، وهذا مخالف للميثاق الذي أخذه الله عليهم، فلماذا تُفْدُونَ واحدة -وهي فداء الأسير- وتخالفون في ثلاث: وهي سفك الدماء، وإخراجهم من ديارهم، والتعاون عليهم بالإثم والعدوان؟! ﴿أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الْكِتَابِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ﴾.

وقد كانت قُرَيْظَةُ والنضير حلفاء الأوس، وبنو قينقاع حلفاء الخزرج، وكلُّ منهما يُقاتل مع حليفه ويُناصره، فقتل اليهود بعضهم بعضاً، مفاخرة للأوس والخزرج، فإذا غلب أحد الفريقين أخرجه من داره بعد تخريبها، وإن جاء أسير من الفريقين جمعوا له مالاً وأفدوه، فغيرتهم العرب قائلين: فكيف تفدوهم من يد غيركم، وأنتم تقتلونهم بأيديكم مع الحلفاء، ما أقبح ما تفعلون فيجيبونهم: أمرنا أن نعدّ بهم، وحرّم علينا قتالهم، فإننا نستحي أن يُستذَلَّ حلفاؤنا^(١).

يقول سبحانه: ﴿فَمَا جَزَاءُ مَنْ يَفْعَلُ ذَلِكَ مِنْكُمْ﴾ أي: ما عقوبة من ينقض هذا الميثاق إلا ذلٌّ وصغار وفضيحة في الدنيا، وفي هذا ذمٌ لليهود؛ لأنهم يعتقدون صحة التوراة ويخالفون شرعها، وأنتم يا معشر يهود، أهل كتاب، والأوس والخزرج وثنيون لا يعرفون جنة ولا ناراً ولا حلالاً ولا حراماً، فكيف تكونون مثلهم، فتعاونون وتحالفون ضد أهل دينكم وملتكم؟ ابتغاء عرضٍ من الدنيا، مخالفين بذلك حكم الله في التوراة.

ومن المؤمنين في هذه الأمة من يؤمن ببعض الكتاب ويكفر ببعض، فينفذون أوامر الله تعالى في أمر العبادة كالصلاة والصيام والحج، ويعطّلونه في حدود الله، ويعطلون منهج الله تعالى في التعليم والإعلام والموالاتة، ويكتفون بإقامتها في الأحوال الشخصية،

(١) يُنْظَرُ: «سيرة ابن هشام» (١/ ٥٤٠) والطبري (٢/ ٢٠٣) وما بعدها وابن أبي حاتم (٨٥٤) وما بعده.

وها هم يَجْنُونَ ثَمَرَ ذَلِكَ ذَلًّا وَفُرْقَةً وَضَعْفًا وَخَذْلَانًا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا، كما حدث لليهود حين فُرِضَتْ عَلَيْهِمُ الْجِزْيَةُ وَأُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ لِأَوَّلِ الْحَشْرِ، وقتل مقاتلة قريظة، وسبي ذراريهم، وهذا خزيهم في الدنيا، وكذلك من يصنع صنيعهم من المسلمين، فإنهم يذوقون الخزي ألوانًا من أعدائهم اليهود والصليبيين، ويسلُطُ الله عليهم الحُكَّامُ الظلمة الجائرين.

أما عقاب الآخرة لمن يؤمن ببعض الكتاب ويكفر ببعض فقد جاء في تَمَّةِ الْآيَةِ ﴿وَيَوْمَ الْفِتْنَةِ يَرْدُّونَ إِلَٰهَ أَشَدِّ عَذَابٍ﴾ وأفظعه في نار جهنم ﴿وَمَا اللَّهُ بِغَفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ بل هو سبحانه عالمٌ بدقائق أمورهم، محيطٌ بكل شؤونهم، وسوف يعاقبهم على أفعالهم وأقوالهم.

ثم يَبَيِّنُ سبحانه السبب الذي جعلهم يؤمنون ببعض الكتاب ويكفرون ببعض فقال:

٨٦- ﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا بِالْآخِرَةِ فَلَا يَخَفُ عَنْهُمْ الْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ﴾

﴿أُولَٰئِكَ﴾ الذين يؤمنون ببعض الكتاب ويكفرون ببعض هم ﴿الَّذِينَ اشْتَرَوُا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا بِالْآخِرَةِ﴾ أي: باعوا نعيم الآخرة بحظوظ الدنيا، من حبِّ الرئاسة والمتاع فيها، وجعلوا الكفر ثمنًا له، وتركوا طاعة الله تعالى؛ وتوهموا أنهم إن لم يُعينوا حلفاءهم حصل لهم عار، فاختاروا النار على العار، ولهذا قال تعالى: ﴿فَلَا يَخَفُ عَنْهُمْ الْعَذَابُ﴾ يوم القيامة بل هو باقٍ على شدته، فلا يحصل لهم راحة في وقت من الأوقات ﴿وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ﴾ وليس لهم ناصرٌ ينصرهم من عذاب الله، وهم بذلك قد خسروا الدنيا فلن تبقى لهم، وخسروا الآخرة فعذابهم فيها سرمديٌّ، ولا يخفف عنهم منه ساعة، وليس هناك من يشفع لهم ويدفع عنهم عذاب الله تعالى ولا يجيرهم منه أحد يوم لقائه.

مُخَالَفَةُ الْيَهُودِ التَّاسِعَةُ: أَنَّهُمْ كَذَّبُوا رُسُلَ اللَّهِ وَقَتَلُوهُمْ

٨٧- ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَفَقَّيْنَا مِنْ بَعْدِهِ بِالرُّسُلِ وَآتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيْنَتَ وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ^(١) أَفَكُلَّمَا جَاءَكُمْ رَسُولٌ بِمَا لَا تَهْوَى أَنْفُسُكُمْ اسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ﴾

يمن الله على اليهود أن أرسل إليهم موسى عليه السلام وآتاه التوراة، ثم تابع بعده بالرسل الذين يحكمون بالتوراة إلى أن ختمهم بعيسى عليه السلام، وقواه بجبريل، وبالإيمان الذي يؤيد الله

(١) قرأ ابن كثير بإسكان الدال من لفظ (القدس) للتخفيف، وهي لغة تميم، وقرأ غيره بالضم وهي لغة أهل الحجاز.

به عباده، ولكن اليهود كذبوا فريقًا منهم وقتلوا فريقًا لما لم يأتوهم بما يوافق أهواءهم.

لقد حرّف اليهود التوراة وبدّلوها، ولم يعملوا بما فيها، وأرسل الله لهم رسلاً ترى بعد موسى ﷺ يحكمون بشريعته، فكذبوهم وآذوهم وحسدوهم واشتد عنادهم لهم، ومنهم عيسى ﷺ فقد كذبوه وهموا بقتله، وكذبوا محمداً ﷺ وهموا بقتله.

ولو أن حكام المسلمين وعلماءهم قاموا -في الوقت الحاضر- بما أوجب الله تعالى عليهم، من دعوة جميع أمم الأرض وشعوبهم إلى الدخول في الإسلام على مختلف لغاتهم ولهجاتهم؛ فإن الأمر بالنسبة لليهود لن يختلف عما أجابوا به رسول الله ﷺ من الكفر والتكذيب مما سجّله القرآن الكريم عليهم وهو يوضح إعراضهم وامتناعهم من الدخول في الإسلام، ويبين مواقفهم تجاه رسل الله وأنبيائه جميعاً من التكذيب لهم، والكفر بهم، وقتلهم أحياناً.

وفي هذه الآية يوبّخ الله تعالى اليهود؛ لأنهم خالفوا أمر التوراة وحرّفوها، وكذبوا من جاء بعد موسى من الرسل ومنهم عيسى عليه السلام مع تأييده بالمعجزات، وكلما جاءهم رسول لا يوافق أهواءهم كذبوه أو قتلوه.

يقول سبحانه: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ﴾ التوراة ﴿وَقَفَّيْنَا مِنْ بَعْدِهِ بِالرُّسُلِ﴾ أي أتبعنا بعضهم بعضاً، على منهاج واحد، وشريعة واحدة، فكان منهم: داود وسليمان وإلياس واليسع ويونس وزكريا ويحيى عليهم السلام، إلى أن كانت رسالة عيسى ﷺ حيث أنزل الله عليه الإنجيل وأيده بالمعجزات الباهرات، ثم ختم الله الرسالات بمحمد ﷺ ولكن الكفر برسل الله جميعاً ظلّ ملازماً لليهود وذلك أنهم كانوا يقولون للنبي ﷺ: يكفيننا ما أنزل الله علينا من الكتب، وما أرسل فينا من الرسل، فنحن ماضون على شريعة الرسل السابقين، ومتبعون لمنهجهم.

والله تعالى يلقي رسله الجواب، فيبين سبحانه أنه قد أرسل فيهم رسولهم موسى ﷺ، وأنزل عليه التوراة، فعيروها وحرّفوها وبدّلوها، ثم أرسل في بني إسرائيل رؤسلاً كثيرين يتبع بعضهم بعضاً كما قال سبحانه: ﴿ثُمَّ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا تَتْرَاءً﴾ [المؤمنون: ٤٤] وهؤلاء الرسل جميعاً، كانوا يحكمون بالتوراة، وبشريعة موسى ﷺ كما قال تعالى ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَا التَّوْرَةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ يَحْكُمُ بِهَا النَّبِيُّونَ الَّذِينَ أَسْلَمُوا لِلَّذِينَ هَادُوا وَالرَّبَّيُّونَ وَالْأَحْبَارُ بِمَا اسْتُحْفِظُوا

مِنْ كِتَابِ اللَّهِ وَكَانُوا عَلَيْهِ شُهَدَاءَ ﴿الْمائدة: ٤٤﴾ فالأنبياء في بني إسرائيل بعد موسى كانوا يَحْكُمُونَ بما في التوراة، ويعتمدون عليها في تشريعاتهم، ويدعون الناس إليها وإلى العمل بما فيها، وهم كعلماء أمة محمد ﷺ كلهم يدعون إلى التمسك بالقرآن، وإلى الإيمان بالنبي الخاتم، والعمل بسنته.

قال ابن عباس ؓ في الآية: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ﴾ التوراة جملة واحدة مُفَصَّلَةٌ محكمة ﴿وَفَقَّيْنَا مِنْ بَعْدِهِ بِالرُّسُلِ﴾ وهم:

- ١- رسولاً يُدعى أشمويلَ بنَ بابل.
- ٢- رسولاً يُدعى منشائيل.
- ٣- رسولاً يُدعى شعيا بن أمضيا.
- ٤- رسولاً يُدعى حزقييل.
- ٥- رسولاً يُدعى أرميا بن حلقيا، وهو الخضر.
- ٦- رسولاً يُدعى داود بن إيشا وهو أبو سليمان.
- ٧- رسولاً يُدعى المسيح عيسى ابن مريم.

فهؤلاء الرسل ابعتهم الله تعالى وانتخبهم للأمة بعد موسى بن عمران، وأخذ عليهم ميثاقاً غليظاً أن يؤدوا إلى أمتهم صفة محمد ﷺ وصفة أُمته^(١).

وأنبياء بني إسرائيل كانوا كثرة، حتى أنه ليوحد في الزمن الواحد، وفي المكان الواحد أكثر من رسول أو نبي مثل: أرميا وشمعون وحزقييل ويوشع، وداود وسليمان، وعزير وإلياس واليسع ويحيى وزكريا، وخاتمهم عيسى عليهم جميعاً أفضل الصلاة وأتم التسليم.

ولما كان عيسى ﷺ هو آخر نبي في بني إسرائيل، وكانت شريعته مبنية على شريعة موسى ﷺ غالباً، فقد أنزل الله على عيسى الإنجيل من باب التيسير ورفع الحرج والمشقة التي عُوقب بها اليهود، فحرّمت عليهم ما أحلّ الله ﴿فَيُظَاهِرُ مِنْ الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمًا عَلَيْهِمْ طَبِئَتْ أُحْلَتْ لَهُمْ﴾ [النساء: ١٦٠] ﴿وَلَا جُلَّ لَكُمْ بَعْضَ الَّذِي حُرِّمَ عَلَيْكُمْ﴾ [آل عمران: ٥٠] فبعض ما حرّم على اليهود أحلّه الله للنصارى.

وقد أيّد الله سبحانه عيسى بالمعجزات الدالة على صدقه ونبوته فقال: ﴿وَأَتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّنَاتِ﴾ أي: أن الله تعالى أيده بالمعجزات، ومن هذه المعجزات أنه كان:

(١) أخرجه ابن عساكر (٨/ ٣٣).

يَخْلُقُ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ فَيَنْفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِ اللَّهِ، وَيَبْرَأُ الْأَكْمَهَ وَالْأَبْرَصَ، وَيُحْيِي الْمَوْتَى بِإِذْنِ اللَّهِ، وَيَخْبِرُهُمْ بِمَا فِي بُيُوتِهِمْ مِمَّا يَأْكُلُونَ وَيَدْخُرُونَ.

وَأَيَّدَ اللَّهُ عِيسَى بِجِبْرِيلَ، كَمَا قَالَ تَعَالَى لَهُ: ﴿إِذْ أَيْدٰتُكَ بِرُوحِ الْقُدُسِ تُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهَلًا وَإِذْ عَلَّمْتُكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ﴾ [المائدة: ١١٠] حيث كان عيسى نفخة من روح الله نفخها جبريل في جيب درع مريم، فلم يتدنس ﷺ برحم امرأة ملطخ بالدم، ولم يكن محمولاً في صُلب أب من الآباء، ولذلك يقول سبحانه: ﴿وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ﴾ أي: قويناه بالروح المقدسة الطاهرة، وهو جبريل، وسُمي جبريل روحاً لأنه يأتي بالوحي، وفيه حياة القلوب.

وكان جبريل ملازماً لعيسى عليهما السلام حتى صعوده إلى السماء، وروح القدس هو جبريل كما نصَّ عليه ابن مسعود وابن عباس وقتادة وغيرهم في تفسير قوله تعالى: ﴿نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ﴾ عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنْذِرِينَ ﴿١٩٤﴾ بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ ﴿١٩٥﴾ [الشعراء].

ولما وضع النبي ﷺ منبراً لحسان بن ثابت في المسجد قال ﷺ فيما يرويه أبو هريرة وعائشة ؓ: «اللهم أيد حسان بروح القدس كما نافح عن نبيك»^(١).

وفي الصحيحين أن عمر بن الخطاب مرَّ بحسان وهو ينشد الشعر في المسجد، فالتفت عمر إلى أبي هريرة وقال: أنشدك الله، أسمعت رسول الله ﷺ يقول: «أجب عني، اللهم أيد بروح القدس»؟ فقال: اللهم نعم^(٢).

وفي حديث عن ابن مسعود رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «إن روح القدس نفث في روعي أنه لن تموت نفسٌ حتى تستوفي رزقها وأجلها، فاتقوا الله وأجملوا في الطلب»^(٣).

(١) رواه النجار تعليقاً كما في «تحفة الأشراف» (١٠/١٢) ورقمه في البخاري (٣٥٣١، ٤١٤٥، ٤١٤٦، ٦١٥٠) وأبي داود (٥٠١٥) والترمذي (٢٨٤٦) وابن سعد (١٥٧/٥) و«المسند» (٢٤٤٣٧)، وهو حديث صحيح لغيره، وأخرجه الطبراني في الكبير (٣٥٨٠) وأبو يعلى (٤٥٩١) وانظر صحيح مسلم (٢٤٩٠).

(٢) «صحيح البخاري» برقم (٤٥٣، ٣٢١٢، ٦١٥٢) و«صحيح مسلم» برقم (٢٤٨٥).

(٣) رواه البغوي في «شرح السنة» (٣٠٤/١٤) والسيوطي في «الدر المنثور» (١/٤٦٠). وصححه الألباني عن أبي أمامة كما في صحيح الجامع (٢٠٨٥) وهو في التمهيد لابن عبد البر (١/٢٨٤) وفي صحيح ابن حبان.

فماذا كان موقف بني إسرائيل تجاه سلسلة الأنبياء والمرسلين جميعاً، ممن أرسلوا فيهم؟ يقول سبحانه: ﴿أَفَكُلَّمَا جَاءَكُمْ رَسُولٌ بِمَا لَا تَهْوَىٰ أَنْفُسُكُمْ اسْتَكْبَرْتُمْ﴾ وأعرضتم عن اتباعه ﴿فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ﴾ أي: فريقاً كذبتهم، كعيسى ومحمد وداود وسليمان، وفريقاً تقتلون كيحيى وزكريا وغيرهما من رسل الله.

وقد حاولوا قتل النبي ﷺ أكثر من مرة بالسُّم والسَّحَر، وقال ﷺ في مرض موته: «ما زالت أكلة خبير تُعاودني، فهذا أو أن انقطاع أبهري». ففي رواية أنس رضي الله عنه أن يهودية أتت النبي ﷺ بشاة مسمومة فأكل منها، فجاء بها، فقيل: ألا تقتلها؟ قال: «لا» فما زلت أعرفها في لهوات رسول الله ﷺ^(١).

ترجمة عيسى وأمه: وعيسى عليه السلام: اسمٌ معرَّب، من يسوع، أو يشوع، ومعناه: السيد، أو المبارك، وقد وُلد عيسى في بيت لحم سنة ست مئة وعشرين قبل الهجرة، أثناء حكم الرومان، وكان حاكم القدس من قِبَل الرومان اسمه (هيردوس) وجاءته الرسالة في سنِّ الثلاثين، وبقي في الدنيا إلى سنِّ الثالثة والثلاثين.

أما مريم: فهو اسمٌ عبراني، وهي ابنة عمران، من سبط يهوذا، ولدت عيسى وهي في الثالثة عشرة من عمرها، وكان أبوها قد مات قبل ولادتها فكفلها زكريا زوج خالتها، وكان كاهناً من أحبار اليهود.

الْمُخَالَفَةُ الْعَاشِرَةُ: كُفْرُ الْيَهُودِ بِمُحَمَّدٍ ﷺ بَعْدَ الْإِيمَانِ بِهِ قَبْلَ الْبُعْثَةِ

٨٨- ﴿وَقَالُوا قُلُوبُنَا غُلْفٌ بَلْ لَعَنَهُمُ اللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَقَلِيلًا مَّا يُؤْمِنُونَ﴾

اعتذر اليهود عن الإيمان بما جاءت به الرسل، بأن قلوبهم مغلقة، لا تفقه ما يقوله محمد ﷺ، وقد بيّن الله سبحانه أنهم كذّبة، حيث طردهم من رحمته ولعنهم بسبب كفرهم، وأخبر أنهم يكفرون أكثر مما يؤمنون.

فهذه الآية تبين موقف اليهود تجاه دعوة محمد ﷺ، وبماذا أجابوا دعوته، وقالوا له: قلوبنا غلف، لا ينفذ إليها ما تقول، فهي مطموسة، مغلقة أو مغلقة، أو أنها لا تقبل دعوة

(١) حديث صحيح أخرجه البخاري برقم (٢٦١٧، ٤٤٢٨) و«صحيح مسلم» برقم (٢١٩٠).

أخرى، ولا تقبل رسولاً آخر بعد موسى عليه السلام، ولا كتاباً آخر، غير التوراة، أي: أن قلوبهم مليئة بالعلم، فهي لا تتسع إلى شيء آخر، ولا تؤمن بغير ما جاء به موسى ﷺ ﴿وَقَالُوا قُلُوبُنَا غُلْفٌ﴾ أي: قالوا لخاتم الرسل ﷺ: قلوبنا مغطاة لا ينفذ فيها قولك، وليس الأمر كما ادَّعَوْا، بل قلوبهم مطبوعٌ عليها، فهي لا تقبل هدى ولا إيماناً، بسبب أنهم كفروا ابتداءً، فلعنهم الله بسبب كفرهم وجحودهم كما أن إيمانهم بموسى قليل، وليس إيماناً كاملاً، ولا يدخل في الإسلام منهم إلا قليل، وهذا معنى: ﴿فَقَلِيلًا مَّا يُؤْمِنُونَ﴾ وهذا كقوله تعالى عنهم: ﴿وَقَوْلِهِمْ قُلُوبُنَا غُلْفٌ بَلْ طَبَعَ اللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [النساء: ١٥٥] وقوله سبحانه عن مشركي هذه الأمة: ﴿وَقَالُوا قُلُوبُنَا فِيْ أَكِنَّةٍ﴾ أي: أغطية وأوعية ﴿يَمَّا نَدْعُونَآ إِلَيْهِ وَفِيْءَاذَانِنَا وَقَرْ﴾ [فصلت: ٥] وهكذا: فاليهود يؤمنون ببعض التوراة ويكفرون ببعض، ويكفرون بعيسى ومحمد، وإن آمنوا بإيمانهم قليل. قال تعالى:

٨٩- ﴿وَلَمَّا جَاءَهُمْ كِتَابٌ مِّنْ عِندِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَمَّا جَاءَهُمْ مَا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ فَلَعْنَهُ اللَّهُ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾ (٨٩)

وحين جاء اليهود كتاب من عند الله على يد أفضل الخلق مصدق لما في التوراة، وكانوا إذا تقاتلوا مع المشركين الوثنيين في الجاهلية توعدوهم بخروجه وقتاله المشركين معهم، فلما بُعث محمد ﷺ كفروا به حسداً وبغياً وخالفوا ما قطعوه على أنفسهم من الإيمان والاستنصار به.

فهذه الآية تبين كفر اليهود بمحمد ﷺ بعد الإيمان به قبل بعثته، وذلك أنهم كانوا قبل مجيئه ﷺ يقولون للمشركين من الأوس والخزرج إذا تقاتلوا معهم: لقد أظللنا النبي الخاتم، أظللنا زمانه، فهو سيأتي في هذه الحقبة من الزمن، فإن أتى هذا النبي الخاتم فإننا سننصره، وسنكون معه عليكم، ونقاتلكم به، ونكون أول من يؤمن به ويفتح عليه، وهذا معنى قول الله سبحانه: ﴿وَلَمَّا جَاءَهُمْ﴾ أي: حين جاء اليهود ﴿كِتَابٌ مِّنْ عِندِ اللَّهِ﴾ هو القرآن ﴿مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ﴾ من التوراة ﴿وَكَانُوا مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ يستنصرون ببعثة محمد على المشركين الوثنيين ويقولون نحن سنقاتلكم معه، فهم خاتم النبيين كما تقول التوراة ﴿فَلَمَّا جَاءَهُمْ مَا عَرَفُوا﴾ وهو محمد وكتابه وعرفوه بصفاته وصدقه ﴿كَفَرُوا بِهِ﴾ وكذبوه.

وفى الآية الأخرى: ﴿وَلَمَّا جَاءَهُمْ رَسُولٌ مِّنْ عِندِ اللَّهِ﴾ [البقرة: ١٠١] هو محمد ﷺ والكتاب هو القرآن، وهو مصدقٌ للتوراة التي معهم، وكانوا قبل مجيء هذا النبي وهذا القرآن يقولون لمشركي العرب: إننا أول من سيفتح على محمد ويؤمن به؛ لأننا نعرفه كما نعرف أبناءنا من أوصافه وعلاماته في التوراة، لقد علموا أنه من العرب، وأن الرسالة قد خرجت من بني إسرائيل إلى يوم القيامة، لذلك فقد ﴿كَفَرُوا بِهِ﴾ حسدًا له وحقًا على خروج الرسالة من سلالتهم ﴿فَلَعَنَهُ اللَّهُ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾ أي: عليهم وعلى أمثالهم.

قال أبو العالية: كانت اليهود تستنصر بمحمد ﷺ على مشركي العرب، يقولون لهم: اللهم ابعث هذا النبي الذي نجده مكتوبًا عندنا حتى نُعَذِّبَ المشركين ونقتلهم، فلما بعث الله محمدًا ﷺ ورأوا أنه من غيرهم كفروا به حسدًا للعرب وهم يعلمون أنه رسول الله^(١).

وعن ابن عباس رضي الله عنهما: أن يهودًا كانوا يستفتحون على الأوس والخزرج برسول الله ﷺ قبل مبعثه، فلما بعثه الله من العرب كفروا به وجحدوا ما كانوا يقولون فيه: فقال لهم مُعَاذُ بْنُ جَبَلٍ، وَبِشْرُ بْنُ الْبَرَاءِ بْنُ مَعْرُورٍ: يا معشر اليهود: اتقوا الله، وأسلموا، فقد كنتم تستفتحون علينا بمحمد ﷺ ونحن أهل شرك، وتخبروننا أنه مبعوث، وتصفونه لنا بصفته، فقال سَلَامُ بْنُ مِشْكَمٍ: ما جاءنا بشيء نعرفه، وما هو بالذي كنا نذكر لكم! فأنزل الله الآية^(٢).

وقال قتادة: لما بعث الله محمدًا، فرأوه أنه قد بُعث من غيرهم كفروا به؛ حسدًا للعرب، وهم يعلمون أنه رسول الله، يجدونه مكتوبًا عندهم في التوراة^(٣).

أخرج الإمام أحمد وغيره بسنده عن سلمة بن سلامة بن وقش -وكان من أصحاب بدر- أنه كان لهم جارٌ يهوديٌّ من عبد الأشهل، وذلك قبل مبعث النبي ﷺ فخرج على مجلس قومه، وذكر لهم القيامة والبعث والحساب والميزان والجنة والنار، فقال له المشركون -وهم لا يؤمنون بشيء مما قاله-: ويحك يا فلان، أئيعت الناس بعد موتهم

(١) ابن كثير في تفسير الآية، والطبري برقم (١٥٢٦).

(٢) «سيرة ابن هشام» (١٩٦/٢) و«تفسير الطبري» برقم (١٥٢٠) من طريق سعيد بن جبير أو عكرمة وهو في ابن أبي حاتم (٩٠٥) وأبو نعيم في «الدلائل» (٤٣).

(٣) «تفسير الطبري» (١٥٤١).

إلى دار فيها جنة ونار؟ قال: نعم، وأقسم أنه لو وُضع في أعظم تُنُور في الدنيا، وأُطبق عليه؛ لينجو من عذاب النار غداً لكان أهونَ عليه، فسأله: وما علامة ذلك؟ قال: نبيٌّ يبعث من هذه البلاد، وأشار بيده نحو مكة واليمن، قالوا: ومتى نراه؟ قال سلمة -وكان أصغر القوم-: فنظر اليهودي إليَّ وقال: إن يستنفذ هذا الغلام عمره يدركه، قال سلمة: فوالله ما ذهب الليل والنهار حتى بعث الله محمداً ﷺ واليهوديَّ حَيٍّ بين أظهرنا، فأما به، وكفر اليهوديَّ حسداً له، فقلنا له: ويلك يا فلان، أَلست بالذي قلت لنا ما قلت؟ قال: بلى، وليس هو^(١).

وأخرج الطبري بسند حسن عن قتادة أن اليهود كانوا يقولون لكفار العرب: اللهم ابعث هذا النبي الذي نجده في التوراة يعذبهم ويقتلهم! فلما بُعث محمدٌ من غيرهم كفروا به حسداً للعرب، وهم يعلمون أنه رسول الله^(٢).

ذُمُّ الْقُرْآنِ لِلْيَهُودِ عَلَى اسْتِبْدَالِهِمُ الْإِيمَانَ بِالْكَفْرِ

٩٠ - ﴿بَشِّرْهُمْ^(٣) بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ بَعْثًا أَن يُنَزَّلَ^(٤) اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ فَبَاءُوا بِغَضَبٍ عَلَى غَضَبٍ وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ مُهِينٌ^(٥)﴾
ثم ذمهم القرآن الكريم، وقبَّح استبدالهم الإيمان بالكفر بسبب الحسد، فقبح ما اختاره بنو إسرائيل لأنفسهم، حين استبدلوا الإيمان بالكفر، حسداً منهم لنزول الوحي على محمد ﷺ فاستوجبوا بذلك غضب الله عليهم مرتين: مرة لتحريفهم التوراة، ومرة لجحودهم نبوة محمد ﷺ كما قال تعالى: ﴿بَعْثًا﴾ أي: حسداً من عند أنفسهم، بعدما

(١) انظر الحديث بتمامه في «المسند»: (٤٦٧/٣) برقم (١٥٨٤١) قال محققوه: إسناده حسن، وأخرجه الطبراني (٦٣٢٧) فقد ذكره الهيثمي في «مجمع الزوائد» (٢٣٠/٨) ونسبه إلى الطبراني وأحمد وقال: رجال أحمد رجال الصحيح غير ابن إسحاق وقد صرح بالسماع، وصححه الحاكم ووافقه الذهبي في «المستدرک» (٤١٧/٣) وأخرجه أبو نعيم برقم (٣٤) والبيهقي كما في «الدر المنثور» (٧٨/٢).
(٢) الطبري (٢٣٩/٢).

(٣) قرأ ورش وأبو جعفر وأبو عمرو بخلف عنه بإبدال الهمزة ياء وصلًا ووقفًا وكذا حمزة عند الوقف، وحققها ساكنة الباقون.

(٤) قرأ ابن كثير وأبو عمرو (أن يُنَزَّلَ) بتخفيف الزاي، مضارع أنزل، وقرأ الباقون بتشديد الزاي، مضارع نزل.

تبيين لهم الحق، فسبب كفرهم به هو الحسد حيث انتقلت الرسالة من بني إسرائيل إلى العرب، فالحسد بسبب ﴿أَنْ يُزَلَّ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ﴾ وكيف خرجت الرسالة من سلالة بني إسرائيل إلى سلالة إسماعيل من العرب؟

والله تعالى يَمُنُّ من فضله على من يشاء من عباده ﴿أَمْ يَحْسُدُونَ النَّاسَ عَلَى مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ﴾ [النساء: ٥٤]

قال سبحانه ﴿فَبَاءُوا بِغَضَبٍ عَلَى غَضَبٍ﴾ أي: عاقبهم الله بغضبين:

الغضب الأول: بسبب عبادتهم للعجل من دون الله، وعدم إيمانهم بعيسى عليه السلام وبإنجيل، وتحريفهم للتوراة.

والغضب الثاني: بسبب عدم إيمانهم بمحمد ﷺ وبالقرآن ﴿وَالْكَافِرِينَ عَذَابٌ مُهِينٌ﴾ يُذْلَهُمْ وَيُخْزِيهِمْ.

ومنشأ هذا الحسد هو الكبر، وقد قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾ [غافر: ٦٠].

وعن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده عبد الله بن عمرو رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «يُحْشَرُ الْمُتَكَبِّرُونَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَمْثَالَ الذَّرِّ فِي صُورِ النَّاسِ يَعْلُوهُمْ كُلُّ شَيْءٍ مِنَ الصَّغَارِ حَتَّى يَدْخُلُوا سَجَنًا فِي جَهَنَّمَ يُقَالُ لَهُ: بُؤْسٌ، تَعْلُوهُمْ نَارُ الْأَنْيَارِ، يُسْقُونَ مِنْ طِينَةِ الْخَبَالِ؛ عَصَاةُ أَهْلِ النَّارِ»^(١).

الْمُخَالَفَةُ الْحَادِيَةَ عَشْرَةَ: التَّعَصُّبُ الدِّينِيُّ عِنْدَ الْيَهُودِ

٩١- ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ ءَامِنُوا بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ قَالُوا تَوْفِنَا بِمَا أَنْزَلَ عَلَيْنَا وَكَفَرُوا بِمَا وَرَأَوْا

(١) رواه أحمد في «المسند» (١٧٩/٢) برقم (٥٩٧٣) والبخاري (٢٢١٥، ٥٩٧٤) وغيرهما وفي مسلم (٢٧٤٣) وأبو داود (٣٣٨٧) وابن حبان (٨٩٧) والترمذي برقم (٤٢٩٢) وقال: حديث حسن صحيح، وذكره الألباني في صحيح «الجامع الصغير» (٣٢٧/٦).

(٢) قرأ هشام والكسائي ورويس بإشمام كسرة القاف من (قيل) الضمة والباقون بالكسرة الخالصة.

وَهُوَ (١) الْحَقُّ مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَهُمْ قُلْ فَلِمَ تَقُولُونَ أَتَيْتَنَا (٢) اللَّهُ مِنْ قَبْلُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿٩١﴾
 أي: وإذا أمر اليهود بالإيمان بمحمد، قالوا: نحن نؤمن بما أنزل علينا ونكفر بغيره، مع أن القرآن هو الحق في جميع ما اشتمل عليه، وهو يوافق التوراة التي بين أيديهم، فهو حجة لهم على صدقها، على أن وحي السماء واحد، والتفريق بين رسل الله كفر، والكفر بالقرآن كفر بما سواه.

وفي موقف ثالث تجاه دعوة بني إسرائيل للإيمان بالقرآن والرسول، أن المسلمين إذا قالوا لليهود المعاصرين للنبي ﷺ: صدّقوا بما أنزل الله على محمد، قالوا: نحن نؤمن بما أنزل على نبينا موسى، ولا نؤمن بغيره، يقولون: نحن نكتفي بما أنزل الله علينا ونؤمن بالتوراة، ويقول النَّصَارَى: نحن نؤمن بالإنجيل، ونكفر بما سوى ذلك أي، ونجحد ما عداه ﴿وَيَكْفُرُونَ بِمَا وَرَاءَهُ﴾ فردّ الله عليهم مقالتهم بأمرين:

الأول: أن من يكفر بالقرآن فقد كفر بالتوراة؛ لأنه الحق المطابق للواقع الموافق للتوراة، فهو ﴿الْحَقُّ مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَهُمْ﴾ أي: مع أن القرآن يصدّق التوراة التي بين أيديهم.

الأمر الثاني: إن كنتم مؤمنين بما أنزل عليكم ﴿فَلِمَ تَقُولُونَ أَتَيْتَنَا اللَّهُ مِنْ قَبْلُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ أي: إن كنتم كما تزعمون أنكم تؤمنون بكتب الله كالتوراة والإنجيل وبرسل الله كموسى وعيسى عليهما السلام فلم قتلتم أيها اليهود أنبياء الله كيحيى وزكريا؟! وقد حرّم الله عليكم قتلهم في الكتاب الذي أنزل عليكم، وأمركم باتباعهم وطاعتهم، ولم كذبتم نبيكم الأكبر، مُنْقَذَكُمْ مِنْ هَلَاكِ فِرْعَوْنَ، وهو موسى ﷺ!؟

الْمُخَالَفَةُ الثَّانِيَّةُ عَشْرَةَ: عِبَادَةُ الْيَهُودِ لِلْعِجْلِ الذَّهَبِيِّ

٩٢- ﴿وَلَقَدْ جَاءَكُمْ مُوسَى بِالْبَيِّنَاتِ ثُمَّ اخْتَلَفْتُمْ الْعِجْلَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَنْتُمْ ظَالِمُونَ﴾ ﴿٩٢﴾

ثم إن كنتم - يامعشر يهود - تؤمنون بموسى عليه السلام، فَلِمَ عبدتم العجل؟ وقد

(١) سكن الهاء من (وهو) قالون وأبو عمرو والكسائي وأبو جعفر وضمها الباقون.

(٢) وقف البزي بهاء السكت على (فلم) بخلف عنه ويعقوب بلا خلاف.

(٣) قرأ نافع (أنبياء الله) بالهمزة قبل الألف، والباقون بالياء.

جاءكم موسى بالمعجزات والبراهين الساطعة - كالعصا واليد والطوفان والجراد والقمل والضفادع والدم وفرق البحر وتظليل الغمام والمن والسلوى ونتق الجبل وانثاق الحجر، وغير ذلك من الآيات الدالة على صدق رسالته - فلم اتخذتم العجل معبودًا من دون الله؟ وأشربتم حبه في قلوبكم بسبب كفركم، ولم لَمْ تَؤْمِنُوا بالتوراة حتى رفع الله فوقكم جبل الطور، فكان كالظلة فوق رؤوسكم يخوِّفكم ويهددكم حتى آمنتكم بها؟ ذلكم قول الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ جَاءَكُمْ مُوسَىٰ بِالْبَيِّنَاتِ ثُمَّ اتَّخَذْتُمُ الْعِجْلَ مِن بَعْدِهِ﴾ أي: من بعد ذهابه إلى ميقات ربه ﴿وَأَنْتُمْ ظَالِمُونَ﴾ متجاوزون حدود الله.

وجاء الحديث مفصلاً عن عبادة العجل في سورة الأعراف، من الآية: ١٤٨ - ١٥٢ وفي سورة طه في الآية: ٩١ مع ما قبلها وما بعدها.

الْمُخَالَفَةُ الثَّالِثَةُ عَشْرَةَ: تَرَكُ الْيَهُودِ الْعَمَلَ بِمَا فِي التَّوْرَةِ

٩٣- ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطُّورَ خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ وَأَسْمِعُوا قَالُوا سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَأَشْرَبُوا فِي قُلُوبِهِمْ^(١) الْعِجْلَ بِكُفْرِهِمْ قُلْ يَسْكَا يَا مُرْكُم^(٢) يَهْ إِيْمَنُكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿٩٣﴾

أشارت آية الميثاق الأول إلى أن رفع جبل الطور فوق رؤوس اليهود كان بسبب عدم قبولهم للتوراة أصلاً ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطُّورَ خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ وَادْكُرُوا مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿٩٣﴾﴾ [البقرة: ٦٣].

وأضافت هذه الآية إعلانهم العصيان وعدم العمل بما فيها؛ لأن قلوبهم قد أعماها حبُّ عبادة العجل.

فاذكروا - يا بني إسرائيل - حين أخذنا عليكم العهد المؤكَّد بقبول ما جاء به موسى في

(١) قرأ أبو عمر ويعقوب (في قلوبهم العجل) بكسر الهاء والميم وصلًا وحمزة والكسائي بضمهما وصلًا، ومعهما خلف العاشر.

(٢) قرأ أبو عمرو بإسكان الراء واختلاس حركتها، وذلك من (يا مكرم) بإعطائها ثلثي الحركة، والباقون بالضم الكامل، ومعهم الدوري عن أبي عمرو، فللدوري ثلاثة أوجه فيها هي: الإسكان، والاختلاس، وإتمام حركة الضم فيها.

التوراة فنقضتم العهد، ورفعنا فوقكم جبل الطور، وقلنا: خذوا ما آتيناكم بجد واسمعوا وأطيعوا وإلا أسقطنا عليكم الجبل فقلتم سمعنا وعصينا؛ لأن عبادة العجل قد امتزجت بقلوبكم لتماديكم في الكفر.

وذلك أن موسى عليه السلام لما أحرق العجل وذراه في اليمّ لم يبقَ بحرٌ يجري يومئذٍ إلا وقع فيه منه شيء، ثم قال لهم موسى: اشربوا منه، فشربوا، فمن كان يحبه خرج على شاربيه الذهب. هذا قول السُّدي^(١).

وأخرج ابن أبي حاتم عن علي عليه السلام قال: عمد موسى إلى العجل، فوضع عليه المبارد، فبردَ بها وهو على شاطئ نهر، فما شرب أحدٌ من ذلك الماء ممن كان يعبد العجل إلا اصفرَّ وجهه مثل (الذهب)، وبنحوه قال سعيد بن جبير وغيره عليه السلام^(٢).

فذلكم قوله تعالى: ﴿وَأَشْرَبُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْعِجْلَ بِكُفْرِهِمْ﴾ وأكبرُ ذنوبكم أيها اليهود بعد ذلك كفركم بخاتم النبيين وسيد المرسلين المبعوث للخلق أجمعين، فكيف تدعون لأنفسكم الإيمان مع نقضكم المواثيق وعبادتكم العجل وكفركم بسيد المرسلين، وبدل أن تسمعوا وتطيعوا قلتم: سمعنا وعصينا، ولم تقبلوا أوامر الله ونواهيه إلا بعد التهديد ورفع الطور فوقكم، فإن كان هذا إيماناً فبئس ما يأمركم به إيمانكم من الكفر والضلال، هذا إن كنتم مؤمنين ومصدقين بما أنزل الله عليكم!؟

المُخَالَفَةُ الرَّابِعَةُ عَشْرَةَ : دَعْوَى الْيَهُودِ حَقَّ الْإِمْتِيَازِ عَلَى الْبَشَرِ

٩٤ - ﴿قُلْ إِنْ كَانَتْ لَكُمْ الدَّارُ الْآخِرَةُ عِنْدَ اللَّهِ خَالِصَةً مِّنْ دُونِ النَّاسِ فَتَمَنَّوْا الْمَوْتَ إِنْ

كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿٩٤﴾

في هذه الآية تصحيح لمزاعم اليهود، فهم يزعمون أن الآخرة لهم من دون الناس، وأن النار لن تمسهم إلا أياماً معدودة، وأنهم أبناء الله وأحباؤه، فيا من تدعون أنكم أهل الجنة، وأن الدار الآخرة خالصة لكم من دون الناس، وأنكم أبناء الله وأحباؤه، إن كان الأمر كذلك فتمنوا لقاء الله، وادعوا على أنفسكم بالموت، فإن الحبيب يود لقاء حبيبه،

(١) يُنْظَرُ: «تفسير ابن كثير» (١/٣٣٠).

(٢) «تفسير ابن أبي حاتم» (١/٢٨٢).

أو ادعوا بالموت على أي الفريقين أكذب؛ أنتم أم المسلمون، على وجه المباهلة، فليس لكم بعد هذا العناد إلا أحد أمرين:

إما أن تؤمنوا بالله ورسوله.

وإما أن تباهلوا على ما أنتم عليه، بتمنى الموت الذي يوصلكم إلى الدار الخالصة لكم من دون الله، فامتنعوا من ذلك كله.

وسُميت المباهلة تمنياً؛ لأن كل محقٍّ يودُّ لو أهلك الله المبطل المناظر له، كأنه قيل لهم: ادعوا على الكاذبين، واعلموا أن الله سبحانه يهلك الكاذب بالمباهلة.

﴿قُلْ﴾ يا محمد لليهود الذين يزعمون أن الجنة خاصة بهم؛ لأنهم أبناء الله وأحباؤه: ﴿إِنْ كَانَتْ لَكُمْ الدَّارُ الْآخِرَةُ عِنْدَ اللَّهِ خَالِصَةً مِّنْ دُونِ النَّاسِ﴾ أي: إن كان الأمر كذلك، فادعوا على الكاذبين منكم أو من غيركم بالموت ﴿فَتَمَنَّوْا الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ ﴿فَمَنْ أَيْقَنَ أَنَّهُ مِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ اشْتَقَ إِلَيْهَا، فَادْعُوا عَلَى أَنْفُسِكُمْ بِالْمَوْتِ وَتَمَنَوْهُ إِنْ كُنْتُمْ أَبْنَاءَ اللَّهِ وَأَحِبَّاءَهُ.﴾

وفي الأثر عن ابن عباس رضي الله عنهما: لو تمنوا الموت لشرق أحدهم بريقه^(١).

صحَّ عن ابن عباس أيضاً أن رسول الله ﷺ قال: «... ولو أن اليهود تمنوا الموت لماتوا ولرأوا مقاعدهم من النار، ولو خرج الذين يباهلون رسول الله ﷺ لرجعوا لا يجدون مالا ولا أهلاً»^(٢).

وقال ابن عباس ؓ في ﴿فَتَمَنَّوْا الْمَوْتَ﴾ أي: ادعوا بالموت على أي الفريقين أكذب، فأبوا ذلك، ولو تمنوه يوم قالوا ذلك ما بقي على وجه الأرض يهودي إلا مات^(٣).

(١) ابن أبي حاتم بسند صحيح برقم (٩٣٦) والطبري (٢/٢٦٨).

(٢) من حديث صحيح بأطول من هذا في «المسند» (٢٢٢٥) وأخرجه ابن جرير (٢/٣٦٢) و«تفسير عبد الرزاق» ص ٤١ ورجاله ثقات وإسناده صحيح عن ابن عباس، يُنظر ابن أبي حاتم (٩٣٧، ٩٤٠) و«سيرة ابن هشام» (١/٥٤٢).

(٣) «سيرة ابن هشام» (١/٥٤٢) وابن أبي حاتم (١/١٧٧) (٩٣٧، ٩٤٠) والطبري (٢/٢٦٩).

ونظير هذه الآية قوله تعالى: ﴿قُلْ يَتَّيِبُهَا لِلَّذِينَ هَادُوا إِن زَعَمْتُمْ أَنَّكُمْ أَوْلِيَاءُ لِلَّهِ مِنْ دُونِ النَّاسِ فَتَمَنَّوْا الْمَوْتَ إِن كنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ [الجمعة]

وذكرت المباهلة في قصة عيسى عليه السلام مع وفد نصارى نجران في سورة آل عمران ﴿فَمَنْ حَاجَّكَ فِيهِ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْا نَدْعُ أَبْنَاءَنَا وَأَبْنَاءَكُمْ وَنِسَاءَنَا وَنِسَاءَكُمْ وَأَنْفُسَنَا وَأَنْفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَلْ لَعْنَتَ اللَّهِ عَلَى الْكَاذِبِينَ﴾ [آل عمران].

الْمُحِبُّ يَتَمَنَّى لِقَاءَ حَبِيبِهِ

٩٥- ﴿وَلَنْ يَتَمَنَّوْهُ أَبَدًا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ﴾^(١) وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ ﴿٩٥﴾

ثم بين سبحانه وتعالى أن اليهود لن يتمنوا الموت أبداً بسبب ما قدّموه في حياتهم من كفرهم بالله، ولما يعرفونه من صدق النبي محمد ﷺ ومن كذبهم واقترائهم على الله تعالى بنسبة الشريك إليه، ومن الكفر بمحمد ﷺ وتحريفهم للتوراة وبسبب ما ارتكبه من المعاصي لأنهم يعلمون أن الموت طريق للحساب والجزاء، فالموت أكره شيء إليهم، وهم أحرص على الحياة من كل الناس، حتى من المشركين الذين لا يؤمنون بالله ولا برسوله ﷺ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ وسيجازيهم على ما قدّمت أيديهم.

وفي سورة الجمعة: ﴿وَلَا يَتَمَنَّوْهُ أَبَدًا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ﴾ [الجمعة].

وفي الحديث عن أنس رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «لا يتمنين أحدكم الموت لضرِّ أصابه، فإن كان لا بُدَّ فاعلًا فليقل: اللهم احيني إذا كانت الحياة خيراً لي وتوفني إذا كانت الوفاة خيراً لي»^(٢).

وفي الحديث عن عبد الله بن بسر رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «خيركم من طال عمره وحسن عمله»^(٣)

(١) ضم الهاء من (أيديهم) يعقوب وكسرها غيره.

(٢) «صحيح مسلم» عن أنس برقم (٢٦٨٠) والبخاري برقم (٥٦٧١)، (٦٣٥١).

(٣) رواه أحمد، «المسند» بنحوه (٢٣٥/٢) برقم (١٧٦٨٠، ١٧٦٩٨) إسناده صحيح ورجاله ثقات، كما قال محققوه، وأخرجه ابن ماجه (٣٧٩٣) وابن حبان (٨١٤) والطبراني في الأوسط (٢٢٨٩) والحاكم (١/٤٩٥)، والترمذي برقم (٢٣٢٩).

الْمُخَالَفَةُ الْخَامِسَةُ عَشْرَةَ: الْيَهُودُ أَشَدُّ النَّاسِ كَرَاهِيَةً لِلْمَوْتِ وَحِرْصًا عَلَى الْحَيَاةِ

٩٦- ﴿وَلَنَجْذِثُنَّهُمْ أَحْرَصَ النَّاسِ عَلَى حَيَوٰةٍ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا يَوَدُّ أَحَدُهُمْ لَوْ يُعَمَّرَ أَلْفَ سَنَةٍ وَمَا هُوَ بِمُرْضَخٍ مِنْهُ مِنَ الْعَذَابِ أَنْ يُعَمَّرَ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ﴾^(١)

في هذه الآية بيان شدة محبة اليهود للدين، وحرصهم عليها، وأنهم مهما عمروا فيها فإن ذلك لا ينجيهم من عذاب الله.

ثم إن الذين يزعمون أن الدار الآخرة خالصة لهم من دون الناس هم أشد الناس كراهية للموت، وأحرص الناس على أدنى حياة ولو كان فيها بؤس وشقاء، ولو كانوا أولياء لله من دون الناس لرحبوا بالانتقال إلى الآخرة ﴿وَلَنَجْذِثُنَّهُمْ أَحْرَصَ النَّاسِ عَلَى حَيَوٰةٍ﴾ لما يعلمون من سوء عاقبتهم، وما يخافون منه واقع لا محالة.

وهم أحرص على الحياة من المشركين الذين لا كتاب لهم، ولا يؤمنون ببعث ولا حساب ولا جزاء، ومع ذلك فهم أشد حرصاً منهم على أطول حياة، يودُّ أحدهم ويتمنى لو يُعمر في هذه الدنيا ألف سنة، وحتى لو عُمر ألف سنة أو أكثر فإن عُمره هذا لن يمنعه ولن ينجيه من عذاب الله في الآخرة، فقد حُبِبَتْ إليهم الخطيئة طول العمر ﴿وَمَا هُوَ بِمُرْضَخٍ مِنْهُ مِنَ الْعَذَابِ أَنْ يُعَمَّرَ﴾، مهما طال عمره فإن مصيره إلى النار، ولن ينجيهم طول العمر من العقوبة، فها هو إبليس لم ينفعه عمره الطويل أن ينجو من النار بسبب كبره وكفره ﴿وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ﴾ لا يخفى عليه شيء من أعمالهم، وسوف يجازيهم عليها.

مُخَالَفَةُ الْيَهُودِ السَّادِسَةُ عَشْرَةَ: عَدَاوَتُهُمْ لِرَسُولِ الْوَحْيِ جِبْرِيلَ عَلَيْهِ السَّلَامُ

٩٧- ﴿قُلْ مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِجِبْرِيلَ^(٢) فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلَى قَلْبِكَ بِإِذْنِ اللَّهِ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَهُدًى وَبُشْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ﴾

(١) قرأ يعقوب (تعملون) بناء الخطاب على الالتفات، وقرأ الباقون بالياء وفقاً للسياق.

(٢) قرأ نافع وأبو عمرو وابن عامر وحفص وأبو جعفر ويعقوب (لجبريل) بكسر الجيم والراء وبعدها ياء، وقرأ ابن كثير (لجبريل) بفتح الجيم وياء بعد الراء، وقرأ حمزة والكسائي وخلف وشعبة بخلف عنه (لجبريل) بجيم مفتوحة وراء مفتوحة بعدها همزة مكسورة بعدها ياء، وقرأ شعبة في الوجه الثاني (لجبريل) كالقراءة السابقة ولكن بدون ياء بعد الهمزة، وكلها لغات، ومثلها (وجبريل) في الآية التالية.

قل - أيها الرسول - لليهود الذين قالوا: إن الذي منعهم من الإيمان بك، أن جبريل ينزل عليك بالوحي، ويزعمون أنه عدو لهم، ولو أن غيره ينزل عليك كميكائيل، لآمنوا بك، قل لهم: هذا تناقض وتكبر على الله، فإن جبريل هو الذي ينزل على الرسل جميعاً، وعداوته كفر بالله وآياته ورسله.

نزلت هذه الآية ردّاً على زعم اليهود أن جبريل عدو لهم، وأن ميكائيل ولي لهم.

١- في صحيح البخاري وغيره عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: سمع عبد الله بن سلام بمقدم النبي ﷺ وهو في أرض يحترف^(١) فأتى النبي ﷺ فقال: إني سائلك عن ثلاث لا يعلمهن إلا نبي: ما أول أشراط الساعة؟ وما أول طعام أهل الجنة؟ وما ينزع الولد: إلى أبيه أو إلى أمه؟ قال: «أخبرني بهذا جبريل آنفاً» قال: جبريل؟ قال: «نعم» قال: ذاك عدو اليهود من الملائكة، فقرأ النبي ﷺ هذه الآية ﴿قُلْ مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِجِبْرِيلَ فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلَى قَلْبِكَ﴾.

قال: «أما أول أشراط الساعة: فأنار تحشر الناس من المشرق إلى المغرب، وأما أول طعام يأكله أهل الجنة: فزيادة كبد الحوت، وإذا سبق ماء الرجل نزع الولد، وإذا سبق ماء المرأة نزعت».

قال: أشهد أن لا إله إلا الله، وأشهد أنك رسول الله، يا رسول الله: إن اليهود قوم بُهت، وإنهم إن تعلموا بإسلامي قبل أن تسألهم بهتوني.

فجاءت اليهود، فقال لهم رسول الله ﷺ: «أي رجل عبد الله بن سلام فيكم؟» قالوا: هو خيرنا وابن خيرنا، وسيدنا وابن سيدنا، قال: «أرايتم إن أسلم؟» قالوا: أعاذة الله من ذلك، فخرج عبد الله فقال: «أشهد أن لا إله إلا الله، وأشهد أن محمداً رسول الله» فقالوا: هو شرنا وابن شرنا، وانتقصوه، فقال: هذا الذي كنت أخاف يا رسول الله!!^(٢).

(١) أي: يلتقط البُشر أو الرطب الذي ينزل من النخل.

(٢) انفرد البخاري بهذا اللفظ برقم (٤٤٨٠) وانظر (٣٢٢٩، ٣٩٣٨) وأخرجه أحمد في «المسند»، (١٢٠٥٧، ١٣٨٦٨) وابن أبي شيبة (١٢٥/١٣) والنسائي في «الكبرى» (٨٢٥٤) وأبو يعلى (٣٤١٤) وابن حبان (٧١٦١) وعبد بن حميد (١٣٨٩).

٢- وفي رواية سعيد بن جبير عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: أقبلت يهودٌ على رسول الله ﷺ فقالوا: يا أبا القاسم، أخبرنا عن خمسة أشياء، فإن أنبأتنا بها عرفنا أنك نبي واتبعناك، فأخذ عليهم ما أخذ إسرائيل على بنيه إذ قال: الله على ما نقول وكيل، قال: «هاتوا».

قالوا: فأخبرنا عن علامة النبي؟ قال: «تنام عيناه ولا ينام قلبه».

قالوا: أخبرنا كيف تؤنث المرأة وكيف تذكر؟ قال: «يلتقي الماءان؛ فإن علا ماء الرجل ماء المرأة أذكر، وإن علا ماء المرأة ماء الرجل أنثى».

قالوا: أخبرنا ما حرم إسرائيل على نفسه؟ قال: «كان يشتكي عرق النساء، فلم يجد شيئاً يلائمه إلا الألبان» فحرم على نفسه لحوم الإبل. قالوا: صدقت.

قالوا: أخبرنا ما هذا الرعد؟ قال: «ملك من ملائكة الله عزوجل، موكل بالسحاب، بيديه مخراق من نار، يزجر به السحاب يسوقه حيث أمره الله تعالى».

قالوا: فما الصوت الذي نسمع؟ قال: «صوته». قالوا: صدقت.

قالوا: إنما بقيت واحدة، وهي التي نبايعك إن أخبرتنا بها؟ إنه ليس من نبي إلا وله ملك يأتيه بالخبر، فأخبرنا من صاحبك؟ قال: «جبريل عليه السلام».

قالوا: جبريل الذي ينزل بالحرب والقتال والعذاب عدونا، لو قلت: ميكائيل الذي ينزل بالرحمة والقطر والنبات لكان، فأنزل الله تعالى ﴿قُلْ مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِجِبْرِيلَ فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلَى قَلْبِكَ﴾^(١).

٣- وجاء من عدة طرق أن اليهود سألوا عمر بن الخطاب رضي الله عنه صاحبه الذي يأتيه من السماء؟ فقال: «جبريل» قالوا: ذلك عدونا من أهل السماء، يُطلع محمداً على سرنا، وإذا

(١) أخرجه أحمد في «المسند» (٢٧٤/١) برقم (٢٤٧١، ٢٥١٤) والطيالسي (٢٨٥٤) وابن أبي حاتم (٣٨١٦) والطبراني (١٣٠١٢) قال محققو «المسند»: إسناده حسن، ما عدا قصة الرعد، وفيها كلام سبق بيانه، وحسن إسناده البوصيري في الإتحاف بذيل المطالب (٦٠٢٠) وهو في «سنن الترمذي» وقال: حسن غريب برقم (٧١١٧) وهو في «سنن النسائي الكبرى» برقم (٩٠٧٢) وانظر الآثار من ١٦٠٥ - ١٦٢٨ في «تفسير الطبري».

جاء جاء بالحرب والسُّنة، ولكن صاحب صاحبنا ميكائيل، إذا جاء جاء بالخصب والسَّلم^(١).

٤- ومن ذلك ما جاء عن عبد الرحمن بن أبي ليلى أن يهوديًا لقي عمر فقال: إن جبريل الذي يذكر صاحبكم عدو لنا، فقال عمر: من كان عدوًا لله وملائكته ورسله وجبريل وميكال فإن الله عدو للكافرين، قال: فنزلت على لسان عمر^(٢).

ونقل ابن جرير الإجماع على أن ذلك سبب نزول الآية^(٣).

وقصة عداوة اليهود لجبريل قصة مُضحكة، فجبريل يأتي بالوحي من السماء لجميع الرسل، ومنهم موسى ﷺ، وهو نبيهم، والوحي غذاء الروح، وميكائيل يأتي بالمطر، وهو غذاء البدن، وعداوتهم لجبريل تصور للإنسان أن اليهود كما لم يجدوا حجة يُحاجُّون بها رسول الله ﷺ ولما لم يجدوا سببًا لعدم إيمانهم، اختلقوا هذه المقولة، إذ كيف يكون جبريل عدوًا لهم وهو ليس بشراً مثلهم، ولم يعاملهم، ولم يعيش بينهم أو يتعامل معهم؟ ما علاقتهم بجبريل ﷺ حتى يعادوه، إنه ملك ينزل من السماء؟

كما قال تعالى: ﴿وَلَنُزِّلُ لَنَزِيلٍ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ ﴿١٩٢﴾ نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ ﴿١٩٣﴾ عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنذِرِينَ ﴿١٩٤﴾ بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ ﴿١٩٥﴾ [الشعراء].

فما أسباب عداوة اليهود لجبريل، وهم بشر في الأرض، وهو ملك في السماء من ملائكة الله، إنها قصةٌ مختلفةٌ يتعللون بها لعدم الإيمان بمحمد ﷺ، وإلا فمقتضى هذه العداوة أن يكفروا بموسى أيضًا؛ لأنه نزل عليه، وهل من المعقول أن يُعادي اليهود جبريل لأنه نزل بالقرآن على محمد ﷺ أو لأنه ينزل بالعذاب على الأمم التي كذبت رسلها؟!!

إن جبريل ينزل بالوحي من عند الله وينزل بالعذاب بأمر الله، وما هو إلا رسولٌ يؤدي المهمة التي نيّطت به، فإن عادوا جبريل -والحال هذه- فإن عداوتهم تكون لله تعالى وليست لجبريل، وعداوتهم لجبريل ليست لذاته، وإنما تكون لما ينزل به من عند الله، وهذا يتضمن الكفر بمن أرسل إليه، فهو كفر وعداوة لله ولرسوله وكتابه.

(١) انظر رواية الشعبي وعكرمة وقتادة والسُّدي في «الدر المنثور» (١/٤٧٧ - ٤٨٠).

(٢) الطبري (٢/٢٩٢) وابن أبي حاتم (٩٦١).

(٣) ابن جرير الطبري (٢/٢٨٣).

والمعنى: قل يا محمد لليهود القائلين: (إن جبريل عدوُّنا من الملائكة) مَنْ كان عدوًّا لجبريل، فإنه لا موجب لعداوته؛ لأن القرآن نزل على محمد ﷺ بإذن الله تعالى، مصدقًا لما سبقه من كتب الله، وهاديًا إلى طريق الفلاح والنجاح، ومبشِّرًا لكل من صدق به بخيري الدنيا والآخرة.

وقد مدحت هذه الآية القرآن بخمس صفات هي:

- ١- أنه مُنَزَّل من عند الله تبارك وتعالى وبإذنه.
- ٢- أنه مُنَزَّل على قلب النبي ﷺ.
- ٣- أنه مصدق لما سبقه من الكتب المنزلة من عند الله.
- ٤- أنه يهدي إلى الحق، والهدى أبلغ هداية.
- ٥- أنه بشارة للمؤمنين المصدقين به العاملين بما فيه.

اللَّهُ تَعَالَى عَدُوٌّ لِمَنْ عَادَى جِبْرِيلَ ﷺ

٩٨- ﴿مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِلَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَرُسُلِهِ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَالَ^(١) فَإِنَّ اللَّهَ عَدُوٌّ لِلْكَافِرِينَ﴾

ثم بين سبحانه أن المؤمن لا يفرق بين ملائكة الله، ولا يفرق بين رسل الله، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَيُرِيدُونَ أَنْ يُفَرِّقُوا بَيْنَ اللَّهِ وَرُسُلِهِ وَيَقُولُوا نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ وَيُرِيدُونَ أَنْ يَتَّخِذُوا بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلًا^(١٥٠) أُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ حَقًّا وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُهِينًا^(١٥١)﴾ [النساء].

وفي الحديث القدسي أن رسول الله ﷺ قال فيما يرويه عنه أبوهريرة ؓ: «إن الله تعالى قال: «من عادى لي وليًّا فقد آذنته بالحرب»^(٢)».

(١) قرأ نافع وأبو جعفر وقبل بخلف عنه (وميكايل) بهمزة مكسورة بعد الألف، وهي لغة وقرأ أبو عمرو وحفص ويعقوب (وميكال) وهي لغة أهل الحجاز وقرأ الباقون (وميكايل) بهمزة بعد الألف بعدها ياء مدية، وهو الوجه الثاني لقبيل، وهي لغة أيضًا.

(٢) «صحيح البخاري» برقم (٦٥٠٢) من حديث أبي هريرة.

والله تعالى يصطفي من الملائكة رسلاً ومن الناس، وقد وُكِّلَ الله تعالى بكل عمل يتعلق بحياة البشر، ملكاً يؤدي المهام المنوطة به، فجبريل أمين الوحي، وميكائيل صاحب القَطَر، وإسرافيل نافخ الصور، وكذا ملك الموت، وهكذا حملة العرش، وخزنة الجنة والنار، والموكِّلون بالإنسان الحفظة والمعقبات وغيرهم، وما يعلم جنود ربك إلا هو، ومن يعادي ملكاً من ملائكة الله أو رسولاً من رُسل الله فهو عدوٌّ لله؛ لأن الإيمان هو أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر وبالقدر خيره وشره، فمن كفر بركن من هذه الأركان الستة فهو كافر، والإيمان كلٌّ لا يتجزأ، وهو سبحانه عدو الكافرين.

ورد أن النبي ﷺ سأل اليهود فقال: «أَسَأَلُكُمْ بَكْتَابِكُمُ الَّذِي تَقْرَءُونَ هل تجدون به أنه قد بشر بي عيسى ابن مريم أن يأتيكم رسولٌ اسمه أحمد؟» فقالوا: اللهم وجدناك في كتابنا، ولكننا كرهناك؛ لأنك تستحل الأموال وتهريق الدماء، فأنزل الله الآية^(١). وجبريل لا ينزل من نفسه إنما ينزل بأمر الله ﴿وَمَا نَنْزِلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ﴾ [مريم: ٦٤].

في حديث عائشة ؓ أن رسول الله ﷺ كان إذا قام من الليل يقول: «اللهم رب جبريل وإسرافيل وميكائيل، فاطر السموات والأرض، عالم الغيب والشهادة، أنت تحكم بين عبادك فيما كانوا فيه يختلفون، اهدني لما اختلف فيه من الحق بإذنك، إنك تهدي من تشاء إلى صراط مستقيم»^(٢). قال تعالى:

٩٩- ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَيْكَ ءَايَاتٍ بَيِّنَاتٍ وَمَا يَكْفُرُ بِهَا إِلَّا الْفَاسِقُونَ﴾^(٣)

ثم انتقلت الآيات إلى خطاب النبي ﷺ تسلياً وتصديقاً له وتكذيباً لليهود، فتبين أن ما أنزله الله على رسوله من البينات والهدى، تحصل به الهداية لمن طلب الهداية، وإقامة الحجة على من عاند، ولا يمتنع من ذلك إلا من فسق وخرج عن طاعة الله.

وقد قال ابن صوريا اليهودي للنبي ﷺ: يا محمد، ما جئتنا بشيء نعرفه، وما أنزل الله من آية بينة فنتبعك، فأنزل الله تعالى ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَيْكَ﴾ يا محمد ﴿ءَايَاتٍ بَيِّنَاتٍ﴾^(٣)

(١) «تفسير الطبري» (١٦٣٤) والحاكم (٢/٢٦٥) صححه الذهبي وفي سنده عبد الله العتكي متكلم فيه.

(٢) «صحيح مسلم» برقم (٧٧٠).

(٣) «تفسير الطبري» (١٦٣٧، ١٦٣٨) و«سيرة ابن هشام» (١/٥٤٧) و«تفسير ابن أبي حاتم» (٩٧٠، ٩٧٣).

علامات واضحة، يهتدي بها من كان مستعداً بفطرته لقبول الهداية، وأدلة وبراهين على صحة رسالتك، مع أنك لم تقرأ كتاباً، ولم تتعلم على يد معلم، ومع ذلك فأنت تأتي بأخبار الأولين والآخرين وما تضمنته كتب بني إسرائيل وغيرهم ﴿وَمَا يَكْفُرُ بِهَا﴾ أي: بما جئت به من هذه الدلالات الساطعة ﴿إِلَّا الْفَاسِقُونَ﴾ الخارجون عن طاعة الله ورسوله ﴿إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَفُصُّ عَلَى بَنِي إِسْرَءِيلَ أَكْثَرَ الَّذِي هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ [النمل].

مُخَالَفَةُ الْيَهُودِ السَّابِعَةَ عَشَرَ: النِّقْضُ الدَّائِمُ لِلْعُهُودِ وَالْمَوَاقِيقِ

١٠٠- ﴿أَوْكَلِمَا عَاهَدُوا عَهْدًا نَّبَذُو فَرِيقٌ مِّنْهُمْ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾

في الآيات السابقة (٦٣، ٨٣، ٨٤، ٩٣) أمثلة متعددة من نقض اليهود للمواثيق في جوانب مختلفة، وفي هذه الآيات، بيان أن نبذ العهد ونقضه خلُق من أخلاق اليهود يتكرر في كل زمان ومكان، وتبدأ هذه الآية بالتعجب من كثرة معاهدات اليهود وتكرار عدم الوفاء بها، فكلما عاهدوا عهداً نقضوه، والسبب في ذلك عدم إيمانهم، فإن الإيمان يحمل صاحبه على الوفاء بالعهد:

بعث رسول الله ﷺ مالك بن الصيف ليزكّر اليهود بما أخذ عليهم من الميثاق، ومن الإيمان بمحمد ﷺ فقالوا: والله ما عهد إلينا في محمد وما أخذ علينا ميثاقاً، فأنزل الله تعالى: ﴿أَوْكَلِمَا عَاهَدُوا عَهْدًا﴾^(١)

أي: كلما عاهد اليهود عهداً مع الله - كالعامل بما في التوراة، والوفاء بالإيمان بمحمد ﷺ - وكلما عاهدوا الناس على شيء نقضوا هذا العهد وخالفوه، وهذا معنى ﴿نَّبَذُوا فَرِيقٌ مِّنْهُمْ﴾ أي: طرحه حزب من أحزاب اليهود.

فتراهم يُبرمون العهد اليوم وينقضونه غداً، فما أقبح حالهم في نقض العهود.

قال ابن جرير: لم يكن في الأرض عهدٌ يعاهدون عليه إلا نقضوه، ويعاهدون اليوم وينقضون غداً^(٢)

ولذا نفى القرآن عنهم الإيمان، فقال تعالى: ﴿بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ واليهود هم

(١) المراجع السابقة.

(٢) الطبري (٣٠٩/٢).

اليهود، وها نحن نعيش معاهدات بين اليهود والفلسطينيين منذ سنوات طويلة إلى كتابة هذه السطور، وكلما عاهد فريق منهم عهداً نبذه فريق آخر.

أقول: وقد رأينا ذلك في عدد كثير من المعاهدات مع العدو الإسرائيلي في العصر الحاضر، وأنهم لا عهد لهم ولا ذمة، والله تعالى يقول: ﴿فَمَا اسْتَقْتُمُوا لَكُمْ فَاسْتَقِيمُوا لَهُمْ﴾ [التوبة: ٧] وقال: ﴿وَأِنْ تَكُونُوا آمِنَ لَهُمْ مِنْ بَعْدِ عَهْدِهِمْ وَطَعْنُوا فِي دِينِكُمْ فَقَتِلُوا أَيْمَةَ الْكُفْرِ إِنَّهُمْ لَا أَيْمَنَ لَهُمْ﴾ [التوبة: ١٢] ولكن قتال العدو والانتصار عليه يلزمه صلح مع الله تعالى، وارتقاء من المصالح الشخصية إلى مصالح أمة الإسلام، وتسخير الطاقات للتصنيع الحربي وتحرير الولاء والبراء لله.

تَكْذِيبُ الْيَهُودِ لِخَاتَمِ النَّبِيِّينَ مِنْ بَابِ نَقْضِ الْعُهُودِ

١٠١- ﴿وَلَمَّا جَاءَهُمْ رَسُولٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَهُمْ بَشَرٌ مِنْ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ كَتَبَ اللَّهُ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ كَأَنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾

ثم أعقب سبحانه ذلك بذكر تكذيبهم بالرسول المبعوث إليهم، وإلى الناس كافة.

وذلك أنه لما جاء محمد ﷺ بكتاب من عند الله -هو القرآن الكريم- يصدق ما سبق من كُتُب الله قبله، وكانوا يزعمون أنهم متمسكون بكتابتهم، وفيه البشارة بالنبى الخاتم، فلما جاءهم مصداق ما عندهم، كفر به فريق منهم وطرحوا كتابه وراءهم كأنهم لا يعرفون عنه شيئاً.

أي: ولما جاء أحبار اليهود وعلماء بني إسرائيل ﴿رَسُولٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ﴾ هو محمد ﷺ جحدوه ورفضوه، وكان الله تعالى قد أخذ عليهم الميثاق أن يؤمنوا به عند مجيئه، وأن يكونوا أول من يؤمن به ويفتح عليه؛ لأنهم أهل كتاب يؤمنون بالوحي، وليسوا وثنيين، ولكن فريقاً منهم نقض هذا العهد ﴿بَشَرٌ مِنْ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ﴾ من اليهود ﴿كَتَبَ اللَّهُ﴾ وهو التوراة ﴿وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ﴾ لما تضمنه من البشارة بمحمد ﷺ، وهذا تأكيد لطرحهم كلام الله تعالى ﴿كَأَنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ به، شأنهم شأن الجهال الذين لا يعلمون حقيقة، فجحدوا وكتموا الإيمان بمحمد ﷺ عند بعثته بعد أخذ العهد عليهم، وهو النبى الأمي الذي يجدونه مكتوباً عندهم في التوراة والإنجيل، ولكنهم يُبرمون العهد اليوم

وينقضونه غداً، أما الفريق الآخر فقد جحد الحق وكفر به.

قال السدي في معنى الآية: ولما جاءهم محمد ﷺ عارضوه بالتوراة، فاتفقت التوراة والقرآن، فنبذوا التوراة وأخذوا بكتاب آصف، وسحر هاروت وماروت، كأنهم لا يعلمون ما في التوراة من الأمر باتباع محمد ﷺ وتصديقه^(١).

مُخَالَفَةُ الْيَهُودِ الثَّامِنَةَ عَشْرَةَ: تَعَلُّمُ السَّحْرِ وَتَعْلِيمُهُ وَالْعَمَلُ بِهِ

١٠٢- ﴿وَاتَّبَعُوا مَا تَتْلُوا الشَّيَاطِينُ عَلَىٰ مُلْكٍ سُلَيْمَنَ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَنُ وَلَٰكِنَّ الشَّيَاطِينَ كَفَرُوا يُعَلِّمُونَ النَّاسَ السَّحْرَ وَمَا أُنْزِلَ عَلَى الْمَلَكَيْنِ بِبَابِلَ هَارُوتَ وَمَارُوتَ وَمَا يَعْلَمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّى يَقُولَا إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِ بَيْنَ الْمَرْءِ وَزَوْجِهِ وَمَا هُمْ بِضَارِّينَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنْفَعُهُمْ وَلَقَدْ عَلَّمُوا لَمَنِ اشْتَرَاهُ مَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلْقٍ وَلَيْسَ مَا شَرَوْا بِهِ أَنْفُسَهُمْ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴿١٠٢﴾﴾

أشارت الآية السابقة إلى أن اليهود لم يتفعلوا بما عندهم من العلم بمقدم محمد ﷺ، ومن لم يشتغل بالحق اشتغل بالباطل، ومن لم ينتفع بالخير اشتغل بما يضره، وهكذا فإن اليهود تركوا ما ينفعهم من الإيمان بمحمد ﷺ واشتغلوا بما يضرهم ولا ينفعهم، وهو اتباع الشياطين وتعلم السحر، فقد بلغ السحر ذروته في عهد موسى ﷺ، واستمر كذلك حتى عهد نبي الله سليمان ﷺ^(٢) وتفشى أمر السحر وانتشر في عهد موسى ﷺ، وأصبح الناس لا يفرقون بين السحر والمعجزة، كمعجزة العصا واليد.

ولما تشكك الناس في أمر النبوة بالنسبة للمعجزات الدالة عليها أنزل الله ﷻ ملكين يقال لهما: هاروت وماروت في أرض بابل من العراق، وخُصت بابل بالإنزال؛ لأنها

(١) الطبري (٢/ ٣١١).

(٢) قرأ ابن عامر وحزمة والكسائي وخلف العاشر (ولكن الشياطين كفروا) بكسر نون (ولكن) مخففة، ورفع (الشياطين) على أن (لكن) مهملة لا عمل لها، وقرأ الباقون (ولكن الشياطين) بتشديد النون، على إعمال (لكن) ونصب (الشياطين).

(٣) وهو ابن داود ﷺ من سبط يهوذا، ولد سنة ١٠٣٢ قبل الميلاد، وتوفي في أورشليم سنة ٩٧٥ قبل الميلاد، وتولى ملك بني إسرائيل سنة ١٠١٤ قبل الميلاد، بعد وفاة أبيه، وعظم ملك بني إسرائيل في مدته، وكان له أسطولاً بحرياً، وقد جدد بناء بيت المقدس، ويزعم اليهود أنه كان كافراً وأن الله غضب عليه لكثرة نسائه.

كانت أكثر البلاد عملاً بالسحر، وكان سحرؤها قد سخرها العامة وجروهم إلى عبادة الكواكب والأصنام فحدث فساد عظيم وعمت الأباطيل؛ فأراد الله سبحانه أن يكشف حقيقة السحر على يد الملكين فكانا يُعلِّمان الناس أبواب السحر؛ ليفرقوا بين السحر والمعجزة، وحتى لا يلتبس الأمر على عامة الناس، فيعرفوا أن الذي يدعى النبوة من السحرة كاذباً، وأنهم سحرة وليسوا أنبياء، فكانا يعلمان الناس أبواب السحر ويقولان: إنما نحن فتنة وابتلاء، وامتحان من الله سبحانه، فلا تكفر بتعلمك السحر واستخدامه ولا تتعلم ما يضر ولا ينفع مما يؤذي الناس ويفرق بينهم وكان ذلك قبل الميلاد بأربعين قرناً، وقد شاع السحر في بابل ومصر في عصر واحد.

١- وقبل مبعث النبي ﷺ كانت الشياطين تسترق السمع من السماء، يَزَكُّب بعضهم فوق بعض، حتى تستمع إلى كلام الملائكة، فيما يتعلق بتدبير أمور الخلق، كالموت والولادة والرزق، ثم ينزل هذا الشيطان المسترق للسمع فيضيف إلى الكلمة الصحيحة سبعين كلمة أخرى كذباً، ثم يُلقُون بها إلى الكهنة والعرفان والمنجمين، وكتبوا ذلك ودَوَّنوه في دواوين على مدى وقت طويل، وأشيع بين الناس أن الجن يَعْلَمُونَ الغيب، وكان ذلك في عهد سليمان عليه السلام، فجمع سليمان هذه الدواوين التي كُتِبَ فيها السحر، ووضعها في صندوق ودفنها تحت كرسيه، وكان لا يمكن للشياطين أن تقترب من كرسي سليمان، فإذا اقتربت منه احترقت.

وقال سليمان وهو يذكُرُ الناس ويعظمهم: لا أسمع أحداً يذكر أن الشياطين يَعْلَمُونَ الغيب إلا ضربت عنقه، واستمر الأمر كذلك حتى مات سليمان عليه السلام.

ولما مات سليمان وقف شيطاناً بالطريق وأخذ يدل بني إسرائيل على مكان الدواوين التي كان وضعها سليمان تحت كرسيه والتي سُجِّلَ فيها هذا السحر، فذهبوا واستخرجوا هذه الدواوين التي كُتِبَ فيها السحر، وقال لهم الشيطان: إن سليمان كان يضبط الإنس والشياطين والطير بهذا السحر ويُدبر به ملكه، فأشيع بين الناس أن سليمان كان ساحراً وتناسخت الأمم هذه الدواوين، فأنزل الله عذر سليمان في هذه الآية^(١).

(١) «أسباب النزول» للواحيدي ص ٢٩ وصححه الحاكم من طريق إسحاق بن إبراهيم ووافقه الذهبي، «المستدرک»

(٢/ ٢٦٥) و«تفسير الطبري» (٢/ ٤١٥) وابن أبي حاتم (٩٨٩) و«تفسير سعيد بن منصور» (٢٠٧).

٢- وعن سعيد بن جبير عن ابن عباس رضي الله عنهما أن (آصف) كاتب سليمان، كان يَعْلَمُ اسم الله الأعظم، وكان يكتب كل شيء بأمر سليمان ويدفنه تحت كرسيه، فلما مات سليمان أخرجته الشياطين، فكتبوا بين كل سطرين سحرًا وكفرًا، وقالوا: هذا الذي كان سليمان يعمل بها، قال: فأكفره جهال الناس وسبوه ووقف علماؤهم، فلم يزل جهالهم يسبوه حتى أنزل الله على محمد ﷺ ﴿وَاتَّبِعُوا مَا تَتْلُوا الشَّيْطَانُ عَلَىٰ مُلْكٍ سُلَيْمَنَ﴾^(١) وبهذا أخذ اليهود، وأحدثوا فيه ما أحدثوا، وأفشوا السحر في الناس فتعلموه وعلموه، ولا يوجد من هو أكثر علمًا به منهم.

٣- واختلف الناس في شأن سليمان، فقال اليهود: لم يكن سليمان نبيًا، بل كان ساحرًا وبه تعبدنا وقهرنا، وقال المؤمنون: بل كان نبيًا مؤمنًا.

ومن ذلك أن إبليس قام خطيبًا في الناس بعد موت سليمان فقال: يَا أَيُّهَا النَّاسُ، إِنَّ سُلَيْمَانَ لَمْ يَكُنْ نَبِيًّا، وَإِنَّمَا كَانَ سَاحِرًا، فَالْتَمَسُوا سَحْرَهُ فِي مَتَاعِهِ وَبَيْتِهِ، ثُمَّ دَلَّاهُمْ عَلَى الْمَكَانِ الَّذِي دُفِنَ فِيهِ السَّحَرُ، فَقَالُوا: وَاللَّهِ لَقَدْ كَانَ سُلَيْمَانُ سَاحِرًا! وَهَذَا سَحْرُهُ، فَقَالَ الْمُؤْمِنُونَ: بَلْ كَانَ نَبِيًّا مُؤْمِنًا، فَلَمَّا بُعِثَ مُحَمَّدٌ ﷺ جَعَلَ يَذْكُرُ الْأَنْبِيَاءَ وَمِنْهُمْ دَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ، فَقَالَ الْيَهُودُ: انظُرُوا إِلَى مُحَمَّدٍ يَخْلُطُ بَيْنَ الْحَقِّ وَالْبَاطِلِ^(٢) إِنَّهُ يَذْكُرُ ابْنَ دَاوُدَ بِأَنَّهُ كَانَ نَبِيًّا، وَاللَّهِ مَا كَانَ إِلَّا سَاحِرًا يَرْكَبُ الرِّيحَ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَبْحَانَهُ هَذِهِ الْآيَةَ، وَفِيهَا عَذْرُ سُلَيْمَانَ.

٤- قال أبو العالية: إِنَّ الْيَهُودَ سَأَلُوا النَّبِيَّ ﷺ زَمَانًا عَنْ أُمُورٍ مِنَ التَّوْرَةِ، لَا يَسْأَلُونَهُ عَنْ شَيْءٍ مِنْ ذَلِكَ إِلَّا أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَيْهِ مَا سَأَلُوا عَنْهُ، فَيُخَصِّمُهُمْ -أَيَّ يَغْلِبُهُمْ بِالْحُجَّةِ- فَلَمَّا رَأَوْا ذَلِكَ قَالُوا: هَذَا أَعْلَمُ بِمَا أَنْزَلَ عَلَيْنَا مَنَّا، وَإِنَّهُمْ سَأَلُوهُ عَنِ السَّحَرِ وَخَاصَمُوهُ بِهِ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ ﷻ ﴿وَاتَّبِعُوا مَا تَتْلُوا الشَّيْطَانُ عَلَىٰ مُلْكٍ سُلَيْمَنَ﴾ وَإِنَّ الشَّيَاطِينَ عَمَدُوا إِلَى كِتَابٍ، فَكَتَبُوا فِيهِ السَّحْرَ وَالْكَهَانَةَ وَمَا شَاءَ اللَّهُ مِنْ ذَلِكَ، فَدَفَنُوهُ تَحْتَ مَجْلِسِ سُلَيْمَانَ، وَكَانَ سُلَيْمَانُ لَا يَعْلَمُ الْغَيْبَ، فَلَمَّا فَارَقَ سُلَيْمَانَ الدُّنْيَا اسْتَخْرَجُوا ذَلِكَ السَّحْرَ وَخَدَعُوا بِهِ النَّاسَ، وَقَالُوا: هَذَا عِلْمٌ كَانَ سُلَيْمَانُ يَكْتُمُهُ، وَيَحْسُدُ النَّاسَ عَلَيْهِ، فَأَخْبَرَهُمُ النَّبِيُّ ﷺ بِهَذَا

(١) «تفسير ابن أبي حاتم» (٢٩٧/١) برقم (٩٨٢) و«الدر المنثور» (٩٥/١) والنسائي في التفسير برقم (١٤)، (١٠٩٩٤) بإسناد حسن، وصححه ابن حجر عن سعيد بن جبير في «فتح الباري» (١٠/٢٢٤).

(٢) الطبري: (١٦٥٩، ١٦٦٦) وابن كثير (٢٥٠/١).

الحديث، فرجعوا من عنده وقد خَزَنُوا وأدحض الله حجبتهم^(١).

ونمضي مع الآية: ﴿وَاتَّبَعُوا﴾ يعني اليهود، فالضمير يعود على الكلام السابق، وكله في الحديث عن بني إسرائيل ﴿مَا تَنَلَّوْا﴾ أي: ما تتحدث به الشياطين لليهود في شأن السحر ﴿عَلَى﴾ عهد ﴿مُلْكٍ سُلَيْمَنَ﴾ فزعموا أن سليمان كان يستعمل السحر، وبه حصل على الملك، وهم كذبة في ذلك لأن الله تعالى نزهه عن السحر، وقد كان السحر موجوداً قبل سليمان، ولكن اليهود لما نسبوا السحر لسليمان برأه الله مما قالوا، وأبان أنهم وجدوه في خزانة تحت كرسيه على ما جاءت به الآثار.

واليهودُ نبذوا كتاب الله وراء ظهورهم -كما هو مذكور في الآية قبلها- واستبدلوا بكتاب الله ما كانت تكتبه الشياطين وتعلمه وتحدث به من السحر على عهد مُلْك سليمان، حيث نبذ اليهود التوراة وأخذوا بكتاب (آصف بن برخيا) وسحر (هاروت وماروت) الذي تلتته الشياطين عليهم في عهد سليمان وخدعوا الناس به وفتنهم.

قال سبحانه ردّاً على اليهود: ﴿وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَنُ﴾ لم يكن سليمان ساحراً ولا كافراً، ولم يتعلم السحر، ولم يعمل به ﴿وَلَكِنَّ الشَّيَاطِينَ كَفَرُوا﴾ فهم الذين كانوا ﴿يُعَلِّمُونَ النَّاسَ السِّحْرَ﴾ إفساداً لديهم، وكذلك اتبع اليهود السحر الذي أنزل على الملكين في أرض بابل بالعراق، ﴿وَمَا أُنْزِلَ عَلَى الْمَلَكَيْنِ بِبَابِلَ هُنُوتَ وَمُرُوتَ﴾ ونزول السحر على الملكين معناه وصوله إليهم، فقد كان السحر منتشراً، وقد يكون النزول بمعنى الإلهام.

والملكان هما: هاروت وماروت وكان ذلك ابتلاءً وامتحاناً من الله لعباده ﴿وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّى يَقُولَا إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ﴾ ابتلاء وامتحان للناس؛ ليثبت منهم من يثبت على الحق والإيمان، فيتعلم الناس من الملكين ما يُحدثون به الكراهية بين الزوجين حتى يتفرقوا، ﴿فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِ بَيْنَ الْمَرْءِ وَزَوْجِهِ﴾ وفي هذا بيان أن السحر له تأثير وحقيقة، ولكنه لا يؤثر إلا بإذن الله، وإذن الله منه ما هو قدرِّي متعلق بمشيئة الله كما في هذه الآية، ومنها ما هو شرعي كما في قوله تعالى: ﴿فَإِنَّهُمْ نَزَّلُوهُ عَلَى قَلْبِكَ بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ [البقرة: ٩٧]

ومهما بلغت الأسباب من قوة التأثير، فإنها ليست مستقلة، بل لا بد من أن تتبع القضاء

(١) ابن جرير (٣١٥/٢) وابن أبي حاتم برقم (٩٨٥).

والقدر، ولا يستطيع السحرة أن يضرُوا أحدًا إلا بإذن الله وقضائه، وما يتعلم السحرةُ إلا شرًّا يضرهم ولا ينفعهم، ﴿وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنْفَعُهُمْ﴾ فهو مضرة مُحضة ليس فيه منفعة دينية ولا دنيوية.

وقد نقلته الشياطين إلى اليهود فشاع بينهم حتى فضّلوه على كتاب الله، فتركوا علم الأنبياء والمرسلين، وأقبلوا على علم الشياطين وتعلّم السحر.

وقول الملكين: ﴿إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ﴾ أي: لا تتعجل باعتقاد السحر وتعلمه، فإنك إذا توغّلت في معرفته وعرفت حقيقته اندفعت عنك الفتنة؛ لأنها تحصل للإنسان حين يرى ظواهره وعجائبه على أيدي السحرة، فإذا عرف حقيقته زالت الفتنة.

وكان سحرُ اليهود يزعمون أن الله تعالى أنزل السحر على لسان جبريل وميكائيل إلى سليمان بن داود، فأكذبهم الله بهذا، وأخبر نبيه محمدًا أن السحر من عمل الشياطين، وأنها تعلّم الناس ذلك بأرض بابل^(١) عن طريق ملكين أنزلهما الله تعالى ابتلاء للعباد وتمحيصًا لصدق إيمانهم، كما جاء في قوله ﷺ من حديث ابن مسعود رضي الله عنه «من أتى كاهنًا أو ساحرًا فصدقه بما يقول فقد كفر بما أنزل على محمد»^(٢).

وفي حديث أبي هريرة رضي الله عنه: «من أتى كاهنًا أو عرافًا فصدقه بما يقول فقد كفر بما أنزل على محمد»^(٣).

وكان الملكان يحذّران الناس من تعلّم السحر ويقولان: ﴿إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ﴾ أي: بتعلمك السحر، فينهيان الناس عن تعلّم السحر والعمل به، فإن ذلك كفر.

(١) وبابل على بُعد أميال من ملتقى الفرات ودجلة، وكانت أعظم مدن العالم القديم، بناها أبناء نوح ﷺ بعد الطوفان، ثم توالى عليها الحضارات، وكان النمرود من الجيل الثالث لأبناء نوح، وبلغت بابل عظمتها في حدود سنة ٣٧٥٥ قبل الميلاد، وكانت بلد العجائب في البناء والبساتين ومنبع المعارف والسحر، ويزعم أهل بابل أن هاروت وماروت رُفعا إلى السماء بعد موتهما في صورة كواكب ومن هنا نشأت عبادتهم للكواكب.

(٢) البزار (١٨٧٣، ١٩٣١) قال الهيثمي: رجاله رجال الصحيح خلا هبيرة بن مريم، وهو ثقة، «مجمع الزوائد» (١١٨/٥) وانظر غاية المرام للألباني (٢٩٠).

(٣) من حديث أبي هريرة في «المسند» (٩٥٣٦) حديث حسن، رجاله ثقات، كما قال محققوه، والحاكم (٨/١).

وعن عمران بن حصين رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «ليس مِنَّا من تطير أو تُطير له، أو تكهن أو تُكهن له، أو سحر أو سُحر له، ومن عقد عقدة، ومن أتى كاهنًا فصدقه بما يقول فقد كفر بما أنزل على محمد»^(١).

ويؤخذ من هذا حُرمة تعلُّم السحر وتعليمه؛ لأن فيه تعلُّق القلب بغير الله سبحانه. وفيه اعتقادُ النفع والضرر من غير الله سبحانه.

وفيه استخدام للشياطين واعتقادُ بأن النجوم والكواكب وغيرها تنفع وتضر.

وفي السحر إضرارٌ بالناس وقد نهى الإسلام عن الضرر والإضرار.

عقوبة الساحر: ومن أجل ذلك حَرَّمَ الإسلام السحر؛ تعلُّماً وتعليماً وشدد في عقوبته.

وفي جامع الترمذي وغيره عن جندب رضي الله عنه: «حد الساحر ضربة بالسيف»^(٢).

وكتب عمر رضي الله عنه: أن اقتلوا كل ساحر وساحرة، قال: فقتلنا ثلاث سواحر^(٣).

وأخرج مالك في الموطأ أن حفصة رضي الله عنها قتلت جارية لها سحرتها^(٤).

وقال الإمام أحمد: صحَّ قتل الساحر عن ثلاثة من أصحاب النبي ﷺ^(٥) هم: عمر وحفصة وجندب.

وقال مالك: إذا سحر الساحر نفسه قتل^(٦)

(١) «كشف الأستار» البزار برقم (٣٠٤٤) قال الهيثمي: رجاله رجال الصحيح خلا إسحاق بن الربيع وهو ثقة، «مجمع الزوائد» (١١٧/٥) والحديث حسنه الألباني في غاية المرام (٢٨٩).

(٢) «سنن الترمذي» برقم (١٤٦٠) قال أبو عيسى: هذا حديث لا نعرفه إلا من هذا الوجه، وإسماعيل بن مسلم المكي يُضعف في الحديث من قبل حفظه، وإسماعيل بن مسلم العبدي البصري، قال وكيع: هو ثقة، ويروي عن الحسن أيضاً، والصحيح عن جندب موقوف، والعمل على هذا الحديث عند بعض أهل العلم، من أصحاب النبي وغيرهم، وهو قول مالك بن أنس. والطبراني في «المعجم الكبير» (١٦١/٢).

(٣) «مسائل عبد الله بن أحمد» عن أبيه عن سفيان برقم (١٥٤٢).

(٤) «مسائل عبد الله بن أحمد» عن أبيه برقم (١٥٤٣) وأخرجه مالك في «الموطأ» من رواية أبي مصعب برقم (٢٩٨٤).

(٥) انظر «كتاب التوحيد» للشيخ محمد بن عبد الوهاب، باب ما جاء في السحر.

(٦) «الموطأ» (٢٩٨٥).

وقال الشافعي: إنما يقتل الساحر إذا كان يعمل من سحره ما يبلغ به الكفر، فإذا عمل عملاً دون الكفر فلم ير عليه قتلاً^(١).

وللسحر تأثيرٌ على النفوس وحقيقة، فقد أثبت الله سبحانه أنه يكون سبباً في وقوع الضرر، وفي التفرقة بين المرء وزوجه، ولكن هذا التأثير وهذا الضرر لا يكونان إلا بأمر الله سبحانه وإرادته ﴿فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِ بَيْنَ الْمَرْءِ وَزَوْجِهِ﴾ من عدم الخلطة والائتلاف وحسن العشرة والمحبة، فيفرقون بينهما بأسباب تقتضي الفرقة، كأن يتخيل كل منهما سوء منظر الآخر، أو يكون الذكر في صورة أنثى أو العكس، أو يضع في داخل كل منهما بغضاً للآخر، وهذا السحر لا يؤثر بنفسه، بل بإذن الله تعالى وإرادته.

وفي الحديث عن أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «من عقد عقدة ونفث فيها فقد سحر، ومن سحر فقد أشرك، ومن تعلق شيئاً وكل إليه»^(٢).

وأنفع ما يستعمل لإذهاب السحر ما أنزله الله على رسوله بقراءة المعوذتين، ففي الحديث عن عقبة بن عامر رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «لم يتعوذ المتعوذ بمثلهما»^(٣) وقراءة آية الكرسي مطردة للشياطين.

وذكر القرطبي عن وهب أنه قال: يؤخذ سبع ورقات من سدر، فتدق بين حجرين، ثم تضرب بالماء، ويقرأ عليها آية الكرسي، ويشرب منها المسحور ثلاث حسوات ثم يغتسل بباقيه، فإنه يذهب ما به.

وفي الصحيحين عن عائشة رضي الله عنها أنها قالت: يا رسول الله: هلّا تنشّرت؟ فقال: «أما أنا فقد عافني الله وشفاني، وخشيت أن أفتح على الناس شراً»^(٤) وهذا في علاج النشرة، أي: حل المربوط.

(١) من كلام الترمذي في جامعه عند الحديث رقم ١٤٦٠.

(٢) رواه النسائي في «السنن» عن أبي هريرة (١١٢/٧) وهو في «السنن الكبرى» (٣٥٢٨) وفي «التحفة» (١٢٢٥٥).

(٣) رواه النسائي في «السنن الكبرى» عن عقبة بن عامر (٢٥١/٨) ونحوه في «صحيح سنن النسائي» (٥٠٢٦) وابن أبي شيبه (٣٥٨/١٠). وفي صحيح سند أبي داود (١٣١٦).

(٤) «صحيح البخاري» برقم (٣١٧٥، ٥٧٦٥، ٥٧٦٦) و«صحيح مسلم» برقم (٢١٨٩).

وعن جابر بن عبد الله رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «إن إبليس يضع عرشه على الماء، ثم يبعث سراياه في الناس، فأدناهم منه منزلة أعظمهم فتنة، يجيء أحدهم فيقول: فعلت كذا وكذا، فيقول: ما صنعت شيئاً، ثم يجيء أحدهم فيقول: ما تركته حتى فرقتُ بينه وبين امرأته، قال: فيدنيه منه، ويقول: نعم أنت»^(١).

والعين تكون من الحسد، وتكون من الشيطان، وتكون من الإعجاب بالنفس. في الحديث عن ابن عباس رضي الله عنهما: «العين حق، ولو كان شيء سابق القدر لسبقتُ العين، فإذا استُغسلتم فاغسلوا»^(٢).

ثم ذمَّ الله سبحانه حقيقة من يسلك هذا الطريق ويتعلمه، وبين أنه قد اشترى دنياه بأخراه، ولقد علم اليهود أن من اختار السحر وترك الحق ﴿مَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلْقٍ﴾ أي: من حظٍّ أو نصيب في الخير؛ بل هو موجب للعقوبة لأن هذا ذنب وكفرٌ ولبئس ما باعوا به أنفسهم من السحر والكفر، عوضاً عن الإيمان بالله ومتابعة الرسول ﷺ لو كان لهم علم بما وُعظوا به.

والنبي ﷺ عدَّ السحر من السبع الموبقات المهلكات وجعله في المرتبة الثانية بعد الإشراف بالله سبحانه.

ففي الصحيحين عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه أن رسول الله ﷺ قال: «اجتنبوا السبع الموبقات» قيل: وما هن يا رسول الله؟ قال: «الإشراف بالله، والسحر، وقتل النفس التي حَرَّمَ الله إلا بالحق، وأكل مال اليتيم، والزنى، والتولي يوم الزحف، وقذف المحصنات الغافلات المؤمنات»^(٣).

فالشرك في المرتبة الأولى، والسحر في المرتبة الثانية.

واليهود اتَّبَعُوا السَّحْرَ الذي أنزل على الملكين ببابل من أرض العراق، ابتلاءً للناس وفتنة لهم، فتعلمه اليهود وأفسدوا به دين الناس ودنياهم، وفضَّلوه على كتاب الله، ولو أنهم خافوا الله تعالى لقدَّموا ثواب الله على ما اكتسبوه من السحر.

(١) «صحيح مسلم» برقم (٢٨١٣).

(٢) من حديث ابن عباس في «صحيح مسلم» برقم (٢١٨٨) والترمذي (٢٠٦٢) وابن حبان (٢١٠٧).

(٣) «صحيح البخاري» برقم (٧٦٦، ٥٧٦٤، ٦٨٥٧) و«صحيح مسلم» برقم (٨٩).

وللسحر علاج: هذا العلاج منه ما يكون قبل وقوع السحر، بحيث لا يؤثر في الإنسان سحرٌ ولا حسدٌ، ولا يقربُه جنٌّ بمسٍّ أو نحوه، ويكون هذا بالاعتصام بالله سبحانه، والتحصُّن به جل شأنه من الشيطان، ومن السحرة والحاسدين ومن مس الجن وغير ذلك، وهذا التحصُّن بالله سبحانه من أعظم ما يكون في حفظ العبد من الحسد والجن، مع قوة إيمانه، كما أرشدنا إليه رسولنا ﷺ مثل: قراءة المعوذتين (الفلق، والناس) وسورة الإخلاص، وآية الكرسي، والآيتين الأخيرتين من سورة البقرة وهذا كله عقب كل صلاة، سيما عقب صلاتي الفجر والمغرب، أي في أول النهار وآخره، فإن ذلك اعتصامٌ وتحصُّن بالله سبحانه، ولا يحدث للإنسان بفضل الله ﷻ ضررٌ بالسحر أو العين أو مس من الجن، ولا يفرغ في نومه، ولا يرى ما يزعجه، ولا يُفسد الشيطان عليه صلاته أو أهله إذا كان دائماً متحصِّناً بالله تعالى، يقرأ ذلك يومياً في صلواته، وصباحه ومساءه، وعند نومه واستيقاظه إلى جوار الأذكار الأخرى المعروفة.

وقد كان النبي ﷺ إذا نزل منزلاً في سفره، أو في بيت جديد يقول: «أعوذ بكلمات الله التامَّات من شر ما خلق»^(١).

وعن أبي هريرة رضي الله عنه أن رجلاً جاء إلى النبي ﷺ فقال: يا رسول الله، ما لقيتُ من عقرب لدغتنِي البارحة! قال: «أما إنك لو قلت حين أمسيت: أعوذ بكلمات الله التامَّات من شر ما خلق لم تضرك»^(٢).

وإذا قال المسلم في صباحه ومساءه: «بسم الله الذي لا يضر مع اسمه شيء في الأرض ولا في السماء وهو السميع العليم»^(٣).

هكذا علمنا رسول الله ﷺ، فإذا قال المسلم ذلك فإنه لا يقربه جنٌّ، ولا يمسّه شيطانٌ

(١) عن رجل من أسلم في «المسند» (١٥٧٠٩، ٢٣٠٨٣، ٢٣٦٥٠) قال محققوه: حديث صحيح، وهذا إسناد رجاله ثقات، رجال الصحيح وهو في كتاب ابن السَّني (٥٣٣) وهو عن خولة بنت حكيم في «صحيح مسلم» برقم (٢٧٠٨).

(٢) «صحيح مسلم» (٢٧٠٩).

(٣) من حديث عثمان بن عفان في سنن أبي داود (٥٠٨٨) والترمذي (٣٣٨٨) قال الترمذي: هذا حديث حسن صحيح، وهذا لفظ الترمذي.

ويكون في تحصُّنٍ واعتصامٍ بالله سبحانه.

فإن وقع السحرُ وحدث، فإن علاجه يكون بالرقية المشروعة المشتملة على آيات السحر، ويكون بمعرفة المكان الذي فيه السحر لاستخراجه عن طريق مَنْ فعله أو مَنْ رآه أو علم به، بأية وسيلة من الوسائل، كأن سمع شخصًا يتحدث بذلك، أو رأى في منامه رؤيا ترشده إلى مكانه، دون استخدامٍ للجن، ودون تصديقٍ للسحرة والكهنة والعرافين.

وفي حلِّ السَّحَرِ بالسَّحَرِ وتعلمه بقصد رفع الضرر، وجلب الخير كلامٌ عند أهل العلم، فإن أمكن معرفة مكان السحر بأي طريق فإنه يُبطله، بأن يسكُب عليه شيئًا من النجاسات، وأن يضعه في القاذورات ونحو ذلك، ما لم يكن فيه اسم الله.

والدليل على ذلك: أن جبريل أرشد رسول الله ﷺ إلى المكان الذي وُضع فيه (ليبد بن الأعصم) اليهودي السحر الذي سحر به النبي ﷺ.

في صحيح البخاري عن عائشة ؓ قالت: سحر رسول الله ﷺ رجلٌ من بني زريق، يقال له: ليبد بن الأعصم، حتى كان رسول الله ﷺ يُخيل إليه أنه كان يفعل الشيء وما فعله، حتى إذا كان ذات يوم -أو ذات ليلة- وهو عندي، لكنه دعا ودعا ثم قال: «يا عائشة، أشعرت أن الله أفتاني فيما استفتيته فيه؟ أتاني رجلان، فقعد أحدهما عند رأسي، والآخر عند رجلي، فقال: أحدهما لصاحبه: ما وجعُ الرجل؟ فقال: مطبوب، قال: مَنْ طبه؟ قال: ليبد بن الأعصم، قال: في أي شيء؟ قال: في مُشطٍ ومُشاطة، وجُفٍ طُلِعَ نَخْلَةٌ ذَكَرٌ، قال: وأين هو؟ قال: في بئر ذِزوان، فأتاها رسول الله ﷺ في ناسٍ من أصحابه، فجاء فقال: يا عائشة، كأن ماءها نُقاعة الحناء، وكأن رءوس نخلها رءوس الشياطين»، قلت: يا رسول الله، أفلا استخرجته؟ قال: «قد عافاني الله، فكرهت أن أثير على الناس فيه شرًّا» فأمر بها فدُفنت^(١) والمشاطة: ما يخرج من الشعر إذا سقط.

وفي رواية أن النبي ﷺ أمر عليًا -رضوان الله تعالى عليه- أن يأتي به، فذهب وجاء بالسحر من المكان الذي هو فيه، بإرشاد جبريل له، ثم استخرجه وأبطله، وقد أطلع الله رسوله على هذا السحر ليكون معجزة له في إبطال سحر ليبد، ولتعلم اليهود أن النبي ﷺ

(١) «صحيح البخاري» برقم (٣١٧٥، ٥٧٦٣) و«صحيح مسلم» برقم (٢١٨٩) والبيهقي في «الدلائل» (٩٢/٧).

لا تلحقه أضرارهم، وكما لم يؤثر السحرة على موسى لم يؤثر سحر لبيد بن الأعصم على النبي ﷺ وإنما عرض له عارض جسدي شفاه الله منه، فكان يخيل إليه أنه يفعل الشيء وما فعله.

وكانت رؤيا النبي ﷺ التي قالها لعائشة إخباراً من الله تعالى بما صنعه لبيد وهي من باب المعجزة؛ حتى لا يقدح في بلاغ الرسالة وعصمة الرسول، وفي هذا دليل على جواز إبطال السحر بطريقة مشروعة.

وأصول السحر ثلاثة: الأول: تخويف الناس عن طريق التأثير النفسي بأشياء وهمية وإرهابية.

الثاني: استخدام مؤثرات طبية خاصة كالزئبق والعقاقير المؤثرة في العقول.

الثالث: الشعوذة، واستخدام السرعة وخفة الحركة وخداع النظر.

احتراف الرقية: ولا أنصح بالذهاب إلى من يحترفون الرقية، ويعلقون الفتاوى والتصاريح لهم بها، حيث يذهب الناس إليهم فرادى وجماعات ليقروا عليهم ويرقوهم، والرقية في حد ذاتها مشروعة بكتاب الله تعالى، وبما شرعه رسول الله ﷺ وأخذ الأجرة عليها في حد ذاته لا بأس به أيضاً، ولكن أن يمتن الإنسان هذا، ويصير حرفة له، ومصدر دخل وتكسب، ويخصّص أفراداً يتعلق بهم الناس ويذهبون إليهم اعتقاداً فيهم، وفي أفضليتهم، وقبول رقيهم دون غيرهم -وقد يكون بعضهم محتالاً أو دجالاً لسبب مادي أو شهوي- فإن هذا يدخل في باب الشعوذة والتكهن والتعلق بغير الله سبحانه، فليس للرقية مشايخ أو أشخاص معينين، فكل إنسان يرقى، والأولى أن يرقى كل واحد نفسه وأهل بيته.

فإن كان هناك رجل صالح لا يتخذ هذا حرفة أو مدخلاً لبيع الماء أو الزيت أو القفازين ونحو ذلك، فقصده الشخص ليرقيه فليس في هذا شيء، فقد قرأ عمر رضي الله عنه الفاتحة على رجل فبرئ، ثم قرأها آخر على مريض فلم يبرأ، فقل: هذه الفاتحة، فأين عمر؟

١٠٣ - ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ ءَامَنُوا وَاتَّقَوْا لَمَثُوبَةٌ مِّنْ عِندِ اللَّهِ خَيْرٌ لَّوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾ (١٣)

ثم بيّن سبحانه أن اليهود لو أنهم آمنوا بالله ورسوله وخافوا الله لأيقنوا أن ثواب الله خيرٌ لهم من السحر، وكما نعى الله تعالى على من يتعلّمون السحر ويعملون به فقد نفى

عنهم الإيمان والتقوى، بما يستلزم وصفهم بنقيضها من عدم الإيمان وعدم الخوف من الله تعالى فقال: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ بَدَلُوا مِنْ تَعْلَمِ السَّحَرِ ﴿١٠٤﴾ بِأَلَلَةٍ وَرُسُلِهِ، إِذْ إِنْ تَعْلَمِ السَّحَرِ يَنَافِي الْإِيمَانَ وَهُوَ مِنْ أَعْظَمِ الْمُحَرَّمَاتِ ﴿وَأَتَّقُوا﴾ مَا حَرَّمَ اللَّهُ، ﴿لَمْ تُؤَبِّدْ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ خَيْرٌ﴾ أَي: لِأَثَابِهِمُ اللَّهُ خَيْرًا لَهُمْ مِمَّا ارْتَضَوْهُ لِأَنْفُسِهِمْ ﴿لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾ وَهَذَا تَنْزِيلٌ لَهُمْ مَنْزِلَةُ الْجَاهِلِ، فَكُلُّ مَنْ عَصَى اللَّهَ فَهُوَ جَاهِلٌ، وَلَوْ عَلِمُوا مَا يَتَرْتَبُ عَلَى أَمْرِ السَّحَرِ لَتَرَكُوهُ وَشَغَلُوا أَنْفُسَهُمْ بِمَا فِيهِ صَلَاحُهُمْ وَصَلَاحُ الْآخَرِينَ.

مُخَالَفَةُ الْيَهُودِ التَّاسِعَةَ عَشَرَ: التَّلَاعُبُ بِالْمُصْطَلَحَاتِ:

١٠٤- ﴿يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَقُولُوا رَاعِنَا وَقُولُوا انْظُرْنَا وَاسْمَعُوا وَلِكِنَّ رَبَّ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾

هذا أول نداء في سورة البقرة يُخاطَبُ به المؤمنون، وقد جاء هذا النداء وسط الآيات الخاصة ببني إسرائيل؛ لأنه يتعلق بإساءتهم للنبي ﷺ، ومما يتعلق بهذا النداء أن رجلاً جاء إلى عبد الله بن مسعود رضي الله عنه، فقال له: اعهد إليّ (أوصني وانصحي بنصيحة) قال له ابن مسعود: إذا سمعت الله تعالى يقول: ﴿يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ فأرעה سمعك (انتبه واصغ وتيقظ جيداً) فإنها إما خيرٌ تؤمر به، أو شرٌّ تنهى عنه^(١).

وهذا النداء ﴿يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ جاء ذكره في القرآن الكريم خطاباً للمؤمنين بعد ما وقر الإيمان في قلوبهم، وتكوّنت دولة الإسلام من المهاجرين والأنصار في المدينة، وأخذ التشريع ينزل ويتوالى في القرآن المدني، وقد خوطب به المؤمنون الذين استجابوا لله والرسول، وتميّزوا بذلك عن المشركين واليهود والمنافقين، خُوطبوا بهذا النداء في ثمانية وثمانين موضعاً من القرآن الكريم، يأمرهم ربهم وينهاهم، وينوط بهم التكليف والأحكام الشرعية، وهو نداء مُحَبَّبٌ إلى القلوب، يستجيش النفوس، ويخاطب مشاعر الإيمان والاستجابة في نفوس المؤمنين لطاعة الله ﷻ.

وفي هذا النداء يُعَلِّمُ الله سبحانه الأمة الإسلامية الأدب مع رسول الله ﷺ وألا يكونوا كاليهود فيتشبهوا بهم في سوء استخدامهم للألفاظ حال حديثهم مع رسول الله ﷺ في حياته، ومع شرعه ودعوته بعد مماته.

(١) «تفسير ابن أبي حاتم» (٣١٧/١) و«تفسير ابن كثير» وغيره للآية.

وقد كان المسلمون يقولون للنبي ﷺ وهم في مجلس العلم بين يديه، يقولون: (راعنا) ويقصدون بها معنىً صحيحًا، وكان اليهود يقصدون بها معنى سيئًا، فانتهزوا هذه الفرصة وصاروا يخاطبون الرسول بها ويقصدون المعنى السيء، فنهى الله المؤمنين عن هذه الكلمة سدًا للباب تأدبًا مع رسول الله ﷺ

وفي هذا النداء يكشف لنا القرآن شيئًا من أساليب اليهود، ومن سوء أدبهم مع النبي ﷺ فيحذرنا أن نكون مثلهم، أو أن نصنع مثل صنيعهم، أو نتشبه بهم، كما جاء في الحديث عن عبد الله بن عمر رضي الله عنه: «ومن تشبه بقوم فهو منهم»^(١)

وقد كان الرجل إذا جلس إلى رجل آخر، وهو يريد منه أن يُضغِي إليه يقول له: استمع إليَّ وانتظر حتى أفهم، وأمهلي.

وقد كان اليهود يستغلون الألفاظ، ويقولون للنبي ﷺ وهم يُوهِمُونَهُ أنهم يحبونه: السام عليكم. و(السام): هو الموت، فهم يَدْعُون على النبي ﷺ بالموت والهلاك، وفرق بين السام والسلام.

وكان المسلمون إذا أرادوا أن يقولوا للنبي ﷺ حين يعظهم ويذكّرهم: أمهلنا، و(راعنا) أي: راع أحوالنا، وتمهّل علينا، وأعطنا سمعك.

وهذه الكلمة (راعنا) لها معنى آخر، حيث يُقصد بها الرعونة: كما يقال لفلان: أنت أرعن، ومعناها عند اليهود بالعبرية أحرق، ففيها سبٌّ وذمٌّ وتقييحٌ، فلما سمع اليهود كلمة (راعنا) من المسلمين، قالوا: كنا نسب النبي ﷺ سرًّا، فأعلنوا سبكم له الآن باستخدام هذه اللفظة (راعنا) فكانوا يقولون: (راعنا يا أبا القاسم) استغلالًا للألفاظ في مخاطبة الرسول ﷺ كأنهم يقولون له: أنت أرعن. قَبَّحَهُمُ اللهُ!

وكان سعد بن معاذ يعرف لغتهم، فلما سمعها منهم قال: لئن سمعتها من أحد منكم لأضربن عنقه.

(١) من حديث طويل عن عبد الله بن عمر في «المسند» (٩٢/٢) برقم (٥١١٤، ٥١١٥) بإسناد ضعيف، ثوبان متكلم فيه، وسنن أبي داود برقم (٤٠٣١) وأخرجه عبد بن حميد (٨٤٨) والبيهقي في الشعب (١١٩٩) وابن أبي شيبة (٣١٣/٥) قلت: وهذه جملة من الحديث صحّت من طرق أخرى.

ولذلك فإن الله سبحانه نهى المؤمنين في أول خطاب يوجّه لهم في سورة البقرة - في سياق الحديث عن بني إسرائيل - ألا يكونوا كاليهود في استعمال مثل هذه الألفاظ المشتركة في المعنى، أو المحتملة لمعنى آخر، وأن يأتوا بدلها باللفظ الصريح الواضح ﴿وَقُولُوا أَنْظِرْنَا﴾ أي: انتظرنا، أو استمع إلينا، وترقبنا، حتى نفهم ما تُعلمه لنا، ولا يكونوا كاليهود في سوء أدبهم مع النبي ﷺ، بل تخيروا في خطابكم له أحسن الألفاظ التي فيها توقيره واحترامه وتعظيمه، ولا تخاطبوه بما يُسرُّ اليهود الذين قالوا سمعنا وعصينا، ﴿وَأَسْمِعُوا﴾ وأطيعوا، وجاء الأمر بالسمع مطلقا، ليشمل كل ما هو خير، مما أمر باستماعه، فيدخل فيه سماع القرآن وسماع السنة، وكل ما فيه أدب وطاعة، ثم توعّد الكافرين بالعذاب المؤلم فقال: ﴿وَالْكَافِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ وللجاحدين للحق المكذّبين للرسول عذاب موجه، وفي هذا بيان لبعض جرائم اليهود وقبائحهم وسوء أدبهم مع النبي ﷺ.

مُخَالَفَةُ الْيَهُودِ الْعِشْرُونَ: حَسَدُهُمْ لَخَاتَمِ الرُّسُلِ ﷺ وَأَسْبَابُهُ

١٠٥ - ﴿مَا يُوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَلَا الْمُشْرِكِينَ أَنْ يُنَزَّلَ^(١) عَلَيْكُمْ مِنْ خَيْرٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَاللَّهُ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ ﴿١٠٥﴾﴾

ثم يُبيّن سبحانه السبب في عداوة اليهود والمشرّكين للمؤمنين ورسولهم، وأنه الحسد الذي دعا اليهود لامتناعهم عن الإيمان بمحمد ﷺ وبالقرآن، فبيّن أن الصارف لهم عن ذلك هو الحسد، وحقد اليهود على النبي ﷺ؛ لما خصه الله به من النبوة والرسالة، وانتقالها إلى العرب من بني إسرائيل، والخير الذي في الآية هو الوحي والرسالة والنصر والاصطفاء..

والكفر في الآية نوعان: كفر أهل الكتاب الذين بدّلوا كتابهم، وكذبوا رسول الله محمداً ﷺ، والنوع الثاني: كفر عبدة الأوثان، وكلاهما كفر أكبر مُخرج من الملة.

والشرك أيضاً في الآية نوعان: شرك أهل الكتاب الذين ينسبون الأبوة والنبوة والصاحبة إلى الله سبحانه، ويقولون بالتثليث، فهم يشركون بالله تعالى شركاً أكبر، وشرك عبدة الأوثان الذين يتخذون مع الله إلهاً آخر، أو يتوجّهون بالعبادة لغير الله.

(١) قرأ ابن كثير وأبو عمرو ويعقوب (أن يُنَزَّلَ) بسكون النون وفتح الزاي مضارع أنزل، وقرأ الباقون بفتح النون وتشديد الزاي مضارع نزل.

والمشرك بالله كافر به، سواء أكان كتابياً أم وثنيّاً، ومن لم يؤمن بمحمد ﷺ فهو كافر أيضاً، قال تعالى ردّاً على حسدهم للنبي ﷺ: ﴿وَاللَّهُ يَخْتَصِرُ بِرَحْمَتِهِ مَن يَشَاءُ﴾ من عباده بالنبوة والرسالة ﴿وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾ والرسالة فضلٌ من الله تعالى ورحمة بمن اصطفاهم ربهم، ﴿فَإِنَّ اللَّهَ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ﴾ [الأنعام: ١٢٤] والكفار يحسدون النبي ﷺ على ذلك ويتمنون زوال النعمة عنه كما قال تعالى: ﴿أَمْ يَحْسُدُونَ النَّاسَ عَلَى مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ﴾ [النساء: ٥٤].

مُخَالَفَةُ الْيَهُودِ الْحَادِيَةُ وَالْعِشْرُونَ: التَّشْكِيكُ فِي الْإِسْلَامِ وَالطَّعْنُ فِيهِ بِسَبَبِ قَضِيَّةِ النَّسْخِ

١٠٦ - ﴿مَا نُنْسخُ﴾^(١) مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنْسخَهَا^(٢) نَأْتِ بِخَيْرٍ مِنْهَا أَوْ مِثْلَهَا أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ

يشير الربع السادس من سورة البقرة - في مطلعها - إلى الحملة الخبيثة الماكرة التي يشنها اليهود ضد الإسلام بالتشكيك والطعن فيه، ومحاولة إخراج أهله منه، وهذا الأمر قديم متجدد، فهو الذي تقوم به الصهيونية العالمية، والصليبية العالمية، في كل عصر ومصر، وهو نفسه الذي حدث في عهد الرسول ﷺ، فقد اعتذر اليهود عن عدم إيمانهم بالنبي ﷺ بقولهم ﴿تُؤْمِنُ بِمَا أُنْزِلَ عَلَيْكَ﴾ ويكفرون بغيره، فهم يزعمون أن شريعتهم لا تُنسخ وأن محمداً ﷺ وصفها بأنها حق وأنه جاء مصدقاً لها، فكيف يكون شرعه مبطلاً للتوراة؟!

فرد الله عليهم بهذه الآية، ينكر عليهم زعم القول بعدم النسخ، مع أنه مذكور عندهم في التوراة فإنكارهم له كفر واتباع الهوى، لأنهم يريدون بذلك التوصل إلى إنكار الرسالة الخاتمة، بدعوى أن رسالتهم لم تنسخ، وهو كلام باطل، فشريعتهم منسوخة برسالة عيسى ﷺ، ورسالة عيسى عليه السلام منسوخة برسالة محمد ﷺ.

وأيضاً فقد حُوت القبلية بعد هجرة النبي ﷺ من بيت المقدس إلى الكعبة، فأثار ذلك حسد اليهود للنبي ﷺ وللإسلام وأهله، ولماذا يتحولون عن قبلتهم إلى الكعبة؟ فكان من

(١) قرأ ابن عامر بخلف عن هشام (ما نُسخ) بضم النون الأولى وكسر السين مضارع أنسخ، وقرأ الباقون بفتح النون الأولى، وفتح السين مضارع نسخ، وهو الوجه الثاني لهشام.

(٢) قرأ ابن كثير وأبو عمرو (أو نُنسخها) بفتح النون الأولى، وهمزة ساكنة بعد السين المفتوحة من النسأ وهو التأخير، وقرأ الباقون بضم النون الأولى وكسر السين وعدم همز (أو نُسخها) من النسيان أو الترك.

نتيجة هذا الحسد أنهم أخذوا يبحثون عن أسباب يطعنون من خلالها في الإسلام، ويشككون فيه، ويحاولون إخراج أهله منه.

ومن ذلك أنهم انتهزوا هذه الفرصة، فقالوا لما نزل الأمر بتحويل القبلة إلى الكعبة: إن محمداً يأمر اليوم أصحابه بأمر، وينهاهم عنه غداً، ويقول لهم اليوم قولاً ويخالفه غداً، فأنزل الله سبحانه يُبين الحكمة من النسخ: ﴿مَا نَسَخَ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِنْهَا أَوْ مِثْلَهَا﴾ أي: ما ننسخ من شريعة ونتركها، إلا ونأت بما هو أفضل منها أو يماثلها، وما نرفع من حكم أو نبذله إلا أتينا بما هو خير منه وأنفع، حيث يكون البشر بحاجة إلى حكم من الأحكام في مرحلة معينة، ثم يُبدل هذا الحكم ويُغيّر بعد أن أدى وظيفته المطلوبة في وقته المناسب، فنأت بخير من هذه الآية المنسوخة بما يتفق مع مصلحة العباد والبلاد من النقل والتحويل حسب ما تقتضيه المصلحة الإلهية في مرحلة من مراحل الدعوة، لانتهاؤ مدة العمل بالحكم الشرعي الأول؛ فهو سبحانه قادرٌ لا يعجزه شيء، والمراد بالنسخ: الإزالة والتغيير.

واليهود يزعمون أن التوراة لا تُنسخ، وأن ذلك مانعٌ لهم من الدخول في الإسلام، والواقع: أن الشريعة التالية تُنسخُ الأولى وتأتي شريعة خير منها، وشريعة عيسى لم تُنسخ شريعة موسى بالكلية، بل رفعت بعض أحكامها وأثبتت أحكاماً أخرى، فهو نسخ في الجملة، أما شريعة محمد ﷺ فقد أبطلت شريعة عيسى إبطالاً تاماً، وأبطلت ما قبلها من سائر الشرائع من باب أولى، فهو رفعٌ كلي لجميع ما سبق من شرائع، بحيث لا يجوز لأحد أن يعتنق أيَّ شريعة سماوية أو أرضية غير الإسلام.

ثم أخبر سبحانه أن من يطعن في النسخ إنما يطعن في ملك الله تعالى وقدرته فقال:

١٠٧ - ﴿أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾

أقام سبحانه الدليل على كمال قدرته وشمول علمه وإحاطته بما هو أصلح للعباد والبلاد فقال: ﴿أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ إنه سبحانه يتصرف في هذا الكون كما يشاء؛ فهو سيده وربّه وخالقه، يفعل ما يشاء، ويحكم ما يريد، والكل مملوكٌ ومربوبٌ

لله ﷻ، وهو جل شأنه يُعَيَّرُ ويبدَّلُ وفق ما تقتضيه المصلحة والأحوال، ويأمر عباده وينهاهم كما يشاء، وعليهم الطاعة والقبول، وكما أنه لا حَجَرَ عليه -سبحانه- في أقداره وأوامره ونواهيه، فكَذَلِكَ لا يُعْتَرَضُ عليه فيما يشرعه لعباده من أحكام، فإن عصوا فليس لهم ولي من دون الله يتولاهم، ولا نصير يمنعهم من عذابه.

ويمائل هذه الآية قوله سبحانه: ﴿وَإِذَا بَدَلْنَا آيَةً مَكَانَ آيَةٍ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُزَكِّى قَالُوا﴾ أي للنبي ﷺ: ﴿إِنَّمَا أَنْتَ مُفْتَرٍ﴾ أي: قال اليهود والمشركون: هذا افتراء واختلاق منك يا محمد، قال سبحانه: ﴿بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ ﴿١٣١﴾ قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ مِنْ رَبِّكَ بِالْحَقِّ لِيُثَبِّتَ الَّذِينَ آمَنُوا وَهُدًى وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ ﴿١٣٢﴾ [النحل]. ولعل المراد بالآية في قوله تعالى ﴿وَإِذَا بَدَلْنَا آيَةً مَكَانَ آيَةٍ﴾ لعل المراد بها الآية الحسية الكونية، وليس الآية القرآنية.

معنى النسخ وأنواعه: والنسخ الذي يكون في آيات الكتاب العزيز معناه: رفع الحكم الشرعي عن المكلفين بدليل شرعي متأخر عنه، وقد حدث النسخ في جميع الأمم من لدن آدم ﷺ، فقد نُسخ زواج الأخ بالأخت من بني آدم لصلبه وحُرْمَ على من بعده، وكان نكاح الأختين مباحاً لبني إسرائيل فحرمته التوراة. وحدث النسخ في شريعة نوح حين خروجه من الفلك بحل أكل لحوم الدواب له ولذريته، ثم نُسخ حل بعضها.

وأمر إبراهيم بذبح ولده، ثم نُسخ قبل الفعل، وأمر بنو إسرائيل بقتل من عبد العجل ثم رُفع الحكم حتى لا يستأصلهم القتل.

وحُرْم العمل في يوم السبت على اليهود في شريعة موسى بعد ما كان حلالاً لهم.

والقرآن نسخ جميع الكتب والشرائع المتقدمة كالطوراة والإنجيل والزبور وصُحِف إبراهيم وشيث وغيرها.

والنسخ في الإسلام على ثلاثة أنواع:

النوع الأول: نسخ الآية والحكم معاً، فالآية لم تُعَدَّ تُقْرَأ، وحكمها قد رُفع عن المكلفين، فليس معمولاً به، وهذا النوع من النسخ كما جاء في الصحيحين وغيرهما عن عائشة رضي الله عنها قالت: كان فيما أنزل من القرآن عشر رضعات معلومات يُحرَّمُ فَنُسِخْنَ بِخَمْسِ

رضعات معلومات^(١).

فهذا الحكم ليس له وجودٌ في القرآن الكريم، وقد نُسخَ بخمس رضعات بدل عشر، وهذا عند جمهور أهل العلم، ولم يرَ الشافعي جواز نسخ الكتاب بالسنة.

النوع الثاني: نسخُ التلاوة دون الحكم، أي: أن الآية قد نُسخَت ولكن حكمها باقٍ معمول به، وذلك كحكم الرجم في الآية المنسوخة من سورة النور: (الشيخ والشيخة إذا زنيا فارجموهما البتة نكالا من الله والله عزيز حكيم) هذه آية منسوخة التلاوة من سورة النور، ونُسخت لشناعة وقوع الزنا من الشيخ والشيخة، وبقي الحكم معمولاً به، وتواتر عن رسول الله ﷺ العمل به أكثر من مرة، وقد صحَّ عن رسول الله ﷺ وعن أصحابه رجم الزاني المحصن والزانية المحصنة حتى الموت، فقد رجم ﷺ ماعزاً الأسلمي^(٢) والمرأة الجهنية^(٣) والغامدية^(٤) فهذا نسخٌ للتلاوة وبقاءٌ للحكم.

وفي الصحيحين أن عمر رضي الله عنه قال وهو جالس على المنبر: كان فيما أنزل آية الرجم، فقرأناها ووعينها وعقلناها، ورجم رسول الله ﷺ ورجمنا بعده^(٥).

ومما نسخت تلاوته (لو كان لابن آدم واديان من ذهب لابتغى لهما ثالثاً ولا يملأ جوف ابن آدم إلا التراب، ويتوب الله على من تاب)^(٦).

النوع الثالث: نسخ الحكم وبقاء التلاوة، وذلك كما في آية تقديم الصدقة عند مناجاة النبي ﷺ، أي: عند الحديث إليه والتخاطب معه، وذلك بعد كثرة الناس وازدحامهم حول رسول الله ﷺ كما في سورة المجادلة ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نَجَّيْتُمُ الرَّسُولَ﴾ إذا أردتم أن تحدثوه وتخاطبوا معه ﴿فَقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيْ نَجْوَاكُمْ صَدَقَةٌ﴾.

(١) مسلم (١٤٥٢) وأبو داود (٢٠٦٢) وابن ماجه (١٩٤٢) والترمذي (١١٥٠).

(٢) تنظر قصته في «صحيح مسلم» (١٦٩٥).

(٣) تنظر قصتها في «صحيح مسلم» (١٦٩٦) و«صحيح البخاري» (٢٦٩٦).

(٤) تنظر قصتها في «صحيح مسلم» (١٦٩٥).

(٥) يُنظر: «صحيح مسلم» (١٦٩١) و«صحيح البخاري» (٢٤٦٢، ٣٩٢٨، ٧٣٣٣). وانظر الكلام عن آية

(الشيخ والشيخة) في أول سورة النور.

(٦) «صحيح البخاري» (٦٤٣٦، ٦٤٣٧) و«صحيح مسلم» (١٠٤٩).

أي: أن على الذي يريد أن يتحدث مع الرسول عليه الصلاة والسلام أن يقدم صدقة بين يدي هذه النجوى، فرفع هذا الحكم ونسخ بقوله سبحانه: ﴿فَإِنْ لَّمْ تَجِدُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [١٣] أَشْفَقْتُمْ أَنْ تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيِ نَجْوَىكُمْ صَدَقْتُمْ فَأِذْ لَمْ تَفْعَلُوا وَتَابَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٣﴾ [المجادلة]

أي: نُسَخَ تقديم الصدقة وخُفِفَ إلى الإكثار من الأعمال الصالحة بدلاً من تقديم الصدقة بين يدي رسول الله ﷺ، وهذا عند جمهور أهل العلم.

ويرى بعضهم أن ذلك من باب الرخصة والعزيمة، ومثل ذلك آيتي الثبات في مواجهة العدو التي في سورة [الأنفال: ٦٥، ٦٦] وكون الواحد من المسلمين يتصدى لقتال عشرة من غير المسلمين، أو اثنين.

ومن ذلك: الوصية للوالدين في قوله تعالى: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ إِنْ تَرَكَ خَيْرًا الْوَصِيَّةُ لِلْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ بِالْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى الْمُتَّقِينَ﴾ [البقرة]

فقد نُسِخت الوصية إلى الوالدين بقوله تعالى: ﴿وَلَا بَوْلِيهِ لِكُلِّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا السُّدُسُ مِمَّا تَرَكَ إِنْ كَانَ لَهُ وَلَدٌ فَإِنْ لَمْ يَكُنْ لَهُ وَلَدٌ وَوَرِثَهُ أَبَوَاهُ فَلِأُمِّهِ الثُّلُثُ فَإِنْ كَانَ لَهُ إِخْوَةٌ فَلِأُمِّهِ السُّدُسُ﴾ [النساء: ١١] أي بآية الميراث، ويقول النبي ﷺ: «لا وصية لوارث».

كما جاء في حديث أبي أمامة الباهلي ؓ قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إن الله قد أعطى كل ذي حق حقه فلا وصية لوارث»^(١).

وهذا النوع من النسخ حمله بعض أهل العلم، القائلين بعدم النسخ - كأبي مسلم الأصفهاني - على معان:

فقد يكون الحكم المنسوخ رخصة والناسخ عزيمة، وقد يكون لكل منهما معنى مغاير، مثل نسخ عدة المتوفى عنها زوجها من سنة إلى أربعة أشهر وعشرة أيام، كما في آيتي العدة من سورة البقرة (٢٣٤)، (٢٤٠) فقد قيل: إن الآية الأخيرة تتعلق بحق المتعة مدة

(١) «سنن النسائي» (٢٤٧/٦) وفي «الكبرى» (٥٧٨١) والطبراني في «الكبير» (٧٦٢١) وعبد الرزاق (٧٢٧٧) و«سنن أبي داود» (٢٨٧٠، ٣٥٦٥) و«سنن الترمذي» (٢١٢٠، ٢١٢١) و«المسند» (٢٢٢٩٤) وعن عمرو بن خارجة (١٧٦٦٣، ١٨٠٨٣) وغيرهم، وهو حديث حسن، وله شواهد يصح بها.

عام، وعدم حمل المتوفى عنها زوجها على الخروج من بيت الزوجية، إلا إذا خرجت من تلقاء نفسها، والآية الأولى للعدة، وهما حكمان مختلفان.

تَحْذِيرُ اللَّهِ لِلْمُسْلِمِينَ مِنَ الْأَسْئَلَةِ الْمُفْضِيَةِ إِلَى الْكُفْرِ

١٠٨- ﴿أَمْ تُرِيدُونَ أَنْ تَسْأَلُوا رَسُولَكُمْ كَمَا سُئِلَ مُوسَى مِنْ قَبْلُ وَمَنْ يَتَّبِعِ الْكُفْرَ بِالْإِيمَانِ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ﴾

ثم إن هذه الحملة الخبيثة الماكرة من اليهود للتشكيك في الإسلام قد آتت ثمارها حينذاك، فحذّر الله المسلمين أن يتطرق إليهم الشك في الأحكام المنسوخة بعد استبدالها بغيرها، كما حذّرهم من الأسئلة المفضية إلى الكفر، ومن التشكيك في الرسالة الخاتمة، حيث نتج عن ذلك أن كثيراً ممن دخلوا في الإسلام من المشركين ومن لم يدخلوا فيه أخذوا يسألون الرسول ﷺ كثيراً من الأدلة والبراهين على صحة رسالته.

قال رافع بن خُرَيْمَة، ووهب بن زيد لرسول الله ﷺ: يا محمد اتنا بكتاب تنزله علينا من السماء نقرؤه، أو فجر لنا أنهاراً؛ نتبعك ونصدقك، فأنزل الله الآية^(١)، كما في قوله تعالى حكاية عنهم: ﴿وَقَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ بِكَ حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الْأَرْضِ يَنْبُوعًا﴾ ٩٠ ﴿أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِّنْ نَّخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ الْأَنْهَارَ خُلَّةً لَّهَا تَفْجِيرًا﴾ ٩١ ﴿أَوْ تَسْقُطَ السَّمَاءُ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسْفًا أَوْ تَأْتِيَ بِلَآئِهِ وَالْمَلَكُ قِيلًا﴾ ٩٢ ﴿والآيات بعدها [الإسراء: ٩٠-٩٦]

وكذا قول سبحانه: ﴿وَقَالُوا مَا هَذَا الرَّسُولُ يَأْكُلُ الطَّعَامَ وَيَمْشِي فِي الْأَسْوَاقِ لَوْلَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونُ مَعَهُ نَذِيرًا﴾ ٧ ﴿أَوْ يُنْفَخَ إِلَيْهِ كَنْزٌ أَوْ تَكُونُ لَهُ جَنَّةٌ يَأْكُلُ مِنْهَا﴾ [الفرقان: ٧، ٨] وقالوا له ﷺ: اجعل الصفا ذهباً، ووسّع لنا أرض مكة، فنهوا عن مثل هذه الاقتراحات حتى لا يتشبهوا باليهود.

وكانت هذه الأسئلة ونحوها قد كثرت بسبب الحملة الخبيثة التي شنها اليهود على رسول الله ﷺ يطلبون فيها إقامة البراهين الدالة على رسالته.

والله ﷻ يحذّر المسلمين أن يكونوا كاليهود، فنهاهم عن كثرة السؤال، ونهاهم عن

(١) «سيرة ابن هشام» (٥٤٨/١) والطبري (٤٠٩/٢) وابن أبي حاتم (١٠٧٤).

السؤال عما لا يوجد، فربما يكون السؤال سبباً في التحريم كما صحَّ في الحديث عن سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «إِنَّ أَعْظَمَ الْمُسْلِمِينَ جُرْماً مَنْ سَأَلَ عَنْ شَيْءٍ لَمْ يَحْرَمْ فَحَرَّمَ مِنْ أَجْلِ مَسْأَلَتِهِ»^(١) فقد نزل حكم الملاعة بسبب السؤال.

قال الله تعالى: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَسْأَلُوا عَنْ أَشْيَاءٍ إِنْ بُدَّ لَكُمْ تَسْأَلُكُمْ﴾ [المائدة: ١٠١]

ولما كرر رجل السؤال عن فرضية الحج قال ﷺ: «لَوْ قُلْتُ: نَعَمْ لَوَجِبَتْ وَلِمَا اسْتَطَعْتُمْ» ثم قال: «اذرُونِي مَا تَرَكْتُمْ»^(٢).

وفي الحديث عن المغيرة بن شعبة رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «إِنَّ اللَّهَ كَرِهَ لَكُمْ ثَلَاثًا: قِيلَ وَقَالَ، وَكَثْرَةُ السُّؤَالِ، وَإِضَاعَةُ الْمَالِ»^(٣).

ذلكم قول الله تعالى: ﴿أَمْ تُرِيدُونَ أَنْ تَسْأَلُوا رَسُولَكُمْ كَمَا سُئِلَ مُوسَىٰ مِنْ قَبْلُ﴾ أتريدون -أيها الناس- أن تسألوا رسولكم محمداً من البراهين والأدلة على صدق رسالته ﷺ كما سأل اليهود موسى من قبل عناداً ومكابرة؟! ﴿فَقَالُوا أَرَنَا اللَّهُ جَهْرَةً﴾ [النساء: ١٥٣] وأيُّ بشاعة في مثل هذا السؤال؟ وأي جُرأة على الله سبحانه؟! وأي تكذيب لرسول الله ﷺ أعظم من هذا؟! ﴿يَسْأَلُكَ أَهْلُ الْكِتَابِ أَنْ تُنَزِّلَ عَلَيْهِمْ كِتَابًا مِنَ السَّمَاءِ فَقَدْ سَأَلُوا مُوسَىٰ أَكْبَرَ مِنْ ذَلِكَ فَقَالُوا أَرَنَا اللَّهُ جَهْرَةً﴾ [النساء: ١٥٣]

ومن اختار الكفر وترك الإيمان فقد خرج عن صراط الله إلى الضلال وطريق الشيطان ﴿وَمَنْ يَتَّبِدْ لِّلْكَفْرِ ءَالِيَةً فَلَا يَمُنْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ﴾ وهكذا الذين عدلوا عن طريق الأنبياء إلى الاقتراحات عليهم بالأسئلة، على وجه التعنت والكفر.

عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: ما رأيت قوما خيراً من أصحاب محمد ﷺ، ما سألوه إلا عن اثنتي عشرة مسألة، كلها في القرآن: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ﴾ [البقرة: ٢١٩] ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ﴾ [البقرة: ٢١٧] ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْيَتَامَىٰ﴾ [البقرة: ٢٢٠] يعني:

(١) «صحيح البخاري» برقم (٧٢٨٩) و«صحيح مسلم» برقم (٢٣٥٨) عن سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه.

(٢) «صحيح مسلم» برقم (١٣٣٧) عن أبي هريرة ورقم (١٢) عن أنس وفي البخاري (٧٢٨٨) وابن حبان (٣٧٠٤).

(٣) «صحيح البخاري» برقم (٨٤٤، ١٤٧٧) و«صحيح مسلم» برقم (٥٩٣).

أما سؤال الاسترشاد والتعليم فهو محمود، أمر الله به في مثل قوله ﴿فَسَلُّوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ (٧) [الأنبياء: ٧]

المُخَالَفَةُ الثَّانِيَّةُ وَالْعِشْرُونَ: الْكَشْفُ عَنْ نَوَايَا الْيَهُودِ نَجَاهُ الْمُسْلِمِينَ بِتَمَنِّيهِمْ كُفْرَهُمْ

١٠٩- ﴿وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّنْ بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِّنْ عِندِ أَنْفُسِهِمْ مِّنْ بَعْدِ مَا بَيَّنَّ لَهُمُ الْحَقُّ فَاعْفُوا وَاصْفَحُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾
ثم بيّن ﷺ أن السبب في هذه الحملة الخبيثة من بني إسرائيل ضد الإسلام هو الحسد لرسول الله ﷺ؛ لأنه كان من العرب، وقد حُوِّلَت الرسالة من بني إسرائيل إلى نسل إسماعيل عليه السلام.

١- وقد حدث ذلك في أعقاب غزوة أحد، حيث مُنِيَ المسلمون بدرس فيه محنة، فقال فنحاص وزيد بن قيس وغيرهما من اليهود لحذيفة وعمّار: لو كنتم على حق لما هُزمتُم، فاتبعونا، ادخلوا في دين اليهودية، فنحن أهدي سبيلا منكم، فردا عليهم وثبتا على الإسلام، وفي هذا يقول تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِّنَ الْكِتَابِ يُؤْمِنُونَ بِالْكِتَابِ وَأَطَاعُوا وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا هَتُّولَاءَ هَتُّولَاءَ أَهْدَى مِنَ الَّذِينَ ءَامَنُوا سَبِيلًا﴾ (٥١) أُولَئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ وَمَن يَلْعَنِ اللَّهُ فَلَن مَّجِدْ لَهُ نَصِيرًا﴾ (٥٢) [النساء].

ومن هذه المكاييد ما ذكره الله تعالى عنهم في قوله ﴿وَقَالَتْ طَآئِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ ءَامِنُوا بِالَّذِي أُنْزِلَ عَلَى الَّذِينَ ءَامَنُوا وَجَهَ النَّهَارِ وَكُفُّوا ءَاخِرَهُ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ (٧٦) [آل عمران]

٢- وأخرج ابن أبي حاتم بسند حسن عن ابن عباس عليه السلام قال: فكان حُيَيُّ بن أخطب وأبو ياسر بن أخطب، من أشد اليهود للعرب حسداً؛ إذ خصهم الله برسوله، وكانا جاهدين في ردّ الناس عن الإسلام بما استطاعا، فأنزل الله فيهما: ﴿وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّنْ بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّارًا﴾.

فكثيرٌ من أهل الكتاب يتمنى أن ترجعوا بعد إيمانكم كفارا كما كنتم من قبل تعبدون الأصنام ﴿حَسَدًا مِّنْ عِندِ أَنْفُسِهِمْ مِّنْ بَعْدِ مَا بَيَّنَّ لَهُمُ الْحَقُّ﴾ أي: حقدًا منهم على الإسلام وأهله بعد ما تبين لهم صدق محمد ﷺ فيما جاء به، فالإسلام حق، والقرآن حق والتوجه إلى الكعبة حق ﴿فَاعْفُوا وَاصْفَحُوا﴾ عن جهلهم، ولا تقابلوا الحقد بالحقد، ولا

تقابلوا السيئة بالسيئة، بل اصبروا حتى يأذن الله، اصبروا ﴿حَتَّىٰ يَأْتِيَ اللَّهَ بِأَمْرٍ﴾ أي: يأتي أمر الله بقتالهم، اصبروا حتى تشد قوة المسلمين، وتقوى حوزتهم، كما قال تعالى: ﴿وَلَتَسْمَعَنَّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ وَمَنِ الَّذِينَ أُشْرِكُوا أَذَىٰ كَثِيرًا وَإِن تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ ذَلِكَ مِن عَزْمِ الْأُمُورِ﴾ [آل عمران: ١٨٦]

وقد تم للمسلمين الغلبة عليهم وأجلي اليهود عن المدينة، وأمر المسلمون بقتالهم ونصروا عليهم ﴿إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ فالله تعالى لا يعجزه شيء.

٣- ومن هذا القبيل أن النبي ﷺ ركب حماراً وأردف خلفه أسامة بن زيد، وذهب لزيارة سعد بن عبادة - قبل غزوة بدر - فمر بمجلس فيه عبد الله بن أبي - قبل أن يُسلم - وفي المجلس أخلاط من المسلمين واليهود وعبداء الأوثان، ومعهم عبد الله بن رواحة، فغشيت المجلس عجاجة الدابة، فخمّر عبد الله بن أبي أنفه بردائه وقال: لا تغبروا علينا، فوقف النبي ﷺ ونزل، ثم سلم عليهم ودعاهم إلى الإسلام وقرأ عليهم شيئاً من القرآن، فقال عبد الله: ما أحسن ما تقول إن كان حقاً، ولكن لا تؤذنا في مجالسنا، وارجع إلى رحلك، فمن جاءك فاقصص عليه.

قال عبد الله بن رواحة: بل اغشنا في مجالسنا، فإننا نحب ذلك، فاستب أهل المجلس، فهذا هم النبي ﷺ ثم ركب دابته وذهب حتى دخل على سعد بن عبادة، فقص عليه ما حدث، فقال سعد: اعفُ عنه واصفح، فوالذي أنزل عليك الكتاب لقد جاءك الله بالحق، وأهل المدينة ينظّمون له الخرز ليتوجوه ملكاً عليهم، فهذا هو سبب ما رأيت، فعفا عنه النبي ﷺ كما عفا عن المشركين وأهل الكتاب.

وقد أمره الله أن يصبر على أذاهم، وكان النبي ﷺ يتأوّل العفو، حتى أذن الله له بالجهاد، فلما غزا بدرًا وقتل صناديد قريش قال عبد الله بن أبي: هذا أمرٌ قد توجه، فبايع الرسول على الإسلام فأسلم هو ومن معه من المشركين وعبداء الأوثان^(١).

٤- وعن الزهري أن كعب بن الأشرف اليهودي كان شاعراً، وكان يهجو النبي ﷺ ويحرّض

(١) انظر نص الحديث في «صحيح البخاري» عن عروة بن الزبير برقم (٤٥٦٦) في التفسير (٢٩٨٧) ومسلم (٧٩٨).

عليه كفار قريش في شيعره، وكان المشركون واليهود في المدينة يؤذون النبي ﷺ حين قدمها ويؤذون أصحابه أشد الأذى، فأمر الله نبيه بالصبر والعفو عنهم، فأنزل الله الآية^(١).

وفي معنى هذه الآية يقول سبحانه تعالى: ﴿وَدُّوا لَوْ تَكْفُرُونَ كَمَا كَفَرُوا فَتَكُونُونَ سَوَاءً﴾ [النساء: ٨٩] ويقول جل شأنه: ﴿وَدُّوا لَوْ تَكْفُرُونَ﴾ [المتحنة: ٢].

والعفو: ترك العقوبة على الذنب، والصفح: الإعراض عنه وعدم مواجهته باللوم ونحوه، والصفح أبلغ من العفو.

وفي الحديث عن أبي موسى ؓ أن رسول الله ﷺ قال: «لا أحد أصبر على أذى يسمعه من الله ﷻ، يدعون له نذًا وهو يرزقهم!»^(٢)

ألا فاتركوا معاقبتهم - أيها المؤمنون - وأعرضوا عنهم حتى يأذن الله لكم في الانتصار منهم بعد أن تنهياً أسبابه.

دَعْوَةُ الْمُسْلِمِينَ لِإِصْلَاحِ شُؤْنِهِمْ مَعَ اللَّهِ وَمَعَ النَّاسِ

١١٠ - ﴿وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَمَا تُقَدِّمُوا لِأَنفُسِكُمْ مِنْ خَيْرٍ يَحْدُوهُ عِنْدَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾

ثم امضوا - أيها المسلمون - في إصلاح شأنكم، وإقامة عمودَي الدين، وتقديم الخير لكم ولغيركم ﴿وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ﴾ واطبوا على العبادة البدنية والمالية ﴿وَمَا تُقَدِّمُوا لِأَنفُسِكُمْ مِنْ خَيْرٍ﴾ فرضًا أو نفلًا ﴿يَحْدُوهُ عِنْدَ اللَّهِ﴾ خيرًا وأعظم أجرًا ﴿إِنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ أي: اشتغلوا بإقامة الصلاة وأداء الزكاة وأعمال الخير والبر، وفعل القربات، في الوقت الحاضر، فإن الوقت لم يحن بعدُ للأمر بقتالهم، والله سبحانه لن يضيع ثواب أعمالكم، فهو سبحانه بصيرٌ بكل أعمالكم وسيجازيكم عليها بالإحسان إحسانًا، وبالإساءة مثلها، ولا تكونوا كبنِي إِسْرَائِيلَ يشككون في الإسلام ويطعنون في مصادره.

(١) النيسابوري ص ٢٩ والسيوطي ص ١٣ و«الدر المنثور» (١/١٠٧).

(٢) من حديث أبي موسى في البخاري (٦٠٩٩، ٧٣٧٨) ومسلم (٢٨٠٤) و«المسند» (١٩٥٢٧) بإسناد صحيح على شرط الشيخين كما قال محققوه وابن حبان (٢٤٢) و«الأدب المفرد» (٣٨٩) و«السنن الكبرى» للنسائي (٧٦٦١).

مُخَالَفَةُ الْيَهُودِ الثَّالِثَةِ وَالْعِشْرُونَ: زَعَمُهُمْ أَنَّ الْجَنَّةَ خُلِقَتْ لَهُمْ وَالرَّدُّ عَلَى ذَلِكَ

١١١- ﴿وَقَالُوا لَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَنْ كَانَ هُودًا أَوْ نَصْرَىٰ تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ﴾^(١) قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿١١١﴾

ادّعى اليهود أن الجنة خلقت لهم، وادّعى النصارى أنها خلقت لهم، وهذا مجرد أكاذيب، فإن كل دعوة لابد لها من برهان وحجة على صحتها.

هذا: ولما قدّم وفد نصارى نجران على رسول الله ﷺ والتفتوا مع يهود المدينة في مجلس ضمّهم عند رسول الله ﷺ وكان بين الفريقين -أحبار اليهود ورهبان النصارى- مناظرات ارتفعت فيها أصواتهم، فكان منها أن اليهود قالوا: لن يدخل الجنة إلا من كان هودًا، أي: أن الجنة خاصة بهم في الدار الآخرة، ولا يدخلها غيرهم، وقالت النصارى كذلك: لن يدخل الجنة إلا من كان نصرانيًا، وذلك قول الله سبحانه: ﴿وَقَالُوا لَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَنْ كَانَ هُودًا أَوْ نَصْرَىٰ﴾ فبيّن الله سبحانه أن هذه خرافات وأوهام وأمانى كاذبة، وذلك في قوله تعالى: ﴿تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ﴾ أي: أنها أمانى تمنّوها على الله بغير حق، بل سوّلتها لهم أنفسهم، وخدعهم بها الشيطان وهي دعوى كاذبة، فأين الدليل والبرهان على هذه المقالة؟! فأتوا به إن كانت دعواكم حقًا ﴿قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ﴾ على صحة هذا الاختصاص ﴿إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ في دعواكم.

ونظير هذه الآية ما حكاه الله تعالى عنهم في قوله ﴿وَقَالُوا كُونُوا هُودًا أَوْ نَصْرَىٰ تَهْتَدُوا﴾ [البقرة: ١٣٥] أي قالت اليهود: كونوا هودا تهتدوا، وقالت النصارى: كونوا نصارى تهتدوا، وكلا الفريقين يزعم أن المسلمين ليسوا أهلًا للجنة ولا للهداية.

ولمّا لم يكن لليهود ولا للنصارى برهان يصدق دعواهم أو يكذبها، فقد علّم بهذا كذبهم، وذكر سبحانه وتعالى في الآية التالية البرهان العام لهذه القضية فقال:

(١) قرأ أبو جعفر ﴿تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ﴾ بياء مدية بعد النون ثم هاء مكسورة، وقرأ باقي القراء قراءة حفص ﴿تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ﴾ بياء مشددة بعدها هاء مضمومة.

١١٢ - ﴿بَلَىٰ^(١) مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ^(٢) مُحْسِنٌ فَلَهُ أَجْرُهُ عِنْدَ رَبِّهِ وَلَا خَوْفٌ^(٣) عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ

بَيَّنَّ سبحانه أن الأمر ليس كما زعم كل فريق من اليهود والنصارى، من أن الجنة تختص بطائفة منهم دون غيرها، وإنما يدخل الجنة كل من أخلص دينه لله، فأسلم وجهه له، وكان شديد الامتثال لأوامره ونواهيه، مراقباً لله في كل تصرفاته، مؤدياً للأعمال الصالحة على أحسن وجه، فهذه هي قاعدة الجزاء العادل الذي تُوفَّى به كل نفس يوم القيامة ما كسبت، فقال جل شأنه: ﴿بَلَىٰ﴾ ليس الأمر كما تزعمون أيها اليهود والنصارى، ولكن ﴿مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ﴾ أي: أسلم ذاته لله تسليماً مطلقاً، فأخلص الله أعماله، وتوجّه بقلبه إلى الله تعالى.

ولا يكفي إسلام الذات لله تعالى، ولا يكفي العمل الصالح إلا إذا كان متوجّحاً بالإخلاص، ولذا قال تعالى في الشرط الثاني: ﴿وَهُوَ مُحْسِنٌ﴾ في عبادة ربه، يعبد به بما شرع، وهذا وصفٌ للمسلم المحسن الصادق الإيمان الذي أخلص لله في كل أقواله وأفعاله، فهو الذي أسلم وجهه لله بصدق وإخلاص ﴿فَلَهُ أَجْرُهُ﴾ ثواب عمله ﴿عِنْدَ رَبِّهِ﴾ يوم لقائه في الآخرة، ﴿وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ﴾ مما يُصِيبُهُمْ في المستقبل ﴿وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ على ما فاتهم من حظوظ الدنيا، والآية تشير إلى أن العمل المُتَقَبَّلُ له شرطان.

أحدهما: أن يكون خالصاً لله من الشرك والرياء.

وثانيهما: أن يكون موافقاً للشريعة التي جاء بها محمد ﷺ

ولو فقد العمل أحدهما فهو رَدٌّ على صاحبه، وهذا معنى ﴿أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ

(١) أَمَالَ حمزة والكسائي وخلف العاشر (بلى)، وبالفتح والتقليل للأزرق ودوري وأبي عمرو، وبالفتح والإمالة لشعبة.

(٢) سَكَّنَ الهاء من (وهو) قالون وأبو عمرو والكسائي وأبو جعفر، وضمها الباقون، ووقف عليها يعقوب بهاء السكت.

(٣) قرأ يعقوب (لا خوف عليهم) بفتح الفاء، على أن (لا) نافية للجنس تعمل عمل إن؛ فترفع الاسم وتنصب الخبر، وقرأ الباقون بتوئين الفاء المرفوعة، على أن (لا) ملغاة لا عمل لها، وقرأ حمزة ويعقوب بضم الهاء من (عليهم) وكسرها الباقون.

مُحْسِنٌ ﴿وَنُظِيرُهُ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿فَمَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا﴾﴾ [الكهف: ١١٠]

قال تعالى: ﴿فَإِنْ حَاجَّوكَ فَقُلْ أَسْلَمْتُ وَجْهِيَ لِلَّهِ وَمَنِ اتَّبَعْتُ﴾ [آل عمران: ٢٠].

ويفهم من هذا أنَّ من ليس كذلك فهو من أهل النار الهالكين، فلا نجاة إلا لأهل الإخلاص للمعبود والمتابعة للرسول.

الْمُخَالَفَةُ الرَّابِعَةُ وَالْعِشْرُونَ: تَكْذِيبُ كُلِّ مِنَ الْيَهُودِ وَالنَّصَارَى لِلْآخِرِ

١١٣- ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ لَيْسَتِ النَّصَارَى عَلَى شَيْءٍ وَقَالَتِ النَّصَارَى لَيْسَتِ الْيَهُودُ عَلَى شَيْءٍ وَهُمْ يَتْلُونَ الْكِتَابَ كَذَلِكَ قَالَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ مِثْلَ قَوْلِهِمْ فَاللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾
وقد بلغ الأمر بأهل الكتاب أن ضلل بعضهم بعضاً، وكفر بعضهم بعضاً، فكل طائفة تكفر الأخرى، والله سيحكم بينهم يوم القيامة بحكمة العادل،

ومن المناظرات التي وقعت بين النَّصَارَى واليهود في مجلس النبي ﷺ: أن كُلاً من الفريقين كذب الآخر، وأنكر دينه، وأنكر رسوله وكتابه وكفر به: ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ لَيْسَتِ النَّصَارَى عَلَى شَيْءٍ﴾ أي: ليسوا على دين صحيح، وليسوا على كتاب حق، وكفروا بعيسى والإنجيل ﴿وَقَالَتِ النَّصَارَى لَيْسَتِ الْيَهُودُ عَلَى شَيْءٍ﴾ أي: أن دينهم باطل وكتابهم باطل، وكفروا بموسى والتوراة، مع علم كل واحد من الفريقين بطلان ما قاله؛ لأن كتابه يُثبت الرسالة الأخرى ويؤمن بها.

وذلك لما قَدِمَ وفد نصارى نجران على رسول الله ﷺ وأتتهم أحبار يهود، وهم عند النبي ﷺ فناظروهم في الدين وجادلوهم حتى تسابوا وكفر كل منهما بالآخر عند رسول الله ﷺ فقال رافع بن حريملة: ما أنتم على شيء! وكفر بعيسى ابن مريم وبالإنجيل، فقال رجل من نصارى نجران: ما أنتم على شيء! وجحد نبوة موسى وكفر بالتوراة، فأنزل الله فيهما هذه الآية^(١).

وقال قتادة: قد كانت أوائل النَّصَارَى على شيء ولكنهم ابتدعوا وتفرقوا، وكانت أوائل

(١) «تفسير الطبري» عن قتادة بسند حسن (٣٩٤/١) وأخرجه ابن أبي حاتم بسند حسن عن ابن عباس وعن أبي العالية برقم (١١٠٣) و«سيرة ابن هشام» (٥٤٩/١).

اليهود على شيء لكنهم ابتدعوا وتفرقوا^(١) وهذا بالنظر إلى أصل الشريعة.

قال سبحانه: ﴿وَهُمْ يَتْلُونَ الْكِتَابَ﴾ أي: والحال أنهم يقرؤون التوراة والإنجيل، وليس فيهما هذا الاختلاف، ولا هذا التكذيب، بل فيهما وجوب الإيمان بالأنبياء جميعاً، وليس فيهما ما يثير شبهة في عدم صحة رسالة محمد ﷺ، ولا في تكذيب رسول من رسل الله، أو تكذيب ما أنزل عليه من عند الله.

والقاعدة: أن كل أمة لها كتاب ورسول وشريعة، فديانتها قائمة إلى أن تأتي الرسالة التي بعدها، والكتاب الذي يليها ينسخها، ويجب على كل من أدرك الرسالة التالية أن يؤمن بالرسول اللاحق وبالكتاب الذي نزل عليه، فالوحي الذي نزل على الرسول السابق هو نفسه الوحي الذي نزل على الرسول اللاحق، وآخرهم محمد ﷺ وكلهم يدعون إلى توحيد الله. والنسخ يكون في بعض الأحكام التشريعية.

قال تعالى: ﴿كَذَلِكَ قَالَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ مِثْلَ قَوْلِهِمْ﴾ أي: كذلك قال المشركون والجهلة - ممن لا علم لهم من العرب مثل قول اليهود والنصارى فقالوا: إن محمداً ليس على شيء من الحق، فالله يفصل بينهم يوم القيامة، ويجازي كلاً بعمله ﴿فَاللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ وهذا كقوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّابِئِينَ وَالْمَجُوسَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا إِنَّ اللَّهَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ﴾ [الحج: ١٧].

مُخَالَفَةُ الْيَهُودِ الْخَامِسَةُ وَالْعَشْرُونَ: تَخْرِيبُ مَسَاجِدِ اللَّهِ وَعَلَى رَأْسِهَا الْمَسْجِدُ الْأَقْصَى

١١٤ - ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ مَنَعَ مَسْجِدَ اللَّهِ أَنْ يُذَكَرَ فِيهَا أَسْمُهُ وَسَعَىٰ فِي خَرَابِهَا أُولَٰئِكَ مَا كَانَ لَهُمْ أَنْ يَدْخُلُوهَا إِلَّا خَافِفِينَ﴾^(٢) لَهُمْ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١١٤﴾

تهدف حملة اليهود في القديم والحديث إلى القضاء على الإسلام، ومن ذلك: تخريب مساجد الله، ومنع الأذان، والصلاة، وإقامة العبادة في بيوت الله، كذكر الله، وتلاوة القرآن، والاعتكاف فيها، ولا يوجد أحدٌ أظلم عند الله سبحانه ممن كان سبباً مانعاً من

(١) الطبري (٢/٤٢٧).

(٢) هذه الكلمة (خائفين) آية، المصحف البصري، وأسقطها غيره من العدد.

إقامة الصلاة في بيوت الله، فهدمها أو أغلقها، أو جعلها لهدفٍ آخر، ومن ذلك تخريب اليهود والنصارى لبيت المقدس، وقصة أصحاب الفيل وقريش، وصد المشركين للرسول ﷺ عام الحديبية، وقصر المساجد على أداء الصلاة.

فتخريب المساجد، منه ما هو حسي، بهدمها وتخريبها وتقديرها، ومنها ما هو معنوي، بمنع الصلاة فيها، أو منع الدروس العلمية والحلقات والندوات والمحاضرات فيها، والاقصصار على الصلاة فحسب، وفصل المسجد عن واقع الناس وحوادث الدهر.

قال القرطبي: وخراب المساجد قد يكون حقيقياً، كتخريب بختنصر والرومان لبيت المقدس، حيث قذفوا فيه القاذورات وهدموه، وقد يكون معنوياً، كمنع المشركين حين صدوا رسول الله ﷺ عن المسجد الحرام، وعلى الجملة فتعطيل المساجد عن الصلاة وعن إظهار شعائر الإسلام فيه خرابٌ لها^(١).

فالآية تشير إلى منع أهل مكة للنبي ﷺ من دخولها، كما جاء في حديث سعد بن معاذ حين دخل مكة خفية، فقال له أبو جهل: لا أراك تطوف بالبيت آمناً، وقد أوتيت الصباء، وتكرر ذلك عام الحديبية، ونزول الآية في هذا مروى عن ابن عباس، وبالمقابل فإنه لا أعظم إيماناً ممن سعى في عمارة المساجد حسياً ومعنوياً، كما قال تعالى: ﴿إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسْجِدَ اللَّهِ مَنْ ءَامَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾ [التوبة: ١٨] بل قد أمر الله برفع بيوته وتعظيمها وتكريمها وإقامة الشعائر ودروس العلم فيها قال تعالى: ﴿فِي بُيُوتٍ أُذِنَ لِلَّهِ أَنْ تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا أَسْمُهُ يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ﴾ [النور: ٣٦، ٣٧]

تَخْرِيبُ مَلِكِ أَشُورَ لِلْمَسْجِدِ الْأَقْصَى ثَلَاثَ مَرَّاتٍ

أما بختنصر -ملك آشور- فقد غزا بيت المقدس ثلاث مرات:

أولاًها: سنة ٦٠٦ قبل الميلاد، وقد سبى فيها جمعاً من شعب بني إسرائيل.

وثانيها: بعد ثمانين سنة من الغزوة الأولى سبى فيها ملك اليهود، ورؤساء مملكته، ونهب ما في بيت المقدس من نفائس وكنوز.

(١) «تفسير القرطبي» (٧٧/٢).

وثالثها: بعد عشر سنين، حيث أَسَرَ الملك (صدقيا) وسَمَلَ عينيه، وأحرق المسجد الأقصى وجميع المدينة، وسبى جميع بني إسرائيل، وانقرضت مملكتهم، وكان ذلك سنة ٥٧٨ قبل الميلاد وهذا هو السبي الثالث، وفي كُلِّ منها منعُ بيت المقدس أن يُذكر فيه اسم الله، وتسبَّب في خرابه^(١).

قلت: إن (ناتانياهو) رئيس وزراء الكيان الصهيوني، كتب في هذا كتابًا، يبين فيه أنهم يتطلعون إلى الانتقام من العراق وأخذ الثأر منها، وما حدث في هذا العام من احتلال أمريكا وبريطانيا للعراق بمساعدة إسرائيل والموساد هو تنفيذٌ لهذا المخطط اليهودي^(٢).

أما الرومان فقد غَزَوْا أورشليم سنة ٧٩ قبل الميلاد فخرَّبوا بيت المقدس وأحرقوا التوراة وظل المسجد خرابًا حتى بناه المسلمون بعد فتح الشام^(٣).

﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ مَنَعَ مَسَاجِدَ اللَّهِ أَنْ يُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ﴾ بتعطيلها وتخريبها ومنع إقامة الشعائر فيها، والعمل على تخريبها بالهدم أو الإغلاق، أو منع المؤمنين من الدعوة إلى الله فيها بحرية كاملة، فهذا صَدٌّ للناس عن سبيل الله.

وقد توعَّد الله من يَصُدُّ عن سبيله بشدة العذاب في آيات كثيرة، منها قوله تعالى: ﴿وَمَا لَهُمْ آلَا يُعَذِّبُهُمُ اللَّهُ وَهُمْ يَصُدُّونَ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ﴾ [الأنفال: ٣٤].

وقال تعالى فيمن صدوا رسول الله عن دخول المسجد الحرام: ﴿لَوْ تَزَيَّلُوا لَعَذَّبْنَا الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ [الفتح: ٢٥] وكلُّ من يفعل ذلك فهو أظلم الناس؛ من مسلم أو يهودي أو نصراني أو سيخي أو بوذي... إلخ.

وهؤلاء الظالمون ما كان ينبغي لهم أن يدخلوا المساجد إلا على خوف من الله، وخوف من عباده المؤمنين، بمعنى: أنه يجب على المؤمنين إخافتهم ومنعهم من دخول بيوت الله وهدمها وتخريبها، ويجب أن تكون الدعوة إلى الله تعالى فيها وإقامة الشعائر بها، مكفولة بحرية لكل مسلم، ولكل من يريد الدخول في الإسلام.

(١) «تفسير التحرير والتنوير» (٦٧٩/١).

(٢) كتب هذا التفسير في هذه الحقبة من الزمن التي احتلَّت فيها العراق وكان ذلك في عام ٢٠٠٣م.

(٣) «تفسير التحرير والتنوير» (٦٧٩/١).

ثم أرشد الله عباده إلى أنه ينبغي لهم أن يمنعوا مساجد الله من أهل الكفر، فقال: ﴿أُولَٰئِكَ مَا كَانَ لَهُمْ أَنْ يَدْخُلُوهَا إِلَّا خَائِفِينَ﴾ ذليلين صاغرين حقيرين ممنوعين من دخولها.

وقد استدل بعض أهل العلم بهذه الآية على أنه لا يجوز تمكين الكفار من دخول المساجد، إلا لمصلحة راجحة تتعلق بعمارتها، ولا يوجد في المسلمين من يقوم بها، وذلك باستثناء المسجد الحرام ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلَا يَقْرَبُوا الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَذَا﴾ [التوبة: ٢٨]

قال كعب الأحبار: إن النَّصَارَى لما ظهروا على بيت المقدس خرّبوه، فلما بعث الله محمداً ﷺ أنزل عليه هذه الآية، فليس في الأرض نصراني يدخل بيت المقدس إلا خائفاً^(١).

قال تعالى: ﴿لَهُمْ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ أي: لهم جزاء في الدنيا بالخزي والفضيحة والهزيمة، وجزاء في الآخرة بالعذاب الشديد.

عن بُسر بن أرطاة قال: كان رسول الله ﷺ يدعو: «اللهم أحسن عاقبتنا في الأمور كلها وأجرنا من خزي الدنيا وعذاب الآخرة»^(٢).

أما خزي الدنيا فعلى المسلم أن يتأمل ماذا حلّ بالرومان، وماذا كانت عاقبة المشركين، وبماذا انتهى عدوان الصليبيين، وكيف انقرض حزب القرامطة المجرمين، وأخزي من ذلك ما سيحل باليهود -إن شاء الله- من ذلّ ومسكنة وتمزيق وهزيمة، كما قال تعالى: ﴿وَإِنْ عُدْتُمْ عَدَاً﴾ [الإسراء: ٨] فقد نزلت هذه الآية فيمن خرّبوا بيت المقدس من الروم والفرس والنصارى والشيوعيين، ومن يخرّبون بيوت الله في كل زمان ومكان، وأما عذاب الآخرة فهو عذاب هائل عظيم أعده الله لهذه الفئة من الناس في نار جهنم وبئس المصير.

١- والآية تشمل حادثة القرامطة الذين هدموا الكعبة ومنعوا المسلمين منها وهدموا كثيراً من المساجد.

(١) «تفسير ابن كثير» (٣٨٩/١) وابن أبي حاتم (١١١٥).

(٢) «المسند» (١٨١/٤) برقم (١٧٦٢٨) والبخاري في «التاريخ الكبير» (٣٠/١) و«الصغير» (٣١٦/١)

قال محققو المسند: رجاله موثقون غير أيوب بن ميسرة.

٢- وكان النَّصَارَى يَضْعُون الأذى في بيت المقدس لمنع الناس من الصلاة فيه^(١).

٣- وَمَنَعَ المشركون رسول الله ﷺ أن يدخل المسجد الحرام في عام الحديبية.

٤- وأقام بعض المنافقين مسجد الضرار لتحويل المسلمين إلى الصلاة فيه.

٥- ويراقب بعض الحكام من يترددون على بيوت الله لأداء الصلاة خوفاً على سُلطانهم، ومُنعت الدعوة إلى الله تعالى في كثير من المساجد إلا من دعاة الدولة في الحدود المطلوبة.

٦- وَحَوَّلَت الشيوعية -البائدة- آلاف المساجد التي كانت في الجمهوريات الإسلامية الخاضعة لها آنذاك إلى اصطبلات وحانات.

وبناء على القول بتعدد النزول وعموم الحكم فإن هذه الآية نزلت في اليهود الذين يحاولون تشكيك المسلمين وصرفهم عن الكعبة، وهي تشير إلى حادثة وقعت بعد المسيح بسبعين سنة، حين دخل (تيطس) ملك الروم بيت المقدس وخرَّبَه حتى صارت المدينة تلاً من التراب، وأحرق ما كان عند اليهود من نُسخ التوراة.

ونزلت في بختنصر المجوسي الذي خَرَّبَ بيت المقدس^(٢).

ونزلت في اليهود المعاصرين الذين يخرَّبون بيت المقدس؛ لإقامة معبد سليمان على أنقاضه، ونزلت فيهم حين أقدموا على إحراق جُزء منه سنة ١٩٥٩م وحين دَسَّسوه بدخول (شارون)^(٣) فيه تحت حماية يهودية صهيونية.

ونزلت في الحفريات والأنفاق التي جعلوها تحت المسجد الأقصى وحوله.

ونزلت في تدنيسهم لحائط البراق وتسميته بحائط المبكى، وفي منع اليهود للمسلمين الشباب من الصلاة فيه، وصلاة الشيوخ فيه تحت حراسة يهودية، وفي السماح لليهود

(١) كما أخرجه الطبري بسند صحيح عن مجاهد.

(٢) كما أخرجه عبد الرزاق بسند صحيح عن قتادة، «تفسير عبد الرزاق» ص ٤٤ و«تفسير الطبري» (١/٣٩٧).

(٣) رئيس وزراء الكيان الصهيوني في عام ٢٠٠٥م وقد جعله الله عبرة لكل من يأتي بعده، فهو لم يزل حتى كتابة هذه الحاشية في شهر فبراير ٢٠٠٩م وهو جثة هامدة تحت الأجهزة الطبية، بلا حياة ولا موت، حاله كحال فرعون حين نجاه الله ببدنه ﴿فَالْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلَقَ آيَةً﴾ [يونس: ٩٢].

بالصلاة فيه، وفي كل من يساعدهم في العالم، من الأفراد، والقوى الكبرى، والمؤسسات العالمية، وكل من صنع صنيعهم، وفعلَ فعلهم في أي بيت من بيوت الله تعالى. وتمت الحفريات التي تُحيط بالمسجد الأقصى من قبل اليهود تمهيدًا لإقامة المعبد المزعوم على أنقاضه، وقد وضع اليهود حجرًا رمزيًا لإقامة هيكل سليمان الثالث في يوم الأحد ٢٩ يوليو ٢٠٠١م وأنا بصدد كتابة هذه السطور، فالآية عامة وإن كان السبب خاصًا.

مِنْ نَتَائِجِ تَخْرِيبِ الْمَسَاجِدِ: عَدَمُ مَعْرِفَةِ الْقِبْلَةِ

١١٥- ﴿وَلِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ فَأَيْنَمَا تُولَّوْا فَتَمَّ^(١) وَجْهُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾

وربما ينتج عن تخريب المساجد أو صدّ الناس عنها عدم معرفة القبلة في الصلاة؛ ولذا فإن هذه الآية تبين أن الله تعالى جهة الشروق والغروب؛ هو الخالق والمالك لهما، وهو الذي أمركم باستقبال الكعبة بعد أن كنتم تستقبلون بيت المقدس، ويأمركم بصلاة النافلة في السفر على الراحلة أين ما توجهت، وأينما حلّ الإنسان وتحري القبلة، ثم توجه إليها بعد اجتهداء فقد أصاب الجهة المطلوبة.

قال عامر بن ربيعة: كنا مع النبي ﷺ في ليلة سوداء مُظْلِمَةٌ، أي: وكان في الجوّ ضبابٌ كثيفٌ، فجعل الرجل منهم يأخذ الأحجار ولم يعرفوا الاتجاه إلى القبلة، واجتهدوا قَبْلَ الصلاة في تعيينها، ثم صلوا، وفي الصباح وجدوا أنهم قد صَلَّوْا إلى غير القبلة، فقالوا: يا رسول الله، صلينا ليلتنا هذه إلى غير القبلة، فأَنْزَلَ اللهُ سبحانه: ﴿وَلِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ فَأَيْنَمَا تُولَّوْا فَتَمَّ وَجْهُ اللَّهِ﴾ فقال: «مضت صلاتكم»^(٢).

فالأرض كلها ملك لله تعالى، وأينما توجَّهتم إلى الصلاة لم تخرجوا عن طاعته سبحانه، فإن مُنِعْتُمْ من الصلاة في المسجد الأقصى فقد جعلت لكم الأرض مسجدًا وطهورًا.

(١) وقف رويس بهاء السكت على (فثمه) بخلف عنه، والباقون بدونها.

(٢) أخرجه الطبري بسنده عن عامر بن ربيعة عن أبيه، «تفسير الطبري» (٥٣١/٢) وقد ذكر القصة أبو داود الطيالسي (١٢٤١) وعبد بن حميد (٣١٦) والترمذي (٣٤٥، ٢٩٥٧) وابن ماجه (١٠٢٠) وابن أبي حاتم (١١٢٠) قال العقيلي: حديث عامر بن ربيعة ليس يُروى من وجه يثبت مثله، وانظر نصب الراية (١/٣٠٤). وحسنه الألباني في صحيح سنن الترمذي (٢٨٤) وصحيح سنن ابن ماجه (١٠٢٠).

وهذه الآية تنطبق على كل من يجتهد في معرفة القبلة قبل أن يصلي إذا كان في غير بلاد المسلمين وليس فيها مساجد، وليس هناك ما يحدد اتجاه القبلة، أو كان في صحراء مسافراً في ليلة مُظلمة وضلَّ معرفة القبلة، أو كان مريضاً مكبلاً في أجهزة ولا يستطيع التوجُّه إلى القبلة، ومثل ذلك من الأحوال، فإن الآية تنطبق عليه.

وكذلك المسافر الذي يُصلي النافلة على الراحلة؛ في الطائرة أينما اتجهت، وفي السيارة أينما اتجهت، وعلى الدابة أينما اتجهت، فصلاته صحيحة، أما في الأحوال العادية، فإن استقبال القبلة من شروط صحة الصلاة، ويجب بذل الجهد قبل الصلاة لتحديد اتجاه القبلة عن طريق جهة غروب الشمس وشروقها ونحو ذلك إن كان في صحراء أو غيرها، والله تعالى واسع الرحمة عليم بمصلحة عباده ﴿إِنَّ اللَّهَ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾، ومن سعت أن وسع لكم الأمر ولم يضيق عليكم في التوجه إلى القبلة.

وفي الآية إثبات الوجه لله تعالى على الوجه اللائق بجلاله، وليس كمثله شيء.

وفي صحيح مسلم وغيره عن ابن عمر رضي الله عنهما أن النبي ﷺ كان يصلي على دابته وهو مُقبِل من مكة إلى المدينة حيثما توجهت^(١).

وقال ابن عمر: أنزلت في المسافر يصلي التطوع حيثما توجهت به راحلته.

ولعل الأرجح أن هذه الآية نزلت تمهيداً لتحويل القبلة من بيت المقدس إلى الكعبة قبل أن يُفرض التوجه إليها ليُعلم الله نبيه أن قبلة الله أينما توجهت شرقاً أو غرباً، وذلك لأن الشأن هو توالي نزول الآيات.

وآيات تحويل القبلة تأتي في الرُّبع بعد التالي من السورة، فالأولى أن تكون هذه الآية مُمهِّدة لحدث تحويل القبلة وردُّ مُسبق على قول اليهود: ﴿مَا وَلَّهُمْ مِنْ قِبَلِهِمْ آلِي كَاوُوا عَلَيْهَا﴾ [البقرة: ١٤٢] وإلى جوار ذلك فإن مقصد الآية عامٌّ، يشمل صلاة النافلة في السفر حيثما توجهت السيارة أو الدابة، كما ثبت ذلك في الأحاديث السابقة، ويشمل أيضاً

(١) «صحيح مسلم» برقم (٧٠٠) و«سنن الترمذي» برقم (٢٩٥٨) وصحيح الترمذي بنحوه (٢٨٣) بنحوه و«سنن النسائي» (٢٤٤/١) وصحيح النسائي (٤٧٧) بلفظه و«تفسير الطبري» (٥٣٠/٢) وابن أبي حاتم (٣٤٤/١).

صلاة الفريضة في أحوال خاصة، كَمَنْ تَعَدَّرَ عليه معرفة القبلة على وجه التحديد لسبب من الأسباب، كَمَنْ غُمَّتْ عليه الرؤية في الصحراء، أو كان في رحلة طويلة جَوًّا سيفوت معها وقت الصلاة مع مراعاة جمع التقديم والتأخير بين الظهر والعصر، والمغرب والعشاء، أو كان مجبرًا على التوجه إلى غير القبلة.

ومن ذلك ما جاء عن عطاء بن رباح عن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما قال: بعث رسول الله ﷺ سرية كنت فيها، فأصابتنا ظلمة، فلم نعرف القبلة، فقالت طائفة منا: قد عرفنا القبلة، هي ههنا، جهة الشمال، فصلُّوا وخطُّوا خطوطًا، وقال بعضهم: القبلة ههنا، جهة الجنوب، وخطُّوا خطوطًا، فلما أصبحوا وطلعت الشمس أصبحت تلك الخطوط لغير القبلة، فلما رجعنا من سفرنا سألنا النبي ﷺ عن ذلك، فسكت، فأنزل الله الآية^(١).

وقال ابن عباس رضي الله عنهما في رواية عطاء: إن النجاشي لما تُوفِّي قال جبريل للنبي ﷺ: إن النجاشي تُوفي، فصلِّ عليه، فأمر النبي ﷺ أن يحضروا، وصفَّهم، ثم تقدَّم وقال لهم: «إن الله أمرني أن أصلي على النجاشي، وقد تُوفي، فصلُّوا عليه» فقالوا: كيف نصلي على رجل مات وهو يصلي على غير قبلتنا؟! وكان النجاشي يُصلي إلى بيت المقدس حتى مات، وقد صُرفت القبلة إلى الكعبة، فأنزل الله الآية^(٢).

مُخَالَفَةُ الْيَهُودِ السَّادِسَةُ وَالْعِشْرُونَ: قَوْلُهُمْ (عُزَيْرُ ابْنِ اللَّهِ)

١١٦ - ﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا سُبْحَنَهُ بَلْ لَكُمْ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ كُلٌّ لَكُمْ قَدِينٌ﴾

ومن فظائهم أنهم نسبوا الولد إلى الله تعالى، فقالت اليهود: عزير ابن الله، كما قالت

(١) رواه الدارقطني في «السنن» (٢٧١/١) والبيهقي في «السنن الكبرى» (١٢/٢).

(٢) يُنْتَظَرُ: تصحيح الحاكم والذهبي له في «المستدرک» (٢٦٧/٢) و«أسباب النزول» للواحدي ص ٣١ والسيوطي ص ١٥، وأخرجه الدارقطني (٢٧١/١) والبيهقي (١١/٢) وضعفه، كما وضعفه ابن حزم في «المحلى» (٢٩٦/٣) أما القول بأن هذه الآية منسوخة كما في رواية أبي عبيد عن ابن عباس ففي إسناده عطاء الخراساني، وهو ضعيف.

(٣) قرأ ابن عامر (قالوا اتخذ الله ولدًا) بدون واو قبل قالوا على الاستئناف، وهذا موافق لرسم المصحف العثماني المُرسَل للشام، وقرأ الباقون (وقالوا) بالواو، عطف جملة على جملة، وهذا موافق للرسم العثماني في المصاحف الأخرى بالمدينة ومكة والعراق.

النَّصَارَى: المسيح ابن الله، وقال المشركون: الملائكة بنات الله، فاجتمعت على هذه الضلالات الفرق الثلاث، ونسبو إلى الله تعالى ما لا يليق بجلاله، وهو سبحانه حلیم بهم، يعافهم ويرزقهم، وقد تنزه جل شأنه عما وصفوه به، فسبحان مَنْ له الكمال المطلق، ولا يعتريه نقص بوجه من الوجوه، وقد أقام الله الحجة والبرهان على تنزيهه تعالى بأن جميع ما في هذا الكون ملك لله تعالى، وكلهم مسخرون تحت تدبيره مفتقرون إليه، وهو غني عنهم، فكيف يكون واحدا منهم، له ولد، وهذا من أبطل الباطل:

١- وفي البخاري عن ابن عباس رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «قال الله ﷻ: كَذَّبَنِي ابْنُ آدَمَ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ ذَلِكَ، وَشَتَمَنِي وَلَمْ يَكُنْ لَهُ ذَلِكَ، فَأَمَّا تَكْذِيبُهُ إِيَّايَ، فَيَزْعُمُ أَنِّي لَا أَقْدِرُ أَنْ أُعِيدَهُ كَمَا كَانَ، وَأَمَّا شَتْمُهُ إِيَّايَ، فَقَوْلُهُ: إِنَّ لِي وَلَدًا، فَسُبْحَانِي أَنْ أُتَّخَذَ صَاحِبَةً أَوْ وَلَدًا»^(١).

٢- وفي لفظ آخر عن أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «يقول الله ﷻ: كَذَّبَنِي ابْنُ آدَمَ وَلَمْ يَنْبَغْ لَهُ أَنْ يَكْذِبَنِي، وَشَتَمَنِي وَلَمْ يَنْبَغْ لَهُ أَنْ يَشْتَمَنِي، أَمَّا تَكْذِيبُهُ إِيَّايَ فَقَوْلُهُ: لَنْ يُعِيدَنِي كَمَا بَدَأَنِي، وَلَيْسَ أَوَّلُ الْخَلْقِ بِأَهْوَنَ عَلَيَّ مِنْ إِعَادَتِهِ، وَأَمَّا شَتْمُهُ إِيَّايَ فَقَوْلُهُ: اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا، وَأَنَا اللَّهُ الْأَحَدُ الصَّمَدُ، لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ، وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفْوًا أَحَدٌ»^(٢).

٣- وفي الصحيحين وغيرهما عن أبي موسى رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «لَا أَحَدٌ أَصْبَرَ عَلَى أَدَى سَمْعِهِ مِنَ اللَّهِ، إِنَّهُمْ يَجْعَلُونَ لَهُ وَلَدًا وَهُوَ يَرْزُقُهُمْ وَيَعَافِيهِمْ!»^(٣).

وهذا معنى: ﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا﴾ والقائل هم المشركون واليهود والنصارى، ونسبة الولد إليه سبحانه شرك أكبر مخرج من الملة، ويعلمنا جل شأنه كيف ننزهه عن الشريك والولد، فيقول ﴿سُبْحَانَهُ﴾ تنزهه جل شأنه عن هذا القول الباطل.

وكان النبي ﷺ إذا مر بآية تنزيه سبَّح، فجميع الكائنات مخلوقة ومربوبة لله تعالى، فهي في قبضته وتحت تصرفه، وهو مالكها وقاهرها، وهي مُنْقَادَةٌ لله جل شأنه ﴿بَلْ لَكُمْ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ ملكًا وخلقًا وعبيدًا، فليس الأمر كما زعموا بل هو سبحانه خالق هذا

(١) «صحيح البخاري» برقم (٤٤٨٢).

(٢) «صحيح البخاري» برقم (٣١٩٣، ٤٩٧٤، ٤٩٧٥) والبيهقي في «الأسماء والصفات» (٤٩).

(٣) البخاري برقم (٦٠٩٩) ومسلم برقم (٢٨٠٤) عن أبي موسى و«المسند» (١٩٥٢٧) والنسائي في «الكبرى» (١١٤٤٥) والبيهقي في «الأسماء والصفات» (١٠٦٣).

الكون بما فيه الملائكة والمسيح وعزير، والكل منقاد إليه، لا يستعصي عليه شيء في الخلق والتدبير ﴿كُلُّ لَوْ قَلْبُونُ﴾ مطيعون ومقرّون له بالعبودية، ضمن مخلوقات الله تعالى، فجميع الخلق تحت تدبير الخالق، وهذا معنى القنوت العام للخلق كلهم، وهناك قنوت خاص للراكعين الساجدين جاء في قوله تعالى ﴿وَقُومُوا لِلَّهِ قَلْبَيْنِ﴾ [البقرة: ٣٨٥] وقوله: ﴿يَمْرُؤُا أَقْنِي لِرَبِّكِ﴾ [آل عمران: ٤٣]

والقول بنسبة الولد إلى الله تعالى قولٌ شنيعٌ تنفطر له السموات، وتنشق له الأرض، وتخسر له الجبال ﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا﴾ ﴿لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئًا إِدًّا﴾ ﴿تَكَادُ السَّمَوَاتُ يَفْطَرْنَ مِنْهُ وَتَنْشَقُّ الْأَرْضُ وَخَسِرَ الْجِبَالُ هَدًّا﴾ ﴿أَنْ دَعَوْا لِلرَّحْمَنِ وَلَدًا﴾ ﴿وَمَا يَنْبَغِي لِلرَّحْمَنِ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَدًا﴾ ﴿إِنْ كُلُّ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا آتَى الرَّحْمَنِ عَبْدًا﴾ [مريم]

وقول المشركين: الملائكة بنات الله، ناشئٌ عن جهل منهم بعظمة الله عز وجل .
وقول اليهود: عزير ابن الله، سببه: أن عزيرًا كتب معظم التوراة من حفظة بعد أن أحرقت في التابوت .

وقول النَّصَارَى: المسيح ابن الله ناشئٌ من سوء فهم للنصوص التي في الأناجيل، فهي على وجه التشبيه كما في الأثر عن أنس (الخلق عيال الله)^(١) .

وكما في وصف بعض الصالحين لأنفسهم بأنهم أبناء الله وأحبابه، وهذا على حد زعمهم .

تَنْزِيهِ اللَّهِ تَعَالَى عَمَّا يَقُولُهُ الْيَهُودُ

١١٧- ﴿بَدِيعُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾^(٢)

وكيف لا يخضع جميع الخلق لخالقهم، وهو سبحانه مبدع السموات والأرض قد خلقهما فأتقنهما وأحسنهما على غير مثال سبق، فهو ﴿بَدِيعُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ خالقهما

(١) رواه أبو يعلى والبخاري كما في مجمع الزوائد (٣٤/٨) وفيه يوسف بن عطية الصفار وهو متروك، وانظر كنز العمال عن ابن عباسن تمة الإكمال من الترغيب في الزكاة (١٦١٧١) وهو في الجامع الصغير، والجزء الثاني من فيض القدير، وطرقه كلها ضعيفة .

(٢) قرأ ابن عامر (كن فيكون) بالنصب على تقدير إضمار (أن) بعد الفاء، على أن (كن) أمر حقيقي، وقرأ الباكون (فيكون) بالرفع، على الاستئناف .

ومنشئهما، والكون كله رهن إشارته ﴿إِذَا فَضَعَ أَمْرًا﴾ قَدَرَهُ وأراد خلقه ﴿فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ أي: يوجد وفق ما أراد الله تعالى من حال العدم إلى حالة الوجود، لا يستعصي عليه ولا يمتنع منه.

وَحَصَّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْإِبْدَاعِ؛ لَأَنَّهُمَا أَعْظَمُ مَا يُشَاهَدُ مِنَ الْمَخْلُوقَاتِ.

وإذا قَدَّرَ الله أمرًا أوجده سبحانه مرة واحدة وفق ما أراد، كما قال تعالى ﴿إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ [يس].

وفي سورة النحل ﴿إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَا أَرَدْنَاهُ أَنْ نَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ [النحل].

وفي سورة القمر ﴿وَمَا أَمْرُنَا إِلَّا وَاحِدَةٌ كَلَمْحٍ بِالْبَصَرِ﴾ [القمر]

وفي خلق عيسى عليه السلام بكلمة كُن قال تعالى: ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَى عِنْدَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ [آل عمران].

ونظير هذه الآية قوله تعالى: ﴿بَدِيعُ السَّمَنَاتِ وَالْأَرْضِ أَنِّي يَكُونُ لَهُ لَدٌّ وَلَمْ تَكُنْ لَهُ صَاحِبَةٌ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ [الأنعام].

والبدعة على قسمين:

القسم الأول: بدعة شرعية، وهي أن يُحْدِثَ المرء في شرع الله ما ليس منه، وهذا هو المراد في قوله ﷺ من حديث جابر بن عبد الله رضي الله عنهما: «وشر الأمور محدثاتها وكل بدعة ضلالة»^(١).

وهذه البدعة قد تكون بإضافة شيء زائد على المشروع، كمن يزيد الصلاة على النبي ﷺ بعد الأذان، أو بترك شيء مشروع، كمن يترك الصلاة على النبي ﷺ قصدًا عند ذكر اسمه، وهكذا كل ما كان من أمور الشرع، أما ما يتعلق بشئون الحياة - كالمذياع والهاتف والملقعة ونحو ذلك، فلا يُسَمَّى بدعة.

والقسم الثاني: البدعة اللغوية كقول عمر رضي الله عنه في صلاة التراويح خلف أبي: نعمت

(١) من حديث طويل عن جابر في «المسند» (١٤٣٣٤). وهو حديث صحيح وإسناد حسن كما قال محققوه وأخرجه مسلم ٨٦٧ وابن ماجه ٤٥ وابن حبان، وأبو يعلى (٢١١١).

البدعة هذه^(١) فهي بدعة من ناحية الدلالة اللغوية؛ لأن الأصل موجود، وهو صلاة الصحابة خلف رسول الله ﷺ بضع ليال من صلاة التراويح.

الْمُخَالَفَةُ السَّابِعَةُ وَالْعِشْرُونَ: مُشَابَهَةُ الْيَهُودِ لِلوُثْنِيِّينَ فِي جُرْأَتِهِمْ عَلَى اللَّهِ تَعَالَى

١١٨ - ﴿وَقَالَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ لَوْلَا يُكَلِّمُنَا اللَّهُ أَوْ تَأْتِينَا آيَةٌ كَذَلِكَ قَالَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ مِثْلَ قَوْلِهِمْ تَشَبَهَتْ قُلُوبُهُمْ قَدْ بَيَّنَّا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾

أي: قال الجهلة الذين لا علم لهم: لولا يكلمنا الله كما كلم موسى وسائر الرسل، أو تأتينا آية حسية كنزول ملك من السماء يؤيد دعوى محمد ﷺ، وقد بين سبحانه في هذه الآية أن اليهود يشابهون المشركين في هذا، ولو علم الله أنهم يؤمنون لأجابهم.

وقبل أربع آيات من هذه الآية كانت الآية تتحدث عن مجادلة أهل الكتاب فيما بينهم عن تفاضل الشرائع، وبيّنت الآية هناك أن ﴿الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ وهم مشركو العرب وغيرهم، قالوا مثل قول اليهود والنصارى في شأن محمد ﷺ من أنه ليس على شيء.

ثم أشرك سبحانه اليهود والنصارى والمشركين الوثنيين في قولهم جميعاً: ﴿أَخَذَ اللَّهُ وَلَدًا﴾.

وفي هذه الآية بين سبحانه أن ﴿الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ وهم الوثنيون يطلبون أن يكلمهم الله كما يكلم الرسل، ليخبرهم أن محمداً رسول الله، ويطلبون أن تلبى اقتراحاتهم من الآيات الحسية، فيأتهم بمعجزة مادية، تدل على صدق رسالته، كأن يُصير جبل الصفا ذهباً، أو ينزل عليه ملك يبلغ الدعوة معه.

ومثل هذين الطلبين سبق لمن قبلهم من الأمم أن طلبوهما، فالقلوب مُتشابهة، ولما لم تؤمن هذه الأمم برسول الله بعد أن أُجيبوا إلى ما طلبوا، استأصلهم الله بعذاب من عنده.

أما الأمم التي كانت معجزة رسولها كتاباً نزل من عند الله -كالتوراة والإنجيل والزبور والقرآن- فإن هذه الأمم لا تُهلك بعذاب الاستئصال، إنما يؤخّر الله عقاب المكذّبين منهم إلى يوم لقائه.

ذلكم قول الله تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ من جهلة العرب من المشركين

(١) من حديث عمر في البخاري (٢٠١٠).

الوثنيين: ﴿لَوْلَا يُكَلِّمُنَا اللَّهُ﴾ مشافهة أو بإنزال الوحي كما يكلم الرسل، فيخبرنا أنك رسول الله ﴿أَوْ تَأْتِينَا آيَةً﴾ كناقفة صالح وعصا موسى تصدقك في دعواك، وسؤالهم هذا على وجه التعنت، ولو علم الله أنهم يؤمنون لأجابهم إلى ما طلبوا كما قال تعالى: ﴿وَمَا مَنَعَنَا أَنْ نُرْسِلَ بِالْآيَاتِ إِلَّا أَنْ كَذَّبَ بِهَا الْأَوَّلُونَ﴾ [الإسراء: ٥٩] لقد علم الله أنهم لن يؤمنوا ﴿وَنُقَلِّبُ أَفْعَدَّتْهُمْ وَأَبْصَرْتَهُمْ كَمَا لَوْ يُؤْمِنُوا بِهِمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ [الأنعام: ١١٠].

ثم بين سبحانه أن اليهود والنصارى، قالو كما قال المشركون الوثنيون ﴿وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ﴾ [الأنعام: ٣٧].

وهكذا قال أهل الكتاب ﴿يَسْأَلُكَ أَهْلُ الْكِتَابِ أَنْ تُنَزِّلَ عَلَيْهِمْ كِتَابًا مِنَ السَّمَاءِ فَقَدْ سَأَلُوا مُوسَى أَكْبَرَ مِنْ ذَلِكَ فَقَالُوا أَرَنَا اللَّهَ جَهْرَةً﴾ [النساء: ١٥٣]

ولذا: فقد جاء في أسباب النزول أن رافع بن حريملة اليهودي قال لرسول الله ﷺ: إن كنت رسولاً من الله كما تقول فقل لله؛ فليكلّمنا حتى نسمع كلامه، فنزلت الآية^(١).

وفي هذا دليلٌ قويٌّ على أن اليهود هم المعنيون في الآية بالأصالة؛ لأن السياق فيهم ﴿كَذَلِكَ قَالَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ﴾ من الأمم الضالة، والفرق المنحرفة، والطوائف الهالكة، قالوا ﴿مِثْلَ قَوْلِهِمْ﴾ أي: مثل قول اليهود، قال تعالى: ﴿تَشَبَّهَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ في الكفر والعناد ﴿فَقَدْ بَيَّنَّا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾ فيصدقون بها تصديقاً جازماً، فكل مؤمن يعرف من آيات الله الباهرة وبراهينه الظاهرة، ما يحصل له به اليقين، ويندفع عنه كل شك وريب.

وهذه الآية جعلت اليهود والنصارى ممثليين للمشركين الوثنيين في هذه المقالة؛ فكأن أهل الكتاب مشابهيين للمشركين في طلب آيات التعنت، وليس قصدهم الاسترشاد ولا بيان الحق.

ثم ذكر الله آية موجزة جامعة للآيات الدالة على صدق محمد ﷺ وصدق ما جاء به فقال تعالى:

(١) «تفسير ابن كثير» عن ابن عباس (٣٩٩/١) وهو في «سيرة ابن هشام» (٥٤٩/١) والطبري (٤٧٤/٢) وابن أبي حاتم (١١٤٠).

مِنْ أَوْصَافِ الرَّسُولِ فِي التَّوْرَةِ

١١٩- ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَا تُشْغَلُ﴾^(١) عَنْ أَصْحَابِ الْجَحِيمِ ﴿١١٩﴾

ومهمّة الرسول ﷺ هي بشرى من آمن وعمل صالحًا بجنة النعيم، وإنذار من كفر بالله ورسوله واليوم الآخر بعذاب الجحيم، فبلغ ذلك - أيها الرسول - للناس، ولست مسؤولاً بعد البلاغ عن كفرهم وعذابهم في نار جهنم ﴿فَلَمَّا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ وَعَلَيْنَا الْحِسَابُ﴾ [الرعد: ٤٠]

أخرج الإمام أحمد وغيره عن عطاء بن يسار قال: لقيت عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنه فقلت: أخبرني عن صفة رسول الله ﷺ في التوراة فقال: أجل، والله إنه لموصوف في التوراة بصفته في القرآن: يأيها النبي إنا أرسلناك شاهداً ومبشراً ونذيراً وحرزاً للأمين، أنت عبدي ورسولي، سميتك المتوكل، لا فظ ولا غليظ ولا صحاب في الأسواق، ولا يدفع السيئة بالسيئة، ولكن يعفو ويغفر، ولن يقبضه حتى يقيم به الملة العوجاء بأن يقولوا: لا إله إلا الله، فيفتح به أعينا عمياً، وأذانا صماً، وقلوباً غُلْفاً^(٢).

وهذه الآية معترضة لتأنيس النبي ﷺ عن أسفه لما لقيه من المشركين وأهل الكتاب، وكان مما قال: «لو أن عشرة من اليهود آمنوا بي لآمنوا كلهم»^(٣).

والمراد عشرة من كبار أحبارهم، أو عشرة مخصصين، وإلا فقد آمن به ﷺ منهم أكثر من هذا العدد. فكان الله تعالى يعذر رسوله ويقول له: لا تذهب نفسك عليهم حسرات فقد بذلت الجهد في دعوتهم وهذه مهمتك.

هذا: وقد كان أهل الأرض قبل بعثة النبي ﷺ عبّاد أوثان وصُلبان ونيران، قد عمهم الجهل والشرك، إلا بقايا ممن هم على الحنيفية وأهل الكتاب.

ولذا: فقد أرسل الله محمد ﷺ يأمرهم بعبادة الله وحده، وكان ﷺ معروفاً قبل البعثة

(١) قرأ نافع ويعقوب (ولاتسل) بفتح التاء وسكون اللام بالجزم على النهي، وقرأ الباقون بالرفع على الاستئناف.

(٢) «المسند» (١٧٤/٢) برقم (٦٦٢٢) حديث صحيح ورجال ثقات، و«صحيح البخاري» برقم (٢١٢٥)، (٤٨٣٨). وفي الأدب المفرد (٢٤٧).

(٣) صحيح البخاري عن أبي هريرة برقم (٣٩٤١) وصحيح مسلم (٢٧٩٣) وفي الجامع لصغير (٧٤٢١).

بصدقة وأمانته وعفافه، وازدادت مكارمه وأخلاقه بعد البعثة، وأنزل الله عليه هذا القرآن العظيم فيه الأمر بكل حسن، والنهي عن كل قبيح، فمن اتبعه فقد نجا واهتدى، ومن لم يؤمن به فقد خسر وهلك.

مُخَالَفَةُ الْيَهُودِ الثَّامِنَةُ وَالْعِشْرُونَ: مُحَاوَلَةُ إِخْرَاجِ الْمُسْلِمِينَ مِنْ دِينِهِمْ

١٢٠- ﴿وَلَنْ تَرْضَى عَنْكَ الْيَهُودُ وَلَا النَّصَارَى حَتَّى تَبِيعَ مِلَّتَهُمْ قُلْ إِنَّ هُدَى اللَّهِ هُوَ الْهُدَىٰ وَلَئِنْ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ بَعْدَ الَّذِي جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾

ثم قطع الله تعالى طمع رسوله ﷺ في إسلام اليهود والنصارى، وبيّن أنه لا يُرضيهم إلا اتباع ملتهم فهم دعاة دين، ويزعمون أنهم على هدى، وهذا هو السبب في الحملة الماكرة ضد الإسلام والمسلمين، وقد بيّنه ربنا في قوله سبحانه: ﴿وَلَنْ تَرْضَى عَنْكَ الْيَهُودُ وَلَا النَّصَارَى حَتَّى تَبِيعَ مِلَّتَهُمْ﴾ فتترك دينك وتدخل في ملتهم.

والملة: اسمٌ للشيعة المتبّعة، المكونة من العقائد والعبادات والأخلاق.

والكفر كله ملة واحدة، هذا هو السبب، وهذه هي العلة والغاية من حملات التشكيك من اليهود والنصارى تجاه الإسلام والمسلمين، وهي قاعدة عامة إلى يوم القيامة، فهم يشكّون في الإسلام دائماً، ويريدون إخراج المسلم من دينه إلى النصرانية واليهودية فدع ما يرضيهم وأقبل على رضى ربك.

ثم أمر الله تعالى رسوله ﷺ أن يبيّن لليهود وغيرهم أن الإسلام هو الدين الحق ﴿قُلْ إِنَّ هُدَى اللَّهِ هُوَ الْهُدَىٰ﴾ وهُدَى الله هو الإسلام، فهو الدين الصحيح، وليس بعده هُدَى، فكيف نخرج منه إلى الضلال؟

أخرج ابن أبي حاتم بسند صحيح عن قتادة ﴿قُلْ إِنَّ هُدَى اللَّهِ هُوَ الْهُدَىٰ﴾ قال: خصومة علّمها الله محمداً وأصحابه ﷺ، يخاصمون بها أهل الضلالة.

ثم حذر الله كل مسلم في شخص رسوله ﷺ ألا يتبع بعد الإسلام أهواء الأمم الأخرى، كما قال تعالى: ﴿لَئِنْ أَشْرَكَتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ﴾ [الزمر: ٦٥] فقال جل شأنه: ﴿وَلَئِنْ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ﴾ في اتباع ملة اليهود أو النصارى ﴿بَعْدَ الَّذِي جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ﴾ أي: البراهين والحجج القاطعة على أن دين الإسلام هو الدين الخاتم الذي ليس في وسع المسلم أن

يتبع غيره، إنك إن فعلت ذلك ﴿مَا لَكَ مِنَ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾ أي: ليس لك من ينفعك فيدفع عنك عقاب الله، أو ينصرك ويشفع لك عنده، إنك إن اتبعت أقوالهم وأفعالهم فلن تجد لك من يتولى أمرك فيحفظك ويمنع عنك عذاب الله، والخطاب موجّه لكل مسلم.

حَقُّ التَّلَاوَةِ

١٢١- ﴿الَّذِينَ ءَاتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَتْلُونَهُ حَقَّ تِلَاوَتِهِ أُولَٰئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ ۖ وَمَنْ يَكْفُرْ بِهِ ۖ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾

وما دام اليهود والنصارى ليسوا على شيء من الهدى، فمن الذي على هدى من ربه؟ إنهم الذين يقرؤون الكتاب فيؤمنون بما جاء فيه من أن محمداً ﷺ هو خاتم الرسل وكتابه آخر الكتب.

فقد بين الله سبحانه في هذه الآية أن الذين أنزل الله عليهم كتاباً كاليهود والنصارى والمسلمين يتلونه حق تلاوته، فيقيمون حروفه وألفاظه، ويقرؤونه حق قراءته بالترتيل والتدبر والتفكير، ويسألون الله الجنة إذا مروا بذكرها، ويستعيذون به من النار عند مرورهم بها، ويعملون بمحكمه ويؤمنون بمتشابهه، ويمثلون أمره ويجتنبون نهيه، ويحلون حلاله ويحرمون حرامه، ويؤمنون بكل ما فيه.

ومن ذلك: بشرى التوراة والإنجيل بمجيء محمد ﷺ ووجوب الإيمان به وبدعوته، وأنها نسخت ما قبلها من الشرائع، ومن كفر بها فقد خسر دنياه وأخراه؛ لأنه استبدل الإيمان بالكفر ﴿الَّذِينَ ءَاتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ﴾ من اليهود والنصارى والمسلمين ﴿يَتْلُونَهُ حَقَّ تِلَاوَتِهِ﴾ يقرؤونه القراءة الصحيحة، ويتبعونه حق الاتباع ﴿أُولَٰئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ﴾ أي: يؤمنون بما جاء فيه من الإيمان برسول الله، ومنهم خاتمهم محمد ﷺ ﴿وَمَنْ يَكْفُرْ بِهِ﴾ فيحرفه ويبدله ولا يؤمن بما جاء فيه، أو يؤمن ببعض الكتاب ويكفر ببعض، أو يؤمن ببعض الرسل والكتب دون بعض، أو يؤمن بما أنزل على نبيه ويكفر بغيره، فهو أشد الناس خسراناً لأولاه وأخراه وهذا معنى ﴿فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾ أي: الهالكون.

وعلى هذا فالآية عامّة في كل من أنزل الله عليهم كتاباً، وإذا كان القرآن خاتم الكتب فهو الذي يتعين حمل المعنى عليه في نهاية الأمر، بعد شموله لأهل الكتاب، لان السياق يقتضى هذا، وأيضاً فإن جملة ﴿ءَاتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ﴾ تعنيهم، أما ما ورد بخصوص إقامة

التوراة والإنجيل في قوله تعالى ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا التَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِمْ مِنْ رَبِّهِمْ لَأَكَلُوا مِنْ فَوْقِهِمْ وَمِنْ تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ﴾ [المائدة: ٦٦] فهو مقيد بزمان الصلاحية للرسالة، أي إلى بعثة محمد ﷺ، والإسلام هو الدين الذي لا يقبل الله من أحد ديناً غيره، كما جاء في الصحيح وغيره عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «والذي نفسي بيده لا يسمع بي أحد من هذه الأمة - يهودي ولا نصراني - ثم لا يؤمن بي إلا دخل النار»^(١).

وقال جل شأنه: ﴿وَمَنْ يَتَّبِعْ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ [آل عمران]

وهكذا وصف الله أولي العلم من اليهود والنصارى الذين آمنوا بمحمد ﷺ وهم يقرؤون القرآن في قوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مِنْ قَبْلِهِ إِذَا يُتْلَى عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا﴾ [١٧] وَيَقُولُونَ سُبْحَانَ رَبِّنَا إِنْ كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا ﴿١٨﴾ وَيَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا ﴿١٩﴾ [الإسراء].

وقال جل شأنه: ﴿الَّذِينَ آمَنَتْهُمْ أَكْثَبَ مِنْ قَبْلِهِ هُمْ بِهِ يُؤْمِنُونَ﴾ [٥٢] وَإِذَا يُتْلَى عَلَيْهِمْ قَالُوا ءَامَنَّا بِهِ إِنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّنَا إِنَّا كُنَّا مِنْ قَبْلِهِ مُسْلِمِينَ ﴿٥٣﴾ أُولَئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُمْ مَرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُوا﴾ [القصص].
وقال سبحانه عن أهل الكتاب: ﴿فَإِنْ أَسْلَمُوا فَقَدِ اهْتَدَوْا وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاءُ﴾ [آل عمران: ٢٠].

والمعنى شامل لكل كتاب نزل من عند الله قبل أن يطرأ عليه تحريف أو تغيير أو تبديل.

والآية تفيد أن الذي يتلو القرآن لمجرد التلاوة - بدون عمل - مثله كمثل الحمار يحمل أسفارا، ولا حظ له من الإيمان؛ لأنه لا يفهم أسرارها، ولا يعرف هداية الله فيه، ولا يعمل به، ولأن مجرد قراءة الألفاظ لا تؤدي إلى الهداية، بل لا بد من العمل.

قال ابن مسعود ؓ: والله إن حق تلاوته أن يحلّ حلاله، ويحرّم حرامه، ويقرأه كما أنزل الله، ولا يحرف الكلم عن مواضعه^(٢).

(١) «صحيح مسلم» برقم (١٥٣) عن أبي هريرة بنحوه، والطبري (٣٦٤/١٢) وابن أبي حاتم (٢٠١٥/٦) والحاكم (٣٤٢/٢).

(٢) الطبري (٤٨٦/٢).

وقد وصف الرسول قومًا بأنهم يقرؤون القرآن لا يجاوز تراقيهم^(١).

وفي الآية نعي على أهل الكتاب الذين يكتفون بالأمانى والظنون، ويتخذون من الدين جنسية لهم، مع جمودهم على الظواهر والتقاليد، وتلاوة الكتاب حق التلاوة هي علة الرجاء ومناط الأمل في دخولهم في الإسلام، ولكنهم لا يفعلون، فهم ليسوا ممن يؤمن به، وإنما هم ممن يكفر به، ويخسر دنياء وأخره، وهذا مصداق الآية قبلها ﴿وَلَنْ تَرْضَى عَنْكَ الْيَهُودُ وَلَا النَّصَارَى حَتَّى تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ﴾.

وخلاصة معنى الآية: يخبر الله سبحانه أن الذين أنزل الله عليهم كتابًا، من اليهود والنصارى وغيرهم، عليهم أن يتبعوه حق الاتباع، فيحلون حلاله ويحرمون حرامه، ويقرؤونه كما أنزل، وهؤلاء هم الصادقون في إيمانهم، السعداء يوم لقاء الله، ومن لم يؤمن بالله، فأمن ببعض دون بعض، وفرق بين رسل الله، ولم يؤمن بخاتم النبيين، فجزأوه الخسران والهلاك والعذاب الدائم، وكل من أقام كتابه فأمن به وعمل بما فيه، من أهل الكتب المنزلة على الأنبياء المتقدمين وجب عليه أن يؤمن برسالة محمد ﷺ، ومن لم يؤمن منهم بها، من كل من وجد بعد بعثته ﷺ فهو كافر، وهو بهذا غير تال لكتابه حق التلاوة؛ لأنه لم يعمل بما فيه، ولا يقيم حدوده وأحكامه، كما قال تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا التَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِمْ مِنْ رَبِّهِمْ لَأَكَلُوا مِنْ فَوْقِهِمْ وَمِنْ تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ﴾ [المائدة: ٦٦].

وقال سبحانه: ﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ الْكِتَابِ لَسْتُمْ عَلَىٰ شَيْءٍ حَتَّىٰ تُقِيمُوا التَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ﴾ [المائدة: ٦٨].

النِّدَاءُ الثَّالِثُ لِبَنِي إِسْرَآئِيلَ فِي سُورَةِ الْبَقَرَةِ

١٢٢- ﴿يٰٓبَنِي إِسْرَآءِيلَ﴾^(٢) أَذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَنِّي فَضَّلْتُكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ ﴿١٢٢﴾

ختم الله سبحانه هذه الآيات -عودًا على بدء- بما بدأه عن بني إسرائيل: ﴿يٰٓبَنِي إِسْرَآءِيلَ﴾

(١) كما في حديث سهل بن حنيف في مسلم (١٠٦٨، ١٥٩)، و«المسند» برقم (١٥٩٧٧) وابن أبي عاصم في السنة ٩٠٨ والطبراني في الكبير (٥٦٠٧) والبخاري (٦٩٣٤).

(٢) قرأ أبو جعفر بتسهيل الهمزة الثانية من (إسرائيل) مع المد والقصر، وحققها الباقون.

أَذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَنِّي فَضَّلْتُكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ ﴿٤٧﴾ وقد سبق بيان معناها عند الآية (٤٧) وإعادتها هنا للتأكيد والحث على اتباع الرسول النبي الأمي، والتحذير من كتمان أوصافه ﷺ وأن يذكر اليهود نعم الله الدينية والدنيوية عليهم، ولا يحسدوا العرب على أن الرسول الخاتم منهم، ولا يحملهم هذا الحسد على مخالفة الحق واتباع الباطل، وألا يقابلوا نعم الله عليهم بالكفر والعناد ومخالفة الأقوال للأفعال.

وقد بينت أن سبب هذا التفضيل على غيرهم من الأمم في زمانهم أنهم كانوا أهل كتاب يؤمنون بالله وبرسوله موسى عليه السلام، وغيرهم وثنيون، فهم بهذا أفضل منهم بلا شك، وهذا يخص زمانهم، لأن رسالتهم قد نسخت برسالة عيسى عليه السلام وانتهى وقت تفضيلهم بمجيء أمة أخرى ورسالة أخرى.

تَحْذِيرُ الْيَهُودِ مَرَّةً أُخْرَى مِنْ يَوْمٍ لَا يَنْفَعُ فِيهِ مَالٌ وَلَا بَنُونَ

١٢٣ - ﴿وَاتَّقُوا يَوْمًا لَا تَجْزِي نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئًا وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا تَنْفَعُهَا شَفَاعَةٌ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ﴾

ثم حثهم الله تعالى على اتقاء يوم يفر فيه المرء من أخيه وأمه وأبيه، ولا تجزي فيه نفس عن نفس شيئاً، ولا تزرز وازرة وزر أخرى، وكل نفس رهينة بعملها، ولا تقبل الفدية من كافر، ولو فدى نفسه بملء الأرض ذهباً، ولا تنفع فيه الشفاعة لأحد من غير إذن للشافع أن يشفع، ولا رضى عن المشفوع له في الشفاعة، وفيه رد على اليهود في قولهم: آباؤنا يشفعون لنا، وليس في الآخرة من ينصرهم أو يدفع عنهم عذاب رب العالمين، والفدية والشفاعة يستويان في عدم نفع كل منهما بالنسبة للكافر، مهما قدم من عمل صالح في دنياه كما في الآية (٤٨).

وفي الآية حث لليهود على الإنصاف في تلقي الدعوة الإسلامية، والتجرد من المكابرة والحسد، وترك حظوظ الدنيا لنيل السعادة في الآخرة، وفي هذا اليوم لا ينتفع الكافر بشفاعة غيره له، كما في هذه الآية، ولا يقبل من الكافر أن يشفع في غيره كما في الآية (٤٨)، فالكافر لا ينتفع بالشفاعة ولا تقبل منه الشفاعة، كما أن الفداء لا يؤخذ منه أصلاً كما في الآية (٤٨) وإذا أخذ منه فإنه لا يقبل كما في هذه الآية، ولعل هذا هو السر في تقديم لفظ ﴿عَدْلٌ﴾ هنا، وتأخيرها في الآية السابقة، وتأخير الشفاعة هنا وتقديمها في الآية السابقة.

إِبْرَاهِيمُ يَجْمَعُ الْعَرَبَ وَأَهْلَ الْكِتَابِ فِي نَسَبٍ وَاحِدٍ

١٢٤ - ﴿وَإِذْ ابْتَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ﴾ ^(١) رَبُّهُ بِكَلِمَتٍ فَأَتَمَّهُنَّ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا قَالَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِي ^(٢) الظَّالِمِينَ ﴿١٢٤﴾

ولا يزال الحديث موصولاً عن بني إسرائيل مع إضافة المسلمين إليهم؛ ليشمل الطوائف الثلاث: اليهود والنصارى والمسلمين، باعتبار أن كل طائفة منهم تتبع إبراهيم عليه السلام، وترتبط به برباط النسب والعقيدة، وذلك أن السورة بدأت بعد الافتتاح بذكر خلق آدم، ثم خصَّ من ذرية آدم بني إسرائيل، الذين عُهد إليهم على لسان موسى، الإيمان بمحمد ﷺ، ثم ذكرت السورة الأبَّ الأقرب للعرب وأهل الكتاب وهو إبراهيم، ومعناه: أبو الأمم.

التَّعْرِيفُ بِإِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ

وإبراهيم: اسمٌ أعجميٌّ، معناه: أبٌ رحيم، أو أبو الأمم، ينتسب إلى سام بن نوح عليهما السلام، وُلد في الأهواز، أو أور الكلدانيين سنة ١٩٩٦ قبل الميلاد، ثم انتقل به والده إلى حُوران، ثم إلى بابل أرض النمرود وتزوَّج سَارَّةَ، وهاجر بها إلى مصر بسبب قحطٍ أصاب البلاد، وأهدى له ملك مصر (هاجر) أم إسماعيل وتُوفِّي إبراهيم سنة ١٧٧٣ قبل الميلاد، وجميع الطوائف تتشرف بالنسب إليه.

وقد حكى الله تعالى عن إبراهيم أموراً تجعل المشركين واليهود والنصارى يقبلون قول محمد ﷺ ويعترفون بدينه، وينقادون لشرعه، فاليهود والنصارى يرجعون في أصولهم إلى إسحاق بن إبراهيم، ومشركو مكة (العرب) يرجعون في أصولهم إلى إسماعيل بن إبراهيم، وجميع هذه الطوائف تعتزُّ بنسبها وصلتها بخليل الرحمن ﷺ، وكلها تؤمن به وبدعوته ورسالته.

(١) قرأ ابن عامر بخلف عن ابن ذكوان (وإذ ابتلى إبراهيم) بألف بعد الهاء، وقد رُسمت في المصحف بدون ياء بعد الهاء، وقرأ الباقر (إبراهيم) بياء بعد الهاء، وهو الوجه الثاني لابن ذكوان، وهما لغتان، وهذه القاعدة مُطَرَّدَةٌ في القرآن في كل ما رُسم منه بدون ياء، وهو ثلاثة وثلاثون موضعاً، أما ما رُسم بالياء مثل التي في سورة إبراهيم آية (٣٥) فإن القراء كلُّهم متفقون على قراءتها بالياء.

(٢) قرأ حفص وحزمة بإسكان الياء من (عهدي) وحذفها لالتقاء الساكنين، وقرأ الباقر بفتحها وإثباتها.

وقد جاء محمد بما جاء به إبراهيم، وكأن القرآن يقول لجميع الملل والنحل التي لم تدخل في الإسلام ممن ينتمون إلى إبراهيم في النسب والعقيدة، يقول لهم: إن كنتم تؤمنون حقاً بدعوة إبراهيم، فهو الذي دعا ربه أن يرسل في هذه الأمة محمداً ﷺ وإبراهيم هو الذي جاء بالحنيفية السمحة، وهي ملة محمد ﷺ، فكلاهما جاء بالتوحيد والإسلام والانقياد والاستسلام لله ﷻ، جاء بهذا إبراهيم، وجاء به محمد بعد موسى وعيسى، وعليكم أن تؤمنوا بمحمد الذي جاء بما أتى به إبراهيم ﷺ.

ولذا تحدثت الآيات عن إبراهيم من بداية أمره لحظة لحظة، منذ أن ابتلاه الله سبحانه بما ابتلاه به - ليكون أهلاً للاصطفاء والخلة والإمامة - إلى أن بعث الله محمداً ﷺ استجابة لدعوة إبراهيم ﷺ.

﴿وَإِذِ ابْتَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ﴾ والاختبار من الله تعالى يكون لإظهار ما سبق في علمه في الأزل للناس؛ ليتبين لهم سبب الثواب أو العقاب، ولكي تُحصيه الملائكة وتسجله في صحفهم، أما الاختبار من الناس فهو لظهور ما لم يعلموه، فاذكر -أيها الرسول - لجميع من ينتمي إلى إبراهيم ﷺ حين اختبره الله بكلمات، ويرجح أن يكون هذا الابتلاء قد وقع قبل النبوة لتقدم السبب عن المسبب، فما هذه الكلمات التي اختبر الله بها إبراهيم ﷺ فأدّاها وقام بها خير قيام؟ إنه سبحانه أعلم بنتيجة هذا الابتلاء الذي ترتب عليه اصطفاء إبراهيم، وكونه أهلاً لأن يكون خليل الرحمن.

وتشير الآية إلى أن الله تعالى ابتلى خليله إبراهيم بأوامر ونواهي، لرفع درجته وزيادة قدره، فأتى ما ابتلاه الله به وأكمّله ووفّاه، فشكرا الله له ذلك، وكافأه بقوله ﴿إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا﴾ يقتدون بك، ويهتدون بهديك، ويحصل لهم الشئ الدائم والأجر العظيم، وفرح إبراهيم بهذا الاختيار وهذه المكانة، فطلبها لذريته ﴿قَالَ وَبِمَن دُرِّيَّتِي﴾ فأجابه ربه بقوله ﴿لَا يَتَّأَلُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ﴾ أي لا ينال الإمامة من ظلم نفسه بالمعاصي والذنوب، ولا من ظلم غيره بالاعتداء عليهم أو أكل أموالهم، وغير الظالم ينال الإمامة إذا أتى بأسبابها.

الكَلِمَاتُ الَّتِي ابْتَلَى اللَّهُ بِهَا إِبْرَاهِيمَ فِيهَا خَمْسَةُ أَقْوَالٍ

وهذه الكلمات وردَ فيها عدة أقوالٍ، لا يُجزم بشيء منها على وجه التعيين، إذ لم يرد

فيها خبرٌ صحيح عن المعصوم عليه السلام، وأبرزها: أمره بالختان على كبر، وقذفه في النار، وأمره بذبح ولده، وهجرته من بلاد الكلدان إلى العراق إلى الشام والحجاز ومصر، وقد وفّى وأتمّ كل ما أمر به، ومما ورد في هذه الكلمات ما يأتي:

القول الأول: أنها خصال الفطرة العشرة: المضمضة والاستنشاق والسواك وقص الشارب وغسل البراجم -عُقد الأصابع- وتقليم الأظافر ونتف الإبط وحلق العانة والختان وانتقاص الماء^(١).

قيل: إن إبراهيم عليه السلام هو أول من فعل هذه الخصال، فهو أوّل مَنْ اخْتَنَ، واختن وهو كبيرٌ في سنٍّ مُتقدمة بعد الثمانين من عمره.

في الصحيحين عن أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «اختن إبراهيم وهو ابن ثمانين سنة بالقُدوم»^(٢) بالتخفيف، وهو آلة القطع المعروفة، وروى بالتشديد، اسم لموضع.

وهو أول من قلم أظافره، وقصّ شاربه، وأول من رأى الشيب، فقال: ربّ ما هذا؟ قال: وقارٌ يا إبراهيم، قال: رب زدني وقارًا^(٣).

فإبراهيم عليه السلام هو أول من قام بهذه الخصال من سنن الفطرة.

وهذه الخصال العشر، منها خمسٌ في الرأس، هي: قص الشارب، والمضمضة، والاستنشاق، والسواك، وفرّق الرأس. وخمسٌ في الجسد، وهي: تقليم الأظافر، وحلق العانة، والختان، ونتف الإبط، وغسل مكان البول والغائط^(٤).

(١) يُنظر الحديث بتمامه في «صحيح مسلم» عن عائشة برقم (٢٦١) وأبو داود (٥٣) والترمذي (٢٧٥٧) والنسائي (٥٠٥٥) وابن ماجه (٢٩٣) وابن أبي شيبة (١٩٥/١) والحاكم (٥٥١/٢) والبيهقي (٨٦٤٠) وقال: والصحيح أنه موقوف.

(٢) البخاري (٣٣٥٦، ٦٢٩٨) ومسلم (٢٣٧٠).

(٣) أخرجه مالك في «الموطأ» عن يحيى بن سعيد بن المسيب، وأخرجه ابن سعد عن أبي هريرة (٤٧/١) وابن أبي شيبة (٥٨/٩).

(٤) جاء هذا عن ابن عباس عند عبد الرزاق (٥٧/١) والطبري (٤٩٩/٢) وابن أبي حاتم (١١٦٥) والحاكم (٢٢٦/٢) والبيهقي في «السنن» (١٤٩/١).

وهذه طائفة من الأحاديث فيها جُملة من سُنن الفطرة:

١- فعن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: «وَقَّتْ لَنَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فِي قَصْرِ الشَّارِبِ وَتَقْلِيمِ الْأَظْفَارِ وَحَلْقِ الْعَانَةِ وَتَفِيفِ الْإِبْطِ، أَلَّا تُتْرَكَ أَكْثَرُ مِنْ أَرْبَعِينَ يَوْمًا»^(١).

٢- وعن زيد بن أرقم رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «مَنْ لَمْ يَأْخُذْ مِنْ شَارِبِهِ فَلَيْسَ مِنَّا»^(٢).

وإعفاء اللحية من سُنن الفطرة:

٣- وعن ابن عمر رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال: «خَالَفُوا الْمُشْرِكِينَ، وَفَرَّوْا اللَّحَى، وَأَحْفُوا الشَّوَارِبَ»^(٣).

والسَّوَاكُ من سنن الفطرة.

- وعن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «لَوْلَا أَنْ أَشَقَّ عَلَى أُمَّتِي لِأَمْرَتِهِمْ بِالسَّوَاكِ عِنْدَ كُلِّ صَلَاةٍ»^(٤).

٥- وعن خالد بن زيد الجهني رضي الله عنه قال: مَا كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَخْرُجُ مِنْ بَيْتِهِ لَشَيْءٍ مِنَ الصَّلَوَاتِ حَتَّى يَسْتَاكَّ^(٥).

٦- وعن علي بن أبي طالب رضي الله عنه قال: «إِنْ أَفْوَاهَكُمْ طُرُقَ الْقُرْآنِ، فَطَيَّبُوهَا بِالسَّوَاكِ»^(٦).

٧- وعن عائشة رضي الله عنها أنها سُئِلَتْ بِأَيِّ شَيْءٍ كَانَ النَّبِيُّ ﷺ يَبْدَأُ إِذَا دَخَلَ بَيْتَهُ؟ قَالَتْ: كَانَ

(١) مسلم (٢٥٨) وأبو داود (٤٢٠٠) والترمذي (٢٧٥٩) والنسائي (١٤) وفي «الكبرى» (١٥) وابن ماجه (٢٩٥).

(٢) «المسند» (١٩٢٦٣) بإسناد صحيح ورجال ثقات، كما قال محققوه، والترمذي (٢٧٦١) والنسائي (١٣) وفي «الكبرى» (٩٢٩٣، ١٤) و«صحيح سنن الترمذي» (٢٢١٧) و«صحيح سنن النسائي» (١٣) وابن أبي شيبة (٥٦٥/٨).

(٣) «الموطأ» (٩٤٧/٢) والبخاري (٥٨٩٢) ومسلم (٢٥٩) وأبو داود (٤١٩٩) والترمذي (٢٧٦٣).

(٤) البخاري (٨٨٧، ٧٢٤٠) ومسلم (٢٥٢) وأبو داود (٤٦) والنسائي (٧، ٥٣٣) وابن ماجه (٢٨٧).

(٥) الطبراني (٥٢٦١) قال الهيثمي: رجاله موثقون، «مجمع الزوائد» (٩٩/٢).

(٦) «صحيح سنن ابن ماجه» (٢٣٦)، وفي سنن ابن ماجه (٢٩١) وفي السلسلة الصحيحة (١٢١٣).

إذا دخل يبدأ بالسواك^(١).

وَتَغْيِيرُ لَوْنِ الشَّيْبِ مِنْ سَنَنِ الْفِطْرَةِ:

٨- عن أبي ذر رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «إِنْ أَحْسَنَ مَا غَيَّرْتُمْ بِهِ الشَّيْبَ الْحَنَاءَ وَالكَتَمَ»^(٢).

٩- وعن أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «إِنَّ الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى لَا يَصْبُغُونَ فَخَالَفُوهُمْ»^(٣).

وهكذا: فإن سنن الفطرة تشمل ما جاء في هذه الأحاديث ونحوها.

القول الثاني: إن هذه الكلمات التي ابتلى الله بها إبراهيم هي مناسك الحج : الطواف والسعي والوقوف بعرفة والمبيت بمزدلفة، ورمي الجمار، والمبيت بمنى، وسائر المناسك.

القول الثالث: أنها مجموع ما في الآيات الخمس من نِعَمٍ وَمِنْ.

أخرج الطبري بسند صحيح عن مجاهد في قوله ﴿وَإِذْ أَبْتَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ رُبُّهُ بِكَلِمَاتٍ﴾ قال الله لإبراهيم: إني مُبْتَلِيكَ بأمر، فما هو؟ قال: تجعلني للناس إماماً! قال: نعم، قال: ومن ذريتي، قال: لا ينال عهدي الظالمين، قال: تجعل البيت مثابة للناس، قال: نعم، قال: وأمناً، قال: نعم، قال: وتجعلنا مُسْلِمِينَ لك ومن ذريتنا أمة مسلمة لك، قال: نعم، قال: وتُزِينَا مناسكنا وتُتَوِّبَ علينا، قال: نعم، قال: وتجعل هذا البلد آمناً، قال: نعم، قال: وترزق أهله من الثمرات من آمن منهم، قال: نعم.

القول الرابع: ويرجح كثير من المفسرين أنها: مجموع الأوامر والنواهي التي ابتلي بها إبراهيم. ومنها: أمره بمفارقة وطنه في بادئ الأمر، حيث كان في بابل من أرض العراق، ثم هاجر منها إلى فلسطين، ومنها: مخاطبة النمرود الملك الجبار الطاغية، ومحاربة إبراهيم للأصنام وتكسيرها، ثم ما كان من أمره حين أُلقي في النار وصبره عليها، ثم أمره

(١) مسلم (٢٥٣) وابن أبي شيبة (١/ ١٦٨) وأبو داود (٥١) والنسائي (٣) وابن ماجه (٢٩٠).

(٢) أبو داود (٤٢٠٥) وصحيح سنن أبي داود (٣٥٤٢) والترمذي (١٧٥٣) والنسائي (٥٠٩٣) وابن ماجه (٣٦٢٢).

وصحيح سنن ابن ماجه (٢٩١٩) و«السلسلة الصحيحة» (١٥٠٩). وغاية المرام (١٠٧).

(٣) البخاري (٣٤٦٢) ومسلم (٢١٠٣) وأبو داود (٤٢٠٣) وصحيح سنن أبي داود (٣٥٤٠) والنسائي (٥٠٨٧).

وابن ماجه (٣٦٢١) وصحيح سنن ابن ماجه (٢٩١٨) وغاية المرام (١٠٤).

بالهجرة من فلسطين إلى مكة المكرمة، وتركه فيها زوجته وابنه الصغير، ثم ابتلاؤه بذبح ولده وحيد الذي رزقه الله إياه على كبر، فابتلي بذبحه ونفذ فيه أمر الله سبحانه وصبر على أمر الذبح حتى كان الفداء بذبح كبشٍ عظيم.

ويشهد لذلك ما أخرجه ابن أبي حاتم بسندٍ حسنٍ من طريق ابن إسحاق بسنده عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: الكلمات التي ابتلي بهن إبراهيم فأتَمهن: فراق قومه في الله حين أمر بفراقهم، ومحاجَّته نمرود في الله... وصبره على قذفه إياه في النار ليُحرِّقوه في الله، والهجرة بعد ذلك من وطنه وبلاده في الله حين أمره بالخروج عنهم، وما أمره به من الضيافة والصبر عليها، وما ابتلي به من ذبح ولده حين أمر بذبحه، فلما مضى على ذلك من أمر الله، وأخلصه البلاء، قال الله له: أسلم قال: أسلمت لرب العالمين، على ما كان من خلاف الناس وفراقهم.

القول الخامس: أن الكلمات التي ابتلي بها إبراهيم:

هي الوفاء بما وصف الله به المؤمنين في سورة التوبة والمؤمنون والأحزاب والمعارج.

قال ابن عباس رضي الله عنهما: ما ابتلي أحدٌ بهذا الدين فقام به كله إلا إبراهيم، قال: ﴿وَإِذْ ابْتَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ﴾ قيل: ما الكلمات؟ قال: سهام الإسلام، ثلاثون سهمًا:

عشر في سورة براءة ﴿التَّائِبُونَ الْعَمِدُونَ﴾... إلى آخر الآية [التوبة: ١١٢]

وعشر في أول سورة ﴿قَدْ أَفْلَحَ﴾ و ﴿سَأَلَ سَائِلٌ﴾ ﴿وَالَّذِينَ يُصَدِّقُونَ بَيِّنَاتٍ﴾ [المعارج]

وعشر في الأحزاب ﴿إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ﴾... [الأحزاب: ٣٥] إلى آخر الآية.

فأتَمهن كلهن، فكتب له براءة، قال تعالى ﴿وَإِبْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَّى﴾ (١) [النجم].

وبعد أن نجح إبراهيم في الاختبار والابتلاء أثنى عليه ربه في سورة النجم بقوله ﴿وَإِبْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَّى﴾ أي: وفَّى بما أمره به ربه من أوامر وتكاليف شرعية.

(١) أخرجه الحاكم وصححه ووافقه الذهبي (٤٧٠/٢) وابن أبي حاتم (١٢١٦٦) وابن أبي شيبة (٥٢٢/١١) والطبري (٤٩٨/٢) وابن عساكر (١٩٤/٦).

قال تعالى: ﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿١٢٥﴾ شَاكِرًا لِّأَنْعَمِهِ أَحْبَبْنَاهُ وَهَدَيْنَاهُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿١٢٦﴾﴾ [النحل]

وبعد أن قام إبراهيم بهذه الكلمات ونجح في الابتلاء، كان أهلاً للإمامة والرسالة، فقال تعالى له: ﴿إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا﴾ أي: نبياً مرسلًا، وحاكمًا تحكم بين الناس، وقاضياً تقضي بينهم، وإماماً لهم في الصلاة، فلفظ (إمام) يشمل هذا وغيره، فهو إمام المسلمين في كل شيء ﴿قَالَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي﴾ امتدت الرغبة في إبراهيم أن تكون الإمامة وراثية في ذريته من بعده، وذلك من طبيعة البشر، فدعا ربه أن يجعل بعض نسله أئمة، وقد بين سبحانه ذلك في سورة الصفات بعد ذكر ذرية إبراهيم وابنه إسحاق فقال جل شأنه: ﴿وَمِنْ ذُرِّيَّتِهِمَا مُحْسِنٌ وَظَالِمٌ لِنَفْسِهِ مُبِينٌ﴾ [الصفات: ١١٣]

والمحسن هو المؤمن، والظالم هو الكافر، وقد بين الله سبحانه لإبراهيم أن في ذريته من يصلح للإمامة، ومنهم من لا يصلح، وأن وراثية النبوة والإمامة لا تكون بمقتضى العرق، ولا بمقتضى وشيجة الدم والنسب، وإنما تكون بمقتضى الإيمان والصلاح، فقال سبحانه: ﴿لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ﴾ أي: لا ينال وعدي بالرسالة والإمامة الظالمين من ذريتك، فالعهد هو الوعد بالإمامة، ولا يصلح لها من كان ظالماً، وهم الذين ظلموا أنفسهم بالشرك والمعاصي أو ظلموا غيرهم بالبغي والعدوان عليهم، فهؤلاء ليسوا جديرين بالإمامة لاتصافهم بالظلم، ومنه الشرك وارتكاب الكبائر، وتحريف الكتاب، والانهماك في الشهوات وحفظ الدنيا.

الْبَيْتُ الْحَرَامُ مَثَابَةٌ لِّلنَّاسِ وَأَمْنٌ

١٢٥- ﴿وَإِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ وَأَمْنًا وَاتَّخِذُوا^(١) مِنْ مَّقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى وَعَهِدْنَا إِلَى

(١) قرأ نافع وابن عامر (واتخذوا) بفتح الخاء، على أنه فعل ماضٍ أُريدَ به الإخبار، وقرأ الباقون بكسر الخاء، على أنه فعل أمر، والمأمور بذلك هو إبراهيم وذريته، أو محمد وأُمَّته.

إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ^(١) أَنْ طَهَّرَا بَيْتِي^(٢) لِلطَّائِفِينَ وَالْعَاكِفِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ ﴿١٢٥﴾

ذكر سبحانه وتعالى في هذه الآية مثالا على إمامة إبراهيم، وهو مثال قائم إلى يوم القيامة، ويمثل ركنا من أركان الإسلام، ألا وهو بيت الله الحرام، الذي رفع إبراهيم قواعده، وطهره من الشرك والكفر والمعاصي والرجس والنجس، وجعله آمنا للناس وأمر الله باتخاذ مقام إبراهيم مصلى.

ونظرا لأن الآيات الأربع التالية هي أول آيات القرآن حديثا عن بناء البيت الحرام، وكونه مثابة للناس وأمنا، وهي أول الآيات عن مناسك الحج؛ فقد أسهبْتُ في الحديث عن ذلك بما يُغطي جوانب الموضوع وعظما وفقها وتفسيرا.

وقد بدأت هذه الآية بامتنان الله تعالى على خلقه حيث جعل الكعبة البيت الحرام مرجعا للناس، أي إنهم يأتونه ثم يرجعون إلى أهلهم بعد أن يؤدوا مناسكهم دون أن يُغير عليهم أحد أو يتعرضوا لأذى.

اذكر - أيها الرسول - وقت أن دعا إبراهيم ربه أن يجعل البيت الحرام بلدا آمنا، ومثابة للناس يَجْتُنُونَ إليه ويشتاقون، فيعودون إلى زيارته، كما قال تعالى في السورة التي تحمل اسمه ﷻ ﴿فَجَعَلْنَا قُتُودَهُ مِنَ النَّاسِ نَهْوً لِلنَّاسِ﴾ [إبراهيم: ٣٧]

وقال هنا: ﴿وَإِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ وَأَمْنًا﴾ أي: مرجعا يُثابون على زيارته والطواف حوله، ويأمنون على أنفسهم وأموالهم حيث يُتَخَطَّفُ الناس من حولهم، كما قال تعالى ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا آمِنًا وَيُتَخَطَّفُ النَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ﴾ [العنكبوت: ٦٧]

وقال: ﴿فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَذَا الْبَيْتِ ۚ الَّذِي أَطْعَمَهُمْ مِنْ جُوعٍ وَآمَنَهُمْ مِنْ خَوْفٍ﴾ [قريش].

(١) إسماعيل هو الابن البكر لإبراهيم، وهو ابنه من (هاجر) وُلِدَ في أرض كنعان سنة ١٩١٠ قبل الميلاد، ومعنى إسماعيل بالعبرية: سمع الله؛ أي: استجاب الله دعاء أمه، وهو أكبر من إسحاق بثلاثة عشر عاما، تُوفي بمكة سنة ١٧٧٣ قبل الميلاد، ودُفِنَ بالحجر حول الكعبة.

(٢) قرأ نافع وهشام وحفص وأبو جعفر بفتح الياء من (بَيْتِي) وصلّا، وأسكنها الباقون.

خَمْسٌ وَقَفَاتٍ مَعَ مَثُوبَةِ الْبَيْتِ الْحَرَامِ

قوله تعالى: ﴿وَإِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ وَأَمْنَا﴾

أَوَّلًا: فَضْلُ الْحَجِّ

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: سئل رسول الله ﷺ: أيُّ العمل أفضل قال: «إيمان بالله ورسوله» قيل: ثم ماذا؟ قال: «الجهاد في سبيل الله» قيل: ثم ماذا؟ «قال حج مبرور»^(١).

وعن الشفاء بنت عبد الله القرشيّة العدويّة قالت: سمعت رسول الله ﷺ وسأله رجلٌ: أيُّ الأعمال أفضل؟ قال: «إيمان بالله، وجهاد في سبيله وحج مبرور»^(٢).

فدلّ هذا على أن للحج مكانة عظيمة في الإسلام، يُثاب عليه المسلم أعظم الثواب، حيث تأتي مرتبته بعد الإيمان بالله ورسوله، وهما أساس قبول الأعمال عند الله تعالى وبعد الجهاد في سبيل الله، الذي هو ذروة سنام الإسلام.

ثانيًا: الْحَجُّ نَوْعٌ مِنَ الْجِهَادِ: عن الحسين بن علي رضي الله عنه قال: جاء رجلٌ إلى النبي ﷺ فقال: إني جبانٌ، وإني ضعيفٌ، فقال: «هلم إلى جهاد لا شوكة فيه: الحج»^(٣).

وعن عائشة رضي الله عنها أنها قالت: يا رسول الله نرى الجهاد أفضل العمل، أفلا نجاهد؟ قال: «لكنَّ أفضل الجهاد حج مبرور»^(٤).

فالحج جهادٌ الكبير والصغير والضعيف والجبان والمرأة، وقد تواترت نصوص كثيرة في بيان فضل الحج وعظيم مكانته، وأنه نوعٌ من جهاد النفس والهوى والشيطان لكن جهاد العدو أفضل الأعمال عند الله تعالى، وذروة سنام الإسلام.

(١) أخرجه الشيخان «اللؤلؤ والمرجان فيما اتفق عليه الشيخان» (١٥/١) رقم (٥٠) وفي البخاري (٢٦)، ١٥١٩) وفي مسلم (٨٣) وانظر «الترغيب والترهيب» دار الفكر ١٩٨١م (٢/١٦٢).

(٢) أخرجه الطبراني في «الكبير» ورجاله ثقات، «مجمع الزوائد ومنبع الفوائد» للهيتمي (٢٠٧/٣) ط ثانية ١٩٦٧م. والمسند (٢٧٠٩٤، ٢٧٠٩٦) صحيح لغيره، وله شاهد من حديث أبي هريرة (٧٥٩٠) بإسناد صحيح.

(٣) رواه الطبراني في «الكبير» برقم (٢٩١٠) وفي «الأوسط» برقم (٤٢٨٧) قال الهيتمي: ورجاله ثقات، «مجمع الزوائد» (٢٠٦/٣).

(٤) أخرجه البخاري عن عائشة رضي الله عنها برقم (١٥٢٠، ١٦١٨، ٢٧٨٤، ٢٨٧٥).

ثَالِثًا: الْحَجُّ يُكَفِّرُ الذُّنُوبَ: عن أبي هريرة ؓ قال: قال رسول الله ﷺ: «مَنْ حَجَّ هَذَا الْبَيْتَ فَلَمْ يَرِفْثْ وَلَمْ يَفْسُقْ رَجَعَ كَمَا وَلَدَتْهُ أُمُّهُ»^(١).

رَابِعًا: تَكَرَّرُ الْحَجُّ وَالْعُمْرَةُ: ولما كانت الذنوب تتجدد ويعاودها المسلم كلما غفل عن طاعة ربه فإن تكرار الحج ومعاودته أمر مطلوب -بين الحين والآخر كل خمسة أعوام أو أربعة عند القدرة عليه- لتكفير الذنوب، وتنظيف صحيفة الأعمال مما عُلِقَ بها من دنس المعاصي إذا اقترن ذلك بالتوبة النصوح.

ولما كانت العمرة كذلك تغفر الذنوب وتمحوها، فإن الإسلام رَغَّبَ في المتابعة بين الحج والعمرة والإكثار منهما؛ لأنهما ينفيان الفقر والذنوب كما ينفي الكِبَرُ خُبثَ الحديد، وقد ورد الوعيد والترهيب لمن يوسَّعَ الله عليه في المعيشة، ويصحَّحَ له بدنه ثم لا يعاود الحج كل أربعة أو خمسة أعوام.

فعن أبي سعيد الخدري ؓ أن رسول الله ﷺ قال: إن الله تعالى يقول: «إِنْ عَبْدًا أَصَحَّحْتَ لَهُ بَدَنَهُ، وَأَوْسَعْتَ عَلَيْهِ فِي الرِّزْقِ، لَمْ يَفِدْ إِلَيَّ فِي كُلِّ أَرْبَعَةِ أَعْوَامٍ لِمَحْرُومٍ» وفي رواية «فِي كُلِّ خَمْسَةِ أَعْوَامٍ»^(٢).

وعن عمر ؓ أن رسول الله ﷺ قال: «تَابِعُوا بَيْنَ الْحَجِّ وَالْعُمْرَةِ فَإِنَّ الْمَتَابِعَةَ بَيْنَهُمَا يَنْفِيَانِ الْفَقْرَ وَالذُّنُوبَ كَمَا يَنْفِي الْكَبِيرُ خُبْثَ الْحَدِيدِ»^(٣).

(١) أخرجه الشيخان في البخاري (١٥٢١، ١٨١٩، ١٨٢٠) ومسلم (١٣٥٠).

(٢) رواه الطبراني في «الأوسط» وأبو يعلى (١٠٣١) ورجال الجميع رجال الصحيح، «مجمع الزوائد»

(٢٠٦/٣٠) و«صحيح الجامع الصغير» حديث رقم (١٩٠٥) ج ١ والمطالب العالية برقم (١٢١٢)

وصححه الألباني في «السلسلة الصحيحة» (١٦٦٢) وأخرجه عبد الرزاق في «المصنف» (٨٨٢٦).

(٣) أخرجه ابن ماجه بإسناد صحيح، كما في صحيح سنن ابن ماجه (٢٣٣٤) وفي المشكاة (٢٥٢٤) وفي

«صحيح الجامع» (٣٠/٣) رقم (٢٨٩٦) ورقمه في «سنن ابن ماجه» (٢٨٨٧) والمسند (١٦٧) بإسناد

صحيح على شرط الشيخين، وفي «السلسلة الصحيحة» (١٢٠٠) وأخرجه البيهقي في «الشعب» (٤٠٩٤).

وعن ابن مسعود رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «تابعوا بين الحج والعمرة فإنهما ينفيان الفقر والذنوب كما ينفي الكير خبث الحديد والذهب والفضة، وليس للحجة المبرورة ثواب دون الجنة»^(١).

والذنوب التي تُكفّر: هي الصغائر والكبائر من حقوق الله تعالى؛ لأن الحاج تائب إلى الله تعالى، مقبلٌ عليه سبحانه، نادماً على ما فرط في جنب الله، راجعٌ إلى ربه، وقد غفر ذنبه وستر عيبه بإنشاء الله.

أما فيما يتعلق بحقوق العباد فإنه لا بُدَّ من ردها إليهم، أو استحلالهم منها.

وإذا نتج من تكرار الحج بالنسبة للفرد الواحد ازدهام شديد في المشاعر يؤدي إلى إحداث الضرر وإلحاق الأذى بالمسلمين فإن هذه ضرورة تقدر بقدرها.

والإسلام لم يفرض الحج والعمرة على المسلم إلا مرة واحدة في العمر، وفيما عدا ذلك فإن تكرارهما طاعةٌ وقربى إلى الله تعالى، ما لم تكن هناك جهاتٌ منكوبة في العالم الإسلامي؛ كأحوال المسلمين اليوم في فلسطين والعراق وغيرهما، فإن بذل المال لهم ولأمثالهم أولى من حج النافلة، وما لم يزدد أعداد الحجاج لدرجة تضرُّ بمن يحج لأول مرة فإن ترك أماكن المناسك لهذا الحاج تحتمه الضرورة.

خامساً: ثواب الحج المبرور: عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «العمرة إلى العمرة كفارة لما بينهما، والحج المبرور ليس له جزاء إلا الجنة»^(٢).

والحج المبرور: هو الذي لا يخالطه إثم ولا رث ولا فسوق، ويكون من نفقة حلال، خالياً من الرياء والسمعة، وتكون حال العبد بعد الحج أفضل مما قبله في البعد عن السيئات، والرغبة في الصالحات والتوبة النصوح.

مقام إبراهيم: ولنعد إلى تفسير بقية الآية قال تعالى: ﴿وَأَخِذُوا مِنْ مَّقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى﴾

(١) أخرجه النسائي في سننه بإسناد صحيح، برقم (٢٨٩٧) وهو في «صحيح النسائي» (٢٤٦٧). وأخرجه أحمد في المسند (٣٦٦٩) صحيح لغيره، والترمذي (٨١٠) وابن حبان (٣٦٩٣) وابن خزيمة (٢٥١٢).

(٢) أخرجه الشيخان «اللؤلؤ والمرجان» (٧٦/٢) برقم (٨٥٥) وهو في البخاري (١٧٧٣) ومسلم (١٣٤٩) والترمذي (٩٣٣) والنسائي (٢٦٢١، ٢٦٢٨) وابن ماجه (٢٨٨٨) ومالك (٣٤٦/١) و«صحيح سنن النسائي» (٢٤٦٦).

١- في أسباب النزول: أنه لما طاف النبي ﷺ بالبيت في حجة الوداع قال له عمر رضي الله عنه: «هذا مقام أبينا إبراهيم؟ قال: «نعم» قال عمر للنبي ﷺ أفلا نتخذه مصلي؟ فقال رضي الله عنه: «لم أؤمر بذلك» فلم تغب الشمس حتى نزلت: ﴿وَاتَّخِذُوا مِنْ مَّقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى﴾^(١).

٢- وعن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: وافقت ربي في ثلاث، قلت: يا رسول الله لو اتخذت من مقام إبراهيم مصلي؟ فنزلت: ﴿وَاتَّخِذُوا مِنْ مَّقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى﴾.

وقلت: يا رسول الله، يدخل عليك البر والفاجر، فلو أمرت أمهات المؤمنين بالحجاب، فأنزل الله آية الحجاب.

قال: وبلغني مُعَاذَةُ النبي بعض نساءه، فدخلتُ عليهن، فقلت: إن انتهيتن أو ليدلكن الله رسوله خيراً منكن، حتى أتيتُ إحدى نساءه، قالت: يا عمر، أما في رسول الله ما يعظ نساءه، حتى تعظهن أنت؟ فأنزل الله: ﴿عَسَى رَبُّهُ إِنْ طَلَّقَكُنَّ أَنْ يُبَدِّلَهُ أَزْوَاجًا خَيْرًا مِنْكُنَّ مُسْلِمَاتٍ﴾^(٢) [التحريم: ٥].

٣- وفي لفظ آخر: وافقت ربي في ثلاث: في الحجاب، وفي أسارى بدر، وفي مقام إبراهيم^(٣).

وفي رواية ثالثة: ذكرتُ مقام إبراهيم، والحجاب، والثالثة: لما مات عبد الله بن أبي جاء رسول الله ليصلي عليه، قلت: يا رسول الله، تصلي على هذا الكافر المنافق؟ فنزلت: ﴿وَلَا تُصَلِّ عَلَى أَحَدٍ مِنْهُمْ مَاتَ أَبَدًا وَلَا تَقُمْ عَلَى قَبْرِهِ﴾^(٤) [التوبة: ٨٤].

والروايات الثلاث إسنادها صحيح، فيتحصّل من مجموعها أن عمر وافق ربه في خمس، فرضي الله عنه وأرضاه.

ومقام إبراهيم: هو الحجر الذي قام عليه وهو بيني البيت، وضعتُه تحت قدمه زوجة إسماعيل فوقف عليه إبراهيم، وناولته الحجارة ولده إسماعيل.

(١) يُنْظَرُ الروايات الواردة في ذلك في «تفسير ابن أبي حاتم» (٣٧٠/١) وابن كثير (٤١٤/١) والطبري و«الدر المنثور» (٦١٩/١) وما بعدها، ويُنْظَرُ: «سنن النسائي» (٢٣٦/٥).

(٢) «صحيح البخاري» برقم (٤٠٢، ٤٤٨٣) و«المسند» (٢٣/١) برقم (١٥٧، ١٦٠، ٢٥٠) والنسائي في «الكبرى» (١١٤١٨) وابن حبان (٦٨٩٦) وغيرهم.

(٣) «صحيح مسلم» برقم (٢٣٩٩) عن نافع عن ابن عمر عن أبيه.

(٤) «سنن البيهقي» (٨٨/٧) من طريق أبي حاتم الرزاي.

ويسنُّ أن يصلي المسلم ركعتي الطواف خلف المقام إن تيسر له ذلك، وإلا ففي أي مكان من الحرم.

وصحَّ في البخاري عن ابن عمر رضي الله عنهما أن النبي ﷺ صلى خلف المقام ركعتين.

وكان إبراهيم عليه السلام كلما انتقل في بنائه للبيت من ناحية نقل الحجر إلى الناحية الأخرى ليقف عليه، فلما فرغ من بناء الكعبة تركه مُلَصِّقًا بجدارها، ولما كثر الناس وازدحموا حول البيت في الطواف، نقله عمر رضي الله عنه إلى المكان الذي هو فيه الآن، وعُمر أحد الأئمة المهديين والخلفاء الراشدين، وأحد الرجلين الذين قال فيهم النبي ﷺ: «اقتدوا باللذين من بعدي أبي بكر وعمر»^(١).

وأخرج البيهقي في سننه بإسناد صحيح عن هشام بن عروة عن أبيه عن عائشة رضي الله عنها أن المقام كان زمان رسول الله ﷺ وزمان أبي بكر رضي الله عنه مُلْتَصِّقًا بالبيت، ثم أخره عمر بن الخطاب رضي الله عنه^(٢).

وعن ابن شهاب أن أنس بن مالك حدّثهم قال: رأيت المقام فيه أصابعه -أي: أصابع إبراهيم عليه السلام- وأخمص قدميه، غير أنه أذهب مسح الناس بأيديهم^(٣).

والسنة: الصلاة خلفه إن أمكن ذلك، ولا يُشرع مسحه باليدين.

أخرج الطبري بإسناد حسن عن قتادة: إنما أمر الناس أن يصلوا عنده، ولم يؤمروا بمسحه، ولقد تكلفت هذه الأمة شيئًا ما تكلفته الأمم قبلها، ولقد ذُكر لنا بعض من رأى أثر عقبه وأصابه فيه: فما زالت هذه الأمة يمسحونه حتى اخلوُلق وانمحي^(٤).

وقد عهد الله سبحانه إلى إبراهيم وابنه إسماعيل فأمرهما أن يخلِصا في بنائه لله وحده،

(١) من حديث حذيفة بن اليمان في «المسند» (٢٣٢٤٥، ٢٣٢٧٦) قال محققوه: حديث حسن بطرقه وشواهده، وهذا إسناد رجاله ثقات، رجال الشيخين، وأخرجه الطبراني في «الأوسط» (٣٨٢٨) والحاكم (٧٥/٣) والبيهقي (٣٨٩٥) والترمذي (٣٦٦٢) والبزار في مسنده (٢٨٢٧).

(٢) قال ابن كثير في التفسير (٤١٨/١): هذا إسناد صحيح وهو في «الدر المنثور» (٦٢٩/١).

(٣) وإسناده صحيح إلى أنس، كما في «تفسير ابن كثير» (٤١٨/١).

(٤) أخرجه عبد الرزاق في «المصنف» عن ابن جريج، وصحح إسناده ابن حجر في الفتح (١٦٩/٨) وهو في الطبري (٥٢٧/٢) وعند الأزرقي (٢٧٢/١).

وألزمهما أن يطهرا البيت من الأصنام والأوثان والأرجاس للطائفين والعاكفين والركع السجود، وهذا معناه أن البيت قد بُني مطهراً من الشرك بالله، وهل كان في البيت قبل ذلك أوثان؟

لقد ظهرت الأوثان في قوم نوح من الذين عبدوا ودًا وسواعًا ويغوث ويعوق ونسراً، وربما جيء بهذه الأصنام إلى مكة المكرمة وعُبدت من دون الله، وكان عمرو بن لُحي قد أتى بالأصنام من بلاد الشام إلى مكة، وقد بين النبي ﷺ أن عمرو بن لُحي يَجُرُّ أمعائه في النار بسبب ذلك.

وأمر إبراهيم وإسماعيل أن يُطهرا البيت من الأوثان والأصنام، وبين سبحانه أن هذا البيت أُسس لعبادة الله وحده بالصلاة والطواف والذكر ﴿وَعَهْدَنَا إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ أَن طَهِّرَا بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْعَاكِفِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ﴾

﴿وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَاهِيمَ مَكَاتَ الْبَيْتِ أَن لَا تُشْرِكْ بِي شَيْئًا وَطَهِّرْ بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْقَائِمِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ﴾ [الحج].

أَمْنُ الْحَرَمِ وَرِزْقُ أَهْلِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ

١٢٦ - ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا بَلَدًا آمِنًا وَارْزُقْ أَهْلَهُ مِنَ الثَّمَرَاتِ مَنْ ءَامَنَ مِنْهُمْ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ
الْآخِرِ قَالَ وَمَنْ كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُ^(١) قَلِيلًا ثُمَّ أَضْطَرُّهُ إِلَىٰ عَذَابِ النَّارِ وَنِيسَ الْمَصِيرِ﴾

دعا إبراهيم ربه أن يجعل مكة بلدا آمنا، وأن يرزق أهله من أنواع الثمرات، وقيد ذلك بالمؤمنين، تأدباً مع الله تعالى، وكان دعاءه قبل ذلك بإطلاق، فجاء الجواب مقيدا بغير الظالم، ولما كان رزق الله تعالى شاملاً للمؤمن والكافر والعاصي والطائع، قال تعالى ﴿وَمَنْ كَفَرَ﴾ أي إني أرزق الجميع، المسلم والكافر، أما المسلم فيستعين برزقه على طاعة الله، ثم ينتقل إلى نعيم الجنة، وأما الكافر فيتمتع قليلا في الدنيا ﴿ثُمَّ أَضْطَرُّهُ﴾ أي ألجئه وأخرجه مكرها ﴿إِلَىٰ عَذَابِ النَّارِ وَنِيسَ الْمَصِيرِ﴾.

(١) قرأ ابن عامر (فأمتعته) بسكون الميم وتخفيف التاء، على أنه مضارع (أمتع) المعدى بالهمز، وقرأ غيره بفتح الميم وتشديد التاء، مضارع (متع) المعدى بالتضعيف.

هذا: وقد ساق القرآن الكريم في الآيات الثلاث التالية سبع دعوات من جوامع كلم النبوة:

١- فدعا إبراهيم ربه أن يجعل البلد الحرام بلدًا آمنًا حتى يستطيع الخلق أداء الحج والعمرة.

٢- ودعاه أن يرزق أهل مكة من أنواع الثمرات في وقت كانت فيه مكة صحراء قاحلة.

٣- ودعاه وهو يرفع قواعد البيت مع ابنه إسماعيل أن يتقبل منهما عملهما.

٤- ودعا ربه أن يثبتهما على الإسلام، وهو التوحيد والإخلاص، وأن يُخرج من ذريتهما أمة مسلمة موحدة لربها.

٥- وسأل ربه أن يُبصره وذريته بمعالم الدين، وطرق العبادة، ومنها مناسك الحج.

٦- وسأل إبراهيم ربه التوبة، والتجاوز عن الذنوب.

٧- وسأل ربه أخيرًا أن يبعث من أهل مكة رسولاً منهم تنطلق رسالته من مكة إلى العالم أجمع، ليعلمهم القرآن والسنة، ويظهرهم من الشرك وسوء الأخلاق.

أما ما يتعلق بأمن البيت الحرام، فقد جاء في الصحيحين وغيرهما عن عبد الله بن عباس رضي الله عنهما، واللفظ لمسلم، أن النبي ﷺ قال يوم فتح مكة: «إن هذا البلد حرّمه الله يوم خلق السموات والأرض فهو حرامٌ بحرمة الله إلى يوم القيامة، وإنه لم يحل القتال فيه لأحد قبلي، ولم يحل لي إلا ساعةٌ من نهارٍ، فهو حرامٌ بحرمة الله إلى يوم القيامة، لا يُعضد شوكه، ولا ينفرُ صيده، ولا يلتقط لقطته إلا من عرفها، ولا يختلى خلاها».

فقال العباس: يا رسول الله، إلا الإذخر فإنه لِقَيْنِهِمْ وليوتهم، قال: «إلا الإذخر»^(١).

وفي صحيح مسلم عن رافع بن خديج أن رسول الله ﷺ قال: «إن إبراهيم حرّم مكة، وإني أحرم ما بين لابتها»^(٢).

وفي البخاري وغيره عن عبد الله بن زيد بن عاصم المازني ؓ عن النبي ﷺ قال: «إن إبراهيم حرّم مكة ودعا لها، وحرّم المدينة كما حرّم إبراهيم مكة، ودعوتُ لها في مُدّها

(١) «صحيح البخاري» برقم (١٥٨٧، ١٨٣٤، ٣١٨٩) و«صحيح مسلم» برقم (١٣٥٣) وأبو اود (٢٠١٨) والترمذي (١٥٩٠) والنسائي في «الكبرى» (٣٨٥٨).

(٢) «تفسير الطبري» (٤٩/٣) والحديث في «صحيح مسلم» برقم (١٣٦١) والمراد بلائيتها: المدينة.

وصاعها مثل ما دعا إبراهيم لمكة^(١).

ويؤخذ من هذا أن النبي ﷺ حرّم المدينة كما حرّمت مكة، ويؤخذ مما جاء في الصحيحين أن حرمة مكة بتحريم الله لها منذ بدء الخليقة، فمكة محرمة بحرمة الله تعالى، يدفع عنها كل من أرادها بسوء، وقد أظهر الله هذا التحريم على لسان إبراهيم عليه السلام، وجعل تحريمها من التكاليف المنوطة بخلق الله، وحرّم النبي ﷺ المدينة ودعا لها، كما حرّم إبراهيم مكة ودعا لها فأجاب الله دعاءه، فهي حرام بحرمة الله تعالى إلى يوم القيامة، ولم تحل حرمة مكة لأحد قبل النبي ﷺ حيث أحلّها الله له ساعة من نهار يوم فتح مكة المكرمة.

فالإنسان يأمن فيه على نفسه ولو كان آثمًا مرتكبًا جرمًا خارج الحرم، والطير يأمن على نفسه، والحيوان يأمن على نفسه، وكذا الشجر والنبات، حتى اللقطة، فلا يلتقط لقطته، ولا يختلي خلاه، أي: لا يقطع نباته، ولا يعصّد شوكه، أي: لا يقطع شوكه، ولا ينفر صيده، وقد بلغ إبراهيم ذلك إلى الناس، ولم يبلغه إليهم أحد قبل إبراهيم، وجاء هذا البلاغ بصيغة الدعاء ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا بَلَدًا آمِنًا﴾ ليتمكن الناس من أداء المناسك، ولتجبي إليه الثمرات، فأجاب الله دعاءه، فاللقطة لا تلتقط، والطير والصيد لا ينفر والكل آمِنٌ ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا آمِنًا وَيُنَظَّفُ النَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ﴾ [العنكبوت: ٦٧].

ولقد كانت قريش تُخيفُ المارة، وكان فيهم قُطّاعُ الطُّرُق، ولو لم تكن مكة آمنة لما أمكن السفر لأداء الحج والعمرة إلى بيت الله الحرام، ولو لم يكن البيت آمناً لما أمكن أن تُحقق دعوة إبراهيم، في بلدٍ جرداء، وصحراء لا نبات فيها ولا زرع ولا ضرع، ولما أمكن للإنسان أن يعيش فيها، فكيف يأتيها المأكل والمشرب؟ إن أمن البلاد تبثعه سعادة الحياة ويقضي ذلك العدل والعزة والرخاء إذ لا أمن بدونها، فإذا اختل الأمن اضطربت الحياة واختل نظامها، لقد تحقق ذلك بسبب دعاء إبراهيم عليه السلام فيما جاء على لسانه في قوله: ﴿وَأَرْزُقْ أَهْلَهُ مِنَ الثَّمَرَاتِ﴾ فهو بلدٌ ليس فيه ماءٌ ولا زرعٌ ولا ثمرٌ ولا ضرعٌ.

(١) «صحيح البخاري» برقم (٢١٢٩) و«صحيح مسلم» (١٣٦٠) بلفظ (مثلي) و«المسند» (١٦٤٤٦)، بإسناد صحيح على شرط الشيخين، وشرح مشكل الآثار (٤٧٩٧).

والبلد الحرام أحبُّ بلاد الله إلى الله، وأحبُّ البلاد إلى رسول الله ﷺ.

في حديث ابن عباس رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ لمكة: «ما أطيبك من بلدة، وأحبُّك إليَّ، ولولا أن قومك أخرجوني ما سكنتُ غيرك»^(١).

وعن عبد الله بن عدي بن الحمراء قال: رأيت رسول الله ﷺ وهو على ناقته واقف بالحزورة^(٢) يقول لمكة: «والله إنك لخير أرض الله، وأحب أرض الله إلى الله، ولولا أنني أخرجت منك ما خرجت»^(٣).

ولما هاجر ﷺ إلى المدينة دعا لها بالبركة فقال: «اللهم اجعل بالمدينة ضعفي ما بمكة من البركة»^(٤).

إن دعوة إبراهيم هذه قد خُصت المؤمنين بالرزق حين قال: ﴿مَنْ ءَامَنَ مِنْهُمْ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ
الْآخِرِ﴾ ولكن الله سبحانه استدرك على إبراهيم، فبيّن له أن رزق الله تعالى لا يخص
المؤمن وحده، وإنما يشمل الكافر أيضًا ﴿قَالَ﴾ أي: قال الله تعالى: ﴿وَمَنْ كَفَرَ﴾ سأرزقه
أيضًا، فرزق الله في الدنيا يستوي فيه الخلق جميعًا، بل ربما يُوسّع الله على الكافر أكثر؛
لأن هذا متاعه والدنيا جنته، قال تعالى: ﴿فَأَمْتَعُهُ قَلِيلًا﴾ أي: أمتع الكافرين في الدنيا متاعًا
قليلاً؛ لأن متاع الدنيا مهما بلغ فهو قليلٌ بالقياس إلى متاع الآخرة، أما يوم القيامة فإن مصيره
ومرجعه جهنم وساءت مستقرًا ومصيرًا: ﴿ثُمَّ أَضْطَرُّهُ إِلَىٰ عَذَابِ النَّارِ وَيَتَّسِلُ أَلْمَصِيرُ﴾.

خَمْسُ وَقَفَاتٍ مَعَ حُرْمَةِ الْحَرَمِ وَأَمْنِهِ

أولاً: حرمة مكة: وحُرْمَةُ مكة مستمدة من حرمة البيت الحرام، أول بيت وضع للناس،
وهي حرمة أبدية بتحريم الله تعالى له يوم أن خلق السموات والأرض.
وقد عظّمته العرب في الجاهلية وحمته من كل معتدٍ.

(١) «صحيح سنن الترمذي» (٣٠٨٣) والحاكم (٤٨٦/١) والبيهقي في «شعب الإيمان» (٤٠١٣).

(٢) هي سوق أهل مكة قديمًا، وقد دخلت الآن في مساحة المسجد الحرام.

(٣) «صحيح سنن الترمذي» (٣٠٨٢) و«سنن النسائي الكبرى» (٤٢٥٢) و«المسند» (١٨٧١٥ - ١٨٧١٨) بإسناد صحيح
ورجال ثقات، (محققوه) وابن سعد (١٣٧/٢). وهو في الترمذي (٣٩٢٥).

(٤) من حديث أنس في البخاري (١٨٨٥) ومسلم (١٣٦٩) و«المسند» (١٢٤٥٢).

وجاء الإسلام فزاده تعظيمًا وتقديرًا، وجعل للحرم المكي من القداسة والحُرمة ما يحفظ للحاج والمُعتمر الأمن والسلامة والهدوء، ويصون البيت الحرام من العبث والتخريب والفساد.

وقد وضع الإسلام لذلك الكثير من التدابير وأساليب الوقاية اللازمة، فحرَّم القتال في الحرم، إلا لضرورة رد العدوان والدفاع عن النفس أو الأهل أو العرض أو المال.

قال عليه الصلاة والسلام يوم فتح مكة في حديث عبد الله بن عباس رضي الله عنه: «إن هذا البلد حرَّمه الله يوم خلق السموات والأرض فهو حرامٌ بحرمة الله تعالى إلى يوم القيامة، وإنه لم يحل القتال فيه لأحد قبلي، ولم يحل لي إلا ساعة من نهار، فهو حرامٌ بحرمة الله إلى يوم القيامة»^(١).

وقال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا مِمَّا آمَنَّا بِهِ يُنْخَفِى النَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ﴾ [العنكبوت: ٦٧].

ومن أفسد بالحرم -فانتَهك حرمة بالقتل أو الفساد في الأرض- فإنه يكون قد ارتكب حُرُمات وجرائم؛ حُرمة الله تعالى، وحُرمة الإنسان، وحُرمة البيت الحرام، ولو لم يُقَمِّ الحدُّ على الجُنَاة فيه لعمَّ الفسادُ، وعظُم الشرُّ في حرم الله، فالحرُّم لا يُجبر مُجرمًا آثمًا.

جاء في الحديث عن أبي شريح العدوي: «إن الحرم لا يعيذ عاصيًا، ولا فارقًا بدم، ولا فارقًا بخربة»^(٢) أي: بمكان خرب.

ثانيًا: حرمة الحيوان في الحرم: وقد حرَّم الإسلام الصيد في مكة المكرمة، وحرَّم التعرض للحيوان بالقتل، أو الذبح، أو التنفير، أو الإشارة، أو حتى بكسر بيضه.

وحرمة الحيوانات في الحرم على أقسام أربعة:

القسم الأول: الحيوان البري مأكول اللحم، مثل: الغزال، والظبي، والنعام، والضبع، والأرنب، واليربوع، والوعل.

وكذلك الطير، مثل الحمام؛ فإن هذا وأمثاله من الحيوان الوحشي (البري) الذي

(١) «صحيح البخاري» عن ابن عباس برقم (٣١٨٩) وانظر (١٣٤٩) و«صحيح مسلم» برقم (١٣٥٣).

(٢) من حديث أبي شريح العدوي قال: وهو يحدث به سمعته أذناي، ووعاه قلبي، وهو لفظ مسلم برقم

(١٣٥٤) و«صحيح البخاري» برقم (١٠٤، ١٨٣٢).

يؤكل، لا ينبغي للمُحَرَّم أن يصيده، أو يتعرض له بشيء من الأذى، وفي صيده، أو قتله جزاء وعقوبة جاءت في قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَقْتُلُوا الصَّيْدَ وَأَنْتُمْ حُرْمٌ وَمَنْ قَتَلَ مِنْكُمْ مَتَعِمِدًا فَأَجْرُهُ مِثْلُ مَا قَتَلَ مِنَ النَّعَمِ يَحْكُمُ بِهِ ذَوَا عَدْلٍ مِنْكُمْ هَدْيًا بَالِغَ الْكَعْبَةِ أَوْ كَفَرَةٌ طَعَامُ مَسْكِينٍ أَوْ عَدْلُ ذَلِكَ صِيَامًا لِيَذُوقَ وَبَالَ أَمْرِهُ عَفَا اللَّهُ عَمَّا سَلَفَ وَمَنْ عَادَ فَيَنْقُصْهُ اللَّهُ مِنْهُ وَاللَّهُ عَزِيزٌ ذُو أَنْفِقَةٍ﴾ [المائدة] فيُخَيَّر بين ذبح مثله إن كان له مثل، وبين تقويمه بدراهم يشتري بها طعامًا ويعطي كل مسكين مدًّا، أو يصوم عن كل مدٍّ من الطعام يومًا.

وفي حديث ابن عباس السابق في حُرمة مكة: «ولا ينقَر صيده».

وهذا النوع من الحيوانات هو الذي يحرم صيده على المحرم.

القسم الثاني: الحيوانات الضار المؤذي، وهذا الحيوان يُقتل في الحلِّ والحرم، فقتله خيرٌ من الإبقاء عليه، ولا حاجة للناس في صيده.

وهو خمسة أنواع، جاء ذكرها في حديث عائشة ؓ أن النبي ﷺ قال: «خمسٌ من الدواب كُلُّهُنَّ فَاسِقٌ يُقْتَلْنَ فِي الْحَرَمِ: الغراب، والحدأة، والعقرب، والفأرة، والكلب العقور».

وفي رواية مسلم: «يُقتل خمسٌ فواسق في الحلِّ والحرم»^(١).

وغراب الزرع الصغير الذي يأكل الزرع لا يقتل، والكلب العقور يشمل الأسد والذئب والفهد والنمر.

القسم الثالث: الحيوانات الأهليُّ المستأنس: كبهيمة الأنعام (الإبل، والبقر، والغنم) والدجاج ونحوه، فإنه يباح تركيته في كل حال، وهو مملوكٌ للناس، والاعتداء عليه كالاعتداء على المال.

القسم الرابع: الحيوانات الذي لا يؤكل وليس فيه كبيرٌ أذى، كالحشرات من البراغيث، والنمل والذباب، يُكره قتله، وإن قُتل فليس فيه فداء.

ثالثًا: حُرمةُ الشَّجَرِ وَالنَّبَاتِ فِي الْحَرَمِ:

وكما حرَّم الإسلامُ الاعتداء على الإنسان وعلى الحيوان في البلد الحرام، فإنه حرَّم

(١) أخرجه الشيخان، انظر: «عمدة الأحكام بشرح تيسير العلام» ص ٥١٩ وزاد في رواية البخاري: «والحيَّة»، والحديث في البخاري برقم (١٨٢٩، ٣٣١٤) وفي مسلم برقم (١١٩٨).

الاعتداء على أشجار الحرم ونباتة الوحشي، وهو الذي يَنْبِت مِنْ نفسه دون أن يَتَعَهده أحدٌ بالغرس أو الزرع أو الرعاية، فإنه يَحرم قطعه والتعرض له إلا لضرورة.

أما النبات الأهلي: وهو الذي يزرعه الناس ويعتمدون عليه في حياتهم، فإنه لا يَحرم قطعه؛ لأن الناس قد زرعه بأيديهم وتعهده بالسقى والحرق، لحاجتهم إليه.

ويَجُوز قطع ما يُحتاج إلى قطعه من نبات الحرم الوحشي، مثل: شجر السواك (الأراك) (والسناميكي) (والإذخر) وهو نباتٌ وكَلأٌ، له أصل في الأرض، ذو رائحة طيبة، كما يَجُوز قَطْع ما يُضطر إلى قطعه للبناء مكانه مثلاً^(١)

وفي حديث ابن عباس السابق بشأن حُرمة الحرم: «لا يُعَصَّدُ شوكه، ولا يُخْتَلَى خَلَاهُ» أي: لا يُقطع الشوك، ولا الرطْبُ، من النبات ولا الكَلأ.

رابعاً: انتهاك حُرمة الحرم: وَمَنْ خرج عن التعاليم السابقة يُعاقب بما يتناسب مع المخالفة التي ارتكبها في الحرم؛ فمن قاتل قُوْتِل بعد أن يُرشد ويُنصح إن كان باغياً، فإن أصرَّ على بغيه يُقاتل، وإن تمكنت منه السلطات يُحاكم بما يتناسب مع جُرمه من تعزيرٍ أو عقابٍ.

وَمَنْ تعرَّض للصيد أو النبات المنهي عن التعرض لهما، وَجَبَ عليه أن يَذبح أقرب الأمثال إلى ما أَثْلَفَ، أو يَقُوْم هذا المِثْل، ويُخرج بقيمته طعاماً، أو يصوم عن كل مُدٍّ يوماً، وهذا التحريم يشمل جميع مَنْ كان بداخل حُدود الحَرَم، سواء أكان مُحرِّماً أم غير مُحرِّم، فإن هذه الحرمة تتعلق بذات الحرم ولا تتعلق بالمُحرِّم.

خامساً: الإلحاد في الحَرَم:

وممَّا حرَّمه الله تعالى الإلحاد في الحرم؛ وهذا الإلحاد طرفه الأعلى يكون بالكفر أو الشرك، أو فعل المحرمات، أو ترك الواجبات، أو الحَلِف بالله كذباً، أو انتهاك الحُرُمات، وطرفه الأدنى يكون باحتكار الطعام، أو النزاع والخصام، أو النظرة أو المزاحمة، أو التفاخر بالأحساب والأنساب، أو عَقْد العزم على ارتكاب السيئة في الحَرَم.

والإلحاد في الأصل: هو الهَمُّ بأمر فظيع من كبائر الذنوب، بأن يقصد فعله في الحرم، وجاء في الأثر: (احتكارُ الطعام بمكة إلحاد).

(١) «الفقه على المذاهب الأربعة» قسم العبادات ص ٥٢٨.

وقال تعالى: ﴿وَمَنْ يُرِدْ فِيهِ بِالْحَافِ يُظْلَمِ نُذُقُهُ مِنْ عَذَابِ أَلِيمٍ﴾ [الحج: ٢٥].

والإرادة: تعني العزم والتصميم على ارتكاب الذنب، وانتهاك حرمة الحرم، سواء تعلّق هذا الإلحاد بذات الشخص أم تعدّاه إلى غيره، وفي هذه الحالة فإن الذنب يكون أعظم؛ لأن الضرر قد تعدّى فشمل الحرم نفسه، وشمل الآمنين فيه.

وقد كان لعبد الله بن عمر رضي الله عنه فسطاطان؛ أحدهما: بطرف الحرم، والآخر: في طرف الحل، فإذا أراد أن يُعَاتَب أهله أو غلامه، فعل ذلك في الفسطاط الذي ليس فيه الحرم؛ لأنه يرى أن هذا من الإلحاد.

وهذا ورع من ابن عمر رضي الله عنه، فإن الإلحاد يكون بترك شيء من الواجب، أو فعل شيء من المحرم مما يدخل في الظلم، أما الأمور الجائزة كعتاب الرجل امرأته أو عبده فليس من الإلحاد، ولا من الظلم في شيء.

عُقُوبَةُ الْإِلْحَادِ فِي الْحَرَمِ:

ثبت عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «يغزو هذا البيت جيشٌ حتى إذا كانوا ببداء من الأرض خُصِفَ بأولهم وآخرهم»^(١)

وفي رواية أم سلمة رضي الله عنها قالت: قلت: يا رسول الله، أَرَأَيْتَ الْمُكْرَهَ مِنْهُمْ؟ قال: «يُبْعَثُ عَلَى نَيْتِهِ»^(٢) أي: بما فيهم الصالحون من عباد الله، فإنهم يبعثون على نياتهم، وكذلك الحال في كل من يَرِدُ الْحَرَمَ بسوء، فهو ملعونٌ على لسان رسول الله، مستوجبٌ للعقوبة في الدارين.

أخرج الإمام أحمد وغيره أن عبد الله بن عمر أتى عبد الله بن الزبير، فقال: يا ابن الزبير، إياك والإلحاد في حرم الله، فإني سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: «إنه سيلحد فيه

(١) النسائي في «السنن الكبرى» (٣٨٤٦) عن أبي هريرة، والبيهقي: اسم موضع بين مكة والمدينة، و«التحفة» (١٢١٩٩). وهو في البخاري عن عائشة (٢١١٨) وفي كتاب رقم (٢٥) باب رقم (٤٩).

(٢) «المستند» (٢٦٧٠٢) قال محققوه: إسناده صحيح، وأخرجه الطبراني في «الكبير» (٩٨٥) وأبو يعلى (٦٩٩٥) والطياييسي (١٦١١) وغيرهم.

رجل من قريش، لو توزن ذنوبه بذنوب الثقلين لرجحت، فانظر، لا تكن هو»^(١)
وفي الصحيحين وغيرهما عن أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «يُخْرَبُ
الكعبة ذو السؤيقَتَيْنِ مِنَ الحبشة»^(٢).

فالحَرَمَ مَحَلُّ سَكِينَةٍ ووقارٍ وعبادةٍ وخشوع، لا يجوز فيه حملُ السلاح ولا المتفجرات
ولا ترويع الآمنين من عباد الله، وإذا كان شَتْمُ الخادم من الإلحاد في الحرم، وقد نُهِينا
عن الرِّفث والفسوق والعصيان والجدال فيه، فلا يَحِلُّ من باب أولَى القيام بالمظاهرات
والمسيرات والشعارات إعلاناً عن سياسةٍ أو فكرٍ أو مذهبٍ، مما يخل بالأمن، ويُعطِل
مسيرة الحُجاج، ويوقع الشَّقَاقَ بينهم، ويكثر الحوادث في صفوفهم.

وقد طَهَّرَ الله البيت الحرام من المشركين، فلم يَعدْ لهم طوافٌ بالبيت، بل ولا يدخلون
حِمَاه، ولا تَطَأُ أقدامُهم حدودَه، وأصبحت أجهزةُ الإعلام المسموعة والمرئية والمقروءة
أكثر انتشاراً لِمَنْ أراد الإعلان عن مبادئٍ وشعاراتٍ بدلاً من صدِّ الناس عن ذكر الله في
البلد الحَرَام.

لقد جاء إبراهيم عليه السلام بالتَّوْحِيد الخالص، وجاء محمدٌ بالتَّوْحِيد الخالص، وجاء
به موسى وعيسى وغيرُهم من رسل الله، صلوات ربي وسلامه عليهم أجمعين، ولكن
بعض الأقوام حَرَفُوا وَغَيَّرُوا وَبَدَّلُوا بعد أنبيائهم كاليهود والنَّصَارَى، وحُرمة البيت الحرام
أَبَدِيَّة، وقد أظهرها الله على يد إبراهيم ﷺ، كما سبق بيانها.

إِبْرَاهِيمُ يَرْفَعُ قَوَاعِدَ الْبَيْتِ

١٢٧ - ﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ^(٣) الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾

(١) «المسند» برقم (٦٢٠٠)، رجاله ثقات، وجاء عن عبد الله بن عمرو بن العاص في المسند أيضاً (٦٨٤٧).

(٢) البخاري برقم (١٥٩١، ١٥٩٦) ومسلم برقم (٢٩٠٩) و(٥٧ - ٥٩) و«المسند» (٨٠٩٤) وابن حبان (٦٧٥١) والنسائي في «السنن الكبرى» (٣٨٧٣، ١١٠٧٨) والسوية: تصغير الساق؛ لأن الغالب على سوق الحبشة الدقة والحموضة.

(٣) قرأ ابن عامر بخلف عن ابن ذكوان (إبراهيم) وقرأ الباقون (إبراهيم).

ثم ذكر سبحانه مَنْقَبَهُ عَظِيمَةً من مناقبِ إبراهيمَ تتمثل في بنائه للبيت بعد أن أرشده الله تعالى إلى مكان البيت، ونهاه عن الشرك، وأمره بتطهير بيته لِمَنْ يَطُوف به كما جاء في قوله تعالى: ﴿وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَاهِيمَ مَكَانَ الْبَيْتِ﴾ [الحج: ٢٦] أي: واذكر حين عرفناه بمكانه حين أمره ربُّه برفع أُسُس وقواعدِ البيت في قوله: ﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ﴾ أي: وهو يناولُهُ الْحِجَارَةَ، وأمرهما بتطهيره مِنْ بقايا الوثنية لعباد الله الطائفين والعاكفين من الركع والسجود.

وقام إبراهيمُ وابنه بهذه المهمة من العمل الصالح، وهما يسألان اللهَ القبول في خشوعٍ وضراعةٍ ﴿رَبَّنَا لَقَبَلْنَا مِنْكَ إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ﴾ لأقوال عبادك ﴿أَلْعَلِيمُ﴾ بأحوالهم.

قرأ وهيب بن الورد هذه الآية، فأخذ يَبْكِي ويقول: يا خليل الرحمن، ترفع قوائم بيت الرحمن، وأنت مُشْفِقٌ ألا يُتَقَبَلَ منك، وهذا حالُ المؤمنين الخُلَص، قال تعالى في وصفهم: ﴿وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوْا وَقُلُوبُهُمْ وَجَلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَى رَبِّهِمْ رَاجِعُونَ﴾ [المؤمنون] أي: يُقَدِّمون صالحَ الأعمال، ويخافون عدم القبول.

بِنَاءُ الْكُعْبَةِ: ولوجود ارتباطٍ وثيقٍ بين إبراهيمَ عليه السلام وبين البيت الحرام (الكعبة المشرفة)؛ فالقرآن الكريم يتحدث عن الكعبة، وعن بنائها من عهد إبراهيم عليه السلام، أما قبل ذلك فهو مِمَّا يُذْكَر في التاريخ وفي كتب أهل الكتاب، مما لا يُصَدَّق ولا يُكذَّب، ولا يُوجد من المعصوم ﷺ خبرٌ صحيحٌ صريحٌ يدلُّ على بداية بناء البيت قبل إبراهيم عليه السلام، وقد قيل: إن أول مَنْ بَنَى البيت الملائكة، وقيل: بناء آدم، وقيل: بناء شيث بن آدم عليهم الصلاة والسلام جميعاً.

فما معنى رفع القواعدِ من البيت؟ هل المعنى أقام الأساس وبناه؟ أو أنه كان هناك قواعدٌ موجودةٌ بالفعل فرفعها إبراهيم؟ ربما، يُحتمل هذا وهذا، ولكن الحديث عن البيت الحرام في القرآن الكريم مُرتَبِطٌ بإبراهيم عليه السلام، ولا يوجد فيما أعلم خبرٌ صحيحٌ في بناء البيت قبل إبراهيم، ولكنه يُفْهَمُ ضِمْنًا من القرآن أن البيت كان موجودًا قبل أن يرفع إبراهيم قواعده.

وتوجد آثارٌ تدل على أن إبراهيم قام ببناء البيت ورفع قواعده بعدما أرسل الله رياحا شديدة الهبوب، كُنَسَتْ ما حول الكعبة حتى ظَهَرَ له موضع البيت وعَرَفَ مكانه، يُفْهَمُ هذا

من قول الله تعالى: ﴿وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَاهِيمَ مَكَانَ الْبَيْتِ﴾ [الحج: ٢٦].

وقيل: إن الله تعالى أرسل سحابةً مَشَى في ظلها إبراهيم حتى وقفت على موضع البيت، ونُودي يا إبراهيم: ابنِ على قَدَرِ ظِلِّهَا، فَبَنَى إبراهيم البيت، وأُذِّن في الناس بالحج كما أمره ربُّه، وهو يسأل الله أن يتقبل منه هذا العمل.

أما الحجر الأسود فكان ياقوتةً بيضاء، نزل بها جبريل، فاسودَّ من مس الحَيَضِ في الجاهلية، أو من خطايا بني آدم.

نَبُعُ عَيْنِ زَمْزَمَ: وفي حديث البخاري عن سعيد بن جبير عن ابن عباس ؓ أجمعين أن إبراهيم ؑ أتى بإسماعيل وأمه، ووضعهما عند دوحة فوق زمزم، وليس بمكة يومئذٍ أحدٌ ولا ماءٌ ولا طعامٌ، ووضع عندهما جراباً فيه تمرٌ، وسقاءً فيه ماءٌ، ثم مشى مولياً إلى الشام، فتبعته أمُّ إسماعيل فقالت: يا إبراهيم، أين تذهب وتتركنا بهذا الوادي الذي ليس فيه أنيسٌ؟ وكرَّرت ذلك، وهو لا يلتفت إليها، فقالت له: آله أمرك بهذا؟ قال: نعم؟ قالت: إذاً لا يضيعنا، ثم رجعت.

ولما كان إبراهيم عند (الثنية) بحيث لا يروُّه؛ استقبل البيت، ورفع يديه، وقال: ﴿رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنْتُ مِنْ ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِنْدَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ﴾ [إبراهيم: ٣٧].

ولما نفد الماء الذي في السَّقاء، وعطش إسماعيل صعدت أمُّه فوق أقرب الجبال إليها (الصفاء)، وهبطت منه حتى بلغت (المروة) سبع مرات، وهي تَسْعَى بينهما سعيًا حثيثًا؛ طلبًا للماء، ويزداد سعيها إذا استقبلت الوادي، وهو ما بين العَلَمَيْنِ الأخضرَيْنِ حاليًا، ثم سمعت صوتًا، فإذا بجبريل عند موضع زمزم، وقد نبع الماء عنده، فأخذت تحوِّطُه، وتغرف منه في سقائها، وهو يفور بعدما تغرف:

جاء في الحديث عن أنس ؓ: «يرحم الله أمَّ إسماعيل لو تركت زمزم لكانت عَيْنًا مَعِينًا»^(١).

فشربت وأرضعت ولدها، وقال لها الملك: لا تخافي الضَّيعة، فإن ههنا بيتًا لله بينه هذا

(١) أخرجه البخاري كما في زيادة الجامع الصغير (٤٣٤٣) وأخرجه أحمد في مسند عبدالله بن عباس، ورقمه في البخاري (٢٣٦٨، ٣٣٦٤).

الغلام وأبوه، وإن الله لن يضيع أهله، وكان إبراهيم يتردد عليهما بين الحين والآخر.

وكان موضع البيت مكاناً مرتفعاً تأخذه السيول يميناً وشمالاً، وكانت قبيلة جُـرهم أقرب الناس إلى أم إسماعيل فأرأوا طائراً يُحَلِّق فوق مكان البيت، فعرفوا من تحليقه وجود ماء في هذا المكان، فاستأذنوا أم إسماعيل في مجاورتها من أجل الماء؛ فأذنت لهم، وشبَّ إسماعيل وتعلَّم منهم العربية، ثم تزوج منهم، وماتت أمه، فجاء إبراهيم وسأل عن ولده؛ فقالت امرأته: خرج يطلب لنا معيشةً، فسألها عن حالهم، فقالت: إنهم في ضيقٍ وشدّةٍ، قال لها: فإذا جاء زوجك فأقرئيه السلام وقولي له: يغيّر عتبةً بابِه، فلما جاء إسماعيل وقصّت عليه ما حدث، قال لها: هذا أبي يأمرني أن أفارقك، فالحقي بأهلك، وطلّقها وتزوج بأخرى.

وجاء إبراهيم فوجدها فسألها عن حالهم؛ فقالت: نحن بخير وسعة، قال لها: فإذا جاء زوجك فأقرئيه السلام وقولي له: يثبت عتبةً بابِه، فلما جاء إسماعيل وأخبرته قال: هذا أبي يأمرني أن أمسككِ.

ثم جاء إبراهيم بعد ذلك، فوجد إسماعيل يبني نبلاً له تحت دَوْحَةٍ قريباً من زمزم، فسلم كلُّ منهما على الآخر، ثم قال له: إن الله أمرني بأمر، قال: فاصنع ما أمرك ربك، قال: وتعينني؟ قال: وأعينك، قال: فإن الله أمرني أن أبني ههنا بيتاً، وأشار إلى مكانٍ مرتفعٍ، فعند ذلك رفعوا القواعد من البيت حتى ارتفع البناء، وهما يسألان الله القبول^(١).

وهذا الحديث اقتصر على قصة زمزم وبناء البيت، ولم يتعرض لرحلة إبراهيم في قصة ذبح إسماعيل حيث كان سنّه آنذاك ثلاثة عشر عاماً، وكانت القصة في حياة أمّه، وقبل زواجه الأول.

وَوَرَدَ أَنَّ إِبْرَاهِيمَ عليه السلام كَانَ يَزُورُ أَهْلَهُ بِمَكَّةَ عَلَى الْبُرَاقِ ثُمَّ يَعُودُ إِلَى فِلَسْطِينَ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

هذا: والكعبة التي بناها إبراهيم كانت إلى نهاية سور حجر إسماعيل؛ أي: كان الحجر داخلًا فيها، ثم إن السيول قوّضتها في الجاهلية، فبنتها قريش، ولمّا لم تكف أموالهم

(١) ذكرته بالمعنى، يُنظر: «صحيح البخاري» برقم (٢٣٦٨، ٣٣٦٤، ٣٣٦٥) و«المسند» (٢٢٨٥، ٣٢٥٠) وابن أبي حاتم (١٢٣٣) والحاكم (٥٥١/٢) والطبري (٥٥٩/٢).

لبناء كامل المساحة؛ اقتصروا على بناء المقدار المعروف حالياً؛ أي: بإخراج حجر إسماعيل منه، وكانوا قد تحرّوا أن لا يدخل في بنائها مالٌ من حرام، كالربا، أو المظالم، أو مهر البغي، ونحو ذلك.

ثم إن النبي ﷺ أراد أن يُعيد بناء الكعبة على قواعد إبراهيم؛ أي: بإدخال الحجر فيها، ولكنه خشيَ إحداثَ فتنةٍ بذلك؛ لأن قومه حديثو عهد بالكفر.

قال عبد الله بن الزبير: حدثني خالتي عائشة ؓ قالت: قال النبي ﷺ: «يا عائشة، لولا قومك حديثو عهد بشرك؛ لهدمتُ الكعبة، فألزقتها بالأرض، وجعلتُ لها بابين؛ باباً شرقياً، وباباً غربياً، وزدتُ فيه ستة أذرع من الحجر، فإن قريشاً اقتصرتها حين بنت الكعبة»^(١)

ومعنى اقتصرتها: أنقصتها لنقص المال الحلال.

قال ابن إسحاق: وكانت الكعبة على عهد النبي ﷺ ثمانية عشر ذراعاً.

قال ابن كثير: ولم تزل على بناء قريش حتى أحرقت في أول إمارة عبد الله بن الزبير بعد سنة ستين، وفي آخر ولاية يزيد بن معاوية، نقضها ابن الزبير إلى الأرض وبنها على قواعد إبراهيم، وأدخلَ فيها الحجر، وجعل لها باباً شرقياً، وباباً غربياً، مُلصقين بالأرض، كما سَمِعَ ذلك من خالته عائشة ؓ عن رسول الله ﷺ، ولم تزل كذلك مدة إمارته، حتى ردها الحجاجُ إلى ما كانت عليه بأمر عبد الملك بن مروان^(٢)

مَنَاسِكُ الْحَجِّ وَالْعُمْرَةِ

١٢٨ - ﴿رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُسْلِمَةً لَكَ وَأَرِنَا^(٣) مَنَاسِكَكَ وَتُبْ عَلَيْنَا إِنَّكَ

(١) «صحيح مسلم» برقم (١٣٣٣) وقد ورد في هذا المعنى أحاديث كثيرة منها في البخاري (١٥٨٥، ١٥٨٦) و«المسند» (٢٤٢٩٧) والنسائي في «الكبرى» (٣٨٦٩، ٣٨٧٢).

(٢) «تفسير ابن كثير» (٤٣٨/١) وقد أورد عدداً من الأحاديث في ذلك، وانظر هذا في باب نقض الكعبة وبنائها من كتاب الحج في «صحيح مسلم».

(٣) قرأ ابن كثير ويعقوب وأبو عمرو بخلف عنه بإسكان الراء للتخفيف، والوجه الثاني لأبي عمرو اختلاس كسرة الراء، وقرأ الباقون بالكسرة الكاملة على الأصل.

أَنْتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ﴿١٢٨﴾ .

ثم سأل إبراهيمُ ربَّه وهو يرفع القواعد من البيت أن يجعله وابنه إسماعيلَ مسلمين له، وأن يجعل من ذريته جماعةً كُبرى مسلمةً ومُنقّدةً له، وهذا تحقيقٌ للعبودية والانقياد لله سبحانه، وإسلام الوجه له تعالى، وهذا الإسلام الذي طلبه إبراهيمُ ﷺ قد تكامل وتنامى بمجيء رسول الإسلام محمدٍ ﷺ، وهو قبل ذلك رسالة كلِّ رسولٍ.

وقد ألهم الله إبراهيم اسم الإسلام، ثم ادَّخَرَه لأمة محمدٍ ﷺ، ولم يُلقب به دينٌ آخر؛ لأن الله أراد أن يكون هذا الدين مُتَمِّمًا للحنيفيّة ملة إبراهيم، فالإسلام دينُ كل أمة بمعناه العام الذي هو التوحيد والاستسلام لله سبحانه، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ أَلَدِينَ عِنْدَ اللَّهِ أَلَسَلَمُ﴾ [آل عمران: ١٩] فكل رسول جاء ليقول للناس: ﴿أَعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِن إِلَهٍ غَيْرُهُ﴾ قالها نوح، وهود، وصالح، وشعيب، وسائر الرسل إلى أقوامهم، كما في سورة هود وغيرها.

والعبادة: تعني إخلاص العقيدة لله، والاتباع لرسول الله، وصِدْقِ التوجه إلى الله تعالى في أداء التكاليف الشرعية، وإقامة الحياة إعلاميًا وتربويًا وسياسيًا واجتماعيًا وقضائيًا وثقافيًا واقتصاديًا وعسكريًا وما إلى ذلك، على منهج الله سبحانه، وفي ذلك تحقيقٌ لمعنى الإسلام كما جاء به كلُّ رسولٍ.

وكما سأل إبراهيمُ ربَّه تحقيقَ الإسلام فيه، وفي ذريته إلى يوم القيامة، سألَه أن يعلمه وذريته مناسكَ الحج وشعائرَ العبادة، وأن يوفقه للعلم النافع والعمل الصالح، وأن يتوب عليه وعلى ذريته، ومن ذريته اليهود والنصارى والمسلمون ﴿رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمِينَ لَكَ﴾ ثابتين على الإسلام، منقادين لحُكْمِكَ، واجعل ذلك في ذريتي إلى يوم القيامة ﴿وَمِن ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةٌ مُّسْلِمَةً لَّكَ﴾ مُنْقَادَةٌ وَخَاضِعَةٌ لَكَ، لَا تَعْبُدُ غَيْرَكَ.

وسأل إبراهيمُ ربَّه أن يعلمه ألوانَ الطاعة والعبادة فقال: ﴿وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا﴾ بَصُرْنَا بمعالمِ عبادتك، ومنها مناسك الحج.

أخرج الطبري بسند حسن عن قتادة: أن المناسك هي: الطواف بالبيت، والسعي بين الصفا والمروة، والإفاضة من عرفات، والإفاضة من جَمْع ورمي الجِمار، حتى أكملَ الله الدِّين؛ فأجاب الله دعاءهما، وبَعَثَ جبريلَ فأراهما المناسك في يوم عرفة، فلما وَصَلَ جبلَ عرفة، وهو يعلمه المناسك قال: عرفت يا إبراهيم؟ قال: نعم، فسُمي الوقت عرفة،

«الكبير»، و«مجمع الزوائد» (٣/٣٥٩) (٨/٢٠٠).

وَيَحْسُنُ بِنَا إِتِمَامًا لِلْفَائِدَةِ أَنْ نَتَنَاوَلَ بَعْضَ مَا يَتَعَلَّقُ بِالْحَجِّ وَالْعُمْرَةِ:

أولاً: الْحُجَّاجُ وَالْعُمَّارُ وَفَدُ اللَّهِ: الحجاج والعمار يَفِدُونَ إلى ربهم ويزورونه في بيته؛ كي يحفظوا بالتكريم والقربى منه سبحانه؛ لأداء فرضهم، وتطهير نفوسهم، وتزكية أرواحهم؛ إجابةً لدعوة ربهم، عن جابر رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «الحجاج والعمار وفد الله، دعاهم فأجابوه، وسألوه فأعطاهم»^(١).

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «وفد الله ثلاثة: الحاج والمعتمر والغازي»^(٢).

هذا الوفد لم يذهب لمليك من ملوك الدنيا، ولا لمؤتمر من مؤتمرات الخلق، ولم يشد الرحل لنزهة أو لسياحة أو لفسحة، أو البحث عن أثر من الآثار، أو للتنقيب عن كنز من كنوز الأرض، أو لزيادة الثروة التجارية أو غير ذلك، إنه سفرٌ وحيد من نوعه، فريدٌ في هدفه، لا مثيل له في أسفار الدنيا، إنه سفرٌ إلى رب العالمين ﷻ وَقَالَ إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَى رَبِّي سَيِّدِينَ ﴿٩٩﴾ [الصافات: ٩٩] وَعَجَلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضَى ﴿٨٤﴾ [طه: ٨٤].

ثانياً: مباهاة الملائكة: إن هذا الوفد أعظم الوفود وأكرمها على الله جل شأنه، حيث يباهي بهم ملائكته الكرام، فيقول لهم: «انظروا إلى عبادي شعناً غبراً جاؤوا من كل فج عميق، يرجون رحمتي ولم يروا عذابي، أشهدكم يا ملائكتي أنني قد غفرت لهم»^(٣).

وفي هذا ردٌ على الملائكة الذين قالوا عندما أراد الله سبحانه أن يخلق الإنسان: ﴿أَجْعَلْ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ سَائِجِدُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٣٠] فالحج بما فيه يوم عرفة مظهرٌ من مظاهر طاعة هذا الإنسان وتليته

(١) رواه البزار، ورجاله ثقات كما قال الهيثمي في «مجمع الزوائد ومنبع الفوائد» ط ٢ ج ٣ وهو في «كشف الأستار» (١١٥٣).

(٢) أخرجه ابن حبان، راجع «موارد الظمان إلى زوائد ابن حبان»، وصحيح، «الجامع الصغير» حديث رقم (٦٩٨٩) والحاكم (٤٤١/١) والبيهقي (٢٦٢/٥) وفي «الشعب» (٤١٠٣) ورجح البيهقي وقفه على كعب.

(٣) من حديث عبد الله بن عمرو في «المسند» برقم (٧٠٨٩) إلى (غبراً) بإسناد لا بأس به، وأخرجه الطبراني في الصغير (٥٧٥) قال الهيثمي في «مجمع الزوائد» (٢٥٠/٣) رواه أحمد والطبراني في الصغير والكبير، ورجال أحمد موثقون، وله شواهد.

وإنابته لربه، وموقف إبراهيم وهو يعالج بالسَّكِين عُنُقَ وَحِيدِهِ إِسْمَاعِيلَ مِثَالاً فَرِيداً فِي طَاعَةِ الْإِنْسَانِ لِرَبِّهِ وَإِجَابَتِهِ لَهُ سُبْحَانَهُ.

ثالثاً: المبادرة إلى الحج والعمرة: وينبغي على المسلم أن يبادر ويُعجل إلى أداء الحج والعمرة قبل أن تأتيه الشواغل والصوارف والعوارض؛ فتعتل الصحة، أو تشح اليد، أو لا يأمن الطريق، ونحو ذلك.

عن الفضل بن العباس رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «من أراد الحج فليتعجل فإنه قد يمرض المريض، وتضل الضالة، وتعرض الحاجة»^(١).

وعن ابن عباس رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «تعجلوا إلى الحج (أي: إلى أداء الفريضة) فإن أحذكم لا يدري ما يعرض له»^(٢).

فينبغي على المكلف القادر أن يبادر إلى الحج متى استطاع أداءه.

رابعاً: الترهيب لمن ترك الحج مع الاستطاعة: ولا ينبغي لمن أعطاه الله الصحة والمال، وأمن الطريق أن يتراخى ويتهاون في أداء فريضة الحج، ويكفي في الوعيد لمن تخلف عن الحج مع القدرة عليه قول الله تعالى في تنمة آية الحج: ﴿وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ﴾ [آل عمران: ٩٧] كأن الإعراض عن الحج مع القدرة عليه كُفْرٌ بالله تعالى، كما أن ترك الصلاة عمداً وجحوداً لها كُفْرٌ، كما جاء ذلك في الأحاديث الصحيحة؛ فلا ينبغي التهاون والتسويق وتقديم أمور الدنيا ومتاعها على فريضة الحج.

خامساً: الحج مرة: ومن رحمة الله تعالى بعباده أنه لم يفرض الحج عليهم في كل عام؛ بل فرضه مرة واحدة في العمر، وما زاد عن ذلك فهو تطوعٌ، والنبي ﷺ لم يحج إلا مرة واحدة، حيث كانت فريضة الحج على الأرجح في العام التاسع من الهجرة، وحج

(١) رواه أحمد برقم (١٨٣٣، ١٨٣٤) والحاكم (٤٤٨/١) قال محققو المسند: حديث حسن، ورواه ابن ماجه بإسناد حسن كما في «صحيح سنن ابن ماجه» (٢٣٣١) وهو في «صحيح أبي داود» (١٥٢٢) وفي «مشكاة المصابيح» (٩٩٠) و«الإرواء» (٩٩٠) وانظر «صحيح الجامع» (٢٣٧ / ٥) رقم (٥٨٨٠) عن الفضل.

(٢) انظر: «صحيح الجامع الصغير» (٤٣/٣) برقم (٢٩٥٤) وأخرجه الأصبهاني في «الترغيب والترهيب» للمندري (١٦٨/٢) وصححه الألباني في «الإرواء» (٩٩٠). وهو في المسند (٢٨٦٧) بإسناد حسن.

النبي ﷺ في العام الذي بعده (العاشر من الهجرة) بعد أن استدار الزمان كهيته يوم خلق الله السموات والأرض، فجاء الحج في وقته المشروع، وتَطَهَّرَ البيتُ من الشرك والمشركين، ووافق الحَجَّ موعده في العاشر من شهر ذي الحجة، بعد أن أخذ النسيء دَوْرته من التقديم والتأخير بين الشهور، حيث كان الحج في شهر ذي القعدة في العام الذي سبق حج النبي ﷺ.

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: خَطَبَنَا رسول الله ﷺ فقال: «أيها الناس قد فُرض عليكم الحج فحجوا»، فقال رجل: أكل عام يا رسول الله؟ فسكت حتى قالها ثلاثاً، فقال: «لو قلت: نعم؛ لوجبت ولما استطعتم»، ثم قال: «ذرني ما تركتكم، فإنما هلك من كان قبلكم بكثرة سؤالهم واختلافهم على أنبيائهم، فإذا أمرتكم بشيء فأتوا منه ما استطعتم، وإذا نهيتكم عن شيء فدعوه»^(١).

سادساً: حُكْمُ الْحَجِّ: الحج رُكن من أركان الإسلام، فَرَضَهُ الله ﷻ على المسلم البالغ العاقل المستطيع الذي يأمن الطريق، وعنده القدرة البدنية على أداء المناسك، بحيث يُمكنه أن يَثْبِتَ على الراحلة، ويَمْلِكَ نفقته ونفقة أهله في ذهابه وإيابه، وإذا كان الحاج امرأة فإنه يلزمها وجود الزوج أو المَحْرَم قال تعالى: ﴿وَاللَّهُ عَلَى النَّاسِ حَجُّ الْبَيْتِ مَنْ أَسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا﴾ [آل عمران: ٩٧] ومن استطاعة المرأة وجود الزوج أو المَحْرَم.

سابعاً: حُكْمُ الْعُمْرَةِ: وكما أن الحج لا يجب في العمر إلا مرة واحدة؛ فإن العمرة كذلك تجب مرة واحدة على القول بوجوبها، وهو الأرجح، وقيل: إنها سُنَّةٌ مُؤَكَّدَةٌ، وما زاد عن المرة فهو تطوعٌ وتقربٌ إلى الله تعالى، لا سِيَّما في شهر رمضان.

والنبي ﷺ قد اعتمر أربع مرات: ثلاث منفردات، ورابعة أدخلها على حجه ﷻ.

والعمرة جائزة في جميع أيام السنة قبل الحج وبعده، ويُستدل على وجوب العمرة بقول الله تعالى: ﴿وَأَتِمُّوا الْحَجَّ وَالْعُمْرَةَ لِلَّهِ﴾ [البقرة: ١٩٦]

وبالحديث الصحيح عن أبي رَزِينِ الْعُقَيْلِيِّ أنه قال: يا رسول الله، إن أبي شيخ كبير لا

(١) رواه مسلم «مختصر صحيح مسلم» ص ١٧١ حديث رقم (٦٣٩) وهو في «صحيح مسلم» برقم (١٣٣٧).

يستطيع الحج والعمرة والظعن؛ فقال: «حج عن أبيك واعتمر»^(١).

ثامناً: وقت الحج: للحج أوقات لا يصح إلا فيها، بينها الله سبحانه في قوله: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَهِلَّةِ قُلْ هِيَ مَوَاقِيتُ لِلنَّاسِ وَالْحَجِّ﴾ [البقرة: ١٨٩] وقال: ﴿الْحَجُّ أَشْهُرٌ مَّعْلُومَةٌ﴾ ومواقيت الحج والأشهر المعلومات هي: شهري شوال وذو القعدة وعشر من ذي الحجة أو ما يشمل شهر ذي الحجة كما سبق، وجميع أعمال الحج يجب أن تؤدى في الوقت المحدد للحج، سواء أكان متمتعاً أم قارناً أم مفرداً، ولهذا الوقت من الزمن حرمة خاصة ليست لغيره من بقية العام.

تاسعاً: وقت أداء العمرة:

ولما كان الحج له وقت معين من العام؛ فإن الله ﷻ لم يكن ليرد زائريه في أي وقت عن زيارة بيته؛ فشرع لهم العمرة في جميع الأزمنة إلى جانب الحج؛ كي يفد الحجاج والعمار إلى الله تعالى ويزوروه في بيته؛ استجابةً لدعوته سبحانه على لسان خليله إبراهيم عليه السلام، فيغفر لهم خطاياهم، ويحط عنهم ذنوبهم، ويغفر لهم ما بين العمرة والحج.

عاشراً: ما يفعله المَحْرَم قبل الإحرام

(أ) الاستخارة: إذا عزم المسلم على الحج أو العمرة، ينبغي عليه أن يستخير الله تعالى في سفره هذا العام، فيصلي ركعتين بنية الاستخارة، يقرأ سورة الكافرون بعد الفاتحة في الركعة الأولى، والإخلاص بعد الفاتحة في الركعة الثانية، ثم يدعو بعد أن يتشهد ويُسلم، ويقرأ دعاء الاستخارة، فيقول:

اللهم إني أَسْتَخِيرُكَ بعلمك، وأَسْتَقْدِرُكَ بِقُدْرَتِكَ، وأَسْأَلُكَ من فضلك العظيم؛ فإنك تقدر ولا أقدر، وتعلم ولا أعلم، وأنت علام الغيوب، اللهم إن كنت تعلم أن ذهابي إلى الحج في هذا العام خيرٌ لي في ديني، ودنياي، ومعاشي، وعاقبة أمري، وعاجله وآجله، فاقدُرْه لي ويسِّرْه لي، ثم باركْ لي فيه، وإن كنت تعلم أنه شرٌّ لي في ديني، ودنياي،

(١) أخرجه أبو داود (١٨١٠) وابن ماجه (٢٩٠٦) والترمذي (٩٣٠) والنسائي في «السنن الكبرى» (٣٥٨٧)، (٣٦٠٣) و«المسند» (١٦١٨٤، ١٦١٨٥) بإسناد صحيح ورجال ثقات كما قال محققوه، وابن حبان (٣٩٩١) وابن خزيمة (٣٠٤٠) والطيالسي (١٠٩١).

ومعاشي، وعاقبة أمري، وعاجله وآجله؛ فاصرفه عني واضرفني عنه، واقدّر لي الخير حيث كان، ثم رَضِّنِي به، وقيل يدعو بهذا الدعاء بعد التشهد وقبل السلام.

وليمض بعد الاستخارة لِمَا يَنْشُرْ له صدره من السفر وعدمه، وكذلك كل أمر يُقَدِّم عليه المسلم ويتردد في الإقدام عليه، فإنه يستخير الله تعالى قبل أن يعزم أو يتحيز لأحد الأمرين.

(ب) التوبة: ثم يَتُوبُ العبد إلى الله تعالى توبةً نصوحًا، ويرد المظالم والحقوق إلى أهلها، وكذلك الودائع والأمانات، وَيَقْضِي ديونه المطلوبة منه في ذلك الحين، ويؤدي ما عليه من الزكاة والكفارات، ويكتب وصيته، ويتخير الرِّقَّة الصالحين، ولا يأخذ آلة لهو ولا تصوير ولا تدخين، ولا يتجمل بحلق لحيته، ويجتهد في إرضاء والديه، وليتزود بالنفقة من المال الحلال، ويكثر منها ليفيض على غيره إن أمكنه، وليترك لمن يعولهم ما يكفيهم أمر المعيشة من المال الحلال الطيب حتى يرجع، ويتجنب الجدل والخصام والزحام والمضارة، ويتعلم ما يلزمه لأداء النُّسك الذي يريده، ويصحب العلماء؛ ليسألهم ويقتدي بهم، ويودع أهله، ويقرأ دعاء الخروج من البيت، ودعاء السفر.

(ج) النظافة والغسل والإحرام: ويُسن لِمَنْ أراد الإحرام أن يتنظف فيقص أظافره وشاربه، ويحلق عانته، ويزيل شعر إبطيه، ثم يغتسل بنية غُسل الإحرام، ويتطيب، ثم يتجرد من المَخِيط، ويلبس ملابس الإحرام، ويضطبع (بكشف كتفه الأيمن) أثناء الأشواط الثلاثة الأول في الطواف الأول فقط مع الرمل فيها، ثم يُصلي فريضة أو نافلة، ويتوي الحج أو العمرة بعدها في الميقات أو عند محاذاته له، وبمجرد النية يَتَقَيَّدُ الْمُحْرِمُ بجميع محظورات الإحرام، وإن نوى الإحرام بدون صلاة صح ذلك.

(د) التلبية: ويُلبي الرجال بصوت مسموع غير جماعي؛ والمقصود بالتلبية الجماعية: أن يلبي شخص ويرد عليه آخرون، ولا يرفع النساء صوتهن بالتلبية خشية الفتنة، والتلبية شعار الحج، كالتكبير شعار الصلاة؛ فيستحب الإكثار منها في كل حال، وفي يوم العيد يُستبدل التكبير بالتلبية.

حادي عشر: أنواع النسك ثلاثة

(أ) التمتع: وهو أن يُحرم المتمتع بالعمرة في أشهر الحج (بأن يطوف ويسعى

وَيَخْلُقُ أَوْ يُقَصِّرُ) ثم يلبس ملابسَه العادية، ويحل له كل شيء حَرُم عليه، وفي يوم التروية يُحَرِّم بالحج من داخل حدود الحرم، ويأتي بأعمال الحج، وعليه هُدي يذبحه يوم النحر.

والتمتع هو أفضل الأنساك؛ لأن النبي ﷺ قد تَمَنَاه لنفسه، وأمر أصحابه به.

(ب) القرآن: وهو أن يُحرم بالعمرة والحج معاً، أو يُحرم بالعمرة ثم ينوي الحج قبل أن يفرغ من العمرة، ويلزمه طواف واحد، وسعْي واحد عند الجمهور، كالمفرد، وعليه هُدي كذلك، وَيَبْقَى مُحَرَّمًا حتى يوم النحر، وعند الأحناف أن القارن عليه طوافان وسعيان.

(ج) الأفراد: وهو الإحرام بالحج وحده، وليس عليه هُدي.

ولا ينبغي إفراد الحج؛ ليتعمد المرء الإتيان بعمرة بعده من التمتع؛ هروياً من الهُدي.

وقد كره بعض أهل العلم هذه العمرة؛ لأنها كانت رُخصة لعائشة ؓ ومَن في حكمها ممن لها ظرفٌ خاص كظرف عائشة من اللاتي طرأ عليهن الحيض من النساء وهن محرمات، وَيَبْقَى معها مُحَرَّمٌ لها.

ومَن ليس عنده قدرة على الهُدي، وكان حَجه تمتعاً أو قرأناً شرع له الإسلام صيام ثلاثة أيام في الحج قبل عرفة، أو في أيام التشريق إن ضاق عنه الوقت، وسبعة أيام إذا رجع إلى أهله.

ومن كان دون سن البلوغ وأحرم بالحج، أو نوى عنه والداه، فإن حُكْمَهُ حُكْمُ الكبير في الهُدي والتقيد بالمحظورات، وله ولوالديه أجرٌ، ولا يَسْقُط عنه حجُّ الفرض، وكذا العمرة لا تَسْقُط عنه.

مُحَمَّدٌ دَعَا إِبْرَاهِيمَ

١٢٩ - ﴿رَبَّنَا وَأَبْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾.

ثم يدعو إبراهيم عليه السلام ربه أن يبعث في هذه الأمة رسولاً منهم، وقد بينت سورة الجمعة المراد بالأميين في قوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِنْهُمْ﴾ [الجمعة: ٢]

والأُمِّيُّونَ: هم العرب، وسمو كذلك لأنهم ليسوا أهل كتاب.

والرسول: هو محمد ﷺ، ولم يُبعث من العرب من ذرية إسماعيل إلا محمد ﷺ، ومهمة هذا الرسول أنه يتلو عليهم آيات الله، ويُعلمهم القرآن والحكمة وهي السنة والإصابة في القول والعمل، والتفقه في الدين، ويُطهرهم من الشرك وسوء الخلق، فالله لا يُعجزه شيء، وهو سبحانه يضع الأشياء في مواضعها.

روى البخاري وغيره بإسناده عن العرياض بن سارية أن رسول الله عليه الصلاة والسلام قال: «إني عند الله في أم الكتاب لخاتم النبيين، وإن آدم لمنجدل في طيئته، وسأخبركم بأول أمري، أنا دعوة أبي إبراهيم، وبُشرى أخى عيسى، ورؤيا أمي»^(١).

وفي رواية عن أبي أمامة رضي الله عنه قال: قلت: يا رسول الله، أخبرنا عن نفسك؟ قال: «دعوة أبي إبراهيم، وبُشرى عيسى، ورأت أمي حين حملت بي أنه يخرج منها نورٌ أضواءٌ له قصور الشام»^(٢).

طلب إبراهيم من ربه أن يبعث من العرب رسولاً منهم، يعرفون حسبه ونسبه، وتكون رسالته عامة إلى الناس كافة، وليس للعرب وحدهم فقال: ﴿رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾^(٣).

وقد اقتضى ترتيب الآية أن يكون تبليغ الوحي بتلاوة القرآن على الأمة أولاً، ثم تعلّم معانيه وأحكامه بالسنة، وبالقرآن والسنة تكون تزكية النفس وطهارتها في الظاهر والباطن.

واستجاب الله تعالى دعوة إبراهيم ﷺ؛ وبعث محمداً ﷺ آخر الزمان، فأخرج الناس من الظلمات إلى النور، ومن الكفر إلى الإيمان، وطهر أخلاقهم وزكاهم، فالله العزيز الذي لا يُغلب، الحكيم في تدبير شئون خلقه.

(١) انظر تفسير البخاري للآية و«المسند» (١٢٧/٤) برقم (١٧١٥٠، ١٧١٦٣) قال محققوه: صحيح لغيره وأخرجه ابن أبي حاتم (١٢٥٤) والحاكم (٤١٨/٢) والبيهقي (١٣٠/٢).

(٢) صححه الألباني في «السلسلة الصحيحة» برقم (١٥٤٥، ١٩٢٥) وصححه الحاكم والذهبي في «المستدرک» (٦٠٠/٢) وهو في «المسند» (٢٢٢٦١) صحيح لغيره وابن سعد (١٤٨/١) والطبراني (٧٧٢٩) والبيهقي (٨٤/١).

هذا: وقد أُرسل في العرب شُعبيًا، وهو من ذرية إبراهيم، وليس من ذرية إسماعيل، وأُرسل فيهم هُودًا وصَالِحًا، وهما من العرب العَاربة، وليسا من ذرية إبراهيم ولا إسماعيل.

الْمُخَالَفَةُ التَّاسِعَةُ وَالْعِشْرُونَ: عُدُولُ الْيَهُودِ عَنِ الْإِيمَانِ بِمُحَمَّدٍ وَهُوَ (دَعْوَةُ إِبْرَاهِيمَ)

١٣٠- ﴿وَمَنْ يَرْغَبْ عَنْ مِلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلَّا مَنْ سَفِهَ نَفْسَهُ وَلَقَدْ اصْطَفَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ﴾.

ونتيجة لما سبق من ذكر فضائل إبراهيم عليه السلام؛ فإنه لا يعدل عن دين إبراهيم والافتداء به إلا مَنْ كان سفيه العقل، خائر الرأي، ولا أرشد وأكمل ممن رغب في ملة إبراهيم، فقد اختاره الله واصطفاه، ووقفه للأعمال التي صار بها من المصطفين الأخيار، الذين لهم أعلى الدرجات، وأفضل المنازل.

قال ابن عُيينة: إن عبد الله بن سلام -وهو حَبْرٌ من أخبار اليهود- قد أخبر ابني أخيه: (سلمة ومهاجرًا) عن مجيء نبيٍّ في هذه الأمة، يقال له: أحمد، ويُنَّ لهما أن مَنْ آمَن به فقد اهتدى، وَمَنْ كَفَرَ به فهو ملعونٌ مطرودٌ من رحمة الله.

ولما جاء النبي ﷺ أسلم (سلمة) وكَفَرَ (مهاجرٌ) فأَنزل الله سبحانه: ﴿وَمَنْ يَرْغَبْ عَنْ مِلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلَّا مَنْ سَفِهَ نَفْسَهُ﴾ فلا يُعرض عن دعوة محمدٍ إلا سفيهٌ جاهل، حيث إن محمدًا ﷺ جاء بما جاء به إبراهيم، جاء بالتوحيد الخالص كما قال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ إِنَّنِي بَرَاءٌ مِمَّا تَعْبُدُونَ ﴿١٢٦﴾ إِلَّا الَّذِي فَطَرَنِي فَإِنِّي سَبِّحُ إِلَهُكَ ﴿١٢٧﴾﴾ [الزخرف] وقال: ﴿مَا كَانَ إِبْرَاهِيمَ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَكِنْ كَانَ حَنِيفًا مُسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿١٢٧﴾﴾ [آل عمران].

فإن كنتم تفتخرون بالانتساب إلى إبراهيم فهو الذي دعا ربه أن يبعث في هذه الأمة رسولاً منهم، فَمَنْ يكفر به فقد كَفَرَ بإبراهيم، ثم بيَّن سبحانه مَنزِلَةَ إبراهيم، ورفع درجته في الدارين فقال: ﴿وَلَقَدْ اصْطَفَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا﴾ فجعلناه نبيًا ورسولًا وخليلاً ﴿وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ﴾ من الذين لهم أعلى الدرجات؛ لاستقامتهم على الطريقة المثلى. قال تعالى:

١٣١- ﴿إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمْتُ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾.

ومن دلائل اصطفاء إبراهيم أنه استجاب لوحي ربِّه حين أمره بالتوحيد وإخلاص العبادة له، فقد كان إبراهيم مسلمًا موحدًا، مائلًا عن الشرك، مسارعًا للإسلام دون تردد حين

قال له ربُّه: أخلص نفسك ودينك لله، فقال إبراهيم: أسلمت لرب العالمين، إسلامًا وتوحيدًا وإخلاصًا ومحبة وإنابة.

ومن مظاهر إخلاص إبراهيم وصدقهِ حين أخذ يُناظر قومَه في توحيد الله، وترك عبادة الأصنام والكواكب والنجوم، فلما رأى القمرَ بازغًا قال: هذا ربي، ولما رأى الشمسَ بازغَةً ظاهرةً قال: هذا ربي؛ استدراجًا لهم، ثم قال في النهاية بعد أن أَفَلَتِ الشمس ﴿إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ خَاشِعًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ [الأنعام] حينئذٍ أمرَه ربُّه أن يعلن بطلان هذه الكواكب، وبطلان عبادتها من دون الله، وكان قومَه يعكفون على عبادتها، لقد علِم إبراهيم أن لهذا العالم خالقًا مدبرًا بإلهام من الله تعالى، فلما أوحى الله إليه بالإيمان صادف عقلًا راشدًا؛ فاستجاب من فوره لدعوة ربه.

الْإِسْلَامُ هُوَ وَصِيَّةُ إِبْرَاهِيمَ لِبَنِيهِ وَحَفِيدِهِ يَعْقُوبَ

١٣٢ - ﴿وَوَصَّى^(١) بِهَا إِبْرَاهِيمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ بَنِيَّ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى لَكُمُ الدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُمْ مُسْلِمُونَ﴾

أي: أن إبراهيم وصَّى ذريته بكلمة التوحيد، وجعلها كلمة باقية في عقبه وتوارثوها حتى وصلت إلى يعقوب وبنيه، فيجب عليكم الانقياد واتباع خاتم النبيين، فإن من عاش على شيء مات عليه، ومن مات على شيء بعث عليه.

وشأن الصالحين المصلحين، أهل الحق والحكمة، أن يكونوا حريصين على هداية أنفسهم، وهداية ذريَّتهم وأمتهم، ومن سُتِّهِم التَّوَصِيَّةُ لِمَن يَخْلَفُونَهُمْ، أَلَّا يَحِيدُوا عَنْ طَرِيقِ الْحَقِّ، وَلَا يُفَرِّطُوا فِيهِ، وكلمة الإسلام هي التي وصَّى بها إبراهيمُ بنيه ويعقوب وحُثَّهما على الثبات عليها إلى الممات، فقال لهم: ﴿فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُمْ مُسْلِمُونَ﴾ أي: فلا تُفارقوه مَدَى حياتِكُم، ولا يَأْتِيَكُم الموت إلا وأنتم عليه.

أبناء إبراهيم: ﴿وَوَصَّى بِهَا﴾ أي: بكلمة الإسلام وهي كلمة التوحيد ﴿إِبْرَاهِيمُ بَنِيهِ﴾ وكان له ثمانية أولاد: إسماعيل، وإسحاق، ومدين، ومداين، ونهشان، وزمران، ونشيق، وشيوخ، والستة الأواخر من (قنطورا) الكنعانية التي تزوجها بعد موت سارة،

(١) قرأ نافع وابن عامر وأبو جعفر (وأوصى) مُعَدَّى بالهمزة، وهي موافقة لرسم المصحف المدني والشامي، وقرأ الباقون (ووصى) بدون همزة مُعَدَّى بالتضعيف.

وإسحاق وحده منها، وإسماعيل من هاجر.

ومدين هو جد قبيلة مدين، وفي ضاحتها -أصحاب الأيكة-، نبئهم شعيب عليه السلام.

نبي الله يعقوب: ووصى بها أيضًا حفيده يعقوب وقال لهم: ﴿يَبْنَئِ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى لَكُمُ الدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُمْ مُسْلِمُونَ﴾ وقد ولد يعقوب بن إسحاق في حياة جده إبراهيم وجدته سارة.

ولقب بإسرائيل، وهو جد جميع بني إسرائيل، ومات يعقوب بمصر سنة ١٩٨٩ قبل الميلاد، ونقل منها إلى أرض كنعان حيث دفن بالخليل، ويعقوب هو جامع نسب بني إسرائيل قال تعالى: ﴿فَبَشَّرْنَاهَا بِإِسْحَقَ وَمِنْ وَرَاءِ إِسْحَقَ يَعْقُوبَ﴾ [هود: ٧١] وقال: ﴿وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ نَافِلَةً﴾ [الأنبياء: ٧٢] وهذا يقتضي أن يعقوب وجد في حياة جده، ومن يموت على الإسلام هو الموفق المتبع لطريق الهدى والرشاد، وقد أمر الله بذلك في قوله: ﴿يَتَأْتِيَ الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تَقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُمْ مُسْلِمُونَ﴾ [آل عمران]

فاثبتوا على الإسلام، واستقيموا عليه، فهو الدين الذي لا يقبل الله من أحد دينًا سواه.

الإِسْلَامُ هُوَ وَصِيَّةُ يَعْقُوبَ لِلْأَسْبَاطِ

١٣٣- ﴿أَمْ كُنْتُمْ شُهَدَاءَ﴾^(١) إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ الْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِنْ بَعْدِي قَالُوا نَعْبُدُ إِلَهَكَ وَإِلَهَ آبَائِكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِلَهًا وَاحِدًا وَنَحْنُ لَكَ مُسْلِمُونَ ﴿١٣٣﴾

ثم فصل سبحانه وصية يعقوب التي أمر بها أبناءه؛ وهي أن يكونوا على ملة آبائهم: إبراهيم وإسماعيل وإسحاق، وهذا مجمل وصية إبراهيم لبنيه، وهي الحنيفية؛ أي: التوحيد الذي هو أساس الإسلام، وفي هذا إبطال لليهودية والنصرانية، والمخاطب بالآية هم اليهود الذين يزعمون أن يعقوب مات على اليهودية، وأوصى بها ذريته.

وقد ورد أن اليهود قالوا للنبي ﷺ: ألسنت تعلم أن يعقوب أوصى بنيه باليهودية؛ فنزلت هذه الآية^(٢).

والآية تنكر على اليهود ادعاءهم الباطل؛ لأنهم ادعوا ما لا قبل لهم به؛ إذ لم يكونوا

(١) قرأ نافع وابن كثير وأبو عمرو وأبو جعفر ورويس بتسهيل الهمزة الثانية بينها وبين الياء وحققها الباقون.

(٢) «أسباب النزول» للواحد ص ٢٢ و«تفسير الطبري» (١/٤٣٦).

حاضرين ومشاهدين ليعقوب حين حضرته الوفاة وأوصى بنيه بما زعموا .

أبناء يعقوب: وبنو يعقوب هم أسباط إسحاق، ومنهم تَشَعَّبَتْ قبائل بني إسرائيل الاثنتا عشرة؛ وهم: روبيل وشمعون ولاوى ويهوذا ويساكر وزبولون (وهؤلاء أمهم: ليئة) ويوسف وبنيامين (وأمهما: راحيل) ودان ونفتالي (وأمهما: بلهة) وجاد وأشير (وأمهما: زلفة)، وقد أخبر القرآن بأنهم كلهم صاروا أنبياء، وأن يوسف كان رسولاً^(١).

وقد كان اليهود يقولون: إن يعقوب قد أوصانا باليهودية حين موته، وما مات نبيًّا إلا على اليهودية، والله ﷻ يكذبهم ويقول لهم: ﴿أَمْ كُنْتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ الْمَوْتَ﴾ أي: هل كنتم حضورًا حين حضرت مقدمات الوفاة وأسبابها، نبي الله يعقوب ﷺ، وحين أحضر أبناءه وجمَعهم حوله قبل موته، وقال لهم ما تعبدون من بعد موتي؟ أي: لم يحصل لكم العلم بذلك إلا عن طريق الوحي.

والقرآن الكريم يُقرّر وصية يعقوب لأبنائه، وإقرارهم له بالإسلام والتوحيد الخالص، فهذه هي التركة والميراث التي تركها لذريته من بعده، يقررها الإسلام ويبيّن أنها ليست لليهودية، فقد انتهت وقتها، وانتهى العمل بها بعد مجيء عيسى ﷺ، ومن بعده محمد ﷺ ﴿أَمْ كُنْتُمْ شُهَدَاءَ؟﴾! توبيخ لليهود ﴿إِذْ قَالَ لِأَبْنَيْهِ﴾ وهم حوله حين كان يُعاني من سكرات الموت، قال لهم مختبرًا، كي تقرّ عينه في حياته بامثالهم ما وصّاهم به ﴿مَا تَعْبُدُونَ مِنْ بَعْدِي﴾ فأجابوه بما قرت به عينه ﴿قَالُوا نَعْبُدُ إِلَهَكَ وَاللَّهُ ءَابَاكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِلَهًُا وَاحِدًا﴾ فلا نشرك به شيئًا ولا نعدل به أحدا ﴿وَنَحْنُ لَكَ مُسْلِمُونَ﴾ فجمعوا بين التوحيد والعمل، ومن المعلوم أن المخاطبين بالآية لم يحضروا موت يعقوب، وقد وصّاهم يعقوب بالحنيفية لا باليهودية.

وقد ذكرت الآية ثلاثة هم: إبراهيم وهو جدُّ يعقوب، والجدُّ يُسمى أبًا، وإسحاق وهو والد يعقوب مباشرة^(٢)، وإسماعيل: وهو عم يعقوب، والعرب تُسمّي العم أبًا، والإسلام دين الجميع، كما قال تعالى: ﴿وَلَهُ أَسْلَمَ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا﴾ [آل عمران: ٨٣].

(١) «تفسير التحرير والتنوير» (١/ ٧٣٢).

(٢) وهو أصغر من إسماعيل بثلاثة عشر عامًا، وُلِدَ سنة ١٨٩٦ ق. م، وتوفي سنة ١٧٠٨ ق. م ودُفِن في الخليل.

وفي الحديث عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «الأنبياء إخوة من عُلَّات، وأمهاتهم شتى، ودينهم واحد»^(١) وأولاد العلات هم: الإخوة من الأب وأمهاتهم شتى.

قال ابن عباس: كل الأنبياء من بني إسرائيل إلا عشرة؛ هم: نوح وهود وصالح وشعيب ولوط وإبراهيم وإسحاق ويعقوب وإسماعيل ومحمد صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين.

والمراد بالوصية: أخذ الميثاق عليهم بالثبات على التوحيد ملة إبراهيم، وألا يتطرق الشرك إليهم، ولا القول بالثلاث أو المشابهة للمخلوقين، فهل وفى اليهود والنصارى بهذا الميثاق؟ كما قال إبراهيم ﴿أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ ووصى أبناءه قائلاً:

﴿فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾.

وكما قال يعقوب: ﴿وَنَحْنُ لَكُمْ مُسْلِمُونَ﴾ قال نوح: ﴿وَأَمَرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ [يونس: ٨٢].

وقال الحواريون: ﴿ءَامَنَّا بِاللَّهِ وَأَشْهَدُ بِأَنَّكَ مُسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ٥٢]

وقال يوسف: ﴿تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ﴾ [يوسف: ١٠١]

وقال فريق من أهل الكتاب عن القرآن: ﴿إِنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّنَا إِنََّّا كُنَّا مِنْ قَبْلِهِ مُسْلِمِينَ﴾ [القصص: ٥٣]

والدين الحق لا شرك فيه بالله تعالى بوجه من الوجوه هو الإسلام ﴿إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ

الْإِسْلَامُ﴾ [آل عمران: ١٩]

﴿وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ [آل عمران: ٨٥]

وجميع الرسل متفقون في أصول الدين وكلياته، وعلى رأسها توحيد الله تعالى، واختصاصه بالعبادة، وتصديق الرسل السابقين فيما جاؤوا به من عند الله، والإيمان باليوم الآخر وما فيه من نعيم وعذاب، والحث على مكارم الأخلاق، وما عدا ذلك من تفاصيل العبادات والمعاملات فيها تدرج في التشريع بما يُناسب كل أمة ﴿لِكُلِّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا﴾ [المائدة: ٤٨] وامتاز الإسلام باليسر ورفع الإصر والأغلال.

(١) «صحيح مسلم» (٢٣٦٥) و«صحيح البخاري» (٣٤٤٣).

لَا يُؤَاخِذُ أَحَدٌ بَذَنْبِ أَحَدٍ

١٣٤ - ﴿تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُمْ مَا كَسَبْتُمْ وَلَا تُسْأَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾.

ثم أثنى الله على إبراهيم وبنيه ونوه بشأنهم، وعرض بمن لم يقتف آثارهم من ذريتهم ومن غيرهم، فقال: ﴿تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ﴾ مَضَتْ وسلفت ﴿لَهَا مَا كَسَبَتْ﴾ من الأقوال والأعمال ﴿وَلَكُمْ مَا كَسَبْتُمْ﴾ من القول والعمل أيضًا، فلا تقولوا عنهم ما ليس فيهم، ولا تسألون عن أعمالهم، ولا يسألون عن أعمالكم، فلا يؤاخذ أحد بذنب أحد، ولا ينفع أحدًا إلا إيمانه وتقواه، فهذه الأمة من بني إسرائيل مسؤولة عن عملها، وأنتم مسؤولون عن عملكم، وكل مجزي بما قدّم، جاء في الحديث: «من بطأ به عمله لم يسرع به نسبه»^(١). فانظروا في حالكم، هل تصلحون للنجاة أم لا؟

الْمُخَالَفَةُ الثَّلَاثُونَ: دَعَا أَهْلَ الْكِتَابِ أَنْ يَتَّبِعُوا دِينَ كُلِّ مِلَّةٍ

١٣٥ - ﴿وَقَالُوا كُونُوا هُودًا أَوْ نَصَارَى تَهْتَدُوا قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾

أي: أن كلًّا من اليهود والنصارى دعا الآخر إلى الدخول في دينه، زاعمًا أنه على هدى، وغيره على ضلال، فقال تعالى مجيبًا لهم: بل اتبعوا ملة إبراهيم، مقبلين على الله، معرضين عما سواه، قائمين بالتوحيد، تاركين للشرك، فهذا هو طريق الهداية، وفي الإعراض عنه كفر وغواية.

وهكذا ذمّ الله تعالى من يعدل عن دين الإسلام إلى غيره، واستشهد بدعوى اليهود والنصارى أن دينهم أفضل الأديان، ونبّيهم أفضل الأنبياء، وكتّابهم أفضل الكتب، فقد خاصم رؤساء اليهود ونصارى نجران، المسلمين، فزعم كلٌّ منهم أنه أحقّ بدين الله، قالت اليهود: نبينا موسى أفضل الأنبياء، وكتّابنا التوراة أفضل الكتب، وديننا أفضل الأديان، وكفروا بعيسى والإنجيل، ومحمد والقرآن، وقالت النصارى مثل ذلك، وقال كل منهما للمؤمنين: كونوا على ديننا فلا دينَ غيره، فأنزل الله سبحانه: ﴿وَقَالُوا كُونُوا هُودًا أَوْ نَصَارَى تَهْتَدُوا﴾^(٢).

(١) من حديث أبي هريرة في صحيح مسلم.

(٢) يُنْظَر: «تفسير الطبري» (١/ ٤٤٠).

والكلام مُتصل بالحديث عن بني إسرائيل، وقد جاء الكلام عن إبراهيم عليه السلام في ثانيا الكلام عن بني إسرائيل؛ لإقامة الحُجَّة عليهم في رفضهم الإيمان بمحمد عليه السلام، وجاء ذكر النَّصَارَى لاشتراكهم في المقولة، فقالت اليهود لأمة محمد عليه السلام: ادخلوا في دين اليهود تَجِدُوا الهداية، وقالت النَّصَارَى مثل ذلك، فرد الله عليهم بقوله: ﴿قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا﴾ أي: تتبع جميعًا ملة إبراهيم، فإنه لم يكُ مشرِّكًا، بل كان حنيفًا مسلمًا، وهو الذي سَمَّاكم المسلمين.

ولذا: قال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ وفي هذا إشارة إلى أن كِلَا الفريقين من اليهود والنَّصَارَى مشرِّكٌ بالله تعالى، وفيه ثناءٌ على ملة إبراهيم عليه السلام، وأنها هي الحنيفية السَّمْحَةُ المائلة عن الشرك، وفيه تعريضٌ لليهود والنَّصَارَى بالذمِّ، وأنهم قد حرَّفوا وغيَّروا وبدَّلوا وأشركوا مع الله غيره.

هذا: والحنيف هو الذي يَمِيلُ في مِشْيَتِهِ عن الطريق المُعتَاد، وقد ظهر إبراهيم في قوم كانوا في ضلالة عمياء، فجاء دينُه مائلاً عنهم، فلقب بالحنيف، ولُقبَت ملته بالحنيفية؛ فصار هذا مدحًا له، ودلَّ على أن الدين الإسلامي من إسلام إبراهيم، ونَفَى عن اليهود والنَّصَارَى انتماءهم إليه.

وَجُوبُ الْإِيمَانِ بِرُسُلِ اللَّهِ جَمِيعًا

١٣٦- ﴿قُولُوا ءَامَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنْزِلَ إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ ^(١) وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَآلَ يَسَافِرٍ وَمَا أَوْفَىٰ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَا أَوْفَىٰ النَّبِيُّونَ ^(٢) مِنْ رَبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾.

ثم بيَّنت هذه الآية أنه يجب الإيمانُ برسل الله جميعًا، والاعتقاد الجازم برسالاتهم وكتبهم، وهذا الإيمان يدخل فيه الإسلام، ويدخل فيه العمل الصالح، فهما من آثار الإيمان، وإذا أُطلق الإيمان دخلا فيه، فإذا قُرُنَ بينهما، فإن الإيمان يعني إقرار القلب وتصديقه، والإسلام يكون اسمًا للأعمال الظاهرة، والعمل الصالح يكون ثمرة لهما، وإذا جُمع بين الإيمان والعمل الصالح كان الأول اعتقاد القلب، والثاني عمل الجوارح.

(١) قرأ ابن عامر بخلف عن ابن ذكوان في هذه السورة (إبراهيم) والباقون (إبراهيم).

(٢) قرأ نافع (النبِيُّونَ) بهمزة بعد الياء، مد متصل، والباقون (النبيون) بياء مشددة.

قال تعالى ﴿قُولُوا﴾ أيها المؤمنون لليهود والنصارى وغيرهم: ﴿ءَامَنَّا بِاللَّهِ﴾ قولوها بألستكم واعتقدوها بقلوبكم ، لأن نطق اللسان دون اعتقاد القلب نفاق وكفر، فالقول الخالي من عمل القلب عديم التأثير قليل الفائدة، والثواب والجزاء يكونان على القول والاعتقاد والعمل ، وفي لفظ ﴿قُولُوا﴾ إعلان بالصدع بالعقيدة والدعوة إليها، إذ هي أصل الدين وأساسه، وفي لفظ (آمنا) إشارة إلى جميع الأمة، وإلى وحدتها وائتلافها، فداعيهم واحد وعملهم واحد، وفيها نهى عن التفرق والاختلاف، والله تعالى متصف بكل كمال، منزّه عن كل نقص، مستحق للعبادة وحده دون سواه، ولا يختلف في ذلك الشرائع كلها.

﴿وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْنَا﴾ وهو القرآن والسنة، كما قال تعالى: ﴿وَأَنْزَلَ اللَّهُ عَلَيْكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ﴾ [١١٣]، وهذا يشمل كل ما تضمنه الكتاب والسنة من صفات الله تعالى وصفات رسله، واليوم الآخر وما فيه من بعث وحشر ونشر وحساب وجزاء، ويشمل الأمور الغيبية والأحكام الشرعية.

﴿وَمَا أُنْزِلَ﴾ من الصحف ﴿إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطَ﴾ وقد سبق ذكرهم في الآية قبل السابقة وهم الأنبياء من ولد يعقوب، في قبائل وشعوب وعشائر بني إسرائيل الاثنتي عشرة؛ وهم أحفاد إسحاق وإبراهيم، فالسبط هو الحفيد.

أسماء الأسباط: فالأسباط: اثنا عشر رجلاً، هم أبناء يعقوب عليه السلام، وكل واحد منهم ولد أمة من الناس قال السدي: الأسباط بنو يعقوب؛ يوسف، وبنيامن، وزوئيل، ويهوذا، وشمعون، ولأوى، ودان وقهاث، وكود، وباليون، وجاد، وأشير^(١).

﴿وَمَا أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ﴾ من التوراة والإنجيل ﴿وَمَا أُوتِيَ آلِ إِبْرَاهِيمَ﴾ عن طريق الوحي من الكتب والشرائع، وليس من الملك والمال، وفيه أن الأنبياء مبلّغون عن الله ، ووسائط بين الله وبين خلقه في تبليغ الرسالة، وليس لهم من الأمر شيء، والتبليغ عن الله يُخرج كل من ادعى النبوة وكذب على الله، فلا بد أن يتناقض هذا المدعي في أخباره وأوامره ونواهيهِ ﴿لَا تَفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ﴾ في الإيمان بهم جميعاً كل واحد منهم في زمانه

(١) «أخرجه الطبري» (٥٩٨/٢) وابن أبي حاتم (١٣٠١). ويوجد بعض الخلاف في أسماء ثلاثة منهم بالموازنة بين ما جاء في تفسير الآية ١٣٣ السابقة.

ومكانه، نؤمن بهم كلهم، وهذه خاصية انفرد بها المسلمون، لأن غيرهم يؤمن ببعض الرسل ويبعض الكتب دون بعض، ومن هؤلاء اليهود والنصارى والصابئين، فهم يفرقون بين الله ورسله، ومن كذب محمدا فقد كذب رسوله، لأنه أخبر به.

﴿وَنَحْنُ لَكُمْ مُسْلِمُونَ﴾ خاضعون ذليلون، والإيمان بكل رسول على أنه جاء يُمثل لينة في البناء الذي اكتمل بمجيء النبي الخاتم، وهذا يشمل الكتب المنزلة على جميع الأنبياء لا سيما من ذكروا في الآية، فهم أصحاب الشرائع الكبرى.

جاء في الحديث عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «مَثَلِي وَمَثَلُ الْأَنْبِيَاءِ قَبْلِي كَمَثَلِ رَجُلٍ بَنَى بَيْتًا، فَأَحْسَنَهُ وَجَمَّلَهُ، إِلَّا مَوْضِعَ لِنَةٍ، فَجَعَلَ النَّاسُ يَطُوفُونَ بِهِ وَيَعْبُجُونَ لَهُ وَيَقُولُونَ: هَلَا وُضِعَتْ هَذِهِ اللَّيْنَةُ، فَأَنَا اللَّيْنَةُ، وَأَنَا خَاتَمُ النَّبِيِّينَ»^(١).

والإسلام بمعناه العام والخاص هو الذي تقرّره الآية في نهايتها ﴿وَنَحْنُ لَكُمْ مُسْلِمُونَ﴾ فهو يقرر وحدة العقيدة عند جميع الرسل، وعدم التفريق بين رسل الله في أضل الدعوة والعقيدة.

وقد اشتملت هذه الآية على الإيمان بجميع الرسل وجميع الكتب؛ فأمنوا بهم جميعاً، ولا تكونوا كالذين يفرقون بين الله ورسله، ويقولون: نؤمن ببعض ونكفر ببعض، وقد أمر الله المؤمنين أن يؤمنوا بهذه الكتب ويصدقوها، ولا يعملوا بما فيها؛ لأن العمل بها قد انتهى أمدّه، وليس في وسع أحد أن يعمل بغير القرآن.

وعن أبي هريرة رضي الله عنه أن أهل الكتاب كانوا يقرؤون التوراة بالعبرانية ويفسرونها بالعربية لأهل الإسلام، فقال رسول الله ﷺ في حديث أبي هريرة رضي الله عنه: «لَا تَصَدَّقُوا أَهْلَ الْكِتَابِ، وَلَا تَكْذِبُوهُمْ، وَقُولُوا: آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْنَا»^(٢).

وفي الآية ردٌّ على اليهود والنصارى حين آمنوا بأنبيائهم وكفروا بمن جاء بعدهم، وفرّقوا بينهم في الإيمان.

(١) من حديث أبي هريرة في البخاري (٣٥٣٥) ومسلم (٢٢٨٦) (٢٠-٢٢) و«المسند» (٧٣٢٢) وابن حبان (٦٤٠٥، ٦٤٠٦).

(٢) من حديث أبي هريرة في «صحيح البخاري» برقم (٤٤٨٥، ٧٣٦٢، ٧٥٤٢) و«سنن النسائي الكبرى» (١١٣٢٣).

وقد اشتملت هذه الآية على توحيد الربوبية والألوهية والأسماء والصفات، واشتملت على الإيمان بجميع الرسل وجميع الكتب، وعلى الإخلاص والتصديق بالقلب واللسان والجوارح، واشتملت على ذكر رسل الله الصادقين، كي نفرق بينهم وبين من ادعى النبوة، وعلمتنا كيف نطلب فضل الله تعالى ورحمته وإحسانه.

الْهُدَايَةُ فِي اتِّبَاعِ الْإِسْلَامِ

١٣٧ - ﴿فَإِنْ آمَنُوا بِمِثْلِ مَا آمَنْتُمْ بِهِ فَقَدْ اهْتَدَوْا وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا هُمْ فِي شِقَاقٍ نَسَبِكُمْ اللَّهُ
وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾.

ثم بيّنت هذه الآية أن أهل الكتاب من اليهود والنصارى إن آمنوا بجميع الرسل وجميع الكتب واليوم الآخر إيماناً مثل إيمانكم يا معشر المؤمنين؛ من التوحيد والعمل الصالح، والإيمان بخاتم الرسل وأفضلهم محمد ﷺ ﴿فَقَدْ اهْتَدَوْا﴾ إلى طريق الحق الموصول إلى جنات النعيم، فلا هداية لهم إلا بهذا الإيمان وليس بقولهم: كونوا هوداً أو نصارى، والهدى هو العلم بالحق والعمل به، وضده الضلال عن العلم وعن العمل به، فقد كانوا قبل تعاليم الإسلام على غير هدى، خلافاً لزعمهم، وإن أعرضوا عنه فهم في شقاق وعداوة وبغضاء وخلاف مستمر إلى يوم القيامة، وليسوا من طالبي الحقيقة، وهذه المخالفة وهذا العناد هو سبب عدم إيمانهم، فلا تأس عليهم، ولا تحزن على عدم إيمانهم، فقد وعدك الله بأن يكفيك أمرهم، ويدفع عنك بغضهم، فسيكفيك الله شرهم يا محمد، وينصرك عليهم، وهو السميع لأقوالهم، العليم بأحوالكم:

١- عن نافع بن أبي نعيم أول القراء السبعة أن مصحف عثمان ؓ الذي كان في حجره حين قُتل، قد وقع الدّم فيه على هذه الآية ﴿نَسَبِكُمْ اللَّهُ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ قال نافع: بَصُرْتُ عَيْنِي بَالِدَمٍ عَلَى هَذِهِ الْآيَةِ وَقَدْ قَدِمَ^(١).

٢- وعن أبي سعيد مولى بني أسد قال: لما دخل المضربون على عثمان والمصحف بين يديه، ضربوه بالسيف على يديه فجرى الدم على ﴿نَسَبِكُمْ اللَّهُ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾

(١) «تفسير ابن أبي حاتم» (٤٠٢/١) برقم (١٣١٢).

فمَدَّ يَدَهُ، وقال: والله إنها لأول يدٍ خطتِ المفصل^(١).

٣- وعن عَمْرَةَ بنتِ أَرْطَاةِ العَدَوِيَّةِ قالت: خرجتُ مع عائشة سنة قتل عثمان إلى مكة، فمررنا بالمدينة، ورأينا المصحف الذي قُتِلَ عثمان وهو في حجره، وكانت أول قطرة قطرت من دمه على هذه الآية ﴿نَسِيكَهُمْ اللَّهُ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ قالت عَمْرَةُ: فما مات منهم رجل سويًّا^(٢).

وقد أوفى الله بوعده، فعَصَمَ دَمَ نبيه، وَوَعَدَ الله للمؤمنين بالنصر عليهم قائمٌ.

دُخُولُ بَعْضِ أَهْلِ الْكِتَابِ فِي الْإِسْلَامِ وَصِبْغَتُهُمْ بِهِ

١٣٨- ﴿صِبْغَةَ اللَّهِ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنْ اللَّهِ صِبْغَةً وَنَحْنُ لَهُ عَبِيدُونَ﴾.

أي: الزموا - معشر اليهود والنصارى - شَرَعَ الله، وقوموا له قيامًا في جميع عقائده وأعماله الظاهرة والباطنة، حتى يكون الدين طبيعة لكم، وصفة لازمة من صفاتكم، تُصْبِغُونُ بها كما يُصْبِغُ الثوب، فتحصل لكم السعادة في الدارين، ولا يوحد أحسن من صبغة الله، فليس الصدق كالكذب، وليس الكفر كالإيمان، وليس التواضع كالكبر، وليس حسن الخلق كسوء الخلق، فكل من الصَّدِيقِ صبغة وصفة، ولكنهما لا يستويان، هذا هو المعنى العام للآية.

ومن جهة أخرى فقد تَحَقَّقَ صِدْقُ ما أخبر به القرآن، فدخل الكثير من اليهود والنصارى وسائر المِلَلِ والنَحْلِ في الإسلام، فصبغوا بصبغة الإسلام، وتمَّ إجلاء اليهود عن المدينة وما حولها، وتمَّ ضرب الجزية على مَنْ لم يُسلم، ونَصَرَ الله المسلمين عليهم، فألزموا صبغة الله المُمَثِّلَةَ في دينه القويم، وأخلصوا له الانقياد والطاعة والمتابعة ﴿صِبْغَةَ اللَّهِ﴾ أي: الملة التي جعلها الله شعارنا كالصبغة عند اليهود والنصارى، وفي الكنائس ماءً يزعمون أنه مخلوط ببقايا ماء أهرق على عيسى حين عمَّده يحيى بن زكريا.

﴿وَمَنْ أَحْسَنُ مِنْ اللَّهِ صِبْغَةً﴾ والصبغة في الإسلام: هي الفطرة والتوحيد، فليس هناك

(١) أخرجه ابن داود، وابن عساكر في ترجمة عثمان بن عفان ص(٤١٩).

(٢) أخرجه عبد الله بن أحمد في زوائد الزهد كما في «الدر المثور» (١/٧٢٨).

أحسن من فطرة الله التي فطر الناس عليها، والكُلُّ له سبحانه خاضعون مُتبعون ملة إبراهيم .
 وسُميت صبغة: لأن أثر اللين والاستقامة وحسن التعامل والخُلُق يظهر على المتدين،
 كما يظهر أثر الصبغ على الثوب، والمراد التشبيه بما يفعله النَّصَارَى بأبنائهم حين يقومون
 بغمسهم وتعميدهم في الكنيسة بعد ولادتهم بسبعة أيام في ماء أصفر يُسمونه ماء
 المعمودية؛ ليطهروا به مكان الختان، ومَن دخل في النصرانية كبيرًا يُعمد أيضًا، ثم
 يقولون: الآن صار نصرانيًا حقًا.

وكذا الاغتسال الذي يغتسله الكاهن في عيد الكفارة عن خطايا بني إسرائيل في كل عام
 على حد زعمهم، وكان يحيى يعظ الناس؛ فإذا تابوا أمرهم بالاغتسال في نهر الأردن
 رمزًا للتطهير، وقد رفض اليهود التعميد؛ لكفرهم بعیسی ﷺ.

عن ابن عباس رضي الله عنهما أن نبيَّ الله ﷺ قال: «إن بني إسرائيل سألوا موسى،
 هل يصبغ ربك؟ فقال: اتقوا الله، فناداه ربه يا موسى، سألوكم هل يصبغ ربك؟ فقل:
 نعم، أنا أصبغ الألوان: الأحمر والأبيض والأسود، والألوان كلها من صبغي» وأنزل الله
 على نبيه ﷺ ﴿صَبْغَةَ اللَّهِ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنْ اللَّهِ صَبْغَةً﴾^(١).

وكانت المعمودية مشروعةً عند النَّصَارَى؛ لغلبة تأثير المحسوبات على عقائدهم، وقد
 ردَّ الله عليهم بأن صبغة الإسلام في الاعتقاد والعمل وليس في هذه الطقوس.

قال ابن عباس: إن النَّصَارَى كانوا إذا وُلِدَ لأحدهم وَلَدٌ، فَأَتَى عليه سبعة أيام، صبغوه
 في ماء لهم، يقال له: المعمودي؛ ليطهروه بذلك، ويقولون: هذا طهور مكان الختان،
 فإذا فعلوا ذلك صار نصرانيًا حقًا، فأنزل الله هذه الآية^(٢).

وقال قتادة: إن اليهود تصبغ أبنائها يهودًا، وإن النَّصَارَى تصبغ أبنائها نصارى، وإن
 صبغة الله الإسلام، ولا صبغة أحسن من صبغة الله الإسلام ولا أظهر، وهو دين الله
 الذي بعث به نوحًا، ومَن كان بعده من الأنبياء^(٣).

(١) «تفسير ابن أبي حاتم» (٤٠٣/١) وأبو الشيخ في «العظمة» برقم (١٣٨) عن سعيد بن جبير والضياء
 المقدسي (١٠٧) من طريق ابن مردويه.

(٢) «أسباب النزول» للنيسابوري.

(٣) الطبري (٢/ ٦٠٣).

فأخبر الله تعالى أن صِبْغَةَ المسلمين هي عبادة الله وحده، فلا يشركون معه غيره، ولا يَتَّخِذُونَ الْأَحْبَارَ وَالرَّهْبَانَ يَزِيدُونَ لَهُمْ فِي الدِّينِ وَيَنْقُصُونَ، وَيُحْلُونَ وَيُحْرَمُونَ، وَيَمْحُونَ مِنَ النُّفُوسِ صِبْغَةَ التَّوْحِيدِ؛ لِيُحْلُوا محلها الشرك والكفر.

رَبُّ الْجَمِيعِ وَاحِدٌ

١٣٩ - ﴿قُلْ أَتَحَاجُّونَنَا فِي اللَّهِ وَهُوَ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ وَلَنَّا أَعْمَلْنَا وَلَكُمْ أَعْمَلُكُمْ وَنَحْنُ لَكُمْ مُخْلِصُونَ﴾.

يزعم أهل الكتاب أنهم أولى بالله من المسلمين، وهذه دعوى تفتقر إلى دليل، فإذا كان رب الجميع واحد، فإن أحد الفريقين لا يكون أولى بالله من الآخر، لأن التفريق بين الشريكين المتماثلين، مكابرة ظاهرة ودعوى باطلة، ولا يكون أولى بالله إلا من أخلص الأعمال الصالحة لله وحده، وهذا هو الفرق بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان، ولا ينازع في ذلك إلا مكابر،

وربُّ الجميع واحدٌ، وهو المحاسب لكل منهم، فلا مجال لزعمكم أيها اليهود أنكم أولى بالله من غيركم ﴿قُلْ﴾ يا محمد لأهل الكتاب: ﴿أَتَحَاجُّونَنَا فِي﴾ دين ﴿اللَّهِ﴾ وتناظروننا فيه، ونحن جميعاً خلق الله ﴿وَهُوَ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ﴾ المتصرف فينا وفيكم، لا يختص بأحد دون أحد.

وَمَرْجِعُ رِضَى الله تعالى هو أعمال العباد ﴿وَلَنَّا أَعْمَلْنَا وَلَكُمْ أَعْمَلُكُمْ﴾ لم يُخْطِئْهُمْ ربهم، ولم يُعَنِّفْهُمْ، بل قصر ذلك في التعريض بهم، وقيام الحجة عليهم، كما قال تعالى: ﴿وَإِنْ كَذَّبُوكَ فَقُلْ لِي عَمَلِي وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ أَنتُمْ بَرِيئُونَ مِمَّا أَعْمَلُ وَأَنَا بَرِيءٌ مِمَّا تَعْمَلُونَ﴾ [يونس] وختام الآية: ﴿وَنَحْنُ لَكُمْ مُخْلِصُونَ﴾ في العبادة والتوجه فلا نُشْرِكُ به، ولا نَعْبُدُ سواه، فلماذا لا نكون أقرب إلى الله منكم؟! لا

﴿إِنْ حَاجُّوكَ فَقُلْ أَسَلْتُ اللَّهَ وَمَنْ أَتَّبَعْنِي﴾ [آل عمران: ٢٠] وأنتم به مشركون، ولا يكون الجدل إلا في الأمور الخلافية، ولا خلاف في دين الإسلام، ولا في إسلام إبراهيم وإخلائه.

والمراد بالمحاجة في الآية: هي المجادلة فيما تضمنته بعثة محمد ﷺ من نسخ شريعتهم، وفضله وفضل أمته؛ وهذا راجع إلى حسدِهم، ولا يُوجد مجادلة في ذات الله سبحانه.

وتكون المجادلة بين الخصمين في المسائل الخلافية، وكل منهما يريد نصر حجته وإبطال حجة الطرف الآخر، والمطلوب أن تكون هذه المحاجة بالتّي هي أحسن حتى يتضح الحق ويتبين الباطل، وتصفو النفوس، والخلاف في الرأى لا يفسد للودّ قضية.

الْمُسْلِمُونَ أَوْلَى النَّاسِ بِإِبْرَاهِيمَ

١٤٠ - ﴿أَمْ نَقُولُ^(١) إِنَّ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطَ كَانُوا هُودًا أَوْ نَصَارَى قُلْ ءَأَنْتُمْ^(٢) أَعْلَمُ أَمِ اللَّهُ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَتَمَ شَهَادَةً عِنْدَ اللَّهِ مِنَ اللَّهِ وَمَا اللَّهُ بِغَفِيلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾.

وهذه دعوى أخرى ومحاجة في رسل الله، حيث يزعم اليهود أنهم أولى بهؤلاء الرسل المذكورين في الآية من المسلمين، فرد الله عليهم بسؤالهم: هل أنتم أصدق أم الله؟ وهذا لا يحتاج إلى جواب، فهو في غاية الوضوح والبيان، ولا أحد أظلم ممن جمع بين كتمان الحق وعدم النطق به، وأظهر الباطل ودعا إليه.

أي: وجدالكم أيضًا -أيها اليهود- في نسبة إبراهيم وذريته من رسل الله إلى اليهودية أو النصرانية ليس له مجال؛ فلستم أولى بهؤلاء الرسل الكرام من المسلمين، وأولى الناس بهم هم الذين سلكوا طريقهم، ولم يُحرّفوا دينهم، فإبراهيم لم يكن مشركًا، وكذا ذريته إسماعيل وإسحاق وأحفاده، ويعقوب والأسباط، قال تعالى: ﴿يَتَأَهَّلَ الْكَتَبِ لِمَ تُحَاجُّونَ فِي إِبْرَاهِيمَ وَمَا أُنْزِلَتِ التَّوْرَةُ وَالْإِنْجِيلُ إِلَّا مِنْ بَعْدِهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ [آل عمران].
والأمة إذا انغمست في الجهالة والضلالة اجتمعت في عقائدها المتناقضات.

وقد وجدّ النبي ﷺ يومَ الفتح صورة إبراهيم في الكعبة وهو يستقسم بالأزلام فتلا قوله تعالى: ﴿مَا كَانَ إِبْرَاهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَكِنْ كَانَ حَنِيفًا مُسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ [١٧] إِنَّ أَوْلَى النَّاسِ بِإِبْرَاهِيمَ لَلَّذِينَ اتَّبَعُوهُ وَهَذَا النَّبِيُّ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [آل عمران]

فأولى الناس بإبراهيم هو (هذا النبي) محمد ﷺ، ومن آمن به وبدعوته، والله أعلم بما يقرره من حقائق، وكتمانكم لهذا وإظهاراً ضده ظلمٌ عظيمٌ، وأمركم لا يخفى على رب

(١) قرأ نافع وابن كثير وأبو عمرو وشعبة وروح بياء الغيبة، لمناسبة (فإن آمنوا) أو على الالتفات، وقرأ الباقون (أم تقولون) بقاء الخطاب لمناسبة (قل أتُحاجوننا) ويعده (قل أنتم).

(٢) مثل: (أأنذرتهم) في أول السورة آية ٦.

العالمين، ولا ينبغي للإنسان أن يتعلق بغيره من المخلوقين، فالانتفاع بالتقوى والاتباع، لا بالأحساب والأنساب.

أُتْجَادِلُونَ أَيُّهَا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى وتقولون: إن إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط كانوا على دين اليهود أو النَّصَارَى؟ وهذا كذبٌ، فقد بُعثوا وماتوا قبل التوراة والإنجيل ﴿أَمْ نَقُولُونَ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطَ كَانُوا هُودًا أَوْ نَصَارَى﴾ قل لهم يا محمد: ﴿ءَأَنْتُمْ أَعْلَمُكُمْ بِدِينِهِمْ﴾ ﴿أَمِ اللَّهُ﴾؟ وقد أخبر الله تعالى أنهم كانوا حُنفاء مسلمين، ولا أحد أظلم ممن كتم حَقًّا ثابتًا عنده، وافتري على الله غيره ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَتَمَ شَهَادَةً عِنْدَهُ مِنَ اللَّهِ﴾ وهو سبحانه يُحصي أعمالكم، ويجازيكم عليها، ولا يغيب عنه شيء ﴿وَمَا اللَّهُ بِغَفْلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾. قال تعالى:

١٤١ - ﴿تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُمْ مَا كَسَبْتُمْ وَلَا تُسْأَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾.

هذه أُمَّةٌ مِنْ أَسْلَافِكُمْ قَدْ مَضَتْ، فلا تتعلقوا بالمخلوقين، ولا تَغْتَرُّوا بالانتساب إليهم، فالعبرة بالإيمان والتقوى، ومن كَفَرَ برسول كَفَرَ بسائر الرسل، وكُرِّرَتِ الْآيَةُ لِأَنَّ الاختلاف موطنُ المحاجة، وإذا كان الأمر كذلك فاسلكوا طريق الإيمان بالله وحده والإيمان بخاتم الرسل ﷺ، واتركوا الاتكال على آبائكم وأجدادكم، فالإنسان ينتفع بعمله وليس بالانتساب إلى أصله وحسبه ونسبه.

مُخَالَفَةُ الْيَهُودِ الْحَادِيَةِ وَالثَّلَاثُونَ: التَّشْكِيكُ فِي الْإِسْلَامِ بِسَبَبِ تَحْوِيلِ الْقِبْلَةِ

١٤٢ - ﴿سَيَقُولُ السُّفَهَاءُ مِنَ النَّاسِ مَا وَلَّهُمْ عَن قِبْلَتِهِمْ^(١) الَّتِي كَانُوا عَلَيْهَا قُلِ اللَّهُ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ^(٢) إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ^(٣)﴾

ثم أخبر الله سبحانه أن فريقًا من الناس ممن بلغوا الحد الأقصى في السفاهة من

(١) قرأ أبو عمرو ويعقوب بكسر الهاء والميم من (قبلتهم التي) حالة الوصل، وقرأ حمزة والكسائي وخلف بضمهما وصلًا، أما في حالة الوقف على (قبلتهم) فالجميع يكسر الهاء ويسكن الميم.

(٢) قرأ نافع وابن كثير وأبو عمرو وأبو جعفر ورويس بتسهيل الهمزة الثانية من (يشاء إلى) بَيْنَ بَيْنَ وبإبدالها وَاوًا خالصة، وحققها الباقون.

(٣) قرأ قبل ورويس بالسين في (صراط) وأشَمَّ الصَّادَ صَوْتَ الزَّاي خَلْفَ عَنْ حمزة، وقرأ الباقون بالصاد الخالصة.

المشركين والمنافقين واليهود، سوف يطعنون ويُشككون في دعوة محمد ﷺ قائلين: كيف ترك محمد قبلة إبراهيم بمكة، واستقبل بيت المقدس، مع ادعائه أنه على ملة إبراهيم، ويأبى اتباع اليهودية والنصرانية.

أخرج الطبري وابن أبي حاتم والبيهقي بإسناد حسن عن ابن إسحاق عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: لما صُرفت القبلة عن الشام إلى الكعبة في شهر رجب، على رأس سبعة عشر شهرًا من مَقْدَم النَّبِيِّ ﷺ المدينة، أتى رسول الله ﷺ: رفاعة بن قيس، وقرْدم بن عمرو، وكعب بن الأشرف، ورافع بن أبي رافع، والحجاج بن عمرو، والربيع بن الربيع بن أبي الحقيق، وكنانة بن أبي الحقيق، فقالوا: يا محمد، ما ولَّاك عن قبلتك التي كنت عليها، وأنت تزعم أنك على ملة إبراهيم ودينه، فأنزل الله ﴿سَيَقُولُ السُّفَهَاءُ﴾ إلى ﴿مِمَّنْ يَنْقَلِبُ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ﴾^(١).

قال ابن حجر: وكان التحويل في نصف شهر رجب من السنة الثانية على الصحيح، وبه جزم الجمهور^(٢).

ولما فرضت الصلاة ليلة المعراج كان النبي ﷺ وهو في مكة يستقبل الكعبة قبله إبراهيم، وكان إبراهيم عليه السلام لما بنى الكعبة استقبلها في صلاته ودعائه، وهي أول قبلة وُضعت للصلاة، أما اليهود فلا يوجد في أسفار التوراة الخمسة ما يحدد لهم قبلة معينة. واستقبلهم لبيت المقدس سنة لهم سليمان عليه السلام، كما جاء في سفر الملوك الأول، أنه سأل الله فأجاب الله دعاءه.

ولا يوجد في الأناجيل تغيير في أمر القبلة بالنسبة للنصارى، ولكنهم لما وجدوا الروم يجعلون أبواب هياكلهم مستقبلة لدخول أشعة الشمس فيها عند شروقها، عكسوا ذلك وجعلوا أبواب كنائسهم إلى الغرب، ويستقبلون الشرق في صلاتهم كما أن اليهود يستقبلون الغرب.

(١) اللفظ للطبري برقم (٢١٤٩) وهو في «الدر المشور» للبيهقي (٥٧٥/٢) وفي تفسير الآية عن ابن أبي حاتم (١٣٢٧، ١٣٤٢، ١٣٤٥، ١٣٤٨) وفي «سيرة ابن هشام» (٥٥٠/١).

(٢) يُنظر: «فتح الباري» (٩٧/١) وصححه الحاكم.

قيل: إن بولس هو الذي أمر النصارى باستقبال الغرب، ثم إنهم في العصور الوسطى توسعوا في ذلك، فجعلت أبواب كنائسهم مختلفة الاتجاه، وتركوا استقبال جهة معينة في صلاتهم. والأحاديث الصحيحة الواردة في تحويل القبلة من بيت المقدس إلى الكعبة عند المسلمين، ثلاثة أحاديث هي:

حديث ابن عمر رضي الله عنهما: في الصحيحين وغيرهما، وفيه استدارة الناس وهم في صلاة الصبح بمسجد قباء إلى الكعبة^(١).

والحديث الثاني: هو حديث أنس بن مالك في صحيح مسلم وغيره، وفيه أنهم تحولوا إلى الكعبة وهم ركوع في صلاة الفجر في مسجد بني سلمة حين مر بهم رجل وأخبرهم أن القبلة قد حُوِّلَتْ^(٢).

والحديث الثالث: ما جاء في الصحيحين وغيرهما عن البراء، وفي لفظ البخاري: أنهم توجهوا إلى الكعبة في صلاة العصر^(٣). وهي أول صلاة كاملة صليت بعد الأمر بتحويل القبلة.

ولم يكن التوجه إلى بيت المقدس أول قدوم النبي ﷺ إلى المدينة، من باب تأليف قلوب اليهود كما قيل، فهذا لم يرد بسند صحيح، وإنما توجَّه النبي ﷺ إلى كل من بيت المقدس والكعبة بأمر من الله تعالى.

وقد أخبر الله ﷻ رسوله محمداً ﷺ بأن الفتنة بسبب تحويل القبلة ستكون كبيرة، وأنها ستثير رياح الشُّبُه والشُّكوك، ويُتَلَى بها ضُغفَاء الإيمان، ويتخذوا منها سُلماً للطعن في الإسلام والتشكيك فيه، وقد أعلم الله نبيه في سياق تعداد نعمه عليه، بما سيحدث من

(١) «صحيح البخاري» (٤٠٣، ٤٤٨٨) و«صحيح مسلم» (٥٢٧) وأبو داود (١٠٤٥) وأبو يعلى (٣٨٢٦).

(٢) «صحيح مسلم» (٥٢٦، ٥٢٧) وأبو داود (١٠٤٥) وأبو يعلى (٣٨٢٦) والبيهقي (١١/٢) وجاء عن أنس حديث عند البزار (٤٢٠) في «الكشف»، والطبري (٢/٦٢١) بإسناد ضَعُفَهُ ابن حجر في الفتح (٩٧/١) والهيثمي في «مجمع الزوائد» (١٣/٢) وفيه أن القبلة قد حولت من بيت المقدس إلى الكعبة في صلاة الظهر، وهو يوافق رواية النسائي عن أبي سعيد بن المعلى.

(٣) يُنْظَرُ الحديث في «صحيح البخاري» (٤٠، ٣٩٩، ٤٤٨٦، ٤٤٩٢، ٧٢٥٢) وفي الترمذي (٣٤٠، ٢٩٦٢) والنسائي (٧٤١، ٤٨٨، ٤٨٧) وابن أبي شيبه (٣٣٤/١) وابن سعد (٢٤٣/١) وابن حبان (١٧١٦) وغيرهم.

وكما هدى الله المسلمين إلى الطريق الصحيح في الدين هداهم إلى جهة القبلة؛ حيث بَيَّنَ ﷺ أن هذه القبلة التي يتوجه إليها المسلمون هي في مكان وسط من العالم، كمركز الدائرة التي يتوجه إليها من كل جانب، وهي في محاذاة البيت المعمور حيث تطوف حوله الملائكة في السماء.

الكعبة تتوسط العالم: جعل الله تعالى قبلة المسلمين في مكان وسط من العالم، وجعل الأمة الإسلامية أمة وسطاً، أي: خياراً عدولاً، وهي خير الأمم وأعدلها؛ لتشهد يوم القيامة على جميع الأمم أن الرسل قد بلغوا رسالات ربهم.

جاء في الحديث: أن الأمم يوم القيامة يجحدون وينكروُن أن رسل الله تعالى قد بلَّغَتْهم الرسالة، فيبدأ بسؤال أمة نوح ﷺ.

عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: « يدعى نوح يوم القيامة، فيقال له: هل بلَّغت؟ فيقول: نعم، فيُدعى قومه، فيقال لهم: هل بلَّغْتُمْ؟ فيقولون: ما أأتانا من نذير، وما أأتانا من أحد، فيقال لنوح: من يشهد لك؟ فيقول: محمد وأُمته، قال: فذلك قوله: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ﴾ قال: والوسط: العدل، فتدعون، فتشهد له بالبلاغ، وأشهد عليكم^(١).

وفي رواية معناها: فيؤتى بأمة محمد، وتُسأل، فتشهد أن نوحاً وغيره من رسل الله قد بلغوا رسالات ربهم إلى الأمم، فيقال لهم: فمن أين لكم ذلك؟ فيقولون: عرفنا هذا من كتاب الله ﷻ المنزل على رسول الله ﷺ، ثم يؤتى بمحمد عليه الصلاة والسلام فيشهد على صدق أُمته ويزكيهم، ذلكم قول الله سبحانه ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾^(٢).

(١) تنظر رواية أحمد في «المسند» عن أبي سعيد: (٣٢/٣) (٥٨/٣) برقم (١١٢٨٣) بإسناد صحيح على شرط الشيخين وينظر: البخاري (٣٣٣٩، ٤٤٨٧) والترمذي (٢٩٦١) وابن ماجه (٤٢٨٤) و«سنن النسائي الكبرى» (١١٠٧) والبيهقي في «الأسماء والصفات» (٤٦٤) وابن أبي حاتم (١٣٢٢، ١٣٣٦).

(٢) يُنظر هذا المعنى في «المسند» (١١٥٥٨) بإسناد صحيح على شرط الشيخين كما قال (محققه) وابن ماجه (٤٢٨٤) والبيهقي في «الشعب» (٢٦٤) وقد أخرجه ابن المبارك في «الزهد» (١٥٩٨) والطبري (٦٣٥/٢) و«سنن النسائي الكبرى» (١٠٩٤٠).

وسطاً في العقيدة، لا غلو ولا تقصير، لا إفراط ولا تفريط.

فمثلاً: النصارى بعد تحريفهم للإنجيل يقولون: إن عيسى ابن الله، أو أنه هو الإله، أو أنه ثالث ثلاثة، هذا غلو في العقيدة، وتحريف وضلال، واليهود يُفَرِّطون ويُقَصِّرون ويَكْفُرُون، فيقولون عن عيسى ﷺ: إنه ابن زنى، وأن أمه مريم قد زنت به مع يوسف النجار!! وفي كل هذا إفراط وتفریط، وغلو وتقصير، وإحداث وتبديل وتحريف.

وأمة محمد ﷺ يعتقدون أن عيسى عبد الله ورسوله، وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه، لا إفراط ولا تفريط، أمة وسطاً في العقيدة والعبادة والمعاملة، ليس فيها مشقة ولا تهاون، وهي أمة وسط في الزمان، ووسط في المكان، ووسط في العبادة، فالمسلم يصلي أينما أدركته الصلاة، واليهود والنصارى لا يصلون إلا في بيعتهم وكنائسهم، والمسلم يصلي خلف من قال لا إله إلا الله، والنصراني لا يصلي إلا خلف القس، والمسلم أحل الله له الطيبات وحرم عليه الخبائث، واليهودي حرم الله عليهم بعض الطيبات عقوبة لهم، وهكذا ﴿جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ﴾ بسبب عدالتكم وحكمكم بالقسط، فما شهدت له هذه الأمة بالقبول فهو مقبول، وما شهدت له بالرد فهو مردود يوم القيامة أن رسل الله قد بلغوا إلى أممهم رسالتهم ﴿وَيَكُونَ الرِّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾ أنه قد بلغكم رسالة ربه، ويزكي شهادتكم على الناس، فإذا أنكرت بعض الأمم أن رسلهم قد بلغوهم، استشهد الأنبياء بهذه الأمة، وزكاهها نبيا:

فعن أبي هريرة ؓ قال: أتى النبي ﷺ بجنازة يُصلى عليها، فقال الناس: نعم الرجل، فقال النبي ﷺ: «وجبت»، وأتى بجنازة فقال الناس: بئس الرجل، فقال النبي ﷺ: «وجبت»، قال أبي بن كعب: ما قولك وجبت؟ فقال: قال الله تعالى: ﴿لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ﴾ فالملائكة شهود الله في السماء، وأمة محمد ﷺ شهود الله في أرضه^(١).

(١) صححه الألباني في «السلسلة الصحيحة» (٢٦٠٠) و«أخرجه الطبري» (٦٣٢/٢) وابن أبي حاتم في التفسير (١٣٣٤). والحديث في أبي داود (٣٢٣٣) وابن ماجه (١٤٩٢) وسنن النسائي الكبرى (٢٠٧١) وفي المسند (١٠٠٧٦) وابن حبان (٣٠٢٤) وجاء الحديث عن أنس وعمر في البخاري (١٣٦٧، ١٣٦٨) كما وفي مسلم (٩٤٩) والترمذي (١٠٥٨، ١٠٥٩)

مِنْ مَظَاهِرِ الْإِبْتِلَاءِ: تَحْوِيلُ الْقِبْلَةِ عَنْ بَيْتِ الْمَقْدِسِ

﴿وَمَا جَعَلْنَا الْقِبْلَةَ الَّتِي كُنْتَ عَلَيْهَا﴾ وهي بيت المقدس، ﴿إِلَّا لِنَعْلَمَ﴾ نُظْهِرَ فِي عَالَمِ الوجود وصحف الملائكة ما يترتب عليه من الثواب والعقاب، وإلا فالله تعالى عالم بكل شيء قبل وجوده، وإذا وجد العمل ترتب عليه الثواب والعقاب وإقامة الحجة، وقد شرعنا تلك القبلة لَنَمْتَحِنَ ﴿مَنْ يَتَّبِعِ الرَّسُولَ مِمَّنْ يَنْقَلِبْ عَلَى عَقْبَيْهِ﴾ فينقلب مرتدًّا لشكه ونفاقه، وإن كان هذا التحول لثَقِيلٌ إِلَّا عَلَى مَنْ هَدَى اللَّهُ ﴿وَلِنْ كَانَتْ﴾ أي تحولك عن قبة بيت المقدس ﴿لَكِبْرَةٌ﴾ وشاقة ﴿إِلَّا عَلَى الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ﴾ فعرفوا نعمه وشكروه.

ولما قالت اليهود لمن اتجه في صلاته إلى بيت المقدس، ومات قبل أن يدرك التوجه إلى الكعبة، قالوا: إن صلاته باطلة؛ لأنه اتجه نحو القبلة المنسوخة، قال الله سبحانه جوابًا عليهم: ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضَيِّعَ إِيْمَانَكُمْ﴾، بل سيحفظ صلاتكم من الضياع والبطلان ويشبكم عليها، ويحفظ عليكم إيمانكم فلا يفسده ولا ينقصه بل يزيده وينمي ويوفقكم لإتقانه.

أخرج البخاري عن البراء رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ صلى إلى بيت المقدس ستة عشر شهرًا أو سبعة عشر شهرًا، وكان يعجبه أن تكون قبلته قِبَلَ الْبَيْتِ، وأنه صلى أول صلاة صلاها صلاة العصر، وصلى معه قوم، فخرج رجل ممن كان صلى معه فمر على أهل المسجد وهم راكعون، فقال: أشهد بالله، لقد صليت مع النبي ﷺ قِبَلَ مَكَّةَ، فداروا كما هم قِبَلَ الْبَيْتِ، وكان الذي مات على القبلة قبل أن تُحَوَّلَ قِبَلَ الْبَيْتِ رجالًا قُتِلُوا، لم ندر ما نقول فيهم، فَأَنْزَلَ اللَّهُ ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضَيِّعَ إِيْمَانَكُمْ﴾^(١).

قال ابن عباس رضي الله عنهما: لما وُجِّهَ النَّبِيُّ ﷺ إِلَى الْكَعْبَةِ قَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ، كَيْفَ إِخْوَانُنَا الَّذِينَ مَاتُوا وَهُمْ يَصْلُونَ إِلَى بَيْتِ الْمَقْدِسِ؟ فَأَنْزَلَ اللَّهُ ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضَيِّعَ إِيْمَانَكُمْ﴾^(٢).

(١) انفرد به البخاري برقم (٤٠، ٤٤٨٦) ورواه مسلم من وجه آخر برقم (٥٢٥).

(٢) قال الترمذي: حديث حسن صحيح (٢٩٦٤) و«المسند» (٢٦٩١، ٢٧٧٥، ٣٢٤٩) صحيح لغيره، وهذا إسناد رجاله ثقات، رجال الصحيح والطالسي (٢٧٩٥) والطبري (٦٥١/٢) وابن حبان (١٧١٧) والطبراني (١١٧٢٩)، والدارمي (١٢٣٥).

وكان منهم: أسعد بن زرارة، والبراء بن معرور، وأبي أمامة.

وورد أن حُيي بن أخطب وجماعة من اليهود قالوا للمسلمين: أخبرونا عن صلاتكم إلى بيت المقدس، إن كانت على هدى، لقد تحولتم عنه، وإن كانت على ضلالة فقد عبدتم الله مسافة، ومن مات عليها فقد مات على ضلالة، فقال المسلمون: إنما الهدى فيما أمر الله تعالى، والضلالة فيما نهى الله عنها، فقالوا: فما شهادتكم على من مات منكم على قبلتنا؟ وكان قد مات من المسلمين جماعة قبل تحويل القبلة، فانطلق عشائهم إلى النبي ﷺ فقالوا: يا رسول الله، كيف إخواننا الذين ماتوا وهم يصلون إلى بيت المقدس؟ فأنزل الله ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضَيِّعَ إِيْمَانَكُمْ﴾.

والمراد بالإيمان: الصلاة، أي: وما كان الله ليضيع صلاتكم حين توجهتم إلى بيت المقدس، فمن مات منكم على ذلك قبل الأمر بتحويل القبلة ف ﴿إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَحِيمٌ﴾، ومن رأفته ورحمته أن ميّز من دخل في الإيمان بلسانه دون قلبه، وأن امتحنهم امتحاناً تزداد به درجاتهم، وأن وجههم إلى أشرف البيوت وأجلّها.

تَحْوِيلُ الْقِبْلَةِ

١٤٤- ﴿قَدْ زَرَى ثَقَلَبٌ وَجْهَكَ فِي السَّمَاءِ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَاهَا فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَحَيْثُ مَا كُنْتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ وَإِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ وَمَا اللَّهُ بِغَفِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ﴾^(١)

كان النبي ﷺ وهو في مكة يستقبل الكعبة من الجهة الجنوبية، فيكون متوجّهاً إلى صخرة بيت المقدس بالضرورة، فلما هاجر ﷺ إلى المدينة أمره الله بالتوجه إلى بيت المقدس، واستمر الأمر على ذلك ستة عشر أو سبعة عشر شهراً، يتوجه إلى الله ويبتهل إليه خلالها أن يحوله إلى الكعبة، فأجيب إلى ذلك، وأمر بالتوجه إلى الكعبة، وفي ذلك امتحان للمسلمين، وفيه حكّم تربوية؛ حيث كان العرب في الجاهلية يُعظمون ويمجّدون الكعبة المشرفة وتتعلق قلوبهم بها، وقد أراد الله ﷻ أن يُخلّص النفوس من رواسب

(١) قرأ نافع وابن كثير وأبو عمرو وعاصم ورويس وخلف العاشر (يعملون) بياء الغيبة عائد على أهل الكتاب، وقرأ الباقون بياء الخطاب، والمخاطب هم المؤمنون وهو مناسب لقوله تعالى: (وحيث ما كنتم فولوا).

الجاهلية، وأن يجعلها تتعلق بالله وحده، وتوجه حيث أمر الله سبحانه، وألا ترتبط بمكان من الأمكنة، ولا بزمان من الأزمنة.

قال سبحانه في بيان ذلك: ﴿وَمَا جَعَلْنَا الْقِبْلَةَ الَّتِي كُنْتَ عَلَيْهَا﴾ يعني: بيت المقدس ﴿إِلَّا لِنَعْلَمَ مَنْ يَتَّبِعِ الرَّسُولَ مِمَّنْ يَنْقَلِبْ عَلَى عَقِبَيْهِ﴾ وفي هذا ابتلاء للمؤمنين؛ ليظهر في عالم الوجود من يثبت منهم على الإيمان، ومن لم يثبت، ويعلمهم أن لله المشرق والمغرب، والله تعالى عالم في الأزل بكل ما يريد وجوده في الوقت الذي يشاء، والمكان الذي يشاء ﴿قُلْ لِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ وبيتلي من يشاء من عباده، فكان أن ارتد قوم عن إسلامهم نتيجة تحول القبلة.

وكان النبي ﷺ يتألف قلوب اليهود تحبباً لهم إلى الدخول في دين الإسلام، وكان من المفروض أن يؤدي تحويل القبلة أولاً من الكعبة إلى بيت المقدس، إلى تألف قلوب اليهود، ولكن ذلك أدى إلى نتيجة عكسية؛ حيث زاد القوم استكباراً وعناداً فأخذوا يتحدثون، ويقولون: إن ديننا هو الحق، وقبلتنا هي الحق، وما ترك محمد قبلتنا إلا حسداً لنا، ولو لم يكن الأمر كذلك ما اتجه إلى قبلتنا، وأنه يوشك أن يعود إلى ديننا كما عاد إلى قبلتنا، والله تعالى لا تخفى عليه أعمالهم، وسوف يجازيهم عليها ﴿وَمَا اللَّهُ بِغَفِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ﴾.

وكان النبي ﷺ يحب أنه يُوجَّه إلى الكعبة قبله أبيه إبراهيم وإسماعيل، فكان يتطلع إلى السماء بغية تحويل القبلة، دون أن يتكلم بشيء؛ تأديباً مع رب العالمين، وظل كذلك ستة عشر أو سبعة عشر شهراً، يتوجه إلى بيت المقدس بعد الهجرة، حتى أنزل الله تعالى عليه يأمره بالتوجه إلى الكعبة ﴿قَدْ رَأَى نَفْلًا﴾ أي: تحول ﴿وَجْهَكَ فِي السَّمَاءِ﴾ مرة بعد مرة، انتظاراً لنزول الوحي ﴿فَلَنُؤْيِيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَاهَا﴾ وتحبها.

الأمر الأول: بالتوجه إلى الكعبة: ﴿فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ﴾ مخالفة لليهود، وليكون أذعى إلى تثبيت الإيمان في قلوب أهلها، وفي هذا اشتراط استقبال القبلة في الصلاة فرضاً ونفلاً، باستقبال عينها إن أمكن، وإلا فاستقبال جهتها، وفيه إشارة إلى أن الالتفات بالبدن مبطل للصلاة، وكان يكفي هذا الأمر، ولكن الله سبحانه أكدته أكثر من مرة لبيان وجوب التوجه إلى الكعبة في كل زمان وفي كل مكان من الناس أجمعين، فقال جل شأنه: ﴿وَحَيْثُ مَا كُنْتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ﴾ أي في أي مكان كنتم، وفي

أي زمان كنتم، ولُّوا وجوهكم قبل المسجد الحرام، وتم تحويل القبلة في منتصف شهر شعبان من السنة الثانية للهجرة، وقيل: في منتصف شهر رجب.

مسجد القبلتين:

١- والمكان الذي نزل فيه الأمر على النبي ﷺ بتحويل القبلة هو مسجد بني سلمة، حيث كان عليه الصلاة والسلام يُصَلِّي الصبح فيه، ثم سُمِّي هذا المسجد بعد ذلك بمسجد القبلتين، وكان قد صَلَّى ركعة وأمر بالتوجه إلى الكعبة وهو في الصلاة فتحول النبي ﷺ وتحول معه المسلمون تجاه الكعبة وهم في الصلاة^(١).

٢- وجاء في رواية أبي سعيد بن المعلى عند النسائي أنها كانت صلاة الظهر، قال: كنا نغدو للسوق على عهد رسول الله ﷺ فنمر على المسجد فنصلي فيه فمررنا يوماً ورسول الله ﷺ قاعد على المنبر فقلت: لقد حدث أمر، فجلست، فقرأ رسول الله ﷺ قوله تعالى: ﴿قَدْ رَأَى ثَقَلُ بْنُ وَجْهِكَ فِي السَّمَاءِ فَلَتَوَلَّىكَ قِبَلَهُ تَرْضَاهَا﴾ فقلت لصاحبي: تعال نركع ركعتين قبل أن ينزل رسول الله ﷺ فنكون أول من صلى، فتوارينا فصلينا، ثم نزل رسول الله ﷺ فصلى للناس الظهر يومئذ^(٢).

٣- وأول صلاة كاملة صَلَّيْتُ إلى الكعبة بعد التحويل هي صلاة العصر، كما جاء في حديث البراء السابق عند البخاري وغيره^(٣).

٤- أما مسجد قُباء فقد وصل إليه الخبر في صلاة الفجر التالي كما جاء في الصحيحين عن ابن عمر رضي الله عنه أنه قال: بينما الناس بقباء في صلاة الصبح إذ جاءهم آت فقال: إن رسول الله ﷺ قد أنزل عليه الليلة قرآن، وقد أمر أن يستقبل الكعبة فاستقبلوها^(٤).

قال ابن كثير: وفي هذا دليل على أن الناسخ لا يلزم حكمه إلا بعد العلم به، وإن تقدم نزوله

(١) من حديث أنس بن مالك في «صحيح مسلم» برقم (٥٢٧)

(٢) «سنن النسائي الكبرى» برقم (١١٠٠٤) وهو في ط مؤسسة الرسالة عام ١٤٢٢ برقم (١٠٩٣٧). وقد ضعفه ابن حجر في الفتح (٩٧/١).

(٣) ينظر: البخاري (٤٠، ٣٩٩، ٤٤٨٦) ومسلم (٥٢٥)، وهو في صحيح سنن النسائي (٧١٦، ٤٧٥، ٤٧٤)

(٤) «صحيح مسلم» برقم (٥٢٦، ٥٢٧) والبخاري برقم (٤٤٨٨) والترمذي برقم (٣٤١)، وصحيح سنن النسائي (٧١٩، ٤٧٩).

وإبلاغه؛ لأنهم لم يؤمروا بإعادة العصر والمغرب والعشاء. وهكذا كان أصحاب النبي ﷺ يمثلون أوامر الله تعالى، وأوامر رسوله ﷺ دون تلكؤ ولا تباطؤ: ﴿إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ الْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَنْ يَقُولُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ (٥١) وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَخْشَ اللَّهَ وَيَتَّقْهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ﴾ (٥٢) [النور].

قَطْعُ الْأَطْمَاعِ فِي اتِّبَاعِ أَهْلِ الْكِتَابِ لِخَاتَمِ النَّبِيِّينَ ﷺ

١٤٥ - ﴿وَلَيْنَ آتَيْتَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ بِكُلِّ آيَةٍ مَا تَبِعُوا قِبْلَتَكَ وَمَا أَنْتَ بِتَابِعٍ قِبْلَتَهُمْ وَمَا بَعْضُهُمْ بِتَابِعٍ قِبْلَةَ بَعْضٍ وَلَئِنْ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ إِنَّكَ إِذَا لَئِنَ الظَّالِمِينَ﴾
وقد ذكر سبحانه الأمر بالتوجه إلى الكعبة ثلاث مرات، وأكد على ذلك في مرة خاصة بأهل الكتاب، فبين سبحانه أن محمداً ﷺ لو جاء إلى المعاندين المخالفين بكل حجة وبكل برهان على أن يتوجهوا إلى الكعبة في الصلاة، ما تبعوا قبلتك عناداً واستكباراً ﴿وَلَيْنَ آتَيْتَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ بِكُلِّ آيَةٍ مَا تَبِعُوا قِبْلَتَكَ﴾ قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ (٩٦) وَلَوْ جَاءَتْهُمْ كُلُّ آيَةٍ حَتَّى يَرَوْا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ﴾ (٩٧) [يونس].

وما أنت براجع إلى قبلتهم في بيت المقدس كما قال تعالى ﴿وَمَا أَنْتَ بِتَابِعٍ قِبْلَتَهُمْ﴾ واليهود لن يتبعوا قبله النصارى، والنصارى لن يتوجهوا إلى قبله اليهود ﴿وَمَا بَعْضُهُمْ بِتَابِعٍ قِبْلَةَ بَعْضٍ وَلَئِنْ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ﴾ يا رسولنا ﴿أَهْوَاءَهُمْ﴾ أي: أهواء أهل الكتاب في شأن القبلة وغيرها من بعدما تبين لك الحق من أنهم على باطل بعدم اتباع ما أنزله الله إليك عن طريق الوحي، وهو العلم المراد في قوله تعالى: ﴿مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ إِنَّكَ إِذَا﴾ إن اتبعت أهواء أهل الكتاب ﴿لَئِنَ الظَّالِمِينَ﴾ المخالفين لشرع الله مع علمك أنك على حق، ومع علمهم أنك على حق ﴿وَإِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ﴾ فالتوجه إلى الكعبة هو الحق؛ حيث إن الخبر ممن لا ينطق عن الهوى، وهم يعلمون أنه على حق، وأنه الموجود في التوراة والإنجيل، وهم يعلمون ذلك تمام العلم، ولكنهم يعترضون عناداً وبغياً والظلم على مراتب ينتهي إلى العقائد الضالة، وهو ظلم النفس.

مُخَالَفَةُ الْيَهُودِ الثَّانِيَّةِ وَالثَّلَاثُونَ: كُفْرُهُمْ بِمُحَمَّدٍ ﷺ مَعَ شِدَّةِ مَعْرِفَتِهِمْ لَهُ

١٤٦ - ﴿الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ آبَاءَهُمْ وَإِنَّ فَرِيقًا مِنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾

ولما ذكر سبحانه اعتراض أهل الكتاب على تحويل القبلة، ويّين أن كُلاً من اليهود والنصارى والمسلمين لن يتبع قبلة الآخر، ذكر في هذه الآية، أن أهل الكتاب والعلم منهم، يعلمون بمقتضى ما في كتبهم أن ما يقوله محمد حق وصدق، وهم بالتالي يعرفون صاحب الرسالة أقوى وأشد من معرفتهم لأبنائهم، لا يشكون في ذلك فيما بينهم، ولكنهم يكتُمون هذا الحق وهم يعلمون، وبعضهم لا ينكر ذلك ممن أسلم وحسن إسلامه.

وكما أن أسماء النبي ﷺ وصفاته موجودة في التوراة والإنجيل وهم يعلمونها تماماً، فمن أسمائه ﷺ: أحمد، والمتوكل، والفارقليط، ومن صفاته ﷺ عندهم: أنه ليس بفظ، ولا غليظ، ولا صخاب في الأسواق، ولا يدفع السيئة بالسيئة ولكن يعفو ويصفح.

مَعْرِفَتِي بِمُحَمَّدٍ أَشَدُّ مِنْ مَعْرِفَتِي بِإِبْنِي

وأهل الكتاب يعرفونه ﷺ أكثر من معرفتهم لأبنائهم، كما يّين تعالى أن الذين أعطاهم الله التوراة والإنجيل من أحبار اليهود وعلماء النصارى يعرفون محمداً بأوصافه المذكورة في كتبهم مثل معرفتهم لأبنائهم أو أشد ﴿الَّذِينَ ءَاتَيْنَهُمُ الْكِتَابَ﴾ من اليهود كعبد الله بن سلام ومن النصارى؛ كتميم الداري، وصُهَيْب ﴿يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ﴾.

سأل عمر رضي الله عنه عبد الله بن سلام، قال له: أتعرف محمداً كما تعرف ولدك؟ قال: نعم، معرفتي بمحمد أشد من معرفتي بابني، قال: كيف؟ قال: نزل الأمين من السماء على الأمين في الأرض بنعته فعرفته، وإني لا أدري ما كان من أمّ ولدي.

أي: أني أشهد أن محمداً رسول الله حقاً، كما نعتّه الله في كتابنا، لا أشك في ذلك؛ لأن معرفتي بمحمد جاءت عن طريق الوحي من عند الله تعالى، أما ولدي فلعل والدته قد خانت، ولا أدري ما تصنع النساء، فمعرفتي بمحمد أوثق، فقبل عمر رأسه، وقال: وفقك الله يا بن سلام، فقد صدقت^(١).

قال سلمان الفارسي: خرجتُ أبتغي الدين، فوافقتُ في الرهبان، بقايا أهل الكتاب، وكانوا يقولون: هذا زمان نبي قد أظّل، يخرج من أرض العرب، له علامات، من ذلك

(١) يُنظَر «تفسير القرطبي» للآية وقد أخرجه الثعلبي من طريق السُّدِّي الصغير عن الكلبي عن ابن عباس كما في «الدر المنثور» (٣٢/٢).

شامةٌ مُدَوَّرة بين كتفي خاتم النبوة^(١).

وفي الحديث: عن أبي رُمثة أن النبي ﷺ رأى رجلاً معه طفل صغير، فقال: «ابنك هذا؟ قال: نعم يا رسول الله، أشهد به، قال: إنه لا يجني عليك ولا تجني عليه»^(٢).

أما من لم يُسلم من علماء أهل الكتاب، فإنهم يكتمون صفة محمد ﷺ، وينكرون رسالته مع علمهم بذلك من التوراة والإنجيل، قال تعالى: ﴿وَلَنْ فَرِّقَا بَيْنَهُمَا﴾ أي: من أهل الكتاب ﴿لَيَكْتُمُونَ الْحَقَّ﴾ صفة محمد، حسداً وعناداً مثل ابن صوريا، وكعب بن الأشرف ﴿وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ حقيقة ما يكتُمونه.

ويجوز أن يكون المعنى أن الذين أوتوا الكتاب من اليهود والنصارى يعرفون أن تحويل القبلة إلى الكعبة هو الحق، وأنهم لا يشكُّون في ذلك كما لا يشكُّون في أبنائهم؛ لوجود ذلك عندهم في التوراة والإنجيل، وبهذا قال قتادة والربيع، أي: أن البيت الحرام هو القبلة التي أمروا بها، وفريق منهم يكتُم هذا الحق وينكر معرفته به والمعنى الأول أظهر، وهو يقتضي بالضرورة تصديق ما جاء به محمد ﷺ من أمر التحويل إلى القبلة وغيرها. قال تعالى:

١٤٧ - ﴿الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ﴾

ثم وجَّه الله سبحانه الخطاب لرسوله ﷺ، والمراد جميع خلقه من الإنس والجن، في كل زمان ومكان، مؤكداً أن محمداً ﷺ هو رسول من عند الله حقاً وصدقاً ﴿الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ﴾ أيها المخاطب ﴿مِنَ الْمُمْتَرِينَ﴾ الشاكيين فيه، كما اختلفوا في شأن القبلة، فاليهود تستقبل بيت المقدس، والنصارى تستقبل مطلع الشمس، وأنت يا محمد تتوجه إلى الكعبة، فلا ترجو موافقتهم لك، والزم قبلتك التي أمرت بها فهي الحق.

(١) أخرجه الطبراني في الكبير (٦١٨٠).

(٢) «المسند» (٢/٢٢٦، ٢٢٨) برقم (٧١٠٦، ١٧٤٩٩) وغيرهما برجال ثقات وإسناد صحيح على شرط مسلم، كما قال محققوه، وأبو دواد في السنن برقم (٤٤٩٥)، (٤٢٠٨).

الْأَمْرُ بِالسَّابِقَةِ إِلَى الْخَيْرَاتِ

١٤٨ - ﴿وَلِكُلِّ وِجْهَةٍ هُوَ مُوَلِّهَا^(١)﴾ فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ أَيْنَ مَا تَكُونُوا يَأْتِ بِكُمْ اللَّهُ جَمِيعًا إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٤٨﴾

ثم يصرف الله سبحانه أنظار المسلمين عن الانشغال بدسائس وفتن أهل الكتاب إلى العمل الصالح، والمبادرة إلى قبول الأوامر، وترك النواهي، والإكثار من الطاعات والخيرات؛ فلكل أهل ملة قبله يُتَوَجَّه إليها في عبادتهم، وقبله الإسلام هي الكعبة، فبادروا بالتوجه إليها.

ولكل أهل ملة طريقة وشريعة تناسب زمانهم ومكانهم وأشخاصهم ﴿لِكُلِّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا﴾ [المائدة: ٤٨] وتذكروا أن مرجعكم جميعاً إلى الله، فيثيب المطيع ويجازي العاصي، وهو قادر على إعادتكم بعد الموت، ومجازاتكم على ما قدمت أيديكم ﴿وَلِكُلِّ وِجْهَةٍ﴾ أي: قبله أو شريعة ﴿هُوَ مُوَلِّهَا﴾ أي: مستقبلها فبادروا إلى صالح الأعمال التي جاء بها الإسلام وتسبقوا إلى الخيرات والمبرات ﴿فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ﴾ فالأعمال الصالحة مصدر السعادة في الدنيا والآخرة، قال تعالى ﴿سَابِقُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ﴾ [الحديد: ٢٠]

أما القبلة فإنها من الشرائع التي تتغير بها الأزمنة ويدخلها النسخ، ولكن العبرة في أمثال الطاعة والتقرب إلى الله تعالى، والمبادرة إلى الخيرات، فإن من سبق إليها في الدنيا سبق إلى الجنة في الآخرة.

﴿أَيْنَ مَا تَكُونُوا يَأْتِ بِكُمْ اللَّهُ جَمِيعًا﴾ يفصل بين الحق والباطل يوم القيامة، ليجزي الذين أساءوا بما عملوا ويجزي الذين أحسنوا بالحسنى ﴿إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ ومن قدرته سبحانه البعث والحساب والجزاء على الأعمال.

وفي حديث أنس بن مالك ؓ أن رسول الله ﷺ قال: «من صلى صلاتنا، واستقبل قبلتنا، وأكل ذبيحتنا، فذلك المسلم؛ له ذمة الله وذمة رسوله، فلا تخفروا الله في ذمته»^(٢). ويستدل بهذه الآية على فضيلة الإتيان بالأعمال الصالحة والعبادات المفروضة،

(١) قرأ ابن عامر (هو مولأها) بفتح اللام المشددة، وبعدها ألف، على أنه اسم مفعول، وقرأ الباقون كحفص (هو موليها) على أنه فاعل.

(٢) البخاري (٣٩١) والنسائي (٥٠١٢) والبيهقي في سننه (٣/٢).

كالصلاة والزكاة والجهاد والعمرة، وكذا السنن والآداب في أول وقتها بالإسراع إليها.

الأمر الثاني: التَّوَجُّهُ إِلَى الْكَعْبَةِ هُوَ الْحَقُّ الثَّابِتُ وَلَا حُجَّةَ لِلْمُتَشَكِّكِينَ فِيهِ

١٤٩- ﴿وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَإِنَّهُ لَلْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ وَمَا اللَّهُ بِغَفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ^(١)﴾

ثم أمر سبحانه بالتوجه إلى الكعبة في الصلاة في أي حال كان عليه المسلم في سفر أو حضر، وفي أي مكان كان ﴿وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ﴾ وهذه الآية تخلو من ذكر أهل الكتاب، وموقفهم من التوجه إلى الكعبة ﴿وَإِنَّهُ﴾ أي: وإن هذا التوجه المأمور به لهو الحق الثابت الذي لا مرية فيه ﴿مِنْ رَبِّكَ﴾ لثلا يقع لأحد أدنى شبهة في ذلك.

ثم يحذر سبحانه من طرف خفي من الانحراف عن هذا الحق، فإن الله تعالى لا يخفى عليه شيء ﴿وَمَا اللَّهُ بِغَفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ فهو سبحانه يحصي أعمالكم ويجازيكم عليها، إن خيراً فخييراً وإن شراً فشر.

الأمر الثالث بِوُجُوبِ التَّوَجُّهِ إِلَى الْكَعْبَةِ فِي الصَّلَاةِ

١٥٠- ﴿وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَحَيْثُ مَا كُنْتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ إِلَّا بَلَا يَكُونُ لِلنَّاسِ عَلَيْكُمْ حُجَّةٌ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ فَلَا تَحْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنِي وَلَا تُنِمُوا نِعْمَتِي عَلَيْكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ^(٢)﴾

ثم يأتي الأمر الثالث بوجوب التوجه في الصلاة إلى الكعبة بغرض إبطال حجة أهل الكتاب، وَمِنْ انْسَاقِ مِنْهُمْ أَوْ يَنْسَاقُ وراء ترويجهم للباطل من المنافقين والمشركين. فقد قالت قريش: رجع محمد إلى الكعبة؛ لأنه علم أنها الحق، وأنها قبله أبيه، وسيرجع إلى ديننا كما رجع إلى قبلتنا. وقالت اليهود: لم ينصرف محمد عن بيت المقدس مع علمه أنه حق، إلا أنه يعمل برأيه^(٢).

(١) قرأ أبو عمرو بياء الغيبة في (تعملون) مراعاة لشأن الكاتمين للحق من أهل الكتاب، وقرأ الباقون بتاء الخطاب موافقة لنسق الآية لما قبلها.

(٢) يُنْظَرُ قول ابن عباس وقتادة في «تفسير الطبري» (٢/ ٦٨٥، ٦٨٦).

﴿وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ﴾ من أي مكان خرجت، وفي أي مكان كنت ﴿قَوْلٍ وَجْهَكَ﴾ خطاب للنبي ﷺ ﴿شَطْرَ﴾ أي: جهة ﴿الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ﴾ ثم خاطب الله الأمة عموماً فقال: ﴿وَحَيْثُ مَا كُنْتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ﴾ من أي أقطار العالم كنتم، سواء أكنتم تشاهدون الكعبة، أم كنتم قريبين منها، أم بعيدين عنها في سائر الأمصار والقرى والصحاري والبادي والشعاب، في البر، أو البحر، أو الجو ﴿لئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ﴾ المخالفين لكم احتجاج عليكم بالمخاصمة والمجادلة بعد هذا الذي حدث من أهل الكتاب والمشركين؛ فباستقبال الكعبة قامت الحجة عليهم وانقطع جدالهم، لأن أهل الكتاب يجدون في كتبهم أن قبلة محمد هي الكعبة، والمشركون يرون أنها من تراثهم ومفاخرهم، وأنه من ملة إبراهيم، فإذا لم يستقبلها محمد، قالوا: كيف يدَّعي أنه على ملة إبراهيم، وأنه من ذريته، وقد ترك استقبال قبلته؟ وذلك لأن اليهود عرفوا أن الكعبة قبلة إبراهيم، ووجدوا في التوراة أن محمداً سيُحوّل إليها، فلما حوّل إليها ذهبت حجتهم، إلا الظالمين المعاندين القائلين: يوشك أن يرجع إلى ديننا كما رجع إلى قبلتنا، وهم أهل الظلم الذين احتجوا بحجة هم ظالمون فيها وليس لهم مستند إلا اتباع الهوى، وهم الذين قال الله عنهم: ﴿إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ﴾ وهم المشركون ومن كتموا ما عرفوا من الحق من اليهود والنصارى، وصدوا الناس عن دين الله ﴿فَلَا تَخْشَوْهُمْ﴾ لا تخشوا شبه الظلمة المتعنتين، لأن حجتهم باطلة، والباطل مخذول، فإنهم لن يضروكم، ولا تخشوا غيري، فإنهم هم السفهاء الذين سبق وصفهم ﴿وَإِخْشَوْنِي﴾ خافوني واحذروا عقابي ﴿وَلَا تُتِمَّ نِعْمَتِي عَلَيْكُمْ﴾ بهدايتكم إلى الإسلام واختيار أكمل الشرائع لكم، ودخولكم الجنة، والتمتع بالنظر إلى وجه الله الكريم ﴿وَلَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ إلى الحق والصواب الذي ضل عنه غيركم، وكان صرف المسلمين إلى الكعبة قد حصلت فيها فتنة كبيرة أشاعها المشركون وأهل الكتاب ولفظ (لعل وعسى) من الله تعالى للوجوب، وقد اقترن هذا الأمر الثالث بحكم ثلاث هي:

- ١- قطع دابر الفتنة بإزالة حجة المخالفين.
- ٢- وإن من تمام النعمة، الاستقلال عن اليهود في القبلة.
- ٣- ومن تمام النعمة الإرشاد إلى الصواب الذي ضل عنه غيرنا.

والفرق بين الآيات الثلاث:

أن الأمر الأول بالتوجه إلى الكعبة في الصلاة: فيه استجابة لرغبة النبي ﷺ و فيه ذكر لأهل الكتاب.

والأمر الثاني: فيه بيان أن ذلك هو الحق الثابت من عند الله، ولا عبرة بتشكيك المضلين.

والأمر الثالث: فيه قطع لحجة المعترضين من اليهود والمنافقين والمشركين على تحويل القبلة.

وقد وجه الأمر بالتوجه إلى الكعبة إلى الرسول خاصة، ثم إلى الأمة عامة، وفي هذا قطع لأطماع أهل الكتاب من اتباع الرسول قبلتهم.

امْتِنَانُ اللَّهِ عَلَى هَذِهِ الْأُمَّةِ بِرِسَالَةِ مُحَمَّدٍ ﷺ

١٥١- ﴿كَمَا أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولًا مِّنكُمْ يَتْلُوا عَلَيْكُمْ ءَايَاتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ﴾ (١٥١)

أي: وكما أتم الله نعمته عليكم أيها المؤمنون فهداكم إلى ما ضلت عنه الأمم قبلكم، أرسل فيكم هذا الرسول الخاتم؛ إجابة لدعوة أبيه إبراهيم، لتعليمكم الكتاب والسنة، وتطهيركم من دنس الشرك وأخلاق الجاهلية وإخراجكم من الظلمات إلى النور ﴿كَمَا أَرْسَلْنَا فِيكُمْ﴾ أيها الناس جميعاً ﴿رَسُولًا مِّنكُمْ﴾ هو محمد ﷺ تعرفون حسبته ونسبه، وصدقه وأمانته ثم وصفه ربنا بخمسة أوصاف:

أولها: ﴿يَتْلُوا عَلَيْكُمْ ءَايَاتِنَا﴾ القرآن والسنة، لبيان الحق من الباطل، والهدى من الضلال، والتوحيد من الشرك، وما في اليوم الآخر من البعث الحساب والجزاء.

وثانيها: ﴿وَيُزَكِّيكُمْ﴾ أي: يطهركم من الشرك والذنوب، ويربيكم على الأخلاق الحميدة، واجتناب الأخلاق الرذيلة، كالتزكية من الرياء إلى الإخلاص، ومن الكذب إلى الصدق...

وثالثها: ﴿وَيُعَلِّمُكُمُ الْكِتَابَ﴾ فالتعليم غير التلاوة، والرسول يعلمكم ألفاظ القرآن ومعانيه، تلاوة وتدبراً، وعلمًا وعملاً.

ورابعها: ﴿وَالْحِكْمَةَ﴾ السنة الموضحة للقرآن والتفقه في الدين، ومعرفة أسرار الشريعة.

وخامسها: ﴿وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ﴾ عن طريق الوحي من أخبار الأمم الماضية، والحوادث المستقبلية، وما غاب عن العباد، وعن طريق الاستنباط والاجتهاد، وكان الناس قبل البعثة في ضلال مبين، لا علم لهم ولا عمل، فهذا القرآن وهذه السُّنَّة القولية والفعلية المستمدة منه هما مادة التَّوْجِيهِ والتعليم، والحكمة هي ثمرة هذا التعليم، وهي تعني وضع الأمور في مواضعها، ووزنها بميزانها الصحيح.

وقد طلب إبراهيم من ربه في الآية السابقة توافر أربعة أشياء على هذا الترتيب:

١- يتلو عليهم آياته. ٢- ويعلمهم الكتاب. ٣- والحكمة. ٤- ويزكيهم.

فكان إجابة دعائه في هذه الآية بتقديم التزكية، وهي التطهر من الشرك والذنوب؛ لأن التخلية تكون قبل التَّحْلِيَةِ وسمو الخلق، فيقدم ذلك على تعليم الكتاب والحكمة.

وقد قدم الله تزكية النفس على تعليم الكتاب والحكمة في مثل قوله تعالى: ﴿لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ ءَايَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِن قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ [آل عمران].

وذم الله سبحانه من لم يَصُنْ هذه النعمة ويعمل بمقتضاها في مثل قوله سبحانه: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ بَدَّلُوا نِعْمَتَ اللَّهِ كُفْرًا وَأَحَلُّوا قَوْمَهُمْ دَارَ الْبَوَارِ ﴿٧٨﴾ جَهَنَّمَ يَصَلُّونَهَا وَيُسَوِّغُونَ لِقَارِهِمْ ﴿٧٩﴾ أَلْقَارُ﴾ [إبراهيم].

وتلاوة آيات الكتاب أمر عام، يشمل ما جاء فيه من دلائل التوحيد والهداية، وأصول الأخلاق، وتزكية النفوس، وما اشتملت عليه آيات القرآن من الأدلة العقلية والعقلية على أصول العقائد والقواعد. ويولي ذلك تزكية الأخلاق من سفاسف الأمور وقبائح العادات، ويليها تعليم الحلال والحرام وشرائع الإسلام، ومهمة الرسالة جاءت على هذا النحو: التلاوة العامة للكتاب، وهي تختلف عن التعليم، ﴿يَتْلُوا عَلَيْهِمْ ءَايَاتِهِ﴾ تختلف عن ﴿وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ﴾ ثم طهارة الأخلاق، ثم التكاليف الشرعية.

وقد بدأت مهمة الرسول بتزكية النفوس والطهارة من رذائل الجاهلية وأفعالها القبيحة، وفي مقدمة ذلك إزالة الشرك وتزكية النفوس بالتوحيد، وهو أول شيء فعله الرسول ﷺ بأهل مكة، ثم شرعت الأحكام الشرعية غالباً في المدينة.

أَرْبَعَةُ تَوْجِيهَاتٍ لِتَرْبِيَةِ النُّفُوسِ الْمُؤْمِنَةِ

التَّوَجُّيَةُ الْأُولَى: الْمُدَاوِمَةُ عَلَى ذِكْرِ اللَّهِ تَعَالَى وَشُكْرِهِ

١٥٢ - ﴿فَاذْكُرُونِي﴾^(١) أَذْكُرْكُمْ وَأَشْكُرُوا لِي وَلَا تَكْفُرُونَ^(٢) ﴿١٥٢﴾

وفي التعقيب على هذه النعم يوجِّه الله ﷻ عباده أربع توجيهات لتربية النفوس المؤمنة لمواجهة الأحداث الجسام:

التَّوَجُّيَةُ الْأُولَى: المداومة على ذكر الله تعالى وشكره.

التَّوَجُّيَةُ الثَّانِي: الاستعانة على المتاعب بالصبر والصلاة.

التَّوَجُّيَةُ الثَّالِث: تربية النفوس على حب الشهادة في سبيل الله.

التَّوَجُّيَةُ الرَّابِع: مواجهة الخوف والجوع ونقص الأموال والأنفس والأرزاق بالصبر والرضا والتفويض.

أما التَّوَجُّيَةُ الْأُولَى: فهو يهدف إلى الاعتراف بهذه النعم عن طريق ذكره تعالى بالطاعة والعبادة، وشكره بالقول والعمل، وتحذيرهم من كفره وجحد نعمته.

وذكر اللسان يكون بالتسبيح والتحميد والثناء والتمجيد . . إلخ.

وذكر القلب يكون بالتفكير في عظمة الله تعالى وأدلة وحدانيته.

وذكر الجوارح يكون بالاستغراق في الطاعات والأعمال الصالحة؛ كالصلاة، والحج.

فاذكروني بطاعتي أذكركم بمغفرتي.

وقد أمر الله بالذكر، ووعد عليه أفضل جزاء، وهو ذِكْرُهُ سبحانه لمن ذَكَرَهُ، فقال ﴿فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ﴾.

قال الحسن البصري: (اذكروني فيما افترضته عليكم أذكركم فيما أوجبت لكم على نفسي).

(١) قرأ ابن كثير بفتح ياء (فاذكروني) في حالة الوصل، وقرأ الباقون بإسكانها.

(٢) أثبت يعقوب ياء في (ولا تكفرون) وصلًا ووقفًا وحذفها الباقون في الحالين.

والذكر يُثمر معرفة الله تعالى ومحبه وكثرة ثوابه .

ومن أوصاف المتقين أنهم إذا فعلوا فاحشة، أو ظلموا أنفسهم ذكروا الله... وذكر الله تعالى للعبد يكون بإثابته على ذكره لربه ورضاه عنه، وغفران ذنوبه .

والذكر هو رأس الشكر، ولذا خصه الله بالذكر، ثم أمر به عمومًا فقال: ﴿وَأَشْكُرُوا لِي﴾ .

وشكر الله تعالى يكون بطاعته باللسان والقلب والجوارح كذلك؛ فالذكر والشكر يتفقان في هذا المعنى، حيث يكون الشكر إقرارًا واعترافًا بالقلب، وذكرًا وثناءً باللسان، وطاعة وانقيادًا بالجوارح:

والكفر يكون بالمعصية، فمن أطاع الله فقد شكره، ومن عصاه فقد كفره، قال تعالى: ﴿وَإِذْ تَأَذَّتْ رُءُوسُكُمْ لِمَنِ شُكِّرْتُمْ لَازِيدَتْكُمْ وَلَئِنْ كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ﴾ [إبراهيم]. والمراد كفر النعمة وجحودها وعدم القيام بحقوقها، وأعلى أنواع الكفر: الشرك الأكبر، ثم أنواع المعاصي على اختلاف أنواعها وأجناسها .

ومن شُكر النعمة: أن الله تعالى يحب أن يرى أثر نعمته على خلقه .

وهذه طائفة من الأحاديث الصحيحة في فضل ذكر الله تعالى والترغيب فيه:

١- فعن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ يقول الله تعالى: «من ذكرني في نفسه ذكرته في نفسي، ومن ذكرني في ملأ ذكرته في ملأ خير منه»^(١).

والذاكر لله تعالى يكون في معية ربه:

٢- وفي الحديث القدسي عن أبي هريرة أيضًا يقول الله تعالى: «أنا مع عبدي ما ذكرني وتحركت بي شفتاه»^(٢).

(١) يُنظر البخاري عن قتادة برقم (٧٥٣٦) و«المسند» عن أنس (١٣٨/٣) برقم (٨٦٥٠) حديث صحيح.

(٢) «المسند» (٧٤٢٢، ١٠٩٦٨، ١٠٩٧٥، ١٠٩٧٦) وهو في البخاري ك ٩٧ ب ٤٣ قبل الحديث رقم (٧٥٢٤) و«صحيح سنن ابن ماجه» (٣٠٥٩) وابن حبان (٨١٥).

والفرق كبير بين من يذكر ربه، ومن يغفل عن ذكره

٣- وعن أبي موسى رضي الله عنه: «مثل الذي يذكر ربه والذي لا يذكر ربه مثل الحي والميت»^(١).

والذاكرون لله هم الموحدون السابقون إلى الخيرات:

٤- وفي صحيح مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه: «سبق المفردون، قالوا: وما المفردون يا رسول الله؟ قال: الذاكرون الله كثيراً والذاكرات...»^(٢).

ذكر الله للعبد خير من ذكر العبد لربه:

٥- وفي حديث أنس رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: قال الله ﻻ: «يا بن آدم، إن ذكرتني في نفسك ذكرتك في نفسي، وإن ذكرتني في ملأ ذكرتك في ملأ من الملائكة - أو قال: في ملأ خير منهم- وإن دنوت مني شبراً دنوت منك ذراعاً، وإن دنوت مني ذراعاً دنوت منك باعاً، وإن أتيتني تمشي أتيتك هرولة»^(٣).

المؤمن يجعل لسانه دائماً رطباً بذكر الله:

٦- عن عبد الله بن بشر رضي الله عنه أن رجلاً قال: يا رسول الله، إن شرائع الإسلام قد كثرت عليّ، فأخبرني بشيء أشبهت به، قال: «لا يزال لسانك رطباً من ذكر الله»^(٤).

ولذكر الله أكبر:

٧- وعن أبي الدرداء رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «ألا أنبئكم بخير أعمالكم وأزكاها عند مليكم، وأرفعها في درجاتكم، وخير لكم من إنفاق الذهب والورق، وخير لكم من أن تلقوا عدوكم فتضربوا أعناقهم ويضربوا أعناقكم؟ قالوا: بلى، قال: ذكر الله»^(٥).

(١) البخاري (٦٤٠٧) ومسلم (٧٧٩) والبيهقي في «الشعب» (٥٣٦).

(٢) «صحيح مسلم» (٢٦٧٦).

(٣) «المسند» (١٢٤٠٥) والبيهقي في «الأسماء والصفات» (٦٢٦) وصححه الألباني في «صحيح الجامع» (٤٢١٣) وفي «السلسلة الصحيحة» (٢٠١٢).

(٤) «المسند» (١٧٦٨٠، ١٧٦٩٨) وابن أبي شيبة (٣٠١/١٠) والترمذي (٣٣٧٥) و«صحيح سنن ابن ماجه» (٣٠٦٠) وابن حبان (٨١٤) والحاكم (٤٩٥/١) والبيهقي في السنن (٣٧/٣) وفي «الشعب» (٥١٥).

(٥) «المسند» (٢١٧٠٢، ٢١٧٠٤) و«صحيح سنن الترمذي» (٢٦٨٨) وابن ماجه (٣٧٩٠) والحاكم (٤٩٦/١) والبيهقي في «الشعب» (٥١٩).

التحسر على كل وقت يمر على العبد دون ذكر لله تعالى :

٨- في حديث معاذ بن جبل رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «ليس يتحسر أهل الجنة إلا على ساعة مرث بهم لم يذكروا الله تعالى فيها»^(١).

والذاكر لله تعالى يكون في ساحة الرحمة والرضوان :

٩- وعن أبي سعيد وأبي هريرة ؓ أنهما شهدا على رسول الله ﷺ أنه قال: «لا يقعد قوم يذكرون الله إلا حفتهم الملائكة، وغشيتهم الرحمة، ونزلت عليهم السكينة، وذكرهم الله فيمن عنده»^(٢).

والذاكرون الله تعالى لا يشقى جلسهم :

١٠- في حديث أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «إن لله ملائكة يطوفون في الطرق يلتمسون أهل الذكر، فإذا وجدوا قوماً يذكرون الله تنادوا: هلموا إلى حاجتكم، فيحفونهم بأجنحتهم إلى السماء، فإذا تفرقوا عرجوا وصعدوا إلى السماء، فيسألهم ربهم وهو أعلم: من أين جئتم؟ فيقولون: جئنا من عند عباد لك في الأرض يسبحونك ويكبرونك ويهللونك ويحمدونك، فيقول: هل رأوني؟ فيقولون: لا، فيقول: كيف لو رأوني؟ فيقولون: لو رأوك كانوا أشد لك عبادة، وأشد لك تمجيذاً، وأكثر لك تسبيحاً، فيقول: فما يسألون؟ فيقولون: يسألونك الجنة، فيقول: وهل رأوها؟ فيقولون: لا، فيقول: فكيف لو رأوها؟ فيقولون: لو أنهم رأوها كانوا أشد عليها حرصاً، وأشد لها طلباً، وأعظم فيها رغبة، قال: فممن يتعوذون؟ فيقولون: يتعوذون من النار، فيقول: وهل رأوها؟ فيقولون: لا، فيقول: فكيف لو رأوها؟ فيقولون: لو أنهم رأوها كانوا أشد منها فراراً وأشد لها مخافة، فيقول: أشهدكم أنني قد غفرت لهم، فيقول ملك من الملائكة: فيهم فلانٌ ليس منهم، إنما جاء لحاجة، قال: هم القوم لا يشقى بهم جلسهم»^(٣).

(١) الطبراني في الكبير (١٨٢) والبيهقي في «الشعب» (١٥١٢) وصححه الألباني في «صحيح الجامع» (٥٣٢٢).

(٢) «المسند» (٩٧٧٢، ١١٨٩٢) ومسلم (٢٧٠٠) والترمذي (٣٣٧٨) وابن ماجه (٣٧٩١) والبيهقي في «الشعب» (٥٣٠) وابن أبي شيبة (٣٠٧/١٠).

(٣) البخاري (٦٤٠٨) ومسلم (٢٦٨٩) والبيهقي في «الأسماء والصفات» (٤٤٤).

ثواب الله تعالى للذاكرين والذاكرات

١١- وعن سهل بن الحنظلية رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «ما جلس قوم مجلسًا يذكرون الله ﷻ فيقومون، حتى يقال لهم: قوموا قد غفر الله لكم، وبُذلت سيئاتكم حسنات»^(١)

والمؤمن يسأل ربه أن يعينه على ذكره وشكره:

١٢- عن معاذ بن جبل رضي الله عنه قال: قال لي النبي ﷺ: «إني أحبك، لا تدعن أن تقول في دُبر كل صلاة: اللهم أعني على ذكرك وشكرك وحسن عبادتك»^(٢).

١٣- وفي حديث أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «لِلطَّاعِمِ الشَّاكِرِ مِثْلُ مَا لِلصَّائِمِ الصَّابِرِ»^(٣).

والمؤمن يحمد ربه على العافية مما ابتلى به غيره:

١٤- وعن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: من رأى صاحب بلاء فقال: «الحمد لله الذي عافاني مما ابتلاك به، وفضلني عليك وعلى جميع خلقه تفضيلاً، فقد أدى شكر تلك النعمة»^(٤).

والمؤمن يسجد لله شكرًا على نعمه:

١٥- عن أبي بكرة رضي الله عنه أن النبي ﷺ كان إذا جاءه أمر يسُرُّه خرَّ ساجدًا لله ﷻ شكرًا لله^(٥).

والذكر غير منحصر في التسبيح والتحميد والتهليل والتكبير وتلاوة القرآن، والتأمل في الكون، بل كل طاعة فيها ذكر لله تعالى فهي ذكر.

(١) الطبراني في الكبير (٣٠٦٩) وصححه الألباني في صحيح «الجامع الصغير» (٥٤٨٦)

(٢) «المسند» (٢٢١١٩) وأبو داود (١٥٢٢) والنسائي (١٣٠٢) وابن أبي الدنيا (١٩) والبيهقي في «الشعب» (٤٤١٠) وصحيح سنن أبي داود (١٣٤٧).

(٣) الترمذي (٢٤٨٦) وابن ماجه (١٧٦٤) والبيهقي (٤٤٦١) وصححه الألباني في «السلسلة الصحيحة» (٦٥٥).

(٤) ابن أبي الدنيا (١٨٧) وصححه الألباني في «السلسلة الصحيحة» (٦٠٢).

(٥) صحيح سنن أبي داود (٢٤١٢) والترمذي (١٥٧٨) وابن ماجه (١٣٩٤) وابن أبي الدنيا (١٣٥) والحاكم (٢٧٦/١).

التَّوَجُّيْهُ الثَّانِي: الاسْتِعَانَةُ بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ عَلَى مُوَاجَهَةِ الشَّدَائِدِ

١٥٣- ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾ (١٥٣)

وكان أول توجيه لهذه الأمة الوسط التي تشهد على الناس يوم القيامة، بعد تقرير شأن القبلة، هو الأمر بذكر الله تعالى، وشكره على نعمة الرسالة والهداية، ثم يأتي التَّوَجُّيْهُ الثاني للأمة بالاستعانة بالصبر والصلاة على الأمور الدينية والدنيوية؛ وفي ذلك إعداد للمسلم لتحمل الشدائد فيما يستقبل من أمره، وخصهما بالذكر؛ لأن العبد إما أن يكون في نعمة فيشكر الله عليها، أو يكون في نقمة فيصبر عليها.

ولذا جاء في الحديث عن صُهَيْب رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «عَجَبًا لِلْمُؤْمِنِ، لَا يَقْضِي اللَّهُ لَهُ قِضَاءَ إِلَّا كَانَ خَيْرًا لَهُ، إِنْ أَصَابَتْهُ سَرَاءٌ فَشَكَرَ كَانَ خَيْرًا لَهُ، وَإِنْ أَصَابَتْهُ ضَرَاءٌ فَصَبَرَ كَانَ خَيْرًا لَهُ»^(١)

وهما أفضل ما يستعين بهما المؤمن على متاعب الأيام وتحمل المصائب، ولذا أمر الله تعالى بهما فقال: ﴿اسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ﴾؛ لما فيهما من العون على سائر العبادات، اطلبوا العون من الله في كل أموركم.

فالصبر: حُبْسٌ للنفس على احتمال المكاره، وتوطئتها على تحمل المشاق في أداء الطاعات وتجنب المحظورات.

والصبر لازم لكل عبادة؛ حتى تُؤَدَّى على أكمل وجه، (الصبر على أداء الطاعات)

والصبر لازم لكل ذنب مُحَرَّم؛ حتى يكف عنه العبد، (الصبر على ترك المعاصي)

والصبر لازم لما يصيب الإنسان من آلام وأقذار وأذى من الناس، (الصبر على أقدار الله المؤلمة)

فالصبر هو المعونة العظيمة على كل أمر، ولا سبيل لغير الصابر أن يدرك مطلوبه إلا بالصبر، فالمعاصي لا يمكن تركها إلا بصبر، والطاعات لا يمكن أدائها إلا بصبر. . وهكذا.

(١) «المسند» (٢٣٩٢٤، ١٨٩٣٩، ١٨٩٣٤) ومسلم (٢٩٩٩) والبيهقي (٤٤٨٧) والدارمي (٣١٨/٢) وابن حبان (٢٨٩٦).

ولذا فإن الله تعالى يوفّي الصابرين أجرهم بغير حساب، والله مع الصابرين بعونه وحفظه ورعايته وتوفيقه وتسديده، وهذه معية خاصة بالمؤمنين.

أما المعية العامة فهي لجميع الخلق، معية العلم والمعرفة والقدرة ﴿إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا وَالَّذِينَ هُمْ مُحْسِنُونَ﴾ [النحل] ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ﴾ [الحديد: ٤].

أما الاستعانة بالصلاة فلأنها الصلة المباشرة بين العبد وربّه، ولأنها تنهى عن الفحشاء والمنكر، وفيها الراحة والطمأنينة، وهي عماد الدين، ونور المؤمنين،

ولذا: فإن النبي ﷺ كان إذا حزبه أمر فزع إلى الصلاة، وكان يقول: يا بلال، أقم الصلاة وأرحنا بها.

قليل في سبب نزول الآية: إنها نزلت لما قال المشركون: (سيرجع محمد إلى ديننا كما رجع إلى قبلتنا).

قال ابن عباس ؓ: (استعينوا على طلب الآخرة بالصبر على أداء الفرائض والصلاة).

التَّوْجِيهُ الثَّلَاثُ: تَرْبِيَةُ النُّفُوسِ عَلَى حُبِّ الشَّهَادَةِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ

١٥٤- ﴿وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ يُقْتَلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمُوتَ بَلْ أَحْيَاءٌ وَلَكِنْ لَا تَشْعُرُونَ﴾ (١٥٤)

ومن أعظم أنواع الصبر: الصبر على الجهاد في سبيل الله، وهو مثل ضربه الله تعالى للاستعانة عليه بالصبر، والأمة المسلمة بحاجة إلى شحذ الهمم، وتقوية العزائم في مواجهة أعداء الله؛ لنشر الدعوة الإسلامية، وإزالة المعوقات أمامها، والجهاد أفضل الطاعات وأشقها على النفوس، لأنه يؤدي إلى القتل.

ولما استشهد في غزوة بدر ستة من المهاجرين، وثمانية من الأنصار، وكان الناس يقولون: مات فلان، وذهب عنه نعيم الدنيا فأنزل الله سبحانه الآية^(١)؛ لتبين أنهم أحياء يرزقون، تصل أرواحهم إلى الجنات، تسرح فيها في حواصل طير خضر، وحياتهم حياة حقيقية عند عالم الغيب والشهادة، وإن كنا لا نشعر بذلك؛ لأنه فوق مداركنا، ومن ثم فهم لا يُغسلون كالموتى، ويُكفّنون في ثيابهم التي استشهدوا فيها، فهم أحياء، يُحشرون

(١) النيسابوري ص ٣٧.

على هيئتهم، اللون لون الدم، والريح ريح مسك، وهم يُرزقون كما تُرزق، ويفرحون كما نفرح.
في حديث كعب بن مالك رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «إن أرواح الشهداء في حواصل طيور خضر، ترد أنهار الجنة، وتأكل من ثمارها، وتأوي إلى قناديل معلقة في ظل العرش»^(١).

والشهيد يتمنى أن يعود إلى الدنيا فيُقتل عشر مرات؛ لما يرى من الكرامة عند الله، ومن قُتل في سبيل الله لإعلاء كلمة الله، فإنه يترك هذه الحياة المحبوبة لديه إلى حياة أعظم وأكمل، هي الدار الآخرة، فالشهداء أحياء عند ربهم يرزقون، يلازمهم الفرح والسرور، ويذول عنهم الخوف والحزن، وأرواح الشهداء وهم في الحياة البرزخية، في حواصل طير خضر، ترد أنهار الجنة، وتأكل من ثمارها، وتأوي إلى قناديل معلقة بالعرش، والله تعالى قد اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة، وسُجِّلَ هذا العقد في التوراة والإنجيل والقرآن، فلو كان للإنسان ألف نفسٍ فذهبتْ نفساً نفساً في سبيل الله، لَمَا كان هذا أعظم من هذا الثواب الجزيل والنعيم المقيم، ولذا فإن الشهيد يتمنى ذلك!!

والمراد بالشهيد: من يُقتل بأيدي الكفار في معركة بين المسلمين وغيرهم؛ لإعلاء كلمة الله، ونصرة دينه، بلا رياء ولا سمعة، ولا عصبية ولا تفاخر.

وقد كره النبي ﷺ كما في حديث أبي عقبة وهو غلام فارسي أن يذكر جنسيته في ساحة القتال حين ضرب مشركاً، وقال له: خذها وأنا الغلام الفارسي، فقال ﷺ:

«هلا قلت: وأنا الغلام الأنصاري، إن أخا القوم منهم...»^(٢)

وهذا هو التَّوَجُّهُ الثالث لجماعة المؤمنين.

(١) جاء هذا بألفاظ مختلفة وزيادة ونقص في «المسند» (١٥٧٧٨، ١٥٧٨٧، ٢٧١٦٦) و«الموطأ» (٢٤٠/١) والترمذي (١٦٤١) والنسائي (٢٠٧٠٢) و«مصنف عبد الرزاق» (٩٥٥٣، ٩٥٥٦) وهو في «صحيح مسلم» برقم (١٨٨٧) من حديث عبد الله بن مسعود رضي الله عنه.

(٢) «المسند» (٢٢٥١٥) وابن أبي شيبة (٥٠٥/١٢) وأبو داود (٥١٢٣) وابن ماجه (٢٧٨٤) وأبو يعلى (٩١٠) ومثل هذه القصة في حديث سهل بن الحنظلية برقم (١٧٦٢٢) قال محققو «المسند»: وإسناده محتمل للتحسين.

التَّوَجِيهُ الرَّابِعُ: تَرْبِيَةُ النُّفُوسِ عَلَى تَحْمُلِ الْأَحْدَاثِ الْجِسَامِ

١٥٥ - ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ بِشَيْءٍ مِّنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنْفُسِ وَالثَّمَرَاتِ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ﴾

أما التَّوَجِيهُ الرابع في تربية النفوس لمواجهة الأحداث الجسام، فهو الصبر على ما يصاب به الأفراد والجماعات بشيء ولو قليل من الخوف من العدو، أو مما قد يحقق للإنسان من مكروه وألم، أو نقص في الأرزاق، أو تلف وهلاك للأموال، أو موت وقتل للأبناء، أو قلة في الثمار.. إذ لا بد أن يتلى الله العبد ببعض المحن، ليتبين الصادق من الكاذب، والجازع من الصابر، وهذه سنة الله في خلقه، وحكمته تقتضي تمييز أهل الخير من أهل الشر ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ بِشَيْءٍ﴾ يسير ﴿مِّنَ الْخَوْفِ﴾ من العدو ﴿وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنْفُسِ وَالثَّمَرَاتِ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ﴾ عند نزول البلاء؛ ولو ابتلاهم الله بالخوف كله، أو الجوع كله، لهلكوا، والمطلوب هو التمهيد وليس الهلاك.

فالله تعالى يتلى عباده لتمحيصهم، أو رفع درجاتهم، كما قال تعالى: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّىٰ نَعْلَمَ الْمُجْتَهِدِينَ مِنْكُمْ وَالصَّابِرِينَ وَنَبْلُوَ أَخْبَارَكُمْ﴾ [محمد].

والابتلاء يكون تارة بالسراء وتارة بالضراء، وتارة بالفقر وتارة بالغنى، وتارة بالمرض وتارة بالصحة، وتارة بالهزيمة وتارة بالنصر، وهكذا، وعند وقوع هذا الابتلاء يكون الناس فريقيين: جازعين وصابرين، فالجازع تقع به المصيبة ويفوته الأجر بخلاف الصابر. والله سبحانه أعلم بهؤلاء الصابرين في الشدة والرخاء والبأساء والضراء، وسيوفهم أجورهم كاملة.

عِظْمُ الْجَزَاءِ مَعَ عِظْمِ الْبَلَاءِ

١٥٦ - ﴿الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُمْ مُصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ﴾

ثم وصف الله الصابرين فبين أنهم: ﴿الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُمْ مُصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ﴾ فهم يقرون بأنهم مملوكون لله تعالى، يتصرف فيهم كيف يشاء، فليس لنا من أنفسنا وأموالنا شيء، فإذا أخذ الله شيئاً منها، فقد تصرف في ماله ومملوكه، فلا اعتراض عليه، فله الحمد والشكر، وهم يعتقدون أنهم راجعون إليه سبحانه في الآخرة، ومثابون

على صبرهم وابتلائهم، فلا يزال البلاء بالمؤمن في نفسه وماله وولده؛ حتى يلقي الله وما عليه خطيئة.

وَاللَّهُ تَعَالَى يَخْلُفُ عَلَى مَنْ يُفَوِّضُ أَمْرَهُ إِلَى اللَّهِ، خَيْرًا مِنْ مُصِيبَتِهِ:

١- عن أم سلمة رضي الله عنها قالت قال رسول الله ﷺ: « لا يصيب أحدًا من المسلمين مصيبة فيسترجع عند مصيبته، ثم يقول: اللهم أجرنى في مصيبتى، وأخلف لي خيرًا منها إلا فعل ذلك به» قالت أم سلمة: فحفظت ذلك منه، فلما توفّي أبو سلمة، استرجعت، وقلت: اللهم أجرنى في مصيبتى وأخلف لي خيرًا منها، ثم رجعت إلى نفسي فقلت: من أين لي خير من أبي سلمة؟ فلما انقضت عدتي، استأذن عليّ رسول الله ﷺ وأنا أدبغ ثيابًا لي، فغسلت يدي من القرظ وأذنت له، فوضعت له وسادة آدم، حشوها ليف فقعد عليها، فخطبني إلى نفسي، فلما فرغ من مقالته قلت: يا رسول الله، ما بي ألا يكون بك الرغبة، ولكني امرأة في غير شديدة، فأخاف أن ترى مني شيئًا يعذبني الله به، وأنا امرأة قد دخلت في السن، وأنا ذو عيال، فقال: «أما ما ذكرت من الغيرة فسوف يذهبها الله ﷻ عنك، وأما ما ذكرت من السن فقد أصابني مثل الذي أصابك، وأما ما ذكرت من العيال فإنما عيالك عيالي»، قالت: فقد سلمت لرسول الله، فتزوجها رسول الله ﷺ فقالت أم سلمة بعد: أبدلني الله بأبي سلمة خيرًا منه، رسول الله ﷺ ^(١).

٢- وفي صحيح مسلم عن أم سلمة رضي الله عنها قالت: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «ما من عبد تصيبه مصيبة فيقول: إنا لله وإنا إليه راجعون اللهم أجرنى في مصيبتى وأخلف لي خيرًا منها إلا أجره الله في مصيبته وأخلف له خيرًا منها» ^(٢).

وأشد الناس بلاء الأنبياء، ثم الأمثل فالأمثل:

٣- عن مصعب بن سعد عن أبيه قال: قلت: يا رسول الله، أي الناس أشد بلاء؟ قال: «الأنبياء، ثم الأمثل فالأمثل، حتى يُبتلى الرجل على قدر دينه، فإن كان صلب

(١) «المسند» (٢٧/٤) برقم (١٦٣٤٤) والبيهقي في «الشعب» (٩٦٩٧) قال محققو «المسند»: رجاله ثقات إلا أن المطلب وهو ابن عبد الله بن حنطب روايته مرسلة عن بعض الصحابة.

(٢) «صحيح مسلم» برقم (٩١٨).

الدين، اشتد بلاؤه، وإن كان في دينه رقة، ابتلي على حسب ذلك، أو قدر ذلك، فما يبرح البلاء بالعبد حتى يمشي على الأرض وما عليه خطيئة»^(١).

والصابر المحتسب له بيت في الجنة يسمى بيت الحمد:

٤- في حديث أبي موسى الأشعري رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «قال الله تعالى: يا ملك الموت، قبضت ولد عبدي، قبضت قرة عينه وثمرة فؤاده؟ قال: نعم، قال: فماذا قال؟ قال: حمدك واسترجع، قال: ابنوا له بيتاً في الجنة، وسموه بيت الحمد»^(٢).

والمصائب تكفر الذنوب والخطايا:

٥- في حديث أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «ما يصيب المسلم من نصب ولا وصب، ولا هم ولا حزن، ولا أذى ولا غم، حتى الشوكة يشاكها، إلا كفر الله بها من خطاياها»^(٣).

وأعظم الصبر يكون عند الصدمة الأولى:

٦- عن أنس رضي الله عنه أن النبي ﷺ رأى امرأة تبكي على صبي لها، فقال: «اتقي الله واصبري» فقالت: وما تبالي أنت بمصيتي، فلما ذهب قيل لها: إنه رسول الله، فأخذها مثل الموت، فأتت بابه، فلم تجد عليه بوابين، فقالت: لم أعرفك يا رسول الله، فقال: «إنما الصبر عند أول صدمة»^(٤).

والطفل الذي مات يفتح أبواب الجنة لأبيه في دار النعيم:

٧- عن معاوية بن قرة عن أبيه قال: كان رجل يختلف إلى رسول الله ﷺ ومعه بُنْيٌّ له،

(١) أبو داود الطيالسي برقم (٢١٥) بإسناد حسن، وابن أبي شيبه في «المصنف» (٢٣٣/٣) و«المسند» برقم

(١٤٨١) بإسناد حسن و«صحيح سنن ابن ماجه» برقم (٣٢٤٩) والحاكم (٣٠٧/٤) وصححه، ووافقه

الذهبي، وقال البوصيري: هذا إسناد حسن صحيح ورجاله ثقات وأخرجه غيرهم.

(٢) «المسند» برقم (١٩٧٢٥) بإسناد ضعيف، لضعف أبي سنان، (محققوه) والترمذي (١٠٢١) والبيهقي في

«الشعب» (٩٧٠٠) وهو حديث حسن عند الألباني كما في «صحيح سنن الترمذي» (٨١٤).

(٣) البخاري (٥٦٤١، ٥٦٤٢) ومسلم (٢٥٧٣).

(٤) البخاري (١٢٥٢، ٧١٥٤) ومسلم (٩٢٦) وأبو داود (٣١٢٤) والترمذي (٩٨٨) والنسائي (١٨٦٨)

و«المسند» (١٣٢٧٣، ١٢٤٥٨، ١٢٣١٧).

فقال له رسول الله ﷺ ذات يوم: «أتجبه؟» قال: يا رسول الله، أحبك الله كما أحبه، ففقدته رسول الله ﷺ فقال: «ما فعل ابن فلان؟» قالوا: مات، قال: فلقية النبي ﷺ فقال: «أما تحب ألا تأتي بابًا من أبواب الجنة تستفتحه إلا جاء يسعى حتى يفتحك لك؟ قالوا: يا رسول الله، أله وحده أم لِكُلِّنا؟ قال: بل لِكُلِّكُمْ»^(١).

والجنة جزاء من يفقد حبيبهِ إذا احتسبه عند الله تعالى:

٨- فعن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «قال الله ﷻ: ما لعبدي المؤمن عندي جزاء إذا قبضت صفيه من أهل الدنيا، ثم احتسبه إلا الجنة»^(٢).

٩- وعن حديث عقبة بن عامر رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «من أنكَلَ ثلاثة من صُلبه، فاحتسبهم على الله، وجبَّ له الجنة»^(٣).

١٠- وعن جابر رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «من مات له ثلاثة من الولد فاحتسبهم دخل الجنة قلنا: يا رسول الله، اثنان؟ قال: «واثنان»»^(٤).

١١- وعن أبي سلمى رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «بَخِ بَخٍ لخمس ما أثقلهن في الميزان: لا إله إلا الله، والله أكبر، وسبحان الله، والحمد لله، والولد الصالح يُتَوَفَّى للمؤمن فيحتسبه»^(٥).

هذا: والجزاء على الأعمال يكون في الآخرة، أما مصائب الدنيا فأسبابها دنيوية، وقد تكون للتخفيف من عذاب الآخرة، وقد تكون لرفع درجات المؤمن، وقد صدَّر الله هذه الآية بذكر الابتلاء؛ توطيئًا للنفس للصبر عليه، وإذا علم العبد أنه سيبتلى اشتد خوفه، فعظم جزاؤه، وذكُرُ البلاء قبل وقوعه، إخبار بالغيب، ولكي يتميز المنافق من غيره. قال تعالى:

(١) «المسند» (١٥٥٩٥) والنسائي (٢٠٨٧، ١٨٦٩) والحاكم (٣٨٤/١) والبيهقي في «شعب الإيمان» (٩٧٥٤، ٩٧٥٣) قال محققو «المسند»: إسناده صحيح.

(٢) البخاري (٦٤٢٤).

(٣) الطبراني (٨٢٩) و«المسند» (١٧٢٩٨) قال محققوه: حديث صحيح.

(٤) البيهقي في «الشعب» (٩٧٤٥) و«المسند» (١٤٢٨٥) قال محققوه: صحيح لغيره، وهذا إسناده حسن رجاله رجال الصحيح غير محمد بن إسحاق فقد روى له أهل السنن.

(٥) البيهقي في «شعب الإيمان» (٨٧٥٥) وصححه الألباني في «السلسلة الصحيحة» (١٢٠٤).

١٥٧ - ﴿أُولَٰئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ﴾ (١٥٧)

أي أن الموصوفين بالصبر عند نزول البلايا والمحن، عليهم ثناء من الله ورحمة عظيمة، فهم الذين عرفوا الحق، وعلموا أنهم راجعون إلى الله، وبالمقابل فإن من لم يصبر يحصل له الضلال والخسران.

قال سعيد بن جبير: لقد أُعْطِيَتْ هذه الأمة عند المصيبة شيئاً لم يعطه الأنبياء قبلهم ﴿الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُمْ مُصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ﴾ (١٥٦) ﴿أُولَٰئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ﴾ (١٥٧) ولو أُعْطِيَهَا الأنبياء، لأُعْطِيَهَا يعقوب، ألم تسمع إلى قوله: ﴿يَتَأَسَّىٰ عَلَىٰ يُوسُفَ﴾ [يوسف: ٨٤].

وهؤلاء الذين يفوضون أمرهم إلى الله، ويعلنون أنهم راضون بما ينزل بهم من المصائب تشملهم مغفرة الله تعالى وفضله ورحمته وإحسانه، وهم المهتدون إلى الحق والصواب. وَإِنَّ عِظَمَ الْجَزَاءِ مَعَ عَظَمِ الْبَلَاءِ، وَإِذَا أَحَبَّ اللَّهُ قَوْمًا ابْتَلَاهُمْ، فَمَنْ رَضِيَ فَلَهُ الرِّضَىٰ، وَمَنْ سَخَطَ فَلَهُ السَّخَطُ، وَإِذَا أَرَادَ اللَّهُ بَعْدَ خَيْرٍ عَجَلْ لَهُ الْعُقُوبَةُ فِي الدُّنْيَا، وَأَشَدَّ النَّاسِ بَلَاءَ الْأَنْبِيَاءِ، ثُمَّ الْأَمْثَلُ فَالْأَمْثَلُ . . .

والمؤمن الصابر إذا أصابه ما يكره قال: إنا عبيد، مملوكون لله، مدبرون بأمره وتصريفه، يفعل بنا ما يشاء، وإنا له راجعون بالموت، ثم بالبعث للحساب والجزاء، أولئك الصابرون لهم ثناء من ربهم ورحمة واسعة، وهم المهتدون إلى الرشاد والفلاح. فعلى الإنسان أن يوطن نفسه على الصبر لتسهيل عليه النوازل ويفوز بالأجر.

سِتُّ مِنْ قَوَاعِدِ الْإِيمَانِ الصَّحِيحِ

١٥٨ - ﴿إِنَّ الصَّفَا وَالْمَرْوَةَ مِن شَعَائِرِ اللَّهِ فَمَنْ حَجَّ الْبَيْتَ أَوْ اعْتَمَرَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَنْ يَطَّوَّفَ بِهِمَا وَمَن تَطَوَّعَ^(١) خَيْرًا فَإِنَّ اللَّهَ شَاكِرٌ عَلِيمٌ﴾ (١٥٨)

الصفا والمروة جبلان معروفان - قد زال معظمهما في العصر الحاضر - وهما من

(١) قرأ حمزة والكسائي ويعقوب وخلف العاشر (ومن يَطَّوَّفَ) على أنه فعل مضارع مجزوم (مَنْ) الشرطية، وقرأ الباقون (ومن تَطَوَّعَ) على أنه فعل ماضٍ في محل الجزم (مَنْ) الشرطية، أو صلة (مَنْ) على أنها اسم موصول.

أعلام دين الله وشعائره التي تعبد الله بها عباده، وتعظيم شعائر الله من تقوى القلوب، ولما كانت الأصنام تُعبد عند هذين الجبلين في الجاهلية، فقد نفى الله الحرج عمن يسعى بينهما في الحج والعمرة فرضاً أو نافلة، بعد أن شرع الإسلام ذلك، ولا يُشرع السعي بدون طواف، كما لا يشرع بدون حج أو عمرة، بخلاف الطواف فإنه يُتعبد به بدون السعي، وبدون حج أو عمرة.

وقوله تعالى ﴿وَمَنْ تَطَوَّعَ خَيْرًا﴾ لا يعود على السعي، لأنه لا يُتعبد به نافلة، كما قال ﷺ (خذوا عني مناسككم) ولم يؤثر عن النبي ﷺ أنه سعى بين الصفا والمروة بدون طواف للحج أو العمرة.

والمراد بالتطوع في الآية: فعل الطاعة من حج أو عمرة أو طواف أو صلاة أو صوم أو صدقة.. الخ، والله تعالى يقبل اليسير من عباده ويثيب عليه.

ثم أخذت السورة تستهدف تصحيح عدد من القواعد التي يقوم عليها الإيمان الصحيح، هي من تمام النعمة والهداية التي أشارت إليها الآية السابقة ﴿وَلَا تَمْنَعُ عَلَيْكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ وهي من بشرى الاستعانة بالصبر والصلاة على تحمل المصائب والشدائد ﴿أَسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ﴾ وفيها تصريح ضمني بأن المسلمين سيفتحون مكة، وقيمون مناسك الحج التي كان عليها إبراهيم، وقد أحيا النبي ملته وجعلت الصلاة إلى قبلته، وهذا السعي شعيرة من شعائر الحج والعمرة.

فالآية ليست منقطعة عن سياق الآيات قبلها تفيد حكماً جديداً، وإنما هي من تنمة الموضوع بتأكيد البشارة، والكلام موصول عن إبراهيم خليل الرحمن.

وهذه الآية نزلت قبل أن يُفرض الحج على المسلمين، وهي من الآيات التي أمر النبي ﷺ بإلحاقها ببعض السور؛ لأنها نزلت قبلها بمدة، وقد حدث بين المسلمين تردد في فهم وتطبيق هذه الآية يوم حجة الوداع.

ولإقامة هذه الشعيرة في الإسلام، وهي فريضة الحج لا بُدَّ من تصحيح أوضاع كانت سائدة في الجاهلية.

وهذه ست قواعد مما كان عليه أهل الجاهلية، جاءت في الآيات التالية:

القاعدة الأولى: مشروعية السعي بين الصفا والمروة بعد أن كان عليهما صنمان.

القاعدة الثانية: عدم كتمان العلم، لا سيما ما في التوراة والإنجيل من أوصاف محمد ﷺ.

القاعدة الثالثة: وحدانية الخالق والتوصل إلى ذلك بقراءة الكتاب المنظور.

القاعدة الرابعة: محبة العبد لربه تفوق كل محبة.

القاعدة الخامسة: مسؤولية كل إنسان عن نفسه.

القاعدة السادسة: التحليل والتحریم حق لله وحده.

القاعدة الأولى: مشروعية السعي بين الصفا والمروة بعد أن كان عليهما صنمان

وقد ورد في أسباب النزول:

أنه كان على الصفا والمروة صنمان يقال لهما: إساف ونائلة؛ إساف على الصفا، ونائلة على المروة، وكان أهل الجاهلية يطوفون بين الصفا والمروة ويستلمونهما تعظيماً للصنمين، فلما جاء الإسلام وكُسرت الأصنام، تحرّج المسلمون من السعي بين الصفا والمروة، فأنزل الله هذه الآية، وأذن في السعي بينهما وأخبر سبحانه أنه من شعائر الله^(١).

١- قال ابن اسحاق: إن إساف ونائلة كانا بشرين فزنيا داخل الكعبة فمسيخا حجرين، فنصبتهما قريش تجاه الكعبة؛ ليعتبر بهما الناس، فلما طال العهد عبداً، ثم حوّلوا إلى الصفا والمروة، فكان من طاف بينهما يستلمهما^(٢).

٢- وقال ابن جريج: كان إساف ونائلة، رجلاً وامراًة دخلا الكعبة، فقبّلها فيها، فمسيخا حجرين، فأخرجوا من الكعبة، فنُصب أحدهما في مكان زمزم، ونُصب الآخر في وجه الكعبة؛ ليعتبر بهما الناس^(٣).

٣- وقال عامر الشعبي: كان وثن بالصفا يُدعى إسافاً، ووثن بالمروة يُدعى نائلة، فكان

(١) «تفسير الخازن» و«تفسير ابن كثير» عن الشعبي وكذا ابن الجوزي في «زاد المسير».

(٢) «السيرة النبوية» لابن إسحاق، ص ٤.

(٣) أخرجه الأزرقي (١/٣٦٧).

أهل الجاهلية إذا طافوا بالبيت يَسْعَوْنَ بينهما ويمسحون الوثنَيْن، فلما قدم النبي ﷺ قالوا: يا رسول الله، إن الصفا والمروة إنما كان يُطَاف بهما من أجل الوثنَيْن، وليس الطواف بهما من الشعائر فأنزل الله ﴿إِنَّ الصَّفَا وَالْمَرْوَةَ مِن شَعَائِرِ اللَّهِ﴾ فذُكِر الصفا من أجل الوثن الذي كان عليه، وأنثت المروة من أجل الوثن الذي كان عليها^(١).

ومن الأحاديث الواردة في ذلك:

١- وفي البخاري وغيره عن عاصم بن يسار، قال: سألت أنسًا عن الصفا والمروة قال: كنا نرى أنهما من أمر الجاهلية، فلما جاء الإسلام أمسكنا عنهما، فأنزل الله ﷻ: ﴿إِنَّ الصَّفَا وَالْمَرْوَةَ مِن شَعَائِرِ اللَّهِ﴾^(٢).

٢- وجاء في صحيح مسلم من حديث جابر رضي الله عنه، وفيه: أن رسول الله ﷺ لما فرغ من طوافه بالبيت، عاد إلى الركن فاستلمه، ثم خرج من الباب إلى الصفا وهو يقول: ﴿إِنَّ الصَّفَا وَالْمَرْوَةَ مِن شَعَائِرِ اللَّهِ﴾ الآية، ثم قال: «أَبْدَأُ بِمَا بَدَأَ اللَّهُ بِهِ، وَسَعَىٰ بَيْنَهُمَا»^(٣).

وقد كان بين مكة والمدينة صنم يقال له: مناة، وكان بعض الأنصار قبل الإسلام لا يسعى بين الصفا والمروة تعظيمًا لمناة، فلما جاء الإسلام، سأل رجال من الأنصار رسول الله ﷺ: إنا كنا لا نطوف بين الصفا والمروة تعظيمًا لمناة، فهل علينا من حرج أن نطوف بهما؟ فنزلت هذه الآية.

٣- صح عن عائشة ؓ أنها قالت: كان رجال من الأنصار ممن كان يُهْلُ لمناة في الجاهلية -ومناة صنم بين مكة والمدينة- قالوا: يا نبي الله، إنا كنا لا نطوف بين الصفا والمروة تعظيمًا لمناة، فهل علينا من حرج أن نطوف بهما؟ فأنزل الله الآية، قال عروة: فقلت لعائشة: ما أبالي ألا أطوف بين الصفا والمروة؛ لأن الله تعالى يقول: ﴿فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَن يَطَّوَّفَ بِهِمَا﴾ فقالت: يا بن أختي، ألا ترى أن الله تعالى يقول: ﴿إِنَّ الصَّفَا وَالْمَرْوَةَ مِن شَعَائِرِ اللَّهِ﴾^(٤).

(١) أثر مرسل أخرجه سعيد بن منصور في تفسيره (٢٣٤) و«تفسير الطبري» (٧١٤/٢).

(٢) البخاري (١٦٤٨، ٤٤٩٦) والترمذي (٢٩٦٦) وابن أبي حاتم (١٤٣٢) والطبري (٧١٥/٢) وغيرهم.

(٣) من حديث طويل في «صحيح مسلم» برقم (١٢١٨).

(٤) مسلم (٢١٧٧) والترمذي (٢٩٦٥) والطبري (٧١٩/٢) واللفظ له، والبيهقي في السنن (٩٦/٥).

٤- وأخرج الشيخان وغيرهما عن عروة بن الزبير أنه قال: ﴿إِنَّ الصَّفَا وَالْمَرْوَةَ مِنْ شَعَائِرِ اللَّهِ فَمَنْ حَجَّ أَلْبَيْتَ أَوْ اعْتَمَرَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَنْ يَطَّوَّفَ بِهِمَا﴾ فما أرى على أحد شيئاً أن لا يطوف بهما، فقالت عائشة: لو كانت كما تقول؛ كانت فلا جناح عليه أن لا يطوف بهما، ولكنها أنزلت في الأنصار: كانوا يهللون لمناة، وكانت مناة حذو قُديد، وكانوا يتخرجون أن يطوفوا بين الصفا والمروة، فلما جاء الإسلام، سألوا رسول الله ﷺ عن ذلك، فأنزل الله الآية، قالت عائشة: وقد سَنَّ رسول الله الطواف بهما، فليس لأحد أن يدع الطواف بهما^(١).

وقال أنس بن مالك: كنا نكره الطواف بين الصفا والمروة؛ لأنهما كانا من مشاعر قريش في الجاهلية، فتركناه في الإسلام، فأنزل الله الآية^(٢).

ويتبين من أسباب النزول هذه وغيرها أن بعض المسلمين تحرَّج من السعي بين الصفا والمروة لأسباب، من أهمها: أنهما صنمان أتى بهما عمرو بن لحي إلى مكة من الشام، وأن هذا السعي كان من شعائر الناس في الجاهلية، فقد كان بعضهم يُحرِّم من مناة حذو قُديد؛ ثم يسعى بينهما ليمسح بالصنمين، وكان العرب يذبحون لهما.

ومنها: قصة إساف ونائلة وأنهما أصل الصنمين على رواية ابن إسحاق وغيره؛ فنزلت هذه الآية لتزيل الحرج الذي تردد في الصدور، وتُبَيِّن أن ما حدث في الجاهلية مما صححه الإسلام وأزال أسبابه ولم يعد له بقاء، كما أن الكعبة نفسها كانت تعج بالأصنام، فلا يمنع هذا من أنهما صارا في الإسلام شعيرة من شعائر الحج والعمرة، فلا إثم على المسلم أن يسعى بينهما.

وجمهور الفقهاء على أن السعي ركن من الأركان، وذهب الحنفية إلى أن السعي واجب يجبر تركه بدم؛ لأن رفع الجناح معناه أنه مأذون فيه، وغير منهي عنه، فيصدق هذا على الوجوب، وهو شعيرة من المناسك.

(١) البخاري برقم (١٦٤٣)، ٤٤٩٥، ٤٨٦١) ومسلم برقم (١٢٧٧) و«المسند» (١٤٤/٦) برقم (٢٥١١٢)،

(٢٥٩٠٥) ومالك (٣٧٣/١) وأبو داود (١٩٠١) والنسائي (٢٩٦٧) وغيرهم.

(٢) يُنظر: «صحيح مسلم» (١٢٧٨) وعبد بن حميد في المنتخب (١٢٢٤).

والصفا والمروة جبلان صغيران قرب الكعبة من جهة الشرق، الصفا منتهى جبل أبي قبيس، والمروة منتهى جبل قُعَيْقَعَان، والصفا في اللغة: الحجر الأملس، والمروة: الحجر الأبيض اللين.

فالآية تشير إلى رفع الحرج عن سعي بينهما في حجه وعمرته على سبيل الوجوب أو التطوع ﴿إِنَّ الصَّفَا وَالْمَرْوَةَ مِنْ شَعَائِرِ اللَّهِ﴾ أي: من شرائعه في مناسك الحج.

وينفي القرآن الحرج الذي كان عالقًا بالنفوس من السعي بين الصفا والمروة ﴿فَمَنْ حَجَّ الْبَيْتَ أَوْ اعْتَمَرَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ﴾ أي: لا إثم، ولا حرج على الحاج أوالمعتمر ﴿أَنْ يَطَّوَّفَ بِهِمَا﴾ وفي هذا طمأنة إلى أن السعي بينهما من الخير الذي يَرْضَى الله تعالى عنه، ويشب عليه، وهو من فعل الخير، يحمل هذا المعنى ختام الآية ﴿وَمَنْ تَطَوَّعَ خَيْرًا﴾ في حجه وعمرته فزاد في الطواف بالبيت عن الفريضة ﴿فَإِنَّ اللَّهَ شَاكِرٌ عَلِيمٌ﴾ يجزل له الأجر والثوبة. والسعي عبادة لا تتكرر، أي: لا يأتي المسلم زيادة على السبعة، ولا يأتي بسبعة مستقلة نفلًا، بخلاف الطواف، فإنه يُتَعَبَّدُ به، وإن لم يكن المسلم حاجًا ولا معتمرًا.

والأصل في هذا السعي: أن هاجر أخذت تردد بين الصفا والمروة طلبًا للماء لولدها لما نفذ ماؤه وزاده، وكان إبراهيم قد أتى بهما من فلسطين وتركهما في هذا المكان وليس عندهما أحد، فلما نفذ ما عندها قامت تطلب الغوث، فلم تزل تردد بين الصفا والمروة حتى كشف الله كربتها وأنبع لها ماء زمزم طعامًا وشفاءً وشرابًا.

قال سعيد بن جبیر: أقبل إبراهيم ومعه هاجر وإسماعيل عليهم السلام، فوضَعَهُم عند البيت، فقالت: آله أمرك بهذا؟ قال: نعم، قال: فعطش الصبي، فنظرت فإذا أقرب الجبال إليها الصفا، فسَعَتْ سعيًا حثيثًا، فَرَقَّتْ على الجبل، فنظرت من فوق الجبل، فلم تر شيئًا، قال: فهي أول من سعى بين الصفا والمروة، ثم أقبلت فسمعت حَفِيفًا - أي: صوتًا - أمامها، قالت: قد أسمع، فإن يكن هناك غياث فهلُمَّ، فإذا جبريل أمامها يركُضُ زمزم بعقبه، فنبع الماء، فجاءت بشن لها - أي بقرْبة أو نحوها - تَقْرِشُ فيه الماء - أي: تجمع الماء وتضعه في هذا الإناء المصنوع من الجلد - فقال لها جبريل: تخافين

العطش؟ هذا بلدٌ ضيفان الله لا يخافون العطش^(١).

القَاعِدَةُ الثَّانِيَةُ مِنْ قَوَاعِدِ الْإِيمَانِ الصَّحِيحِ: عَدَمُ كِتْمَانِ الْعِلْمِ

١٥٩- ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنزَلْنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالْهُدَىٰ مِنْ بَعْدِ مَا بَيَّنَّاهُ لِلنَّاسِ فِي الْكِتَابِ ۖ أُولَٰئِكَ يَلْعَنُهُمُ اللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ اللَّعِينُونَ﴾^(١٥٩)

وهذه القَاعِدَةُ تتعلق بكتمان العلم بشكل عام لكل من كتم علماً دينياً أو دنيوياً فيه خير العباد ونفعهم في الدنيا والآخرة، ومن ذلك كتمان اليهود لأوصاف النبي في التوراة، فاليهود لا تنقطع دسائسهم عند تحويل القبلة وغيرها، بل تمتد إلى شتى الميادين وأهمها: أنهم يعرفون محمداً أكثر مما يعرفون أبناءهم، كما أخبرهم رب العالمين في التوراة والإنجيل، ولكنهم يكتُمون ذلك حسداً للنبي ﷺ؛ لكونه من العرب، وحرصاً على مكانتهم بين الناس، وهؤلاء هم من قال الله فيهم: ﴿وَإِنَّ فَرِيقًا مِنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾.

قال أبو العالية في معنى الآية: هم أهل الكتاب كتموا محمداً ونعته وهم يجدونه مكتوباً عندهم حسداً وبغياً^(٢).

قال ابن عباس: نزلت في رؤساء اليهود كتموا ما أنزل الله في التوراة من البينات والهدى؛ وصفة هذا الكتمان هو التحريف والتأويل وحمل الأوصاف التي وردت في النبي ﷺ على غيره، حتى إذا سئلوا عنه، قالوا: لا، ومن ذلك صفة محمد ﷺ، وآية الرجم، وغيرها من الأحكام.

وقال قتادة: هم أهل الكتاب كتموا الإسلام وهو دين الله، وكتموا محمداً وهم يجدونه مكتوباً عندهم في التوراة والإنجيل^(٣).

وفي حديث أبي هريرة، وعبد الله بن عمرو، وأنس، وأبي سعيد ؓ أن النبي ﷺ قال: «من سئل عن علم فكتمه ألجم يوم القيامة بلجام من نار»^(٤).

(١) أخرجه الخطيب في (تالي التلخيص) عن سعيد بن جبير كما في «الدر المنثور» (٩٤/٢)

(٢) الطبري (٧٣١/٢).

(٣) ابن سعد (٣٦٢/١) والطبري (٧٣١/٢).

(٤) «صحيح سنن ابن ماجه» عن أنس برقم (٢١٢) وأبو يعلى (٢٥٨٥) والطبراني (١١٣١٠) عن ابن عباس

قال الهيثمي في «مجمع الزوائد» (١٦٣/١): رجال أبي يعلى رجال الصحيح وأخرجه الترمذي (٢٦٤٩)

وابن ماجه (٢٦١) والحاكم (١٠١/١) عن أبي هريرة.

وفي الصحيح وغيره عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: «لولا آيتان في كتاب الله ما حدثت حديثاً» وقرأ الآية^(١).

وقد أخذ الله الميثاق على بني إسرائيل أن يبينوا التوراة ولا يُخفوها، وكما أن العالم يستغفر له كل شيء حتى الحيتان في البحر فإن هؤلاء ﴿يَلْعَنُهُمُ اللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ اللَّعْنُونَ﴾ من أهل السموات والأرض جميعاً.

جاء عن البراء بن عازب رضي الله عنه قال: كنا مع النبي ﷺ في جنازة فقال: «إن الكافر يُضْرَبُ ضربة يسمعهما ما بين المشرق والمغرب إلا الثقلين»^(٢).

وهذا الوعيد يتعلق بكل من كتم شيئاً من أمر الدين من المسلمين، سيما عدم تبليغ دعوة الإسلام عبر جميع وسائل الإعلام الحديثة في عصرنا بلغات العالم أجمع.

والكتمان هو: ترك إظهار الشيء مع الحاجة إلى بيانه، ومن كتم شيئاً من أمور الدين فقد عَظُمَتْ مصيئته.

وكان معاذ بن جبل، وسعد بن معاذ، وخارجة بن زيد، قد سألوا اليهود عن أوصاف النبي ﷺ في التوراة فكتموا ذلك مع وجودها عندهم وعلمهم بها^(٣).

كما كتم اليهود حكم رجم الزاني المحصن في التوراة، وكتموا أمر تحويل القبلة مع علمهم بها في كتبهم، وكان الله قد أخذ الميثاق على أهل الكتاب أن يبينوا ما عندهم من العلم ولا يكتموا ﴿وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُ فَنَبَذُوهُ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ وَأَشْرَوْا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا﴾ [آل عمران: ١٨٧] فحققت عليهم لعنة الله.

قوله تعالى ﴿أُولَئِكَ﴾ أي: الذين نبذوا ميثاق الله وراء ظهورهم، وكتموا ما أنزل الله

(١) البخاري برقم (٧٣٥٤، ٢٤٧، ١١٨) ومسلم برقم (٢٤٩٢) وابن ماجه (٢٦٢) والحاكم (٢٧١/٢) وابن سعد (٣٦٢/٢) وغيرهم.

(٢) من حديثه الطويل في سنن أبي داود برقم (٤٧٥٣) صحيحه الألباني في صحيح سنن أبي داود (٣٩٧٩) والنسائي في السنن (٧٨/٤).

(٣) يُنظر: تفسير الألوسي (٢٦/٢) و«سيرة ابن هشام» (٥٥١/١) والطبري (٧٣٠/٢) وابن أبي حاتم (١٤٣٩).

من العلم ﴿يَلْمِزُهُمُ اللَّهُ﴾ أي: يطردهم ويبعدهم من رحمته ﴿وَيَلْعَنُهُمُ اللَّهُ﴾ أي: جميع الخلائق من الإنس والجن وغيرهم.

كما أن العالم يستغفر له كل شيء حتى الطير في الهواء، فالعالم لا يكتف علمًا، ويحدث الناس بما يعرفون، ويضع العلم في موضعه اللازم، فيقدم الأصول على الفروع، والكليات على الجزئيات، ويفتي بما يناسب حال السائل؛ فإن النبي ﷺ سئل عن أحب الأعمال إلى الله تعالى؛ فكانت إجابته مختلفة من شخص لآخر، فقال مرة: «الصلاة لوقتها»، وقال مرة: «بر الوالدين»، فلعل الأول كان غير حريص على أداء الصلاة في وقتها، ولعل الثاني كان عاقًا لوالديه وهكذا. قال تعالى:

١٦٠- ﴿إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا وَأَصْلَحُوا وَبَيَّنُّوا فَأُولَٰئِكَ أَتُوبُ عَلَيْهِمْ وَأَنَا التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾

ثم استثنى سبحانه الذين رجعوا عن الكفر إلى الإسلام، ورجعوا عما هم عليه من الذنوب، وندموا على ما فعلوا، وأصلحوا ما بينهم وبين الله والناس، وبينوا ما كتموه من العلم، فأولئك يتجاوز الله عنهم ويقبل توبتهم ﴿إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا﴾ مستغفرين عن خطاياهم نادمين على ما فعلوا، عازمين على عدم العودة إليه ﴿وَأَصْلَحُوا﴾ ما أفسدوه ﴿وَبَيَّنُّوا﴾ للناس ما كتموه مما أنزل الله تعالى ﴿فَأُولَٰئِكَ أَتُوبُ عَلَيْهِمْ وَأَنَا التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾ أتوب على من تاب فأرحمه وأقبل توبته، ومن رحمته تعالى أن وفقهم للتوبة والإنابة، فتابوا وأنابوا.

الْخُلُودُ فِي نَارِ جَهَنَّمَ لِمَنْ مَاتَ عَلَى الْكُفْرِ

١٦١- ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَمَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ أُولَٰئِكَ عَلَيْهِمْ لَعْنَةُ اللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾

أما من أصر منهم على كفره، فلم يدخل في حظيرة الإسلام، واستمر على حاله إلى مماته وصار الكفر وصفًا ثابتًا لهم، فقد استوجب غضب الله تعالى، والطرده من رحمته، ووجبت عليه لعنة الله وجميع خلقه ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ أي: جحدوا الإيمان بالله ورسوله، وكنتموا الحق فلم يبينوه للناس، واستمروا على ذلك حتى الموت ﴿وَمَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ أُولَٰئِكَ عَلَيْهِمْ لَعْنَةُ اللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾ أما قبل الغرغرة وقبل الموت فإن الله يقبل التوبة حتى من الكافر والمشرک والمبتدع. قال تعالى:

(١) قرأ حمزة ويعقوب بضم الهاء من (عليهم) وصلًا ووقفًا وكسرهما الباقون في الحالين.

١٦٢ - ﴿خَالِدِينَ فِيهَا لَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ الْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنْظَرُونَ﴾ ﴿١٦٢﴾

وهذا حكم من مات على الكفر، فهو خالد في اللعنة، وخالد مخلد في نار جهنم؛ فلا يخفف عنه العذاب، ولا يُنظر ولا يُمهّل؛ نتيجة استحقاقه لللعنة الله والملائكة والناس أجمعين، بسبب أنه مات على الكفر، وأغلق باب التوبة المفتوح، وفوت الفرصة على نفسه ﴿خَالِدِينَ فِيهَا﴾ فهو في اللعنة والغضب الدائم ﴿لَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ الْعَذَابُ﴾ بل هو عذاب دائم شديد مستمر في نار جهنم ﴿وَلَا هُمْ يُنْظَرُونَ﴾ فيمهلون أو يعذرون، لأن وقت الإمهال الذي كان في الدنيا قد مضى، فاستحق هذه اللعنة وهذا العذاب الدائم المخلد.

والكفار بصفة عامة يجوز لعنهم، واختلف أهل العلم في لعن الكافر المعين، فأجازوه بعضهم، ومنعه بعضهم.

وفي صحيح البخاري أن رجلاً كان يقام عليه حد السكر كثيراً، فقال رجل: لعنه الله، كثيراً ما يؤتى به، فقال ﷺ: «لا تلعنه فإنه يحب الله ورسوله»^(١).

فمن لا يحبون الله ورسوله يجوز لعنهم بصفة عامة.

وقد لعن الله من يكتمون صفة محمد ﷺ من أهل الكتاب؛ لأنه تسبب في صد كثير من الناس عن سبيل الهدى والدخول في الإسلام، فالناس أمام إخفاء صفات النبي ﷺ وأمام كتمان العلم بشكل عام صنفان: منهم من تاب وبلغ، فهذا يقبل الله توبته، ومنهم من كتم وأخفى، فهو متوعد بعذاب الله.

القَاعِدَةُ الثَّالِثَةُ: قَاعِدَةُ التَّوْحِيدِ

١٦٣ - ﴿وَالْهَكَرُ إِلَهٌُ وَاحِدٌ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ﴾ ﴿١٦٣﴾

هذه هي القَاعِدَةُ العظيمة الأساس في الإسلام، ويليهما التَّوْحِيدُ إلى أدلة التوحيد في هذا الكون المشاهد، والتنديد بمن يتخذ من دون الله أنداداً.

ولما حقت لعنة الله في الآية السابقة على من مات على الكفر وكتمان العلم ولم يبينه للناس، ممن لا ترجى لهم رحمة، بيّن جلّ شأنه أن مُشرّع هذا الدين واحد، ومُحقّ الحقّ

(١) من حديث عمر في البخاري برقم (٦٧٨٠).

واحدٌ، لا يُعبدُ غيره، ولا تُكتمُ هدايته، ولا يُجعلُ لكلام البشر معياراً مع كلامه، فهو الإله الحق، الحقيق بالعبادة: إله واحد، ولا إله غيره يستحق العبادة، فلا تشركوا به أحداً ﴿وَاللَّهُمَّ﴾ أيها الناس ﴿إِلَهُ وَاحِدٌ﴾ متفرد في ذاته وأسمائه وصفاته وأفعاله، وعبودية خلقه له ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾ لا معبود بحق إلا الله، فليس له ندٌّ ولا شريك ولا ولد، وهو ﴿الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ﴾.

ومن آثار رحمة الله تعالى: وجود جميع النعم واندفاع جميع النقم، وهذا دليل إجمالي على وحدانيته تعالى.

وأسباب النزول يُحتاج إليها لمعرفة الوقائع والحوادث التي نزلت فيها أحكام التشريع، بخلاف الآيات التي تقرر التوحيد فهي لا تحتاج إلى أسباب نزول.

ومما ورد في هذه الآية ما قاله ابن عباس رضي الله عنهما: إن كفار قريش قالوا: يا محمد، صف لنا ربك وانسبه، فنزلت هذه الآية ونزلت سورة الإخلاص.

وقيل: إن اسم الله الأعظم الذي إذا دُعي به أجاب، وإذا سُئِلَ به أعطى مذكور في هذه الآية، وفي آية الكرسي، وأول آل عمران.

عن أسماء بنت يزيد بن السكن رضي الله عنها قالت: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: «اسم الله الأعظم في هاتين الآيتين: ﴿وَاللَّهُمَّ﴾ و﴿وَاحِدٌ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ﴾»، وفاتحة آل عمران ﴿الْمَلِكُ﴾ الله لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ^(١).

والوحدة هي الانفراد، والواحد هو الذي لا يتبعَّض ولا ينقسم، والواحد لا نظير له، وليس كمثل شيء، واحد في ألوهيته وربوبيته، وأسمائه وصفاته لا شريك له.

ولما أشرك المشركون مع الله غيره كذبهم الله بهذه الآية، فنفى عن نفسه الشريك والقسيم والشبيه، فهو سبحانه واحد في ذاته وفي صفاته وفي أفعاله، ومن صفاته سبحانه

(١) أخرجه أبو داود برقم (١٤٩٦) وصحيح سنن أبي داود (١٣٢٧)، و«المسند» (٤٦١/٦) برقم

(٢٧٦١١) بإسناد ضعيف لضعف ابن أبي زياد وشهر بن حوشب، كما قال (محققه) وحسنه الألباني

برقم (٩٩١) في «صحيح الجامع» وأخرجه أيضا: ابن ماجه (٣٨٥٥) والبيهقي في «الشعب» (٢٣٨٣)

وابن أبي شيبة (٢٧٢/١٠).

أنه: رحمن رحيم، منعم بأصول النعم وفروعها، ومع هذا فهو رحيم بعباده المؤمنين رحمة خاصة، وبجميع خلقه رحمة عامة؛ تشمل البر والفاجر.

فالآية تبطل وجود إله غير الله تعالى، فلا يوجد إله يستحق العبادة غيره سبحانه، وهو الذي يفرد بالمحبة والخوف والرجاء والتوكل وغير ذلك.

ثَمَانِيَةٌ مِنْ دَلَائِلِ التَّوْحِيدِ فِي هَذِهِ الْآيَةِ

١٦٤- ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنْفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ مَّاءٍ فَأَخْبَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَنَّا فِيهَا مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيْحِ^(١) وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾

أخبر سبحانه وتعالى أن في هذه المخلوقات العظيمة: السموات والأرض والليل والنهار والسفن والمياه والدواب والرياح والسحاب، وغيرها، آيات دالة على وحدانية الله تعالى لمن لهم عقول يتدبرون ويستدلون بها على قدرة الخالق سبحانه، ويستعملونها فيما خلقت له.

وكيف يكفر بعض الناس بربهم، وهو سبحانه الإله الحق، المستحق للعبادة دون سواه؛ لأنه سبحانه الخالق الرازق، المحي المميت، الذي يُشَرِّع ويحلل ويحرم.

ولما نزلت الآية السابقة، قال المشركون: إن محمداً يقول: إلهكم إله واحد، فليأت بآية إن كان صادقاً فأنزل الله: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾^(٢)؛ لتبين لهم - أيها النبي - أن ما يرون من آيات الله في الكون أعظم مما يطلبون، فيعلمون أنه إله واحد، وأنه إله كل شيء، وخالق كل شيء.

وتوضح هذه الرواية بعض مطالب المشركين في مثل قولهم: اجعل لنا الصفا ذهباً إن كنت صادقاً^(٣) فأنزل الله سبحانه يعلم خلقه كيفية الاستدلال على وحدانيته بالتفكير،

(١) قرأ حمزة والكسائي وخلف العاشر (وتصريف الريح) بالافراد، وقرأ الباقر (الرياح) بالجمع نظراً لاختلاف هبوبها: شمالاً وجنوباً، وصباً ودبوراً، واختلاف أوصافها حارة وباردة.

(٢) «تفسير الطبري» (٣٧/٢).

(٣) أخرجه ابن مردويه وابن أبي حاتم (١٤٦٥) عن ابن عباس عن سعيد بن جبير.

في آياته وعجائب مخلوقاته، وقد أُمِرْنَا أن نفكر في آلاء الله وعظيم خلقه.

عن ابن أبي نجيح عن عطاء قال: أنزلت بالمدينة ﴿وَاللَّهُمَّ إِنَّكَ وَاللَّهُمَّ وَحْدٌ﴾ فقال المشركون بمكة: كيف يسع الناس إله واحد؟ فأنزل الله هذه الآية^(١).

وفيها إشارة إلى علم الفلك، والطبيعة، والجغرافيا الطبيعية، وعلم الفضاء، وعلم الأرض، وعلم النبات، والبحار والمعادن والحيوان، فأراد الله سبحانه أن يلفت أنظار خلقه إلى هذا الكون وما فيه، إذا أرادوا أن يستدلوا على وحدانية الله سبحانه، فإن هذا أمر موجود في الفطرة يُقَرُّ به المؤمن والكافر؛ فمنذ أن خلق الله الخلق، والكل يعترف بذلك ﴿وَلَمَّا سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ﴾ [الزمر: ٣٨].

وقد ذكرت هذه الآية ثمانية أدلة على وحدانية الله تعالى يُستدلُّ بها على وحدة الخالق جل شأنه، وهي من عجائب صنع الله تعالى في هذا الكون، يتنفع بها كلُّ من كان له عقل وبصيرة ممن يستجيون لنداء الفطرة فيهم، فإذا أرادوا أن يتعرفوا عليها فما عليهم إلا أن ينظروا في هذا الكون بما فيه، من فوقهم ومن تحتهم وعن أيانهم وعن شمائلهم:

الآية الأولى: السموات: عليهم أن ينظروا إلى العالم العلوي، وما فيه من النظام الشمسي، وما يتبعه من كواكب مختلفة المقادير والأبعاد، وقد استقر كل منها في مداره، ولولا قدرة الله جل شأنه لانفلتت هذه الكواكب، واصطدم بعضها في بعض وهلك العالم، فما عليكم إلا أن تتأملوا السموات بارتفاعها واتساعها، ومجراتها وعوالمها وإحكامها وإتقانها، وما جعل الله فيها من الشمس والقمر والنجوم وتنظيمها لمصالح العباد ﴿أَفَلَمْ يَنْظُرُوا إِلَى السَّمَاءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَاهَا وَزَيَّنَّاهَا وَمَا لَهَا مِنْ فُرُوجٍ﴾ [ق].

وفي العالم العلوي: الملائكة والعرش والكرسي وسدرة المنتهى وما إلى ذلك.

الآية الثانية: الأرض:

وعليهم أن ينظروا إلى العالم السفلي، وما فيه: الأرض بجبالها وسهولها وأوديتها وبحارها ومعادنها ونباتها وثمارها، وما فيها من إنسان وحيوان وجماد ونبات ﴿وَفِي الْأَرْضِ آيَاتٌ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [الذاريات]. نظام عجيب، وسنن إلهية مطردة، وإبداع حكيم، مع تعدد

(١) «تفسير القرطبي» (٢/ ١٨٤).

المنافع وتنوع الفوائد ﴿وَالْأَرْضَ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ ۖ تَبَصَّرَةٌ وَذَكَرَىٰ لِكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ﴾ [ق]. وقد جعل الله الأرض مهادًا للخلق. يمكنهم الاستقرار عليها والانتفاع بما فيها، وفي ذلك دليل على قدرة الله تعالى وانفراده بالخلق والتدبير.

الآية الثالثة: اختلاف الليل والنهار: وعليهم أن ينظروا في اختلاف الليل والنهار إذا ذهب أحدهما خلفه الآخر، وتعاقبهما بالطول والقصر، والظلمة والنور، والحرارة والبرودة وما ينشأ عن ذلك من انتظام مصالح بني آدم وحيواناتهم، وما على وجه الأرض من أشجار ونبات، كل ذلك بانتظام وتدبير وتسخير تحار فيه العقول، وتعجز عن إدراكه الفحول، وفي ذلك دلائل على قدرة الله تعالى وعلمه وحكمته، مما يوجب بذل الجهد في محبته سبحانه ومرضاته. قال تعالى: ﴿وَأَخْتَلَفَ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ﴾ [الجاثية: ٥].

وقال سبحانه: ﴿يَكُونُ اللَّيْلُ عَلَى النَّهَارِ وَيَكُونُ النَّهَارُ عَلَى اللَّيْلِ﴾ [الزمر: ٥].

وقال أيضًا: ﴿يُولِجُ اللَّيْلُ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارُ فِي اللَّيْلِ﴾ [الحديد: ٦].

وعليهم أن ينظروا ما في تغير الظلمة والنور، بسبب دورة الفلك، واختلاف الفصول باختلاف مواقعهم على الأرض :

١- قال تعالى: ﴿وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُّسَمًّى ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ الْمُلْكُ﴾ [فاطر: ١٣].

٢- وقال أيضًا: ﴿وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ خِلْفَةً لِّمَنَ أَرَادَ أَنْ يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ شُكُورًا﴾ [الفرقان].

٣- وقال سبحانه: ﴿وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ آيَاتٍ فَمَحَوْنَا آيَةَ اللَّيْلِ وَجَعَلْنَا آيَةَ النَّهَارِ مُبْصِرَةً﴾ [إسراء: ١٢].

٤- وقال ﷻ: ﴿لَا الشَّمْسُ يَنْبَغِي لَهَا أَنْ تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلَا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾ [يس].

٥- وقال جل شأنه: ﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ دَآئِبَيْنِ وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ﴾ [إبراهيم].

الآية الرابعة: الفلك التي تجري في البحر لمنفعة العباد:

وقد سخر الله البحر والرياح والسفن والمراكب وما تحملها من الرُّكَّاب والبضائع التي هي من منافع الناس، تنظَّم معاشهم ومصالحهم، وقد خلقها الله لهم وأقدرهم عليها، فمن الذي ألهمهم صنعتها، ومن الذي سخر لهم البحر، وسخر لهم الرياح، لتجري

السفن فيه بأمره، ومن الذي أوجد الوقود للمراكب البرية والبحرية.

عليهم أن ينظروا إلى السفن الجارية في البحار تحمل للناس ما ينفعهم، كما قال تعالى: ﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ الْفُلْكَ لِتَجْرِيَ فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ وَسَخَّرَ لَكُمُ الْأَنْهَارَ﴾ [إبراهيم: ٣٢]. وقال سبحانه: ﴿وَرَوَى الْفُلْكَ فِيهِ مَوَازِيرَ لِتَنْبَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [فاطر: ١٢]. وفي سورة النحل: ١٤ بتقديم ﴿مَوَازِيرَ﴾ على ﴿فِيهِ﴾ وزيادة واو قبل ﴿لِتَنْبَغُوا﴾.

الآية الخامسة: نعمة الماء لحياة الإنسان والحيوان والنبات:

ثم ينظروا إلى هذه السحب المسخرة بين السماء والأرض، وما تحمله من ماء؛ فيحيي الله به الأرض بعد موتها، وتصبح مخضرة بعد أن كانت يابسة.

وبالماء حياة الإنسان والنبات والحيوان ﴿وَاللَّهُ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَسُقْنَهُ إِلَى بَلَدٍ مَيِّتٍ فَأَحْيَيْنَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا﴾ [فاطر: ٩].

وقال سبحانه: ﴿فَانْظُرْ إِلَى ءَاثَرِ رَحْمَتِ اللَّهِ كَيْفَ يُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ ذَلِكَ لَمُنِّعِي الْمَوْتِ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [الروم: ٥٠].

والمراد برحمة الله في الآية: المطر، أو الماء النازل من السماء؛ كقوله تعالى: ﴿وَمَا أُنْزِلَ اللَّهُ مِنْ السَّمَاءِ مِنْ رِزْقٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا﴾ [الحج: ٥]. والرزق هو المطر.

فبالماء حدثت حياة الأرض بالنبات، وبه استعدت لظهور أنواع الحيوانات فيها.

وقد كانت السماء بلا سحب ولا مطر، وكانت الأرض بلا نبات ولا شجر، فأحياهما الله بأن أودع في السحاب الماء الغزير، ثم ساقه إلى بلد ميت فأحيا به الأرض بعد موتها، وذلك حين انفصلت السموات عن الأرض بعد أن كانتا مادة واحدة ﴿أَوَلَمْ يَرَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَاهُمَا وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيًّا﴾ [الأنبياء: ٣٠]. فقد جعل الله كل شيء حيًا بالماء، بعد أن استقلت الأرض، وتكوّنت اليابسة، وخرج النبات والحيوان واستمرت المتابعة، كما قال تعالى: ﴿وَرَوَى الْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنْبَتَتْ مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ﴾ [الحج: ٥].

والحياة تتجدد وتتوالد، والماء يتغذى به كل شيء حي على سطح هذه اليابسة.

ومع أن الماء واحد، إلا أنه يخرج به النبات مختلفاً في لونه وطعمه وفائدته ﴿يُسْقَى بِمَاءٍ وَجِدٍ وَنُفِصِلُ بَعْضَهَا عَلَى بَعْضٍ فِي الْأَكْلِ﴾ [الرعد: ٤] ويستدل بهذا ونحوه على البعث والنشور.

عن أبي رزين العُقَيْلي قال: قلت: يا رسول الله، كيف يحيي الله الموتى؟ قال: «أما مررت بالوادي مَحَلًّا، ثم تمرُّ به خضرًا؟» قال: بلى، قال: «فكذلك النشور». أو قال: «كذلك يحيي الله الموتى»^(١).

الآية السادسة: كل ما دب على وجه الأرض فهو من خلق الله:

وقد نشر الله في أقطار الأرض من الدواب المتنوعة، ما هو دليل على قدرته وعظمته ووحدانيته، وسخرها للناس كي ينتفعوا بها.

وعلى الناس أن ينظروا إلى كل ما دب على وجه الأرض من الإنسان والحيوان والطيور والهوام والحشرات وسائر الدواب، كلها من خلق الله تدل على وحدانيته وتوجب تفرده بالعبادة، قال تعالى: ﴿وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّا أُمٌّ أَمْثَالِكُمْ﴾ [الأنعام: ٣٨]. وفي سورة الجاثية خص الله الإنسان بالذكر ثم عطف عليه سائر الدواب.

فقال سبحانه: ﴿وَفِي خَلْقِكُمْ وَمَا يَبُذُّ مِنْ دَابَّةٍ ءَايَاتٌ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾ [الجاثية: ٤].

ومن هذه الدواب ما يأكلون من لحمه ويشربون من درّة، ومنها ما يركبون، ومنها ما يقوم على حراستهم، وهو سبحانه القائم بأرزاقهم، المتكفل بأقواتهم، فما من دابة في الأرض إلا على الله رزقها ويعلم مستقرها ومستودعها.

الآية السابعة: تصريف الرياح: على المنكر لوحداية الله تعالى، المتوجه بالعبادة إلى غيره أن يفكر وينظر إلى هذه الرياح وهي تتجه شرقاً وغرباً وشمالاً وجنوباً، حارة وباردة، وهي تأتي بالخير فتلقح النبات والأشجار، وتسوق الأمطار لحياة العباد والبلاد قال تعالى: ﴿وَأَرْسَلْنَا الرِّيحَ لَوْفِحَ فَاَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنْشَقِّكُمْوهُ وَمَا أَنْتُمْ لَهُمْ بِخَازِنِينَ﴾ [الحجر: ٢٢].

(١) مسند الطيالسي برقم (١٠٩) ومسند أحمد (١١/٤) برقم (١٦١٩٢، ١٦١٩٤) إسناده ضعيف لجهالة حال وكيع بن حُدس، وله شواهد وأخرجه البيهقي في «الأسماء والصفات» (١٠٦٩) والطبراني في «المعجم الكبير» برقم (٢٠٨) وصححه الحاكم ووافقه الذهبي في «المستدرک» (٤/٥٦٠) بإسناد حسن.

وينظر الإنسان الجاحد إلى الريح وهي تأتي تحمل العذاب والهلاك وتدمر كل شيء بأمر ربها، إن في ذلك لعبرة وذكرى لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد، قال تعالى: ﴿اللَّهُ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَيَبْسُطُهُ فِي السَّمَاءِ كَيْفَ يَشَاءُ وَيَجْعَلُهُ كِسْفًا فَتَرَى الْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَالِهِ﴾ [الروم: ٤٨]

وقال سبحانه تعالى: ﴿وَاللَّهُ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَمُقْتَلُهُ إِلَىٰ بَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَحْيَيْنَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا كَذَلِكَ الْفُتُورُ﴾ [فاطر]

وهذه الرياح تارة تثير السحاب، وتارة تؤلف بينه، وتارة تُلقّحه، وتارة تُدرّه، وتارة تُمزّقه، وتارة تبشر بالرحمة، وتارة تنذر بالعذاب، فمن الذي صرفها هذا التصريف، وأودع فيها هذه المنافع، ومن الذي سخرها لنفع الإنسان والحيوان والأشجار والنبات؟ لقد سخر الله السحاب بين السماء والأرض ليحمل الماء الكثير فيسوقه الى حيث يشاء، فيحيي به العباد والبلاد، فهل يليق بالعباد أن يتمتعوا برزق الله، ويستعينوا به على سخطه ومعصيته؟ أليس هذا دليلا على حلمه وصبره وعفوه. ومن الأحاديث الواردة في الرياح:

١- ما جاء عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: أخذتِ الناسَ ريحٌ بطريق مكة، وعُمُرُ حاجٍ، فاشتدت، فقال عمر لمن حوله: ما بلغكم في الريح؟ فقلت: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «الريح من رُوح الله، تأتي بالرحمة وبالعذاب، فلا تسبوا وسألوا الله من خيرها، وعوذوا بالله من شرها»^(١).

٢- وعن ابن عباس رضي الله عنه أن رجلاً لعن الريح، فقال له النبي ﷺ: «لا تلعن الريح فإنها مأمورة، وإنه من لعن شيئاً ليس له بأهل رجعت اللعنة عليه»^(٢).

٣- وعن أبيّ بن كعب رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «لا تسبوا الريح؛ فإنها من روح الله تعالى، وسلوا الله خيرها وخير ما فيها، وخير ما أرسلت به، وتعوذوا بالله من شرها

(١) بنحوه في «المسند» (٩٦٢٩، ٩٢٩٩، ٧٤١٣) صحيح لغيره، وهذا إسناده حسن رجاله ثقات كما قال محققوه، و«صحيح سنن ابن ماجه» (٣٣٠٣) والنسائي (١٠٧٦٧) وابن أبي شيبة (٢١٦/١٠) والشافعي في شفاء العي (٥٠٤) والبيهقي في السنن (٣/٣٦١)

(٢) صحيح سنن أبي داود (٤١٠٢) والترمذي (١٩٧٨) والبيهقي في «شعب الإيمان» (٥٢٣٥).

وشر ما فيها وشر ما أرسلت به»^(١).

٤- قال أبي بن كعب: كل شيء في القرآن من الرياح فهو رحمة، وكل شيء في القرآن من الريح فهو عذاب^(٢).

قال تعالى: ﴿وَلَيْنَ أَرْسَلْنَا رِيحًا فَرَأَوْهُ مُصْفَرًّا لَّظَلُّوا مِنْ بَعْدِهِ يَكْفُرُونَ﴾ [الروم]

وقال تعالى: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ يُرْسِلَ الرِّيحَ مُبَشِّرَاتٍ﴾ [الروم: ٤٦]

الآية الثامنة: تصريف السُّحب:

وعلى المنكرين لوحداية الله تعالى أن ينظروا في هذه السحب: كيف يُصرفها الله سبحانه، تبشر وتندّر، تجمع الرياح وتفرقها، وتصرفها فتكون تارة جنوبية، وتارة شمالية، وأخرى شرقية، ورابعة غربية، مرة حارة ومرة باردة؟! ﴿وَتَصْرِيفَ الرِّيحِ ءَايَاتٌ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ [الجاثية: ٥]. فيعلمون أنهم مفتقرون إلى الله تعالى، وأنه الغني عنهم، فلا إله غيره ولا معبود سواه.

إن في هذه الدلائل السابقة لآيات على وحدانية الله وجليل نعمه.

ومجمل هذه الأدلة الثمانية هي:

١- السموات والأرض. ٢- الليل والنهار.

٣- السفن المسخرة. ٤- انتفاع الناس بها.

٥- المطر والماء. ٦- كل ما دب على وجه الأرض.

٧- تصريف الرياح شمالاً وجنوباً. ٨- السحب والغيوم.

وفي سورة إبراهيم في الآيتين الثامنة والثلاثين والثالثة والثلاثين جاء ذكر هذه الدلائل وهذه النعم، وبيان أن الله سبحانه سخرها لنفع الإنسان وفائدته، وأنها من نعم الله تعالى التي لا تحصى ولا تعدّ.

(١) عبد الله بن أحمد في زوائد «المسند» (٢١١٣٩) حديث صحيح وإسناد رجاله ثقات رجال الشيخين، كما قال محققوه، والترمذي (٢٢٥٢) والنسائي في «السنن الكبرى» (١٠٧٧١) واللفظ له، وصححه الألباني في «السلسلة الصحيحة» (٢٧٥٦).

(٢) ابن أبي حاتم (١٤٧٥، ٨٦٠٦).

وجاء ذكرها أيضا في سورة الجاثية في الآيات: الثالثة والرابعة والخامسة، وبيان أن فيها عبرًا وعظات للمؤمنين والموقنين والعاقلين، أما غير المؤمنين وغير الموقنين وغير العاقلين، فهي عليهم عمي، كما قال تعالى: ﴿قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدًى وَشِفَاءٌ وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِي آذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى﴾ [فصلت: ٤٤]

وإنها دعوة إلى التأمل والنظر لما في هذا الكون، وإعمال العقل والفكر في آثار صنع الله تعالى فيه للاستدلال به على وحدانية الخالق سبحانه ووجوب التوجه له وحده بالعبادة. وهذه هي الآية الجامعة لأدلة التوحيد الثمانية، وهي نعم دنيوية، والانتفاع بها لا يكون إلا بسلامة العقول وانفتاح البصيرة، وفيها تثبيت للعقيدة، وتفتيق المدارك لقراءة الكتاب المنظور، والتأمل في الكتاب المسطور.

القاعدة الرابعة: مَحَبَّةُ الْعَبْدِ لِرَبِّهِ تَفُوقُ كُلَّ مَحَبَّةٍ

١٦٥- ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ اللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِلَّهِ وَلَوْ يَرَى الَّذِينَ ظَلَمُوا إِذْ يَرُونَ^(١) الْعَذَابَ أَنَّ^(٢) الْعَذَابَ أَنَّ^(٣) الْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا وَأَنَّ^(٣) اللَّهَ سَدِيدُ الْعَذَابِ﴾
ومع قيام هذه الأدلة والبراهين على وحدانية الخالق سبحانه؛ فإن بعض الناس يتخذون معبودات كالأوثان والأصنام من دون الله، فيحبونهم كحب الله في الطاعة والتعظيم والانقياد، أو يسوونهم مع الله ﷻ، أو يحبونهم كحب المؤمنين لله.
فما أجمل اتصال هذه الآية بما قبلها، فبعد أن بين سبحانه دلائل وحدانيته بالبراهين الساطعة، ذكر أن من الناس مع هذا البيان من يتخذ من المخلوقين أندادا لله يحبهم ويعظمهم.

(١) قرأ نافع وابن عامر ويعقوب وابن وردان بخلف عنه (ولو ترى) بقاء الخطاب، و (الذين) مفعول به، وقرأ الباقون بياء الغيبة، و (الذين) فاعل.

(٢) قرأ ابن عامر (إذ يرون) بالبناء المجهول، وواو الجماعة نائب فاعل، وقرأ الباقون بالبناء المعلوم، وواو الجماعة فاعل.

(٣) قرأ أبو جعفر ويعقوب بكسر الهمزة في الموضعين (إن) و (أن) وهي وما بعدها جواب (لو) أي: لقلت (إن) على قراءة الخطاب، أو لقالوا (إن) على قراءة الغيب، وقرأ الباقون بفتح الهمزة فيهما، وتقدير الجواب: لعلمت أن على قراءة الخطاب و (لعلوا إن) على قراءة الغيب.

فالأية السابقة تبين حال الذين لا يعقلون آيات الله الكونية، فالوثنى يقيس تعظيم الله تعالى على تعظيم الرؤساء وعظماء الناس، لا سِيَّما المستبدّين منهم، يسوِّيه به ويعتمد عليه، ويعتقد فيه نفعا أو ضرا، فالمحب يعتقد فيمن يحبه قدرة فوق قدرته، ونفوذاً فوق نفوذه، بما فيه من خصائص ومزايا حسب زعمه.

وما أكثر الأصنام والأوثان التي يحبها بعض الناس قديماً وحديثاً ويغضها بعضهم، وما هَدُمُ الصنم الذي كان في أفغانستان عنا بعيد.

وإن القنوات الفضائية لتأتي بما هو عجيب وغريب من المعبودات في العالم، ومنها عبدة الشيطان في العالم العربي، ومثل كل ما يعبد من دون الله، سواء أكان ذلك تمثلاً في محبة المال أم الزوجة أم الولد أم الهوى والشيطان ﴿أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهُهُ هَوَاهُ﴾ [الجاثية: ٢٣].

أم كان هذا الحب تمثلاً في محبة أهل الأضرحة والقبور، يدعونهم، ويسألونهم النفع والضرر، ويطوفون حول قبورهم، كما يطاف حول الكعبة، ويذبحون لأصحابها، وينذرون إليهم، ويطلبون منهم المدد والعون، ويتقربون بهم إلى الله تعالى ويتشفعون بهم عنده، ويطيعون الأحياء منهم فيما يُحلّون لهم ويحرمون عليهم، ويشركونهم في محبة الله ﷻ، ويذكرونهم إلى جوار اسم الله سبحانه.

فإن قلت له: أسأل الله وحده، نَفَرًا واستكبر، وقال: أنا عبد كثير الذنوب، وهو رجل صالح، والله يستجيب له ولا يستجيب لي، وهو لا يعلم أن الله تعالى قد استجاب لإبليس أشقى الخلق، وأنه لا واسطة بين الخالق والمخلوق، والله جل شأنه أقرب إلى عبده من حلل الوريد، ومع هذا فهو يأبى أن يوحد الله، ولا بد له أن يشرك معه غيره!! يا سبحان الله!!

قال تعالى مقررًا هذه الحالة: ﴿وَإِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَحْدَهُ اشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ وَإِذَا ذُكِرَ الَّذِينَ مِنْ دُونِهِ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ﴾ [الزمر]. فهو يُعرض عن التوحيد، ويهش ويهش للشرك ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا إِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ﴾ [الصفات]. إنه لا يقنع بالله وحده، بل يريد ولا بد أن يشرك معه غيره ﴿أَلَيْسَ اللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ﴾ [الزمر: ٣٦].

في الصحيحين عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: قلت: يا رسول الله، أي الذنب أعظم؟ قال: «أن تجعل لله نداً وهو خلقك»^(١).

(١) «صحيح البخاري» برقم (٤٧٦١، ٦٠٠١) و«صحيح مسلم» برقم ٨٦.

إن الغلو في محبة الصالحين وأولياء الله، ممن ماتوا وقُبروا، أو من كان حيًا منهم هو سبب الشرك بالله في القديم والحديث، إن هؤلاء الصالحين لا يملكون لأنفسهم نفعًا ولا ضرًا وهم أحياء، فكيف وهم أموات؟! والآية التي نحن بصددتها تقرر هذا المعنى، قال تعالى: ﴿أَمِ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ شُفَعَاءَ قُلْ أَوَّلَوْ كَانُوا لَا يَمْلِكُونَ شَيْئًا وَلَا يَعْقِلُونَ﴾ [الزمر]. وقال سبحانه: ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ مَنْ لَا يَسْتَجِيبُ لَهُ إِلَى يَوْمِ الْفِتْمَةِ وَهُمْ عَنْ دُعَائِهِمْ غَفْلُونَ﴾ [الأحقاف].

وهذا معنى ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَتَّخِذُ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَنْدَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ﴾ يشركونهم مع الله تعالى في المحبة والطاعة، أو يسوون بينهم وبين الله ﷻ في ذلك، وهذا شأن الكافر، فالمخلوق ليس ندًا لله، لأن الله هو الخالق الرازق، وغيره مخلوق مرزوق، والله هو النافع الضار، والمخلوق لا ينفع ولا يضر، والله هو الغني وأنتم الفقراء، فعلم بهذا بطلان عبادة من اتخذ من دون الله أنداد، عبدًا أو صنمًا.

أما المؤمن، فيقول الله سبحانه عنه: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِلَّهِ﴾ أي: أشد من حب المشركين لآلهتهم؛ لأنهم أحبوا من يستحق المحبة على الحقيقة، وفي محبته صلاح العبد وسعادته، والمشركون أحبوا من لا يستحق المحبة، وفي محبتهم شقاء العبد وتعاسته، فالمؤمن له محبوب واحد، بيده ملكوت كل شيء، يخصه بالمحبة، ويوحده بالعبادة، وحب المؤمنين لربهم ثابت ودائم لا تعدله محبة، فهم أعظم حبًا لله من حب هؤلاء الكفار لآلهتهم؛ لأن المؤمنين أخلصوا محبتهم كلها لله، وهؤلاء أشركوا في محبتهم لآلهتهم؛ وذلك لأنه لا حجة لهم في محبتهم لها، وهم يقصدونها في أغراض عاجلة، كقضاء الحاجات ودفع الملهمات، أما محبة المؤمنين لربهم، فهي حب لذاته تعالى؛ لكونه أهلاً للحب، فهو حب عن عقيدة وتصميم، ويتبع هذه المحبة طلب رفع الدرجات، وتزكية النفس.

ورد أن امرأ القيس لما أراد قتال بني أسد، حين قتلوا أباه، مرَّ على (ذي الخُلصة) الصنم الذي كان بتبالة، بين مكة واليمن، فاستقسم بالأزلام، التي كانت عند الصنم، فخرج له القدح الناهي ثلاث مرات، فكسر تلك القداح، ورمى بها في وجه الصنم وشتمه، وأنشد فيه شعرًا يهجو.

وورد أن رجلًا من بني مَلْكَان جاء إلى صنم بساحل جدة، وكان معه إبل فنفرت الإبل

لما رأت الصنم، فغضب على الصنم ورماه بحجر، وأنشد فيه أبياتاً يهجوّه.

وقصة عمرو بن الجموح مشهورة في هجائه لصنمه بعد أن علق الفأس في عنقه؛ ليدفع بها الأذى عن نفسه دون جدوى!

فأين هذه المحبة، من محبة المؤمن لربه؟ أين هي من بلال وهو يعذب في الرمضاء ليكفر، فما يزيد عن قوله: أحد، أحد؟!

فالمؤمن الحقيقي يحب الله سبحانه محبةً لا نظير لها ﴿أَلَا لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ﴾ [الزمر: ٣] ويقدم طاعة الله ﷻ على كل شيء، ويعتقد أن الخلائق جميعاً من الأنبياء والصالحين لا يملكون لأنفسهم ولا لغيرهم شيئاً.

والمحبة المطلوبة هي التي يَصْغُرُ دونها كل شيء، بحيث يكون الله ورسوله أحب إلى المرء مما سواهما، ومن نفسه التي بين جنبيه، محبة قلبية، ومحبة عقلية، بالقلب والقالب والنفس والوجدان، وإيثار حب الله ورسوله على محبة كل شيء في هذه الدنيا ﴿قُلْ إِنْ كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسْكَنٌ تَرْضَوْنَهَا أَحَبُّ إِلَيْكُمْ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرٍ﴾ [التوبة: ٢٤] ففي تقديم محبة شهوات الدنيا كلها، على محبة الله ورسوله، تهديد ووعد، ونذير بالعاقبة الوخيمة، والمحبة الصحيحة، تجعل مصيبة الإنسان في دينه أشد وأعظم من مصيبته في دنياه وماله وولده، ولذا كان الصحابة رضوان الله عليهم يعزي بعضهم بعضاً فيمن فاتته صلاة مع الجماعة، أو تكبيرة الإحرام.

قال سبحانه متوعداً من يحب غير الله تعالى: ﴿وَلَوْ يَرَى الَّذِينَ ظَلَمُوا إِذْ يَرْوْنَ الْعَذَابَ﴾ أي: ولو يرى هؤلاء الذين ظلموا أنفسهم بالشرك واتخاذ الند والصاحبة والولد لله تعالى، فظلموا أنفسهم بالمعاصي، أو ظلموا غيرهم بالبغي والعدوان والصد عن سبيل الله، لو يرى الذين ظلموا أنفسهم وغيرهم حين يرون العذاب ويعاينونه يوم القيامة وقت أن يُقذف بهم في النار، لرأوا أمراً عظيماً هائلاً، فهم يرون ويشاهدون حيث أن الله هو المنفرد بالقوة وحده ، وأن الأنداد ليس فيها شيء من القوة، فيتبين لهم عجزها وضعفها، ويعلمون ﴿أَنَّ الْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعاً﴾ والقدرة كلها بيد الله، يُعَذَّبُ من يشاء ويرحم من يشاء ﴿وَأَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعَذَابِ﴾ لمن اتخذوا من دون الله آلهة يعبدونها، ويتقربون بها إليه،

ويكون ذلك حين يرون مشهداً من مشاهد يوم القيامة ﴿فَيَوْمَئِذٍ لَا يُعَذِّبُ عَذَابُهُ أَحَدًا ۖ وَلَا يُوثِقُ وَثَاقُهُ أَحَدًا﴾ [الفجر].

الْقَاعِدَةُ الْخَامِسَةُ: مَسْئُولِيَّةُ كُلِّ إِنْسَانٍ عَنْ نَفْسِهِ (تَلَاوُمُ أَهْلِ النَّارِ)

١٦٦- ﴿إِذْ تَبَرَأَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا وَرَأَوْا الْكَذَابَ وَتَفَقَّتْ بِهِمْ^(١) الْأَسْبَابُ﴾

وهذا إخبار من الله تعالى عن المستقبل؛ حيث يتخاصم أو يتلاوم الكفار في النار يوم القيامة، كل منهم يُلقِي باللوم والتبعة على الآخر؛ حيث يَكْفُرُ بعضهم ببعض، ويلعن بعضهم بعضاً، لأن الصلة بينهم كانت لغير الله، فانقلبت عليهم حسرة وندامة، وضررتهم غاية الضرر، وهذا بخلاف من كانت علاقته لله، فإنه يجد جزاء ذلك عند ربه ﴿ذَلِكَ بِأَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا اتَّبَعُوا الْبَاطِلَ وَأَنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّبَعُوا الْحَقَّ مِنْ رَبِّهِمْ﴾ [محمد: ٣].

قال تعالى: ﴿كُلَّمَا دَخَلَتْ أُمَّةٌ لَعَنَتْ أُخْتَهَا﴾ [الأعراف: ٣٨]. وهذا يشمل كل من اتبع غيره وقلده في الكفر والضلال، الرئيس والمرؤوس، التابع والمتبوع، والفقير الذي قلد الغني، والحاكم والمحكوم، والقوي والضعيف، وكل من اتبع هواه، فعبد شيئاً من دون الله باتباع إشارته، أو ممن عبد الشمس أو القمر أو النجوم أو الأصنام، أو الصالحين، من الأحياء أو الأموات، فأشركهم مع الله تعالى في دعائه وعبادته، أو توسط بهم إليه، فإذا كان يوم القيامة، فإن كُلاً منهم يتنكر للآخر، ويلوم كل فريق صاحبه ويتنصل منه ﴿ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُم بَعْضًا وَمَأْوَاكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُم مِّنْ تَصْرِيفٍ﴾ [العنكبوت: ٢٥].

ويوم القيامة يحدث بين هؤلاء جميعاً خصام، وقطع للروابط والصلات، وكل منهم يتبرأ من الآخر ﴿إِذْ تَبَرَأَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا﴾ فتقطع بينهم كل الصلات والروابط والمودة والقربة حتى رابطة الدين الذي جمعهم وقلد بعضهم بعضاً فيه ﴿وَرَأَوْا الْكَذَابَ﴾ أمام أعينهم مشاهداً ﴿وَتَفَقَّتْ بِهِمُ الْأَسْبَابُ﴾ والروابط التي كانت في الدنيا

(١) قرأ حمزة والكسائي وخلف بضم الهاء والميم وصلا من (بهم الأسباب) وكسرهما أبو عمرو ويعقوب وصلا كذلك، والباقون بكسر الهاء وسكون الميم وصلا، وعند الوقف على (بهم) الجميع يكسر الهاء ويسكن الميم

وانتهت العلاقات، وهوت الرئاسات، وسقطت الكراسي، وأصبحت لا قيمة لها، ولم يعد هؤلاء الكبار يملكون للصغار شيئاً، ولا يمكن أن ينفعوهم، وقد أضلوهم في الدنيا، لقد اغتروا بصحبته في الدنيا، ويوم القيامة يتبرؤون منهم.

قال تعالى: ﴿وَاتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ آلِهَةً لِيَكُونُوا لَهُمْ عِزًّا ۖ كَلَّا سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا﴾ (٨٢) [مريم].

وحين يدخل بعضهم على بعض في عذاب جهنم، ينفر كل من التابع والمتبوع من لقاء الآخر، فيقال لمن سبق منهم: ﴿هَذَا فَوْجٌ مُقْتَحِمٌ مَعَكُمْ﴾ يدخل النار معكم، فيقولون: ﴿لَا مَرَجًا بَيْنَهُمْ إِتْلُوا نَارًا﴾ فيقول الفوج الآخر: ﴿بَلْ أَنتُمْ لَا مَرَجًا بَيْنَكُمْ أَنتُمْ قَدِمْتُمُوهُ لَنَا فَيَقْسُ الْقَرَارُ﴾ [ص: ٥٩، ٦٠]. قال تعالى:

١٦٧- ﴿وَقَالَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا لَوْ أَنتَ لَنَا كَرَّةٌ فَنَّابَرَأَ مِنْهُمْ كَمَا تَبَرَّأُوا مِنَّا كَذَلِكَ يُرِيهِمُ اللَّهُ أَعْمَلَهُمْ حَسَرَاتٍ عَلَيْهِمْ ۖ وَمَا هُمْ بِخَارِجِينَ مِنَ النَّارِ﴾ (١٦٧)

ويوم القيامة يقول التابعون: لو أن لنا عودة إلى الدنيا مرة ثانية، لانتقمنا منهم وأعلنا براءتنا منهم كما أعلنوا براءتهم منا، وكما أراهم الله شدة عذاب الآخرة يريهم عاقبة ما كانوا يفعلونه في الدنيا من الشرك والكفر والمعاصي ندامة وحسرة على ما فرطوا في جنب الله، فهم يتمنون أن يُردّوا إلى الدنيا مرة أخرى، فيتركوا المعاصي وعلى رأسها الإشراك بالله، ويقبلوا على ربهم مخلصين له الدين، وأنّى لهم ذلك، فقد فات وقت التوبة، وانتهى عمر الدنيا، ولو رُدّوا لعادوا لما نهوا عنه وإنهم لكاذبون.

قال سبحانه: ﴿وَمَا هُمْ بِخَارِجِينَ مِنَ النَّارِ﴾ فأهل النار والعياذ بالله مخلدون فيها لا يخرجون منها أبداً ﴿لَا يُقْضَىٰ عَلَيْهِمْ فِيمُوتُوا وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ مِنْ عَذَابِهَا﴾ [فاطر: ٣٦]؛ لأن الكافر في عذاب مستمر متجدد، لا يحيى ولا يموت ﴿ثُمَّ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَىٰ﴾ (١٢٢) [الأعلى]. ﴿كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُمْ بَدَّلْنَاهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا الْعَذَابَ﴾ [النساء: ٥٦].

(١) قرأ أبو عمرو بكسر الهاء والميم وصلّا من (يريهم الله) وضم الهاء والميم وصلّا حمزة والكسائي وخلف وضمهما يعقوب وصلّا، والباقون بكسر الهاء وضم الميم وصلّا، وعند الوقف الجميع يكسر الهاء ويسكن الميم ماعدا يعقوب فإنه يضم الهاء.

(٢) ضم الهاء من (عليهم) حمزة ويعقوب وصلّا ووقفاً والباقون بكسرهما في الحالين.

نسأل الله السلامة والعفو والعافية.

وقد جاء تفصيل هذا التلاوم في مواطن عدة من القرآن الكريم، منها الآيات في سورة غافر [٤٧-٥٠]، وفي سورة ص [٥٩-٦٤]، وفي سورة إبراهيم [٢١، ٢٢].

ومن ذلك ما يقع من التلاوم بين المستضعفين والمستكبرين في قصة نبي الله صالح وغيره من الرسل، كما جاء ذلك في سورة الأعراف كما في الآيتين (٧٥، ٧٦)

وفي كل هذا يطلب الضالون من الذين أضلّوهم أن يتحملوا عنهم نصيباً من عذاب النار ولو ساعة من نهار!! فيقولون لهم: ﴿إِنَّا كُلٌّ فِيهَا إِنْ كَرِهَ اللَّهُ قَدْ حَكَمَ بَيْنَ الْعِبَادِ﴾ [غافر: ٤٨]

فيذهبون لخزنة جهنم، يسألونهم الشفاعة عند الله تعالى لتخفيف العذاب عنهم، ولو للحظات!! فيقررونهم عن دعوة الرسل لهم، وإنزال الكتب عليهم؛ فيقرون، فيقولون لهم: ادعوا ﴿وَمَا دَعَا الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ﴾ [غافر: ٥٠].

ثم يحاولون الخروج من النار فلا يجدون منفذاً ﴿يُرِيدُونَ أَنْ يُخْرِجُوا مِنْ النَّارِ وَمَا هُمْ بِخَارِجِينَ مِنْهَا وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّقِيمٌ﴾ [المائدة: ٢٧].

وهذا أمر متجدد يتكرر، قال تعالى: ﴿كُلَّمَا أَرَادُوا أَنْ يَخْرِجُوا مِنْهَا أُعِيدُوا فِيهَا﴾ [السجدة: ٢٠]. وفي سورة الحج بزيادة ﴿مِنْ غَمٍّ﴾ [الحج: ٢٢].

ثم يلجؤون في النهاية إلى (مالك) أكبر خزنة جهنم، يطلبون منه القضاء عليهم بإهلاكهم في النار مرة واحدة، فيجيبهم (مالك) بعد وقت طويل، تبدل فيه دماؤهم، وتُضهر فيه جلودهم، وتُسوى فيه وجوههم، وتُقَطَّع فيه أمعاؤهم آلاف المرات، يجيبهم قائلاً: ﴿إِنَّكُمْ مَكِيدُونَ﴾!! ﴿وَنَادُوا بِمَلِكٍ لِيَقْضِيَ عَلَيْنَا رَبُّكَ قَالَ إِنَّكُمْ مَكِيدُونَ﴾ [٧٧] لَقَدْ حَسَنَّا بِالْحَقِّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَكُمْ لِلْحَقِّ كَذِبُونَ ﴿[٧٨]﴾ [الزخرف] وهذه الأكثرية هم أهل النار.

وحين تلفح وجوههم النار، وتتشنج شفاههم وتكلح، ويحاولون الكلام، يُختم على أفواههم، ويقال لهم ﴿قَالَ أَخْسُوا فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ﴾ [المؤمنون: ٧٨].

ويوم القيامة يتبرأ الشيطان من الجميع قائلاً: ﴿إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعَدَ الْحَقِّ وَوَعَدْتُكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ وَمَا كَانَ لِي عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ إِلَّا أَنْ دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي فَلَا تَلُمُونِي وَلُومُوا أَنْفُسَكُمْ﴾ [إبراهيم: ٢٢]. والشيطان هو رأس المتبوعين.

والنتيجة الأخيرة: أنه يقال لمن مات على الكفر: «ويا أهل النار خلود بلا موت» كما قال تعالى ﴿قِيلَ ادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا فَبِئْسَ مَثْوًى لِّلْمُتَكَبِّرِينَ﴾ [الزمر].

وكما يقع التلاوم بين الضالين والمضلين، يقع بين العابدين والمعبودين، فيكفرون بهم ويكونون لهم أعداء.

اللهم جنبنا عذاب النار، واصرف عنا لهيبها وجحيمها يا رب العالمين، وباعد بيننا وبينها كما باعدت بين المشرق والمغرب، واجعلنا من الفائزين بجنتك النعيم، آمين.

القاعدة السادسة: التحليل والتحرير حق الله وحده

١٦٨ - ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ كُلُوا مِمَّا فِي الْأَرْضِ حَلَالًا طَيِّبًا وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ^(١) الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾

ولما بين الله سبحانه أنه الواحد الأحد، واجب الطاعة والمحبة والاتباع والانقياد، أمر عباده - على وجه الامتنان - أن يأكلوا مما أباحه لهم في الأرض، من كل ما هو طاهر غير نجس، ومن كل ما هو نافع غير ضار، كالحبوب والثمار والفواكه، ومن كل حلال طيب لا شبهة فيه ولا سرقة ولا رشوة ولا غصب، فبين سبحانه أنه الرازق لعباده، وأنه الذي يُشرع لهم الحلال والحرام، فالذي يخلق هو الذي يرزق، وهو الذي يحلل ويحرم؛ لأن التشريع يرتبط بالعقيدة.

ومن باب التعدي على خصائص الألوهية أن يحرم الخلق على أنفسهم ما أحله الله لهم، أو يُحلُّوا لأنفسهم ما حرم الله عليهم، كالذين حرّموا على أنفسهم في الجاهلية بعض الحرث والأنعام، والذين يحلون لأنفسهم في كل عصر ومصر ما حرمه الله تعالى؛ كالخمر والربا والميسر، أو يحرمون ما أحله الله لهم؛ كالحم البقر الذي يحرمه الهنود على أنفسهم، وما حرمه المشركون على أنفسهم قديماً من البحيرة، والسائبة، والوصيلة، والحام، وغير ذلك مما أحله الله، وما حرمه الله على اليهود إنما كان بسبب ظلمهم وصدّهم عن سبيل الله، ثم أحله لمن بعدهم.

(١) قرأ نافع وأبو عمرو وشعبة وحمزة وخلف العاشر والبزي بخلف عنه بسكون الطاء من (خطوات) وضمها الباقون ومعهم البزي في وجهه الآخر.

والمُحَرَّم من المطعومات نوعان: إما مُحَرَّم لذاته، وهو الخبيث، كالدم ولحم الخنزير، وهو ضد الطيب، وإما مُحَرَّم لِمَا عَرَضَ له من التعلق بحق الله تعالى أو حق عباده، وهو ضد الحلال.

وفي صحيح مسلم من حديث عياض بن حمار رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ قال ذات يوم في خطبته: «ألا إن ربي أمرني أن أعلمكم ما جهلتم مما علمني يومي هذا؛ كل مال نحلته عبدي حلال، وإنني خلقت عبادي حنفاء كلهم، وإنهم أتتهم الشياطين، فاجتالهم عن دينهم وحرمت عليهم ما أحللت لهم...» الحديث^(١).

ولما ذُكرت هذه الآية عند الصحابة رضي الله عنهم ﴿يَتَأَيُّهَا النَّاسُ كُلُوا مِمَّا فِي الْأَرْضِ حَلَالًا طَيِّبًا﴾ قام سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه، فقال يا رسول الله ادعُ الله أن يجعلني مستجاب الدعوة، فقال: «يا سعد، أظب مطعمك تكن مستجاب الدعوة، والذي نفس محمد بيده، إن الرجل ليقذف اللقمة الحرام في جوفه، ما يُتقبل منه أربعين يومًا، وأيما عبد نبت لحمه من السحت والربا فالنار أولى به»^(٢) والحديث وإن كان في سنده مقال إلا أن فيه تربية، وترهيبًا من أكل الحرام، وله شواهد كثيرة، فهو صحيح المعنى.

والتعدي في تشريع الحرام والحلال اتباع لخطوات الشيطان، أي: طاعة واتباع له، والشيطان ظاهر العداوة للإنسان؛ فهو يوحي له بكل ما فيه عصيان لله ﷻ، مما يسوء صاحبه ويخزيه يوم القيامة، ويأمره بكل قول أو فعل فاحش قبيح؛ كالزنا والربا والبخل واللواط، ولذا فقد نهانا الله تعالى أن نسلك طريقه فقال: ﴿وَلَا تَتَّبِعُوا خُطَوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ﴾ وعداوته معلومة لدى المؤمنين وغيرهم.

وجميع المعاصي من كفر وفسوق وظلم، وأكل اللحوم المحرمة، كل ذلك من خطوات الشيطان، وهو لا يألوا جهدا في أن يكون أتباعه من أصحاب السعير.

ولذا: فقد كان المشركون في الجاهلية يرمون الجمار، ويعتقدون أنهم يرمون الشيطان، وعداوة الشيطان للناس في ثياب النصيحة، فهو يوسوس ولا يُظهر عداوته، ومن اتباع خطوات الشيطان ما سَوَّله لبعض الناس قديمًا مما ذكره القرآن في سورة الأنعام

(١) «صحيح مسلم» برقم (٢٨٦٥).

(٢) المعجم «الأوسط» للطبراني برقم (٥٠٢٦) وضعفه الألباني في «السلسلة الضعيفة» (١٨١٢).

بالنسبة لقبائل ثقيف، وبني عامر بن صعصعة، وخزاعة، وبني مدلج، فقد حرموا على أنفسهم ما أحله الله من البحيرة والسائبة والوصيلة والحام^(١).

ولما رأى ابن مسعود رجلاً قد حَرَّمَ أكل الضرع على نفسه قال له: هذا من خطوات الشيطان، كُلْ وَكَفَّرْ عن يمينك^(٢).

ومن هذا القبيل منع الإنجاب وتحريمه، ومنع تعدد الزوجات، وإباحة الخليلات والشذوذ الجنسي، واستحلال الرِّبَا والرِّشْوَةِ، وما إلى ذلك ﴿وَلَا تَقُولُوا لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ الْكَذِبَ هَذَا حَلَالٌ وَهَذَا حَرَامٌ لِنَفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ﴾ [النحل].

وقال سبحانه: ﴿إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا إِنَّمَا يَدْعُو حِزْبَهُ لِيَكُونُوا مِنْ أَصْحَابِ السَّعِيرِ﴾ [فاطر].

وقال جل شأنه ﴿يَنْبَغِي آدَمَ لَا يَفْتِنَنَّكُمُ الشَّيْطَانُ كَمَا أَخْرَجَ أَبَوَيْكُم مِّنَ الْجَنَّةِ﴾ [الأعراف: ٢٧].

مَسَالِكُ الشَّيْطَانِ

١٦٩- ﴿إِنَّمَا يَأْمُرُكُم بِالسُّوءِ وَالْفَحْشَاءِ وَأَن تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [١٦٩]

والشيطان يجري من ابن آدم مجرى الدم؛ فضيقوا مجاريه حتى لا تضلوا وتسلخوا سبيله، فهو يأمركم بالسوء والفحشاء، أي: بكل ذنب قبيح وبكل معصية بالغة القبح وادعاء ما لا علم لكم به، فتقولوا على الله ما لا تعلمون، ومنه تحريم الحلال، وتحليل الحرام.

والسوء: ما يسوء فاعله، ويدخل فيه جميع المعاصي.

والفحشاء من عطف الخاص على العام، وهو كل ماتناهى قبحه وفحشه، كالزنى والقتل والسحر والقذف والربا وشرب الخمر.

(١) «تفسير الطبري» (٣٧/٢) والألوسي (٢٨/٢) وابن أبي حاتم (١٥١٠).

(٢) عبد الرزاق (١٩٨/١) و«تفسير سعيد بن منصور» (٧٧٢) وابن أبي حاتم (١٥٠٣) والطبراني (٨٩٠٧).

(٣) قرأ أبو عمرو بخلف عن الدوري بإسكان الراء من (يأمركم) وضمها الباقون، والوجه الثاني للدوري هو اختلاس حركة الراء، وأبدل الهمزة ألفاً ورش وأبو جعفر وأبو عمرو بخلف عنه.

ومن القول على الله بغير علم، من زعم أن الله نذًا، أو نسب الشريك والولد لله تعالى، أو وصف الله تعالى بما لم يصف به نفسه، أو نفى عنه ما أثبتته لنفسه، وكذلك الشأن بالنسبة لرسول الله ﷺ.

ومن ذلك أن يقول العبد بغير دليل صحيح: إن الله حرم كذا أو أحل كذا، أو أمر بكذا، أو نهى عن كذا.

قال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَالْإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَأَنْ تُشْرِكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا نَعْلَمُونَ ﴿٣٣﴾﴾ [الأعراف]

وإذا كان الشيطان يأمر بالسوء والفحشاء، فإن الله تعالى يأمر بالعدل والإحسان وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغي، والعامل يختار لنفسه أي الطريقين، فيتبع داعي الخير والسعادة، أو داعي الشر والضلالة. ثم أخبر سبحانه عن حال متبعي الشيطان فقال:

١٧٠ - ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ ءَابَاءَنَا أَوَلَوْ كَانَتْ ءَابَاؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ ﴿٧٠﴾﴾

أي: ومن مسالك الشيطان أنه إذا قيل لمن يتخذون من دون الله أندادًا: وحّدوا الله، واتَّبِعُوا شرعه فيما أحل وحرم، وأخلصوا له العبادة؛ فلا تدعوا إلا إياه، ولا تنذروا إلا له، قالوا: بل نتبع ما أَلْفَيْنَا عليه آبائنا في جميع العادات والتقاليد، والتحليل والحرام، وما ورثناه عن مجتمعنا وبيئتنا وآبائنا السابقين في كل ما يقولونه ويفعلونه، فهم يظنون أنهم على صواب في كل شيء؛ في عقائدهم، وعباداتهم، وأخلاقهم، وهذه شبهة لرد الحق وعدم قبوله.

قال تعالى منكرًا عليهم: ﴿أَوَلَوْ كَانَتْ ءَابَاؤُهُمْ﴾ الذين يتبعونهم ﴿لَا يَعْقِلُونَ شَيْئًا﴾ من أمر الدين والدنيا ﴿وَلَا يَهْتَدُونَ﴾ إلى الصواب في شيء، فلو أنهم كانوا على هدى، لكان الحق هو قَصْدُهُم، ومن جعل الحق قَصْدَهُ ووازن بينه وبين الباطل، تبين له الحق واتَّبعه إن كان منصفًا.

ولآية اتصال بحديث السورة عن اليهود على أساس أن الضمير في (لهم) يعود إلى غير مذكور.

(١) قرأ هشام والكسائي ورويس بإشمام كسرة القاف من (قل) ضمًا والباقون بالكسر الخالص.

قال ابن عباس رضي الله عنه: دعا رسول الله ﷺ اليهود إلى الإسلام ورغبهم فيه، وحذّرهم عذاب الله ونقمته، فقال رافع بن خارجه ومالك بن عوف: بل نتبع ما ألفينا عليه آباءنا، فهم كانوا أعلم وخيرًا منا فنزلت الآية^(١).

والآية عامة في اليهود والمشركين وأضرابهم ممن يُقلّدون الآباء والأجداد في العقيدة الفاسدة، والعبادة الضالة، وما أكثرهم في كل زمان ومكان!!

مَثَلُ الْكَافِرِ

١٧١ - ﴿وَمَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا كَمَثَلِ الَّذِي يَنْعِقُ بِمَا لَا يَسْمَعُ إِلَّا دُعَاءً وَنِدَاءً صُمُّ بُكْمٌ عُمْى فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾

ثم ضرب الله مثلاً لما عليه المقلدون لغيرهم بالباطل: من الضلال والجهل وتشبيههم بالدواب التي تتبع كل صوت تسمعه، دون فهم لما يُقال، فالبعير أو الحمار يسمع الصوت، ولكنه لا يفقه معناه، ومثل المقلد غيره في الكفر كمثّل صوت راعي الغنم تتبعه غنمه، وهي لا تسمع إلا صوتاً، فهي تسمع ولا تفهم، ولا تدرك معنى ما يقال، وكذلك الكفار يسمعون ولا يعملون، إنهم يسمعون دعوة الرسول ولا ينتفعون بها، وقد علم الله منهم ذلك، فأخبر أن مثلهم عند دعاء داعي الإيمان لهم، كمثّل البهائم التي ينطق لها راعيها، وليس لها علم بما يقول إلا مجرد سماع الصوت الذي تقوم به الحجة، ولكنها لا تفقه شيئاً، فلهذا كان الكفار صُمّاً لا يسمعون الحق سماع فهم وقبول، عُميّاً لا ينظرون نظراً اعتباراً، بكماً لا ينطقون بما فيه خير لهم.

والمثل ينطبق على كل من يدعو غير الله، فليس له إلا العناء والبلاء، فالأصنام والأموات لا تسمع، ولا تنطق، ولا تبصر، ولا تعقل ﴿وَمَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ أي: وصفة الذين كفروا وداعيهم إلى الهدى والإيمان ﴿كَمَثَلِ الَّذِي يَنْعِقُ بِمَا لَا يَسْمَعُ إِلَّا دُعَاءً وَنِدَاءً﴾ كصفة الراعي الذي يصيح بالبهائم ويزجرها وهي لا تفهم معاني كلامه، وإنما تسمع النداء ودوي الصوت فقط، فهي تسمع الصوت ولا تفهم المعنى.

وفي هذا تهكم بالمشركين؛ لأن الأصنام تفقد الإحساس، فالدواب خير منها، والكفار

(١) «تفسير الطبري» (٣/٣٠٥) وأخرجه ابن أبي حاتم بسند حسن (١٥١١) و«سيرة ابن هشام» (١/٥٥٢).

صَمٌّ عَنْ سَمَاعِ الْحَقِّ، بِكُمُ عَنْ النُّطْقِ بِهِ، غُمِّيَّ عَنْ طَرِيقِ الْهَدْيِ، فَهَمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْئًا وَلَا يَفْهَمُونَهُ؛ لِأَنَّهُمْ لَمْ يَنْتَفِعُوا بِمَا يَسْمَعُونَ وَيَبْصُرُونَ، لَقَدْ سَدُّوا أَسْمَاعَهُمْ عَنِ الْحَقِّ، وَأَخْرَسُوا أَلْسِنَتَهُمْ عَنْهُ، وَهُمْ لَا يَرُونَ الْبَرَاهِينَ الْوَاضِحَةَ؛ لِأَنَّهُمْ لَا يُعْمِلُونَ عَقُولَهُمْ فِيمَا يَنْفَعُهُمْ حِينَ يَدْعُونَ آلِهَتَهُمْ وَلَا يَنْتَفِعُونَ بِشَيْءٍ مِنْ دَعَائِهِمْ لَهَا، بَلْ هُمْ فِي عَنَاءٍ مِنْ دَعَائِهِمْ وَنَدَائِهِمْ إِيَّاهَا، فَهَمْ يَعْرِضُونَ عَنِ الْإِسْلَامِ، وَيُثْبَلُونَ عَلَى عِبَادَةِ الْأَصْنَامِ.

فهل يشك عاقل في أن مَنْ دُعِيَ إِلَى الْخَيْرِ وَالرَّشَادِ، فَعَصَى الدَّاعِيَ وَاتَّبَعَ طَرِيقَ الشَّيْطَانِ، أَنَّهُ مِنْ أَسْفَهِ السَّافِهَاءِ.

مَا يُبَاحُ وَمَا يَحْرُمُ مِنَ الْمَطْعُمَاتِ

١٧٢ - ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا كُلُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَاشْكُرُوا لِلَّهِ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ﴾

ثم يتوجّه السياق إلى المؤمنين خاصة، - بعد الأمر العام في النداء السابق للناس عموماً - فيبيح لهم الأكل من الطيبات، ويوجههم إلى شكر النعم، ويبين لهم غير الطيبات مما حُرِّمَ عليهم، وأن أكل الحلال يسبب قبول الدعاء والعبادة، وأكل الحرام يمنع قبول الدعاء والعبادة، فأمرهم أن يأكلوا من رزقه ويشكروا نعمه عليهم، فيتقوؤا به على طاعته، فالشكر يحفظ النعم ويدفع النقم.

وقد أمر الله عباده المؤمنين أن يأكلوا من كل ما هو حلال طيب، فقال: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا كُلُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ﴾ أي: كلوا من الأطعمة الحلال المستلذة التي رزقناكم إياها من كل ما ليس فيه ضرر للعقل والبدن.

وفي صحيح مسلم وغيره عن أبي هريرة ؓ أن رسول الله ﷺ قال: «إِنَّ اللَّهَ طَيِّبٌ لَا يَقْبَلُ إِلَّا طَيِّبًا، وَإِنَّ اللَّهَ أَمَرَ الْمُؤْمِنِينَ بِمَا أَمَرَ بِهِ الْمُرْسَلِينَ، فَقَالَ: ﴿يَا أَيُّهَا الرُّسُلُ كُلُوا مِن الطَّيِّبَاتِ وَاعْمَلُوا صَالِحًا﴾» وقال: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا كُلُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ﴾ ثم ذكر الرجل يطيل السفر، أشعث أغبر، يمد يديه إلى السماء، يا رب، يا رب، ومطعمه حرام، ومشربه حرام، وملبسه حرام، وغذي بالحرام فأنى يستجاب لذلك»^(١).

(١) «المسند» (٣٢٨/٢) برقم (٨٣٤٨) بإسناد حسن، و«صحيح مسلم» برقم (١٠١٥) و«سنن الترمذي» برقم (٢٩٨٩). والبخاري في رفع اليدين (٩٤) والدارمي (٢٧١٧).

وقد أمر الله سبحانه عباده المؤمنين أن يشكروا ربهم الذي رزقهم هذه النعم، فقال: ﴿وَأَشْكُرُوا لِلَّهِ إِنْ كُنْتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ﴾ أي: إن كنتم تخصونه بالعبادة، وتقرون بوحديته وتعترفون بفضل الله عليكم فاشكروا فضل الله عليكم ﴿وَمَنْ شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ﴾ [لقمان: ٢٠]. والطاعم الشاكر بمنزلة الصابر على الحرمان، والله تعالى يرضى عن عبده الذي يحمد ربه على الأكلة والشربة.

في حديث أنس رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «إن الله ليرضى عن العبد أن يأكل الأكلة أو يشرب الشربة فيحمد الله عليها»^(١).

ولما ذكر سبحانه أنه أباح الطيبات، ذكر تحريم الخبائث فقال:

١٧٣ - ﴿إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ^(٢) وَالْدَّمَ وَلَحْمَ الْخِنْزِيرِ وَمَا أُهْلَ بِهِ لِغَيْرِ اللَّهِ فَمَنْ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ إِنَّ اللَّهَ عَفُورٌ رَحِيمٌ﴾^(٣)

ثم حدد الله سبحانه المحرمات من المأكَل في قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَالْدَّمَ وَلَحْمَ الْخِنْزِيرِ وَمَا أُهْلَ بِهِ لِغَيْرِ اللَّهِ﴾ فهذه أربعة أصناف، وهذا بيانها:

١- كل حيوان خرجت روحه بغير ذكاة شرعية، بأن مات حتف أنفه، أو قتل على هيئة غير مشروعة، فهو خبيث ضار، والأغلب فيما مات حتف أنفه أن يكون ذلك عن مرض، و سواء أكانت الميتة منخقة، أو موقوذة، أو متردية، أو نطيحة، أو عدا عليها السبع، فلفظ ﴿الْمَيْتَةَ﴾ يشمل كل هذا؛ لأن حبس الدم، وعدم خروجه بالتذكية يضر بالبدن، وما قطع من البهيمة وهي حية فهو ميتة.

كما في حديث أبي واقد الليثي رضي الله عنه قال: قدم النبي ﷺ المدينة وهم يحبون أسنمة الإبل، ويقطعون آليات الغنم، قال: ما قطع من البهيمة وهي حية فهي ميتة^(٤).

(١) مسلم (٢٧٣٤) وابن أبي شيبة (٣٤٤/١٠) و«المسند» (١٢١٦٨) بإسناد صحيح على شرط الشيخين.

(٢) قرأ أبو جعفر (الميتة) بتشديد الياء، وخففها الباقون، وهما لغتان.

(٣) قرأ أبو عمرو وعاصم وحزمة ويعقوب بكسر النون من (فمن اضطر) مع ضم الطاء، وقرأ أبو جعفر بضم النون وكسر الطاء (فمن اضطر) وقرأ الباقون بضم النون والطاء (فمن اضطر).

(٤) «سنن الترمذي» برقم (١٤٨٠) و«المستدرک» (٢٣٩/٤) وصححه الحاكم ووافقه الذهبي كما صححه الألباني في «صحيح الجامع» (١٥٠/٥) وحسنه السيوطي في «فيض القدير» (٤٦١/٥).

وقد أحل الله لنا (صيد البحر وطعامه) وأحل الإسلام لنا ميتتين: «السّمك والجراد، ودمين: الكبد والطحال» كما جاء في حديث عبد الله بن عمر رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال: «أحل لنا ميتتان ودمان: السّمك والجراد والكبد والطحال»^(١).

٢- وحرم علينا (الدم) المسفوح، وهو الذي يسيل من الحيوان عند ذبحه، وكل دم سأل من حيوان فهو محرم تستقذره الطباع وتنفر منه، أما ما يتخلل اللحم منه فلا يحرم.

٣- وحرم علينا (لحم الخنزير) وجميع أجزائه وشحومه، سواء دُكِّي، أو مات حتف أنفه، وخص اللحم بالذكر؛ لأنه المقصود بالأصالة، وغيره داخل فيه، وقد أثبت الطب ما في تناوله من أضرار صحية.

وفي صحيح مسلم وغيره عن جابر بن عبد الله رضي الله عنه أنه سمع رسول الله ﷺ يقول عام الفتح وهو بمكة: «إن الله ورسوله حرم بيع الخمر والميتة والخنزير والأصنام»، فقيل: يا رسول الله، فإنه يُطلى بها السفن، ويُدهن بها الجلود، ويستصبح بها الناس؟ فقال: «لا، هو حرام»، ثم قال رسول الله ﷺ عند ذلك: «قاتل الله اليهود إن الله ﷻ لما حرم عليهم شحومها، أجملوه، ثم باعوه، فأكلوا ثمنه»^(٢).

فالحديث لم يقتصر على تحريم عينها، بل حرم بيعها، والانتفاع بها بوجه من الوجوه، إلا ما استثنى من دباغ جلود الميتة عند الحنفية والشافعية، وعند أحمد لا يطهر، أما جلد الخنزير فهو محرم العين، فلا يطهر عند الجميع، وألحق الشافعي جلد الكلب بجلد الخنزير، وذكاة جنين الأنعام بذكاة أمه.

٤- ومما حرّمه الله في الآية: ما ذُبِح على غير اسم الله تعالى؛ كالأنصاب والأزلام، ومنه ما ذُبِح على اسم الصليب، وما ذُبِح للجنّ ونحوه؛ مما ذُبِح لولي، أو قُدِّم نذرًا لغير الله تعالى، ومن ذلك (عجل السيد البدوي، أو الحسين، أو السيدة . . .) فكل هذا مما أُهِّلَ به لغير الله؛ أي: مما ذُبِح على غير اسم الله، فمن اضطرَّ إلى شيء من ذلك، بأن

(١) يُنظر حديث ابن عمر في «المسند» (٥٧٢٣) و«صحيح سنن ابن ماجه» (٢٦٠٧، ٢٦٧٩) والدارقطني (٤/ ٢٧١) وصححه الألباني في «السلسلة الصحيحة» برقم (١١٨).

(٢) «صحيح مسلم» برقم (١٥٨١) والبخاري برقم (٤٦٣٣، ٤٢٩٦، ٢٢٣٦).

أشرف على الهلاك؛ بسبب الجوع أو العطش ولم يحصل على الطعام و الشراب فتناول منه بمقدار ما يردُّ إليه أنفاسه، ويحفظ عليه حياته قدر الضرورة، غير متجاوزٍ للحدِّ، فلا حرج عليه في ذلك، فمن أكل شيئاً من هذه الميتة وهو مضطَّر فلا حرج، ومن أكل وهو غير مضطَّر فقد بَغَى واعتدى ﴿فَمَنْ اضْطُرَّ﴾ أي ألجىء إلى المحرَّم بسبب جوع أو إكراه وهو ﴿غَيْرَ بَاغٍ﴾ أي: غير طالب للمحرَّم مع قدرته على الحلال، أو غير جائع مشرف على الهلاك ﴿وَلَا عَادٍ﴾ متجاوز الحد في تناول ما أبيح له اضطراراً ﴿فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ﴾ أي: لا حرمة ولا جناح عليه، وإذا رُفِعَ الحرج، رجع الأمر إلى الجواز، فيأكل، ويأثم إن ترك الأكل حتى مات ﴿إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ﴾ ما أكل أو شرب ﴿رَحِيمٌ﴾ بعباده أن يعرضهم للهلاك.

والمعنى: فمن ألجأته الضرورة إلى أكل شيء، وهو لا يجد غيره، ولم يبلغ حدَّ الشبع، فلا إثم عليه، وهناك محرمات أخرى كالْحُمُرِ الْأَهْلِيَّةِ، فالحَضَرُ في الآية غير مقصود.

روث عائشة أن قومًا قالوا للنبي ﷺ: إن قومًا يأتوننا باللحم، لا ندرى أذكر اسم الله عليه أم لا؟ فقال: «سموا عليه أنتم وكلوه»، قالت: وكانوا حديثي عهد بكفر^(١).

وقال الحسن بن علي: إذا ذَكَرَ الْكِتَابِيُّ اسمَ غير الله على ذبيحته وأنت تسمع فلا تأكل، فإذا غاب عنك فكل، فإن الله قد أحل ذبائحهم، وهو سبحانه يعلم ما يقولون.

وفي الآية دليل على أن الضرورات تبيح المحظورات، وهي قاعدة مشهورة.

عُقُوبَةُ مَنْ يَكْتُمُ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ ابْتِغَاءَ عَرَضِ الدُّنْيَا

١٧٤- ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ الْكِتَابِ وَيَشْرُونَ بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا أُولَٰئِكَ مَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ إِلَّا النَّارَ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾.

هذا وعيد شديد لمن كتم ما أنزل الله على رسله، لا سيما خاتمهم، ابتغاء عرض دنيوي، فهو متوعد بخصومة الله له يوم لقائه، فجزاء الكتمان كتمان، فمن لم يتكلم بالحق في الدنيا لا يكلمه الله يوم القيامة، ولا يزكي أخلاقه، وله عذاب موجه، لأنه أكل في بطنه نارًا حين كتم ما أنزل الله واشترى به مالًا أو جاهًا أو منصبًا.

(١) «صحيح البخاري» برقم (٢٠٥٧، ٥٥٠٧).

هذا: وَلَمَّا خَالَفَ الْيَهُودُ أَمْرَ اللَّهِ، فاعتدوا في السبت، وأكلوا الربا، وصَدُّوا عن سبيل الله، حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ طَيِّبَاتٍ كَانَتْ حَلَالًا لَهُمْ، كما قال تعالى: ﴿وَعَلَى الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا كُلَّ ذِي ظُفْرٍ﴾ [الأنعام: ١٤٦]

وقال: ﴿فِي ظُفْرِ مَنْ أَلْزَمَ الْبَرِّ طَيِّبَاتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ﴾ [النساء: ١٦٠].

وقد كتم اليهود هذه المحرمات، كما كتموا أوصاف النبي ﷺ، واشتروا بهذا الكتمان نفعا دنيويا ماديا كما قال تعالى: ﴿تَجْعَلُونَهُ قَرَأِيسَ بُدُونِهَا وَتُخْفُونَ كَثِيرًا﴾ [الأنعام: ٩١]. فكان رؤساؤهم يأخذون الهدايا على سبيل الرشوة من عامة اليهود، ولما بعث النبي ﷺ خافوا على ذهاب هذه الهدايا، وزوال رياستهم، فعمدوا إلى صفة النبي ﷺ فغيروها^(١)، كما قال تعالى: ﴿يَأْخُذُونَ عَرَضَ هَذَا الْأَدْنَى وَيَقُولُونَ سَيُغْفَرُ لَنَا وَإِنْ يَأْتِهِمْ عَرَضٌ مِثْلَهُ يَأْخُذُوهُ﴾ [الأعراف: ١٦٩].

وقد بين سبحانه أنهم يأكلون الرشوة على كتمان أوصاف النبي ﷺ، وأن هذه الرشوة تُفْضِي إلى عذاب النار، فكأنها نارٌ تشتعل عليهم في بطونهم، ولما كانت النار عقوبتهم في الآخرة، فكأنهم أكلوها في الدنيا، ثُمَّ تَوَعَّدَهُمُ اللَّهُ تَعَالَى بِثَلَاثَةِ أَشْيَاءَ، هي:

١ - غضب الله تعالى عليهم، فلا يكلمهم يوم القيامة، ويقال لهم:

﴿أَخْسَرُوا فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُون﴾ [المؤمنون: ١٠٨]

وفي الحديث عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «ثلاثة لا يكلمهم الله، ولا ينظر إليهم، ولا يزكيهم، ولهم عذاب أليم: شيخ زان، ومليك كذاب، وعائل مستكبر»^(٢).

٢ - عدم طهارتهم من دنس الذنوب، وعدم تزكية نفوسهم

﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ لَمْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يُطَهِّرْ قُلُوبَهُمْ﴾ [المائدة: ٤١].

٣ - العذاب الأخروي الأليم الذي يصل ألمه إلى سُوْدَاءِ قلوبهم.

ذلكم قول الله تعالى: ﴿وَلَا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾، وقريب من هذه الآية: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنْزَلْنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالْهُدَى مِنْ بَعْدِ مَا بَيَّنَّاهُ لِلنَّاسِ فِي

(١) يُنْظَرُ: «تفسير القرطبي» (٢/ ٢٣٤) و«زاد المسير» (١/ ١٧٦) والنيسابوري ص ٤١ و«الدر المشثور» (٢/ ١٣٥).

(٢) «صحيح مسلم» عن أبي هريرة برقم (١٠٧).

الْكِتَابِ أُولَئِكَ يَلْعَنُهُمُ اللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ اللَّعْنُونَ ﴿١٧٥﴾ [البقرة: ١٥٩].

وهؤلاء الذين اختاروا الضلالة على الهدى، والدنيا على الآخرة، لا يصلح لهم إلا النار، ولا قدرة لهم على تحملها، قال تعالى:

١٧٥ - ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرُوا الضَّلَالََةَ بِالْهُدَىٰ وَالْعَذَابَ بِالْمَغْفِرَةِ فَمَا أَصْبَرَهُمْ عَلَى النَّارِ﴾.

وهؤلاء الذين سبق ذكرهم، هم الذين اختاروا طريق الضلال على طريق الهدى، واشتروا عذاب الله بمغفرته؛ لأنهم أَخَفُّوا الحق وكتموه؛ ولذا يعجب الله تعالى من إقدامهم على هذا المصير المؤلم، فما أجراًهم على النار بعملهم عمل أهل النار، وما أعماهم عن الحق، وما أشد احتمالهم لها، ويا لَطُول صَبْرهم على مضادة الحق ومقاومته!، وهذا التعجب من باب الاستهانة والاستخفاف بهم. قال تعالى:

١٧٦ - ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ نَزَّلَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِي الْكِتَابِ لَفِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ﴾.

والسبب في ذلك العذاب الذي أعدّه الله لمن يَكْتُمُونَ الحق، ويتعدون عنه بالقرب من الضلالة: أن الله تعالى نزل الكتب على رسله بالحق؛ أي: مشتملة على الحق الواضح، فكفروا به، ومن الحق مجازاة المحسن بإحسانه والمسيء بإساءته، والحق لا يُغَالَب، فَمَنْ غَالَبَهُ غُلِبَ، وَمَنْ صَارَعَهُ صُرِعَ، وأن الذين لم يهتدوا بهديه في شقاقٍ دائم وعذاب أليم؛ والسبب في ذلك أنهم اختلفوا في الكتاب، فآمنوا ببعضه وكفروا ببعضه ﴿وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِي الْكِتَابِ لَفِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ﴾.

أي في بُعد ومحادة عن الحق لأنهم خالفوا الطريق الموجب للاتفاق، فكثرت افتراقهم وشقاقهم.

ومن شقاقهم وخلافهم كُفِرَ اليهود بعتسى ومحمد، وكفر النصارى بمحمد، وبما أنزل الله عليه، فكانوا مفارقين للحق، بَعِيدِينَ عن الرُّشد والصَّواب، والذين يبيعون آخرتهم بدنياهم عن عَمَدٍ وَعِلْمٍ بسوء العاقبة، فإنهم قد رضوا بالعذاب وإضاعة المغفرة، فاستبدلوا بالحق عَرْضًا زَائِلًا، ومتاعًا قليلًا، وشهوةً عارضةً، وهذا أمرٌ عامٌّ في جميع رؤساء الضلال في جميع الأمم، ومنهم رؤساء اليهود في عصر التنزيل، الذين كانوا في جزيرة العرب، فكان منهم الذين رفضوا دعوة الإسلام وناصبوه العدا، وتعاونوا مع المشركين على الإسلام وأهله، أما يهود البلاد الأخرى كسوريا والأندلس فقد كانوا يساعدون الدعوة

الإسلامية؛ للتخلص من ظلم النَّصَارَى وقهرهم لهم ما دام ملكهم ومتاعهم قد سَلِمَ لهم.

الْبِرُّ وَخِصَالُهُ الْعَشْرَةُ

١٧٧ - ﴿لَيْسَ الْبِرُّ أَنْ تُولُوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ الْبِرَّ (٢) مَنْ ءَامَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ (٣) وَءَاتَى الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسْكِينِ وَأَنَّهُ السَّبِيلَ وَالسَّائِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَءَاتَى الزَّكَاةَ وَالْمُؤْتُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ أُولَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ (١٧٧)﴾

جمعت آية البرُّ أركان الإسلام والإيمان والإحسان على ضَوْءٍ ما جاء في حديث عمر بن الخطاب أن جبريل جاء إلى النبي ﷺ في صورة رجلٍ ولا يُرى عليه أثر السفر، وسأل النبي ﷺ عن الإسلام؟ فقال: «شهادة أن لا إله إلا الله، وأن محمدًا رسول الله، وتقيم الصلاة، وتؤتي الزكاة، وتصوم رمضان، وتحج البيت»، ثم سأله عن الإيمان فقال: «أن تؤمن بالله، وملائكته، وكتبه، ورسله، واليوم الآخر، وتؤمن بالقدر خيره وشره»، ثم سأله عن الإحسان فقال: «أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك»^(٤) وفي الآية غير ذلك من وجوه الإنفاق في سبيل الله، ووجوب الوفاء بالعهد، والصبر على البأساء والضراء.

قال قتادة: ذُكر لنا أن رجلاً سأل نبيَّ الله ﷺ عن البرِّ؛ فأُنزل الله الآية، قال: وقد كان الرجلُ قبل الفرائض إذا شهد أن لا إله إلا الله، وأن محمدًا عبده ورسوله، ثم مات على ذلك، وَجَبَتْ له الجنة، فأُنزل الله هذه الآية^(٥).

وأخرج ابن أبي حاتم والطبري بسندٍ جيّدٍ عن أبي العالية قال: كانت اليهود تُقبل قبل

(١) قرأ حفص وحمزة (ليس البرُّ) بالنصب على أنه خبر ليس مقدّمًا، و(أن تولوا) في تأويل مصدر اسمها مؤخرًا، وقرأ الباقون برفع (البرُّ) اسم ليس، و(أن تولوا) في تأويل مصدر خبرها.

(٢) قرأ نافع وابن عامر (ولكن البرُّ) بكسر النون المخففة المهملة، ورفع البر على الابتداء، وقرأ الباقون بتشديد (لكن) مع فتحها، ونصب (البرُّ) اسمًا لها.

(٣) قرأ نافع بهمز (والنبيين) والباقون بالياء المشددة.

(٤) الحديث في مسلم برقم ٨ و«المسند» (١٨٤) بإسناد صحيح على شرط الشيخين، وكذا (١٩١) وفي أبي داود (٤٦٩٥) والترمذي (٢٦١٠) والنسائي (٥٠٠٥) وابن ماجه (٦٣).

(٥) «زاد المسير» (١٧٨/١) و«تفسير ابن كثير» (٤٨٥/١) والطبري (٧٦/٣).

المغرب، وكانت النَّصَارَى تُقْبِلُ - أي تتوجه - قِبَلَ المشرق، فأنزل الله الآية ﴿لَيْسَ الْبِرُّ..﴾ يقول: هذا كلام الإيمان وحقيقته العمل^(١).

قال الضحاك: ولكن البر والتقوى أن تؤدوا الفرائض على وجهها^(٢).

فليس البرُّ المطلوب هو أمرُ القبلة، حتى يحدث فيه الشقاق والخلاف. بل البر المطلوب هو هذه الخصال التي في الآية، والتوجه إلى القبلة من الوسائل وليس من المقاصد، فلا ينبغي أن تكون قُصَارَى همة المؤمن، وإلا لَمَا أسقطها الله عنه في حالة العجز، والنسيان، وصلاة النوافل على الراحلة في السفر.

قوله سبحانه: ﴿لَيْسَ الْبِرُّ أَنْ تُولُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ﴾ هذا الربع يتتصف سورة البقرة على وجه التقريب، وما قبله يتحدث غالبًا عن بني إسرائيل من اليهود على الأخص، ومن النَّصَارَى على الأقل، ثم يبدأ الحديث عن أحكام التشريع في سورة البقرة، فيتناول الحلال والحرام من الله تعالى لأول مرة على المؤمنين من المهاجرين والأنصار، بعد أن قامت دولة الإسلام في المدينة المنورة.

ويتناول الكلام في هذا الربع من السورة:

القصاص في القتل العمد، والوصية عند الموت، والصيام وأحكامه، والاعتكاف، والدعاء: أحكامه وآدابه، والصيام المستمر عن أكل الحرام، وبعد ذلك تتحدث الآيات عن الحج، وعن الربا، وعن الطلاق، والعدة، والرضاع، وغير ذلك من أحكام التشريع الأربعين التي جاءت في سورة البقرة.

ولهذه الآية ﴿لَيْسَ الْبِرُّ..﴾ علاقةٌ بأمر تحويل القبلة من بيت المقدس إلى الكعبة، ذلكم أن اليهود كانوا يتوجهون في صلاتهم إلى غرب بيت المقدس، والنَّصَارَى يتوجهون إلى شرق بيت المقدس، وكلُّ منهم يرى أن البر والتقوى في الاتجاه إلى قبلته التي هو عليها، وأن هذا التحول قد شقَّ على بعض المسلمين أيضًا، فأنزل الله سبحانه يبيِّن لهم أن الخير والبر والطاعة والتقوى ليس بالتوجه تجاه المشرق أو المغرب في الصلاة، إن لم يكن عن أمر الله وشرعه، وإنما الخير كل الخير فيما ثبت في القلوب من أركان الإيمان، والقيام بأداء الفرائض، والتحلي بأخلاق الإسلام، وترك ما حَرَّمَ الله.

(٢١)، ابن كثير (٤٨٦/١) والطبري (٧٦/٤) وابن أبي حاتم (١٥٤١).

فالبرُّ لا يتمثل في الصلاة وحدها دون العمل بها، بل يكون في الإيمان بالله، وفي التقوى والطاعة، وامتنال أمر الله تعالى، واجتناب نهيه.

وَالْبِرُّ: اسمٌ جامعٌ لكل الطاعات وأعمال الخير المُقَرَّبَةِ إلى الله تعالى، الموجبة للثواب ودخول الجنة، وقد ذكرت الآية صفات الأبرار المتقين الصادقين، وفي نهايتها يقول سبحانه: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ﴾.

وقد جَمَعَ الله ﷻ خِصَالَ أهل البرِّ كُلِّها في هذه الآية، وَبَيَّنَّتِ الآية ما البرُّ؟ وشرحته على وجه التفصيل.

ويؤخذ منها: أن البرَّ والصلاح والتقوى لا ينحصر في الصلاة وحدها، بل لا بُدَّ أن ينضم إليها ما يترجم عن قبولها وإخلاصها لله تعالى، والتخلُّق بأخلاق الإسلام، فقد يكون العبد من المصلين، ولكنه يقترف بعض المحرمات من كبائر الذنوب، أو يُصر على صغائرهما، أو يأكل حقوق الناس ويظلمهم ويتعدى عليهم.

ومعنى ذلك: أنه لم يَزَلْ في المرحلة الابتدائية من صلاته، وأنه لا زال يحبو؛ لأن صلاته لم تُؤدَّ وظيفتها بالانتهاء عن الفحشاء والمنكر، وإن كان قد أدَّى فرضه، وعليه أن يستمر في صلاته حتى يخشع ويتأثر، وتقع الصلاة من قلبه موقعَ القبول والرضى وتصل إلى درجة الامتياز.

﴿وَلَكِنَّ الْإِلَهَ مَنْ ءَامَنَ بِاللَّهِ﴾ إلهاً ورباً واحداً، وآمن باليوم الآخر، وعبدُ الأوثان وأشباههم في القديم والحديث يُكروَن البعث والنشور والحساب والجنة والنار، وآمن بالملائكة كلهم، وآمن بالقرآن الذي نَزَلَ على محمدٍ ﷺ، وجميع الكتب المنزلة من السماء.

فالعبد لا يُعَدُّ من الأبرار المتقين الصادقين حتى يجتمع له خِصَالُ الخير العشر؛ الخمس الأولى في أصول الإيمان وما يلزم التصديق به من العقيدة، والخمس الأخرى تجمع أصول الأعمال الصالحة في مَجَالِ التعامل مع الناس؛ وبيانها كالآتي:

أولاً: الإيمان بالله تعالى: وأنه الواحد الأحد الفرد الصمد، خالق الكون ومدبِّر أمره، وهو سبحانه موصوف بكل كمال ومنزه عن كل نقص، وإليه وحده يتوجه الخلق بالطاعة والعبادة ﴿وَلَكِنَّ الْإِلَهَ مَنْ ءَامَنَ بِاللَّهِ﴾.

ثانياً: الإيمان باليوم الآخر: وما فيه من بعث وحشر ونشر وحساب وجزاء على

الأعمال والأقوال بالجنة أو النار، كما أخبر الله في كتابه أو أخبر به الرسول ﷺ مما يكون بعد الموت قال تعالى: ﴿وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾.

ثالثاً: الإيمان بملائكة الله: وأنهم أجسامٌ لطيفةٌ نورانيةٌ قادرةٌ على التشكّل في صور حسنة مختلفة، لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون، ومنهم الموكّلون بما يتعلق بحياة الإنسان من الرزق والموت وحفظ الأعمال، والموكّلون بالعرش والكرسي والجنة والنار وما إلى ذلك، كما وصفهم الله لنا في كتابه ووصفهم رسولنا ﷺ، قال تعالى: ﴿وَالْمَلَكُ﴾.

رابعاً: الإيمان بالكتب المنزّلة من عند الله على رسله: من صحف شيث وإدريس وإبراهيم والتوراة والإنجيل والزيور، وأن القرآن الكريم قد نسخ جميع ما قبله، قال تعالى: ﴿وَالْكِتَابِ﴾ والمراد جنس الكتب التي أنزلها الله على رسله، وأعظمها القرآن، فيؤمن العبد بما تضمنته من الأخبار والأحكام.

خامساً: الإيمان بالنبيين من غير تفريق بينهم، وأن محمداً ﷺ خاتمهم، وأنه ليس في وُسع الإنسان أن يؤمن بغيره بعد بعثته.

هذه هي أركان الإيمان، ما عدا الركن السادس منها؛ حيث ذكر الله تعالى هنا خمسة منها، جمعتها هذه الفقرة من الآية: ﴿وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِاللّٰهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَالْمَلٰٓئِكَةِ وَالْكِتٰبِ وَالنَّبِيِّنَ﴾ فصَدَّقَ العبد بهم، واهتدى بهديهم، واقتفى أثرهم.

والركن السادس هو الإيمان بالقضاء والقدر الذي جاء ذكره في سورة القمر: ﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ﴾ [القمر].

ثم إن البرَّ لا ينحصر في أركان الإيمان الستة، وإنما المسلم الصالح من وصفته الآية أيضاً ببقية الخصال العشر.

سادساً: ومن البرِّ بذل المال قليلاً أو كثيراً: عن طيب خاطرٍ ورغبة صادقة فيما عند الله تعالى ﴿وَمَا آتَىٰ أَمْوَالٌ عَلَىٰ حُبِّهِ﴾ أي على حب العبد للمال، وهو حريصٌ شحيحٌ يأمل الغنى ويخشى الفقر، فأعطى المال مع حبه له، لأقاربه المحتاجين ﴿لَن تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّىٰ تُنْفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ﴾ [آل عمران: ٩٢].

فإن من أنفق المال تقرباً إلى الله تعالى، مع حبه وحاجته إليه، كان هذا برهاناً على

إيمانه، ثم ذكر سبحانه المنفق عليهم من هذا المال، وهم أصناف ستة:

١- ﴿ذَوِي الْقُرْبَى﴾ فالصدقة على القريب صدقةٌ وصلةٌ، وهم أحقُّ الناس بالبر والصلة، وفي مقدمتهم الوالدان؛ فالنفقة عليهم واجبةٌ.

وفي حديث أم كلثوم بنت عقبة بن أبي مُعَيْط أن رسول الله ﷺ قال: «أفضل الصدقة على ذي الرحم الكاشح»^(١).

أي: الذي يبغضك، فإن الصدقة عليه تَمْحُو عداوته، وتستجلب مودته، ولها أجرُ الصدقة وأجرُ الصلة.

٢- ﴿وَالْيَتَامَى﴾ المحتاجين الذين مات آباؤهم، وهم دون سن البلوغ، ولا قدرة لهم على الكسب، ولا يجدون ما يكفي ضرورات حياتهم، ومن رحم يتيمة غيره رحم الله يتيمة.

٣- ﴿وَالسَّكِينِ﴾ الذين أرهقهم الفقر والحاجة، فلهم حق في الزكاة والصدقة بما يكفي حاجتهم الضرورية من مسكن ومأكل وملبس وتعليم وعلاج.

٤- ﴿وَأَبْنَى السَّبِيلِ﴾ المسافرين الذين بُعدوا عن مالهم وأهلهم فاحتاجوا، فيُعْطُونَ ما يُعِينُهُمْ على سفرهم ويردهم إلى بلادهم، وإن كانوا أثرياء في بلادهم.

٥- ﴿وَالسَّالِيلِينَ﴾ الذين اضْطُرُّوا إلى السؤال؛ لشدة حاجتهم بسبب جائحة أو حريق أو سرقة أو دفع دية، ونحو ذلك، وكذلك من يسأل لبناء المساجد والمدارس والمرافق العامة ونحوها.

٦- ﴿وَفِي الرِّقَابِ﴾ يعني: في فكِّ الأسرى من أيدي الكفار أو من أيدي المالكين لهم، وعتق العبيد، والإعانة على التحرير من الرق، وبذل المال للمكاتب ليوفي حق سيده الذي كاتبه على العتق مقابل أقساط يدفعها له وكذا من عليه رقبة فإنه يعان على الوفاء بها.

فمن صفات الأبرار أنهم يُعْطُونَ أموالهم فيتصدقون بها وينفقونها، على حبِّهم للمال، وحاجتهم الشديدة إليه، في هذه الجهات التي ذكرتها الآية الكريمة، نفقةٌ مُطْلَقَةٌ غير مقيدة بنصاب ولا ربع ولا عُشْر.

(١) الطبراني (٢٠٤) والحاكم (٤٠٦/١) والبيهقي في «السنن» (٢٧/٧) قال الهيثمي: رواه أحمد والطبراني

في الكبير بإسناد حسن «مجمع الزوائد» (١١٦/٣) وجاء مثله عن حكيم بن حزام في «المسند» (١٥٣٢٠)

حديث صحيح، وهو في صحيح ابن خزيمة (٢٣٢٦) عن أم كلثوم بنت عقبة، والحميدي (٣٢٨)

ثم ذَكَرَ سبحانه ركنين عظيمين من أركان الإسلام؛ وهما الصلاة والزكاة:

سابعاً: ﴿وَأَقَامَ الصَّلَاةَ﴾ فأداها في أوقاتها بخشوع وخضوع ومحافظة على أركانها وشروطها وواجباتها وسننها وآدابها.

ثامناً: ﴿وَأَتَى الزَّكَاةَ﴾ أي: أعطى الزكاة المفروضة لمستحقيها، كما في قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا الصَّدَقَتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسْكِينِ﴾ [التوبة: ٦٠] فدل ذلك على أن إيتاء المال على حُبِّه غير الزكاة، وأن في المال حقاً سوى الزكاة، وقد ورد في ذلك آثار ضعيفة:

سُئِلَ الشعبي: هل على الرجل حق في ماله سوى الزكاة؟ قال: نعم، وتلا هذه الآية.

وأخرج مالك في الموطأ عن زيد بن أسلم أن رسول الله ﷺ قال: «أعطوا السائل ولو جاء على ظهر فرس»^(١).

ولفظ أبي داود وغيره عن الحسين بن علي رضي الله عنهما: «للسائل حق، وإن جاء على فرس»^(٢).

وفي الصحيحين وغيرهما عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رجلاً سأل النبي ﷺ فقال: أي الصدقة أعظم أجراً؟ قال: «أن تصدق، وأنت صحيح شحيح تأمل الغنى، وتخشى الفقر»^(٣).

وعن أبي هريرة رضي الله عنه أنه قال: يا رسول الله، أي الصدقة أفضل؟ قال: «جُهدُ الْمُقِلِّ وابدأ بمن تعول»^(٤).

(١) أخرجه مالك من رواية أبي مصعب برقم (٢١٠٢) باب الترغيب في الصدقة، قال ابن عبد البر في التمهيد: (٢٩٤/٥) لا أعلم في إرسال هذا الحديث خلافاً بين رواة مالك، ولبس في هذا اللفظ مستند يحتاج به فيما علمت، وهو في الموطأ عن زيد بن أسلم (٩٩٦/٢).

(٢) أبو داود برقم (١٦٦٥) و«المسند» (١٧٣٠) بإسناد ضعيف لجهالة يعلى بن أبي يحيى، وأخرجه ابن أبي حاتم (١٥٥٦) وضعفه الألباني في «ضعيف سنن أبي داود» (٣٦٤)، وأخرجه ابن خزيمة (٢٤٦٨) وأبو يعلى (٦٧٨٤) وابن أبي شيبة (١١٣/٣).

(٣) البخاري (١٤١٩، ٢٧٤٨) ومسلم (١٠٣٢) وأبو داود (٢٨٦٥) والنسائي (٢٥٤١، ٣٦١٢) و«المسند» (٧١٥٩، ٩٧٦٨) وابن حبان (٣٣١٢، ٣٣٣٥).

(٤) أخرجه أبو داود (١٦٧٧) وابن خزيمة (٢٤٤٤) وابن حبان (٣٣٤٦) والحاكم (٤١٤/١) وصححه بموافقة الذهبي، وهو في مسند أحمد إسناده صحيح برقم (٨٧٠٢) وعن عبد الله بن حبشي برقم (١٥٤٠١).

ففي المال: النفقة والصدقة والزكاة، وفيه حقوقٌ أخرى.

تاسعاً: ثم انتقل سبحانه من صفات البر في الأفعال، إلى صفات البر في الأخلاق الاجتماعية فقال: ﴿وَالْمُؤْتُونَ عَهْدَهُمْ إِذَا عَاهَدُوا﴾ من صفات التُّقَى أن يكون العبد وفياً بعهده ووعدته مع الله سبحانه، محافظاً على طاعته بامثال أمر الله تعالى، واجتناب نهيه، وفياً مع خَلْقِ الله بما عاهداهم عليه، وما وثَّقه بينه وبينهم من وعود وعهود وغير ذلك من سائر العُقُود بين العامل وربِّ العمل، والبائع والمشتري . . . إلخ، قال تعالى: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَوْفُوا بِالْعُقُودِ﴾ [المائدة: ١].

والعهد: كل ما ألزم الله به العبد أو ألزم به نفسه، فيدخل فيه حقوق الله وحقوق العباد.

عاشراً: ومن صفات الأبرار أنهم يصبرون في البأس والضر.

قال تعالى: ﴿وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ﴾ أي: في الشدة والفاقة والمرض.

﴿وَمِنَ الْبَآئِسِ﴾ أي: ساعة الجهاد في ساحة القتال بين المسلمين وبين أعدائهم، فإن هذا يحتاج إلى الصبر والجلد على الجراح أو الأسر أو الشهادة احتساباً وطلباً لثواب الله تعالى.

فالبأساء: اسم من البؤس، وهو الشدة والفقر، والفقر يحتاج إلى الصبر على ما يكابد من آلام الجوع والحاجة، والتطلع إلى الأثرياء.

والضَّرَّاءُ: ما يضر الإنسان من مرض أو فَقْد ولد أو مال ونحو ذلك، والعبد يحتاج إلى الصبر على كل ما ينزل به من ضر، فإن النفس تضعف والبدن يتألم.

أولئك الموصوفون بهذه الصفات، ممن اجتمع فيهم أركان الإيمان، وإنفاق المال، والوفاء بالعهد، وإقام الصلاة، وإيتاء الزكاة، هم الذين اتقوا عقاب الله؛ فتجنبوا معاصيه ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا﴾ مع الله في إيمانهم وأعمالهم ﴿وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ﴾ المتجنبون لمعاصيه، ولم يتعدوا حدوده؛ خوفاً من عذاب الله تعالى.

فهذه عشرة أوصاف للأبرار؛ وهي:

١- الإيمان بالله. ٢- الإيمان باليوم الآخر. ٣- الإيمان بالملائكة.

٤- الإيمان بالكتب. ٥- الإيمان بالنبيين. ٦- الإنفاق في سبيل الله في مصارفه الثمانية.

٧- إقامة الصلاة. ٨- إيتاء الزكاة. ٩- الوفاء بعهد الله.

١٠ - الصابرين على ما أصابهم.

أَرْبَعُونَ حُكْمًا تَشْرِيعِيًّا فِي السُّورَةِ بَدْءًا مِنْ هَذِهِ الْآيَةِ

١٧٨- ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِصَاصُ فِي الْقَتْلِ الْحَرُّ بِالْحَرِّ وَالْعَبْدُ بِالْعَبْدِ وَالْأُنْثَى بِالْأُنْثَى فَمَنْ عُفِيَ لَهُ مِنْ أَخِيهِ شَيْءٌ فَأَبْيَعُ بِالْمَعْرُوفِ وَأَدَاءٌ إِلَيْهِ بِإِحْسَنٍ ذَلِكَ تَخْفِيفٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَرَحْمَةٌ فَمَنِ اعْتَدَى بَعْدَ ذَلِكَ فَلَهُ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٧٨﴾﴾.

وبعد بيان خصال البرِّ لأهل التقوى والإيمان، تُذكر سورة البقرة أربعين حُكْمًا تشريعيًّا؛ لتحقيق منهج الله تعالى في المجتمع الإسلامي الجديد، وهذه الأحكام التشريعية هي:

١- الْقِصَاصُ وأحكامه. ٢- حُكْمُ الْوَصِيَّةِ عند الموت.

٣- أحكام الصيام. ٤- أحكام الدعاء.

٥- أحكام الاعتكاف. ٦- الصيام المستمر عن أكل الحرام.

٧- مراحلُ تشريع القتال في الإسلام.

٨ - القتال عند المسجد الحرام لرد العدوان. ٩- الجهادُ بالمال.

١٠- أحكامُ الحج. ١١ - الجهاد في سبيل الله.

١٢- حُكْمُ القتال في الشهر الحرام؛ لإعلاء كلمة الله، ورد العدوان.

١٣- التَّدْرُجُ في تحريم الخمر. ١٤- إصلاحُ مال اليتيم.

١٥- حُكْمُ الزواج من الوثنيات والكتايبات.

١٦- حُكْمُ إتيان المرأة في الحيض و في الدبر.

١٧- موضعُ الحرث. ١٨- أحكامُ الأَيْمَانِ.

١٩- حُكْمُ الإيلاء. ٢٠- أحكامُ الْعِدَّةِ.

- ٢١- أحكام الطلاق الرجعي .
 ٢٢- أحكام الخلع والطلاق على عَوْضٍ .
 ٢٣- طلاق البائن بينونة كبرى .
 ٢٤- عَضْلُ الأزواج للمرأة .
 ٢٥- عضل الأولياء للمرأة .
 ٢٦- حُكْم الرضاع و الحضانة .
 ٢٧- عِدَّةُ الْمُتَوَفَّى عنها زوجها .
 ٢٨- حُكْم التَّعَرُّضِ بِالخِطْبَةِ للمعتدة .
 ٢٩- متعة المطلقة قبل تسمية المهر وقبل الدخول بها .
 ٣٠- المطلقة بعد تحديد المهر وقبل الدخول بها .
 ٣١- حُكْم المرتدَّ ﴿لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ﴾ [الآية: ٢٥٦] .
 ٣٢- متعة المتوفى عنها زوجها .
 ٣٣- متعة المطلقة المدخول بها .
 ٣٤- النفقة في سبيل الله: أجرها والمنُّ بها .
 ٣٥- حُكْم النَّذْرِ .
 ٣٦- أحكام الربا .
 ٣٧- أحكام المُدَايِنَةِ .
 ٣٨- التجارة الحاضرة .
 ٣٩- حكم الرهن . . . إلخ .
 ٤٠- النهي عن كتمان الشهادة .

الْحُكْمُ التَّشْرِيعِيُّ الْأَوَّلُ: الْقِصَاصُ وَأَحْكَامُهُ

وقد ابتدأت هذه التشريعات بأحكام القصاص؛ لأنه أعظم في اختلال الأمن، وشيوع الفوضى في المجتمع، ولذا: فإن هذه الآيات من أول ما نَزَلَ بالمدينة بعد الهجرة، وكان التحالف على النُصرة يسود الأفراد والقبائل، والعصية تتحكم في تصرفاتهم.

وقد شَرَعَ الإسلام القِصاص في القتل العَمْد؛ حقناً للدماء، واستتباباً للأمن، وتحقيقاً للعدل بين الناس، وردعاً لهم، فإن القاتِل إذا عَرَفَ أنه سَيُقْتَل ارتدع عن القتل.

وقد نَاطَ الإسلام مسألة القِصاص بالحَكم، ولم يتركها للناس حتى لا يعتدي بعضهم على بعض ظلماً وعداؤناً، ويتسلسل الثأر بين الناس، وتظل العداوة قائمة بينهم.

وأول قِصاص حدث في الإسلام كان سنة ثمان من الهجرة، والنبى ﷺ في طريقه إلى

فتح الطائف، حيث قَتَلَ رجلٌ من بني ليث رجلاً من هذيل، في مكان يسمى (بَحْرَةُ الرغاء) فاقْتَص منه النبي ﷺ^(١).

ومما ورد في أسباب نزول الآية

١- أنه كان بين حَيَّين من أحياء العرب دماءٌ في الجاهلية، وكان لأحدهما طَوْل على الآخر، يزيد عليه في العُدَّة والأموال، فأقسموا، لَنَقْتُلَنَّ الحر منكم بالعد، والذَّكَر بالأنثى، فلما جاء الإسلام تحاكموا إلى رسول الله ﷺ، وكانت بنو النضير قد غزت قريظة في الجاهلية وقهروهم، فكان النضري إذا قَتَلَ القرظي، لا يُقتل به، بل يدفع له الدِّية، وقدرها مئة وَسُق من التمر، وإذا قَتَلَ القرظي النضري يُقتل به، وإن حدث فداءً، يُفدى بمئتي وَسُق من التمر، ضِعْف دية القرظي، فأنزل الله هذه الآية يأمر بالعدل في القصاص^(٢).

٢- أخرج ابن أبي حاتم بسندٍ حَسَنٍ عن علي بن أبي طلحة عن ابن عباس: أنهم كانوا لا يَقْتُلون الرجل بالمرأة، ولكن يَقْتُلون الرجل بالرجل، والمرأة بالمرأة؛ فأنزل الله: ﴿النَّفْسُ بِالنَّفْسِ وَالْعَيْنُ بِالْعَيْنِ﴾ فجعل الأحرار في القصاص سواء فيما بينهم، رجالهم ونسائهم، في النفس وما دون النفس، وجعل العبيد مستوين فيما بينهم في العمد، في النفس وما دون النفس، رجالهم ونسائهم^(٣).

٣- وأخرج البخاري وغيره عن أنس، أن عمة الربيع، كسرت ثِيَّةً جارية، فطلبوا إليها العفو، فأَبَوْا، فعرضوا الأَرُشَ، فأَبَوْا، فأتوا رسول الله، وأَبَوْا إلا القصاص، فأمر رسول الله بالقصاص فقال أنس بن النضر: أُنْكَسِرُ ثِيَّةَ الربيع؟ لا، والذي بعثك بالحق لا تُكْسَرُ ثِيَّتُها، فقال ﷺ: «يا أنس، كتاب الله القصاص»؛ فرضي القومُ فَعَفُوا، فقال ﷺ: «إن من عباد الله من لو أقسم على الله لأبره»^(٤).

وقد أخذ أبو حنيفة بعموم الآية، ولم يستثنِ في القصاص إلا المسلم، فإنه لا يُقتل في

(١) «تفسير التحرير والتنوير» (١٣٧/٢).

(٢) «تفسير البيضاوي» ص ٣٦ و«تفسير ابن كثير» (٤٨٩/١) وابن أبي حاتم (١٥٧٦) عن سعيد بن جبير، وفي الطبري (٩٨/٣) عن أبي مالك.

(٣) الطبري (١٠٠/٣) وابن أبي حاتم (١٥٧٨) والبيهقي في «السنن» (٤٠/٨).

(٤) البخاري برقم (٢٧٠٣، ٤٥٠٠) وبنحوه في مسلم برقم (١٦٧٥).

القاتل الحربي، وهذا محل اتفاق، ففي الحديث: «ولا يُقتل مسلمٌ بكافرٍ»^(١).

أما المعاهد: فإن الجمهور على أن المسلم يُقتل فيه إذا قُتل.

وقال مالك والشافعي وأحمد: لا يُقتل الحرُّ في العبد؛ استنادًا على فعل الخلفاء الراشدين، وسكوت الصحابة عنهم، والآثار مروية في ذلك، أما قتل الخطأ فسيأتي في سورة النساء.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِصَاصُ فِي الْقَتْلِ﴾ أي: يأبىها الذين صدقوا الله ورسوله، وعملوا بشرعه، فُرض عليكم ما لم يعف وليُّ الدم أو يقبل الدية أن تقتصوا من القاتل عمدًا، بشرط المساواة في القتل، والمُماتلة وعدم التجاوز أو الإفراط بالتعدي على غير القاتل، وفي هذا امتنان من الله تعالى على عباده أن القاتل يقتل على الصفة التي قتل عليها المقتول، وفيه دليل على أنه يجب إعانة وليِّ المقتول إذا طلب القصاص ولا يجوز لأحد أن يمنعه من ذلك.

وبعض القبائل تتعالى على القبائل الأخرى، وتترفع عليها، وترى أنها ذات حسب، أو جاه، أو مال، أو نسب وأصل، وأنها أفضل من غيرها بوجه من الوجوه.

فإذا اقتتل بعض الفريقين أو القبيلتين، وقتل واحدٌ منهم عبدًا، أو رجلًا، أو امرأة، فإن القبيلة التي تترفع وتتعالى على الأخرى لا تكتفي بالقصاص العادل، وإنما تريد الزيادة بغيًا وظلمًا وعدوانًا، فيقتلون بالرجل رجلين، ويقتلون بالأنثى رجلًا، وبالعبد حرًا، وبالضعيف قويًا، وبالفقر غنيًا وهكذا، والله ﷻ ينهى عن البغي والظلم في كل زمان ومكان.

قال قتادة: كان أهل الجاهلية فيهم بغي وطاعة للشيطان، فكان الحي إذا كان فيهم منعة، فقتل عبد قوم آخرين، عبدًا لهم، قالوا: لا نقتل به إلا حرًا؛ تعزيرًا بفضلهم على غيرهم في أنفسهم، وإذا قُتل لهم امرأة، قالوا: لا نقبل بها إلا رجلًا، فأنزل الله هذه الآية، يخبرهم أن العبد يُقتل بالعبد، والأنثى تُقتل بالأنثى، فنهاهم عن البغي، ثم أنزل الله ذكره بعد ذلك في سورة المائدة في قوله: ﴿وَكُتِبَ عَلَيْهِمْ فِيهَا﴾^(٢).

(١) من حديث علي في البخاري برقم (١١١، ١٨٧٠، ٧٣٠٠).

(٢) الأثر رقم (٢٥٥٩) من «تفسير الطبري» وأخرجه البيهقي في سننه (٢٦/٨) وعبد بن حميد، وأبو داود في ناسخه، وأبو القاسم الزجاجي في أماليه، كما قال السيوطي في «الدر المنثور» (١٥٥/٢).

وأُنزل في سورة النساء آية القصاص في القتل العمد، وأُوجِبَ أن يكون القصاص مثلاً بمثل، كما عليه الجمهور: مالك والشافعي وأحمد؛ لقوله تعالى ﴿الْحُرُّ بِالْحُرِّ وَالْعَبْدُ بِالْعَبْدِ وَالْأُنْثَىٰ بِالْأُنْثَىٰ﴾ قيل: إنها نزلت في فريقين من العرب اقتتلوا في الجاهلية بسبب قتل.

وقيل: إنها نزلت فيما كان بين الأوس والخزرج من حروب، وكان الشخص في أحد القبيلتين يترفع على الآخر، ويتوعد بالزيادة في الثأر.

والعبرة بالعموم لا بالخصوص، وهو أمرٌ يحدث في كل زمان ومكان.

فبيّن تعالى أن الحرّ الذكّر يُقتل بالحر الذكّر ولا يُزاد، والعبد يُقتل بالعبد ولا يزداد، والأنثى تُقتل بالأنثى كما هو ظاهر هذه الآية.

وخرج من هذا العموم الأبوان وإن علوا، فلا يقتلان بالولد كما دلّت عليه السنة.

وخرج أيضاً الكافر فلا يقتل فيه المسلم كما دلّت عليه السنة، إذ لا يُقتل ولي الله بعدوه.

وعند الأحناف: أن الذكّر يُقتل بالأنثى، والحر يقتل بالعبد، والمسلم يقتل بالذميّ؛ لقوله تعالى: ﴿وَكُنْتُمْ عَلَيْهِمْ فِيهَا أَنْ أَنْفُسَ بِالْأَنْفُسِ﴾ [المائدة: ٤٤]،

ولحديث: «المسلمون تكافأ دماؤهم ويسعى بذمتهم أدناهم وهم يدٌ على من سواهم»^(١).

فالتفاضل عنده غير معتبر في الأنفس، بدليل أن جماعة لو قتلوا واحداً قُتلوا به.

والذي يتولى تنفيذ القصاص هو وليّ أمر المسلمين، أو من فوّضه في الجهة التنفيذية المخولة بهذا الجزاء، ولا يُترك القصاص لأفراد الناس، ولا يُترك لوليّ الدم؛ أي: ليس له أن يثأر لنفسه، ولا يثأر لغيره؛ لأن الدماء تصير فوضى، وكلُّ يقتل الآخر، فولي الأمر هو الذي يتولّى تنفيذ القصاص، والأصل وجوب القصاص في القتل، والدية بدلاً عنه.

ثم أوصى الله وليّ الدم أن يكون رفيقاً في مطالبة القاتل بالدية، فقال: ﴿فَمَنْ عُفِيَ لَهُ مِنْ أَخِيهِ شَيْءٌ﴾ المراد بالشيء: هو القصاص أو القود، أي: فإن عفا ولي المقتول عن القصاص من القاتل وتنازل عنه إلى الدية، فإن القصاص يسقط وتجب الدية على القاتل،

(١) «سنن ابن ماجه» برقم (٢٦٨٣) عن ابن عباس، ومسنند أحمد برقم (٦٧٩٧) عن عبد الله بن عمرو، وهو حديث صحيح وإسناده حسن، (محققوا المسند) وأخرجه الطيالسي (٢٢٥٨).

فيطالب بها من غير أن يُشَقَّ عليه، أو يُحْمَل ما لا يطيق، وهذا معنى ﴿فَأَبَاحُ﴾ أي: يجب أن تكون مطالبة ولي الأمر ﴿بِالْمَعْرُوفِ﴾ أي: فإن صَفَحَ وليُّ الدم عن القصاص ورضي بالدية؛ فليطالب القاتل بدية المقتول مطالبةً حسنةً، فلا يجحف له في القول، ولا يأخذ زيادة عن حقه، ولذا قال: (من أخيه) وفيه ترقيق وحث على العفو والتنازل من القصاص إلى الدية.

وأوصى سبحانه القاتل أن يدفع الدية لولي الدم دون تسويف ولا مماطلة ﴿وَأَدَّاءُ إِلَيْهِ بِإِحْسَنٍ﴾ أي: وعلى القاتل أن يؤدي الدية المستحقة عليه للمقتول بدون مماطلة، بل يُحسن أداءها، فهل جزاء الإحسان إليه بالعفو، إلا الإحسان بحسن القضاء.

قال ابن عباس: كان في بني إسرائيل القصاص، ولم يكن فيهم الدية، فقال الله لهذه الأمة: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقَصَاصُ فِي الْقَتْلِ﴾ إلى قوله: ﴿فَمَنْ عَفَى لَّهُ مِنْ أَخِيهِ شَيْءٌ﴾ فالعفو أن يقبل الدية في القتل العمد ﴿فَأَبَاحُ بِالْمَعْرُوفِ﴾ أي: يتبع الطالب بالمعروف ﴿وَأَدَّاءُ إِلَيْهِ بِإِحْسَنٍ﴾ أي: يؤدي إليه المطلوب بإحسان ﴿ذَلِكَ تَخْفِيفٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَرَحْمَةٌ﴾ مما كُتِبَ على مَنْ كان قبلكم ﴿فَمَنِ اعْتَدَىٰ بَعْدَ ذَلِكَ﴾ أي: قتل بعد قبول الدية ﴿فَلَهُ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾^(١).

وكانت الدية عند العرب تسمى (العاقلة)؛ لأنها كانت إبلاً يسوقها وليُّ الدم إلى ورثة المقتول، فيسلمونها إليهم، ويعقلون كل منها بالعقال الذي تُربط فيه، ومن هنا سُميت المعاقلة.

وكان في شريعة اليهود القصاص فقط، فالقاتل لا بُدَّ أن يُقتل، ولا عفو ولا دية^(٢).

وكان عند النَّصَارَى الدية فقط مقابل القتل العمد، ولا قصاص ولا عفو^(٣).

وقال ابن عباس: كان في بني إسرائيل القصاص في القتل، ليس بينهم دية في نفس ولا جرح، وكُتِبَ عليهم أن النفس بالنفس، فخفف الله عن أمة محمد، فجعل عليهم الدية في النفس وفي الجراحة، وهذا تخفيفٌ من الله ورحمة^(٤).

(١) يُنْظَرُ: البخاري (٤٤٩٨، ٦٨٨١) والنسائي (٤٧٩٥) وسعيد بن منصور في تفسيره (٢٤٦) وعبد الرزاق في تفسيره (٦٧/١) وفي مصنفه (١٨٤٥٠، ١٨٤٥١) وغيرهم.

(٢) يُنْظَرُ الفصل التاسع عشر من سِفْرِ الخروج، والعشرين من سِفْرِ التثنية.

(٣) وهذا من وصايا مقابلة الإساءة بالإحسان في الإنجيل.

(٤) يُنْظَرُ: الطبري (١١٢/٣) وابن أبي حاتم (١٥٨٥).

ولما جاء الإسلام نَسَخَ العمل بما كان قبله في هذا الحكم، وكان وسطاً بين مجموع البشر من أهل الشرائع السماوية والقوانين الوضعية، فلم يُفرق بين الشريف والضعيف، ولم يُقتل قبيلةً بفرد، ولم يُعاقب بعقوبة لا تكفُ الناس عن القتل، وتجعلهم غير آمنين.

وَحَيَّرَ الناس بين ثلاثة أشياء: هي القصاص أو الدية أو العفو؛ أي: يعفو وليُّ الدم، ويتنازل عن حقه في القصاص، ويكتفي بالدية، أو يعفو أيضاً بترك الدية والقصاص معاً.

عن أبي شريح الخزاعي أن النبي ﷺ قال: «مَنْ أُصِيبَ بِقَتْلِ أَوْ خَبْلِ، فَإِنَّهُ يَخْتَارُ إِحْدَى ثَلَاثٍ: إِمَّا أَنْ يَقْتَصِّرَ، وَإِمَّا أَنْ يَعْفُوَ، وَإِمَّا أَنْ يَأْخُذَ الدِّيَةَ، فَإِنْ أَرَادَ الرَّابِعَةَ فَخَذُوا عَلَى يَدَيْهِ، وَمَنْ اعْتَدَى بَعْدَ ذَلِكَ فَلَهُ نَارُ جَهَنَّمَ خَالِدًا فِيهَا مَخْلَدًا»^(١).

يقول سبحانه في نهاية الآية: ﴿ذَلِكَ تَخَفِيفٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَرَحْمَةٌ﴾ لِمَا فِيهِ مِنَ التَّسْهِيلِ وَالِانْتِفَاعِ ﴿فَمَنْ أَعْتَدَىٰ بَعْدَ ذَلِكَ﴾ فاعْتَدَىٰ عَلَى الْقَاتِلِ بِالْقَتْلِ بَعْدَ الْعَفْوِ عَنْهُ ﴿فَلَهُ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ بِقَتْلِهِ قِصَاصًا، أَوْ بِالنَّارِ فِي الْآخِرَةِ؛ أَي: مَنْ اعْتَدَىٰ بَعْدَ أَخْذِ الدِّيَةِ فَقَتَلَ قَاتِلَ وَلِيِّهِ، فَلَهُ عَذَابٌ أَلِيمٌ عَاجِلٌ فِي الدُّنْيَا؛ وَهُوَ الْقَتْلُ؛ لِأَنَّ اللَّهَ تَعَالَىٰ جَعَلَ لِكُلِّ وَلِيٍّ قَتِيلَ قُتِلَ ظُلْمًا سُلْطَانًا عَلَى قَاتِلِ وَلِيِّهِ كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَمَنْ قُتِلَ مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا لَوْلِيٍّ سُلْطَانًا فَلَا يُسْرِفُ فِي الْقَتْلِ﴾ [الإسراء: ٣٣] وَمَنْ أَقِيمَ عَلَيْهِ الْحَدُّ فِي الدُّنْيَا كَانَ ذَلِكَ عَقُوبَةً لِّذَنْبِهِ، فَلَا يُعَاقَبُ فِي الْآخِرَةِ.

كما في حديث عبادة بن الصامت قال: بايعتُ رسول الله ﷺ في رهطٍ فقال: «أبايعكم على أن لا تشركوا بالله شيئاً، ولا تسرقوا، ولا تقتلوا أولادكم، ولا تأتوا بيهتان تفترونه بين أيديكم وأرجلكم، ولا تعصوني في معروف، فمن وفى منكم فأجره على الله، ومن أصاب من ذلك شيئاً فأخذ به في الدنيا فهو كفاراً له، ومن ستره الله؛ فذلك إلى الله، إن شاء عذبه، وإن شاء غفر له»^(٢).

(١) «المسند» (٣١/٤) برقم (١٦٣٧٥). إسناده ضعيف، لضعف ابن أبي العوجاء، وأخرجه البخاري في التاريخ ٢٢٤/٣ والدارقطني في السنن (٩٦/٣) والطحاوي في شرح مشكل الآثار (٤٩٠٤) و أبوداود (٤٤٩٦) وابن ماجه (٢٦٢٣).

(٢) البخاري كتاب الحدود (١٦٢/٨) برقم (٦٨٠١، ٧٤٦٨) ومسلم (١٧٠٩).

الْحِكْمَةُ فِي تَشْرِيعِ الْقِصَاصِ

١٧٩- ﴿وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَوةٌ يَتَأُولَى الْأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ (١٧٩).

ثم بيّن سبحانه العِلَّةَ والحكمة في تشريع القصاص فبين أنها حياةٌ للنفوس، ولكم أيها الناس في تشريع القصاص وتنفيذه فيما فرضته عليكم، وأوجبته لبعضكم على بعض حياةٌ آمنةٌ، فالبشرية كلها تحيا والأمن يستتب، وإذا علم القاتل أنه سيقتل ولا بُدَّ؛ فإنه سيكفُّ عن القتل، ويكون في هذا حياةٌ للبشر، حيث تُحقن الدماء ويُزجر الأشقياء، بخلاف ما إذا سُجنَ للأبد، أو يُسجن فترة ثم يُطلق سراحه، أو يُقتل الوضع ويُترك الشريف، فلا يكون في هذا حياةٌ للناس؛ لأن العقوبة غير رادعة، ففي مشروعية القصاص حياةٌ لنفسَي القاتل والمقتول؛ ولذلك يقول سبحانه: ﴿وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَوةٌ يَتَأُولَى الْأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ (١٧٩) ^(١) أي: رجاء أن تتقوا الله، وتخافوه يا أصحاب العقول السليمة.

أخرج عبد الرازق بسندٍ صحيحٍ عن قتادة قال: جعل الله في القصاص حياةً، إذا ذكره الظالم المعتدي كفَّ عن القتل.

الْحُكْمُ التَّشْرِيعِيُّ الثَّانِي: الْوَصِيَّةُ عِنْدَ الْمَوْتِ

١٨٠- ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ إِنْ تَرَكَ خَيْرًا الْوَصِيَّةَ لِلْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ بِالْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى الْمُنْقِبِينَ﴾ (١٨٠).

هذه الآية فيها وصية مجملة مردها إلى العُرف، بالنسبة للوالدين والأقارب الوارثين، وكان ذلك قبل تحديد أنصبة الموارث في سورة النساء، وبقيت الوصية للوالدين، والأقارب الممنوعين من الميراث بسبب الكفر أو الحجب أو القتل، والله أعلم.

أي: لقد فرضَ الله عليكم أيها المؤمنون إذا حضر أحدكم علامات الموت ومقدماته - إن ترك مالا - الوصية بجزءٍ من ماله للوالدين والأقربين الذين لا يرثون على قدر حاله من غير سرف ولا اقتصار على قريب دون قريب، مع العدل فيها، فلا يُوصى للغني ويترك

(١) تكلم الفخر الرازي والألوسي عن ثلاثة عشر وجهًا من البلاغة في هذه الجملة: (ولكم في القصاص حياة) عن جملة بعض بلغاء العرب (القتل أنقى للقتل) ومما قيل فيها: إن (قتل البعض إحياء للجميع).

الفقير، ولا يتجاوز الثلث في وصيته، ولا وصية لوارث إلا بإجازة الورثة.

حكم الوصية: والوصية قد تكون واجبة، وذلك إذا سافر الإنسان أو مَرِضَ ونحو ذلك، كما جاء في الحديث عن عبد الله بن عمر أن رسول الله ﷺ قال: «ما حقُّ امرئٍ مسلم، له شيء يوصي فيه، يبيت ليلتين إلا ووصيته مكتوبة عند رأسه»^(١).

قال عبد الله بن عمر: ما مرث عليّ ليلة منذ سمعتُ رسول الله ﷺ قال ذلك إلا وعندي وصيتي، فإن كان عليه دينٌ، أو زكاة أو نذر أو غير ذلك فإن كتابة الوصية عليه تكون واجبة؛ لبيان حقوق الله وحقوق العباد.

وفي غير ذلك تكون سنة مستحبة، ويستحب للمسلم أن يوصي من أمواله في حدود الثلث إلى جهات الخير والبر، ويجعلها وقفًا لله تعالى، صدقة جارية أو نحو ذلك من أنواع البر.

مقدار الوصية: جاء في الصحيحين وغيرهما أن سعدًا رضي الله عنه قال: يا رسول الله، إن لي مالًا، ولا يرثني إلا ابنة لي، أفأوصي بثلثي مالي؟ قال: «لا»، قال: فبالشطر، قال: «لا»، قلت: فالثلث، قال: «الثلث والثلث كثير، إنك أن تذر ورثتك أغنياء خيرٌ من أن تذرهم عالةً يتكففون الناس»^(٢).

وفي البخاري وغيره أن ابن عباس رضي الله عنهما قال: لو أنَّ الناس غضوا من الثلث إلى الربع فإن رسول الله ﷺ قال: «الثلث، والثلث كثير»^(٣).

وعن عائشة ؓ أن رجلاً قال لها: إني أريد أن أوصي؟ قالت: كم مالك؟ قال: ثلاثة آلاف، قالت: كم عيالك؟ قال: أربعة، قالت: قال الله: ﴿إِنْ تَرَكَ خَيْرًا﴾ وإن هذا شيءٌ يسيرٌ، فاتركه لعيالك فهو أفضل^(٤).

(١) البخاري (٢٥٣٣) ومسلم (٣٠٧٤).

(٢) يُنظر: «صحيح مسلم» برقم (١٦٢٢، ١٦٢٨) و«صحيح البخاري» برقم (١٢٩٥، ٢٧٤٢) وغيرها.

(٣) البخاري برقم (٢٧٤٣) ومسلم (١٦٢٩) وانظر «المسند» (٦٧/٥). والحديث السابق.

(٤) أخرجه سعيد بن منصور في تفسيره (٢٤٨) وابن أبي شيبة (٢٠٨/١١) والبيهقي (٢٧٠/٦) قال محقق

سنن سعيد بن منصور: سنده صحيح.

وقال قتادة: ويلك يابن آدم، كنت بخيلاً ممسكاً، حتى إذا حضرك الموت أخذت تُدْعِدُ مَالَكَ وتُفَرِّقُهُ، يابن آدم، اتقِ الله، ولا تجمع إساءتين في مَالِكَ؛ إساءة في الحياة، وإساءة عند الموت، انظرْ إلى قرابتك الذين يحتاجون ولا يرثون، فأوصِ لهم من مَالِكَ بالمعروف^(١).

والآيةُ تحدّثت عن الوصية للوالدين والأقربين ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ إِنْ تَرَكَ خَيْرًا﴾ والخير: هو المال الكثير؛ أي: إن ترك مَالًا كثيرًا كثرة نسبة وفق مستوى الموصي، وهذا لا يمنع الوصية من المال ولو كان قليلاً.

هل الآية منسوخة؟ وهذه الوصية للوالدين والأقربين، نسخت عند جمهور أهل العلم بآية الميراث التي حدّدت نصيب كل وارث ﴿يُوصِيكُمُ اللَّهُ فِي أَوْلَادِكُمْ﴾ [النساء: ١١] ففي الآية توريث الوالدين السدس إن كان له ولد، أو الثلث إن لم يكن له ولد، فجاء توريث الوالدين في آية الميراث ناسخاً لما في هذه الآية من وجوب الوصية للوالدين، وقبل نزولها كان لا يرث مع الوالدين غيرهم إلا وصية الأقربين، فأنزل الله ميراث الوالدين وأقرّ بوصية الأقربين من غير الورثة في ثلث المال.

وقيل: إنها غير منسوخة، وإنها نزلت في حق من ليس بوارث من الوالدين والأقربين بسبب الكفر أو الحجر ونحوه، فشرعت الوصية للوالدين والأقارب قضاءً لحق الأبوة والقرابة، فهي مستحبة في حق من لا يرث.

قال علي عليه السلام: من لم يوص عند موته لذوي قرابته ممن لم يرث فقد ختم عمله بمعصية.

ونقل عن ابن عباس أنها خاصة بغير الورثة؛ لأن الوصية لا تجوز لوارث إلا إذا أجازتها الورثة؛ لسبب من الأسباب المقبولة شرعاً كأن كان مُعاقاً أو صغيراً لم يأخذ حظه كإخوانه في التربية أو التعليم أو الزواج ونحو ذلك.

لا وصية لوارث:

ففي حديث عمرو بن خارجة أن رسول الله ﷺ خطبهم على راحلته فقال: «إن الله قد

(١) أخرجه عبد الرزاق في «المصنف» (١٦٣٦٨).

قَسَمَ لكل إنسانٍ نصيبه من الميراث، فلا تجوز لوارث وصية^(١).

وفي حديث أبي أُمّامة الباهلي قال: سمعتُ رسول الله ﷺ يَخُطِبُ في حَجة الوداع وهو ﷺ يقول: «إن الله قد أعطى كلَّ ذي حقٍّ حقَّه، فلا وصية لوارث»^(٢).

وأخرج عبد بن حميد عن الحسن قال رسول الله ﷺ: «لا وصية لوارث إلا أن يجيزَه الورثة»^(٣). فالذي يرث لا ينبغي أن يُوصَى له في الأصل، وفي غير ما ذكر فإن الوصية باقية بهذه الآية، وهو الأرجح، فهي آية مُحْكَمَةٌ.

وقد كان العرب يوصون في جاهليتهم بأموالهم للبعيد ويتركون القريب، فأنزل الله ﴿الْوَصِيَّةُ لِلْأُولَادَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ﴾ من غير الورثة، وخُصص ذلك بالمعروف؛ أي: ليس فيه ظُلْمٌ ولا جَوْرٌ ﴿بِالْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى الْمُتَّقِينَ﴾.

وعن جابر بن عبد الله ؓ قال: عادني النبي ﷺ وأبو بكر في بني سلمة ماشيين، فوجدني النبي لا أعقل، فدعا بماء فتوضأ منه ثم رشَّ عليّ؛ فأفقت، فقلت: ما تأمرني أن أصنع في مالي يا رسول الله؟ فتزلت ﴿يُوصِيكُمُ اللَّهُ فِي أَوْلَادِكُمْ﴾^(٤) فعلم بهذا أن الوصية للوالدين كانت مجملة قبل نزول آية الميراث، وأنها باقية للأقربين، والوالدين غير الوارثين.

وقد أخذ بعضُ أهل العلم من آية الوصية هذه ما أسموه بـ (الوصية الواجبة) بمعنى أن الأحفاد الذين مات أبوهم في حياة جدّهم يرثون حقَّ أبيهم في تركة جدّهم كما لو كان أبوهم حيًّا، وخاصة لو كان هو الابن الأكبر، وقد تحمل عبثًا أو ساهم في تكوين الثروة فإن ذريته لا تُحرَم من ميراث أبيهم، وبهذا أخذ قانون الأحوال الشخصية في مصر وبعض

(١) «سنن الترمذي» برقم (٢١٢١) و«سنن النسائي» (٦/ ٢٤٧، ٣٦٤٣، ٣٦٤٥) و«سنن ابن ماجه» برقم (٢٧١٢) و«المسند» (١٧٦٦٤، ١٧٦٧٠) صحيح لغيره وفي إسناده شهر بن حوشب ضعيف، و«صحيح سنن الترمذي» (١٧٢٢).

(٢) أخرجه البيهقي في سننه (٢١٢/٦) عن أبي أُمّامة الباهلي، وكذا أحمد في «المسند» (٢٢٢٩٤) وقال محققوه: إسناده حسن، وأخرجه أبو داود (٢٨٧٠) والترمذي (٦٧٠) وابن ماجه (٢٠٠٧) والطيالسي (١١٢٧) وعبدالرزاق (٧٢٧٧) وغيرهم.

(٣) «الدر المنثور» (١٦٧/٢).

(٤) أخرجه البخاري في تفسير سورة النساء برقم (٤٥٧٧) وانظر (١٩٤) وأخرجه مسلم (١٦١٦).

البلاد الإسلامية. قال تعالى:

١٨١ - ﴿فَمَنْ بَدَّلَهُ بَعْدَمَا سَمِعَهُ فَإِنَّمَا إِثْمُهُ عَلَى الَّذِينَ يُبَدِّلُونَهُ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾

فَمَنْ غَيَّرَ وصية الميت بعدما سمعها منه قبل موته، فالذنب على مَنْ غَيَّرَ وبَدَّلَ، أو حَرَّفَ فيها أو نقص أو زاد بعدما سمعه، أما الموصي فقد وقع أجره على الله وعلى المسلم أن لا يترك الوصية مخافة تبديلها أو عدم تنفيذها ﴿إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ﴾ لو صيتم وأقوالكم، فينبغي على الموصي أن يراقب من يسمعه ويراه، ولا يجوز في وصيته فالله ﴿عَلِيمٌ﴾ بما تخفيه صدوركم، وسيجازيكم عليه فلا ذنب على الموصي ولا الموصى له، وإنما الإثم على مَنْ بَدَّلَ. قال تعالى:

١٨٢ - ﴿فَمَنْ خَافَ مِنْ مَوْصٍ^(١) جَنَفًا أَوْ إِثْمًا فَأَصْلَحَ بَيْنَهُمْ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ إِنَّ اللَّهَ عَفُورٌ رَحِيمٌ﴾

فإذا حضر أحد صاحب الوصية وهو يوصي، ووجد منه ميلاً عن الحق في وصيته عمداً أو خطأً، فوجده يضر ببعض أقاربه فيحرمهم، أو يُقدِّم عليهم الأبعد، أو يترك الفقير منهم، أو وجده يحيف أو يجور أو يظلم في وصيته؛ فعليه أن يأمره بالمعروف، وعليه أن يُصلح بين الأطراف، وأن يأمره بالحق والعدل وتغيير الوصية؛ لتوافق الشريعة ﴿فَمَنْ خَافَ مِنْ مَوْصٍ جَنَفًا﴾ أي: عدولاً عن الحق، وتعمداً للإثم؛ يعني: جوراً وظلماً وبغيّاً أو إثماً ﴿فَأَصْلَحَ بَيْنَهُمْ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ إِنَّ اللَّهَ عَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ والجنف: هو الميل عن الصواب والخطأ فيه.

جاء في حديث أبي هريرة رضي الله عنه: «إن الرجل ليعمل بعمل أهل الخير سبعين سنة، فإذا أوصى حاف في وصيته، فيختم له بشر عمله»^(٢).

وفي الأثر عن ابن عباس رضي الله عنه قال: الجنف في الوصية والإضرار فيها من الكبائر^(٣).

(١) قرأ شعبة وحمزة والكسائي ويعقوب وخلف العاشر (مَوْصٍ) بفتح الواو وكسر الصاد المشددة، وقرأ الباقون (مَوْصِي) بواو مدية بعد الميم وبعدها صاد منونة بالكسر، وهما لغتان.

(٢) يُنْظَرُ: «مصنف عبد الرزاق» برقم (١٦٤٥٥) وأبو داود في «السنن» (٢٨٦٧) والترمذي برقم (٢١١٧) عن شهر بن حوشب وقال: حديث حسن صحيح غريب.

(٣) رواه الدارقطني (١٥١٥/٤) والبيهقي في «السنن الكبرى» (٢٧١/٦) زُوي مرفوعاً وموقوفاً على ابن عباس والوقف أصح، وأخرجه أيضاً سعيد بن منصور في سننه (٢٥٨، ٢٦٠) قال محققه: إسناده صحيح.

وفي معنى الآية أخرج الطبري بسندٍ حسنٍ عن علي بن أبي طلحة عن ابن عباس قال: إذا أخطأ الميتُ في وصيته، أو حاف فيها، فليس على الأولياء حرجٌ أن يردُّوا خطأه إلى الصواب^(١).
فمَنْ أوصى بشيءٍ فيه ظلم أو جور فعلى وليِّ أمر الميت وأولي الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر أن يردوه إلى الصواب.

وأخرج الطبري أيضًا بسند صحيح عن مُجاهد قال: هذا حين يحضر الرجل وهو يموت، فإذا أسرف أمره: افعل كذا، أعط فلانًا كذا^(٢).

الْحُكْمُ الثَّالِثُ فِي سُورَةِ الْبَقَرَةِ (الصِّيَامُ وَأَحْكَامُهُ)^(٣)

١٨٣ - ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾
وهذه الآية من سورة البقرة: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ﴾ هي النداء الخامس لجماعة المؤمنين في السورة الأولى بعد الفاتحة من سور القرآن الكريم، وهو نداء حبيب إلى القلب، بلفظ الإيمان، يستنهض الهمم، ويستجيش النفوس، ويحرك مشاعر الطاعة والاستجابة، يخاطب سبحانه عباده المؤمنين ليكلفهم، فيأمرهم أو ينهاهم؛ كي يسمعوا ويطيعوا، وقد جمع الله سبحانه آيات الصيام في مكان واحد من سورة البقرة.

وسوف نتناول الصيام في الإسلام وفي غيره من الديانات السماوية والأرضية:

الصيام في الإسلام: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ﴾ أي: فرض ووجب عليكم، والصيام كما هو معلوم: الإمساك والامتناع عن الأكل والشرب ومجامعة النساء بنية الصوم من طلوع الفجر إلى غروب الشمس، وقد فرض الصيام في السنة الثانية للهجرة، وصام النبي ﷺ تسعة رمضانات، ولا بدَّ فيه من النية، وإلا فإذا امتنع المسلم عن شهوة بطنه وفرجه دون نية فلا أجر له ولا يُعدُّ ذلك صومًا، ولو كان من طلوع الفجر إلى غروب الشمس.

(١) الطبري (٣/١٤٠) وابن أبي حاتم (١٦٠٩، ١٦١٩).

(٢) الطبري (٣/١٤٢).

(٣) عمدنا إلى تخصيص آيات الصيام بمزيد من البحث؛ لأنها لا توجد في مكان آخر من القرآن، ولأنها تتعلق بركن من أركان الإسلام يأتي في كل عام مرة، ولأن الداعية يلزمه ذلك في شهر الصيام.

ولا يكون الصوم كاملاً مقبولاً إلا إذا كان العبد مؤدياً ومحافظاً على الفرائض التي فرضها الإسلام وشرعها له، بأن كان مصلياً مزيكاً حاجاً ومعتماً إن كان مستطيعاً، وغير ذلك مما ألزمتنا به الشرع.

ولا يكون الصيام كاملاً إلا إذا امتنع العبد عن ارتكاب المحرمات والمحظورات من كبائر الذنوب والخطايا.

ولا يكون الصوم على الوجه اللائق المقبول إلا إذا اتقى العبد الشهوات والشبهات، وامتنع عن صغائر الآثام والذنوب وسفاسف الأمور، وعدم الإساءة إلى خلق الله.

ولا يكون الصوم كاملاً إلا إذا ملك الإنسان نفسه فامتنع عن الغضب، وحفظ جوارحه وأعضائه، ومن ذلك حفظ سمعه وبصره ولسانه ويده من المنكرات، كما قال ﷺ من حديث أبي هريرة ؓ: «من لم يدع قول الزور والعمل به والجهل فليس لله حاجة في أن يدع طعامه وشرابه»^(١) والزور: هو المحظور المحرم من الأقوال والأفعال.

ولا يكون الصوم مقبولاً على الوجه الصحيح حتى يكف الإنسان أذاه عن غيره، فلا يسبه ولا يشتمه، ولا يصخب، ولا يغتاب، ولا يكون نماماً، وأكد الإسلام على عدم الغضب والجهل، وتصرف السفهاء، كالاستهزاء والسخرية من الناس؛ حتى يصل العبد إلى درجة الكمال المطلوب من الصائم، وهذا مما يشير إليه قول النبي ﷺ فيما يرويه أبوهريرة ؓ: «إذا كان يوم صوم أحدكم فلا يرفث ولا يصخب ولا يجهل - كما في رواية - فإن سابه أحد أو شاتمه فليقل إنني امرؤ صائم»^(٢)

فإن أجر الصائم يقل مع ارتكاب اللّم والصغائر.

ويُسَنُّ في الصيام التعجيل بالفطر عقب غروب الشمس، وأن يفطر الصائم على تمرات

(١) أخرجه الشيخان ومالك وأبو داود وابن ماجه عن أبي هريرة، «صحيح الجامع الصغير» برقم (٧٩٥)، ورقمه في البخاري (١٩٠٣)، دون (الجهل) والنسائي في السنن الكبرى (٣٢٤٥، ٣٢٤٨)، والبيهقي في الشعب (٣٦٤١).

(٢) يُنْظَر: البخاري (١٩٠٤) ومسلم (١١٥١) والنسائي (٢٢١٥، ٢٢١٦) والمسند (٧٦٩٣، ١٠٦٩٢) وابن أبي شيبة (٥/٣) ومالك (٣١٠/١)

وإلا فمأ. ويُسن تأخير السحور إلى قبيل صلاة الفجر. ويُسن أن يصحب الصيام في العشر الأواخر من رمضان: الاعتكاف في المساجد. ويفسد الاعتكاف بالجماع؛ بأن يأتي الإنسان أهله ليلاً في رمضان، وإتيان النساء في نهار رمضان يفسد الصيام على وجه الخصوص، وفيه القضاء والكفارة المغلظة فيبدأ بتحرير رقبة من الرق، ثم صيام شهرين متتابعين، ثم إطعام ستين مسكيناً على هذا الترتيب.

ومما ورد في هذا أن سلطان قرطبة سأل يحيى بن يحيى الليثي عن يوم أفطره في رمضان عامداً، غلبته الشهوة على إتيان بعض جواريه، فأفتاه يحيى بأن يصوم ستين يوماً، وأغفل ذكر العتق والإطعام، فلما سئل عن ذلك، قال: لو فتحنا له هذا الباب لو طئ كل يوم وأعتق أو أطعم؛ فحملته على الأصعب لئلا يعود^(١).

ذلكم بعض ما يشير إليه قول الحق تبارك وتعالى: ﴿يَتَأَيَّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ﴾، أي: فرض عليكم الصيام كما فرض على الأمم السابقة، لأنه من الشرائع التي فيها مصلحة الخلق في كل زمان، وليس من الأمور الثقيلة التي اختصت بها هذه الأمة، فينبغي عليها أن تنافس غيرها، وأن تسارع إلى صالح الأعمال والخصال.

وقد أوجب الله علينا صيام شهر رمضان بهذه الآيات، وبحديث عمر رضي الله عنه عن النبي ﷺ: «بُنِيَ الإسلامُ على خمس: شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله، وإقام الصلاة، وإيتاء الزكاة، وصوم رمضان، والحج»^(٢) وثبتت فرضيته بعمل الرسول ﷺ وإجماع الصحابة والمسلمين، وإنكاره كفر مُخرِجٌ من الملة، والصيام المأمور به في الآية هو المبيّن وقته في قوله تعالى: ﴿فَمَنْ شَهِدَ مِنْكُمُ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ﴾ فالمراد به: صيام شهر رمضان، وكان الصيام في بادئ الأمر ثلاثة أيام من كل شهر.

الصيام عبادة قديمة: وهذا الصيام لم يشرع لأمة محمد ﷺ وحدها، وإنما شرع الصيام لأمم التوحيد جميعاً، فالآية تصرح بأن الصيام الذي فرضه الله علينا فرضه كذلك على

(١) «تفسير التحرير والتنوير» (٢/ ٧٠).

(٢) البخاري (٨) ومسلم (١٦) والترمذي (٢٦٠٩) والنسائي (٥٠١٦) وغيرهم.

الأمم ذات الرسالات الإلهية، وهي التي نزل عليها وحيٌّ وكتابٌ ورسالةٌ من عند الله تعالى؛ كقوم نوح، وقوم إبراهيم، وقوم موسى، وقوم عيسى عليهم الصلاة والسلام، فالجميع يشتركون في هذه العبادة العظيمة، ولكن صيام كل أمة يختلف عن غيرها، فهو عبادة قديمة عرفتها البشرية عن طريق الوحي بواسطة الرسل على أنه وسيلة من وسائل التقرب إلى الله تعالى، وهو من أكثر العبادات انتشارًا، ولم يخلُ منه دين من الأديان، ولا شعب من الشعوب في العالم قديمه وحديثه في جميع الملل والنحل، سواء منها الديانات التي نزلت من عند الله تعالى، أو من الديانات الباطلة التي اخترعها الإنسان على وجه هذه الأرض، وقد فرض الصيام على هذه الأمة، وعلى غيرها من أمم التوحيد، كما فرض على الذين من قبلكم.

أولاً: صيام أهل الديانات الأرضية: والصيام ليس معروفًا فقط في الشرائع الإلهية، وإنما عَرَفَ الصيامَ أهل الديانات الوثنية الأرضية الذين شرعوا لأنفسهم ما لم يشرعْ لهم رب العالمين، واختلقوا ديانات في الأرض، كأنواع الديانات المعروفة إلى اليوم: البوذية، والمانوية، والهندوكية، والصابئة، وقدماء المصريين، واليونانيين، والصينيين، وغيرهم من الملل والنحل المختلفة، هؤلاء وغيرهم عَرَفُوا الصيام على أنه تهذيب ورياضة نفسية وصفاء للروح، فكانوا يصومون بشكل أو بآخر وفق اختراعاتهم، ومن هذه الملل:

١- **قدماء المصريين:** فقد عرفوا الصيام ومارسوه قصدًا لصفاء الروح، خصوصًا أيام أعيادهم، حيث كان الشعب كله يصوم، أما الكهنة فكانوا يصومون من سبعة أيام إلى ستة أسابيع من كل عام.

٢- **أما اليونانيون:** فقد أخذوا الصيام عن قدماء المصريين، فكان الشعب كله يصوم (ترضية للآلهة) أيامًا متوالية قبل الحرب؛ حتى يتصرفوا.

٣- **والصينيون:** كانوا يصومون بعض الأيام، ويوجبونه على أنفسهم أيام الفتن والقلاقل، وبعض طوائف (التبت) يمتنعون عن الطعام أربعًا وعشرين ساعة متصلة، لا يتناولون حتى ريقهم، ولا يتناولون أي طعام، هكذا شرعوا لأنفسهم ما لم يأذن به الله.

٤- **أما البرهمية:** فإنهم يصومون عن اللحم والسمك والحلوى واقتراب النساء.

ثانيًا: التعرف على صيام أهل الرسالات السماوية:

١- صيام قوم نوح: قال قتادة: كان الصيام زمن نوح عليه السلام ثلاثة أيام من كل شهر، ثم نسخه الله بصوم رمضان.

قال الضحاك: كان الصوم الأول صامه نوح فَمَنْ دونه، حتى صامه النبي ﷺ وأصحابه، وكان صومهم من كل شهر ثلاثة أيام إلى العشاء، وهكذا صامه النبي ﷺ وأصحابه^(١).

٢- صيام اليهود: صام موسى عليه السلام استعدادًا لملاقاة ربه ونزول التوراة عليه أربعين يومًا ﴿وَوَعَدْنَا مُوسَى ثَلَاثِينَ لَيْلَةً وَأَتَمَمْنَاهَا بِعَشْرِ فَتَمَّ مِيقَاتُ رَبِّهِ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً﴾ [الأعراف: ١٤٢]

وقد أخبر النبي ﷺ أن اليهود كانوا يصومون يوم عاشوراء حين قدم إلى المدينة ووجدهم يصومونه، فسألهم عن سبب صيامهم له، قالوا: هذا يوم نجى الله فيه بني إسرائيل من عدوهم فصامه موسى شكرًا لله تعالى، وكان اليهود يصومون عند الحزن والجَداد، وعند المرض والخطر، ويصومون أسبوعًا من كل عام تذكيرًا لخراب (أورشليم)، ويومًا آخر للكفارة.

وقيل: إن الله تعالى فرض صيام شهر رمضان على اليهود والنصارى، ولكنهم غيروا وبدلوا وحرفوا.

٣- أما صيام النصارى: فقد صام عيسى عليه السلام أربعين يومًا قبل بدء الرسالة كما جاء في الإنجيل، وصام أيضًا يوم الكفارة الذي كان مقرّرًا ومعروفًا في شريعة موسى ﷺ.

وقيل: إن صيام شهر رمضان كان واجبًا عليهم، ولما وجدوا أن صيامه يأتي في شدة الحر والبرد، وكان يشق عليهم الصيام فيه، اجتمع رؤساؤهم ورهبانهم، كعادتهم في التغيير والتحريف والتبديل، وتخبروا وقتًا آخر للصيام هو فصل الربيع من العام؛ حيث لا حر ولا برد، وأخذوه وقتًا لصيامهم، فاستبدلوا بصيام شهر رمضان فصل الربيع، وزادوا عشرة أيام كفارة لما صنعوا، فصاروا يصومون أربعين يومًا، ثم زادوه ثلاثة أيام وسموه: الصيام الصغير، وهو عند طائفة الأرثوذكس يمتنعون فيه عن اللحوم البرية وما يخرج من حيواناتها، من ٢٥ نوفمبر إلى ٧ يناير.

(١) أخرجه ابن أبي حاتم (١٦٢٤).

أما الصيام الكبير فمدته خمسة وخمسون يومًا، قيل: إنهم صاموا شهرًا، ثم مرض ملكهم فقالوا: لئن شفاه الله لنزيدنَّ عشرًا، ثم جاء ملك آخر، فأكل لحمًا ومرض، فقالوا: لئن شفاه الله لنزيدنَّ سبعمائة، ثم جاءهم ملك ثالث، فأتموها عشرًا، وجعلوا صومهم في الربيع، فصارت خمسين يومًا^(١).

وهم يمتنعون في هذا الصيام عن لحوم الحيوانات البرية والبحرية، وينتهي بما يسمونه يوم القيامة، يعنون به قيام المسيح من قبره بعد صلبه على حد زعمهم.

٤- وأفضل الصيام صيام داود، كان عليه السلام يصوم يومًا ويفطر يومًا، كما أخبر بذلك المصطفى ﷺ.

في الصحيحين أن عبد الله بن عمرو ؓ قال: أخبر رسول الله ﷺ أنني أقول: والله لأصومنَّ النهار ولأقومنَّ الليل ما عشت، فقلت له: قد قلته بأبي أنت وأمي، قال: «فإنك لا تستطيع ذلك، فصم وأفطر، وقم ونم، وصم من الشهر ثلاثة أيام، فإن الحسنة بعشر أمثالها وذلك مثل صيام الدهر»، قلت: إني أطيق أفضل من ذلك، قال: «فصم يومًا، وأفطر يومين»، قلت: إني أطيق أفضل من ذلك، قال: «فصم يومًا وأفطر يومًا، فذلك صيام داود ؑ، وهو أفضل الصيام»، فقلت: إني أطيق أفضل من ذلك، قال النبي ﷺ: «لا أفضل من ذلك»^(٢).

٥- وكان الصوم معروفًا عند العرب في الجاهلية قبل الإسلام، فبعضهم كان يصوم رمضان ويتحنت فيه، لاسيما الحنفاء الذين كانوا على التوحيد.

وكان النبي ﷺ يتحنت شهر رمضان من كل عام قبل نزول الوحي يتعبد، ويطعم من جاءه من المساكين في غار حراء.

صيام يوم عاشوراء:

وكان العرب يصومون يوم عاشوراء على سبيل الفرض، ولما فرض صيام شهر رمضان صار

(١) أخرجه البخاري في تاريخه (٢٥٤/٣) والنحاس في ناسخه ص ٩٢ والطبراني في الكبير (٤٢٠٣) وفي الأوسط (٨١٩٣) عن دغفل بن حنظلة، قال البخاري: لا أعرف لدغفل إدراكًا للنبي ﷺ.

(٢) «صحيح البخاري» (٣٥/٣) برقم (١٩٧٦) وانظر: (١١٣١) «صحيح مسلم» (١٦٢/٣) برقم (١١٥٩).

صيام يوم عاشوراء بالتخيير، كما صح عن عائشة رضي الله تعالى عنها أنها قالت: «كان عاشوراء يُصام، فلما نزل فَرَضُ رمضان كان مَنْ شاء صام، ومن شاء أفطر»^(١)

ومنهم من كان يصوم يوم عاشوراء قبل الإسلام في مكة، ثم في المدينة.

روى البخاري وغيره بسنده عن عائشة رضي الله عنها قالت: كان يوم عاشوراء تصومه قريش في الجاهلية، وكان رسول الله ﷺ يصومه، فلما قدم المدينة صامه وأمر بصيامه، فلما فُرِضَ صيام شهر رمضان ترك يوم عاشوراء، فمن شاء صامه ومن شاء تركه^(٢)

وعن جابر بن سمرة رضي الله عنه قال: كان رسول الله ﷺ يأمر بصيام يوم عاشوراء، ويحثنا عليه، ويتعاهدنا عنده، فلما فُرِضَ رمضان، لم يأمرنا ولم ينهنا عنه، ولم يتعاهدنا عنده^(٣)

فالصيام إذا عبادة قديمة قَدَمَ الإنسان من لدن آدم إلى محمد عليهم جميعاً أفضل الصلاة وأتم التسليم.

مِنْ صُورِ الصَّيَامِ قَبْلَ الْإِسْلَامِ

للصيام قبل الإسلام صور متعددة منها:

أ- الامتناع عن الكلام فقط: وهو صورة من صور الصيام عند اليهود. فهذه مريم وقد كانت ديانتها اليهودية تقول: ﴿إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَنِ صَوْمًا فَلَنْ أُكَلِّمَ الْيَوْمَ إِنْسِيًّا﴾ [مريم: ٢٦] وكان قومها أيضاً من اليهود.

وقد عرف هذا النوع من الصيام طائفة الكاثوليك من النصارى، وبعض ديانات الهنود كالبرهمية، كما عرفه العرب في جاهليتهم ومارسوه.

ب- الصوم عن الحركة والعمل: وتَزَكُّ العمل بالمرة صورة من صور الصيام كما تقرره شريعة اليهود؛ إذ تَحْرُمُ عليهم مزاوله الأعمال في يوم السبت من كل أسبوع، اعتقاداً منهم

(١) «صحيح البخاري» برقم (١٥٩٢، ٤٥٠٢) و«صحيح مسلم» برقم (١١٢٥).

(٢) «التجريد الصريح لأحاديث الصحيح» الجزء الأول، باب الصوم ص ١٣٥ مطبعة دار الكتاب العربي بيروت، ورقمه في «صحيح البخاري» (٢٠٠٢) وانظر: (١٥٩٢) وأخرجه مسلم (١١٢٥).

(٣) مسلم (١١٢٨) وابن أبي شيبه (٥٥/٣).

أن الله تعالى خلق السموات والأرض في ستة أيام، واستراح في اليوم السابع، وكان يوم سبت، قال تعالى ردًا عليهم: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِنْ لُغُوبٍ﴾ [ق] فالله ﷻ لا يتعبه شيء، ولا يمسه نصب ولا جهد.

وقد عرف هذا النوع من الصيام كثير من الديانات؛ كالديانة البوذية التي تحرم العمل مدة أربعة أيام من كل شهر قمري.

ج- الصيام عن بعض المأكولات والمشروبات:

وترك بعض المأكولات والمشروبات دون بعض، صورة من صور الصيام قديمًا:

كالصيام الصغير عند طائفة النصارى الأرثوذكس، وهو يقتضي الكف عن لحوم الحيوانات البرية وما يُستخرج منها، وبياح ماعدا ذلك، ومدته ثلاثة وأربعون يومًا تبدأ من ٢٥ نوفمبر وتنتهي في ٧ يناير من كل عام ميلادي.

وكذلك الصيام الكبير عندهم، وهو يقتضي الكف عن لحوم الحيوانات البرية والبحرية وما يستخرج منهما، وبياح ما عداهما، ومدته خمسة وخمسون يومًا، تنتهي بما يسمونه يوم القيامة، وَيَعْتُنُون به: قيام المسيح من قبره بعد صَلْبِهِ ودفنه - على حد زعمهم - وقد عرف هذا النوع من الصيام: الصابئة، وهم يصومون سبعة أيام يمتنعون فيها عن اللحم ومشتقاته، وعن شرب الخمر.

أما أهل الديانة البرهمية فقد كانوا يمتنعون عن اللحم والسمك والحلوى، واقترب النساء.

مدة الصيام عند الأمم السابقة: وقد يستغرق الصيام في هذا كله، الليل والنهار، أو الليل فقط، أو النهار فقط، أو جزءًا منهما، كل ديانة وفق ما هو مقرر فيها، وقد يكون الصيام يومًا أو أيامًا متتابعة، أو متفرقة، وقد يبلغ شهرًا أو أكثر، وقد يكون الصيام: صيام يوم وإفطار يوم، أو ترك بعض الواجبات دون بعض.

طقوس غريبة ترتبط بالصيام

١- يؤدي بعض اليهود الصوم صامتًا واقفًا في الشمس، لا يتكلم ولا يقعد ولا يستظل، يعذب نفسه طيلة الصيام.

٢- ومن البرهمنين من يصوم وهو جالس على الأرض مباشرة دون فراش.

٣- ومنهم من يلوث جسمه في صيامه برؤث البقر، ويفطر على رؤثها وبولها، وغير ذلك من العجائب والغرائب^(١).

فالحمد لله الذي أكرمنا بالإسلام، وهدانا إلى الصيام الذي شرعه رب العالمين، وارتضاه من عباده إلى يوم الدين.

ثالثاً: الصيام الأخير: أما الصيام الكامل الذي أراده الله من عباده إلى يوم القيامة، بعد أن تدرج التشريع الإلهي مع البشر من لدن آدم إلى محمد صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين، فهو الامتناع عن شهوتي البطن والفرج من طلوع الفجر إلى غروب الشمس في شهر رمضان من كل عام؛ كي يقوده هذا الصيام إلى تقوى الله تعالى.

وقد مر الصيام في الإسلام بثلاث مراحل:

المرحلة الأولى: أنه لما قدم النبي ﷺ المدينة كان يصوم ثلاثة أيام من كل شهر، ويصوم يوم عاشوراء، وكان ذلك قبل أن يفرض صيام شهر رمضان.

من شاء صام ومن شاء أفطر وأطعم:

وفي السنة الثانية من الهجرة فرض الله عليه وعلى أمته صيام شهر رمضان بقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لِمَلَّكُمْ تَفْقُونَ ﴿١٨٣﴾ أَيَّامًا مَّعْدُودَاتٍ فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوْ عَلَى سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ وَعَلَى الَّذِينَ يُطِيقُونَهُ ؕ أَي: يستطيعون الصيام ويتحملونه بمشقة ﴿فِدْيَةٌ طَعَامُ مِسْكِينٍ﴾ فكان من شاء صام ومن شاء أفطر.

ومعنى هذا أن صيام شهر رمضان فرض أولاً على وجه الاختيار، من شاء صام، ومن شاء أفطر وأطعم عن كل يوم مسكيناً، كما جاء في الآية: ﴿وَعَلَى الَّذِينَ يُطِيقُونَهُ فِدْيَةٌ طَعَامُ مِسْكِينٍ﴾:

١- روى البخاري وغيره عن سلمة بن الأكوع أنه قال: لما نزلت ﴿وَعَلَى الَّذِينَ

(١) راجع بحث الصيام للدكتور/ علي عبد الواحد وافي.

يُطِيقُونَهُ فِدْيَةً طَعَامُ مَسْكِينٍ ﴿١﴾ كان من أراد أن يُفطر ويفتدي فعَل حتى نزلت الآية التي بعدها فنسختها^(١).

٢- وأخرج ابن حبان وغيره عن سلمة بن الأكوع قال: كنا في رمضان في عهد رسول الله ﷺ من شاء صام، ومن شاء أفطر وافتدي بإطعام مسكين حتى نزلت هذه الآية ﴿فَمَنْ شَهِدَ مِنْكُمُ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ﴾^(٢).

٣- وقال ابن أبي ليلى: حدثنا أصحابنا أن رسول الله ﷺ لما قدم المدينة أمرهم بصيام ثلاثة من كل شهر تطوعاً من غير فريضة، ثم نزل صيام رمضان، وكانوا قومًا لم يتعودوا الصيام، فكان يشتد عليهم الصوم، فكان من لم يصُم أطعم مسكينًا، ثم نزلت هذه الآية ﴿فَمَنْ شَهِدَ مِنْكُمُ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ وَمَنْ كَانَ مَرِيضًا أَوْ عَلَى سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ﴾ فكانت الرخصة للمريض والمسافر، وأمرنا بالصيام^(٣).

أما مقدار الفدية فقليل هي: نصف صاع من البرّ، وصاع من غيره، وقيل: مُدٌّ.

المرحلة الثانية: ثم نُسخ هذا الاختيار، بقوله تعالى: ﴿فَمَنْ شَهِدَ مِنْكُمُ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ﴾ فأوجب الله الصيام على الصحيح المقيم، ورخص للمريض والمسافر بقوله: ﴿فَمَنْ كَانَ مِنْكُمْ مَّرِيضًا أَوْ عَلَى سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ﴾ وثبت الإطعام للكبير الذي لا يستطيع الصيام، فتكون آية ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ﴾ ناسخة للآية التي قبلها.

وقال ابن عباس ؓ: نزلت هذه الآية ﴿وَعَلَى الَّذِينَ يُطِيقُونَهُ﴾ في الشيخ الكبير الذي لا يستطيع الصيام، والعجوز الكبيرة، فرُخص لهم أن يطعموا مكان كل يوم مسكينًا ولا قضاء عليهم^(٤)؛ لأن الشيخ الهرم ليست له حالة يتمكن فيها من القضاء والإطعام، وهو ما عليه أكثر العلماء، ورأى بعضهم أنه لا إطعام عليهما لعجزهما بالكبر وعدم الاستطاعة.

ومعنى ﴿وَعَلَى الَّذِينَ يُطِيقُونَهُ فِدْيَةً﴾، أي: يتحملون الصوم بمشقة بالغة؛ كالشيخ

(١) البخاري (٤٥٠٧) ومسلم (١١٤٥) وأبو داود (٢٣١٥) والترمذي (٧٩٨) والنسائي (١٣١٥) وابن خزيمة (١٩٠٣) وغيرهم.

(٢) «صحيح ابن حبان» (٣٦٢٤)، وصحيح مسلم (١١٤٥).

(٣) الطبري (١٢٦/٣).

(٤) البخاري (٤٥٠٥) وعبد الرزاق في «المصنف» (٧٥٧٧) والطبراني (١١٣٨٨) وابن أبي حاتم (١٦٣٤) وغيرهم.

الكبير، والمرأة العجوز والحامل، والمرضع فُيَرَّخَصَ لهم في الفطر وعليهم فدية، وهذه الآية رفعت توهم بعض المسلمين لمشابهة صيامهم بصيام أهل الكتاب.

وكان الصيام في هذه الحالة من المغرب إلى العشاء، أو إلى أن ينام المسلم، فكان الرجل يأكل ويشرب ويأتي النساء ما لم ينم، فإذا أُذِّنَ للعشاء، أو نام المسلم قبل الأذان فإنه يكون قد دخل في صيام اليوم التالي وامتنع عن الطعام والشراب والجماع، فشق ذلك على بعض الصحابة.

وكان (قَيْسُ بْنُ صِرْمَةَ) رَجُلٌ مِنَ الْأَنْصَارِ، يَعْمَلُ نَهَارًا وَهُوَ صَائِمٌ، فَلَمَّا جَاءَ إِلَى أَهْلِهِ صَلَّى الْعِشَاءَ، وَنَامَ دُونَ أَنْ يَأْكُلَ وَيَشْرَبَ، وَأَصْبَحَ صَائِمًا، فَأَصَابَهُ إِعْيَاءٌ وَجَهْدٌ شَدِيدٌ، وَكَانَ (عَمْرٌ) قَدْ أَصَابَ مِنَ النِّسَاءِ بَعْدَ مَا نَامَ.

المرحلة الثالثة: ثم خفف الله عن الأمة وأنزل ﴿أَحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ الصِّيَامِ الرَّفَثُ إِلَى نِسَائِكُمْ﴾ فأحل الله للمؤمن أن يأكل ويشرب ويأتي النساء من المغرب إلى طلوع الفجر ﴿وَكُلُوا وَاشْرَبُوا حَتَّى يَبَيِّنَ لَكُمْ﴾.

وقد جاءت هذه الأحوال في حديث معاذ بن جبل، وفيه أن أحوال الصيام ثلاثة وهي:

أولاً: لما قدم رسول الله ﷺ المدينة، جعل يصوم من كل شهر ثلاثة أيام، ويصوم عاشوراء، ثم إن الله فرض عليه صيام رمضان وأنزل الله ﴿وَعَلَى الَّذِينَ يُطِيقُونَهُ فِدْيَةٌ﴾ فكان من شاء صام، ومن شاء أطعم مسكيناً، فأجزأ ذلك عنه.

ثانياً: ثم إن الله تعالى أنزل الآية الأخرى ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ﴾ إلى قوله: ﴿فَمَنْ شَهِدَ مِنْكُمُ اللَّيْلَةَ فَلْيَصُمْهُ﴾ فأثبت الله صيامه على المقيم الصحيح، ورخص فيه للمريض والمسافر، وثبت الإطعام للكبير الذي لا يستطيع.

ثالثاً: كانت فترة الإفطار من المغرب إلى العشاء، فحدث حرج ومشقة للمسلمين من العطش والجوع وعدم إتيان النساء، فخفف الله عنهم، بأن أحل الله لهم الرفث إلى نسائهم والأكل والشرب حتى مطلع الفجر^(١).

(١) يُنْظَرُ: الْحَدِيثُ بِنَصِّهِ فِي «الْمُسْنَدِ» (٢٢١٢٤) وَأَبُو دَاوُدَ (٥٠٧) وَالتَّيْمِيُّ (١٨٥/٣) وَابْنُ أَبِي حَاتِمٍ

(١٦٢٢) وَالْحَاكِمُ (٢٧٤/٢) وَالْبَيْهَقِيُّ (٢٠٠/٤) قَالَ مُحَقِّقُو «الْمُسْنَدِ»: رَجَالُهُ ثِقَاتٌ، رَجَالُ الشَّيْخَيْنِ غَيْرِ

الْمَسْعُودِ - وَابْنُ أَبِي لَيْلَى لَمْ يَسْمَعْ مِنْ مَعَاذٍ.

رابعاً: فضل شهر رمضان:

فيه تفتح أبواب الجنان:

١- عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال «إذا دخل شهر رمضان فُتِحَتْ أبواب الجنة وغلَّتْ أبواب جهنم، وسُلِّسَتْ الشياطين»^(١) وفيه تكفر الذنوب:

٢- وعن أبي هريرة أيضاً عن النبي ﷺ قال «الصلوات الخمس، والجمعة إلى الجمعة، ورمضان إلى رمضان، مكفرات ما بينهن إذا اجتنب الكبائر»^(٢). وفيه العتق من النار:

٣- وعن جابر رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «إن لله عند كل فطر عتقاء وذلك في كل ليلة»^(٣) وفيه تُغلُّ الشياطين:

٤- وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا كان أول ليلة من شهر رمضان، صُفِّدَت الشياطين ومردة الجن، وغلَّتْ أبواب النار، فلم يُفتح منها باب، وفتحت أبواب الجنة، فلم يُغلق منها باب، وينادي مناد كل ليلة: يا باغي الخير أقبل، ويا باغي الشر أقصر، ولله ﷻ عتقاء من النار وذلك كل ليلة»^(٤).

(١) البخاري (١٨٩٩، ٣٢٧٧) ومسلم (١٠٧٩) والنسائي (٢٠٩٦) والبيهقي (٣٠٣/٤) ومالك (٣١٠/١) وابن أبي شيبة (٢/٣).

(٢) مسلم (٢٣٣) والبيهقي في «الشعب» (٣٦١٩).

(٣) «صحيح سنن ابن ماجه» (١٣٣٢)، قال الألباني: حسن صحيح، وهو في المسند (٢٢٢٠٢) من حديث أبي أمامة بدون (كل ليلة) وهو حديث صحيح لغيره وإسناده حسن، وأخرجه الطبراني (٨٠٨٩) ومن حديث أبي هريرة في المسند أيضاً (٧٤٥٠) بنحوه، بإسناد صحيح على شرط الشيخين، كما قال محققوه، والحديث في صحيح والترغيب والترهيب (٩٩١).

(٤) «صحيح سنن ابن ماجه» (١٣٣١) بتصحیح الألباني، وأخرجه الترمذي (٦٨٢) وابن خزيمة (١٨٨٣) والحاكم (٤٢١/١) والبيهقي في «الشعب» (٣٥٩٨).

وفيه ليلة خير من ألف شهر:

٥- وعن أبي هريرة أيضًا أن رسول الله ﷺ قال لأصحابه يُبشّروهم: «قد جاءكم رمضان، شهر مبارك، افترض الله عليكم صيامه، تفتح فيه أبواب الجنة، وتغلق فيه أبواب الجحيم، وتغل فيه الشياطين، فيه ليلة خير من ألف شهر، من حُرِمَ خيرها فقد حُرِمَ»^(١).

٦- وعن أنس رضي الله عنه قال: دخل رمضان، فقال رسول الله ﷺ: «إن هذا الشهر قد حضركم، وفيه ليلة خير من ألف شهر، من حُرِمَها فقد حُرِمَ الخير كله، ولا يُحَرَمَ خيرها إلا محروم»^(٢).

وصيام رمضان من أسباب دخول الجنة:

٧- وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «من أصبح منكم اليوم صائمًا؟» قال أبو بكر: أنا، قال: «فمن تبع منكم اليوم جنازة؟» قال أبو بكر: أنا، قال: «فمن عاد منكم اليوم مريضًا؟» قال أبو بكر: أنا، فقال رسول الله ﷺ: «ما اجتمعن في امرئ إلا دخل الجنة»^(٣).

٨- وعن عمرو بن مرة الجهني قال: جاء رجل من قُضاعة إلى رسول الله ﷺ فقال: أرأيت إن شهدت أن لا إله إلا الله، وأنك رسول الله، وصليت الصلوات الخمس، وصمت رمضان وقُمتُه، وآتيت الزكاة، فمِمَّنْ أنا؟ فقال له النبي ﷺ: «من مات على هذا كان مع النبيين والصديقين والشهداء يوم القيامة هكذا - ونصّب أُصْبُعِيه - ما لم يَعُقْ والديه»^(٤).

(١) «صحيح سنن النسائي» (١٩٩٢) والبيهقي في «الشعب» (٣٦٠٠) وابن أبي شيبة (١/٣).

(٢) «صحيح سنن ابن ماجه» (١٣٣٣)، قال الألباني: حسن صحيح وهو في صحيح الترغيب والترهيب (٩٨٩).

(٣) «صحيح مسلم» (١٠٢٨).

(٤) «صحيح الترغيب والترهيب» (٢٥١٥، ٧٤٩) وابن خزيمة (٢٢١٢) وابن حبان (٣٤٣٨) والبيهقي (٣٦١٧).

التَّقْوَى هِيَ الْغَايَةُ مِنَ الصِّيَامِ

دروس في التقوى ﴿لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾

في هاتين الكلمتين بَيَّنَ ﷺ الحكمة والغرض من الصيام، أي: أن الصيام كُتِبَ عليكم أيها المؤمنون رجاء أن تتعلموا منه تقوى الله تعالى وطاعته والخوف منه، ومراقبته في السر والعلانية.

وأن تتعودوا ذلك بتكرار الدرس من كل عام، والاستعانة من هذه الدورة التدريبية التي تستمر ثلاثين يومًا، فينمو الغرس، وتصبح التقوى صفة ملازمة للعبد تأخذ بيده إلى أسمى الدرجات وتُحقق له سعادتي الدنيا والآخرة، فما التقوى؟.

والتقوى هي: أن تجعل بينك وبين عذاب الله وقاية بامثال أمره، واجتناب نهيه في الصغائر والكبائر.

قال علي بن أبي طالب: (التقوى هي الخوف من الجليل، والعمل بالتنزيل، والقناعة بالقليل، والاستعداد ليوم الرحيل)^(١).

وقال طلق بن حبيب: (التقوى: أن تعمل بطاعة الله على نور من الله، ترجو ثواب الله، وأن تترك معصية الله، على نور من الله، تخاف عقاب الله).

وقال عبد الله بن مسعود: (أن يُطاع فلا يُعصى، وأن يُذكر فلا يُنسى، وأن يُشكر فلا يُكفر).

ولا يكون العبد من المتقين حتى يؤدي الفرائض ويجتنب المحرمات، ويترك ما يحيك في نفسه من الإثم وصغائر الذنوب، ويتقرب إلى الله بكثرة النوافل، وألَّا يراه حيث نهاه، ولا يفقده حيث أمره، وأن يكون صالح السريرة، كما هو صالح العلانية مداومًا على الطاعة، مسارعًا إلى الخيرات، أكثرًا من الصالحات، حافظًا لجوارحه من الزلات، كثير الخوف والحذر من الذنوب، محاسبًا لنفسه، فزعًا من سوء الخاتمة، بين الرجاء والخوف، يعبد الله كأنه يراه، فإن لم يكن يراه فإنه ﷻ يراه، ويطلع على سره ونجواه.

(١) راجع: كتاب «التقوى» لصلاح الدين المارديني ص ١٦، ١٧.

وفيه رغبة ورهبة، وزهد وورع، وخشية وتقوى، وتورع عن ارتكاب الشهوات والشبهات، وصغائر الذنوب، وما يحيك في نفسه ويتردد فيه.

وبهذا تعلو عند الله درجته، فيحبه ربه، ويكون في معيته، يفوز بالفلاح والنجاح، والنجاة من النار، والظفر بالجنة، ضُمَّنْ وفُد الرحمن، وقد حسنت عاقبته في جنات ونهر، ومقام أمين، عُرف من فوقها غرف، في مقعد صدق عند مليك مقتدر؛ لأنه امتنع عن شهوتي البطن والفرج في خلوته وجلوته، وعرف كيف يراقب ربه ويخاف منه في السر والعلانية.

الصيام أيها الأخوة يأخذ بأيدينا إلى هذه الدرجات العلى؛ إذ بالصيام يَضْعُف البدن، ويتغلب الصائم على جانب المادة فيه، ويسمو بروحه إلى درجات التقوى، والانتصار على الشهوة، وهوى النفس، وقهر الشيطان، وبذلك تسمو روح الصائم، ويصح بدنه، وتتأدب نفسه، ويتهذب خلقه، وتقوى إرادته، ويشعر بآلام الفقير.

فهذا وغيره داخل في إطار التقوى التي هي ثمرة الصيام وفائدته، وطريق ذلك كله: انتصار العقل والروح على الجسم والشهوة، فكيف يتم ذلك؟

عَشْرٌ مِنْ فَوَائِدِ الصَّيَامِ الْمَادِيَّةِ وَالْمَغْنَوِيَّةِ

١- الإنسان بين العقل والشهوة: خلق الله تعالى الإنسان من جسم وروح، وخلق فيه الشهوة، وهي من خواص البهائم، وخلق فيه العقل، وهو من خواص الملائكة، والعقل والشهوة يتنازعا الإنسان، وهو في جهاد مستمر معهما، تارة يغلب بعقله، وتارة تغلبه شهوته.

فالجسد له مطالب من نوع المادة التي خلق منها، وهي التراب، غرائز ونزعات وشهوات، يتطلبها البطن والفرج، طعام وشراب وجماع، يستوي فيها مع الحيوان، بالإضافة إلى سلطان الهوى والشيطان.

وللروح مطالب عقلية من جنس العالم العلوي - الملائكة - طاعة وعبادة، وأمر ونهي، وصفاء وتقوى، وسمو وارتقاء، فإذا تغلب جانب الشهوة على جانب العقل كان الإنسان شبيهاً بالحيوان، وإذا تغلب جانب الروح - وهو العقل - على جانب المادة - وهي الشهوة - كان الإنسان شبيهاً بالملائكة الكرام، الذين لا يأكلون ولا يشربون ولا يتناسلون، ولا يعصون

الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون.

٢- في الصيام سلامة الروح: ومن هنا فرض الله الصيام؛ ليتحرر الإنسان من سلطان غرائزه، ويتغلب على نزعات شهوته، ويرتقي بالصائم إلى مرتبة التشبه بالملائكة، وذلك بإضعاف القوى الجسمية، وإضعاف تحكمها في العبد، حتى تصفو روحانية العبد بابتعاده عن المعاصي واقترابه من التقوى التي هي هدف الصيام.

فصوم رمضان بمنزلة (المَصْل) الذي يكسب الجسم قوة ومناعة ضد الجراثيم.

وكما أن التطعيم بالمَصْل يحتاج إلى تكرار؛ لتتجدد قدرة الجسم على مقاومة المرض، فكذلك الصيام يتكرر كل عام؛ ليكسب الجسم قدرة على مقاومة الشهوة^(١)؛ وبذلك يكون الصوم وسيلة لتقوى الله تعالى.

٣- وفي الصيام سلامة البدن: وكما أن الصيام يُقَوِّي الإيمان، ويرتقي بالعقل والروح، فإنه كذلك يقوي البدن ويصحح الجسم، وفيه علاج لكثير من الأمراض، لاسيما مرض العصر (السمنة) فقد وضع النبي ﷺ أسباب الوقاية وأصول العلاج للتخمة في قوله ﷺ: «ما ملأ ابن آدم وعاء شراً من بطنه، بحسب ابن آدم أكالات يقمن صلبه، فإن كان لا محالة، فثلث لطعامه، وثلث لشرابه، وثلث لنفسه»^(٢). وفي الأثر: «صوموا تصحوا»^(٣).

والمسلم لا يأكل حتى يجوع، وإذا أكل لا يشبع، فالمعدة بيت الداء، والحمية - وهي الامتناع عن الأكل - رأس الدواء، والإنسان في يومه لا يحتاج إلا إلى سعرات حرارية قليلة، ربما تصل عند بعض الناس إلى معشار ما يلتهم من الطعام والشراب، ولو أن الزائد عن حاجة جسمه أعطاه إلى فقير محروم لذهب عنه الجوع، وذهب عن المتخوم التخمة.

(١) الشيخ/ يوسف القرضاوي في كتابه «العبادات في الإسلام».

(٢) أخرجه أحمد في المسند (١٧١٨٦) بنحوه عن المقدم بن معدي كرب، ورجاله ثقات، وأخرجه الترمذي (٢٣٨٠) وقال: هذا حديث حسن صحيح وابن ماجه (٣٣٤٩) والنسائي في الكبرى (٦٧٦٩) والبيهقي في الشعب (٥٦٤٨).

(٣) «ضعيف الجامع» رقم (٣٥٠٦).

ويوم القيامة يؤتى بالرجل الأكل والشروب، لا يزن عند الله جناح بعوضة، مادامت يده طويلة في الأكل والمعاصي، قصيرة في الطاعات، قاسي القلب، غافلاً عن ربه.

٤- راحة للمعدة: وفي الصوم فرصة لاستراحة المعدة، وتخليص الجسم من الفضلات الضارة المتراكمة طوال العام، وللأطباء في ذلك الباع الطويل، والبحوث العديدة في مجال فوائد الصوم الصحية وعلاجه لكثير من الأمراض.

وخفة البدن تأخذ بيد المسلم إلى تقوى الله تعالى بالابتعاد عن المعاصي والقرب من الله تعالى، فإذا امتلأت المعدة هاجت الشهوة.

٥- شعور بالحرمان: وفي الصيام شعور بحاجة الفقير إلى الطعام، وتذكير بحاله، وتذوق مرارة الجوع والعطش، فيرق القلب، ويحنو على الضعفاء والمساكين، ويعالج في نفسه قسوة القلب والهلع والشح والبخل.

ولذا فقد كان يوسف عليه السلام يجوع وهو على خزائن الأرض، فسئل عن سبب ذلك، فقال: أخاف أن أشبع فأنسى الجائع.

فالصوم إذاً وسيلة لأن يحس الأغنياء بألم الفقراء فيعطفون عليهم، وهو يؤدي إلى التقوى عمومًا، وإلى تعلم الصبر والتحمل بالنسبة للفقير.

٦- تأديب النفس: وإذا جاع الإنسان ضعفت قواه، وانكسرت الشهوة فيه، وضيق مجاري الشيطان، ولهذا كان الصوم (جُنَّةً)، أي: وقاية وستراً من النار بترك المعاصي، وكان (وجاء) حافظاً للعبد من الوقوع في الفاحشة عند عجزه عن مؤونة الزواج، كما جاء في نصيحة النبي ﷺ للمعسر من الشباب في حديث عبد الله بن مسعود رضي الله عنه: «يا معسر الشباب من استطاع منكم الباءة فليتزوج، ومن لم يستطع فعليه بالصوم فإنه له وجاء»^(١).

ففي الصوم تدريب على مراقبة الله تعالى بترك هوى النفس مع قدرته عليه، وفيه تضيق لمجاري

(١) راجع الحديث بتمامه رقم (٧٨٥٢) في «صحيح الجامع الصغير»، وقد أخرجه البخاري برقم (١٩٠٥)،

(٥٠٦٥) ومسلم برقم (١٤٠٠) وأبو داود (٢٠٤٦) وابن ماجه (١٨٤٥) والترمذي (١٠٨١) وأحمد في

«المسند» (٣٥٩٢)، وابن حبان (٤٠٢٦) والنسائي في «السنن الكبرى» (٢٥٥٩-٢٥٦٣) وألفاظه متقاربة.

الشیطان، فإنه یجری من ابن آدم مجرى الدم فبالصیام یضعف نفوذه وتقل منه المعاصی

وفی الصیام علاج لثورة الغضب، وكبح لجماح النفس عند هیجانها، وكسر لكبریائها، وعلاج للفرح والبطر والشر، وتزكية للبدن، وتضییق لمسالك الشیطان، وهذا كله مما یأخذ بید الصائم إلى تقوی الله تعالى.

٧- قوة الإرادة: والتحكم فی رغبات الإنسان ونزواته بالصیام عن شهوتي البطن والفرج، تكسب المسلم قوة الإرادة وتحمل المشاق والصعاب، والصبر على الشدائد. فالصائم یجوع ویعطش، وبین یدیه الطعام والشراب، لا رقیب علیه إلا الله، ویعف عن شهوة الفرج ومعه زوجته، لا سلطان علیه إلا ضمیر المؤمن، فأی مدرسة أقوى لتربية الإرادة، وتعلیم الصبر، وقوة العزم من مدرسة الصیام.

إن الانتصار على العدو لا یتحقق إلا بالانتصار على النفس أولاً.

وفی الصیام أنواع الصبر كله، فیه الصبر على طاعة الله، والصبر على محارم الله، والصبر على أقدار الله، ولذلك فإن الصیام نصف الصبر، والصبر نصف الإیمان.

فلیس شهر رمضان إذا شهر كسل وخمول وتقصیر ونوم وقلة إنتاج، وتواكل واسترخاء، وإنما هو شهر كفاح وجهاد، وقوة وعمل، وصبر وتحمل، وزيادة إنتاج، وانتصار على النفس والعدو، وقوة فی الإرادة والعزيمة، وبهذا كله تتحقق التقوی التي هی ثمرة الصیام وفائده حتى یحافظ العبد على أداء الفرائض التي شرعها الإسلام، ویتبعد عن المحرمات التي حرمها علیه، ویتورع عن ارتكاب الشبهات وصغائر الذنوب، وأن یشعر أن يكون مكثراً من الطاعات، مسارعاً إلى الخیرات، مسابقاً إلى عمل الصالحات، بعيداً من كل شك، ومن كل شبهة فیهما ما یسیء العلاقة، ویكثر رصید الذنوب والمعاصی بینه وبین رب العالمین، وأن یتورع عما یحیک فی نفسه من الآثام، ومن كل شیء فیه شبهة، أو شك، أو إثم، كما جاء فی الحدیث عن النواس بن سمعان رضی الله عنه أن النبی ﷺ قال: «البر حسن الخلق، والإثم ما حاك فی النفس وكرهت أن یطلع علیه الناس»^(١).

(١) أخرجه مسلم (٢٥٥٣) فی كتاب البر والصلة والآداب، باب تفسیر البر والإثم.

٨- أجز الصائم: وفي الصيام أجر عظيم وثواب مضاعف، ففي حديث أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «كل عمل ابن آدم يضاعف، الحسنة بعشر أمثالها إلى سبعمائة ضعف، قال الله ﷻ: إلا الصوم فإنه لي وأنا أجزي به، يدع طعامه وشرابه وشهوته من أجلي، للصائم فرحتان: فرحة عند فطره، وفرحة عند لقاء ربه، ولخلوف فم الصائم أطيب عند الله من ريح المسك»^(١).

٩- وللصائمين باب خاص في الجنة:

فعن سهل بن سعد رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «في الجنة ثمانية أبواب، فيها باب يُسمَّى الريان، يدخل منه الصائمون يوم القيامة، لا يدخل معهم أحد غيرهم، يقال: أين الصائمون؟ فيدخلون منه، فإذا دخل آخرهم أُغْلِقَ فلم يدخل منه أحد». زاد ابن خزيمة «ومن دخل شرب، ومن شرب لم يظماً أبداً»^(٢).

١٠- والصائم يُغْفَرُ ذنبه

عن أبي هريرة ؓ أن رسول الله ﷺ قال: «من صام رمضان إيماناً واحتساباً غفر له ما تقدم من ذنبه»^(٣).

مُدَّةُ الصَّيَامِ وَأَحْكَامُ أَهْلِ الْأَعْدَارِ

١٨٤- ﴿أَيَّامًا مَّعْدُودَاتٍ فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوْ عَلَى سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ وَعَلَى

(١) البخاري (٥٩٢٧) مختصراً، ومسلم (١١٥١) وأبو داود (٢٣٦٣) والترمذي (٧٦٤) والنسائي (٢٢١٤) وابن ماجه (١٦٣٨) وابن خزيمة (١٨٩٧) والبيهقي في «الشعب» (٣٥٧٩) ومالك (٣١٠/١) وأحمد (١٠١٧٥، ٩٧١٤) وإسناده صحيح على شرط الشيخين، وابن أبي شيبة (٥/٣).

(٢) البخاري (٣٢٥٧) (١٨٩٦) ومسلم (١١٥٢) و«المسند» (٢٢٨١٩) مختصراً والنسائي (٢٢٣٥) وابن خزيمة (١٩٠٢) والبيهقي في الشعب (٣٥٨٤) وابن أبي شيبة (٥/٣).

(٣) البخاري (٣٨) ومسلم (٧٥٩) وأبوداود (١٣٧٢) والمسند (٧١٧٠، ٧٢٨٠) بإسناد صحيح على شرط الشيخين، وابن ماجه (١٦٤١) وهو في صحيح سنن أبي داود (١٢٢٤).

الَّذِينَ يُطِيقُونَ فِدْيَةَ طَعَامٍ مِسْكِينَ^(١) فَمَنْ تَطَوَّعَ^(٢) خَيْرًا فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُ وَأَنْ تَصُومُوا خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١٨٤﴾

أولاً: مدة الصيام ﴿أَيَّامًا مَّعْدُودَاتٍ﴾

وهذا الصيام ليس فريضة الدهر، إنما فرض علينا أيامًا معدودات، قال عطاء: كتب عليهم الصيام ثلاثة أيام من كل شهر - ولم يُسم الشهر - أيامًا معدودات، قال: وكان صيام الناس قبل، ثم فرض الله عليهم شهر رمضان^(٣) ثلاثون يومًا، أو تسعة وعشرين يومًا في كل عام.

دورة تدريبية على التقوى كل عام؛ كي ينمو الغرس، ويتكرر الدرس، وتكون ملكة المراقبة في النفس؛ حتى لا ينطفئ مصباح الإيمان، ولا ينقطع نور اليقين، فيكون الصوم مددًا تزكُّو به النفس، ويصفو به القلب، وتهذب به الروح، ويتأدب الجسد، ويقترّب العبد من الملاء الأعلى، فيصبح من المتقين أو تزداد عنده درجة التقوى، وتنمو المراقبة لله في السر والعلن والخلوة والجلوة، ويعظم الخوف من الله سبحانه، فيكون العبد من المتقين العابدين، كما أراد الله من خلقه في هذه الحياة: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِعِبَادُونَ﴾ [الذاريات: ٥٦]، أي: ليعرفوني فيعبدوني ويوحدوني، وأكثر ما تتحقق معرفة الله تعالى في هذه العبادة؛ لأن الصيام يُضعف البدن، ويتغلب الصائم على جانب المادة فيه ويسمو بروحه إلى درجات التقوى، والانتصار على الشهوة، وهوى النفس، وقهر الشيطان، وبذلك تسمو روحه، فتأدب نفسه، وتهذب أخلاقه، وتقوى إرادته، ويرتقي إلى رتبة الملائكة.

(١) قرأ نافع وابن ذكوان وأبوجعفر (فدية طعام مساكين) بعدم تنوين (فدية) وخفض (طعام) على الإضافة، وجمع (مسكين) وفتح النون بلا تنوين اسم لا ينصرف وقرأ هشام بتنوين (فدية) مع الرفع، ورفع (طعام) وجمع (مسكين) مع فتح النون بلا تنوين وقرأ الباقر بتنوين (فدية) مع رفعها ورفع (طعام) وإفراد (مساكين) مع كسر النون وتنوينها.

(٢) قرأ حمزة والكسائي وخلف العاشر (فمن يَطَّوَّعَ) فعل مضارع مجزوم، بمن، وقرأ الباقر (فمن تَطَوَّعَ) فعل ماضٍ، و(من) اسم موصول

(٣) الطبري (١٥٧/٣) وابن أبي حاتم (١٦٣٠)

ثانياً: أحكام أهل الأعذار الخمسة:

﴿فَمَنْ كَانَ مِنْكُمْ مَّرِيضًا أَوْ عَلَى سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ﴾، وقد أعيدت هذه الجملة من الآية: ﴿وَمَنْ كَانَ مَرِيضًا أَوْ عَلَى سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ﴾ [البقرة: ١٨٥]؛ لثلاث يتوهم أن الرخصة للمريض والمسافر في الفطر منسوخة كما نسخ الاختيار بين الصيام والفدية في المرحلة الأولى للصيام كما في الآية السابقة.

ومن مظاهر التيسير ورفع الحرج في الإسلام أنه رخص للمريض والمسافر والشيخ الكبير الذي لا يقوى على الصيام، والمرأة الكبيرة العاجزة عن الصيام، وأصحاب المرض المزمن، ومن في حكم هؤلاء من الحامل والمرضع، رخص الإسلام لهؤلاء جميعاً في الإفطار في رمضان، إذا توفرت دواعي الإفطار وفق أحكام القضاء والفدية، رحمة من الله تعالى وتيسيراً عليهم، كما حرم الصيام على الحائض والنفساء رفعاً للمشقة والخرج عنهم.

ولما كان صيام شهر رمضان على التخيير في بادئ الأمر، من شاء صام، ومن شاء أطمع مسكيناً عن كل يوم، فقد رخص الإسلام للمريض والمسافر في الإفطار والفدية، وأتبع ذلك بقوله: ﴿وَأَن تَصُومُواْ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ كما في الآية الأولى (١٨٤).

ثم نسخ هذا التخيير، وأوجب الله الصيام على كل صحيح مقيم، ولذا أعاد الله سبحانه ذكر الرخصة للمريض والمسافر في الإفطار بشرط القضاء، كما في الآية الثانية (١٨٥) وأتبع سبحانه ذلك ببيان أن هذه الرخصة من باب التيسير ورفع الحرج عن الأمة: ﴿يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ﴾^(١) وذلك على التفصيل الآتي:

أولاً المريض: المرض نوعان: نوع يُتَوَقَّعُ علاجه وشفاءه، ونوع لا يُتَوَقَّعُ الشفاء منه.

النوع الأول: مرض يُرجى برؤه ويتوقع الشفاء منه، وهو أقسام منها:

أ- المريض مرضاً شديداً يؤدي إلى ضرر في الجسد، أو في النفس إذا حدث الصيام.

ب- المرض الذي يزداد ويتضاعف مع الصوم.

(١) قرأ أبو جعفر بضم السين من لفظي (اليسر والعسر)، وسكنها الباقيون.

ج- المرض الذي يتأخر برؤيه بسبب الصوم.

يُرَخَّص لهؤلاء جميعًا بالإفطار في رمضان، إن استدعت حالة المرض وشق عليه الصيام، ويجب عليهم قضاء الأيام التي أفطروها عند زوال السبب، قبل دخول شهر رمضان التالي، إذا انتهى المرض، وانقضى السفر، وحصلت الراحة.

والمرضى أدرى بنفسه إن كان يتحمل الصيام أم لا، لاسيما مع التجربة، ويُستأنس في ذلك بقول الطبيب المسلم الثقة، مع استفتاء المسلم لقلبه، وإن أفناه الطبيب وأفناه، فإن كان المرض يسيرًا ليس فيه ضرر محقق، ولا مشقة بالغة فإنه لا يبيح الإفطار.

ولاخير فيمن يتعلل ويتلمس الرخص؛ ليفلت من أداء الفريضة تحت ستار الرخصة.

وقد ذكرت الرخصة في الفطر للمريض والمسافر مرتين في آيات الصيام تأكيدًا عليها وبيانًا لرحمة الله تعالى بعباده في التكليف والتيسير.

أَحْكَامُ الْفِدْيَةِ: الفدية هي المعبر عنها في الآية بـ (إطعام مسكين) وتسمى كفارة، وتشمل فدية الإفطار في المرض والسفر وكفارة اليمين وغير ذلك، وحكمها كالتالي:

١- عند جمهور الفقهاء: إطعام مسكين وجبة واحدة من أوسط طعام من وجبت عليه الفدية، أو يعطيه مدًا (ربع صاع) من حنطة أو أرز ونحوهما من غالب قوت البلد، ولا يجزيء عندهم إخراج قيمة الطعام دراهم.

٢- عند أبي حنيفة وأهل الرأي: إطعام المسكين وجبتين، أو إخراج مدين (نصف صاع) من حنطة أو صاع من شعير أو تمر ونحوهما، ويجوز عندهم إخراج قيمة الوجبتين نقدًا.

النوع الثاني: المريض الميؤوس منه:

وهو الذي لا يرجى شفاؤه، فإنه يفطر ويطعم عن كل يوم من أيام رمضان مسكينًا، ولا قضاء عليه إن برء من مرضه على خلاف المتوقع، وقيل: عليه القضاء.

أَحْكَامُ الْقَضَاء: على المريض أن يقضي بعدد أيام ما أفطره، متى رجعت إليه صحته، وقَوِيَ على الصيام، ولا شيء عليه سوى القضاء إن أداه قبل رمضان التالي.

ويجوز القضاء متتابعًا أو متفرقًا بعدد الأيام التي أفطرها، سواء أكان النهار طويلًا أم

قصيرًا، صيفًا أم شتاءً. وإن استمر العذر قائمًا حتى دخل رمضان الثاني فليس عليه سوى القضاء ولا فدية عليه لكونه معذورًا.

ومن أفطر في رمضان لمرض، ثم تُؤفِّي في مرضه هذا قبل أن يتمكن من القضاء، فلا يجب على ورثته إطعام ولا صيام.

أما إذا أفطر لعذر المرض ثم عوفي وبرء من مرضه ومكث وقتًا يتمكن فيه من القضاء، ثم تُؤفِّي قبل أن يقضي ما عليه، فإنه يُطعم عنه عن كل يوم مسكينًا.

وإن صام عنه وليه أجزأه؛ لما في الصحيحين وغيرهما عن عائشة ؓ أن النبي ﷺ قال: «من مات وعليه صيام، صام عنه وليه»^(١) سواء أكان المريض مرجو الزوال أم لا.

قضاء رمضان وصيام ستة شوال: ومن كان عليه قضاء من رمضان وأراد صوم ستة أيام من شوال، فإنه يبدأ بقضاء ما عليه، ثم يصوم بعد ذلك الأيام الستة إن تمكن؛ لأن النبي ﷺ قال فيما يرويه أبو أيوب ؓ: «من صام رمضان ثم أتبعه ستًا من شوال كان كصيام الدهر»^(٢).

أما الذي عليه قضاء من رمضان، بأن فاته صيام رمضان كله أو بعضه: فإن لم يتسع الشهر لصوم القضاء وستة شوال، وصام الست فقط، أجزأه ذلك مع مخالفة الأولى، فقد كانت عائشة ؓ تقضي ما عليها من رمضان في شهر شعبان حيث كان النبي ﷺ يكثّر من الصيام فيه.

ثانيًا: المسافر: رخص الإسلام للمسافر سفرًا يسمى سفرًا في عرف الناس، مسافته نحو ثمانين ميلًا بعد الخروج من حدود بلده، إذا كان هذا السفر مباحًا وليس فيه تحايل على الفطر، ومن شأنه أن يؤدي إلى مشقة في الغالب، سواء أكان سفره بالسيارة أو الطائرة أو الباخرة أو على دابة أو ماشيًا أو غير ذلك.

(١) البخاري (١٩٥٢) ومسلم (١١٤٧) وأبو داود (٢٤٠٠، ٣٣١١) و«المسند» (٢٤٤٠١) حديث صحيح و«شرح مشكل الآثار» للطحاوي (٢٣٩٧-٢٣٩٩) وابن حبان (٣٥٦٩) و«سنن النسائي الكبرى» (٢٩٣١).

(٢) أبو داود (٢٤٣٣) ومسلم (١١٦٤) وابن ماجه (١٧١٦) والترمذي (٧٥٩) و«المسند» (٢٣٥٣٣) قال محققوه حديث صحيح وإسناده حسن، و«شرح مشكل الآثار» للطحاوي (٢٣٣٧-٢٣٤٦) وابن حبان (٣٦٣٤) و«سنن النسائي الكبرى» (٢٨٧٥-٢٨٨٠).

وسواء أكان سفره طارئاً بأن حل عليه الشهر وهو مسافر، أو أنشأ سفرًا في أثناء الصوم، أو كان سفره مستمرًا كسائقي الطائرات وسيارات الأجرة ونحوهما.

رخص الإسلام لهؤلاء جميعًا في الفطر، وهم مخيرون بينه وبين الصيام.

والأفضل للمسافر أن يفعل ما هو أيسر عليه منهما، فإن تساوى الأمر عنده فالصوم أفضل لقوله تعالى: ﴿وَأَنْ تَصُومُوا خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ وإذا قدم المسافر إلى بلده أثناء النهار، فعليه أن يمسك بقية يومه، وإن نوى المسافر إقامة أربعة أيام فأكثر لزمه الصوم.

وعليه في جميع الحالات قضاء أيام بعدد ما أفطر من رمضان في سفره.

ولا ينبغي للمسلم أن يتلمس أدنى عذر للفطر دون سبب قوي يبرر فطره.

كما لا ينبغي له أن يشدد على نفسه فيصوم مع وجود المشقة عليه.

وفي أحاديث النبي ﷺ ما يشير إلى استحباب الفطر عند حدوث المشقة، فتارة يصف الصائمين - والحالة هذه - بقوله: «أولئك العصاة، أولئك العصاة»^(١).

وتارة يقول: «ذهب المفطرون بالأجر»^(٢).

وأخرى يقول: «ليس من البر الصيام في السفر عليكم برخصة الله فاقبلوها».

وفي لفظ في الصحيحين عن جابر رضي الله عنه أن النبي ﷺ رأى رجلًا قد ظلَّ عليه في السفر، فقال: «ليس من البر الصيام في السفر»^(٣).

وعن أبي الدرداء رضي الله عنه قال: كنا مع النبي ﷺ في رمضان في حر شديد حتى إن كان أحدنا يضع يده على رأسه من شدة الحر وما فينا صائم إلا رسول الله وابن رواحة^(٤).

(١) من حديث جابر في «صحيح مسلم» (١١١٤) و«سنن النسائي الكبرى» (٢٥٨٣).

(٢) من حديث أنس بن مالك في البخاري (٢٨٩٠) ومسلم (١١١٩) و«سنن النسائي الكبرى» (٢٦٠٤).

(٣) من حديث جابر في البخاري (١٩٤٥) ومسلم (١١١٥) وأبو داود (٢٤٠٧) و«المسند» (١٤٤٢٦) بإسناد

صحيح على شرط مسلم (١٤١٩٣) ومن حديث كعب الأشعري (٣٦٨٠) وابن حبان (٣٥٥٢) و«سنن

النسائي الكبرى» (٢٥٨٠) وفي السنن (١٧٧/٤).

(٤) «صحيح سنن أبي داود» (٢١٠٨).

وأحاديث الإفطار في السفر تشير في جملتها إلى هذه الرخصة في سماحة ويسر، فمن شاء صام، ومن شاء أفطر، من غير أن يعيب الصائم على المفطر، أو المفطر على الصائم.

مسافة السفر ومدته: والسفر المبيح للفطر هو ما يسمى سفرًا في عرف الناس. والمدة التي يجوز للمسافر الإفطار فيها هي ما كانت أقل من أربعة أيام عند الجمهور، فإن نوى الإقامة أربعة أيام فأكثر، فليس له الإفطار من أول لحظة في الإقامة، وليس له قصر الصلاة كذلك، وإذا كان لا يعلم متى تقضى مهمته، ومتى يحين وقت سفره فهو في حكم المسافر، فله استعمال الرخصة عند المشقة مهما طالت المدة ومهما تنوعت وسائل السفر بأن كانت في طائرة أو باخرة أو سيارة أو على دابة وغير ذلك.

عن عائشة رضي الله عنها أن حمزة الأسلمي رضي الله عنه سأل رسول الله ﷺ عن الصوم في السفر، فقال: «إن شئت فصُوم، وإن شئت فافطر»

وفي لفظ (إنني أجد قوة على الصيام في السفر...) ^(١)

وعن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: سافرنا مع النبي ﷺ في رمضان، فصام بعضنا وأفطر بعضنا، فلم يعب الصائم على المفطر، ولا المفطر على الصائم ^(٢).

ثالثًا: كبر السن: ﴿وَعَلَى الَّذِينَ يُطِيقُونَهُ فِدْيَةٌ طَعَامُ مِسْكِينٍ﴾ عن كل يوم يفطرونه، وهذا في ابتداء فرض الصيام، حيث خير الله من يطيقه بين الصيام والإطعام، ثم جعل الله الصيام فريضة حتمية على من يطيقه ورخص لمن لا يطيقه في الإفطار والقضاء، فإن كان القضاء متعذرًا أطعم عن كل يوم مسكينًا.

وقيل في ﴿وَعَلَى الَّذِينَ يُطِيقُونَهُ﴾ أي يتكلفونه ويشق عليهم مشقة غير محتملة، وهو الرجل الهرم الطاعن في السن، والمرأة العجوز، إذا كان الصوم يجهدهما ويشق عليهما مشقة شديدة للعجز الذي لحق بهما، فلهما الفطر ولا قضاء عليهما؛ لأنهما في حكم

(١) البخاري (١٩٤٣) ومسلم (١١٢١) وأبو داود (٢٤٠٣) والترمذي (٧١١) والنسائي (٢٣٠٤-٢٣٠٧) وفي الكبرى (٢٦١٥) وابن ماجه (١٦٦٢) و«الموطأ» من رواية أبي مصعب (٧٩٤) والشافعي (٧٠٩) شفاء العي وابن خزيمة (٢٠٢٦) والمسند (١٦٠٣٧)، وابن حبان (٣٥٦٧).

(٢) البخاري (١٩٤٧) وأبو داود (٢٤٠٥) ومالك (١/٢٩٥).

المريض مرضًا مستمرًا لا يرجى برؤه، إن استمر بهما المرض إلى الموت، وهذا ما تشير إليه الآية: ﴿وَعَلَى الَّذِينَ يُطِيقُونَ فِدْيَةَ طَعَامٍ مَسْكِينٍ﴾، أي: على الذين يتحملون الصوم بمشقة وصعوبة بالغه تؤدي بهما إلى الضرر والإجهاد (إخراج فدية).

قال ابن عباس في الآية: (هي للشيخ الكبير والمرأة الكبيرة لا يستطيعان أن يصوما فيطعمان مكان كل يوم مسكينًا) فعلى كل منهما إطعام مسكين عن كل يوم، بإعطائه نصف صاع من بُرٍّ أو غيره كما نطقت الآية بالفدية، وكما شرحها ابن عباس، ومن تطوع خيرًا فزاد عن إطعام مسكين فهو خير له.

وفي حكم الشيخ الكبير أصحاب الأعمال الشاقة التي يكون الصيام معها مُهْلِكًا كالحارس على الحدود، والجندي في ساحة القتال، وعند إمكانية الصيام يقول تعالى: ﴿وَأَنْ تَصُومُوا خَيْرٌ لَّكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾.

رابعًا: الحامل والمرضع:

الحامل والمرضع إذا أجهدهما الصوم، وشق عليهما: وخافتا الضرر من الصيام على النفس، أو على الولد، أو على النفس والولد معًا، فهما يدخلان في منطوق قوله تعالى: ﴿وَعَلَى الَّذِينَ يُطِيقُونَ فِدْيَةَ طَعَامٍ مَسْكِينٍ﴾ فهي تشمل كل من يُجهد الصوم ولا يطيقه.

والحمل والرضاع نوعان من المرض كما قال الحسن البصري، وقد ثبتت هذه الرخصة لهما من حديث أنس بن مالك الكعبي أن رسول الله ﷺ قال: «إِنَّ اللَّهَ ﷻ وَضَعَ عَنِ الْمَسَافِرِ: الصَّوْمَ، وَشَطْرَ الصَّلَاةِ، وَعَنِ الْحَبْلِیِّ وَالْمَرْضِعِ: الصَّيَامَ»^(١) ويجب عليهما القضاء بعدد أيام الفطر.

وإن كان الإفطار خوفًا على الولد فقط أضافت مع القضاء إطعام مسكين.

خامسًا: الحائض والنفساء: يحرم على الحائض والنفساء الصوم ولا يصح منهما، ويجب عليهما القضاء، ولو صامتا كان صومهما باطلًا.

(١) ابن سعد (٤٥/٧) و«صحيح سنن أبي داود» (٢١٠٧) والترمذي (٧١٥) والنسائي (١٤٢٣، ٢٢٧٣) وابن ماجه (١٦٦٧). والمسند (٢٠٣٢٦) حديث حسن، وعبدالرزاق (٧٥٦٠) وابن خزيمة (٢٠٤٢).

قالت عائشة رضي الله عنها: كان يصيبننا ذلك، أي: الحيض، فتؤمر بقضاء الصوم ولا تؤمر بقضاء الصلاة.

أما النزيف (المستحاضة) فتؤدي صلاتها وصومها مع نقاء الطهارة منهما.

وإذا ظهر الحيض قبل الغروب ولو بلحظة، بطل الصوم، ولزم القضاء في صوم الفرض.

وإذا انتهى الدم أثناء النهار لم يصح صيام باقيه وتمسك عن الطعام والشراب تأديباً.

وإذا طهرت المرأة من الحيض أو النفاس قبل الفجر ولو بلحظة، وجب الصوم، ويصح الصوم منها وإن لم تغتسل من انقطاع الدم إلا بعد أذان الفجر كما يصح من الجنب، ويجوز للمرأة أخذ حبوب تمنع نزول الدورة لإتمام الصيام أو الحج والعمرة.

والله تعالى رحيم بعباده يرفع الحرج عنهم، يريد بهم اليسر ولا يريد بهم العسر.

وقد خُتِمت الآية الأولى: ﴿فَمَنْ كَانَ مِنْكُمْ مَّرِيضًا أَوْ عَلَى سَفَرٍ﴾ بقوله تعالى: ﴿فَمَنْ تَطَوَّعَ خَيْرًا فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُ وَأَنْ تَصُومُوا خَيْرٌ لَّكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ بعد قوله: ﴿وَعَلَى الَّذِينَ يُطِيقُونَهُ فِدْيَةٌ طَعَامُ مِسْكِينٍ﴾ وهذا بالنسبة للشيخ الكبير والمرأة العجوز والحامل والمرضع ونحوهم ممن يشق عليهم الصيام ولا يطيقونه بصفة مستمرة، فكان على كل من هؤلاء إن أفطر، وأطعم مسكيناً أو أكثر من مسكين عن كل يوم، أو زاد في إطعامه عن القدر المحدد فهو خير له، وإن صام ولم يطعم فهو أفضل من الإفطار والفدية، ويصح أن يكون المعنى: وأن تصوموا في السفر والمرض غير الشاق فهو خير لكم.

أما الآية الأخرى (١٨٥): ﴿وَمَنْ كَانَ مَرِيضًا أَوْ عَلَى سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ﴾ فقد ختمت بقوله تعالى: ﴿يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ﴾، أي: أن الله تعالى قد رخص في الإفطار للمرض والسفر ونحوهما كالحامل والمرضع تيسيراً عليهم، فالآية الأولى ترغب في الصيام أو الزيادة في الإطعام.

والآية الثانية فيها أمر بالإطعام وعدم الترغيب في الصيام؛ فقد بُعث النبي صلى الله عليه وسلم بالحنيفية السمحة.

والتيسير وعدم التعسير هو سمة هذا الدين، والله تعالى قد رفع الحرج والمشقة عن عباده في جميع التكاليف الشرعية ﴿يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُخَفِّفَ عَنْكُمْ﴾ [النساء: ٢٨] وأمر الله عباده أن يُيسروا ولا يُعسروا، وأن يُبشروا ولا يُنْفروا، وما خَيْرُ الرسول صلى الله عليه وسلم بين أمرين إلا اختار أيسرهما ما لم يكن فيه إثم، وليس من هُدي النبي صلى الله عليه وسلم الأخذ بالأشد والأحوط خوفاً من

تساهل الناس، ومن يفعل ذلك فإنه يدعي لنفسه أنه أحرص على شرع الله تعالى من الله، وأحرص من رسوله ﷺ في تبليغ الوحي للناس، وهو بهذا يقف عقبة في وجه انتشار الدعوة، وسماحة الإسلام ويسره، ويكون عنواناً غير صحيح لحقيقة الإسلام.

١- عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: سمعت النبي ﷺ يقول: «الدين يسر، ولن يُغالب الدين أحد إلا غلبه، فسددوا، وقاربوا، وأبشروا، واستعينوا بالغدوة والروحة وشيء من الدلجة»^(١).

٢- وعن أنس رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «يسروا ولا تعسروا، وسكنوا ولا تنفروا»^(٢).

٣- ومن التيسير العمل برُخص الله وعدم التشدد والغلو في الدين، عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الله يحب أن تؤتى رخصه، كما لا يحب أن تؤتى معصيته»^(٣).

٤- وعن ابن عباس رضي الله عنهما أن النبي ﷺ قال: «إن الله يحب أن تؤتى رخصه كما يحب أن تؤتى عزائمه»^(٤).

٥- وقالت عائشة رضي الله عنها: وضع رسول الله ﷺ دَفَنِي عَلَى مَنْكِبِهِ لِأَنْظُرَ إِلَى دَفْنِ الْحَبْشَةِ - أَي: إِلَى لَعِبِهِمْ - حَتَّى كُنْتُ الَّذِي مَلَلْتُ وَانصرفت عنهم، قالت: وقال يومئذ: «لِتَعْلَمَ يَهُودُ أَنْ فِي دِينِنَا فُسْحَةٌ، وَأَنِّي أُرْسِلْتُ بِحَنِيفِيَّةٍ سَمِحَةٍ»^(٥).

وقد أمر سبحانه عباده بقضاء ما فاتهم من رمضان في مرضهم وسفرهم، إكمالاً لعدة أيام الشهر ﴿وَلِتُكْمِلُوا الْعِدَّةَ﴾ كما أمر عباده أن يكثرُوا من ذكره سبحانه، وأن

(١) البخاري (٣٩) والنسائي (٥٠٤٩) والبيهقي في «الشعب» (٣٨٨١).

(٢) البزار في «الكشف» (٧٥) قال الهيثمي: رجاله ثقات، مجمع الزوائد (٦١/١)، والحديث عن أنس بلفظ (وبشروا) بدلاً من (وسكنوا) في البخاري (٥٧٧٤) ورقم (٦٩).

(٣) «المسند» (٥٨٧٣) و (٥٨٦٦) والبزار في «الكشف» (٩٨٨) وابن خزيمة (٩٥٠) وابن حبان (٢٧٤٢) والطبراني (٥٣٠٢) والبيهقي في «الشعب» (٣٨٩٠) قال محققو المسند: حديث صحيح.

(٤) البزار (٩٩٠) «كشف» والطبراني (١١٨٨٠) وابن حبان (٣٥٤) قال محقق ابن حبان: إسناده صحيح، ويُنظر: «إرواء الغليل» (١٠/٣).

(٥) «المسند» (٢٤٨٥٥) قال محققوه: إسناده قوي، ويُنظر: «السلسلة الصحيحة» (١٨٢٩).

يكبروه في نهاية الشهر عند انقضاء عبادة الصيام، فقال: ﴿رَتَكِرُوا اللَّهَ عَلَى مَا هَدَنَكُمْ﴾ حيث وفقكم إلى صالح الأعمال وأداء الفرائض، كما قال تعالى: ﴿فَإِذَا قَضَيْتُمْ مَنَاسِكَكُمْ فَاذْكُرُوا اللَّهَ كَذِكْرِكُمْ آبَاءَكُمْ أَوْ أَشَدَّ ذِكْرًا﴾ [البقرة: ٢٠٠] وقال: ﴿فَإِذَا قَضَيْتُمُ الصَّلَاةَ فَاذْكُرُوا اللَّهَ قِيَمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِكُمْ﴾ [النساء: ١٠٣] ولهذا شرع التكبير في عيد الفطر وعيد الأضحى، أي: عقب أداء فريضتي الصيام والحج.

ويسن التكبير في عيد الفطر من غروب شمس آخر يوم من رمضان إلى دخول الإمام في صلاة العيد، وفي عيد الأضحى من فجر يوم عرفة إلى آخر أيام التشريق الثلاثة، عقب الصلوات المفروضة، كما يسن في جميع أحواله وتنقلاته وتصرفاته.

وعساكم - أيها المسلمون - تكونوا من الشاكرين عند قيامكم بالفرائض وحفظ الحدود ﴿وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾^(١).

شَهْرُ رَمَضَانَ وَنُزُولُ الْقُرْآنِ

١٨٥ - ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنْزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ^(٢) هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِّنَ الْهُدَىٰ وَالْفُرْقَانِ فَمَن شَهِدَ مِنْكُمُ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ وَمَن كَانَ مَرِيضًا أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ^(٣) وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ^(٤) وَلِتُكْمِلُوا^(٥) الْعِدَّةَ وَلِتُكَبِّرُوا اللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَنَكُمْ^(٥) وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٨٥﴾

شهر رمضان هو شهر الصوم المفروض عليكم، نظرا لنزول القرآن فيه، وهو مشتمل على هدايتكم ومصالحكم الدينية والدنيوية، وفيه بيان الحق من الباطل والهدي من الضلال.

(١) ضمت فقرتي الرخصة للمريض والمسافر من الآيتين إلى بعضهما في التفسير لتناسب هذا مع الغرض من التفسير.

(٢) قرأ ابن كثير بنقل حركة الهمزة إلى الراء فينطق براء مفتوحة وبدون همز في كلمة القرآن (القران) وصلاً ووقفاً، وكذا حمزة عند الوقف، وقرأ الباقون كقراءة حفص (القرآن).

(٣) قرأ أبو جعفر بضم السين من (اليسر) و (العسر)، وسكنها الباقون.

(٤) قرأ شعبة ويعقوب (ولتكمّلوا) بفتح الكاف وتشديد الميم مضارع كمل، وقرأ الباقون بسكون الكاف وتخفيف الميم مضارع أكمل.

(٥) أمال (هداكم) حمزة والكسائي وخلف، وقللها ورش بخلفه.

علة التسمية: سُمِّيَ بـ «رمضان»؛ لأنه يَرْمُضُ الذنوب، أي: يحرقها بالأعمال الصالحة وقت الصيام، وقد كان للشهور العربية أسماء قديمة، فلما أريد نقلها إلى الأسماء الحالية من اللغة القديمة سموها بالأزمنة التي وقعت فيها، فوافق هذا الشهر أيام رَمَضِ الحر، فسمي رمضان^(١).

﴿الَّذِي أُنْزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ﴾ وفي نزول القرآن خمسة مباحث:

أولاً: بدء نزول القرآن: هذا بيان لفضل شهر رمضان عن غيره من الشهور، بأنه الشهر الذي اختصه الله تعالى بنزول القرآن فيه، في ليلة مباركة هي ليلة القدر منه، وكانت فريضة الصيام في هذا الشهر تكريمًا وتخليدًا لنزول القرآن الكريم فيه، وقد بدأ نزوله في شهر رمضان على رسول الله ﷺ مؤذنًا ببدء نزول الرسالة الخاتمة على أفضل البشر ﷺ

في الصحيحين عن عائشة ؓ قالت: أول ما بُدئ به رسول الله ﷺ من الوحي الرؤيا الصالحة في النوم، فكان لا يرى رؤيا إلا جاءت مثل فلق الصبح، ثم حُبَّ إليه الخلاء، وكان يخلو بغار حراء فيتحنث فيه، وهو تعبد الليالي ذوات العدد قبل أن ينزع إلى أهله، ويتزود لذلك، ثم يرجع إلى خديجة ؓ فيتزود لمثلها، حتى جاءه الحق وهو في غار حراء، فجاءه الملك فقال: اقرأ قال: «ما أنا بقارئ»، قال: «فأخذني فغطني حتى بلغ مني الجهد، ثم أرسلني قال: اقرأ، قلت: ما أنا بقارئ، قال: فأخذني فغطني الثانية حتى بلغ مني الجهد، ثم أرسلني قال: اقرأ، فقلت: ما أنا بقارئ، فأخذني فغطني الثالثة، ثم أرسلني فقال: ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ (١) خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ (٢) اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ (٣) الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ (٤) عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ (٥)﴾» فرجع بها رسول الله ﷺ يرجف فؤاده، فدخل على خديجة بنت خويلد ؓ فقال: زملوني زملوني، فزملوه حتى ذهب عنه الروع، فقال لخديجة: لقد خشيت على نفسي، وأخبرها الخبر، فقالت خديجة: كلا والله، ما يخزيك الله أبدًا؛ إنك لتصل الرحم، وتحمل الكل، وتكسب المعدوم، وتقري الضيف، وتعين على نوائب الحق، فانطلقت به خديجة حتى أتت به ورقة بن نوفل بن أسد بن عبد العزى، ابن عم خديجة، وكان امرأ تنصّر في الجاهلية، وكان يكتب الكتاب العبراني، فيكتب من الإنجيل بالعبرانية ما شاء الله أن يكتب، وكان شيخًا كبيرًا قد عمي، فقالت له خديجة

(١) «تفسير الخازن»، والقرطبي، و«إزاد المسير»، وغيرها.

ﷺ: يا بن عم، اسمع من ابن أخيك، فقال له ورقة: يا بن أخي ماذا ترى؟ فأخبره رسول الله ﷺ بخبر ما رأى، فقال له ورقة: هذا الناموس الذي نزل على موسى ﷺ، يا ليتني فيها جذعًا، يا ليتني أكون حيًا إذ يخرجك قومك، فقال رسول الله ﷺ: «أَوْ مَخْرَجِيَّ هُمْ؟» قال: نعم، لم يأت رجل قط بمثل ما جئت به إلا عودي، وإن يدركني يومك أنصرك نصرًا مؤزرًا^(١).

ثانيًا: مطلع سورة العلق أول الآيات نزولًا: وقد لفتت الآيات الخمس من أول سورة العلق، - وهي أول ما نزل من القرآن الكريم - أنظار البشر إلى أمرين هامين: أولهما: العلم والتعلم، وأن القرآن الكريم هو مصدر العلم ومنهج الحكم؛ لأنه من عند الله تعالى.

وثانيهما: مادة خلق الإنسان المكلف بهذا القرآن، والمميز بالعلم والمعرفة، والاستدلال بذلك على وجود الخالق ﷻ.

فالقرآن وهو الصفحة المقروءة، والكون وهو الصفحة المرئية، هما أساس العلم والنظر. والقلم هو أداة العلم وطريق الكتابة والقراءة، وعن طريق القلم والبحث والتأمل علم الله الإنسان ما لم يعلم، وفي هذا العلم مناط تكريمه وتفضيله وامتيازته على غيره من الكائنات. ومصدر العلم ومصدر خلق الإنسان هو الله سبحانه.

وهاتان أول حقيقتين نزل بهما الوحي على رسول الله ﷺ، وامتد نزول القرآن نحو ثلاثة وعشرين عامًا، ينزل منجمًا مفرقًا حسب الوقائع والحوادث والأحوال، أكمل الله تعالى فيها الدين، وأتم فيها النعمة على عباده، كان الوحي خلالها يصل الأرض بالسماء، ويربط البشر بالملأ الأعلى، وكان الصحابة يدركون حلاوة هذه الفترة، ويعرفون مذاقها، ويشعرون قيمتها.

قال ابن عباس: أنزل القرآن جملة واحدة من اللوح المحفوظ في ليلة القدر من شهر

(١) الحديث في كتاب بدء الوحي في الصحيحين وغيرهما، يُنظر: «اللؤلؤ والمرجان» فيما اتفق عليه الشيخان وغيرهما وهو في البخاري برقم (٣)، ٢٣٩٢، ٤٩٥٥، ٦٩٨٢ وفي مسلم برقم ١٦٠.

رمضان، فُوَضِعَ في بيت العزة في سماء الدنيا، ثم نزل على محمد ﷺ نجومًا في ثلاث وعشرين سنة، فذلك قوله تعالى: ﴿فَلَا أُقْسِمُ بِمَوْقِعِ النُّجُومِ﴾ (٧٥) ﴿١﴾.

ثالثًا: انقطاع الوحي بعد خاتم النبيين: ولما انتقل النبي ﷺ إلى الرفيق الأعلى انقطع الوحي، وفُقد هذا الاتصال وشعر الصحابة بالحزن العميق، والأسى البالغ، وانتابهم البكاء الشديد لانقطاع هذا المدد الإلهي بموت النبي ﷺ.

عن أنس رضي الله عنه قال: انطلق أبوبكر وعمر رضي الله عنهما بعد وفاة النبي ﷺ إلى أم أيمن يزورانها كما كان النبي ﷺ يزورها، فلما أتيا إليها بكتا، فقالا: ما يبكيك؟ أما تعلمين أن ما عند الله خير لرسول الله ﷺ قالت: نعم ولكنني أبكي أن الوحي قد انقطع من السماء، فهيجتهما على البكاء، فجعلتا يبكيان معها (٢)، وكانت أم أيمن حاضنة رسول الله ﷺ.

رابعًا: الكتب الأخرى نزلت في رمضان: وشهر رمضان ليس ظرفًا لنزول القرآن الكريم فحسب، إن جميع الكتب السماوية نزلت فيه أيضًا.

عن واثلة بن الأسقع عن النبي ﷺ أنه قال: «أنزلت صحف إبراهيم في ثلاث مضيئ من رمضان -وفي رواية في أول ليلة من رمضان- وأنزلت التوراة على موسى في ست ليال مضيئ من رمضان، وأنزل إنجيل عيسى في ثلاث عشرة ليلة مضت من رمضان، وأنزل زبور داود في ثماني عشرة ليلة مضت من رمضان، وأنزل الفرقان على محمد ﷺ في الرابعة والعشرين لست بقين بعدها» (٣).

وقد نزل القرآن جملة واحدة في ليلة القدر من شهر رمضان إلى بيت العزة في السماء

(١) «تفسير الخازن» ص ١١٤ وقد أخرجه الطبراني (١٢٣٨٢) والحاكم (٢٢٢/٢) وأخرجه البيهقي في «الأسماء والصفات» (٤٩٨) وابن الضريس ١١٧-١٢٠.

(٢) أخرجه مسلم عن أنس برقم (٢٤٥٤).

(٣) أخرجه الطبراني في «الكبير» (١٨٥) و«الأوسط» (٣٧٤٠) وأحمد (١٦٩٨٤) عن واثلة بن الأسقع، وقد ضعفه محققوه، لأن عمران القطان، تفرد به، قالوا: وهو ممن لا يحتمل تفرده، وبقي رجال الإسناد ثقات، وأخرجه البيهقي في «الشعب» (٢٢٤٨) وابن عساكر بسند حسن وابن أبي حاتم (١٦٤٩) وأورده الحافظ في الفتح، انظر: «الأحاديث الصحيحة» رقم (١٥٧٥) و«صحيح الجامع» رقم (١٥٠٩) و«الفتح الرباني لترتيب المسند» (٤٦/١٨) وأخرجه أبويعلی (٢١٩٠) عن جابر بن عبد الله.

الدنيا، ثم نُزِّلَ مفرقًا بحسب الوقائع على رسول الله ﷺ في ثلاثة وعشرين عامًا، وكان ابتداء نزوله عليه في ليلة القدر.

ويُحتمل أن تكون ليلة القدر في تلك السنة التي نزل فيها القرآن كانت ليلة أربع وعشرين.

وإذا كان القرآن قد نزل على ثلاث وعشرين سنة، فإن صحف إبراهيم والتوراة والزبور والإنجيل نزل كلٌّ منها على النبي الذي أنزلت عليه جملة واحدة، قال تعالى: ﴿كَذَلِكَ لِنُنْشِئَ بِهِ قُودًا وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلًا﴾ [الفرقان: ٣٢]

خامسًا: ليلة القدر، ولنا فيها سبع وقفات:

الوقفة الأولى: هي الليلة المباركة:

كان ابتداء نزول القرآن في ليلة القدر، وجاء ذكرها في سورة القدر (مبهمًا) لا يُدرى أي ليلة هي، وجاءت هذه الآية من سورة البقرة ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنْزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ﴾ لتبين أنها في شهر رمضان، وجاءت آية سورة الدخان؛ لتبين أنها هي الليلة المباركة التي يُفرق فيها كل أمر حكيم ويبرم، حيث يقرر فيها أقدار الأفراد والأمم والشعوب للعام المقبل، ويوضع لهم فيها الأسس والموازن، فيفرق بين الخير والشر وبين الضر والنفع ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ مُبَرَّكَةٍ إِنَّا كُنَّا مُنْذِرِينَ﴾ ﴿فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ﴾ ﴿أَمْرًا مِّنْ عِنْدِنَا إِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ﴾ ﴿رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ [الدخان]

الوقفة الثانية: سبب التسمية:

١- وتسمى ليلة القدر: لأنه يقدر فيها وقائع السنّة المقبلة وتدير أمور الخلق من الإحياء والإماتة، والشقاء والسعادة، والقحط والجذب والعزة والذلة... وما إلى ذلك.

٢- أو لأنها ليلة جليلة الشأن والقدر والشرف والرفعة، لاختصاصها بنزول القرآن فيها.

٣- أو لتنزل الملائكة وجبريل فيها؛ حيث ينزلون بالمقادير في ليلة القدر من اللوح المحفوظ، فتظهر للملائكة بالنسبة للعام القادم، فهي ليلة سلام وأمن وأمان، ومغفرة للذنوب وستر للعيوب وعتق من النار، وتسليم من الملائكة على المؤمنين، ولا يصاب فيها أحد بسوء.

الوقفة الثالثة: تحديد وقتها

وليلة القدر هي في العشر الأواخر من رمضان، وفي ليالي الوتر منه أقرب، وفي ليلة السابع والعشرين أرجح، وعليه أقسم أبي بن كعب رضي الله عنه كما في صحيح مسلم.

وليلة السابع والعشرين لا تأتي في ليلة واحدة من العام الواحد في جميع بلدان العالم، فإن مطالع الهلال تختلف، لاسيما بين البلاد المختلفة الأطوال المترامية الأطراف، فهي إذاً تختلف من بلد لبلد، وعليه يحمل القول بكونها تنتقل من عام لعام، فقد تكون في عام ليلة إحدى وعشرين، وفي عام آخر ليلة ثلاث، أو سبع، أو تسع وعشرين وهكذا، وليلة السابع والعشرين في بلد قد تكون ليلة التاسع أو الثامن والعشرين في بلد آخر حسب اختلاف الرؤية، فهي إذاً تختلف من بلد لبلد ناء عنه، ومن عام لعام، وفي جميع الحالات تكون في العشر الأواخر، وهذا يشمل جميع الأزمنة والأمكنة.

ومما يؤكد أنها في العشر الأواخر: التماس النبي ﷺ لها بالاعتكاف والاجتهاد فيها بالعبادة وشد المتر.

وكونها ليلة سبع وعشرين هو الغالب فيها وليس دائماً، فقد تكون ليلة إحدى وعشرين كما جاء في الصحيحين أن النبي ﷺ رآها ليلة إحدى وعشرين، وأنه يسجد في ماء وطين، فلما كان صبيحة يومها سجد فعلاً في ماء وطين.

في حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال عن ليلة القدر: «... وقد أريت هذه الليلة ثم أنسيتها، فابتغوها في العشر الأواخر، وابتغوها في كل وتر، وقد رأيتني أسجد في ماء وطين»، فاستهلت السماء في تلك الليلة، فأمطرت، فعكف المسجد في مصلى النبي ﷺ ليلة إحدى وعشرين، فبصرت عيني رسول الله ﷺ ونظرت إليه انصرف من الصبح ووجهه ممتلئ طيناً وماء^(١)

وجاء في لفظ مسلم عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه أيضاً قال: «مطرنا ليلة إحدى وعشرين، فعكف المسجد في مصلى رسول الله ﷺ فنظرت إليه وقد انصرف من صلاة الصبح،

(١) من حديث طويل في البخاري (٢٠١٨) وانظر: (٢٠١٦، ٦٦٩) وأخرجه مسلم (١١٦٧).

ووجهه مبتل طينًا وماء^(١)

وقد تكون ليلة القدر في ليلة أربع وعشرين كما في حديث واثلة بن الأسقع السابق ذكره وقد قيل: إن النبي ﷺ قد عَلِمَهَا، ثم أنسيها لتجتهد الأمة في طلبها.

كما أخفى سبحانه اسمه الأعظم في كتابه ليقرأ كله.

وساعة الإجابة في يوم الجمعة ليدعى فيه كله.

وأخفى عُمر الإنسان في الأيام ليسارع إليه بالتوبة.

وأخفى وقت قيام الساعة للعمل لها.

وأخفى الصلاة الوسطى في الصلوات للاجتهاد في طلبها.

وأخفى الولي الصالح من بين عباد الله ليجتهد الناس في طلب الولاية.

الوقف الرابع: العلامات التي تُعرف بها ليلة القدر

١- في حديث أبي بن كعب رضي الله عنه قال: والله الذي لا إله إلا هو إنها لفي رمضان -يحلف ما يستثنى- ووالله إني لأعلم أي ليلة هي، هي الليلة التي أمرنا بها رسول الله ﷺ بقيامها، هي ليلة صبيحة سبع وعشرين، وأما رتها أن تطلع الشمس في صبيحة يومها بيضاء نقية لا شعاع لها^(٢)؛ لأن أنوار الملائكة تتلاقى عند صعودها مع أشعة الشمس فتحدث فيها بياض الضوء.

٢- وفي حديث ابن عباس رضي الله عنهما أن النبي ﷺ قال: «ليلة القدر ليلة طلقة، لا حارة ولا باردة، يصبح الشمس يومها حمراء ضعيفة»^(٣).

٣- وعن واثلة بن الأسقع أن النبي ﷺ قال: «ليلة القدر ليلة بلجة، لا حارة ولا باردة، لا يرمى فيها بنجم»^(٤).

(١) «صحيح مسلم» (١١٦٧) وأخرجه البخاري (٢٠٢٧، ٢٠١٨).

(٢) انظر: «صحيح مسلم» رقم (٧٦٢) باب الترغيب في قيام رمضان (١/ ٥٢٥) وانظر ما بعد الحديث (١١٦٩).

(٣) «صحيح ابن خزيمة» (٢١٩٢) ج ٣ ص ٢٣١ بتحقيق الأعظمي.

(٤) رواه الطبراني في «الكبير»، كما في «مجمع الزوائد» (١٧٩/٣) بإسناد حسن.

ومعناه: أنها ليلة مضيئة لا تُرسل فيها الشهب ولا يكون فيها شياطين، وهي ليلة ساكنة يهدأ فيها كل شيء، وليست ليلة القدر (جرم) يُحس، أو طاقة نور تُرى، كما يزعم بعض العامة، فلا يلزم أن يرى المسلم أو يحس شيئاً معيناً محسوساً أو ملموساً، بل قد يصادفها ويكون من أهلها وممن كتب له أجر إحيائها دون أن يشعر بذلك، وكل ما هو مطلوب من العبد منه أن يجتهد في ليالي العشر بمختلف أنواع الطاعة رجاء موافقتها.

ولا يزعم زاعم أن إحياء ليالي رمضان، أو العشر الأواخر منه، أو ليلة السابع والعشرين، في المسجد الحرام، يغنيه ذلك عن ترك صلاة فرض واحد، أو التهاون في سُنَّه من سنن الرواتب أو النوافل، أو يُجرّئه على ارتكاب شيء من المحرمات، بحجة أن عنده رصيذاً من الحسنات والعمل الصالح، بكثرة الصلاة في المسجد الحرام مثلاً، فإن هذا يثقل من ميزانه، ولكنه لا يغني عن التفريط في أداء الواجبات أو انتهاك المحرمات.

ولا يزعم زاعم أن قيام ليلة القدر يغنيه شيئاً إذا أصبح بعدها وقد انغمس في الشهوات والشبهات وأنواع الضلالات ولم يُقبل على الله تعالى بقلبه تائباً إليه.

الوقفه الخامسة: فضل ليلة القدر: بيّن الله ﷻ أن مصادفة ليلة القدر بإحيائها بالطاعة وصنوف العبادة، أفضل عند الله تعالى من عبادة ألف شهر ليس فيها ليلة القدر، فالعبادة فيها تعدل أكثر من ثلاث وثمانين عاماً، أي: ما يعادل فوق متوسط أعمار هذه الأمة، ومن قامها إيماناً واحتساباً غفر له ما تقدم من ذنبه.

فإذا صادفت هذه الليلة التعبّد في المسجد الحرام، والصلاة فيه بمئة ألف صلاة فأى فضل هذا؟ وأي خير هذا؟ وهل هناك أجر أعظم من هذا؟ إذا أخلص العبد لله تعالى ولم يقترب معصية في المسجد الحرام، ولم يُرد فيه بالحدّ بظلم، خشية مضاعفة السيئة -على القول بذلك- وخشية العذاب العظيم لمن يبيّت النية على اقتراف الإثم في الحرم.

وقد قيل: إن احتكار الطعام والماء إلحاد فيه، فضلاً عن النظرة، والأذى الذي قد يلحق بالآخرين من جراء الزحام في الطواف والسعي والصلاة... إلخ مما يتطلب ضبط النفس والفتنة والكياسة، والتحفظ من المعاصي فضلاً عن إرادتها أو تعمدتها.

وهذا الفضل أكثر نسبياً بالنسبة للمسجد النبوي على صاحبه أفضل الصلاة وأتم التسليم

(فالصلاة فيه بألف صلاة) وليس هناك قول بمضاعفة السيئة فيه، والإنسان بصير بنفسه، ويعلم مزالق الشيطان معه، ومدى التحكم فيه، ومدى قُربه من الله تعالى وإخلاصه له.

روى مجاهد بإسناد فيه انقطاع أن رجلاً من بني إسرائيل حمل السلاح في سبيل الله ألف شهر، قال: فعجب المسلمون من ذلك، قال: فأنزل الله تعالى ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ﴾.

وقيل: إن الرجل كان يقوم الليل حتى يصبح، ويجاهد العدو بالنهار حتى يمسي^(١).

فلما كانت أعمار هذه الأمة قصيرة، وعجب الناس من الأجر العظيم الذي يناله هذا الرجل لجهاده وعبادته مدة ألف شهر، أعطى الله سبحانه لأمة محمد ﷺ ليلة واحدة ينالون فيها من الأجر مثلما يناله هذا المجاهد في ألف شهر وأكثر.

ولله الحمد والمنة، وهو صاحب الفضل والجود، يعطيه من يشاء من عبادته، وهو سبحانه أعلم ببواطن الأمور، وهو علام الغيوب.

الوقفه السادسة: التنازع في ليلة القدر: التنازع والخصام في ليلة القدر بين الناس، يكون سبباً في رفع الخير وزواله، وعدم نزول الرحمة والبركة، كما يكون النزاع والخصام سبباً في عدم قبول الصلاة، وعدم رفع العمل الصالح إلى رب العالمين، كما صحت الأحاديث أن ليلة القدر ظهرت للناس، ثم رُفعت لما تلاهى رجلاها فيها.

في البخاري عن عبادة بن الصامت رضي الله عنه قال: خرج النبي ﷺ ليخبرنا بليلة القدر، فتلاهى رجلاها من المسلمين، فقال: «خرجت لأخبركم بليلة القدر فتلاهى فلان وفلان فرفعت، وعسى أن يكون خيراً لكم فالتمسوها في التاسعة والسابعة والخامسة»، أي: في أوتارها^(٢).

الوقفه السابعة: الطاعة في ليلة القدر: ومن العبادة فيها: المحافظة على الفرائض، والإكثار من نوافل الصلاة، ولا سيما التهجد والوتر والقنوت وإخراج زكاة المال والتجارة وغيرهما، وزكاة رمضان، والصدقة والبر، وحسن الخلق، وتلاوة القرآن، والعمرة،

(١) انظر: «تفسير ابن كثير» للآية وانظر: تحقيق النص في حاشية زاد المسير لابن الجوزي.

(٢) البخاري (٢٠٢٣) وانظر: ٤٩.

والاعتكاف في المسجد، وصلة الرحم، وبر الوالدين، وأن يكثّر من دعاء: «اللهم إنك عفو تحب العفو فاعف عني»^(١).

قوله تعالى: ﴿هُدًى لِّلنَّاسِ﴾: أي أن هذا القرآن أنزله الله تعالى لهداية البشر جميعاً، ولكن الانتفاع بهذه الهداية يكون لمن كانت فطرته مستعدة لقبولها، وهم المؤمنون المتقون، والقرآن هو كتاب هذه الأمة إلى يوم القيامة، وهو الذي أخرجها من الظلمات إلى النور، فأنشأها هذه النشأة، وأبدلها بعد خوفها أمناً، ومكّن لها في الأرض، ووهبها مقوماتها التي صارت بها أمة، ولم تكن من قبل شيئاً، وهي بدون هذه المقومات ليست أمة، وليس لها مكان في الأرض، ولا ذكر في السماء، فلا أقل من شكر الله تعالى على نعمة هذا القرآن بالاستجابة إلى صوم الشهر الذي نزل فيه القرآن، فهو وثيقة النبوة الخاتمة، ولسان الدين الحنيف، وقانون الشريعة، وقاموس اللغة، ومنهاج الله للخلق، يُضِلِّحُ الله به كل زمان ومكان، وهو ميثاق الله تعالى، ورباط ما بين السماء والأرض، فيه سعادتنا في الدنيا والآخرة.

وهذا القرآن هدى لقلوب من آمن به وصدّقه واتبعه، فهو هادٍ للناس جميعاً إلى ما فيه كمالهم وسعادتهم في الدنيا والآخرة؛ لما فيه من الإرشاد والإعجاز وإخراجهم من الضلال والظلمات، ففي القرآن خير الدنيا والآخرة، وأعدل الطرق وأصوبها، من تمسك به هُدي إلى صراط مستقيم، وهو عصمة ونجاة لمن اتبعه، فيه شفاء وعلاج للقلوب والأبدان، وهداية البشر للتي هي أقوم.

قوله تعالى: ﴿وَبَيَّنَّتْ مِّنَ الْهُدَى وَالْفُرْقَانِ﴾، أي: أن في القرآن دلائل وحجج بينة واضحة جلية لمن تدبرها وفهمها، تُبين الحلال والحرام والأحكام، وتفرق بين الحق والباطل، والهدى المنافي للضلال، والرشد المخالف للغي، فالقرآن هو المنقذ من الضلال، والمخرج من الفتن، والهادي إلى صراط مستقيم.

(١) حديث صحيح عن عائشة ؓ أخرجه الترمذي (٣٥١٣) وابن ماجه (٣٨٥٠) و«المسند» (٢٥٣٨٤) بإسناد صحيح ورجال ثقات. وسنن النسائي الكبرى (٧٦٦٥) ومن (١٠٦٤٢) إلى (١٠٦٤٧) و (١١٦٢٤).

وهو كما جاء في الأثر: (فيه نبأ من قبلكم، وخبر من بعدكم، وحكم ما بينكم، وهو الفصل ليس بالهزل، من تركه من جبار قصمه الله، ومن ابتغى الهدى في غيره أضله الله، وهو حبل الله المتين، ونوره المبين، وهو الذكر الحكيم، وهو الصراط المستقيم، هو الذي لا تزيغ به الأهواء، ولا تشبع منه العلماء، ولا تلتبس به الألسنة، ولا يخلق على كثرة الرد، ولا تنقضي عجائبه... من قال به صدق، ومن حكم به عدل، ومن عمل به أجر، ومن دعا إليه هُدي إلى صراط مستقيم)^(١).

ولنا سبع وقفات مع القرآن الكريم:

أولاً: رسول الله ﷺ والقرآن: كان رسول الله ﷺ كثير الحب للقرآن، كثير التلاوة له في رمضان وغيره، وكان يحب أن يسمعه من غيره، وكان ﷺ حسن التلاوة للقرآن، لا يعجل في تلاوته، بل يرتله بأجود ما يكون الترتيل؛ استجابة لأمر الله تعالى: ﴿وَرَتِّلِ الْقُرْآنَ تَرْتِيلاً﴾ [المزمل: ٤] وكان يقوم الليل الطويل متهجداً بآياته.

وكان جبريل عليه السلام يُدارس النبي ﷺ القرآن في رمضان، يقرأ جبريل عليه السلام والنبي ﷺ يسمع، ويقرأ النبي ﷺ وجبريل يسمع، وكان هذا يحدث في كل رمضان مرة، فلما كان العام الذي قُضِيَ فيه النبي ﷺ عارضه جبريل القرآن مرتين، للتأكيد على كمال ضبطه ودقته في صورته الأخيرة التي كمل وتم نزول القرآن عليها مُرتَّب الآيات والسور.

فلا يُتَصَوَّر أن يكون الرسول ﷺ قد قرأ في هذه العرضة سورة النساء قبل سورة آل عمران على جبريل، مخالفاً ترتيب المصحف مثلاً، وصلاة النبي ﷺ بالنساء قبل آل عمران كانت قبل العرضة الأخيرة، فلا يُجْتَجِج بذلك.

ثانياً: الحض على تلاوة القرآن: أمر ﷺ بقراءة ما تيسر من القرآن في صلاة التهجد قال تعالى: ﴿فَاقْرَءُوا مَا يَسَّرَ مِنَ الْقُرْآنِ﴾ [المزمل: ٢٠]

وحث آيات القرآن الكريم على الإكثار من التلاوة في رمضان وفي غيره، في الصلاة وخارجها، وعدَّت ذلك تجارة رابحة لن تبور ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَابَ اللَّهِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ

(١) ضعيف جداً: أخرجه الترمذي عن علي، «سلسلة الأحاديث الضعيفة» رقم (١٧٧٦) و«ضعيف الجامع» رقم (٢٠٨٠) وهذا من ناحية السند، ولكن المعنى صحيح، وقد أثبتناه لصحة معناه لا على أنه حديث.

وَأَنْفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً يَرْجُونَ تَجَارَةً لَّنْ تَبُورَ ﴿٢٩﴾ [فاطر]

ومن شأن قراءة القرآن أن تُلينَ له القلوب القاسية، فتزِيلُ الصِّدَأَ الذي ران عليها، وتُرَوِّحُ عن قلب المؤمن ساعة بعد ساعة، قال تعالى: ﴿اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُّتَشَابِهًا مَّثَانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ ذَلِكَ هُدَى اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ ﴿٢٣﴾﴾ [الزمر].

وحفظة القرآن وقارئوه قوم اصطفاهم رب العالمين وميزهم على اختلاف أحوالهم، من كان منهم ظالمًا لنفسه، ومن كان مقتصدًا أو سابقًا بالخيرات بإذن الله، وقد وعد الجميع: ﴿جَنَّتٌ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِنْ ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا﴾.

وقد وصف الله سبحانه عباده المؤمنين بأن تلاوة القرآن تزيدهم إيمانًا إلى إيمانهم وتكسب قلوبهم وجلًا وخشية، قال تعالى: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا﴾ [الأنفال: ٢].

وأثنى سبحانه على من تخشع قلوبهم لسماع القرآن فقال: ﴿إِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُ الرِّحْمَنِ خَرُّوا سُجَّدًا وَبُكِيًّا﴾ [مريم: ٥٨].

وقال سبحانه: ﴿إِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مِنْ قَبْلِهِ إِذَا يُتْلَى عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْآذْقَانِ سُجَّدًا لَا يَقُولُونَ سُبْحَنَ رَبِّنَا إِنْ كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا ﴿١٨﴾ وَيَخِرُّونَ لِلْآذْقَانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا ﴿١٩﴾﴾ [الإسراء].

وكما رغب القرآن الكريم في تلاوته، فإن سنة النبي ﷺ رَغِبَتْ في ذلك بالأحاديث الكثيرة.

١- منها قوله ﷺ في حديث أبي أمامة: «اقرأوا القرآن فإنه يأتي يوم القيامة شفيعًا لأصحابه»^(١).

٢- وقوله ﷺ فيما يرويه ابن مسعود ؓ: «من قرأ حرفًا من كتاب الله فله حسنة، والحسنة بعشر أمثالها، لا أقول (الم) حرف، ولكن ألف حرف، ولام حرف، وميم حرف»^(٢).

٣- وقوله ﷺ فيما روته عائشة ؓ: «الماهر بالقرآن مع السفرة الكرام البررة، والذي

(١) جزء من حديث أخرجه مسلم عن أبي أمامة برقم (٨٠٤).

(٢) أخرجه الترمذي عن عبدالله بن مسعود، وهو حديث صحيح، انظر: «جامع الأصول» حديث رقم (٦٢٨٢) وهو في «صحيح سنن الترمذي» (٢٣٢٧) وفي «مشكاة المصابيح» (٢١٣٧).

يقرأ القرآن ويتعتع فيه وهو عليه شاق فله أجران»^(١).

٤- وقوله ﷺ في حديث أبي موسى الأشعري رضي الله عنه: «مثل المؤمن الذي يقرأ القرآن مثل الأترجة، ريحها طيب، وطعمها طيب»^(٢).

٥- وفي حديث عبد الله بن عمرو رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «يقال لصاحب القرآن: اقرأ وارتق، ورتل كما كنت ترتل في الدنيا، فإن منزلتك عند آخر آية تقرؤها»^(٣).

ثالثاً: هجر القرآن: وليس مطلوباً من العبد أن يقرأ القرآن، أو يستمع إليه بصفة مستمرة، فله أن ينصرف عنه إلى شيء مباح إذا أصابه شيء من الملل، ولكن إذا لم يطق العبد الاستماع إلى القرآن أو تلاوته، ولم يصبر على ذلك وانصرف إلى اللهو وسماع الغناء ونحوه، فهو ممن هجر القرآن واستبدل الخبيث بالطيب، وهو ممن توعده الله تعالى بقوله: ﴿وَقَالَ الرَّسُولُ يَرْبِّ إِنَّ قَوْمِي اتَّخَذُوا هَذَا الْقُرْآنَ مَهْجُورًا﴾ [الفرقان: ٣٠]

وممن قال الله فيهم: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَشْتَرِي لَهْوَ الْحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّخِذَهَا هُزُوًا﴾ [لقمان: ٦]

وقال عنهم: ﴿وَيْلٌ لِّكُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ﴾ [يَمَعُ ءَايَتِ اللَّهِ تَتْلَى عَلَيْهِ ثُمَّ يُصِرُّ مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا فَبَشِيرَةٌ بِعَذَابِ إِلِيمٍ] [الجاثية]

وعن المصير الآخر للمعرض عن آيات الله يقول تعالى: ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ أَعْمَى﴾ [١١٤] قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَى وَقَدْ كُنْتُ بَصِيرًا [١٢٥] قَالَ كَذَلِكَ أَنْتَ أَنتَ كَذَلِكَ فَتَسِينَهَا وَكَذَلِكَ الْيَوْمَ تُنسى [١٢٦] [طه]

(١) أخرجه الشيخان وأبو داود والترمذي عن عائشة ؓ، «جامع الأصول»، حديث رقم (٩٢٩٢) وهو في البخاري (٤٩٣٧) ومسلم (٧٩٨) وأبو داود (١٤٥٤) وابن ماجه (٣٧٧٩) والترمذي (٢٩٠٤) و«المسند» (٢٤٢١١) وابن حبان (٧٦٧).

(٢) من حديث طويل أخرجه الخمسة عن أبي موسى الأشعري، «جامع الأصول» ج ٢ ص ٤٥٣ وهو في البخاري (٥٠٢٠، ٧٥٦٠) ومسلم (٧٩٧).

(٣) أخرجه أبو داود (١٤٦٤) والترمذي (٢٩١٤) و«صحيح سنن الترمذي» (٢٣٢٩) عن عبدالله بن عمر ؓ بسند حسن، «جامع الأصول» ج ٨ ص ٥٠٢ وأخرجه أحمد في «المسند» (١٩٢/٢) برقم (٦٧٩٩) صحيح لغيره، وإسناده حسن، كما قال محققوه، وابن حبان (٧٦٦) وابن أبي شيبة (٤٩٨/١٠).

ويكون هجر القرآن بترك تدبره، وترك العمل به، وترك التحاكم إليه، ونسيانه وعدم تعاذه ومراجعته، وبعدم امتثال الأوامر واجتناب النواهي.

رابعاً: التكسب بالقرآن: وليحذر المسلم كل الحذر من اتخاذ القرآن وسيلة يتكسب بها، أو مهنة يحترفها، أو تجارة يترزق منها، وليحذر من حفظ القرآن بغية الجائزة أو الوظيفة أو التكسب أو الشهرة أو الرياء؛ فإن أول من تُسعر عليهم النار يوم القيامة ثلاثة، منهم: من قرأ القرآن ليقال قارئ، وكذلك المتصدق رياء، والمجاهد رياء، رزقنا الله الإخلاص والقبول وحسن العمل.

خامساً: رمضان والقرآن: إنه لجدير بشهر الصيام أن يُتخذ شهراً لتلاوة القرآن ودراسته وتدبره، وإقامة حروفه وحدوده ومعانيه، ويُستغنى به عما سواه، فمن شغله ذكر الله (وأفضله تلاوة القرآن) عن سؤال الله تعالى أعطاه الله سبحانه فوق ما يعطي السائلين.

وإذا كانت الحسنة بعشر أمثالها في غير رمضان؛ فإن بعض الأزمنة كشهر رمضان، وبعض الأمكنة كمكة المكرمة، يضاعف فيها الأجر ويزداد فيها الربح، فمن تقرب إلى الله في رمضان بخصلة من الخير كان كمن أدى فريضة فيما سواه، ومن أدى فيه فريضة كان كمن أدى سبعين فريضة فيما سواه.

سادساً: من آداب التلاوة: يُقبل قارئ القرآن الكريم بقلبه على كتاب الله تعالى، مخلصاً له النية، حاضر القلب بتدبر وفهم وإمعانٍ وخشوع وخضوع، وهو على طهارة، مستقبل القبلة ما أمكنه ذلك، مبتعداً عن الأماكن التي لا تليق بكتاب الله تعالى، مستعيذاً به سبحانه في بدء تلاوته، يرتل القرآن وفق أحكامه التجويدية، من غير إفراط ولا تفريط، ولا غُلُو ولا تنطع ولا تكلف ولا تعسف مع تحسين الصوت والترنم به، ومراعاة الوقف والابتداء، ومعاني الآيات، يسجد عند آية السجدة، ويسأل الله الرحمة، ويستعيذ بالله من النار عند ذكرها، ولا بد له من التأدب بآداب القرآن: يمثل أمره، ويجتنب نهيه، يحل حلاله ويحرم حرامه، ولا يضحك ولا يعبث، ولا ينظر إلى ما يليه ويصرفه عن القرآن الكريم^(١).

(١) راجع بتوسع: «آداب التلاوة» للإمام النووي.

سابعًا: تعلم القرآن وتعليمه: خير الناس وأفضلهم مَنْ تعلم القرآن وعَلَّمه، والقلب الذي ليس فيه شيء من القرآن كالبيت الخرب، وأهل القرآن هم أهل الله وخاصته. ومن يتدارسون القرآن في بيوت الله ويتلونه ويتعلمونه تُنزل عليهم السكينة، وتغشاهم الرحمة، وتحفهم الملائكة، ويذكرهم الله فيمن عنده^(١).

وعن أبي ذر رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «يا أبا ذر لأن تغدو فتعلم آية من كتاب الله، خير لك من أن تصلي مئة ركعة، ولأن تغدو فتعلم بابًا من العلم عمل به أو لم يعمل به خير من أن تصلي ألف ركعة»^(٢).

وتعلم القرآن وتدبره احتسابًا لوجه الله تعالى، ثم العمل بما فيه والوقوف عند حدوده، يحقق للمسلم سعادتي الدنيا والآخرة، وهذه هي النعمة الحقيقية التي يُغبط عليها المسلم. فاللهم اجعل القرآن العظيم ربيع قلوبنا، ونور أبصارنا، وجلاء أحزاننا، وذهاب همومنا وغمومنا. اللهم علّمنا منه ما جهلنا، وذكّرنا منه ما نُسّينا، وارزقنا تلاوته آناء الليل وأطراف النهار على الوجه الذي يُرضيك عنا، واجعلنا اللهم ممن يقيم حروفه ويحفظ حدوده، ولا تجعلنا ممن يقيم حروفه ويضيع حدوده.

هلال شهر رمضان: ﴿فَمَنْ شَهِدَ مِنْكُمُ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ﴾، أي: من كان منكم حاضرًا مقيمًا في بلده غير مسافر، حين دخول شهر رمضان، وهو صحيح البدن، فإنه يجب عليه حتمًا أن يصوم شهر رمضان.

وشهود شهر رمضان تعني أن يكون المسلم حاضرًا مقيمًا وقت رؤية هلال دخول الشهر.

ولنا في ثبوت رؤية الهلال خمس وقفات:

أولًا: ثبوت الهلال: يجوز أن يراد بكلمة ﴿شَهِدَ﴾ من قوله تعالى: ﴿فَمَنْ شَهِدَ مِنْكُمُ الشَّهْرَ﴾ معنى رأى، أي: من رأى منكم هلال رمضان فليصمه، و﴿مِنْكُمُ﴾ يراد بها الأفراد ويراد بها الأمم، فيجب الصيام على كل من رأى الهلال، أي: على الأمة أو الجماعة

(١) هذه المعاني مقتبسة من أحاديث معروفة مشهورة.

(٢) رواه ابن ماجه وحسنه المنذري بإسناد حسن كما في «الترغيب والترهيب» (٣٥٥/٢).

التي رُوي فيها الهلال، فلا يشترط أن يراه كل فرد منهم، فإذا رأى الهلال من تقوم برؤيته الحجة ويثبت بها الحكم، وجب الأخذ بها للجميع.

ومن المقرر شرعاً أن صيام رمضان يثبت: برؤية الهلال ولو من عدل واحد، أو بإكمال شعبان ثلاثين يوماً.

كما أخرج الشيخان وغيرهما عن أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «صوموا لرؤيته وأفطروا لرؤيته، فإن غمَّ عليكم فأكملوا عدة شعبان ثلاثين يوماً»^(١).

والخطاب في (صوموا) عام يشمل الأمة كلها، ويثبت هلال شوال أيضاً بإكمال عدة رمضان ثلاثين يوماً، أو برؤية الهلال من اثنين ذوي عدلٍ عند جمهور أهل العلم، مع التدقيق في حال الشهود وسلامة حواسهم، وحَدّة نظرهم، وسلامة الأفق ومحل الهلال.

فالصيام يثبت برؤية عدل واحد، والإفطار يثبت برؤية عدلين على القول المختار.

قال علي وأبو هريرة وعائشة رضي الله عنهن: (لأن أصوم يوماً من شعبان أحب إليَّ من أن أفطر يوماً من رمضان) ولأن الصوم يُحتاط له، لذا وجب الصوم بخبر الواحد ولا يجب الفطر إلا بشهادة اثنين.

ثانياً: اختلاف المطالع:

١- جمهور العلماء على أنه لا عبرة باختلاف المطالع، وأنه إذا رأى الهلال أهل بلد، وجب الصوم على جميع البلاد، لعموم توجيه الأمر في حديث: «صوموا لرؤيته وأفطروا لرؤيته» وعدم تقييد ذلك برؤيا معينة أو مطالع معينة، ولا بحدود جغرافية أو سياسية أو إقليمية.

٢- وذهب بعض أهل العلم إلى أنه يُعتبر لأهل كل بلد رؤيتهم، ولا يلزمهم رؤية غيرهم.

والدليل الوحيد في ذلك ما رواه كُليب مولى ابن عباس، وكانت أم الفضل بعثته إلى معاوية بالشام، وقال: قدمت الشام فقضيت حاجتها، واستهلَّ عليَّ هلال رمضان وأنا بالشام، فرأيت الهلال ليلة الجمعة، ثم قدمت المدينة في آخر الشهر، فسألني ابن عباس،

(١) الحديث في البخاري (١٩٠٩) ومسلم (١٠٨١) والنسائي في «السنن الكبرى» (٢٤٣٨-٢٤٤٦) و«المسند» (٩٣٧٦) وابن حبان (٣٤٤٢) وألفاظه متقاربة.

ثم ذكر الهلال، فقال: متى رأيتم الهلال؟ فقلت: رأيناه ليلة الجمعة، فقال: أنت رأيته؟ فقلت: نعم، ورآه الناس، وصاموا، وصام معاوية، فقال: لكننا رأيناه ليلة السبت، فلا نزال نصوم حتى نكمل ثلاثين أو نراه، فقلت: ألا تكتفي برؤية معاوية وصيامه، فقال: لا... هكذا أمر رسول الله ﷺ^(١).

وهذا ليس نصًّا قاله النبي ﷺ، بل هو أثر يرفعه ابن عباس رضي الله عنهما إلى النبي ﷺ في زمن معاوية (الأموي)

وفي حديث آخر: قال أبو البختري: أهلنا رمضان ونحن بذات عرق، فأرسلنا رجلًا إلى ابن عباس فسأله؟ فقال ابن عباس: قال رسول الله ﷺ: «إن الله قد أمد له رؤيته، فإن أغمى عليكم فأكملوا العدة»^(٢).

وفي رواية: «إن الله مده للرؤية، فهو ليلة رأيتموه»^(٣)، وهو يتحدث عن من لم يَرُوا الهلال في ليلته الأولى، ولذا قال: «لكننا لم نغم علينا معشر المسلمين؛ إذ رآه عدول منا»^(٤).

ومعنى هذا أن شهر رمضان يتدئ برؤية هلاله، وينتهي برؤية هلال شوال، وكان رسول الله ﷺ لا يصوم حتى يَهْلَ الشهر ويُرَى.

والذي عليه الجمهور (الحنفية، والمالكية، والحنابلة) أنه متى ثبتت رؤية الهلال بقطر من الأقطار وجب الصوم على سائر الأقطار، سواء أكان ذلك رؤي الهلال بالعين المجردة أم عن طريق المراصد والمجاهر أو الأقمار الصناعية أو أية أجهزة أو وسيلة من الوسائل التي يُتوصل بها إلى رؤية الهلال بالعين، سواء أكان ذلك بواسطة أم بغير واسطة، كما نرى الكتابة أو المسافة بواسطة النظارة، وهذه الوسائل المذكورة ونحوها من الأمور المستطاعة التي تَوَصَّل إليها البشر، فيكلف بها المسلم في ثبوت رؤية الهلال؛ لأنها في وسعه وطاقته.

(١) أخرجه مسلم برقم (١٠٨٧) وأخرجه أيضًا أحمد والترمذي، ٦٩٧ وفي صحيح سنن الترمذي (٥٥٩) وفي صحيح سنن أبي داود (١٠٢١) وصحيح مسلم (١٠٨٧).

(٢) رواه مسلم برقم (١٠٨٨).

(٣) «جامع الأصول» (٢٧٧/٦) و«صحيح مسلم» (١٠٨٨).

(٤) يُنظر: «سنن الترمذي» ٦٩٣.

ثالثًا: القدر المشترك في رؤيا الهلال: ويمكن القول بوجوب الصيام على جميع المسلمين الذين تشترك بلادهم مع بلد الرؤية في جزء من الليل الجديد.

وعلى هذا فإن الهلال إذا رُئي شرقًا، فإنه يلزم كل من كان غربًا أن يصوم، بخلاف ما إذا رُئي الهلال غربًا فإنه لا يلزم من كان شرقًا أن يصوم.

ورؤية الهلال من الفلبين شرقًا إلى المغرب غربًا يصدق عليها الاشتراك في ليل واحد، فإنهما يشتركان في نحو ساعة وعشرين دقيقة من الليل، وهذا كافٍ للنية والسحور.

وإن حدث اعتدادُ بعض البلاد برؤيتها، ولم تأخذ برؤية البلد المجاور لها أو المشترك معها في جزء من الليل، فالأمر فيه سعة، في جواز الأخذ بالرأي المقابل لقول الجمهور، وفي هذا رحمة للأمة.

أما أهل البلاد التي لا تشارك بلد الرؤية في جزء من الليل الجديد، فإنهم يكونون في نهار آخر فلا يلزمهم الصوم، والاختلاف في رؤية الهلال لا يجاوز يومًا واحدًا مهما تباعدت البلدان، فإن زاد عن ذلك فهو بسبب طرق إثبات الرؤية وليس من الواقع.

أما الذين يعيشون في مناطق قريبة من القطبين، حيث تظهر الشمس بالليل ولا تكاد تختفي إلا ساعة أو ساعتين من أربع وعشرين ساعة، ويصعب رؤية القمر عندهم، فهؤلاء عليهم أن يقدروا الأيام والليالي بالمتوسط المعتدل قدر الطاقة الشمسية للصوم، أو يصوموا وفق أقرب البلاد المعتدلة إليهم.

رابعًا: حول الرؤية والحساب الفلكي: إن إثبات أول الشهور القمرية، كإثبات أوقات الصلوات الخمس، ناطها الشرع بما يسهل العلم به على البدو والحضر، وبالقياس على رؤية الهلال في بدء الأشهر القمرية، فإنه يلزم مؤذن الفجر ألا يؤذن إلا إذا رأى ضوءًا معترضًا جهة المشرق، وهو يختلف باختلاف الليالي.

وكما نأخذ بالحساب الفلكي في أوقات الصلوات فيمكن الاستعانة به في دخول الأشهر القمرية للدلالة على وقت الرؤية.

وميلاد القمر، معناه: وقوع القمر على خط طولٍ واحد مع الشمس، فالشمس والقمر يسيران في اتجاه الشرق بمقدار درجة واحدة كل ساعتين بالنسبة للقمر، وبمقدار درجة

واحدة فقط كل أربع وعشرين ساعة بالنسبة للشمس، مما يجعل القمر في سباق دائم مع الشمس، والقمر دائماً هو السباق بسبب حركته السريعة، فهو يلحق بالشمس مرة كل شهر، ويواصل تقدمه مخلفاً الشمس وراءه، فيظهر على هيئة هلال، وفق نظام محكم دقيق ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسُ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُورًا وَقَدَرَهُ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ﴾ [يونس: ٥] ﴿وَجَعَلْنَا لَيَلًا وَالنَّهَارَ آيَاتٍ فَحَوِّنَا آيَةَ اللَّيْلِ وَجَعَلْنَا آيَةَ النَّهَارِ مُبْصِرَةً لِتَبْتَغُوا فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ وَلِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ﴾ [الإسراء: ١٢].

ورؤية الهلال تتطلب شرطين هما:

ألا يقل البعد الزاوي بين الشمس والقمر عن ثماني درجات بعد الاقتران.

وألا تقل زاوية ارتفاع القمر عن الأفق عند غروب الشمس عن خمس درجات.

وولادة الهلال غير رؤيته؛ لأن الولادة معناها: أن يبدأ الابتعاد عن الشمس بعد أن يقترب منها إلى أقصى حد ممكن، فولادة الهلال لا تعني رؤيته.

ودخول شهر رمضان لا يحدد بولادة القمر، وإنما يحدد برؤية الهلال بالعين، وهو ما تعبدنا الله تعالى به في صيام الشهر، والقمر لا يكون له إلا هلال واحد في الشهر، ولا يهل مرتين؛ لأن الافتراق وهو التأخر عن الشمس، والاقتران بها، لا يحصل في الشهر إلا مرة واحدة، والافتراق يعني ولادة الهلال، والرؤية لا تتحقق إلا بعد انفصال الهلال عن الشمس.

وإذا كان ولادة الشهر غير دخوله، فإنه لا بأس من تحديد الفلكيين المسلمين لموعد ولادة الهلال، ومن ثم يخرج المعنيون بأمر الرؤية لمشاهدة الهلال، فيكون قد تم الاعتماد على الرؤية، ولم يخالف الحساب، ويتم الجمع بينهما، ولا يكون هناك اختلاف إذا صح كل منهما.

خامساً: الفرق بين الرؤية وحساب التقويم: نحن نُمسك عن الطعام والشراب ونؤذن للفجر، اعتماداً على الساعة والتقويم، دون أن نرى الفجر الصادق بأعيننا، ونُفطر آخر النهار ونؤذن للمغرب دون أن نرى غروب الشمس بأعيننا؛ لأن الله تعالى قد أمرنا أن نصوم من الوقت الذي يطلع فيه الفجر حقيقة، ونُفطر من الوقت الذي تغرب فيه الشمس حقيقة.

أما دخول الشهر فلم يحدد من الوقت الذي يولد فيه القمر حقيقة، بل من الوقت الذي

نراه بأعيننا، ومن هنا كان الاعتماد على الرؤية هو الأصل والأساس، ولا مانع من الاستعانة بالحساب في تحديد وقت الرؤية، ولا ينبغي الاعتماد على الحساب الفلكي وحده في إثبات دخول الهلال؛ لأن الإسلام قد عوّل على الرؤية، ولأن الحساب يختلف من فلكيّ لآخر في تحديد وقت ميلاد القمر، وفي مقدار مكثه.

وقد قرأتُ في هذا خلافاً بين فلكيّ من دولة الإمارات العربية، وآخر مغربيّ من الرباط.

قال الأول: إن هلال شهر رمضان عام ١٤١٦هـ سيولد يوم السبت ٢٠/١/١٩٩٦ الساعة ١٣,٤٤ ظهراً بتوقيت أبوظبي، وسيكون مكثه لمدة ٢٠ دقيقة غالباً في مدينة الرباط و ٦ دقائق في مكة المكرمة، ومعنى ذلك أن رمضان يدخل يوم الأحد.

وقال الآخر: إن هذا يعني اقتران القمر بالشمس، وإن هذا الاقتران سيكون يوم السبت الساعة ١٢,١٥ بالتوقيت العالمي، أي: الساعة ١٦,٥١ بتوقيت أبوظبي، أي: بفارق يزيد على ثلاث ساعات...

قال: وحتى لو ذهبنا إلى أقاصي غرب الكرة الأرضية فإن المكث سيكون في اليوم نفسه بالنسبة لمدينة نيويورك الأمريكية ٣١ دقيقة، وفي لوس أنجلوس ٣٥ دقيقة.

قال: وستكون الرؤية ممتنعة تماماً في جميع أنحاء العالم يوم السبت؛ لأن المكث إذا كان ينقص عن ٤٨ دقيقة فإن رؤية الهلال تكون عسيرة جداً إن لم تكن مستحيلة، وبالتالي فإن أول شهر رمضان سيكون يوم الاثنين ٢١/١/١٩٩٦م^(١).

قلت: إن الفرق بين توقيت الرجلين مدة تزيد على ثلاث ساعات، وهذه المدة هي ضعف المدة التي يشترك فيها البلاد التي تقع على خط الطول مع البلد الذي يُرى فيها الهلال، فهي مدة تساوي يومين. وإذا كان الأمر كذلك فإنه لا ينبغي الاعتماد على الحساب الفلكي وحده في تحديد الرؤية، ويمكن اعتباره عاملاً مساعداً للرؤية البصرية.

(١) جريدة الشرق الأوسط بتاريخ ٢٥ شعبان عام ١٤١٦هـ، ١/١/١٩٩٦م باختصار وتصرف.

الْحُكْمُ الرَّابِعُ مِنَ الْأَحْكَامِ التَّشْرِيعِيَّةِ فِي السُّورَةِ:

الدُّعَاءُ بَيْنَ آيَاتِ الصَّيَامِ: أَحْكَامُهُ وَأَدَابُهُ

١٨٦ - ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ (١) إِذَا دَعَانِ (٢) فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي (٣) لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ﴾

أي: وإذا سألك - يا محمد - عبادي عن قربي وبُعدي منهم، فأنا معهم؛ أسمع دعاءهم، وأرى تضرعهم، وأعلم حالهم، أجب دعاءهم، وأرى مكانهم، فليطيعوني فيما أمرتهم به ونهيتهم عنه، وليؤمنوا بي لعلمهم يهتدون إلى مصالح دينهم ودنياهم.

أ - مناسبة الآية لما قبلها وما بعدها

جاءت هذه الآية الحاتمة على الدعاء أثناء أحكام الصيام؛ لترشد الصائم أن يجتهد في دعاء الله تعالى لقبول الصيام منه، وكذا شهر سائر الأعمال الصالحة، عند إفطاره في كل ليلة من ليالي الصيام، وعند إكماله لعدة صيام شهر رمضان بدخول شهر شوال.

وفي هذا الدعاء عوض للمسلم عن مشقة الصيام، وجزاء معجل له في الدنيا، على استجابته لله تعالى بترك الطعام والشراب والشهوة امتثالاً لأمره سبحانه.

وفي الآية بيان أن الله تعالى قريب من عباده الصائمين، يسمع دعاءهم، ويجيب سؤلهم، ويعلم سرهم ونجواهم، فيغفر ذنوبهم، ويرفع شأنهم، وذلك لقربهم من ربهم، فكان مجيء آية الدعاء وسط آيات الصيام؛ لما يبين الدعاء والصيام من رابطة القرب والإجابة، فالله تعالى قريب من عباده دائماً.

وإذا جاء شهر رمضان كان الله تعالى أشدَّ قرباً من عباده، وأكثر استجابةً ورحمةً لهم، فإذا كانت ساعة الإفطار اليومي، وإذا كان آخر الشهر كانت الإجابة والدعوة التي لا تُرد،

(١) قرأ ورش وأبو عمرو وجعفر بإثبات الياء وصلًا فقط في (الداع)، و (دعان) وقرأ يعقوب بإثبات الياء فيهما وصلًا ووقفًا، وقرأ قالون بحذف الياء في الحالين، وإثباتها وصلًا، وقرأ الباقون بحذف الياء فيهما وصلًا ووقفًا تبعًا للرسم.

(٢) قرأ ورش بفتح ياء الإضافة وصلًا من (وليؤمنوا بي) والباقيون بإسكانها.

وقد كان من هدي النبي ﷺ إذا أفطر قوله: «اللهم لك صمت، وعلى رزقك أفطرت» كما في حديث معاذ بن زهرة^(١).

وجاء عن عمر رضي الله عنه أن النبي ﷺ كان إذا أفطر قال: «ذهب الظمأ وابتلت العروق، وثبت الأجر إن شاء الله»^(٢).

ب - من أسباب نزول الآية

١- ورد أن أعرابياً قال: يا رسول الله، أقریب ربنا فتناجیه، أم بعيد فتناديه؟ فسكت النبي ﷺ فأنزل الله تعالى: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ﴾^(٣).

٢- وعن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه قال: كنا مع رسول الله ﷺ في غزوة فجعلنا لا نصعد شرفاً ولا نعلو شرفاً، ولا نهبط وادياً إلا رفعنا أصواتنا بالتكبير، قال: فدنا منا فقال: «أيها الناس أربعوا على أنفسكم فإنكم لا تدعون أصمّاً ولا غائباً إنما تدعون سميعاً بصيراً، وإن الذي تدعونه أقرب إلى أحدكم من عنق راحلته»^(٤).

٣ - قال ابن عباس رضي الله عنهما: قال يهود المدينة: يا محمد كيف يسمع ربنا دعاءنا وأنت تزعم أن بيننا وبين السماء خمس مئة عام، وأن غلط كل سماء مثل ذلك؟ فنزلت الآية^(٥).

(١) رواه أبو داود برقم (٢٣٥٨) مرسلاً، قال الألباني: وله شواهد يقوى بها، «مشكاة المصابيح» حديث رقم (١٩٩٤) وانظر: تحقيق شعيب وعبد القادر الأرناؤوط على «زاد المعاد» ج ٢ ص ٥١ ومعاذ بن زهرة مرسل مقبول، وبقية رجاله ثقات وهو في مراسيله ٩٩.

(٢) رواه أبو داود بإسناد حسن (٢٣٥٧) وهو في «مشكاة المصابيح» رقم (١٩٩٣) و«صحيح الجامع الصغير» برقم (٢٥٥٤) وأخرجه النسائي في «عمل اليوم والليلة» (٢٩٩) قال الحافظ: حديث حسن.

(٣) «تفسير ابن كثير» للآية ج ١ ص ٢١٨ والطبري (٢٢٣/٣) وابن أبي حاتم (١٦٦٧) وأبو الشيخ في «العظمة» (١٩٠) وجاء ذلك من عدة طرق.

(٤) أخرجه أحمد في «المسند» (٢٠٤/٤) برقم (١٩٥٢٠) وأبو داود (١٥٢٦، ١٥٢٨) والترمذي (٣٣٦١)، (٣٤٧٤) والنسائي (١٠١٨٨) وابن ماجه (٣٨٢٤) والبخاري برقم (٢٩٩٢، ٤٢٠٥، ٦٤٠٩) ومسلم (٢٧٠٤).

(٥) راجع: «زاد المسير» و«ابن كثير» و«الخازن» في تفسير الآية.

ج - علاقة الصيام بالدعاء: وفي شهر رمضان تفتح أبواب الجنة وتغلق أبواب النار، وتغل الشياطين، ويكون الصائم قريباً من ربه لاستجابته له سبحانه، فهو حري بالإجابة، فالصائمون أقرب استجابة من الله تعالى.

١- قال ﷺ فيما يرويه أبوهريّة: «ثلاث دعوات مستجابات لا شك فيهن: دعوة الصائم، ودعوة المظلوم، ودعوة المسافر» وفي رواية «ودعوة الوالد على ولده» دون ذكر الصائم^(١).

٢- وقال ﷺ فيما يرويه عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده أن رسول الله ﷺ قال: «للصائم عند فطره دعوة مستجابة»^(٢)؛ فدعوة الصائم مستجابة وهي دعوة لا ترد.

٣- فعن عن النعمان بن بشير: «إن للصائم عند فطره دعوة ما ترد»^(٣).

٤- وعن أنس: «أن رسول الله ﷺ قال: «ثلاث دعوات لا ترد: دعوة الوالد لولده، ودعوة الصائم، ودعوة المسافر»»^(٤).

٥- وعن عبادة بن الصامت رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «ما على الأرض مسلم يدعو الله بدعوة إلا آتاه الله إياها، أو صرف عنه من السوء مثلها، ما لم يدعْ بِإِثمٍ أو قطيعة رحم، فقال رجل من القوم: إذا نُكِّثَ؟ قال: الله أكثر»^(٥).

ولذلك فقد كان عبدالله بن عمر رضي الله عنهما يقول إذا أفطر: (اللهم إني أسألك برحمتك التي

(١) حديث صحيح أخرجه البيهقي عن أبي هريرة، «صحيح الجامع» رقم (٣٠٢٧) و«السلسلة الصحيحة» (٥٩٦) وهو في أبي داود (١٥٣٦) والترمذي (٣٤٤٨) وابن ماجه (٣٨٦٢) وقال الترمذي: حديث حسن.

(٢) رواه أبو داود والطيالسي كما في «تفسير ابن كثير» للآية، وانظر: «جامع الأصول» ج ٤ رقم (٢١٠٣) من حديث أبي هريرة عند الترمذي وأبو داود بإسناد حسن كما قال محقق «جامع الأصول»: عبدالقادر الأرناؤوط وأخرجه البيهقي في «الشعب» (٣٩٠٧).

(٣) حديث صحيح عن النعمان بن بشير والبراء، انظر: «صحيح الجامع الصغير» رقم (٣٤٠١) وقد أخرجه ابن ماجه (١٧٥٣) وابن السني (٤٨٢) عن عبد الله بن أبي مليكة عن عبد الله بن عمرو بن العاص.

(٤) حديث صحيح أخرجه الحسن بن مردويه والضياء، «صحيح الجامع» رقم (٣٠٢٩) وهو عند الترمذي عن أبي هريرة برقم (٣٤٤٨، ٣٥٩٢) و«مسند الطيالسي» (٢٥١٧) وأبو داود (١٥٣٦) وابن ماجه (١٧٥٢، ٣٨٦٢).

(٥) «جامع الترمذي» برقم (٣٥٧٣) وقال: حسن صحيح، وصححه ابن حجر في الفتح (٩٦/١١) ورواه الحاكم عن أبي سعيد (٤٩٣/١) وصححه الألباني في «صحيح سنن الترمذي» (٢٨٢٧).

وسعت كل شيء أن تغفر لي^(١). وفيما يلي بعض أحكام الدعاء وآدابه:

أولاً: الدعاء من أنواع العبادة:

الدعاء: هو الابتهاال إلى الله تعالى بالسؤال، والرغبة فيما عنده من الخير، والتضرع إليه سبحانه في تحقيق المطلوب، وإدراك المأمول.

والدعاء: توجه إلى مُصَرِّف الكون ومدير الأمر؛ لِيزِيل الغمة، وَيَكْشِف الكربة، ويحقق الأمنية.

فهو التجاء إلى الله تعالى، وفرار إليه، واستعانة بِقَوِيٍّ قادر، من عاجز ضعيف؛ ليطلب إلى نفسه خيراً في آخرته أو دنياه.

والدعاء لا يقتصر على سؤال الله تعالى سعادتي الدنيا والآخرة، بل إنه في حد ذاته عبادة لله تعالى، فكما يتوجه العبد بسؤاله حاجاته إلى الله تعالى، يتوجه إليه بالدعاء من باب العبادة له جل شأنه، فليس الدعاء مقصوراً على طلب رفع الغمة وإزالة الكربة، أو جلب الخير أو النفع، بل هو أيضاً عبادة وقربى إلى الله ﷻ.

فهو دعاء عيادة، ودعاء مسألة، والقرب من الله تعالى نوعان أيضاً: قرب بعلمه من كل خلقه، وقرب ممن دعاه بالإجابة والمعونة والتوفيق.

والعبادة اسم (جامع لكل ما يحبه الله ورسوله)، وهي كثيرة متعددة، ومنها: الدعاء والنذر والذبح والاستغاثة والاستعانة والإنابة وغير ذلك.

وقد أطلق القرآن الكريم لفظ العبادة على الدعاء في مثل قوله تعالى: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمْ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾ [غافر: ٦٠] أي: يستكبرون عن دعائي الذي هو عبادة لي.

في حديث النعمان بن بشير ؓ أن رسول الله ﷺ قال: «الدعاء هو العبادة»^(٢).

(١) قال الحافظ: حديث حسن، وقال في «الزوائد»: إسناده صحيح وهو عن ابن مليكة.

(٢) أخرجه النسائي بإسناد صحيح في «السنن الكبرى» (١١٤٦٤)، وانظر: رواية أبي داود والترمذي في «جامع الأصول» ج ٤ رقم (٢١٢٠) وهو في «الأدب المفرد» (٧١٤) وأبي داود (١٤٧٩) وابن ماجه (٣٨٢٨) والترمذي (٢٩٦٩) وانظر المسند (١٨٣٥٢) بإسناد صحيح ورجال ثقات وابن حبان ٨٩٠.

ولذا: فلا يُتوجه بالدعاء لنبيٍّ، ولا لوليٍّ صالح؛ لأن العبادة لا تكون إلا لله تعالى، قال الله تعالى: ﴿أَمَّنْ يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ﴾ [النمل: ٦٢] ومن صرف شيئاً من هذه العبادات ونحوها لغير الله تعالى فقد كفر أو أشرك.

ثانياً: لا واسطة بين الخالق والمخلوق فقد استجاب الله دعوة إبليس:

ولا ينبغي للمسلم أن يحتقر نفسه مهما كان عاصياً، فيظن أن الله تعالى لا يقبل منه الدعاء لِفَرطِ معاصيه، فإنه سبحانه قد استجاب طلب إبليس وهو أشقى الخليفة، فقال تعالى في إجابته لطلبه البقاء في الدنيا: ﴿إِنَّكَ مِنَ الْمُنْظَرِينَ﴾ [الأعراف: ١٥] ولكن ليس إلى وقت البعث حتى يتخطى الموت، وإنما ﴿إِلَّا يَوْمَ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ﴾ وهو فناء هذا العالم ونهايته، فعلى العبد مهما كان مسرفاً على نفسه بالمعاصي أن يلجأ إلى خالقه ومولاه، فهو أقرب إليه من عروقه التي تجري فيها دماؤه.

ولا يجوز له أن يعتقد أن بعض الموتى من أولياء الصالحين ونحوهم أقرب إلى الله تعالى منه، وأن دعاءهم مستجاب، فيتقرب إلى الله تعالى، كما كان أهل الجاهلية يتقربون إلى الله تعالى بآلهتهم ويقولون: ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى﴾ [الزمر: ٣] بل يتوجه إلى ربه مباشرة دون واسطة، فهو ليس أشقى من إبليس.

وأسباب نزول آية الدعاء التي نحن بصددھا تدور حول أن الله تعالى قريب من عباده، يسمع دعاءهم إن دعوه سرّاً وإن دعوه جهراً، فهو سبحانه يعلم السر والنجوى، ويعلم ما تخفي الصدور، وما يجيش في النفوس، ولا يحتاج سبحانه إلى المناداة بصوت عال، فهو أقرب إلى عبده من حبل الوريد، ولا يحتاج إلى مُبلِّغ عن العبد يرفع عنه الدعاء إلى مولاه، بل يدعو العبد ربه مباشرة، ولا يوسط في ذلك أحداً بينه وبين ربه.

ولذلك: فإن جميع الآيات التي فيها ﴿يَسْأَلُونَكَ﴾ يأمر الله تعالى نبيه أن يقول في جوابها ﴿قُلْ﴾:

﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَهْلِ قُلْ هِيَ مَوَاقِيتُ لِلنَّاسِ وَالْحَجَّةِ﴾ [البقرة: ١٨٩]

﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنْتَفَعٌ لِلنَّاسِ﴾ [البقرة: ٢١٩]

﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي﴾ [الإسراء: ٨٥]

وهكذا وعندما جاءت آية الدعاء لم يقل الله تعالى لنبه ﴿قُلْ﴾ بل قال مباشرة ﴿فَإِنِّي قَرِيبٌ﴾ لا تتوسط - أيها الرسول - بيني وبين خلقي ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ﴾ ولا أحتاج إلى أحد بيني وبينهم، فأنا أسمع دعاءهم، وأعلم سرهم ونجواهم.

وقبول دعوة الصائم، وعدم ردها وإجابتها، كل ذلك موقوف على التزام المسلم الصائم بمبادئ الشرع وأحكامه وآدابه وأخلاقه في شهر رمضان وغيره، فيكون الدعاء مظنة الإجابة والقبول، وتكون العلاقة بين الدعاء والصيام قائمة على الرابطة الإيمانية والعقيدة الصحيحة، فينشأ عن ذلك ثمرة الصيام وهي التقوى والدعاء بالرشد والهداية والقوة الصالحة، ومن ثمَّ إجابة الدعاء.

ثالثاً: شرط قبول الدعاء: يشترط لقبول الدعاء وإجابته أن يكون المرء طيب المطعم والمشرب والملبس، تقوم أنفاسه التي يدعو بها على الحلال؛ فالله تعالى طيب لا يقبل إلا طيباً، وقد ذكر النبي ﷺ: «الرجل يطيل السفر أشعث أغبر يمد يديه إلى السماء، يارب يارب، ومشربه حرام وملبسه حرام وغذي بالحرام، فأنى يستجاب لذلك»^(١).

رابعاً: حاجة العبد إلى الدعاء في جميع الأحوال:

والعبد في حاجة دائمة إلى ربه سبحانه، يرفع إليه أكف الضراعة في كل حال: في السراء والضراء، والصحة والمرض، والفرح والحزن، والصبح والمساء، والأمن والخوف، والغنى والفقر، والعسر واليسر، والمنشط والمكره، والرخاء والشدة، والعبد يدعو ربه:

١- تضرعاً وخفية: يدعو ربه بصوت هادئ خافت فيكون أبلغ في التضرع والخشوع والإخلاص، قال تعالى: ﴿ادْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً﴾ [الأعراف: ٥٥].

والتضرع: التذلل والمسكنة.

٢- ويدعوه خوفاً وطمعاً: أي: ويدعو ربه طمعاً في رحمته، وخوفاً من عقابه، وقد مدح الله سبحانه عباده الذين يرفعون أكف الضراعة إليه في الصباح والمساء خوفاً من عقابه وطمعاً في ثوابه، يقول سبحانه في وصف عباده الصالحين: ﴿نَتَجَافَى جُنُوبَهُمْ عَنِ

(١) أخرجه مسلم عن أبي هريرة ج ٢ رقم (١٠١٥) والبخاري (٩١) في رفع اليدين.

الْمُضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ ﴿١٦﴾ فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٧﴾ [السجدة]

وقال جل وشأنه: ﴿وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا وَادْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا إِنَّ رَحْمَتَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ الْمُحْسِنِينَ﴾ ﴿٥٦﴾ [الأعراف]

٣- ويدعوه رغبا ورهبا: والمسلم يدعو ربه رغبة فيما عنده من الخير والفضل الذي يعود عليه في دنياه وأخراه، ورهبة منه سبحانه أن تحل به كارثة أو تنزل به عقوبة، قال تعالى في وصف أنبيائه ورسله: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا يُسْكَرُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا وَكَانُوا لَنَا خَشِيعِينَ﴾ [الأنبياء: ٩٠].

٤- ويدعوه في الشدة والرخاء: أي: ويدعو ربه على كل حال، في العسر واليسر، والسراء والضراء، ومن شر الناس من يتعرف على الله تعالى في الشدة، وينسى ربه حال الرخاء، فيعرض عنه سبحانه، أو ينجس في شهواته، قال تعالى: ﴿وَإِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فِي الْبَحْرِ ضَلَّ مَنْ تَدْعُونَ إِلَّا إِلَهُهُ فَلَمَّا بَلَغْنَا بِجُنُودِكُمْ إِلَى الْبَرِّ اعْرِضْتُمْ وَكَانَ الْإِنْسَانُ كَفُورًا﴾ ﴿١٧﴾ [الإسراء].

وقال تعالى في وصف هذا النوع من الناس: ﴿وَإِذَا مَسَّ النَّاسَ ضُرٌّ دَعَوْا رَبَّهُمْ مُنِيبِينَ إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَا أَذَقَهُمْ مِنْهُ رَحْمَةً إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُمْ بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ﴾ ﴿٢٣﴾ [الروم].

فقد كان المشركون يلجؤون إلى الله تعالى عند الشدة، ويسألونه عند الضراء، اعتقادًا منهم أنه سبحانه كاشف الضر، مجيب المضطر، لا يقدر على ذلك إلا هو:

قال تعالى: ﴿وَإِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ الضُّرُّ دَعَانَا لِجَنبَيْهِ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَائِمًا فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُ مَرَّ كَأَن لَّمْ يَدْعُنَا إِلَى ضُرِّ مَّسَّهُ﴾ [يونس: ١٢].

٥- الإلحاح في الدعاء:

والإلحاح في الدعاء أفضل من السكوت، بل إن الإلحاح مطلوب ومرغوب فيه.

فعن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «إنه من لم يسأل الله يغضب عليه»^(١).

(١) «سنن الترمذي» برقم (٣٦١٣) حسنه الألباني في صحيح سنن الترمذي (٢٦٨٦) وفي صحيح سنن ابن ماجه (٣٨٢٧).

وإذا كان الخلق يغضبون من الإلحاح في المسألة، فإن الخالق سبحانه يحب الإلحاح في السؤال، وإظهار التذلل والخضوع إليه، ويكره الاستعجال الذي يؤدي إلى ترك الإلحاح، والله سبحانه يستحي أن يرد يد عبده خائبة.

خامسًا: الجزم في الدعاء والثقة بالإجابة:

على المسلم أن يدعو ربه وهو موقن بالإجابة، يعزم ولا يتردد، ولا يعلّق الإجابة على المشيئة. جاء في الحديث عن أنس رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «إذا دعا أحدكم فليعزم المسألة ولا يقولن: اللهم إن شئت فأعطني فإنه لا مُستكره له»^(١). وادعوا الله وأنتم موقنون بالإجابة؛ فإن الله تعالى يجيب سؤلكم ويُلبي مطلبكم، مهما كان العبد ضعيفًا حقيرًا وضيعًا؛ فَرُبَّ أَشْعَثَ أَغْبَرَ لو أقسم على الله لأبره.

سادسًا: من دواعي إجابة الدعاء

جاءت الأحاديث والآثار بقبول دعوة كل من: المظلوم، والمسافر، والوالد، والصائم حين يفطر، والإمام العادل، ودعوة المرء لأخيه في ظهر الغيب، والحاج، والمعتزم، والمريض، وكبير السن الصالح، والمحسن إليه للمحسن، وحامل القرآن، وعند ختم القرآن، ودعوة المضطر، فهؤلاء وغيرهم ممن يرجى قبول دعائهم.

ولإجابة الدعاء بواعث وأسباب تجعله جديرًا بالإجابة، منها:

- ١- استقبال القبلة، ورفع اليدين بالدعاء، وافتتاحه بحمد الله تعالى والثناء عليه، وتمجيده، والصلاة والسلام على رسول الله ﷺ - وهو أمر هام قد يغفل عنه بعض الناس - ثم يدعو بأي ألفاظ، وأي أسلوب، وأية لهجة، ولا يستحي أن يدعو ربه بأي كلام يحضره خال من الإثم، فإن كان يحفظ جوامع الكلم المأثور فهو أفضل.
- عن فضالة بن عبيد أن النبي ﷺ سمع رجلًا يدعو في صلاته، ولم يمجد الله تعالى،

(١) في البخاري (٦٣٣٨، ٧٤٦٤) ومسلم (٢٦٧٨) وفي «الأدب المفرد» (٦٠٨، ٦٥٩) وأخرجه أحمد برقم (١١٩٨٠) بنحوه، وإسناده صحيح على شرط الشيخين، وهو في النسائي عن أنس، وفي «صحيح الجامع الصغير» رقم (٥٤٥) و«جامع الأصول» ج ٤ رقم (٢١٢٦).

ولم يصلِّ عليه، فقال ﷺ: «عَجَلْ هَذَا الْمَصْلِيَّ» ثم علَّمهم رسول الله ﷺ ثم سمع رجلاً يصلي، فمَجَّد الله وحمده، وصلى على النبي ﷺ، فقال النبي ﷺ: «ادْعُ تُجَبَّ، سَلْ تُعْطَ»^(١) أي: فأنت جدير بالإجابة بعد ذكرك لآداب الدعاء ودواعيه، ويُختم الدعاء بالصلاة على النبي ﷺ كذلك.

عن أنس رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «كل دعاء محجوب حتى يُصلى على النبي ﷺ»^(٢).

وفي رواية: «حتى يصلى على النبي ﷺ وآل محمد»^(٣).

وبعض الناس يرفعون أيديهم بالحمد والصلاة على رسول الله ﷺ، ولا يدعون وهو عمل ناقص؛ إذ إنه أتى بالمقدمة ولم يدع ربه.

٢- ومن دواعي الإجابة: أن يدعو المسلم ربه بأسمائه الحسنى وصفاته العلا ﷻ **الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى فَادْعُوهُ بِهَا**^(٤) [الأعراف: ١٨٠]

ومن ذلك اسم الله الأعظم الذي دعا به من عنده علم من الكتاب فأتى بعرش بلقيس في أقل من طرفة عين:

أ- عن بريدة الأسلمي رضي الله عنه قال: سمع النبي ﷺ رجلاً يدعو وهو يقول: اللهم إني أسألك بأنني أشهد أنك أنت الله، لا إله إلا أنت الواحد الأحد الصمد، الذي لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد، فقال: «والذي نفسي بيده، لقد سأل باسمه الأعظم الذي إذا

(١) «جامع الأصول» ج ٤ رقم (٢١٢٠) وهو في النسائي (١٢٨٤) وأبي داود (١٤٨١) والترمذي (٣٤٧٦)، (٣٤٧٧) وقال: حديث حسن صحيح، وبنحوه في المسند (٢٣٩٣٧) وإسناده صحيح ورجاله ثقات كما قال (محققوه)، وأخرجه البزار في مسنده: (٣٧٤٨) وابن خزيمة (٧١٠) وصححه الحاكم بموافقة الذهبي (٢٣٠/١).

(٢) «صحيح الجامع الصغير» رقم (٤٣٩٩، ٤٥٢٣) و«السلسلة الصحيحة» (٢٠٣٥) وقد رواه الديلمي في «مسند الفردوس» وهو حديث صحيح.

(٣) رواه الطبراني، ورجاله ثقات كما في الهيثمي في «مجمع الزوائد» ج ١ ص ١٦٠.

(٤) انظر: حديثاً طويلاً في الصحيحين وغيرهما وأحاديث أخرى في «جامع الأصول»، وحديث رقم (٢١٤٥) وغيره.

دُعي به أجاب وإذا سئل به أعطى»^(١).

ب- وسمع ﷺ رجلاً يدعو ربه قائلاً «يا ذا الجلال والإكرام يا حي يا قيوم» فقال: «إنه دعا باسم الله الأعظم الذي إذا سئل به أعطى وإذا دعي به أجاب»^(٢).

ج - وعن أسماء بنت يزيد ؓ أن النبي ﷺ قال: «اسم الله الأعظم في هاتين الآيتين: ﴿وَاللَّهُمَّ إِنَّكَ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ﴾ [البقرة] وفاتحة آل عمران ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ﴾»^(٣) [آل عمران].

د- وفي حديث آخر عن القاسم قال: اسم الله الأعظم الذي إذا دعي به أجاب، في سور ثلاث: البقرة، وآل عمران، وطه^(٤).

٣- وإذا وقع المسلم في شدة وكرب فإنه يدعو الله تعالى بأعماله الصالحة التي قدمها؛ كبر الوالدين، وصلة الرحم، وحفظ الأمانة، وإعطاء الأجير حقه قبل أن يجف عرقه، والتعفف عن الحرام، كحال الثلاثة الذين انطبق عليهم الغار، فدعوا ربهم بأعمالهم الصالحة، ففرج الله عنهم كربهم وانكشف الغار عنهم^(٥).

وهكذا المسلم يدعو ربه بما قدم من أعمال صالحة أن يزيل الله همه ويفرج كربه ويسر له طريق النفع والخير.

٤- ومن دواعي إجابة الدعاء أن يكون العبد حاضر القلب، مقبلاً على الله تعالى،

(١) انظر: الأحاديث الواردة في ذلك في «جامع الأصول» ج ٢ حديث رقم (٢١٤٥) وهو في «صحيح سنن الترمذي» (٢٧٦٣) وبنحوه في المسند (١٣٥٧٠) حديث صحيح بإسناد قوي، وانظر (١٢٦١١) وفي صحيح سنن ابن ماجه (٣١١٢) وفي السنن (٣٨٥٨) من حديث بريدة الأسلمي .
(٢) «جامع الأصول» حديث رقم (٢١٤٣) وغيره.

(٣) «صحيح سنن الترمذي» (٢٧٦٤) و«صحيح سنن ابن ماجه» (٣١٠٩) وفي السنن (٣٨٥٥) بإسناد حسن، وصحيح سنن أبي داود (١٣٤٣) والمشكاة (٢٩٩١).

(٤) حديث حسن في سلسلة الأحاديث الصحيحة (٧٤٦) وفي سنن ابن ماجه (٣١١٠) وهو في السنن (٣٨٥٦).

(٥) حديث الثلاثة الذين آواهم الغار في الصحيحين عن عبد الله بن عمر، البخاري (٢٢١٥، ٥٩٧٤) ومسلم (٢٤٧٣).

موقنًا بالإجابة، غير غافل ولا لاهٍ ولا ساهٍ عمن يدعوهُ ولا مشتغل بغيره عنه.

٥- وألا يتكلّف المسلم في دعائه، بل يدعو بما يحضره بأي لفظ كان، وبأي لغة يخاطب بها العبد ربه، ولا يستحي من ذلك، وإن دعا بما جاء في الكتاب والسنة، وقدم أمر الآخرة على الدنيا، وأشرك الناس معه في دعائه، فهو من هُدي النبي ﷺ.

٦- ومن دواعي الإجابة أن يُلحَّ المسلم، ويكرر الدعاء، بخضوع وخشوع، رغبة ورهبة، فقرًا وتذللًا، وأن يكون صوته بين السر والجهر، وقد كان النبي ﷺ «يعجبه أن يدعو الله ثلاثًا، ويستغفر ثلاثًا» كما جاء في حديث ابن مسعود رضي الله عنه ^(١).

٧- وألا يدعو بإثم ولا قطيعة رحم، ولا يدعو على مسلم، ولا على نفسه أو ولده أو أهله، بل إن النبي ﷺ دعا لثقيف وكانوا كفارًا فقال: «اللهم اهدِ ثقيفًا وائت بهم مسلمين» ^(٢) فأجاب الله دعاءه وأسلم ثقيف وأهل الطائف جميعًا.

٨- ويُستحب الدعاء للمسلم بظهر الغيب، وقد أمرنا بذلك في كثير من آيات الكتاب العزيز، كما في قوله تعالى: ﴿رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ﴾ [الحشر: ١٠] وكما قال النبي ﷺ من حديث أبي الدرداء رضي الله عنه: «دعوة المرء المسلم لأخيه بظهر الغيب مستجابة، عند رأسه ملك موكل، كلما دعا لأخيه بخير، قال الملك الموكل به: آمين، ولك بمثل» ^(٣) أي: والملك يرُدُّ عليه بمثل دعائه.

٩- ويُستحب الدعاء لمن أسدى إلى الإنسان معروفًا بأن يقول له: «جزاك الله خيرًا».

ففي حديث أسامة بن زيد رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «من صنع إليّ معروف فقال لفاعله: جزاك الله خيرًا، فقد أبلغ في الشاء» ^(٤).

(١) في «سنن أبي داود» (١٥٢٤) وإسناده حسن، وفي المسند (٣٧٤٤، ٣٧٦٩) بإسناد صحيح على شرط الشيخين وأبي يعلى (٢٧٧) والطبراني في الكبير (١٠٣١٧).

(٢) من حديث جابر في «المسند» (١٤٧٠٢) دون (وأت بهم مسلمين) بإسناد قوي على شرط مسلم وأخرجه الترمذي (٣٩٤٢) وقال: حسن صحيح غريب.

(٣) انظر: النص في «الأذكار النووية» ص ٣٤٥ وهو في «صحيح مسلم» عن أبي الدرداء برقم (٢٧٣٢، ٢٧٣٣).

(٤) الترمذي (٢٠٣٥) قال الترمذي: هذا حديث حسن جيد غريب.

١٠- وَيُسْتَحَبُّ طلب الدعاء من أهل الفضل، كأن يقول له: (لا تنسنا يا أخي من صالح دعائك، أو يقول: (أشركنا يا أخي في دعائك) وذلك أن عمر بن الخطاب استأذن النبي ﷺ في العمرة، فأذن له وقال: «لا تنسنا يا أخي من دعائك، فقال عمر: كلمة ما يسرنني أن لي بها الدنيا»^(١).

ولا يجوز للمسلم أن يدعو على نفسه، ولا على ولده ولا على خادمه، ولا على ماله؛ حتى لا يوافق ساعة إجابة.

وقد جاء النهي عن ذلك في حديث جابر رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «لا تدعوا على أنفسكم، ولا تدعوا على أولادكم، ولا تدعوا على خدمكم، ولا تدعوا على أموالكم، لا توافقوا من الله ساعة، نيل فيها عطاء، فيستجاب منكم»^(٢).

ومعنى: «نيل فيها عطاء» أي: حتى لا توافقوا ساعة إجابة ينال الطالب فيها ويُعطى مطلوبه.

وفي حديث أم سلمة رضي الله عنها أن النبي ﷺ قال: «لا تدعوا على أنفسكم إلا بخير»^(٣)

سابعاً: أوقات الإجابة: ولا يستبطن المسلم الإجابة ويتعجل في طلبها وعليه أن يغتنم الأوقات الفاضلة: «إن لربكم في أيام دهركم نفحات ألا فتعرضوا لها»^(٤) ومن هذه الأوقات:

١- يوم عرفة: فهو أفضل الأيام لما فيه من وقوف الخلق - وهم يؤدون فريضة العمر - في صعيد واحد بين يدي ربه، رافعين أصواتهم بالتلبية والذكر والدعاء في لباس الإحرام.

٢ - ويحجب الدعاء في شهر رمضان: فهو شهر القرآن والصيام، فيه تُصَفَّدُ الشياطين وتغل، وتغلق فيه أبواب النار، وتفتح فيه أبواب الجنة، وتُهيئ فيه أسباب القبول بفتح أبواب السماء وأبواب الرحمة.

(١) أبو داود (١٤٩٨) والترمذي (٣٥٦٢) قال الترمذي: حديث حسن صحيح ولفظ الترمذي (أي أخي أشركنا في دعائك ولا تنسنا).

(٢) أبو داود (١٥٣٢) بإسناد صحيح وفي «صحيح مسلم» (٣٠٠٩) بنحوه.

(٣) المسند (٢٦٥٤٣) بإسناد صحيح على شرط الشيخين وهو في مسلم (٩٢٠) وابن ماجه (١٤٥٤) وابن حبان (٧٠٤١).

(٤) حديث ضعيف عن محمد بن مسلمة في الطبراني الكبير والجامع الصغير (٣٢٩٨).

٣- ويجب الدعاء ليلة القدر: فهي خير الليالي وأفضلها على الإطلاق.

٤- ووقت السحر من أوقات إجابة الدعاء: حيث ينزل ربنا في ثلث الليل الأخير ويقول فيما يرويه أبوهريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ عن ربه ﷻ: «من يدعوني فأستجيب له، من يسألني فأعطيه، من يستغفرني فأغفر له»^(١).

وهي ساعة القرب من الله تعالى حيث الصفاء والخلوة والنقاء والبعد عن الرياء والناس نيام.

٥ - ويوم الجمعة يجب فيه الدعاء: فهو خير يوم طلعت عليه الشمس، وفيه تقوم الساعة، وفيه ساعة إجابة، والراجح أنها من بعد صلاة العصر إلى غروب الشمس، لحديث أبي هريرة وأبي سعيد الخدري أن النبي ﷺ قال: «إن في الجمعة ساعة إجابة لا يوافقها عبد مسلم يسأل الله ﷻ فيها خيراً إلا أعطاه إياه، وهي بعد العصر»^(٢).

٦ - ومن ذلك عشر ذي الحجة: فهي أيام مفضلة تشتمل على مناسك الحج، والعمل الصالح فيها، ومنه الدعاء، فهو مفضل فيها عن غيرها، ماعدا من خرج مجاهداً بنفسه وماله ثم لم يرجع من ذلك بشيء.

٧ - والدعاء يستجاب أثناء السجود: فإن سجود العبد بين يدي ربه في الصلاة، فيه خشوع وخضوع، ووضع لأشرف بقعة فيه وهي الجبهة على الأرض، وهو محل إجابة الدعاء.

قال ﷺ فيما يرويه أبوهريرة رضي الله عنه: «أقرب ما يكون العبد من ربه وهو ساجد فأكثرُوا فيه من الدعاء»^(٣).

والسجود من المواطن التي يجوز فيها الدعاء في الصلاة.

(١) البخاري (١١٤٥، ٧٤٩٤) ومسلم (١٦٨، ١٧٢، ٧٥٨) وأبو داود (١٣١٥، ٤٧٣٣) وابن ماجه (١٣٦٦) والترمذي (٤٤٦، ٩٤٩٨) و«المسند» (٧٥٠٩) وابن حبان (٩١٩) والنسائي في «الكبرى» (٢٠٧٧) وهذا لفظه، وانظر: طرق الحديث في «جامع الأصول» ج ٤ حديث رقم (٢٠٩٧).

(٢) وللحديث صيغ أخرى، انظر: «صحيح الجامع» رقم (٢١١٦) وانظر: البخاري (٩٣٥، ٥٢٩٤، ٦٤٠٠) ومسلم (٨٥٢) و«المسند» (٧١٥١، ١٠٣٠٢) وابن ماجه (١١٣٧) وابن حبان (٢٧٧٣).

(٣) حديث صحيح أخرجه مسلم وأبو داود والنسائي عن أبي هريرة، «صحيح الجامع» رقم (١١٨٦) وهو في مسلم برقم ٤٨٢.

ومن مواطنه فيها أيضاً عقب تكبيرة الإحرام، وفي الركوع، وعند الرفع منه، وفي نهاية التشهد، وفي القنوت، وإذا مر بآية رحمة أو عذاب حال قراءته^(١).

٨ - ومن مواطن إجابة الدعاء، عند الأذان والإقامة وبينهما: حيث يرجى قبول الدعاء عقب الصلوات وعند الأذان والإقامة وما بينهما.

٩ - ويجاب الدعاء عند البكاء من خشية الله تعالى: حال رقة القلب وانعطافه إلى الله تعالى، وإقباله عليه بتضرع وخشوع وإنابة وإخبات.

١٠ - ويجاب الدعاء عند التحام الجيوش في الحروب الإسلامية مع غير المسلمين لنشر الدعوة ودفع الصائل^(٢) وعند الكرب والشدة.

١١ - ويجاب الدعاء عند نزول الغيث واستقبال المطر، حيث يغيث الله العباد والبلاد^(٣).

ثامناً: من أماكن الإجابة:

ودعاء الله تعالى يستجاب في كل مكان، لاسيما الأماكن المفضلة، ومنها: مكة المكرمة، والمدينة المنورة، وموقف عرفات، وبيوت الله في الأرض، ولاسيما المساجد الثلاثة التي تشد إليها الرحال، وعند رؤية الكعبة، وبين الركن والمقام، وعند باب الملتزم.

تاسعاً: إجابة الدعاء له ثلاث صور

استجابة الله تعالى للدعاء، مرجوة حين يستجيب العباد لربهم بالطاعة والإنابة ويكونون من الراشدين، وعليهم أن يدعوه سبحانه ولا يستعجلوه في الإجابة:

١ - وقد تكون إجابة الدعاء في صورة غير ظاهرة للعبد، كأن يدفع الله عنه بلاء كان في الغيب ولا يعرفه، أو يبارك له في ماله أو ولده أو زرعه أو صحته أو علمه...

٢ - وقد تكون الإجابة معجلاً بها في الدنيا كما طلب، إن كانت مصلحته في ذلك.

٣ - وقد تكون إجابة الدعاء مؤجلة لصاحبها في الآخرة، إن كان هذا أنفع له.

(١) انظر: «فتح الباري» ج ١١ ص ١١١ و«زاد المعاد» ج ١ ص ٢٥٦.

(٢) الصائل: المعتدي.

(٣) راجع: أدلة ذلك في «جامع الأصول» ج ٤ رقم (٢٠٩٨) وما بعده.

أ- عن سلمان الفارسي رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «إن ربكم حيي كريم، يستحي من عبده إذا رفع يديه أن يردهما صفراً»^(١).

ب - وعن عبادة بن الصامت رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «ما على وجه الأرض من مسلم يدعو الله ﷻ بدعوة إلا آتاه الله إياها أو كف عنه من الشر مثلها، ما لم يدع بإثم أو قطيعة رحم»^(٢).

ج - وعن أبي سعيد رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «ما من مسلم يدعو الله بدعوة ليس فيها إثم ولا قطيعة رحم، إلا أعطاه الله بها إحدى ثلاث خصال، إما أن يُعَجَّلَ له دعوته، وإما أن يدَّخرها له في الآخرة، وإما أن يصرف عنه من السوء مثلها، قالوا: إذن نُكثِر؟ قال: الله أكثر»^(٣).

عاشراً: من أسباب عدم الإجابة: الاستعجال بالإجابة واستبطاؤها، وهلع النفس في ذلك، والتحسر على الدعاء، وكثرة المعاصي، وغفلة القلب، وقطيعة الرحم، وأكل الحرام، والدعاء بالشر والإثم، هذا وأمثاله يكون سبباً في عدم إجابة الدعاء.

في الصحيحين عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «يستجاب لأحدكم ما لم يعجل، يقول: قد دعوت فلم يُستجب لي»^(٤).

وفي صحيح مسلم وغيره عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ أنه قال: «لا يزال يستجاب للعبد ما لم يدع بإثم أو قطيعة رحم، ما لم يستعجل»، قيل: يا رسول الله: وما

(١) أخرجه الترمذي (٣٥٥٦) وأبو داود (١٤٤٨) والبيهقي في «الأسماء والصفات» (١٥٥، ١٠١٤) وصحيح سنن ابن ماجه (٣١١٧) و«المسند» (٢٣٧١٤) وانظر: «مشكاة المصابيح» رقم (٢٢٤٤) وجامع الأصول حديث رقم (٢١١٨).

(٢) عبد الله بن أحمد في «المسند» (٢٢٧٨٥) قال محققو «المسند»: صحيح لغيره وأخرجه مسلم والترمذي كما في «جامع الأصول» برقم (٢١٣٣) ورقمه في الترمذي (٣٥٧٣) وقال: حسن غريب صحيح وهو في «صحيح سنن الترمذي» برقم (٢٨٢٧) وأخرجه الحاكم (٤٩٣/١) عن أبي سعيد الخدري.

(٣) البخاري (٧١٠) والحاكم (٤٩٣/١) و«صحيح الأدب المفرد» (٥٤٧) و«المسند» (١١١٣٣) وابن أبي شيبة (٩٢١٩).

(٤) البخاري (٦٣٤٠) ومسلم (٢٧٣٥).

الاستعجال؟ قال: «يقول: قد دعوت، وقد دعوت، فلم أر يستجيب لي، فيستحسر عند ذلك ويدعُ الدعاء»^(١).

فمن دعا ربه بقلب حاضر ودعاء مشروع، ولا يوجد ما يمنع من إجابة الدعاء، كأكل الحرام ونحوه، فإن الله تعالى وعده بالإجابة، لا سيما إذا كان مستجيباً لله تعالى، منقاداً لأوامره ونواهيه.

حادي عشر: الدعاء والقدر: الدعاء لا يتعارض مع القضاء؛ فإن الدعاء يكون سبباً في رد البلاء، ووجود الرحمة، بحيث يكون رد البلاء معلقاً على الدعاء، وكلاهما واقع في عالم الوجود، فالله تعالى يقدر البلاء ويقدر سببه، وسبب رفعه.

والقضاء على نوعين مبرم ومعلق:

١- فإذا كان القضاء مبرماً أي: نازلاً بالعبد لا محالة؛ فإن الدعاء لا يرفعه ويكون الدعاء في هذه الحالة عبادة لله تعالى، وسبباً في حصول الثواب والأجر، أو في إنزال لطف الله تعالى بالمدعو له عند نزول القضاء المبرم.

٢- أما القضاء المعلق، وهو الذي يتوقف رفعه على الدعاء، أو على صلة الرحم ونحوهما؛ فإن نزول القضاء أو رفعه يتوقف عليه في هذه الحالة؛ لأن الله تعالى خلق السبب والمسبب.

عن عائشة رضي الله عنها أن رسول الله ﷺ قال: «لا يغني حذر من قدر، والدعاء ينفع مما نزل ومما لم ينزل، وإن البلاء لينزل فيلقاه الدعاء فيعتلجان - أي يتدافعان ويتصارعان - إلى يوم القيامة»^(٢) فالقضاء المعلق يردده الدعاء لتوقفه عليه، وكون الدعاء سبباً لرده.

والقضاء المبرم لا يردده الدعاء وإنما يكون الدعاء في هذه الحالة سبباً في إنزال لطف

(١) «الأذكار النووية» ص ٣٤٦ وهو في صحيح مسلم برقم (٢٧٣٥).

(٢) رواه الطبراني في «الأوسط» والبخاري بنحوه وفيه زكريا بن منظور وثقه أحمد بن صالح المصري وضعفه الجمهور وبقية رجاله ثقات كما في «مجمع الزوائد» وانظر: «الترغيب والترهيب» ج ٢ ص ٤٨٢ وأخرجه الحاكم (٤٩٢/١) وصححه، قال الذهبي: زكريا مجمع على ضعفه، وقد حسنه الألباني في «صحيح الجامع» (٧٧٣٩) و«مشكاة المصابيح» (٢٢٣٤).

الله تعالى بالعبد، وتحصل به العبادة والمثوبة، فالقضاء المعلق يرده الدعاء، أما القضاء المبرم فلا يرده شيء؛ لأنه نافذ لا محالة، وقد يكون الشيء المطلوب من القضاء المبرم فيكون الدعاء سبباً للطف الله بالعبد.

ومن هذا الباب قولهم: (اللهم إني لا أسألك رد القضاء، بل أسألك اللطف فيه).

وقد دعا النبي ﷺ ربه في مواطن كثيرة، وأجمع السلف والخلف على نفع الدعاء، فلا تناقض إطلاقاً بين الدعاء وبين القضاء والقدر؛ لأن الدعاء ما هو إلا سبب من الأسباب التي تُقضى ببركتها أمورٌ، وتحقق آمالٌ، وتُدفع كربٌ، وإن مثل الدعاء كمثّل الدواء، ولذا فإنه لا يصح للمريض أن يترك التداوي اتكالاً على أن ما كتبه الله سيحدث، سواء تناول الدواء أو تركه، ولا يصح للمسلم أن يهجر الدعاء الذي هو مخ العبادة، اعتماداً على أن ما قُدّر سيكون؛ لأن العاقل من الناس هو الذي يتعاطى الأسباب بعزم وإخلاص، ويسلم أمره لله الواحد القهار.

عن سلمان رضي الله عنه أن الرسول ﷺ قال: «لا يرد القضاء إلا الدعاء، ولا يزيد في العمر إلا البر»^(١).

وجاء في رواية ثوبان رضي الله عنه: «لا يرد القدر إلا الدعاء، ولا يزيد في العمر إلا البر، وإن الرجل ليُحرّم الرزق بالذنوب يصيبه»^(٢).

ثاني عشر: الدعاء بعد الفريضة: المشروع للمسلم أن يأتي مباشرة عقب السلام من صلاة الفريضة بالأذكار الواردة عن رسول الله ﷺ في ذلك، كالاستغفار كما جاء في حديث ثوبان رضي الله عنه قال: كان رسول الله ﷺ إذا انصرف من صلاته استغفر ثلاثاً وقال: «اللهم أنت السلام ومنك السلام تباركت وتعاليت يا ذا الجلال والإكرام»^(٣).

«اللهم لا مانع لما أعطيت ولا معطي لما منعت ولا ينفع ذا الجد منك الجد»^(٤).

(١) أخرجه الترمذي (٢١٣٩) والحاكم وصححه السيوطي في الجامع الصغير (٩٩٦٨).

(٢) أخرجه الترمذي كما في «مشكاة المصابيح» رقم (٢٢٣٣) وهو في «صحيح سنن الترمذي» (٢٢٣٩) و«صحيح سنن ابن ماجه» (٧٣) و«السلسلة الصحيحة» (١٥٤) والحاكم (٤٩٣/١) وابن أبي شيبة (١٠/٤٤١) وهو حديث حسن، وهو في المسند (٢٢٣٨٦، ٢٢٤١٣) وهو حديث حسن لغيره دون الفقرة الثالثة.

(٣) «صحيح مسلم» ٥٩١.

(٤) من حديث أبي سعيد الخدري في «صحيح مسلم» (٤٧٧) وابن عباس (٤٧٨).

والتسبيح والتحميد والتهليل والتكبير وآية الكرسي... إلخ، وغير ذلك.

فالعبادة المطلوبة بعد الصلاة مباشرة هي هذا الذكر الوارد المعروف لدى كل مسلم، فإذا أتى بالدعاء في موضع هذه العبادة، فإن هذا يُعد مخالفة، ويجوز له بعد هذه الأذكار، أن يحمد الله تعالى ويصلي على رسول الله ﷺ ثم يدعو بما شاء، فيكون دعاؤه عقب الذكر عبادة بعد عبادة.

وليس له أن يدعو بعد الصلاة المفروضة مباشرة قبل قراءة الأذكار، ولا أن يظل الإمام مستقبل القبلة بعد الفريضة أو النافلة يدعو، والناس يرددون عليه أو يؤمنون خلفه^(١) كما يحدث في بعض بلاد المسلمين.

ثالث عشر: الدعاء بعد النافلة: ولما كانت صلاة النافلة لا يُشرع لها أذكار عقب الفراغ منها كالفريضة، فإن للمصلي أن يدعو الله تعالى بما شاء بعد السلام مباشرة.

وهذا هو المنقول عن رسول الله ﷺ، ولنا في رسول الله أسوة حسنة.

فالدعاء عبادة في كل وقت، ما لم يكن هذا الوقت مشغولاً بعبادة أخرى.

رابع عشر: رفع اليدين في الدعاء بعد الفريضة والنافلة^(٢)

ثبت في البخاري وغيره أن النبي ﷺ كان يرفع يديه بالدعاء حتى يُرى بياض إبطيه.

وصح رفع اليدين بالدعاء في نحو ثلاثين موضعاً من مواطن الدعاء والعبادة في نحو مئة حديث.

غير أن النبي ﷺ كان يبالي برفع اليدين في الاستسقاء، فيرفع يديه بالدعاء إلى حذو الوجه، وفي دعاء الاستسقاء خاصة يرفعهما إلى حذو المنكبين، وتكون رؤية بياض الإبطين في هذه الحالة أبلغ منها في غيره^(٣).

فمنع رفع اليدين بالدعاء بعد الصلاة المفروضة هو صفة خاصة فيه، وليس أصل الرفع؛ لأن رفع اليدين من لوازم الدعاء، وتكون المبالغة أكثر في دعاء الاستسقاء.

(١) انظر: تفصيل ذلك بأدلته من كلام ابن القيم في «فتح الباري» ج ١١ ص ١١١.

(٢) انظر في رفع اليدين للدعاء: رسالة لعبد الله بن إبراهيم القرعاوي.

(٣) انظر: «جامع الأصول» ج ٤ حديث (٢١٠٦) وما بعده.

خامس عشر: مسح الوجه عقب الدعاء: وقد ورد مسح الوجه باليدين عقب الدعاء في أحاديث ضعيفة حسنّها بعضهم؛ لتقوية بعضها لبعض.

في الترمذي وغيره عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال: «كان رسول الله ﷺ إذا رفع يديه في الدعاء لم يحطهما حتى يمسح بهما وجهه»^(١).

والحكمة في رفع اليدين أن السماء قبلة الدعاء، ومهبط الرزق والوحي والبركة، ومحل استحباب مسح الوجه بهما خارج الصلاة، أما فيها فلا يسن.

وكان النبي ﷺ يقرأ بالمعوذتين، ويمسح بيديه على جسده، ويؤخذ منه أنه لا بأس بمسح الوجه باليدين بعد الدعاء في غير الصلاة.

عن عائشة رضي الله عنها أن رسول الله ﷺ كان إذا أخذ مضجعه نفث في يده، وقرأ بالمعوذات، ومسح بها جسده^(٢).

وعن عائشة أيضاً أن النبي ﷺ كان إذا آوى إلى فراشه كل ليلة جمع كفيه، ثم نفث فيهما وقرأ فيهما ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ و﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ﴾ و﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ﴾ ثم مسح بهما رأسه ووجهه وما أقبل من جسده، يفعل ذلك ثلاث مرات^(٣).

الصِّيَامُ فِي مَرَحَلَتِهِ الْأَخِيرَةِ

١٨٧ - ﴿أَحَلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ الصِّيَامِ الرَّفَثُ إِلَى نِسَائِكُمْ هُنَّ لِبَاسٌ لَكُمْ وَأَنْتُمْ لِبَاسٌ لَهُنَّ عَلِمَ اللَّهُ أَنْكُمْ كُنْتُمْ تَحْتَانُونَ أَنْفُسَكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ وَعَفَا عَنْكُمْ فَالْآنَ بَشِّرُوهُمْ وَابْتَغُوا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا حَتَّى يَبَيِّنَ لَكُمُ الْخَيْطُ الْأَبْيَضُ مِنَ الْخَيْطِ الْأَسْوَدِ مِنَ الْفَجْرِ ثُمَّ أَتُمُوا الصِّيَامَ إِلَى الْيَلِّ﴾^(٤)

لما فرض الله الصيام على عباده في باديء الأمر، حرّم عليهم الأكل والشرب والجماع إلى صلاة العشاء، أو إذا نام الإنسان قبل ذلك، فشق ذلك على المسلمين، فخفف الله

(١) قال ابن حجر في «بلوغ المرام»: له شواهد منها عند أبي داود من حديث ابن عباس برقم (١٤٨٥) ومجموعها يقضي بأنه حديث حسن، ويُتَظَر: «الأذكار النووية» بتحقيق الأرناؤوط ص ٣٤٤ وبنحوه في

تحقيق «جامع الأصول» ج ٢ حديث رقم (٢١١٠) وهو في الترمذي برقم (٣٣٨٦).

(٢) البخاري (٦٣١٩) ومسلم (٢١٩٢).

(٣) البخاري (٥٠١٧) ومسلم (٢١٩٢).

(٤) قرأ ورش وابن وردان بنقل حركة همزة (فالآن) إلى ما قبلها، والباقون بالتحقيق وعدم النقل.

عنهم بهذه الآية، بأن أباح لهم الأكل والشرب والجماع، حتى أذان الفجر، سواء أنام المسلم قبل ذلك أم لم ينم.

١- أسباب النزول

أ - أخرج البخاري وغيره عن البراء بن عازب رضي الله عنه قال: كان أصحاب النبي ﷺ إذا كان الرجل صائماً فحضر الإفطار، فنام قبل أن يفطر، لم يأكل ليلته ولا يومه حتى يمسي، وإن قيس بن صرمة الأنصاري كان صائماً، فلما حضر الإفطار أتى امرأته، فقال لها: أعندك طعام؟ قالت: لا، ولكن أنطلق فأطلب لك، فغلبته عيناه، فجاءته امرأته، فلما رآته، قالت: خيبة لك، فلما انتصف النهار غشي عليه، فذكر ذلك للنبي ﷺ فنزلت الآية، ففرحوا فرحاً شديداً^(١).

ب- وفي حديث طويل أخرجه الإمام أحمد وغيره عن معاذ بن جبل ؓ قال فيه: (وكانوا يأكلون ويشربون ويأتون النساء ما لم يناموا، فإذا ناموا امتنعوا)، ثم إن رجلاً من الأنصار يقال له: (قيس بن صرمة) كان يعمل صائماً حتى أمسى، فجاء إلى أهله فصلى العشاء ثم نام فلم يأكل ولم يشرب حتى أصبح، فأصبح صائماً فرآه رسول الله ﷺ وقد جهد جهداً شديداً، فقال: «ما لي أراك قد جهدت جهداً شديداً؟» قال: يا رسول الله، إني عملت أمس، فجئت حين جئت، فألقيت نفسي فنمت، فأصبحت حين أصبحت صائماً، قال: وكان (عمر) قد أصاب من النساء بعد ما نام، فأتى النبي ﷺ فذكر له ذلك، فأنزل الله ﷻ: ﴿أَحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ الصِّيَامِ﴾ إلى قوله: ﴿ثُمَّ أَتَمُوا الصِّيَامَ إِلَى اللَّيْلِ﴾^(٢).

(١) انظر «صحيح البخاري» (١٩١٥) و(٤٥٠٨) مختصراً وأبو داود (٢٣١٤) وفيه (صرمة بن قيس) والترمذي (٢٩٦٨) وتفسير الطبري (٤٩٥/٣)، قال ابن حجر في الإصابة (١١٨/٩) وقيل: صرمة بن قيس، وقيل: قيس بن مالك، وقيل: قيس بن أنس، أبو صرمة، وفرق ابن حبان بين قيس بن مالك وقيس بن صرمة، فقال في كل منهما: له صحبة، وذكر ابن حجر هذه القصة في ترجمة كل منهم، واقتصرت كتب الحديث على ذكر أحدهم.

(٢) «تفسير ابن كثير»: (٢١٤/١) ط دار المعرفة بيروت والحديث في «المسند» (٢٤٦/٥) ورقمه في الطبعة المحققة عام ١٤٢١هـ مؤسسة الرسالة (٢٢١٢٤) رجاله ثقات رجال الشيخين غير المسعودي فقد روى له البخاري استشهداً وأصحاب السنن وأخرجه الترمذي (٥٩١) وابن خزيمة والطيالسي (٥٦٦). وانظر: «سنن أبي داود» (٥٠٦).

ج - وفي رواية عن عطاء بن أبي رباح، عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: كان المسلمون قبل أن تنزل هذه الآية إذا صلوا العشاء الآخرة حَرُمَ عليهم الطعام والشراب والنساء حتى يفطروا، وإن عمر بن الخطاب أصاب أهله بعد صلاة العشاء.

وإن قَيْسَ بْنَ صِرْمَةَ الأنصاري غلبته عيناه بعد صلاة المغرب، فنام ولم يشع من الطعام، ولم يستيقظ حتى صلى رسول الله ﷺ العشاء، فقام فأكل وشرب، فلما أصبح أتى رسول الله ﷺ فأخبره بذلك فأنزل الله الآية^(١).

د- قال ابن عباس رضي الله عنهما: كان الناس على عهد رسول الله ﷺ إذا صَلَّوا الْعَمَّةَ - أي العشاء - حَرُمَ عليهم الطعام والشراب والنساء، وصاموا إلى القابلة، فاختان رجل نفسه، فجامع امرأته وقد صلى العشاء، ولم يُفطر، فأراد الله أن يجعل ذلك تيسيراً لمن بقى، ورُخصة ومنفعة فقال: ﴿عَلِمَ اللَّهُ أَنَّكُمْ كُنْتُمْ تَخْتَانُونَ أَنْفُسَكُمْ﴾ الآية، فرخص لهم ويسر^(٢).

قال عبد الرحمن بن أبي ليلى: ﴿وَكُلُوا وَاشْرَبُوا﴾ نزلت في صرمة بن مالك، ونزل ﴿أُحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ الْصِيَامِ﴾ في عمر بن الخطاب.

٢ - رَفَعَ تَوَهُّمَ مُشَابَهَةِ أَهْلِ الْكِتَابِ فِي الصِّيَامِ

بيِّنًا فيما سبق أن الطعام والشراب ومواقعة النساء كانت تحل للصائم، من أذان المغرب إلى صلاة العشاء أو ينام المسلم قبل صلاة العشاء، وكان هذا شأن أهل الكتاب.

وجاء في الأثر: أن المفطرات كانت تحل للصائم حتى صلاة العشاء، ثم يمسك عن الطعام والشراب ومجماعة النساء إلى مغرب اليوم التالي.

أخرج ابن جرير وابن المنذر عن ابن عباس ؓ قال: إن المسلمين كانوا في شهر رمضان إذا صلوا العشاء، حرم عليهم النساء والطعام إلى مثلها من القابلة - أي سواء أكلوا أم لم يأكلوا في الفترة من المغرب إلى النوم أو إلى صلاة العشاء - ثم إن ناسًا من

(١) إسناده صحيح عن سعيد بن أبي عروبة إلى أبي هريرة كما قال الشيخ أحمد شاكر في تحقيقه على «تفسير الطبري» (٤٩٩/٣).

(٢) «صحيح سنن أبي داود» (٢٠٢٨) والبيهقي (٢٠١/٤) وهو حديث حسن صحيح.

المسلمين أصابوا الطعام والنساء في رمضان بعد العشاء، منهم عمر بن الخطاب، فشكوا ذلك إلى رسول الله فأُنزل الله الآية^(١).

وتبين الآثار أن ذلك كان في بدء فرض الصيام على المسلمين، أي: في المرحلة الأولى.

كما أخرج ابن جرير وابن أبي حاتم عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: كان الناس أول ما أسلموا إذا صام أحدهم يصوم يومه حتى إذا أمسى طعم من الطعام، حتى يُمسي من الليلة القابلة...^(٢).

فُعِلِمَ من هذا أن الصيام كان في مرحلته الأولى: من صلاة العشاء أو ينام الإنسان قبلها، وحتى غروب الشمس من اليوم التالي، وأن مدة الإفطار كانت مقصورة على ما بين أذان المغرب والعشاء أو النوم قبلها، وهذا تقرير للحالة التي بدأ بها المسلمون يصومون شهر رمضان لأول مرة في الأيام الأولى منه؛ حيث كان أهل الكتاب يفطرون فقط ما بين المغرب والعشاء، فظنوا أنهم كذلك، وقد حدث بذلك جهد ومشقة للمسلمين في الجوع وعدم إتيان نساءهم، فخفف الله عنهم بنزول هذه الآية، مبيّنًا لهم أن الصيام في مرحلته الأخيرة، من طلوع الفجر، إلى غروب الشمس، وأنه يحل لهم الطعام والشراب ومواقعة النساء طيلة الليل، من غروب الشمس إلى أذان الفجر الصادق؛ لئلا يجهدهم الجوع والعطش وهم في طلب أرزاقهم بالنهار، ولأن الرجل والمرأة كل منهما يخالط الآخر ويماسه ويضاجعه، فناسب أن يرخص لهم في المجامعة ليالي رمضان؛ لئلا يشق عليهم ذلك ويُخرجوا، وكان قد ترتب على ذلك أن الرجال لا يقربون النساء طيلة شهر رمضان. وربما غلبت أحدهم شهوته فواقع أهله.

أخرج البخاري عن البراء بن عازب رضي الله عنه قال: ولما نزل صوم رمضان كانوا لا يقربون النساء رمضان كله، وكان رجال يختانون أنفسهم، فأُنزل الله: ﴿عَلِمَ اللَّهُ أَنَّكُمْ كُنْتُمْ تَخْتَانُونَ أَنْفُسَكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ وَعَفَا عَنْكُمْ﴾^(٣).

(١) «تفسير الطبري» (٣/٢٣٦).

(٢) الطبري (٣/٢٣٧) وابن أبي حاتم (١٦٨٠، ١٦٨٤).

(٣) البخاري برقم (٤٥٠٨).

وفي هذا رحمة وتخفيف من الله ﷻ، ورفع للخرج عنهم، رفقا بهم، ورخصة لهم، وبيانا لحل المباشرة والطعام والشراب ليلة الصيام من المغرب إلى الفجر، وبيانا لمواعيد الصيام من الفجر إلى الغروب.

وقد ذهب جمهور المفسرين إلى أن هذه الآية ﴿أُحِلَّ لَكُمْ﴾ ناسخة للحكم السابق قبلها، وهو الإمساك عن المفطرات نهارا ولا يقرب الصائم شيئا منها بعد النوم قبل صلاة العشاء، أو إلى صلاة العشاء.

ويرى بعض العلماء أن الآية ترشد المسلمين إلى ما شرعه الله لهم في شهر رمضان من جواز الجماع ليلا والأكل والشرب حتى الفجر؛ لترفع ما توهمه بعضهم من عدم جواز ذلك إذا ناموا بعد فطرهم، ويستشهدون على ذلك بحديث البراء السابق.

وقال أبو مسلم الأصفهاني: هذه الحرمة لم تكن في شرعنا، بل كانت في شرع النصارى قبلنا.

وقد فهم الصحابة بقاء هذا الحكم، فكانوا يمتنعون عن الأكل والوقاع بعد النوم، وبعد صلاة العشاء، فبين الله تعالى أنه خفف هذا الحكم عن هذه الأمة، ولم يوجب عليهم ما أوجبه على النصارى، وأذن لهم في المحظور على الأمم السابقة^(١).

ويؤيده ما أخرجه عبد بن حميد عن إبراهيم التيمي قال: كان المسلمون في أول الإسلام يفعلون كما يفعل أهل الكتاب إذا نام أحدهم لم يَطْعَم حتى تكون القابلة، فنزلت: ﴿وَكُلُوا وَاشْرَبُوا﴾^(٢).

وروى مسلم وغيره عن عمرو بن العاص رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «فصل ما بين صيامنا وصيام أهل الكتاب أكلة السحر»^(٣).

وفي الصحيحين وغيرهما عن أنس بن مالك عن زيد بن ثابت رضي الله عنهما قال:

(١) انظر: «تفسير آيات الأحكام» للشيخ / محمد علي السائيس (١/٧٧).

(٢) «الدر المنثور» (٢/٢٧٧).

(٣) «صحيح مسلم» رقم (١٠٩٦) وأخرجه أبو داود (٢٣٤٣) والترمذي (٧٠٩) والنسائي (٢١٦٥) وابن أبي شيبه (٨/٣).

تسحرنا مع رسول الله ﷺ، ثم قمنا إلى الصلاة، قال أنس: قلت لزيد: كم كان بين الأذان والسحور؟ قال: قدر خمسين آية^(١).

٣- الصيام من الفجر إلى المغرب هو التشريع القائم إلى يوم الساعة:

ثم يَنْبَغُ حل وإباحة الأكل والشرب مع ما تقدم من الجماع في أي أوقات الليل شاء الصائم، إلى أن يتبين ضياء الصباح من سواد الليل، وعبر الله تعالى عن ذلك بظهور الخيط الأبيض من الخيط الأسود، فقال تعالى: ﴿وَكُلُوا وَاشْرَبُوا حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكُمُ الْخَيْطُ الْأَبْيَضُ مِنَ الْخَيْطِ الْأَسْوَدِ مِنَ الْفَجْرِ﴾ ولم يكن الأذان آنذاك يُرفع بالمكبرات، وعبر وسائل الإعلام المرئية والمسموعة.

ولم تكن الساعات التي تضبط الوقت موجودة في الأماكن العامة والخاصة.

ولم يكن هناك وسائل للإعلام تقتل أوقات الناس، وتُبدد طاقتهم!! وتُضيع أوقاتهم.

ولم يكن هناك حساب فلكي علمي دقيق يبين أوقات الصلاة بالدقيقة والثانية.

فأخذ بعض الناس بظاهر هذه الآية حين نزولها، وربما ربط بعضهم الخيط الأبيض والأسود في رجله، وربما جعلهما تحت وسادته أو نحو ذلك؛ ليعلم بحاسة البصر طلوع الفجر الصادق.

أخرج البخاري وغيره عن سهل بن سعد ؓ قال: أنزلت ﴿وَكُلُوا وَاشْرَبُوا حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكُمُ الْخَيْطُ الْأَبْيَضُ مِنَ الْخَيْطِ الْأَسْوَدِ﴾ ولم ينزل ﴿مِنَ الْفَجْرِ﴾ وكان رجال إذا أرادوا الصوم، ربط أحدهم في رجله الخيط الأبيض والخيط الأسود، فلا يزال يأكل حتى يتبين رؤيتهما، فأنزل الله قوله: ﴿مِنَ الْفَجْرِ﴾ فعلموا أنما يعني: الليل والنهار^(٢) أي: طلوع الفجر، وليس ظهور الخيط الأبيض من الأسود.

وفي الصحيحين وغيرهما عن عدي بن حاتم أنه لما نزلت الآية عهد إلى عقالين: أحدهما: أبيض، والآخر: أسود، قال: فجعلتهما تحت وسادتي، فجعلت أنظر إليهما،

(١) البخاري برقم (١٩٢١) ومسلم برقم (١٠٩٧).

(٢) «صحيح البخاري» برقم (١٩١٧، ٤٥١١) ومسلم (١٠٩١) و«النسائي في الكبرى» (١١٠٢٢) والطبراني (٥٧٩١).

فلما تبين لي الأبيض من الأسود أمسكت، فلما أصبحت غدوت على رسول الله ﷺ فأخبرته بالذي صنعت، فقال: «إن وسادك إذا لعريض، إنما ذلك بياض النهار من سواد الليل»^(١).

ومعنى: «إن وسادك إذا لعريض»، أي: إذا كانت الوسادة تسع الخيطين: الأبيض والأسود، فيقتضي ذلك أن تكون الوسادة بعرض المشرق والمغرب.

وقد فسّرت رواية البخاري هذا المعنى في لفظ: «إنك لعريض القفا»^(٢).

وفسرها بعضهم بأنه: إذا كان وساده عريضاً، فقفاه أيضاً عريض.

أو إنك لعريض القفا إن أبصرت الخيطين، ويكنى بها عن البلادة.

ووجه تشبيه الليل والنهار بالخيطين: أن الصبح أول ما يتبين يبدو رفيعاً كالخيط، وبمقدار ما يظهر خيط الصبح ينقشع خيط من الليل أسود كذلك.

٤ - خمسة من أحكام الصيام

الأول: استحباب السحور: قال ابن كثير: في إباحته تعالى جواز الأكل والشرب إلى طلوع الفجر دليل على استحباب السحور؛ لأنه من باب الرخصة والأخذ بها مستحب، ولهذا وردت السنة الثابتة عن رسول الله ﷺ بالحث على السحور.

ففي الصحيحين وغيرها عن أنس رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «تسحروا فإن في السحور بركة»^(٣).

ويُستحب تأخير السحور إلى وقت انفجار الفجر، كما جاء في الصحيحين: عن عبد الله ابن مسعود رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «لا يمنعكم أذان بلال عن سحوركم فإنه ينادي بليل، فكلوا واشربوا حتى تسمعوا أذان ابن أم مكتوم، فإنه لا يؤذن حتى يطلع الفجر»^(٤).

(١) البخاري برقم (١٩١٦، ٤٥٠٩) ومسلم برقم (١٠٩٠) و«المسند» (٣٧٧/٤) برقم (١٩٣٧٥) وأبو داود (٢٣٤٩) والترمذي (٢٩٧٠، ٢٩٧١) وابن أبي شيبة (٢٨/٣) وسعيد بن منصور في التفسير (٢٧٧).

(٢) البخاري (٤٥١٠) والطبري (٢٥١/٣). وانظر صحيح مسلم (١٠٩٠).

(٣) «صحيح البخاري» برقم (١٩٢٣) و«صحيح مسلم» برقم (١٠٩٥) والترمذي (٧٠٨) والنسائي (٢١٤٥) وابن أبي شيبة (٨/٣).

(٤) «صحيح البخاري» برقم (٦٢١، ١٩١٨) و«صحيح مسلم» برقم (٣٨٠، ١٠٩٢).

والمراد بأذان بلال: الأذان الأول الذي يكون قبل ساعة من وجوب الفجر، وهو الفجر الكاذب أي الذي يبدو بعده النهار شيئًا فشيئًا بخلاف الأول.

الثاني: تعجيل الفطر: وقوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَتَمُوا الصَّيَامَ إِلَىٰ أَيْلٍ﴾ يقتضي الإفطار عند غروب الشمس، كما جاء في الصحيحين عن عمر رضي الله عنه: «إذا أقبل الليل من ها هنا وأدبر النهار من ها هنا فقد أفطر الصائم»^(١).

وقد نُهينا عن وصال الصوم بلا إفطار، فقد ثبت عن عائشة رضي الله عنها قالت: نهى رسول الله ﷺ عن الوصال، رحمة لهم، فقالوا: إنك تواصل، قال: «إني لست كهيتكم، إني يطعمني ربي ويسقيني»^(٢).

وأمرنا بتعجيل الفطر عقب الغروب عن سهل بن سعد الساعدي رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «لا يزال الناس بخير ما عجلوا الفطر»^(٣).

وأمرنا بتأخير السحور إلى الفجر، كما في الأحاديث السابقة وهذا كله من باب التيسير على الأمة والرحمة بها.

وتعجيل الفطر يكون عند سماع أذان المغرب، فلو أفطر المسلم دفعة واحدة بأن أكل الوجبة كاملة في حدود ربع الساعة، ثم صلى المغرب فلا بأس بهذا، لاسيما إنه كان صائماً ونفسه تنوق إلى الطعام، والصلاة تُكره بحضرة الطعام الذي يُشتهى.

وإن أفطر على تمرات ونحوها، ثم صلى المغرب وجاء فأكل طعامه بعد الصلاة فهذا هو السُنَّة، وهذا ما كان يفعله رسول الله ﷺ يفطر على تمرات ويصلي ثم يأكل.

روى الترمذي عن أنس بن مالك رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ كان يفطر قبل أن يُصلي على رطبات، فإن لم تكن رطبات فتمرات، فإن لم تكن تمرات، حسا حسوات من

(١) البخاري برقم (١٩٥٤) ومسلم برقم (١١٠٠) وأبو داود (٢٣٥١) والترمذي (٦٩٨) والنسائي في «الكبرى» (٣٣١٠).

(٢) البخاري برقم (١٩٦٤) ومسلم برقم (١١٠٥) والنسائي في «السنن الكبرى» (٣٢٦٦).

(٣) «صحيح البخاري» برقم (١٩٥٧) و«صحيح مسلم» برقم (١٠٩٨) والترمذي (٦٩٩) وابن أبي شيبة (١٣/٢) ومالك (٢٨٨/١) والشافعي (٤٧٨/١) «شفاء العي».

ماء^(١) قال أبو عيسى: هذا حديث حسن صحيح.

الثالث: حكم مَنْ أخطأ في الإفطار أو السحور:

اختلف العلماء فيمن أكل أو شرب ظاناً غروب الشمس، أو تسحر يظن عدم طلوع الفجر، فظهر خلاف ذلك، هل عليه القضاء أم لا؟

ذهب الجمهور - وهو ما عليه الأئمة الأربعة - إلى أن صيامه غير صحيح ويجب عليه القضاء؛ لأن المطلوب من الصائم الثبوت قبل تناول الطعام، فإذا ظهر خلافه وجب القضاء.

قلت: ووسائل العصر الحديثة كأجهزة الإعلام المرئية والمسموعة والمقروءة والساعة والتقويم، ومكبرات الصوت، والقمر والنجوم، كلها لا تدع للصائم فرصة في عدم معرفة الوقت، وهي تصل إلى القاضي والداني، بل إنها تصل إلى الإنسان في عُقر داره وفي غرفة نومه، فلا يُعذر مقصر بتفريطه، ويجب عليه القضاء كما قال الجمهور.

وذهب أهل الظاهر، والحسن البصري إلى أن صومه صحيح ولا قضاء عليه؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ فِيمَا أَخْطَأْتُمْ بِهِ، وَلَكِنْ مَا تَعَمَّدَتْ قُلُوبُكُمْ﴾ [الأحزاب: ٥].

وقوله ﷺ - فيما يرويه ابن عباس ؓ: «إن الله تجاوز لي عن أمتي الخطأ والنسيان وما استكرهوا عليه»^(٢).

قالوا: وهو كالناسي لا يفسد صومه.

قلت: لا يستقيم قياس غير المثبت على الناسي والمخطئ؛ لأن شكه أو ظنه بسبب التقصير والتفريط والتهاون^(٣).

الرابع: بقاء الجنابة من الليل لا تنافي صحة الصوم:

مَنْ جامع أهله في آخر الليل ثم أذن عليه الفجر بعد فراغه من الجماع وقبل أن يغتسل، أو

(١) «سنن الترمذي» برقم (٦٩٥).

(٢) «صحيح سنن ابن ماجه» (١٦٦٤) وابن المنذر (١٨٥) وابن حبان (٧٢١٩) والحاكم (١٩٨/٢) والبيهقي في «السنن» (٣٥٦/٧) والدارقطني في سننه (١٧٠/٤) والطبراني في «الصغير» (٢٧٠/١) وقد جاء هذا الحديث من طرق عدة.

(٣) انظر: «تفسير ابن كثير» و«الخازن»، و«آيات الأحكام» للصابوني والشيخ السائس.

جامع في الليل قبل الفجر ونام ثم أصبح وهو جنب، أي: قبل أن يغتسل، فصيامه صحيح، فقد جعل سبحانه الفجر غاية لإباحة الجماع والطعام والشراب للصائم.

جاء في الصحيحين عن عائشة وأم سلمة رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ كان يدركه الفجر في رمضان وهو جنب من أهله، ثم يغتسل ويصوم^(١).

وفي حديث أم سلمة رضي الله عنها في الصحيح: «ثم لا يفطر ولا يقضي»^(٢).

وعن عائشة رضي الله عنها أن رجلاً قال: يا رسول الله، إني أصبح جنباً وأنا أريد الصيام فقال النبي ﷺ: «وأنا أصبح جنباً وأنا أريد الصيام، فأغتسل وأصوم ذلك اليوم» فقال الرجل: إنك لست مثلنا، قد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر، فغضب، وقال: «والله إني لأرجو أن أكون أخشاكم لله، وأعلمكم بما أتقي»^(٣).

فالجناية لا تأثير لها على الصوم ما دام الجماع قد انتهى قبل أذان الفجر، ويجب الاغتسال من أجل الصلاة.

قال ابن كثير: وهذا مذهب الأئمة الأربعة وجمهور العلماء سلفاً وخلفاً.

وقد سأل رجل النبي ﷺ كما في صحيح مسلم عن عائشة رضي الله عنها: فقال: تُدركني الصلاة وأنا جنب، فأصوم؟ فقال ﷺ: «وأنا تُدركني الصلاة وأنا جنب فأصوم»^(٤).

الخامس: هل يجب القضاء في صيام النفل؟

١- قال الأحناف بوجوب قضاء النافلة إذا أفسدها الصائم وأفطر لسبب من الأسباب؛ لأنه يلزمه تمام الصيام إلى الليل، ولأنه مأمور بعدم إبطال عمله.

ولأن النبي ﷺ أمر حفصة وعائشة أن تقضيا يوماً مكان يوم صامتاها نافلة وكانتا قد

(١) «صحيح البخاري» برقم (١٩٢٥، ١٩٢٦) و«صحيح مسلم» برقم (١١٠٩) ومالك (٢٨٩/١) والنسائي في «الكبرى» (٢٩٣٣) وابن أبي شيبة (٨٠/٣).

(٢) «صحيح مسلم» (١١٠٩).

(٣) مسلم (١١١٠) وأبو داود (٢٣٨٩) والنسائي في «الكبرى» (٣٠٢٥) ومالك (٢٨٩/١) والشافعي في «شفاء العي» (٦٩١).

(٤) «صحيح مسلم» برقم (١١٠٩).

أفطرتا بسبب طعام أهدي إليهما وأعجبهما فأفطرتا وأكلتا منه .

٢- وقال الشافعية والحنابلة: ليس عليه قضاء؛ لأن من صام تطوعاً فإنه أمير نفسه، كما جاء في الحديث .

٣ - وذهب المالكية إلى أنه إن أبطله بنفسه فعليه القضاء، وإن طرأ عليه ما يفسده فلا قضاء عليه .

فالمسألة إذاً خلافية، ولعل تفصيل المالكية أرجح؛ لأن قطع الصيام بدون عذر يُعد عبثاً ومللاً من الطاعة وإبطالاً للعمل الصالح، فإن كان هناك عذر مشروع اقتضى منه أن يفطر، فلا يلزمه القضاء للفرقة بين الصوم الواجب والصوم المندوب .

والعذر المشروع هو الذي يبيح الإسلام الإفطار من أجله في صيام النافلة:

كقدوم ضيف، وإجهاد ومشقة، ورغبة جامحة في قضاء الوطر ونحو ذلك .

الْحُكْمُ الشَّرْعِيُّ الْخَامِسُ: أَحْكَامُ الْإِعْتِكَافِ

﴿وَلَا تُبَشِّرُوهُمْ وَأَنْتُمْ عَنْكُمْ فِي الْمَسْجِدِ تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلَا تَقْرَبُوهَا كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾

أي لا تقربوا نساءكم حال اعتكافكم في بيوت الله، فإن الجماع يبطل الاعتكاف، وما حرمه الله عليكم في هذه الآيات، من الأكل والشرب والجماع بالنسبة للنساء، وما حرمه من إتيان النساء حال الاعتكاف، كل ذلك من حدود الله التي حدّها لعباده، فلا تقتربوا منها بشكل مباشر، ولا بوسيلة من الوسائل الموصلة إليها، وبالنسبة للنواهي يقول تعالى (فلا تقربوها) أما بالنسبة للأوامر فيقول سبحانه (فلا تعتدوها) أي لا تتجاوزونها، وبمثل هذا البيان، بين الله للناس آياته حتى لا يبقى لهم عذر ولا حجة، ويكون ذلك سبباً لتقوى الله تعالى .

١- تعريف الاعتكاف: العكوف: هو الإقبال على الشيء وملازمته .

وتعريفه الشرعي: هو الاحتباس في المسجد على سبيل القربة .

وقال ابن حزم: هو الإقامة في المسجد بنية التقرب إلى الله تعالى ساعة فما فوقها ليلاً أو نهاراً .

٢- حكمة مشروعيته وأدلته: والاعتكاف من الشرائع القديمة، وفيه تقرب إلى الله تعالى بالمكث في المسجد، وحبس للنفس على عبادة الله تعالى، وقطع للعلائق مع الخلائق، والاتصال بالخالق، وإخلاء للقلب من الشواغل عن ذكر الله تعالى، والتفرغ لعبادته سبحانه بالتفكير والذكر، وقراءة القرآن، والصلاة، والدعاء، والتوبة، والاستغفار؛ ففي الاعتكاف صلاح القلب، واستقامته على الطريق السوي، وقد شرع الاعتكاف للخلوة والانقطاع والإقبال على الله تعالى؛ كي يستبدل بحب الدنيا والإقبال عليها حب الله تعالى والإقبال عليه سبحانه.

٣- حكم الاعتكاف: أجمع العلماء على أنه سنة، وتتأكد هذه السنة في المساجد في العشر الأواخر من شهر رمضان، فقد داوم عليه النبي ﷺ كل سنة تقريباً إلى الله تعالى، واعتكف معه أزواجه، واعتكفن بعده.

والاعتكاف سنة شبه معطلة تحتاج من الفقهاء والأئمة والمؤذنين ووجهاء الناس وأعيانهم أن يبدأ كل في مسجده بإحيائها؛ كي يقتدي بهم غيرهم. فهو أكد من العمرة في رمضان، ومع ذلك فالناس تهتم بها أكثر من الاعتكاف. وهو من السنن المهجورة غالباً في أيامنا هذه، والناس يتهيبون مخالفة بعضهم، ومن أحياء سنة فقد أمات بدعة، وله أجر السنة التي أحيها وأجر من عمل بها إلى يوم القيامة من غير أن ينقص من أجورهم شيء.

ويمكن للمسلم أن يعتكف ويزاول عمله الذي لا بد منه، فيخرج صباحاً إلى عمله ويعود منه إلى المسجد، فيجمع بين هذا وذاك، إن كان ولا بد من العمل في هذا الوقت.

وكثير من المساجد في وقتنا الحاضر مهياة بالفرش والمرافق العامة، والمصاحف والمكتبات والطعام والشراب.

٤- متى يجب الاعتكاف؟

ويجب الاعتكاف بالنذر، فإذا ألزم الإنسان نفسه به وجب عليه أن يفى بما نذر.

في صحيح مسلم وغيره أن عمر رضي الله عنه نذر في الجاهلية أن يعتكف ليلة في المسجد الحرام، فقال له النبي ﷺ: «أوف بنذرك»^(١).

(١) من حديث عمر في «المسند» برقم (٢٥٥، ٤٧٠٥) والبخاري برقم (٢٠٤٢) ومسلم برقم (١٦٥٦) وأبي داود برقم (٣٣٢٥) وابن ماجه (١٧٧٢، ٢١٢٩) والترمذي (١٥٣٩) والنسائي (٣٣٣٥، ٤٧٤٣).

وفي الحديث المتفق على صحته عن عائشة رضي الله عنها أن رسول الله ﷺ قال: «من نذر أن يطيع الله تعالى فليُطِعه ومن نذر أن يعصيه فلا يعصه»^(١).

ومن نذر الاعتكاف في المسجد الحرام لم يَجُزْ له الاعتكاف في غيره، وإن نذر الاعتكاف في غيره اعتكف فيه أو في المسجد الحرام.

خلاصة الحكم: فالاعتكاف إذن يكون مندوباً إليه بمجرد نية الاعتكاف في أي وقت، ويكون سنة مؤكدة في العشر الأواخر من رمضان، ويكون واجباً بالنذر.

٥ - شروط الاعتكاف: ويشترط في المعتكف أن يكون مسلماً عاقلاً مميزاً، نائياً للاعتكاف، طاهراً من الجنابة ومن الحيض والنفاس، وأن يكون الاعتكاف في مسجد.

واختلف في اشتراط الصيام وتحديد المدة، ولعل الأرجح عدم اشتراطهما.

وجمهور العلماء على أنه يجوز الاعتكاف في كل مسجد من المساجد لعموم قوله تعالى: ﴿وَأَنْتُمْ عَنْكُمُوهٌ فِي الْمَسْجِدِ﴾. والمسجد الجامع أفضل، وذلك بالنسبة للرجل.

٦- اعتكاف المرأة:

والمرأة يجوز لها أن تعتكف في المسجد عند أمن الفتنة بشرط إذن زوجها إن كان لها زوج.

وقد صح أن أزواج النبي ﷺ اعتكفن في المسجد النبوي.

وإن حاضت المرأة بطل اعتكافها وخرجت من المسجد، فإن طهرت عادت وأكملت.

ويسن لها الاستتار بخباء في مكان لا يصلّي فيه الرجال.

وجمهور العلماء على اشتراط الصوم له، واختار بعضهم جواز الاعتكاف بغير صوم في

غير شهر رمضان، واختلافهم اجتهادي وليس عن نص.

وما ورد في ذلك من ضرورة اقتران الاعتكاف بالصوم، فهو محل نظر؛ لأن ما ورد في

ذلك آثار لا تخلو من ضعف أو نكارة، ولا شك أنه مع الصيام أفضل، وقد اعتكف

(١) من حديث عائشة في «المسند» برقم (٢٤٠٧٥، ٢٤١٤١، ٢٥٨٧٧) والبخاري برقم (٦٦٩٦) وأبو داود

(٣٢٨٩) والترمذي (١٥٢٦) وابن ماجه (٢١٢٦) وابن حبان (٤٣٨٧) والنسائي في «الكبرى» (٤٧٢٩)،

(٤٧٣٠، ٤٧٣١)

النبي ﷺ في شوال .

٧- هل المدة شرط في الاعتكاف؟ يجوز للمسلم إذا جلس في المسجد فترة ما بين المغرب والعشاء مثلاً، أو بعد العشاء، أو العصر، أو الظهر، لمدة ساعة مثلاً، أو ساعة قبل الجمعة، أو أكثر أو أقل من ذلك، يجوز له أن ينوي الاعتكاف في هذه المدة، وله أجرها إن شاء الله تعالى، وهذا ما قاله الشافعي .

وقال الأحناف: أقله يوم وليلة . وقال مالك: عشرة أيام .

ويُستحب للمعتكف الإكثار من ألوان الطاعات المختلفة، فرائضها ونوافلها، وعلى رأسها قراءة القرآن والسنة وفهم معانيهما وأحكامهما، والإكثار من صلاة النوافل، وأن يكثر من التفكير في آلاء الله تعالى، وفي حاله ومآله ودينه وآخرته، وأن يجتنب ما لا يعنيه من الأقوال والأفعال، ومنها اللغو والمراء والجدال والسباب، وأن يلزم مكانه في المسجد لا يبرحه إلا لضرورة ثم يعود .

٨ - متى يبدأ الاعتكاف؟ ومتى ينتهي؟ يبدأ الاعتكاف في عشر رمضان الأخيرة بأن يدخل المعتكف في المسجد قبل غروب شمس اليوم العشرين من شهر رمضان، ثم يدخل مكانه المخصوص به بعد صلاة فجر اليوم الحادي والعشرين من شهر رمضان كما جاء في الصحيحين من حديث عائشة ؓ: أن النبي ﷺ صلى الفجر ودخل معتكفه^(١) .

وقال الأئمة الأربعة وغيرهم: يدخل المعتكف معتكفه قبل غروب شمس الحادي والعشرين، وأولوا الحديث السابق على أن المعتكف يدخل معتكفه، وينقطع عن الناس، ويختلي بنفسه بعد صلاة الصبح، لا أن ذلك وقت بدء الاعتكاف .

ويمكث المعتكف في المسجد إلى أن يخرج منه إلى صلاة العيد وهو المستحب، أو يخرج عند غروب شمس آخر يوم من رمضان .

وفي غير رمضان يتدئ الاعتكاف متى شاء، وينتهي متى شاء، وله أن يعتكف يوماً أو يومين، أو أكثر أو أقل، فيدخل متى شاء وينتهي متى شاء، طال الوقت أو قصر .

(١) البخاري (٢٧٥/٤) برقم (٢٠٣٣، ٢٠٤٥) ومسلم (٨٣١/٢) برقم (١١٧٢) .

٩ - قضاء الاعتكاف: ومن شرع في الاعتكاف متطوعاً ثم قطعه استُجِبَّ له قضاؤه؛ لفعل النبي ﷺ حيث قضاؤه في شوال^(١).

ومن دخل في الاعتكاف وهو ينوي مدة معينة، لا يحل له قطعها إلا لعذر موجب للخروج، وعليه القضاء، ولا يقطع العبادة بغير عذر إلا مَنْ مَلَّها أو كان عابثاً. أما من نذر أن يعتكف، ثم شرع فيه وأفسده، وجب عليه قضاؤه.

١٠ - من أدلة مشروعية الاعتكاف:

قال تعالى: ﴿وَطَهَّرَ بَيْتَیَ لِلطَّائِفِينَ وَالْقَائِمِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ﴾ [الحج: ٢٦]

وقال: ﴿طَهَّرَا بَيْتَیَ لِلطَّائِفِينَ وَالْعَاكِفِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ﴾ [البقرة: ١٢٥]

وروى البخاري بسنده وغيره عن أبي هريرة ؓ قال: «كان النبي ﷺ يعتكف في كل رمضان عشرة أيام، فلما كان العام الذي قُبِضَ فيه اعتكف عشرين يوماً»^(٢).

وفي الصحيحين وغيرهما عن عائشة ؓ «أن النبي ﷺ كان يعتكف العشر الأواخر من رمضان حتى توفاه الله ﷻ ثم اعتكف أزواجه من بعده»^(٣) وذلك لتحري ليلة القدر فيها.

١١ - ما يباح للمعتكف وما يكره له:

ويباح للمعتكف أن يأكل ويشرب في المسجد وينام فيه، مع المحافظة على نظافته وصيانه.

ويباح له الكلام المباح لحاجته أو محادثة غيره، من غير لغو ولا مراء.

ويباح له ترجيل شعره، وتقليم أظافره ولبس أحسن ثيابه والتطيب.

ويجوز له الخروج من المسجد لتوديع أهله كما ودَّع النبي ﷺ زوجته صفية وهو معتكف ثم عاد^(٤).

(١) يُنْظَرُ: البخاري (٢٠٣٣، ٢٠٤٥) ومسلم (١١٧٢) وأبو داود (٢٤٦٤) وابن ماجه (١٧٧١) والترمذي (٧٩١) والنسائي في «الكبرى» (٧٩٠، ٣٣٣١).

(٢) البخاري (٤٤٢٠، ٤٩٩٨) وأبو داود (٢٤٦٦) وابن ماجه (١٧٦٩) والنسائي في «الكبرى» (٣٣٢٩، ٧٩٣٨) والمسند (٨٤٣٥).

(٣) البخاري (٢٠٢٦) ومسلم (١١٧٢) وأبو داود (٢٤٢٦) والمسند (٢٤٦١٣) والنسائي في «الكبرى» (٣٣٢٢، ٣٣٢٤) وعن سعيد بن المسيب (٣٣٢٣).

(٤) يُنْظَرُ: الحديث في البخاري برقم (٢٠٣٥، ٦٢١٩) و«صحيح مسلم» برقم (٢١٧٥) من حديث صفية رضي الله عنها.

كما يخرج المعتكف للعلاج، وأداء الشهادة، والتقاضي، ونحو ذلك.
ويكره للمعتكف فضول الكلام والنظر والاشتغال بما لا يُستحب، وما يمكن الاستغناء عنه، وكل ما فيه إثم.

١٢ - ما يُبطل الاعتكاف

أ - يبطل الاعتكاف بمجامعة النساء ليلاً أو نهاراً: قال تعالى: ﴿وَلَا تُبَشِّرُوهُنَّ وَأَنْتُمْ عَلَيْكُمْ فِي الْمَسْجِدِ﴾ أي: أنه يحرم على المعتكف -حرمة متفقاً عليها- مباشرة النساء مطلقاً مادام معتكفاً في مسجده.

ويبطل الاعتكاف بما يثير الجماع ودواغيه ومقدماته.

لأن حقيقة المباشرة: وضع البشرة على البشرة، فيعم كل ما يحقق المعنى.
ويقصر الأحناف المباشرة على الجماع فقط، فالمباشرة بغير شهوة عندهم لا تُفسد الاعتكاف؛ لأن عائشة ؓ كانت ترجل شعر النبي ﷺ وهو معتكف.

ب- ويبطل الاعتكاف بالردة والخروج عن الإسلام، والعياذ بالله.

ج - ويبطل أيضاً بالحيض والنفاس بالنسبة للمرأة.

د - وينقص أجر الاعتكاف بالاشتغال بمحرّم: كالغيبة، والنميمة، والكذب، والتجسس، والنظر المحرم، والقراءة الساقطة.

هـ - ويبطل الاعتكاف أيضاً بالخروج من المسجد لغير حاجة ولو قل، وبذهاب العقل بجنون أو سُكْر.

متى يجوز للمعتكف الخروج من مسجده؟ والخروج من المسجد بالنسبة للمعتكف له أحوال:

أولها: الخروج لأمر لابد منه طبعاً أو شرعاً، كقضاء حاجة البول والغائط، والوضوء أو الغسل الواجب، والأكل والشرب، فهذا جائز -إذا لم يكن في المسجد حمام داخلي- ويؤتى إليه بالمأكل والمشرب، وإذا لم يجد من يأتي له بالطعام والشراب في المسجد، فلا يُمنع من إحضاره بنفسه بقدر الضرورة.

ثانيها: أن يخرج لأمر فيه طاعة لا تجب عليه، كعيادة مريض وشهود جنازة ونحوهما،

ولا يفعل ذلك إلا أن يشترطه في ابتداء اعتكافه، وله أن يشترط الخروج لأداء عمله الرسمي، ثم يعود إلى معتكفه.

ثالثها: أن يخرج من المسجد لأمر يتنافى مع الاعتكاف؛ كالبيع والشراء ومباشرة أمور أهله، فليس له أن يفعل ذلك، سواء اشترط ذلك أم لم يشترط؛ لأنه يتنافى مع المقصود من الاعتكاف ويتناقض معه.

وإذا ذهب إلى منزله لحاجة ضرورية لا بدَّ له منها كإحضار الأكل، فلا يحل له أن يثبت فيه إلا بمقدار ما يفرغ من حاجته تلك، من قضاء الغائط أو الأكل أو الملبس ونحو ذلك، وليس له أن يُقبِّل امرأته، ولا أن يضمها إليه، ولا أن يشتغل بشيء سوى اعتكافه.

قال ابن عباس في تفسير الآية: هذا في المعتكف في المسجد قد حرم الله عليه في رمضان أو غيره أن ينكح النساء ليلاً أو نهاراً حتى يقضي اعتكافه.

وختمت أحكام الصيام بقوله تعالى: ﴿تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ﴾ أي: هذه الأحكام من الصيام والدعاء والاعتكاف حدود الله فلا تقتربوا منها، ولا تنتهكوا حرمتها، ولا تعتدوها؛ فإن من يقترب من الحد، وهو الحاجز الذي يفصل بين الحق والباطل، والحلال والحرام، والخير والشر، يوشك أن يقع فيه، وحدُّ الدار ما يمنع من الدخول فيها، ويُطلب البعد عن طرفها حتى لا يلج فيها، والإنسان لا يأمن نفسه في كل وقت، فأحرى به أن يبتعد عن المحظورات، وألا يقترب من الشهوات والشبهات، وبمثل هذا البيان الواضح، يبيِّن الله لكم معالم دينه، وأحكام شريعته لعلكم تتقون ما حُرِّم عليكم فلا تقعوا فيه، وتتقوا الله وتخشوه فتنجوا من العذاب.

والمعنى الإجمالي للآية: أن الآية الأولى تشير إلى أن الصيام كان في بادئ الأمر، يبدأ من صلاة العشاء، أي: أن مدة الإفطار التي يجوز للصائم فيها أن يأكل ويشرب ويأتي أهله، كانت فترة محددة من المغرب إلى العشاء.

وقد كان هذا ما عليه النصارى حين جاء الإسلام.

وقد ظن المسلمون أن هذا الحكم يسري عليهم، أي: أن الصائم إذا صلى العشاء أو

نام قليلاً فإنه لا يجوز له أن يأكل أو يشرب أو يأتي أهله .

ولما كانت مدة الإفطار قصيرة جداً، فقد تسبب هذا في وقوع الحرج والجهد لبعض المسلمين؛ حيث إن بعضهم كان يعمل في حقله أو مزرعته فيأتي مساءً، وربما لا يكون الطعام معداً أو لا تسعفه الظروف أن يأكل في هذه الفترة الوجيزة من المغرب إلى العشاء فلا يأكل ويصبح صائماً، فيترتب عليه مواصلة الصيام إلى مغرب اليوم التالي .

وقد حدث ذلك لرجل يدعى (قَيْسُ بْنُ صِرْمَةَ) فقد أصيب بالإعياء والإجهاد من جراء ذلك، فنام قبل أن يأكل شيئاً، وواصل صيامه، وعابت عليه زوجته أن أخذه النوم وكأنها كانت تريد منه ما يحدث بين الزوج وزوجه، وقد حدث مثل ذلك لبعض الصحابة، منهم: عمر بن الخطاب، وكعب بن مالك رضي الله عنه؛ فأنزل الله هذه الآية ليرفع الحرج عن المسلمين، ويوسع عليهم الوقت الذي يجوز للصائم فيه أن يأكل ويشرب ويأتي أهله، وأن يمتد ذلك إلى أذان الفجر، فقال سبحانه: ﴿أَحَلَّ لَكُم لَيْلَةَ الصَّيَامِ الرَّفَثُ إِلَى نِسَائِكُمْ﴾ أي: يجوز ويباح أن يأتي الرجل أهله في ليالي الصيام ﴿هُنَّ لِيَاسٌ لَكُمْ﴾ ستر وحفظ لكم ﴿وَأَنْتُمْ لِيَاسٌ لَهُنَّ﴾ ستر وحفظ لهن، وهنا كناية عن عدم المفارقة والتلاصق والتلاحم الشديد الذي يحدث بين الرجل والمرأة ﴿عَلِمَ اللَّهُ أَنَّكُمْ كُنْتُمْ تَخْتَانُونَ أَنْفُسَكُمْ﴾ بمخالفة ما حرم الله عليكم من مجامعة النساء بعد العشاء في ليالي رمضان في المدة السابقة؛ حيث وقع ذلك من بعضكم فأتى أهله بعد العشاء ﴿فَنَابَ﴾ الله ﴿عَلَيْكُمْ وَعَفَا عَنْكُمْ﴾ ما حدث منكم فيما مضى، وشرع لكم بدءاً من نزول هذه الآية إتيان النساء في ليالي رمضان .

﴿فَأَلْفَنَ﴾ بعد هذه الرخصة والتوسعة ﴿بَيِّنُوا لَهُنَّ﴾ وَطاً وَقُبلةً وَلَمَساً ونحو ذلك أي: يحل لكم أن تجامعوا نساءكم في شهر رمضان ليلاً قبل أذان الفجر ﴿وَابْتَغُوا﴾ أي: اطلبوا بهذه المباشرة وبهذا الجماع ﴿مَا كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ﴾ من النسل والذرية والولد، والعفة، وهذا الشق من الآية يتناول جماع النساء في ليالي رمضان، ومما كتب الله لكم: التماس ليلة القدر وإحيائها بالطاعة .

ثم تحدثت الآية بعد ذلك عن وقت الإفطار فقال سبحانه: ﴿وَكُلُوا وَاشْرَبُوا﴾ أي: استمروا في ذلك، لا إلى صلاة العشاء، وإنما إلى أذان الفجر حيث يظهر لكم النور الصادق المنتشر في الأفق من الفجر، ويتميز من ظلمة الليل ﴿حَتَّى يَبَيِّنَ لَكُمُ الْخَيْطُ الْأَبْيَضُ

مِنَ الْخَيْطِ الْأَسْوَدِ مِنَ الْفَجْرِ ﴿١٨٧﴾ ولم يكن وقت نزول الآية مكبرات للصوت ترفع الأذان وتبلغه للناس، ولم توجد وسائل إعلام مختلفة يعرف من خلالها بدء الوقت ونهايته؛ كالإذاعة والتلفاز والصحف، ولم تكن هناك الساعات ولا التقاويم التي تحدد للناس لهم بالثانية والدقيقة وقت الأذان، فكان الناس يجتهدون في ذلك بترقب علامات ظهور الغروب وطلوع الفجر في الأفق حتى نزل القرآن الكريم؛ ليبين أنه يحل للصائم الطعام والشراب وإتيان النساء إلى أن يظهر بياض النهار من ظلام الليل، وهذا معنى تبين الخيط الأبيض من الخيط الأسود، أي: حتى يطلع الفجر الصادق، ويتبين النهار من ظلام الليل، ولكن بعض الصحابة أخذ بظاهر الآية فأتى بعضهم بخيط أبيض وخيط أسود وربطه في رجله، أو وضعه تحت وسادته، حتى يفرق بين الليل والنهار فيمتنع عن الطعام والشراب.

وجاء عدي بن حاتم بعقال أبيض وعقال أسود ووضعهما تحت وسادته، ولما بلغ النبي ﷺ ذلك بين لهم أن المراد ظهور بياض النهار من سواد الليل بطلوع الفجر.

وكان أهل الكتاب لا يتسحرون لضيق الوقت، ولما رفع الإسلام الحرج عن المسلمين وامتد وقت الإفطار من المغرب إلى الفجر، شرع أكلة السحور.

ولذلك قال النبي ﷺ كما في صحيح مسلم عن عمرو بن العاص أن رسول الله ﷺ قال: «فصل ما بين صيامنا وصيام أهل الكتاب أكلة السحر»^(١).

وفيه إشارة إلى أن أهل الكتاب كانوا لا يتسحرون، وأن فرق أو فصل ما بين صيامنا وصيام أهل الكتاب وجبة السحور، ورغب النبي ﷺ فيها فقال فيما يرويه أنس رضي الله عنه: «تسحروا فإن في السحور بركة»^(٢).

وفي تأخير السحور إلى قرب أذان الفجر قال ﷺ فيما يرويه ابن عمر: «إن بلااً يؤذن بليل، فكلوا واشربوا حتى يؤذن ابن أم مكتوم»^(٣).

(١) مسلم (١٠٩٦) وأبو داود (٢٣٤٣) والترمذي (٧٠٩) والنسائي (٢١٦٥) وابن أبي شيبة (٨/٣).

(٢) البخاري (١٩٢٣) ومسلم (١٠٩٥) والترمذي (٧٠٨) والنسائي (٢١٤٥).

(٣) البخاري (٦١٧، ٧٢٤٨) ومسلم (١٠، ٣٦-٣٨، ٩٢) والترمذي (٢٠٣) و«المسند» (٤٥٥١) وابن حبان

(٣٤٦٩) والنسائي في «السنن الكبرى» (١٦١٣).

وكان عبد الله ابن أم مكتوم يؤذن الأذان الثاني، أي: عند ظهور الفجر الصادق، فإذا أذن الفجر الصادق وجب الامتناع عن شهوتي البطن والفرج فوراً دون انتظار لانتهاؤ الأذان.

وإذا أكل الصائم أو شرب ظناً منه أن الفجر لم يؤذن ثم تبين خلاف ذلك، وكذا لو أكل أو شرب عند غروب الشمس ظناً منه أنها قد غربت وتبين خلاف ذلك؛ فإنه يجب عليه القضاء في الحالتين كما عليه جمهور الفقهاء؛ لأنه يجب عليه أن يتثبت ويتأكد من وسائل الإعلام وغيرها قبل أن يفطر أو يمस्क، ولا يُعذر الإنسان في هذا العصر بتقصيره ولا بتفريطه ولو كان في أقصى الشرق أو الغرب؛ لأن وسائل المعرفة ملء السمع والبصر، اللهم إلا إذا كان هناك ضرورة ملحة، كأن يحتاج إلى تناول جرعة من الدواء أو من الماء فإن له أن يأخذها في بدء الأذان أو في أثنائه حال استيقاظه فجأة من نومه، ولا ينبغي أن يكون هذا ديدنه وعادته، وإنما يجب عليه أن يمثل أمر الله سبحانه بمجرد التكبير عند سماع الأذان فيلعل ما في فمه ولا يزيد عليه.

وتعجيل الفطر لا تحتاج إلى توصية، فالناس يعجلون الفطر عادة بمجرد أذان المغرب.

وإذا أكل مرة واحدة ثم صلى المغرب وأدركه مع الجماعة فلا حرج في ذلك؛ لأن الصلاة تُكره بحضرة الطعام الذي يشتهي الإنسان.

وإن أفطر على تمرات وصلى المغرب، ثم تناول وجبة الإفطار فلا حرج أيضاً في ذلك، قال سبحانه: ﴿ثُمَّ أَتَمُوا الصِّيَامَ إِلَى اللَّيْلِ﴾ بالإمساك عن المفطرات إلى دخول الليل بغروب الشمس، أي: أن الصيام يبدأ من أذان الفجر إلى غروب الشمس.

أما قوله تعالى: ﴿وَلَا بُشْرُوهُنَّ وَأَنْتُمْ عَلَىٰ كِفَتِكُمْ فِي الْمَسْجِدِ﴾ فهو استثناء من الآية، أي: أن المعتكف الصائم، وهو في بيت الله، في شهر رمضان أو في غيره، يحرم عليه أن يقرب امرأته ليلاً أو نهاراً.

وتحريم الجماع نهاراً بالنسبة للصائم أمر عام يبطل به الصيام.

أما بالنسبة للمعتكف فلا يحل له أن يقرب النساء ليلاً ولا نهاراً بطبيعة الحال ويبطل الاعتكاف بذلك.

كما أنه لا ينبغي أن يحدث من المعتكف رفث أو لغو أو تقبيل ونحو ذلك مما يتعارض

مع سنة الاعتكاف، قال سبحانه: ﴿تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ﴾ التي شرعها لكم، ففيها الحدود الفاصلة بين الحلال والحرام، إشارة إلى الصيام والدعاء والاعتكاف وغيرها من الأحكام الشرعية في الآيات: ﴿فَلَا تَقْرُبُوهَا﴾ لا تعتدوها ولا تنتهكوها ولا تخالفوها؛ حتى لا تقعوا فيها، فإن من حام حول الحمى يوشك أن يقع فيه ﴿كَذَلِكَ﴾ بمثل هذا البيان ﴿يَبَيِّنُ اللَّهُ لِنَاسٍ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾ الله ويجتنبون محارمه.

أيها المسلمون: أخرجوا زكاة الفطر في نهاية شهر الصيام؛ فإن زكاة الفطر طهرة للصائم من اللغو والرفث، وجبر لما حدث في صيامه من الخلل والنقص، شأنها شأن صلاة النافلة بعد الفريضة، وهي طعمة للمساكين، وإغناء لهم عن ذل السؤال في يوم العيد.

أيها المسلمون: تابعوا بين الحسنة والحسنة، والعمل الصالح، ولا تقطعوا الأعمال الصالحة بعد شهر رمضان، صوموا ستة من شوال، فقد بين النبي ﷺ أن من صام رمضان ثم أتبعه بست من شوال فكأنما صام الدهر كله، واحرصوا على الصيام المستمر على مدار العام في عشر ذي الحجة، وفي الأشهر الحرم، وشهر الله المحرم، ويوم عاشوراء، وفي شهر شعبان، وفي يوم الإثنين والخميس، وفي الأيام الثلاثة البيض من كل شهر قمري، كل ذلك مسنون ومشروع على مدار العام.

لا تقطعوا صلاة التهجد؛ فإن صلاة التهجد مشروعة في رمضان وفي غير رمضان ﴿وَمَنْ أَلَّ لِيْلٍ فَتَهَجَّدْ بِهِ نَافِلَةً لَّكَ عَسَىٰ أَنْ يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا﴾ [الإسراء]

وقد وصف الله سبحانه الذين يقومون من الليل ويصلون في وقت الأسحار بأنهم ﴿تَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ﴾ [السجدة]

ولم يسو الإسلام بين من يغط في نوم عميق، وبين من يحيي ليله متعبداً متهجداً ﴿أَمَّنْ هُوَ قَلِيلٌ مِّنْ أَتَاءِ أَلْيَلٍ سَاجِدًا وَقَائِمًا يَحْذَرُ الْآخِرَةَ وَيَرْجُوا رَحْمَةَ رَبِّهِ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾؟ [الزمر: ٩] لا تقطعوا صلاة التهجد بعد شهر رمضان، فقد حافظتم على صلاة الفجر في شهر رمضان، فحافظوا عليها بعد شهر رمضان، واخرجوا بهذه الفائدة، واعلموا أن مما يعينكم على ذلك: النوم مبكراً؛ فإن من سنة الإسلام النوم عقب صلاة العشاء، ولا ينبغي للمسلم أن يسهر إلا لضرورة ملحة، فيها نفع له أو للمسلمين، نفع أخروي أو دنيوي، بحيث لا يؤدي هذا العمل في النهار.

إن أجهزة الإعلام قد خربت علينا بيوتنا، وخربت علينا أبنائنا، وخربت علينا نفوسنا، وأصبح الناس في لهو مع هذه الأجهزة وينامون عن صلاة الفجر.

إن المسلم الذي يُعد نفسه للقيام لصلاة الفجر دائماً يتعود النوم المبكر، وتكون صلاة الفجر عليه سهلة يسيرة، أما غيره فإنها تكون عليه كالجبل الأشم.

بعض الناس يقوم مذعوراً لأداء العمل، وإذا تأخر ربع ساعة أو خمس دقائق فإنه يخاف ويحزن!!

والذي يهتم بقيامه من النوم قبيل العمل بمقدار ما يتسع لملابسه وطعامه ونحو ذلك، ينبغي عليه أن يهتم من باب أولى بما خلقه الله من أجله، فالله تعالى لم يخلقه للعمل اليومي، وإن كان مطلوباً منه هذا العمل فلا بد له من السعي على المعاش، وإنما خلقه أساساً للعبادة ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ (٥١) مَا أُرِيدُ مِنْهُمْ مِنْ رِزْقٍ وَمَا أُرِيدُ أَنْ يُطْعِمُونِ (٥٧) إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ (٥٨) [الذاريات].

الْحُكْمُ السَّادِسُ: الصَّيَامُ الْمُسْتَمِرُّ عَنْ أَكْلِ الْحَرَامِ

١٨٨ - ﴿وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ وَتُدْلُوا بِهَآ إِلَى الْحُكَّامِ لِتَأْكُلُوا فَرِيقًا مِّنْ أَمْوَالِ النَّاسِ بِالْإِثْمِ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ (١٨٨)

هذه الآية لها ارتباط وثيق بآيات الصيام؛ فهي متممة ومكملة لها، فكأن الله ﷻ يقول لنا: إن الله تعالى قد أوجب عليكم صوماً من نوع آخر، وهو أنه قد حرم عليكم بصفة دائمة أكل أموال الناس، بأن يأكل بعضكم مال بعض، بأي لون من ألوان الباطل:

بالأيمان الفاجرة الكاذبة، بطريق التعدي والغضب والنهب والسلب، بطريق اللهو والمقامرة، ووجوه الكسب غير المشروع، كالغناء والملاهي، والاتجار في الخمر والمخدرات، بطريق الرشوة والهدية التي تأخذ حكمها، وشهادة الزور، والظلم وخيانة الأمانات، والودائع ونحو ذلك.

﴿وَتُدْلُوا بِهَآ إِلَى الْحُكَّامِ﴾ أي: حرم عليكم أن تدفعوا الرشوة إلى القضاة، أو ولاة الأمور، أو الموظفين.

وهذه الآية تشمل رشوة الحُكْم وشهادة الزور، وقد حرم الإسلام ذلك؛ لئلا تأكلوا عن

طريق التخاصم والتقاضى أموال طائفة من الناس ظلماً وعداؤناً ﴿لَتَأْكُلُوا فَرِيقًا مِّنْ أَمْوَالِ النَّاسِ﴾ ظلماً ﴿وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ أنكم على باطل وأنكم تأكلون محرماً، فإذا صام المسلم عن الحلال في رمضان، فأولى به أن يصوم عن الحرام طيلة حياته.

عن أبي حميد الساعدي رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «لا يحل لامرئ أن يأخذ مال أخيه بغير حقه، وذلك لما حرم الله مال المسلم على المسلم»^(١).

وقد يحتال الإنسان لأخذ مال أخيه بطريقة من الطرق كأن يكون ممن يُحسن صناعة الكلام وقيام البراهين الكاذبة:

في الصحيحين وغيرهما عن أم سلمة ؓ أن رسول الله ﷺ قال: «إنما أنا بشر، وإنكم تختصمون إليّ، ولعل بعضكم يكون ألحن بحجته من بعض، فأقضي له بنحو ما أسمع، فمن قضيتُ له شيء من حق أخيه فإنما أقطع له قطعة من نار»^(٢).

فلا تُخاصم ولا تُجادل وأنت تعلم أنك ظالم وكاذب، فإن وبال ذلك عظيم، وعقابه وخيم.

قيل: نزلت هذه الآية في الرجل يكون عليه مال، وليس عليه بينة، فيجحد المال ويخاصم إلى القضاة وهو يعرف الحق عليه، وأنه يأكل حراماً.

وقيل: إن الآية نزلت في قضية عبدان الحضرمي وامرئ القيس، اختصما للنبي ﷺ في أرض فنزلت الآية.

والآية عامة، وفيها دليل على تحريم رشوة الحكام (القضاة) لاقطاع حقوق الناس بغير حق والإعانة على ذلك فالآية تشمل:

١- تقديم الأموال رشوة للحكام؛ ليقضوا لهم بغير حقهم ظلماً وعداؤناً، وبأكل أموال الناس بالإثم.

(١) «المسند» (٢٣٦٠٥) قال محققوه: إسناده صحيح. وأخرجه البزار في مسنده (٣٧١٧) بإسناد حسن، وابن حبان (٥٩٧٨) والبيهقي في الشعب (٥٤٩٣) وفي السنن (١٠٠/٦).

(٢) «صحيح البخاري» برقم (٢٤٥٨، ٢٦٧٩، ٦٩٦٧) و«صحيح مسلم» برقم (١٧١٣) ومالك (٧١٩/٢) والشافعي في «شفاء العي» (٦٢٨) وابن أبي شيبة (٢٣٣/٧).

٢- وتشمل رفع القضايا للحكام ارتكازاً على الحجة الداحضة، وما شابه ذلك من شهادة الزور والأيمان الكاذبة، واللحن في الحجة وبراعة الأسلوب، واللجاج في الخصومة عن طريق المحامين وغيرهم.

٣- وتشمل كذلك أخذ المال ظلماً أو سرقة أو غصباً ونهباً ونحو ذلك.

٤- وتشمل أخذه من طريق محظور؛ كالقمار، وأجرة الغناء، وسائر الوجوه المحرمة. والمال يطلق على العقارات الثابتة والمنقولة، ويطلق على المتاع كالأثاث ونحوه، ويطلق على الحيوانات والزروع والثمار، ويطلق على النقد أو العملة.

والإدلاء يكون ببذل الأموال أو بإلقاء الحجة، كمن يُرسل دلوّه في البئر ليحصل على مطلوبه، هذا: ولما كان أكل أموال الناس، منه ما هو بحق، ومنه مما هو بباطل، فقد قيده الله تعالى بالباطل ليدخل فيه ما كان على وجه الغصب أو السرقة أو الخيانة في ودیعة أو عارية، أو رشوة أو ظلم أو غش في البيع أو الشراء أو الإجارة، وكذا عقود الربا والقمار وأكل عرق الأجراء ونحو ذلك.

فَاللَّهُمَّ اكْفِنَا بِحِلَالِكَ عَنْ حَرَامِكَ، وَبِطَاعَتِكَ عَنْ مَعْصِيَتِكَ، وَبِفَضْلِكَ عَنْ سُوءِكَ.

ومن حكمة الله سبحانه أن ختم آيات الصيام بآية عجيبة تبين أنه إذا كان المسلم قد امتنع في شهر رمضان عما هو حلال عليه في غير الصيام، فامتنع عن الطعام والشراب وعن إتيان أهله، وكل ذلك حلال عليه في غير نهار رمضان، وإذا كان المسلم قد تعود ذلك طيلة شهر كامل فامتنع عن ما أحله الله له في غير رمضان، فإنه يجب عليه أن يخرج بنتيجة عملية وهي أن يمتنع بصفة مستمرة وأن يصوم صياماً دائماً عن أكل الحرام، وعن التدخين والمخدرات والمسكرات، وعن أكل أموال الناس بالباطل.

لقد ختمت آيات الصيام بهذه الآية ﴿وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ﴾ لتبين أنه كما أن الله تعالى قد حرم عليكم الطعام والشراب في نهار رمضان، فقد حرم عليكم وأوجب عليكم صياماً مستمراً أن لا تأكلوا أموال الناس: بالباطل، بالربا، بالسرقة، بالرشوة، بالظلم، بالمقامرة، بالغصب، بالنهب، والسلب، بالكسب غير المشروع، أو بالتجارة في المحرمات، أو بالعمل غير المشروع كمن يتخذ التلحين والعزف والأغاني مهنة له، ومن يتخذ

قراءة القرآن مهنة أو يتاجر في الدخان أو المسكرات، أو تدلوا بهذه الأموال فتعطونها إلى الحكام، أي: إلى القضاة ليحكموا لكم بالباطل، وتنصبوا محامياً يقلب الحقائق ويغير الأمور، ويكون ألحن بحجته من خصمه، فيقضي القاضي بنحو ما يسمع، كما بين النبي ﷺ في قوله: «إنما أنا بشر وإنكم تختصمون إليّ، ولعل بعضكم ألحن بحجته من بعض» -أي: أقدر على حسن الأسلوب- فأقضي له بنحو ما أسمع، فمن قضيت له شيء من حق أخيه فإنما أقطع له قطعة من النار^(١)، وهو نوع من أكل أموال الناس بالباطل.

الْأَهْلَةُ مَوَاقِيتُ لِلْعِبَادَاتِ وَغَيْرِهَا

١٨٩ - ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَهْلَةِ قُلْ هِيَ مَوَاقِيتُ لِلنَّاسِ وَالْحَجُّ وَلَيْسَ الْبِرُّ بِأَنْ تَأْتُوا الْبُيُوتَ^(٢) مِنْ ظُهُورِهِمْ وَلَكِنَّ الْبِرَّ^(٣) مَنِ اتَّقَى وَأَتُوا الْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَابِهَا وَأَتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾

ولأن شهر رمضان له توقيت معين من كل عام، ناسب ذلك ذكر بقية المواقيت، لإقامة النظام الإسلامي على أكمل وجه، وذكر الحج في الآية يشير إلى أن نزول هذه الآية كان متأخراً عن آيات الصيام، أي: بعد فتح مكة وتشريع الحج، وسؤالهم عن الأهلة، سؤال عن سبب زيادتها ونقصانها واختلاف أحوالها، وليس سؤالاً عن ذواتها، وقد صرف الله تعالى أنظارهم إلى مافيه صلاحهم في دنياهم وأخراهم، ببيان حكمتها وفائدتها، وما يترتب عليها من معرفة أوقات العبادات والمعاملات والعدة للنساء وغير ذلك. ومما ورد في سبب نزول ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَهْلَةِ﴾:

١- أن رسول الله ﷺ سئل عن زيادة الأهلة ونقصانها واختلاف أحوالها، لماذا خالف ربنا بين الأهلة وبين الشمس؟ فهي على حال لا تزيد ولا تنقص، ولكن الهلال يزيد وينقص، ويختفي ويحضر، فأنزل الله الآية جواباً لهم عما سألوا^(٤).

(١) ينظر: حديث أم سلمة في البخاري (٢٤٥٨، ٧١٨٥) ومسلم (١٧١٣).

(٢) قرأ ورش وأبو عمرو وحفص وأبو جعفر ويعقوب (البيوت) بضم الباء، حيث ما وقع في القرآن، وقرأ الباقر بكسر الباء للتخفيف ومجانسة الياء.

(٣) قرأ نافع وابن عامر (ولكن البر) بكسر النون ورفع البر على أنها مبتدأ، و (لكن) لا عمل لها، وقرأ الباقر (ولكن البر) بتشديد (لكن) ونصب (البر) على أنها اسم لكن.

(٤) قاله أبو جعفر الرازي: (٣/٥٥٣) بمعناه.

٢- وعن نافع عن ابن عمر رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «جعل الله الأهلة مواقيت للناس، فصوموا لرؤيته وأفطروا لرؤيته، فإن غمَّ عليكم فعدوا ثلاثين يومًا»^(١).

٣- وقيل: إن معاذ بن جبل وثعلبة بن غنم، قالا: يا رسول الله، ما بال الهلال يبدو دقيقًا، ثم يزيد حتى يمتلئ نورًا، ثم لا يزال ينقص حتى يعود دقيقًا كما بدأ، ولا يكون على حال واحدة؟! فأنزل الله الآية^(٢).

٤- وقال قتادة: سألو النبي ﷺ: لِمَ جُعِلَت الأهلة؟ فأنزل الله ﷻ: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَهْلَةِ﴾ الآية. فجعلها لصوم المسلمين، وإفطارهم، ولمناسكهم، وحجهم، ولعدة نسائهم، ومحل دينهم، والله أعلم بما يصلح خلقه^(٣).

٥- وورد مثل ذلك عن أبي العالية، ومجاهد، وابن عباس، وابن عمر^(٤).

وكان أصحاب النبي ﷺ في المجتمع الإسلامي الجديد بالمدينة المنورة يتحرّجون أن يفعلوا شيئًا، أو يقولوا شيئًا مما كانوا عليه في الجاهلية، قبل أن يتبينوا حكم الله تعالى فيه، فكانوا يسألون النبي ﷺ عن جميع شؤونهم وأقوالهم وأفعالهم قبل أن يُقدموا عليها؛ ليستوثقوا أنها من أحكام الإسلام، يسألونه عن الخمر، ويسألونه عن إتيان النساء وقت المحيض، ويسألونه عن النفقة في سبيل الله، ويسألونه عن اليتامى، ويسألونه عن الروح، ويسألونه عن ذي القرنين، ويسألونه عن الجبال، ويسألونه عن الساعة وغير ذلك.

ويلاحظ أن الله ﷻ لم يجبههم عن ماهية الهلال، أو عن وظيفته في المجموعة الشمسية، وإنما بين ﷻ على لسان رسوله ﷺ الحكمة والعلة في خلق الأهلة؛ لأن سؤالهم عن أحوال الأهلة لا تفيدهم شيئًا، فبيّن ﷻ أنها مواقيت للناس والحج، وخص الحج بالذكر لإبطال النسيء الذي كانوا يفعلونه من تأخير الأشهر الحرم عن موعدها.

(١) أخرجه الحاكم في «المستدرک» بسند صحيح (٤٢٣/١) والبيهقي في «السنن» (٢٠٤/٤) وأصله في «الصحيحين»، انظر: «إرواء الغليل» (٩٠٣).

(٢) أخرجه ابن عساکر بسند ضعيف عن ابن عباس كما في «الدر المنثور» (٣٠٥/٢).

(٣) الطبري (٢٨٠/٣).

(٤) تنظر الآثار الواردة في ذلك في «الدر المنثور» (٣٠٦/٢).

والأهله يَعْرِفُ الناس بها أوقات عباداتهم مثل: الصيام، والزكاة، والحج، ويعرفون مواعيد ديونهم ومعاملاتهم وعقودهم، وعدة المرأة وحيضها ونفاسها، وغير ذلك. وسُمِّي الهلال هلالاً لرفع الناس أصواتهم عند رؤيته، والحج من الأزمنة التي تُعرف بالهلال. ومما ورد في سبب نزول بقية الآية:

١- ما أخرجه البخاري وغيره عن البراء رضي الله عنه قال: كانوا إذا أحرموا في الجاهلية أتوا البيت من ظهره، فأنزل الله: ﴿وَلَيْسَ الْبِرُّ بِأَنْ تَأْتُوا الْبُيُوتَ مِنْ ظُهُورِهَا﴾^(١).
 ٢- وفي الصحيحين وغيرهما عن البراء رضي الله عنه أيضاً قال: نزلت هذه الآية فينا، فكانت الأنصار إذا حجُّوا فجاءوا لم يدخلوا من قبل أبواب البيوت، فدخل رجل من قِبَلِ بابه فكأنه غيّر بذلك فنزلت^(٢).

٣- وورد أن رفاعه بن الثابت دخل من الباب وهو محرم فأنكروا عليه، فنزلت الآية.

٤- قال البراء: كانوا إذا أحرموا في الجاهلية أتوا البيت من ظهره، فأنزل الله ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَهْلِ فَلَمْ يَكُنْ مِنْهُمْ نَافِلَةٌ لِلنَّاسِ وَالْحَجُّ وَلَيْسَ الْبِرُّ بِأَنْ تَأْتُوا الْبُيُوتَ مِنْ ظُهُورِهَا وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ اتَّقَى وَأَتَى الْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَابِهَا﴾^(٣).

٥- وعن جابر رضي الله عنه قال: كانت قريش تُدعى الحُمس، وكانوا يدخلون من الأبواب في الإحرام، وكانت الأنصار وسائر العرب لا يدخلون من باب الإحرام، فبينما رسول الله ﷺ في بستان إذ خرج من بابه، وخرج معه قُطْبَةُ بْنُ عَامِرٍ الأنصاري، فقالوا: يا رسول الله، إن قُطْبَةَ بْنَ عَامِرٍ رجل فاجر، وإنه خرج معك من الباب، فقال له: «ما حملك على ما صنعت؟» قال: رأيتك فعلت، ففعلت كما فعلت، قال: «إني رجل أخمس» قال: فإن ديني دينك، فأنزل الله ﴿وَلَيْسَ الْبِرُّ بِأَنْ تَأْتُوا الْبُيُوتَ مِنْ ظُهُورِهَا﴾^(٤).

(١) «صحيح البخاري» برقم (٤٥١٢) و«صحيح مسلم» برقم (٣٠٢٦).

(٢) يُنْظَرُ: البخاري (١٨٠٣، ٤٥١٢) ومسلم (٣٠٢٦) والطيالسي (٧٥٢) والطبري (٢٨٣/٣) وابن أبي حاتم (١٧٠٩).

(٣) البخاري (٤٥١٢) والطبري (٢٨٣/٣).

(٤) ابن حاتم (١٧١٠) والحاكم (٤٨٣/١).

٦- وعن ابن عباس: أن رجالاً من أهل المدينة كانوا إذا خاف أحدهم من عدوه شيئاً أحرَمَ فأمن، فإذا أحرَمَ لم يلج من باب بيته، واتخذ نقباً من ظهر بيته... (١).

وهذا ما كان عليه بعض أهل الجاهلية، وذلك أن الرجل من الحُمس، وهم: قريش، وخزاعة، وكنانة، وثقيف، وجُشم، وبنو نصر بن معاوية، ومدلج، وعدوان، وعضل، وبنو الحارث بن عبد مناة، وبنو عامر بن صعصعة، وكلهم من سكان مكة، ما عدا الأخير، والذي أدخلهم في الحُمس أن أمهم قرشية.

والحُمس: جمع أحمس، وهو المتشدد في الدين المغالي فيه، سُمُوا حُمسًا من الحماسة؛ وهي الشدة، كان أحدهم إذا أحرَمَ بالحج أو العمرة، فإنه لا يجعل بينه وبين السماء ظلًّا أو حاجزًا، فلا يستظل بمظلة، ولا يستظل بسقف بيت، ولا بسقف سيارة؛ مبالغة منهم في عدم تغطية الرأس.

وكانوا لا يقفون بعرفة، بل يقفون بمزدلفة، ويقولون: نحن أهل الله، فلا نخرج من الحرم. وكان أحدهم بعد أدائه العمرة أو الحج، إذا أراد أن يرجع إلى بيته، فإنه لا يدخل البيت من بابه، وإنما يدخله من جدار خلفي، أو من نافذة، أو يتخذ سُلَّمًا يصعد منه، وكذلك إذا خرج لسفر، ثم بدا له أن يرجع فإنه لا يدخل البيت من بابه وإنما يتسَوَّر من ظهره، ومثله إذا رجعوا من عيدهم، ونحو ذلك، ويعتبرون ذلك برًّا وتقوى يتقرب بها إلى الله سبحانه.

فأبطل الله ﷻ ما كان عليه أهل الجاهلية وبين ﷻ أن هذا الأمر ليس من البر في شيء، فليس الخير ما تعودتم عليه في الجاهلية من دخول البيوت من ظهورها حين تُحرمون بالحج أو العمرة، ظانين أن ذلك قربة إلى الله تعالى، ولكن الخير في تقوى الله سبحانه وامتنال أمره واجتناب نهيه، وهذا معنى: ﴿وَلَكِنَّ الْإِلَهَ مِنْ أَتَقَى﴾ وادخلوا البيوت من أبوابها عند إحرامكم بالحج أو العمرة، واخشوا الله في كل أموركم؛ لتفوزوا برضاه، أما إتيان البيوت من ظهورها فلا برَّ لله فيه، فلا تعتقدوا حرمة إتيانها من أبوابها، فإن هذا لم يحرمه الله تعالى، والبر في طاعة الله وحده ﴿وَأَتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾.

ومعنى الآية: أن الله تعالى جعل ظهور الهلال من أول كل شهر علامات يعرف بها

(١) الطبري (٢٨٧/٣) وابن أبي حاتم (١٧١١).

الناس أوقات عباداتهم ومعاملاتهم، فهو يبدو ضعيفاً في أول الشهر، ثم يتزايد إلى نصفه إلى أن يكتمل، ثم يعود إلى النقصان، وهكذا ليعرف الناس أوقاتهم، ومنها وقت عبادة الحج، ولو كانت الحسابات بالسنة الشمسية لم يعرفه إلا القليل جداً من الناس وليس الخير في الغلو في الدين والتشدد فيه، فما شاد الدين أحد إلا غلبه، فينبغي سلوك أسهل الطرق التي تؤدي إلى المقصود.

ومن الغلو في الدين ما كان يفعله بعض الناس في الجاهلية من دخول البيوت من ظهورها حين يحرمون بالحج والعمرة، وهم يظنون أن هذا قربة إلى الله تعالى، ولكن الخير كل الخير في تقوى الله واجتناب معاصيه، فاتبعوا وامثلوا وادخلوا البيوت من أبوابها عند إحرامكم بالحج والعمرة، وخافوا الله في كل أموركم؛ لتفوزوا بسعادة الدنيا والآخرة، فإن من اتقى الله تعالى فاز بالفلاح والنجاح، ومن لم يتق الله تعالى لم يكن له سبيل إلى الفلاح.

الْحُكْمُ التَّشْرِيعِيُّ السَّابِعُ: مَرَا حِلُّ تَشْرِيعِ الْقِتَالِ فِي الْإِسْلَامِ ثَلَاثُ

١٩٠- ﴿وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقْتُلُونَكُمْ وَلَا تَقْدُوا بِكُمْ اللَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُقْتَلِينَ﴾

ولما بينت الآية السابقة أن الأهله مواقيت للناس في عباداتهم ومعاملاتهم، ومنها الحج، ولما كان القتال محرماً في الأشهر الحرم، وكان من المتوقع أن يغدر المشركون بالمسلمين وهم في طريقهم إلى عُمرة القضاء، لذا أذن الله للمسلمين بدفع هجوم العدو، حتى وإن كانوا مُحْرَمِينَ في الأشهر الحرم، وكان المشركون قد صدوا المسلمين عن البيت الحرام في عام الحديبية، ولأن هذه الآية تتعلق بقتال الدفاع في الأشهر الحرم فقد نزلت بعد آية الأهله.

قال أبو العالية: هذه أول آية نزلت في القتال بالمدينة، فلما نزلت كان رسول الله ﷺ يقاتل من قاتله، ويكف عن من كف عنه حتى نزلت سورة براءة^(١).

وقد مر القتال في الإسلام بثلاث مراحل:

(١) ابن أبي حاتم (١٧١٩).

المرحلة الأولى: مجرد الإذن بالدفاع عن النفس

فقد أمر رسول الله ﷺ في ابتداء الإسلام بالكف عن قتال المشركين حتى يدخل في دين الله من يدخل، وتظهر الجبهة المعارضة لانتشار الدعوة، وتقوى شوكة الإسلام، فلما تم ذلك أمر ﷺ بقتالهم.

وأول ما نزل من آيات القتال، مجرد الإذن به، وذلك في قوله سبحانه: ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتِلُونَ بِأَنَّهُمْ ظَلِمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ﴾ (٣٩) الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّا أَن يَقُولُوا رَبُّنَا اللَّهُ ﴿[الحج: ٣٩، ٤٠].

وقد كان النبي ﷺ مأموراً قبل ذلك بالصبر، وبالعفو والصفح، وبأن يدفع السيئة بالحسنة، وأن يكف عن قتال المشركين؛ حيث لم تقم الدولة الإسلامية بعد، ولم يتهيأ المسلمون لهذه المرحلة.

المرحلة الثانية: الأمر بالقتال

وكان ذلك بشروط ثلاثة تضمنتها هذه الآية من سورة البقرة، وفيها ﴿وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ﴾ وما بعدها إذن للمسلمين المحرمين بالقتال، إذا فوجئوا بالقتال بغياً وعدواناً من غيرهم بأن يقاتلوا العدو، ويردوا عدوانه وهذه الشروط الثلاثة هي:

الشرط الأول: أن يكون هذا القتال في سبيل إعلاء كلمة الله ﷻ لنصرة دين الله لإزالة العوائق أمام نشر الدعوة ﴿وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾، وفي هذا نهى عن القتال في الفتن التي تقع بين المسلمين داخل الدولة أو خارجها.

الشرط الثاني: قاتلوا الذين يقاتلونكم، ومن هم مستعدون لقتالكم، وأما الذين لا يقاتلونكم فلماذا تقاتلونهم؟ قاتلوا من أعد نفسه لقتالكم، أما من لم يُعد نفسه للقتال فلا تقاتلوه، قاتلوا من يعتدوا عليكم أو يحولوا بينكم وبين دين الله، فقد جاء الأمر لرسول الله ﷺ بقتال من قاتله من الكفار والمشركين، ومسالمة المسالمين، وعدم قتال من لا يقاتل من المدنيين أو النساء أو الصبيان وكبار السن والمجانين والرهبان ونحوهم ﴿الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ﴾.

الشرط الثالث: أن لا يبدؤوا غير المسلمين بالقتال، وإنما يردوا العدوان فحسب ﴿وَلَا تَعْدُوا﴾ وأن يكون رد العدوان ليس من باب الحمية أو الرياء؛ وإنما لإعلاء كلمة

الله ونصرة دينه .

في الصحيحين عن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه قال: سئل رسول الله ﷺ عن الرجل يقاتل شجاعة، ويقاتل حمية، ويقاتل رياء، أي ذلك في سبيل الله؟ فقال ﷺ: «من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا فهو في سبيل الله»^(١).

أخلاق الاسلام في قتال العدو:

ولذلك فقد تضمنت هذه المرحلة الإذن بقتال من قاتل فحسب، وأن يكف عن من كف، المرأة التي لا تقاتل، لا تقاتل، أما إذا انضمت إلى صفوف المقاتلين، كما يحدث الآن في صفوف الصهاينة وغيرهم، حيث تقاتل إلى جوار الرجل، فإنها تُقاتل.

وإذا كانت المرأة في بيتها، لا علاقة لها بالقتال، فإنها لا تقاتل، الشيوخ الكبار لماذا تقاتلونهم؟ المرضى بأمراض أقدت لهم، لا يُقاتلون؛ لأنهم عجزة، الصبيان والأطفال والمعاقون لا يقاتلونكم، فلا تقاتلوهم، أهل المتاجر في متاجرهم، وأهل المصانع في مصانعهم، والعمال والفلاحون الذين يعملون في حقولهم لا يقاتلونكم، فلا تعتدوا عليهم، ولا تقاتلوهم.

أهل العبادة من الرهبان، وأهل الصوامع، وسائر العباد في أماكن تعبدتهم لا تعتدوا عليهم، ولا تقاتلوهم، مع أنهم من أعدائكم، وكل هذا يدخل تحت قوله تعالى: ﴿وَلَا تَعْتَدُوا﴾ فإن هذا من العدوان، ومجاوزة الحد في القتال: ﴿فَمَنْ أَعْتَدَى عَلَيْكُمْ فَأَعْتَدُوا عَلَيْهِ يُمِثِّلْ مَا أَعْتَدَى عَلَيْكُمْ﴾ [البقرة: ١٩٤]. ﴿وَلَا تَقْبَلُوهُمْ عِنْدَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ حَتَّى يَقْتُلُوَكُمْ فِيهِ فَإِنْ قَتَلْتُمْ فَأَقْتُلُوهُمْ﴾ [البقرة: ١٩١]. وعندما تردون العدوان لا تعتدوا على حقوق الإنسان، فلا تمثلوا بالقتلى، ولا تقتلوا الحيوانات، ولا تقطعوا الأشجار، ولا تهدموا البيوت ولا تحرقوها، لا تعتدوا على المصانع ولا على المرافق العامة ولا على مباني الدولة، ولا على سيارات الناس، ولا تخطفوا السفن ولا الطائرات، ولا تعتدوا على الممتلكات العامة أو الخاصة فإن هذا من الإفساد في الأرض.

وفي الصحيحين عن ابن عمر رضي الله عنهما قال: وجدت امرأة في بعض مغازي النبي ﷺ

(١) «صحيح البخاري» برقم (٢٨١٠، ٣١٢٦) و«صحيح مسلم» برقم (١٩٠٤).

مقتولة، فأنكر رسول الله ﷺ ونهى عن قتل النساء والصبيان^(١).

هذه تعاليم الإسلام أيها الإخوة، فما بالكم بما يفعله أعداؤكم من قتل المسلمين، وهم سُجَّد ركوع بين يدي الله ﷻ، ما بالكم بمن يهدمون البيوت على من فيها من النساء والأطفال والشيوخ؟ هذه تعاليم الإسلام إذا قيست بما يفعلونه بالمسلمين، فما أبعد البون!! إنهم يقتلون النساء والصبيان والشيوخ والعمال والعباد، ويهلكون الحرث والنسل.

والله سبحانه ينهى عن قتال من ألقى السلام والتحية، ولا يحب المعتدين فكأنه سبحانه يقول لنا: لا تبدؤوهم بعدوان، ولا تتجاوزوا الحد، لا تمثلوا بمن قُتل، لا تقطعوا منه عضواً، أو تأكلوا كبداً، ولا تسرقوا ماله، ولا تغلوا، ولا تحرقوا النخل، أو الشجر، وغير ذلك؛ فإن هذا من العدوان الذي نهى عنه رسول الله ﷺ.

كما في صحيح مسلم وغيره عن بريدة رضي الله عنه قال: كان رسول الله ﷺ إذا أُمِّرَ أميراً على جيش أو سرية أوصاه في خاصته بتقوى الله تعالى ومن معه من المسلمين خيراً، ثم قال: اغزوا باسم الله وفي سبيل الله، قاتلوا من كفر بالله، اغزوا ولا تغلوا ولا تعتدوا ولا تمثلوا، ولا تقتلوا وليداً^(٢).

ونهى عن ذلك أيضاً الخلفاء الراشدون، وهم يزودون الجيش بالنصائح حين مقابلتهم لأعدائهم.

المرحلة الثالثة: هي قتال المشركين المقاتلين لنا كافة، وتعقبهم في كل زمان ومكان، قال تعالى: ﴿وَقَاتِلُوا الْمُشْرِكِينَ كَافَّةً كَمَا يُقَاتِلُونَكُمْ كَافَّةً﴾ [التوبة: ٣٦]

والآية واضحة في قتالهم كافة إذا قاتلوا كافة، فهي مشروطة بها. وقال سبحانه في تعقبهم حتى يتوبوا من شركهم: ﴿فَإِذَا أَسْلَخَ الْأَشْهُرُ الْحُرُمَ فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ وَخُذُوهُمْ وَأَحْضُرُوهُمْ وَأَقْعُدُوا لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ﴾ [التوبة: ٥]

وقال جل شأنه في قتال أهل الكتاب حتى يدخلوا في الإسلام، أو تجري عليهم أحكام الإسلام وهم في بلاد المسلمين: ﴿قَاتِلُوا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلَا

(١) «صحيح البخاري» برقم (٣٠١٥) و«صحيح مسلم» برقم (١٧٤٤) وابن أبي شيبة (٣٨١/١٢).

(٢) «صحيح مسلم» برقم (١٧٣١) و«المسند» (٣٢٥/٥) برقم (٢٢٩٧٨) وأبو داود (٣٦١٢) وابن ماجه (٢٨٥٨) والترمذي (١٤٠٨) والنسائي في «السنن الكبرى» (٨٥٣٢) و«شرح مشكل الآثار» للطحاوي (٣٥٧٢).

يَحْرِمُونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حَتَّى يُعْطُوا
الْجِزْيَةَ عَنْ يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ ﴿١٩١﴾ [التوبة]

وقال ﷺ في قتال من فتن الناس في دينهم وكان مصدرًا لصد الناس عن سبيل الله:
﴿وَقَتْلُهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ لِلَّهِ﴾ [البقرة: ١٩٣]. قال تعالى:

١٩١- ﴿وَأَقْتُلُوهُمْ حَيْثُ تَفْقَهُوهُمْ وَأَخْرِجُوهُمْ مِّنْ حَيْثُ أَخْرَجُوكُمْ وَالْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ الْقَتْلِ وَلَا تَقْتُلُوهُمْ^(١)
عِنْدَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ حَتَّى يَقْتُلُوكُمْ^(١) فِيهِ فَإِنْ قَتَلُوكُمْ^(١) فَاقْتُلُوهُمْ كَذَلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ﴾.

ثم أمر سبحانه بقتل من يُعثر عليه من المشركين في جزيرة العرب، وإن لم يكن في
ساحة القتال؛ فقال سبحانه: ﴿وَأَقْتُلُوهُمْ حَيْثُ تَفْقَهُوهُمْ﴾ أي: اقتلوا الكفار والمشركين حيث
لقيتموهم وتمكنتم منهم في الحل والحرم، وحيث أدركتموهم وظفرتهم بهم في أي زمان
ومكان، وفي هذا أمر بجهاد من قاتل من المشركين الوثنيين وتعقبهم في كل مكان من
بلاد المسلمين، ثم أمر بإخراجهم؛ فقال سبحانه: ﴿وَأَخْرِجُوهُمْ مِّنْ حَيْثُ أَخْرَجُوكُمْ﴾ أي:
وأخرجوهم من المكان الذي أخرجوكم منه، وهو بلدكم مكة، فقد أخرجوكم إلى الحبشة
مرتين، وأخرجوكم إلى المدينة.

أخرجوهم - أيها المسلمون - من أي بلد مسلم اعتدوا عليه في كل زمان ومكان،
أخرجوهم من الديار التي احتلوها كما أخرجوكم من دياركم.

﴿وَالْفِتْنَةُ﴾ أي فتنة الناس بالشرك بالله، وبالصد عن سبيل الله، ومنع الناس من الدخول
في الإسلام، أشد من مفسدة القتل، فقاتلوهم أيها المسلمون، لأن ابتلاء المؤمن في
دينه حتى يرجع عنه إلى دين آخر بعد إسلامه أشد وأضر من أن يُقتل وهو مسلم متمسك
بدينه، فكفرهم وشركهم وصدّهم عن الإسلام ﴿أَشَدُّ مِنَ الْقَتْلِ﴾ أي: من قتلهم إياكم؛ لأن
فتنتهم لكم في دينكم؛ بردتكم عن الإسلام، ومصادرة أموالكم وإخراجكم من أرضكم
أشد قبحًا من القتل.

(١) قرأ حمزة والكسائي وخلف العاشر: (ولا تقتلوه عند المسجد الحرام حتى يقتلوكم فيه فإن قتلوكم) بفتح
الحرف الأول وسكون القاف وحذف الألف، من القتل في المواضع الثلاثة، وقرأ الباقون: (ولا
تقاتلوهم عند المسجد الحرام حتى يقاتلوكم فيه فإن قاتلوكم) بفتح القاف وإثبات ألف بعدها، من القتال.

ومن ذلك اضطهاد المسلمين في كل مكان، لا سيَّما الأقليات الإسلامية في غير بلاد المسلمين، وفتنة الناس عن دينهم بحملهم على الخروج من الإسلام، كما يحدث للأقليات المسلمة في مختلف أرجاء المعمورة، وفيها أعمال القتال، والقتل، والتعذيب، والاضطهاد، والتشريد، وحمل المسلمين على الارتداد والكفر والخروج من الإسلام، وكان هذا حال المسلمين في بدء الإسلام؛ لقتلهم وضعفهم، هذه الفتنة أشد وأعظم من القتل.

ولا تبدؤوهم بالقتال عند المسجد الحرام؛ تعظيمًا لحرماته، حتى يبدؤوكم بالقتال فيه؛ لأن الله ﷻ قد حرم القتال في الأشهر الحرم، وعند المسجد الحرام، ويرجح أن المراد منطقة الحرم كله، فالأصل هو التحريم، ولكن الحرمات قصاص، فإن اعتدوا عليكم عند المسجد الحرام، فقابلوا الاعتداء بالمثل، وإن اعتدوا عليكم في الشهر الحرام فقابلوا الاعتداء بالمثل، وإذا اعتدوا عليكم وأنتم محرمون فقابلوا الاعتداء بالمثل، وهذا معنى: ﴿وَلَا تُقَاتِلُوهُمْ عِنْدَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ حَتَّى يَقْتُلُوَكُمْ فِيهِ﴾. وهذا الحكم مستمر حتى يتتوها عن كفرهم فَيُسْلِمُوا فإن الله يتوب عليهم.

ثبت في الصحيح عن أبي شريح العدوي أن النبي ﷺ قال: «إن مكة لم تحل لأحد قبلي، ولا تحل لأحد بعدي، وإنما أحلت لي ساعة من نهار، ثم عادت حرامًا إلى يوم القيامة»^(١).

فثبت بهذا تحريم القتال في منطقة الحرم إلا إذا كان دفعًا لقتالهم ﴿فَإِنْ قَتَلُوكُمْ﴾ أي: قتلوا بعضهم ﴿فَاقْتُلُوهُمْ﴾ اقتلوا من تقدرُونَ عليه منهم، وفي هذا إباحة قتل المحارب إذا قاتل في الحرم أو استولى عليه، فإن قاتلوكم عند المسجد الحرام فاقتلوهم فيه ﴿كَذَلِكَ﴾ وبمثل هذا الجزاء الرادع يكون ﴿جَزَاءُ الْكَافِرِينَ﴾.

قال ابن عباس ؓ: لما تَجَهَّزَ رسولُ الله ﷺ لعمرة القضاء، خافوا ألا تَقْبِي قريش بما قالوا ويصدوهم عن البيت، وكره المسلمون قتالهم في الشهر الحرام، وفي منطقة الحرم، فأنزل الله الآية؛ لرفع الحرج عن قتال المشركين في الشهر الحرام وفي الحرم، وكان هذا قبل أن يُمنع المشركون من دخول الحرم وحدوده، فإن حدث مثل هذا في الشهر الحرام، أو عند المسجد الحرام فاقتلوهم.

(١) يُنْظَرُ: البخاري (١٠٤، ١٨٣٢، ٤٢٩٥) ومسلم (١٣٥٣، ١٣٥٤) عن أبي شريح العدوي.

وكان المشركون قد خرجوا لقتال المسلمين في شهر ذي القعدة عام الحديبية، فقبل لهم ذلك في عُمره القضاء؛ أي: فاهتكوا حرمتهم كما هتكوا حرمتكم، فالحرمات قصاص، وقد نزل في عمرة القضاء: ﴿الشَّهْرُ الْحَرَامُ بِالشَّهْرِ الْحَرَامِ وَالْحُرُمَتُ قِصَاصٌ﴾ لما منع المشركون رسول الله ﷺ من الوصول إلى المسجد الحرام في شهر ذي القعدة سنة ست من الهجرة، فأدخله الله البيت الحرام في العام الذي يليه، واقتصر له منهم، وهذا معنى: ﴿الشَّهْرُ الْحَرَامُ بِالشَّهْرِ الْحَرَامِ﴾^(١) أي: فكما صدوه في الشهر الحرام أدخله الله الحرم في الشهر نفسه، أما الحرمات فهي حرمة الشهر الحرام، وحرمة البلد الحرام، وحرمة الإحرام، فهذه حرمت ثلاث.

ويؤخذ من الآية جواز قتل الجاني إذا لجأ إلى الحرم فأراً من القصاص والعقوبة، كما روى مالك في الموطأ عن أنس بن مالك رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ دخل مكة عام الفتح، وعلى رأسه المغفر، فلما نزعه، جاء أبو بريزة فقال: إن ابن خطل التيمي متعلق بأستار الكعبة، فقال ﷺ: «اقتلوه»^(٢) وكان قد أسلم ثم كفر، وتصدى لسب رسول الله ﷺ فأهدر الرسول دمه، فكان قتله حدًّا، والمسلم المجرم إذا لجأ إلى الحرم يُضَيَّق عليه حتى يخرج منه.

وقال ﷺ لخالد بن الوليد ومن معه يوم الفتح: «إن عرض لكم أحد من قريش فاحصدوه حصداً حتى توافوني على الصفا»، فما عرض لهم أحد إلا أناموه، وأصيب من المشركين نحو اثني عشر رجلاً^(٣). قال تعالى:

١٩٢ - ﴿فَإِنْ أَنْهَوْا فَإِنَّ اللَّهَ عَفُورٌ رَحِيمٌ﴾

﴿فَإِنْ أَنْهَوْا﴾ عن قتالكم فلا تقاتلوهم، وإن انتهوا وكفوا عن كفرهم وشركهم، وتابوا إلى الله ﷻ، ودخلوا في الإسلام ﴿فَإِنَّ اللَّهَ عَفُورٌ﴾ لعباده ﴿رَحِيمٌ﴾ بهم.

قال تعالى: ﴿قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ يَنْتَهُوا يُغْفَرْ لَهُمْ مَا قَدْ سَلَفَ﴾ [الأنفال: ٣٨].

ثم بيّن سبحانه الهدف من القتال، وأنه ليس المقصود منه سفك دماء غير المسلمين

(١) الأثر رقم (٣١٣٦) عن الضحاك في «تفسير الطبري».

(٢) أخرجه البخاري في «صحيحه» برقم (١٨٤٦، ٣٠٤٤، ٥٨٠٨) وانظر «صحيح مسلم» (١٣٥٧).

(٣) «تفسير القاسمي» (٤٧٦/٢).

وأخذ أموالهم، وإنما المقصود أن يكون الدين لله فيظهره على سائر الشرائع، قال تعالى:

١٩٣ - ﴿وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ لِلَّهِ فَإِنْ آنَهَوْا فَلَا عُدْوَانَ إِلَّا عَلَى الظَّالِمِينَ﴾

واستمروا - أيها المؤمنون - في قتال المشركين المعتدين حتى لا تكون فتنة للمسلمين عن دينهم وحتى تعلوا كلمة الله، وحتى لا يُضطهد أحد من المسلمين في دينه؛ فيرتد عن الإسلام، أو يُحمل على الخروج من دين الله، وحتى يبقى الدين لله وحده، ولا يعبد معه غيره، فإن كفوا عن الكفر والقتال فكفوا عنهم ﴿وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ﴾ فإن هذا هو غاية القتال، فإذا حصل المقصود فلا قتل ولا قتال، فإن نقضوا العهد وخفروا الذمة فقد أصبحتم في حل من عهدهم فلکم أن تقاتلوهم حتى لا تكون فتنة أخرى، وانتفاء الفتنة يكون إما بدخول المشركين في الإسلام وإما بقتلهم، فإن مشركي العرب ليس في حقهم إلا الإسلام أو السيف كما قال تعالى ﴿يُقَاتِلُوهُمْ أَوْ تُسَلِّمُوا﴾ [الفتح: ١٦].

أخرج البخاري عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما قال: جاء رجلان إلى ابن عمر أيام فتنة ابن الزبير، فقالا: إن الناس صنعوا ما ترى، وأنت ابن عمر، وصاحب النبي ﷺ فما يمنعك أن تخرج، فقال: يمنعني أن الله حرم دم أخي، فقال: ألم يقل الله تعالى: ﴿وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ لِلَّهِ﴾ فقال ابن عمر: قاتلنا مع رسول الله حتى لم تكن فتنة وكان الدين لله، وأنتم تريدون أن تقاتلوا حتى تكون فتنة ويكون الدين لغير الله. قال ابن عمر: كان الإسلام قليلاً، فكان الرجل يفتن في دينه، إما قتلوه وإما عذبوه، حتى كثر الإسلام فلم تكن فتنة^(١).

وقد تحقَّق قطع دابر الفتنة بالقتال الذي دار بين المسلمين والمشركين في أكثر من عشرين غزوة قادها النبي ﷺ بنفسه، وأكثر من أربعين سرية بعث فيها أصحابه، وكان ثمار هذه المعارك أن انتصر الحق وزهق الباطل قبل أن يلتحق النبي ﷺ بالرفيق الأعلى.

(١) يُنْظَرُ: البخاري برقم (٤٥١٣، ٤٥١٤).

الْحُكْمُ الثَّامِنُ: انْقِتَالُ فِي الْأَشْهُرِ الْحُرُمِ لِرَدِّ الْعُدْوَانِ

١٩٤- ﴿الشَّهْرُ الْحَرَامُ بِالشَّهْرِ الْحَرَامِ وَالْحُرُمَتُ قِصَاصٌ فَمَنِ اعْتَدَى عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدَى عَلَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ﴾ (١٩٤)

ولما عزم المسلمون على عمرة القضاء سنة سبع من الهجرة وقع في نفوسهم ألا يفي المشركون بعهدهم؛ فيتعرضوا لهم بالقتال عند دخولهم مكة، وهم في شهر حرام، فإن دافعوا عن أنفسهم يكونون قد انتهكوا حرمة الشهر الحرام، فنزلت هذه الآية تقول لهم: وإن قاتلوكم في الأشهر الحرم، فالحرمت قصاص؛ أي: فقاتلكم في الشهر الذي حرم الله القتال فيه جزاء لقاتلهم لكم فيه.

قال الحسن: إن المشركين قالوا للنبي ﷺ حين اعتمر عمرة القضية: أُنْهِيتَ يا محمد عن القتال في الشهر الحرام؟ قال: نعم، فأرادوا قتاله فيه، فأُنزل الله تعالى يقول له: إن استحلوا قتالكم في الشهر الحرام فإن الله قد أباح لكم الدفاع عن أنفسكم ﴿الشَّهْرُ الْحَرَامُ بِالشَّهْرِ الْحَرَامِ﴾ أي: يَسْتَحِلُّ قتالهم فيه كما استحلوه بقاتلكم فيه.

قال ابن جريج: قلت لعطاء: قول الله ﷻ ﴿الشَّهْرُ الْحَرَامُ بِالشَّهْرِ الْحَرَامِ﴾ قال: هذا يوم الحديبية، صدوا رسول الله ﷺ عن البيت الحرام وكان معتمرًا، فدخل رسول الله ﷺ في السنة التي بعدها معتمرًا مكة، فعُمرة في الشهر الحرام بعمرة في الشهر الحرام^(١).

وكان المشركون قد افتخروا على النبي ﷺ حين صدوه عن البيت الحرام يوم الحديبية، فأدخله الله مكة في ذلك الشهر الذي ردوه فيه، وهو شهر ذو القعدة^(٢). ويحتمل أن يكون المعنى: إنكم إن قاتلتموهم في الشهر الحرام فقد قاتلوكم فيه، وهم المعتدون، فليس عليكم في ذلك حرج، وعلى هذا فقوله تعالى:

﴿وَالْحُرُمَتُ قِصَاصٌ﴾ من باب عطف العام على الخاص، فكل من فعل جرمًا في الشهر الحرام يُقتص منه فيه، فمن قاتل قُتل، ومن أخذ مال غيره أخذ ماله، وهكذا: فالقصاص

(١) الطبري (٣/٣٠٩) والنحاس في «ناسخه» ص (١١٤).

(٢) قاله أبو العالية والربيع وقتادة ومجاهد كما في «تفسير الطبري» (٣/٣٠٥، ٣/٣٠٧، ٣٢/٣٠٦) وابن أبي حاتم (١/٣٢٨).

من الظالم وعقوبته على ظلمه جزاء عادل، ولا حرج عليكم؛ لأنهم البادئون بالعدوان ﴿فَمَنْ أَعَدَّى عَلَيْكُمْ فَأَعِدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا أَعَدَّى عَلَيْكُمْ﴾ بالمماثلة في مقابلة المعتدي، واتقوا الله في حرماته وحدوده فلا تتجاوزوها ﴿وَأَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ﴾ الذين يقفون عند حدود الله ولا يتجاوزونها، وهو معهم بالعون والنصر والتأييد والتوفيق، وكان الله سبحانه قد أمر المسلمين وهم في مكة أن يقابلوا السيئة بمثلها أو يصبروا ويعفوا، فلما هاجر رسول الله ﷺ إلى المدينة وأعز الله سلطانه أمر الله المسلمين أن ينتهوا في مظالمهم إلى سلطانهم، ولا يعتدي بعضهم على بعض فقال: ﴿وَمَنْ قُتِلَ مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا لَوْلِيهِ سُلْطَانًا﴾ [الإسراء: ٣٣] فينصّره السلطان حتى ينصفه من ظالمه، ومن انتصر لنفسه دون السلطان فهو عاصٍ مسرفٌ، قد عمل بحمية الجاهلية، ولم يرض بحكم الله تعالى^(١).

وعن جابر بن عبد الله ؓ قال: لم يكن رسول الله ﷺ يغزو في الشهر الحرام إلا أن يُغزى أو يُغزوا، فإذا حضره أقام حتى ينسلخ^(٢).

هذه الآيات كانت دعوة إلى الجهاد بالنفس، والآية التالية دعوة إلى الجهاد بالمال.

الْحُكْمُ التَّشْرِيعِيُّ التَّاسِعُ: الْجِهَادُ بِالْمَالِ

١٩٥ - ﴿وَأَنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ وَأَحْسِنُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾

ثم أمر الله سبحانه عباده بالجهاد بالمال بعد أن أمرهم بجهاد النفس، كما في صحيح مسلم وغيره عن أبي هريرة ؓ قال: قال رسول الله ﷺ: «من مات ولم يغز ولم يحدث نفسه بغزو مات على شعبة من النفاق»^(٣).

وأمرهم بإخراج المال في الطرق الموصلة إلى الله تعالى، كالصدقة في سبيل الله، وأول ما يدخل في ذلك هو الإنفاق في الجهاد في سبيل الله، فهو فرض كالجهاد بالبدن،

(١) انظر: «تفسير الطبري» (٣/ ٣١٠) وابن أبي حاتم (١٧٤٠) والبيهقي في «السنن» (٨/ ٦١).

(٢) أخرجه أحمد في «المسند» (١٤٥٨٣، ١٤٧١٣) قال محققوه: إسناده صحيح على شرط مسلم، وأخرجه ابن جرير (٦٤٨/٣) والنحاس في «ناسخه» ص ١٢١ والطحاوي في شرح مشكل الآثار (٤٨٧٩).

(٣) «المسند» (٨٨٦٥) ومسلم (١٩١٠) وأبو داود (٢٥٠٢) والنسائي (٣٠٩٧) والحاكم (٧٩/٢) والبيهقي في «الشعب» (٤٢٢٣).

وفيه تقوية للمسلمين وإعزاز لدين الله، وفي ترك الإنفاق في سبيل الله، إبطال للجهاد وتسليط للأعداء، وإضرار بالنفس وإهلاكها.

وقال حذيفة في معنى الآية: هو ترك النفقة في سبيل الله مخافة العيلة^(١).

وقد كان الجندي في وقت النبي ﷺ يُجهز نفسه، ويُعدّ عدته، ويحمل سلاحه، ويأخذ وسيلة مواصلاته، ويأخذ معه زاده، ولم تكن هناك مرتبات للجنود، ولم يكن هناك أسلحة للدولة، ولا وسائل مواصلات، ولا تتولى الدولة شؤونهم.

ولذلك جاءت الدَّعْوَةُ بالجهاد بالمال مقدمة على الجهاد بالنفس في كثير من الآيات، والجهاد ماضٍ إلى يوم القيامة؛ بالنفس والمال واللسان، وجهاد المال يكون بالإنفاق في سبيل الله، وبشراء السلاح، وبشراء الزاد الذي يتزود به المجاهدون في كل زمان ومكان، لمن يقاتلون أعداءهم، وقوله سبحانه: ﴿وَأَنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ أي: لجهاد العدو، وفيه دعوة إلى الجهاد بالمال؛ لنصرة دين الله، ولنشر الدَّعْوَةِ، وتحرير المقدسات، والدفاع عن المستضعفين من المسلمين، وعدم إنفاق المال على التصنيع الحربي يؤدي إلى هلاك العباد واحتلال البلاد ﴿وَلَا تُنْفِقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ﴾ بسبب عدم الإنفاق في سبيل الله، وترك ما أمره الله به، فإن ذلك يجعل العدو يتسلط علينا ويتهك حرماننا وفي ذلك إلقاء بالنفس إلى التهلكة.

وكان بعض الصحابة قد همّ أن يقيم في ماله؛ لإصلاحه وتنميته بعد أن أعز الله الإسلام وأهله، فنهاهم الله عن ذلك، وسماه إلقاءً بالنفس إلى التهلكة، وأمرهم بجهاد العدو بأموالهم وأنفسهم.

قال زيد بن أسلم: كان رجال يخرجون في بعوث يبعثها رسول الله ﷺ بغير نفقة، فإما أن يُقطع بهم وإما كانوا عيالاً، فأمرهم الله أن ينفقوا مما رزقهم الله ولا يلقوا بأيديهم إلى التهلكة، والتهلكة أن يهلك رجال من الجوع والعطش ومن المشي، وقال لمن بيده فضل: ﴿وَاحْسِنُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾^(٢).

(١) سعيد بن منصور (٢٤٠٤) والطبري (٣/٣١٣) وابن أبي حاتم (١٧٤٤).

(٢) أبو يعلى وابن حبان (٥٧٠٩) والطبراني (٩٧٠) وفي «الأوسط» (٥٦٧١) والطبري (٣/٣١٥) وابن أبي حاتم (١٧٥٠).

وعن أسلم بن أبي عمران: أن رجلاً حمل على صف العدو من الروم حتى فرّقه، فقال الناس: ألقى بنفسه في التهلكة، فقال أبو أيوب الأنصاري: نحن أعلم بهذه الآية، إنما نزلت فينا، وذكر أن الصحابة قاتلوا مع رسول الله ﷺ حتى أعز الله دينه، ودخل الناس في دين الله، ثم قالوا: لو أننا أقمنا في أموالنا فأصلحنا ما ضاع منها وقعدنا عن الخروج في الغزو والجهاد بعد أن فشا الإسلام وظهر^(١) فأنزل الله سبحانه يبين أن القعود عن الجهاد في سبيل الله إلقاء بالنفس إلى التهلكة، وأن من الجهاد إنفاق المال في سبيل الله، ومن التهلكة: الإقامة لإصلاح المال وجمعه وتنميته والقعود عن الجهاد في سبيل الله، ولذا فإن أبا أيوب رضي الله عنه ظل مجاهدًا في سبيل الله حتى دُفن بأرض الروم.

ويؤخذ منه أنه يجوز للفرد الواحد أن يقتحم صفوف الأعداء؛ ليفرقهم أو ينكل بهم، وهو ما يسمى بالعمل الفدائي الاستشهادي، ﴿وَأَنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ لإعلاء كلمة الله وإعزاز دينه ﴿وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ﴾ بعدم الإنفاق في سبيل الله، والقعود عن الجهاد ولما كانت النفقة في سبيل الله نوعًا من أنواع الإحسان، أمر الله بالإحسان عمومًا فقال: ﴿وَأَحْسِنُوا﴾ في الإنفاق والطاعة ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾ أهل الإخلاص والإحسان، وهذا يشمل جميع أنواع الإحسان لأنه لم يقيد بشيء فيدخل فيه الإحسان بالمال وبالعلم والشفاعة.

وفي البخاري وغيره عن ابن عباس وجماعة من التابعين في معنى الآية: لا تتركوا النفقة في سبيل الله، وتخافوا العيلة (أي: الفقر) وإن لم يكن إلا سهم أو مشقص فأت به، والمشقص: هو فصل السهم إذا كان طويلًا غير عريض، فإن كان عريضًا فهو المعيلة^(٢).

وفسر بعض الصحابة الآية على أن المراد بها: القنوط واليأس من رحمة الله.

سئل البراء بن عازب: هو الرجل يلقي العدو فيقاتل حتى يقتل؟ قال: لا، ولكن هو

(١) تنظر: القصة في «صحيح سنن أبي داود» (٢١٣) و«سنن النسائي الكبرى» (١١٠٢٨، ١١٠٢٩) وابن أبي حاتم (٣٣٠/١) وابن حبان (٤٧١١) والطبراني (٤٠٦٠) و«المسند» ص ٥٩٩ والترمذي (٢٩٧٢) و«المستدرک» (٢٧٥/٢) وفي «صحيح سنن الترمذي» برقم (٢٣٧٣) وفي السلسلة الصحيحة (١٣) وفي «تفسير الطبري» (٣/٣٢٣)، وفي سنن الترمذي (٣١٦٥).

(٢) «النهاية» لابن الأثير (٢/٤٩٠).

الرجل يذنب الذنب فيُلقي بيديه فيقول: لا يغفر الله لي أبداً^(١).

وقال النعمان بن بشير: كان الرجل يذنب الذنب، فيقول: لا يغفر الله لي، فأنزل الله الآية^(٢).

وعن عبد الرحمن بن الأسود بن عبد يغوث أنهم حاصروا دمشق، فأسرع رجل إلى العدو وحده، فعاب ذلك عليه المسلمون، ورفعوا حديثه إلى عمرو بن العاص، فأرسل إليه فرده، وقال: قال الله تعالى: ﴿وَلَا تُقْفُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى الْهَلَكَةِ﴾^(٣)

وليس هناك ما يمنع من حمل الآية على هذه المعاني جميعاً.

الْحُكْمُ التَّشْرِيعِيُّ الْعَاشِرُ: الْحَجُّ وَأَحْكَامُهُ

١٩٦- ﴿وَأَتِمُّوا الْحَجَّ وَالْعُمْرَةَ لِلَّهِ فَإِنْ أُخْصِرْتُمْ فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ وَلَا تَحْلِقُوا رُءُوسَكُمْ حَتَّى يَبْلُغَ الْهَدْيُ مَحَلَّهُ فَمَنْ كَانَ مِنْكُمْ مَرِيضًا أَوْ بِهِ أَذًى مِنْ رَأْسِهِ^(٤) فَعِدْيَةٌ مِنْ صِيَامٍ أَوْ صَدَقَةٍ أَوْ سُلْكٍ فَإِذَا أَمِنْتُمْ فَمَنْ تَمَنَّعَ بِالْعُمْرَةِ إِلَى الْحَجِّ فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ فِي الْحَجِّ وَسَبْعَةٍ إِذَا رَجَعْتُمْ تِلْكَ عَشْرَةٌ كَامِلَةٌ ذَلِكَ لِمَنْ لَمْ يَكُنْ أَهْلًا حَاضِرِي الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾^(٥)

وبعد ذكر أحكام الصيام والجهاد، يأتي الحديث عن الحج، فيأمرنا سبحانه أن نتم الحج والعمرة، ويؤخذ من الأمر بإتمامهما:

١- وجوب الحج والعمرة وفرضيتهما.

٢- وجوب إتمام أركانهما وشروطهما وواجباتهما ولو كانا نفلاً.

٣- إتقانهما والإخلاص فيهما.

٤- عدم الخروج منهما بعد الإحرام حتى يُكْمَلهما، إلا بالحصَر بمرض أو عدو أو حادث ونحو ذلك، فيذبح المحرم شاة وَيُحْلِقُ أو يُقَصِّر، ويحل من إحرامه، فإن لم يجد

(١) الطبري (٣/ ٣٢٠) وابن أبي حاتم (١٧٤٨) والحاكم (٢/ ٢٧٥) والبيهقي (٩/ ٤٥) وفي «الشعب» (٧٠٩٣).

(٢) ابن مردويه والطبراني في «الأوسط» (٥٦٧٢) والبيهقي في «الشعب» (٧٠٩٢).

(٣) ابن أبي حاتم (١٧٤٧).

(٤) قرأ أبو جعفر وأبو عمرو بخلف عنه بإبدال همزة (رأسه) ألفاً وصلًا ووقفًا وحمزة عند الوقف، والباقون بإثبات الهمزة ساكنة.

الهدى صام عشرة أيام، ولا شيء عليه بعد ذلك.

وعلى المحرم أن يتقيد بمحظورات الإحرام حتى يوم النحر، ومن ساق الهدى لا يتحلل من عمرته قبل يوم النحر، ومن أصابه أذى في رأسه كالقمل ونحوه فله أن يخلق رأسه وهو محرم، وعليه فدية بصيام ثلاثة أيام أو إطعام ستة مساكين، أو ذبح شاة، على التأخير بينها، ومثله من خالف في محذور من محظورات الإحرام، بأن تطيب أو غطى رأسه أو لبس مخيطاً أو قصَّ أظافره.

ومن تمتع بالعمرة إلى الحج، عليه هدى، وكذا القارن، والمفرد لا هدى عليه، ومن لم يجد الهدى صام ثلاثة أيام في الحج وسبعة إذا رجع إلى أهله، وأهل المسجد الحرام ممن هم داخل حدود الحرم، لا هدى عليهم لأنهم لم يحصل لهم نُسكٌ في سفر واحد.

أعمال الحج والعمرة:

وللحج والعمرة أركان، لا يصحان إلا بها، وواجبات يُجبرُ تركها بدم، أو صيام ثلاثة أيام في الحج وسبعة إذا رجع إلى أهله إن لم يستطع، وله سنن ومستحبات.

(أ) وأركان الحج أربعة:

- ١- نية الإحرام بالحج .
- ٢- الوقوف بعرفة .
- ٣- طواف الإفاضة .
- ٤- السعي بين الصفا والمروة عند الجمهور .

وأركان العمرة ثلاثة:

- ١- نية الإحرام بالعمرة .
- ٢- الطواف .
- ٣- السعي .

(ب) وواجبات الحج ستة هي:

- ١- كون الإحرام من الميقات الذي يمر به الحاج أو المعتمر .
- ٢- المبيت بمنى ليالى التشريق .
- ٣- المبيت بمزدلفة عند أحمد وأبي حنيفة، وهو سنة عند الجمهور .
- ٤- رمي الجمار عند جمهور العلماء .

٥- الحلق أو التقصير، وهو ركن عند الشافعية.

٦- طواف الوداع عند الجمهور.

(ج) وواجبات العمرة اثنتان:

١- كون الإحرام بها من الميقات المحدد لمن هو خارج المواقيت أو من أدنى الحل كالتنعيم أو الجعرانة لمن هو داخل حدود الحرم.

٢- الحلق أو التقصير عند الجمهور، وليس للعمرة طواف وداع.

السنن والمستحبات: وللإحرام بالحج أو العمرة سنن مستحبة كالنظافة من الأظافر والشعر الداخلي وغيره والتطيب قبل الإحرام، وركعتي الطواف، والشرب من ماء زمزم، والدعاء في مواطن الدعاء، كاللحاح في يوم عرفة، وعند باب الملتزم، وبعد رمي الجمرة الصغرى والوسطى، وغير ذلك.

والحاج أو المعتمر يأتيان بهذه الأعمال وفق شروطها وترتيبها ووقتها، ويعرف ما يبطل حجه بتركه أو فعله، وما يُجبر منه بدم أو صيام أو صدقة وما لا يجبر، وما يُعفى عنه منها، وغير ذلك ليصح نسكه.

وهذه الآية تشتمل على خمسة أحكام هي:

إتمام النسك، والإحصار، وفدية الأذى، وحكم التمتع للحاضر والباد وهو الخامس:

أولاً: إتمام النسك: الحج مما يُعرف بالأهلة، وقد أمرنا الله ﷻ إذا شرع أحدنا في الحج أو العمرة أن يتم حجه وعمرته ويؤديهما كاملين غير ناقصين، وأن لا يبطل عمله، وفيه دليل على وجوب العمرة كالحج، وإليه ذهب أحمد والشافعي في أصح قوليه، وعند مالك وأبي حنيفة أنها سنة، ومنزلة العمرة من الحج منزلة الزكاة من الصلاة، وتماثل الحج والعمرة معناه أداؤهما وإقامتهما مع تمام المناسك الخاصة بهما.

عن يعلَى بن أمية قال: جاء رجل إلى النبي ﷺ وهو بالجعرانة، عليه جبة وعليها خُلُوق (أي: طيب يتخذ من الزعفران) فقال: كيف تأمرني أن أصنع في عمري؟ فأُنزل على النبي ﷺ الوحي، فتستر بثوب، وكان يعلَى يقول: وددت أني أرى النبي ﷺ وقد أنزل عليه الوحي، فقال عمر: أيسرك أن تنظر إلى النبي ﷺ وقد أنزل عليه الوحي؟ فرفع عمر طرف

الثوب، فنظرت إليه له غطيط كغطيط البكر (أي: كالصوت الذي يخرج مع نفس النائم، والبكر هو الفتى من الإبل) فلما سُري عنه قال: «أين السائل عن العمرة؟ اغسل عنك أثر الخلق، واخلع عنك جُبَّتَكَ، واصنع في عمرتك ما أنت صانع في حجك»^(١)

ومن أحرم بحج أو عمرة، فليس له أن يحل حتى يُتمها، وتَمَامُ الحج يوم النحر إذا رمى جمرة العقبة وطاف بالبيت فقد حَلَّ، وتَمَامُ العمرة إذا طاف بالبيت وبالصفاء والمروة فقد حَلَّ^(٢).

قال ابن عباس: الحج والعمرة فريضتان على الناس كلهم، إلا أهل مكة، فإن عمرتهم طوافهم، فمن جعل بينه وبين الحرم بطن وادٍ، فلا يدخل مكة إلا بإحرام^(٣).

وقال عطاء: ليس على أهل مكة عمرة، إنما يعتمر من زار البيت ليطوف به، وأهل مكة يطوفون متى شاؤوا^(٤).

قال ابن عمر رضي الله عنهما: الحج والعمرة فريضتان .

وقال ابن عباس رضي الله عنهما: العمرة واجبة كوجوب الحج .

قال سبحانه: ﴿وَاتِمُوا الْحَجَّ وَالْعُمْرَةَ لِلَّهِ﴾ وتَمَامُ الحج يكون يوم النحر بعد رمي جمرة العقبة، وطواف الإفاضة والحلق أو التقصير .

وتَمَامُ العمرة يكون بعد الطواف والسعي والحلق أو التقصير .

ذلكم قول الله تعالى: ﴿وَاتِمُوا الْحَجَّ وَالْعُمْرَةَ لِلَّهِ﴾ وقد اعتمر النبي ﷺ أربع مرات كلها في شهر ذي القعدة سنة ست، وسبع، وثمان، وعشر، مع حجة الوداع، ولم يحج النبي ﷺ غيرها .

ثانياً: الإحصار: ومما يستحب عند نية الإحرام للحج أو العمرة أن يشترط الحاج أو المعتمر ويقول: إن حبسني حابس فمحلي حيث حبستني .

ثبت في الصحيح عن عائشة رضي الله عنها أن النبي ﷺ دخل على ضباعة بنت الزبير

(١) ينظر: «المسند» (١٧٩٤٨، ١٧٩٦٤، ١٧٩٦٥، ١٧٩٦٧) والبخاري (١٥٣٦، ١٧٨٩، ٤٩٨٥) ومسلم (١١٨٠)

وأبو داود (١٨١٩-١٨٢٢) والترمذي (٨٣٥) والنسائي (٢٦٦٧، ٢٧٠٨، ٢٧٠٩).

(٢) قاله ابن عباس كما في «تفسير الطبري» (٣/٣٢٨).

(٣) ابن أبي شيبة (٤/٨٨) والحاكم (١/٤٧١).

(٤) ابن أبي شيبة (٤/٨٨).

بن عبد المطلب فقالت: يا رسول الله، إني أريد الحج وأنا شاكية، فقال: «حجي واشترطي: أن محلي حيث حبستني»^(١).

والحابس هو الحاصر أو المانع الذي يحول دون تمام أداء النسك، بأن يسطو عليه عدو في الطريق يمنعه من الوصول إلى الحج، أو يحدث له مرض يُقْعِدُه ويحول بينه وبين الوصول إلى الحرم، أو يقع في حادث سيارة أو طائفة أو باخرة، أو يضل عن رفقائه، أو يفقد زاده، أو يموت مَحْرَمُ المرأة، ونحو ذلك من الموانع التي تحول بين المسلم وبين وصوله إلى الحرم، فإن منعه عن الذهاب لإتمام الحج أو العمرة بعد الإحرام بهما مانع، كالعدو أو المرض، وكان قد اشترط إن حبسه حابس فمحله حيث حُبِسَ فلا شيء عليه، وإن لم يشترط فعله الهدي والقضاء.

وقد خص ابن عباس هذا الإحصار بحصار العدو فحسب، فقال ﷺ: لا حصر إلا حصر العدو، فالمراد عنده هو حصر العدو دون المرض؛ لقوله تعالى: ﴿فَإِذَا أَمِنْتُمْ﴾ والأمن لا يكون إلا من خوف.

وقال غيره بعموم الحصر بعدو أو مرض أو غيرهما، فإن كان هذا الإحصار قبل أن يصل المحرم إلى الحرم، كما حدث لرسول الله ﷺ عام الحديبية، حيث خرج عليه الصلاة والسلام معتمرًا، ومنعه المشركون من الوصول إلى الحرم، فالواجب في هذه الحالة أن يذبح المحصر نسكًا: شاة أو سبع بقرة أو سبع بعير، ثم يتحلل من إحرامه بحلق الرأس أو تقصيره، وهذا النسك يُذبح في مكان الإحصار عند الجمهور، أو عند الحرم بأن يبعث بهديه إليه كما قال أبو حنيفة، ويحل من إحرامه بعد وصول خبر تمام الذبح إليه، ذلكم قول الله تعالى ﴿فَإِنْ أُحْصِرْتُمْ فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ﴾.

قال مجاهد: أيما رجل اعترض له في حجه أو عمرته فإنه يَبْعَثُ بهديه من حيث يُحبس، ولا يحلق رأسه ولا يحل حتى يوم النحر^(٢).

وثبت في الصحيح عن حفصة ؓ قالت: يا رسول الله ما شأن الناس حلوا من العمرة،

(١) «صحيح البخاري» برقم (٥٠٨٩) و«صحيح مسلم» برقم (١٢٠٧).

(٢) الأثر رقم (٣٢٢٧) في «تفسير الطبري».

ولم تحل أنت من عمرتك؟ فقال: «إني لبدت رأسي، وقلدت هديي، فلا أحل حتى أنحر»^(١).
هذا هو حكم الإحصار بالمرض أو الخوف، أو أي سبب يمنعه من الوصول للحرم، وهو الأولى.

أما حضر العدو فيقال فيه (حوصر) أو حاصره العدو، ثم بين سبحانه ما يترتب على الإحصار فقال: ﴿وَلَا تَحْلِقُوا رُءُوسَكُمْ﴾ إذا كنتم محصرين حتى ينحر المحصر هديه، ثم يحل من إحرامه، وقد يراد بالآية: لا تفعلوا شيئاً من محظورات الإحرام كحلق الرأس (حتى يبلغ الهدى محله) يوم النحر.

وغير المحصر لا يذبح هديه إلا في الحرم في يوم العيد وأيام التشريق.

وعن ناجية بن جندب الأسلمي قال: أتيت النبي ﷺ حين صُدد عن الهدى فقلت: يا رسول الله، ابعث معي بالهدي فلننحره في الحرم، قال: «كيف تصنع به» قلت: آخذ به أودية، فلا يقدرון عليه، فانطلقت به حتى نحرته بالحرم^(٢).

فدل هذا على أن النبي ﷺ نحر هدية في الحرم^(٣).

قال ابن عمر ؓ: خرجنا مع رسول الله ﷺ معتمرين، فحال كفار قريش دون البيت، فنحر رسول الله ﷺ بُذنه وحلق رأسه^(٤).

وقال ابن عباس ؓ: أحصر رسول الله ﷺ فحلق رأسه، وجامع نساءه، ونحر هديه، حتى اعتمر عاماً قابلاً^(٥).

ثالثاً: فدية الأذى: قد يحتاج المحرم إلى لبس المخيط، أو يحتاج إلى تغطية رأسه، وقد يكون المحرم مفرداً أو قارئاً وطالت به مدة الإحرام لشهر أو أكثر، فتتسخ رأسه وهو يخاف من تساقط الشعر ونحوه فلا يغسل رأسه مدة طويلة، فيصاب بقمل أو قيح أو

(١) «صحيح البخاري» برقم (١٥٦٦، ١٦٩٧، ١٧٢٥) و«صحيح مسلم» برقم (١٢٢٩).

(٢) الحديث رقم (٣٣٠٧) في «تفسير الطبري» (٤/٤٥).

(٣) ولا يعارض هذا حديث أنس بن مالك في «الموطأ» ص ٣٦ وفي الطبري برقم (٣٢٣٨، ٣٢٨٨) فهو بغير إسناد.

(٤) البخاري برقم (١٦٣٩، ١٨١٢) ومسلم (١٢٣٠) والنسائي (٢٨٥٩) عن نافع.

(٥) البخاري (١٨٠٩).

دمامل في رأسه، وقد يمرض المحرم مرضًا يضطر معه إلى أن يحلق رأسه، بعد النية والدخول في النسك، فله في هذه الحالة أن يلبس الملابس العادية، أو يغطي رأسه أو يحلق شعره.

وعليه في كل الأحوال فدية يُخير فيها بين:

(أ) أن يصوم ثلاثة أيام.

(ب) أو صدقة يتصدق بها على ستة مساكين كل مسكين نصف صاع، أو وجبة طعام، أو قيمتها.

(ج) أو نسك، بأن يذبح شاة ونحوها عند الحرم.

وقد نزلت هذه الآية: ﴿مَنْ كَانَ مِنْكُمْ مَّرِيضًا أَوْ بِهِ أَذًى مِنْ رَأْسِهِ فَفِدْيَةٌ مِنْ صِيَامٍ أَوْ صَدَقَةٍ أَوْ نُسُكٍ﴾ في كعب بن عُجرة، وكان الجهد والأذى قد بلغ منه مبلغه، قال كعب: نزلت فيّ خاصة، وهي لكم عامة.

وعن عبد الله بن مَعْقِل قال: قعدتُ إلى كعب بن عجرة وهو في المسجد، فسألته عن هذه الآية: ﴿فَفِدْيَةٌ مِنْ صِيَامٍ أَوْ صَدَقَةٍ أَوْ نُسُكٍ﴾ فقال كعب: نزلت في، كان بي أذى من رأسي، فحُمِلْتُ إلى النبي ﷺ والقملُ يتناثر على وجهي، فقال: «ما كنتُ أرى أن الجهد بلغ منك ما أرى! أما تجد شاة؟» فقلت: لا، قال: «صم ثلاثة أيام، أو أطعم ستة مساكين لكل مسكين نصف صاع من طعام، واحلق رأسك»، فنزلت هذه الآية فيّ خاصة، وهي لكم عامة^(١) والمعنى: أنه يحلق رأسه، وعليه ذبح شاة، أو صيام ثلاثة أيام، أو إطعام ستة مساكين، كل مسكين نصف صاع، أيها شاء.

كما في رواية عبد الله بن عمرو بن العاص أن النبي ﷺ قال لكعب: «أَيُؤْذِيكَ دَوَاب رَأْسِكَ؟» قال: نعم، قال: «فاحلقه، وافتد؛ إما بصوم ثلاثة أيام، وإما أن تطعم ستة مساكين، أو نُسُك شاة»^(٢).

(١) الحديث برقم (٣٣٣٨) في الطبري، وهو في البخاري مع الفتح (١٤/٤) وفي صحيح البخاري عن كعب بن عُجرة برقم (١٨١٤، ١٨١٦، ٤٥١٧) وصحيح مسلم (٣٣٦/١) برقم (١٢٠١) والترمذي (٢٩٧٣) والنسائي في «السنن الكبرى» (١١٠٣١) وابن حبان (٣٩٨٥) وابن أبي حاتم (١٧٨١) والبيهقي (٥٥/٥) وابن ماجه (٣٠٧٩) كلهم من طريق شعبة وفي «المسند» (٢٤٢/٤).

(٢) الحديث برقم (٣٣٥٩) في «تفسير الطبري» (٦٩/٤) بإسناد صحيح عن عبد الله بن عمرو بن العاص وهذا لفظه، وهو في البخاري برقم (١٨١٤، ١٨١٧) ومسلم برقم (١٢٠١) عن عبد الرحمن بن أبي ليلى.

وفي لفظ آخر للحديث عن كعب بن عُجْرة قال: كنا مع رسول الله بالحديبية ونحن محرمون، وقد حَصَرَنَا المشركون، وكانت لي وَفْرة، فجعلتِ الهوامَ تساقط على رأسي، فمر بي النبي ﷺ فقال: «أَيُؤْذِيكَ هَوامُ رَأْسِكَ؟» قلت: نعم، فأمرني أن أحلق، قال: ونزلت هذه الآية، قال رسول الله ﷺ: «صُمْ ثلاثة أيام، أو تصدق بفرق بين ستة، أو أنسك مما تيسر»^(١).

والنسك شاة تذبح في الحرم، والفرق نصف صاع من البر ونحوه.

رابعاً: التمتع: ثم ذَكَرَتِ الآيةُ حكمَ المتمتع الذي يعتمر ثم يحج في سفر واحد، ولا يخرج من حدود الحرم في أشهر الحج، فالتمتع هو أداء العمرة في أشهر الحج، ثم الإحرام بالحج في العام نفسه.

والمحصر، عليه أن يقضي حجه أو عمرته من العام الذي يليه، كما قضى النبي ﷺ العمرة التي مُنِعَ منها عند الحديبية في العام السابع ﴿فَإِذَا أَمِنْتُمْ﴾ أي: من الإحصار، وكنتم متمتعين بالعمرة إلى الحج، وأنتم في أمن وصحة ﴿فَمَنْ تَمَنَعَ بِالْعُمْرَةِ إِلَى الْحَجِّ فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ﴾ أي: فالتمتع عليه أن يذبح هدياً؛ شاة أو سبع بقرة، أو سبع بدنة، فمن لم يجد، ومن لم يستطع، فليصم ثلاثة أيام في الحج، بشرط أن يكون هذا الصيام يوم السابع والثامن والتاسع من ذي الحجة، أو من أول شهر ذي الحجة إلى يوم التاسع.

فإذا لم يتمكن الحاج من الصيام في هذه المدة؛ لسبب من الأسباب، أو كان لا يعلم أنه سيصوم، فله أن يقضي هذه الأيام الثلاثة في أيام التشريق، حيث يُحْرَمُ الصوم في يوم العيد، وهذا معنى يصوم ثلاثة أيام في الحج، وسبعة إذا رجع إلى أهله، يصومها في الطريق، أو في بلده بعد وصوله ﴿فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ فِي الْحَجِّ وَسَبْعَةٍ إِذَا رَجَعْتُمْ تِلْكَ عَشْرَةٌ كَامِلَةٌ﴾.

خامساً: ليس على أهل مكة تمتع: وهذا الهدى بالنسبة لغير أهل مكة، فإن أهل مكة لا يتمتعون؛ لأنهم مقيمون في مكة دائماً، ولا هدي عليهم ولا صيام عند العجز في الهدى

(١) «المسند» (١٨١٠١، ١٨١٢٨) والبخاري (١٨١٥) ومسلم (١٢٠١) والترمذي (٢٩٧٣، ٢٩٧٤) والطبراني (٢٤٠-٢١٥) و«صحيح سنن الترمذي» (٢٣٧٤).

﴿ذَلِكَ لِمَنْ لَمْ يَكُنْ أَهْلُهُ حَاضِرِي الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ﴾ وهم أهل مكة؛ أي: ليس على أهل مكة وممن هم دون الميقات هذي، فإنهم يحجون مفردين ولا يتمتعون ولا يقرنون، لأن التمتع معناه استباحة ما حُرِّم على المحرم بسبب الإحرام بعد انتهاء عُمرته إلى أن يُحرم بالحج، سواء طال هذه المدة أو قصرت، وأهل مكة من داخل الحرم لا يلزمهم التمتع.

ووقت هذا التمتع يبدأ من أول شهر شوال إلى يوم التروية، فيحرم المسلم بالحج في اليوم الثامن من ذي الحجة ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ﴾ خافوه بامتنال أمره واجتناب نهيه ﴿وَأَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ سَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ لمن خالف أمره وارتكب ما نُهي عنه.

وهذه الآية أول ثماني آيات تحدثت عن حج بيت الله الحرام في سورة البقرة، وقد تناولت حكم الإحصار في الحج، وحكم فدية الأذى، وحكم هذي التمتع بالعمرة إلى الحج.

مَوَاقِيتُ الْحَجِّ الْمَكَانِيَّةِ وَالزَّمَانِيَّةِ

١٩٧- ﴿الْحَجُّ أَشْهُرٌ مَعْلُومَاتٌ فَمَنْ فَرَضَ فِيهِنَّ الْحَجَّ فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ^(١) فِي الْحَجِّ وَمَا تَفَعَّلُوا مِنْ حَيْرٍ يَعْلَمَهُ اللَّهُ وَتَكَزَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ النَّقُوءَ^(٢) وَاتَّقُوا يَتَأُولِي الْأَلْبَابِ^(٣)﴾

حرمة زمان الحج: الأشهر المعلومات هي شوال وذو القعدة وذو الحجة^(٣) وقيل: شوال وذو القعدة وعشر من ذي الحجة^(٤)، وقد جعل الله ﷻ المدة التي تؤدي فيها فريضة الحج من الأشهر الحرم، فهي أيام حاسمة محرمة، والمسلمون جميعاً في الأشهر الحرم

(١) قرأ ابن كثير وأبو عمرو ويعقوب: (فلا رفث ولا فسوق ولا جدال في الحج) بالتثنية المرفوع في (رفث وفسوق) ونصب (جدال)، وقرأ أبو جعفر بالتثنية المرفوع في الثلاثة، وذلك على أن (لا) مهملة، وما بعدها مبتدأ، و(في الحج) خبر، وقرأ الباقر بالنصب في الكلمات الثلاث على أن (لا) نافية للجنس، وما بعدها اسمها، و(في الحج) خبرها.

(٢) لم يعد هذه الكلمة (يا أولى الأبواب) آية، المصحف المدني الأول، والمصحف المكي، وعدّها غيرهما من المصاحف العثمانية آية.

(٣) ورد هذا عن عمر بن الخطاب وابنه عبد الله وغيرهما، كما في كتاب «الأم» للإمام الشافعي (١٥٤/٢) و«تفسير سعيد بن منصور» (٣٢٩) وابن أبي حاتم (١٨١٦) وغيرهم.

(٤) ورد هذا عن ابن عمر أيضاً وعبد الله بن الزبير وابن عباس كما في القسم الأول من الجزء الرابع لابن أبي شيبة ص ٢١٨ والطبري (٤٤٦/٣) والحاكم (٢٧٦/٢).

-ومنها فترة الحج- كلهم محرمون في كل بقعة من بقاع العالم يخصصونها بمزيد من البعد عن المعاصي والذنوب؛ لقوله تعالى ﴿فَلَا تَظْلِمُوا فِيهِنَّ أَنْفُسَكُمْ﴾ [التوبة: ٣٦]، وقد كان مما يتوارثه العرب عن ملة إبراهيم عليه السلام تعظيم الأشهر الحرم؛ فيكفون فيها عن الظلم والعدوان على الأنفس والأعراض والأموال، كما في قوله تعالى: ﴿إِنَّ عِدَّةَ الشُّهُورِ عِنْدَ اللَّهِ اثْنَا عَشَرَ شَهْرًا فِي كِتَابِ اللَّهِ يَوْمَ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ مِنْهَا أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ ذَلِكََ الَّذِينَ أَلْفَمُوا فَلَا تَظْلِمُوا فِيهِنَّ أَنْفُسَكُمْ﴾ [التوبة: ٣٦].

وعن أبي بكرة رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «السنة اثنا عشر شهراً، منها أربعة حرم؛ ثلاثة متواليات، ذو القعدة وذو الحجة ومحرم، ورجب (مُضر) الذي بين جمادى وشعبان»^(١) فالأشهر الثلاثة المتواليات توافق موسم الحج فيكثر فيها الحشود وترويج التجارة؛ ولذلك فإن تحريم القتال في هذه الأشهر أمر لازم لأمن الناس وسلامتهم لأداء فريضة الحج والعمرة.

وحرمة القتال في الأشهر الحرم تخص القتال المشروع الذي يكون لإحقاق حق وإزهاق باطل، فعلى الرغم من مشروعيته إلا أنه يروع أمن الناس ويعكر عليهم أداء المناسك، ولذا: فلا يُلجأ إليه إلا للضرورة.

أما القتال غير المشروع والذي يُقصد به العدوان والسلب والنهب فقد حرمه الاسلام في كل زمان ومكان.

قال ﷺ في حديث ابن عمر وجريز وأبي بكرة: «فلا ترجعوا بعدي كفاراً يضرب بعضكم رقاب بعض»^(٢).

والله ﷻ لم يوجب على المعتدي عليه في الأشهر الحرم أن يقف مكتوف اليد، ولكنه جعل الحرمات قصاصاً، فمن انتهك أمن الناس في الشهر الحرام فمن حقهم أن ينتهكوا أمنه فيه، وأن يعتدوا عليه فيه بمثل ما اعتدى عليهم، قال تعالى: ﴿الشَّهْرُ الْحَرَامُ بِالشَّهْرِ الْحَرَامِ

(١) البخاري (٤٦٦٢).

(٢) من حديث أبي بكرة في البخاري (١٧٤١، ٧٠٧٧) ومسلم (٦٦)، عن ابن عمر وجريز.

وَالْحُرُمَتُ قِصَاصٌ فَمَنۡ أَعۡتَدَىٰ عَلَيۡكُمۡ فَاَعۡتَدُوا۟ عَلَيِّهِۦ ﴿البقرة: ١٩٤﴾ فحرمة الوقت الذي يقع فيه الحج، لا يخص أهل مكة بتحريم القتال فيه، وعدم ظلم النفس بالذنوب، وعدم ظلم الآخرين وانتهاك حرمة فيه فحسب، بل يشمل المسلمين في كل مكان، مَن أحرم منهم بالحج ومن لم يحرم.

وللإحرام بالحج أو العمرة أماكن محددة، حددها الشرع الحنيف، لا بد لمن يريد الإحرام بالحج أو العمرة ممن هو خارج حدود الحرم أن يحرم من هذه الأماكن، وهي محيطة بالحرم من جميع الجهات، من الشرق والغرب والشمال والجنوب، تسمى المواقيت المكانية، لا يتجاوزها المحرم إلا إذا أحرم من أحد هذه الأماكن التي حددها المصطفى ﷺ.

وأبعد هذه المواقيت عن الحرم، الميقات الشمالي، الذي هو ميقات أهل المدينة، ويليه ميقات أهل مصر والشام والمغرب، ثم الميقات الغربي، ثم بقية المواقيت وهي متساوية تقريباً نحو ثمانين كيلو متراً بينها وبين الحرم الشريف، عدا ميقات أهل المدينة وأهل مصر، ويضاف إلى ذلك معرفة الزمان الذي يؤدي فيه الحج. وسوف نتكلم عن المواقيت المكانية أولاً ثم المواقيت الزمانية.

أولاً: أماكن الإحرام بالحج والعمرة: حدد الإسلام لدخول مكة المكرمة من جميع الجهات المحيطة بها أماكن معينة لا يجوز للمحرم بحج أو عمرة أن يتجاوزها دون أن يخلع فيها ملابسه العادية بعد أداء مقدمات الإحرام من النظافة والطهارة، ويلبس ملابس الإحرام، ثم ينوي النسك الذي يريده من هذا المكان المعين، ويلتزم من فوره بمحظورات الإحرام التي سنذكرها، فلا يرتكب مخالفة منها.

وهذه المواقيت حددها النبي ﷺ وجعلها لكل من يمر بها من أهلها أو من غير أهلها سواء مر بها براً أو بحراً أو جواً.

وتحديد هذه المواقيت معجزة دالة على صدق محمد ﷺ فقد وقتها النبي ﷺ حين وقتها وكان أهلها ومن يمرون بها لم يدخلوا في الإسلام بعد.

في هذه المواقيت بيان يُسر الإسلام وسماحته، حيث لم يُلزم الناس كلهم الإحرام من مكان واحد، أو من حيث أحرم النبي ﷺ، وإليكم بيان هذه المواقيت المكانية الخمسة:

العدد	اسم الميقات	من يمرون عليه	الجهة	المسافة إلى مكة
١	آبار علي (ذو الحليفة)	أهل المدينة ومن يمر عليه غيرهم	شمال	٤٣٠ كيلو مترًا
٢	رابغ (الجحفة)	مصر والشام والمغرب وغيرهم	غرب	٢٠١ كيلو مترًا
٣	وادي السيل (قرن المنازل) ويحاذيه (وادي محرم)	نجد، ومن يمر بها من غير أهلها	شرق	٨٠ كيلو مترًا
٤	ذات عرق (بين تهامة ونجد)	العراق وإيران وغيرهما	شمال شرق	٨٠ كيلو مترًا
٥	يَلَمْلَم (جبل من تهامة)	اليمن والصين والهند وغيرهم	جنوب	٨٠ كيلو مترًا

حكم من تجاوز الميقات بغير إحرام:

من كان نيته الأصلية السفر للحج أو العمرة، وهو قبل هذه المواقيت، فإنه ينبغي عليه الإحرام من هذه المواقيت، ولو كان محاذيًا لها في الجو أو البحر، وإلا فعليه دم، أو الرجوع إلى الميقات والإحرام منه، فإن كان سفره لغرض آخر فتجاوز الميقات ثم عَنَّ له أن يحج أو يعتمر من داخل حدود الحرم فليُحرَم من مكانه، كأهل البلد (مكة وما حولها) ممن هم دون المواقيت، فإن إحرامهم من حيث هم، وإحرام أهل مكة ومن كان فيها بالعمرة يكون من أدنى الحل: التنعيم أو الجعرانة.

ثانيًا: حدود المواقيت غير حدود الحرم:

وأماكن الإحرام هذه غير حدود الحرم، فالمحرم يلتزم في ذاته بمحظورات الإحرام

حين يحرم من الميقات، أما حُرمة مكان الإحرام وهو مكة المكرمة، فإن لها حدودًا توجد عليها أعلامًا في الوقت الحاضر تميزها، وهي عبارة عن حجارة مرتفعة ذات شكل معين، وكان جبريل قد أخذ بيد إبراهيم عليهما السلام وأوقفه على حدود الحرم فنصب إبراهيم عليها علامات وهي: حدود الحرم الخمسة:

م	المكان	الجهة	المسافة بينه وبين مكة
١	التنعيم (المدينة)	شمال	٦ كيلو مترات
٢	الشميسي (الحديبية)	غرب	١٥ كيلو مترًا
٣	الجعرانة (نجد)	شرق	١٦ كيلو مترًا
٤	وادي نخلة (العراق)	شمال شرق	١٤ كيلو مترًا
٥	أضاه (نمرة)	جنوب	١٢ كيلو مترًا

ثالثًا: زمان الإحرام بالحج:

وكما أن للإحرام بالحج مكانًا معينًا لا يتجاوزه المسلم حتى يحرم منه، فإن هناك مواقيت زمانية هي زمان الحج؛ أي: الوقت الذي يحرم فيه المسلم بالحج.

هذا الميقات الزماني يبدأ من أول شهر شوال وذو القعدة إلى عشر من ذي الحجة، أو شهر ذي الحجة بكامله عند بعض أهل العلم، حيث تظهر ثمرة الخلاف في طواف الإفاضة، وجواز تأخيرها على القول الثاني إلى نهاية الشهر، وحتى يتمكن الحاج أن يرجع إلى بلده بعد قضاء المناسك في أمن وأمان.

وهذا الميقات الزماني يشير إليه قول الله سبحانه: ﴿الْحَجُّ أَشْهُرٌ مَّعْلُومَةٌ﴾ شوال وذو القعدة وذو الحجة أو عشر من ذي الحجة ﴿فَمَنْ وَضَّ فِيهِكَ الْحَجَّ﴾ فكل من ألزم نفسه وأحرم بالحج فنوى ولبي ﴿فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِي الْحَجِّ﴾ بل عليه أن يكثر من

التلبية ويرفع صوته بها .

- ١- كما صح عن خلاد بن السائب عن أبيه قال: قال رسول الله ﷺ: «أتاني جبريل فأمرني أن آمر أصحابي أن يرفعوا أصواتهم بالإلهال والتلبية، فإنها شعار الحج»^(١)
- ٢- وفي حديث أبي هريرة ؓ أن رسول الله ﷺ قال: «أمرني جبريل برفع الصوت في الإلهال فإنه من شعار الحج»^(٢)

٣- وجاءت صيغة التلبية عن ابن عمر رضي الله عنهما أن تلبية رسول الله ﷺ: «لييك اللهم لييك، لييك لا شريك لك لييك، إن الحمد والنعمة لك والملك»، وكان ابن عمر يزيد فيها: (لييك وسعديك، والخير بيدك لييك، والرغباء إليك والعمل)^(٣)

٤- ومن مات وهو محرم يُبعث يوم القيامة مُلبياً؛ فعن ابن عباس ؓ: أن رجلاً أُوْصِفَتْ راحلته وهو محرم فمات، فقال ﷺ: «اغسلوه بماء وسدر، وكفّوه في ثوبيه، ولا تُخمرُوا وجهه ولا رأسه، فإنه يُبعث يوم القيامة ملبياً»^(٤)

٥- وذبح الهدي في الحرم، ورفع الصوت بالتلبية من أفضل أعمال الحج؛ فعن أبي بكر الصديق ؓ أن رسول الله ﷺ سئل: أي الأعمال أفضل؟ قال: «العج والثج»^(٥) والعج: رفع الصوت بالتلبية، والثج: سيلان دماء الهدي والأضاحي^(٦).

(١) «صحيح سنن أبي داود» (١٥٩٢) و«المسند» (١٦٥٥٧) بنحوه وإسناده صحيح ورجاله ثقات، كما قال محققوه، وأخرجه أبو داود (١٨١٤) والترمذي (٨٢٩) والنسائي (٢٧٥٢) وابن ماجه (٢٩٢٢) وابن خزيمة (٢٦٢٥) والحاكم (٤٥٠/١) ومثله عن زيد بن خالد الجهني في ابن ماجه وابن خزيمة وابن حبان والحاكم وابن أبي شيبه وصححه الألباني في «السلسلة الصحيحة» (٨٣٠).

(٢) مسند أحمد (٨٣١٤) وهو حديث صحيح، كما قال محققوه، وأخرجه ابن خزيمة (٢٦٣٠) والحاكم (٤٥٠/١) والبيهقي (٤٢/٥).

(٣) البخاري (١٥٤٩، ٥٩١٥) ومسلم (١١٨٤) وأبو داود (١٨١٢) والنسائي (٢٧٤٦-٢٧٤٩) وغيرهم.

(٤) البخاري (١٨٥٠، ١٨٥١) ومسلم (١٢٠٦).

(٥) صححه الألباني في «السلسلة الصحيحة» (١٥٠٠) وهو في الترمذي (٨٢٧) وابن ماجه (٢٩٢٤) وابن خزيمة (٢٦٣١) والحاكم (٤٥١/١).

(٦) «النهاية» لابن الأثير (٢٠٧/١) (١٨٤/٣).

والجهر بالتلبية يكون بالنسبة للرجال دون النساء، وإذا لَبَّى الحاج أو المعتمر فإن الحجر والشجر والمدر يُلَبَّى معه:

عن سهل بن سعد رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ قال: «ما من مُلَبٍّ يُلَبِّي إِلَّا لَبَّى عَنْ يَمِينِهِ وَشِمَالِهِ مِنْ حَجَرٍ أَوْ مَدَرٍ، حَتَّى تَنْقَطِعَ الْأَرْضُ مِنْ ههنا وَههنا عَنْ يَمِينِهِ وَشِمَالِهِ»^(١)

وهذه الألفاظ الثلاثة المذكورة في الآية التي معنا وهي: الرفث والفسوق والجدال هي محظورات الإحرام، ويدخل فيها كل محظور حظره الشرع على المحرم، ويتعين عليه أن يلتزم بهذه المحظورات الثلاثة:

المحظور الأول: هو الرفث: والرفث هو الجماع ومقدماته، من النظرة والكلمة الفاحشة المتعلقة بالنساء، والسماع المهيج للشهوة، واللمس والغمز واللمز، أو التقبيل والضم والمباشرة أو الخُطبة وعقد النكاح والزواج وغير ذلك مما يطلق عليه لفظ الرفث كما قال سبحانه ﴿أَجَلٌ لَكُمْ لَيْلَةَ الصَّيَاہِ الرَّفْثُ إِلَىٰ نِسَائِكُمْ﴾ وهو يعني الجماع ومقدماته، فذلك الحاج فإنه يَحْرُمُ عليه أن يفعل شيئاً من هذا الرفث، بالنسبة إلى امرأته، وهو محرم على غيرها في كل الأحوال، ويتأكد ذلك في الصيام والحج والحرم.

والذي ذهب إلى بيت الله الحرام ذهب ليكتسب أجراً، لا ليكتسب وزراً، ذهب ليمحو زلاته ومعاصيه بحجه بيت الله الحرام.

ومن هنا فإن المحرم لا ينبغي له أن يصطحب في حجه امرأة لا تحل له من خادمة أو قريبة أو زميلة أو جارة أو معرفة أو زوجة أخيه أو أخت زوجته، وغير ذلك ممن لا تحل له شرعاً، فإنه لا يخلو الحال من النظرة، ومن الكلمة، ومن البسمة، ومن الملاطفة، ونحو ذلك، وهذا مما يكسب المرء الآثام، ومما يُنقص عليه أجره في حجه، وهو في رحلة إلى ربه، يقصد رضاه، ويتبغي ما عنده من أجر، فعليه أن ينخلع من هذه الشهوات، ومن حظوظ النفس والفسوق؛ لأنه ذاهب في رحلة إلى ربه جل وعلا.

(١) «صحيح سنن ابن ماجه» (٢٣٦٣) والترمذي (٨٢٨) وابن ماجه (٢٩٢١) وابن خزيمة (٢٦٣٤) والحاكم (٤١٥/١).

والمحظور الثاني من محظورات الإحرام: هو الفسوق (المعاصي صغیرها وكبیرها) والفسوق: هو الخروج عن طاعة الله ﷻ، وهي كلمة عامة شاملة جامعة تشمل سائر المعاصي والذنوب التي يفعلها المسلم في الحج وخارج الحج، «ومن حج فلم يرفث ولم يفسق خرج من ذنوبه كيوم ولدته أمه»^(١)

ومن الفسوق: السب والشتم وإيذاء الناس باللسان أو بالقول أو بالفعل، كما قال ﷺ من حديث ابن مسعود ؓ: «سباب المسلم فسوق وقتاله كفر»^(٢)

وقال عبد الله بن عمر رضي الله عنهما في الآية: الرفث إتيان النساء، والتكلم بذلك للرجال والنساء إذا ذكروا ذلك بأفواههم، والفسوق إتيان معاصي الله في الحرم، والجدال السباب والمراء والخصومات^(٣)

ومن الفسوق التنازع بالألقاب وذم الآخرين، كما قال سبحانه: ﴿وَلَا تَنَابَرُوا بِالْأَلْقَابِ يَسَخَسُ الْأَسْمُ الْفُسُوقُ بَعْدَ الْإِيمَانِ﴾ [الحجرات: ١١]

قال ابن عباس: الرفث الجماع، والفسوق المنازعة بالألقاب تقول لأخيك: يا ظالم، يا فاسق، والجدال أن تجادل صاحبك حتى تغضبه^(٤)

قالت أسماء بنت أبي بكر: خرجنا حُجَّاجًا مع رسول الله ﷺ وكان لنا بغير عليه الطعام والمتاع مع غلام لأبي بكر، فجلسنا ننتظره، فظهر الغلام يمشي وحده وليس معه البعير، فقال أبو بكر: أين بعيرك؟ قال: أضلني الليلة؛ أي: أنه فقد منه، فقام أبو بكر يضربه ويقول: بغير واحد أضلك وأنت رجل؟ فما يزيد رسول الله ﷺ على أن يتبسم ويقول: «انظروا إلى هذا المُحْرَم ما يصنع!»^(٥).

(١) من حديث أبي هريرة في البخاري (١٥٢١، ١٨١٩، ١٨٢٠) ومسلم (١٣٥٠) والترمذي (٨١١) والنسائي (٢٦٢٦) وابن ماجه (٢٨٨٩).

(٢) البخاري (٤٨، ٦٠٤٤، ٧٠٧٦) ومسلم (٦٤).

(٣) الطبري (٤٥٩/٣) وابن أبي حاتم (١٨٢٢، ١٨٣٠).

(٤) الطبري (٤٦٦/٣) وابن أبي حاتم (١٨٢٤، ١٨٣١).

(٥) الحاكم (٤٥٣/١) مطولاً.

وقال طاوس: لا ينظر المحرم في المرأة، ولا يدعو على أحد وإن ظلمه^(١).

ومن الفسوق: الإلحاد في الحرم؛ ومن الإلحاد: احتكار الطعام، واحتكار الماء، والمزاحمة عليه، وعلى الحمامات، واحتكار الخيام، والإضرار بالمسلمين في الطواف والسعي والجمرات، واحتكار المكان في الخيام بحجز الأماكن في منى قبل قدوم الحجاج، والاستئثار بأقربها إلى الجمرات، وغير ذلك مما يدخل في الإلحاد بالحرم، فهو فسق وخروج عن طاعة الله ﷻ.

ومن الفسوق: قتل صيد الحرم والتعرض له بالأذى، وقطع شجر الحرم الذي يخرج بنفسه، وقطع نباته أو التعرض له بالأذى، فكل ذلك مما حرّمه الشرع على المحرم في قوله سبحانه: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَقْتُلُوا الصَّيْدَ وَأَنْتُمْ حُرُمٌ﴾ [المائدة: ٩٥] وفي ذلك تفريع وتفصيل وأحاديث لا يتسع لها المقام.

والمحظور الثالث: هو الجدل في الحج: لا جدال في مناسك الحج، ولا جدال في أعمال الحج، كأن يطلب الإنسان علة أو سبباً لكل ما يفعل، فيقول مثلاً: لماذا المبيت في منى؟ لماذا رمي الجمرات؟ لماذا الجلوس في عرفات؟ لماذا المبيت في مزدلفة؟ بأن يعترض على مناسك الحج وأعماله، ويريد أن يدرك العلة بعقله، ولا جدال في مناسك الحج، فهي عبادات تعبّدنا الله بها، سواء أدركنا حكمتها وعلتها أم لم ندرك.

والجدال أيضاً هو المراء والخصام والنقاش الذي يحمل المخاطب على الغضب، ومنه سب الخادم وشتمه، وسب الأهل وشتمهم، وأن يتفعل الإنسان ويخرج عن جادة الصواب إلى درجة الغضب، والحج يحتاج إلى رحابة صدر وسعة أفق، وحسن أخلاق، وبه تختبر معادن الناس في الحج.

وفي السفر على وجه العموم مشاق ومتاعب تثير الغضب والانفعال ما لم يتحلّ المسلم بالصبر والحلم والأناة، ولا سيّما في الحج حيث يكون الازدحام بين المشاة وبين السيارات في الموانئ والمطارات، ويكون التسابق في المشاعر، والازدحام في الطواف، وفي السعي، وفي رمي الجمار، وعلى الماء، وفي الحمامات، وفي أماكن الإقامة

(١) ابن أبي شيبة (القسم الأول من الجزء الرابع) ص ١٠٢.

بمنى وعرفات، وغير ذلك، وهذا مما يثير الحمية والغضب والعصية عند بعض الناس، فيخرج المرء عن صوابه، ولا تتحمل أخلاقه، وييدي كلاما خارجاً أو فعلاً خارجاً.

والذي يريده الإسلام من المسلم أن يتحلى بمكارم الأخلاق، وأن يكون واسع الصدر، واسع الأفق، يتحمل أخطاء الآخرين، وأن لا يعاملهم بالمثل، وأن لا يزاحمهم في الطواف وغيره وإن جَنَوْا عليه، وإن اقتربوا حُرْمته.

وإن حدث له ضرر من غيره فإنه مطالب أن يتحمل، وأن لا يغضب، وأن لا يجادل ولا يماري، ويحاول أن يُقَوِّم الفرصة على مَنْ يضيع عليه ثواب الحج، أو ينقص من أجره، فلا جدال في الحج.

وهذه المحظورات الثلاثة: الرفث والفسوق والجدال، يجب اجتنابها في كل وقت، وفي الحج بصفة خاصة.

ثم يقول سبحانه: ﴿وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ يَعْلَمُهُ اللَّهُ﴾ فبعد أن نهاهم الله تعالى عن هذه الأمور القبيحة، أقوالها وأفعالها، أمرهم بفعل الأمور الجليلة، فيستبدلون بالرفث، الكلمة الطيبة، والخصلة الحسنة الصالحة، التي تخلو من إثارة الشهوة، ومن الإثم والمعصية، ويستبدلون الفسوق بطاعة الله ﷻ، ويستبدلون الغضب بالحلم و اللغو بتلاوة القرآن.

ولا يدخل في هذا المناقشة العلمية للبحث عن الحكم الشرعي، ومعرفة الصواب والدليل، فإن هذا لا يدخل في الجدال المذموم شريطة أن يكون بالحسنى، وتوخي معرفة الحق دون عصبية، وإنما بالتفاهم، والأخلاق الحسنة الحميدة.

وهذه المحظورات يمكن صياغتها مرة أخرى للتأكيد عليها تحت مسمى:

دواعي الشهوة والغضب والزينة والأمن.

فكما أن للوقت الذي يؤدي فيه الحج حرمة عالمية، وللمكان الذي يؤدي فيه الحج حرمة محلية، فإن المحرم الذي يريد أداء الحج أو العمرة عليه أن يلتزم بـ:

محظورات الإحرام وهي:

أولاً: دواعي الشهوة: فقد حرم الإسلام على المحرم كل ما يتعلق بالشهوة ومقدماتها

مما يدخل تحت لفظ (الرَفْث) فالرَفْث هو الجماع ودواعيه القولية والفعلية وما يتعلق به من خُطبة وزواج، وعقد ونكاح، ودخول بالمعقود عليها، أما الوطء في الفرج فإنه يفسد الحج ويبطله إذا وقع قبل التحلل الأول، ويجب على مَنْ فعل ذلك القضاء ونحر بدنة، فإذا كان الوطء بعد التحلل الأول فإن الحج لا يبطل، وعليه ذبح شاة، فمن لم يجد صام ثلاثة أيام في الحج، وسبعة إذا رجع إلى أهله، وإن طأوعته زوجته أو كانت متسببة فعليها مثل زوجها، والوطء في العمرة فيه شاة.

وتَحْرُمُ المباشرة فيما دون الفرج، وهي تُنْقِصُ من شأن الحج وتجعله غير مبرور؛ لأنه لم يخلُ من الرَفْث والفسوق، فإن فَعَلَ وأنزل، فعليه بدنة ولا يفسد الحج، وإن لم يُنْزَل، فعليه شاة.

ويحرم النظرة والكلام الفاحش المتعلق بالنساء، والتقبيل والتفكير في الشهوة ودواعيها، والهم بشيء من ذلك، كما يحرم السماع المهيج للشهوة، وهذا كله بالنسبة لمن أحلهن الله تعالى للمسلم في غير وقت الإحرام، فما بالك بمن سافر وغدا وراح أو طاف وسعى مع مَنْ لا تحل له، وارتكب النظرة والكلمة أو الهمسة واللمسة . . . إلخ.

عن عثمان بن عفان رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «لا يَنْكِحُ المحْرَمُ ولا يُنْكَحُ ولا يخطب»^(١).

وعن يزيد بن نعيم، أن رجلاً من جذام جامع امرأته وهما مُحرمان؛ فسأل النبي ﷺ فقال: «اقضيا نسكًا واهديا هديًا» أي: أعيدا الحج واذبحا بدنة، وكل ذلك داخل تحت قوله تعالى: ﴿مَنْ فَرَضَ فِيهِنَّ الْحَجَّ فَلَا رَفَثَ﴾.

ثانيًا: دواعي الغضب: يجب على المحرم أن يتجنب الجدل والمخاصمة بالباطل، لكونه يثير الشر ويوقع العداوة، وأن يصون لسانه عن الكلام الخارج الذي فيه إثم، وأن يتجنب إيذاء المسلمين بقول أو فعل، وعلى المسلم أن يتلافى ما يكدر الصفو من خصام أو نقاش أو جدال أو قتال أو سب أو التنازع بالألقاب، ومن ذلك المناقشة والمشادة حتى يُغضب الرجل صاحبه، ولا سِيِّمًا في وعشاء السفر وشدة الزحام وإلحاح الحاجة

(١) من حديث مسلم برقم (١٤٠٩) وأبي داود برقم (١٨٤١) والترمذي برقم (٨٤٠) وابن ماجه برقم (١٩٦٦) و«المسند» برقم (٤٠١) بإسناد صحيح على شرط مسلم ومالك (٣٤٨/١) و«السنن الكبرى» للنسائي (٣٨١١، ٥٣٩٠، ٥٣٩١) وابن حبان (٤١٢٣-٨١٣٩).

والضرورة، وعلى المسلم أن يعمل على المحبة وتوثيق المودة مع إخوانه، لا سيما أثناء أداء المناسك وفي السفر، حيث يكون الإرهاق والمشقة، وهذا محك اختبار النفوس والأخلاق.

ويحرم الفسوق في الحج، وهو اقتراف المعاصي والذنوب الكبيرة أو الصغيرة والخروج عن طاعة الله تعالى، ومنه محظورات الإحرام، ومنه التعرض لصيد الحرم وشجره ونباته، وكله داخل تحت قوله تعالى: ﴿فَمَنْ فُضِّ فِيهِ الْهَاجَ فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِي الْحَجِّ﴾.

وفي الصَّحِيحَيْنِ عن أبي هريرة ؓ أن النبي ﷺ قال: «من حج فلم يرفث ولم يفسق رجع من ذنوبه كيوم ولدته أمه»^(١)

وفي الحديث الصحيح عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «سباب المسلم فسوق وقتاله كفر»^(٢)

والنقاش في المسائل العلمية بغية الفائدة ومعرفة الحكم والدليل لا يعتبر من الجدال المنهي عنه؛ بل هو مطلوب في ضوء أدب الحوار وطلب الصواب، «المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده»^(٣) و«الحج المبرور ليس له جزاء إلا الجنة»^(٤).

ثالثاً: دواعي الترف والتزين: حرم الإسلام على المحرم أن يأخذ شيئاً من شعره أو أظافره أو أن يتطيب، ولا يلبس الرجل مخيطاً ولا يُغطي رأسه، ولا تنتقب المرأة، ولا تلبس البرقع ولا القفازين، قال تعالى: ﴿وَلَا تَحْلِفُوا رُءُوسَكُمْ حَتَّىٰ تَبْلُغَ الْهَدْيُ مَحَلَّهُ﴾.

وعن ابن عمر ؓ أن النبي ﷺ قال: «لا تنتقب المحرمة ولا تلبس القفازين»^(٥).

وبَيَّنَّ ﷺ أن المحرم «لا يلبس قميصاً ولا عمامة ولا سروالاً، ولا يمس طيباً، ولا

(١) البخاري (١٥٢١، ١٨١٩، ١٨٢٠) ومسلم (١٣٥٠).

(٢) البخاري (٤٨، ٦٠٤٤، ٧٠٧٦) ومسلم (٦٤).

(٣) من حديث عبد الله بن عمرو في البخاري (١٠، ٦٤، ٨٤، ٦٤٨٤) وفي «الأدب المفرد» (١١٤٤) وفي مسلم (٤٢) وأبي داود (٢٤٨١) و«المسند» (٦٥١٥) وابن حبان (١٩٦، ٤٠٠).

(٤) من حديث أبي هريرة في «الموطأ» (٣٤٦/١) والبخاري (١٧٧٣) ومسلم (١٣٤٩) والترمذي (٩٣٣) والنسائي (٦٢٢١) وابن ماجه (٢٨٨٨).

(٥) النسائي في «السنن الكبرى» (٣٦٣٩). ومن حديث طويل في المسند (٦٠٠٣) وإسناده صحيح على شرط الشيخين.

زعفرانًا ولا يلبس الخفين»^(١) ومن فعل شيئًا من ذلك ناسيًا أو جاهلًا فلا شيء عليه .

ومن فعله متعمدًا فعليه إطعام ستة مساكين، أو صيام ثلاثة أيام، أو ذبح شاة، قال تعالى: ﴿فَمَنْ كَانَ مِنْكُمْ مَّرِيضًا أَوْ بِهِ أَذًى مِنْ رَأْسِهِ فَفِدْيَةٌ مِنْ صِيَامٍ أَوْ صَدَقَةٍ أَوْ نُسُكٍ﴾ .

والمقصود من الحج: التذلل والانكسار والتقرب إلى الله تعالى بما يمكن من القربات، والتنزه عن اقتراف السيئات، وبذلك يكون الحج مبرورًا، والحج المبرور ليس له جزاء إلا الجنة

رابعًا: دواعي الأمن: حرم الإسلام على المخرم ألا يقطع شجر الحرم ولا نباته مما لم يزرعه الناس ولم يغرسوه، وألا يتعرض لقتل الصيد البري أو تنفيره من مكانه، كما يأمن الإنسان على نفسه، وكذا الطير والحيوان، وغير ذلك، وهذه الحرمة تتعلق بالمخرم المتلبس بأداء النسك على وجه الخصوص، ويترتب عليها إثم وفدية .

والحرمة تعم غير المخرم ممن هو في حدود الحرم، باعتبار أن حرمة مكة، وحرمة الشهر الحرام مطلوبة دائمًا من المسلم في موسم الحج وغيره .

وقد أحل الله تعالى للمحرم المقيم والمسافر أن يأكل من صيد البحر وطعامه دون صيد البر، قال تعالى: ﴿أُحِلَّ لَكُمْ صَيْدُ الْبَحْرِ وَطَعَامُهُ مَتَاعًا لَكُمْ وَلِلسَّيَّارَةِ وَحُرِّمَ عَلَيْكُمْ صَيْدُ الْبَرِّ مَا دُمْتُمْ حُرُمًا﴾ [المائدة: ٩٦] وما تفعلوا من خير في كل ما ذكر يعلمه الله فيجازيكم ويشيكم عليه خيرًا ﴿وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ الْقَوَى﴾ . تزودوا لهذا السفر المبارك، بالاستغناء عن الخلق، والكف عما في أيدي الناس، وأكثروا من حمل الزاد لنفع الفقراء وإعانة المسافرين، أما الزاد الحقيقي المستمر نفعه لصاحبه في دنياه وآخره، فهو الزاد الموصّل لدار القرار، مع النعيم الدائم الذي لا ينقطع، ثم أمر سبحانه بتقواه فقال: ﴿وَأَقْنُوْنَ يَتَأَوَّلِيْ أَلَّا يَكُنَّ﴾ فإن تقوى الله تعالى أعظم ما تأمر به العقول السليمة، وتركها دليل الجهل وفساد الرأي .

(١) كما في حديث سالم عن أبيه في البخاري (٣٦٦، ٥٨٠٦) ومسلم (٢، ١١٧٧) وأبو داود (١٨٢٣) والنسائي في «الكبرى» (٣٦٣٣) وكما في حديث ابن عمر في البخاري (١٣٤) ومسلم (١١٧٧) وأبي داود (١٨٢٤) وابن ماجه (٢٩٢٩) والترمذي (٨٣٣) .

تَصْحِيحُ مُخَالَفَاتِ أَهْلِ الْجَاهِلِيَّةِ فِي مَنَاسِكِ الْحَجِّ

أولاً: التزود بغذاء البدن والروح: والآيات الثلاث التالية تصحح أوضاعاً كانت سائدة عند الناس قبل أن يُفرض الحج في الإسلام؛ ومن ذلك أن رجالاً من اليمن كانوا يحجون بيت الله الحرام، ولا يحملون معهم الزاد ولا النفقة ولا المتعة، يسافرون هكذا دون شيء، ويقولون: نحن متوكلون، نحج بيت الله فعليه أن يطعمنا.

وهذا كلام فيه جهل، وهو مناقض للسنن الكونية التي شرعها الله لعباده، من اعتبار السبب والمسبب، وأنه لا بدّ للمسلم أن يأخذ بالأسباب.

وهؤلاء لا يأخذون معهم زاداً ولا مالاً ولا نفقة، ويقولون: نحن المتوكلون على الله، ثم يضطرون إلى سؤال الناس في الحج، والله سبحانه أمر عباده إلى يوم القيامة أن يتزودوا وهم في رحلتهم إلى الحج ويتزودوا بما يقيم أبدانهم و ما يقيم أرواحهم، يتزودون بالمال، و يتزودون بالنفقة التي تكفيهم لحفظ أبدانهم، ويتزودون بتقوى الله سبحانه، فهي زادهم الذي ينفعهم يوم لقاء رب العالمين، فخير الزاد تقوى الله سبحانه، فالإسلام يأمرهم بالزاد الأخروي، كما أمرهم بالزاد الدنيوي ﴿وَاتَّقُوا يَتَأُولَىٰ آلَ أَبِي﴾، ومن لم يتق الله فكأنه لا عقل له ولا يدرك عواقب الأمور.

قال ابن عباس: كان أهل اليمن يحجون ولا يتزودون، ويقولون: نحن متوكلون، ثم يَعدَمون فيسألون الناس، فأنزل الله الآية^(١)

وقال ابن عباس: كان ناس يخرجون من أهليهم ليس معهم أزودة، يقولون: نحج بيت الله ولا يطعمنا! فقال الله: تزودوا ما يكف وجوهكم عن الناس^(٢)

وتقوى الله تعالى خير زاد للعبد، ففي الحديث عن أبي هريرة ؓ قال: سئل رسول الله ﷺ ما أكثر ما يُدخل الناس الجنة؟ قال: «تقوى الله وحسن الخلق»، وسئل ما أكثر ما

(١) البخاري (١٥٢٣) وأبو داود (١٧٣٠) والنسائي في «السنن الكبرى» (٨٧٩٠، ١١٠٣٣) وابن حبان

(٢٦٩١) والبيهقي في «السنن» (٣٣٢/٤).

(٢) الطبري (٤٩٨/٣) وابن أبي حاتم (١٨٣٨).

يدخل الناس النار؟ قال: «الأجوفان: الفم والفرج»^(١)

وعن أنس رضي الله عنه قال: جاء رجل فقال: يا رسول الله، إني أريد سفرًا، فزودني، فقال: «زودك الله بالتقوى» قال: زدني، قال: «وغفر ذنبك» قال: زدني، بأبي أنت وأمي، قال: «ويسر لك الخير حيثما كنت»^(٢)

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: جاء رجل إلى رسول الله ﷺ يريد سفرًا، فقال: أوصني، قال: «أوصيك بتقوى الله، والتكبير على كل شرف» أي: عند كل موضع مرتفع يشرف على ما حوله، فلما مضى قال: «اللهم ازو له الأرض، وهون عليه السفر»^(٣)

لَا مَانَعَ مِنَ الْكَسْبِ وَالتَّجَارَةِ فِي الْحَجِّ

١٩٨- ﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَبْتَغُوا فَضْلًا مِنْ رَبِّكُمْ فَإِذَا أَقَضْتُمْ مِنْ عَرَقَتِ فَادْكُرُوا اللَّهَ عِنْدَ الْمَشْعَرِ الْحَرَامِ وَاذْكُرُوهُ كَمَا هَدَيْكُمْ وَإِنْ كُنْتُمْ مِنْ قَبْلِهِ لَمَنِ الضَّالِّينَ﴾

إذا أراد الحاج أو المعتمر أن يتكسب كسبًا مشروعًا من حرفة ما، أو يتاجر، وهو يؤدي أعمال الحج أو العمرة، فإنه لا مانع من ذلك، على أن تكون النية وأساس السفر والانتقال، لأداء الحج والعمرة، ويكون العمل تابعًا لذلك، حتى يؤجر ويثاب، ولا تكون التجارة في الأيام التي تؤدي فيها المناسك بالفعل؛ لأن لكل وقت عبادة لا تزاحمها عمل آخر، وأعمال الحج لا تستغرق شهر شوال وذا القعدة وعشرًا من ذي الحجة، بل يكون جُلها في يومي التاسع والعاشر من ذي الحجة.

قال تعالى: ﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَبْتَغُوا فَضْلًا مِنْ رَبِّكُمْ﴾ [البقرة: ١٩٧، ١٩٨]

وقد نزلت هذه الآية في قوم كانوا يتاجرون في موسم الحج فخافوا أن يؤثر البيع والشراء عليهم وهم حُرُم، وقال تعالى في جواز ذلك:

(١) «المسند» (٩٦٩٦) بإسناد حسن، والبخاري في الأدب المفرد (٢٨٩، ٢٩٤) والترمذي (٢٠٠٤) وابن ماجه (٤٢٤٦) وابن حبان (٤٧٦) والحاكم (٣٢٤/٤) والبيهقي في «الشعب» (٤٩١٤) وحسنه الألباني في «السلسلة الصحيحة» (٩٧٧).

(٢) «صحيح سنن الترمذي» (٢٧٣٩) والحاكم (٩٧/٢).

(٣) «صحيح سنن الترمذي» (٢٧٤٠) والنسائي في «الكبرى» (١٠٣٣٩) وابن ماجه (٢٧٧١) والحاكم (٤٤٥/١).

﴿لِيَشْهَدُوا مَنَافِعَ لَهُمْ﴾ [الحج: ٢٨] وابتغاء الفضل وشهود المنافع، يكون بالتجارة والكسب المباح، على ألا يُلهيه ذلك عن إخلاص النية والعبادة ومراعاة أداء المناسك، والخوف من الله تعالى، والتجرد لطاعته والاستعانة على ذلك بأمور الدنيا.

وقد لفت القرآن الكريم أنظار قوم كانوا يأتون إلى موسم الحج من غير زاد ويقولون: نحن متوكلون، ن الحج بيت ربنا أفلا يطعمنا؟! لفت أنظارهم إلى أنه ينبغي عليهم أن يتزودوا بالنفقة ولا بأس عليهم من سلوك سُبل مشروعة كالعمل والكسب أثناء الحج بالتجارة ونحوها ومنعهم من التكفف وسؤال الناس في الحج.

طلب الرزق في الحج:

بعض الناس يَخْرُجُ للحج وعنده مهمة: مهمة عمل، طبيب يعالج، أو صيدلي يعطي الدواء، أو سائق يسوق، أو طبّاخ يطبخ، أو تاجر يتاجر بأمواله، أو في عرض من عروض التجارة، أو غير ذلك من الأعمال، هل هذه المهمات إذا قام بها المسلم وهو يحج بيت الله الحرام تتنافى أو تتعارض مع الحج؟

وقد سَمَّى الله ذلك فضلاً منه سبحانه فقال: ﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَبْتَغُوا فَضْلاً مِّن رَّبِّكُمْ﴾ أي: في موسم الحج، بالتجارة والربح، والحصول على رزق، وابتغاء عمل دنيوي، شريطة أن تكون نيته الأساس حج بيت الله الحرام، أو أداء العمرة، فلا يمنع أن يمارس الحاج هذه المهمة التي يزاولها إلى جوار القيام بالمناسك كالطواف والسعي وسائر أعمال الحج أو العمرة، فليس عليه إثم ولا حرج في ذلك، وسماه الإسلام ابتغاء فضل الله؛ أي: طلب رزق الله، والسعي على المعاش.

قال ابن عباس رضي الله عنهما: كانت عكاظ، ومجنة، وذو المجاز، أسواقاً في الجاهلية، فكانوا يَتَجَرَّوْنَ فيها، فلما كان الإسلام تأثّموا منها، فسألوا النبي ﷺ فأَنزَلَ الله الآية^(١)

وكانت سوق عكاظ تُفتح في أول شهر ذي القعدة وتدوم عشرين يوماً، ويبيع فيها

(١) الحديث عن سعيد بن الربيع الرازي، شيخ الطبري، في البخاري (٢٤٨/٤) مع الفتح وهو في «تفسير الطبري» برقم (٣٧٩١) (١٦٩/٤) وهو في «صحيح البخاري» برقم (١٧٧٠، ٤٥١٩) وفي «تفسير سعيد بن منصور» (٣٥٠) وابن أبي حاتم (١٨٤٦) والبيهقي في «السنن» (٣٣٣/٤).

نفائس السلع، وتتفاخر فيها القبائل ويتبارى فيها الشعراء، وهي بين مكة والطائف، ثم يخرجون من عكاظ إلى مجنة ثم ذي المجاز، ويظلون فيها إلى نهاية ذي القعدة.

﴿فَإِذَا أَفَضْتُمْ مِنْ عَرَفَاتٍ﴾ وسميت كذلك:

- ١- لأن أرض عرفات وُصفت لإبراهيم فلما رآها عرفها.
- ٢- وقيل: التقى آدم وحواء عليها فتعارفا.
- ٣- وقيل: علّم جبريل إبراهيم مناسك الحج ثم قال له: عرفت؟ فسمي المكان بعرفات، وسمي اليوم عرفة.

٤- وقيل: إن إبراهيم لما رأى في منامه أن يذبح ابنه فلما أصبح أخذ يتروى؛ أي: يفكر، فسمي يوم التروية، ثم رآها مرة أخرى فعرف أنها من الله لا من الشيطان، فَسُمِّي اليوم بعرفات. والإفاضة من عرفات لا تكون إلا بعد الوقوف بها.

قوله تعالى: ﴿فَاذْكُرُوا اللَّهَ عِنْدَ الْمَشْعَرِ الْحَرَامِ﴾ سميت المزدلفة مشعراً من الشعار؛ لأنه من معالم الحج، والوقوف بمزدلفة متأخر عن الوقوف بعرفة، ويكون ذلك بالمبيت بها ليلة النحر، وبعد صلاة الفجر يُكثّر الحاج من الدعاء حتى يُسفر جدا.

وفي الآية توجيه للمسلمين أن يُكثروا من ذكر الله سبحانه، وفي مقدمة ذلك صلاة المغرب والعشاء والفجر عند المشعر الحرام في مزدلفة، وتسمى:

- ١- (الجمع) لأن آدم اجتمع فيها بحواء، وازدلف إليها؛ أي: دنا منها.
 - ٢- أو لأنها يُجمع فيها بين المغرب والعشاء.
 - ٣- أو لأن الناس يزدلفون (أي: يتقربون) بالوقوف فيها إلى الله تعالى.
- ومزدلفة تقع في الحرم، وقد قيدت بذلك في قوله تعالى (المشعر الحرام) أما عرفة فتقع في الحل، كما يفهم من تقييد المزدلفة بالمشعر الحرام.
- أما (مِنَى) فسميت كذلك لما يُمْنَى؛ أي: يُصَب فيها من الدم.

ولما يُكثّر فيها من التلبية، ومن التسييح والتحميد والتهليل والتكبير، قال تعالى: ﴿وَاذْكُرُوهُ كَمَا هَدَيْكُمْ وَإِنْ كُنْتُمْ مِنْ قَبْلِهِ لَمَنِ الضَّالِّينَ﴾ أي: اذكروا الله تعالى كما

منّ عليكم بالهداية بعد الضلال، وكما علمكم ما لم تكونوا تعلمون، وقد كنتم قبل القرآن وقبل الرسول ﷺ على ضلال في أقوالكم وأفعالكم، فهداكم الله تعالى بهذه الرسالة.

عن عائشة رضي الله عنها أن رسول الله ﷺ قال: «ما من يوم أكثر من أن يُعَتَّقَ الله فيه عبدًا من النار من يوم عرفة، وإنه ليدنو ثم يباهي بهم الملائكة، فيقول: ما أراد هؤلاء؟»^(١)

وفي حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «أفضل الدعاء دعاء يوم عرفة، وأفضل قلبي وقول الأنبياء قبلي: لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد، يحيي ويميت، بيده الخير وهو على كل شيء قدير»^(٢)

ولا يُستحب صيام يوم عرفة للحجاج، فعن أم الفضل بنت الحارث أن ناسًا اختلفوا عندها يوم عرفة في صوم النبي ﷺ، فقال بعضهم: هو صائم، وقال بعضهم: ليس بصائم، فأرسلت إليه بقدح لبن، وهو واقف على بعيره فشربه^(٣)

وغير الحاج يُسن له صيام يوم عرفة، كما جاء عن أبي قتادة أن النبي ﷺ قال: «صيام عرفة، إني أحسبُ على الله أن يكفر السنة التي قبله، والسنة التي بعده»^(٤)

ثَانِيَا: التَّمَيُّزُ عَلَى النَّاسِ فِي الْحَجِّ وَالْعُمْرَةِ أَمْرٌ جَاهِلِيٌّ

١٩٩- ﴿ثُمَّ أَفِيضُوا مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ النَّاسُ وَاسْتَغْفِرُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾^(١٩٩)

أفيضوا من مزدلفة من حيث أفاض الناس، من لدن إبراهيم عليه السلام إلى الآن، والمقصود من هذه الإفاضة: رمي الجمار، وذبح الهدايا، والطواف والسعي، والمبيت بمنى ليالي التشريق، وفي نهاية المناسك يأمر سبحانه بالاستغفار والإكثار من ذكره تعالى.

لا فرق في ذلك بين صغير وكبير، ولا بين غني وفقير، ولا بين حاكم ومحكوم، في

(١) مسلم (١٣٤٨) والنسائي (٣٠٠٣) وابن ماجه (٣٠١٤) والحاكم (٤٦٤/١).

(٢) البيهقي في «الشعب» (٤٠٧٢) و«سنن البيهقي» (١١٧/٥) و«السلسلة الصحيحة» (١٥٠٣).

(٣) البخاري (١٦٥٨، ٥٦٣٦) ومسلم (١١٢٣) وأبو داود (٢٤٤١).

(٤) مسلم (١١٦٢) وابن أبي شيبه (٩٦/٣) وأبو داود (٣٤٢٥) والترمذي (٧٤٩) والنسائي في «السنن الكبرى» (٢٧٩٦، ٢٨١٣) وابن ماجه (١٧٣٠) والبيهقي (٢٨٣/٤).

أداء المناسك، ولا في أماكن الشعائر، فالكل يطوف بالبيت، والكل يسعى بين الصفا والمروة، والكل يرمي الجمرات، والكل يبيت في منى، ويقف في عرفات، على وجه المساواة، لا يتميز أحدهم على الآخر، ولا يختص أحدهم بمكان أوسع أو أُميز دون الآخر، لا يُضَيَّق على المحكوم من أجل الحاكم، ولا على الضعيف من أجل القوي، ولا يستأثر أهل مكة ومن حولها بالأماكن المفضلة في المشاعر فيُحرِّم منها مَنْ قَدِمَ من بلاد بعيدة، ولا يصح أن يختص فريق من الناس بالإفاضة من عرفة والمزدلفة دون غيرهم، والأصل في هذه التسوية قوله تعالى: ﴿وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ الَّذِي جَعَلْنَاهُ لِلنَّاسِ سَوَاءً الْعَلَفِ فِيهِ وَالْبَآءِ﴾ [الحج: ٢٥] أي: يستوي فيه مَنْ قَدِمَ من أقصى المعمورة بمن كان مقيمًا فيه.

روى البخاري وغيره عن عائشة رضي الله عنها قالت: كانت قريش ومن دان دينها يقفون بالمزدلفة، وكانوا يُسمُّون الحُمس، وكان سائر العرب يقفون بعرفات، فلما جاء الإسلام أمر الله نبيه أن يأتي عرفات ثم يقف بها ثم يفيض منها، فذلك قوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَفِيضُوا مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ النَّاسُ﴾^(١)

وهذه التفرقة من شعائر الجاهلية، فلا يجوز - في كل وقت - لكائن مَنْ كان حاكمًا أو محكومًا، مهما كان شأنه، أن يجعل لنفسه ميزة على خلق الله في الحج أو في غيره.

لقد كانت قريش ومن تبعها يسمون أنفسهم بالحُمس؛ أي: المتحمسون للحرم أكثر من غيرهم، يقولون: نحن أهل الله وسكان حرمه، فلا نقف مع الناس في عرفات، وكانوا يقفون في أدنى عرفات، قريبًا من مزدلفة، حتى إذا أفاضوا ونزلوا لا تكون الرحمة، وترفعون عن الوقوف مع الناس.

وفي لفظ آخر: عن عائشة ؓ قالت: كانت قريش ومن على دينها - وهم الحُمس - يقفون بمزدلفة، يقولون: نحن قطين الله! (أي: سكان بيته لا نجاوز الحرم) وكان من سواهم يقفون بعرفة، فأنزل الله: ﴿ثُمَّ أَفِيضُوا مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ النَّاسُ﴾^(٢)

والحُمس مشركو قريش ومن وُلِدوا من العرب مثل خزاعة وكنانة وبني عامر، وكان

(١) البخاري (٤٥٢٠) ومسلم (١٢١٩) وأبو داود (١٩١٠) والترمذي (٨٨٤) والنسائي (٣٠١٢).

(٢) «صحيح سنن ابن ماجه» (٢٤٤٤) والبيهقي (١١٣/٥) وهو في البخاري (١٦٦٥) ومسلم (١٢١٩).

العرب كلهم يفيضون من عرفة إلا الحمس، فكانوا يفيضون من مزدلفة إذا أصبحوا، ويقولون: نحن بنو إبراهيم، وولادة البيت، وقاطنو مكة، وساكنوها، وأهل الحرم، فليس لأحد من العرب حق كحقتنا، ولا مثل منزلتنا، وابتدعوا أموراً أخرى^(١).

والله ﷻ نهاهم عن ذلك، ونهى مَنْ يصنع صنيعهم إلى يوم القيامة، فقال سبحانه: ﴿ثُمَّ أَفِضُوا مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ النَّاسُ﴾ أي: قفوا مع الناس في عرفات، وأفيضوا من عرفات كما يفيض غيركم ولا تفيضوا من مزدلفة ﴿وَأَسْتَغْفِرُوا اللَّهَ﴾ من مخالفتكم في الموقف في عرفات مع الناس، ومن تقصيركم في أعمال الحج ﴿إِنَّ اللَّهَ عَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ وكلما فرغ العبد من عبادة استغفر الله تعالى عن التقصير وشكره على التوفيق، فيكون جديراً بالقبول والتوفيق.

وقد علمنا النبي ﷺ سيد الاستغفار، فيما رواه البخاري عن شداد بن أوس قال: قال رسول الله ﷺ: «سيد الاستغفار أن يقول العبد: اللهم أنت ربي، لا إله إلا أنت، خلقتني وأنا عبدك، وأنا على عهدك ووعدك ما استطعت، أعوذ بك من شر ما صنعت، أبوء لك بنعمتك علي، وأبوء بذنبي فاغفر لي فإنه لا يغفر الذنوب إلا أنت، ومن قالها في ليلة فمات في ليلته دخل الجنة، ومن قالها في يومه فمات دخل الجنة»^(٢).

وفي الصَّحِيحَيْنِ عن عبد الله بن عمرو رضي الله عنه أن أبا بكر رضي الله عنه قال: يا رسول الله، علمني دعاء أدعوه به في صلاتي، فقال: قل: «اللهم إني ظلمت نفسي ظلمًا كثيرًا، ولا يغفر الذنوب إلا أنت، فاغفر لي مغفرة من عندك وارحمني، إنك أنت الغفور الرحيم»^(٣).

وفي صحيح مسلم عن ثوبان رضي الله عنه أن النبي ﷺ كان إذا فرغ من الصلاة يستغفر الله ثلاثاً^(٤).

وفي الصَّحِيحَيْنِ عن أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي ﷺ ندب إلى التسيح والتحميد والتكبير ثلاثاً وثلاثين، ثلاثاً وثلاثين^(٥).

(١) يُنْظَرُ أثر عروة رقم (٣٨٣٢) وعبد الله بن أبي نجيح رقم (٣٨٤٠) من «تفسير الطبري».

(٢) «صحيح البخاري» برقم (٦٣٠٦، ٦٣٢٣).

(٣) «صحيح البخاري» برقم (٨٣٤، ٧٣٧٨) و«صحيح مسلم» برقم (٢٧٠٤).

(٤) من حديث ثوبان في «صحيح مسلم» (٥٩١).

(٥) وذلك في حديث أبي هريرة في «صحيح مسلم» (٥٩٥) و«صحيح البخاري» (٦٣٢٩، ٨٤٣).

وأخرج الطبري بسنده عن العباس بن مرداس السلمي قال: قال رسول الله ﷺ: «دعوت الله يوم عرفة أن يغفر لأمتي ذنوبها، فأجابني أن قد غفرت إلا ذنوبًا بينها وبين خلقي، فأعدت الدعاء يومئذ، فلم أجب بشيء، فلما كان غداة المزدلفة قلت: يا رب، إنك قادر أن تُعوض هذا المظلوم من ظلامته، وتغفر لهذا الظالم، فأجابني أن قد غفرت» قال: فضحك رسول الله ﷺ قال: فقلت: يا رسول الله، رأيناك تضحك في يوم لم تضحك فيه! قال: «ضحكت من عدو الله إبليس، لما سمع ما سمع، إذ هو يدعو بالويل والثبور، ويضع التراب على رأسه»^(١).

والوقوف بعرفة ركن الحج الأعظم لا يتم الحج إلا به، ومن فاته الوقوف بعرفة فاته الحج.

وفي الصَّحِيحَيْنِ عن أسامة بن زيد رضي الله عنه قال: دفع رسول الله ﷺ من عرفات، وأخر صلاة المغرب، حتى إذا كان بالشَّعب نزل فبال، ثم توضأ ولم يسبغ الوضوء، فقلت: الصلاة يا رسول الله، فقال: «الصلاة أمامك» ثم ركب، فلما جاء المزدلفة، نزل فتوضأ وأسبغ الوضوء، ثم أقيمت الصلاة، فصلى المغرب، ثم أناخ كل إنسان بغيره في منزله، ثم أقيمت العشاء، فصلى، ولم يصل بينهما^(٢).

وعرفة كلها موقف ومزدلفة كلها موقف:

في حديث جابر بن عبد الله رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «كل عرفة موقف، وكل منى منحر، وكل المزدلفة موقف، وكل فجاج مكة طريق ومنحر»^(٣).

وعن جابر أيضًا أن رسول الله ﷺ قال: «نحرتُ ههنا، ومنى كلها منحر، فانحروا في رحالكُم، ووقفْتُ ههنا، وعرفة كلها موقف، ووقفْتُ ههنا، وجمَعُ كلها موقف»^(٤) وبطن عُرنَة ليس من عرفة، وبطن مُحَسَّر ليس من مزدلفة.

والحاج يلبي حتى يرمي جمرة العقبة:

وعن ابن عباس أن أسامة بن زيد كان ردَف رسول الله ﷺ من عرفة إلى مزدلفة، ثم أردف

(١) «تفسير الطبري» (١٩٢/٤).

(٢) البخاري (١٣٩) وتنظر (١٨١، ١٥٤٣، ١٦٦٧) ومسلم (١٢٨٠).

(٣) «صحيح سنن أبي داود» (١٦٦٥) وابن ماجه (٣٠١٢).

(٤) «صحيح مسلم» (١٢١٨).

الفضل من المزدلفة إلى منى، فكلاهما قال: لم يزل النبي ﷺ يُلَبِّي حتى رمى جمرة العقبة»^(١)
كيفية الصلاة في مزدلفة:

وعن ابن عمر رضي الله عنهما قال: جمع رسول الله ﷺ بين المغرب والعشاء بجمع، صلى المغرب ثلاثاً، والعشاء ركعتين بإقامة واحدة»^(٢)

مَنْ يُرْخَص لَهُمْ فِي الْإِفَاضَةِ مِنْ مَزْدَلِفَةٍ بَعْدَ مُتَصِفِ اللَّيْلِ:

وكان عبد الله بن عمر رضي الله عنهما يُقَدِّمُ ضَعْفَةَ أَهْلِهِ، فيقفون عند المشعر الحرام بالمزدلفة بليل، فيذكرون الله ما بدا لهم، ثم يدفعون قبل أن يقف الإمام، وقبل أن يدفع، فمنهم مَنْ يَقْدُمُ مَنْىً لصلاة الفجر، ومنهم من يقدم بعد ذلك، فإذا قدموا رَمَوْا الجمرة، وكان ابن عمر رضي الله عنهما يقول: أَرْخَصَ فِي أَوْلَئِكَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ^(٣)

الإفاضة من مزدلفة بعد صلاة الفجر وقبل طلوع الشمس:

وعن عمرو بن ميمون قال: سمعت عمر بن الخطاب رضي الله عنه يَجْمَعُ بعد ما صلى الصبح وقف فقال: إن المشركين كانوا لا يُفِيضُونَ حتى تطلع الشمس ويقولون: أَشْرِقُ ثَبِيرٌ، وإن رسول الله خالفهم فأفاض قبل طلوع الشمس^(٤)

وثبیر اسم لأعظم جبال مكة على يسار الذهاب إلى منى، وقد عُرف هذا الجبل باسم رجل مدفون فيه اسمه ثبیر، ومعنى (أَشْرِقُ ثَبِيرٌ) أي: لتطلع عليك الشمس وأنت عند جبل ثبیر.

تمام النسك:

وقال النبي ﷺ لِعُرْوَةَ بْنِ مُضَرَّسٍ: «مَنْ صَلَّى مَعَنَا هَذِهِ الصَّلَاةَ (أي: المغرب والعشاء) فِي هَذَا الْمَكَانِ (أي: مزدلفة) ثُمَّ وَقَفَ هَذَا الْمَوْقِفَ حَتَّى يَفِيضَ الْإِمَامُ، وَكَانَ وَقَفَ قَبْلَ

(١) البخاري (١٥٤٣، ١٦٨٧) ومسلم (١٢٨٠، ١٢٨١) والنسائي في «السنن الكبرى» (٤٠٦١، ٤٠٨٨).

(٢) مسلم (١٢٨١) وأبو داود (١٩٢٩، ١٩٣٢) والترمذي (٨٨٧، ٨٨٨) والنسائي (٣٠٢٨، ٣٠٣٠).

(٣) البخاري (١٦٧٦) ومسلم (١٢٩٥).

(٤) في «المسند» (٨٤، ٢٠٠، ٣٨٥) بإسناد صحيح على شرط الشيخين والبخاري (١٦٨٤، ٣٨٣٨) وأبو

داود (١٩٣٨) والترمذي (٨٩٦) والنسائي (٣٠٤٧) وابن ماجه (٣٠٢٢) والطيالسي (٦٣).

ذلك من عرفات ليلاً أو نهاراً، فقد تم نسكه وقضى نفثه»^(١)

ثالثاً: الْحَجُّ لَيْسَ مَجَالاً لِلتَّفَاخُرِ

٢٠٠- ﴿فَإِذَا قُضِيَتْهُ مَنَاسِكُكُمْ فَادْكُرُوا اللَّهَ كَذِكْرِكُمْ ءَابَاءَكُمْ أَوْ أَشَدَّ ذِكْرًا فَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ رَبَّنَا ءِاتِنَا فِي الدُّنْيَا وَمَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِن خَلْقٍ﴾^(٢)

كان للعرب في الجاهلية أسواق، ليست أسواقاً للتجارة، وهي أسواق كلامية، يستمعون فيها إلى الأشعار، والكلام المنظوم والمثور، يفتخرون في هذه الاجتماعات، بمحاسن آبائهم وأجدادهم، فيذكرونهم ويذكرون محاسنهم ومناقبهم، ولم تكن هناك صحف، ولا وسائل إعلامية، ولا إذاعات، ولا شبكة معلومات، فكانوا يجتمعون في هذه الأسواق ويتفاخرون بآبائهم وأجدادهم وأحسابهم، وأن فلاناً كان يطعم الطعام، ويدفع الدية، ونحو ذلك.

فكانوا إذا فرغوا من الحج يقفون في سوق من هذه الأسواق بين جبل منى من جهة العقبة إلى موضع مسجد الخيف، ويذكرون محاسن آبائهم وأجدادهم، ويتباهون ويتفاخرون بذلك فأنزل الله سبحانه ينهى الناس عن مثل هذه الأمور، ينهاهم عن التفاخر بالأحساب والأنساب، والعصبية للعشيرة أو القبيلة؛ بقصد الشهرة والسمعة وغير ذلك، فإنه لا يفيد المرء إلا تقواه، وعمله الصالح، ولا يغني عنه من الله شيئاً أن يكون أبوه كذا وكذا.

أنزل الله سبحانه يأمر الذين أكرمهم الله بالإسلام أن يستبدلوا ذكر آبائهم وأحسابهم وأنسابهم بذكر الله ﷻ، وبين لهم أنه لا ينبغي أن يُذكر في هذه المشاعر إلا الله ﷻ: ﴿فَإِذَا قُضِيَتْهُ مَنَاسِكُكُمْ﴾ أي: إذا فرغتم من أعمال الحج بعد طواف الإفاضة ورمي جمره العقبة والحلق والذبح واستقررت في منى لا تجلسون للتفاخر بالأحساب والأنساب، ولكن أكثروا من ذكر الله والثناء عليه، مثل ذكر مفاخر آبائكم وأعظم منه.

وكانوا يتفاخرون بمناقبهم ومآثرهم وفضائلهم، ويطلبون من الله أن يعطيهم مثل ما

(١) بنحوه في «المسند» (١٦٢٠٨، ١٨٣٠٤) حديث صحيح رجاله ثقات، وأبو داود (١٩٥٠) والترمذي (٨٩١) والنسائي (٣٠٤١) وابن ماجه (٣٠١٦) والحاكم (٤٦٣/١) وقال: هذا حديث صحيح على شرط كافة أئمة الحديث، و«صحيح سنن أبي داود» (١٧٠٤). وابن خزيمة ٢٨٢٠ والحميدي ٩٠٠.

(٢) لم يعد هذه الكلمة (من خلاق) آية، المصحف المدني الأخير، وعدّها غيره آية.

أعطى آباءهم من المال والجاه، كان الرجل منهم يقوم فيقول: اللهم إن أبي كان عظيم القبة، عظيم الجفنة، كثير المال، فأعطني مثل ما أعطيته.

وقال ابن عباس: كان أهل الجاهلية يقفون بين مسجد منى وبين الجبل بعد فراغهم من الحج يذكرون فضائل آبائهم، فيقول الرجل منهم: إن فلاناً كان يُطعم الطعام ويحمل الديات، ليس لهم ذكر غير أفعال آبائهم فأنزل الله الآية^(١)

والإسلام لا يطلب من المسلم في الآية أن يُشرك ذكر آبائه مع ذكر الله سبحانه، إنما يقول له: استبدل بذكر الآباء والثناء عليهم ذكر الله تعالى والثناء عليه ﴿فَاذْكُرُوا اللَّهَ كَذِكْرِكُمْ آبَاءَكُمْ أَوْ أَشَدَّ ذِكْرًا﴾ أي: أكثروا من ذكر الله تعالى والثناء عليه مثل ذكر مفاخر آبائكم وأعظم من ذلك.

فإذا دعوت الله وسألته وأنت في هذه الأماكن وغيرها فلا تسأل الدنيا وحدها، لا تسأل الرزق والمرأة والولد والمنصب والجاه والمال، لا تسأل هذا وحده، بل اسأل ربك الدنيا والآخرة، اسأله الجنة، واسأله النظر إلى وجهه الكريم، واسأله أن ييسر لك الحساب يوم القيامة، واسأله أن يؤمنك من الفزع الأكبر.

فمن الناس فريق همه الدنيا، لا يطلب إلا الصحة والمال والولد، وإذا دعا يدعو للدنيا وحدها، وإذا سعى يسعى للدنيا وحدها، ولا يمنع أن يسعى العبد للدنيا، أو يدعو للدنيا، وإنما لا يفردا بالطلب والدعاء، بل يجعل الآخرة أكبر همه، ﴿فَمَنْ أَلْكَاسِ مَنْ يَقُولُ رَبَّنَا إِنَّا فِي الدُّنْيَا وَمَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلْقٍ﴾ أي: ليس له نصيب في الآخرة من دعائه ولا من الأجر عليه.

الْمُؤْمِنُ يَسْأَلُ رَبَّهُ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةَ

٢٠١- ﴿وَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ رَبَّنَا إِنَّا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةٌ وَفِي الْآخِرَةِ حَسَنَةٌ وَقَنَا عَذَابَ النَّارِ﴾^(٢)

(١) أخرجه البيهقي في «شعب الإيمان» (٣٧٦٩) وابن أبي حاتم (١٨٧٠) والضياء المقدسي في «المختارة» (١٠٨) وانظر الآثار الواردة في ذلك في الدر المنثور (٤٤٥-٤٤٧).

(٢) كلمة (عذاب النار) للمصحف المكي فيها خلاف بين عدّها آية وتركها، وعدّها سائر المصاحف العثمانية آية، ومعهم المصحف المكي على الأرجح.

والمؤمن يسأل ربه في الدنيا مالا وصحةً وجاهًا ونساءً، ﴿وَفِي الْآخِرَةِ حَسَنَةٌ﴾ أي: عفوًا ومغفرةً وجنةً والنظر إلى وجه الله الكريم، يطلب ما عند الله في أخراه من نعيم، ويطلب ما في الدنيا من متاع ﴿وَقَنَا عَذَابَ النَّارِ﴾.

وقد ورد أن النبي ﷺ كان يدعو بهذه الآية بين الركن والمقام في كل شوط من أشواط الطواف، وهذا الدعاء من أجمع الأدعية، ولهذا كان أكثر دعاء النبي ﷺ كما ثبت في الصَّحِيحَيْنِ عن أنس رضي الله عنه قال: كان النبي ﷺ يقول: «اللهم ربنا آتنا في الدنيا حسنة وفي الآخرة حسنة وقنا عذاب النار»^(١) قال تعالى:

٢٠٢- ﴿أُولَٰئِكَ لَهُمْ نَصِيبٌ مِّمَّا كَسَبُوا وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾

ثم بين سبحانه ما أعد للفريق الثاني من عُلو المنزلة، وسُمو الدرجات، فقال: ﴿أُولَٰئِكَ لَهُمْ نَصِيبٌ مِّمَّا كَسَبُوا﴾ أي: أولئك الداعون بهذا الدعاء لهم ثواب عظيم بسبب ما كسبوه من الأعمال الصالحة ﴿وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾ فهو سبحانه محصٍ أعمال العباد ومجازيهم بها، ومحاسبهم عليها في لمحة بصر.

عن أنس رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ عاد رجلاً من المسلمين قد صار مثل الفرخ المثلثوف، فقال له رسول الله ﷺ: «هل كنت تدعو الله بشيء؟» قال: نعم، كنت أقول: اللهم ما كنت مُعاقبي في الآخرة فعجله لي في الدنيا، فقال رسول الله ﷺ: «سبحان الله! إذن لا تطيق ذلك ولا تستطيعه، فهلا قلت: ربنا آتنا في الدنيا حسنة وفي الآخرة حسنة وقنا عذاب النار» ودعا له فشفاه الله^(٢)

وعن أنس أيضًا أن ثابتًا قال له: إن إخوانك يحبون أن تدعو لهم، فقال: اللهم آتنا في

(١) البخاري برقم (٤٥٢٢) عن أنس، وانظر (٦٣٨٩) ومسلم (٢٦٩٠) زيادة، والبغوي في شرح السنة (٧/ ١٢٨) من طريق الشافعي وابن حبان في صحيحه برقم (١٠٠١) من طريق يحيى القطان عن ابن جريج، والحديث في المسند (١١٩٨١) بإسناد صحيح على شرط الشيخين وأخرجه أبو داود (١٥١٩) والنسائي في الكبرى (١١٠٣٥) وفي عمل اليوم والليلة (١٠٥٦) وابن حبان (٩٤٠).

(٢) «المسند» (١٢٠٤٩، ١٤٠٦٧) والبخاري (٧٢٧، ٧٢٨) ومسلم (٢٦٨٨) والترمذي (٣٤٨٧) والنسائي في الكبرى (٧٥٠٦، ١٠٨٩٢) وابن أبي شيبة (١٠/ ٢٦١).

الدنيا حسنة وفي الآخرة حسنة وقنا عذاب النار، فأعاد عليه، فقال: تريدون أن أشقَّ لكم الأمور؟! إذا آتاكم الله في الدنيا حسنة، وفي الآخرة حسنة، ووقاكم عذاب النار، فقد آتاكم الخير على الخير كله^(١)

وفي هذه الآية دليل على أن الله تعالى يجيب دعوة كل داع، مسلمًا كان أو كافرًا أو فاسقًا، ولكن الإجابة ليست دليلًا على محبة العبد لربه وقربه منه، إلا في مطالب الآخرة ومهمات الدين.

ويدخل في حسنة الدنيا: الرزق الواسع والزوجة الصالحة، والولد البار، والعلم النافع، والعمل الصالح، وراحة البال.

ويدخل في حسنة الآخرة: النجاة من عذاب القبر، ومن عذاب النار، والحصول على رضى الله تعالى والفوز بالنعيم المقيم.

التَّكْبِيرُ وَرَمِي الْجَمَارِ

٢٠٣- ﴿وَاذْكُرُوا اللَّهَ فِي أَيَّامٍ مَّعْدُودَاتٍ فَمَنْ تَعَجَّلَ فِي يَوْمَيْنِ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ وَمَنْ تَأَخَّرَ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ لِمَنِ اتَّقَىٰ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَعْلَمُوا أَنَّكُمْ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾

ثم يأمرنا سبحانه بالإكثار من ذكر الله تعالى بالتهليل والتسبيح والتحميد والتكبير في الأيام المعدودات، وهي أيام التشريق الثلاثة بعد يوم العيد، ويقطع الحاج التلبية بعد رمي جمرة العقبة في يوم العيد ويبدأ التكبير، ويكثر منه عند رمي الجمار وعند الذبح، ويشرع التكبير على وجه الخصوص من صباح يوم عرفة إلى آخر أيام التشريق، جهراً في الأسواق، والطرق، والبيوت، والمساجد، ومع كل مرتفع ومنخفض، وعقب رمي الجمار.

وذلك لأن أحكام المناسك تؤدَّى فيها، والناس فيها ضيوف على الله، ولذا فإنها لا تُصام، فللذكر فيها مزية ليست لغيرها.

وفي عيد الفطر من غروب شمس آخر يوم من رمضان إلى أن يدخل الإمام في صلاة العيد، وهذا ما يُسمى بالتكبير المطلق، أما التكبير المقيد فيكون عقب الصلوات في العيدين.

(١) البخاري (٦٣٣) و«صحيح الأدب المفرد» (٤٩٣) وابن أبي شيبة (٣٥٦/١٠) وابن أبي حاتم (١٨٨٦).

وكان ابن عمر رضي الله عنهما يكبر في منى فيسمع الناس تكبيره، ويكبرون بتكبيره حتى ترتج منى من التكبير، ﴿وَأَذْكُرُوا اللَّهَ فِي أَيَّامٍ مَّعْدُودَاتٍ﴾ هي أيام التشريق الحادي عشر والثاني عشر والثالث عشر من شهر ذي الحجة، والأيام المعلومات هي عشر ذي الحجة، وقد جاء ذكرها في سورة الحج، ﴿فَمَنْ تَعَجَّلَ﴾ وخرج من منى قبل غروب شمس اليوم الثاني عشر بعد رمي الجمار ﴿فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ﴾ ولا حرج ولا ذنب ﴿وَمَنْ تَأَخَّرَ﴾ حتى رمى الجمار في اليوم الثالث عشر ﴿فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ﴾ وذلك ﴿لِئِنْ أَتَقَى﴾ الله في حجه، والتأخر أفضل، والحرص منفي عن المتقدم والمتأخر، وفي ذلك تخفيف وتيسير من الله تعالى بإباحة كلا الأمرين ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ﴾ خافوه وراقبوه في أعمالكم، ﴿وَأَعْلَمُوا أَنَّكُمْ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾ بعد موتكم للحساب والجزاء، فمن اتقاه وجد جزاء التقوى عنده، ومن لم يتقه فعقابه شديد وعذابه أليم.

١- في الصحيحين وغيرهما أن ابن عمر رضي الله عنهما كان يرمي الجمرات الدنيا بسبع حصيات، يكبر على إثر كل حصاة.

ثم يتقدم إلى بطن الوادي، فيقوم مستقبل القبلة، فيقوم طويلاً، ويدعو، ويرفع يديه، ثم يرمي الوسطى.

ثم يأخذ بذات الشمال حتى إذا صار ببطن الوادي قام مستقبل القبلة، ثم يدعو ويرفع يديه، ويقوم طويلاً، ثم يرمي جمرة العقبة من بطن الوادي، ولا يقف عندها، ثم ينصرف ويقول: هكذا رأيت رسول الله ﷺ يفعل^(١)

٢- وعن عائشة رضي الله عنها قالت: أفاض رسول الله ﷺ من آخر يومه حين صلى الظهر، ثم رجع فمكث بمنى ليلي أيام التشريق، يرمي الجمرة إذا زالت الشمس، كل جمرة بسبع حصيات، يكبر مع كل حصاة، ويقف عند الأولى وعند الثانية، فيطيل القيام ويتضرع، ثم يرمي الثالثة ولا يقف عندها^(٢)

٣- وعن نُبَيْشَةَ الْهُذَلِي قال: قال رسول الله ﷺ: «أَيَّامُ التَّشْرِيقِ أَيَّامُ أَكْلٍ وَشُرْبٍ وَذِكْرِ لِلَّهِ تَعَالَى»^(٣)

(١) البخاري (١٧٥١-١٧٥٣) والنسائي (٣٠٨٣) وابن ماجه (٣٠٣٢).

(٢) أخرجه الحاكم (٤٧٧/١).

(٣) مسلم (١١٤١١) والنسائي في «الكبرى» (٤١٨٢).

٤- وعن عبد الرحمن بن يَعْمَر الديلمى قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول وهو واقف بعرفة وأتاه أناس من أهل مكة فقالوا: يا رسول الله، كيف الحج؟ فقال: «الحجر عرفات، الحج عرفات، فمن أدرك ليلة جمع قبل أن يطلع الفجر فقد أدرك، أيام منى ثلاثة أيام، فمن تعجل في يومين فلا إثم عليه، ومن تأخر فلا إثم عليه، ثم أردف رجلاً خلفه ينادي بهن»^(١)

٥- وعن ابن عمر رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ كان إذا قفل من غزوة أو حج أو عمرة يكبر على كل شَرْفٍ من الأرض ثلاث تكبيرات، ثم يقول: «لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد، وهو على كل شيء قدير، آيئون، تائبون، عابدون، ساجدون لربنا حامدون، صدق الله وعده، ونصر عبده، وهزم الأحزاب وحده»^(٢)

وَصَفْ تَفْصِيلِي لِأَدَاءِ الْحَجِّ وَالْعُمْرَةِ

العلم قبل العمل: من يريد أن يعبد الله ﷻ فعليه أن يتعلم أولاً كيف يؤدي هذه العبادة؛ ليكون على بصيرة من أمره، وليعبد ربه بما شرع، فالعلم مقدم على العمل، ومن أجلّ العبادات وأعظمها حج بيت الله الحرام، وأداء العمرة، ومن يرد الحج أو العمرة ينبغي عليه أن يتعلم كيف يؤدي حجه وعمرته، فينبغي عليه وهو في الميقات قبل النية وقبل الدخول في الإحرام أن يحدد النُسك الذي يريده، هل يحج فقط؟ أو يحج ويعتمر؟ فيحدد النُسك الذي يريده بقلبه، ويسمى الأفراد نُسكاً، والتمتع نُسكاً، والقران نُسكاً، ويقال لها: أنساك، أو المناسك الثلاثة.

أنواع النُسك: الأفراد والتمتع والقران:

والمفرد: هو الذي يريد الحج وحده من غير أن يعتمر.

والمتمتع: هو الذي يعتمر أولاً، فيؤدي مناسك العمرة كاملة منفصلة عن الحج، ويخلع

(١) بنحوه في «صحيح سنن أبي داود» (١٧١٧) وهو في أبي داود (١٩٤٩) والترمذي (٢٩٧٥) والنسائي (٣٠١٦)، (٣٠٤٤) وابن ماجه (٣٠١٥) وفي صحيح ابن ماجه (٢٤٤١) بتصحیح الألباني، وفي إرواء الغليل (١٠٦٤) والمشكاة (٢٧١٤) والحاكم (٤٦٤/١) والبيهقي (١١٦/٥).

(٢) البخاري (١٧٩٧، ٦٣٨٥) ومسلم (١٣٤٤) ومالك (٤٢١/١) وأبو داود (٢٧٧٠) والنسائي في «السنن الكبرى» (٤٢٤٣، ١٠٣٧٤).

ملابس الإحرام بعد الفراغ من العمرة، ويلبس ملابسه العادية، ويحل له كل شيء من أخذ الشعر أو الأظافر أو التطيب أو إتيان أهله، وغير ذلك من كل شيء كان قد حل له قبل أن يُحْرِمَ بالعمرة، سواء أطالت هذه المدة بأن كانت من أول شهر شوال إلى اليوم الثامن من ذي الحجة، أو قصرت، بأن كانت ساعة أو يومًا أو أكثر من ذلك أو أقل، إلى أن يُحْرِمَ بالحج في ضُحَى ثامن ذي الحجة، فيكون قد تمتع بالحج والعمرة في سفر واحد.

والقارن: هو الذي يُقرن الحج مع العمرة في نسك واحد وعمل واحد وسفر واحد.

والقارن والمفرد: يبقى كل منهما على إحرامه، ولا يخلع ملابس الإحرام إلا بعد أن يؤدي اثنين من ثلاثة في يوم العيد أو بعده، وهذه الثلاثة هي: رمي جمرة العقبة، وطواف الإفاضة، والحلق أو التقصير، ثم يحل إحرامه.

الفرق بين المفرد والقارن: ولا فرق بين المفرد والقارن إلا في أمرين:

الأمر الأول: النية: فالمفرد ينوي حَجًّا فقط، والقارن ينوي الحج والعمرة معًا.

والأمر الثاني: هو أن المفرد لا هدي عليه؛ لأنه حَجٌّ فقط، أما القارن والمتمتع فعليهما ذبح؛ لأن كُلاً منهما حج واعتمر في سفر واحد.

وما عدا ذلك فإن أعمال المفرد والقارن واحدة عند جمهور الفقهاء بطواف واحد وسعي واحد، وبطوافين وسعيين عند الأحناف، وكل منهما يبقى على إحرامه من أول النية إلى أن يؤدي اثنين من الثلاثة التي سبق ذكرها في يوم العيد أو أيام التشريق.

والإحرام بالحج بالنسبة للمتمتع يكون يوم الثامن من ذي الحجة، من منى أو من مكة، أو من أي مكان يحرم منه داخل حدود الحرم.

ولكل من الأفراد والقران والتمتع كيفية، على النحو التالي:

أولاً: المفرد: وهو الذي ينوي الأفراد بالحج وحده من الميقات، وله أن يذهب إلى مكة، فيطوف طواف القدوم وهو سنة، وله أن لا يذهب إليها فيتزل رأسًا على عرفة أو على منى.

فإن نزل على منى أو عرفة فليس عليه طواف قدوم؛ لأن طواف القدوم سنة لمن دخل المسجد الحرام، ولا علاقة له بأعمال الحج، فهو تحية البيت، ففي أي وقت يصل فيه

المسلم إلى البيت يحياه بطواف القدوم، وهذا لم يذهب إلى البيت حتى يحياه، وإنما نزل على منى أو عرفة، فيسقط عنه طواف القدوم.

ثم يبيت المفرد في منى ليلة التاسع من ذي الحجة وما قبلها، ويذهب إلى عرفة ويبقى فيها إلى ما بعد غروب الشمس، ثم يدفع بعد نصف الليل أو يبيت في مزدلفة إلى ما بعد صلاة الفجر وقبل طلوع الشمس، ويعود إلى منى فيرمي جمرة العقبة، ولا هدي عليه، ويحلق رأسه أو يُقَصِّرُ، ويستوعب الرأس كله في التقصير.

ثم يذهب إلى البيت ويطوف طواف الإفاضة، ويقال له: طواف الحج، أو طواف الزيارة، وكلها بمعنى واحد.

فإن كان لم يأت البيت عند قدومه إلى مكة، ونزل على منى أو عرفات رأسًا، فمعنى ذلك أنه لم يسبق له السعي، وشرط السعي أن يكون بعد طواف، فإذا طاف للإفاضة، فإنه يسعى سعي الحج بين الصفا والمروة سبْعًا، الذهاب مرة والعودة مرة، وبهذا لا يبقى عليه إلا رمي الجمار في اليوم الحادي عشر، والثاني عشر إن تعجل، والثالث عشر إن تأخر.

فإن كان المفرد قد أتى الكعبة أول وصوله من الميقات و طاف طواف القدوم ؛ تحية للبيت، وهو طواف مسنون ومستحب، ثم بعد طواف القدوم له أن يسعى سعي الحج، فإذا سعى سعي الحج بعد طواف القدوم فليس عليه سعي بعد ذلك، وهذا أيضًا بالنسبة للقارن.

فالحكم واحد عند جمهور أهل العلم، فيقولون: على القارن طواف واحد وسعي واحد، إذا سعى بعد طواف القدوم لا يسعى بعد طواف الحج.

ثانياً: القارن: كالمفرد تمامًا في جميع أعماله عند جمهور أهل العلم ما عدا الأحناف، فإنهم يقولون: إن القارن عليه طوافان وسعيان.

والمفرد والقارن يبقى كل منهما على إحرامه متقيداً بمحظورات الإحرام من أول الدخول في النسك إلى التحلل الأول، والفرق بينهما في النية والذبح، فالمفرد ينوي الإفراد، والقارن ينوي القارن.

والقارن يذبح في يوم العيد أو في أيام التشريق، والمفرد لا ذبح عليه.

ثالثًا: المتمتع: وهو الذي تمتع بالعمرة إلى الحج، ويقال له متمتع لأمرين:

أحدهما: لأنه خلع ملابس الإحرام وانفك من محظوراته بعد أن أدى مناسك العمرة، وحل له كل شيء قد حرم عليه بالإحرام، من أخذ شعر أو ظفر، أو مس طيب وإتيان أهله، أو لبس المخيط وغير ذلك.

والآخر: لأنه أدى نسكين، وهما الحج والعمرة في سفر واحد، فهو لم يأت للعمرة مرة وللحج مرة، وإنما أدى النسكين في سفر واحد.

هذا: والمتمتع ينوي من الميقات لبيك عمرة، والمفرد ينوي لبيك حجًا، والقارن ينوي لبيك حجًا وعمرة.

دخول العمرة في الحج: والعمرة تدخل أعمالها في أعمال الحج بالنسبة للقارن، كما قال النبي ﷺ: «دخلت العمرة في الحج مرتين (لا، بل لأبد أبد)»^(١) وللفظ أبي داود «دخلت العمرة في الحج إلى يوم القيامة»^(٢) أي: أن بينهما اندماجًا وتداخلًا، فالسعي يكفي للحج والعمرة، والطواف يكفي للحج والعمرة، هذا معنى دخول العمرة في الحج؛ أي: دخلت أعمال العمرة في أعمال الحج، فالقارن يؤدي نسكين في نسك واحد.

أعمال المتمتع: والمتمتع ينوي لبيك عمرة؛ لأنه سيؤدي العمرة أولاً، وفي يوم التروية وهو الثامن من ذي الحجة ينوي لبيك حجًا، فقد نوى العمرة أولاً ثم نوى الحج ثانيًا، أو ينوي عند الميقات لبيك عمرةً متمتعًا بها إلى الحج، والأمر سواء، وله أن يشترط في النية ويقول: فإن حبسني حابس فمحلي حيث حبستني.

ويؤدي المتمتع أعمال العمرة منفصلة، فيطوف طواف العمرة، ويسقط عنه طواف القدوم؛ إذ ليس على المعتمر قدوم، سواء أكانت عمرة تمتع، أو عمرة مستقلة، كما يدخل المسلم المسجد ويجد صلاة الجماعة مقامة، فيتلبس بها ويدخل مع الجماعة ويسقط عنه تحية المسجد.

ومن يصلي السنة الراتبة التي قبل الفريضة كسنة الظهر أو سنة الصبح لا يطلب منه تحية

(١) من حديث جابر بن عبد الله في «صحيح مسلم» (١٢١٨).

(٢) سنن أبي داود (١٧٩٠) وصحيح سنن أبي داود (١٥٧٤).

مسجد؛ فصلاة السنة أسقطت عنه تحية المسجد، كذلك الشأن بالنسبة للمعتمر، يطوف طواف العمرة، وطواف العمرة هذا يُسقط طواف القدوم، ويسعى سعي العمرة، وبعد ذلك يقصر من شعره أو يحلق، وإن كانت المسافة قريبة نحو يوم أو يومين، فالأولى له التقصير كي يوفر شعره للحج حتى يحلقه، وإن كانت الأيام طويلة ينبت فيها الشعر أسبوعاً أو أكثر، فله أن يحلق أولاً في العمرة ويحلق ثانياً للحج، وبهذا تنتهي العمرة، فيخلع ملابس الإحرام.

وإن كان الوقت قصيراً لا يسمح له أن يخلع ملابس إحرامه، فالتقصير بالأخذ من الشعر قد أنهى العمرة، فإن غطى رأسه بعد ذلك بملابسه أو استراح بعض الوقت، فأكل أو صلى أو نام ونحو ذلك، فإنه يكون قد فصل بين العمرة والحج إن كان هذا في اليوم الثامن، ولا يلزمه أن يخلع ملابس الإحرام، إنما يفصل بينهما ولو ببضع دقائق.

ثم ينوي الحج من مكانه في حدود الحرم بعد أن يتوضأ أو يغتسل إن تيسر له ذلك قائلاً لبك اللهم حجاً، ويذهب إلى منى إن كان في مكة، ثم إلى عرفات، ثم إلى مزدلفة، ثم يعود إلى منى فيرمي جمرة العقبة ويذبح هدي التمتع، ويحلق رأسه، ويطوف طواف الإفاضة؛ أي: طواف الحج، ويسعى سعي الحج.

فالمتمتع يطوف مرتين، طوافاً للعمرة، وطوافاً للحج، ويسعى مرتين، سعيًا للعمرة، وسعيًا للحج.

وعليه في النهاية طواف الوداع، فهو واجب عند جمهور أهل العلم على الجميع في جميع الحالات، المفرد أو القارن أو المتمتع.

وإذا أخر الحاج طواف الإفاضة لعذر، كأن كان معه ضَعْفَةٌ، أو أطفال أو نساء، أو كانت أعداد الحجاج كبيرة والزحام كثير، أو كان الحر شديداً أو أصابه الإعياء أو الكبر أو المرض، إلى آخر أيام التشريق؛ أي: بعد أن يفرغ من رمي الجمار، سواء تعجل أو تأجل فإن له ذلك عند جمهور أهل العلم.

فبعد نهاية الجمرات يأتي البيت، ويطوف طواف الإفاضة، ويسعى بعده سعي الحج، فإن ذهب إلى بلده مباشرة فليس عليه طواف وداع؛ لأن طواف الإفاضة أغنى عنه، وإن سعى بعده؛ لأن السعي بعد طواف الإفاضة ليس فاصلاً يُطلب له طواف الوداع.

طواف الوداع: أما الذي يبيت في مكة أو يتاجر فيبيع ويشترى، أو يجلس يوماً أو أكثر، فإن عليه طواف الوداع، أما إن اشترى حاجته من الطريق لأكله وشربه وحاجته، فليس هذا بفاصل، وكذا إن استراح بعض الوقت وصلى، أو خلع ملابسه، أو هياً أغراضه وركب السيارة.

وإن توقف به المسير لزدحام الطريق لا يلزمه أن ينزل ويطوف طواف الوداع بعد أن ركب للعودة.

وطواف الوداع حكمه واحد لا يختلف بالنسبة للمفرد أو القارن أو المتمتع، ولا يسقط إلا على أهل مكة لأنهم ليس عليهم طواف وداع، وكذا الحائض يسقط عنها للعذر، فإن خرج الحاج أو المعتمر من مكة دون أن يؤدي طواف الوداع، وكان ذلك قبل الوصول إلى الميقات فعليه أن يعود ليدوع البيت.

فإن ترك طواف الوداع لسبب قهري من مرض أو إغماء أو نحو ذلك، فإنه يُجبر بدم عند جمهور أهل العلم، وهو عند المالكية سُنة فلا شيء عليه.

إطلاق النسك: وبعض العوام لا يفهم معنى الأفراد أو القران أو التمتع فلا يستوعب ذلك، أو لا يستحضر النية عند الميقات بالنسبة لتحديد النسك، وفي مثل هذه الحالة إذا أطلق النية من الميقات ولم يحدد أفراداً ولا قراناً ولا تمتعاً، فنيته صحيحة، وحجه صحيح ينصرف إلى أي من المناسك الثلاثة؛ الأفراد أو التمتع أو القران، بعد معرفته أو تذكره لذلك.

أفضل الأنساك: ولا بدّ للمسلم أن يعرف أنواع المناسك، وأي من الأنساك الثلاثة أفضل، وفي التفاضل بين أنواع المناسك كلام لأهل العلم.

فمن أخذ بقول النبي ﷺ في حديث جابر بن عبد الله ﷺ: «لو استقبلت من أمري ما استدبرت لم أسق الهدي وجعلتها عمرة»^(١)

قال: إن هذا هو آخر ما قال رسول الله ﷺ، وهو الأمر الذي تمناه، ولو أنه ﷺ عاد

(١) «صحيح مسلم» (١٢١٦، ١٢١٨) وأبو داود (١٩٠٥) والنسائي (٦٠٣، ٢٩٨٥) وابن ماجه (٣٠٧٤).

مرة ثانية فإنه سينوي عمرة، ويتمتع بها إلى الحج، فالأفضل إذن هو ما تمناه الرسول ﷺ وهو التمتع، وهذا قول الحنابلة، ومن معهم.

والذين قالوا: إن القرآن هو الأفضل، قالوا: إن النبي ﷺ حج قارنًا، وبهذا قال الأحناف ومن معهم، فقالوا: إن القرآن أفضل بالنسبة لمن يسوق الهدى معه كما فعل النبي ﷺ.

ومسألة سوق الهدى في وقتنا لا تكاد تكون موجودة، فلا يأتي أحد من أقطار العالم الإسلامي ومعه الهدى في سيارته أو بالطائرة، إلا من كان قريبًا من الحرم من أهل القرى والبوادي داخل المملكة العربية السعودية فإنه يمكن أن يأتي به في سيارته أو يسوق الهدى معه، والذي يدفع قيمة الهدى لبنك التنمية الإسلامي أو غيره مما هو موكل بهذا لا أعتقد أنه يعتبر ممن ساق الهدى معه، فهذه المسألة لا تنطبق إلا على من هم حول الحرم في الوقت الحاضر.

ومسألة دفع قيمة الهدى للبنك للتيسير على الحجاج من جهة؛ ولينتم الانتفاع بلحوم الهدى من جهة أخرى، قد حلت مشكلة كبيرة في منى من تكدس اللحوم ودفنها تحت التراب! واختلف أهل العلم هل النبي ﷺ كان حجه مفردًا أو قارنًا أو متمتعًا؟ في هذا كلام وأحاديث وردت:

قال الأحناف والظاهرية: إنه ﷺ كان قارنًا، ففضلوا القرآن؛ لأنه فعل النبي ﷺ.

وقال الحنابلة: إن رسول الله ﷺ كان قارنًا، ولكنه تمنى التمتع، فالتمتع أفضل.

وقال الشافعية والمالكية: الأفراد أفضل، وقالوا: إن رسول الله ﷺ كان مفردًا، كما ورد في بعض الأحاديث، وقالوا أيضًا: إن المفرد يتفرغ لمناسك الحج والتعرف عليها مفردة، وهي عليه أيسر من التمتع والقران، والأفراد وهو الأصل، أيسر من أن يخلط معه العمرة، ويلتبس عليه الأمر، لا سيما في حج الفريضة، وهو اختيار الشافعية.

وقالوا: إن التمتع والقران رخصة لمن قدم من سفر بعيد، فيرخص له أن يأتي بالتمتع أو القران؛ ليؤدي نسكين في سفر واحد.

وقد أجمع أهل العلم على أن المسلم إذا حج مفردًا أو قارنًا أو متمتعًا فكل ذلك جائز، وليس فيه حرج، وإن كان بعضهم يفضل بعض المناسك على بعض.

الْتِمَاسُ الْعِلَّةِ فِي أَعْمَالِ الْحَجِّ

١- لبيك حقًا حقًا، تعبدًا ورقًا:

المسلم يعبد الله تعالى، فيمثل أمره ويجتنب نهيه؛ خضوعًا وانقيادًا له سبحانه، وإن خفيت علينا حكمة الأمر والنهي، والإسلام لا يطلب من المسلم أن يُلغِي عقله، بل يأمره بالبحث والتأمل وإعمال الفكر والنظر:

﴿قُلْ أَنْظَرُوا مَاذَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ [يونس: ١٠١] ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [الروم: ٢١] ﴿أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا﴾ [الأعراف: ١٨٤] ولكن العقول متفاوتة والأفهام مختلفة، وما لا يدركه الإنسان اليوم قد يدركه غدًا، وما لا تفهم البشرية له علة فحكمته أكبر من عقولها، وقد تدركه بعد ذلك.

وعبادتنا لله تعالى لا تتوقف على فهم العلة والسبب، فالعقل مخلوق، وكل مخلوق ناقص لا يدرك الكمال المطلق، ومن هنا: فإن كثيرًا من العبادات لا مجال للعقل فيها؛ لماذا كان الفجر ركعتين والمغرب ثلاثًا؟ لماذا كان الصيام في رمضان ولم يكن في محرم؟ لماذا أُمِرْنَا بالمبيت في منى ومزدلفة؟ ولماذا رمي الجمار وغيره؟ إنها أوامر إلهية، وعلينا الامتثال والطاعة، سواء أدركنا العلة أم لا، وعلينا الإذعان والتسليم والانقياد، طالما كان المأمور به أو المنهي عنه من أحكام الشرع القطعية، فإن أدرك الإنسان لها علة بعد ذلك فالحمد لله، وإلا فعليه الامتثال أو الاجتناب:

قال تعالى: ﴿إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ الْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَنْ يَقُولُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [النور]

وقال سبحانه: ﴿وَمَنْ يُسَلِّمْ وَجْهَهُ إِلَى اللَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ﴾ [لقمان: ٢٢]

وقال جلَّ شأنه: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ﴾ [الأحزاب: ٣٦] وأحكام الحج من هذا القبيل.

وقد اجتهد بعض أهل العلم في التماس عِلَلٍ لها، وهم مأجورون على اجتهداتهم، سواء صادفوا الحقيقة أو العلة أم جانبهم الصواب فيها، وبعض أعمال الحج مرتبط

بمناسبات معينة تدل على التسليم والانقياد والطاعة:

(أ) كما في قصة إبراهيم حين هَمَّ بذبح ولده؛ فامتثل الوالد والولد والأم، وتعرَّض له الشيطان في ثلاثة مواطن، فرجَمَه إبراهيم، فأمرنا بالرجم في هذه الأماكن.

(ب) وكما في ترك إبراهيم لزوجته وابنه بواد غير ذي زرع، وسأله هاجر: آله أمرك بهذا؟ قال: نعم، قالت ثقة بربها وتوكلاً عليه: إن الله لن يضيعنا.

(ج) ومثل سعي (هاجر) بين الصفا والمروة؛ بحثاً عن الماء لتتقذ وليدها.

(د) ومثل إظهار القوة للمشركين أثناء الطواف الأول بالرَّمْل فيه (أي: الإسراع في المشي مع تقارب الخطى) الذين قالوا عن المسلمين حين قدموا من المدينة بعد الهجرة: لقد أوهنتهم حُمى يثرب، فقال ﷺ: «أروهم أن بكم قوة»^(١).

فهذه مناسبات وقتية، وقد زالت العلة، وظل النسك على ما هو عليه؛ لأن هذه الأمور ليست هي السبب في العبادة على وجه الحقيقة، وإن كان بينهما علاقة وسبب مباشر، فالأصل أن أعمال الحج وغيرها من العبادات مبنية على التسليم والانقياد. وسوف نذكر شيئاً من اجتهاد العلماء في استنباط علل لأعمال الحج.

٢- التجرد من المخيط والمحيط:

إن المسلم إذا أحرم بالحج أو العمرة فإنه وافدٌ إلى الله تعالى، قادماً إلى رحابه، فعليه أن يتجرد من المخيط والمحيط من ثياب الدنيا، ويلبس ما يُذكره بالكفن عند الخروج من هذه الحياة، بما يشبه الحفاة العراة، يعلوه الذل والانكسار، والتجرد من مُتَع الدنيا وشهوات النفس والهوى، إنه ذاهبٌ إلى ربه يجأر إليه سبحانه بالتلبية مجيئاً دعوة إبراهيم عليه الصلاة والسلام: (ليتك اللهم ليك) (ليتك حقاً حقاً تعبدًا ورقاً).

٣- الميقات والحرم: والدخول من الميقات دخول إلى حِمى الحرم، واقتراب من حدوده، فإن لكل مَلِكٍ حِمى، وهذا حِمى حَرَمِ الله جَلَّ في علاه.

(١) ينظر: صحيح مسلم عن ابن عباس (١٢٦٦) كتاب الحج، باب استحباب الرمل، وصحيح البخاري (١٦٤٩)، (١٦٠٢) والجامع الصغير (١٢٥٣٢).

والمواقيت هي أماكن الإحرام، وهي محيطة بالحرم من كل جانب لجميع الخلق، وأبعدها عن الحرم يبلغ أربع مئة وثلاثين كيلو مترًا، وأدناها نحو يبلغ ثمانية كيلو مترات. وللحرم حدود تحيط به من كل جانب، أبعدها عن الحرم يبلغ نحو ستة عشر كيلو مترًا وأدناها يبلغ نحو ستة كيلو مترات.

والحرم هو مكان التقاء المدعوين في أحب بلاد الله إلى الله، وأحب البلاد إلى رسوله ﷺ حيث وُلد ونشأ وبُعث ﷺ وحيث وُطئت قدما إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام. ويسأل الحاج والمعتمر ربه أن يزيد هذا البيت تعظيمًا وتشريفًا وتكريمًا ومهابةً وأمنًا وبرًا، وكذلك مَنْ حجه واعتمره، وليستحضر المحرم عظمة الله تعالى حين يرى الكعبة، وعند مغادرته لها، ويسأل الله تعالى ألا يكون ذلك آخر العهد بها.

٤- الطواف حول الكعبة: وهي بضعة أمتار من الأرض الخالية طولًا وعرضًا وارتفاعًا، اختار الله هذه البقعة في محاذاة البيت المعمور في السماء السابعة؛ ليطوف حولها الإنسان كما تطوف الملائكة حول البيت المعمور، وليتجهوا إليها في صلاتهم، ويشدوا إليها الرحل لأداء الركن الخامس، كأنهم يأتون إلى الله تعالى في بيته ويبايعونه على السمع والطاعة والتوبة والإنابة، وليتشبهوا بالملائكة في الملاء الأعلى، وهم يطوفون بالبيت المعمور في صفاء الروح، والنقاء من الذنوب، والتغلب على جانب الشهوة، لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون، وليعلم المسلم وهو يطوف بالبيت أنه في صلاة، إلا أن الله تعالى أحل فيه الكلام.

٥- استلام الحجر الأسود: ويبدأ المسلم طوافه بالبيت، باستلام الحجر الأسود؛ مبايعة لله تعالى على الطاعة والعبادة والإذعان له جَلَّ شَأْنُهُ وإقامة ذكره، وهو (حَجَرٌ) به إطار من الفضة (قُطْرُهُ ثلاثون سنتيمترًا) وقد صح عن النبي ﷺ أن هذا (الحجر) ليس من حجارة الأرض، وإنما نزل من الجنة، وكان لونه أشد بياضًا من اللبن.

(أ) أخرج الترمذي بسند صحيح عن ابن عباس ؓ أن رسول الله ﷺ قال: «نزل الحجر الأسود من الجنة، وهو أشد بياضًا من اللبن، فسودته خطايا بني آدم»^(١)

(١) «صحيح سنن الترمذي» باختصار السند للشيخ ناصر الدين الألباني حديث رقم (٦٩٥) وفي السنن (٨٧٧) وفي مشكاة المصابيح (٢٥٧٧)، والتعليق الرغيب (١٢٣/٢).

(ب) والحجر الأسود ينطق يوم القيامة، ويشهد لكل من استلمه في الدنيا، فهو رمزٌ للمبايعة على التوحيد والإيمان.

وقد صح عن ابن عباس رضي الله عنهما أن النبي ﷺ قال: «والله ليبعثه الله يوم القيامة، له عينان ليُبصر بهما، ولسان لينطق به، ويشهد على من استلمه بحق»^(١)

(ج) تقبيل الحجر: ومع أن الحجر الأسود حجر لا يضر ولا ينفع، فإنه يستحب للمسلم استلامه وتقبيله عند الطواف بالبيت، ولذلك فقد قبله النبي ﷺ، وقبله عمر رضي الله عنه وقال: والله إنني أعلم أنك حجر لا تضر ولا تنفع، ولولا أنني رأيت رسول الله ﷺ يقبلك ما قبلتك، ثم بكى ﷺ حتى علا نحيبه^(٢)

(د) وتقبيل الحجر الأسود مشروط بعدم إيذاء الطائفين وإلحاق الضرر بهم، وإلا فيكفيه أن يستلمه بيده ويقبل يده، أو يشير إلى الحجر بيده مع التكبير، أو يستلم من استلمه.

(هـ) وليس في تقبيل الحجر ولا في الطواف بالبيت الحرام شيء من الوثنية، كما يزعم أهل الضلال والإلحاد، وإنما هي معانٍ سامية تليق بجلال الله تعالى، وهي رموز لإقامة ذكر الله ﷻ.

(و) وإذا استلم المسلم الحجر الأسود، فكأنه يبايع الله تعالى ويعاهده على ترك الذنوب والآثام مادام حيًا، مع اعتقاده بأنه حجر لا يضر ولا ينفع، فتقبيله واستلامه تعظيم لما عظم الله، واقتداء بما فعل رسول الله ﷺ ﴿وَمَنْ يُعْظَمْ شَعْبَرِ اللَّهِ فَإِنَّهَا مِنْ تَقْوَى الْقُلُوبِ﴾ [الحج: ٣٢] ﴿وَمَنْ يُعْظَمْ حُرْمَتِ اللَّهِ فَهُوَ خَيْرٌ لَهُ عِنْدَ رَبِّهِ﴾ [الحج: ٣٠].

٦. التزام الملتزم: وإذا التزم العبد باب الكعبة (الملتزم) وتعلق بأستارها في خشوع وضراعة واستكانة، وندم على ما فرط في حق الله وفي حقوق الناس، فهو كالمذنب

(١) رواه الطبراني في «الكبير» ورجاله ثقات كما قال الهيثمي في «مجمع الزائد» ج ٣ ص ٢٤٣ وهو في «صحيح سنن ابن ماجه» (٢٣٨٢) و«مشكاة المصابيح» (٢٥٧٨).

(٢) ينظر: صحيح البخاري (١٥٩٧)، (١٦١٠) وصحيح مسلم (١٢٧٠) وصحيح أبي داود (١٦٤٩)، وأخرجه الترمذي عن عابس بن ربيعة عن عمر برقم (٦٨٣) وانظر: «صحيح الجامع الصغير» حديث رقم (٩٧٥) و«صحيح سنن ابن ماجه» (٢٣٨١) و«الروض النضير» (٧٢٣).

المتعلق بثياب مَنْ أذنب في حقه، يطلب العفو والغفران من جانبه.

٧- السعي: فإذا سعى المسلم بين الصفا والمروة فهو يُظهر الحاجة إلى الله تعالى، والافتقار إليه سبحانه بالتذلل، وبذل الجُهد والكَد والسعي والنَّصب في هذه الحياة، والأخذ بالأسباب في طلب المعيشة والرزق، وفي ذلك تشبُّه بهاجر وهي تسعى جاهدة بحثًا عن الماء لإنقاذ وليدها من الظمأ؛ لتمده بأسباب الحياة، وتهيئ له سبيل العيش، والنجاة من الهلاك، وليعلم المسلم أنه لا حرج ولا إثم عليه في السعي بين هذين الجبلين (الصفا والمروة)؛ لأن ذلك عبادة قديمة، ولا يؤثر عليها ما عرض لها في الجاهلية من وجود صنمي (إساف ونائلة) على الجبلين.

٨- عرفات: حين يقف الحاج بعرفات حيث يزدحم الخلائق على اختلاف الألوان واللغات، وترتفع الأصوات بالحاجات؛ يتذكر المسلم الموقف الأعظم يوم الحشر الأكبر، يوم القيامة حيث اجتماع الأمم مع الأنبياء، واقتفاء كل أمة نبيها وطلبها شفاعته، ويتحिरرون في الصعيد الواحد بين الرد والقبول، فقد اجتمع الحجاج جميعًا من شتى أرجاء الدنيا في صعيد واحد؛ ليلتقوا بربهم استجابة للدعوة الإلهية التي وُجِّهت إليهم بواسطة خليل الرحمن، ليحظَّوا منه سبحانه في ساحة الكرم والجود والإحسان والعطاء ومغفرة الذنوب وتفريج الكرب بالعفو والعافية والتجاوز عن الذنوب، والعودة من الموقف كيوم ولدتهم أمهاتهم، حيث يقول الله تعالى لملائكته في ذلك اليوم العظيم: «انظروا إلى عبادي شعنًا غبرًا، جاؤوا من كل فج عميق يرجون رحمتي، ولم يروا عذابي، أشهدكم يا ملائكتي أنني قد غفرت لهم»^(١)

والصحيح: أن الحج المبرور يَغفر الذنوب كلها عدا حقوق العباد، وعلى المسلم أن يحسن الظن بالله تعالى حين يفيض من عرفات فيعلم أن الله تعالى قد غفر له ذنبه، وستر له عيبه إن كان حجه صحيحًا مبرورًا خاليًا من الرفث والفسوق والجدال وكان من مال حلال.

٩- مزدلفة: بعد أن ينتهي الحجاج من الوقوف بعرفة، ينصرفون بعد غروب الشمس إلى

(١) يُنظَر: حديث جابر في صحيح ابن حبان (٣٨٥٣) قال محققه: حديث صحيح، وهو في كشف الأستار للبراز (١١٢٨) وعند أبي يعلى (٢٠٩٠) وابن خزيمة (٢٨٤٠) ويُنظَر: البيهقي في «شعب الإيمان» (٤٠٦٨). وعن عبدالله بن عمرو في مسند أحمد (٧٠٨٩) إلى (غبرا) بإسناد لا بأس به وعن أبي هريرة (٨٠٤٧) حديث صحيح، أفاده محققو المسند.

مزدلفة؛ ليبيتوا ليلة العيد بالمشعر الحرام في فرح وبهجة وسرور، على ما أنعم الله عليهم به من إجابة الدعاء وقبول الرجاء والرجوع من حجهم كيوم ولدتهم أمهاتهم، والفوز برضا الله تعالى والجنة.

وقبل عودتهم إلى بيت خالقهم يَشْفُونَ صدورهم، ويُذهبون غيظ قلوبهم، ويُعبرون عن توبتهم وعداوتهم للشيطان وقهرهم له وتغلبهم على نزغاته، كما تغلب عليه من قبل أبوهم إبراهيم وابنه إسماعيل عليهما السلام.

١٠- **الحلق:** أما الحلق أو التقصير فهو إلقاء للتفت، وإزالة للشعث، بعد هذه الرحلة المضنية التي هي نوع من الجهاد، وقبل الإقبال على بيت الله الحرام لأداء طواف الإفاضة، وحضور الحفل المشهود في الوفد القادم إلى ساحة المولى سبحانه، بعد التخلص من كل أثر دنيوي ظاهر.

١١- **الهدى:** والذبح رمزٌ للتضحية والفداء، وإعلامٌ بشكر الله تعالى، وإظهارٌ للفرح والسرور، واقتداءً بخليل الرحمن حين نجح في الابتلاء المبين، وفدى الله الغلام بذبح عظيم.

١٢- **أمن المُحَرَّمِ والحرم:** إن المحرم بالحج أو العمرة يحظى بالأمن والأمان في زمان الحج ومكانه؛ حيث يجب وقف القتال وحقق الدماء، بل لا يجوز له أن يعتدي على نفسه أثناء الإحرام بأخذ شعر أو قص ظفر، ويمتد هذا الأمن إلى النبات والشجر والحيوان، فهو أمان فريد من نوعه شمل الإنسان على الأرض، والطير في الجو، والصيد في البر، والنبات في الأرض، وأُشْرِبَ المحرم روحَ السلام في كل شيء.

١٣- **وحدة الأمة:** والمحرمون وحدة واحدة في المشاعر والشعائر والهدف والعمل والقول، إنهم يؤمنون برب واحد، ورسول واحد، وكتاب واحد، ويطوفون ببيت واحد، ويتجهون لقبله واحدة، ويؤدون جميعاً أعمالاً واحدة، لا فرق فيها بين لون ولون، ولا جنس وجنس، ولا لغة ولغة، ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ﴾ [المجادلة: ١٣] الكل في ساحة ملك الملوك، لا يمتاز أحدهم على غيره إلا بصالح عمله ونقاء سريره.

حُرْمَةُ الْمَدِينَةِ وَفَضْلُهَا وَفَضْلُ الْمَوْتِ فِيهَا

(أ) وكما يحرم صيدُ حرم مكة وشجره يحرم كذلك صيد حرم المدينة وشجره:

عن جابر بن عبد الله رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «إن إبراهيم حرم مكة، وإنني حرمت المدينة ما بين لابتيها»^(١)

وفي حديث علي رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال عن المدينة: «لا يخلو خلاها، ولا ينفر صيدها، ولا تلتقط لقطتها إلا لمن أشاد بها (أي: عرفها) ولا يصلح لرجل أن يحمل فيها السلاح لقتال، ولا يصلح أن تُقطع فيها شجرة إلا أن يعلف رجل بعيره»^(٢)

وحرمُ المدينة ما بين لابتيها (الحرّة الشرقية والغربية) اثنا عشر ميلاً، وليس في قطع شجر الحرم المدني ولا في قتل صيده جزاء، وإنما فيه إثم وذنب، فالعقوبة فيه أخروية.

(ب) فضل المدينة: المدينة قبة الإسلام، ودار الإيمان، وأرض الهجرة، ومثوى الحلال والحرام، دعا لها النبي ﷺ بالبركة فيها وفي أرزاقها وأقواتها.

ومن صبر على الإقامة فيها كان النبي ﷺ له شفيعاً وشهيداً، ومن أرادها بسوء أذابه الله كما يذوب الملح في الماء، والمدينة كالكير تنفي خبثها.

وفي الصحيح عن أبي هريرة رضي الله عنه: «إن الإيمان ليأرز إلى المدينة كما تأرز الحية إلى جحرها»^(٣)

(ج) فضل الموت في المدينة:

والموت في المدينة له فضل كبير حيث يفوز من دُفن فيها بشهادة النبي ﷺ وشفاعته، وقد دعا عمر رضي الله عنه ربه أن يرزقه الله الشهادة، ويجعل موته في حرم رسوله ﷺ.

(١) أخرجه الإمام مسلم في صحيحه ط سنة ١٤٠٠ هـ حديث رقم (٤٥٨) ج ٢ ص ٩٩٢ وفي ط بيت الأفكار

الدولية برقم (١٣٦٢) وعن مروان بن الحكم برقم (١٣٦١) وعن رافع بن خديج برقم (١٣٦١).

(٢) أخرجه أبو داود، (٢٠٣٥) وهذا اللفظ له وهو في «صحيح سنن أبي داود» برقم (١٧٩٠) وفي المسند

برقم (٢٩٦٢، ٣٢٥٣) عن ابن عباس بنحوه وإسناده صحيح على شرط الشيخين كما قال محققوه، وهو

في مصنف عبد الرزاق (٩١٩٣).

(٣) البخاري (١٨٧٦) وفي مسلم (١٤٧) ورواه أحمد أيضاً في «المسند» برقم (١٤٤٠، ٧٨٤٦) وانظر:

«صحيح الجامع الصغير» حديث رقم (١٥٨٥).

فاللهم ارزقنا الشهادة، واجعل موتنا في حرم رسولك ﷺ^(١)

زيارة المسجد النبوي: أعمال الحج كلها تُؤدَّى في مكة ومنى وعرفات، ولا علاقة لفريضة الحج أو العمرة بزيارة المدينة المنورة، مع ما للمدينة والمسجد النبوي الشريف من فضل عظيم. والمسافة بين مكة والمدينة تقرب من خمس مئة كيلو مترًا.

وينبغي على الحجاج والعُمَّار أن يفرّقوا بين الحج والعمرة والزيارة، وقد شاعت لدى العامة أحاديث ضعيفة وموضوعة في هذا المقام مثل: (من حج ولم يزرني فقد جفاني)، ومثل: (من زارني ميتًا فكأنما زارني حيًّا)، ومثل: (من زار قبري وجبت له شفاعتي)، ومثل: (ما بين قبري ومنبري روضة من رياض الجنة)؛ فترسّب في أذهان العامة الربط بين الحج والزيارة.

ولأن القادم إلى الحج من بلاد بعيدة على قلة يده ، لا يتيسر له زيارة المسجد النبوي إلا في موسم الحج، فهو يتوجه إلى المدينة المنورة قبل الحج أو بعده، مع أن زيارة المسجد النبوي تُشرع في أيّ وقت من العام، سواء في وقت الحج أو خلافه، وينبغي أن يقصد الزائر حين يتوجه إلى المدينة المنورة أن يزور المسجد النبوي؛ لحصول الأجر الموعود به على الصلاة فيه، حيث إنه المسجد الثاني الذي يُشرع شد الرحل إليه.

في الحديث المتفق على صحته عن أبي هريرة ؓ أن رسول الله ﷺ قال: «لا تشد الرحال إلا إلى ثلاثة مساجد: المسجد الحرام، ومسجدي هذا، والمسجد الأقصى»^(٢)

وهذا الحديث يتعلق بزيارة المسجد النبوي ولا علاقة له بزيارة قبر النبي ﷺ.

وعن أبي هريرة وابن عمر وميمونة وجابر ؓ أن النبي ﷺ قال: «صلاة في مسجدي هذا أفضل من ألف صلاة في سواه إلا المسجد الحرام»^(٣)

(١) راجع الأحاديث الواردة في ذلك في الصحيحين، وفي الترغيب والترهيب وغيرهما في فضل المدينة.

(٢) انظر: «صحيح الجامع الصغير» حديث رقم (٢٠٩) وهو عن أبي هريرة وابن عمر وأبي سعيد، في البخاري (١١٨٩) ومسلم (١٣٩٧) وأبو داود (٢٣٠٣) وابن ماجه (١٤٠٩) والمسنَد (٧١٩١) وابن حبان (١٦١٩).

(٣) أخرجه أحمد برقم (٤٤٦)، وابن ماجه بإسناد صحيح برقم (١١٥٣)، انظر: «صحيح الجامع الصغير» ج ٤ رقم (٣٧٣٢) وهو في البخاري (١١٩٠) ومسلم (١٣٩٤) والترمذي (٣٢٥) وابن حبان (١٦٢١).

زيارة قبر النبي ﷺ:

زيارة القبور مشروعة بشكل عام لقول النبي ﷺ عن بريدة «نهيتكم عن زيارة القبور فزوروها فإنها تذكر الآخرة». (٢)

فإذا وصل المسلم إلى المسجد النبوي فليصل أولاً فيه صلاة فريضة أو نافلة، ثم يُسن له بعد ذلك زيارة قبر النبي ﷺ بأن يقف بخشوع وأدب وهدوء مستقبل القبر مستدبر القبلة، قائلاً:

السلام عليك يا رسول الله، ورحمة الله وبركاته، السلام عليك يا قائد الغر المحجلين، أشهد أنك عبد الله ورسوله، وأنت قد بلغت الرسالة، وأديت الأمانة، ونصحت الأمة، وجاهدت في الله حق جهاده... إلخ.

ويخفض صوته، ويتخير من الأدعية ما يشاء على ألا يأتي بألفاظ شركية أو يتمسح بالقبر، ونحو ذلك.

ثم ينتقل خطوة إلى اليمين، ويُسلم على أبي بكر الصديق رضي الله عنه قائلاً: السلام عليك يا خليفة رسول الله، رضي الله عنك وجزاك عن أمة محمد خيراً.

ويتنحى إلى اليمين قليلاً ويسلم على عمرَ الفاروق رضي الله عنه.

وتحصل السنة بالسلام على النبي في أي مكان حال الزحام؛ لقول النبي ﷺ: «لا تجعلوا بيوتكم قبوراً، ولا تجعلوا قبرا عيداً، وصلوا علي فإن صلاتكم تبلغني حيثما كنتم» (٣).

ويستقبل القبلة بعد ذلك ويدعو لنفسه ولأحبابه ووالديه وإخوانه وجميع المسلمين.

ويستحب له الإكثار من الصلاة والعبادة في الروضة الشريفة، ويستحب له أن يتطهر

(١) من حديث بريدة في صحيح مسلم (٩٧٧) وفي المسند عن ابن مسعود (٤٣١٩).

(٢) عن بريدة برقم (٢٣٠٠٥)، حديث صحيح إسناده قوي، رجاله ثقات رجال الشيخين، غير عطاء الخراساني، فقد أخرج له مسلم متابعة، وهو صدوق لا بأس به، أفاده محققو المسند وعن علي (١٢٣٦) وفي معناه في مصنف عبدالرزاق (٦٧٠٨) عن علي بلفظ قريب منه.

(٣) من حديث أبي هريرة في «سنن أبي داود» بإسناد حسن ورجالته ثقات، وصححه الألباني في «صحيح سنن أبي داود» برقم (١٧٩٦).

ويأتي مسجد قباء فيصللي فيه ركعتين وله أجر عمرة، ويزور الرجال قبور الشهداء في أحد، وأهل البقيع ﷺ أجمعين.

وفي حديث أبي هريرة أيضاً أن رسول الله ﷺ قال: «ما من أحد يُسلم عليَّ إلا ردَّ الله عليَّ رuchi حتى أرد عليه السلام»^(١). وقد حرّم الله على الأرض أن تأكل أجساد الأنبياء.

قال محمد بن المنكدر: رأيتُ جابرًا وهو يبكي عند قبر رسول الله ﷺ ويقول: ههنا تُسكب العبرات، سمعت رسول الله ﷺ يقول: «ما بين بيتي ومنبري روضة من رياض الجنة»^(٢).

وهذه الآية (واذكروا الله) هي تنمة الكلام عن مناسك الحج في سورة البقرة، فالأولى للقارئ أن يبدأ تلاوته بالآية التالية (٢٠٤) لاختلاف السياق وتباين المعنى.

انتهى الجزء الأول من هذا التفسير بفضل الله تعالى، ويليه الجزء الثاني مبدوءًا بقوله ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يُعْجِبُكَ قَوْلُهُ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ البقرة: ٢٠٤.

والحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات.



(١) أخرجه البيهقي برقم (١٥٨١) ويُنظر: «السلسلة الصحيحة» برقم (٢٢٦٦).

(٢) أخرجه البيهقي برقم (٤١٦٣) وأصل الحديث في البخاري (١٨٨٨) ومسلم (١٣٩١).

الآية	فهرس الم ————— وجات	الصفحة
	تقاريط - حُطْبَةُ الْحَاجَةِ - سبب كتابة التفسير - مَنَهْجِي فِي التَّفْسِيرِ	٥
	تفسير سُورَةِ الْفَاتِحَةِ (١) مجمل مباحث السورة الخمسة عشر	٢١
	الْمَبْحَثُ الْأَوَّلُ: نزول السورة وأسمائها، أولاً: نزول سورة الفاتحة - ثانياً: أسمائها	٢٢
	المبحث الثاني: فضلها ومشروعية الرقية بها: أعظم السور فُتِحَ لها باب خاص، ونَزَلَ بها مَلَكٌ خاص ...	٢٤
	لا يوجد مثلها في الكتب السماوية - الرقية بالفاتحة. والرقية بالتسمية وحدها	٢٥
	رقيا جبريل للنبي ﷺ. تَلَاؤُْمٌ وعلاج	٢٨
	الْمَبْحَثُ الثَّالِثُ مقاصد سورة الفاتحة خمسة - تضمُّنها لمجمل ما فُصِّلَ في القرآن:	٣٠
	الأول: تَوْحِيدُ اللَّهِ سبحانه - الثاني: الإيمان باليوم الآخر - الثالث: التكليف الشرعية	٣١
	الرابع: قصص الأنبياء والمرسلين - الخامس: أهل الكتاب	٣٣
	الْمَبْحَثُ الرَّابِعُ: الاستعاذة. ١- الحكمة في التعوذ	٣٤
	٢- ضعف الشيطان أمام قوة الإيمان - ٣- الوسوسة في الصلاة	٣٦
	٤- كل مُتَمَرِّدٍ من الإنس أو الجن فهو شيطان	٣٧
	٥- موضع الاستعاذة في الصلاة وخارجها:	٣٨
	٦- أحكام الاستعاذة التجويدية - تعريفها، موضعها، صيغتها، حكمها، الإسرار والجهر بها	٣٩
	أوجه أول السورة وفي أثنائها - الإتيان بالبسملة بعد الاستعاذة في أثناء السورة:	٤٠
١	الْمَبْحَثُ الْخَامِسُ: البسملة. الْمَطْلَبُ الْأَوَّلُ: أ- الْإِفْتِتَاحُ بِالْبِسْمَلَةِ فِي الصَّلَاةِ وَغَيْرِهَا	٤٢
	(ب) نتائج الافتتاح بالبسملة ثلاثة (ج) من الأمور التي يُسْتَحَبُّ ذكر البسملة في أولها	٤٣
	الْمَطْلَبُ الثَّانِي: التَّخْلِيلُ اللَّفْظِيُّ لِلْبِسْمَلَةِ - (الله) و(الإله)	٤٧
	الْمَبْحَثُ السَّادِسُ. الْبِسْمَلَةُ لَدَى الْقُرَّاءِ وَالْفُقَهَاءِ وَالْمُحَدِّثِينَ وَعُلَمَاءِ عَدِّ الْأَيِّ	٤٩
	المطلب الأول: البسملة عند القراء أولاً: أول السورة ثانياً: في وسط السورة	٤٩
	ثالثاً: بين السورتين . رابعاً: أوجه ما بين السورتين. خامساً: أوجه ما بين الأنفال وبراءة	٤٩
	المطلب الثاني: البسملة عند علماء العدد	٥٠
	المطلب الثالث . البسملة عند الفقهاء والمحدثين أولاً: هل البسملة آية من القرآن أم لا؟	٥٢
	ثانياً: حكم قراءة البسملة في الصلاة سرّاً وجهرّاً في المذاهب الأربعة	٥٣
	ثالثاً: أدلة الجهر بالبسملة في الصلاة وكونها آية (أ) دليل الشافعية:	٥٣
	(ب) أدلة الجمهور (الأحناف والحنابلة والمالكية) في الإسرار بالبسملة:	٥٦
	رابعاً: تلخيص حالات الجهر - الجمع بين أدلة الإسرار والجهر	٥٩
	خامساً: بين القراء والفقهاء سادساً: بين قراءة حمزة ومذهب مالك - الخلاصة:	٦١
	الْمَبْحَثُ السَّابِعُ. الْحَمْدُ لِلَّهِ	٦٤
٢	١- الحمد لله ثناءً أثنى الله تعالى به على نفسه. ٢- الحمد حق لله وحده	٦٤
	٣- حمد الله تعالى نوعان: ٤- حمد الناس وشكرهم	٦٥
	٥- الفرق بين الحمد والشكر - العموم والخصوص بين الحمد والشكر.	٦٧

الآية	فهرس الم ووت وعات	الصفحة
٣	٦- الحمد في السُّنة - عشرة أحاديث في فضل الحمد - رب العالمين	٦٨
٤	٧- التوحيد في آخر القرآن وأوله	٧٢
٥	المُبَحِّثُ الثامن: صِفَةُ الرَّحْمَةِ	٧٤
٥	المُبَحِّثُ التاسع: يَوْمُ الدِّينِ - مناسبة الآية لما قبلها وما بعدها - لماذا خص يوم الدين بالذكر؟ ...	٧٩
٥	المُبَحِّثُ العاشر: الْعِبَادَةُ وَالِاسْتِعَانَةُ - أولاً: العبادة ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾	٨٢
٥	تعريف العبادة - العبادة والعبودية - - شمول العبادة - - نوعا العبادة - تحقيق العبودية	٨٣
٥	- عبادة القلب واللسان والجوارح - السعادة في العبادة	٨٧
٥	ثانياً: الاستعانة ﴿وَإِيَّاكَ تَسْتَعِينُ﴾ والاستعانة نوعان - الأخذ بالأسباب	٨٩
٦	المُبَحِّثُ الحادي عشر: طَلَبُ الْهِدَايَةِ - التوسل المشروع - أنواع الهداية وطرقها ومراتبها- الصراط	٩١
٧	المُبَحِّثُ الثاني عشر: أَصْنَافُ النَّاسِ. الصنف الأول: المنعم عليهم (المؤمنون)	١٠٠
٧	الصنف الثاني: اليهود - الصنف الثالث: النصارى - مع الفاتحة آية آية - التأمين (أمين)	١٠٢
٧	المُبَحِّثُ الثالث عشر: حُكْمُ قِرَاءَةِ الْفَاتِحَةِ فِي الصَّلَاةِ - ثلاثة مذاهب للفقهاء	١٠٧
٧	أدلة المخالفين لقول الجمهور والرد عليها، من أدلة الجمهور	١٠٧
٧	حكم من لم يحفظ الفاتحة - هل يقرأ المأموم الفاتحة؟	١٠٩
٧	المُبَحِّثُ الرابع عشر: التَّجْوِيدُ وَالْقِرَاءَاتُ وَالْإِعْرَابُ فِي سُورَةِ الْفَاتِحَةِ	١١١
٧	أولاً: من أحكام التجويد في سورة الفاتحة ١- الوقف في سورة الفاتحة: ٢- المدود في سورة الفاتحة:	١١١
٧	ثانياً: ملحوظات من باب اللحن الجلي	١١٢
٧	ثالثاً: القراءات المتواترة في سورة الفاتحة (أربع كلمات)	١١٣
٧	رابعاً: القراءات الشاذة في سورة الفاتحة في تسع كلمات	١١٥
٧	خامساً: إِعْرَابُ الْفَاتِحَةِ	١١٦
٧	المُبَحِّثُ الخامس عشر: فِي رِحَابِ الصَّلَاةِ مِنَ التَّكْبِيرِ إِلَى التَّسْلِيمِ ١- تمهيد:	١١٩
٧	٢- الله أكبر ٣- دعاء الاستفتاح	١٢٠
٧	ومن أدعية استفتاح الصلاة: ٤- الاستعاذة	١٢١
٧	٥- التسبيح في الصلاة ٦- التشهد	١٢٢
٧	٧- السلام عليك أيها النبي ورحمة الله وبركاته	١٢٣
٧	٨- الدعاء في نهاية التشهد - ٩- الذكر بعد الصلاة	١٢٤
٧	تَفْسِيرُ سُورَةِ الْبَقَرَةِ. أ- فِي فَضْلِ سُورَةِ الْبَقَرَةِ	١٢٥
٧	ب- مَقْدَمَةُ السُّورَةِ - أصناف الخلق ثلاثة:	١٢٨
٧	ج- بدء الحديث عن بني إسرائيل (اليهود):	١٣٠
٧	د- اثنا عشرة وصية لليهود بعد النداء الأول لهم في القرآن: ه- عشر من نعم الله عليهم:	١٣٠
٧	و- اثنتان وثلاثون مخالفة من اليهود في أوائل سورة البقرة:	١٣٢
٧	ز- خمسة أدلة محسوسة على البعث بعد الموت	١٣٨

الآية	فهرس الم	وجع	وحدات	الصفحة
	ح - أربعون حُكْمًا تشريعيًا للمسلمين في سورة البقرة:			١٣٩
	ط - دعائم الاقتصاد الإسلامي:			١٤٢
١	التفسير . مَعْنَى حُرُوفِ الْهَجَاءِ مِنْ فَوَاتِحِ السُّورِ، وعددها فيها، وفوائدها الثلاث			١٤٣
٢	أَصْنَافُ النَّاسِ فِي تَلَقِّي هَذَا الْكِتَابِ			١٤٦
٣	خَمْسَةُ أَوْصَافٍ لِلصَّنْفِ الْأَوَّلِ مِنَ الْبَشَرِ وَهُمْ الْمُتَّقُونَ - الوصف الأول: الإيمان بالغيب			١٤٩
	الوصف الثاني: إقامة الصلاة. الوصف الثالث: الإنفاق في سبيل الله			١٥٠
	الوصف الرابع: الإيمان بكتب الله جميعًا - والوصف الخامس: الإيمان باليوم الآخر			١٥١
٥	الْمُتَّقُونَ هُمْ أَهْلُ الْهُدَى وَالْفَلَاحِ			١٥٣
٦	وَصَفَانِ لِلصَّنْفِ الثَّانِي مِنَ الْبَشَرِ، وَهُمْ الْكُفَّارُ . الوصف الأول: قطع الطمع في إسلامهم			١٥٤
	الوصف الثاني: أن أجهزة الاستقبال فيهم معطلة - أنواع الكفر			١٥٦
٨	عَشْرَةُ أَوْصَافٍ لِلْمُنَافِقِينَ . - نوعا النفاق:			١٥٨
	النوع الأول: نفاق في العقيدة. النوع الثاني: نفاق في السلوك والعمل			١٥٨
٩	الوصف الأول: أنهم كَذِبَةٌ- الوصف الثاني: أنهم مُخَادِعُونَ			١٥٩
١٠	الوصف الثالث: المكروم ومرض القلوب			١٦١
١١	الوصف الرابع: دعوى أنهم مصلحون			١٦٢
١٢	الوصف الخامس: الإنسداد في الأرض			١٦٣
١٣	الوصف السادس: أنهم سفهاء. الوصف السابع: أنهم جهلاء			١٦٣
١٥، ١٤	الوصف الثامن: التذبذب والسخرية - الوصف التاسع: أنهم طغاة			١٦٥
١٦	الوصف العاشر: أنهم على ضلال			١٦٦
١٨، ١٧	المثل الأول للمنافقين: مثل ناري			١٦٧
٢٠، ١٩	المثل الثاني: مثل مائي			١٦٨
٢١	دعوة الناس جميعا إلى أصليين: هُمَا الْإِيمَانُ بِاللَّهِ تَعَالَى وَبِخَاتَمِ رُسُلِهِ			١٧١
	الأصل الأول: التوحيد وأدلة الأربعة. الدليل الأول: نعمة خلق الإنسان			١٧٢
٢٢	الثاني: نعمة الأرض التي نعيش فوقها - الثالث: نعمة جعل السماء بناء: الرابع: نعمة الماء			١٧٣
٢٣	الأصل الثاني الَّذِي يَقُومُ عَلَيْهِ هَذَا الدِّينُ: الْإِيمَانُ بِمُحَمَّدٍ ﷺ - إعجاز القرآن وأنواعه			١٧٧
٢٤	التَّحْدِي بِالْقُرْآنِ قَائِمٌ إِلَى قِيَامِ السَّاعَةِ			١٨٠
٢٥	نَعِيمُ أَهْلِ الْإِيمَانِ وَالْعَمَلِ الصَّالِحِ - النعيم الأول: هو ثمر الجنة			١٨٢
	النعيم الثاني: نعيم الزوجات من الحور العين. جملة من الأحاديث في هذا المعنى:			١٨٣
٢٦	صَرُبَ الْأَمْثَالِ الضَّعِيفَةِ فِي الْقُرْآنِ لَيْسَتْ مَنفَذًا لِلتَّشْكِيكِ فِيهِ			١٨٦
٢٧	ثَلَاثَةُ أَوْصَافٍ لِأَهْلِ الْفُسْقِ: الأول: نقض العهد			١٨٩
	الثاني: ﴿وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ﴾ الثالث: ﴿وَيُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ﴾ بالفتن والمعاصي			١٩٠
٢٨	الْإِحْيَاءُ وَالْإِمَانَةُ مِنْ دَلَائِلِ وَحْدَانِيَّةِ اللَّهِ تَعَالَى			١٩٢

الآية	فهرس المـ ووجـ وعات	الصفحة
٢٩	الْعَالَمُ السُّفْلِي وَالْعُلْوِي فِي خِدْمَةِ الْإِنْسَانِ - خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ	١٩٣
٣٠	خَلَقَ الْإِنْسَانُ وَاسْتِخْلَافُهُ فِي الْأَرْضِ - مَرَحِلُ خَلْقِ آدَمَ خَمْسَ وَكَذَا ذَرِيَّتِهِ - لِلْإِنْسَانِ خَمْسَةُ أَطْوَارٍ	١٩٤
٣٣-٣١	فَضَّلَ بَنِي آدَمَ عَلَى غَيْرِهِمْ بِالْعِلْمِ وَالْمَعْرِفَةِ	٢٠٢
٣٤	قِصَّةُ آدَمَ وَإِبْلِيسَ وَالذُّرُوسُ الْمُسْتَفَادَةُ مِنْهَا - مَعْنَى السُّجُودِ - جَنَّةُ آدَمَ	٢٠٤
٣٩-٣٥	الدَّرْسُ الْمُسْتَفَادُ مِنْ مَخَالَفَةِ أَوَّلِ نَهْيٍ إِلَهِيٍّ - تَوْبَةُ اللَّهِ عَلَى آدَمَ	٢٠٨
٤٠	بَدْءُ قِصَّةِ بَنِي إِسْرَائِيلَ: فِي أَوَّلِهَا: اثْنَتَا عَشْرَةَ وَصِيَّةً لَهُمْ - مِنْ إِسْرَائِيلَ؟	٢١٥
	أَعْظَمُ وَصَايَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اثْنَتَا عَشْرَةَ وَصِيَّةً، وَجَمَلَتْهَا: الْوَصِيَّةُ الْأُولَى: الْوَفَاءُ بِالْعَهْدِ	٢١٧
	الْوَصِيَّةُ الثَّانِيَّةُ: اجْعَلُوا خَوْفَكُمْ مِنَ اللَّهِ وَحْدَهُ	٢١٨
٤١	الثَّلَاثَةُ: دَعَوْتُهُمْ إِلَى الْإِيمَانِ بِمُحَمَّدٍ ﷺ - الرَّابِعَةُ: لَا تَنْكُرُوا أَوْصَافَ مُحَمَّدٍ ﷺ فِي التَّوْرَةِ -	٢١٨
	الخَامِسَةُ: أَمْرُهُمْ بِتَقْوَى اللَّهِ	٢١٩
٤٢	السادسة: لَا تُحَرِّفُوا التَّوْرَةَ وَتَغْيِرُوهَا - السَّابِعَةُ: لَا تَكْتُمُوا مَا فِيهَا مِنْ وَجُوبِ الْإِيمَانِ بِمُحَمَّدٍ ﷺ:	٢٢٠
٤٣	الْوَصِيَّةُ الثَّامِنَةُ: أَمْرُ الْيَهُودِ بِالْدُخُولِ فِي الْإِسْلَامِ وَأَدَاءُ أَصُولِهِ وَفُرُوعِهِ وَأَوَّلُهَا الصَّلَاةُ	٢٢١
	الْوَصِيَّةُ الثَّاسِعَةُ: أَمْرُهُمْ بِالزَّكَاةِ. الْوَصِيَّةُ الْعَاشِرَةُ: أَمْرُهُمْ بِصَلَاةِ الْجَمَاعَةِ	٢٢١
٤٤	الْوَصِيَّةُ الْحَادِيَةَ عَشْرَةَ: عَدَمُ مَخَالَفَةِ الْقَوْلِ لِلْعَمَلِ	٢٢٢
٤٦، ٤٥	الْوَصِيَّةُ الثَّانِيَةَ عَشْرَةَ: الْاسْتِعَانَةُ بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ عَلَى جَمِيعِ الْأُمُورِ - أَحَادِيثُ فِي الصَّبْرِ	٢٢٤
٤٧	النَّدَاءُ الثَّانِي لِبَنِي إِسْرَائِيلَ يُذَكِّرُهُمْ بِعَشْرِ نِعَمٍ قَابِلُوهَا بِالْكَفْرِ وَالْجُحُودِ	٢٢٦
٤٨	تَحْذِيرُ الْيَهُودِ مِنْ يَوْمٍ لَا يَنْفَعُ فِيهِ مَالٌ وَلَا بَنُونَ	٢٢٨
٤٩	عَشْرَ نِعَمٍ وَمِنْ عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ - مَجْمَلُ النِّعَمِ الْعَشْرِ - النِّعْمَةُ الْأُولَى: نَجَاتُهُمْ مِنْ فِرْعَوْنَ وَآلِهِ ...	٢٣٠
٥١، ٥٠	النِّعْمَةُ الثَّانِيَّةُ: فَرَقَ الْبَحْرَ وَنَجَاتُهُمْ مِنَ الْفِرْعَوْنِ - عِبَادَةُ بَنِي إِسْرَائِيلَ لِلْعَجَلِ	٢٣٤
٥٢	النِّعْمَةُ الثَّالِثَةُ عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ: عَفُوُّ اللَّهِ عَنْهُمْ بَعْدَ عِبَادَتِهِمُ الْعِجْلَ	٢٣٨
٥٣	النِّعْمَةُ الرَّابِعَةُ عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ: نُزُولُ التَّوْرَةِ عَلَى مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ	٢٣٩
٤	النِّعْمَةُ الْخَامِسَةُ عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ: قَبُولُ تَوْبَةِ بَنِي إِسْرَائِيلَ مِنْ عِبَادَةِ الْعِجْلِ بِقَتْلِ أَنْفُسِهِمْ	٢٤٠
٥٥	اليَهُودُ يَطْلُبُونَ رُؤْيَا اللَّهِ عَيَانًا:	٢٤١
٥٦	النِّعْمَةُ السَّادِسَةُ بَعَثَ مَنْ مَاتَ مِنْهُمْ فِي الدُّنْيَا بِالصَّاعِقَةِ	٢٤٣
٥٧	النِّعْمَةُ السَّابِعَةُ: تَطْلِيلُ الْعَمَامِ لِبَنِي إِسْرَائِيلَ، النِّعْمَةُ الثَّامِنَةُ: نُزُولُ الْمَنِّ وَالسَّلْوَى عَلَيْهِمْ	٢٤٤
٥٨	النِّعْمَةُ الثَّاسِعَةُ: مَرَّاسِمُ دُخُولِ بَيْتِ الْمَقْدَسِ	٢٤٦
٥٩	عُقُوبَةُ الْمُتَحَاذِلِينَ عَنْ دُخُولِ الْأَرْضِ الْمُقَدَّسَةِ	٢٤٨
٦٠	النِّعْمَةُ الْعَاشِرَةُ: تَفْجِيرُ الْمَاءِ مِنَ الْحَجَرِ لِسُقْيَاهُمْ	٢٥٠
٦١	مُقَابَلَةُ النَّعَمِ بِالْإِسْتِخْفَافِ وَالْجُحُودِ - أَرْبَعَةُ سَبَابٍ لِعُضْبِ اللَّهِ عَلَى الْيَهُودِ	٢٥١
٦٢	فِرْيَةُ شَعْبِ اللَّهِ الْمُخْتَارِ، تَمَاطُلُ الشَّرَائِعِ السَّمَاوِيَّةِ فِي الْعَقِيدَةِ وَمِنْهَا الْيَهُودِيَّةُ - الصَّابِئَةُ	٢٥٥
٦٤، ٦٣	اثْنَانِ وَثَلَاثُونَ مَخَالَفَةً مِنْ مَخَالَفَاتِ الْيَهُودِ جَاءَتْ فِي النِّصْفِ الْأَوَّلِ مِنْ سُورَةِ الْبَقَرَةِ:	٢٦١
	المَخَالَفَةُ الْأُولَى: عَدَمُ الْإِيمَانِ بِالتَّوْرَةِ إِلَّا بَعْدَ رَفْعِ الْجَبَلِ فَوْقَهُمْ	٢٦١
٦٦، ٦٥	المَخَالَفَةُ الثَّانِيَّةُ: صِيْدُ الْيَهُودِ السَّمَكِ فِي يَوْمِ الْعِبَادَةِ وَقَدْ نُهِيَ عَنْهُ	٢٦٣

الآية	فهرس المـ وـ وعات	الصفحة
٦٧	المُخَالَفَةُ الثَّالِثَةُ: التَّشَدُّدُ وَالتَّعَنُّتُ فِي ذَنْبِ الْبَقَرَةِ . وملخص القصة:	٢٦٥
٦٨-٧٠	السُّؤَالُ الْأَوَّلُ عَنْ سِنِّ الْبَقَرَةِ - الثَّانِي عَنْ لَوْنِ الْبَقَرَةِ - الثَّالِثُ عَنْ مَاهِيَةِ الْبَقَرَةِ	٢٦٧
٧١-٧٣	ذَنْبُ الْبَقَرَةِ بَعْدَ اسْتِحْكَامِ أَوْصَافِهَا - أَضْلُ الْقَضِيَّةِ - ذَلِيلٌ مُحْسُوسٌ عَلَى الْبَغْيِ بَعْدَ الْمَوْتِ	٢٦٨
٧٤	الْحِجَارَةُ الصَّمَاءُ أَلَيَّنَ مِنْ قُلُوبِ الْيَهُودِ	٢٧٠
٧٥	المُخَالَفَةُ الرَّابِعَةُ: تَحْرِيفُ الْيَهُودِ لِكَلَامِ اللَّهِ - من مظاهر تحريف اليهود لأوصاف الرسول ﷺ: ...	٢٧٢
٧٦-٧٨	المُخَالَفَةُ الْخَامِسَةُ: نِفَاقُ كِبَارِ الْيَهُودِ وَجَهْلُ الْأَمِينِ مِنْهُمْ	٢٧٥
٧٩	الْوَعْدُ الشَّدِيدُ لِمَنْ يُحَرِّفُونَ كَلَامَ اللَّهِ	٢٧٨
٨٠، ٨٢	المخالفة السادسة: دعوى اليهود أن النار لن تمسهم إلا مدة عبادتهم للعجل:	٢٨١
٨٣	جَزَاءُ اللَّهِ الْعَادِلُ يَسَاوِي فِيهِ الْيَهُودُ وَغَيْرُهُمْ	٢٨١
٨٤	مخالفة اليهود السابعة: عَدَمُ الْإِلْتِزَامِ بِحُقُوقِ اللَّهِ وَحُقُوقِ الْعِبَادِ	٢٨٥
٨٥	بُنُودُ الْمِيثَاقِ الْمَأْخُوذِ عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ مُكُونٌ مِنْ عَشْرَةِ مَوَادٍ:	٢٨٥
٨٦	المادة الأولى: الإيمان بالله وحده - المادة الثانية: البر بالوالدين والإحسان إليهما	٢٨٦
٨٧	المادة الثالثة: الإحسان إلى الأقارب والأرحام، المادة الرابعة: الإحسان إلى اليتامى	٢٨٧
٨٨	المادة الخامسة: الإحسان إلى المساكين. المادة السادسة: مخاطبة الناس بالكلام الطيب	٢٨٨
٨٩	المادة السابعة: المحافظة على أداء الصلاة في أوقاتها مع الجماعة	٢٨٨
٩٠	المادة الثامنة: إخراج الزكاة المفروضة عليهم لمستحقيها	٢٨٩
٩١	المادة التاسعة: أخذ العهد المؤكَّد عليهم ألا يسفك بعضهم دم بعض	٢٨٩
٩٢	المادة العاشرة: ألا يُخرج بعضهم بعضًا من داره	٢٩٠
٩٣	المخالفة الثامنة: أربعة أمثلة لنقض اليهود عهودهم، فيها إيمان ببعض الكتاب دون بعض	٢٩٠
٩٤	مخالفة اليهود التاسعة: أَنَّهُمْ كَذَّبُوا رُسُلَ اللَّهِ وَتَقَلُّوهُمْ - ترجمة عيسى وأمه - سبعة من الرسل	٢٩٣
٩٥، ٩٨	المُخَالَفَةُ الْعَاشِرَةُ: كُفْرُ الْيَهُودِ بِمُحَمَّدٍ ﷺ بَعْدَ الْإِيمَانِ بِهِ قَبْلَ الْبَغْيَةِ	٢٩٧
٩٦	ذَمُّ الْقُرْآنِ لِلْيَهُودِ عَلَى اسْتِحْدَالِهِمُ الْإِيمَانَ بِالْكَفْرِ	٣٠٠
٩٧	المخالفة الحادية عشرة: التَّعَصُّبُ الدِّينِيُّ عِنْدَ الْيَهُودِ	٣٠١
٩٨	المُخَالَفَةُ الثَّانِيَّةُ عَشْرَةَ: عِبَادَةُ الْيَهُودِ لِلْعِجْلِ الذَّهَبِيِّ	٣٠٢
٩٩	المُخَالَفَةُ الثَّلَاثَةُ عَشْرَةَ: تَرْكُهُمُ الْعَمَلَ بِمَا فِي التَّوْرَةِ	٣٠٣
١٠٠	المُخَالَفَةُ الرَّابِعَةُ عَشْرَةَ: دَعْوَى الْيَهُودِ حَقَّ الْإِمْتِنَانِ عَلَى الْبَشَرِ	٣٠٤
١٠١	الْمُحِبُّ يَتَمَنَّى لِقَاءَ حَبِيبِهِ	٣٠٦
١٠٢	المخالفة الخامسة عشرة: الْيَهُودُ أَشَدُّ النَّاسِ كَرَاهِيَةً لِلْمَوْتِ وَحَرَصًا عَلَى الْحَيَاةِ	٣٠٧
١٠٣	مخالفة اليهود السادسة عشرة: عداوتهم لرسول الوحي جبريل ﷺ	٣٠٧
١٠٤، ٩٩	اللَّهُ تَعَالَى عَدُوٌّ لِمَنْ عَادَى جِبْرِيلَ ﷺ	٣١١
١٠٥	مخالفة اليهود السابعة عشرة: النَّقْضُ الدَّائِمُ لِلْعُهُودِ وَالْمَوَاقِفِ	٣١٣
١٠٦	تَكْذِيبُ الْيَهُودِ لِحَاثِمِ النَّبِيِّينَ مِنْ بَابِ نَقْضِ الْعُهُودِ	٣١٤

الآية	فهرس الم ————— وعات	الصفحة
١٠٣، ١٠٢	المخالفة الثامنة عشرة: تَعْلَمُ السَّحَرُ، وَتَعْلِيْمُهُ وَالْعَمَلُ بِهِ - عقوبة الساحر - علاج السحر	٣١٥
١٠٤	مخالفة اليهود التاسعة عشرة: التَّلَاعُبُ بِالمُضْطَلَحَاتِ	٣٢٦
١٠٥	مخالفة اليهود العشرون: حَسَدُهُمْ لِحَاتَمِ الرُّسُلِ وَأَسْبَابُهُ	٣٢٨
١٠٧، ١٠٦	مخالفة الحادية والعشرون: التَّشْكِيكُ فِي الإِسْلَامِ وَالظَّنُّ فِيهِ بِسَبَبِ قَضِيَةِ النِّسَخِ - معنى النسخ وأنواعه الثلاثة ...	٣٢٩
١٠٨	تَحْذِيرُ اللَّهِ لِلْمُسْلِمِينَ مِنَ الْأَسْئَلَةِ الْمُفْضِيَةِ إِلَى الْكُفْرِ	٣٣٤
١٠٩	المُخَالَفَةُ الثَّانِيَةِ والعشرون: الْكُشْفُ عَنْ نَوَايَا الْيَهُودِ تَجَاهَ الْمُسْلِمِينَ بِتَمَنِّيهِمْ كُفْرَهُمْ	٣٣٧
١١٠	دَعْوَةُ الْمُسْلِمِينَ لِإِصْلَاحِ شُؤْنِهِمْ مَعَ اللَّهِ وَمَعَ النَّاسِ	٣٣٩
١١٢، ١١١	مخالفة اليهود الثالثة والعشرون: زَعَمُهُمْ أَنَّ الْجَنَّةَ خُلِقَتْ لَهُمْ وَالرَّدُّ عَلَى ذَلِكَ	٣٤٠
١١٣	المخالفة الرابعة والعشرون: تَكْذِيبُ كُلِّ مَنْ الْيَهُودِ وَالتَّصَارَى لِلاَخِرِ	٣٤٢
١١٤	مخالفة اليهود الخامسة والعشرون: تَخْرِيبُ مَسَاجِدِ اللَّهِ وَعَلَى رَأْسِهَا الْمَسْجِدُ الْأَقْصَى	٣٤٣
١١٥	تَخْرِيبُ مَلِكِ أَسُورَ لِلْمَسْجِدِ الْأَقْصَى ثَلَاثَ مَرَاتٍ	٣٤٤
١١٦	مِنْ نَتَائِجِ تَخْرِيبِ الْمَسَاجِدِ: عَدَمُ مَعْرِفَةِ الْقِبْلَةِ	٣٤٨
١١٧	مخالفة اليهود السادسة والعشرين: قَوْلُهُمْ (عَزَّزْتُ ابْنَ اللَّهِ)	٣٥٠
١١٨	تَنْزِيهِ اللَّهِ تَعَالَى عَمَّا يَقُولُهُ الْيَهُودُ - تقسيم البدعة	٣٥٢
١١٩	المخالفة السابعة والعشرون: مُشَابَهَةُ الْيَهُودِ لِلنَّصَرَانِيِّينَ فِي جُرْأَتِهِمْ عَلَى اللَّهِ تَعَالَى	٣٥٤
١٢٠	مِنْ أَوْصَافِ الرُّسُولِ فِي التَّوْرَةِ	٣٥٦
١٢١	مخالفة اليهود الثامنة والعشرون: مُحَاوَلَةُ إِخْرَاجِ الْمُسْلِمِينَ مِنْ دِينِهِمْ	٣٥٧
١٢٢	حق التلاوة	٣٥٨
١٢٣	النَّدَاءُ الثَّالِثُ لِنَبِيِّ إِسْرَائِيلَ فِي سُورَةِ الْبَقَرَةِ	٣٦٠
١٢٤	تَحْذِيرُ الْيَهُودِ مَرَّةً أُخْرَى مِنْ يَوْمٍ لَا يَنْفَعُ فِيهِ مَالٌ وَلَا بَنُونَ	٣٦١
١٢٥	إِبْرَاهِيمُ يَجْمَعُ الْعَرَبَ وَأَهْلَ الْكِتَابِ فِي نَسَبٍ وَاحِدٍ - التَّعْرِيفُ بِإِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ	٣٦٢
١٢٦	الكَلِمَاتُ الَّتِي ابْتَلَى اللَّهُ بِهَا إِبْرَاهِيمَ. القول الأول: أَنَّهَا خِصَالُ الْفِطْرَةِ الْعَشْرَةِ:	٣٦٣
١٢٧	القول الثاني: أَنَّهَا مَنَاسِكُ الْحَجِّ. الثالث: أَنَّهَا مَجْمُوعُ مَا فِي الْآيَاتِ الْخَمْسِ مِنْ نِعَمٍ وَمِنْ	٣٦٦
١٢٨	القول الرابع: أَنَّهَا: مَجْمُوعُ الْأَوَامِرِ وَالنَّوَاحِي الَّتِي ابْتُلِيَ بِهَا إِبْرَاهِيمَ.	٣٦٦
١٢٩	القول الخامس: هِيَ الْوَفَاءُ بِمَا وَصَفَ اللَّهُ بِهِ الْمُؤْمِنِينَ فِي سُورَةِ التَّوْبَةِ وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْأَحْزَابُ وَالْمَعَارِجُ.	٣٦٧
١٣٠	الْبَيْتُ الْحَرَامُ مَثَابَةٌ لِلنَّاسِ وَأَمْنٌ	٣٦٨
١٣١	خَمْسُ وَقَفَاتٍ مَعَ حُرْمَةِ الْبَيْتِ الْحَرَامِ أَوَّلًا: فَضْلُ الْحَجِّ - ثَانِيًا: الْحَجُّ نَوْعٌ مِنَ الْجِهَادِ،	٣٧٠
١٣٢	ثَالِثًا: الْحَجُّ يُكْفِّرُ الذُّنُوبَ - رَابِعًا: تَكَرُّارُ الْحَجِّ وَالْعُمْرَةِ، خَامِسًا: ثَوَابُ الْحَجِّ الْمَبْرُورِ	٣٧١
١٣٣	أَمِنْ الْحَرَمِ وَرَزَقَ أَهْلَهُ مِنَ الثَّمَرَاتِ	٣٧٥
١٣٤	خَمْسُ وَقَفَاتٍ مَعَ حُرْمَةِ الْحَرَمِ وَأَمْنِهِ، أَوَّلًا: حَرَمَةُ مَكَّةَ - ثَانِيًا: حَرَمَةُ الْحَيَوَانِ بِأَنْوَاعِهِ فِي الْحَرَمِ ..	٣٧٨
١٣٥	ثَالِثًا: حُرْمَةُ الشَّجَرِ وَالنَّبَاتِ فِي الْحَرَمِ	٣٨٠
١٣٦	رَابِعًا: اتِّهَافُ حُرْمَةِ الْحَرَمِ خَامِسًا: الْإِلْحَادُ فِي الْحَرَمِ - عُقُوبَةُ الْإِلْحَادِ فِي الْحَرَمِ	٣٨١

الآية	فهرس الم ————— وعات	الصفحة
١٢٧	إِبْرَاهِيمُ يَرْفَعُ قَوَاعِدَ النَّبِيِّ - بِنَاءُ الْكَعْبَةِ - نَبْعُ عَيْنِ زَمْزَمَ	٣٨٣
١٢٨	مَنَاسِكُ الْحَجِّ وَالْعُمْرَةِ	٣٨٧
	بعض ما يَتَعَلَّقُ بالحج والعمرة: أولاً: الْحُجَّاجُ وَالْعُمَّارُ وَقَدْ اللَّهُ. ثانياً: مباهاة الملائكة	٣٩٠
	ثالثاً: المبادرة إلى الحج والعمرة - رابعاً: الترهيب لِمَنْ ترك الحج والعمرة مع الاستطاعة	٣٩١
	خامساً: الحج مرة. سادساً: حُكْمُ الْحَجِّ - سابغاً: حُكْمُ الْعُمْرَةِ، ثامناً: وقت الحج	٣٩١
	تاسعاً: وقت أداء العمرة، عاشراً: ما يفعله الْمُحْرِمُ قبل الإحرام - حادي عشر: أنواع النسك ثلاثة	٣٩٣
١٢٩	مُحَمَّدٌ دَعَا إِلَى إِبْرَاهِيمَ	٣٩٥
١٣٠، ١٣١	الْمُخَالَفَةُ التاسعة وَالْعِشْرُونَ: عُدُولُ الْيَهُودِ عَنِ الْإِيمَانِ بِمُحَمَّدٍ وَهُوَ (دَعْوَةُ إِبْرَاهِيمَ)	٣٩٧
١٣٢	الْإِسْلَامُ هُوَ وَصِيَّةُ إِبْرَاهِيمَ لِبَنِيهِ وَخَفِيدِهِ يَعْقُوبَ	٣٩٨
١٣٣	الْإِسْلَامُ هُوَ وَصِيَّةُ يَعْقُوبَ لِلْأَسْبَاطِ	٣٩٩
١٣٤	لَا يُوَازِئُ أَحَدٌ بِذَنْبٍ أَحَدٍ	٤٠٢
١٣٥	المخالفة الثلاثون: دَعَا أَهْلَ الْكِتَابِ أَنَّ الْهِدَايَةَ فِي اتِّبَاعِ دِينِ كُلِّ مِنْهُمَا	٤٠٢
١٣٦	وَجُوبُ الْإِيمَانِ بِرُسُلِ اللَّهِ جَمِيعًا - أسماء الأسباط	٤٠٣
١٣٧	الْهِدَايَةُ فِي اتِّبَاعِ الْإِسْلَامِ	٤٠٦
١٣٨	دُخُولُ بَعْضِ أَهْلِ الْكِتَابِ فِي الْإِسْلَامِ وَصَبغَتُهُمْ بِهِ	٤٠٧
١٣٩	رَبُّ الْجَمِيعِ وَاحِدٌ	٤٠٩
١٤٠، ١٤١	الْمُسْلِمُونَ أَوَّلَى النَّاسِ بِإِبْرَاهِيمَ	٤١٠
١٤٢	مخالفة اليهود الحادية والثلاثون: التَّشْكِيكُ فِي الْإِسْلَامِ بِسَبَبِ تَحْوِيلِ الْقِبْلَةِ	٤١١
١٤٣	الْأُمَّةُ الْوَسْطَى - الكعبة تتوسط العالم - من مظاهر الابتلاء: التحويل عن بيت المقدس	٤١٤
١٤٤	تحويل القبلة - الأمر الأول: بالتوجه إلى الكعبة: مسجد القبلتين	٤١٨
١٤٥	قطع الأطماع في اتباع أهل الكتاب لخاتم النبيين ﷺ	٤٢١
١٤٦، ١٤٧	الْمُخَالَفَةُ الثانية والثلاثون: كُفْرُهُمْ بِمُحَمَّدٍ ﷺ مَعَ شِدَّةِ مَعْرِفَتِهِمْ لَهُ. معرفتي بمحمد أشد من معرفتي بابني	٤٢١
١٤٨	الْأَمْرُ بِالْمُسَابَقَةِ إِلَى الْخَيْرَاتِ	٤٢٤
١٤٩	الأمر الثاني: التَّوَجُّهُ إِلَى الْكَعْبَةِ هُوَ الْحَقُّ الثَّابِتُ وَلَا حُجَّةَ لِلْمُتَشَكِّكِينَ فِيهِ	٤٢٥
١٥٠	الْأَمْرُ الثَّالِثُ بِوُجُوبِ التَّوَجُّهِ إِلَى الْكَعْبَةِ فِي الصَّلَاةِ	٤٢٥
١٥١	اِئْتِنَانُ اللَّهِ عَلَى هَذِهِ الْأُمَّةِ بِرِسَالَةِ مُحَمَّدٍ ﷺ ووصفه بخمس صفات	٤٢٧
١٥٢	أَرْبَعَةُ تَوْجِيهَاتٍ لِتَرْبِيَةِ النُّفُوسِ الْمُؤْمِنَةِ. التَّوَجُّهُ الْأَوَّلُ: الْمُدَاوَمَةُ عَلَى ذِكْرِ اللَّهِ تَعَالَى وَشُكْرِهِ	٤٢٩
	الذاكر لله في معية ربه- الفرق بين من يذكر ربه ومن لا يذكر، الذاكرون لله هم السابقون إلى الخيرات	٤٣٠
	ذكر الله للبعد خير من ذكر العبد لربه - المؤمن يجعل لسانه دائماً رطباً بذكر الله، ولذكر الله أكبر	٤٣١
	التحسر على كل وقت يمر على العبد دون ذكر لله تعالى	٤٣٢
	الذاكر لله في ساحة الرحمة والرضوان، والذاكرون لله لا يشقى جليسهم، ثواب الله للذاكرين	٤٣٢
	المؤمن يسأل ربه أن يعينه على ذكره وشكره، يحمد ربه على العافية، يسجد لله شكرًا على نعمه	٤٣٣

الآية	فهرس الم ووض وعات	الصفحة
١٥٣	التَّوَجُّهُ الثَّانِي: الاسْتِعَانَةُ بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ عَلَى مُوَاجَهَةِ الشَّدَائِدِ	٤٣٤
١٥٤	التَّوَجُّهُ الثَّالِث: تَرْبِيَةُ النَّفْسِ عَلَى حُبِّ الشَّهَادَةِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ	٤٣٥
١٥٥-١٥٧	التَّوَجُّهُ الرَّابِع: تَرْبِيَةُ النَّفْسِ عَلَى تَحْمَلِ الْأَحْدَاثِ الْجَسَامِ، عِظَمُ الْجَزَاءِ مَعَ عِظَمِ الْبَلَاءِ	٤٣٧
	الله تعالى يَخْلُقُ عَلَى مَنْ يَفُوضُ أَمْرَهُ إِلَيْهِ خَيْرًا، أَشَدُّ النَّاسِ بَلَاءَ الْأَنْبِيَاءِ، ثُمَّ الْأَمْثَلُ	٤٣٨
	الصَّابِرُ الْمُحْتَسِبُ لَهُ بَيْتٌ فِي الْجَنَّةِ يُسَمَّى بَيْتَ الْحَمْدِ، الْمَصَائِبُ تَكْفُرُ الذُّنُوبَ وَالْخَطَايَا	٤٣٩
	أَعْظَمُ الصَّبْرِ عِنْدَ الصَّدْمَةِ الْأُولَى - وَالطِّفْلِ الَّذِي مَاتَ يَفْتَحُ أَبْوَابَ الْجَنَّةِ لِأَيِّهِ	٤٣٩
	الجنة جزاء من يفقد حبيبهِ إذا احتسبه عند الله تعالى	٤٤٠
١٥٨	سِتٌّ مِنْ قَوَاعِدِ الْإِيمَانِ الصَّحِيحِ - الْأُولَى: مَشْرُوعِيَّةُ السَّعْيِ بَيْنَ الصَّفَا وَالْمَرْوَةِ بَعْدَ أَنْ كَانَ عَلَيْهِمَا صَمَانٍ - فِي أَسْبَابِ النُّزُولِ - مِنَ الْأَحَادِيثِ الْوَارِدَةِ فِي ذَلِكَ	٤٤١
١٥٩، ١٦٠	القَاعِدَةُ الثَّانِيَّةُ مِنْ قَوَاعِدِ الْإِيمَانِ الصَّحِيحِ: عَدَمُ كِتْمَانِ الْعِلْمِ	٤٤٧
١٦١، ١٦٢	الْخُلُودُ فِي نَارِ جَهَنَّمَ لِمَنْ مَاتَ عَلَى الْكُفْرِ	٤٤٩
١٦٣	القَاعِدَةُ الثَّالِثَةُ: قَاعِدَةُ التَّوْحِيدِ	٤٥٠
١٦٤	ثَمَانِيَّةٌ مِنْ دَلَائِلِ التَّوْحِيدِ فِي هَذِهِ الْآيَةِ	٤٥٢
١٦٥	القَاعِدَةُ الرَّابِعَةُ: مَحَبَّةُ الْعَبْدِ لِرَبِّهِ تَفُوقُ كُلَّ مَحَبَّةٍ	٤٥٩
١٦٦، ١٦٧	القَاعِدَةُ الْخَامِسَةُ: مَسْئُولِيَّةُ كُلِّ إِنْسَانٍ عَنْ نَفْسِهِ (تَلَاوُمُ أَهْلِ النَّارِ)	٤٦٣
١٦٨	القَاعِدَةُ السَّادِسَةُ: التَّحْلِيلُ وَالتَّحْرِيمُ حَقُّ اللَّهِ وَحْدَهُ	٤٦٦
١٦٩، ١٧٠	مسالك الشيطان	٤٦٨
١٧١	مَثَلُ الْكَافِرِ	٤٧٠
١٧٢، ١٧٣	مَا يُبَاحُ وَمَا يَحْرُمُ مِنَ الْمَطْعُومَاتِ	٤٧١
١٧٤-١٧٦	عُقُوبَةُ مَنْ يَكْتُمُ مَا أُنْزِلَ اللَّهُ ابْتِغَاءَ عَرَضِ الدُّنْيَا - ثَلَاثُ عُقُوبَاتٍ لَهُمْ	٤٧٤
١٧٧	الْبُرِّ وَخِصَالُهُ الْعَشْرَةُ - مَوْضُوعَاتُ هَذَا الثَّمَنِ مِنَ السُّورَةِ	٤٧٧
١٧٨	أَرْبَعُونَ حُكْمًا تَشْرِيعِيًّا فِي السُّورَةِ بَدْءًا مِنْ هَذِهِ الْآيَةِ - الْأَوَّلُ: الْقِصَاصُ وَأَحْكَامُهُ - أَسْبَابُ نَزُولِ الْآيَةِ	٤٨٤
١٧٩	الْحُكْمَةُ فِي تَشْرِيعِ الْقِصَاصِ	٤٩١
١٨٠-١٨٢	الْحُكْمُ التَّشْرِيعِيُّ الثَّانِي: الْوَصِيَّةُ عِنْدَ الْمَوْتِ - حُكْمُ الْوَصِيَّةِ - مَقْدَارُ الْوَصِيَّةِ:	٤٩١
	هل الآية منسوخة؟ - لا وصية لو ارث	٤٩٣
١٨٣	الحكم الثالث في سورة البقرة، الصيام في الإسلام - الصيام عبادة قديمة	٤٩٦
	أولاً: صيام أهل الديانات الأرضية. ثانياً: صيام أهل الرسالات السماوية - صيام يوم عاشوراء	٤٩٩
	مِنْ صُورِ الصِّيَامِ قَبْلَ الْإِسْلَامِ: الصِّيَامُ عَنِ الْكَلَامِ وَعَنِ الْحَرَكَةِ وَالْعَمَلِ، طُقُوسٌ غَرِيبَةٌ	٥٠٢
	ثالثاً: الصيام الأخير ومراحله الثلاث، من شاء صام ومن شاء أفطر وأطعم - الفدية:	٥٠٤
	مراحل الصيام في هذه الأمة - رابعاً: فضل شهر رمضان:	٥٠٧
	التَّقْوَى هِيَ الْعَايَةُ مِنَ الصِّيَامِ - دُرُوسٌ فِي التَّقْوَى	٥٠٩
	عَشْرٌ مِنْ قَوَائِدِ الصِّيَامِ الْمَادِيَّةِ وَالْمَعْنَوِيَّةِ - ١- الإنسان بين العقل والشهوة	٥١٠

الآية	فهرس المـ ووجـ وعات	الصفحة
	٢- في الصيام سلامة الروح ٣- وفي الصيام سلامة البدن ٥١١	
	٤- راحة للمعدة: ٥- شعور بالحرمان: ٦- تأديب النفس: ٧- قوة الإرادة ٥١٢	
	٨- أجر الصائم ٩- وللصائمين باب خاص في الجنة - ١٠- والصائم يُغْفَر ذنبه ٥١٤	
١٨٤	مُدَّةُ الصَّيَّامِ وَأَحْكَامُ أَهْلِ الْأَغْذَارِ أَوَّلًا: مدة الصيام - ثانيا: أحكام أهل الأعدار الخمسة ٥١٤	
	١- المرض نوعان - أحكام القدية - أحكام القضاء ٥١٦	
	قضاء رمضان وصيام ستة شوال - ٢- المسافرين- مسافة السفر ومدته - ٣- كبر السن ٥١٨	
	٤- الحامل والمرضع - ٥- الحائض والنفساء ٥٢١	
١٨٥	شهر رمضان ونزول القرآن - علة التسمية، أَوَّلًا: بدء نزول القرآن ٥٢٤	
	ثانيًا: مطلع سورة العلق أول الآيات نزولًا - ثالثًا: انقطاع الوحي بعد خاتم النبیین ٥٢٦	
	رابعًا: الكتب الأخرى نزلت في رمضان ٥٢٧	
	خامسًا: ليلة القدر، ولنا سبع وقفات مع ليلة القدر، الوقفة الأولى: هي الليلة المباركة ٥٢٨	
	الثانية: سبب التسمية- الثالثة: تحديد وقتها - الرابعة: العلامات التي تُعرف بها ليلة القدر ٥٢٨	
	الخامسة: فضل ليلة القدر - السادسة: التنازع في ليلة القدر السابعة: الطاعة في ليلة القدر ٥٣١	
	سبع وقفات مع القرآن الكريم: أَوَّلًا: رسول الله ﷺ والقرآن: - ثانيًا: الحضر على تلاوة القرآن ٥٣٤	
	ثالثًا: هجر القرآن: رابعا: التكسب بالقرآن خامسًا: رمضان والقرآن سادسًا: من آداب التلاوة ٥٣٦	
	سابعًا: تعلم القرآن وتعليمه - هلال شهر رمضان، ولنا في ثبوت الرؤية خمس وقفات: أَوَّلًا: ثبوت الهلال ٥٣٨	
	ثانيًا: اختلاف المطالع - ثالثًا: القدر المشترك في رؤيا الهلال: ٥٣٩	
	رابعًا: حول الرؤية والحساب الفلكي - شرطاً الرؤية خامسًا: الفرق بين الرؤية وحساب التقويم ... ٥٤١	
١٨٦	الحكم الرابع: الدعاء بين آيات الصيام: أَحْكَامُهُ وَأَدَابُهُ - أ - مناسبة الآية لما قبلها وما بعدها ٥٤٥	
	ب - من أسباب نزول الآية - ج - علاقة الصيام بالدعاء ٥٤٤	
	بعض أحكام الدعاء وآدابه - أَوَّلًا: الدعاء من أنواع العبادة: ٥٤٧	
	ثانيًا: لا واسطة بين الخالق والمخلوق فقد استجاب الله دعوة إبليس ٥٤٨	
	ثالثًا: شرط قبول الدعاء - رابعًا: حاجة العبد إلى الدعاء في جميع الأحوال ٥٤٩	
	خامسًا: الجزم في الدعاء والثقة بالإجابة - سادسًا: من دواعي إجابة الدعاء ٥٥١	
	سابعًا: أوقات الإجابة - ثامنًا: من أماكن الإجابة تاسعًا: إجابة الدعاء له ثلاث صور ٥٥٥	
	عاشرًا: من أسباب عدم الإجابة حادي عشر: الدعاء والقَدَر - ثاني عشر: الدعاء بعد الفريضة ٥٥٨	
	ثالث عشر: الدعاء بعد النافلة رابع عشر: رفع اليدين في الدعاء خامس عشر: مسح الوجه عقب الدعاء ٥٦١	
١٨٧	الصيام في مرحلته الأخيرة - ١- أسباب النزول ٥٦٢	
	٢ - رَفَعُ تَوَهُّمٍ مُشَابِهَةٍ أَهْلَ الْكِتَابِ فِي الصَّيَامِ ٥٦٤	
	٣- الصيام من الفجر إلى المغرب هو التشريع القائم إلى يوم الساعة - ٤ - خمسة من أحكام الصيام ٥٦٧	
	الحكم التشريعي الخامس: أحكام الاعتكاف - ١- تعريف الاعتكاف ٢- حكمة مشروعيته وأدلته ٥٧٢	
	٣- حكم الاعتكاف - ٤- متى يجب الاعتكاف؟ - ٥ - شروط الاعتكاف ٦- اعتكاف المرأة ٥٧٣	

الآية	فهرس المـ ووجـ ووعات	الصفحة
١٨٨	٧- هل المدة شرط في الاعتكاف؟ ٨- متى يبدأ الاعتكاف؟ ومتى ينتهي؟ ٩- قضاء الاعتكاف	٥٧٥
١٨٩	١٠- من أدلة مشروعية الاعتكاف ١١- ما يباح للمعتكف وما يكره له ١٢- ما يُبطل الاعتكاف	٥٧٦
١٩٣-١٩٠	١٣- متى يخرج المعتكف من معتكفه- مجمل معنى الآية	٥٧٧
١٩٤	الحكم السادس: الصيام المستمر عن أكل الحرام	٥٨٣
١٩٥	الأهله مواقيت للعبادات وغيرها - سبب النزول	٥٨٦
١٩٦	الحكم التشريعي السابع: مراحل تشريع القتال في الإسلام ثلاث - أخلاق الاسلام في قتال العدو	٥٩٠
١٩٧	الحُكْمُ الثَّامِنُ: الْقِتَالُ فِي الْأَشْهُرِ الْحُرْمِ لِزَدِّ الْعُدْوَانِ	٥٩٨
١٩٨	الحُكْمُ التَّشْرِيعِي الثَّاسِعُ: الْجِهَادُ بِالْمَالِ	٥٩٩
٢٠٠	الحُكْمُ التَّشْرِيعِي الْعَاشِرُ: الْحَجُّ وَأَحْكَامُهُ	٦٠٢
٢٠١	أعمال الحج والعمرة: أركان الحج، وأركان العمرة، الواجبات، السنن، خمسة أحكام في الآية ..	٦٠٣
٢٠٢	مَوَاقِيتُ الْحَجِّ الْمَكَائِنِ وَالزَّمَانِيَّةِ - حرمة زمان الحج	٦١٠
٢٠٣	أولاً: أماكن الإحرام بالحج والعمرة - حكم من تجاوز الميقات بغير إحرام	٦١٢
٢٠٤	ثانياً: حدود المواقيت غير حدود الحرم - حدود الحرم الخمسة	٦١٣
٢٠٥	ثالثاً: زمان الإحرام بالحج - محظورات الإحرام: الرفث والفسوق والجدال ودواعيها	٦١٤
٢٠٦	تصحیح مخالفات أهل الجاهلية في مناسك الحج أولاً: التزود بغذاء البدن والروح	٦٢٣
٢٠٧	لَا مَانِعَ مِنَ الْكَسْبِ وَالتَّجَارَةِ فِي الْحَجِّ - طلب الرزق في الحج	٦٢٤
٢٠٨	ثانياً: التَّمَيُّزُ عَلَى النَّاسِ فِي الْحَجِّ وَالْعُمْرَةِ أَمْرٌ جَاهِلِيٌّ - الإفاضة من عرفات ومزدلفة	٦٢٧
٢٠٩	ثالثاً: الْحَجُّ لَيْسَ مَجَالاً لِلتَّفَاخُرِ	٦٣٢
٢١٠	الْمُؤْمِنُ يَسْأَلُ رَبَّهُ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةَ	٦٣٣
٢١١	التَّكْبِيرُ وَرَمْيُ الْجِمَارِ	٦٣٥
٢١٢	وصف تفصيلي لأداء الحج والعمرة - العلم قبل العمل: أنواع النسك:	٦٣٧
٢١٣	الفرق بين المفرد والقارن: لكل من الأفراد والقران والتمتع كيفية:	٦٣٧
٢١٤	دخول العمرة في الحج: أعمال المتمتع:	٦٤٠
٢١٥	طواف الوداع: إطلاق النسك: أفضل الأنساك:	٦٤٢
٢١٦	التماس العلة في أعمال الحج	٦٤٤
٢١٧	حرمة المدينة وفضلها وفضل الموت فيها	٦٥٠
٢١٨	زيارة المسجد النبوي وزيارة قبر النبي ﷺ	٦٥١
٢١٩	فهرس الموضوعات	٦٥٤



فأحضر النفس

تأليف :

أحمد بن أحمد محمد عبد الله الطويل

عُضْوُ اللَّجْنَةِ الْعِلْمِيَّةِ لِمُرَاجَعَةِ مُصْحَفِ الْمَدِينَةِ النَّبَوِيَّةِ
وَلَجْنَةِ الْإِشْرَافِ عَلَى التَّسْجِيلَاتِ الْقُرْآنِيَّةِ
بِمُجْمَعِ الْمَلِكِ فَهْدٍ لَطَبَاعَةِ الْمُصْحَفِ الشَّرِيفِ

قَدَّمَ لَهُ : مَعَالِي الدُّكْتُور / عَبْدُ اللَّهِ بْنُ عَبْدِ الْمُحْسِنِ الشُّرْكِي
وَالْأُسْتَاذُ الدُّكْتُور / صَالِحُ بْنُ غَانِمِ السَّدْلَانِ
وَنُحْبَةُ مِنَ الْعُلَمَاءِ الْمُتَخَصِّصِينَ

المجلد الثاني

البقرة من الآية ٢٠٤ إلى نهاية آل عمران

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

أَصْنَافُ النَّاسِ أَرْبَعَةٌ

٢٠٤- ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يُعْجِبُكَ قَوْلُهُ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيُشْهَدُ اللَّهُ عَلَى مَا فِي قَلْبِهِ وَهُوَ^(١) أَلَدُّ الْخِصَامِ﴾
في هذه الآية والآيتين بعدها بالإضافة إلى الآيات الثلاث السابقة في ربع الحزب السابق أربعة أصناف من الناس؛ صنفان سبق ذكرهما في الآيات الثلاث قبل نهاية الحزب السابق، وصنفان في هذه الآيات:

الصنف الأول: من يسعى للدنيا وحدها

وذلك أنَّ مِنَ النَّاسِ صنف يسعى في طلب شهوات الدنيا وملذاتها، دون النظر إلى ما في الآخرة من جزاء وثواب، فهو إن درس يدرس للشهادة، لا لطلب العلم، وإن توظف يتوظف للحصول على المال، لا للقيام بواجب المسؤولية والأمانة، تجاه نفسه وتجاه إخوانه المسلمين وغيرهم، وهو يسعى في تحصيل شهواته وكرسیه ومتاع الحياة الدنيا، ثم هو لا يعتد بشيء مما أعده الله تعالى له في الآخرة.

ذلكم ما يشير إليه قول الله سبحانه في الآيات السابقة: ﴿فَمِنَ النَّكَّاتِ مَن يَقُولُ رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا وَمَا لَنَا فِي الْآخِرَةِ مَن خَلَقَ﴾ وطلب الدنيا من حلّها غير مذموم في حد ذاته، ولكنه مذموم إذا انفصل عن الآخرة.

قال تعالى: ﴿مَن كَانَ يُرِيدِ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَالَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ ﴿١٥﴾ أُولَئِكَ الَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ إِلَّا النَّارُ وَحَبِطَ مَا صَنَعُوا فِيهَا وَبَطُلَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [هود ١٥، ١٦]

الصنف الثاني: من يسعى للدارين

وصنف آخر من الناس يسعى للدنيا ويسعى للآخرة، يسعى لطلب العلم، ويسعى للتوظيف، يسعى للحصول على الزوجة، وعلى تربية الأولاد، وعلى المتاع والمال من طريقه المشروع، وهذا من حسنة الدنيا، أما حسنة الآخرة فهي الجنة والنظر إلى وجه الله الكريم ورضوان الله تعالى، ولذلك فإن هذا العبد يقوم بما افترضه الله تعالى عليه، ويكثر من النوافل، والأعمال

(١) سكن الهاء من (وهو) قالون وأبو عمرو والكسائي وخلف، وضمها الباقون.

الصالحة، ويُحل ما أحل الله، ويُحرم ما حرم الله، يطلب الدنيا، ويطلب ثواب الله في الآخرة، كما قال تعالى: ﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ﴾ [الشرح: ١] أي إذا فرغت من أعمال الدنيا فابذل أقصى جهدك لعمل الآخرة وتحصيل ما عند الله من عظيم الجزاء.

قال تعالى: ﴿وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ وَلَا تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا﴾ [القصص: ٧٧]. ذلكم ما يشير إليه قول الله سبحانه: ﴿وَمِنْهُمْ مَّنْ يَقُولُ رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ﴾ (٢١) وهذا من أفضل الأدعية، ومن جوامع الكلم، كقوله ﷺ (اللهم إني أسألك الهدى والثقى والعفاف والغنى) ولوجود هذه الآية في ثنايا الحديث عن مناسك الحج والعمرة، فإنه يشرع الدعاء بها بين الركنتين: اليماني والأسود.

وهذا الصنف من الناس يُثاب على سعيه للدارين خير الجزاء ﴿أُولَئِكَ لَهُمْ نَصِيبٌ مِّمَّا كَسَبُوا وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾ (٢٢).

والنبي ﷺ بين عاقبة هذين الصنفين من الناس في حديث شريف جاء عن أنس رضي الله عنه حيث يقول ﷺ: «من كانت الآخرة همه؛ جعل الله غناه في قلبه، وجمع له شمله، وأتته الدنيا وهي راغمة، ومن كانت الدنيا همه، جعل الله فقره بين عينيه، وفرق عليه شمله، ولم يأتها من الدنيا إلا ما قدر له»^(١)

قال تعالى: ﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعَاجِلَةَ عَجَلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَاءُ لِمَنْ نُرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُ جَهَنَّمَ يَصْلَاهَا مَذْمُومًا مَّدْحُورًا﴾ (١٨) وَمَنْ أَرَادَ الْآخِرَةَ وَسَعَى لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَئِكَ كَانَ سَعْيُهُمْ مَشْكُورًا ﴿١٩﴾ كَلَّا نُمَدِّدْ هُوْلَاءَ وَهَوْلَاءَ مِنْ عَطَايَ رَبِّكَ وَمَا كَانَ عَطَاؤُ رَبِّكَ مَحْظُورًا﴾ [الإسراء]

الصنف الثالث: منافقون: وقد وصف الله هذا النوع من الناس بخمسة أوصاف:

الوصف الأول: أنه حُلُو اللسان، معسول الكلام، إذا قابلتك يتسم لك ابتسامة عريضة، ويأخذك في أحضانه؛ ابتغاء حظوظ الدنيا، لا سيمًا إن كنت مسؤولًا أو صاحب جاه، أو كان له عندك مصلحة، أو فائدة يرجوها فإنه يهش ويهش لك، ويشي عليك ويمدحك، ثم إذا انصرف عنك أو تحولت إلى المعاش، أو قُضيت مصلحته، تراه بوجه آخر، فهو شخص ينافق، ذو وجهين، صاحب حلاوة في اللسان.

ذلكم هو المنافق الذي يُظهر ما لا يُبطن، فيكون كريماً وصديقاً حميماً عند الحاجة،

(١) «صحيح سنن الترمذي» برقم (٢٠٠٥). وانظر تخريجه في سورة هود الآية ١٥.

وينعكس حاله عند عدم الحاجة، وأمثاله كثير إلى يوم القيامة ممن لهم ظاهر وباطن، يخدعون الناس وينافقونهم ﴿يُعْجِبُكَ قَوْلُهُ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾.

الوصف الثاني: أنه يؤكد كذبه بالآيمان المغلظة، كما قال تعالى: ﴿وَيُشْهِدُ اللَّهُ عَلَى مَا فِي قَلْبِهِ﴾ يقول لك: يشهد الله ويعلم، أني أحبك، فهو يشهد الله أنه صادق، وهو كاذب في دعواه، ويؤكد كلامه بالحلف الموثق؛ لأنه يعرف من داخله أنه ينافق، وأن الناس تتشكك في قوله.

فهو يخبر أن الله تعالى يعلم أن ما في قلبه موافق لما نطق به، وهو كاذب في ذلك ولو كان صادقاً لتوافق القول والفعل.

الوصف الثالث: أنه فاجر في خصامه، وهذا ما قاله الله سبحانه عن المنافق مبيناً حقيقته وفاضحاً أمره ﴿وَهُوَ أَلَدُّ الْخِصَامِ﴾ فاجر مخاصم لدود.

وفي الحديث عن عائشة رضي الله عنها: «إن أبغض الرجال إلى الله الألد الخصم»^(١)

منافق شديد العداوة للمسلمين، كاذب في قوله وفعله.

وفي الأحنس نزل قوله تعالى: ﴿وَيْلٌ لِّكُلِّ هُمَزَةٍ لُّمَزَةٍ﴾ [الهمزة] وفي الوليد، نزل قوله جلّ شأنه: ﴿وَلَا تَطْعَمْ كُلَّ حَلَالٍ مَّهِينٍ﴾ إلى ﴿عُتِلَ بَعْدَ ذَلِكَ زَيْمٌ﴾ [العلم: ١٠-١٣].

وقد بين النبي صلى الله عليه وسلم أن المنافق (إذا خاصم فجر) فهو يسيء ولا تلين له قناة، ولا يقبل التنازل أو الرجوع إلى الحق بل تجده صعباً، لا ينقاد للحق، بل يكابر ويجادل بالباطل ويعاند، وقد يعلم في قرارة نفسه أنه كاذب ولكنه لا يريد أن يعترف.

الْوَصْفُ الرَّابِعُ الْإِفْسَادُ فِي الْأَرْضِ

٢٠٥- ﴿وَإِذَا تَوَلَّى سَعَى فِي الْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَهُنَالِكَ الْخَرْتُ وَالْأَسْلُ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْفُسَادَ﴾

دخل الأحنس (المنافق) على النبي صلى الله عليه وسلم وأشهد الله على محبته، ولما تولى، أي خرج

(١) البخاري برقم (٢٤٥٧، ٤٥٣٣، ٧١٨٨) عن عائشة، و«تفسير عبد الرزاق» (٤٧/١) و«المسنند»

(٣٤٢٧٧) ومسلم (٢٦٦٨) والترمذي (٢٦٣٢) والنسائي (٥٠٣٥).

من عنده، مَرَّ بزرع قوم ومواشيهم فأحرق الزرع وأهلك المواشي، وفيه نزلت الآية.

أي: أن المنافق إذا تولى وخرج من عندك أفسد في الأرض وأتى على الأخضر واليابس، وأعرض عنك بعد أن انتهت مصلحته ومهمته، أو تخلى عنك منصبك فإنه يقابلك بوجه آخر، معرضاً عنك، مفسداً للأمور، يُوقع الضرر بك وبالأخرين ﴿وَإِذَا تَوَلَّى سَكَتَ فِي الْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا﴾، بالمعاصي ومضار العباد.

وقيل في معنى الآية: وإذا كان والياً أو حاكماً أو مسؤولاً وتولى أمراً من أمور المسلمين فإنه يسعى في الأرض بالفساد ﴿وَيُهْلِكُ الْحَرْثَ﴾ وهو الزرع والثمر والنبات ﴿وَالنَّسْلَ﴾ وهو الإنسان والحيوان ﴿وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْفُسَادَ﴾ أي: لا يحب المعاصي ولا يحب قطع الطريق ولا إخافة المارة، وهكذا شأن الحاكم المستبد الذي يملأ الأرض فساداً وجوراً وظلماً.

والله سبحانه ييغض العبد المفسد في الأرض غاية البغض، وإن قال بلسانه قولاً حسناً.

وقد وصف النبي ﷺ المنافق بأربع صفات كما في حديث عبد الله بن عمرو أن النبي ﷺ قال: «أربع من كن فيه كان منافقاً خالصاً، ومن كانت فيه خصلة منهن كانت فيه خصلة من النفاق حتى يدعها؛ إذا أؤتمن خان، وإذا حدث كذب، وإذا عاهد غدر، وإذا خاصم فجر»^(١). وفي الآية دليل على أن الأقوال التي تصدر من الأشخاص ليست دليلاً على صدق ولا كذب، ولا على بر ولا فجور، حتى يوجد العمل الذي يصدقها.

الْوَصْفُ الْخَامِسُ عَدَمُ قَبُولِ النَّصِيحَةِ

٢٠٦- ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُ اتَّقِ اللَّهَ أَخَذَتْهُ الْعِزَّةُ بِالْإِثْمِ فَحَسْبُ جَهَنَّمَ وَلَيْسَ الْمُهَادُ﴾

أي: أن المنافق إذا نُصح ووجه فإنه يأنف ويتكبر، ولا يقبل الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُ اتَّقِ اللَّهَ أَخَذَتْهُ الْعِزَّةُ بِالْإِثْمِ﴾. فهو يجمع بين المعاصي، وبين الكبر على الناصحين، وعدم قبوله للحق والعمل به.

(١) البخاري (٣١٧٨، ٢٤٥٩، ٣٤) ومسلم (٥٨) وأبو داود (٤٦٨٨) والترمذي (٢٦٣٢) والنسائي (٥٠٣٥).

قال ابن مسعود رضي الله عنه: إن من أكبر الذنوب عند الله أن يقال للعبد: اتق الله، فيقول عليك بنفسك^(١)

وقال رجل لمالك بن مغول: اتق الله، فسقط، فوضع خده على الأرض، تواضعًا لله ﷻ^(٢)

قال ابن عباس رضي الله عنه: أرى من إذا أمر بتقوى الله أخذته العزة بالإثم، وأرى من يشري نفسه ابتغاء مرضاة الله، يقوم هذا فيأمر هذا بتقوى الله، فإذا لم يقبل أخذته العزة بالإثم، قال هذا: وأنا أشتري نفسي! فقاتله، فاقتل الرجلان، قال عمر: لله بلادك (أي: لله درك) يا ابن عباس. يثني عليه في تأويل معنى الآيتين، وأنهما فيمن يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر بشكل عام، واختاره ابن جرير في تفسير الآية^(٣)

قال سبحانه في بيان سوء مصير مثل هؤلاء: ﴿فَحَسْبُ جَهَنَّمَ وَلِكُنَّ الْمِهَادُ﴾.

أي: أن الفراش والمسكن والمستقر من النار، يكون فوقهم وتحته، كما قال تعالى:

﴿لَهُمْ مِنْ جَهَنَّمَ مِهَادٌ وَمِنْ فَوْقِهِمْ غَوَاشٍ﴾ [الأعراف: ٤١]

وقال جل شأنه: ﴿يَوْمَ يَغْشَاهُمْ الْعَذَابُ مِنْ فَوْقِهِمْ وَمِنْ تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ﴾ [العنكبوت: ٥٥]

وقال سبحانه ﴿لَهُمْ مِنْ فَوْقِهِمْ ظُلَلٌ مِنَ النَّارِ وَمِنْ تَحْتِهِمْ ظُلَلٌ﴾ [الزمر: ١٦]

فهم في عذاب دائم، ويأس مستمر، لا يخفف عنهم العذاب ولا يرجون الثواب.

ومما ورد في أسباب النزول

١- أنها نزلت في الأخنس بن شريق الثقفي، وكان حليفًا لبني زهرة.

وسُمِّي الأخنس؛ لأنه خنس (أي: رجع) يوم بدر بثلاث مئة رجل من بني زهرة، عن القتال مع النبي ﷺ.

كان حلو اللسان، طيب الكلام، فصيحًا، حلو المظهر، وكان يجالس النبي ﷺ

(١) الطبراني (٨٥٨٧) والبيهقي في «الشعب» (٨٢٤٦) قال الهيثمي: رجاله رجال الصحيح «مجمع الزوائد» (٢٧١/٧).

(٢) البيهقي في «شعب الإيمان» (٨٢٤٧) عن سفيان.

(٣) الطبري (٥٨٨/٣).

ويقترب منه، ويُظهر له الإسلام نفاقًا.

دخل الأحنس على الرسول ﷺ يومًا يثني عليه، ويمدحه، ويُظهر له المحبة، ويحلف بالله على محبته، وأن قلبه يوافق لسانه، وأنه جاء يريد الإسلام، ويُشهد الله على صدق قوله، وهذا في غاية الجرأة على الله سبحانه.

فلما خرج هذا الرجل من عند النبي ﷺ مرَّ ليلاً بزرع لبني ثقيف وحمُرُّ لهم، وكان بينهم وبينه خصومة، فأحرق زرعهم، وأهلك مواشيهم، فأنزل الله سبحانه الآية فيه^(١)

٢- وقال ابن زيد: كان رجل يأتي إلى النبي ﷺ فيقول: أي رسول الله، أشهد أنك جئت بالحق والصدق من عند الله، قال: يُعَجِّبُ الرسول بقوله، ثم يقول: أما والله، يا رسول الله، إن الله ليعلم ما في قلبي مثل ما نطق به لساني، فذلك قوله: ﴿وَيُشْهِدُ اللَّهُ عَلَى مَا فِي قَلْبِهِ﴾ قال: هؤلاء المنافقون، وقرأ: ﴿إِذَا جَاءَكَ الْمُنَافِقُونَ قَالُوا نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللَّهِ﴾ حتى بلغ ﴿إِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَكَاذِبُونَ﴾ [المنافقون: ١] بما يشهدون أنك رسول الله^(٢)

٣- وروى سعيد بن جبير أو عكرمة عن ابن عباس رضي الله عنهما أن هذه الآية نزلت في قوم من أهل النفاق في السرية التي أُصِيبَتْ لرسول الله ﷺ بالرجيع، بين مكة والمدينة، وكان فيها عاصم ومُرْتَد، فقال هؤلاء المنافقون: يا ويح هؤلاء المفتونين الذين هَلَكُوا هكذا، لا هم قعدوا في بيوتهم، ولا هم أدوا رسالة صاحبهم، فأنزل الله يذم المنافقين، ويمدح أولئك نفرًا أصابهم من الخير والشهادة^(٣)، والآية عامة في هؤلاء وغيرهم.

٤- ومما يدل على عموم الآية في جميع المنافقين ما رواه الطبري وغيره عن محمد بن كعب القرظي عن نوف - وكان يقرأ الكتب - قال: إني لأجد صفة ناس من هذه الأمة في كتاب الله المنزل، قوم يشتررون الدنيا بالدين، ألسنتهم أحلى من العسل، وقلوبهم أَمْرٌ من الصبر، يلبسون للناس لباس مُسَوِّك (أي جلد) الضأن، وقلوبهم قلوب الذئاب، فعليَّ

(١) يُنْظَرُ الأثر رقم (٣٩٦٢) من «تفسير الطبري» وابن أبي حاتم (١٩١٣، ١٩١٧).

(٢) رواه الطبري في التفسير برقم (٣٩٧٠).

(٣) وقد أخرج ذلك ابن إسحاق كما في «سيرة ابن هشام» (١٧٤/٢) والطبري (٥٧٣/٣) وابن أبي حاتم (١٩١٠)، (١٩٤١) عن ابن عباس.

يجترئون! وبى يغترون! حلفت بنفسي لأبعثنّ عليهم فتنة تترك الحليم فيهم حيران.

قال القرطبي: تدبرتها في القرآن فإذا هم المنافقون، فوجدتها ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يُعْجِبُكَ قَوْلُهُ﴾ ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَعْبُدُ اللَّهَ عَلَى حَرْفٍ فَإِنْ أَصَابَهُ خَيْرٌ اطْمَأَنَّ بِهِ وَإِنْ أَصَابَهُ فِتْنَةٌ أُنْقَلَبَ عَلَى وَجْهِهِ﴾ [الحج: ١١] وقال: إن الآية تنزل في الرجل ثم تكون عامة بعد^(١)

الصَّنْفُ الرَّابِعُ مِنَ النَّاسِ: الْأَخْيَارُ الصَّالِحُونَ

٢٠٧- ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَشْرِي نَفْسَهُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ وَاللَّهُ رَءُوفٌ﴾^(٢) بِالْعِبَادِ ﴿٢٠٧﴾

هؤلاء هم الأخيار الموفقون الصالحون من عباد الله، نوعٌ يبيع نفسه طلباً لمرضاة الله سبحانه ورجاء ثوابه، مؤمناً به ﷺ، مجاهداً في سبيله، آمراً بالمعروف ناهياً عن المنكر، لا يثنيه عن ذلك أيُّ عرض من أعراض الدنيا، فهو يبيع نفسه لله تعالى، ويشتريها منه ربُّه بجنة عرضها السموات والأرض، وهو سبحانه خالقها ومالكها، ومحبيها ومميتها، وهذا فضل منه سبحانه ورحمة وإحسان، فالمسلم يبيع نفسه في الدنيا بثواب الله في الآخرة.

﴿إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنْ لَهُمُ الْجَنَّةُ...﴾ [التوبة: ١١١]

أسباب النزول

١- قيل: إن هذه الآية نزلت في صهيب الرومي، فإنه حينما خرج مهاجراً ليلحق برسول الله ﷺ في المدينة، اعترض المشركون طريقه، وقالوا له: لقد أتيتنا صعلوكاً حقيراً لا تملك مالاً، ولا شيئاً، وها أنت ذا تريد أن تخرج من مكة، وتأخذ هذه الأموال معك، والله لن ندعك تهاجر بمالك هذا، فمنعوه من الهجرة، وقتلوا نفراً ممن كان معه، فقال لهم: رأيتم إن خلّيتُ لكم مالي ودللتكم عليه، أتركوني؟ قالوا: نعم، ففعل ودلّهم على ماله، فتركوه، ولحق بالنبي ﷺ، فلما رآه الرسول ﷺ حين وصل إلى المدينة قال ﷺ:

(١) الطبري برقم (٣٩٦٥) ويُظَر ما قبله، وهو في «تفسير سعيد بن منصور» (٣٦١) والبيهقي في «الشعب» (٦٩٥٦).

(٢) قرأ أبو عمرو وشعبة وحمزة والكسائي ويعقوب وخلف العاشر (والله رءوف) بحذف الواو المدية التي بعد الهمز، وقرأ الباقر بإثباتها ممدودة.

«ريح البيع صهيب، ربح البيع صهيب» وفي رواية: «ريح البيع أبا يحيى»، وكانت كنيته أبا يحيى، وأنزل الله تعالى هذه الآية^(١)

وقد لُقّب صهيب بالرومي؛ لأن الروم أسروه في جهة الموصل، واشتراه بنو كلب، فكان مولاهم، وكان من المسلمين الأولين، وصار من أهل الثراء قبل الإسلام.

٢- وقال عكرمة: نزلت في صهيب بن سنان، وأبي ذر بن جندب بن السكن، أخذ أهل أبي ذر أبا ذر، فانفلت منهم، فقدم النبي ﷺ فلما خرج مهاجرًا، عرضوا له، وكان بمرّ الظهران، فانفلت أيضًا حتى قدم على النبي ﷺ.

وأما صهيب بين سنان فأخذه أهله، فافتدى منهم بماله، ثم خرج مهاجرًا، فأدركه قنفذ بن عمير بن جدعان، فخرج له مما بقي من ماله وخلي سبيله^(٢) والآية تشمل كل من اشترى نفسه في طاعة الله، والجهاد في سبيله، والأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر.

٣- أخرج الطبري بسنده عن المغيرة بن شعبة قال: بعث عمر جيشًا فحاصروا أهل حصن، وتقدم رجل من بجيلة، فقاتل فقتل، فأكثر الناس فيه يقولون: ألقى بيده إلى التهلكة! قال: فبلغ ذلك عمر بن الخطاب رضي الله عنه فقال: كذبوا، أليس الله ﷻ يقول: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَشْرِى نَفْسَهُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ وَاللَّهُ رَءُوفٌ بِالْعِبَادِ﴾^(٣)

٤- وقيل: إنها نزلت في خبيب، وزيد بن الدثنة.

٥- أو نزلت في الزبير والمقداد وقيل غير ذلك، وعلى كل فالآية عامة تشملهم وتشمل غيرهم.

(١) يُنْظَرُ: ابن سعد في «الطبقات» (٢٢٧/٢) وما بعدها، وأبو نعيم في «الحلية» (١٥١/١) وابن أبي حاتم (١٩٣٩) وابن عساكر (٢٢٨/٢٤) وفي رواية للطبري أن القائل: (ريح البيع) هو عمر رضي الله عنه وقد نزلت هذه الآية فيه وفي أثرابه إلى يوم القيامة.

(٢) «تفسير الطبري» برقم (٤٠٠١) والسيوطي في «الدر المنثور» (٢٤٠/١) وابن هشام في «السيرة» (٢٩٥/١) والطبراني (٧٢٩٠) قال الهيثمي: رواه الطبراني مرسلاً ورجاله ثقات «مجمع الزوائد» (٣٠٥/٩).

(٣) برقم (٤٠٠٤) من «تفسير الطبري» وابن أبي حاتم (١٩٤٠).

الْمُسْلِمُ يَأْخُذُ الْإِسْلَامَ كُلَّهُ وَيُسَالِمُ عِبَادَ اللَّهِ

٢٠٨- ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا ادْخُلُوا فِي السِّلْمِ^(١) كَآفَّةً وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ^(٢) الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ^(٣)﴾

وبعد تقسيم الناس تجاه مراتب الدين، وبيان أن أدناهم من يعجبك قوله وهو كاذب، وأعلامهم من يبيع نفسه لله، دعا بعد ذلك جميع فئات المؤمنين أن يدخلوا تحت راية المسالمة والمصالحة ولا يكن بعضهم حرباً على بعض كما في الحديث: «فلا ترجعوا بعدي كفاراً يضرب بعضكم رقاب بعض»^(٣).

والدخول في السلم الذي هو شعار الإسلام، يقتضي الالتزام بتعاليم الإسلام، وتنفيذ جميع أحكامه وآدابه، ويعملوا بكل أوامره ونواهيه، ولا يكونوا ممن يؤمن ببعض ويكفر ببعض.

ومطلوب من المسلم أن يأخذ الإسلام كله، ويؤمن به جملة واحدة، فلا يؤمن ببعض الكتاب ويكفر ببعض، ولا يقيم الصلاة والصيام، ويترك الزكاة، ولا يصلي ويفتح أبواب الحانات والخمارات وبيوت الربا، ولا يحججوه لا يقيم الصلاة ولا يؤدي الزكاة، وإن كان هذا الإنسان مسؤولاً عن مجتمعه فيجب عليه أن يكون الإعلام في بلاده متفق مع هُدي الرسول و مناهج التعليم، تشتمل على ما يُعلم من الدين بالضرورة، واقتصادها لا يقوم على الربا، والمرأة لا تكون مع الرجل في كل مكان، وتقام حدود الله في الزنى والسرقة والخمر ونحو ذلك، من كل ما شرع الإسلام له عقوبة، حدّاً أو قصاصاً أو تعزيراً.

والمسلم مطالب بأن يتحرى الأكمل والأفضل، وألا يقول: أكتفي بالمهمات، أكتفي بالخطوط العريضة، بالصلاة والزكاة والصيام، فإذا دُعي إلى الأخذ بالأفضل مما فيه جدل فقهي مثل: تقصير الثوب، وإعفاء اللحية، وترك الغناء، وغطاء الوجه للمرأة ونحو ذلك،

(١) قرأ نافع وابن كثير والكسائي وأبو جعفر (في السِّلْمِ) بفتح السين بمعنى الصلح والمسالمة، وقرأ الباقون بكسر السين من الصلح والسلام، أو بمعنى الإسلام كله.

(٢) قرأ نافع وأبو عمرو وشعبة وحزمة وخلف العاشر والبيزي بخلف عنه (خطوات) بسكون الطاء، وهي لغة تميم وأسد، وقرأ الباقون بضم الطاء وهو الوجه الثاني للبيزي، وهي لغة الحجازيين.

(٣) من حديث أبي بكرة في البخاري (٧١٤١) ومسلم (٦٦).

تهاون وتساهل في هذه الأمور، وقال: إنه يكفيه من الإسلام أن يحل الحلال، ويحرم الحرام، في المعاصي الكبرى، ويرى أن هذه ليست من المعاصي.

أو أنها معاصي خفيفة يمكن التساهل فيها والتغاضي عنها، وكأنه لا يعلم أن الإصرار على الصغيرة يُعدُّ كبيرة، وأن الناس قد تنهاونوا في أشياء كانت تُعدُّ على عهد رسول الله ﷺ من الموبقات، وأن המתهاون يرى الذنب كأنه ذبابة وقت على أنفه، فأشار إليها بيده فذهبت، وأن الملتزم يرى ذنبه كأنه جبل وقع فوقه فأتى عليه.

والله سبحانه ينادي المؤمنين إلى يوم القيامة أن يأخذوا الإسلام كله ولا يتركوا منه شيئاً: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ بالله ربّاً، وبمحمد نبياً، وبالإسلام ديناً ﴿ادْخُلُوا فِي السِّلْمِ كَآفَّةً﴾ أي: ادخلوا في جميع شرائع الإسلام، واعملوا بجميع أحكامه، ولا تتركوا منه شيئاً.

والسِّلْم بكسر السين يُراد به الصلح والسلام، ويُراد به أيضاً الإسلام؛ بمعنى إسلام الوجه لله، وطاعة الله ﷻ، والخطاب في الآية حينئذ يكون موجّهاً لطوائف المؤمنين الذين دخلوا في الإسلام، ومُوجَّهًا لكل مَنْ يعمل ببعض شرائع الإسلام دون بعض.

ومَنْ يأخذ الإسلام كله، فلا يؤمن ببعض الكتاب ويكفر ببعض، فإنه يكون مسلماً حقاً ومسالماً للإنسانية كلها، عاملاً بطاعة الله، آخذاً بأحكام الإسلام كله.

وفي الآية أمر للمؤمنين أن يدخلوا في جميع شرائع الإسلام ولا يتركوا منها شيئاً.

أما قراءة نصب السين، فتكون الآية موجهة إلى المؤمنين من أهل الكتاب.

قرأ ابن عباس (ادخلوا في السِّلْم) بنصب السين، ثم قال: يعني مؤمني أهل الكتاب، فإنهم كانوا مع الإيمان بالله مستمسكين ببعض أمر التوراة، والشرائع التي أنزلت فيهم، يقول: ادخلوا في شرائع دين محمد، ولا تدعوا منها شيئاً، وحسبكم الإيمان بالتوراة وما فيها^(١)

وبهذا المعنى يكون الدخول في الصلح والمسالمة، وترك الحرب مع بعضكم.

ولما كان الدخول في السلم كافة لا يُتصور إلا بمخالفة طرق الشيطان، فقد نهانا

(١) ابن أبي حاتم (١٩٤٤، ١٩٤٥).

سبحانه عن اتباع خطوات الشيطان، فالإنسان إما أن يكون على هدى وإما أن يكون على ضلال، إما أن يتبع الإسلام، وإما أن يتبع الشيطان، إما إسلام وإما جاهلية، ﴿وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ﴾ فيما زين لكم من المعاصي والآثام ﴿إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ﴾ بين العداوة، فادخلوا في أحكام الإسلام وشرائعه جميعاً.

قال حذيفة بن اليمان في هذه الآية: الإسلام ثمانية أسهم: الصلاة والزكاة والصوم والحج والعمرة والجهاد والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وقد خاب من لا سهم له.

وقال عكرمة: نزلت هذه الآية في ثعلبة، وعبد الله بن سلام، وابن يامين، وأسد وأسيد ابني كعب، وسعيد بن عمرو، وقيس بن زيد، كلهم من يهود، قالوا: يا رسول الله، يوم السبت كنا نُعظمه، فدعنا فلنُسبُ فيه، وإن التوراة كتاب الله، فدعنا فلنُقم بها الليل، فنزلت الآية^(١)

ولما دخل عبد الله بن سلام في الإسلام طلب من النبي ﷺ أن يبقى على احترامه وتعظيمه ليوم السبت كما يصنع اليهود، وطلب كذلك أن يقرأ من التوراة في صلاته، وكره لحوم الإبل وألبانها؛ لأن تركها واجب في اليهودية، فأنزل الله هذه الآية: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ادْخُلُوا فِي السِّلَاحِ كَافَّةً﴾ أي: خذوا شرائع الإسلام جميعها، ولا تأخذوا شيئاً وتركوا شيئاً، ولا تتركوا شيئاً بالتوراة فإنها منسوخة، ولا تتبعوا الرخص فتأخذوها وتركوا عزائم الأمور.

ورد أن عمر رضي الله عنه قال: إنا نسمع أحاديث من يهود وتُعجبنا فنرى أن نكتب بعضها، فقال ﷺ: «لقد جئكم بها بيضاء نقية، ولو كان موسى حيّاً ما وسعه إلا اتباعي»^(٢)

والآية عامة في كل من يأخذ بعض أحكام الإسلام ويترك بعضاً.

(١) الأثر في الطبري برقم (٤٠١٦) و«الدر المنثور» (٢٤١/١).

(٢) من حديث طويل عن جابر في «المسند» (١٥١٥٦)، وإسناده ضعيف، لضعف مجالد، أحد رواته، وأخرجه ابن أبي عاصم في السنة (٥٠) والبخاري (١٢٤) في كشف الأستار والبيهقي في الشعب (١٧٧) والبخاري في شرح السنة (١٢٦).

وَعِيدٌ مِّنْ جَانِبِ طَرِيقِ الصَّوَابِ

٢٠٩- ﴿فَإِنْ زَكَلْتُمْ مِّنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْكُمْ الْبَيِّنَاتُ فَأَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾

ولما كان العبد لا بد أن يقع منه خلل وزلل، نهانا سبحانه عن ذلك، وتوعد من يقع منه هذا الزلل بالجزاء الذي يستحقه يوم لقاء الله.

قال ابن عباس: السلم الإسلام، والزلل ترك الإسلام^(١)

﴿فَإِنْ زَكَلْتُمْ﴾ أي: فإن اتبعتم خطوات الشيطان، وخالفتم طريق الحق، وخرجتم عن الصواب بعد أن اهتديتم، وانحرفتم وضللتكم وخالفتم الإسلام وشرائعه وأعرضتم عن طريق الحق ﴿مِّنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْكُمْ الْبَيِّنَاتُ﴾ أي: الحجج الواضحة في القرآن والسنة بعد ما ثبت لديكم صدق رسالة محمد ﷺ بالمعجزات الخارقة، وصدق أوصافه في الكتب المنزلة على أهل الكتاب، إن انحرفتم عن طريق الهدى مع وضوح الأدلة على وجوب اتباعه ﴿فَأَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ﴾ في ملكه لا يفوته شيء ﴿حَكِيمٌ﴾ في أمره ونهيه، يضع كل شيء في موضعه المناسب، وسوف يعاقبكم على ما قدمت أيديكم.

والزَّلُّون عن صراط الله تعالى صنفان:

(أ) صنف اعتقد الباطل حقًا؛ فلم يعرفوا حقيقة التوحيد ولا غيره من أصول الإيمان.

(ب) وصنف اتبعوا الظن، وهاموا في أودية الوهم، فلم يكونوا على بينة من دينهم.

فإذا كان يوم القيامة زالت الحجب، وزال جهل الجاهلين، وانكشف ظن الطائنين، وبطل وهم الواهمين، وعرف الجميع رب العالمين.

ورد أن قارئًا قرأ في نهاية هذه الآية: (غفور رحيم) بدلًا من ﴿عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ فسمعه أعرابي لا يقرأ القرآن، فأنكره عليه وقال: ليس هذا من كلام الله؛ إذ الحكيم لا يذكر الغفران عند الزلل والعصيان؛ لأنه إغراء عليه.

وعن الأصمعي قال: كنت أقرأ: ﴿وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا جَزَاءً بِمَا كَسَبَا

(١) ابن أبي حاتم (١٩٤٦، ١٩٥٠).

نَكَلًا مِّنَ اللَّهِ ﴿٢٠٩﴾ (والله غفور رحيم) وبجنبي أعرابي، فقال: كلام مَنْ هذا؟ قلت: كلام الله، قال: ليس هذا كلام الله، فانتبهتُ، فقرأت: ﴿عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ فقال: أصبتَ، هذا كلام الله، فقلت: أتقرأ القرآن؟ قال: لا، قلت: من أين علمت؟ قال: يا هذا، عز فحكّم ففقطّع، ولو غفر ورحم لَمَا قطع^(١)

مَاذَا يَنْتَظِرُ الْعَصَاةُ؟

٢١٠- ﴿هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ يَأْتِيَهُمُ اللَّهُ فِي ظُلَلٍ مِّنَ الْغَمَامِ وَالْمَلَائِكَةُ^(٢) وَقُضِيَ الْأَمْرُ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ^(٣) الْأُمُورُ﴾

ثم إن الذين يعجبك قولهم في الحياة الدنيا، ينتظرون يوم الجزاء، وهم شاؤون في وقوعه، والذين باعوا أنفسهم لله ابتغاء مرضاته ينتظرون يوم الجزاء رجاءً للنعيم والثواب. وفي هذه الآيات نهى عن الزلل، ووعد لمن امتنع من الأخذ بشرائع الإسلام كلها، أو امتنع من المسالمة والمصالحة لإخوانه، أو اتبع خطوات الشيطان فانحرف عن الصواب، وكأن الله تعالى يقول: ولماذا تلتكئون، وماذا تنتظرون؟

أيها التاركون للدخول في السلم بعد قيام الأدلة الواضحة، أيها الساعون بالفساد في الأرض، أيها المتبعون لخطوات الشيطان، أيها العصاة الآثمون، ماذا تنتظرون؟

هل تنتظرون قيام الساعة، حين يأتي الله تعالى في ظلل من الغمام، حين تُطوي السموات والأرض، وتُنشَرُ الكواكب، وتكْوَرُ الشمس، وتأتي الملائكة صفوفًا، فتحيط بالخلائق وتأتي الملائكة الموكلون بعذاب أهل النار، يومئذ يأتي رب العالمين للفصل بين الخلائق بالقضاء العادل بين الأولين منهم والآخرين حين توضع الموازين، وتُنشَرُ الدواوين، وتبيض وجوه وتسود وجوه، ويتميز أهل الخير من أهل الشر، وحينئذ يقضي

(١) من «تفسير القرطبي» للآية.

(٢) قرأ أبو جعفر (والملائكة) بالخفض عطفًا على (ظلل) أو (الغمام)، وقرأ الباقر بالرفع عطفًا على لفظ الجلالة.

(٣) قرأ ابن عامر وحمزة والكسائي ويعقوب وخلف العاشر (تُرْجَعُ الأمور) على البناء للفاعل، و(الأمور) فاعل، وقرأ الباقر بالبناء للمجهول (تُرْجَعُ) و(الأمور) نائب فاعل.

الله فيهم قضاءه، وإليه وحده ترجع أمور الخلائق جميعها، كما قال سبحانه: ﴿وَيَوْمَ تَشْقَىٰ
الْأَسْمَاءُ بِأَلْعَمِمْ وَيُنْزِلُ الْمَلَكُ تَنْزِيلًا﴾ [الفرقان: ٢٥] وقال سبحانه: ﴿هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ تَأْتِيَهُمُ
الْمَلَائِكَةُ أَوْ يَأْتِيَ رَبُّكَ أَوْ يَأْتِيَ بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ﴾ [الأنعام: ١٥٨] وقال أيضًا: ﴿وَجَاءَ رَبُّكَ وَالْمَلَكُ
صَفًّا صَفًّا﴾ [الفجر: ٢٢].

وصفة مجيء الله سبحانه لا يعلمها إلا هو، فليس كمثله شيء سبحانه، ومرجع الخلق
إليه يوم القيامة فيقضي بينهم ويقتص من الظالم للمظلوم، ويجازي أهل الإحسان
بإحسانهم، وأهل الإساءة بإساءتهم.

عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «يجمع الله الأولين والآخرين لميقات
يوم معلوم، قيامًا أربعين سنة، شاخصة أبصارهم إلى السماء، ينتظرون فصل القضاء»،
قال: «وينزل الله ﷻ في ظلل من الغمام من العرش إلى الكرسي»^(١)

هذا: ومجيء الله تبارك وتعالى من الصفات التي أخبر الله بها عن نفسه، كالاستواء
والنزول، وهي صفات ثابتة لله تعالى على وجه يليق بجلاله وعظمته، نؤمن بها كما
جاءت، من غير تحريف ولا تشبيه ولا تعطيل.

أَسْبَابُ كُفْرِ الْيَهُودِ بِخَاتَمِ النَّبِيِّينَ

٢١١- ﴿سَلِّ بَنِي إِسْرَءِيلَ كَمَا آتَيْنَاهُمْ مِّنْ آيَاتِنَا بَيِّنَاتٍ وَمَنْ يُبَدِّلْ نِعْمَةَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُ فَإِنَّ اللَّهَ
شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾

فيا أمة محمد، عليكم بالدخول في الإسلام كله، ولا تتفرقوا وتكونوا شيعًا كحال بني
إسرائيل، فإن حالهم لا يخفى عليكم، فاسألوهم واقروا آثار تاريخهم، ولا تشبهوا بهم
حتى لا يصيبكم ما أصابهم، فهم من الأمم التي ضربها القرآن الكريم مثلًا في الإعراض
عن آيات الله سبحانه، وقد كان الواجب عليهم أن يبادروا إلى الإيمان بمحمد ﷺ، فهم

(١) بطوله في «المعجم الكبير» للطبراني برقم (٩٧٦٣) قال الهيثمي في «المجمع» (٣٤٣/١٠) رجال الطبراني
من طرق، أحدهما رجال الصحيح غير أبي خالد اللاني وهو ثقة، وصححه الدارقطني وأخرجه ابن
مردويه كما في «الدر المنثور» و«تفسير ابن كثير» قال الذهبي: إسناده حسن.

أعرف الناس به .

﴿سَلِّ بَنِي إِسْرَءِيلَ﴾ الحاضرون اليوم من اليهود ومن يأتي بعدهم إلى قيام الساعة ﴿كَمْ ءَاتَيْنَهُمْ مِّنْ ءَايَةٍ بَيِّنَةٍ﴾ كم أنزل الله عليهم من آية دالة على صدق محمد ﷺ في التوراة، كما أنزل عليهم آيات دالة على صدق موسى ﷺ، كالعصا واليد، وكم أنعم الله عليهم بنعم لا تعد ولا تحصى، وآخر نعمة هي نعمة الإسلام، فلم يقوموا بشكر هذه النعم؛ بل كفروا بها، وبدلوا نعمة الله كفراً، فصار الكفر بدل النعمة، والجحود بدل الشكر، فعاقبهم الله وحرّمهم ثوابه . وقد أمرهم الله تعالى أن يؤمنوا بمحمد ﷺ، وأن يدخلوا في دين الإسلام، ومع ذلك فقد كفروا به، وحرفوا ما أنزل الله على موسى .

والخطاب للنبي ﷺ، ولمن يقوم بالدعوة إلى الله بعده، فقد أمره ربه أن يسأل يهود المدينة ومن بعدهم تقريراً وتوبيخاً لهم على كفرهم بخاتم الرُّسل، أو تقريراً وتذكيراً لهم بنعم الله عليهم التي جاءتهم على أيدي أنبيائهم، ولكنهم لم يدخلوا في الإسلام، بل كفروا وكذبوا وغيروا وبدلوا ولم يؤمنوا، قال سبحانه: ﴿وَمَنْ يُبَدِّلْ نِعْمَةَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُ﴾ أي: يستبدل بالإيمان الكفر، فيبدل بنعمة الله التي هي الإسلام الكفر، من بعد ما جاءته الأدلة من عند الله فتيقنها وعرفها، وقامت الحجة عليه بها، ومن يفعل ذلك ﴿فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ فلا تبدلوا عهدي إليكم -أيها المخاطبون- بالإيمان بخاتم الرُّسل وكتابه، فإن من يفعل ذلك عقابه أليم .

مَتَاعُ الْكَافِرِ مِنْ أَسْبَابِ شَقَائِهِ

٢١٢- ﴿زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَيَسْخَرُونَ مِنَ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَالَّذِينَ اتَّقَوْا فَوْقَهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ وَاللَّهُ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾

وبعد أن ذكر القرآن حال من يبدل نعمة الله كفراً أتبعه بذكر الأسباب التي حملت هؤلاء الأشقياء على البقاء في كفرهم وجحودهم ، لقد حسنت الدنيا في أعين الكفار ، وزينها الشيطان لهم ، وأخذوا يتمتعون بكل ما فيها، ويسخرون من المؤمنين الفقراء، ويسخرون من أهل التقوى والإيمان، وهذا هو شأن المترفين الجاحدين في كل زمان و مكان .

﴿زَيْنَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا﴾ وحدانية الله وجحدوها، زين لهم نعيم ﴿الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ فأحبوها من قلوبهم وتهافتوا عليها وعلى ما فيها من الملهذات والشهوات، كما قال تعالى: ﴿زَيْنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنْطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالْأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ذَلِكَ مَتَكِعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاللَّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الْمَتَابِ﴾ [آل عمران: ١٤]. رضوا بالدنيا واطمأنوا إليها، وصارت أهواءهم تبعًا لها، فأقبلوا عليها وأكبوا على تحصيلها، وعظموها، واحتقروا المؤمنين، فاستهزؤوا بهم، وقالوا: هؤلاء من الله عليهم من بيننا.

﴿وَيَسْتَحْزِرُونَ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ أي: ويستهزئون بفقرائهم، وهذا من ضعف عقولهم، فإن الدنيا دار ابتلاء، فالمؤمن وإن أصابه مكروه في الدنيا فصبر واحتسب، فإن مصيره إلى النعيم المقيم في جنة الخلود.

وقد نزلت هذه الآية في مشركي العرب كانوا يتمتعون بنعيم الدنيا ويكذبون بالمعاد، ومثلهم المنافقون ورؤساء اليهود، وكل من كان على شاكلتهم.

وقد رُكب في طباع البشر الميل إلى الملهذات وحب الشهوات، والدنيا دار ابتلاء وامتحان، والشيطان يزين الدنيا ويحسنها في أعين أهلها فيزهدون في الآخرة.

والمؤمنون المتقون فوق الذين كفروا إلى يوم القيامة ﴿وَالَّذِينَ اتَّقَوْا فَوْقَهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ﴾ درجة ومنزلة، كما قال تعالى: ﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعَاجِلَةَ عَجَلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَاءُ لِمَنْ نُرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُ جَهَنَّمَ يَصْلَاهَا مَذْمُومًا مَدْحُورًا﴾ ﴿٨﴾ وَمَنْ أَرَادَ الْآخِرَةَ وَسَعَى لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَئِكَ كَانَ سَعْيُهُمْ مَشْكُورًا﴾ [الإسراء]

وقال: ﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَلَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ﴾ ﴿١٥﴾ أُولَئِكَ الَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ إِلَّا النَّارُ وَحِطَّ مَا صَنَعُوا فِيهَا وَبَطُلَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [هود]

في الصَّحِيحَيْنِ وغيرهما عن حارثة بن وهب أن رسول الله ﷺ قال: «ألا أخبركم بأهل الجنة؟ كل ضعيف مستضعف، لو أقسم على الله لأبره، ألا أخبركم بأهل النار؟ كل عتل جواظ جعظي مستكبر»^(١) والجعظي: الفظ الغليظ.

(١) «المستند» (١٨٧٢٨، ١٨٧٣٠، ١٨٧٣٢) بإسناد صحيح على شرط الشيخين، والبخاري (٤٩١٨)، ٦٠٧١، ٦٦٥٥٧) ومسلم (٢٨٥٣) والترمذي (٢٦٠٥) والنسائي في «الكبرى» (١١٦١٥) وابن ماجه (٤١١٦) والطيالسي (١٣٣٤).

والأرزاق في الدنيا والآخرة لا تنال إلا بتقدير الله ومشئته .

﴿وَاللَّهُ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ فهو سبحانه يتفضل على عباده بالرزق في الدنيا، فلا ينبغي للثري أن يحتقر الفقير، ولا للقوي أن يحتقر الضعيف، والثواب للمؤمن في الآخرة يكون بغير حساب، فجزائنه لا تنفد، ومملكه لا ينقص بالعطاء .

ولا بد للأفراد والأمم من الكد والسعي والعمل الدؤوب مع التقوى والخوف من لقاء الله تعالى حتى يرزقها الله الثروة والعزة والقوة والكرامة، وكم من أمم عاشت فقيرة لأنها لم تأخذ بالأسباب، ولم تنقب في الأرض عن مصادر الرزق، فكانت من دول العالم الثالث؛ لبعدها عن منهج الله وعدم الأخذ بالأسباب .

حَاجَةُ الْبَشَرِ إِلَى التَّشْرِيعِ الْإِلَهِيِّ ضَرُورَةٌ مُلِحَّةٌ

٢١٣- ﴿كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّنَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنْزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِيُحْكُمَ^(١) بَيْنَ النَّاسِ فِيمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ وَمَا اخْتَلَفَ فِيهِ إِلَّا الَّذِينَ أُوتُوهُ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمْ الْبَيِّنَاتُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ فَهَدَى اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا لِمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ مِنَ الْحَقِّ بِإِذْنِهِ وَاللَّهُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾

ثم إن حب الدنيا لدرجة تؤدي إلى الكفر ليس خاصًا بزمان معين؛ بل هو حب قديم، كان سببًا في تفرق الناس بعد اتفاقهم، فقد بغى بعضهم على بعض، وحصل النزاع والخلاف، فاختلثوا في الكتاب الذي أنزله الله على رسله، وفيه من الآيات البينات والدلائل القاطعة على وحدانية الله تعالى، فكان منهم من وحّد الله تعالى، ومنهم أشرك معه غيره، فضلوا بذلك ضلالًا بعيدًا، ومن ذلك بغى أهل الكتاب على أهل الإسلام حسدًا منهم لصاحب الرسالة ﷺ أن انتقلت إليه من بني إسرائيل، فقد كان الناس من لدن آدم إلى نوح مدة عشرة قرون على التوحيد الخالص، ليس هناك اختلاف في العقيدة، وليس هناك شرك، ولا عبادة غير الله ﷻ، فلما اختلف الناس بعد عهد نوح حين عبدوا الأصنام (ودًا وسواعًا ويغوث ويعوق ونسرًا) بعد ألف عام من وقت آدم ﷺ؛ أرسل الله الأنبياء بالكتب لهداية البشر .

(١) قرأ أبو جعفر (لِيُحْكَمَ) بالبناء للمفعول، وقرأ الباقر (لِيُحْكَمَ) بالبناء للفاعل .

أخرج الطبري عن عكرمة عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: كان بين آدم ونوح عشرة قرون، كلهم على شريعة من الحق، فاختلفوا، فبعث الله النبيين مبشرين ومنذرين، وكذلك هي قراءة عبد الله (كان الناس أمة واحدة فاختلفوا)^(١) وهي قراءة غير متواترة ومخالفة لرسم المصحف، وهو ركن من أركان صحة التلاوة، فلا تسمى قرآنًا، ولكن المعنى صحيح يفسره آيات القرآن الأخرى، كقوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ النَّاسُ إِلَّا أُمَّةً وَاحِدَةً فَاخْتَلَفُوا وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ لَفُتِي بَيْنَهُمْ فِيمَا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ [يونس: ١٩].

وقد بعث الله الرُّسُلَ وأنزل الكتب بسبب الاختلاف في وحدانية الله تعالى، فبغى بعض الناس على بعض، وضرب بعضهم رقاب بعض، فهدى الله أمة محمد ﷺ للقيام على عبادة وحده، واعتزلوا هذا الاختلاف؛ فكانوا شهداء على الناس يوم القيامة أن رسلهم الله قد بلغتهم، وأنهم كذبوا رسلهم^(٢) قال قتادة: ذكر لنا أنه كان بين آدم ونوح عشرة قرون، كلهم على الهدى وعلى شريعة من الحق، ثم اختلفوا بعد ذلك، فبعث الله نوحًا، وكان أول رسول أرسله الله إلى أهل الأرض، وبُعث عند الاختلاف من الناس وترك الحق، فبعث الله رسله، وأنزل كتبه يحتاج به على خلقه^(٣)

وقد توعد الله البشر على الاختلاف لا على الاجتماع، ولو شاء الله سبحانه لجعل الناس جميعًا على دين واحد موحدين، كما قال تعالى: ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً﴾ [هود: ١١٨] ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً﴾ [المائدة: ٤٨] ولكنه سبحانه ميّز الإنسان عن الملائكة فجعل له حرية الاختيار، وخلق النار لمن يختار الكفر، والجنة لمن يختار الإيمان ﴿وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ﴾ [١١٨] إِلَّا مَنْ رَّحِمَ رَبُّكَ وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ [هود: ١١٨، ١١٩]

(١) البزار (٢١٩٠) «كشف الأستار» وابن أبي حاتم (١٩٨٣) والحاكم (٥٤٦/٢) قال الهيثمي في «مجمع الزوائد» (٣١٨/٦): وفيه عبد الصمد بن النعمان، وثقه ابن معين، وقال غيره: ليس بالقوي، وقراءة ابن مسعود شاذة مخالفة لرسم المصحف.

(٢) انظر في هذا المعنى «تفسير الطبري» (٦٢٤/٣) وابن أبي حاتم (١٩٨٤، ١٩٩٣).

(٣) ابن أبي حاتم (١٩٨٩) وأخرجه أيضًا عبد بن حميد كما في «الدر المنثور» (٤٩٨/٢).

والذين استثناهم الله في قوله: ﴿إِلَّا مَنْ رَجِمَ رَبُّكَ﴾ هم الأئمة والدعاة إلى التوحيد في كل أمة، فهم مَنْ رَجِمَ الله سبحانه.

ولما اختلف الناس في دينهم، وأصبح منهم مؤمن وكافر، ومشرِك وموحد؛ أرسل الله سبحانه النبيين دعاء إلى الله، مبشرين الموحدين المطيعين بدخول الجنة، ومنذرين من أشرك وكفر وعصى بالنار، وأولهم نوح عليه السلام؛ لأن الشرك ظهر في عهده، وأنزل معهم الكتب السماوية بالحق الذي اشتملت عليه؛ ليحكموا بما فيها بين الناس فيما اختلفوا فيه من الشرك والكفر.

والمراد بالنبيين: الرُّسل، بدليل ﴿وَأَنْزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ﴾ وعدد الرُّسل ثلاث مئة وثلاثة عشر.

وصح في الحديث أن نوحًا هو أول رسول أرسل إلى أهل الأرض، والناس قبله كانوا على دين واحد هو التوحيد الذي أُخِذَ على بني آدم، وهم في عالم الذر، فاختلَفوا فيه وعبدوا الأوثان ﴿فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّنَ مُبَشِّرِينَ﴾ مَنْ وحد الله بالجنة ﴿وَمُنْذِرِينَ﴾ مَنْ أشرك معه غيره بالنار ﴿وَأَنْزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ﴾ اسم جنس للكتب المنزلة من عند الله، أنزلها سبحانه ﴿بِالْحَقِّ﴾ أي بالأخبار الصادقة، والأوامر العادلة، فكل ما فيها حق يفصل بين المختلفين في الأصول والفروع، فمردّ الاختلاف عند التنازع إلى الله ورسوله، وقد أيدّ الله هؤلاء الرُّسل بالكتب الداعية إلى التوحيد من عند الله.

والكتاب يُطلق على جميع الكتب السماوية التي نزلت على رُسل الله صلى الله عليه وسلم أجمعين، والكتب المنزلة من السماء مئة وأربعة، أنزل الله على آدم عشر صحائف، وعلى شيث ثلاثين، وعلى إدريس خمسين، وصحف إبراهيم، وأنزل على موسى عشر صحائف، وأنزل التوراة على موسى، والزبور على داود، والإنجيل على عيسى، والقرآن على محمد.

وهذا الكتاب المنزل على كل رسول، أنزله الله ليزيل الخلاف القائم بين البشر فيما اختلفوا فيه من الشرك والتوحيد، ومهمة هذه الكتب هي بيان الحق من الباطل، والتوحيد من الكفر ﴿لِيَحْكُمَ﴾ هؤلاء الرُّسل بين الناس فيما اختلفوا فيه من الشرك والتوحيد بمقتضى ما جاء فيها.

أي: وما اختلف في الحق الذي تضمنه هذا الكتاب إلا الذين نزل عليهم الكتاب، وهم اليهود والنصارى، وكان هذا الاختلاف بعد ما تبين لهم

فيها أوصاف النبي ﷺ، فلما تأكد لهم مطابقتها للنبي الخاتم حسدوه عليها؛ لأن الرسالة كانت فيهم مدة طويلة قال سبحانه: ﴿وَمَا اخْتَلَفَ فِيهِ إِلَّا الَّذِينَ أُوتُوهُ﴾ أي: أوتوا التوراة والإنجيل والعلم بهما، وهم اليهود والنصارى الذين اختلفوا في شأن محمد ﷺ من باب البغي والحسد والظلم والعدوان.

﴿مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمْ الْبَيِّنَاتُ﴾ وهي العلامات الدالة على صدقه ﷺ في التوراة والإنجيل، فكفروا به ﴿بَغْيًا بَيْنَهُمْ﴾ أي: ظلماً وحسداً له لانتقال الرسالة منهم إلى العرب كما قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ عِنْدَ اللَّهِ أَلِيسُوا إِلَّا الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ﴾ [آل عمران: ١٩] ﴿فَهَدَى اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ بمحمد ﷺ ﴿لَمَّا اخْتَلَفُوا فِيهِ مِنَ الْحَقِّ بِآيَاتِهِ﴾ فكل ما اختلف فيه أهل الكتاب وأخطؤوا فيه الحق والصواب، هدى الله للحق فيه هذه الأمة.

ومما اختلفوا فيه:

(أ) شأن عيسى عليه السلام؛ فقد كفر اليهود بعيسى، وقالوا: إنه ابن زنى، ولم يؤمنوا به ولا بدعوته، واتهموا أمه بالزنى.

والنصارى جعلوا عيسى إلهاً أو ابناً للإله، وكلاهما (إفراط وتفريط).

فهدى الله تعالى الأمة الإسلامية إلى الحق والصواب في ذلك، وأن عيسى هو عبد الله ورسوله، وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه.

(ب) واختلفوا في شأن إبراهيم؛ قال اليهود: إنه يهودي، وقال النصارى: إنه نصراني.

وقد هدى الله الأمة الإسلامية إلى الصواب في ذلك ﴿مَا كَانَ إِبْرَاهِيمَ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَكِنْ كَانَ حَنِيفًا مُسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ [آل عمران: ٦٧]

(ج) واختلفوا في شأن القبلة في الصلاة؛ فاتجه اليهود صوب بيت المقدس، واتجه النصارى صوب المشرق، فهدى الله الأمة المحمدية إلى الكعبة قبله الأنبياء جميعاً، يستقبلونها في صلاتهم لله ﷻ. ﴿قَوْلَ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَحَيْثُ مَا كُنْتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ وَإِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ﴾ [البقرة: ١٤٤]

(د) واختلفوا في يوم الجمعة؛ فاختر اليهود يوم السبت، واختار النصارى يوم الأحد،

فهدى الله الأمة الإسلامية إلى يوم الجمعة بعد أن ضلت عنه اليهود والنصارى .

كما جاء عن أبي هريرة أن النبي ﷺ قال : «نحن الآخرون الأولون يوم القيامة، نحن أول الناس دخولاً الجنة، بيد أنهم أوتوا الكتاب من قبلنا، وأوتيناه من بعدهم، فهدانا الله لما اختلفوا فيه من الحق بإذنه، فهذا اليوم الذي هدانا الله له، والناس لنا فيه تبع، غداً لليهود، وبعد غد للنصارى»^(١) والمراد : لمتأخرون زماناً، المتقدمون منزلة وكرامة يوم القيامة .

(هـ) واختلفوا في الصيام؛ فمنهم من يصوم بعض يوم أو أياماً، ومنهم من يصوم عن بعض أنواع الطعام، فهدى الله الأمة الإسلامية إلى صيام شهر رمضان .

(و) وآخر ما اختلفوا فيه هو الإيمان بمحمد ﷺ؛ فكفر به اليهود والنصارى ﴿فَهَدَى اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا لِمَا اُخْتَلَفُوا فِيهِ مِنَ الْحَقِّ بِإِذْنِهِ وَاللَّهُ يَهْدِي مَن يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ أي : أن أمة محمد ﷺ أقاموا على ما جاءت به الرُّسل، من التوحيد والصلاة والزكاة، فكانوا شهداء على قوم نوح وهود وصالح وشعيب وموسى وعيسى، أن رسلهم قد بلغوهم، وأنهم كذبوا رسل الله، وآمنوا برسل الله جميعاً، وبُكِّتِ الله كلَّها حين كفر بعضهم بكتاب بعض، وكلها من عند الله، وحرفوا وغيروا وبدلوا، فهدى الله أمة الإسلام للإيمان بمحمد ﷺ ولم يحرفوا ولم يبدلوا، وثبتوا على الحق .

٢- ويصح أن يكون المعنى : أنه لما كان الناس أمة واحدة في خُلُوفهم عن الشرائع، وجهلهم بالحقائق، كان لا بد لهم من تشريع وأحكام تضبطهم وتنظم علاقاتهم مع أنفسهم ومع ربهم ومع مجتمعهم، فأرسل الله الرُّسل، وأنزل عليهم الكتب؛ ليحكم الرُّسل بين الناس بما في هذه الكتب فيما اختلفوا فيه، حتى يسود العدل؛ لأن عقولهم ليست كافية في الهداية وإقامة الحق، فهي متفاوتة ومختلفة .

وبعد إنزال الكتب اختلف فيها أهل الأهواء والشهوات والشبهات، بعد ما جاءتهم الأدلة القاطعة على عصمة الرُّسل والكتب من إثارة الخلاف، فكانت الفِرَق والمذاهب والطوائف في

(١) ينظر: صحيح البخاري (٢٣٨، ٨٧٦، ٧٤٩٥) وصحيح مسلم (٨٥٥) والنسائي في «السنن الكبرى»

(١٦٦٦) وابن حبان (٢٧٨٤) و«تفسير الطبري» (٤٠٦٠) ورواه أحمد في «المسند» بنحوه برقم (٧٣١٠)،

(٧٦٩٢) بإسناد صحيح على شرط الشيخين .

جميع الشرائع السماوية، ووفق الله أمة محمد إلى الإيمان الصحيح والنور الساطع.

عن أبي موسى رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «مثل المسلمين واليهود والنصارى: كمثّل رجل استأجر قومًا يعملون له عملاً يومًا إلى الليل، على أجر معلوم، فعملوا له إلى نصف النهار، فقالوا: لا حاجة لنا إلى أجرك الذي شرطت لنا، وما عملنا باطل، فقال لهم: لا تفعلوا، أكملوا بقية يومكم هذا، ولكم الذي شرطت لكم من الأجر، فعملوا حتى إذا كان إلى حين صلاة العصر، قالوا: لك ما عملنا باطل، ولك الأجر الذي جعلت لنا فيه، فقال لهم: أكملوا بقية عملكم، فإن ما بقي من النهار شيء يسير، فأبوا، واستأجر قومًا أن يعملوا له بقية يومهم، فعملوا بقية يومهم حتى غابت الشمس، واستكملوا أجر الفريقين كليهما، فذلك مثلهم ومثّل ما قبلوا من هذا النور.

فقال اليهود والنصارى: ما لنا أكثرُ عملاً وأقلّ عطاء؟! قال: هل ظلمتكم من حقكم شيئاً؟ قالوا: لا، قال: فذلك فضل الله يؤتيه من يشاء»^(١)

فاليهود والنصارى عملوا إلى العصر، وأبوا أن يعملوا بقية النهار؛ أي: آمن كل منهم برسوله، وأبى الإيمان بمحمد ﷺ، والمسلمون هم الذين عملوا بقية النهار، وأخذوا أجر الفريقين؛ لأنهم آمنوا بالرُّسُل جميعاً، ومن لم يُدرك رسالة محمد ﷺ من اليهود والنصارى استوفى أجره على الإيمان برسوله في وقته، ومن أدرك رسالة محمد ﷺ وكفّر بها فهو كافر، حُرِمَ الأجر كله.

في الصحيح عن عائشة رضي الله عنها أن النبي ﷺ كان إذا قام من الليل يصلي يقول: «اللهم رب جبريل وميكائيل وإسرافيل، فاطر السموات والأرض، عالم الغيب والشهادة، أنت تحكم بين عبادك فيما كانوا فيه يختلفون، اهدني لما اختلف فيه من الحق بإذنك، إنك تهدي من تشاء إلى صراط مستقيم»^(٢)

وفي الدعاء المأثور: «اللهم أرنا الحق حقًا وارزقنا اتباعه، وأرنا الباطل باطلاً وارزقنا اجتنابه».

وقد ختم الله الآية بقوله ﴿وَاللَّهُ يَهْدِي مَن يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ أي يهدي من جميع

(١) البخاري (٥٥٨، ٢٢٦٨، ٢٢٧١، ٣٤٥٩، ٥٠٢١).

(٢) «صحيح مسلم» برقم (٧٧٠) وأبي داود برقم (٧٦٧) والبيهقي في «الأسماء والصفات» برقم (١٣٨).

الخلايق من يشاء هدايته وإعانته إلى طريق الحق والنور، عدلاً منه سبحانه وفضلاً، وإقامة للحجة على الخلق أجمعين، لئلا يقولوا ﴿مَا جَاءَنَا مِنْ بَشِيرٍ وَلَا نَذِيرٍ﴾ [المائدة: ١٩].

تَوَطِّينُ النَّفْسِ عَلَى تَحْمِلِ الْأَذَى

٢١٤- ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُمْ مَثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ مَسَّتْهُمُ الْبَأْسَاءُ وَالضَّرَاءُ وَزُلْزَلُوا حَتَّى^(١) يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَهُ مَتَى نَصْرُ اللَّهِ أَلَا إِنَّ نَصْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ﴾ (٢١٤)

وبعد أن بينت السورة أقسام الناس في هذه الحياة، ودعّتهم إلى التمسك بجميع تعاليم الإسلام، وأن يزهّدوا في هذه الدنيا التي شغلت غيرهم عن تعاليم السماء، وأن يشكروا الله تعالى على أن هداهم للحق الذي ضل عنه غيرهم.

بعد ذلك حثّتهم على أن يوطنوا أنفسهم على تحمل الآلام؛ حتى يحقق الله لهم الآمال، وألا يُزهيهم ثناء الله عليهم، فيظنوا أنهم قاموا بواجب شكر النعمة عليهم، فلا يصبروا على ما يعترضهم في طريق إيمانهم من البأساء والضراء.

ذهب بعض الصحابة إلى النبي ﷺ وهو متوسّد بردة له في ظل الكعبة، وكان المسلمون قد أودوا وعُذّبوا ووَجِدُوا صنوفاً من البلاء والمحن في غزوة أحد، وزُلْزَلُوا زلزالاً شديداً في غزوة الأحزاب؛ حيث زاغت الأبصار، وبلغت القلوب الحناجر، واضطُهد المستضعفون في مكة، فذهبوا إلى رسول الله ﷺ يشتكون ما هم فيه من ضيم وضيق.

روى البخاري وغيره عن خباب بن الارت قال: قلنا: يا رسول الله، ألا تستنصر لنا؟ ألا تدعو لنا؟ فقال: «قد كان مَنْ قَبْلَكُمْ يُوْخَذُ الرجل فيُحْفَرُ له في الأرض فيُجْعَل فيها، ثم يُؤْتَى بِالْمِنْشَارِ فيوضع على رأسه فيُجْعَل نصفين، ويُمَشَطُ بِأَمْشَاطِ الحديد ما دون لحمه وعظمه، ما يصدّه ذلك عن دينه»، ثم قال: «والله ليتمن الله هذا الأمر حتى يسير الراكب من صنعاء إلى حضرموت لا يخاف إلا الله، والذئب على

(١) قرأ نافع (حتى يقول) بالرفع، على أن (يقول) فعل ماضٍ بالنسبة إلى زمن الإخبار، أو على سبيل الحكاية للحال الماضية، فلم تعمل فيه (حتى) وقرأ الباقون بالنصب، على تقدير: أن يقول الرسول، فهو غاية، والفعل مستقبل، حكيت به حالهم.

غنمه، ولكنكم قوم تستعجلون»^(١)

فأنزل الله سبحانه جواباً لهم وبياناً لسنة الله في خلقه؛ أن النصر والتمكين في الأرض يكون بعد الابتلاء والتمحيص والثبات على الحق: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ وَيَعْلَمَ الضَّالِّينَ﴾ [آل عمران: ١٤٢]

أَتظنون أن تدخلوا الجنة ولم يصيبكم ما أصاب مَنْ قبلكم من أتباع الرُّسُل من الشدائد والمحن والفقر والأمراض والخوف والرعب؟ ﴿أَحَسِبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا ءَامَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ﴾ [العنكبوت: ٢، ٣]

﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُمْ مَثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ﴾ من الأمم الماضية التي ثبتت عند البلاء والاختبار، وفي هذا إخبار من الله تعالى أنه لا بد أن يمتحن عباده بالسراء والضراء والمحن كما فعل بمن قبلهم، فإن سنة الله في خلقه تقضى بأن من قام بدين الله وشرعه لا بد أن يُبتلى، فإن صبر فهو صادق في إيمانه، وإن صدَّته المكاره والشدائد فهو كاذب في دعوى الإيمان وهذا ما يشير إليه قول الله تعالى: ﴿مَسَّيْهُمْ الْبُاسُ﴾ الفقر ﴿وَالضَّرَاءُ﴾ أمراض البدن ﴿وَزُلْزِلُوا﴾ بأنواع الرعب والمخاوف والتهديد والقتل ﴿حَقَّ يَقُولُ الرَّسُولِ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَهُ﴾ أي: بَلَغَ الأمر بهم من الأذى والشدائد أن يستبسطوا النصر، و يقول الرسول من الرُّسُل السابقين إلى أمته وَمَنْ آمَنَ مَعَهُ عَلَى سَبِيلِ الاستعجال للنصر: ﴿مَتَى نَصْرُ اللَّهِ؟﴾ قال سبحانه: ﴿أَلَا إِنَّ نَصْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ﴾.

فالفرج يكون عند الشدة، واتساع الأمر يكون بعد ضيقه.

وقد حُجبت الجنة بالمكاره، وحُجبت النار بالشهوات؛ فلا بدَّ من جهاد النفس والهوى والشيطان، ولا بد من الصبر والمثابرة والتغلب على الصعاب.

قيل: إن الآية نزلت تطييباً لقلوب المسلمين بعدما أصابهم الضر والشدّة في غزوتي أحد والأحزاب.

وقيل: نزلت لما اشتد الأمر على المسلمين بترك أموالهم وديارهم في مكة بأيدي المشركين في أول الهجرة، وأظهرت اليهود لهم العداوة.

(١) «صحيح البخاري» برقم (٦٩٤٣) و«المستد» (٢١٠٥٧) وأبو داود (٢٦٤٩) والنسائي (٥٣٣٥).

أَفْضَلُ مَصَارِفِ النِّفَقَةِ

٢١٥- ﴿يَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنْفِقُونَ قُلْ مَا أَنْفَقْتُ مِنْ خَيْرٍ فَلِلْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ وَالْيَتَامَى وَالْمَسْكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ﴾ (٢١٥)

هذه الآية نزلت في نفقة الرجل على أهله وأرحامه، وهو سؤال عن المنفق والمنفق عليه، ونزلت في الصدقة يتصدق بها على المحتاجين.

ثم إن عمرو بن الجموح كان رجلاً كبيراً كثير المال، فسأل النبي ﷺ بماذا نتصدق؟ وعلى من نفق؟ وقد تكرر هذا السؤال من قبل بعض الصحابة، فأنزل الله سبحانه مبيناً الأولى بالنفقة فالأولى، وأن النفقة تكون بما يتيسر لهم من الخير من أصناف المال الحلال الطيب.

﴿يَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنْفِقُونَ﴾ يسألك أصحابك - يا محمد- أي شيء ينفقون من أصناف أموالهم تقريباً إلى الله تعالى، وعلى من ينفقون؟ فأجاب الله تعالى: ابدأ بنفسك، ثم بمن تعول، بأهلك (زوجتك، وأصولك، وفروعك) ثم الأقرب فالأقرب، ﴿قُلْ﴾ لهم: أنفقوا أي خير يتيسر لكم من أصناف المال الحلال الطيب، قليله أو كثيره، واجعلوا نفقتكم للوالدين والأقربين من أهلكم وذوي الأرحام... إلخ و﴿مَا أَنْفَقْتُ مِنْ خَيْرٍ فَلِلْوَالِدَيْنِ﴾ وهي نفقة واجبة مفروضة للوالدين والأبناء، ثم ذوي الأرحام والأقربين، ثم من تجمعك بهم رابطة الأخوة، ثم من تعطف عليهم وترحمهم من اليتامى والمساكين وابن السبيل؛ وهو المحتاج البعيد عن أهله وماله، فأولى الناس بالنفقة، وأحقهم في التقديم، أعظمهم حقاً عليك، الوالدان الواجب برهما والمحرم عقوقهما، ومن بعدهما، الأقربون على اختلاف طبقاتهم، الأقرب فالأقرب، حسب القرب والحاجة، فالإنفاق عليهم صدقة وصلة، وبعد هذا التخصيص، جاء التعميم في قوله تعالى: ﴿وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ﴾ والنفقة في الأصل تشمل الزكاة المفروضة وصدقة التطوع والنفقة الواجبة على من يعول.

عن أبي هريرة ؓ أن رسول الله ﷺ قال يوماً لأصحابه: «تصدقوا» فقال رجل: يا رسول الله، عندي دينار، قال: «أنفقه على نفسك» قال: إن عندي آخر، قال: «أنفقه على زوجتك» قال: إن عندي آخر، قال: «أنفقه على ولدك» قال: إن عندي آخر، قال: «أنفقه

على خادمك» قال: إن عندي آخر، قال: «أنت أبصر به»^(١)

وفي البخاري وغيره عن أبي هريرة رضي الله عنه: «خير الصدقة ما كان عن ظهر غنى، وابدأ بمن تعول»^(٢) زاد في رواية: «واليد العليا خير من اليد السفلى»^(٣)

وجاء رجل إلى النبي ﷺ ومعه مقدار بيضة من ذهب يريد أن يتصدق بها، جاء بها من أمامه فأعرض عنه، ثم جاءه من يمينه ومن خلفه ومن يساره، والرسول ﷺ يُعرض عنه في كل حال، ثم قال له: «يأتي أحدكم بكل ما عنده يتصدق به، ثم يتكفف الناس؟ أفضل الصدقة ما كان عن ظهر غنى»^(٤) أي: أنه يجب عليه أن يُنفق على نفسه، وولده، وعياله، وأهله، وكل من يجب عليه نفقتهم أولاً، وبعد ذلك يتصدق صدقة التطوع، ومن هنا قال ﷺ فيما يرويه عنه أبو هريرة ؓ: «دينار أنفقته في سبيل الله، ودينار أنفقته في رقة ودينار تصدقت به على مسكين، ودينار أنفقته على أهلك أعظمها أجراً الذي أنفقته على أهلك»^(٥)

قال ابن عباس: ما رأيت قوماً كانوا خيراً من أصحاب محمد ﷺ، ما سألوه إلا عن ثلاث عشرة مسألة حتى قبض، كلهن في القرآن، منهن: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ﴾ [البقرة: ٢١٩] و﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الشَّهْرِ الْحَرَامِ﴾ [البقرة: ٢١٧] و﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْيَتَامَى﴾ [البقرة: ٢٢٠] و﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْمَحِيضِ﴾ [البقرة: ٢٢٢] و﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَنْفَالِ﴾ [الأنفال: ١] و﴿يَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنْفِقُونَ﴾ [البقرة: ٢١٥] ما كانوا يسألون إلا عما ينفعهم^(٦)

والله تعالى يعلم صدقاتكم، ويعلم إخلاصكم ونياتكم، فيجازيكم عليها أضعافاً مضاعفة.

- (١) «المسند» (٤٧١/٢) برقم (٧٤١٩) بإسناد قوي، وأبو داود (٣٢٠/٢) برقم (١٦٩١) والنسائي (٦٢/٢) برقم (٢٣٢٧، ٩١٣٧) في «الكبرى» وابن حبان برقم (٤٢٣٣، ٤٢٣٥، ٧٣٣٧) وفي «موارد الظمان» (٧٢٨) وصححه الحاكم ووافقه الذهبي «المستدرک» (٤١٥/١) والبخاري في «الأدب المفرد» (١٩٧).
- (٢) «صحيح البخاري» برقم (١٤٢٦، ٥٣٥٦) والنسائي في «السنن الكبرى» (٢٣٣٦).
- (٣) «سنن النسائي الكبرى» (٢٣٢٥، ٢٣٢٦) و«المسند» (٧١٥٥، ٩٢٢٣).
- (٤) أخرجه أبو داود والحاكم عن جابر، كما في زيادة الجامع الصغير (٤٢٥٦).
- (٥) «صحيح مسلم» (٩٩٥) والبخاري في «الأدب المفرد» (٧٥١) و«المسند» (١٠١٧٤) والنسائي في «السنن الكبرى» (٩١٣٩) واللفظ لمسلم.
- (٦) أخرجه الدارمي (٥٠/١) والطبراني في «الكبير» (١٢٢٨٨) قال الهيثمي: فيه عطاء بن السائب، وهو ثقة، ولكنه اختلط، وبقي رجاله ثقات، «مجمع الزوائد» (١٥٩/١).

الْحُكْمُ التَّشْرِيعِيُّ الْحَادِي عَشَرَ فِي السُّورَةِ: حُكْمُ الْقِتَالِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ

٢١٦- ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهُ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٢١٦﴾﴾

فرض الله القتال على المسلمين بهذه الآية بعد الهجرة إلى المدينة، بعد أن قوي المسلمون واشتدَّ عودهم، وأخبر سبحانه أن القتال مكروه للنفوس لما فيه من المخاوف، ولكنه في الواقع خير محض، لما فيه من عظيم الثواب والنصر على الأعداء، وهكذا جميع أفعال الخير التي تنكرها النفوس، فهي خير بلا شك، كما أن أفعال الشر التي تحبها النفوس شر بلا شك.

في الصَّحِيحَيْنِ وغيرهما عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ يوم الفتح: «لا هجرة بعد الفتح، ولكن جهادٌ ونيةٌ، وإذا استنفرتم فانفروا»^(١)

وفي الحديث عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «من مات لم يغز ولم يُحدث نفسه بغزو مات على شعبة من نفاق»^(٢)

وعن سهل بن سعد الساعدي مرفوعاً: «لغدوة أو روحة في سبيل الله خير من الدنيا وما فيها»^(٣)

فالجهد ماضٍ إلى قيام الساعة، وإذا احتل العدو جزءاً من أرض المسلمين، كان القتال فرضاً عينٍ على أهل هذه البلاد، ثم من جاورها، ثم من جاورها، وإذا لم يتم النصر إلا بالمسلمين كافة، تعين عليهم جميعاً، ويكون الجهاد بالنفس والمال واللسان، رجالاً ونساءً، شباباً وشيوخاً، كما هو الحال اليوم في فلسطين المحتلة، فالعالم الإسلامي كله أثم حتى تتحرر القدس وفلسطين من الصهاينة المحتلين، والجهاد فرض

(١) البخاري برقم (١٨٣٤، ٢٧٨٣، ٢٨٢٥) ومسلم برقم (١٣٥٣) من حديث ابن عباس، وهو في «سنن النسائي الكبرى» (٧٧٤٤) عن صفوان بن أمية وعبد الرزاق (١٨٩٣٩).

(٢) مسلم (١٩١٠) وأبو داود (٢٥٠٢) و«المسند» (٨٨٦٥) و«سنن النسائي الكبرى» (٤٢٩٠).

(٣) في «صحيح البخاري» برقم (٢٧٩٤، ٤٨٩٢) و«صحيح مسلم» برقم (١٨٨١) ومن حديث أنس في البخاري برقم (٢٧٩٢، ٦٥٦٨) ومسلم برقم (١٨٨٠) بنحوه و«صحيح سنن الترمذي» (١٣٤٥) وابن ماجه (٢٧٥٧).

كفاية في الأوقات العادية؛ لنشر الدَّعْوَة والدَّوْد عن جَمَى الإسلام.

ولما كره المسلمون الشهادة في سبيل الله، وأحبوا الدنيا وأخلدوا إليها؛ فأنفقوا أموالهم على شهواتهم، وبنوا البيوت ولم ينوا الجيوش، واستَوْرَدُوا الإبرة والطائرة، ولم يُسَلِّحُوا أنفسهم؛ ابتلاهم الله سبحانه بالذل، ومكّن منهم عدوهم.

وقد بين الله في هذه الآية أن قتال العدو المحارب في الدين فرض على المسلمين ﴿كَتَبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ﴾ أي: فُرِضَ عليكم أيها المؤمنون قتال الكفار، والقتال غير محبب لكم ﴿وَهُوَ كُرْهُ لَكُمْ﴾ فالنفس تكره القتال؛ لمشقته، ولأن فيه الموت، وفيه ترك لمتاع الدنيا ولذاتها وشهواتها، وهو في الحقيقة خيرٌ لهم، لِمَا فيه من الشهادة والجنة، أو النصر والعزة، فَإِنْ تَرَكْتَهُ الْأُمَّةُ ذَلَّتْ وَهَانَتْ كما بين النبي ﷺ: «يوشك أن تداعى عليكم الأمم كما تداعى الأكلة على قصعتها» قالوا: أمن قلة نحن يومئذ يا رسول الله؟ قال: «بل أنتم يومئذ كثير، ولكنكم غثاء كغثاء السيل، ولينزعن الله من صدور عدوكم المهابة منكم، وليقذفن في قلوبكم الوهن» قالوا: وما الوهن يا رسول الله؟ قال: «حب الدنيا وكراهية الموت»^(١)

فحب الدنيا وشهواتها سبب لإلقاء الوهن في القلوب، وهو من عوامل الضعف والهزيمة، وحب الدنيا سبب لنزع المهابة من صدور الأعداء، وليس كل ما يكرهه الإنسان فيه شر له ﴿وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ﴾؛ لأن القتال عاقبته النصر والظفر والسيادة والتمكين في الأرض، وليس كل ما يحبه الإنسان فيه خير له، ﴿وَعَسَى أَنْ تُحِبُّوا شَيْئًا﴾ لما فيه من الراحة أو اللذة العاجلة، ومنه ترك القتال والجهد في سبيل الله، فهو ﴿وَهُوَ شَرٌّ لَكُمْ﴾؛ لأن فيه الاستيلاء على أرض الإسلام، وفيه الذل والاستعباد، ﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ فبادروا للجهد في سبيل الله، وتمشّوا مع أقدار الله، سواء أسرتكم أم أساءتكم.

وكما كُتِبَ القتال على المسلمين كُتِبَ على مَنْ قبلهم، فقد كُلف بنو إسرائيل بقتال

(١) من حديث ثوبان في «المسند» (٢٢٣٩٧) بإسناد حسن، وأخرجه الطبراني في «الكبير» (١٤٥٣) وأبو نعيم في الحلية (١٨٢/١) وأبو داود (٤٢٩٧) والبيهقي في «الدلائل» (٥٣٤/٦) وفي الشعب (١٠٣٧٢) والبخاري (٤٢٢٤) والطيالسي (٩٩٢) وابن أبي شيبة (٥٣/١٥).

الكنعانيين مع موسى ﷺ، وكُلفوا بالقتال مع طالوت، وكُلف ذو القرنين بتعذيب الظالمين في جهة المغرب.

وكان الجهاد في بدء الإسلام غير مأذون فيه مدة ثلاثة عشر عامًا، ثم أُذن فيه دفاعًا عن النفس بآية سورة الحج: ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَتَلُونَ بِإِثْمِهِمْ ظُلُمًا﴾ [الحج: ٣٩] ثم أمر المسلمون بقتال من بدؤوهم بالقتال في آية سورة البقرة: ﴿وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقَتِّلُونَكُمُ وَلَا تَعْتَدُوا﴾ [البقرة: ١٩٠].

وقد نزلت هذه الآية في سرية عبد الله بن جحش في الشهر السابع عشر من الهجرة، وهي الآية الموجبة للقتال، المؤكدة له.

والآية تقرر أن الله تعالى يُشرّع لخلقه ما فيه صلاحهم وخيرهم.

قال سعيد بن جبير في الآية: إن الله أمر النبي والمؤمنين بمكة بالتوحيد، وإقام الصلاة، وإيتاء الزكاة، وأن يكفوا أيديهم عن القتال، فلما هاجر إلى المدينة نزلت سائر الفرائض، وأذن لهم في القتال، فنزلت: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ﴾ يعني: فرض عليكم، وأذن لهم بعدما كان نهاهم عنه^(١)

وقال ابن شهاب في الآية: الجهاد مكتوب على كل أحد؛ غزا أو قعد، فالقاعد عدة، إن استعين به أعان، وإن استغيث به أغاث، وإن استنفر نفر، وإن استغني عنه قعد^(٢)

ومما جاء في فضل الجهاد:

١- ما صح عن أبي ذر رضي الله عنه أن رجلاً قال: يا رسول الله، أي الأعمال أفضل؟ قال: «إيمان بالله، وجهاد في سبيل الله» قال: فأبي الصدقة أفضل؟ قال: «أنفسها» قال: أفأريت إن لم أجد؟ قال: «فَتُعِين الصانع، وتصنع لأخرق» قال: أفأريت إن لم أستطع؟ قال: «تَدْعُ النَّاسَ مِنْ شِرْكٍ، فَإِنَّهَا صَدَقَةٌ تَصَدَّقُ بِهَا عَلَى نَفْسِكَ»^(٣)

(١) ابن أبي حاتم (٢٠١٢، ٢٠١٦، ٢٠٢٠).

(٢) ابن أبي حاتم (٢٠١٥).

(٣) «المسند» (٢١٣٣١) والبخاري (٢٥١٨) وفي «الأدب المفرد» (٢٢٠، ٣٠٥) ومسلم (٨٤) والنسائي في «السنن الكبرى» (٤٣٣٧) وابن ماجه (٢٥٢٣) والبيهقي في «الشعب» (٤٢٠٨، ٤٣٤٣).

٢- وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «مَثَلُ الْمُجَاهِدِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ - وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَنْ يُجَاهِدُ فِي سَبِيلِهِ - كَمَثَلِ الصَّائِمِ الْقَائِمِ الْخَاشِعِ الرَّكَعِ السَّاجِدِ، وَتَكْفُلُ اللَّهُ لِلْمُجَاهِدِ فِي سَبِيلِهِ أَنْ يَتَوَفَاهُ اللَّهُ فَيَدْخُلَهُ الْجَنَّةَ، أَوْ يَرْجِعَهُ سَالِمًا بِمَا نَالَ مِنْ أَجْرٍ أَوْ غَنِيمَةٍ»^(١)

٣- وعن أبي هريرة أيضًا قال: جاء رجل إلى النبي ﷺ قال: علمني عملاً يعدل الجهاد، قال: «لا أجده» قال: «هل تستطيع إذا خرج المجاهد أن تدخل مسجدًا فتقوم ولا تفتر، وتصوم ولا تفطر» قال: لا أستطيع ذلك^(٢)

٤- وصح عن أبي هريرة أن رجلاً من أصحاب النبي ﷺ مرَّ بِشُعْبٍ فِيهِ عُيَيْنَةٌ مَاءٍ عَذْبٍ، فَأَعْجَبَهُ طَبِيبُهُ، فَقَالَ: لَوْ أَقِمْتُ فِي هَذَا الشَّعْبِ وَاعْتَزَلْتُ النَّاسَ؟ وَلَنْ أَفْعَلَ حَتَّى أَسْتَأْمَرَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ، فَذَكَرَ ذَلِكَ لِلنَّبِيِّ ﷺ فَقَالَ: «لَا تَفْعَلْ، فَإِنْ مُقَامٌ أَحَدَكُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَفْضَلُ مِنْ صَلَاتِهِ فِي أَهْلِهِ سَتِينَ عَامًا، أَلَا تَحِبُّونَ أَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ، وَيَدْخُلَكُمْ الْجَنَّةَ، اغْزَوْا فِي سَبِيلِ اللَّهِ، مَنْ قَاتَلَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فُوقَ نَاقَةٍ (أَي: بِمُقْدَارِ مَا يَعُودُ اللَّبَنُ إِلَى الضَّرْعِ) وَجِبَتْ لَهُ الْجَنَّةُ»^(٣)

٥- وعن أبي عبيد الرحمن بن جبر أن رسول الله ﷺ قال: «مَنْ اغْبَرَّتْ قَدَمَاهُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ حَرَّمَهُمَا اللَّهُ عَلَى النَّارِ»^(٤)

٦- وعن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «إِذَا تَبَايَعْتُمْ بِالْعِينَةِ (وَهِيَ نَوْعٌ مِنَ الرِّبَا) وَأَخَذْتُمْ أَذْنَابَ الْبَقَرِ (أَي: السِّبَاطَ لَجُلْدِ النَّاسِ) وَرَضِيتُمْ بِالزَّرْعِ (أَي: فَضَلْتُمْ الدُّنْيَا عَلَى الْآخِرَةِ وَأَخْلَدْتُمْ إِلَيْهَا) وَتَرَكْتُمُ الْجِهَادَ؛ سَلَطَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ ذُلًّا (أَي: سَلَطَ عَلَيْكُمْ أَعْدَاءَكُمْ) لَا يَنْزِعُهُ عَنْكُمْ حَتَّى تَرْجِعُوا إِلَى دِينِكُمْ»^(٥)

(١) عبد الرزاق في «المصنف» (٩٥٣٠) ومالك (٤٤٣/٢) والبخاري (٢٧٨٧) ومسلم (١٨٧٨) والنسائي (٣١١٤، ٣١٢٧) والبيهقي (٤٢١٥).

(٢) البخاري (٢٧٨٥) والبيهقي في «الشعب» (٤٢١٦).

(٣) «صحيح سنن الترمذي» (١٣٤٨) والبخاري (١٦٥٢) كشف والحاكم (٦٨/٢) والبيهقي في «الشعب» (٤٢٣٠) وإسناده حسن.

(٤) «المسند» (١٥٩٣٥) والبخاري (٩٠٧، ٢٨١١) والترمذي (٦٣٢) والنسائي (٣١١٦).

(٥) «صحيح سنن أبي داود» (٢٩٥٦)، وهو في السنن برقم (٣٤٦٢) وفي السلسلة الصحيحة برقم (١١).

الْحُكْمُ التَّشْرِيعِيُّ الثَّانِي عَشَرَ الْقِتَالُ فِي الْأَشْهُرِ الْحُرْمِ لِإِزَالَةِ الْعَوَاقِبِ مِنْ طَرِيقِ الدَّعْوَةِ

لما كان الأمر بالقتال في الآية السابقة شاملاً للأشهر الحرم، استثنى الله تعالى في هذه الآية، القتال في الأشهر الحرم فقال:

٢١٧- ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَشْهُرِ الْحَرَامِ فَقَالَ فِيهِ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ وَصَدُّ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَكَفْرٌ بِهِ وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِ مِنْهُ أَكْبَرُ عِنْدَ اللَّهِ وَالْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ الْقَتْلِ وَلَا يَزَالُونَ يَقْنَلُونَكُمْ حَتَّى يَرُدُّوكُمْ عَنْ دِينِكُمْ إِنِ اسْتَطَعُوا وَمَنْ يَرْتَدِدْ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ فَأُولَئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٢١٧﴾﴾

حرم الإسلام ابتداء القتال في الأشهر الحرم، وأجاز فيها الدفاع عن النفس والدين والعرض، كما أجاز في البلد الحرام:

جاء عن جندب بن عبد الله وعن ابن عباس والسدي ما معناه: أن سرية مكونة من اثني عشر رجلاً من المهاجرين، أرسلها النبي ﷺ قبل غزوة بدر بشهرين، أمر عليها عبد الله بن جحش ابن عمته؛ لتعرض عيراً لقريش في بطن نخلة بين مكة والطائف، وكان ذلك في اليوم الأخير من شهر جمادى الآخرة، وكتب النبي له كتاباً، قال فيه: «لا تنظر فيه إلا بعد يومين من مسيرك، فإذا نزلت فافتح الكتاب فاقرأه على أصحابك، ثم امض لِمَا أَمَرْتُكَ، ولا تستكرهنَّ أحداً منهم على السير معك».

فسار عبد الله ونزل بعد يومين من مسيره، وفتح الكتاب، فإذا فيه: «بسم الله الرحمن الرحيم، أما بعد: فيسر على بركة الله بمن معك؛ حتى تنزل مكان نخلة فارصد بها عيراً لقريش، لعلك تأتينا منها بخير» فقال: سمعاً وطاعة، ثم قال لأصحابه: مَنْ كان يريد الشهادة فليَنطلق، وَمَنْ كان يكرهها فليرجع، ثم مضى ومعه أصحابه، فاعترضوا هذه العير، وقتلوا عمرو بن الحضرمي، وأسروا اثنين هما: (الحكم بن كيسان، وعثمان بن عبد الله)، ولم يدروا ذلك اليوم، أَمِنْ رجب هو أم من جمادى الآخرة؟ فأخذ المشركون ينالون من الإسلام، ويقولون: إن محمداً يقاتل في الأشهر الحرم^(١) ويسلب ويأسر فيها الخ

(١) تنظر: «سيرة ابن هشام» (١/٦٠٥) و«تفسير الطبري» (٣/٦٥٤) وفي تاريخه (٢/٣١٤) وابن أبي حاتم (٢٠٢٢، ٢٠٤٠) والطبراني (١٦٧٠) والبيهقي في «السنن» (٩/١١) قال الهيثمي: رجاله ثقات، «مجمع الزوائد» (٦/١٩٨)، وانظر: «الدر المثور» (٢/٥٣٤-٥٤٤).

يقصدون بذلك: شهر رجب، والقتال محرم فيه.

وكان المسلمون قد قاتلوا على أنه اليوم الأخير من شهر جمادى الآخرة، والقوم يعتقدون أنه اليوم الأول من شهر رجب، فأخذ المسلمون يتساءلون: هل أصبنا رجب أم نحن في جمادى؟ فأنزل الله تعالى: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الشَّهْرِ الْحَرَامِ فَقَالَ فِيهِ قُلٌّ فِيهِ كِبِيرٌ﴾ ووجه الله المسلمين في الرد عليهم.

ولما نزلت الآية أرسل عبد الله بن جحش إلى مؤمني مكة يقول لهم: إن غيركم المشركون بالقتال في الشهر الحرام، فغيروهم بالكفر، وبإخراج رسول الله من بلده، ومنعهم إياه من دخول البيت الحرام.

فرد المسلمون على القائلين لهم: استحللتم الشهر الحرام؛ بأن القتال في الشهر الحرام ذنب كبير، ولكنكم فعلتم ما هو أكبر من القتال في الشهر الحرام، وهو صدكم الناس عن سبيل الله، وكفركم بالله ورسوله، وإخراج أهل مكة منها، وفتنتم الناس في دين ربها، وفتنة الناس عن دينها أكبر وأعظم من القتال في الشهر الحرام.

وهذا الرد مكوّن من ست جرائم كل جريمة منها أشد من القتال في الشهر الحرام:

الأولى: أن استحلال القتال وسفك الدماء في الشهر الحرام ذنب عظيم عند الله تعالى ﴿قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كِبِيرٌ﴾، وقاتل المسلمين في الشهر الحرام حال حدوثه يكون لنصرة الإسلام وإذلال الكفر.

الثانية: أن منع الناس من الدخول في الإسلام بالتخويف والتعذيب أعظم ذنبًا من القتال في الأشهر الحرم ﴿وَصَدُّ عَنِ سَبِيلِ اللَّهِ﴾. أي: صد المشركين لمن يريد الإيمان بالله ورسوله ذنب عظيم.

الثالثة: أن الكفر بالله ورسوله بجحود وحادية الله تعالى، وإنكار الرسالة الخاتمة - أعظم جرماً من القتال في الشهر الحرام، ومن منع الناس عن الدخول في الإسلام ﴿وَكُفْرًا بِهِ﴾ أي: وكفرهم الحاصل في الشهر الحرام والبلد الحرام، شر في حد ذاته.

الرابعة: أن منع المسلمين من دخول المسجد الحرام في الحج والعمرة ذنب عظيم، قال تعالى عطفًا على الصد عن سبيل الله: ﴿وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ﴾ أي: وصد الناس عن

المسجد الحرام، ذنب عظيم في حد ذاته، وليس المراد: وكفر بالمسجد الحرام؛ لأن أهل مكة كانوا يعظمونه، فالعطف على ما قبله الذي هو ﴿وَصَدَّ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ﴾.

الخامسة: أن إخراج النبي ﷺ والمهاجرين من الحرم، وهم أهله وأولياؤه أعظم ذنبا وأكبر جرماً من القتال في الشهر الحرام ﴿وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِ مِنْهُ أَكْبَرُ عِنْدَ اللَّهِ﴾، لأنهم أحق به من المشركين، وهم عُمّاره على الحقيقة، مع أن هذا البيت يستوى فيه العاكف والباد.

السادسة: أن فتنة الناس عن دينهم؛ بتعذيبهم وقتلهم وتخويفهم وإلقاء الشبهات عليهم لحملهم على ترك عقيدتهم - أكبر وأشد من القتل في الشهر الحرام، فالمراد بالقتل في الآية: هو القتل الذي حدث لرجل منهم هو عمرو بن الحضرمي ﴿وَالْفِتْنَةُ﴾ أي فتنة الناس عن دينهم ﴿أَكْبَرُ مِنَ الْقَتْلِ﴾.

وفي هذا رد على من عاب على المسلمين القتال في الشهر الحرام، وبيان أن فتنة الناس في دينها أعظم من ذلك.

والأشهر الحرم هي: رجب وذو القعدة وذو الحجة ومحرم، وحرمة القتال فيها كان مقرراً لدى العرب قبل الإسلام، ولم يطله الإسلام؛ لأنه من المصالح، ففيه تأمين سبيل الحج والعمرة ذهاباً وإياباً، وهذا يستغرق الأشهر الثلاثة المتوالية، أما شهر رجب فقد كان من عادة أهل الجاهلية الإكثار من العمرة فيه.

والإسلام يحرم القتال ظلماً وعدواناً في كل وقت، أما القتال لرد العدوان، أو لإزالة العوائق أمام نشر الدعوة فهو عبادة، ولذلك فقد نسخ الإسلام حرمة القتال في الأشهر الحرم، وبقيت حرمة الشهر قائمة بالنسبة لسائر الجرائم والذنوب كما قال تعالى: ﴿فَلَا تَظْلِمُوا فِيهِنَّ أَنْفُسَكُمْ﴾ [التوبة: ٣٦] أي: بالمعاصي والذنوب؛ ولذلك فإن النبي ﷺ غزا هوازن وثقيفاً، وأرسل بعض أصحابه إلى حنين، بدءاً من شهر شوال، واستمر حتى شهر ذي القعدة وهو من الأشهر الحرم.

فتنة الناس في الأشهر الحرم:

عن يحيى بن أبي زائدة، عن محمد بن إسحاق، عن الزهري قال: بعث رسول الله ﷺ عبد الله بن جحش ومعه نفر من المهاجرين؛ فقتل عبد الله بن الحضرمي في آخر يوم من

جمادى، وأسرُوا رجلين، واستاقوا العير، فوقف على ذلك النبي ﷺ وقال: «لم آمركم بالقتال في الشهر الحرام» فقالت قریش: استحل محمد الشهر الحرام؛ فنزلت الآية إلى ﴿وَالْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ الْقَتْلِ﴾.

وكان المشركون يَفْتِنُونَ المؤمنين عن دينهم؛ بإيذائهم، وتعذيبهم، وإلقاء الشبهات عليهم، كما فعلوا بعمار بن ياسر وعشيرته، وبلال، وصهيب، وخباب بن الأرت، وغيرهم.

١- فكان عَمَّارٌ يُكْوَى بالنار؛ ليرجع عن دينه، وكان يُلبس درعًا من حديد يُعَذِّب به في شدة الحر، وكان النبي ﷺ يَمُرُّ به ويرى آثار النار به كالبرص، ويقول: «صبرًا آل ياسر، فإن موعدكم الجنة»^(١)، وقد مات ياسر بالعذاب.

٢- وأُعْطِيَتْ سمية - أم عمار - لأبي جهل، فعَذَّبها عذابًا شديدًا؛ لترجع عن الإسلام، فلم تُجِبْه، وكانت كبيرة عجوزة، فطعنها أبو جهل بحربة في فرجها فماتت . ﷺ

٣- وكان أمية بن خلف يعذب بلالًا؛ ليفتنه عن دينه، فكان يجوِّعه ويعطشه يومًا وليلة، ثم يطرحه على ظهره في الرَّمْضَاءِ، ويضع على ظهره صخرة عظيمة، ويقول له: لا تزال هكذا حتى تموت، أو تكفر بمحمد، وتعبد اللات والعزى، وكانوا يعطونه للصبية فيربطونه بحبل ويطوفون به شُعب مكة، وهو يقول: أَحَدٌ، أَحَدٌ.

٤- ويقول خباب: لقد رأيتني يومًا، وقد أوقدت نار ووضعوها على ظهري فما أطفأها إلا ودك (دهن) ظهري.

هذه أمثلة من فتنة المشركين لضعفاء المسلمين في دينهم، وما امتنع منهم إلا مَنْ له عصبية من قومه، فمنعوه حمية لقربته.

ولم يَسْلَمْ مِنْ أذاهم أحد حتى رسول الله ﷺ، فقد وضعوا على ظهره كرش بغير مملوء بالفرث وهو يصلي، وخاف أصحابه أن يُنَحِّوْهُ عنه، حتى نَحَّته فاطمة . ﷺ

ولما هاجر المسلمون إلى المدينة تعقبوهم بالقتال في مهجرهم؛ ليفتنوهم عن دينهم أيضًا.

لذا: كان القتال في الأشهر الحرم أهون من الفتنة عن اعتناق الإسلام، وكان القتال في

(١) ينظر: كنز العمال، المنجلد الثالث عشر، باب فضائل الصحابة، والبغوي والجامع الصغير (٣٧٣٦٧).

الشهر الحرام لصالح الدَّعْوَةِ، ردًّا للعدوان، وإزالة للعقبات المانعة من وصولها إلى الناس، من أسباب القتال فيه لقوله تعالى: ﴿وَلَا تَقْتُلُوهُمْ عِنْدَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ حَتَّى يُفْتَلُوهُمْ فِيهِ فَاِن قَتَلْتُمْ فَأَقْتُلُوهُمْ كَذَلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ﴾ [البقرة: ١٩١].

وقوله سبحانه: ﴿فَاَقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ وَخُذُوهُمْ وَأَحْضُرُوهُمْ وَأَقْعُدُوا لَهُمْ كُلَّ مَرْصِدٍ﴾ [التوبة: ٥].

وقوله جَلَّ شَأْنُهُ: ﴿وَقَتِّلُوا الْمُشْرِكِينَ كَافَّةً كَمَا يُقْتَلُونَكُمْ كَافَّةً﴾ [التوبة: ٣٦]

يعني: في الأشهر الحرم وغيرها، وقتلهم جميعًا إذا قاتلوكم جميعًا.

وكان في هذه السرية أول قتل من المشركين، وأول أسيرين منهم، وكان فيها أول غنيمة في الإسلام، وأول خُمُسٍ من الغنائم قُسم في الإسلام، وقد أسلم الحكم بن كيسان، ومات شهيدًا في بئر معونة، ومات عثمان بن عبد الله كافرًا في مكة.

ثم قرر ﷺ حقيقة أمر الكفار إلى يوم القيامة في قوله: ﴿وَلَا يَزَالُونَ يُقْتَلُونَكُمْ﴾ أي: إنهم لن يتردعوا عن جرائمهم، بل هم مستمرّون عليها ﴿حَتَّى يَرُدُّوكُمْ عَنْ دِينِكُمْ إِنِ اسْتَطَعُوا﴾، وهذه هي غايتهم وهدفهم من قتال المسلمين في كل عصر ومصر، فلا تغفلوا عن ذلك كما قال تعالى: ﴿وَلَنْ تَرْضَى عَنْكَ الْيَهُودُ وَلَا النَّصَارَى حَتَّى تَبِيعَ بِلْتَمِهِمْ﴾ [البقرة: ١٢٠] وقال سبحانه: ﴿وَرُدُّوا لَوْ تَكْفُرُونَ كَمَا كَفَرُوا فَتَكُونُونَ سَوَاءً﴾ [النساء: ٨٩] وقال جلَّ شأنه: ﴿وَمَنْ يَرْتَدِدْ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ﴾ طاعة لهم ﴿فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ فَأُولَٰئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ﴾ وهذا مرتب على أمرين هما: الردة، والموت على الكفر.

بخلاف مَنْ عمل في الجاهلية عملاً صالحاً؛ فيبقى له صالح عمله بعد إسلامه، كما قال ﷺ لحكيم بن حزام: «أسلمت على ما أسلفت عليه من الخير»^(١).

والمرتد يُستتاب ثلاثة أيام ويسجن، فإن تاب وإلا قُتل كفراً، أما مَنْ لم يدخل في الإسلام أصلاً فإنه لا يعاقب و حساب به عند ربه.

و من كانت له أعمال صالحة قبل إسلامه فإنه لا يحرم الأجر بعده كما سبق.

(١) ينظر: مسند الإمام أحمد برقم (٥٣١٩) بإسناد صحيح على شرط الشيخين وأخرجه مسلم (١٢٣، ١٩٤) والطبراني في الكبير (٣٠٨٧) وأبو عرانة (٧٢/١) وانظر الجامع الصغير (١٠٢٩).

والمعنى: ومن يرجع منكم عن الإسلام إلى الكفر حتى يموت عليه؛ فهذا هو المرتد الذي بطلت أعماله في الدارين وبطل ثوابه، وكأنه لم يعمل صالحاً قط، فهو لا ينتفع بأعمال الإسلام في دنياه، ولا في آخره؛ لأن الرجوع عن الدين رجوع عن أصوله الأساسية وهي:

١- الإيمان بالله وحده. ٢- والإيمان باليوم الآخر، وما فيه من عالم الغيب.

٣- والعمل الصالح الذي ينتفع به صاحبه، وينفع الناس.

فهذه الأصول الثلاثة جاء بها كل نبي مرسل، لا يتركها إنسان بعد معرفتها والأخذ بها، إلا إذا كان منكوساً عن دينه لا حظ له فيه ﴿وَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾. فقد ترتب على الكفر أمران: بطلان فضل الأعمال الصالحة، والعقوبة بالخلود في النار.

مَدَارُ الْعِبَادَةِ وَعُنْوَانُ السَّعَادَةِ:

٢١٨- ﴿إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَتَ اللَّهِ^(١) وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾

هذه ثلاثة أعمال هي عنوان السعادة، وعليها مدار العبادة، وبها يُعرف الربح والخسران، وهي: الإيمان والهجرة والجهاد:

١- أما الإيمان فهو الفاصل بين أهل السعادة وأهل الشقاء، وأهل الجنة وأهل النار، وإذا وُجد الإيمان قُبلت جميع أعمال الخير، وإذا غُدم لم يُقبل من العبد صَرف ولا عدل ولا فرض ولا نفل.

٢- أما الهجرة، فهي مفارقة الأهل والمال والوطن، تقرباً إلى الله تعالى، ونصرة لدينه، وكذا هجرة المعاصي والذنوب طلباً لمرضاة الله تعالى.

٣- أما الجهاد، فهو جهاد النفس والهوى والشيطان، وجهاد العدو ودفع الصائل، وهو ذروة سنام الإسلام، وجزاؤه أفضل الجزاء.

(١) وقف ابن كثير وأبو عمرو والكسائي ويعقوب على (رحمت) بالهاء، وهي لغة فصحي، ووقف الباقر بالتاء موافقة لرسم المصحف.

فمن حقق هذه الثلاث، فقد أتى بالأسباب الموجبة لرحمة الله تعالى، ومغفرة الذنوب وستر العيوب، وإذا حصلت المغفرة اندفعت عقوبات الدنيا والآخرة، وإذا حصلت الرحمة تحقق كل خير في الدارين.

قال قتادة: أثنى الله على أصحاب رسول الله ﷺ (أهل هذه السرية) أحسن الثناء، فبين أنهم يرجون رحمة الله بإيمانهم وهجرتهم وجهادهم، وهؤلاء هم خيار الأمة، ثم جعلهم أهل رجاء في رحمة ربهم وعظيم أجره.

وعن جندب بن عبد الله: أنه لما كان من أمر عبد الله بن جحش وأصحابه ما كان؛ قال بعض المسلمين: إن لم يكونوا أصابوا في سفرهم وزراً فليس لهم أجر.

وقيل: إن أصحاب السرية قالوا: يا رسول الله، هل نؤجر على هذا، ونطمع أن يكون لنا أجر غزوة؟ فأنزل الله الآية، وهي تفيد أن عبد الله بن جحش لا عتاب عليه فيما فعل، وأنه كان مؤمناً ومهاجراً، وبسبب هذه السرية كان مقاتلاً مجاهداً، فبين سبحانه أن هؤلاء الذين صدقوا الله ورسوله، وعملوا بشرعه، وتركوا ديارهم، وجاهدوا في سبيله، وهم يطمعون في رحمة الله وثوابه، فالله تعالى غفور لذنوب عباده المؤمنين، رحيم بهم رحمة واسعة.

الْحُكْمُ الثَّالِثُ عَشَرَ: التَّدْرِجُ فِي تَحْرِيمِ الْخَمْرِ

٢١٩- ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَا (١) إِثْمٌ كَبِيرٌ (٢) وَمَنْفَعٌ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَا أَكْبَرُ مِنْ نَفْعِهِمَا وَيَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنْفِقُونَ (٣) قُلِ الْعَفْوَ (٤)﴾ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ

(١) ضم الهاء من (فيهما) يعقوب، وكسرهما الباقون.

(٢) قرأ حمزة والكسائي (إثم كثير) بالثاء المثناة، والكثرة باعتبار الآثمين من الشاربين والمقامرين، وقرأ الباقون (إثم كبير) بالباء الموحدة؛ أي: إثم عظيم، وضم الهاء من (فيهما إثم) يعقوب، وكسرهما غيره.

(٣) عد! لفظ (ينفقون) آية، المصحف المكي والمدني الأول، وتركها من العدد بقية المصاحف: المدني الأخير والشامي والبصري والكوفي.

(٤) قرأ أبو عمرو (قل العفو) بالرفع، على أن (ما) استفهامية، و(ذا) اسم موصول، فوقع جوابها مرفوعاً، وهو خبر لمبتدأ محذوف؛ أي: الذي ينفقونه العفو، وقرأ الباقون بالنصب، على أنه منقول مقدم؛ أي: أنفقوا العفو.

لَمَلَّكُمْ تَنْفَكُونَ^(١)

في النصف الأول من ربع ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ﴾ أربعة أسئلة وُجِّهَتْ إلى النبي ﷺ، فسورة البقرة من أوائل ما نزل على النبي ﷺ في المدينة المنورة، وقد كان الصحابة يتحرَّون ويتأكدون قبل أن يفعلوا شيئاً حتى يسألوا رسول الله ﷺ عن حكم هذا الشيء؛ مخافة أن يكون من عمل الجاهلية، كسؤالهم عن حكم القمار، وهو أخذ المال أو إعطاؤه بالمقامرة؛ أي: المغالبة عن طريق الميسر الذي فيه عوض من الطرفين.

ومن بين هذه الأسئلة سؤالهم النبي ﷺ عن الخمر شرباً وبيعاً وشراءً وتعاطياً.

والخمر: كل ما خامر العقل فستره أو غطاه، مأكولاً أو مشروباً، يسألونك عن حكم الخمر شرباً وبيعاً وشراءً، قال سبحانه: ﴿قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ﴾ أي: أضرار ومفاسد كثيرة في الدين والدنيا، وفي العقول والأموال، والصد عن ذكر الله وعن الصلاة والعداوة والبغضاء، وهذا أكبر من كسب المال المحرم عن طريق الخمر والقمار وفي هذا زجر للنفوس عنهما، لأن العاقل يرجح ما ترجحت مصلحته، ويتجنب ما ترجحت مضرته، وهذه الآية مقدمة للتحريم النهائي.

وبينت آية سورة المائدة أن هذا الإثم الكبير هو إيقاع العداوة والبغضاء بين الناس، والصد عن ذكر الله وعن الصلاة.

وفي قراءة (إثم كثير) بالثاء المثلثة؛ أي: للشاربين الآثمين من تعاطيها وبالتخاصم والتشاتم وقول الفحش والزور والجناية على العقل، ﴿وَمَنْعُ النَّاسِ﴾ بالتجارة وكسب المال بلا تعب ولا مشقة، وكانوا يتاجرون بها في رحلتي الشتاء والصيف، وبيعونها بثمن أكبر في الحجاز واليمن والشام.

فالمنافع هي أثمان الخمر قبل تحريمها، أما بعد تحريمها فكل ما حُرِّمَ أكله أو شربه حُرِّمَ ثمنه، ﴿وَإِنَّهُمَا أَكْبَرُ مِنْ نَفْعِهِمَا﴾ لأنهما يصدان عن ذكر الله وعن الصلاة، ويوقعان العداوة والبغضاء بين الناس، ويُثْلِفان المال والعقل، وكان هذا تمهيداً لتحريمهما حرمة قطعية.

(١) عدّ كلمة (تفكرون) آية، المصحف الشامي والمدني الأخير والكوفي، وليست بآية في بقية المصاحف.

وهذه الآية هي الثانية من الآيات الأربع التي نزلت في تحريم الخمر على سبيل التدرج، ذلكم أن الإسلام كان إذا حَرَّمَ أمراً اعتقادياً كالشرك بالله مثلاً فإنه يُحرّمه دَفْعَةً واحدة، ولا يتدرج فيه، فإذا حرم أمراً عملياً أَلَفَ الناس واعتادوه، وظلوا عليه وقتاً طويلاً، فإنه يتدرج معهم في تحريمه، ومن ذلك الرِّبَا والخمر، وقد نزل في تحريم الخمر أربع آيات في مراحل أربع:

الآية الأولى: نزلت في مكة من سورة النحل، مع أن الحلال والحرام نزل تشريعُه بعد الهجرة في المدينة، فمن فَجَّر الدَّعْوَةَ حرم الإسلام الخمر بطريقة غير مباشرة، فيها إشارة إلى ذمها، وأن الإسلام يبيغضها، قال سبحانه: ﴿وَمَنْ ثَمَرَتْ النَّخِيلُ وَالْأَعْنَابُ لَنُخَذِّقَنَّ مِنْهُ سَكْرًا﴾ ما يُسَكِّر وهو الخمر ﴿وَرَزَقًا حَسَنًا﴾ [النحل: ٦٧].

فالله سبحانه وصف الرزق بأنه حسن؛ فأثنى عليه، وسكت عن الخمر، وفي هذا تعريض بالذم غير مباشر.

وقد بين عمر رضي الله عنه وهو على منبر رسول الله ﷺ أن الخمر تؤخذ من خمس: العنب، والتمر، والعسل، والحنطة، والشعير، وكل ما خامر العقل فهو حرام^(١).

وفي الآية ذكر للتمر والعنب، وكان الخمر يُتخذ منهما غالباً، وهذا أولى من أن يكون المراد بلفظ (سكر) الشيء الحلو، وهذه هي المرحلة الأولى في تحريم الخمر، وكانت الخمر عادة لسائر الناس، شائعة منتشرة كشراب الماء.

والآية الثانية: هي هذه الآية من سورة البقرة، وقد سأل جُمع من الصحابة فيهم عمر بن الخطاب ومعاذ بن جبل رضوان الله عليهم أجمعين، سألوا رسول الله ﷺ عن حُكم الخمر، قالوا: يا رسول الله، إنها مُذهِبةٌ للعقل، مُسْلِيةٌ للمال^(٢).

أي: أن فيها ذهاب للعقل، وضياع المال، وهلاك للبدن والدين.

وسألوه أيضاً عن الميسر؛ وهو القمار، وسمي كذلك؛ لأنه كسب للمال ييسر وسهولة،

(١) يُنْظَرُ الحديث في «سنن أبي داود» (٣٦٦٩)، وهو في صحيح سنن أبي داود (٣١١٦) وصحيح سنن الترمذي (١٩٥٢).

(٢) يُنْظَرُ الحديث عند ابن أبي شيبة (١١٢/٧)، وعند أحمد في المسند.

بلا كَد ولا تعب، حيث يكون الكسب فيه عن طريق القرعة، ولعب الورق والنرد والشطرنج، وفيه ضياع للمال، وضياع للوقت، وترك للواجبات والمستحبات، وإيغار للصدور، وإيقاظ للفتن، وفيه أكل للمال بالباطل.

ويشمل الميسر: كل ما فيه مغالبة بين طرفين على عوض، سوى مسابقات الخيل والإبل والسهام فقد أباحها الشرع لأنها تعين على الجهاد.

ولما سأل الصحابة عن تعاطي الخمر والميسر أمر الله رسوله بالجواب ﴿قُلْ﴾ لهم يا محمد: ﴿فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ﴾ وذنب عظيم، وفيهما منافع دنيوية بالتجارة، ولكنه كسب حرام غير مشروع، وكل ما حرمه الإسلام حَرَّمَ بيعه وشراءه والتعامل فيه، وحَرَّمَ أن يُتخذ حرفة ومهنة.

وفي الخمر نشوة الشرب ولذته وذهاب العقل والمال والفرح والطرب، وكل ذلك حرمه الإسلام، وأيُّ مال يأتي عن طريق حرام يحرم الانتفاع به، فكل جسم نبت من سُحت فالنار أولى به.

والنبي ﷺ قال في شأن التي تزني وتتصدق بما تجمعهُ من الزنى فتطعم الأيتام من كد فرجها: «ليتها لم تزني ولم تتصدق».

والمال الذي يأتي من هذا الطريق لا يفيد الأمة في شيء، بل يفسدها، ويكون وبالاً ودماراً عليها، وعاقبته وخيمة؛ لأنها تستحل ما حرم الله، فاستخدامه في التسليح ضد العدو من شأنه أن يجلب الهزيمة، واستخدامه في مصالح الأمة من شأنه أن يضرها ويفسد أجيالها، واقتصاد البلاد التي يدخلها الرُّبا والخمر والميسر والملاهي ونحو ذلك، فهو اقتصاد مدمر للعباد، يحمل في طياته فساد الشباب وهزائم البلاد، وليس في الخمر منافع بدنية، فالخمر ضارة ومهلكة للعقل والبدن، ولم يجعل الله شفاء الأمة فيما حَرَّمَ عليها، وما سميت خمرًا إلا لأنها تخمر العقل؛ أي: تغطيه وتهلكه وتفسده، وتجعل الإنسان مساويًا للحيوان؛ ثم قال تعالى: ﴿وَمَنْفَعٌ لِلنَّاسِ﴾ أي: منافع دنيوية؛ بالتجارة قال تعالى: ﴿وَإِنَّهُمَا أَكْبَرُ مِنْ نَفْعِهِمَا﴾.

قال علي عليه السلام: لو وقعت قطرة في بئر فُبُنيت مكانها منارة لم أؤذن عليها، ولو وقعت في

بحر ثم جفّ ونبت فيه الكلال لم أرعه.

الآية الثالثة: قوله سبحانه من سورة النساء: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَقْرُبُوا الصَّلَاةَ وَأَنْتُمْ سُكَرَىٰ حَتَّىٰ تَعْلَمُوا مَا تَقُولُونَ﴾ [النساء: ٤٣] لما نزلت هذه الآية كانوا لا يشربونها عند الصلاة فإذا صلوا العشاء شربوها، فما يأتي الظهر حتى يذهب عنهم السكر، ثم إن ناسًا شربوها فقاتل بعضهم بعضًا، وتكلموا بما لا يرضي الله من القول؛ فأنزل الله آية المائدة.

وكان عبد الرحمن بن عوف رضي الله عنه قد دعا جماعة فطعمهم وسقاهم، فشربوا وسكروا، فأثم بعضهم في صلاة المغرب، وقرأ في صلاته: ﴿قُلْ يَتَأْتِيهَا الْكُفْرُونَ﴾ (أعبد ما تعبدون)، بحذف ﴿لَا﴾ فأنزل الله سبحانه هذه الآية يمنع المسلم أن يقرب الخمر في أوقات الصلوات الخمس، والصلاة تتخلل الليل والنهار، فكان منادي النبي ﷺ بعد نزول هذه الآية إذا قامت الصلاة ينادي: لا يقربن الصلاة سُكاري؛ فكانوا بعد نزول هذه الآية يشربون الخمر بعد العشاء وبعد الصبح.

الآية الرابعة: دعا عثمان بن مالك جماعة، فيهم سعد بن أبي وقاص، وشوى لهم رأس بعير، فأكلوا وشربوا الخمر، فلما سكروا، تخاصموا وتضاربوا، فقال عمر رضي الله عنه: اللهم أنزل علينا في الخمر بيانًا شافيًا؛ فأنزل الله سبحانه الآية الأخيرة في تحريم الخمر من سورة المائدة: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنْصَابُ وَالْأَزْلَمُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ (٩٠) إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُوقِعَ بَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ فِي الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَعَنِ الصَّلَاةِ فَهَلْ أَنْتُمْ مُنْتَهُونَ﴾ [المائدة: ٩٠، ٩١].

فلما نزلت هذه الآية قال أصحاب النبي ﷺ وفيهم عمر: انتهينا ربنا انتهينا^(١)

وكان ذلك بعد غزوة الأحزاب بأيام، وتركوا الخمر من فورهم: ﴿إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ الْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَنْ يَقُولُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا﴾ [النور: ٥١].

وشارب الخمر يُقام عليه الحد في الدنيا، ثمانون جلدة، ويكون فاسقًا إن اعتقد حرمتهما

(١) يُنظر: أبو داود برقم (٣٦٧٣) وفي صحيح سنن أبي داود (٣١٢٠) والترمذي برقم (٣٠٤٩) و«سنن النسائي» (٢٨٦/٨) و«المستدرک» (٢٧٨/٢) وصححه أحمد شاكر في «المستدرک» برقم (٣٧٨) وصححه الألباني في «صحيح الترمذي».

وَشَرِبَهَا، فَإِنْ اسْتَحْلَاهَا كَفَّرَ، وَمَنْ مَاتَ وَلَمْ يَتَبَّ مِنْهَا؛ فَإِنَّهُ يُحْرَمُ مِنْ شَرِبِهَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ، بَلْ يَشْرَبُ مِنْ طِينَةِ الْخَبَالِ، وَهِيَ غُصَّارَةُ أَهْلِ النَّارِ وَصَدِيدُهُمْ، وَلَا تُقْبَلُ صَلَاتُهُ أَرْبَعِينَ يَوْمًا وَكُلُّ مَسْكِرٍ خَمْرٍ، وَكُلُّ خَمْرٍ حَرَامٌ .

والخمر والإيمان لا يجتمعان في قلب مؤمن في وقت واحد، وما أسكر كثيره فقليله حرام.

وفي وقت تحريم الخمر لم تكن هناك إذاعات ولا صحف ولا وسائل إعلام؛ لتبليغ الناس، إنما كانت الدَّعْوَةُ شخصية مباشرة، فلما نزلت آية تحريم الخمر خرج بعض الصحابة ينادون في شوارع المدينة: ألا إن الخمر قد حُرِّمَتْ، ألا إن الخمر قد حرمت، وكانت الخمر تُصنع في البيوت، ويألفونها بشدة وغزارة، وكانت تدار كُؤوسها في جميع المجالس وقت نزول الآية، فلما سمعوا داعي الله: ألا إن الخمر قد حُرِّمَتْ، قاموا من فورهم وسكبوا كُؤُوسها في الشوارع، حتى سالت شوارع المدينة من الخمر، وأُريقَتْ فيها، ولم يَتَكَلَّفِ الْإِسْلَامُ والمسلمون في تحريم الخمر أكثر من هذا النداء بالصوت المجرد، فَسُكِبَتْ فِي أَرْقَةِ الْمَدِينَةِ.

فِي الصَّحِيحَيْنِ وَغَيْرِهِمَا عَنْ أَنَسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: مَا كَانَ لَنَا خَمْرٌ غَيْرَ فَضِيخِكُمْ، وَإِنِّي لَقَائِمٌ أُسْقِي أَبَا طَلْحَةَ وَأَبَا أَيُّوبَ وَفُلَانًا وَفُلَانًا، إِذْ جَاءَ رَجُلٌ فَقَالَ: حُرِّمَتْ الْخَمْرُ، فَقَالُوا: أَهْرَقْ هَذِهِ الْقَلَالِ يَا أَنَسُ، فَمَا سَأَلُوا عَنْهَا، وَمَا رَاجَعُوهَا بَعْدَ خَبَرِ هَذَا الرَّجُلِ^(١).

(والفضيخ: شراب يتخذ من بُسْر مطبوخ).

فلم يقولوا عند تركهم للخمر: نعقد مؤتمرًا، ونأخذ الأصوات، هل نمنعها أم لا؟ فالخمر محرمة في اليهودية، وفي النصرانية، وفي جميع الشرائع الإلهية، وما حرمه الله لا يُؤخذ فيه رأي أحد من البشر، فهذا جهل فاضح، ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ﴾ [الزمر: ٦٧] حينما يطرحون قضية الخمر وأمثالها على الأمة، أو على ممثلها؛ ليقولوا رأيهم فيما حرم الله ورسوله؛ إذ ليس لأحد في هذا رأي، فلا اجتهاد مع النص، ولا رأي لأحد فيما قَطَعَ فيه الشرع بحكم، فلا شورى ولا ديمقراطية فيما نص عليه الشرع، كيف هذا وقد حرمه رب العالمين؟! فليس للناس رأي فيه، وإن قالوا: إنه يُؤثِّرُ عَلَى اقْتِصَادِ الْبِلَادِ، وإنه مورد من

(١) البخاري برقم (٢٤٦٤، ٤٦١٧) ومسلم (١٩٨٠).

موارد الأموال، ولوازم السياحة أو غير ذلك، فبُست الموارد المحرمة المفسدة للأمة ولشبابها، وإن كان الناس في أمس الحاجة إليها.

وقد لعن الإسلام في الخمر عشرة: «عاصرها، ومعتصرها، وشاربها، وساقها، وحاملها، والمحمولة إليه، وبائعها، ومبتاعها، وواهبها، وآكل ثمنها»^(١).

وكل ما يتعلق بالخمر حرّمه رب العالمين بقوله: ﴿فَاجْتَنِبُوهُ﴾ وهو أبلغ من (اتركوه) أو (هي حرام)؛ لأن (اجتنبوه) معناها: كونوا في جانب وهي في جانب آخر، فالذي يجانب الصواب يخالفه، والشخص الأجنيبي عن المرأة هو الذي لا يحل له الخلوة بها وهكذا.

ولما قال تعالى: ﴿فَهَلْ أَنْتُمْ مُنْهَوْنَ﴾ قال الصحابة من فورهم: انتهينا يا رب.

وجاء في مراحل تحريم الخمر أن عمر رضي الله عنه قال: اللهم بين لنا في الخمر بياناً شافياً، فإنها تذهبُ بالمال والعقل، فنزلت: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنْفَعٌ لِلنَّاسِ﴾ فدُعي عمر فقرئت عليه فقال: اللهم بين لنا في الخمر بياناً شافياً؛ فنزل قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْرَبُوا الصَّلَاةَ وَأَنْتُمْ سُكَرَى حَتَّى تَعْلَمُوا مَا تَقُولُونَ﴾ [النساء: ٤٣] فكان منادي رسول الله ﷺ إذا أقام الصلاة نادى: أن لا يقربن الصلاة سكران، فدُعي عمر فُقرئت عليه؛ فقال: اللهم بين لنا في الخمر بياناً شافياً؛ فنزلت الآية التي في المائدة، فدُعي عمر فُقرئت عليه، فلما بلغ ﴿فَهَلْ أَنْتُمْ مُنْهَوْنَ﴾ قال عمر: انتهينا، انتهينا^(٢).

وعن نافع عن ابن عمر رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «كل مسكر خمر، وكل مسكر حرام، ومن شرب الخمر في الدنيا فمات وهو يذمُّها ولم يتب، لم يشرئها في الآخرة»^(٣) وسئل النبي ﷺ عن البُتْعِ، وهو شراب العسل فقال: «كل شراب أسكر فهو حرام»^(٤).

(١) أخرجه الترمذي عن أنس برقم (١٠٠٤١) في «صحيح سنن الترمذي» و«صحيح سنن ابن ماجه» (٣٣٨١) وغيرهما.

(٢) «المسند» (٣٧٨) بإسناد صحيح ورجال ثقات عن عمر رضي الله عنه وأبو داود (٣٦٧٠) و«صحيح سنن أبي داود» (٣١١٧) والترمذي (٣٠٤٩) والنسائي (٥٥٥٥) والضياء المقدسي في «المختارة» (٢٥٦) وابن أبي شيبة (١١٢/٧) والحاكم (٢٧٨/٢). والبخاري (٣٣٤).

(٣) «صحيح مسلم» برقم (٢٠٠٣) و«صحيح البخاري» (٥٥٧٥) وابن ماجه (٣٣٨٧) والترمذي (١٨٦٤) و«المسند» (٤٦٤٤) وابن حبان (٥٣٥٤) والنسائي في «السنن الكبرى» (٥٠٧٢) وما بعده.

(٤) البخاري (٥٥٨٥) ومسلم (٢٠٠١) وأبو داود (٣٦٨٢) والترمذي (١٨٦٣) وابن ماجه (٣٣٨٦) و«المسند» (٢٤٠٨٢) وابن حبان (٥٣٤٥) و«سنن النسائي الكبرى» (٥٠٨١-٥٠٨٤).

ونهى رسول الله ﷺ عن كل مسكر ومُفْتَرٍّ^(١)

وفي حديث عائشة قالت: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «كل مسكر حرام، وما أسكر منه الفرقُ فمِلْهُ الكف منه حرام»^(٢)

قال أنس: حرمت الخمر ولم يكن يومئذ للعرب عيش أعجب منها، وما حرم عليهم شيء أشد عليهم من الخمر.

وفي سفر اللاويين من التوراة (وكلم الله هارون قائلاً: خمرًا ومسكرًا لا تشرب).

السؤال الثاني في هذا الربع: سؤال عن نفقة التطوع

وقبل فرض الزكاة وبيان أنصبتها كان النبي ﷺ يحث على الصدقة والإنفاق في سبيل الله بوجه عام، فسأل الصحابة رسول الله ﷺ عن القدر الذي ينفقونه من أموالهم تبرعًا وصدقة؛ فكان الجواب من الله ميسرًا، قل لهم يا محمد: أنفقوا القدر الذي يزيد عن حاجتكم ﴿وَيَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنْفِقُونَ قُلِ الْغَفْوُ﴾ يعني: أنفقوا اليسير الذي يُفْضَلُ عن نفقتكم، ونفقة أهليكم، ومن تعولون، وأفضل الصدقة ما كان عن ظهر غنى، وللقريب الذي يُبْعِضُكَ.

وكان التصدق بما زاد عن حاجة المسلم اليومية فرضًا في أول الإسلام، فكان الرجل يأخذ قوته اليومي فحسب، ويتصدق بما زاد عن ذلك، ثم نُسخ هذا بفريضة الزكاة ﴿كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ﴾.

١- وفي الصَّحِيحَيْنِ عن أبي هريرة وحكيم بن حزام رضي الله عنهما قالَا: قال رسول الله ﷺ: «خير الصدقة ما كان عن ظهر غنى، واليد العليا خير من اليد السفلى، وابدأ بمن تعول»^(٣)

(١) أبو داود برقم (٣٦٨٦) عن أم سلمة ؓ والمسند (٢٦٦٣٤) قال محققوه: وهو حديث صحيح لغيره دون قوله (ومفتر) وفيه شهر بن حوشب وبقية رجاله ثقات رجال الشيخين غير الفُقيمي فمن رجال البخاري، وأخرجه ابن أبي شيبة (١٠٣/٨) والطبراني في الكبير ٢٣ (٧٨١) والبيهقي في السنن (٢٩٦/٨).

(٢) «سنن أبي داود» (٣٦٨٧) وهو في صحيح سنن أبي داود (٣١٣٤) وصحيح سنن الترمذي (١٩٤٤).

(٣) «صحيح البخاري» برقم (١٤٢٦، ١٤٢٨، ٥٣٥٥، ٥٣٥٦) وعن حكيم بن حزام (١٤٢٧) و«صحيح مسلم» برقم (١٠٣٤) وأبو داود (١٦٧٦) والنسائي (٢٥٤٣).

٢- وعن جابر رضي الله عنه قال: أعتق رجل من بني عُذْرَةَ عبداً له عن دُبُرٍ، فبلغ ذلك النبي ﷺ فقال: «ألك مال غيره؟» قال: لا، فقال ﷺ: «مَنْ يشتريه مني؟» فاشتراه نعيم بن عبد الله العدوي بثمانئة درهم، فجاء بها رسول الله ﷺ فدفعها إليه، ثم قال: «ابدأ بنفسك فتصدق عليها، فإن فضل شيء فلاهلك، فإن فضل عن أهلك شيء فلذي قرابتك، فإن فضل عن ذي قرابتك شيء فهكذا وهكذا» يقول: «فبين يديك، وعن يمينك، وعن شمالك»^(١).

فالمراد بالعفو: ما يفضل عن حاجة الإنسان وحاجة أهله وعياله.

٣- كما جاء في حديث عبد الله بن عمرو ؓ أن رسول الله ﷺ قال: «كفى بالمرء إثماً أن يضيع من يعول»^(٢).

٤- وفي حديث أبي أمامة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «يا بن آدم، إنك إن تبدل الفضل خير لك، وإن تمسكه شر لك، ولا تُلَامَ على كفاف، وابدأ بمن تعول، واليد العليا خير من اليد السفلى»^(٣).

٥- وفي صحيح مسلم، عن خيثمة عن عبد الله بن عمرو رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «كفى بالمرء إثماً أن يحبس عمن يملك قوته»^(٤).

وهكذا أمر الله رسوله أن يأخذ العفو من أخلاق الناس وصدقاتهم، ولا يكلفهم ما يشق عليهم.

وهذه الآية تنتهي بقوله تعالى: ﴿لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ﴾ وهي معدودة آية في ثلاثة مصاحف؛ هي: المدني الأخير والشامي والكوفي، والمصحف الذي بين أيدينا بالرسم الكوفي؛ لأن حفصاً قرأ على شيخه عاصم، وهو أحد أئمة القراءة الثلاثة الذين كانوا بالكوفة وهم: عاصم وحزمة والكسائي، وهي غير معدودة آية في المصحف المدني الأول، والمصحف المكي والشامي، وهي آية شديدة التعلق بما بعدها، والبدء بها في

(١) يُنْظَرُ: «صحيح مسلم» برقم (٩٩٧).

(٢) يُنْظَرُ: «صحيح سنن أبي داود» (١٤٨٤) بإسناد حسن، وهو في سنن أبي داود (١٦٩٢) والنسائي في «السنن

الكبرى» (٩١٧٦، ٩١٧٧) والحاكم (٥٠٠/٤).

(٣) «المسند» (٢٢٢٦٥) ومسلم (١٠٣٦) والترمذي (٢٣٤٣).

(٤) مسلم (٩٩٦).

التلاوة لا يؤدي معنى صحيحًا، فالأولى وصلها بما قبلها؛ ليتم المعنى، لا سيما وأنه مختلف في كونها آية من عدمه، والسبب في عدها آية وعدم عدها أن النبي ﷺ وقف عليها مرة وتركها مرة.

الْحُكْمُ الرَّابِعُ عَشَرَ: إِصْلَاحُ مَالِ الْيَتِيمِ

٢٢٠- ﴿فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْيَتَامَىٰ قُلْ إِصْلَاحٌ لَهُمْ خَيْرٌ وَإِنْ تُخَالُطُوهُمْ فَإِخْوَانُكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ الْمُفْسِدَ مِنَ الْمُصْلِحِ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَأَغْنَتْكُمُ^(١) إِنَّا اللَّهُ غَنِيٌّ حَكِيمٌ ﴿٢٢٠﴾﴾

أي: ومثل ذلك البيان الواضح يبين الله لكم الآيات وأحكام الشريعة؛ لكي تفكروا فيما بينه الله لكم في الدنيا والآخرة، فتدركوا أن الدنيا فانية فلا تركنوا إليها، وأن الآخرة باقية وأنها دار جزاء فتعملوا لها.

هذا: ولما نزل قول الله سبحانه: ﴿وَلَا تُقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ [الأنعام: ١٥٢، والإسراء: ٣٤] وقوله سبحانه: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَىٰ ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا﴾ [النساء: ١٠] لما نزلت هاتان الآيتان تحرّج المسلمون من أموال اليتامى تحرّجاً شديداً حتى عزلوا أموالهم عن أموالهم، وتركوا مخالطتهم وأكل فضول طعامهم، واشتد ذلك عليهم.

وكان عند بعض الصحابة أموال لليتامى بحكم الوصاية والولاية والقربة، فلما نزلت الآيتان تحرّجوا، وذهب كل منهم إلى بيته يعزل مال اليتيم عن ماله، ويعزل طعامه عن طعامه، وشرابه عن شرابه حتى لا يقربه، فسألوا النبي ﷺ عما هو أصلح لشأن اليتيم، وورد أن السائل: عبد الله بن رواحة؛ فأنزل الله سبحانه: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْيَتَامَىٰ﴾ أي: كيف يتصرفون في معاشهم وأموالهم؟ فأمرهم الله تعالى أن يفعلوا الخير لهم دائماً ﴿قُلْ إِصْلَاحٌ لَهُمْ خَيْرٌ﴾، فإذا كان في خلط أموالهم بأموالكم خير لهم فافعلوا، وإن كان في عزل أموالهم عن أموالكم خير لهم فافعلوا، افعلوا ما فيه خير لهم من غير أخذ عوض ولا أجر، والمقصود بإصلاح أموال اليتامى: حفظها وصيانتها واستثمارها وتنميتها بالطرق المشروعة.

(١) قرأ البزي بتسهيل همزة (لأعنتكم) بخلف عنه وصلاً ووقفاً، وحقها الباقون ومعهم البزي في وجهه الثاني.

﴿وَإِنْ تَحَاطُّوهُمْ﴾ في سائر شؤون المعاش من طعام ونحوه على وجه لا يضر بهم ولا يجور عليهم فهم ﴿إِخْوَانُكُمْ﴾ في الدين، والأخ يصلح شأن أخيه.

قال ابن عباس رضي الله عنه: المخالطة أن تشرب من لبنه، ويشرب من لبنك، وتأكل من قصعته، ويأكل من قصعتك، ويأكل من ثمرك وتأكل من ثمره^(١).

والله سبحانه يعلم حقيقة الأمر، ويطلع على السرائر والنوايا ﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ الْمُفْسِدَ﴾ لأموالهم ﴿مِنَ الْمُصْلِحِ﴾ لها، وفي هذا وعيد لمن يفسد أموالهم، ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَأَغْنَتْكُمْ﴾ فضيق عليكم بتحريم المخالطة، وفي هذا تكليف بما يشق عليكم ولكنه سبحانه وسع عليكم، فرخص في ذلك رحمة بكم وتيسيرا عليكم ﴿إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ﴾ في ملكه، قادر على أن يشق على عباده ﴿حَكِيمٌ﴾ في تشريعه وتدبير شؤون خلقه، فلا يكلف عباده إلا ما تتسع له طاقتهم، وعزته لا تنافي حكمته، فلا يأمر إلا بما فيه مصلحة خالصة أو راجحة، ولا ينهى إلا عما فيه مفسدة خالصة أو راجحة.

الْحُكْمُ التَّشْرِيعِيُّ الْخَامِسُ عَشَرَ: زَوَاجُ الْوَثَنِيَّاتِ وَأَهْلِ الْكِتَابِ

٢٢١- ﴿وَلَا تَنْكِحُوا الْمُشْرِكَةَ حَتَّىٰ تُؤْمِنَ ۚ وَلَأَمَةٌ مُّؤْمِنَةٌ خَيْرٌ مِّنْ مُّشْرِكَةٍ وَلَوْ أَعْجَبَتْكُمْ وَلَا تُنْكِحُوا الْمُشْرِكِينَ حَتَّىٰ يُؤْمِنُوا وَلَعَبْدٌ مُّؤْمِنٌ خَيْرٌ مِّنْ مُّشْرِكٍ وَلَوْ أَعْجَبَكُمْ أُولَٰئِكَ يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ وَاللَّهُ يَدْعُوا إِلَى الْجَنَّةِ وَالْمَغْفِرَةِ بِإِذْنِهِ ۚ وَبَيِّنَآ بَيْنَهُمَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾

ثم تحدثت السورة في اثنتين وعشرين آية، بدءًا من هذه الآية إلى الآية الثانية والأربعين بعد المئين عن بعض أحكام وآداب الزواج والمعاشرة والإيلاء والطلاق والعدة والنفقة والرضاعة والخِطبة والمتعة، وغير ذلك مما يتعلق بأحكام الأسرة، وبدأت الحديث عن ذلك بالحديث عن الزواج؛ لأنه اللبنة الأولى في تكوين الأسرة، والأسرة هي اللبنة الأساس في بناء المجتمع.

وكان المسلمون أيام نزول هذه السورة مختلطين مع المشركين الوثنيين بالمدينة، وما هم ببعيد عن أقربائهم في مكة، فربما رَغِبَ بعض المسلمين في الزواج من المشركات، أو رَغِبَ

(١) ابن أبي حاتم (٢٠٨٢).

بعض المشركين في الزواج من بعض المسلمات؛ فبين الله تعالى الحكم في هذه الأحوال التي قد تتطلع النفوس إليها، وهو كالحكم السابق في إصلاح المجتمع أفرادًا وجماعات.

وفي أسباب النزول: عن مقاتل بن حيان، أن رجلاً يقال له: مرثد بن أبي مرثد الغنوي، كان بينه وبين امرأة في مكة تسمى (عناق) علاقة سيئة، وهي امرأة بغي، مشركة، فأسلم مرثد، ولحق برسول الله ﷺ مهاجرًا، وكان النبي عليه الصلاة والسلام يرسله في مهمة حمل الأسرى من مكة إلى المدينة، وبينما هو ذات ليلة في مكة إذ سمعت بمقدمه هذه المرأة، فذهبت إليه وطلبتة كما كان يحدث بينهما في الجاهلية، فقال لها: إن الإسلام قد فرق بيني وبينك، إن الإسلام قد حرّم الزنى، وحرّم الخلوة بيننا، فقالت له: هل لك أن تتزوج بي؟ قال: حتى أستاذن رسول الله ﷺ، فلما أبى أن يتزوجها استعدت عليه القوم، فضربوه ضربًا شديدًا ثم خلّوا سبيله، فلما رجع إلى المدينة قال: يا رسول الله، أيجل لي أن أتزوجها؟ فأنزل الله هذه الآية: ﴿وَلَا تَنْكِحُوا الْمُشْرِكَةَ حَتَّى يُؤْمِنَ﴾ كما أنزل الله تعالى في الموضوع نفسه: ﴿الزَّانِي لَا يَنْكِحُ إِلَّا زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً﴾ [سورة النور: ٣].

والنكاح في الأصل هو الوطء، ثم غلب على عقد النكاح؛ أي: أنه لا ينبغي ولا يليق بالزاني أن يتزوج إلا بمثله، فالطيور على أشكالها تقع ﴿وَالزَّانِيَةُ لَا يَنْكِحُهَا إِلَّا زَانٍ أَوْ مُشْرِكٌ وَحَرِّمَ ذَلِكَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ﴾ [النور: ٣].

ومن هذا الختام للآية استنبط بعض العلماء تحريم الزواج بالزانية، وفهم البعض الآخر: أن الذي حرّمه الله تعالى هو الزنى وليس الزواج، ولكن العفيف المحصن تعاف نفسه الآية إلا أن يتزوج من عفيفة محصنة حيث لا يليق به إلا ذلك، قلت: ولعله الأصوب.

وهذه الآية من سورة البقرة تُحرّم الزواج من الوثنية على كل مسلم؛ حتى يؤمن بالله ورسوله ويلتزم بأحكام الإسلام، والمشركة في الآية هي الوثنية كالبودية والهندوكية والسيخية وعابدة البقر، وهي التي لا تدين باليهودية أو النصرانية ولا بغيرهما من الرسالات الإلهية، فهي كافرة وثنية لا تعرف ربًّا ولا إلهًا، ولا تؤمن بالله ولا باليوم الآخر، وما فيه من بعث وحساب وحشر ونشر وجزاء وجنة ونار.

وفرق بين الوثنية وأهل الكتاب؛ فأهل الكتاب يقال لهم أيضًا: مشركون كافرين؛ إذ ليس هناك شرك أعظم من قول اليهود: عزيز ابن الله، ولا أعظم من قول النصارى:

المسيح ابن الله، فهذا شرك صريح، وهم أيضًا كفار؛ لأنهم كفروا بمحمد ﷺ، وكل من لم يؤمن برسالته ﷺ فهو كافر.

فالشرك والكفر يندرج تحته اليهود والنصارى بنص الكتاب كما قال تعالى: ﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ﴾ [المائدة: ٧٢]

وقال سبحانه: ﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ ثَلَاثُ ثَلَاثَةٍ﴾ [المائدة: ٧٣]

وقال جل شأنه: ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ عُزَيْرٌ ابْنُ اللَّهِ وَقَالَتِ النَّصَارَى الْمَسِيحُ ابْنُ اللَّهِ﴾ [التوبة: ٣٠]

وقال أيضًا: ﴿لَمْ يَكُنِ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ مُنْفَكِينَ حَتَّى تَأْتِيَهُمُ الْبَيِّنَةُ﴾ [البينة: ١]

وفي الحديث عن أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «والذي نفس محمد بيده لا يسمع بي أحد من هذه الأمة يهودي ولا نصراني ثم يموت ولم يؤمن بالذي أرسلت به إلا كان من أصحاب النار»^(١)

وفي الآية حُكم عام مخصوص بآية المائدة التي تجيز الزواج من الكتابية الحرة العفيفة، فالكتابية ليست داخلة في هذا التحريم؛ لأن الإسلام ينظر إلى أصل الديانة، وأصل الديانة اليهودية والنصرانية هو التوحيد، والشرك طارئ عليهما؛ بسبب التحريف والتغيير، والأصل أيضًا هو الإيمان برسول الله محمد ﷺ خاتمًا للنبيين والمرسلين لكل من وُجد من الثقلين بعد البعثة النبوية.

والأصل هو الإيمان برسل الله السابقين، كل منهم في زمانه، والإيمان باليوم الآخر وما فيه من حساب وجزاء.

فالمسلم لا يتزوج المشركة، التي لا تؤمن بالله، ولا باليوم الآخر، كالوثنية والشيوعية والمجوسية والملحدة والعلمانية وعابدات الوثن؛ حتى يدخلن في الإسلام، فلا توالوهم ولا تصاهروهم.

واعلموا أن أمة رقيقة ضعيفة مسكينة مؤمنة بالله واليوم الآخر خيرٌ وأنفعُ وأفضلُ وأصلحُ

(١) من حديث أبي هريرة في «صحيح مسلم» (١٥٣) وهذا لفظه وهو في «المسند» (١٩٥٣٦) و«زوائد البزار»

(١٦) والنسائي في «السنن الكبرى» (١١٧٧) ثلاثتهم عن أبي موسى.

من حُرَّةٍ مشركة صاحبة مال وحسب ونسب، ولو أعجبكم جمالها.

﴿وَلَا أَمَةٌ مُّؤْمِنَةٌ خَيْرٌ مِّنْ مُّشْرِكَةٍ وَلَوْ أَعْجَبَتْكُمْ﴾ نزلت في أمة اسمها (خنساء)، كانت لحذيفة بن اليمان، فقال: يا خنساء، قد ذكرت في الملاء الأعلى على سوادك ودمايتك، فأعتقها وتزوجها.

وقيل: نزلت في عبد الله بن رواحة ؓ كانت عنده أمة سوداء فغضب عليها يوماً ولطمها، ثم فرغ؛ فأتى النبي ﷺ فأخبره، قال: وما هي يا عبد الله؟ فأخبره بإسلامها وحسن إيمانها، فقال ﷺ: «هذه أمة مؤمنة» فقال: والذي بعثك بالحق لأعتقنها وأتزوجها، ففعل، فقال أناس: أتزوج أمة؟ وعرضوا عليه حرة مشركة فأنزل الله الآية^(١) لأن المؤمنة مهما بلغت من الدمامة فهي خير من المشركة مهما بلغت من الحسن.

ويحرم على المسلمة أن تتزوج المشرك، ويحرم على المسلم أن يتزوج مشركة ﴿وَلَا تُنكِحُوا الْمُشْرِكِينَ حَتَّىٰ يُؤْمِنُوا﴾ أي: ولا تزوجوا نساءكم المؤمنات إماءً أو حرائر إلى المشركين من الوثنيين ولو أعجبكم حسنهم وأموالهم ومناصبهم حتى يؤمنوا بالله ورسوله.

ويجوز للمسلم أن يتزوج اليهودية أو النصرانية أخذاً من قوله سبحانه: ﴿الْيَوْمَ أُحِلَّ لَكُمُ الطَّيِّبَاتُ وَطَعَامُ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حِلٌّ لَّكُمْ وَطَعَامُكُمْ حِلٌّ لَهُمْ وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الْمُؤْمِنَاتِ وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ إِذَا ءَاتَيْتُمُوهُنَّ أَجُورَهُنَّ مُحْصِنِينَ غَيْرَ مُسْفِحِينَ وَلَا مُخْذِي أَخْدَانٍ﴾ [المائدة: ٥] أي: أحل الله لكم التزوج بالمحصنات من الذين أوتوا الكتاب من قبلكم، من اليهود والنصارى إذا آتيتموهن أجورهن؛ أي: إذا دفعتم المهر لهن، وأنتم أهل عفة وطهارة غير متخذين منهن خليلات ولا عشيقات.

فأباح القرآن الكريم أن يتزوج المسلم باليهودية أو النصرانية باعتبار أن أصل الديانة هو التوحيد، وأن الإسلام يطمع في إسلامها؛ لأنها آمنت بعبسى أو بموسى عليهما السلام، وهذا يجعلها تؤمن بالوحي الذي نزل على محمد ﷺ، وهي تأمن على دينها عند المسلم؛ لأن المسلم يعترف بالرسالات السابقة، وأنها رسالات صحيحة سبقت الإسلام ومهدت له، وقد نسخها الإسلام، ويطمع في أن أولادها يخرجون مسلمين لأبيهم.

(١) يُنْظَرُ الْأَثَرُ (٤٢٢٥) عَنِ السَّيِّدِي فِي «تَفْسِيرِ الطَّبْرِيِّ» وَ«أَسْبَابِ النُّزُولِ» لِلْوَاهِدِيِّ ص ٥٠ وَابْنِ عَسَاكِرَ (٢٨، ٩٠).

أما أن يتزوج الكتابي من المسلمة، فإن الأمر يختلف؛ لأنه لا يعترف بالإسلام، ولا يقرُّ به، بخلاف المسلم، فهو يعترف بالكتابية ويقرُّ بها، فهي تأمن على دينها معه، والرجل هو القوام على المرأة؛ ولذلك فإنه لا يجوز أن تزوج بناتنا لغير المسلمين، والنكاح باطل إن حدث هذا.

عن زيد بن وهب قال: قال عمر: المسلم يتزوج النصرانية، ولا يتزوج النصراني المسلمة^(١).

وعن شقيق بن سلمة الأسدي قال: تزوج حذيفة يهودية، فكتب إليه عمر: خل سبيلها، فكتب إليه: أترعّم أنها حرام فأخلي سبيلها؟! فقال: لا أزعّم أنها حرام، ولكن أخاف أن تَعَاطُوا المومسات منهن^(٢).

وقد كره عمر الزواج من الكتابيات مخافة أن يزهّد الناس في المسلمات، وليس في وُسْع عمر أن يحرم ما أحله الله، ولكن نظرت هذه تشبه ما يتخذ بعض الحكام من قرارات تمنع رعايا بلدانهم أن يتزوجوا مسلمات من بلد آخر؛ خوفاً من العنوسة التي قد تحدث في بلاده.

ومما عمّت به البلوى في هذا الوقت - نتيجة ما يسمى بالتطبيع مع العدو الإسرائيلي - كثرة زواج العرب المسلمين من بنات اليهود، فهل أُمِنُوا فقه عمر ﷺ؟! والمرأة عند اليهود سلعة، لا تَرُدُّ يَدَ لَامِسٍ، وهل أُمِنُوا الجاسوسية والمكر اليهودي بالتغلغل في ديار المسلمين وبين صفوف الجيش ومعرفة خباياهم؟!

أحاديث في الزواج:

١- وفي حديث أبي هريرة ﷺ أن النبي ﷺ قال: «تنكح المرأة لأربع: لجمالها، ولحسبها، ولجمالها، ولدينها، فاظفر بذات الدين تربت يداك»^(٣).

(١) إسناده صحيح متصل عن عمر كما في الطبراني برقم (٤٢٢٢).

(٢) رواه الطبري بإسناد صحيح (٤٢٢٤).

(٣) «صحيح البخاري» برقم (٥٠٩٠) و«صحيح مسلم» برقم (١٤٦٦) وأبو داود (٢٠٤٧) والنسائي (٣٢٣٠)

وابن ماجه (١٨٥٨) والبيهقي (٧٩/٧).

- ٢- وعن عائشة رضي الله عنها أن النبي ﷺ قال: «لا نكاح إلا بولي وشاهدي عدل»^(١).
- ٣- وعن عائشة رضي الله عنها أيضاً: «والسلطان ولي من لا ولي له»^(٢).
- ٤- وعن ابن عمر أن رسول الله ﷺ قال: «الدنيا متاع، وخير متاعها المرأة الصالحة»^(٣).
- ٥- وعن سهل بن سعد رضي الله عنه قال: مر رجل على رسول الله ﷺ فقال: «ما تقولون في هذا؟» قالوا: حري إن خطب أن يُنكح، وإن شفع أن يُشفع، وإن قال أن يُسمع، قال: ثم سكت، فمر رجل من فقراء المسلمين فقال: «ما تقولون في هذا؟» قالوا: حري إن خطب ألا يُنكح، وإن شفع ألا يشفع، وإن قال ألا يُسمع، فقال رسول الله ﷺ: «هذا خير من ملء الأرض مثل هذا»^(٤).
- ٦- وعن هريرة رضي الله عنها أن النبي ﷺ قال: «إذا خطب إليكم من ترضون دينه وخلقه فزوجوه، إلا تفعلوا تكن فتنة في الأرض وفساد عريض»^(٥).
- ٧- وعن مُعاذ الجُهني رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «من أعطى لله، ومنع لله، وأحب لله، وأبغض لله، وأنكح لله، فقد استكمل إيمانه»^(٦).
- فهل المرأة اليهودية أو النصرانية من ذوات الدين اللاتي حث الرسول ﷺ على الزواج منها؟ وهل هي امرأة صالحة تُعد خير متاع الدنيا؟
-
- (١) أخرجه البيهقي (١٢٥/٧) وصححه الألباني في «إرواء الغليل» (٢٥٨/٦) ومثله عن عمران بن حصين وابن عباس، وفي المسند (١٩٥١٨) عن أبي موسى «لا نكاح إلا بولي» حديث صحيح، وعن عائشة (٢٦٢٣٥) بزيادة «والسلطان ولي من لا ولي له» حديث صحيح، أفاده محققوه.
- (٢) «صحيح سنن ابن ماجه» (١٥٢٥) والبيهقي (١٠٧/٧).
- (٣) «صحيح مسلم» برقم (١٤٥٧).
- (٤) البخاري (٥٠١٩) وابن ماجه (٤١٢٠).
- (٥) حديث حسن كما في «صحيح سنن الترمذي» (٨٦٥) (٨٦٦) وفي الإرواء (١٦٦٨) والسلسلة الصحيحة (١٠٢٢) وابن ماجه (١٩٦٧) والحاكم (١٦٤/٢) وعن أبي حاتم المزي في البيهقي (٨٢/٧).
- (٦) حديث حسن كما في «صحيح سنن الترمذي» (٢٠٤٦) وهو في السنن (٢٦٥٥) وفي السلسلة الصحيحة (١١٣/١) و«المسند» (١٥٦١٧) صحيح لغيره، وبإسناد حسن (١٥٦٣٨) (محققوه) والحاكم (١٦٤/٢).
- والطبراني في الكبير ٢٠ (٤١٢).

قال سبحانه مبيناً العلة والسبب في عدم جواز الزواج من المشرك: ﴿وَلَعَبْدٌ مُّؤْمِنٌ خَيْرٌ مِّنْ مُّشْرِكٍ وَلَوْ أَعْجَبَكُمْ﴾ فلا تُزوجوا - أيها المسلمون - المشركين حتى يؤمنوا بالله ورسوله، واعلموا أن عبداً مؤمناً مع فقره خير من مشرك، وإن أعجبكم المشرك، وكذلك الأمة المؤمنة؛ لأن المتصفين بالشرك من الرجال والنساء يدعون كل من يعاشرهم إلى النار.

والله سبحانه يدعو عباده إلى دين الحق المؤدي بهم إلى الجنة ومغفرة الذنوب، ويبين لكم آياته وأحكامه لكي تعتبروا وتتعتوا، قال تعالى ﴿أُولَٰئِكَ﴾ يعني: المشركين والمشرقات ﴿يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ﴾ فلا توالوهم ولا تصاهروهم، أما أولياء الله، وهم المؤمنون، فإنهم يدعون إلى الجنة، وما يوصل إلى المغفرة بإذنه تعالى، فيجب موالاتهم ومحبتهم ومصاهرتهم ﴿وَاللَّهُ يَدْعُو إِلَى الْجَنَّةِ وَالْمَغْفِرَةِ بِإِذْنِهِ وَيُبَيِّنُ آيَاتِهِ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾.

الْحُكْمُ التَّشْرِيعِيُّ السَّادِسَ عَشَرَ: تَجَنُّبُ النِّسَاءِ فِي الْمَحِيضِ

٢٢٢- ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْمَحِيضِ قُلْ هُوَ أَذًى فَاعْتَزِلُوا النِّسَاءَ فِي الْمَحِيضِ وَلَا تَقْرُبُوهُنَّ حَتَّى يَطْهُرْنَ^(١) فَإِذَا تَطَهَّرْنَ فَأْتُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُطْهَرِينَ﴾
كانت اليهود إذا حاضت المرأة فيهم يعزلونها في مكان وحدها، ويعتبرونها نجسة، تُنجَسُ أي شيء لمسته، ولا يخالطونها في عشرة، فلا يأكلون معها، ولا يشربون حتى ينقطع الدم.

وكانت النصارى لا يفرقون بين المرأة وهي حائض أو غير حائض، فيفعلون معها كل شيء حتى الجماع، فسأل بعض الصحابة رسول الله ﷺ عن حكم الشرع في ذلك، ماذا يحل وماذا يحرم تجاه المرأة الحائض؟ فأنزل الله ﷻ يبين أنه لا يحرم على الحائض إلا الجماع^(٢).

وكان المسلمون قد امتزجوا باليهود في المدينة، واستنوا بسنتهم في كثير من الأشياء، وقد جاء الإسلام بالوسطية والاعتدال في كل شيء، فللزواج أن يصنع معها كل شيء إلا

(١) قرأ شعبة وحزمة والكسائي وخلف العاشر (حتى يَطْهُرْنَ) بتشديد الطاء والهاء مضارع تطهر، وقرأ الباقر (يَطْهُرْنَ) بسكون الطاء وضم الهاء مضارع طهر.

(٢) يُنْظَرُ: «المسند» (١٣٢/٣) عن أنس و«صحيح مسلم» برقم (٣٠٢)، وليس فيهما ذكر النصارى.

الجماع، وأنه يحل مخالطة المرأة وهي حائض، والأكل والشرب معها، ولا ينبغي عزلها وإخراجها من البيت بسبب الحيض الذي هو جلبة، وسنة الله في نساء بني آدم، وأنه يحل للرجل أن يتمتع بجميع جسمها وهي حائض، ما عدا الجماع في موضع الفرج.

كما حرّم الإسلام إتيان المرأة في دبرها، وفي الفرج وقت الحيض، والنفاس، وإتيان النساء في أدبارهن لا يحرم شيئاً من المرأة على زوجها، كما يزعم بعض العامة.

قال سبحانه في شأن الحيض: ﴿وَسْأَلُونَكَ عَنِ الْمَحِيضِ قُلْ هُوَ أَذَىٌ﴾ والمحيض: هو الدم السائل من رحم المرأة في أوقات خاصة.

عن أنس رضي الله عنه أن اليهود كانوا إذا حاضت المرأة فيهم أخرجوها من البيت، ولم يؤاكلوها، ولم يشاربوها، ولم يجامعوها في البيوت، فسأل الصحابة رسول الله ﷺ عن ذلك، فأنزل الله تعالى: ﴿وَسْأَلُونَكَ عَنِ الْمَحِيضِ﴾ فقال ﷺ: «اصنعوا كل شيء إلا النكاح» فبلغ ذلك اليهود، فقالوا: ما يريد هذا الرجل إلا أن يخالفنا في كل شيء، فراجعه أسيد بن حُضَيْر وعباد بن بشر فيما قالت اليهود فتغير وجهه ﷺ^(١)؛ أي: غضباً من قولهم، وإنكاراً عليهم؛ وذلك لأن اختلاط المني بالدم فيه أذى وضررٌ كبير يلحق بالرجل، ويلحق بالمرأة، ويلحق بالجنين، لو قُدِّر أن يكون بينهما ولد، وورد أن السائل هو أبو الدحداح الأنصاري.

وكان من قبائل العرب من يبغض الحائض؛ فيخرجونها من بيتها، ومنهم قوم من نصارى قضاة بني سليح.

وكان نساء الأنصار لا يتركن أزواجهن يأتوهن من أدبارهن، فجاؤوا إلى رسول الله ﷺ فسألوه عن إتيان الرجل امرأته وهي حائض.

وقد حرّم الإسلام إتيان المرأة وهي حائض؛ لما يترتب على ذلك من الأضرار المعروفة طبيّاً، والتي أشار إليها رب العالمين في هذه الآية: ﴿قُلْ هُوَ أَذَىٌ فَأَعْرِضُوا لِلنِّسَاءِ فِي

(١) يُنْظَر الحديث في «صحيح مسلم» برقم (٣٠٢) وفي «المسند» (١٣٢/٣) برقم (١٢٣٥٤، ١٣٥٧٦) وأبو داود (٢٥٨) والترمذي (٢٩٧٧) والنسائي (٢٨٧) وابن ماجه (٦٤٤) وأبو يعلى (٣٥٣٣) وابن حبان (١٣٦٢).

الْمَحِيضِ ﴿٢٢٢﴾ يعني: اجتنبوا جماعهن في الفرج وقت الحيض؛ لأنه أمرٌ مُسْتَقْدَرٌ يضر من يقربه، فاجتنبوا جماع النساء مدة الحيض حتى ينقطع الدم ويغتسلن، (حتى يطهرن) والقراءة الأخرى (حتى يَطْهَرْنَ) أي: يغتسلن من الحيض، وهي مفسرة للقراءة الأولى.

وأجمع أهل العلم على أنه يَحْرُمُ على الرجل أن يقرب امرأته بعد انقطاع دم حيضها حتى تغتسل، ولا ينبغي لكم أن تعتزلوهن في الأكل والشرب وغير ذلك، إنما اعتزلوهن في الجماع، واعتزلوهن في المحيض، ولا تقربوهن بالوطء والمجامعة حتى يطهرن، فإذا انتهى الحيض واغتسلت المرأة حَلَّ إتيانها.

فلا يجوز إتيان المرأة وهي في الحيض، ولا يجوز إتيانها بعد انتهاء الحيض وقبل الاغتسال، فإذا برئت من الحيض فإنه يجب عليها أن تغتسل، وبعد الاغتسال يكون الجماع، وتكون الصلاة؛ لقوله سبحانه: ﴿فَإِذَا تَطَهَّرْنَ﴾ أي: اغتسلن بالماء ﴿فَأَتُوهُنَّ﴾ جامعوهن ﴿مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ اللَّهُ﴾ أي: في الموضع الذي أحله الله لكم؛ وهو القبل لا الدبر، فانقطاع الدم شرط، يؤخذ من قوله تعالى ﴿حَتَّى يَطْهَرْنَ﴾ أي يزول المانع والافتسال شرط آخر، يؤخذ من قوله تعالى: ﴿فَإِذَا تَطَهَّرْنَ﴾ أي اغتسلن، فاغتسال الحائض واجب، وانقطاع الدم شرط لصحته، وإتيان المرأة يكون في موضع الحرث والنسل والولد أي: في المكان الذي أعدّه الله تعالى لذلك.

عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «من أتى حائضاً أو امرأة في دبرها أو كاهناً فصدقه، فقد كفر بما أنزل على محمد ﷺ»^(١).

وفي حديث أنس رضي الله عنه «اصنعوا كل شيء إلا النكاح»^(٢).

وفي حديث ابن عباس رضي الله عنه «أقبل وأدبر واتق الدبر والحیضة»^(٣)

كما يَحْرُمُ جماعُ المرأة وهي صائمة أو معتكفة أو مُحْرَمَةٌ بحج أو عمرة.

(١) «المسند» (٩٢٩٠، ١٠١٦٧) حديث محتمل للتحسين وابن أبي شيبه (٢٥٢/٤) والترمذي (١٣٥) والنسائي في «السنن الكبرى» (٩٠١٦، ٩٠١٧) والبيهقي (١٩٨/٧) وقد حسنه الألباني في «صحيح سنن ابن ماجه» (٥٢٢).

(٢) أخرجه أحمد (١٣٢/٣) ومسلم (٣٠٢).

(٣) المسند بإسناد حسن (٢٧٠٣) وأخرجه الترمذي (٢٩٨٠) والنسائي في الكبرى (٨٩٧٧) وأبو يعلى (٢٧٣٦) وابن حبان (٤٢٠٢).

فإن وقع العبد في المخالفة نتيجة ضعف، أو غفلة، أو نسيان، أو غلبة شهوة، أو جهل؛ بأن أتى المرأة في الحيض الذي هو موضوع الآية، فعليه أن يتوب إلى الله سبحانه، وأن يندم على ما قصّر في حق الله جَلَّ شَأْنُهُ، وعلى مخالفته الشرعية التي وقع فيها، وعليه أن يعقد العزم على أن لا يعود لمثل هذا أبداً، وقد قال بعض أهل العلم فضلاً عن التوبة: يجب عليه أن يتصدق بدينار ونحوه^(١).

ومن أدلة ذلك ما صح عن ابن عباس رضي الله عنهما عن النبي ﷺ في الذي يأتي امرأته وهي حائض قال: «يتصدق بدينار أو بنصف دينار»^(٢).

وقال ابن عباس: إذا أصابها في الدم فدينار، وإذا أصابها في انقطاع الدم فنصف دينار^(٣).

وقال ابن عباس كذلك أيضاً: إن كان دمًا أحمر فدينار، وإن كان دمًا أصفر فنصف دينار^(٤).

وقد أجمع المسلمون على تحريم الجماع في زمن الحيض، وعلى أنه يجوز الاستمتاع بكل شيء دون الفرج.

سأل عبد الله بن سعد الأنصاري رسول الله ﷺ: ما يحل لي من امرأتي وهي حائض؟ فقال: «لك ما فوق الإزار»^(٥).

وركب مسروق إلى عائشة رضي الله عنها فقال: السلام على النبي وعلى أهل بيته، فقالت عائشة: أبو عائشة! مرحباً! فأذنوا له؛ فدخل، فقال: إني أريد أن أسألك عن شيء وأنا أستحيي، فقالت: إنما أنا أملك، وأنت ابني! فقال: ما للرجل من امرأته وهي حائض؟ قالت له:

(١) تنظر الأحاديث الواردة في ذلك في: «المسند» (٢٣٠/١) برقم (٢٢٠١) و(٢٧٨٨) و(٢٤٥٨) وهو صحيح موقوف، أفاده محققوه، وأبو داود (٢٦٦) والترمذي (١٣٦) و«سنن النسائي الكبرى» (٢٨٤) عن ابن عباس مرفوعاً وموقوفاً.

(٢) «المسند» (٢٠٣٢) وأبو داود (٢٦٤) والترمذي (١٣٦) والنسائي (٢٨٨) وابن ماجه (٦٤٠) والحاكم (١/١٧١) والبيهقي (٣١٤/١) صححه الألباني في «صحيح سنن ابن ماجه» (٥٢٣).

(٣) «صحيح سنن أبي داود» (٢٣٨) والحاكم (١٧٢/١) وهو موقوف على ابن عباس.

(٤) صحيح موقوف على ابن عباس كما في «صحيح سنن الترمذي» (١١٨).

(٥) «صحيح سنن الترمذي» (١٩٧) وابن ماجه (٦٥١) وأبو داود (٢١٢) وهذا لفظه.

كل شيء إلا فرجها^(١).

وعنها ﷺ قالت: كانت إحدانا إذا كانت حائضاً فأراد النبي أن يباشرها، أمرها أن تتزر من فور حيضتها ثم يباشرها، قالت: وأيكم يملك إربه كما كان رسول الله ﷺ يملك إربه^(٢).

والمباشرة تعني: ملازمة الجلد للجلد، وهي جائزة فوق السرة ودون الركبة.

وقد قال النبي ﷺ لعائشة حين حاضت: «إن هذا أمر كتبه الله على بنات آدم»^(٣).

وقوله تعالى: ﴿وَلَا تَقْرَبُوهُنَّ حَتَّى يَطْهُرْنَ﴾ يدل على أنه ينبغي ترك المباشرة للمرأة فيما دون الفرج، وأن مباشرة الحائض وملاستها في غير الفرج وما يقرب منه جائز، وكان النبي ﷺ يأمر امرأته وهي حائض أن تأتزر ثم يباشرها كما سبق بيانه.

ويحرم على الحائض والجنب والنفساء: الصلاة والصوم ودخول المسجد ومس المصحف وحمله والطواف بالبيت، وتفعل المرأة كل ذلك بعد الغسل من الحيض أو النفاس أو الجنابة، والصلاة لا تُقضى تخفيفاً ورحمةً من الله تعالى، أما الصوم فإنه يُقضى؛ لأنه يأتي في العام مرة.

وقد ختم الله الآية بقوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ﴾ أي كثيري التوبة والندم والاستغفار؛ بسبب ما وقع منهم من مخالفات شرعية، ومن ذلك أنهم خالفوا ووقعوا في هذا الأمر، والله سبحانه يحثهم على التوبة والرجوع إليه وعلى عدم العودة لمثل ذلك في قوله: ﴿وَيُحِبُّ الْمُطَهِّرِينَ﴾ الذين يتعدون عن الفواحش والأقذار، والتائب من الذنب كمن لا ذنب له، والله أفرح بتوبة أحدكم من فرح أحدكم بضالته إذا وجدها.

وفي حديث ابن عمر رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال: «من توضأ فأحسن الوضوء ثم قال: أشهد أن لا إله إلا الله، وحده لا شريك له، وأن محمداً عبده ورسوله، اللهم اجعلني من

(١) رواه الطبري برقم (٤٢٤٥) وإسناده صحيح.

(٢) الحديث في البخاري (٦٣/١) برقم (٣٠٢) ومسلم (٩٥/١) برقم (٢٩٣) وأبي داود (١١٢) برقم (٢٦٨)،

(٢٧٣) وابن ماجه (٦٣٥) والنسائي (٥٤/١) وابن أبي شيبة (٢٥٤/٤).

(٣) البخاري (٢٩٤) ومسلم (١٢١١).

التوابين، واجعلني من المتطهرين، فُتحت له ثمانية أبواب الجنة، يدخل من أيها شاء»^(١).

الْحُكْمُ التَّشْرِيعِيُّ السَّابِعُ عَشَرَ: مَوْضِعُ الْحَرْثِ

٢٢٣- ﴿يَسْأَلُكُمْ حَرْثُ لَكُمْ فَأْتُوا حَرْثَكُمْ أَنْي شَتْمٌ^(٢) وَقَدِمُوا لِأَنْفُسِكُمْ وَأَتَقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ مُلْقَوُهُ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ﴾

في الصحيح عن جابر رضي الله عنه قال: كانت اليهود تقول: إذا جامع الرجل أهله من ورائها (في قبلها) جاء الولد أحول فنزلت الآية^(٣).

فكان اليهود يعتقدون أن الرجل إذا أتى امرأته في قبلها من ناحية دبرها فإن الولد يخرج أحولاً، فأنزل الله تعالى يَكْذِبُ هذا القول، وبين أنه يحل للرجل أن يأتي امرأته في قبلها في موضع الحرث والولد والزرع من أي جهة، وعلى أي فعلة أراد ﴿يَسْأَلُكُمْ حَرْثُ لَكُمْ فَأْتُوا حَرْثَكُمْ أَنْي شَتْمٌ﴾ في صمام واحد هو موضع النسل، ففساؤكم موضع زرعكم، تضعون النطفة في أرحامهن؛ فيخرج منها الولد بمشيئة الله تعالى، فجامعوهن على أي هيئة، ومن أي جهة ما دام الجماع في القبل، ولا يصح ما يدعيه اليهود من أن الولد يخرج أحولاً إذا أتى امرأته في قبلها من ناحية دبرها.

ومن أتى المرأة في قبلها من جهة دبرها، أي مقبلة أو مدبرة ما دام ذلك في صمام واحد هو الفرج، فلا مانع منه، وهذه جملة من الأحاديث والآثار في ذلك:

١- وعن ابن عباس رضي الله عنه أن عمر رضي الله عنه جاء إلى النبي ﷺ فقال: هلك يا رسول الله، قال: وما أهلكك؟ قال: حولت رجلي الليلة، قال: فلم يردّ عليه شيئاً، فأوحى الله إلى رسوله ﷺ بهذه الآية: ﴿يَسْأَلُكُمْ حَرْثُ لَكُمْ﴾^(٤) أي: أقبل وأدبر واتق الدبر والحیضة.

(١) «صحيح دون قوله (اللهم اجعلني من التوابين واجعلني من المتطهرين) سنن الترمذي» (٤٨)، وهو في السنن (٥٥).

(٢) قرأ الأصبهاني وأبو جعفر وأبو عمرو بخلف عنه بإبدال الهمزة ياء من (شتتم) وكذا حمزة عند الوقف.

(٣) يُنْظَرُ: «صحيح البخاري» برقم (٤٥٢٨) و«صحيح مسلم» (١٤٣٥) وأبو داود (٢١٦٣) والترمذي (٢٩٧٨). وصححه أحمد شاكر في «المسند» برقم (٢٧٠٣) وقال الهيثمي في «المجمع» (٣١٩/٦): رجاله ثقات

(٤) قال الترمذي: حسن غريب، «السنن» برقم (٢٩٨٠) و«المسند» (٢٩٧/١) برقم (٢٧٠٣) بإسناد حسن والنسائي في «الكبرى» (٨٩٧٧، ١١٠٤٠) وأبو يعلى (٢٧٣٦) وابن حبان (٤٢٠٢) والطبراني (١٢٣١٧) وهو حديث حسن كما في «صحيح سنن الترمذي» (٢٣٨١).

٢- وعن عبد الرحمن بن سابط قال: سألت حفصة بنت عبد الرحمن، فقلت لها: إني أريد أن أسألك عن شيء، وأنا أستحي أن أسألك عنه، قالت: سل يا أخي عما بدا لك، قال: أسألك عن إتيان النساء في أدبارهن، فقالت: حدّثني أم سلمة قالت: كانت الأنصار لا تُجبي (أي: لا تُكَبُّ المرأة على وجهها كهيئة السجود)، وكانت المهاجرين تُجبي، وكانت اليهود تقول: إنه من جَبى امرأته كان الولد أحول.

فلما قَدِم المهاجرون المدينة نكحوا في نساء الأنصار، فأبت امرأة أن تطيع زوجها، وقالت: لن تفعل ذلك حتى آتي رسول الله ﷺ، فأتت أم سلمة فذكرت لها ذلك، فقالت: اجلسي حتى يأتي رسول الله ﷺ، فلما جاء رسول الله ﷺ استخيت الأنصارية أن تسأله فخرجت، فذكرت ذلك أم سلمة للنبي ﷺ فقال: «ادعوها لي» فدُعيت، فتلا عليها هذه الآية: ﴿نِسَاؤُكُمْ حَرْثٌ لَّكُمْ﴾ صِمَامًا واحدًا، قال: والصِّمَام: السبيل الواحد^(١)؛ أي: مسلكًا واحدًا هو الفرج.

٣- وعن عكرمة أن رجلاً جاء إلى ابن عباس ؓ فقال: كنت آتي أهلي في دبرها، وسمعت قول الله ﴿نِسَاؤُكُمْ حَرْثٌ لَّكُمْ﴾ فظننت أن ذلك لي حلال، فقال: يا لُكع، إنما قوله ﴿أَنْتَ شِئْتُمْ﴾ قائمة، وقاعدة، ومقبلة، ومديرة، في أقبالهن، لا تعد ذلك إلى غيره^(٢).

٥- وعن بهز بن حكيم عن أبيه عن جده قال: قلت: يا نبي الله، نساؤنا ما تأتي منها وما نذر؟ قال: «حَرْثُك، ائت حرثك أنى شئت، غير ألا تضرب الوجه ولا تُقَبِّح، ولا تَهْجُرَ إلا في البيت، وأطعم إذا طَعِمْتَ، واكسُ إذا اكتسيت، كيف وقد أفضى بعضكم إلى بعض، إلا بما حل عليها»^(٣).

(١) «المسند» (٢٦٦٠١، ٢٦٦٤٣، ٢٦٦٩٨، ٢٦٧٠٦) وابن أبي شيبة (٢٣٠/٤) والترمذي (٢٩٧٩) وهو حديث صحيح كما في «صحيح سنن الترمذي» (٢٣٨) وأخرجه الدارمي (١١١٩) والطحاوي في «شرح مشكل الآثار» (٦١٢٩) والطبري في تفسير الآية، وقال محققو «المسند»: إسناده حسن من أجل عبد الله بن عثمان بن خثيم، وبقيته رجاله ثقات رجال الصحيح.

(٢) أخرجه عبد بن حميد كما في «الدر المنثور» (٥٩٧/٢).

(٣) حديث حسن صحيح، «صحيح سنن أبي داود» (١٨٧٦، ١٨٧٧) و«المسند» (٢٠٠٣٠، ٢٠٠٤٥) والنسائي في «الكبرى» (٩١٦٠).

فأتوهن في محل الحرث؛ يعني: بذر الولد بالنطفة في قُبُل المرأة؛ لأن الدبر ليس محلاً لبذر الأولاد كما قال تعالى: ﴿فَالْكَنَ بَشْرُوهُنَّ وَابْتَعُوا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ﴾ [البقرة: ١٨٧] أي: بأشروهن في محل ابتغاء الولد، وهو القُبُل من أي اتجاه كان دون الدُّبُر.

وتحويل الرُحُل الذي جاء في السؤال الذي في الحديث الأول، معناه: الإتيان في المحل المعتاد للمرأة من جهة ظهرها، وهو ما يتفق مع سياق الآية.

٥- وعند أبي داود من حديث ابن عباس رضي الله عنه أن أهل الكتاب كانوا لا يأتون النساء إلا على حَرْف (أي: على جنب) فقلّدهم حي من الأنصار، فلما قدم المهاجرون تزوج رجل منهم بامرأة من الأنصار، فأخذ يتلذذ بها مقبلة ومدبرة ومستلقية كما كانت قريش تفعل في مكة، فقالت له: إنا كنا نُؤْتَى على حَرْف، فاصنع ذلك وإلا فاجتنبني، فبلغ ذلك رسول الله ﷺ فأنزل الله الآية يبيح الوطء في موضع الولد مقبلة أو مضطجعة أو مدبرة أو مستلقية في مكان الحرث، لا مكان الفرث^(١)

٦- ومثل ذلك: كان أهل حيٍّ من قريش يَشْرَحُونَ النساء شَرْحًا (أي: يطوّوهن مقبلات ومدبرات ومستلقيات)، فلما قدم المهاجرون المدينة، تزوج رجل منهم امرأة من الأنصار، فذهب يصنع بها ذلك، فأنكرت عليه، وقالت: إنما كنا نُؤْتَى على حرف، فاصنع ذلك، وإلا فاجتنبني، فبلغ أمرهما النبي ﷺ فأنزل الله الآية^(٢).

وإتيان المرأة على حرف هو أستر شيء بالنسبة لها.

٧- وعن زيد بن أسلم عن ابن عمر رضي الله عنه أن رجلاً أتى امرأته في دبرها (أي: في قُبُلها من جهة دبرها) فوجد في نفسه من ذلك وجداً شديداً؛ فأنزل الله الآية^(٣).

٨- وسئل نافع مولى ابن عمر رضي الله عنه عن هذه الآية، فقال: كنا معشر قريش نُجِيبِي النساء، فلما دخلنا المدينة ونكحنا نساء الأنصار، أردنا منهن مثل ما كنا نريد، فإذا هن قد كرهن ذلك وأعظمْنه، وكان نساء الأنصار قد أخذن بحال اليهود، إنما يؤتَيْن على جنوبهن؛

(١) يُنْظَر: «سنن أبي داود» برقم (٢١٦٤) بإسناد حسن و«المعجم الكبير» (١١/٧٧).

(٢) جاء هذا في حديث حسن كما في «صحيح سنن أبي داود» (١٨٩٦) وهذا من الحديث السابق.

(٣) «سنن النسائي الكبرى» برقم (٨٩٨١) والطبري (٣/٧٥٣).

فأنزل الله الآية^(١).

٩- وسألت امرأة حفصة رضي الله عنها فقالت: إن امرأة أتنها فقالت: إن زوجي يأتيني مُجَبَّةً ومستقبلة، فكرهته، فبلغ ذلك رسول الله ﷺ فقال: «لابأس إذا كانت في صِمَام واحد»^(٢).

تنظيم النسل:

قيل: بجواز العزل أخذًا من الآية كما قال ابن عباس رضي الله عنهما: حرثك إن شئت فعطش، وإن شئت فارو^(٣).

١- عن جابر رضي الله عنه قال: كنا نغزل والقرآن ينزل، فبلغ ذلك رسول الله ﷺ فلم ينهنا عنه^(٤).

٢- وعن أبي سعيد رضي الله عنه قال: سئل رسول الله ﷺ عن العزل؟ فقال: «مِنْ كل الماء يكون الولد، وإذا أراد الله خلق شيء لم يمنعه شيء»^(٥).

٣- وعن جابر رضي الله عنه أن رجلاً أتى النبي ﷺ فقال: إن لي جارية، وأنا أطوف عليها، وأنا أكره أن تحبل، فقال: اعزل عنها إن شئت، فإنه سيأتيها ما قُدِّرَ لها، فذهب الرجل، فلم يلبث إلا يسيرًا، ثم جاء فقال: يا رسول الله، إن الجارية قد حملت فقال: «قد أخبرتك أنه سيأتيها ما قُدِّرَ لها»^(٦).

٤- وعن جابر أيضًا قال: قلنا: يا رسول الله، إنا كنا نغزل، فزعمت اليهود أنها المؤودة الصغرى؛ فقال: «كذبت اليهود، إن الله إذا أراد أن يخلقه لم يمنعه»^(٧).

(١) «سنن النسائي الكبرى» برقم (٨٩٧٨) قال ابن كثير: وهذا إسناد صحيح، وأخرجه ابن مردويه والطبراني عن أبي النضر كما في «الدر المنثور» (٦٠٦/٢).

(٢) «مسند أبي حنيفة» برقم (١٠٢) ص ١٣٧.

(٣) عبد الرزاق (١٢٥٢٢) والبيهقي (٢٣٠/٧).

(٤) يُنْظَرُ: «صحيح مسلم» (١٤٤٠) و«صحيح البخاري» (٥٢٠٩) وعبد الرزاق (١٢٥٦٦) وابن أبي شيبة (٤/٢١٩) والترمذي (١١٣٧) والنسائي في «الكبرى» (٩٠٩٣) وابن ماجه (١٩٢٧).

(٥) مسلم (١٤٣٨) والبيهقي (٢٢٩/٧).

(٦) مسلم (١٤٣٩) وأبو داود (٢١٧٣) والبيهقي (٢٢٩/٧) وعبد الرزاق (١٢٥٥١) وابن أبي شيبة (٤/٢٢٠).

(٧) حديث صحيح كما في «صحيح سنن الترمذي» (٩٠٨) والنسائي في «الكبرى» (٩٠٧٨) وعبد الرزاق (١٢٥٥٠).

إتيان المرأة في دبرها :

وقد حرم الإسلام إتيان النساء في أدبارهن تحريمًا مأخوذًا من الآية الكريمة: ﴿فَأَتَوْهُنَّ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ اللَّهُ﴾ أي: في المكان الذي أعدّه الله لذلك.

وأجمع العلماء على تحريم إتيان النساء في أدبارهن.

وصَحَّحَ الأحاديث عن رسول الله ﷺ بتحريم ما يشبه اللواط؛ وهو فعل اللواط بالمرأة، بإتيانها من دبرها، صح ذلك في عدة أحاديث.

١- فعن أبي هريرة رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ أنه قال: «ملعون من أتى امرأة من دبرها»^(١).

٢- وأنه يكفر بما أنزل على محمد ﷺ كما في حديث أبي هريرة كذلك: «مَنْ أَتَى امْرَأَتَهُ وَهِيَ حَائِضٌ، أَوْ أَتَاهَا فِي دَبْرِهَا؛ فَقَدْ كَفَرَ بِمَا أَنْزَلَ عَلَى مُحَمَّدٍ»^(٢).

٣- وعن أبي هريرة أيضًا أن النبي ﷺ قال: «إِنَّ الَّذِي يَأْتِي امْرَأَتَهُ فِي دَبْرِهَا لَا يَنْظُرُ اللَّهُ إِلَيْهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ»^(٣).

٤- وعن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده أن النبي ﷺ قال: «تِلْكَ اللَّوْطِيَّةُ الصَّغْرَى»^(٤).

وهو من أحاديث الوعيد والترهيب؛ وذلك لأنه تَرَكَ موضع الحرث والنسل، وأتى موضع الغائط.

(١) حديث حسن كما في «المسند» (٩٧٣٣، ١٠٢٠٦) وأبي داود (٢١٦٢) والنسائي في «الكبرى» (٩٠١٥) و«صحيح سنن أبي داود» (١٨٩٤).

(٢) «المسند» (٤٠٨/٢) برقم (٩٢٩٠، ٩٥٦١) حديث محتمل للتحسين و«صحيح سنن أبي داود» (٣٣٠٤) و«صحيح سنن ابن ماجه» (٦٣٩) وأبي داود برقم (٣٩٠٤) والترمذي برقم (١٣٥).

(٣) «المسند» (٧٦٨٤) حديث حسن، رجاله ثقات وابن أبي شيبة (٢٥٣/٤) وأبو داود (٢١٦) و«سنن النسائي الكبرى» (٩٠١١، ٩٠١٤) وهو حديث صحيح كما في «صحيح سنن ابن ماجه» (١٥٦٠)، بلفظ (لا ينظر الله إلى رجل جامع امرأته في دبرها).

(٤) أخرجه عبد الله بن أحمد كما في «المسند» (٦٩٦٨) و(٦٧٠٦) والبيهقي (٥٣٨٣) قال محققو «المسند»: إسناده حسن، وقد اختلف في رفعه ووقفه، والموقوف أصح، وأخرجه النسائي في الكبرى (٨٩٩٧) والطيلوسي (٢٢٦٦) والبخاري (١٤٥٥).

وقد ختم الله الآية بقوله: ﴿وَقَدِّمُوا لِأَنفُسِكُمْ﴾ أي: قدموا لطلب الولد، وعند الجماع؛ بذكر اسم الله سبحانه، وقدموا لأنفسكم أعمالاً صالحة.

وفي الصَّحِيحَيْنِ عن ابن عباس أن النبي ﷺ قال: «لو أن أحدكم إذا أتى أهله فقال: بسم الله اللهم جنبنا الشيطان، وجنب الشيطان ما رزقتنا، فإنه إن يُقدر بينهما ولد، لم يضره الشيطان أبداً»^(١)، ومن ذلك أن يباشر الرجل امرأته، فيجامعها على وجه القرية والاحتساب، وتحصيل الذرية الذين ينفع الله بهم.

﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ﴾ أي كونوا ملازمين لتقوى الله تعالى مستعينين به في كل أموركم ﴿وَعَلَّمُوا أَنَكُمْ مُلْكُوهُ﴾ احذروا أن تأتوا شيئاً نهاكم الله عنه، وخافوا عقابه يوم لقائه في يوم الحساب، ﴿وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ أمر من الله تعالى لرسوله أن يبشر المؤمنين بما يسرهم من حسن الجزاء في الآخرة، بعد أن أمرهم بتقواه سبحانه.

الْحُكْمُ التَّشْرِيعِيُّ الثَّامِنَ عَشَرَ: أَحْكَامُ الْإِيمَانِ

٢٢٤- ﴿وَلَا تَجْعَلُوا اللَّهَ عُرْضَةً لِأَيْدِيكُمْ أَنَّ تَبْرَأُوا وَتَتَّقُوا وَتُصْلِحُوا بَيْنَ النَّاسِ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾

القسم يعني تعظيم المقسم به، وتأکید المقسم عليه، وقد أمر الله في هذه الآية بحفظ الإيمان وعدم بذلها، فهي سبحانه عباده أن يجعلوه عرضة لأيمانهم المباحة، بابتذال الحلف في كل صغيرة وكبيرة، ولا تحلفوا على الامتناع من البر والتقوى والإصلاح بين الناس، فلا تجعلوا اسم الله حاجزاً وممانعاً من فعل الخير، ولا تكثروا من الحلف ولا تسرعوا بها ولا تعرضوا الحلف للحنث فيها واستثنى من ذلك البر باليمين، فمن حلف على ترك واجب، وجب عليه أن يحنث فيه، ومن حلف على ترك مستحب، استحب له الحنث فيه، ومن حلف على فعل محرم وجب عليه الحنث فيه، ومن حلف على فعل مكروه استحب له الحنث فيه.

وهكذا تحدثت الآيات عن الحلف بالله ﷻ، فتنهى هذه الآية كل من يجعل يمين الله تعالى حائلاً بينه وبين فعل الخير ألا يفعل ذلك. وكذا من يجعل يمين الله تعالى عرضة له في كل حال؛ فيحلف على الصغيرة والكبيرة،

(١) «صحيح البخاري» برقم (١٤١، ٣٢٧١، ٧٣٩٦) و«صحيح سنن أبي داود» (١٨٩٣) وعبد الرزاق في المصنف (١٠٤٦٥، ١٠٤٦٦) وابن أبي شيبة (٣١١/٤) و«المسند» (١٨٦٧، ١٩٠٨، ٢٥٩٧) ومسلم (١٤٣٤) وأبو داود (٢١٦١) والترمذي (١٠٩٢) و«السنن الكبرى» للنسائي (٩٠٣٠) وابن ماجه (١٩١٩).

بسبب وبدون سبب، فالآية تحتل معنيين:

المعنى الأول: هو تفسير ابن عباس رضي الله عنه لها؛ بأنه: لا تجعلوا الحلف بالله تعالى سبباً مانعاً لكم من فعل الخير والبر، وصلة الرحم والتقوى والإصلاح بين الناس، كأن يحلف الإنسان أنه لا يتصدق على فلان، أو لا يصل قريبه أو رحمه، أو لا يُحدّث زيداً من الناس، أو يمنع فضله وخيره أو إحسانه وبره عن فلان، ونحو ذلك، فإذا دُعي إلى فعل شيء مما ذكر احتج بأنه أقسم عليه، فيكون اليمين حجةً مانعةً له من فعل الخير.

قال ابن عباس رضي الله عنه يقول الله تعالى: لا تجعلني عرضة ليمينك ألا تصنع الخير، ولكن كُفِّر عن يمينك واصنع الخير^(١).

وعلى الحالف في مثل هذه الأحوال أن يَحْتَنَ في يمينه ويُكفِّر عنه، ويفعل أعمال البر، فالله سميع لأقوالكم، عليم بجميع أحوالكم، فلا تجعلوا يمين الله تعالى سبباً مانعاً من فعل الخير، ولا سبباً لارتكاب الإثم والمعصية.

نزلت هذه الآية في عبد الله بن رواحة رضي الله عنه، حلف ألا يكلم زوج أخته النعمان بن بشير، ولا يُصلح بينه وبين زوجته.

وفي أبي بكر الصديق رضوان الله عليه حين حلف أن يقطع نفقته عن قريبه مسطح بن ثابت، بعد أن خاض في حادثة الإفك مع مَنْ خاض؛ فأنزل سبحانه: ﴿وَلَا يَأْتَلِ﴾ أي: لا يحلف ﴿أُولَ الْأَفْضَلِ مِنْكَ وَالسَّعَةِ﴾ والمقصود أبي بكر رضوان الله عليه، وكل مَنْ تنطبق عليه الآية ﴿أَنْ يُؤْتُوا أُولَى الْقُرْبَى وَالْمَسْكِينِ وَالْمُهَاجِرِينَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلِيَعْفُوا وَلِيَصْفَحُوا﴾ [سورة النور: ٢٢] دعوة لهم إلى العفو والصفح عمن أساء، لا سبباً لو كان رحمك أو قريبك أو جارك، فالله سبحانه يقول: ﴿وَلِيَعْفُوا وَلِيَصْفَحُوا أَلَا تُحِبُّونَ أَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ﴾.

قال أبو بكر لما نزلت هذه الآية من سورة النور: بلى، أحب أن يغفر الله لي، وواصل أبو بكر صلته وبره ونفقته على قريبه (مسطح)؛ استجابةً لأمر الله سبحانه.

فإذا حَلَفَ الإنسان على أن يمتنع من فعل خير، أو أن يرتكب إثماً، فالمطلوب منه أن

(١) الطبري (٤/ ٨) وابن أبي حاتم (٢١٤٥) والبيهقي في «السنن» (٣٣/ ١٠).

يبحث في يمينه، بأن يأتي الذي هو خير ويُكفر عنه.

كما في صحيح مسلم وغيره عن أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «من حلف على يمين فرأى غيرها خيراً منها فليكفر عن يمينه وليأت الذي هو خير»^(١).

قال أبو داود: والأحاديث عن النبي ﷺ كلها: «فليكفر عن يمينه»^(٢).

من ذلك ما جاء عن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إني والله - إن شاء الله - لا أحلف على يمين فأرى غيرها خيراً منها إلا أتيت الذي خير وتحللنتها»^(٣).

وعن مالك الجُشَمي قال: قلت: يا رسول الله، يأتيني ابن عمي، فأحلف ألا أعطيه، ولا أصله؟ قال: «كُفِّر عن يمينك»^(٤).

فَبِرُّ اليمين أدبٌ مع الله تعالى، والأعمال الصالحة مرضاةً لله تعالى، وقد أمر الله تعالى بتقديم مرضاته على الأدب مع اسمه.

المعنى الثاني للآية: ﴿وَلَا تَجْعَلُوا اللَّهَ عُرْضَةً لِأَيْمَانِكُمْ﴾ أنه لا يصح للمسلم أن يُكثر الحلف بالله، وأن يُعرض يمين الله ﷻ إلى كل صغيرة وكبيرة، سواء أُطلب منه الحلف أو لا.

وقد ذم الله سبحانه كثير الحلف بالله، فقال سبحانه: ﴿وَلَا تَطْغَ كُلَّ حَلْفٍ مَّهِينٍ﴾ [القلم: ١٠] ووصفه الله تعالى في الآية بالمهانة والذلة والحقارة.

فالشخص الذي يتبادر على لسانه دائماً الحلف بالله شخصٌ في غالب الحال غير صادق في كلامه، وكأنه يستشعر الكذب بين جنبيه، وهو في الوقت ذاته مستخفٌ بِجَنَابِ الله سبحانه، فهو يؤكد كلامه بالحلف؛ لأنه غالباً ما يكون كذباً، وفي كلامه ريبةٌ، وهو يعتقد

(١) «صحيح مسلم» برقم (١٦٥٠) ومالك (٤٧٨/٢) والترمذي (١٥٣٠) والنسائي في «الكبرى» (٤٧٢٢) وعن عدي بن حاتم في مسلم (١٦٥١) وابن ماجه (٢١٠٨) والنسائي (٣٧٩٤).

(٢) أبو داود برقم (٣٢٧٤).

(٣) البخاري (٣١٣٣، ٧٥٥٥) ومسلم (١٦٤٩) وأبو داود (٣٢٧٦) والنسائي (٣٧٨٩) وابن ماجه (٢١٠٧).

(٤) حديث صحيح كما في «صحيح سنن ابن ماجه» (١٧١٥) والنسائي (٣٧٩٧). وانظر حديث أبي الأحوصي عن أبيه في المسند (١٧٢٢٨) بإسناد صحيح ورجال ثقات، والبخاري في خلق أفعال العباد ص ٥٩.

أن الطرف المقابل لن يصدق قوله، فيَقْوِي كلامه بالحلف، فإذا كان كاذبًا يكون قد أتى أمرين من الإثم والفجور؛ الكذب: وهو في حد ذاته كبيرة من الكبائر، ثم تعضيده لهذا الكذب بالحلف بالله سبحانه.

فلا ينبغي أن يُكثر المسلم من الحلف بالله تعالى، ولا يمنع نفسه من أعمال البر والتقوى والإصلاح بين الناس بالحلف بالله، ولا يحلف على ارتكاب إثم، أو ترك طاعة، وإنما يكون الحلف في مقام الشهادة أمام القاضي ونحوه عندما يُطلب منه ذلك فيجوز الحلف، أو لشخص يُنكر كلامك ويريد منك اليمين، أما في غير ذلك فلا ينبغي أن يتبرع المرء بالحلف بالله تعالى في كل شيء، ويتعجل في الإتيان به، ويجعله على لسانه دائمًا.

لَغُوَ الْيَمِينِ لَهُ مَعْنَيَانِ

٢٢٥- ﴿لَا يُؤْخَذُكُمْ^(١) اللَّهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ وَلَكِنْ يُؤْخَذُكُمْ^(١) بِمَا كَسَبَتْ قُلُوبُكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ﴾

المعنى الأول: ما يجري على اللسان غالبًا بدون عزم على الحلف وبدون قصد له، بل يسبق اللسان إليه على عجلة وسرعة، من غير قصد ولا عزم على اليمين، ومن غير أن يترتب على اليمين إحقاق باطلٍ أو إبطال حق.

فالله تعالى لا يعاتبكم بسبب أيمانكم التي تحلفونها بدون قصد، كأن يحلف الإنسان على استضافة شخص مثلاً، أو يكون على الطعام فيحلف على الضيف أن يزداد منه، أو يقترب ليأكل، فيقول: لا والله، وبلى والله، تأكل هذه، أو تنزل عندنا، ونحو ذلك، من أيمان الكرم ونحوها، وإنما المؤاخذة على ما قصده القلب.

أخرج مالك بسنده عن عائشة رضي الله عنها أنها قالت: لغو اليمين قول الإنسان: لا والله، وبلى والله، وكلا والله^(٢).

(١) قرأ ورش وأبو جعفر بإبدال همزة (لا يؤخذكم) و (ولكن يؤخذكم) واوًا خالصة وصلًا ووقفًا، وكذا حمزة عند الوقف، وحققها غيرهم.

(٢) «الموطأ» (٤٧٧/٢) وأبو داود برقم (٣٢٥٤) وصححه الألباني برقم (٢٧٨٩) في «صحيح سنن أبي داود» وابن حبان (٤٣٣٣) ومن طرق أخرى عن عبد الرزاق في «المصنف» (١٥٩٥١) والبخاري (٦٦٦٣) والشافعي في «شفاء العي» (٢٤٥) وغيرهم.

وَمِنْ أَيْمَانِ اللَّغْوِ: ما يكون في شدة الغضب؛ لقوله ﷺ: «لا يمين في غضب»^(١).

ومنها: الحلف على فعل المعصية أو ترك طاعة، وقد ورد في ذلك آثار كثيرة، منها ما صح عن عبد الله بن عمرو ؓ أن رسول الله ﷺ قال: «مَنْ نَذَرَ فِيمَا لَا يَمْلِكُ فَلَا نَذَرَ لَهُ، وَمَنْ حَلَفَ عَلَى مَعْصِيَةِ اللَّهِ فَلَا يَمِينُ لَهُ، وَمَنْ حَلَفَ عَلَى قِطْعَةٍ رَحِمَ فَلَا يَمِينُ لَهُ»^(٢).

وكل يمين وصل المرء به كلامه من غير قصد أوجبه على نفسه، ولا تعتمد له فهو لغو، ومن ذلك ما كان في الهزل والمرء والخصومة، أو كان عن نسيان.

والمعنى الثاني: أن يحلف المرء على شيء مضى يرى أنه صادق فيه، ثم يتبين خلافه، هذا لون من اللغو، الذي لا يؤاخذ الله عليه، وليس فيه كفارة.

ومثال يمين اللغو: كمن يحلف أن في جيبه عشرة قروش مثلاً، وهو يعتقد صحة ما قال، ثم تبين أنها تسعة أو أحد عشر، فهذا هو يمين اللغو.

قال تعالى: ﴿لَا يُؤَاخِذُكُمُ اللَّهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ وَلَكِنْ يُؤَاخِذُكُمْ بِمَا كَسَبَتْ قُلُوبُكُمْ﴾ وفي الآية الأخرى ﴿بِمَا عَقَّدْتُمُ الْأَيْمَانَ﴾ [المائدة: ٨٩].

أخرج عبد الرزاق بسند صحيح عن مجاهد في اليمين اللغو: هو الرجل يحلف على الشيء يرى أنه كذلك وليس كذلك.

اليمين المنعقدة:

وهي ما فيه كفارة: فهو ما كان عن قصد، كأن يحلف على أن يفعل أو لا يفعل شيئاً مباحاً، ثم يخالف ما حلف عليه. فإن حلف على شيء في المستقبل، ثم فعل ما هو خلافه، فهذا اليمين قد اكتسبه الإنسان

(١) إسناده صحيح عن ابن عباس، «تفسير الطبري» رقم (٤٤٣٥) قال الشيخ أحمد شاكر: لم أجده في مكان آخر.

(٢) حديث رقم (٤٤٥٢) في «تفسير الطبري»، رواه الحاكم في «المستدرک» (٣٠٠/٤) وقال: صحيح الإسناد ووافقه الذهبي، والبيهقي في «السنن»، ومعنى الحديث ثابت مجموعاً ومفرقاً من أوجه كثيرة.

وحنث فيه، وهو يُوجب الكفارة، وهي إطعام عشرة مساكين، كما جاء في سورة المائدة: ﴿فَكَفَّرْنَاهُ بِإِطْعَامِ عَشْرَةِ مَسْكِينٍ مِنْ أَوْسَطِ مَا تُطْعَمُونَ أَهْلِيكُمْ أَوْ كِسْوَتُهُمْ أَوْ تَحْرِيرُ رَقَبَةٍ﴾ [المائدة: ٨٩]، فمن عَجَزَ عن هذه الثلاث فليصم ثلاثة أيام؛ لقوله تعالى: ﴿فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ ذَلِكَ كَفَرَةُ أَيْمَانِكُمْ إِذَا حَلَفْتُمْ﴾.

وفي سورة المائدة قال سبحانه: ﴿وَاحْفَظُوا أَيْمَانَكُمْ﴾ لا تستعملوا اسم الله كثيراً في الحلف، بداعٍ وبغير داعٍ وقد ختم الله الآية التي معنا بقوله: ﴿وَاللَّهُ عَفُورٌ﴾ لمن تاب ﴿حَلِيمٌ﴾ بمن عصاه حيث لم يعاجله بالعقوبة.

واليمينُ لا تنعقد إلا بالله تعالى، وبأسمائه، وصفاته، والحلف بغير الله تعالى لا تنعقد يميناً، ولا كفارة لها، ولكنها تُوقع في الشرك بالله تعالى، وهذا أعظم من الحنث في اليمين.

اليمين الغموس: أما إذا حلف الإنسان على شيء مضى وهو يعلم أنه كاذب، أو حلف يميناً زوراً؛ ليقطع به حق امرئ مسلم، أو يأخذ ما لا يحل له، فهذه هي اليمين الغموس، وهي من أكبر الكبائر، وسميت كذلك؛ لأنها تغمس صاحبها في النار، وعند الشافعي فيها كفارة يمين، ولا كفارة فيه عند غيره إلا بالتوبة النصوح.

فالأيمان إذاً ثلاثة:

١- يمين لغو: وهو ما لم يُقصد به الكذب مع اعتقاد الصدق فيه، وهو يقابل ما كسبته القلوب، وقد أُلغيت المؤاخذه عن اللغو، وثبتت فيما كسبته القلوب.

٢- ويمين منعقدة: وهي الحلف على شيء في المستقبل، وفيها الكفارة حال وقوع خلاف ما حلف عليه.

٣- ويمين غموس: وهو تعمد الكذب على شيء مضى أو يقطع بها حق امرئ مسلم.

الْحُكْمُ التَّشْرِيعِيُّ التَّاسِعُ عَشَرَ: الْإِيلَاءُ

٢٢٦- ﴿لِّلَّذِينَ يُؤَلُّونَ مِن نِّسَابِهِمْ تَرَبُّصُ أَرْبَعَةِ أَشْهُرٍ فَإِنْ فَاءُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾

ومن أشهر الأيمان التي تحول بين البر والتقوى والإصلاح، أيمان الرجال على مهاجرة نسائهم، وقد كان الرجل في الجاهلية إذا طلب شيئاً من امرأته فلم تفعله يحلف أنه لا يقربها (أي: لا يجامعها بالسنة أو الستتين أو أكثر من ذلك أو أقل)، ويسمى هذا الفعل بالإيلاء، وقد آلى النبي ﷺ من نسائه شهراً.

وهذه الآية تتعلق بيمين يخصص الزوجة في حالة خاصة، وهو ترك الوطء لها مطلقاً أو مقيداً بأقل من أربعة أشهر أو أكثر، فمن حلف ألا يطأ زوجته أقل من أربعة أشهر، فإن حث فيه كفر، وإن أتم يمينه فلا شيء عليه، وإن حلف ألا يطأها أبداً أو مدة تزيد على أربعة أشهر، فلزوجه الحق في أنه لا زيادة على أربعة أشهر، فيما أن يعاشرها معاشرة الأزواج عند تمام الأشهر الأربعة، وعليه كفارة يمين، وإن امتنع أُجبر على الطلاق.

والإيلاء: هو الحلف على ترك وطء الزوجة، أو ترك كلامها ومعاشرتها معاشرة الأزواج؛ فتركها معلقة لا هي متزوجة ولا هي مطلقة، سواء أكان ذلك بسبب غضب وسوء عشرة ومضارة، أو كان عن رضى وقد خصه بعضهم بحالة الغضب والإضرار، قال ابن عباس: الإيلاء أن يحلف بالله ألا يجامعها أبداً^(١)

والصحيح أن كل يمين منعت الجماع أكثر من أربعة أشهر فهي إيلاء، وهذه الأشهر الأربعة هي التي يمكن للمرأة أن تصبر على فراق الرجل فيها، فإن مضت الأشهر الأربعة؛ فعلى الرجل أحد أمرين: إما أن يعود إلى زوجته ويعاشرها بالمعروف معاشرة الأزواج، وإما أن يطلقها بالمعروف.

وفي هذا يبين سبحانه للذين يحلفون على نسائهم ألا يقربوهن مدة أربعة أشهر، ولو حلف أن لا يقربها مطلقاً، أو العمر كله، أو سنوات معينة، فإنها لا تزيد عن أربعة أشهر؛ لأن في هذا مضارة للمرأة وتعريضاً لها بالفاحشة.

﴿إِنْ فَاءُوا﴾ أي: إن رجع الرجل إلى زوجته وعاشرها معاشرة الأزواج قبل فوات الأشهر الأربعة، فراجعها بالجماع أو اللسان ﴿فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ﴾ لِمَا وقع منهم من الحلف؛

(١) الشافعي في «شفاء العي» (١٣٨) وعبد الرزاق (١١٦٠٨) والبيهقي (٣٨٠/٧).

بسبب رجوعهم ﴿رَجِعُوا﴾ بهم؛ حيث لم يؤاخذهم على سوء فعلهم.
قال الحسن: إذا آلى الرجل من امرأته، ثم وقع عليها قبل الأربعة الأشهر؛ فليس عليه كفارة؛ لأن الله تعالى قال: ﴿إِنْ قَاءُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾^(١) أي: لتلك اليمين.

وتحديد مدة الإيلاء بأربعة أشهر؛ لما أخرجه مالك عن عبد الله أو عمرو بن دينار أن عمر رضي الله عنه خرج ليلة يطوف بالمدينة يتعرف على أحوال الناس، فمر بدار فسمع امرأة بها تنشد:
تَطَاوَلَ هَذَا اللَّيْلُ وَاسْوَدَّ جَانِبُهُ وَأَرْقَنِي أَلَّا خَلِيلَ الْأَعْبُهِ
فَوَاللَّهِ لَوْلَا اللَّهُ أَنِّي أُرَاقِبُهُ لَحُرَّكَ مِنْ هَذَا السَّرِيرِ جَوَانِبُهُ
فاستدعاها عمر، من الغد، فأخبرته أن زوجها قد أرسل إلى العراق، فاستدعى عمر نساءه فسألهن عن المدة التي تستطيع المرأة أن تصبر على فراق زوجها، فقلن: شهران، ويقل صبرها ثلاثة أشهر، وينفذ في أربعة، وقيل: إنه سأل ابنته حفصة، فأمر الفاروق قواد الأجناد ألا يُمسكوا الرجل في الغزو أكثر من أربعة أشهر، فإذا مضت، استرد الغازين، ووجه قوماً آخرين^(٢).

قال الفخر الرازي: كان الرجل في الجاهلية لا يريد المرأة، ولا يحب أن يتزوجها غيره، فيحلف أن لا يقربها، فكان يتركها، لا أيماً، ولا ذات بعل، والغرض مضارة المرأة، ثم إن أهل الإسلام كانوا يفعلون ذلك؛ فأنزل الله تعالى يُمهّل الزوج أربعة أشهر حتى يَتَرَوَّى ويتأمل، إن رأى المصلحة في المفارقة أو المراجعة.

وهذه المدة هي مهلة أيضاً؛ لتأديب المرأة بالهجر؛ لإصلاح ما عسى أن يكون نقصاً من جانبها.

وعند الأحناف أن الطلاق يقع بمجرد انتهاء المدة، وعند الجمهور أنه يرجع للقاضي؛ لخيره ويمهله، أو يطلقها، ولا يقع الطلاق بانتهاء المدة.

١- روى مالك عن نافع عن عبد الله بن عمر رضي الله عنه أنه قال: إذا آلى الرجل من امرأته،

(١) عبد الرزاق (١١٧٠٨) والطبري (٦١/٤).

(٢) ذكرها أبو الوليد الباجي في «شرح المنتقى على الموطأ» وقد أخرجه البيهقي في «السنن» من طريق مالك (٢٩/٩) وذكره ابن كثير في تفسيره للآية وابن أبي الدنيا في كتاب «الأشراف» (٢٢٩).

لم يقع عليه طلاق، وإن مضت أربعة أشهر حتى يوقف، فإذا أن يطلق، وإذا أن يفى^(١). ومعنى يوقف: أي أنه عند انقضاء الأشهر الأربعة فللزوجة مطالبة، إما بالجماع، وإما الطلاق، ويجبره القاضي على ذلك لئلا يضار بها.

٢- وعن عمر بن الخطاب، وعثمان بن عفان، وعلي بن أبي طالب، وزيد بن ثابت، وابن مسعود، وابن عمر، وابن عباس، رضي الله عنهم قالوا: الإيلاء تطليقة بائنة، إذا مرت أربعة أشهر قبل أن يفى ففيه أملك بنفسها^(٢).

٣- وقال ابن مسعود رضي الله عنه: إذا آلى الرجل من امرأته، فمضت أربعة أشهر، ففيه تطليقة بائنة، وتعتد بعد ذلك ثلاثة قروء، ويخطبها زوجها في عدتها، ولا يخطبها غيره، فإذا انقضت عدتها خطبها زوجها وغيره^(٣). قال تعالى:

٢٢٧- ﴿وَإِنْ عَزَمُوا الطَّلَاقَ فَإِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾

وإذا حلف الرجل ألا يوطأ زوجته أبداً، أو أكثر من أربعة أشهر، فإن القاضي يأمره بالفى؛ أي: الرجوع إليها أو الطلاق عند انقضاء أربعة أشهر فقط، فإن لم يستجب طلق عنه القاضي طلاقاً واحدة، ولو حلف ألا يوطأها مدة هي أقل من أربعة أشهر فوطئها قبل ذلك لزمه كفارة، وليس هذا من الإيلاء؛ لأنه أقل من مدة الإيلاء، وإن كانت المدة المحلوف عليها أربعة أشهر ثم ووطئها فعليه كفارة يمين عند أكثر أهل العلم.

﴿وَإِنْ عَزَمُوا الطَّلَاقَ﴾ وإن عقدوا عزمهم على الطلاق بالاستمرار في اليمين، وامتنعوا من الرجوع لعدم رغبتهم مع ترك الجماع وهذه هي الطلقة الثانية ﴿فَإِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ لا أقوالهم بمقاصدهم وسيجازيهم على ذلك، وفي هذا تهديد ووعيد لمن يقصد بذلك المضارة.

ويؤخذ من الآية أن الإيلاء خاص بالزوجة لقوله تعالى (من نسائهم) ويؤخذ منها أيضاً وجوب الوطء في كل أربعة أشهر مرة، وبعدها إما أن يجبر على الطلاق أو على المعاشرة الزوجية.

(١) «الموطأ» (٥٥٦/٢) و«صحيح البخاري» برقم (٥٢٩١) والبيهقي (٣٧٧/٧) والطبري (٨٠/٤).

(٢) أخرجه عبد الرزاق (١١٦٣٨، ١١٦٤٥، ١١٦٥٠) والطبري (٦٥/٤) وابن أبي حاتم (٢١٧٢) والبيهقي (٣٧٨/٧).

(٣) عبد الرزاق (١١٦٦٧، ١١٦٦٨) والبيهقي (٣٧٩/٧).

الْحُكْمُ التَّشْرِيعِيُّ الْعِشْرُونَ: عِدَّةُ الْمَرْأَةِ وَحُقُوقُهَا وَوَاجِبَاتُهَا

٢٢٨- ﴿وَالْمُطَلَّقَاتُ يَرْجِعْنَ إِلَىٰ أَنْفُسِهِنَّ ثَلَاثَةَ قُرُوءٍ وَلَا يَحِلُّ لَهُنَّ أَنْ يَكْتُمْنَ مَا خَلَقَ اللَّهُ فِي أَرْحَامِهِنَّ إِنْ كُنَّ يُؤْمِنَنَّ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَيُعْلِنَنَّ أَحَقُّ بِرَوْحِهِنَّ فِي ذَلِكَ إِنْ أَرَادُوا إِصْلَاحًا وَلَهُنَّ مِثْلُ الَّذِي عَلَيْهِنَّ^(١) بِالْمَعْرُوفِ وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٢٨﴾

في هذه الآية خمسة أحكام:

الحكم الأول: عدة ذوات الحيض من النساء.

الحكم الثاني: يحرم على المرأة أن تكتم حملها، أو تزيد أو تنقص في عدتها.

الحكم الثالث: الزوج أحق بامرأته من غيره في الطلاق الرجعي مع وجود الرغبة بينهما.

الحكم الرابع: للمرأة من الحقوق والواجبات مثل ما عليها.

الحكم الخامس: للرجل حق زائد على المرأة.

أولاً: عدة المرأة: فإذا طُلقت المرأة فما هي العدة التي تعتدها قبل أن تتزوج بآخر؟ هذه العدة شرعها الإسلام؛ لبراءة الرحم؛ ولعدم خلط الأنساب؛ ولتأكد المرأة من نقاء رحمها قبل أن ترتبط بشخص آخر؛ ولذلك فإن الله سبحانه يقول: ﴿وَلَا يَحِلُّ لَهُنَّ أَنْ يَكْتُمْنَ مَا خَلَقَ اللَّهُ فِي أَرْحَامِهِنَّ إِنْ كُنَّ يُؤْمِنَنَّ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾ أي: أن على المرأة ألا تخفي أو تكتم الحقيقة التي خلقها الله فيها من عدد مرات الطهر أو الحيض، ولا تكتم الحمل الذي في بطنها، وألا تكذب في ذلك؛ بُعِيَةُ الزواج بآخر، أو لكي تنجو من زوجها، لأن الكتمان يؤدي إلى مفسدات كثيرة، منها: أن الحمل قد يلحق بغير أبيه، فيترتب عليه إرث، وزواج من المحارم، وقطع للأرحام... الخ.

والمرأة المطلقة إن كانت تحيض تعتد بثلاثة أطهار، أو تحيض ثلاث حيضات، تنتظرها وجوباً بعد الطلاق؛ لتأكد من فراغ الرحم من الحمل، ولا يجوز لها أن تتزوج بآخر حتى تنتهي العدة، ولا يحل لها أن تخفي شيئاً من الحمل أو مدة الحيض إن كانت مؤمنة حقاً

(١) ضم يعقوب الهاء من (عليهن)، وكسرها الباقون.

بالله واليوم الآخر.

عن فاطمة بنت قيس رضي الله عنها أنها أتت رسول الله ﷺ فشكت إليه الدم، فقال لها رسول الله ﷺ: «إنما ذلك عرق، فانظري إذا أتاك قُرُوك فلا تصلي، فإذا مرَّ قُرُوك فتطهري، ثم صلي ما بين القرء إلى القرء» قال النسائي: هذا الدليل على أن الإقراء حيض ^(١).

وأخرج الطبري بسند صحيح عن مجاهد قال: لا يحل للمطلقة أن تقول: إني حائض، وليست بحائض، ولا تقول: إني حُبلى، وليست بحبلى، ولا تقول: لست بحبلى، وهي حبلى.

وقال قتادة: كان عادة نساء الجاهلية أن يكتمن الحمل؛ ليلحق الولد بالزوج الجديد.

وعن أسماء بنت يزيد السكن قالت: طُلقت على عهد رسول الله ﷺ ولم يكن للمطلقة عدة؛ فأنزل الله عدة الطلاق ﴿وَالطَّلَاقُ﴾ فكانت أول من أنزلت فيها العدة للطلاق ^(٢).

والقرء: هو الحيض أو الطهر، فإذا تكرر القرء ثلاث مرات، عُلم أنه ليس في رحمها حمل.

قالت عائشة: هل تدرون ما الأقراء؟ الأقراء الأطهار، قال ابن شهاب: سمعت أبا بكر بن عبد الرحمن يقول: ما أدركتُ أحدًا من فقهاءنا إلا وهو يقول هذا، يريد الذي قالت عائشة ^(٣).

وعن علي بن أبي طالب قال: يحل لزوجها الرجعة عليها حتى تغتسل من الحيضة الثالثة وتحل للأزواج ^(٤).

وعدة النساء خمسة أنواع:

(أ) فعدة التي تحيض ثلاثة أطهار أو ثلاث حيضات، ويرجع أن القرء هو الطهر الذي يكون في نهاية الحيض قبل أن يمسها الرجل، فيطلقها وهي طاهرة مستقبلة العدة، كما

(١) عن عائشة في البخاري (٢٢٨) ومسلم (٣٣٣) و «صحيح سنن النسائي» برقم (٢٠٥) وهو في «الموطأ»

(٢/٥٧٦) و «المسند» (٤٢٠/٦) برقم (٢٧٣٦٠) وأبو داود برقم (٢٨٠) وابن ماجه (٦٢٠) وأبي داود (٢٧٩)

وابن ماجه (٦٢١) والترمذي (١٢٥) و «المسند» (٢٤١٤٥) وابن حبان (١٣٥٠).

(٢) أبو داود (٢٢٨١) من طريق يحيى بن صالح عن إسماعيل بن عباس، وهو حديث حسن كما في «صحيح سنن أبي داود» (١٩٩٦) وأخرجه ابن أبي حاتم (٢١٨٦) والبيهقي في «السنن» (٤١٤/٧).

(٣) مالك (٥٧٦/٢) والشافعي في «شفاء العي» (١٩٧) والبيهقي (٤١٥/٧).

(٤) عبد الرزاق (١٠٩٨٣) والبيهقي (٤١٧/٧) والشافعي في «شفاء العي» (١٨٤).

قال تعالى ﴿فَطَلِّقُوهُنَّ لِعَدَّتِهِنَّ﴾ [الطلاق: ١].

وفي حديث ابن عمر: فإن بدا له أن يطلقها فليطلقها طاهرًا قبل أن يمسه، وهذا في بداية العدة.

(ب) فإن كانت حاملاً سواء تُوفي عنها زوجها أو طلقها؛ فعديتها بوضع الحمل؛ لقوله تعالى: ﴿وَأُولَئِكَ الْأَحْمَالُ أَجَلُهُنَّ أَنْ يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ﴾ [الطلاق: ٤].

(ج) فإن كانت صغيرة لم تبلغ سن الحيض، أو كبيرة يائسة انقطع عنها الحيض، فعديتها ثلاثة أشهر، قال تعالى: ﴿وَالَّتِي يَبْسُنَ مِنَ الْمَحِيضِ مِنْ نِسَائِكُمْ إِنْ أَرْبَبْتُمْ فَعِدَّتُهُنَّ ثَلَاثَةُ أَشْهُرٍ وَالَّتِي لَمْ يَحِضْ﴾ [الطلاق: ٤] أي: أن الصغيرة والكبيرة تشتركان في عدة واحدة مدتها ثلاثة أشهر.

(د) والمتوفى عنها زوجها، سواء أدخل بها أم لم يدخل، صغيرة أو آيسة، عدتها أربعة أشهر وعشرة أيام؛ لقوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنْكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا يَتَرَبَّصْنَ بِأَنْفُسِهِنَّ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا﴾ [البقرة: ٢٣٤].

(هـ) وإذا طُلِّقت الأنثى قبل الدخول بها، وبعد العقد عليها، وكانت من ذوات الحيض؛ فليس عليها عدة، قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا نَكَحْتُمُ الْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ طَلَقْتُمُوهُنَّ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَمْسُوهُنَّ فَمَا لَكُمْ عَلَيْهِنَّ مِنْ عِدَةٍ تَعُدُّوهنَّ فَتَمَّعُوهُنَّ وَسَرَّحُوهُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا﴾ [الأحزاب: ٤٩].

إلا إذا تُوفي هذا الشخص الذي عَقَدَ عليها، فعليها أن تعتد عدة المتوفى عنها زوجها؛ كرامة ووفاء لهذا العقد، وليس لبراءة الرحم، أخذًا من عموم آية عدة المتوفى عنها زوجها.

فهذه خمس حالات للمعتدة، ومجملها:

١- ذات الحيض: بثلاث حيضات أو أطهار.

٢- الصغيرة والكبيرة: ثلاثة أشهر.

٣- الحامل: بوضع الحمل.

٤- المتوفى عنها زوجها: أربعة أشهر وعشراً.

٥- المطلقة قبل الدخول بها: لا عدة عليها.

ثانيا: ألا تكتُم المرأة حملها أو حيضها:

﴿وَلَا يَحِلُّ لَهَا أَنْ يَكْتُمَنَّ مَا خَلَقَ اللَّهُ فِي أََرْحَامِهِنَّ﴾ من الحمل أو الحيض أو النفاس أو ما عدا ذلك ﴿إِنْ كُنَّ يُؤْمِنَنَّ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾ والزوج: هو البعل.

قال قتادة: كانت المرأة تكتُم حملها حتى تجعله لرجل آخر؛ فنهاهن الله عن ذلك^(١).

فلا يحل للمرأة إن كانت حاملاً أن تكتُم حملها، ولا يحل لها إن كانت حائضاً أن تكتُم حيضها، ولا يحل لها أن تقول: إني حُبلى، وليست بحُبلى.

ثالثا: حق الرجعة: ﴿وَيُعَوِّلُنَّ أَحَقُّ بِرَّهِنَّ فِي ذَلِكَ﴾

أي: أن أزواجهن أحق بالرجعة أثناء العدة، ما لم تكن بائناً بينونة كبرى فلا رجعة له عليها ﴿إِنْ أَرَادُوا إِصْلَاحًا﴾ وخيراً ببقاء الحياة الزوجية دون قصد الإضرار بها بتطويل مدة العدة أو لِيُتَخَالَعَ أو تُفْدي نفسها منه، فالرجعة بقصد الإضرار حرام، يدل عليه مفهوم الشرط.

قال ابن عباس ؓ: إذا طلق الرجل امرأته طليقة أو تطليقتين وهي حامل؛ فهو أحق برجعته، ما لم تضع حملها، ولا يحل لها أن تكتُم حملها^(٢).

رابعا: حقوق المرأة وواجباتها: ثم قرر القرآن ما للمرأة من حقوق وواجبات، وما عليها من حقوق وواجبات، فبيّن سبحانه أن للنساء على الرجال مثل الذي عليهن للرجال على الوجه المعروف، ومن حق المرأة ما قاله ابن عباس ؓ في معنى الآية: إني أحب أن أتزين لامرأتي كما أحب أن تتزين المرأة لي^(٣).

وفي صحيح مسلم من حديث جابر ؓ أن النبي ﷺ قال في حجة الوداع: «اتقوا الله في النساء؛ فإنكم أخذتموهن بأمانة الله، واستحللتم فروجهن بكلمة الله، ولكم عليهن ألا يوطئن فرشكم (أي: يدخل بيوتكم) أحداً تكرهونه، فإن فعلن ذلك فاضربوهن ضرباً غير

(١) أخرجه عبد الرزاق في تفسيره (٩٢/١) وفي مصنفه (١٠٦٠) والطبري (١١١/٤).

(٢) الطبري (١١٦/٤) وابن أبي حاتم في تفسيره (٢١٩٥) والبيهقي (٣٦٧/٧).

(٣) الطبري (١٢٠/٤) وابن أبي حاتم (٢١٩٦).

مبرح، ولهن عليكم رزقهن وكسوتهن بالمعروف»^(١).

ومن حق المرأة ما جاء في حديث معاوية بن حيدة القشيري أنه سأل النبي ﷺ عن حق المرأة على الزوج؟ قال: «أَنْ تُطْعِمَهَا إِذَا طَعِمْتَ، وَأَنْ تَكْسُوَهَا إِذَا اكْتَسَيْتَ، وَلَا تَضْرِبَ الْوَجْهَ، وَلَا تَقْبَحَ، وَلَا تَهْجُرَ إِلَّا فِي الْبَيْتِ»^(٢).

وقد كان أهل مكة أشد من أهل المدينة على النساء، روى البخاري وغيره عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أنه قال: كنا معشر قريش نغلب النساء، فلما قدمنا على الأنصار إذا قوم تغلبهم نساؤهم، فطفق نساؤنا يأخذن من أدب الأنصار، فصخبْتُ على امرأتي، فراجعني، فأنكرتُ أن تراجعني، قالت: وَلِمَ تُنْكِرُ عَلَيَّ أَنْ أَرَاكَ؟ فوالله إن أزواج النبي ﷺ ليُراجعنه، وإن إحداهن لتهجره اليوم حتى الليل، فراعني ذلك، وقلت: قد خابت مَنْ فعلت ذلك منهن، ثم جمعتُ عليَّ ثيابي، فنزلتُ، فدخلتُ على حفصة، فقلتُ لها: أي حفصة، أتغاضب إحداكن النبي اليوم حتى الليل؟ قالت: نعم، فقلتُ: قد خبت وخسرت^(٣).

وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: كنا في الجاهلية لا نعدُّ النساء شيئاً، فلما جاء الإسلام وذكرهن الله، رأينا لهن بذلك علينا حقاً من غير أن ندخلهن في شيء من أمورنا.

وهذه الآية هي أول آية في إعلان العدل بين الزوجين في الحقوق والواجبات، فقد كان الناس في الجاهلية إذا مات الرجل، كان أولياؤه أحق بامرأته، إن شاء بعضهم تزوجها إذا حلت له، وإن شاؤوا زوجها بمن شاؤوا، وإن شاؤوا لم يزوجوها؛ فتبقى بينهم فهم أحق بها؛ فنزل قول الله تعالى: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا يَحِلُّ لَكُمْ أَنْ تَرِثُوا النِّسَاءَ كَرِهًا﴾ [النساء: ١٩] فأصبح للمرأة كيان، لها حقوق وواجبات بعد ما كانت متاعاً يُورث، ومرجع الحقوق بين الزوجين يرجع إلى المعروف، وهو العادة الجارية بحسب اختلاف الأزمنة والأمكنة والأحوال والأشخاص.

(١) «صحيح مسلم» برقم (١٢١٨) وانظر حديث عمرو بن الأحوص في الترمذي (١١٦٣) والنسائي في «الكبرى» (٩١٦٩) و«صحيح سنن ابن ماجه» (١٥٠٠).

(٢) أبو داود برقم (٢١٤٢). قال الألباني في صحيح سنن أبي داود (١٨٧٥): حسن صحيح.

(٣) البخاري (٢٤٦٨، ٥١٩١) ومسلم (١٤٧٩).

خامساً: للرجال حق زائد على النساء: وللرجال على النساء درجة في الجهاد، والميراث، وحق التعدد، والطلاق، والرجعة، وزيادة القوة البدنية، وحق التأديب، ومنصب النبوة والحكم والإمامة والقضاء، وسائر الولايات، مختص بالرجال، وإن نازع بعضهم فيما عدا النبوة، ومنزلة زائدة من حُسن العشرة، والصحة بالمعروف، ولهم عليهن درجة بالقوامة على البيت، وحق الطاعة بالمعروف ﴿وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ﴾ فالذكورة شرف وكمال، والأنوثة نقص خلقي طبيعي؛ ولذا: فإنها تتجمل بأنواع الزينة والحلي لجبر نقصها كما قال تعالى: ﴿أَوْ مَنْ يُنشِئُ فِي الْحَلِيَّةِ﴾ [الزخرف: ١٨] وكمال جمال الرجل في ذكوره، وهذا أمر من عند الله لا اعتراض عليه من أحد.

ويصح أن يكون المعنى: أن الله تعالى ندب الرجال إلى فضيلة من فضائل الرجولة^(١)؛ وهي أن يتغاضى الرجل عن بعض حقوقه لامرأته؛ ليكونَ صاحب فضل عليها، فإن ذلك من مكارم الأخلاق، ونبيل العزم والتسامي، فيكون الرجل أسمى رتبة ومنزلة في الخلق، وأعلى درجة على امرأته، وهذا من باب العفو عن الحقوق الواجبة لمن وضعها الله تعالى في يده، ومملكه طلاق المرأة وفراقها، وأمره بترك ضرارها، وجعل الإسلام لها حقوقاً تعادل حقوق الرجل ﴿وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ يضع كل شيء في موضعه المناسب، وقد كان الطلاق بيد الرجل؛ لأنه هو الذي يزرع الحقل؛ أي: يضع النطفة في رحم المرأة.

فإذا وجد أن حقله لا يناسب الزرع فلا يرغب عليه، والمرأة مزروع فيها، وليست زارعة، ولو أكره الرجل على البقاء معها ما أمكنه أن يزرع؛ وبالتالي لا يأتي النسل، وهو الغرض الأعظم من النكاح، فكيف يُكره على الإبقاء مع مَنْ لا حاجة له فيها، وكيف تطلقه وهي المنكوحة موضع الحرث؟! وهذا مستفاد من قوله تعالى: ﴿يَسْأَلُكُمْ حَرْثُ لَكُمْ﴾ أيها الرجال.

(١) أشار إلى هذا المعنى الإمام الطبري وعلّق عليه بإعجاب العلامة محمود محمد شاكر (٥٣٧/٤): وأن الرجال ليسوا حرثاً للنساء.

الْحُكْمُ التَّشْرِيعِيُّ الْحَادِي وَالْعِشْرُونَ: الطَّلَاقُ الرَّجْعِيُّ

٢٢٩- ﴿الطَّلَاقُ مَرَّتَانٍ فَإِمْسَاكٌ بِمَعْرُوفٍ أَوْ تَسْرِيحٌ بِإِحْسَنٍ﴾

تتضمن الآيات الأربع التالية هذه الأحكام الأربعة:

الآية الأولى: حكم الطلاق الرجعي والخلع.

وفي الآية الثانية: حكم المطلقة ثلاثاً.

وفي الآية الثالثة: نهى الأزواج من الإضرار بالمرأة في حالة الطلاق أو الإمساك.

وفي الآية الرابعة: منع لأولياء الأمور أن يمنعون بناتهن من الزواج؛ لأي سبب كان عرقي

أو مادي، حيث تقوم الحياة الزوجية على السكن والمودة والرحمة، قال سبحانه: ﴿وَمَنْ ءَاتَيْنَاهُ أَنْ خَلَقْنَاكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلْ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً﴾ [الروم: ٢١].

وقد سَمَّى الله ﷻ العقد الذي يكون بين الزوجين ميثاقاً غليظاً؛ بياناً لحرمة وقداسته،

قال سبحانه: ﴿وَكَيْفَ تَأْخُذُونَهُ وَقَدْ أَفْضَى بَعْضُكُمْ إِلَى بَعْضٍ وَأَخَذْتُ مِنْكُمْ مِيثَاقًا غَلِيظًا﴾ [النساء: ٢١].

وأخرج أبو داود وغيره بإسناد ضعيف عن ابن عمر رضي الله عنهما أن النبي ﷺ قال: «أبغض

الحلال إلى الله الطلاق»^(١)

وبين صلوات الله وسلامه عليه أن الإسلام يتبرأ من كل من يتسبب في فساد المرأة على

زوجها، فقال عليه الصلاة والسلام فيما يرويه أبو هريرة رضي الله عنه: «من خَبَّ عبداً على أهله

فليس منا، ومن أفسد امرأة على زوجها فليس منا»^(٢)

وإذا تمردت المرأة على زوجها، وطلبت منه الطلاق من غير سبب شرعي؛ فإنها لا

(١) حديث ضعيف أخرجه أبو داود (٢١٧٨) والحاكم (١٩٦/١) والبيهقي (٣٢٢/٧) و«ضعيف سنن ابن ماجه» (٤٤١).

(٢) من حديث أبي هريرة في «سنن النسائي الكبرى» (٩١٧٠) وأبو داود (٢١٧٥، ٥١٧٠) و«المسند» (٩١٥٧) وابن حبان (٥٥٦٠، ٥٦٨) ومعنى خبب: أفسد وخدع، قال محققو المسند: حديث صحيح، وهذا إسناد قوي، رجاله رجال الصحيح.

تشم رائحة الجنة.

أخرج أبو داود وغيره عن ثوبان رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «أَيُّمَا امْرَأَةٍ سَأَلَتْ زَوْجَهَا الطَّلَاقَ مِنْ غَيْرِ بَأْسٍ فَحَرَامٌ عَلَيْهَا رَائِحَةُ الْجَنَّةِ»^(١)

وكثيرًا ما تستفز المرأة الرجل، وتحمله على الطلاق.

وإذا كان للزوج أكثر من زوجة، فإن الإسلام قد نهى إحدى الزوجتين أو الزوجات أن تستأثر بالزوج دون الزوجات الأخريات، أو تعمل على طلاق الزوجة الثانية أو غيرها منه.

ونظرًا لأهمية الطلاق، ومراعاة لحرمة البيوت، وحُسن العشرة بين الزوجين، فإن الرجل يؤاخذ على الطلاق، حتى ولو كان هازلًا كأن يقول: إنه كان لا ينوي، أو إنه غير قاصد، فحتى لو كان هازلًا أو غير جاد فإن الإسلام يؤاخذ في هذه الحالة أيضًا.

أخرج أبو داود والترمذي وغيرهما عن أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «ثَلَاثٌ جَدَّهِنَّ جَدٌّ، وَهَزُلُنَّ جَدٌّ، النِّكَاحُ وَالطَّلَاقُ وَالرَّجْعَةُ»^(٢) أي: أن يزوج الإنسان ابنته أو أخته ثم يقول: إنه كان هازلًا، وإذا خُرِجَت الكلمة فلا رجعة فيها.

ومثل الطلاق، الرجعة، بإعادة المرأة إلى عصمة الرجل، ليس في ذلك تلاعب، وكذلك إذا أعتق الإنسان عبدًا أو أمة؛ فليس له في ذلك رجعة، ولو كان هازلًا.

طلاق الغضبان:

ولو أن طلاق الغضبان لا يقع على إطلاقه؛ ما وقع طلاق أحد، فما من إنسان يطلق إلا ويكون في حالة غضب غالبًا، والغضب له حدود شرعية، فإذا كان الإنسان لا يُفرق أثناء غضبه بين التمرة والجمرة، كأن كان يهذي ولا يدري ما يقول، بالخروج من عقله

(١) «سنن أبي داود» برقم (٢٢٢٦) و«المسند» (٢٣٨/٥) برقم (٢٢٣٧٩، ٢٢٤٤٠) وابن ماجه برقم (٢٠٥٥) والترمذي برقم (١١٨٧) والحاكم (٢/٢٠٠) والطبري (٤/٥٦٩) و«صحيح سنن ابن ماجه» (١٦٧٢)، قال محققوا المسند: حديث صحيح، وهذا إسناد رجاله ثقات رجال الصحيح.

(٢) قال الترمذي: حسن غريب، «السنن» (١١٨٤) وأبو داود (٢١٩٤) وابن ماجه (٢٠٣٩) والحاكم (٢/١٩٧) والبيهقي (٧/٣٤٠) وقد حسنه الألباني في «صحيح سنن الترمذي» (٩٤٤)، وحسنه في صحيح سنن أبي داود (١٩٢٠) وفي صحيح سنن ابن ماجه (١٦٥٨) وفي الإرواء (١٨٢٦).

وشعوره، فإنه حينئذ يكون في حالة من الغضب يعتد بها، ولا يقع معها الطلاق، كما جاء في الأثر عن عائشة رضي الله عنها: «لا طلاق ولا عتاق في إغلاق»^(١)

وللغضب درجات متفاوتة، ولا يقع الطلاق إلا في حالة إغلاق العقل؛ ولذا: فالإسلام يأمر المرء إذا كان في حالة غضب أن يُغير وضعه الذي هو عليه، فيخرج من البيت مثلاً، أو يدخل الحمام، أو يغتسل، أو يتوضأ ويصلي، فإنه يذهب ما به من أثر الشيطان.

وبعض الناس يُقسّم أنه لن يأكل الشيء الفلاني، أو لن يشرب الشيء الفلاني، أو لا يكلم فلاناً، أو لا تدخل زوجته بيت فلان، أو نحو ذلك من الأشياء التي فيها فعل شيء أو ترك شيء، ولا دور للمرأة فيها، وهو في كل هذا يحلف بالطلاق على زوجته، والأولى في هذه الحالة أن يحلف بالله تعالى؛ لأن هذا لا دخل للمرأة فيه، فإن سألته بعد الحلف بالطلاق، قال: إنه يحب امرأته، ولا يريد فراقها، إذاً لماذا تحلف بالطلاق؟!

وفي أذهان بعض الناس أنه إذا حلف بالله سبحانه فإن هذا يكون أهون أو أقل في نظر المحلوف له مما لو حلف بالطلاق، وهو في هذه الحالة يكون قد وقع في الشرك من حيث لا يدري؛ لأنه اعتبر أن الطلاق أعظم من الحلف بالله تعالى، وأن الشخص الذي يُحلف له سوف يهتم أكثر إذا هو حلف له بالطلاق؛ فيكون قد أثم وعصى الله سبحانه؛ لأنه اعتبر أن الحلف بالله أهون من الطلاق، وهذا يدخل في دائرة الشرك.

والفتوى الشائعة في هذه الحالة أن هذا يعتبر من باب اليمين بالله، ويكفر عنه كفارة يمين، وهذه الفتوى ليست على إطلاقها كما يفهم ذلك العامة؛ فيتجوّزون في الحلف بالطلاق ويتعمدونه قصداً، ولعل الأرجح أن هذا اليمين طلاق كناية، يرجع الحكم فيه إلى نية الحالف، إن كان قصده الطلاق وقع، وإلا فلا، وكذا الشأن في الطلاق المعلق على حصول شيء أو تركه في المستقبل دون إرادة الطلاق، وإنما أراد المنع من الخروج إلى السوق مثلاً، ويسمى هذا بالتعليق القسمي، أو يكون القصد وقوع الطلاق عند حصول الشرط، ويسمى هذا بالتعليق الشرطي.

(١) أخرجه مسلم (١٤٧٢) وعبد الرزاق (١١٣٣٦) وأبو داود (٢١٩٩) والنسائي (٣٤٠٦) والحاكم (١٩٦/٢) والبيهقي (٣٣٦/٧).

وهذا التعليق بنوعيه يقع طلاقاً عند جمهور العلماء، وأخذ قانون الأحوال الشخصية في أكثر بلاد المسلمين برأي ابن حزم وغيره بعدم الوقوع، وبهذا جرى العمل في لجان الفتوى؛ تخفيفاً على الناس، وجمعاً بين أفراد الأسرة.

والمسلم الذي يحتاط لدينه لا يلجأ إلى الطلاق مطلقاً، إلا في حالة استحالة العشرة بين الزوجين، حيث شرع الطلاق لذلك، وإذا أراد الإنسان أن يحلف على فعل شيء أو ترك شيء، فعليه أن يحلف بالله تعالى، ولا يلجأ إلى لفظ الطلاق حتى لا يقع في محذور، فإذا كان الحالف لا يريد الطلاق فلماذا لا يحلف بالله سبحانه؟! فإن وقع اليمين كفر عنه؛ بإطعام عشرة مساكين، أو كسوتهم أو تحرير رقبة، فمن لم يجد فصيام ثلاثة أيام بدلاً من الحلف بالطلاق أو ما فيه مظنة الطلاق على الأقل.

ألفاظ الطلاق:

وعند الفقهاء: أن الطلاق له ألفاظ صريحة، وألفاظ كناية، والألفاظ الصريحة منها لفظ الطلاق، ولا تأويل فيه، وهو اللفظ الصريح الوحيد عند أبي حنيفة، فلا يعتبر يميناً عنده؛ لأن اليمين يكون بالله وحده، ولا يكون بالطلاق، ومن ألفاظ الطلاق الصريحة أيضاً: الفراق والسراح، هذه الألفاظ الثلاثة: كأن يقول طلقتك، أو فارقتك، أو سرحتك، ألفاظ صريحة في الطلاق لا تؤول تأويلاً آخر.

ورصيد الإنسان في حياته الزوجية طلقتان اثنتان، مرة بعد مرة ﴿الطَّلَاقُ مَرَّتَانٍ﴾ والمراد: أن الطلاق الرجعي يكون مرتين، يطلقها مرة، ويراجعها، ويطلقها مرة أخرى، ﴿فَإِمْسَاكُ مَعْرُوفٍ أَوْ تَسْرِيحُ بِإِحْسَنٍ﴾ في وقت آخر ويراجعها، والطلاق الذي تحصل به الرجعة مرتان، واحدة بعد الأخرى، وعليهما بعد كل طلبة: حسن العشرة، والإمساك بالمعروف بعد مراجعتها، وأداء حقوقها مع حسن المعاملة، وعدم ذكرها بسوء، ومن التسريح بإحسان ألا يأخذ على فراقها شيئاً من مالها، لأنه ظلم، وأخذ للمال دون مقابل.

وهذا الرصيد لحياته الزوجية كلها، فلو قدر أنه سيعيش مع امرأته عشرين عاماً، فرصيده في كل عشرة أعوام طلاق واحد، ولو قدر أنه سيعيش معها أربعين عاماً، فرصيده طلاق واحد كل عشرين عاماً.

الطلاق بالثلاث:

الذي يحلف طلاقاً بالثلاثة دفعة واحدة، أو في ألفاظ متوالية في مجلس واحد، أو بعد أسبوع ونحو ذلك، هذا شخص سفيه قد أتى على رصيده كله، وتجاوزَه، وفعل فعلاً محرماً مبتدعاً في الإسلام، فقد اتفق العلماء على أنه يَحْرُم على الزوج أن يطلق امرأته ثلاثاً بلفظ واحد، أو بألفاظ متتابعة في طهر واحد، وهو طلاق بدعي مخالف للسنة، وقد جرى قانون الأحوال الشخصية في أكثر البلاد الإسلامية على أن الطلاق المقترن بعدد يقع طلقة واحدة، والفتوى المعمول بها على أن الطلاق الثلاث في لفظ واحد يقع طلقة واحدة.

فإن قال: أنت طالق، أنت طالق، أنت طالق، وأراد تأكيد الثانية للأولى، والثالثة للثانية، فهو طلاق واحد، فإن أراد أن ينشئ طلاقاً جديداً في كل مرة، فهي طلقات ثلاث؛ لأنه مستأنف.

صح عن ابن عباس رضي الله عنه أنه قال: كان الطلاق على عهد رسول الله ﷺ وأبي بكر وستين من خلافة عمر، طلاق الثلاثة واحدة، فقال عمر بن الخطاب: إن الناس قد استعجلوا في أمرٍ كانت لهم فيه أناة، فلو أمضيناه عليهم، فأمضاه عليهم^(١)

فالأصل في طلاق الثلاث بلفظ واحد أنه طلقة واحدة، وهو ما عليه الفتوى، ويدل على ذلك أن رُكَّانة طلق امرأته ثلاثاً في مجلس واحد؛ فحزن عليها حُزناً شديداً، فسأله رسول الله ﷺ: «كيف طلقتهَا؟» قال: طلقْتُهَا ثلاثاً، فقال: «في مجلس واحد؟» قال: نعم، قال: «فإنما تلك واحدة فارجعْها إن شئت» فراجعَهَا^(٢)

(١) أخرجه البيهقي (٣٢٩/٧)، وفي المسند (٢٣٨٧) عن ابن عباس، وإسناده ضعيف، قال البيهقي: وهذا إسناده لا تقوم به الحجة، وأخرجه أبو يعلى (٢٥٠٠) وعبد الرزاق (١١٣٣٤) وأبو داود (٢١٩٦) قال الخطاب في معالم السنن (٢٣٦/٣) في إسناده هذا الحديث مقال.

(٢) «المسند» (٢٦٣٦٠) وأبو داود (٢١٩٣) وابن ماجه (٢٠٤٦) والبيهقي في «السنن» (٢٦١/١٠) وابن أبي شيبة (٤٩/٥) والدارقطني في «السنن» (٣٦/٤) والحاكم (١٨٩/٢) وأبو يعلى (٤٤٤) قال محققو المسند: إسناده ضعيف؛ لضعف محمد بن عبيد بن أبي صالح المكي، وبقيّة رجال الإسناد ثقات رجال الصحيح غير محمد بن إسحاق، فقد استشهد به البخاري، وروى له مسلم متابعه، وهو حسن الحديث إذا صرح بالتحديث.

والطَّلقة الثالثة هي التي سُئِلَ عنها النبي ﷺ لَمَّا نَزَلَ قول الله تعالى: ﴿الطَّلَاقُ مَرَّتَانٍ﴾^(١)، وهذه هي البيونة الكبرى التي لا رجعة لها.

وفي الطَّلقة الرجعية الأولى أو الثانية ليس للمرأة أن تَخْرُجَ من بيت الزوجية، فهي امرأته، وله حق الرجعة، فهو أولى بها، ومطلوبٌ أن تَبْقَى أمام عينيه، ومطلوب أن تتجمل له، وأن تتودد إليه، وتُحَسِّنَ مِنْ نَفْسِهَا، ولا تَخْرُجَ من البيت، فهي لا زالت زوجته ﴿لَعَلَّ اللَّهَ يُحْدِثُ بَعْدَ ذَلِكَ أَمْرًا﴾ [الطلاق: ١] أي: أمرًا يدعوهُ إلى مراجعة نفسه ويدعوها إلى مراجعة نفسها، فيعيدها إلى عصمتها ما دامت في العدة.

يراجعها بالقول فيقول: راجعُك، أو يراجعها بالفعل؛ كالتقبيل والضم والوطء، كما يفعل الرجل بأهله، فكل ذلك مراجعة عند جمهور أهل العلم.

ويرى الشافعي أن المراجعة لا تكون إلا بالقول الصريح بمحض اختياره؛ لأن الطلاق يزيل النكاح.

فإن انتهت العدة ولم يراجعها، وكانت في طلاق رجعي، فله أن يراجعها بعقد ومهر جديدين بإذنها وإذن وليها، فإن كان الطلاق بائنًا فليس لها أن تعود إليه إلا إذا تزوجت زوجًا شرعيًا غير مشروط بمدة، فلو قُدر أنها طُلِّقت من زوجها الثاني لسبب ما، حل لزوجها الأول أن يتزوجها بعد العدة.

الإضرار بالمرأة:

وقد كان الرجل في الجاهلية يُطلق امرأته مرات عديدة، فإذا قاربت العدة على الانتهاء راجعها، ثم يطلقها، فإذا أوشكت العدة أن تنتهي راجعها، ثم يطلقها، وهكذا مئة مرة، أو أكثر من ذلك أو أقل، وجاء الإسلام فحدد من عدد الطلقات وجعله اثنتين.

(١) رواه الدارقطني في «السنن» (٤٠٣/٤) عن أنس، والطبري في «التفسير» (٥٤٥/٤) عن سفيان الثوري عن أبي رزين الأسدي، وكذا عبد الرزاق في «التفسير» (٩٣/١) وفي «المصنف» (١١٠٩١) وسعيد بن منصور (١٤٥٧) وابن أبي حاتم (٢٢١٠) والبيهقي (٣٤٠/٧).

وكان الرجل إذا طلق زوجته ثم ارتجعها قبل أن تنقضي عدتها كان له ذلك، وإن طلقها ألف مرة، كلما شارفت على انقضاء عدتها راجعها، ثم قال: والله لا آويك إلي ولا تحلين أبداً.

كما جاء عن عائشة رضي الله عنها قالت: كان الرجل يُطلق امرأته ما شاء له أن يطلقها، ثم يراجعها في العدة، حتى قال رجل لامرأته: والله لا أطلقك فتبيني مني، ولا آويك أبداً، قالت: وكيف ذلك؟ قال: أطلقك، وكلما هممت عدتك أن تنقضي راجعتك، فذهبت المرأة إلى عائشة رضي الله عنها فأخبرتها فسكتت، حتى جاءت النبي ﷺ فأخبرته فسكت، حتى نزلت الآية ﴿الطَّلُقُ مَرَّتَانٍ﴾^(١)

وقيل: إن امرأة من الأنصار قالت: إن زوجي قال: لا أزال أطلقك ثم أراجعك، هكذا، لا يُمسكها ولا يُسرَّحها، فأنزل الله سبحانه ﴿الطَّلُقُ مَرَّتَانٍ﴾.

أي: أن الله تعالى حدد هذه الفوضى التي لا نهاية لها في الطلاق قبل الإسلام، بأن جعل الطلاق الرجعي مرتين، ولا رجعة بعد الثالثة.

فالإسلام يعطيه مرة للمراجعة، ربما تكون ثورة غضب، أو سبباً آخر، يراجع نفسه فيها، ثم إذا أراد أن يطلق بعد ذلك فليطلقها مرة ثانية.

قال ابن مسعود في طلاق السنة: يطلقها بعد ما تطهر في غير جماع، فإذا حاضت وطهرت طلقها أخرى، ثم يدعها حتى تطهر مرة أخرى، ثم يطلقها إن شاء^(٢)

الإشهاد على الطلاق وعلى الرجعة:

والإشهاد على الطلاق وعلى الرجعة أمر به الله تعالى في قوله: ﴿وَأَشْهَدُوا ذَوَىٰ عَدْلٍ مِّنكُمْ﴾ [الطلاق: ٢] وهو حدّ من حدود الله، وحكم من أحكامه التشريعية، ومخالفة ذلك

(١) «سنن الترمذي» برقم (١١٩٢) و«تفسير الطبري» (٢/٢٧٦) و«الموطأ» (٢/٥٨٨) عن هشام بن عروة عن أبيه والحاكم (٢/٢٧٩) والبيهقي في «السنن» (٧/٣٣٣) وَضَعَفَ إِسْنَادَهُ الْأَلْبَانِي فِي «ضَعِيفَ سَنَنِ التِّرْمِذِيِّ» (٢٠٨).

(٢) (النسائي (٣٣٩٤) و«صحيح سنن ابن ماجه» مختصراً (١٦٤٠) وصححه الألباني أيضاً في الإرواء وهو في سنن ابن ماجه (٢٠٢٠). والدارقطني (٤/٥) والبيهقي (٧/٣٣٢).

تَعَدُّ عَلَى حُدُودِ اللَّهِ ﴿تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلَا تَعْتَدُوهَا﴾ .

الطلاق السني والبدعي: وليس للرجل أن يطلق امرأته طلاقاً بدعياً، كأن يطلقها وهي حائض، أو في الطهر الذي جامعها فيه بعد الحيض، ولا يلفظ الثلاث.

فالطلاق المسنون: أن يطلقها في طهر لم يمَسَّها فيه؛ أي: بعد أن ينتهي الحيض، وقبل أن يُجامعها، حتى لا تطول بها العدة، وحتى لا تكون حاملاً ﴿يَتَأَيَّهَا النَّبِيُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَطَلِّقُوهُنَّ لِعَدَّتِهِنَّ﴾ [الطلاق: ١] أي: وهن مستقبلات العدة في طهر يعقُب الحيض ولم يجامعها فيه، هذا هو الطلاق المسنون، فإذا طلقها في حيض، أو طلقها ثلاثاً، أو طلقها في طهر جامعها فيه، فإن الطلاق يقع مع الإثم؛ لأنه قد ارتكب أمراً محرماً.

الطلاق بغير سبب بغى وعدوان:

وإذا كانت المرأة مطيعةً لربها، مؤديةً لحقوق زوجها، فإن طلاقها في هذه الحالة يكون بغياً وعدواناً عليها، يقول سبحانه: ﴿فَإِنْ أَطَعْتُم بَعُولَهُنَّ فَلَا تَبْغُوا عَلَيْهِنَّ سَبِيلاً إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيماً كَبِيراً﴾ [النساء: ٣٤] أي لا تبغوا عليهن بسوء العشرة، ولا تعتدوا عليهن بالطلاق.

الْحُكْمُ التَّشْرِيعِيُّ الثَّانِي وَالْعِشْرُونَ: حُكْمُ الْخُلْعِ وَأَدِلَّتُهُ

﴿وَلَا يَحِلُّ لَكُمْ أَنْ تَأْخُذُوا مِمَّا ءَاتَيْتُمُوهُنَّ شَيْئاً إِلَّا أَنْ يَخَافَا^(١) أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا^(٢) فِيمَا أَفْلَدْتُمْ بِهِ تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلَا تَعْتَدُوهَا وَمَنْ يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴿٣٣﴾﴾

ولا ينبغي للرجل أن يضار المرأة ويضايقها؛ لكي يلجئها إلى طلب الطلاق، أو لكي تفتدي نفسها منه برد المهر، أو شيء من المال؛ طلباً للطلاق، قال تعالى: ﴿وَلَا يَحِلُّ لَكُمْ﴾ أيها الأزواج ﴿أَنْ تَأْخُذُوا مِمَّا ءَاتَيْتُمُوهُنَّ شَيْئاً﴾ من المهر ونحوه، إلا أن يخاف الزوجان ألا

(١) قرأ حمزة وأبو جعفر ويعقوب بضم ياء (يخافا) على البناء للمفعول، وضمير الزوجين نائب الفاعل (والألا يقيما) بدل اشتمال، والتقدير: إلا أن يخافا عدم إقامتهما حدود الله، وقرأ الباقون بفتح الياء على البناء للفاعل، وإسناد الفعل إلى ضمير الزوجين المفهوم من السياق، و(ألا يقيما) مفعول به.

(٢) ضم الهاء من (عليهما) يعقوب، وكسرها غيره.

يقوما بالحقوق الزوجية؛ بسوء العشرة، وسوء العلاقة والمضارة، والنشاز بين الزوجين،
وحينئذ فإن الأمر يُعرض على الأولياء للقيام بالصلح بينهما ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ شِقَاقَ بَيْنِهِمَا
فَابْعَثُوا حَكَمًا مِّنْ أَهْلِهِ وَحَكَمًا مِّنْ أَهْلِهَا إِنْ يُرِيدَا إِصْلَاحًا يُوَفِّقِ اللَّهُ بَيْنَهُمَا﴾ [النساء: ٣٥].

فإن خاف الأولياء عدم الوفاق بينهما وفق حدود الله تعالى فلا حرج أن تفتدي المرأة
نفسها بما تدفعه، أو تتنازل عنه مقابل طلاقها، هذه حدود الله الفاصلة بين الحلال
والحرام فلا تتجاوزوها؛ لأن في ذلك تعريضاً لعذاب الله بكم، وهذه هي المخالعة
بالعرف، بأن كرهت الزوجة زوجها لخلقه أو خلقه أو نقص دينه، وخافت ألا تطيع الله
فيه فعليها أن تردّ عليه صداقه وتخلع نفسها منه.

ولا يمكن للرجل أن يجد امرأة توافقه مئة في المئة كما لا يمكن للمرأة أن تجد رجلاً
يوافقها مئة في المئة، والنبي ﷺ قد بين في حديث أبي هريرة: «لا يفرك مؤمن مؤمنة إن كره
في زوجته خلقاً رضى منها خلقاً آخر»^(١)

فلينظر الإنسان إلى الجانب الحسن والإيجابي في الطرف الآخر، وليعاملها على أنها
مخلوقة من ضلع أعوج، والاعوجاج في طبيعتها، وعدم الاستقامة في جبلتها؛ لأن الضلع
الأعوج إذا أنت قومته كسرته، وإذا تركته لم يزل أعوجاً، فاستوصوا بالنساء، والنبي ﷺ
بيّن أنه ينبغي على الرجل أن يتمتع بالمرأة على ما فيها من عوج؛ لأن الاعوجاج في
طبيعتها، فاستمتعوا بهن على عوج.

فإذا كان هناك نشوز من المرأة؛ أي: أنها تبغض زوجها ولا تريده وهو يحبها، فقد
شرع الإسلام في هذه الحالة الخلع.

والخلع: أن تخلع المرأة نفسها بأن ترفع أمرها إلى القاضي، إن لم يقبل الزوج صلحاً،
وتذكر حالتها بأنها تَبْغُضُهُ، وأنها لا تطيق العشرة معه، أو لأسباب أخرى شرعية؛ كعدم
القيام بالنفقة الواجبة، أو بالحقوق الزوجية، أو إن كان لا يصلي، أو كان شارباً للخمر،
ونحو ذلك، والإسلام في هذه الحالة يطلب منها أن تَرُدَّ لَهُ مَهْرَهُ الذي دفعه إليها، أو تَقْدِي
نفسها منه على شيء من المال:

(١) «المسند» (٨٣٦٣) بإسناد صحيح على شرط مسلم، ومسلم (١٤٦٩)، وأبو يعلى (٦٤١٨) والبيهقي (٢٩٥/٧).

١- فقد سئل عكرمة: هل كان للخلع أصل؟ قال: كان ابن عباس يقول: إنَّ أوَّل خلع في الإسلام كان في أخت عبد الله بن عبد الله بن أبي، فقد أتت النبي ﷺ وقالت: يا رسول الله، لا يجمع رأسي ورأسه شيء أبداً، وذلك أنها نظرت من طرف الخيمة إلى مجموعة من الرجال فيهم زوجها، فوجدته أقصرهم قامة، وأسودهم وجهًا، وأقبحهم منظرًا، فذهبت إلى النبي ﷺ تطلب الطلاق، وتقول: إنها تكره الكفر في الإسلام؛ أي: تكره كفر النعمة وكفر العشير، وأنها لا تَعِيبُ عليه في خلقه ولا في دينه، ولكنها تَبْغُضُهُ، ولا يَجْمَعُ رأسها ورأسه وسادة أبداً، ولكن الرجل كان يحبها ويريدها أن تبقى معه، قال يا رسول الله، لقد أمهرتُها حديقة، مليئة بالنخل، فقال عليه الصلاة والسلام: «أَتَرَدِّينَ عليه حديقته؟» قالت: نعم، قال عليه الصلاة والسلام: «خذ الحديقة وطلقها»^(١) وهو أول خلع في الإسلام.

١- وهذه المرأة هي جميلة بنت عبد الله بن أبي بن سلول، أخت عبد الله بن عبد الله بن أبي من أبويه، وهي امرأة ثابت بن قيس بن شماس، تزوجها بعد موت زوجها الأول (حنظلة بن عامر الراهب) الذي قتل يوم أحد.

٢- وقد ذكر أن حبيبة بنت سهل الأنصارية، ضربها زوجها فكسر بعضها، وأنها ذهبت إلى أبيها ثلاث مرات تشتكي أن زوجها يسبها ويضربها، فإلزمها العودة إلى زوجها، فذهبت إلى النبي ﷺ وأرته آثار الضرب، فأرسل النبي إلى ثابت بن قيس، وقال له: خذ بعض مالها وفارقها، قال: فإني أضدقُتها حديقتين ثم قال: والذي بعثك بالحق نبياً ما على وجه الأرض أحب إليَّ منها غيرك، فقال لها: «ما تقولين؟» قالت: صدق يا رسول الله، ... ولكنني أبغضه، فلا أنا ولا هو، فقال النبي ﷺ: «خذهما وفارقها»، ففعل^(٢)

وفي البخاري وغيره عن ابن عباس ؓ: أنها قالت: والله ما أعتبُ عليه في خلق ولا

(١) البخاري (٥٢٧٣-٥٢٧٧) وابن ماجه (٢٠٥٦) وسنن النسائي الكبرى (٥٦٢٨) وفي «السنن» (٣٤٦٣) والبيهقي (٣١٣/٧).

(٢) يُنْظَرُ نحوه في: «صحيح سنن أبي داود» (١٩٤٩) وانظر سنن أبي داود (٢٢٢٨) وعبد الرزاق (١١٧٦٢) والبيهقي (٣١٥/٧).

مال، ولكنني أكره الكفر في الإسلام^(١) يعني: أنها تبغضه.

٢- وقد ذكر أن حبيبة بنت سهل الأنصارية كانت تحت ثابت بن قيس، وأن رسول الله ﷺ خرج إلى الصبح فوجدها عند بابها في الغلس، فقال: «من هذه؟» قالت: أنا حبيبة بنت سهل، فقال: «ما شأنك؟» قالت: لا أنا ولا ثابت، فلما جاء ثابت، قال له رسول الله ﷺ: «هذه حبيبة بنت سهل، قد ذكرت ما شاء الله أن تذكر» فقالت حبيبة: يا رسول الله، كل ما أعطاني عندي، فقال رسول الله ﷺ: «خذ منها» فأخذ منها، وجلست في أهلها.^(٢)

هذا: وقد تزوج ثابت بن قيس جميلة بنت سلول، كما تزوج حبيبة بنت سهل.

قال ابن حجر: وما ذكره أبو عمر (ابن عبد البر) من تعدد المختلعات من ثابت ليس ببعيد.

وقال أيضًا: وجائز أن تكون حبيبة وجميلة اختلعتا من ثابت جميعاً^(٣).

٣- وعن كثير، مولى سُمرة، أن امرأة نشزت من زوجها في إمارة عمر، فأمر بها إلى بيت كثير الزبل، فمكثت ثلاثة أيام، ثم أخرجها، فقال: كيف رأيت؟ قالت: ما وجدت الراحة إلا في هذه الأيام، فقال عمر: اخلعها ولو من قُرطها^(٤).

٤- وعن الربيع بنت مَعُوذ بن عفراء قالت: كان لي زوج يُقَلِّ عليّ الخير إذا حضرني، ويَحْرِمُني إذا غاب عني، فكانت مني زلة يومًا، فقلت له: أختلعت منك بكل شيء أملكه، قال: نعم، ففعلت، فخاصم عمي مُعَاذ بن عفراء إلى عثمان بن عفان، فأجاز الخلع، وأمره أن يأخذ عقاص رأسي فما دونه^(٥).

هذا ما يشير إليه قوله: ﴿وَلَا يَحِلُّ لَكُمْ﴾ أيها الأزواج ﴿أَنْ تَأْخُذُوا مِمَّا ءَاتَيْتُمُوهُنَّ شَيْئًا﴾

(١) يُنْظَرُ في «تفسير الطبري» الأثر (٤٨٠٧) وما بعده إلى (٤٨١١) و«صحيح البخاري» برقم (٥٢٧٣) و«الموطأ» (٥٦٤/٢) و«المسند» (٤٣٣/٦) والنسائي (١٦٩/٦) وأبو داود برقم (٢٢٢٧) بالفاظ متقاربة.

(٢) «صحيح سنن أبي داود» (١٩٤٨) و«المسند» (٢٧٤٤٤) بإسناد صحيح ورجال ثقات، والنسائي (٣٤٦٢) و«الموطأ» (٥٦٤/٢) والبيهقي (٣١٢/٧).

(٣) ينظر: الإصابة (٢٤٩/١٣) و (٢٧٥) وما بعدها، ومسند الدارمي (٢٣١٧) والطبقات الكبرى لابن سعد (٤٤٦/٨) والاستيعاب (١٨٠٩/٤).

(٤) عبد الرزاق (١١٨٥١) والطبري (١٥٧/٤) والبيهقي (٣١٥/٧).

(٥) عبد الرزاق (١١٨٥٠) والبيهقي (٣١٥/٧).

من المهر ونحوه ﴿إِلَّا أَنْ يَخَافَ أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ﴾ أي: إلا أن يخاف الزوجان ألا يقوموا بالحقوق الزوجية بحيث تسيء المرأة العشرة للرجل وتكون ناشزًا.

قال ابن عباس رضي الله عنه: إلا أن يكون النشوز وسوء الخلق من قبلها فتدعوك إلى أن تفتدي منك فلا جناح عليك فيما افتدت به ^(١).

فإن خاف الأولياء ذلك ﴿فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا فِيمَا افْتَدَتْ بِهِ﴾ أي: لا إثم ولا حرج على المرأة، فيما دفعته من مالها أو المهر الذي ترده إلى الرجل مقابل طلاقها.

قال قتادة: إذا كان النشوز والظلم من قبل المرأة فقد أحل الله له منها الفدية، ولا يجوز الخلع إلا عند سلطان ^(٢).

وقد نهى الله تعالى الرجل أن يأخذ شيئًا مما أعطاه للمرأة إلا أن يكون النشوز من قبلها؛ فرفضت الطاعة والنوم في فراشه.

الخلع طلاق بائن:

والخلع عند الجمهور يعد طلاقًا بائنًا، تعتد منه المرأة كعدة المطلقة؛ لأن العوض الذي دفعته المرأة مبذول للطلاق الذي هو حق الزوج، فهو في مقابلة العوض.

وعند الحنفية أن الخلع يرجع إلى نية المخالغ إن نوى طلبة أو اثنتين أو ثلاثًا، وهو قول مرجوح؛ لأن المخلوعة بانته بمجرد الخلع، وللمختلع أن يتزوجها في العدة برضاها؛ لأنها قد ملكت نفسها بما بذلته من مال.

سئل ابن عباس رضي الله عنه عن امرأة طلقها زوجها تطليقتين، ثم اختلعت منه، أيتزوجها؟ قال ابن عباس: نعم، ذكر الله الطلاق في أول الآية، وآخرها، والخلع بين ذلك، فليس الخلع بطلاق ^(٣).

﴿تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ﴾ الفاصلة بين الحلال والحرام، ويسمى الإسلام الخلع، أو الطلاق أو الرجعة حدود الله ﴿فَلَا تَعْتَدُوهَا وَمَنْ يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ لأنفسهم بتعريضها

(١) الطبري (١٤٠/٤) وابن أبي حاتم (٢٢١٧).

(٢) ابن أبي حاتم (٤٢١/٢).

(٣) أخرجه عبد الرزاق في «المصنف» (١١٧٧١) والبيهقي (٣١٦/٧).

لعذاب الله، والظلم ثلاثة أنواع:

- ١- ظلم بين العبد وربّه فيما دون الشرك بالله، وهو راجع إلى مشيئة الله إن شاء عفا وإن شاء عذب.
- ٢- والظلم الأكبر هو الشرك بالله، وصاحبه مخلد في النار إن مات عليه، أما إن تاب منه قبل الغرغرة فإن الله يتوب عليه.
- ٣- وظلم متعلق بحقوق العباد لا يترك الله منه شيئاً.

وفي هذه الآية بيان لأحكام الطلاق الرجعي والخلع، وفي الآية التالية حكم الطلاق البائن.

الْحُكْمُ الثَّالِثُ وَالْعِشْرُونَ: الطَّلَاقُ الْبَائِنُ بَيْنُونَةَ كُبْرَى

٢٣٠- ﴿فَإِنْ طَلَّقَهَا فَلَا تَحِلُّ لَهُ مِنْ بَعْدِ حَتَّى تَنْكِحَ زَوْجًا غَيْرَهُ فَإِنْ طَلَّقَهَا فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا أَنْ يَتَرَاجَعَا إِنْ ظَنَّا أَنْ يُقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ وَتِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ يُبَيِّنُهَا لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٢٣٠﴾﴾

وإذا طُلقت المرأة الطَّلقة الثالثة فقد بانت من زوجها بينونة كبرى، ولا يحل لها أن ترجع إليه إلا إذا انتهت عدتها، وتزوجت شخصاً آخر زواجاً صحيحاً شرعياً يطؤها فيه، برغبة من الطرفين غير مشروط بمدة، ولا بشرط يُفسد العقد، وبغير نية التحليل للزوج الأول، وتقيم مع هذا الزوج الثاني معاشرة الأزواج، تذوق عسيلته ويذوق عسيلتها، فإن ساءت العشرة بينهما لسبب من الأسباب، ففارقها وانقضت عدتها، ففي هذه الحالة يمكنها أن تعود إلى الزوج الأول.

عن محمد بن الحنفية قال: قال علي: أشكل عليّ أمران قوله تعالى: ﴿فَإِنْ طَلَّقَهَا﴾ فدرست القرآن فعلمت أنه يعني: إذا طلقها زوجها الآخر رجعت إلى زوجها الأول المطلّق ثلاثاً، وكنت رجلاً مذكاً فاستحييت أن أسأل رسول الله ﷺ من أجل أن ابنته تحتي، فأمرت المقداد بن الأسود؛ فسأل النبي ﷺ فقال: «فيه الوضوء»^(١)

وقد رتب الله سبحانه على الطَّلقة الثالثة حُكْمين؛ وهما: سلب الزوج حق الرجعة، وسلب المرأة الرضى بالرجوع إلا بعد زواج، وهو عقاب للأزواج المستخفين بحدود الله تعالى، بتكرار وقوع الطلاق منهم.

(١) ابن أبي حاتم (٢٢٣٤).

المحلل:

١- عن عائشة رضي الله عنها أن امرأة رفاعة القرظي جاءت إلى النبي ﷺ فقالت: إني كنت عند رفاعة فطلقني، فأبى طلاقي (بانت منه) فتزوجت عبد الرحمن بن الزبير، وإن ما معه مثل هُدْبَةِ الثوب (كناية عن استرخاء الذكر) فتبسم رسول الله ﷺ وقال: «أتريدين أن ترجعي إلى رفاعة؟ لا، حتى يذوق عسيلتك وتذوقي عسيلته» (كنايته عن الجماع) قيل: إنها لبثت ما شاء الله، ثم رجعت إلى رسول الله ﷺ فقالت: إن زوجي قد مسني، فقال لها النبي ﷺ: «كذبت بقولك الأول، فلن أصدقك في الآخر»، فلبثت حتى قبض رسول الله ﷺ فأتت أبا بكر فقالت: يا خليفة رسول الله، أرجع إلى زوجي الأول، فإن زوجي الآخر قد مسني وطلقني، فقال لها أبو بكر: قد شهدت رسول الله ﷺ حين أتيتيه وقال ما قال، فلا ترجعي إليه، وهكذا فعلت مع عمر رضي الله عنه بعد موت أبي بكر رضي الله عنه فقال لها: لئن رجعت له لأرجمنك^(١)

وقد أجمع أهل العلم، وثبت بالأدلة المتواترة أن المطلقة ثلاثاً لا تحل لزوجها الأول، ويجب أن يكون الزوج الثاني راغباً فيها قاصداً دوام العشرة.

٢- وعن عائشة رضي الله عنها أن رجلاً طلق امرأته ثلاثاً؛ فتزوجت زوجاً، وطلقها قبل أن يمسه، فسئل النبي ﷺ: أتحل للأول؟ قال: «لا، حتى يذوق الآخر من عسيلتها كما ذاق الأول»^(٢)

٣- وقال ابن عمر رضي الله عنهما: سئل رسول الله ﷺ عن الرجل يطلق امرأته ثلاثاً، فيتزوجها آخر، فتُغْلِقُ الباب، ويُزَخِّي الستر، ثم يطلقها قبل أن يدخل بها، فهل تحل للأول؟ قال «لا، حتى تذوق العُسَيْلَةَ»، وفي لفظ: «حتى يجامعها الآخر»^(٣)

٤- قال نافع: أتى رجل إلى ابن عمر رضي الله عنهما، فقال: إن رجلاً طلق امرأته ثلاثاً، فانطلق

(١) تنظر الأحاديث من (٤٨٨٨ - ٤٨٩٧) في «تفسير الطبري» عشرة أسانيد لحديث عائشة و«صحيح البخاري» برقم (٢٦٣٨، ٥٣١٧) ومسلم (١٤٣٣) و«المسند» (٣٤/٦) برقم (٢٤١٤٩، ٢٤٠٥٨) والترمذي (١١١٨) والنسائي (٣٢٨٣) وابن ماجه (١٩٣٢).

(٢) البخاري (٥٢٦١) ومسلم (١٤٣٣) والنسائي (٣٤٠٧) وغيرهم.

(٣) عبد الرزاق (١١١٣٥) وابن أبي شيبة (٢٧٤/٤) و«المسند» (٥٥٧١) صحيح لغيره والنسائي (٣٤١٥) وابن ماجه (١٩٣٣) و«صحيح سنن ابن ماجه» (١٥٦٩)، وسنن ابن ماجه (١٩٣٣).

أُخِّ له من غير مؤامرة فتزوجها؛ ليحلها لأخيه، هل تحل للأول؟ فقال: لا، إلا نكاح رغبة، كنا نعد هذا سفاحًا على عهد رسول الله ﷺ^(١)

٥- عن جابر بن عبد الله رضي الله عنه عن النبي ﷺ أنه قال: «لُعِنَ المحلل والمحلل له»^(٢) وسماه: التيس المستعار.

٦- وعن ابن مسعود وعقبة بن عامر رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال: «ألا أخبركم بالتيس المستعار؟» قالوا: بلى، يا رسول الله، قال: «هو المحلل، لعن الله المحلل والمحلل له»^(٣)

٧- وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: سئل رسول الله عن المحلل، فقال: «لا، إلا نكاح رغبة، لا نكاح دلسة، ولا استهزاء بكتاب الله ﷺ حتى تذوق العُسيلة»^(٤)

وقال ابن عمر لرجل طلق امرأته ثلاثًا ورغب أن يتزوجها رجل ليحلها له، فقال: «كلاهما زان، وإن مكثا عشرين سنة أو نحوها إذا كان يعلم أنه يريد أن يحلها»^(٥)

فإذا قُدر لهما الزوجين أنهما لم يتفقا، أو أن الزوج قد مات، فلا يجوز أن ترجع لزوجها الأول إلا بشروط ثلاثة:

١- أن تعتد منه. ٢- أن تتزوج بآخر. ٣- أن يطأها ثم يطلقها اختياريًا ثم تعتد منه.

والمعنى: إن طلقها الزوج الثاني أو مات فلا حرج على زوجها الأول أن يتزوجها بعقد

(١) أخرجه الحاكم (١٩٩/٢) والبيهقي (٢٠٨/٧).

(٢) «صحيح سنن الترمذي» (٨٩٣) وعن علي بن رقم (٨٩٤) وفي «المسند» (٤٣٠٨) صحيح لغيره، والنسائي (٣٤١٦) وعن ابن عباس في «صحيح سنن ابن ماجه» (١٥٧٠) وعن أبي هريرة في «المسند» (٨٢٨٧) بإسناد حسن، وأخرجه أبو يعلى (٥٠٥٤) والبخاري في شرح السنة (٢٢٩٣).

(٣) «سنن ابن ماجه» برقم (١٩٣٦) وقال البوصيري في الزوائد (١٠٢/٢): هذا إسناد مختلف فيه؛ من أجل أبي مصعب، وهو في «صحيح سنن ابن ماجه» (١٥٧٢) والحاكم (١٩٨/٢) والبيهقي (٢٠٨/٧)، وقد حسنه الألباني في الإرواء (٣٠٩/٦).

(٤) رواه الطبراني في «المعجم الكبير» (٢٢٦/١١) وفي إسناده ضعف يقويه غيره، وقواه ابن كثير بمرسل عمرو بن دينار، وقد أخرجه أبو إسحاق الجوزجاني.

(٥) رواه الطبراني في «المعجم الكبير» (٢٢٦/١١) وفي إسناده ضعف يقويه غيره.

ومهر جديدين، إن غلب على ظنهما استقامة الحياة الزوجية في حدود ما شرع الله من أحكام وحقوق وواجبات فهم المنتفعون بها.

الْحُكْمُ التَّشْرِيعِيُّ الرَّابِعُ وَالْعِشْرُونَ: عَضْلُ الزَّوْجِ لِلْمَرْأَةِ

٢٣١- ﴿وَإِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَلَمْ يَكُنْ لَكُمْ عَلَيْهِنَّ أَجْلُهُنَّ فَامْسْكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ سَرِّحُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ وَلَا تُمْسِكُوهُنَّ ضِرَارًا لِّتَعْتَدُوا وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ وَلَا تَتَّخِذُوا إِلَهَ إِلَّا اللَّهَ هُزُورًا^(١) وَأَذْكُرُوا أَنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا أَنْزَلَ عَلَيْكُمْ مِنَ الْكِتَابِ وَالْحِكْمَةِ يَعِظُكُمْ بِهِ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿٢٣١﴾﴾

في الآيتين الباقيتين من هذا الربع بيان من الله تعالى موجه للأزواج والأولياء:

أما الحكم الأول الخاص بالزوج:

فإنه لا يجوز له أن يضار المرأة؛ فلا يُسَرِّحها ولا يمسكها، ولا يحسن معاملتها، ولا ينفق عليها حتى يلجئها لطلب الطلاق، أو لدفع شيء من مالها؛ لتفدي نفسها به، فإذا طلقت النساء - أيها الأزواج - طلاقاً رجعيّاً، فقارب انتهاء العدة، فإذا أن تراجعوهن مع القيام بحقوقهن والإحسان إليهن، وإما أن تتركوهن بلا رجعة ولا ضرر ولا تعدّ عليهن:

١- نزلت هذه الآية في ثابت بن يسار -رجل من الأنصار- طلق امرأته حتى إذا اقترب انقضاء عدتها راجعها، ثم طلقها يقصد بذلك مضارتها؛ فنهى سبحانه عن ذلك، وبيّن أنه إذا طلق الرجال النساء فقارب انتهاء العدة، فراجعوهن بنية القيام بحقوقهن شرعاً وعرفاً، أو اتركوهن حتى تنقضي عدتهن، واحذروا أن تراجعوهن بنية الإضرار بهن، أو عدم القيام بحقوقهن، ولا تهزؤوا بآيات الله وأحكامه.

فالضرر الذي يكون من الأزواج معناه: أن يطلق الرجل امرأته ثم يراجعها في آخر يوم يبقى من العدة؛ ليضطرها إلى التنازل عن حقوقها مقابل الطلاق.

٢- أخرج الطبري وغيره عن أنس بن مالك عن ثور بن زيد الدبلي، أن رجلاً كان يطلق امرأته ثم يراجعها، ولا حاجة له بها، ولا يريد إمساكها، كيما يطول عليها بذلك العدة؛ ليضارها فأنزل الله: ﴿وَلَا تُمْسِكُوهُنَّ ضِرَارًا لِّتَعْتَدُوا﴾^(٢)

(١) قرأ حفص (هُزُورًا) وقرأ خلف (هُزَاءً) ومثله حمزة عند الوقف، وقرأ الباقر (هُزُورًا).

(٢) «موطأ مالك» (٥٨٨) وهو في «تفسير الطبري» برقم (٤٩١٧).

والطلاق من آيات الله وأحكامه، وقد نهانا سبحانه أن نتلاعب بالطلاق أو الرجعة على وجه غير صحيح.

٣- فعن سليمان بن الأرقم، أن الحسن، حدثهم: أن الناس كانوا على عهد رسول الله ﷺ يطلق الرجل أو يعتق، فيقال: ما صنعت؟ فيقول: إنما كنت لاعباً.

٤- وعن أبي الدرداء قال: قال رسول الله ﷺ: «من طلق لاعباً أو أعتق لاعباً فقد جاز عليه» قال الحسن: وفيه نزلت: ﴿وَلَا تَنْخِذُوا بِآيَاتِ اللَّهِ هُزْؤًا﴾^(١)

٥- وجاء في الموطأ أن رجلاً قال لابن عباس: إني طلقْتُ امرأتي مئة طلقة، فقال له ابن عباس: طَلَّقْتَ مِنْكَ ثَلَاثَ، وسبع وتسعون اتخذت بها آيات الله هُزْؤًا.

وقد جعل الله الطلاق حَلًّا لحياة تستحيل فيها العشرة بين زوجين، وهذا من نعمة الله على عباده، خَصَّ بها هذه الأمة دون غيرها، أنزلها في كتابه، وبيّنها سنة نبينا ﷺ، فاذكروا نعم الله عليكم، وهدية لكم بالكتاب والسنة؛ لتحقيق مصلحتكم، وخافوا عقابه فهو عليم بسرائركم.

﴿وَإِذَا طَلَّقْتُمُ الْنِسَاءَ﴾ أي طلاقاً رجعيّاً بواحدة أو اثنتين ﴿فَلَعَنَ أَعْيُنُهُنَّ﴾ أي: قاربين نهاية العدة ﴿فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ﴾ راجعوهن من غير ضرار ولا أذى ﴿أَوْ سَرِحُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ﴾ أي: اتركوهن حتى تنقضي عدتهن ﴿وَلَا تُنْكِحُوهُنَّ ضِرَارًا لِّعَعْدُوهُنَّ﴾ لا تراجعوهن بقصد الإضرار بهن ﴿وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ﴾ فيكرههن على التنازل عن حقوقهن ﴿فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ﴾ وعرضها لعقاب الله ﴿وَلَا تَنْخِذُوا بِآيَاتِ اللَّهِ هُزْؤًا﴾ لا تتلاعبوا بأحكام الله، وتهاونوا في أوامره ونواهيه، وتخالفوا ما شرعه لكم ﴿وَأَذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ﴾ أن هداكم للإسلام، وفَضَّلَ لكم أحكام شرعه، في كتابه وسنة رسوله، فاثْنُوا على الله واحمدوه بألسنتكم، وأقروا واعترفوا بنعمه عليكم بقلوبكم، واعبدوا الله، ولا تصرفوا شيئاً من العبادة لغير الله تعالى ﴿وَمَا أُنْزِلَ عَلَيْكُمْ مِنَ الْكِتَابِ وَالْحِكْمَةِ يَعِظُكُمْ بِهِ﴾ يرشدكم ويذكركم بما فيه صلاح شأنكم وسعادتكم في الدنيا والآخرة.

(١) الحديث رقم (٤٩٢٣) في «تفسير الطبري»، وهو حديث مرسل، وفيه سليمان بن الأرقم، وقد أخرجه ابن مردويه موقوفاً على أبي الدرداء، وأخرجه ابن أبي عمر في مسنده، كما في «المطالب العالية» (٣٨٩٦).

ويراد بالحكمة أسرار الشريعة، وحكمته تعالى في أوامره ونواهيه بالترغيب والترهيب والوعد والوعيد ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ﴾ في جميع أموركم ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ فخافوا الله وراقبوه، واعلموا أنه لا يخفى عليه شيء من أحوالكم، ومن عظيم حكمة الله تعالى أن يختم آيات الأحكام بالمواعظ المرفقة للقلوب ليربطها بالله تعالى وَيَقْوِي صِلَتَهَا بِهِ، فيكون هذا عوناً على تنفيذ ما أمر الله به أو نهى عنه.

الْحُكْمُ التَّشْرِيعِيُّ الْخَامِسُ وَالْعِشْرُونَ: عَضْلُ الْأَوْلِيَاءِ لِلْمَرْأَةِ

٢٣٢- ﴿وَإِذَا طَلَقْتُمُ النِّسَاءَ فَلَعَنَ آبَهُنَّ فَلَا تَعْصِلُوهُنَّ أَنْ يَكُنَّ أَزْوَاجَهُنَّ إِذَا تَرَاضَوْا بَيْنَهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ ذَلِكَ يُوعَظُ بِهِ مَنْ كَانَ مِنْكُمْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ذَلِكَمْ أَزْكَى لَكُمْ وَأَطْهَرُ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾
يخاطب الله سبحانه أولياء المرأة المطلقة دون الثلاث، إذا انتهت عدتها، وأرادت العودة إلى زوجها، فلا يجوز لولي أمرها أن يمنعها من الرجوع إليه، لسبب في نفسه، وهذا المعنى هو المراد الأساس في الآية، لأن الله تعالى يقول فيها ﴿يَكُنَّ أَزْوَاجَهُنَّ﴾ أي يُرْذَن الرجعة إلى من طَلَقَتْ مِنْهُ طَلَاً رَجْعِيّاً.

ويمكن أن توجه هذه الآية أيضاً لأولياء الأمور - الآباء والإخوة وغيرهم من أولياء أمور النساء - ألا يمنعوا بناتهن أو أخواتهن من الزواج ممن يرغبن الزواج به، إذا كان المتقدم للزواج منهن ذا خلق ودين؛ ولا يمنعهن من الزواج لسبب مادي أو عرقي؛ بسبب القبلية والعصبية، أو خوفاً على مالها أو لطلب التغالي في المهر، أو لطلب الأثاث المعين، أو السكن المعين تقليداً للمجتمع والآخرين، ونحو ذلك من الأمور التي ليس لها أساس شرعي.

والسعادة الزوجية في الرضى والقناعة والتوافق بين الزوجين، وليست في الأثاث الكامل أو الفاخر، أو تأمين مستقبل الزوجة لدى الزوج.

والقصد من الآية هو نهى أولياء الأمور عن منع المرأة من الزواج ابتداءً، أو منع العودة لزوجها الأول مع رغبتها في ذلك، فلا يمنعوها من التزوج بشخص ذي خلق ودين، ولا يمنعوها من الرجوع لزوجها الأول إذا رضيت بذلك:

وقد نزلت هذه الآية في معقل بن يسار حين منع أخته أن ترجع إلى زوجها وهي راغبة فيه.

وفي البخاري وغيره أن مَعْقِلًا كان له أخت، زَوَّجَهَا ابْنَ عَمِهِ، وظلت معه حتى طلقها

طلاقاً رجعيًا، فلما أراد أن يُراجعها قال أخوها: والله لا أنكحها لك أبدًا، وكانت تحبه، فنزلت فيه الآية^(١)

قال مَعْقِل: كانت لي أخت، فأتاني ابنُ عم لي، فأنكحْتُها إِيَّاه، فكانت عنده ما كانت، ثم طلقها تطليقة، ولم يراجعها حتى انقضت العدة، فَهَوِيَهَا وَهَوَتْهُ، ثم خطبها مع الْخُطَّابِ، فقلت له: أكرمْتُك بها وزوجتكها، فطلَّقْتُها، ثم جئتُ تخطبها، والله لا ترجع إليك أبدًا، وكان الرجل لا بأس به، وكانت المرأة تُريد أن ترجع إليه، فعَلِمَ الله حاجته إليها وحاجتها إليه، فأنزل هذه الآية، قال معقل: ففِيَّ نزلت، فكفَّرْتُ عن يميني وأنكحْتُها إِيَّاه.

والمعنى: لا تمنعوهن من العودة لأزواجهن بعد انقضاء عدتهن إذا رغبْنَ في ذلك، وكان الطلاق رجعيًا.

وقيل: إن جابر بن عبد الله منع ابنة عمه من العودة إلى زوجها بعد انقضاء عدتها، وكانت ترغب في العودة إليه^(٢)

ومما ورد في أسباب النزول: أنها نزلت في أخ منع أخته أن ترجع إلى زوجها الأول، وقد كانت منه في طلاق رجعي، فلما نزلت الآية قال: سمعنا وأطعنا.

وَالْخُطَّابُ في الآية عامٌّ، مُوجَّهٌ لأولياء الأمور جميعًا ألا يمنعوا بناتهن وأخواتهن ومَن لهن ولاية عليهن من الزواج ممن يرغبْنَ فيه، أو من العودة إلى الزوج الأول إذا أرادت الرجعة، وهذا هو الْعَضْلُ؛ أي: المنع من الرجعة أو التزوج.

وَالْعَضْلُ: هو الحبس والتضييق والمنع، يقال: داءٌ عُضَالٌ، وأعضل الأمر؛ أي: اشتد، وعضلت الناقة؛ أي: نشب ولدها ولم يسهل خروجه، فإذا طلق الرجال النساء، دون الثلاث طلاقات، وانتهت عدتهن من غير مراجعة لهن، فلا تضيقوا -أيها الأولياء- على المطلقات بمنعهن من العودة إلى أزواجهن ﴿إِذَا تَرَاصُوا بَيْنَهُمْ بِالْمَعْرُوفِ﴾ أي: شرعًا وعرفًا.

أخرج الطبري بسنده عن علي بن أبي طلحة عن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله تعالى:

(١) يُرَاجَع: البخاري مع الفتح (١٦٠/٩) و (١٤٣/٨) وحديث رقم (٤٥٢٩، ٥٣٣١) وفي «تفسير الطبري»

برقم (٤٩٣١) وأبو دواد (٢٠٨٧) والترمذي (٢٩٨١).

(٢) الأثر عن السدي في «تفسير الطبري» برقم (٤٩٣٩).

﴿فَلَا تَعْضُلُوهُنَّ أَنْ يَنْكَحْنَ أَرْوَاجَهُنَّ﴾ فهذا في الرجل يُطلق امرأته تطليقة أو تطليقتين، فتتقضي عدتها، ثم يبدو له أن يراجعها، وتريد المرأة، فيمنعها أولياؤها من ذلك، فهي الله سبحانه أن يمنعوها.

وفي الحديث عن ابن عباس وعائشة ؓ أن النبي ﷺ قال: «لَا نِكَاحَ إِلَّا بِوَلِيِّ، وَالسُّلْطَانُ وَلِيٌّ مَنْ لَا وَلِيَّ لَهُ»^(١)

فاعملوا بهذه الموعظة أيها الأولياء، إن كنتم صادقي الإيمان ﴿ذَلِكَ يُوعِظُ بِهِ مَنْ كَانَ مِنْكُمْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾؛ لأن ترك العضل فيه طهارة لأعراضكم، ومنفعة لكم، وثواب عند الله ﴿ذَلِكَ أَرْزَى لَكُمْ وَأَطْهَرُ وَاللَّهُ يَعْلَمُ﴾ ما فيه مصلحتكم ﴿وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ فقد يكون بينهما علاقة حب لا يؤمن معها أن يتجاوزا ما أحل الله إلى ما حرمه الله، فالله يعلم ما في قلب المخطوبين أو الزوجين من الهوى والمحبة، ويعلم أن الوفاق بينهما أطهر وأزكى لقلوبكم وقلوبهن.

وفي الآية دليل على اشتراط الولي في عقد النكاح، لأن القرآن نهاه عن العضل، والنهي لا يكون إلا لصاحب المسؤولية.

الْحُكْمُ التَّشْرِيعِيُّ السَّادِسُ وَالْعِشْرُونَ: الرِّضَاعَةُ وَالْحَضَانَةُ

٢٣٣- ﴿وَالْوَالِدَاتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَدَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ لِمَنْ أَرَادَ أَنْ يُنَمِّ الرِّضَاعَةَ وَعَلَى الْمَوْلُودِ لَهُ رِزْقُهُنَّ وَكِسْوَتُهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ لَا تُكَلَّفُ نَفْسٌ إِلَّا وُسْعَهَا لَا تُضَارَّ^(٢) وَلَدَةٌ بِوَلَدٍ وَلَا مَوْلُودٌ لَهُ بِوَلَدٍ

(١) «صحيح سنن ابن ماجه» (٣١٧/١) برقم (١٨٨٠) والإرواء (٢٣٨/٦) (٢٤٧/٦) برقم (١٨٣٩) و«المسند» (٢٦٠/٦) برقم (٢٦٢٣٥) حديث صحيح، والطبراني في «الأوسط» برقم (٥٢٥) قال الهيثمي في «المجمع» (١٨٦/٤): رجاله رجال الصحيح، وأخرجه ابن أبي شيبه (١٣٠/٤) و«مشكاة المصابيح» (١٣٣٠) وأبو يعلى (٤٩٠٦) و«التمهيد» لابن عبد البر (٨٧/١٩) وطُرُقُهُ متعددة.

(٢) قرأ ابن كثير وأبو عمرو ويعقوب (لا تضار) برفع الراء المشددة، وقرأ أبو جعفر بخلف عنه (لا تضار) بإجراء للوصل مجرى الوقف في الجزم بسكون الراء المخففة، وقرأ الباقر (لا تضار) بفتح الراء المشددة، وهو الوجه الثاني لأبي جعفر، على أن (لا) ناهية والفعل مجزوم بها، وتحركت الراء الأخيرة على غير قياس؛ للتخلص من التقاء الساكنين، أما قراءة الرفع فعلى أن (لا) نافية ومعناها: النهي للمشاكلة وما بعدها مجرد من الناصب والجازم.

وَعَلَى الْوَارِثِ مِثْلُ ذَلِكَ فَإِنْ أَرَادَا فِصَالًا عَنْ تَرَاضٍ مِنْهُمَا وَشَاوِرٍ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا وَإِنْ أَرَدْتُمْ أَنْ تَسَرِّضُوا أَوْلَادَكُمْ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِذَا سَلَّمْتُمْ مَا آتَيْتُمْ^(١) بِالْمَعْرُوفِ وَأَنْقَوْا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٢٣٣﴾

١- مقدمة: تعرضت سورة البقرة لتحديد العلاقة بين الأمة الإسلامية وغيرها من أمم الكفر والشرك، ممن يَفْتِنُونَ المسلمين في دينهم، ويصدونهم عن سبيل الله، ويَحُولُونَ دون نشر الدَّعْوَةِ الإسلامية، فقال سبحانه في بيان واجب الأمة الإسلامية إلى يوم القيامة: ﴿وَقَتْلُهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ لِلَّهِ﴾ [البقرة: ١٩٣].

ثم عَالَجَتْ سورة البقرة بعض الأمراض الاجتماعية التي تَضُرُّ بالمجتمع الإسلامي؛ فحرمت الخمر والميسر، وإتيان النساء في المحيض.

ثم تحدثت عن إصلاح الأسرة المسلمة؛ لأن الأسرة إذا صَلَحَتْ صلح المجتمع كله، وبدأت ذلك باختيار الزوجة ذات الدين، وترك المشركة ﴿وَلَا تَنْكِحُوا الْمُشْرِكَةَ حَتَّى يُؤْمِنَ﴾، وذكر ما يتعلق بالحياة الزوجية من الإيلاء، والطلاق، والخلع، والرجعة، والعضل.

ثم تحدثت في الآية التي معنا عن أحكام الرضاعة، والحضانة بالنسبة للمطلقات اللائي لهن أولادٌ في سِن الرضاعة، وَنَسَبَ الْخِلَافَ بينهن وبين مَنْ طلقوهنَّ بشأن المولود بعد أن حدث الفراق بينهما، وذلك في قوله سبحانه: ﴿وَالْوَالِدَاتُ يُرْضَعْنَ أَوْلَادَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ لِمَنْ أَرَادَ أَنْ يُنِمَّ الرِّضَاعَةَ﴾.

وهذا الربع من السورة فيه عَشْرُ آيَاتٍ:

الأولى: عن حكم الرضاعة والحضانة.

والثانية: عن عِدَّةِ المتوفى عنها زوجها.

والثالثة: عن حكم التعرض بالخطبة لمن تُوفِّي عنها زوجها ولا تزال في عدتها.

والرابعة: عن متعة المطلقة قبل تسمية المهر، وقبل الدخول بها وَفْق مستوى حالة الزوج.

والخامسة: عن حق المطلقة قبل الدخول بها في نصف المهر.

والسادسة والسابعة: عن ربط أحكام الأسرة بالاتصال بالله تعالى عن طريق الطاعة،

وخاصة المحافظة على أداء الصلوات.

(١) قرأ ابن كثير (أُتِيتُمْ) بقصر الهمزة، بمعنى: جئتم وفعلتم، وقرأ الباقون بمد الهمزة، بمعنى: أُعْطِيتُمْ.

والثامنة: عن حق المرأة المتوفى عنها زوجها مدة المتعة.

والتاسعة: عن حق المتعة للمطلقة.

والعاشرة: التذكير بآيات الله تعالى وتقواه؛ لإقامة حدود الله وأحكامه، لكل مَنْ يَعْقِل عن الله أمره ونهيّه.

ونعود إلى الحديث عن الرضاعة والحضانة على ضوء الآية التي نحن بصددتها:

٢- حكم الرضاعة: تَعْرَضُ هذه الآية لحالة خاصة؛ وهي حالة المرأة المطلقة وعندها رضيعٌ، ويتعذر عليها الزواج وهي مرضعة، ويقلل هذا الرضاع من رغبة الناس فيها، وَيُلْحَق بالرضيع ضررٌ من جرّاء ذلك؛ فالمراد خصوص الوالدات المطلقات.

والرضاعة التي يترتب عليها حكمٌ شرعيّ هي التي تكون في سن الحولين، السنة الأولى والثانية من عمر الطفل، ولا عبْرَةَ برضاع الكبير الذي فوق هذه السن، والله يقول ﴿وَفَصْلُهُ فِي عَامَيْنِ﴾ لقمان ١٤.

أ- عن سعيد بن جبير عن ابن عباس رضي الله عنه: ليس يحرم من الرضاع بعد التمام، إنما يحرم ما أنبت اللحم وأنشأ العظم^(١) فالرضاع بعد الحولين لا يحرم شيئاً.

ب- وعن أم سلمة رضي الله عنها قالت: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «لا يُحْرَمُ من الرضاع إلا ما فتق الأمعاء في الثدي، وكان قبل الفطام»^(٢)

ومعنى «إلا ما فتق الأمعاء في الثدي» أي: ما كان قبل انتهاء الحولين، وهو وقت الرضاعة ومحلها.

قال الترمذي: والعمل على هذا عند أكثر أهل العلم من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم وغيرهم^(٣)

ج- وفي حديث ابن مسعود رضي الله عنه: «لا يُحْرَمُ من الرضاع إلا ما أنبت اللحم وأنشأ العظم»^(٤)

(١) الأثر (٤٩٦٢) في «تفسير الطبري».

(٢) «صحيح سنن الترمذي» (٩٢١)، وفي السنن (١١٥٢) وقال: حديث حسن صحيح.

(٣) سنن الترمذي (١١٥٢) وهو حديث حسن صحيح، ورجاله على شرط الشيخين، كما قال ابن كثير.

(٤) المسند (٤١١٤) حديث صحيح بشواهد وأخرجه أبو داود (٢٠٦٠) والدارقطني في السنن (١٧٢/٤) والبيهقي في السنن (٤٦٢/٧).

د- وعن عائشة رضي الله عنها أن النبي ﷺ دخل عليها وعندها رجلٌ؛ فتغير وجهه، كأنه كره ذلك، فقالت: إنه أخي، فقال: «انظرن ما إخوانكن، فإنما الرضاعة من المجاعة»^(١).
أي: في مدة الحولين.

هـ - وما كان بعد الحولين الكاملين لا يحرم شيئاً، كما في حديث ابن عباس: «لا يحرم من الرضاع إلا ما كان في الحولين»^(٢).
ويُسْتَشْنَى من ذلك حالة خاصة رَخَّصَ فيها النبي ﷺ لامرأة أبي حذيفة أن تُرَضِعَ سالماً مولى أبي حذيفة، وكان كبيراً، وكان يدخل ويخرج عليهم بصفة دائمة، فهو عبدٌ وخدامٌ في البيت، فكان يدخل عليها بهذه الرضاعة، وهذا حكم خاص بسالم، فلا يُتخذ دليلاً لاستحلال ما حرم الله، ولا يقاس عليه غيره.

وقد حدد الإسلام أطول مدة في الرضاع بحولين كاملين، فقال تعالى: ﴿وَالْوَالِدَتُ﴾ أي: أن الأمهات المتزوجات والمطلقات الواجب عليهن أن ﴿يُرْضِعْنَ أَوْلَادَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ لِمَنْ أَرَادَ أَنْ يُنَمِّ الرِّضَاعَةَ﴾ أي: ستين كاملتين لمن أراد إتمام الرضاعة، وليس هذا تحديد إيجاب؛ لأن الله تعالى علَّقه بإرادة التمام، وفيه قَطْعُ التَّزَاجُ بين الزوجين بمقدار نهاية زمن الرضاع، فإذا تم للرضيع حولان فقد تم رضاعه، وصار اللبن بعد ذلك كسائر الأغذية، ولذا كان الرضاع بعد الحولين غير محرَّم.

٣- أقل مدة الحمل: وفي آية سورة الأحقاف قوله سبحانه عن الطفل: ﴿وَحَمْلُهُ وَفِصَالُهُ ثَلَاثُونَ شَهْرًا﴾ [الأحقاف: ١٥] وفصاله يعني: فطامه من الرضاع مع مدة الحمل ثلاثون شهراً.

وقد استنبط العلماء من الآيتين في (البقرة والأحقاف) أن أقل مدة للحمل ستة أشهر، فلو أن الرجل وَضَعَتْ له امرأته طفلاً حَمَلَتْ به لمدة ستة أشهر فقط، فهو ولده، وليس له إنكاره أو اتهامها فيه؛ لأن حملَه وفصاله ثلاثون شهراً.

فما بقي بعد الستين من الثلاثين شهراً فهو ستة أشهر، هي أقل مدة الحمل، فإن حَمَلَتْ الأم تسعة أشهر أو أقل

(١) «صحيح البخاري» برقم (٥١٠٢) و«صحيح مسلم» برقم (١٤٥٥).

(٢) صحَّح البيهقي وَفَّقَه على ابن عباس (٤٦٢/٧) والدارقطني (١٧٤/٤).

من ذلك، فإن هذه المدة تُخصم من مدة الرضاعة، فما نقص عن تسعة أشهر من مدة الحمل فهو زيادة في مدة الرضاع، وما زاد في مدة الحمل عن ستة أشهر فهو نقص عن مدة الرضاع.

قال ابن عباس في التي تضع لسته أشهر: إنها تُرضع حولين كاملين، وإذا وضعت لسبعة أشهر أرضعت ثلاثة وعشرين شهراً، لتمام ثلاثين شهراً، وإذا وضعت لتسعة أشهر أرضعت أحدًا وعشرين شهراً، ثم تلا: ﴿وَحَمْلُهُ وَفِصْلُهُ ثَلَاثُونَ شَهْرًا﴾^(١) [الأحقاف: ١٥].

٤- تنظيم النسل: ويؤخذ من كون مدة الرضاعة حولين كاملين، أنه يجوز للمرأة أن تستريح من الحمل والولادة حولين هي مدة الرضاعة، ثم تستأنف الحمل بعد ذلك إن كانت تحمل، وهي تُرضع؛ أي: بعد وقت قصير من الوضع، وكانت تُرهق بدنيًا ويؤثر عليها كثرة الحمل، ويتفر منها زوجها، فإن لها أن تستريح مدة الرضاعة الشرعية حولين كاملين بطريقة من الطرق.

٥- حق الحضانة للمطلقة: وبعد هذه المقدمة عن زمن الرضاعة بشكل عام، تتناول الآية حكم المرأة المطلقة، ولها طفلٌ رضيعٌ يتَعَدَّرُ عليها الزواج بسببه، ويعزف عنها الخطأ، وهي غير ملزمة برضاعه، وعلى والد الطفل إن كانت الأم المرضعة مطلقة، أن يقوم بواجب نفقة الحضانة لهذه الأم، فيتكلف أعباء السكن والنفقة والكسوة وغير ذلك لها ولرضيعها.

﴿وَعَلَى الْمَوْلُودِ لَهُ﴾ الذي طُلِقَتْ أمه، وقام الخلاف بينهما بسبب رضاعه، والمولود له هو الأب، وقوله: ﴿رِزْقُهُنَّ وَكِسْوَتُهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ﴾ أي: يجب على الآباء أن يتكفلوا بسكنى وطعام وكسوة الأبناء الرضعاء، والمرضعات المطلقات، على الوجه المستحسن شرعًا وعرفًا؛ أي: في حدود طاقة الوالد من غنى أو فقر؛ لأن الله تعالى لا يُكلف نفسًا إلا قدر طاقتها ﴿لَا تُكَلَّفُ نَفْسٌ إِلَّا وُسْعَهَا﴾ فلا يكلف الفقير أن ينفق نفقة الثري، ولا يكلف من لا يجد النفقة، حتى يجدها وكما قال سبحانه في سورة الطلاق ﴿لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا مَاءً أَتْنَهَا﴾ [الطلاق: ٧] وجاء في أول هذه الآية: ﴿لِيُنْفِقَ ذُو سَعَةٍ مِّن سَعَتِهِ﴾ فالغني يعطي من غناه ﴿وَمَن قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُ فَلْيُنْفِقْ مِمَّا آتَاهُ اللَّهُ﴾ وليس لأحد أن يكلف أحدًا إلا بما يستطيعه ﴿لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا مَاءً أَتْنَهَا سَيَجْعَلُ اللَّهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسْرًا﴾ [الطلاق: ٧].

(١) الطبري (٤/٤٠١) والحاكم (٢/٢٨٠) والبيهقي (٧/٤٤٢).

٦- لا ضررَ ولا ضرارَ: ولا ينبغي أن يختلف في أمور الطلاق كلٌّ من الزوج والزوجة، ويترتب على ذلك أذى أو ضررٌ لأحدهما أو للمولود.

فلا يحل للوالدين أن يجعلوا المولود وسيلةً للمضارة بينهما، فلا يُتَزَعُ الولد من أمه، ولا تُجبر الأم على الرضاع إذا قبل المولود الرضاع من غيرها، ولا يُرْهَق الأب بالنفقة الزائدة ﴿لَا تُضَاكَّرُ وَلَا لَهَا﴾، أي لا يحل أن تضار الوالدة بسبب ولدها، فلا تعطى ما يجب لها من النفقة والكسوة، أو الأجرة، ولا تُمنع من إرضاعه.

وفي هذه المضارة احتمالات ثلاثة:

أولاً: لا تُؤَذَى الوالدة المطلقة، فلا يُتَزَعُ منها الطفل، إن كانت ترغب في بقاءه معها، والقيام على حضائته، ورعايته، ولا يُمنع عنها النفقة، والكسوة، وحقوق الحضانة الخاصة بها. أما الزوجة التي في عصمة الرجل فكسوتها ونفقتها من أجل العصمة، وليس لأجل الرضاعة.

ثانياً: ولا يُؤَذَى والدٌ بأن يُفرض عليه من النفقة فوق طاقته، أو يُعَنَّفَ، أو يُطْلَب منه ما ليس بعدل، أو يُشغل قلبه بالتفريط في تربية ولده، فيؤذى الوالد بسبب ولده ﴿وَلَا مَوْلُودٌ لَهُ بِوَلَدِهِ﴾، ولا تمتنع الأم من إرضاعه على وجه المضارة له، أو لأبيه، أو تطلب زيادة عن الواجب، ونحو ذلك من أنواع الضرر.

ثالثاً: ولا يُؤَذَى الطفل بين الأب والأم؛ فإساءة غذاؤه وتربيته بسبب اختلافهما.

أخرج البخاري وغيره بسنده عن أم سلمة رضي الله عنها قالت: يا رسول الله، هل لي من أجر في بني أبي سلمة أن أنفق عليهم، ولست بتاركتهم هكذا وهكذا، إنما هم بني؟ قال: «نعم، لك أجرٌ ما أنفقت عليهم»^(١)

٧- انتقال النفقة إلى وارث الطفل لو مات الأب:

ويجب على وارث المولود؛ إذا عُدِم الأب، وكان الطفل ليس له مال، يجب عليه مثل ما يجب على الوالد قبل موته من النفقة والكسوة والسكنى والتعليم والرعاية الصحية إن كان أبو الطفل قد مات، فورثه من جهة العصبية جدّه أو أخوه أو عمه، أو من غير العصبية

(١) «صحيح البخاري» برقم (١٤٦٧، ٥٣٦٩) ومسلم (١٠٠١).

عند فقدهم، فيؤخذ من مال الطفل، إن كان له مال يكفي لنفقتة ورضاعه، وإن لم يكن له تركه، فعلى من تلزمه نفقته القيام بذلك، ذلكم قول الله تعالى ﴿وَعَلَى الْوَارِثِ مِثْلُ ذَلِكَ﴾، والمراد: وارث الأب الذي مات.

٨- تحديد مدة الرضاع: ويجوز للأب والأم بعد التشاور وتبادل الرأي بينهما، أن تكون مدة الرضاع أقل من سنتين أو أكثر، إن اقتضت مصلحة الطفل ذلك، فإن أراد الوالدان فطام المولود قبل انتهاء السنتين؛ فلا حرج عليهما بعد التراضي والتشاور والتوصل لمصلحة المولود، وليس لها أن تפטله إلا عن تراضٍ من الطرفين ﴿فَإِنْ أَرَادَا فِصَالًا﴾ الفصال: هو الفطام، إن أرادا أن يפטماه قبل الحولين، فلا مانع منه إن اتفقا على ذلك، وهذا معنى ﴿فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ﴾ أي لا إثم ولا حرج، ويفهم من ذلك أنه لا يجوز فطامه إن رضى أحدهما دون الآخر.

٩- وجوب الرضاع على الأم:

ثم هل هذا الرضاع واجب على الأم أم غير واجب؟

يكون الرضاع واجباً على الأم في أربع حالات:

الأولى: إن كان أبوه قد مات، وليس له غير أمه.

الثانية: إن كان الطفل لا يقبل ثدياً آخر غير ثدي أمه.

الثالثة: إن كان الزوج عاجزاً لا يستطيع أن يؤجر امرأة أخرى كي ترضعه.

الرابعة: إن كانت المرأة لم تزل في عصمة الرجل، أو كانت في أثناء العدة.

فإن الرضاع واجب على الأم في هذه الحالات الأربع.

١٠- المطلقة لا يجب عليها الرضاع: وفي غير هذه الحالات الأربع، فالرضاع مندوب في

شأن الأم المطلقة أو الأرملة، ولا يجوز استئجار الأم ما دامت زوجة أو معتدة.

فإن طلقت الأم، فإن الرضاعة غير واجبة عليها، وعلى الأب في هذه الحالة، أن يستأجر مربية أخرى تقوم بإرضاعه، وقد يتم الاستغناء عن ذلك بالإرضاع الصناعي، مع أنه ليس أصلح للصبي من لبن أمه، بل أصبح من الأمهات من تستغني به عن الإرضاع الطبيعي، ذلكم قول الله

تعالى: ﴿وَأِنْ أَرَدْتُمْ أَنْ تَسْرِعُوا وَلَدَكُمْ﴾ من امرأة أجنبية غير أمه على غير وجه المضارة ﴿فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِذَا سَلَّمْتُمْ مَا ءَاتَيْتُمْ بِالْمَعْرُوفِ﴾ للمرضعات، أي: إن أثبت الأم أن ترضعه فلا حرج على الأب أن يستأجر له مرضعة أخرى، إذا أعطيت لها الأجرة المتفق عليها، وسلم كل منكما ما يجب عليه أن يعطيه للآخر بالمعروف كما في سورة الطلاق ﴿فَإِنْ أَرْضَعْنَ لَكُمْ﴾ يعني: المرأة الأجنبية أو الزوجة المطلقة ﴿فَتَأْتُهُنَّ أَجُورُهُنَّ وَأَنْتُمْ يُرِيكُمْ بِالْمَعْرُوفِ﴾ [سورة الطلاق: ٦] أي: في الاتفاق على أجرة الرضاع بالمثل كما يكون بين الناس.

قال سعيد بن جبیر: هو الرجل يطلق امرأته وله منها ولد، فهي أحق بولدها من غيرها^(١)

﴿وَأِنْ تَعَاَسَرْتُمُ﴾ هذا الكلام بالنسبة للزوجة المطلقة؛ لأن الخلاف على الرضاع؛ أي: وإن اختلفتم وتعاسرتم ﴿فَسَرِّضْ لَهُ﴾ امرأة ﴿أُخْرَى﴾.

وقد كان من المعروف قبل الإسلام أن المرضعات يأتين من البوادي، ويأخذن أبناء أهل الحضر، ويقمن بإرضاع الطفل، فينشأ في البادية في هواء نقي، وفي فطرة صحيحة سليمة، وبدن قوي، فكان الناس يلغونهم بأطفالهم. وه صغار إلى المرضعات؛ لينشأ الطفل بعيداً عن أبيه وأمه، ثم يأتي إلى والديه بعد تمام الرضاعة، والنبي ﷺ قد استرضع في بني سعد، أرضعته حليلة السعدية ﷺ.

ويشترط في هذه الحالة أن يكون الأب قادراً على استئجار المرضعة، وأن يجد من ترضعه، وأن يقبل الولد لبنها ﴿وَأَلْفُوا اللَّهَ وَأَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ وخافوا الله في جميع أحوالكم، واعلموا أنه سبحانه مُطَّلِعٌ عليكم، وسيجازيكم عليها.

الْحُكْمُ السَّابِعُ وَالْعِشْرُونَ: عِدَّةُ الْمَتَوَفَّى عَنْهَا زَوْجُهَا وَحِدَادُهَا

٢٣٤- ﴿وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنْكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا يَتَرَبَّصْنَ بِأَنْفُسِهِنَّ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِي مَا فَعَلْنَ فِي أَنْفُسِهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾^(٢)
ثم تحدثت الآيات عن عدة المتوفى عنها زوجها، فحدّتها بأربعة أشهر وعشرة أيام، إلا أن تكون حاملاً فعدتها بوضع الحمل؛ لأن وضع الحمل أدلُّ شيء على براءة الرحم، فكان مغنياً عن غيره.

(١) ابن أبي حاتم (٢٢٦٢، ٢٣١٢).

وَالْحِكْمَةُ فِي تَحْدِيدِ هَذِهِ الْمُدَّةِ، أَنَّ الْجَنِينَ يَتَحَرَّكُ فِي بَطْنِ أُمِّهِ بَعْدَ نِصْفِ مَدَّةِ الْحَمْلِ، وَيُفْنَخُ فِيهِ الرُّوحُ بَعْدَ أَرْبَعَةِ أَشْهُرٍ؛ أَيُ: فِي الْأَيَّامِ الْعَشْرَ الزَّائِدَةَ عَلَى الْأَشْهُرِ الْأَرْبَعَةِ.

عَنْ ابْنِ مَسْعُودٍ رضي الله عنه قَالَ: حَدَّثَنَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَهُوَ الصَّادِقُ الْمَصْدُوقُ: «إِنْ أَحْدَكُمُ يَجْمَعُ خَلْقَهُ فِي بَطْنِ أُمِّهِ أَرْبَعِينَ يَوْمًا نَظْفَةً، ثُمَّ يَكُونُ عِلْقَةً مِثْلَ ذَلِكَ، ثُمَّ يَكُونُ مَضْغَةً مِثْلَ ذَلِكَ، ثُمَّ يَبْعَثُ اللَّهُ إِلَيْهِ الْمَلَكَ فَيَكْتُبُ إِلَيْهِ رِزْقَهُ وَأَجْلَهُ وَعَمَلَهُ وَشَقِي أَوْ سَعِيدٌ، ثُمَّ يُفْنَخُ فِيهِ الرُّوحُ»^(١)

قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ رضي الله عنه: كَانَ الرَّجُلُ إِذَا مَاتَ وَتَرَكَ امْرَأَتَهُ اعْتَدَتْ سَنَةً فِي بَيْتِهِ، يُنْفَقُ عَلَيْهَا مِنْ مَالِهِ، ثُمَّ أَنْزَلَ اللَّهُ هَذِهِ الْآيَةَ، فَكَانَتْ عِدَّةُ الْمَتَوَفَّى عَنْهَا زَوْجَهَا أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرَةَ أَيَّامٍ، إِلَّا أَنْ تَكُونَ حَامِلًا فَعِدَّتُهَا أَنْ تَضَعَ مَا فِي بَطْنِهَا^(٢)، وَهَذِهِ الْعِدَّةُ تَشْمَلُ كُلَّ مَنْ تُوفِّي عَنْهَا زَوْجَهَا؛ سَوَاءٌ أَكَانَتْ صَغِيرَةً لَا تَحِيضُ، أَمْ كَبِيرَةً انْقَطَعَ عَنْهَا الْحَيْضُ، أَوْ كَانَ قَدْ دَخَلَ بِهَا أَوْ لَمْ يَدْخُلْ بِهَا؛ لِأَنَّهَا سَتْرُهَا؛ وَلِأَنَّ الْأَصْلَ فِي هَذِهِ الْعِدَّةِ أَنَّهَا لِلْحَدَادِ عَلَى الزَّوْجِ الْمَتَوَفَّى، وَبِرَاءَةِ الرَّحِمِ تَبَعًا لِذَلِكَ، وَهَذَا الْحَدَادُ عَلَى الْمَتَوَفَّى حَدَّهُ الْإِسْلَامُ بِالنِّسْبَةِ لِلزَّوْجَةِ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرَةَ أَيَّامٍ، وَالْحَامِلُ لَا تَدْخُلُ فِي هَذَا الشُّمُولِ لِأَنَّ عِدَّتَهَا بِوَضْعِ الْحَمْلِ.

وَكَمَا فِي الصَّحِيحَيْنِ وَغَيْرِهِمَا أَنَّ سَبْعَةَ الْأَسْهُمِ كَانَتْ زَوْجَةً لِسَعْدِ بْنِ خَوْلَةَ، وَلَمَّا تُوفِّي عَنْهَا زَوْجَهَا فِي حِجَةِ الْوَدَاعِ كَانَتْ حَامِلًا، فَوَضَعَتْ حَمْلَهَا بَعْدَ مَوْتِهِ بِنِصْفِ شَهْرٍ كَمَا فِي الْمَوْطَأِ، أَوْ أَرْبَعِينَ يَوْمًا؛ - أَيُ: قَبْلَ تَمَامِ مَدَّةِ الْعِدَّةِ لِلْمَتَوَفَّى عَنْهَا زَوْجَهَا، فَلَمَّا انْقَضَى نَفَاسُهَا تَجَمَّلَتْ لِلْخُطَّابِ، فَقَالَ لَهَا أَبُو السَّنَابِلِ: وَاللَّهِ مَا أَنْتَ بِمَتَزَوِّجَةٍ حَتَّى يَمُرَ عَلَيْكَ أَرْبَعَةُ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا، فَجَمَعْتَ عَلَيْهَا ثِيَابَهَا وَأَنْتَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ تَسْأَلُهُ، فَقَالَ لَهَا النَّبِيُّ ﷺ: «لَقَدْ حَلَلْتَ حِينَ وَضَعْتَ حَمْلَكَ وَأَمَرَهَا بِالتَّزْوِجِ إِنْ شَاءَتْ»^(٣)

فَدَلَّ هَذَا عَلَى أَنَّ هَذِهِ الْآيَةَ عَامَّةٌ مُخَصَّصَةٌ بِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَأُولَئِكَ الْأَحْمَالُ أَجَلُهُنَّ أَنْ يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ﴾ [الطَّلَاق: ٤]

وَقَالَ عَلِيُّ بْنُ ابْنِ مَسْعُودٍ: عِدَّةُ الْحَامِلِ الْمَتَوَفَّى عَنْهَا زَوْجَهَا أَبْعَدُ الْأَجَلِينَ؛ أَيُ: أَطْوَلُ مُدَّتِّي الْحَمْلِ، أَوْ عِدَّةُ الْوَفَاةِ، وَالْجُمْهُورُ عَلَى خِلَافِهِ.

(١) «صحيح البخاري» برقم (٣٢٠٨) و«صحيح مسلم» برقم (٢٦٤٣).

(٢) الطبري (٢٤٨/٤) وابن أبي حاتم (٢٣١٥، ٢٣٩١) والنحاس ص ٢٤٠ والبيهقي (٤٢٧/٧).

(٣) يُنْظَرُ: «صحيح البخاري» برقم (٥٣١٩) و«صحيح مسلم» برقم (١٤٨٤).

أما الحزن على المتوفى بالنسبة لغير الزوج، من أب أو أخ أو قريب أو رحم أو أم، فقد حدد الإسلام ذلك بثلاثة أيام، كما جاء في الصَّحِيحَيْنِ وغيرهما عن أم المؤمنين أم حبيبة وزينب بنت جحش رضي الله عنهما أن النبي ﷺ قال: «لا يحل لامرأة تؤمن بالله واليوم الآخر أن تحدّ على ميت فوق ثلاث، إلا على زوج أربعة أشهر وعشراً»^(١)

واتفق المسلمون على أن المتوفى عنها زوجها لا تتزوج في أثناء العدة، ويلزمها الإحداد وملازمة البيت إلا لضرورة.

وفي الصَّحِيحَيْنِ وغيرهما عن أم عطية رضي الله عنها قالت: ولا نكتحل ولا نتطيب ولا نلبس ثوباً مصبوغاً^(٢) وبنحوه نصح النبي ﷺ أم سلمة حين مات زوجها^(٣)

والحدادُ يعني: أن المرأة لا تتزين، ولا تتجمل في هذه المدة، ولا ترتدي الملابس التي تُلَفَّتُ الأنظار، ولا تتطيب، ولا تضع الحناء، ولا الكحل، ولا تلبس الحرير والحلي، ولا ما يجلو الوجه، أو يُلَمِّع الشعر، أو يُلون الأظافر، وهذا الحداد من المرأة خاصٌّ بزوجها، وليس لها أن تحتد على أحد غيره أكثر من ثلاثة أيام.

وهذه الأحكام التي جاءت بها الأحاديث، هي التي لا تحل للمعتدة على وفاة زوجها، ولا عبرة بما يتوارثه العامة من عادات تحرّم على المرأة المتوفى عنها زوجها ألا تكلم أحداً، ولا تبارح مكانها، ولا ترى القمر، ونحو ذلك مما لا أساس له في الإسلام.

عن حفصة أم المؤمنين رضي الله عنها عن النبي ﷺ قال: «لا يحل لامرأة تؤمن بالله واليوم الآخر أن تحدّ فوق ثلاث، إلا على زوج، فإنها تحدّ عليه أربعة أشهر وعشراً»^(٤)

قال يحيى بن سعيد عن نافع: والإحداد عندنا: ألا تَطَيَّب، ولا تلبس ثوباً مصبوغاً

(١) البخاري برقم (٥٣٣٤، ٥٣٣٧) ومسلم برقم (١٤٨٦) و«الموطأ» (٥٩٨/٢) وعبد الرزاق (١٢١٣٠) وأبو داود (٢٢٩٩) والترمذي (١١٩٥) والنسائي (٣٥٣٣)، ومثله عن أمي المؤمنين عائشة وحفصة في مسلم (١٤٩٠) و«الموطأ» (٥٩٨/٢).

(٢) الحديث في البخاري (٥٣٤٢) ومسلم (٩٣٨) وأبو داود (٢٣٠٢) والنسائي (٣٥٣٦) وابن ماجه (٢٠٨٧).

(٣) كما في «صحيح سنن أبي داود» (٢٠٢٠) وهو في سنن أبي داود (٢٣٠٤) والنسائي (٣٥٣٧).

(٤) مسلم (١٤٩٠) وابن ماجه (٢٠٨٦) و«المسند» (٢٥٥١٣) حديث صحيح على وهم في إسناده ومثله (محققوه) وابن حبان (٤٣٠٢) و«سنن النسائي» (٥٦٦٦)، وابن أبي شيبة (٢٨١/٥).

بورس، ولا زعفران، ولا تكتحل، ولا تزين.

والورس: نبات أصفر يُصبغ به الثياب، ومنه ما يكون للزينة كالزعفران.

ومعنى ذلك: ألا تتجمل المرأة في نفسها بكحل أو طيب أو أدوات تجميل، ولا تتجمل بثياب مُلْفِتٍ للنظر في لونه، ولا محدد لمقاطع الجسم واصفًا له، ولا مظهر ما تحته من ملابس، وألا تخضع بالقول، وتتبدل بين الناس.

ولما اشتكت امرأة معتدة من عينها، وتريد أن تكتحل، فسألت النبي ﷺ كما جاء عن أم سلمة وأم حبيبة قالتا: جاءت امرأة إلى النبي ﷺ فقالت: إن ابنتي تُوفي عنها زوجها، وإني أخاف على عينها، فقال رسول الله ﷺ: «قد كانت إحداكن تجلس حولًا، وإنما هي أربعة أشهر وعشرًا، فإذا كان الحول خرجت ورمت وراءها ببعرة»^(١)

ومعنى الرمي بالبعرة بعد الحول: انتهاء عدتها بعد سنة، وهو المعبر عنه برمي بعرة وراءها، ثم صارت أربعة أشهر وعشرًا؛ أي: أن النبي ﷺ لم يُرخص لها أن تكتحل وهي معتدة، ولا تخرج من البيت إلا لحاجة، كأن تُعالج إن كانت مريضة، أو تخرج للعمل إن كانت تعمل، وهي مضطرة إلى العمل، ولم تتمكن من الحصول على إجازة منه، فالمعتدة لوفاة زوجها يلزمها ملازمة بيت الزوجية أخذًا من قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنْكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا وَصِيَّةً لِأَزْوَاجِهِمْ مَتْنَعًا إِلَى الْحَوْلِ غَيْرَ إِخْرَاجٍ﴾ [البقرة: ٢٤٠].

فإن النسخ الوارد فيها -على القول به- واردٌ على مدة العدة، وهي الحول، أما بقية الحكم المتعلق بحفظ المعتدة ببقائها في بيت الزوجية فهو باقٍ، وقد ثبت وجوب ملازمة البيت للمعتدة بالسنة؛ فقد صح أن النبي ﷺ قال للفریعة بنة مالك بن سنان الخُدري - أخت أبي سعيد الخُدري - لما تُوفي عنها زوجها: «امكثي في بيتك حتى يبلغ الكتاب أجله» وقضى به عثمان بن عفان، وكان زوجها قد خرج يطلب أعبدًا له، فقتل، ولم يكن

(١) رواه مسلم (٤٣٥/١) برقم (٤٨٨) والبخاري (٥٣٣٦، ٥٧٠٦) وأبو داود (٢٢٩٩) والترمذي (١١٩٧) وأحمد في «المسند» (٢٨٦/٦) برقم (٢٦٥٠١) وانظر: تخريج الشيخ أحمد شاکر له في «تفسير الطبري» برقم (٥٠٧٤) و«سنن النسائي الكبرى» (٥٦٦٥) وهذا لفظه.

زوجها يملك بيتًا ولا نفقة عليها^(١).

وفي الموطأ أن عمر بن الخطاب كان يرُدُّ المتوفى عنها زوجها من البيداء، يمنعهن الحج، واتفق الجميع على أن المعتدة تخرج للضرورة نهارًا؛ لقضاء حوائجها، ولا تبيت إلا في المنزل.

ومعنى الآية: والذين يموتون منكم ويتركون زوجاتهم من بعدهم، يجب عليهن ألا يخرجن من المنزل إلا لحاجة، ولا يتزينن ولا يتزوجن، فإذا انتهت العدة فلا إثم عليكم - يا أولياء النساء - فيما تفعل المرأة من الخروج، والتزين المشروع، والزواج بعد العدة على الوجه المقرر شرعًا، والله خبير بأعمالكم ظاهرها وباطنها، وسيجازيكم عليها، وإذا انتهت المرأة من عدتها فلها أن تتطيب داخل بيتها، وتكحل، وتزين، وتعرض للخطاب بعد مضي أربعة أشهر وعشرًا.

واحتج الحنفية بهذه الآية على جواز النكاح بغير ولي، وقد أخذ به قانون الأحوال الشخصية في بعض بلاد المسلمين، وأخذ جمهور أهل العلم بضرورة الولي في الزواج؛ أخذًا من الأحاديث الواردة في ذلك، والقاضي ولي من لا ولي لها.

الْحُكْمُ الثَّامِنُ وَالْعِشْرُونَ: التَّعَرُّضُ لِلْمُتَوَفَّى عَنْهَا زَوْجُهَا بِالْخُطْبَةِ

٢٣٥- ﴿وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا عَرَّضْتُمْ بِهِ مِنْ خُطْبَةِ النِّسَاءِ^(٢) أَوْ أَكْنَنْتُمْ فِي أَنْفُسِكُمْ عِلْمَ اللَّهِ أَنْكُمْ سَنَذْكُرُهُنَّ وَلَكِنْ لَا تُوَاعِدُوهُنَّ سِرًّا إِلَّا أَنْ تَقُولُوا قَوْلًا مَعْرُوفًا^(٣) وَلَا تَعْزِمُوا عُقْدَةَ النِّكَاحِ حَتَّى يَبْلُغَ الْكِتَابُ أَجَلَهُ وَأَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي أَنْفُسِكُمْ فَاحْذَرُوهُ وَأَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَفُوٌّ حَلِيمٌ^(٤)﴾

- (١) يُنْظَرُ الحديث في «الموطأ» (٥٩١/٢) وأبي داود برقم (٢٣٠٠) والترمذي برقم (١٢٠٤) و«المسند» (٦/٤٢٠) برقم (٢٧٠٨٧) وإسناده حسن، والنسائي (٣٥٢٨) وابن ماجه برقم (٢٠٣١) وعبد الرزاق (١٢٠٧٥) و«المستدرک» (٢٠٨/٢) وصححه الألباني برقم (٢٠١٦) في صحيح سنن أبي داود.
- (٢) قرأ نافع وابن كثير وأبو عمرو وأبو جعفر ورويس بإبدال الهمزة الثانية من (النساء أو) ياء خالصة، والباقون بتحقيقها.
- (٣) عدّ لفظ (معروفًا) آية، المصحف البصري فقط، وتركها غيره من العدد.

تحدث هذه الآية عن خطبة المرأة المتوفى عنها زوجها، والمطلقة طلاقاً بائناً بينونة كبرى، أثناء العدة، فتبيح شيئين، وتنهى عن شيئين:

أ- تبيح التلميح بالخطبة للمرأة المعتدة أثناء العدة دون تصريح.

ب- وتبيح إخفاء هذه الرغبة في النفس.

وتنهى عن: ١- وعدها بالزواج سرّاً أثناء العدة. ٢- وعن العزم على عقد النكاح قبل انقضاء العدة.

وقد أجمع العلماء على تحريم العقد على المرأة أثناء عدتها، أو الدخول بها، فإن حدث فُرّقَ بينهما وفسخ العقد.

هذا: والمرأة المطلقة طلاقاً رجعيّاً لا يجوز مُطلقاً أن يتعرض لها أحد بالخطبة، لا تلميحاً، ولا تعريضاً، ولا تصريحاً؛ لأنها ما زالت في ذمة زوجها.

والمرأة المتوفى عنها زوجها، لا يجوز أن يتقدم لها أحد بالخطبة، ما دامت في العدة، ولا يُصرّح لها بذلك، وإن أراد أحد أن يتزوج من هذه المرأة، فليكن هذا داخل نفسه، طالما هي في العدة، ويمكن أن يلمح لها أو يُعرض لها بكلام عام ولا يصرح، كأن يقول: إنه يبحث له عن زوجة من شأنها كذا وكذا، أو يريد امرأة صالحة يسكن إليها، وتسكن إليه، أو إني أحب مشاورتك بعد انقضاء العدة، ونحو ذلك.

وفي الآية دليل على جواز التعريض بالخطبة أثناء العدة، وأن يُضمر الإنسان ذلك في نفسه، ولا يجوز أن تواعدهن سرّاً على الزواج، وهي في عدة الوفاة؛ لأن ذلك مظنة للفتنة والريبة، ولا يجوز أن يتقدم لها عن طريق وليها إلا إذا انتهت العدة ﴿وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا عَرَّضْتُمْ بِهِ مِنْ خِطْبَةِ النِّسَاءِ أَوْ أَكْنَنْتُمْ فِي أَنْفُسِكُمْ﴾ أي: فلا إثم عليكم - أيها الرجال - فيما تُلمحون به من رغبة الزواج بالمرأة في أثناء العدة، ولا ذنب عليكم فيما تُضمرونه في أنفسكم من نية الزواج بها، ويكون هذا من جانب واحد.

﴿عَلِمَ اللَّهُ أَنَّكُمْ سَتَذْكُرُونَهُنَّ﴾ في أنفسكم، فأباح لكم التلميح بما تضمرونه، واحذروا أن تواعدهن بالزواج سرّاً أثناء العدة، كأن يطلب منها أن تعاهده على الزواج به، إلا أن

تقولوا قولاً يفهم منه أن مثلها يرغب فيها الأزواج ﴿وَلَكِنْ لَا تَوَاعِدُوهُمْ سِرًّا إِلَّا أَنْ تَقُولُوا قَوْلًا مَعْرُوفًا﴾ والتعريض ضد التصريح ومعناه: أن يُضْمَنَ كلامه ما يصلح للدلالة على مقصوده، ويصلح للدلالة على غير المقصود:

١- وقد عرَّض رسول الله ﷺ برغبته في الزواج من أم سلمة ؓ بذكر منزلته عند الله، وهي في العدة.

٢- وعرَّض أبو جعفر محمد بن علي الباقر، برغبته في (سكينة بنت حنظلة) بقرابته من رسول الله ﷺ، ومن جده علي ؓ، فلما أنكرت ذلك عليه قال: إني أخبرتك بقرابتي من رسول الله ﷺ^(١)

٣- وقال النبي ﷺ لفاطمة بنت قيس حين طلقها زوجها -أبو عمرو بن حفص- آخر ثلاث تطليقات: «فَإِذَا حَلَلْتَ فَأَذْنِي»، وأمرها أن تعتد في بيت ابن أم مكتوم، فلما انتهت عدتها خطبها لأسامة بن زيد فزوجها إياه^(٢)

أما المطلقة طلاقاً رجعيّاً فلا خلاف في أنه لا يجوز لأحد التعرض لها بخطبة، كما أنه لا يصح العقد أثناء العدة، والقول المعروف في الآية هو التقدم لولي أمرها بعد الانتهاء من العدة بخطبتها ﴿وَلَا تَعَزَّمُوا عُقْدَةَ النِّكَاحِ﴾ أي: لا ينبغي أن يتقدم للمعتدة أحد، ولا يتفق على الزواج منها، ولا يُعقد عليها إلا إذا انتهت العدة، وهذا معنى ﴿حَتَّى يَبْلُغَ الْكِتَابُ أَجَلَهُ﴾ وسميت العدة كتاباً؛ لأنها فُرِضت بالكتاب، والمراد بأجل المكتوب؛ أي: انتهاء العدة ﴿وَأَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي أَنْفُسِكُمْ فَاحْذَرُوهُ﴾ احذروا عقابه عند مخالفة أمره ﴿وَأَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَفُوٌّ﴾ لِمَنْ تاب من ذنبه ﴿حَلِيمٌ﴾ على عباده لا يعاجلهم بالعقوبة.

(١) يُنظر فيهما الأثر (٥١٢٣) من «تفسير الطبري».

(٢) رواه مسلم برقم (١٤٨٠).

الْحُكْمُ التَّاسِعُ وَالْعِشْرُونَ: مُتْعَةُ الْمُطَلَّقةِ قَبْلَ تَسْمِيَةِ الْمَهْرِ وَقَبْلَ الدُّخُولِ بِهَا:

٢٣٦- ﴿لَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِنْ طَلَقْتُمُ النِّسَاءَ مَا لَمْ تَمْسُوهُنَّ^(١) أَوْ تَفْرِضُوا لَهُنَّ فَرِيضَةً^٢ وَمَتَّعُوهُنَّ عَلَى الْمُوسِعِ قَدَرِهِ^(٢) وَعَلَى الْمُقْتِرِ قَدَرُهُ مَتَّعًا بِالْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى الْحُسَيْنِ

ذكرت هذه الآية حكمَ متعة المطلقة قبل الدخول بها، وقبل إعطائها المهر فقد عقد عليها، ولم يدخل بها في خلوة شرعية صحيحة، ولم يُسمَّ لها المهر؛ أي: عقد عليها دون تسمية المهر.

قيل: نزلت هذه الآية في رجلٍ من الأنصار تزوج امرأة من بني حنيفة، ولم يُسمَّ لها صداقها، ثم طلقها قبل أن يمسها، فقال له النبي ﷺ: «مَتَّعَهَا وَلَوْ بَقْلَنَسُوتِكَ».

قال ابن عباس في الآية: هذا الرجل يتزوج المرأة، ولم يسمَّ لها صداقاً، ثم يطلقها من قبل أن ينكحها، فأمره الله تعالى أن يمتعها على قدر عُسره ويُسرهِ، ونَفْيُ الحرج الذي في الآية يتعلق بطلاقها في أيِّ وقت، حائضاً أو طاهرًا؛ لأنه قبل الْمَسَّاسِ وقبل الدخول بها.

ولكن هذا الطلاق قد يُخرجها، أو يسيء إلى سمعتها، ويتحدث الناس عنها: لماذا تركها؟ لا بد أن فيها عيباً في خُلُقها، أو في خُلُقها، أو سلوكها، فيأمره الإسلام في هذه الحالة أن يُمتعها؛ أي: يعطيها شيئاً من النفقة أو الهدايا؛ جبراً لخاطرها، وتطيباً لها، وحفظاً لكرامتها، وصيانةً لِعرضها؛ لكي تُذكر بالكلام الحسن بين الناس.

﴿لَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِنْ طَلَقْتُمُ النِّسَاءَ﴾ أي: لا إثم عليكم - أيها الأزواج - إن طلقتم النساء بعد العَقْدِ عليهن، قبل تحديد المهر وقبل الجماع والخلوة الشرعية بها، ولها حق المتعة في هذه

(١) قرأ حمزة والكسائي وخلف العاشر (ما لم تُمَاسُوهُنَّ) بضم التاء مع المد ست حركات، من الْمُفَاعَلَةِ، وقرأ الباقون (تَمَسُوهُنَّ) من غير مد، على أن الفعل للرجال، ووقف عليها يعقوب بهاء السكت بخلف عنه والمراد بالمس: الجماع على القراءتين.

(٢) قرأ ابن ذكوان وحفص وحمزة والكسائي وأبو جعفر وخلف العاشر بفتح الدال من لفظ (قَدَرُهُ)، في الموضعين وقرأ الباقون بسكونها، وهما لغتان بمعنى واحد؛ هو الطاقة والقدرة.

الحالة، تطيباً لها، وتعويضاً عما يلحقها من أذى في سمعتها، فمتعوهن بشيء على قدر طاقتكم، يجبر خاطرهن، ويدفع وحشة الطلاق، وإزالة الحقد من نفوسهن.

وهذه المتعة حق ثابت على الذين يُحسنون إلى المطلقات وإلى أنفسهم بطاعة الله تعالى، وقد سَمَّاهم الله محسنين؛ لأن هذه المتعة من باب التَّفَضُّل والإحسان، وذلك ﴿مَا لَمْ تَمْسُوهُنَّ﴾ أي: تمسوهن بالجماع ﴿أَوْ تَقْرِضُوا لَهُنَّ فَرِيضَةً﴾ والفريضة هي فرض الصَّدَاق وتحديد المهر، فليس هناك مانع من طلاق المرأة قبل الخلوة بها، وقبل فرض المهر وتسميته لها.

﴿وَمَتَّعُوهُنَّ﴾ ادفعوا لهن شيئاً متعة لها؛ أي: نفقة وهدية على قدر عُسْر الخاطب ويُسرِه ﴿عَلَى الْمَوْسِعِ قَدْرُهُ وَعَلَى الْمَقْتَرِ قَدْرُهُ﴾ الغني من غناه، والفقير من فقره ﴿مَتَّعًا بِالْمَعْرُوفِ﴾ أي يرجع إلى العرف واختلاف أحوال الناس ﴿حَقًّا عَلَى الْمُحْسِنِينَ﴾ قال بوجوب هذه المتعة الشافعي وأبو حنيفة وأحمد، وقال مالك: المتعة مُسْتَحْسَنَةٌ.

وهذه الآية كقوله تعالى: ﴿يَتَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا نَكَحْتُمُ الْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ طَلَقْتُمُوهُنَّ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَمْسُوهُنَّ فَمَا لَكُمْ عَلَيْهِنَّ مِنْ عِدَةٍ تَعُدُّوهنَّ فَمَتَّعُوهُنَّ وَسَرَّحُوهُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا﴾ [الأحزاب: ٤٩] وقد تزوج النبي ﷺ أميمة بنت شراحيل، فلما دخلت عليه بسَطَ إليها يده، فكأنها كرهت ذلك فأمر بتجهيزها ومتعتها^(١)

قال الربيع بن أنس في الآية: هو الرجل يتزوج المرأة، ولا يُسمي لها صداقاً، ثم يطلقها قبل أن يدخل بها، فلها متاعٌ بالمعروف، ولا صداق لها^(٢)

فإذا طلق الرجل المرأة قبل أن يُسمي لها مهراً، وكان قد عقد عليها، ولكنه لم يدخل بها؛ فعليه متاعٌ بالمعروف، ولا عدة عليها، وهذا منطوق هذه الآية.

ثانياً: أما إن طلقها بعد العقد عليها، وبعد تسمية المهر، وقبل أن يدخل بها؛ فلها نصف المهر، ولا عدة عليها أيضاً، وهذا منطوق الآية التالية.

ويرى الإمام الطبري أن قوله تعالى: ﴿عَلَى الْمَوْسِعِ قَدْرُهُ وَعَلَى الْمَقْتَرِ قَدْرُهُ﴾ يعود على

(١) «صحيح البخاري» برقم (٥٢٥٥، ٥٢٥٦، ٥٢٥٧).

(٢) الأثر (٥٢٠١) من «تفسير الطبري».

الحالتين معاً، وأن كلَّ مطلقة لها متعة، سواء سُمِّيَ لها المهر أم لا .

ويرى أيضاً أنه لا فرق بين قوله تعالى: ﴿حَقًّا عَلَى الْمُحْسِنِينَ﴾ و﴿حَقًّا عَلَى الْمُتَّقِينَ﴾؛ لأن كل محسنٍ تقِيٍّ، وكل تقِيٍّ محسنٌ، والفرقة بينها غباء، ولعل القول الأول أولى، فالإحسان يعني التفضل وعدم الوجوب، والتقوى تعني الوجوب واللزوم، وأن ﴿وَمَتَّعُوهُنَّ﴾ يعود على ما لم يُسمَّ لها المهر فحسب .

ثالثاً: أما المطلقة بعد الدخول بها فيأتي حكمها في قوله تعالى: ﴿وَالْمُطَلَّقَاتُ مَتَّعٌ بِالْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى الْمُتَّقِينَ﴾ (٢٤) فهذه أحوال ثلاثة .

الحُكْمُ التَّشْرِيعِيُّ الثَّلَاثُونَ:

الْمُطَلَّاقَةُ بَعْدَ تَحْدِيدِ الْمَهْرِ وَقَبْلَ الدُّخُولِ بِهَا لَهَا نِصْفُ الْمَهْرِ وَلَا مُتْعَةٌ لَهَا

٢٣٧- ﴿وَإِنْ طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَمْسُوهُنَّ وَقَدْ فَرَضْتُمْ لَهُنَّ فَرِيضَةً فَنِصْفُ مَا فَرَضْتُمْ إِلَّا أَنْ يَعْفُونَ أَوْ يَعْفُوا الَّذِي بِيَدِهِ عَقْدَةُ الزَّكَاجِ وَأَنْ تَعْفُوا أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى وَلَا تَنْسُوا الْفَضْلَ بَيْنَكُمْ إِنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ (٢٥)

ثم بيّن ﷺ حكم التي سَمِيَ الزوج لها مهرًا، وعقد عليها، ولم يجامعها، وأراد طلاقها، فقال سبحانه: ﴿وَإِنْ طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَمْسُوهُنَّ﴾ أي: إذا طلق الرجل امرأته قبل المسيس والدخول بها، وبعد تحديد المهر لها، وهذا معنى: ﴿وَقَدْ فَرَضْتُمْ لَهُنَّ فَرِيضَةً﴾ أي: حدّد الزوج لها مهرًا، وألزم نفسه به، ولكنه لم يجامعها ﴿فَنِصْفُ مَا فَرَضْتُمْ﴾ فيجب إعطاؤها نصف المهر المستحق لها .

قال ابن عباس في الآية: هذا في الرجل يتزوج المرأة، وقد سَمِيَ لها صداقًا، ثم يطلقها قبل أن يَمَسَّها؛ فلها نصف صداقها، ليس لها أكثر من ذلك (٢) .

وقوله: ﴿إِلَّا أَنْ يَعْفُونَ أَوْ يَعْفُوا الَّذِي بِيَدِهِ عَقْدَةُ الزَّكَاجِ﴾ أي: إلا أن تعفو الزوجة؛ فترك نصف المهر الذي لها، ﴿أَوْ يَعْفُوا الَّذِي بِيَدِهِ عَقْدَةُ الزَّكَاجِ﴾ أو يعفو الزوج وهو المطلق الذي بيده عقدة النكاح، ويترك لها المهر

(١) قرأ رويس بقصر الهاء من (بيده) أي: باختلاس حركتها، والباقون بإشباع؛ أي: المد الطبيعي .

(٢) الشافعي في «الأم» (٢١٥/٥) و«تفسير سعيد بن منصور» (٧٧٢) والبيهقي (٧/٢٥٤) .

كله، والذي بيده عقدة النكاح بالنسبة للمرأة هو أبوها أو أخوها أو من لا تُنكح إلا بإذنه، ولا يعفو عما وجب للمرأة، إلا أن يكون وكيلاً عنها، والآية تشمل العفو من كلا الجانبين ثم رغب سبحانه في العفو فقال: ﴿وَأَنْ تَعْفُوا أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى﴾ أي: وأن يعفوا بعضكم لبعض عما وجب له بعد الفراق بينكما أقرب إلى تقوى الله تعالى، لكونه إحساناً تنشر له الصدور، ويترك أثراً حسناً في النفوس.

١- ورد أن جبير بن مطعم تزوج امرأة ثم طلقها قبل الدخول بها، فأكمل لها الصداق، وقال: أنا أحق بالعفو، وأولى بالفضل^(١)

٢- وقال نافع: المرأة التي يُطلقها زوجها قبل أن يدخل بها، فإذا أن تعفو عن النصف لزوجها، وإذا أن يعفو الزوج فيكمل لها صداقها^(٢)

٣- وقال علي بن أبي طالب في المتوفى عنها زوجها ولم يُفرض لها صداقاً: لها الميراث، وعليها العدة، ولا صداق لها^(٣)

وتسامحكم -أيها الأزواج- أقرب إلى خشية الله وطاعته ﴿وَلَا تَنسُوا﴾ أي: لا تغفلوا -أيها الرجال والنساء- الأخذ بـ ﴿الْفَضْلِ﴾ والإحسان ﴿بَيْنَكُمْ﴾ وهو إعطاء ما ليس بواجب عليكم، والتسامح في الحقوق، وأن يَتَفَضَّلَ كُلُّ مِنْكُمَا بالعفو عن الآخر، فمعاملة الناس إما أن تكون من باب العدل والإنصاف، أو من باب الفضل والإحسان.

والعدل: أخذ الواجب وإعطاء الواجب، والفضل: إعطاء ما ليس بواجب وتسامح في الحقوق، وتغاضي عما في النفس، فلا ينبغي للإنسان أن يترك هذه الدرجة لا سيما لمن كان بينهما عشرة وتعامل.

جاء في الأثر: سيأتي على الناس زمان عضوض، يعرض الموسر على ما في يديه، ولم يؤمر بذلك، وقد قال تعالى: ﴿وَلَا تَنسُوا الْفَضْلَ بَيْنَكُمْ﴾^(٤)

(١) الأثر (٥٣٢١) في «تفسير الطبري» وهو عند الشافعي في «الأم» (٧٤/٥) والبيهقي (٢٥١/٧).

(٢) الأثر (٥٣٥٢) في «تفسير الطبري».

(٣) سعيد منصور (٢٦٦/١) وابن أبي شيبة (٣٠٢/٤) والبيهقي (٢٤٧/٧).

(٤) رواه أحمد في «المسند» (١١٦/١) وأبو داود في «السنن» برقم (٣٣٨٢) عن علي بن أبي طالب موقوفاً عليه أو مرفوعاً، واللفظ لأبي داود.

جاء قومٌ إلى ابن مسعود يسألونه عن رجل مات بعد أن تزوج امرأة لم يدخل بها، ولم يحدد لها مهرًا، فقال: اسألوا غيري فما سئلت عن شيء أشد من هذه منذ فارقت رسول الله ﷺ، فغابوا عنه شهرًا، ثم رجعوا عليه بالسؤال فقال: سأجته رأيي، فإن كان صوابًا فمن الله وحده، وإن كان خطأ فمني، أرى أن أجعل لها صداقًا كصداق نساءها لا وكس ولا شطط، ولها الميراث، فقام ناسٌ من أشجع، منهم معقل بن يسار فقالوا: نشهد أنك قضيتَ بمثل الذي قضى به رسول الله ﷺ في امرأة منا يقال لها: بَرَوَع بنتٌ واشق، فما رؤي ابن مسعود فرح بشيء ما فرح يومئذ بموافقة قوله قضاء رسول الله ﷺ، ثم قال: اللهم إن كان صوابًا فمك وحدك لا شريك لك^(١)

عَرَضَ سعد بن أبي وقاص، بنتًا له على جبير بن مطعم؛ فتزوجها، ثم ردها وطلقها قبل أن يَدْخُلَ بها، وبعث لها المهر كاملاً، فقال له: لِمَ تزوجتها؟ فقال: عرضها عليّ، فكرهتُ ردها، فقبل له: فلمَ بعثتَ بالصداق كاملاً؟ قال: فأين الفضل؟!

وتزوج أحد الصحابة امرأة، ثم طلقها قبل الدخول بها، وأعطاه الصداق كاملاً، فقبل له في ذلك، فقال: أنا أحق بالعفو منها^(٢)

وفي تفسير العفو: أخرج الطبري وابن أبي حاتم بإسناد حسن عن علي بن أبي طلحة عن ابن عباس قال: هي المرأة الثيب أو البكر يُزَوِّجها غير أبيها، فجعل الله العفو إليهن، إن شئن عفونَ فتركنَ، وإن شئن أخذن نصف الصداق.

والله تعالى بصيرٌ بكم، وهو سبحانه يرغبكم في المعروف، ويحثكم عليه ﴿إِنَّ اللَّهَ يَمَّا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾.

رَبُّطُ أُمُورِ الْحَيَاةِ بِالتَّوَجُّهِ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى وَعِبَادَتِهِ

٢٣٨- ﴿حَافِظُوا عَلَى الصَّلَوَاتِ وَالصَّلَاةِ الْوُسْطَىٰ وَقُومُوا لِلَّهِ قَانِتِينَ﴾ (١٢٨)

(١) «المسند» (١٥٩٤٣) مختصراً وإسناده صحيح على شرط الشيخين، وعبد الرزاق (١٠٨٩٨) وابن أبي شيبة

(٣٠٠/٤) وأبو داود (٢١١٥) والترمذي (١١٤٥) والنسائي (٣٣٥٥) والحاكم (١٩٦/٢).

(٢) «تفسير الكشاف» (٢٨٦/١) بتصرف.

في هذه الآية ثلاثة أوامر هي :

- ١- وجوب المحافظة على الصلاة بشكل عام في قوله: ﴿حَفِظُوا عَلَى الصَّلَوَاتِ﴾.
- ٢- وجوب المحافظة على صلاة العصر بوجه خاص في قوله تعالى: ﴿وَالصَّلَاةَ الْوُسْطَى﴾.
- ٣- وجوب الخشوع في الصلاة، وهو معنى ﴿وَقُومُوا لِلَّهِ قَانِتِينَ﴾.

أما الأمر الأول وهو وجوب المحافظة على الصلاة:

فقد وَرَدَ فيه كثيرٌ من الآيات، والأحاديث، أن الله تعالى وصف المؤمنين الذين فازوا بالفلاح بأنهم الذين يحافظون على صلاتهم، ووصفهم بعدم الهَلَع وهو منع الخير، والجزع من الشر.

وفي حديث عبادة بن الصامت رضي الله عنه قال: سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: «خمس صلوات كتبهن الله تبارك وتعالى على العباد، فمن جاء بهن، ولم يضيع منهن شيئاً استخفافاً بحقهن كان له على الله تعالى عَهْدٌ أَنْ يَغْفِرَ لَهُ، وَمَنْ لَمْ يَفْعَلْ فَلَيْسَ لَهُ عَلَى اللَّهِ عَهْدٌ، إِنْ شَاءَ غَفَرَ لَهُ، وَإِنْ شَاءَ عَذَبَهُ»^(١)

وفي حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال: سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: «إِنْ أَوَّلَ مَا يُحَاسَبُ بِهِ الْعَبْدُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِنْ عَمَلِهِ صَلَاتُهُ، فَإِنْ صَلَحَتْ فَقَدْ أَفْلَحَ وَأَنْجَحَ، وَإِنْ فَسَدَتْ فَقَدْ خَابَ وَخَسِرَ، فَإِنْ انْتَقَصَ مِنْ فَرِيضَتِهِ قَالَ الرَّبُّ: انْظُرُوا هَلْ لِعَبْدِي مِنْ تَطَوُّعٍ؟ فَيُكَمَّلُ بِهَا مَا انْتَقَصَ مِنَ الْفَرِيضَةِ، ثُمَّ يَكُونُ سَائِرُ عَمَلِهِ عَلَى ذَلِكَ»^(٢)

وقال أبو هريرة: كان أصحاب محمد ﷺ لا يروُن شيئاً من الأعمال تركه كفر غير الصلاة^(٣)

هذا: وفي أثناء الحديث عن الطلاق وأمور الحياة الزوجية، يوجّه الله ﷻ أنظارنا ويلفتها إلى أن الإنسان إذا وقع في غم وكرب في مثل هذه الحالات التي تضايق الإنسان وتُخرجُه؛ فعليه أن يلجأ إلى الله تعالى بالصلاة، فإن الصلاة فيها تفرّجٌ للهموم والغموم والكروب،

(١) أخرجه مالك (١/١٢٣) وأحمد (٢٢٦٩٣) وهو حديث صحيح ورجال ثقات، وأبو داود (١٤٢٠) والنسائي (٤٦٠) وابن ماجه (١٤٠١) و«صحيح سنن أبي داود» (١٢٥٨) وغيرهم.

(٢) «صحيح سنن الترمذي» (٣٣٧) وهذا لفظه والنسائي (٤٦٤) وابن ماجه (١٤٢٥) والحاكم (١/٢٦٢).

(٣) «صحيح سنن الترمذي» (٢١١٤) والحاكم (١/٧).

فقد كان أنبياء الله تعالى إذا فزعوا، فزعوا إلى الصلاة^(١) فإن فيها تفريجاً للهم والغم، وكان ﷺ إذا اشتد عليه أمر يقول: «يا بلال، أرحنا بالصلاة»^(٢)

ولذلك فإن الأمر بالمحافظة على الصلاة جاء في أثناء الكلام على الطلاق والعدة والمشكلات الزوجية ﴿حَفِظُوا﴾ أيها المسلمون ﴿عَلَى الصَّلَاةِ﴾ الخمس المفروضة بالمداومة على أدائها في أوقاتها بشروطها، وأركانها، وواجباتها، وسننها:

جملة من الأحاديث في الصلاة

١- عن أبي ذر رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «كيف أنت إذا كانت عليك أمراء يؤخرون الصلاة عن وقتها، أو يُميتون الصلاة عن وقتها؟» قال: قلت: فما تأمرني؟ قال: «صلّ الصلاة لوقتها، فإن أدركتها معهم فصلّ، فإنها لك نافلة»^(٣)

ومما ورد في وجوب المحافظة على الصلوات بشكل عام:

٢- ما رواه جابر رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «بين الرجل وبين الكفر ترك الصلاة»^(٤)

٣- وعن بُرَيْدَةَ رضي الله عنه قال: سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: «العهد الذي بيننا وبينهم الصلاة فمن تركها فقد كفر»^(٥)

عن عبد الله بن عمرو بن العاص عن النبي ﷺ أنه ذكر الصلاة يوماً فقال: «مَنْ حَافِظٌ عَلَى الصَّلَاةِ كَانَتْ لَهُ نُورًا وَبِرْهَانًا

(١) يُنْظَرُ حديث صهيب بسند صحيح على شرط مسلم في «المسند» برقم (١٨٩٣٧)، وابن أبي شيبة (١٠/ ٣١٩) والبخاري في مسنده، والنسائي في الكبرى (١٠٤٥).

(٢) عن رجل من أسلم، ورجاله ثقات كما قال محققو المسند (٢٣٠٨٨) وانظر (٢٣١٥٤) وأخرجه أبو داود (٤٩٨٥) والطبراني في «الكبير» (٦٢١٤).

(٣) «صحيح مسلم» برقم (٦٤٨).

(٤) مسلم (٨٢) و«المسند» (١٤٩٧٩، ١٥١٨٣) وأبو داود (٤٦٧٨) والترمذي (٢٦١٨) والنسائي (٤٦٣) وابن ماجه (١٠٧٨).

(٥) «المسند» (٢٢٩٣٧) بإسناد قوي، و«صحيح سنن الترمذي» (٢١١٣) والنسائي (٤٦٢) وابن ماجه (١٠٧٩) وابن حبان (١٤٥٤) والحاكم (١/ ٦) وابن أبي شيبة (٣٤/ ١١).

ونجاة يوم القيامة، ومَن لم يحافظ عليها لم تكن له نورًا ولا برهانًا ولا نجاةً، وكان يوم القيامة مع قارون وفرعون وهامان وأبي بن خلف^(١)

فَمَن شغلته أمواله عن الصلاة حُشِرَ مع قارون، ومَن شغلته ملكه ورئاسته عن الصلاة حُشِرَ مع فرعون، ومَن شغلته وزارته وإدارته حُشِرَ مع هامان، ومَن شغلته تجارته حُشِرَ مع أبي بن خلف.

٥- وسأل عبد الله بن مسعود رضي الله عنه رسول الله ﷺ: أي العمل أفضل؟ قال: «الصلاة لوقتها» قلت: ثم أي؟ قال: «الجهاد في سبيل الله» قلت: ثم أي؟ قال: «بر الوالدين» قال: حدثني بهن رسول الله ﷺ ولو استزدته لزادني^(٢)

والأمر الثاني: هو وجوب المحافظة على الصلاة الوسطى، ويُبرَّج أنها صلاة العصر ﴿وَالصَّلَاةُ الْوُسْطَى﴾ أي: وحافظوا على صلاة العصر خاصة؛ لأنها وقت الراحة من تعب العمل، وكونوا خاشعين في صلاتكم ذليلين خاضعين؛ وهو معنى القنوت ﴿وَقُومُوا لِلَّهِ قَانِتِينَ﴾.

١- في الحديث عن علي رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال يوم الأحزاب: «شغلونا عن الصلاة الوسطى صلاة العصر ملأ الله قبورهم وبيوتهم نارًا»^(٣)

٢- وعن سالم بن عبد الله عن عبد الله -أي ابن مسعود- رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «مَن فاتته صلاة العصر فكأنما وتر أهله وماله»^(٤)

٣- وفي حديث بريدة رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «مَن ترك صلاة العصر فقد حبط عمله»^(٥)

(١) سنن الدارمي (٣٠١/٢) و«المسند» (١٦٩/٢) برقم (٦٥٧٦) والطبراني (١٦٣) وفي «الأوسط» (١٧٦٧) وابن حبان (١٤٦٧) قال محقق الإحسان: إسناده صحيح، وقال الهيثمي في «المجمع» (١٩٢/١): رجال أحمد ثقات وحسن إسناده محققو المسند.

(٢) «صحيح البخاري» برقم (٥٢٧، ٥٩٧٠) و«صحيح مسلم» برقم (٨٥).

(٣) من حديث علي رضي الله عنه في يوم الأحزاب، رواه عبد الرزاق في «المصنف» (١٨١/١) (٢١٩٢) وهو في الطبري برقم (٥٤٢٣) ويُنتظر: «صحيح مسلم» (٦٢٧) و«السنن الكبرى» للنسائي (١١٠٤٥) و«المسند» (٩٩٤، ١٢٢١) بإسناد صحيح على شرط الشيخين، وأبو داود (٤٠٩) والترمذي (٢٩٨٤) وابن ماجه (٦٨٤).

(٤) «صحيح مسلم» برقم (٦٢٦) والبخاري (٥٥٢) ومالك (١١/١) وابن أبي شيبة (٣٤٢/١) وأبو داود (٤١٤) والترمذي (١٧٥) وابن ماجه (٦٨٥) وابن خزيمة (٣٣٥)، والمسند (٤٥٤٥).

(٥) البخاري (٥٥٣) والنسائي (٤٧٣) وفي «الكبرى» (٣٦٤) وابن ماجه (٦٩٤) وابن أبي شيبة (٣٤٢/١).

- ٤- وعن أبي موسى رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «مَنْ صَلَّى الْبُرْدَيْنِ دَخَلَ الْجَنَّةَ»^(١)
فكان ابن عمر يرى لصلاة العصر فضيلة لقول رسول الله ﷺ فيها: «إنها الصلاة الوسطى».
٥- وعن ابن مسعود رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «الصلاة الوسطى صلاة العصر»^(٢)
وقيل في الصلاة الوسطى غير ذلك، والأول أرجح^(٣).

والأمر الثالث: هو وجوب الخشوع في الصلاة.

وكان الناس قبل نزول هذه الآية يتكلمون وهم في الصلاة؛ فأنزل الله تعالى: ﴿وَقُومُوا لِلَّهِ قَانِتِينَ﴾ اخشعوا ولا تتكلموا في الصلاة، وكونوا مطيعين لله ﷻ بألا تشتغلوا في الصلاة بغير ذكر الله تعالى.

١- في الصَّحِيحَيْنِ وغيرهما عن زيد بن أرقم رضي الله عنه قال: كنا نتكلم في الصلاة، يُكَلِّم الرجل صاحبه، وهو إلى جنبه في الصلاة حتى نزلت: ﴿وَقُومُوا لِلَّهِ قَانِتِينَ﴾ فأمرنا بالسكوت، ونُهِينَا عن الكلام^(٤)، فالقنوت في الآية يراد به: السكوت في الصلاة.

قال مجاهد: كانوا يتكلمون في الصلاة، وكان الرجل يأمر أخاه بالحاجة فأنزل الله: ﴿وَقُومُوا لِلَّهِ قَانِتِينَ﴾^(٥).

٢- وعن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: إن النبي ﷺ كان عَوْدَنِي أَنْ يَرِدَ عَلَيَّ السَّلَامَ فِي الصَّلَاةِ، فَأَتَيْتُهُ ذَاتَ يَوْمٍ فَسَلَّمْتُ، فَلَمْ يَرُدَّ عَلَيَّ، وَقَالَ: «إِنَّ اللَّهَ يُحَدِّثُ فِي أَمْرِهِ مَا يَشَاءُ؛ لِأَنَّهُ

(١) البخاري (٥٧٤) ومسلم (٦٣٥) والبيهقي (٤٦٦/١).

(٢) الحديث رقم (٥٣٨٩) في «تفسير الطبري»، قال الشيخ أحمد شاكر: هذا إسناد صحيح جداً، ورواه الترمذي (١٨١) وابن حبان (١٧٤٦) وابن أبي شيبة (٥٠٤/٢) و«صحيح سنن الترمذي» (١٥٢)، ومشكاة المصابيح (٦٣٤) وعن سُمرة بن جندب في الترمذي (١٨٢) وصحيح سنن الترمذي (١٥٣).

(٣) الآثار من (٥٣٧٨ - ٥٤٤٥) من «تفسير الطبري» أنها صلاة العصر، وفي أواخرها دعاء على مَنْ يشغل الناس عنها، ومن (٥٤٥٨ - ٥٤٧٠) آثار عن حفصة أنها صلاة العصر.

(٤) البخاري (١٢٠٠، ٤٥٣٤) ومسلم (٥٣٩) و«المسند» (١٩٢٧٨) وأبو داود (٩٤٩) والترمذي (٤٠٥) وغيرهم.

(٥) عبد الرزاق في «المصنف» (٣٥٧٤) والطبري (٣٨٣/٤).

قد أحدث لكم في الصلاة ألا يتكلم أحدٌ إلا بذكر الله، وما ينبغي من تسبيح وتمجيد»^(١)

٣- وعن معاوية بن الحكم السلمي رضي الله عنه قال: بينا أنا أصلي مع رسول الله ﷺ إذ عطس رجل من القوم، فقلت: يرحمك الله، فرماني القوم بأبصارهم، فقلت: وا ثكل أماء، ما شأنكم تنظرون إليّ؟ فجعلوا يضربون بأيديهم على أفخاذهم، فلما صلى رسول الله ﷺ، فبأبي هو وأمي، ما رأيت معلماً قبله ولا بعده أحسن تعليماً منه، فوالله ما نهرني ولا ضربني ولا شتمني، قال: «إن هذه الصلاة لا يصلح فيها شيء من كلام الناس، إنما هو التسبيح والتكبير وقراءة القرآن»^(٢)

٤- قال ابن مسعود رضي الله عنه: كنا نسلم على رسول الله ﷺ، وهو في الصلاة فيردُّ علينا، فلما رجعنا من عند النجاشي سلمنا عليه فلم يرد علينا، فقلنا: يا رسول الله، كنا نسلم عليك في الصلاة فترد علينا، فقال ﷺ: «إن في الصلاة شغلاً»^(٣)

وقيل: القنوت: هو طول القيام في الصلاة، ويدلُّ عليه ما أخرجه الإمام مسلم في صحيحه عن جابر رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «أفضل الصلاة طول القنوت»^(٤)

ومن القنوت: طول الركوع والسجود، وغضُّ البصر، وخفضُ الجناح، وأهم ما في القنوت: الخشوع في الصلاة، وعدم اللهو فيها، وليس المراد بالقنوت في الآية دعاء القنوت الذي يكون في الصلاة.

لَا تَسْقُطُ الصَّلَاةُ إِلَّا عَنْ فَاقِدِ الْوَعْيِ

٢٣٩- ﴿فَإِنْ خِفْتُمْ فِرَاجًا أَوْ رُكْبَانًا فَإِذَا أَمِنْتُمْ فَأَذْكُرُوا اللَّهَ كَمَا عَلَّمَكُم مَّا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ﴾

الخوف في هذه الآية، خوف مطلق، يشمل الخوف من العدو، والخوف من قاطعي الطريق، ومن السباع، والهوام، ومن الكافر والظالم، وكل معتد صائل.

(١) وهو في البخاري (١١٩٩، ٣٨٧٥) ومسلم (٥٣٨) الحديث رقم (٥٥٢٦) في «تفسير الطبري» بإسناد صحيح، وهو في النسائي (١/١٨١) و«المسند» برقم (٣٥٦٣).

(٢) «صحيح مسلم» برقم (٥٣٧) و«المسند» (٢٣٧٦٢) وأبو داود (٩٣٠) والنسائي (١٢١٧) وابن أبي شيبة (٤٣٢/٢).

(٣) البخاري (١١٩٩، ٣٨٧٥) ومسلم (٥٣٨) وأبو داود (٩٢٣) والنسائي (١٢٢٠) وابن ماجه (١٠١٩).

(٤) «صحيح مسلم» برقم (٧٥٦).

وقد شَدَّدَ الإسلامُ على أداء الصلاة؛ فأوجبها في حال الصحة، والمرض، قائماً أو قاعداً أو مضطجعا، وفي الحضر والسفر، والسلم والحرب، والأمن والخوف، رجلاً أو ركباً، مستقبلي القبلة وغير مستقبليها، مع الوضوء أو التيمم أو مع فقد الطهورين.

﴿فَإِنْ خِفْتُمْ﴾ أي: كنتم في حالة خوفٍ من العدو أو غيره، فالصلاة لا تَسْقُطُ، فإن لم يمكنكم أن تُصلوا قانتين مطمئنين خاشعين موفين أركان الصلاة، وشروطها، وسننها؛ بسبب شدة الخوف؛ فصلوا على أية حالة كنتم، مستقبلي القبلة وغير مستقبليها، حيث يسقط مع صلاة الخوف؛ التزام شروط الصلاة وأركانها.

وقد شرع الإسلام صلاة الخوف على قسمين:

أحدهما: في حالة الخوف من لقاء العدو عند تَرَقُّبِ الهجوم، وهذا مذكور في قوله تعالى: ﴿وَإِذَا كُنْتَ فِيهِمْ فَأَقَمْتَ لَهُمُ الصَّلَاةَ فَلَنَقُمْ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ مَعَكَ﴾ [النساء: ١٠٢] وأحوالها في كتب السنة والفقهاء.

ومن ذلك ما رواه نافع عن ابن عمر رضي الله عنهما في صلاة الخوف قال: يصلي (أي: الإمام) بطائفة من القوم ركعة، وطائفة تحرُس، ثم ينطلق هؤلاء الذين صلى بهم ركعة حتى يقوموا مقام أصحابهم، ثم يجيء أولئك فيصلّى بهم ركعة، ثم يسلم، وتقوم كل طائفة فتصلي ركعة، قال: فإن كان خوفٌ أشد من ذلك ﴿فَرَجَالًا أَوْ رُكْبَانًا﴾ مستقبلي القبلة أو غير مستقبليها، قال نافع: لا أرى ابن عمر ذكر ذلك إلا عن النبي ﷺ ^(١)

قال ابن عمر رضي الله عنهما: فإن كان خوف أكثر من ذلك فصل ركباً أو قائماً تومئ إيماءً ^(٢)

وثانيهما: في حالة التحام الصفوف في القتال مع العدو، ولعله المراد في هذه الآية، فتؤدي الصلاة على أي حال مشاة أو ركباً.

وعند أبي حنيفة أن الماشي لا يصلي، وإنما يَقْضِي الصلاة.

كما سُغِّلَ النبي ﷺ عن الصلاة يوم الخندق؛ فصلّى الظهر والعصر والمغرب بعدما

(١) الخبر رقم (٥٥٦٨) في «تفسير الطبري» موقوف على ابن عمر صريحاً، وأصله في البخاري برقم (٩٤٢)،

(٤٥٣٥) ومسلم (٨٣٩) و«الموطأ» (١٨٤/١) وعبد الرزاق (٤٢٥٧، ٤٢٥٨) والبيهقي (٢٥٦/٣).

(٢) «صحيح مسلم» برقم (٨٣٩) والبخاري (٩٤٣، ٤٥٣٥) والنسائي (١٥٤١) وابن أبي شيبة (٤٦٤/٢).

غربت الشمس .

قال أبو سعيد الخدري رضي الله عنه : كنا مع رسول الله ﷺ يوم الخندق، فشغلنا عن صلوات الظهر والعصر والمغرب والعشاء حتى كُفينا ذلك، وذلك قوله تعالى: ﴿وَكَفَى اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ لِقَتَالًا﴾ [الأحزاب: ٢٥] فأمر رسول الله ﷺ بلالاً فأقام لكل صلاة إقامة، وذلك قبل أن ينزل عليه: ﴿فَإِنْ خِفْتُمْ فِرْجَلاً أَوْ رُكْبَانًا﴾^(١)

وقال الشافعي: هذا كان قبل نزول حكم صلاة الخوف، فلما نزلت لم يؤخر النبي ﷺ بعدها صلاة في الحرب .

وفي صحيح مسلم عن ابن عباس رضي الله عنه : فرض الله الصلاة على لسان نبيكم ﷺ في الحضر أربعاً، وفي السفر ركعتين، وفي الخوف ركعة^(٢)

والمراد: ركعة مع الإمام وركعة أخرى يأتي بها منفرداً، كما هو معروف في بعض صفة صلاة الخوف؛ أي: صلوا على أي حالة كنتم، على أرجلكم مشاةً أو ركباناً، على السيارات، في الطائرات، على الخيل، على المدفع، على الدبابة، مستقبلي القبلة وغير مستقبليها، يؤمُّون بالركوع والسجود، ويكون السجود أخفض من الركوع، ونحو ذلك .

﴿فَإِذَا أَمِنْتُمْ﴾ من العدو ونحوه، وزال الخوف، وكنتم في حالة أمن وأمان ﴿فَاذْكُرُوا اللَّهَ﴾ في الصلاة وخارجها، بجميع أنواع الذكر، وأدوا الصلاة بشروطها، وأركانها، واشكروا الله على ما علمكم من أمور العبادات والأحكام ما لم تكونوا على علم به ﴿فَإِذَا أَطْمَأْنَنْتُمْ فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ إِنَّ الصَّلَاةَ كَانَتْ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ كِتَابًا مَوْفُوتًا﴾ [النساء: ١٠٣] .

اذكروا الله ﴿كَمَا عَلَّمَكُمْ مَا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ﴾ فإن هذا التخفيف نعمة عظيمة تقتضي مقابلتها بالذكر والشكر .

(١) «المسند» (١١١٩٨، ١١٦٤٤) قال محققوه: إسناده صحيح على شرط مسلم، وأخرجه أبو داود الطيالسي (٢٣٤٥) وعبد الرزاق (٤٢٣٣) والنسائي (٦٦٠) وأبو يعلى (١٢٩٦) وابن أبي شيبة (٧٠/٢) .

(٢) «صحيح مسلم» (٦٨٧) وأبو داود (١٢٤٧) والنسائي (٣٢٦/١) (١١٨/٣) وابن ماجه (١٠٦٨) والطبري (٢٤٧/٥) .

الْحُكْمُ التَّشْرِيعِيُّ الْحَادِي وَالثَّلَاثُونَ: مُتْعَةُ الْمُتَوَفَّى عَنْهَا زَوْجُهَا

٢٤٠- ﴿وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنْكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا وَصِيَّةً^(١) لِأَزْوَاجِهِمْ مَتْلَعًا إِلَى الْحَوْلِ غَيْرَ إِخْرَاجٍ فَإِنْ خَرَجْنَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِي مَا فَعَلْنَ فِي أَنْفُسِهِنَّ مِنْ مَّعْرُوفٍ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾

وبعد هذا الربط الإيماني بين العبد وربّه، أثناء الحديث عن أحكام الزوجية؛ لتغليب جانب التقوى، والخوف من الله تعالى، تحدثت هذه الآية عن الأزواج الذين يموتون ويتركون بعدهم زوجاتٍ، أن عليهم قبل الوفاة وصيةً لهن، يُقَدِّمْنَها ورثته الزوج بعده؛ وهي: أن تُمتَعَ الزوجة بالسكنى والطعام والكسوة في منزل الزوج المتوفى، مدة سنة كاملة من تاريخ الوفاة؛ جبراً لخاطرها، وبراً بالمتوفى، وهذه المدة يدخل فيها عدة المتوفى عنها زوجها المذكورة في الآية السابقة؛ وهي أربعة أشهر وعشرة أيام، ولا تُجبر على الخروج من البيت أثناء الحَوْلِ، فإن خرجت الزوجة باختيارها قبل انقضاء السنة؛ فلا إثم على الورثة، ولا حرج على الزوجة فيما فعلت بنفسها من الأمور المباحة بعد انقضاء عدتها؛ كالزواج والتزين والخروج، والله عزيرٌ في ملكه، حكيمٌ في أمره ونهيه.

وكان من عادة العرب أن المرأة إذا تُوفِي عنها زوجها لبستَ شَرَّ ثِيَابٍ، ومكثت في شَرِّ بيتٍ مدة عام، فأبطل الإسلام هذه الحالة السيئة من الغلو، وشرَعَ عِدَّةَ الوفاة والإحداد، ذلكم قول الله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنْكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا وَصِيَّةً لِأَزْوَاجِهِمْ مَتْلَعًا إِلَى الْحَوْلِ غَيْرَ إِخْرَاجٍ﴾ وفي هذا تصريحٌ بحق المُتَّعَةِ مدة عام، وليس فيه ذكرٌ للعدة، وبينهما فَرْقٌ، وصرَّحت الآية بعدم إرغامها على الخروج من بيت الزوجية هذه المدة، إلا إذا خرجت من نفسها.

قال ابن الزبير: قلت لعثمان بن عفان: هذه الآية قد نسختها الآية الأخرى، فلم تكتبها، أو تدعها؟ قال: يا بن أخي، لا أُغَيِّرُ شيئاً منه من مكانه^(٢)

وقد نزلت هذه الآية في رجلٍ من أهل الطائف يُقَالُ له: حكيم بن الحارث، هاجر إلى

(١) قرأ نافع وابن كثير وشعبة والكسائي وأبو جعفر ويعقوب وخلف العاشر برفع تنوين (وصية) خبر لمبتدأ محذوف؛ أي: أمرهم وصية، وقرأ الباقر (وصية) بتصب التنوين، مفعول مطلق؛ أي: يوصون وصية.

(٢) البخاري (٤٥٣٠، ٤٥٣٦) والبيهقي (٤٢٧/٧).

المدينة، ومعه أبواه وامراته وأولاده رجالاً ونساءً، فمات، فُرِفِعَ ذلك إلى النبي ﷺ؛ فأنزل الله هذه الآية؛ فأعطى النبي ﷺ أبويه وأولاده ميراثه، ولم يعطِ امرأته شيئاً، وأمرهم أن يُنْفِقُوا عليها من تركه زوجها مدة سنة، وليس لها من الميراث شيء^(١).

ولها الخيار في البقاء أو الخروج، ويجب على الزوج أن يُوصِي بِذلك قبل موته، فإن لم يوصِ بذلك، أو لم تُقْبَلِ الزوجة فليس لها السكنى، ولها حق الخروج.

وقد دلت هذه الآية على أمرين:

أحدهما: أن لها النفقة والسكنى من مال زوجها سنة كاملة.

والثاني: أن لها متعة سنة لا تلزم بالخروج من البيت أثناءها.

وأكثر المفسرين على أن هذه الآية منسوخة بآية عدة المتوفى عنها زوجها السابقة.

ونُسِخَ عدة الحول بأربعة أشهر وعشر، وُرُفِعَ الحرج عن الورثة في خروجها من البيت بعد أربعة أشهر وعشر، تتعرض بعدها للزواج؛ لعدم وجوب ذلك وقيل بعدم النسخ.

قلت: وإعمال الآية أَوْلَى من إهمالها وهي متلوّة، ولا تَعَارُضُ بينها وبين الآية السابقة في عدة المتوفى عنها زوجها؛ لأن هذه الآية تتحدث عن حق التمتع في بيت الزوجية مدة عام، وعدم إجبارها على الخروج منه أثناء هذه المدة؛ احتراماً لحق الزوجية، وأن هذا البقاء يكون باختيارها، وما يوافق حالها، فإن خرجت من تلقاء نفسها فلا بأس.

أما الآية السابقة فهي عن مدة العدة، والعدة غير المتعة، فلا حاجة للقول بالنسخ ما دام الجَمْعُ ممكناً، وهو قول بعض أهل العلم كأبي مسلم الأصفهاني.

وقد يجمع بين الآيتين، بأن الآية الأولى دَلَّتْ على أن المدة الواجبة لعدة المتوفى عنها زوجها، هي أربعة أشهر وعشرا، ودَلَّتْ الآية الثانية على أن مازاد عن هذه المدة إلى تمام السنة، يكون مستحباً، ينبغي فعله تكميلاً لحق الزوج، ومراعاة للزوجة، والدليل على هذا الاستحباب، نفى الحرج والجناح عن الأولياء إذا خرجت المرأة قبل تمام الحول، فلو كان لزوم المسكن واجباً، لم ينف الحرج عنهم.

قلت: وهذا كلام جميل في الجمع بين الآيتين، وهو لا يمنع أن يكون عدة المتوفى عنها زوجها كان عامّاً كاملاً على وجه الوجوب، ثم نسخ هذا الوجوب إلى أربعة أشهر وعشرا،

(١) زاد المسير (٢٥٨/١) أخرجه ابن راهويه في تفسيره عن مقاتل بن حيان كما في «الدر المنثور» (٣/١١٢).

وظلت باقي المدة على وجه الاستحباب .

ويشهد لهذا المعنى حديث أم سلمة وأم حبيبة بشأن المرأة المعتدة التي اشتكت من عَيْنِهَا وأرادت أن تكتحل وهي في العدة، فقال النبي ﷺ «كانت إحداكن تجلس حولاً وإنما هي أربعة أشهر وعشرا، فإذا كان الحول خرجت ورمت وراءها ببعرة^(١) .

ففي هذا بيان أن العدة كانت حولاً ثم خففت إلى أربعة أشهر وعشرا .
وقيل إن هذه الآية نُسخَت بآية الميراث؛ فصار لها الربع إن لم يكن هناك ولد، أو الثمن مع وجود الولد، وذلك عوضاً عن النفقة .

أما وجوب الميراث للزوجة، وتحديد نصابها، فقد تحدّد بكيفية الورثة في آيات الموارث التي نزلت بعد ذلك، ولم يكن لها شيء قبل ذلك، فالنسخ بالنسبة للميراث أمرٌ عامٌ، كنسخ آيات الموارث للتوارث بين المهاجرين والأنصار بقوله تعالى: ﴿وَأُولُوا الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ﴾ [الأنفال: ٧٥] .

الْحُكْمُ التَّشْرِيعِيُّ الثَّانِي وَالثَّلَاثُونَ: مُنْعَةُ الْمُطَلَّقةِ الْمَدْخُولِ بِهَا

٢٤١، ٢٤٢- ﴿وَالْمُطَلَّقَاتُ مَتْعٌ بِالْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى الْمُتَّقِينَ﴾ (٢٤١) كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ ءَايَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٢٤٢﴾

ولمَّا سبق ذِكْرُ حُكْمِ المتعة لغير الممسوسة، بيّن سبحانه حكم المتعة بالنسبة لجميع المطلقات، وأن لهن نفقة العدة حقٌّ واجبٌ على الأزواج، وليس فيه عطفٌ وإحسانٌ كما في آية مَنْ طَلَّقَتْ قبل تحديد المهر، فتُدفع لها النفقة وجوباً، كلٌّ على قدر مستواه الاجتماعي ودخله الاقتصادي .

عن جابر بن زيد قال: لما نزل قوله تعالى: ﴿وَمَتَّعُوهُنَّ عَلَى الْمَوْسِعِ قَدَرُهُ وَعَلَى الْمُقْتَرِ قَدَرُهُ﴾ قال رجل: إن أحسنت فعلتُ، وإن لم أرُدْ ذلك لم أفعل، فنزلت هذه الآية مبينةً للآية السابقة من أن لكل مطلقة متعة استحباباً، كما في الآية السابقة، بالنسبة لغير المدخول بها أو وجوباً كما في هذه الآية، بالنسبة للمدخول بها .

(١) ينظر الحديث وقد سبق ذكره في تفسير آية العدة السابقة، وهو مخرج في الصحيحين .

وهذه المتعة غير مؤخر صداقها الذي يكون في بعض بلاد المسلمين، فهي تستحق المهر كاملاً عاجله وآجله؛ لأنها مدخولٌ بها.

قال ابن عمر رضي الله عنهما: لكل مطلقة متعة، إلا التي فرض لها المهر، ولم يدخل بها فحسبها نصف المهر^(١)

١- ولعموم الآية: كان الحسن بن علي رضوان الله عليه وعلى أبيه وأمه، متزوجاً من امرأة، فلما قُتل أبوه علي رضي الله عنه، وبُيع الحسن بالخلافة قالت له زوجته: لتنهأ بالخلافة يا أمير المؤمنين، فشق ذلك على نفسه، فقال: أَيْقُتِلْ عَلِيٌّ وَتُظْهِرِينَ لِي شِمَاتِهِ، اذْهَبِي فَأَنْتِ طَالِقٌ، ثُمَّ مَتَّعَهَا بِعَشْرَةِ آلَافِ دِرْهَمٍ، فَقَالَتْ: مَتَاعٌ قَلِيلٌ مِنْ حَبِيبٍ مَفَارِقٍ، فَلَمَّا بَلَغَهُ ذَلِكَ قَالَ: لَوْلَا أَنِّي طَلَقْتُهَا ثَلَاثَةَ، لَا رَجْعَةَ فِيهَا، لَرَاَجَعْتُهَا.

٢- قال جابر بن عبد الله رضي الله عنه: لما طلق حفص بن المغيرة امرأته فاطمة؛ أتت النبي ﷺ فقال لزوجها: «متعها» قال: لا أجد ما أمتعها، قال: «فإنه لا بد من المتاع، متعها ولو نصف صاع من تمر»^(٢)

٣- وعن قتادة أن رجلاً طلق امرأته عند شريح فقال شريح: متعها، فقالت المرأة: إنه ليست لي عليه متعة، إنما قال الله: ﴿وَالْمُطَلَّقَاتُ مَتَّعٌ بِالْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى الْمُتَّقِينَ﴾ (١٤) ﴿وَعَلَى الْمُقْتِرِ قَدَرُهُ مَتَّعًا بِالْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى الْمُحْسِنِينَ﴾ [البقرة: ٢٣٦] وليس من أولئك^(٣).

وقد خُتِمَتْ هذه الآية بأن هذه المتعة حقٌّ على المتقين المؤمنين الذين يخافون الله، وخُتِمَتْ الآية السابقة بأن المتعة حقٌّ على المحسنين، فكان الأولى ندب، والثانية واجب؛ لأن الإحسان يعني التبرع بما ليس واجباً، والحق قد يكون واجباً؛ ولهذا قال بعض الأئمة بالوجوب، وقد يكون مندوباً، والله أعلم.

وكما بيّن الله الأحكام التي تتعلق بأولادكم وأزواجكم بيّن لكم آياته وأحكامه فيما يُنزَلُ على محمد ﷺ لكل ما فيه صلاحُ دينكم ودنياكم ﴿لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ عن الله أمره ونهيّه، وتعملوا بموجبهما.

(١) «تفسير الطبري» الأثر (٥٢١٥) وأخرجه مالك (٥٧٣/٢) وعبد الرزاق (١٢٢٢٤، ١٢٢٢٥) والشافعي (٣١/٧) والنحاس في ناسخه ص ٢٥٤ والبيهقي (٢٥٧/٧).

(٢)، (٣) البيهقي (٢٥٧/٧).

الَّذِينَ خَرَجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَهُمْ أُلُوفٌ

٢٤٣- ﴿الَّذِينَ خَرَجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَهُمْ أُلُوفٌ حَذَرَ الْمَوْتِ فَقَالَ لَهُمُ اللَّهُ مُوتُوا ثُمَّ أَحْيَاهُمْ﴾ إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ ﴿٢٤٣﴾
للمفسرين في الذين خرجوا من ديارهم -على كثرتهم واتفاق مقاصدهم- خوفاً من الموت معنيان:

المعنى الأول: أنهم فروا من مرض الطاعون؛ فأذاقهم الله الموت ثم أحياهم.

والمعنى الثاني: أنهم فروا من قتال عدوهم؛ فمكن الله منهم عدوهم وأذلهم.

والأولى حملُ الموت في الآية على الموت الحقيقي، وأنه ليس موتاً معنوياً كما قال بعضهم.

هذا: والجهاد ضرورةٌ إسلاميةٌ في كل زمان ومكان؛ لصد العدوان، وتحرير المقدسات، ونشر الدُّعْوَةِ، وإقامة منهج الله في أرضه، ولا عِزَّةَ ولا حُرِيَّةَ ولا كرامةَ للأمة بدون الجهاد، وما ترك قوم الجهاد إلا هانوا وذلوا، وتحكَّم فيهم عدوهم، ولو ضَعُفَت الأمة وخارت قواها في فترةٍ من حياتها، فلا بُدَّ لها من رفع راية الجهاد، وغَرْسِهِ في نفوس صبيانها وشبابها؛ لإنقاذها مما هي فيه.

فإذا طُوِيَتْ صفحة الجهاد من حياة الأمة؛ تمكَّن منها عدوُّها، وأذَلَّ أهلُها وقهرهم؛ لأنهم تخاذلوا، وتركوا الجهاد في سبيل الله الذي به تحيا الأمم، وبه تكون العزة للأمة الإسلامية.

وإذا ركنَت الأمة إلى الشهوة، وإلى الترف، وإلى متاع الدنيا، ولم تبدل النفس والنفيس، ولم تُسَخَّرِ الطاقات التي مَنَّ الله بها عليها؛ لإعداد العُدَّةِ المناسبة لحرب عدوها، وإذا لم تصنع أسلحتها بنفسها، وفي مقدمة ذلك الطائرة الحربية، والدبابة، والصاروخ، والقنابل النووية، وكل جديد في ميدان التسلح لإرهاب العدو، فإنه يُكْتَبُ لها الموت في الحياة، ولا ذِكرٌ لها بين الناس، ولا قيمة لها في الحياة، وتعيش عيشة الذل والهوان، وهي في الآخرة من الظالمين لأنفسهم الذين قبلوا الضَّيْمَ والذل والمسكنة؛ فكان مأواهم جهنم، وساءت مصيراً.

والله سبحانه ضرب لنا في هذه الآية مثلاً لنعتبر بما حدث لفرقة من بني إسرائيل،

تَخَاذَلْتُ عَنِ الْجِهَادِ فِي حِقْبَةِ مَنْ أَحْقَابَ الزَّمَانِ، وَكَانُوا آلَافًا ، قِيلَ: إِنَّهُمْ أَرْبَعَةُ آلَافٍ، وَقِيلَ: سَبْعُونَ آلْفًا مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ، وَقِيلَ: أَقَلُّ مِنْ ذَلِكَ، وَقَدْ ذَكَرَ اللَّهُ تَعَالَى أَنَّهُمْ أَلُوفٌ، أَرَادَ عَدُوَّهُمْ أَنْ يَحَارِبَهُمْ؛ فَدَعَاهُمْ نَبِيُّهُمْ إِلَى الْجِهَادِ؛ فَكَانَ مِنْهُمْ أَنْ جَبُّوا وَفَرُّوا؛ خَوْفًا مِنْ مَلَاقَةِ الْعَدُوِّ؛ فَكَانَتِ النَّتِيجَةُ أَنَّ أَمَاتَهُمُ اللَّهُ سَبْحَانَهُ مَوْتًا حَقِيقِيًّا، قِيلَ: أَمَاتَهُمْ ثَمَانِيَةَ أَيَّامٍ؛ بِسَبَبِ جُبْنِهِمْ وَضَعْفِهِمْ وَخَوْفِهِمْ، ثُمَّ أَحْيَاهُمُ اللَّهُ بِدَعْوَةِ نَبِيِّهِمْ، أَوْ بغير ذلك، رَحْمَةً بِهِمْ وَلَطْفًا وَحَلَمًا.

وَكَانَتْ هَذِهِ الْقِصَّةُ مَعْلُومَةً عِنْدَ الْيَهُودِ فِي أَسْفَارِهِمْ وَتَوَارِيخِهِمْ، فَنَزَلَ الْقُرْآنُ يُشِيرُ إِلَيْهَا تَنْبِيْهَا لِهَذِهِ الْأُمَّةِ عَلَى أَنَّ الْجِهَادَ وَالْإِسْتِشْهَادَ يُحْيِي الْأُمَّةَ، وَأَنَّ الْحَذَرَ وَالْجُبْنَ يُمِيتُهَا، بِدَلِيلِ ذِكْرِ آيَاتِ الْقِتَالِ بَعْدَهَا ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ خَرَجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَهُمْ أُلُوفٌ حَذَرَ الْمَوْتِ﴾ ثُمَّ قَالَ: ﴿وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ خَرَجُوا فِرَارًا مِنْ عَدُوِّهِمْ؛ حَتَّى ذَاقُوا الْمَوْتَ الَّذِي فَرُّوا مِنْهُ، ثُمَّ أَحْيَاهُمُ اللَّهُ، وَأَمَرَهُمْ أَنْ يَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ^(١)

أَلَمْ تَعْلَمْ - أَيُّهَا الرَّسُولُ - قِصَّةَ الَّذِينَ فَرُّوا مِنْ أَرْضِهِمْ وَمَنَازِلِهِمْ، وَهُمْ أُلُوفٌ كَثِيرَةٌ؛ خَشْيَةَ الْمَوْتِ مِنْ قِتَالِ الْعَدُوِّ، أَوْ مِنْ مَرَضِ الطَّاعُونِ.

قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: كَانُوا أَرْبَعَةَ آلَافٍ، خَرَجُوا فِرَارًا مِنَ الطَّاعُونِ، قَالُوا: نَأْتِي أَرْضًا لَيْسَ فِيهَا مَوْتُ، حَتَّى إِذَا كَانُوا بِمَوْضِعٍ كَذَا وَكَذَا، قَالَ لَهُمُ اللَّهُ: ﴿مُوتُوا﴾ فَمَرَّ عَلَيْهِمْ نَبِيٌّ مِنَ الْأَنْبِيَاءِ فَدَعَا رَبَّهُ أَنْ يَحْيِيَهُمْ؛ فَأَحْيَاهُمْ، فَتَلَا هَذِهِ الْآيَةَ^(٢)

وَلَمَّا خَرَجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ فَارِّينَ مِنَ الْمَرَضِ الْمُعْدِي، أَوْ فَارِّينَ مِنْ قِتَالِ عَدُوِّهِمْ؛ أَمَاتَهُمُ اللَّهُ دَفْعَةً وَاحِدَةً عَقُوبَةً لَهُمْ، ثُمَّ أَحْيَاهُمْ بَعْدَ مَدَّةٍ لَيْسَتْ وَفَوْا آجَالَهُمْ، وَلِيَتَعَطَّوْا وَيَتُوبُوا ﴿فَقَالَ لَهُمُ اللَّهُ مُوتُوا﴾ أَيُّ: أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى أَمَاتَهُمْ فَعَلًا؛ لِيَتَعَبَّرَ الْأُمَّةُ، وَيَتَعَطَّوْا هُمْ وَغَيْرُهُمْ، وَلِيَعْلَمُوا أَنَّ الْفِرَارَ لَا يَمْنَعُ مِنَ الْمَوْتِ كَمَا قَالَ تَعَالَى:

﴿قُلْ لَنْ يَنْفَعَكُمْ الْفِرَارُ إِنْ فَرَرْتُمْ مِنَ الْمَوْتِ أَوِ الْقَتْلِ﴾ [الْأَحْزَابُ: ١٦]

(١) الْأَثَرُ رَقْم (٥٦١٦) مِنْ «تَفْسِيرِ الطَّبْرِيِّ» وَابْنُ أَبِي حَاتِمٍ (٢٤١٧).

(٢) أَخْرَجَهُ الْحَاكِمُ فِي «الْمُسْتَدْرَكِ» (٢٨١/٢) وَقَالَ: هَذَا حَدِيثٌ صَحِيحٌ عَلَى شَرْطِ الشَّيْخَيْنِ وَلَمْ يَخْرُجْهُ، قَالَ الذَّهَبِيُّ: (مِيسَرَةٌ) أَحَدُ رَوَاتِهِ: لَمْ يَرْوِ لَهُ، وَرَوَى لَهُ الْبُخَارِيُّ فِي «الْأَدَبِ الْمَفْرُودِ» وَأَخْرَجَهُ ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ (٢٤٠٩، ٢٤١٣، ٢٤١٦).

وقال سبحانه: ﴿قُلْ فَادْرَأُوا عَنْ أَنْفُسِكُمُ الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ [آل عمران: ١٦٨]

وقال جل شأنه: ﴿إِنَّمَا تَكُونُوا يَدْرِكَكُمُ الْمَوْتُ وَلَوْ كُنْتُمْ فِي بُرُوجٍ مُّسَيَّدَةٍ﴾ [النساء: ٧٨].

وفي الحديث عن عبد الرحمن بن عوف رضي الله عنه -عندما وقع الطاعون بالشام- أن رسول الله ﷺ قال: «إِذَا سَمِعْتُمْ بِهِ بِأَرْضٍ فَلَا تُقَدِّمُوا عَلَيْهِ، وَإِذَا وَقَعَ بِأَرْضٍ وَأَنْتُمْ فِيهَا، فَلَا تَخْرُجُوا فِرَارًا مِنْهُ»^(١)

وفي الحديث عن أسامة بن زيد رضي الله عنه: «إِنْ هَذَا الْوَجَعُ الشَّقِيمُ عَذَّبَ بِهِ بَعْضُ الْأُمَمِ قَبْلَكُمْ، ثُمَّ بَقِيَ بَعْدُ فِي الْأَرْضِ، فَإِذَا سَمِعْتُمْ بِهِ فِي أَرْضٍ فَلَا تَدْخُلُوهَا، وَإِذَا وَقَعَ بِأَرْضٍ وَأَنْتُمْ فِيهَا، فَلَا تَخْرُجُوا فِرَارًا مِنْهُ»^(٢)

قصة موتهم وإحيائهم:

وقد أماتهم الله ثمانية أيام، ثم أحياهم بسبب دعاء نبيهم حزقيل ثالث خلفاء بني إسرائيل.

وفي قصة موتهم وإحيائهم ما ذكره السُّدِّي عن أبي مالك، أن هؤلاء القوم كانوا في قرية قريبة من واسط بالعراق، أو من دِرْعَا، وهي مدينة تقع على بُعد ١١٠ كيلو جنوب دمشق، وكانت تُسَمَّى أذرعات، وقع فيهم مرضٌ مُعْدٍ؛ فهربت طائفةٌ وبقيت طائفةٌ؛ فوقع فيهم الموت، ثم أصابهم الطاعون مرة أخرى؛ فخرج جميعٌ من في القرية، وكانوا بضعة وثلاثين ألفاً، ونزلوا وادياً فسيحاً بين جبلين، فبعث الله إليهم ملكاً بأعلى الوادي وملكاً بأسفله، وناداهم أن موتوا؛ فماتوا، ومكثوا ما شاء الله، ثم مرَّ بهم نبيُّ الله حزقيل، فرأى تلك العظام، فوقف متعجباً، فأوحى الله إليه أن ناد: أيتها العظام، إن الله يأمرك أن تجتمعي؛ فاجتمع عظمٌ كلُّ جَسَدٍ على حدة، ثم أوحى الله إليه أن ناد: أيتها العظام، إن الله يأمرك أن تكثسي لحمًا، ثم أوحى الله إليه أن ناد: أيتها العظام، إن الله يأمرك أن تقومِي، فُبُعْثُوا أحياءً، ثم عاشوا حتى أتت عليهم آجالُهم بعد ذلك^(٣).

(١) البخاري برقم (٥٧٣٠) و (٥٧٢٩) عن ابن عباس، ومسلم برقم (٢٢١٩) من حديث أسامة بن زيد و«المسند» (١/١٩٤١) برقم (١٥٣٦) وبنحوه، (١٦٦٦) وأبوداود (٣١٠٣) و«سنن النسائي الكبرى» (٧٤٨٠)، وابن حبان (٢٩٥٣، ٢٩١٢)، والبزار (٩٩٠) والطبراني (٢٧٢).

(٢) صحيح مسلم (٢٢١٨) بنحوه.

(٣) يُنْظَر: «تاريخ الطبري» (١/٤٥٨) وابن أبي حاتم (٢٤٢٠، ٢٤٢١).

وعن أشعث بن أسلم البصري، أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال لليهوديين: ما نجد في كتاب الله حزقيل، ولا أحيى الموتى بإذن الله إلا عيسى؟ فقالا: أما تجد في كتاب الله ﴿وَرُسُلًا لَّمْ نَقْضُصْهُمْ عَلَيْكَ﴾ [النساء: ١٦٤] فقال عمر: بلى، قالا: وأما إحياء الموتى، فإن بني إسرائيل وقع عليهم الوباء فأماتهم الله، فبنوا عليهم حائطاً حتى إذا بليت عظامهم بعث الله حزقيل، فقال: ما شاء الله، فبعثهم الله له فأنزل الله الآية^(١)

وهذا هو الدليل العملي الثالث في سورة البقرة على إمكانية البعث، بعد بعث عبدة العجل، وقتيل قصة البقرة.

وقيل: إن هذا الموت كان موتاً معنوياً؛ أي: أنهم أصبحوا لا وزن لهم ولا قيمة لهم بين الأمم في دنيا الناس، حيث مكّن الله منهم عدوهم وأذلهم، فكأنهم موتى ﴿ثُمَّ أَحْيَاهُمْ﴾ أي: بعثهم من موتهم على القول الأول.

وعلى القول الثاني: أنه لما انبعث في نفوسهم داعي الجهاد أحياهم الله حياةً معنويةً.

﴿إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ﴾ بنعمه الكثيرة ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ﴾ فضل الله عليهم، فقليل من الناس تزيده النعمة شكراً، وربما استعان بعض الناس بنعم الله على معاصيه، والواجب صرفها في طاعة المنعم سبحانه.

عِزَّةُ الْأُمَّةِ فِي تَسْخِيرِ طَاقَاتِهَا لِجِهَادِ الْعَدُوِّ

٢٤٤- ﴿وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾

ثم ذكر الله سبحانه آيتين فيهما سببان في عزة الأمة وحياتها، أو ذلها وموتها:

السبب الأول: الجهاد بالنفس لدفع العدو وتأمين طرق الدعوة، وقد جاء ذلك في قوله سبحانه: ﴿وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ فالجهاد ماضٍ إلى قيام الساعة، ولا بُدَّ منه؛ لإعلاء كلمة الله، ودفع الصائل، وإلغاء الجهاد في حياة الأمم هو الموت الحقيقي، ورفع راية الجهاد في كل زمان ومكان فريضة من فرائض الإسلام، ولا بُدَّ من تعلّم فنونه لصياننا

(١) «تفسير الطبري» (٤/٤١٥) وتاريخ الطبري (١/٤٥٩).

وأبناؤنا في مناهج التعليم، وعَرضِهِ في نفوسهم منذ نعومة أظافرهم، وتطبيقه عملاً في مرحلة الخدمة العسكرية.

وفي الآية تحريض على الجهاد، بعد الإعلام بأنه لا يُغني حَذَرٌ من قَدَرٍ، وأن المراد من قصة الذين خرجوا من ديارهم حذر الموت، هو الترغيب في الجهاد، ففيه العزة والكرامة، وتأمين نشر الدَّعوة الإسلامية، والأجيال تتعاقب، والهِمَمُ تتفاوت، والدوائر تختلف، والأيام دَوَلٌ، وأحوال الأمم وحكامها وإمكانياتها تتبدل وتتغير، فالضعف والاستسلام والجبن هو سبب الموت الحقيقي.

ومعنى الآية: قاتلوا -أيها المسلمون- أعداءكم الكفار؛ لنصرة دين الله، ونشر دعوته، وحماية أرضكم من العدوان، والدفاع عن مقدساتكم، واقصدوا بذلك وجه الله، وكما لم ينفع الذين خرجوا من ديارهم حذر الموت، فأتاهم الموت من حيث لم يحتسبوا، فكذلك الأمر بالنسبة لكم، فإن التخاذل وترك الجهاد لن يحول بينكم وبين الموت، واعلموا أن الله سميعٌ لأقوالكم، عليمٌ بنياتكم وأعمالكم.

السَّبَبُ الثَّانِي فِي عِزَّةِ الْأُمَّةِ: الْجِهَادُ بِأَمْوَالِ

٢٤٥- ﴿مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَاعِفَهُ^(١) لَهُ أَضْعَافًا كَثِيرَةً وَاللَّهُ يَقْبِضُ وَيَبْصُطُ^(٢) وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ^(٣)﴾

هو تسخير الطاقات المادية لا لحفظ النفس، ولا للشهوات والتمتع، وإنما لنشر الدَّعوة، وإعداد العُدَّة لحرب العدو، سواء أكان ذلك بأموال الدولة أم بأموال الأفراد.

(١) قرأ نافع وأبو عمرو وحمزة والكسائي وخلف العاشر (فيضاعفُهُ) بالرفع وإثبات ألف بعد الضاء على الاستئناف؛ أي: فهو يضاعفه، وقرأ ابن كثير وأبو جعفر (فيضعفُهُ) بالرفع وتشديد العين، على الاستئناف أيضاً، وقرأ ابن عامر ويعقوب (فيضعفُهُ) بالنصب والتشديد، وقرأ عاصم (فيضاعفُهُ) بالنصب وإثبات الألف، والنصب على إضمار (أن) بعد الفاء؛ لوقوعها بعد الاستفهام، والتشديد والتخفيف لغتان، فهذه أربع قراءات فيها.

(٢) قرأ دوري أبي عمرو وهشام وخلف عن حمزة ورويس وخلف العاشر بالسين في (ويبسط) على الأصل، وقرأ نافع والبزي وشعبة والكسائي وأبو جعفر وروح بالصاد (ويبسط) وهي لغة قريش، وقرأ الباقون وهم قنبل والسوسي وابن ذكوان وحفص وخلاد بالسين والصاد جمعاً بين اللغتين.

(٣) قرأ يعقوب (وإليه ترجعون) بالبناء للفاعل، وقرأ الباقون بالبناء للمفعول.

وقد جاء ذكر هذا السبب في قوله تعالى: ﴿مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا﴾ أي: يدفع بطيب نفس ما تيسر له من المال الطيب للجهاد في سبيل الله ﴿فِيضْلَعُهُ لَهُ أَضْعَافًا كَثِيرَةً﴾، الحسنة بعشر أمثالها إلى سبع مئة ضعف إلى أضعاف كثيرة بحسب حال المتصدق ونيته ونفع نفقته والحاجة إليها.

وهذا يعني تسخير الطاقات المادية كالنفط والمعادن والأموال وسائر الثروات للجهاد في سبيل الله، حيث جاء ذكر هذا القرض بين آية القتال وآيات قصة طالوت وجالوت، وفيها نصرُ الفئة المؤمنة قليلة العدد، على الفئة الكثيرة الكافرة قوية العتاد، ويمكن الاكتفاء بالمال العام للدولة إن كان كافيًا، وإلا فإن الجهاد بالمال بالنسبة للأفراد مُقَدَّمٌ على الجهاد بالنفس في كثير من الآيات.

والآية تحض على الإنفاق؛ لجهاد العدو، واحتساب الأجر عند الله تعالى، حيث يضاعفه لكم -أيها المنفقون- أضعافًا كثيرة، لا تُحصى ولا تعد، والقرض من الإحسان الذي أمر الله به، كما في الحديث أن الله ﷻ يقول يوم القيامة: «يا بن آدم، استطعمتك فلم تطعمني، قال: يا رب كيف أطعمك وأنت رب العالمين؟ قال: أما علمت أن عبدي فلانًا استطعمك فلم تطعمه، أما علمت أنك لو أطعمته لوجدت ذلك عندي»^(١).

وحقيقة القرض: أن يُعطي المرء مالا ليردَّ له مثله.

والقرض: هو ما سلف من صالح عمل المرء أو سيئه.

والقرض الحسن: أن يُعطي المرء مالا أو متاعًا لوجه الله تعالى يبتغي به ما عند الله.

أما الأضعاف المضاعفة فيفسرها قوله تعالى ﴿مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا﴾ الأنعام:

١٦٠ وقوله: ﴿مَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ﴾ الآية [البقرة: ٢٦١]

ويفسرها ما جاء في الصحيحين عن ابن عباس ؓ عن رسول الله ﷺ فيما يرويه عن ربه تبارك وتعالى قال: إن الله كتب الحسنات والسيئات، ثم بين ذلك، فمن همَّ بحسنة فلم يعملها كتبها الله عنده حسنة كاملة، وإن همَّ بها فعملها كتبها الله عز وجل عنده عشر حسنات إلى سبع مئة ضعف، إلى أضعاف كثيرة، وإن هم بسيئة فلم يعملها كتبها الله عنده

(١) «صحيح مسلم» (٢٥٦٩) والبيهقي في «الأسماء والصفات» (٤٧٣).

حسنة كاملة، وإن هم بها فعملها، كتبها الله سيئة واحدة^(١) وغير ذلك من الأحاديث.

ثم قال تعالى: ﴿وَاللَّهُ يَقْضُ وَيَبْضُطُ﴾ يقبض العطايا والصدقات، فالصدقة تقع في يد الله قبل أن تقع في يد الفقير، ويسيطر الجزاء والثواب، كما في الحديث عن أبي هريرة رضي الله عنه أن ملكاً بباب السماء ينادي: «اللهم أعط متفقاً خلفاً، وأعط ممسكاً تلفاً»^(٢).

وهو سبحانه يوسع الرزق على من يشاء ويضيقه على من يشاء، وهو سبحانه أعلم بما يصلح شؤون خلقه ﴿وَلَوْ بَسَطَ اللَّهُ الرِّزْقَ لِعِبَادِهِ لَبَغَوْا فِي الْأَرْضِ وَلَكِنْ يُنْزِلُ بِقَدَرٍ﴾ [الشورى: ٢٧] ﴿قُلْ إِنَّ رِزْقَ رَبِّكَ لَيَسَّطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ﴾ [سبا: ٣٦].

وفي الآية دليل على أن الحاكم يترك الناس يُرزق بعضهم من بعض، فلا يتدخل في أسعار السلع، ولا العلاقة بين المالك والمستأجر، ولا يفرض الجمارك، ولا ما يثقل كاهلهم بالضرائب ونحوها.

عن أنس رضي الله عنه قال: غلا السعر على عهد رسول الله ﷺ قال: فقالوا: يا رسول الله، غلا السعر فسعّر لنا، فقال رسول الله: «إن الله هو الخالق الباسط القابض الرازق المسعّر، وإنني لأرجو أن ألقى الله ليس أحد يطلبني بمظلمة في نفس ومال»^(٣)

فأنفقوا ولا تبالوا، فإن الله هو الرزاق يضيق الرزق ويوسعه، وهو يجازيكم على أعمالكم بعد الموت ﴿وَالِيَهُ تَرْجَعُونَ﴾.

١- ولما نزلت هذه الآية كان أصحاب النبي ﷺ يلتفتون حوله، ومنهم رجل من الأنصار يُكنى أبا الدحداح، كان له حائط (بستان فيه ست مئة نخلة) يسكن فيه هو وأبناؤه وأهله، قال أبو الدحداح: يا رسول الله، الله تعالى يريد منا القرض؟ قال: «نعم»، قال: امدد يدك يا رسول الله، فإني قد أقرضت ربي حائطي هذا -البستان الذي فيه ست مئة نخلة-

(١) صحيح مسلم (١٢٨) وصحيح البخاري (٦٤٩١).

(٢) أبو الشيخ في «العظمة» (٥١٩) والبيهقي في «الشعب» (١٠٧٣٠).

(٣) صحيح الإسناد، رواه أحمد في «المسند» برقم (١٢٥٩١ و ١٤٠٥٧) بنحوه ورجاله ثقات رجال الصحيح (محققوه) ورواه أبو داود (٣٤٥١) والترمذي (١٣١٤) وابن ماجه (٢٢٠٠) وصححه الألباني في صحيح سنن أبي داود (٢٩٤٥) عن أنس، وأخرجه البيهقي (٢٩/٦).

ثم ذهب أبو الدحداح إلى امرأته، وقال لها: يا أمّ الدحداح، أخرجي أنت والعيال، فقد أقرضتُ ربي حائطي^(١).

لم تعترض المرأة ولم تقل له: ضيّعت مستقبل الأولاد، ولم تولول وتصيح أو تذهب إلى أهلها، لأن الإيمان متساوٍ عندهما، واعتقاد أن ما عند الله خير وأبقى، وأن مستقبل الآخرة مقدم على مستقبل الدنيا، لا يقلّ هذا الاعتقاد عند المرأة عما هو عند الرجل، والرواية السابقة جاءت عن عبد الله بن مسعود.

٢- وفي رواية زيد بن أسلم، أن أبا الدحداح قال للنبي ﷺ: إن لي حديقتين، إحداهما بالسافلة، والأخرى بالعالية، والله لا أملك غيرهما، وقد جعلتهما قرضاً لله تعالى، فقال رسول الله ﷺ: «اجعل إحداهما قرضاً، والأخرى دعها معيشة لك ولعيالك» قال: فاشهدُ يارسول الله، أني قد جعلتُ خيرهما لله، وهو حائط فيه ست مئة نخلة، قال: «إذا يَجْزِيكَ الله به الجنة» ثم انطلق أبو الدحداح إلى زوجته، وهي مع صبيانها في الحديقة تدور تحت النخل، فأخبرها بما فعل، فأقبلت على صبيانها تُخرج ما في أفواههم، وتُنْفَضُ ما في أكمامهم حتى أفضت إلى الحائط الآخر^(٢).

فكيف يوزن هذا بما قاله اليهود: إن الله فقير، يريد منا القرض ﴿لَقَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَاءُ﴾ آل عمران: ١٨١

٣- وقد جاءت هذه القصة من طرق متعددة في أكثر من واقعة؛ من ذلك ما جاء عن أنسٍ رضي الله عنه أن رجلاً قال: يا رسول الله، إن لفلان نخلة، وأنا أقيم حائطي بها، فأمره أن يعطيني نخلته حتى أقيم حائطي بها، فقال له النبي ﷺ: «أعطاها إياه بنخلة في الجنة» فأبى، فأتاه أبو الدحداح، فقال: بعني نخلتك بحائطي! ففعل، فأتى النبي ﷺ فقال: يا رسول الله، إني قد ابتعتُ النخلة بحائطي، فقال رسول الله ﷺ: «كم من عذق رداح لأبي

(١) من حديث عبد الله بن مسعود، يُنْظَرُ: «مجمع الزوائد» (٣٢٠/٦) بنحوه وقال: رواه البزار ورجاله ثقات، و(٣٢٤/٩) عن أبي يعلى والطبراني، قال الهيثمي: ورجاله ثقات، ورجال أبي يعلى رجال الصحيح، وهو في «تفسير سعيد بن منصور» (٤١٧) والبزار (٢٠٣٣) والطبري (٤٣٠/٤) وابن أبي حاتم (٢٤٣٠) والطبراني (٧٦٤) والبيهقي في «الشعب» (٣٤٥٢).

(٢) «تفسير القرطبي» (٢٣٧/٣).

الدحداح في الجنة» قالها مرارًا، قال: فأتى امرأته، فقال: يا أمّ الدحداح، اخرجي من الحائط، فأني قد بعته بنخلة في الجنة، فقالت: ربح البيع، أو كلمة تُشبهها^(١).

والعذق الرّداح، هو: القنؤ المملوء بالبلّح، فهو ثقيل لكثير ما فيه من الشماريخ والشمّر.

٤- عن جابر بن سمرة قال: صَلَّى النبي ﷺ على ابن الدحداح ثم أُتِيَ بِفَرَسٍ عُزِّيٍّ، فعَقَلَهُ رجل، فركبه، فجعل يَتَوَقَّصُ به، ونحن نَتَّبِعُهُ نسعى خلفه، قال: فجاء رجل من القوم فقال: إن النبي ﷺ قال: «كَمَ مِنْ عِذْقٍ مَعْلَقٍ (أو مَدْلَى) فِي الْجَنَّةِ لَابْنِ الدَّحْدَاحِ»^(٢)

هؤلاء القوم كانت نفوسهم كبارًا، وهممهم عالية، كتب الله لهم النصر على أعدائهم، ولم يخافوا بأس أمة أقوى أو مماثلة، ولم يخافوا من اليهود، ولا من النصارى؛ لكثرة السلاح، أو الرجال، إنما شدة الاتصال بالله، وقوة الإيمان به، هي التي صنعت هؤلاء الرجال، وهي التي كانت سببًا في نصرهم على عدوهم على مدى الأزمنة والأمكنة، وإرهاب عدوهم منهم، وإلقاء الرعب في قلوبهم، فهزمو الفرس والروم أكبر قوى العالم، وقتذاك.

تَخَاذُلُ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَنْ قِتَالِ الْعَدُوِّ

٢٤٦- ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الْمَلَكِ مِنْ بَنِي إِسْرَءِيلَ مِنْ بَعْدِ مُوسَى إِذْ قَالُوا لِنَبِيِّ لَهُمْ آتِنَا مَلِكًا نُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ قَالَ هَلْ عَسَيْتُمْ^(٣) إِنْ كُنْتُمْ عَلَيَّكُمْ أَنْ تَقَاتِلُوا أَلَّا تَقَاتِلُوا قَالُوا وَمَا لَنَا

(١) رواه أحمد في «المسند» (١٤٦/٣) برقم (١٢٤٨٢) بإسناد صحيح على شرط مسلم، (محققوه) وهو في «مجمع الزوائد» (٣٢٣/٩) وقال: رواه أحمد والطبراني، ورجالهما رجال الصحيح، وقال ابن حجر في الإصابة (٢٠٥/١٢) روى أحمد والبعوي والحاكم من طريق حماد بن سلمة عن ثابت عن أنس، وذكره.

(٢) «صحيح مسلم» برقم (٩٦٥) وأبو داود (٣١٧٨) وجاء في صحيح مسلم أيضًا وفي الترمذي (١٠١٣) بلفظ (أبي الدحداح) وفي رواية مسلم في موضعين بلفظ (ابن الدحداح) قال ابن حجر في الإصابة (١٢/٢٠٧) وقد تقدم في ترجمة ثابت بن الدحداح (٢/٤٠) أنه يكنى أبا لدحداح وأنه مات في حياة النبي ﷺ فبنى أبو عمر (ابن عبد البر)، في الاستيعاب (١٦٤٥/٤) على أنه هذا، والحق أنه غيره.

(٣) قرأ نافع (هل عسيتم) بكسر السين، وقرأ الباقون بفتح السين وسكون الياء، وهما لغتان.

أَلَا نُقَاتِلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَقَدْ أُخْرِجْنَا مِنْ دِيَارِنَا وَأَبْنَائِنَا فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ^(١) الْقِتَالُ تَوَلَّوْا إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ ﴿٢٤٦﴾

في هذه الآيات قصة الأشراف والرؤساء من بني إسرائيل حين أتوا نبيهم وطلبوا منه أن يجعل لهم مَلِكًا يقاوموا به أعداءهم، فذكر لهم أنهم قد لا يقاتلون إذا كُتِبَ عليهم القتال، فقالوا: وأي شيء يمنعنا من القتال وقد أُلْجِئْنَا إليه، فلما كُتِبَ عليهم القتال، ضَعُفَ أَكْثَرُهُمْ وتخاذلوا وَجَبُّوا، وثبت قليل منهم ووطنوا أنفسهم على مقارعة العدو، فعَيَّنَ لهم نبيهم: طالوت، مَلِكًا عليهم، فاعترضوا عليه، فأقنعهم بكفائه، وتجهزوا لقتال العدو، فامتنحنهم طالوت بأمر الله، ليتبين من يصلح للقتال من غيره، وكان الماء قد قلَّ عليهم، فشرب من النهر أَكْثَرُهُمْ بعد أن نُهوا عن ذلك، ونكصوا عن قتال عدوهم، وجاوز طالوت النهر ومعه قلة ثبتت وصبرت، فانبرى داود على صغر سنه إلى جالوت وجنوده فهزمهم بإذن الله، وأتى الله داود الملك والحكمة وعلمه ما لم يكن يعلم، ونصر الله القلة المؤمنة.

قال الربيع بن أنس في الآية: ذُكِرَ لنا -والله أعلم- أن موسى لما حضرته الوفاة استخلف فتاه يوشع بن نون على بني إسرائيل، ثم إن يوشع بن نون تُوفي، واستخلف عليهم خمسة بعده، ثم أتوا نبيًا من أنبيائهم حين أودوا في أنفسهم وأموالهم، فقالوا له: سل ربك أن يكتب علينا القتال، فقال لهم: ﴿هَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ أَلَّا تُقَاتِلُوا؟﴾ - أي لعلكم إذا كتب عليكم القتال ألا تقوموا به - فبعث الله طالوت ملكًا، وكان في بني إسرائيل سبطان، سبط نبوة، وسبط مملكة، ولم يكن طالوت من سبط النبوة، ولا من سبط المملكة، فلما بُعث لهم مَلِكًا أنكروا ذلك، وقالوا: أأنى يكون له الملك علينا؟ فقال: ﴿إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاهُ عَلَيْكُمْ﴾ الآية^(٢)

قال أهل السير والأخبار: إن الله تعالى أنزل على آدم ﷺ تابوتًا (صندوقًا) فيه صور الأنبياء ﷺ، توارثه الأخيار من ذرية آدم، حتى وصل إلى إبراهيم ﷺ، ثم صار إلى يعقوب

(١) قرأ حمزة والكسائي ويعقوب وخلف بضم الهاء والميم من (عليهم القتال) وصلًا، وقرأ أبو عمرو بكسرهما وصلًا، وقرأ الباقون بكسر الهاء وضم الميم وصلًا، والجميع سَكَنَ الميم وقفًا. ووقف حمزة ويعقوب على (عليهم) بضم الهاء، وكسرهما الباقون.

(٢) الطبري (٤/ ٤٤٠، ٤٥٢).

حفيدته، فكان في بني إسرائيل، إلى أن جاء موسى ﷺ، فكان يضع فيه التوراة وبعض متاعه، وورث بنو إسرائيل هذا التابوت، وكان فيه آثار، وبقية مما ترك آل موسى وآل هارون.

قيل: إن هذه الآثار هي: عصا موسى وهارون، وثياب موسى وهارون، وعِمامة هارون، وبعض الألواح التي كُتِبَ فيها التوراة، وبعضُ مِنَ المَنِّ الذي أنزله الله تعالى على بني إسرائيل^(١)

وكان بنو إسرائيل يحملون هذا التابوت المحتوي على هذه الآثار، إذا قاتلوا عدوهم، ويتبركون به، ويتقدمون به الصفوف؛ فيكون ذلك سبباً لنزول السكينة، والطمأنينة عليهم، وسبباً في نصرهم على عدوهم، وإلقاء الرعب في قلب العدو على حدِّ معتقدتهم.

وحدَّث في بني إسرائيل بعد موت موسى ﷺ سنة ١٣٨٠ قبل الميلاد أن يوشع بن نون كان نبياً فيهم، ثم إنهم حرَّفُوا وَغَيَّرُوا كتاب الله (التوراة)، واستحلوا الرِّبَا والنساء، وتركوا الأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، وقتلوا أنبياءهم، فسَلَطَ الله تعالى عليهم ضِمْناً ما سلط، أهل فلسطين، فقاتلوهم وشرَّدوهم، شرَّدَ الفلسطينيون اليهود، وأخرجوهم من ديارهم وأموالهم، واستولوا على هذا التابوت وسلبوهم إياه، وظلُّوا وقتاً من الزمن حتى أرسل الله فيهم نبياً لهم يقال له: (صموئيل)، فذهب نفرٌ منهم إلى نبيِّهم، وطلبوا منه أن يُعيِّنَ لهم قائداً أو مَلِكاً يقودهم في محاربة عدوهم.

وكان ذلك في القرن الحادي عَشَرَ قبل الميلاد، ذلكم قول الله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الْمَلَكِ مِنْ بَنِي إِسْرَءِيلَ مِنْ بَعْدِ مُوسَى إِذْ قَالُوا لِنَبِيِّهِمْ أَرْسَلْ لَنَا مَلِكًا نُقَاتِلَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ أي: ألم تعلم -أيها الرسول- خبر الأشراف والوجهاء من بني إسرائيل بعد موت موسى، حين طلبوا من نبيهم شمويل -وهو اسمه بالعبرية- أن يُؤلِّيَ عليهم مَلِكًا يقودهم إلى قتال عدوهم، فقال لهم: إني أخشى وأتوقع إن فُرضَ عليكم القتال أن تَجْبُئُوا وتفرُّوا، قالوا مستنكرين على نبيهم: ما يمنعنا من قتال العدو، وقد أخرجنا العدو من أرضنا، وقتل أولادنا وأسرهم؟!

وكان أهل فلسطين قد انتصروا عليهم، وأخذوا بعض قراهم، وسقط التابوت في أيديهم،

(١) يُنْظَرُ: «تفسير سعيد بن منصور» (٤٢٢) وابن أبي حاتم (٢٤٨٥، ٢٤٨٦).

فلما رأت بنو إسرائيل ما حلَّ بهم من الهزيمة طلبوا من نبيهم أن يقيم لهم ملكًا يقاتل بهم في سبيل الله، فلما فرض عليهم القتال كان ما توقعه نبيهم؛ لأنه قد عرفهم، وعرف جُنُبهم وعزيمتهم ﴿قَالَ هَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ أَلَّا تُقَاتِلُوا﴾ أن تتخلفوا وتجنبوا عن القتال، إن فَرَضَ الله عليكم الجهاد، ولا تخرجوا لقتال العدو.

﴿قَالُوا وَمَا لَنَا أَلَّا نُقَاتِلَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَقَدْ أُخْرِجْنَا مِنْ دِيَارِنَا وَأَبْنَاءِنَا﴾ وذلك أن قوم جالوت كانوا يسكنون بين مصر وفلسطين، فَأَسْرُوا من أبناء ملوكهم أربع مئة وأربعين، وما دام الأمر كذلك فلا بدَّ من قتالهم، قال سبحانه: ﴿فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ﴾ أي: لما أُجيبوا إلى مطلبهم ﴿تَوَلَّوْا﴾ تَخَاذَلُوا وضعفوا وهربوا وفرَّوا ﴿إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ﴾ قيل: كانوا بعدد أهل بدر، ثلاثمائة وثلاثة عشر ﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ﴾ قال لهم نبيهم شمويل أو صموئيل استجابة لطلبهم: ﴿إِنَّ اللَّهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكًا﴾ إجابة لطلبكم، يقودكم لقتال عدوكم، وكانت النبوة في بني إسرائيل في سبط لاوى بن يعقوب، وكان المُلْك في سبط يهوذا، وكان طالوت من سبط بنيامين، ولم يكن رجلًا معروفًا، ولا ذائع الصيت، ولا يعرفه أحدٌ من الناس، ولكنه كان رجلًا فقيرًا مزارعًا يُفْلِح الأرض، وَيَرْعى غَنَمَ أبيه، وبعده على الترتيب: كالب، ثم حزقيل، ثم إلياس، ثم اليسع، ثم إيلاء... إلخ.

قِصَّة طَالُوتَ وَجَالُوتَ

٢٤٧- ﴿وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ^(١) إِنَّ اللَّهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكًا قَالُوا أَنَّى يَكُونُ لَهُ الْمُلْكُ عَلَيْنَا وَنَحْنُ أَحَقُّ بِالْمُلْكِ مِنْهُ وَلَمْ يُؤْتَ سَعَةً مِّنَ الْمَالِ قَالَ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُ بَسَاطَةً فِي الْعِلْمِ وَالْجِسْمِ وَاللَّهُ يُؤْتِي مُلْكَهُ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾

﴿وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ﴾ بعدما حذَّره عاقبة حُكم الملوك، وحذَّره من ترك القتال في سبيل الله ﴿إِنَّ اللَّهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكًا﴾ ولكن من طالوت؟ وفي أيِّ مكان هو؟ قال لهم نبيهم: من أين لي بطالوت هذا؟ كيف أتعرفُ عليه؟ فكان الجواب من الله تعالى: سنرسله إليك، وسوف تُعرفه وتقابله عن قرب، وأوحى الله إليه بأوصافه، وأنه أطولُ القوم، وقد صُبَّ على رأسه زيتًا، وعَيَّنَهُ لهم ملكًا، وذلك سنة ١٠٩٥ قبل الميلاد،

(١) قرأ نافع (نبيهم) مدًّا متصلًا، والباقون (نبيهم) بياء مشددة، وكذا كل مشتقات هذا اللفظ في القرآن.

وشمويل: هو صمويل أو صموئيل، وطالوت: هو شاول بن قيس.

ذكر ابن جرير عن وهب بن منبه وغيره، أنه كان لشمويل (قرن فيه دهن)، وأن الله تعالى قال له: إذا سمعت صوتاً من هذا القرن، فإن الرجل الذي يَدْخُلُ عليك هو طالوت، ملك بني إسرائيل، فادهن رأسه من الدهن الذي في القرن، ومَلَكُهُ عليهم، وكان طالوت قد خرج يطلب دابةً فُقدت منه، ومعه غلامٌ له، فمرا بيت نبي بني إسرائيل فسألاه عن الدابة، وبينما هما عنده إذ سمع صوت الدهن الذي في القرن، فقام إليه النبي فأخذه وقال لطالوت: قَرِّبْ رأسك فقربه، فدهن منه، ثم قال له: أنت ملك بني إسرائيل الذي أمرني الله أملكك عليهم^(١) وأن تكون ملكاً وقائداً لبني إسرائيل، تقودهم لحرب عدوهم، قال كبار بني إسرائيل -وقد تعجبوا-: كيف يكون طالوت ملكاً علينا؟ وهو لا يستحق الملك؛ لأنه ليس من سبط الملوك، ولا من بيت النبوة، فهو من سبط بنيامين، ونحن أحق بالملك منه؛ لأننا من سبط يهوذا، وهو غير معروف بين الناس، ولم يُعطَ كثرةً من المال، يستعين به في ملكه.

﴿قَالَ﴾ إن الله سبحانه اختاره لكم، وهو سبحانه أعلمُ بأمور عباده، وقد زوَّده الله بأمرين: بسطة في العلم والمعرفة والحكمة، وبسطة في الجسم وقوة البدن والبنية؛ ليقاقل العدوَّ ﴿وَاللَّهُ يُؤْتِي مُلْكَهُ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ﴾ الفضل والعطاء ﴿عَلِيمٌ﴾ بحقائق الأمور، لا يخفى عليه شيءٌ.

ولما استبعدوا مُلْكَهُ لِفَقْرِهِ وسقوط نَسَبِهِ؛ ردَّ الله عليهم بأربعة أجوبة:

أولاً: العُمدَةُ في ذلك أن الله اختاره لكم، وهو أعلم بالمصالح منكم.

ثانياً: أن فيه وفرة المعرفة والعلم بأمور السياسة وغيرها، وفيه جسامَةُ البدن؛ ليكون أعظمَ خطراً في القلوب، وأقوى على محاربة العدو وكيده.

ثالثاً: أن الله تعالى مالك المُلْك، وله أن يُؤْتِيَهُ من يشاء، وينزعه ممن يشاء.

رابعاً: أن الله تعالى يُوسِّع على الفقير فيغنيه، وهو أعلم بما يليق بالملك ويلائمه.

قيل: إنه كان أعلم بني إسرائيل بالحرب والديانات في وقته، وكان أطول الناس وأقواهم جسداً.

(١) معنى الأثر (٥٦٣٦) عن محمد بن إسحاق في «تفسير الطبري» وابن أبي حاتم (٢٤٤٣) مختصراً.

تَابُوتُ الْعَهْدِ

٢٤٨- ﴿وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ آيَةَ مُلْكِهِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ التَّابُوتُ فِيهِ سَكِينَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَبَقِيَّةٌ مِّمَّا تَرَكَ آلُ مُوسَىٰ وَآلُ هَارُونَ تَحْمِلُهُ الْمَلَائِكَةُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لَّكُمْ إِن كُنتُمْ مُّؤْمِنِينَ﴾ (٢٤٨)

قال بنو إسرائيل لنبيهم: نريد علامة فيها دليلٌ ماديٌّ على أن الله تعالى اختار لنا هذا الرجل؛ ليكون قائدًا يقودنا إلى حرب عدونا، وهذا إخبارٌ من الله تعالى أنهم لم يُقرُّوا بِبَعَثَةِ طَالُوتَ مَلِكًا لَهُمْ حين أخبرهم نبيهم بهذا؛ حيث طلبوا منه ما يَدُلُّ على صِدْقِ قَوْلِهِ، قال لهم نبيهم: إن العلامة الدالة على أن الله قد جعله لكم مَلِكًا وقائدًا عليكم، أن يَأْتِيَكُم بالتابوت، وهو الصندوق المفقود أو المسلوب منكم، وكان أعداؤهم قد انتزعوه منهم، وكان تابوت العهد قد بَقِيَ في أيدي الفلسطينيين سبعة أشهر موضوعًا في بيت صنم لهم، فأصابتهُم بعض النكبات والأمراض، فاستشاروا الكهنة، فأشاروا عليهم بإرجاع التابوت مصحوبًا بهدية؛ ففعلوا، وكان التابوت يُحْمَل على عربة لها عجلات تَجْرُها بقرتان، فحملوه عليها إلى مَحَلَّة بني إسرائيل.

والتابوت: صندوقٌ مستطيلٌ، طوله ذراعان ونصف، وعرضه ذراع ونصف، وارتفاعه ذراع ونصف، وله حِلَقٌ من ذهبٍ، يقوم على قوائم أربع، وكان موسى قد أَمَرَ بصناعته من نَفَائِسِ المعادن؛ ليضَع فيه الألواح.

وهذا التابوت فيه طمأنينةٌ وسكينةٌ من ربكم؛ لتثبيت قلوب المخلصين لِمَا لَهُ من شأن ديني في نفوسهم، وفيه بقيةٌ من بعض أشياء تركها آل موسى وآل هارون كعصا موسى، ورضاض الألواح، وثياب موسى ونعليه، وعمامة هارون، وشيء من التوراة، وكان موسى إذا قَاتَلَ، قَدَّمَهُ أمامهم؛ فتسكَّن نفوسُ بني إسرائيل ولا يفرُّون، ولما رجع التابوت لبني إسرائيل حملته الملائكة؛ أي: سَيَّرته ورحَّلته، وهو يسير إليهم بإذن الله.

قال ابن عباس: فخرجوا في صحراء واسعة قريبة من القرية، ورأوا الملائكة تَحْمِلُ التابوت بين السماء والأرض، وتضعه بين يدي طالوت^(١) فآمنوا بنبوة نبيهم، وآمنوا بِمُلْكِ

(١) قصة التابوت في أول الفصل الخامس والعشرين والسابع والعشرين من سِفْرِ الخروج.

طالوت، وأطاعوه واعترفوا به ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّكُمْ إِن كُنتُمْ مُّؤْمِنِينَ﴾ أي: إن في الإتيان بالتابوت المفقود، لأعظم برهان لكم على اختيار طالوت ملكًا عليكم بأمر الله، إن كنتم مصدّقين بالله ورسله.

وفي هذه الآية تأديبٌ لليهود الذين كذبوا محمدًا ﷺ، كما كذب من سبقهم نبي الله شمويل، وامتنعوا عن الجهاد مع طالوت.

وفيها تحذيرٌ لأمة محمد ﷺ ألا يتخلفوا عن الجهاد في سبيل الله، ومناهضة أهل الكفر، وفي مقدمتهم اليهود، وألا يؤثروا حياة الدّعة، والخمول، والترفع على الجهاد في سبيل الله. ومما يتعلق بهذه الآية أن كُتِبَ المصاحف لم يختلفوا إلا في لفظ (التابوت) هل يكتبوه بالتاء المفتوحة، أو بهاء التأنيث المربوطة، فرفعوا اختلافهم إلى عثمان بن عفان رضي الله عنه، فقال: اكتبوه (التابوت) بلغة قريش؛ فإن القرآن نزل بلسانهم^(١)

لَا يَخْرُجُ لِلْجِهَادِ إِلَّا مَنْ كَانَ عِنْدَهُ صَبْرٌ وَجَلَدٌ وَطَاعَةٌ

٢٤٩- ﴿فَلَمَّا فَصَلَ طَالُوتُ بِالْجُنُودِ قَالَ إِنَّ اللَّهَ مُبْتَلِيكُمْ بِنَهَرٍ فَمَنْ شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّي وَمَنْ لَمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُ مِنِّي^(٢) إِلَّا مَنْ أَغْرَقَ غُرْفَةً^(٣) بِيَدِهِ^(٤) فَشَرِبُوا مِنْهُ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ فَلَمَّا جَاوَزَهُ هُوَ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ قَالُوا لَا طَاقَةَ لَنَا الْيَوْمَ بِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ قَالَ الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلتَقُوا اللَّهَ كَم مِّن فِتْنَةٍ^(٥) فَلَيْلَةً غَلَبَتْ فِئْتَهُ كَثِيرَةٌ يَّا ذَنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾ وَأَعَدَّ طَالُوتُ الْعِدَّةَ لِحَرْبِ الْيَهُودِ، وقال لهم: لا يصحبني من كان مشغولاً بأمر من

(١) انظر هذا المعنى في البخاري (٤٩٨٧) والترمذي (٣١٠٤) والنسائي في «الكبرى» (٧٩٨٨) وابن أبي داود ص ١٩ وابن حبان (٤٥٠٦) والبيهقي (٤١/٢) و«تفسير سعيد بن منصور» (٤١٨).

(٢) قرأ نافع وأبو عمرو وأبو جعفر بفتح الياء من (مني إلا) والباقون بسكونها سكوناً مدّياً.

(٣) قرأ ابن عامر وعاصم وحزمة والكسائي ويعقوب وخلف العاشر بضم الغين من لفظ (غُرْفَة) على أنها اسم للماء المغترف، وقرأ الباقر بالفتح على أنها مصدر، اسم للمرة.

(٤) قرأ رويس باختلاس حركة الهاء من (بيده) ومدّها الآخرون مدّاً طبعياً.

(٥) قرأ أبو جعفر بالياء في (فئة) بدلاً من الهمزة، وأثبتها الآخرون.

أُمُور الدُّنْيَا، كُلُّ مَنْ يَصْرِفُهُ عَنِ الْجِهَادِ صَارَفٌ لَا يَصْحَبُنِي فِي الْقِتَالِ، فَالَّذِي عَقَدَ عَلَى امْرَأَةٍ أَوْ خُطْبَاهَا وَقَلْبُهُ مَعْلَقٌ بِهَا لَا يُلْحَقُنِي فِي الْقِتَالِ، وَمَنْ كَانَ قَلْبُهُ مَعْلَقًا بِأَهْلِ بَيْتِهِ لَا يَتَّبِعُنِي، وَمَنْ يَخَافُ عَلَى مَالٍ أَوْ عَمَلٍ أَوْ ذُرِّيَّةٍ لَا يُلْحَقُنِي، وَالَّذِي شَرَعَ فِي بِنَاءِ بَيْتٍ، وَلَمْ يَكْمَلْ هَذَا الْبِنَاءَ لَا يَصْحَبُنِي، وَالْمَشْغُولُ بِتِجَارَةٍ وَبِكِسَادِهَا وَبِرَبْحِهَا لَا يَصْحَبُنِي وَهَكَذَا . . .

وَأَخَذَ جُنُودَهُ الَّذِينَ تَجَرَّدُوا لِلْجِهَادِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ لَا غَيْرَ، وَكَانُوا ثَمَانِينَ أَلْفًا، وَلَمَّا خَرَجُوا مِنْ بَيْتِ الْمَقْدِسِ أَرَادَ أَنْ يَخْتَبِرَ عِزْمَ قَوْمِهِ، وَصَبْرَهُمْ، وَجَلَدَهُمْ، وَطَاعَتَهُمْ؛ لِيَتَمَيَّزَ الْمُؤْمِنُونَ مِنَ الْمُنَافِقِ، وَالْمَخْلِصُونَ مِنَ الْمَخَادِعِ، وَكَانُوا قَدْ أَصَابَهُمْ حَرٌّ وَعَطَشٌ شَدِيدٌ، فَقَالَ لَهُمْ: إِنَّ اللَّهَ مُبْتَلِيكُمْ بِنَهَرٍ، وَهُمْ عَطَشَى فِي شِدَّةٍ وَظَمًا وَحَرًّا، وَأَمَامَهُمْ نَهْرٌ مَائِهِ عَذْبٌ، يُسَمَّى (نَهْرُ الشَّرِيعَةِ) الَّذِي يَقَعُ بَيْنَ الْأُرْدُنِّ وَفِلَسْطِينَ، قَالَ لَهُمْ: مَنْ شَرِبَ مِنْ هَذَا النَّهْرِ وَازْتَوَى وَمَلَأَ بَطْنَهُ فَلَا يَصْحَبُنِي؛ لِأَنَّهُ لَا يَصْلُحُ لِلْقِتَالِ، وَمَنْ لَمْ يَذُقِ الْمَاءَ، أَوْ اكْتَفَى بِأَنْ أَخَذَ غُرْفَةً بِيَدِهِ يَبْلُغُ بِهَا رِيقَهُ فَإِنَّهُ مِنِّي، وَلَا لَوْمَ عَلَيْهِ.

﴿فَلَمَّا فَصَلَ طَالُوتُ بِالْجُنُودِ قَالَ إِنَّ اللَّهَ مُبْتَلِيكُمْ بِنَهَرٍ فَمَنْ شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّي وَمَنْ لَمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُ مِنِّي إِلَّا مَنِ اعْتَرَفَ غُرْفَةً بِيَدِهِ﴾ فلما وصلوا إلى النهر، وهو نهر الأردن؛ انكبوا على الماء، وأفرطوا في الشرب، واسودت شفاههم، علامة من عند الله مميّزة لهم على المخالفة، قال تعالى: ﴿فَشَرَبُوا مِنْهُ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ﴾ وهم الذين صبروا على العطش والحر، أو اكتفوا بغرفة اليد، قيل: إنها تكفي الرجل لشربه، وقيل: كانوا ثمانين ألفًا، فشرّب منهم ستة وسبعون ألفًا، وبقي أربعة آلاف.

وقيل: إن مَنْ بَقِيَ بَدُونَ شَرِبَ كَانُوا بَعْدَ أَهْلِ بَدْرٍ، وَهُوَ الْأَصَحُّ، يَدُلُّ عَلَيْهِ مَا أَخْرَجَهُ الْبُخَارِيُّ وَغَيْرُهُ عَنِ الْبَرَاءِ بْنِ عَازِبٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: كُنَّا نَتَحَدَّثُ أَنَّ عِدَّةَ أَصْحَابِ بَدْرِ عَلَى عِدَّةِ أَصْحَابِ طَالُوتَ الَّذِينَ جَاوَزُوا النَّهْرَ مَعَهُ، وَلَمْ يَجَاوِزْ مَعَهُ إِلَّا مُؤْمِنٌ: ثَلَاثُ مِائَةٍ وَبِضْعَةُ عَشَرَ رَجُلًا^(١).

وَحَدَّثَ ابْنُ جُرَيْرٍ عَنِ السُّدِّيِّ قَالَ: لَمَّا أَصْبَحَ التَّابُوتُ وَمَا فِيهِ فِي دَارِ طَالُوتَ؛ آمَنُوا بِنُبُوَّةِ شَمْعُونِ، وَسَلَّمُوا بِمُلْكِ طَالُوتَ، فَخَرَجُوا مَعَهُ وَهُمْ ثَمَانُونَ أَلْفًا، وَكَانَ جَالُوتَ مِنْ أَعْظَمِ

(١) رواه البخاري برقم (٣٩٥٨، ٣٩٥٩) وأحمد في «المسند» (٢٩٠/٤) والطبري بستة أسانيد (٤٩٠/٤) وابن أبي شيبة (٣٨٣/١٤) وابن أبي حاتم (٢٥١٣) والبيهقي (٣٦/٣).

الناس وأشدّهم بأسًا، فخرج يسير بين يدي الجند، ولا يجتمع إليه أصحابه حتى يهزم من لقي معه، فلما خرجوا قال لهم طالوت: ﴿إِنَّ اللَّهَ مُبْتَلِيكُمْ بِنَهَرٍ فَمَنْ شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّي وَمَنْ لَمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُ مِنِّي﴾ فشربوا منه هيبّةً من جالوت، فعبرَ منهم معه أربعة آلاف، ورجع ستة وسبعون ألفًا، فمن شرب منه عطش، ومن لم يشرب منه إلا غرفة رُوي^(١).

ولما جاوزوا النهر ورأوا جالوت وجنّده صرحوا بأنهم لا قدرة لهم على مقاومتهم، وكان جالوت مسلحًا مدرعًا يفوقهم في الطول، ولا يستطيع أحدٌ من بني إسرائيل مبارزته، واسمه في كتب اليهود (جُليات).

ولما تَخَاذَلَ هذا الفريق عن لقاء العدو، قال الفريق الآخر ممن يطلبون الشهادة، ويحبون الآخرة عن الدنيا تبيّنًا لأنفسهم وللфريق الآخر: ﴿كَمْ مِّنْ فِتْنَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً يَأْذِنُ اللَّهُ﴾، ومن أحب لقاء الله أحبّ الله لقاءه، فليس النصرُ بكثرة العدد؛ وإنما النصر من عند الله مع الأخذ في أسبابه ﴿وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾ بحفظه ورعايته وتأنيده.

وقد ذكر الله سبحانه عوامل النصر في كتابه بعد أمره بإعداد العدة، ويبيّن أن هذه العوامل تتمثل في:

١- الثبات أمام العدو وعدم الفرار.

٢- الإكثار من ذكر الله تعالى، فهو طاقة وشحنة تقوّي العزائم وتشجّد الهمم.

٣- طاعة الله والرسول.

٤- وَحْدَةُ الكلمة، وعدم الشقاق والتنازع.

٥- الصبر والمصابرة في ساحة القتال عند لقاء العدو.

فردّ طالوت الذين شربوا، ومَضَى في ثلاث مئة وثلاثة عشر، بعدد أصحاب بدر، وهم الذين لم يشربوا، فلما عَبَرَ طالوت وجنوده النهر؛ لملاقاة العدو، ونظروا إلى جالوت وكثرة جنّده، وهم مُدْجَجُونَ بالسلاح والعِتَادِ ﴿قَالُوا﴾ أي: قالت هذه الكثرة التي شربت من النهر: ﴿لَا طَاقَةَ لَنَا الْيَوْمَ بِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ﴾ الأشداء الأقوياء، وكان عددُ جيوش طالوت ثلاثة آلاف رجل، فلما اجتاز الجيش نهر الأردن لم يجد معه إلا نحو ست مئة

(١) الأثر (٥٧٢٠) في «تفسير الطبري»، وفي تاريخه (٢٤٢/١) وعند ابن أبي حاتم (٢٤٩٥، ٢٥٠٢، ٢٥٠٤).

رجل ﴿قَالَ الَّذِينَ يَظُنُّونَ﴾ أي: يوقنون ﴿أَنَّهُمْ مُّلْقُوا اللَّهَ﴾ أي: قالت القلة المؤمنة الصابرة المحسبة الموقنة بقاء الله، وهم الذين وطَّئُوا أنفسهم على الموت: ﴿كَمْ مِّنْ فِتْنَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِتْنَةُ كَثِيرَةٍ﴾ بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ ﴿بتوقيفه ونصره وحسن مثوبته، وكان طالوت قد أمر منادياً ينادي: مَنْ قَتَلَ جَالُوتَ رَوَّجْتُهُ ابْنَتِي، وله نصف مالي ومُلْكِي﴾^(١)

التَّوَجُّهُ إِلَى اللَّهِ بِالِدُّعَاءِ مِنْ عَوَامِلِ النَّصْرِ

٢٥٠- ﴿وَلَمَّا بَرَزُوا لِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ قَالُوا رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾^(٢٥٠).

وبرَزَ طالوت لجالوت، ونظر القوم فإذا بجالوت يَصْرَعُ وَيَقْتُلُ كُلَّ مَنْ خَرَجَ لِمُبَارَزَتِهِ، وهو يتحدَّى ويصول ويَجُولُ؛ ففرعوا إلى الله بالدعاء والضراعة يسألونه ثلاثة أشياء هي: الصبر والثبات والنصر، قائلين: ربنا أنزل على قلوبنا صبرًا وثبت أقدامنا، واجعلها راسخة في قتال العدو، ولا تجعل للفرار سبيلاً إلى قلوبنا، وانصرنا بعونك على القوم الكافرين، وهم جالوت وجنوده الذين كفروا بك، وكذبوا بك، وكذبوا رسلك، ويؤخذ من قوله تعالى: ﴿وَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾ أن جالوت وقومه كانوا كفارًا.

دَاوُدُ- الصَّبِيُّ الصَّغِيرُ- يَقْتُلُ جَالُوتَ قَائِدَ الْجَبَابِرَةِ

٢٥١- ﴿فَهَزَمُوهُمْ بِإِذْنِ اللَّهِ وَقَتَلَ دَاوُدُ جَالُوتَ وَءَاتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَهُ مَا يَشَاءُ وَلَوْلَا دَفْعُ^(٢) اللَّهِ النَّاسَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ الْأَرْضُ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾^(٢٥١).

وكان من جنود طالوت فتى يافع هو (داود) وله قصة:

ذلكم أن رجلاً من بيت لحم كان له سبعة من الغلمان، أرسل منهم الثلاثة الكبار

(١) ذكر ذلك ابن عساكر (٤٤٢/٢٤) عن الضحاك عن ابن عباس من طريق إسحاق بن بشر.

(٢) قرأ نافع وأبو جعفر ويعقوب (ولولا دَفَاعُ الله) مصدر (دافع)، وقرأ الباقر (دَفَعُ) مصدر (دَفَع).

للمشاركة في حرب طالوت، وله ولدٌ هو أصغرُهم، يبلغ الثالثة عشرة من عمره، هذا الفتى اسمه داود، قال له أبوه: لا تدخل معركة القتال، فلست من أهلها؛ لصغر وحدائه سنّه، ولكن أوصل الطعام إلى إخوانك، وكن رسولاً بيني وبينهم.

ونظر داود فوجد جالوتَ يَصُولُ وَيَجُولُ، ويقتل في بني إسرائيل فشقَّ عليه ذلك، وعزَّ على نفسه الصغيرة، فتقدم لطالوتَ يستأذنه في مبارزة جالوت، قال له طالوت: وماذا غسالك أن تفعل وأنت فتىٌ صغيرٌ حديث السن، قال له: لا يغرنك صغر سني، ولا ضالة حَجْمي، فإني قد قتلْتُ أسدًا عدا على أغنام أبي، وقتلتُ جنديًا تعرض لي، وإن حرارة الإيمان تَجيش في صدري، فأتركني لمحاربتَه، فأراد طالوتُ أن يُسلِّحه كما يُسلِّح الرجال في الحروب، ولكن داود جِسْمُهُ صغيرٌ، لا يطيق ولا يقوى أن يرتدي لباسَ الحرب وخوذته ونحو ذلك، قال داود لطالوت: اتركني وشأني.

وأخذ داودُ عصًا ومقلعًا، وكان بارعًا في رمي القلاع، وأخذ معه حجارة ملساء، كما يفعل أطفال الحجارة باليهود اليوم، ونظر إليه جالوت، فوجد عُدتَه: عصًا ومقلعًا، قال له مستهزئًا ساخرًا: أجتت تُطارِد كلبًا؟ أم جئت تناهز غلامًا مثلك؟ إن شئت جعلتك لحمًا طريًا يُقدِّم للوحوش، قال له: ولكني مُقاتِلُك بسم الله، وأخرج داودُ حجرًا أَملس، ووضعه في مقلعِهِ، وصوبَهُ تجاهَ رأس جالوت، فأرداه مُثخنًا بدمائه، وأتبعه بحجرٍ تلوَ حَجَرٍ، ثم علاه بالسيف، وقطع رأسه، فأرداه قتيلاً صريعًا، ذلكم قول الله سبحانه: ﴿فَهَزَمُوهُمْ بِإِذْنِ اللَّهِ وَقَتَلَ دَاوُدُ الْفَتَى الصَّغِيرَ، قَتَلَ الْقَائِدَ الْكَبِيرَ﴾ جالوتُ ﴿قَائِدَ الْجَبَابِرَةِ.

وكان طالوتُ قد رَصَدَ جائزةً لِمَن يقتل جالوت، وهي أن يُزوجه ابنته، وأن يُشاطرَه مُلكَه، ففعل ذلك، ووفى بما قال، وزوج جالوتَ ابنته، داودَ، وشاطرَه مُلكَه، وأعطى الله داودَ بعد ذلك المُلكَ والثبوة في بني إسرائيل ﴿وَأَتَيْنَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمْنَاهُ مِمَّا يَشَاءُ﴾ من العلوم الشرعية والسياسية والعسكرية والاجتماعية والاقتصادية... ولم تجتمع بنو إسرائيل على مَلِكٍ قبله، قال سبحانه: ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمُ إِلَى بَعْضٍ لَفَسَدَتِ الْأَرْضُ﴾ وهم أهل الطاعة والإيمان ﴿بِبَعْضٍ﴾ وهم أهل الشرك والمعاصي ﴿لَفَسَدَتِ الْأَرْضُ﴾ بغلبة الكفر وأهله، وتخریب البلاد وتعذيب العباد، وقتل الأخيار، وتمكن الطغيان، وكثر الطغاة:

١- عن معاوية بن أبي سفيان ؓ قال: سمعتُ رسولَ الله ﷺ يقول: «لا تزال طائفةٌ

من أمتي قائمة بأمر الله، لا يضرهم مَنْ خذلهم أو خالفهم حتى يأتي أمر الله وهم ظاهرون على الناس»^(١).

٢- وفي حديث عمران بن حصين رضي الله عنه: أن رسول الله ﷺ قال: «لا تزال طائفة من أمتي يُقاتلون على الحق، ظاهرين على مَنْ ناوأهم حتى يقاتل آخرهم المسيح الدجال»^(٢).

٣- وفي حديث أبي هريرة: أن النبي ﷺ قال: «إن الله يبعث لهذه الأمة على رأس كل مائة سنة مَنْ يجدد لها دينها»^(٣).

٤- وعن المغيرة بن شعبه قال: سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: «لا يزال قومٌ من أمتي ظاهرين على الناس حتى يأتيهم أمرُ الله، وهم ظاهرون»^(٤).

ثم ختم الله الآية بقوله: ﴿وَلَكِنَّ اللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْمَكْلُوبِينَ﴾ المخلوقين جميعاً.

٢٥٢- ﴿تِلْكَ آيَاتُ اللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ وَإِنَّكَ لِمِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾

تلك حُجَجُ الله وبراهينه نتلوها عليك أيها الرسول، فَمَنْ الذي أَعْلَمَكَ بما قَصَصْنَاهُ عليك يا محمد، من الأمور العجيبة التي وقعت في بني إسرائيل وغيرهم، إن هذا دليلٌ صدقٍ نبوتك، وفي هذا إنكارٌ على مَنْ جحد رسالة محمد ﷺ ﴿وَإِنَّكَ لِمِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾ الصادقين، ختم الله بك النبوة والرسالة.

فَضَائِلُ الرُّسُلِ وَسَبَبُ اخْتِلَافِ الْأُمَمِ

٢٥٣- ﴿تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ مِنْهُمْ مَنْ كَلَّمَ اللَّهُ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَاتٍ وَءَاتَيْنَا

(١) البخاري (٧١ و ٧٤٦٠) بنحوه، وابن ماجه (٩)، و(١٠) وفي السلسلة الصحيحة (١٩٥٧) وانظر

(١١٩٥، ١٩٥٨، ١٩٧١) وهو في المسند (١٦٨٨١)

(٢) «صحيح سنن أبي داود» (٢١٧٠) والحاكم (٤/٤٥٠)، والمسند (١٩٨٥١) بإسناد صحيح على شرط

مسلم، وأخرجه الحاكم (٧١/٢) والبخاري في مسنده (٣٥٢٤).

(٣) «صحيح سنن أبي داود» (٣٦٠٦) والحاكم (٤/٥٢٢)، وهو في السلسلة الصحيحة (٥٩٩) وصحيح

الجامع الصغير (٨٧٤) وفي سنن أبي داود (٤٢٩١).

(٤) البخاري (٤٦٤٠، ٧٤٥٩) ومسلم (١٩٢١).

عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّنَاتِ وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ^(١) وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَفْتَتَلَ الَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمْ الْبَيِّنَاتُ وَلَكِنْ اخْتَلَفُوا فَمِنْهُمْ مَنْ ءَامَنَ وَمِنْهُمْ مَنْ كَفَرَ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَفْتَتَلُوا وَلَكِنْ اللَّهُ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ ﴿٢٥٣﴾

ولما صدق الله رسالة محمد ﷺ، وأكَّدها في قوله جَلَّ شَأْنُهُ: ﴿وَإِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾ أشار سبحانه في أول هذا الجزء إلى الرُّسُل الذين سَبَقَ ذِكْرُهُمْ في السورة من آدم إلى داود عليهم جميعاً أفضل الصلاة وأتم التسليم بقوله: ﴿تِلْكَ الرُّسُلُ﴾ أي: الذين ذكَّروهم الله في هذه السورة وهم: موسى، وإبراهيم، وإسماعيل، وإسحاق، ويعقوب، وصمويل، وداود، وسائر مَنْ ذَكَرَ اللَّهُ نَبَاهُمْ في هذه السورة، فضل الله بعضهم على بعض بما أودع فيهم، من الأوصاف الحميدة، والأفعال السديدة.

أفضل الرسل

والله ﷻ قد فَضَّلَ بعضَ الأنبياء والمرسلين على بعض، كما قال تعالى: ﴿فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ﴾، وأفضلُ رسل الله صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين هو خاتمُهُم محمد ﷺ؛ ذلكم لأن كلَّ رسولٍ كان يُرْسَلُ إلى قومه خاصَّة، ومحمد ﷺ أُرْسِلَ إلى الناس كافةً، بل أُرْسِلَ إلى الثَّقَلَيْنِ: الإنسِ والجنِّ، وإلى أن يَرِثَ الله الأرضَ وَمَنْ عليها، ومعجزته باقية إلى قيام الساعة.

وَمِنْ معجزاته الكونية: انشقاق القمر، وحنين الجُدْع، وتسليم الشجر والحَجَر عليه، وكلام البهائم له، وتكثير الطعام بين يديه، وَتَبَعَ الماء من بين أصابعه ﷺ وغير ذلك.

أما المعجزة الدائمة إلى قيام الساعة فهي القرآن؛ في الصَّحِيحَيْنِ وغيرهما عن أبي هريرة ؓ أن رسول الله ﷺ قال: «ما مِنْ نبيٍّ من الأنبياء إلا قد أُعْطِيَ مِنَ الآياتِ ما آمَنَ على مثله البشر، وإنما كان الذي أوتيته وحياً أوحاه الله إليَّ، فأرجو أن أكون أكثرهم تابِعاً يومَ القيامة»^(٢)

والمعنى: أن كلَّ نبيٍّ أُعْطِيَ آية أو أكثر، مِنْ شَأْن مَنْ يشاهدها من البشر أن يؤمن بالنبي ﷺ لأجلها، وكانت آية محمد ﷺ هذا القرآن، فهو معجزة قائمة إلى قيام الساعة.

(١) قرأ ابن كثير (القدس) بسكون الدال؛ للتخفيف، وهو لغة تميم، وقرأ الباقون بضم الدال، وهو لغة أهل الحجاز.

(٢) البخاري (٤٩٨١، ٧٢٧٤) ومسلم (١٥٢، ٢٣٩) و«المسند» (٨٤٩١) و«سنن النسائي الكبرى» (٧٩٢٣).

وقد فضّل الله سيّد الخلقِ محمدًا ﷺ على جميع خلقه، وأنهم الله ذلك في الآية؛ لأن العلم به لا يشْتَبِه على أحدٍ ولا يلتبس، وهو مفهومٌ من هاء الضمير في قوله تعالى: ﴿تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ﴾.

ودليل ذلك: أن محمدًا ﷺ أُرْسِلَ إلى الناس كافةً، فلم يُبعثْ لزمنٍ دون زمن، ولا لمكانٍ دون مكانٍ، وأُعطيَ الشفاعةُ العظمى، وخصّه الله بخصائصٍ ليست لغيره، قال ﷺ: «أُعْطِيتُ خَمْسًا لَمْ يُعْطَ أَحَدٌ قَبْلِي: بُعِثْتُ إِلَى الْأَحْمَرِ وَالْأَسْوَدِ، وَنُصِرْتُ بِالرَّعْبِ، فَإِنَّ الْعَدُوَّ لَيَرْعِبُ مِنِّي مَسِيرَةَ شَهْرٍ، وَجُعِلَتْ لِي الْأَرْضُ مَسْجِدًا وَطَهْرًا، وَأُحِلَّتْ لِي الْغَنَائِمُ، وَلَمْ تَحِلْ لِأَحَدٍ كَانَ قَبْلِي، وَقِيلَ لِي: سَلْ تُعْطَ، فَاخْتَبَأْتُهَا شَفَاعَةً لَأُمِّي، فَهِيَ نَائِلَةٌ مِنْكُمْ إِنْ شَاءَ اللَّهُ مَنْ لَا يَشْرِكُ بِاللَّهِ شَيْئًا»^(١).

وفي الصَّحِيحَيْنِ أيضًا عن جابر رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «أُعْطِيتُ خَمْسًا لَمْ يُعْطَ أَحَدٌ مِنَ الْأَنْبِيَاءِ قَبْلِي: نُصِرْتُ بِالرَّعْبِ مَسِيرَةَ شَهْرٍ، وَجُعِلَتْ لِي الْأَرْضُ مَسْجِدًا وَطَهْرًا، فَأَيُّمَا رَجُلٍ أَدْرَكَتْهُ الصَّلَاةُ فَلْيَصِلْ، وَأُحِلَّتْ لِي الْغَنَائِمُ، وَلَمْ تَحِلْ لِأَحَدٍ قَبْلِي، وَأُعْطِيتُ الشَّفَاعَةَ، وَكَانَ النَّبِيُّ يَبْعَثُ إِلَى قَوْمِهِ خَاصَّةً، وَبُعِثْتُ إِلَى النَّاسِ عَامَةً»^(٢).

وهل يستوي مَنْ أُرْسِلَ إلى مئة ألفٍ أو يزيدون، بِمَنْ أُرْسِلَ إلى البشر كافةً؟ بل وإلى الجن وغيرهم من العوالم، وحتى يَرِثَ الله الأرضَ وَمَنْ عَلَيْهَا ﴿تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا﴾ [الفرقان].

لا يستوي مَنْ كانت مدّة رسالته ثلاث سنوات بِمَنْ تَبَقَى رسالته ما دامت الأرض باقية.

ومحمدٌ ﷺ هو خاتمُ الرُّسُلِ والأنبياء، وأفضلُهم، وهو سيّد الأولين والآخرين، ولا أدل على ذلك من أن الله تعالى قد أَخَذَ الْعَهْدَ وَالْمِيثَاقَ عَلَى جَمِيعِ الرُّسُلِ وَالْأَنْبِيَاءِ أَنْ يُؤْمِنُوا بِمُحَمَّدٍ ﷺ عِنْدَ مَجِيئِهِ ﴿وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَا ءَاتَيْنَاكُمْ مِنْ كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنْصُرُنَّهُ﴾ [آل عمران: ٨١].

(١) هذا حديث صحيح، ورد بألفاظ مختلفة، وهو في «المسند» من حديث ابن عباس برقم (٢٧٤٢) (٥/١٤٥) و«المستدرک» (٤٢٤/٢) والبخاري في الفتح (٣٦٩/١) ورقمه في البخاري (٤٣٨) بنحوه ومسلم بلفظ آخر (٥/٣)، برقم (٥٢١).

(٢) البخاري (٤٣٨، ٣٣٥) ومسلم (٥٢١).

وأُمَّتُهُ أَفْضَلُ الْأُمَمِ وَآخِرُهَا، وَكِتَابُهُ خَاتَمُ الْكُتُبِ الْمُهَيْمِنِ عَلَيْهَا.

ثلاثة أسباب لهذه الأفضلية:

وقد فَضَّلَ سبحانه بعضَ الرُّسُلِ على بعضٍ بحسب ما مَنَّ اللهُ به عليهم؛ فَفَضَّلَ مُحَمَّدًا ﷺ بعموم الرِّسَالَةِ، وَفَضَّلَ كِتَابَهُ بِأَن جَعَلَهُ مُهَيْمِنًا عَلَى سَائِرِ الْكُتُبِ، وَفَضَّلَ أُمَّتَهُ بِأَن جَعَلَهَا خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ:

قال تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾ [الأنبياء]

وقال سبحانه: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا﴾ [سبأ: ٢٨]

١- وهذا تفضيلٌ يتعلّق بالنبي ﷺ، ومع هذا فقد نهى ﷺ تفضيله على غيره من الأنبياء، من باب التواضع وهضم النفس، لا سيّما إن كان هذا التفاضل في مقام المناظرة ذات التشاجر أو العصبية، فقال ﷺ: «لا تفضلوني على الأنبياء»^(١).

٢- وهناك تفضيلٌ ثانٍ يتعلّق بالقرآن الكريم توضحه هذه الآيات:

﴿إِنَّ هَٰذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ﴾ [الإسراء: ٩].

﴿وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِّنَ الْكِتَابِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ﴾ [المائدة: ٤٨].

﴿اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُّتَشَدِّدًا مِّثْقَالِي﴾ [الزمر: ٢٣].

﴿وَاتَّبِعُوا أَحْسَنَ مَا أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ﴾ [الزمر: ٥٥].

﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تَبْيِينًا لِّكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِّلْمُسْلِمِينَ﴾ [النحل: ٨٩].

٣- أما التفضيل الثالث: فهو لهذه الأمة التي أجابت رسول الله ﷺ، واتبعته حقّ الاتباع، فقد مدح الله هذه الأمة بمثل قوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّنُكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ﴾ [البقرة: ١٤٣]، وقوله: ﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ﴾ [آل عمران: ١١٠].

فهذه درجاتٌ وخصوصياتٌ ثلاث؛ منها ما هو خاصٌّ برسول الله ﷺ، ومنها ما هو

(١) من حديث طويل في «صحيح البخاري» برقم (٣٤٠٨) و«صحيح مسلم» برقم (٢٣٧٣).

خاصٌّ بالكتاب الذي نَزَلَ عليه، ومنها ما هو خاصٌّ بأُمَّتِهِ.

فضل موسى عليه السلام:

ثم ذكرت الآية خصائص تفضيل بعض الرُّسُل على بعض؛ فقال تعالى عن موسى عليه السلام: ﴿مَنْهُمْ مَنْ كَلَّمَ اللَّهُ﴾؛ فقد فضل الله سبحانه موسى عليه السلام بأن كان كليماً لله تعالى، كَلَّمَهُ كَفَاحًا بَلَا واسطة ﴿وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَى تَكْلِيمًا﴾ [النساء: ١٦٤] ﴿قَالَ يَمُوسَى إِنِّي اصْطَفَيْتُكَ عَلَى النَّاسِ بِرِسَالَاتِي وَبِكَلِمِي﴾ [الأعراف: ١٤٤] وفي هذا إثباتُ صفةِ الكلام لله سبحانه على الوجه اللائق بِجَلَالِهِ، فهو سبحانه يَتَكَلَّمُ بكيفية لا نعلمها، وليس كمثله شيء، ونحن نؤمن بوحيه تعالى، وكلامه، مع تنزيهه في ذاته وصفاته عن مُشَابَهَةِ خَلْقِهِ. ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ [الشورى: ١١]

والكلام صفةٌ أزليَّةٌ قديمةٌ من صفات الله تعالى، قائمة بذاته سبحانه، يُعلم به مَنْ يشاء من عباده، بما شاء من عِلْمِهِ، متى شاء سبحانه.

ولهذا الكلام أنواعٌ ثلاثةٌ جاء ذكرها في قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِنْ وَرَآئِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِ مَا يَشَاءُ﴾ [الشورى: ٥١] وكلها تسمى وحياً وكلاماً.

والظاهر أن كلام موسى عليه السلام كان من النوع الثاني في الآية، وَحَدَّثَ مثله لرسول الله صلى الله عليه وسلم ليلة العروج.

ثم أشار سبحانه إلى أن هؤلاء الرُّسُل قد ميَّز الله بعضهم عن بعض فقال: ﴿وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَاتٍ﴾ في المكانة والمنزلة والخصائص، فمنهم أولو العزم الذين صبروا وكابدوا أقوامهم، ومنهم صاحب الرسالة العامة إلى الثقلين . . . وهكذا.

فضل عيسى عليه السلام:

ثم تَنَبَّأ سبحانه بعد موسى عليه السلام بعبده ورسوله عيسى عليه السلام فقال: ﴿وَأَتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّنَاتِ وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ﴾ والبيّنات: هي المعجزات. وفضَّلَ عيسى عليه السلام بأن أَيْدَهُ بروح القدس.

وروح القدس: جبريل عليه السلام، وجبريل هو أمين الوحي إلى جميع الرُّسُل، وقد اقترن عيسى بروح القدس؛ لأنه وُلِدَ بدون أب، فكان معه منذُ أن نفخ في جيب درع أمه مريم، وحتى رفعه الله تعالى إليه بواسطته أيضًا، فهو الذي أيّده الله، وقوّاه على وجه الخصوص بروح القدس، وهو جبريل عليه السلام.

كما أيّد الله نبيه محمدًا ﷺ بروح القدس أيضًا فقال: ﴿قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ مِنْ رَبِّكَ بِالْحَقِّ﴾ [النحل: ١٠٢] وقال: ﴿وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا﴾ [الشورى: ٥٢]

وفي الحديث عن ابن مسعود رضي الله عنه: «إن روح القدس نفث في روعي أن نفسا لن تموت حتى تستكمل أجلها ورزقها»^(١).

كما أيّد الله عيسى بالإنجيل، وأيّده بالمعجزات الدالة على صدق رسالته وبآيات البيّنات، فهو ﷺ يَخْلُقُ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ فينفخ فيه فيكون طيرًا بإذن الله، ويرى الأكمه والأبرص ويحيي الموتى بإذن الله، وينبئ قومه بما يأكلون، وما يدخرون في بيوتهم.

وعيسى عبدٌ من عباد الله، خَلَقَهُ الله بدون أب كما خلق آدم من غير أب ولا أم، وكما خلق حواء من غير أم، وخلق بقية الخلق من أب وأم؛ لتكتمل القسمة.

وقد خُصَّ موسى وعيسى بالفضل بعد محمد؛ لأن التكليم آية عظيمة، والتأييد بروح القدس آية عظيمة.

فضل داود وسليمان عليهما السلام:

وفضّل الله تعالى داود ﷺ بأن أنزل عليه الزّبور، وجعل الطير والجمال تُرْجِعُ؛ أي: تسبح الله معه، وأعطاه الله المُلْك والكتاب والحُكْم والنُّبُوَّة، وجعله يصنع الدروع التي تَقِي من الحرب والبأس.

وفضّل الله سليمان بأن سَخَّرَ له الإنس والجنّ والطير، وسَخَّرَ له الشياطين تعمل بين يديه بإذن ربه، وقد رفع الله إدريس مكانًا عاليًا في المكان والمنزلة.

هذه بعضُ فضائل الرُّسُل التي تشير إليها الآية، ثم إن الله ﷻ لم يجعل الإنسان

(١) أخرجه ابن حبان كما في «الدر المنثور» (١/٤٦٠)، وانظر تخريجه في آخر سورة الشورى.

مثلاً مكرراً من الملائكة، لا يتقاتلون ولا يختلفون ﴿لَا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ [التحریم: ٦] وإنما خلق الله الناس خلقاً مميزاً عن الملائكة، وعن الحيوانات، فجعل لهم عقولاً، وجعل فيهم شهوةً، وجعل لهم حريةً وإرادةً واختياراً، وهم بهذا الاختيار، وبهذا العقل، وبهذه الحرية يتميزون عن غيرهم، والله سبحانه قد أَرْسَلَ لهم الرُّسُلَ، وأنزل فيهم الكتب، وهو مُحَاسِبُهُمْ على ما قَدَّمْتُ أيديهم.

ولو شاء الله ما حدث خلاف ولا فرقة ولا تفرق ولا تقاتل بين أمم هؤلاء الرسل بعد ما جاءتهم الدلائل والبراهين الموجبة للاجتماع على الإيمان، على أيدي رسلهم، من الآيات البينات والمعجزات الواضحات، ولكنهم اختلفوا وتفرقوا، لأن الأسباب تنفع مع عدم معارضة المشيئة، فإذا وُجدت المشيئة زال كل موجب واضمحل كل سبب، وقد اقتضت حكمة الله تعالى أن يقع الخلاف والقتال بينهم لتمييز أوليائه من أعدائه، ويقوم سوق الجهاد واتخاذ الشهداء، ويظهر أهل الجنة وأهل النار.

الاختلاف بعد الرسل:

ومن شأن الناس أن يختلفوا، ومن شأنهم ألا يتفقوا؛ ولذلك فإن منهم من آمن وثبت على إيمانه، ومنهم من كفر وأصرَّ على كفره، ولو شاء الله ألا يقتل الذين جاؤوا من بعد هؤلاء الرُّسُلَ، من بعد ما جاءتهم البينات لَفَعَلَ سبحانه، فهو الفَعَّال لما يُريد ﴿لَا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ﴾ [الأنبياء: ٢٣] ولكن الاختلاف قد وقع بينهم ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَقْتَلَ الَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ﴾ من بعد الرُّسُلَ ﴿مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمْ الْبَيِّنَاتُ﴾ أي: الآيات الدالة على صِدْق دعواهم والموجبة للإيمان بهم وبدعوتهم.

ولكنه سبحانه لم يشأ؛ لأن قتالهم بسبب سوء اختيارهم، وفساد فطرتهم، وذلك مثل: اقتتال اليهود والنصارى في قصة أصحاب الأخدود، وقتال الروم والفرس، وقتال الأوس والخزرج، وقتال اليهود لأهل فلسطين القائم حتى يُنطقَ الله الحَجَرُ فيقول: يا مسلم هذا يهوديٌّ ورائي فتعال فاقْتُلْهُ، ومثل قتال الحبشة لمشركي العرب، ومثل قتال من يزعمون أنهم على ملة إبراهيم من اليهود والنصارى للمسلمين بعدما جاءتهم دلائل صِدْقِ محمدٍ ﷺ، كما أن أمة كلِّ رسولٍ من الرُّسُلِ اختلفوا واقتتلوا فيما بينهم، وكفَّر بعضهم بعضاً، والمقصود بهذا هو تحذير المسلمين من الوقوع في مثل ما وقع به أولئك، كما قال ﷺ من حديث عبد

الله بن عمر رضي الله عنه: «لا ترجعوا بعدي كفارًا يضرب بعضكم رقاب بعض»^(١).

وفي الحديث عن أبي بكر رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «إذا التقى المسلمان بسيفيهما فالقائِل والمقتول في النار»، قيل: يا رسول الله، هذا القاتِل، فما بال المقتول؟ قال: «أما إنه كان حريصًا على قتل أخيه»^(٢).

وقال صلى الله عليه وسلم فيما يرويه ابن عمر رضي الله عنه: «من قال لأخيه يا كافر؛ فقد باء بها أحدهما إن كان كما قال، وإلا رجعت عليه»^(٣).

والله يوفِّق مَنْ يشاء لطاعته والإيمان به، ويخذل مَنْ يشاء بكفره وعصيانه ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَقْتَلُوا﴾ مِنْ بعد ما جاءتهم البينات؛ بوحدانية الله وصدق الرُّسل ﴿وَلَكِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ﴾ فَأَجْرَى سَنَّتَهُ فِي خَلْقِهِ عَلَى هَذَا، وَكَانَ اقْتِتَالُهُمْ بعد عِلْمِهِمْ، وَقيام الْحُجَّةِ عَلَيْهِمْ تعمداً منهم للكفر بالله وآياته، ولم يجتمع لرسول من الرُّسل طاعة جميع الأمة له في حياته، ولا بعد مماته، بل اختلفوا، فكان منهم المؤمن ومنهم الكافر وَفَقًا لإرادة الله تعالى ومشيئته، ولو أراد الله حجزهم عن الاختلاف لَفَعَلَ ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً﴾ على دين واحد ﴿وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ﴾ (١٨) إِلَّا مَنْ رَحِمَ رَبُّكَ وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ ﴿هود: ١١٨، ١١٩﴾.

سأل رجلُ عليّ بن أبي طالب رضي الله تعالى عنه عن القَدَر، فقال: يا أمير المؤمنين، أخبرني عن القدر، قال: طريقٌ مظلمٌ لا تسلكه، فأعاد السؤال، فقال: بحرٌ عميقٌ فلا تَلِجه، فأعاد السؤال، فقال: سرُّ الله قد خَفِيَ عليك فلا تُفشه.

وقد تجسّد اختلافُ أهل الشرائع بأن منهم مَنْ آمنَ إيمانًا صحيحًا، فأخذ الدِّينَ على وجهه وفَهَمَه فهمًا سليمًا، وعَمِلَ بمقتضاه، ومنهم مَنْ تأثر بالهوى والشبهات والشهوات؛ فحَادَ عن الصواب، وضَلَّ الطريقَ.

(١) البخاري (١٧٤٢، ٤٤٠٣، ٧٠٧٧) ومسلم (٦٦، ١١٩) وأبو داود (٤٦٨٦) وابن ماجه (٣٩٤٣) و«المسند» (٥٥٧٨) وابن حبان (١٨٧) والنسائي في «الكبرى» (٣٥٧٧، ٣٥٧٩).

(٢) البخاري (٣١، ٧٠٨٣، ٧٨٧٥) ومسلم (١٤، ١٥، ٢٨٨٨) وأبو داود (٤٢٦٨) و«المسند» (٢٠٤٣٩) وابن حبان (٥٩٤٥، ٥٩٨١) و«سنن النسائي الكبرى» (٣٥٧٢، ٣٥٧٦).

(٣) «المسند» (٥٩١٤) بنحوه وهو حديث صحيح، والحديث في البخاري (٦١٠٤) ومسلم (٦٠).

وكان من نتيجة ذلك أن اختلف اليهود في ديانتهم وعِرْقِيَّتِهِمْ فاقتتلوا، أما النصارى فلم تختلف أمةً مثل اختلافهم، ولم يقتتل أهل المذاهب في دين من الأديان اقتتالهم، بل إن المذهب الواحد صار شيعاً يقاتل بعضه بعضاً، وكان على المسلمين أن يتعظوا منهم، ويحذروا الاختلاف والتفرق، ولكنهم تفرقوا بين سُنَّةٍ وشيعةٍ وإباضيةٍ ومعتزلةٍ وجبريةٍ ومرجئةٍ وغير ذلك، مع أن الإسلام نهاهم عن الاختلاف والتنازع والفرقة.

فقال تعالى: ﴿وَأَعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا﴾ [آل عمران: ١٠٣].

وقال: ﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ﴾ [آل عمران: ١٠٥].

وقال: ﴿إِنَّ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيعًا لَسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ﴾ [الأنعام: ١٥٩].

وقال: ﴿وَيَذِيقُ بَعْضُكُم بَأْسَ بَعْضٍ﴾ [الأنعام: ٦٥].

وقال: ﴿أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ﴾ [الشورى: ١٣].

وقال: ﴿فَإِنْ نَزَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَزُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ﴾ [النساء: ٥٩].

وقال: ﴿وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى الرَّسُولِ وَإِلَى أُولَى الْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ الَّذِينَ يَسْتَنَظُّونَهُ مِنْهُمْ﴾ [النساء: ٨٣].

وغير ذلك من النصوص الصريحة التي تنهى عن التفرق في دين الله، وهذا الاختلاف لا يشمل الفروع فقط التي فيها سعةٌ ورحمة، كما هو الشأن بين المذاهب الفقهية؛ من اجتهاد الفقهاء في فهم النصوص الشرعية، وإنما شمل الاختلاف في الأصول، وما يتعلق بالعقيدة والوحي.

الدَّعْوَةُ إِلَى الْإِنْفَاقِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ

٢٥٤- ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَنْفِقُوا مِمَّا رَزَقْنَاكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لَا بَيْعَ فِيهِ وَلَا خُلَّةٌ وَلَا شَفْعَةٌ^(١) وَالْكَافِرُونَ هُمُ الظَّالِمُونَ

هذه الآية الكريمة تتحدث عن الدَّعْوَةُ إِلَى الْإِنْفَاقِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بشكل عام، والدَّعْوَةُ إِلَى إخراج الزكاة، والدَّعْوَةُ إِلَى النفقة المستحبة، والآية في هذا المقام تحضُّ المسلم على

(١) قرأ ابن كثير وأبو عمرو ويعقوب بنصب هذه الكلمات من غير تنوين، وهي (لا بيع فيه ولا خلة ولا شفاعة) على أن لا نافية للجنس، وقرأ الباقر بالتنوين والرفع على أن لا نافية للوحدة.

الإتفاق في سبيل الله في وقت الشدة، وفي وقت الرخاء، ومن قبل أن يأتي وقت لا يستطيع فيه العبد أن ينفق شيئاً، ويتمنى أن يعود إلى الدنيا ولو للحظة، دون جدوى، فلا عودة إليها، ويتمنى أن يأتيه وقت يمد يده بالسخاء لغيره فلا يجد إلى ذلك سبيلاً.

﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَنفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَكُمْ﴾ فيا من آمنتُم بالله، وصدقتم رسوله، وعمِلْتُم بهديه، بادروا بالإتفاق مما تناله أيديكم في وقت المهلة، أخرجوا الزكاة المفروضة، وتصدقوا مما أعطاكم الله ﴿مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ يَوْمٌ لَا بَيْعَ فِيهِ﴾ ولو افندى نفسه بملء الأرض ذهباً ﴿وَلَا خُلَّةٌ﴾ أي ولا صداقة ولا وجاهة ﴿وَلَا شَفَعَةٌ﴾ وهو يومُ الجزاء، حيث لا تجدون ما تتقربون به إلى الله، وأنفقوا قبل مجيء يوم القيامة، حيث لا يمكن للإنسان أن يفدي نفسه ويشتريها من عذاب الله، ولو كان يملك في الدنيا ملء الأرض ذهباً.

وليس هناك صديق يُنقذ صديقه من عذاب الله، فلا خلة غني تنفع، ولا خلة فقير تنفع، ولا شفاعة شافع يملك تخفيف العذاب عنكم، فالشفاعة لا تكون إلا بإذن الله سبحانه، لِمَن يَرْضَى الله تعالى عنه.

﴿وَالْكَافِرُونَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ المتجاوزون لحدود الله؛ لأنهم لم يقدموا لأنفسهم ما ينفعهم في آخرتهم، والشرك أعظم الظلم، فادخروا لأنفسكم عند الله من أموالكم، وأنتم في دنياكم، بالثقة في سبيل الله، والصدقة على المساكين والمحتاجين، وإيتاء ما فرَضَ الله عليكم، وقَدِّمُوا ذلك قبل مجيء يوم الجزاء بالثواب والعقاب، حيث يذهب وقت العمل، واكتساب الحسنات والسيئات، فهو يوم لا ينفع فيه خليلٌ خليله، ولا ينصُرُ فيه أحدٌ أحداً ﴿الْأَخْلَاءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا الْمُتَّقِينَ﴾ [الزخرف]

ولا يُمكن لأحد أن يشفع لأحد، كما قال تعالى عن أهل النار:

﴿فَمَا لَنَا مِن شَفْعِينَ﴾ وَلَا صَدِيقٍ حَمِيمٍ ﴿١٦١﴾ [الشعراء]

فلا شفاعة لمن مات على الكفر؛ لأنه هو الذي ظلم نفسه بجُحوده للحق.

آيَةُ الْكَرْسِيِّ

٢٥٥- ﴿اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ^(١) لَا تَأْخُذُهُ سِنَّةٌ وَلَا نَوْمٌ لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِنْ عِلْمِهِ إِلَّا بِمَا شَاءَ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَا يَئُودُهُ حِفْظُهُمَا وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ^(٢)﴾

هذه الآية أعظم آيات القرآن وأفضلها وأجلها لما اشتملت عليه من صفات الله الكريمة، فهي تبين أنه لا يستحق الألوهية والعبودية إلا الله، الحي حياة دائمة كاملة تليق بجلاله، القائم على كل نفس بما كسبت، المدبر لشؤون خلقه، الذي لا ينام لحظة، ولا يغفل برهة، وكل ما في الكون ملك له سبحانه، ولا يجسر أحد على الشفاعة عنده إلا بإذنه، وعلمه محيط بجميع الكائنات في الماضي والحاضر والمستقبل، ولا يطلع أحد على شيء من علمه إلا بما شاء سبحانه، وسع كرسيه السموات والأرض.

والكرسي: موضع قدمي الرب سبحانه، ولا يعلم صفته إلا الله، ولا يُعْبِه سبحانه حفظ السموات والأرض وما فيهما وما بينهما، وهو العلي بذاته وصفاته على جميع مخلوقاته، الجامع لصفات العظمة والكبرياء جميعها.

وفي هذه الآية عشرُ جمل مستقلة فيها من المعاني والفوائد ما يلي:

أولاً: نفى الألوهية عن كل ما سواه سبحانه، وإثبات الألوهية له وحده، فهو سبحانه المعبود بحق، وهو صاحبُ السلطان المطلق على خلقه أجمعين ﴿اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾.

لا رب غيره ولا معبود بحق سواه، إليه وحده تصرف جميع الطاعات والعبادات.

ثانياً: هو وحده الحي الباقي الدائم الذي لا يفنى، ولا يزول، ولا يموت أبداً ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ﴾ [القصص: ٨٨] ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ﴾ [الرحمن: ٢٦] وهذا معنى: ﴿الْحَيُّ﴾ أي من له الحياة الكاملة المستلزمة لجميع صفات الذات، كالسمع والبصر

(١) عدل! لفظ (القيوم) آية، المكي والبصري والمدني الأخير، وأسقطها من العدد غيرهم، وهم: المدني الأول والكوفي والشامي.

(٢) قرأ قالون وأبو عمرو والكسائي وأبو جعفر بإسكان الهاء من (وهو) وضمها الباقون، ووقف عليها يعقوب بهاء السكت.

والقدرة ونحو ذلك .

وهو سبحانه (القيوم) أي القائم على كل نفس بما كسبت، يَحْفَظُهَا ويدبر شؤونها، ويحاسبها، ويجازيها ويثيبها ويعاقبها ﴿أَفَمَنْ هُوَ قَائِمٌ عَلَى كُلِّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ﴾ [الرعد: ٣٣] يكلؤها بعنايته ورعايته ويُقَدِّرُ أجلها وعملها ورزقها، فهو جَلَّ شَأْنُهُ ﴿الْقَيُّومُ﴾، الذي قام بنفسه وقام بغيره، يخلق ويرزق، ويحيى ويميت، ويقوم على سائر أنواع التدبير، ويستوى وينزل ويتكلم، فكل هذا ونحوه من قيومية الخالق سبحانه .

ثالثاً: لا يَعْتَرِيهِ سبحانه نومٌ ثَقِيلٌ يستغرق فيه، ولا نوم خفيف يراود الأجفان، وهذا تَرَقُّقٌ من الأضعف إلى الأقوى، ولله المثل الأعلى، فالغفلة من صفات الخلق، وهي مُحَالَةٌ على الله سبحانه، ولو كان سبحانه متصفاً بالغفلة لاستحال أن يكون قائماً على شؤون الخلق، ولاستحال أن يكون حياً دائماً، لا يموت ولا يَفْنَى؛ لأنه سبحانه شهيدٌ على كل شيء لا يغيب عنه أمرٌ، ولا يَخْفَى عليه خافيةٌ، فالله تعالى لا ينام: كما في حديث أبي موسى رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «إن الله لا ينام، ولا ينبغي له أن ينام، يخفض القسط ويرفعه، يُرْفَعُ إليه عمل النهار قبل عمل الليل، وعمل الليل قبل عمل النهار»^(١) ﴿لَا تَأْخُذُهُ سِنَّةٌ وَلَا نَوْمٌ﴾ .

رابعاً: وهو سبحانه مالكٌ لهذا الكون بعالميه العلوي والسفلي، بلا شريك ولا منازع، والكل خلقه وعبيده، وهم في مُلْكِهِ تحت قهره وتصرفه ﴿مَا أَخَذَ اللَّهُ مِنْ وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَهٍ إِذَا أَذْهَبَ كُلَّ إِلَهٍ يَمَّا خَلَقَ وَلَعَلَّ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ﴾ [المؤمنون: ٩١] ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلَهِةُ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا﴾ [الأنبياء: ٢٢] وهو سبحانه ﴿لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾ . فهو المالك وما سواه مملوك، وهو الخالق وما سواه مخلوق، وهو الرزاق وما سواه مرزوق، وهكذا .

خامساً: وإذا أراد الله أن يرحم من يشاء من عباده، أذن لمن أراد من عباده أن يشفع فيه، ولا يَشْفَعُ أحدٌ عند الله إلا بإذنه تعالى للشافع في الشفاعة، وبمقتضى رضاه صلى الله عليه وسلم عن المشفوع له قال تعالى: ﴿يَوْمَئِذٍ لَا تَنفَعُ الشَّفَعَةُ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ وَرَضِيَ لَهُ قَوْلًا﴾ [طه] وقال: ﴿مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ﴾ .

(١) من حديث أبي موسى في «صحيح مسلم» برقم (١٧٩) .

وقال سبحانه: ﴿وَكَمْ مِنْ مَلَكٍ فِي السَّمَوَاتِ لَا تُغْنِي شَفَعُهُمْ شَيْئًا إِلَّا مِنْ بَعْدِ أَنْ يَأْذَنَ اللَّهُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيُرِضَى﴾ [النجم: ٢٦].

ومن ذلك: الشفاعة العظمى لمحمد ﷺ يوم القيامة حين يقال له: «ارفع رأسك، وسل تُعط، واشفع تُشفع»^(١)

سادساً: علمه سبحانه محيط بجميع أحوال خلقه، يعلم ما مضى، وما هو آتٍ، ويعلم ما هم فيه في كل وقت، ولا يخفى عليه شيء من شؤون خلقه في الأرض ولا في السماء ﴿يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ﴾ في المستقبل من أمور الدنيا والآخرة ﴿وَمَا خَلْفَهُمْ﴾ أي: ويعلم ما مضى من جميع أمورهم، ما غاب منها وما شوهد، وما ظهر وما بطن.

سابعاً: لا يوجد أحدٌ يحيط بمعلومات الله تعالى، ولا يعلم شيئاً مما غاب عن العباد إلا هو سبحانه ﴿وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ﴾ [الأنعام: ٥٩] إلا من أطلعه الله تعالى من أنبيائه ورسله على شيء من علمه أو غيبه؛ ليكون دليلاً على نبوته ﴿عَلِمَ الْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَى غَيْبِهِ أَحَدًا﴾ [٦٦] إِلَّا مَنْ أَرَضَى مِنْ رَسُولٍ فَإِنَّهُ يَسْلُكُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ رَصَدًا﴾ [٧٧] [الجن]

وهو وحده المحيط بما كان وما يكون في هذا الكون، كما قال تعالى: ﴿يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِهِ﴾ [طه] ﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِنْ عِلْمِهِ إِلَّا بِمَا شَاءَ﴾ فالعباد ليس لهم من العلم إلا ما علمهم الله إياه.

ثامناً: وإذا كان الكرسيُّ يعني موضع القدم، وهو من سعته وعظمته يمكنه القيام بالسموات والأرض، وما فيهما وما بينهما، فيطبقهما ويحتملهما، فإن العرش أكبر منه وأعظم، ولا يعرف حقيقته إلا رب العالمين.

أخرج الحاكم في المستدرک على شرط الشيخين موقوفاً على ابن عباس ؓ، قال: «الكرسيُّ موضع القدمين، والعرش لا يُقدَّر أحدٌ قدره»^(٢).

(١) حديث الشفاعة العظمى في الصحيحين من حديث أنس في البخاري (٧٥١٠) وفي مسلم (١٩٢) وعن أبي هريرة في البخاري (٣٣٤٠، ٣٣٦١، ٤٧١٢) ومسلم (١٩٤).

(٢) الطبراني (٣٩/١٢) و«المستدرک» (٢٨٢/٢) وابن أبي شبة في صفة العرش برقم (٦١).

ولم يُذكر الكرسي في القرآن إلا في هذه الآية، وذُكر العرش عدة مرات.
وفي الأثر: إن الكرسي كحلقة ملقاة بأرض فلاة، وإن فضل العرش على الكرسي كفضل الفلاة على تلك الحلقة^(١).

وهذا على أساس أن الكرسي غير العرش، وقال الحسن: الكرسي هو العرش^(٢).
ويبدو -والله أعلم- أن الكرسي غير العرش؛ لِمَا ورد فيهما من آثار مرجحة ﴿وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ﴾، فهو يسع السموات والأرض وما فيهما وما بينهما، والعرش أكبر منه.
تاسعاً: أن العالم العلوي بما فيه من العرش والكرسي والسموات والأفلاك والملائكة، والعالم الأرضي بما فيه من الإنس والجن والجبال والشجر والنبات والدواب والطيور، وسائر ما في العالمين وما فيهما وما بينهما، أمرٌ هينٌ على رب العالمين، حيث لا يعجزه شيء، ولا يتوَّع سبحانه بحفظ هذا الكون ﴿وَلَا يَوْدُؤُهُ﴾ أي لا يثقله ﴿حِفْظُهُمَا﴾.

عاشراً: وهو سبحانه صاحب الكبرياء والعظمة، لا ينازعه منازعٌ، ولا يدانيه كائنٌ مَن كان في عليائه وقهره لعباده ﴿وَهُوَ الْعَلِيُّ﴾ بذاته فوق عرشه، العلي بقهره لجميع المخلوقات، العلي بقدره لكمال صفاته وهو ﴿الْعَظِيمُ﴾ الذي تتضاءل عند عظمته الجبابرة، وتصغرُ إلى جانب جلاله أنوف الملوك والأكاسرة، فسبحان من له العظمة والكبرياء رب الأرض والسموات.

سيدة آي القرآن

وقد أخبر النبي ﷺ عن آية الكرسي أنها سيدة آي القرآن الكريم؛ لِمَا ورد عن أبي هريرة ؓ: «سورة البقرة فيها آية هي سيدة آي القرآن، لا تُقرأ في بيت فيه شيطانٌ إلا خرج منه؛ آية الكرسي»^(٣).

(١) موقوفاً على أبي ذر، «تفسير الطبري» (٣٩٩/٥) ورفع ابن أبي شيبة في صفة العرش برقم (٥٨) بنحوه من طريق آخر، وهو في البداية والنهاية (١٣/١) وفي رفعه ضعف في السند؛ لأن فيه محمد بن أبي السري العسقلاني، ضعفه أبو حاتم، ووثقه ابن معين، وقال ابن عدي: كثير الغلط.

(٢) تفسير الخازن (١٨٥/١).

(٣) قال الحاكم في «المستدرک» (٢٥٩/٢): صحيح الإسناد ولم يخرجاه، قلت: وفي بعض طرقه ضعف.

وذلك لِمَا اشتملت عليه من توحيد الله سبحانه، ومن أسمائه الحسنی وصفاته العليا .

ففيها ثمانية عشر اسماً - ما بين اسم ظاهر ومضمر - من أسماء الله الحسنی .

واشتملت - على الصحيح - على اسم الله الأعظم، الذي إذا دُعي به أجاب، وقد بين ﷺ فيما جاء عن أبي أمامة ؓ أن: (ثلاث آيات في القرآن الكريم اشتملت على اسم الله الأعظم: أولها: آية الكرسي في قول الله سبحانه: ﴿الْحَيُّ الْقَيُّومُ﴾ .

وثانيها: هي الآية الأولى بعد الحروف الهجائية من سورة آل عمران ﴿الْمَلِكُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ﴾ .

وثالثها: من سورة طه قوله سبحانه: ﴿وَعَنَتِ الْوُجُوهُ لِلْحَيِّ الْقَيُّومِ﴾^(١) [طه: ١١١]

وهذا الحديث ورد بأكثر من رواية، وهو يشير إلى أن ﴿الْحَيُّ الْقَيُّومُ﴾ هو اسم الله الأعظم، الذي إذا دُعي به أجاب، وإذا سُئل به أعطى^(٢) .

فآية الكرسي سيدة آي القرآن الكريم؛ لأنها تشتمل على اسم الله الأعظم، وعلى غيره من أسماء الله تعالى وصفاته، وعلى أفراد الله تعالى وتوحيده .

أعظم آية في القرآن

١- ثم إن آية الكرسي هي أعظم آية في القرآن الكريم، كما جاء في سؤال النبي ﷺ لأبي بن كعب عن أعظم آية في كتاب الله ﷻ، قال: الله ورسوله أعلم، فردد ذلك مراراً، فقال أبي: آية الكرسي، فقال عليه الصلاة والسلام: «لِيَهْنِكَ الْعِلْمُ أَبَا الْمُنْذِرِ»، ثم قال ﷺ: «والذي نفسي بيده، إن لها لساناً وشفعتين تُقدس بهما المَلِكُ عند ساق العرش»^(٣) أي: أن آية الكرسي تُسبح بحمد الله، وتقده بلسانٍ وشفعتين .

(١) رواه الطبراني في «المعجم الكبير» (٢٨٢/٨) والطحاوي في «مشكل الآثار» برقم (١٧٦) من طريق هشام بن عمار .

(٢) كحديث أسماء بنت يزيد بن السكن في «المسند» (٤٦١/٦) وليس فيه آية سورة طه .

(٣) الحديث في «مسند أحمد» (١٤١/٥) برقم (٢١٢٧٨) ورجاله رجال الصحيح على شرط مسلم، وأخرجه مسلم عن أبي بن كعب ؓ برقم (٨١٠) وأبو داود (١٤٦٠) والحاكم (٣٠٤/٣)، ومصنف عبد الرزاق (٦٠٠١) والطبراني (٥٥٠) وعبد بن حميد (١٧٨) وصححه الألباني في صحيح الترغيب والترهيب برقم (١٤٧١) .

٢- وجاء من طريق عثمان بن غياث قال: سمعتُ أبا السليل قال: كان رجلٌ من أصحاب النبي ﷺ يُحدث الناس حتى يكثرُوا عليه، فيصعد على سطح بيت فيحدث الناس، قال: قال رسول الله ﷺ: «أَيُّ آيَةٍ فِي الْقُرْآنِ أَعْظَمُ؟» فقال رجل: ﴿اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾ قال: فوضع يده بين كَتِفَيْ، فوجدتُ برُدها بين ثَدْيَيْ، أو قال: فوضع يده بين ثَدْيَيْ فوجدتُ برُدها بين كَتِفَيْ، وقال: «ليهنك العلم، يا أبا المنذر»^(١).

٣- وروى ابن مسعود ؓ: آية الكرسي أعظم آية في القرآن، .

أما أعدل آية في القرآن فهي ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ﴾ [النحل: ٩٠].

وأخوف آية في القرآن ﴿فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ﴾ (٧) وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ﴾ [الزلزلة]

وَأَرْجَى آية في القرآن ﴿قُلْ يَاعِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ﴾^(٢) [الزمر: ٥٣].

قال العلماء: إنما تميّزت آية الكرسيّ بكونها أعظم آية في كتاب الله لِمَا جمعتُ من أصول الأسماء والصفات من الإلهية والوحدانية والحياة والعلم والقيومية والمُلْك والقدرة والإرادة، فهذه أصول الأسماء والصفات، والله تعالى أعظم مذكور، وذكره أعظم الأذكار.

وفي الحديث حُجَّةٌ على جواز تفضيل بعض القرآن على بعض؛ بمعنى: عِظْمُ أجر القارئ وجزيلُ ثوابه.

وآية الكرسيّ تُعَدُّ ربع القرآن الكريم^(٣)؛ أي: أنه إذا كان المسلم يحفظ آية الكرسي فإنه يحفظ ما يعادل ربع القرآن، باعتبار ما يشتمل عليه القرآن من عقائد وعبادات ومعاملات وقصص وأخبار، فقد احتوت آية الكرسيّ على الربع الأول مما حواه القرآن؛

(١) أخرجه أحمد في «المسند» (٨٥/٥) برقم (٢٠٥٨٨)، وهو حديث صحيح، وهذا إسناد فيه انقطاع، لأن

أبا السليل، لم يدرك أبي بن كعب، والواسطة بينهما عبد الله بن رباح الأنصاري (محققو المسند)

(٢) ابن مردويه وأبو عبيد ص ١٤٨، ١٤٩ .

(٣) يُنْظَر: «المسند» (٢٢١/٣) عن أنس بن مالك برقم (١٣٣٠٩) بإسناد فيه ضعف، لضعف سلمة بن وُردان

وفيه من سور: الإخلاص والكافرون والزلزلة والنصر، يعدل كل منها أيضًا ربع القرآن، وأخرجه

الترمذي (٢٨٩٥) والبيهقي في الشعب (٢٥١٥).

وهو التوحيد .

فضل آية الكرسي

١- وآيَةُ الْكَرْسِيِّ لِمَنْ يَدَاوُمُ عَلَى قِرَاءَتِهَا عَقَبَ كُلَّ صَلَاةٍ مَفْرُوضَةٍ تَكُونُ سَبَبًا لِدُخُولِهِ الْجَنَّةِ، جَاءَ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ مِنْ حَدِيثِ أَبِي أَمَامَةَ أَنْ: «مَنْ قَرَأَ آيَةَ الْكَرْسِيِّ فِي دُبُرِ كُلِّ صَلَاةٍ مَكْتُوبَةٍ لَمْ يَكُنْ بَيْنَهُ وَبَيْنَ دُخُولِ الْجَنَّةِ إِلَّا أَنْ يَمُوتَ»^(١).

أي: أن الموت فقط هو الذي يحول بينه وبين دخول الجنة، مع أن البرزخ أو القبر يكونان إما روضة من رياض الجنة، أو حفرة من حفر النار.

وَمَنْ يَقْرَأُ آيَةَ الْكَرْسِيِّ عَقَبَ كُلَّ صَلَاةٍ مَفْرُوضَةٍ مَعَ الْإِيمَانِ وَالْعَمَلِ فَهُوَ مِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ، وَقَبْرُهُ يَكُونُ عَلَيْهِ رَوْضَةٌ مِنْ رِيَاضِ الْجَنَّةِ؛ لِأَنَّهُ يُؤَاطِبُ عَلَى الصَّلَوَاتِ الْخَمْسِ؛ وَلِأَنَّهُ -إِنْ شَاءَ اللَّهُ- يَنْتَهِي عَنْ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ، وَهَذَا مِنْ ثَمَرَاتِ الصَّلَاةِ.

وقد بين النبي ﷺ أن مَنْ قَرَأَ آيَةَ الْكَرْسِيِّ فِي صَبَاحِهِ فَهُوَ فِي حِفْظِ اللَّهِ وَكَتْفِهِ وَرِعَايَتِهِ حَتَّى يُمْسِيَ، وَمَنْ قَرَأَهَا فِي مَسَائِهِ فَهُوَ فِي حِفْظِ اللَّهِ وَكَتْفِهِ وَرِعَايَتِهِ حَتَّى يُصْبِحَ، فَقَرَاءَتُهَا فِي الصَّبَاحِ وَالْمَسَاءِ عَلَى وَجْهِ الْخُصُوصِ تَجْعَلُ وَالْمُسْلِمَ فِي ذِمَّةِ اللَّهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى وَفِي حِفْظِهِ، وَتَكُونُ سَبَبًا لِعَصْمَةِ الْعَبْدِ، وَحِفْظِهِ مِنَ الشَّيَاطِينِ، وَمِنَ الْهُوَامِ وَالْوَسَاوِسِ وَالْحَسَدِ وَالسَّحَرِ وَغَيْرِ ذَلِكَ، وَتُقْرَأُ آيَةُ الْكَرْسِيِّ عَلَى الطَّعَامِ، وَتُقْرَأُ فِي السَّيَارَةِ وَهَنَا وَهَنَّا، فِي أَيِّ شَيْءٍ، وَعَلَى أَيِّ شَيْءٍ، فَإِنَّهَا تُبَارِكُهُ وَتَحْفَظُهُ، وَتَمْنَعُهُ مِنَ الشَّيَاطِينِ -بِإِذْنِ اللَّهِ تَعَالَى-.

٢- وعن ابن أبي بن كعب، أن أباه أخبره: أنه كان لهم جَرِينٌ فيه تمر، وكان مما يتعاهده فيجده ينقص، فحرسه ذات ليلة، فإذا هو بدابة كهيفة الغلام المحتلم: قال: فسلم فردّ عليه السلام، فقلت: ما أنت، جن أم إنس؟ قال: جن، فقلت: ناولني يدك، فإذا يد كلب وشعر

(١) من حديث أبي أمامة في «سنن النسائي الكبرى» برقم (٩٨٤٨، ٩٩٢٨) والتحفة (٤٩٢٧) والطبراني في «الكبير» (٧٥٣٢) وفي «الأوسط» (٨٠٦٨) قال ابن كثير: وزعم ابن الجوزي أنه موضوع وذكره في الموضوعات (٢٤٤/١) وقال الهيثمي في «مجمع الزوائد» (١٠٢/١٠): رواه الطبراني في «الكبير» وفي «الأوسط» بأسانيد، وأحدها جيد، وقال محقق الدعاء (٦٧٥): إسناده حسن، وقد أخرجه ابن حبان في صحيحه على شرط البخاري، وأخرجه ابن مردويه والبيهقي (٢٣٨٥) وعلى كل ففي إسناده مقال.

كلب، فقلت: هذا خلق الجن؟ فقال: لقد علمت الجن أن ما فيهم من هو أشد مني، قلت: ما يحملك على ما صنعت؟ فقال: بلغني أنك تحب الصدقة، فأحببت أن أصيب من طعامك، فقلت: ما الذي يحرزنا منكم؟ قال: هذه الآية: آية الكرسي، قال: فتركته، وغدا أُبَيّ إلى رسول الله ﷺ فأخبره، فقال: «صدق الخبيث»^(١)

٣- في صحيح البخاري وغيره أن أبا هريرة ؓ كان حارسًا على أموال الزكاة، فأتاه آت ذات ليلة في صورة رجلٍ، وأخذ يحثو من الطعام، ويأخذ منه، فأمسك به أبو هريرة وقال: لأرفعنك لرسول الله ﷺ، فشكا له أنه صاحب حاجة، فقير وذو عيال؛ فتركه أبو هريرة، وخلى سبيله بعد أن تعهد له أنه لن يعود.

فلما أصبح قال النبي ﷺ: «يا أبا هريرة، ما فعل أسيرك البارحة؟» أي: الذي أمسكت به، قال أبو هريرة: خَلَيْتُهُ، شكا لي حاجةً عنده، فخليتُ سبيله يا رسول الله، قال عليه الصلاة والسلام: «لقد كذبتك وسيعود»؛ فعلم أبو هريرة أنه سيعود؛ لأن النبي ﷺ أخبره بذلك.

فلما كانت الليلة الثانية والثالثة، جاء يأخذ من الطعام، فأمسك به أبو هريرة وقال له: لأرفعنك إلى رسول الله ﷺ فقال له: دُعني وأعلمك كلماتٍ يحفظك الله بها، قال: وما هي؟ قال: إذا أُوِيَتْ إلى فراشك فاقرأ آية الكرسي، فإنه لا يزال عليك من الله حافظ، ولا يقربك شيطان حتى تصبح.

فلما أصبح خلى سبيله، وسأله النبي ﷺ: «ماذا فعل أسيرك البارحة يا أبا هريرة؟»، قال يا رسول الله، زعم أنه يعلمني كلماتٍ ينفعني الله بها، وهي أنني إذا قرأتُ آية الكرسي لا أزال في كنف الله وحفظه، ولا يقربني شيطان حتى أصبح، قال عليه الصلاة والسلام: «لقد صدقتك وهو كذوب»، صدقتك في أن آية الكرسي تحفظ من الشياطين، حيث يكون قارئها في حفظ الله، وتحت كنفه، ورعايته، ومن شأنه أنه كذوب، فقال ﷺ: «أتعلم يا أبا هريرة، مَنْ تُخاطبُ هذه الليالي الثلاث؟»، قال: لا يا رسول الله، قال: «ذاك شيطان»^(٢).

(١) صححه الألباني في صحيح الترغيب والترهيب برقم (١٤٧٠) رواه ابن حبان في صحيحه وغيره.

(٢) يُنْظَرُ الحديث في «صحيح البخاري» برقم (٢٣١١، ٣٢٧٥، ٥٠١٠) و«سنن النسائي الكبرى» برقم

(١٠٧٩٥) وأخرجه أبو داود والنسائي وابن حبان وابن جرير عن ابن عباس وأبو نعيم (٢٦٧).

٤- وروى عبد الله بن مسعود رضي الله عنه أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه خرج يوماً فلقه جنّي، فقال الجنّي لعمر: هل لك أن تصارعني؟ فإن صرعتني علمتُك آيةً إذا قرأتها حين تدخل بيتك لم يدخله شيطانٌ، فصارعَه، فصرعه عمر، ثم قال له: إني أراك ضئيلاً ضحلاً كأن ذراعك ذراعاً كلب، أفهكذا كلّم أيها الجن؟ أم أنت من بينهم؟ قال: إني منهم لضليع، فعاودَه، فصرعه عمرُ مرةً ثانيةً، فقال له الجنّي: تقرأ آيةَ الكرسي، فإنه لا يقرؤها أحد إذا دخل بيته إلا خرج الشيطان، وله صوت كصوت حمار^(١).

وهكذا اشتملت آية الكرسي على توحيد الإلهية، وتوحيد الربوبية، وتوحيد الأسماء والصفات، وعلى إحاطة ملكه تعالى، وإحاطة علمه، وسعة سلطانه، وعظمته وكبريائه، وعلوّه على جميع مخلوقاته، وهي بمفردها متضمنة لجميع الأسماء الحسنى والصفات العلا.

الْحُكْمُ التَّشْرِيعِيُّ الثَّالِثُ وَالثَّلَاثُونَ: حُكْمُ الْمُزْتَدِّ

٢٥٦- ﴿لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ فَقَدْ

أَسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى لَا انْفِصَامَ لَهَا وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾

ولمّا كانت آية الكرسيّ مشتملةً على وحدانية الله تعالى، وعظمة الخالق، وتنزيهه من شوائب ما كفّرت به الأمم، فإن هذا من شأنه أن يقود العبادَ إلى قبُول هذا الدين الحنيف باختيارهم دون جبرٍ ولا إكراه؛ لأنّ التدين إيماناً بالقلب، واتجاهاً بالنفس والجوارح إلى العمل بحرية واختيار، وإذا أكره الإنسان على شيء فإنه لا يزداد إلا بُعْداً ونفوراً، فالتدين والإكراه نقيضان لا يجتمعان، ولا يمكن أن يأتي التدين نتيجة الإكراه، ولماذا يكون الإكراه على الدخول في الإسلام؟! وقد ظهر الصبح لذي العينين، وانكشف الحق من الباطل، والهدى من الضلال، وقامت الأدلة القاطعة على أن دين الإسلام هو الدينُ الحقُّ الذي ختم الله به الرسالات، وأن ما عداه ضلالٌ

(١) يُنظَر: «تفسير ابن كثير» للآية، (١/٦٧٥) عن عبد الله بن مسعود في كتاب (الغريب) لأبي عبيد، قال: حدثنا أبو معاوية، عن أبي عاصم الثقفي، عن الشعبي، عن ابن مسعود وليس فيه عمر بن الخطاب وإنما قال (خرج رجل من الإنس فلقه رجل من الجن . .) وحدّث بعض التفاسير اسم هذا الرجل، بأنه عمر رضي الله عنه.

وكفران، فمن خلع كل ديانة غير دين الإسلام سواء أكانت سماوية أم أرضية فقد ثبت أمره، واستقام على الطريقة المُمثَلَى التي ارتضاها الله لعباده إلى يوم الدين.

وقد نزلت هذه الآية بعد فتح مكة، وانتهاء الشرك في بلاد العرب، كما قال ﷺ في خطبة حَجَّة الوداع من حديث جابر رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «إِنَّ الشَّيْطَانَ قَدْ يَتَّبِعُ أَنْ يَعْبُدَهُ الْمُصَلُّونَ فِي جَزِيرَةِ الْعَرَبِ، وَلَكِنْ فِي التَّحْرِيشِ بَيْنَهُمْ»^(١).

وكان النبي ﷺ في صدر الإسلام مأمورًا أن يقاتل مشركي العرب حتى يدخلوا في الإسلام، كما في الحديث: «أُمِرْتُ أَنْ أَقَاتِلَ النَّاسَ» وهم المشركون خاصة «حتى يشهدوا أَلَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللَّهِ»^(٢).

ثم خَلَصَتْ بلاد العرب من الشرك، ودخل الناس في دين الله أفواجًا؛ ولذلك فقد قال قتادة والسَّعْبِي والحسن والضحاك: إن هذه الآية خاصة بأهل الكتاب، فإنهم لا يُكْرَهُونَ على الدخول في الإسلام إذا أدَّوا الْجِزْيَةَ، وإنما يُجْبَرُ على الإسلام أهل الأوثان، وإلى هذا مَالُ الشافعي فقال: إن الْجِزْيَةَ لا تُؤْخَذُ إِلَّا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمَجُوسِ.

ولذا: فإن الآيات التي أَمَرَتْ بِقِتَالِ الْوَثْنِيِّينَ مُطْلَقَةً وَغَيْرَ مُقَيَّدَةٍ بِغَايَةٍ، أما الآيات التي أَمَرَتْ بِقِتَالِ أَهْلِ الْكِتَابِ فَقَدْ كَانَتْ غَايَتِهَا ﴿حَتَّى يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَنْ يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ﴾ [التوبة: ٢٩].

وأَسْبَابُ النِّزُولِ تَوْضُحُ هَذَا الْمَعْنَى، فَمَعْنَى ﴿لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ﴾ لَا تُكْرَهُوا أَحَدًا عَلَى الدِّخُولِ فِي الْإِسْلَامِ قَسْرًا، وَنَفْيُ الْإِكْرَاهِ خَبَرٌ بِمَعْنَى النَّهْيِ، وَالْمُرَادُ نَفْيُ أَسْبَابِ الْإِكْرَاهِ.

وَالْآيَةُ تَتَحَدَّثُ عَنْ حُرِّيَّةِ الْعَقِيدَةِ فِي الْإِسْلَامِ قَبْلَ الدِّخُولِ فِيهَا؛ وَلَئِنْ هَذَا الدِّينُ كَامِلٌ وَوَاضِحٌ، وَأَدْلَتُهُ النَّقْلِيَّةُ وَالْعَقْلِيَّةُ تَبَيَّنَ الْحَقُّ مِنَ الْبَاطِلِ، وَالْهُدَى مِنَ الضَّلَالِ؛ فَإِنَّهُ لَا يَحْتَاجُ إِلَى الْإِكْرَاهِ عَلَيْهِ، لِأَنَّ الْإِكْرَاهَ لَا يَكُونُ إِلَّا عَلَى أَمْرٍ خَفِيِّ غَامِضٍ، أَوْ أَنَّهُ فِي غَايَةِ الْكِرَاهِيَةِ لِلنَّاسِ، أَمَّا الْإِسْلَامُ فَهُوَ دِينٌ

(١) «تفسير التحرير والتنوير» (٢٧/٣) والحديث في «صحيح مسلم» برقم (٢٨١٢).

(٢) الحديث في «صحيح مسلم» عن أبي هريرة وجابر وابن عمر بأرقام: (٢٠، ٢١، ٢٢) وفي البخاري (٢٥، ١٣٩٩، ٢٩٤٦، ٧٢٨٤) و«المسند» (١٣٢٠٩) عن جابر، وفي الترمذي (٣٣٤١) والنسائي في «الكبرى» (١١٦٧٠).

واضح، يفرق بين الرشد والغي، يخاطب العقل والقلب والضمير والوجدان.
فالموفق يختاره طريقاً ومنهجاً له بمجرد النظر في آثاره، وسيء القصد خبيث النفس، يرى الحق باطلاً والحسن قبيحاً، فيميل إليه.
وهذا الصنف من الناس لا فائدة فيه، فالإسلام لا يحتاج إلى إكراه أحد للدخول فيه
فَمَنْ يَكْفُر بِكُلِّ مَا عُبدَ مِنْ دُونِ اللَّهِ، وَيُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَحْدَهُ، فَقَدْ ثَبَّتَ وَاسْتَقَامَ عَلَى
الطَّرِيقَةِ الْمَثْلَى، وَاسْتَمْسَكَ بِأَقْوَى سَبَبٍ لَا يَنْقَطِعُ، وَاللَّهُ سَمِيعٌ لَأَقْوَالِ الْعِبَادِ، عَلِيمٌ بِأَفْعَالِهِمْ
وَنِيَاتِهِمْ، وَسَيَجَازِيهِمْ عَلَى ذَلِكَ.

أسباب النزول

(أ) ومما يُذكر في أسباب النزول أن رجلاً من الأنصار يقال له: (أبو حصين) كان له
وَلَدَانِ قَدْ تَنَصَّرَا، فَأَرَادَ أَنْ يُرْغَمَهُمَا عَلَى الدِّخُولِ فِي الْإِسْلَامِ، فَاخْتَصَمَا إِلَى النَّبِيِّ ﷺ
فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَيْدِخِلْ، بَعْضِي فِي النَّارِ وَأَنَا أَنْظُرُ؟ فَتَلَّتِ الْآيَةَ، فَخَلَّى سَبِيلَهُمَا^(١).
(ب) وعن سعيد بن جبیر عن ابن عباس ؓ أن امرأة من الأنصار كان لا يعيش لها
وَلَدٌ، فَذَرَتْ إِنْ عَاشَ لَهَا وَلَدٌ، أَنْ تُهَوِّدَهُ، فَلَمَّا جَاءَ الْإِسْلَامُ، وَأُجْلِيَتْ بَنُو النَّضِيرِ، وَكَانَ
فِيهِمْ عَدَدٌ مِنَ الْأَنْصَارِ، أَرَادُوا اسْتِرْدَادَ أَبْنَائِهِمْ، فَأَجْلَوْهُمْ مَعَهُمْ^(٢).
وفي رواية أنها قالت: يا رسول الله، أَلَا نُكْرِهِ أَوْلَادَنَا الَّذِينَ هُمْ فِي يَهُودٍ عَلَى
الْإِسْلَامِ؟ فَأَنْزَلَ اللَّهُ الْآيَةَ^(٣).

(ج) وقيل: إنها نزلت فيمن دفع الجزية من أهل الكتاب، لا يُكره على الإسلام^(٤).
وقد أراد بعض الصحابة إجبار أولادهم الذين دخلوا اليهودية بعد غزوة بني النضير على

(١) يُنْظَرُ الْأَثَرُ (٥٨١٩) فِي «تفسير الطبري» و«الدر المشثور» (٣٢٩/١).

(٢) يُنْظَرُ: «تفسير الطبري» (٤٠٧/٥) وسنن أبي داود برقم (٢٦٨٢) و«سنن النسائي الكبرى» برقم (١٠٩٨٢)،

١١٠٤٨ عن ابن عباس و«صحيح سنن أبي داود» (٢٣٣٣) وابن حبان (١٤٠) وغيرهم.

(٣) «السنن الكبرى» للبيهقي (١٨٦/٩) و«الدر المشثور» (٣٩١١).

(٤) «تفسير الطبري» (٥٨٢٣).

الإسلام، وعدم إجلائهم معهم^(١) فنزلت الآية.

(هـ) وفي المسند وغيره عن أنس رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال عن رجل أسلم قال: إني أجدني كارهاً، قال: «وإن كنت كارهاً»^(٢).

ومعناه: أن النبي ﷺ دعاه إلى الإسلام وأن الله سيرزقه حبه إياه، ويرزقه حسن النية والإخلاص. ففي الحديث عن أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «عَجِبَ رَبُّكَ مِنْ قَوْمٍ يُقَادُونَ إِلَى الْجَنَّةِ فِي السَّلَاسِلِ»^(٣).

وقد بقي رسول الله ﷺ في مكة عَشْرَ سنوات، فلم يُكْرِهْ أحداً على الدُّخُولِ في الإسلام. والآية عامة تشمل ما جاء في أسباب النزول وغيرها.

والله ﷻ قد أنزل الكتاب، وأرسل الرُّسُلَ، وَبَيَّنَّ الْهُدَى مِنَ الضَّلَالِ، وَالْخَيْرَ مِنَ الشَّرِّ ﴿وَقُلِ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيُكْفُرْ﴾ [الكهف: ٢٩].

﴿قَدْ جَاءَكُمْ بَصَائِرُ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنْ أَبْصَرَ فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ عَمِيَ فَعَلَيْهَا﴾ [الأنعام: ١٠٤].

ولكن مَنْ دخل في الإسلام ثم خرج منه يعتبر مرتدًا؛ لأنه يمثل فتنةً كبرى لغيره من الناس، فيقال: لماذا دخل في الإسلام ثم خرج منه؟ فيستتاب هذا المرتد، وإلا قُتل حدًّا.

﴿لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ﴾ بالنسبة للدخول فيه مبدئيًا، من اليهودية أو النصرانية أو الوثنية، أو البوذية أو الهندوكية، أو غير ذلك، بعد تبين وتَعَقُّلٍ وَنَظَرٍ وَاسْتِدْلَالٍ، حيث ﴿قَدْ تَبَيَّنَ أَلْرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ﴾.

وَمَنْ دخل في الإسلام عن بَصِيرَةٍ يكون خروجه منه فتنةً لغيره، إذ كيف عَدَلَ عن الرُّشْدِ والصواب إلى الغيِّ والضلال.

وحُكْمُ الْكَافِرِ الْأَصِيلِ يَخْتَلِفُ عَنْ حُكْمِ مَنْ دخل في الإسلام ثم خرج منه، فإنه يكون

(١) يُنْظَرُ الْأَثَرُ (٥٨٢٨) وما بعده في الطبري.

(٢) «المسند» (١٨١/٣) قال ابن كثير: فإنه ثلاثي صحيح، ورقمه في «المسند» (١٢٨٦٨) و(١٢٠٦١) وإسناده صحيح على شرط الشيخين، (محققه) وأخرجه الضياء في المختارة (١٩٩١) وأبو يعلى (٣٧٧٦).

(٣) «صحيح البخاري» برقم (٣٠١٠، ٤٥٥٧) من حديث أبي هريرة.

سبباً لخروج الناس من الإسلام، وهذه هي الردة التي يأمر الإسلام بقتل فاعلها؛ لأنه صدّ الناس عن دين الله بعد أن دخل فيه، ووَضَعَ الإسلام مَوْضِعَ التَّهْمَةِ والرَّيْبِ وسوء الظن، وهذا هو الذي قال الله عنه: ﴿وَالْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ الْقَتْلِ﴾ ﴿وَالْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ الْقَتْلِ﴾.

ثم قال تعالى: ﴿فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ﴾ والطاغوت: كلُّ ما عُبدَ من دون الله، ورَضِيَ بالعبادة، وكل ما يُطغِي الإنسان فهو طاغوت، كالشيطان، والساحر، والكاهن، والمال، والجاه، فَمَنْ يَكْفُرُ بكل هذا ونحوه ﴿وَيُؤْمِنُ بِاللَّهِ فَقَدْ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى﴾ وكأنه عَقَدَ لنفسه مع الدين عَقْدًا مُحْكَمًا لا شبهة فيه، فهو متمسك بشيء وثيق لا يُقْطَع حتى يُدْخِلَهُ الجنة ﴿لَا أَنْفِصَامَ لَهَا وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾.

وصحَّ عن النبي ﷺ تفسير العروة الوثقى بالإسلام والتوحيد، كما في رؤيا عبد الله بن سلام أنه استمسك بالعروة في منامه، واستيقظ وهي في يده، فقال له النبي ﷺ: «أنت على الإسلام حتى تموت»^(١).

الْمُؤْمِنُ وَلِيُّهُ اللَّهُ وَالْكَافِرُ وَلِيُّهُ الشَّيْطَانُ

٢٥٧- ﴿اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ﴾^(٢) وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَوْلِيَائُهُمُ الطَّاغُوتُ يُخْرِجُونَهُم مِّنَ النُّورِ إِلَى الظُّلُمَاتِ أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٢٥٧﴾

ثم إن الذين كفروا بالطاغوت وآمنوا بالله، قد تولّاهم الله لِيَصْدُقَ إيمانهم، فزاد اهتدائهم هُدىً، ويسّر لهم طريق الحق؛ لأنهم حين اختاروا الإيمان طريقاً لهم، فقد خرجوا بدخولهم في الإيمان من ظلمات الكفر والضلال، ومن الشبهة التي تعرّض لهم في طريق الإيمان إلى نور الإيمان والهدى.

والسبب في ذلك: أن الله تعالى يتولى بعنايته ونصره وتأييده عباده المؤمنين، فيخرجهم من ظلمات الكفر إلى نور الإيمان، ومن الضلال إلى الهدى، فهو سبحانه وليّ المؤمنين، ومبصّرهم حقيقة الإيمان وشرائعه، وهاديهم لأدلة المزية للشكوك، فمن يخرج من سائر

(١) من حديث قيس بن عباد في «المسند» (٥/٤٥٢، ٤٥٣) برقم (٢٣٧٨٧) والبخاري (٣٨١٣، ٧٠١٠، ٧٠١٤) ومسلم (٤٢٨٤).

(٢) عدّ قوله تعالى (إلى النور) آية، المدني الأول وحده، وأسقطها غيره من العدد.

ملل الكفر، ويدخل في دين الإسلام؛ فقد خرج من الظلمات إلى النور. ومن خرج من دين موسى وعيسى وآمن بمحمد؛ فقد خرج من الظلمات إلى النور، ومن يرتد عن الإسلام إلى غيره -والعياذ بالله- فقد خرج من النور إلى الظلمات، وأما أهل الضلال؛ وهم الكفار، فأولياؤهم وأنصارهم شياطين الإنس والجن من الأنداد والشركاء الذين يعبدونهم من دون الله.

ومعنى يخرجونهم: يصدونهم عن نور الإيمان الفطري الذي خلق الله عليه الناس كافة، وهم في أضلّاب آبائهم فيخرجونهم منه، كما يخرجونهم من نور الأدلة والحجج الواضحة التي تحمل كل عاقل على اعتناق الإسلام دينًا إلى ظلمات الكفر ﴿أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ﴾ الملازمون لها ﴿هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ باقون بقاءً أبديًا لا يخرجون منها أبدًا.

قال تعالى: ﴿يُرِيدُونَ أَن يُخْرِجُوا مِن النَّارِ وَمَا هُمْ بِخَارِجِينَ مِنْهَا وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّقِيمٌ﴾ [المائدة: ٣٧]. ﴿اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ يتولاهم بلطفه ومنه وإحسانه، لأنهم قد تولّوا ربهم، فلا ييغون عنه بدلا، ولا يشركون به أحدا، وقد والّوا أوليائه وعادوا أعداءه، واتخذوه حبيباً وولياً. وولاية الله للمؤمنين تجعلهم يستخدمون عقولهم وحواسهم في مرضاة الله، وكلما عرضت لهم شبهة أو شائبة كالبدع والأهواء لآخ سلطان الولاية الإلهية على قلوبهم شعاعاً من نور، فيطرّد هذه الظلمة ويخرجها بسهولة كما قال تعالى:

﴿إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِّنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ﴾ [الأعراف: ٢٠١]

وقال سبحانه: ﴿فَاللَّهُ هُوَ أَلْوَىٰ﴾ [الشورى: ٩]

وقال جل شأنه: ﴿وَمَا لَكُمْ مِّن دُونِ اللَّهِ مِّنْ أَوْلِيَآءَ﴾ [هود: ١١٣]

وقال عز وجل: ﴿إِنَّ وَلِيََّ اللَّهِ الَّذِي نَزَّلَ الْكِتَابَ وَهُوَ يَتَوَلَّى الصَّالِحِينَ﴾ [الأعراف: ١٩٦]

وغير ذلك من الآيات التي تُثبِت ولاية الله تعالى لعباده المؤمنين، وتنفي ما عداه.

وكل من المؤمنين والمؤمنات بعضهم أولياء بعض، كما قال تعالى: ﴿وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ﴾ [التوبة: ٧١] وكل من الكافرين والكافرات بعضهم أولياء بعض.

وهذه الولاية معناها: التعاون والتناصر في الأمور المشتركة فيما بينهم.

أما ولاية الشيطان للكفار؛ فمنها قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا ذَلِكُمُ الشَّيْطَانُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَآءَهُ﴾ [آل

عمران: ١٧٥] وقوله: ﴿إِنَّهُمْ اتَّخَذُوا الشَّيْطَانَ أَوْلِيَآءَ مِّن دُونِ اللَّهِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ مُّهْتَدُونَ﴾

[الأعراف: ٣٠] وقوله: ﴿فَقَتَلُوا أَوْلِيَآءَ الشَّيْطَانِ﴾ [النساء: ٧٦].

وهذا هو عينُ ولايةِ الشَّيْطانِ أو الطاغوتِ للكفار، ثم يتبرأ بعضهم من بعض يوم القيامة، أما ولايةُ الله للمؤمنين فهي إلهامُ الله، وتوفيقه للعبد، وإمداده له بالعون والهداية، والله تعالى يخرج أولياءه من ظلمات الكفر والمعاصي، والجهل، إلى نور الإيمان والطاعة والعلم، والشيطان يخرج أولياءه من نور العلم والإيمان والطاعة إلى ظلمات الكفر والجهل والمعاصي ويوم لقاء الله يُسَلِّمُ أولياءه من ظلمات القبر والحشر وسوء الحساب، إلى النعيم المقيم والسعادة الأبدية، أما أولياء الشيطان فهم في دار الحسرة والندامة والخلود الدائم في العذاب الأليم.

قِصَّةُ إِبْرَاهِيمَ وَالْمَلِكِ الطَّاعِيَةِ

٢٥٨- ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِي حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ^(١) فِي رَبِّهِ أَنْ ءَاتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّي^(٢) الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ قَالَ إِبْرَاهِيمُ فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ^(٣)﴾

في هذه الآية والآيتين التاليتين بعدها، ثلاثة أمثلة من ولاية الله للمؤمنين، وإخراجهم من الظلمات إلى النور، فهي شواهد على ضلال الكافر وهداية المؤمن:

أولها: ولاية الله لإبراهيم في حاجته للنموذ، والتعرف على وجود الله سبحانه ووحدانيته.

وثانيها: ولاية الله للذي مرَّ على قرية؛ فأماته الله مئة عام ثم بعثه، وأخرجه من ظلمة الشبهة، إلى نور الإيمان.

(١) قرأ ابن عامر بخلف عن ابن ذكوان (إبراهيم)، وقرأ الباقر ومعهما ابن ذكوان في وجهه الآخر (إبراهيم).

(٢) سكن الباء من (ربي الذي) حمزة وفتحها غيره.

(٣) أثبت نافع وأبو جعفر الألف من (أنا) وصلًا، فتكون من قبيل المدِّ المنفصل، وكل منهما على مذهبه فيه، وحذفها الباقر وصلًا، وأثبتوها وقفًا مع المدِّ الطبيعي.

وثالثها: ولاية الله لإبراهيمَ في تجلية آية البعث له كي يطمئن قلبه.

أما المثال الأول: فإن بابلَ من أرض العراق، مدينة ذات حضارة عريقة، مُوغلة في القدم، كانت تُسمَّى قديمًا: مملكة بابل، توالى عليها عددٌ كبيرٌ من الملوك، منهم من حكَّم العالمَ شرقًا وغربًا.

قال مُجاهد: ومَلَك الدنيا مشارِقَها ومغارِبَها أربعة: مؤمنان وكافران؛ أما المؤمنان: فهما سليمان بن داود عليه السلام، وذو القرنين، وأما الكافران: فهما النمرود بن كنعان البابلي، وبختنصر الذي حكم بابل^(١).

وقد كان أهل بابل يعبدون الأصنام، بل يصنعونها ويصدِّرونها لغيرهم، فهم كانوا يَنْحِتُونَ التماثيل، ويصنعون الأصنام، وأول ملك من ملوك بابل هو: النمرود بن كنعان بن كوش بن سام بن نوح، وهو أول من طَعَى وتَجَبَّرَ وادَّعى الربوبية، وأول من لَبَسَ التاج على رأسه، وهو الذي بَنَى مدينةَ بابل، فأتى الله بُنيانه من القواعد، وأول ملك في الأرض.

أدرك النمرود زمانَ إبراهيمَ خليلِ الرحمن، فقد وُلِدَ إبراهيم عليه السلام قُرْبَ أرض بابل، ورأى قومه يعبدون الأصنام من دون الله، فدعا إلى توحيد الله تعالى، وكان النمرود قد ادَّعى الربوبية والألوهية في قومٍ وجَدَهُمْ لا عقولَ لهم، ولا تَمَيَّزَ فيهم، فهم يعبدون الأصنام التي لا تضر ولا تنفع، ولا تسمع ولا تُبصر، ولا تملك من الأمر شيئًا، فلماذا لا يدَّعي الربوبية؟ وله عقلٌ يُدرك به ويفكر، ويسمع ويبصر، وهو أفضل من هذه الأصنام، فدعا إلى عبادة نفسه.

ولما أخذ إبراهيم عليه السلام يدعو إلى توحيد الله، وقام بتكسير الأصنام التي تُعبد من دون الله تعالى، أمر به النمرود بعد أن حاجَّه في الله، ثم سجنه، فأوقدت له النيران، وأُلْقِيَ فيها، وكانت عليه بردًا وسلامًا، وقيل: إن المُحَاجَّةَ كانت بعد إلقائه في النار.

فقد شاعَ أمرُ إبراهيم عليه السلام في الناس وذاع صيته، فأرسل إليه الملكُ الطاغيةُ يدعوه ويحاوِّره ويجادلُه في أمر الله تعالى، قال النمرود لإبراهيم بعد أن أَوْفَقَهُ بين يديه: ما هذه الفتنة التي أيقظتها؟! وما هذه النار التي أشعلتها؟! أتعرف لك ربًّا غيري؟ وطلب من

(١) ابن أبي حاتم (١٠٠٩/٣) والطبري (٥٧١/٤).

إبراهيم دليلاً على وجود الرب الذي يدعو إليه .

وهكذا: أخذ النمرود يجادل إبراهيم في أمور لا تقبل الشك، وما حمله على ذلك إلا (أن آتاه الله الملك) فطغى وبغى وتجبر، وحاج إبراهيم في ربوبية الله، وزعم أنه يفعل كما يفعل الله؛ فكان هذا الحوار:

قال إبراهيم ﷺ في ثباتٍ و يقينٍ: ﴿رَبِّىَ الَّذِى يُحْيِى وَيُمِيتُ﴾ أتى إبراهيم ﷺ في ردّه على النمرود بصفة من صفاتِ الله ﷻ ليست في مقدور البشر مطلقاً وتحذّاه بها، لأنهما أعظم التدابير، والإحياء مبدأ الحياة الدنيا، والإماتة مبدأ الدار الآخرة، فالله وَحْدَهُ هو الذى يَمْنَحُ الحياة وينشئها من العدم، وهو الذى يَسْلُبُ الحياة من ذوات الأرواح ويُمِيتهم، ثم كيف توجد الرُّوح في الإنسان وغيره، وكيف تُسَلَبُ منه؟ والروح من أمر الله سبحانه، ولم يَصِلِ الطبُّ الحديثُ إلى إدراك حقيقة الروح بعدُ، ونَفَخُ الروح في الأحياء صِفَةٌ لا يُشْرِكُ فيها مع الله تعالى غَيْرُهُ، ولا يُمكن أن يدّعيها أحدٌ من الخليفة، كما أنه لم يدّع أحدٌ على وجه الحقيقة أنه خلق شيئاً أو أَمَات شيئاً، فقول إبراهيم: ﴿رَبِّىَ الَّذِى يُحْيِى وَيُمِيتُ﴾ جوابٌ للسؤال محذوفٌ من السياق.

قال النمرود في مُغالطةٍ مكشوفة، ودَعَوَى مَقْضُوحَةٍ مدّعيًا أنه يفعل كفعل الله ويصنع صنعه: أنا أُحيي وأميت، قال إبراهيم: كيف؟! فدعا النمرود رجلين من قومه، وأصدر أمرًا بإعدام أحدهما، وأمرًا بالعفو عن الآخر، وقال: هأنذا أُحيي وأميت.

وقيل: إنه استَدْعَى أربعةً من الناس؛ فحبس اثنين ومنع عنهما الطعام والشراب حتى ماتا، وأَبْقَى اثنين يأكلان ويشربان، وقال: هأنذا أُحيي وأميت^(١).

ومعلومٌ أن هذه ليست هي الإماتة ولا الإحياء الذى يُعرف عند الناس، ولا في قوانين الطب، ولا التى يَعْنِيها إبراهيم، فالله سبحانه هو الذى يُوجِدُ الحياة ابتداءً، وهو الذى ينشئها من العدم، وهو سبحانه الذى يَسْلُبُها مِمَّنْ يريدُ.

انتقل إبراهيم ﷺ بعد أن سَمِعَ هذه المغالطة الكاذبة إلى طلبِ دليلٍ آخر حسيٍّ مادّيٍّ، ليس بإمكان النمرود أن يغالط فيه، كان باستطاعة إبراهيم أن يقول له: ليس هذا إحياء ولا

(١) يُنظَر: الطبري (٤/٥٧٥) وابن أبي حاتم (٢٦٣٦).

إماته، ولكنه ترك باب الجدل والحوار؛ لعدم جدواه، وانتقل إلى حُجَّةٍ أخرى.

قال له: إن هذا الكون يسير وَفَقَ نظام معيَّن دقيق، وقد خلق الله ﷻ هذه الشمس، وسخَّرَها وجعلها تُشرق كلَّ يوم من المشرق، فإن كنت إلهًا كما تدَّعي فأَتِ بها من المغرب؟ وقد صرف الله النمرود عن هذه المعارضة؛ معجزةً لإبراهيم، وإظهارًا للحُجة عليه، فدهش النمرود وبُهِت وتَحَيَّرَ، فانقطعت حجته وسقطت شبهته.

ومعنى الآية: هل علمت -أيها الرسول- أعجب من حال الذي جادل إبراهيم ﷺ في توحيد الله وربوبيته؛ لأن الله أعطاه المُلْك، فطَعَى وتَجَبَّرَ، وسأل إبراهيم: مَنْ ربك؟ فقال: ربي المتفرد بالإحياء والإماته، يَمْنَحُ الحياة مَنْ يشاء، وَيَسْلُبُهَا مَنْ يشاء، قال: فأني أفعل ذلك، فأقتل مَنْ أردتُ، وأستقي مَنْ أردتُ، قال إبراهيم: الله الذي أعبدته يأتي بالشمس من المشرق، فهل تستطيع تغيير هذه السُنَّة، فتأتي بها من المغرب؟ فتَحَيَّرَ الكافرُ، وانقطعت حُجته، شأنه شأن الجاحدين، لا يهديهم الله للحقِّ والصواب.

وقيل: إن الله تعالى عاقب النمرود؛ فبعث عليه بعوضةً دَخَلَتْ في مَنْخَرِهِ، فمكثت في رأسه مدة تساوي المدة التي كان فيها ملكًا، وهي أربع مئة عام، تُضْرِبُ رأسه فيها بالمطارق حتى أماته الله^(١).

والله لا يهدي القوم الظالمين، بل يبقِيهم على كفرهم وضلالهم، ومنهم نمرود؛ لأنه غيرُ مستعدٍّ لِقَبُولِ الهِدَايَةِ والحَقِّ والصَّواب، وهو الذي اختار طريق الضلال والغواية، وفي هذه الآية برهان قاطع على تفرد الرب بالخلق والتدبير، ويلزم منه أن ينفرد سبحانه بالعبادة والإنابة والتوكل عليه في جميع الأحوال.

قِصَّةُ الَّذِي مَرَّ عَلَى قَرْيَةٍ

٢٥٩- ﴿أَوْ كَالَّذِي مَرَّ عَلَى قَرْيَةٍ وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا قَالَ أَنَّى يُحْيِي هَذِهِ اللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا فَأَمَاتَهُ اللَّهُ مِائَةً^(٢) عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُ قَالَ كَمْ لَبِثْتَ قَالَ لَبِثْتُ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ قَالَ بَلْ لَبِثْتَ مِائَةً

(١) يُنْظَرُ الْأَثَرُ (٥٨٧٥) فِي «تفسير الطبري»، وانظر في القصة عبد الرزاق (١/ ١٠٥) وابن أبي حاتم (٢٦٣٨).

(٢) قرأ أبو جعفر بإبدال حمزة (مائة) ياء خالصة وصلًا ووقفًا، ومثله حمزة عند الوقف، وقرأ الباقون بالهمز.

عَامٍ فَأَنْظِرْ إِلَى طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمْ يَتَسَنَّهٗ^(١) وَأَنْظِرْ إِلَى حِمَارِكَ^(٢) وَلِنَجْعَلَكَ آيَةً^(٣) لِلنَّاسِ وَأَنْظِرْ إِلَى الْوُطَاةِ كَيْفَ نُشْرُهَا^(٤) ثُمَّ نَكْسُوهَا لَحْمًا فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ قَالَ أَعْلَمُ^(٥) أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٥٩﴾

هذا المثل يتضمن الردَّ على مُنكري البعث، وعلى انفراد الله تعالى بالخلق والتدبير والإماتة والإحياء، والبعث هو الركن الخامس من أركان الإيمان، وذلك بعد تقرير أصل الإسلام في المثل السابق؛ وهو توحيد الله تعالى، فقد ساق سبحانه دليلاً مادياً حسيّاً لمنكري البعث على قدرة الله تعالى على إحياء الخلق بعد موتهم، فالله ﷻ خَلَقَ الْخَلْقَ من العدم، وهو جَلَّ شَأْنُهُ قَادِرٌ على إعادة الحياة إليهم مرةً ثانية بالبعث والحساب والجزاء، وفي هذه الآية والتي بعدها يضرب الله تعالى لنا مثالين من الواقع على قدرته سبحانه على البعث بعد الموت، وهما عطفٌ على معنى الإحياء والإماتة في مُحَاجَّةِ إبراهيم للنمرود.

والآية تشير إلى أن شخصاً ما قد مرَّ على قرية خربة، فاستبعد أو استعظم إحياءها بعد تدميرها، فأماته الله مئة عام، ثم أحياه وسأله عن مدة موته، فقال: يوماً أو بعض يوم، فلفَّت الله نظره إلى حماره كيف تمزق لحمه وانتشرت عظامه، وإلى طعامه لم يتغير طعمه، ليستدل بذلك على قدرة الله تعالى وبعثه للأموات من قبورهم، وليكون هذا دليلاً حسيّاً ملموساً لمن أنكر البعث والنشور:

١- قال وهب في الذي مرَّ على قرية: هو الخضر.

٢- وفي أشهر أقوال المفسرين أنه (عُزَيْرٌ) نبيٌّ من أنبياء بني إسرائيل، آتاه الله العمل بالتوراة.

(١) قرأ حمزة والكسائي ويعقوب وخلف العاشر بحذف هاء (يتسنه) وصلًا، على أنها للسكت، وأثبتوها وقفًا وهاء السكت من خواص الوقف، وقرأ الباقر بإثباتها في الحالين، ومعهم حمزة والكسائي ويعقوب وخلف وقفًا.

(٢) أما ألف (حمارك) أبو عمرو وابن ذكوان بخلفه، والدوري عن الكسائي، وقلَّها الأزرق.

(٣) قرأ نافع وابن كثير وأبو عمرو وأبو جعفر ويعقوب (كيف ننشرها) بالراء من نشر الموتى، وقرأ غيرهم بالزاي من النشر؛ وهو الارتفاع.

(٤) قرأ حمزة والكسائي (اعلم) فعل أمر مجزوم، وقرأ الباقر (أعلم) فعل مضارع مرفوع.

عن علي بن أبي طالب عليه السلام قال: خرج عَزِيزُ نبي الله من مدينته وهو شاب، فمر على قرية خربة، وهي خاوية على عروشها، فقال: ﴿أَنْ يُّحْيِيَ هَذِهِ اللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا؟﴾! ﴿فَأَمَاتَهُ اللَّهُ مِائَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُ﴾ فأول ما خلق منه عيناه، فجعل ينظر إلى عظامه يَنْضُمُ بعضها إلى بعض، ثم كَسَيْتَ لَحْمًا، ثم نُفَخَ فيه الروح، فقليل له: ﴿كَمْ لَيْتُ؟﴾ قال: ﴿لَيْتُ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ﴾ قال: ﴿بَلْ لَيْتُكَ مِائَةَ عَامٍ﴾ فأتى مدينته، وقد ترك جَارًا له إسكافًا شابًا، فجاء وهو شيخ كبير ^(١).

وقال السُّدي: مرَّ عَزِيزٌ في قُدمه من الشام على حِمَارٍ، له معه وعصير وعِنَبٌ وتين، ولما مرَّ بالقرية فرآها، وقف عليها وقلب يده وقال: كيف يُحْيِي الله هذه القرية بعد موتها؟ فأَمَاتَهُ الله وأَمَاتَ حِمَارَهُ فهِلَكَ، ومرَّ عليهما مئة سنة، ثم إن الله أحى عزيرًا، فقال له: ﴿كَمْ لَيْتُ قَالَ لَيْتُ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ﴾! قيل له: ﴿بَلْ لَيْتُكَ مِائَةَ عَامٍ فَانْظُرْ إِلَى طَعَامِكَ﴾ من التين والعنب ﴿وَشَرَابِكَ﴾ من العصير ﴿لَمْ يَتَسَنَّ﴾ ^(٢) لم يتغير.

٣- وقال وهب بن منبه: إن إرميا لَمَّا خَرَّبَ بيت المقدس، وحُرِّقَت الكتب، وقف في ناحية من الجبل فقال: ﴿أَنْ يُّحْيِيَ هَذِهِ اللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا؟﴾! فأَمَاتَهُ الله مئة عام ثم بَعَثَهُ. وقد عَمَرَتْ على حالها الأول، فجعل يَنْظُرُ إلى العظام كيف يَلْتَمِمْ بعضها إلى بعض، ثم نظر إلى العظام كيف تُكْسَى عَصَبًا وَلَحْمًا، فلما تَبَيَّنَ له ﴿قَالَ أَعْلَمُ أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ ^(٣).

والقرية: هي بيت المقدس على الأرجح، وقيل: هي قرية الذين خرجوا من ديارهم وهم ألوف حذر الموت، والأول أصح، وكان بختنصر قد دخل بيت المقدس، وسلَّطَهُ الله على اليهود؛ بسبب معاصيهم، فخرج إليهم في ست مئة ألف، ونزل بهم، وقتل بني إسرائيل حتى أفناهم، وخرَّبَ بيت المقدس؛ فأصبحت لا إنسَ فيها، ولا حيوان، ولا شجر، ولا نبات، ولا ماء، خاوية على عروشها، ولا يوجد فيها حياة.

وكان عَزِيزٌ، من سَبَايا بني إسرائيل، فلَمَّا نَجَا مِنْ قَتْلِ النمرود؛ ارتحل على حِمَارٍ له، ومرَّ بالقرية فنظر إليها مستعظمًا قدرة الله سبحانه ﴿قَالَ أَنْ يُّحْيِيَ هَذِهِ اللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا؟﴾!

(١) ابن أبي حاتم (٢٦٥٨) والحاكم (٢/٢٨٢).

(٢) يُنْظَرُ الأثر (٥٩١٣) في «تفسير الطبري».

(٣) عبد الرزاق (٩٩/١) والطبري (٥٨٠/٤) وابن أبي حاتم (٢٦٥٣، ٢٦٦١) وأبو الشيخ في العظمة (٢٤٢).

والمراد من إحيائها: عمارتها بعد خرابها؛ أي: كيف يحيي الله موتى هذه القرية؟

ولما قال ذلك جعله الله مثلاً ودليلاً مادياً محسوساً للبشر إلى يوم القيامة على إمكانية البعث بعد الموت ﴿فَأَمَاتَهُ اللَّهُ مِائَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُ﴾ ومعه حماره، وطعامه وشرابه، قيل: إنه كان عصيراً وعنباً وتيناً، كما سبق، ومن شأن هذه الفاكهة أن تفسد سريعاً في وقتٍ سريع، ومن شأن الحمار أن يعيش مدة أطول.

أمات الله عُزَيْرًا ثم بعثه بعد مئة عام، وكان الله قد أعاد عِمارة بيت المقدس خلال سبعين عاماً بعد موت عزيز، ودبَّت الحياة فيها في ثلاثين عاماً، كما أن الله تعالى قد أهلك بختنصر خلال هذه المدة، وردَّ بني إسرائيل إلى بيت المقدس، ثم أَيْقَظَ الله سبحانه عُزَيْرًا وسأله: ﴿قَالَ كَمْ لَبِثْتُ﴾ في نومتك هذه؟ ﴿قَالَ لَبِثْتُ يَوْمًا﴾ ثم نظر إلى الشمس، وكان الله سبحانه قد أماته في أول النهار وقت الضحى، وأحياه في آخر النهار قبل أن تغرب الشمس، فنظر إلى الشمس فوجدها لم تغرب بعد، قال: ﴿لَبِثْتُ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ﴾^(١).

وهكذا الناس يوم القيامة حين يحييهم الله سبحانه، ويبعثهم من القبور ينظرون إلى الدنيا وراءهم كأنها ساعة من نهار ﴿كَأَنَّهُمْ يَوْمَ رَوَّهَا لَوْ يَلْبَثُونَ إِلَّا عَشِيَّةً أَوْ ضُحًى﴾ [النازعات: ٤٦].

وهكذا يظن الناس حين يخرجون من قبورهم أنهم ما مكثوا فيها أو في الدنيا كلها إلا يوماً أو بعض يوم ﴿كَأَنَّهُمْ يَوْمَ رَوَّاهُ مَا يُوعَدُونَ لَوْ يَلْبَثُونَ إِلَّا سَاعَةً مِّنْ نَّهَارٍ﴾ [الأحقاف: ٣٥].

ثم بيَّن سبحانه مدة موت عُزَيْرٍ ﴿قَالَ بَلْ لَبِثْتُ مِائَةَ عَامٍ﴾ وهذا هو الدليل ماثل بين يديك ﴿فَانْظُرْ إِلَى طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمْ يَتَسَنَّهْ﴾ أي: انظر إلى طعامك الذي كان معك من الفاكهة والعصير والعنب والتين، فهو طازج على حالته لم يتغير، ومن شأنه أن يفسد خلال وقتٍ وجيز، ولكن الله سبحانه أبقاه هذه المدة على هيئته وطعمه وشكله مئة عام لم يتغير، وكأن العصير قد عُصِرَ من فورهِ، وكأن العنب والتين قد قُطِفَا من فورهما.

﴿وَانْظُرْ إِلَى حِمَارِكَ﴾ الذي كنت تركبه، ومن شأنه أن يبقى مدة أطول من بقاء الطعام، أخذ عُزَيْرٌ يَنْظُرُ إلى الحمار، وقد تقطعت أوصاله، وتفرقت عظامه، وأرسل الله سبحانه ريحاً أمرها أن تَجْمَعَ عظام هذا الحمار، وأن ينضم بعضها لبعض، وأن تدبَّ فيه العروق

(١) يُنْظَرُ: «تفسير سعيد بن منصور» (٤٣٤).

والأعصاب، وقال له: انظر إلى عظام الحمار، كيف يُكسى العظم باللحم والجلد، وعزير يتأمل قدرة الله سبحانه في إعادة الحياة إلى الحمار.

قال سبحانه له: ﴿وَلَنَجْعَلَ لِّلنَّاسِ ءَايَةً﴾ أي: آية دالة على البعث، وعلى أن القادر على ذلك قادرٌ على إحياء الناس بعد مماتهم ﴿وَنَنْظُرُ إِلَىٰ الْعِظَامِ كَيْفَ نُنْشِزُهَا ثُمَّ نَكْسُوهَا لَحْمًا﴾.

قيل: إن الله تعالى أوّل ما أحيا منه عَيْنِيهِ، فجعل ينظر إلى جسده الميت، والحياة تدب فيه عضوًا تلو الآخر.

وقيل: إن عزيرًا كان قد ترك أمّه، وهي بنت عشرين سنة، فلمّا أحياه الله بعد مئة عام، وجَدّها عجوزًا عمياء، بلغت مئة وعشرين عامًا، قالوا: وكان عزيرٌ مجابّ الدَّعْوَةِ، فدعا ربّه ومسح على عينيها فأبصرت، وانطلقت إلى بني إسرائيل فأخبرتهم بقصته، فقال ابن عزير: كان لأبي، شامةٌ سوداءٌ مثل الهلال بين كتفيه، فكشف عن كتفه فرآها، وعرف أنه أبوه.

قال المفسرون: إنه كان عند موته شابًا، وكان له أولاد قد شابوا وهَرَمُوا، فعرفوه وعَرَفَهُمْ.

وكان بختنصر قد أحرق التوراة؛ فبكى عزيرٌ، فعلمّه الله إيّاها، وبعثه إلى بني إسرائيل مجدّدًا دعوة موسى، فقال اليهود: إنه ابن الله؛ لأنه جعل التوراة في صدره بعدما ذهب، كما حكى الله سبحانه ذلك في قوله: ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ عُزَيْرٌ ابْنُ اللَّهِ﴾ [التوبة: ٣٠]

قال عزيرٌ بعد أن رأى بأمّ رأسه بعث الله له: الآن أعلم علمَ اليقين أن الله سبحانه قادرٌ على كل شيء ﴿فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ قَالَ أَعْلَمُ أَنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾.

وفي الآية أمرٌ من الله سبحانه بوجوب عِلْمِهِ بالبعث بعد الموت، بعد أن ثبت ذلك عنده وشاهده بعينه.

والقول بأن صاحب القصة عزيرٌ هو الأرجح والأشهر، وقال مُجاهد: إنه رجلٌ كافرٌ شكّ في البعث، وهو قول ضعيف، وقيل: هو حزقيل بن بورا، وقال وهب بن منبه: هو الخضر، أو إرميا.

وفي الآية دليلٌ على نبوّة محمدٍ ﷺ؛ لأنه أخبر اليهود بما في كتبهم، وهو أمي.

وَمُجْمَلُ معنى الآية: هل علمت - أيها الرسول - خبر الذي مرَّ على قرية قد تهَدَّمت، وخَوَّتْ على عروشها، فقال: كيف يحيي الله هذه القرية بعد موتها؟ فأَمَاتَه الله مئة عام ثم رَدَّ عليه روحه، وَبَعَثَ إِلَيْهِ مَنْ يسأله: كم بقيتَ ميتًا؟ قال: يومًا أو أقل، فأخبره بأنه بَقِيَ ميتًا مئة عام، وأمره أن ينظر كيف حفظ الله طعامه وشرابه من التغيُّر هذه المدة الطويلة، وينظر إلى حِمَارِهِ كيف أَحْيَاهُ الله بعد أن كان عظامًا متفرقة، فَعَلْنَا ذلك لنجعلك آيَةً دَالَّةً على قدرة الله على البعث بعد الموت، وأمره أن ينظر إلى العظام كيف يجمعها ربُّ العالمين ويصل بعضها ببعض، ثم يكسوها لحمًا بعد أن تلتئم، ثم يُعيد فيها الحياة، فلَمَّا اتَّضَحَ له ذلك، وأنه صار آيَةً للناس قال: إن الله على كل شيء قدير.

الْمَثَلُ الثَّالِثُ: مُشَاهَدَةُ كَيْفِيَّةِ إِحْيَاءِ الْمَوْتَى

٢٦٠- ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ أَرِنِي^(١) كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَى قَالَ أُولِمُ تَأْمِنُ قَالَ بَلَى وَلَئِنْ لِيُظْمِنَنَّ قَلْبِي قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِنَ الطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ^(٢) إِلَيْكَ ثُمَّ أَجْعَلْ عَلَى كُلِّ جَبَلٍ مِّنْهُنَّ جُزْءًا^(٣) ثُمَّ ادْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا وَاعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٦١﴾

هذا هو الدليل الآخر الماديُّ على البعث؛ وذلك أنه لما قال إبراهيم للنمرود: ﴿رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَى﴾ قال النمرود لإبراهيم: هل عاينت ذلك؟ هل شاهدت ذلك؟ عندئذٍ طلب إبراهيم من ربه أن يُريَهُ إحياء الموتى رأي العين؛ ليستدل بذلك على كيفية البعث؛ فيقيم الحُجَّةَ على قومه، ويزداد يقينه.

سأل إبراهيم ربه أن يطلعه على كيفية إحياء الموتى ببصره، بعد أن أخبره سبحانه

(١) قرأ ابن كثير ويعقوب وأبو عمرو بخلف عنه بسكون الراء من (أُرْنِي)، والوجه الثاني هو اختلاس كسرة الراء، وقرأ الباقر بالكسر الخالص.

(٢) قرأ حمزة وأبو جعفر ورويس وخلف العاشر (فَصْرَهُنَّ) بكسر الصاد، وَضَمَّهَا الباقر، وهما بمعنى القطع والميلن وقف عليها يعقوب بهاء السكت.

(٣) قرأ شعبة (جُزْءًا) بضم الزاي، وهو لغة الحجازيين، وقرأ أبو جعفر (جُزْأًا) بتنوين الزاي وتشديدها، وقرأ الباقر (جُزْءًا) بسكون الزاي، وهو لغة تميم وأسد، وقرأ بالسكت على الهمز بخلف عنهم: ابن ذكوان وحفص وإدريس وحمزة، ووقف حمزة بنقل حركة الزاي إلى ما قبلها مع حذف الهمزة وإبدال التنوين ألفًا.

بذلك، ليزداد يقينه بالمشاهدة فأمره الله أن يأخذ أربعة من الطير، يذبحها ويقطعها ويخلطها، ويضع على كل جبل من الجبال المحيطة به جزءاً منها، ثم يدعوها، فستقبل عليه في سرعة الطيران، وينضم أجزاءها وتحيا بعد تمزيقها وتقطيعها، وقد حصل لإبراهيم ما أراد.

جاء عن ابن عباس رضي الله عنه أن إبراهيم عليه السلام مرَّ برجلٍ ميّتٍ على ساحل البحر الميت، زعموا أنه حبشي، فرأى دوابَّ البحر وسبَّاعَ الأرض والطير، تأكلُ منه، فقال: يا رب، تموت هذه الدواب والسباع والطيور فتبلى ثم تحيىها، فأرني كيف تحيي الموتى؟ فأمره الله أن يأخذ أربعة من الطير هي: وَزَّةٌ، وَفَرْخُ نَعَامٍ، وديك، وطاوس، فقطّعها وجزّأها ووضعها على أربعة جبال، ووضع رؤوسهم تحت قدميه، فدعا باسم الله الأعظم فأقبل كلُّ جزءٍ، وكل ريش إلى طائره، وعادت كما كانت^(١).

وإبراهيم خليل الرحمن نبيّ مرسلّ أبو الأنبياء، يؤمنُ بهذا تمام الإيمان، فهو يعلم ذلك علمَ اليقين، ولكنّه يريد التّرقّي من علم اليقين إلى عين اليقين؛ لأن محاورات الملّك الطاغية جعلته يطلب المزيد من اليقين؛ ليدكر له ما رآه بعينه، وليطّلع الخلق على كيفية إحياء الله سبحانه للموتى.

في صحيح البخاري وغيره عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «نحن أحق بالشك من إبراهيم، إذ قال: ﴿رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَى قَالَ أُولَئِمُتُؤْمِنُ قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قُلُوبُكَ﴾»^(٢).

ففي الحديث نفى الشك عن إبراهيم، ومعناه كما قال الخطابي: إذا لم أكن أشك في قدرة الله على إحياء الموتى، فإبراهيم أولى بالأشك، قال ذلك على سبيل التواضع وهضم النفس، كما قال ﷺ في حديث أبي هريرة رضي الله عنه: «لو لبثت في السجن ما لبث

(١) جاء هذا المعنى عند ابن أبي حاتم (٢٦٨٧، ٢٧٢٢).

(٢) البخاري (٤٥٣٧) ومسلم (٣٣٧٢) وابن ماجه (٤٠٢٦) والبيهقي في «الأسماء والصفات» (١٠٧١) وفي المسند (٨٣٢٨) بإسناد صحيح على شرط الشيخين، (محققوه) وابن ماجه (٤٠٢٦) وابن حبان (٦٢٠٨) وغيرهم.

يوسف لأجبتُ الدّاعي^(١).

فالشك هو التردد بين أمرين، من غير مَزِيَّة لأحدهما على الآخر، وهذا الشك منفي عن خليل الرحمن إبراهيم، على وجه القطع، وكأن النبي ﷺ يقول في الحديث: لو كان الشك يتطرق إلى الأنبياء لكنْتُ أنا أحقُّ به منه، ومن المعلوم أن المشاهدة والعيان يفيد من المعرفة والطمأنينة ما لا يفيد الاستدلال، وقد قدّم النبي ﷺ إبراهيم على نفسه من باب التواضع.

وحين طلب إبراهيم من ربه أن يُريَه كيفية البعث قال ﴿رَبِّ ارْنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَى قَالَ أَيْ قَالَ اللَّهُ عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿أَوَلَمْ تُؤْمِنْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ ﴿بَلَىٰ﴾ نَعَمْ أُوْمِنُ، ولكني أريد أن أزدادَ يَقِيْنًا على يقين، ولأرى ذلك بعيني رأسي.

وقيل: إن إبراهيم قال ذلك لَمَّا رأى جيفة حمار قد أكلها دوابُّ البر والبحر، فتعجب كيف يجمعها الله من بطون السباع بعد تفرقها، فأمره الله سبحانه أن يأخذ أربعة من الطيور، هذه الطيور الأربعة قيل إنها: الطاوس والحمامة والديك والغراب، أمره الله سبحانه أن يأخذها ويذبحها ويقطعها قطعاً، وأن ينثر ريشها، ويخلط اللحم باللحم، والعظم بالعظم، والدّم بالدم، والريش بالريش، ثم يجعل على كل جبل من الجبال المحيطة به - قيل: إنها أربعة جبال، وقيل: سبعة - جزءاً من هذا اللحم الذي خلطه، بعد أن ذبحه ومزّقه، ويمسك بيده رؤوس هذه الطيور، ثم يدعوها إليه وهي ممزّقة لا رُوح فيها، يدعوها دعاء تكوين لا دعاء عبادة، كما قال تعالى للذين مسخهم الله قردة: ﴿كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ﴾ [البقرة: ٦٥].

﴿قَالَ فَخَذُّ أَرْبَعَةً مِّنَ الطَّيْرِ فَصَرَّهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ أَجْعَلْ عَلَىٰ كُلِّ جَبَلٍ مِّنْهُنَّ جُزْءًا ثُمَّ ادْعُهُنَّ يَأْتِيَنَّكَ سَعِيًّا﴾ أي: خذ أربعة من الطير فاجمعهنَّ إليك، واذبحهن، وقطّعهن، ثم اجعل على كلِّ جبلٍ من هذه الجبال جزءاً بعد ذبحهن، وتقطيعهن، ونثر ريشهن، ثم نادِهْنَّ يَأْتِيَنَّكَ - بإذن الله تعالى - سعيًّا، فناداها إبراهيم، فإذا كل جزء يعود إلى موضعه، وإذا بها تأتي مُسرَّعة

(١) «المسند» (٨٣٢٩، ٨٣٩٢)، حديث صحيح وإسناد حسن كما قال محققوه، وأخرجه ابن حبان (٦٢٠٧) والطبري في تفسيره (٨٧/١٢) والطحاوي في شرح مشكل الآثار (٣٣٠) وقد جمعت هذه الأحاديث بين قصة لوط ويوسف عليهما السلام وانفرد بعضها بذكر ما يتعلق بيوسف عليه السلام.

على أرجلها، وأخذ إبراهيم ينظر إلى العظم وإلى اللحم يتطاير بعضه إلى بعض، لحم الطاوس إلى رأس الطاوس، ولحم الغراب إلى رأس الغراب، ولحم الديك إلى رأسه، ولحم الحمامة إلى رأسها، والريش إلى الريش، وقطرات الدم إلى قطرات الدم، تنضم بعضها إلى بعض، فجعل الله كل طائر ينضم إلى رأسه التي في يد إبراهيم، فإذا قديم إلى غير رأسه يأباه^(١).

والحكمة في سعي الطيور إليه دون الطيران، أنه أبعد للشبهة ﴿وَأَعْلَمَ أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ﴾ لا يغلبه شيء ﴿حَكِيمٌ﴾ في شرعه وقدره وأقواله وأفعاله، وكما بعث الله هذه الطيور يبعث الناس يوم القيامة من مختلف نواحي الأرض^(٢).

الْحُكْمُ الرَّابِعُ وَالثَّلَاثُونَ: مَعَالِمُ الْاِقْتِصَادِ الْإِسْلَامِيِّ

أولاً: مُضَاعَفَةُ أَجْرِ الْمُتَّقِي فِي سَبِيلِ اللَّهِ

٢٦١- ﴿مَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَكْبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلٍ فِي كُلِّ سُبُلَةٍ مِائَةٌ حَبَّةٌ وَاللَّهُ يُضَاعِفُ^(٣) لِمَن يَسَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾

في أواخر سورة البقرة اثنتان وعشرون آية استغرقت أكثر من نصف حزب قبل الآيات الثلاث الأخيرة من السورة، هذه الآيات أرست معالم الاقتصاد الإسلامي وقواعده، والتكافل الاجتماعي بين أفراد الأمة الإسلامية، وبيّن الأمم والشعوب، وبيّنت هذه الآيات أن هذا الاقتصاد يقوم على الصدقة والزكاة، والمعاملات المباحة من بيع وإجازة ونحوها ولا يقوم على الربا الذي يسود العالم.

ولذلك فإن السورة تحدثت في أربعة عشر آية منها عن آداب الإنفاق في سبيل الله ومبطلاته، وهذا يشمل الزكاة المفروضة وصدقة التطوع.

(١) جاء هذا المعنى عن الحسن، وأخرجه ابن المنذر كما في «الدر المنثور» (٢٥/٣) وانظر ابن أبي حاتم (٢٧١٦، ٢٧٢٠) والطبري (٦٤١/٤).

(٢) يُنْظَرُ الْآثَارُ الْوَارِدَةُ فِي ذَلِكَ، وَمِنْهَا «تفسير الطبري» (٦٠١٣، ٦٠٢٧).

(٣) قرأ ابن كثير وابن عامر وأبو جعفر ويعقوب (والله يُضَعِّفُ) مضارع ضَعَّفَ، وقرأ الباقون (بضاعف) مضارع ضاعف.

ويشمل الإنفاق من الأفراد والأمم والجماعات في سبيل إعداد العدة؛ لملاقاة العدو، وفي سبيل نشر الدعوة الإسلامية.

ويشمل أيضًا النفقة على الأهل والآباء والأبناء والأسرة، فهي أفضل نفقة واجبة، كما بيّن ذلك النبي ﷺ.

وقد جاء ذلك في خمس آيات تحدثت عن النفقة قبل هذه الآيات التي نحن بصدددها. وفي ست آيات بعدها لعن الله الربا ومقته، وأعلن حربًا من الله ورسوله على آكله إن لم يتوبوا، وبيّن أن الربا هو الوجه المقابل للصدقة والزكاة والتكافل بين المسلمين. وضمّن هذه الآيات آخر آية نزلت من القرآن الكريم على رسول الله ﷺ، وفيها ربط التقوى بيوم الحساب والثواب والعقاب.

ومن بين آيات الاقتصاد الإسلامي: أحكام الدين، والإشهاد عليه، وكتابته، وأحكام التجارة الحاضرة، وقد تكفّلت (آية المداينة) على طولها ببيان هذه الأحكام، ثم ذكرت الآية الأخيرة: حكم الرهن، وكتمان الشهادة.

يأتي بعد ذلك ثلاث آيات هي آخر السورة نزلت من كنز تحت العرش.

أما آيات النفقة الأربع عشرة في سورة البقرة:

فأولها: بيان أن ترك النفقة في سبيل الله لجهاد العدو، وإزالة العقبات أمام نشر الدعوة؛ يؤدي إلى التهلكة ﴿وَأَنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ﴾ [البقرة: ١٩٥].

فالدولة التي لا تبذل أموالها في التصنيع الحربي بأحدث وسائله، لدفع الصائل ومقاومة المحتل، تُلقِي بنفسها إلى التهلكة.

وثانيها: سؤال عن أفضل مصارف النفقة ﴿يَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنْفِقُونَ﴾ فجاء الجواب: ﴿قُلْ مَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ خَيْرٍ فَلِللَّوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ﴾ [البقرة: ٢١٥].

وثالثها: سؤال عن مقدار النفقة ﴿يَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنْفِقُونَ﴾ فكان الجواب: ﴿قُلِ الْمَعْفُ﴾ [البقرة: ٢١٩] أي: اليسير من المال، وما زاد عن الحاجة، لك وللمن تعول، فأفضل الصدقة ما كان عن ظهر غنى.

ورابعها: بيان أن النفقة بمنزلة القرض، فهي تجارة رابحة مع الله عز وجل، والمقترض هو الغني الذي منحك هذا المال، والله تعالى يضاعف أجرها إلى ما لا نهاية، بمقدار الإخلاص وصدق النية مع الله تعالى ﴿مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَاعِفَهُ لَهُ أَضْعَافًا كَثِيرَةً﴾ [البقرة: ٢٤٥].

وخامسها: الحث على النفقة في وجوه الخير والبر، قبل أن يأتي يوم لا ينفع الإنسان فيه شيء إلا ما قَدَّمَتْ يدها ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَنفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لَا بَيْعٌ فِيهِ وَلَا خُلَّةٌ وَلَا شَفْعَةٌ﴾ [البقرة: ٢٥٤].

حيث ينظر الإنسان عن يمينه وعن شماله ومن أمامه ومن خلفه، فلا يرى إلا ما قدم لنفسه «فاتقوا النار ولو بشق تمرة»

وسادسها: ضرب المثل بالسنبلة ذات الحب الكثير لمضاعفة أجر المنفق في سبيل الله ﴿مَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ﴾ [البقرة: ٢٦١].

وأدنى مراتب هذه المضاعفة الحسنة، بعشر أمثالها إلى سبع مئة ضعف إلى ما لا نهاية.

وسابعها: بيان ثواب المنفق في سبيل الله في الدار الآخرة ﴿الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ لَا يُتْبِعُونَ مَا أَنْفَقُوا مَنًّا وَلَا أَذًى لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [البقرة: ٢٦٢]، وهذه الطمأنينة بعدم الخوف من المستقبل، وعدم الحزن على ما فات، مشروط بعدم إتباع النفقة بالمن والأذى.

وثامنها: تشبيه المنان في نفقته بالمرائي ﴿كَالَّذِي يُنْفِقُ مَالَهُ رِثَاءَ النَّاسِ﴾ [البقرة: ٢٦٤]. وتشبيه المخلص في نفقته بجنة في أرض مرتفعة آتت أكلها ضعفين، والرياء يحبط العمل ويبطله، كالمطر ينزل على حجر أملس فوقه تراب فيغسله.

وتاسعها: الحث على أن تكون النفقة من الكسب الحلال الطيب، ومن أجود المال ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَنفَقُوا مِنْ طَيِّبَاتٍ مَا كَسَبْتُمْ وَمِمَّا أَخْرَجْنَا لَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ﴾ [البقرة: ٢٦٧].

وعاشرها: النفقة تزيد المال وتُثْمِيه ولا تمحقه ﴿الشَّيْطَانُ يَعِدُكُمُ الْفَقْرَ﴾ [البقرة: ٢٦٨].

فالشيطان هو الذي يخوف أولياءه من الفقر ومن عدم تأمين المستقبل - كما يقولون - ومن نقص المال بالإنفاق منه في وجوه الخير.

وحادي عشر: عَلِمُ الله تعالى بصدق الإخلاص في النفقة للإثابة عليها ﴿وَمَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ نَفَقَةٍ أَوْ نَذَرْتُمْ مِنْ نَذْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُهُ﴾ [البقرة: ٢٧٠].

وثاني عشر: الإسرار بالصدقة أفضل من الإعلان ﴿إِنْ تُبْدُوا الصَّدَقَاتِ فَنِعِمَّا هِيَ وَإِنْ تُخْفُوهَا وَتُؤْتُوهَا الْفُقَرَاءَ فَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ﴾ [البقرة: ٢٧١].

وثالث عشر: عدم التخرج من الصدقة على غير المسلم ﴿وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ فَلَأَنْفُسِكُمْ وَمَا تُنْفِقُوا إِلَّا ابْتِغَاءَ وَجْهِ اللَّهِ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تُظْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٢٧٢].

ورابع عشر: الثواب على نفقة السر والعلانية ﴿الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ بِالْإِتْمَانِ وَالْإِنْجَارِ سِرًّا وَعَلَانِيَةً فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ﴾ [البقرة: ٢٧٤].

سَبَبُ النُّزُولِ

١- ذكر بعض المفسرين أن هذه الآية ﴿مَثَلُ الَّذِينَ﴾ والآية التي بعدها، نزلتا في عبد الرحمن بن عوف وعثمان بن عفان، لما حثَّ النبي ﷺ الناس على الصدقة لتجهيز جيش العُسرة؛ فجاء عبد الرحمن، بأربعة آلاف درهم، قال: يا رسول الله، كان عندي ثمانية آلاف درهم، فأمسكتُ منها لنفسِي ولعِيَالِي أربعة آلاف، وأقرضتُ ربي أربعة آلاف، قال ﷺ: «بارك الله لك فيما أمسكتَ وفيما أعطيت»^(١).

٢- وأمَّا عثمانُ فجَهَّزَ المسلمين بألف بغير بأقتابها وأحلاسها، وتصدق ببئر رومة، وقال: عَلَيَّ جَهَازٌ مِنْ لَا جَهَازَ لَهُ فِي غَزْوَةِ تَبُوكَ، وجاء بألف دينار فصبَّها في حِجْرِ النَّبِيِّ ﷺ، قال راوي الحديث عبد الرحمن بن سُمُرَةَ: فرأيتُ النَّبِيَّ ﷺ يُدْخِلُ يده فيها وَيُقَلِّبُهَا ويقول: «مَا ضَرَّ ابْنَ عَفَانَ، مَا عَمِلَ بَعْدَ الْيَوْمِ، اللَّهُمَّ لَا تَنْسَ هَذَا الْيَوْمَ لِعُثْمَانَ»^(٢).

وقال أبو سعيد الخدري: رأيتُ النَّبِيَّ ﷺ رَافِعًا يديه يدعو لعثمان ويقول: «يَا رَبِّ، إِنَّ عُثْمَانَ بْنَ عَفَانَ، رَضِيَتْ عَنْهُ، فَارْضَ عَنْهُ». فما زال رافعًا يده حتى طلع الفجر؛ فأُنْزِلَ

(١) ابن أبي عاصم في السنة، وكنز العمال، المجلد الثالث عشر تمة حصر وقتل عثمان ﷺ، والجامع الصغير (٣٦٣٣٥) مسند عثمان.

(٢) «المسند» (٢٠٦٣٠)، بإسناد حسن، وأخرجه الترمذي (٣٧٠١) وابن أبي عاصم في السنة (١٢٧٩) والبيهقي في الدلائل (٢١٥/٥).

الله الآية التالية: ﴿الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾^(١).

٣- أما أبو بكر رضي الله عنه فقد جاء بكل ما عنده ولم يُبق شيئاً، فسأله النبي ﷺ: «ماذا أبقيت لأولادك؟» قال: أبقيت لهم الله ورسوله، ولي عند الله مزيد.

٤- أما عمر فجاء بنصف ماله، فسأله النبي ﷺ: «ماذا أبقيت لأولادك؟» قال: أبقيت لهم نصف مالي، ولله عندي مزيد^(٢).

ولا عجب أن تكون هاتين الآيتين نزلتا فيما ذكر، مع أن غزوة تبوك كانت في السنة التاسعة من الهجرة لأن سورة البقرة ابتدأ نزولها في أول الهجرة، وظلّت مفتوحة مدة عشر سنوات حتى نزل فيها آخر آية من القرآن، ولا يمنع أن تكون هذه المواقف من هؤلاء الصحابة رضوان الله عليهم تدخل ضمن معاني هذه الآيات، فهي تشملهم وتشمل أمثالهم إلى قيام الساعة.

بدأ الله ﷻ الحديث عن النفقة في هذه الآيات الأربع عشرة المتوالية، ببيان مضاعفة أجر الذي ينفق ماله في سبيل الله، سواء أنفق على عياله وأهله، أو أنفق في الجهاد في سبيل الله، فرداً أو جماعات أو أمماً، أو أنفق على الفقراء والمحتاجين على وجه الوجوب في الزكاة المفروضة، أو على وجه التطوع في وجوه الخير وأعمال البر والإحسان.

والإسلام لا يقيم حياة أبنائه على سؤال الناس والتكفف، وإنما يوجب عليهم العمل والكد والسعي على المعاش، ويُعدُّ ذلك ضرباً من الجهاد في سبيل الله، فقد جاء السعي على طلب الرزق في آية [سورة المزمل: ٢٠] إلى جوار المجاهدين في سبيل الله في قوله تعالى: ﴿وَأَخْرُونَ يَصْرِبُونَ فِي الْأَرْضِ يَلْبَغُونَ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ وَأَخْرُونَ يَقُولُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾

وعلى المسلم أن يأخذ بالأسباب ويطرقها في سبيل العمل وتحصيل العيش.

في صحيح البخاري عن الزبير رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «لأن يأخذ أحدكم حبله، ثم يأتي الجبل، فيأتي بحزمة من الحطب على ظهره، فيبيعها، فيكف الله بها وجهه، خير له من

(١) يُنظر: «تفسير القرطبي» (٣/٣٠٦) و«أسباب النزول» للواحيدي ص ٧٣ وغيرهما.

(٢) من كتاب «الصدق» لأبي سعيد الخراز، وانظر تخريجه في الآية (٢٧١).

أَنْ يَسْأَلَ النَّاسَ أَعْطَوْهُ أَوْ مَنَعُوهُ»^(١).

وهناك استثناءات لقوم لا يستطيعون الضرب في الأرض سعيًا على المعاش مثل: المريض والعاجز والكبير والمعاق، هؤلاء ماذا يفعلون؟ هل يتدائنون؟ أو يأكلون بالربا الفاحش؟ كلاً، لقد فتح الإسلام لهم أبواب الزكاة والصدقة، وضاعف الأجر للمنفقين في سبيل الله، فجعل أجر الدرهم الواحد ﴿كَمَثَلِ حَبَّةِ أَلْبَنَّتْ سَبْعَ سَنَائِلَ فِي كُلِّ سُبُلَةٍ مِائَةُ حَبَّةٍ﴾ أي: أن الحسنة تضاعف بعشر أمثالها، ويتضاعف ذلك إلى مئة حسنة، وإلى سبع مئة، وإلى ما هو فوق ذلك أضعافاً مضاعفة، حسب حال المتصدق والمتصدق عليه، فَمَثَلُ المؤمن الذي ينفق ماله في سبيل الله كمَثَلِ حَبَّةِ زُرْعَتْ فِي أَرْضٍ طَيِّبَةٍ، فَأُخْرِجَتْ سَاقًا لَهَا سَبْعُ شُعَبٍ، فِي كُلِّ شُعْبَةٍ سَنَبْلَةٌ، وَفِي كُلِّ سَنَبْلَةٍ مِائَةُ حَبَّةٍ ﴿وَاللَّهُ يُضَاعِفُ لِمَنْ يَشَاءُ﴾ وهذه المضاعفة بحسب درجة الإخلاص، وفضل الله واسع، وهو سبحانه مطلع على النيات.

فليس مَنْ يَتَصَدَّقُ أَوْ يُخْرِجُ زَكَاتَهُ كُرْهًا وَرِيَاءً، كَمَنْ يُخْرِجُهَا طَوَاعِيَةً عَنْ طَيِّبِ خَاطِرٍ.

وليس مَنْ يَخْرِجُهَا ضَنْئًا بِالْمَالِ وَحِرْصًا وَخَوْفًا عَلَيْهِ، كَمَنْ يَعْتَقِدُ أَنَّ مَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَى، وَلَا يَسْتَوِي مَنْ يُخْرِجُ صَدَقَتَهُ أَوْ زَكَاتَهُ فِي حَالِ صِحَّتِهِ، بِمَنْ يَخْرِجُهَا فِي حَالِ مَرَضِهِ، وَدُنُو أَجَلِهِ.

وَلَا يَسْتَوِي مَنْ يَخْرِجُهَا وَهُوَ يَحْتَاجُ إِلَيْهَا بِمَنْ هُوَ فِي غِنًى عَنْهَا.

وَلَا يَسْتَوِي مَنْ يَخْرِجُهَا بِإِخْلَاصٍ يَتَغَيُّ بِهَا وَجْهَ اللَّهِ سُبْحَانَهُ، بِمَنْ يَخْرِجُهَا خِجَلًا أَوْ حِيَاءً مِنَ النَّاسِ.

فَالْأَحْوَالُ تَخْتَلِفُ، وَتَخْتَلِفُ تَبَعًا لَهَا مِضَاعَفَةُ أَجْرِ الصَّدَقَةِ أَوْ الزَّكَاةِ، بِاخْتِلَافِ دَرَجَةِ الْإِخْلَاصِ، وَنِيَةِ الْمُتَصَدِّقِ، وَحَالِ الْمُتَصَدِّقِ عَلَيْهِ، وَلِنُضْرَبِ عَلَى ذَلِكَ مَثَلًا: شَخْصٌ يَتَصَدَّقُ بِعَشْرَةِ قُرُوشٍ، وَآخَرُ يَتَصَدَّقُ بِمِثْلِهَا، وَثَالِثٌ يَتَصَدَّقُ بِمِثْلِهَا، فَيُعْطِي اللَّهُ الْأَوَّلَ عَشْرَ حَسَنَاتٍ، وَالثَّانِي مِائَةَ حَسَنَةٍ، وَالثَّالِثُ سَبْعَ مِائَةِ حَسَنَةٍ، لِمَاذَا؟ وَمَا هُوَ الْفَارِقُ؟ لَقَدْ عَلَّمَ اللَّهُ سُبْحَانَهُ قَدْرَ الْإِخْلَاصِ فِي كُلِّ مِنْهُمْ، وَعَدَمَ الرِّيَاءِ فِي إِخْرَاجِهِ النِّفَقَةِ، وَمَرْتَبَةَ ابْتِغَائِهِ وَجْهَ اللَّهِ سُبْحَانَهُ إِيْمَانًا وَاحْتِسَابًا لَوَجْهِهِ الْكَرِيمِ؛ فَأَعْطَى كُلًّا مِنْهُمْ مَا يَسْتَحِقُّ، وَإِذَا

(١) البخاري برقم (١٤٧١، ٢٠٧٥) وعن أبي هريرة برقم (١٤٧٠، ١٤٨٠) ومسلم (١٠٤٢).

علم طالب الربح أن بذرة واحدة تُخرج له سبع مئة، فمن الحماقة ترك ذلك، وهكذا طالب الأجر الأخروي من باب أولى.

أحاديث في النفقة

١- عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «دينار أنفقته في سبيل الله، ودينار أنفقته في رقة، ودينار تصدقت به على مسكين، ودينار أنفقته على أهلك، أعظمها أجراً الذي أنفقته على أهلك»^(١).

٢- وعن خُرَيْم بن فاتك قال: قال رسول الله ﷺ: «مَنْ أنفق نفقة في سبيل الله؛ كُتِبَ له سبع مئة ضعف»^(٢).

٣- وعن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «من أظل رأس غازٍ، أظله الله يوم القيامة، ومن جهَّز غازياً في سبيل الله، فله مثل أجره، ومن بنى مسجداً لله يُذكر فيه اسم الله؛ بنى له بيتاً في الجنة»^(٣).

٤- وعن نافع عن ابن عمر رضي الله عنهما قال: لما نزلت هذه الآية ﴿مَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ﴾ قال النبي ﷺ: «رَبِّ زِدْ أُمِّي» فأنزل الله ﴿مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا﴾ قال: «رَبِّ زِدْ أُمِّي» قال: فأنزل الله ﴿إِنَّمَا يُوفَّى الصَّادِقُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾^(٤) [الزمر: ١٠].

وهكذا: فإن الذي ينفق بعض ماله في طاعة الله ومرضاته، لا سيما الجهاد في سبيل الله، كمثل حبة واحدة أُلقيت في الأرض فأخرجت سبع مئة حبة، وأكثر من ذلك، فهذا مثل مضاعفة الأجر، كأنه مشاهد بالبصر، فيقوي الإيمان وتزداد الرغبة، وتتقاد النفس إلى

(١) «صحيح مسلم» برقم (٩٩٥).

(٢) «المسند» (١٩٠٣٦) بإسناد حسن، وأخرجه الحاكم (٨٧/٢) والبيهقي في الشعب (٤٢٦٨) والترمذي (١٦٢٥) والنسائي (٣١٨٦) وابن حبان (٤٦٤٧) و«صحيح سنن الترمذي» (١٣٢٦).

(٣) «صحيح ابن حبان» (٤٦٢٨) قال محققه: رجاله ثقات، رجال الصحيح، وأخرجه الحاكم (٨٩/٢) والبيهقي (٣٢٠/١٠) وهو في المسند (١٢٦، ٣٧٦)، حديث صحيح، وأخرجه ابن ماجه (٧٣٥) والبخاري (٣٠٤) وأبو يعلى (٢٥٣) وابن حبان (٤٦٢٨).

(٤) من «تفسير ابن كثير» للآية.

النفقة، مؤملة في هذا الأجر، وبمقدار حال المنفق وإخلاصه، وحاجة المنفق عليه، وحال النفقة من الحلال الطيب، ووقوعها في موقعها بحسب هذه الأحوال، يضاعف الله الأجر والمثوبة إلى ما لا نهاية، والله واسع الفضل والعطاء، عليم بمن يستحق هذه المضاعفة ومن لا يستحقها. قال تعالى:

٢٦٢- ﴿الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ لَا يُتَّبَعُونَ مِمَّا أَنْفَقُوا مَنَّا وَلَا أَدَىٰ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ^(١) وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ^(٢)﴾

ثم بين الله عز وجل أن هذا الأجر مضاعف على وجه الخصوص لمن أنفق ماله في سبيل الله، وضرب النبي ﷺ مثلاً محسوساً لذلك.

١- كما جاء في صحيح مسلم وغيره عن أبي مسعود الأنصاري رضي الله عنه أن رجلاً جاء بناقة مخطومة، فقال: يا رسول الله، هذه في سبيل الله، فقال: «لك بها يوم القيامة سبع مئة ناقة كلها مخطومة»^(٣) وهذه الناقة قدمها الرجل للجهاد في سبيل الله.

٢- وفي صحيح مسلم والمسند وغيرهما عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «كل عمل ابن آدم يضاعف، الحسنة بعشر أمثالها إلى سبع مئة ضعف، إلى ما شاء الله»^(٤).

٣- وفي حديث أبي مسعود البصري رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «إذا أنفق الرجل على أهله نفقة وهو يحتسبها؛ كانت له صدقة»^(٥).

٤- وعن سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «إنك لن تُنفق نفقة تبغى بها وجه الله، إلا أُجرتَ عليها حتى ما تجعل في في امرأتك»^(٦).

-
- (١) قرأ يعقوب (ولا خوف) بفتح الفاء من غير تنوين، وقرأ الباقون بالرفع مع التنوين.
- (٢) قرأ حمزة ويعقوب بضم الهاء وصلًا ووقفًا من (عليهم) وقرأ الباقون بكسرها في الحالين، ووصل ميم الجمع بواو ابن كثير وأبو جعفر وقالون بخلف عنه، وسكنها الباقون ومعهم قالون في وجهه الآخر.
- (٣) «صحيح مسلم» برقم (١٨٩٢) و«سنن النسائي» (٤٩/٦) برقم (٣١٨٧) و«المسند» (١٧٠٩٤) والحاكم (٩٠/٢) والبيهقي (١٧٢/٩).
- (٤) البخاري برقم (٧٥٣٨، ٧٤٩٢) و«صحيح مسلم» برقم (١١٥١) و«المسند» (٣٢٥/٤) برقم (٩٧١٤، ١٠١٧٥).
- (٥) البخاري (٥٣٥١) ومسلم (١٠٠٢) والترمذي (١٩٦٥) والنسائي (٢٥٤٤) وابن أبي شيبة (١٠٧/٩).
- (٦) البخاري (٦٧٣٣) ومسلم (١٦٢٨).

٥- وعن أنس رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «من عال جاريتين حتى تَبْلُغَا؛ دخلتُ أنا وهو الجنة كهاتين»^(١).

٦- وعن عائشة رضي الله عنها قالت: دخلتُ عليَّ امرأةٌ ومعها ابنتان لها تسأل، فلم تجد عندي شيئاً غير تمر واحدة، فأعطيتها إياها، فقسمتها بين ابنتيها ولم تأكل منها، ثم قامت وخرجت، فدخل النبي ﷺ فأخبرته، فقال: «من ابتلي من هذه البنات بشيء فأحسن إليهن؛ كُنَّ له سترًا من النار»^(٢).

٧- وفي حديث جابر وأبي هريرة رضي الله عنهما عن رسول الله ﷺ بإسناد حسن أن: «من كان له ثلاث بنات أو اثنتين أو واحدة فأحسن إليهن وأدبهن وجبت له الجنة وكنَّ له حجاباً من النار»^(٣) وكان مسلماً عاملاً بشرائع الإسلام.

وهكذا بيَّن النبي ﷺ أن للمتصدق أجره المضاعف بمقدار ما علم الله منه صدقه وإخلاصه وطيب نفسه بالصدقة، وحاجة المسكين إليها.

٨- ولما جهز عثمان جيش العُسرة بألف بعير بأقتابها وأحلاسها، وجاء بألف دينار صبَّها في حجر النبي ﷺ فأخذ يقبلها ويقول: «ما ضرَّ عثمان ما عمل بعد اليوم».

وجاء عبد الرحمن بن عوف بأربعة آلاف درهم، فأنزل الله تعالى: ﴿الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ لَا يُتَّبَعُونَ مِمَّا أَنْفَقُوا مِنْهَا وَلَا أَذَى لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ﴾.

أي: الذين يجاهدون العدو بأموالهم، ولا يتبعون هذه النفقة بقول فيه مَنْ، ولا فعل فيه أذى، لهم من الله أجر مضاعف ﴿وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ﴾ من المستقبل يوم القيامة ﴿وَلَا هُمْ يُعْزَلُونَ﴾ على ما فاتهم من الدنيا.

وهكذا فإن الذين ينفقون أموالهم ابتغاء مرضاة الله، ولا يتبعونها بما يفسدها أو يُنقص

(١) مسلم (٢٦٣١) والبخاري في «الأدب المفرد» (٨٩٤) والترمذي (١٩١٤) وابن أبي شيبة (٣٦٤/٨).

(٢) البخاري (٥٩٩٥) ومسلم (٢٦٢٩) والترمذي (١٩١٥).

(٣) يُنظر: «المسند» (١٤٢٤٧) بنحوه، دون (وكن له حجاباً من النار)، وهو حديث صحيح وكذا «صحيح

الأدب المفرد» (٥٦، ٥٨) والبيهقي في «الشعب» (٨٦٧٨) والبخاري في «الكشف» (١٩٠٨)، والطبراني في

الأوسط (٤٧٥٧) وابن أبي شيبة (٥٥٠/٨) وأبو يعلى (٢٢١٠).

أجرها، كالمَنِّ على المنفَق عليه بالقلب أو اللسان، أو إيدائه بقول أو فعل، فهؤلاء لهم أجرهم عند ربهم مضاعفًا، وقد حصل لهم الخير واندفع عنهم الشر، فهم لا يحزنون على ماضٍ، ولا يخافون من مستقبل.

ثانيًا: مُبْطَلَاتُ الصَّدَقَةِ: الْمَنُّ وَالْأَذَى وَالرِّيَاءُ

٢٦٣- ﴿قَوْلٌ مَّعْرُوفٌ وَمَغْفِرَةٌ خَيْرٌ مِّنْ صَدَقَةٍ يَتْبَعُهَا أَذًى وَاللَّهُ عَنِّي حَلِيمٌ﴾.

وإذا شَحَّ الإنسان وضنَّ بإعطاء السائل، فلا ينهره، ولا يقول له كلامًا سيئًا، ولا يقابله بوجه عبوس، وإنما ينبغي عليه أن يرده ردًا جميلًا، وأن يحسن له القول، ويدعو له دعاء صالحًا بأن يُوسِّع الله عليه، ويفك كربته، ويغيث لهفته، ويدعو له بأن يرزقه الله من غيره و نحو ذلك؛ فالكلمة الطيبة صدقة، جاء في الأثر: (ما من صدقة أحب إلى الله من قول معروف)^(١).

ومن لا يملك النفقة في المصلحة العامة، فلا أقل من أن يحمل غيره على الإنفاق بالحث عليها، والترغيب فيها بالكلمة الطيبة، فالحض على النفقة كالنفقة، والدالُّ على الخير كفاعله، وأعمال الخير لا يغني بعضها عن بعض، فالمسلم يفعل ويأمر غيره بالمعروف.

ذلكم قول الله تعالى: ﴿قَوْلٌ مَّعْرُوفٌ﴾ كلام حسن طيب، وردُّ جميل، ودعاء صالح ﴿وَمَغْفِرَةٌ﴾ من الله، وعفو عن إلحاح السائل، وتجاوز عن الإساءة ﴿خَيْرٌ مِّنْ صَدَقَةٍ يَتْبَعُهَا﴾ من المتصدق إساءة ﴿أَذًى وَاللَّهُ عَنِّي﴾ عن صدقات العباد ﴿حَلِيمٌ﴾: لا يعاجلهم بالعقوبة، وقد خُتِمت الآية بصفتي الغنى والحلم بما يناسب المقام.

ويصح أن يكون المعنى: ومغفرة لمن أساء إليك بالعفو عنه وعدم مؤاخذته بما قد يصدر منه من إساءة، خيرٌ من الصدقة التي يلحقها المن والأذى.

ويفهم من الآية أن الصدقة التي لا يتبعها من ولا أذى أفضل من القول المعروف.

(١) ابن أبي حاتم عن عمرو بن دينار يرفعه وهو برقم (٢٧٣٤).

مَثَلُ الْمُرَائِي فِي صَدَقَتِهِ

٢٦٤- ﴿يَتَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تُبْطِلُوا صَدَقَاتِكُمْ بِالْمَنِّ وَالْأَذَى كَالَّذِي يُنْفِقُ مَالَهُ رِثَاءً^(١) النَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ صَفْوَانٍ عَلَيْهِ ثُرَابٌ فَأَصَابَهُ وَابِلٌ فَتَرَكَهُ صَلْدًا لَا يَقْدِرُونَ عَلَى شَيْءٍ مِّمَّا كَسَبُوا وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ ﴿٢٦٤﴾

ثم بيّن ﷺ أن المن والأذى يبطلان أجر الصدقة ويمحوان أجرها ويضيعانه، فقال تعالى: ﴿يَتَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تُبْطِلُوا﴾ ولا تحبطوا أجور ﴿صَدَقَاتِكُمْ بِالْمَنِّ وَالْأَذَى﴾ فلا يكون المن أو الأذى سبباً في إحباط العمل وبطلان الأجر والثواب، فالأعمال السيئة تبطل الأعمال الحسنة، قال تعالى ﴿وَلَا يَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَن تَحْبَطَ أَعْمَالُكُمْ وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ ﴿٢٦٥﴾﴾ [الحجرات] وكما أن الحسنات يذهبن السيئات، فإن السيئات تبطل الحسنات، قال تعالى ﴿يَتَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَلَا تُبْطِلُوا أَعْمَالَكُمْ﴾ [محمد] وهكذا فإن المن والأذى يبطل أجر الصدقة، والرياء يمحوه.

كما جاء في صحيح مسلم وغيره عن أبي ذر رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «ثلاثة لا يكلمهم الله يوم القيامة، ولا ينظر إليهم، ولا يزكّيهم، ولهم عذاب أليم قال: فقرأها رسول الله ﷺ ثلاث مرات، قال أبو ذر: خابوا وخسروا، من هم يا رسول الله؟ قال: «المسبل، والمنان، والمتفق سلعته بالحلف الكاذب»^(٢).

وعن عبد الله بن عمر عن أبيه رضى الله عنه أن النبي ﷺ قال: «ثلاثة لا ينظر الله إليهم يوم القيامة: العاق لوالديه، والمرأة المترجلة، والديوث، وثلاثة لا يدخلون الجنة: العاق لوالديه، ومدمن الخمر، والمنان بما أعطى»^(٣).

(١) قرأ أبو جعفر (رياء) بالياء والباقون بالهمز

(٢) «صحيح مسلم» برقم (١٠٦) (٨٠٧/٢) وهذا لفظه وأخرجه أبو داود (٤٠٨٧، ٤٠٨٨) والترمذي (١٢١١) وابن ماجه (٢٢٠٨) و«المسند» (٢١٣١٨) وابن حبان (٤٩٠٧) والنسائي في «الكبرى» (٢٣٥٥، ١٠٩٤٦).

(٣) «المستدرک» (١٤٦/٤) و«سنن النسائي» (٦٠/٥) والبخاري (١٨٧٥، ١٨٧٦) وابن خزيمة في «التوحيد» ص ٣٦٣ وأبو يعلى (٥٥٥٦) والطبراني في «الكبير»، (١٣١٨٠، ١٣٤٤٢) والبيهقي في «الشعب» (٧٨٠٣، ٧٨٧٧) و«المسند» برقم (٦١٨٠) وهذا لفظه، وهو حديث صحيح بإسناد حسن رجال ثقات رجال الشيخين غير عبدالله بن يسار، وقد ذكره ابن حبان في الثقات وصح له حديثه هذا، وانظر (٥٣٧٢، ٦١١٣) وهو عند ابن حبان (٧٣٤٠) وفي «سنن النسائي الكبرى» (٢٣٥٤).

زادت رواية أحمد وابن ماجه «ولا مكذب بقدر»^(١) فعدم المن والأذى شرطان لقبول الصدقة .

ثلاثة شروط لقبول الصدقة : وقد اشترط الله سبحانه لهذا الأجر المضاعف ثلاثة شروط :

١- أن تخلو الصدقة من المنّ . ٢- ومن الأذى . ٣- ومن الرياء .

هذه شروط ثلاثة :

أولها : المنّ : كأن يعطي الإنسان الصدقة أو يقدم الخير، ثم يقول : أنا أعطيتك كذا، وأعطيتك كذا، ويذكره بين الحين والآخر، ويمتن عليه بما أعطاه ويطرّف ويتعالي عليه، ويخُدش كرامته ويحط من شأنه .

وثانيها : الأذى : كأن يُعيّر به هذه الصدقة أو بهذه الزكاة، فيؤذيه بقوله أو فعله ويُظهر له أنه صاحب فضل عليه، فيهيئته ويسيء إليه، أو يسخر منه بقول أو فعل، أو يسخره في عمل خاص به فيستغله، أو ينقص من أجره؛ لأن عينه مكسورة بسبب ما أعطاه من زكاة ماله أو ما تصدّق عليه به .

والإسلام قد عالج هذه النقطة في نفوس أبنائه، فبيّن لهم أن المال مال الله، وأن العبد مستخلف فيه، وأمين عليه، ومبتلى به، وأن الخلق عيال الله، والرزق رزق الله سبحانه، والله سبحانه هو المعطي المانع، وأنت حينما تُعطي أخاك الزكاة أو الصدقة إنما أنت مجرد سبب وواسطة في الخير الذي أجراه الله تعالى على يديك؛ لأن المال مال الله وضعه في يديك، قال تعالى : ﴿وَأَتَوْهُمْ مِّن مَّالِ اللَّهِ الَّذِي آتَاكُمْ﴾ [النور: ٣٣] .

وقال : ﴿وَأَنْفِقُوا مِمَّا جَعَلَكُمْ مُّسْتَخْلَفِينَ فِيهِ﴾ [الحديد: ٧]

لقد استخلفكم الله على هذه الأموال فلا تَمُنُّوا ولا تُؤْذُوا مَنْ تصدقتم عليه .

والشرط الثالث لقبول الصدقة هو : الإخلاص وعدم الرياء :

حيث شبه الله تعالى صاحب المن والأذى بالمرائي مُحْبِطِ العمل في صلاته وصدقته وجهاده وتلاوته للقرآن وغير ذلك، فضرب الله ﷻ المثل للمنفق المرائي -الذي تصدق ليقال : إنه محسن، وإنه متصدق- بالحَجَرِ الأملس الذي نزل عليه الماء، فأزال ما فوقه من غبار، والرياء هو الشرك الأصغر .

وفي الحديث عن محمود بن لبيد، أن النبي ﷺ قال : «إن أخوف ما أخاف عليكم الشرك

(١) «المسند» (٤٤١/٦) وابن ماجه (٣٣٧٦) بإسناد حسن كما قال البوصيري في «الزوائد» : (١٠٣/٣) .

الأصغر، قالوا: وما الشرك الأصغر، قال: «الرياء، يقول الله يوم القيامة إذا جزي الناس بأعمالهم: اذهبوا إلى الذين كنتم تراؤون في الدنيا، فانظروا هل تجدون عندهم جزاء»^(١).

وفي صحيح مسلم وغيره عن أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال فيما يرويه عن ربه: «مَنْ عمل عملاً أشرك فيه معي غيري تركته وشركه»^(٢).

وصحَّ في الحديث عن أبي هريرة أيضاً أن رسول الله ﷺ قال: «أول من تُسْعَرُ النار عليهم يوم القيامة ثلاثة: المتصدق رياء، وقارئ القرآن رياء، والذي يقاتل الكفار رياء»^(٣). ولا يبتغي كل منهم بعمله وجه الله تعالى.

وهذا المثل هو الذي ذكره الله تعالى بقوله: ﴿كَالَّذِي يُنْفِقُ مَالَهُ رِثَاءَ النَّاسِ﴾ أي: كما أبطل كفر المرائي بصدقته أجره فالذي ينفق ماله رياء، وهو غير مؤمن، ويريد أن يَحْمَدَهُ الناس، ولا يطلب الثواب من الله؛ لأنه لا يصدّق بوحداية الله تعالى، ولا بالبعث والحساب والجزاء بعد الموت، عمله غير مقبول.

ومثله المسلم المرائي بصدقته، عمله غير مقبول؛ لأنه لا يطلب الأجر الأخروي.

ثم ضرب القرآن للمرائي مثلاً حياً ظاهراً؛ ليتضح له أن ترك المن والأذى شرط لحصول الأجر على النفقة، فمثله كمثل حجر أملس (ناعم)، هذا الحجر فوقه شيء من التراب، ثم نزل عليه مطر غزير فذهبت الأمطار بهذا الغبار أو التراب الذي فوق الحجر، فأصبح صليداً خالياً ليس فوقه شيء.

وكما يذهبُ التراب من فوق الحجر، بالمطر النازل عليه، فإن الرياء ينزل على أجر

(١) أخرجه البغوي في شرح السنة (٤١٣٥) عن محمود بن أبي ليبي وأخرجه البيهقي برقم (٦٨٣١) وأحمد في «المسند» (٢٣٦٣٠، ٢٣٦٣١) قال محققوه: حديث حسن، ورجاله رجال الصحيح إلا أنه منقطع، لأن ابن أبي عمرو مولى المطلب لم يسمع من محمود بن أبي ليبي، وأخرجه ابن خزيمة (٩٣٧) وابن شعبة (٤٨١/٢) والطبراني في الكبير (٤٣٠١).

(٢) مسلم (٢٩٨٥) و«المسند» (٧٩٩٩، ٨٠٠٠)، بإسناد صحيح على شرط مسلم، وأخرجه ابن خزيمة (٩٣٨) وابن حبان (٣٩٥) والطيالسي (٢٥٥٩).

(٣) يُنْظَرُ الحديث في «صحيح مسلم» (١٩٠٥) و«صحيح سنن الترمذي» (١٩٤٢) والبيهقي في «شعب الإيمان» (٦٨٠٥).

الصدقة فيمحوها، كما غسل الماء التراب من فوق الحجر، وهكذا فإن الرياء يحبط أجر المتصدق، ذلكم قول الله تعالى: ﴿فَمَثَلُهُ﴾ أي: مثل الذي ينفق ماله رياء الناس، ولا يؤمن بالله واليوم الآخر ﴿كَمَثَلِ صَفْوَانٍ﴾ أي: حجر أملس شديد ﴿عَلَيْهِ تَرَابٌ فَأَصَابُهُ وَابِلٌ﴾ مطر غزير ﴿فَتَرَكَهُ صَلْدًا﴾ ناعماً ليس فوقه شيء.

وهكذا قلب المرائي قاس غليظ، بمنزلة الصفوان، وصدقته كالتراب الذي فوقه ﴿لَا يَقْدِرُونَ عَلَى شَيْءٍ مِّمَّا كَسَبُوا﴾ أي: أن هذا النوع من الناس لا يجدون ثواب أعمالهم يوم القيامة، كما ترك المطر الحجر خالياً ليس عليه شيء، كأنهم وضعوها في غير موضعها حين رآوا الناس بأعمالهم ﴿وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ﴾.

والمعنى: فيا مَنْ آمَنتم بالله واليوم الآخر، لا تُذهّبوا ثواب ما تتصدقون به بالمن والأذى؛ لأنه يشبه المرائي غير المؤمن، فرغم ثناء الناس عليه، فإنه لا يجد ثواباً لنفخته، فالكاfer لا يوفق لعمل صالح كما علم الله منه ذلك في الأزل.

قال ابن عباس رضي الله عنه: ضُرِبَتْ مَثَلًا لرجل غني يعمل بطاعة الله، ثم بعث الله له الشيطان فعمل بالمعاصي حتى أغرق أعماله^(١).

فآلية مَثَلٌ لمن أساء في عمله بعد إحسان، فأبطل بعمله الثاني ما أسلفه من عمل صالح، ولمّا احتاج إلى شيء منه لم يجد شيئاً، وفي الحديث أن النبي ﷺ كان يقول في دعائه: «اللَّهُمَّ اجعل أوسع رزقك عليّ عند كبر سني، وانقضاء عمري»^(٢).

وهكذا حذر الله من المنّ والأذى والرياء في ثلاث آيات متواليات؛ لكثرتة وتفشييه بين الناس، ولأن الفقير يزداد انكسار قلبه بالمن والإساءة إليه، والمنّ يُبعد أهل الحاجات عن قبول الصدقة مع حاجتهم إليها، وقد ذم الإسلام المنّ؛ لأن المعطي في الحقيقة هو الله، وقد أجرى الله العطية على يد فلان، فهو السبب الموصل إليها، أما الرياء فإنه يحبط الأجر ويزيله.

(١) «صحيح البخاري» كما في فتح الباري (٤٩/٨) وهو برقم (٤٥٣٨).

(٢) أخرجه الحاكم في «المستدرک» (٥٤٢/١) وفي سنده (عيسى بن ميمون) قال الذهبي: متهم.

مَثَلُ الْمُخْلِصِ فِي صَدَقَتِهِ

٢٦٥- ﴿وَمَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ وَتَنبِيئًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ كَمَثَلِ جَنَّةٍ بِرَبْوَةٍ (١) أَصَابَهَا وَابِلٌ فَكَانَتْ أَكْثُلُهَا (٢) ضَعْفَيْنِ فَإِن لَّمْ يُصِيبْهَا وَابِلٌ فَطُلٌّ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾

وبعد أن ضرب الله تعالى المثل للمرائين بصدقاتهم وأعمالهم، ضرب مثلاً آخر للمخلصين في صدقاتهم وأعمالهم، وهم المؤمنون الذين ينفقون أموالهم ابتغاء وجه الله، وتبنيئاً لإيمانهم، واعتقاداً راسخاً منهم بصدق وَعْدِ الله لهم، ومن بذل ماله لوجه الله، فقد ثَبَّتْ بعض نفسه، أي: حقق مراد الله منه دون تردد حين أنفق ماله في سبيل الله، ومن بذل نفسه وماله فقد ثبت نفسه كلها، فإن مثلهم كمثل بستان في أرض خصبة بمكان مرتفع نزل عليها المطر الغزير، فَآتَتْ ثمارها أضعافاً، وفي أقل الأحوال إن لم ينزل عليها مطر غزير، بل أصابها مطر قليل، فستؤتي ثمارها بدرجة أقل؛ بمعنى أنه إن لم يأخذ المتصدق سبعمئة حسنة فإنه يأخذ مائة حسنة، أو عشر حسنات في أدنى حالاته.

وهكذا تتفاوت أجور المخلصين فتقبل وتضاعف عند الله قلت أو كثرت، والله مطلع على السرائر، بصير بالظواهر والبواطن، وهذا ما يشير إليه قول الله تعالى: ﴿وَمَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ وَتَنبِيئًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ﴾ أي: إيماناً راسخاً منهم بأن ثواب الله عظيم، على قَدَرِ إخلاصهم في الرغبة فيما عند الله ﴿كَمَثَلِ جَنَّةٍ بِرَبْوَةٍ أَصَابَهَا وَابِلٌ﴾ أي: نزل عليها مطر شديد ﴿فَكَانَتْ أَكْثُلُهَا ضَعْفَيْنِ فَإِن لَّمْ يُصِيبْهَا وَابِلٌ فَطُلٌّ﴾ أي: إن لم ينزل عليها مطر غزير نزل عليها مطر قليل ﴿وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾.

مُقَابَلَةٌ بَيْنَ الْمَثَلِ الْمَذْمُومِ وَالْمَثَلِ الْمَحْمُودِ

٢٦٦- ﴿أَيُّدٌ أَحَدُكُمْ أَن تَكُونَ لَهُ جَنَّةٌ مِّنْ نَّخِيلٍ وَأَعْنَابٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ لَهُ فِيهَا مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ وَأَصَابَهُ الْكِبَرُ وَلَهُ ذُرِّيَّةٌ ضُعَفَاءُ فَأَصَابَهَا إِعْصَارٌ فِيهِ نَارٌ فَاحْتَرَقَتْ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ ﴿١١١﴾﴾

(١) قرأ ابن عامر وعاصم (بِرَبْوَةٍ) بفتح الراء وهو أحد لغاتها، وقرأ الباقون (بِرَبْوَةٍ) بضم الراء وهو لغة قريش.
(٢) قرأ نافع وابن كثير وأبو عمرو (أَكْثُلُهَا) بسكون الكاف وهو لغة تميم وأسد، وقرأ الباقون (أَكْثُلُهَا) بضم الكاف وهو لغة الحجازيين.

وبعد أن ضرب الله تعالى المثل لمن ينفق ماله في سبيل الله بحبة أنبت سبع سنابل، ثم بجنة في أرض مرتفعة تؤتي أكلها ضعفين، والمثلان لمن لا يُتبع نفقته بالمن والأذى، ولا يتصدق رياء.

بعد ذلك وضح سبحانه حال المرائين المتأنين؛ لتحصل المقابلة بين المثل المحمود والمثل المذموم، فيتجلى الفرق بين تمام الرجاء فيما عند الله من عظيم الأجر، وبين اليأس وخيبة الأمل، وهذا الوصف المضروب فيه عظة وعبرة لمن يُحبط ثواب عمله بالرياء، وهو وصف لا يؤدّ عاقل أن يضع نفسه فيه، وهو يشبه رجلاً له حديقة، وقد وصف الله هذه الحديقة بثلاثة أوصاف هي:

١- أن فيها الثمار والنخيل والأعناب.

٢- وفيها قصور تجري من تحت أشجارها الأنهار العذبة.

٣- أنها جنة جمعت بين حُسن المنظر، وكثرة النفع، فهي زاخرة بأنواع الثمار التي تنفع صاحبها وتغنيه عن الحاجة.

أما صاحب الجنة فقد وصفه الله بوصفين:

١- أنه قد تقدمت به السن؛ فأصابه الكبر، وأصبح عاجزاً عن الغرس والكسب.

٢- أن عنده ذرية ضعفاء، وأولاداً صغاراً.

أما حال الحديقة فقد جاءها إعصار، أي: نار من السماء، فأحرقت هذه الثمار وأتت عليها، أيرغب أحدكم في نحو هذا، ويكون ممن يُبطل ثواب عمله بالرياء؟! وهكذا حال غير المخلصين في نفقاتهم، يأتون يوم القيامة ولا حسنة لهم، وبمثل هذا البيان يبين الله لكم ما ينفعكم؛ كي تُخلصوا في نفقاتكم وسائر أعمالكم.

عن عطاء قال: سأل عمر الناس عن هذه الآية، فما وجد أحداً يشفيه، حتى قال ابن عباس وهو خلفه: يا أمير المؤمنين، إني أجد في نفسي منها شيئاً، قال: فتلفت إليه فقال: تحوّل ها هنا، لِمَ تحقر نفسك؟

قال ابن عباس رضي الله عنه: هذا مثل ضربه الله ﷻ، فقال: أيود أحدكم أن يعمل عُمره بعمل أهل

الخير وأهل السعادة، حتى إذا كان أحوج ما يكون إلى أن يختمه بخير، حين فَنِي عُمره واقترب أجله، ختم ذلك بعمل مِنْ عَمَلِ أهل الشقاء، فأفسده كله، فحرقه وهو أحوج ما كان إليه^(١).

وعن ابن مليكة أن عمر رضي الله عنه تلا هذه الآية ﴿أَيُّدُ أَحَدِكُمْ﴾ قال: هذا مَثَلُ ضَرْبِ الإنسان يعمل عملاً صالحاً، حتى إذا كان عنده آخر عمره أحوج ما يكون إليه، عَمِلَ السوء^(٢).

وقال ابن جريج: سمعت ابن أبي مليكة وابن عباس رضي الله عنهما قالا جميعاً:

إن عمر بن الخطاب سأل أصحاب رسول الله، فذكر نحوه، إلا أنه قال: للرجل يعمل بالحسنات ثم يبعث له الشيطان فيعمل بالمعاصي^(٣).

والمعنى: أن العبد المرائي يبدأ حياته فيعمل الأعمال الصالحة فيكون مثلاً لأهل الجنة، ثم يعمل الأعمال السيئة ويستمر عليها حتى يموت؛ فتسوء خاتمته، فحاله يشبه حال صاحب بستان فيه كل الثمرات والمياه الجارية، وهو فرح ومسرور ببستانه، ثم أصابه الكبر، فضعف عن العمل، وزاد حرصه، وكان له ذرية صغاراً ضعفاء، نفقته ونفقتهم من ذلك البستان، فبينما هو كذلك إذ أصاب البستان ريح قوية تستدير وترتفع في الجو، وهي تحمل نارا، وقد نزلت هذه النار على البستان فأحرقته.

وهكذا يكون المرائي بعمله الذي مات عليه، كالإعصار الذي أحرق البستان، ولم يستطع لكبر سنه وصغر أولاده، أن يدفعوا هذه النار عن حديقتهم حتى احترقت، كما احترق عمل المرائي ولم يُعِدْ له أثر، فلقي ربه وهو أفقر ما يكون إلى عمل صالح، لكنه لم يجد عنده شيئاً ينتفع به، ولم يستطع أن يدفع العذاب عن نفسه.

﴿وَتِلْكَ الْأَمْثَلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا الْعَالِمُونَ﴾ [العنكبوت: ٤٣].

فهل يحب أحدنا أن يضيع منه عمله يوم القيامة، وهو أحوج ما يكون إليه، كهذا الرجل الذي كبرت سنه، ورق عظمه، وكثر عياله، واحترقت جنته، ولم يجد سبيلاً للانتفاع بها؟

(١) «فتح الباري» (١٥١/٨) والطبري (٦٠٩٤) وانظر هذا في: «صحيح البخاري» (٤٥٣٨) وابن المبارك في «الزهد» (١٥٦٨).

(٢) «تفسير الطبري» الأثر: (٦٠٩٥) وفتح الباري (١٥١/٨).

(٣) الحاكم «المستدرک» (٢٨٣/٢) وقال: حديث صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه، ووافقه الذهبي.

فهل يعيش الإنسان في الضلالة والمعاصي حتى يأتيه الموت، أم يتدارك نفسه ويستيقظ من غفلته حتى تحسن خاتمته؟

وَجُوبُ النَّفَقَةِ مِنَ الْحَلَالِ الطَّيِّبِ

٢٦٧- ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَنْفِقُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا كَسَبْتُمْ وَمِمَّا أَرْجَبْنَا لَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَلَا تَيَمَّمُوا^(١) الْخَيْثَ مِنْهُ تُنْفِقُونَ وَلَسْتُمْ بِتَاجِرِيهِ إِلَّا أَنْ تُغْمِضُوا فِيهِ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ حَكِيمٌ ﴿٢٦٧﴾﴾

ثم أمضت الآيات إلى المقصود، وهو أن نخرج الزكاة والصدقة من مالنا الطيب الحلال ومما خرج من الأرض ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَنْفِقُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا كَسَبْتُمْ﴾ لا تخرج زكاتك أو صدقتك من مال فيه حرام أو شبهة، بل أخرجها من أطيب الكسب وحلاله الخالص، وأنفقوا من الزروع والثمار والمعادن والبترو، وكل ما أخرجه الله من الأرض، فكما منَّ عليكم بتحصيله، فانفقوا منه شكراً لله، وأداء لبعض حقوق الفقراء، وتطهيراً لأموالكم.

وظاهر الآية يدل على وجوب الزكاة في كل ما خرج من الأرض.

وخصصها جمهور الفقهاء بما يُقَاتُ وَيُدَّخَرُ، خلافاً للأحناف فأخذوا بالعموم وأوجبوا الزكاة في الفواكه والثمار والخضراوات وغيرها.

ويجب إخراج العُشْر فيما سَقِيَ بماء المطر في الصحاري والبراري من غير جَهْدٍ ولا تعب.

ونصف العُشْر فيما سَقِيَ بالنضج والآلة وجُهد الإنسان.

عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «ليس فيما دون خمسة أوسق من التمر صدقة، وليس فيما دون خمسة أواق من الورق صدقة، وليس فيما دون خمس دَوْدٍ من الإبل صدقة» وفي لفظ مسلم: «ليس في حب ولا تمر صدقة حتى يبلغ خمسة أوسق»^(٢).

(١) قرأ البزِّي (ولا تيمموا) بتشديد التاء مع المد ست حركات، للتخلص من التقاء الساكنين، وقرأ الباقون بالقصر وعدم التشديد، وأصلها: تيمموا، فحذفت إحدى التاءين في قراءة التخفيف، وأدغمت التاء في التاء في قراءة التشديد.

(٢) يُنْظَرُ: البخاري (١٤٠٥، ١٤٨٤) ومسلم (٩٧٩) ومالك (٢٤٤/١) وأبو داود (١٥٥٨) والترمذي (٦٦٦) والنسائي (٢٤٤٤) وابن ماجه (١٧٩٣) والدارقطني (٩٢/٢).

وفي حديث أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «فيما سقت السماء والعيون العشر، وفيما سقي بالنضح نصف العشر»^(١).

والوَسْق: ستون صاعًا، والصاع: خمسة أرطال وثلاث.

وعن معاذ رضي الله عنه أنه كتب إلى النبي ﷺ يسأله عن الخَضْرَاوات؛ وهي البقول، فقال: «ليس فيها شيء»^(٢).

قال تعالى: ﴿وَلَا تَتِمَّمُوا الْخَبِيثَ﴾ أي: لا تخرجوا النوع الرديء من الطعام، أو الحبوب، أو الثمار ونحوه، فتعمدوا إليه في إعطاء الفقراء، وأنتم لا تأخذونه إلا على وجه الإغماض، كما فعل بعض الناس في عهد رسول الله ﷺ؛ فأنزل الله سبحانه هذه الآية، بيّن فيها أن النوع الرديء من عُروض التجارة، أو الزروع، أو الثمار، أو بهيمة الأنعام، لا يجوز إخراجه في أنواع الزكاة، أو الصدقة، أو النفقة.

وكل ما لا يأخذه الإنسان على سبيل الأجر، لا يجوز إعطاؤه للفقير أو قضاء الدين به، إلا إذا أغمض الإنسان عينيه وأخذه على مضض، فكيف ترضون له ما لا ترضونه لأنفسكم ﴿وَلَا تَتِمَّمُوا الْخَبِيثَ مِنْهُ تُنْفِقُونَ﴾ أي: لا تقصدوه في العطاء ﴿وَلَسْتُمْ بِتَاخِذِيهِ إِلَّا أَنْ تُغْمِضُوا فِيهِ﴾ ولو كان لرجل على رجل دين فأعطاه هذا المال الرديء، لم يأخذه إلا أن يرى أنه قد نقصه من حقه، فأغمض عينه عن هذا النقص، وأخذه وهو كاره، على استحياء ممن أعطاه.

ومن هنا وجب على المسلم أن يخرج زكاته المفروضة، وصدقته التي يتطوع بها من أجود ماله وأطيبه؛ لأن الله تعالى أحق من يُتقرب إليه بأطيب الأموال وأكرمها، والصدقة قربان المؤمن إلى ربه، قال تعالى: ﴿لَنْ نَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّىٰ تُنْفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ﴾ [آل عمران: ٩٢] وقال سبحانه: ﴿لَنْ يَنَالَ اللَّهُ لُحُومَهَا وَلَا دِمَآؤَهَا وَلَكِنَّ بِنَايِهِ النَّفَقَىٰ مِنْكُمْ﴾ [الحج: ٣٧].

(١) الترمذي (٦٣٩) و«صحيح سنن ابن ماجه» (١٤٧٠)، وبنحوه في المسند (١٤٦٦٦) عن جابر وهو حديث صحيح وأخرجه عبد الرزاق (٧٢٣١) وابن أبي شيبة (١٤٦/٣).

(٢) الدارقطني (٩٥/٢) و«صحيح سنن الترمذي» (٥١٩).

وهذه جملة من الأحاديث في هذا المقام:

- ١- وفي الحديث عن أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «إن الله طيب لا يقبل إلا طيباً»^(١).
 - ٢- وفي حديث ابن مسعود رضي الله عنه: «ولا يكتسب عبد مالا من حرام فينفق منه فيُبارك له فيه، ولا يتصدق فيُقبل منه، ولا يتركه خلف ظهره إلا كان زاده إلى النار، إن الله لا يمحو السيئ بالسيئ، ولكن يمحو السيئ بالحسن، إن الخبيث لا يمحو الخبيث»^(٢).
 - ٣- وفي حديث عائشة رضي الله عنها عن النبي ﷺ قال: «إن أطيب ما أكل الرجل من كسبه، وإن ولده من كسبه»^(٣).
 - ٤- ورد أن رجلاً من الأنصار، علّق قِنَواً من حشَف، في الموضع الذي كان المسلمون يعلّقون فيه صدقة ثمارهم، فقال ﷺ: «ما يضر صاحبه لو تصدّق بأطيب من هذه، إن صاحب هذه ليأكل الحشف يوم القيامة»^(٤).
 - ٥- وقال البراء بن عازب رضي الله عنه: كانت الأنصار إذا كان أيام جذاذ النخل، أخرجت من حيطانها أفناء البسر -أي: قِنَوا الرطب- فعلقوه على حبل بين عمودين في مسجد رسول الله ﷺ؛ ليأكل فقراء المهاجرين منه، وكان أهل الصُّفّة إذا جاع أحدهم يضرب القنو بعصاه، فيسقط منه البُسْر والتمر فيأكل، فكان الرجل منهم يعمد إلى الحشف فيدخُلُه مع الرطب، يظن أن ذلك جائز؛ فأنزل الله الآية^(٥).
-
- (١) مسلم (١٠١٥) والترمذي (٢٩٨٩) و«المسند» (٨٣٤٨).
- (٢) «المسند» (٣٨٧/١) برقم (٣٦٧٢) والبيهقي في «الشعب» (٥٥٢٤) وفي إسناده ضعف، لضعف ابن أبي حازم البجلي، وأخرجه البزار في الزوائد (٣٥٦٢) والبيهقي في الشعب (٥٥٢٤) والبخاري (٢٠٣٠) وغيرهم.
- (٣) «المسند» (٢٤٠٣٢) حديث حسن لغيره والنسائي (٤٤٦١) و«صحيح سنن ابن ماجه» (١٨٥٤).
- (٤) من حديث عوف بن مالك في «سنن أبي داود» (١٦٠٨) والنسائي (٢٤٩٢) وابن ماجه (١٨٢١) وابن خزيمة (٢٤٦٧) وابن حبان (٦٧٧٤) والحاكم (٢٨٥/٢) وهو حديث حسن كما في «صحيح سنن ابن ماجه» (١٤٧٤).
- (٥) «تفسير ابن جرير» (٥٥٩/٥) الأثر (٦١٣٩) وهو عند الحاكم في «المستدرک» (٢٨٥/٢).

ويؤخذ منها: الحث على النفقة، ووجوب الزكاة في الذهب والفضة وسائر الأموال وعروض التجارة، وفي الحبوب والثمار والمعادن، ولا تجب في المتاع المعد للاقتناء من العقارات ووسائل النقل والأواني، ولا تجب في الديون التي على غير مليء، ونحو ذلك. ﴿وَأَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ﴾ الذي رزقكم ﴿غَنِيٌّ﴾ عن صدقاتكم، مستحق للثناء عليه ﴿حَمِيدٌ﴾ محمود في كل حال.

سَبَبُ الْحِرْصِ عَلَى الدُّنْيَا

٢٦٨- ﴿الشَّيْطَانُ يَعِدُكُمُ الْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُمْ بِالْفَحْشَاءِ ۚ وَاللَّهُ يَعِدُكُم مَّغْفِرَةً مِّنْهُ وَفَضْلًا ۗ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾

ثم لماذا يضمن الإنسان بالزكاة، أو الصدقة؟ ولماذا يحرص على المال، ويتكالب عليه؟ ولماذا يبخل ويخرج الرديء في صدقته؟ ولماذا يخاف من الفقر ومن المستقبل ويقول: إنه يؤمن مستقبله ومستقبل أولاده؟ لماذا يمنع زواج ابنته حتى تحصل على الشهادة؟ تأميناً لمستقبلها وسلاحاً في يدها؟ ما السبب؟ وما الدوافع وراء هذا كله؟

يقول سبحانه مبيناً السبب: ﴿الشَّيْطَانُ يَعِدُكُمُ الْفَقْرَ﴾ الشيطان هو السبب، هو الذي يخوفكم من الفقر ومن المستقبل، والمستقبل بيد الله سبحانه، وما علينا إلا أن نبذل الأسباب، ولا يمكن لإنسان أن يؤمن حياته، ولا حياة غيره، ولا يمكن له أن يعلم ما في الغيب، ولن تموت نفس حتى تستوفي رزقها وأجلها.

والمال قد يصلح الأبناء وقد يفسدهم، والإنسان مُطالَب بحسن تربيتهم وتعليمهم وعلاقتهم بربهم.

وليس بالضرورة أن يترك لهم ثروة أو خلافه، فقد يبدّدونها في لحظات، وهو لا يعلم الخير في الغنى أو الفقر، وفي الأثر: (إن الشيطان يعدُّ بالشر ويكذب بالحق) (٢).

ومن تخوفه لكم شدة الحرص على جمع المال، وتأمين المسكن والوظيفة والشهادة، ولا بأس بهذا وغيره إذا أتى من حله من غير شرِّه أو تشوُّفٍ.

ومن آثار هذا الخوف شدة البخل والشح والخوف من الفقر ﴿وَاللَّهُ يَعِدُكُمُ﴾ غفراناً

(١) قرأ أبو عمرو بإسكان الراء واختلاس ضميتها من (ويأمركم)، والباقون بالضممة الخالصة، ومعهم دوري أبي عمرو في وجه آخر له.

(٢) انظر النص في الترمذي والنسائي عن ابن مسعود.

لِلذُنُوبِ وَرِزْقًا وَاسِعًا ﴿وَاللَّهُ وَاسِعٌ﴾ الْفُضْلُ ﴿عَلِيمٌ﴾ بِالنِّيَّاتِ .

وجاء في الأثر عن عبد الله بن مسعود ؓ «إن للشيطان لمةً بابن آدم، وللملك لمةً، فأما لمةُ الشيطان فيعادُ بالشر، وتكذيبُ بالحق، وأما لمةُ الملك، فيعادُ بالخير وتصديقُ بالحق، فمن وجد ذلك فليعلم أنه من الله، وليحمد الله، ومن وجد الأخرى فليتعوذ بالله من الشيطان، ثم قرأ ﴿الشَّيْطَانُ يَعِدُكُمُ الْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُم بِالْفَحْشَاءِ﴾»^(١).

يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَنْ يَشَاءُ

٢٦٩- ﴿يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُؤْتَ^(٢) الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ﴾

والحرص على الدنيا ليس من الحكمة في شيء، بل إن الحكمة في الاعتماد على الله تعالى، مع الأخذ بالأسباب، وعلى المسلم أن يُعتقد أن ما وعد الله به عباده من الفضل والمغفرة كله من عطاء الله، وحكمته في خلقه، وهو ﷺ يُؤتي الإصافة في القول والفعل ويعطي السداد والحكمة عن فهم ومعرفة ويعطي العلم النافع، والعمل الصالح، وحسن التصرف في تدبير الأمور لمن يشاء ﴿يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَنْ يَشَاءُ﴾ وهي إصافة الحق، ووضع الأمور في نصابها، وهي العلم النافع الذي يأخذ بيد صاحبه إلى الاستقامة وعمل الخير والمنع من الشر ﴿وَمَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ﴾ فأنعم الله عليه بها، ووفق للصواب في الأمور ﴿فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا﴾ فيه سعادة الدارين والنجاة من شقاوتهما، وفيه التخصيص بهذا الفضل، وكونه من ورثة الأنبياء، فيكون العبد مصيبًا في قوله وعمله، واضعًا للأمور في نصابها، والناس في هذا على قسمين، منهم من أجابوا دعوة ربهم ونيهم، ففعلوا ما ينفعهم،

(١) الحديث رواه الترمذي (٧٧/٤) برقم (٢٩٨٨) وقال: حديث صحيح غريب، والبيهقي في «الشعب» (٤٥٠٦) وابن أبي حاتم (٨١٠) ورؤي موقوفًا على ابن مسعود، ورؤي مرفوعًا بإسناد صحيح في الحديث رقم (٦١٧٤) من «تفسير الطبري» وهو في «سنن النسائي الكبرى» برقم (١١٠٥١) وابن حبان في «الموارد» برقم (٤٠) وابن حبان (٩٩٧) وقد ضعّف إسناده الألباني في «ضعيف سنن الترمذي» (٥٧٢).
(٢) قرأ يعقوب (ومن يؤت) بكسر التاء مبنياً للفاعل، والفاعل ضمير يعود على الله تعالى، و (من) مفعول مقدم، و (الحكمة) مفعول ثانٍ، ووقف يعقوب على (يؤتي) بإثبات الياء، وقرأ الباقر (ومن يؤت) بفتح التاء، ووقفوا عليها بسكون التاء.

وتركوا ما يضرهم، ومنهم من لم يستحب للدعوة، فترك طاعة رب العباد، فهؤلاء ليسوا من أهل الحكمة، ولا من أولي الأبواب، لذا قال تعالى: ﴿وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ﴾ أي لا ينتفع إلا أصحاب العقول النيرة.

ومن الأحاديث الواردة في ذلك:

- ١- روى أحمد وغيره عن ابن مسعود رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «لا حسد إلا في اثنتين: رجل آتاه الله مالاً فسلطه على هلكته في الحق، ورجل آتاه الله حكمة فهو يقضي بها ويعلمها»^(١).
- وأهم ما في الحكمة معرفة الله تعالى، وعلم الأخلاق والاجتماع، وأحكام الإمامة والخلافة وسياسة العباد والبلاد، وفي مقدمة ذلك حفظ شيء من كتاب الله تعالى.
- ٢- عن أبي أمامة رضي الله عنه أن رجلاً أتى النبي ﷺ فقال: يا رسول الله، اشتريت مِقْسَمَ - أي: نصيب بني فلان - فريحت عليه كذا وكذا، فقال ﷺ: «ألا أنبتك بما هو أكثر ربحاً؟» قال الرجل: وهل يوجد؟ قال ﷺ: «رجل تعلم عشر آيات»، فذهب الرجل وتعلم عشر آيات وأتى النبي ﷺ فأخبره^(٢).
- ٣- وعن أبي عبد الرحمن السلمي قال: حدثنا من كان يُقَرِّئنا من أصحاب رسول الله ﷺ أنهم كانوا يأخذون من رسول الله ﷺ عَشْرَ آيات، فلا يأخذون في العشر الأخرى حتى يعلموا ما في هذه من العلم والعمل، قال: فتعلمنا العلم والعمل^(٣).
- ٤- وفي حديث معاوية أن النبي ﷺ قال: «من يرد الله به خيراً يفقهه في الدين»^(٤).

(١) «المسند» (٤٣٢/١) برقم (٣٦٥١، ٤١٠٩) وعن ابن عمر (٤٥٥٠، ٦٤٠٣) وعن أبي هريرة (١٠٢١٤، ١٢٠١٥) والبخاري عن ابن مسعود برقم (٧٣) ومسلم برقم (٨١٦) والنسائي في «الكبرى» برقم (٥٨٤٠) وابن ماجه برقم (٤٢٠٨).

(٢) أخرجه الطبراني في «الكبير» (٨٠١٢) والبيهقي (١٩٤٤) وقال الهيثمي: ورجاله رجال الصحيح، «مجمع الزوائد» (١٦٥/٧).

(٣) «المسند» (٢٣٤٨٢) بإسناد حسن بنحو هذا وأخرجه الطحاوي في شرح مشكل الآثار (١٤٥١) والحاكم (٥٥٧/١) والدارقطني في العلل (٦٠/٣)، وابن أبي شبة (٤٦٠/١٠) والطبري (٧٤/١).

(٤) البخاري (٧١) ومسلم (١٠٣٧) وابن ماجه (٢٢١).

الْحُكْمُ التَّشْرِيعِيُّ الْخَامِسُ وَالثَّلَاثُونَ: النَّذْرُ

٢٧٠- ﴿وَمَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ نَفَقَةٍ أَوْ نَذَرْتُمْ مِنْ نَذْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُهَا وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ﴾

والنفقة التي ينفقها الإنسان إما أن تكون نفقة واجبة، أو نفقة تطوع، أو النذر الذي ينذره الإنسان طاعة وقربى لله تعالى، وما أعطيتكم من مال أو غيره، قليل أو كثير؛ ابتغاء مرضاة الله، أو أوجبتم على أنفسكم شيئاً من ذلك، فإن الله تعالى هو المطلع والمثيب عليه.

ومن منع حق الله فهو ظالم، والظالم لا يمنعه من عذاب الله مانع.

والنذر على ضربين: نذر مفسر، وهو أن يقول: لله عليّ صدقة، أو صوم، أو حج، أو عتق.

ونذر غير مفسر، وهو أن يقول: نذرت لله لا أفعل كذا ثم يفعله، وكل منهما يكون في طاعة.

ونذر الطاعة المفسر يجب الوفاء به كما نذر، وألزم نفسه.

ونذر الطاعة غير المفسر لا يلزم الوفاء به، وفيه كفارة يمين.

وأما نذر المعصية فلا يلزم الوفاء به، سواء أكان مفسراً، أم لا.

وهذه جملة من الأحاديث في النذر:

١- في البخاري عن عائشة رضي الله عنها أن النبي ﷺ قال: «مَنْ نَذَرَ أَنْ يَطِيعَ اللَّهَ فَلْيَطِيعْهُ، وَمَنْ نَذَرَ أَنْ يَعْصِيَ اللَّهَ فَلَا يَعْصِهِ»^(١).

٢- ومن حديث عمران بن حصين رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «لَا نَذْرَ فِي مَعْصِيَةٍ وَلَا فِي مَالٍ يَمْلِكُ ابْنُ آدَمَ»^(٢).

٣- وفي الصحيحين عن عمر وابنه رضي الله عنهما أن النبي ﷺ نهى عن النذر، وقال: «إِنَّهُ لَا يَأْتِي بِخَيْرٍ، وَإِنَّمَا يُسْتَخْرَجُ بِهِ مِنَ الْبَخِيلِ»^(٣).

(١) «صحيح البخاري» برقم (٦٦٩٦، ٦٧٠٠) وأبو داود (٣٢٨٩) والترمذي (١٥٢٦) وابن ماجه (٢١٢٦) والمسند (٢٤٠٧٥) وابن حبان (٤٣٨٩) والنسائي في «الكبرى» (٤٧٢٩، ٤٧٣٠).

(٢) «صحيح مسلم» برقم (١٦٤١) وأبو داود (٣٣١٦) والترمذي (١٥٦٨) وابن ماجه (٢١٢٤) و«المسند» (١٩٨٨٨) وابن حبان (٤٣٩١) والنسائي في «الكبرى» (٤٧٣٥، ٥٨٥٣٨).

(٣) البخاري (٦٦٠٨) ومسلم (١٦٣٩) وأبو داود (٣٢٨٧) والنسائي (٣٨١٠) وابن ماجه (٢٢٢١).

٤- وفي الصحيحين عن أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «إن النذر لا يُقرب من ابن آدم شيئاً لم يكن الله قدره له، ولكن النذر يوافق القدر، فيُخرج بذلك من البخل ما لم يكن البخل يريد أن يُخرج»^(١).

وسبب النهي أن العبادة يجب أن تكون ممحضة لله تعالى، ونظرًا لما يظنه الجهله من أن النذر يردّ القدر أو يأتي بالخير.

وسمي الناذر بخيلاً؛ لأنه لم يتطوع في عمله ابتداءً، وإنما أتى بالطاعة مقابل منفعة، ومعنى النذر: التزام قربة أو صدقة بصيغة الإيجاب على النفس.

والنذر كان معروفاً في الجاهلية، فقد نذر عبد المطلب إن رزقه الله عشرة أولاد ليذبحنّ عاشرهم قرباناً للكعبة، وكان ابنه العاشر (عبد الله) والد النبي ﷺ هو ثاني الذبيحين، ونذرت ثئيلاً، زوج عبد المطلب لما افتقدت ابنها العباس -وهو صغير- إن وجدته لتكسّون الكعبة بالديباج ففعلت، وهي أول من كسا الكعبة بالديباج.

٥- وفي حديث البخاري وغيره أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال: يا رسول الله، إنني نذرت في الجاهلية أن أعتكف ليلة في المسجد الحرام، فقال ﷺ: «أوف بنذرك»^(٢).

٦- وعن أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي ﷺ أدرك شيخاً يمشي بين ابنه يتوكأ عليهما، فقال: «ما شأن هذا؟» قال ابنه: يا رسول الله، كان عليه نذر، فقال النبي ﷺ: «اركب أيها الشيخ، فإن الله غني عنك وعن نذرك»^(٣).

٧- وعن ابن عباس رضي الله عنه قال: بينما النبي ﷺ يخطب إذا هو برجل قائم في الشمس، فسأل عنه، فقالوا: هذا أبو إسرائيل، نذر أن يقوم ولا يقعد، ولا يستظل، ولا يتكلم، ويصوم؛ فقال النبي ﷺ: «مروه فليتكلم، وليستظل، وليقعد، وليتم صومه»^(٤).

وكان النذر معروفاً في الأمم السابقة، فقد قالت مريم: ﴿إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَنِ صَوْمًا﴾

(١) «صحيح مسلم» (١٦٣٩) و«صحيح البخاري» (٦٦٠٩، ٦٦٩٤).

(٢) البخاري (٢٠٣٢، ٢٠٤٣، ٦٦٩٧) ومسلم (١٦٥٦).

(٣) مسلم (١٦٤٣) وابن ماجه (٢١٣٥).

(٤) البخاري (٦٧٠٤) وأبو داود (٣٣٠٠) وابن ماجه (٢١٣٦).

[مريم: ٢٦] وقالت أمها: ﴿إِنِّي نَذَرْتُ لَكَ مَا فِي بَطْنِي مُحَرَّرًا﴾ [آل عمران: ٣٥].

ثم ختم الله الآية ببيان أن الظالمين ليس لهم من دون الله من ولي ولا نصير، وكأن تجاوز الحد في النفقة أو النذر يدخل في دائرة الظلم.

أحاديث في الظلم:

- ١- في حديث ابن عمر رضي الله عنهما عن النبي ﷺ قال: «الظلم ظلمات يوم القيامة»^(١).
 - ٢- وفي حديث جابر رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «اتقوا الظلم؛ فإن الظلم ظلمات يوم القيامة، واتقوا الشح؛ فإن الشح أهلك من كان قبلكم، حملهم على أن سفكوا دماءهم واستحلوا محارمهم»^(٢).
 - ٣- وعن ابن عمر رضي الله عنهما أن النبي ﷺ قال: «اتقوا دعوة المظلوم فإنها تصعد إلى السماء كأنها شرارة»^(٣).
 - ٤- وعن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «دعوة المظلوم مستجابة، وإن كان فاجرًا، ففجوره على نفسه»^(٤).
 - ٥- وعن أنس بن مالك رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «اتقوا دعوة المظلوم وإن كان كافرًا؛ فإنه ليس دونها حجاب»^(٥).
- هذا: والله تعالى يجازي على جميع النفقات، واجبها ومستحبها، قليلها وكثيرها، ولا يخفي عليه شيء منها، ويعلم صدق نية المتصدق، وحال المتصدق عليه، فإن صدرت النفقة أو النذر عن إخلاص وطلب لمرضاة الله تعالى، كان الجزاء حسنًا والثواب عظيمًا، وإن لم ينفق العبد، أو لم يوف بنذره، أو قصّد رضى الناس، فهو ظالم لنفسه ووضّع الشيء في غير موضعه، واستحق عليه العقوبة البالغة.

(١) البخاري (٢٤٤٧) ومسلم (٢٥٧٩) والترمذي (٢٠٣٠).

(٢) البخاري (٤٨٣) ومسلم (٢٥٧٨) والبيهقي في «شعب الإيمان» (١٠٨٣٢).

(٣) أخرجه الحاكم (٢٩/١) وصححه الألباني في «السلسلة الصحيحة».

(٤) «المسند» (١٧٩٥) وحسنه ابن حجر في «الفتح» (٣/٣٦٠) ويُنظر: «السلسلة الصحيحة» (٣٩٩/٢).

(٥) «المسند» (١٢٥٤٩) بإسناد ضعيف لجهالة أبي عبد الله الأسدي، وحسنه الألباني في «السلسلة الصحيحة» (٧٦٧).

صَدَقَةُ السِّرِّ وَالْعَلَنِ

٢٧١- ﴿إِنْ بُدُوا الصَّدَقَتِ فَنِعِمَّا^(١) هِيَ وَإِنْ تُخْفُوهَا وَتُؤْتُوهَا الْفُقَرَاءَ فَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَيُكَفِّرُ^(٢) عَنْكُمْ مِنْ سَيِّئَاتِكُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾

سبب النزول

١- أخرج ابن أبي حاتم بسنده عن عامر الشعبي قال: أنزلت في أبي بكر وعمر رضي الله عنهما، أما عمر فجاء بنصف ماله حتى دفعه إلى النبي ﷺ فقال له النبي ﷺ: «ما خلفت وراءك لأهلك يا عمر؟» قال: خلّفتُ لهم نصف مالي، وأما أبو بكر فجاء بماله كله، يكاد أن يخفيه من نفسه، حتى دفعه إلى النبي ﷺ، فقال له النبي ﷺ: «ما خلفت وراءك لأهلك يا أبا بكر؟» فقال: عِدَّةُ الله، وعِدَّةُ رسوله، فبكى عمر رضي الله عنه، وقال: بأبي أنت وأمي يا أبا بكر، والله ما استبقنا إلى باب خير قط إلا سبقتنا إليه^(٣).

٢- وعن عمر رضي الله عنه قال: أمرنا رسول الله ﷺ يوماً أن نتصدق، فوافق ذلك ما لا عندي، فقلت: اليوم أسبق أبا بكر إن سبقته يوماً، فجئت بنصف مالي، فقال رسول الله ﷺ: «ما أبقيت لأهلك؟» قلت: مثله، وأتى أبو بكر بكل ما عنده، فقال رسول الله ﷺ: «ما أبقيت لأهلك؟» قال: أبقيت لهم الله ورسوله، فقلت: لا أسابقك إلى شيء أبداً^(٤).

(١) قرأ ابن عامر وحمزة والكسائي وخلف العاشر (فَنِعِمَّا) بفتح النون وكسر العين على الأصل، وقرأ ورش وابن كثير وحفص ويعقوب بكسر النون، إتباعاً لكسرة العين، وهي لغة هذيل، وقرأ أبو جعفر بكسر النون وسكون العين، واختلف عن قالون وأبي عمرو وشعبة، فروى عنهم وجهين: الأول: كسر النون واختلاس كسرة العين؛ فراراً من الجمع بين الساكنين والثاني: كسر النون وإسكان العين كقراءة أبي جعفر، وتشديد الميم متفق عليه.

(٢) قرأ نافع وحمزة والكسائي وأبو جعفر وخلف العاشر (وَيُكَفِّرُهُ) بنون العظمة والجزم، على أنه بدل من موضع (فهو خير لكم) وقرأ ابن كثير وأبو عمرو وشعبة ويعقوب (وَيُكَفِّرُ) بالنون والرفع، على الاستئناف، والواو لعطف جملة على جملة، وقرأ ابن عامر وحفص (وَيُكَفِّرُ) بالياء والرفع.

(٣) رواه الأصفهاني في «الترغيب والترهيب» برقم (١٦٤٣) من طريق محمد بن الصباح بن موسى بن عيسى عن الشعبي وهو عند ابن أبي حاتم (٢٨٤٨) وابن عساكر (٦٤/٣٠) وابن مردويه كما في «أسد الغابة» (٣/٣٢٦).

(٤) «صحيح سنن أبي داود» (١٤٧٢) والترمذي (٣٦٧٥) والحاكم (٤١٤/١).

ثم إن العبد إذا أسر بالصدقة، أو أعلنها؛ فإن الله تعالى يعلم حقيقة أمره إن كان مرائيًا أو مخلصًا، والأفضل في الزكاة المفروضة أن يخرجها العبد علنًا؛ لأن في هذا إحياء وإظهارًا لركن من أركان الإسلام، وحتى لا يُتهم المسلم بعدم إخراجها.

أما صدقة التطوع فالأفضل أن يخرجها الإنسان سرًا:

١- كما قال ﷺ في حديث أنس رضي الله عنه: «صدقة السر تطفئ غضب الرب»^(١).

٢- وعن أبي أمامة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «صنائع المعروف تقي مصارع السوء، وصدقة السر تطفئ غضب الرب، وصلة الرحم تزيد في العمر»^(٢).

٣- وعن كعب بن عجرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «يا كعب بن عجرة، إنه لا يدخل الجنة لحم ودم نبأ على سُحت، النار أولى به، يا كعب بن عجرة، الناس غاديان، فغاد في فكاك نفسه فمعتقها، وغاد موبقها، يا كعب بن عجرة، الصلاة قربان، والصدقة برهان، والصوم جنة، والصدقة تطفئ الخطيئة كما يذهب الجليد على الصفا»^(٣).

٤- وعن عدي بن حاتم رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «ما منكم من أحد إلا سيكلمه الله، ليس بينه وبينه ترجمان، فينظر أيمن منه، فلا يرى إلا ما قدم، وينظر أشأم منه، فلا يرى إلا ما قدم، وينظر بين يديه؛ فلا يرى إلا النار تلقاء وجهه، فاتقوا النار ولو بشق تمرة»^(٤).

٥- وهكذا بين ﷺ أن من يخفي صدقته يكون ضمن السبعة الذين يظلمهم الله في ظله يوم لا ظل إلا ظله: «ورجل تصدق بصدقة فأخفاها حتى لا تعلم شماله ما تنفق يمينه»^(٥).

وصدقة السر في التطوع أجراها مضاعف عن الصدقة المعلنة إلا لمصلحة راجحة، مع نقاء السريرة.

(١) الترمذي عن أنس برقم (٢٣٨٦) ورواه جَمْعٌ من الصحابة.

(٢) أخرجه الطبراني (٨٠/٤) وهو حديث حسن كما في «صحيح الترغيب والترهيب» (٨٨٠).

(٣) أخرجه ابن حبان (٥٥٦٧) وقال محققه: حديث صحيح، ونحوه في المسند (١٥٢٨٤) عن جابر بإسناد قوي على شرط مسلم، ورجال ثقات غير ابن خيثم فصدوق لا بأس به، كما قال محققوه.

(٤) البخاري (٧٥١٢) ومسلم (١٠١٦) وابن أبي شيبة (١١٠/٣).

(٥) «صحيح البخاري» برقم (٦٦٠، ١٤٢٣) و«صحيح مسلم» برقم (١٠٣١) والنسائي (٥٣٩٥).

وزكاة الفريضة المعلنة أفضل من الإسرار بها، وكذا جميع الفرائض.

٦- وفي الحديث عن أنس رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «نعم ابن آدم يتصدق بيمينه يخفيها من شماله»^(١).

أي: إن تظهروا الصدقات فنعْم ما تتصدقون به، لحصول المقصود بها، وإن تُسروها فهو أفضل لكم؛ لأنه أبعد عن الرياء، أما إذا أعطيت الصدقات لغير الفقراء، فإن الأمر يرجع إلى المصلحة، فإن كان فيها إظهار لشعائر الإسلام وحصول الاقتداء ونحو ذلك فالعلانية أفضل من السر في مثل هذه الحالات، وفي ذلك محو لذنوبكم، والله سبحانه لا يخفى عليه شيء، وسوف يجازي كُلاً بعمله.

٧- وفي الحديث عن عقبة بن عامر رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «الجاهر بالقرآن كالجاهر بالصدقة، والمسر بالقرآن كالمسر بالصدقة»^(٢).

فصدقة السر أفضل، إلا إذا ترتب على إظهارها مصلحة راجحة.

٨- وفي حديث عقبة بن عامر رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «كل امرئ في ظل صدقته حتى يُفصل أو يُحكم بين الناس»^(٣).

٩- وعن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «ليتق أحدكم وجهه من النار ولو بشق تمرة»^(٤).

(١) من حديث طويل عن أبي هريرة في «المسند» برقم (٩٦٦٥) بإسناد صحيح على شرط الشيخين، وأوله «سبعة يظلمهم الله في ظله» وأخرجه البخاري (٦٦٠) ومسلم (١٠٣١) والترمذي (٢٣٩١) وابن خزيمة (٣٥٨).

(٢) رواه أحمد في «المسند» (١٥١/٤) برقم (١٧٣٦٨، ١٧٤٤٤) بإسناد صحيح، والبخاري في خلق أفعال العباد (٥٦٧) وأبو يعلى (١٧٣٧) و ابن حبان (٧٣٤) وأبو داود في «السنن» (٣/٢) برقم (١٣٣٣) والترمذي برقم (٢٩١٩) عن عقبة بن عامر.

(٣) «المسند» (١٤٧/٤) برقم (١٧٣٣٣) وقال محققوه: إسناده صحيح، و«صحيح الجامع الصغير» (٤/١٧٠) وابن خزيمة (٢٤٣١) وابن حبان في «الإحسان» (٣٣٩٩) وصححه الحاكم ووافقه الذهبي (١/٤١٦) ورواه الطبراني وأبو يعلى «مجمع الزوائد» (١١٠/٣).

(٤) «المسند» بتصحيح أحمد شاكر رقم (٤٢٦٥) وقال محققوه: صحيح لغيره، وانظر (٣٦٧٩)، و«صحيح الجامع» (٨٣/٥).

١٠- وعن حارثة بن وهب الخزاعي قال: سمعت النبي ﷺ يقول: «تصدقوا، فإنه يأتي عليكم زمان يمشي الرجل بصدقته فلا يجد من يقبلها، يقول الرجل: لو جئت بها بالأمس لقبلتها، فأما اليوم فلا حاجة لي بها»^(١).

١١- وأخرج الطبري وابن أبي حاتم بسند حسن عن علي بن أبي طلحة عن ابن عباس ؓ قال: فجعل الله صدقة السر في التطوع تفضلُ علانيته بسبعين ضعفاً، وجعل صدقة الفريضة، علانيته أفضل من سرها بخمسة وعشرين ضعفاً، وكذلك جميع الفرائض والنوافل^(٢).

جَوَازُ الصَّدَقَةِ عَلَى غَيْرِ الْمُسْلِمِ

٢٧٢- ﴿لَيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَاءُ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ فَلِأَنفُسِكُمْ وَمَا تُنْفِقُوا إِلَّا ابْتِغَاءَ وَجْهِ اللَّهِ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ يُّوفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تُظْلَمُونَ﴾^(٣) والزكاة لا تُعطى إلا لمسلم؛ لقوله ﷺ لمعاذ: «فإن هم أطاعوك لذلك فأعلمهم أن الله افترض عليهم صدقة تؤخذ من أغنيائهم وترد على فقرائهم»^(٤).

وأما صدقة التطوع فيجوز إخراجها لغير المسلم، ولما امتنع بعض المسلمين عن إخراج الصدقة لغير المسلمين؛ أنزل الله سبحانه يؤدبهم بأدب الإسلام فقال: ﴿لَيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَاءُ﴾ أي: لا تمنعوا عن غير المسلمين المحتاجين صدقاتكم؛ بسبب عدم إسلامهم؛ فإن الهدى من الله؛ والتوفيق بيد الله.

قيل في سبب النزول: إن ناساً من المسلمين كانت لهم قرابات وأصهار من اليهود، وكانوا ينفقون عليهم قبل أن يسلموا، فلما أسلموا كرهوا أن ينفقوا عليهم حتى يسلموا^(٥).

وقيل: نهى رسول الله ﷺ عن التصديق على المشركين؛ كي تحملهم الحاجة إلى الدخول في الإسلام، فلما نزلت هذه الآية قال: «أعطوهم وتصدقوا عليهم»^(٥).

(١) البخاري (١٤١١، ٧١٢٠) ومسلم (١٠١١) والمسند (١٨٧٢٦) والنسائي (٢٥٥٤) وابن أبي شيبة (١١١/٣).

(٢) الطبري (١٥/٥) وابن أبي حاتم (٢٨٤٧).

(٣) البخاري (١٣٩٥، ٧٣٧١) ومسلم (١٩).

(٤) الطبري (٢٠/٥).

(٥) يُنْظَر: ابن أبي حاتم (٢٨٥٣) والضياء في «المختارة» (١٠/١١٣، ١١٤، ١١٥) وابن المنذر.

وكان المسلمون يتصدقون على فقراء أهل الذمة، فلما كثر فقراء المسلمين، قال لهم النبي ﷺ: «لا تتصدقوا إلا على أهل دينكم»^(١)؛ فنزلت الآية مبيحة للصدقة عليهم.

فيكون المعنى: ما دمتم تقصدون وجه الله وصلة الرحم، فتصدقوا عليهم.

وقال العلماء: لو أنفقت على شر خلق الله؛ لكان لك ثواب نفقتك، والمراد: صدقة التطوع.

فالهدى في الآية بمعنى: خَلَقَ الإيمان في قلب العبد، وهذا من الله سبحانه فليست أيها الرسول مسؤولاً عن هداية الكافرين، ولكن الله يُوفِّق للهداية مَنْ عَلِمَ منه قبولها والاستعداد لها.

وأما الهداية بمعنى الدلالة والنصح والإرشاد، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، فهي وظيفة الأنبياء والرسل، والدعاة والمخلصين ﴿وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ فَلَأَنْفُسِكُمْ﴾ أي: وما تبذلوا من مال يعود نفعه عليكم، والمؤمن يتبغى مرضاة ربه بالنفقة، وهو سبحانه يشب عليها ولا ينقصكم شيئاً جزاء أعمالكم ﴿وَمَا تُنْفِقُوا إِلَّا ابْتِغَاءَ وَجْهِ اللَّهِ﴾ وقد ورد الحض على بذل المال بلفظ الإنفاق في الآية ثلاث مرات؛ لمزيد من الاهتمام به، وقد أثبتت الآية صفة الوجه لله تعالى بما يليق بجلاله.

والحاصل: أن المتصدق إذا تصدق ابتغاء وجه الله تعالى؛ فأجره على الله، ولا عليه إن وقعت في يد برٍّ أو فاجر.

في الصحيحين عن أبي هريرة ؓ: «أن رجلاً تصدق بصدقة فوقعت في يد زانية، ثم تصدق بصدقة ثانية فوقعت في يد سارق، ثم تصدق بالثالثة فوقعت في يد غني، فتعجب من ذلك والناس يتحدثون، فأوحى الله تعالى إليه: أما صدقتك فقد قبلت، فلعل الزانية تستعف، ولعل السارق يستعف، ولعل الغني يعتبر»^(٢)

ومما يذكر في مناسبة هذه الآية لما قبلها أن الله تعالى ذكر أصناف الناس في الصدقة؛ فذكر أن:

١- منهم المراءون غير المؤمنين.

(١) ابن أبي شيبه (١٧٧/٣) عن سعيد بن جبير.

(٢) يُنظَر: مسلم برقم (١٠٢٢) والبخاري برقم (١٤٢١).

٢- ومنهم مَنْ يُبْطِلُ صَدَقَتَهُ بِالْمَنِّ وَالْأَذَى .

٣- ومنهم مَنْ يَتَصَدَّقُ بِالرَّدِيِّ .

٤- ومنهم من يخوفه الشيطان من الفقر، ويأمره بالبخل .

ووجود هذه الأصناف في الأمة يشق على النبي ﷺ، فعقَّب الله على ذلك بما يُسكِّن نفسه ويهون الأمر عليه، بأن خَلَقَ الْهُدَى في قلوب الناس يأتي من الله وحده، ولكن عليك البلاغ والنصح والإرشاد.

وفي هذا دلالة على أن النفقة كما تكون على المسلم تكون على غيره ولو لم يهتد، ونفع الصدقة يعود على المتصدق في كل حال، ﴿وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ فَلِأَنْفُسِكُمْ﴾ ويوم القيامة تستوفون أجوركم ولا تنقصون شيئاً من أعمالكم، كما لا يزداد في سيئاتكم ﴿وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ يُؤْتِ إِلَيْكُمْ﴾ أجره كاملاً غير منقوص ﴿وَأَنْتُمْ لَا تَظْلُمُونَ﴾ ولا مثقال ذرة.

سِتَّةُ أَوصَافٍ لِلْفُقَرَاءِ الْمُتَعَفِّفِينَ

٢٧٣- ﴿لِلْفُقَرَاءِ الَّذِينَ أُحْصِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ لَا يَسْتَطِيعُونَ ضَرْبًا فِي الْأَرْضِ يَحْسَبُهُمُ^(١) الْجَاهِلُ أَغْنِيَاءَ مِنَ التَّعَفُّفِ تَعْرِفُهُمْ بِسِيمَاهُمْ لَا يَسْأَلُونَ النَّاسَ إِلْحَافًا وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ

وتكون الصدقة سرّاً لمن لم يسأل الناس، ولمن يتظاهر بالغنى، وهو ليس من أهل الغنى، ممن وصفهم الله في كتابه بستة أوصاف، وصف الله بها أهل الصُّفَّة، وقد نزلت هذه الآية فيهم، وكان النبي ﷺ يبعث بالصدقات إليهم، وهم فقراء المهاجرين الذين تركوا ديارهم وأموالهم في مكة، وحصرُوا أَنْفُسَهُمْ على الطاعة وقصروها عليها، وعلى الغزو في سبيل الله، فلا يستطيعون تجارة ولا عملاً.

وصُفَّةُ المسجد النبوي مكان معروف بُنِيَ لضعفاء المسلمين، وهو مميز بارتفاع قليل خلف قبر المصطفى ﷺ كانوا يجلسون فيه:

(١) قرأ ابن عامر وعاصم وحزمة وأبو جعفر بفتح سين (يحسبهم) على الأصل، وهي لغة تميم، وقرأ الباقون بالكسر، وهي لغة أهل الحجاز.

١- في حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال لي رسول الله ﷺ: «الْحَقُّ إِلَى أَهْلِ الصُّفَّةِ فَادْعِهِمْ لِي قَالَ: وَأَهْلُ الصُّفَّةِ أَضْيَافُ الْإِسْلَامِ، لَا يَأْوُونَ إِلَى أَهْلِ وَلَا مَالٍ، إِذَا أَتَتْهُ صَدَقَةٌ بَعَثَ بِهَا إِلَيْهِمْ وَلَمْ يَتَنَاوَلْ مِنْهَا شَيْئًا، وَإِذَا أَتَتْهُ هَدِيَّةٌ أَرْسَلَ إِلَيْهِمْ وَأَصَابَ مِنْهَا»^(١).

٢- وعن فضالة بن عبيد قال: كان رسول الله ﷺ إذا صلى بالناس خَرَّ رجال من قانتهم في صلاتهم، لما بهم من الخَصَاصَةِ، وهم أصحاب الصُّفَّةِ حتى يقول الأعراب: إن هؤلاء مجانين^(٢).

وقد وصف الله تعالى أهل الصُّفَّةِ وأمثالهم إلى قيام الساعة بستة أوصاف وهي:

أولاً: أنهم فقراء يحتاجون إلى العون والمساعدة في ضرورات الحياة، فالصدقات إنما هي ﴿لِلْفُقَرَاءِ﴾.

ثانياً: وأهل الصُّفَّةِ كانوا قد حصروا أنفسهم على الطاعة والجهاد في سبيل الله، فهم ﴿الَّذِينَ أَحْصَرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾، مستعدون للجهاد، محبسون له.

ثالثاً: أنهم لا يستطيعون السعي في الأرض للتكسب، والتجارة، أو الزراعة، أو الصناعة لأسباب خارجة عن إرادتهم، فهم عاجزون عن الأسفار لطلب الرزق ﴿لَا يَسْتَطِيعُونَ ضَرْبًا فِي الْأَرْضِ﴾ والضرب هو السعي، أي أنهم لا يستطيعون السعي على المعاش؛ لما بهم من مرض، أو شيخوخة، أو عدو يحاصرهم، أو عدم وجود وسيلة للعمل، ونحو ذلك.

رابعاً: أن نفوسهم عالية، فهم مع حاجتهم متعففون عن السؤال لا يمدون أيديهم لأحد، ومن لا يعرف حالهم يظنهم أغنياء، لحسن مظهرهم، وعدم تبذلهم، وتعرضهم للسؤال ﴿يَحْسَبُهُمُ الْجَاهِلُ أَغْنِيَاءَ مِنَ التَّعَفُّفِ﴾، فهم صابرون متعففون.

خامساً: أن آثار الفقر، وشدة الحاجة، وقلة اليد، وأثر الجهد، مع التخشع والخضوع تَبْدُو في وجوههم، يعرفها من يتفرس حالهم ﴿تَعْرِفُهُمْ بِسِيمَاهُمْ﴾، بالعلامة التي ذكرها

(١) البخاري (٦٤٥٢) ويُنظر: تحفة الأشراف (١٤٣٤٤)، من حديث طويل.

(٢) أخرجه أبو نعيم في «الحلية» (٣٣٩/١) (١٧/٢) والحديث عند أحمد (٢٣٩٣٨) بإسناد صحيح، والبخار في مسنده (٣٧٥٠) وابن حبان (٧٢٤) والبيهقي في الشعب (١٠٣١٦، ١٠٤٤١) و«صحيح سنن الترمذي» (١٩٣٠).

الله في وصفهم.

سادساً: أنهم لا يسألون الناس شيئاً مع عوزهم وشدة حالتهم، فهم لا يسألون مطلقاً فضلاً عن الإلحاح في المسألة، ولو كانوا يسألون لَظَنَ من يجهل حالهم أنهم أغنياء، فهم ﴿لَا يَسْأَلُونَ النَّاسَ إِلْحَافًا﴾ أي: إلحاحاً، والمراد أنهم لا يسألون أصلاً، والسؤال يجوز عند الضرورة، ولا يصح لمن عنده ما يُغذِّيه ويُعِيشه أن يسأل الناس شيئاً للحديث عن سهل بن الحنظلية أن رسول الله ﷺ قال: «من سأل شيئاً وعنده ما يغنيه فإنما يستكثر من جمر جهنم» قالوا: يا رسول الله وما يغنيه، قال: «ما يُغذِّيه أو يعِيشه»^(١).

والإلحاف: هو الإلحاح، والمعنى لا يسألون الناس إلحافاً ولا غير إلحاف لا ملحين في السؤال ولا غير ملحين.

وسئل رسول الله ﷺ عن المسكين فقال: «الذي لا يجد غنى يغنيه، ولا يُفطن له فيُتصدق عليه، ولا يسأل الناس شيئاً»^(٢).

وعن عوف بن مالك الأشجعي قال: كنا عند رسول الله ﷺ تسعة، أو ثمانية، أو سبعة فقال: «ألا تبايعون رسول الله»، فقلنا: علام نبايعك؟ قال: «أن تعبدوا الله ولا تشركوا به شيئاً، والصلوات الخمس، وتطيعوا، ولا تسألوا الناس»، فلقد رأيت بعض أولئك نفر يسقط سوط أحدهم، فما يسأل أحداً يناوله إياه»^(٣).

قال تعالى: ﴿لِلْفُقَرَاءِ﴾ وهم أهل الصُّفَّة وكانوا نحو أربع مئة رجل، ليس لهم سكن ولا زوجات، وهم من المهاجرين الذين أخرجوا من مكة، وتركوا أموالهم وأولادهم، وأقاموا في صُفَّة المسجد، يتعلمون القرآن بالليل، ويرضخون النوى بالنهار، وحبسوا أنفسهم على الجهاد في سبيل الله، وجلسوا تحت سقف المسجد النبوي، ومنعوا أنفسهم من العمل وأوقفوها على طاعة الله والجهاد في سبيله، وليس في إمكانهم السعي في طلب العيش، والسبب في ذلك هو الانقطاع للجهاد والغزو مع رسول الله ﷺ، وكانت الأرض كلها كفراً وحرماً عليهم، لا يستطيع أحدهم أن يبحث عن رزقه فكان لا يتوجه جهة إلا والعدو في مواجهته، فحصرهم المشركون في المدينة، وحبسوا أنفسهم على الجهاد مع

(١) «المسند» (١٧٦٢٥) بإسناد صحيح رجال ثقات، وأبو داود (١٦٢٩) وابن خزيمة (٢٣٩١) وابن حبان (٥٤٥، ٣٣٩٤) و«صحيح سنن أبي داود» (١٤٣٥).

(٢) «صحيح مسلم» برقم (١٠٣) و«صحيح البخاري» برقم (٤٥٣٩).

(٣) مسلم (١٠٤٣) والنسائي (٤٥٩) والترمذي.

رسول الله وإذا نظرت إليهم تظنهم أثرياء لتعففهم وعدم تبذلهم: ﴿يَحْسَبُهُمُ الْجَاهِلُ أَغْنِيََاءَ مِنَ التَّعَفُّفِ﴾ والقناعة، وهم لا يسألون الناس أصلاً من كان عنده منهم الغداء، فلا يسأل العشاء.

فاجعلوا صدقاتكم لمثل هؤلاء من المجاهدين في سبيل الله، المرابطين على ثغور الإسلام؛ فَإِنَّ شُغْلَهُم بِالْجِهَادِ يَمْنَعُهُم مِنَ السَّفَرِ وَطَلَبِ الرِّزْقِ، وآثار الحاجة واضحة على وجوههم، وهم أهل نفس أبية وهمة عالية لا يسألون إلا عند الضرورة، وإذا سألوا لم يُلْحُوا، والله تعالى لا تخفى عليه النفقة التي تبذلونها لهم وسيجازيكم عليها أوفى الجزاء ﴿وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ﴾.

وأمثال هؤلاء هم أولى الناس بالصدقة، أما النفقة من حيث هي، فتكون على أي شخص كان، فهي خير وإحسان وبر يثاب عليها صاحبها ويؤجر.

وهذه جملة من الأحاديث في ذم السؤال:

١- والنبي ﷺ قال فيما يرويه عبد الله بن عمر ؓ: «أن النبي ﷺ: «لا تزال المسألة بأحدكم حتى يلقى الله وما في وجهه مزعة لحم»^(١) أي: ليس في وجهه لحم قط.

٢- وفي الصحيحين عن أبي هريرة ؓ أن النبي ﷺ قال: «ليس الغنى عن كثرة العرض إنما الغنى غنى النفس»^(٢).

٣- وفي الحديث عن أبي هريرة ؓ أن النبي ﷺ قال: «ليس المسكين بالطواف، الذي ترده التمرة والتمرتان، واللقة واللقتان... ولكن المسكين الذي لا يجد غنى يغنيه، ولا يُفطن له فيتصدق عليه، ولا يسأل الناس شيئاً»^(٣).

٤- وفي الحديث عن أبي سعيد رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «من استغنى أغناه الله، ومن استعف أعفه الله، ومن استكفى كفاه الله، ومن سأل وله قيمة أوقية، فقد ألحف»، فقلت: ناقتي الياقوتة خير من أوقية، فرجعت ولم أسأله^(١).

٥- وعن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: أعوزنا مرة، فقل لي: لو أتيت رسول الله ﷺ فسألته، فانطلقت إليه معنًا، فكان أول ما واجهني به: «من استعف أعفه الله، ومن استغنى أغناه الله، ومن سألنا لم ندخر عنه شيئًا نجده» قال: فرجعت إلى نفسي فقلت: ألا أستعف فيعفني الله! فرجعت، فما سألت رسول الله ﷺ شيئًا بعد ذلك من أمر حاجة، حتى مالت علينا الدنيا فغرقتنا إلا من عصم الله^(٢).

٦- وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «من سأل الناس تكثرًا، فإنما يسأل جمراً فليستقل أو ليستكثر»^(٣).

والله تعالى يكره لنا: قيل وقال، وكثرة السؤال، وإضاعة المال.

٧- وعن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «من سأل وله ما يغنيه جاءت مسألته يوم القيامة خدوشًا -أو كدوشًا- في وجهه»^(٤).

٨- وعن خالد بن عدي الجهني رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «من بلغه عن أخيه معروف من غير مسألة ولا إشراف نفس فليقبله ولا يرده، فإنما هو رزق ساقه الله إليه»^(٥).

-
- (١) «المسند» (٩/٣)، (١٣٨/٤) برقم (١١٠٦٠) بإسناد قوي، وابن حبان (٣٣٩٠) وأبو داود (١٦٢٨) والنسائي (٩٨/٢) برقم (٢٥٧٠) وفي «الكبرى» (٢٣٦٤) وابن أبي حاتم (٢٨٧٦).
- (٢) رواه أحمد في «المسند» برقم (١٠٩٨٩، ١١٤٠٠) مختصراً، بإسناد صحيح على شرط مسلم ورجاله ثقات، وأخرجه الطيالسي (٢١٦١) وابن حبان (٣٣٩٨) بإسناد حسن، والطبري (٦٢٢٨).
- (٣) مسلم (١٠٤١) وابن أبي شيبه (٢٠٨/٣) وابن ماجه (١٨٣٨).
- (٤) رواه الترمذي برقم (٦٥٠) والنسائي (٩٧/٥) وفي الكبرى (٢٣٨٤) وابن ماجه برقم (١٨٤٠) وهو في «المسند» (٣٨٨/١) برقم (٣٦٧٥) بنحوه، وإسناده حسن، وأبو داود (١٦٢٦).
- (٥) «المسند» (١٧٩٣٦) وأبو يعلى (٩٢٥) وابن حبان (٥١٠٨، ٣٤٠٤) والطبراني في «الكبير» (٤١٢٤) والحاكم (٦٢/٢) قال محققو المسند: إسناده صحيح، ورجاله ثقات رجال الشيخين غير صحابية لم يُروَ عنها في الكتب الستة.

٩- وعن أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «من أتاه الله شيئاً من هذا المال من غير أن يسأله، فليقبله، فإنما هو رزق ساقه الله إليه»^(١).

وقد حرم الإسلام السؤال لغير ضرورة، وحث على العمل وطلب الرزق.

١٠- في حديث أنس رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «إن المسألة لا تحل إلا لثلاثة: لذي فقر مدقع، أو لذي غرم مفظع، أو لذي دم موجع»^(٢).

والفقر المدقع: هو الفقر الشديد، وصاحب الغرم هو: الذي تحمّل مآلاً بسبب الإصلاح بين الناس، أو لحفظ مصلحة عامة، أو دفع مظلمة.

وصاحب الدم: هو الذي طُلبت منه دية المقتول، عنه أو عن قريب له.

١١- وفي الحديث عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «لا تحل الصدقة لغني ولا لذي مرّة سوي»^(٣) وهو القوي القادر على العمل.

١٢- وجاء رجلان إلى النبي ﷺ يسألانه الصدقة فقلّب فيهما البصر، ورآهما جلدّين، فقال: «إن شئتما أعطيتكما، ولا حظ فيها لغني ولا لقوي مكتسب»^(٤).

١٣- وعن أبي هريرة أن النبي ﷺ قال: «لأن يغدو أحدكم فيحتطب على ظهره فيتصدق منه ويستغني به الناس خير له من أن يسأل رجلاً أعطاه أو منعه»^(٥).

(١) «المسند» (٧٩٢١، ٩٢٩٤) قال محققوه: صحيح لغيره، ورجاله ثقات رجال الشيخين غير عبدالملك.

(٢) من حديث طويل عن أنس بن مالك في «سنن أبي داود» برقم (١٦٤١) وأخرجه الترمذي والنسائي كما في «جامع الأصول» (٧٦٤١) وأخرجه أيضاً أحمد برقم (١٢١٣٤، ١٢٢٧٨) حسن لغيره والطيالسي (٢١٤٥). وابن ماجه وهو في «الترغيب والترهيب» (١١٩٩) وأخرجه الضياء في المختارة (٢٢٦١).

(٣) ابن ماجه (١٨٣٩) و«المسند» (٨٩٠٨) حديث صحيح وإسناد رجاله ثقات رجال الصحيح، وأخرجه ابن ماجه (١٥٣٩) وأبو يعلى (٦٤٠١) وابن خزيمة (٢٣٨٧) وابن حبان (٣٢٩٠) والنسائي في «الكبرى» (٢٣٨٩).

(٤) من حديث عبيد بن عديّ بن الخيار، في «سنن أبي داود» (١٦٣٣) و«المسند» (١٧٩٧٢) إسناده صحيح على شرط الشيخين وأخرجه البغوي في شرح السنة (١٥٩٨) وعبدالرزاق (٧١٥٤) والطبراني في الأوسط (٢٧٤٣).

(٥) البخاري (١٤٧٠، ١٤٨٠، ٢٣٧٤) ومسلم (١٠٦، ١٠٤٢) و«المسند» (٩٨٦٨) وابن حبان (٣٣٨٧) والنسائي في «الكبرى» (٢٣٧٦، ٢٣٨١).

أَجْرُ الْمُتَصَدِّقِ فِي السِّرِّ وَالْعَلَنِ

٢٧٤- ﴿الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ سِرًّا وَعَلَانِيَةً فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ ﴿٢٧٤﴾

ذكرت هذه الآية أن المتنفقين أموالهم في جميع الأحوال، طاعة لله وطلبًا لمرضاته، لا في المحرمات ولا في المكروهات أو الشهوات، هؤلاء أعد الله لهم أجرا عظيما يوم لقاء الله، فهم لا يخافون إذا خاف المقصرون، ولا يحزنون إذا حزن المفرطون، ففازوا بالثواب الجزيل ونجوا من العقاب الوخيم.

أسباب النزول

١- روى ابن عباس رضي الله عنه أن علي بن أبي طالب رضي الله عنه، كان عنده أربعة دراهم لا يملك غيرها، فتصدق بدرهم ليلاً، وبدرهم نهاراً، وبدرهم سراً، وبدرهم علانية فأنزل الله الآية^(١).

٢- وفي رواية عنه أنه لما نزل قوله تعالى: ﴿لِلْفُقَرَاءِ الَّذِينَ أُحْصِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ بعث عبد الرحمن بن عوف بدنانير كثيرة إلى أهل الصُّفَّة، وبعث علي بن أبي طالب في الليل بوسق من تمر، فأنزل الله الآية.

ويعني بنفقة الليل: نفقة (علي). ويعني بنفقة النهار: نفقة (عبد الرحمن بن عوف).

وفي الآية إشارة إلى أن صدقة السر أفضل من صدقة العلانية؛ لأنه سبحانه قدّم نفقة الليل على نفقة النهار، وقدم نفقة السر على نفقة العلانية.

والآية عامة في الذين ينفقون أموالهم في جميع الأوقات، ويعممون بها أصحاب الحاجات والفاقات.

٣- وقد ثبت في الصحيحين أن النبي ﷺ قال لسعد بن أبي وقاص رضي الله عنه، حين عاده مريضاً: «إنك لن تُنفق نفقة تبغي بها وجه الله إلا ازددت بها رفعة حتى ما تجعل في في امرأتك»^(٢) أي: حتى ما أطعمت به امرأتك ووضعت في فمها.

(١) «تفسير الفخر الرازي» (٨٨/٧).

(٢) «فتح الباري» (١٥٣/١) وهو في البخاري برقم (٦٧٣٣) ومسلم (١٢١٩/١) برقم (١٦٢٨).

٤- وروى الإمام أحمد وغيره عن أبي مسعود رضي الله عنه عن النبي ﷺ أنه قال: «إن المسلم إذا أنفق على أهله نفقة يحسبها كانت له صدقة»^(١)

ومن أعظم النفقات أجراً النفقة على من في البيت، لتربية الأولاد، وسد حاجة الزوجة، والأبوين وسائر الأرحام.

وفي الآية ثناء ومدح لمن ينفقون أموالهم بنية خالصة ابتغاء مرضاة الله تعالى في جميع أحوالهم، في حالة العسر واليسر، والمنشط والمكره، وفي السر والعلن، والليل والنهار؛ فإن لهم جزاء أعمالهم يوم لقاء رب العالمين، ولا يخافون من مستقبلهم بعد فراق الدنيا، ولا يحزنون على ما فاتهم من حظوظها، هذا هو منهج الإسلام في سد حاجة الفقراء في عزة وكرامة، وتحقيق التكافل والتعاون بين المجتمع، وحل لمشكلة الفقر بين أبنائه، وتطهير مال الأغنياء، دون قهر ولا إكراه.

ومن شأن ذلك تحقيق المحبة بين الأغنياء والفقراء، وعلاج الحقد والحسد من الفقير على الغني. وهذا من مقومات الاقتصاد الإسلامي، ومن شأنه القضاء على الربا، وعلاج أسبابه بسد حاجة المعوزين، وغناء لهم عن ذل السؤال وتكفف الناس.

هذه تمام الأربع عشرة آية المتتابعة التي تتحدث عن النفقة، من قوله تعالى:

﴿مَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ﴾ إلى هنا.

الْحُكْمُ التَّشْرِيعِيُّ السَّادِسُ وَالثَّلَاثُونَ: تَحْرِيمُ الرِّبَا

٢٧٥- ﴿الَّذِينَ يَأْكُلُونَ الرِّبَا لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ الَّذِي يَتَخَبَّطُهُ الشَّيْطَانُ مِنَ الْمَسِّ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا إِنَّمَا الْبَيْعُ مِثْلُ الرِّبَا وَأَحَلَّ اللَّهُ الْبَيْعَ وَحَرَّمَ الرِّبَا فَمَنْ جَاءَهُ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّهِ فَانْتَهَى فَلَهُ مَا سَلَفَ وَأَمْرُهُ إِلَى اللَّهِ وَمَنْ عَادَ فَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٧٥﴾﴾

(١) أحمد (٣٦/١) برقم (١٧٠٨٢) ورواه البخاري برقم (٥٣٥١، ٤٠٠٦، ٥٥) و«الأدب المفرد» (٧٤٩) ومسلم برقم (١٠٠٢) وابن ماجه برقم (٢٢٧٦) والترمذي (١٩٦٥) وابن حبان (٤٢٣٩) و«سنن النسائي الكبرى» (٢٣٣٧، ٩١٦١).

جاء الإسلام فوجد الربا متفشياً بين الناس في الجاهلية، ووجده منتشرًا بين القبائل العربية، بسبب المجاورة لليهود؛ لأن اليهود يتعاملون بالربا، ويأخذون الفوائد الباهظة على الأموال وعلى السلاح الذي كانوا يعطونه للمتقاتلين من الفرقاء العرب.

تدرج الإسلام في تحريم الربا، كما تدرج في تحريم الخمر، والقرآن الذي نزل في مكة ليس فيه تشريع غالبًا، ولا حلال ولا حرام، وإنما فيه إشارات لبعض الأحكام تمهيدًا للتحريم القاطع، بشأن الربا والخمر وغيرهما، والتحليل والتحريم نزل في المدينة على رسول الله ﷺ، وقد مرَّ تحريم الربا بثلاث مراحل:

المرحلة الأولى: أول آية تشير إلى تحريم الربا، وتبين أن الله ﷻ يذمه، ويغضه، ويمحقه، ولا يباركه، نزلت في مكة، مع المقابلة بالصدقة، وأن الله تعالى يربي الصدقات ويزيدها ويُنمِّيها لعباده في الدنيا والآخرة، وهي قوله سبحانه في [سورة الروم: ٣٩] وهي سورة مكية: ﴿وَمَا آتَيْتُم مِّن رَّبًّا لِّرَبُّوٓا۟ فِيٓ أَمْوَالِ النَّاسِ فَلَا يَرِيٓوٓا۟ عِنْدَ اللَّهِ وَمَا آتَيْتُم مِّن زَكَاةٍ تُرِيدُونَ وَجْهَ اللَّهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُضْعِفُونَ﴾ ﴿٣٩﴾

فهذه الآية، فيها إشارة إلى أن الله سبحانه ييغض الربا، وأنه لا ينمو ولا يبارك فيه، ولا يزداد في الحقيقة، بل هو وبال على آكله وموكله.

ويمدح الله ﷻ البديل عن الربا، أو الوجه الصالح للأموال، وذلك بإنفاقه في سبيل الله؛ في الصدقة، والزكاة، وأنواع البرِّ.

ومن القرآن المدني الذي يمثل المرحلة الأولى في تحريم الربا قول الله سبحانه في شأن اليهود: ﴿فِطْرَ مِّنَ الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَاتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ وَبِصَدِّهِمْ عَنِ سَبِيلِ اللَّهِ كَثِيرًا﴾ ﴿١٦٠﴾ وَأَخَذَهُمُ الرِّبَا وَقَدْ هُمُوهَا عَنْهُ وَأَكْلَهُمْ أَمْوَالِ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٦١﴾ [النساء: ١٦٠، ١٦١].

ففي هذه الآية إشارة أو بيان إلى أن الله ﷻ قد حرَّم الربا على اليهود.

والربا محرم في اليهودية، والنصرانية، والإسلام، وسائر الشرائع الإلهية.

والآية تشير إلى أن الربا كما هو محرم عند اليهود، محرم عند المسلمين، وفيها إشارة تلميحية، وليست تصريحية إلى تحريم الربا عند المسلمين؛ لأنها تذكّر الربا عند اليهود،

الذين كانوا يأكلونه ويتعاملون به ولا يزالون.

المرحلة الثانية في تحريم الربا: جاءت في الآية ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَأْكُلُوا الرِّبَا أَضْعَافًا مُّضَاعَفَةً وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [آل عمران: ١٣٠].
حيث حرم الله سبحانه نوعاً معيناً من الربا تحريماً جزئياً، هو أكل الربا أضْعَافاً مضاعفة، أي: الربا الفاحش الذي يبلغ قيمة رأس المال أضْعَافاً، ويزداد كلما حلّ الأجل ازدادت القيمة، فيتضاعف رأس المال أضْعَافاً مضاعفة.

وهذا تحريم للربا الفاحش، وهو تحريم جزئي مرحلي، وليس تحريماً كلياً شاملاً.
كما أن الله سبحانه حرم شرب الخمر على المسلم إذا أراد الصلاة في قوله تعالى: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَقْرَبُوا الصَّلَاةَ وَأَنْتُمْ سُكَارَى﴾ [النساء: ٤٣]. فهذا تحريم جزئي ممهّد للتحريم الشامل.

المرحلة الثالثة من تحريم الربا: أما المرحلة الأخيرة التي حرم الله ﷻ فيها الربا تحريماً كاملاً قطعياً، فقد جاء في الآيات التي نحن بصدددها، وهي آخر آيات نزلت في أحكام الربا، وقد خُتمت بآخر آيات القرآن نزولاً فيما يتعلق بالربا ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَذَرُوا مَا بَقِيَ مِنَ الرِّبَا إِن كُنْتُمْ مُّؤْمِنِينَ﴾.

وقد جاء الإسلام فوجد الربا المتفشى المنتشر في الجاهلية على نوعين:

النوع الأول: ربا النسيئة: وهو بيع الشيء بمثله مؤجلاً.

والنسيئة تعني: التأخير والتأجيل، وذلكم: أن الرجل يكون له على الآخر دين، بسبب بيع أو شراء، أو بسبب قرض اقترضه إلى أجل مسمى، بضمن أو بفائدة مشترطة ومعلومة مسبقاً، قدرها كذا، هذا هو ربا النسيئة، أي: التأخير في سداد الدين.

وكان الرجل إذا حلّ الأجل، أي: وقت دفع الدين، وليس عنده ما يدفعه، فإنه يطلب من الدائن أن يُنظره إلى أو الأجل القادم ويزيده في الفائدة، فزيادة المدة مقابل الزيادة في المال.

وقد يعرض الدائن على المدين زيادة المال مقابل زيادة المدة، وكل رباً في العصر الحاضر يدخل تحت هذا المعنى، فهو من ربا النسيئة الجاهلية، فلو أن المصارف أعطت

الشركات، أو المؤسسات، أو الأشخاص، أو أخذت منهم قدرًا من المال إلى أجل مسمى نظير فائدة معينة، قدرها كذا في المئة معلومة ومشرطة مسبقًا، فإن هذا يدخل في ربا النسيئة الذي حرمه الكتاب والسنة.

والمصارف الإسلامية لوجود ما فيها من شبهة اختلاط الأموال، واتحاد مقدار الربح أو العائد غالبًا مع البنوك الأخرى، مع فارق يسير هو مجال التنافس بين البنوك، فإنها كلها تدور في فلك واحد متقارب جدًا وفق الإطار العالمي وتعليمات البنك المركزي.

ومع ذلك فإن المصارف الإسلامية هي أفضل الموجود، وينبغي أن تُشجّع حتى تستقل اقتصاديًا.

والبدل عن نظام الاقتصاد الغربي الذي نطقه هو التعامل الإسلامي، وهو لا يحتاج إلى تغيير المباني، ولا إلى تغيير المكاتب، ولا إلى تغيير الأشخاص، ولا إلى تغيير آلية العمل، إنما يكون بتغيير النية، فبدلًا من أن يعطي البنك فائدة معينة، فإنه يدخل مُضاربًا مع الشخص أو الشركة، أو المؤسسة، مضاربة شرعية إسلامية، يدفع أحدهما المال وعلى الطرف الآخر الخبرة والعمل، وله نظير ذلك قدر من الربح مشروط معين.

هذه المضاربة الشرعية ومثلها المرابحة والمشاركة، تكون بين المصارف والمؤسسات المالية، وبين الشركات والأشخاص، والربح فيها لا يخضع لنسبة معلومة؛ حتى لا يدخل في الربا، وإنما يخضع للنتائج الحقيقية العملية في آخر المدة المتفق عليها، حيث تكون الحسابات للربح أو الخسارة، قل أو كثر.

وقد وجدت بعض المصارف أن إضفاء كلمة الإسلام عليها، يجلب لها الثقة وكثرة المتعاملين فتوسعت في إيجادها حتى في بريطانيا وأمريكا وكندا وغيرها فضلًا عن بلاد الإسلام.

إن اليهود في القديم كانوا يتعاملون بالربا أفرادًا، وهم الآن يتعاملون به عالميًا، في مصارف وبنوك العالم، حتى تؤول الأموال إليهم في النهاية، ثم تعود إلينا لتقضم ظهورنا وتسفك دماءنا، وتفرّق بيننا، وتحتل أرضنا، وتفسد أخلاقنا، وتبدد طاقاتنا، وتقتل شبابنا بطرق خفية، وطرق مكشوفة، في صورة أسلحة، ومراقص، وملاهي، وملاعب، وأفلام، وصحف، ومخدرات، ومسكرات، ومواد غذائية ورياضية، وترفيهية، وغير ذلك من وسائل التدمير، والخراب، والفساد الذي يفعله بنا اليهود.

ولذلك فإن الفتوى لمن اضطر إلى وضع ماله لدى المصرف وليس عنده بديل، إلا أن يترك الفائدة للبنك فالأولى أن يأخذها ويتصرف فيها أو يتخلص منها بوضعها في منفعة عامة للناس، ولا تعتبر من باب الصدقة ولا من باب الزكاة؛ لأن الله ﷻ طيب لا يقبل إلا طيباً، وهذا ما عليه المجامع الفقهية، وديار الفتوى في العالم الإسلامي في الوقت المعاصر.

ولبعض أهل العلم اجتهادات مخالفة، ترى أن تتعامل البنوك ليس من الربا وإن حُددت الفائدة.

النوع الثاني: هو ربا الفضل: وهو زيادة أحد العوضين في البيع مع المماثلة بينهما.

والفضل هو: الزيادة؛ وذلك كأن يبيع الإنسان نقداً بنقد، ذهباً بذهب، أو فضة بفضة، أو غير ذلك كالتمر بالتمر، أو البرّ بالبرّ، ونحو ذلك مما هو متحد في النوعية والجنس مع شرط التماثل، والمساواة، والتقابض في المجلس.

ولا عبرة باختلاف الجودة والرداءة، بأن يكون أحدهما أجود من الآخر، أو أقدم أو أحدث.

فبيع الصنف بنظيره مع زيادة في أحد النظيرين بزيادة بعض الجرامات في الذهب، أو بعض النقود بالنقود، أو زيادة الكيل في أرز، أو برّ، أو شعير، أو نحو ذلك.

وقد بيّن النبي ﷺ حكم ذلك، فذكر ستة أنواع في الحديث الصحيح المعروف: «لا تبيعوا الذهب بالذهب، والفضة بالفضة»^(١)، وهذه إشارة إلى الأثمان التي تُقَوَّم بها السلع، وهي الأموال، والأموال ليست سلعة للتجارة يباع فيها النقد بالنقد؛ لأن المال تُشترى به السلع، ولا يباع بعضه ببعض، هذا هو الأصل في استعمال المال، فإذا ذهب إلى الصائغ تستبدل منه حليّاً قديماً بحليٍّ جديد، فعليك أن تبيع الحلي القديم بيعاً مستقلاً، ثم تشتري غيره شراءً مستقلاً، تقبض هذا وتدفع هذا، أو تعطي هذا وتأخذ هذا، أما أن يعطي القديم ويبادله بالجديد، ويأخذ الفرق، فهذا هو المنهي عنه في: «لا تبيعوا الذهب بالذهب، والفضة بالفضة إلا مثلاً بمثل سواء بسواء» ثم أشار النبي ﷺ في بقية الحديث إلى عناصر الأغذية الرئيسية من المأكولات: «البرّ بالبرّ، والشعير بالشعير، والتمر بالتمر، والزبيب بالزبيب» فالمأكولات تدخل تحت هذه الأنواع الأربعة.

(١) يُنظر: حديث عبادة بن الصامت في «صحيح مسلم» (١٥٨٧) وأبي داود (٣٣٤٩) وابن ماجه (٢٢٥٤) والترمذي (١٢٤٠) و«المسند» (٢٢٦٨٣) وابن حبان (٥٠١٥) و«سنن النسائي الكبرى» (٦١١١، ٦١١٢).

وقد وضع النبي ﷺ شرطين لبيع هذه الأشياء الستة وما عداها يأخذ حكمها:

الشرط الأول: أن يكون البيع ناجزاً، أي: في الحال، سلّم واستلم، يدّاً بيد.

والشرط الثاني: المماثلة في الكيل أو الوزن أو العدد، سواء بسواء، قال ﷺ: «فإن اختلفت الأجناس» يعني: ذهب بفضة، أو بر بشعير، أو تمر بزبيب، أو نحو ذلك: «فبيعوا كيف شئتم يدّاً بيد»؛ إذ لا بأس من التفاضل مع اختلاف النوعية والجنس، هذا هو ربا الفضل، الذي حرّمه الإسلام.

في صحيح مسلم وغيره عن أبي هريرة ؓ «الذهب بالذهب وزناً بوزن، مثلاً بمثل، والفضة بالفضة وزناً بوزن، مثلاً بمثل، فمن زاد أو استزاد فقد أربى»^(١).

وفي لفظ آخر للحديث الذي سبق شرحه في صحيح مسلم من حديث عبادة بن الصامت ؓ قال: قال رسول الله ﷺ: «الذهب بالذهب، والفضة بالفضة، والبر بالبر، والشعير بالشعير، والتمر بالتمر، والملح بالملح، مثلاً بمثل، سواءً بسواء، يدّاً بيد، فإذا اختلفت الأصناف فبيعوا كيف شئتم إذا كان يدّاً بيد»^(٢).

فنص النبي ﷺ على هذه الأصناف الستة، وهي: النقدان، وأربعة من المطعومات هي: البر والشعير والتمر والملح، وذهب عامة أهل العلم إلى أن الربا يتعدى هذه الأصناف إلى غيرها مما هو في حكمها، واشتروا لجواز البيع: التماثل والمساواة والتقابض في مجلس العقد، فقوله ﷺ: «إلا يدّاً بيد» يحرم بيع النسيئة، وقوله: «مثلاً بمثل» يحرم بيع التفاضل عند اتفاق الجنس، ومما جاء في أسباب تحريم الربا:

١- أنه يقتضي أخذ مال الآخرين بغير عوض.

٢- أنه يمنع الناس من الاشتغال بالتجارة ونحوها.

٣- أنه يسبب انقطاع المعروف بين الناس كالقرض الحسن والصدقة والتكافل والبر.

(١) مسلم (١٥٨٨، ٨٤) وابن ماجه (٢٢٥٥) و«المسند» (٧٥٥٨) و«سنن النسائي الكبرى» (٦١١٧).

(٢) البخاري (٢١٧٧، ٢١٧٦) ومسلم (١٥٨٤، ٧٥-٧٧) والترمذي (٢٤١) و«المسند» (١١٠٠٦) وابن حبان

(٥٠١٦) و«سنن النسائي الكبرى» (١٦١٢) و«شرح مشكل الآثار» للطحاوي (٦١٠١، ٦١٠٧) ومثله عن

أبي سعيد الخدري.

٤- أن تحريم الربا ثبت بالنص القاطع وإن خفي علينا وجه الحكمة.

والآية التي نحن بصدددها، تصور حال المرابي في صورة بشعة قبيحة، هي: أنه عندما يقوم يوم القيامة يكون مُثْقَلًا مما أكله من الربا، فيقوم فاقد الحس، كالذي يتخبطه الشيطان من مسه له، وهو تشبيه على الحقيقة، يكون علامة له في الموقف يوم القيامة.

كما قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِّنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُمْ مُبْصِرُونَ﴾ [الأعراف]

أخرج الطبراني بسند صحيح عن قتادة قال في معنى الآية: تلك علامة أهل الربا يوم القيامة، بُعثوا وبهم خَبَلٌ من الشيطان.

قال تعالى: ﴿الَّذِينَ يَأْكُلُونَ الرِّبَا﴾ أي: يتعاملون به ويمتصون دماء الناس، وهذا إخبار عن سوء مالهم، وأنهم ﴿لَا يَقُومُونَ﴾ أي: من قبورهم يوم القيامة حين البعث والنشور ﴿إِلَّا كَمَا يَقُومُ﴾ المصروع من جنونه مخبولا متخبطا، وهو ﴿الَّذِي يَتَخَبَّطُهُ الشَّيْطَانُ مِنَ الْمَسِّ﴾ يتعثر ويقع في حيرة وسكر واضطراب، ولا يكاد يمشي سويًا، وهذه علامة يعرفون بها في الموقف هتكًا لهم وفضيحة.

ويمكن أن يكون المعنى: إن عقولهم قد خَفَّتْ وآراءهم قد ضعفت، وصاروا في هيتهم وحركتهم كالمجانين.

والسبب في ذلك أنهم ساووا بين الربا والبيع والشراء فاستحلوه ﴿ذَلِكَ﴾ التخبط والتعثر ﴿بِأَنَّهُمْ﴾ أي بسبب أنهم ﴿قَالُوا إِنَّمَا الْبَيْعُ مِثْلُ الرِّبَا﴾ فاعترضوا على تشريع الله سبحانه واستحلوا ما حرم الله، ولا يقول ذلك إلا جاهل أو متجاهل معاند.

قال جل شأنه في الرد عليهم: ﴿وَأَحَلَّ اللَّهُ الْبَيْعَ﴾ لما فيه من المنافع وشدة الحاجة ﴿وَحَرَّمَ الرِّبَا﴾ لما فيه من أضرار وظلم وسوء عاقبة، فليس الأمر كما زعموا، بل الربا حرام والبيع حلال ﴿فَمَنْ جَاءَهُ مَوْعِظَةٌ مِّنْ رَبِّهِ﴾ وعظ وتذكير وترهيب وترغيب أي: فمن بلغه نهى الله تعالى عن الربا ﴿فَأَنَّهُنَّ﴾ عن فعله وانزجر ﴿فَلَهُ مَا سَلَفَ﴾ أي له ما تقدم من معاملات ربوية سابقة، يغفرها الله له، إن امتثل أمر الله تعالى بعد ما علم الحلال من الحرام، فلا حرج عليه فيما فعله قبل ذلك، ويتوب الله عليه ﴿وَأَمْرُهُ إِلَى اللَّهِ﴾.

في مجازاته على ما سبق وفيما هو آت ﴿وَمَنْ عَادَ﴾ إلى التعامل بالربا، والتعدي على حدود الله ولم تنفعه الموعظة ﴿فَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ والخلود في النار يكون للكفار، والإيمان يَعْصِمُ صاحبه من الخلود في النار؛ والمراد أن من يستحل الربا فإنه يستحل محرماً مجمعاً على تحريمه، يخلد صاحبه في النار إجماعاً؛ لأنه كُفِرَ بالإجماع، بخلاف من يقع في الحرام مع اعتقاده أنه محرم، فإنه يكون عاصياً مرتكباً لكبيرة من الكبائر، فإن مات على ذلك فهو إلى مشيئة الله يدخل في قوله تعالى ﴿وَيَعْفُرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ﴾ [النساء: ٤٨، ١١٦] واستحلال المحرم يدخل في قوله تعالى: ﴿وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُ يُدْخِلْهُ نَارًا خَالِدًا فِيهَا وَلَهُ عَذَابٌ مُهِينٌ﴾ [النساء: ١٤] وكذلك من يقتل مؤمناً متعمداً يستحل قتله، فإنه ذنب كبير، ولكنه باستحلاله للقتل يدخل في دائرة الكفر، ولذلك استحق الخلود في نار جهنم، وهذا غير الذي يرتكب الذنب خطأ، أو يفعله ثم يتوب.

ومما ورد في تحريم الربا من الأحاديث ما جاء:

١- في المسند وغيره عن كعب الأحبار أنه قال: لأن أزني ثلاثة وثلاثين زنية أحب إليّ من أن أكل درهم ربا، يعلم الله أنني أكلته رباً^(١).

٢- وأخرج النسائي عن أبي البسر قال: كان رسول الله ﷺ يدعو فيقول: «اللهم إني أعوذ بك من التردّي والفرق والهدم والحريق، وأعوذ بك من أن يتخبطني الشيطان عند الموت، وأعوذ بك أن أموت عن سبيلك مدبراً، وأعوذ بك أن أموت لديقاً»^(٢).

٣- في البخاري وغيره من حديث سمرة بن جندب ؓ، في حديث المنام الطويل يرفعه إلى النبي ﷺ أنه قال: «فأتينا على نهر»، حسبت أنه كان يقول: «أحمر مثل الدم، وإذا في

(١) أخرجه أحمد في «المسند» (٢١٩٥٨) وعبد الرزاق في مصنفه (٥٣٤٨) والبيهقي (١١٦١) قال محققو

المسند: إسناده صحيح، إلى كعب الأحبار، وذكره ابن الجوزي في الموضوعات (٢٤٨/٢)

وقال الدار قطني (١٦/٣) هذا أصح من المرفوع.

(٢) «الانتصاف على الكشاف» لابن المغير (٣٢٠/١)، وأخرجه أحمد في المسند (١٥٥٢٣) بإسناد ضعيف لاضطرابه، فقد اختلف فيه علي عبد الله بن سعيد بن أبي هند، كما قال محققوه، وأخرجه أبو داود (١٥٥٢) والطبراني في الكبير (٣٨١) والحاكم (٥٣١/١).

النهر رجل سابح يسبح، وإذا على شط النهر، رجل قد جمع عنده حجارة كثيرة، وإن ذلك السابح يسبح ما يسبح، ثم يأتي بعد ذلك، الذي قد جمع الحجارة عنده، فيفغر له فاه، فيلقمه حجرًا» ثم بيّن في آخر الحديث أن هذا مثل أكل الربّا^(١).

٤- وعن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «يأتي على الناس زمان يأكلون فيه الربّا»، قال: قيل له: الناس كلهم؟ قال: «من لم يأكله منهم ناله غباره»^(٢).

وفي الحديث عن علي وابن مسعود رضي الله عنهما أن النبي ﷺ «لعن الله أكل الربّا وموكله وشاهديه وكاتبه»^(٣).

٥- وفي خطبة حجة الوداع قال ﷺ: «ألا وإن كل ربا موضوع، وأول ربا أضعه، ربا عمي العباس بن عبد المطلب»^(٤).

٦- وفي حديث عائشة رضي الله عنها أن امرأة سألتها: أتعرفين زيد بن أرقم؟ قالت: نعم، قالت: فإني بعته عبدًا إلى العطاء بثمان مئة، فاحتاج إلى ثمنه، فاشتريته قبل محل الأجل بست مئة، فقالت: بئسما شريت! وبئسما اشتريت! أبلغني زيدًا أنه قد أبطل جهاده مع رسول الله ﷺ إن لم يتب، قالت: فقلت: أرايت إن تركت المئتين وأخذت الست مئة؟ قالت: نعم ﴿فَمَنْ جَاءَهُ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّهِ فَانْتَهَى فَلَهُ مَا سَلَفَ وَأَمْرُهُ إِلَى اللَّهِ﴾^(٥) وهذا دليل لمن حرم بيع العينة.

٧- وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الربّا سبعون بابًا، أدناها مثل ما

(١) «صحيح مسلم» (٧٠٩/٢) و«صحيح البخاري» برقم (٧٠٤٧).

(٢) أخرجه أحمد (٤٩٤/٢) برقم (١٠٤١٠) وإسناده ضعيف، لضعف عباد بن راشد لكنه متابع، كما قال محققوه، وأخرجه أبو داود (٦٢٦/٣) برقم (١٣٣١) والنسائي (٢٣٤/٧) وابن ماجه (٧٦٥/٢) برقم (٢٢٧٨)، وأبو يعلى (٦٢٣٣) و«سنن البيهقي» (٢٧٥/٥).

(٣) مسلم (١٢١٩/٣) برقم (٢٥٦٤) من حديث علي وابن مسعود رضي الله عنهما.

(٤) من حديث طويل أخرجه أبو داود برقم (٣٣٣٤) والترمذي (٣٠٨٧) من رواية عمرو بن الأحوص، وفي المسند (٢٠٦٩٥) صحيح لغيره عن عم أبي حرة، وابن ماجه (١٨٥١) والنسائي في الكبرى (٩١٦٩).

(٥) رواه ابن أبي حاتم عن العالية بنت أيفع، والمرأة السائلة تلقب: أم محبة، أو أم محنة، وهي مولاة زيد بن أرقم وقد ذكره ابن كثير في تفسير الآية عن عبد الله مسعود كما في «السنن» برقم (٢٢٧٥) وقال البوصيري في «الزوائد» (١٩٨/٢) هذا بإسناد صحيح.

يقع الرجل على أمه، وأرأى الربا استطالة المرء في عرض أخيه»^(١).

٨- والربا من السبع الموبقات التي جاء ذكرها في الصحيحين وغيرهما.

٩- ومن اتقى الشبهات فقد استبرأ لدينه وعرضه.

١٠- والإثم ما حاك في النفس وكرهت أن يطَّلَع عليه الناس.

١١- والمسلم يدع ما يريه إلى ما لا يريه.

ولا ينبغي تهوين أمر الربا على الناس، وقد عظَّمه وقبَّحه رب العالمين، وأعلَمَ مَنْ تعاطاه بحرب من الله ورسوله في الدنيا والآخرة.

ومعنى الآية: إن الذين يتعاملون بالربا -وهو المأكول بالمال؛ لأن المال لا يؤكل- لا يقومون من قبورهم يوم القيامة إلا كما يقوم المصروع، وهو الذي لا يستطيع الحركة الصحيحة، لأن الربا قد أثقل بطنه، والسبب في ذلك أنه استحل ما حرَّمه الله، وقاس الربا على البيع والشراء، فمن بلغه نهى الله ولم ينته فقد قامت عليه الحجة، واستحق العقوبة، وإن تاب ورجع إلى الله تعالى قبل التحريم فلا إثم عليه، وإن استمر على التوبة قبل الله توبته. قال تعالى:

٢٧٦- ﴿يَمْحَقُ اللَّهُ الرِّبَا وَيُزِيلُ الصَّدَقَاتِ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ كَفَّارٍ أَثِيمٍ﴾

﴿يَمْحَقُ اللَّهُ الرِّبَا﴾ أي يُزيله ويذهب، ولا يُبارك فيه في الدنيا ولا في الآخرة؛ فيكون سبباً لوقوع الآفات ونزع البركة، وإن أنفق منه لم يؤجر عليه، بل يكون زاداً له إلى النار ﴿وَيُزِيلُ الصَّدَقَاتِ﴾ ينميتها ويبارك في المال الذي خرجت منه، وينمي أجر فاعلها، وذلك لأن الجزاء من جنس العمل، فالمرابي ظلم الناس وأخذ أموالهم بغير حق، فجوزى بذهاب ماله ومحق بركته، أما المحسن المتصدق، فقد أحسن الله إليه مقابل إحسانه للناس؛ والله تعالى لا يحب من لا يسلم الناس من شره، ولا يؤدي حق الله عليه، لأنه قد فعل ما هو سبب لإثمه وعقوبته:

(١) صححه الألباني في «صحيح سنن ابن ماجه» (١٨٤٤) والتعليق الرغيب (٥٠/٣) وهو في سنن ابن ماجه (٢٢٧٤). والبيهقي (٥٥٢٠، ٥٥٢٢).

١- عن ابن مسعود رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «الرُّبَا وإن كثر فإن عاقبته تصير إلى أقل»^(١)
 فالربا يقل وإن كثر في الظاهر، والصدقة تزيد المال ولا تنقصه، كما في قوله تعالى: ﴿وَيُرِي
 الصَّدَقَاتِ﴾ وقوله: ﴿قُلْ لَا يَسْتَوِي الْخَبِيثُ وَالطَّيِّبُ وَلَوْ أَعْجَبَكَ كَثْرَةُ الْخَبِيثِ﴾ [المائدة: ١٠٠]
 وقوله: ﴿يَجْعَلُ الْخَبِيثَ بَعْضُهُ عَلَى بَعْضٍ فَيَرْكُمُ جَمِيعًا فَيَجْعَلُهُ فِي جَهَنَّمَ﴾ [الأنفال: ٣٧]
 وعاقبة مال المرابي إلى زوال، وتسقط عدالته وأمانته، والفقراء ييغضونه ويلعنونه،
 وأطماع الناس تتوجه إليه بسبب غناه وشهرته، وكل ظالم يبلى بأظلم، وهو في الآخرة غير
 مقبول، وبالعكس هذا المتصدق بماله.

٢- وفي الحديث عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «من تصدَّق بعدلِ ثمرة من
 كسب طيب، ولا يقبل الله إلا الطيب؛ فإن الله يقبلها ويربها لصاحبها كما يربي أحدكم
 فلهو حتى يكون مثل الجبل»^(٢).

٣- وعن أبي هريرة، أن رسول الله ﷺ قال: «إن الله عزَّ وجلَّ يقبل الصدقة ويأخذها
 بيمينه، فيربيها لأحدكم كما يربي أحدكم مهره، حتى إن اللقمة لتصير مثل أحد»^(٣).

٤- وفي الحديث الآخر عن أبي هريرة أيضًا: «ما نقصت صدقة من مال، وما زاد الله
 عبدًا بعفوٍ إلا عزًّا، وما تواضع أحد لله إلا رفعه»^(٤).

﴿وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ كَفَّارٍ أَثِيمٍ﴾ كفور القلب، أثيم في قوله وفعله.

-
- (١) الطبري (١٥/٦) وهو حديث مرفوع في «المسند» (٣٩٥/١) برقم (٣٧٥٤، ٤٠٢٦) وابن ماجه (٢٢٧٩)
 والحاكم (٣٧/٢) والبيهقي في «الشعب» (٥٥١١) قال محققو المسند: حديث صحيح.
 (٢) من حديث أبي هريرة في البخاري (١٤١٠، ٧٤٣٠) و«المسند» (٧٦٣٤، ٨٣٨١) وابن حبان (٢٧٠،
 ٣٣١٩) ومسلم (١٠١٤) والترمذي (٦٦١، ٦٦٢) والنسائي في «الكبرى» (٢٣١٦، ٧٦٨٧).
 (٣) الحديث رواه أحمد في «المسند» (٤٧١/٢) برقم (٨٣٨١، ٩٤٢٣) بنحوه، وإسناده صحيح على شرط
 الشيخين كما قال محققوه، وابن أبي شيبة (١١١/٣) وابن خزيمة (٢٤٢٧) والشافعي في «شفاء العي»
 (٦٠٦) وقال الترمذي في سننه برقم (٦٦٢): حديث حسن صحيح.
 (٤) «سنن ابن ماجه» برقم (٢٢٨٩) وقال البوصيري في «الزوائد» (١٩٩/٢): هذا إسناد صحيح، رجاله
 ثقات و«المسند» (٩٠٠٨)، حديث صحيح وإسناده حسن كما قال محققوه.

الصَّدَقَةُ هِيَ الْوَجْهُ الْمُقَابِلُ لِلرَّبِّ

٢٧٧- ﴿إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ^(١) وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ^(٢)﴾

ثم بيّن سبحانه: الوجه المقابل للربا وهو عدم كفر النعمة، ومقتضاه الإيمان بالله واليوم الآخر، وأداء الصلاة، وإخراج الزكاة، فإن المتصفين بهذه الصفات الأربع لهم ثواب عظيم، ورزق واسع، لا يخافون إذا خاف الناس، ولا يحزنون إذا حزن الناس.

التَّحْرِيمُ الْقَطْعِيُّ لِلرَّبِّ؛ وَالْوَعِيدُ عَلَيْهِ

٢٧٨- ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَذَرُوا مَا بَقِيَ مِنَ الرِّبَا إِن كُنتُمْ مُؤْمِنِينَ^(٣)﴾

ثم يأتي النهي القاطع عن التعامل بالربا، ويقدم لذلك بالأمر بتقوى الله عزوجل، بامتنال أمره واجتناب نهيه، فيا من آمنتم بالله والرسول اتركوا التعامل بالربا إن كنتم مؤمنين ﴿اتَّقُوا اللَّهَ وَذَرُوا مَا بَقِيَ مِنَ الرِّبَا﴾ أي: اتركوا الربا كله، قليله وكثيره، الفاحش منه وغير الفاحش، وخافوا عقاب الله إن كنتم ممثلين لأوامره ونواهيه وتشريعاته.

قيل: إن هذه الآية نزلت في العباس بن عبد المطلب، ورجل من بني المغيرة، كانا شريكين في الجاهلية، أسلفا في الربا إلى أناس من ثقيف، فجاء الإسلام ولهما أموال كثيرة من الربا فأنزل الله الآية. وكانت ثقيف قد صالحت النبي ﷺ على ترك ما لهم وما عليهم من الربا حين دخلوا في الإسلام.

وفي حجة الوداع كان من خطبة النبي ﷺ: «ألا إن كل ربا في الجاهلية موضوع لكم رؤوس أموالكم، لا تظلمون ولا تظلمون، وأول ربا موضوع ربا العباس بن عبد المطلب»^(٣).

وعن ابن مسعود ؓ أن رسول الله ﷺ قال: لعن رسول الله ﷺ آكل الربا وموكله

(١) فتح الفاء من (ولا خوف) يعقوب وضمها منونة الباقون.

(٢) ضم الهاء من (عليهم) حمزة ويعقوب، وكسرهما الباقون.

(٣) قال الترمذي في سننه برقم (٣٠٨٧): حديث حسن صحيح، وهو في «سنن أبي داود» برقم (٣٣٣٤) و«صحيح

سنن ابن ماجه» برقم (٢٨٥٢) وفي «سنن النسائي الكبرى» (٤١٠٠) و«صحيح سنن أبي داود» (٢٨٥٢).

وشاهدني وكاتبه^(١).

وعن أبي المنهال قال: سألت البراء بن عازب وزيد بن أرقم عن الصرف، فقالا: كنا تاجرين على عهد رسول الله ﷺ فسألنا رسول الله ﷺ عن الصرف فقال: «ما كان منه يداً بيد فلا بأس، وما كان منه نسيئة فلا»^(٢). قال تعالى:

٢٧٩- ﴿فَإِنْ لَّمْ تَفْعَلُوا فَأْذَنُوا﴾^(٣) يَحْرَبِ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَإِنْ تُبْتُمْ فَلَكُمْ رُءُوسُ أَمْوَالِكُمْ لَا تَظْلِمُونَ وَلَا تُظْلَمُونَ ﴿٢٧٩﴾

هذا تهديد ووعد شديد لا يوجد مثله في القرآن الكريم ﴿فَأْذَنُوا يَحْرَبِ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾ هذه حرب يشنها الله عز وجل على الفرد والمجتمع الذي يُصِرُّ على التعامل بالربا ولم يتب إلى الله ﷻ منه، ولم ينزجر بموعظة الله، ولم يقبل نصيحته، لأنه في هذه الحالة محارب لله ورسوله، مضاد له في أحكامه، فاستحق إعلان الحرب عليه.

وهذه الحرب لها صور متعددة: جوع وقلق وخوف، وهزائم وتسلط الأعداء، وانهيار الاقتصاد، والذل والمهانة، وحرمان السعادة وعدم الطمأنينة، والجذب والقحط، والمقت وغضب الله تعالى، وغير ذلك من أنواع الحروب التي نلسمها في وقتنا المعاصر.

ولما نزلت هذه الآية كان هناك نوع من الرِّبَا بين بني ثقيف وبني المغيرة، تنازعوا في أموالهم وأخذوا يتنازلون عن فوائدهم التي يتعاطونها واكتفوا برؤوس الأموال فحسب، وقالوا: لا طاقة لنا بحرب الله ورسوله، من الذي في استطاعته أن يحارب الله ورسوله؟!

إن القوم بمجرد نزول هذه الآية تابوا ورجعوا إلى الله ﷻ وأنابوا إليه، وتركوا لغيرهم ما يزيد على رؤوس أموالهم من غير ظلم لأنفسهم ولا لغيرهم، فيا من آمنتم بالله واتبعتم رسوله خافوا الله، ولا تطلبوا ما زاد على رؤوس أموالكم التي كانت قبل الربا، إن كنتم مؤمنين حقاً بالله ورسوله قولاً وعملاً.

(١) مسلم (١٥٩٧) وأبو داود (٣٣٣٣) والترمذي (١٢٠٦) والنسائي (٥١١٧) وابن حبان (٥٠٢٥) والبيهقي (٢٧٥/٥).

(٢) البخاري (٢٠٦٠، ٢٠٦١) ومسلم (١٥٨٩) والنسائي (٤٥٨٩، ٤٥٩٠) والبيهقي (٢٨٠/٥).

(٣) قرأ شعبة وحزمة (فَأْذَنُوا) بهمزة ممدودة من أذنه بكذا، أي: أعلمه به وقرأ الباقون (فَأْذَنُوا) بسكون الهمزة فعل أمر من أذن بالشيء إذا أعلم به.

إِنْظَارُ الْمُعْسِرِ

٢٨٠- ﴿وَإِنْ كَانَ ذُو عُسْرَةٍ^(١) فَنَظِرَةٌ إِلَىٰ مَيْسَرَةٍ^(٢) وَأَنْ تَصَدَّقُوا^(٣) خَيْرٌ لَّكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾

ثم بيّن سبحانه حكم المعسر الذي لا يجد ما يدفع به دينه، فيطلب جل شأنه من الدائن أحد أمرين: إما أن ينتظر المدين حتى ييسر الله عليه، وإما أن يضع عنه دينه، صدقة لا زكاة؛ لأن الزكاة لا تكون إبراء للذمة، إنما هي إعطاء وتملك للفقير، فإما أن يتصدق عليه بترك الدين كله أو بعضه، وإما أن يمهل حتى يُيسر الله عليه.

جاء في أسباب النزول: أن بني عمرو بن عُمر قالوا لبني المغيرة: هاتوا رؤوس أموالنا، ولكم الربا ندعه لكم، فقالت بنو المغيرة: نحن اليوم أهل عسرة، فأخرونا إلى أن تُدرك الثمرة، فأبوا أن يؤخروهم، فأنزل الله الآية^(٤).

إنظار الموسر: والإسلام لا يكفي بإنظار المعسر، بل إن من أنظر موسراً، أو تجاوز عنه له أجر عظيم عند الله تعالى، ومن ذلك:

ما أخرجه البخاري بسنده عن حذيفة رضي الله عنه قال: قال النبي ﷺ: «تلقت الملائكة روح رجل ممن كان قبلكم، فقالوا: أعملت من الخير شيئاً؟ قال: كنت أمر فتياي أن يُنظروا المعسر ويتجاوزوا عن الموسر، قال: فتجاوزوا عنه»^(٥).

فكان السبب في استقبال الملائكة بالبشرى والطمأنينة أنه كان يُنظر الموسر.

(١) قرأ أبو جعفر (عُسْرَةً) بضم السين وهي لغة أهل الحجاز وقرأ الباقون (عُسْرَةً) بسكون السين وهي لغة باقي العرب.

(٢) قرأ نافع (مَيْسَرَةً) بضم السين وهي لغة أهل الحجاز وقرأ الباقون (مَيْسَرَةً) بفتح السين وهي لغة باقي العرب.

(٣) قرأ عاصم (وَأَنْ تَصَدَّقُوا) بتخفيف الصاد على حذف إحدى التائين وقرأ الباقون (وَأَنْ تَصَدَّقُوا) بالتشديد على الإدغام.

(٤) أسباب النزول للنيسابوري ص ٧٨.

(٥) «صحيح البخاري» برقم (٢٠٧٧).

ومما جاء في عِظَمِ أجرِ إنظارِ الْمُعْسِرِ :

١- عن سليمان بن بريدة عن أبيه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «من أنظر معسرًا فله بكل يوم صدقة قبل أن يحل الدين، فإذا حل الدين فأنظره بعد ذلك فله بكل يوم مثله صدقة»^(١).

٢- وعن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «إن رجلاً لم يعمل خيراً قط، وكان يذاین الناس، وكان يقول لفتاه: إذا أتيت مُعْسِراً فتجاوز عنه، لعل الله يتجاوز عنا، فلقي الله فتجاوز عنه»^(٢).

٣- وعن أبي مسعود البصري رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «حُوسِبَ رجل ممن كان قبلكم، فلم يوجد له من الخير شيء إلا أنه كان يخالط الناس، وكان موسراً، وكان يأمر غُلَمَانَهُ أن يتجاوزوا عن المعسر، قال الله: نحن أحق بذلك منه، تجاوزوا عنه»^(٣).

٤- وفي الحديث عن أبي البسر أن رسول الله ﷺ قال: «من أنظر معسرًا، أو وَضَعَ عنه أظله الله في ظلّه يوم لا ظِلَّ إلا ظله»^(٤).

٥- وفي صحيح مسلم وغيره عن أبي قتادة «من سرّه أن ينجّيه الله من كُرب يوم القيامة، فليُنْفَسْ عن مُعْسِرٍ أو يضع عنه»^(٥).

٦- وفي الحديث عن أبي قتادة قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «من نفّس عن

- (١) «السلسلة الصحيحة» للألباني برقم (٨٦) و«صحيح الجامع الصغير» برقم (٨٥٣٩) و«المسند» (٣٦٠/٥)
برقم (٢٢٩٧) وابن ماجه (٢٤١٨) و«المستدرک» (٩٢/٢) و«مجمع الزوائد» (١٣٥/٤) وقد صححه عن رجال أحمد، وهو في البيهقي (١١٢٦١) و«صحيح سنن ابن ماجه» (١٩٦٢).
(٢) البخاري (٢٠٧٨، ٣٤٨٠) ومسلم (١٥٦٢) والنسائي (٤٧٠٨، ٤٧٠٩).
(٣) مسلم (١٥٦١) والترمذي (١٣٠٧).
(٤) أخرجه أحمد في المسند (٤٢٧/٣) من حديث أبي البسر برقم (١٥٥٢٠، ١٥٥٢١) ومسلم (٣٠٠٦) وابن ماجه (٢٤١٩).
(٥) مسلم (٢٧٠٤/٤) برقم (١٥٦٣) واللفظ له وأخرجه الطبراني في «الكبير» (٤٥٩٢) وقال الهيثمي: رجاله رجال الصحيح، «مجمع الزوائد» (١٣٤/٤).

غريمه، أو محا عنه كان في ظل العرش يوم القيامة»^(١).

٧- وفي البخاري وغيره عن أبي هريرة رضي الله عنه: «من أخذ أموال الناس يريد أداءها أدى الله عنه، ومن أخذها يريد إتلافها أتلفه الله»^(٢).

وعن ابن سيرين أن رجلاً خاصم رجلاً عند شريح، ففضى عليه وأمر بحبسه، فقال رجل: إنه معسر، والله تعالى يقول في كتابه: ﴿وَإِنْ كَانَتْ ذُو عُسْرَةٍ فَنَظِرَةٌ إِلَى مَيْسَرَةٍ﴾. فقال شريح: إنما ذلك في الربا، وإن الله قد قال في كتابه: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ أَنْ تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ﴾ [النساء: ٥٨].

وهذا الإنظار أو التصديق يختص بالربا ونحوه كالدين، أما الأمانات ونحوها، فإن الله تعالى يأمر بردها، ووجوب القيام بالوكالة، وليس فيها إمهال ولا تصدق ﴿وَإِنْ كَانَتْ ذُو عُسْرَةٍ فَنَظِرَةٌ إِلَى مَيْسَرَةٍ وَأَنْ تَصَدَّقُوا خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾.

ومعسر الربا يدخل في الآية دخولاً أولياً؛ لأن الآية جاءت في سياق الحديث عنه.

والحكم عام يتناول كل معسر عليه حق في دين حلال أو غيره.

قال الضحاك: وكذلك كل دين على مسلم، فلا يحل لمسلم له دين على أخيه يعلم منه عسرة أن يسجنه، ولا يطلبه حتى ييسر الله عليه^(٣).

آخِرُ مَا نَزَلَ مِنَ الْقُرْآنِ الْأَمْرُ بِالتَّقْوَى

٢٨١- ﴿وَاتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ﴾^(٤) فِيهِ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ تُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ثم ختم الله هذه الآيات بقوله: ﴿وَاتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ﴾ خافوا يوماً تقفون فيه

(١) أخرجه أحمد عن أبي قتادة (٣٠٨/٥) برقم (٢٢٥٥٩، ٢٢٦٢٣) وأخرجه الدارمي (٢٦١/٢) برقم (٢٥٨٩) والبغوي في شرح السنة (٢١٤٣) وابن أبي شيبة (١٢/٧) وأخرجه مسلم (١٥٦٣) بمعناه، والبيهقي في «الشعب» (١١٢٥٩) قال محققو «المسند»: إسناده صحيح.

(٢) البخاري (٢٣٨٧).

(٣) ابن جرير رقم (٦٢٩٥).

(٤) قرأ أبو عمرو ويعقوب (ترجعون) بفتح التاء وكسر الجيم، وقرأ غيرهما بضم التاء وفتح الجيم.

بين يدي الله سبحانه، واحذروا يوماً تحاسبون فيه على النقيير والقطمير، حيث تُعرضون على رب العالمين، وتُجازون فيه على الخير والشر، فاجتنبوا ما حرم الله من المكاسب كالربا، وأتموا أساسيات الإسلام من صلاة وزكاة قبل أن تُحاسبوا على ما قدمت أيديكم.

وفي الآية وعد بالخير، ووعد على فعل الشر، وكل من علم أنه راجع إلى الله عز وجل، ومحاسب على جميع ما قدمت يده، لا بد له أن يستعد لهذا اليوم، ويتزود بصلاح العمل.

قال ابن عباس رضي الله عنهما: نزلت هذه الآية، فقال جبريل للنبي ﷺ: ضعها على رأس ثمانين ومائتين - أي: بعد ٢٨٠ آية - من سورة البقرة.

وفي الرواية الأخرى لابن عباس عن عكرمة قال: آخر آية نزلت على رسول الله ﷺ: ﴿وَأَتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ﴾^(١).

وعن سعيد بن جبير قال: آخر ما نزل من القرآن كله ﴿وَأَتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ﴾ وعاش النبي بعد نزول هذه الآية تسع ليال، ثم مات يوم الإثنين لليلتين خلتا من ربيع الأول^(٢).

فاحذروا - أيها المسلمون - أن تلقوا ربكم بسيئات تهلككم، أو موبقات لا قبيل لكم بها، أو بأعمال وأقوال تخزيكم وتفضحكم، فهو يوم العدل الذي يُكرم فيه المحسن، ويهان فيه المسيء، وقد أعذر من أنذر، ووعظ فأبلغ.

ولم ينزل بعد هذه الآية قرآن، وإنما مرض النبي ﷺ، وبقي تسع ليال، ثم مات بعدها، وقيل: عاش سبعا.

الْحُكْمُ التَّشْرِيعِيُّ السَّابِعُ وَالثَّلَاثُونَ: أَحْكَامُ الدِّينِ

كِتَابَةُ الدِّينِ

٢٨٢- ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا تَدَايَنْتُمْ بِدِينٍ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى فَاكْتُبُوهُ وَلْيَكْتُب بَيْنَكُمْ

(١) إسناده صحيح، «مجمع الزوائد» (٦/ ٣٢٤) و«الدر المنثور» (١/ ٣٦٩) والطبري (٦٣١٢) وما بعده وأبو عبيد ص ٢٢٤ والنسائي في «الكبرى» (١١٠٥٧) وابن المنذر (٦٤) والطبراني (١٢٠٤٠، ١٢٣٥٧) والبيهقي (٧/ ١٣٧) وأورد ابن كثير ستة آثار أخرى في هذه الآية عن آخر ما نزل من القرآن.

(٢) ابن أبي حاتم (٢٩٤٥، ٢٩٤٦).

كَاتِبًا بِالْعَدْلِ وَلَا يَأْبَ كَاتِبٌ أَنْ يَكْتُبَ كَمَا عَلَّمَهُ اللَّهُ فَلْيَكْتُبْ وَلْيُمْلِلِ الَّذِي عَلَيْهِ الْحَقُّ وَلْيَتَّقِ اللَّهَ رَبَّهُ وَلَا يَبْخَسْ مِنْهُ شَيْئًا فَإِنْ كَانَ الَّذِي عَلَيْهِ الْحَقُّ سَفِيهًا أَوْ ضَعِيفًا أَوْ لَا يَسْتَطِيعُ أَنْ يُمْلِعَ هُوَ فَلْيُمْلِلْ وَلِيُّهُ بِالْعَدْلِ وَاسْتَشْهِدُوا شَهِيدَيْنِ مِنْ رِجَالِكُمْ فَإِنْ لَمْ يَكُونَا رَجُلَيْنِ فَرَجُلٌ وَامْرَأَتَانِ مِمَّنْ رَضَوْنَ مِنَ الشُّهَدَاءِ أَنْ تَضِلَّ (١) إِحْدَاهُمَا فَتُذَكَّرَ (٢) إِحْدَاهُمَا الْأُخْرَى وَلَا يَأْبَ الشُّهَدَاءُ إِذَا مَا دُعُوا وَلَا تَسْمَعُوا أَنْ تَكْتُبُوهُ صَغِيرًا أَوْ كَبِيرًا إِلَى أَجَلٍ ذَلِكَمُ اقْسَطُ عِنْدَ اللَّهِ وَأَقُومُوا لِلشَّهَادَةِ وَأَدِّقُوا إِلَّا تَرْتَابُوا إِلَّا أَنْ تَكُونَ تِجَارَةً حَاضِرَةً (٣) تُدِيرُونَهَا بَيْنَكُمْ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَلَّا تَكْتُبُوهَا وَأَشْهِدُوا إِذَا تَبَايَعْتُمْ وَلَا يُضَارَ (٤) كَاتِبٌ وَلَا شَهِيدٌ وَإِنْ تَفَعَّلُوا فَإِنَّهُ فُسُوقٌ بِكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ وَابْتَغُوا فِي كُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا ﴿٢٨٢﴾

من نحو ثلاثة قرون تقريباً وضع علماء الاقتصاد والتجارة، مبادئ التشريع المدني والتجاري بما يكفل الحقوق والمعاملات التجارية، وقد سبق الإسلام إلى هذا التشريع قبل أكثر من أربعة عشر قرناً، فوضع هذا التشريع المدني التجاري، وبين أحكام الدَّين، والقرض الحسن، وأحكام التجارة، وأسس الاقتصاد، وكتابة الحقوق وتوثيقها والإشهاد عليها، وجاء هذا في أطول آية في كتاب الله عزَّ و جلَّ، تسمى آية المداينة من سورة البقرة، استغرقت صفحة كاملة من كتاب الله عزَّ و جلَّ في بعض طبعات المصحف، وجاءت هذه الآية في إطار وضع النظام الاقتصادي للمجتمع المسلم؛ حيث بدأت السورة فذكرت إحدى وعشرين آية، قبيل هذه الآية، تُبين فيها التعاون والتكافل بين المسلمين،

(١) قرأ حمزة (إِنْ تَضِلَّ) بكسر همزة إن، وقرأ الباقون (أَنْ تَضِلَّ) بفتح الهمزة.

(٢) قرأ ابن كثير وأبو عمرو ويعقوب (فَتُذَكَّرَ) بسكون الذال وتخفيف الكاف ونصب الراء، عطفاً على (تضلل) وقرأ حمزة (فَتُذَكَّرُ)، بفتح الذال وتشديد الكاف ورفع الراء، فعل مضارع لم يدخل عليه ناصب ولا جازم، وقرأ الباقون (فَتُذَكَّرُ) بفتح الذال وتشديد الكاف، ونصب الراء، عطفاً على (تضلل).

(٣) قرأ عاصم (إِلَّا أَنْ تَكُونَ تِجَارَةً حَاضِرَةً) بالنصب في (تجارة حاضرة) على أن تجارة خير تكون وحاضرة صفة، واسم تكون مضمَر، أي: إِلَّا أَنْ تَكُونَ المعاملة تجارة حاضرة، وقرأ الباقون (تجارة حاضرة) بالرفع فيهما على أن تكون كان تامة وتجارة فاعل، وحاضرة صفة لها.

(٤) قرأ أبو جعفر بخلف عنه بسكون الراء مخففة من (ولا يضار) على أن (لا) ناهية والفعل مجزوم بها؛ وسكنت الراء إجراء للوصل مجرى الوقف، وقرأ الباقون بفتح الراء وتشديدها، وهو الوجه الثاني لأبي جعفر، وقد تحركت الراء الثانية للتخلص من التقاء الساكنين.

كتابة الدين مهما كان قليلاً:

﴿وَلَا تَسْمُوا أَنْ تَكْتُبُوهُ صَغِيرًا أَوْ كَبِيرًا إِلَىٰ أَجَلِهِ﴾

أي: ولا ينبغي للناس أن يملؤا أو يتضجرؤا من كتابة هذا الحق أو الدين، مهما قلت قيمته أو كثرت من الدين، أو المعاملات التجارية، صغيرها أو كبيرها، إلى أجل محدود، مهما كان صغيراً أو كبيراً فوثقوه بالكتابة والإشهاد.

توثيق العقود فيه ثلاث فوائد:

١- عدالة الحكم عند الله ٢- وهو أثبت للشهادة. ٣- وأنفى للشك والريبة. يقول سبحانه في شأن الشاهد والكاتب والمملي: ﴿ذَلِكَم أَقْسَطُ عِنْدَ اللَّهِ وَأَقْوَمُ لِلشَّهَادَةِ﴾ أي: أن الشهادة مع الكتابة تكون أثبت من الشهادة بالذاكرة، وأثبت من الشهادة الشفهية، فهذا توثيق وأنفى للريبة ﴿وَأَدْنَىٰ أَلَّا تَرْتَابُوا﴾؛ حتى لا يدعي الدائن أو المدين بزيادة أو نقص، أو يشك أحدهما في الآخر، وهذا محمول على الذنب والإرشاد لا على الوجوب.

ودليل الإشهاد من السنة: قصة الأعرابي الذي باع فرساً للنبي ﷺ ثم أنكر الأعرابي أنه باعها، لَمَّا ساومه الناس بأكثر مما اشترى به النبي ﷺ وطلب شاهداً على البيع، فشهد خزيمة بن ثابت الأنصاري على البيع، ولما سأله النبي ﷺ: «بم تشهد؟» قال: بتصديقك يا رسول الله، فجعل النبي ﷺ شهادته بشهادة رجلين^(١).

قال قتادة: عَلِمَ الله سبحانه أنه ستكون حقوق، فأخذ لبعضهم من بعض الثقة، فخذوا بثقة الله؛ فإنه أطوع لربكم، وأدرك لأموالكم، ولعمري لئن كان تقياً لا يزيده الكتاب إلا خيراً وإن كان فاجراً فبالأحرى أن يؤدي إذا علم أن عليه شهوداً^(٢).

ومن يأخذ أموال الناس يريد أداها أدَّى الله عنه، ومن أخذها يريد إتلافها أتلفه الله، ومن الناس من لا يُوفِّي دينه، ولو كان مكتوباً موثقاً، وشهد عليه أمة من الناس، ومنهم

(١) يُنْظَر: النص في «المسند» (٢١٨٨٣) قال محققوه: إسناده صحيح ورجاله ثقات رجال الشيخين، غير

عُمارة فمن رجال السنن وهو ثقة، وهو في أبي داود (٣١/٤) (٣٦٠٧) والنسائي (٣٠١/٧) والحاكم (٢/

١٧) والطبراني في الكبير (٣٧٣٠).

(٢) الأثر (٦٣٦٢) من «تفسير الطبري».

من يُؤفِّي دينه، ولو لم يكن مكتوبًا، ولم يشهد عليه أحد من الناس، حتى ولو مات صاحب الحق، أو ضل طريقه فإنه يُبرَّئ ذمته بالبحث عنه أو عن ورثته، فإن فقد الأمل تصدق عليه به.

وقد أخرج الإمام أحمد والبخاري في سبعة مواضع بطرق صحيحة عن أبي هريرة ما معناه: أن رجلاً من بني إسرائيل سأل رجلاً أن يسلفه ألف دينار، فقال: ائتني بشهداء، قال: كفى بالله شهيداً، قال: ائتني بكفيل، قال: كفى بالله كفيلًا، قال: صدقت، فأعطاهما إليه إلى أجل مسمى، فلما جاء موعد السداد أخذ يبحث عن مَرَكَبٍ؛ ليعبر البحر، ليأتي صاحب الدين، فلما لم يجد أخذ خشبة ونقرها وأدخل فيها ألف دينار ومعها صحيفة إلى صاحبها، وأحكم سد هذه الثغرة في الخشبة، ثم أتى البحر وقال: اللهم إنك تعلم أنني قد استلفت من فلان ألف دينار فسألني كفيلًا، قلت: كفى بالله كفيلًا، وسألني شهيدًا، قلت: كفى بالله شهيدًا، فرضي بذلك، وإني قد أجهدت نفسي لأجد مَرَكَبًا أصِلُّ إليه فلم أجد، وإني استودعتك إياها، ورمى بها في البحر حتى دخلت فيه، ثم انصرف، ولأن الرجل يريد أداء الدين ونيتة صادقة، فقد حدث أن صاحب الدين خرج في الوقت نفسه يتلمس الرجل عند البحر لعله يأتي، وإذا به يجد الخشبة فأخذها حطبًا لأهله، فلما كسرهما وجد فيها المال والصحيفة، وبعد وقت، وجد الرجل الذي عليه الدين مَرَكَبًا فجاء إلى صاحب الدين وأعطاه ألف دينار واعتذر عن التأخير؛ لأنه لم يجد مَرَكَبًا، فسأله صاحب الدين: هل بعثت إليَّ بشيء؟ قال: ألم أخبرك أنني لم أجد مَرَكَبًا قبل هذا الذي جئت فيه، قال: فإن الله قد أدى عنك الذي بعثت به في الخشبة، فانصرف بألفك راشداً^(١).

الْحُكْمُ الثَّامِنُ وَالثَّلَاثُونَ: التَّجَارَةُ الْحَاضِرَةُ:

﴿إِلَّا أَنْ تَكُونَ تِجَارَةً حَاضِرَةً تُدِيرُونَهَا بَيْنَكُمْ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَلَّا تَكْتُبُوهَا وَأَشْهَدُوا إِذَا بَايَعْتُمْ﴾

أما التجارة الحاضرة، التي يدفع فيها المشتري الثمن ويأخذ السلعة، فلا تحتاج إلى كتابة ولا إلى إشهاد، أي: لا يلزم كتابتها؛ لأن فيها تبادلًا فوريًا ووقتياً لا يحتاج إلى

(١) يُنظر: «صحيح البخاري» بأرقام: (١٤٩٨، ٢٠٦٣، ٢٢٩١، ٢٤٠٤، ٢٤٣٠، ٢٧٤٤، ٦٢٦١).

توثيق، فقد قبض البائع الثمن وأخذ المشتري السلعة، وفي هذا رُخصة للناس ورحمة بهم، لكثرة تبادل التجارة بينهم،

ومن أنواع التجارة الحاضرة: سلع الطعام والشراب والملابس والأثاث ونحوها، فإن هذه التجارة تنتهي بتسليم النقود واستلام السلعة، ومن التجارة الحاضرة: العقارات الثابتة ونحوها مما يحتاج إلى الشهادة عليه، رغم أنه تجارة، وهذا ما قال الله تعالى فيه: ﴿وَأَشْهِدُوا إِذَا تَبَايَعْتُمْ﴾ أي: فيما جرت العادة بالإشهاد عليه، وقد يكون هناك نزاع بين البائع والمشتري، فيلزمُ الإشهاد على البيع في مثل هذه الحالة وقد تكون السلعة ثمينة القيمة أو تشبه بغيرها فتحتاج إلى توثيق الشراء ونحو ذلك.

عَدَمُ إلْحَاقِ الضَّرْرِ بِالْكَاتِبِ وَالشَّاهِدِ

﴿وَلَا يُضَارُّ كَاتِبٌ وَلَا شَهِيدٌ وَإِنْ تَفَلَّوْا فَإِنَّهُ فُسُوقٌ بِكُمْ﴾

ولا ينبغي أن يترتب على الشهادة أو الكتابة مضارّة لأحد، للكاتب أو الشاهد، لا ينبغي أن يلحقهما ضرر، لا من الدائن ولا من المدين، فلا يضارُّ أحد منهما في ماله، أو في أهله، أو في ولده، أو في نفسه من جرّاء الكتابة أو الشهادة، إذ لا ذنبَ لهما، ما لم يقع منهما زورٌ أو مخالفة شرعية تتعلق بالكتابة أو الشهادة، وإن يُصَبَّ أحدُهما بسوء فإن هذا خروج عما رسمه الله سبحانه.

﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ﴾ خافوه وامثلوا أمره واجتنبوا نهيه ﴿وَعَلِّمُكُمُ اللَّهُ﴾. والعلم نوعان:

أ- علم يحصل بالمطالعة والمذاكرة والمثابرة، يُحَصِّلُهُ الإنسان بهذه الطريقة.

ب- وعلم يُفِيضُ الله تعالى به على العبد، إن كان من المتقين الصالحين، فيُلهمه إياه إلهامًا، ويكون خاصًا به، كما قال سبحانه في شأن الخضر، فقد أرشد الله موسى ﷺ أن يبحث عنه، ويذهب إليه، ويتعلم منه، وهو نبي مرسل ﴿فَوَجَدَا عَبْدًا مِّنْ عِبَادِنَا ءَاتَيْنَاهُ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَعَلَّمْنَاهُ مِمَّا لَدُنَّا﴾ [الكهف: ٦٥] فبيّن سبحانه أن عِلْمَ الخضر علمٌ خاصٌّ به لم يعرفه رسول زمانه، وهو عِلْمٌ لَدُنِّي مِنَ اللَّهِ سبحانه، وهذا النوع من العلم يكون لأولياء الله، وعباده الصالحين المتقين، ممن يستوي في هذه التقوى ظاهرهم وباطنهم،

بل إن باطنهم يكون أفضل من ظاهرهم، فإن وُجد شخص لا يصلي مع الجماعة، ويدّعي أنه يصلي في الحرم؛ لأن منزلته عالية، فاعلم أنه شخص أفاك دجال فاسق، فليس في الإسلام أحد يصلي في مكان وجسمه في مكان آخر.

وإن وُجد شخص يدّعي الكرامة، ثم يَخْتلي بالنساء بدعوى قضاء حوائجهن ونحو ذلك فهو كاذب آثم.

وإن وُجد شخص من أصحاب الطرق الصوفية يأخذ عوائد مالية أو عينية من الناس بدعوى توزيعها على المحتاجين، فهو شخص مخترف للتواكل، وأكل أموال الناس بالباطل.

وإن وُجد شخص يدّعي المعرفة بشيء مما يجهله الناس من علم الغيب، أو يكتب لهم أحجية وتعاويز، فهو إنسان يستبيح ما حرّم الله، بحجة أنه عبد صالح، أو ولي من أولياء الله؛ لأن الله سبحانه لم يحلّ ما حرّمه لأحد من خلقه، ولم يُطْلِع أحداً على شيء من الغيب إلا من ارتضاه من رسله مع الحفظ التام من الشياطين.

وما يدعيه بعض الناس من الكرامات، استشهاداً بالآية لا يكفي، بل لابدّ من تقوى الله تعالى في السر والعلن، ولا بدّ من أن يكون ظاهر هذا الشخص مُتَّفِقاً تماماً مع الإسلام، فلا خُصُوصِيَّة لأحد في ارتكاب ما حرم الله كالخلوة بالنساء، ولا خصوصية لأحد في ترك فرائض الله فيما هو ظاهر للناس ﴿وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾.

وليس لأهل التصوف غير الحقيقي شاهد في الآية؛ لأن عطف التعليم على التقوى ينافي أن يكون العلم جزاءً مرتباً على التقوى؛ لأن العطف يقتضي المغايرة، ولأن المسبب لا يكون سبباً، والفرع لا يكون أصلاً، والنتيجة لا تكون مقدمة.

والعلم هو الذي يثمر التقوى، فلا تقوى بلا علم؛ لأن العلم هو الأصل، وقد قدمه الله على العمل فقال: ﴿فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ﴾ [محمد: ١٩].

فالتقوى تتوقف على العلم بكيفية العمل، ولا يكون العلم إلا بالتلقي والتعليم.

والمعنى العام لآية المُدَايَنَةِ

يا مَنْ آمَنتُم بالله واتبعتم الرسول، إذا تعاملتم بالدين إلى وقتٍ معلوم فاكتبوه، حفظاً للمال

وأن طريق ذلك هو الصدقة والزكاة دون مَنْ ولا أذى، ثم حَرَّمَت الوجه المقابل للصدقة وهو الرِّبَا، فلَعَنَتْهُ ومَقْتَنَتْهُ وبيَّنتُ غضَبَ الله ﷻ على آكل الرِّبَا؛ لما فيه من الجشع والاستغلال، وأخذ أموال الناس بالباطل.

وفي أعقاب ذلك تحدثت آية المداينة هذه، عن بقية أحكام المعاملات التجارية والاقتصادية، من القرض والسَّلَم وبيع السَّلَم والتجارة الحاضرة، وما إلى ذلك.

عن سعيد بن المسيب، أنه بلغه أنَّ أحدث القرآن بالعرش آية الدين^(١)

فهذه الآية تشمل جميع العقود والوثائق، وفي مقدمتها: بيع السَّلَم.

فقد أخرج البخاري وغيره عن ابن عباس ؓ أنه قال: أشهد أن السَّلَف المضمون إلى أجل مُسَمًّى، أن الله قد أحله، وقرأ هذه الآية.

وقال ابن عباس ؓ: لما حرم الله تعالى الرِّبَا أحلَّ بيع السَّلَم.

والسَّلَم معناه: أن يبيع الإنسان الثمر في الشجر، قبل بدو صلاحه في وقت معلوم إلى أجل معلوم كيبيع الثمر أو التمر في النخيل، أو الحب في سنبله، قبل نضجه واستوائه، أي: قبل أن يبدو صلاحه، يبيعه مدة معلومة بثمن معلوم، سنة أو سنتين، أو أكثر من ذلك، أو أقل.

في الصحيحين عن ابن عباس ؓ أن النبي ﷺ لما قَدِم المدينة، وجدهم يُسلفون في الثمار، أي: يبيعون الثمار مقدماً بالسنة والسنتين، فقال عليه الصلاة والسلام: «من أسلف فلْيُسلف في كيل معلوم ووزن معلوم إلى أجل معلوم»^(٢).

وقال ابن عباس ؓ: لما حَرَّمَ الله الرِّبَا أباح السَّلَم المضمون إلى أجل معلوم في كتابه، وأنزل فيه أطول آية، وأوجب ﷻ على عباده المؤمنين أن يُوثِّقُوا ديونهم ومعاملاتهم التجارية، وكذا القرض الحسن الذي يكون بلا فائدة بين الناس، يوثقوا ذلك ويكتبوه؛ لما في ذلك من ضمان الحقوق، ولأن الآجال بيد الله سبحانه، وحتى لا يضيع الحق عند

(١) الطبري (١٦/٦).

(٢) «صحيح مسلم» (١٢٢٦/٣) برقم (١٦٠٤) و«فتح الباري» (١٠٥/٤) ورقمه في البخاري: (٢٢٣٩)، ٢٢٤٠، (٢٢٥٣) وأبو داود (٣٤٦٣) والترمذي (١٣١١) والنسائي (٤٦٣٠) وابن ماجه (٢٢٨٠).

أحد الطرفين، فيؤول إلى الورثة بعد الممات، وحتى لا يُنكر المدين.

ومع الكتابة، يُشهد عليه، حتى لا ينقص منه شيء أو يزيد عليه، ولا يطلبه قبل الموعد المحدد، وهذا من فوائد الكتابة، فاكتبوا هذا الدَّين ووثَّقوه بمدة محددة إلى أجل معلوم، في دين أو قرض، أو بيع أو سَلَم، أو أية معاملات تجارية.

فيا من آمنتم بالله واتبعتم الرسول، إذا تدايتمت من غيركم بدين، قليل أو كثير، فسجلوا هذا الدين واكتبوه، وحددوا قيمته وقَدْره، وحلول أجله ليكون ذلك معلومًا لدى ورثة الطرفين، فإن الآجال بيد الله، وحتى لا تضعف بعض النفوس فتنكره، وأشهدوا عليه شاهدين، ليكون ذلك أوثق وأضمن، ولا حرج في ذلك حتى لو كان المدين أقرب الناس إلى الدائن، فإن الحق أحق أن يتبع.

كاتب العدل:

﴿وَلْيَكْتُبْ بَيْنَكُمْ كَاتِبٌ بِالْعَدْلِ﴾ والآية تعرضت إلى الكاتب الذي يكتب، وتعرضت إلى الشهود، وتعرضت إلى ما لا يحتاج إلى كتابة ولا إظهار في المعاملات التجارية الحاضرة، وبينت أن الذي يتولى كتابة الدَّين أو المعاملات التجارية وتوثيقها ينبغي أن يكون رجلًا عنده علم وفقه بتوثيق الحقوق والديون، يَعْرِف كيف يضمن حقوق الطرفين، ولا يكون عنده ميول لأحدهما لسبب من الأسباب، ولا يَكْتُبُ جُمْلًا تحتل وجوهًا عدة، أو تحتل التأويل، أو يشترك فيها أكثر من معنى، إنما يحدد ويدقق ولا يزيد ولا ينقص، ويكتب بما يَصْلُح حجة عند التقاضي، وعند الخصومة لكلا الطرفين، والذي يكتب العقد ويحرره لا يكون البائع ولا المشتري، إنما يكون طرفًا ثالثًا، كاتب عدل، مستشارًا شرعيًا وقانونيًا، عنده فقه وعلم بالكتابة.

ضريبة العلم:

﴿وَلَا يَأْبَ كَاتِبٌ أَنْ يَكْتُبَ كَمَا عَلَّمَهُ اللَّهُ فَلْيَكْتُبْ﴾

قيل: هو للوجوب، والذي عليه الجمهور: أنه محمول على النذب والاستحباب، ولا ينبغي على هذا الكاتب أن يمتنع من الكتابة، وقد علمه الله ذلك، فينبغي له أن يكتب إذا

طُلب منه الكتابة ولا يتأخر، فقد يتعين هذا على شخص معين إذا لم يوجد غيره.

كما في الحديث عن أبي ذر أن من الصدقة أن: «تعين صانعاً أو تصنع لأخرق»^(١).

وفي الحديث عن أنس وابن عباس وأبي هريرة ؓ أن رسول الله ﷺ قال: «من كتم علماً يعلمه ألجم يوم القيامة بلجام من نار»^(٢)، ولا بأس أن يأخذ أجراً على ذلك.

وفائدة الكتابة: حفظ الحقوق من الجانبين، فلا زيادة في الحق، ولا تأخير في الأجل، وليس في هذه الكتابة خجل، ولا حياء من الصديق ولا القريب ولا الجار؛ فإن النص الكتابي فيه تبرئة للذمة، وإثبات للحقوق، وعدم خوف من ضياعها.

شروط المملي

﴿وَلْيُمْلِلِ الَّذِي عَلَيْهِ الْحَقُّ وَلْيَتَّقِ اللَّهَ رَبَّهُ وَلَا بَيَّخَسْ مِنْهُ شَيْئًا فَإِنْ كَانَ الَّذِي عَلَيْهِ الْحَقُّ سَفِيهًا أَوْ ضَعِيفًا أَوْ لَا يَسْتَطِيعُ أَنْ يُمِلَّ^(٣) هُوَ فَلْيُمْلِلْ وَلِيُّهُ بِالْعَدْلِ﴾

هذه أربعة شروط فيمن يملّي وهو المدين:

الشرط الأول: أن الذي يملّي هو المدين؛ حيث تتحدث الآية عن المملي، من الذي يملّي على الكاتب، ويقول له: اكتب كذا وكذا؟ هل هو الدائن، أم المدين؟ الله سبحانه يبين أن المدين الذي عليه الحق هو الذي يملّي؛ لأنه في موقف ضعف، والدائن في موقف قوة، وقد يستحي المدين من الدائن، إذا هو أملّي ألفاظاً قوية غير صالحة، وصاحب الحاجة يكون في موقف ضعيف، ولذلك فإن الله سبحانه جعل إملاء الكتابة للعقد أو كتابة الدّين بتحديد المقدار، وتحديد المدة، والشروط، والحدود، وغير ذلك، يملّيها المدين؛ لأنه سيلتزم بما أملّي، وسيقوم بالوفاء به؛ ليكون هذا حُجّة عليه.

(١) «فتح الباري» (١٧٦/٥) والحديث في البخاري (٢٥١٨) ومسلم (٨٤).

(٢) الطبراني (٥/١١) والحديث عن أنس في «صحيح سنن ابن ماجه» (٢١٢) وأبي يعلى (٢٥٨٥) والطبراني (١١٣١٠) عن ابن عباس والترمذي (٢٦٤٩) وابن ماجه (٢٦١) والحاكم (١٠١/١) عن أبي هريرة، وهو

في المسند (١٠٤٨٧، ١٠٥٩٧) حديث صحيح، كما قال محققوه.

(٣) قرأ قالون وأبو جعفر بخلف عنهما بإسكان الهاء من (يمل هو)، وضمها الباقون.

الشرط الثاني: أن يتقي الله فيما يمليه، وعليه أن يخاف الله فيما يملِي ويحذر عقابه ﴿وَلْيَتَّقِ اللَّهَ رَبَّهُ﴾ فلا يحابي أحدا، ولا ينحرف عن الحق في كتابته.

الشرط الثالث: عدم الانتقاص من الحق؛ فلا ينقص صاحب الحق في إملائه، وفي وفائه وأدائه شيئا مما يجب عليه ﴿وَلَا يَبْخَسْ مِنْهُ شَيْئًا﴾.

الشرط الرابع: التوكيل في الإملاء له ثلاثة أسباب هي: السَّفَهُ، والضعف، وعدم القدرة، فإن كان المدين لا يُحسن التصرف في الأموال، وهو مسرف مُبَدِّر، يُحْكَم عليه بالحجر؛ لضعف عقله وسوء تصرفه، أو كان جاهلاً، يقال له أيضاً: سفيهاً، أو كان ضعيفاً: شيخاً كبيراً هرمًا، أو طفلاً صغيراً، لا يستطيع أن يملِي؛ لأنه أبكم أو أصم، أو لا يعرف لغة القوم، ونحو ذلك لأي سبب من الأسباب، فإن وكيله الذي ينوب عنه يقوم بالمهمة، والمراد وكيله الشرعي، أو الذي يتولى أمره.

الإشهاد على العقود

﴿وَأَسْتَشْهِدُوا شَهِيدَيْنِ مِنْ رِجَالِكُمْ فَإِنْ لَمْ يَكُونَا رَجُلَيْنِ فَرَجُلٌ وَامْرَأَتَانِ مِمَّنْ رَضَوْنَ مِنْ الشُّهَدَاءِ^(١) أَنْ تَضِلَّ إِحْدَاهُمَا فَتُذَكَّرَ إِحْدَاهُمَا الْأُخْرَى وَلَا يَأْبَ الشُّهَدَاءُ^(٢) إِذَا مَا دُعُوا﴾

ثم تنتقل الآية بعد الحديث عن الكتابة وتوثيق العقود إلى الإشهاد على العقود، أو على الدَّيْنِ، فُتَبِّين نصابها في الشهادات المالية، وأنها تكون، بشهادة رجلين من المسلمين الأحرار البالغين العاقلين المشهود لهم بين الناس بالعدالة وأن يكون الشاهد غير متهم بالكذب، ولا يجهر بالمعصية، متصف بالعدالة، يرضاه الطرفان، لا يميل لأحدهما، ولا يُتَمَّ بعداوته أو محبته لأحد الطرفين دون الآخر، وإنما يلتزم الحيادة والحذر في ذلك، ولا يخص أحد الطرفين بالاحتياط دون الآخر.

(١) قرأ نافع وابن كثير وأبو عمرو وأبو جعفر ورويس بإبدال الهمزة الثانية ياء خالصة من (الشهداء أن)، والباقون بتحقيقها.

(٢) قرأ نافع وابن كثير وأبو عمرو وأبو جعفر ورويس بتسهيل الهمزة الثانية يَيْنَ يَيْنَ من (الشهداء إذا) وإبدالها واوًا خالصة، وحققها الباكون.

وشهادة الكافر لا تجوز؛ ولا تُقبل شهادة المُصرِّ على الكبائر، ولا تُقبل شهادة الوالد لولده ولا العكس، ولا تُقبل شهادة من يجبر لنفسه نفعًا بشهادته.

شهادة المرأة في المعاملات:

وإذا لم يتيسر رجلاَن لسبب من الأسباب فرجل وامرأتان، ولماذا امرأتان، وليست امرأة واحدة؟ الله سبحانه ذكر السبب، وبين العلة في الآية ﴿أَنْ تَضِلَّ إِحْدَاهُمَا فَتُذَكِّرَ إِحْدَاهُمَا الْأُخْرَى﴾ تنسى جزءًا من الشهادة فتذكرها الأخرى.

وقد فُسر الضلال في الآية بمعنى النسيان، وقد يكون الضلال أعْم من النسيان، فإن من شأن المرأة أنها ترعى شؤون البيت، كترية الأولاد، وقد لا تفقه بعضهن في العقود والمعاملات التجارية والمالية، ولذا فإن من شأنها أن تنسى، وأن تتأثر، وأن تفعل، وأن تكون عاطفية أكثر من الرجل، ولذلك فإن الله سبحانه جعل شهادتها على النصف من شهادة الرجل في الحقوق المالية^(١).

ولا يقبل للمرأة شهادة في الحدود والقصاص، وفي شهادتها في الأحوال الشخصية من: طلاق، وزواج، ورضاع، ونفقة، وعدة، ونحو ذلك خلاف بين الفقهاء، أما ما لا يطلع عليه إلا النساء، كالبكاره والرضاع فإنه يجوز فيه شهادة أربع نسوة.

هذا: ونقصان العقل في المرأة هو غالبًا بمعنى الانسياق وراء العاطفة والشهوة والتزين والانفعال والتأثر وشؤون البيت، ولأن شهادتها على النصف من شهادة الرجل.

أما نقص الدين فيها، فقد بيَّنه النبي ﷺ بأنه يأتيها الحيض، ويأتيها النفاس؛ فلا تصوم بعض رمضان أو كله في وقته، ولا تصلي بضعة أيام من كل شهر بسبب الحيض، وكذلك مدة النفاس، ولا تتعبد، ولا تقرأ القرآن، ولا تطوف بالبيت وهي نَفَساء أو حائض، وهذا نقص في الدين.

عن أبي هريرة وعبد الله بن عمر وأبي سعيد الخدري ؓ عن النبي ﷺ أنه قال: «يا معشر النساء، تصدقن وأكثرن من الاستغفار؛ فإني رأيتكن أكثر أهل النار»، فقالت امرأة

(١) فسر بعضهم الضلال بالضباع، وقال المعنى: أن تضل المرأة إحدى الشهادتين عن إحدى المرأتين فتذكر بها المرأة الأخرى، فجعل (إحدى) الأولى للشهادة والثانية للمرأة، من «تفسير المنار» (٣/١٢٣)

منهن جزلة: وما لنا -يا رسول الله- أكثر أهل النار؟ قال: «كُثِرْنَ اللعن، وَتَكْفُرْنَ العشير، ما رأيت من ناقصات عقل ودين، أغلب لذي لبٍ منكن»، قالت: يا رسول الله، ما نقصان العقل والدين؟ قال: «أما نقصان عقلها فشهادة امرأتين تعدل شهادة رجل، فهذا نقصان العقل، وتمكث الليالي لا تصلي، وتفطر في رمضان، فهذا نقصان الدين»^(١).

وعن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «أليس شهادة المرأة مثل نصف شهادة الرجل»، قلن: بلى، قال: «فذلك من نقصان عقلها»^(٢).

والشاهد إذا طُلب للشهادة، يندب له أن يشهد، ويستحب له أن لا يمتنع ﴿وَلَا يَأْبَ الشُّهَدَاءُ إِذَا مَا دُعُوا﴾ أي: لا يمتنعوا من الشهادة على العقود أو الديون على وجه الوجوب، بالنسبة لمن شهد على هذه العقود من الرجال أو النساء كتابةً.

فإن وُجد غيره بأن كانت الشهادة شفعية فلا بأس من أن يكون مخيراً إذا قام غيره بها، أما إذا تحتم عليه الأمر فلم يوجد غيره فيلزم الإدلاء بالشهادة، ولا يجوز له أن يمتنع عنها، بل يجب عليه الوفاء بها، ولا يخش إلا الله.

ولا ينبغي للشاهد أن يكتم الشهادة، كما قال سبحانه: ﴿وَلَا تَكْتُمُوا الشَّهَادَةَ﴾ أي: حين يطلب منكم الإدلاء بها لأدائها، فإنه يلزم أن تؤدوها، ويحرم كتمان الشهادة عند طلبها، ولكن لا يتبرع بها الإنسان من تلقاء نفسه دون طلب لها؛ فإن فيه فسقاً وفجوراً، وخروجاً عن حدود الله عز وجل، وقد ذمّ الإسلام شهداء الزور الذين يتبرعون بالشهادة؛ فيشهدون قبل أن تطلب منهم الشهادة، وأيمانهم تسبق شهادتهم^(٣).

كما مدح شهداء الحق، ومن لا يوجد غيرهم لأداء هذه الشهادة، على الإدلاء بشهادتهم قبل أن تطلب منهم^(٤).

(١) «صحيح مسلم» برقم (٧٩، ٨٠) و«صحيح البخاري» (٣٠٤، ١٤٦٢، ٢٦٥٨).

(٢) «صحيح البخاري» برقم (٢٦٥٨) و«صحيح مسلم» (٨٠).

(٣) يُنْظَرُ «صحيح البخاري» برقم (٦٤٢٨) و«صحيح مسلم» برقم (٢٥٣٥).

(٤) يُنْظَرُ «صحيح مسلم» برقم (١٧١٩) وأبو داود (٣٥٩٦) والترمذي (٢٢٩٦) والنسائي في «الكبرى» (٦٠٢٩) وابن ماجه (٢٣٦٤).

ودفعًا للنزاع، وليقم بالكتابة رجل أمين ضابط، ومن علّمه الله الكتابة فلا يمتنع، وعلى المدين أن يُملّي ما عليه، ولا ينقص منه شيئًا، فإن كان جاهلاً، أو مريضاً، أو محجوراً عليه، أو صغيراً، أو مجنوناً، أو أخرساً، فليقم بالإملاء وكيله، وأشهدوا رجلين مسلمين عدلين، فإن لم يوجد فرجل وامرأتان ترضون شهادتهما، حتى إذا نسيت إحداهما ذكرتها الأخرى، وعلى الشهاداء أن يؤدوا الشهادة، ولا تملّوا من كتابة الدين، قليل أو كثير، فهو أعدل في شرع الله، ولكن إذا كان الأمر أخذ سلعة ودفع ثمن فلا حاجة للكتابة.

ويُستحبُّ الإشهاد منعًا للنزاع، والشهود والكتّاب لا يلحق بهم ضرر، وخافوا الله في جميع أموركم، ويعلمكم الله مصالح دينكم ودنياكم ويجازيكم على ما قدمت أيديكم.

وهذه بعض الأحكام المستنبطة من الآية:

- ١- جواز جميع المداينات المشروعة.
- ٢- لا بد لبيع السِّلَم أن يكون مُعيّناً وإلى أجل معلوم.
- ٣- ينبغي كتابة جميع عقود المداينات وجوباً أو استحباباً.
- ٤ - أمر الله الكاتب بالكتابة بين المتعاقدين.
- ٥- وجوب أن يكون الكاتب عدلاً، ولا تقبل شهادة من يشك في عدالته.
- ٦- وجوب تحري العدالة في الكتابة بين الدائن والمدين.
- ٧- يجب أن يكون الكاتب على علم بكتابة الوثائق.
- ٨- يُعمل بكتابة العدل الضابط إذا كان خطّه واضحاً معروفاً.
- ٩- لا يمتنع من الكتابة مَنْ مَنَّ الله عليه بمعرفتها.
- ١٠- مَنْ عليه الدين هو الذي يُملّي.
- ١١- يُبَيِّن الكاتب جميع الحقوق ولا يبخس منها شيء.
- ١٢- الإقرار سيّد الأدلة، لأن الله تعالى أمر مَنْ عليه الحق أن يُملّي على الكاتب.
- ١٣- قول من عليه الحق هو المقبول دون قول من له الحق.
- ١٤- يحرم على مَنْ عليه الدين أن ينقص أو يبخس الدائن في شيء مما يملّيه.

- ١٥- إذا كان المدين لا يستطيع الإملاء فإنه يُنيب عنه وَلِيُّهُ .
- ١٦- يلزم الولي من العدل وعدم البخس ، ما يلزم مَنْ عليه الدين .
- ١٧- يشترط عدالة الولي .
- ١٨- ثبوت الولاية في الأموال .
- ١٩- الحق يكون على المدين ، ولو كان سفيهًا أو صغيرًا ، لا على الولي .
- ٢٠- تصرف السفیه والمجنون والصغير غير صحيح .
- ٢١- صحة تصرف الولي في مال مَنْ ذُكر .
- ٢٢- مشروعية تعلّم كتابة الوثائق والعقود ، وأنه فرض كفاية .
- ٢٣- مشروعية الإشهاد على العقود وجوبًا إن كان المتصرف هو ولي أمر اليتيم ، أو نديًا إن كان لمجرد حفظ الحقوق .
- ٢٤- نصاب الشهادة في الأموال : رجلان أو رجل وامرأتان ، ويقبل الشاهد مع يمين المدعي كما بينت السنة .
- ٢٥- لا تقبل شهادة الصبيان .
- ٢٦- ولا تقبل شهادة النساء منفردات في الأموال .
- ٢٧- شهادة العبد البالغ مقبولة لأنه رجل .
- ٢٨- شهادة الكفار ذكورًا أو إناثًا غير مقبولة .
- ٢٩- بيان فضل الرجل على المرأة .
- ٣٠- من نسي شهادته فذكر بها فهي مقبولة ، لقوله تعالى ﴿فَتَذَكَّرَ إِحْدَهُمَا الْأُخْرَى﴾ .
- ٣١- إذا خاف الشاهد نسيان شهادته وجب عليه كتابتها .
- ٣٢- لا يجوز للشاهد أن يأبى الشهادة إلا لعذر .
- ٣٣- لا تجب الإجابة لأداء الشهادة إلا على من اتصف بالعدل والضبط ، إذا لا فائدة من شهادة غيرهم .

- ٣٤- النهي عن السّامة والملل من كتابة جميع ما يتعلق بالديون من شروط وقيود.
- ٣٥- في الآية بيان الحكمة من مشروعية كتابة الديون والإشهاد عليها، بأنه يتضمن العدل الذي به قوام العباد والبلاد، وهو أبعد من الريبة والتنازع والتشاجر.
- ٣٦- الرخصة في ترك الكتابة، إذا كانت التجارة حاضراً بحاضر.
- ٣٧- يشرع الإشهاد على التجارة الحاضرة ذات القيمة الثمينة.
- ٣٨- لا يضار الكاتب أو الشاهد بترك عمله -مثلاً- أو بحصول المشقة له، ولا يضار صاحب الحق بالامتناع أو بطلب أجره.
- ٣٩- مخالفة ما ذكر الله تعالى في الآية فسق.
- ٤٠- يشترط في عدالة الشاهد، ألا يفسقه الشرع، وألا يخالف ما هو متعارف عليه عند الناس، فكل من كان مرضياً عند الله وعند الناس فشهادته مقبولة.
- ٤١- لا تقبل شهادة مجهول الحال حتى يزكي. ^(١)

الْحُكْمُ التَّشْرِيعِيُّ التَّاسِعُ وَالثَّلَاثُونَ: الرَّهْنُ عِنْدَ تَعَسُّرِ الْكِتَابَةِ

- ٢٨٣- ﴿وَإِنْ كُنْتُمْ عَلَى سَفَرٍ وَلَمْ تَجِدُوا كَاتِبًا فَرِهْنَ^(٢) مَقْبُوضَةً فَإِنْ مِنْكُمْ بَعْضٌ فَلْيُؤَدِّ^(٣) الَّذِي أَؤْتُمِنَ^(٤) أَمْنَتَهُ وَلْيَتَّقِ اللَّهَ رَبَّهُ وَلَا تَكْتُمُوا الشَّهَادَةَ وَمَنْ يَكْتُمْهَا فَإِنَّهُ إِيَّائِمَّ قَلْبُهُ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ^(٥)﴾
- وهذه الآية تتحدث عن الرهن:

فقد يحدث لسبب من الأسباب أن لا يتمكن الإنسان من الكتابة لتوثيق الدّين، أو

- (١) ينظر في هذه البنود تفسير الشيخ عبدالرحمن السعدي للآية.
- (٢) قرأ ابن كثير وأبو عمرو (فرهن) بضم الراء والهاء جمع رهن كسقف وسقف، وقرأ الباقون (فرهان) بكسر الراء وفتح الهاء وألف بعدها جمع رهن ككعب وكعاب.
- (٣) قرأ ورش وأبو جعفر بإبدال الهمزة واوًا من (فليؤد)، ومثلها حمزة عند الوقف.
- (٤) قرأ ورش وأبو جعفر وأبو عمرو بخلف عنه بإبدال همزة (الذي أؤتمن) وصلًا ياء خالصة، وكذا حمزة وقفًا، ولو ابتدأ القارئ بكلمة (أؤتمن) يبدأ بهمزة مضمومة بعدها واو.

المعاملة التجارية، أو لا يوجد كاتب، أو لا توجد أدوات الكتابة، وقد يكون الإنسان مريضاً أو مسافراً، ونحو ذلك، وقد يريد الإنسان أن لا يُعْلَمَ أحداً بحاله، فيأتي برهن معادل للحق، أو يزيد عن الحق ويعطيه للدائن؛ يكون وثيقة عنده حتى يأتيه حقه، أو ليأخذ منه الدَّيْنُ إن لم يَقم بالسداد، وهو رَهْنٌ مقبوض، يحدث عند السفر وعند الحضر، فإن كان الرهن غير مقبوض، فإنه لا يحصل به التوثيق، وخص السفر في الآية؛ لأنه مظنة تعسر الكتابة، وقد ثبت في السنة وقوع الرهن من النبي ﷺ وأصحابه في الحضر.

كما ثبت في الصحيحين وغيرهما عن أنس ؓ أن النبي ﷺ تُوَفِّيَ ودرعه مرهونة عند يهودي على ثلاثين وسقاً من شعير، كان قد أخذها قوتاً لأهله.

وفي رواية للنسائي: «من يهود المدينة»^(١).

وعن عائشة ؓ قالت: اشترى رسول الله ﷺ طعاماً من يهودي بنسيئة، ورهنه درعاً له من حديد^(٢).

والرهن عوض عن الشهادة في توثيق الدَّيْنِ، فإن كان الذي عليه الحق أميناً عند صاحب الحق، ولم يأخذ رهناً منه لِحُسْنِ ظنه به، أو لكونه مضموناً مُؤْتَمَناً، وليس من شأنه أن يجحد أو يَماطل، فلم يكتب ولم يُشْهَد عليه، ولم يأخذ منه رهناً؛ لأن هناك ثقة متبادلة بين الطرفين؛ فإن الواجب على المدين أن يؤدي الدَّيْنَ في موعده بلا مماطلة ولا مطالبة، ويكون عند حسن ظن أخيه.

وقد يكون هناك رحم بين الدَّائِنِ والمدين، ولا يريد الدائن الكتابة بينهما؛ لأنه يَضْمَنُ حقه من المدين حياً أو ميتاً، فعليه في هذه الحالة أن يوصي به في مرضه، ويُعْلِمَ ورثته، إذ لا جرح ولا مانع من الكتابة والإشهاد أو الرهن ولكنه لم يسجل ولم يوثق، وعلى المدين أن يتقي الله سبحانه، وأن يدفع ما عليه من حق في حياة الدائن أو بعد موته ﴿فَلْيُؤَدِّ الَّذِي اُؤْتِيَ اَمْنًا وَلْيَتَّقِ اللَّهَ رَبَّهُ﴾ وهذا الأمر بأداء الأمانة يعود على ما في هذه الآية والتي قبلها، حيث يكون الدَّيْنُ أمانة في الذمة حتى يُوفَّى به.

(١) مسلم عن عائشة (١٢٢٦/٣) والبخاري عن أنس كما في الفتح (٣٥٤/٤) وهو في البخاري برقم (٢٥٠٨) و«سنن النسائي» (٢٨٨/٧).

(٢) البخاري (٢٠٦٨) ومسلم (١٦٠٣) والنسائي (٤٦٢٣، ٤٦٦٤) وابن ماجه (٢٤٣٦) والبيهقي (٣٦/٦).

عن الحسن عن سمرة عن النبي ﷺ قال: «على اليد ما أخذت حتى تؤديه»^(١).

الْحُكْمُ الْأَرْبَعُونَ: النَّهْيُ عَنْ كِتْمَانِ الشَّهَادَةِ

﴿وَلَا تَكْتُمُوا الشَّهَادَةَ﴾ إذا دُعِيتُم إليها؛ حتى لا تضع الحقوق بين الناس، لأن الحق مبني عليها، لا يثبت بدونها، وكتمانها من أعظم الذنوب، لما يترتب عليها من فوات الحق، وترك الإخبار بالصدق ﴿وَمَنْ يَكْتُمْهَا فَإِنَّهُ آثِمٌ قَلْبُهُ﴾.

عن زيد بن خالد ؓ أن رسول الله ﷺ قال: «ألا أخبركم بخير الشهداء؟ الذي يأتي بشهادته قبل أن يُسألها»^(٢).

أما حديث زيد بن خالد الجهني عن النبي ﷺ: «ألا أخبركم بشر الشهداء؟ الذين يشهدون قبل أن يُستشهدوا»^(٣).

وكذا قوله ﷺ فيما يرويه عبد الله بن مسعود ؓ: «ثم يأتي قوم تسبق أيمانهم شهادتهم، وتسبق شهادتهم أيمانهم»^(٤).

وفي رواية: «ثم يأتي قوم يشهدون ولا يُستشهدون»^(٥).

فهي أحاديث صحيحة وردت في الصحيحين وغيرهما، ولكنها تعني شهادة الزور قال

(١) رواه أحمد (١٢/٥) برقم (٢٠١٣١، ٢٠١٥٦) وهو حديث حسن لغيره، وأخرجه الطبراني (٦٨٦٢) وأهل السنن عن قتادة، وأبو داود برقم (٣٥٦١) والترمذي برقم (١٢٦٦) والنسائي برقم (٥٧٨٣) وابن ماجه برقم (٢٤٠٠).

(٢) «صحيح مسلم» برقم (١٧١٩) ورواه أصحاب السنن، وهو في المسند: (١٧٠٤٠، ١٧٠٤٧) بإسناد صحيح ورجال ثقات، وأخرجه أبو مصعب في الموطأ (٢٩٣١) وابن حبان (٧٠٥٩) والبخاري في شرح السنة (٢٥١٣) وابن حبان (٥٠٧٩) والترمذي (٢٢٩٥).

(٣) في مسلم (١٧١٩) وأبي داود (٣٥٩٦) وابن ماجه (٢٣٦٤) والترمذي (٢٢٩٥) والمسند (١٧٠٤٠) حديث صحيح، رجاله ثقات، وابن حبان (٥٠٧٩) و«سنن النسائي الكبرى» (٥٩٨٥)، والموطأ من رواية يحيى (٧٢٠/٢) ومن رواية أبي مصعب (٢٩٣١).

(٤) يُنظر: البخاري (٦٤٢٩) ومسلم (٢٥٣٣) وابن ماجه (٢٣٢٦) والترمذي (٣٨٥٩) والمسند (٣٥٩٤) بإسناد صحيح على شرط الشيخين، وابن حبان (٤٣٢٨) وغيرهم.

(٥) البخاري برقم (٦٤٢٨) ومسلم برقم (٢٥٣٥).

تعالى: ﴿إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا﴾ [الإسراء: ٣٦]
 ﴿وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ﴾ فيجازيكم ويحاسبكم.

والمعنى: إن كنتم مسافرين ولم تجدوا من يكتب، فأعطوا صاحب الحق رهناً ضماناً لحقه إلى أن يرد ما عليه، فإن وثق بعضكم في بعض فلا حرج في ترك الشهادة والكتابة والرهن، ويبقى الدّين أمانة في الذمة، فإن أنكر المدين، وكان هناك مَنْ حَضَرَ، فعليه أن يُظهِر شهادته، ومن كتم هذه الشهادة فهو صاحب قلبٍ غادر فاجر، والله سبحانه هو المطلع على السرائر، المحيط بكل الأمور، وسوف يحاسبهم على ذلك.

عِلْمُ اللَّهِ تَعَالَى مُحِيطٌ بِالسَّرَائِرِ وَالْعَلَانِيَةِ

٢٨٤- ﴿لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَإِنْ تُبَدُّوا مَا فِي أَنْفُسِكُمْ أَوْ تُخَفُّوهُ يُحَاسِبْكُمْ بِهِ اللَّهُ فَيَغْفِرُ^(١) لِمَنْ يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ^(٢) مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ

أخبر سبحانه أنه مالك لهذا الكون وما فيه، فهو الخالق الرازق المدبر، والخلق لا يملكون لأنفسهم نفعا ولا ضرا، ولا موتا ولا حياة ولا نشورا، وهو ربهم ومالكهم، يعلم سرهم ونجواهم وأمرهم ونهاهم، وسوف يحاسبهم على ما أسروه وما أعلنوه وكل ما قدمت أيديهم.

وما دام الله تعالى يعلم كل صغيرة وكبيرة، فعليكم أن تبذلوا الجهد والطاقة في العمل الصالح، فإن ما تملكونه من هذه الدنيا عارية مستردة، والملك الحقيقي لله وحده، وهو سبحانه مطلع على جميع ما في هذا الكون من العالم العلوي والعالم السفلي، لا يخفى عليه شيء مما تظهرونه أو تخفونه من أقوالكم وأفعالكم، وهو سبحانه محاسبكم ومجازيكم بما كسبت أيديكم، وعملت جوارحكم، فيعفو عمن يشاء، ويعاقب من يشاء، وهو قادر على كل شيء، يعلم السر، ويعلم ما هو أخفى من السر، ﴿قُلْ إِنْ تُخَفُّوْا مَا فِي صُدُورِكُمْ أَوْ تُبَدُّوْهُ يَعْلَمُهُ اللَّهُ وَيَعْلَمُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾ [آل عمران: ٢٩] ومنطوق هذه الآية أن الله تعالى يحاسب

(١) قرأ ابن عامر وعاصم وأبو جعفر ويعقوب برفع الراء والباء من (يعفر)، و (يعذب) على الاستئناف، أي: فهم يغفر، وقرأ الباقر بن جزمهما، عطفًا على (يحاسبكم) وأدغم الراء في اللام من (فيغفر لمن) أبو عمرو بخلف عن الدوري، وأدغم الباء في الميم من (يعذب من) أبو عمرو والكسائي وخلف العاشر، وبالإظهار والإدغام لقالون وابن كثير وحمزة، والباقر بالإظهار فيهما.

الإنسان على عمل الجوارح ومكنون النفس، وأنه سبحانه يغفر لمن يشاء ويعذب من يشاء .
وقد عفا سبحانه عن حديث النفس، وخطرات القلب من هذه الأمة، وهو ما يجول في صدر الإنسان وقد تجاوز الله سبحانه عن حديث النفس، وأخذ بالأقوال والأعمال وعقد العزم على الفعل :
١- قال أبو هريرة رضي الله عنه : لما نزلت هذه الآية اشتد ذلك على أصحاب رسول الله ﷺ، ثم جثوا على الركب لحرصهم على الطاعة، وخوفهم من التقصير في جنب الله ﷻ، وقالوا: يا رسول الله كلفنا من الأعمال ما نطبق: الصلاة، والصيام، والجهاد، والصدقة، وقد أنزل عليك هذه الآية ولا نطبقها؛ فقال ﷺ : «أتريدون أن تقولوا كما قال أهل الكتابين قبلكم؟» يعني: اليهود والنصارى «سمعنا وعصينا، بل قولوا: ﴿سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا﴾ عُفْرَانُكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ» فلما قالوها ونطق بها ألسنتهم، ودانت بها قلوبهم أنزل الله بعدها ﴿إِذْ آمَنَ الرَّسُولُ﴾^(١).
فقالوا يا رسول الله: نتوب من عمل اليد والرجل واللسان، فكيف نتوب من الوسوسة وحديث النفس^(٢)؟ وفي لفظ مسلم: «فلما فعلوا ذلك نسخها الله»^(٣).

وهذا لا يعني النسخ المصطلح عليه عند الأصوليين، وإنما المراد تخصيص العموم، فإن الآية الأولى ﴿وَأِنْ تُبْذَرُوا﴾ تفيد أنهم محاسبون حتى على حديث النفس.
والآية الثانية ﴿لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ﴾ تفيد أن التكليف إنما يكون بحسب الوسع والطاقة وهذا تخصيص للعموم الآية الأولى.

٢- قال ابن عباس رضي الله عنه : إن هذه الآية لما نزلت غمَّت أصحاب رسول الله ﷺ غمًّا شديدًا... وقالوا: يا رسول الله هلكننا إن كنا نؤاخذ بما تكلمنا وبما نعمل، فأما قلوبنا فليست بأيدينا فقال ﷺ : «قولوا: سمعنا وأطعنا»، قالوا: سمعنا وأطعنا، فنزلت الآيتان بعدها، فتَجَوَّزَ لهم عن حديث النفس وأخذوا بالأعمال^(٤).

(١) «المسند» (٤١٢/٢) برقم (٢٠٧٠) وإسناده صحيح على شرط مسلم (محققه) و«صحيح مسلم» (١٢٥)، ١٢٦ عن ابن عباس والترمذي (٢٩٩٢) والنسائي في الكبرى (١١٠٥٩).

(٢) يُنْظَرُ: الأثر (٦٥٠٣) في الطبري.

(٣) «صحيح مسلم» برقم (١٢٥) والمحققون على أن النسخ يكون في الأحكام لا في الأخبار، فالأرجح أنها محكمة كما سيأتي.

(٤) «المسند» (٣٣٢/١)، برقم (٢٠٧٠، ٣٠٧٠) بإسناد صحيح على شرط مسلم، (محققه) والحاكم (٢٨٦/٢).

٣- وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: لما نزلت ﴿لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَإِنْ تُبَدُّوا مَا فِي أَنْفُسِكُمْ أَوْ تُخَفُّوهُ يَحَاسِبْكُمْ بِهِ اللَّهُ﴾ اشتد ذلك على القوم، فقالوا: يا رسول الله، إنا لمؤاخذون بما نحدث به أنفسنا هلكنّا! فأنزل الله ﴿لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ﴾^(١).

٤- ولما تلا عبد الله بن عمر هذه الآية ﴿وَإِنْ تُبَدُّوا مَا فِي أَنْفُسِكُمْ أَوْ تُخَفُّوهُ يَحَاسِبْكُمْ بِهِ اللَّهُ﴾ قال: لئن آخذنا الله بهذا لنهلكنّ، ثم بكى ابن عمر حتى سُمع نحيجه، فقال ابن مَرْجَانة: فقمْتُ حتى أتيت ابن عباس فذكرتُ له ما تلا ابن عمر، وما فعل حين تلاها، قال ابن عباس: يغفر الله لأبي عبد الرحمن! لعمرى لقد وجد المسلمون منه حين أنزلت مثل ما وجد عبد الله بن عمر، فأنزل الله بعدها ﴿لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ إلى آخر السورة.

قال ابن عباس: فكانت هذه الوسوسة مما لا طاقة للمسلمين بها، وصار الأمر إلى أن قضى الله ﷻ أن للنفس ما كسبت وعليها ما اكتسبت في القول والفعل^(٢).

وأنزل الله ﷻ مخففاً عن عباده؛ لأنهم لا يستطيعون منع الوسوسة وحديث النفس، فبين الله تعالى معنى هذه الآية في قوله سبحانه: ﴿لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ فمراد من قال بالنسخ بين هذه الآية ﴿لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ﴾ والآية التي بعدها ﴿لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا﴾ هو البيان والإيضاح والتخصيص، أي: أن الآية الثانية موضحة ومخصصة للأولى، وليس معناه زوال الحكم:

١- لأن الوسواس والخواطر التي تكون داخل النفس لا تختلف باختلاف الأزمنة والأحوال.

٢- ولأن قوله تعالى ﴿يَحَاسِبْكُمْ بِهِ اللَّهُ﴾ خبر، والأخبار لا تنسخ.

٣- ولأن كسب القلب وعمله يؤخذ عليه المرء سواء ظهر أثره على الجوارح، أم لا.

٤- كما قال تعالى ﴿وَلَكِنْ يُؤَاخِذُكُمْ بِمَا كَسَبَتْ قُلُوبُكُمْ﴾ [البقرة: ٢٢٥].

٥- والمرء يُسأل عن عمل الفؤاد، كما في قوله تعالى: ﴿إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ

(١) «المسند» برقم (٩٣٤٤) حديث صحيح وإسناد حسن ومسلم مطولاً (٤٦/١) برقم (١٣٥) والطبري (٦٤٥٦).

(٢) «فتح الباري» (١٥٤/٨) مختصراً والطبري برقم (٦٤٦٠) وهي في «الطبراني الكبير» (١٠٧٧٠) والبيهقي (٣٢٩).

أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا ﴿٣٦﴾ [الإسراء: ٣٦]. والفؤاد ليس من الجوارح.

٦- وحب إشاعة الفاحشة من عمل القلب، وقد توعد الله عليه بالعذاب في الدنيا والآخرة في قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُحِبُّونَ أَنْ تَشِيعَ الْفَاحِشَةُ فِي الَّذِينَ ءَامَنُوا لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ﴾ [النور: ١٩].

والمقصود بعمل الفؤاد: ما ثبت في النفس، ويستقر عليه القلب، ومن ذلك: الحب والبغض، وكرهان الشهادة، وقصد السوء، وفساد النية، وخُبث السريرة، والأعمال بالنيات، ولكل امرئ ما نوى، وإن الله لا ينظر إلى صوركم، ولكن ينظر إلى قلوبكم.

وهذا معنى الهمّ بالحسنة والهمّ بالسيئة، والمؤاخذة بهما، ولذلك كان قصد الإلحاد في الحرم يسبب العذاب الأليم، أما الخواطر السانحة، والوساوس العارضة، وحديث النفس الذي لا يصل إلى درجة القصد الثابت، والعزم أو الهم، فهو الذي لا يحاسب الله عليه، ولا يؤاخذ به، وهذا إيضاح وبيان لقوله تعالى: ﴿لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾.

والوسع: ما يسع الإنسان، ولا يُضيق عليه ولا يُخرجه.

والتكليف: منه تكليف ما لا يطاق؛ كتكليف الأعمى النظر وهو محال، وغير مطلوب منه.

ومنه تكليف ما يمكن احتماله بمشقة؛ كمشقة قيام الليل، وصيام النهار، وهو المراد في هذه الآية ﴿لَهَا مَا كَسَبَتْ﴾ أي: من الطاعات ﴿وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ﴾ من المعاصي.

والمعنى: لها ثواب ما كسبت من الخير، وعليها عقاب ما اكتسبت من الشر.

ولفظ ﴿كَسَبَتْ﴾ يشير إلى أن عمل الخير هو الأصل الذي جُبل المرء عليه، مع اعتقاد أنه نافع وأن فعله خير من تركه، بخلاف عمل الشر فهو مخالف للفطرة يعرض للإنسان، ثم يزول عنه مع اعتقاد أنه ضار.

وقيل: إن ما يصيب الناس في الدنيا من المصائب والأحزان والآلام، هو عقوبة لما يخفونه في أنفسهم من سيئ القول والعمل، ويؤيده قوله تعالى حكاية عن المجرمين: ﴿مَالِ هَٰذَا الْكِتَابِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا﴾ [الكهف: ٤٩]. وقوله: ﴿إِنْ تَجْتَنِبُوا كَبَائِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ تُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَغَائِرَكُمْ وَنُدْخِلْكُمْ مُدْخَلًا كَرِيمًا﴾ [النساء].

والله ﷻ لا يؤاخذنا في الآخرة إلا بما عملت أيدينا وجوارحنا، وما نطق به اللسان، أي: لا يؤاخذنا إلا على القول أو العمل، كما قال تعالى: ﴿مَنْ يَعْمَلْ سُوًّا يُجْزَ بِهِ وَلَا يَجِدْ لَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا﴾ (٢٣) وَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَٰئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ نَقِيرًا ﴿١٢٤﴾ [النساء].

وقال: ﴿مَا يَلْفُظُ مِنْ قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾ ﴿٨﴾ [ق].

وصح عن رسول الله ﷺ أنه قال: «إن الله تعالى تجاوز لي عن أمتي ما حدثت بها أنفسها ما لم تكلم أو تعمل»^(١).

وفي حديث ابن عباس وأبي هريرة ؓ أن رسول الله ﷺ قال: «إن الله تجاوز عن أمتي الخطأ والنسيان وما استكرهوا عليه»^(٢).

أي: ما لم يفعل بجوارحه وأعضائه، أو ينطق به لسانه، فإنه مؤاخذ عليه، فإذا تبلور حديث النفس، أو الخواطر التي تكون داخل الإنسان، وانتقلت إلى مرحلة القصد أو العزم على فعل الشيء، ثم حال بين العبد وبين الفعل أو القول حائل أو مانع خارج عن إرادته، منعه من اقتراف هذا الذنب، فإنه مؤاخذ على حبه للشيء، ومؤاخذ على عزمه وإرادته، قال سبحانه: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُحِبُّونَ أَنْ تَشِيعَ الْفَاحِشَةُ فِي الَّذِينَ ءَامَنُوا لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [النور: ١٩]

وهذا العذاب الأليم أعده الله في الدنيا والآخرة لمن لم يفعل الفاحشة، ولكنه يحب إشاعتها بين الناس، فهو متوعد بهذا العذاب في الدنيا ويوم القيامة لمحبهه للمعصية.

كذلك الأمر بالنسبة إلى الإلحاد في الحرم عن إرادة وعزم وقصد قال تعالى: ﴿وَمَنْ يُرِدْ

(١) «صحيح البخاري» برقم (٢٥٢٨، ٥٢٦٩، ٦٦٦٤) و«صحيح مسلم» برقم (١٢٧) والسنن عن أبي هريرة في أبي داود (٢٢٠٩) والترمذي (١١٨٣) والنسائي (٣٤٣٤) وابن ماجه (٢٠٤٠، ٢٠٤٤).

(٢) وأخرجه البخاري (٥٢٦٩) وأبو داود (٢٢٠٩) و«صحيح سنن ابن ماجه» (١٦٦٤) وابن حبان (٧٢١٩) والحاكم (١٩٨/٢) والدارقطني (٤/١٧٠) وابن المنذر (١٨٥) والطبراني في «الصغير» (١٧٠١)، وفي المسند عن أبي هريرة (٩١٠٨، ٩٤٩٨، ١٠٣٦٣).

فِيهِ بِالْحَاكِمِ يُظْلَمُ نُذُقُهُ مِنْ عَذَابِ الْإِيمِ ﴿[الحج: ٢٥]﴾. إنه لم يقع منه فعل الإلحاد، وإنما أحبه وعزم عليه وهم به، ومع ذلك فقد توعدّه الله بالعذاب الأليم، وجاء في هذا أحاديث كثيرة عن رسول الله ﷺ منها:

ما جاء عن أبي هريرة ؓ قال: قال رسول الله ﷺ قال الله تعالى: «إِذَا هَمَّ عَبْدِي بِسِيئَةٍ فَلَا تَكْتُبُوهَا عَلَيْهِ، فَإِنْ عَمِلَهَا فَامْكُتُوبَهَا سِيئَةً، وَإِذَا هَمَّ بِحَسَنَةٍ فَلَمْ يَعْمَلْهَا فَامْكُتُوبَهَا حَسَنَةً، فَإِنْ عَمِلَهَا فَامْكُتُوبَهَا عَشْرًا»^(١).

وفي لفظ آخر عن ابن عباس ؓ: «إِنْ أَلَّهَ كُتِبَ الْحَسَنَاتُ وَالسَّيِّئَاتُ، ثُمَّ بَيَّنَّ ذَلِكَ: فَمَنْ هَمَّ بِحَسَنَةٍ فَلَمْ يَعْمَلْهَا، كُتِبَتْ لَهُ حَسَنَةٌ كَامِلَةٌ، وَإِنْ هَمَّ بِهَا فَعَمِلَهَا، كُتِبَتْ لَهُ حَسَنَةٌ كَامِلَةٌ، وَإِنْ هَمَّ بِهَا فَعَمِلَهَا كُتِبَتْ لَهُ عَشْرُ حَسَنَاتٍ، إِلَى سَبْعِمِائَةٍ ضَعْفٌ إِلَى أَضْعَافٍ كَثِيرَةٍ، وَإِنْ هَمَّ بِسَيِّئَةٍ فَلَمْ يَعْمَلْهَا كُتِبَتْ لَهُ حَسَنَةٌ كَامِلَةٌ، وَإِنْ هَمَّ بِهَا فَعَمِلَهَا كُتِبَتْ لَهُ سَيِّئَةٌ وَاحِدَةٌ»^(٢).

فَعَمِلُ السَّيِّئَةِ يُكْتَبُ سَيِّئَةٌ وَاحِدَةٌ، وَتَرْكُهَا بَعْدَ الْهَمِّ بِهَا يُكْتَبُ حَسَنَةٌ، وَفَعْلُ الْحَسَنَةِ يَضَاعَفُ مِنْ عَشْرِ إِلَى مَا شَاءَ اللَّهُ، وَتَرْكُهَا إِنْ كَانَتْ عَلَى سَبِيلِ النَّدْبِ لَا مَوَازَنَةَ عَلَيْهِ، فَفَضْلُ اللَّهِ رَحْمَتَهُ بِعِبَادِهِ كَبِيرٌ.

فحديث النفس على قسمين: قسم يوطن الإنسان نفسه على فعله، ويعزم على إظهاره في الوجود. وقسم يخطر على باله، ولا يمكن دفعه، ولكنه يكرهه، ولا يعزم على فعله، ولا على إظهاره في الوجود. والأول مؤاخذ عليه، والثاني مغفوق عنه، ويدخل في ذلك حب موالاة الكفار وبغضهم. ورسّل الله وأنبيأوه لا يعزّمون على فعل المعصية لعصمتهم منها، والجمهور على أن الإنسان مؤاخذ على العزم المؤكد.

وقوله سبحانه: ﴿يُحَاسِبُكُمْ بِهِ اللَّهُ﴾ هذه المحاسبة على ظاهرها، ولا يلزم من الحساب العقاب، فما يجيش في النفس ويخطر بالبال لا تعلمه الملائكة، ولا تدونه، فهو لا يكتب في صحيفة

(١) «صحيح مسلم» برقم (١٢٨) بلفظه و«صحيح البخاري» (٧٥٠١).

(٢) البخاري (٦٤٩١) ومسلم برقم (١٣١).

العبد، ومن هنا فإن الله سبحانه إذا كان يوم القيامة أخبر عبده بما كان يدور في خلده، وما يجيش في نفسه؛ حتى يعلم العبد أنه جل شأنه لا تخفى عليه خافية في الأرض ولا في السماء وعلمه شامل ومحيط للسر والعلانية، وما هو أخفى من السر، قال تعالى: ﴿وَأَن تَجْهَرُوا بِالْقَوْلِ فَإِنَّهُ يَعْلَمُ السِّرَ وَأَخْفَى﴾ أي: أخفى من السر.

فالمؤمن يُقربه ربه منه يوم الحساب؛ حتى يضع كنفه عليه، أي: يشملُه جل شأنه برحمته وعطفه ورعايته، ثم يقرره بذنوبه ولا يعاقبه، ولا يسأله على رؤوس الأشهاد، وهذا هو الحساب اليسير ﴿فَأَمَّا مَنْ أُوْك كِتَبُ بِيَمِينِهِ﴾ ﴿٧﴾ ﴿فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا﴾ ﴿٨﴾ وَيَقْلِبُ إِلَى أَهْلِهِ مَسْرُورًا﴾ [الانشقاق: ٧-٩] فيعطى كتابه بيمينه وتطوى صحيفة حسناته، وحسابه يكون سرًا بينه وبين ربه، ومن نُوقش الحساب علنًا فقد عُدب. وإذا ستر الله العبد في الدنيا على ذنب اقترفه، فإن هذا دليل على أن هذا العبد سيتوب ويرجع إلى الله سبحانه:

في الصحيحين عن ابن عمر رضي الله عنهما قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «يدنو المؤمن من ربه، حتى يضع عليه كنفه، فيقرره بذنوبه، فيقول: هل تعرف ذنب كذا، فيقول: رب اغفر، مرتين، حتى إذا بلغ به ما شاء الله أن يبلغ، قال: سترتها عليك في الدنيا، وأنا أغفرها لك اليوم، قال: فيعطى صحيفة حسناته، أو كتابه بيمينه، أما الكافر والمنافق فينادى على رؤوس الأشهاد ﴿هَؤُلَاءِ الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَى رَبِّهِمْ أَلَا لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ﴾» ^(١) [هود: ١٨].

وقد أجمل الله تعالى في هذه الأحوال المغفورة وغير المغفورة؛ ليكون العبد بين الخوف والرجاء، فلا يُقصر في فعل الخيرات، ولا يتهاون في ارتكاب المنكرات، ولذا: ختم الله سبحانه الآية بقوله: ﴿فَيَغْفِرُ لِمَن يَشَاءُ﴾ أي: يعفو عنه ولا يعاقبه بفضلِهِ وإِحسانِهِ ﴿وَيُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ﴾ فيؤاخذه بما قال وفعل بعدله وحكمته، وهو القادر على كل شيء، لا رادَّ لقضائه، ولا مُعَقِّبَ لحكمه، ولا يسأل عما يفعل.

(١) البخاري: (٢٤٤١، ٤٦٨٥) ومسلم (٢٧٦٨) وأحمد برقم (٥٤٣٦) إسناده صحيح على شرط الشيخين والطبري (٦٤٩٦، ٦٤٩٧) (١١٩/٦) وابن خزيمة (٢٣٢) وعبد بن حميد (٨٤٦) وابن أبي شيبه (١٣/١٨٩) وابن حبان (٧٣٥٦) وأبو يعلى (٥٧٥١).

مَنْ يُفَرِّقْ بَيْنَ رُسُلِ اللَّهِ لَا يَدْخُلْ فِي دَائِرَةِ الْإِيمَانِ

٢٨٥- ﴿عَمَّنَ الرُّسُلُ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلُّ عَمَّنَ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ^(١) وَرُسُلِهِ لَا يُفَرِّقُ^(٢) بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ وَقَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ﴾

يخبر سبحانه وتعالى عن إيمان الرسول والمؤمنين بالله وملائكته وكتبه، ورسله، وهذا يشمل الإيمان بجميع ما أخبر الله به عن نفسه، وما أخبرت به رسل الله عنه من صفات الكمال والجلال، ويشمل الإيمان بما تضمنته الكتب من الأخبار والأوامر والنواهي، وهذا الإيمان يعم رسل الله جميعاً ولا يفرق بين أحد منهم.

هذا: ولما شق على الصحابة محاسبة الله لهم على ما تخفيه نفوسهم، وشكوا ذلك إلى النبي ﷺ فقال لهم: «لعلكم تقولون: سمعنا وعصينا؛ كما قالت بنو إسرائيل»، فقالوا: بل نقول: ﴿سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا﴾ فأنزل الله الآية ﴿عَمَّنَ الرُّسُلُ﴾^(٣).

قال الزجاج: لما ذكر الله في هذه السورة: فرض الصلاة، والزكاة، والصوم، والحج، والطلاق، والإيلاء، والحيض، والجهاد، وقصص الأنبياء، وكلام الحكماء، ختم السورة بذكر تصديق نبيه والمؤمنين بكل ذلك فقال: ﴿عَمَّنَ الرُّسُلُ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ﴾ وهو القرآن الذي نزل عليه من عند الله، وآمن بسائر الكتب السماوية، فصدق وأيقن بما أوحى إليه من ربه، وآمن بها المؤمنون أيضاً فأيقنوا بما جاء من عند الله، وعملوا بالقرآن المنزل على محمد ﷺ ﴿كُلُّ عَمَّنَ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ﴾.

أي: وكل من الرسول والمؤمنين آمن بالله رباً، وملائكته الكرام، وكتبه المنزلة على رسله.

(١) قرأ حمزة والكسائي وخلف العاشر (وكتابه) على التوحيد على أن المراد به القرآن أو الجنس وقرأ الباقون (وكتبه) على الجمع، وذلك لتعدد الكتب السماوية.

(٢) قرأ يعقوب (لا يُفَرِّقُ) بالياء على أن الفاعل ضمير يعود على الرسول ﷺ والمؤمنون وقرأ الباقون (لا تُفَرِّقُ) بالنون، على التكلم أي كل من الرسول والمؤمنون يقول: لا نفرق: إلخ.

(٣) يُنَظَرُ «تفسير الطبري»، «الأثر» (٦٤٧٧) و(١٢٥/٦) والقرطبي وابن كثير والسيوطي (٤٧) والنيسابوري (٧٨) وغيرهم.

فهذه أربعة من أركان الإيمان وهي:

أولاً: أن يؤمن العبد بالله واحداً أحداً، لا شريك له، ولا صاحبة ولا ولد ولا نظير، ويؤمن بجميع أسمائه وصفاته كما جاءت، وأنه سبحانه حي عالم، قادر على كل شيء، سميع بصير ليس كمثله شيء، وهو السميع البصير.

ثانياً: ويؤمن بوجود ملائكة الله تعالى الكرام، وأنهم معصومون مطهرون، وأنهم السفرة الكرام البررة، وأنهم الواسطة بين الله تعالى وبين رسله.

ثالثاً: ويؤمن بالكتب المنزلة من عند الله تعالى، وأنها وحي الله إلى رسله وهي: التوراة، والإنجيل، والزيور، وصحف إبراهيم وموسى، وأن القرآن لم يُحرّف ولم يُبدّل، ولم يُغيّر، وأنه مشتمل على المحكم والمتشابه، وأن المحكم يكشف المتشابه.

رابعاً: أن يؤمن برسل الله إلى عباده، وأنهم أمناء الله على وحيه، وأنهم معصومون، وأنهم أفضل الخلق، وأن بعضهم أفضل من بعض.

ومعنى ﴿لَا تُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِ﴾ أي: نحن -المؤمنين- لا نؤمن ببعض الرسل ونكفر ببعض، فالمسلم يؤمن بالرسالات السابقة كلها قبل محمد ﷺ يؤمن برسالة نوح، ورسالة إبراهيم وموسى وعيسى، وغيرهم من رسل الله، ممن ذكر الله في كتابه، وممن لم يذكر على أنها رسالات سبقت ونُسخت، وانتهى زمانها ومكانها، وكل رسالة منها أدت غرضها في وقتها، ثم نسختها الرسالة التي تليها، فالمسلم يؤمن برسل الله جميعاً على هذا النحو.

وفي الآية إشارة إلى أن اليهود والنصارى يُفَرِّقون بين رسل الله؛ فاليهود لا يؤمنون بعيسى ﷺ، ولا يؤمنون بمحمد ﷺ، وَيُفَرِّقون بين موسى وعيسى، والنصارى يفرقون بين عيسى ومحمد، مع أن الوحي الذي نزل على هذا الرسول، هو نفسه الذي نزل على الرسول الآخر، فهذه تفرقة بين رسل الله، والمؤمنون يستجيون لكل ما جاء من عند الله ﴿وَقَالُوا سَمِعْنَا﴾ ربنا ما أوحيت به إلى رسلك، وأطعنا في كل ذلك، فاعفر لنا ربنا بفضلِكَ، فإليك المرجع وإليك المصير، وذلك أن المؤمنين حين نزلت عليهم هذه التكاليف من أركان الإيمان وسواها قالوا: ﴿سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ﴾ وهذا الدعاء تَلْقَيْن من الله تعالى لرسوله وعباده المؤمنين.

الْجَزَاءُ عَلَى الْقَوْلِ وَالْعَمَلِ وَلَا مُؤَاخَذَةً عَلَى الْخَطَا وَالنَّسِيَانِ

٢٨٦- ﴿لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا إِنْ نَسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَا إَصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِنَا رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِ وَاعْفُ عَنَّا وَاعْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا أَنْتَ مَوْلَانَا فَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾ (٢٨٦)

ثم بين سبحانه بعض مظاهر رحمته بعباده، وأنه ﷻ يسر على خلقه، ولم يكلفهم فوق الطاقة، فمن فعل خيراً نال خيراً، ومن فعل شراً نال شراً.

قال المفسرون: لما نزل قول الله تعالى: ﴿وَأِنْ تُبَدُّوا مَا فِي أَنْفُسِكُمْ أَوْ تُخَفُّوهُ يُحَاسِبْكُمْ بِهِ اللَّهُ﴾ جاء أبو بكر، وعمر، وعبد الرحمن بن عوف، ومعاذ بن جبل، وناس من الأنصار إلى النبي ﷺ فجنحوا على الركب، وقالوا: يا رسول الله، والله ما نزلت آية أشد علينا من هذه الآية، إنَّ أحدنا ليحدث نفسه بما لا يحب أن يثبت في قلبه، وأن له الدنيا وما فيها، وإنا لمؤاخذون بما نحدث به أنفسنا؟ هلكننا والله!! فقال النبي ﷺ: «هكذا أنزلت» فقالوا: هلكننا وكلفنا من العمل ما لا نطيق، قال: «فلعلكم تقولون كما قال بنو إسرائيل لموسى: سمعنا وعصينا، قولوا: سمعنا وأطعنا» فألقى الله الإيمان في قلوبهم، فقالوا: سمعنا وأطعنا، وأنزل الله تعالى ﴿ءَاَمَنَ الرَّسُولُ...﴾ الآية، واشتد ذلك عليهم، ومكثوا حولاً، فلما سمعوا واستجابوا لربهم أنزل الله تعالى الفرج والراحة ﴿لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ فسخت هذه الآية ما قبلها، أي: وضحتنا وبيّنتها وخصصتها.

قال النبي ﷺ: «إن الله قد تجاوز لأمتي ما حدثوا به أنفسهم ما لم يعملوا أو يتكلموا به»^(١).

والله تعالى لا يكلف نفساً ما يشق عليها كما قال تعالى: ﴿وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ﴾ [الحج: ٧٨] والأوامر والنواهي التي جاء بها الإسلام، ليست من الأمور التي تشق على النفوس، بل هي غذاء للأرواح ودواء للأبدان، وعند وجود الأعذار التي هي مظنة

(١) «زاد المسير» لابن الجوزي (٣٤٢/١) والقرطبي (٤٢٧/٣) وغيرهما، وقد جاء هذا المعنى في الصحيحين والسنن والمسانيد، انظر حديث ابن عباس في المسند (٢٠٧٠، ٣٠٧٠) بإسناد صحيح على شرط مسلم ورجال ثقات، وصحيح مسلم (١٢٦) والترمذي (٢٩٩٢) والنسائي في الكبرى (١١٠٥٩) والحاكم (٢٨٦/٢) والطبري (١٦٠/٣).

المشقة يكون التخفيف والتسهيل، إما بإسقاطه عن المكلف أو إسقاط بعضه، كما في المريض والمسافر،

ولما أخبر سبحانه أنه لا يكلفنا فوق طاقتنا، أخبر عن دعاء المؤمنين بذلك، وقد أخبر النبي ﷺ أن الله عز وجل قال: قد فعلت، إجابة لهذا الدعاء.

وهكذا فإن الله جل شأنه يعلمنا أن ندعوه قائلين: ﴿رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا إِنْ نَسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا﴾.

والنسيان المعفو عنه هو الذي يكون عن سهو وغفلة، أما النسيان الذي يكون عن تفريط وتقصير وتضييع، فإنه غير داخل فيه، وكذلك الخطأ الذي يكون عن جهل أو عن ظن فإنه يختلف عما يفعله الإنسان عن إهمال أو تهور مخالفاً ما نهى الله تعالى عنه، فإنه يؤاخذ عليه، وعلى هذا فالنسيان على وجهين:

أحدهما: ما يكون بسبب الإهمال والتقصير والتفريط، فيترك العبد ما أمر بفعله أو يفعل ما نهى عنه، كمن ينسى الصلاة لانشغاله عنها بالعمل أو اللهو وما أشبه ذلك، وهذا النسيان هو الذي يقول الله فيه ﴿فَالْيَوْمَ نَنسَهُمْ كَمَا نَسُوا لِقَاءَ يَوْمِهِمْ هَذَا﴾ [الأعراف: ٥١].

وهو الذي يعاقب الله العبد عليه، ويطلب العبد من ربه ألا يؤاخذ به عليه في قوله: ﴿رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا إِنْ نَسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا﴾ أما النسيان الذي يكون عن سهو وغفلة فهو المعفو عنه، كما جاء في الحديث (رفع عن أمتي الخطأ والنسيان وما استنكر هوا عليه).

وثانيهما: ما يكون بسبب عجز الإنسان عن حفظ ما أسند إليه أو وكل إليه حفظه؛ لضعف احتمال ذاكرته له، فهذا غير مؤاخذ عليه، لعجز عقله عن وعاء ما وكل إليه، وذلك كالحرص على حفظ القرآن أو شيء منه، ولكنه مع كثرة تعاوده ومراجعته ينسى، فلا ذنب للعبد في هذا، ولا وجه لمساءلته، وكذا ما يكون عن غفلة وسهو غير مقصود، كمن يخالف أمراً أو نهياً في لحظة ضعف أو نسيان من غير إصرار ولا تعمد.

والخطأ أيضاً على وجهين:

الأول: أن يفعل العبد ما نهى عنه، أو يترك ما أمر به من غير قصد مخالفاً أمر الله تعالى ونهيه، فهذا خطأ شرعي مؤاخذ به، والعبد يسأل ربه الصفح عنه. ﴿رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا إِنْ نَسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا﴾.

الثاني: ما يفعله العبد جهلاً، وظناً منه أنه على صواب، ثم يتبين له أنه كان على خطأ كمن يأكل

بعد أذان الفجر ظاناً أنه لم يُؤدَّن وهو ناو للصيام، أو من يقوم للركعة الخامسة ظناً منه أنها الرابعة.

والفرق بين النسيان والخطأ، أن النسيان : ذهول القلب عما أمر به، فتركه نسياناً، أما الخطأ فهو أن يقصد شيئاً يجوز له قصده، ثم يقع فعله على ما لا يجوز له فعله، فهذان قد عفا الله عنهما رحمة منه وإحساناً.

ثم يسأل العبد ربه ألا يُحمّله من التكاليف الشاقة التي كانت على الأمم السابقة كمن كانوا مكلفين بصيام شاق، أو بخمسين صلاة في اليوم واللييلة، أو يُخرجون ربع أموالهم زكاة، أو أن الذنب يكتب على باب المذنب، والثوب لا تزول نجاسته حتى يُقرض، أي: يقطع المكان، وينزع من الثياب، والتوبة من الشرك أو الكفر لا تكون إلا بقتل النفس كما قال تعالى: ﴿فَتَوْبُوا إِلَىٰ بَارِيكُمْ فَاقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ﴾ وغير ذلك من التكاليف الشاقة التي كانت على بني إسرائيل، ورفعها الله سبحانه عن هذه الأمة، ثم يسأل العبد ربه قائلاً: ﴿وَأَعْفُ عَنَّا وَاعْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا﴾ اعف عنا الذنب الكبير، واغفر لنا الذنب الصغير.

وهذه الآية قد اشتملت على سبعة أدعية علّمنا إياها رب العالمين لندعوه بها:

الدعاء الأول: ﴿رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا إِن نَّسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا﴾ يا رب، يا واسع العفو والمغفرة لا تعاقبنا إن نسينا أمرك أو نهيك، أو خالفنا الصواب جهلاً منا بوجهه الشرعي.

الدعاء الثاني: ﴿رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَا إِصْرًا﴾ أي: ذنباً عملاً شاقاً ﴿كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِنَا﴾ يا رب لا تكلفنا بتكاليف شاقة نعجز عنها كما كلفت بعض الأمم قبلنا.

الدعاء الثالث: ﴿رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِ﴾ يا رب لا تُحمّلنا ما يشق ويصعب علينا مُزاولته، فنسألك يا ربنا ألا تبتلينا بما لا نطيقه ولا نقدر عليه مما لا نستطيعه.

الدعاء الرابع: ﴿وَأَعْفُ عَنَّا﴾ يا رب تجاوز عن ذنوبنا، وامحُ عنا ما أَلَمَّ بنا من سيئات ومعاصي.

الدعاء الخامس: ﴿وَأَعْفِرْ لَنَا﴾ يا رب استر عيوبنا، ولا تفضحنا في الدنيا ولا في الآخرة، فأنت وحدك الغفار السّتر.

الدعاء السادس: ﴿وَارْحَمْنَا﴾ يا رب ارحمنا برحمتك التي وسعت كل شيء؛ فإننا مع

تقصيرنا في طاعتك نرجو ألا تحرمنا من رحمتك وعفوك.

الدعاء السابع: ﴿أَنْتَ مَوْلَانَا فَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾ يا رب أنت ولي النعم، ومتولي أمورنا، وحافظنا وناصرنا ومعيننا، فانصرنا يا ربنا على كل من جحد وحدانيتك، ولم يؤمن بخاتم رسلك؛ لكي تكون كلمتك هي العليا، وكلمة الذين كفروا السفلى.

عن سعيد بن جبير عن ابن عباس قال: لما نزلت هذه الآية ﴿إِئْمَنَ الرَّسُولُ﴾ قرأها رسول الله ﷺ فلما انتهى إلى قوله ﴿عُفْرَانِكَ رَبَّنَا﴾ قال الله ﷻ: قد غفرت لكم، فلما قرأ: ﴿رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا إِنْ نَسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا﴾ قال الله ﷻ: لا أحملكم، فلما قرأ ﴿وَأَعْفِرْ لَنَا﴾ قال الله تبارك وتعالى: قد غفرت لكم، فلما قرأ ﴿وَأَرْحَمْنَا﴾ قال الله عز وجل: قد رحمتكم فلما قرأ: ﴿فَاصْنُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾ قال الله عز وجل: قد نصرتكم عليهم^(١).

ولما نزلت الآية قال الله سبحانه: قد عفوت عنكم، وغفرت لكم، ورحمتكم، ونصرتكم على القوم الكافرين^(٢).

فَاللَّهُمَّ انصرنا على القوم الكافرين، ولا تعاقبنا ربنا إن نسينا شيئاً مما افترضته علينا، أو أخطأنا في فعل شيء نُهيناه عنه، ولا تكلفنا ربنا من الأعمال ما لا نطبق كغيرنا ممن سبقونا، ولا تعاقبنا بذنوبنا كما عاقبتهم، ولا تُحملنا ما لا نستطيعه، وامحُ ذنوبنا، واستر عيوبنا، أنت ربنا، ومالك أمرنا، فانصرنا على من جحد دينك، وأنكر وحدانيتك، وكذب نبيك محمداً ﷺ واجعل الدائرة عليهم، والعاقبة لنا في الدنيا والآخرة.

وكان معاذ ﷺ إذا فرغ من هذه السورة ﴿فَاصْنُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾ قال: آمين^(٣).

(١) رُوي مرفوعاً وموقوفاً، يُنظر: تحقيقه للعلامة أحمد شاكر في «تفسير الطبري» برقم (٦٥٣٤) والمرفوع أرجح وأصح إسناداً.

(٢) الحديث رقم (٦٥٣٤، ٦٥٤٠) في «تفسير الطبري» عن ابن عباس.

(٣) الأثر برقم (٦٤٢) في «تفسير الطبري» (١٤٦/٦).

ومما ورد في فضل الآيتين الأخيرتين من سورة البقرة ما جاء:

١- عن ابن مسعود رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «من قرأ بالآيتين من آخر سورة البقرة في ليلة كَفَتَا»^(١).

٢- وعن أبي ذر رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «أُعْطِيَتْ خَوَاتِيمَ سورة البقرة من كَنْزٍ تحت العرش، لم يُعْطَهن نبي قبلي»^(٢).

٣- وعن حذيفة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «فُضِّلْنَا على الناس بثلاث: جُعِلَتْ الأرض كلها لنا مسجداً، وجُعِلَتْ تربتها لنا طهوراً، وجُعِلَتْ صفوفنا كصفوف الملائكة، وأُوتِيتُ هؤلاء الآيات من آخر سورة البقرة من كنز تحت العرش، لم يُعْطَ منه أحد قبلي، ولا يعطى منه أحد بعدي»^(٣).

٤- وعن النعمان بن بشير رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «إن الله كتب كتاباً قبل أن يخلق السموات والأرض بألفي عام، أنزل منه آيتين ختم بهما سورة البقرة، ولا يقرآن في دار ثلاث ليالٍ فيقربها شيطان»^(٤).

٥- وعن ابن عباس رضي الله عنه قال: «بينما رسول الله ﷺ وعنده جبريل إذ سمع نقيضاً فوقه، فرفع جبريل بصره إلى السماء، فقال: هذا باب قد فُتِحَ من السماء ما فُتِحَ قط، قال: فنزل

(١) صحيح البخاري برقم (٥٠٠٨، ٥٠٠٩) و«صحيح مسلم» برقم (٢٥٦/٨٠٨) و«المسند» (١٢١/٤) برقم (١٧٠٦٨) وأبو داود برقم (١٣٩٧) والترمذي برقم (٢٨٨١) وقال: حديث حسن صحيح والنسائي في «السنن الكبرى» برقم (١٠٥٥٨٠) (١٠٥٥٤) وابن ماجه (١٣٦٩) والدارمي (٤٥٠/٢) وابن حبان (٧٧٨) والبيهقي (٢٠/٣).

(٢) «المسند» (١٥١/٥) برقم (٢١٣٤٣) والنسائي في «الكبرى» (٨٠٢٢) والطبراني (٣٠٢٥) والبيهقي في «الشعب» (٢١٧٨، ٢٤٠٤) قال محققو المسند: صحيح لغيره.

(٣) «السنن الكبرى للنسائي» برقم (٧٩٦٨)، والمسند (٢٣٢٥١) بإسناد صحيح على شرط مسلم ورجال ثقات رجال الشيخين غير أبي مالك الأشجعي، فمن رجال مسلم، وأخرجه ابن خزيمة (٢٦٣) والطيالسي (٤١٨) ومسلم (٥٢٢) والبزار في مسنده (٢٨٣٦) والطبراني في الكبير (٣٠٢٥) والأوسط (٤١٥٧) وغيرهم.

(٤) قال الترمذي: هذا حديث غريب، «سنن الترمذي» برقم (٢٨٨٢) وقال الحاكم: صحيح الإسناد ولم يخرجاه، «المستدرک» (٥٦٢/١) وأخرجه الطبراني عن شداد بن أوس برقم (٧١٤٦) وقال الهيثمي في «مجمع الزوائد» (٣١٥/٦): رجاله ثقات وهو في «سنن النسائي الكبرى» (١٠٨٠٣) وابن حبان (٧٨٢) و«صحيح سنن الترمذي» (٢٣١١) وأبو عبيد ص ١٢٤ وهو في المسند (١٨٤١٤) بإسناد حسن ورجال ثقات.

مَلَك، فَأَتَى النَّبِيَّ ﷺ فَقَالَ: أَبَشِّرْ بَنُورِينَ قَدْ أُوتِيَتَهُمَا لَمْ يُؤْتِيَهُمَا نَبِيٌّ قَبْلَكَ، فَاتَحَةَ الْكِتَابَ وَخَوَاتِيمَ سُورَةِ الْبَقَرَةِ، لَنْ تَقْرَأَ حَرْفًا مِنْهُمَا إِلَّا أُوتِيَتْهُ»^(١).

٦- وَقَالَ عَلِيٌّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: (مَا أَرَى أَحَدًا يَعْقِلُ بَلَّغَهُ الْإِسْلَامَ، يَنَامُ حَتَّى يَقْرَأَ آيَةَ الْكَرْسِيِّ وَخَوَاتِيمَ سُورَةِ الْبَقَرَةِ، فَإِنَّهَا مِنْ كَنْزٍ تَحْتَ الْعَرْشِ)^(٢).

٧- وَعَنْ عَقْبَةَ بْنِ عَامِرٍ قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: «اقْرَءُوا هَاتَيْنِ الْآيَتَيْنِ مِنْ آخِرِ سُورَةِ الْبَقَرَةِ؛ فَإِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى بِهِمَا مُحَمَّدًا»^(٣).

تم تفسير (سورة البقرة) ولله الحمد والأمنة



(١) «صحيح مسلم» برقم (٨٠٦) و«سنن النسائي» (١٣٨/٢) واللفظ له.

(٢) قال النووي: صحيح على شرط البخاري ومسلم، وقد رواه ابن الضريس في «فضائل القرآن» برقم (١٦٩) من طريق أبي إسحاق عن عمير بن سعيد.

(٣) «المسند» (١٤٧/٤) (١٥٨) برقم (١٧٤٤٥) صحيح لغيره، وأبو يعلى (١٧٣٥) والطبراني في الكبير (٧٧٩) وإسناده حسن، قال الهيثمي في «المجمع»: (٣١٥/٦) فيه عمرو بن الحارث بن سويد الحاسب المهري ولم أعرفه، وبقية رجاله رجال الصحيح، وأخرجه أبو عبيد في فضائل القرآن ص ١٢٤.

تَفْسِيرُ سُورَةِ آلِ عِمْرَانَ (٣)

مُقَدِّمَةُ السُّورَةِ، وَسَبَبُ النُّزُولِ

سورة آل عمران هي السورة الثالثة في ترتيب المصحف، والثامنة والأربعون في ترتيب النزول، سُميت بهذا الاسم لذكر قصة آل عمران فيها وهم: يحيى، وعيسى، ومريم. وذكر الألوسي أنها تُسمَّى سورة الأمان والكنز والمجادلة، وسورة الاستغفار، ومن أسمائها الزهراء كما في حديث: «اقرأوا الزهراوين»، فهذه ستة أسماء. وقد نزلت هذه السورة بالمدينة اتفاقاً سنة ثلاثٍ من الهجرة، بعد غزوة أحد. وهي مِثْثَا آية باتفاق أهل العدد^(١) وثلاثة آلاف وأربع مئة وثمانون كلمة، وأربعة عشر ألفاً وخمسة مئة وعشرون حرفاً.

وإذا كانت سورة البقرة في نصفها الأول قد خَصَّت اليهود بالحديث عنهم، فإن سورة آل عمران تحدثت في نصفها الأول عن النصارى، وهم الشُّقُّ الثاني من أهل الكتاب، والنصف الثاني من سورة آل عمران تحدث عن غزوة أحد، من الآية الحادية والعشرين بعد المئة، وعَلَّقَت السورة على ما أصاب المسلمين فيها من جراح، وما يتخللها من أحكام، إلى ما قبل ختام السورة بعشر آياتٍ، أي: نحو سبعين آية.

وهكذا فإن سورة آل عمران نزل نصفها الأول -وقدره أربع وثمانون آية- بمناسبة قدوم وفد نصارى نجران على رسول الله ﷺ سنة اثنتين من الهجرة؛ لمناظرته في شأن عيسى عليه السلام^(٢) لَمَّا بلغهم مبعث النبي ﷺ، ونزل بعد ذلك ست وثلاثون آية تعقيباً على تلك

(١) ذكر العلامة الطاهر بن عاشور في تفسيره أن المصحف الشامي يعدها مئة وتسع وتسعون آية، ولم أجد ذلك في كتب هذا الفن (علم الفواصل)، ولمعرفة علم عدِّ الآي المتفق عليها والمختلف فيها ينظر: «بشير اليسر، ومعالم اليسر»، و«شرح ناظمة الزهر» للشاطبي وشرحها للشيخ عبد الفتاح القاضي، وله أيضاً: «نفائس البيان شرح الفرائد الحسان»، وللشيخ أحمد البنا: «إتحاف فضلاء البشر» وغيرها.

(٢) يستبعد (سيد قطب) -رحمه الله- أن تكون هذه الآيات نزلت في وفد نصارى نجران، سواء صحت الروايات أم لم تصح؛ لأن الوفد قدم على المدينة في السنة التاسعة من الهجرة، وجؤ السورة يشير إلى نزولها في الفترة الأولى من الهجرة، وهو كلامٌ وجيهٌ، ولكن لا نجد له سنداً وهو وهمٌ منه رحمة الله عليه.

قلت: وقد قدم وفد نجران على النبي ﷺ في مكة حين بلغهم خبره بعثته ﷺ كما جاء في سبب نزول آية (الَّذِينَ آمَنُوا مِنْ قَبْلِهِ هُمْ بِهِ يُؤْمِنُونَ) [القصص: ٥٢] وذكر المفسرون أن وفد نجران قدم إلى المدينة سنة اثنتين من الهجرة؛ فلا يلزم أن تكون هذه الحادثة عام الوفود.

القصة؛ ليعتبر أهل الكتاب.

قصة وفد نصارى نجران:

قَدِمَ هذا الوفد المكوّن من ستين رجلاً فيهم أربعة عشر رجلاً من أشرافهم، وثلاثة من أكابرهم: أميرهم (العاقب) ووزيرهم (السيد) وخبّره (أبو حارثة) دخلوا مسجد رسول الله ﷺ في صلاة العصر، فلما حانت صلاتهم صلّوا إلى جهة الشرق، فلما فرغوا تقدّموا إلى رسول الله ﷺ يناظرونه في شأن عيسى عليه السلام، وهم يمثلون في حواراتهم ومُناظراتهم فرق النصارى ومذاهبهم المختلفة.

فقال فرقة منهم للنبي ﷺ: إن عيسى هو الله، واستدلوا على ذلك بأنه: يُحيي الموتى، وأنه يُبرئ الأكمه والأبرص، وأنه يخلق من الطين كهيئة الطير، فينفخ فيه فيكون طيراً، وأنه يعلمُهم بشيء من الغيب مما يأكلونه ويدّخرونه في بيوتهم، وهذه الأمور من خصائص الألوهية.

والجواب على ذلك معروف، فهذه الأشياء التي ذكروها أجراها الله ± على يد عيسى عليه السلام من باب المعجزة الدالة على صدقه في رسالته؛ فإن معجزة كل رسول تكون من نوع ما نبغ فيه القوم.

فقوم موسى كانوا سحرة، فجاءهم موسى عليه السلام بمعجزة خارقة للعادة من جنس السّحر، لا يستطيع السّحرة أن يفعلوها، وهي قلب العصا حيّة، وما إلى ذلك.

وقوم محمد ﷺ كانوا أهل فصاحة وبلاغة، فكانت معجزة الرسول ﷺ مناسبة لحال القوم، مما نبغوا فيه من الفصاحة والبلاغة، وهي هذا القرآن الكريم، وأنه معجزة قائمة إلى يوم الساعة، وليست معجزة كونية يراها الناس ثم تنصرف عنهم، ولكنها بين أيديهم إلى يوم القيامة.

وكانت معجزة عيسى عليه السلام من نوع ما نبغ فيه قومه، فقد كانوا أطباء ماهرين، بلغ الطب ذروته في عهد عيسى عليه السلام، فأراد الله سبحانه أن يُجري على يد عيسى من المعجزات من نوع ما نبغ فيه القوم، ولكنها فوق مستوى البشر؛ فمهما بلغ الطب من تقدّم، فإنه لن يصل إلى معرفة إحياء الموتى، ولن يصل إلى معرفة شيء من علم الغيب. وكان عيسى عليه السلام ينبئهم - كما ذكر القرآن - بما يأكلون، وما يدّخرون في بيوتهم، فهذا الذي أجراه الله

على يدي عيسى ﷺ هو معجزة له بإذن الله تعالى، وليس من صنْع عيسى ولا من قُدرته.

وقالت الفرقة الثانية التي تُمثِّل مذهبًا آخر من مذاهب النصارى: إن عيسى هو ابن الله، واستدلوا على ذلك بأنه قد وُلِدَ بغير أبٍ، وأنه قد تكَلَّمَ في المهد، وهذا أمرٌ خاصٌّ بعيسى في زعمهم.

والجواب على ذلك: أن خلق عيسى من غير أبٍ - كما ذكر الله سبحانه - آيةٌ من الآيات الدالة على قدرة الله تعالى؛ كي تكتمل القِسْمَةُ العقلية، فالله سبحانه أراد أن يبيِّن لخلقه أن خلقه للإنسان لا يتوقف على تلقيح الذكر للأُنثى، فقد خلق الله آدم بغير أبٍ ولا أمٍ، وخلق حواء بغير أمٍ، وخلق عيسى من غير أبٍ، وخلق الناس جميعًا من أبٍ وأمٍ. وهذا هو مقتضى القسمة العقلية، أربعة أصناف لا تخرج عنها الخليفة، فخلق الله تعالى لعيسى من غير أبٍ، آية دالة على قدرة الله سبحانه، وأنه لا يحتاج في خلقه للإنسان إلى هذا التلقيح الذي يكون بين الرجل والمرأة، وإنما الله سبحانه قد يخلق الإنسان من غير أبٍ، أو يخلقه من غير أمٍ، أو يخلقه بأب وأمٍ، أو يخلقه بدونهما، قال سبحانه: ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِنْدَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ (٥٩).

فليس عيسى ابن الله، حاشا لله عزَّ وجل.

وأما كلامه عليه السلام في المهد فهذا لا يخص عيسى وحده، فقد بيَّن النبي ﷺ أن هناك ثلاثة تكلموا في المهد وهم صغار، وقيل أربعة: عيسى ﷺ، وشاهد يوسف، وصاحب جريج، وابن ماشطة فرعون^(١). هؤلاء أربعة تكلموا في المهد، فهذه حجة لا تصلح؛ لأنها لا تخص عيسى وحده من بين البشر.

وقالت الفرقة الثالثة: إن عيسى ثالث ثلاثة، أي: أن الإله عندهم مكوَّن من ثلاثة: الأب، والابن، والروح القدس. واستدلوا على ذلك بأن عيسى يقول: قلنا وفعلنا وخلقنا، وهذا يدل على جمع، ولو أنه واحد لقال: قلتُ وفعلتُ وخلقْتُ وهكذا.

والجواب على ذلك معلومٌ، فالإنسان يُعظَّم نفسه، ويتحدث عنها ويقول: نحن فلان

(١) ينظر أدلة ذلك في الآية (٤٦) من هذه السورة، وفي سورة مريم عند قوله تعالى (قال إني عبد الله . . .)

وهو شخصٌ واحدٌ، ويقول: قمنا بكذا، وشرحنا كذا، وفعلنا كذا... وهكذا- معبراً عن نفسه، ومعظماً لها، يُعبر بهذا الضمير الذي يصلح لأكثر من واحد عن نفسه، لا سيما الملوك وكبار القوم. وهذا تعبيرٌ سائغٌ في العربية، وليس هناك وجهٌ للاعتراض عليه.

ولما ذكر الوفد للنبي ﷺ: أن عيسى هو الله، أو أنه ابن الله، أو أنه ثالث ثلاثة:

١- قال ﷺ: «ألستم تعلمون أن ربنا حي لا يموت، وأن عيسى يموت؟» قالوا: بلى.

٢- قال ﷺ: «ألستم تعلمون أن كل ولدٍ يشبه أباه»، وأن عيسى ليس له أب يشبهه؟ قالوا: بلى.

وهكذا: فالله سبحانه ليس كمثله شيء، وهو واحدٌ أحدٌ، فردٌ صمدٌ، لا والد له ولا ولدٌ، فمن يشبهه؟! هل هو عيسى ﷺ؟!!

٣- قال ﷺ: «ألستم تعلمون أن ربنا قيّمٌ على كل شيء يحفظه ويرزقه؟» قالوا: بلى، قال: «فهل يملك عيسى من ذلك شيئاً؟» قالوا: لا.

٤- قال لهم النبي ﷺ: «ألستم تعلمون أن الله لا يخفى عليه شيءٌ في الأرض ولا في السماء؟» قالوا: بلى. قال: «فهل يعلم عيسى من ذلك إلا ما علّمه الله سبحانه إياه وأخبره به؟!» كما قال سبحانه في أمور الغيب: ﴿عَلِمَ الْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَى غَيْبِهِ أَحَدًا﴾ (٢٦، ٢٧) أي: فإنه يخبره ويُعلّمه بشيء من الغيب، وفق مراد الله سبحانه.

٥- قال النبي ﷺ لوفد نصارى نجران: «ألستم تعلمون أن الله تعالى قد صوّر عيسى في الرحم كما يشاء، وربنا لا يأكل ولا يشرب؟!» قالوا: بلى^(١).

والله سبحانه يصوّر الخلق في أرحام الأمهات كيف يشاء، وعيسى قد صوّر كذلك في رحم أمّه.

٦- قال ﷺ: «ألستم تعلمون أن عيسى حملته أمه كما تحمل المرأة، ثم وضعته كما تضع المرأة ولدها، ثم غُذي كما يُغذى الصبي، ثم كان يطعم ويشرب ويُحدث؟» قالوا: بلى.

(١) شرحٌ سبب النزول بالمعنى، وأضيفت إليه ما يوضحه. ينظر النص عند ابن اسحاق (٢/٢١٨) وما بعدها، وابن جرير (٣/١٠٨) وما بعدها، وكتب التفسير.

فعيسى قد حملته أمه بين أحشائها، ووضعت، وأرضعت، وغُذِّي كما يُغْذَى الصبية. وهو يأكل ويشرب، ويدخل الخلاء، فيبول ويتغوط، وليس هذا مناسباً ولا جائزاً في حق الذات العليا جلّ في علاه، وربنا سبحانه لا يأكل ولا يشرب، ولا يُحْدِث ﴿مَا الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ وَأُمُّهُ صِدِّيقَةٌ كَأَنَّا يَأْكُلَانِ الطَّعَامَ﴾ [المائدة: ٧٥] أي: هو وأمّه، ومعنى ذلك أنهما يدخلان الخلاء، ويتبولان ويتغوطان كما يفعل البشر.

قال: فكيف يكون عيسى إلها كما زعمتم؟! فسكتوا.

أبى القوم إلا الجحود، وتداولوا أمرهم، وهم فيما بينهم معترفون بنبوة محمد ﷺ ورسالته، ولكن حب الرئاسة والكبرياء والجحود هو الذي يمنعهم من تصديق محمد ﷺ.

٧- قال ﷺ: «أَلَا تُسْلِمُوا؟» قالوا: قد أسلمنا قبلك.

٨- قال ﷺ: كذبت، يمنعكم من الإسلام ثلاثة أشياء:

أ- ادّعاؤكم أن لله تعالى ولداً، وهذا شرك أكبر بالله سبحانه.

ب- عبادتكم للصليب. ج- وأكلكم لحم الخنزير.

هذه ثلاثة تُكْذِبُ ادّعاءكم أنكم قد أسلمتم، وكل واحدة منها تمنعكم من الإسلام.

ثم قالوا بعد حوارهم مع النبي ﷺ: نتركك على دينك، ونرجع إلى ديننا، ولكن ابعث معنا رجلاً من أصحابك أميناً نحكمه فيما بيننا، ويقوم بالقضاء فيما اختلفنا فيه.

فقال النبي ﷺ: «اثنوا في العشية أرسل معكم رجلاً من أصحابي». وفي المساء اجتمع أصحاب النبي ﷺ للصلاة، وأخذ كل واحد منهم يستشرف ويتطلع أن يكون هو الذي يرسله النبي ﷺ مع القوم، حتى إن عمر -رضوان الله عليه- يقول: ما أحببت الإمارة قط كما أحببتها يومئذ؛ رجاء أن أكون صاحبها، فجعلتُ أطاول بعد الصلاة -وهو في المسجد، أي: يَمُدُّ عُنُقَهُ لأعلى؛ كي يراه النبي ﷺ فيؤمّره على القوم- فلما سلّم الرسول ﷺ أخذ ينظر يمنة ويسرة ثم وجد أبا عبيدة بن الجراح، فقال له: قم يا أبا عبيدة، وأمره أن يذهب معهم، ثم قال لهم: «هذا هو أمين هذه الأمة».

ولمّا قال وفد نصارى نجران للنبي ﷺ في نهاية الحوار عن عيسى: إذا لم يكن هو ابن

الله، فمن أبوه؟ فصمت النبي ﷺ بعض الوقت: فأنزل الله سبحانه أربعاً وثمانين آية من صدر سورة آل عمران، تبين شأن عيسى عليه السلام، وترد عليهم بأنه إن كانت منازعتكم معشر النصراني في معرفة الإله فهو الله الذي لا إله إلا هو الحي القيوم، فكيف تثبتون له ولدًا؟! فبين تعالى أنه لا يستحق العبادة أحدٌ سواه؛ لأنه الواحد الأحد، ليس له شريك ولا ولد، وهو الدائم الباقي الذي لا يموت، المتَّصف بالحياة الكاملة، القائم على كل شيء، ومنها تدبير شؤون الخلق ومصلحتهم.

مَوْضُوعَاتُ السُّورَةِ

يمكن تقسيم سورة آل عمران إلى ثلاثة موضوعات:

الموضوع الأول عن نصارى نجران:

وذلك من أول السورة إلى قوله تعالى: ﴿وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾ الآية الرابعة والثمانون، وهذه الآيات تتناول قصة وفد نصارى نجران الذي قَدِمَ على النبي ﷺ بالمدينة بعد معرفتهم برسالته؛ ليسألوه عن عيسى عليه السلام، وهو القسم الأول من القصة.

يلي هذه الآيات ست وثلاثون آية تُعَقِّبُ على هذه القصة، وهو القسم الثاني المتعلق بها.

وقد قَدِّمَتِ السورة في أولها لهذه القصة بآيات فيها إثباتٌ لوحداية الله تعالى، وإثباتٌ لصديق صاحب الرسالة الأخيرة وكتابه، وفيها ردٌّ على الشبهات التي يُثيرها أهل الكتاب عن الإسلام، وتحذيرٌ لهم من الانصراف إلى غيره، ومن اتباع شهواتهم وملذاتهم. والإسلام يعرض دعوته عليهم، ويقرر أن الدين عند الله هو الإسلام، فمن استجاب له فقد فاز ونجا، وأخيناه وعاوناه، ومن أعرض عنه تصدَّينا له معتمدين على الله.

﴿فَإِنْ حَاجُّوكَ فَقُلْ أَسْلَمْتُ وَجْهِيَ لِلَّهِ وَمَنِ اتَّبَعَنِ وَقُلْ لِلَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَالْأُمِّيِّينَ أَسْلَمْتُمْ فَإِنْ أَسْلَمُوا فَقَدِ اهْتَدَوْا وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاءُ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ﴾ .

وتبين آيات السورة في هذه المقدمة أن أهل الكتاب لما كانوا عاجزين تمام العجز عن الارتقاء إلى مستوى الوحي الإلهي، فقسَّ قلوبهم، وساءت أخلاقهم، وتشبَّعوا من الدنيا، وردُّوا على الله أمره ونهيه، وأشركوا معه غيره، وتناولوا عليه بما لا يليق بجلاله.

لهذا وغيره كان لا بد من صرف الوحي عنهم إلى جنس آخر من البشر؛ خير منهم حالاً ومالاً، فكان أن تحولت منهم النبوة إلى العرب، فأثار هذا حقدهم وحسدهم وكفرهم وعنادهم، ولم يتأمل القوم قول الله تعالى في مقدمة الحديث عن وفد النصارى: ﴿قُلِ اللَّهُمَّ مَلِكُ الْمَلِكِ تُؤْتِي الْمَلِكَ مَن تَشَاءُ وَتَنزِعُ الْمَلِكَ مِمَّن تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَاءُ بِيَدِكَ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾.

وهذه الآيات سبقتها مقدمات وحيثيات الحكم في آيات قبلها:

منها قوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أَوْتُوا نَصِيبًا مِّنَ الْكِتَابِ يُدْعَوْنَ إِلَى كِتَابِ اللَّهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ يَتَوَلَّى فَرِيقٌ مِّنْهُمْ وَهُمْ مُّعْرِضُونَ﴾.

والكلام وإن كان تقريباً لأهل الكتاب، إلا أن العبرة موجّهة إلى الذين شرفهم الله تعالى بأن بدأت رسالة الإسلام منهم، حتى لا يتجرّدوا عن إسلامهم، أو ينسلخوا من العمل بتعاليمه، فتكون عاقبتهم كعاقبة الذين مسخهم الله قردة وخنازير؛ فالناس سواسية، وسنة الله في خلقه لا تتخلف.

وتمضي الآيات في ذكر آل عمران حيث ينحدر منهم عيسى، ومن ثمّ إلى حوار النصارى، حتى مباہلتهم.

القسم الثاني من الحديث عن وفد نصارى نجران:

يبدأ من قوله تعالى: ﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ (١٨٥) إلى نهاية الآية العشرين بعد المئة؛ قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ وهو ستّ وثلاثون آية، تُعقّب على حوار أهل الكتاب، فتُعنّفهم على عدم إيمانهم بخاتم الأنبياء، وتحذّرهم من سوء المصير، وتردّ على شبهاتهم.

وفي هذا السياق تأتي هذه النداءات السبع إلى أهل الكتاب من اليهود:

١- ﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَلْسُونِ الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ وَتَكْفُرُونَ بِالْحَقِّ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ (٧٦).

٢- ﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَاللَّهُ شَهِيدٌ عَلَىٰ مَا تَعْمَلُونَ﴾ [٩٨].

٣- ﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ مَن ءَامَنَ بَعُوثًا عِوَجًا وَأَنتُمْ شُهَدَاءُ﴾ [٩٩].

- ٤- ﴿يَأْهَلُ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَامٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا﴾ [٦٤].
- ٥- ﴿يَأْهَلُ الْكِتَابِ لِمَ تُحَاجُّونَ فِي إِبْرَاهِيمَ وَمَا أُنْزِلَتِ التَّوْرَةُ وَالْإِنْجِيلُ إِلَّا مِنْ بَعْدِهِ﴾ [٦٥].
- ٦- ﴿يَأْهَلُ الْكِتَابِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَأَنْتُمْ تَسْهَدُونَ﴾ (٧٠).
- ٧- ﴿وَقَالَتْ طَافِيَةٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ ءَامِنُوا بِالَّذِي أُنْزِلَ عَلَى الَّذِينَ ءَامَنُوا وَجَهَ النَّهَارِ وَكُفِّرُوا ءَاخِرُ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ (٧١).

وفي الردّ على هذه النداءات السبع يقول تعالى: ﴿كَيْفَ يَهْدِي اللَّهُ قَوْمًا كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَانِهِمْ وَشَهِدُوا أَنَّ الرُّسُولَ حَقٌّ وَجَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ (٨١).

وفي هذا المقطع من السورة ردّ على الشُّبُهَات التي يثيرها أهل الكتاب، فقد قالوا: كيف نتبع ديناً يستبيح الأطعمة المحرمة علينا ونحن نبتعد عنها ولا نأكلها؟ فأجابهم الله تعالى بأن حظر هذه الأطعمة عليهم كان موقوتاً وطارئاً، فقد كانت الأطعمة كلها حلالاً لبني إسرائيل، فلما فسقوا واستمروا العدوان، عاقبهم الله بذلك ﴿ذَلِكَ جَزَاءُكُمْ بِغِيهِمْ وَإِنَّا لَصَدِّقُونَ﴾ [الأنعام: ١٤٦] ولما نزل القرآن عاد بالتشريع إلى أصله فلم يحرم إلا الميتة والخنزير وما أهل لغير الله به والدم المسفوح.

وفيما يتعلق بشُّبُهَتهم حول تحويل القِبْلَةِ فإن البيت الحرام هو القِبْلَةُ الأولى والأخيرة للناس كافة، وقد كان التحول لبيت المقدس لظروف عارضة، وقد زالت العوارض ورجعت المياه إلى مجاريها، واستؤنف التكريم للبيت العتيق ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَالَمِينَ﴾ (٩٦).

الموضوع الثاني عن غزوة أحد:

وبعد هذا التعقيب على أهل الكتاب يأتي العنصر الثاني في السورة وهو الحديث عن غزوة أحد، من الآية الحادية والعشرين بعد المئة، من قوله تعالى: ﴿وَإِذْ عَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ بُؤْسُ الْمُؤْمِنِينَ مَقْلَعِدٌ لِلْقِتَالِ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ (١٧٣) إلى الآية التاسعة والثمانين بعد المئة، أي: في تسع وستين آية.

وفي ثنايا الحديث عن غزوة أحد يأتي الحديث عن الرُّبَا في إشارة إلى أن الأموال المحرمة إذا دخلت في التصنيع الحربي أو في شراء الأسلحة، فإن ذلك يكون سبباً في

الهزيمة، ولذا جاءت الدعوة في ثنايا الآيات إلى الإنفاق في السراء والضراء، ومن ذلك الجهاد في سبيل الله فإن الجهاد بالمال قرين الجهاد بالنفس ﴿إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِآثٍ لَهُمْ الْجَنَّةُ﴾ [التوبة: ١١١] وجاء الأمر بالإسراع إلى التوبة بعد مقارفة الذنب، لأننا إذا استويناه مع العدو في ارتكاب المعاصي تفوق علينا بقوة السلاح، وبعد ذلك يواصل الحديث عن نتائج المعركة.

والقرآن بهذا يشير إلى أن سبيل النصر على العدو هو إصلاح الجبهة الداخلية أولاً، وتطهيرها من كل محرّم كالربا والخمر والزنى، والتحلي بمكارم الأخلاق ﴿وَالْكَافِرِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ﴾ [آل عمران: ١٣٤] فإن هذا من الانتصار على النفس، ولن ينتصر العبد على عدوه إلا إذا انتصر على نفسه، ولذا قال أحد الصحابة حين رجع من الغزو في سبيل الله (رجعنا من الجهاد الأصغر إلى الجهاد الأكبر) فسمي جهاد النفس جهاداً أكبر، وجهاد العدو جهاداً أصغر، لأن جهاد العدو لا بد له من جهاد النفس أولاً، ولا بد من بذل النفس والنفيس لإعداد العُدّة والأخذ بوسائل النصر المادية والمعنوية، وبهذا تكون الأمة أهلاً للانتصار، فإن هذا الانتصار ليس انتصار الأشخاص، إنما هو انتصار المبادئ السامية والمسالك القويمة.

والخصومات الشخصية - بين الأفراد أو الشعوب والأمم، أو بين بعض الحكام - ليس لها مجال في الحروب، فإن مصلحة العباد والبلاد أكبر من ذلك، ولأن خصوم الأمس قد يكونون أصدقاء الغد إذا اصطلحوا مع الله ورسوله، وزالت أسباب العداوة، ولذا عاتب الله نبيه لما دعا على بعض خصومه بقوله:

﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذِّبُهُمْ فَإِنَّهُمْ ظَالِمُونَ﴾ [آل عمران: ١٢٨].

وهزيمة أحد لم تكن من سوء التخطيط، بل كانت من التفريط في إنفاذ أوامر القيادة، حين خالف الرماة أمر نبيهم وتركوا مواقعهم، بسبب حب الدنيا والتطلع إليها، والرغبة في جميع الغنائم من بطن الوادي، ظنا منهم أن النصر قد تم للمؤمنين، والله تعالى قادر في كل وقت أن يهزم الباطل ويخزي أهله ﴿وَلَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَانْتَصَرَ مِنْهُمْ وَلَكِنْ لَبِلُوا بَعْضُكُمْ بِبَعْضٍ﴾ [محمد: ٤].

وقد ربط الله الأسباب بالمسببات وربط النتائج بالمقدمات في مثل قوله تعالى:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ تَصْرَوُا اللَّهَ بَصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ﴾ [محمد: ٧]

وبعد ذكر نتائج المعركة، أخذت الآيات تُداوي الجراح، وتشدُّ العزائم، وتُعيد للمؤمنين تماسكهم.

فقد كان هناك رجالٌ رَكَلُوا الدنيا بنعالهم، ومضوا إلى ما عند الله، لا يُلَوُّون على شيء. وهناك رجالٌ ثَبَتُوا إلى آخر رمق.

وهناك نساء انطلقن إلى المعركة بقلوب ملؤها البطولة والفداء، وهناك من رَزَق الشهادة، وهناك، وهناك.

منهم: عبد الله بن حرام، كان له غلامٌ واحدٌ هو جابر، وست بنات، فلم تَطْب نفسه حتى خرج إلى المعركة تاركًا بناته الست وراءه، ورَزَق الشهادة.

وأنس بن النضر وُجد به ثمانون، ما بين ضربة بسيف، وطعنة برمح، ورمية بسهم، لم تعرفه إلا أخته، عرفته من أطراف بنانه.

وفي ثنايا التعقيب على غزوة أحد، يُلفت القرآن نظر أتباعه إلى جُرْأة اليهود على ربهم في قولهم: ﴿إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَاءُ﴾ وإلى قول الله تعالى عنهم: ﴿وَقَتْلَهُمُ الْأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ﴾ [آل عمران: ١٨١] لقد سمع الله قولهم وسجله عليهم، وعلم فعلهم، وسوف يجازيهم على ذلك عذاب الحريق، فتأتي النار على أجسادهم وجوارحهم، وفي هذا عبرة وعظة، لأن ترك مثل هذه الجرائم، يكون سببا في النصر على العدو.

وينقطع الحديث عن غزوة أحد ليتصل بأهل الكتاب مرة أخرى ليعرفنا طبيعتهم ﴿وَلَسْتُمْ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَمَنِ الَّذِينَ أَشْرَكُوا أَذًى كَثِيرًا وَإِنْ تَصَبَّرُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ﴾ [١٨٦].

﴿وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُ فَنَبَذُوهُ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ وَأَشْرَوْا بِهِ مِمَّا قَلِيلًا فِئْسَ مَا يَشْتُرُونَ﴾ [١٨٧] [آل عمران].

وفي السورة خلال آياتها يُوجِّه الله تبارك وتعالى سبع نداءات للمؤمنين تُولي فيها هذه الآيات اهتمامًا بالغًا بال العناية بتربية المؤمنين تربيةً سالحةً عالية المستوى يعرفون من خلالها طبيعة عدوهم حتى يأخذوا حذرهم، ويتعدوا عن كبائر الذنوب، ويمثلوا أمر ربهم ويجتنبوا نهيه، ويصبروا عند اللقاء، ويصابروا عدوهم، ويلزموا الحدود والشعور،

حتى يتحقق لهم النصر على عدوهم، ويكونوا من أهل السعادة في الدنيا والآخرة.
وهذه النداءات السبع هي قوله تعالى :

١- ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِن تُطِيعُوا فَرِيقًا مِّنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ يَرُدُّوكُم بَعْدَ إِيمَانِكُمْ كُفْرِينَ ﴿١٠٠﴾﴾ .

٢- ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِن تُطِيعُوا الَّذِينَ كَفَرُوا يَرُدُّوكُم عَلَىٰ أَعْقَابِكُمْ فَتَنْقَلِبُوا خَاسِرِينَ ﴿١٠٩﴾﴾ .

٣- ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَتَّخِذُوا بِطَانَةً مِّن دُونِكُمْ لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالًا ﴿١١٨﴾﴾ .

٤- ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ كَفَرُوا وَقَالُوا لِإِخْوَانِهِمْ إِذَا ضَرَبُوا فِي الْأَرْضِ أَوْ كَانُوا غُرَىٰ لِّو كَانُوا عِنْدَنَا مَا مَاتُوا وَمَا قُتِلُوا لِيَجْعَلَ اللَّهُ ذَٰلِكَ حَسْرَةً فِي قُلُوبِهِمْ ﴿١٥٦﴾﴾ .

٥- ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُمْ مُسْلِمُونَ ﴿١٦٧﴾﴾ .

٦- ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمُ الرِّبَا أَضْعَافًا مُّضَاعَفَةً ﴿١٣٠﴾﴾ [آل عمران: ١٣٠].

٧- ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٢٠٠﴾﴾ [آل عمران: ٢٠٠].

الموضوع الثالث في السورة عن دلائل وحدانية الخالق سبحانه :

والآيات العشر الأواخر من السورة تنتقل بالإنسان من ذكريات الماضي بحلوه ومره، فتلفت نظره إلى هذا العالم الذي يعيش فيه، ويرى خيراته ونعمه ودلالاته على وحدة الصانع سبحانه، فكأن هذه الآيات تقول للإنسان: اترك الخلاف بين الشرائع وأطرحه الآن جانباً، وأعمل عقلك الذي ستحاسب به، وفكر في مصيرك بعد هذه الدنيا، لماذا تنسى ربك؟! لماذا تبتعد عن صراطه المستقيم؟! أكثر من التسبيح والتحميد والثناء على الله سبحانه، يجب أن تلوذ بجناب الله تعالى وتلجأ إلى حماه في كل وقت وحين.

لقد جاء محمد ﷺ وأخذ يصيح بأهل الأرض: أن ثوبوا إلى رشدكم وآمنوا بربكم، أفلا يستحق هذا الداعي أن تندبر دعوته ونستجيب لها؟ ﴿رَبَّنَا إِنَّا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِي لِلْإِيمَانِ أَنْ ءَامِنُوا بِرَبِّكُمْ فَآمَنَّا﴾ [آل عمران: ١٩٣] إن الله تعالى يجيب هذا الدعاء، ولا يضيع عمل عامل من ذكر أو أنثى، لكن العُميان من عبدة الأصنام والمتعصبين من أهل الكتاب تألبوا على رسول الله وقاتلوه، وأخرجوه من بلده، فليكن جزاؤهم من جنس ما فعلوا ﴿لَا يَغُرُّكَ تَقَلُّبُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي الْبِلَادِ ﴿١٦٦﴾ مَتَّعٌ قَلِيلٌ ثُمَّ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمِهَادُ ﴿١٦٧﴾﴾ [آل عمران: ١٦٦].

ودعت آيات السورة في نهايتها أهل الكتاب أن يؤمنوا بالنبى الخاتم، وأُثِّتْ على من آمن منهم بمحمد ﷺ.

وأمر الله سبحانه المؤمنين في الختام بأربعة أوامر، هي مصدر السعادة في الدنيا والآخرة، وتحقيق العزة والكرامة بالنصر على أعداء الله، الذين يجحدون وحدانية الله تعالى، ويكفرون بخاتم رسله، وهذه الوصايا الأربع هي: الصبر والمصابرة والمرابطة وتقوى الله، ورتَّبَ الله على ذلك الفوز والفلاح في الدارين، فهل من مُجيب؟

فَضْلُ سُورَةِ آلِ عِمْرَانَ مَعَ سُورَةِ الْبَقَرَةِ:

١- في صحيح مسلم وغيره عن أبي أمامة الباهلي قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «اقرأوا القرآن، فإنه يأتي يوم القيامة شفيعاً لأصحابه، اقرأوا الزهراوين: البقرة وآل عمران، فإنهما تأتيان يوم القيامة كأنهما غمامتان، أو كأنهما غيايتان، أو كأنهما فرقان من طير صواف، تُحَاجَّانِ عن أصحابهما، اقرأوا سورة البقرة، فَإِنَّ أَخْذَهَا بركة، وتركها حسرة، ولا يستطيعها البطلة»^(١).

قال معاوية -أحد رواة الحديث-: بلغني أن البطلة السحرة، والغاية السحابة والمَظَلَّة، وفرقان يعني: قطعتان.

٢- وعن ابن بريدة عن أبيه مرفوعاً: «تعلَّموا البقرة وآل عمران، فإنهما الزهراوان، يُظَلَّلان صاحبهما يوم القيامة، كأنهما غمامتان، أو غيايتان، أو فرقان من طير صواف»^(٢).

٣- ومن ذلك حديث النواس بن سمعان وغيره سبق ذكره في أول سورة البقرة.

(١) «صحيح مسلم» برقم (٨٠٤) وابن حبان (١١٦) والطبراني في «الكبير» (٧٥٤٢، ٨١١٨) والحاكم (١) / ٥٦٤ والبيهقي في «السنن» (٣٩٥ / ٢). وجاء مثله عن النواس بن سمعان في مسلم (٨٠٥) والترمذي (٢٨٨٣) وأحمد برقم (١٧٦٣٧، ٢٢١٤٦) ..

(٢) رواه الحاكم وقال: صحيح على شرط مسلم، وقال الألباني في صحيح الترغيب والترهيب (١٤٦٦) حسن صحيح.

تَفْسِيرُ السُّورَةِ

حُرُوفُ التَّهْجِي فِي فَوَاتِحِ السُّورِ

١- ﴿الْمَ (١)﴾

هذه هي حروف التَّهْجِي، التي تحدَّى الله بها المكذِّبين بهذا الكتاب، من المشركين الوثنيين، ومن اليهود والنصارى وسائر الملل والنحل، والصور التي افتُتحت بها تسع وعشرون سورة، وهي سرٌّ من أسرار الله تعالى في هذا الكتاب، ومن المتشابه الذي استأثر الله بعلمه.

وبهذه الحروف أيقظ الله المُعارِضين للقرآن، ونَبَّههم إلى التأمل في هذا الكتاب المكوّن من هذه الحروف والذي عَجَزَ أرباب الفصاحة والبلاغة عن الإتيان بمثل أقصر سورة منه، مع أنه من جنس ما يتكلّمون ويكتبون ويقرؤون.

والآيات التي تلت هذه الحروف في فواتح السور، تشير إلى القرآن في جميع هذه السور، ما عدا ثلاثاً منها هي: مريم، والعنكبوت، والروم، وما عدا هذه الثلاث فالآية التي تلي هذه الحروف تتحدث عن القرآن المكوّن منها، إشارة إلى أنها للتحدي والإعجاز، والتأمل في هذا الكتاب.

(١) (الم الله) قرأ جميع القراء بإسقاط همزة لفظ الجلالة، وتحريك الميم بالفتح، عند وصلهما معاً في التلاوة، وكان التخلص من الساكنين بالفتح لخفته ومراعاة لتفخيم لفظ الجلالة. ويجوز لكل القراء عند وصلهما وجهان:

أحدهما: مد الميم ست حركات؛ نظراً للأصل وعدم الاعتداد بالعارض.

وثانيهما: عدم مد الميم إلا مدّاً يسيراً أقل من حركتين، اعتداداً بالسكون العارض بعدها، وعند الوقف على الميم يكون فيها المد فقط ست حركات.

وقرأ أبو جعفر بالسكت من غير تنفس على: ألف، ولام، وميم، على أنها حروف مستقلة مقطّعة ويترتب على هذا السكت: المد ست حركات في لام وميم، وعدم جواز القصّر؛ لأن سبب القصّر هو تحريك الميم، وقد زال هذا السبب بالسكت، ويترتب على السكت أيضاً: إثبات همزة الوصل من لفظ الجلالة حالة وصلها بما قبلها.

هذا: وقد عد (الم) آية المصحف الكوفي وتركها من العدد بقية المصاحف.

وَصَفُ اللَّهُ تَعَالَى لِدَاثِهِ بِأَرْبَعَةِ أَوْصَافٍ

٢- ﴿اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ﴾

بدأ الله سبحانه السورة باسمه العلم؛ لتربية المهابة في نفوس السامعين.

وثنى بكلمة التوحيد، من باب براعة الاستهلال في الرد على أهل الشرك من الوثنيين والنصارى. والآيات في سياق الرد على وفد كنسي جاء ليُجادل النبي ﷺ في العقيدة التي قروها، من القول بأن عيسى عليه السلام هو ابن الله، أو هو الله، أو ثالث ثلاثة! تعالى الله عما يقولون علواً كبيراً.

وثلث بصفة الحياة الباقية الدائمة التي لا تفتنى أبداً، وهي صفة ينفرد بها الإله الحق، فهي حياة غير مسبوقة بالعدم، وغير منتهية إلى زوال، إنه سبحانه (الأول والآخر).

والوصف الرابع في الآية من صفات الإله المتفرد بالوجود والبقاء، وهي أنه سبحانه قيوم على تدبير شؤون الكون، لا يغفل عنه لحظة من ليل أو نهار، فهو المتفرد بالألوهية، المستحق للعبادة دون سواه.

وهكذا افتتح الله السورة بالإخبار عن ألوهيته، وأنه الإله الحق، وكل معبود سواه باطل، فهو الحي حياة كاملة مستلزمة لجميع الصفات التي لا تكتمل الحياة إلا بها، كالسمع والبصر والقدرة والبقاء والدوام، فهو سبحانه قائم بنفسه، وهو القيوم، المستغني عن جميع المخلوقات، والكل مفتقر إليه، حيث يقوم بشؤون خلقه يدبرها ويصرفها، فهو سبحانه قائم بغيره.

اسم الله الأعظم:

هذا: وجاء عن رسول الله ﷺ أن اسم الله الأعظم - الذي إذا دُعي به أجاب، وإذا سُئل به أعطى - موجود في آية الكرسي وفي أول سورة آل عمران، واللفظ المتفق عليه بين آية

(١) يجوز لكل من قرأ بقصر المد المنفصل التوسط في (لا) من كلمة التوحيد ويسمى هذا «مد التعظيم»، وهو سبب معنوي، وحمزة يمد ست حركات وكذا ورش، وابن ذكوان من طريق النقاش، وذلك للمبالغة في النفي.

الكرسي وأول سورة آل عمران، هو قول الله سبحانه: ﴿اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ﴾:

١- عن أسماء بنت يزيد بن السكن، قالت: سمعت رسول الله ﷺ يقول: اسم الله الأعظم في هاتين الآيتين: ﴿اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ﴾ [البقرة: ١٦٣]، وفاتحة سورة آل عمران ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ﴾^(١).

٢- وعن أبي أمامة يرفعه قال: «اسم الله الأعظم الذي إذا دعي به أجاب في ثلاث سور: البقرة وآل عمران وطه» ﴿وَعَنْتِ الْوُجُوهُ لِلْحَيِّ الْقَيُّومِ﴾^(٢) وهذه الآية يتخللها كلمة التوحيد.

٣- وأخرج ابن أبي شيبة عن عبد الملك بن عمير قال: قرأ رجل البقرة وآل عمران فقال كعب: قد قرأت السورتين، إن فيهما الاسم الذي إذا دُعي به أجاب^(٣).

٤ - وعن بريدة أن رسول الله ﷺ سمع رجلا يقول: اللهم إني أسألك بأنني أشهد أنك أنت الله الذي لا إله إلا أنت، الأحد الصمد، الذي لم يلد ولم يولد، ولم يكن له كفوا أحد، فقال والذي نفس محمد بيده: «لقد سأل الله باسمه الأعظم الذي إذا سئل به أعطى، وإذا دُعي به أجاب»^(٤).

٥- وعن أنس رضي الله عنه أنه كان مع رسول الله ﷺ جالسًا ورجل يصلي، ثم دعا: اللهم إني

(١) أخرجه الإمام أحمد في «المسند» (٤٦١/٦) برقم (٢٧٦١١) قال محققوه: إسناده ضعيف لضعف عبد الله بن أبي زياد، وشهر بن حوشب، وأخرجه أبو داود (١٦٨/٢) برقم (١٤٩٦) وفي «صحيح سنن أبي داود» (١٣٢٧) والترمذي في «تحفة الأحوذى» (٤٤٧/٩) وقال: حديث حسن صحيح، وحسنه الألباني في «صحيح سنن الترمذي» (٢٧٦٤) وهو في «السنن» (٣٤٧٨) وفي ابن ماجه (٢٦٧/٢) و«صحيح سنن ابن ماجه» برقم (٣٨٥٥) وفي «السلسلة الصحيحة» برقم (٧٤٦).

(٢) أخرجه ابن مردويه والطبراني في «الكبير» والطحاوي في «مشكل الآثار» عن هشام بن عمار برقم (٢٨٢/١٧٦٨).

(٣) أخرجه ابن أبي شيبة في الدعاء (٩٤١٢) وفي الزهد (٣٨٥٥) والطبراني في «الكبير» (٤٤١، ٤٤٠) والبيهقي في «الأسماء والصفات» (١٧٥/١) وفي «الشعب» (٢١٦٦).

(٤) حديث صحيح في «صحيح سنن أبي داود» برقم (١٣٢٤) وفي «السنن» برقم (١٤٩٣)، وهو في المسند برقم (٢٣٠٤١) بنحوه، إسناده صحيح، ورجاله ثقات رجال الشيخين، وقد أخرجه ابن أبي شيبة (١٠/٢٧١) وابن ماجه (٣٨٥٧) والحاكم (٥٠٤/١) وانظر في المسند (٢٢٩٥٢) وهذا لفظه من حديث طويل عن بريدة، بإسناد صحيح ورجال ثقات رجال الشيخين كما قال محققوه.

أَسْأَلُكَ بِأَنْ لَكَ الْحَمْدُ، لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ، الْمَنَّانُ، بَدِيعَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ، يَا ذَا الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ، يَا حَيُّ يَا قَيُّوْمُ فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ «لَقَدْ دَعَا بِاسْمِهِ الْعَظِيمِ الَّذِي إِذَا دُعِيَ بِهِ أَجَابَ، وَإِذَا سُئِلَ بِهِ أُعْطِيَ»^(١).

وفي هذه الأحاديث ثلاثة من أسماء الله الحسنى هي: (الله، الحي، القيوم) فلعلها تكون هي اسم الله الأعظم مجتمعة، أو أحدها، أو اثنان منها هما ﴿الْحَيُّ الْقَيُّوْمُ﴾، أو لفظ الجلالة كما جاء في الأحاديث السابقة، وفيها أنه إذا سأل به المسلم ربه أجاب سؤاله، وإذا دعاه به أجاب الله مطلوبه.

وفي هذه السورة يردُّ الله سبحانه على النصارى ويعلمهم: أنه الله، حيٌّ دائمٌ لا يموت، وعيسى يموت.

وأنه سبحانه قائم على كل نفس بما كسبت، وقائم على كل شيء في هذا الكون، فيدبر شؤون الخلق، ويرعاهم ويرزقهم، هذا هو معنى القيوم، وعيسى لا يقوم على شيء من الكون فإنه قد رُفِعَ إلى السماء، وفي معتقدهم أنه صُلب، فكيف يكون إلهاً وهو لا يمنع الصُّلب؛ والتعذيب عن نفسه؟! إله يُصلب؟! كيف يستقيم ذلك؟!

الْكِتَابُ الثَّلَاثَةُ وَأَوْصَافُ الْقُرْآنِ الثَّلَاثَةُ

٣، ٤- ﴿نَزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابُ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَأَنزَلَ التَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ﴾ (٢) ﴿مَنْ قَبْلُ هَدَى لِلنَّاسِ وَأَنزَلَ الْفُرْقَانَ﴾^(٣) إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَاللَّهُ عَزِيزٌ ذُو أَنْتِقَامٍ ﴿٤﴾

ومن قيامه تعالى بشؤون خلقه ورحمته بهم، أنه أنزل القرآن على محمد ﷺ وهو أجل الكتب وأعظمها وأشملها، فما أخبر به حق وصدق، وما حكم به فهو عدل، وهو مصدق لما قبله من الكتب، ومن كفر بآيات الله المنزلة على رسله، فقد أعد الله له عذاباً شديداً وهو المنتقم ممن عصاه وخالف أمره.

(١) حديث صحيح في «صحيح سنن أبي داود» برقم (١٣٢٦) وفي «السنن» برقم (١٤٩٥)، وهو في المسند (١٢٢٠٥) بنحوه، وهو حديث صحيح أخرجه ابن أبي شيبة (٢٧٢/١٠) وابن ماجه (٣٨٥٨) والضياء في المختارة (١٥٥٢) والترمذي (٣٥٤٤) والطبراني في الكبير (٤٧٢٢).

(٢) قوله تعالى (وأنزل التوراة والإنجيل) لم بعدها آية المصحف الشامي، وهي آية عند بقية علماء العدد.

(٣) قوله تعالى (وأنزل الفرقان) لم بعدها آية المصحف الكوفي، وهي آية عند بقية علماء العدد.

وهكذا: أشار سبحانه إلى الكتب الثلاثة الرئيسة التي نزلت من عند الله عز وجل، وابتدأها بالقرآن، وأشار إلى أن التوراة والإنجيل نزلا من قبل لأداء مهمة معينة في مرحلتين من مراحل دعوة الرسل، فأخبر سبحانه أنه جل شأنه نزل القرآن على محمد ﷺ بالحق الذي لا ريب فيه، يصدق الكتب قبله في التوحيد والنبوات والأخبار وبعض الشرائع.

وأنزل قبله التوراة على موسى، والإنجيل على عيسى، أنزلهما سبحانه هدى للناس من يهود ونصارى، قبل التحريف وأثناء صلاحية الرسالة، وأنزل القرآن هدى للمسلمين المؤمنين بما في هذه الكتب من الشرائع والأحكام، فهو الذي يُنزل الكتب السماوية على رسل الله، وعيسى ليس بإمكانه أن يفعل ذلك، بل هو رسول أنزل الله عليه الإنجيل، كما نزل القرآن على محمد، وكما أنزل التوراة على موسى، فالكتب السماوية نزلت قبل عيسى وبعد عيسى ﷺ.

قال تعالى: ﴿وَأَنْزَلَ الْفُرْقَانَ﴾ وهو القرآن؛ لأنه الفارق بين الحق والباطل، والهدى والضلال، والحلال والحرام، وفارق بين ما اختلف فيه اليهود والنصارى في شأن عيسى. وأعيد ذكره تعظيماً لشأنه، وليبين أن نزوله كان متأخراً عن التوراة والإنجيل.

وقيل: إن الفرقان اسم جنس لجميع الكتب المنزلة من عند الله، ومن كفر بالكتب المنزلة من عند الله وآخرها القرآن، فله عذاب شديد في الآخرة، والله عزيز لا يغلبه شيء، منتقم ممن كفر بآياته، وقد وصف الله تعالى القرآن بثلاثة أوصاف:

الوصف الأول: أنه لم يُنزل جملة واحدة، وإنما نزل مُنَجَّمًا مُفَرَّقًا حسب الوقائع والحوادث والأحوال على مدى ثلاثة وعشرين عاما. وذلك ليسهل استيعابه على الأمة، وليتدريج في تربيتهم، ويساير الحوادث، ويجب على أسئلة السائلين، ويكشف حال الكافرين والمنافقين، ويثبت قلب النبي ﷺ وقلب المؤمنين، وقد بدأ نزوله ليلة القدر.

وللقرآن الكريم نزلان منسوبان إلى ابن عباس ؓ:

أحدهما: من اللوح المحفوظ إلى بيت العزة في السماء الأولى.

وثانيهما: من بيت العزة على رسول الله ﷺ طول مدة الرسالة.

والوصف الثاني: أن هذا القرآن نزل متلبساً بالحق، مشتملاً على الحجج والبراهين القاطعة الدالة على وحدانية الله تعالى وعلى صدق صاحب الرسالة ﷺ، يحتوي ما يصلح

البشر إلى يوم القيامة. لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، ولم ينزل عبثاً ولا لغواً ولا لهُواً ﴿وَبِالْحَقِّ أَنْزَلْنَاهُ وَبِالْحَقِّ نَزَّلْ﴾ [الإسراء: ١٠٥].

الوصف الثالث: أن هذا القرآن يصدق الكتب التي نزلت على رسل الله قبله، يُصدقها فيما أخبرت به عن قديم الزمان، وما بَشَّرَتْ به مِنْ وَعْدِ اللَّهِ تعالى بإرسال محمد ﷺ وإنزال القرآن عليه.

أما التوراة: فهي اسمٌ عبرانيٌّ، ويُقصد بها غالباً الألواح التي نزلت على موسى ﷺ في جبل طور سيناء، وفيها الوصايا العشر. وهذه الألواح أصل الشريعة التي جاء بها موسى، واليهود يسمونها (سِفْرُ طُورَا) ومعنى طوراً: الهدى. وقد فُقدت التوراة الأصلية في تابوت العهد.

أما الإنجيل: فهو اسمٌ يونانيٌّ معناه البشارة، وقد رُفِعَ عيسى ﷺ، وليس هناك إنجيلٌ مكتوبٌ، كما أنه لا يوجد إنجيلٌ باسم عيسى. والأنجيل الموجودة كتبها تلاميذه من بعده مما بقي في أذهانهم.

وما يوجد الآن من العهد القديم والجديد مما يشتمل على التوراة والإنجيل، قد امتدت إليهما أيدي التحريف والتبديل، وهما غير المنزّلين على موسى وعيسى عليهما السلام ﴿يَتَأَهَّلَ الْكِتَابُ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيرًا مِمَّا كُنْتُمْ تُخْفُونَ مِنَ الْكِتَابِ وَيَعْفُو عَنْ كَثِيرٍ قَدْ جَاءَكُمْ مِنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُبِينٌ﴾ [المائدة: ١٥]

قال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَاسِيَةً يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ﴾ [المائدة: ١٣].

وجميع الكتب السماوية نزلت في شهر رمضان كما في حديث واثلة بن الأسقع أن رسول الله ﷺ قال: «أنزلت صُحف إبراهيم ﷺ في أول ليلة من رمضان، وأنزلت التوراة لست مضين من رمضان، والإنجيل لثلاث عشرة خلت من رمضان، وأنزل الفرقان لأربع وعشرين خلت من رمضان»^(١). وليلة القدر كانت في هذه الليلة من هذا العام.

(١) «المسند» (١٠٧/٤) برقم (١٦٩٨٤) قال محققوه: حديث ضعيف، تفرد به عمران القطان، وهو ممن لا يحتمل تفرده (فقد ضعفه قوم وأثنى عليه آخرون)، وبقية رجال الإسناد ثقات رجال الشيخين غير عبد الرحمن بن عبد الله، فقد أخرج له البخاري متابعة، وهو ثقة، وأخرجه الطبراني (١٨٥) وابن أبي حاتم (٣٣٥) وحسنه السيوطي في فيض القدير مع الجامع (٥٧/٣). وقال الألباني: هذا إسنادٌ حسن ورجاله ثقات، «السلسلة الصحيحة» (١٥٧٥) وله شاهد من حديث جابر.

إِحَاطَةُ عِلْمِ اللَّهِ تَعَالَى بِمَا ظَهَرَ وَمَا بَطَنَ

٥- ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَخْفَى عَلَيْهِ شَيْءٌ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ﴾

وما دام الله تعالى هو الحي القيوم، لا تأخذه سنة ولا نوم، فإنه جل شأنه محيطٌ بكل ما في الكون، لا يخفى عليه صغيرٌ ولا كبيرٌ، ولا جليلٌ ولا حقيرٌ، ولا ظاهرٌ ولا باطنٌ، وهذا من خصائص الخالق المعبود، فالإنسان إذا علم شيئاً من الأرض فإنه لا يعلم شيئاً في السموات، وفيه ردٌّ على النصارى في أن عيسى يعلم الغيب، وهو لا يعلم إلا ما علمه الله له، أما الغيب المطلق فهو إلى الله سبحانه، هو الذي لا تخفى عليه خافية في الأرض ولا في السماء، ومن علمه المحيط أنه يعلم حال الأجنة في البطون:

٦- ﴿هُوَ الَّذِي يُصَوِّرُكُمْ فِي الْأَرْحَامِ كَيْفَ يَشَاءُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾

ومن خصائص الله ﷻ أنه يصوّر الجنين في بطن أمه بأي خلق، وأي هيئة، وفي أي صورة ما شاء ركه!! فقد خلق الله الإنسان وصوّره في صور متفاوتة في الخلقة: ذكر أو أنثى، تام الخلقة أو غير تام، أبيض أو أسود أو أحمر، حسن أو قبيح، شقي أو سعيد، صور مختلفة -في ظلمات الأرحام- في الشكل والطبع واللون، وكل ذلك من نطفة.

في الصحيحين عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: حدثنا رسول الله ﷺ وهو الصادق المصدوق: «إن أحداكم يُجمع خلقه في بطن أمه أربعين يوماً نطفة، ثم يكون علقة مثل ذلك، ثم يكون مضغة مثل ذلك. ثم يرسل الملك، فينفخ فيه الروح ويؤمر بأربع كلمات: بكتب رزقه وأجله وعمله وشقي أو سعيد..»^(١).

وفي صحيح مسلم عن حذيفة بن أسيد الغفاري أن النبي ﷺ قال: «يدخل الملك على النطفة بعدما تستقر في الرحم بأربعين أو خمسة وأربعين ليلة فيقول: يارب، أشقي أم سعيد؟ فيكتبان، فيقول: أي رب، أذكر أم أنثى؟ فيكتبان، ويكتب عمله وأثره وأجله ووزقه. ثم تطوى الصحف، فلا يُزاد فيها ولا يُنقص»^(٢).

(١) في «صحيح مسلم» برقم (٢٦٤٣) و«صحيح البخاري» برقم (٣٢٠٨، ٣٣٣٢، ٦٥٩٤، ٧٤٥٤).

(٢) الباب الأول من كتاب القدر في «صحيح مسلم» برقم (٢٦٤٤).

وأحوال الجنين في بطن أمه يشير إليها القرآن في قوله تعالى: ﴿يَخْلُقُكُمْ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ خَلْقًا مِّنْ بَعْدِ خَلْقٍ فِي ظُلُمَاتٍ ثَلَاثٍ﴾ [الزمر: ٦].

وقوله: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ مِنْ سُلَالَةٍ مِّن طِينٍ﴾ (١٢) ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَّكِينٍ (١٣) ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظْمًا فَكَسَوْنَا الْعِظْمَ لَحْمًا ثُمَّ أَنْشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ (١٤) [المؤمنون].

أما كتابة الشقاء والسعادة فهي وفق علم الله تعالى عن هذا العبد، كيف يكون حاله عندما يصبح مكلفًا حرًا مختارًا، وسيسلك أحد الطريقين، فهذه الكتابة تسجيلٌ لعلم الله تعالى عن العبد، وعلم الله لا يتخلف ولا يتغير ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ﴾ [الملك: ١٤].

﴿هُوَ الَّذِي يُصَوِّرُكُمْ فِي الْأَرْحَامِ كَيْفَ يَشَاءُ﴾ وعيسى مُصَوَّرٌ في رحم المرأة، وقد تقلب في الأحشاء وانتقل من حال إلى حال؛ فكيف يكون إلهًا؟ وفي هذا ردٌّ على قولهم بالنبوة أو التثليث أو الإلهية.

وُجُوبُ التَّلَقِّيِّ عَنِ اللَّهِ تَعَالَى فِي الْمُحْكَمِ وَالْمُتَشَابِهِ

٧- ﴿هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَبَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ﴾ (٧)

ثم تبين السورة ثلاثة خطوط عريضة، لا بد من الإلمام بها لإدراك ما فيها، ومجمليها يتمثل في قبول التلقي عن الله تعالى والإيمان به، وهذه الخطوط هي:

أولاً: وجوب الاتباع والطاعة، وقبول التلقي عن الله تعالى في كل محكم أو متشابه لكل ما أنزله الله تعالى سواء أدر كنا معناه أم لا ﴿مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ﴾ واضحات الدلالة ليس فيها شبهة ولا إشكال ﴿هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ﴾ أي: أصله الذي يرجع إليه كل متشابه ﴿وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ﴾ يلتبس معناها على كثير من الناس لكونها مجملة وغير واضحة الدلالة.

ثانياً: أن الله تعالى واحدٌ أحدٌ، مدبرٌ هذا الكون، لا شريك له في ملكه.

ثالثاً: التحذير من موالاة غير المؤمنين ﴿لَا يَتَّخِذِ الْمُؤْمِنُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ .
والآيات المحكمات واضحة الدلالة، هي أصل الكتاب الذي يُرجع إليه في معرفة
الحلال والحرام، والأحكام:

١- والقرآن كله محكم، بمعنى أنه حقُّ كله وصدقُّ كله، وليس فيه عبثٌ ولا هزلٌ.

ويشير إلى هذا المعنى قوله تعالى: ﴿كَتَبَ أَكْرَمُ عَيْنُهُمْ﴾ [هود: ١].

وقوله سبحانه: ﴿تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْحَكِيمِ﴾ [لقمان: ٢] فهما من الإحكام والإتقان.

وقوله: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ مِنْ اللَّهِ حُكْمًا لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾ [المائدة: ٥٠] فهو غاية في العدل والإحسان.

٢ - والقرآن كله متشابه، بمعنى أن بعضه يشبه بعضاً في الحسن والحق والصدق
والفصاحة والبلاغة والإعجاز، وبعضه يصدق بعض، ويطابقه لفظاً ومعنى، كما قال
تعالى: ﴿اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُتَشَابِهًا مَثَانِيَ نَقَّشَهُ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ
تَلَيْنُ جُلُودَهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ﴾ [الزمر: ٢٣].

فالحاصل أن من آيات القرآن، آيات واضحة بينة لكل أحد، ومنها آيات تُشكِّل على
بعض الناس، والواجب أن يُرد المتشابه إلى المحكم، والخفي إلى الجلي، وبهذا يُصدق
بعضه بعضاً، ولا يحصل تناقض ولا تعارض.

٣ - والقرآن منه المحكم ومنه المتشابه.

تعريف المحكم: المحكم هو ما لا يحتمل إلا وجهاً واحداً، وهو مستقلٌ بنفسه في
المعنى؛ فهو واضح الدلالة لا يحتاج إلى بيان، ولا يحتمل النسخ ولا التأويل.

قال ابن عباس: المحكمات ثلاث آيات: في آخر سورة الأنعام ﴿قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ
رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ﴾ [الآيات: ١٥١-١٥٣] والآيات الثلاث، ونظيرها في سورة بني إسرائيل
﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا﴾ [الآيات: ٢٣، ٢٩].

قلت: ولعل المراد بإحكام هذه الآيات أنها وصايا أتت في جميع الرسالات الإلهية.

وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: المحكم الناسخ، والمتشابه المنسوخ.

وعن ابن مسعود: المحكم الحلال والحرام، والمتشابه ما سوى ذلك، يشبه بعضه

بعضًا، ويصدق بعضه بعضًا.

تعريف المتشابه: أما المتشابه فهو ما يحتمل أوجهًا، ولا يستقل بنفسه في المعنى، فيحتاج إلى بيان، ويحتمل النسخ والتأويل، أو هو مما استأثر الله بعلمه، وفي حالة الاشتباه يُرد المتشابه إلى المحكم حتى يتعين المراد منها.

والمتشابه ثلاثة أنواع:

النوع الأول: ما لا يستطيع البشر أن يصلوا إلى معرفته، كالعلم بذات الله تعالى وصفاته، والعلم بقيام الساعة، ونحو ذلك؛ فهذا مما استأثر الله به.

النوع الثاني: ما يستطيع كل إنسان أن يعرفه عن طريق البحث والتأمل، وذلك مثل قوله تعالى: ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُوا فِي الْيَتَامَىٰ فَانكِحُوا مَا طَابَ لَكُمْ مِنَ النِّسَاءِ﴾ [النساء: ٣] فخفاء المعنى في الآية، جاء من الإجمال الذي فيها، وعند دراسة الآية وفهمها يتبين معناها، وهو: وإن خفتم ألا تقسطوا في اليتامى لو تزوجتموهن فانكحوا من غيرهن ما طاب لكم من النساء، ومثل إثبات السؤال ونفيه يوم القيامة في آيتين مختلفتين: ﴿وَلَا يُسْأَلُ عَنْ ذُنُوبِهِمُ الْمُجْرِمُونَ﴾ [القصص: ٧٨] ﴿فَلَنَسْأَلَنَّ الَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْأَلَنَّ الْمُرْسَلِينَ﴾ [الأعراف: ٦].

النوع الثالث: ما يعلمه خواص العلماء دون عامتهم، كالفتوى في أحكام المواريث والطلاق^(١).

فالنصارى -مثلا- يحتجّون على تمييز عيسى على غيره بقول الله سبحانه: ﴿وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَىٰ مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِنْهُ﴾ [النساء: ١٧١].

ففي القرآن الكريم ما هو محكم، واضح المعنى، ظاهر الدلالة، وفيه ما هو متشابه يخفى على كثير من الناس، وقد يدركه الراسخون في العلم، وهم الذين يقولون: آمنا به كل من عند ربنا، ومن شأنهم أن يردوا المتشابه إلى المحكم.

فالقرآن الكريم يُحمل فيه المطلق على المقيد، والمُجمل على المفصل، والمتشابه على المحكم.

وهكذا فقوله تعالى: ﴿وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَىٰ مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِنْهُ﴾ يفصلها قول الله ﷻ في شأن عيسى: ﴿إِنَّهُ هُوَ إِلَّا عَبْدٌ أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ وَجَعَلْنَاهُ مَثَلًا لِّبَنِي إِسْرَءِيلَ﴾ [الزخرف: ٥٩].

(١) ينظر: «مناهل العرفان في علوم القرآن» (١٧٤/٢).

فهو عبدٌ أنعم الله عليه بالنبوة والرسالة، فكيف يتبع الإنسان التشابه في الآيات التي يُمكن أن تحتل أكثر من معنى من غير قرينة أو سند مرجح؟!

هذا شأن الخوارج، ومن على شاكلتهم.

وأول فتنة وقعت من الخوارج كانت في هذا الصدد، حيث أوّلوا قول الله سبحانه: ﴿إِنَّ الْحُكْمَ إِلَّا لِلَّهِ﴾ [الأنعام: ٥٧، ويوسف: ٤٠] ففضّلوا تحكيم أبي موسى الأشعري بين علي ومعاوية، وخرّجوا على عليّ متأولين قول الله سبحانه: ﴿إِنَّ الْحُكْمَ إِلَّا لِلَّهِ﴾ مُدَّعين أن لا أحد يحكم بين فريقين من عباد الله، وكانت هذه أول فتنة أو بدعة في الإسلام، ويسير عليها من يسير من خلق الله، فمن أخذوا من الدين بطرف ووقفوا عنده.

أما شأن المؤمن فإنه يدعو ربه أن لا يميل قلبه عن الصواب ﴿رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا﴾ [آل عمران: ٨] وكان النبي ﷺ يدعو ربه ليلاً ونهاراً أن يثبت قلبه على الإيمان، فإن القلوب بين إصبعين من أصابع الرحمن.

ومن الآيات المتشابهات في معناها أوائل السور، الحروف الهجائية، وليس منها آيات الصفات، مثل: ﴿الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى﴾ [طه] ومثلها: ﴿يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ﴾ [الفتح: ١٠] و﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ﴾ [القصص: ٨٨]، فهي واضحة الدلالة مع قوله تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ [الشورى: ١١]، وإن خفيت الكيفية عنها.

ومن ذلك حديث أبي هريرة ؓ أن النبي ﷺ قال: «ينزل الله إلى السماء الدنيا كل ليلة حين يمضي ثلث الليل الأول، فيقول: أنا الملك، من ذا الذي يدعوني فأستجيب له؟ من ذا الذي يسألني فأعطيه؟ من ذا الذي يستغفرنني فأغفر له؟ فلا يزال كذلك حتى يضيء الفجر»^(١).

وغير ذلك من آيات القرآن الكريم والأحاديث النبوية المشتملة على صفات الله وأسمائه، ويوضع في مقابلها كلها قول الله سبحانه: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ [الشورى: ١١] ليس كمثله شيء في ذاته، وليس كمثله شيء في صفاته.

ومما استأثر الله بعلمه ولا سبيل إلى معرفته إلا عن طريق الوحي الإخبار عن أشرار الساعة، مثل: الدجال، ويأجوج ومأجوج، ونزول عيسى، وطلوع الشمس من مغربها،

(١) من حديث أبي هريرة في «صحيح مسلم» برقم (٧٥٨).

وفناء الدنيا، وقيام الساعة، فهذا مما استأثر الله به.

ومن فوائد المتشابه:

- ١ - الإيجاز والاختصار في الكلام.
- ٢ - اشتغال أهل العلم والنظر بردّ المتشابه إلى المحكم.
- ٣ - بيان فضل العالم على الجاهل.
- ٤ - اختبار أذهان المتعلمين في معرفة العلوم الغامضة، والمسائل الدقيقة، إعمالاً للفكر.
- فقد قيل: الغنى يورث البلاء، والفقر يورث الفطنة. ولو نزل القرآن كله محكماً لاستوى في معرفته العالم والجاهل.
- ٥ - اختبار إيمان المؤمن وإظهار ارتياب المنافق في المتشابه من كتاب الله.
- ٦ - القرآن شريعة دائمة، يفتح أبواب النظر في الفروع لأهل الاجتهاد، ويعودهم البحث والتنقيب لتؤخذ منه أحكام الأولين والآخرين.
- (أ) في الصحيحين وغيرهما عن عائشة - رضي الله عنها - قالت: تلا رسول الله ﷺ ﴿هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ﴾ الخ، فقال: «إذا رأيتم الذين يتبعون ما تشابه منه، فأولئك الذين ساء بهم الله، فاحذروهم»^(١).
- (ب) وعن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده قال: سمع النبي ﷺ قوماً يتدارؤون -أي: يقع بعضهم في بعض- فقال: «إنما هلك من كان قبلكم بهذا، ضربوا كتاب الله ببعضه ببعض، وإنما نزل كتاب الله يصدّق بعضه بعضاً؛ فلا تكذبوا بعضه ببعض، فما علمتم منه فقولوا، وما جهلتم فكلّوه إلى عالمه»^(٢).

(١) «صحيح مسلم» برقم (٢٦٦٥) و«صحيح البخاري» برقم (٤٥٤٧) وأبو داود (٤٥٩٨) والترمذي (٢٩٩٣) وابن ماجه (٤٧) وابن حبان (٧٣، ٧٦).

(٢) «مصنف عبد الرزاق» برقم (٢٠٣٦٧) والبخاري في خلق أفعال العباد ص ٤٣ و«المسند» (١٨٥/٢) بتحقيق أحمد شاکر رقم (٦٧٤١). وقال محققوه: صحيح، وهذا إسناد حسن و«صحيح الجامع» (٢٣٧٠) وابن ماجه (٨٥) والبخاري في شرح السنة (٢٦٠/١). قال البوصيري في «الزوائد» (٨٥/١): إسناده صحيح، والبيهقي في الشعب (٢٢٥٨).

(ج) وفي رواية الإمام أحمد وغيره عن عائشة رضي الله عنها: «فإذا رأيتم الذين يجادلون فيه فهم الذين عني الله فاحذروهم»^(١).

(د) وجاء عن أبي أمامة أن الذين يتبعون ما تشابه منه، والذين تسود وجوههم يوم القيامة- هم الخوارج^(٢).

(هـ) وعن ابن عمر قال: خرج رسول الله ﷺ ومن وراء حجرته قومٌ يتجادلون بالقرآن، فخرج محرمةً وجنتاه، كأنما تقطران دماً. فقال: يا قوم، لا تجادلوا بالقرآن، فإنما ضلَّ من كان قبلكم بجدالهم. إن القرآن لم ينزل ليكذب بعضه بعضاً، ولكن نزل يصدِّق بعضه بعضاً؛ فما كان من محكمه فاعملوا به، وما كان من متشابهه فأمّنوا به^(٣).

قال ابن كثير: ومعناه صحيحٌ، فإن أول بدعة وقعت في الإسلام فتنة الخوارج، وكان مبدؤهم بسبب الدنيا، حين قسّم رسول الله ﷺ غنائم حنين، فكأنهم رأوا أنه لم يعدل في القسمة، فقال ذو الخويصرة: اعدل فإنك لم تعدل؛ فقال ﷺ: «لقد خبتُ وخسرتُ إن لم أعدل» ثم أخبر ﷺ: أنه يخرج من جنس هذا الرجل «قومٌ يحقر أحدكم صلاته مع صلاتهم، وصيامه مع صيامهم، وقراءته مع قراءتهم- يمرقون من الدّين كما يمرق السهم من الرمية، فأينما لقيتموهم فاقتلوهم؛ فإن في قتلهم أجراً لمن قتلهم».

ثم كان ظهورهم أيام عليّ، وقتلهم بالنهروان، ثم نبت منهم القدرية، ثم المعتزلة، ثم الجهمية^(٤).

وقد بينت الآية أن الذين يتبعون المتشابه، هم قوم فسدت فطرهم وانحرفت قلوبهم، فاتبعوا الغي والضلال، وتركوا الهدى والرشاد، وهم يقصدون أمرين:

الأول: ﴿أَيَّاعًا أَفْتَنُوا﴾ أي: طلباً لفتنة المؤمنين في دينهم، وتشكيكهم في عقيدتهم،

(١) «المسند» (٤٨/٦) وابن ماجه في «السنن» برقم (٤٧) و صححه الألباني في صحيح سنن ابن ماجه برقم (٤٤) وفي ظلال الجنة ٥.

(٢) ورد هذا المعنى مرفوعاً وموقوفاً، ينظر: «المسند» (٢٦٢/٥) (٢٢٥٩) والطبراني في «الكبير» (٨/٣٢٥) (٨٠٤٦) من طريق أبي غالب وعبد الرزاق (١٨٦٦٣).

(٣) أخرجه نصر المقدسي في الحجة عن ابن عمر، «فتح القدير» (١/٣٩٨) و«الدر المنثور» (٤٦٥١٣).

(٤) ينظر: «تفسير ابن كثير» بتصرف (١٠/٢).

وإثارة الريب في قلوبهم، كالتشكيك في البعث والنشور، والتشكيك في السنّة، ونحو ذلك، فإن المتشابه تحصل به الفتنة، بسبب الاشتباه الواقع فيه، كما أن المحكم الصريح ليس محلاً للفتنة لوضوح الحق فيه.

ومن ذلك ما قاله العاص بن وائل، لخباب بن الأرتّ لما جاءه يتقاضاه أجراً، فقال العاص متهمّاً: وإني لمبعوث بعد الموت؟! فسوف أقضيك هناك. يريد تشكيك خباب في البعث ليثنيه عن الإسلام.

ومثل قول زعيم القرامطة وهو في مكة وهم يقتلون الحُجّاج: أليس قد قال لكم محمد المكي: ﴿وَمَنْ دَخَلَهُ كَانَ آمِنًا﴾ فأَيُّ أَمْنٍ هذا؟! يريد فتنة الناس عن دينهم.

الثاني: ﴿وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ﴾ أي: يتعلقون بالمتشابه طلباً لتأويل آيات القرآن بالباطل تبعاً لأهوائهم ورغباتهم، أو استجابة لحكامهم أو نزواتهم وشهواتهم، فيفسرونه تفسيرات تتفق مع مرادهم، فأهل الزيغ يبحثون عن المتشابه، ويتكلفون ما لا علم لهم به، أما الراسخون في العلم فيؤمنون به ويكلون معناه إلى الله، فيسلّمون ويسلمون.

عن سليمان بن يسار أن صبيغ بن عسل قَدِم المدينة، وأخذ يسأل عن متشابه القرآن، فبلغ ذلك عمر، فبعث إليه. فلما حضر ضرب رأسه بعرجون فشجّه، وتابع ضربه حتى سال الدم على وجهه، فقال: حسبك يا أمير المؤمنين!! فقد والله ذهب ما كنت أجد في رأسي^(١).

فأهل الزيغ والضلال يتبعون ما تشابه من القرآن ﴿ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ﴾ طلباً للشبهات واللّبس؛ ليبرروا بها كفرهم وضلالهم، ولفتنه الناس عن دينهم ﴿وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ﴾ طلباً للمعاني التي ينشدونها ويشتهونها، ولا يعلم تأويل المتشابه إلا علام الغيوب.

عن أبي هريرة ؓ أن رسول الله ﷺ قال: «جدالٌ في القرآن كفر»^(٢).

ولا ينطبق هذا على النقاش الموصّل لمعنى الآيات، وإنما المراد بالجدال في الحديث

(١) «تفسير القرطبي» (١٤/٤) وأخرجه الدارمي في مسنده (٥٤/١) ونصر المقدسي في (الحجة).

(٢) صححه الألباني في «صحيح سنن أبي داود» (٣٨٧٤) وهو في «السنن» (٤٦٠٣) وعند الحاكم (٢/٢٢٣)، وهو في المسند (٧٥٠٨، ١٠٢٠٢) بإسناد صحيح على شرط الشيخين، كما قال محققوه، وأخرجه ابن أبي شيبة (٥٢٩/١٠) وأبو يعلى (٥٨٩٧) والطبراني في الصغير (٥٧٤).

الجدال الذي يؤدي إلى الشك والتكذيب، فإن هذا يوصل إلى الكفر.

معنى التأويل: والتأويل له معنيان:

أحدهما: حقيقة الشيء وما يؤول إليه، كقوله تعالى: ﴿هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا تَأْوِيلَهُ﴾ [الأعراف: ٥٣] أي: حقيقة ما أخبروا به عن يوم القيامة.

وثانيهما: التفسير والبيان والكشف والإيضاح، كقوله تعالى: ﴿نَبِّئْنَا بِتَأْوِيلِهِ﴾ [يوسف: ٣٦].

فإن أريد بالآية المعنى الأول فالوقف يكون على لفظ الجلالة؛ لأن حقائق الأمور وكنهها لا يعلمها إلا الله.

وإن أريد المعنى الآخر فيصح وصل ﴿وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ﴾ بلفظ الجلالة قبلها.

فكأن المعنى: إن تفسير المتشابه وردة إلى المحكم، وإزالة ما فيه من شبهة لا يعلمه إلا الله والراسخون في العلم يعلمونه أيضاً، فيؤمنون به ويرددون المتشابه إلى المحكم، ويقولون (كل) من المحكم والمتشابه (من عند ربنا).

وعلى المعنى الأول يكون الكلام تاماً، ويكون المراد: أن ما استأثر الله بعلمه فالإيمان به واجب، وحقيقته مفوضة إلى الله تعالى. وهذا قول أكثر المفسرين، وهو ما ذهب إليه ابن مسعود وأبي بن كعب وعائشة وأكثر التابعين.

قال ابن عباس: التفسير على أربعة أنحاء: فتفسير لا يُعذر أحدٌ في فهمه، وتفسير تُعرفه العرب من لغاتها، وتفسير يعلمه الراسخون في العلم، وتفسير لا يعلمه إلا الله^(١).

وقال ابن عباس: أنا من الراسخين الذين يعلمون تأويله^(٢).

وفي الحديث أن رسول الله ﷺ دعا لابن عباس وضمه إليه ثم قال: «اللهم فقهه في الدين وعلمه الكتاب»^(٣).

(١) الطبري (١/٥٧).

(٢) الطبري (٦/٢٠٣).

(٣) البخاري في فتح الباري (١/٢٠٥) وهو في البخاري برقم (٧٥، ١٤٣، ٣٧٥٦، ٧٢٧٠) وفي مسلم (٢٤٧٧).

وعن مالك الأشعري أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: «لا أخاف على أمتي إلا ثلاث خلال: أن يكثر لهم المال فيتحاسدوا فيقتتلوا، وأن يفتح لهم الكتاب فيأخذ المؤمن يتبعي تأويله، وأن يزداد علمهم فيضيعوه ولا يبالون عليه»^(١).

والراسخون في العلم هم الثابتون فيه المتقنون له. وهم العلماء العاملون بعلمهم ممن توافر له التقوى لله، والتواضع للناس، والزهد في الدنيا، وجهاد النفس.

والرسوخ في العلم أبلغ من الاستقامة؛ لأنها أدنى درجاته.

سُئِلَ أنس بن مالك عن الراسخين في العلم فقال: العالم العامل بما علم، المتبع له. ولا يتعظ بالقرآن إلا أهل العقول والأفهام، وهم الذين يقولون: ﴿كُلُّ مَنْ عِنْدَ رَبِّنَا﴾ فيعملوا بالمحكم ويؤمنوا بالمشابه، وما كان من عند الله فليس فيه تعارض ولا تناقض، إذ أن المتشابه مردود إلى المحكم، وما يتعظ بهذه المواعظ إلا أصحاب العقول الواعية، فيفعلون ما ينفعهم ويتركون ما يضرهم ﴿وَمَا يَذْكُرُ إِلَّا أَقْلًا أَلْبَسَ﴾^(٢).

المُسْلِمُ يَسْأَلُ رَبَّهُ الثَّبَاتَ فِي الدُّنْيَا وَحُسْنَ الْجَزَاءِ فِي الْآخِرَةِ

٨- ﴿رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ﴾^(٣)

ثم إن هؤلاء الراسخين في العلم يسألون ربهم ألا يُمِيل قلوبهم عن الحق، فيصرفها عن العمل بمحكم كتابه، والإيمان بمتشابهه، بعد أن منَّ عليها بالهداية لدينه، ويسألونه التوفيق والثبات على الحق، وأن يجعلهم هداة مهتدين، فهو سبحانه كثير الفضل، واسع العطاء، فباعد يا ربنا بيننا وبين الزيغ الذي لا يرضيك، وبين الضلال الذي يُفسد القلوب، ويعمي البصائر؛ ووقفنا للخيرات، واعصمنا من المنكرات، فأنت مالك الملك لا مانع لما أعطيت ولا مُعطي لما منعت، فأنت الوهَّاب.

١- في صحيح مسلم وغيره عن عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنه أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: «إن قلوب بني آدم كلها بين أصبعين من أصابع الرحمن، كقلب واحد، يُصرفه

(١) الطبراني في «الكبير» (٢٩٢/٣) (٣٤٤٢) قال الهيثمي في «مجمع الزوائد» (١/١٢٨) فيه: محمد بن إسماعيل بن عياش عن أبيه، ولم يسمع من أبيه.

حيث يشاء» ثم قال رسول الله ﷺ: «اللهم يا مصرف القلوب اصرف قلوبنا إلى طاعتك»^(١).

وفي الحديث إثبات الأصابع لله ﷻ، ونحن نؤمن بما وصف الله تعالى به نفسه، من غير تأويل ولا تشبيه ولا تعطيل ولا تكييف. نؤمن بها كما جاءت، ونكل علمها إلى الله تعالى، ونؤمن أنه ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ الشورى: [١١]

٢- وعن أنس رضي الله عنه قال: كان النبي ﷺ يُكثر أن يقول: «يا مقلب القلوب ثبت قلبي على دينك» قالوا: يا رسول الله، آمنا بك وبما جئت به، فهل تخاف علينا؟ قال: «نعم، إن القلوب بين إصبعين من أصابع الله يقلبها»^(٢).

٣- وعن سبرة بن فاتك، قال: قال النبي ﷺ: «قلب ابن آدم بين إصبعين من أصابع الرب، فإذا شاء أقامه وإذا شاء أزاغه»^(٣).

٤- وعن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «إن هذا القلب كريشة بفلاة من الأرض، تُقيمها الرياح ظهراً لبطن»^(٤).

٥- وقال المقداد: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «لقلب ابن آدم أشدُّ انقلاباً من القدر إذا اجتمع غليانا»^(٥).

وحُصِّت القلوب بالذكر؛ لأنها محل الخواطر والإرادات والنيّات، وهي مقدمات

(١) أخرجه مسلم (٢٦٥٤) والنسائي في «السنن الكبرى» (٧٧٣٩) والبيهقي في «الأسماء والصفات» (٢٩٨)، (٧٤٠) والطبري (٢٣٢/٥).

(٢) «صحيح الأدب المفرد» (٥٢٧) وفي الأدب المفرد (٦٨٣) وابن أبي شيبة (٢٠٩/١٠) و«المسند» (١٢١٠٧) وهو إسناده قوي على شرط مسلم والترمذي (٢١٤٠).

(٣) البخاري في تاريخه (١٨٧/٤) والطبراني (٦٥٥٧) والطبري (٢٣١/٥). قال الألباني في «ظلال الجنة» لابن أبي عاصم (٢٢٠): حديث صحيح، رجاله موثقون، غير أبي مطيع الطرابلسي، وهو صدوق له أوهام، وبنحوه في المسند عن عبد الله بن عمرو (٦٦١٠) وهو حديث صحيح كما قال محققوه.

(٤) «المسند» (١٩٦٦١) بنحوه، وهو حديث صحيح، وأخرجه البيهقي في الشعب (٧٥٢) وأبو نعيم في الحلية (٢٦٣/١) و«صحيح سنن ابن ماجه» (٧١)، وصححه الألباني أيضاً في ظلال الجنة (٢٢٧) وفي المشكاة (١٠٣).

(٥) صححه الحاكم (٢٨٩/٢) و«السلسلة الصحيحة» للألباني (١٧٧٢).

الأفعال، ثم جعل سائر الجوارح تابعة للقلوب في الحركات والسكنات. ويحصل الزينج في القلب من خلل في ذاته، أو من ضعف إرادة، أو من رُفقاء سوء، أو من شهوة ونزوة، ونحو ذلك.

عن واثلة بن الأسقع وأبي الدرداء أن رسول الله ﷺ سُئل عن الراسخين في العلم؟ فقال: «من برّث يمينه، وصدق لسانه، واستقام قلبه، ومن عفّ بطئه وفرّجّه فذلك من الراسخين في العلم»^(١).

ومن دُعاء الراسخين في العلم قولهم: ربنا إنا نقرُّ ونشهد بأنك ستجمع الناس للحساب والجزاء يوم القيامة، ونعلمُ أن وعدك حقٌّ، وأن من أزغَتْ قلبه فهو هالك، ومن مننت عليه بالهداية والرحمة فهو ناجٍ من العذاب سعيدٌ.

وكان النبي ﷺ إذا استيقظ من الليل قال: «لا إله إلا أنت سبحانك، اللهم إني استغفرتك لذنبي، وأسألك رحمة، اللهم زدني علماً ولا تزغ قلبي بعد إذ هديتني، وهب لي من لدنك رحمة، إنك أنت الوهاب»^(٢). قال تعالى:

٩- ﴿رَبَّنَا إِنَّكَ جَامِعُ النَّاسِ لِيَوْمٍ لَا رَيْبَ فِيهِ إِنَّكَ اللَّهُ لَا يُخْلِفُ الْوَعْدَ ۗ﴾

ثم علّم الله عباده دعاء آخر يتضرعون به إلى خالقهم فيقولون: يا ربنا، إنك جامع الخلق جميعاً -مُحْسِنُهُمْ وَمُسِيئُهُمْ، مؤْمِنُهُمْ وَكَافِرُهُمْ- ليوم لا شك في وقوعه؛ لتجزى فيه الذين أساءوا بما عملوا وتجزى الذين أحسنوا بالحسنى، فأنت جلّ شأنك لم تخلق خلقك عبثاً، ولن تتركهم سُدى، وإنما خلقتهم ليعرفوك ومن ثمَّ يعبدوك ويطيعوك، فمن استجاب لك فقد تفضّلت عليه بالثواب العظيم، ومن أعرض عن طاعتك عاقبته بما يستحق.

في صحيح البخاري وغيره عن أبي هريرة قال: أتى النبي ﷺ يوماً بلحم، فقال: «إن الله يجمع يوم القيامة الأولين والآخرين في صعيدٍ واحدٍ، فيُسمِعهم الداعي، ويُنفِذهم

(١) أخرجه ابن جرير (١٢٣/٣) وابن أبي حاتم (٥٩٩/٢) (٣٢٠٥) والطبراني في «الكبير» عن أنس وأبي أمامة (١٥١/٢) (٧٦٥٨). قال الهيثمي في «مجمع الزوائد» (٣٢٤/٦): عبد الله بن يزيد ضعيف.

(٢) هذا لفظ ابن مردويه، وأخرجه أبو داود برقم (٥٠٦١) و«سنن النسائي الكبرى» برقم (١٠٧٠١) والبيهقي في «الأسماء والصفات» (١٢٧) عن عائشة رضي الله عنها وسنده ضعيف.

البصر، وتدنو الشمس منهم -فذكر حديث الشفاعة- فيأتون إبراهيم فيقولون: أنت نبي الله وخليله من الأرض، اشفع لنا إلى ربك!! -: -فذكر كذباته- ثم قال: نفسي نفسي، اذهبوا إلى موسى^(١).

جاء في الأثر: «أن من قرأ هذه الآية على شيء ضاع منه رده الله عليه، ويقول بعد قراءتها: يا جامع الناس ليوم لا ريب فيه، اجمع بيني وبين مالي -وفي رواية: اجمع عليّ ضالتي - إنك على كل شيء قدير»^(٢).

وهكذا: فقد أثنى الله على الراسخين في العلم بسبع صفات هي عنوان السعادة:

- ١- العلم، وهو الطريق الموصل إلى الله، المبيّن لأحكامه وشرائعه.
- ٢- الرسوخ في العلم، فهم يعرفون أسرار الشريعة، وهم علماء محققون مدققون عاملون.
- ٣- وقد وصفهم ربنا بالإيمان بكتابه كله، ورد المتشابه إلى المحكم.
- ٤- إنهم يسألون الله العفو والعافية مما ابتلى به الزائفون المنحرفون.
- ٥- وهم يسألون الله رحمته، وحصول كل خير، واندفاع كل شر، ويتوسلون إليه بأسمائه وصفاته.
- ٦- وهم يعترفون بمنة الله عليهم بالهداية ويطلبون منه الثبات وعدم الانحراف.
- ٧- إنهم يؤمنون ويوقنون بيوم القيامة وما فيه من حشر وحساب وجزاء، ويخافون منه سبحانه.

مَصِيرُ الْكُفَّارِ - قَدِيمًا وَحَدِيثًا - فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ

١٠- ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَنْ تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا وَأُولَئِكَ هُمْ وَقُودُ النَّارِ﴾

ثم تتحدث الآيات عن مصير الكفار الجاحدين لدين الله وكتابه، ومنهم وفد نصارى نجران الذي قديم على النبي ﷺ يناظره في شأن عيسى عليه السلام، وكذا كل مبغض لله ورسوله من اليهود والمشركين والمنافقين وأمثالهم، فتبين مصيرهم في الدنيا والآخرة، باستحقاق

(١) البخاري برقم (٣٣٦١) وعن أنس (٣٣٤٠) وأخرجه مسلم مطولا (١٩٤).

(٢) روي مرفوعا عن جعفر بن محمد الخلدي، كما في «فتح القدير» للشوكاني (٣٩٨/١) وأخرجه ابن النجار في تاريخه، وهو في «الدر» (٤٧٢١٣).

العذاب بسبب كفرهم وجحودهم، وأنه لا يغني عنهم أموالهم ولا أولادهم شيئاً، وتبين في مقابلة ذلك ما أعدّه الله تعالى لعباده المتقين.

وبعض الناس قد يعجب ويتساءل: لماذا غير المسلمين أكثر حظاً في هذه الدنيا من المسلمين، في الغالب الأعم؟ لماذا هم أكثر مالاً وأكثر متاعاً وأكثر جاهاً؟

لقد بين النبي ﷺ جواب هذا السؤال، في أن الكافر تُعَجَّلُ له طيباته في الحياة الدنيا، وتُعَجَّلُ له حسناته، فهو لا يخلُ من أن يَصْدُقَ في قوله، أو يُحْسِنَ أداء عمله، أو يُحْسِنَ معاشرته الناس، ونحو ذلك، فتُعَجَّلُ له حسناته وطيباته في الدنيا في صورة كثرة المطاعم والمشارب والمساكن والمتاع، وغير ذلك، كما في صحيح مسلم عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «الدنيا سجنُ المؤمن وجنةُ الكافر»^(١).

فالمؤمن مُبْتَلًى وممتحن ومُضَيَّقَ عليه؛ لأن نعيمه الذي ينتظره في الآخرة كبيرٌ وعظيمٌ.

والكافر مُمْتَنِعٌ مُنْعَمٌ في الدنيا؛ لأنه يأخذ حَقَّه ونصيبه كُلَّه فيها، وليس له عند الله يوم القيامة شيءٌ من النعيم. وقد أخبر الله تعالى عن الكفار أنهم وَقود النار، وأن ما أُوتوه من أموال وأولاد في الدنيا لن تُنجيهم من عذاب الله وأليم عقابه ﴿وَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَأَوْلَادُهُمْ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُعَذِّبَهُمْ بِهَا فِي الدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنْفُسُهُمْ وَهُمْ كَافِرُونَ﴾ [التوبة]

﴿يَوْمَ لَا يَنْفَعُ الظَّالِمِينَ مَعَذِرَتُهُمْ وَلَهُمُ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ﴾ [غافر].

الله جل شأنه يبيِّن في آيات من سورة الزخرف (٣٣-٣٥) أنه لولا أن يعتقد الناس أن إعطاء الله تعالى للأموال ومنحها للناس بكثرة، تكون دليلاً على محبة الله له، لولا أن يعتقد الناس ذلك لأعطى الله الكفار أكثر من ذلك، ولجعلهم أكثر مالاً وجاهاً ومتاعاً، ولجعلهم يعيشون ويتقلبون على أسيرة من ذهب، وجعل سُقُف بيوتهم وأبوابها من ذهب وفضة.

فالمعنى: لولا أن يكفر الناس جميعاً، ويكونوا على ملة واحدة -هي الكفر- لجعل الله ما سبق ذكره للكفار في الدنيا؛ لأنها جنتهم ﴿وَلَوْلَا أَنْ يَكُونَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً﴾ على دين واحد هو الكفر ﴿لَجَعَلْنَا لِمَنْ يَكْفُرُ بِالرِّمَنِ لِبُيُوتِهِمْ سُقُفًا مِّنْ فِضَّةٍ وَمَعَارِجَ﴾ هي الدرج ﴿عَلَيْهَا يَطْهَرُونَ﴾ يصعدون ﴿وَلِبُيُوتِهِمْ أَبْوَابٌ وَسُرُرٌ عَلَيْهَا يَتَكَبَّرُونَ﴾ ﴿وَزُخْرُفٌ﴾ وكل ذلك من

(١) «صحيح مسلم» برقم (٢٩٥٦).

سُتُفَّ البيوت وأبوابها وأسرتها التي يجعلها الله لهم من الذهب والفضة ﴿لَمَّا مَتَّعَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةَ عِنْدَ رَبِّكَ لِلْمُتَّقِينَ﴾ لا يشاركون فيها الكفار؛ لأن النعم في الآخرة خاصة بالمتقين، لا يشاركون غيرهم ممن أخذوا حقهم وافرًا في الدنيا، فينبغي على المسلم ألا ينخدع بما هم عليه من متاع وزُخرف كما قال تعالى: ﴿لَا يَغُرُّكَ تَقَلُّبُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي الْبِلَادِ﴾ [آل عمران: ١٦٦] أي: أن تقلبهم في الدنيا في النعيم والمتاع والمال والجاه قليل؛ لأن سنوات العمر محسوبة ومعدودة، فهو لا يقاس بما عند الله في الدار الآخرة من نعيم دائم لا يزول ولا يفنى ﴿مَتَّعَ قَلِيلٌ ثُمَّ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمَ وَبِئْسَ الْمِهَادُ﴾ [آل عمران: ١٦٧].

إن الأموال والأولاد مظنة الحماية والوقاية والنعيم والجاه، ولكنهما لا يغنيان عن العبد شيئاً يوم لقاء الله ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَنْ تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا﴾ أي: لن تنفعهم عند الله تعالى شيئاً، ولن تمنعهم من عذاب الله ﷻ يوم لقائه، لقد كان أبناؤهم في الدنيا يدفعون عنهم النكبات ويقولون ﴿نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَالًا وَأَوْلَدًا وَمَا نَحْنُ بِمُعَذِّبِينَ﴾ [سبأ: ٣٥] ويوم القيامة يظهر لهم من الله ما لم يكونوا يحسبون، فليس للأولاد والأموال قدر عند الله، والذي ينفع هو الإيمان والعمل الصالح ﴿وَمَا أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ بِالَّتِي تُقَرِّبُكُمْ عِنْدَنَا زُلْفَىٰ إِلَّا مَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا﴾ [سبأ: ٣٧]

ولو أن أحدهم افتدى نفسه بملئ الأرض ذهباً ما نفعه ذلك ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ أَنَّهُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُ مَعَهُ لَيَفْتَدُوا بِهِ مِنْ عَذَابِ يَوْمِ الْقِيَمَةِ مَا تُقِيلُ مِنْهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [٣٦] يُرِيدُونَ أَنْ يُخْرِجُوا مِنَ النَّارِ وَمَا هُمْ بِخَارِجِينَ مِنْهَا وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّقِيمٌ ﴿٣٧﴾ [المائدة].

قال سبحانه مبيناً مصير الكفار - في الماضي والحاضر والمستقبل - على مختلف أجناسهم وألوانهم يوم القيامة ﴿وَأُولَٰئِكَ هُمْ وَقُودُ النَّارِ﴾ أي: أن الكفار هم الحطب الذي تتقد به النار يوم القيامة ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا فَوْاْ أَنفُسُكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ﴾ [التحريم: ٦] فالناس من الكفار، والحجارة هم وقودها يوم القيامة، كما أن الحطب والغاز والكهرباء وقود النار في الدنيا.

جاء في الحديث عن أم الفضل: «لَيُظْهَرَنَّ الإسلام حتى يُردُّ الكفر إلى مواطنه، ولتخوضنَّ البحار بالإسلام، وليأتينَّ على الناس زمانٌ يتعلمون القرآن ويقرؤونه، ثم

يقولون: قد قرأنا وعلمنا، فمن هذا الذي هو خير منا! فهل في أولئك من خير؟! قالوا: يا رسول الله، فمن أولئك؟ قال: أولئك منكم، وأولئك هم وقود النار^(١).

وهكذا العابد والمعبود حطب جهنم ووقودها:

﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنْتُمْ لَهَا وَرَدُونَ﴾ [الأنبياء]
هذا خطابٌ للمشركين الذين يعبدون الأصنام والطواغيت، وكل ما عُبد من دون الله، وهو راضٍ بالعبادة حيث يقال لهم ذلك.

ويأتي التعقيب من الله تعالى: ﴿لَوْ كَانَتْ هَتُولَاءَ إِلَهَةً مَا وَرَدُوهَا وَكُلٌّ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ [الأنبياء] العابد والمعبود مخلد في نار جهنم، والعياذ بالله ﴿فَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ بِهَا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنْفُسُهُمْ وَهُمْ كَافِرُونَ﴾ [التوبة].

وكما أن الكفار لا تغني عنهم أموالهم ولا أولادهم من الله شيئا، كذلك ما جرى لفرعون ومن قبله، ومن بعدهم من الفراعنة وسائر الطغاة، من أرباب الأموال والجنود، لما كذبوا بآيات الله، وجحدوا ما جاءت به الرسل، فقد حل بهم عقاب الله، فأخذهم بذنوبهم:

١١- ﴿كَذَابَ آلِ فِرْعَوْنَ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَذَبُوا بِآيَاتِنَا فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ وَاللَّهُ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾

أهم أغراض هذه الآيات، هو الرد على النصارى، وكان اليهود والنصارى أعلق بأخبار فرعون، كما أن العرب كانوا أعلق بأخبار عاد وثمود.

ولذا فإن القرآن هنا ذكر النصارى بحال فرعون دون عاد وثمود، فحالهم يشبه حاله في الكفر بالله وتكذيب الرسل وارتكاب المعاصي، فشان النصارى الكفار في ذلك، شأن من سبقهم من الأمم، ممن كذبوا رسل الله وآياته التي أنزلها على جميع الأنبياء والمرسلين ﴿كَذَابَ آلِ فِرْعَوْنَ﴾ أي: حالهم كحاله.

وقد أهلك الله قوم فرعون ونجى موسى وقومه، وحالهم أيضا كحال من كان قبل

(١) من حديث أم الفضل في ابن أبي حاتم برقم (١٥٢) وإسناد رجاله ثقات إلا ابن لهيعة، فإنه صدوق، واختلط بعد احتراق كتبه، وتابعه غيره في هذا الحديث، وحسنه الألباني في «صحيح الترغيب» برقم (١٣٣) وهو في «المعجم الكبير» للطبراني برقم (١٣٠١٩).

فرعون من الأمم السابقة، من قوم نوح وقوم هود وقوم صالح وقوم شعيب وقوم لوط وغير ذلك، فماذا فعلنا بهم حين كذبوا بآياتنا وجحدوا وحدانيتنا؟ لقد أخذهم الله بذنوبهم وأهلكهم ﴿وَاللَّهُ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ هذا في الآخرة.

فَمَاذَا فِي الدُّنْيَا بِالنَّسْبَةِ لِلْكَفَّارِ؟

١٢ - ﴿قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا سِتْغَلِبُوتٌ^(١) وَتُحْشَرُونَ^(٢) إِلَىٰ جَهَنَّمَ وَيُسَّ السَّهَادُ^(٣)﴾

يقرر الله سبحانه في هذه الآية أن الكفار محرومون من النعيم الأخروي، فهم في الآخرة سيدخلون جهنم، وفي الدنيا سيهزمون ويغلبون وسيُنفقون أموالهم للصد عن سبيل الله، ثم تكون عليهم حسرة ثم يُغلبون، ومن واجب المسلمين أن يَعْمَ الإسلام ويدخل ديار الكفر، وأن ترتفع راية الإسلام عالية خفاقة في أرجاء المعمورة، والمسألة مسألة وقت بين المسلمين وغيرهم، يومٌ لك ويومٌ عليك ﴿وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ﴾ [آل عمران: ١٤٠].

ولكن وعد الله بالنصر للمسلمين لا يتخلف كما قال تعالى: ﴿وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الروم: ٤٧]

وقال سبحانه: ﴿إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ ءَامَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهُدُ^(٤)﴾ [غافر].

وقد أخبر النبي ﷺ كما جاء في حديث أبي هريرة ؓ أنه «لا تقوم الساعة حتى يقاتل المسلمون اليهود، فيقتلهم المسلمون، حتى يختبئ اليهودي من وراء الحجر والشجر، فيقول الحجر أو الشجر: يا مسلم، يا عبد الله، هذا يهودي خلفي، فتعال فاقتله، إلا الغرقد؛ فإنه من شجر اليهود»^(٢).

هذا الوعد آتٍ لا محالة، وعلى المسلمين أن يصبروا ويأخذوا بأسباب النصر، يأخذوا بأسباب القرب من الله سبحانه، وإعداد العدة للعدو؛ حتى يكونوا أهلاً لتحقيق هذا

(١) قرأ حمزة والكسائي وخلف العاشر (سُيُغْلَبُونَ وَتُحْشَرُونَ) بياء الغيبة فيهما، والمعنى: قل لهم يا محمد قولي هذا: سيغلبون... إلخ

وقرأ الباقر بناء الخطاب فيهما، أي: خاطبهم يا محمد، وقل لهم: ستغلبون.

(٢) «صحيح مسلم» برقم (٢٩٢٢) و«صحيح البخاري» برقم (٢٩٢٦).

الوعد الذي وعده الله سبحانه لعباده المؤمنين. ولن تقوم الساعة حتى يتحقق هذا بمشيئة الله سبحانه كما أخبر بذلك القرآن، وكما أخبر رسول الله ﷺ.

هذا ولما نصر الله رسوله في يوم بدر -مع قلة عدد المسلمين، وشيء لا يذكر من العدة في مواجهة الكفار- جمع الرسول ﷺ يهود المدينة في سوق بني قينقاع، وقال لهم: «يا معشر يهود، لقد علمتم ما أصاب قريشاً من الهزيمة، فأسلموا قبل أن يصيبكم ما أصاب قريشاً؛ فقد عرفتم أنني نبي مرسل تجدون ذلك في كتابكم» فماذا كان جواب القوم؟ قالوا للنبي ﷺ: يا محمد، لا يُعْرَنَكَ أنك لقيت قومًا لا علم لهم بالحرب، فأصبت منهم فرصة، ولئن قاتلتنا لتعلمنَّ أننا نحن الناس، فأنزل الله سبحانه^(١) ﴿قُلْ لِّذِيكَ كَفَرُوا﴾ أي: ممن كانوا في عهد النبي ﷺ ومن يأتي بعدهم إلى يوم القيامة ﴿سَتُغْلَبُونَ﴾ في الدنيا وتهزمون كما هزم كفار مكة يوم بدر ﴿وَتُحْشَرُونَ﴾ في الآخرة ﴿إِلَىٰ جَهَنَّمَ وَيَبْسُ السَّيْئَاتِ﴾ مهادكم، الذي مهّدموه لأنفسكم.

وعن ابن عباس ؓ أنه لما هزم رسول الله ﷺ المشركين يوم بدر، قال يهود المدينة: هذا والله النبي الذي بشر به موسى، لا تُرَدُّ له راية، فقال بعضهم لبعض: لا تعجلوا، فلما كان يوم أحد شكوا، فلم يُسلموا، وكان بينهم وبين رسول الله ﷺ عهدٌ إلى مدة، فنقضوا العهد، فذهب كعب بن الأشرف في ستين راكبا إلى مكة ليستفزههم ويستنفزههم، ويجمع كلمتهم فأجمعوا أمرهم على قتال رسول الله، فلما رجعوا إلى المدينة أنزل الله الآية^(٢). وهذا السبب يفيد أن السورة نزلت بعد غزوة أحد وهو المرجح.

والآية تُقرر أن الكفار سيُهزمون في الدنيا، والمراد بالكفار في وقت التنزيل يهود المدينة، والقاعدة عامة، وهذا أمر متحقق إلى يوم الساعة بمشيئة الله، وقد تحقق منه في وجود النبي ﷺ إجلاء بني النضير، وإجلاء بني قينقاع، وقتل بني قريظة، وفتح خيبر، ونصر الله سبحانه رسوله على اليهود وعلى المشركين، وهذه الآية من قبيل الإخبار بالغيب.

(١) ذكرته بالمعنى، وهو عن محمد بن اسحاق بن يسار، عن عاصم بن عمر بن قتادة، كما في سيرة ابن إسحاق ق(١٦٢) وهو في «سنن أبي داود» برقم (٣٠٠١) وفيه ضعف، وفي الطبري (١٢٨/٣) وعند الواحدي (٨١) والسيوطي (٤٩).

(٢) رواه الواحدي في «أسباب النزول» عن أبي صالح ص ٨١ و«زاد المسير» (٣٥٦/١).

والمعنى: قل يا محمد للذين كفروا من اليهود وغيرهم، والذين استهانوا بنصرك في يوم بدر: إنكم ستُهزمون في الدنيا، وستموتون على الكفر، وتُحشرون إلى نار جهنم؛ لتكون لكم فراشاً دائماً، وبئس الفراش فراشكم.

وفي هذا بشارة للمؤمنين بالنصر والغلبة وتحذير للكفار بالخزي والمذلة في الدنيا والآخرة، وأن هذا سنة جارية إلى قيام الساعة وإن تخللها دروس وتمحيص، ومع أن الكفار مغلوبون في الدنيا، فهم محشورون يوم القيامة إلى جهنم، وهذا هو ما مهدوه لأنفسهم، فبئس المهاد وبئس الجزاء.

مَثَلُ تَارِيخِي لانتصار المسلمين على عدوهم في كل زمان ومكان

١٣- ﴿قَدْ كَانَ لَكُمْ آيَةٌ فِي فِئَتَيْنِ (١) الْتَقَتَا فِئَةٌ (٢) تُقَاتِلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَأُخْرَى كَافِرَةٌ يَرَوْنَهُمْ (٣) مِثْلَيْهِمْ رَأَى الْغَيْنَ وَاللَّهُ يُؤَيِّدُ (٤) بَصَرَهُ مَنْ يَشَاءُ إِنَّكَ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةٌ لِّأُولِي الْأَبْصَارِ (٥)﴾

ثم ضرب الله للكفار مثلاً بيوم بدر؛ للدلالة على أن الله تعالى مظهر كلمته، وذلك حين التقى طائفتان في يوم بدر: قلة مؤمنة صابرة، قليلة العدد والعدة، تقاتل في سبيل الله، وعدد آخر كثير، ثلاثة أمثال المسلمين في العدد، والعبرة في الحروب وقتها بكثرة العدد؛ لأن السيف هو المستعمل في الحرب، أما العدة فإنها لا تُذكر، فرسان للمسلمين في مقابل سبعين فرساً للعدو، وهكذا.

ومع ذلك فإن الله سبحانه نصر المسلمين؛ ليبين للناس إلى يوم القيامة أن النصر لا يكون بالمقياس المادي فحسب، إنما هو بعون الله ومدده إذا علم الله سبحانه صدق عباده، مع ضرورة الأخذ بأسباب النصر وإعداد العدة المماثلة لقوة العدو.

(١) أبدل أبو جعفر همزة (فئتين) و(فئة) ياء وحققها غيره.

(٢) قرأ نافع وأبو جعفر ويعقوب (تَرَوْنَهُمْ) بقاء الخطاب لمناسبة الخطاب في قوله تعالى (قد كان لكم آية)... إلخ، وقرأ الباقر (يَرَوْنَهُمْ) بياء الغيب على الالتفات.

(٣) أبدل ورش وابن جمار همزة (يؤيد) واوا وحققها الباقر.

(٤) أمال أبو عمرو ودور الكسائي وابن ذكوان يخلف عنه ألف (الأبصار) وقللها ورش وفتحها الباقر.

ومن عوامل النصر أنه جل شأنه يُكثِّر عدد المسلمين في نظر أعدائهم؛ كي يَرْهَبُوهم ويخافُوهم، ويقلِّل عدد الكفار في نظر المسلمين؛ حتى يُقدِّموا عليهم ﴿قَدْ كَانَ لَكُمْ﴾ أيها الناس ﴿آيَةٌ﴾ علامة دالة على أن الله تعالى مُعزِّز دينه، وناصرُ رسوله، ومُعِلُّ كلمته إلى يوم الساعة؛ فقد رأيتُم كيف نصر الله المؤمنين مع قتلهم وكيف هزم الكافرين مع كثرتهم، وذلك حين التقاء فئتين: إحداهما قليلة العدد والعدة، والأخرى كثيرة العدد والعدة ﴿يَرَوْنَهُمْ مِّثْلَيْهِمْ رَأَى الْإِنْسَانُ﴾ بالعين المجردة، وهذا من عوامل النصر حين يرى الكفار المؤمنين ضِعْفِيهِمْ في العدد، فيدبُّ الرُّعب في قلوبهم.

أما الفئة الأولى المسلمة: فقد كان عدد المسلمين يوم بدر ثلاث مئة وثلاثة عشر رجلاً: سبعة وسبعون من المهاجرين، والبقية من الأنصار. وكانت راية المهاجرين بيد علي بن أبي طالب ﷺ، وراية الأنصار بيد سعد بن عُبادة، وكان معهم سبعون بعيراً وفرسان، ومعهم ستة أدرع وثمانية سيوف، ومع ذلك لم يهابوا لقاء العدو.

وقد مدح الله هذه القِلة بأنها تُقاتل في سبيل الله؛ لإعلاء كلمته، وليست لهم غاية دنيوية.

وأما الفئة الأخرى الكافرة: فكانوا تسع مئة وخمسين رجلاً من المقاتلين، على رأسهم عتبة بن ربيعة، وكان فيهم مئة فرس، ومع ذلك فقد هزمهم الله على كثرة عددهم وعدَّتتهم.

وقد ذمَّ الله هذه الفئة فوصفها بالكفر إيداناً بالرعب في قلوبها.

وكانت غزوة بدر أول المَشَاهِد التي شهدها رسول الله ﷺ.

وقرأ نافع وغيره ﴿يَرَوْنَهُمْ مِّثْلَيْهِمْ﴾ بالتاء، أي ترون المقاتلين من أهل مكة ضِعْفِي عدد المسلمين يا معشر اليهود، وهو تقديرٌ تقريبيٌّ وليس حقيقياً؛ لأن المشركين كانوا ثلاثة أضعاف المسلمين.

وذلك أن جماعة من اليهود كانوا قد حضروا قتال بدر لينظروا على من تكون الدائرة ولمن النصر، فرأوا المشركين مثلي عدد المسلمين، ومع ذلك فقد رأوا النصر للمسلمين، فكان هذا النصر معجزةً خارقة لهم. فالمخاطب في الآية على هذا هم اليهود.

وعلى قراءة (ترونهم) بالتاء بمعنى: أن المسلمين يرون المشركين مثليهم كما هم على الحقيقة، أو بمعنى أن الله تعالى أظهر للمسلمين أن عدد المشركين أقل من الواقع؛ لإزالة

الخوف من قلوب المسلمين، وهذا هو الأصح، فالضمير على هذا للمشركين والرؤية بصرية. وقد رأى الكفار المسلمين يوم بدر عند القتال والتلاحم مثل عددهم مرتين، فوق العرب في قلوبهم.

ولا تناقض بين هذا وبين قوله تعالى في سورة الأنفال: ﴿وَإِذْ يُرِيكُمُوهُمْ إِذِ اتَّفَقْتُمْ فِيْ أَعْيُنِكُمْ قَلِيْلًا وَيُقَلِّلُكُمْ فِيْ أَعْيُنِهِمْ لِيَقْضِيَ اللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُوْلًا﴾ [الأنفال: ٤٤]؛ لأن المسلمين قُلِّلُوا أَوَّلًا في أعين المشركين حتى اجترؤوا عليهم، فلما اجتمعوا - أي المشركين - كَثُرُوا في أعينهم - أي المسلمين - حتى غلبوا - غلب المسلمون المشركين - كما حدث هذا منامًا للنبي ﷺ ﴿وَإِذْ يُرِيكُمُ اللَّهُ فِي مَنَامِكَ قَلِيْلًا وَلَوْ أَرَنَاهُمْ كَثِيْرًا لَّفِشَلَتْهُ وَلَنفَزَعْتَهُ فِي الْأَمْرِ وَلَكِنَّ اللَّهَ سَكَنَ﴾ [الأنفال: ٤٣] فكان التكثير والتقليل في حالتين مختلفتين.

أو لأن الله تعالى قَلَّلَ المشركين في أعين المسلمين حتى اجترؤوا عليهم، فصبروا على قتالهم. قال ابن مسعود: نظرنا إلى المشركين، فرأيناهم يضعفون علينا، ثم نظرنا إليهم، فما رأيناهم يزيدون علينا رجلا واحدا.

وعنه ﷺ قال: لقد قُلِّلُوا في أعيننا، حتى قُلْتُ لرجلٍ إلى جانبي: تُراهم سبعين؟ قال: أراهم مائة، قال: فأسرنا رجلا منهم، فقلنا: كم كنتم؟ قال: ألفا^(١).

فعندما عاين كلٌّ من الفريقين الآخر رأى المسلمون المشركين مثليهم، ليطلبوا من الله الإعانة عليهم.

ورأى المشركون المؤمنين مثليهم ليحصل لهم الرعب والخوف.

ثم لما التقى الفريقان قَلَّلَ الله هؤلاء في أعين هؤلاء، وهؤلاء في أعين هؤلاء؛ لِيَقْدِمَ كلٌّ منهما على الآخر، وتظهر كلمة الإيمان على كلمة الكفر، فيُعْزُّ المؤمنون ويُذَلُّ الكافرون، وتحصل بهذا العبرة والعظة.

وعلى المسلمين أن يطمئنوا إلى نصر الله سبحانه بعد الأخذ في الأسباب المادية والمعنوية.

(١) الطبري (٢٣٦/٦) و«زاد المسير» لابن الجوزي (٣٥٨/١).

فالله تعالى هو القادرُ على نصر الفئة القليلة المؤمنة الصابرة على غيرها من الفئات الأخرى .
فلا يغترُّ القويُّ بقوته ؛ فإن قوانين الله تخرق الأمور المعتادة حتى يعتبر المعترفون
ويتعظ المتعظون .

أُصُولُ الشَّهَوَاتِ الْبَشَرِيَّةِ سِتَّةٌ

١٤- ﴿زَيْنَ النَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنْطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ
وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالْأَنْعَامِ وَالْحَرْثُ ذَلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا^(١) وَاللَّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الْمَبَاقِ﴾

لما كانت الأموال والأولاد لا تغني الكافر شيئاً يوم لقاء الله، فقد ذكر سبحانه هنا
أصول الشهوات البشرية التي لا تختلف باختلاف الأمم والعصور والأقطار، وهي أعظم
الشهوات، وغيرها تبع لها، والناس بالنسبة لهذه الشهوات على قسمين:

قسم جعلوها أكبر همِّهم، فانساقوا خلفها، وأخذوا يتمتعون بها كما تتمتع الأنعام، ولا
يبالون من أي وجه حصلوها، وفيهم أنفقوها وصرفوها، فكانت زادهم إلى الشقاء والعذاب .

وقسم جعلوها وسيلة يتزودون منها لآخرتهم، ويتمتعون بها لتعينهم على طاعة الله
ومرضاته، صحبوها بأبدانهم وفارقوها بقلوبهم، فجعلوها معبراً للدار الآخرة، ومتجراً
لزيادة رصيدهم وثوابهم، وهي ستة أنواع من الملذات في مجملها .

وهي: النساء، والأولاد، والأموال، والخيول المعلَّمة، والأنعام، والأرض .

فقد بيَّن الله ﷻ أنواع الشهوات والملذات والمتاع في هذه الدنيا، وبيَّن أن ما في هذه
الحياة من شهوات ومناصب تكون غالباً هي السبب في كفر الكفار؛ حفاظاً على
مناصبهم، وحفاظاً على جاههم وسلطانهم، وحفاظاً على ما هم فيه من نعيم ومتاع . وهذا
المتاع في حدِّ ذاته إذا كان من الحلال الطيب، ويُستخدم فيما أحلَّ الله - فإن الله سبحانه
لا يحرمه على المسلمين ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ﴾
[الأعراف: ٣٢] .

وهذا المتاع محصورٌ في ستة أشياء ذكرها الله سبحانه في الآية ﴿زَيْنَ النَّاسِ حُبُّ

(١) قرأ بإمالة (الدنيا) حمزة والكسائي وخلف، وقلها أبو عمرو وورش بخلفه .

الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ ﴿٧﴾ والمزَيْنَ لهذه الشهوات الحلال هو الله سبحانه باعتبار أصل الخلق، وليس باعتبار الدعوة إليها، كما قال سبحانه: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الْأَرْضِ زِينَةً لِّهَا﴾ [الكهف: ٧] أما المزَيْنَ للشهوات المحرّمة بتحسينها والدعوة إليها فهو الشيطان، وقد أمر الله العبد ألا يفتتن بالدنيا وشهواتها.

وأولها: حبُّ النساء: وقَدِّم النساء؛ لأن فِتْنَتَهُنَّ أشدُّ، والتلذذ بهن أكثر، والاستئناس بهن أتم، وهو للابتلاء، وفي حديث أسامة أن النبي ﷺ قال: «ما تركت بعدي فتنة أضرَّ على الرجال من النساء»^(١).

فأما إذا كان القصد بهن الإنجاب والإعفاف فهو أمر مندوبٌ إليه.

وفي الحديث عن عبد الله بن عمرو ؓ أن رسول الله ﷺ قال: «الدنيا متاعٌ، وخير متاعها المرأة الصالحة؛ إن نظر إليها سرته وإن أمرها أطاعته، وإن غاب عنها حفظته في نفسها وماله»^(٢).

وعن أنس ؓ أن رسول الله ﷺ قال: «حُبُّ إِلَيَّ من دنياكم: النساء، والطيب، وجُعِلَتْ قُرَّةُ عَيْنِي في الصلاة»^(٣).

واكتفى القرآن بذكر محبة الرجل للمرأة؛ لأن ميل النساء إلى الرجال أضعف في الطبع، والمرأة تُحب أن تكون مطلوبة لا طالبة، ولو كانت محبتها للرجل أشد، ويكتفى بذكر أحدهما عن الآخر. والرجل يأتي شهوته - في زوجته - ويؤجر عليها.

وثانيها: حبُّ البنين، ثمرات القلوب، وقرّة العيون، وهم الثمرة من الزواج، وهم

(١) حديث صحيح أخرجه البخاري في كتاب النكاح، باب شؤم المرأة برقم (٥٠٩٦) ومسلم برقم (٢٧٤٠) وهو عند ابن ماجه (٣٩٩٨) والترمذي (٢٧٨٠) و«المسند» (٢١٧٤٦) وابن حبان (٥٩٦٧) و«سنن النسائي الكبرى» (٩١٠، ٢٢٥٩).

(٢) «صحيح مسلم» برقم (١٤٦٧) و«سنن النسائي» (٦٩/٦) و«سنن ابن ماجه» برقم (١٨٥٥) وابن أبي حاتم (٣٢٧٧) وكلهم عن عبد الله بن عمرو.

(٣) «صحيح سنن النسائي» (٣٦٨٠) والحاكم (١٦٠/٢) وابن أبي حاتم (٣٦٥٢)، وهو في المسند (١٢٢٩٣، ١٢٢٩٤) بإسناد حسن، وأخرجه أبو يعلى (٣٤٨٢) والطبراني في الأوسط (٥١٩٩) وعبد الرزاق (٧٩٣٩) والضياء في المختارة (١٧٣٧).

امتداد للآباء، وبقاء للنوع الإنساني، وسند الآباء عند العجز والحاجة.

وذكر القرآن الذكر (البنين) لأنه يقوم مقام أبيه ويعضده، بخلاف الأنثى، وهو أحب غالبًا، وقدمهم على الأموال؛ لأن الأولاد أولى عند الإنسان من ماله، وحب الأبناء طبيعة في النفس البشرية، والآباء يخافون على الأبناء من اليثم والفقر والمرض؛ ولذا فقد وصفهم الله تعالى بأنهم فتنة.

وثالثها: حب الأموال: فقد ثلث سبحانه من الشهوات بالأموال الكثيرة، وقد عبّر القرآن عنها بالذهب والفضة، وورد تحديد القنطار باثني عشر ألف أوقية.

وحب المال تارة يكون مذمومًا إذا صاحبه الفخر والخيلاء والتكبر على الضعفاء، وتارة يكون محمودًا إذا صاحبه النفقة، وصلة الرحم، والقربات، ووجوه البر والطاعات، وقد وصف الله الإنسان بحبه الشديد للمال، فلو كان له واديان من ذهب لتمنى أن يكون له ثالثًا.

ورابعها: حب الخيل المسؤمة أي: المعلمة بالغرّة والتّحجيل، أو المعلمة للسباق والغزو في سبيل الله، أو الراعية، والسائمة، أو الحسان الجمال، للزينة والترفيه.

ولم تزل الخيل محبوبة ومرغوبة للخاصة والعامة، مهما جدّ من المراكب المتنوعة، ويقاس عليها مثلها، وأنواع المواصلات الحديثة من طائرات وسيارات وغير ذلك على مختلف أنواعها.

وللخيل ثلاث حالات: فتارة تكون أجراً ومثوبة لصاحبها، إذا كانت معدّة للجهاد في سبيل الله، وتارة تكون وزراً على صاحبها إذا كانت فخرًا ومضادة للإسلام، وتارة تكون سترًا لصاحبها إذا كانت للنسل والتعفف، وأدّى حق الله تعالى فيها.

وخامسها: حب الأنعام من الإبل والبقر والغنم، حيث تؤكل لحومها وتُشرب ألبانها، ويُستفَع بصوفها وأوبارها.

وقد فصلت سورة الأنعام أنواعها الثمانية: الجمل والناقة، والثور والبقرة، والكبش والنعجة، والتمسك والمعز، وهي المشار إليها في قوله تعالى: ﴿ثَمَنِيَّةٌ أَزْوَاجٌ﴾ [الأنعام: ١٤٣] وقوله: ﴿وَأَنْزَلَ لَكُمْ مِنَ الْأَنْعَامِ ثَمَنِيَّةً أَزْوَاجٌ﴾ [الزمر: ٦].

وسادسها: حب الحرث، والمراد به في الآية حب الأرض للزراعة والثّمار والغرس ونحو

ذلك . وما من إنسان يغرس غرسًا أو يزرع زرعًا فيأكل منه إنسان أو طير أو بهيمة إلا كان له به أجر .
وقد خلق الله هذه الأرض لنعمرها وننتفع بها ، ولكن الدماء تسيل هنا وهناك من أجل الأرض .
وما الأمم التي تتقاتل هنا وهناك إلا من أجل الأرض ، والمسلم يقاتل لإعلاء كلمة الله .

قال سبحانه في وصف شهوات الدنيا : ﴿ذَلِكَ مَتَعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ متمثلاً في هذه الأمور الستة ؛ فاستعملوها فيما أحله الله ، ولا تبددوها في غير مرضاته ، ثم رغب سبحانه فيما عند الله ليزهد العبد فيها ، وهي فانية زائلة فقال : ﴿وَاللَّهُ عِنْدُ حُسْنِ الْمَآبِ﴾ أي : عنده حسن المصير ، وحسن المرجع . والأموال في الدنيا وسيلة لتحقيق المتاع ، أما الآخرة فلا تحتاج إلى وسائل لبلوغ الغايات ، وغاية النعيم يتحقق بدخول الجنة ﴿فَمَنْ زُحِرَ عَنِ النَّكَارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ﴾ [آل عمران : ١٨٥] .

وفي الآية تسلية للفقراء الذين لا قدرة لهم على كثير من هذه الشهوات ، وتحذير لمن يغترون بنعيم الدنيا ، وترهيد لأهل العقول النيرة .

أُصُولُ الْمَتَاعِ الْآخِرِيِّ ثَلَاثَةٌ

١٥- ﴿قُلْ أُوْنِيْكُمْ^(١) بِخَيْرٍ مِّنْ ذٰلِكُمْ لِلَّذِيْنَ اتَّقَوْا عِنْدَ رَبِّهِمْ جَنَّتْ تَجْرٰى مِنْ تَحْتِهَا اَنْهٰرٌ خٰلِدِيْنَ فِيْهَا وَاَزَوْجٌ مُّطَهَّرَةٌ وَرِضْوَانٌ^(٢) مِّنْ اِلٰهِ وَاللّٰهُ بِصِيْرٍ بِالْعِبَادِ ﴿١٥﴾﴾

ثم ربط الله سبحانه بين هذه الشهوات التي لا يحرمها الإسلام في حد ذاتها ، وإنما يحرم الإسراف والطغيان والبطر والأشر بسببها ، وأن تؤدي بالإنسان إلى ما هو غير محمود في الإسلام ، فقال سبحانه : ﴿قُلْ أُوْنِيْكُمْ بِخَيْرٍ مِّنْ ذٰلِكُمْ﴾ إنها دار القرار ، ومصير المتقين الأبرار ، إنها جنات عاليات ، ذات منازل وغرف عالية ، وأشجار مثمرة متنوعة ، وأنهار جارية ، وأزواج مطهرة ، وخلود دائم في هذا النعيم ، ورضوان الله أكبر من هذا

(١) قرأ أبو جعفر بتسهيل الهمزة الثانية من (أُوْنِيْكُمْ) مع الإدخال ، وقرأ قالون وأبو عمرو بالتسهيل مع الإدخال وعدمه ، وقرأ ورش وابن كثير ورويس بالتسهيل مع عدم الإدخال ، وقرأ هشام بالتحقيق مع الإدخال وعدمه ، وقرأ الباقر بالتحقيق مع عدم الإدخال ، ومعنى الإدخال : إدخال ألف بين الهمزتين ، أما التسهيل فهو كتسهيل لفظ (ءاعجمي) عند حفص .

(٢) قرأ شعبة بضم الراء من (ورضوان) والباقر بكسرها ، وهما لغتان .

النعيم، فاختر لنفسك أيها العاقل؟ هل أدلكم على ما هو أفضل من نعيم الدنيا ومتاعها، وفيه عوضٌ كامل عما فيها من شهوات وملذّات وزيادة؟ إنه يتمثل في ثلاثة أشياء:

أولها: أن في الجنة بساتين تجري من تحت قُصورها وأشجارها الأنهار، وفيها ما لا عينٌ رأت ولا أذنٌ سمعت ولا خطرٌ على قلب بشر، إنه نعيم الآخرة الدائم الذي لا يتقطع ولا يزول، فلئن أُعطي الناس في الدنيا هذه الشهوات، فتمتعوا بالخيال المسوّمة، والأنعام والحرث، والأموال، فإن الله تعالى يُعطي المؤمنين في الآخرة مقابل ذلك جناتٍ تجري من خلالها وفي جوانبها أنهار العسل والخمر واللبن والماء ﴿جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾ وهو نعيمٌ لا يزول ولا يفنى ولا يتغيّر، وهو نعيمٌ حسيٌّ ماديٌّ في الجنة، وهم في هذا النعيم خالدون مخلدون.

وثانيها: الأزواج المطهّرة من الدنس الحسيّ والمعنويّ، فلئن أُعطي الرجال في الدنيا النساء وهنَّ أشدّ شهوةً وفتنهً لهم، فإنهم يُعطون في الآخرة الحور العين في مقابلة نساء الدنيا ﴿وَأَزْوَاجٌ مُطَهَّرَةٌ﴾ أي: مطهرة من الحيض والنفاس والخبث والأذى والبول والغائط، ومن الدنس والرجس وسوء الخلق ومن كل قدر وعيب ظاهر وباطن، وغير ذلك، يفضّلن أزواج الدنيا بمراحل عدّة.

ثالثها: وهناك نعيمٌ روحيٌّ معنويٌّ فوق نعيم الجنة، وأكبر منه، هو رضوان الله سبحانه، كما قال جل شأنه: ﴿وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللَّهِ﴾ أكبر من الجنة وما فيها، مما لا عينٌ رأت، ولا أذنٌ سمعت، ولا خطر على قلب بشر.

في الصّحيحين عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «إن الله ﷻ يقول لأهل الجنة: يا أهل الجنة!!، فيقولون: لبيك ربنا وسعديك والخير كله في يديك!! فيقول: هل رضيتم؟ فيقولون: وما لنا لا نرضى وقد أعطيتنا ما لم تُعطِ أحدًا من خلقك؟! فيقول: أعطيتكم أفضل من ذلك، فيقولون: وأي شيء أفضل من ذلك؟ فيقول: أحلُّ عليكم رضواني، فلا أسخط عليكم بعده أبدًا»^(١).

وقيل: إن العبد إذا علم أن الله قد رضي عنه يكون ذلك أتم لسُروِّه وأعظمُ لفرحه،

(١) البخاري (٦٥٤٩، ٧٥١٨) ومسلم برقم (٢٨٢٩).

والله مطلع على أسرار خلقه، عالمٌ بأحوالهم فيجازيهم عليها.

وَصَفُ الْمُتَّقِينَ بِسِتَّةِ أَوْصَافٍ

١٦، ١٧ - ﴿الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا إِنَّنَا أَعْمَانَا فَاعْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ﴾

الْمُحْسِنِينَ وَالْمُتَّقِينَ وَالْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَالْمُسْتَفْزِينَ بِالْأَسْحَارِ ﴿١٧﴾

وبعد أن ذكر الله الجنة ونعيمها، ذكر في هاتين الآيتين المستحقون لهذا النعيم، وهم الذين اتقوا ربهم بفعل الأوامر واجتناب النواهي، فقد بين سبحانه صفات المتقين الذين أعد الله لهم هذا النعيم الآخروي، فبين أنهم المؤمنون الصادقون في إيمانهم ووصفهم بأوصاف ستة، فهم المؤمنون المستحقون لمغفرة الله سبحانه، الصابرون، الصادقون، القانتون، المنفقون، المستغفرون بالأسحار. وهذه الأوصاف هي:

أولاً: الإيمان، وهو أساس قبول الأعمال، وأساس العقيدة التي هي أصل دعائم هذا الدين وأصل كل شريعة من عند الله تعالى.

ثانياً: الصبر، وفيه ترفع على الألم والشكوى، وجهاد على الطاعة وترك الشهوات، وقبول لقضاء الله وقدره.

ثالثاً: الصدق وفيه اعتزاز بالحق، وترفع عن الضعف، وافتاء للضرر، وجلب للنفع.

رابعاً: القنوت، وفيه أداء لحق الله، وتحقيق لغاية الخلق، وشكر للنعم.

خامساً: الإنفاق، وفيه تحرر من عبودية المال، وأداء لحق الله وتحقيق للتكافل بين الناس.

سادساً: الاستغفار بالأسحار: وفيه اتصال بالله تعالى، وقرب منه، في وقت يصفو فيه الجو، وتلتقي روح الإنسان مع الكون كله في اتجاه الباري سبحانه.

في الصحيحين وغيرهما عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «ينزل ربنا إلى سماء الدنيا في كل ليلة حين يبقى ثلث الليل الأخير، فيقول: هل من سائل فأعطيه؟ هل من داع فأستجيب له؟ هل من مستغفر فأغفر له؟»^(١).

(١) «صحيح البخاري» برقم (١١٤٥، ٦٣٢١، ٧٤٩٤) و«صحيح مسلم» برقم (٧٥٨) وأبو داود (١٣١٥) والترمذي (٤٣٩٨).

وكان ابن عمر يُصلي من الليل، ثم يقول: يا نافع، هل جاء السحر؟ فإذا قال: نعم، أقبل على الدعاء والاستغفار حتى يُصبح^(١).

وهؤلاء المتقون يتوسلون إلى الله تعالى بتوفيقهم للإيمان؛ أن يغفر لهم ذنوبهم، ويقىهم شر عذاب النار، وهم إلى جوار ذلك يرون أنفسهم مذنبين مقصرين، فيستغفرون ربهم، ويتحرّون أوقات الإجابة، ومن أفضلها وقت السحر.

وهكذا: فقد ذكر الله تعالى في هذه الآيات، حال الناس في الدنيا، وبيّن أنها متاع زائل، ثم وصف الجنة وما فيها من نعيم، وبيّن فضل الآخرة على الدنيا، ثم وصف أهل الجنة وهم المتقون، وذكر خصالهم، حتى يزن العبد نفسه، هل هو من أهل الجنة أم لا؟

الْأَصْلُ الْأَوَّلُ فِي جَمِيعِ الشَّرَائِعِ السَّمَاوِيَّةِ هُوَ التَّوْحِيدُ

١٨ - ﴿شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُو الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾

من الآية الثامنة عشرة إلى الآية الخامسة والعشرين من سورة آل عمران، تتحدث هذه الآيات عن الأصل الأول الذي أرسل الله من أجله الرسل، وأنزل من أجله الكتب وهو توحيد الله ﷻ وإفراده بالعبادة. ولا يكمل إيمان المرء إلا إذا حكّم الناسُ كتابَ الله فيما شجر بينهم من خلاف، في جميع شؤون الحياة العامة والخاصة.

وفي هذه الآية تقرير من الله تعالى للتوحيد بأعظم الطرق الموجبة له، وهي شهادته تعالى، وشهادة خواص الخلق، وهم الملائكة وأهل العلم:

جاء في سبب النزول أن النبي ﷺ لما استقرّ به المقام في المدينة أقبل عليه حبران من أحبار اليهود، فلما رأيا المدينة، ولم يكونا يعرفانها، - قالوا: ما أشبه هذه المدينة بمدينة النبي الخاتم! فقد عرفاها من وصفها في التوراة، فيها نخيل وجبال، وتقع بين حرّتين، فعرفا أن هذه مدينة النبي الخاتم. فلما دخلا على النبي ﷺ عرفاه بالوصف، فقالا له: أنت محمد؟ قال: نعم، أنت أحمد؟ قال: نعم، قالوا: إنا نسألك عن شيء، فإن أجبتنا

(١) أخرجه ابن جرير (٢٧٤/٥) وابن المنذر (٢٩٧) وابن أبي حاتم (٣٣٠٢).

عليه آمنا بك وصدقتك واتبعناك، ما أعظم شهادة في كتاب الله؟ فأنزل الله سبحانه: ﴿شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُو الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ (١) فأسلم الحبران (١).

وفي الآية دليل على فضل العلم والعلماء.

وقيل: إن الآية نزلت في الرد على وفد نصارى نجران وما ادَّعَوْه في شأن عيسى.

وقد سُئِلَ أعرابي عن وجود الله سبحانه فقال: البعرة تدل على البعير، وآثار الأقدام تدل على المسير؛ فسماء ذات أبراج، وأرض ذات فجاج، كيف لا تدلان على اللطيف الخبير؟!

والمعنى: شهد الله سبحانه أنه المتفرد بالإلهية، وقد أخبر عباده بذلك، وأعلمهم في آياته وعلى السنة رسله، وعن طريق التأمل في هذا الكون، وكلها أدلة قاطعة تشهد بوحدانيته تعالى، وأنه لا معبود بحق سواه، والكل عبيده، ومفتقر إليه.

وقد شهد الله سبحانه لنفسه بالتوحيد، بما أقامة من الحجج والبراهين القاطعة على توحيده سبحانه في الأنفس والآفاق.

وتلته شهادة الملائكة، وقد عرفناها عن طريق إخبار الله تعالى بواسطة رسله.

وثالثها شهادة أولي العلم، فهم المرجع في الأمور الدينية، وعلى رأسها أجل العلوم وأعظمها وهو التوحيد.

وشهادتهم تتمثل في الاستجابة والطاعة، إذ لا ينبغي ولا يليق أن يشهد أحد على الله سبحانه بالتوحيد، فهو الذي شهد لنفسه؛ لأنه جل شأنه هو الأول فلا أحد قبله، وهو الآخر فلا شيء بعده، وهو الخالق سبحانه، وهو الذي يدبر أمور خلقه، وكفى بالله شهيدا ﴿لَكِنَّ اللَّهَ يَشْهَدُ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ أَنْزَلْنَاهُ يُعَلِّمُهُ وَالْمَلَائِكَةُ يَشْهَدُونَ وَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا﴾ (النساء: ١٣٦).

وشهادة الله على نفسه بأنه واحد أحد، فرد صمد، لا والد له ولا ولد، أعظم وأكبر شهادة في كتاب الله سبحانه، بمعنى أن الله سبحانه قد أعلم ملائكته وبين لهم حقيقة التوحيد، وأنه جل شأنه، واحد أحد، فرد صمد، وأن الملائكة جميعاً قد أقرروا واعترفوا

(١) النيسابوري (٨٢) و«تفسير القرطبي» (٤١/٤) و«البحر المحيط» (٤٠١/٢) بالمعنى.

بتوحيد الله سبحانه، ثم بلغوا ذلك إلى رُسل الله، وأن رُسل الله أقروا واعترفوا بذلك، وبلغوا جميع الأمم بهذا، فحدثت الشهادة من الجميع.

وقام بهذا الشرف العظيم من البشر أولو العلم، وفي مقدمتهم الأنبياء والرسل والدعاة إلى الله سبحانه، والراسخون في العلم، وفي هذا فضلٌ وتشريفٌ لهم بأنهم حملوا لواء دعوة الرسل ليلبغوها إلى الناس كافة.

ولما سمع الأعمش هذه الآية قال: وأنا أشهد بما شهد الله به، وأستودع الله هذه الشهادة، ولي عند الله وديعة ﴿إِنَّ الَّذِينَ عِنْدَ اللَّهِ لَلْإِسْلَامُ﴾ قالها مراراً، فلما سُئل عنها قال: حدثني أبو وائل عن عبد الله أنه يُجاء يوم القيامة بصاحبها، فيقول الله ﷻ: إن لعبدي هذا عندي عهداً، وأنا أحقُّ من وفّي بالعهد، أَدْخِلُوا عِبْدِي الْجَنَّةَ^(١).

وفي هذه الآية ردٌّ على وفد نصارى نجران، وقد نزل فيهم أربع وثمانون آية، من أول السورة ردَّ الله فيها على محاورتهم ومناظرتهم للنبي ﷺ وقولهم: إن عيسى ابن الله، وأنه هو الله أو أنه ثالث ثلاثة، فبيّنت الآية أن الله جل شأنه واحدٌ أحدٌ، فرد صمد، لا والد له ولا ولد.

وَرَدَّ أَنْ الْكُفَّةَ كَانَ حَوْلَهَا ثَلَاثَ مِئَةٍ وَسِتُونَ صِنْمًا، فلما نزلت هذه الآية ﴿شَهِدَ اللَّهُ﴾ خَرَّتْ هَذِهِ الْأَصْنَامُ سُجَّدًا لِلَّهِ سُبْحَانَهُ، وفي الآية دليل على فضل العلم وشرفه، ومن ذلك:

- ١- أن الله تعالى خصَّهم بالشهادة على أعظم مشهود.
- ٢- وأن الله تعالى قرن شهادتهم بشهادته وشهادة ملائكته.
- ٣- وأن الله تعالى أضافهم إلى العلم، لأنهم القائمون به، المتصفون بصفته.
- ٤- وأن الله تعالى جعلهم شهداء وحجة على الناس، وألزم الناس العمل بالتوحيد، فكل من عمل به نالهم من أجره.

(١) «المعجم الكبير» للطبراني (٢٤٥/١٠) (١٠٤٥٣) وقال الهيثمي في «مجمع الزوائد» (٣٢٦/٦): فيه عمر بن المختار وهو ضعيف، ورواه بن عدي في الكامل (١٦٩٣/٥) من طريق عمار بن عمر المختار وأخرجه أيضاً البيهقي في «الشعب» (٢٤١٤) والخطيب في تاريخه (١٩٣/٧) قال ابن الجوزي في العلل المتناهية (١٠٣/١): هذا حديث لا يصح عن رسول الله صلى الله عليه وسلم تفرد به عمر بن المختار.

٥- وفيها بيان أن إشهاد الله تعالى لأولي العلم يتضمن تزكيتهم وتعديلهم وأمانتهم.

هذا: ولما قرر الله توحيده قرر عدله في قوله ﴿قَالِمًا بِالْقِسْطِ﴾ ولم يزل متصفاً بالقسط في أفعاله وتدبيره شؤون عباده، فهو على صراط مستقيم، فيما أمر ونهى، وفيما خلق وقدر. ثم أعاد سبحانه تقرير التوحيد فقال ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ وهذا التوحيد قد دلت عليه الأدلة النقلية والعقلية، فكل ما في الكتاب والسنة من الأمر بالتوحيد ونبذ الشرك وأهله؛ أدلة نقلية.

ومن الأدلة العقلية: اعتراف المشركين بربوبية الله تعالى، وأنه الخالق الرازق المدبر، وأنه سبحانه الذي يدفع النقم ويجلب النعم، وهو الذي ينفع ويضر، وإليه يجأر الخلق في الشدائد، وغير ذلك، ومن هنا وجب إفراده تعالى بالعبادة دون سواه.

الأصل الثاني هو الإسلام بمغناه العام

١٩- ﴿إِنَّ الَّذِينَ عِنْدَ اللَّهِ أَلْسِنَةً وَمَا اخْتَلَفَ الَّذِينَ أُوتُوا أَلْكِتَابَ إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ وَمَنْ يَكْفُرْ بِآيَاتِ اللَّهِ فَإِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾ (١٩)

ومما يجب الإلمام به اعتقاد أن الله تعالى واحد أحد، وأنه القوَام على البشر وعلى الكون كله، وأنه هو الذي يجب الاستسلام له والتوجه إليه وحده بالعبادة، وهذا منهج كل الرسل، فإسلامهم واحد، وقد بيّن جل شأنه في هذه الآية أن الدين الذي ارتضاه الله سبحانه لعباده - عقيدة وشريعة - هو الإسلام ﴿إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ﴾ ﴿وَرَضِيتُ لَكُمْ الْإِسْلَامَ دِينًا﴾ [المائدة: ٣]، وهو التسليم بعبادة الله وطاعته كما دعت إليها الرسل، وحثت عليها الكتب، وهو الدين الذي لا يقبل الله من أحد سواه، فهو دين يتضمن الإخلاص لله في الحب والخوف والرجاء والإنابة والدعاء، ومتابعة الرسول ﷺ.

ولما ادّعى اليهود أن اليهودية أفضل الشرائع، وادّعى النصارى أن النصرانية هي الأفضل، ردّ الله تعالى عليهم بأن الدين عند الله هو الإسلام.

(١) فتح الهمزة من (إن) الكسائي وكسرهما الباقون.

والإسلام يعني التوحيد، وهو إسلام الوجه لله سبحانه، بمعنى الاستسلام لله جل شأنه والانقياد له بالطاعة، وامتنال الأوامر واجتناب النواهي، ولو لم يدرك العقل العلة أو السبب، فهو مُذْعَنٌ ومُصَدِّقٌ بأن الله واحدٌ أحدٌ، متَّبِعٌ له في أوامره ومجتنبٌ لنواهيه.

ومن لقي الله تعالى بعد بعثة محمد ﷺ بدين غير الإسلام فلن يُقبل منه ﴿وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ (آل عمران).

والإسلام له معنى عامٌ، ومعنى خاصٌ.

فالمعنى العام للإسلام: هو التوحيد وإفراد الله تعالى بالعبادة، وجميع الشرائع التي سبقت محمداً ﷺ لم تكن شريعتها عامة، فأكبر هذه الشرائع هي شريعة موسى ﷺ، وهي لم تدعُ غيرَ فرعون وبني إسرائيل، وكذلك دعوة عيسى ﷺ، فقد دعا الناس إليها القديس بولس بعد عيسى ﷺ بثلاثين عاماً، وكل رسول أرسله الله إلى أمة من الأمم كان مسلماً، وأن الأمة كانت أمة مسلمة، فالرسول ﷺ -أي رسول- جاء من عند الله بالتوحيد، وأمرته أمرت بالتوحيد، وهو الأصل الأول، فالأمرُ كُلُّها يطلق عليها الإسلام، وكل رسول أرسله الله تعالى إلى قومه ليقول لهم: ﴿اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ﴾ قالها نوح وهود وصالح وشعيب ولوط وبقية رسل الله لأقوامهم، وهذا هو الإسلام أي: ﴿إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ﴾ وقد قرر الله ذلك في شأن رسله جميعاً:

١- إبراهيم ﷺ ﴿هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِنْ قَبْلُ وَفِي هَذَا﴾ أي في هذا القرآن ﴿لِيَكُونَ الرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ﴾ [الحج: ٧٨] ﴿مَا كَانَ إِبْرَاهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَكِنْ كَانَ حَنِيفًا مُسْلِمًا﴾ [آل عمران: ٦٧] هذا هو إبراهيم كان حنيفاً مسلماً ﴿إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمْ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [البقرة].

٢- وإسماعيل ولد إبراهيم -عليهما السلام- كان مسلماً، جاء ذلك في دعائه مع أبيه وهما يرفعان قواعد البيت ﴿رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ﴾ أي: إبراهيم وإسماعيل ﴿وَمِنْ ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُسْلِمَةً لَكَ﴾ [البقرة: ١٢٨].

٣- ويعقوب -الذي هو إسرائيل أصل بني إسرائيل، وأبوهم- كان مسلماً- قال تعالى: ﴿وَوَصَّى بِهَا﴾ أي: بكلمة التوحيد والإسلام ﴿إِبْرَاهِيمَ بَنِيهِ وَيَعْقُوبَ﴾ فهو يقول لذريته:

﴿يَتَّبِعْ إِنَّ اللَّهَ أَصْطَفَىٰ لَكُمْ الَّذِينَ فَلَا تَمُوتُونَ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾ [البقرة: ١٣٢].

ولما حضر يعقوب الموت، كانت الوصية التي وصّى بها أبناءه من بعده هي الإسلام ﴿أَمْ كُنْتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ الْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِنْ بَعْدِي قَالُوا نَعْبُدُ إِلَهَكَ وَإِلَهَ آبَائِكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِلَهًا وَاحِدًا وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾ [البقرة].

٤- ويوسف عليه السلام قال: ﴿رَبِّ قَدْ آتَيْتَنِي مِنَ الْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِي مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ فَاطِرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَنْتَ وَلِيِّ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ﴾ [يوسف].

٥- والحواريون - أتباع عيسى عليه السلام - كانوا مسلمين ﴿وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى الْحَوَارِيِّينَ أَنْ ءَامِنُوا بِي وَبِرَسُولِي قَالُوا ءَامَنَّا وَأَشْهَدُ بِأَنَّنا مُسْلِمُونَ﴾ [المائدة].

هذا هو الإسلام بمعناه العام (التوحيد) على لسان جميع الرسل وفي جميع الأمم.

وقد يكون المراد بشهادة الله تعالى وشهادة ملائكته وشهادة أولي العلم، على أن الدين عند الله الإسلام، وهو التوحيد الخالص، فتكون الآية التالية بيان وتوضيح لهذه الآية، وشهد الله على ذلك وأشهد ملائكته وأولوا العلم.

المعنى الخاص للإسلام: ثم أُطلق الإسلام على خصوص أمة محمد ﷺ؛ لأنه الدين المهيمن على الشرائع السابقة، المصدق لما فيها، الناسخ لما قبله، وهو الدين الوحيد الذي يؤمن بجميع رسل الله ولا يكذب أحدا منهم، فهو الرسالة التي جاء بها خاتم الأنبياء، وليس فيه تحريف ولا تغيير ولا تبديل، ويبقى اسم الإسلام الذي أراده الله لجميع الأمم قائماً بالتوحيد الخالص في هذه الأمة إلى يوم الساعة ممثلاً في أمة محمد ﷺ. والإسلام بمعناه الخاص قد اشتمل على:

١- إصلاح العقيدة، التي لا يشوبها شائبة شرك، ولا يتخذ بعض الناس بعضاً أرباباً من دون الله.

٢- إصلاح القلوب، وتركية النفوس، وإصلاح منهج الحياة، وأصول الأخلاق.

٣- يقوم هذا الدين على الترغيب والترهيب، ومجادلة غير المسلمين بالتي هي أحسن إلا الذين ظلموا منهم، ورعاية مصالح الناس.

٤- إنها رسالة عامة لجميع البشر وإلى قيام الساعة، ولم يدع رسول قبل محمد ﷺ أن

رسالته عامة مستمرة، وأنه لا رسالة بعدها، مع نسخها لما قبلها.

٥- الإسلام دينٌ ودولة، ومصحفٌ وسيف، والسياسة الداخلية والخارجية للبلاد من أصول الإسلام، وهي لا تخرج عن نطاقه.

إن الخلاف الذي وقع بين اليهود والنصارى -من أهل الكتاب- في شأن الإسلام وشأن نبي الإسلام لم يقع عن جهل، وإنما وقع عن علم يقيني منهم، وكان عن حسد منهم بعدما جاءهم العلم بنبوّة محمد ﷺ، كما وقع الخلاف بين اليهود والنصارى، حيث كفر اليهود بـعيسى عليه السلام، ففرقوا شيعاً وأحزاباً من بعدما قامت عليهم الحجة بإرسال الرسل وإنزال الكتب.

وهكذا: وقع الخلاف بينهم بسبب البغي والحسد والعدوان، والحرص على الرئاسة والجاه، فعزّ على بني إسرائيل أن تنتقل النبوة منهم إلى العرب، ويُبعث منهم محمد ﷺ، فأنكروا صفاته وجحدوا نبوته كما قال تعالى: ﴿وَمَا اخْتَلَفَ الَّذِينَ أُوْتُوا الْكِتَابَ مِنْ يَهُودٍ وَنَصَارَىٰ إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ﴾ المطابق لما في كتبهم، وكان كفرهم هذا حسداً منهم وهو معنى ﴿بَغْيًا بَيْنَهُمْ﴾ وقد وضع الله سبحانه سنة عامة في خلقه، تقضي بالعقوبة العاجلة لكل من كفر بآيات الله سبحانه ولم يؤمن بخاتم المرسلين ﴿وَمَنْ يَكْفُرْ بِآيَاتِ اللَّهِ فَإِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾، فيجازي كل عامل بعمله، وخصوصاً من ترك الحق بعد معرفته، فهو مستحق للوعيد الشديد والعقاب الأليم.

وهذه إجابة على اليهود والنصارى وغيرهم، ممن يفضل غير دين الإسلام عليه:

٢٠- ﴿فَإِنْ حَاجُّوكَ فَقُلْ أَسْلَمْتُ وَجْهِيَ لِلَّهِ وَمَنِ اتَّبَعْتُ﴾ (١) وَقُلْ لِلَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَالْأُمِّيِّينَ ءَأَسْلَمْتُمْ فَإِنْ أَسْلَمُوا فَقَدِ اهْتَكَدُوا وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاءُ وَاللَّهُ بِصِيرٍ بِالْعِبَادِ﴾ (٢)

وإن حاجوك - أيها الرسول - في شأن الإسلام، وإن جادل النصارى أو اليهود أيّ مسلم - في شأن التوحيد إلى يوم القيامة - فقل لهم كلمة الفصل والحسم ﴿فَقُلْ أَسْلَمْتُ وَجْهِيَ لِلَّهِ وَمَنِ اتَّبَعْتُ﴾ فأنقذت بقلبي ولساني وجميع جوارحي لله تعالى، وأخلصت عبادتي لله

(١) قرأ نافع وابن عامر وحفص وأبو جعفر بفتح الياء وصلا من (وجهي) وسكنها الباقون.

(٢) قرأ نافع وأبو عمرو وأبو جعفر بإثبات الياء وصلا ووقفوا من (ومن اتبعن) والباقون بحذفها في الحالين.

وحده، وتركت ما سوى دين الإسلام، أنا ومن اتبعني من المؤمنين، فإن الاختلاف على حقيقة التوحيد كفرٌ، فأعرضُ عليهم الإسلام ﴿وَقُلْ لِلَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ﴾ من اليهود والنصارى والأمين من العرب -وقد سُئِموا أُميين لأنه لم يُبعث فيهم نبي قبل محمد ﷺ- لقلة من يعرف منهم القراءة والكتابة وقت نزول الوحي على رسول الله ﷺ - قل لهم: ﴿ءَاسْلَمْتُمْ﴾ بمثل ما آمنتم به، أم أنتم باقون على كفركم، فقد أتاكم من البينات ما يوجب إسلامكم ﴿فَإِنْ أَسْلَمُوا فَقَدِ اهْتَدَوْا﴾ ونفعوا أنفسهم بالخروج إلى الهدى، وصاروا إخوانكم، لهم مالكم، وعليهم ما عليكم.

ولما قرأ النبي ﷺ هذه الآية على أهل الكتاب، قالوا: أسلمنا، فقال ﷺ لليهود: «أتشهدون أن عيسى كلمة الله وعبده ورسوله؟» فقالوا: معاذ الله أن يكون عيسى عبداً، وذلك قوله تعالى ﴿وَإِنْ تَوَلَّوْا﴾^(١).

والمعنى: فإن جادلك أهل الكتاب -يا محمد- ومن كان مثلهم، بالمغالطات وزور القول، بعد أن قامت الحجج على صدقك - فلا تُسأيرهم، ولا تلتفت إلى أكاذيبهم، وأعلن عبادتك وإخلاصك لله وحده أنت ومن سار على دربك واتبع سبيله؛ فإن أسلموا وجوههم لله، وصدقوا بما جئت به -فقد اهتدوا إلى الحق والدين الذي ارتضيته لهم، وإن أعرضوا فإن هذا لن يضررك شيئاً فقد بلغت الرسالة وأديت الأمانة، ونصحت الأمة، فقد قامت عليهم الحجة، وثبت لك أجر البلاغ، ولم يبق إلا مجازاتهم بالعقاب على جرمهم.

عن أنس رضي الله عنه أن غلاماً يهودياً كان يضع للنبي ﷺ وُضوءه وَيُنَاوِلُهُ نعليه، فمرض، فأتاه النبي ﷺ فدخل عليه، وأبوه قاعد عند رأسه، فقال له النبي ﷺ: «يا فلان قل: لا إله إلا الله» فنظر إلى أبيه، فسكت أبوه، فأعاد عليه النبي ﷺ فنظر إلى أبيه، فقال له أبوه: أطع أبا القاسم، فقال الغلام: أشهد أن لا إله إلا الله، وأنت رسول الله، فخرج النبي ﷺ وهو يقول: «الحمد لله الذي أخرجه بي من النار»^(٢).

والمراد من جملة: ﴿فَقُلْ أَسْلَمْتُ وَجْهِيَ لِلَّهِ وَمَنِ اتَّبَعَنِ﴾ ثلاثة أمور:

أحدها: أعرض عنهم وأقطع المجادلة معهم، فإنهم مكابرون، ولا فائدة في الحوار معهم.

(١) «تفسير أبي السعود» (٢٣/١).

(٢) ينظر: «المسند» (١٧٥/٣) برقم (١٢٧٩٢) وهو حديث صحيح، أخرجه البخاري برقم (١٣٥٦)، (٥٦٥٧).

ثانيها: أن يكون المراد بها إقامة الحجة عليهم في إسلامهم الوجه لله؛ ليحملهم هذا على التسليم والإذعان.

وثالثها: أن يكون المراد: إن كنتم تحتاجون في أن الدين عند الله الإسلام فقل: إني بالإسلام أسلمت وجهي لله، ولن ألتفت إلى عبادتكم غير الله، فديني هو الحق، وأنتم لستم على دين، وإسلام الوجه لله يراد به سبعة أمور:

- ١- تمام العبودية لله تعالى وإخلاصها له.
 - ٢- والتعرف على مراد الله تعالى وما يرضيه للعمل به.
 - ٣- وامتنال ما أمر به واجتناب ما نهى عنه.
 - ٤- وألا يجعل لنفسه حُكْمًا مع الله تعالى فيما حكم به.
 - ٥- وإن أشكل عليه أمر اتَّبَعَ إشارة العقل لا إشارة الهوى.
 - ٦- وأن يصدّق بالغيب كله.
 - ٧- ويحسن معاملة الناس أفرادًا وأممًا وجماعات^(١).
- ﴿وَإِنْ تَوَلَّوْا﴾ فأبوا إلا الإشراف بالله تعالى ﴿فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلْغُ﴾، هذه مُهِمَّتُكَ، والله سبحانه يحاسبهم ويعاقبهم يوم القيامة.
- وفي الآية تسليّة للنبي ﷺ؛ لأنه كان شديد الحرص على إيمانهم، ويتألم لعدم إجابتهم.
- وفيها دليل على عموم رسالة محمد ﷺ كما قال تعالى: ﴿قُلْ يَأَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا﴾ [الأعراف: ١٥٨].
- وعن أبي هريرة ؓ أن النبي ﷺ قال: «والذي نفسي بيده، لا يسمع بي أحدٌ من هذه الأمة يهودي ولا نصراني، ثم يموت، ولم يؤمن بالذي أرسلت به - إلا كان من أصحاب النار»^(٢).

(١) ملخصاً من «تفسير الطاهر بن عاشور» (٢٠٣/٣) بتصرف.

(٢) «صحيح مسلم» برقم (١٥٣).

وقال ﷺ: «وُبُعِثْتُ إِلَى كُلِّ أَحْمَرٍ وَأَسْوَدٍ»^(١).

وقال: وكان النبي ﷺ يُبْعَثُ إِلَى قَوْمِهِ خَاصَّةً، وَبُعِثْتُ إِلَى النَّاسِ عَامَةً^(٢).

وَصَفُّ الْيَهُودِ بِثَلَاثَةِ أَوْصَافٍ

٢١- ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيَّ (٣) بِغَيْرِ حَقٍّ وَيَقْتُلُونَ (٤) الَّذِينَ يَأْمُرُونَ بِالْقِسْطِ مِنَ النَّاسِ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾

وبعد مُجَادَلَةِ النَّصَارَى فِي وَحْدَانِيَةِ اللَّهِ تَعَالَى، يَأْتِي بَيَانُ أَحْوَالِ الْيَهُودِ، فَتَنْصِفُهُمُ الْآيَةُ بِثَلَاثَةِ أَوْصَافٍ شَنِيعَةٍ هِيَ: كُفْرُهُمْ بِاللَّهِ تَعَالَى، وَقَتْلُهُمْ لِأَنْبِيَاءِ اللَّهِ، وَقَتْلُهُمْ رِجَالَ الْأَمْرِ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّهْيِ عَنِ الْمُنْكَرِ. وَرَتَّبَ سُبْحَانَهُ عَلَى ذَلِكَ شِدَّةَ الْعَذَابِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ.

وَرُسُلُ اللَّهِ وَأَنْبِيَآؤُهُ يَبْلُغُونَ الدَّعْوَةَ إِلَى الْخَلْقِ، وَمِنْ أَوْلَى الْعِلْمِ الدُّعَاةُ إِلَى اللَّهِ سُبْحَانَهُ، الْأُمُورُ بِالْمَعْرُوفِ، وَالنَّاهُونَ عَنِ الْمُنْكَرِ، الدَّاعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَالْإِصْلَاحِ، وَمِنْ الْبَشَرِ مَنْ يَتَعَرَّضُ إِلَى الرُّسُلِ، وَإِلَى الدُّعَاةِ إِلَى اللَّهِ، بِالْقَتْلِ وَالسَّجْنِ وَالتَّعْذِيبِ وَالتَّشْرِيدِ، حَدَثَ هَذَا عَلَى مَدَى التَّارِيخِ فِي الْقَدِيمِ وَالْحَدِيثِ، فَبَنُو إِسْرَائِيلَ قَتَلُوا أَنْبِيََاءَهُمْ:

- ١- قَتَلُوا (زَكَرِيَّا)؛ لِأَنَّهُ حَاوَلَ تَخْلِيصَ ابْنِهِ يَحْيَى مِنْ قَتْلِهِمْ لَهُ.
- ٢- وَقَتَلُوا (يَحْيَى)؛ لِأَنَّهُ آمَنَ بِعِيسَى، وَحَارَبَ مُخَالَفَةَ الشَّرِيعَةِ فِي نِكَاحِ الْمَحَارِمِ.
- ٣- وَقَتَلُوا النَّبِيَّ (إِرْمِيَاءَ) بِمِصْرَ.
- ٤- وَقَتَلُوا (حَزْقِيَالَ)؛ لِأَنَّهُ وَبَّخَهُمْ عَلَى سُوءِ أَعْمَالِهِمْ.
- ٥- وَزَعَمُوا أَنَّهُمْ قَتَلُوا (عِيسَى) عَلَيْهِ السَّلَامُ.
- ٦- وَنَشَرُوا (أَشْعِيَاءَ) بِالْمَنْشَارِ؛ لِأَنَّهُ نَهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ.
- ٧- وَقَتَلُوا (مَنْشَا) ابْنَ حُزْقِيَالَ.

(١) مِنْ حَدِيثِ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ فِي الْبُخَارِيِّ (٣٣٥) وَانْظُرْ (٤٣٨).

(٢) «صَحِيحُ مُسْلِمٍ» (٣٧٠/١) بِرَقْمِ (٥٢١) عَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ.

(٣) قَرَأَ نَافِعُ (النَّبِيَّيْنِ) بِالْهَمْزِ، وَالْبَاقُونَ بِإِبْدَالِهَا يَاءَ مَدْغَمَةٍ.

(٤) قَرَأَ حَمْزَةُ (وَيَقْتُلُونَ الَّذِينَ) مِنَ الْمُقَاتَلَةِ، فَالْمُفَاعَلَةُ مِنَ الْجَانِبَيْنِ، وَقَرَأَ الْبَاقُونَ (وَيَقْتُلُونَ) مِنَ الْقَتْلِ.

والطغاة من الحُكّام في كل زمان ومكان يتعرضون لأولي العلم والدُّعاة إلى الله ﷻ بالقتل والتعذيب والسجن والتشريد.

والآية تُقرن قتل الأنبياء والدُّعاة إلى الله بالكُفر بالله ﷻ، وتجعله قرين الكفر بالله جل شأنه.

وقد بيّن النبي ﷺ أن أشدّ الناس عذابًا يوم القيامة رجلٌ قتل نبيًا، أو رجلًا أمر بالمعروف، ونهى عن المنكر، ثم قرأ رسول الله ﷺ: ﴿وَيَقْتُلُونَ النَّبِيَّ بِغَيْرِ حَقٍّ﴾ ثم قال ﷺ: «يا أبا عبيدة، قتلْتُ بنو إسرائيل ثلاثة وأربعين نبيًا من أول النهار في ساعة واحدة، ثم قتلوا مئة وسبعين رجلًا، وهم الذين نهوهم عن المنكر».

كما حدث من بني إسرائيل، فقد قتلوا عددًا من أنبيائهم الذين ذكروهم بأحكام التوراة، وقتلوا من أمرهم بالمعروف، ونهواهم عن المنكر، قال تعالى: ﴿وَيَقْتُلُونَ الَّذِينَ يَأْمُرُونَ بِالْقِسْطِ مِنَ النَّاسِ﴾ وهم الذين يأمرُونَ بالمعروف، وينهون عن المنكر من الدُّعاة إلى الله سبحانه.

هذه ثلاث صفات وَصَفَ الله بها اليهود في الآية وهي: الكُفر بالله، وَقَتْلُ الأنبياء، وَقَتْلُ الدُّعاة إلى الله. قال سبحانه في عاقبتهم مُتَهَكِّمًا: ﴿فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾. مؤلم للأبدان والقلوب والأرواح بسبب ما ارتكبه من منكرات.

والمتصفون بهذه الصفات قد بطلت أعمالهم بما كسبت أيديهم، ولا يوجد من ينصرهم من عذاب الله، ولا من يدفع عنهم نقمته، فقد أيسوا من كل خير، وحصل لهم كل شر: قال تعالى:

٢٢- ﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمَا لَهُمْ مِنْ نَّاصِرِينَ﴾

أي: أن أعمالهم الصالحة التي قدّموها في الدنيا لا أجزَ عليها، ولا ثواب لها؛ فقد أبطلوها في الدارين، ولم يبقَ لها أثرٌ، وليس لهم من نصيرٍ يمنعهم من عذاب الله يوم القيامة.

وأصل الحبوط: انتفاخ بطن الدابة التي ترعى نبتًا مسمومًا توطئة لهلاكها.

أَحْكَامُ الْإِسْلَامِ مِنْهُجٌ لِلدِّينِ وَالْدُّنْيَا

٢٣- ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِنَ الْكِتَابِ يُعْذِرُونَ إِلَى كِتَابِ اللَّهِ لِيُحْكَمَ (١) بَيْنَهُمْ ثُمَّ يَتَوَلَّى فَرِيقٌ مِنْهُمْ وَهُمْ مُعْرِضُونَ ﴿٢٣﴾﴾

وهذا الإسلام لا يكتمل العمل به إلا إذا حَكَّمه المسلمون في مناهج حياتهم، وفي مناهج تعليمهم، وفي وسائل إعلامهم، وفي إقامة حدود الله، وفي سلوكهم، حَكَّمُوا كِتَابَ اللَّهِ فِي كُلِّ صَغِيرَةٍ وَكَبِيرَةٍ، أما أن يدَّعي المسلم الإسلام ويصلي ويصوم، وهو يُعرض عن تحكيم كتاب الله سبحانه، فإنه لا يُعدُّ مسلماً ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِي مَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجًا مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا سَلِيمًا ﴿١٥﴾﴾ [النساء].

أرأيت - أيها الرسول - أعجب من حال اليهود الذين آتاهم الله حظاً من الكتاب؛ فعلموا من خلاله أن ما جئت به هو الحقُّ، هؤلاء اليهود إذا دُعوا إلى التحاكم لكتاب الله؛ ليفصل بينهم فيما اختلفوا فيه، فإن لم يوافق هذا الحكم أهواءهم امتنعوا عن قبوله؛ لأن من عادتهم الإعراض عن الحقِّ، وإن وافق أهواءهم قبلوه.

والآية تشير إلى أن طائفة من اليهود دُعوا إلى التوراة؛ للتحاكم بينهم فيما تنازعوا فيه مع رسول الله ﷺ فَأَبَوْا، وَمِنَ التَّنَازُعِ الَّذِي حَدَّثَ بَيْنَهُمْ مَعَ النَّبِيِّ ﷺ مَا حَدَّثَ فِي شَأْنِ النَّبُوَّةِ، هل هو نبيٌّ أم لا؟ وما تنازعوا فيه من أمر إبراهيم ﷺ، هل هو يهوديٌّ أو نصرانيٌّ؟ ومِمَّا تنازعوا فيه حدُّ الرجم، فهذه أمثلة لِمَا نازعوا فيه رسول الله ﷺ.

وفي الآية تحذير لنا أن نفعل كفعالهم، فيصنأ ما أصابهم، بل الواجب على كل أحد إذا دُعِيَ إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ أَنْ يَسْمَعَ وَيُطِيعَ وَيَنْقَادَ، قَالَ تَعَالَى: ﴿إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ الْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَنْ يَقُولُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا﴾ [النور: ٥١]

في أسباب النزول:

١- أن رجلاً وامرأة من يهود خيبر زنيا، وهما من أشرف القوم، وحُكِّم الزاني

(١) قرأ أبو جعفر (لِيُحْكَمَ بَيْنَهُمْ) بضم الياء وفتح الكاف على البناء للمفعول، وقرأ الباقر (لِيُحْكَمَ بَيْنَهُمْ) بفتح الياء وضم الكاف على البناء للفاعل.

المُحَصَّن في التوراة هو الرجم، كما هو في الإسلام، وقد كره القوم رجمَهما؛ لشرفهما ومنزلتهما، فذهبا إلى رسول الله ﷺ يلتمسان رخصةً أو حُكْمًا أخف؛ فحكم النبي ﷺ بالرجم، وقال: تجدون ذلك في التوراة، فأنكر بعضهم ذلك، فأمر ﷺ بإحضار التوراة، فأحضرت التوراة، وقرأ عبد الله بن سوريا، من يهود (فدك) الآية من التوراة، ووضع يده فوق كلمة الرجم، وتخطأها، فقال عبد الله بن سلام: يا رسول الله، قد جاوزها، ثم قام ورفع كَفَّهُ عنها، فأزاحها النبي ﷺ وبيّن لهم حُكْمَ الزاني المحصن في التوراة، وهو الرجم، وأمر ﷺ برجمهما فغضبوا.

٢- وأخرج الطبري بسند حسن عن ابن عباس ؓ أن النبي ﷺ دخل مدرّاس اليهود، فسأله رجلان منهم هما: نعيم بن عمرو، والحارث بن زيد، أنت على أيّ دين؟ فقال: «أنا على ملة إبراهيم»، قالوا: إن إبراهيم كان يهوديًا، قال: «بيننا وبينكم التوراة، هلموا إليها»؛ فأبيا؛ فأنزل الله سبحانه: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَاتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُمْ بِحَبْلٍ غَلِيظٍ لِّتُسْأَلَ أَفِنَّتُمُوهَا أَمْ كُنتُمْ تَقُولُونَ إِنَّ اللَّهَ لَحَدِيدٌ فَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ فِيهِ تَحْكُمُ بِهِ وَصَحَّفُ بِهِ وَلَا يَجِدُ بِهِ أَكْثَرُ النَّاسِ تَعْلَمُ﴾. وحرّفوا وغيروا بعضه.

٣- وفي الصحيحين عن ابن عمر ؓ أنه قال: إن اليهود جاؤوا إلى النبي ﷺ فذكروا له أن رجلاً منهم وامرأة زنيا؛ فقال لهم رسول الله ﷺ: ما تجدونه في التوراة في شأن الزاني؟ فقالوا: نفضحهم ويُجلّدون، فقال عبد الله بن سلام: كذبتم، إن فيها الرجم، فأتوا بالتوراة، فجعل أحدهم يده على آية الرجم، ثم جعل يقرأ ما قبلها وما بعدها، فقال عبد الله بن سلام: ارفع يدك؛ فرفعها، فإذا فيها آية الرجم، فقالوا: صدّق محمدٌ، فيها آية الرجم، فأمر بهما رسول الله ﷺ فرُجما.

فهذا الحديث الصحيح ليس فيه أن هذه القصة سببٌ لنزول الآية، ولكنها تشهد بصحة سبب النزول المذكور.

والنصارى أتوا شيئاً من الكتاب، وحرّفوا وغيروا بعضه، والمسلمون أتوا الكتاب كله؛ لأن القرآن جامعٌ للأصول، ومصدّقٌ لما سبقه، ومُحتَوٍ على ما فيه من الكتب الإلهية، فهم ﴿يُذَعِّبُونَ إِلَيْنَا كِتَابَ اللَّهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ﴾ فالذي لا يقبل حُكْمَ الله سبحانه ليس بمؤمن بالله ولا باليوم الآخر، وما فيه من جنة ونار وحساب وعقاب.

خُرَافَةُ اعْتِقَادِ الْيَهُودِ بِأَنَّهُمْ مُتَمَيِّزُونَ عِنْدَ اللَّهِ تَعَالَى

٢٤- ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لَنْ تَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّامًا مَعْدُودَاتٍ وَغَرَّهُمْ فِي دِينِهِمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾

ثم بيّن سبحانه العلة والسبب في توليهم وإعراضهم، وأنه بسبب زعمهم الفاسد، أنهم في أمان من العذاب يوم القيامة إلا أيامًا قليلة ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لَنْ تَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّامًا مَعْدُودَاتٍ﴾ بقدر التطهير من المعاصي والذنوب؛ أي: أنه يصيبهم شيء يسير من العذاب ثم يدخلون الجنة؛ حيث قالوا بأنهم لن تمسهم النار إلا سبعة أيام، أو أربعين يومًا، مدة عبادتهم للعجل.

وقيل: إنهم قالوا: لن يدخلنا الله النار إلا تحلة القسم، والأيام التي أصبنا فيها عبادة العجل، والذي جرّأهم على الحلف بالله تعالى، زعمهم أنهم على حق، فانصرفهم عن الحق بسبب هذا الاعتقاد الفاسد، من أنهم لا يُعذبون في النار إلا أيامًا قليلة، وقد أدى هذا إلى جرأتهم على الله تعالى، واستهانتهم بدينه، واستمرارهم على الباطل الذي خدعوا به أنفسهم، وهو مجرد كذب وافتراء. قال تعالى:

٢٥- ﴿كَيفَ إِذَا جُمِعْتَهُمْ لِيَوْمٍ لَا رَيْبَ^(١) فِيهِ وَوُعِدَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾

أي: إن هؤلاء اليهود افترّوا على الله وكذبوا رُسُلَه، وقتلوا الأنبياء والعلماء، فكيف يكون حالهم إذا جمعهم الله للحساب في يوم لا ريب فيه، وأخذ كل منهم جزاءه من غير ظلم؟! فهو اليوم الذي تُوفي فيه كل نفس ما كسبت، وتجازى فيه بالعدل والقسط، ولا يظلم ربك أحدا.

النَّبُوءَةُ وَالْحُكْمُ لَا يُورَثَانِ

٢٦- ﴿قُلِ اللَّهُمَّ مَلِكُ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَنْ تَشَاءُ وَتَنَزِعُ الْمُلْكَ مِمَّنْ تَشَاءُ وَتُعْزِزُ مَنْ تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَنْ تَشَاءُ يَدُكَ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾

ولمّا ذكر الله تعالى تأمر غير المسلمين على المسلمين، وإعراضهم عن التحاكم إلى كتاب الله، ودعواهم أن النار لن تمسهم إلا بعدد الأيام التي عبدوا فيها العجل، بيّن ﷻ أن السبب

(١) قرأ حمزة بخلف عنه بمدّ (لا) من (لا ريب) أربع حركات مبالغة في النفي، والباقون بالقصر.

في ذلك هو حسدُهم للنبي ﷺ، حيث انتقلت الرسالة من شعب بني إسرائيل إلى العرب، فردَّ الله عليهم بأن المُلْك لله يُعْطيه لِمَن يشاء، وينزعه عَمَّن يشاء.

وفي الآية إشارة إلى أن الله تعالى سينزع ملك الأكاسرة والقيصرة ومن تبعهم، ويعطيه أمة محمد ﷺ، وفيها إشارة إلى انتقال النبوة والرسالة من بني إسرائيل إلى العرب، فحصول الملك ونزعه تبع لمشيئة الله تعالى، ومن أسباب حصول الملك وزمام الحكم: الإيمان والعمل الصالح، والتألف والصبر وعدم التنازع:

﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّن بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا﴾ [النور: ٥٥]

وقد انتقد اليهود والمشركون على النبي ﷺ أمورًا يزعمون أنها لا تناسب شأن النبوة؛ فأمر الله تعالى رسوله أن يتوجَّه إلى الله تعالى بهذا الدعاء المتضمن ردَّ المُلْك والملكوت لله وحده.

فكأن الآية تقول: يارب، يا مَنْ لك المُلْك وحدك، أنت الذي تَمْنَح المُلْك والمال، والتمكين في الأرض مَنْ تشاء، وتَهَب العِزَّة في الدنيا والآخرة لِمَن تشاء، وتجعل الدِّلة على مَنْ تشاء، فالخيرُ كُلُّه بيدك، وأنت وحدك القادر على كُلِّ شيء، ومن ذلك أنك تَنزِع النبوة من بني إسرائيل، وتجعلها في ذرية إسماعيل، وتَصْطَفِي مَنْ تشاء من خلقك، فتخصه بالنبوة والرسالة وإن اعترض المكذَّبون.

أمور مزعومة:

١- لقد عاب المشركون على النبي ﷺ كيف يكون نبياً وهو يأكل الطعام ويمشي في الأسواق كالْبَشَر ﴿وَقَالُوا مَالِ هَذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ وَيَمْشِي فِي الْأَسْوَاقِ﴾ [الفرقان: ٧].

والله سبحانه يَرُدُّ عليهم بأن هذا ليس خاصاً بمحمد ﷺ، وإنما هو شأنُ جميع الرُّسل، فهم بَشَرٌ يأكلون ويشربون ويسعون على أرزاقهم.

﴿وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَيَمْشُونَ فِي الْأَسْوَاقِ﴾ [الفرقان: ٢٠].

٢- كما عاب المشركون على النبي ﷺ كيف يكون نبياً وهو يتزوج وتكون له ذرية، والله سبحانه أجابهم بأن هذا لم يخص محمداً ﷺ وحده بهذا، بل هو شأن الرُّسل

جميعاً، كلهم يتزوجون وكلهم يتناسلون.

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِّن قَبْلِكَ وَجَعَلْنَا لَهُمْ أَزْوَاجًا وَذُرِّيَّةً﴾ [الرعد: ٣٨].

٣- وعاب أهل الكتاب من اليهود والنصارى على النبي ﷺ كيف تنتقل النبوة من بني إسرائيل إلى العرب، وكيف ظلت النبوة والرسالة دهرًا طويلاً حكرًا على بني إسرائيل، ثم انتقلت إلى محمد ﷺ، فقال اليهود: والله لا نطيع رجلاً جاء ينقل النبوة من بني إسرائيل إلى غيرهم.

ولمّا ناقش وفد نصارى نجران هذا المبدأ مع رسول الله ﷺ نزل بصدد الإجابة عن ذلك ثلاث وثمانون آية من صدر سورة آل عمران.

الأيام دُولٌ: ولمّا كان المسلمون ضِعَافًا مُضْطَهَدِينَ في أول الدَّعْوَةِ، وربّما أخَفَوْا صلاتهم، ولم يجهرُوا بها، وربّما قضى أحدهم حاجته خُفِيَّةً، وبينما هم في هذه الحالة إذ بَشَّرَ النَّبِيُّ ﷺ بأنهم سيملكون مُلْكٌ كِشْرَى وقيصر، وكنوزهما، كما يملكون قصور صنعاء، فعجب المنافقون واليهود، وقالوا: كيف يُمْنِي مُحَمَّدٌ ﷺ أصحابه بهذه الأمانى الباطلة.

ولما افتتح رسول الله مكة قال ابن عباس وأنس بن مالك: إن النبي ﷺ وعد أمته مُلْكٌ فارس والروم، فقال اليهود والمنافقون: ألم يكفِ محمدًا مكة والمدينة، حتى طَمِعَ في مُلْكِ فارس والروم؛ فأنزل الله جل شأنه: ﴿قُلِ اللَّهُمَّ مَلِكُ الْمُلْكِ﴾^(١).

ومن ذلك: أن الله سبحانه قد سَلَبَ النبوة والملك من بني إسرائيل، وجعلها في أمة محمد ﷺ، والنبوة أعظم مراتب الملوك، كما أعطى الله الملك والنبوة لإبراهيم من قبل ﴿فَقَدْ آتَيْنَا آلَ إِبْرَاهِيمَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَآتَيْنَاهُمْ مُلْكًا عَظِيمًا﴾ [النساء: ٥٤].

كما أعطى الله سبحانه داودَ وسليمانَ الملك والنبوة، وأعطى النبوة والرسالة إلى عددٍ كثيرٍ من رسل الله وأنبيائه، قال تعالى: ﴿أَنْظُرْ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ﴾ [الاسراء: ٢١]

وقال سبحانه ﴿وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ﴾ [الزخرف: ٣٢]

وقال جل شأنه: ﴿اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ﴾ [الأنعام: ١٢٤].

(١) الطبري (٣/ ١٤٨) والقرطبي (٤/ ٥٢) و«زاد المسير» (١/ ٣٦٨) والسيوطي (١٠) والنيسابوري (٨٤).

وقد حَقَّقَ اللهَ لِأُمَّةٍ مُحَمَّدٍ ﷺ مُلْكٌ وَكَنُوزٌ كَسَرَى وَقِصْرٌ وَالشَّامُ وَصَنْعَاءُ، كما أخبر بذلك الْمُصْطَفَى ﷺ، وهذه الأيام دَوَّلٌ ﴿وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ﴾ [آل عمران: ١٤٠].
يَوْمٌ لَكَ، وَيَوْمٌ عَلَيْكَ، يَوْمٌ تَدِينُ، وَيَوْمٌ تَدَانُ، يَوْمٌ صَحِيحٌ، وَيَوْمٌ مَرِيضٌ، يَوْمٌ عَزِيزٌ، وَيَوْمٌ ذَلِيلٌ، يَوْمٌ جَارِحٌ، وَيَوْمٌ مَجْرُوحٌ.

انتقال النبوة من بني إسرائيل إلى العرب:

وها هو النَّبِيُّ ﷺ وأُمَّتُهُ، يرثون عِزَّوْ مُلْكٍ مَن سَبَقَهُم من بني إسرائيل، فما هو السبب؟ السبب: أن المالك في الحقيقة هو الله سبحانه، المالك لهذا الكون، وحينما يُعْطَى الله جل شأنه شيئاً من الحُكْمِ أو المُلْكِ في هذه الأرض لبعض خلقه، فيصْبحوا حُكَّامًا أو رؤساءً أو ملوكًا، إنما يَخْضَعُ هذا المُلْكُ لشروط المُمْلَكِ الأصلي، وهو الله ربُّ العالمين، وذلك بإقامة منهج الله في الأرض، وعدم الفساد فيها، وتحقيق العدل بين الرعية، فإذا لم يتحقق هذا، ولم يطبق منهج الله في أرضه، ولا قامت الخلافة الإسلامية بين الناس، وفسد الحكم بين الرعية، فإن هذا الحاكم أو هذه الأمة، جديرة بأن يَسْلُبَ الله منها المُلْكَ إلى غيرها ﴿سُنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلُ وَلَنْ يَحْدِلَ سُنَّةَ اللَّهِ تَبْدِيلًا﴾ [الأحزاب: ٢٦].

وقد أفسد بنو إسرائيل في الأرض، فقتلوا الأنبياء، وغيروا أحكام الله في التوراة والإنجيل، وبدَّلُوا ما أنزل الله فيهما، فتحوَّلَتِ النبوة منهم إلى غيرهم، وأعطى الله سبحانه النبوة لمحمد ﷺ، وهذا شأن كلِّ مَن يُفسد في الأرض، ولا يُقيم منهج الله فيها، فإن النعمة تُسَلَبُ منه ويُعطى الأمرُ لأهله، وحسابه في آخرته على ربِّ العالمين.

عن أنس ؓ أن النَّبِيَّ ﷺ قال لمعاذ: «ألا أعلمك دعاءً تدعو به، لو كان عليك مثلُ جبل أحدٍ دَيْنًا لَأَدَّاهُ الله عنك؟ قل يا معاذ: اللهم مالك الملك، تؤتي الملك مَن تشاء، وتنزع الملك مِمَّن تشاء، وتعز من تشاء، وتذل من تشاء، بيدك الخير، إنك على كل شيء قدير، رحمن الدنيا والآخرة ورحيمهما، تعطيهما مَن تشاء، وتمنع منهما مَن تشاء، ارحمني رحمة تغنيني بها عن رحمة مَن سواك»^(١).

(١) أخرجه الطبراني في «المعجم الصغير» (١/ ٣٠٢) قال الهيثمي في «مجمع الزوائد» (١٠/ ١٨٦): ورجاله ثقات.

ثَلَاثَةُ مِنْ آثَارِ قُدْرَةِ اللَّهِ تَعَالَى

٢٧- ﴿تُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَتُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَتُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَتُخْرِجُ الْمَيِّتَ^(١) مِنَ الْحَيِّ وَتَرْزُقُ مَنْ شَاءَ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ ﴿٢٧﴾

ولمَّا ذَكَرَ سبحانه أنه مالك المُلْك، أتبعه بذكر ثلاثة من آثار قدرته تعالى:

أحدهما: قدرته الباهرة في تصريف هذا الكون؛ فالله ﷻ من كمال قدرته وقوته ما جاء في هذه الآية: ﴿تُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَتُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ﴾ وهذا من خصائص الألوهية، لا يملكها إلا خالق هذا الكون ومدبره، فهو جل شأنه يزيد هذا وينقص هذا، يُدخل الليل في النهار فيذهب النهار، ويدخل النهار في الليل فيذهب الليل، ويتج عن ذلك فصول العام، كما ينتج عنه الظلمة والنور، والظل والسكون والانتشار، وهذا أكبر دليل على قدرة الله تعالى وعظمته، وحكمته ورحمته بعباده.

وثانيهما: أنه جل شأنه يُخرج الحي من الميت، ويُخرج الميت من الحي، وفي هذا إشارة إلى ظهور النور والهدى في أمة أُمِّيَّة، وظهور الضلال والكفر في أهل الكتاب، وهذا من خصائص الألوهية أيضًا، إذ لا يمكن لبشر أن يفعل مثل ذلك.

وخلق الحي من الميت منه حياة مادية، ومنه حياة معنوية، وكذلك خلق الميت من الحي، منه موت مادي، وموت معنوي.

فالله تعالى يخلق الإنسان من التُّفْطَةِ، والتُّفْطَةِ من الغذاء، والغذاء من التُّراب، وكذلك يخلق الله النخلة من النواة، والزرع من الحب، وما إلى ذلك من أنواع الحياة المادية، والموت المادي.

وهناك الحياة المعنوية، والموت المعنوي التي تكون الحياة فيها بالإيمان، والموت بالكُفْر، فالله سبحانه يُحيي القلوب بنور الإيمان كما يُحيي الأرض بوابل السماء.

وقد عبّر القرآن الكريم عن الإيمان بالحياة، وعن الكُفْر بالموت في قوله تعالى:

(١) قرأ ابن كثير وأبو عمرو وابن عامر وشعبة بتخفيف الياء ساكنة من لفظ (الميت)، والباقيون بتشديدها مكسورة.

﴿أَوْ مَنْ كَانَ مَيِّتًا فَأَحْيَيْنَاهُ﴾ أي: كان كافرًا فأحييناه بالإيمان ﴿وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَنْ مَثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ﴾ وهو الكافر ﴿لَيْسَ بِخَارِجٍ مِنْهَا﴾ [الأنعام: ١٢٢]

فالله تعالى يُخرج الكافر من المؤمن، والمؤمن من الكافر، ويُحيي الأرض بعد موتها. وهذا أعظم دليل على قدرة الله تعالى، حيث يخلق الضد من ضده، وكلها مسخرة لله تعالى، لا تملك من أمر التدبير شيئًا.

وثالثها: والله سبحانه يرزق مَنْ يشاء بغير حساب في الدنيا والآخرة، كما قال تعالى: ﴿يَدْعُونَ فِيهَا بِكُلِّ فَكَهَةٍ ءَامِنِينَ﴾ [الدخان]

وقال سبحانه: ﴿يَدْعُونَ فِيهَا بِفَكَهَةٍ كَثِيرَةٍ وَشَرَابٍ﴾ ﴿وَعِنْدَهُمْ قَصْرِتُ الطَّرْفِ أَرْبَابٌ﴾ [ص] والإعزاز والإذلال بيد الله، فهو سبحانه قادرٌ على إعزاز مَنْ شاء، وإذلال مَنْ شاء، فالملوك والرؤساء نواصيهم بيد الله تعالى، وكما تكونوا يُولَّ عليكم.

الأصل الثالث: عدم موالاة الكافر في الظاهر والباطن

٢٨- ﴿لَا يَتَّخِذِ الْمُؤْمِنُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَلَيْسَ مِنَ اللَّهِ فِي شَيْءٍ إِلَّا أَنْ تَتَّقُوا مِنْهُمْ تُقَاتَ﴾^(١) وَيُعَذِّبُكُمُ اللَّهُ نَفْسُكُمْ وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ ﴿٢٨﴾ هذا نهى من الله تعالى للمؤمنين عن موالاة غير المسلمين بالمحبة والنصرة والاستعانة، وبيان أن هذه الموالاة لا تجتمع مع الإيمان.

أسباب النزول:

١- قيل: نزلت هذه الآية في عبد الله بن أبي بن سلول وأصحابه، كانوا يتولون اليهود والمشركين، ويأتونهم بالأخبار، ويرجون أن يكون لهم الظفر على رسول الله ﷺ فأنزل الله الآية، ونهى المؤمنين عن مثل فعلهم^(٢).

٢- وقيل: إن الآية نزلت في نفر من الأنصار، كانت لهم ولاية مع نفر من اليهود،

(١) قرأ يعقوب (تَقِيَّةً) بفتح التاء وكسر القاف وتشديد الياء مفتوحة، وقرأ الباقون (ثَقَاةً) بضم التاء وألف بعد القاف، وهما مصدران.

(٢) «تفسير ابن كثير» (١/ ٣٥٧).

فَنصَحَ الْأَنْصَارَ بَعْضَ الْمُسْلِمِينَ أَنْ يَتْرَكُوا وَلَايَةَ الْيَهُودِ حَتَّى لَا يَفْتَنُوهُمْ عَنْ دِينِهِمْ، فَأَبَوْا إِلَّا مُبَاطَتَهُمْ؛ فَأَنْزَلَ اللَّهُ الْآيَةَ.

٣- وقيل: نزلت في حاطب بن أبي بلتعة وغيره ممن تأول، وكان يُظهر المودة لكفار مكة.

٤- وورد أنها نزلت في عبادة بن الصامت، كان له خمس مئة حليفٍ من اليهود، فأراد أن يستعينَ بهم يوم الخندق لحرب العدو؛ فنزلت الآية^(١).

وَمِمَّا يَجِبُ الْإِلِمَامُ بِهِ؛ لَفَهْمُ مَضْمُونِ سُورَةِ آلِ عِمْرَانَ؛ وَحَدِيثُهَا عَنِ النَّصَارَى، مَوْضُوعٌ: الْوَلَاءُ وَالْبِرَاءُ فِي اللَّهِ، وَالتَّحْذِيرُ مِنْ وَلَايَةِ غَيْرِ الْمُؤْمِنِينَ، وَتَقْرِيرُ نَفْيِ الْإِيمَانِ مَعَ مَحَبَّةِ الْكُفَّارِ مَحَبَّةً قَلْبِيَّةً وَوَلَايَتَهُمْ.

وَمَا دَامَ اللَّهُ سُبْحَانَهُ هُوَ الْقَوِيُّ الْقَادِرُ، وَبِيَدِهِ أَسْبَابُ النَّصْرِ وَالْقُوَّةِ؛ فَلَا يَنْبَغِي لِلْمُسْلِمِينَ أَنْ يَلْجَأُوا لِغَيْرِ الْمُسْلِمِينَ، وَيَسْتَمْدُوا مِنْهُمْ الْعَوْنَ وَالنَّصْرَ وَالْوَثَامَ، وَإِلَّا كَانُوا غَيْرَ سَائِرِينَ عَلَى مَنْهَجِ اللَّهِ تَعَالَى، مُخَالَفِينَ لِهَدْيِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ ﴿لَا يَتَّخِذِ الْمُؤْمِنُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ فِي صِدَاقَتِهِمْ، وَأَعْمَالِهِمْ، وَوَلَائَتِهِمْ، وَمَحَبَّتِهِمْ، وَالْمُودَةِ إِلَيْهِمْ، يَتَّخِذُونَهُمْ بَطَانَةً، يُسَرُّونَ إِلَيْهِمْ بِأَسْرَارِهِمْ، وَيَسْتَبْدِلُونَهُمْ بِالْمُسْلِمِينَ، وَلَا يَجُوزُ لِلْكَافِرِ أَنْ يَتَوَلَّى وَلَايَةَ مِنْ وَلَايَاتِ الْمُسْلِمِينَ، فَالْآيَةُ تَحْتَمِلُ هَذَا الْمَعْنَى وَالْمَعْنَى الَّذِي قَبْلَهُ.

والعدوُّ على نوعين:

النوع الأول: مَنْ كَانَتْ عِدَاوَتُهُ مَبْنِيَّةً عَلَى اخْتِلَافِ الدِّينِ، كَالْكَافِرِ وَالْمُسْلِمِ، وَبَيْنَهُمَا عِدَاوَةٌ قَائِمَةٌ؛ لَوْ قُوفَ غَيْرِ الْمُسْلِمِينَ عَقَبَةً فِي وَجْهِ الدَّعْوَةِ، أَوْ لاحتلالهم ديار المسلمين.

النوع الآخر: مَنْ كَانَتْ عِدَاوَتُهُ مَبْنِيَّةً عَلَى أَغْرَاضٍ دُنْيَوِيَّةٍ كَالْمَالِ وَالْمَتَاعِ.

﴿وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ﴾ مِنْ نَقْلِ أَخْبَارِ الْمُسْلِمِينَ إِلَيْهِمْ، أَوْ التَّحَدُّثِ إِلَيْهِمْ عَنْ عَوْرَاتِهِمْ، أَوْ مَحَبَّتِهِمْ وَالْمُسَرَّةِ بِلِقَائِهِمْ ﴿فَلَيْسَ مِنَ اللَّهِ فِي شَيْءٍ﴾ وَفِي هَذَا تَبَرُّؤُ مِنَ اللَّهِ سُبْحَانَهُ مِمَّنْ يَفْعَلُ ذَلِكَ، فَهُوَ لَيْسَ مِنَ اللَّهِ فِي شَيْءٍ، حَتَّى وَلَوْ كَانَ هَذَا الَّذِي يُوَالِيهِ أَقْرَبَ مَا يَكُونُ إِلَيْهِ، وَلَكِنَّهُ غَيْرُ مُؤْمِنٍ ﴿يَتَأَيَّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَتَّخِذُوا ءَابَاءَكُمْ وَإِخْوَانَكُمْ أَوْلِيَاءَ إِنْ أَسْتَحَبُّوا الْكُفْرَ عَلَى الْإِيمَانِ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ فَوَلَّيْكُمْ فَءُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ [التوبة].

(١) الواحدي (٨٥) والسيوطي (٥٠).

قال تعالى ﴿وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَيُطِيعُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾ [التوبة: ٧١]

والآيات في هذا المعنى كثيرة؛ ومنها قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَرَى أَوْلِيَاءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ فإِنَّهُمْ مِنْهُمْ﴾.

والله ﷻ يأمر بالتبرؤ منهم أفراداً أو جماعاتٍ أو أمماً، ويُعَدُّ مَنْ يُواليهم من الظالمين لأنفسهم بموالاته أعداء الله ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ [المائدة: ٥١].

ومن الظلم أن يُوالي المؤمن غير المؤمن، أو يتخذه موضع سِرٍّ له، أو يثق فيه دون المؤمنين؛ لأن الحب في الله، والبغض في الله من أصول الإيمان ﴿فَتَرَى الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ﴾ نفاقٌ وضعفٌ إيمان وخوفٌ من صولة العدو ﴿يُسْرِعُونَ﴾ في مودتهم ومحبتهم وموالاتهم، وطلب النصرة منهم، فهم يحتمون فيهم، ويخافون على عروشهم أن يثور عليهم شعوبهم أو أعداؤهم.

﴿يَقُولُونَ نَخْشَى أَنْ تُصِيبَنَا دَآئِرَةٌ﴾ أي: ضعفٌ، فنحن نخشى غوائل الزمن أن يحيف علينا قوِّمٌ أو أقوامٌ فننتصر بهم عليهم، ونلجأ إليهم عند الحاجة إلى سلاحهم، وإلى قوتهم وجنودهم، نخشى أن تدور علينا الدوائر، يقول الله سبحانه: ﴿فَعَسَى اللَّهُ أَنْ يَأْتِيَ بِالْفَتْحِ﴾ على المؤمنين ﴿أَوْ أَمْرٌ مِّنْ عِنْدِهِ﴾ [المائدة: ٥٢] فتتغير الأحوال وتبدل، فيقلب الضعف إلى قوة، والفقر إلى غنى.

فالله سبحانه مالك المُلْك، يُؤْتِي المُلْكَ مَنْ يَشَاءُ، وَيَنْزِعُهُ مِمَّنْ يَشَاءُ، ويعز من يشاء، ويذل من يشاء، وتغيير الأحوال يكون إذا عَلِمَ الله من خَلَقه صِدْقَ الإيمان، وصدق الولاء مع الله سبحانه، ومع عباده المؤمنين، كما قال تعالى: ﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ﴾ [المائدة: ٥٥].

وأهل الكتاب الذين لا يحاربوننا، وبيننا وبينهم عهدٌ وميثاقٌ، ولم يحتلوا ديارنا، ولم يُخرجونا من أرضنا، لا بأس من صلتهم، وحسن معاملتهم، وهناك فرقٌ بين حُسن المعاملة، وبين المودة والمحبة والموالاتة والنصرة، فالإسلام أمر المسلم أن يحسن معاملة غير المسلم من المسالمين الذين لا يحاربوننا في قوله تعالى: ﴿لَا يَنْهَكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ

يُقْنِلُوكُمْ فِي الْإِيمَانِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُمْ مِّنْ دِينِكُمْ ﴿٢٨﴾ أَي: لَمْ يَحْتَلُوا أوطانكم، وَلَمْ يُخْرِجُوكُمْ مِنْ دياركم ﴿٢٨﴾ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ ﴿٢٩﴾ [المتحنة: ٨].

وقد حَرَّمَ الإسلامُ الاستعانة بالمشرك على قتال المسلم على خلاف في ذلك، وجمهور الفقهاء على الجواز بشرطين:

١- عند الحاجة الماسة. ٢- وعند وجود الثقة القوية فيه.

وقد حدث في يوم بدر أن رجلاً فيه جُرأة أراد أن يلحق بالمسلمين ويُقاتل معهم، فقبل للنبي ﷺ: استعِنَ بمشرك، قال: لا أستعين بمشرك.

وقيل: إن هذا منسوخ بما بعده، وأن النبي ﷺ استعان بيهود بني قَيْنُقَاع، واستعان بصفوان في حرب هوازن، وكان هذا في وقت متأخر، حَدَّثَ قَبْلَ وفاة النبي ﷺ.

وفي ذلك تفصيلٌ، يَحْكُمُ فِيهِ أَهْلُ الْفَتَاوَى وَالْفَقْهَاءُ عِنْدَ الْحَاجَةِ، وَالضَّرُورَةِ الْمَاسَّةَ لَهُ.

وَلَا يُسْتَعَانَ بِالْمُشْرِكِينَ عَلَى قِتَالِ الْبَغَاةِ مِنَ الْمُسْلِمِينَ، أَوْ عَلَى قِتَالِ الْمُسْلِمِينَ.

التَّقِيَّةُ: قَالَ تَعَالَى: ﴿إِلَّا أَنْ تَكْفُؤُوا مِنْهُمْ ثَقَنَةً﴾ أَي: إِلَّا أَنْ تَكُونُوا ضَعْفَاءَ خَائِفِينَ عَلَى أَنْفُسِكُمْ خَوْفًا يَجِبُ اتِّقَاؤُهُ، كَأَنْ كَانَ الْكَافِرُ مُتَسَلِّطًا قَوِيًّا جَبَّارًا، لَهُ عَلَى الْمُسْلِمِ سُلْطَانٌ، وَيَخْشَى عَلَى أُمِّتِهِ، أَوْ عَلَى نَفْسِهِ، أَوْ مَالِهِ، أَوْ وَلَدِهِ، أَوْ عَرْضِهِ مِنَ الْقَتْلِ وَالْإِتْهَاكِ، فَيَحِلُّ لَكُمْ أَنْ تَعْصِمُوا دِمَاءَكُمْ، وَتُظْهِرُوا مَا تَحْصُلُ بِهِ التَّقِيَّةُ مِنْ غَيْرِ كَذِبٍ وَلَا نِفَاقٍ، وَهَذَا كَحَالِ مَنْ يَرَى مِنْكَرًا يَعْجِزُ عَنْ مَقَاوِمَتِهِ بِيَدِهِ فَيَنْكَرُهُ بِلِسَانِهِ.

وهكذا كان حال مؤمن آل فرعون، فهو لم يوافقهم على دينهم، ولا كان يكذب، بل كان يكتُمُ إيمانه، وكتُمَانُ الدِّينِ شَيْءٌ، وَإِظْهَارُ الدِّينِ الْبَاطِلِ شَيْءٌ آخَرُ، فَهَذَا لَمْ يُبَيِّحْهُ الْإِسْلَامُ إِلَّا لِمَنْ أَكْرَهَ وَقَلْبُهُ وَمُطْمَئِنُّ بِالْإِيمَانِ.

وتكون هذه التقية مع العدو الكافر، عند الضرورة، مع سلامة النية، وملء القلب بالإيمان.

قال سعيد بن جبیر: إنما التقية في الحرب، وقال قوم: إنما كانت التقية في أول الإسلام، قبل أن يعزَّ الله الإسلام والمسلمين، ولعل القول بأنها رخصة عند الضرورة أرجح.

أخرج البخاري عن أبي الدرداء: إنا لنكثير في وجوه أقوام، وقلوبنا تلعنهم^(١).
وقال البخاري: قال الحسن: التقية إلى يوم القيامة^(٢).

والتقية تكون باللسان مع اطمئنان القلب بالإيمان؛ مخافة القتل، أو الضرر البالغ الذي يلحق بالفرد أو الأمة. والتقية تنقسم إلى قسمين:

القسم الأول: أن يكون المسلم في بلد لا يمكنه أن يظهر فيه دينه.

وهذا يجب عليه أن يهاجر إلى بلد آخر قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّيْتُمُ الْمَلَائِكَةَ ظَالِمِينَ أَنْفُسِهِمْ قَالُوا فِيمَ كُنْتُمْ قَالُوا كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي الْأَرْضِ قَالُوا أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللَّهِ وَسِعَةً فَهَاجِرُوا فِيهَا فَأُولَئِكَ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَسَاءَتْ مَصِيرًا ﴿٩٧﴾﴾ [النساء] والموافقة لغير المسلمين تكون بقدر الضرورة، وهي بمثابة الرخصة يستعملها حتى يمكنه الفرار بدينه.

ومن ذلك ما ورد أن مسيلمة الكذاب أخذ رجلين من أصحاب النبي ﷺ فقال لأحدهما: أتشهد أن محمداً رسول الله؟ قال: نعم، نعم، نعم، قال له: أتشهد أنني رسول الله؟ قال: نعم، ثم دعا الثاني، فقال له: أتشهد أن محمداً رسول الله؟ قال: نعم، قال: أتشهد أنني رسول الله؟ قال: إني أصم، قالها ثلاثاً، فضرب عنقه، فبلغ ذلك رسول الله ﷺ فقال: أما هذا المقتول فقد مضى على صدقه ويقينه، فهنيئاً له، وأما الآخر فقد قبل رخصة الله فلا تبعة عليه.

والقسم الثاني: من كانت عداوته بسبب المال والإمارة وغيرهما.

وهذا عليه أن يُداري الفسقة والظلمة، ويُلين الكلام لهم، ولا تلزمه الهجرة ما دام يتمكن من أداء الفرائض.

جاء في البخاري وغيره عن عائشة ؓ قالت: استأذن رجلٌ على رسول الله ﷺ فقال: «ائذنوا له بنس أخو العشيرة»، (أو ابن العشيرة)، فلما دخل، ألان له الكلام، قلت: يا رسول الله، قلت الذي قلت، ثم ألتت له الكلام قال: «أي عائشة، إن من شر الناس من تركه الناس، أو ودعه الناس اتقاءً فحشه»^(٣).

(١) «فتح الباري» (١٠/ ٥٤٤) وهو في البخاري في كتاب الأدب، باب المداراة مع الناس قبل الحديث رقم: (٦١٣١).

(٢) «تفسير ابن كثير» (٢/ ٣١).

(٣) «صحيح البخاري» (٦٠٣٢، ٦٠٥٤) ومسلم (٢٥٩١).

وهكذا نَهَى الله المؤمنين أن يُلاطفوا الكفار، أو يتخذوهم وَلِجَةً من دون المؤمنين، إلا أن يكون الكفار عليهم ظاهرين، فيُظهرون لهم اللطف، ويخالفونهم في الدين، قال تعالى: ﴿مَنْ كَفَرَ بِاللَّهِ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِهِ إِلَّا مَنْ أَكْرَهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيمَانِ﴾ [النحل: ١٠٦].

وتُختم الآية بالتحذير من الانضمام إلى صفوف الأعداء، وعدم الاستعانة بهم، أو اتخاذهم بطانةً ومستشارين، قال تعالى: ﴿وَيَحْذَرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ﴾ أن تعصوه وتخالفوا أمره وتعرضوا لسخطه فيعاقبكم على ذلك ﴿وَالِلَّهِ الْمَصِيرُ﴾ والمرجع، فيُجازي كُلًّا بعمله، فإياكم أن تفعلوا من القبائح ما تستحقون به العقوبة، واعملوا بما يحصل به الأجر والثوبة.

ثماني حالات من مظاهر موالاة غير المسلمين:

هذا، وموالاة الكفار قد تكون في الظاهر والباطن، أو في الظاهر فقط، وينتج عن ذلك ثمانية أحوال:

أولاً: أن يتخذ المسلم غير المسلم ولياً له في الباطن؛ ميلاً إلى كفره، ومناوئة للمسلمين، وهذه الحالة تُكفر صاحبها؛ لأنه منافق في عقيدته، يُظهر ما لا يُبطن.

ثانياً: الميل إلى غير المسلمين؛ بسبب القرابة أو المصاهرة، دون ميل إلى دينهم، مع أن غير المسلمين هؤلاء مُجاهرون بعداوتهم للإسلام، والاستهزاء بأهله، وهذه الحالة فيها إثم كبير، ولكنها لا تكفر صاحبها.

ثالثاً: الركون إلى غير المسلمين، الذين لا يُبغضون المسلمين، ولا يؤذونهم، وهذه لا تُوجب الكفر، ولكن منهي عنها، إذ قد تجرُّ إلى استحسان ما هم عليه من المخالفات.

رابعاً: الاستعانة بغير المسلمين؛ للانتصار بهم على جماعة من المسلمين، وهذه الحالة تُقدَّر بقدرها، ويرجع الحكم فيها إلى ما يراه اجتهد أهل الحل والعقد في الأمة.

خامساً: الاستعانة بغير المسلمين؛ للانتصار بهم على غير المسلمين، مع محبة هؤلاء الكفار للمسلمين، وعرضهم للتصرة لهم، وهذه الحالة مُختلفة في حكمها، والراجح الجواز فيها عند الحاجة، ويحتج لها بقتال صفوان بن أمية مع النبي ﷺ في غزوة حنين والطائف، وهو غير مسلم، وحديث: «لن أستمع بمشرك» مُختلف في سنده.

سادساً: أن يتخذ واحد من المسلمين واحداً من غير المسلمين، في حُسن المعاشرة أو القربة، من غير أن يأتيه منه ضررٌ، وهذا غير ممنوع، كما قال ﷺ: «لأسماء: «صلي أملك».

وكان طوائف من مشركي مكة وهم: كنانة، وخزاعة، ومزينة، وبنو الحارث بن كعب، كانوا يودّون انتصار المسلمين على أهل مكة، وقال مالك: تجوز تعزية الكافر، وكان ﷺ يرتاح للأخنس بن شريق؛ لما يبدو من محبته للنبي ﷺ، والتردد عليه.

سابعاً: حالات المعاملات الدنيوية؛ كالتجارات، والعهود، والعقود، والمصالحات، والاستشارات، ولا مانع منها في حدود المصلحة العامة، وأن تكون التجارات غير مُحَرَّمَةٍ، وغير ربوية، وليس فيها مخالفات شرعية، والاستشارات لا تكون في الأمور الشرعية بل في العلوم التجريبية والمسائل الدنيوية.

ثامناً: إظهار الموالاة لهم اتقاء لضررهم إذا كانوا في موقف لا يُقاوم، وهذا الذي قال الله فيه: ﴿إِلَّا أَنْ تَكْفُؤْا مِنْهُمْ ثِقَلَكُمُ﴾، وهذه التقية لا تكون أبداً بين الشنّة والشيعّة، ولا بين سائر الفرق الإسلامية^(١).

عِلْمُ اللَّهِ تَعَالَى مُحِيطٌ بِمَا فِي الصُّدُورِ

٢٩- ﴿قُلْ إِنْ تُخْفُوا مَا فِي صُدُورِكُمْ أَوْ بُنْدُوهُ يَعْلَمَهُ اللَّهُ وَيَعْلَمُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ (١٩)

والله تعالى مطلعٌ على حقيقة ما في قلوبكم من حب موالاة الكفار أو معاداتهم، لا يخفى عليه شيء في الأرض ولا في السماء، وفي هذا تنبيهٌ من الله تعالى لعباده ألا يرتكبوا ما نهى الله عنه، فهو سبحانه عالمٌ بجميع أمورهم، قادرٌ على تعجيل العقوبة لهم، ولكنه سبحانه يُمهّل ولا يُهمّل.

أخرج الإمام أحمد وغيره عن عبادة بن الوليد بن عبادة، حدثني أبي قال: دخلت على عبادة وهو مريض، أتخايلُ فيه الموت، فقلت: يا أبتاه أوصني واجتهد لي، فقال: أجلسوني، قال: يا بُني إنك لا تَطْعَمُ طعم الإيمان ولن تبلغ حقيقة العلم بالله تبارك وتعالى حتى تؤمن بالقدر خيره وشره، قال: قلت: يا أبتاه، فكيف لي أن أعلم ما خير

(١) ملخصاً من «تفسير التحرير والتنوير» (٣/ ٢١٩).

القدر وشره؟ قال: تعلم أن ما أخطأك لم يكن ليصيبك، وما أصابك لم يكن ليخطئك، يا بني، إني سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إن أول ما خلق الله تبارك وتعالى القلم، ثم قال: اكتب، فجرى في تلك الساعة بما هو كائن إلى يوم القيامة، يا بني، إن متَّ ولست على ذلك دخلت النار»^(١).

فيا أيها المؤمنون إن تكتموا ما استقر في قلوبكم من موالاة الكفار ونصرتهم، أو تظهروا ذلك، لا يخف على الله منه شيء، فإن علمه محيط بكل ما في السموات وما في الأرض، وله القدرة التامة على كل شيء.

عَمَلُ الْخَيْرِ وَالشَّرِّ، سَبَبُ لِمَحَبَّةِ اللَّهِ تَعَالَى وَبُغْضِهِ، وَثَوَابِهِ وَعِقَابِهِ

٣٠- ﴿يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِنْ سُوءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُ أَمَدًا بَعِيدًا وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ وَاللَّهُ رَءُوفٌ﴾^(٢) بِالْعِبَادِ ﴿٣٠﴾

وفي يوم الحساب والجزاء تجد كل نفس ما عملته في الدنيا من خيرٍ حاضرًا أمامها ينتظرها، فتسرُّ به ﴿فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ﴾ [الزلزلة: ٧].
والخير اسم جامع لكل ما يقرب العبد من ربه من الأعمال الصالحة صغيرها وكبيرها.

وأما ما عملته من شرٍّ فتمنى لو كان بينها وبين ما عملته من سوء زمانًا بعيدًا أو مكانًا بعيدًا، ويوم القيامة يتبرأ الإنسان من عمله السيئ، ويتبرأ من الشيطان الذي جرَّاه على مخالفة شرع الله، وقد كان قرينه في الدنيا، ولكنه في الآخرة يقول: ﴿يَلَيْتَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ بُعْدَ الْمَشْرِقَيْنِ فَيَلْسَ الْقَرِينُ﴾ [الزخرف: ٣٨] قال تعالى مقررًا عدم جدوى هذا التبرؤ:

﴿وَلَنْ يَنْفَعَكُمْ الْيَوْمَ إِذْ ظَلَمْتُمْ أَنْتُمْ فِي الْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ﴾ [الزخرف]

وجاء في آية أخرى: ﴿قَالَ قَرِينُهُ رَبَّنَا مَا أَطْعَمْتُهُ وَلَكِنْ كَانَ فِي ضَلَالٍ بَعِيدٍ﴾ [ق].

(١) «المسند» (٣١٧ / ٥) برقم: (٢٢٧٠٥) حديث صحيح بإسناد حسن كما قال محققوه، وصححه الألباني في «صحيح سنن أبي داود» برقم: (٣٩٣٣) وانظر «مشكاة المصابيح» (٩٤) والطحاوية (٢٣٢)، وقد أخرجه الطيالسي (٥٧٧) والترمذي (٢١٥٥) وابن أبي عاصم في السنة (١٠٤) وغيرهم.
(٢) قرأ أبو عمر وشعبة وحمزة والكسائي ويعقوب وخلف العاشر (والله رؤف) بحذف الواو بعد الهمزة، والباقون بإثباتها، وهما لغتان.

فليحذر العبد من أعمال السوء قبل أن يقول ﴿أَنْ تَقُولَ نَفْسٌ بِحَسْرَتٍ عَلَى مَا فَرَّطْتُ فِي جَنْبِ اللَّهِ﴾ [الزمر: ٥٦] وقبل أن يتمنى لو تُسَوَّى به الأرض ﴿يَوْمَئِذٍ الَّذِينَ كَفَرُوا وَعَصَوْا الرَّسُولَ لَوْ تُسَوَّى بِهِمُ الْأَرْضُ وَلَا﴾ [النساء: ٤٢] وفي هذا اليوم يندم المقصر وبعضُ أصابعه ﴿وَيَوْمَ يَعْصُ الظَّالِمُ عَلَى يَدَيْهِ يَقُولُ يَلَيْتَنِي أَخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَبِيلًا﴾ ﴿٢٧﴾ يَوَلَّتْ لَيْتَنِي لَمْ أَتَّخِذْ فَلَانًا حَلِيلًا﴾ [الفرقان: ٢٧، ٢٨]

والسوء كلمة جامعة لكل ما يسخط الله تعالى من الأعمال السيئة، صغيرها وكبيرها ﴿وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ﴾ [الزلزلة: ٨]

فاستعدوا للقاء الله وخافوا بطشه وانتقامه، فهو سبحانه رؤوف بكم، ومن رأفته بكم أنه حذركم من التعرض لسخطه، ومن رأفته بكم أيضًا أنه أمهلكم للتوبة وتدارك العمل الصالح، وذلك أنه سبحانه لما توعد العصاة بالعقاب في قوله: ﴿وَيَحْذَرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ﴾ أتبعه بوعده رحمته لعباده المؤمنين فقال: ﴿وَاللَّهُ رَءُوفٌ بِالْعِبَادِ﴾ كما قال تعالى: ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرٍ لِلنَّاسِ عَلَى ظُلْمِهِمْ وَإِنَّ رَبَّكَ لَشَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ [الرعد: ٦].

فراقبوا الله - أيها المؤمنون - وتزودوا بالعمل الصالح، واذكروا يوم الحساب والجزاء حيث تجد كل نفس ما عملت من خيرٍ أو شرٍ ينتظرها تراه بعينها في صحيفة عملها ثابتًا ومسجلًا، فتمنى أن يكون بينها وبين عملها السيئ زمانًا بعيدًا، فاستعدوا للقاء هذا اليوم، وخافوا عقاب الله، ومع شدة عقاب الله تعالى فإنه رؤوفٌ بعباده رحيمٌ بهم، يفتح لهم باب التوبة حتى يقلعوا عن خطاياهم. قال تعالى:

٣١- ﴿قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ ﴿٣١﴾

ثم إن الخير الذي يجده المرء في صحيفة عمله يوم لقاء ربه سببه محبة الله ورسوله، واتباع ما أمر الله به ورسوله، فإن كنتم تريدون الفوز بالجنة والنجاة من النار فاسلكوا طريق المحبين، وإن كنتم تريدون عكس ذلك فأنتم في دار المهلة.

وعلاوة الصدق: اتباع رسول الله ﷺ في جميع أحواله، في أقواله وأفعاله، في أصول الدين وفروعه، في الظاهر والباطن، فمن اتبع الرسول دلَّ ذلك على صدق محبته لله تعالى، ومن لم يتبع الرسول فليس محبًا لله تعالى، لأن محبة الله توجب اتباع رسوله،

وعلى قدر اتباع الرسول ﷺ تكون محبة العبد لربه، وما نقص من ذلك فبمقداره.

أسباب النزول:

١- ولما قال اليهود والنصارى: ﴿مَنْ أَبْتَوَا اللَّهَ وَآجَبْتُوهُ﴾ نزل قول الله تعالى: ﴿قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ﴾ فعرضها عليهم رسول الله ﷺ فلم يقبلوها^(١).

٢- وقيل: وقف الرسول ﷺ على قریش وهم يسجدون للأصنام، فقال لهم: «لقد خالفتم ملّة أبيكم إبراهيم وإسماعيل» فقالوا: إنما نعبدها حبا لله، لأنها تقربنا إلى الله زلفى، فنزلت الآية^(٢).

٣- وسبب النزول الموافق لسياق السورة أن نصارى نجران قالوا للنبي ﷺ: إنما نقول هذا في عيسى حُبًّا وتعظيمًا له، فأنزل الله الآية^(٣) تُبين أن نبوة محمد ﷺ ثبتت بالدلائل الظاهرة، والمعجزات الباهرة، ونسخت ما قبلها، فوجب على جميع الخلق متابعتها، فإن كنتم تحبون الله فاتبعوا محمدًا وآمنوا به؛ يحببكم الله، ويمحو ذنوبكم، فهو غفار لذنوب عباده، رحيمٌ بهم.

٤- وقال الحسن وابن جريج: زعم أقوامٌ على عهد رسول الله ﷺ أنهم يحبون الله، فقالوا: يا محمد، إنا نحب ربنا، فأنزل الله الآية^(٤).

وهذه الآية حاكمةٌ على كل من ادّعى محبة الله تعالى وليس متبعًا لرسول الله ﷺ أنه كاذبٌ في دعواه، حتى يتابع الرسول ﷺ حق المتابعة، فكلٌّ من كان صادقًا في دعوى محبة الله تعالى فعليه أن يكون متقادًا لأوامر الله تعالى مطيعًا له، وأن يتبع محمدًا ﷺ، فإن اتباعه وطاعته من محبة الله وطاعته.

فإن كنتم تحبون الله حقًا فاتبعوني وآمنوا ظاهراً وباطناً يحببكم الله ويمحُ ذنوبكم، فإنه غفورٌ لذنوب عباده المؤمنين رحيمٌ بهم.

أخرج البخاري وغيره عن أنس بن مالك ؓ أن رجلاً سأل النبي ﷺ: متى الساعة يا

(١) النيسابوري عن ابن عباس (٨٦).

(٢) «زاد المسير» (١/ ٣٧٣).

(٣) «تفسير الطبري» (٣/ ١٥٥).

(٤) الطبري (٣/ ٢٣٢) والألوسي (٣/ ١٣٠).

رسول الله؟ قال: «ما أعددت لها؟» قال: ما أعددت لها من كثير صلاة ولا صوم ولا صدقة، ولكنني أحب الله ورسوله، قال: «أنت مع مَنْ أحببت»^(١).

وفي صحيح مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «إن الله إذا أحب عبداً دعا جبريل فقال: إني أحب فلاناً فأحبه، قال: فيحبه جبريل، ثم ينادي في أهل السماء، فيقول: إن الله يحب فلاناً فأحبه، فيحبه أهل السماء، قال: ثم يوضع له القبول في الأرض، وإذا أبغض عبداً دعا جبريل فيقول: إني أبغض فلاناً فأبغضه، قال: فيبغضه جبريل، ثم ينادي في أهل السماء: إن الله يبغض فلاناً فأبغضوه، قال: فيبغضونه، ثم توضع له البغضاء في الأرض»^(٢).

ولما نزلت هذه الآية قال عبد الله بن أبي بن سلول -رأس المنافقين- لأصحابه: إن محمداً يجعل طاعته كطاعة الله، ويأمرنا أن نحبه كما أحببت النصارى عيسى ابن مريم، فأنزل الله تعالى:

٣٢- ﴿قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْكَافِرِينَ﴾

أطيعوا الله في كتابه، وأطيعوا رسوله في سنته، وطاعة الله متعلقة بطاعة الرسول، وطاعة الله لا تتم مع عصيان الرسول.

والسنة هي المصدر الثاني للتشريع وإنكارها كفر مُخرج من الملة.

وطاعة الله والرسول يدخل فيها: التوحيد والإيمان، وجميع ما أمر الله به من الأصول والفروع، والأعمال والأقوال الظاهرة والباطنة، ويدخل فيها: اجتناب ما نهى الله عنه، فمن أطاع الله والرسول فأولئك هم المفلحون، ومن تولى وأعرض فإن الله تعالى يبغضه ويمقتة، وهو متبع لهواه وشيطانه ﴿كُتِبَ عَلَيْهِ أَنَّهُ مَنْ تَوَلَّاهُ فَأَنَّهُ يُضِلُّهُ وَيَهْدِيهِ إِلَى عَذَابِ السَّعِيرِ﴾ [الحج: ٤] وكأن في هذه الآية بياناً وتفسيراً لما في الآية السابقة من محبة النبي ﷺ.

عن عبيد الله بن أبي رافع عن أبيه عن النبي ﷺ قال: «لا ألفين أحدكم متكئاً على أريكته، يأتيه الأمر من أمري، مما أمرت به، أو نهيت عنه، فيقول: لا ندري، ما وجدنا

(١) «صحيح البخاري» برقم: (٣٦٨٨، ٦١٧١) و«صحيح مسلم» (٢٦٣٩).

(٢) «صحيح مسلم» (٢٦٣٧).

في كتاب الله اتباعناه»^(١).

وقد أخذ الله العهد والميثاق على جميع النبيين أن يؤمنوا بمحمد ﷺ عند مجيئه ويتبعوه، قال تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَا آتَيْتُكُم مِّن كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِءَ وَلَتَنْصُرُنَّهُ قَالَ أَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِي قَالُوا أَقْرَرْنَا قَالَ فَاشْهَدُوا وَأَنَا مَعَكُمْ مِنَ الشَّاهِدِينَ ﴿٨١﴾﴾ [آل عمران]

وإذا وجب اتباع محمد ﷺ ونصرة دينه على الرُّسل فإنه واجب على بقية الخلق من باب أولى .

عن أبي هريرة ؓ أن رسول الله ﷺ قال: «كُلُّ أُمِّي يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ إِلَّا مِنْ أَبِي» قالوا: ومن يأبى؟ قال: «مَنْ أَطَاعَنِي دَخَلَ الْجَنَّةَ، وَمَنْ عَصَانِي فَقَدْ أَبَى»^(٢).

وفي الصَّحِيحَيْنِ عن أبي هريرة أيضًا أن رسول الله ﷺ قال: «مَنْ أَطَاعَنِي فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ، وَمَنْ عَصَانِي فَقَدْ عَصَى اللَّهَ، وَمَنْ يَطْعُ الْأَمِيرَ فَقَدْ أَطَاعَنِي، وَمَنْ يَعْصِي الْأَمِيرَ فَقَدْ عَصَانِي»^(٣).

بَدْءُ قِصَّةِ النَّصَارَى

٣٣- ﴿إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَىٰ آدَمَ وَنُوحًا وَإِبْرَاهِيمَ وَآلَ عِمْرَانَ عَلَى الْعَالَمِينَ ﴿٣٣﴾﴾

بعد التمهيد للرد على نصارى نجران تخلص السورة إلى بدء قصة النَّصَارَى من لدن آدم ونوح عليهما السلام، فهذا المقطع من السورة يتحدث عن ولادة مريم أم عيسى ؑ، وعن ولادة يحيى بن زكريا عليهما السلام، ويتحدث كذلك عن ولادة عيسى ؑ، وذلك في إطار الحوار والمناظرة التي أجراها رسول الله ﷺ مع وفد نصارى نجران لإثبات التوحيد، وأن الله ﷻ واحدٌ أحدٌ، لا والد له ولا ولد، وأن عيسى عبد الله ورسوله،

(١) أبو داود برقم: (٤٦٠٥) وهو في «صحيح سنن أبي داود» برقم: (٣٨٤٩) والترمذي برقم: (٢٦٦٣) و«المستدرک» (١٠٨ / ١) (٢٣٨٦١) وصححه الحاكم ووافقه الذهبي (١٠٨ / ١) وهو في «صحيح سنن ابن ماجه» رقم: (١٣) وقال البغوي في شرح السنة (١ / ٢٠٠): حديث حسن وأخرجه ابن حبان (١٣)، وهو في المسند (٢٣٨٧٦) إسناده صحيح ورجاله ثقات رجال الشيخين، كما قال محققوه.

(٢) «المسند» برقم: (٨٧٢٨) إسناده صحيح على شرط البخاري، وأخرجه البخاري برقم: (٧٢٨٠) والحاكم (٥٥ / ١).

(٣) الحديث في البخاري (٢٩٥٧، ٧١٣٧) وفي مسلم (١٨٣٥، ١٨٤١).

ليس إلهاً ولا ابناً للإله ولا جزءاً من إله.

قال ابن عباس: قالت اليهود: نحن من أبناء إبراهيم وإسحاق ويعقوب، ونحن على دينهم، فأنزل الله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَىٰ آدَمَ وَنُوحًا﴾.

ابتدأ الله ﷻ هذا الرُّبْع من القرآن، ببيان أن الله تعالى قد اصطفى من البشر رجلين، والرجلان هما آدم ونوح، وآدم هو أبو البشر عند جميع أهل الشرائع، وقد ألهمه الله تعالى هذا الاسم؛ ليكون علماً عليه.

أ- وفي سفر التكوين - مِنْ كُتِبَ العهد عند اليهود - أن آدم وُجِدَ على الأرض في وقت يوافق سنة ٣٩٤٢ قبل الميلاد، وأنه عاش تسعمائة وثلاثين سنة، فتكون وفاته سنة ٣٠١٢ قبل الميلاد.

ب- وأما نوح ﷺ فتقول التوراة: إنه ابن لَامَك، وجِدُّه أَخْنُوخ، وهو إدريس عليه السلام، وبين إدريس وشيث بن آدم أربعة آباء، فيكون نوح قد وُلِدَ تقريباً سنة ٢٨٨٦ قبل الميلاد، وتُوفِيَ سنة ١٩٣٦ قبل الميلاد، ودُفِنَ نوح في العراق في نواحي الكوفة غالباً.

ج- وآل إبراهيم عليه السلام هم أبناؤه وحفيده وأسابطه، ومن عَقِبِهِ إسماعيل، وموسى، ومحمد، وحنظلة بن صفوان، وخالد بن سنان، وهما من أنبياء بني إسرائيل.

د- وأما آل عمران فهم: مريم وعيسى، وعمران من نسل هارون أخي موسى وليس المراد: عمران والد موسى وهارون، وإنما هو عمران بن ياشم بن ميثا بن حُزْقِيَال، وينتهي نسبه إلى إبراهيم.

هـ- ومن أبناء إبراهيم، إسحاق، ومن بنيهِ عددٌ من الأنبياء: كداود وسليمان وأيوب ويوسف وموسى وهارون.

ومن فرع إسحاق، آل عمران، وهم ذريته وأقاربه، كزكريا ويحيى وعيسى، وهو آخر أنبياء بني إسرائيل.

إن الله اصطفى آدم أباً البشر الأول، ونوحاً أباً البشر الثاني عليهما السلام، وسُمِّيَ نوحاً لكثرة نوحه على نفسه.

واصطفى من العشائر، عشيرتين، بمعنى أنه تعالى اختارهم وأخلصهم للإسلام، وأنتم يا معشر اليهود على غير دين الإسلام.

العشيرة الأولى: آل إبراهيم:

ومن ذرية إبراهيم إسماعيل، ومنه محمد ﷺ، ومن ذريته أيضًا إسحاق ويعقوب، ومنهما جميع أنبياء بني إسرائيل عليهم جميعًا أفضل الصلاة وأتم التسليم.

وقد جعل الله إبراهيم أصلًا لشُعْبَتَيْن، فجعل إسماعيل أصلًا للعرب، ومحمدًا سيّدَهُم، وجعل إسحاق أصلًا لبني إسرائيل، وجعل فيهم النُّبُوَّةَ والملك إلى زمن محمد ﷺ، فجمع الله لإبراهيم ولأمته بين النُّبُوَّةَ والملك إلى يوم القيامة.

واختصه الله بالخَلَّةِ، وبذل نفسه للنيران، وولده للقربان، وماله للضيغان، وجعله أمة، وأسوة يقتدى به، وجعل في ذريته النبوة والكتاب.

واصطفاه آدم ﷺ يعني خلقه بيد الله تعالى، ونفخه فيه من روحه نفخة مباشرة، وعَلَّمَهُ الأسماء كلها، وأسجد له الملائكة، وأسكنه الجنة، وأعطاه من العلم والحلم والفضل ما فاق به ذريته.

واصطفاه نوح ﷺ بأن جعله الله أول الرُّسُل، لعبدة الأوثان، ونَجَّاهُ من الغرق، وأهلك المكذِّبين له، وأعطاه الكثير من الصبر والتحمل والشكر، وقام بالدعوة إلى الله تعالى في جميع الأوقات، وترك الله عليه ثناءً يذكر به إلى يوم الدين.

وقد جعل الله من آل إبراهيم محمد عليهما السلام، ومن آل عمران عيسى ﷺ.

وَالْعَشِيرَةُ الثَّانِيَّةُ: آل عمران:

الذي تتحدث عنه هذه الآيات من سورة آل عمران، وهو عمران والد مريم أم عيسى ﷺ، وهو غير عمران والد موسى وهارون عليهما السلام، وبين عمران والد موسى وعمران والد مريم، نحو ألف وثمان مئة عام، أي: أن بينهما قرونًا وأجيالًا كثيرة.

وقيل: إن المراد بعمران في الآية، والد موسى عليه السلام، والأول أنسب لسياق الآيات. قال تعالى:

٣٤- ﴿ذُرِّيَّةً بَعْضُهَا مِنْ بَعْضٍ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾

وهؤلاء الأنبياء الذين انحدروا من صلب آدم أبي البشر الأول، ومن صلب نوح أبي البشر الثاني، سلسلة طاهرة متواصلة في إخلاص التوحيد والعمل لله تعالى، والله سميع لأقوال عباده، عليم بأحوالهم، وسوف يجازيهم عليها، إنها سلالة بعضها من بعض في النبوة والصلاح والتقوى، والله سبحانه يعلم من يستحق الاصطفاء فيصطفيه، ومن لا يستحق فيخذله ويُرديه، وقد ذكر الله لنا قصة هؤلاء الأصفياء كي تقتدى بهم.

ونسأل الله تعالى أن يوفقنا لما وفقهم، فهم أهل الثناء في الأولين والآخرين.

وَلَادَةُ مَرْيَمَ وَكَفَالَتُهَا وَخِدْمَتُهَا لَبَيْتِ الْعِبَادَةِ

٣٥- ﴿إِذْ قَالَتِ امْرَأَتُ^(١) عِمْرَانَ رَبِّ إِنِّي نَذَرْتُ لَكَ مَا فِي بَطْنِي مُحَرَّرًا فَتَقَبَّلْ مِنِّي^(٢) إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾

أما امرأة عمران -أم مريم- فاسمها حنة بنت فاقوذ بن قنبل، أم مريم وجدة عيسى.

وعمران هو زوجها، وهو أبو مريم، وكانت حنة امرأة مسنة لا تلد، جلست ذات يوم تحت شجرة في حديقة، فرأت طائرًا يُطعمُ فرخه ويدقُّ الطعام بفيه، فاشتاقت نفسها إلى رؤية المولود، وأن تكون أمًا لولد، فدعت ربها أن يرزقها بالحمل ولدًا، ونذرت لله جلَّ شأنه إن رزقها الله ولدًا أن تجعله لخدمة البيت المقدس، محررًا لخدمته خالصًا لوجه الله سبحانه، ولخدمة بيته الكريم، وسألت ربها القبول فهو السميع لأقوالها، العليم بحالها حيث قالت: ﴿فَتَقَبَّلْ مِنِّي^(٢) إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾، تسمع دعائي وتعلم نيتي وقصدي.

والنذر: ما يوجهه الإنسان على نفسه، وكان هذا النذر مشروعًا عندهم، إذ لم يكن أحدٌ من أنبياء وعلماء بني إسرائيل إلا ومن أولاده من هو محررٌ لخدمة البيت المقدس، ولم يكن يحزر إلا الغلمان؛ لأن الجارية لا تصلح لخدمة بيت العباد، لما يتأبها من الحيض والأذى، فحررت أم مريم ما في بطنها.

(١) (امرات) رُسِمَت بالتاء المفتوحة في المصاحف، ويُوقف عليها بالتاء تبعًا للرسم، ووقف عليها ابن كثير وأبو عمرو والكسائي ويعقوب بالهاء، وهي لغة فصحى.

(٢) فَتَحَّ ياء الإضافة من (مني إنك) نافع وأبو عمرو وأبو جعفر، وأسكنها غيرهم، وهما لغتان.

والمحرّر: هو من يقوم على خدمة الكنيسة، ولا يشغله عنها شيء، ولا يبرح مقيماً فيها حتى يبلغ الحلم، ثم يخير، فإن اختار الإقامة فيها وإلا ذهب حيث يشاء. قال تعالى:

٣٦- ﴿فَلَمَّا وَضَعَتْهَا قَالَتْ رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَا أُنْثَىٰ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعْتَ^(١) وَلَيْسَ الذَّكَرُ كَالْأُنْثَىٰ وَإِنِّي سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ وَإِنِّي أُعِيذُهَا بِكَ وَذَرَيْتَهَا مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ^(٢)﴾

أجاب الله دعاء حنة فحملت بمريم، ولكن المرأة لا تصلح لخدمة بيوت الله كما يصلح الرجل؛ لأنها تحيض وتلد.

فلما وضعتها ووجدت المولود أنثى وليس بذكر -والله سبحانه أعلم بما وضعت- فهو لا يحتاج إلى علمها، بل علمه متعلق بها قبل أن تعلم أمها ما هي.

عندئذ اعتذرت (حنة) إلى الله ﷻ؛ لأن المولود لا يصلح لخدمة البيت، وليس الذكر كالأنثى في خدمة بيوت الله، كأنها تشوفت أن يكون المولود ذكراً ليكون أقدر على الخدمة.

وقد أسمتها مريم، ومعنى مريم العابدة الخادمة لله ﷻ، وأعادتها وذريتها بالله من الشيطان الرجيم.

وفي أمر مريم وأمها وابنها عيسى وقصة ولادته ردُّ على من ادعى ألوهية عيسى ﷺ.

في الصحيحين وغيرهما عن أبي هريرة ؓ قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «ما من بني آدم مولودٌ إلا يَمَسُّهُ الشيطان حين يُولد، فيستهل صارخاً من مس الشيطان غير مريم وابنها»، ثم قال أبو هريرة: اقرؤوا إن شئتم ﴿وَإِنِّي أُعِيذُهَا بِكَ وَذَرَيْتَهَا مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ﴾^(٣).

وفي الحديث عن أبي هريرة ؓ قال: «كلُّ ابن آدم يَطْعَنُ الشيطان في جنبه بإصبعه حين يُولد، غير عيسى ابن مريم، ذهب لِيَطْعَنَ فَطَعَنَ فِي الْحِجَابِ»^(٤).

(١) قرأ ابن عامر وشعبة ويعقوب بإسكان العين وضم التاء من (وَضَعْتُ) وهو من كلام أم مريم والتاء للفاعل، والباقون بفتح العين وإسكان التاء (وَضَعْتُ) من كلام الله تعالى، والتاء للتأنيث.

(٢) فَتَحَ بَاء الإضافة وصلّاً من (وَإِنِّي أُعِيذُهَا) نافع وأبو جعفر، وسكنها الباقر وصلّاً ووقفاً.

(٣) البخاري (٣٢٨٦، ٣٤٣١) ومسلم (٢٣٦٦) و«المسند» (٧١٨٢، ٨٢٥٤) وعبد الرزاق (١/ ١١٩) وغيرهم.

(٤) أخرجه البخاري (٣٢٨٦)، (٣٤٣١) وهو في مسلم (٢٣٦٦) و«تفسير الطبري» (٣٤٢/٦) و«المسند» (٥٢٣/٢) برقم

(١٠٧٧٣)، قال محققوه: حديث صحيح وإسناد قوي من طريق أبي الزناد عن الأعرج، والحميدي (١٠٤٢).

فالله ﷻ قد أجاب دعوة أم مريم وأعادها وابنها عيسى من نخس الشيطان ونزغه .
 قالت أم مريم: وإني أعيدها -أي: مريم- بك وذريتها، وهو عيسى ﷺ من الشيطان
 الرجيم، وقد ثبت في السنة تسمية المولود وتحنيكه والعقُّ عنه .
 صحَّ في البخاري وغيره أن أنس بن مالك ذهب بأخيه حين ولدته أمه إلى رسول الله
 ﷺ فحنَّكه وسَمَّاه عبد الله^(١) .

وعن سمرة بن جندب أن رسول الله ﷺ قال: «كل غلام رهين بعقيقته، يُدبج عنه يوم
 سابعه، ويُسمَّى، ويُحلق رأسه»^(٢) .

حول ولادة عيسى ﷺ: لم يتصل بمريم أحدٌ من البشر، ولما كان بعض الناس يقولون:
 إن عيسى ابن الله، فإن هذه المقالة تدفع إلى وهم لا أصل له، وهو أن بين الله تعالى وبين
 مريم صلة خاصة، وكان عيسى ثمرتها، وهذه جهالة بحق الألوهية، لقد كان ميلاد عيسى
 خارقاً للعادة لا يحكمه قانون السببية، ولذلك فقد جاء ذكر قصة مريم وابنها، وهي خارقة
 للعادة، بعد قصة زكريا وزوجته وهي خارقة للعادة أيضاً، ويستحيل أن يكون لله ولدٌ وفق
 هذا التصوُّر الهابط ﴿لَوْ أَرَادَ اللَّهُ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَدًا لَأَصْطَفَىٰ مِمَّا يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ﴾ [الزمر: ٤] .

ومن عجائب الأمور أن يُكفَلَ ثلاثة من أولى العزم من الرُّسل، ثلاث نساء ضعيفات،
 وهم موسى وعيسى ومحمد صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين .

كَفَالَةُ زَكَرِيَّا لِمَرْيَمَ

٣٧- ﴿فَنَقَلْنَاهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَأَنْبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا وَكَفَّلَهَا^(٣) زَكَرِيَّا^(٤)﴾ كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا

(١) «صحيح البخاري» برقم: (١٣٠١، ١٥٠٢، ٥٤٧٠) و«صحيح مسلم» برقم: (٢١١٩، ٢١٤٤) .

(٢) «المسند» (١٢ / ٥) برقم: (٢٠٠٨٣) بإسناد صحيح ورجال ثقات رجال الشيخين كما قال محققوه .
 والترمذي (١٥٢٢) وأبو داود (٢٨٣٨) والنسائي (١٦٦ / ٧) وابن ماجه (٣١٦٥) والبخاري (٥٤٧٢) و«سنن
 النسائي الكبرى» (٤٥٣٢) .

(٣) قرأ عاصم وحمزة والكسائي وخلف بتشديد الفاء من (وكفَّلها) على أن فاعل كفَلَ ضمير يعود على الله
 تعالى، والهاء مفعول ثانٍ مقدَّم، وزكريا مفعول أول؛ أي: جعل الله زكريا كافلاً لمريم وضامناً لها، وقرأ
 الباقون بتخفيف الفاء، والفاعل زكريا، والهاء مفعول به؛ أي: كفَلَ زكريا مريم .

(٤) قرأ حفص وحمزة والكسائي وخلف العاشر (زكريا)، وقرأ الباقون (زكرياء) بالهمز والمد .

الْمَحْرَابَ وَجَدَ عِنْدَهَا رِزْقًا قَالَ يَمْرُؤُا أَنَّى لَدَيْ هَذَا قَالَتْ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٣٧﴾
توفي والد مريم وذهبت أمها بها إلى بيت المقدس وفاءً بنذرهما بعد أن بشرها ربها بأنه
قَبِلَ منها هذه الأنثى لخدمة البيت .

روي أنها لَفَّتْهَا فِي خِرْقَةٍ وَحَمَلَتْهَا إِلَى الْمَسْجِدِ وَوَضَعَتْهَا عِنْدَ الْأَحْبَارِ، مِنْ أَبْنَاءِ
هَارُونَ، وَكَانُوا فِي بَيْتِ الْمَقْدِسِ كَالْحَجَّابَةِ فِي الْكَعْبَةِ، فَقَالَتْ لَهُمْ: دُونَكُمْ هَذِهِ النَّذِيرَةُ،
فَتَنَافَسُوا عَلَيْهَا؛ لِأَنَّهَا كَانَتْ ابْنَةَ إِمَامِهِمْ ﴿فَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ﴾ أَي جَعَلَ اللَّهُ نَذْرَهَا
مَقْبُولًا، وَأَجَارَهَا وَذَرَبَتْهَا مِنَ الشَّيْطَانِ .

قالت أم مريم للأحبار الذين يكتبون التوراة، وهم سَدَنَةُ بَيْتِ الْمَقْدِسِ، وَمِنْهُمْ زَكَرِيَّا
وَهُوَ كَاهِنٌ إِسْرَائِيلِيٌّ مِنْ نَسْلِ بَنِيَامِنْ، جَاءَتْهُ النَّبُوءَةُ عَلَى كِبَرٍ، وَكَانَتْ امْرَأَتُهُ (نَسِيئَةً) خَالَةً
مَرِيْمَ عَلَى الصَّحِيحِ، وَلَيْسَتْ أختها، وَزَكَرِيَّا ﷺ هُوَ النَّبِيُّ الْمُرْسَلُ، وَهُوَ زَوْجُ خَالَتِهَا .

قالت حَنَّةُ لِلْأَحْبَارِ: هَذِهِ ابْنَتِي نَذَرْتُهَا لِلَّهِ ﷻ، وَأَعْطَيْتُهُمْ إِيَّاهَا، فَكَانَ كُلُّ مَنْهُمْ يَرِيدُ أَنْ
يَقُومَ عَلَى تَرْبِيَّتِهَا وَكَفَالَتِهَا، فَاقْتَرَعُوا وَضَرَبُوا السَّهَامَ، وَأَلْقَوْا بِأَقْلَامِهِمْ، الَّتِي يَكْتُبُونَ بِهَا
التَّوْرَةَ فِي نَهْرِ الْأُرْدُنِّ وَكَانُوا سَبْعَةً وَعِشْرِينَ، وَالْعَلَامَةُ أَنَّ مَنْ يَجْرِي قَلَمُهُ فِي النَّهْرِ فَإِنَّهُ لَا
يَأْخُذُ مَرِيْمَ، وَأَنَّ الَّذِي يَثْبِتُ قَلَمَهُ وَيَقِفُ عَلَى وَجْهِ الْمَاءِ هُوَ الَّذِي يَأْخُذُ مَرِيْمَ وَيَقُومُ عَلَى
رِعَايَتِهَا وَتَرْبِيَّتِهَا، فَكَانَتِ الْقِرْعَةُ مِنْ نَصِيبِ زَكَرِيَّا ﷺ، زَوْجُ خَالَتِهَا، حَيْثُ وَقَفَ قَلَمُهُ
عَلَى وَجْهِ الْمَاءِ كَأَنَّهُ مَغْرُورٌ فِي طِينٍ ثَابِتٍ لَا يَتَدَحَّرُ وَلَا يَتَحَرَّكُ، ذَلِكَ قَوْلُ اللَّهِ سُبْحَانَهُ:
﴿ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ﴾ الْخَطَابُ لِمُحَمَّدٍ ﷺ ﴿إِذْ يَقُولُ
أَقْلَمَهُمْ﴾ فِي النَّهْرِ ﴿أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرِيْمَ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ﴾ [آل عمران: ٤٤] أَي:
وَهُمْ يَتَصَارِعُونَ وَيَخْتَصِمُونَ وَيَخْتَلِفُونَ فِيمَنْ يَقُومُ بِكَفَالَةِ مَرِيْمَ، ﴿فَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ﴾
أَنَّ تَخْدِمَ الْبَيْتِ، وَأَنْبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا بِرِعَايَتِهَا وَحُسْنِ أَخْلَاقِهَا وَصَلَاحِهَا وَتَقْوَاهَا وَكَفْلِهَا
زَكَرِيَّا، فَنَشَأَتْ فِي عِبَادَةِ رَبِّهَا، وَانْقَطَعَتْ لِلْعِبَادَةِ، وَلَزِمَتْ الْمَحْرَابَ .

أَقَامَ لَهَا زَكَرِيَّا مَكَانًا مَخْصُصًا فِي جِهَةِ الْمَحْرَابِ لَا يَصِلُ إِلَيْهِ أَحَدٌ، فَكَانَ كُلَّمَا ذَهَبَ
إِلَيْهَا وَجَدَ عِنْدَهَا أَمْرًا عَجِيبًا، حَيْثُ وَجَدَ عِنْدَهَا الطَّعَامَ وَالشَّرَابَ وَالْفَاكِهَةَ مِنْ غَيْرِ كَسْبٍ
وَلَا تَعَبٍ، بَلْ رَزَقَ سَاقَهُ اللَّهُ إِلَيْهَا فِي غَيْرِ أَوَانِهِ مِمَّا هُوَ لَيْسَ عِنْدَ سَائِرِ النَّاسِ، فَاكِهَةُ
الشِّتَاءِ فِي الصَّيْفِ، وَفَاكِهَةُ الصَّيْفِ فِي الشِّتَاءِ وَهُوَ يَعْلَمُ تَمَامًا أَنَّهُ لَا يَصِلُ إِلَيْهَا أَحَدٌ، فَمِنْ

أين ذلك؟ ﴿قَالَتْ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ﴾ وهذا من باب كرامات الأولياء الخارقة للعادة.

رأى زكريا ما من الله به على مريم، وما أكرمها به من رزقه الهنيء، من غير سعي منها، عندئذ طمعت نفسه في الولد، فدعا ربه:

طَلَبُ زَكْرِيَّا لِلْوَلَدِ، وَوَصْفُ (يَحْيَى) بِأَرْبَعَةِ أَوصَافٍ

٣٨- ﴿هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُ ۖ قَالَ رَبِّ هَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً ۚ إِنَّكَ سَمِيعُ الدُّعَاءِ ﴿٣٨﴾﴾

وقبل أن يغادر زكريا المحراب -وهو في هذا المكان مظنة الإجابة- سأل ربه الذرية الصالحة، وكان زكريا قد بلغ المئة إلا عامًا من عمره، وقيل: مئة وعشرون عامًا، وزوجه أقل منه بعام واحد، قد بلغت المئة إلا عامين، ولم يولد له ولدٌ، وامرأته عاقرة، اجتمع عليها الكبر وعدم الإنجاب، وكان زكريا وعمران قد تزوجا: (إيشاع وحنة).

وقد تحركت في نفس زكريا رغبة الإنجاب حين رأى قدرة الله سبحانه عند مريم من الطعام والشراب في غير أوانه، قال: إن الله تعالى القادر على ذلك قادرٌ على أن يرزقني الولد ﴿رَبِّ لَا تَذَرْنِي فَرْدًا وَأَنْتَ خَيْرُ الْوَارِثِينَ﴾ [الأنبياء: ٨٩] ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ الْعَظْمُ مِنِّي وَاشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْبًا وَلَمْ أَكُنْ بِدُعَائِكَ رَبِّ شَقِيًّا ﴿١﴾ وَإِنِّي خِفْتُ الْمَوَالِيَ مِنْ وَرَائِي وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِرًا فَهَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ وَلِيًّا ﴿٢﴾ يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنْ عَالِي يَعْقُوبُ وَلَجَعَلَهُ رَبِّ رَضِيًّا ﴿٣﴾﴾ [مريم]

والآيات من صدر سورة مريم تحكي بتفصيل أوسع ما تتضمنه هذه الآيات من سورة آل عمران.

خاف زكريا من أقاربه الذين يرثون النبوة من بعده أنهم لا يُقيمون عهد الله سبحانه ولا يحكموا شرعه لَمَّا تَفَشَّى فِيهِمُ الْفَسَادُ وَتَحَكَّمَ الْأَهْوَاءُ وَالشَّهَوَاتُ، فسأل ربه أن يرزقه الولد، وسؤال الله الولد سُنة المرسلين والصديقين.

وقد ترجم البخاري (باب طلب الولد) وقال النَّبِيُّ ﷺ لأبي طلحة حين مات ابنه: «أعرستم الليلة؟» قال: نعم، قال: «بارك الله لكما في غابر ليلتكما» فقال رجلٌ من

(١) قرأ حفص وحمزة والكسائي (زكريا) بدون همز، وقرأ الباقر (زكرياء) مد متصل.

الأنصار: فرأيت لهما تسعة أولاد كلهم قد قرأ القرآن^(١).

وفي الحديث عن أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي ﷺ: «إذا مات ابن آدم انقطع عمله إلا من ثلاث: صدقة جارية، أو علم ينتفع به، أو ولد صالح يدعو له»^(٢).

ولو لم يكن إلا هذا الحديث لكان فيه كفاية.

وبينما كان زكريا قائما في محرابه يتعبد لربه ويتضرع إليه نادته الملائكة:

زَكَرِيَّا يُبَشِّرُ بِيَحْيَى

٣٩- ﴿فَنَادَتْهُ الْمَلَائِكَةُ^(٣) وَهُوَ قَائِمٌ يُصَلِّي فِي الْمِحْرَابِ أَنَّ^(٤) اللَّهُ يُبَشِّرُكَ^(٥) بِيَحْيَى مُصَدِّقًا بِكَلِمَةٍ مِّنَ اللَّهِ وَسَيِّدًا وَحَصُورًا وَنَبِيًّا^(٦) مِّنَ الصَّالِحِينَ^(٧)﴾

دخل زكريا المحراب، وأغلق الأبواب وسأل ربه الولد، أجاب الله دعاءه ﴿فَنَادَتْهُ الْمَلَائِكَةُ وَهُوَ قَائِمٌ يُصَلِّي فِي الْمِحْرَابِ﴾ عبّر عن جبريل بالملائكة من باب إسناد فعل الواحد إلى الجماعة ﴿أَنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكَ﴾ بمولود سمّاه الله يحيى قبل أن يُولد، وقد كان زكريا هو الحبر الذي يقدّم الثّربان ويفتح الأبواب، فلا يدخلون المسجد إلا بإذنه، وكان من ذرية هارون سدنة المسجد، فبينما هو قائم يصلي في المحراب، والناس ينتظرون الإذن بالدخول إذ برجل -شاب هو جبريل- في صورة رجل عليه ثياب بيض، ففزع منه زكريا، فناداه جبريل يا زكريا ﴿أَنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَى﴾ سُمّي كذلك في القرآن، واسمه يوحنا بالعبرانية.

(١) ينظر البخاري (١٣٠١، ٥٤٧٠) ومسلم (٢١٤٤).

(٢) «صحيح سنن أبي داود» (٢٥٠٤) وفي «السنن» (٢٨٨٠) والمسند (٨٨٤٤) بإسناد صحيح، وأخرجه مسلم (١٦٣١) والدارمي (٥٥٩) والبخاري في الأدب المفرد (٣٨) والترمذي (١٣٧٦) وأبو يعلى (٦٤٥٧) وابن خزيمة (٢٤٩٤).

(٣) قرأ حمزة والكسائي وخلف (فناداه) بألف بعد الدال على تذكير الفعل، وقرأ الباقر (فنادته)، وجاز تذكير الفعل وتأنينه؛ لأن الفاعل جمع تكسير.

(٤) قرأ ابن عامر وحمزة بكسر همزة (إن) إجراء للنداء مجرى القول، أو على إضمار القول، وقرأ الباقر بفتح الهمزة على تقدير حذف حرف الجر.

(٥) قرأ حمزة والكسائي بفتح الياء وسكون الباء وضم الشين المخففة، وقرأ الباقر بضم الياء وفتح الباء وكسر الشين مشددة.

(٦) قرأ نافع (ونبيئا) بالهمز، مد متصل، وقرأ الباقر بياء مشددة (ونبيئا).

وسُمي يحيى؛ لأن الله تعالى أحيا به عفر أمه، أو أحيا قلبه بالإيمان، أو أحياه بالطاعة، فلم يعص الله تعالى.

وقيل: سُمي يحيى لأنه آمن بكلمة الله التي خلق منها عيسى، وقيل: إن الله تعالى أخبر الأنبياء أنه سيخلق نبياً من غير أب، فلما جاء عيسى قيل: هذا هو الكلمة، أي: الوعد الذي وعد الله به.

ووصفه الله في كتابه بأوصافٍ لا نظير لها قبل أن يولد، فهو مصدقٌ من عند الله بأوصافٍ أربعة:

الوصف الأول: أن ولادته غير عادية، حيث وُلد بأمر الله تعالى على كبرٍ من أبويه، وُلد بكلمةٍ من الله، كما أطلقت كلمة الله على عيسى ﷺ الذي خلقه الله بكلمة كُن، فكان من غير أب، فسُمي كلمة الله لأنه خُلِقَ بها.

وكان يحيى أول من آمن بعيسى وصدّقه، وكان يحيى أكبر من عيسى بسنة أشهر اعتباراً من بدء الحمل، ولكن عيسى لم يمكث في بطن أمه تسعة أشهر كيحيى، ولذا فإن عيسى نزل قبل يحيى، وكان يحيى أكبر من عيسى بالنسبة لمدة الحمل، وكانا ابني خالة، وقُتل يحيى في كهولته قبل أن يُرفع عيسى ﷺ.

وقيل: إن أم يحيى لقيت أم عيسى وهما حاملتان، فقالت أم يحيى: أشعرُ أن ما في بطني يسجد لما في بطنك، وعيسى وُلد قبل يحيى بثلاثة أشهر، وقد حملت أم يحيى بيحيى قبل حمل أم عيسى بعيسى بثلاثة أشهر.

وكانوا ثلاثة أنبياء في وقت واحد؛ زكريا، وابنه يحيى، وعيسى ابن خالة يحيى، عليهم جميعاً أفضل الصلاة وأتم التسليم، وكان يحيى ﴿مُصَدِّقًا بِكَلِمَةٍ مِّنَ اللَّهِ﴾ في قومه وعشيرته، ومصدقاً بعيسى ﷺ.

الوصف الثاني: ﴿وَسَيِّدًا﴾ أي يحصل له من الصفات الجميلة ما يكون بها سيّداً، يُرجع إليه في الأمور، والسيد هو الذي يسود قومه ويفوقهم في الشرف والعلم والحلم وحسن الخلق، ويقوم على إصلاح شؤونهم في الدنيا والآخرة، وهو رئيس قومه الذي يكون له الأمر الأخير، وهو صاحب المكانة والمنزلة العالية.

الوصف الثالث: ﴿وَحَصُورًا﴾ يمنع نفسه من الشهوات والنزغات ولا يأتي المنكرات، والحصور هو الذي لا يأتي النساء ولا يقربهن مع قدرته على إتيانهن؛ زهدًا وعفة، وانشغالا بخدمة ربه وطاعته، وهو وصفٌ في معرض المدح والثناء، وإعلامٌ من الله لذكرى أنه أجاب دعوته كرامة له بعد أن انقطع عقبه.

الوصف الرابع: ﴿وَنَبِيًّا مِّنَ الصَّالِحِينَ﴾ بشره الله أن يحيى يكون نبيا، أي: أنه سيكون من الأنبياء الذين اصطفاهم الله، فأى بشارة أعظم من هذا الولد الذي حصلت البشارة بوجوده وبكمال صفاته.

٤٠- ﴿قَالَ رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَقَدْ بَلَغَنِيَ الْكِبَرُ وَامْرَأَتِي عَاقِرٌ قَالَ كَذَلِكَ اللَّهُ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ﴾

تعجب زكريا عليه السلام فقال من شدة فرجه: رب ﴿أَنَّى يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَقَدْ بَلَغَنِيَ الْكِبَرُ﴾ مئة وعشرون عامًا ﴿وَامْرَأَتِي عَاقِرٌ﴾ ثمان وتسعون سنة ولا تلد، وكلا الأمرين مانع من وجود الولد، فكيف وقد اجتمعا، ردَّ الله على زكريا بما يُزيل عجبه، ويبين له أن هذا أمر خارق للعادة، فهو سبحانه خالق الأسباب والمسببات ولا يعجزه شيء في الأرض ولا في السماء ﴿قَالَ كَذَلِكَ اللَّهُ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ﴾ وكما قدِّرَ على وجود الأولاد بالأسباب التي منها التناسل فإذا أراد أن يوجد من غير سبب فعل، لا يستعصى عليه شيء.

طلب زكريا من ربه علامة يستدل بها على تحقيق هذه الأمنية:

٤١- ﴿قَالَ رَبِّ اجْعَلْ لِّي^(١) آيَةً قَالَ ءَايَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ إِلَّا رَمْرًا وَاذْكُرْ رَبَّكَ

كَثِيرًا وَسَبِّحْ بِالْعَشِيِّ وَالْإِبْكَارِ ﴿١﴾﴾

﴿قَالَ﴾ زكريا مناجيًا ربه ﴿رَبِّ اجْعَلْ لِّي آيَةً﴾ علامة دالة على أن زوجتي قد حملت، لكي يطمئن قلبي على صدق هذه البُشرى، وهو مؤمن ومصدق، ولكن كما قال إبراهيم عليه السلام: ﴿وَلَكِنْ لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِي﴾ [البقرة: ٢٦٠] قال سبحانه: ﴿ءَايَتُكَ﴾ أي: العلامة على أنه سيولد لك هذا المولود أنك تُحبس وتُمنع من الكلام، ليس لعل فيك، ولكن الله تعالى يمنعك ألا تنطق، وألا تُحدِّث الناس مدة أيام ثلاثة، من غير مرض ولا آفة، فلا تكلمهم إلا بالإشارة والرمز ﴿أَلَّا تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ إِلَّا رَمْرًا﴾ أي: بالإشارة، وقد عقد الله

(١) قرأ نافع وأبو عمرو وأبو جعفر بفتح باء الإضافة وصلًا من (اجعل لي)، وسكَّنَهَا الباقيون.

لسان زكريا عن الكلام، وأبقى له قدرة على التسييح والذكر.

وكما أن الله تعالى يمنع نفوذ الأسباب مع وجودها، فإنه يوجد بدون أسباب.

فأكثّر من ذكر الله وتسيحه وتمجيده، فبالذكر تطمئن القلوب، وتسكن النفوس، وتغسل الخطايا والذنوب ﴿وَاذْكُرْ رَبَّكَ كَثِيرًا وَسَبِّحْ بِالْعُشِيِّ وَالْإِبْكَرِ﴾ أي: في أيام عجزك ومنعك وحبس لسانك عن الكلام الآخر؛ لئلا يشغل لسانك بغير التسييح، فتخلص المدة لله، فإذا انتهت هذه الثلاثة كان ابتداء مدة الحمل، وفي الآية الأخرى ﴿فَخَرَجَ عَلَى قَوْمِهِ مِنَ الْمِحْرَابِ فَأَوْحَى إِلَيْهِمْ أَنْ سَبِّحُوا بُكْرَةً وَعَشِيًّا﴾ [مريم: ١١]

قِصَّةُ قَتْلِ يَحْيَى عَلَيْهِ السَّلَامُ: أراد حاكم فلسطين في عهد يحيى عليه السلام أن يتزوج ابنة أخيه، وكانت ابنة أخيه هذه على قدر كبير من الجمال، وهذا الزواج محرّم عند المسلمين وعند أهل الكتاب؛ لأنه لا يجوز أن يتزوج العم ابنة أخيه، عارضه يحيى عليه السلام في هذا الزواج وأظهر له ذلك وأنكر عليه، وكانت البنت وأمها يريدان الزواج من العم، فدبرت الأم مكيدة ليحيى عليه السلام، حيث زينّت ابنتها وطيبّتها وجملّتها وأدخلتها على الحاكم الإسرائيلي الذي يحكم فلسطين في ذلك الوقت، فملكت عليه مشاعره وأوقعته في حبالها، ثم قال لها: تمنيّ عليّ واطلبي ما تشائين، قالت له: أريد رأس يحيى بن زكريا في هذا الطبق والدم ينزف منها، فما كان من الحاكم إلا أن أمر بقتل يحيى عليه السلام وذبحه كما تُذبح النعجة وهو يُصلي، وأُتي برأسه وهي تنزف دمًا في طبق، وقُدّمت للفتاة وأمها بين يدي الحاكم، ولمّا استنكر عددٌ كبير من العلماء والأخبار - ومنهم زكريا والد يحيى - قُتل منهم عدد كبير، ومن هؤلاء زكريا عليه السلام حيث نُشر بالمنشار بعد استشهاد يحيى ولده.

هذه إشارة لقول الله سبحانه عن بني إسرائيل ﴿أَفَكُلَّمَا جَاءَكُمْ رَسُولٌ بِمَا لَا تَهْوَى أَنْفُسُكُمْ اسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ﴾ [البقرة: ٨٧]

وقوله: ﴿قُلْ فَلِمَ تَقْتُلُونَ أَنْبِيَاءَ اللَّهِ مِنْ قَبْلُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ [البقرة: ٩١].

وقد وصف الله سبحانه اليهود في القرآن الكريم بأنه فضلهم على الوثنيين في العالم؛ لأنهم وحدهم كانوا أهل كتاب، وذلك قبل أن يستحقوا غضب الله ومقتته، وقبل أن يقتلوا الأنبياء ويكفروا بآيات الله ﴿وَضَرَبَ عَلَيْهِمُ الدَّلِيلَ وَالْمَسْكَنَةَ وَبَاءُوا بِغَضَبٍ مِنَ اللَّهِ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ

يَايَنَّا اللَّهَ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيَّ الَّذِي فِي ذِكْرِهِ عَصَا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ ﴿٦١﴾ [البقرة: ٦١].

وفي قصة قتل يحيى إشارة إلى أن هؤلاء اليهود من شأنهم استخدام النساء في الوصول إلى مآربهم، ومن شأنهم استخدام الشهوة في الوصول إلى مآربهم، وعدم تورعهم في قتل من يخالف أهواءهم وشهواتهم، حتى لو كان رسولا يُوحى إليه من قبل الله ﷻ، كقتل يحيى ﷺ وزكريا وغيرهما وتآمرهم على قتل عيسى ﷺ.

اصطفاء مريم على نساء العالمين

٤٢- ﴿وَإِذْ قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ يَمْرِيْمُ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاكِ وَطَهَّرَكِ وَاصْطَفَاكِ عَلَى نِسَاءِ الْعَالَمِيْنَ ﴿٤٢﴾﴾

بلغت مريم سن التكليف، وتأهلت للطهر والعفاف والقنوت والعبادة، فجاءتها البشارة عن طريق الملائكة بأن الله اصطفاكِ لكثرة عبادتك، وطهرك من الذنوب وَلَنْ يَمَسَّكَ رَجُلٌ بسوء، واختارك على عالم زمانك، وعلى جميع النساء.

والاصطفاء الأول: قبولها منذورة محررة لخدمة المسجد الأقصى لما فيها من الصفات الحميدة، والأفعال السديدة، والتميز الكبير.

والاصطفاء الثاني: أن الله وهب لك - يا مريم - عيسى ﷺ وخصك بكلام الملائكة، واصطفاكِ على نساء العالمين ولم يحصل هذا لغيرك، وإن شاركها أفراد من النساء في الاصطفاء، كخديجة وعائشة وفاطمة، فإنه لا ينافي هذا الاصطفاء، وقد ورد في ذلك أحاديث:

١- ثبت في الصحيحين وغيرهما من حديث علي ﷺ قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «خير نساء مريم بنت عمران، وخير نساءها خديجة بنت خويلد»^(١).

٢- وأخرج الحاكم عن ابن عباس ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «أفضل نساء العالمين: خديجة، وفاطمة، ومريم، وآسية امرأة فرعون»^(٢).

٣- وفي الصحيحين من حديث أبي موسى ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «كُمُلْ من

(١) البخاري في الأنبياء (٣٤٣٢، ٣٨١٥) ومسلم في فضائل الصحابة (٢٤٣٠) والترمذي (٣٨٧٧) و«صحيح سنن الترمذي» (٣٠٥٢) والنسائي (٨٣٥٤) وابن أبي شيبة (١٢ / ١٣٤).

(٢) صحيحه الحاكم (٢ / ٥٩٥) ووافقه الذهبي.

الرجال كثيرٌ، ولم يكْمُل من النساء إلا مريم بنت عمران، وآسية امرأة فرعون، وفضل عائشة على النساء كفضل الثريد على الطعام»^(١).

٤- وأخرج ابن عساكر عن مقاتل عن الضحاك عن ابن عباس رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «أربع نسوة ساداتُ نساء عالمهن: مريم بنت عمران، وآسية بنت مزاحم، وخديجة بنت خويلد، وفاطمة بنت محمد، وأفضلهن عالمًا فاطمة»^(٢).

٥- وعن أنس رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «حسبك من نساء العالمين: مريم بنت عمران، وخديجة بنت خويلد، وفاطمة بنت محمد، وآسية امرأة فرعون»^(٣).

٦- وفي الصحيحين وغيرهما: كان أبوهريرة يحدث عن رسول الله ﷺ أنه قال: «خير نساء ركبْن الإبل نساء قريش، أحنأه على ولد في صغره، وأرعاه على زوج في ذات يده» قال أبوهريرة: ولم تتركب مريم بنت عمران بعيرًا قط^(٤).

قلت: إذا كان خير نساء قريش ركبْن الإبل فإن وسائل المواصلات في العصر الحاضر بمثابة الإبل قديمًا.

وفي الباب أحاديث كثيرة تفيد أن مريم سيدة نساء عالمها، لا نساء جميع العالم^(٥). ولمَّا أخبرتها الملائكة باصطفاء الله لها وتطهيرها، كان في هذا ما يوجب شكرها لله تعالى، فلهذا قالت لها الملائكة:

(١) البخاري في فضائل الصحابة (٣٤١١، ٣٤٣٣، ٣٧٦٩، ٥٤١٨) ومسلم في فضائل الصحابة (٢٤٣١) وابن أبي شيبة (١٢ / ١٢٨) والترمذي (١٨٣٤) والنسائي (٨٣٥٣) وابن ماجه (٣٢٨٠).

(٢) ابن عساكر (٧٠ / ١٠٧).

(٣) «مصنف عبد الرزاق» (٢٠٩١٩) والترمذي (٣٨٧٨) و«المسند» (٣ / ١٣٥) (١٢٣٩١) بإسناد صحيح على شرط الشيخين و«مشكاة المصابيح» (٦١٨١) و«صحيح الجامع» (٣١٤٣) و«صحيح الترمذي» (٣٠٥٣) و«الطبراني في الكبير» (٤٠٢) وأبو يعلى (١٠٠٤، ٣٠٣٩) و«المستدرک» (٣ / ١٥٧) وابن حبان (٧٠٠٣).

(٤) «صحيح مسلم» برقم: (٢٥٢٧) والبخاري برقم: (٣٤٣٤، ٥٠٨٢) و«تفسير عبد الرزاق» (١ / ١٢٨) والطبري (٥ / ٣٩٤) وابن المنذر (٤٥١) وابن أبي حاتم (٣٤٨٨).

(٥) ينظر: الشوكاني في «فتح القدير».

٤٣ - ﴿يَمْرِيْمُ اقْنِيْ لِرَبِّكِ وَاَسْجُدِيْ وَارْكَعِيْ مَعَ الرَّاكِعِيْنَ﴾

قال الأوزاعي: لما قالت لها الملائكة ذلك: قامت حتى تورمت قدماها، فقالت لها الملائكة شفاهاً: يا مريم، داومي على طاعة ربك، وقومي إلى الصلاة في خشوع وتواضع، وليكن ركوعك في جملة الراكعين مع جماعة المسلمين، صلّي معهم، والقنوت، دوام الطاعة في خضوع وخشوع، وخص السجود والركوع بالذكر، لفضلهما ودلالتهما على غاية الخضوع لله تعالى، وقد فعلت مريم ما أمرت به شكراً لله تعالى.

قيل: قُدم السجود على الركوع؛ لأنه كان كذلك في شريعتهم.

وإنما قال: الراكعين، ولم يقل: الراكعات؛ لأنه أعم، يدخل فيه الرجال والنساء، والصلاة مع الجميع تكون أفضل وأتم، وليس في كتب النَّصَارَى ذِكْرُ لِعِمْرَانَ وَلَا لِعِيسَى، ولكنها ابتدئ فجأة بأن عذراء في بلدة الناصرة مخطوبة ليوسف النجار، قد حملت من غير زوج.

قِصَّةُ مَرْيَمَ مِنْ مُّعْجَزَاتِ النَّبِيِّ ﷺ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ

ولما كانت قصة مريم من الأمور التي لا تُعرف إلا بالوحي، وقد أخبر الله بها نبيه قال:

٤٤ - ﴿ذَٰلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ^(١) إِذْ يَقُولُ أَفْلَمَهِمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ

مَرْيَمَ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ﴾

وما سبق بيانه من حديث زكريا ويحيى ومريم وأمها وعيسى ﷺ من أخبار الغيب، التي لا طريق لمعرفتها إلا عن طريق الوحي ﴿ذَٰلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ﴾ ولم يكن محمد ﷺ حاضراً حين تسابق سدة الهيكل إلى كفالة مريم وقت أن جاءت بها أمها إلى الهيكل وهي مولودة، وفاءً بنذرهما، ولم يكن محمد ﷺ حاضراً حين اقترح السدنة على كفالة مريم، وألقوا أقلامهم التي يكتبون بها التوراة في نهر الأردن، تبرّكا بها، فاحتمل الماء جميع الأقلام طافية فوق سطحه إلا قلم زكريا، فإنه قد ثبت في مكانه، وكان هذا علامةً لهم على أن الله اختاره لكفالتها، فسلموا مريم لزكريا.

(١) قرأ حمزة ويعقوب بضم الهاء من (لديهم) في الموضعين، والباقون بكسرها، وقرأ قالون بخلف عنه وابن كثير وأبو جعفر بصلة ميم الجمع بحرف مدٍّ وصلًا، وسكنها الباقيون.

وليست هذه القرعة من شعائر الإسلام إلا في مواضع تمييز الحقوق المتساوية ﴿وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَقُولُ أَقْلَمُهُمْ﴾ في النهر ﴿أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ﴾ يُربّيها ويقوم على مصالحها ﴿وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ﴾ حين اختلفوا في كفالة مريم؛ أيهم أحق وأولى بها، فأجروا القرعة فخرج السهم لزكريا، فعلم بهذا أنك - يا محمد - رسول الله حقاً وصدقاً، فوجب عليهم الانقياد لك، والامثال لأمرك.

وهذا الحادث لم يذكره (العهد القديم) ولا (العهد الجديد) المتداولان حالياً، ولكنه كان معروفاً لدى الأبحار والرهبان، وكان من أسرار الهيكل التي لا تُفشى ولا تُذاع، فواجه بها القرآن - وقت نزوله - أهل الكتاب، وكان ذلك دليلاً على نبوة محمد ﷺ.

وبمثل هذه الآية ختم الله قصة نوح ﷺ ﴿تِلْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهَا إِلَيْكَ مَا كُنْتَ تَعْلَمُهَا أَنْتَ وَلَا قَوْمُكَ مِنْ قَبْلِ هَذَا﴾ [هود: ٤٩].

وقصة يوسف ﷺ ﴿ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهَا إِلَيْكَ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ أَجْمَعُوا أَمْرَهُمْ وَهُمْ يَمْكُرُونَ﴾ [يوسف]

وقصة موسى ﴿ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْفَرَى نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْهَا قَائِمٌ وَحَصِيدٌ﴾ [هود].

﴿تِلْكَ الْفَرَى نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِهَا﴾ [الأعراف: ١٠١] ﴿وَمَا كُنْتَ بِجَانِبِ الْغَرْبِ إِذْ قَضَيْنَا إِلَى مُوسَى الْأَمْرَ وَمَا كُنْتَ مِنَ الشَّاهِدِينَ﴾ [القصص: ٤٤] ﴿وَمَا كُنْتَ بِجَانِبِ الطُّورِ إِذْ نَادَيْنَا﴾ [القصص: ٤٦] وهي من المعجزات الدالة على صدق رسالة محمد ﷺ.

البشارة بعيسى ﷺ تَضَمَّنَتْ أَحَدَ عَشَرَ وَصْفاً لَهُ

٤٥- ﴿إِذْ قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ يَمْرُؤُا إِنَّ اللَّهَ بِبَشْرِكَ بِكَلِمَةٍ مِنْهُ أَسْمُهُ الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ وَجِيهاً فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ﴾ [٤٥]

أخبر تعالى أن الملائكة بشرت مريم بعيسى، يخلقه الله بكلمة كن، بدون أسباب التناسل، ويجعله من آيات الله وعجائب مخلوقاته، حيث أرسل جبريل إلى مريم، فنفخ في جيب درعها، فخلق الله من هذه النفخة، عيسى عليه السلام، فقد خلق آدم عليه السلام بالنفخ في مادة خلقه من روح الله، وخلق الله سائر البشر بالنفخ فيهم من روح الله، بعد أن يكون

مضغة في رحم أمه، فالجميع مخلوق من مادة وروح، ومنهم عيسى عليه السلام، ولكن النفخ بالنسبة لعيسى عليه السلام كان بدون وجود أسباب التناسل الذي يكون بين الرجل والمرأة.

وهكذا، تمضي الآيات؛ لتبين أن محمداً ﷺ لم يكن حاضراً حين بشرت الملائكة مريم بولادة عيسى عليه السلام من غير أب، كما خُلق آدم من غير أب ولا أم، وكما خُلقت حواء من غير أم، وكما خُلق سائر البشر من أب وأم؛ للدلالة على أن خلق الإنسان لا يتوقف على التلقيح الذي يكون بين الرجل والمرأة.

وكما نفخ الله في آدم من روحه، فكرمه وميزه، وكما أن الملك الموكل بالأرحام ينفخ الروح في كل جنين حين يكون مضغة في بطن أمه بعد مئة وعشرين يوماً من بدء الحمل، كما يحدث النفخ بالروح في كل هؤلاء فإنه سبحانه نفخ في فتحة جيب درع مريم بواسطة جبريل عليه السلام، كما ينفخ الملك في كل جنين، فهذا النفخ ليس خاصاً بعيسى، إنما هو عام لجميع الخلق.

أما طريقة النفخ وماهيته وكيفية اتصاله بالمخلوق بواسطة جبريل أو بدونه، وكيف تكون هذه الحياة بعد العدم؛ فتلك من أسرار الله تعالى ﴿وَسْتَأْذِنُكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [الإسراء: ٨٥].

ولقد خلق الله تعالى عيسى بكلمة ﴿كُنْ﴾ فهل النفخة هي كلمة ﴿كُنْ﴾ أو أن الكلمة هي ﴿عِيسَى﴾ أو غير ذلك؟ الله أعلم، وكل مخلوق وُجد بكلمة ﴿كُنْ﴾ إلا أن عيسى وحده وُجد بمجرد الكلمة من غير واسطة كغيره، فلذا أُضيف خلقه إلى الكلمة، وسُمي بها، كما قال ابن عباس رضي الله عنهما: الكلمة هي عيسى عليه السلام.

بشرت الملائكة مريم بكلمة من الله، هي عيسى ابن مريم، وتضمنت البشارة:

أحد عشر وصفاً لعيسى عليه السلام:

الوصف الأول: تحديد نوع المولود المبشّر به وأنه ذكر.

الوصف الثاني: تعيين لقبه بـ(المسيح) ولُقب كذلك:

١- لأنه ما مسح ذا عاهة إلا برئ.

٢- أو لأن جبريل مسحه بجناحه لكيلا يكون للشيطان عليه سبيل.

٣- أو لأنه مُسِيحٌ من الأقدار والذنوب، وقيل غير ذلك.

وسمى الدجال مسيحًا؛ لأن إحدى عينيه ممسوحة ويقال: مسيحًا؛ لأن إحدى عينيه ممسوحة، أي: مطموسة.

الوصف الثالث: تحديد اسمه ﴿عِيسَى﴾ وأصل عيسى العبراني: يشوع، كما قالوا عن موسى: موسى، فقيل عندهم: يسوع، وهو في القرآن: عيسى.

الوصف الرابع: ذُكِرَ نسبه، وأنه يرجع إلى أمه، وأن القرآن صرّح باسم أمه، ردًا على المشركين الذين قالوا: إنه (ابن الله) وقد كان العرب يستحيون من ذكر أسماء نساءهم صريحًا فصرّح القرآن باسمها؛ لما تضمنه من الرد عليهم، وهذا النسب علامة على أنه وُلد بغير أب.

الوصف الخامس: بيان مكانته عند الله تعالى، وأنه ذو جاه وقدر، أما وجاهته في الدنيا فلأنه يُرَى الأكمه والأبرص ويحيي الموتى بإذن الله، أما وجاهته في الآخرة فبعلو شأنه ومرتبته، وهو من أولى العزم من الرسل، ومن أصحاب الشرائع الكبار.

الوصف السادس: أنه من المقربين عند الله تعالى، قيل: برفعه إلى السماء، وأهل الجنة درجات، وأعلاهم رتبة النبيون.

الوصف السابع: لعيسى عليه السلام: كَلَامُهُ فِي الْمَهْدِ:

٤٦- ﴿وَيُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلًا وَمِنَ الصُّلَحِينَ﴾ ﴿٤٦﴾

وتضمنت البشارة معجزة لعيسى تصاحب ولادته، وهي أنه يكلم الناس في المهد، وهو مَضْجَعُ الصبي في رضاعه، فيدعوهم إلى عبادة الله، ويرى أمه من القذف ﴿قَالَ إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ ءَاتَنِي الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا﴾ ﴿٢٠﴾ [مريم: ٣٠].

ويُحْكِي أن مريم قالت: كنت إذا خلوت أنا وعيسى حَدَّثَنِي وَحَدَّثْتُهُ، فإذا شغلني عنه إنسان سَبَّحَ وهو في بطني وأنا أسمع، قالوا: ولما نطق ببراءة أمه سكت بعد ذلك، ولم يتكلم إلا في الوقت الذي يتكلم فيه الصبيان.

في الصحيحين وغيرهما عن أبي هريرة ؓ عن النبي ﷺ قال: «لم يتكلم في المهد إلا ثلاثة: عيسى، وكان في بني إسرائيل رجل يقال له: جُرَيْج، كان يصلي فجاءته أمه فدعته،

فقال: أجبها أو أصلي، فقالت: اللهم لا تُمِتَّهُ حتى تُرِيَهُ وجوه المؤمنين، وكان جريج في صومعته فتعرضت له امرأة وكلمته فأبى، فأتت راعياً فأمكتته من نفسها فولدت غلاماً، فقالت: من جريج، فاتوه فكسروا صومعته، وأنزلوه وسبوه، فتوضأ وصلى، ثم أتى الغلام، فقال: من أبوك يا غلام؟ قال: الراعي، قالوا: نبي صومعتك من ذهب، قال: لا، إلا من طين.

وكانت امرأة من بني إسرائيل تُرضع ابناً لها، فمرَّ بها رجلٌ راكب ذو شارة، فقالت: اللهم اجعل ابني مثله، فترك ثديها وأقبل على الراكب، فقال: اللهم لا تجعلني مثله، ثم أقبل على ثديها يمصه.

ثم مر بأمة تُجرر ويلعب بها، فقالت: اللهم لا تجعل ابني مثل هذه، فترك ثديها، فقال: اللهم اجعلني مثلها، فقالت: لم ذاك؟ فقال: الراكب جباراً من الجبابرة، وهذه الأمة يقولون لها: زנית، وتقول: حسبنا الله ونعم الوكيل، ويقولون: سرت، وتقول: حسبي الله^(١).

وعن أبي هريرة أيضاً قال: قال رسول الله ﷺ: «لم يتكلم في المهد إلا عيسى، وشاهد يوسف، وصاحب جريج، وابن ماشطة فرعون»^(٢).

الوصف الثامن: اكتمال شبابه وقوته: وهذا يشير إلى مستقبل عيسى عليه السلام وأنه سيبلغ سن الكهولة، ويكلم الناس حال كهولته، بالدعوة والرسالة، كما كلمهم في المهد. والكهل في اللغة: هو الذي اجتمعت قوته، وكمل شبابه، والكهل عند العرب: من جاوز سن الثلاثين إلى الأربعين.

قال ابن قتيبة: لما كان لعيسى ثلاثون سنة أرسله الله تعالى، فمكث في رسالته ثلاثين شهراً، ثم رفعه الله تعالى.

وقال وهب بن منبه: جاء الوحي على رأس ثلاثين سنة، فمكث في نبوته ثلاث

(١) حديث أبي هريرة عند أحمد (٢/ ٣٠٧) برقم: (٨٠٧١، ٨٠٧٢) بإسناد صحيح على شرط الشيخين، وأخرجه البخاري في الأنبياء (١٢٠٦، ٣٤٣٦) ومسلم في البر والصلة برقم: (٢٥٥٠) وابن أبي حاتم (٣٥٢١)، وغيرهم.

(٢) صححه الحاكم على شرط الشيخين ووافقه الذهبي (٢/ ٥٩٥) وضعفه الألباني بهذا اللفظ في «السلسلة الضعيفة» (٨٨٠).

سنوات، ثم رفعه الله.

وقال الحسن بن الفضل: ويكلّم الناس كهلاً بعد نزوله من السماء، وفيه نصٌّ على أنه سينزل من السماء إلى الأرض.

وفي الآية إخبارٌ بأن عيسى سوف ينتقل من حال إلى حال، ولو كان إلهاً كما زعمت النَّصَارَى لم يدخل عليه التغيير، ففيه ردٌّ على النَّصَارَى الذين يزعمون أنه إله.

الوصف التاسع: يتبين منه منزلة عيسى بين الناس؛ وأنه من زمرة الصالحين في قوله وعمله، فهو ذو علم صحيح، وعمل صالح، وهو كإخوانه من الأنبياء في الصلاح مثل: إبراهيم وإسحاق ويعقوب وموسى وغيرهم. والصلاح من أعظم المراتب، وأشرف المقامات.

ولا يكون العبد صالحاً إلا إذا واظب على النهج الأصلاح، والطريق الأقوم في أقواله وأفعاله.

تعجبت مريم من هذه البشرية، إذ كيف تحمل وتلد، دون أن يمسّها بشر:

٤٧- ﴿قَالَتْ رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي وَلَدٌ وَلَمْ يَمَسِّنِي بَشَرٌ قَالَ كَذَلِكَ اللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ إِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ^(١)﴾

تلقت مريم البشرية بمجيء عيسى ﷺ على هذه الأوصاف، وهي فتاة عذراء، فتعجبت وتطلعت إلى كشف هذا اللغز الذي يحير العقل ﴿قَالَتْ رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي وَلَدٌ وَلَمْ يَمَسِّنِي بَشَرٌ﴾؟ فلست بذات زوج ولا بغي ﴿قَالَ الْمَلِكُ كَذَلِكَ اللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ﴾ أي: يخلق الله منك ولداً من غير أن يمسك بشراً، فيجعله آية وعبرة للناس، والإنسان يألف دائماً ربط الأسباب بالمسببات، ولكن حين يعود الأمر إلى الله تعالى فلا عجب ولا استبعاد على قدرته، فيخلق من العدم ما يشاء، ويصنع ما يريد، وإذا أراد شيئاً قال له ﴿كُنْ فَيَكُونُ﴾، ومن قدرته تعالى أنه خلق يحيى بن زكريا من أبوين، أحدهما كبير والآخر عاقر، وأعجب من ذلك خلق عيسى من أم بلا أب، ليدل سبحانه أنه فعال لما يريد، ما شاء كان وما لم يشأ لم يكن.

وبعد الاعتراض بين هذه الآيات -بذكر جواب مريم وتعجبها من خلق ولدٍ منها دون أن

(١) قرأ ابن عامر بنصب نون (فيكون) على تقدير إضمار (أن) بعد الفاء، وقرأ الباقون بالرفع على الاستئناف.

يَمْسُهَا بَشَرًا - تَأْتِي الْبُشْرَى الْعَاشِرَةُ مِنْ بَشَائِرِ جِبْرِيلَ لَهَا حِينَ أَخْبَرَهَا بِخَلْقِ عِيسَى مِنْهَا:
الْوَصْفُ الْعَاشِرُ: تَعْلِيمُهُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ:

٤٨ - ﴿وَيُعَلِّمُهُ^(١) الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ^(٢)﴾

يخبر الله تعالى مريم بأنه سيعلم عيسى الكتاب، أي يعلمه الكتب المنزلة من عند الله، التي يحكم بها أنبياء بني إسرائيل، وقد يراد بالكتاب الكتابة والخط، ويعلمه الحكمة، يعني: السنة وأحكام الشرائع، أو يعلمه البيان والسداد في القول والعمل، ويعلمه التوراة التي نزلت على موسى والإنجيل الذي ينزل عليه، وفي كل هذا امتنان على عيسى عليه السلام بتعليمه الكتابة والعلم والحكمة، لأن هذا من الكمال الإنساني.

الْوَصْفُ الْحَادِي عَشَرَ: مُعْجَزَاتُ عِيسَى عليه السلام الْخَمْسُ

٤٩ - ﴿وَرَسُولًا إِلَى بَنِي إِسْرَءِيلَ^(٣) أَنِّي^(٤) قَدْ جِئْتُكُمْ بِآيَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ أَنِّي أَخْلُقُ لَكُمْ مِنَ الطَّيْرِ كَهَيْئَةِ^(٥) الطَّيْرِ^(٦) فَانْفُخْ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًا^(٧) يَأْذِنُ اللَّهُ وَأُزَيَّرُ^(٨) الْأَكْمَمَةَ وَالْأَبْرَصَ وَأُخِي الْمَوْتَى يَأْذِنُ اللَّهُ وَأُنْبِئُكُمْ بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدْخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمْ^(٩) إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ

يخبر الله سبحانه أن عيسى عليه السلام سيكون نبياً ورسولاً إلى بني إسرائيل، وكان أول أنبياء بني إسرائيل يعقوب وأخبرهم عيسى عليهما السلام، فلما بعث إليهم عيسى قال: ﴿أَنِّي قَدْ

(١) قرأ نافع وعاصم وأبو جعفر ويعقوب (ويعلمه) بالياء، وقرأ الباقر بنون العظمة.

(٢) انفرد المصحف الكوفي بعد (والإنجيل) آية، وتركها غيره من العدد.

(٣) قرأ أبو جعفر بتسهيل الهمزة مع المد والقصر في (إسرائيل) ومعه حمزة عند الوقف.

وقد عدّ هذه الكلمة (إسرائيل) آية، المصحف البصري والحمصى، وتركها غيرهما.

(٤) قرأ نافع وأبو جعفر (إني أخلق) بكسر همزة (إني) على إضمار القول أو على الاستئناف، وقرأ الباقر (أني) بفتح الهمزة بدل من قوله تعالى: (أني قد جئتكم)، وقرأ ابن كثير وأبو عمر بفتح الياء من (إني)، والباقر بإسكانها مديّة.

(٥) قرأ أبو جعفر بياء مشددة في (كهية)، والباقر بهمزة مفتوحة.

(٦) قرأ أبو جعفر (الطائر) على الأفراد، وقرأ الباقر (الطير) على أن المراد به اسم الجنس.

(٧) قرأ نافع وأبو جعفر ويعقوب (طائراً) على الأفراد، وقرأ الباقر (طيراً) على أن المراد به اسم الجنس.

(٨) قرأ ورش وأبو عمرو وحفص وأبو جعفر ويعقوب (في بيوتكم) بضم الباء، وقرأ الباقر بكسرها، وهما لغتان.

جِئْتُكُمْ بِآيَةٍ ﴿مَنْ رَبِّكُمْ﴾ تدل على أنني مرسل من عند الله، وقد جاء عيسى بآيات كثيرة، وسميت هذه الآيات آية واحدة؛ لأنها تدل على شيء واحد هو صدقه في الرسالة، وكأنهم سألوه عن هذه الآية فيبينها لهم كما علمه الله.

والمراد بالآية في ﴿قَدْ جِئْتُكُمْ بِآيَةٍ﴾ معجزات خمس ذكرتها هذه الآية:

المعجزة الأولى: أن يخلق من الطين طائرًا بإذن الله

﴿إِنِّي أَخْلُقُ لَكُمْ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ فَأَنْفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ أوصو لكم من الطين صورة على هيئة الطير، فأنفخ في هذا الطين فيكون طيرًا حقيقيًا بإذن الله، وفي قراءة: (فيكون طائرًا) على الأفراد.

قيل: إن عيسى لما ادعى النبوة، وأظهر الله على يديه المعجزات أخذوا يتعتنون عليه، فطلبوا منه أن يخلق لهم خفاشًا؛ لأنه يطير بالليل ويطير بلا ريش وله أسنان.

قال وهب: كان يطير ما دام الناس ينظرون إليه، فإذا غاب عنهم سقط ميتًا؛ لتمييز فعل المخلوق من فعل الخالق.

وإذا كانت نفخة عيسى في الطين تكون سببًا في حياة الطين، وجعله طيرًا حقيقيًا يطير بين السماء والأرض، فما العجب في خلق عيسى بالنفخ في جيب أمه؟! وكأن معجزة النفخ التي بشر الله بها مريم صحبت عيسى بعد ذلك ليواجه بها بني إسرائيل.

المعجزة الثانية: ﴿وَأَنزِلُ الْأَكْمَةَ وَالْأَبْرَصَ﴾

أي: أشفي من وُلد أعمى، فأجعله يُبصر بإذن الله، وأشفي من به مرض البرص، فأرده إلى لونه الطبيعي بإذن الله تعالى، فكانت تأتي إلى عيسى الأعداد الغفيرة المريضة، فيدعو الله تعالى ويداويها بإذن الله، على شرط الإيمان برسالته.

المعجزة الثالثة: ﴿وَأُحْيِ الْمَوْتَى بِإِذْنِ اللَّهِ﴾

قال ابن عباس: قد أحيا أربعة:

١ - (ابن العجوز) وكان ميتًا محمولًا على سرير، فدعا الله، فأحياه الله.

٢ - وأحيا ابنة رجل كان يأخذ العشور من الناس.

٣ - وأحيا (عازر) كان صديقًا لعيسى. ٤ - وأحيا سام بن نوح.

وقد أيد الله تعالى كل نبي بمعجزة من نوع ما نبغ فيه قومه، وكان قوم موسى سحرة، فكانت معجزته من نفس النوع الذي نبغ فيه القوم، ولكنها ليست في مقدور البشر. وكان الناس في زمن عيسى، مهرة في الطب، فجاءهم عيسى بما ليس في مقدور الأطباء، وهو إحياء الموتى بإذن الله، ومعالجة الأكمه والأبرص.

وكان العرب أرباب فصاحة وبلاغة، فكان القرآن معجزة خاتم الرُّسل، بحيث لو اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثل أقصر سورة منه ما استطاعوا، ولا بكلام يشبهه.

المعجزة الرابعة: ﴿وَأَنْتُمْ كُمْ بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدْخُرُونَ فِي بُيُوتِكُمْ﴾.

كان عيسى عليه السلام يخبر الرجل بما يأكله اليوم وما أكله البارحة وما يدخره للعشاء.

وقيل: كان هذا في نزول المائدة، فقد أمرهم أن يأكلوا ولا يدَّخروا، ولا يخونوا، فخانوا وادَّخروا، فكان عيسى يخبرهم بما أكلوا من المائدة، وما ادَّخروا منها. وما أتى به عيسى هو من قبيل المعجزات، وليست في مقدور أحد، بخلاف المنجم والمشعوذ، فإنه يستعين بواسطة الكواكب أو الجن على معرفة المطلوب، وكثيراً ما يخطئ فيما يُخبر به.

والكاهن يستعين بالجن، وهو يكذب في تسعة أعشار كلامه.

أما إخبار الأنبياء عن المعجزات فهو من الله تعالى بواسطة الوحي المنزل من عند الله تعالى. وفي هذه الأمور العظيمة دليل على نبوة عيسى عليه السلام إن كنتم تصدقون حُجج الله وآياته ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّكُمْ إِن كُنْتُمْ مُّؤْمِنِينَ﴾، و أي آية أعظم من جعل الجماد حيواناً، وإبراء ذوي العاهات التي لا قدرة للأطباء على معالجتها، وإحياء الموتى والإخبار بما غاب عنهم، فكل واحدة من هذه الأمور معجزة بذاتها، فكيف إذا اجتمعت وصدّق بعضها بعضاً، فإنها موجبة للإيمان.

المعجزة الخامسة: نزول الإنجيل على عيسى عليه السلام:

٥٠- ﴿وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَةِ وَلِأُحِلَّ لَكُمْ بَعْضَ الَّذِي هُرِّمَ عَلَيْكُمْ وَجِئْتُكُمْ بِآيَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا^(١)﴾

(١) قرأ يعقوب بإثبات الباء الزائدة وصلًا ووقفًا من (وأطيعوني)، وهي لغة أهل الحجاز، وقرأ الباقون بحذفها في الحالين، وهي لغة عامة العرب.

فقد أخبر عيسى قومه أنه يصدق التوراة التي نزلت على موسى، وكلاهما يُعلن حقيقة التوحيد الذي جاء به كلُّ رسول، وكل نبي يُصدق من قبله من الرُّسل.

فجميعُ الأنبياء صدق بعضهم بعضاً فيما أنزل الله عليه من الكتب والشرائع والأحكام.

وكانت التوراة تحمل الشريعةَ المُنظمةَ لحياة بني إسرائيل، ونُظُمَ التعاليم والتعامل بينهم، وكان الإنجيل يتضمن إحياء الروح، وتهذيب النفس، وإيقاظ الضمير، وتتضمن دعوة عيسى ﷺ تعديلاتٍ لبعض العقوبات التي نزلت ببني إسرائيل؛ جزاءً بغيهم وظلمهم، فُتحلَّ لهم ما حُرِّم عليهم، وتضع الآصار والأغلال عنهم.

والإنجيل أقرَّ أكثر أحكام التوراة فلم ينسخها، بل كان متمماً لها ومقرراً.

وكان الله قد حرَّم على اليهود لحوم الإبل والثروب والشحوم، وأشياء من الطير والحيتان.

وكان التحريمُ باقياً إلى عهد عيسى ﷺ تشديداً على بني إسرائيل؛ بسبب ظلمهم وعصيانهم، قال تعالى: ﴿فَيُظَلِّمُونَ الَّذِينَ هَادُوا حَرَمًا عَلَيْنَا طَيِّبَاتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ﴾ [النساء: ١٦٠] وقال: ﴿وَعَلَى الَّذِينَ هَادُوا حَرَمًا كُلَّ ذِي ظُفْرٍ وَمِنَ الْبَقَرِ وَالْغَنَمِ حَرَمًا عَلَيْهِمْ شُحُومُهُمَا إِلَّا مَا حَمَلَتْ ظُهُورُهُمَا أَوْ الْحَوَايَا أَوْ مَا اخْتَلَطَ بِعَظْمٍ ذَلِكَ جَزَيْنَاهُمْ بِبَغْيِهِمْ﴾ [الأنعام: ١٤٦].

ولما كان يومُ السبت مُحَرَّماً على اليهود أن يعملوا فيه من باب العقوبة أيضاً، فإن الله تعالى بدَّل به يوم الأحد في شريعة عيسى ﷺ، وأخبر عيسى قومه بأنه جاءهم بِحُجة من ربِّه تدلُّ على صدق ما يقول: ﴿وَجِئْتُكُمْ بِبَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ﴾ تدل على صدقي ووجوب اتباعي ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ﴾ ولا تخالفوا أمره ونهيه ﴿وَأَطِيعُوا﴾ فيما أبلغكم عن الله، فقد جئتكم بجنس ما جاءت به التوراة، وما جاء به موسى ﷺ، إخبار بالصدق وأمر بالعدل من غير تخالف ولا تناقض.

عِيسَى عَبْدُ اللَّهِ وَرَسُولُهُ

٥١- ﴿إِنَّ اللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هَذَا صِرَاطٌ^(١) مُسْتَقِيمٌ ﴿٥١﴾﴾

(١) قرأ رويس وقبل بخلف عنه بالسین في (صراط)، وهي لغة عامة العرب، وقرأها حمزة بإشمام الصاد صوت الزاي، والباقون بالصاد الخالصة.

ثم أكّد عيسى على أنه عبدٌ مَرَبُوبٌ لله تعالى كسائر الخلق، وأنه وهُم سواء في الطاعة والعبودية والخضوع له سبحانه، فيقول لهم: إن الله الذي أدعوكم إليه هو ربي وربكم فاعبدوه، وجميع الرُّسل جاؤوا بهذا التوحيد، ولم يَختلفوا فيه فأنتم سواء في العبودية، لقد استدل عيسى بتوحيد الربوبية الذي يقره المشركون، على توحيد الألوهية الذي ينكرونه، فكما أن الله تعالى هو الخالق الرازق المدبر، فليكن هو إلهنا ومعبودنا، نحبه ونخافه ونرجوه وندعوه ونستعين به ونستغيث به، ولا نلجأ لأحد سواه.

وفي هذا براءة مما ينسبه إليه النَّصَارَى في كل زمان ومكان من أنه ابنُ الله، أو أنه ثالثُ ثلاثة، وبيانٌ للطَّرِيقِ الصَّوَابِ الذي لا اعوجاجَ فيه ﴿هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ﴾ فاتقوا الله، ولا تخالفوا أمري، وأطيعون فيما أبلغكم به عن الله، فإن طاعة الرسول طاعة لله ﴿مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَا أَمَرْتَنِي بِهِ أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ﴾ [المائدة: ١١٧]

الْحَوَارِيُّونَ

٥٢- ﴿فَلَمَّا أَحَسَّ عِيسَى مِنْهُمُ الْكُفْرَ قَالَ مَنْ أَنْصَارِي﴾^(١) إِلَى اللَّهِ قَالَكِ الْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنْصَارُ اللَّهِ ءَامَنَّا بِاللَّهِ وَأَشْهَدُ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴿٥٢﴾

طَوَتِ السُّورَةَ ولادة عيسى، وكلامه في المَهْد، ودعوة قومه وهو كَهْلٌ، اكتفاء بما جاء في سورة مريم؛ لأن موضوع هذه السُّورَةِ هو الرسالة؛ ولذا: فإن سياق الآيات يَنْتَقِلُ مباشرةً إلى إحساس عيسى بكفر بني إسرائيل به بعدما أراهم هذه المعجزات التي ليست في مَقْدُورِ البشر، ولَمَّا ظهر أمرُ عيسى ﷺ قصدوا قتله، وكفروا به،.

وتقدير الكلام: وُلِدَ عيسى، وكَلَّمَ الناس في المَهْد، وأراهم المعجزات الباهرات، ودعاهم إلى التصديق به وطاعته؛ فكفروا به، فلما أَحَسَّ منهم بِالْكُفْرِ طلب النَّصْرَةَ من قومه؛ لإظهار دعوة الله تعالى.

وقيل: إن اليهود كانوا عارفين بأنه المسيح المُبَشَّرُ به في التوراة، فلما أظهر عيسى دعوتَه؛ اشْتَدَّ ذلك عليهم، فأخذوا في أذاه، وكفروا به، ولم ينقادوا لدعوتَه، وقالوا: هذا

(١) قرأ نافع وأبو جعفر بفتح ياء الإضافة من (أنصاري إلى) وصلًا، وسكَّنها الباقون في الحالين.

سحر مبين، وأرادوا قتله، فلمَّا استشعر عيسى تصميمهم على الكُفْرِ؛ طلب النُصرة عليهم ﴿فَلَمَّا أَحَسَّ عِيسَى مِنْهُمُ الْكُفْرَ قَالَ مَنْ أَنْصَارِي إِلَى اللَّهِ﴾ أي: مَنْ يتبعني على ديني، ويمنعني من أذى قومي؛ لأبلغ دعوة ربي.

كما كان النَّبي ﷺ يقول في مواسم الحج قبل الهجرة: «هل مِنْ رجل يَحْمِلُنِي إِلَى قومه حتى أبلغ كلام ربي، فإن قريشًا قد منعوني أن أبلغ كلام ربي»^(١).

وهكذا عيسى عليه السلام، كان له طائفة من قومه آمنوا به، وهم الحَوَارِيُّونَ، قيل: كان عددهم اثني عشر، ورئيسهم شمعون ويعقوب، وهؤلاء الحَوَارِيُّونَ هم:

١- سَمْعَانُ بطرس. ٢- وأخوه أندراوس. ٣- ويوحنا بن زبدي.

٤- وأخوه يعقوب، وكلهم كانوا صيَّادي سمك. ٥- ومَتَّى العشار.

٦- وتوما. ٧- وفيليس. ٨- وبرثو لماوس. ٩- ويعقوب بن حلفي.

١٠- ولباوس. ١١- وسَمْعَانُ القانوني. ١٢- ويهوذا الأسخريوطي.

وقد آمن معهم أفرادٌ متفرِّقون من اليهود، وآمن من النساء: أمُّه ومريم المجدلية، وأمُّ يوحنا، وحماة سمعان، ويوثا امرأة حوزي، وسوسة، ونساء أخريات، ولكن النساء لم يُطلب منهن نُصرة.

وكان عيسى قد مرَّ بهم وهم يصطادون السمك، فدعاهم إلى الله؛ فسألوه آية تدلُّ على صدِّقه، فدعا الله تعالى؛ فأراهم آيةً بالغةً في كثرة أسماكهم؛ فأمنوا به، وانطلقوا معه.

وقيل: سُمُّوا حواريين لبياض قلوبهم وصفائها، وبياض ثيابهم، أو لأنهم أصفياؤه وخاصته، أو لأنهم الخلفاء والوزراء بعده، أو لأنهم الأنصار الذين يُستعان بهم، ولعله الأصح.

كما ثبت في الصحيح أن رسول الله ﷺ لما ندب الناس يوم الأحزاب، فانتدب الزبير،

(١) من حديث جابر رضي الله عنه في «المسند» برقم (١٥١٩٢) بإسناد صحيح على شرط البخاري ورجال ثقات رجال الشيخين غير عثمان بن المغيرة فمن رجال البخاري، قاله محققوه. وأخرجه الدارمي (٣٣٥٤) والبخاري في خلق أفعال العباد (٨٦، ٢٠٥) وأبو داود (٤٧٣٤) وابن ماجه (٢٠١) والترمذي (٢٩٢٥) والنسائي في الكبرى (٧٧٢٧).

ثم نذبهم، فانتدب الزبير رضي الله عنه، فقال النبي ﷺ فيما يرويه جابر بن عبد الله: «إن لكل نبي حواريًا، وحواريي الزبير»^(١).

﴿قَالَ الْحوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنْصَارُ اللَّهِ﴾ الداعون إلى دينه، المؤمنون به، صدقنا بالله واتبعناك، ونشهد يا عيسى بأنا منقادون لما تريد من نصر دينك والذب عنك، وأنا مستسلمون لله بالطاعة والانقياد ﴿ءَامَنَّا بِاللَّهِ وَأَشْهَدُ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾، وهذه شهادة بتوحيد الله وتصديق رسوله، ثم قالوا:

٥٣- ﴿رَبَّنَا ءَامَنَّا بِمَا أُنزِلَتْ وَاتَّبَعْنَا الرَّسُولَ فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ﴾ ﴿٥٣﴾

ثم توجه الحواريون إلى ربهم بعد إشهاد عيسى على إيمانهم فقالوا: ﴿رَبَّنَا ءَامَنَّا بِمَا أُنزِلَتْ﴾ من الإنجيل على عيسى، وما أُنزلت على رُسلك من كُتُبٍ ﴿وَاتَّبَعْنَا الرَّسُولَ﴾ عيسى ﷺ، وامتننا ما أتى به من عند الله ﴿فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ﴾ بفضلك ورحمتك مع الذين شهدوا لأنبيائك بالصدق، واتبعوا أمرك ونهيك.

قال ابن عباس: أي: مع محمد ﷺ وأمته؛ لأنهم المخصوصون بتلك الفضيلة، فإنهم يشهدون للرسل بالبلاغ، وقيل: ﴿مَعَ الشَّاهِدِينَ﴾ أي: مع النبيين؛ لأن كل نبي شاهد على أمتيه. فلما قام الحواريون بنبصرة عيسى وإقامة شرعه، آمنت طائفة من بني إسرائيل وكفرت طائفة، فاقتتل الطائفتان، فأيد الله الذين آمنوا بنصره على عدوهم فأصبحوا ظاهرين.

الزَّعْمُ بِقَتْلِ عِيسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ وَصَلِيهِ

٥٤- ﴿وَمَكُرُوا وَمَكَّرَ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَكِرِينَ﴾ ﴿٥٤﴾

المَكْرُ من الإنسان: خبث ودهاء وجيل، والمكر من الله سبحانه: أن يجازي العبد ويعاقبه على سوء مكره، وقد مكر بنو إسرائيل بعيسى حين وگّلوا به من يقتله غيلةً، فألقى الله شبّهه على رجل دلّهم عليه؛ فأمسكوا به، وقتلوه وصلبوه ظنًا منهم أنه عيسى.

(١) «فتح الباري» (٦/ ٦٣) ورقمه في البخاري (٢٨٤٦، ٢٩٩٧، ٣٧١٩، ٧٢٦١) ومسلم (٢٤١٥) والترمذي (٣٧٤٥) وابن المنذر (٥١٩).

والذين مكروا بعيسى عليه السلام من كفار بني إسرائيل هم الذين أحسنَّ منهم الكُفْرُ، وكانوا قد ذهبوا إلى الحاكم الروماني، وسَعَوْا بالفساد، ووشوا بعيسى عنده، قالوا له: إنه سَيُفْسَد الرِّعْيَةُ عليك، وإنَّ زوال ملكك وسلطانك سيكون على يديه، وكان هذا الحاكم كافرًا، ضالًّا مُضِلًّا.

وقالوا له: إن عيسى ساحرٌ، وهو ابنُ زَنَى، وهكذا مَلَّؤُوا قلبَ الرجل حتى أصدر أمرًا بالقبض على عيسى، وأن يَقْتَلَهُ صلبًا، وذهبت الشرطة تَبْحَثُ عن عيسى عليه السلام.

وكان من بين الحواريين أصحاب عيسى رجلٌ اسمه يهوذا، وكان قد دخل في دين عيسى، وتقرب منه رياءً ونفاقًا، فهو الذي دَلَّ الشرطة على المكان الذي فيه عيسى عليه السلام.

والله سبحانه عاقبه على سُوءِ فِعْلِهِ وسوء تدييره، فقد دخل يهوذا على عيسى فَأَلْقَى الله تعالى شَبَهَ عيسى على يهوذا؛ فأصبح الذي يرى يهوذا كأنه يرى عيسى تمامًا، ورفع الله تعالى عيسى إليه.

ودخلتِ الشُّرْطَةُ إلى المكان فلم تجدْ إلا رجلًا واحدًا، فاعتقدوا أنه عيسى عليه السلام، وهو في الحقيقة يهوذا الذي أَلْقَى الله تعالى شَبَهَ عيسى عليه عقوبة له؛ لأنه دَلَّهم على مكان عيسى، وصلبوه وقَتَلوه، وهم يعتقدون أنهم قتلوا عيسى، فكان مكرُ الله بهم أن أَلْقَى شَبَهَهُ على يهوذا الذي وَشَى به، وَنَجَّى الله نَبِيَّهُ من بين أظهرهم، وتركهم يتخَبَّطُونَ في شأنه.

وفِرَقَ النَّصَارَى تَخْتَلِفُ في شأن صَلْبِ عيسى عليه السلام، فهم بعد أن قَتَلُوا يهوذا وصلبوه يقولون: إنه من المفروض أن يكون في المكان رجلاً (عيسى ويهوذا)، ولكنهم لم يجدوا إلا رجلًا واحدًا، فَمَنْ الذي قَتَلوه؟ وأين الرجل الثاني؟

ولذلك وقع الخلافُ بين فِرَقِ النَّصَارَى في شأن صَلْبِ المسيح؛ منهم مَنْ يقول: إنه صَلَّبَ وقُتِلَ، ومنهم من يقول: إنه لم يُصَلَّبَ ولم يُقَتَل، ذلكم قول الله سبحانه: ﴿وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَكِنْ شُبِّهَ لَهُمْ﴾ [النساء: ١٥٧] وإن الذين اختلفوا في شأن صَلْبِ عيسى وقَتْلِهِ لفي شك منه ﴿مَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا اتِّبَاعَ الظَّنِّ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًا﴾ [النساء: ١٥٧] فهم يَظُنُّون أنه عيسى ﴿بَلْ رَفَعَهُ اللَّهُ إِلَيْهِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾ [النساء: ١٥٨].

هَلْ رَفَعَ عِيسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ بَجَسَدِهِ وَرُوحَهُ؟

٥٥- ﴿إِذْ قَالَ اللَّهُ يَٰعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ارْأَيْكَ وَارَأَيْتَكَ إِلَىٰ مَنْ يَكْفُرُ بِكَ كُفْرًا وَعَدَلَٰكَ عَلَيْهِمْ سَبْعَ مِائَةٍ سَنَةٍ مِّنَ الدَّهْرِ ثُمَّ رَفَعْنَاهُ إِلَيْنَا فِي عِلَاقٍ مُّزِينَةٍ﴾
اعتقد اليهود وبعض النَّصَارَى أَنَّهُمْ صَلَّبُوا عِيسَى وَقَتَلُوهُ، ولكن الله جَلَّ شَأْنُهُ رَفَعَ عِيسَى إِلَيْهِ فِي هَذِهِ اللَّحْظَةِ ﴿بَلْ رَفَعَهُ اللَّهُ إِلَيْنَا﴾ رَفَعَهُ بِجَسَدِهِ وَرُوحِهِ حَيًّا كَمَا تَنْطَقُ بِذَلِكَ الْأَحَادِيثُ الصَّحِيحَةُ الَّتِي تَصِلُ إِلَى حَدِّ التَّوَاتُرِ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، وَتَبَيَّنَ أَنَّ السَّاعَةَ لَنْ تَقُومَ حَتَّى يَنْزِلَ عِيسَى ﷺ، وَأَنَّ نَزْوَلَهُ يَكُونُ مِنْ عِلَامَاتِ السَّاعَةِ الْكُبْرَى، يَنْزِلُ إِلَى الْأَرْضِ وَيَحْكُمُ بِشَرِيعَةِ مُحَمَّدٍ ﷺ، وَيَقْتُلُ الْخَنَزِيرَ، وَيَقْتُلُ الْمَسِيخَ الدَّجَالَ، وَيَكْسِرُ الصَّلِيبَ، وَيُظَلُّ هَكَذَا حَتَّى يَمُوتَ كَمَا يَمُوتُ كُلُّ كَائِنٍ بَشَرِيٍّ، ذَلِكَ قَوْلُ اللَّهِ سُبْحَانَهُ: ﴿إِذْ قَالَ اللَّهُ يَٰعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ارْأَيْكَ وَارَأَيْتَكَ إِلَىٰ مَنْ يَكْفُرُ بِكَ كُفْرًا وَعَدَلَٰكَ عَلَيْهِمْ سَبْعَ مِائَةٍ سَنَةٍ مِّنَ الدَّهْرِ ثُمَّ رَفَعْنَاهُ إِلَيْنَا فِي عِلَاقٍ مُّزِينَةٍ﴾.

وَفِي الْآيَةِ الْآخَرَى: ﴿فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنْتُ أَنتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ وَأَنْتَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ [المائدة: ١١٧] وَالْوَفَاةُ فِي الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ تُطْلَقُ عَلَى النَّوْمِ، وَتُطْلَقُ عَلَى الْمَوْتِ، فَالْنَوْمُ هُوَ الْوَفَاةُ الصُّغْرَى، قَالَ سُبْحَانَهُ تَعَالَى: ﴿اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا﴾ [الزمر: ٤٢] أَيْ: حِينَ مَنَامِهَا، حَيْثُ تَنْفَصِلُ الرُّوحُ عَنِ الْجَسَدِ، وَلَكِنَّهَا لَا تَنْفَصِلُ عَنْهُ كُلِّيًّا، بَلْ تَظَلُّ مُتَّصِلَةً بِهِ، هَذِهِ الْوَفَاةُ هِيَ الْمَوْتَةُ الصُّغْرَى، وَقَتِ الْمَنَامِ.

وَفِي الْآيَةِ الْآخَرَى: ﴿وَهُوَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُم بِاللَّيْلِ﴾ يَعْنِي: حِينَ تَنَامُونَ، سَمَّاها الْقُرْآنُ أَيْضًا وَفَاةً ﴿وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُم بِالنَّهَارِ﴾ [الأنعام: ٦٠]

قَالَ تَعَالَى: ﴿إِذْ قَالَ اللَّهُ يَٰعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ارْأَيْكَ وَارَأَيْتَكَ إِلَىٰ مَنْ يَكْفُرُ بِكَ كُفْرًا وَعَدَلَٰكَ عَلَيْهِمْ سَبْعَ مِائَةٍ سَنَةٍ مِّنَ الدَّهْرِ ثُمَّ رَفَعْنَاهُ إِلَيْنَا فِي عِلَاقٍ مُّزِينَةٍ﴾ رَفَعَهُ بِجَسَدِهِ وَرُوحِهِ حَيًّا كَمَا تَنْطَقُ بِذَلِكَ الْأَحَادِيثُ الصَّحِيحَةُ الَّتِي تَصِلُ إِلَى حَدِّ التَّوَاتُرِ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، وَتَبَيَّنَ أَنَّ السَّاعَةَ لَنْ تَقُومَ حَتَّى يَنْزِلَ عِيسَى ﷺ، وَأَنَّ نَزْوَلَهُ يَكُونُ مِنْ عِلَامَاتِ السَّاعَةِ الْكُبْرَى، يَنْزِلُ إِلَى الْأَرْضِ وَيَحْكُمُ بِشَرِيعَةِ مُحَمَّدٍ ﷺ، وَيَقْتُلُ الْخَنَزِيرَ، وَيَقْتُلُ الْمَسِيخَ الدَّجَالَ، وَيَكْسِرُ الصَّلِيبَ، وَيُظَلُّ هَكَذَا حَتَّى يَمُوتَ كَمَا يَمُوتُ كُلُّ كَائِنٍ بَشَرِيٍّ، ذَلِكَ قَوْلُ اللَّهِ سُبْحَانَهُ: ﴿إِذْ قَالَ اللَّهُ يَٰعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ارْأَيْكَ وَارَأَيْتَكَ إِلَىٰ مَنْ يَكْفُرُ بِكَ كُفْرًا وَعَدَلَٰكَ عَلَيْهِمْ سَبْعَ مِائَةٍ سَنَةٍ مِّنَ الدَّهْرِ ثُمَّ رَفَعْنَاهُ إِلَيْنَا فِي عِلَاقٍ مُّزِينَةٍ﴾.

وَقَدْ كَفَّ اللَّهُ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَنْ قَتْلِكَ بَعْدَ عَزْمِهِمُ الْجَازِمَ وَعَدَمُ الْمَانِعِ مِنْ ذَلِكَ، قَالَ تَعَالَى: ﴿وَإِذْ كَفَفْتُ بَنِي إِسْرَءِيلَ عَنْكَ إِذْ جَعَلْتَهُمْ بِلَيْسَتَ﴾ [المائدة: ١١٠] وَلَهُ الْحِكْمَةُ الْبَالِغَةُ فِي إِقْلَاعِ الشُّبْهِ عَلَى الَّذِينَ دَلَّهِمْ عَلَيْهِ، قَالَ تَعَالَى: ﴿وَإِنَّ الَّذِينَ أَخْلَفُوا فِيهِ لَفِي شَكٍّ مِّنْهُ مَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا ابْتِغَاءَ الظَّنِّ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًا﴾ (١٥٧) بَلْ رَفَعَهُ اللَّهُ إِلَيْنَا وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا [النساء]

ذكر العلماء أن التوفّي على طريقتين:

الطريقة الأولى: إذا حُمِلَت الآية على ظاهرها من غير تقديم ولا تأخير، يكون معنى الوفاة أحد وجوه ستة:

المعنى الأول: أني قابضُك ورافعُك إليّ من غير موت، حتى لا يصل إليك أعداؤك من اليهود (بقتل أو صلب).

المعنى الثاني: أن المراد بالوفاة هو: النوم؛ أي: مُنِمْك ورافعُك إليّ، فإن الوفاة تُطلق على النوم مجازاً.

المعنى الثالث: أن المراد حقيقة الموت، قالها ابن عباس، ووهب بن منبه.

ويزعم النَّصَارَى أن عيسى مات ثلاث أو سبع ساعات، ثم أحياه الله ورفعاه إليه، والذين يقولون بهذا هم الذين يحتفلون بعيد القيامة من كل عام.

المعنى الرابع: أن الواو من ﴿مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ﴾ لا تفيد الترتيب.

أما كيف يُتَوَفَّى؟ ومتى يُتَوَفَّى؟ فالأمر موقوفٌ على الدليل، وقد ثبت أن عيسى سَيُنْزَلُ ويقتل الدجال، ويمكن في الأرض أربعين سنة، ثم يموت، ويُصَلَّى عليه.

المعنى الخامس: ﴿مُتَوَفِّيكَ﴾ عن شهواتك وحُطُوظ النفس، ورافعُك إليّ.

المعنى السادس: أنه رُفِعَ بِجَسَدِهِ وروحه إلى السماء وافيّاً، كاملاً.

وفيه ردٌّ على النَّصَارَى، حيث زعموا أن المسيح رُفِعَ منه اللاهوت؛ يعني: الروح، وبقي الناسوت؛ يعني: الجسد.

أما الطريقة الثانية: فهو أن في الآية تقديمًا وتأخيرًا؛ ويكون المعنى: إني رافعُك إليّ ومطهرُك من الذين كفروا، ومُتَوَفِّيك بعد إنزالك إلى الأرض؛ أي: أني مُمِيتُك ورافع منزلتك وروحك إلى محلِّ كرامتي، ومقرِّ ملائكتي كما تُرفع أرواح الأنبياء.

فالتوفّي: معناه الموت، وهذا ما يُفِيدُهُ ظاهر القرآن، ولكن كثرة الأحاديث التي بَلَّغَتْ حد التواتر تُوضح أن عيسى قد رُفِعَ حَيًّا بجسده وروحه، ثم ينزل آخر الزمان ويحكم بشريعة محمد ﷺ ثم يموت، والحكم بشريعة محمد لا يعني مجيء نبي بعده وإنما يعني

أنه سيكون من أتباع محمد ﷺ الداعين إلى شريعته.

ولعل المعنى الصحيح للآية: إني قابضك من الأرض، من غير أن ينالك سوء، ورافعك بيدك وروحك، ومُخْلَصُكَ من الذين كفروا، ومُخْرِجُكَ من بينهم، وجاعل الذين اتبعوك على التوحيد، وصدّقوا بك، وبما جئت به من عند الله، ومما جئت به بالبشارة بالذين الأخير؛ وهو رسالة محمد ﷺ، وجاعل الذين اتبعوك فشهدوا أنك عبد الله ورسوله، وكلمته ألقاها إلى مريم، جاعلهم فوق الذين كفروا بك وجحدوا نبوتك إلى يوم القيامة، وقد كان من شأنهم أنهم يؤمنون بالرسالة الخاتمة حين مجيئها، ثم يَرَجِعُ الفريقان إلى ربهم يوم القيامة، فمنهم مَنْ آمَنَ بـعيسى، ومنهم من كفر، فَيُفْصَلُ بينهم فيما كانوا فيه يختلفون من شأن عيسى عليه السلام.

وقد كان كل منهم يدّعي أن الحق معه، وأنه المصيب، وغيره المخطيء، وهذا مجرد دعاوى تحتاج إلى برهان، ثم أخبر سبحانه وتعالى عن حكمه بينهم بالقسط والعدل فقال:

٥٦- ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَعَذَبُ اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا فَعَذَبُ اللَّهُ عَذَابًا شَدِيدًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ ﴿٥٦﴾﴾

أي: فأعذب مَنْ كَفَرَ بالله وآياته ورسله، ولم يؤمن بك من اليهود والنصارى عذاباً شديداً في الدنيا بالقتل والسبي، وفي الآخرة بالنار، وغضب الجبار، والحرمان من الثواب، وليس هناك مَنْ ينصرهم ويدفع عنهم عذاب الله تعالى إن مَاتُوا على كفرهم.

٥٧- ﴿وَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَيُوَفِّيهِمْ ^(١) أَجْرُهُمْ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ ﴿٥٧﴾﴾

أي: وأُثِيبَ مَنْ آمَنَ بك ثواباً كاملاً ممن آمن بالله وملائكته ورسله واليوم الآخر وبالقضاء خيره وشره، وتزوّد بالعمل الصالح ابتغاء وجه الله ﴿فَيُوَفِّيهِمْ أَجْرَهُمْ﴾ في الدنيا إعزازاً وإكراماً ونصراً وحياة طيبة، وفي الآخرة بالأجر الحسن والثواب الجزيل، والله لا يُحِبُّ مَنْ أَشْرَكَ به، وهذا هو شأن عيسى عليه السلام، وفُضِّلَ القول فيه بلا مرأى، ﴿وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ﴾ بل يبغضهم ويحل عليهم سخطه.

(١) قرأ حفص ورويس (فيوفيههم) بياء الغيبة على الالتفات، وقرأ الباقون بنون العظمة على نسق ما قبله، وضم يعقوب هاءها، وكسرها الباقون.

نُبْدَةُ عَنْ عِيسَى ﷺ

قال أهل التاريخ: حملت مريم بعيسى ولها ثلاث عشرة سنة، وولدت بيت لحم من أرض أورشليم، لمضي خمس وستين سنة من غلبة الإسكندر على أرض بابل، وأوحى الله إلى عيسى على رأس ثلاثين سنة، ورفع الله من بيت المقدس ليلة القدر من رمضان، وهو ابن ثلاث وثلاثين سنة، فكانت نبوته ثلاث سنين، وعاشت أمه بعد أن رفعه الله إليه ست سنوات، قال تعالى: ﴿وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَإِلَّا لِيُؤْمِنَنَّ بِهِ قَبْلَ مَوْتِهِ وَيَوْمَ الْقِيَمَةِ يَكُونُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا﴾ [النساء].

وفي الصحيحين عن أبي هريرة ؓ أن النبي ﷺ قال: «والذي نفسي بيده ليوشكن أن ينزل فيكم ابن مريم حكماً مقسطاً، فيكسر الصليب، ويقتل الخنزير، ويضع الجزية، ويفيض المال حتى لا يقبله أحد»^(١).

وفي حديث النواس بن سمعان ؓ عن النبي ﷺ قال: «فبينما هم كذلك، إذ بعث الله المسيح ابن مريم ؑ فينزل عند المنارة البيضاء، شرقي دمشق بين مهرودتين واضعاً يده على أجنحة ملكين...»^(٢). وبين مهرودتين، أي بين حلتين جميلتين.

وعن أبي هريرة ؓ أن النبي ﷺ قال: «ليس بيني وبينه (أي: عيسى) نبي، وإنه نازل، فإذا رأيتموه، فاعرفوه، فإنه رجل مربوع إلى الحمرة والبياض، ينزل بين مُمَصَّرَتَيْنِ، كأن رأسه يقطر، وإن لم يصبه بلل، فيقاتل الناس على الإسلام، فيدق الصليب، ويقتل الخنزير، ويضع الجزية، ويهلك الله الملل في زمانه كلها إلا الإسلام، ويهلك المسيح الدجال، ثم يمكث في الأرض أربعين سنة، ثم يُتَوَفَّى، ويُصَلَّى عليه المسلمون»^(٣).

(١) البخاري (٢٢٢٢، ٢٤٧٦، ٣٤٤٨، ٣٤٤٩) ومسلم (١٥٥).

(٢) كما في حديث أوس بن أوس عند الطبراني في «المعجم الكبير» برقم (٥٩٠) قال الهيثمي: رجاله ثقات، «مجمع الزوائد» (٨/ ٢٠٥)، وهو في سنن أبي داود (٤٣٢١) وفي صحيح أبي داود (٣٦٣١) وأوله (إن يخرج وأنا فيكم) وهو في المسند (١٧٦٢٩) من حديث طويل عن الدجال، وإسناده صحيح على شرط مسلم، وقد أخرجه مسلم (٢٩٣٧) وابن ماجه (٤٠٧٦) والترمذي (٢٢٤٠) والنسائي في الكبرى (٨٠٢٤).

(٣) أخرجه أبو داود بسند صحيح في «صحيح سنن أبي داود» (٣٦٣٥) وفي «السلسلة الصحيحة» (٢١٨٢)، وهو في سنن أبي داود (٤٣٢٤).

وبعد رَفَعَ عيسى ﷺ اختلف النَّصَارَى في شأنه، فمنهم مَنْ آمَن به على أنه عبدُ الله ورسوله، ومنهم مَنْ غَالَى في شأنه فقال: إنه الله، أو إنه ابن الله، أو إنه ثالث ثلاثة.

ومن العجيب أن بعض النَّصَارَى يعتقدون أن عيسى هو الإله، ومع ذلك يقولون: إنه قد صُلِبَ وقُتِلَ، كيف يُصَلَّبُ الإله ويُقَتَّل؟ وَمَنْ الذي حكم العالم ودبَّر الكون حين قُتِلَ الإله وصُلِبَ؟ كيف لا يَمْنَع نفسه من الصَّلْب أو القَتْل؟ أو كيف لا يَمْنَع الإله ابنه ويحول بينه وبين الصَّلْب أو القَتْل؟

ثم يقولون: إنه صُلِبَ وقُتِلَ فداءً وتكفيرًا لخطايا البشر، وليس من العدل الإلهي أن تَزَرَ وازرةٌ وزَرَ أُخْرَى ﴿كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينٌ﴾ [المدثر]

والإنسان مأخوذٌ بذنبه وجريته، لا يُؤاخذ شخصٌ بذنب آخر، فأنت يومَ القيامة لا تُسأل عن أبيك ولا عن ابنك، وأنت غيرُ مسؤولٍ عن زوجك ولا عَمَّنْ تَعول، بعد القيام بإخلاص النصيحة لهم في الدنيا، فكيف يُسأل المسيح ويُعاقب على ذنوب البشر؟! كلامٌ يُشبه الخرافات، لا أصل له.

كِتَابَةُ الْأَنْجِيلِ: وقد كُتِبَ الأنجيل بعد رفع عيسى إلى السماء بمدة طويلة، والأنجيل الموجودة اليوم ليس فيها إنجيلٌ كُتِبَ في وقت عيسى، أو كُتِبَ عيسى بنفسه، أو كُتِبَ تلاميذه وقتَ وجوده، إنما الحَوَارِيُّونَ كتبوا هذه الأنجيل بعد رَفَعَ عيسى، وهي عبارة عن الوصايا التي تذكروها، وبقيت في أذهانهم، ودخلها التحريف والتغيير.

وقد كُتِبَ أول إنجيل بعد رَفَعَ عيسى بأربعة أعوام، وهي أقل مدة، وكُتِبَ الإنجيل الثاني بعد عشرين عامًا، وكُتِبَ الإنجيل الثالث بعد اثنين وثلاثين عامًا، وكُتِبَ الإنجيل الرابع بعد إحدى وستين سنة، كُتِبَ هذه الأنجيل كلها بعد رَفَعَ عيسى ﷺ.

قُسْطَنْطِينُ يُحَرِّفُ النَّصْرَانِيَّةَ: وبعد ثلاث مئة عام من رفع عيسى ﷺ دخل في النصرانية قُسْطَنْطِينُ مَلِكُ اليونان، وكان يهوديًا، وهو المَلِكُ الذي بَنَى مدينة القسطنطينية، دخل في النصرانية حيلة ليفسدها، فحرَّفها وغيَّرها وبدَّلها، ومن ذلك أنه:

أمر الناس أن يصوموا عشرة أيام من أجل دَنَبٍ ارتكبه، وهذا أمر سائدٌ إلى يومنا.

وأمرهم أن يتحولوا في صلاتهم إلى جهة المشرق، فغيّر وحرف وبدّل.
 وأباح الخنزير وهو مُحَرَّم في جميع الشرائع، ومنها شريعة عيسى ﷺ.
 وملاً الكنائس بصور المسيح وصور أمه، وصار دين المسيح دين قسطنطين، فوُضِعَتْ
 له القوانين، واتبعه الطائفة الملكية منهم.

وَتَمَّ ذلك كله على يد الملك قسطنطين اليهودي الذي دخل في النصرانية؛ ليكيد لها
 ويُحَرِّف ويبدّل كلام الله ﷻ، والله ﷻ مُبْطِل مذهب قسطنطين، وكلّ مَنْ كَفَرَ بالله تعالى،
 فالله تعالى يقول في شأن عيسى ﷺ: ﴿وَمُطَهِّرُكَ مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ أي: مما اتهموك
 ورمّوك به، ومُخْلَصُكَ مِنْ كَيْدِهِمْ، وهكذا في كلِّ مِلَّةٍ يرفع الله المؤمنين فوق الكافرين،
 مِنَ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ كُلَّ رَسُولٍ وَيُؤْمِنُونَ بِهِ فِي مَدَّةِ صِلَاحِيَةِ رِسَالَتِهِ، وقبل أن تأتي الرسالة
 الأخرى، وهم فوق مَنْ لَمْ يَتَّبِعُوا دِينَهُ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ، إذا ماتوا في مدة رسالته.

أَمَّا إِذَا جَاءَتِ الرِّسَالَةُ التَّالِيَةُ الَّتِي نَسَخَتْ هَذِهِ الرِّسَالَةَ، فَإِنَّهُ لَا بُدَّ لَهُمْ أَنْ يُؤْمِنُوا بِهَذَا
 الرَّسُولِ الَّذِي نَسَخَ شَرِيعَتَهُمْ، كما أنه لَا بُدَّ لِمَنْ جَاءَ فِي عَهْدِ رِسَالَةِ مُحَمَّدٍ ﷺ أَنْ يُؤْمِنَ
 بِهَا، وَيَكْفِرَ بِكُلِّ الرِّسَالَاتِ السَّابِقَةِ، وَيُؤْمِنَ بِالرِّسَالَاتِ الْآخَرَى عَلَى أَنَّهَا رِسَالَاتٌ
 سَبَقَتْ، جَاءَتْ فِي وَقْتٍ مُعَيَّنٍ وَلَجِيلٍ مُعَيَّنٍ، تُمَهِّدُ لِلرِّسَالَةِ الْخَاتِمَةِ الَّتِي جَاءَ بِهَا مُحَمَّدٌ
 ﷺ. قَالَ تَعَالَى:

٥٨- ﴿ذَلِكَ نَتْلُوهُ عَلَيْكَ مِنَ الْآيَاتِ وَالذِّكْرِ الْحَكِيمِ﴾

والله سبحانه يُعَقِّبُ عَلَى قِصَّةِ الْمَسِيحِ ﷺ بقوله: ذَلِكَ الَّذِي نَقَضَهُ عَلَيْكَ فِي شَأْنِ
 عِيسَى مِنَ الدَّلَالَاتِ الْوَاضِحَةِ عَلَى صِحَّةِ رِسَالَتِكَ يَا مُحَمَّدٌ، وَصَحَّةِ الْقُرْآنِ الَّذِي جِئْتَ بِهِ
 فَاصِلًا بَيْنَ الْحَقِّ وَالْبَاطِلِ، خَاتِمًا بِهِ الرِّسَالَاتِ إِلَى الْخَلْقِ جَمِيعًا حَتَّى قِيَامِ السَّاعَةِ، فَلَا
 شَكَّ فِيهِ وَلَا مَرَأَ، وَهَذِهِ مَنَّةٌ مِنَ اللَّهِ تَعَالَى عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى أُمَّتِهِ حَيْثُ أُنْزِلَ عَلَيْهِ هَذَا
 الْكِتَابُ مَفْصَلًا لِلْحَلَالِ وَالْحَرَامِ، فِيهِ أَخْبَارُ الْأَوَّلِينَ وَالْآخِرِينَ كَيْ يَحْصَلَ الْعِلْمُ وَالْعِبْرَةُ
 وَتَثْبِيتُ الْفُؤَادِ.

إِبْطَالُ الْوَهِيَّةِ عِيسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ

٥٩- ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِنْدَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ ﴿٥٩﴾

ثُمَّ شَرَعَتْ الْآيَاتُ فِي إِبْطَالِ الْوَهِيَّةِ عِيسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ؛ فَتُبَيَّنَ أَنَّ مَا أَخْبَرَ اللَّهُ بِهِ مِنْ شَأْنِ عِيسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ هُوَ الْحَقُّ، فِي أَعْلَى دَرَجَاتِ الصَّدَقِ، وَلَا مَجَالَ لِلشَّكِّ فِيهِ، فَلَيْسَ الْأَمْرُ كَمَا يَزْعُمُ النَّصَارَى، لِأَنَّ جَمِيعَ الْأَسْبَابِ طَوَعَ مَشِيئَةَ اللَّهِ تَعَالَى وَتَبَعًا لِإِرَادَتِهِ، وَلَا يَوْجَدُ مِنْ يَسْتَحِقُّ الْمِشَارَكَةَ لِلَّهِ تَعَالَى بِوَجْهِهِ مِنَ الْوُجُوهِ، وَمَعَ هَذَا فَإِنَّ آدَمَ خَلَقَهُ اللَّهُ مِنْ تُرَابٍ، لَا مِنْ أَبٍ وَلَا مِنْ أُمٍّ، وَلَمْ يَزْعَمْ فِيهِ أَحَدٌ مَا زَعَمَهُ النَّصَارَى فِي عِيسَى، وَمَا خُلِقَ مِنْ أُمٍّ وَلَا مِنْ أَبٍ أُولَى، فَإِنَّ صَحَّ ادِّعَاءُ الْبَنُوَّةِ أَوْ الْأُلُوْهِيَّةِ فِي عِيسَى، فَآدَمُ أُولَى وَأُخْرَى.

وهذه الآيات من أول السُّورَةِ إِلَى هُنَا كَانَتْ بِصَدَدِ الْحِوَارِ مَعَ وَفَدِ نَصَارَى نَجْرَانَ، الَّذِينَ قَالُوا لِلنَّبِيِّ ﷺ: مَا لَكَ تَشْتُمُ صَاحِبَنَا، قَالَ: «وَمَا أَقُولُ؟» قَالُوا: تَقُولُ: إِنَّهُ عَبْدٌ، قَالَ «أَجَل»، إِنَّهُ عَبْدُ اللَّهِ وَرَسُولُهُ، وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ الْعَذْرَاءِ الْبَتُولِ فَغَضِبُوا وَقَالُوا: هَلْ رَأَيْتَ إِنْسَانًا قَطُّ مِنْ غَيْرِ أَبٍ؟ فَإِنْ كُنْتَ صَادِقًا فَأَرِنَا مِثْلَهُ؛ فَأَنْزَلَ اللَّهُ سُبْحَانَهُ جَوَابًا لَهُمْ هَذِهِ الْآيَةُ^(١).

وعن الحسن قال: جَاءَ رَاهِبَا نَجْرَانَ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ فَعَرَضَ عَلَيْهِمَا الْإِسْلَامَ، فَقَالَ أَحَدُهُمَا: إِنَّا قَدْ أَسْلَمْنَا قَبْلَكَ، فَقَالَ: «كَذِبْتُمَا، إِنَّهُ يَمْنَعُكُمَا مِنَ الْإِسْلَامِ ثَلَاثُ: عِبَادَتُكَمُ الصَّلِيبِ، وَأَكْلُكُمْ الْخَزِيرِ، وَقَوْلُكُمْ لِلَّهِ وَلَدٌ» قَالَا: مَنْ أَبُو عِيسَى؟ وَكَانَ لَا يُعْجَلُ (أَي: لَا يَسْرِعُ فِي الْجَوَابِ) حَتَّى يَأْمُرَهُ رَبُّهُ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ: ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَى عِنْدَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ﴾ ﴿٥٩﴾^(٢).

أَي: مَثَلُ عِيسَى عِنْدَ اللَّهِ فِي خَلْقِهِ مِنْ غَيْرِ أَبٍ، كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ اللَّهُ تَعَالَى مِنْ بِلَا أَبٍ وَبِلَا أُمٍّ، فَقَدْ شَبَّهَ اللَّهُ سُبْحَانَهُ الْقَرِيبَ بِالْأَقْرَبِ مِنْهُ، حَيْثُ الَّذِي خُلِقَ مِنْ غَيْرِ أَبٍ، أَقْرَبُ فِي عُرْفِ النَّاسِ مِمَّنْ خُلِقَ مِنْ غَيْرِ أَبٍ وَلَا أُمٍّ، وَقَدْ خُلِقَ اللَّهُ عِيسَى كَمَا خُلِقَ آدَمُ، خَلَقَهُ بِكَلِمَةٍ ﴿كُنْ﴾ فَكَانَ، وَنَفَخَ اللَّهُ سُبْحَانَهُ فِي عِيسَى مِنْ رُوحِهِ كَمَا نَفَخَ فِي آدَمَ مِنْ رُوحِهِ، فَصِفَةُ خُلُقِ عِيسَى مِنْ غَيْرِ أَبٍ كَصِفَةِ خُلُقِ آدَمَ مِنْ تُرَابٍ، وَخُلُقِ آدَمَ أَعْجَبُ وَأَغْرَبُ وَأَبْلَغُ

(١) «تفسير القرطبي» (٤/ ١٠٣).

(٢) النيسابوري (٨٦) والسيوطي (٥١).

في القدرة، قال تعالى:

٦٠- ﴿الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَلَا تَكُنْ مِنَ الْمُمْتَرِينَ﴾ ﴿٦٠﴾

قال سبحانه مُعَقِّبًا على القصة ومبينًا أن هذا الذي قَصَّه القرآن في شأن عيسى هو الذي أَوْحَى الله إليك به يا محمد، فدُم على ما أنت عليه من يقين، ولا تكن مثل هؤلاء الشَّاكِّين في أن عيسى عبدٌ من عباد الله، فإن هذا هو الحقُّ، وما عداه مِمَّا يقوله أعداء الإسلام من النَّصَارَى وغيرهم هو الباطل، وإذا قامت الأدلة على أنه حق، وجزم به العبد، وهو من مسائل الاعتقاد، فيجب الجزم بأن كل ما عارضه فهو باطل، وكل شبهة تَرُدُّ عليه فاسدة، لأن ما خالف الحق فهو باطل ﴿فَمَاذَا بَعَدَ الْحَقِّ إِلَّا الضَّلَالُ﴾ [يونس: ٣٢]

آيَةُ الْمُبَاهَلَةِ وَالْمُلَاعَنَةِ فِي شَأْنِ عِيسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ

٦١- ﴿فَمَنْ حَاجَّكَ فِيهِ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْا نَدْعُ أَبْنَاءَنَا وَأَبْنَاءَكُمْ وَنِسَاءَنَا وَنِسَاءَكُمْ وَأَنْفُسَنَا وَأَنْفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَلْ لَعْنَتَ اللَّهِ عَلَى الْكَاذِبِينَ﴾ ﴿٦١﴾
أَرَادَ النَّصَارَى بعد هذا البيان الواضح أن يُجادلوا النَّبِيَّ ﷺ، وأن يُطيلوا الحوار فوق ذلك، فَقَطَّعَ الله سبحانه عليهم الطريق، وقال للنبي ﷺ: مَنْ جادلَكَ وخاصمَكَ في شأن عيسى بعدما جاءكَ من العلم فقل لهم: تعالوا إلى المُبَاهَلَةِ.

والمُبَاهَلَةُ معناها: أن يَجْتَمَعَ الفريقان المتحاوران ويأتي كل منهم بنفسه وبأهل بيته؛ من زوجه وأبنائه وبناته، وَيَحْتَشِدُ الجميع في صَعِيدٍ واحدٍ، ثم يبتهلون إلى الله سبحانه تعالى، ويتجهون إليه بالدعاء أن يُنْزَلَ عقوبته ولعنته على الكاذبين في قولهم، الْمُصِرِّينَ على عِنَادِهِمْ.

والابتهال: الاجتهاد في الدعاء، وَبَهْلُهُ الله: لعنه وأبعده من رحمته، وكُلٌّ من آدم وعيسى خُلِقَ على غير العادة، فَمَنْ أَقَرَّ بِخُلُقِ أحدهما يقر بالآخر، فصفة الخلق واحدة، وكلاهما خُلِقَ من غير أب، والخلق من التراب اليابس أبلغ في القدرة لكل ذي لُبٍّ، فكيف تنسبون عيسى إلى الله سبحانه بالبنوة أو الألوهية أو التثليث؟! وقد اتفق الجميع على أن آدم عبدٌ من عباد الله، والمبتهلون يطلبون لعنة الله على الكاذب.

وعقوبة هذه المباهلة كما وقعت عند الرُّسُل السابقين أن الله تعالى يُهلك الكاذب.

﴿فَمَنْ حَاجَّكَ فِيهِ﴾ أي: مَنْ جادلَكَ في شأن عيسى وزعم أنه فوق منزلة العبودية ﴿مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ﴾ بِهَذِهِ الْحَقَائِقِ الثَّابِتَةِ الْوَاضِحَةِ، مِنْ أَنَّهُ عَبْدُ اللَّهِ وَرَسُولُهُ، وَأَنَّهُ عَبْدُ أَنْعَمِ اللَّهِ عَلَيْهِ، فَإِنْ أَقَمْتَ لَهُ الْأَدْلَةَ وَعَانَدَ، فَهُوَ مُعَانِدٌ مُشَاقٌّ لِلَّهِ وَرَسُولِهِ، وَلَيْسَ فِيهِ حِيلَةٌ، فَمَا عَلَيْكَ إِلَّا أَنْ تَبَاهِلَهُ وَتَلَاعَنَهُ، بِأَنْ يَجْعَلَ اللَّهُ لَعْنَتَهُ وَعَقُوبَتَهُ عَلَى الْكَاذِبِ مِنَ الْفَرِيقَيْنِ ﴿قُلْ﴾ لَهُمْ يَا مُحَمَّدُ: ﴿تَعَالَوْا نَدْعُ أَبْنَاءَنَا وَأَبْنَاءَكُمْ وَنِسَاءَنَا وَنِسَاءَكُمْ وَأَنفُسَنَا وَأَنفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ﴾ وَهَذِهِ الْمَبَاهِلَةُ وَضَحَّتْهَا الْآيَةُ نَفْسُهَا ﴿فَنَجْعَلَ لَعْنَتَ اللَّهِ عَلَى الْكَاذِبِينَ﴾ نَسْأَلُهُ وَنَدْعُوهُ أَنْ يَجْعَلَ لَعْنَةَ اللَّهِ عَلَى الْكَاذِبِينَ.

وَقَدْ قِيلَ مِنْهُمْ النَّبِيُّ ﷺ هَذِهِ الْمَبَاهِلَةُ؛ فَطَلَبُوا مَدَّةً يَتَشَاوَرُونَ فِيهَا، ثُمَّ تَشَاوَرُوا فِيمَا بَيْنَهُمْ، بَيْنَ كِبَارِهِمْ وَعُلَمَائِهِمْ وَأَحْبَارِهِمْ، وَهُمْ فِي حَقِيقَةِ الْأَمْرِ يَصَدِّقُونَ وَيُعْتَرِفُونَ فِي دَاخِلِهِمْ بِنُبُوَّةِ مُحَمَّدٍ ﷺ، وَلَكِنَّهُمْ لَا يَرِيدُونَ الْاعْتِرَافَ الصَّرِيحَ؛ خَوْفًا عَلَى مَنَاصِبِهِمْ، وَخَوْفًا عَلَى كِرَاسِيهِمْ وَمَنْزِلَتِهِمْ بَيْنَ أَقْوَامِهِمْ.

وَبَعْدَ أَنْ تَشَاوَرُوا هَرَبُوا مِنَ الْمَبَاهِلَةِ، فَتَوَلَّوْا وَاعْرَضُوا وَعَلِمُوا أَنَّهُمْ إِنْ لَاعَنُوهُ رَجَعُوا إِلَى أَهْلِيهِمْ وَأَوْلَادِهِمْ، فَلَمْ يَجِدُوا أَهْلًا وَلَا مَالًا، وَغُوجِلُوا بِالْعِقَابِ، فَضَرَبُوا بِدِينِهِمْ مَعَ جَزْمِهِمْ بِطِلَانِهِ، وَهَذَا فِي غَايَةِ الْفُسَادِ وَالْعِنَادِ، حَيْثُ قَالَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ: مَا بَاهِلَ قَوْمٍ نَبِيًّا إِلَّا أَهْلَكَهُمُ اللَّهُ تَعَالَى؛ فَامْتَنَعُوا مِنَ الْمَبَاهِلَةِ، وَقَبِلُوا الصُّلْحَ عَلَى أَنْ يَدْفَعُوا الْجَزْيَةَ لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ، وَبَعْدَ أَنْ أَخَذَ النَّبِيُّ ﷺ فِي صَبِيحَةِ هَذَا الْيَوْمِ عَلِيًّا وَفَاطِمَةَ وَالْحَسَنَ وَالْحُسَيْنَ، وَذَهَبَ إِلَى الْمَبَاهِلَةِ امْتَنَعُوا مِنْ قَبُولِهَا فَأَنْزَلَ اللَّهُ سُبْحَانَهُ: ﴿فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِالْمُفْسِدِينَ﴾ (١٢٣) قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ ؓ: لَوْ بَاهَلَ أَهْلَ نَجْرَانَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ لَرَجَعُوا لَا يَجِدُونَ أَهْلًا وَلَا مَالًا^(١).

وَكَانَ سَبَبُ هَذِهِ الْمَبَاهِلَةِ: أَنْ وَفَدَ نَصَارَى نَجْرَانَ قَدِيمٌ عَلَى النَّبِيِّ ﷺ، وَأَخَذُوا يُجَادِلُونَهُ فِيمَا يَزْعُمُونَ مِنْ بُنُوَّةِ عَيْسَى وَأُلُوْهِتِهِ؛ فَأَنْزَلَ اللَّهُ صَدْرَ هَذِهِ السُّورَةِ رَدًّا عَلَيْهِمْ.

وَجَاءَ عِنْدَ ابْنِ إِسْحَاقَ أَنَّهُمْ كَانُوا سَتِينَ رَاكِبًا، فِيهِمْ أَرْبَعَةُ عَشَرَ رَجُلًا مِنْ أَشْرَافِهِمْ يُؤُولُ إِلَيْهِمْ أَمْرَهُمْ، وَكَانَ فِيهِمْ أَمِيرُهُمُ (الْعَاقِبُ) وَعَالِمُهُمُ (السَّيِّدُ الْأَيُّهُمُ) وَأَسْقَفُهُمْ (أَبُو

(١) أَخْرَجَهُ عَبْدُ الرَّزَّاقِ (١/ ١٢٣) وَالبخاري (٤٩٥٨) وَالتِّرْمِذِيُّ (٣٣٤٨) وَالنَّسَائِيُّ فِي «السنن الكبرى» (١١٦٨٥) وَغَيْرُهُمْ.

حارثة)، وكان رجلاً من العرب قد تنصّر، فعظّمه الروم، وجعلوا له شأنًا، ودخلوا على رسول الله بعد صلاة العصر في مسجده بالمدينة، وبعد أن صلوا متجهين إلى المشرق، كلّموا النّبي ﷺ مع اختلافهم في شأن عيسى.

فاحتج مَنْ قالوا: إنه إله بأنه يحيي الموتى، ويبرئ الأكمه والأبرص، ويُخبر بالغيب، واحتج من قالوا: إنه ابن الله، بأنه وُلِدَ من غير أب، واحتج من قالوا: إنه ثالث ثلاثة بقول الله تعالى: (فعلنا وأمرنا وخلقنا وقضينا)، ولو كان واحدًا لقال: فعلتُ وأمرتُ وخلقْتُ وقضيتُ.

ثم عَرَضَ عليهم النّبي ﷺ الإسلام؛ فقالوا: قد أسلمنا قبلك، قال: «كذبتم، يَمْنَعُكم من الإسلام دعاؤكم لله ولدًا، وعبادتكم الصليب، وأكلكم الخنزير»، قالوا: فَمَنْ أبوه؟ فصمّت النّبي ﷺ فأَنزَلَ الله تعالى بضعا وثمانين آية من أول السّورة.

فلما أَخْبَرَ اللهُ رسوله وأوقفه على شأن عيسى دعاهم إلى المباهلة، وبعد أن تَشاوروا فيما بينهم، قال أميرهم: لقد عرفتم يا معشر النّصارى أن محمدًا نبيُّ مُرْسَلٌ، وما باهل قوم نبيًّا قطُّ فعاش كبيرهم، ولا نبت صغيرهم، ولئن فعلتم لتهلكن.

فإن أبيتم إلا البقاء على دينكم، فوادعوا الرجل، وانصرفوا إلى بلادكم، فأتوا رسول الله ﷺ، وكان قد قابلهم مستعدًّا للمباهلة، وقد احتضن الحسين، وأخذ بيد الحسن، وفاطمة تمشي خلفه، وعليّ خلفها، وهو يقول: «إذا دعوتُ فأُمتُوا».

فقال أسقف نجران: يا معشر النّصارى، إني لأرى وجوها، لو سألوها الله أن يُزيل الجبال من مكانها لأزالها، فلا تباهلوا فتهلكوا، ولا يَبْقَى على وجه الأرض نصراني.

قالوا: يا أبا القاسم رأينا ألا نباهلك، وصالحوا النّبي ﷺ على الجزية؛ فقال ﷺ: «والذي نفسي بيده، إن الهلاك قد تدلّى على أهل نجران، ولو تلاعنوا لمُسخوا قردة وخنزير، ولا اضطرهم الوادي نارًا، ولا استأصل الله نجران وأهله»، وفي هذا دليل وبرهان قاطع على صِحّة نبوة محمد ﷺ.

وفي البخاري عن حذيفة أن وفد نجران قالوا للنبي ﷺ: ابعث معنا رجلًا أمينًا، ولا تبعث معنا إلا أمينًا، فقال: «لأبعثنَّ معكم رجلًا أمينًا حقّ أمينٍ»، فاستشرف له أصحاب

رسول الله ﷺ فقال: «قم يا أبا عبيدة بن الجراح» فلما قام قال رسول الله: «هذا أمين هذه الأمة»^(١).

وفي رواية أنس في البخاري أيضًا: «لكل أمة أمين، وأمين هذه الأمة أبو عبيدة بن الجراح»^(٢). قال تعالى:

٦٣، ٦٢ ﴿إِنَّ هَذَا لَهُوَ^(٣) الْقَصَصُ الْحَقُّ وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلَّا اللَّهُ وَإِنَّ اللَّهَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ۝ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِالْمُفْسِدِينَ ۝﴾

إن هذا الذي قَصَصْنَاهُ عليك يا محمد في شأن عيسى هو الخبر اليقين الذي لا مريّة فيه؛ وكل قصص يخالفه فهو باطل، إذ ليس عيسى بإله، ولا ابن للإله، ولا ثالث ثلاثة، كما يدّعي النَّصَارَى، وهذا هو النَّبَأُ الْحَقُّ الذي لا شكّ فيه، وما من معبودٍ يستحق العبادّة إلا الله وحده، وإن الله لغالبٌ في مُلكه، حكيمٌ في تدبيره وفعله، له الحكمة التامة في ابتلاء المؤمنين بالكافرين، يقاتلونهم ويجادلونهم ويجاهدونهم بالقول والفعل.

فإن أعرضوا عن اتّباعك وتصديقك، ولم يقرّوا بالتوحيد؛ فهم المفسدون، والله عليهم بهم وسيجازيهم، فهم قومٌ مفسدون متكبّرون، لا يريدون الاعتراف بمحمد ﷺ؛ كِبَرًا وفُجُورًا وعنادًا، وخوفًا على مناصبهم ومنازلهم بين القوم، وإن كانوا في حقيقة الأمر مقرّين ومعترفين أنه رسول الله ﷺ، وسوف يعاقبهم الله على ذلك أشد العقوبة.

حَدِيثُ وَفْدِ نَصَارَى نَجْرَانَ

ذكر البيهقي في دلائل النبوة عن سلمة بن عبد يسوع عن أبيه عن جدّه، قال يونس - وكان نصرانيًا فأسلم - ما ملخصه:

إن النَّبِيَّ ﷺ كَتَبَ إِلَى أَهْلِ نَجْرَانَ قَبْلَ أَنْ تَنْزَلَ عَلَيْهِ سُورَةُ النَّمْلِ: «بِاسْمِ إِلَهِ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ، مِنْ مُحَمَّدٍ رَسُولِ اللَّهِ إِلَى أَسْقَفِ نَجْرَانَ، وَأَهْلِ نَجْرَانَ، أَمَا بَعْدُ: فَإِنِّي أَدْعُوكُمْ إِلَى عِبَادَةِ اللَّهِ مِنْ عِبَادَةِ الْعِبَادِ، وَأَدْعُوكُمْ إِلَى وَلايَةِ اللَّهِ مِنْ وَلايَةِ الْعِبَادِ، فَإِنْ أَبَيْتُمْ

(١) «فتح الباري» (٧/ ٦٩٥) وهو في البخاري (٣٧٤٥، ٤٣٨٠) وفي مسلم (٢٤٢٠).

(٢) البخاري (٣٧٤٤، ٤٣٨٢) ومسلم (٢٤١٩).

(٣) سَكَّنَ الهاء من (لهو) قالون وأبو عمرو والكسائي وأبو جعفر، وضمها الباقون.

فَالْجِزْيَةَ، فَإِنْ أُبَيِّتُمْ فَقَدْ آذَنْتَكُمْ بِحَرْبٍ، وَالسَّلَامَ».

فَلَمَّا وَصَلَ الْكِتَابُ إِلَى أَسْقَفِ نَجْرَانَ؛ أُرْسِلَ إِلَى شُرْحَبِيلَ بْنِ وَدَاعَةَ، وَكَانَ رَجُلًا يَحُلُّ الْمَعْضَلَاتِ، فَقَالَ الرَّجُلُ: لَيْسَ لِي فِي الثَّبُوءِ رَأْيٌ، وَلَوْ كَانَ أَمْرٌ مِنْ أُمُورِ الدُّنْيَا لَأَشْرْتُ عَلَيْكَ فِيهِ بِرَأْيِي.

وَبَعَثَ الْأَسْقَفُ إِلَى عِدَدٍ مِنْ كِبَارِ الْقَوْمِ يَسْتَشِيرُهُمْ، فَقَالُوا كَمَا قَالَ شُرْحَبِيلُ، وَكَانُوا إِذَا فَزِعُوا مِنْ شَيْءٍ ذِي خَطَرٍ شَدِيدٍ؛ أَمَرَ الْأَسْقَفُ بِضَرْبِ النُّوَاقِيسِ فِي الْكُنَائِصِ، وَرَفَعَ النِّيرَانَ فِي الصَّوَامِعِ، وَرَفَعَتِ الْمَسُوحُ أَهْلَ الْوَادِي أَعْلَاهُ وَأَسْفَلَهُ، وَفِي الْوَادِي ثَلَاثٌ وَعِشْرُونَ قَرْيَةً، فَاجْتَمَعُوا وَقَرَأَ عَلَيْهِمْ كِتَابَ الرَّسُولِ ﷺ ثُمَّ سَأَلَهُمُ الرَّأْيَ فَأَجْمَعُوا أَمْرَهُمْ عَلَى أَنْ يُرْسِلُوا وَفْدًا لِمُقَابَلَةِ النَّبِيِّ ﷺ بِالْمَدِينَةِ.

وَلَمَّا وَصَلَ الْوَفْدُ إِلَى الْمَدِينَةِ، خَلَعُوا ثِيَابَ السَّفَرِ، وَلَبَسُوا حُلُلًا وَخَوَاتِيمَ ذَهَبٍ، ثُمَّ ذَهَبُوا إِلَى النَّبِيِّ ﷺ فَلَمْ يُكَلِّمَهُمْ، فَاسْتَشَارَ عُثْمَانَ، وَعَبْدَ الرَّحْمَنِ بْنِ عَوْفٍ فِي ذَلِكَ، وَاسْتَشَارَ عَلِيَّ بْنَ أَبِي طَالِبٍ، فَقَالَ: أَرَى أَنْ يَخْلَعُوا حُلُلَهُمْ وَخَوَاتِيمَهُمْ وَيَلْبَسُوا ثِيَابَ سَفَرِهِمْ، فَفَعَلُوا وَذَهَبُوا إِلَى النَّبِيِّ ﷺ فَقَالَ: «لَقَدْ أَتَوْنِي أَوَّلَ مَرَّةٍ وَمَعَهُمْ إِبْلِيسُ».

ثُمَّ أَخَذُوا يَسْأَلُونَهُ عَنْ عِيسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ فَقَالَ: «مَا عِنْدِي شَيْءٌ أَقُولُهُ الْيَوْمَ، فَأَقِيمُوا حَتَّى أَخْبِرَكُمْ بِمَا يَقُولُ لِي رَبِّي فِي عِيسَى»، فَأَصْبَحَ الْغَدُ، وَقَدْ أَنْزَلَ اللَّهُ: ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَى عِنْدَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ﴾ إِلَى نَهَايَةِ آيَةِ الْمَبَاهِلَةِ، وَطَلَبَ مِنْهُمْ التَّنَاصُفَ فِيمَا بَيْنَهُمْ؛ لِإِقَامَةِ الْحُجَّةِ عَلَيْهِمْ، لَمَّا ظَهَرَتِ الْمَكَابِرَةُ مِنْهُمْ فِي الْحَقِّ، وَلَمَّا كَانُوا يُحِبُّونَ الدُّنْيَا طَلَبَ مِنْهُمْ أَنْ يَحْشُدُوا أَحَبَّ شَيْءٍ إِلَيْهِمْ؛ وَهُمْ: الْأَنْفُسُ وَالْأَبْنَاءُ وَالنِّسَاءُ، وَيَسْأَلُوا اللَّهَ اللَّعْنَةَ عَلَى الْكَاذِبِ.

فَلَمَّا أَصْبَحَ النَّبِيُّ ﷺ أَقْبَلَ عَلَيْهِمْ، وَمَعَهُ الْحَسَنُ وَالْحُسَيْنُ فِي خِمِيلٍ لَهُ، وَفَاطِمَةُ تَمْشِي عِنْدَ ظَهْرِهِ لِلْمَلَاعِنَةِ، وَعَلِيٌّ مَعَهُمْ، وَلَمْ يَكُنْ مَعَهُ أَحَدٌ مِنْ نِسَائِهِ، فَتَرَجَعَ الْوَفْدُ عَنِ الْمَبَاهِلَةِ، وَقَالُوا: لَئِنْ كَانَ هَذَا الرَّجُلُ نَبِيًّا مَرْسَلًا وَلَا عَتَاهُ فَلَنْ يَبْقَى مِنَّا عَلَى وَجْهِ الْأَرْضِ أَحَدٌ إِلَّا هَلَكَ، فَارْجِعْ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَلَمْ يَلَاغُهُمْ، ثُمَّ قَالُوا لَهُ: مَهْمَا حَكَمْتَ فِينَا فَهُوَ جَائِزٌ، فَكَتَبَ لَهُمْ كِتَابًا فِيهِ شُرُوطُ دَفْعِ الْجِزْيَةِ، قَالَ الزَّهْرِيُّ: كَانَ أَهْلُ نَجْرَانَ أَوَّلَ مَنْ أَدَّى الْجِزْيَةَ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ^(١).

(١) يُنْظَرُ: «دَلَائِلُ النُّبُوَّةِ» لِلْبَيْهَقِيِّ (٥/ ٣٨٥) و«سِيرَةُ ابْنِ هِشَامٍ» (١/ ٥٧٣) وَالطَّبْرِيِّ (٦/ ١٥١).

والظاهر أن هذه القصة كانت سنة تسع عام الوفود، ثم إنهم طلبوا من النَّبِيِّ ﷺ أن يَبْعَثَ معهم رجلاً أميناً؛ ليدفعوا له الجزية، فاستشرف لهذا أصحاب رسول الله ﷺ ومنهم عمر، ثم قال ﷺ: «قم يا أبا عبيدة بن الجراح»، فلما قام قال ﷺ: «هذا أمين هذه الأمة»^(١).

هذا: وقد جاء في صحيح مسلم وغيره عن سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه أن معاوية بن أبي سفيان لما أمره بسب علي رضي الله عنه فقال له: ذكرت ثلاثاً قالهن له رسول الله ﷺ فلن أسبّه؛ لأن تكون لي واحدة منهن أحب إلي من حمر النعم:

١- سمعت رسول الله ﷺ يقول له وقد خلفه في بعض مغازيه، فقال علي: يا رسول الله، خلفتني مع النساء والصبيان؟ فقال له رسول الله ﷺ: «أما ترضى أن تكون مني بمنزلة هارون من موسى، غير أنه لا نبي بعدي»^(٢).

٢- وسمعت يقول يوم خيبر: لأعطين الراية رجلاً يحب الله ورسوله، ويحبه الله ورسوله، قال: فتناولها لها، قال: «ادعوا لي علياً» فأتي به أرمد، فبصق في عينه، ورفع الراية إليه، ففتح الله عليه^(٣).

٣- ولما نزلت هذه الآية: ﴿فَقُلْ تَعَالَوْا نَدْعُ أَبْنَاءَنَا وَأَبْنَاءَكُمْ وَنِسَاءَنَا وَنِسَاءَكُمْ﴾ دعا رسول الله ﷺ علياً وفاطمة وحسناً وحسيناً، فقال: «اللهم، هؤلاء أهلي»^(٤).

وتوجد أحاديث أخرى تشملهم وتشمل كل من حرم الصدقة.

(١) «صحيح البخاري» برقم (٤٣٨٠) و«صحيح مسلم» برقم (٢٤٢٠) كلاهما عن حذيفة الترمذي (٣٧٩٦) والنسائي في «الكبرى» (٨١٩٧) وغيرهم.

(٢) «صحيح مسلم» (٢٤٠٤) و«صحيح البخاري» (٤٤١٦).

(٣) من حديث أبي هريرة في «صحيح مسلم» (٢٤٠٥) وسهل بن سعد (٢٤٠٦) والبخاري (٢٩٤٢، ٤٢١٠) وعن سلمة بن الأكوع في مسلم (٢٤٠٧) والبخاري (٢٩٧٥، ٤٢٠٩).

(٤) «صحيح مسلم» في فضائل الصحابة ورقمه: (٢٤٠٤) عن معاوية بن أبي سفيان، والبخاري (٣٧٠٦) والترمذي (٢٩٩٩) والحاكم (٣ / ١٤٧) والبيهقي في «السنن» (٧ / ٦٣) وغيرهم.

أَرْبَعُ نِدَاءَاتٍ لِأَهْلِ الْكِتَابِ:

النداء الأول: وجوب وحدانية الله تعالى

٦٤- ﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكَ إِلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴿٦٤﴾﴾

ثم تمضي الآيات لتقرر عقيدة الوحداية بعد امتناعهم عن المباهلة، وتدعوهم إلى عبادة الله وحده لا شريك له، وألا يشركوا معه نبيا ولا رسولا، ولا صنما ولا صليبا ولا طاغوتا، وأن يلتزم الجميع بعدم الدينونة إلا لله تعالى، فكلهم عبيد الله، وحق الطاعة لله وحده، وحق التشريع لله وحده، ومن ادعى شيئا من ذلك لغير الله؛ فقد نازع الله تعالى في خصائص الألوهية، لقد أرسل الله الرسل لإخراج الناس من عبادة العباد إلى عبادة الله، ومن جور الخلق إلى عدل الخالق.

ولما نزلت هذه الآية وآية التوبة ﴿اتَّخِذُوا أَعْيُنَكُمْ﴾ قال عدي بن حاتم: ما كنا نعبدهم يا رسول الله، فقال ﷺ: «أما كانوا يحلون لكم ويحرمون، فتأخذون بقولهم؟» فقال: نعم، فقال: «فتلك عبادتهم»^(١).

قال المفسرون: لما قدم وفد نصارى نجران إلى المدينة، اجتمعوا باليهود، فاختصموا وتجادلوا في شأن إبراهيم عليه السلام؛ فزعمت النصارى أنه كان نصرانيا، وأنهم على دينه، وأولى الناس به، وقالت اليهود: كان يهوديا، وهم على دينه، وأولى الناس به؛ فقال رسول الله ﷺ: «كلا الفريقين بريء من إبراهيم ودينه، بل كان إبراهيم حنيفا مسلما، وأنا على دينه».

فقال اليهود: ما تريد إلا أن نتخذك ربًا، كما اتخذت النصارى عيسى ربًا، وقالت النصارى: يا محمد، ما تريد إلا أن نقول فيك ما قالت اليهود في عزيز؛ فأنزل الله تعالى أَرْبَعُ نِدَاءَاتٍ وَجَّهَهَا لِأَهْلِ الْكِتَابِ تَضَمَّنَتْ هَذِهِ النِّدَاءَاتِ:

أولاً: أَنْ يُخْلِصُوا الْعِبَادَةَ لِلَّهِ وَحْدَهُ.

وثانياً: أَنَّ مُوسَى وَعِيسَى جَاءَا بَعْدَ إِبْرَاهِيمَ، فَكَيْفَ يَكُونُ يَهُودِيًّا أَوْ نَصْرَانِيًّا؟!

(١) يُنْظَرُ: «سنن الترمذي» برقم (٣٣٠٦) وحسنه الألباني في «صحيح سنن الترمذي» برقم (٢٤٧١).

وثالثًا: أنهم يَشْهَدُونَ في كتبهم أن الرُّسُولَ حَقٌّ، فكيف يكفرون به وهو موصوفٌ عندهم؟!

ورابعًا: لَمْ يَخْلُطُوا الحَقَّ بالباطل، وَيُخْفُونَ أوصاف خاتم النبیین وهم يعلمونها؟!

النداء الأول: ﴿قُلْ﴾ يا محمد ﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ﴾ من اليهود والنَّصَارَى ﴿تَعَالَوْا﴾ هَلِّمُوا نجتمع على ما اتفق عليه الأنبياء والمرسلون من كلمة التوحيد، ولم يخالفها إلا الضالون المعاندون، وهي كلمة مشتركة بيننا وبينكم، لا تختص بأحدنا دون الآخر.

تَعَالَوْا ﴿إِلَى كَلِمَةٍ﴾ عدل وحق نلتزم بها جميعًا؛ وهي كلمة التوحيد، لا اله إلا الله، نَحْصُهُ وحده بالعبادة، ولا نُشْرِكُ معه غيره، وهي كلمة ﴿سَوَاءٌ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ﴾ أي: أنها كلمة متفق عليها بيننا بالسواء والعدل والنَّصَف، نستوي فيها نحن وأنتم، لا يَخْتَلِفُ فيها أهل التوراة ولا الإنجيل ولا القرآن.

ثم فسر هذه الكلمة بقوله: ﴿أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا﴾ بل نُفَرِّدُهُ وحده بالعبادة، كما جاءت بذلك جميع الرُّسُل، فلا نتخذ وثنًا ولا صنمًا ولا صليًّا ولا طاغوتًا ولا غير ذلك، ولا يدين بعضنا لبعض بالطاعة ﴿وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ يُطِيعُونَهُمْ في الأمر والنهي، والتحليل والتحریم من غير رجوع إلى الشَّرْع، ولا يَسْجُدُ بَعْضُنَا لِبَعْضٍ؛ لأن السجود لا يكون إلا لله، ولا نُطِيعُ أَحَدًا في معصية الله، بل تكون الطاعة كلها لله والرسول، فإن طاعة المخلوق فيما هو من خصائص الألوهية تجعله في منزلة الربوبية، فإن أجابوك كانوا مثلكم، لهم مالكم، وعليهم ما عليكم ﴿فَإِنْ تَوَلَّوْا﴾ فهم معاندون، مُتَّبِعُونَ أهواءهم، فأشْهَدُوهم أنكم مسلمون، فإذا أسلمتم وآمنتم، فلا يضر عدم إسلامهم لخبث طويتهم، كما قال تعالى: ﴿قُلْ ءَامِنُوا بِهِ أَوْ لَا تُؤْمِنُوا إِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مِنْ قَبْلِهِ إِذَا يُتْلَى عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا﴾ [الإسراء: ١٠٧] وورود الشبهات على العقيدة الإسلامية يوجب على المؤمن أن يجدد إيمانه ويعلم إسلامه، وأهل الكتاب قد عبدوا غير الله تعالى وأشركوا معه غيره:

وذلك أن النَّصَارَى عبدوا غير الله، وأشركوا به: الأب والابن وروح القدس، فجعلوا الواحد ثلاثة، والثلاثة واحد، واتخذوا أحبارهم ورُهبانهم أربابًا من دون الله، فأطاعوهم فيما أحلوا لهم، أو حرموا عليهم، فثبت بهذا أن النَّصَارَى جَمَعُوا بين هذه الأنواع الثلاثة من الشُّرك.

وأما اليهود فقالوا: عزيز ابن الله، فقل لهم أيها الرسول: تعالوا إلى أمر منصف عدل، فلا نقول: عزيز ابن الله، ولا المسيح ابن الله، فكل منهما بشر مخلوق لله، ولا نطيع أحبارنا ورهباننا فيما أحدثوا من تحريم وتحليل ﴿فَإِنْ تَوَلَّوْا﴾ عن التوحيد وأعرضوا عن هذه الدعوة الطيبة، وما أمرتهم به، فأشهدوهم على استمراركم على الإسلام، وقولوا لهم: اشهدوا علينا بأننا مسلمون مخلصون لله بالتوحيد والعبادة مُتَقَادُونَ له بالطاعة والإخلاص.

وهذه الدعوة مَوْجَّهَةٌ لكل مَنْ لم يُؤْمِنْ بالله ربًّا ولا بالإسلام دينًا، ولا بالقرآن كتابًا، ولا بمحمد نبيًّا، ولا بالكعبة قبلَةً، ولا بالحساب والجزاء ثوابًا وعقابًا.

في الصحيحين عن ابن عباس ؓ أن أبا سفيان كان مع ركب من قريش في تجارة بالشام، فدعاهم هرقل في مجلسه وحوله عظماء الروم، ثم دعا بكتاب رسول الله ﷺ الذي بعث به مع دحية الكلبي إلى عظيم بُصْرَى، فدفعه إلى هرقل فقرأه، فإذا فيه: «بسم الله الرحمن الرحيم، من محمد عبد الله ورسوله إلى هرقل عظيم الروم، سلام على من اتبع الهدى، أما بعد: فإني أدعوك بدعاية الإسلام، أسلم تسلم، وأسلم يؤتِكَ الله أَجْرَكَ مرتين، فإن توليتَ فإنما عليك إثم الأريسيين، ﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾»^(١).

والأريسيين: قيل: هم الفلاحون والمزارعون، وقيل: هم أتباع عبد الله بن أريس، بعثه الله فخالفه قومه، وقيل: هم الأشراف والملوك الذين يُخالفون أنبياءهم.

النِّدَاءُ الثَّانِي لِأَهْلِ الْكِتَابِ: النَّهْيُ عَنِ الْجِدَالِ بِالْبَاطِلِ

٦٥ - ﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تُحَاجُّونَ فِي إِبْرَاهِيمَ وَمَا أُنْزِلَتِ التَّوْرَةُ وَالْإِنْجِيلُ إِلَّا مِنْ بَعْدِهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾

ثم أنكر الله على اليهود مُحَاجَّتَهُمْ في إبراهيم، وأبطل دَعْوَى كل من اليهود والنصارى أنه منهم، فقال: ﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ﴾ يا أصحاب الكتب المنزلة على اليهود والنصارى، كيف يُجَادِل كل منكم في أن إبراهيم كان على دينه ﴿لِمَ تُحَاجُّونَ فِي إِبْرَاهِيمَ﴾ وتختصمون في

(١) البخاري (٧، ٢٩٣٦، ٢٩٧٨، ٧١٩٦) ومسلم (١٧٧٣) والسنائي في «السنن الكبرى» (١١٠٦٤) وعبد الرزاق (٩٧٢٤).

شأنه، وكل منكم يزعم أنه على ملته ﴿وَمَا أُنزِلَتِ التَّوْرَةُ وَالْإِنْجِيلُ إِلَّا مِنْ بَعْدِهِ﴾ فقد نرلا بعد إبراهيم بزمانٍ طويل، فبين إبراهيم وموسى ألف سنة، وبينه وبين عيسى ألفان، فكيف يكون إبراهيم على دينٍ لم يحدث إلا بعد عهده بزمنٍ بعيدٍ.

وقد ردّ الله تعالى جدالهم في شأن إبراهيم عليه السلام من ثلاثة أوجه:

الوجه الأول: أنهم يجادلون في أمر ليس لهم به علم.

الوجه الثاني: أن اليهود ينتسبون إلى التوراة، والنصارى ينتسبون إلى الإنجيل، وكلاهما نزل بعد إبراهيم، فكيف ينسبون إبراهيم إليهم وهو متقدم عليهم.

الوجه الثالث: أن الله تعالى برأ خليله من اليهود والنصارى، والمشركين، وجعله حنيفاً مسلماً، وجعل أولى الناس به محمد وأمه، فهم الذين اتبعوه.

وهكذا: فقد أخبر الله سبحانه بأن إبراهيم كان حنيفاً مسلماً، وليس في التوراة والإنجيل أن إبراهيم كان يهودياً أو نصرانياً، فثبت ما قاله المسلمون، وبطل ما ادّعاه اليهود والنصارى ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ خطأ قولكم وبطلانه حتى تُجادلوا هذا الجدل المحال، فلا يصح إذن ما تزعمونه من وراثة كل منكم لدين إبراهيم، واحتكار النبوة في نسله، والولاية على دينه، فالتوحيد والشرك لا يلتقيان، وأنتم على عقيدة منحرفة ضالة، فتشكيك المسلمين في أنهم الوارثون للحنيفية السمحة، ادّعاء كاذب، لا يستند إلى دليل، وقول الله تعالى هو القول الفصل الذي لا يقي معه قول لقائل.

قال ابن عباس: اجتمعت نصارى نجران وأخبار اليهود عند رسول الله ﷺ فتنازعوا عنده، فقالت الأخبار: ما كان إبراهيم إلا يهودياً، وقالت النصارى: ما كان إبراهيم إلا نصرانياً، فأنزل الله الآية^(١).

وقال القرطبي: نزلت هذه الآية بسبب دعوى كل فريق من اليهود والنصارى أن إبراهيم كان على دينه، فأكذبهم الله تعالى بأن اليهودية والنصرانية إنما كانتا من بعده، فذلك قوله تعالى: ﴿وَمَا أُنزِلَتِ التَّوْرَةُ وَالْإِنْجِيلُ إِلَّا مِنْ بَعْدِهِ﴾^(٢).

(١) أخرجه الطبري وابن أبي حاتم بسند حسن عن ابن إسحاق.

(٢) «تفسير الطبري» (٤/ ١٠٧).

والمعنى: أنه لا يسوغ لكم - يا معشر اليهود والنصارى - أن تُجادلوا في دين إبراهيم وشريعته؛ فإن التوراة والإنجيل نزلا من بعده بأزمان طويلة، فكيف يدين بالتوراة مع أنها لم تكن نزلت؟! وكيف يدين إبراهيم بالإنجيل مع أنه لم ينزل من بعده إلا بآلاف السنين؟! إن هذه المُحاجة ظاهرةُ البطلان واضحةُ الفساد، وهو جهل فاضح؛ لأن وجود إبراهيم كان سابقاً على وجودهما بأزمانٍ طويلةٍ.

فنفى عن إبراهيم موافقة اليهود، وموافقة النصارى، وموافقة المشركين، وأثبت موافقته للإسلام الذي جاء به محمد ﷺ؛ وذلك لما عليه المشركون من الوثنية، ولما طرأ على اليهودية والنصرانية من الشرك والتحريف.

ويؤخذ من الآية: النهي عن الجدال بغير علم، لأنه يتكلم في أمر لا يعرفه، وبالتالي فلا ينبغي أن يُمكن منه ولا يُسمع له فيه، وفي هذا رد لكثير من الأقوال الباطلة والدعاوى الكاذبة، قال تعالى:

٦٦ - ﴿هَآأَنُتُمْ هَؤُلَاءِ حَآجَجْتُمْ فِيمَا لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ فَلِمَ تُحَآجُونَ فِيمَا لَيْسَ لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٦٦﴾﴾

ومن هنا جاء الإنكار على من تكلم فيما لا علم له به ﴿هَآأَنُتُمْ﴾ يا هؤلاء جادلتم رسول الله ﷺ فيما لكم به علم من أمر دينكم، مما تعتقدون صحته في كتبكم، وادّعيتم أنكم على دينه، فلم تجادلون فيما ليس لكم به علم؛ من دَعَوَى أَنَّ إبراهيم كان يهودياً أو نصرانياً؟! ولو أنكم تحاورتم فيما يتعلق بشريعتكم التي شرعت لكم، لكان أولى بكم، وإنما تكلمتم فيما لا علم لكم به، مما مرّده إلى عالم الغيب والشهادة ﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ فعلم الحقائق كلها عند الله، وأنتم تجهلونها.

ثم قرر الله الحقيقة، وحسم نتيجة الخلاف فقال:

٦٧ - ﴿مَا كَانَ إِبْرَاهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَكِنْ كَانَتْ حَنِيفًا مُّسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿٦٧﴾﴾

وهكذا برأ الله تعالى إبراهيم عما قالوه، وكفى عنه رد ما نسبوه إليه في قوله: ﴿مَا كَانَ إِبْرَاهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا﴾ كما زعمتم فلم توجد اليهودية ولا النصرانية إلا من بعده، ثم وصفه بما كان عليه من الدين فقال ﴿وَلَكِنْ كَانَتْ حَنِيفًا مُّسْلِمًا﴾ مُتَّبِعًا لأمر الله وطاعته،

مائلاً عن الشُّرك إلى الدين المستقيم، والإيمان الصحيح، مستسلماً لأمر ربِّه ﴿وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ الذين عبدوا الأصنام أو عبدوا عزيزاً أو المسيح، فإبراهيم بريء من الشُّرك الذي أنتم عليه، وبريء من كلِّ دينٍ يخالف الإسلام.

وقيل: إن الآية نزلت في المشركين الذين ادَّعوا أنهم على دين إبراهيم في مجلس النجاشي، وهو يحاورهم في مقابلة وفد المسلمين، فنزلت في خصومتهم في إبراهيم، وإثبات أنه لم يكن مشركاً؛ بل كان حنيفاً مسلماً.

أَحَقُّ النَّاسِ بِالنِّسَبِ إِلَى إِبْرَاهِيمَ هُمُ الْمُسْلِمُونَ

٦٨- ﴿إِنَّ أَوَّلَى النَّاسِ بِإِبْرَاهِيمَ لِلَّذِينَ اتَّبَعُوهُ وَهَذَا النَّبِيُّ^(١) وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُؤْمِنِينَ

ثم بيّن سبحانه أن أحقَّ الناس بإبراهيم، وأخصَّهم به، وأقربهم منه متابعةً لدينه ثلاثة أصناف من الناس؛ هم:

١- الذين اتبعوا إبراهيم، وأجابوا دعوته في حياته، وبعد مماته.

٢- واتبعوا النبي محمداً؛ لمجيئه بالتوحيد الخالص.

وأتباع إبراهيم، هم الذين اتبعوه في زمانه، وآمنوا به وصدَّقوه، واتبعوا شريعته.

﴿وَهَذَا النَّبِيُّ﴾ محمد ﷺ ﴿وَالَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ بمحمد ومن صدَّقوه من هذه الأمة، ومن تبعهم ممَّن يأتي بعدهم إلى يوم القيامة ﴿وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُؤْمِنِينَ﴾ به بالنصر والعون، ما داموا مُتَّبِعِينَ لشرعه.

رَوَى سعيد بن منصور وغيره عن عبد الله بن مسعود ؓ أن رسول الله ﷺ قال: «إِنْ لِكُلِّ نَبِيٍّ وَلاَةٍ مِنَ النَّبِيِّينَ، وَإِنْ وَلِيَّتِي مِنْهُمْ أَبِي وَخَلِيلُ رَبِّي إِبْرَاهِيمَ ؑ» ثم قرأ الآية^(٢).

(١) قرأ نافع بالهمز بدل الياء في (النَّبِيِّ)، والباقون بالياء المشددة.

(٢) من حديث ابن مسعود في «المستدرک» (٢/ ٢٩٢) وصححه الحاكم ووافقه الذهبي، و«سنن الترمذي» برقم (٣١٩٢) وصححه الألباني في «صحيح سنن الترمذي» (٢٣٩٤) والمشكاة (٥٧٦٩) التحقيق الثاني وهو في «تفسير الطبري» (٦/ ٤٩٨) إبراهيم (٧٢١٧) وقال أحمد شاكر: إسناده صحيح مُتَّصِلٌ، وهو أيضاً في «سنن سعيد بن منصور» برقم (٥٠١) وابن أبي حاتم (٢/ ٢٩٢) والطبري (٥/ ٤٨٩)، والحديث في المسند (٣٨٠٠) بإسناد ضعيف، لأن أبا الضحى، لم يدرك ابن مسعود، وبقية رجاله ثقات رجال الشيخين، قلت: وقد تكلم محققو المسند كثيراً في انقطاع الحديث واتصاله، فمن قال بانقطاعه ضعفه ومن قال باتصاله حسنه ومنهم الألباني.

سَبَبُ الْجِدَالِ بِالْبَاطِلِ عِنْدَ الْيَهُودِ

٦٩- ﴿وَدَّتْ طَائِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يُضِلُّوكُمْ وَمَا يُضِلُّوكُمْ إِلَّا أَنفُسُهُمْ وَمَا يَسْعُرُونَ﴾

ثم يكشف الله سبحانه عما يُريده أهل الكتاب من وراء هذا الجدل وهذا المراء، فيواجه أهل الكتاب بكيدهم ومكرهم وتدبيرهم، ويمزق القناع عن وجوههم، فهم يبذلون جُهدهم لإضلال هذه الأمة، ويكرهون لها أن تهتدي إلى عقيدتها، ويعملون على إخراجهم من دينهم، وهذا من حسد اليهود وبغيهم.

قال تعالى ﴿وَدَّتْ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّنْ بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كَفَارًا حَسَدًا مِّنْ عِنْدِ أَنفُسِهِمْ مِّنْ بَعْدِ مَا بَيَّنَّ لَهُمُ الْحَقُّ﴾ [البقرة: ١٠٩] ومعلوم أن من ودّ شيئاً سعى جاهداً في تحصيله، فهم يبذلون الجهد في رد المؤمنين عن دينهم وإدخال الشبه عليهم بكل طريق،

ومما ورد في سبب النزول: أنها نزلت في معاذ بن جبل، وحذيفة بن اليمان، وعمار بن ياسر، حين دعاهم اليهود إلى الدخول في دينهم، ليردّوهم بعد إيمانهم كفاراً ﴿وَدَّتْ طَائِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يُضِلُّوكُمْ﴾^(١).

والمراد بالطائفة: جماعة منهم؛ وهم بنو قريظة، وبنو النضير، وبنو قينقاع، فقد دعوا هؤلاء الثلاثة إلى الخروج من الإسلام.

هذا: والضلال يكون بطريقتين:

أحدهما: خَلَطَ الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ حَتَّى لَا يَتَمَيَّزُ أَحَدُهُمَا مِنَ الْآخَرِ.

وثانيهما: جَحَدُ الْحَقِّ وَإِخْفَاؤُهُ حَتَّى لَا يَظْهَرُ لِلنَّاسِ.

والمراد بهذه الآية النوع الثاني؛ وهم الذين يجحدون الحق ويخفونه، لصرفكم عن الإسلام بإخراجكم من دينكم، قال تعالى: ﴿وَمَا يُضِلُّوكُمْ إِلَّا أَنفُسُهُمْ﴾ وأتباعهم؛ لأن وِبَالَ ضلالهم يعود عليهم، فلا يحق المكر السيء إلا بأهله، فهم قد ضلوا في أنفسهم وأضلوا غيرهم قال

تعالى: ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ زِدْنَاهُمْ عَذَابًا فَوْقَ الْعَذَابِ بِمَا كَانُوا يُفْسِدُونَ﴾ [النحل: ٨٨] ولأن المؤمنين لن يقبلوا قولهم، فيعود الإثم عليهم بتمنيهم ذلك.

﴿وَمَا يَشْعُرُونَ﴾ أنهم يسعون في ضرر أنفسهم، فهم لا يعلمون ذلك، ولا يدرون أن الضر يعود عليهم، فالمسلمون مكفئون أمر أعدائهم، والله سبحانه يتولى ردّ كيد أعدائهم عنهم، ما داموا مُستقيمين على إسلامهم.

النِّدَاءُ الثَّالِثُ لِأَهْلِ الْكِتَابِ: يَفْضَحُ كِتْمَانَهُمْ دَلَائِلِ النُّبُوَّةِ

٧٠- ﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَأَنْتُمْ تَشْهَدُونَ﴾

ثم يفصح الله حقيقة أمرهم في هذا النداء والذي يليه على مدار التاريخ، وذلك أنهم يرتكبون أكبر الذنوب وأعظمها؛ وهو الكُفر بالله تعالى، وفيه الكُفر بالوحي المنزّل على محمد ﷺ، وليس بعد الكُفر ذنبٌ، وهذا الكُفر ليس لنقص في الدليل، ولكن للهوى والمصلحة، ﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ﴾ أي: لِمَ تكفرون بالقرآن، مع علمكم أنه من عند الله، ولم تكفرون بدلائل نبوة محمد مع علمكم أنكم على باطل، وأن ما جاءكم به محمد هو الحق الذي لا شك فيه، ولم لا تصدقون بالبشارة به في التوراة والإنجيل، وتكفرون القرآن، وتكفرون نبوة محمد ﷺ ﴿وَأَنْتُمْ تَشْهَدُونَ﴾ بذلك، ولكنكم تجحدون، ودليل ذلك أنهم كانوا إذا خلا بعضهم ببعض أظهروا صدق محمد ﷺ، وشهدوا أن القرآن حقّ فيما بينهم، فإذا كانوا مع المسلمين كتموه، فهم يشهدون بصدق الرّسول في الواقع، وينكرونه في الظاهر، ثم وبخهم الله تعالى على إضلالهم الخلق:

النِّدَاءُ الرَّابِعُ لِأَهْلِ الْكِتَابِ: عَدَمُ خَلْطِ الْحَقِّ بِالْبَاطِلِ

٧١- ﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَلْبِسُونَ الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ وَتَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾

إن اليهود يُشككون في الإسلام، وفي رسول الإسلام، وفي تراث الإسلام (القرآن) منذ بداية تحريف الديانتين إلى وقتنا الحاضر؛ فخلطوا الإيمان برسولهم بالكُفر بالنبي الخاتم، وخلطوا بين ما يعلمونه بقلوبهم عن صحة دعوة الإسلام، بما يقولونه بألسنتهم، وخلطوا الحقّ الذي نزل من عند الله، بما حرّفوه وبدّلوه، وزعموا زورًا وبُهتانًا أن التوراة لا

تُسخ، والقرآن يوبخهم على أمرين، يضلون بهما من انتسب إلى الإسلام، وهما: خلط الحق بالباطل لعدم التمييز بينهما، وكتمان الحق الذي يجب عليهم إظهاره، ومن ذلك كتمان أوصاف محمد ﷺ.

﴿يَتَاهَلُ الْكِتَابَ لِمَ تَلْسُوتُ الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ﴾ بإدخال الأكاذيب والخرافات والتأويلات الباطلة فيه ﴿وَتَكْتُمُونَ الْحَقَّ﴾ بما حَرَفْتُمْ وَغَيَّرْتُمْ، وأخفيتُمْ من صِفَةِ محمد ﷺ في كتبكم ﴿وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ أن دين محمدٍ حقٌّ، ولكنكم بذلتُم الجُهد على مدى التاريخ للدَّس في التاريخ الإسلامي والحديث النبوي والتفسير بالإسرائيليات.

وقد أخذ الله الميثاق على أهل الكتاب أن يظهروا للناس الحق ولا يكتُمونه، قال تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُ فَنَبَذُوهُ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ وَأَشْرَوْا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا﴾ [آل عمران: ١٨٧]

وقد تابع اليهود الصليبيون في ذلك، ولم تَزَلْ جهود المستشرقين وتلاميذهم على قَدَمٍ وساقٍ، ومع هذه المحاولات فإن الله تعالى حَفِظَ كتابه من التحريف والتبديل، فلو تَغَيَّرَتْ حركةٌ فيه لضَجَّ العالم الإسلامي من أقصاه إلى أقصاه، ولقد قَيَّضَ الله للسنَّة رجالاً جَرَّحُوا وَعَدَّلُوا وَمَيَّزُوا الصَّحِيحَ مِنْ غَيْرِهِ، وَرَدَّ اللهُ كَيْدَ الْأَعْدَاءِ فِي نُحُورِهِمْ.

الْيَهُودُ يُشَكُّونَ الْمُسْلِمِينَ فِي عَقِيدَتِهِمْ

٧٢- ﴿وَقَالَتْ طَائِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ ءَامِنُوا بِالَّذِي أُنْزِلَ عَلَى الَّذِينَ ءَامَنُوا وَجَهُ النَّهَارِ وَآكُفُّوا ءَاخِرَهُ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ (٧٢)

تشكيك المسلمين في عقديتهم، طريقة خبيثة مأكرة، من أقوى ما تَفَقَّقَ عنه تدبيرهم الشيطاني، فكانوا يُظهرون بالسنتهم الدخول في الإسلام، ثم يرجعون عنه؛ لإحداث بلبلة وتشكيك عند المسلمين؛ لأنهم إذا رأَوْهم يرتدُّون عن الإسلام، يعتقدون أنهم رجعوا عنه لنقص أو عِلَّةٍ فيه؛ بسبب أنهم على عِلْمٍ بالكتب السابقة، وبإظهار الكُفر بعد الإيمان، يدخل الشكُّ في قلوب ضِعَافِ الإيمان، خاصة الأميون منهم.

وهذه أربعة أمثلة لمكر اليهود وحيلهم:

١- قال مجاهد ومقاتل: صَلَّتِ اليهود مع النَّبِيِّ ﷺ صلاةَ الفجر، وكفروا آخر النهار مكرًا منهم؛ لِيُرُوا الناس أنه قد بَدَتْ لَهُم الضَّلَالَةُ بعد أن اتبعوه^(١) وهذا من تلييسات اليهود.

٢- وقال السدي والحسن: تَوَاطَأَ اثْنَا عَشَرَ رَجُلًا من يهود خيبر، فقال بعضهم لبعض: ادخلوا في دين محمدٍ أول النهار باللسان دون اعتقاد القلب، ثم اكفروا آخر النهار، وقولوا: إنا نظرنا في كُتُبِنَا فظهر لنا كَذِبُ محمدٍ، وأنه ليس بالمنعوتِ عندنا، فإذا فعلتُم ذلك شكَّ أصحاب محمدٍ في دينه واتهموه، وقالوا: إن أهل الكتاب أعلمُ به منَّا، فيرجعون عن دينه^(٢).

٣- وقيل: إنه لَمَّا حُوِّلَت الْقِبْلَةُ، قال كعب بن الأشرف لأصحابه: آمِنُوا؛ أَي: صَلُّوا إِلَى الْكَعْبَةِ أول النهار، ثم ارجعوا إلى قبلتكم آخر النهار، لعلمهم يرجعون إلى قبلتنا، بعد أن أَلْقَيْنَا عَلَيْهِم الشُّبْهَةَ.

٤- وأخرج الطبري عن قتادة بسند حسن، أن بعضهم قال لبعض: أعطوهم الرضى بدينهم أول النهار واكفروا آخره، فإنه أجدر أن يُصَدِّقَوكُم، ويعلموا أنكم قد رأيتم فيهم ما تكرهون، وهو أجدر أن يَرْجِعُوا عن دينهم.

ولمَّا دَبَرُوا هذه الحيل؛ أخبر الله رسوله بهذه الآيَةِ، فَلَمْ يَتَمَّ لَهُم ما أرادوا، ولم يحصل أثرٌ من شكٍّ في قلوب المسلمين.

وقد لجأت القوى المناهضة للإسلام في العالم إلى أساليب متعددة من هذا القبيل عن طريق فلاسفة وباحثين وكُتَّاب وشُعراء وفنَّانين وصحفيين؛ لخلخلة عقيدة المسلمين في صورة: بحث، وعِلْم، وفن، وتقدُّم، وحضارة، وحقوق، ومساواة، وعلمنة، وصحافة، وحرية رأي، والرأي الآخر، والاتجاه المعاكس، وقد يكون هؤلاء من المسلمين بالهوية، وهم بذلك يؤدُّون دورَ أهل الكتاب القديم.

(١) «أسباب النزول» للنيسابوري، والطبري بسند صحيح وابن كثير (٢/ ٥٩).

(٢) النيسابوري (٩٣) و«تفسير القرطبي» (٤/ ١١٢).

وَالْمُتَّبِعُ لِمَاحِلِ التَّارِيخِ قَدِيمًا وَحَدِيثًا يَرَى أَنَّ الدَّهَاءَ فِي السِّيَاسَةِ وَالْحَرْبِ يَتَّخِذُونَ إِيقَاعَ الشَّكِّ وَالْحَيَرَةِ وَالْاضْطِرَابِ فِي قُلُوبِ النَّاسِ ذَرِيعَةً لِإِشَاعَةِ الْخَلَلِ وَالْاضْطِرَابِ فِي صُفُوفِ أَعْدَائِهِمْ.

قال الشيخ محمد عبده: هذا النوع الذي تحكيه الآيات من صد اليهود عن الإسلام، مبني على قاعدة طبيعية في البشر، وهي أن من علامة الحق ألا يرجع عنه من يعرفه، وقد فقه هذا هرقل ملك الروم، فكان ممّا سأل عنه أبا سفيان من شؤون النبي ﷺ أن قال له: هل يرتد أحد من أتباع محمدٍ سخطاً لدينه بعد أن يدخل فيه؟ فقال أبو سفيان -وهو يومئذ على كفره: لا.

وقد أرادت هذه الطائفة أن تغش الناس من هذه الناحية؛ ليقولوا: لولا أن ظهر لهؤلاء بطلان الإسلام لما رجعوا عنه بعد أن دخلوا فيه، وأطلّعوا على خوافيه وبواطنه، إذ لا يُعقل أن يترك الإنسان الحق بعد معرفته لغير سبب^(١).

ثم إن إخبار الله تعالى لنبيه بما يكشف نواياهم هو من باب الإخبار بالغيب، ولما أطلع الله المؤمنين على هذه النوايا الخبيثة لم يعد لها أثر بعد معرفتهم لها، ثم إن الله تعالى قد فصّح حيلهم؛ ليكون هذا ردّاً لأمثالهم ممن يُقدم على الحيل الخبيثة^(٢).

إِحَاطَةُ التَّشْكِيكِ فِي الْإِسْلَامِ بِالسَّرِّيَةِ التَّامَّةِ وَالرَّدِّ عَلَيْهِمْ

٧٣- ﴿وَلَا تُؤْمِنُوا إِلَّا لِمَن تَبِعَ دِينَكَوْ قُلْ إِنَّ الْهُدَىٰ هُدَىٰ اللَّهِ أَن يُؤْتَىٰ^(٣) أَحَدٌ مِّثْلَ مَا أُوتِيْتُمْ أَوْ يُحَاجُّوْكُمْ عِنْدَ رَبِّكُمْ قُلْ إِنَّ الْفَضْلَ بِيَدِ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ وَسِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٧٣﴾

لَمَّا قَالَ بَعْضُ الْيَهُودِ لِبَعْضٍ: تَظَاهَرُوا أَوَّلَ النَّهَارِ بِالْإِسْلَامِ، وَاكْفَرُوا آخِرَهُ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ عَنِ الْإِسْلَامِ، قَالَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ: وَلَيْكُنْ هَذَا سِرًّا بَيْنَكُمْ، لَا تُبْدُوْنَهُ، وَلَا تَأْتُمْنُوا عَلَيْهِ إِلَّا أَهْلَ دِينِكُمْ، فَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَلَا تُؤْمِنُوا إِلَّا لِمَن تَبِعَ دِينَكَوْ﴾ مُتَّصِلٌ بِكَلَامِ

(١) «تفسير المنار» (٣/ ٣٢٣).

(٢) يُنْظَرُ: «تفسير الفخر الرازي» (٨/ ١٠١).

(٣) قرأ ابن كثير (أَن يُؤْتَى) بهمزيّن، ثانيتهما مُسهلة من غير إدخال ألف بينهما على الاستفهام التوبيخي، وقرأ الباقون بهمزة واحدة على الإخبار.

اليهود؛ أي: لا تُفُشُوا أَمْرَكُمْ، وتُظْهِرُوا سِرَّكُمْ إِلَّا لِمَنْ وافَقَ مِلَّتَكُمْ التي أنتم عليها وهي اليهودية؛ وذلك لسببين:

السبب الأول: حتى لا يَحْتَجُوا به عليكم، فلا تُظْهِرُوا ما عندكم من العِلْمِ للمسلمين، حتى لا يتعلموه منكم، فيساووكم في العِلْمِ به، وتكون لهم الأفضلية عليكم، واثبتوا على ملازمة دين اليهودية.

وهذا تعليلٌ لِمَا سبق من ضرورة الإسرار بما عندهم من العِلْمِ، ومنه نَعَتْ النَّبِيَّ ﷺ في التوراة والإنجيل، وهو من باب الحقد والحسد والنقمة.

السبب الثاني: حتى لا يُحَاجُّوكُم يوم القيامة عند ربكم بالحقِّ، ويغلبوكم بالحُجَّةِ، فلا تصدقوا محمدًا بالنبوة، وانظروا فيمَن ادَّعى النبوة، إن كان متبعًا لدينكم فصدقه، وإلا فكذبوه، ولا تعترفوا لأحد بالنبوة؛ حتى لا يُؤْتَى مثل ما أُوتيتُم من الكتاب والنبوة.

والغرض من هذا نَفْيُ النبوة عن محمدٍ ﷺ في الظاهر، وكأن الله تعالى لا يعلم سرهم ﷻ، وهذه مقولة لا تَنِمُّ عن إيمان صحيح.

ذلكم قول الله سبحانه: ﴿أَنْ يُؤَفَّفَ أَحَدٌ مِّثْلَ مَا أُوتِيتُمْ﴾ هذا هو السبب الأول.

أي: حتى لا يحصل لهم من العلم مثل ما حصل لكم.

﴿أَوْ يُحَاجُّوكُمْ عِنْدَ رَبِّكُمْ﴾ هذا هو السبب الثاني، أي حتى لا يقيموا عليكم الحجة عند ربكم فيغلبوكم.

وهكذا فقد جعلوا عدم إخبار المؤمنين بما معهم من العلم قاطعًا عنهم العلم، وموجبًا لإقامة الحجة عليهم، وقد لَقِّنَ الله رسوله الرد عليهم: قل لهم يا محمد: إن الفضل والعطاء كُلُّهُ بيد الله، يُؤْتِيهِ من يشاء، ومنه نبوة محمد ﷺ، فالله أعلم حيث يجعل رسالته.

ومن الفضل: الهداية والتوفيق للحقِّ، والله تعالى يَسْعُ بعلمه وَفَضْلِهِ جميع مخلوقاته مِمَّنْ يستحق فضلَه ونعمته، وفي هذا ردُّ على حَسَدِهِم للمسلمين، وبيان أن الهدى من الله، ولا موقِّع إلا من وفقه الله ولا علم إلا ما جاءت به رسل الله، وقد شاء الله تعالى أن يجعل الرسالة والكتاب في غير أهل الكتاب، لِمَّا فقدوا الأهلية لهذا المنصب، وعجزوا عن الارتقاء إلى مستوى الوحي الإلهي، فقسَّتْ قلوبهم، وتجرؤوا على ربِّهم، ورفضوا أمرَه ونهيَه.

وبناء على ما سبق فإن الآية إما أن تكون من كلام اليهود، وإما أن تكون خطابًا من الله تعالى

للمؤمنين، فإن قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ الْهُدَىٰ هُدَىٰ اللَّهِ﴾ جملة معترضة بين كلام اليهود. ومعناه: أن ما أنتم عليه -معشر اليهود- هو بأمر الله وحكمه، فإذا أمر الله بدين آخر فعليكم اتّباعه.

أو يكون المعنى: أن الهدى من الله لمن شاء هداً، فيسلم ويثبت على الإسلام، وأن كيدهم للإسلام لا ينفع.

وقد تكون الآية كلها خطاباً موجهاً من الله تعالى للمؤمنين، يثبت به قلوبهم حتى لا يشكوا في تلبس اليهود وكيدهم.

فلا تصدّقوا أيها المسلمون إلا من اتبع دينكم الإسلامي، ولا تأمنوا مكر اليهود والنصارى؛ وعليه فالجملة ليست معترضة.

والله واسع الفضل، كثير الإحسان، عليم بمن يصلح للإحسان فيعطيه، ومن لا يصلح فيحرمه:

٧٤- ﴿يَخْنُصُ بِرَحْمَتِهِ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾

والله سبحانه ﴿يَخْنُصُ بِرَحْمَتِهِ مَن يَشَاءُ﴾ من خلقه بالنبوة والهداية وغيرهما ﴿وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾ فلا فضل أعظم من فضله على أمة بالهدى، ولا رحمة أفضل من النبوة والرّسالة، ربنا وسعت كل شيء رحمة وعلماً.

اسْتِحْلَالُ الْيَهُودِ لِأَمْوَالِ غَيْرِهِمْ

٧٥- ﴿وَمِنَ أَهْلِ الْكِتَابِ مَنَ إِن تَأْمَنُهُ بِقِنطَارٍ يُؤَدُّهُ^(١) إِلَيْكَ وَمِنْهُمْ مَنَ إِن تَأْمَنُهُ بِدِينَارٍ

لَا يُؤَدُّهُ^(١) إِلَيْكَ إِلَّا مَا دُمْتَ عَلَيْهِ قَائِمًا ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لَيْسَ عَلَيْنَا فِي الْأُمْنِ سَبِيلٌ وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٧٥﴾﴾

(١) قرأ ورش وأبو جعفر بإبدال الهمزة من (يؤده) في الموضعين معا وأواً خالصة، وأسكن هاءها أبو عمرو وشعبة وحمزة، واختلس كسرهما قالون، وقرأ أبو جعفر بالإسكان والاختلاس فيها، وقرأ ابن ذكوان بالاختلاس وإتمام الحركة مع الإشباع، وقرأ هشام بالإسكان والاختلاس والإشباع، وقرأ الباقر وهم: ابن كثير وحفص والكسائي ويعقوب وخلف العاشر بإشباع كسرة الهاء فيهما، ووصل الهاء بحرف مدّ ورش، والباقر بدون صلة.

ثم يَمْضِي السياق ليُصِف أهل الكتاب بالنسبة للوفاء والخيانة في الأموال بعد أن ذَكَر ما هم عليه من خيانة في الدين وكتمان للحق، وَخُبْث ومَكْر وكيد للإسلام وأهله، فتصف اليهود على وجه الخصوص من الناحية المالية والدينية، حيث خانوا الله فحَرَفُوا كتابه، وخانوا الناس فاستحلُّوا، أَكَلَ أموالهم بالباطل، وقد يقول قائل: لماذا نَجِد القرآن يَذكر مساوئ اليهود ويُعَدِّد عيوبهم ولا نَجده يمدحهم ويُثني عليهم؟

قلت: هذا غير صحيح؛ فالقرآن الكريم يُنْصِف اليهود والنصارى وغيرهم، ولا يبخسهم شيئاً ولا يُعْبِئهم في شيء، والمتأمل لآيات القرآن الكريم يَجِد أن الله ﷻ يَذكر لنا أخلاق اليهود وبيئتها؛ كي نتعلم كيف نتعامل معهم، ونتعرف على طبائعهم وأخلاقهم التي وَضَحَهَا ربُّ العالمين في كتابه، وفي مواضع من الثناء عليهم يَسْتَحَقونها فإن القرآن الكريم يمدحهم ويذكر محاسنهم، ولا يبخسهم شيئاً.

من ذلك قول الله سبحانه عن اليهود: ﴿وَمِنْ قَوْمٍ مُّوسَىٰ أُمَمٌ يِّهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ﴾ [الأعراف: ١٥٩] أي: أن جماعة من اليهود من أتباع موسى مستقيمين على الحق، يهدون الناس به، ويعدلون به في الحكم في قضاياهم.

ومن ذلك أن الله ﷻ لَمَّا ذَكَر جرائم اليهود وفضائحتهم في هذه السُورَة، قال سبحانه في نهايتها: ﴿لَيْسُوا سَوَاءً﴾ أي: أن اليهود ليس بعضهم كبعض، بل منهم الصالح ومنهم الطالح ﴿مَنْ أَهْلِ الْكِتَابِ أُمَّةٌ قَائِمَةٌ يَتْلُونَ آيَاتِ اللَّهِ آنَاءَ اللَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ﴾ [آل عمران: ١١٣] وهذا ثناء منه سبحانه على مَنْ دخل منهم في الإسلام، وَحَسُنَ إسلامه كعبد الله بن سلام وغيره.

ومن ذلك هذه الآية التي معنا، الخامسة والسبعون من سورة آل عمران وما بعدها، فهي تتناول أنواع التعامل والتعاقد بالنسبة لليهود.

فالله ﷻ يبيِّن فيها أن من أهل الكتاب من اليهود مَنْ إن تَأَمَّنَه على مالٍ كثيرٍ من الذهب وغيره يُؤْده إليك من غير خيانة، وافيًا كاملاً غير منقوصٍ.

ومن اليهود مَنْ إن تَأَمَّنَه بدينارٍ فأقل؛ أي: بمالٍ ولو قليل، فإنه لا يؤديه إليك، ولو كان مكتوبًا، أو في أمانته، فهو يُمَاطِلُكَ، وتَبْذِلُ غايةَ الجُهد في مطالبته دون جدوى.

ومن أمثلة الفريق الأول: ما ورد أن عبد الله بن سلام وهو يهودي لمَّا أسلم اتَّمتَّه رجلٌ من قريش على ألف ومئتين أوقية من الذهب؛ فأداها إليه وافيةً كاملةً، فأثنى الله تعالى عليه وعلى أمثاله، ممَّن يؤدُّون الأمانة ويوفُّونها حقَّها في هذه الآية.

ومن أمثلة الفريق الآخر: أن رجلاً يهودياً يُسمى فنحاص ابن عازوراء اتَّمتَّه رجلٌ من قريش على دينار؛ فخانه ومآطَّله وأنكره، وظل قائماً عليه يطالبه به كي يؤدِّيه له.

ثم بيَّن الله ﷻ السبب في أن اليهود يأكلون أموالَ غيرهم، ولا يبالون بذلك، سواء أكان عن طريق الربِّاء، أم عن طريق أكل المال بالباطل أم غير ذلك، بزعم أن العرب ليست لهم حرمة، فهم يجمعون بين أكل الحرام واعتقاد حله.

إنها عقيدة فاسدة تجعلهم يستحلُّون أموال الناس بالباطل، ويقولون: ليس علينا إثمٌ ولا حرجٌ في أكل أموالهم؛ لأن الله قد أحلها لنا، وهم بهذا يكذبون على الله بألستهم، ويعلمون في أنفسهم أنهم كاذبون، وهذا أعظم إثمًا من القول على الله بغير علم، إنهم ينسبون ذلك إلى الله سبحانه ويقولون: إن دينهم يأمرهم بهذا، وأنهم شعبُ الله المختار، وأنهم أبناء الله وأحباؤه، وأن غيرهم من الخلق خلِّقوا من نطفة أخرى، وهم بمنزلة العبيد لهم، لا سيَّما العرب.

وهم في القرآن يُسمَّون بالأميين، فإنه يجوز لهم -فيما يزعمون- أن يأكلوا أموالهم، لا حرج عليهم في ذلك ولا إثم، فإنهم عندهم كالعبيد، والعبد وما ملكت يداه لسيِّده.

ومن ذلك أنه يجوز لليهودي في شريعته المحرَّفة أن يزني بغير اليهودية، وأن يسرق غير اليهودي، وأن يقتل غير اليهودي ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لَيْسَ عَلَيْنَا فِي الْأُمِّيَّتِنِ سَبِيلٌ﴾

والأميون: هم غير اليهود، من عرب وغير عرب؛ ممن لم يبعث فيهم نبي، أي: ليس علينا حرجٌ ولا إثمٌ في أن نأكل أموال غيرنا، وأن نتعامل هكذا مع غير اليهود، فهم جنسٌ آخر، من نطفة غير النطفة التي خلِّقنا منها، ولمَّا قالوا ﴿لَيْسَ عَلَيْنَا فِي الْأُمِّيَّتِنِ سَبِيلٌ﴾ كذبهم الله سبحانه وبيَّن أن قولهم هذا باطل ومفترى، لا أساس له فقال: ﴿وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ أنه كذب.

قال رجل لعبد الله بن عباس ؓ: إنا نُصيب في الغزو، ونحن نُجاهد في سبيل الله من

أموال أهل الذمة، الشاة والدجاجة ونحو ذلك، هل يحل لنا هذا؟ قال عبد الله بن عباس رضي الله عنه: فماذا تقولون حين تستحلون هذه الشاة أو هذه الدجاجة؟ قال: نقول ليس علينا بأس؛ أي: إثم ولا حرج، قال عبد الله بن عباس: هذا كما قال أهل الكتاب.

﴿لَيْسَ عَلَيْنَا فِي الْأُمْنَيْنِ سَبِيلٌ﴾ أي: أن هذا لا يحل لكم، ولو كانوا أهل ذمة، ولو كانوا مخالفين لكم في الشريعة، فإنه لا يحل لكم أن تأخذوا شيئاً من أموالهم إلا بطيب نفس، ما داموا أهل ذمة لا يحاربونكم^(١).

وعن سعيد بن جبير أن اليهود لما قالوا: ﴿لَيْسَ عَلَيْنَا فِي الْأُمْنَيْنِ سَبِيلٌ﴾ قال عليه الصلاة والسلام: «كذب أعداء الله، ما من شيء كان في الجاهلية إلا وهو تحت قدمي هاتين، إلا الأمانة فإنها مؤداة إلى البرِّ والفاجر»^(٢).

وبهذا نرى أهل الكتاب فريقين: فريقاً يؤدي الأمانة ولا يخون، وهم الذين مدحهم الله تعالى، وفريقاً لا يؤدي الأمانة ويستحل الخيانة، وهم الذين ذمهم الله تعالى؛ لأنهم يحتقرون غيرهم، ويستخفون بحقوق المخالفين لهم في الدين.

وقد جرَّأهم على هذا، تحريفهم لنصوص التوراة، وسوء فهمهم لبعضها، فقد جاء في سفر التثنية، الإصحاح الثالث والعشرين (لا تقرض أخاك برَباً فضة، أو ربا طعام، وللأجنبي تقرض بربا).

وعن ابن الكلبي قالت اليهود: الأموال كلها كانت لنا، فما في أيدي العرب منها فهو لنا، وإن هم ظلمونا وغصبونا فلا إثم علينا في أخذ أموالنا منهم^(٣).

والأصل أن الربَّ مُحَرَّم في الشرائع كلها، فقد جاء في التوراة (لا تأخذ ربا من أخيك إذا أقرضته) فحرَّف اليهود هذا النص هكذا (لا تأخذ ربا من أخيك الإسرائيلي إذا أقرضته).

هذا: ومن أخذ أموال الناس يريد أداءها أدَّى الله عنه، ومن أخذها يريد إتلافها أتلفه الله.

عن أبي هريرة رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ أنه ذكر رجلاً من بني إسرائيل سأل بعض

(١) رواه عبد الرزاق عن صعصعة بن يزيد (١/ ١٢٣) وقد ذكرته بالمعنى، وأخرجه الطبري (٥/ ٥١٢) وابن المنذر (٢٢٩) وابن أبي حاتم (٣٧١).

(٢) ابن أبي حاتم (٢/ ٣٤٩) و«تفسير الطبري» (٦/ ٥٢٢) وهو مرسل.

(٣) «تفسير الألوسي» (٢/ ٥٠٢).

بني إسرائيل أن يُسلفه ألف دينار، فقال: اتني بالشهداء أشهدهم، فقال: كفى بالله شهيداً، قال: فائتني بالكفيل، قال: كفى بالله كفيلاً، قال: صدقت، فدفعها إليه على أجلٍ مُسمى.

فخرج في البحر فقصى حاجته، ثم التمس مركباً يركبها يُقدم عليها للأجل الذي أجله، فلم يجد مركباً، فأخذ خشبةً فنقرها، فأدخل فيها ألف دينار، وصحيفةً منه إلى صاحبه، ثم زجج موضعه، ثم أتى بها إلى البحر، فقال: اللهم إنك تعلم أنني كنت تسلّفت فلاناً ألف دينار، فسألني كفيلاً فقلت: كفى بالله كفيلاً، فرضي بذلك، وسألني شهيداً فقلت: كفى بالله شهيداً، فرضي بذلك، وإني جهدت أن أجد مركباً أبعث إليه الذي له، فلم أقدر، وإني استودعتكها، فرمى بها في البحر حتى ولجت فيه، ثم انصرف، وهو في ذلك يلتمس مركباً يخرج إلى بلده.

فخرج الرجل الذي كان قد أسلفه ينظر لعل مركباً قد جاء بماله، فإذا بالخشبة التي فيها المال، فأخذها لأهله حطباً، فلما نشرها وجد المال والصحيفة، ثم قديم الذي كان أسلفه، فأتى بالألف دينار، فقال: والله مازلت جَاهداً في طلب مركبٍ لأتيك بمالك فما وجدتُ مركباً قبل الذي أتيتُ فيه، قال: هل كنت بعثتُ إليّ بشيء؟ قال: ألم أخبرك أنني لم أجد مركباً قبل الذي جئتُ فيه، قال: فإن الله قد أدّى عنك الذي بعثتُ في الخشبة، فانصرف بالألف دينار راشداً^(١).

ثم رد الله تعالى على اليهود زعمهم الفاسد الذي يستحلون به أكل أموال الناس فقال:

٧٦- ﴿بَلَىٰ مَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِ وَاتَّقَىٰ فَإِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ﴾ (٧٦)

على القارئ أن يقف على ﴿بَلَىٰ﴾ استحباباً، ثم يستأنف القراءة بعدها .
وقد بين سبحانه أنه ليس الأمر كما زعموا، بأنهم ليس عليهم في الأمين سبيل، فقال:
﴿بَلَىٰ﴾ أي: بل عليهم أعظم الحرج وأكبر الإثم في أكل أموال غيرهم بالباطل .
والوفاء بالعهد يشمل العهد الذي بين العبد وربه في جميع ما أوجبه الله عليه من

(١) «صحيح البخاري» برقم (١٤٩٨، ٢٢٩١، ٢٤٠٤، ٢٧٣٤، ٦٢٦١) أورده معلقاً وموصولاً، وأخرجه أحمد في «المسند» (٢/ ٣٤٨) عن يونس بن محمد عن الليث، وهو في «البداية والنهاية» (٢/ ١٢٨).

حقوق، ويشمل العهد الذي بين العبد وبين سائر الناس من العقود والأمانات وسائر الحقوق والعهود، فمن وفي بهذه العهود فهو من المتقين المحبوبين عند الله تعالى.

والمعنى: لكن مَنْ أَوْفَى وَأَدَّى الأمانة، فإن الله تعالى يُحِبُّه، وَرَبَطَ القرآن الكريم ذلك بتقوى الله سبحانه فقال: ﴿وَأَتَّقَى﴾ وهذا الوَفِيُّ التقي هو الذي يُحِبُّه رَبُّ العالمين ﴿فَإِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ﴾ ومن التقوى ترك المعاصي فيما بين العبد وربه، وفيما وبينه وبين الخلق، سواء أكان من الأميين أم من غيرهم، فمن قال: ﴿لَيْسَ عَلَيْنَا فِي الْأُمِّتَيْنِ سَبِيلٌ﴾ لم يوفِّ بعهده ولم يتق الله، فليس ممن يحبهم الله، وإذا عُرف الأميون بالوفاء بالعهد وتقوى الله تعالى، وعدم أكل أموال الناس بالباطل، كانوا هم المحبوبين عند الله تعالى، وليس كما تدَّعون من أنكم أبناء الله وأحباؤه، هذه صورة من صور التعامل مع اليهود جاء ذكرها في الآيتين الأخيرتين. والذين يقولون ﴿لَيْسَ عَلَيْنَا فِي الْأُمِّتَيْنِ سَبِيلٌ﴾ داخلون في الآية التالية:

وَعِيدُ اللَّهِ لِلْيَهُودِ بِخَمْسِ عُقُوبَاتٍ

٧٧- ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَشْرُونَ عَهْدَ اللَّهِ وَأَيْمَانَهُمْ ثَمَنًا قَلِيلًا أُولَٰئِكَ لَا خَلْقَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ وَلَا يَنْظُرُ إِلَيْهِمْ^(١) يَوْمَ الْقِسْمَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ^(٢) وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٧٧﴾﴾
يدخل في هذه الآية: كل من أخذ شيئاً من الدنيا في مقابلة ترك حق من حقوق الله، أو حقوق عباده، وكذا كل من حلف يميناً يقتطع بها حق أحد من خلق الله.

وهذه صورة أخرى في التعاقد والتعامل مع اليهود تحكيها لنا هذه القصة: وهي أن رجلاً من الصحابة اسمه (الأشعث بن قيس الكندي) كانت له بئرٌ، اغتصبها منه أحد اليهود، ثم طلبها منه فلم يُعطها له، وليس عنده بيّنة، ولا شهود ولا عقد ولا كتابة، فذهب إلى النبي ﷺ وأخذ معه اليهودي يختصم عند الرسول ﷺ، فقال النبي ﷺ للصحابي: «ألك بيّنة وشاهدان؟» قال: لا، قال لليهودي: احلف، قال الأشعث: إِذَا يَحْلِفُ وَلَا يِبَالِي، وَيَذْهَبُ بِمَالِي، فَأَنْزَلَ اللَّهُ سبحانه^(٢) يَبَيِّنُ جُرْمَ هَذَا اليمين الكاذب، فهي يمينٌ فاجرة

(١) قرأ يعقوب بضم الهاء في (إليهم) ويزكيهم) وحزمة بضم الهاء في (إليهم) فقط، وَوَصَلَ مِيمَ الجمع فيهما بحرف مدٍّ طبيعيٍّ ابنٌ كثير وأبو جعفر وقالون بخلف عنه.

(٢) يُنْظَرُ: الحديث في البخاري (٢٤١٦، ٧٤٤٥) ومسلم (١٣٨) وأبو داود (٣٢٤٣) والترمذي (١٢٦٩) والنسائي (٥٩٩١) وغيرهم عن ابن مسعود.

يَغْتَصِبُ الْحَالِفُ بِمَقْتَضَاهَا حَقَّ أَخِيهِ؛ مِنْ أَرْضٍ أَوْ مَالٍ أَوْ مَتَاعٍ أَوْ نَحْوِ ذَلِكَ.

وقد بيّن النبي ﷺ في حديث عبد الله بن مسعود ؓ أن «مَنْ حَلَفَ عَلَى يَمِينٍ صَبْرٍ، يَقْتَطِعُ بِهَا مَالَ امْرِئٍ مُسْلِمٍ، هُوَ فِيهَا فَاجِرٌ، لَقِيَ اللَّهَ وَهُوَ عَلَيْهِ غَضَبَانِ»^(١).

واختصم رجل من حضرموت وامرؤ القيس بن عابس عند النبي ﷺ في أرض، فقضى على الحضرمي بالبيّنة، فلم يكن له بيّنة، فقضى على امرئ القيس باليمين، فقال الحضرمي: إن أمكنته من اليمين يا رسول الله، ذهبت أرضي؟ فقال النبي ﷺ: «مَنْ حَلَفَ عَلَى يَمِينٍ كَاذِبَةً؛ لِيَقْتَطِعَ بِهَا مَالَ أَحَدٍ لَقِيَ اللَّهَ وَهُوَ عَلَيْهِ غَضَبَانِ» وتلا رسول الله الآية، فقال امرؤ القيس: ماذا لمن تركها يا رسول الله؟ فقال: «الجنة» قال: فاشهد أنني قد تركتها له كلها^(٢).

وهذا هو اليمين الغموس الذي يُغَمَسُ صاحبه في النار، وقد أنزل الله سبحانه هذه الآية تضع قاعدة عامة إلى الخلق جميعاً حتى يوم القيامة ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَأَيْمَانِهِمْ ثَمَنًا قَلِيلًا﴾ أي: أن مَنْ يَحْلِفُ بِاللَّهِ كَذِبًا؛ لِيَنَالَ بِهِ شَيْئًا مِنْ حُطَامِ الدُّنْيَا، يأخذه من حق أخيه، ماذا له من عقوبة؟

انظروا إلى هذه العقوبة الشديدة المغلظة التي أعدّها الله لمن يَحْلِفُ كاذبًا، ويأخذ حق أخيه بمقتضى هذا اليمين عند القاضي أو غيره ﴿أُولَٰئِكَ لَا خَلَاقَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ﴾ أي الذين ليس لهم نصيب فيها ﴿وَلَا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ﴾ يوم القيامة غضبًا عليهم وسخطًا لتقديهم هوى أنفسهم على رضى ربهم ﴿وَلَا يَنْظُرُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ﴾ أي لا يطهرهم من ذنوبهم ولا يزيل عيوبهم ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾، موجه للقلوب والأبدان، وهو عذاب السخط وعذاب جهنم. هذه خمس عقوبات:

العقوبة الأولى: أنهم ليس لهم نصيب ولا حظ في نعيم الآخرة؛ بسبب ما ارتكبه من غرور وافتراء.

(١) من حديث طويل في البخاري برقم (٢٣٥٦، ٢٣٥٧، ٤٥٤٩، ٤٥٥٠) و«صحيح مسلم» برقم (١٣٨).

(٢) «المسند» (٤/ ١٩١) برقم (١٧٧١٦) من حديث عدي بن عُميرة، بإسناد صحيح، وهو في «السنن الكبرى» للنسائي (٥٩٩٦) وانظر «صحيح سنن أبي داود» (٣٧٨٠) وابن ماجه (٢٣٢٢)، والبيهقي في السنن (٢٥٤/١٠) وفي الشعب (٤٨٤٠).

العقوبة الثانية: شِدَّةُ سَخَطِ الله تعالى وغضبه عليهم، المعبر عنه بعدم كلامهم.

العقوبة الثالثة: أن الله تعالى لا ينظر إليهم نظرَ رحمة ولا عطف ولا إحسان؛ بسبب خيانتهم للأمانات.

العقوبة الرابعة: أن الله تعالى لا يُطَهِّرهم من الذنوب والأوزار؛ لأنهم مستمرُّون عليها حتى الموت.

العقوبة الخامسة: أن لهم في الآخرة عذابًا موجعًا؛ بسبب ما ارتكبوه من آثام وذنوب.

وهذه العُقوباتُ سَبَبُها أمران:

الأول: أنهم استبدلوا بعهد الله إليهم عَرَضًا دنيويًا.

الثاني: أنهم وثَّقوا هذا العهد بالأيمان بالله تعالى، ومع ذلك نقضوها.

وفي أحاديثٍ عدَّة، شَرَحَ النَّبِيُّ ﷺ هذا المعنى، ومنهم التاجر الذي يبيع سلعته باليمين الفاجرة، يحلف كذبًا أنه وُضِعَ له فيها كذا من المال، وهو كاذب في يمينه، يقول هذا ليغتر بالمشتري، وليحمله على الشراء بثمن معين.

وهذه جملة من الأحاديث في معنى الآية:

١- روى أبو هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «ثلاثة لا يكلمهم الله يوم القيامة، ولا ينظر إليهم، ولا يزكيهم، ولهم عذاب أليم: رجلٌ مَنَعَ ابن السبيل فضلَ ماء عنده، ورجلٌ حلف على سلعة بعد العصر (يعني: كاذبًا) فصَدَّقَه فاشتراها بقوله، ورجلٌ بايع إمامًا، فإن أعطاه وفَّى له، وإن لم يعطه لم يوفَّ له»^(١)؛ أي: بايع إمامه للدنيا.

٢- وعن سهل بن معاذ بن أنس عن أبيه أن النَّبِيَّ ﷺ قال: «إن لله تعالى عبادًا لا يكلمهم يوم القيامة، ولا يزكيهم ولا ينظر إليهم» قيل: ومَن أولئك يا رسول الله؟ قال: «متبرئ من والديه

(١) «المسند» (٢/ ٤٨٠) (١٠٢٢٦) بإسناد صحيح على شرط الشيخين، (محققه) وأبو داود برقم (٣٤٧٤) والترمذي برقم (١٤٩٥) وانظر «صحيح البخاري» برقم (٢٣٥٨) و«صحيح مسلم» برقم (١٠٨) وابن ماجه (٢٢٠٧) والبيهقي في «الشعب» (٤٧٦).

راغبٌ عنهما، ومتبرئٌ من ولده، ورجلٌ أنعم عليه قومٌ فكفر نعمتهم وتبرأ منهم»^(١).

٣- وفي حديث أبي ذر رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «ثلاثة لا يكلمهم الله، ولا ينظر إليهم يوم القيامة، ولا يزكيهم ولهم عذاب أليم» قلت: يا رسول الله، مَنْ هم؟ خابوا وخسروا، قال: وأعادته رسول الله ﷺ ثلاث مرات، قال: «المسبل إزاره خيلاء، والمنفق سلعته بالحلف الكاذب، والمثان»^(٢).

٤- وفي صحيح مسلم وغيره عن أبي أمامة رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «مَنْ اقتطع حق امرئ مسلم بيمينه، حرّم الله عليه الجنة، وأوجب له النار» فقالوا: يا رسول الله، وإن كان شيئاً يسيراً؟ قال: «وإن كان قضيباً من أراك»^(٣).

٥- وعن الحارث بن البرصاء قال: سمعتُ رسول الله ﷺ في الحج، بين الجمرتين، وهو يقول: «مَنْ اقتطع مال أخيه بيمين فاجرة؛ فليتبوأ مقعده من النار، لِيُبْلَغَ شاهدُكم غائبكم» مرتين أو ثلاثاً^(٤).

٦- وعن ابن مسعود رضي الله عنه قال: كنّا نعدُّ من الذنب الذي ليس له كفارة، اليمين الغموس، قيل: وما اليمين الغموس؟ قال: الرجل يقتطع بيمينه مال الرجل.

وَقَدْ وَرَدَ أَكْثَرُ مِنْ سَبَبٍ لِنَزُولِ هَذِهِ الْآيَةِ، مِنْهَا:

١- أنها نزلت في أحبار اليهود ورؤسائهم، الذين كتموا ما عهدَ الله به إليهم في التوراة، في شأن محمد ﷺ، فبدّلوا وكتبوا بأيديهم غيره، وحلفوا أنه من عند الله؛ لئلا

(١) «المسند» (٣/ ٤٤٠) برقم (١٥٦٣٦)، بإسناد ضعيف، كما قال محققوه، وأخرجه الطبراني في الكبير ٢٠ / (٤٣٧) وأورده الهيتمي في مجمع الزوائد (١٥/ ٥) وقال: رواه أحمد والطبراني.

(٢) أخرجه أحمد عن أبي ذر (٥/ ١٤٨) برقم (٢١٣١٨، ٢١٤٨١، ٢١٥٤٤) بإسناد صحيح على شرط الشيخين ورواه مسلم (١/ ١٠٢) برقم (١٠٦) وأبو داود برقم (٤٠٨٧، ٤٠٨٨) والترمذي (١٢١١) وابن حبان (٤٩٠٧) والنسائي (٥/ ٨١) وابن ماجه (٢٢٠٨) والطيالسي (٤٦٧) وأبو عوانه (١١٥).

(٣) «صحيح مسلم» (١٣٧)، ومسند أحمد (٢٢٢٣٩) بإسناد صحيح ورجال ثقات، والنسائي في الكبرى (٥٩٨٠) والدارمي (٢٦٠٣) والطبراني في الكبير (٨٠٠) وفي الأوسط (١١٩٠).

(٤) أخرجه ابن حبان (٥١٦٥) قال محققه: إسناده صحيح، وأخرجه الطبراني (٣٣٣٠، ٣٣٣٢) والحاكم (٢٩٤ / ٤).

تَفَوَّتَهُمُ الرِّشْوَةُ وَالْأَمْوَالُ الَّتِي كَانَتْ تَأْتِيهِمْ مِنْ أَتْبَاعِهِمْ.

٢- وقيل: نزلت في قول اليهود: ﴿لَيْسَ عَلَيْنَا فِي الْأُمُتَيْنِ سَبِيلٌ﴾ فكتبوه بأيديهم، وحلفوا أنه من عند الله.

٣- وفي الصَّحِيحَيْنِ وغيرهما عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «من حلف على يمين هو فيها فاجر؛ ليقطع بها مال امرئ مسلم لَقِيَ الله وهو عليه غضبان» قال: فقال الأشعث: فيَّ والله كان ذلك، كان بيني وبين رجل من اليهود أرض، فجحدني، فَقَدِمْتُهُ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ فقال: «أَلَك بَيْتَةٌ؟» قلت: لا، فقال لليهودي: احلف، قال: قلت: يا رسول الله، إِذَا يَحْلِفُ، وَيَذْهَبُ بِمَالِي، فَأَنْزَلَ اللَّهُ تَعَالَى الْآيَةَ^(١).

٤- وفي البخاري وغيره عن عبد الله بن أوفى أن رجلاً أقام سلعة في السوق، فحلف بالله، لقد أعطى بها ما لم يعط؛ ليقع فيها رجلاً من المسلمين؛ فنزلت^(٢).

٥- وقال عكرمة: نزلت في أبي رافع، ولبابة بن الحقيق، وحُيَيِّ بن أخطب، وغيرهم من رؤساء اليهود، كتموا ما عَهِدَ اللَّهُ إِلَيْهِمْ فِي التَّوْرَةِ مِنْ شَأْنِ مُحَمَّدٍ ﷺ، وبَدَّلُوهُ وَكَتَبُوا بِأَيْدِيهِمْ غَيْرَهُ، وحلفوا أنه من عند الله؛ لثلاث يفوتهم الخير والمآكل التي كانت لهم على أتباعهم^(٣).

والآيَةُ عامَّةٌ، يدخل فيها هذه الأسباب وغيرها، من جميع العهود والمواثيق المأخوذة من جهة الرُّسُلِ، وكل ما ألزم الإنسان به نفسه من عهد ميثاق، فيجب الوفاء به.

والمعنى: إن الذين يستبدلون بعهد الله، ووصيته التي أوصى بها في الكتب التي أنزلها على رسله، عوضاً وبدلاً دينياً من عَرَضِ الدُّنْيَا وَحُطَامِهَا، أولئك لا نصيب لهم من الثواب في الآخرة، ولا يكلمهم الله بما يشرهم، ولا ينظر إليهم يوم القيامة بعين الرحمة، ولا يطهرهم من دنس الذنوب والكُفْرِ، ولهم عذابٌ مُوجِعٌ^(٤).

(١) «صحيح البخاري» برقم (٢٣٥٦، ٢٤١٦، ٢٦٧٣) و«المسند» برقم (٣٥٧٦، ٣٥٩٧، ٤٢١٢) بإسناد صحيح على شرط الشيخين، وهو في «صحيح مسلم» (١٣٨)، وأبو داود (٣٢٤٣) والترمذي (١٢٦٩) وابن ماجه (٢٣٢٣).

(٢) «صحيح البخاري» برقم (٢٠٨٨، ٤٥٥١) و«تفسير ابن أبي حاتم» (٢/ ٣٥٥) وابن المنذر (٦٣٤).

(٣) «زاد المسير» (١/ ٤١٣) و«تفسير الفخر الرازي» (٨/ ١١١).

(٤) «التفسير الميسر» طباعة مجمع الملك فهد ص ٥٩.

تَحْرِيفُ الْيَهُودِ لِكَلَامِ اللَّهِ تَعَالَى وَتَلَاْعُبُهُمْ بِالْأَلْفَاظِ

٧٨- ﴿وَإِنَّ مِنْهُمْ لَفَرِيقًا يَلُونُ أَلْسِنَتَهُم بِأَلِكِنِّ لِيَحْسَبُوهُ^(١) مِنْ أَلِكِنِّ وَمَا هُوَ مِنْ أَلِكِنِّ وَيَقُولُونَ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَمَا هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾

ثم تمضي الآيات فتعرض صورة أخرى لأهل الكتاب، وهم الذين يؤولون النصوص بما تقتضيه أهواء الحُكام فيحرفونها عن مقصودها؛ ليصلوا إلى أهداف معينة، يزعمون أنها مدلول هذه النصوص، بينما هي تُصادم حقيقة دين الله، وهؤلاء عكسوا القضية، وأفهموا الناس غير المراد منها، إما تعريضاً وإما تصريحاً.

فيذكر القرآن الكريم فريقاً من أهل الكتاب، وهم اليهود، فيقول عنهم: ﴿وَإِنَّ مِنْهُمْ لَفَرِيقًا﴾ أي: وإن من اليهود لجماعة يبذلون كلام الله؛ ليُوهموا غيرهم أن هذا من الكلام المُنزَّل من عند الله، وما هو منه في شيء، فهم يحرفون التوراة، مثل: كعب بن الأشرف، ومالك بن الصيف، وحُيي بن أخطب، وشعبة بن عمرو، ومعنى يُحرف: يُميل ويلوى لسانه؛ ليوهم السامع كلاماً آخر، سيمّا العامة، فيزيد وينقص، ويغيّر ويبدّل، سيمّا أوصاف النبي ﷺ في التوراة والإنجيل فهُمْ ﴿يَلُونُ أَلْسِنَتَهُم بِأَلِكِنِّ﴾ أي: يحرفونه أو يُقلّبونه، كتبديل حكم آية الرجم، وصفة النبي ﷺ، ﴿لِيَحْسَبُوهُ مِنْ أَلِكِنِّ﴾ أي: لتحسبوا أنه من التوراة مُنزَّل من عند الله، وما هو من التوراة، وهم لأجل دنياهم يُكذبون على الله، ويعلمون أنهم كاذبون.

﴿وَيَقُولُونَ﴾ كذبا ﴿هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ﴾ بزعمهم ﴿وَمَا هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ﴾ على وجه الحقيقة وهم بهذا قد جمعوا بين نفي المعنى الحق، وإثبات المعنى الباطل، فكذبوا على الله، واستعملوا الألفاظ الدالة على الحق في المعنى الفاسد، مع علمهم بذلك.

وقد أكد الله هذا المعنى مرتين؛ زيادةً في التشنيع على اليهود والنصارى الذين حَرَفُوا التوراة والإنجيل، وألحقوا في كتاب الله ما ليس منه.

ويدخل في معنى الآية تأويل النصوص وتوظيفها لمعنى يريده الإنسان؛ لتؤدي مهمة

(١) قرأ ابن عامر وعاصم وحزمة وأبو جعفر (لِيَحْسَبُوهُ) بفتح السين، وقرأ الباقر بكسر السين، وهما لغتان.

تُرْضَى الساسة أو الحكام، حيث يعتمد مَنْ يريد ذلك إلى حكم معين فيلوي نَصًّا معينًا من كتاب الله، فيستخرج منه المعنى الذي يريده؛ ليتوصل به إلى فتوى معينة، أو حكم معين؛ ليرضي به الأهواء، وهذا يدخل في معنى ﴿يَلُونُ أَلْسِنَتَهُم بِالْكِتَابِ لِتَحْسَبُوهُ مِنَ الْكِتَابِ وَمَا هُوَ مِنَ الْكِتَابِ﴾ ومن ذلك أن النَّصَّارَى يُحرفون النصوص ويستخدمونها في غير موضعها مثل: (روح القدس) (كلمة الله)، فإنهم يؤوّلون مثل هذه الكلمات؛ ليتوصلوا من خلالها إلى أن عيسى إله، أو أنه ابن الإله، وهذا تحريف للكلم عن مواضعه.

وقد نهى الله تعالى المؤمنين عن التلاعب بالألفاظ والمصطلحات؛ لتحريفها وتأويلها، كما كان يفعل اليهود حين يدعون على النَّبِيِّ ﷺ بالموت في تحيتهم له قائلين: (السلام عليكم)، وهم يؤهمونه أنهم يلقون السلام عليه، فقال: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَقُولُوا رَاعِنَا وَقُولُوا انظُرْنَا وَاسْمَعُوا﴾ [البقرة: ١٠٤].

وقال: ﴿وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلِمَ اللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُ مِنْ بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٧٥]

وقال: ﴿مَنْ الَّذِينَ هَادُوا يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ﴾ [النساء: ٤٦]

وقال: ﴿فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ يَكْتُبُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَذَا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ لِيَشْتَرُوا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا فَوَيْلٌ لَهُمْ مِمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَهُمْ مِمَّا يَكْسِبُونَ﴾ [البقرة: ٧٩]

وقال: ﴿وَمَنْ الَّذِينَ هَادُوا سَمَّعُونَ لِلْكَذِبِ سَمَّعُونَ لِقَوْمٍ ءَاخِرِينَ لَمْ يَأْتُوكَ يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ مِنْ بَعْدِ مَوَاضِعِهِ﴾ [المائدة: ٤١] وقال: ﴿فِيمَا نَقُضُهُمْ مِيثَاقَهُمْ لَعَنَّاهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَاسِيَةً يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ﴾ [المائدة: ١٣] وكذبهم وتحريفهم لم يكن عن جهل أو نسيان، إنما كان عن علم وإصرار، وذلك أن القلوب إذا فسدت، واستولى عليها الحسد والجحود، ارتكبت كل منكر ورذيلة دون تفكير في العواقب، ولا تدبر لما جاء به الشرائع، وأمرت به العقول السليمة، نعوذ بالله من علم لا ينفع، ومن قلب لا يخشع.

وَلِيَّ اللِّسَانِ بِالْكَلَامِ لَهُ مَعْنِيَانِ

المعنى الأول: لَوِيَّ الحُجَّةِ وإلغاؤها على غير وجهها، وهو معنى تحريف الكلم عن مواضعه بالتأويلات الباطلة، والقياس الفاسد، وتحميل الألفاظ ما لا تتحملة من المعاني الكاذبة.

والمعنى الآخر: هو تحريفُ اللسان بحرف من حروف الهجاء، كَمَنْ ينطق بالألف نحو الياء، وهو ما يُسمى بالإمالة، أو يَخْتَلِس حركة حرف ويُسرع به، أو يَخْلطه بحرف آخر، وهو ما يُسمى بالإشمام؛ لِيُقَوِّت على السامع معنى آخر يَقصده.

وكِلَا المعنيين يَسْتعملهما اليهود، فَمِن الأول تحريفُ التوراة، ومن الثاني اختلاسُ لام (السلام)؛ ليراد منها (السام) وهو الموت.

الرُّسُلُ لَا يُؤَلِّهُونَ إِلَّا اللَّهَ سُبْحَانَهُ

٧٩- ﴿مَا كَانَ لِشَيْءٍ أَنْ يُؤْتِيَهُ اللَّهُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ﴾^(١) ثُمَّ يَقُولُ لِلنَّاسِ كُونُوا عِبَادًا لِّي مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَكِنْ كُونُوا رَبَّكُمْ عَلِيمُونَ^(٢) الْكِتَابَ وَبِمَا كُنْتُمْ تَدْرُسُونَ ﴿٧٩﴾

نزلت هذه الآية ردًا على من قال من أهل الكتاب للنبي ﷺ لَمَّا أَمَرَهُمْ بِالْإِيمَانِ بِهِ وَطَاعَتِهِ: أتريد يا محمد أن نعبدك مع الله، فذكرت أنه يستحيل على بشرٍ مَنْ الله عليه بالرسالة أن يدعو الناس إلى عبادته، ولكنه يأمرهم بأن يكونوا ربانيين، علماء حكماء حلما، معلمين للناس الخير، فهم يأمرون بالعلم والتعليم والعمل، ويستحيل عليه كذلك أن يأمر أحدًا بعبادة أحدٍ من خلق الله، كالملائكة والنبیین.

من أسباب النزول

١- روى محمد بن إسحاق عن ابن عباس ؓ قال: قال أبو رافع القرظي حين اجتمعت الأحرار من اليهود والنصارى من أهل نجران عند رسول الله ﷺ ودعاهم إلى الإسلام: أتريد يا محمد، أن نعبدك كما تعبدُ النَّصَارَى عيسى ابن مريم؟ فقال رجل من أهل نجران نصراني يقال له الرئيس: أو ذاك تريد منا يا محمد، وإليه تدعوننا؟ فقال رسول الله ﷺ: «معاذ الله أن نعبد غير الله، أو أن نأمر بعبادة غيره، ما بذلك بعثني، ولا بذلك أمرني» فأنزل الله في ذلك ﴿مَا كَانَ لِشَيْءٍ أَنْ يُؤْتِيَهُ اللَّهُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُولُ لِلنَّاسِ

(١) قرأ نافع (النُّبُوَّة) بهمزة بعد الواو، والباقون بواو مشددة.

(٢) قرأ ابن عامر وعاصم وحمزة والكسائي وخلف العاشر (تُعَلِّمُونَ الكتاب) مضارع (عَلَّمَ) فينصب مفعولين؛ أولهما: محذوف تقديره (الناس) وثانيهما: الكتاب، وقرأ الباقر (تُعَلِّمُونَ الكتاب) مضارع (عَلَّمَ) وهو ينصب مفعولًا واحدًا هو (الكتاب).

كُونُوا عِبَادًا لِّي مِن دُونِ اللَّهِ^(١).

٢- وقال الحسن: بلغني أن رجلاً قال: يا رسول الله، نُسلم عليك كما يسلم بعضنا على بعض، أفلا نسجد لك؟ قال: «لا ينبغي أن يُسجد لأحد من دون الله، ولكن أكرموا نبيكم، واعرفوا الحقَّ لأهله» فأنزل الله الآية^(٢).

٣- قيل: إن نصارى نجران قالوا: إن عيسى أمرهم أن يتخذوه ربًّا؛ فنزلت الآية، فبين سبحانه أنَّ كل نبي يُوقن أنه عبدٌ لله، وأن الله وحده هو الرب، فلا يمكن لنبيٍّ أن يدَّعي لنفسه صفة الألوهية.

وَمُقْتَضَى العلم بالكتاب والسنة أن يكونوا مُتَسَبِّين إلى الرب، يتوجهون إليه وحده بالعبادة، ويأخذون منه منهج حياتهم.

والمعنى: أن كل نبي يأمر قومه أن يكونوا حُكَمَاء علماء فقهاء بما تعلَّموه عن طريق الوحي، وبما درسوه من فقهٍ وعلم ﴿مَا كَانَ لِشَرِّ﴾ أن يؤتیه الله ما ذُكر، ثم يأمر الناس بعبادة نفسه، مثل عيسى أو محمد أو غيرهما، وكان بعضهم قد قال للنبي ﷺ: أفلا نسجد لك؟ أفلا نتخذك ربًّا كما يتخذ النَّصَارَى عيسى ربًّا.

والله سبحانه يرُدُّ عليهم بأن هذا لا ينبغي ولا يليق ولا يكون من عبدٍ يُنزل الله عليه الكتاب من عنده، ويعلمه الحكمة؛ أي: الفقه والفهم لهذا الكتاب، ويشرفه بدرجة النبوة ﴿ثُمَّ يَقُولُ﴾ هذا الإنسان للناس: اعبدوني من دون الله، أو اتخذوا الملائكة والنبيين أرباباً من دون الله، هذا لا يحدث لرسول من رسل الله أبداً، أن يدعو الناس إلى عبادة نفسه.

﴿وَلَكِنْ﴾ يقول لهم ﴿كُونُوا رَبَّيْنَ﴾ كونوا عباداً مُطِيعِينَ قَانَتِينَ مُتَقَاتِلِينَ خَاشِعِينَ لِلَّهِ؛ بسبب كونكم تتعلمون الكتاب، وتعلمونه للناس، وتهدون الناس وتصلحونهم من خلال ذلك ﴿يَمَا كُنْتُمْ تُعَلِّمُونَ الْكُتُبَ﴾ أي بسبب تعليمكم لغيركم ﴿وَيَمَا كُنْتُمْ تَدْرُسُونَ﴾ فلا يصح لبشر مهما آتاه الله من النعم أو الجاه أو العلم أو السلطان أن يقبل من رعاياه

(١) الطبري (٦/ ٥٣٩) بإسناد حسن وكذا ابن أبي حاتم والسيوطي في «أسباب النزول» (٥٥).

(٢) النيسابوري (٩٨) والسيوطي (٥٥) و«زاد المسير» (١/ ٤١٣) و«تفسير الكشاف» وقد أخرجه عبد بن

حميد عن الحسن.

أن ينحنوا له قريباً من الركوع أو السجود؛ لأن ذلك من خصائص الله تعالى، ولا يفعل ذلك إلا الجَهْلَةُ، ولا يقبله إلا المتكبرون من فراعنة الزمان. قال تعالى:

٨٠ - ﴿وَلَا يَأْمُرُكُمْ^(١) أَنْ تَتَّخِذُوا الْمَلَائِكَةَ وَالنَّبِيِّينَ^(٢) أَرْبَابًا أَيَأْمُرُكُمْ^(٣) بِالْكَفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾

وإذا كان طاعة الخلق في تحريم ما أحل الله، أو تحليل ما حرم الله، لا يصلح بالنسبة لنبي مرسل، فإنه لا يصلح لأحد من الناس من باب أولى؛ لأن عبادة الخلق معناها طاعتهم في التحليل والتحريم، كما قال تعالى: ﴿اتَّخِذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ﴾ [التوبة: ٣٠].

وهذه الآية تعمم ما خصصته الآية السابقة، فتقرر أن النبي لا يأمر أحدا بعبادة نبي مرسل ولا ملك مقرب، قال تعالى: ﴿وَلَا يَأْمُرُكُمْ﴾ أي: ليس من شأن نبي من أنبياء الله، ولا أحد من خلق الله أن يأمركم - أيها الناس - بعبادة أحد غير الله، لا نبي مرسل، ولا ملك مقرب، ولا يأمركم ﴿أَنْ تَتَّخِذُوا الْمَلَائِكَةَ وَالنَّبِيِّينَ﴾ أي: والأنبياء ﴿أَرْبَابًا﴾ من دون الله ﴿أَيَأْمُرُكُمْ بِالْكَفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾ هذا إنكار من الله تعالى على من آله الملائكة أو الأنبياء، بأن هذا لا يكون ولا يتصور، وخص الملائكة والنبيين بالذكر؛ لأن عبادتهما شاعت عند كثير من الناس، ويقاس عليهما كل ما عبد من دون الله، أي: ولا يُعقل أن يأمركم الرسل بالكفر بعد أن هداكم الله للانقياد لأمره.

ومن الآيات الواردة في توحيد الله تعالى وإفراجه بالعبادة؛ قال تعالى: ﴿وَسَلِّ مَنْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رُسُلِنَا أَجْعَلْنَا مِنْ دُونِ الرَّحْمَنِ إِلَهَةً يُعْبُدُونَ﴾ [الزخرف]

وقال: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِيَ إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ﴾ [الأنبياء]

(١) قرأ نافع وابن كثير وأبو عمرو والكسائي وأبو جعفر برفع راء (ولا يأمركم) على الاستئناف، وقرأ ابن عامر وعاصم وحزمة ويعقوب وخلف العاشر بنصبها بأن مضمرة، وللوسعي وجهان: إسكان الراء واختلاس ضميتها، وللدوري أبي عمرو ثلاثة أوجه: الإسكان والاختلاس والضممة الكاملة، وأبدل الهمزة ألفاً ورش وأبو جعفر وأبو عمرو بخلف عنه، وحزمة عند الوقف.

(٢) قرأ نافع بالهمز في ألفاظ (النبو، والنبيين، والنبيين) وقرأ الباقون بإبدال الهمزة واواً مشددة.

(٣) قرأ السوسي بإسكان الراء واختلاص ضميتها من (أيأمركم)، وقرأ دوري أبو عمرو بالإسكان والاختلاس والضممة الخالصة، وقرأ الباقون بالضممة الخالصة.

وقال سبحانه: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾ [النحل: ٣٦].

وقال ﷻ: ﴿وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا﴾ [الرعد: ١٥]

وقال جل شأنه: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى مَا خَلَقَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ يَنْفَعِيوْا ظِلَالُهُ عَنِ الْيَمِينِ وَالشَّمَائِلِ سُجَّدًا لِلَّهِ وَهُمْ دَاخِرُونَ﴾ (٤٨) ﴿وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مِنْ دَابَّةٍ وَالْمَلَائِكَةُ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ﴾ (٤٩) [النحل: ٤٨، ٤٩].

فالمؤمن مُستسلمٌ لله بقلبه وقالبه، فينفعه إسلامه، والكافر تحت التسخير والقهر والسلطان، فهو مستسلم لله كرهاً عند الشدائد حين لا ينفعه هذا الاستسلام، كما قال تعالى: ﴿فَلَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا قَالُوا ءَامَنَّا بِاللَّهِ وَحَدُّهُ وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِ مُشْرِكِينَ﴾ (٨٤) ﴿فَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ نَفْعُهُمْ لِإِيمَانِهِمْ لَمَّا رَأَوْا بَأْسًا سَلَّ اللَّهُ آلِقَى قَدْ خَلَّتْ فِي عِبَادِهِ وَخَسِرَ هُنَالِكَ الْكَافِرُونَ﴾ (٨٥) [غافر].

كما أن جميع الكائنات مُنفادةٌ وخاضعةٌ لله سبحانه، وإليه المرجعُ والمآبُ يوم القيامة، فيُجازي كلاً بعمله، وهذا تحذيرٌ من الله تعالى أن يعودَ أحدٌ منهم إلى الله يوم القيامة وهو على غير الإسلام.

أَخْذُ الْمِيثَاقِ عَلَى الْأَنْبِيَاءِ أَنْ يُؤْمِنُوا بِمُحَمَّدٍ ﷺ عَلَيْهِ السَّلَامُ

٨١- ﴿وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَّا ءَاتَيْنَاكُمْ^(١) مِنْ كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنْصُرُنَّهُ قَالَ ءَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِي قَالُوا أَقْرَرْنَا قَالَ فَاشْهَدُوا وَأَنَا مَعَكُمْ مِنَ الشَّاهِدِينَ﴾ (٨١)

ولمَّا ذكر الله تعالى تحريف أهل الكتاب كلام الله عن مواضعه، وكتمانهم أوصاف محمد ﷺ الموجودة في كتبهم، حتى لا يؤمنوا به، بين سبحانه ما تقوم به الحجة عليهم؛ وهو أن الله تعالى قد أخذ الميثاق على أنبيائهم أن يؤمنوا بمحمد ﷺ إن أدركوا حياته، ويتبعوه وينصروه، وأن يُعلموا أممهم بذلك إن لم يدركوا حياته ﷺ؛ ليكون هذا الميثاق

(١) قرأ حمزة (لَمَّا آتَيْنَاكُمْ) بكسر اللام على أنها لام الجر وما مصدرية، والتاء الثانية مضمومة، وقرأ نافع وأبو جعفر (لَمَّا آتَيْنَاكُمْ) بفتح اللام على أنها لام الابتداء، وقرأ الباقون (لَمَّا آتَيْنَاكُمْ) بفتح اللام وضم التاء الثانية لمناسبة قوله تعالى: (وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ).

محفوظًا لدى سائر الأجيال.

وبهذا دعا إبراهيم ربه: ﴿رَبَّنَا وَأَبْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ﴾ [البقرة: ١٢٩]، وبهذا قال موسى ﷺ كما جاء في سفر التثنية: (قال لي الرب: أقيم لهم نبيا من وسط إخوانهم مثلك، وأجعل كلامي في فمه فيكلمهم بكل ما أوصيه به) وقوله: (من وسط إخوانهم) المراد: إخوة بني إسرائيل، وهم بنو إسماعيل، وهو محمد ﷺ، ولو كان نبيا إسرائيليا لقال: (أقيم لهم نبيا منهم).

وبهذا بشرت الأناجيل، ففي إنجيل متى: (وتقوم أنبياء كذبة كثيرون، ويضلون كثيرين، ولكن الذي يصبر (أي: يبقى أخيرا) إلى المنتهى، فهذا الذي يخلص ويكرز (أي: يُحسن تبليغ الرسالة) ببشارة الملكوت هذه في كل المسكونة، شهادة لجميع الأمم، ثم يأتي المنتهى) وهذا الذي يأتي أخيرا، وتبقى رسالته إلى نهاية الدنيا هو محمد ﷺ.

وفي إنجيل يوحنا: (وأنا أطلب من الأب فيعطيكُم مُّعزّيًا آخر؛ ليمكث معكم إلى الأبد، فهو يُعلّمكم كل شيء، ويذكركم بكل ما قلته لكم، ومتى جاء المعزّي فهو يشهد لي) والمعزّي: هو محمد ﷺ.

وأخرج الطبري بسند حسن عن قتادة في قوله: ﴿وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ﴾ هذا ميثاق أخذته الله على النبيين أن يُصدق بعضهم بعضًا، وأن يبلغوا كتاب الله ورسالاته، فبلغ الأنبياء كتاب الله ورسالاته إلى قومهم، وأخذوا عليهم أن يؤمنوا بمحمد ويصدقوه وينصروه.

وأخرج الطبري وابن أبي حاتم بسند حسن عن ابن إسحاق عن ابن عباس ؓ أن هذا العهد والميثاق مأخوذ على أهل الكتاب، وعلى أنبيائهم أن يصدقوا محمدا ﷺ عند مجيئه، ويُقرّوا برسالته.

والآية تصوّر حقيقة الترابط بين الرُّسل والرسالات، على عهد من الله وميثاق، والقرآن يطوي الأزمنة بين الرُّسل، ويجمعهم كلهم في مشهد واحد، فيبين أنهم يمثلون حقيقة واحدة، ورسالة واحدة، يقوم بها من يصطفيه الله من أمته؛ حتى يسلمها لمن يُصطفى بعده.

وفي سياق الحديث عن أهل الكتاب، يُخبرهم الله سبحانه بأنه قد أخذ العهد والميثاق على الأنبياء وأممهم جميعًا، من لدن آدم إلى عيسى على طاعة الله، وامثال أمره،

واجتنب نهيهِ، ومن ذلك أنهم يأخذون العهد على أممهم أنه إذا بعث الله محمداً ﷺ أن يؤمنوا به ويُنصروه.

قال البغوي: قال الله ﷻ للأنبياء حين استخرج الذرية من صلب آدم، والأنبياء فيهم كالمصاييح والشُرُج وأخذ عليهم الميثاق في أمر محمد ﷺ قال: أأقرتكم بالإيمان به ونُصرتَه؟ ثم أخذ الأنبياء هذا العهد على أممهم، فأشهدهم، وشهد سبحانه على هذا الميثاق.

كما أن الله تعالى قد أخذ الميثاق على الرُّسل أن يبلغوا رسالات الله، ويُصدق بعضهم بعضاً، فعلى كل نبيٍّ أن يؤمن بالنبي الذي يأتي بعده، وينصره إن أدركه، ويأمر قومه بالإيمان به، ونُصرتَه إن أدركوه.

أخذ الله سبحانه هذا العهد والميثاق على جميع الرُّسل والأنبياء والأمم التابعين لهم ميثاقاً مؤكّداً، الشاهد عليه ربُّ العالمين، ورسُلُ الله جميعاً قد وثَّقوا هذا الميثاق وأخذوه على أممهم ﴿وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ﴾ اذكر يا محمد هذا العهد المؤكّد الذي أخذه الله على الأنبياء جميعاً والأمم التابعين لهم ﴿لَمَّا أَتَيْتُكُمْ﴾ مهما أتيتكم من كتاب وحكمة فاصلة بين الحق والباطل والهدى والضلال، ممّا أنزل الله عليهم من الكتب والصحف والسنن، ﴿ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ﴾ هو محمد ﷺ ﴿مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَكُمْ﴾ من الكتب المنزلة من عند الله، أو جاءكم رسول بعد الرُّسول السابق، وهو عيسى عليه السلام في سلسلة الرُّسل المتتابعة، لتؤمنن بهذا الرُّسول الذي جاء مؤخراً وتتبعن دينه، فهل أقرتكم واعترفتن وأخذتم على ذلك عهدي وميثاقي؟

فقد أوجب الله على الأنبياء أن يؤمن بعضهم ببعض، ويصدق بعضهم بعضاً، لأن ما نزل عليهم جميعاً هو من عند الله، ﴿قَالُوا أَقْرَرْنَا﴾ قبلنا ما أمرتنا به ﴿قَالَ فَاشْهَدُوا﴾ أي: فليشهد بعضكم على بعض، واشهدوا على أممكم ﴿وَأَنَا مَعَكُمْ مِنَ الشَّاهِدِينَ﴾ لقد شهد ربُّ العالمين على هذا الميثاق، المأخوذ على الأمم والأنبياء، على الإيمان بمحمد ﷺ، لأنه النبي الخاتم، فكل الأنبياء آمنوا به واتبعوه ونصروه بمقتضى هذا الميثاق، فهو إمامهم وخاتمهم.

وفي الأثر: ما بعث الله نبياً من الأنبياء إلا أخذ عليه الميثاق، لئن بعث الله محمداً وهو حي ليؤمنن به ولننصرنه، وأمره أن يأخذ الميثاق على أمته، لئن بُعث محمد ﷺ وهم

أحياء ليؤمنن به ولينصرنه^(١).

وفي الأثر أيضاً: (أخذ الله ميثاق النّبيين أن يُصدق بعضهم بعضاً)^(٢).

وفي الحديث عن عبد الله بن ثابت أن رسول الله ﷺ قال: «والذي نفس محمد بيده، لو أصبح فيكم موسى ثم اتبعتموه وتركتموني لضللتم، إنكم حظي من الأمم، وأنا حظكم من النّبيين»^(٣).

فمحمد ﷺ هو الإمام الذي لو وُجد في أيّ زمان لوجب اتّباعه؛ ولهذا كان إمام الأنبياء ليلة المعراج، وكان الشفيع يوم القيامة، وصاحب المقام المحمود.

في حديث جابر رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «لا تسألوا أهل الكتاب عن شيء، فإنهم لن يهدوكم وقد ضلّوا، وإنكم إما أن تصدقوا بباطل، وإما أن تكذبوا بحق، وإنه -والله- لو كان موسى حياً بين أظهركم ما حلّ له إلا أن يتّبّعني»^(٤).

فالرّسول محمد ﷺ هو الإمام الأعظم الذي لو وُجد في أيّ عصر لكانت طاعته مُقدّمة على الأنبياء كلهم.

قال القرطبي: والمراد بالرّسول هنا (أي: في هذه الآية) محمد ﷺ، واللفظ وإن كان نكرة فالإشارة إلى معيّن، كقوله تعالى: ﴿وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ ءَامِنَةً مُّطْمَئِنَّةً﴾ إلى قوله: ﴿وَلَقَدْ جَاءَهُمْ رَسُولٌ مِنْهُمْ فَكَذَّبُوهُ﴾ [النحل: ١١٢، ١١٣].

وعلى هذا: فإن الميثاق المذكور في الآية يشمل وجوب الإيمان بخاتم الرّسل ﷺ من جميع الأنبياء وجميع الأمم، كما يشمل وجوب أن يُصدق الرّسل بعضهم بعضاً، وكلّ نبيّ يؤمن بمن سبقه ومن لحقه من الرّسل، وينصره ويؤيده إن أدركه، وإن لم يدركه أمر قومه

(١) ذكره ابن كثير (٢/ ٦٧) عن علي وابن عباس رضي الله عنهم.

(٢) هو قول طاوس والحسن وقتادة.

(٣) من حديث طويل أخرجه أحمد (٤/ ٢٦٥) برقم (١٥٨٦٤) و(١٨٣٣٥) وهو ضعيف (محققوه)، وقال الهيثمي في «مجمع الزوائد» (١/ ١٧٣): رجاله رجال الصحيح إلا أن فيه جابر الجعفي، وهو ضعيف، وهو عند عبد الرزاق في المصنف (١٠١٦٤، ١٩٢١٣) والبيهقي في الشعب (٥٢٠١).

(٤) «مسند البزار» برقم (١٢٤) «كشف الأستار» و«مسند أحمد» (٣/ ٣٨٧) برقم (١٤٦٣١) بإسناد ضعيف لضعف مجالد، (محققوه) والدارمي (١/ ١١٥) وقد حسنه الألباني في «إرواء الغليل» (٦/ ٣٤)، وأخرجه أبو يعلى (٢١٣٥) وعبد الرزاق في المصنف (١٠١٥٨، ١٩٢٠٩) والبيهقي في الشعب (١٧٩).

بالإيمان به إن أدركوه، وهذه قاعدة عامة؛ ولأن محمداً ﷺ لا نبي بعده لزم النص عليه في الآية. قال تعالى:

٨٢- ﴿فَمَنْ تَوَلَّى بَعْدَ ذَلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ (٨٢)

فَمَنْ أَعْرَضَ عَنِ الْإِيمَانِ بِمُحَمَّدٍ ﷺ، وَعَنْ نُصْرَتِهِ بَعْدَ اخْتِذَاقِ الْمِيثَاقِ الْمَوْكَّدِ عَلَيْهِ، بِشَهَادَةِ مَنْ أَلَّهِ وَرَسُولِهِ، وَمَنْ أَعْرَضَ عَنِ دَعْوَةِ الْإِسْلَامِ بَعْدَ الْعَهْدِ الَّذِي أَخَذَهُ اللَّهُ عَلَى الْأَنْبِيَاءِ، فَهَؤُلَاءِ هُمُ الْخَارِجُونَ عَنِ دِينِ اللَّهِ إِلَى دَرَكَاتِ الْكُفْرِ وَالْفُسْقِ لِلْخُلُودِ فِي النَّارِ، إِنْ لَمْ يُؤْمِنُوا بِمُحَمَّدٍ ﷺ.

جَمِيعُ الْكَائِنَاتِ أَسْلَمَتْ لِوَحْدَانِيَّةِ اللَّهِ تَعَالَى

٨٣- ﴿أَفَغَيْرَ دِينِ اللَّهِ يَبْغُونَ﴾ (١) وَلَهُ أَسْلَمَ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَإِلَيْهِ يُرْجَعُونَ (٢) ﴿٨٣﴾

وبعد أن بيّن سبحانه أن الإيمان بخاتم الرُّسُلِ حقٌّ واجبٌ على جميع الرُّسُلِ والأمم، أعقب ذلك ببيان أن كلَّ مَنْ أنكر الإيمان بما جاء به محمد ﷺ فهو بعيدٌ عن الحقِّ، مُسْتَحِقٌّ للعقاب.

والمعنى: أيريد الفاسقون من أهل الكتاب وغيرهم دينًا غير دين الإسلام الذي بَعَثَ الله به محمداً ﷺ مع أن كلَّ مَنْ في الكون منقادٌ لله تعالى ومستسلم له إما طوعًا واختيارًا وهم المؤمنون المطيعون، وإما كُرْهًا وإخضاعًا، وهم سائر الخلق، حتى الكافرون منهم، إذ ليس في وسعهم الخروج على قضاء الله وقدره، والاستفهام للإنكار والتوبيخ ﴿أَفَغَيْرَ دِينِ اللَّهِ يَبْغُونَ﴾؟!

وجاء في سبب النزول: أن أهل الكتاب اختلفوا، فادَّعى كلُّ فريق منهم أنه على دين إبراهيم، فاختصموا إلى النَّبِيِّ ﷺ فقال لهم رسول الله ﷺ: «كلا الفريقين بريء من دين

(١) قرأ أبو عمرو وحفص ويعقوب (يبغون) بياء الغيبة؛ لمناسبة (مَنْ) في قوله تعالى: (فَمَنْ تَوَلَّى)، وقرأ الباقر بباء الخطاب لمناسبة الكاف في (فأولئك) أو على الالتفات.

(٢) قرأ حفص (يُرْجَعُونَ) بياء الغيبة مضمومة مع فتح الجيم؛ لمناسبة (يبغون)، وقرأ يعقوب بفتح ياء الغيبة مع كسر الجيم (يُرْجَعُونَ)، وقرأ الباقر بباء الخطاب مضمومة مع فتح الجيم؛ لمناسبة (تبغون) هكذا (تُرْجَعُونَ).

إبراهيم» فغضبوا وقالوا: والله لا نرضى بقضائك، ولا نأخذ بدينك، فأنزل الله الآية^(١).

قال تعالى ﴿أَفَعَيِّرْ دِينَ اللَّهِ﴾ وهو الإسلام ﴿يَبْعُوثُ﴾ أي يرغبون ويطلبون، بعد هذا الميثاق والعهد الذي أخذه الله على الأنبياء وأممهم، والحال أن جميع من في الكون خاضع لأمر الله تعالى، طوعاً في حالة الرخاء، وكرهاً في حالة الشدة، الإنس والجن، وكل من له عقل يطيع ربه طوعاً واختياراً، وحين يخرج الإنسان عن الإسلام يخرج منه وهو عاقل مختار.

أما باقي الكائنات ممن لا عقول لهم فهي تطيع ربها كرهاً؛ لأنها مجبولة بالفطرة على الطاعة والانقياد لله تعالى، وجميع الخلق مُنقاد لله تعالى في وجود العقل وعدمه، فكل ما سوى الله تعالى خاضع لجلاله، وهي مسخرة لله سبحانه وذلك مثل: الأشجار والنبات والحيوانات وسائر الكائنات، فهي تسجد وتسبح بحمد ربها ﴿وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِنْ لَا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ﴾ [الإسراء: ٤٤].

ولا يخرج عن ذلك أحد من خلق الله، قال تعالى: ﴿وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَظُلُمًا هُمْ بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ﴾ [الرعد: ١٥]

وقال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَسْجُدُ لَهُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالْجُودُ وَالْجِبَالُ وَالشَّجَرُ وَالْدَّوَابُّ وَكَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ الْعَذَابُ﴾ [الحج: ١٨]

وَجُوبُ الْإِيمَانِ بِرُسُلِ اللَّهِ جَمِيعًا

٨٤- ﴿قُلْ ءَامَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ عَلَيْنَا وَمَا أُنْزِلَ عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَالنَّبِيُّونَ مِنْ رَبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾
ثم وجه ﷺ الخطاب إلى النبي ﷺ؛ ليقول للثقلين ما في هذه الآية ويخبرهم بما فيها بمسمع من الناس جميعاً، مسلمهم وكافرهم.

قل - يا رسولنا - لأهل الكتاب الذين جادلوك بالباطل، وجحدوا الحق مع علمهم به، قل لهم ولغيرهم:

(١) «تفسير القرطبي» (٤/ ١٢٧).

- ١- آمنا بالله وأطعناه، ربًّا ومعبودًا واحدًا، واستجبنا له في كل ما أمر ونهى.
 - ٢- وآمنا بالوحي الذي أنزله الله علينا، وهو القرآن الذي يهدي إلى الرشد، ويُخرج الناس من ظلمات الكُفر والجهل، إلى نور الإيمان والعلم.
 - ٣- وآمنا بالوحي الذي أنزله الله على إبراهيم خليل الرحمن، والوحي الذي نزل على ابنه: إسماعيل وإسحاق.
 - ٤- وآمنا بالوحي الذي أنزله الله على يعقوب بن إسحاق، وبالوحي الذي نزل على الأنبياء من بني إسرائيل الاثني عشر، من ولد يعقوب، وهم إخوة يوسف عليه السلام، حيث وُلِدَ لكل رجل منهم أمة، فسمُّوا أسباطًا؛ أي: أحفادًا لإسحاق.
 - ٥- وآمنا بالتوراة التي نزلت على موسى، والإنجيل الذي نزل على عيسى، وغيرهما من المعجزات.
 - ٦- وآمنا بما أنزله الله على سائر رسله وأنبيائه من وحي ومعجزات تدل على صدق دعواهم.
- نؤمن بذلك كله، ولا نفرق بين أحدٍ من رسل الله، وأن خاتمهم محمدٌ ﷺ؛ إذ الكُفر بواحد من الأنبياء كُفْرٌ بهم جميعًا، والوحي الذي نزل على أول رسول هو نفسه الوحي الذي نزل على آخر رسول، فمن آمن بنزوله على موسى يؤمن بنزوله على عيسى، ومن آمن بنزوله على عيسى يؤمن بنزوله على محمدٍ، ونحن لله وحده مُنقادون له بالطاعة، مُقرِّون له بالربوبية والألوهية والعبادة.
- وقد خَصَّ القرآن بالذكر هؤلاء الأنبياء؛ لأن أهل الكتاب يدَّعون أنهم مُتبعون لإبراهيم وإسحاق ويعقوب والأسباط، فأراد الله تعالى أن يقول لهم: لو كنتم مؤمنين بهم حقًّا؛ لآمتنتم بمحمدٍ ﷺ، ولا تُوجد أمةٌ تؤمن بجميع رسل الله إلا أمةٌ محمدٍ ﷺ.
- أخرج البخاري عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: كان أهل الكتاب يقرؤون التوراة بالعبرانية، ويفسرونها بالعربية لأهل الإسلام، فقال رسول الله ﷺ: «لا تصدقوا أهل الكتاب ولا تكذبوهم وقولوا: ﴿ءَامَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ عَلَيْنَا﴾»^(١).

(١) «صحيح البخاري» برقم (٤٤٨٥) وانظر (٧٣٦٢، ٧٥٤٢).

هذه الحقيقة يقررها القرآن الكريم؛ وهي الإيمان برسل الله جميعاً، كلٌّ في زمانه ومكانه، وما أنزل على كل منهم ﴿لَا تُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ﴾ كأهل الكتاب الذين يؤمنون ببعض الرُّسل ويكفرون ببعض ﴿وَتَحْنُ لَكُمْ مُسْلِمُونَ﴾ والإسلام هو الدين الذي ارتضاه الله لخلقه إلى قيام الساعة، ونظير هذه الآية في سورة البقرة ١٣٦ .

قال تعالى: ﴿ءَامَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ ءَامَنَ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لَا تُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِ﴾ [البقرة: ٢٨٥]

وقال سبحانه: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَيُرِيدُونَ أَنْ يُفَرِّقُوا بَيْنَ اللَّهِ وَرُسُلِهِ وَيَقُولُوا نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ وَيُرِيدُونَ أَنْ يَتَّخِذُوا بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلًا ﴿١٥٠﴾ أُولَٰئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ حَقًّا وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا ﴿١٥١﴾ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَلَمْ يُفَرِّقُوا بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ أُولَٰئِكَ سَوْفَ يُؤْتِيهِمْ أَجْرُهُمْ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ [النساء]

آيَاتُ التَّغْيِيبِ عَلَى قِصَّةِ وَفْدِ نَصَارَى نَجْرَانَ: لَا يَقْبَلُ اللَّهُ مِنْ أَحَدٍ دِينًا غَيْرَ الْإِسْلَامِ

٨٥- ﴿وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴿٨٥﴾﴾

وبعد أن قرر القرآن وجوب الإيمان برسل الله جميعاً، بين أنه بعد مجيء الإسلام الذي ختم الله به الرسالات لا يقبل من أحد ديناً غيره، لأنه الدين الذي ارتضاه الله لعباده فمن يدين بغيره فعمله مردود عليه، وفي التمسك بالإسلام النجاة من عذاب الله، والفوز برضاه، وكل دين سواه باطل، فهو ناسخ لكل ما سبقه.

وهذه الآية وما بعدها، تشير إلى بطلان ما جاء به وفد نصارى نجران من المحاوراة في شأن عيسى عليه السلام، وتثبت للإسلام القول الفصل في شأن عيسى عليه السلام وترد عليهم جدالهم: أخرج الطبري وابن أبي حاتم بسند حسن عن أبي طلحة عن ابن عباس عليه السلام أنه لما نزل قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّابِئُونَ وَالنَّصَارَى﴾ أنزل الله بعدها ﴿وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ﴾ ويوم القيامة لا يأخذ الله تعالى إلا بالإسلام، ولا يثيب إلا عليه، من لدن بعثة النبي ﷺ إلى نهاية الدنيا.

أخرج الإمام أحمد وغيره بسنده عن أبي هريرة عليه السلام قال: قال رسول الله ﷺ:

«تجيء الأعمال يوم القيامة، فتجيء الصلاة فتقول: يا رب، أنا الصلاة، فيقول: إنك على خير، وتجيء الصدقة، فتقول: يا رب أنا الصدقة، فيقول: إنك على خير، ثم يجيء الصيام فيقول: يا رب، أنا الصيام، فيقول: إنك على خير، ثم تجيء الأعمال، على ذلك فيقول الله عز وجل: إنك على خير، ثم يجيء الإسلام فيقول: يا رب أنت السلام، وأنا الإسلام، فيقول الله تعالى: إنك على خير، بك اليوم آخذ، وبك أُعطي، قال الله في كتابه: ﴿وَمَنْ يَتَّبِعْ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَسِرِينَ﴾ (١).

والشاهد في الحديث: «بك اليوم آخذ، وبك أُعطي» وبدون ذلك يخسر العبد حظه في الدنيا والآخرة.

وفي الحديث: «لو كان موسى وعيسى حيَّين ما وسعهما إلا أتباعي» (٢).

وكلُّ مخلوقٍ إلى قيام الساعة يسمع برسالة محمد ﷺ ولا يؤمن بها، ويموت على ذلك؛ فهو من الخالدين في نار جهنم.

والإسلام شهادة تُقال باللسان، وإيمانٌ يستقر في القلب، وعملٌ بالجوارح، يشمل منهج الله تعالى في العقيدة والعبادة، وتحقيق هذا المنهج في واقع الحياة، والإسلام هو الدين المقبول عند الله تعالى، وبعد مجيء الإسلام فإن كلَّ دين غيره لا يُقبل، وصاحبه محرومٌ من الثواب عليه، والعقاب حاصلٌ له في الآخرة.

ولأبدٌ للمسلم أن يكون موحدًا لله تعالى، متوجهًا إليه وحده بالطاعة والعبادة، خاضعًا ومُنقادًا له جل شأنه.

ولأبدٌ له من الإيمان بمحمد ﷺ، وبما جاء به من عند الله، مع وجوب المتابعة والمحبة ظاهراً وباطناً.

(١) «المسند» (٢/ ٣٦٢) برقم (٨٧٤٢) قال محققوه: إسناده ضعيف، وقال الهيثمي في «مجمع الزوائد» (١/ ٣٤٥): فيه عباد بن راشد، وثقه أبو حاتم وغيره، وضعفه جماعة، وبقية رجاله رجال الصحيح، وأخرجه أبو يعلى (٦٦٣١) دون ذكر الآية والطبراني في الأوسط (٧٦٠٧) قال عبدالله بن الإمام أحمد: عباد بن راشد ثقة، ولكن الحسن لم يسمع من أبي هريرة.

(٢) «المسند» (٣/ ٣٣٨).

أَصْنَافُ النَّاسِ بِالنِّسْبَةِ لِلْإِيمَانِ وَالْكَفْرِ وَالتَّوْبَةِ

٨٦- ﴿كَيْفَ يَهْدِي اللَّهُ قَوْمًا كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَانِهِمْ وَشَهِدُوا أَنَّ الرَّسُولَ حَقٌّ وَجَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ (٨٦)

قال ابن جرير: عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه كان رجل من الأنصار قد أسلم ثم ارتد ولحق بالمشركين، ثم ندم فأرسل إلى قومه أن اسألوا رسول الله ﷺ إن كان لي من توبة؟ فنزلت الآية. ثُمَّ تَمْضِي الْآيَاتُ لَتَبِينَ حُكْمَ مَنْ ارْتَدُّوا أَوْ كَفَرُوا بِهَذَا الدِّينِ، كَيْفَ يَوْفَقُونَ إِلَى الْإِيمَانِ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ، وَقَدْ جَحَدُوا نُبُوَّةَ مُحَمَّدٍ ﷺ بَعْدَ أَنْ آمَنُوا بِهَا، وَشَهِدُوا بِصَدَقِ الرَّسُولِ ﷺ، وَمَا جَاءَهُمْ بِهِ، بَعْدَمَا جَاءَتْهُمْ الْحُجُجُ وَالْبَرَاهِينُ الدَّالَّةُ عَلَى صِدْقِ هَذَا الدِّينِ وَصَحْتِهِ، وَفِي هَذِهِ الْآيَةِ اسْتِبْعَادُ أَنْ يَهْدِيَ اللَّهُ قَوْمًا اخْتَارُوا الْكَفْرَ وَالضَّلَالَ، بَعْدَمَا آمَنُوا وَشَهِدُوا أَنَّ الرَّسُولَ حَقٌّ.

أَخْرَجَ الطَّبْرِيُّ عَنِ الْحَسَنِ فِي مَعْنَى الْآيَةِ قَالَ: هُمْ أَهْلُ الْكِتَابِ، كَانُوا يَجِدُونَ مُحَمَّدًا ﷺ فِي كِتَابِهِمْ، وَيَسْتَفْتِحُونَ بِهِ، فَكَفَرُوا بَعْدَ إِيمَانِهِمْ.

قلت: وسياق الآيات يشهد لهذا، والآية عامة تشهد على كُلِّ مَنْ كَفَرَ بَعْدَ إِيمَانِهِ. وقد أسندت الهداية إلى الله تعالى؛ لأنه مُوجِدُ الْأَسْبَابِ وَمُسَبِّبَاتِهَا. ومن العرب الذين أسلموا ثم كفروا ثم ندموا: الحارث بن سويد، وأبو عامر الراهب، وطعيمة بن أبيرق، أما اليهود والنصارى فقد شهدوا أن الرسول حق، وقامت الأدلة لديهم على صدقه ﷺ، ثم كابروا، وشككوا الناس، وجاءتهم الآيات فلم يتعظوا، فلا مَطْمَعٌ فِي هِدَايَتِهِمْ بَعْدَ هَذِهِ الْأَحْوَالِ.

والله سبحانه لا يُوفِّقُ لِلصَّوَابِ كُلَّ مَنْ عَدَلَ عَنِ الْحَقِّ إِلَى الْبَاطِلِ، وَاخْتَارَ الْكُفْرَ عَلَى الْإِيمَانِ، فَقَدْ جَرَتْ سُنَّةُ اللَّهِ تَعَالَى فِي خَلْقِهِ أَلَّا يَهْدِيَ إِلَى الصِّرَاطِ الْمُسْتَقِيمِ قَوْمًا كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَانِهِمْ، وَالْآيَةُ تَصِفُ هَؤُلَاءِ الْكَفَّارَ الْمُرْتَدِّينَ بِأَرْبَعَةِ أَوْصَافٍ: أُولَئِكَ: كُفَرُوا بَعْدَ إِيمَانِهِمْ.

ثانيها: الإقرار بالشهادتين وتصديق الرسول قبل أن يكفر به.

ثالثها: وجود المعجزات الدالة على صدق النبوة، وعلى رأسها القرآن الكريم.

رابعها: وصفهم بالظلم، وهو العُدُولُ عَنِ الْإِيمَانِ إِلَى الْكُفْرِ.

ومن هنا فإن المرتد لا يُوفق للحق والصواب؛ لِمَا سبق في علم الله تعالى أنه ظالم، وأنه لن يَهتدي إلى الصَّواب، كما أنه لن يَهتدي إلى الجنة، ولذا ختم الله الآية بقوله: ﴿وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ ممن عرفوا الحق وتركوه، واتبعوا الباطل مع علمهم بطلانه، فهؤلاء لا يوفقون للهداية، لأن الذي يُرجى له الهداية، هو الذي يحرص على التماس الحق، فهو حريٌّ أن يُيسر الله له أسباب الهداية ويُبعده عن طريق الغواية.

قال تعالى مبينًا عقوبة هؤلاء الظالمين المعاندين في الدنيا والآخرة:

٨٧- ﴿أُولَٰئِكَ جَزَاؤُهُمْ أَنَّ عَلَيْهِمْ^(١) لَعْنَةُ اللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾

وهؤلاء الذين جَمَعُوا بين هذه الصفات الأربع في الكُفر والرَّدة، مُستحقون لغضب الله تعالى ولعنته وطردهم من رحمته في الدنيا والآخرة، وقد سَخَطَ الله عليهم؛ لأنهم استحبوا الكُفر على الإيمان، واستحقوا أيضًا سخط الملائكة والناس أجمعين، ومُقتضى هذه اللعنة إيجابُ العذاب لهم يوم لقاء الله. قال تعالى:

٨٨- ﴿خَالِدِينَ فِيهَا لَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ الْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنْظَرُونَ﴾

وهم يَسْتَحِقُّونَ الخلود المستمر في نار جهنم إذا ماتوا على ذلك؛ عقوبةً مُلَازمةً لهم في الآخرة، كما لازموا الكُفر في الدنيا، فلا يَفْتَر عنهم هذا العذاب، ساعة ولا لحظة، وهو لا يحول ولا يزول، ولا يخفف عنهم بعض شدته، وهم لا يمهلون، لأن زمن الإمهال قد مضى، وقد أعذر الله منهم من عمَّر عمرًا يتذكر فيه من تذكر، وجاءهم النذير، فلو كان فيهم خير لظهرت دلالته، ولو رُدُّوا لعادوا لما نُهوا عنه، ولا يوجد مَنْ ينصرهم ويمنعهم من عذاب الله تعالى يوم لقاء ربِّ العالمين.

وفي الآيتين عقوبات ست لمن كَفَرَ بالله تعالى، وكَفَرَ بخاتَم رسله بعد إيمان، ولم يَتُبْ، وهذه العقوبات هي:

١- لعنة الله تعالى. ٢- لعنة الملائكة. ٣- لعنة المؤمنين من الناس.

٤- الخلود في جهنم. ٥- عدم تخفيف العذاب عنهم. ٦- عدم قبول المَعذِرة منهم.

(١) ضَمَّ الهاء من (عليهم) حمزة ويعقوب وصلًا ووقفًا، وكسرهما الباقون.

قال تعالى مستثنيًا من هذه العقوبات :

٨٩- ﴿إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَأَصْلَحُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ (٨٩)

أما مَنْ تاب ورجع إلى الله تعالى، وأكثر من العمل الصالح؛ فإن الله تعالى يَغفر له ذنبه، فيستره في الدنيا، وَيرحمه من العذاب في الآخرة، إذا هو استمر على توبته، وأصلح ما أفسده بكفره وظلمه.

روى ابن عباس ؓ أن رجلاً من الأنصار أسلم ثم ارتدَّ، وَلَحِقَ بالشُّرك، ثم ندم، فأرسل إلى قومه أن سَلُوا لي رسول الله، هل من توبة؟ قال: فنزلت الآيات السابقة؛ فأرسل إليه قومه فأَسلم^(١).

وورد أن الحارث بن سويد الأنصاري أسلم، ثم ارتدَّ، ولمَّا رجع إلى قومه أنزل الله هذه الآيات، فحملها إليه رجل من قومه، أرسله أخوه الجلاس، فقرأها عليه، فقال له الحارث: إنك لصدوق، وإن رسول الله لأصدق منك، وإن الله لأصدق الثلاثة، قال: فرجع الحارث، فأَسلم وحسن إسلامه^(٢).

أَوْصَافُ تَنْطَبِقُ عَلَى الْيَهُودِ:

٩٠- ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَانِهِمْ ثُمَّ أَزْدَادُوا كُفْرًا لَنْ تُقْبَلَ تَوْبَتُهُمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ (٩٠)

أما مَنْ ارتدَّ أكثر من مرة، فلن تُقبل له توبة عند حضور الأجل؛ لأنه قد ضلَّ الطريق، وأخطأ المنهج، وتمادى في الغي والضلال، وقطع أسباب الرحمة والغفران، وسدَّ على نفسه باب التوبة، وأصبح لا يُنتج إلا السيئات، فهو ممن أضلهم الله لفسقهم، وممن أزاغ الله قلوبهم لأنهم هم الذين زاغوا أولاً، وهم ممن علم الله أنهم لن يؤمنوا ﴿وَنُقَلِّبُ أَفْعَادَهُمْ وَأَبْصَرَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ [الأنعام: ١١٠]

(١) رواه ابن جرير عن عكرمة في التفسير (٦/ ٥٧٢).

(٢) صححه الألباني في صحيح «سنن النسائي»، ورواه النسائي في «السنن» (٧/ ١٠٧) (٤٠٧٩) و«السنن الكبرى» (٦/ ٣١١) والحاكم (٤/ ٣٦٦) وصححه ووافقه الذهبي وابن حبان (٦/ ٣٢٣) برقم (٤٤٧٧) وأخرجه عبد الرزاق عن مجاهد (١/ ١٢٥) والطبري (٥/ ٥٥٧) وابن أبي حاتم (٣٧٩٥).

فهم لا يؤمنون ولو جاءتهم كل آية، وفي الآية ثلاثة أوصاف:

١- كفر بعد إيمان، واليهود كفروا بعتسى بعد إيمانهم بموسى عليهما السلام.

٢- ازدياد الكفر، حين كفروا بمحمد ﷺ.

٣- الضلال، وهو وصف ملازم لهم.

وفي أسباب النزول: أن اليهود والنصارى كفروا بمحمد ﷺ، بعد إيمانهم به قبل مبعثه؛ لِمَا ثَبَتَ عندهم من نعته وصفته في كتبهم، ثم ازدادوا في كفرهم بالإصرار على ذلك؛ فأنزل الله تعالى الآية، قاله أبو العالية والحسن.

والذين ازدادوا كفرًا هم اليهود، آمنوا بموسى، ثم كفروا بعتسى، ثم ازدادوا كفرًا بكفرهم بمحمد ﷺ، فالآية فيهم خاصة، قاله قتادة وعطاء، والصواب أن الآية عامة، تتناول كل من ارتد عن الإسلام، وازداد كفرًا بالإصرار عليه، ومقاومة الحق، وإيذاء أهله.

فالذين كفروا وازدادوا كفرًا لن تقبل توبتهم ما أقاموا على كفرهم وشركهم، وقد وصفهم ربنا بالضلال، لأنهم ضلوا الطريق إلى الممات، فتعين هلاكهم وشقاؤهم إلى الأبد، فإن تابوا من شركهم وكفرهم قبل الحشرجة، وقبل طلوع الشمس من مغربها، وأصلحوا باطنهم بمراقبة الله تعالى وخشيته، وأصلحوا ظاهرهم بالعبادات والطاعات، وأكثروا من العمل الصالح فإن الله غفورٌ لهم، رحيمٌ بهم.

عِقَابُ مَنْ مَاتَ عَلَى الْكُفْرِ:

٩١- ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَمَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْ أَحَدِهِمْ مِلَّةٌ^(١) الْأَرْضِ ذَهَبًا وَلَوْ أُفْتُدِيَ بِهِمْ أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ وَمَا لَهُمْ مِنْ نَّاصِرِينَ

في أسباب النزول أن الحارث بن سويد كان معه أحد عشر رجلًا؛ منهم: طعيمة بن أبيرق، وحجوج بن الأسلت، وقد أقاموا على ردتهم وكفرهم بمكة، قالوا: حتى ينزل فينا مثل ما نزل في الحارث، فلما فُتحت مكة، كان منهم من دخل في الإسلام، فقبلت توبته، ومنهم من مات على الكفر؛ فأنزل الله فيهم ومن على شاكلتهم ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَمَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ﴾.

(١) حذف ابن وردان والأصبهاني عن ورش بخلف عنهما همزة (ملء) ونقلنا حركتها إلى اللام، ونطقا بلام مضمومة، والباقون بالهمزة.

فإن ظلَّ الكافرُ على كفره حتى حضره الموت؛ فإن التوبة عند الاحتضار لا تُقبل؛ لأنه قد ضلَّ وأخطأ الطريق، وهؤلاء الذين ماتوا على الكُفر كأصحاب الحارث بن سويد وأضرابهم، فإن أحدهم لو كان يملك ملء الأرض ذهبًا، وأراد أن يفدي نفسه بهذا المال من عذاب الله تعالى؛ فإن ذلك لا ينفعه، بل لا يزال في العذاب الأليم، بلا شافع ولا ناصر ولا مغيث ولا مجير ينقذه من عذاب الله تعالى.

وكذا لو تقرب إلى الله تعالى بملء الأرض ذهبًا ما نفعه ذلك؛ لأنه مات على الكُفر والشرك، فقبُول العمل منه مرفوضٌ من جميع الوجوه؛ لأن الطاعة مع الكُفر غير مقبولة، وتخليص الإنسان نفسه من العذاب، ولو مَلَكَ كنوز الدنيا لا يجدي، ولا يغني عنه شيئًا ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ أَنَّهُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُ مَعَهُ لَيَفْتَدُوا بِهِ مِنْ عَذَابِ يَوْمِ الْقِيَمَةِ مَا تُقْبَلُ مِنْهُمْ وَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ (٣٦) يُرِيدُونَ أَن يُخْرَجُوا مِنَ النَّارِ وَمَا هُمْ بِخَارِجِينَ مِنْهَا وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّقِيمٌ ﴿٣٧﴾ [المائدة].

وفي الصَّحَّاحين وغيرهما عن أنس بن مالك ؓ عن النَّبِيِّ ﷺ قال: «يقول الله تبارك وتعالى لأَهْوَنِ أَهْلِ النَّارِ عَذَابًا: لو كانت لك الدنيا وما فيها، أكنْتَ مفتديًا بها؟ فيقول: نعم، فيقول: قد أردتُ منك أَهْوَنَ مِنْ هَذَا، وأنت في صُلْبِ آدَمَ، أَلَا تَشْرِكُ، وَلَا أَدْخِلُكَ النَّارَ، فَأَبَيْتَ إِلَّا الشَّرْكَ» وهذا لفظ مسلم^(١).

وعن أنس أيضًا قال: قال رسول الله ﷺ: «يُؤْتَى بِالرَّجُلِ مِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ، فيقول له: يا بن آدم، كيف وجدتَ منزلَكَ؟ فيقول: أَيُّ رَبِّ، خَيْرٌ مَنْزِلَ، فيقول: سَلْ وَتَمَنَّ، فيقول: ما أَسْأَلُ، وَلَا أَتَمَنَّى إِلَّا أَنْ تَرُدَّنِي إِلَى الدُّنْيَا فَأَقْتُلَ فِي سَبِيلِكَ عَشْرَ مَرَّاتٍ؛ لِمَا يَرَى مِنْ فَضْلِ الشَّهَادَةِ، وَيُؤْتَى بِالرَّجُلِ مِنْ أَهْلِ النَّارِ، فيقول له: يا بن آدم، كيف وجدتَ منزلَكَ؟ فيقول: أَيُّ رَبِّ، شَرُّ مَنْزِلَ، فيقول له: أَتَفْتَدِي مِنِّي بِطِلَاعِ الْأَرْضِ ذَهَبًا؟ فيقول: أَيُّ رَبِّ، نعم، فيقول: كَذَبْتَ، قد سألتُكَ أَقْلَ مِنْ ذَلِكَ وَأَيْسَرَ، فلم تفعل، فِيرُدُّ إِلَى النَّارِ»^(٢).

(١) برقم (٢٨٠٥) وفي البخاري برقم (٣٣٣٤، ٦٣٥٨، ٦٥٥٧) بلفظ مشابه، وفي «المسند» (٣/ ١٢٧) برقم (١٢٣١٢)، بإسناد صحيح على شرط الشيخين، والبعوي (٤٤٠٣) وانظر في المسند (١٢٢٨٩).

(٢) «المسند» (٣/ ٢٠٨) برقم (١٣١٦٢، ١٣٥١١)، بإسناد صحيح على شرط مسلم، ورجال ثقات كما قال محققوه، وأخرجه عبد بن حميد (١٣٢٩) وأبو يعلى (٣٤٩٧) وابن حبان (٧٣٥٠) ..

ولهذا قال تعالى: ﴿أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ مؤلم وموجع يوم لقاء الله سبحانه ﴿وَمَا لَهُمْ مِنْ نَّاصِرِينَ﴾ أي: وما لهم من أحد يُنقذهم من عذاب، ولا يُجيرهم من عقابه.

فَالنَّاسُ بِالنِّسْبَةِ لِلْإِيمَانِ وَالْكَفْرِ وَالتَّوْبَةِ أَصْنَافٌ ثَلَاثَةٌ

الصَّنْفُ الْأَوَّلُ: قَسِمُ كُفْرٍ بَعْدَ إِيمَانِهِ، ثُمَّ تَابَ عَنْ كُفْرِهِ تَوْبَةً صَادِقَةً؛ فَأَمِنَ وَعَمِلَ صَالِحًا، فَقَبِلَ اللَّهُ تَوْبَتَهُ، وَهَذَا هُوَ الْمُسْتَشْنَى فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَأَصْلَحُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ (٨٩) وهكذا الكافر الذي أسلم ثم ارتدَّ وخرج من إسلامه، ثم تاب وندم، حاله كحال نفر من الأنصار حدث منهم ذلك، ثم أرسل بعضهم للنبي ﷺ بعد أن ندم، وأراد أن يعود إلى الإسلام ويتوب، فسأل هل له من توبة؟ فتاب الله عليه، هذا صِنْفٌ مِنَ النَّاسِ، وَمِنْهُمْ مَنْ آمَنَ بَعِيسَى وَكَفَرَ بِمُحَمَّدٍ، فَهَذَا كُفْرٌ بَعْدَ إِيمَانٍ.

وَالصَّنْفُ الثَّانِي: قَسِمُ كُفْرٍ بَعْدَ إِيمَانٍ، ثُمَّ تَابَ عَنْ كُفْرِهِ تَوْبَةً غَيْرَ صَادِقَةٍ؛ فَلَمْ يَقْبَلْهَا اللَّهُ مِنْهُ، وَهُوَ الَّذِي يَتَرَدَّدُ فِي كُفْرِهِ وَيَزْدَادُ فِيهِ، وَيُظَلُّ مُصَمِّمًا عَلَيْهِ حَتَّى يَأْتِيَهُ الْمَوْتُ، ثُمَّ هُوَ عِنْدَ حَشْرَةِ الرُّوحِ، وَحُضُورِهَا فِي الْحَلْقُومِ يَرِيدُ أَنْ يَتُوبَ، فَهَذِهِ التَّوْبَةُ لَا تُقْبَلُ، وَلَا يَنْفَعُهُ إِيمَانُهُ، وَلَا تَوْبَتُهُ حِينَ حُضُورِ الْأَجْلِ قَالَ تَعَالَى: ﴿وَلَيْسَتِ التَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ حَقًّا إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ إِنِّي تُبْتُ إِلَهُكَ وَالَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمْ كُفَّارًا﴾ [النساء: ١٨] ويدخل في هذا الذي كَفَرَ بَعِيسَى بَعْدَ إِيمَانِهِ بِمُوسَى، ثُمَّ كَفَرَ بِمُحَمَّدٍ، وَازْدَادَ كُفْرًا؛ بِمَعْنَى: الَّذِينَ آمَنُوا بِمُوسَى، ثُمَّ كَفَرُوا بِعِيسَى، ثُمَّ اِزْدَادُوا كُفْرًا بِمُحَمَّدٍ.

فَالْآيَةُ تَنْطَبِقُ عَلَى الْيَهُودِ خَاصَّةً، فَهَمُ آمَنُوا بِمُوسَى ثُمَّ كَفَرُوا بِعِيسَى، ثُمَّ اِزْدَادُوا كُفْرًا بِمُحَمَّدٍ؛ لَنْ تُقْبَلَ تَوْبَتُهُمْ، وَأُولَئِكَ هُمُ الضَّالُّونَ، وَهَذَا تَفْسِيرٌ مُتَعَيِّنٌ؛ لِأَنَّ الضَّلَالَ وَصْفٌ ثَابِتٌ لِلْيَهُودِ، وَهَمُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرُسُولَيْنِ، وَهَمُ أَشَدَّ عِدَاوَةً مِمَّنْ كَفَرَ بِرَسُولٍ وَاحِدٍ وَهَمُ النَّصَارَى، وَهَذَا الصَّنْفُ مِنَ النَّاسِ يَشْمَلُ مَنْ ارْتَدَّ أَكْثَرَ مِنْ مَرَّةٍ، وَزَادَ إِصْرَارًا عَلَى كُفْرِهِ، وَعِدَاوَةً لِلْإِسْلَامِ وَأَهْلِهِ، وَالْكِيدَ لَهُمْ، وَإِذْءَاءَهُمْ.

الصَّنْفُ الثَّالِثُ: قَوْمٌ كَفَرُوا وَمَاتُوا عَلَى الْكُفْرِ دُونَ أَنْ يَحْدِثَ مِنْهُمْ أَيُّ تَوْبَةٍ، وَهَمُ الَّذِينَ مَاتُوا وَهَمُ كَفَّارٍ، هَؤُلَاءِ لَا يَنْفَعُهُمْ عَمَلُ صَالِحٍ قَدَّمُوهُ فِي الدُّنْيَا، وَلَوْ كَانُوا يَنْفَقُونَ وَيَتَصَدَّقُونَ وَيُحْسِنُونَ التَّعَامِلَ، فَلْأَصْلُ مُنْتَفٍ، وَهُوَ الْإِيمَانُ، وَمَا يَتَرْتَّبُ عَلَيْهِ لَا قِيَمَةَ لَهُ، ثُمَّ هُوَ لَا يَسْتَطِيعُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَنْ يُنْجِيَ نَفْسَهُ مِنْ عَذَابِ اللَّهِ، وَلَا بِكُنُوزِ الْأَرْضِ ﴿لَوْ أَنَّ لَهُمْ مَا فِي

الْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُ مَعَهُ لَافْتَدَوْا بِهِ ۗ [الرعد: ١٨].

وهو يريد أن يفتدي به من عذاب الله يوم القيامة دون جدوى.

سألت عائشة رضي الله عنها رسول الله ﷺ قالت: عبد الله بن جُدعان، كان في الجاهلية يصل الرحم، ويطعم المسكين، فهل ذاك نافعه؟ قال: «لا ينفعه، إنه لم يقل يومًا: رب اغفر لي خطيئتي يوم الدين»^(١).

بَذْلُ الْمَالِ مِنْ أَهَمِّ خِصَالِ الْبِرِّ

٩٢- ﴿لَنْ نَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ^(٢) وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ شَيْءٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ^(٣)﴾

وبعد أن تحدثت الآيات عن الكُفر وجزاء الكافرين، تناولت الحديث عن وسائل البر الذي تدور شرائع الإسلام عليه؛ فنوّهت هذه الآية بشأن البر، وحثت على الإنفاق في سبيل الله؛ لأنه من أهم خِصال البر الذي ينفع أهل الإيمان، ويبلغ بصاحبه إلى مرتبة البر، وقد حث الله عباده في هذه الآية على الإنفاق في وجوه الخير من المال والمتاع الذي تحبه النفوس، فإن تقديم محبة رضى الله تعالى على محبة المال، دليل على صدق الإيمان وقوة اليقين، وبقدر الإنفاق من المحبوب قلة أو كثرة، بقدر ما ينال العبد من البر نقصًا وزيادة، وهو مثاب على كل حال.

وفي معنى البر روى النواس بن سمعان رضي الله عنه عن النبي ﷺ أنه قال: «البر حسن الخلق، والإثم ما حاك في النفس، وكرهت أن يطلع عليه الناس»^(٣).

والبر لا يحصل إلا ببذل النفس والنفس؛ ومن ذلك الإنفاق مما هو محبب إلى النفس، فهو دليل السخاء، والوقاية من الشح، والرغبة فيما عند الله، وقد بين تعالى خِصال البر في نقاط عشر في آية البر من سورة البقرة.

قال الحسن البصري: إنكم لن تنالوا ما تحبون إلا بترك ما تشتهون، ولا تُدركون ما

(١) من حديث عائشة في «صحيح مسلم» برقم (٢١٤).

(٢) عدّ كلمة (تحبون) آية، المدني الأخير والدمشقي والمكي، فتكون متروكة من العدد لغيرهم.

(٣) «صحيح مسلم» برقم (٢٥٥٣).

تأملون إلا بالصبر على ما تكرهون .

وأصل البر: التوسع في فعل الخير، سواء بين العبد وربّه أو بينه وبين الناس .
والبرّ: هو ثواب الطاعة، والعمل الصالح، الموصل إلى الجنة وإلى محبة الله ﷻ؛
ولا يكون ذلك حتى تنفقوا من أطيب أموالكم، ومن أجلّ كسبكم .

ومعنى الآية: لن تنالوا حقيقة البر، ولن تبلغوا ثوابه الجزيل الذي يوصلكم إلى رضى الله تعالى، ودخول جنته التي أعدها لعباده الصالحين؛ حتى تتصدقوا بما تحبون، وتؤثرونه من الأموال وغيرها في سبيل الله، ومهما أنفقتم من شيء قليل أو كثير فإن الله عليم به، وسيجازيكم عليه بأكثر ممّا بذلتم وأنفقتم .

فلا يُنجي العبد يوم القيامة كنوز الأرض لو ملكها وأنفقها؛ ليفدي بها نفسه من عذاب الله إن مات على الكفر، ولكن الذي ينجيه هو الإيمان بالله تعالى وبرسوله والعمل الصالح كما جاء في هذه الآية: ﴿لَنْ نَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ﴾ .

وهذه جملة من الأحاديث في معنى الآية:

١- سمع أبو طلحة هذه الآية، وكان له حديقة في مقابل المسجد، وهي أحبّ أمواله إليه، فقال: يا رسول الله، إني تصدقتُ بها لوجه الله، قال النبي ﷺ: «اجعلها في أقرب الأقربين»^(١) يعني: اجعلها وقفاً على أقرب الناس إليك، فأوقفها على حسان بن ثابت، وعلي بن أبي طالب ﷺ جميعاً .

٢- كما في الصحيحين وغيرهما عن أنس بن مالك قال: كان أبو طلحة أكثر الأنصار بالمدينة مالاً، وكان أحبّ أمواله إليه بيّرحاء، وكانت مُستقبلة المسجد، وكان رسول الله ﷺ يدخلها، ويشرب من مائها .

قال أنس: فلمّا نزلت ﴿لَنْ نَنَالُوا الْبِرَّ﴾ قام أبو طلحة إلى رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله، إن الله تعالى يقول في كتابه: ﴿لَنْ نَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ﴾، وإن أحبّ

(١) في المسند (١٢١٤٤) بلفظ (اجعله في فقراء أهلك) وإسناده صحيح على شرط الشيخين، وأخرجه البخاري (٤٥٥٥) وعبد بن حميد (١٤١٣) وأبو يعلى (٣٨٦٥) .

أموالي إليَّ (يَبْرُحَاءَ)، وإنها صدقةٌ لله ﷻ، أرجو برَّها وذُخْرَها عند الله، فضعُها يا رسول الله حيثُ شئتُ، فقال رسول الله ﷺ: «بَخْ بَخْ، ذاك مال رابح، وأنا أرى أن تجعلها في الأقربين» فقال أبو طلحة: أفعُلُ يا رسول الله، فقَسَمَها أبو طلحة في أقاربه، وبني عمه، وبيرحاء: اسم لموضع بالمدينة، كان به حديقة لأبي طلحة^(١).

٣- وصَحَّ أن عمرَ ﷺ قال: يا رسول الله، لم أَصِبْ ما لَّا قَطُّ هو أَنفُسُ عندي من سَهْمِي الذي هو بخير، فما تأمرني به؟ قال: «حَبَسِ الْأَصْلَ، وَسَبَّلِ الثَّمَرَةَ»^(٢).

٤- وعمر بن الخطاب ﷺ كانت له جارية أحبُّ ما تكون إلى نفسه، ولمَّا سمع هذه الآية ﴿لَنْ نَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ﴾؛ أعتقها لوجه الله سبحانه^(٣).

٥- وأبو ذرٍّ ﷺ جاءه ضيوفٌ، فقال لراعيه: تَخَيَّرْ لَنَا أَنْفُسَ الْإِبِلِ وَاذْبَحْهَا، فجاء بإبل هزيلة وذَبَحَها، قال له: إِنَّكَ خُسْنِي، قُلْتُ لك: تَخَيَّرَ أَحْسَنَهَا، قال: لقد تركتُ أحسنها لمهمة أعظم من هذا الضيف، فقال أبو ذر: إني أقدمها لأضيِّق وقت، للقبر حين أنزل في حُفرتي^(٤).

٦- وكان لعبد الله بن عمر ﷺ جارية رومية، هي أحبُّ شيء إلى نفسه، فخطرت هذه الآية على قلبه، فتذكر أحب ما أعطاه الله إليه، فقال: هي حرَّةٌ لوجه الله تعالى، فلو أني أعود في شيء جعلته لله؛ لنكحْتُها؛ أي: تزوجْتُها^(٥).

٧- وجاء زيد بن حارثة بفرَس هو أحب ما يملك، وقال: يا رسول الله، تصدق بها، فأعطاها النَّبِيُّ ﷺ أسامة (ابنه) فقال: يا رسول الله، أردت أن أتصدق، قال عليه الصلاة

(١) «المسند» (٣/ ١٤١) (١٢٤٣٨) بإسناد صحيح على شرط الشيخين، والبخاري (١٤٦١، ٢٣١٨، ٢٧٥٢، ٢٧٦٩، ٤٥٥٤، ٥٦١١) و«صحيح مسلم» برقم (٩٩٨) ومالك (٩٩٥ / ٢) والنسائي في «السنن الكبرى» (١١٠٦٦).

(٢) أخرجه البخاري (٢٧٣٧)، ومسلم (١٦٣٢)، و«سنن النسائي» (٢٣٢/٢) في كتاب الأحابش و«سنن الدارقطني» (١٩٣/٤) عن نافع عن ابن عمر ﷺ برقم (٤٤٠٢، ٤٤٠٨، ٤٤١٠) وهو في «المسند» (٤٦٠٨، ٦٤٦٠) بأطول من هذا، وابن حبان (٤٨٩٩).

(٣) ابن جرير (٣/ ٢٤٦).

(٤) الإمام أحمد (٤/ ٢٦٥).

(٥) «مسند الزار» (٢٩١٤) قال الهيثمي في «المجمع» (٦/ ٣٢٦): وفيه مَنْ لم أعرفه.

والسلام: «إن الله قد قبَّلها»^(١).

تَكْذِيبُ الْيَهُودِ فِي إِبَاحَةِ مَا حُرِّمَ عَلَيْهِمْ مِنْ طَعَامٍ

٩٣- ﴿كُلُّ الطَّعَامِ كَانَ حَلَالًا لِّنَبِيِّ إِسْرَءِيلَ﴾^(٢) إِلَّا مَا حَرَّمَ إِسْرَءِيلُ عَلَى نَفْسِهِ مِنْ قَبْلِ أَنْ تُنَزَّلَ^(٣) التَّوْرَةُ قُلْ فَأَتُوا بِالتَّوْرَةِ فَاتْلُوهَا إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿٩٣﴾.

هذا رد على اليهود في زعمهم أن النسخ غير جائز، فكفروا بعيسى ومحمد، لأنهما قد أتيا بما يخالف بعض أحكام التوراة في التحليل والتحريم، وكان يعقوب قد نذر لئن شفاه الله من مرض عرق النساء ليُحرمنَّ على نفسه أحب الأطعمة إليه، وهي لحوم الإبل وألبانها، وتبعه بنوه في ذلك، وكان هذا قبل نزول التوراة، ولما نزلت التوراة حرمت على اليهود غير ما حرَّمه يعقوب على نفسه مما كان حلالاً لهم، وقد أمرهم الله أن يقرؤوا التوراة ليجدوا فيها ما ذكر.

وهكذا تمضي الآيات لتبيِّن بقیة الجدل بين اليهود خاصة والمسلمين في المدينة؛ لتردَّ على الاعتراض الأول منهم، وهو إباحة القرآن لبعض ما حرَّم على اليهود من طعام، وتبيِّن أن ذلك كان عقوبةً لهم على بعض المخالفات التي ارتكبوها.

وقد كان اليهود يتصيدون كلَّ شبهة للطعن في الإسلام، فلما قال القرآن: إنه مصدِّقٌ للتوراة، قالوا: كيف وهو يحلُّلُ من الأطعمة ما حرَّم على بني إسرائيل؟!.

وفي أسباب النزول: أن اليهود قالوا للنبي ﷺ: إنك تزعم أنك على ملة إبراهيم، وكان إبراهيم لا يأكل لحوم الإبل وألبانها، وأنت تأكل ذلك، فلست على ملته؛ فقال النبي ﷺ: «كان ذلك حلالاً لإبراهيم»، قالوا: كل ما نُحرمه اليوم كان حراماً على نوح وإبراهيم حتى انتهى إلينا؛ فأنزل الله: ﴿كُلُّ الطَّعَامِ كَانَ حَلَالًا لِّنَبِيِّ إِسْرَءِيلَ﴾. . الآية؛ تكذيباً لهم^(٤).

(١) «الدر المنثور» (٢/ ٥٠) وابن جرير (٣/ ٢٤٧).

(٢) قرأ أبو جعفر بتسهيل همزة (إسرائيل) مع المد والقصر وصلًا ووقفًا، وكذا حمزة عند الوقف.

(٣) قرأ ابن كثير وأبو عمرو ويعقوب بإسكان النون وتخفيف الزاي من (تنزل) وقرأ الباقون بفتح النون وتشديد الزاي.

(٤) النيسابوري (٩٨) والألوسي (٤/ ٣).

إِجَابَةُ النَّبِيِّ ﷺ عَلَى أَسْئَلَةِ الْيَهُودِ:

في حديث ابن عباس عن سعيد بن جبير قال: أقبلت يهود إلى النبي ﷺ فقالوا: يا أبا القاسم، أخبرنا عن الرّعد ما هو؟ قال: «مَلَكٌ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُوَكَّلٌ بِالسَّحَابِ، مَعَهُ مَخَارِقُ مِنْ نَارٍ، يَسُوقُ بِهَا السَّحَابَ حَيْثُ شَاءَ اللَّهُ»، فقالوا ما هذا الصوت الذي نَسْمَعُ؟ قال: «زَجْرُهُ بِالسَّحَابِ إِذَا زَجَرَهُ حَتَّى يَنْتَهِيَ إِلَى حَيْثُ أُمِرَ»، قالوا: صدقت، فأخبرنا عما حَرَّمَ إِسْرَائِيلَ عَلَى نَفْسِهِ؟ قال: «اشْتَكَى عِرْقُ النِّسَاءِ، فَلَمْ يَجِدْ شَيْئًا يَلَاثِمُهُ إِلَّا لَحُومَ الْإِبِلِ وَأَلْبَانَهَا، فَلِذَلِكَ حَرَمَهَا»، قالوا صدقت^(١).

وكان يعقوب قد نَذَرَ إِنْ شَفَاهُ اللَّهُ أَنْ يُحْرَمَ عَلَى نَفْسِهِ أَحَبُّ شَيْءٍ إِلَى نَفْسِهِ، وَإِسْرَائِيلَ هُوَ يَعْقُوبُ، وَكَانَ قَدْ حَرَّمَ عَلَى نَفْسِهِ لَحُومَ الْإِبِلِ وَأَلْبَانَهَا؛ تَعْبُدًا وَزَهْدًا وَقَهْرًا لِلنَّفْسِ، وَطَلَبًا لِمَرْضَاةِ اللَّهِ قَبْلَ نَزُولِ التَّوْرَةِ، فَلَمَّا نَزَلَتِ التَّوْرَةُ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَى الْيَهُودِ فِيهَا مَا شَاءَ؛ بِسَبَبِ ظَلَمِهِمْ وَبَغْيِهِمْ، وَأَحْلَلَ لَهُمْ مَا شَاءَ.

وَقَدْ خَصَّ الْقُرْآنُ هَذَا الْحُكْمَ بِالذِّكْرِ؛ لِأَنَّهُ أَصْرَحُ دَلِيلٍ فِي التَّوْرَةِ عَلَى وَقُوعِ النَّسْخِ الَّذِي اعْتَرَضُوا عَلَيْهِ.

جاء في سِفْرِ التَّكْوِينِ: أَنْ يَعْقُوبَ حَرَّمَ عَلَى نَفْسِهِ الْعِرْقَ الَّذِي عَلَى الْفَخْذِ.

وَفِي الْحَدِيثِ السَّابِقِ: أَنَّهُ حَرَّمَ لَحُومَ الْإِبِلِ وَأَلْبَانَهَا، وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى وَجْهِ النَّذْرِ، فَقَدْ كَانَ يَعِيشُ فِي الْبَادِيَةِ، وَلَا تَسْتَقِيمُ عَافِيَتُهُ إِلَّا بِأَكْلِ اللَّحْمِ الَّذِي فِيهِ الْعِرْقُ، وَلَمْ يَحْرَمْهُ عَلَى نَفْسِهِ بُوْحَى مِنَ اللَّهِ تَعَالَى، بَلْ مِنْ تَلَقَّاءِ نَفْسِهِ.

فَفِي الْآيَةِ رَدٌّ عَلَيْهِمْ؛ أَيُّ: لَيْسَ الْأَمْرُ كَمَا تَدَّعِي الْيَهُودُ، إِنَّمَا حَرَّمَ يَعْقُوبُ عَلَى نَفْسِهِ لَحُومَ الْإِبِلِ وَأَلْبَانَهَا؛ لِسَبَبٍ مُعَيَّنٍ، وَبَقِيَّتِ الْحُرْمَةِ فِي أَوْلَادِهِ، وَلَمَّا أَنْكَرَ الْيَهُودُ ذَلِكَ؛ أَمَرَهُمُ النَّبِيُّ ﷺ بِإِحْضَارِ التَّوْرَةِ، فَلَمْ يَجِدُوا فِيهَا مَا ادَّعَوْهُ مِنْ تَحْرِيمِ هَذِهِ الْأَشْيَاءِ عَلَى إِبْرَاهِيمَ.

وَكَانَ الْيَهُودُ أَنْكَرُوا وَقُوعَ النَّسْخِ؛ فَأَبْطَلَ اللَّهُ ذَلِكَ، وَبَيَّنَّ أَنَّ النَّسْخَ حَاصِلٌ مِنْ زَمَنِ آدَمَ إِلَى وَقْتِنَا:

١- فِهَذَا زَوَاجُ الْأَخِ بِأَخْتِهِ يُحَرِّمُهُ اللَّهُ تَعَالَى بَعْدَ آدَمَ ﷺ، وَكَانَ جَائِزًا فِي بَدْءِ الْخَلِيقَةِ.

(١) «صحيح سنن الترمذي» برقم (٢٤٩٢) مختصرا، وصححه أحمد شاكر بنحوه في «المسند» برقم (٢٤٧١)،

٢٤٨٣) وقد حسنه محققوه، و«تفسير الطبري» برقم (١٥٠٦، ٧٤٢٠) و«المعجم الكبير» (٣٠١٢).

وقد سبق تخريجه في الجزء الأول بأتم من هذا وفيه تضعيف رواية الرعد.

٢- وهذا نوح عليه السلام، أحل الله لقومه بعد الخروج من السفينة جميع دواب الأرض؛ ليأكلوا منها.

٣- وكان الجمع بين الأختين سائغاً، وقد جمع يعقوب عليه السلام بين أختين، ثم حُرِّمَ عليهم ذلك في التوراة.

وقد أحل الله لعيسى عليه السلام ما كان مُحَرَّمًا على بني إسرائيل من الأطعمة؛ عقوبة لهم.

والقول بأن يعقوب حَرَّمَ هذه الأشياء على نفسه، وتركها لله تعالى مع أنه كان سائغاً في شريعتهم، هذا المعنى يناسب الآية قبلها: ﴿لَنْ نَّأَلُوا الْآلِ حَتَّىٰ تُنْفِقُوا مِمَّا حُبُّونَ﴾ فقد ترك يعقوب لله ما يحبه ويشتيه.

وإخبار النبي صلى الله عليه وسلم بما حَرَّمه يعقوب على نفسه دليل على صحة نبوته، فقد كان صلى الله عليه وسلم أمياً، لا يقرأ ولا يكتب، فلما أُخْبِرَ أن ما يقوله اليهود ليس في التوراة، عُلِمَ منه أن الذي أخبر به النبي صلى الله عليه وسلم وحي من الله تعالى.

روى الإمام أحمد وغيره عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: حضرت عصابة من اليهود نبي الله صلى الله عليه وسلم فقالوا: حدثنا عن خلال نسألك عنهن، لا يعلمهن إلا نبي، قال: «سألوني عما شئتم، ولكن اجعلوا لي ذمة الله، وما أخذ يعقوب على بنيه، لئن أنا حدثتكم شيئاً فعرفتموه لتتابعني على الإسلام؟» قالوا فذلك لك، قال: فسلوني عما شئتم، قالوا: أخبرنا عن أربع خلال:

أخبرنا عن الطعام الذي حَرَّمَ إسرائيل على نفسه؟ وكيف ماء المرأة، وماء الرجل؟ وكيف يكون الذكر منه؟ وأخبرنا كيف هذا النبي الأمي في النوم؟ ومن وليه من الملائكة؟ فأخذ عليهم العهد لئن أخبرهم ليتابعنه.

فقال: «أنشدكم بالذي أنزل التوراة على موسى، هل تعلمون أن إسرائيل مرض مرضاً شديداً، وطال سُقْمُهُ، فَتَدَّرَ لله نَذْرًا، لئن شفاه الله من سُقْمِهِ لِيُحَرِّمَنَّ أَحَبَّ الشراب إليه، وأحب الطعام إليه، وكان أحب الطعام إليه لحم الإبل، وأحب الشراب إليه ألبانها؟» فقالوا: اللهم نعم، قال: «اللهم اشهد عليهم».

وقال: «أنشدكم بالله الذي لا إله إلا هو، الذي أنزل التوراة على موسى، هل تعلمون أن ماء الرجل أبيض غليظ، وماء المرأة أصفر رقيق، فأيهما علا، كان له الولد والشبه بإذن الله، إن علا ماء الرجل ماء المرأة كان ذكراً بإذن الله، وإن علا ماء المرأة ماء الرجل

كان أنثى بإذن الله؟» قالوا: نعم، قال: «اللهم اشهد عليهم».

وقال: «أنشدكم بالذي أنزل التوراة على موسى، هل تعلمون أن هذا النبي الأمي تنام عيناه، ولا ينام قلبه؟» قالوا: اللهم نعم، قال: «اللهم اشهد».

قالوا: وأنت الآن، فحدثنا من ولئيك من الملائكة؟ فعندها نجامعك أو نفارقك، قال: «إن وليي جبريل، ولم يبعث الله نبياً قط إلا وهو وليه»، قالوا: فعندها نفارقك، لو كان ولئيك غيره لتابعناك وصدقناك فعندئذ قال تعالى: ﴿قُلْ مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِجِبْرِيلَ﴾^(١).

وجاء هذا الحديث من طريق آخر عن ابن عباس ؓ وفيه أن اليهود سألوا النبي ﷺ عن خمسة أشياء هي:

١- علامة النبوة؛ فأخبرهم بأن النبي تنام عيناه، ولا ينام قلبه.

٢- وكيف يخرج المولود ذكراً أو أنثى؛ فأخبرهم بأنه يخرج تبعاً لعلو ماء أحد أبويه على الآخر.

٣- وماذا حرم يعقوب على نفسه؛ فأخبرهم أنه يشتكي عرق النساء؛ فحرم لحوم الإبل وألبانها على نفسه.

٤- وسأله عن الرعد وصوته؛ فأجابهم بأنه صوت الملك حين يسوق السحاب بمخراق في يده.

٥- وسأله من الذي ينزل عليه من السماء؛ فقال: «جبريل»، قالوا: ذاك عدونا ينزل بالحرب والقتال والعذاب، ولو قلت: ميكائيل الذي ينزل بالرحمة والنبات والقطر لكان؛ فأنزل الله آية البقرة: ﴿قُلْ مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِجِبْرِيلَ فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلَى قَلْبِكَ بِإِذْنِ اللَّهِ﴾^(٢).

(١) «المسند» (١/ ٢٧٨)، برقم (٢٥١٤) وإسناده حسن، وله طرق يتقوي بها كما في حديث (٢٤٨٣) وأخرجه ابن سعد في الطبقات (١/ ١٧٤) والطيالسي (٢٧٣١) وابن إسحاق في سيرة ابن هشام (٢/ ١٩١) والطبراني (١٣٠١٢) والبيهقي في الدلائل (٦/ ٢٦٦).

(٢) يُنْظَرُ: «المسند» (١/ ٢٧٤) برقم (٢٤٨٣) وأوله (أقبلت يهود) و«سنن الترمذي» برقم (٣١١٧) وقال: حديث غريب والنسائي في «السنن الكبرى» برقم (٩٠٧٢)، والطبراني (١٢٤٢٩) وأبو نعيم في الحلية (٤/ ٣٠٤) وابن أبي حاتم (٩٥٣) والبخاري في التاريخ الكبير (٢/ ١١٤) قال محققو المسند: حديث حسن دون قصة الرعد.. وبقية رجال الإسناد ثقات رجال الشيخين غير العجلي فقد روى له الترمذي والنسائي وهو ثقة.

وفي هذه الرواية زيادة ما يتعلق بالرعد وصوته وهي ضعيفة.

ومعنى الآية: كُلُّ الْأَطْعِمَةِ الطَّيِّبَةِ كَانَتْ حَلَالًا لِأَبْنَاءِ يَعْقُوبَ عَلَيْهِ السَّلَامُ، إِلَّا شَيْئًا وَاحِدًا حَرَّمَهُ يَعْقُوبُ عَلَى نَفْسِهِ؛ لَمَرَضَ نَزَلَ بِهِ، وَهُوَ مَا حَرَّمَهُ عَلَى أَنْفُسِهِمْ اقْتِدَاءً بِهِ، وَهَذَا قَبْلَ نَزُولِ التَّوْرَةِ، فَلَمَّا نَزَلَتِ التَّوْرَةُ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ بَعْضَ الْأَطْعِمَةِ الَّتِي كَانَتْ حَلَالًا لَهُمْ؛ لظَلَمَهُمْ وَبَغْيِهِمْ، قَالَ تَعَالَى: ﴿فَيُظْلَمُونَ مِنْ الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمًا عَلَيْهِمْ طَيِّبَاتٌ أُحِلَّتْ لَهُمْ وَبِصَدِّهِمْ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ كَثِيرًا ۖ وَأَخْذَهُمُ الرَّبُّ وَقَدْ هُمُوهَا عَنْهُ وَأَكْلِهِمْ أَمْوَالِ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ [النساء: ١٦٠، ١٦١]

فإن ادَّعَوْا أن هذا في التوراة وجادلوك فيه فاطلب منهم -أيها الرسول- أن يأتوا بالتوراة ويقرؤوها حتى يعلموا صدق ما جاء في القرآن من أن الله تعالى لم يُحرِّم شيئاً عليهم قبل نزول التوراة، إلا ما حرَّمه يعقوب على نفسه.

وبهذا أبطل القرآن حجَّتَهُم فيما يتعلق بقضية النسخ، وكذبهم في دعوى التحريم، وفي هذا أمرٌ من الله لرسوله أن يتحداهم بنصوص التوراة؛ لبيكتهم بما قالوه، ولم يجروا أحدٌ منهم أن يُخرج التوراة، وبذلك قامتِ الحجةُ عليهم، قال تعالى:

٩٤- ﴿فَمَنْ أَفْتَرَى عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾

وبعد أن تحدَّاهم القرآن بالرجوع إلى التوراة، بيَّن سبحانه أنهم كَذَّبُوا على الله بزعمهم أن ذلك كان مُحَرَّمًا في ملة نوح وإبراهيم، بعد وضوح وبيان الحقيقة، وبعد أن ألزَمَهُم الحُجَّةُ القاطعة أنهم المتقولون على الله بالباطل؛ افتراءً وظلمًا وتعمدًا للكذب، وتجاوزًا لحدود الله، وإذن فلا مَنَاصَ من تصديق ما جاء به القرآن على لسان محمد ﷺ، فأَيُّ ظلم أعظم من ظلم مَنْ يُدَّعى إلى تحكيم كتاب الله فيمتنع من ذلك عنادًا وتكبرًا وتجبرًا؟ قال تعالى:

٩٥- ﴿قُلْ صَدَقَ اللَّهُ فَاتَّبِعُوا مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾

وبعد أن فَرَعَ القرآن من إعلان كذبهم بالحجة القاطعة، قال: ﴿قُلْ صَدَقَ اللَّهُ﴾ فيما أخبر به وحكم، وفيه تعريضٌ بكذبهم؛ أي: فإن كنتم صادقين في محبتكم وانتسابكم لإبراهيم فاتبعوا ملته، وما يدعوكم إليه محمدٌ هو من ملة إبراهيم، وهو الدين الصحيح الذي لا

يُقبل من أحدٍ سواه، فإن كنتم تريدون الطريق القويم فاتبعوا ملة الإسلام كما قال تعالى: ﴿ثُمَّ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ أَنْ اتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ [النحل] وكما قال: ﴿قُلْ إِنِّي هَدَيْتُ رَبِّي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ دِينًا فِيمَا مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ [الأنعام].

وفي الآية أمر باتباع التوحيد ملة إبراهيم، وترك الشرك وأهله، وفيها دليل على أن اليهود غير موحدين، أي أنهم ليسوا على ملة إبراهيم عليه السلام.

وفي الآية أمر بقول ﴿صَدَقَ اللَّهُ﴾ عن عقيدة ويقين، وأعظم الناس تصديقاً لله، أعظمهم علماً و يقيناً بالأدلة العقلية والعقلية.

ويُستفاد من الآية جواز التصديق بعد القراءة أحياناً؛ أي: قول (صدق الله العظيم) في نهاية التلاوة، وعدم الالتزام بها؛ حتى لا يُتوهم أنها من القرآن، ويتأكد هذا الجواز إن كان ما يُتلى من القرآن في وسائل الإعلام، وبعده موسيقى ونحوها من الأغاني والتمثيلات؛ للفصل بين القرآن وغيره من المواد التي لا تُناسب كلام رب العالمين.

أَوَّلُ بَيْتٍ وُضِعَ فِي الْأَرْضِ لِلْعِبَادَةِ

٩٦- ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِلْعَالَمِينَ﴾ [٩٦]

وهذه الآية التي نحن بصددتها تتحدث عن الشبهة الأخيرة في معركة الجدل بين اليهود والمسلمين؛ وهي اعتراضهم على تحويل القبلة، فبين الله تعالى لهم أن الكعبة هي بيت إبراهيم، وهي أول بيت وضع مُتعبداً للناس، فاعتراضكم على تحويل القبلة أمرٌ مستنكرٌ، مع ادعائكم أنكم ورثة إبراهيم، ولكن اليهود يُبدئون ويعيدون في هذا وغيره، بُغية التشكيك والبلبله في ثوابت الإسلام.

ومن اتّباع ملة إبراهيم التي جاء الأمر بها في الآية السابقة بناء البيت الحرام، وأداء شعائر الحج والعمرة، وكيف علّمها جبريل الأمين إلى خليل الرحمن كما نؤديها اليوم.

والبيت الحرام هو أول بيت وضعه الله مُتعبداً للناس في الأرض، لمغفرة الذنوب، وإقالة العثرات، وحصول الطاعات والقربات، والفوز بالجنات، والنجاة من النيران، وهو بيت مبارك، في قصده منافع دينية وأخروية، وفيه هدى للعالمين بمعرفة أداء المناسك والعبادات،

وهدى بمعرفة دلائل التوحيد وآثار الأنبياء والأولياء، ومن ذلك مقام إبراهيم، وأمن الحرم، وفيه هداية للعالمين لمن حج واعتمر بخروجه من ذنوبه كيوم ولدته أمه، وقد وصف الله البيت بخمس صفات:

١- كونه أسبق بيوت العالم وضع في الأرض متعبداً للناس.

٢- إنه مبارك، كثير الخير والنفع والبركة.

٣- أنه نفسه هدى للعالمين.

٤- أن مقصده واجب على كل مسلم بالغ مستطيع.

٥- ما تضمن من الآيات التي هي مشاعر الحج وهي تزيد على الأربعين.

٦- الأمن الحاصل في الحرم دون غيره.

جبريل يعلم الرسول المناسك:

أخرج ابن أبي حاتم بسند حسن عن عبد الله بن عمرو قال: أفاض جبريل بإبراهيم، عليهما السلام، فصلّى بِمَنَى الظهر والعصر والمغرب والعشاء والفجر، ثم غدا من مِنَى إلى عرفة، فصلّى بها الصلاتين: الظهر والعصر، ثم وقف له حتى غابت الشمس، ثم دُفِعَ حتى أتى مُزْدَلِفَةَ، فنزل بها، فبات وصلّى، ثم صلى، كأعجل ما يُصلي أحد من المسلمين، ثم وقف، به كأبطأ ما يُصلي أحد من المسلمين، ثم دفع منه إلى منى، فرمى وذبح، ثم أوحى الله تعالى إلى محمد: ﴿أَنْ أَتَيْعَ مَلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾^(١).

البيت الأول:

جاء في سبب النزول: أن اليهود قالوا للمسلمين: بيت المقدس قبلتنا، وهو أفضل من الكعبة، وأقدم، وهو مُهاجِرُ الأنبياء وقبلتهم، وأرض المحشر، وقال المسلمون: بل الكعبة أفضل؛ فأنزل الله الآية^(٢).

(١) حديث رقم (٩٦١) في تفسير ابن أبي حاتم، وهو في «المعجم الكبير» للطبراني، قال الهيثمي في «مجمع الزوائد» (٣/ ٢٥١) عن أسانيد: رجال بعضها رجال الصحيح، ورجاله ثقات إلا الحسين بن حفص محله الصدق، فالإسناد حسن كما قال: د/ حكمت بشير في «التفسير الصحيح» (١/ ٤٣٦).

(٢) النيسابوري (٩٨) عن مجاهد.

وسأل خالد بن عرعة، عليّ بن أبي طالب ﷺ أسئلة؛ منها أنه قال له: فما البيت المعمور؟ قال: قال علي لأصحابه: ما تقولون؟ قالوا: نقول: هو البيت الحرام، قال: بل هو بيت في السماء يقال له: الصُّراح، حيال هذا البيت، حُرِّمَتْ في السماء كحرمة هذا في الأرض، يدخله كلُّ يوم سبعون ألف ملك، ثم لا يعودون إليه، ثم تلا: ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ﴾، ثم قال: أما إنه ليس بأول بيت كان، قد كان نوح قبله وكان في البيوت، وكان إبراهيم قبله وكان في البيوت، ولكنه أول بيت وُضِعَ للناس فيه البركة.

ثم حدّث أن إبراهيم ﷺ لما أمر ببناء البيت ضاق به ذرعاً، فلم يدر كيف يبنيه؛ فأرسل الله السكينة، وهي ريح فجّوج، لها رأس، فتطوّقت له بالحُجج، فكان يبنّي عليها كل يوم ساقاً، ومكة شديدة الحر، فلما بلغ الحجر، قال لإسماعيل: اذهب فالتمس لي حجراً أضعه، فذهب إبراهيم يطوف في الجبال فوجد حجراً، فوضعه، فجاء إسماعيل فقال: من أين هذا؟ فقال: جاء به مَنْ لم يتكل على بنائي وبنائك، فوضعه، فلبث ما شاء الله أن يلبث، ثم انهدم، فبنّته العمالقة، ثم انهدم فبنّته جُرهم، ثم انهدم فبنّته قريش، فلما أرادوا أن يضعوا الحجر، تنازعوا في وضعه، قالوا: أول مَنْ يَخْرُج من هذا الباب يضعه، فخرج النَّبِيُّ ﷺ من باب بني شيبه، فأمر بثوب فبسط، ووضع الحجر في وسط الثوب، وأمر من كل فخذ رجلاً أن يأخذ ناحية الثوب، فأخذوه فرفعوه، فأخذ النبي ﷺ فوضعه^(١).

فالبيت الحرام هو أول بيت وُضِعَ للعبادة في الأرض؛ لإعلان التوحيد، وهداية الناس، وقد وُضِعَتْ قبله بيوت كثيرة، قبل بناء إبراهيم له -على القول بأن إبراهيم هو أول من بناه؛ ومن ذلك بُرج بابل الذي بُنِيَ في إثر الطوفان، وما بناه المصريون قبل عهد إبراهيم، وما بنّى الكلدان في بلد إبراهيم قبل رحلته إلى مصر.

بركة الحرمين: ومما ورد في بركة الحرمين ما أخرجه الترمذي وغيره بسنده عن علي بن أبي طالب ﷺ قال: خرجنا مع رسول الله ﷺ حتى إذا كنا بحَرَّة السُّقْيَا التي كانت لسعد بن أبي وقاص، فقال رسول الله ﷺ: «اثْنُونِي بِوُضْعِ» فتوضأ، ثم قام فاستقبل القبلة، ثم

(١) أخرجه الضياء المقدسي في «المختارة» (٢/ ٦٠) رقم (٤٣٨) وحسنه المحقق، وأخرجه الحاكم وصححه ووافقه الذهبي في «المستدرک» (٢/ ٢٩٢).

قال: «اللهم إن إبراهيم كان عبدك وخليك، ودعا لأهل مكة بالبركة، وأنا عبدك ورسولك، أدعوك لأهل المدينة أن تبارك لهم في مذهبهم وصاعهم مثلي ما باركت لأهل مكة، مع البركة بركتين»^(١) وهي بركات كثيرة مادية ومعنوية حبا لله بها الحرمين الشريفين.

والمعنى: إن أول بيت بُني لعبادة الله في أرضه، هو البيت الحرام بمكة، وهو بيت تُضاعف فيه الحسنات، وتنزل فيه الرحمات، واستقباله في الصلاة، وقصده لأداء الحج والعمرة، صلاحٌ وهدايةٌ للناس أجمعين، فهو أول بيت جعله الله مُتعبداً للناس -وهو موضع الطاعة- وقبلة الصلاة، وموضع الحج والطواف، يستوي فيه العاكف والباد، وقد أضافه الله لنفسه تعظيماً وتشريفاً له، وأضافه للناس؛ لأنه مكان حَجَّهم وقبلة صلاتهم.

بكة: وسميت مكة (بكة): من البك، وهو الدفع والازدحام، وهذا ما يحدث في الحج، أو لأنها تَبْكُ (أي تدقُّ أعناق الجبابرة، فلا يقصدها جبارٌ إلا قصمه الله)، والأولى أن يُقال: إن مكة هي بكة، وهما لغتان فيها، والعرب تُعاقب بين الباء والميم، كقولهم: ضربة لازب ولازم، ومن أسمائها: البيت العتيق، والبيت الحرام، والبلد الأمين، وأم رُحْم، وأم القرى، والمقدَّسة، والكعبة، والبلدة، وغير ذلك.

أول من بنى البيت:

١- قال مجاهد: خلق الله هذا البيت قبل أن يخلق شيئاً من الأرضين.

٢- وقيل: إنه ظهر على وجه الماء عند خلق السموات والأرض، وهو في محاذة البيت المعمور.

٣- وقيل: أول من بناه الملائكة.

وفي الصحيحين من حديث مالك بن صعصعة في شأن الإسراء والمعراج أن النبي ﷺ

(١) «سنن الترمذي» برقم (٣٩١٤) وقال: حديث حسن صحيح، وأخرجه ابن خزيمة في صحيحه برقم (٢٠٩) قال محققه: إسناده صحيح، وابن حبان في «الإحسان» برقم (٣٧٤٦) قال محققه: إسناده صحيح، ورجاله ثقات، وأخرجه الضياء المقدسي في «المختارة» (٥٤٣، ٥٤٤) بإسناد صحيح، وهو في مسند أحمد (٩٣٦) بإسناد صحيح، وأخرجه النسائي في الكبرى (٤٢٧٠).

قال عن السماء السابعة: «فُرفِع لي البيت المعمور، فسألت جبريل، فقال: هذا البيت المعمور يُصلي فيه كل يوم سبعون ألف ملك، إذا خرجوا لم يعودوا إليه»^(١)؛ وذلك من كثرة الملائكة.

٤- وقد ورد أن آدم ﷺ هو أول من بنى الكعبة؛ وذلك أنه لما أُهبط إلى الأرض قال الله تعالى له: «يا آدم، اذهب فابن لي بيتاً، فطُف به، واذكرني حوله، كما رأيت ملائكتي تصنع حول عرشي، فأقبل يسعى حتى انتهى إلى البيت الحرام (موقعه) وبناه، فكان آدم أول من أسس البيت وطاف حوله»^(٢).

وهذا الأثر يفيد أن آدم ﷺ هو أول من بنى البيت، وقيل بخلافه.

حَدِيثُ الْقُرْآنِ عَنِ بِنَاءِ الْبَيْتِ

والقرآن الكريم يشير إلى وجود قواعد للبيت قبل رفع إبراهيم لهذه القواعد عند بناءه للبيت، كما هو ظاهر قوله تعالى: ﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ [البقرة].

ولمَّا كان الله ﷻ ليس كمثله شيء، وهو جَل شأنه لا تدركه الأبصار وهو يدرك الأبصار، ولمَّا كان سبحانه مُنزهاً عن مُشَابَهَةِ المخلوقين، فقد اختار جل شأنه قطعةً من الأرض تتوسط العالم علويه وسفليه، طولها نحو اثني عشر متراً، وعرضها نحو عشرة أمتار، أرض فضاء، ميَّزها الله وفضَّلها، وأمر سبحانه ببناء الكعبة (البيت العتيق) في هذا المكان؛ ليستقبلها العباد في صلاتهم من كل جهة في العالم، وكأنهم بهذا يَسْتَقْبِلُونَ وجه الله تعالى؛ لينظروا إلى البيت العتيق، ويطوفوا حوله في حَجِّهم وعمرتهم، وليتشبهوا بالملائكة، وهم يطوفون بالبيت المعمور في السماء السابعة، وهو يُحَازِي البيت العتيق في مكة المكرمة على شكل عموديٍّ.

(١) «اللؤلؤ والمرجان فيما اتفق عليه الشيخان» وهو في حديث رقم (١٠٣).

(٢) نُسِبَ هذا القول إلى ابن عباس، راجع: «زاد المسير» في علم التفسير لابن الجوزي ج ٢ ص ١١٤، وقد جاء ذلك في حديث مرفوع في «دلائل النبوة» للبيهقي (٢/ ٤٥) عن عبد الله بن عمرو بن العاص، وهو من فردات ابن لهيعة، وهو ضعيف.

بناء المسجد الأقصى: وسُمِّيَ بالبيت العتيق؛ لأنه أول بيت بُني على وجه الأرض، وقد بنى إبراهيم البيت سنة ١٩٠٠ قبل الميلاد، ولما مرَّ ببلاد الشام، عيَّن الله له الموضع الذي سيكون به أكبر مسجد تبنيه ذريته في هذا المكان، فأقام في هذا الموضع مسجدًا، هو المسجد الأقصى، وجعله على الصخرة التي كانت مذبحًا للمشركون، وكان أهل هذا المكان يذبحون فيه القرابين، وبمرور الوقت، اندثر بناء إبراهيم للمسجد الأقصى.

وقد ثبت ذلك في سِفْرِ التكوين؛ ففيه: أن إبراهيم بنى مذابح (أي: مساجد) في جهات مرَّ عليها من أرض الكنعانيين؛ لأن الله أخبره أن يُعطي تلك الأرض لنسله، وكان هذا البناء بعد بناء الكعبة بأربعين عامًا كما جاء في حديث الشيخين، في الصحيحين وغيرهما عن أبي ذر قال: سألتُ رسول الله ﷺ عن أول مسجد وُضع في الأرض؟ قال: «المسجد الحرام»، قلت: ثم أي؟ قال: «المسجد الأقصى»، قلت: كم بينهما؟ قال: «أربعون عامًا»^(١).

ثم هَدَى الله سليمان بن داود عليهما السلام إلى تجديد بناء إبراهيم للمسجد الأقصى بعد أن أصبح شبه مندثر؛ لطول المدة بين إبراهيم وسليمان، وهي أكثر من ألف عام، فجدد سليمان بناءه فوق الصخرة التي كانت مذبحًا للقربان، والتي بنى إبراهيم عليها المسجد قبل ذلك بأكثر من ألف عام.

والثابت لدينا في بناء البيت هو الذي جاء به القرآن من لدن رَفَع إبراهيم لقواعده، وما قبل ذلك فهي آثارٌ محتملةٌ للصحة من عدمها، وهذا الحديث الثابت في الصحيحين وغيرهما يتحدث عن بناء إبراهيم للبيت، وهو يُقرر أيضًا أن إبراهيم هو أول من بنى المسجد الأقصى بعد أربعين عامًا من بنائه للمسجد الحرام، والمسجد الحرام أول بيت خُصَّ بالبركة وزيادة الخير، وجميع الطاعات والعبادات يتضاعف ثوابها ويزداد عنده.

(١) «فتح الباري» (٦/ ٤٦٩) ورقمه في البخاري (٣٣٦٦)، (٣٤٢٥) و«صحيح مسلم» (١/ ٣٧٠) برقم (٥٢٠) و«المسند» (٥/ ١٥٠)، (٢١٤٢١، ٢١٤٢٨) وابن أبي شيبة (١٤/ ١١٦) والطبري (٥/ ٥٩٣) والبيهقي في «الشعب» (٣٩٨٢).

وفي الصحيحين وغيرهما عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «صلاة في مسجدي هذا خير من ألف صلاة فيما سواه إلا المسجد الحرام»^(١).

وفي حديث جابر رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «صلاة في مسجدي أفضل من ألف صلاة فيما سواه إلا المسجد الحرام، وصلاة في المسجد الحرام أفضل من مئة ألف صلاة»^(٢).

وهو أهدى للعالمين؛ لأنه قبلتهم ومتعبدتهم، يهتدون به في صلاتهم، ومن قصده في صلاته وحجّه، وكان عمله خالصاً صواباً؛ فقد أوجب الله له الجنة برحمته وفضله، ورجع من ذنوبه كيوم ولدته أمه.

أَرْبَعُ قَضَايَا فِي هَذِهِ الْآيَةِ

٩٧- ﴿فِيهِ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ مَّقَامُ إِبْرَاهِيمَ^(٣) وَمَنْ دَخَلَهُ كَانَ آمِنًا وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ^(٤) الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ

تضمنت هذه الآية أربع قضايا هي: مقام إبراهيم، وأمن الحرم، وفرضية الحج، والاستطاعة: وفي البيت الحرام علامات واضحة دالة على حرمة ومزيد فضله، ومن هذه الدلالات: مقام إبراهيم، وأمن من دخله.

ومن آيات الحرم: الحجر الأسود، والحطيم، والملتزم، وزمزم، ومشاعر الحج كلها آيات.

القضية الأولى: مَقَامُ إِبْرَاهِيمَ

وهو الحجر الذي كان يقوم عليه عند بنائه للبيت، وفيه أثر قدميه، وهذه آية خاصة بإبراهيم؛ لأن من شأن القَدَم، أنها لا تغوص في الحجر الصلد، وغوص قدمي إبراهيم في الحجر،

(١) البخاري (١١٩٠) ومسلم (١٣٩٤) وابن أبي شيبة (٣٧١ / ٢) والترمذي (٣٢٥) والنسائي (٢٨٩٩) وابن ماجه (١٤٠٤).

(٢) «المسند» (١٤٦٩٤) و (١٥٢٧١) بإسناد صحيح وحسن، وهو في «صحيح سنن ابن ماجه» (١١٥٥)، وفي ابن ماجه (١٤٠٦) والطحاوي في شرح مشكل الآثار (٥٩٩).

(٣) قوله تعالى (مقام إبراهيم) عذها آية، الشامي والمدني الأخير، وأسقطها من العدد غيرهما.

(٤) قرأ حفص وحمزة والكسائي وأبو جعفر وخلف العاشر (حج البيت) بكسر الحاء، وهي لغة نجد، وقرأ الباقون (حج البيت) بفتح الحاء، وهي لغة أهل الحجاز وأسد.

وإبقاء ذلك فيه إلى يومنا هذا، آية دالة على قدرة الله تعالى، وعلى نبوة إبراهيم عليه السلام.

ولمَّا فرغ إبراهيم من بناء الكعبة، وضع الحجر إلى جدار الكعبة، وظل كذلك حتى أخره عمر عليه السلام في خلافته إلى ناحية المشرق؛ ليتسع المطاف، ولم يُنكر عليه أحدٌ من الصحابة؛ لقول النبي صلى الله عليه وسلم: «أقتدوا بالذين من بعدي، أبي بكر وعمر»^(١).

وأخرج البيهقي بسند صحيح عن عائشة رضي الله عنها أن المقام كان زمان رسول الله صلى الله عليه وسلم وزمان أبي بكر عليه السلام ملتصقًا بالبيت، ثم أخره عمر بن الخطاب عليه السلام.

وعن جابر عليه السلام أن رسول الله صلى الله عليه وسلم رَمَلَ ثلاثة أشواط، ومَشَى أربعًا، حتى إذا فرغ عمد إلى مقام إبراهيم، فصلَّى خلفه ركعتين.

والمقام: هو الحجر الذي كان يقف عليه إبراهيم لبناء البيت.

وقيل: إن المراد بمقام إبراهيم، مواضع المناسك: كالطواف والسعي والوقوف بعرفة ومزدلفة والرمي وسائر الشعائر.

القضية الثانية: أَمْنُ الْحَرَمِ

ومن ذلك أَنَّ مَنْ مات فيه وهو محرم؛ فإنه يبعث يوم القيامة آمنًا من النار.

١- ومن مظاهر أَمْنِ الحرم: امتناع الطير من الارتفاع فوق الكعبة في الهواء، بل ينحرف عنها يمينًا أو شمالًا إذا وصل إليها، والطير يأمن على نفسه فيه، فالحمام لا يخاف الجِدَّةَ.

٢- والوحوش لا يؤذي بعضها بعضًا في الحرم، حتى إن الذئب لا تهيج الطِّبَاءَ، في الحرم، ولا تصطادها.

٣- ومن حرمة: تعجيل العقوبة في الدنيا لمن قصده بسوء أو انتهك حرمة، كما حدث

(١) «صحيح سنن الترمذي» (٢٨٩٥) وفي «سنن الترمذي» (٣٩٢٤)، والمسند (٢٣٢٧٦، ٢٣٢٤٥) وهو حديث حسن بطرقه وشواهده، وهذا إسناد رجاله ثقات رجال الشيخين، لكنه منقطع بين عبد الملك بن عمير وربيع بن حراش (محققوه) وأخرجه الحميدي (٤٤٩) والبخاري (٢٨٢٧) والبيهقي (٣٨٩٤) والطبراني في الأوسط (٣٨٢٨).

لأصحاب الفيل وغيرهم.

وهذا الأمن يشمل جميع الحرم؛ لقول الله تعالى على لسان إبراهيم عليه السلام: ﴿رَبِّ اجْعَلْ هَذَا الْبَلَدَ آمِنًا﴾ [إبراهيم: ٣٥]. وقوله: ﴿رَبِّ اجْعَلْ هَذَا بَلَدًا آمِنًا﴾ [البقرة: ١٢٦]

٤- والإنسان يأمن على نفسه فيه، قال الحسن البصري وغيره: كان الرجل يُقتل، فيضع في عنقه صوفة ويدخل الحرم، فيلقاه ابن المقتول فلا يُهيّجه حتى يخرج.

وكان العرب في الجاهلية يقتل بعضهم بعضًا، ويسبي بعضهم بعضًا، ويُغير بعضهم على بعض، فإذا كانوا داخل الحرم أمنوا من هذا ومن غيره.

قال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا آمِنًا وَيُخَفِّفُ النَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ﴾ [العنكبوت: ٦٧].

٥- ومن جملة تحريمه: حرمة اصطياد صيده، وحرمة تنفيره عن أوكاره، وحرمة قطع شجره، وقلع حشيشه.

وفي يوم فتح مكة خطب عليه الصلاة والسلام فقال: «إن هذا البلد حرّمه الله يوم خلق السموات والأرض، فهو حرام بحرمة الله إلى يوم القيامة، وإنه لم يحل القتال فيه لأحد قبلي، ولم يحل لي إلا ساعة من نهار، فهو حرام بحرمة الله إلى يوم القيامة، لا يُعَصَد شوْكُهُ، ولا يَنْفَرُ صَيْدُهُ، ولا يلتقط لُقْطته إلا مَنْ عَرَفَهَا، ولا يختلي خلاها»، فقال العباس: يا رسول الله، إلا الإذخر، فإنه لقينهم وليبوتهم، فقال: «إلا الإذخر»^(١).

وفي صحيح مسلم عن جابر رضي الله عنه قال: سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: «لا يحل لأحدكم أن يحمل بمكة السلاح»^(٢).

وفي صحيح مسلم عن أبي شريح العدوي أنه قال لعمر بن سعيد، وهو يبعث البعوث إلى مكة؛ لقتال عبد الله بن الزبير: ائذن لي أيها الأمير أن أحدثك قولاً قام به رسول الله ﷺ الغد من يوم الفتح، سمعته أذناي، ووعاه قلبي، وأبصرته عيناي حين تكلم به، إنه حمد الله وأثنى عليه، ثم قال: «إن مكة حرّمها الله، ولم يحرمها الناس، فلا يحل لامرئ

(١) أخرجه الشيخان «فتح الباري» (٤/ ٥٦) ورقمه في البخاري: (١٥٨٧، ١٨٣٤، ٢٧٨٣، ٢٨٢٥،

٣٠٧٧) ومسلم (٩٨٦/ ٢) برقم (١٣٥٣).

(٢) «صحيح مسلم» برقم (١٣٥٦).

يؤمن بالله واليوم الآخر، أن يسفك بها دمًا، ولا يعضد بها شجرة، فإن أحدًا ترخص بقتال رسول الله ﷺ فيها فقولوا له: إن الله أذن لرسوله، ولم يأذن لكم، وإنما أذن لي فيها ساعة من نهار، وقد عادت حرمتها اليوم كحرمتها بالأمس، فليبلغ الشاهد الغائب».

ف قيل لأبي شريح: ما قال لك عمرو، قال: أنا أعلم بذلك منك يا أبا شريح، إن الحرم لا يعيد عاصيًا، ولا فارًا بدم، ولا فارًا بخزبه^(١) (أي: سرقة أو خيانة).

٦- وذهب أبو حنيفة إلى أن من وجب عليه القتل حدًا أو قصاصًا، ثم لجأ إلى الحرم، لا يستوفى فيه، وإنما يُضيق عليه، ويمنع من الطعام والشراب، حتى يخرج منه، فيُقام عليه الحدُّ أو القصاص خارج الحرم.

وقال الشافعي: إذا وجب عليه القتل خارج الحرم، ثم لجأ إلى الحرم، فإنه يُستوفى منه فيه. وأجمعوا على أنه لو قتل أو سرق أو زنى في الحرم، فإنه يُستوفى منه الحدُّ فيه؛ عقوبةً له. أما إذا ارتكب جنايته خارج الحرم، ثم لجأ إليه للحماية فيه، ف قيل: يُقتص منه فيه، وقيل: يُضيق عليه حتى يخرج منه، وقد أمر النبي ﷺ بقتل (ابن خطل) وهو متعلق بأستار الكعبة يوم الفتح.

القضية الثالثة: حج بيت الله الحرام

ثم تُقرر الآية أن الله تعالى فرض الحجَّ على المستطيع من عباده، قيل: إنه لما أنزل الله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ﴾ جَمَعَ رسول الله ﷺ أهل الشرائع، فخطبهم: «إن الله كتب عليكم الحج فحجوا» فأمنت به ملة واحدة، هم المسلمون، وكفرت به بقية الملل، فقالوا: لا نؤمن، ولا نصلي إليه، ولا نحج، فنزل: ﴿وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ﴾ أي: مَنْ جَحَدَ وأنكر فريضة الحج؛ فإن الله غني عنه وعن عبادته، وهو قول ابن عباس والحسن وعطاء.

وقيل في معنى ﴿وَمَنْ كَفَرَ﴾ أي: مَنْ كان عنده القدرة على الحج ولم يحج؛ فإن الله غني عنه، وسمَّاه كُفْرًا تشنيعًا عليه، ووعيدًا له؛ لعدم القيام بشكر النعمة.

(١) «صحيح مسلم» برقم (١٣٥٤) والبخاري برقم (١٨٣٢) والترمذي (٨٠٩) والنسائي (٢٨٧٦).

وفي الآية إحياء بأن الحج مكتوبٌ على اليهود، بعد انخراطهم في الإيمان، ودخولهم في الإسلام، فهو بيت أبي الأنبياء إبراهيم عليه السلام، وهو أول بيت وضعه الله للعبادة، وفي قوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ﴾ فوائد وأسرار:

- ١- فقد قدّم تعالى اسمه، وأدخل عليه لام الاستحقاق والاختصاص، وهو سبحانه الموجب للحج، وفي تقديمه اهتمام وتعظيم.
- ٢- ثم ذكر تعالى مَنْ أوجبه عليهم وهم الناس.
- ٣- وأتبع ذلك بتذكير السبيل لإفادة، أي سبيل تيسرت من قوت أومال.
- ٤- ثم جاء أعظم تهديد بالكفر لمن ترك الحج مع الاستطاعة أو تركه جحوداً له.
- ٥- وأتبعه باستغناء الله تعالى عن خلقه وأنه ليس بحاجة إلى حج أحد، وهو يتضمن مقت الله تعالى وسخطه.
- ٦- ثم أكد سبحانه ذلك بلفظ (فإن) وذكر العالمين جميعاً دون الاكتفاء بمن كفر، فله وحده الغني التام المطلق.

القضية الرابعة: الاستطاعة

ويجب الحَجُّ على المسلم البالغ العاقل المستطيع، والاستطاعة أن يكون قوياً قادراً على السفر، يُمكنه الثبوت على الرحلة وحده، مالكا للزاد، ونفقة السفر له ولمَنْ يَعُولُ أثناء الحج، ولا يخاف أمن الطريق.

ويوجد مع المرأة مَحْرَمُها، وإلا فهي لم يتوفر لها شرطُ الاستطاعة.

وتجوز بعض الفقهاء (الشافعي) في سفر الحج للمرأة؛ فقالوا: يجوز سفر المرأة مع رِفقة مأمونة (أي: جماعة فيهم رجال ونساء)، فإن لم تُؤمّن الخلوة أو الفتنة، فإنه لا يجوز لها السفر؛ لأن الرّفقة غير مأمونة حينئذ.

فإن كان المسلم عاجزاً بنفسه؛ بأن كان مريضاً مرضاً لا يُرجى برؤه، ولا يثبت معه على الرحلة وعنده مال؛ فإنه يجب عليه أن يستأجر مَنْ يحج عنه، وإن لم يكن له مال، وحجَّ عنه غيره، أو تبرع له بتكاليف الحج جاز.

جاءت امرأة من خثعم تقول: يا رسول الله، إن فريضة الحج أدركت أبي شيخاً كبيراً لا يستطيع أن يثبّت على الراحلة، أفأحج عنه؟ قال: «نعم»، وكان ذلك في حجة الوداع^(١).

والثبوت على الراحلة يعني: أن الإنسان يُمكنه أن يجلس وحده على الكرسي، فإن أجلسه على مقعد من المقاعد، ثم وقع، ولم يثبت عليه، فهذا هو الذي لا يثبت على الراحلة.

ومن مات ولم يحج، يُحج عنه من ماله قبل تقسيمه، وإن حج عنه غيره أجزأه.

الحج مرة: والأولى لمن يُكثر من حج التطوع أو العمرة، أن يصرف نفقة ذلك في وجوه الخير المتعددة، وليترك مكاناً لغيره بالمشاعر ممّن لم يسبق له الحج أو العمرة من إخوانه المسلمين، لا سيّما وقد كثرت الناس، وضاق بهم المشاعر، وزهقت الأرواح بسبب الازدحام، ذلكم قول الله تعالى: ﴿فِيهِ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ مَّقَامُ إِبْرَاهِيمَ وَمَنْ دَخَلَهُ كَانَ آمِنًا وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ﴾ (٢١٧) فهذه أربع من قضايا الحج: المقام، والأمن، والحج، والاستطاعة.

والحجُّ أحد أركان الإسلام، والحج المبرور ليس له جزاء إلا الجنة، ومن حج فلم يرفث ولم يفسق رجع من ذنوبه كيوم ولدته أمه، والمتابعة بين الحج والعمرة ينفيان الفقر والذنوب كما ينفي الكير خبث الحديد.

ولما سأل رجل رسول الله ﷺ حين قال: «أيها الناس، إن الله فرض عليكم الحج فحجّوا»، فقال: أكل عام يا رسول الله؟ أعرض عنه النبي ﷺ ولم يرد، حتى قالها ثلاثاً، ثم قال: «لو قلت: نعم لوجبت، ولما استطعتم، ذروني ما تركتكم، فإنما هلك من كان قبلكم بكثرة سؤالهم، واختلافهم على أنبيائهم، فإذا أمرتكم بشيء فأتوا منه ما استطعتم، وإذا نهيتكم عن شيء فدعوه»^(٢).

وعن ابن عباس رضيهما الله قال: خطبنا رسول الله ﷺ فقال: «يا أيها الناس، إن الله كتب عليكم

(١) يُنظر: «صحيح البخاري» برقم (١٥١٣) من حديث ابن عباس وانظر (١٨٥٤، ٤٣٩٩، ٦٢٢٨) و«صحيح مسلم» (١٣٣٤).

(٢) «صحيح مسلم» (٩٧٥ / ٢) برقم (١٣٣٧) وعند أحمد في «المسند» (٨٠٥ / ٢) برقم (١٠٦٠٧) عن أبي هريرة، وإسناده صحيح على شرط مسلم ورجاله ثقات رجال الشيخين غير الربيع بن مسلم، فمن رجال مسلم، وأخرجه ابن خزيمة (٢٥٠٨) وابن حبان (٣٧٠٤).

الحج»، فقام الأقرع بن حابس فقال: يا رسول الله، أفي كل عام؟ قال: «لو قلتها لوجبت، ولو وجبت لم تعملوا بها، ولم تستطيعوا أن تعملوا بها، الحج مرة، فما زاد فهو تطوع»^(١).

وقبل نزول هذه الآية كان الْحَجُّ تَطَوُّعًا وتقرُّبًا إلى الله تعالى، وقد حَجَّ النَّبِيُّ ﷺ وهو في مكة قبل الهجرة مرتين، ووقف مع الناس بعرفة.

أما وجوب الحج على الناس فقد فُرِضَ بنزول هذه الآية ﴿وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ﴾ وقد صحَّ أنها نزلت سنة ثلاث من الهجرة عقب غزوة أحد.

وقد استدل الشافعي بهذه الآية على أن الْحَجَّ كان واجبًا على التراخي منذ سنة ثلاث من الهجرة، ولكن المسلمين كانوا مُحْصَرِينَ عن أداء الفريضة حتى فُتحت مكة^(٢) سنة ثمان من الهجرة.

وحجَّ أبو بكر بالناس سنة تسع من الهجرة، وحجَّ النَّبِيُّ ﷺ الْحَجَّةَ الأولى والأخيرة بعد نزول هذه الآية، وفريضة الحج سنة عَشْرٍ من الهجرة، وتوفي النبي بعدها بنحو ثلاثة أشهر ﷺ.

وفي هاتين الآيتين مَدَحَ الله بيته بثلاثة أوصاف؛ أنه:

١- مبارك. ٢- وهدي للعالمين. ٣- وفيه آيات بينات، منها:

(أ) مقام إبراهيم. (ب) أمن الحرم.

كُفِّرُ أَهْلَ الْكِتَابِ بِدَلَالِ صِدْقِ الرَّسُولِ ﷺ وَصَدُّ النَّاسِ عَنْ دَعْوَتِهِ

٩٨- ﴿قُلْ يَٰأَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَاللَّهُ شَهِيدٌ عَلَىٰ مَا تَعْمَلُونَ﴾

وفي نهاية الحوار بين أهل الكتاب والمسلمين، يُوجه الله سبحانه نداءين لأهل الكتاب، يُعلن فيهما الحقيقة، ويواجههم بها حيث يذمهم بالكفر الصريح؛ لأنهم كفروا

(١) «المسند» (١/ ٢٩٠) برقم (٢٦٤٢) وإسناده صحيح على شرط مسلم وأبو داود برقم (١٧٢١) و«سنن النسائي» (٥/ ١١١) وابن ماجه (٢٨٨٦) و«المستدرک» (٢/ ٢٩٣) قال الحاكم: إسناده صحيح ووافقه الذهبي، وصححه الألباني في «صحيح سنن أبي داود» برقم (١٥١٤)، وهو عند الدارمي (١٨٣٩) والطبراني (١٢٤٧٩).

(٢) يُنْظَرُ: «تفسير التحرير والتنوير» (٤/ ٢١).

بآيات الله السمعية، وهي القرآن، وكفروا بآيات الله العقلية، وهي دلائل صدق الرسول ﷺ، وليس لأحد أن يرتاب في ذلك، فكل من ابتغى غير الإسلام ديناً؛ فهو كافر، ولن تُقبل منه ديانة أخرى، وكل من لم يؤمن بخاتم الرُّسل رسولاً للخلق جميعاً؛ فهو كافر، وكل من أشرك بالله؛ فهو كافر.

والنداء الأول: يقرر كُفر أهل الكتاب بالنبي ﷺ؛ لعلمهم بصحة نبوته كما جاءت في كتبهم.

والنداء الثاني: يقرر أنهم يَمنعون الناس من الإيمان برسول الله ﷺ مع شهادتهم بصدقه في قرارة أنفسهم، فهم يجمعون بين الكُفر في أنفسهم، وصد الناس عن الدخول في الإسلام.

قل - أيها الرُّسل - لأهل الكتاب من اليهود والنصارى: لِمَ تَجحدون حُجج الله وآياته المنزلة على رسله، والتي دلت على أن دين الله هو الإسلام، وتُنكرون ما في كتبكم من دلائل وبراهين على ذلك، وأنتم تعلمون صحتها، والله شهيد على صنيعكم! مطلع على أعمالكم ونياتكم، وفي هذا تهديد، ووعد لهم، وتعنيف على عنادهم للحق، وكفرهم بآيات الله. قال تعالى:

٩٩- ﴿قُلْ يٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَآبِ لِمَ تَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ مَن ءَامَنَ تَبَغُّوْهَا عِوَجًا وَأَنتُمْ شُهَدَآءُ وَمَا ٱللَّهُ بِغَفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾

ثم وبَّخهم ثانيًا على إضلالهم لغيرهم، بعد أن وبَّخهم على ضلالهم في أنفسهم؛ وذلك أنهم كانوا يُحاولون إرجاع المؤمنين إلى الكُفر بالتشكيك فيه.

قال مقاتل: دَعَتِ اليهود حذيفة وعمار بن ياسر إلى دينهم.

وقال السدِّي: كانوا إذا سُئلوا: هل تجدون محمدًا في كتبكم، قالوا: لا؛ ليصدوا عنه الناس، وفي ذلك نزلت الآية تقول لهم: لِمَ تَمنعون وتصرفون عن دين الله من آمن، وتُلْقون عليه الشُّبه والشُّكوك، وتنكرون أوصاف محمد ﷺ في كتبكم؟! وكان المتوقع منكم أن تكونوا أول من آمن به، ولكنكم جمعتم بين الكفر، وبين صد الناس عن الإيمان بها، وتحريفها والميل بها عما جُعِلت له، فأنتم ﴿تَبَغُّوْهَا عِوَجًا﴾ أي: زيغًا وباطلاً وميلاً عن الحق، فتصدون الناس عن السبيل المستقيم، وتريدون السبيل المعوج، وأنتم تعلمون ذلك فتلبسون على الناس، وتوهمونهم أن في الإسلام خللاً ﴿وَأَنتُمْ شُهَدَآءُ﴾ أي: وأنتم

شاهدون عالمون بأن ما فعلتموه أعظم الكفر الموجب لأعظم العقوبات، وأنتم أيضاً شهداء على ما جاء في التوراة، وتشهدون على صحة معجزاته التي تدل على نبوته، وتعلمون أنها حق، والله يعلم ما تكيدونه وتدبرونه للإسلام في كل زمان ومكان، وسوف يحاسبكم ويُجازيكم على ذلك.

مَسَاعِي أَهْلِ الْكِتَابِ لِإِخْرَاجِ الْمُسْلِمِينَ مِنْ دِينِهِمْ

١٠٠ - ﴿يَتَأْتِيَ الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ تُطِيعُوا فَرِيقًا مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ يَرُدُّوكُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ كُفْرِينَ﴾

وبعد انتهاء الجدل مع أهل الكتاب تتوجه الآيات إلى مخاطبة المسلمين؛ لتحذّرهم من مكائدهم، وعدم الوقوع في حبالهم، أو اتباع دينهم، فهم يحرصون على ذلك، حسداً منهم وبغياً عليكم، وتأمرهم بالتقوى، والاستمسك بحبل الله، والقيام بواجب الدّعوة إلى الله.

في سبب النزول:

مرّ شاس بن قيس اليهودي بنفر من الأوس والخزرج يتحدثون، فغاضه ما رأى من الألفة بينهم؛ فأمر شاباً من اليهود أن يجلس معهم ويدگرهم بما كان بينهم يوم بُعث، وهي آخر حروبهم التي انتهت قبل الهجرة بثلاث سنين، وكان الظفر للأوس، وأنشدتهم الأشعار التي كانت تهيجهم؛ فتنازع القوم وتفاخروا، ونادى كل فريق قومه، فخرجوا بالسلاح للقتال.

فبلغ ذلك النبي ﷺ فخرج إليهم في نفر من المهاجرين، وقال: «يا معشر المسلمين، أبلعوى الجاهلية وأنا بين أظهركم، بعد أن أكرمكم الله بالإسلام، وألّف بين قلوبكم، فألقوا السلاح وتعانقوا»، ثم انصرفوا مع رسول الله ﷺ مطيعين.

قال جابر: فما رأيت يوماً أقبح أوّلاً، وأحسن آخرًا من ذلك اليوم^(١) فأنزل الله تعالى يُحذّرهم بالله ورسوله واليوم الآخر أن يُطيعوا جماعة من اليهود والنصارى ممّن أتاهم الله التوراة والإنجيل؛ لئلا يُضلوكم، ويوغروا صدوركم، ويوقعوا بينكم العداوة والبغضاء، ويُلْقُوا إِلَيْكُم الشُّبْهَ فِي دِينِكُمْ؛ لترجعوا جاحدين للحق، كافرين بالله بعد إيمان، فلا تأمنوا جانبهم، ولا تقبلوا لهم رأياً ولا مشورةً.

(١) «تفسير الطبري» (٧ / ٧٨) عن زيد بن أسلم.

وقد أخبر سبحانه بذلك في كثير من آياته؛ منها قوله تعالى: ﴿وَدُّوا لَوْ تَكْفُرُونَ﴾ [الممتحنة: ٢]

وقوله سبحانه: ﴿وَدُّوا لَوْ تَكْفُرُونَ كَمَا كَفَرُوا فَتَكُونُونَ سَوَاءً﴾ [النساء: ٨٩]

وقوله: ﴿وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّنْ بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كَفَارًا﴾ [البقرة: ١٠٩].

ثم ما هو السبب الموجب لثبات المؤمنين وعدم زحزحة عقيدتهم وبقينهم، قال تعالى مبيناً ذلك:

١٠١- ﴿وَكَيْفَ تَكْفُرُونَ وَأَنْتُمْ تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ ءَايَاتُ اللَّهِ وَفِيكُمْ رَسُولُهُ وَمَن يَعْتَصِم بِاللَّهِ فَقَدْ هُدِيَ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ (١٠١)

بين سبحانه وتعالى على وجه التعجب والإنكار، والمنع والتغليظ، أنه: من أين يتطرق إليكم الكفر بالله؟! وكيف يليق بكم ذلك، وآيات القرآن تُتلى عليكم، ورسول الله بينكم حي، ورسالته قائمة فيكم بعد موته، وفي كتابه وسنته الوعظ والتذكير، والأمر والنهي، والوعد والوعيد، والترغيب والترهيب؟! ومن يستمسك بالقرآن والسنة، فقد وُفِّق لطريق واضح، ومُنْهَاج مستقيم، وهذه الآيات توجب القطع بموجبها، والجزم بمقتضاها، وعدم الشك فيما دلت عليه بوجه من الوجوه، فقد نصح الرسول وبلغ أعظم البلاغ.

وفي الآية دليل على فضل الصحابة وعظم قدرهم، ولو أن الواحد منّا أنفق من الأموال مثل جبل أحد ذهباً ما بلغ من الأجر مثل ما ينفق أحدهم ملء الكف من المال.

والتعجب الذي في الآية كقوله تعالى: ﴿وَمَا لَكُمْ لَا تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالرَّسُولِ يَدْعُوكُمْ لِتُؤْمِنُوا بِرَبِّكُمْ وَقَدْ أَخَذَ مِيثَاقُكُمْ إِنْ كنتم مؤمنين﴾ (٨) [الحديد].

وكما جاء في الحديث أن النبي ﷺ قال يوماً لأصحابه: «أيُّ المؤمنين أعجب إليكم إيماناً؟» قالوا: الملائكة، قال: «وكيف لا يؤمنون وهم عند ربهم؟» وذكروا الأنبياء، فقال: «وكيف لا يؤمنون والوحي ينزل عليهم؟»، قالوا: فنحن، قال: «وكيف لا تؤمنون وأنا بين أظهركم؟»، قالوا: فأَيُّ الناس أعجب إيماناً؟ قال: «قوم يجيئون بعدكم، يجدون صحفاً يؤمنون بما فيها»، ثم قرأ ﴿وَمَن يَعْتَصِم بِاللَّهِ فَقَدْ هُدِيَ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ (٢).

(١) قرأ رويس وقنبل بخلف عنه بالسین في (صراط)، وهي لغة عامة العرب، وقرأ خلف عن حمزة بإشمام الصاد صوت الزاي، وهي لغة قيس، وقرأ الباقر بالصاد الخالصة، وهي لغة قريش.

(٢) رواه الطبراني في «المعجم الكبير» (٤ / ٢٢) من حديث أبي جمعة الأنصاري.

أي: ومع هذا فإن التوكل على الله، والاعتماد عليه، هو العمدة والوسيلة إلى الرِّشَاد والسداد، وهو الطريق الموصِّل إلى دار السعادة، لأنه جمع بين الاعتصام بالله تعالى وبين اتباع الرسول ﷺ في أقواله وأفعاله وأحواله.

وفي صحيح مسلم وغيره عن زيد بن أرقم ؓ قال: قام رسول الله ﷺ خطيباً بماء يُدعى (خُماً) بين مكة والمدينة، فحمد الله وأثنى عليه، ووعظ الناس وذكّر، ثم قال: «أما بعد: ألا أيها الناس، فإنما أنا بشر، يوشك أن يأتي رسول ربي؛ فأجيب، وأنا تارك فيكم ثقلين؛ أولهما: كتاب الله، فيه الهدى والنور، فخذوا بكتاب الله واستمسكوا به، فحثّ على كتاب الله ورغّب فيه»، ثم قال: «وأهل بيتي، أذكركم الله في أهل بيتي، أذكركم الله في أهل بيتي»^(١) بأن تكرمهم ولا تؤذوهم في حياتهم ولا بعد مماتهم ولا تُهينوهم، ولا تسبّوهم، وقوموا بواجب المحبة لهم، ومرجع الأقوال والأعمال هو موافقة الكتاب والسنة.

قلت: إن الله تعالى قد أنزل على رسوله في حَجّة الوداع قبل ذلك بأيام أنه تعالى أكمل له الدين، وأتمّ عليه النعمة، وأنزل عليه بعدها في مِنى سورة النصر، وقد فهم منها بعض الصحابة أن الله تعالى يَنْعِي رسوله، حتى قال ﷺ: «لا أراه إلا قد حان أجلي»؛ أي: بعد دخول الناس في دين الله أفواجا، وأمر الله له بالإكثار من التسبيح والاستغفار.

أقول: فلما استشعر النبي ﷺ دُنُوَّ أجله؛ أوصى أُمَّته بالتمسك بكتاب الله وسنته، ثم أوصاهم بأهل بيته، كما يُوصي كلُّ مُشرف على فراق الدنيا.

وحبُّ آل البيت من الإيمان، ونحن نصلي على محمد وآله في كل صلاة، وفي جميع أحوالنا. وقد نهى الرسول ﷺ عن الغلو، حتى ولو كان في شخصه، أو في قبره من بعده، فكان من آخر ما قال: «اللهم لا تجعل قبري وثناً»^(٢).

(١) الحديث في «صحيح مسلم» برقم (٢٤٠٨)، وفي المسند (١٩٢٦٥) وإسناده صحيح على شرط مسلم، وأخرجه أبو داود (٤٩٧٣) وابن أبي عاصم في السنة (١٥٥٠) والنسائي في الكبرى (٨١٧٥) وابن خزيمة (٢٣٥٧) وغيرهم وأنظر حديث أبي سعيد الخدري في المسند (١١١٠٤) وجاء في الحديث (١٩٣٠٢) زيادة (ومن كنت مولاه فعلى مولاه، اللهم والي من والاه وعادى من عاداه) وإسناده صحيح ورجال ثقات رجال الشيخين، غير ابن خليفة فمن رجال السنن وهو ثقة (محققوه) وانظر (١١١٠٣).

(٢) «المسند» برقم (٧٣٥٨) من حديث أبي هريرة، بإسناد قوي، وأخرجه الحميدي (١٠٢٥) وابن عبد البر في التمهيد (٤٣/٥) والبخاري (٤٤٠) كشف وابن سعد (٢/٢٤١) وفي الموطأ (١/١٧٢) عن عطاء بن يسار مرسلًا.

هذا: والآيات التي نحن بصددھا تنھى عن اتباع اليهود، وتوجب عدم التلقي عنھم، لا سيما في شأن العقيدة، ومنھج الحياة، بخلاف التجارب العملية، والعلوم التجريبية عند أمن الدسائس.

وكذلك سنة النبي تدعو إلى عدم الأخذ عنھم، وعدم تصديقھم وتكذيبھم فيما يخالف شيئا من الكتاب والسنة.

لما طلب عمرؓ من النبي ﷺ أن يعرض عليه جوامع من التوراة، كتبھا له يهودي من بني قريظة، تعير وجهه ﷺ وقال ﷺ فيما يرويھ عبد الله بن ثابت عن عمرؓ: «والذي نفسي بيده، لو أصبح فيكم موسى، ثم اتبعتموه وتركتموني لضللتم»^(١).

وعن جابرؓ قال: قال رسول الله ﷺ: «لا تسألوا أهل الكتاب عن شيء، فإنھم لن يھدوكم، وقد ضلُّوا، وإنكم إما أن تصدقوا بباطل، وإما أن تكذبوا بحق، وإنه لو كان موسى حيًّا بين أظهركم ما حلَّ له إلا أن يتبعني»^(٢).

عَلَاقَةُ الْمُسْلِمِ بِرَبِّهِ حَتَّى الْمَمَاتِ

١٠٢ - ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تَقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾

وبعد هذا التحذير من التلقي عن أهل الكتاب، يأتي النداء الآخر؛ ليوّجه المسلمين إلى قاعدتين أساسيتين هما: تقوى الله، والأخوة في الله.

فالقاعدة الأولى: في العلاقة مع الله تعالى.

والقاعدة الثانية: في العلاقة مع الناس.

والآيات تبين صورة من مكر اليهود بالمسلمين، وعملهم المستمر على تمزيق وحدتهم، وتمزيق صفوفهم، ولما بدت بادرة للوحدة بينهم، وجمع صفوفهم، وهو دأب اليهود في كل زمان ومكان.

(١) أخرجه أحمد بسنده عن عبد الله بن ثابت عن عمر برقم (١٨٣٣٥).

(٢) أخرجه الحافظ أبو يعلى عن «الشعبي» عن جابر، وأخرجه أحمد برقم (١٤٦٣١)، وانظر تخريجه في الآية (٨١).

وها نحن نعيش ثمار هذا الكيد، منذ أن عملوا على تقويض الدولة الإسلامية العثمانية، وعملوا على تفريق المسلمين وحداناً وزرافات.

فقد نزل في الأوس والخزرج حين اقتتلوا وأصلح النبي ﷺ بينهم، قوله تعالى: ﴿يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تَقَاتِهِ﴾ ولما نزلت هذه الآية شقَّ ذلك على المسلمين، فقالوا: وَمَنْ يَقْوَى عَلَى هَذَا، فَأَنْزَلَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ﴾ [التغابن: ١٦] على أن الآية محكمة، ولعله الأرجح.

والله تعالى يأمر عباده أن يتقوه حق التقوى، وأن يستمروا على ذلك ويستقيموا عليه إلى الممات، فإن من عاش على شيء مات عليه، ومن مات على شيء بُعث عليه.

والمراد بحق التقوى: أداء ما يلزم العبد على قَدْرِ الطاقة، وألا يكون فيها تقصير ولا رياء؛ لأن الاستطاعة هي القدرة، والتقوى مقدورة للناس، فأية الاستطاعة مُفسَّرة ومبيَّنة لآية حق التقوى، وهذه الآية أصلٌ عظيمٌ من أصول الأخلاق الإسلامية.

أما التقوى فحاصلها: امتثال الأمر، واجتناب النهي في الأعمال الظاهرة، والنوايا الباطنة.

فقد فسَّرها ابن مسعود رضي الله عنه بقوله: أن يُطاع فلا يُعصى، وأن يُذكر فلا يُنسى، وأن يُشكر فلا يُكفر.

وعن أنس رضي الله عنه قال: لا يَتَّقِي اللَّهَ الْعَبْدُ حَقَّ تَقَاتِهِ حَتَّى يَخْزِنَ لِسَانَهُ.

وعن ابن عباس رضي الله عنهما: أن يُجاهد العبد في الله حق جهاده، وألا يأخذ العبد فيه لومة لائم، وأن يقوم له بالقسط.

وعلى كُلِّ فَالتقوى هي: أن تجعل بينك وبين عذاب الله وقايةً، بامتثال أمره واجتناب نهيه، وألا يَراك حيث نهاك، ولا يفقدك حيث أمرك، ولا يكون العبد من المتقين حتى يَدَعَ ما لا بأس به حذرًا مما به بأس.

والتقوى رُتبةٌ فوق رُتبة الإيمان، وهي درجة الولاية كما عرَّفها ربنا في قوله: ﴿أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لَا خَوْفَ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ ﴿١٦﴾ لَهُمُ الْجَنَّةُ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ﴾ [يونس: ٦٢ - ٦٤].

ثم حذرنا الله سبحانه ونهانا أن يُدرِكنا الموت، ونحن على غير الإسلام؛ بمعنى أن نتمسك

بُعِرَى الإسلام حتى الموت، كما قال تعالى: ﴿وَأَعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّى يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ﴾ [الحجر].

أخرج الإمام أحمد وغيره بسنده عن مُجاهد أن الناس كانوا يَطوفون بالبيت، وابن عباس جالسٌ معه مَحْجَن فقال: قال رسول الله ﷺ: «يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تَقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ» ﴿١٠٢﴾ ولو أن قطرة من الزقوم قُطرت في الدنيا؛ لأفسدت على أهل الأرض معاشهم، فكيف بمن ليس لهم طعام إلا الزقوم»^(١).

وعن جابر رضي الله عنه قال: سمعتُ رسولَ الله ﷺ يقول قبل موته بثلاث: «لا يموتن أحدكم إلا وهو يُحسِن الظن بالله»^(٢)، فيرجو رحمة ربه، ويحذر من اليأس والقنوط. والمعنى: يأبى الذين صدقوا الله، واتبعوا رسوله، وخافوا الله حقَّ خوفه، داوموا على تمسككم بإسلامكم إلى آخر حياتكم؛ لتلقوا ربكم وأنتم على إسلام.

وُجُوبُ وَحْدَةِ الْأُمَّةِ

١٠٣- ﴿وَأَعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا﴾^(٣) وَأَذْكُرُوا اللَّهَ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءَ فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا وَكُنْتُمْ عَلَى شَفَا حُفْرَةٍ مِنَ النَّارِ فَأَنْقَذَكُمْ مِنْهَا كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ ءَايَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٠٣﴾

ثم حذّر الله الأمة من تمزيق الصف الإسلامي، وإثارة الفتنة، وأسباب الفرقة بين المسلمين، فأمرهم أن يتمسكوا جميعاً بحبل الله، الذي هو كتابه، كما جاء في الحديث عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه: «كتاب الله هو حبل الله الممدود من السماء إلى الأرض»^(٤)، وسمّي

(١) حديث حسن صحيح، أخرجه الترمذي عن ابن عباس برقم (٢٥٨٥) وهو في «تحفة الأحوذى» (٧/ ٣٠٧) وأخرجه أيضاً النسائي في «السنن الكبرى» (٦/ ٣١٣) برقم (١١٠٧٠) وابن ماجه (٢/ ١٤٤٦) برقم (٤٣٢٥) وابن حبان (٩/ ٢٧٨) برقم (٧٤٧٠) وأحمد (١/ ٣٠١) والحاكم (٢/ ٢٩٤) وصححه على شرط الشيخين.

(٢) أخرجه أحمد (٣/ ٣١٥) برقم (١٤١٢٥، ١٤٤٨١) حديث صحيح وإسناد قوي على شرط مسلم ورجاله ثقات (محققوه) ومسلم (٤/ ٢٢٠٥) برقم (٢٨٧٧)، وأخرجه أبو داود (٣١١٣) وعبد بن حميد (١٠١٥) وابن حبان (٦٣٧) والطبراني في الأوسط (١٦١٣) وأبو يعلى (١٩٠٧).

(٣) قرأ البزي بتشديد التاء من (تفرقوا) ومد الكلام قبلها ست حركات، وهذا في حالة الوصل.

(٤) «تفسير الطبري» (٧/ ٧٢) وابن أبي شيبة (١٠/ ٥٠٦) و«صحيح الجامع الصغير» (٤٣٤٩).

حبلاً؛ لأنه السبب الموصول إلى الله ﷻ، والقرآن هو حبل الله المتين، ونوره المبين.

قال ابن مسعود رضي الله عنه: عليكم بالجماعة؛ فإنها حبل الله الذي أمر به.

واجتماع المسلمين على دينهم، واتتلاف قلوبهم، يؤدي بهم إلى صلاح دينهم ودنياهم، ويحصل به من المصالح والمنافع ما تستقيم به الحياة ومنها النصر على الأعداء.

ونهاهم عن الفرقة وأسبابها من كل ما يؤدي إلى الاختلاف وعدم الألفة، والبغضاء، والمعاداة، وتقطيع أواصر الأخوة والمحبة والمودة.

وفي الحديث عن أبي هريرة رضي الله عنه: «إن الله يرضى لكم ثلاثاً، ويكره لكم ثلاثاً؛ يرضى لكم أن تعبدوه ولا تشركوا به شيئاً، وأن تعتصموا بحبل الله جميعاً، وأن تناصروا من ولّاه الله أمركم، ويكره لكم: قيل وقال، وكثرة السؤال، وإضاعة المال»^(١).

ثم ذكّرهم سبحانه بنعمة جليّة من نعم الله تعالى على المسلمين في كل زمان ومكان؛ حيث جمّع الله بين قلوبهم على محبته ومحبة رسوله، وألقى في قلوب بعضهم محبة بعض، بعد أن كان بعضهم يعادي بعضاً ويقتل بعضهم بعضاً، فأصبحوا بفضل من الله تعالى بعد بعثة محمد ﷺ إخوة متحابين فيه، وكانوا قبل ذلك في شقاق وفرقة على حافة نار جهنم قبل الإسلام، ليس بينهم وبينها إلا أن يموتوا فيدخلوها، فهداهم الله إليه، ونجّاهم من النار.

وكما بيّن الله لكم معالم دينه، والإيمان الصحيح، بيّن لكم ما فيه صلاحكم وسعادتكم في الدنيا والآخرة؛ لتهدوا إلى سبيل الرشاد، فتسلكوها ولا تنحرفوا عنها.

ذلكم قول الله سبحانه: ﴿وَأَعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا﴾ وفيها إشارة إلى ما كان بين قبيلتي الأوس والخزرج، وهما في الأصل أخوان شقيقان، ف وقعت بينهما عداوة وحروب استمرت مئة وعشرين سنة، إلى أن أطفأها الله بالإسلام، وألّف بين قلوبهم بخاتم النبيين ﷺ، كما قال تعالى: ﴿وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مَا أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ﴾ [الأنفال: ٦٣].

وقد امتنّ رسول الله ﷺ على الأنصار بذلك يوم تقسيم غنائم حنين، حين غضب

(١) يُنظر: «صحيح مسلم» (٣/ ١٣٤٠) برقم (١٧١٥) والبيهقي (٨/ ١٦٣)، والمسند (٨٧٩٩، ٨٣٣٤) بإسناد صحيح، وأبوداود (٦٧٨).

بعضهم من القسمة؛ فخطبهم النبي ﷺ فقال: «يا معشر الأنصار، ألم أجدكم ضلّالاً فهداكم الله بي، وكنتم متفرّقين فألّفكم الله بي، وعالة فأغناكم الله بي»، فكلما قال شيئاً، قالوا: الله ورسوله أمّن^(١).

والآية عامة في كل أهل فرقة وخلاف يجمع الله بينهم على الإيمان، وعلى محبته سبحانه، وأمة الإسلام في أمس الحاجة لهذا الدرس العظيم:

١- عن زيد بن أرقم رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «إني تارك فيكم ما إن تمسكتم به لن تضلوا بعدي؛ أحدهما أعظم من الآخر: كتاب الله، حبل ممدود من السماء إلى الأرض، وعترتي أهل بيتي، ولن يتفرقا حتى يردا الحوض، فانظروا كيف تخلفوني فيهما»^(٢).

٢- وفي حديث أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «مَنْ خرج من الطاعة، وفارق الجماعة، فمات؛ مات ميتة جاهلية، ومَنْ قاتل تحت راية عِمِّيَّة، يغضب لغُصْبَةٍ، أو يدعو إلى غُصْبَةٍ، أو ينصر غُصْبَةً، فقتل، فقتله جاهلية، ومَنْ خرج على أمتي، يضرب برّها وفاجرّها، ولا يتحاشى من مؤمنها، ولا يفى لذي عهد عهده، فليس مني، ولستُ منه»^(٣).

٣- وجاء عبد الله بن عمر إلى عبد الله بن مطيع، زمن يزيد بن معاوية، فقال: اطرحوا لأبي عبد الرحمن وسادة، فقال: إني لم آتِك لأجلس، أتيتك لأحدثك حديثاً سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: «مَنْ خلع يداً من طاعة لِقَيَّ الله يوم القيامة لا حُجَّةَ له، ومَنْ مات وليس في عنقه بيعة، مات ميتة جاهلية»^(٤).

٤- وعن عوف بن مالك رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «افترقت اليهود على إحدى وسبعين فرقة، فرقة في الجنة وسبعون في النار، وافترقت النصارى على اثنتين وسبعين فرقة، فأحدى وسبعون في النار، وواحدة في الجنة، والذي نفس محمد بيده لتفترقن أمتي

(١) النسائي (٩١ / ٥) وهو في البخاري (٤٣٣٠، ٧٢٤٥) وفي مسلم (١٠٦١).

(٢) «صحيح سنن الترمذي» برقم (٢٩٨٠) و«المسند» (٣ / ١٣، ١٤، ١٧، ٢٦، ٢٩) وأيضاً (٥ / ١٨٢) ورقمه: (١٩٢٦٥، ١٩٣١٣) وإسناده صحيح على شرط مسلم، وقد سبق تخريجه بأوسع من هذا، قال

الهيثمي في «مجمع الزوائد» (٩ / ١٦٢): إسناده جيد، وهو في «صحيح الجامع الصغير» (٢ / ٣١٧).

(٣) «صحيح مسلم» برقم (١٨٤٨)، و«المسند» (٧٩٤٤، ١٠٣٣٣) بإسناد صحيح على شرط مسلم ورجال ثقات.

(٤) «صحيح مسلم» برقم (١٨٥١) و«المستدرک» (١ / ٧٧) (١١٧).

على ثلاث وسبعين فرقة، فواحدة في الجنة، واثنان وسبعون في النار»، قيل: يا رسول الله، مَنْ هم؟ قال: «الجماعة»^(١).

وَجُوبُ تَبْلِيغِ الدَّعْوَةِ فِي الدَّخْلِ وَالْخَارِجِ

١٠٤ - ﴿وَلَتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْعُرْفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾

إن الأمة الإسلامية في أرجاء الأرض، وفي كل زمان ومكان، مُطالبة بأن يكون فيها جهازان مهمان يقومان بواجب تبليغ الدعوة إلى الله ﷻ، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر:

الجهاز الأول: يقوم على تبليغ الدعوة، ونشر الإسلام إلى غير المسلمين في العالم كله، بالوسائل الحديثة المختلفة، عن طريق الاتصال الشخصي، وعن طريق الهاتف، والفاكس، والتلكس، وعن طريق أجهزة الإعلام المختلفة؛ كالإذاعات، وشاشات التلفاز، والقنوات الفضائية، والصحف، والمجلات، وشبكة المعلومات، وغير ذلك، بترجمة مبادئ الإسلام ومحاسنه إلى اللغات العالمية، ونشرها وبثها لغير المسلمين في العالم، وبالمحاضرات والندوات واللقاءات، وبناء المدارس والمراكز الإسلامية والمساجد والمعاهد..

هذه مهمة أولياء أمور المسلمين، ومهمة علمائهم، وحكامهم، وهذا هو واجب الدعوة إلى الإسلام، وهو الذي سمّاه القرآن خيراً في قوله تعالى: ﴿وَلَتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ﴾ فالدعوة إلى الخير تعني: دعوة غير المسلمين للإسلام، واللام من ﴿وَلَتَكُنْ﴾ لام الأمر، والأمر للوجوب، ما لم يصرفه صارفٌ عن الوجوب، ولا صارفٌ له هنا، والخير يطلق على الإسلام، ويطلق على كل ما يقرب العبد من ربه ويبعده عن سخطه.

والجهاز الثاني: يقوم على الأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، بالنسبة لأبناء المسلمين.

فكل بلد إسلامي لا بُدَّ وأن يكون فيه هيئة تقوم على الأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، بحيث يكون المظهر الإسلامي متحققاً في الشارع، وفي السوق، وفي المسجد، والمدرسة، ووسائل الإعلام المسموعة والمقروءة والمرئية وغير ذلك.

(١) «صحيح سنن ابن ماجه» (٣٢٢٦) و«السلسلة الصحيحة» (١٤٩٢)، وسنن ابن ماجه (٣٩٩٢) وابن أبي عاصم (٦٣) والطبراني في الكبير (١٨) (٩١) و (١٢٩) وإسناده قوي.

فلا تَرَى خَمْرًا يُباعَ جَهْرًا وعلانيةً، ولا تَرَى إِفْطارًا في نَهارِ رمضان، ولا تَرَى تَبَرُّجًا في الشارع، ولا اختلاطًا في المكاتب، والدواوين، والتعليم، وغيره، ولا تَرَى بيعًا أو شراءً أثناء أداء الصلاة جماعة أول وقتها في المساجد، ولا تَرَى رِشوةً متفشيةً في الوظائف الحكومية، ولا تَرَى غِشًا في الأسواق، أو تطفيفًا في الكيل والميزان، ونحو ذلك.

هذه مهمة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وتُسمَّى قديمًا الحسبة، وكانوا رجالًا ونساءً يحتسبون متطوعين أو معينين من قبل الدولة للقيام بهذه المهمة في الأسواق والشوارع، بحيث يكون المظهر العام مظهرًا إسلاميًا، لا تَرَى فيه مجاهرةً بمعصية، ولا تَرَى فيه مخالفةً في الظاهر لأحكام الإسلام، فارتكاب الجرائم من خمر وزِنَى وغير ذلك خفيةً، لا تضر إلا فاعلها، وارتكابها علانيةً يُفسد المجتمع كله.

وقد كانت المعاصي تحدث في وقت الرُّسُول ﷺ، وفي مدينته الطيبة المباركة، كان يحصل وقوعها من بعض الأفراد خفيةً، وإذا كانت المعصية مستترة فإنها لا تضر إلا صاحبها، أما أن تُستَحَلَّ هذه المعصية، وأن يُؤْتى بها جهارًا مرخصًا من الدولة؛ فهذه طامة كبرى، فإذا ظهر المنكر فإنه يُعْم، وَيَتَفَشَّى، ويُضُرُّ المجتمع كله حتى يصبح المنكر معروفًا، والمعروف منكراً.

فإذا قلتَ لزيد من الناس: هذا الشيء حرام، أو معصية، أو منكر، يقول لك: الناس كلها تفعل، الدولة تفعل، زيد من الناس يفعل، وهو أهل علم وصلاح، فالموازن تنعكس، والناس يفهمون الأشياء بما يتوارثونه، وما يجدون عليه غيرهم، ويقلدونهم من غير رجوع إلى أصل الحلال والحرام.

والمعروف: كلُّ ما أمر به الشرع على سبيل الفريضة أو النفل، وعَرَفَهُ العقل السليم والطبع القويم ستحسسه.

والمنكر: كلُّ ما أنكره الشرع على سبيل التحريم أو الكراهية، ولم يستحسسه العقل السوي والطبع القويم.

والقيام بهما فرضٌ متعينٌ على الحاكم المسلم في أبناء رعيته، عن طريق الدعاة ورجال الحسبة، والقيام بهما كذلك فرضٌ عَيْنٍ على كل راعٍ في رعيته، كالوزير في وزارته،

والمدير في إدارته، والأب في بيته، والمدرس في فصله، وهكذا الدعاة إلى الله تعالى، ورجال الاحتساب، ونحوهم.

أما بالنسبة لعامة الأمة فهو فَرَضٌ كِفَايَةٌ فيهم بالنسبة لغيرهم، إلا إذا تَعَيَّن واجبُ الدَّعْوَةِ إلى الله تعالى على شخصٍ معينٍ لا يوجد غيره، فيجب عليه وجوباً عينياً.

ولفظ (من) في ﴿وَلَتَكُنْ مِّنْكُمْ﴾ إما أن تكون للتبيين؛ فيكون المعنى: كونوا كلكم أمرين بالمعروف، ناهين عن المنكر، وإما أن تكون للتبعيض؛ فيكون المعنى: وليكن بعضكم أمراً بالمعروف ناهياً عن المنكر.

ولعل الأرجح أن (من) للبيان، ولكن هذه الفريضة لها درجاتٌ ومراتبٌ، تختلف من الحاكم إلى العالم، إلى المسؤول، إلى الوالد، فيكون الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر واجباً على كل إنسان بحسبه، إلى درجة أن من لا يملك تغيير المنكر لا بفعله ولا قوله، أو يخاف على نفسه من الضرر المؤكد، عليه أن يتمرَّ وجهه غضباً لله تعالى؛ تعبيراً عن الإنكار بقلبه، وأنه يُوالي في الله، ويُغض في الله.

ثبت في صحيح مسلم وغيره عن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «مَنْ رَأَى مِنْكُمْ مُنْكَرًا فَلْيُغَيِّرْهُ بِيَدِهِ»، وهذه مهمة مَنْ يملك التنفيذ والعقوبة من الحكام والأمراء، والمخوّلين بذلك، وأولياء الأمور، «فَإِنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَبِلِسَانِهِ» وهي مهمة العلماء والدعاة والكتّاب، وكل مَنْ عرف حكماً فهو حُجَّةٌ على مَنْ لم يعرف «بَلِّغُوا عَنِّي وَلَوْ آيَةً»، «وَإِنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَبِقَلْبِهِ» وينبغي ظهور الإنكار على جوارحه، وفي معاملته ومودته، وهذه مرتبةٌ يَمْلِكُهَا كُلُّ إنسان، ولو كان سجيناً أو مقيداً؛ ولذلك كانت أدنى المراتب و«ذلك أضعف الإيمان» و«ليس وراء ذلك من الإيمان حبة خردل»^(١).

وجاء الوعيد الشديد للأمة إذا تقاعست عن القيام بهذا الواجب:

عن حذيفة بن اليمان رضي الله عنه أن النَّبِيَّ ﷺ قال: «والذي نفسي بيده، لتأمرن بالمعروف

(١) الحديث في «صحيح مسلم» (١/ ٦٩) برقم (٤٩)، وفي المسند عن أبي سعيد (١١٤٦٠، ١١٥١٤) بإسناد صحيح على شرط الشيخين، وهو في الترمذي (٢١٧٢) وقال: هذا حديث حسن صحيح، وأخرجه عبد الرزاق في المصنف (٥٦٤٩).

ولتنتهون عن المنكر، أو ليوشكن الله أن يبعث عليكم عقاباً من عنده، ثم لتدعنه فلا يستجيب لكم»^(١).

هذان الجهازان: القيام بنشر الإسلام وتبليغ الدعوة، بالنسبة لغير المسلمين، والأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر بالنسبة لأبناء المسلمين، أوجبهما الله سبحانه على الأمة الإسلامية في قوله تعالى: ﴿وَلَتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ﴾ أُمْرٌ مِنَ اللَّهِ سبحانه، والأمة تختلف عن الطائفة، وعن الفرقة، والجماعة.

فالأمة عندها إمكانات مادية، وطاقات بشرية، وسلطة تنفيذية، وعندها قوة تستطيع أن تُبلِّغ دعوة الله سبحانه للعالم، وتستطيع أن تُشجِبَ مَنْ يُخَالِفُ أوامر الله ﷻ، ويرتكب معاصيه علانيةً، وهذه الأمة تدعو الناس إلى الخير، ويُفسَّرُ الخير بأنه الإسلام؛ أي: يُبلِّغون دعوة الإسلام لغير المسلمين في العالم أجمع ﴿وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ﴾ بالنسبة للمسلمين في كل مكان ﴿وَأُولَئِكَ﴾ الذين يقومون بهذه المهمة حُكَّامًا وشُعُوبًا ﴿هُمْ أُمُّ الْفَلَحُونَ﴾ الفائزون يوم لقاء رب العالمين.

النَّهْيُ عَنِ التَّفَرُّقِ وَالْاِخْتِلَافِ

١٠٥ - ﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَأُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾

كما ينهانا سبحانه أن نتشبه بغيرنا من اليهود والنصارى وغيرهم، في الفرقة والاختلاف، وتقسيم الأمة الإسلامية شيعاً وأحزاباً، كما افترقت اليهود والنصارى على أكثر من سبعين فرقة^(٢)؛ فَمَزَقَتْ وَحْدَةَ الصَّفِّ فيها.

وقد أمرنا سبحانه في الآية السابقة بوحدة الصف في قوله تعالى: ﴿وَأَعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا﴾ حيث تقوم الأمة الإسلامية على ركيزتين: الإيمان بالله، والحب في الله.

﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا﴾ تَنْهَى الآية عن الاختلاف في أصول الدين، وتنهى عن

(١) أخرجه الترمذي وقال: حديث حسن، «تحفة الأحوذى» (٦/ ٣٩٠) برقم (٢١٦٩) و«المسند» (٥/ ٣٨٨) برقم (٢٣٣٠١، ٢٣٣٢٧)، حسن لغيره وأخرجه البيهقي في الشعب (٧٥٥٨) وفي السنن (٩٣/ ١٠) والبخاري (٤١٥٤).

(٢) يُنْظَرُ: الحديث في «المسند» (٤/ ١٠٢) برقم (١٢٢٠٨) عن أنس وأبي داود برقم (٤٥٩٧) وقد سبق ذكره وتخريجه.

الفرقة والاختلاف، وتُبين أن وحدة الصف، ووحدة الأمة، هي السلاح بعد الإيمان بالله ﷻ، السلاح الذي ينصرهم الله به في الدنيا، ويضمن لهم الفوز والنجاة يوم لقاء رب العالمين، أما الذين صاروا شيعًا وأحزابًا وتفرقوا واختلفوا، فالله سبحانه يبين مصيرهم في قوله: ﴿وَأُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ يوم القيامة.

والاختلاف والتنازع من أكبر أسباب الهزيمة وضعف الأمم ﴿وَلَا تَنَزَعُوا فَنَفْسُلُوا وَتَذَهَبَ رِيحُكُمْ﴾ [الأنفال: ٤٦] وقد برأ الله رسوله من الذين افترقوا في أصول الدين، فقال: ﴿إِنَّ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيعًا لَسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ﴾ [الأنعام: ١٥٩]. وقال سبحانه: ﴿وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿٣٦﴾ مِنَ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيعًا كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ ﴿٣٧﴾﴾ [الروم].

أَسْبَابُ بَيَاضِ الْوُجُوهِ وَسَوَادِهَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ

١٠٦- ﴿يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ فَأَمَّا الَّذِينَ اسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ أَكْفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿١٠٦﴾﴾
ويوم القيامة ﴿تَبْيَضُّ وُجُوهٌ﴾ لما يعلوها من البهجة والسرور والنعيم والحبور، فتظهر آثار ذلك عليها ﴿وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ﴾ لما أصابها من الخزي والهوان والذلة والفضيحة وهو بياض حسي ومعنوي، وسواد حسي ومعنوي.
يوم تبيض وجوه المؤمنين أهل الطاعة والاعتصام والائتلاف فرحًا واستبشارًا وحقيقة، وهم أهل السعادة، قال تعالى ﴿وَلَقَنَّهُمْ نَصْرَهُ وَسُرُورًا﴾ [الإنسان: ١١]
وتسود وجوه الكفار المخالفين حزنًا وكآبةً وكمداً من أهل الفرقة والاختلاف، والخروج على جماعة المسلمين، وهم أهل الشقاء.

ثم يفصل الله سبحانه ويبين السبب في بياض الوجوه وسوادها يوم لقاء الله، فيقول: ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ اسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ﴾ يقال لهم على سبيل التقرير والتوبيخ: ﴿أَكْفَرْتُمْ﴾ بالإسلام ﴿بَعْدَ إِيمَانِكُمْ﴾ به أيها اليهود والنصارى، بعدما تحققت لديكم بعثة محمد ﷺ، وعرفتُم أنه حق، وأن كتابه حق، كما تنطبق بذلك التوراة والإنجيل، ولكنهم كفروا بعد مجيئه ﷺ، فاختاروا الكفر على الإيمان، وقد بين القرآن الكريم أن لسواد الوجوه يوم القيامة أسباباً منها:

١- الْكُفْرَ بَعْدَ إِيمَانٍ ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ أَسْوَدَتْ وُجُوهُهُمْ أَكْفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ﴾ [آل عمران: ١٠٦].

٢- والكذب على الله تعالى؛ بنسبة الشريك والولد إليه سبحانه
﴿وَيَوْمَ الْقِيَمَةِ تَرَى الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَى اللَّهِ وُجُوهُهُمْ مُسْوَدَّةٌ﴾ [الزمر: ٦٠].

٣- اكتساب السيئات ﴿وَالَّذِينَ كَسَبُوا السَّيِّئَاتِ جَزَاءُ سَيِّئَةٍ يَمْثِلُهَا وَتَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ﴾ [يونس: ٢٧].

٤- الكفر والفجور ﴿وَوُجُوهُ يَوْمَئِذٍ عَرَّةٌ ﴿١﴾ تَرْهَقُهَا قِزَّةٌ ﴿٢﴾ أُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُ الْفَجَرُ ﴿٣﴾﴾ [عبس].

والذين يكونون يوم القيامة فريقيين: مبيضة وجوههم، ومسودة وجوههم، كلاهما من أمة محمد ﷺ، ممن ارتد بعد إيمانه، أو كذب على الله تعالى، أو أكثر من ارتكاب الموبقات، وكان من الفاجرين الكافرين.

وأمة محمد تشمل أمة الدعوة والإجابة؛ فيدخل في ذلك اليهود والنصارى وغيرهم من سائر الملل والنحل التي وصلتها دعوة خاتم الرسل، ولم تدخل تحت لوائه، فهم قد كفروا به عن علم، ويدخل في ذلك أهل الكتاب الذين علموا صدق دعوة محمد ﷺ، كما جاءت في كتبهم، ثم كفروا به عن علم وإقرار سابق، واللاحق منهم يتبع السابق، والله سبحانه قد أخذ الميثاق والعهد على الخلق جميعاً أن يؤمنوا بالله رباً واحداً ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ﴾ وهم في أصلاب آبائهم ﴿قَالُوا بَلَى﴾ وأخذ عليهم الميثاق على ألسنة رسلهم أن يؤمنوا بمحمد ﷺ، ولكن هذا الميثاق ينقضه أكثر الناس ممن كفروا بالله ورسوله، فيستحقون العقاب يوم لقاء الله، ويقال لهم: ﴿فَذُوقُوا الْعَذَابَ﴾ بسبب كفركم. قال تعالى:

١٠٧- ﴿وَأَمَّا الَّذِينَ أَبْيَضَتْ وُجُوهُهُمْ فَفِي رَحْمَةِ اللَّهِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾

أي: وأما أهل الإيمان والطاعة فيهنئون أكمل تهئة، ويشرون أعظم بشارة، فهم يبشرون بدخول الجنة، ورضى ربهم ورحمته، ودخول الجنة أثر من آثار رحمة الله تعالى، فهم يتمتعون في النعيم المقيم والعيش السليم إلى جوار أرحم الراحمين.

وقد ثبت في الصحيحين وغيرهما من حديث ابن مسعود ؓ أن الجنة يدخلها سبعون ألفاً بدون حساب، وجوههم كالقمر ليلة البدر، فطلب عكاشة بن محصن أن يكون منهم؛ فقال له النبي ﷺ: «أنت منهم»، ثم طلب ذلك رجل آخر، فقال ﷺ: «سبقك بها عكاشة»، وفيه: «أنهم الذين لا يكتنون ولا يسترقون ولا يتطيرون وعلى

ربهم يتوكلون»^(١).

وعن ابن مسعود رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «أما تَرْضَوْنَ أن تكونوا ربع أهل الجنة؟» فكبرنا، ثم قال: «أما تَرْضَوْنَ أن تكونوا ثلث أهل الجنة؟» فكبرنا، ثم قال: «إني لأرجو أن تكونوا شطر أهل الجنة»^(٢).

ثم يقول الله سبحانه مُعَقِّبًا على هذا البيان، ومبينًا مصيرَ الفريقين، وأنه جل شأنه لا يُوقِع العقوبة بِخَلْقِهِ ظُلْمًا:

١٠٨ - ﴿تِلْكَ آيَاتُ اللَّهِ تَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ وَمَا اللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِلْعَالَمِينَ﴾

هذه آيات الله وبراهينه، أو أمره ونواهيه، مشتملة على الحكمة والرحمة والثواب والعقاب، نَقُصُّها عليك - أيها الرُّسُولُ - والله حَكَمٌ عَدْلٌ، لا يظلم أحدًا بنقص أو زيادة، بل يجازيهم بأقوالهم وأعمالهم، قال تعالى:

١٠٩ - ﴿وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ﴾

والله ﷻ لا تضرُّه معصية العصاة، ولا تنفعه طاعة المطيعين؛ ذلكم لأن الذي يظلم غيره، يظلمه كي ينال منه ما لا، أو عزًا، أو سلطانًا، أو جاهًا، فهو يَظْلِمُ لسبب من الأسباب.

والله سبحانه غني عن العالمين، يَسْتَحِيلُ عليه الظلم؛ لأنه جل شأنه ليس في حاجة إلى خَلْقِهِ حتى يَظْلِمَهُمْ، فجميع ما في هذا الكون مُلْكٌ لله سبحانه، خَلَقًا وتَدْبِيرًا ومصيرًا يتصرف فيهم بقضائه وقدره، فيجازي كلاً بما يستحق ﴿وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ﴾ والله سبحانه قد خَلَقَ هذا الكون، وهو في قَبْضَةِ يده وتحت تصرفه، وإليه يَرْجِعُ في الآخرة، فيجازي كلاً على عمله حسنًا وسيئًا.

(١) تنظر ألفاظ الحديث ورواياته في «صحيح البخاري» برقم (٦٥٤٢) و«صحيح مسلم» برقم (٢١٦) وابن حبان في «موارد الظمان» برقم (٢٦٤٦) و«مسند أبي يعلى» (٩/ ٢٣٣) والبخاري (٤/ ٢٠٤) وفي معجم «الطبراني الكبير» (١٨/ ١٨٣) و«مسند أحمد» (١/ ٤٠١) برقم (٣٨١٩، ٣٩٨٧، ٤٣٣٩) وجاء أيضًا عن أبي هريرة وعن ابن عباس وعن عمران بن حصين.

(٢) «صحيح البخاري» (٦٥٢٨، ٦٦٤٢) و«صحيح مسلم» (٢٢١).

(٣) قرأ ابن عامر وحمزة والكسائي ويعقوب وخلف العاشر (تَرْجِعُ الأمور) بالبناء للفاعل، وقرأ الباقر (تَرْجِعُ الأمور) بالبناء للمفعول.

مَنَاطُ الْخَيْرِيَّةِ فِي هَذِهِ الْأُمَّةِ

١١٠- ﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَوْ ءَامَنَ أَهْلُ الْكِتَابِ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ مِّنْهُمْ الْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ ﴿١١٠﴾

ثم بيّن سبحانه وصّف هذه الأمة التي أوجب الله عليها الدّعوة إلى الخالق جل شأنه، وتبليغ الإسلام للناس كافّة، وأوجب عليها الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وبيّن سبحانه أن هذه صِفَةٌ خاصّة بأمة محمد ﷺ، وأنها بهذه الصفة كانت خير أمة أخرجت للناس، فقد كُملت في نفسها بالإيمان المستلزم للقيام بكل ما أمر الله به، وأكملت غيرها بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، المتضمن دعوة الخلق إلى الله، وجهادهم على ذلك، وبذل المستطاع في ردهم عن ضلالهم وغيهم وعصيانهم، فبهذا كانوا خير أمة أخرجت للناس.

وجاء في الأثر: «وجعلت أمتي خير الأمم»^(١).

وهذه الصفة المَنُوطَة بهذه الأمة هي التي تميزها عن غيرها ﴿تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ﴾.

يقول عمر بن الخطاب ؓ: مَنْ سَرَّه أَنْ يَكُونَ مِنْ خَيْرِ أُمَّةٍ، فَلْيَقُمْ بِشَرَطِ اللَّهِ فِيهَا^(٢).

فأنتم خيرُ الأمم وأنفعهم للناس، فَمَنْ أَرَادَ أَنْ يَكُونَ مِنْ أُمَّةٍ مُحَمَّدٍ ﷺ فعليه أَنْ يُحَقِّقَ شَرَطَ اللَّهِ سبحانه في هذه الأُمَّة، وهو القيام بواجب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر الذي أوجبه الله علينا في الآيات.

واللام للوجوب ﴿وَلَتَكُنَّ مِّنْكُمْ أُمَّةٌ﴾ والمخاطب بذلك أمة محمد ﷺ، وفي مقدمتهم أصحابُ رسول الله ﷺ، فهم خير القرون ثم الذين يَلُونَهُمْ، ثم الذين يَلُونَهُمْ.

والإيمان بالله تعالى يشترك فيه سائرُ الأمم، أما الأمر بالمعروف والعمل به فهو مَنَاطُ

(١) أخرجه أحمد عن علي بن أبي طالب، «المسند» (١/ ٩٨) وفيه عبد الله بن محمد بن عقيل، سيئ الحفظ، وباقي رجاله ثقات رجال الشيخين، فإسناده حسن، (محققوه) وأخرجه ابن أبي شيبة (١١/ ٤٣٤) وبنحوه البزار (٦٥٦).

(٢) رواه ابن جرير.

الخيرية لهذه الأمة .

والإسلام لا يريد منك أن تُصلي وتصوم فحسب، وتنتهي عمّا حرّم الله، وتمثل ما أمرك الله به وحدك، ليس هذا هو المطلوب من المسلم فحسب، فخيرُ الناس أنفعُهم للناس، وعليك أن تُحبَّ للناس ما تُحبه لنفسك، فتأمرهم بالمعروف وتنهّاهم عن المنكر .
لا تقل: كلُّ إنسانٍ معلقٌ بِذَنبِهِ، فعليك واجب التبعة أمام رب العالمين، إذا صليت فأنت مسؤول عن صلاة أهل بيتك وأولادك وبناتك ونسائك .

وأنت مسؤول عن جارك الذي تركته في المكتب وأنتيت إلى المسجد وحدك، ولم تُكَلِّفْ خاطرك كلمة تُذكره بها مرة ومرتين وعشر ومئة، وأن تتحمل الأذى في سبيل الله، طالما كانت دعوتك بالحسنى والرفق واللين .

وأنت مسؤول عمّن وجدتهُم في الطريق يجلسون، ولا يقومون لأداء الصلاة .

وأنت مسؤول عن المنكر الذي تراه في الشارع، وفي السوق، وما ظهر منه عند جارك، لا تغمض عينك؛ فأنت مسؤول عن كل ذلك .

والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر خاصيّة من خصائص هذه الأمة، ولو أنها فقدت هذا الشرط؛ فإنها تستوجب مَقَتَّ الله سبحانه ولعنته وغضبه، كما حلَّ ذلك ببني إسرائيل ﴿لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ بَنِي إِسْرَءِيلَ عَلَى لِسَانِ دَاوُدَ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ﴾ [المائدة: ٧٨] لماذا؟ ﴿كَانُوا لَا يَتَنَاهَوْنَ عَنْ مُنْكَرٍ فَعَلُوهُ﴾ [المائدة: ٧٩] يجلس أحدهم مع مرتكب المنكر، يؤاكله ويشاربه، وهو يعلم أنه يعمل كذا وكذا من المنكرات، وربما يُجادل ويدافع عن نفسه في ارتكاب المعصية، لا أقول: إنه يقاطعه من أول وهلة، إنما يدعوه إلى ترك المنكر مرات ومرات، بالحسنى وبطرق مختلفة، ويتودد إليه بالهدية والعزيمة، حتى يهديه الله ﷻ على يده .

قال عكرمة ومقاتل: نزلت في ابن مسعود، وأبي بن كعب، ومعاذ بن جبل، وسالم مولى أبي حذيفة، وذلك أن مالك بن الصيف، ووهب بن يهودا، اليهوديّين قالوا لهم: إن ديننا خيرٌ ممّا تدعوننا إليه، ونحن خيرٌ وأفضلُ منكم، فأنزل الله هذه الآية^(١) .

(١) السيوطي في «الدر المنثور» (٢/ ٨٥) .

والمعنى: كونوا آمريين بالمعروف، ناهين عن المنكر، حتى تكونوا خير أمة أخرجت للناس، كونوا دعاة للخير، فأنتم أولى الناس بتبليغ أمر الله ونهيه، وأنتم الذين تلقيتم الشريعة من رسول الله ﷺ مباشرة، وآمنتم بالله إيماناً جازماً مؤيداً بالعمل، وفي هذا وجوب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر على كل جيل بطريق القياس؛ لئلا يتعطل هذا القطب العظيم في الإسلام لهداية البشر.

وهو واجب على الكفاية، فالدعوة إلى الخير يقوم بها كل مسلم، ومنه ما يحتاج إلى علم فيقوم به أهله، فيبينون للناس المعروف، ويأمرون به، ويبينون للناس المنكر وينهون عنه، والأمر والنهي يكونان بالحكمة والموعظة الحسنة، ومجادلة أهل الكتاب بالتي هي أحسن إلا الذين ظلموا منهم، أما امثال المأمورين والمنهيين، فهذا يرجع إلى الله تعالى ثم إلى ولاة الأمور الذين يحملونهم على الفعل أو الترك.

وشرط النهي عن المنكر ألا يجز هذا النهي إلى منكر أعظم، والأمور الخلافية لا ينبغي أن يكون فيها تعصب إلا للدليل الصحيح، وقد يتعصب الإنسان لشيء يعلمه، وهو لا يعلم أنه قد غابت عنه أشياء يجهلها ولا يعرفها، والناس أعداء لِمَا يجهلون.

وترك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر يُفضي إلى التفرق والاختلاف، وكثرة الشقاق والنزاع، فأنتم خير أمة أخرجت للناس، والمراد بالناس: جميع البشر من أول الخليقة.

ومناط الخيرية في الآية يرجع إلى سببين:

أولهما: الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

وثانيهما: الإيمان بالله تعالى.

ولا شك أن الإيمان بالله مُقَدِّم على كل شيء، ولكن المقصود الأساس في الآية هو الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، مع التسليم بوجود الأصل وهو الإيمان؛ ولذا: قُدم عليه.

وقد ختم الله الآية ببيان أن أهل الكتاب من اليهود والنصارى لو آمنوا بالله معبوداً واحداً، وآمنوا بخاتم النبوة والرسالة لكان خيراً لهم، ولكن قليلاً منهم آمن، وأكثرهم لم يؤمن، وكان النبي ﷺ قد دعاهم إلى الإسلام، وقصد بيئت مدراسهم، وآمن به بعضهم.

قال ﷺ فيما يرويه أبو هريرة ؓ: «لو آمن بي عشرة من اليهود؛ لآمن بي اليهود

كلهم»^(١) والمراد عشرة من كبار أحبارهم، وممن آمن من اليهود والنصارى: عبد الله بن سلام، وأخوه، وعمته خالدة، وسنة بنت عريض، وثعلبة ابنها، وأسد بن سعية القرظي، وأسد بن عبيد القرظي، ومخيرق، والنجاشي، ونصارى نجران، أما نصارى الحبشة فلم يُسلموا، ولكنهم لم يتعرضوا للمسلمين بأذى.

ثَلَاثُ بَشَارَاتٍ لِلنَّصْرِ عَلَى الْعَدُوِّ

١١١ - ﴿لَنْ يَضُرُّكُمْ إِلَّا أَذًى وَإِنْ يُقْتَتِلْكُمْ يُولُوكُمْ الْأَذْبَارُ ثُمَّ لَا يَصُرُونَ﴾

ثم بشر سبحانه المؤمنين بأن هذه الكثرة الفاسقة من أهل الكتاب، التي ناصبتكم العداء، لن يضرركم ضرراً بليغاً، ما دتم متمسكين بالإسلام وتعاليمه، فلن يؤذوكم إلا بلسانهم وإلقاء الشبه عليكم، ولن يضرركم ضرراً يُغيّر عقيدتكم، أو يهدم كيان الأمة، ويزلزل ثوابتها، واليهود أهل قوة اقتصادية وسياسية وعسكرية في الحاضر، وهم يعملون على تحقيق ذلك، والله سبحانه أخبرنا وأعلمنا أنهم لن ينالوا منا الشيء الكثير، فلن تمتد أيديهم إلى الإسلام فيغيروه، أو يزيلوه من قلوب أبناء الأمة، وإذاؤهم لنا لن يكون إلا إيذاءً خفيفاً لا يخرج عن حد القول أو الفعل المماثل، وقد بشر الله الأمة بثلاث بشارات:

البشرى الأولى: عدم حصول الضرر البالغ منهم ﴿لَنْ يَضُرُّكُمْ إِلَّا أَذًى﴾ أي: ما يؤذي أسماعكم، كألفاظ الشرك والكفر، وهذه بشرى من رب العالمين؛ أنهم لن يضرركم حين تشركون معهم في المعارك إلا الشيء القليل، باللسان والكلام، وينصرركم الله عليهم، هذا إخبار العليم الخبير.

(١) أخرجه ابن أبي حاتم كما في «الدر المنثور» (٥ / ٢٣٠) وقال كعب: اثنا عشر، وتصديق ذلك في سورة المائدة: (وَبَعَثْنَا مِنْهُمُ اثْنَيْ عَشَرَ نَقِيبًا).

البُشْرَى الثَّانِيَةُ: ﴿وَإِنْ يُقْتَلُواكُمْ يُولُوكُمْ الَّادْبَارَ﴾ فإن تولية الأديبار تعني: هزيمة العدو حين يولي ظهره هرباً، وخوفاً من المواجهة في ساحات القتال.

ولو قاتلوا المؤمنين لولوا الأديبار فرازاً، ثم تستمر هزيمتهم، ويدوم ذلهم، فليس لهم نصردائم، فالله سبحانه يقرر في كتابه جبنهم وضعفهم، فيقول سبحانه: ﴿لَأَنْتُمْ أَشَدُّ رَهَبَةً فِي صُدُورِهِمْ مِنَ اللَّهِ﴾ [الحشر: ١٣] ويقول أيضاً: ﴿لَا يُقْتَلُونَكُمْ جَمِيعًا إِلَّا فِي قُرَى مُحَصَّنَةٍ أَوْ مِنْ وَرَاءِ جُدُرٍ﴾ [الحشر: ١٤].

البُشْرَى الثَّالِثَةُ: أن النصر لا يكون لهم في نهاية الأمر، بل سينصرهم الله عليهم ﴿ثُمَّ لَا يُنْصَرُونَ﴾. ولو تأملت التاريخ تجد أن هذا قد تحقق في أوقات عديدة، منذ جاء الإسلام إلى وقت قريب، طالما تمسك المسلمون بدينهم، وطالما نصروا دين ربهم، فإن الله سبحانه يحقق لهم النصر على عدوهم، وقد حدث هذا مع اليهود في خيبر، وبني النضير، وبني قينقاع، وبني قريظة، وإلى وقت قريب، في حرب العاشر من رمضان، وفي عدوانهم على أهل غزة، عام ١٤٣٠هـ حيث نصر الله سبحانه الأمة الإسلامية في سائر الأزمنة والأمكنة عليهم، فالله سبحانه يطمئن المسلمين ويخبرهم بالنتائج المستقبلية.

وإن حدث عكس هذا في وقت من الأوقات، فإنما هو درس، وابتلاء، وتمحيص للمسلمين؛ لأنهم تخلوا عن رسالة ربهم، ولم يركنوا إلى الله ﷻ، ولم تكن موالاتهم لله وفي الله، ولم يعتمدوا على أنفسهم في تصنيع الأسلحة التي يحاربون بها عدوهم..

ثَلَاثُ جَرَائِمَ لِلْيَهُودِ وَثَلَاثُ عُقُوبَاتٍ

١١٢- ﴿ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ^(١) الذَّلَّةُ أَيْنَ مَا تُقَفُّوا إِلَّا بِحَبْلٍ مِنَ اللَّهِ وَحَبْلٍ مِنَ النَّاسِ وَبَاءُ وَ يَعْصِبُ مِنْ اللَّهِ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ^(١) الْمَسْكَنَةُ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ الْأَنْبِيَاءَ^(٢) يَغَيِّرُ حَقَّ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ﴾

يبين سبحانه بعض العقوبات التي عاقب بها اليهود بسبب كفرهم وظلمهم، فقد عاقبهم الله بالذلة في بواطنهم، والمسكنة على ظواهرهم، فلا يستقرون ولا يطمنون، ثم ذكر سبحانه ثلاثاً من جرائمهم:

(١) كسر أبو عمرو الهاء والميم وصلًا في كلمتي (عليهم الذلة) و (عليهم المسكنة)، وضمهما حمزة والكسائي ويعقوب وخلف وصلًا كذلك، وكسر الهاء وضم الميم بالاقون.

(٢) قرأ نافع (الأنبياء) بالهمز مد متصل، والباقون بالياء.

الجريمة الأولى: كفرهم بآيات الله ﷻ.

الجريمة الثانية: قتلهم الأنبياء بغير حق.

الجريمة الثالثة: خروجهم عن طاعة الله تعالى وتجاوز حدوده.

والله ﷻ عاقبهم على ذلك بعقوبات ثلاث:

العقوبة الأولى: أنه تعالى قد ألزمهم الذلة والصغار، وألصقها بهم في كل زمان ومكان، وإلى أن يرث الله الأرض ومن عليها، أينما حلوا وأينما وجدوا، والذلة بمعنى: المطاردة، والتشرد، وعدم العيش بحرية ﴿ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ أَيْنَ مَا تَفَقَّوْا﴾ أي: أينما وجدوا في أي مكان من العالم، فالهوان والصغار يلزمهم.

والعقوبة الثانية: ضُربُ المسكنة عليهم، والمسكنة هي الفقر الشديد - وإن كان في أيديهم المال والسلاح - فهم في خوف وقلق وحيرة واضطراب، غير آمنين، وغير مستقرين وحالهم يشبه حال الأسير الذليل المقيّد المهان، المضطهد من كل من حوله.

وهذه الذلة والمسكنة تحيط بهم من كل جانب؛ كإحاطة السرادق بمن في داخله، فهم في حالة اضطهاد وحرب دائمة، وكُرِهَ ورُعِبَ ومهانةٌ إلى يوم القيامة.

ثم استثنى سبحانه حبل الله وحبل الناس: **حالتين عارضتين تقوى فيهما شوكتهم وتشتدّ شكيمتهم:**

الحالة الأولى: حَبْلُ اللَّهِ تعالى قال تعالى: ﴿لَا يَحْبِلُ مِنَ اللَّهِ﴾ وحبل الله معناه: أن يدخلوا في دين الإسلام، أو يدخلوا في ذمة المسلمين، بالتحالف معهم، وبالعقود والعهود والمواثيق، ويكون لهم معهم ميثاق وعهد؛ فإنهم في هذه الحالة يأمنون به على أنفسهم وأموالهم، وهو عقد أهل الذمة، وإلزامهم أحكام الإسلام، هذا هو حبل الله.

والحبل في الأصل: هو ما يربط بين شيئين، وهو مستعارٌ في الآية بمعنى: العهد والميثاق.

الحالة الثانية: حَبْلُ النَّاسِ، وهو أن يكون بينهم وبين قوة عظمى - ذات بأس شديد - عهدٌ وميثاقٌ؛ فيعيشون تحت حمايتهم وفي رعايتهم، ويستنصرون بهم، ويستمدون منهم

قوتهم، وهذا هو حبل الناس، بمعنى: أن يكونوا في حمى دولة قوية، تحميهم وتأخذ بيدهم وتمنعهم. فهم لا يسلّمون من الذلة والمسكنة إلا إذا دخلوا في أحد هذين العهدين، وإلا فهم لا يُنصرون بأنفسهم، وهذا أمر واقعي مشاهد، وهو من دلائل النبوة.

العقوبة الثالثة: استحقاقهم لغضب الله تعالى وسخطه عليهم؛ بسبب كفرهم بآيات الله التي جاء بها محمد ﷺ، وبدلائل صدق نبوته الموجودة لديهم، ولأنهم قتلوا أنبياء الله بما لم يحدث في أمة غيرهم، وبسبب طغيانهم وتجاوزهم حدود الله تعالى، وجراأتهم عليه، وارتكاب أعظم الآثام والمعاصي.

وهم قد رجعوا بغضب من الله؛ فلا ترى اليهودي إلا وعليه آثار الخوف والرعب من أهل الإيمان، ولا يعمل لكيدهم وحريهم إلا خفية؛ وهذا بسبب كفرهم وتجاوزهم حدود الله، وقتلهم أنبياء الله، وجراأتهم على الله بارتكاب معاصيه، ذلكم قول الله تعالى: ﴿وَبَاءُوا بِغَضَبٍ مِّنَ اللَّهِ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الْمَسْكَنَةُ﴾^(١).

أسباب العقوبات الثلاث:

ثم ما السبب في أنهم باؤوا بمقت وغضب من الله ﷻ وأنه جلّ شأنه قد ضرب عليهم الذلة والمسكنة؟ السبب في هذا، أربعة أشياء ذكرها الله سبحانه:

السبب الأول: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ﴾، التي أنزلها على محمد ﷺ وهي توجب اليقين والإيمان، ولكنهم كفروا بها بغيا وعنادا

السبب الثاني: ﴿وَيَقْتُلُونَ الْأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ﴾ كما قتلوا نبي الله يحيى وزكريا عليهما السلام، وغيرهما، فيقابلون إحسان الأنبياء إليهم بقتلهم والإساءة إليهم.

السبب الثالث: ﴿ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا﴾، حيث خالفوا أمر الله ورسوله وسعوا بالفساد في الأرض.

والسبب الرابع: ﴿وَكَانُوا يَعْتَدُونَ﴾ والعدوان من شأنهم، فهم يعتدون على شرع الله وعلى خلق الله.

(١) وقف عليها الكسائي وحزمة بخلف عنه بالإمالة.

أَحَدَ عَشَرَ وَصْفًا لِكُلِّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ

١١٣- ﴿لَيْسُوا سَوَاءً مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ أُمَّةٌ قَائِمَةٌ يَتْلُونَ آيَاتِ اللَّهِ ءَانَاءَ اللَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ﴾ (١١٣)

ملحوظة: لا ينبغي للقاريء أن يبدأ تلاوته بهذه الآية لشدة تعلقها بما قبلها وتوقف المعنى في الآية السابقة على جملة ﴿لَيْسُوا سَوَاءً﴾.

هذا: وبعد ذكر قبائح اليهود وغضب الله عليهم قال سبحانه: ﴿لَيْسُوا سَوَاءً﴾ أي: أن اليهود والنصارى، ليسوا مستوين في هذا الأمر؛ فمنهم الذي بلغته دعوة الإسلام فدخل فيه كالنجاشي وأصحابه، وعبد الله بن سلام، وثعلبة بن سلام، وأسد بن كعب، وأخيه أسيد بن كعب، وغيرهم ممن دخلوا في الإسلام، وهذه هي الفرقة المؤمنة، ومنهم من عاند وكابر واستمر على كفره وطغيانه، وهي الفرقة الفاسقة المذكورة في الآية السابقة.

قال أحبار اليهود: ما آمن لمحمد إلا شرارنا، فهم جماعة استقامت على منهج الله، فأمنت بالله ورسوله، وأقبلت على ربها، وبادرت إلى فعل الخيرات، والله سبحانه يصفهم بهذه الأوصاف في هاتين الآيتين: ﴿مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ أُمَّةٌ قَائِمَةٌ﴾ مستقيمة على دين الله، قائمة بما ألزمها الله به من المأمورات، ومن ذلك أداء الصلاة فهم ﴿يَتْلُونَ آيَاتِ اللَّهِ ءَانَاءَ اللَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ﴾ وفي هذا إشارة إلى طول تهجدهم وتلاوتهم لكتاب ربهم، وخشوعهم في ركوعهم وسجودهم لله عز وجل.

وتمضي الآيات في وصف هذا الصنف من الناس وهم المؤمنون من أهل الكتاب، فيقول تعالى:

١١٤، ١١٥- ﴿يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَآمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ يُسْرِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَأُولَئِكَ مِنَ الصَّالِحِينَ﴾ (١١٤) وَمَا يَفْعَلُوا^(١) مِنْ خَيْرٍ فَلَنْ يُكْفَرُوا^(٢) وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالْمُفْئِدِ (١١٥)

(١)، (٢) قرأ حفص وحمزة والكسائي وخلف العاشر والدوري عن أبي عمرو بخلف عنه (وما يَفْعَلُوا من خير فلن يُكْفَرُوا) بياء الغيبة في الفعلين؛ لمناسبة قوله تعالى: (من أهل الكتاب)، وقرأ الباقون (وما تَفْعَلُوا من خير فلن تُكْفَرُوا) بقاء الخطاب فيهما وهو الوجه الثاني للدوري، ووجه الخطاب رجوعاً إلى خطاب أمة سيدنا ونبينا محمد صلى الله عليه وسلم المتقدم في قوله تعالى: (كنتم خير أمة أخرجت للناس) . . . إلخ.

وقد وصف الله سبحانه بعض أهل الكتاب بالصلاح ممن دخل منهم في الإسلام؛ وذلك لأن رؤساء اليهود وأحبارهم، حين دخل من سبق ذكرهم في الإسلام، قالوا: هؤلاء أشرارنا، ولو كانوا من خيارنا ما تركوا دين آبائهم، وما استبدلوا به ديناً آخر، فأنزل الله ﴿لَيْسُوا سَوَاءً﴾^(١) وهو وقف تام، يقف عليه القارئ^(٢)، واكتفى القرآن بذكر أحد الفريقين، وهو الفريق الصالح.

والله سبحانه يبين أن أعمالهم الصالحة لن تضيع سدى، وإنما يُجزون عليها الجزاء الحسن ﴿وَمَا يَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ﴾ أي: من عمل صالح قليل أو كثير ﴿فَلَنْ يُكْفَرُوهُ﴾ لن يعدموا ثوابه وأجره بل يثيبهم الله عليه أكمل ثواب، فلن يُحرّموه، ولن يفوتهم منه شيء. ﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالْمُنْفِرِينَ﴾ أي أن ثواب الأعمال يتبع قلب صاحبها من الإيمان والتقوى ومهما قل العمل أو كثر، فإنه لن يضيع عند الله، وسيجازيهم عليه، وهو سبحانه عليم بمن فعل الخيرات، وابتعد عن المحرمات، وابتغى رضوان الله تعالى وطلب ثوابه.

وقال بعضهم: إن المعنى: لا يستوي اليهود وأمة محمد ﷺ، كما قال ابن مسعود والسدي.

ثم بين تعالى أن من أهل الكتاب، أي: من أمة محمد ﷺ أمة مؤمنة، وهم أهل كتاب، ووصفهم سبحانه بأوصاف هي من خصائص المؤمنين، ولم يتصف بها اليهود، وأقول: إن سياق الآيات يقضي أن المراد بهذه الأوصاف: من دخل في الإسلام من أهل الكتاب وهم اليهود على وجه الخصوص، وهم الفريق المقابل لمن ضربت عليهم الذلة والمسكنة منهم، وهذه الأوصاف الأحد عشر للفريق المهتدي هي:

أولها: أنهم جماعة مهتدية مستقيمة عادلة قائمة بأمر الله تعالى، فهم ﴿أُمَّةٌ قَائِمَةٌ﴾ معتدلة مستوية مستقيمة على دين الله.

وثانيها: أنهم يتلون القرآن في ساعات الليل المختلفة، ومنها جوف الليل ووقت السحر، وهذا معنى ﴿يَتْلُونَ آيَاتِ اللَّهِ ءَاتَاءَ آلِيلٍ﴾، أي في صلاة التهجد.

(١) النيسابوري (١٠١) والسيوطي (٥٦) وتفسير الطبري (٣٥/٤) وابن أبي حاتم بسند حسن عن محمد بن إسحاق عن ابن عباس.

(٢) لا ينبغي للقارئ أن يبدأ تلاوته بهذه الآية (ليسوا سواء) وإن كانت أول ربع، وإنما يقف عند نهاية المعنى في الآية الخامسة عشرة بعد المئة أو قبل بدايته، في الآية التاسعة بعد المئة.

وثالثها: أنهم يُصلُّون صلاة التهجد وغيرها بخشوع وخضوع، ويجمعون في الصلاة بين السجود والتلاوة، وعبر عن الصلاة بالسجود؛ لأنه أخص أركانها، وهذا معنى ﴿وَهُمْ يَسْجُدُونَ﴾، خضوعاً لله عز وجل.

ورابعها: أنهم يؤمنون بالله تعالى إيماناً لا يشوبه شرك، وهذا يستلزم الإيمان بجميع الأنبياء والكتب والملائكة، وهذا معنى ﴿يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ﴾.

وخامسها: أنهم يؤمنون باليوم الآخر، ويصفونه بما يصفه به المؤمنون، وهذا يستلزم ترك المعاصي خوفاً من هذا اليوم، والإيمان الحقيقي باليوم الآخر، يحث المؤمن على فعل ما يُقرِّبه من ربه مما يُثاب عليه وترك ما يعاقب عليه.

وسادسها: أنهم يأمرون غيرهم بالمعروف، فلا يداهنون، ولا ينافقون.

وأساس المعروف: توحيد الله تعالى والإيمان بمحمد ﷺ، ومن المعروف أنهم يدعون غيرهم إلى الدخول في الإسلام، ويأمرون الناس بكل خير، وينهونهم عن كل شر.

وسابعها: أنهم يَنْهَوْنَ غيرهم عن المنكر، وأساس المنكر: الإشراك بالله تعالى، وكتمان صفة محمد ﷺ في التوراة.

وثامنها: أنهم يبادرون إلى فعل الخيرات خوف فواتها، ويرغبون في المسارعة إليها غير متوانين، ولا متثاقلين، ولا متكاسلين، وهذا معنى ﴿وَيُسْرِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ﴾. أي يبادرون إلى فعلها، متتهزين الفرصة فيها، وأول وقتها.

وتاسعها: أنهم من جملة الصالحين، الذين صلحت أحوالهم، فرضي الله عنهم، واستحقوا الثناء عليهم، فوصفهم ربنا بقوله: ﴿وَأُولَئِكَ مِنَ الصَّالِحِينَ﴾.

والصلاح أعلى الدرجات وأكمل المقامات، والإسلام يدخل فيه بالضرورة فهم مسلمون صالحون، يدخلهم الله في رحمته، ويتغمدهم بمغفرته، ويشملهم بفضله وإحسانه.

وعاشرها: أنهم مجزيون على أعمالهم، ولن يعدموا ثواب أعمالهم، أو يُحرَموا جزاءه.

وهو خطاب للمؤمنين على القراءة الأخرى بقاء الخطاب ﴿وَمَا يَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَلَنْ يُكْفَرُوا﴾.

حادي عشر: أنهم من جملة المتقين، وفي هذا بشرى لهم على جزيل الثواب، ودلالة على أنه لا يفوز عند الله تعالى إلا أهل الإيمان والتقوى.

والإيمان أدنى درجة من التقوى، وقد وصف الله تعالى أوليائه بأنهم يجمعون بينهما فقال: ﴿إِنَّ أَوْلِيَائَ اللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ (١٦) الَّذِينَ ءَامَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ (١٧) لَهُمُ الْبُشْرَىٰ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ﴾ [يونس: ٦٢ - ٦٤].

ومن خصائصهم صلاة الليل، كما جاء عن ابن مسعود رضي الله عنه قال: آخر رسول الله صلى الله عليه وسلم صلاة العشاء، ثم خرج إلى المسجد، فإذا الناس ينتظرون الصلاة، قال: «أما إنه ليس من أهل الأديان أحد يذكر الله هذه الساعة غيركم» قال: وأنزلت هذه الآيات ﴿لَيْسُوا سَوَاءً مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ﴾ حتى بلغ ﴿وَمَا يَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَلَن يُكْفَرُوهُ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالْمُفْسِدِينَ﴾ (١١٥) (١). وإيمان المسلمين لا يشوبه شرك بالله تعالى، وإيمانهم باليوم الآخر إيماناً كاملاً، وليس كإيمان من لم يدخل في الإسلام من أهل الكتاب يؤمنون ببعض الكتب والأنبياء ويكفرون ببعض، ولا يمتنع أن يتصف بهذه الصفات كل من حسن إسلامه من اليهود والنصارى؛ فأصبح من زمرة المؤمنين.

الكَافِرُ لَا يَنْفَعُهُ مَالُهُ وَلَا وَلَدُهُ وَلَا عَمَلُهُ يَوْمَ لِقَاءِ اللَّهِ تَعَالَى

١١٦- ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَنْ تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا وَأُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ (١١٦)

ولما وصف القرآن صورة المؤمن الحق، وبيّن أنه مثاب ومجزّي على عمله، ذكر في المقابل صورة الكافر الذي لا ينفعه ماله ولا ولده؛ لأنه لا جزاء له في الآخرة على عمل

(١) أخرجه أحمد (٣٩٦/١) برقم: (٣٧٦٠) صحيح لغيره، وهذا إسناد حسن من أجل عاصم وباقي رجاله ثقات رجال الشيخين (محققوه) والطبراني في الكبير (١٠٢٠٩) وأبو يعلى (٥٣٠٦) والبزار في كشف الأستار برقم: (٣٧٥) وابن حبان في الإحسان برقم: (١٥٣٠) وإسناده حسن، وهذا لفظ أحمد، وهو في تفسير الطبري برقم: (٧٦٦٢) وابن أبي حاتم في التفسير برقم: (١٢٢٦)، والنسائي في الكبرى (١١٠٧٣) قال الهيثمي في مجمع الزوائد (٣١٢/١): رواه أحمد والبزار والطبراني في الكبير ورجال أحمد ثقات ليس فيهم غير عاصم بن أبي النجود وهو مختلف في الاجتجاج به، وفي إسناد الطبراني عبيد الله بن زحر وهو ضعيف.

صالح، ولا قيمة لعمله إلا أن يرتبط بالإيمان، فمهما أنفق الكافر وبذل من أموال في وجوه الخير، وأحسن تعامله مع الناس، فإنه لن ينال شيئاً عليه في الآخرة ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ بآيات الله وكذبوا رسله ﴿لَنْ تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ﴾ لا تدفع عنهم من عذاب الله شيئاً في الدنيا ولا في الآخرة ﴿وَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ ملازمون لها، لا يخرجون منها، وكانوا قد أنكروا ذلك في الدنيا: ﴿وَقَالُوا نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَالًا وَأَوْلَدًا وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ﴾ [سبأ]

ويوم القيامة لا ينفعهم شيء مع عدم الإيمان ﴿لَنْ تَنفَعَكُمْ أَرْحَامُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ﴾ [المتنحة: ٣] ثم ضرب القرآن لهم مثلاً، فبالمثال يتضح المقال؛ قال تعالى:

١١٧- ﴿مَثَلُ مَا يُنْفِقُونَ فِي هَذِهِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَثَلِ رِيحٍ فِيهَا صِرٌّ أَصَابَتْ حَرْثَ قَوْمٍ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ فَأَهْلَكَهُ وَمَا ظَلَمَهُمُ اللَّهُ وَلَكِنْ أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾

أي: ومثل عمل الكافر من صالح الأعمال مثل حقل تهباً للإخصاب، فإذا عاصفة من الثلج تحرق هذا الحرث، فيتم دماره وهلاكه ﴿مَثَلُ مَا يُنْفِقُونَ﴾ أي: مثل ما ينفقه الكافرون من أموال في وجوه الخيروما يرجون من ثواب وجزاء عليه.

ومثل ما ينفقونه لصد الناس عن سبيل الله، وإطفاء نوره، كمثل رجل زرع زرعاً، وبينما هو ينتظر خيرها وثمرها، إذ أصابتها ريح فيها برد شديد مهلك، فأهلك زرع، ولم يحصل له إلا العناء والتعب ﴿كَمَثَلِ رِيحٍ فِيهَا صِرٌّ﴾ أي: برد شديد محرق ﴿أَصَابَتْ حَرْثَ قَوْمٍ﴾ أي: هبت هذه الريح على زرع قوم كانوا يرجون خيرها ﴿فَأَهْلَكَهُ﴾ ودمرته، ولم يبق له أثر، لم تبق المعاصي من أعمالهم شيئاً، وهؤلاء الكافرون لا يجدون في الآخرة ثواباً على ما قدّموه في دنياهم ﴿وَمَا ظَلَمَهُمُ اللَّهُ﴾ بذلك حين أبطلوا أعمالهم ﴿وَلَكِنْ أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ بكفرهم ومعاصيهم، حيث كفروا بالله، وكذبوا رسول الله، وحرصوا على إطفاء نور الله، هذه هي الأمور التي أحبطت أعمالهم وذهبت بأموالهم.

قال ابن عباس رضي الله عنهما: يريد بني قريظة وبني النضير؛ وذلك أن رؤساء اليهود مالوا إلى تحصيل الأموال في معاداة النبي ﷺ، ومقصودهم تحصيل الرئاسة والأموال.

وقيل: نزلت في مشركي قريش؛ فإن أبا جهل أنفق كثيراً من الأموال في يومي بدر

وأحد على المشركين.

كما قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ لِيَصُدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ فَسَيُفْقَرُهُمْ ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةٌ ثُمَّ يُغْلَبُونَ﴾ [الأنفال: ٣٦].

والآية أعم من هذا وذاك؛ فهي تشمل نفقة الكفار للصد عن سبيل الله، كما تشمل نفقتهم في وجوه الخير، وكلاهما لا ينفع صاحبه، وكذا نفقة المرائي.

النَّهْيُ عَنِ اتِّخَاذِ غَيْرِ الْمُسْلِمِ بَطَانَةً

١١٨- ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَتَّخِذُوا بَطَانَةً مِّن دُونِكُمْ لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالًا وَدُّوا مَا عَنِتُّمْ قَدْ بَدَتِ الْبَغْضَاءُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ وَمَا تُخْفِي صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الْآيَاتِ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾

ثم تمضي الآيات بعد أن بيّنت ما في سلوك أهل الكتاب من انحراف، وكشفت عما في جدالهم من مغالطة، وفضحت ما يريدونه بالمسلمين من سوء؛ لتحذر المسلمين من اتخاذهم بطانة تجعلهم أمناء على أسرارهم ومصالحتهم، يوالونهم ويأتمنونهم، وهم الأعداء الذين امتلأت قلوبهم بالعداوة والبغضاء، فظهرت على أفواههم، وما تخفي صدورهم أكبر، وهو تحذير صادق في كل وقت، وفوق كل أرض، وكلما غفل عنه أهل الإسلام أصابهم من الشر والأذى والمهانة ما أصابهم.

وهذا التحذير ليس مقصوراً على فترة تاريخية معينة، بل هو حقيقة دائمة:

ففي ساعات قوة اقتصاد المسلمين وغلبتهم، يتظاهرون لهم بالمودة، فيخدع بهم المسلمون ويمنحونهم ثقتهم ومودتهم، وهم لا يريدون إلا الكيد والدسّ والوبال والخبال للمسلمين.

وفي ساعات الضعف والهزيمة نفتح قلوبنا لهم، ونتخذ منهم رفقاء في الحياة، وتبلغ بنا الهزيمة الروحية إلى أن نجاهلهم في عقيدتنا؛ فتتخفى ذكر الجهاد، وذكر الولاء والبراء في الله تعالى، ونطمس معالم ديننا.

والقرآن يعلمنا كيف نتقي مكرهم وكيدهم، وندفع أذاهم، وننجو من شرهم، وذلك بالصبر والتقوى، وعدم المجاملة في الدين أو التنازل عن شيء من العقيدة، وتحقيق منهج الله تعالى في حياتنا، فما استعان بهم أحد في مشورته، أو اتخذهم أصدقاء وأعواناً

وخبراء ومستشارين إلا كتب الله عليهم الهزيمة، ومكّن أعداءهم منهم؛ فأذل رقابهم، وأذاقهم وبال أمرهم.

عن أبي سعيد رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «ما بعث الله من نبي، ولا استخلف من خليفة، إلا كانت له بطانتان: بطانة تأمره بالخير وتحضه عليه، وبطانة تأمره بالسوء وتحضه عليه، والمعصوم من عصم الله»^(١)

وقيل لعمر بن الخطاب رضي الله عنه: إن هنا غلام من أهل الحيرة، حافظ، كاتب، فلو اتخذته كاتباً، قال: قد اتخذت إذن بطانة من دون المؤمنين^(٢).

وفيه دليل على أن أهل الذمة لا يجوز استعمالهم في الكتابة والأعمال الإدارية، مما فيها استطالة على المسلمين، وإطلاع على دواخل أمورهم، التي يخشى إفشاؤها إلى الأعداء من أهل الحرب.

وورد أن عمر رضي الله عنه لما بلغه أن أبا موسى استكتب رجلاً من أهل الذمة، فكتب إليه يعثقه، وقال: لا تردوهم إلى العز، بعد أن أذلهم الله.

وقال أحمد: لا يستعين الإمام بأهل الذمة على قتال أهل الحرب.

وقال ابن عباس: كان رجال من المسلمين يواصلون اليهود؛ لما بينهم من القرابة والصداقة والجوار والحلف والرضاع، فأنزل الله تعالى الآية فنهاهم عن مبايحتهم خوف الفتنة عليهم.

ويراد بالآية جميع الكفار والمنافقين؛ لما ورد أن قوماً من المؤمنين كانوا يُصافون المنافقين، ويواصلون اليهود؛ لما بينهم من قرابة وجوار ورضاع وصداقة، ويُفشون إليهم أسرارهم، ويطلعونهم على خفائهم، فنهاهم الله عن ذلك^(٣).

(١) أخرجه البخاري كما في فتح الباري (٢٠١/١٣) وهو في البخاري برقم: (٦٦١١، ٧١٩٨) وأبو يعلى (١٢٢٨) وابن حبان (٦١٩٢) والنسائي (١٥٨/٧) في «السنن الكبرى» برقم: (٨٧٥٥) و«المسند» (١١٣٤٢)، بإسناد صحيح على شرط الشيخين كما قال محققوه.

(٢) تفسير ابن أبي حاتم (٥٥٠/٢) وابن أبي شيبه في المصنف (٦٥٨/٨) من طريق أبي حيان التميمي، وعبد بن حميد.

(٣) «زاد المسير» (٤٤٦/١) وابن أبي حاتم بسند حسن عن ابن إسحاق عن ابن عباس.

وقد نهى الله المؤمنين عن مخالطة اليهود والمنافقين لما يترتب على ذلك من أضرار ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ صدّقوا الله واتبعوا رسوله ﴿لَا تَتَّخِذُوا بَاطِلًا مِّنْ دُونِكُمْ﴾ لا تتخذوا الكافرين أولياء من دون المؤمنين، تطلعونهم على أسراركم، ثم ذكر سبحانه الأسباب التي تمنع من محبة وموالاته المخالفين لنا في العقيدة، فذكرت الآية أربعة أسباب:

السبب الأول: أنهم ﴿لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالًا﴾ أي: لا يفترقون عن إفساد حالكم، ولا في وقوع الضرر بكم ولا يقصرون جهدا فيما يؤرث جذور الشر والفساد بينكم، ويعملون على حصول ذلك.

السبب الثاني: ﴿وَدُّوا مَا عَنِتُّمْ﴾ أي: أنهم يفرحون بما يصيبكم من ضرر، ويتمنون ما يشق عليكم، ويضر بكم ويهلككم.

السبب الثالث: ﴿قَدْ بَدَتِ الْبَغْضَاءُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ﴾ أي: ظهرت شدة البغض في كلامهم، وفلتات لسانهم، وفي الوقعة والدس بين المسلمين، وإطلاع المشركين على أحوال المسلمين واستغلال ما فيها من ثغرات.

السبب الرابع: أن ﴿وَمَا تُخْفِي صُدُورُهُمْ﴾ من العداوة والغيظ والبغضاء لكم ﴿أَكْبَرُ﴾ وأعظم مما يظهرونه ﴿قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الْآيَاتِ﴾، وهي البراهين والحجج الدالة على موالاته المؤمنين ومعاداة الكافرين؛ لتتعظوا وتحذروا ﴿إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ عن الله مواعظه وأمره ونهيه، فتعرفونها وتفرقون بين العدو والصديق، والعاقل إذا ابتلي بمخالطة العدو، فإنه ينبغي عليه أن تكون خلطته في الظاهر، ولا يطلعه على بواطن الأمور، ولو تملق له العدو وأقسم.

خَمْسَةُ أَدِلَّةٍ عَلَى خَطَا بَعْضِ الْمُسْلِمِينَ فِي مَحَبَّةِ الْيَهُودِ

قال تعالى: مهيبًا للمؤمنين على الحذر من منافقي أهل الكتاب ومبينا شدة عداوتهم:

١١٩ - ﴿هَآأَنْتُمْ أَوْلَآءُ يُحِبُّونَهُمْ وَلَا يُحِبُّونَكُمْ بِآلِ كَتَبٍ كُلِّهِ وَإِذَا لَقُوكُمْ قَالُوا ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوْا عَضُّوا عَلَيْكُمُ الْأَنَامِلَ مِنَ الْغَيْظِ قُلْ مُؤْمِنُوا بِغَيْظِكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾.

وهذه هي الأدلة على خطئكم في محبتهم مكونة من خمسة أسباب:

أولاً: أنهم لا يبادلونكم المحبة؛ فهي أنتم تحبون اليهود والنصارى، وتحسنون إليهم؛

لِمَا بَيْنَكُمْ مِنْ قَرَابَةٍ أَوْ جَوَارٍ أَوْ مَصَاهِرَةٍ أَوْ حِلْفٍ، وَهُمْ لَا يَحِبُّونَكُمْ؛ لِمَا بَيْنَكُمْ مِنْ مَخَالَفَةٍ فِي الدِّينِ، وَيَحْمِلُونَ لَكُمْ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَ؛ لِأَنَّ الْكُفْرَ ثَابِتٌ فِي قُلُوبِهِمْ، فَلَا تَوَالُوهُمْ، وَلَا تَفْشُوا إِلَيْهِمْ أَسْرَارَكُمْ.

ثَانِيًا: أَنْتُمْ تَوَافُونَ بِجَمِيعِ الْكُتُبِ الْمُنَزَّلَةِ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ، وَمِنْهَا كِتَابُهُمْ، وَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ بِشَيْءٍ مِنْ كِتَابِكُمْ وَهَذَا مَعْنَى: ﴿وَتُؤْمِنُونَ بِالْكِتَابِ كُلِّهِ﴾ أَي: وَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ بِكِتَابِكُمْ.

ثَالِثًا: أَنَّهُمْ يَظْهَرُونَ مَحَبَّتَكُمْ نَفَاقًا ﴿وَإِذَا لَقُوكُمْ قَالُوا ءَامَنَّا﴾ كَيِّمَانِكُمْ، وَصَدَّقْنَا كَتَصْدِيقِكُمْ، وَهَذِهِ صِفَاتُ الْيَهُودِ وَالْمَنَافِقِينَ، وَهُمْ كَاذِبُونَ فِيمَا يَدَّعُونَ.

رَابِعًا: أَنَّ الْيَهُودَ إِذَا خَلَا بَعْضُهُمْ بِبَعْضٍ بَدَأَ عَلَيْهِمُ الْغَمَّ وَالْحُزْنَ؛ لَوَحْدَةِ الْمُسْلِمِينَ وَاتِّلَافِهِمْ أَوْ لَتَمْسِكُهُمْ بِدِينِهِمْ، وَأَظْهَرُوا فِيمَا بَيْنَهُمْ شِدَّةَ الْعَدَاوَةِ لَكُمْ، وَالْغِيْظَ وَالْحَنَقَ عَلَيْهِمْ؛ لَمَّا يَرُونَ مِنْ اتِّلَافٍ بَيْنَكُمْ، وَاجْتِمَاعٍ لِكَلِمَتِكُمْ، فَعَضُّوا أَطْرَافَ أَصَابِعِهِمْ مِنَ الْغِيْظِ وَالْغَضَبِ، وَهَذَا مَعْنَى: ﴿وَإِذَا خَلَوْا عَضُّوا عَلَيْكُمُ الْأَنَامِلَ مِنَ الْغِيْظِ﴾.

قَالَ تَعَالَى مَخَاطَبًا رَسُولَهُ ﷺ: ﴿قُلْ مُوتُوا يَعِظُكُمْ﴾ غَمًّا وَكَمَدًا، وَابْقُوا هَكَذَا إِلَى الْمَمَاتِ؛ فَاللَّهُ تَعَالَى مُطَّلِعٌ عَلَى مَا تَخْفِي الصُّدُورُ، وَالْخَوَاطِرُ الْقَائِمَةُ بِالْقُلُوبِ وَالِدَوَاعِي لَهَا، وَالصُّوَارِفُ عَنْهَا، وَسَيَجَازِي كُلًّا عَلَى مَا قَدِمَتْ يَدَاهُ مِنْ خَيْرٍ أَوْ شَرٍّ ﴿إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾ وَعَلِيمٌ بِمَا هُوَ أَخْفَى مِنْ ذَلِكَ مِمَّا يَسْرُونَهُ فِي قُلُوبِهِمْ كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَإِنْ تَجَهَّرَ بِ الْقَوْلِ فَإِنَّهُ يَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفَى﴾ [طه] فَيَعْلَمُ سُبْحَانَهُ مَا هُوَ أَخْفَى مِنَ السِّرِّ؛ مِنْ وَسْوَسةِ النَّفْسِ، وَخَوَاطِرِ الْقَلْبِ.

وَفِي هَذَا بَشَارَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ بِأَنَّهُمْ لَنْ يَضُرُّوا إِلَّا أَنْفُسَهُمْ، وَلَنْ يَقْدُرُوا عَلَى تَفْذِيقِ غِيْظِهِمْ، وَأَنَّهُمْ لَا يَزَالُونَ مُعَذِّبِينَ حَتَّى يَمُوتُوا، فَيَنْتَقِلُوا مِنْ عَذَابِ الدُّنْيَا إِلَى عَذَابِ الْآخِرَةِ، قَالَ تَعَالَى:

١٢٠- ﴿إِنْ تَمَسَّكْتُمْ حَسَنَةً سَوْهُمْ وَإِنْ تُصِيبَكُمْ سَيِّئَةٌ يَفْرَحُوا بِهَا وَإِنْ تَصِيرُوا وَتَتَّقُوا لَا يَضُرُّكُمْ^(١) كَيْدُهُمْ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ﴾ (١٢٠)

(١) قَرَأَ نَافِعُ وَابْنُ كَثِيرٍ وَأَبُو عَمْرٍو وَيَعْقُوبُ (يَضُرُّكُمْ) بِالْجَزْمِ وَكَسَرَ الضَّادَ جَوَابًا لِلشَّرْطِ. وَقَرَأَ الْبَاقُونَ (يَضُرُّكُمْ) بِضَمِّ الضَّادِ وَالرَّفْعِ، عَلَى أَنَّ الْفِعْلَ مَرْفُوعٌ؛ لِتَجَرُّدِهِ مِنَ النَّاصِبِ وَالْجَازِمِ، وَالْجُمْلَةُ فِي مَحَلِّ جَزْمِ جَوَابِ الشَّرْطِ.

خامساً: إنهم يحزنون لأفراحكم، ويفرحون لأحزانكم؛ فهم بعداوتهم لكم، إن نزل بكم أمرٌ حسن؛ مِنْ رخاءٍ وخصبٍ وصحةٍ وغنيمةٍ ونصرةٍ، وأي شيءٍ من منافع الدنيا، ظهرت الكآبة والأحزان عليهم ﴿إِنْ تَمَسَّكُمْ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ﴾ والعكس صحيح، فإن أصابكم شرٌ، أو هزيمة، أو نقص في الأنفس والأموال والثمرات، فرحوا بما أصابكم من مكروه ﴿وَإِنْ تُصِبْكُمْ سَيِّئَةٌ هَزِيمَةٌ أُمْرَضُوا أَوْ فَرُّوا﴾ يَفْرَحُوا بِهَا وَإِنْ تَصِيرُوا عَلَى مَا أصابكم ﴿وَتَتَّقُوا﴾ الله فيما أمركم ونهاكم ﴿لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئاً﴾ أي: لا يمسكم أذى مكروهم وعداوتهم، والله عليم بما يعمل هؤلاء الكفار، محيط بأسرارهم، وسيجازيهم عليه ﴿إِنَّ اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾، فإذا أتيتم بأسباب النصر، كالصبر والتقوى، فإن كيدهم لا يضركم، بل يجعل الله مكروهم في نحورهم، وهو سبحانه محيط بهم، لا يخفي عليه شيء.

غَزْوَةُ أَحَدٍ: بُطُولَاتُ الْمُؤْمِنِينَ وَتَخَادُلُ الْمُنَافِقِينَ

١٢١- ﴿وَإِذْ عَدُوٌّ مِنْ أَهْلِكَ تُبَوِّئُ الْمُؤْمِنِينَ مَقْعِدَ لِلْقِتَالِ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾

تبدأ الآيات من هنا إلى نحو سبعين آية في الحديث عن غزوة أحد، ولعل السبب في ذكرها هنا أن الله تعالى لَمَّا وعد المؤمنين بالنصر، وردّ كيد العدو، إنَّ هُمْ صَبَرُوا وَاتَّقُوا، وكان ذلك في قوله تعالى: ﴿وَإِنْ تَصِيرُوا تَصِيرُوا وَتَتَّقُوا لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئاً﴾ و هذا حكم عام، ووعد صادق، لذا ضرب الله المثل بذكر قصة غزوة أحد وفي إثائها إشارة إلى انتصار المسلمين في غزوة بدر.

ولمَّا أخل الرماة في غزوة أحد بتقوى الله تعالى، أصابهم بعض ما يكرهون، وفي هذا عبرة ودرس للمسلمين يستفيدون منه في حياتهم، وفي مجابهة أعدائهم، وفي هذا يقول سبحانه ﴿أَوْ لَمَّا أَصَبْتُمْ مَوْجِبَةً قَدْ أَصَبْتُمْ مِثْلَهَا قُلْ لَمْ أَقُلْ هُوَ مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِكُمْ﴾ [آل عمران: ١٦٥] ويقول ﴿وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ اللَّهُ وَعْدَهُ إِذْ تَحُسُّونَهُم بِإِذْنِهِ حَتَّى إِذَا فَشِلْتُمْ وَتَنَزَّعْتُمْ فِي الْأَمْرِ وَعَصَيْتُمْ مِمَّا بَعَدَ مَا أَرَاكُمْ مَا تُحِبُّونَ مِنْكُمْ مَنْ يُرِيدُ الدُّنْيَا وَمِنْكُمْ مَنْ يُرِيدُ الْآخِرَةَ﴾ [آل عمران: ١٥٢].

هذا: وبعد بيان خطأ المؤمنين في محبة المنافقين واليهود والنصارى، ينتقل القرآن

الكريم من ميدان التوجيه والتحذير إلى ميدان المعركة يوم أحد؛ ليبيّن مظهرًا من مظاهر كيد المخالفين في الدين للإسلام وأهله.

عن المسور بن مخرمة قال: قلت لعبد الرحمن بن عوف - أي خالي - أخبرني عن قصتكم يوم أحد؟ فقال: اقرأ العشرين ومئة من آل عمران تجد ﴿وَإِذْ عَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ﴾ إلى قوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَنْزَلَ عَلَيْكُمْ مِنْ بَعْدِ الْغَمِّ أَمْنَةً نُعَاسًا﴾^(١) [آية: ١٥٤].

وكان المسلمون قد انتصروا قبلها في يوم بدر، وقتلوا رؤساء قريش وأئمة الكفر، فأخذ أبو سفيان يُؤلب المشركين لأخذ الثأر من المسلمين، وكانت القافلة التي فيها أموال قريش قد نجت فلم تقع في أيديهم، فرصدوا أموالها لحرب المسلمين.

فجمع أبو سفيان نحو ثلاثة آلاف مقاتل، ومثي فرس، ورتب جيوشه، وخرج في شهر شوال من السنة الثالثة للهجرة، وجاءوا معهم بنسائهم ليرفعن معنوياتهم، ونزل أبو سفيان بجيشه قريبًا من جبل أحد عند سفح الجبل؛ لأخذ الثأر مما نالهم يوم بدر.

فاستشار النبي ﷺ أصحابه، أخرج إليهم، أم يمكث في المدينة؟ فأشار الشبان ممن فاتهم الخروج يوم بدر بالخروج إليهم، وأشار الشيوخ، ومنهم (عبد الله بن أبي بن سلول) بالبقاء في المدينة.

فقال عليه الصلاة والسلام لأصحابه: «إني رأيت في منامي بقرة مذبوحة حولي، فأولتها خيرًا، ورأيت في ذباب سيفي ثلثة، فأولتها هزيمة، ورأيت أني أدخلت يدي في درع حصينة، فأولتها بالمدينة».

وكان من رأي النبي ﷺ أن يتحصنوا في المدينة، ولا يخرجوا للقاء العدو، فلم يزل به قوم يرغبونه في الشهادة حتى لبس لأمته، فلما رأوه قد لبس السلاح ندموا فقاموا واعتذروا، فقال ﷺ: «ما كان لنبي لبس لأمته أن يضعها حتى يقاتل».

فخرج بعد صلاة الجمعة وأصبح في الشعب يوم السبت منتصف شهر شوال، في السنة الثالثة من الهجرة، وأمر (عبد الله بن جبير) على الرماة الخمسين، وقال لهم: ادفعوا عنا

(١) أسباب النزول للواحدي (١٠٣).

بالنبل؛ حتى لا يأتونا من ورائنا - وكان ظهرُ المسلمين إلى جبل أحد - ثم قال لهم: لا تبرحوا مكانكم، ولو رأيتم الطير يتخطفنا، سواء هُزْمنا أو انتصرنا.

وكان النبي ﷺ قد أبى الاستعانة بحلفاء الأنصار من اليهود؛ فالمعركة بين الإيمان والكفر.

وكان عدد المسلمين نحو ألف، فيهم عبد الله بن أبيّ، ومعه ثلاث مئة من المنافقين، فرجع عبد الله بمن معه قائلاً: لقد عصانا وأطاع الولدان، وهمت طائفتان من المسلمين أن يرجعوا وهم بنو سلمة وبنو حارثة فثبّتهم الله، فلما وصلوا إلى أحد ربّتهم النبي ﷺ وأسند ظهورهم، إلى جبل أحد، وربّ الرماة، وأمرهم أن يلزموا مكانهم حتى لا يأتهم أحد من ظهورهم.

والتقى الجمعان، وانهزم الثلاثة آلاف من المشركين أمام المسلمين وقتلوا منهم نيفًا وعشرين والقُوَّة يومئذ بكثرة العدد، وتبعهم المسلمون يقتلون ويأسرون.

ورأى بعض الرماة -المنتصرين- الغنائم التي خلّفها العدو في بطن الوادي فطمعوا فيها، فنزلوا إليها وتركوا أماكنهم، مخالفين أمر رسول الله ﷺ، ووعظهم أميرهم فلم يلتفتوا إليه، ولم يبق منهم إلا عدد قليل منهم عبد الله بن جبير أميرهم، فانقضّ عليهم الأعداء من خلف، بقيادة خالد بن الوليد، الذي لمّا يُسلم بعد، وقد أراد الله سبحانه أن يُلقن المسلمين درسًا؛ حتى لا يجروا على حب الدنيا، ومخالفة أمر النبي ﷺ مرة أخرى، وليعلموا أن نصرهم يوم بدر كان بسبب طاعتهم لله والرسول، ولما خالفوا أمر الرسول ﷺ سلب الله منهم النصر الذي أحرزوه يوم أحد، وكان بعض المسلمين قد ظن أن النصر يكون حليف المسلمين دائمًا، ثم إن الله تعالى نزع الرّعب من قلوب المشركين فكروا راجعين على المسلمين، فترك المسلمون أماكنهم. وهذه أمثلة من بطولات يوم أحد:

١- لقد بقي النبي ﷺ وحده في جماعة من أصحابه، منهم: أبو بكر وعلي والعباس وطلحة وسعد، وكُسرت رباعيته ﷺ وشجّ وجهه، وأُشيع أن محمدًا ﷺ قد قتل، إلا أنه ﷺ ثبت في موضعه وأخذ ينادي: «إلّٰي عبادَ الله، إلّٰي عبادَ الله»، فاجتمع إليه نحو ثلاثين رجلًا ودافعوا عنه دفاع الأبطال المخلصين، واستشهد من الصحابة نحو سبعين صحابيًا، منهم: حمزة بن عبد المطلب، ومصعب بن عمير، وسعد بن الربيع، وغيرهم ممن صدقوا ما عاهدوا الله عليه.

٢- ومرو أنس بن النضر على نفر من المسلمين قد ألقوا السلاح، فقال: ما يُجلسكم؟ قالوا: قُتل رسول الله ﷺ قال: فما تصنعون بالحياة بعده؟! قوموا فموتوا على ما مات عليه رسول الله ﷺ وتوجه نحو المشركين، فسأله سعد بن معاذ إلى أين؟ قال: واهًا لريح الجنة، إني أجد ريح الجنة دون أحد، فقاتل حتى قُتل، ووُجد به بضع وثمانون ما بين طعنة وضربة ورمية، وقد مُثِّلَ به، ولم تعرفه إلا أخته، عرفته من أطراف بنانه.

٣- وأقبل رسول الله ﷺ نحو المسلمين، فاجتمعوا حوله، فأدركه (أبي بن خلف) على فرس له كان قد أعدّه؛ ليقتل عليه محمدًا ﷺ فلما سمع النبي ﷺ مقالته، قال: «بل أنا قاتله إن شاء الله»، وتناول النبي ﷺ الحربة من (الحارث بن الصمة) وطعن بها عدو الله في ترقوته، فخرَّ يخور كالثور، وكان قد أيقن أنه مقتول حين سمع قول النبي ﷺ ومات بالفعل.

٤- وكانت أم عمارة (نُسيبة بنت كعب المازنية) تقاتل دون رسول الله ﷺ قتالًا شديدًا، وقد ضربت (عُمر بن قُمَيْة) بسيفها ضربات عدة.

٥- وكان أبو دُجانة يُترس بظهره عن النبي ﷺ والنبل يقع عليه.

٦- وكان (طلحة بن عبيد الله) يقف وحده دون رسول الله ﷺ حتى أصابته بِضْع عشرة ضربة.

٧- ومَصَّ مالك، والد أبي سعيد الخدري جُرح رسول الله ﷺ حتى أنقاه، فقال له: مُجَّه، قال: والله لا أُمُجُّه أبدًا، ثم ذهب، فقال عليه الصلاة والسلام: «من أراد أن ينظر إلى رجل من أهل الجنة فليُنظر إلى هذا».

٨- أما حنظلة الأنصاري (غَسِيل الملائكة) فقد شدَّ على أبي سفيان، فلما تمكن منه حَمَلَ على (حنظلة) شَدَّاد بن أوس، فقتله، وكان حنظلة جُنُبًا، قد نزل فورًا إلى ساحة المعركة حين سمع داعي الجهاد، وكان عروصًا في حضن امرأته، فقام من فوره، وقاتل حتى قُتل، وكان النبي ﷺ قد رأى الملائكة تُعَسِّلُه بين السماء والأرض بماء المُنْزَن، فقال: «سلوا امرأته فأخبرتهم أنه نزل إلى ساحة الجهاد وكان جُنُبًا».

٩- وأرسل النبي ﷺ زيد بن ثابت في طلب سعد بن الربيع، قال: فأتيته وهو بآخر رمق، وبه سبعون، ما بين ضربة بسيف، وطعنة برمح، ورمية بسهم، فأقرأه السلام من رسول الله ﷺ، ثم سأله عن حاله؟ فقال: قُلْ لرسول الله ﷺ: أجد ريح الجنة، وقل

لقومي من الأنصار: لا عذر لكم عند الله، إن خُليص إلى رسول الله ﷺ وفيكم عين تطرف، وفاضت نفسه إلى بارئها.

١٠- ومَرَّ رجل من المهاجرين برجل يتشحط في دمه من الأنصار، فقال له: أَشَعَرْتَ أن محمداً قد قُتِل؟ فقال الأنصاري: إن كان محمد قد قُتِل فقد بَلَغ، فقاتلوا عن دينكم.

١١- وكان سعد بن خيثمة قد قُتِل شهيداً يوم بدر، فرآه أبوه يَسْرَحُ في ثمار الجنة وأنهارها، ويقول له: الحق بنا تراقنا في الجنة، فجاء خيثمة إلى النبي ﷺ يقول: لقد أصبحت مشتاقاً الى مرافقة ابني في الجنة، وقد كَبُرَتْ سِنِّي، ورَقَّ عظمي، وأحببت لقاء ربي، فادع الله أن يرزقني الشهادة، فدعا له، فُرِزَق الشهادة يوم أحد.

١٢- وأصيب عین قتادة بن النعمان حتى وقعت على وجنته، فردّها رسول الله ﷺ فَعَادَتْ أَحْسَنَ مَا كَانَتْ.

١٣- وكان عمرو بن الجموح، شديد العرج، وله أربعة بنين يغزون مع رسول الله ﷺ فأراد أن يخرج مع النبي ﷺ يوم أحد، فقال له بنوه: إن الله قد جعل لك رخصة، وإننا نكفيك، فجاء إلى النبي ﷺ يشكو له أن أبناءه يمنعونَه الجهاد، ثم قال: والله إني لأرجو أن أَسْتَشْهَدَ، فأطأ بعرجتي هذه أرض الجنة، فقال له النبي ﷺ: «أَمَا أَنْتَ فَقَدْ وَضَعَ اللَّهُ عَنْكَ الْجِهَادَ»، وقال لبيه: «وما عليكم أن تدعوه، لعل الله يرزقه الشهادة»، فخرج مع رسول الله ﷺ، واستشهد يوم أحد.

ولمَّا لَآكَتْ هند بنت عتبة، كبد حمزة ؓ، بعد أن بَقَرَتْ بطنه وأخرجته، لم تستطع أن تبلع منه شيئاً، وقد تأثر النبي ﷺ تأثراً شديداً، وقال: «لن أُصَابَ بمثلك أبداً، وما وقفتُ موقفاً أغيظ عليّ من هذا».

ثم سأل النبي ﷺ: «هل أكلتُ هند شيئاً من كبد حمزة»، قالوا: لا، قال: «ما كان ليدخل شيء من حمزة في النار».

وعند دُفِنَ الشهداء كان النبي ﷺ يُقَدِّمُ الأكثر حفظاً للقرآن على غيره.

ثم دُفِنَ عبد الله بن عمرو بن حرام، وعمرو بن الجموح، في قبر واحد، وقال ﷺ: «ادفنوا هذين المتحابين في قبر واحد».

هذه نماذج من التضحيات الجسام التي دفعها أصحاب النبي ﷺ ثمناً لتطلع بعضهم إلى الغنائم ومخالفتهم أمر الرسول ﷺ تمحيصاً لقلوب المؤمنين، وإعداداً للجماعة المسلمة؛ لِيَلْقَى المِهام العظمى والقيادة الراشدة.

والقرآن الكريم لم يتتبع أحداث المعركة للرواية والعرض، ولكنه تتبع ما بداخل النفوس وحوالج القلوب، ويتخذ من أحداث الغزوة درساً للتنبيه والتوجيه؛ لاستخلاص العبرة والعظة لكل قلب متفتح للإيمان في أي زمان ومكان.

فَتَوَوَّلَ الآية الأولى في الحديث عن الغزوة هكذا:

واذكر - أيها الرسول - حين خرجت من بيت عائشة ماشياً على رجلك إلى جبل أحد، لابساً عدة الحرب بعد المشورة، (تبوأ المؤمنون مقاعد للقتال) تنظم صفوف أصحابك لمواطن القتال، على الميمنة، والميسرة، والقلب، والجناحين والساقة والرماة، وتُنزل كل واحد في منزله، وذلك يوم الأربعاء والخميس، ثم صليت بهم الجمعة وخرجت بعدها لملاقاة المشركين يوم السبت للنصف من شهر شوال سنة ثلاث من الهجرة، والله سميع لأقوالكم، عليم بأفعالكم وسوف يحاسبكم على ما قدمت أيديكم، ويجازيكم أتم الجزاء وأعدله، قال تعالى:

١٢٢- ﴿إِذْ هَمَّتْ طَّائِفَتَانِ مِنْكُمْ أَنْ تَفْشَلَا وَاللَّهُ وَلِيُّهَا وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ ﴿١٢٢﴾﴾

واذكر أيها الرسول موقف الضعف والفسل، حين همَّ بنو سلمة من الخزرج وبنو حارثة من الأوس بالرجوع، وكانا جناحي العسكر، مع زعيم المنافقين عبد الله بن أبي، خوفاً من لقاء العدو، قائلاً: لو نعلم قتالاً لاتبعناكم، وهمت الطائفتان بالانصراف، ولكن الله عصمهم وحفظهم، فثبتوا وساروا معك متوكِّلين على الله، والله ناصرهما ومتولي أمرهما بالتوفيق والرعاية، ومن تولاه الله عصمه من الفشل والفرار، وعصمه عما فيه مضرته، فالله ولي المؤمنين يخرجهم من الظلمات إلى النور، وعلى الله وحده فليتوكل المؤمنون في جلب المنافع ودفع المضار، وبحسب إيمان العبد وثقته بالله، يكون توكله، خصوصاً في مواطن الشدة والقتال للاستنصار بالله سبحانه:

في الصحيحين عن جابر قال: نزلت فينا ﴿إِذْ هَمَّتْ طَّائِفَتَانِ مِنْكُمْ أَنْ تَفْشَلَا﴾ قال:

نحن الطائفتان (بنو حارثة، وبنو سلمة)، وما يسرني أنها لم تنزل؛ لقول الله تعالى: ﴿وَاللَّهُ وَلِيُّهَا﴾^(١).

ففيه الاستبشار بما حصل لهم من الشرف، وأن الله وليهم، وأن تلك الهمة التي هموا بها كادت أن تخرجهم من ولاية الله.

وهكذا يكشف الله المخبوء في صدور الرجال؛ إذا لهم هو حديث النفس مع القصد. ولما عزموا على الثبات والبقاء مع النبي ﷺ وكان ذلك في غزوة بدر مدحهم الله تعالى وأثنى عليهم فقال:

التذكير بالنصر يوم بدر

١٢٣- ﴿وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرِ وَأَنْتُمْ أَذِلَّةٌ فَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾

وقبل أن تمضي الآيات لاستعراض أحداث المعركة التي انتهت بالهزيمة، يُذكر الله تعالى بالنصر في معركة بدر؛ لتتم المقابلة بينهما بتأمل أسباب النصر وأسباب الهزيمة، والنتائج التي رُتبت على الحاليتين.

ولقد نصركم الله أيها المؤمنون ببدر، وبدر اسم لموضع الماء، سُمي به المكان بين مكة والمدينة حيث كانت المعركة، نصركم على عدوكم، مع قلة عددكم وعدتكم؛ حيث كنتم ثلاثمائة وثلاثة عشر في مقابلة ألف مقاتل، مع عدم القدرة على مقاومة العدو؛ لضعف الحال، وقلة السلاح والمركوب والمال، فقد كان الثلاثة منكم يتعاقبون على بعير واحد، حتى إن رسول الله ﷺ كان واحداً من ثلاثة يتناوبون الركوب على بعير واحد، ويقسمون الطريق أثلاثاً، ولما عرض عليه صاحبا أن يركب هو قال: «ما أنتما بأقوى مني على المشي، وما أنا بأعف منكما عن الأجر»، وكانت سُنَّة ﷺ في الخامسة والخمسين، وأكثرهم رجالة، ولم يكن مع المسلمين سوى فرسان في مقابلة مئة فرس مع العدو، وسبعون بعيراً في مقابلة ألف بغير، وكان معهم الشوكة والسلاح، والذي نصرهم هو تقوى الله تعالى والخوف منه مع الأخذ بالأسباب المستطاعة، وعدم الخروج على طاعة الله والرسول.

(١) البخاري برقم: (٤٠٥١، ٤٥٥٨) و«صحيح مسلم» برقم: (٢٥٠٥).

فاتقوا الله وخافوه ينصركم من يملك النصر والهزيمة، واشكروا نعم الله عليكم، ومنها النصر على عدوكم وأنتم قلة ضعفاء.

هذا: وكانت غزوة بدر في شهر رمضان من السنة الثانية للهجرة، فقد خرج المسلمون ليغترضوا عيرًا لقريش قدمت من الشام، فسمع بهم المشركون فخرجوا لقتالهم، والتقى الفريقان عند ماء بدر، ونصر الله المسلمين، حيث قتلوا سبعين من صناديد قريش وأسروا سبعين، وجاء تفصيل أحداث القصة في سورة الأنفال.

الْمَدَدُ بِالْمَلَائِكَةِ فِي يَوْمِي بَدْرٍ وَأُحُدٍ

١٢٤- ﴿إِذْ نَقُولُ لِلْمُؤْمِنِينَ أَلَنْ يَكْفِيَكُمْ أَنْ يُدْعَىٰ رَبُّكُمْ رَبُّكُمْ بِثَلَاثَةِ آفٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُنَزَّلِينَ﴾ (١)

ثم يذكر الله سبحانه عباده بمدده لهم بالملائكة يوم بدر، حيث أمدهم سبحانه بألف من الملائكة كما جاء في سورة الأنفال.

أخرج الإمام أحمد وغيره بسنده قال: سمعت عياضًا الأشعري قال: شهدت اليرموك وعلينا خمسة أمراء: أبو عبيدة بن الجراح، ويزيد بن أبي سفيان، وابن حسنة، وخالد بن الوليد، وعياض، وليس عياض هذا بالذي حدث سمّاكًا، قال: وقال عمر: إذا كان قتال فعليكم أبو عبيدة، قال: فكتبنا إليه إنه قد جاس إلينا الموت واستمددناه، فكتب إلينا: إنه قد جاءني كتابكم تستمدوني، وإني أدلكم على مَنْ هو أعز نصرًا، وأحضر جندًا، وهو الله ﷻ، فاستنصروه؛ فإن محمدًا ﷺ قد نُصر يوم بدر في أقل من عُدتكم، فإذا أتاكم كتابي هذا فقاتلوهم ولا تراجعوني، قال: فقاتلناهم فهزمناهم، وقتلناهم أربع فراسخ، قال: وأصبنا أموالًا، فتشاوروا، فأشار علينا عياض أن نعطي عن كل رأس عشرة، قال: وقال أبو عبيدة: من يراهنني، فقال شاب: أنا، إن لم تغضب، قال: فسبقه، فرأيت عقيصتي أبي عبيدة تنفُزان وهو خلفه على فرس عربي^(٢).

(١) قرأ ابن عامر (مُزَلَّلِينَ) بفتح النون وتشديد الزاي، وقرأ الباقر بسكون النون وتخفيف الزاي، وهما لغتان.

(٢) «المسند» بتحقيق أحمد شاكر برقم: (٣٤٤) وإسناده حسن، وقال الهيثمي في «مجمع الزوائد» (٦/٢١٣): رجال أحمد رجال الصحيح، وأخرجه ابن حبان، وحسنه عنه شعيب الأرناؤوط من طريق محمد بن جعفر برقم: (٤٧٦٦) وأخرجه ابن أبي شيبة (٣٤/١٣).

ولما بلغ المسلمون في يوم بدر أن (كُرز بن جابر) يريد أن يمد المشركين بعدد من المقاتلين، شق ذلك على المسلمين، فوعدهم الله تعالى بأن يُنزل عليهم ثلاثة آلاف من الملائكة مُنزّلين من السماء.

وكان (كرز بن جابر) كان قد بلغه رجوع المشركين وهزيمتهم. فرجع قبل أن يصل إليهم، ولم يمدّهم بما وعدهم به، وبالتالي فإنه لم يتم مدد المسلمين بالملائكة، لأنه كان في مقابلة وعد (كرز) لقومه. قال تعالى مبينا أن الصبر والتقوى من أقوى أسباب النصر على العدو:

١٢٥ - ﴿لَئِنْ نَصَبُوا وَتَقَوُا وَأَتَوْكُم مِّن قَوْمِهِمْ هَذَا يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُمْ بِخَمْسَةِ آلَافٍ مِّنَ الْمَلَائِكَةِ مُسَوِّمِينَ^(١)﴾

ثم وعد الله تعالى المؤمنين -إن يصبروا على ملاقات العدو، ويتقوا الله ويخافوه- أن يمدّهم بخمسة آلاف من الملائكة معلّمة هي وخيولها بعلامات واضحة، وهذا معنى ﴿مُسَوِّمِينَ﴾ أي: معلّمين، وكان ذلك الوعد ليتقوى به قلوبهم على مواجهة العدو.

قال عكرمة: لم يصبروا ولم يتّقوا يوم أحد فلم يُمدّوا، ولو أمدّوا لم يهزموا.

وقال ابن عباس: لم تقاتل الملائكة إلا في معركة يوم بدر، وفيما سوى ذلك يشهدون ولا يقاتلون.

وقد ثبت في سورة الأنفال أن الله أمد المسلمين بألف من الملائكة، أما يوم أحد فالأدلة على أنهم لم يُمدّوا أوضح من أنهم أمدّوا.

وقد ثبت في الصحيحين من حديث سعد بن أبي وقاص أنه رأى ملكين عن يمين النبي ﷺ وشماله، وهذا خاص بالنبي ﷺ؛ لأنه ثبت وصبر، ولم ينهزم كما فعل أصحابه، فهو لا ينافي عدم الإمداد بالملائكة لعموم المسلمين يوم أحد؛ لتعلقه على شرط هو الصبر والتقوى، وعدم تحقيق الشرط يستلزم عدم حصول المشروط وهو الوعد في ﴿لَئِنْ نَصَبُوا وَتَقَوُا﴾. وفي مقابلة وعد كرز بن جابر، وتحقيق الصبر والتقوى في ﴿لَئِنْ نَصَبُوا وَتَقَوُا﴾.

وهذا بناء على أن آية ﴿إِذْ تَقُولُ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ متعلقة بيوم بدر تنمة للآية قبلها.

ومنهم من قال: إن الوعد بالملائكة متعلق بآية ﴿وَإِذْ عَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ﴾ أي: يوم أحد، وهو مشروط بالصبر والتقوى، ولأن الشرط لم يتحقق، لم تنزل الملائكة، ولعل هذا هو

(١) قرأ ابن كثير وأبو عمرو وعاصم ويعقوب (مسومين) بكسر الواو، اسم فاعل، وقرأ الباقون بالفتح، اسم مفعول.

المراد، لأن سياق الآيات يرشح هذا المعنى، ولأن سورة الأنفال صرّحت بنزول الملائكة في بدر وأنهم كانوا ألفاً، كما في الآية التاسعة من سورة الأنفال. وهنا يقول تعالى :

١٢٦- ﴿وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ لَكُمْ وَلِتَطْمَئِنَّ قُلُوبُكُم بِهِ ۖ وَمَا النِّصْرُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ﴾

أي: وقد جعل الله الإمداد بالملائكة في بدر، والوعد به في أحد بشرى للمؤمنين بالنصر، وتطميناً لهم؛ لثلا يفرعوا من كثرة العدو، ولكن عليهم أن يعلموا أن النصر من عند الله، فلا يحيلوه على الملائكة، فاستعينوا بالله وتوكلوا عليه.

ثم أخبر سبحانه أن نصره لعباده المؤمنين، له كفتان: إما أن يأتي على فريق من الكفار فيهلكهم، وإما أن ينصر المسلمين عليهم فيرجعوا بغم وحسرة وندامة، قال تعالى:

١٢٧- ﴿لَيَقْطَعَ طَرَفًا مِّنَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَوْ يَكْتُمُهُمْ فَيَنْقَلِبُوا ظَهِيرًا﴾

أي: وقد نصر الله المسلمين يوم بدر: ليهلك فريقاً من الكفار، ويهدم ركناً من أركان الشرك، إما بقتل أو بأسر، أو غنيمة، أو استيلاء على بلد، فيقوى بذلك المؤمنون ويذل الكافرون، وتذهب بعض قوتهم من الأشخاص أو العتاد، ومن نجا منهم من القتل نجا حزيناً كثيراً ضيق النفس، يظهر عليه الخزي والعار، ولم يرد الله استئصالهم، بل استبقى منهم طائفة؛ ليتوب عليهم ويهديهم فيكونوا قوة للمسلمين فيما بعد، وهم من آمن قبل الفتح ويوم الفتح، مثل: أبي سفيان، والحارث بن هشام أخي أبي جهل، وعكرمة بن أبي جهل، وصفوان بن أمية، وخالد بن الوليد.

وعذّب الله منهم طائفة في الدنيا بالأسر أو القتل، مثل: ابن خطل، والنضر بن الحارث.

وبهذا فقد قطع الله دابر طرفٍ من الكفار، وهم الذين قُتلوا يوم بدر.

وانتقم الله من طرف آخر بالكُبت وهو الحزن على قتلاهم، وذهاب رؤسائهم، واختلال أمورهم.

واستبقى منهم طائفة، وهم الذين اهتدوا وأسلموا، فهذه أحوال أربعة لحقت بالمشرّكين يوم بدر:

١- فمنهم من قُتل. ٢- ومنهم من عُدّب بالأسر.

٣- ومنهم من حزن على قتلاه وأسراره. ٤- ومنهم من تاب الله عليه فأسلم.

فهم إما أن ينصرفوا مهزومين مقهورين، وإما أن يعتبروا بانتصار المسلمين فيقودهم هذا إلى التوبة. ويختم الله لهم بالإسلام والهداية.

مَرْجِعُ الْأَمْرِ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى فِي الْهَدَايَةِ وَالضَّلَالِ

١٢٨ - ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذِّبَهُمْ فَإِنَّهُمْ ظَالِمُونَ﴾ (١٢٨)

كان بعض المنافقين قد قال يوم أحد: ﴿لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ مَا قُتِلْنَا هَهُنَا﴾ فبينما كان أحدًا من خلق الله ليس له من أمر النصر أو الهزيمة شيء، ولا حتى رسول الله ﷺ فكأن الكلام على تقدير: ليقطع طرفًا من الذين كفروا، أو يكتبهم، أو يتوب عليهم، أو يعذبهم، فإنهم ظالمون، وليس لك من الأمر شيء، في هدايتهم أو إضلالهم، بل الأمر كله لله في أن يقطع طرفًا منهم فيهمزهم أو يهديهم أو يضلهم.

وعلى هذا فإن جملة ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ﴾ معترضة بين المعطوف والمعطوف عليه هذا معنى. ويصح أن يكون المعنى: ليس لك من الأمر شيء حتى أتوب عليهم، وقد اقتضت حكمة الله تعالى أن يتليهم ليتوب عليهم، أو يؤلّد منهم مَنْ يكون مسلمًا بَرًّا تَقِيًّا، ولأجل هذا منعه الله من الدعاء عليهم؛ لأن دعوته ﷺ مجابة، ولو دعا عليهم لهلكوا، وقد سبق في علم الله تعالى أن منهم من سيتوب، وسيخرج من بعضهم ذرية صالحة مؤمنة، وسيهلك بعضهم بالقتل أو الموت.

وكان النبي ﷺ أخذ يدعو على رؤساء من المشركين، مثل: أبي سفيان بن حرب، وصفوان بن أمية، وسهيل بن عمر، والحارث بن هشام، بسبب ما أصاب النبي ﷺ والمسلمون يوم أحد، فأنزل الله تعالى يقول لرسوله: إن الأمر كله لله، يهدي من يشاء، ويضل من يشاء، ومهمتك هي البلاغ وإرشاد الخلق، فلا تدع عليهم باللعنة والطرده من رحمة الله ونحو ذلك، فأمرهم راجع إلى ربهم إن اقتضت حكمته هدايتهم هداهم، وإن اقتضت بقاءهم على كفرهم أبقاهم، فهم الذين ظلموا أنفسهم وتسببوا في ذلك، وقد تاب الله على هؤلاء الذي سبق ذكرهم فهداهم الله للإسلام، وأخرج من أصلاهم من يوحد الله تعالى.

وفي سبب نزول هذه الآية أقوال:

منها: أن النبي ﷺ كُسِرَتْ رِباعيته يوم أحد، وشُجَّ في جبهته حتى سال الدم على

وجهه، فقال: كيف يُفْلَح قوم شَجُّوا وجه نبيِّهم وهو يدعوهم إلى ربهم؟ فنزلت ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ﴾.

في صحيح مسلم وغيره عن أنس ؓ أن رسول الله ﷺ كُسرَت رِباعيَّته يوم أحد، وشَجَّ في رأسه، فجعل يسَلِّت الدم عنه وهو يقول: «كيف يفلح قوم شَجُّوا وجه نبيِّهم، وكَسَروا رِباعيَّته، وهو يدعوهم إلى الله؟» فأنزل الله ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ﴾^(١).

ومنها: أن النبي ﷺ كان يدعو على رجال من المشركين يسميهم بأسمائهم، حتى نزل قول الله تعالى: ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ﴾ فترك ذلك^(٢).

فآية نزلت في شأن الذين دعا عليهم النبي ﷺ بسبب قصة أُحد.

وفي البخاري وغيره عن أبي هريرة ؓ أن رسول الله ﷺ كان إذا أراد أن يدعو قنَّت بعد الركوع، فربما قال إذا قال: سمع الله لمن حمده: «اللهم ربنا لك الحمد: اللهم أنج الوليد بن الوليد، وسلمة بن هشام، وعياش بن أبي ربيعة، اللهم اشدّد وطأتك على مُضَر، واجعلها سنين، كسني يوسف» - يجهر بذلك - وكان يقول في بعض صلاته في صلاة الفجر: «اللهم العن فلاناً وفلاناً» - لأحياء من العرب - حتى أنزل الله ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ﴾^(٣).

وفي نهاية معركة أُحد خشي النبي ﷺ أن يكون تراجع المشركين من أجل مهاجمة المدينة، فقال لعلي بن أبي طالب: «اخرج في آثار القوم، فانظر ماذا يصنعون؟ فإن هم جنبوا الخيل، وامتطوا الإبل فإنهم يريدون مكة، وإن ركبوا الخيل وساقوا الإبل، فهم يريدون المدينة، فوالذي نفسي بيده، لئن أرادوها لأسيرنَّ إليهم، ثم لأناجزنَّهم فيها»، قال علي: فخرجت في آثارهم، فرأيتهم جنبوا الخيل، وامتطوا الإبل، واتجهوا إلى مكة، وعندما انصرف أبو سفيان نادى: إن موعدكم بدر العام المقبل، فقال الرسول ﷺ لرجل من أصحابه: «قل له: نعم، بيننا وبينك موعد». قال تعالى:

(١) «صحيح مسلم» برقم: (١٧٩١) والبخاري (٤٠٦٩) والترمذي (٣٠٠٢) والنسائي في الكبرى (١١٠٧٧) وأبو يعلى (٣٣٠١، ٣٧٣٨) وغيرهم.

(٢) أحمد (٩٣/٢). برقم (٥٩٩٧) عن ابن عمر بإسناد حسن، ونحو (٥٦٧٤) وانظر (٥٨١٢، ٦٣٤٩).

(٣) «صحيح البخاري» برقم: (٨٠٧، ٤٥٦٠) و«صحيح مسلم» (٤٦٦/١) برقم: (٦٧٥).

١٢٩- ﴿وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمٰوٰتِ وَمَا فِي الْاَرْضِ يَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ وَاللَّهُ غَفُوْرٌ رَّحِيْمٌ﴾

ثم أثبت ﷻ أن جميع الأمور تؤول إليه؛ لتأكيد ما قبله، من أن الأمر كله لله، وليس للرسول منه شيء، وكل ما في الكون في العالم العلوي والسفلي، من الملائكة والإنس والجن والحيوانات والأفلاك والجمادات، الكل ملك لله، خلقًا وتديرًا وحياة وموتًا، وهم دائرون بين مغفرته وتعذيبه، وهو سبحانه يغفر برحمته لمن يشاء من عباده، ويعذب بعذبه من يشاء منهم، لا منازع له في حكمه، ولا معارض له في فعله.

وهو جل شأنه يستر ذنوب عباده، ويرحمهم بترك تعجيل العقوبة بهم في الدنيا.

أَرْبَعَةٌ مِنْ أَسْبَابِ النَّصْرِ عَلَى الْعَدُوِّ

١٣٠- ﴿يٰۤاَيُّهَا الَّذِيْنَ ءٰمَنُوْا لَا تَأْكُلُوْا اٰمَٰلَ الْبِرِّۙ اَصْحٰبُهَا مُصْنَعَةًۭۙ﴾^(١) وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُوْنَ ﴿١٣٠﴾

ثم تمضي الآيات لتبين الصلة بين النصر على العدو، وبين تطبيق منهج الله في أرضه.

فُتُبِّينَ أن من عوامل النصر على العدو ما يلي:

أولاً: ترك التعامل بالرِّبَا؛ إذ كيف يتحقق النصر من مال حرام، ويدخل فيه كل مال غير مشروع للأمة والأفراد.

ثانياً: تقوى الله تعالى والخوف منه في السرِّ والعلانية، وامتنال أمره واجتناب نهيه، والخوف من النار ومن عذابها.

ثالثاً: طاعة الله والرسول، وقد كان درس غزوة أحد بسبب مخالفة الرُّمَّة لأمر القائد ﷺ.

رابعاً: المبادرة إلى أسباب المغفرة والرضوان، وتقوى الله تعالى، ودخول الجنة، والشهادة في سبيل الله.

ثم وصف الله تعالى المتقين بأربعة أوصاف:

١- إنفاق الأموال في حالي الشدة والرخاء، لا سِيَّماً في الجهاد في سبيل الله.

(١) قرأ ابن كثير وابن عامر وأبو جعفر ويعقوب (مُصْنَعَةً) بحذف الألف وتشديد العين، للتكثير، وقرأ الباقرن (مضاعفة) بإثبات الألف وتخفيف العين.

- ٢- عدم مقابلة السيئة بمثلها، والارتقاء بالنفس إلى عدم الغضب وكظم الغيظ.
- ٣- الإحسان في التعامل مع الله تعالى، والإحسان إلى الناس بنفعهم والصفح عنهم أساء منهم، ومقابلة إساءته بالإحسان إليه.
- ٤- التوبة إلى الله تعالى والرجوع إليه عند ارتكاب ذنب صغير أو كبير، وعدم الإصرار على الذنب بتكراره وتبييت النية على ارتكابه.
- أما أكل الربا، فقد نصت الآية على صورته في الجاهلية، وهي مضاعفة الدين عند حلول أجله بالزيادة فيه مقابل الزيادة في الأجل.
- قال مجاهد: كانوا يتعاونون إلى أجل، فإذا حلَّ الأجل، زادوا عليهم، وزادوا في الأجل، فنزلت هذه الآية.
- وقال عطاء: كانت ثقيف تُداين بني النضير في الجاهلية، فإذا جاء الأجل قالوا: نُزْبِكُمْ وتؤخِّروا عنا، فنزلت^(١) ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَأْكُلُوا الرِّبَا أَضْعَافًا مُّضَاعَفَةً﴾ وقد حرّم الله أصل الربا ومضاعفاته.
- وذكر الأضعاف المضاعفة وَصَفٌ للواقع، وليست شرطاً يتعلق بالحكم.
- وفيه تنبيه على شدة شناعة الربا بكثرتة، وتنبيه على حكمة تحريمه لما فيه من الظلم واستغلال حاجة المحتاج.
- ومُحال أن يجتمع إيمان ونظام ربويّ، فإذا وُجد الربا خرج الإيمان، ولا يتحقق النصر على العدو من أموال الربا، كما لا يتحقق النصر عليه من الكسب الحرام؛ كالخمر، والملاهي، والمراقص.
- وهذه الآية تمثل مرحلة من مراحل تحريم الربا، وقد نزل بعدها ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَنْفُوا اللَّهَ وَذَرُّوا مَا بَقِيَ مِنَ الرِّبَا إِن كُنْتُمْ مُّؤْمِنِينَ﴾ [البقرة].
- والمقصود هنا تحريم الربا قليله وكثيره، وأن من عواقب أكله أنه يأتي بالهزائم أمام العدو.

(١) أسباب النزول للسيوطي (٥٨) و«تفسير القرطبي» (٢٠٢/٤) و«زاد المسير» (٤٥٧/١).

فاحذروا الربا - أيُّها المؤمنون - بجميع أنواعه، ولا تأخذوا في القرض زيادة على رؤوس أموالكم وإن قلَّت، فكيف إذا كانت مضاعفة، واتقوا الله بالتزام شرعه رجاء أن تفوزوا في الدنيا والآخرة.

واحذروا - أيُّها المؤمنون - أن تستحلُّوا ما حرَّم الله من الربا وغيره؛ فإنَّ استحلال ما حرَّم الله كفر بالإجماع، يستحق صاحبه عذاب النار، وفي هذا تهديد ووعد للمؤمنين إن لم يتقوا الله ويجتنبوا محارمه. قا تعالى:

١٣١، ١٣٢ - ﴿وَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ ۖ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾

اتقوا الله، فإن فلاح العبد في دنياه وآخره متوقف على تقوى الله، واتقوا الله فإن ترك الشرك والمعاصي والذنوب متوقف على تقوى الله، فترك المعاصي ينجي من النار، وفعل الطاعات يدخل الجنات، وامثال الأوامر واجتناب النواهي من أسباب حصول الرحمة والغفران.

قال أبو حنيفة عن الآية الأولى: هذه أخوف آية في القرآن؛ حيث أوعد الله المؤمنين بالنار المعدَّة للكافرين، إن لم يتقوه في اجتناب ما حرم الله.

في البخاري وغيره عن عديّ بن حاتم قال: قال النبي ﷺ: «ما منكم من أحد إلا وسيكلمه الله يوم القيامة، ليس بين الله وبينه تُرْجُمان، ثم ينظر فلا يرى شيئاً قُدَّامه، ثم ينظر بين يديه فتستقبله النار، فمن استطاع منكم أن يتقي النار ولو بشق تمرَةٍ»^(١).

وبعد أن أمر الله عباده أن يتقوا عذاب النار التي أعدها للكافرين.

أتبع ذلك بتعليق الرجاء في الله تعالى بحصول رحمته وعدم عذابه إن هم أطاعوا الله والرسول، فيما أمرهم به من الطاعات، وما نهاهم عنه من المحرَّمات، ومنه أكل الربا، ولا طاعة لمجتمع يقوم على النظام الربوي، وهو تأكيد بعد تأكيد، ولعل وعسى في جانب الله تعالى للتحقيق.

(١) «صحيح البخاري» برقم: (٦٥٣٩) وانظر: (١٤١٣) و«صحيح مسلم» (٧٠٣/٢) برقم: (١٠١٦).

وَجُوبُ الْمُبَادَرَةِ إِلَى جَنَّةِ اللَّهِ وَرِضْوَانِهِ

١٣٣ - ﴿وَسَارِعُوا^(١) إِلَى مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ﴾

أمر الله عباده بالمسارعة إلى مغفرته، والتسابق إلى جنته، التي أعدها للمتقين، فهم أهلها، والتقوى هي الطريق الموصل لها.

قال ابن إسحاق: في هذه الآية معاتبة للذين عصوا الرسول يوم أحد، ومن شأن المطيعين لله والرسول: أنهم يتسابقون إلى الخيرات والمبررات، والأعمال الصالحة، وإخلاص العبادة لله وحده، وإزالة العقبات من طريق الجنة، وكذا إزالة أسباب العقاب على المخالفات.

فإذا أزلتم الأسباب الموجبة للعقاب، وأخلصتم العبادة لله تعالى، وسابقتهم إلى الأعمال الصالحة فإنكم مسارعون إلى جنة عرضها السموات والأرض، أعدّها الله للمتقين ﴿وَسَارِعُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ﴾ أي: بادروا بطاعتكم لله والرسول، وسارعوا بصالح الأعمال لاغتنام مغفرة الذنوب والفوز بجنة عظيمة الاتساع فوق السموات وتحت العرش، أعدّها الله لمن أخذ بأسباب المغفرة وأسباب دخولها.

وقد نبّه سبحانه بعرض السموات على طولها؛ لأن الطول يكون أكثر من العرض.

وفي سورة أخرى: ﴿سَابِقُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ﴾ [الحديد: ٢١].

ويستفاد من هذا التشبيه: وَصِفُ الْجَنَّةِ بِأَوْسَعِ مَا عَلِمَهُ النَّاسُ مِنَ الْبَسْطِ وَالسَّعَةِ.

وجمهور المفسرين على ظاهر اللفظ من غير تشبيه، بمعنى: أن السموات والأرض تُقَرَّنَانِ ببعضهما، كما تبسط الثياب ويوصل بعضها ببعض، فذلك عرض الجنة^(٢).

وقيل: إن طول الجنة كعرضها؛ لأنها قبة تحت العرش، والشيء المستدير عرضه كطوله، كما ثبت في الصحيح من حديث أبي هريرة ؓ: «إذا سألت الله الجنة فاسأله الفردوس، فإنه أعلى الجنة، وأوسط الجنة، ومنه تفجر أنهار الجنة، وسقفها عرش

(١) قرأ نافع وابن عامر وأبو جعفر (سارعوا) بحذف الواو قبلها على الاستثناف، وقرأ الباقون (وسارعوا) بإثبات الواو عطفًا على قوله تعالى (وأطيعوا الله).

(٢) «فتح القدير» للشوكاني (١/٤٦٣).

الرحمن»^(١) فالجنة فوق السموات وتحت العرش .

وجاء هذا الوصف للجنة في حديث النبي ﷺ فيما رواه أنس رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال لأصحابه يوم بدر: «قوموا إلى جنة عرضها السموات والأرض»، فقال عُمَيْرُ بْنُ الْحُمَامِ الأنصاري: يا رسول الله جنة عرضها السموات والأرض؟ قال: «نعم»، قال: بَخِ بَخِ، فقال ﷺ: «ما يحملك على قولك بَخِ بَخِ؟!» قال: لا والله يا رسول الله، إلا رجاء أن أكون من أهلها، قال: «فإنك من أهلها»، فأخرج تمرات من قرنه، فجعل يأكل منهن، ثم قال: لئن أنا حييتُ حتى آكل تمراتي هذه، إنها لحياة طويلة، قال: فرمى بما كان معه من التمر، ثم قاتلهم حتى قُتِلَ^(٢).

وورد أن هرقل أرسل إلى النبي ﷺ: إنك كتبت تدعوني إلى جنة عرضها السموات والأرض، فأين النار؟ فقال رسول الله ﷺ: «فسبحان الله، فأين الليل إذا جاء النهار؟»^(٣).

قيل في معناه والله أعلم: إن الفلك إذا دار، كان النهار في جانب، والليل في جانب آخر ضده، فكَذَلِكَ الجنة تكون في جهة العلو، والنار في جهة السفلى^(٤).

وروى طارق بن شهاب أن ناسًا من اليهود سألوا عمر بن الخطاب وعنده أصحابه عن ذلك، فقال: أرايتم إذا جاء الليل فأين يكون النهار؟ وإذا جاء النهار فأين يكون الليل؟ فقالوا: لقد نَزَعْتَ مثلها من التوراة^(٥).

ومعناه: حيث يشاء الله، فقد جاء رجل إلى النبي ﷺ فقال: أرايت قوله: ﴿وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ﴾ فأين النار؟ قال: «أرايت الليل إذا لبس كل شيء، فأين

(١) فتح الباري (١٤/٦) وهو من حديث أبي هريرة في «صحيح البخاري» برقم: (٢٧٩٠).

(٢) «صحيح مسلم» (١٩٠١) والمنذر (٩٢٠) والحاكم (٤٢٦/٣).

(٣) رواه أحمد في «المسند» (٤٤٢/٣) من حديث التنوخي برقم (١٥٦٥٥) وهو حديث طويل، والتنوخي لقي النبي ﷺ كافرا ثم أسلم بعد وفاته، وإسناده لا بأس به كما قال ابن كثير في البداية والنهاية (١٥/٥) وقال محققو المسند: حديث غريب وإسناده ضعيف، وأخرجه أبو عبيد في الأموال (٦٢٥) مختصرا وهو في تفسير الطبري (٢١١/٧) وعند البيهقي في الدلائل (٢٦٦/١).

(٤) «تفسير الخازن» للآية.

(٥) تفسير الطبري (٢١١/٧) وابن المنذر (٩١٩).

النهار؟» قال: حيث شاء الله، قال: «فكذلك حيث شاء الله»^(١)

ولا يلزم من عدم مشاهدتنا لليل إذا جاء النهار ألا يكون في مكان، والعكس صحيح؛ لأن الليل يكون في جانب والنهار في جانب، فكذلك الجنة فوق السموات وتحت العرش. ثم وصف الله سبحانه أهل الجنة وهم المتقون من عباد الله بخمس صفات:

خَمْسُ صِفَاتٍ لِلْمُتَّقِينَ وَجَزَاؤُهُمْ فِي الْآخِرَةِ

١٣٤ - ﴿الَّذِينَ يُنْفِقُونَ فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ وَالْكُظَيْمِ الْغَيْظِ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾

الصفة الأولى: ﴿الَّذِينَ يُنْفِقُونَ فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ﴾

أي: ينفقون أموالهم في العسر واليسر، والغنى والفقر، والرخاء والشدة، والفرح والسرور، والمحنة والبلاء، فهم ينفقون المال في جميع أحوالهم في المسرة والمضرة، ولا سِيَّما مواساة فقراء المسلمين، وجهاد العدو، فهم لا يشغلهم أمر عن طاعة الله والإنفاق في مرضاته والبر والإحسان إلى خلقه، وهم إن أيسروا أكثروا من النفقة، وإن أعسروا لم يحتقروا من المعروف شيئا ولو قل.

وأفضل الصدقة، الصدقة على ذى الرحم الكاشح، أى الذى يغضك ويكن عداوتك، فإن الصدقة عليه تمحو عداوته وتستجيب مودته، كما أن أفضل الصدقة، أن تصدق وأنت شحيح بخيل، تخشى الفقر وتأمل الغنى.

في الصحيحين، عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «ما من يوم يصبح فيه العباد إلا ملكان ينزلان، يقول أحدهما: اللهم أعط منفقا خلفا، ويقول الآخر: اللهم أعط ممسكا تلفا»^(٢).

وعن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «أيكم مال وارثه أحب إليه من ماله؟» قال: قالوا: يا رسول الله، ما منا أحد إلا ماله أحب إليه، قال: «فإن ماله ما قدم ومال وارثه ما أخر»^(٣).

(١) كما قال ابن عباس، وكما في حديث أبي هريرة هذا في «المستدرک» (٣٦/١) على شرطهما ومعه الذهبي والبخاري في الكشف (٢١٩٦) قال الهيثمي في «مجمع الزوائد» (٣٢٧/٦) ورجاله رجال الصحيح.

(٢) البخاري (١٤٤٢) ومسلم (١٠١٠).

(٣) البخاري (٦٤٤٢).

الصِّفَةُ الثَّانِيَّةُ: ﴿وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ﴾

والكظم معناه: حبس الشيء عند امتلائه، وهو امتلاء القلب بالحقن الموجب للانتقام بالقول أو الفعل، والذي يَكْظِمُ غيظه، هو الذي إذا امتلأ قلبه غيظاً ردّه إلى جوفه، ولا يُظهره بقول أو فعل، ويصبر عليه ويسكت عنه، ولا يقابل السيئة بمثلها، وكظم الغيظ إخفاؤه؛ حتى لا يظهر عليه أثر الغضب.

وهذه جملة من الأحاديث في ذم الغضب والأمر بكظم:

١- في الصحيحين وغيرهما، عن أبي هريرة رضي الله عنه: «ليس الشديد بالصُّرْعَةِ، إنما الشديد الذي يملك نفسه عند الغضب»^(١).

٢- وعن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «ما تعدُّون فيكم الصُّرْعَةُ؟» قلنا: الذي لا تصرعه الرجال، قال: «لا، ولكن الذي يملك نفسه عند الغضب»^(٢).

٣- وفي حديث ابن عمر رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «ما تجرَّع عبد جرعة أفضل عند الله من جرعة غيظ كظمها ابتغاء وجه الله»^(٣).

والغضب يجمع الشر كله، وعلى الإنسان إذا غضب، أن يُغيّر وضعه ومكانه الذي هو

فيه حال الغضب، ويتوضأ ويصلي حتى يطفئ نار الشيطان.

(١) «المسند» (٢٣٦/٢) برقم (٧٢١٩، ٧٦٤٠) و«صحيح البخاري» برقم: (٦١١٤) و«صحيح مسلم» برقم: (٢٦٠٩).

(٢) الصِّفَةُ الثَّانِيَّةُ: ﴿وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ﴾ (٣٨٢/١) و«صحيح مسلم» برقم: (٢٦٠٨).

(٣) ابن ماجه برقم: (٤١٨٩) وفي صحيح سنن ابن ماجه (٣٣٧٧) والبيهقي في الشعب (٨٣٠٧) والأدب المفرد للبخاري (١٣١٨) و«المسند» (١٢٨/٢) من طريق علي بن عاصم عن يونس بن عبيد برقم: (٦١١٤) واللفظ له، وهو حديث صحيح كما قال محققوه.

٥- وفي الحديث عن ابن عباس رضي الله عنه: «ما من جرعة أحب إلى الله من جرعة غيظ يكظمها عبد ابتغاء وجه الله، إلا ملاً جوفه إيماناً»^(١).

٦- وفي الحديث عن أنس أن رسول الله ﷺ أيضاً: «من كظم غيظاً وهو قادر على أن ينفذه، دعاه الله على رءوس الخلائق، حتى يخيره من أي الحور العين شاء»^(٢).
قال الترمذي: حسن غريب.

٧- وفي حديث أبي هريرة رضي الله عنه أن رجلاً جاء إلى النبي ﷺ فقال: مُرني ولا تكثر عليّ، فلعلي أعقله، فقال: «لا تغضب»، فأعاد عليه فقال: «لا تغضب».

الصِّفَةُ الثَّالِثَةُ: ﴿وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ﴾

إن كظم الغيظ عند أهل التقوى لا يتحول إلى حقد دفين، بل يعفو المظلوم عمن ظلمه، ويكف الشر عمن أذاه، ولا يبقى في نفسه غلٌّ ولا ضغينة لأخيه وهو قادر على الانتقام لنفسه، وليس عن ضعف وذل أو قبول للضميم.

جاء في الأثر: «ينادي مناد يوم القيامة، أين الذين كانت أجورهم على الله؟ فلا يقوم إلا من عفا» ويصدق قول الله سبحانه: ﴿فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ﴾ [الشورى: ٤٠].

وفي الأثر: «إذا كان يوم القيامة نادى مناد يقول: أين العافون عن الناس؟ هلموا إلى ربكم، وخذوا أجوركم، وحق على كل امرئ مسلم إذا عفا أن يدخل الجنة»^(٣).

والعفو عمن أساء بقول أو فعل، أبلغ من كظم الغيظ، لأن العفو ترك المؤاخذة مع السماحة عن المسيء، وهذا لا يكون إلا ممن تحلى بالأخلاق الحميدة، وتخلى عن

(١) راجع: نص الحديث في «المسند» وهو حديث طويل عن ابن عباس (٣٢٧/١) برقم: (٣٠١٥) قال ابن كثير (١٢١/١): انفرد به أحمد، وإسناده حسن، ليس فيه مجروح، ومتمه حسن، وقال محققو المسند: إسناده ضعيف جداً.

(٢) رواه أحمد عن سهل بن معاذ بن أنس عن أبيه (٤٣٨/٣) برقم: (١٥٦٣٧) بإسناد حسن، وأبو داود (٥/١٣٧) برقم (٤٧٧٧) والترمذي «تحفة الأحوذى» (١٣٩/٦) وهو في سنن الترمذي (٢٠٢١، ٢٤٩٣) وأبي يعلى (٤٩٧) وابن ماجه (١٤٠٠/٢) وحسنه الألباني في صحيح ابن ماجه برقم: (٣٣٧٥)، وفي السنن (٤١٨٦).

(٣) رواه الضحاك عن ابن عباس.

الأخلاق الرذيلة، فتاجر مع الله وعفا عن عباده وأحسن إليهم، وكره حصول الشر بينهم، قال تعالى ﴿فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ﴾ [الشورى: ٤٠]

الصفة الرابعة ﴿وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾

الإحسان هو: الإتيان والإجادة، وهو نوعان:

الإحسان في عبادة الخالق، وقد فسر النبي ﷺ بقوله «أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك» ويكون الإحسان مع النفس بالطاعة والتوبة.

والنوع الآخر: هو الإحسان إلى الخلق، فيكون مع الآخرين بالعفو والصفح عمن أساء، فالمحسنون يحسنون في عبادتهم لله تعالى، ويحسنون في التعامل مع الناس، بإيصال النفع الديني والدنيوي لهم أو بدفع الضر عنهم، والإحسان إلى من أساء؛ لأن الإحسان إلى المحسن تجارة، والإحسان أعلى المقامات.

والإحسان بهذا المعنى على أساس أن (ال) للعهد، فإن قلنا: إنها للجنس، فهي تشمل كل إحسان، وكل ما سبق ذكره من باب الإحسان، فالمنفقون أموالهم محسنون، وكظم الغيظ إحسان، والعفو عن الناس إحسان وهكذا؛

فتعليم الجاهل إحسان، ووعظ الغافل إحسان، والصلح بين المتخاصمين إحسان، وقضاء حاجة المحتاج إحسان، والصدقة إحسان، والكلمة الطيبة إحسان، وكف الأذى إحسان.. الخ

وهذه جملة من الأحاديث في الأخلاق الحسنة:

١- فقد جاء في حديث أبي هريرة ؓ أن النبي ﷺ قال: «أكمل المؤمنين إيماناً أحسنهم خلقاً، وخيركم خيركم لنسائهم»^(١).

٢- وفي الحديث عن أبي هريرة ؓ أن رسول الله ﷺ قال: «ما نقصت صدقة من مال،

(١) «صحيح سنن الترمذي» (٩٢٨) وابن أبي شيبة (٣٢٧/٨) والسلسلة الصحيحة (٢٨٤) وابن حبان (٤٧٩) والبيهقي (٢٣٤١) وأبو داود (٤٦٨٢) والحاكم (٣/١) والبيهقي (٧٩٨١)، والمسند (٧٤٠٢، ١٠١٠٦) حديث صحيح وإسناد حسن. (محققه).

وما زاد الله عبدًا بعفوٍ إلا عزًّا، وما تواضع أحد لله إلا رفعه الله»^(١).

٣- وفي حديث عبد الله بن عمرو رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: لم يكن رسول الله ﷺ فاحشًا ولا متفحشًا، وكان يقول: «إن من خياركم أحاسنكم أخلاقًا»^(٢).

٤- وعن أبي الدرداء رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «مَنْ أُعْطِيَ حَظَّهُ من الرفق فقد أُعْطِيَ حَظَّهُ من الخير، ومن حُرِمَ حَظَّهُ من الرفق، فقد حُرِمَ حَظَّهُ من الخير»^(٣).

٥- وعنه رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «ما من شيء أثقل في ميزان المؤمن يوم القيامة من خُلُق حسن، فإن الله يُبْغِضُ الفاحش البذيء»^(٤).

٦- وفي حديث أبي الدرداء رضي الله عنه «وإن صاحب حُسْن الخُلُق ليلبغ به درجة صاحب الصوم والصلاة»^(٥).

٧- وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: سئل رسول الله ﷺ عن أكثر ما يدخل الناس الجنة قال: «تقوى الله وحسن الخلق»، وسئل عن أكثر ما يدخل الناس النار، قال: «الغم والفرج»^(٦).

٨- وفي حديث أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «إن الله لَيُبَلِّغُ العبد بحسن خلقه درجة الصوم والصلاة»^(٧).

٩- وفي حديث أبي ذر رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «اتق الله حيثما كنت، وأتبع السيئة الحسنة تمحها، وخالق الناس بخلق حسن»^(٨).

(١) صحيح مسلم (٢٥٨٨) وانظر أحمد (٢٣١/٤) برقم: (١٨٠٣١) عن أبي كبشة الأنماري، و(٧٢٠٦) بإسناد صحيح على شرط مسلم (محققوه).

(٢) البخاري (٣٥٥٩) ومسلم (٢٣٢١) وابن أبي شيبة (٣٢٦/٨) والترمذي (١٩٧٥).

(٣) «صحيح سنن الترمذي» (١٦٣٧) وفي السنن (٢٠٩٩) والسلسلة الصحيحة (٥١٥، ٨٧٤)، وابن أبي شيبة (٣٢٣ /٨)، وأبو داود (٤٧٩٩) وابن حبان (٤٨١، ٥٦٩٣) والبزار في الكشف (١٩٧٥) والبيهقي في «الأسماء والصفات» (١٠٥٠).

(٤) سنن الترمذي (٢٠٨٧) وصحيح سنن الترمذي (١٦٢٨) والسلسلة الصحيحة (٨٧٦) والروض النضير (٩٤١).

(٥) من حديث أبي الدرداء في الترمذي (٢٠٨٨) وصحيح سنن الترمذي (١٦٢٩). بتصحيح الألباني.

(٦) «صحيح سنن الترمذي» (١٦٣٠) وفي السنن (٢٠٨٩) بإسناد حسن، وابن حبان (٤٧٦) والحاكم (٤/٣٢٤) والبيهقي في «الزهد» (٩٥٥).

(٧) الطبراني في «الكبير» (٣٩٧٠) والحاكم (٦٠/١) و«السلسلة الصحيحة» (٣٥٢/٢).

(٨) «المسند» (٢١٣٥٤، ٢١٤٠٣) والترمذي (١٩٨٨) والحاكم (٥٤/١) قال محققو «المسند»: حسن لغيره، وإسناد رجاله ثقات، وأخرجه البيهقي في الشعب (٨٠٢٦) والدارمي (٢٧٩١).

الصِّفَةُ الْخَامِسَةُ: التَّوْبَةُ مِنَ الصَّغَائِرِ وَالْكِبَائِرِ

١٣٥- ﴿وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ وَمَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ إِلَّا اللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَى مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿١٣٥﴾﴾

ومن صفات المتقين أنهم إذا صدر منهم ذنب صغير أو كبير، أتبعوه بالتوبة والاستغفار، وأسرعوا إلى التوبة، فذكروا ربهم وما وعد به المتقين من الأجر العظيم والنعيم المقيم، وتوعد به المذنبين من الخزي والعذاب المهين، فسألوا الله المغفرة للذنوب، والستر للييوب. والفاحشة: أكبر الذنوب وأفحشها، وكل ما عظم قبحه من الأفعال والأقوال فهو من الغفلة المتجاوزة الحد في الفساد، وتطلق الفاحشة في القرآن غالباً على الزنى، كما قال جابر رضي الله عنه.

وظلم النفس هو الذنب الصغير، من قول أو فعل وهو ما دون الزنى؛ كاللمس والنظرة، ونحو ذلك من سائر الذنوب مع عدم الإصرار؛ لأن الإصرار على الصغيرة يجعلها كبيرة في حق المصير عليها. فإن ارتكب العبد شيئاً من الذنوب الصغيرة أو الكبيرة، فإن من شأنه أن يلجأ إلى التوبة، ويطلب من الله المغفرة مع الندم، والعزم الأكيد على عدم العودة، والإقلاع عن الذنب في الحال، وقضاء الفوائت، ورد المظالم، مستصحباً في ذلك وعد الله ووعيده، وسؤاله عن ذنبه يوم الفرع الأكبر، وهو موقن أنه لا يغفر الذنوب إلا الله، ولذلك فهو لا يقيم على معصية، ويعلم أنه إذا تاب، تاب الله عليه.

وجملة ﴿وَمَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ إِلَّا اللَّهُ﴾ معترضة بين المعطوف والمعطوف عليه، تطييباً لنفوس العباد، وحثاً على التوبة، وردعاً عن اليأس والقنوط، وبياناً لسعة رحمة الله تعالى وقرب مغفرته، وإشعاراً للنفوس بأن الذنوب وإن عظمت، فإن عفو الله أعظم، والاستغفار: طلب الغفران، وهو ستر الذنوب، ولا يطلب مغفرة الذنوب والصفح عنها إلا من أقلع وترك الذنب، أما المستمر على ارتكاب الذنب فكيف يطلب المغفرة؟ والعبد لا يطلب المغفرة إلا من الله تعالى؛ لأنه القادر على عقاب المذنب، والقادر على إزالة العقاب عنه، فلا يجوز طلب الغفران إلا منه سبحانه.

أُتي بأسير إلى النبي ﷺ فقال: اللهم إني أتوب إليك، ولا أتوب إلى محمد، فقال

النبي ﷺ: «عرف الحق لأهله»^(١).

والمسلم لا يقيم على الذنب ولا يثبت عليه، ولا يُصر على ذنب صغير ولا كبير، وإنما يتوب من قريب.

إذ لا إصرار مع الندم والاستغفار، ولا كبيرة مع الاستغفار والتوبة، ولا صغيرة مع الإصرار والاستمرار.

جاء في الحديث عن عبد الله بن عمرو بن العاص أن النبي ﷺ قال: وهو على المنبر: «... ويل للمُصرِّين، الذين يصرون على ما فعلوا وهم يعلمون»^(٢).

قيل: لما نزلت هذه الآية بكى إبليس^(٣).

مِنْ أَسْبَابِ النَّزُولِ:

١- قال ابن مسعود رضي الله عنه، قال المؤمنون للنبي ﷺ: كانت بنو إسرائيل أكرم على الله منا، كان أحدهم إذا أذنب ذنباً أصبحت كفارة ذنبه مكتوبة على عتبة بابه: اجدع أنفك، اجدع أذنك، افعل كذا، فسكت رسول الله ﷺ فنزل: ﴿وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ﴾^(٤).

٢- وقال عطاء عن ابن عباس: نزلت الآية في نهبان التمار أته امرأة حسناء فضمها إلى نفسه وقبَّلها، ثم ندم على ذلك، فأتى النبي ﷺ وذكر له ذلك، فنزلت الآية^(٥).

٣- وفي رواية أبي صالح عن ابن عباس رضي الله عنه أن النبي ﷺ أخى بين أنصاري وثقفي،

(١) أخرجه أحمد في «المسند» (٤٣٥/٣) من حديث الأسود بن سريع ورقمه: (١٥٥٨٧)، وهو حديث ضعيف لأن الحسن البصري لم يسمع من الأسود كما قال محققوه، وهو عند الطبراني في الكبير (٨٣٩) والحاكم (٢٥٥/٤) والبيهقي في الشعب (٤٤٢٥).

(٢) أخرجه أحمد (١٦٥/٢) من حديث عبد الله بن عمرو ورقمه بتحقيق أحمد شاکر (٦٥٤١، ٧٠٤١) بإسناد حسن وصححه السيوطي في الجامع الصغير (٤٧٥/١) وفي «صحيح الجامع» (٣٠٨/١) وقال المنذري في «الترغيب والترهيب» (١٥٥١٣) إسناده جيد، وأخرجه البخاري في الأدب المفرد (٣٨٠).

(٣) جاء هذا في حديث أنس عند عبد الرزاق (١٣٣/١) وتفسير الطبري (٢٢٠/٧) وليس فيه أنس

(٤) أسباب النزول للواحدي (١٠٥)

(٥) الواحدي (١٠٥) و«زاد المسير» (٤٦١/١)

فخرج الثقفي في غزوة واستخلف الأنصاري على أهله، فاشترى لهم لحماً ذات يوم، فلما أرادت المرأة أن تأخذ اللحم قبل يدها، ثم ندم وانصرف، ووضع التراب على رأسه، وهام على وجهه، فلما رجع الثقفي، لم يستقبله الأنصاري، فسأل امرأته عن حاله، فقالت: لا أكثر الله في الإخوان مثله، وذكر له ما حدث، والأنصاري يسبح في الجبال تائباً نادماً مستغفراً، فطلبه الثقفي حتى وجده، فأتى به إلى أبي بكر، فقال أبو بكر: ويحك، أما علمت أن الله تعالى يغار للغازي ما لا يغار للمقيم، ثم لقيا عمر، فقال لهما مثل ذلك، فأتيا النبي ﷺ فقال لهما مثل ذلك، فأنزل الله الآية، ومثلها قوله تعالى: ﴿وَمَنْ يَعْمَلْ سُوءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ اللَّهَ يَجِدِ اللَّهَ غَفُورًا رَحِيمًا﴾ [النساء: ١١٠].

والإسلام بهذا يقبل عشرة الضعيف، ويملا نفسه بالحياء والرجاء والأمل والطمع في مغفرة الله تعالى، ويشير فيها داعي التوبة والندم والإقلاع والاستغفار، ولا يشير فيها الاستهتار. أما المستهترون المصرون على الذنوب فهم خارج الأسوار، مؤصدة في وجوههم الأبواب ﴿إِنَّمَا التَّوْبَةُ عَلَى اللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السُّوءَ بِجَهَالَةٍ﴾ [النساء: ١٧].

وقد ورد الكثير من الأحاديث ترغب في التوبة، منها:

١- ما جاء في الحديث عن أبي هريرة ؓ: أن العبد إذا أذنب ذنباً ثم رجع إلى الله، وتكرر هذا بضع مرات، فإن الله تعالى يقول: «علم عبدي أن له رباً يغفر الذنب، ويأخذ به، أشهدكم أنني قد غفرت لعبدي فليعمل ما شاء»^(١).

٢- وفي الحديث القدسي عن أنس ؓ قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: قال الله تعالى: «يا بن آدم: إنك ما دعوتني ورجوتني غفرت لك على ما كان منك ولا أبالي، يا بن آدم: لو بلغت ذنوبك عنان السماء، ثم استغفرتني غفرت لك، يا بن آدم إنك لو أتيتني بقراب الأرض خطايا، ثم لقيتني لا تشرك بي شيئاً لأتيتك بقرابها مغفرة»^(٢).

(١) يُنظر الحديث عند أحمد في «المسند» (٢٩٦/٢) برقم: (١٠٣٧٩) والصحيح مع الفتح (٤٧٤/١٣) بنحوه ورقمه في البخاري: (٥٧٠٧) وفي مسلم برقم: (٢٧٥٨) عن أبي هريرة وأوله (أذنب عبد ذنباً).

(٢) قال الترمذي: حديث حسن صحيح برقم: (٣٥٤٠) وهو في «المسند» عن أبي ذر (٢١٥٠٥) و(٢١٤٧٢) حديث حسن (محققه)، وأخرجه الدارمي (٢٧٨٨) والبيهقي في الشعب (١٠٤٢).

٣- وفي الحديث القدسي أيضًا عن أبي ذر رضي الله عنه عن النبي ﷺ فيما يرويه عن ربه: «يا عبادي إنكم تخطئون بالليل والنهار وأنا أغفر الذنوب جميعًا فاستغفروني أغفر لكم»^(١).

٤- وفي حديث أبي موسى رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «إن الله سبحانه يبسط يده بالليل ليتوب مُسِيء النهار، ويبسط يده بالنهار حتى يتوب مَسِيء الليل، حتى تطلع الشمس من مغربها»^(٢).

٥- وعن أبي بكر الصديق رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «ما من رجل يذنب ذنبًا، فيتوضأ فيحسن الوضوء، قال سفيان: ثم يصلي ركعتين، فيستغفر الله عز وجل، إلا غُفِرَ له» زاد في رواية: ثم قرأ الآية^(٣).

٦- وعن أبي سعيد رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «إن الشيطان قال: وعزتك يا رب لا أبرح أغوي عبادك، مادامت أرواحهم في أجسادهم، قال الرب: وعزتي وجلالي لا أزال أغفر لهم ما استغفروني»^(٤).

قال تعالى في جزاء أهل التقوى، الموصوفون بالصفات السابقة:

١٣٦ - ﴿أُولَٰئِكَ جَزَاءُهم مَّغْفَرَةٌ مِّن رَّبِّهم وَجَنَّتْ تَجْرِي مِّن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَنِعَمَ أَجْرُ الْعَمِلِينَ﴾

يَبَيِّنُ سبحانه أن الموصوفين بالإتفاق في سبيل الله، وكظم الغيظ، والعفو عن الناس،

(١) من حديث أبي ذر في «صحيح مسلم» برقم: (٢٥٧٧).

(٢) المسند (١٩٥٢٩، ١٩٦١٩) بإسناد صحيح على شرط الشيخين، وهو في صحيح مسلم (٢٧٥٩) والطيالسي (٤٩٠) والنسائي في الكبرى (١١١٨٠) وأبي الشيخ في العظمة (١٢٩) وعبد بن حميد في المنتخب (٥٦٢).

(٣) «المسند» (٢، ٤٧، ٤٨) بإسناد صحيح ورجال ثقات، كما قال محققوه. والطيالسي وابن أبي شيبة (٢/ ٣٨٧) و«صحيح سنن أبي داود» (١٣٤٦) والترمذي (٤٠٦، ٣٠٠٦) والنسائي في «السنن الكبرى» (١٠٢٤٧، ١١٠٧٨) وابن ماجه (١٣٩٥) وابن حبان (٦٢٣) وغيرهم.

(٤) «المسند» (١١٢٣٧، ١١٢٤٤) حديث حسن، وأخرجه أبو يعلى (١٣٩٩) والبغوي في شرح السنة (١٢٩٣) والحاكم (٢٦١/٤) وصححه بموافقة الذهبي، قال الهيثمي في مجمع الزوائد (٢٠٧/١٠): رواه أحمد وأبو يعلى والطبراني في الأوسط، وأحد إسناده أحمد رجاله رجال الصحيح، وكذلك أحد إسناده أبي يعلى.

والإحسان إليهم، والتوبة، وعدم الإصرار على الذنب، جزاؤهم أن يستر الله ذنوبهم، بمعنى أنه لا يصل إليهم عقاب من الله تعالى، وهو مقتضى غفران الذنب، وجزاؤهم أيضًا وصول الثواب إليهم ممثلًا في جنات تجري من تحت أشجارها وقصورها المياه العذبة، وأجرهم دائم، يخلدون فيها، ولا يخرجون منها، ونعمت الجنة ثوابًا للمطيعين من عباد الله تعالى، بما فيها من النعيم المقيم، والبهجة والسرور، لا يحولون عنها ولا يغبون عنها حولًا، ونعم العمل عملهم، ونعم الجزاء جزاؤهم يجده التقيّ كاملاً موفورًا.

الاعتبارُ بأحوالِ الأممِ

١٣٧ - ﴿قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ﴾ ﴿١٣٧﴾

في أعقاب غزوة أحد يُعزّي الله عباده المؤمنين ويسليهم، فيخبرهم أنه قد مضى قبلهم أجيال وأمم كثيرة، امتحنهم الله تعالى وابتلاهم بقتال الكافرين، وكانت العاقبة للمتقين والنصر لعباده المؤمنين، وخُذْلان الكافرين وعاقبتهم في الدنيا بخراب ديارهم وزوال ملكهم، وسلطانهم، ولهم في الآخرة عذاب عظيم.

والآيات من قول الله تبارك وتعالى: ﴿وَإِذْ عَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ﴾ إلى ستين آية بعدها من سورة آل عمران، هذا القدر الكبير، يتناول أحداث غزوة أحد بالتحليل والتفصيل، وذُكِرَت الأسباب التي أدت إلى الهزيمة بعد النصر؛ لأن ما بُلي به المسلمون في هذه الغزوة، كان أول حَدِيثٍ يعرض لهم من نوعه.

والله ﷻ يُرَبِّي هذه الأمة؛ لتقود الناس إلى يوم القيامة، يعلمهم أسباب النصر والهزيمة، يربّيهم ويلقّنهم الدروس المستفادة من أول لقاء تنكّب فيه المسلمون طريق النصر.

حيث بيّن الله ﷻ أن نصر المشركين في غزوة أحد، حدث عابر، ونصّر المشركين والكفار على المسلمين في كل زمان ومكان مرتبط بعلّة مؤقتة، وبوقت معين، وليس هو مقتضى سنة الله ﷻ في هذا الكون، فقد بيّن الله جلّ وعلا أن من سننه في خلقه إهلاك الأمم الكافرة، فكل من كذّب بالله، وبرسل الله، وآيات الله، كانت عاقبته إلى هلاك، انظروا وتأملوا عاقبة المكذبين في الأمم جميعًا: قوم نوح، وقوم هود، وقوم صالح، وقوم لوط، وأهل مدين... وغيرهم.

يشير إلى ذلك قول الحق تبارك وتعالى: ﴿قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِكُمْ سُنَنٌ﴾ أمثلة كثيرة: هي مقتضى سنة الله في خلقه، والآية تذكرنا بحقيقة تاريخية هامة، وهي الاعتبار بأحوال الأمم، وأن سنة الله تعالى قد اقتضت أن تكون أحوال الدنيا سجلاً، جارية على طريقة واحدة، هي عادة الله تعالى في خلقه، وهي أن قوة الظالمين، وعُتُوهم على الضعفاء أمر زائل، والعاقبة للمتقين.

فانظروا في آثار المكذبين برسل الله، وابحثوا في أسباب هلاكهم، وكيف كانوا قبل ذلك قوة طاغية، فاستأصلهم الله تعالى، وكثير منهم في بلاد العرب، كقوم عاد وثمود وأصحاب الأيكة وأصحاب الرّس، والسّير في الأرض يكون حسياً بالبدن عن طريق السياحة والسفر، ويكون السير معنوياً بقراءة التاريخ، ومطالعة أحوال الأمم والاعتبار بها.

وهذه الآية تشير إلى أن الله ﷻ يربط الأسباب بالمُسببات، فالنصر على العدو يحتاج إلى طاعة لله والرسول، يحتاج إلى قوة إيمان، وإلى إعداد العُدّة، فإذا أخذ المسلمون بهذه الأسباب، فإنهم منتصرون بحول الله تبارك وتعالى على عدوهم، وإذا خالفوا أمر الله وأمر رسوله، تخلف عنهم هذا النصر، كما حدث من الخمسين رامياً الذين عيّنهم النبي ﷺ يحمون ظهور المسلمين في غزوة أحد، حينما رأوا الغنائم التي خلفها المشركون بعد أن انهزموا وولّوا الأدبار، نزلوا إلى الغنائم في بطن الوادي، وسعوا وراء الدنيا وتركوا أماكنهم، مخالفين بذلك طاعة الرسول ﷺ فكانت النتيجة هذا الدرس القاسي، هذه سنة الله في خلقه إلى قيام الساعة.

فكلما اقترب المسلمون من ربهم، فامثلوا أمر الله ﷻ، ووصلوا حبالهم بالعلي الأعلى، فإنهم منصورون على عدوهم، وكلما ابتعدوا عن ربهم فإنهم يلقون الدروس الممحصّة كما حدث في غزوة أحد.

فالأرض مسرح للحياة البشرية، وما جرى لمكذبي اليوم يجري مثله لمكذبي الغد، وفي الدعوة إلى تأمل أحوال الأمم الماضية، تسلية عما حدث للمسلمين يوم أحد، وفيه ربط للماضي بالحاضر. قال تعالى:

١٣٨ - ﴿هَذَا بَيَانٌ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِلْمُتَّقِينَ﴾

الإشارة بـ (هذا) إما أن تعود على ما أوقعه الله بالمكذبين لرسول الله ﷺ من الهلاك فيكون فيه حكمة ودلالة ظاهرة، تبين الحق من الباطل، والهدى من الضلال، وتبين الصادق من الكاذب في مجال الابتلاء، وملاقاة الأعداء.

ويصح أن يعود اسم الإشارة على القرآن وما تضمنه من كل ما سبق.

والمعنى: وفي هذا القرآن، وما حدث في يوم أحد، وما نزل بالمكذبين من هلاك، في كل هذا بيان وإرشاد إلى طريق الحق، وتذكير للناس، تخضع له قلوب الذين يخشون ربهم، فهم الذين ينتفعون بالموعظة، وفيه هدى من الضلالة، وإزالة لما علق ببعض النفوس من شبهات حول هزيمة المسلمين في أحد، فالبيان هو الكلام الذي يهدي إلى الحق ويزيل الشبهة بعد حصولها، وهو الكلام الزاجر عما ينبغي تركه.

والهدى: هو الإرشاد إلى ما فيه الخير في الحال والاستقبال.

والموعظة: هي الترغيب والترهيب للحث على ما ينبغي فعله أو تركه؛ حتى يحذروا الفساد، ولا يغتروا بغيرهم ويتزعموا المسببات من الأسباب.

أما غير المتقين فإن في هذا بيان لهم تقوم به الحجة عليهم، ليهلك من هلك عن بينة.

النَّهْيُ عَنْ أَسْبَابِ الْفَشْلِ وَالْوَهْنِ

١٣٩- ﴿وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنْتُمْ الْأَعْلَوْنَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾

ثم نهى الله المسلمين عن أسباب الفشل والوهن والضعف، وبيّن أن ما حدث للمسلمين في يوم أحد، وما يحدث في أمثاله على مدى التاريخ إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها من نكبات وهزات وانتكاسات، لا ينبغي أن تكون سبباً في ضعفهم، ولا في وهنهم، ولا في حزن قلوبهم ولا في قعودهم عن الجهاد، ولا في عدم تعلّمهم وتعليم أبنائهم أسباب الحرب والجهاد؛ فإن الجهاد ماضٍ في هذه الأمة إلى قيام الساعة، الجهاد ماضٍ بين الحق والباطل إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها، وإلى أن يهزم اليهود في نهاية الأمر، ويختبئ اليهودي وراء الحجر ويُنطقُ اللهُ الحجر، ويقول: يا مسلم هذا يهودي ورائي فاقتله.

قال ابن عباس: انهزم أصحاب رسول الله ﷺ يوم أُحُد، فبينما هم كذلك إذ أقبل خالد بن الوليد بخيل المشركين، يريد أن يعلو عليهم الخيل، فقال النبي ﷺ: «اللهم لا يعلون علينا، اللهم لا قوة لنا إلا بك، اللهم ليس يعبدك بهذه البلدة غير هؤلاء النفر»، فأنزل الله تعالى هذه الآيات، وثاب نفر من المسلمين رماة، فصعدوا الجبل، ورموا خيل المشركين حتى هزموهم.

وفي الآية تعزية لأصحاب محمد ﷺ، وحث لهم على قتال عدوهم، نهى لهم عن العجز والوهن في طلب عدوهم.

فلا تهنوا، ولا تضعفوا، ولا تجبنوا، ولا تقعدوا عن القتال، ولا تتركوا تعليم أبنائكم آيات الجهاد وأحاديث الجهاد وفنون الحرب والقتال، فأنتم الأعلون بربكم، أنتم الأعلون بمنهجكم، بعقيدتكم، تسجدون لله، وهم يسجدون لغير الله، أنتم تحكمون بشرع الله، وهم يُحكمون شرع البشر، وأنتم الأعلون؛ فقتلكم في الجنة وقتلهم في النار، أنتم الفائزون المنتصرون بشرط تحقق الإيمان فيكم، فأنتم الغالبون المنتصرون على عدوكم إن شاء الله.

يَوْمُ لَكَ وَيَوْمُ عَلَيْكَ

١٤٠- ﴿إِنْ يَمَسُّكُمْ فَرْحٌ^(١) فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ فَرْحٌ^(١) وَمِنْكَ الْآيَاتُ تُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَيَتَّخِذَ مِنْكُمْ شُهَدَاءً وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ ﴿١٤١﴾

وإن هُزمتُم يوم أحد فقد هُزم المشركون يوم بدر، فلا ينبغي للمسلمين إن أصابهم جراح أو أصابتهم هزائم أن يضعفوا ويقعدوا عن الجهاد ويتكسوا، وإنما يفيقون إلى رشدهم، ويرجعون إلى الله، ويأخذون بالأسباب، فإن هذه الحرب سجال، يوم لك ويوم عليك.

والله سبحانه يشدد المحنة على الكفار تارة، وعلى المؤمنين تارة، وذلك لو أنه تعالى شدد المحنة على الكفار دائماً، لعلم الناس بالضرورة أن الإيمان حق وما عداه باطل، فلا يكون هناك حاجة للثواب والعقاب، والجنة والنار، ومن جهة أخرى فإن المؤمن حين يخرج عن حدِّ الطاعة أحياناً فإنه يحتاج إلى أدب وتمحيص فيُتلى بالشدائد، أما ابتلاء

(١) قرأ شعبة وحمزة والكسائي وخلف العاشر (قُرُح) بضم القاف في الكلمتين معاً، وقرأ الباقر (قَرْح) بفتح القاف في الكلمتين معاً وهما لغتان، مثل الضَّعْف والضُّعْف وقيل: القَرْح بالفتح: الجرح، وبالضم: أَلَمُه

الكافر بالشدائد فهو غضب من الله عليه^(١).

﴿إِنْ يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِّثْلُهُ﴾ إن يمسسكم جراح من قتل، أو هزيمة، أو غير ذلك فقد مس المشركين قرح مثله في يوم بدر وغيرها من معارك المسلمين، فأنتم وهم قد تساويتم في القرح، ولكنكم ترجون من الله ما لا يرجون ﴿إِنْ تَكُونُوا تَأْلُمُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْلُمُونَ كَمَا تَأْلُمُونَ وَتَرْجُونَ مِنَ اللَّهِ مَا لَا يَرْجُونَ﴾ [النساء: ١٠٤]

ومن حكمة الله تعالى أنه يعطي في الدنيا: المؤمن والكافر، والبر والفاجر، فيداول الأيام بين الناس، يوم لهذه الطائفة ويوم لتلك، وهذا بخلاف الدار الآخرة، فإنها تكون خالصة للمؤمنين ﴿وَتِلْكَ الْآيَاتُ نُذَوِّلُهَا لِلَّذِينَ آمَنُوا﴾ قال تعالى: ﴿قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا خَالِصَةٌ يَوْمَ الْقِيَمَةِ﴾ [الأعراف: ٣٢].

قال راشد بن سعد: لما انصرف النبي ﷺ من أحد كئيلاً حزيناً، كانت المرأة تأتي بزوجها وابنها مقتولين، فقال النبي ﷺ: «أهكذا يفعل برسولك؟» فأنزل الله ﴿إِنْ يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِّثْلُهُ﴾^(٢).

والمراد بالقرح: ما أصاب المسلمين يوم أحد من القتل والأسر.

ثم ما الحكمة؟ وما العلة في هذه المحن والهزائم؟ والله سبحانه يذكر لنا خمساً منها، يبينها في قوله: ﴿وَلْيَعْلَمَ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَيَتَّخِذَ مِنْكُمْ شُهَدَاءَ﴾.

حِكْمُ سِتِّ فِي ابْتِلَاءَاتِ الْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ أُحُدٍ

الحكمة الأولى: تمييز الصادقين في إيمانهم:

وذلك أن يميّز الله سبحانه المؤمنين صادقي الإيمان، صادقي العزم والجهاد مع الله ﷻ من غيرهم، ابتلاءً وتحميضاً للمسلمين، ليتبين المؤمن من المنافق كما حدث في غزوة أحد التي نزلت بسببها الآيات وهي دروس عامة مستفادة إلى يوم القيامة، وإذا كان السبب خاصاً فقد ميّز الله سبحانه المنافقين من المؤمنين، حيث رجع عبد الله بن أبيّ بن سلول وهو رأس النفاق والمنافقين من الطريق بثلاث الجيش، وواصل المؤمنون الصادقون سيرهم مع رسول الله ﷺ إلى أن خاضوا المعركة ﴿وَلْيَعْلَمَ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ الذين انتصروا في

(١) يُنْظَرُ تَفْسِيرَ الْفَخْرِ الرَّازِي (٦٥/٩).

(٢) النيسابوري (١٠٦) والسيوطي (٥٨).

غزوة أحد أول الأمر، حيث هُزم المشركون وقُتل منهم أكثر من عشرين وسقط علم المشركين، ولم يتقدم منهم أحد لرفعه حتى رفعته امرأة، فتجمَّعوا حولها، ثم كانت الغلبة للمشركين لما خرج أكثر الرماة عن أمر الرسول، فأصاب المسلمين ما أصابهم، ولولا أن الأيام دُول ما أودى المؤمنون، ولكن يدال للكافر من المؤمن، ويُبْتَلَى المؤمن بالكافر؛ ليعلم الله من يطيعه ممن يعصيه، ويعلم الصادق من الكاذب، أي يظهر ذلك في عالم الوجود. ولو كان النصر حليف المؤمنين دائما لدخل في الإسلام من لا يريده.

والحكمة الثانية: اتخاذ الشهداء

وذلك أن يتخذ الله من المؤمنين شهداء يصطفِيهم، فالشهداء يختارهم رب العالمين، ويرجع المسلمون من ساحة المعركة إما بالنصر أو الشهادة، أما الهزيمة فليست من شأن المؤمن؛ فالشهيد يُختار ويصطفى من بين المقاتلين لينال هذا الشرف ﴿وَيَتَّخِذُ مِنْكُمْ شُهَدَاءَ﴾ والشهادة من أرفع المنازل، ولا سبيل لئيلها إلا بحصول أسبابها، أما الذين ظلموا أنفسهم وقعدوا عن الجهاد فإن الله يبغضهم ﴿وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ﴾.

الحِكمةُ الثالثة: تَمْحِصُ الْمُؤْمِنِينَ

١٤١- ﴿وَلِيُمَحِّصَ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَيَمْحَقَ الْكَافِرِينَ﴾

﴿وَلِيُمَحِّصَ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ ويطهرهم من الذنوب والموبقات والخطايا التي يرتكبونها ويخالفون بها أوامر الله ﷻ، فإن الشهادة والجهاد في سبيل الله يكفر الذنوب، فهذه الهزيمة كانت اختباراً وتصفية للمؤمنين، وتخليصاً لهم من المنافقين.

أما الحكمة الرابعة: فهي محق الكافرين، فيهلكهم الله ويستأصل شأفتهم عقوبة لهم، وهو أمر قد تحقق على أيدي المسلمين بعد تجاوز المحنة، واستخلاص النصر من الهزيمة، ولو دام النصر لغير المسلمين لازدادوا طغياناً إلى طغيانهم.

الحِكمةُ الخامسة: مُكَافَأَةُ الْمُجَاهِدِينَ بِدُخُولِ الْجَنَّةِ:

١٤٢- ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ وَيَعْلَمَ الصَّابِرِينَ﴾

ودخول الجنة محفوف بالمكافأة، ليس سهلاً، وإنما يحتاج إلى جهاد وصبر ودعوة وابتلاء ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ﴾ أظنتم أنكم تدخلون الجنة دون ابتلاء بالقتال

والشدائد، وصبر على ألم الجراح، وقتل في سبيل الله يدخلكم به الجنة كما دخل غيركم، والله يعلم ذلك، ولكن يتلى به عباده؛ ليظهر أفعال العباد في عالم الوجود، والملائكة تكتب ما يفعل وما يُقال ولا تعلم ما في الصدور، وإنما يعلمه رب العالمين وحده، فإذا أراد الله سبحانه أمرًا أظهره في عالم الوجود لتسجله الملائكة وليطّلع خلقه عليه، وهذا معنى علم الله تعالى في قوله: ﴿وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ وَيَعْلَمَ الْقَصِيرِينَ﴾ أي: ليظهر علمه لخلقه؛ إذ ليس الإيمان بالتمني وليس طلب الشهادة بمجرد القول وإنما بالفعل والتفاني فيه، فقد تمنى الشهادة أصحاب النبي ﷺ، فوظنوا أنفسهم لها وعملوا ما يؤهلهم لنيلها.

وفي معنى هذه الآية قوله تعالى: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تُدْخَلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُمْ مَثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ مَسَّتْهُمُ الْبَأْسَاءُ وَالضَّرَاءُ وَزُلْزَلُوا حَتَّى يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ مَتَى نَصْرُ اللَّهِ أَلَا إِنَّ نَصْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ﴾ [البقرة].

وقوله تعالى: ﴿أَحَسِبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ﴾ [٢] وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ﴾ [العنكبوت].

وهكذا: أنكر الله ﷻ في هذه الآية على من ظن أنه يدخل الجنة دون أن يتلى بشدائد التكليف التي يحصل بها الفرق بين الصابر المخلص في دينه وبين غيره.

وبعد غزوة بدر لما استشهد من استشهد، ورأى الشهداء ما هم فيه من النعيم، وأنهم أحياء عند ربهم يرزقون، يفرحون ويستبشرون قالوا: من يبلغ عنا إخواننا في الدنيا ما نحن فيه من هذا النعيم فيلحقوا بنا، قال الله ﷻ: أنا أبلغهم عنكم، وأنزل الله سبحانه الآيات ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا﴾ لقد تمنى بعض الصحابة أن يلحقوا بهم، وأن يموتوا في المعركة شهداء بأيدي الكفار كما حدث يوم بدر، فأشهدهم الله يوم أحد^(١).

والآيات قبل أن تفصل الحديث عن يوم أحد ذكرت المؤمنين بالنتائج الطيبة التي حصلوا عليها يوم بدر.

(١) يُنظر: السيوطي (٥٩) و«زاد المسير» (١/٤٦٨).

الْحِكْمَةُ السَّادِسَةُ: عَدَمُ تَمَنِّي لِقَاءِ الْعَدُوِّ

١٤٣- ﴿وَلَقَدْ كُنْتُمْ تَمَنَّوْنَ الْمَوْتَ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَلْقَوْهُ فَقَدْ رَأَيْتُمُوهُ وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ﴾ (٢٦)

وبعض الذين أشاروا على النبي ﷺ بالخروج إلى المشركين في يوم أحد تمنّوا القتال، ولكنهم قعدوا وتقاعدوا، والله سبحانه ينكر عليهم ذلك فقد وبّخهم في قوله: ﴿وَلَقَدْ كُنْتُمْ تَمَنَّوْنَ الْمَوْتَ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَلْقَوْهُ فَقَدْ رَأَيْتُمُوهُ﴾ بأعينكم ﴿وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ﴾.

وقيل: إن قوماً من المسلمين تمنّوا يوماً كيوم بدر، يقاتلون فيه ويُسْتَشْهِدُونَ، فأراهم الله يوم أحد، فيها هو قد حصل لكم ما تمنيتم وطلبتم، فدونكم فقاتلوا وصابروا.

وفي الحديث: عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «لَا تَتَمَنَّوْا لِقَاءَ الْعَدُوِّ، وسلوا الله العافية فإذا لقيتموهم فاصبروا، واعلموا أن الجنة تحت ظلال السيوف»^(٢).

وفي الآية عتاب للمنهزمين في تمنّيهم الشهادة، وهم لم يشبوا حتى يُسْتَشْهِدُوا، وعتاب لهم على تمنّيهم الحرب، ثم جُنبهم وتخاذلهم بعد ذلك، أما طلب الشهادة في سبيل الله لنصرة دين الله فهذا أمر محمود، فقد كان من أقوال النبي ﷺ: «وددت أني أُقْتَلُ في سبيل الله ثم أحيأ، ثم أُقْتَلُ ثم أحيأ، ثم أُقْتَلُ» وقال عمر رضي الله عنه: اللهم إني أسألك شهادة في سبيلك.

وقد خاض خالد بن الوليد مئة غزوة وغزوة وما في بدنه موضع شبر إلا وفيه ضربة بسيف أو طعنة برمح أو رمية بسهم، ولما جاءه الموت وهو على فراشه، أخذ يؤنب نفسه ويقول: وها أنا ذا أموت على فراشي كما يموت البعير، فلا نامت أعين الجبناء.

الرُّسُلُ يَمُوتُونَ وَالرَّسَالَةُ تَبْقَى

١٤٤- ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِنْ مَاتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلَىٰ

(١) قرأ البزي بخلف عنه بتشديد التاء وضلة ميم الجمع مع المد ست حركات وصلًا لتشديد التاء الثانية من (كنتم تمنون) لأن أصلها (تمنون) فأدغمت التاء في التاء، وإذا وقف على (كنتم) بدأ بتخفيف التاء من (تمنون) والباقون بالقصر وعدم التشديد.

(٢) فتح الباري (١/١٨١) ورقمه في البخاري معلقا (٣٠٢٦) وانظر (٢٨١٨، ٧٢٣٧) ومسلم (٣/١٣٦٢) برقم: (١٧٤١)

أَعْقَبِكُمْ وَمَنْ يَنْقَلِبْ عَلَى عَقْبَيْهِ فَلَنْ يَضُرَّ اللَّهَ شَيْئًا وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ ﴿١٤٤﴾

ولما أشيع أن النبي ﷺ قُتل في غزوة أحد بعد أن ضربه ابن قمئة بحجر في وجهه فسأل منه الدم، ورجع ابن قمئة يُخبر القوم أن محمداً قد مات، وصاح الشيطان في وسط المعركة: إن محمداً قد مات.

فقال ضعاف الإيمان: علام نقتل أنفسنا مادام محمد قد مات، فلماذا نقاتل؟

ومنهم من قال: ارجعوا إلى دين قومكم.

ولما نهض رسول الله ﷺ من الحفرة التي حفرت له أخذ يقول: «إِلَيَّ عباد الله، إِلَيَّ عباد الله»، فاجتمع حوله ثلاثون رجلاً، فحملوه حتى كشحوا عنه المشركين، وقتل ابن قمئة مُصعب بن عمير، صاحب راية رسول الله ﷺ فرجع ليخبر أنه قتل محمداً ﷺ، وصاح إبليس بذلك في الناس.

والله ﷻ يربط عباده دائماً بالعقيدة لا بشخص محمد ﷺ ولا غيره، فمحمد رسول يبلغ رسالة ربه، وينفذ أوامره، ويموت كما مات الرسل جميعاً، ﴿وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِنْ قَبْلِكَ الْخَلْدَ أَفَإِنْ مِتَّ فَهُمْ الْخَالِدُونَ﴾ [الأنبياء: ٣٤] وهؤلاء الرسل قد بلغوا رسالة الله:

مرَّ أحد المهاجرين على رجل من الأنصار في غزوة أحد وهو يتشحط في دمه، قال له: أما بلغك أن محمداً قد مات؟ قال الرجل: إن كان محمد قد مات، فقد بلغ رسالة ربه، فقاتلوا عن دينكم فنزلت الآية^(١).

ومرَّ أنس بن النضر بقوم جلوس، وصل الخبر إليهم أن محمداً قد مات، فقعدوا وتركوا الجهاد، سألهم: لماذا أنتم جلوس؟ قالوا: إن محمداً قد مات، فقال أنس: فماذا تصنعون بالحياة بعده، فإن كان محمد قد مات، فإن ربَّ محمد لن يموت، قوموا فموتوا على ما مات عليه رسول الله ﷺ.

وشهرَّ أنس بن النضر سيفه قائلاً: اللهم إني أعذر إليك مما فعل المسلمون، أي: حين قعدوا وأثَّرت فيهم الإشاعة، وأبرأ إليك مما فعل المشركون، وأخذ يقاتل في سبيل الله حتى سقط شهيداً، ووُجد في جسده بضع وثمانون، ما بين ضربة وطعنه ورمية، ولم يعرفه

(١) البيهقي في دلائل النبوة (٢/٢٤٨) عن أبي نجيع عن أبيه.

أحد؛ لأنه قد تقطعت أوصاله، لم تعرفه إلا أخته، عرفته من أطراف بنانه، وفيه وفي أمثاله نزل قوله سبحانه: ﴿مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُمْ مَّنْ قَضَىٰ نَحْبَهُ وَمِنْهُمْ مَّنْ يَنْتَظِرُ وَمَا بَدَلُوا بَدِيلًا﴾ [الأحزاب].

إن موت محمد ﷺ لا يُثني المسلم عن الدعوة إلى الله تعالى، ولا عن تبليغ دين الله والجهاد دونه، وفناء النفس في سبيله.

والرسل الذين كانوا قبل محمد ماتوا، وهو كذلك مثلهم يموت كما ماتوا ﴿أَفَأَمِنَ مَّاتٌ أَوْ قُتِلَ أُنْقَلَبْتُمْ عَلَىٰ أَعْقَابِكُمْ﴾ وتركتم الجهاد، وأراد بعضكم أن يرتد عن الإسلام، قال تعالى: ﴿وَمَنْ يَنْقَلِبْ عَلَىٰ عَقْبَيْهِ﴾ إلى الكفر بعد الإيمان ﴿فَلَنُيَضِرَّ اللَّهَ شَيْئًا وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ﴾ الثابتين على إيمانهم والجهاد في سبيل الله.

وكان الله ﷻ يمهّد بهذه الآية إلى الصدمة الكبرى التي يتلقاها المسلمون حينما يموت الرسول صلوات الله وسلامه عليه عندما ينتهي به الأجل، ولقد حدث فعلاً أن دُهِش المسلمون لموت رسول الله، حتى إن بعض الصحابة لم يصدقوا أنه قد مات، كأنهم تخيلوا أن الرسول لن يموت كسائر البشر، حتى إن عمر شهر سيفه في وجه من يقول: إن محمداً قد مات، حتى جاء أبو بكر رضوان الله عليه وقبّل الرسول ﷺ بين عينيه وهو يقول: طبت حياً وطبت ميتاً يا رسول الله، من كان يعبد محمداً فإن محمداً قد مات، ومن كان يعبد الله فإن الله حي لا يموت، وقرأ أبو بكر هذه الآية يوم وفاة النبي ﷺ وكانت قد نزلت قبل ذلك بنحو تسع سنين.

روى البخاري وغيره عن عائشة ؓ أن أبا بكر ؓ أقبل على فرس من مسكنه بالسُّنَح - وهي منازل بني الحارث بن الخزرج، وكان متزوجاً منهم - حتى نزل فدخل المسجد، فلم يكلم الناس، حتى دخل على عائشة، فقصد رسول ﷺ وهو مُسَجَّى بثوب حبرة، فكشف عن وجهه، ثم أكبَّ عليه، وقبّله وبكى، ثم قال: بأبي أنت وأمي، والله لا يجمع الله عليك مؤتتين، أما الموتة التي كُتِبَتْ عليك فقد مُتَّهَا.

قال أبو سلمة: فأخبرني ابن عباس أن أبا بكر خرج وعمر يكلم الناس فقال: اجلس، فأبى، فتشهد أبو بكر، فمال إليه الناس وتركوا عمر فقال: أما بعد: فمن كان منكم يعبد محمداً فإن محمداً قد مات، ومن كان يعبد الله فإن الله حي لا يموت، ثم قرأ الآية،

فوالله لكان الناس لم يكونوا يعلمون أن الله أنزل هذه الآية حتى تلاها أبو بكر^(١).

وفي الصحيحين وغيرهما عن جبير بن مطعم رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «لي خمسة أسماء: أنا محمد، وأنا أحمد، وأنا المقتى - الذي لا نبي بعدي - ونبي التوبة، ونبي الرحمة» وفي لفظ «... وأنا الحاشر الذي يُحشَر الناس على قدمي، وأنا الماحي الذي يمحو الله بي الكفر وأنا العاقب»^(٢).

لَنْ تَمُوتَ نَفْسٌ حَتَّى تَسْتَوِيَّ رِزْقَهَا وَأَجَلَهَا

١٤٥ - ﴿وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَنْ تَمُوتَ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ كَتَبْنَا مُؤَجَّلَاتُهَا^(٣) وَمَنْ يُرِدْ ثَوَابَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ^(٤) مِنْهَا وَمَنْ يُرِدْ ثَوَابَ الْآخِرَةِ نُؤْتِهِ مِنْهَا وَسَنَجْزِي الشَّاكِرِينَ ﴿١٤٥﴾﴾

ثم بين ﷺ أنه لن يموت أحد حتى يستوفي أجله الذي قدره الله له، كتابًا مؤجلًا، فمن حضر أجله، فإنه يموت ولو بغير سبب، ومن لم يحضر أجله فإنه لن يموت ولو تجمعت عليه الأسباب، قال تعالى ﴿فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَحْزِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِرُونَ﴾ [النحل: ٦١].

ثم أخبر سبحانه أنه يعطي الناس من ثواب الدنيا والآخرة ما تعلق به إرادتهم، فإن من يطلب بعمله عرض الدنيا نُعطه ما قسمناه له من رزق، ولا حظَّ له في الآخرة، ومن يطلب بعمله الجزاء من الله في الآخرة، يمنحه ما طلب ويعطه جزاء وافراً، مع ما له في الدنيا من رزق مقسوم؛ لأنه قد أطاع الله وجاهد في سبيله.

(١) يُنظر «صحيح البخاري» برقم: (١٢٤١، ٤٤٥٢) وما بعده وانظر رقم: (١٢٤١، ١٢٤٢) والنسائي (١٨٤٠).

(٢) يُنظر ألفاظ الحديث في البخاري (٣٥٣٢، ٤٨٩٦) ومسلم (٢٣٥٤) والترمذي (٢٨٤٠) وشمال الترمذي (٣٦٦) و«المسند» (١٦٧٢٤) وابن حبان (٦٣١٣) والنسائي في «السنن الكبرى» (١١٥٢٦).

(٣) قرأ ورش وأبو جعفر بإبدال الهمزة واوًا وصلًا ووقفًا، وكذا حمزة عند الوقف من كلمة (مؤجلًا).

(٤) قرأ أبو عمرو وشعبة وحمزة (نوته) في الموضعين بإسكان الهاء، وصلا ووقفًا، وقرأ قالون ويعقوب بكسر الهاء من غير صلة، وقرأ ابن ذكوان بالقصر والإشباع، وقرأ أبو جعفر بالإسكان والقصر، وقرأ هشام بالإسكان والقصر والإشباع، وقرأ الباقر بالإشباع، وأبدل الهمزة واوًا في الحالين ورش وأبو جعفر وأبو عمرو، وكذا حمزة عند الوقف، والباقر بالهمزة.

قال تعالى: ﴿كَلَّا تُمِذُّ هَتُولَاءَ وَهَتُولَاءَ مِنْ عَطَاءِ رَبِّكَ وَمَا كَانَ عَطَاءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا﴾ ﴿٢٠﴾ أَنْظِرْ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ وَلِلْآخِرَةِ أَكْبَرُ دَرَجَاتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلًا﴾ [الإسراء: ٢٠، ٢١]

وقد حَرَّضَ الله المؤمنين على الجهاد، وشَجَّعَهُمْ على لقاء العدو، فقرر ﷻ أن الشجاعة والإقدام والجرأة في الحروب لا تنقص من عمر المرء شيئاً، وأن الجبن والخوف والقعود والتخلف عن الجهاد في سبيل الله لا يزيد من عمر الإنسان شيئاً، وأن عمر الإنسان محدد باللحظة فضلاً عن الساعة واليوم، لا يتقدم ولا يتأخر ﴿وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَنْ تَمُوتَ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ كِتَابًا مُؤَجَّلًا وَمَنْ يُرِدْ ثَوَابَ الدُّنْيَا﴾ بعمله وجهاده في سبيل الله سبحانه ﴿تُؤْتِيهِ مِنْهَا﴾ أي: يعطيه الله من الدنيا ما يشاء، وليس له في الآخرة من نصيب ﴿وَمَنْ يُرِدْ﴾ بعمله وجهاده ثواب الآخرة يؤتیه الله ثوابه في الدنيا والآخرة.

قال تعالى: ﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعَاجِلَةَ عَجَلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَاءُ لِمَنْ نُرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُمْ جَهَنَّمَ يَصْلَحُهَا مَذْمُومًا مَدْحُورًا﴾ ﴿١٨﴾ وَمَنْ أَرَادَ الْآخِرَةَ وَسَعَى لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَئِكَ كَانَ سَعْيُهُمْ مَشْكُورًا﴾ ﴿١٩﴾ [الإسراء].

وقال: ﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الْآخِرَةِ نَزِدْ لَهُمْ فِي حَرْثِهِ وَمَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَا لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ مِنْ نَصِيبٍ﴾ ﴿٢٠﴾ [الشورى].

وقال أيضاً: ﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ ثَوَابَ الدُّنْيَا فَعِنْدَ اللَّهِ ثَوَابُ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ﴾ [النساء: ١٣٤].

وقال سبحانه: ﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَلَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ﴾ ﴿٥٥﴾ أُولَئِكَ الَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ إِلَّا النَّارُ وَحَبِطَ مَا صَنَعُوا فِيهَا وَبِطُلٌ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ ﴿٦٦﴾ [هود].

والآيات مقيدة بمشيئة الله وإرادته، وتبين أن حصول الدنيا للإنسان ليس بموضع غبطة؛ لأنها مبذولة للجميع، وإنما الغبطة هي لما يحدث للعبد في الآخرة من نعيم مقيم وثواب جزيل. ﴿وَسَنَجْزِي الشَّاكِرِينَ﴾ وهذا الجزاء يكون على قدر الشكر قلة وكثرة وحُسْنًا، وهو جزاء كثير وعظيم.

مِنْ أَسْبَابِ انْتِصَارِ الرُّسُلِ عَلَى أَعْدَائِهِمْ

١٤٦ - ﴿وَكَايْنٍ^(١) مِّن نَّبِيٍّ قُتِلَ^(٢) مَعَهُ رِثْيُونٌ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُوا لِمَا أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَمَا ضَعُفُوا وَمَا اسْتَكَانُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ ﴿١٤٦﴾﴾

أي وكثير من أنبياء الله وأتباعهم، قد أصابهم قتل وجراح، فما ضعفت أبدانهم ولا ذلّوا لعدوّهم، بل صبروا وثبتوا وانتصروا عليه، ﴿وَاللَّهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ﴾ المحتسبين، المصابرين لعدوهم، المرابطين في الحدود والثغور.

هذا: ولما قيل: إن النبي ﷺ قد مات في غزوة أحد، أخذ يدفعه بعض الصحابة، وهو ينادي: «إلَيَّ عباد الله»، وتأخر بعضهم وانهمزم، لما سمع هذه الإشاعة الكاذبة، والله سبحانه يعاتب الأمة ويربّيها ويربطها بالمنهج الإلهي إلى يوم القيامة، يربطها بالمعين الأول وهو الإسلام، والعقيدة الصحيحة، حتى وإن مات محمد عليه الصلاة والسلام.

ثم يضرب القرآن لهم الأمثلة من الأمم السابقة بأن كثيراً من الأنبياء قاتل معهم أتباعهم وأصحابهم، فقاتلوا وقتلوا، فما وهنوا وما ضعفوا وما استكانوا وما قعدوا عن الجهاد ﴿وَكَايْنٍ مِّن نَّبِيٍّ﴾ أي: كثير منهم ﴿قُتِلَ مَعَهُ رِثْيُونٌ﴾ أي: أتباع وأصحاب ﴿كَثِيرٌ﴾ فماذا كان موقفهم؟ ﴿فَمَا وَهَنُوا لِمَا أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ من جرح أو قتل، ولا عجزوا، ولا خضعوا لعدوهم، وما قعدوا وما استسلموا، وما تركوا الجهاد، وإنما صبروا وصابروا.

والمعنى: كثير من الأنبياء قاتل معه العدد الكثير من أصحابه، فأصابهم من عدوّهم قروح وجراحات فاستمروا في جهادهم، ولم يضعفوا فكونوا مثلهم.

وفي قراءة (قتل) بالبناء للمجهول على معنى: أن القتل قد نال النبي ﷺ أيضاً ومن

(١) قرأ ابن كثير وأبو جعفر (وَكَايْنٍ) بألف ممدودة بعد الكاف وبعدها همزة مكسورة ويكون من قبيل المد المتصل إلا أن أبا جعفر يُسهّل الهمزة مع المد والقصر، وقرأ الباقر بدون ألف بعد الكاف مع تشديد الياء، وفيها التسهيل والتحقيق لحمزة وقفاً ووقف عليها أبو عمرو ويعقوب بالياء تنبيهاً على الأصل، والباقر بالنون.

(٢) قرأ نافع وابن كثير وأبو عمرو ويعقوب (قُتِلَ معه) مبني للمفعول، وهو من القتل ورِثْيُونٌ نائب فاعل، وقرأ الباقر (قَاتَلَ) بالبناء للفاعل وهو من القتال (وَرِثْيُونٌ) فاعل.

معه، وحينئذ يكون الوقف تاماً على (قُتل).

والمعنى: أن كثيراً من الأنبياء قُتلوا، وأن مَنْ بقي بعدهم ما وهنوا في دينهم، ولا استكانوا لعدوهم واستمروا في جهادهم.

وعلى قراء (وكأين من نبي قُتل) فإن من الأنبياء ما عُلِمَ قتله، ومنهم من لم يُعلم، كما قال تعالى: ﴿مِنْهُمْ مَنْ قَصَصْنَا عَلَيْكَ وَمِنْهُمْ مَنْ لَمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ﴾ [غافر: ٧٨].

وممن قُتل وعرف قتله منهم، ستة:

١- (أرمياء) ٢- (حزقيال) ٣- (أشعيا) ٤- (زكريا) ٥- (يحيى)

وهؤلاء قتلهم بنو إسرائيل، ٦- وقتل أصحاب الرّس نبهم (حنظلة بن صفوان).

والرّبيون هم: المتبعون لشريعة الرب، والمراد بهم: أتباع الرسل وتلامذة الأنبياء.

ثم ذكر سبحانه استنصار النّبيين وأتباعهم بربهم فقال:

١٤٧- ﴿وَمَا كَانَ قَوْلُهُمْ إِلَّا أَنْ قَالُوا رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِي أَمْرِنَا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾ (١٤٧)

والله ﷻ يعلمنا أن نكون مثل أنبياء الله وأتباعهم المخلصين في مواجهة أعداء الله، وأن تكون عزائمنا مثل عزائمهم، وإن بُلينا بالهزيمة في زمن من الأزمنة فلا نفرط ولا نستسلم ولا نقعد، وإنما نربّي أنفسنا وأبناءنا على الجهاد إلى الجولة القادمة، والدعاء والتضرع إلى الله تعالى من عوامل النصر، وهؤلاء الذين انتصروا على عدوهم دعوا ربهم بأربعة أمور فقالوا:

أولاً: ﴿رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا﴾ فإن مغفرة الذنوب والتخلي عنها من أسباب النصر.

وثانياً: ﴿وَإِسْرَافَنَا فِي أَمْرِنَا﴾ فإن الإسراف في المعاصي والذنوب ومجاوزة الحد فيهما من أسباب الخذلان والهزيمة، وتركها من أسباب النصر.

وثالثاً: ﴿وَتَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا﴾ عند لقاء العدو.

ورابعاً: ﴿وَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾ في كل زمان ومكان.

وإذا تضرعنا إلى الله تعالى مثلهم بعد الاستعداد بالسلاح فإننا نكون مثلهم. وهكذا دعا الذين نصرهم الله على جالوت وجنوده حيث قالوا: ﴿رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾ ﴿٢٥٠﴾ فَهَزَمُوهُمْ بِإِذْنِ اللَّهِ وَقَتَلَ دَاوُدُ جَالُوتَ ﴿٢٥١﴾ [البقرة: ٢٥٠، ٢٥١].

حُسْنُ الْجَزَاءِ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ

لقد جعل الله العاقبة لأولياء الله في الدنيا، نصرًا وظفرًا؛ وفي الآخرة فوزًا برضى ربهم، ونعيمًا مقيمًا.

١٤٨- ﴿فَاللَّهُمَّ اللَّهُ ثَوَابَ الدُّنْيَا وَحَسَنَ ثَوَابِ الْآخِرَةِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾ ﴿١٤٨﴾

إن الله تعالى أعطى هؤلاء الصابرين جزاءهم في الدنيا، بأن نصرهم على عدوهم، وغفر لهم ذنوبهم وخطاياهم، ولهم الثناء الحسن بين الناس، ومكّن لهم في الأرض، ومنحهم الجزاء العظيم في الآخرة بالثواب الجميل وجنات النعيم، والله سبحانه يحب من أحسن عبادته لربه وأحسن معاملته خلقه.

التَّحْذِيرُ مِنْ مُوََالَاةِ الْمُخَالِفِينَ فِي الدِّينِ

١٤٩، ١٥٠ ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِن تُطِيعُوا الَّذِينَ كَفَرُوا يَزِيدُكُمْ عَلَىٰ عَغْوِكُمْ فَتَنْقَلِبُوا خَاسِرِينَ﴾ ﴿١٤٩﴾ بَلِ اللَّهُ مَوْلَاكُمْ وَهُوَ خَيْرُ النَّاصِرِينَ ﴿١٥٠﴾

في هذا نهى للمسلمين عن طاعة غير المسلمين، فإنهم يريدون وقوع الشرّ بهم، وردّهم عن دينهم حتى يَبُوءُوا بالخيبة والخسران.

وهكذا: تمضي الآيات لاستعراض أحداث المعركة، والكشف عن دسائس الأعداء الذين سنحت لهم الفرصة لينفثوا عن سمومهم، فيحذّر الله سبحانه من طاعة الكفار، ويعدّ عباد الله بالنصر.

وقد حذرنا الله سبحانه من طاعة المشركين أو الدخول معهم في صلح وأمان؛ لأن في ذلك إظهارًا للضعف أمامهم والحاجة إليهم، وكان بعض المسلمين قد اقترح أن يأخذ ابن أبي أمانًا لهم من أبي سفيان فقال تعالى: ﴿بَلِ اللَّهُ مَوْلَاكُمْ﴾ في كل زمان ومكان.

وَبَيَّنَ جَلَّ شَأْنُهُ أَنَّهُ لَا يَنْبَغِي لَنَا أَنْ نَلْتَمِسَ النِّصْرَ وَلَا الْعِزَّةَ فِي الْوَلَاءِ لِلْكَفَّارِ وَفِي سَمَاعِ أَقْوَالِهِمْ وَطَاعَتِهِمْ، أَوْ الِاسْتِعَانَةَ بِهِمْ، وَحِينَمَا مُنِيَ الْمُسْلِمُونَ بِالنَّكْبَةِ فِي غَزْوَةِ أَحَدٍ، انْتَهَزَ بَعْضُ الْكَفَّارِ وَالْمُنَافِقِينَ هَذِهِ اللَّحْظَةَ فَجَاؤُوا إِلَى الْمُسْلِمِينَ يَقُولُونَ لَهُمْ: لَوْ كَانَ مُحَمَّدٌ نَبِيًّا مَا هُزِمَ - عَلَى حَدِّ زَعْمِهِمْ -، ارْجِعُوا إِلَى دِينِكُمْ، ارْجِعُوا إِلَى إِخْوَانِكُمْ.

وَلَيْسَ هَذَا خَاصًّا بِهَذِهِ الْحَادِثَةِ، وَإِنَّمَا هُوَ حَاصِلٌ فِي كُلِّ وَقْتٍ، وَاللَّهُ سُبْحَانَهُ يَحْذَرُنَا مِنْ ذَلِكَ فَيَقُولُ: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِن تَطِيعُوا الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ بِالْوَهْيَتِي، وَلَمْ يُؤْمِنُوا بِرِسَالِي فِي كُلِّ زَمَانٍ وَمَكَانٍ، يُضِلُّوكُمْ عَنِ الْحَقِّ، وَ﴿يَزِدُّكُمْ عَلَىٰ عَاقِبَتِكُمْ﴾ إِلَى الْكَفْرِ ﴿فَتَنقَلِبُوا خَاسِرِينَ﴾ وَتَعُودُوا إِلَى الْخِسْرَانِ الْمُبِينِ، وَالْهَلَاكِ الْمَحْقُوقِ.

وَلَيْسَ بِالضَّرُورَةِ أَنْ تَكُونَ هَذِهِ الرَّدَّةُ جَمَاعِيَّةً أَوْ دَفْعَةً وَاحِدَةً، بَلْ يَكْفِي كَوْنُهَا تَدْرِيجِيًّا، وَعَلَى أَزْمَنَةٍ مُتَبَاعِدَةٍ، وَيَكْفِي التَّشْكِيكُ فِي الْإِسْلَامِ وَالطَّعْنُ فِيهِ، تَمْهِيدًا لِلانْسِلَاخِ الْكَامِلِ مِنْهُ.

وَهَؤُلَاءِ الْأَعْدَاءُ لَنْ يَنْصُرُوكُمْ بَلِ اللَّهُ نَاصِرُكُمْ ﴿بَلِ اللَّهُ مَوْلَاكُمْ﴾ اللَّهُ وَحْدَهُ هُوَ مَوْلَاكُمْ، وَلَا يُحْتَاجُ إِلَى غَيْرِهِ، وَإِنْ لَمْ تَلْتَمِسُوا النِّصْرَ وَالْعِزَّةَ مِنَ اللَّهِ سُبْحَانَهُ فَمِمَّنْ تَلْتَمِسُونَهَا؟ ﴿وَهُوَ خَيْرُ النَّاصِرِينَ﴾ وَفِي هَذَا بَشَارَةٌ بِأَنَّ اللَّهَ تَعَالَى سَيَتَوَلَّى أُمُورَ الْمُسْلِمِينَ بِلَطْفِهِ وَرَحْمَتِهِ، وَيَعْصِمُهُمْ مِنْ شُرُورِ أَعْدَائِهِمْ.

سَبَبُ إِلقَاءِ الرُّعْبِ فِي قُلُوبِ الْكُفَّارِ

وَمِنْ وَلايَةِ اللَّهِ تَعَالَى وَنَصْرَتِهِ لِلْمُسْلِمِينَ، أَنَّهُ يَلْقَى الرُّعْبَ فِي قُلُوبِ غَيْرِ الْمُسْلِمِينَ فَيَمْنَعُهُمْ هَذَا الرُّعْبُ مِنْ مَقَاصِدِهِمْ، وَنِيْلِ مَآرِبِهِمْ مِنَ الْمُسْلِمِينَ. قَالَ تَعَالَى:

١٥١- ﴿سَنُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ﴾ ^(١) يَمَّا أَشْرَكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزَّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَمَأْوَاهُمُ النَّارُ وَبِئْسَ مَثْوَى الظَّالِمِينَ ﴿١٥١﴾

ثُمَّ بَشَّرَ اللَّهُ تَعَالَى بِأَنكُمْ إِنْ تَوَلَّيْتُمْ اللَّهَ وَحْدَهُ، فَإِنَّهُ سُبْحَانَهُ سَيَمْدُكُمْ بِأَسْبَابِ النِّصْرِ، وَمِنْ أَسْبَابِهِ أَنْ يُلْقِيَ الرُّعْبَ وَالْفَزَعَ وَالْخَوْفَ فِي قُلُوبِ الْكَفَّارِ مَهْمَا كَانَتْ أَعْدَادُهُمْ، وَمَهْمَا كَانَتْ

(١) قرأ ابن عامر والكسائي وأبو جعفر ويعقوب (الرُّعْبُ) بضم العين، والباقون (الرُّعْبُ) وهما لغتان.

(٢) قرأ ابن كثير وأبو عمرو ويعقوب (يُنَزَّلُ) بالتخفيف مضارع (أنزل)، وقرأ الباقر (يُنَزَّلُ) بالتشديد مضارع (نَزَلَ).

قوتهم، ومهما كنتم ضعفاء، فقد نُصرتُم بالرعب من مسيرة شهر.

كما ثبت في الصحيحين وغيرهما من حديث جابر بن عبد الله رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «أُعطيْتُ خمسًا لم يُعطهن أحد من الأنبياء قبلي: نُصرت بالرعب مسيرة شهر، وجُعِلت لي الأرض مسجدًا وطهورًا، وأُحِلت لي الغنائم، وكان النبي يُبعث إلى قومه خاصة ويُبعث إلى الناس عامة»^(١).

وعن أبي موسى رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «أُعطيْتُ خمسًا: بُعثت إلى الأحمر والأسود، وجُعِلت لي الأرض طهورًا ومسجدًا، وأُحِلَّت لي الغنائم، ولم تحل لمن كان قبلي، ونُصرت بالرعب شهرًا، وأُعطيْتُ الشفاعة، وليس من نبيٍّ إلا وقد سأل شفاعة، وإنِّي اختبأتُ شفاعة، ثم جعلتها لمن مات لا يشرك بالله شيئًا»^(٢).

فمن خصائص النبي ﷺ أن ينصره الله تعالى، وينصر أُمَّته بإلقاء الرعب في قلب العدو، دون سلاح ولا عتاد ولا عدد، فيرهب ويضعف ويجبن ويخاف.

وذلك أنه لما انتصر المشركون في غزوة أحد وتركوا أرض المعركة، وبينما هم في الطريق إلى مكة ندموا، وتشاوروا فيما بينهم، وقالوا: لماذا لا نعود ونقضي على المسلمين ونستأصلهم؟ فهموا بذلك، فأُنزل الله على رسوله هذه الآية ﴿سَنُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ﴾ فألقى الله في قلوبهم الرعب، فواصلوا سيرهم ولم يرجعوا إلى مكان غزوة أحد، وانصرفوا خائبين.

والسبب أنهم أشركوا بالله آلهة مزعومة، من الأنداد والأوثان، ليس لهم عليها دليل ولا برهان ﴿مَا لَمْ يُنَزَّلْ بِهِ سُلْطَانٌ﴾، وهذا الشرك يستوجب إلقاء الرعب في قلوبهم، وذلك لأن نصر المؤمنين إما أن يكون بقطع دابر طرف من الكافرين، أو بكبتهم فينقلبوا خائبين، وهذا من الثاني.

(١) «صحيح البخاري» برقم: (٣٣٥) و«صحيح مسلم» برقم: (٥٢١).

(٢) «المسند» (٤١٦/٤) برقم: (١٩٧٣٥) صحيح لغيره قال الهيثمي في «مجمع الزوائد» (٢٥٨/٨): رواه أحمد متصلًا ومرسلًا، وهو عند الطبراني، ورجاله رجال الصحيح، وأخرجه ابن أبي شيبه في المصنف (٤٣٣/١١) وله شاهد في الحديث السابق.

وكان النبي ﷺ قد ندب المشركين إلى لقاءهم لَمَّا علموا بنية المشركين في العودة إليهم، فقيّض الله معبد بن أبي معبد الخزاعي، حيث لحق بقريش وأدركهم بالروحاء، وكان كافرًا فقال لهم: إن محمدًا وأصحابه قد خرجوا يطلبونكم في جمع لم أر مثله، يتحرّقون عليكم ما تخلف عنه أحد.

قال السدي: لما ارتحل أبو سفيان والمشركون يوم أحد، متوجهين إلى مكة، انطلقوا حتى بلغوا بعض الطريق، ثم إنهم ندموا وقالوا: بش ما صنعنا، قتلناهم حتى إذا لم يبقَ منهم إلا الشزيمة تركناهم؟ ارجعوا فاستأصلوهم، فلما عزموا على ذلك، ألقى الله تعالى في قلوبهم الرعب حتى رجعوا عما همّوا به، وأنزل الله تعالى هذه الآية^(١).

لقد حاول الكفار وهم في طريق عودتهم إلى مكة، أن يعودوا إلى المسلمين للقضاء عليهم، إلا أن الخوف والرعب ملأ قلوبهم، حتى قال صفوان بن أمية: يا أهل مكة لا ترجعوا لقتال القوم؛ فإني أرى أنه سيكون للقوم قتال غير الذي كان.

وسبب هذا الرعب أن المشركين على غير يقين في عبادتهم للأوثان، فقلوبهم خاوية مزلزلة؛ لأنهم ليسوا على بينة أو حجة، فيما يعبدون.

وقد أخبر النبي ﷺ بأن الله تعالى قذف في قلب أبي سفيان الرعب فرجع إلى مكة. فالكفار في الدنيا في رعب وهلع من المؤمنين، وفي الآخرة يكون مأواهم النار؛ بسبب ظلمهم وإشراكهم بالله تعالى وعداوتهم للمؤمنين، وساء المصير مصيرهم، بسبب ظلمهم وعداوتهم. ووعد الله تعالى قائم في كل معركة يلتقي فيها الكفر بالإيمان في القديم والحديث.

أَسْبَابُ النَّصْرِ وَالْهَزِيمَةِ فِي غَزْوَةِ أُحُدٍ

١٥٢ - ﴿وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ اللَّهُ وَعْدَهُ إِذْ تَحُسُّونَهُم بِإِذْنِهِ حَتَّى إِذَا فَشِلْتُمْ وَتَنَزَّعْتُمْ مِنَ الْأَمْرِ وَعَصَيْتُمْ مِمَّا أُرْسِلُوا مَا تُحِبُّونَ مِنْكُمْ مَّنْ يُرِيدُ الدُّنْيَا وَمِنْكُمْ مَّنْ يُرِيدُ الْآخِرَةَ ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ لِيَبْتَلِيَكُمْ وَلَقَدْ عَفَا عَنْكُمْ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ﴾^(١) وتمضي الآيات لَتَمَسَّ جِسم المعركة، فتستحضر مصداق وعد الله لعباده في أحد حيث

(١) «زاد المسير» (١/٤٧٤) والقرطبي (٤/٢٣٢).

كان النصر حليفهم في أول المعركة واستحضر القتل بالمشركون، وولّوا الأدبار، وتركوا الغنائم، وسقط لواؤهم، فلم تمتد إليه يد حتى رفعته امرأة، وكان بعض الصحابة قد قال: من أين أصابنا هذا وقد وعدنا الله النصر؟! فأنزل الله سبحانه: ﴿وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ اللَّهُ وَعْدَهُ﴾ بالنصر على العدو أول النهار ﴿إِذْ تَحْسُونَهُمْ﴾ تقتلونهم قتلاً ذريعاً وتستأصلونهم ﴿بِإِذْنِهِ﴾ فإن قتلکم لهم كان بعلم الله وأمره وقضائه وقدره، واستمر نصرکم عليهم إلى أن كان منكم الفشل والتنازع وعصيان أمر الرسول ﷺ وتطلّعكم إلى الغنائم، فكان الضعف والخور.

في البخاري عن البراء قال: لقينا المشركين يومئذ، وأجلس النبي ﷺ جيشاً من الرماة، وأمر عليهم عبد الله بن جبير، وقال: «لا تبرحوا، إن رأيتمونا ظهرنا عليهم فلا تبرحوا، وإن رأيتموهم ظهرُوا علينا فلا تُعينونا» فلما لقيناهم هربوا، حتى رأينا النساء يشتدّون في الجبل، رفعن عن سوقهن وقد بدت خلاخلهن، فأخذوا يقولون: الغنيمة، الغنيمة، فقال عبد الله: عهد إلي النبي ﷺ ألا تبرحوا، فأبوا، فلما أبوا صرف وجوههم فأصيب سبعون قتيلاً، فأشرف أبو سفيان فقال: أفي القوم محمد؟ فقال: «لا، لا تجيبوه»، فقال: أفي القوم ابن أبي قحافة؟ فقال: لا تجيبوه، فقال: أفي القوم ابن الخطاب؟ فقال: إن هؤلاء قد قتلوا، فلو كانوا أحياء لأجابوا، فلم يملك عمر نفسه فقال: كذبت يا عدو الله، قد أبقى الله لك ما يخزيك، فقال: أبو سفيان: اعلُ هبل، فقال النبي ﷺ: أجيئوه، قالوا: ما نقول؟ قال: قولوا: الله أعلى وأجل، فقال أبو سفيان: لنا العزى ولا عزى لكم، فقال النبي ﷺ: أجيئوه، قالوا: ما نقول: قال: قولوا: الله مولانا ولا مولى لكم، قال أبو سفيان: يوم بيوم بدر، والحرب سجال، وتجدون مثله لم أمر بها ولم تسؤني^(١).

قال تعالى ﴿حَتَّىٰ إِذَا فَشِلْتُمْ وَتَنَزَّعْتُمْ فِي الْأَمْرِ﴾ حيث أمركم الله بالائتلاف فاختلفتم، فمن قائل: نبقى في المكان الذي وضعنا فيه رسول الله ﷺ.

ومن قائل: لماذا نبقى وقد انهزم العدو، فعصيتم الرسول وتركتم أمره بعد أن انخذل عدوكم ﴿وَعَصَيْتُمْ مِّنْ بَعْدِ مَا أَرْسَلَكُمْ مَّا تَحِبُّونَ﴾ فقد ضعف فريق منكم أمام ما تركه العدو من متاع في بطن الوادي، فكنتم فريقين:

(١) «صحيح البخاري» برقم: (٣٠٣٩، ٤٠٤٣).

فريق أحب الدنيا، ورغب في الغنائم مخالفاً بذلك أمر الرسول ﴿مِنْكُمْ مَّنْ يُرِيدُ الدُّنْيَا﴾.
وفريق أحب ما عند الله من أجر ومثوبة ﴿وَمِنْكُمْ مَّنْ يُرِيدُ الْآخِرَةَ﴾.

والذين أرادوا الآخرة هم: عبد الله بن جبير، ونحو عشرة من الرماة، فثبتوا وقالوا: لا نبرح أمر رسول الله ﷺ.

والذين أرادوا الدنيا هم من بقي من الرماة نحو الأربعين، حيث قالوا: ما نصنع بمقامنا هاهنا، وقد انهزم المشركون، ثم أقبلوا على الغنيمة.

قال عبد الله بن مسعود رضي الله عنه: ما شعرت أن أحداً من أصحاب رسول الله ﷺ يريد الدنيا حتى كان يوم أحد.

قال محمد بن كعب القرظي: لما رجع رسول الله ﷺ إلى المدينة وقد أصيبوا بما أصيبوا يوم أحد، قال ناس من أصحابه: من أين أصابنا هذا وقد وعدنا الله النصر؟! فأنزل الله الآية^(١).

ولكن الله تعالى لا يمنح النصر للمؤمنين إلا إذا خلصت نفوسهم لله، ومَحَّصَهُمَ الله، ومَحَّصَهُمَ له.

ولذا: فإن الله صرف وجوهكم عن عدوكم، وصرف قوَّتكم وبأسكم وانتباهكم عنهم، موافقة لتصرفكم الذي صرف الرماة عن ثغر الجبل، وميدان القتال، ولاذوا بالفرار، وكان هذا ابتلاء من الله، ليتبين المؤمن من الكافر، والطائع من العاصي، وليكفر عنكم بهذا البلاء ما صدر منكم.

فلما رأى خالد بن الوليد وعكرمة بن أبي جهل ذلك، وكانا من قادة العدو حيث قتلوا أمير الرماة ومن معه، وكانت الدائرة على المسلمين، جزاء عصيان أمر الرسول ﷺ وقد فعل الله بكم ذلك؛ لتعرفوا من أين جاءتكم الهزيمة، فتتقوا الوقوع في أمثالها ﴿ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ﴾ أي صرف الله وجوهكم عن عدوكم بعد حصول المخالفة منكم، وكان ذلك ﴿لِيَتْلِيَكُمْ﴾ فيمحصكم ويعاملكم معاملة المختبر.

(١) الواحدي (١٠٧) والقرطبي (٢٣٣/٤) وغيرهما.

﴿وَلَقَدْ عَفَا عَنْكُمْ﴾ لعلمه سبحانه بندمكم وتوبتكم، وقلتكم وكثرتهم عددًا وعدة، فلم يعاقبكم ولم يستأصلكم بسبب عصيانكم ومخالفتكم.

﴿وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ﴾ فنصرهم أولًا، ثم عفا عن خالف منهم ثانيًا، والله المتفضل على عباده في جميع الأحوال، وهذا من تمام نعمته على عباده السائرين على منهجه المقرين بعبادته وحده، ومن فضل الله على المؤمنين أن من عليهم بالإسلام.

أَحْدَاثُ الْهَزِيمَةِ فِي أَحَدٍ رَأَى الْعَيْنِ وَسَبَبُهَا

في هذه الآية وصف لحال المسلمين وقت الهزيمة، وعتاب لهم على ما حدث منهم؛ قال تعالى:

١٥٣- ﴿إِذْ تُصْعِدُونَ وَلَا تَكُونُ عَلَى أَحَدٍ وَالرُّسُولُ يَدْعُوكُمْ فِي أُخْرَىٰكُمْ فَأَنْتُمْ كَافِرَةٌ﴾

ثم تستحضر الآيات صورة الهزيمة كأنها ماثلة أمام العين: وذلك أن المسلمين قد لاذوا بالجبل فارّين هاربين، فأخذوا يذهبون في صعيد الأرض، يتعدون فيها، وقت الهرب من العدو، وكانوا في حالة اضطراب ودهشة وخوف ورعب، بحيث لا يلتفت أحد إلى أحد خوفًا من العدو.

فاذكر أيها الرسول هذا الموقف وقت صعودكم وأنتم تأخذون ذاهبين في صعيد الجبل ولا يلوي أحد على أحد، أي: لا يلتفت إليه، فالآية تصور حالهم عندما اضطربت صفوفهم وأخذوا يصعدون في الوادي بدون تثبت، ولا تمهل، ولا يلتفت أحد إلى أحد، ولا يسمع أحد صوت أحد، وقد ثبت رسول الله ﷺ في الميدان ومعه قلة من المؤمنين، وهو يناديكم من ورائكم: «إِلَيَّ عِبَادَ اللَّهِ، أَنَا رَسُولُ اللَّهِ، مِنْ كَرٍّ -أي: رجع- فله الجنة» فلم تلتفتوا إليه، ولم تعرجوا عليه ﴿وَالرُّسُولُ يَدْعُوكُمْ فِي أُخْرَىٰكُمْ﴾ أي: والرسول في آخر الجيش يناديكم من ورائكم، فكانت النتيجة أن الله تعالى جازاهم على مخالفتهم أمر الرسول ألمًا وضيقًا وغمًا يملأ نفوسهم ﴿فَأَنْتُمْ كَافِرَةٌ﴾ أي: جازاكم ﴿غَمًّا يَغْمِرُ﴾ أي: غمًا على غم، فالإثابة بمعنى المجازاة، والباء بمعنى على، والغم الأول هو ما فاتهم من الظفر والغنيمة، والغم الثاني: ما نالوا من القتل والهزيمة.

وقيل: الغم الأول: ما أصابهم من القتل والجراح، والغم الثاني: ما أشيع أن محمدًا

قد قُتِلَ، فأنساهم الغم الأول، وقيل غير ذلك.

فالفرار موجب للؤم، ودعوة الرسول لهم، موجبة لتقديمها على النفس.

أخرج ابن أبي حاتم بسند حسن عن قتادة قال: الغم الأول: الجراح والقتل، والغم الآخر: حين سمعوا أن رسول الله ﷺ قد قُتِلَ، فأنساهم الغم الأخير ما أصابهم من الجراح والقتل وما كانوا يرجون من الغنيمة.

وهذا الغم الذي نزل بهم يَصْغُرُ معه كل عَرَضٍ فاتهم من متاع الدنيا ﴿لِكَيْلَا تَحْزَنُوا عَلَى مَا فَاتَكُمْ﴾ من نصر وغنيمة، ولتتمرنوا على الصبر وتجرع الصعاب ﴿وَلَا مَا أَصَابَكُمْ﴾ وما حل بكم من خوف وهزيمة عقوبة لكم، وقد ورد أنهم لما سمعوا أن النبي ﷺ قد مات نسوا ما فاتهم وما أصابهم.

﴿وَاللَّهُ خَيْرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ لا يخفى عليه شيء من جميع أعمالكم خيرها وشرها فيجازيكم عليها. قال تعالى:

١٥٤- ﴿ثُمَّ أَنْزَلَ عَلَيْكُم مِّن بَعْدِ الْغَمِّ أَمَنَةً نُّعَاسًا يَغْشَى^(١) طَائِفَةً مِّنكُمْ وَطَائِفَةٌ قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنفُسُهُمْ يَظُنُّونَ بِاللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ ظَنَّ الْجَاهِلِيَّةِ يَقُولُونَ هَل لَّنَا مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ قُلْ إِنَّ الْأَمْرَ كُلَّهُ^(٢) لِلَّهِ يَخْشَوْنَ فِي أَنفُسِهِمْ مَا لَا يُبْدُونَ لَكَ يَقُولُونَ لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ مَا قُتِلْنَا هَاهُنَا قُلْ لَوْ كُنْتُمْ فِي بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ^(٣) الَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقَتْلُ إِلَى مَضَاجِعِهِمْ وَلِيَبْتَلِيَ اللَّهُ مَا فِي صُدُورِكُمْ وَلِيُمَحَّصَ مَا فِي قُلُوبِكُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴿١٥٤﴾﴾

وتمضي الآيات في تصوير أحداث الهزيمة كأنها حية متحركة، حيث كان الناس فريقين:

الفريق الأول: هم المؤمنون المخلصون الذين رجعوا وأنابوا إلى الله ورسوله، لقد

(١) قرأ حمزة والكسائي وخلف العاشر (تَغْشَى) بناء التانيث على أن الفاعل ضمير يعود على (أَمَنَةً)، وقرأ الباقون (يَغْشَى) بياء التذكير، على أن الفاعل ضمير يعود على النُّعَاس.

(٢) قرأ أبو عمرو ويعقوب (كُلُّهُ) بالرفع، على أنها مبتدأ ومتعلق (لله) خبرها، والجملة خبر إن، وقرأ الباقون (كُلُّهُ) بال نصب على أنها تأكيد للأمر الذي هو اسم (إن) ومتعلق (لله) خبر إن.

(٣) قرأ قالون وابن كثير وابن عامر وشعبة وحمزة والكسائي وخلف العاشر (بُيُوتِكُمْ) بكسر الباء، وقرأ الباقون (بُيُوتِكُمْ) بضم الباء، وهما لغتان.

شملهم الله برحمته، فأعقب هزيمتهم سكوناً وراحة نفسية، وطمأنينة وأماناً وأماناً، فأزال الله خوفهم، وسكّن رُعبهم، وأنزل عليهم نعاساً، أي: نوماً خفيفاً، سكنت فيه نفوسهم، وأمن الله خوفهم ﴿ثُمَّ أَنْزَلَ عَلَيْكُمْ مِنْ بَعْدِ الْغَمِّ الَّذِي أَصَابَكُمْ أَمْنَةً نُعَاسًا يَغْشَى طَآئِفَةً مِنْكُمْ﴾ وفي هذا رحمة من الله، وتثبيت لقلوبهم، لأن الخائف لا يأتيه النعاس، فإذا زال الخوف أتاها النعاس.

عن أبي طلحة رضي الله عنه قال: كنت فيمن تغشاه النعاس يوم أحد حتى سقط سيفي من يدي مراراً، يسقط وأخذه، ويسقط وأخذه^(١).

وعن أبي طلحة رضي الله عنه أيضاً قال: رفعت رأسي يوم أحد، وجعلت أنظر، وما منهم يومئذ أحد إلا يُمِيدُ تحت جحفته من النعاس^(٢).

وهؤلاء هم أهل الإخلاص واليقين، أفاض الله عليهم نعمة النوم الخفيف وقت الشدة. والفريق الآخر: هم المنافقون الذين شغلوا بأنفسهم، ولم يكن لهم همٌ إلا خلاصُ أنفسهم، فضعفت عزائمهم، وخارت قواهم، وأسأوا الظن بربهم وبنبيهم وبدِينهم، وظنوا أن الله لا يتم أمر رسوله، وأن الإسلام لن تقوم له قائمة، ولذلك تراهم نادمين على خروجهم مع الرسول ﷺ يقول بعضهم لبعض: هل كان لنا من اختيار في الخروج؟ ﴿وَطَآئِفَةٌ قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنْفُسُهُمْ يَظُنُّونَ بِاللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ ظَنَّ الْجَاهِلِيَّةِ يَقُولُونَ هَلْ لَنَا مِنَ الْأَمْرِ مِنْ شَيْءٍ﴾، وهذا استفهام إنكاري، حيث أسأوا الظن، فظنوا أن الله لا يتم أمر هذا الدين، وأن الهزيمة هي القاضية عليه.

قال الزبير بن العوام رضي الله عنه: لقد رأيتني مع رسول الله ﷺ حين اشتد علينا الخوف، أرسل الله علينا النوم، والله إني لأسمع قول مُعْتَبِ بْنِ قُشَيْرٍ، والنعاس يغشاني، ما أسمعُه إلا

(١) أخرجه البخاري عن أنس، فتح الباري (٢٢/٧) ورقمه في البخاري: (٤٠٦٨، ٤٥٦٢) والنسائي في «السنن الكبرى» برقم: (١١٠٨٠).

(٢) رواه البخاري في المغازي معلقاً، وفي التفسير مسنداً، ورواه الترمذي والنسائي والحاكم (٢٩٧/٢) عن أنس، وهذا لفظ الترمذي، وقال: حسن صحيح، «تحفة الأحوذى» (٣٥٨/٨) ورقمه في «السنن» (٣٢٠٦) وصححه الألباني في صحيح السنن برقم: (٢٤٠٥) والمختارة (٨٦٦) وهو في الطبراني الكبير (٤٦٩٩) والحاكم (٢٩٧/٢) وابن سعد (٥٠٥/٣) وابن أبي شيبه (٣٤٨/٥) وفي مسلم (١٧٩/٥).

كالحلم يقول: ﴿لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ مَّا قُتِلْنَا هَهُنَا﴾^(١).

قال ابن مسعود رضي الله عنه: النعاس في القتال من الله، وفي الصلاة من الشيطان^(٢).

ولما أشار عبد الله بن أبيي على النبي ﷺ بعدم الخروج يوم أحد، وحدث ما حدث، قال: هل لنا من الأمر شيء؟ أي: ليس لنا أمر يطاع.

وقد أراد الله سبحانه أن يميز المؤمنين من المنافقين، فأمن المؤمنين بالنعاس، آية باهرة، ومعجزة لهم، وبقي المنافقون في الخوف دون أن يلقي الله عليهم النعاس؛ ليظلموا في قلق وذعر، وليظهر نفاقهم واعتراضهم على خطة القائد العظيم ﷺ حيث قال بعضهم: لو كان لنا عقول، لم نخرج مع محمد إلى قتال أهل مكة.

وقال آخرون: لو كنا على الحق ما قتلنا ههنا، بالإضافة إلى قول مُعْتَب و ابن أبيي، قال تعالى في الرد عليهم: ﴿قُلْ إِنَّ الْأَمْرَ كُلَّهُ لِلَّهِ﴾ وهذا يشمل الأمر القُدري، والأمر الشرعي، وأن الأمور كلها بقضاء الله وقدره، ومن ذلك النصر والهزيمة، فلا أمر لأحد غير الله، كما قال الله لنبيه: ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ﴾.

فالنصر والظفر والهزيمة والجراح، كل ذلك بيد الله، فهو الذي قدّر خروجكم للقتال، وهؤلاء المنافقون ﴿يُخْفُونَ فِي أَنْفُسِهِمْ﴾ من الكفر والشك والندم على الخروج معك ﴿مَّا لَا يُبْدُونَ لَكَ﴾.

ثم فسّر الله تعالى ما أخفوه في أنفسهم بهذه المقالة، وفيها إنكار وتكذيب بقدر الله، وتسفيه لرأي رسول الله ورأي أصحابه، وتركية منهم لأنفسهم، فهم ﴿يَقُولُونَ لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ مَّا قُتِلْنَا هَهُنَا﴾ ونفوسهم إلى جوار ذلك ملأى بالوساوس والهواجس، وحافلة بالاعتراضات والاحتجاجات، والله تعالى يبين لهم ما لا يظهورونه من الحسرة على الخروج مع رسول الله ﷺ بأن الآجال بيد الله، وأنه لا يغني حذر من قدر، وأن التدبير لا يقاوم التقدير، فلو كنتم في بيوتكم، وقدّر الله أنكم تموتون لخروج الذين كتب عليهم الموت إلى حيث يُقْتَلُونَ، فلا رادّ لقضاء الله، ولا معقب لحكمه ﴿قُلْ لَوْ كُنْتُمْ فِي بُيُوتِكُمْ﴾.

(١) رواه ابن أبي حاتم عن ابن إسحاق والمختارة برقم: (٨٦٤) وإسناده حسن.

(٢) أخرجه ابن أبي حاتم بسنده عن أبي رزين، ورجاله ثقات إلا عاصمًا صدوق، وإسناده حسن.

وهي أبعد شيء عن مظان القتل ﴿لَبَرَزَ الَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقَتْلُ إِلَى مَضَاجِعِهِمْ﴾ أي: لخرجوا إلى مصارعهم التي يُصرعون فيها، فالأسباب تتقطع إذا لم يعارضها القدر، فإذا عارضها القدر لم تنفع شيئاً، بل لا بد من وقوع ما هو مقدر عند الله، فما هو مدون في اللوح المحفوظ من الموت أو الحياة.

وما جعل الله ذلك إلا ليظهر لخلقه ما في صدوركم من الشك والنفاق، فيميز المؤمن من المنافق، ويظهر للناس في أقواله وأفعاله ﴿وَلِيَتْلَى اللَّهُ مَا فِي صُدُورِكُمْ﴾ ويظهر أيضاً ما في صدور المؤمنين من الإخلاص ويمحصها من وساوس الشيطان، ويختبر ما فيها من نفاق وإيمان وضعف يقين ﴿وَلِيَمْحَصَ مَا فِي قُلُوبِكُمْ﴾ والتمحيص هو تخليص الشيء مما يخالطه وفيه عيب، وصفات غير حميدة.

والله سبحانه لا يخفى عليه شيء من أمور خلقه، فهو عالم بالباطن كما هو عالم بالظواهر ومن حكمته تعالى أن قدر من الأسباب ما تظهر به خفايا الصدور وسرائر الأمور ﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾ فيجازيكم على أقوالكم وأفعالكم.

وهذا إخبار عن حال الذين فرّوا أمام العدو يوم أحد، قال تعالى:

١٥٥ - ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَوَلَّوْا مِنْكُمْ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ إِنَّمَا اسْتَزَلَّهُمُ الشَّيْطَانُ بِبَعْضِ مَا كَسَبُوا وَلَقَدْ عَفَا اللَّهُ عَنْهُمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ﴾

وفي يوم أحد انهزم أكثر المسلمين، وفرّوا من ساحة القتال حين التقى المسلمون والمشركون، وممن انهزم وترك موقعه، أكثر الرماة الذين كانوا يَحْمُونَ ظهر المسلمين، وثبت مع النبي ﷺ نحو أربعة عشر رجلاً، منهم: أبو بكر، وعمر، وعلي، وطلحة بن عبيد الله، وعبد الرحمن بن عوف، والزبير، وسعد بن أبي وقاص، والباقيون من الأنصار.

والله سبحانه يبين أن فرار من فرّ في هذه الغزوة كان بسبب إغواء الشيطان لهم، فزَيّن لهم معصية رسول الله، وتسَلَّط عليهم، وهم الذين مكَّنُوهُ من أنفسهم بما فعلوه من مخالفة أمر النبي ﷺ، لأن المعاصي مَرَكَبُهُ وَمَدْخَلُهُ، ولو اعتصموا بطاعة ربهم لما كان له عليهم من سلطان، ﴿إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ﴾ [الإسراء: ٦٥]

ثم طمأنهم الله تعالى بأنه قد عفا عنهم وتجاوز عما حدث منهم فلم يعاقبهم والله

تعالى غفور للمذنبين التائبين خطاياهم، حلیم لا يعاجل بالعقوبة، بل يمهلهم، ويدعوهم إلى الإنابة إليه والإقبال عليه.

عُوتِبَ عثمان ؓ في عدم حضوره يوم أحد، فقال: ذلك وإن كان خطأ، لكن الله قد عفا عنه، وقرأ الآية^(١).

وقد ترخص قوم في الفرار يوم أحد لما سمعوا أن النبي ﷺ قد مات، قاله ابن عباس.

أو أن الشيطان ذكّرهم خطاياهم فكرهوا لقاء الله إلا على حال يرضونها؛ قاله الزجاج ﴿وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِمَا كَسَبُوا مَا تَرَكَ عَلَى ظَهْرِهَا مِنْ دَابَّةٍ﴾ [فاطر: ٤٥].

التَّحْذِيرُ مِنَ الْمُتَّبِطِينَ عَنِ الْجِهَادِ

١٥٦- ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ كَفَرُوا وَقَالُوا لِإِخْوَانِهِمْ إِذَا ضَرَبُوا فِي الْأَرْضِ أَوْ كَانُوا غُرَى لَوْ كَانُوا عِنْدَنَا مَا مَاتُوا وَمَا قُتِلُوا لِيَجْعَلَ اللَّهُ ذَلِكَ حَسْرَةً فِي قُلُوبِهِمْ وَاللَّهُ يُخَيِّمُ وَيُمِيتُ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ^(٢)﴾

ثم يحذر الله المؤمنين ألا يشبهوا الكفار والمنافقين، في قولهم لإخوانهم في النفاق والكفر، أو لإخوانهم في النسب، إذا خرجوا في سفر للتجارة أو غيرها فماتوا، أو كانوا غزاة مجاهدين قُتِلُوا: لو لم يخرج هؤلاء، وأقاموا معنا ما ماتوا وما قتلوا؛ لأن هذا القول يزيدهم حسرة وندامة وحُزناً يستقر في قلوبهم وغماً وأسفاً ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ لا تشابهوا الكافرين الذين لا يؤمنون بربهم، فهم يقولون لإخوانهم من أهل الكفر: ﴿لَوْ كَانُوا عِنْدَنَا﴾ ولم يخرجوا للغزو أو السفر ﴿مَا مَاتُوا وَمَا قُتِلُوا﴾ وهذا كذب منهم، فقد قال تعالى ﴿قُلْ لَوْ كُنْتُمْ فِي بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ الَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقَتْلُ إِلَى مَضَاجِعِهِمْ﴾ [الآية: ١٥٤] ﴿لِيَجْعَلَ اللَّهُ ذَلِكَ حَسْرَةً فِي قُلُوبِهِمْ﴾ والحسرة هي الهم المضني والحزن المستمر والألم الشديد.

أما المؤمنون بالله ورسوله، فهم يعلمون أن ذلك بقضاء الله وقدره، فيؤمنون ويسلمون،

(١) يُنْظَرُ «صحيح البخاري» برقم: (٤٠٦٦).

(٢) قرأ ابن كثير وحزمة والكسائي وخلف العاشر (يَعْمَلُونَ) بياء الغيبة ردّاً على الذين كفروا الوارد أول الآية وقرأ الباقر (تَعْمَلُونَ) بباء الخطاب ردّاً على قوله تعالى: (ولا تكونوا كالذين كفروا) وهو خطاب للمؤمنين.

فيهدي الله قلوبهم ويثبتها، ويخفف عنهم آلام المصيبة.

ثم رد الله على قول المنافقين بقوله: ﴿وَاللَّهُ يُحْيِي وَيُمِيتُ﴾ فقد يميت المقيم والقاعد، ويُحيي الغازي والمسافر، فالجلوس في البيت لا يمنع الإنسان من الموت، والسفر أو الغزو لا يُعجل بالموت أو القتل ﴿وَاللَّهُ يَمَّا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ فهو سبحانه مطلع على ما تعملونه من خير أو شر، وسوف يجازيكم على أعمالكم، فلا تكونوا كالمنافقين الذين ينفرون المؤمنين عن الجهاد، فَلَأَنْ يَمُوتَ الْمُسْلِمُ فِي الْجِهَادِ، فَيَسْتَوْجِبَ الثَّوَابَ، خَيْرٌ لَهُ مِنْ أَنْ يَمُوتَ فِي بَيْتِهِ بِلَا فَائِدَةٍ، قَالَ تَعَالَى:

١٥٧- ﴿وَلَكِنْ قُتِلْتُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَوْ مُتُّمْ^(١) لَمَغْفِرَةٌ مِنَ اللَّهِ وَرَحْمَةٌ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ^(٢)﴾

على أن الموت أو القتل ليس نهاية المطاف، بل هناك ما هو خير من هذه الحياة وما فيها، وهو مغفرة الله ورحمته، فإذا قُتلتم شهداء في سبيل الله فإنكم ستنالون هذه المنزلة فتفوزون بجنات النعيم، وذلك خير من الدنيا وما يجمعه أهلها.

وإذا مات الإنسان أو قتل على أي حال، فإن مرجعه إلى الله، ومآله إليه، فيجزي كلاً بعمله، فلا فرار إلا إلى الله، ولا عاصم إلا بحبل الله، ولا ملجأ ولا منجى منه إلا إليه.

وثبت في الحديث عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «تضمن الله لمن خرج في سبيله لا يخرجه إلا جهاد في سبيلي وإيمان بي، وتصديق برسلي، فهو ضامن عليّ أن أدخله الجنة، أو أرجعه إلى منزله الذي خرج منه بما نال من أجر أو غنيمة، والذي نفس محمد بيده، ما من كَلِمٍ يُكَلِّمُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ إِلَّا جَاءَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كَهَيْئَتِهِ يَوْمَ كَلِمٍ، لوْنُهُ لَوْنُ دَمٍ، وريحه رِيحُ مَسْكٍ، والذي نفس محمد بيده، لولا أن أشق على المسلمين، ما قعدتُ خلاف سرية تغزو في سبيل الله أبداً، ولكن لا أجد سعة فأحملهم، ولا يجدون سعة، ويشق عليهم أن يتخلفوا عني، والذي نفس محمد بيده، لوددتُ أن أغزو في سبيل الله فأقتل، ثم أغزو فأقتل، ثم أغزو فأقتل»^(٣).

(١) قرأ نافع وحزمة والكسائي وخلف العاشر (مُتُّمْ) وقرأ الباقر (مُتُّمٌ) وهما لغتان، ومثلها (متم) في الآية التالية.

(٢) قرأ حفص (يَجْمَعُونَ) بياء الغيب؛ لأنه راجع إلى الذين كفروا في قوله تعالى: (ولا تكونوا كالذين كفروا) وقرأ الباقر (تَجْمَعُونَ) بقاء الخطاب؛ لمناسبة قوله تعالى: (ولئن قتلتم في سبيل الله).

(٣) «صحيح مسلم» برقم: (١٨٧٦) والبخاري (١٥٤/٦) برقم: (٣٦، ٢٧٨٧، ٥٥٣٣، ٧٢٢٦).

وعن أنس رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «ما من أحد يدخل الجنة يحب أن يرجع إلى الدنيا وله ما على الأرض من شيء إلا الشهيد، يتمنى أن يرجع إلى الدنيا، فيقتل عشر مرات لما يرى من الكرامة» وفي رواية: «لما يرى من فضل الشهادة»^(١). قال تعالى:

١٥٨- ﴿وَلَكِنْ مَتِّمُوا أَوْ قُتِلْتُمْ لِرَأْيِ اللَّهِ تَحْشَرُونَ﴾

أي: وجميع الخلق راجعون إلى الله تعالى، محشورون إليه، سواء ماتوا على فرشهم أو قتلوا في ساحة الجهاد، فالجميع راجع إلى الله تعالى، وهو مجازيهم على أعمالهم.

لَيْنُ الْجَانِبِ وَالتَّشَاوُرِ فِي أُمُورِ الدُّنْيَا

١٥٩- ﴿فِيمَا رَحِمَهُ مِنَ اللَّهِ لَئِنْ لَمْ يَكُنْ فَطَا غَلِظَ الْقَلْبُ لَا نَفْضُوا مِنْ حَوْلِكَ فَأَعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ﴾

ومن شأن قائد المعركة، أن يحاسب المقصرين عند حلول الهزيمة، ولكن النبي ﷺ بما منحه ربه من لين ورحمة ولطف ورأفة، لم يسارع إلى تعنيف الرماة على ما كان منهم يوم أحد، بل كان من توفيق الله لنبيه، أن ألقى في قلبه الرحمة فترقق بهم ولم يعاقبهم أو يوبخهم، ولو كان رسول الله ﷺ جافياً قاسي القلب سيئ الخلق، قليل الاحتمال، لنفروا منه، وتفرقوا عنه، ولم يبق منهم أحد حوله ﴿فِيمَا رَحِمَهُ مِنَ اللَّهِ﴾ أي: بسبب رحمة فياضة منحك الله إياها يا محمد كنت لينا لهم ولم تعنفهم على ما وقع منهم، والشدة في غير موضعها تُفَرِّق ولا تجمع وتُضعف ولا تقوى، واللين هو سعة الخلق مع أمة الدعوة والمسلمين، وإقالة العثرات، وقد فطر النبي ﷺ على الرحمة، ومثل ذلك قوله تعالى: ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ﴾ [التوبة] وقوله ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ [القلم].

فالأخلاق الحسنة من المسؤول في أمور الدين، تجعل الناس تنجذب إلى دين الله، وترغبهم فيه، والأخلاق السيئة تُفَرِّق الناس من الدين وتبغضهم فيه.

قال عبد الله بن عمرو رضي الله عنه: إنه رأى صفة النبي ﷺ في الكتب المتقدمة: ليس بفظ ولا

(١) «صحيح مسلم» برقم: (١٨٧٧) والبخاري (٢٥/٦) برقم: (٢٨١٧) والنسائي (٣٦/٦) عن عبادة بن الصامت.

غليظ، ولا صحّاب في الأسواق، ولا يجزي السيئة بالسيئة، ولكن يعفو ويصفح^(١).

وعفو النبي وصفحه ورحمته بالناس كان سبباً في دخول كثير في الإسلام.

كما قال تعالى: ﴿خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ﴾ [الأعراف: ١٩٩].

ومن شأن قواد الأمة أن يتخلقوا بأخلاق نبيهم في تربية الأفراد والجماعات من غير إفراط ولا تفريط.

وقد رتب الله سبحانه على رحمة القائد ولين جانبه ما يتعلق بتنظيم شؤون الأمة من أمور، وهي:

١ - ﴿فَاعْفُ عَنْهُمْ﴾: تجاوز عن زلاتهم، ولا تؤاخذهم بما حدث منهم يوم أحد حين خالف الرماة أمرك، وتجاوز عن تقصيرهم في حقك.

٢ - ﴿وَأَسْتَغْفِرْ لَهُمْ﴾: اسأل الله أن يغفر لهم ما كان منهم من تقصير في جانب الله تعالى حتى يشفعك فيهم، فإن هذا من تمام شفقتك بهم.

٣ - ﴿وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ﴾: شاورهم فيما يحتاج إلى مشورة ونظر وفكر من الأمور التي لم ينزل فيها وحى قاطع من الله تعالى، وذلك في أمور الدنيا ومصالح الحرب، تطيباً لنفوسهم، وترويحاً لقلوبهم، وإعمالاً لعقولهم، ولتقتدي بك أمتك.

قالت عائشة رضي الله عنها: ما رأيت رجلاً أكثر استشارة للرجال من رسول الله ﷺ رواه البغوي بسنده. وتجاوز الاستشارة في أمور الدين التي لم ينزل فيها وحى، كما شاور النبي ﷺ أصحابه في شأن أسارى بدر، وهو أمر ديني.

وقد شاور النبي ﷺ أصحابه في مكان نزول الجيش يوم بدر. وشاورهم في الخروج إليها، وإلى غزوة أحد، وشاورهم في مصالحة الأحزاب يوم الخندق. وشاورهم أن يميل على ذراري المشركين يوم الحديبية، وشاورهم في شأن حادثة الإفك، فكان ﷺ يشاور في الحروب ونحوها.

وفي الحديث عن أبي هريرة أن النبي ﷺ قال: «المستشار مؤتمن»^(٢).

(١) البخاري في فتح الباري (٤٤٩/٨) ورقمه (٢١٢٥، ٤٨٣٤).

(٢) ابن ماجه (٢٣٣/٢) برقم: (٣٧٤٥) وأبو داود (٣٤٥/٥) برقم: (٥١٢٨) و«تحفة الأحوذى» (١٠٩/٨) وفي

«سنن الترمذي» برقم: (٢٣٧، ٢٣٦٩، ٢٨٢٢) وهو في «السلسلة الصحيحة» (١٦٤١).

وأهل الشورى في مسائل الاجتهاد والتطبيق هم: الرجال الصالحون القائمون على حدود الله، المتقون: أولو الأحلام والنهى، أهل العلم الشرعي والتجربي من المسلمين غير الملحدين ولا العلمانيين ولا المحاربين ولا الفجار الذين لا يتورعون عن ارتكاب المنكرات ولا يجاهرون بمعاصيه، ولا بالأمور المخالفة لمنهج الله.

قال البخاري في كتاب الاعتصام: (وكانت الأئمة بعد النبي ﷺ يستشيرون الأمراء من أهل العلم، وكان القراء أصحاب مشورة عمر، كهولاً كانوا أو شباناً، وكان وقفاً عند كتاب الله). وقد تشاور الصحابة في أمر الخلافة بعد وفاة النبي ﷺ، وجعل عمر الأمر بعده شورى في ستة عيّنهم.

٤- ﴿فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ﴾: والشورى من الأسباب التي يجب الأخذ بها، ولكن لا بد من الاعتماد على الله والتوكل عليه أولاً وأخيراً، فإذا شاورتهم في الأمر، وعزمت على التنفيذ، ففوض أمرك إلى الله، واستعن في كل أمورك بالله، وثق به، ولا تعتمد إلا عليه، فإن المشورة لا تنافي التوكل، فامض بعد الاستشارة معتمداً على الله، فالله يحب المعتمدين عليه في جميع الأمور ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ﴾، المعتمدين على حوله وقوته المتبرئين من حولهم وقوتهم.

هذا: ومن فوائد الاستشارة:

- ١- أنها من العبادات التي يُتقرب بها إلى الله تعالى.
- ٢- وفيها تطيب ل خاطر المسلمين، وإزالة ما عسى أن يكون في قلوبهم على رئيسهم من إحن.
- ٣- وفيها تنوير للأفكار وتفتيق للأذهان.
- ٤- وفيها ما تُسفر عنه المشورة من الإصابة في الأمور والبعد عن الأخطاء.

الْمُؤَثِّرُ الْحَقِيقِيُّ فِي الْخُذْلَانِ أَوْ النَّصْرِ هُوَ اللَّهُ سُبْحَانَهُ

١٦٠- ﴿إِنْ يَنْصُرْكُمُ^(١) اللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ وَإِنْ يَخْذُلْكُمْ فَمَنْ ذَا الَّذِي يَنْصُرُكُمْ مِنْ بَعْدِهِ وَعَلَى

(١) قرأ أبو عمرو بخلف عن الدوري بإسكان الراء من (ينصركم) والوجه الثاني للدوري اختلاس حركة الضم، والباقون بالضم الخالص

اللَّهُ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ ﴿١٦٠﴾

ثم إن ما يصيب الناس من نصر أو خذلان مرده إلى الله، فإذا نصر الله قومًا في يوم، ثم خذلهم في آخر فإن ذلك يرجع إلى أسباب وحكم، فعليهم أن يأخذوا بأسباب النصر.

وهذه الآية تقرر أن الفاعل الحقيقي المؤثر في النصر أو الهزيمة، هو الله تعالى، وهو سبحانه يمنح النصر لمن أخذ بأسبابه، وسنة الله سبحانه تجري بترتيب النتائج على الأسباب، فلا أحد يمنعكم النصر إن أمدكم الله بعونه، ولا أحد يستطيع أن يغلبكم إن أمدكم الله بنصره، ولا بد أن تكونوا مؤهلين حتى يتحقق لكم وعد الله. قال تعالى ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن نَّصُرُوا اللَّهَ يَنْصُرْكُم وَيُنِيبْ أَقْدَامَكُمْ﴾ ﴿٧﴾ [محمد]

وقال سبحانه: ﴿وَلْيَنْصُرَنَّ اللَّهُ مَن يَنْصُرُهُ﴾ [الحج: ٤٠]

وقال جل شأنه: ﴿وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الروم: ٤٧]

وقد وصف الله المؤهلين للنصر بقوله: ﴿الَّذِينَ إِذَا مَكَتَهُمْ فِي الْأَرْضِ أَخَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَآمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ﴾ [الحج: ٤١]

وهؤلاء هم الذين يمكن الله لهم في الأرض، ويبدل خوفهم أمناً ﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّن بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا﴾ [النور: ٥٥]

وإن كنتم أهلاً للنصر والتمكين، فلا أحد يستطيع أن يخذلكم إن نصركم الله وأمدكم بعونه وتوفيقه ﴿وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾ فلا قوة إلا به، ولا قدرة إلا له، وبحسب إيمان العبد يكون توكله، والإيمان بالله تعالى يوجب التوكل عليه، وعدم التماس النصر من غيره.

في صحيح مسلم وغيره عن عمران بن حصين رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «يدخل من أمتي الجنة سبعون ألفاً بغير حساب»، قالوا: من هم يا رسول الله؟ قال: «هم الذين لا يكتون ولا يسترقون ولا يتطيرون وعلى ربهم يتوكلون»، فقام عكاشة بن محصن، فقال: يا رسول الله، ادع الله أن يجعلني منهم، فقال: «أنت منهم»، فقام آخر، فقال: يا نبي الله، ادع الله أن يجعلني منهم، قال: «سبقك بها عكاشة»^(١).

(١) «صحيح مسلم» برقم: (٢١٨) و«المسند» برقم (١٩٩٦٦، ١٩١٩١٣).

وعن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال: قال رسول الله: «لو أنكم تتوكلون على الله حق توكله لرزقكم كما يرزق الطير تغدو خماصًا وتروح بطانًا»^(١).

الاستخفاف بالمال العام من أسباب الهزائم

١٦١- ﴿وَمَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَغُلَّ^(٢) أَنْ يَغُلَّ^(٣) وَمَنْ يَغْلُلْ يَأْتِ بِمَا غَلَّ يَوْمَ الْقِيَمَةِ ثُمَّ تُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ

يخبر الله سبحانه أنه يستحيل ويمتنع على نبي من الأنبياء أن يكتسب أو يأخذ شيئًا من الأموال العامة، أو يخون في أي مال يكون تحت يده، فإن هذا محرم إجماعًا، وهو من كبائر الذنوب، وقد صان الله أنبياءه من كل ما يقدح فيهم، وجعلهم أفضل الخلق، وأطهرهم نفسًا، وأزكاهم خلقًا، ونزههم عن كل نقص وعيب ﴿اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ﴾ [الأنعام: ١٢٤] وقد توعد الله من يخون في المال العام أنه يأتي يوم القيامة حاملًا له على ظهره، فضيحة له في الموقف، وليعذب به يوم القيامة، وكل غال يُوفى وزره على مقدار كسبه، فلا يزداد في سيئاته، ولا ينقص من حسناته.

أسباب النزول:

١- قال مقاتل والكلبي: نزلت في غنائم أحد حين ترك الرماة المركز للغنيمة، وقالوا: نخشى أن يقول النبي ﷺ من أخذ شيئًا فهو له، وألا تُقسم الغنائم، كما لم تقسم يوم بدر، فتركوا المركز ووقعوا في الغنائم.

٢- وقال ابن عباس: ما كان لنبي أن يقسم إلى طائفة من المؤمنين ويترك طائفة، ويجور في القسم، ولكن يقسم بالعدل، ويأخذ فيه بأمر الله، ويحكم فيه بما أنزل الله إليه.

(١) قال الترمذي: حديث حسن صحيح برقم: (٢٤٦١) وفي «صحيح سنن الترمذي» (١٩١١) وصحيح ابن ماجه (٤١٦٤).

(٢) قرأ نافع بالهمز في (النبي)، والباقون بالياء المشددة

(٣) قرأ ابن كثير وأبو عمرو وعاصم (أَنْ يَغْلُلَ) مبنياً للفاعل، أي: لا ينبغي أن يقع من نبي غلول، أي: خيانة البتة، وقرأ الباقيون (أَنْ يُغْلَلَ) مبنياً للمفعول من (غَلَ)، أي: لا ينبغي أن يُخَوَّنَ النبيُّ أحدٌ فهو تقي في معنى النهي، أو بمعنى: لا ينبغي لنبي أن يوجد غالًا.

وقد كان من العوامل التي جعلت الرماة يتركون أماكنهم من الجبل: خوفهم ألا يقسم لهم من الغنائم، وكان بعض المنافقين قد تكلم في غنائم بدر.

٣- وعن ابن المبارك قال: حدثنا شريك، عن حصيف، عن عكرمة، عن ابن عباس رضي الله عنه، قال: فُقدت قطيفة حمراء يوم بدر مما أصيب من المشركين، فقال أناس: لعل النبي ﷺ أخذها! فأنزل الله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَغُلَّ﴾^(١).

٤- وعن مجاهد أن المنافقين اتهموا النبي ﷺ في شيء من الغنيمة، فأنزل الله الآية^(٢).

٥- وعن الضحاك قال: بعث رسول الله ﷺ طلائع، فغنم النبي غنيمة وقسمها بين الناس، ولم يُقسم للطلائع شيئاً، فلما قَدِمَت الطلائع قالوا: قَسَمَ الفَيء ولم يقسم لنا، فنزلت الآية^(٣).

٦- وقال ابن عباس في رواية الضحاك أن رسول الله ﷺ لَمَّا وقع في يده غنائم هوازن يوم حنين غلَّه رجل بمخيط، فأنزل الله الآية.

٧- وقال محمد بن كعب القرظي ومحمد بن إسحاق بن يسار: هذا في شأن الوحي، يقول: وما كان لنبي أن يكتُم شيئاً من الوحي رغبة، أو رهبة، أو مداهنة.

والغلول: هو الخيانة وأخذ الشيء خفية؛ كالسرقة من المال العام، وقد نفى الله تعالى الغلول عن الأنبياء بكل معانيه؛ لأن النبوة والخيانة لا يجتمعان، وفي ذلك جَمْع بين الضدين، ولم يُخْن نبي أمته في الغنائم ولا في الوحي، فعلى جيوش المسلمين أن يحافظوا على المال العام؛ فإن الاستخفاف به يغضب الله تعالى ويكون سبباً في الهزيمة، ومن يخن يأت يوم القيامة حاملاً ما أخذه على ظهره ورقبته، معذباً بحمله وثقله على وجه الحقيقة، موبخاً بإظهار خيانتته على رؤوس الأشهاد، مشهراً به؛ ليُفْضَح في الموقف المشهود، قيل: يُمَثَّل به في النار، وقيل: يأتي بإثم ما غلَّه، فيجازى به يوم القيامة ﴿ثُمَّ﴾

(١) قال الترمذي: حديث حسن برقم: (٣٠٠٩) وتفسير الطبري (١٠٢/٤) والواحدي (١٠٨) وهو في «صحيح سنن أبي داود» (٣٣٦٠) وابن حاتم (٤٤٢٩).

(٢) «المعجم الكبير» للطبراني (١٠١/١١).

(٣) «تفسير القرطبي» (١٠٣/١) و«الدر المنثور» (٩١/٢) وهو في الطبراني الكبير (١١٧٤) والخطيب في تاريخه (٣٧٢/١).

تُؤْتَى كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ ﴿١﴾ أي: تعطى جزاء ما كسبت من خير أو شر جزاءً وافيًا غير منقوص ﴿وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ شيئًا.

وهذه جملة من الأحاديث في تحريم الغلول:

- ١- صحَّ في الحديث عن عدي بن عميرة الكندي أن رسول الله ﷺ قال: «يا أيها الناس، من عمل منكم لنا عملاً فكتمنا مخيلاً فما فوقه فهو غلٌّ يأتي به يوم القيامة»^(١).
- ٢- وعن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال: لما كان يوم خيبر أقبل نفر من أصحاب رسول الله ﷺ فقالوا: فلان شهيد، وفلان شهيد، حتى أتوا على رجل، فقالوا: فلان شهيد، فقال رسول الله ﷺ: «كلّا إني رأيته في النار في بردة غلّها أو عباءة»، ثم قال رسول الله ﷺ: «يا بن الخطاب، اذهب، فناد في الناس: إنه لا يدخل الجنة إلا المؤمنون»^(٢).
- ٣- وفي الصحيحين: عن أبي هريرة رضي الله عنه أن بعض الصحابة رأوا رجلاً يوم خيبر قد استشهد، فقالوا: هنيئاً له الشهادة، فقال ﷺ: «والذي نفسي به، إن الشملة التي غلّها يوم خيبر، لم تصبها المقاسم، لتلتهب عليه ناراً»، فجاء رجل بشراك أو شراكين، فقال: أصبتها يوم خيبر، فقال ﷺ: «شراك من نار، أو شراكان من نار»^(٣).
- ٤- ولفظ ابن أبي شيبه عن أبي هريرة قال: أهدى رفاعه إلى رسول الله ﷺ غلاماً، فخرج به معه إلى خيبر، فنزل بين العصر والمغرب، فأتى الغلام سهم عاثر، فقتله، فقلنا: هنيئاً لك الجنة، فقال ﷺ: «والذي نفسي بيده، إن شملته لتُحرق عليه الآن في النار، غلّها من المسلمين»، فقال رجل من الأنصار: يا رسول الله أصبت يومئذ شراكين، فقال: «يُقد منك مثلهما من نار جهنم»^(٤).

(١) «صحيح مسلم» برقم: (١٨٣٣) من حديث عدي بن عميرة الكندي، وفي «المسند» (١٩٢/٤) برقم

(١٧٧٢٣ ، ١٧٧١٧) وهذا لفظ الأخير وأبوداود (٣٥٨١) وابن أبي شيبه (٤٩٤/١٢). وابن خزيمة

(٢٣٣٨) وعبدالرزاق في المصنف (٦٩٥٥) والحميدي (٨٩٤).

(٢) «صحيح مسلم» برقم: (١١٤) و«المسند» برقم: (٣٢٨، ٢٠٣) بإسناد حسن ورجال ثقات و«سنن الترمذي»

برقم: (١٥٧٤) وابن أبي شيبه (٤٦٥/١٤) وابن حبان (٤٨٥٧).

(٣) «صحيح البخاري» برقم: (٦٧٠٧) و«صحيح مسلم» برقم: (١٨٣).

(٤) ابن أبي شيبه (٤٩٥/١٢) وهو في البخاري (٤٢٣٤).

والشراك هو: سير النعل الذي يكون فوق أصابع القدم.

٥- وأخبر النبي ﷺ عن رجل كان يحفظ متاع النبي ﷺ يقال له: كركرة، أخبر أنه في النار، قالوا: ففتشنا متاعه، فوجدنا فيه عباءة قد غلَّها^(١).

٦- وعن زيد بن خالد الجهني رضي الله عنه أن رجلاً تُوفِّي يوم خيبر، فذكروه للنبي ﷺ فقال: «صلوا على صاحبكم»، فتغيرت وجوه الناس، فقال: «إن صاحبكم قد غل في سبيل الله»، قال: ففتشنا متاعه، فوجدنا فيه خرزاً من خرز يهود، لا يساوي درهمين^(٢).

٧- وعن سعيد بن زيد رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «من ظلم قيد شبر طُوقه من سبع أرضين»^(٣).

وقد تربَّى أصحاب النبي ﷺ على الأمانة والورع، بمقتضى هذه التعاليم، حتى إن أحدهم وجد مقبض سيف في فتح المدائن فدفعه إلى صاحب الأقباض.

ووصل تاج كسرى وإيوانه إلى عمر بعد معركة القادسية ضمن الغنائم، وهما لا يُقومان بثمن، فنظر عمر إلى الجند في غبطة وقال: إن قومًا أدّوا هذا لأمرهم لأمناء. ذكره ابن جرير في التاريخ.

مُقَابَلَةٌ بَيْنَ أَهْلِ الطَّاعَةِ وَأَهْلِ الْمَعْصِيَةِ

١٦٢- ﴿أَفَمَنْ اتَّبَعَ رِضْوَانَ^(٤) اللَّهِ كَمَنْ بَاءَ بِسَخَطٍ مِنَ اللَّهِ وَمَأْوَاهُ جَهَنَّمُ وَبَسَّ الْمَصِيرُ^(٥)﴾

وفي هذه الآية موازنة بين حقيقة القيم في ميدان الكسب والخسارة، ومقابلة بين أهل الإيمان وأهل الكفر، وأهل الطاعة وأهل المعصية، فلا يستوي من قَصَدَ رضوان الله، ومن هو مُكِبٌّ على المعاصي، مُسَخِطٌ لربه، فاستحق بذلك سكن جهنم والعياذ بالله.

وهذا كقوله تعالى: ﴿أَفَجَعَلَ الْمُتَسَلِّمِينَ^(٦) كَالْمُجْرِمِينَ^(٧) مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ^(٨)﴾ [القلم].

وقوله ﴿أَفَمَنْ كَانَ مُؤْمِنًا كَمَنْ كَانَ فَاسِقًا لَا يَسْتَوُونَ﴾ [السجدة: ١٨]

(١) «صحيح البخاري» برقم: (٣٠٧٤) عن عبد الله بن عمرو، وابن أبي شيبة (٤٩١/١٢) عن ابن عمر.

(٢) أخرجه مسلم (١١٤) وأحمد (٣٠/١) برقم: (١٧٠٣١، ٢١٦٧٥) والترمذي (١٥٧٤).

(٣) «صحيح البخاري» (٢٤٥٢) و«صحيح مسلم» (١٦١٠).

(٤) قرأ شعبة (رضوان) بضم الراء، والباقون (رضوان) بكسر الراء وهما لغتان.

وقوله: ﴿أَمْ نَجْعَلُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَالْمُفْسِدِينَ فِي الْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ الْمُتَّقِينَ كَالْفُجَّارِ﴾ [ص].

وقوله: ﴿أَفَمَنْ وَعَدْنَاهُ وَعْدًا حَسَنًا فَهُوَ لَاقِيهِ كَمَنْ مَنَعْنَاهُ مَنَعَ الْحَيَوَةِ الدُّنْيَا ثُمَّ هُوَ يَوْمَ الْقِيَمَةِ مِنَ الْمُخْضَرِينَ﴾ [القصص].

وقوله أيضًا: ﴿أَفَمَنْ يَعْلَمُ أَنَّمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ الْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَى﴾ [الرعد: ١٩].

وفي هذا نفي للظلم عن رب العالمين؛ فإن من واطب على ما يرضي الله تعالى، والتزم طاعته، وترك ما نهى عنه، ومنه الخيانة واستحلال مال الدولة، لا يستوي هذا بمن باء بسخط من الله بسبب غلوله وخيائته، فالمحسن والمسيء لا يستويان، والأمين والخائن لا يستويان، ومن أسخط الله تعالى مرجعه ومصيره إلى النار يوم القيامة وبئس المستقر والمآل. قال تعالى:

١٦٣- ﴿هُمْ دَرَجَتٌ عِنْدَ اللَّهِ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ﴾

ثم إن المتبعين لرضوان الله، والراجعين بسخط الله متفاوتون في الثواب والعقاب على حسب أعمالهم؛ فأهل الإيمان يمنحهم الله على حسب قوة إيمانهم وحسن أعمالهم، وأهل الكفر والعصيان يتفاوتون في العقاب على حسب ما اقترفوه، فمن أوغل منهم في الشرور يكون أشد عقاباً ممن هو أدنى منه في الشر.

إن أهل الخير وأهل الشر متفاوتون في الدرجات وفي منازلها ودركاتها ﴿وَلِكُلِّ دَرَجَتٌ مِمَّا عَمِلُوا﴾ [الأنعام: ١٣٢] والله تعالى سيوفِّي كلًّا منهم جزاءه، وفي هذا تربية لمن يخالف رسول الله، وثناء على من يلزم غرضه.

وفي يوم أحد وُجد من تخلف عن المعركة من المنافقين، ومن خالف أمر الرسول ﷺ وترك مكانه من الرماة، ووُجد من نهض مع رسول الله ﷺ إلى المعركة وثبت مكانه في الجبل.

فأصحاب الجنة المتبعون لرضوان الله متفاوتون في الدرجات، وأصحاب النار المتبعون لسخط الله متفاوتون في الدرجات، لا يستوون، ولا يخفى على الله شيء من أعمالهم.

مِنَّةُ اللَّهِ عَلَى الْعَرَبِ فِي حَمْلِ الرِّسَالَةِ إِلَى الْعَالَمِ

١٦٤- ﴿لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ^(١) رَسُولًا مِنْ أَنْفُسِهِمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ^(٢) ءَايَاتِهِ

(١) قرأ يعقوب بضم الهاء في الكلمات الثلاث، وقرأ حمزة بالضم في الثانية فقط.

وَيُزَكِّيهِمْ (١) وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِسْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ﴿١٦٤﴾

ثم تمضي الآيات لتختتم هذه الفقرة بالحقيقة الكبرى المتعلقة بصاحب الرسالة ﷺ لتذكّر المؤمنين بنعمة الله عليهم، حيث يمتن سبحانه على العرب خاصة أن جعل فيهم مزية تلقّي الدعوة قبل الناس كلهم ؛ لأن الله تعالى أراد ظهور هذا النور من بينهم، ثم يكونوا حملته إلى العالمين؛ لينشروه في العالم أجمع، وهكذا: يمتنّ الله ﷻ على عباده، بأن أنعم عليهم فبعث فيهم رسولاً عربياً من جنسهم، من ولد إسماعيل، يعرفون حسبه ونسبه، وصدقه وأمانته وعفافه وهو من بينهم، وليس بملك، أوجن، بل هو من أشرفهم، وأرسله الله بلسانهم؛ ليكون أدعى إلى تصديقه، ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ﴾ [إبراهيم: ٤] فيدعوهم إلى ما يوصلهم إلى نعيم الجنة ويخلصهم من عذاب النار، وكانوا يقفون على أخلاقه، ويعرفون جميع أحواله.

وهذا الرسول يبلغ أمته ما يوحى إليه من القرآن، ويدعوهم إلى ما يزكى أنفسهم، ويطهرهم من دنس الشرك والردائل، ويعلمهم الكتاب المشتمل على الآيات الخارجية عن طريق البشر، المنطوى على الحكمة الإلهية والأسرار الربانية والأخبار الغيبية، وقُدمت التزكية على التعليم في هذه الآية وأخرت في دعوة إبراهيم لاختلاف المراد فيهما، فالكفر حجاب مانع، وتركية النفس وتهذيبها أمر تالٍ وهذه المعاني ذكر أبو طالب بعضها قبل بعثة النبي ﷺ .

قال أبو طالب في خطبة تزويج الرسول ﷺ من خديجة ﷺ: إن ابني هذا -محمد بن عبد الله- لا يوزن به فتى إلا رجح، وهو -والله بعد هذا- له نبأ عظيم، وخطب جليل. وقد أنقذ الله به قومه من الضلالة، وبصّرهم به من الجهالة، وهداهم إلى صراط مستقيم.

وآيات الكتاب: هي القرآن الكريم، وكان الوحي لم يطرق أسماعهم قبله. والحكمة هي السنّة التي سنّها النبي ﷺ وشرح بها الكتاب، فطهرهم بهما من الدنس والرجس والخبث والنجس.

وكانوا قبل بعثة النبي ﷺ في جهالة وحيرة عن الهدى، لا يعرفون معروفًا، ولا ينكرون منكرًا.

ومثل هذه الآية قوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِنْهُمْ﴾ [الجمعة: ٢].

وقوله: ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ﴾ [التوبة: ١٢٨].

وقوله: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ﴾ [إبراهيم: ٤].

وقوله: ﴿قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحَى إِلَيَّ﴾ [الكهف: ١١٠].

صور من ضلال أهل الجاهلية:

١- ولتزكية العرب من جاهليتهم وأرجاسهم بمجيء محمد ﷺ صور عديدة، ذكر بعضها جعفر بن أبي طالب عليه السلام أمام النجاشي في الحبشة، فقال: أيها الملك، كنا قومًا أهل جاهلية، نعبد الأصنام، ونأكل الميتة، ونأتي الفواحش، ونقطع الأرحام، ونسيء الجوار، ويأكل القوي منا الضعيف.

فكنا على ذلك حتى بعث الله رسولاً منا نعرف حسبه ونسبه، وصدقه وأمانته وعفافه.

فدعانا إلى الله وحده؛ لنوحده ونعبده، ونخلع ما كنا نعبد نحن وآباؤنا من دونه من الحجارة والأوثان.

وأمرنا بصدق الحديث، وأداء الأمانة، وصلة الرحم، وحسن الجوار، والكف عن المحارم والدماء.

ونهاننا عن الفواحش، وقول الزور، وأكل مال اليتيم، وقذف المحصنات.

وأمرنا أن نعبد الله ولا نشرك به شيئاً، وأمرنا بالصلاة والزكاة والصيام.

٢- ومن أرجاس الجاهلية: نكاح الاستبضاع، يقول الرجل لزوجته: إذا طهرت من الحيض، فأرسلني إلى فلان، فاستبضعي منه، أي: احملني منه.

٣- ونكاح الرهط وهو: أن يجتمع نحو عشرة من القوم على نكاح المرأة، فإذا وضعت نسبه إلى من شاءت منهم، فلا يستطيع أن يمتنع.

٤- ونكاح البغايا: وهي المرأة تضع على بابها راية لمن يريد أن يأتيها، ثم تلحق الولد بمن شاءت.

٥- وكانت المرأة في الجاهلية تُورث كالمتاع، يُلقى وارث الميت عليها ثوبه، ويقول: أنا أحق بها.

٦- وكان الأولاد يُقتلون خوف الفقر، والبنات تُؤدُّ خوف العار.

٧- وكان لكل بيت من أهل مكة صنمٌ يعبدونه، يختلف مستوى هذا الصنم في نوعية الحجر، على حسب المستوى الاجتماعي للأسرة.

٨- وكان في جوف الكعبة ثلاث مئة وستون صنماً، كسرها النبي ﷺ بقضيب في يده يوم الفتح وهو يقول: ﴿جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا﴾ [الإسراء: ٨١].

٩- وكان الرجل منهم يأخذ معه أربعة أحجار إذا سافر، فيُنْظَرُ أحسنها فيتخذها ربًّا، ويجعل الثلاثة أثافي تحت القدر، فإذا ارتحل تركه^(١).

١٠- وبعضهم كان يعبد الجن، أو الملائكة، أو الكواكب.

١١- وقد هانت الدماء في الجاهلية ف وقعت الحرب بين بكر وتغلب ابني وائل، واستمرت أربعين عامًا بسبب سهم رمى به أحدهم في ضرع ناقة البسوس بنت منقذ، فاختلط دمها بلبنها.

١٢- وكذا حرب داحس والغبراء وهما فرسا سباق، سبقت فيه داحس، وقُتِلَ فيها ألوف من البشر.

ونحن نعيش في جاهلية الصحافة، والأفلام، وعروض الأزياء ومسابقات الجمال، والمراقص والحانات، والفن، وكثير من القنوات الفضائية والأرضية والبث المباشر، وشبكة المعلومات، والبريد الإلكتروني، والهاتف الجوال، والنظام الربوي، والعلمنة، وعصر حقوق المرأة، ومساواتها بالرجل فيما هو من خصائص الرجل شرعًا وفطرة وخلقًا.

والمجتمع العالمي بحاجة إلى استغلال هذه الوسائل في خدمة الدعوة ونشر محاسن الإسلام وتوصيل الدعوة إلى من لم تصله، ومقاومة هذه التيارات الجارفة!! وهذه مسئولية العلماء والحكام في منافسة هذه الوسائل بما يُنْجِي الرذيلة ويخدم الفضيلة، نحن بحاجة إلى كُتَّاب إسلاميين للقصة والرواية والمسلسل الذي يربي الأجيال على الأخلاق والآداب.

تَحْلِيلُ أَسْبَابِ الْهَزِيمَةِ يَوْمَ أُحُدٍ فِي خَمْسَةِ أُمُورٍ

١٦٥- ﴿أَوْ لَمَّا أَصَبْتَكُمْ مُصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُمْ مِثْلَهَا قُلْتُمْ أَنَّا هَذَا قُلْ هُوَ مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ (١٦٥)

في الآيات التالية تحليل أسباب الهزيمة وتفصيلها في يوم أحد، وفيها تسلية من الله تعالى لعباده المؤمنين على ما أصابهم يوم أحد من قتل وجراح ﴿أَوْ لَمَّا أَصَبْتَكُمْ مُصِيبَةٌ﴾

(١) يُنْظَرُ: كتاب الأصنام.

هذه المصيبة: حين قتل من المسلمين سبعون منهم حمزة ومصعب ﴿قَدْ أَصَبْتُمْ مَثَلَيْنَا﴾ حين هَزَمْتُمُ الْمُشْرِكُونَ يوم أحد أول الأمر، ويوم بدر حين قتلتم من المشركين سبعين من صناديد الكفر والشرك، وأسرتهم سبعين فهي مماثلة لكم في القدر والقيمة، فليهنَّ عليكم الأمر، مع أن قتلاكُم في الجنة وقتلاهم في النار، ومع هذا فقد ﴿قُلْتُمْ أَنَّى هَذَا﴾ من أين هذا الذي أصابنا، كيف ونحن مسلمون، وقد وعدنا الله بالنصر؟ قال سبحانه مجيباً على هذا الاستفهام: ﴿هُوَ مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِكُمْ﴾ فأنفسكم هي التي تنازعت، وهي التي فشلت، وهي التي لم تتحد، ولم تستجب، ولم تستمع لأمر النبي ﷺ حين تطلَّعت إلى الدنيا، وسعت وراء الغنيمة، فلوموا أنفسكم، واحذروا أسباب العقوبة ﴿إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ فلا تُسيئوا الظن بالله، فإنه قادر على نصركم دون حرب ولا قتال ﴿وَلَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَأَنْصَرَ مِنْهُمْ وَلَكِنْ لَبِلُوا بَعْضُكُمْ بِبَعْضٍ﴾ [محمد: ٤]

عن علي عليه السلام قال: جاء جبريل إلى النبي ﷺ فقال: «إن الله قد كره ما صنع قومك في أخذهم الفداء من الأسارى، وقد أمرك أن تخيرهم بين أن يضربوا أعناق الأسارى، وبين أن يأخذوا الفداء على أن يقتل منهم عدتهم»، فذكر ذلك رسول الله ﷺ للناس، فقالوا: يا رسول الله، عشائرتنا وإخواننا، بل نأخذ فداءهم فنتقوى به على قتال عدونا، ويستشهد منا عدتهم، فقتل منهم يوم أحد سبعون بعدد أسارى أهل بدر^(١).

وعن عمر بن الخطاب عليه السلام قال: فلما كان يوم أحد من العام المقبل، عوقبوا بما صنعوا يوم بدر من أخذهم الفداء، فقتل منهم سبعون^(٢).

وقد ذكر الله تعالى ذلك؛ لكي تهون عليهم مصائبهم يوم أحد، وأنهم أصابوا مثلهم،

(١) أخرجه البغوي مرسلاً عن عبيدة السلماني، وأسنده ابن جرير الطبري (٢١٩/٦) ورواه الترمذي بإسناد صحيح كما في «تحفة الأحوذى»، كتاب السير (١٨٥/٥) وما بعدها، وقد صححه الألباني في «صحيح سنن الترمذي» (١٢٧٢) بنحوه وهو في السنن (١٦٣٠) وفي مشكاة المصابيح (٣٩٧٣) التحقيق الثاني، وفي الإرواء (٤٨/٥) وهو عند ابن أبي شيبة (٣٦٨/١٤) ورواه أيضاً النسائي (٨٦٢٢).

(٢) رواه ابن أبي حاتم وأحمد، من حديث طويل في المسند (٢٠٨) إسناده حسن ورجاله رجال الصحيح، وأخرجه أبو داود (٢٦٩٠) وعبد بن حميد (٣١) ومسلم (١٧٦٣) والترمذي (٣٠٨١) والبخاري (١٩٦).

وليعلمهم أن ما أصابهم كان بسبب عصيان أكثر الرماة لأمر النبي ﷺ وقد عفا الله عنهم وغفر لهم ما كان منهم ﴿وَلَقَدْ عَفَا عَنْكُمْ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ﴾

وهذه مصيبة واحدة مُني بها المسلمون بالهزيمة، فما بالكم بالمصائب العديدة التي تلحق بالمسلمين في عصرنا، وهذا يرجع إلى خمسة أسباب:

السبب الأول: مُخالفة القائد:

إن الجاهلية التي تحدّث عنها جعفر بن أبي طالب والتي صورها للنجاشي، يوجد في زماننا ما يشبهها وما يزيد عليها، فلم يكن عندهم مسابقات الجمال بين النساء، ولم يكن عندهم المراقص وحانات الخمور بهذا الشكل، لم يكن عندهم هذا الشرك بالطواف حول القبور والأضرحة والنذر لها والذبح عندها، وطلب المدد منها، لم يكن عندهم هذا الربا المتفشي بين الناس، لم يكن عندهم ما يُسمّى بالفن، والأفلام والعري في كثير من القنوات الفضائية التي تبدد الطاقات، وتهدم الأخلاق، وفيها ما فيها من الخلاعة والمجون، وسُنّة الله في خلقه إذا استوتينا مع العدو في المعصية تفوق علينا بقوة السلاح وهكذا، فالله يفعل ما يشاء ويحكم ما يريد، لا رادّ لقضائه ولا معقب لحكمه ﴿إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾.

والمعنى: قل - أيها الرسول - لهؤلاء الذين قالوا ما قالوه في يوم أحد: إن ما أصابكم من جراح وقتل وألم هو بسبب مخالفتكم أمر نبيكم، وإقبالكم على جمع الغنائم، فأنتم الذين عصيتم الله بمخالفة أمر نبيكم، وأنتم الذين تفرقتم عن رسول الله في ساعة الشدة، وبسبب معاصيكم كان هذا الدرس، وبيان ما أصابهم في أحد جاء في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ مَكَنَّاكُمْ آلَ اللَّهِ وَعَدَهُ إِذْ تَحُسُّونَهُمْ بِإِذْنِهِ حَتَّى إِذَا فَشِلْتُمْ وَتَنَزَّعْتُمْ فِي الْأَمْرِ وَعَصَيْتُمْ مِمَّا بَعَدَ مَا أَرْسَلَكُمْ مِمَّا تَحِبُّونَ مِنْكُمْ مَنْ يُرِيدُ الدُّنْيَا وَمِنْكُمْ مَنْ يُرِيدُ الْآخِرَةَ ثُمَّ مَرَكَكُمْ عَنْهُمْ لِيَبْتَلِيَكُمْ وَلَقَدْ عَفَا عَنْكُمْ﴾ [آل عمران: ١٥٢].

أخرج الضياء المقدسي حديثاً طويلاً في قصة غزوة بدر قال فيه: ... فلما كان يوم أحد من العام المقبل عوقبوا بما صنعوا يوم بدر من أخذهم الفداء، فقتل منهم سبعون، وفر أصحاب النبي ﷺ عنه، فكسرت ربايعته، وهُشِّمت البيضة على رأسه، وسال الدم على

وجهه، وأنزل الله الآية ﴿أَوْ لَمَّا أَصَابَكُمْ مُصِيبَةٌ﴾^(١).

السبب الثاني: حكمة أرادها الله: قال تعالى:

١٦٦- ﴿وَمَا أَصَابَكُمْ يَوْمَ التَّقَىٰ الْجَمْعَانِ فَيَاذَنَ اللَّهُ وَلَيَعْلَمَ الْمُؤْمِنِينَ﴾

أي: أن ما أصابكم يوم التقى الجمعان في أحد، أي: جمع المشركين وجمع المسلمين، وما حدث بينهما من القتل والهزيمة، فياذن الله أولاً وأخيراً فهو أمر مراد لله ﷻ، وهو بقضاء الله وقدره يُرَبِّي الله هذه الأمة على امثال أمره واجتناب نهيه، فإذا امتثلت الأمة أمر ربها نصرها الله على عدوها.

والمعنى: أن ما أصابكم من قتل وجراح وآلام يوم التقى جمعكم وجمع أعدائكم في أحد، فهو بعلم الله وتقديره؛ إذ لا يقع شيء في هذا الملكوت إلا بإذن الله وإرادته، فعليكم أن تعودوا لأنفسكم وتهذبوها وتروّضوها على تقوى الله تعالى.

السبب الثالث: تمييز المؤمنين من المنافقين:

﴿وَلَيَعْلَمَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ الذين صبروا وثبتوا ولم يتطلعوا إلى الدنيا فيظهر إيمانهم وقوتهم وثبتهم للناس، رغم ما نالهم من ابتلاء.

السبب الرابع: إظهار نفاق المنافقين: قال تعالى:

١٦٧- ﴿وَلَيَعْلَمَ الَّذِينَ نَافَقُوا وَقِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْ فَنِتَلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَوْ أَذْفَعُوا قَالُوا لَوْ نَعْلَمُ قِتَالًا لَّاتَّبَعْنَاكُمْ هُمْ لِلْكَفْرِ يَوْمَئِذٍ أَقْرَبُ مِنْهُمْ لِلْإِيمَانِ يَقُولُونَ بِأَفْوَاهِهِمْ مَا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يَكْتُمُونَ﴾

أي: ويظهر نفاق المنافقين بقلة صبرهم على ما حدث منهم ﴿وَلَيَعْلَمَ الَّذِينَ نَافَقُوا﴾ فيتميز أحدهم من الآخر، والمنافق هو الذي أظهر الإيمان بلسانه وأضمر الكفر في قلبه، وهو مشتق من النفق الذي هو السرب في الأرض النافذ إلى جهة أخرى، ومنه: نافقاء اليربوع، وهو حيوان له جحر في الأرض ذو بابين، إذا طُلب من أحدهما هرب من الآخر.

(١) صححه محقق المختارة (١٨٠/١) برقم: (١٧٠) وسنده حسن، ولبعضه شواهد في الصحيح كالحديث السابق، وحُدِّث به ابن عباس عن عمر كما في «أسباب النزول» للواحدي (١٠٩) والسيوطي (٦١) و«زاد المسير» (٤٩٥/١).

ثم أخذت الآيات تكشف عن مواقف المنافقين حيث قيل يوم أحد للذين تخلّوا ورجعوا من الطريق، وهم عبد الله بن أبيّ بن سلول رأس المنافقين، ومن انخزل معه، قيل لهم: ﴿تَعَالَوْا فَنَلْوَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَوْ اَدْفَعُوا﴾ أي: قاتلوا ذبّا عن دين الله وحماية له، ابتغاء الثواب في الآخرة من الله سبحانه.

فإن لم تريدوا الثواب، ولم تريدوا القتال في سبيل الله، فادفعوا العدوان على الأقل عن أنفسكم وربطوا واخرسوا أرضكم وأهليكم، وادفعوا عن دياركم وأوطانكم ونسائكم وذرائعكم، أو كثروا سوادنا، قالوا لو نعلم أنه سيحدث قتال ﴿لَاتَّبَعَنَّكُمْ﴾ لنقاتل معكم، وهم كذبة في هذا، فقد علموا وتيقنوا أن المشركين قد ملثوا حقًا وغيظًا على المسلمين بما أصابوا منهم يوم بدر، وأنهم قد جمعوا جموعهم وبذلوا أموالهم، وجاؤوا في جيش عظيم، لقتال المسلمين في بلدهم، فكيف يُتصوّر عدم وقوع قتال بينهم وبين المسلمين؟

ولذا: قال سبحانه مكدبًا لهم ﴿هُمْ لِلْكَفْرِ يَوْمَئِذٍ﴾ أي يوم خروجهم مع المؤمنين، ثم عودتهم من بعض الطريق ﴿أَقْرَبُ مِنْهُمْ لِلْإِيمَانِ﴾ وذلك حين قالوا: ﴿لَوْ نَعْلَمُ قِتَالَ لَاتَّبَعَنَّكُمْ﴾ والذي نعلمه أنكم ستذهبون إلى أحد، ثم تعودون بغير قتال، وتعودون بثلاث الجيش.

ومن صفاتهم الذميمة أنهم ﴿يَقُولُونَ بِأَفْوَاهِهِمْ مَا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ﴾ هذا وصف خاص بالمنافقين، فهم يتكلمون بخلاف ما تنطوي عليه قلوبهم من كفر، وما تمتلئ به نفوسهم من بغضاء لكم، والله أعلم بما يضمرونه في نفوسهم، وسوف يجازيهم عليه، وفي هذا وعيد لهم بسوء المصير.

ويستدل بهذه الآية على قاعدة ارتكاب أخف الضررين وفعل أدنى المصلحتين فإن الدفاع عن الأرض، أدنى من درجة القتال في سبيل الله.

لما رأى عبد الله والد جابر بن عبد الله انخذاهم قال لهم: اتقوا الله، ولا تتركوا نبيكم، وقاتلوا في سبيل الله أو ادفعوا، ثم بيّن سبحانه أن ما يشاهد من أحوالهم أقرب إلى الكفر من الإيمان.

السبب الخامس: الكشف عن تشييط المنافقين للمجاهدين: قال تعالى:

١٦٨- ﴿الَّذِينَ قَالُوا لِإِخْوَانِهِمْ وَقَعَدُوا لَوْ أَطَاعُونَا مَا قُتِلُوا^(١)﴾ قُلْ فَادْرَأُوا عَنْ أَنْفُسِكُمُ الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿١٦٨﴾

ثم يكشف القرآن عن مقولة أخرى قالوها لمن أصيب مع المسلمين يوم أحد، وهم المنافقون ﴿الَّذِينَ قَالُوا لِإِخْوَانِهِمْ﴾ في النسب والدين، وقعدوا وتخلفوا عن رسول الله ﷺ، ولم يخرجوا معه للجهاد، وحين رجع الصحابة من الغزوة قالوا لهم: ﴿لَوْ أَطَاعُونَا مَا قُتِلُوا﴾ أي: لو أنكم سمعتم كلامنا ولم تخرجوا إلى المعركة، لما أصاب القتل بعضكم، وهؤلاء قد جمعوا بين التخلف عن الجهاد، وبين الاعتراض والتكذيب بقضاء الله وقدره، قال سبحانه يبين أن الشجاعة والجهاد والإقدام، لا ينقص من العمر شيئاً، وأن الجبن والقيود عن القتال، لا يزيد في عمر الإنسان شيئاً، قال سبحانه: ﴿قُلْ فَادْرَأُوا عَنْ أَنْفُسِكُمُ الْمَوْتَ﴾ أي: امنعوا الموت عنكم وأنتم على فراشكم في بيوتكم ﴿إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ في زعمكم أن أصحاب غزوة أحد لو قعدوا عن الخروج لما أصابهم القتل، فالحذر لا يمنع القدر، والموت آتٍ ولو كنتم في بروج مشيدة، فالموت يصيب المجاهد والقاعد، والشجاع والجبان، ولا يرده حرص ولا حذر، من لم يمت بالسيف مات بغيره.

وقد أُخْرِثَ مقولة عبد الله بن أبيّ إلى نهاية القصة، وفقاً لمنهج التريّة القرآنية في تقرير نتائج المعركة، وإظهار الاستهانة بقوله وفعله وعدم تصديرها لأحداث الغزوة، تهاوناً بها، وتكثيراً للمنافق الكبير الذي أحدث رجّة في الصف المسلم.

وفي هذه الآيات دليل على أن العبد قد يكون فيه خصلة كفر وخصلة إيمان، وقد يكون إلى أحدهما أقرب.

هذا هو حال المنافقين في غزوة أحد، وهو موقف يدل على فساد قلوبهم، وخبث نفوسهم، وجبنهم عند لقاء العدو.

وقد كان المؤمنون الصادقون على خلاف ذلك، فأخبر الله أن ﴿مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ

(١) قرأ هشام بخلف عنه (مَا قُتِلُوا) بتشديد التاء على التكثير، وقرأ الباقون (قُتِلُوا) بالتخفيف على الأصل.

عَلَيْهِ فَمِنْهُمْ مَنْ قَضَىٰ نَحْبَهُ وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْظُرُ وَمَا بَدَلُوا تَبْدِيلًا ﴿٢٣﴾ [الأحزاب]. لقد ثبتوا مع رسول الله ﷺ ودافعوا عنه، وقدموا أنفسهم فداء للإسلام، وقد كان لبعضهم أعداء تُسقط عنهم الخروج للجهاد، ولكنهم خرجوا لمجرد تكثير عدد المسلمين.

عن أنس بن مالك قال: رأيت يوم القادسية - عبد الله بن أم مكتوم - وهو رجل أعمى، رأيته وعليه درع يجزُّ أطرافها ويده راية سوداء، فقيل له: أليس قد أنزل الله عذرك؟ قال: بلى، ولكنني أحب أن أكثر عدد المسلمين بنفسِي^(١).

مَنْزِلَةُ الشُّهَدَاءِ عِنْدَ رَبِّهِمْ

١٦٩ - ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ^(٢) الَّذِينَ قُتِلُوا^(٣) فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أحيَاءُ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ﴿١٦٩﴾﴾

وبعد الكشف عن موقف المنافقين يأتي الكشف عن مصير الشهداء؛ طمأنة وراحة لقلوب المؤمنين، وبياناً لفضلهم، وكرامتهم، وما منَّ الله عليهم به من فضله وإحسانه، وفي ذلك تسلية للأحياء عن قتلاهم وتعزية لهم، وتنشيطاً على القتال في سبيل الله، وترغيباً في طلب الشهادة، فإذا علموا أنهم أحياء عند ربهم يرزقون تمنوا الشهادة، ولا يتحسرون على فراق ذويهم.

والشهيد هو الذي يُقتل في معركة إسلامية مشروعة بين المسلمين وغيرهم، يراد بهذه المعركة وجه الله سبحانه، وإزالة العوائق التي تقف في وجه الدعوة، وأن تكون نية هذا الشهيد إعلاء كلمة الله ﷻ، لم يقاتل تحت شعار وطني، ولا عصبي، ولا قومي، ولا ابتغاء سُمعة أو رياء، أو منصب، أو ليُذكر بين الناس، إنما يقاتل لتكون كلمة الله هي العليا، ذلكم هو شهيد الإسلام.

وهذا الشهيد الذي يُقتل في سبيل الله، يسمى شهيد الدنيا والآخرة، لا يأخذ حكم الموتى، فهو لم يمت، وإنما هو حي يرزق عند ربه، ولذلك فهو لا يغسل حتى تبقى عليه

(١) «تفسير القرطبي» (٤/٢٦٦).

(٢) قرأ هشام بخلف عنه (ولا تحسبنَّ) بياء الغيبة وفتح السين، وقرأ ابن ذكوان وعاصم وحزمة وأبو جعفر (ولا تحسبنَّ) بالتاء وفتح السين وهو الوجه الثاني لهشام وقرأ الباقر (ولا تحسبنَّ) بتاء الخطاب وكسر السين.

(٣) قرأ ابن عامر (قُتِلُوا في سبيل الله) بتشديد التاء للتكثير، وقرأ الباقر (قُتِلُوا) بالتخفيف على الأصل.

آثار الدماء؛ فيبعث يوم القيامة بها، اللون لون دم، والريح ريح مسك، ولا يكفّن؛ ليعث من قبره في ثياب المعركة، علامة وفخرًا له بين العالمين، يوم لقاء رب العالمين.

وهناك شهداء ينالون الثواب الأخروي، ولا يأخذون في الدنيا حكم شهيد المعركة، فيُغسلون ويكفّنون ويصلّى عليهم، وهم أدنى مرتبة من شهيد المعركة الإسلامية، هؤلاء الشهداء منهم من ذكرهم النبي ﷺ في قوله: «من قُتل دون ماله فهو شهيد، ومن قتل دون دمه فهو شهيد، ومن قتل دون عرضه فهو شهيد»^(١).

ومنهم حديث جامع في موطأ الإمام مالك، جمع فيه سبعة أنواع من الشهداء: منهم الذي يموت بمرض الطاعون، والطاعون كلمة قديمة لها في الطب الحديث مسميات أخرى، والذي يموت غريقًا، أو حريقًا أو يموت تحت الانقاض أو الهدم، والمرأة التي تموت وهي تلد، أو تموت بسبب الحمل، والذي يموت بمرض البطن (الإسهال أو الاستقاء أو الانتفاخ) والذي يموت من القرحة ومن الحمى.

عن جابر بن عتيك أن رسول الله ﷺ قال «الشهادة سبع، سوى القتل في سبيل الله، المطعون شهيد، والغريق شهيد، وصاحب ذا الجنب شهيد، والمبطون شهيد، والذي يموت تحت الهدم شهيد، والمرأة تموت بجُمع شهيد، وصاحب الحريق شهيد»^(٢) والمطعون هو من مات بالطاعون، وذات الجنب: التهاب الرئة، ونخس في الجنب، والمبطون، مرض البطن، كالاستسقاء. والمرأة تموت بجُمع، أي في النفاس وولدها في بطنها مخلّقا.

هذه أنواع من الشهادة، صاحبها يؤجر عليها، وله عند الله منزلة أكبر من غيره.

والآية تشمل جميع الشهداء في يوم بدر، وأحد، ويوم بئر معونة.

موقعة بئر معونة:

وذلك أن عامر بن مالك - ملاعب الأُسنة - سيد بني عامر، قدّم على النبي ﷺ وأهدى إليه هدية، فأبى النبي ﷺ أن يقبلها، وقال: لا أقبل هدية مشرك، ثم عرض عليه الإسلام

(١) من حديث عبد الله بن عمرو في البخاري (٢٤٨٠) ومسلم (١٤١) و«المسند» (٦٥٢٢). في القطعة الأولى من الحديث.

(٢) موطأ مالك، من رواية أبي مصعب الزهري المدني، حديث رقم (٩٣٥).

فلم يُسَلِّم ولم يبعد، وقال: إن الذي تدعو إليه حسن جميل، فلو أرسلت رجالاً من أصحابك إلى أهل نجد، رجوت أن يستجيبيوا لك، فقال ﷺ: «أخشى عليهم أهل نجد»، قال: إني لهم جار، فابعثهم.

فبعث النبي ﷺ المنذر بن عمرو ومعه سبعين رجلاً من خيار المسلمين يُسمَّون بالقرءاء، وكان ذلك في صفر سنة أربع من الهجرة بعد غزوة أحد بأربعة أشهر، فساروا حتى نزلوا بئر معونة، وهي أرض بين بني عامر وحرّة سُليّم، بين مكة وعسفان، بها بئر ماء، فلما نزلوها، قالوا: أيكم يُبلِّغ أهل هذا الماء رسالة النبي ﷺ فقال حرام بن ملحان: أنا، فخرج بكتاب الرسول إلى عامر بن الطفيل، الذي كان على الماء، فلم ينظر عامر في كتاب الرسول ﷺ وخرج إلى (حرام) رجل من البيت، بعد أن عرض عليهم الإسلام، فضربه برمح في جنبه حتى خرج من الشق الآخر، فقال: الله أكبر، فزُت ورب الكعبة.

واستنفر عامر قبائل: بني سُليّم، فأجابوه، وحملوا على المسلمين فقتلوهم، وكان في سرح القوم أحد الأنصار، وعمرو بن أمية الضمري، فلم يعلما بمُصاب أصحابهما إلا من الطير التي تحوم حول المعسكر، فقالا: إن لهذا الطير لساناً، فأقبلا فإذا القوم في دمائهم. وكان فيمن قُتل: عامر بن فهيرة، مولى أبي بكر ﷺ، قال عنه عامر بن الطفيل: مَنْ الرجل منهم؟ لَمَّا قتل رأيته رُفِعَ بين السماء والأرض، حتى رأيت السماء من دونه^(١).

ثم إن هناك أربعة عشر من أصحاب رسول الله ﷺ استشهدوا في غزوة بدر، وكان في غزوة أحد سبعون شهيداً، منهم حمزة عم رسول الله ﷺ، ومصعب بن عمير أول داعية وأول سفير في الإسلام.

وفي هؤلاء جميعاً وفي أمثالهم إلى يوم القيامة نزل قول الله سبحانه: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا﴾ فالله ﷻ نفى عنهم الموت، لا تسموهم أمواتاً، فهم ليسوا بأموات، إن الموت لا ينفصل عن هذه الحياة إنما هو حياة برزخية يعيش فيها المسلم المجاهد الشهيد بكيفية يعلمها الله كما بينها في كتابه ﷻ بأنهم أحياء، ولكن

(١) يُنظر: سيرة ابن إسحاق وابن هشام، وينظر ابن الأثير في جامع الأصول، والقصة في البخاري برقم:

(٢٨٠١) عن أنس وفي «صحيح مسلم» (٦٧٧) مختصراً وفي تفسير الطبري (٣٩٢/٧).

لا تشعرون بهم، حياة لا تعرفونها، لا تدركها عقولكم المخلوقة، فكل مخلوق قاصر وناقص؛ لأن الكمال لله وحده الذي خلق الكون بما فيه ومن فيه.

والله سبحانه أثبت للشهداء سبع خصائص:

أولاً: أنهم أحياء بأرواحهم وأجسادهم، فلا يخطر ببالك أنهم قد ماتوا وذهبت عنهم لذة الحياة، ويشير إليه ظاهر الآية، أو أن أرواحهم في حواصل طير خضر كما صح في الحديث، وورد أنها تسجد كل ليلة تحت العرش إلى يوم القيامة.

وقيل: إن الشهيد لا يبلى في قبره ولا تأكله الأرض كغيره.

وقد روي أن معاوية لما أراد أن يجري الماء على قبور الشهداء أمر مناديه: من كان له قتيل فليخرجه وليحوّله من هذا الموضع، قال جابر: فأخرجناهم رطاب الأبدان، فأصابنا المسحاة أصبع رجل منهم فنبعت دمًا^(١).

وذكر البغوي بغير سند عن عبيد بن عمير قال: مرّ رسول الله ﷺ حين انصرف من أحد على مصعب بن عمير، فوقف عليه ودعا له، ثم قرأ ﴿مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا﴾ ثم قال: «أشهد أن هؤلاء شهداء عند الله يوم القيامة، فأتوهم وزورهم وسلّموا عليهم، والذي نفسي بيده لا يسلم عليهم أحد إلى يوم القيامة إلا ردّ عليه».

ثانيًا: أنهم يرزقون كما يُرزق الأحياء، يأكلون ويشربون ويتنعمون، فهم يجري عليهم رزقهم في الجنة، من أنواع النعيم الذي لا يعلم وصفه إلا من أنعم عليهم به.

قال تعالى يصف حياتهم في البرزخ بأنهم يفرحون ويستبشرون:

١٧٠ - ﴿فَرِحِينَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِالَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا بِهِمْ مِنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ^(٢) وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ^(٣)﴾

ثالثًا: أنهم يفرحون كما يفرح الأحياء، ويشعرون بما أعطوا من الثواب والكرامة، فقد

(١) «تفسير الخازن» (١/٣٠٣).

(٢) قرأ يعقوب بالنصب في (خوف) وعدم التنوين، والباقون بالرفع والتنوين.

(٣) ضم الهاء من (عليهم) حمزة ويعقوب، والباقون بكسرها.

جمع الله لهم بين نعيم البدن بالرزق، ونعيم القلب بالفرح والسرور.

رابعًا: أنهم يتمنّون لإخوانهم المجاهدين الذين تركوهم أحياء في الدنيا أن ينالوا الشهادة؛ وأن يلحقوا بهم لينالوا من الخير والكرامة مثلهم، وذلك ترغيبًا لغيرهم في الجهاد والشهادة، فيبشر بعضهم بعضًا بوصول إخوانهم الذين لم يلحقوا بهم، وأنهم سينالوا ما نالهم.

خامسًا: أن هؤلاء الشهداء لا يخافون من المستقبل في الآخرة، ولا يحزنون على ما فاتهم من نعيم الدنيا، وهم يشتبشرون بزوال كل مكروه، وإقبال كل محبوب. قال تعالى:

١٧١- ﴿يَسْتَبْشِرُونَ بِنِعْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ وَأَنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُؤْمِنِينَ﴾

سادسًا: أنهم يُسرّون بما رُزقوا من النعيم والفضل، فهم في فرحة غامرة، يهنئ بعضهم بعضًا بنعمة ربهم وفضله وإحسانه عليهم.

والاستبشار الأول كان لغيرهم، والاستبشار الثاني لأنفسهم خاصة.

سابعًا: أن الله تعالى لا يضيع أجرهم، كما لا يضيع أجر المؤمنين جميعًا بل يزيده وينمّيه ويضاعفه.

وفي هذه الآيات إثبات نعيم البرزخ، وبيان أن الشهداء في أعلى مكان عند ربهم، وأن أرواح الشهداء تتلاقى، فيزور بعضهم بعضًا، ويبشر بعضهم بعضًا.

وقد ورد الكثير من الأحاديث في فضل الشهداء ومنزلتهم عند الله تعالى، من ذلك:

١- ما جاء في الصحيحين وغيرهما عن أنس رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «ما من أحد يدخل الجنة يحب أن يرجع إلى الدنيا، وله ما على الأرض من شيء إلا الشهيد، يتمنى أن يرجع إلى الدنيا فيقتل عشر مرات، لما يرى من الكرامة»^(١).

٢- وفي صحيح مسلم وغيره عن عبد الله بن عمرو رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «يُغْفَرُ للشَّهِيد كل ذنب إلا الدين»^(٢).

٣- وفي الترمذي وغيره عن أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «ما يجد الشهيد من مسٍّ

(١) البخاري (٢٧٩٥، ٢٨١٧) ومسلم (١٨٧٧) و«المسند» (١٢٠٠٣، ١٢٧٧١) والترمذي (١٢٦١).

(٢) مسلم (١٨٨٦) والحاكم (١١٩/٢).

القتل إلا كما يجد أحدكم من مس القرصة»^(١).

٤- وفي حديث سهل بن سعد رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «لموضع سوط أحدكم في الجنة خير من الدنيا وما فيها»^(٢) وهم المرابطون والشهداء.

٥- وعن أنس رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «لغدوة أو روحة في سبيل الله خير من الدنيا وما عليها، ولقاب قوس أحدكم خير من الدنيا بما عليها»^(٣).

٦- وعن المقدام بن معدي كرب أن رسول الله ﷺ قال: «إن للشهيد عند الله خصالاً: يُغفر له في أول دفقة من دمه، ويُرى مقعده من الجنة، ويُحلى عليه حلّة الإيمان، ويجار من عذاب القبر، ويأمن من الفزع الأكبر، ويوضع على رأسه تاج الوقار، الياقوتة منه خير من الدنيا وما فيها، ويزوج اثنتين وسبعين زوجة من الحور العين، ويشفع في سبعين إنساناً من أقاربه»^(٤).

٧- أخرج النسائي عن راشد بن مسعد عن رجل من أصحاب النبي ﷺ أن رجلاً قال: يا رسول الله، ما بال المؤمنين يُفَتَنون في قبورهم إلا الشهيد؟ قال: «كفى ببارقة السيوف على رأسه فتنة»^(٥).

٨- وعن أنس رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «من سأل الله القتل في سبيل الله صادقاً، ثم مات، أعطاه الله أجر شهيد»^(٦).

٩- وعن سهل بن أبي أمامة بن سهل بن حنيف، عن أبيه عن جده، أن رسول الله ﷺ

(١) «صحيح سنن الترمذي» (١٣٦٢) وهو حديث حسن صحيح كما قال الألباني، و«سنن الترمذي» (١٧٣٥) والنسائي (٣١٦١) وابن ماجه (٤٢٤٤) وابن حبان (٤٦٥٥) والمسند (٧٩٥٣) بإسناد قوي، كما قال محققوه.

(٢) البخاري (٣٢٥٠).

(٣) البخاري (٦٥٦٨) ومسلم (١٨٨٠).

(٤) الترمذي (١٦٦٣) والبيهقي في «الشعب» (٤٢٥٤) و«صحيح سنن ابن ماجه» (٢٢٥٧) والمسند (١٧١٨٢) برجال ثقات، وعبد الرزاق في المصنف (٩٥٥٩) وابن ماجه (٢٧٩٩).

(٥) «صحيح سنن النسائي» (١٩٤٠) وهو في «السنن» (٢٠٥٢) والتعليق الرغيب (١٩٧/٢).

(٦) أخرجه الحاكم (٧٧/٢) وهو في «صحيح الجامع» (٦١٥٣) وعن معاذ بن جبل في المسند (٢٢١١٦) من حديث طويل بإسناد صحيح (محققوه) وأخرجه الترمذي (١٦٥٤، ١٦٥٧) والبيهقي في الشعب (٤٢٤٩).

قال: «من سأل الله الشهادة بصدق بلغه الله منازل الشهداء وإن مات على فراشه»^(١).

١٠- وعن أنس رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «من طلب الشهادة صادقاً أعطوها ولو لم تصبه»^(٢).

أسباب النزول:

١- عن ابن عباس رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال: «لَمَّا أُصِيبَ إِخْوَانُكُمْ بِأُحُدٍ جَعَلَ اللَّهُ أَرْوَاحَهُمْ فِي أَجْوَافِ طَيْرٍ خَضِرٍ، تَرْدُ أَنْهَارُ الْجَنَّةِ، وَتَأْكُلُ مِنْ ثَمَارِهَا، وَتَأْوِي إِلَى قَنَادِيلٍ مِنْ ذَهَبٍ فِي ظِلِّ الْعَرْشِ، فَلَمَّا وَجَدُوا طَيْبَ مَشْرِبِهِمْ وَمَأْكُلِهِمْ، وَحَسَنَ مَقْلَبِهِمْ، قَالُوا: يَا لَيْتَ إِخْوَانُنَا يَعْلَمُونَ مَا صَنَعَ اللَّهُ بِنَا؛ لَثَلَا يَزْهَدُوا فِي الْجِهَادِ، وَلَا يَنْكُلُوا عَنِ الْحَرْبِ، فَقَالَ اللَّهُ ﷻ: أَنَا أُبَلِّغُهُمْ عَنْكُمْ، وَأَنْزَلَ اللَّهُ سُبْحَانَهُ ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا﴾»^(٣).

٢- وأخرج الترمذي وغيره بسند صحيح عن طلحة بن خراس قال: سمعت جابر بن عبد الله رضي الله عنه يقول: لقيني رسول الله ﷺ فقال لي: «يا جابر، ما لي أراك منكسراً؟» قلت: يا رسول الله، استشهد أبي، وترك عيلاً ودَيْتاً، قال: «أَفَلَا أَبْشُرُكَ بِمَا لَقِيَ اللَّهُ بِهِ أَبَاكَ؟» قال: قلت: بلى، يا رسول الله، قال: «مَا كَلَّمَ اللَّهُ أَحَدًا قَطُّ إِلَّا مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ، وَأَحْيَا أَبَاكَ فَكَلَّمَهُ كِفَاحًا، فَقَالَ: يَا عَبْدِي، تَمَنَّ عَلَيَّ أُعْطِكَ، قَالَ: يَارَبِّ، تُحْيِينِي فَأُقْتَلَ فِيكَ ثَانِيَةً، قَالَ الرَّبُّ ﷻ: إِنَّهُ قَدْ سَبَقَ الْقَوْلُ مِنِّي ﴿أَنَّهُمْ لَا يَرْجِعُونَ﴾ وَأَنْزَلَ هَذِهِ الْآيَةَ»^(٤).

وفي لفظ قال النبي ﷺ لجابر رضي الله عنه: «أَمَا عَلِمْتَ أَنَّ اللَّهَ أَحْيَا أَبَاكَ، فَقَالَ لَهُ: تَمَنَّ عَلَيَّ

(١) «صحيح مسلم» (١٩٠٩) وأبو داود (١٥٢٠) والترمذي (١٦٥٣) والنسائي في «السنن الكبرى» (٣١٦٢) وابن ماجه (٢٧٩٧) والحاكم (٧٧/٢).

(٢) مسلم (١٩٠٨).

(٣) أخرجه الإمام أحمد بسنده في «المسند» (٢٦٥/١) (٢٣٨٨) حديث حسن وأبو داود في «السنن»، كتاب الجهاد برقم: (٢٥٢٠) (١٥/٣) و«صحيح سنن أبي داود» (٢١٩٩) بتحسين الألباني له والحاكم في «المستدرک» (٢٩٧/٢) وقال: هذا حديث صحيح على شرط مسلم، ووافقه الذهبي، وتفسير الطبري (٣٨٥/٧) وابن المنذر (١١٧٨) وغيرهم.

(٤) صححه الألباني في «صحيح سنن الترمذي» (٢٤٠٨) وهو في «السنن» برقم: (٣٠١٠) وفي ابن ماجه (١٩٠، ٢٨٠٠) وابن حبان في صحيحه، الإحسان برقم: (٧٠٢٢) وصححه الحاكم ووافقه الذهبي في «المستدرک» (٢٠٣/٣) وابن خزيمة في التوحيد (٥٩٩) وابن أبي عاصم (٦٠٢).

فقال له: أَرُدُّ إلى الدنيا، فأقتل مرة أخرى، فقال: إني قضيت أنهم إليها لا يرجعون^(١).

٣- وعن سعيد بن جبير قال: لما أصيب حمزة بن عبد المطلب، ومصعب بن عمير، يوم أحد، ورأوا ما رُزقوا من الخير، قالوا: يا ليت إخواننا يعلمون ما أصابنا من الخير؛ كي يزدادوا في الجهاد رغبة، فقال الله تعالى: أنا أبلغهم عنكم، فأنزل الله الآية^(٢).

٤- وأخرج البخاري وغيره عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: دعا رسول الله ﷺ على الذين قتلوا أصحاب بئر معونة ثلاثين غداة، على رِعل، وذكوان، وعُصَيَّة، عصت الله ورسوله، قال أنس: أنزل في الذين قُتلوا بئر معونة قرآن، ثم نُسخ بعد: (بَلِّغُوا قَوْمَنَا أَنَّا لَقِينَا رَبَّنَا، فَرْضِي عَنَا، وَرَضِينَا عَنْهُ)^(٣).

٥- ولما قُتل عبد الله بن عمرو بن حرام، أخذ ابنه (جابر) يكي، ويكشف الثوب عن وجهه، والصحابة ينهونه، فقال النبي ﷺ: «ما زالت الملائكة تظله بأجنحتها حتى رفع»^(٤).

٦- وعن أنس رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «ما من نفس تموت، لها عند الله خير، يسرُّها أن ترجع إلى الدنيا إلا الشهيد، فإنه يسره أن يرجع إلى الدنيا فيقتل مرة أخرى لما يرى من فضل الشهادة»^(٥).

غَزْوَةُ حَمْرَاءِ الْأَسَدِ

لما رجع النبي ﷺ إلى المدينة من غزوة أحد، بلغه أن أبا سفيان ومن معه قد همّوا بالرجوع إلى المدينة، فندب النبي أصحابه أن يخرجوا إليهم - على ما بهم من جراح -

(١) أحمد في «المسند» (٣/٣٦١) وإسناده حسن وهو برقم (١٤٨٨١) وأخرجه الحميدي (١٢٦٥) وعبد بن حميد (١٠٣٩) وأبو يعلى (٢٠٠٢) وابن ماجه (١٩٠) والترمذي (٣٠١٠).

(٢) النيسابوري (١١٠) والسيوطي (٦١) و«الدر المنثور» (٢/٩٥) و«المستدرک» (٢/٣٨٧).

(٣) «صحيح البخاري» برقم: (٤٠٧٧).

(٤) متفق عليه، البخاري برقم: (١٢٤٤، ١٢٩٣) ومسلم، فضائل الصحابة (٧/١٥٢) برقم: (٢٤٧١) والنسائي، الجنائز (٤/١١) وأحمد في «المسند» (٣/٢٩٨).

(٥) يُنظَر «صحيح مسلم» برقم: (١٨٧٧) كتاب الإمارة، باب فضل الشهادة (٦/٥٣) وأحمد في «المسند» (٣/١٢٦) برقم: (١٢٢٧٣، ١٤٠٣٣).

فخرجوا حتى وصلوا إلى حمراء الأسد، فجاءهم من يخوفهم ويقول لهم: إن الناس قد همّوا بقتالكم ليستأصلوكم، فلم يزدكم ذلك إلا توكلاً واعتماداً على الله، قال تعالى:

١٧٢ - ﴿الَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمْ وَالرَّسُولِ مِنْ بَعْدِ مَا أَصَابَهُمُ الْقَرْحُ^(١) لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا مِنْهُمْ وَاتَّقُوا أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾

وهكذا: تمضي الآيات لتحدث عن المؤمنين المجاهدين الذين لا يضع الله أجرهم، فيبين تعالى أنهم الذين استجابوا لنداء رسول الله، وخرجوا معه إلى حمراء الأسد، بعد هزيمتهم في غزوة أحد لملاقاة المشركين، مع ما كان بهم من آلام وجراح، ولهذا فإن المؤرخين المُحدثين يعدّون غزوة أحد نصراً لا هزيمة؛ لأن الهزيمة تعني القضاء على الجيش وقتل معنوياته، والاستسلام للعدو، وهذا لم يحدث في أحد، فقد أراد النبي ﷺ أن يُثبت عكس ذلك، وأن يرفع من معنويات المسلمين؛ حتى لا يكون الشعور بالهزيمة هو نهاية المطاف بالنسبة لهم، ولا يكون الشعور بالنصر هو نهاية المطاف بالنسبة للمشركين، فأمر ﷺ المسلمين بالاستعداد لمتابعة قريش؛ ليشعرها بأنها لم تنل من المسلمين شيئاً، ولم تضعف عزائمهم، وهم لم ينسوا بعد هول المعركة، وجراحهم مُثخنة، ويؤكد ذلك أنه ﷺ لم يأذن بالخروج معه إلا لمن كان معه في أحد؛ لأن الدرس يقتصر عليهم، فهم الذين ينبغي عليهم أن ينهضوا ويثبتوا لعدوهم خلاف ما يزعم.

قال عكرمة: كان يوم أحد، (السبت) للنصف من شوال، فلما كان الغد من يوم (الأحد) لست عشرة ليلة مضت من شوال، أذن مؤذن رسول الله ﷺ في الناس، بطلب العدو، وأذن مؤذنه ألا يخرج من معنا أحد إلا من حضر يومنا بالأمس، فكلّمه جابر بن عبد الله، فقال: يا رسول الله، إن أبي كان خلفني على أخوات لي سبع، وقال: يا بني إنه لا ينبغي لي ولا لك أن نترك هؤلاء النسوة لا رجل فيهن، ولست بالذي أوثرك بالجهاد مع رسول الله ﷺ على نفسي، فتخلف على أخواتك، قال: فتخلفتُ عليهم، فأذن له رسول الله ﷺ فخرج معه، وإنما خرج رسول الله ﷺ ترحيباً للعدو؛ لئيلغهم أنه خرج في طلبهم، ليظنوا به قوة، وأن الذي أصابهم لم يوهنهم من عدوهم^(٢).

(١) قرأ شعبة وحمزة والكسائي وخلف العاشر بضم القاف من (القرح)، وقرأ الباقر بفتحها، وهما لغتان.

(٢) ابن جرير الطبري (٦/ ٢٤٠).

وكان ذلك لما انصرف أبو سفيان وأصحابه من أحد، وبلغ مكاناً يسمى (الروحاء) فندموا وتلاوموا، وقالوا لبعضهم: لا محمداً قتلتم، ولا الكواعب أردفتن، بئس ما صنعتم، ارجعوا فاستأصلوهم، فبلغ ذلك النبي ﷺ فأمر مناديه أن يندب أصحابه للخروج لإرهاب العدو، ويقول: لا يخرجنَّ معنا أحد إلا من حضرنا بالأمس، فخرج ومعه سبعون من أصحابه حتى بلغوا حمراء الأسد على بُعد ثلاثة أميال من المدينة، فمرَّ بهم ركب من عبد القيس، فأخبروهم أن أبا سفيان ومن معه قد توجهوا إليهم ليستأصلوا شأفتهم، فقال عليه الصلاة والسلام: «حسبنا الله ونعم الوكيل» وأقام بأصحابه في حمراء ثلاثة أيام دون أن يلقي قتالاً، ثم رجع إلى المدينة، بعد أن قال المشركون: نرجع من قابل، وكان معبد الخزاعي قد أخبرهم بعزم الرسول على غزوهم^(١).

وكانت غزوة أحد يوم السبت للنصف من شهر شوال، وكان الخروج لحمراء الأسد في يوم الأحد التالي، وأقام بها الاثنين والثلاثاء والأربعاء.

قال الحسن البصري: إن أبا سفيان وأصحابه أصابوا من المسلمين ما أصابوا ورجعوا، فقال ﷺ: «إن أبا سفيان قد رجع، وقد قذف الله في قلبه الرعب، ممن يندب في طلبه؟»، فقام النبي ﷺ وأبو بكر وعمر وعثمان وعلي، وناس من أصحاب النبي ﷺ فاتبعوهم، فبلغ أبا سفيان أن النبي ﷺ يطلبه، فلقي غيراً من التجار، فقال: ردُّوا محمداً، ولكم من الجعل كذا وكذا، وأخبروهم أنني قد جمعت لهم جموعاً، وأنني راجع إليهم، فجاء التجار، فأخبروا النبي ﷺ بذلك فقال: «حسبنا الله ونعم الوكيل» فأنزل الله الآية ﴿الَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِلَّهِ وَالرَّسُولِ مِنْ بَعْدِ مَا أَصَابَهُمُ الْقَرْحُ﴾^(٢).

وكان الخبر قد جاء إلى المشركين أن الرسول وأصحابه قد خرجوا إليهم، فألقى الله الرعب في قلوبهم، واستمروا راجعين إلى مكة، ورجع المؤمنون بنعمة من الله وفضل:

ومن الرعب الذي ألقاه الله في قلوب المشركين أن أحدهم كان يحمل صاحبه على عنقه ساعة، ثم إن المحمول يحمل الحامل ساعة أخرى، وكان منهم من يتوكأ على صاحبه ساعة، ويتوكأ الآخر عليه ساعة.

(١) يُنظر «سنن النسائي» (١١٠٨٣) والطبراني (١١٦٣٢) وابن أبي حاتم (٤٥١٠) عن ابن عباس عن عكرمة.

(٢) تفسير ابن كثير (١٦٩/٢).

وقد بيّن سبحانه أنه لا يضيع أجر المؤمنين الصادقين الذين أجابوا داعي الله، وأطاعوا رسول الله، فخرجوا للجهاد في سبيله على ما بهم من جراح وآلام دون ضعف ولا هوان ولا استكانة، وهؤلاء قد أحسنوا في استجابتهم وطاعتهم لله والرسول، واتقوا ربهم في جميع أحوالهم، فوعدهم الله أجراً عظيماً على حسن صنيعهم.

عن عائشة رضي الله عنها أنها قالت لعروة: يا بن أختي، كان أبواك منهم: الزبير وأبو بكر، لما أصاب رسول الله ما أصاب يوم أحد، وانصرف عنه المشركون، خاف أن يرجعوا، قال: «من يذهب في أثرهم»، فأنثب منهم سبعون رجلاً، قال: كان فيهم أبو بكر والزبير^(١).

غَزْوَةُ بَدْرِ الصُّغْرَى

١٧٣ - ﴿الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ﴾ (١٧٣)

ورد أن أبا سفيان نادى عند انصرافه من أحد: يا محمد، موعدنا بدر، العام القابل، فقال ﷺ: «ذلك بيننا وبينك إن شاء الله»، فلما كان العام القادم، خرج أبو سفيان في أهل مكة، فألقى الله الرعب في قلبه، فبدا له أن يرجع، فلقي نعيم بن مسعود الأشجعي، وقد قديم معتمراً، فقال: يا نعيم، إني واعدت محمداً أن نلتقي بموسم بدر، وقد بدا لي أن أرجع، فالحق بالمدينة، فثبطهم، ولك عندي عشرة من الإبل، فخرج نعيم فوجد المسلمين يتجهزون، فقال لهم: أتريدون أن تخرجوا وقد جمعوا لكم، فوالله لا يفلت منكم أحد، فأصرّ النبي ﷺ على الخروج إليهم، فخرج في سبعين راكباً وهم يقولون: حسبنا الله ونعم الوكيل، فلما وافى بدرًا، أقام بها ثمانى ليالٍ، ثم رجعوا إلى المدينة سالمين، ولم يلق قتالاً، ورجع أبو سفيان إلى مكة، وسمّى أهل مكة جيشه بجيش السوق؛ لأنهم قالوا: إنما خرجتم لتأكلوا السوق^(٢).

والمراد بالناس في الموضع الأول من الآية: (نعيم بن مسعود)، فهو جَمَعَ أريد به الواحد، أو أن المراد (ركب عبد القيس)، أما الموضع الثاني فالمراد به: (أبو سفيان ومن معه).

(١) «صحيح البخاري» برقم: (٤٠٧٧).

(٢) تفسير النسفي والخازن للآية.

عن ابن عباس رضي الله عنه: حسبنا الله ونعم الوكيل، قالها إبراهيم حين ألقى في النار، وقالها محمد حين قالوا: ﴿إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ﴾^(١).

وعن عوف بن مالك أن النبي صلى الله عليه وسلم قضى بين رجلين، فقال المقضي عليه لَمَّا أَدْبَرَ: حسبي الله ونعم الوكيل، فقال صلى الله عليه وسلم: «رُدُّوا عَلَيَّ الرَّجُلَ»، فقال: «ما قلت؟» قال: قلت: حسبي الله ونعم الوكيل، فقال النبي صلى الله عليه وسلم: «إِنَّ اللَّهَ يَلُومُ عَلَى الْعَجْزِ، وَلَكِنْ عَلَيْكَ بِالْكَيْسِ، فَإِذَا غَلَبَكَ أَمْرٌ فَقُلْ: حَسْبِيَ اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ»^(٢).

والعجز: هو ترك ما يجب فعله بالتسويق من أمور الدنيا والدين.

والكَيْس: هو الذي يستعمل عقله وفطنته في الأمور مع الرفق فيها.

وعن ابن عباس رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «كَيْفَ أَنْعَمَ وَصَاحِبُ الْقُرْنِ قَدْ التَقَمَ الْقُرْنَ، وَحَتَّى جَبْهَتُهُ يَسْمَعُ مَتَى يُؤْمَرُ فَيَنْفَخُ؟» ثم أمر الصحابة أن يقولوا: حسبنا الله ونعم الوكيل، على الله توكلنا^(٣).

ذلكم قول الله تعالى: ﴿الَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِلَّهِ وَالرَّسُولِ مِنْ بَعْدِ مَا أَصَابَهُمُ الْقَرْحُ﴾^(٤) أي: من بعد ما نالهم من الجراح يوم أحد ﴿لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا مِنْهُمْ﴾ بطاعة الله، والاستجابة لرسول الله فأجابوه إلى الغزو ﴿وَاتَّقُوا﴾ معصية الله والتخلف عن رسول الله، و﴿مِنْ﴾ للبيان، كقوله تعالى: ﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ [النور: ٥٥]. لأنهم كلهم

(١) «صحيح البخاري» (١٧٢/٨) برقم: (٤٥٦٣، ٤٥٦٤) و«سنن النسائي الكبرى» برقم: (١١٠٨١) و«المستدرک» (٢٩٨/٢) وابن أبي حاتم (٤٥٢٣).

(٢) الإمام أحمد في «المسند» (٢٤/٦) بسند حسن برقم: (٢٣٩٨٣) وأبو داود (٣٦٢٧) والسنن الكبرى للنسائي (١٠٤٦٢) وفي ط سنة ٢٠٠١ م برقم: (١٠٣٨٧).

(٣) قال ابن كثير والشوكاني: حديث جيد، أخرجه أحمد في «المسند» (٣٢٦/١) ورقمه: (٣٠٠٨) والنسائي في التفسير عن أبي هريرة (١٠٢) وابن حبان (٨٢٠).

(٤) روى البيهقي عن ابن عباس أن غيراً مرت في موسم بدر فاشتراها رسول الله صلى الله عليه وسلم فريح مالا، فقسّمه بين أصحابه، فذلك الفضل، ونقل الطبري عن السدي قال: أعطى رسول الله صلى الله عليه وسلم حين خرج في غزوة بدر الصغرى أصحابه دراهم ابتاعوا بها في المواسم فأصابوا تجارة فربحوا فيها.

قد استجابوا لله والرسول، وكلهم له ﴿أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ هو الجنة، وقيل إنها للتبعية وهم الذين قال لهم بعض المشركين: إن أبا سفيان ومن معه قد جمعوا أمرهم على الرجوع إليكم لاستئصالكم، فاحذروهم واتقوا لقاءهم؛ فإنه لا طاقة لكم بهم، فزادهم هذا التخويف يقيناً وتصديقاً بوعد الله لهم، ولم يُثْنِهم ذلك عن عزمهم فساروا إلى حيث شاء الله، معتمدين على الله، مفوضين أمرهم إليه.

وعن قتادة قال: ذاك يوم أحد بعد القتل والجراح، وبعدما انصرف المشركون أبو سفيان وأصحابه، فقال نبي الله ﷺ لأصحابه: «ألا عصابة تشدد الأمر، فتطلب عدوها؛ فإنه أنكى للعدو وأبعد للسمع» فانطلق عصابة على ما يعلم الله من الجهد، حتى إذا كانوا بذي الحليفة، جعل الأعراب والناس يأتون عليهم فيقولون: هذا أبو سفيان مائل عليكم بالناس، فقالوا: حسبنا الله ونعم الوكيل، فأنزل الله ﴿الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ﴾^(١).

قال الفخر الرازي: نزلت هذه الآية في غزوة بدر الصغرى، وذلك أن أبا سفيان لما عزم على الانصراف إلى مكة في أعقاب غزوة أحد، نادى: يا محمد، موعدنا موسم بدر الصغرى، فنقتتل بها إن شئت، فقال النبي ﷺ لعُمر: «قل له: بيننا وبينك ذلك إن شاء الله»، فلما حضر الأجل خرج أبو سفيان مع قومه حتى نزل بمر الظهران، فألقى الله الرعب في قلبه، فبدأ له أن يرجع وفرح المؤمنون، فقال تعالى يصف حالهم:^(٢)

١٧٤ - ﴿فَأَنقَلَبُوا بِنِعْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ لَّمْ يَمَسَّهْمُ سُوٌّ وَآتَبَعُوا رِضْوَانَ اللَّهِ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ﴾

فرجعوا من حمراء الأسد إلى المدينة بثواب جزيل ومنزلة عالية، وقد ازدادوا يقيناً وإيماناً، وأذلوا أعداء الله، وسلموا من القتل والقتال، وأطاعوا الله والرسول، فأعطاهم الله ثواب الغزو، ورضي عنهم لمجرد خروجهم، وقد تفضل الله عليهم بالتوفيق فيما فعلوه، وبإلقاء الرعب في قلوب المشركين حتى رجعوا وقد أخبر سبحانه أن المجاهدين الصادقين صحبهم في عودتهم من لقاء عدوهم أربعة أمور:

أولها: النعمة العظيمة.

وثانيها: الفضل الجزيل.

(١) الواحدي (١١٢).

(٢) تفسير الفخر الرازي (٩٩/٩).

وثالثها: السلامة من العدو. ورابعها: اتباع رضوان الله.

سَبَبُ الْخَوْفِ مِنَ الْعَدُوِّ هُوَ ضَعْفُ الْإِيمَانِ

١٧٥- ﴿إِنَّمَا ذَلِكُمُ الشَّيْطَانُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَاءَهُ فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُوا اللَّهَ إِن كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ (١٧٥)

ثم يكشف الله سبحانه عن سبب الخوف من العدو، فيبين أنه الشيطان، وأن الذي قال للمسلمين ﴿إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ﴾ إنما هو داع من دعاة الشيطان، يخوف أتباعه الذين عُدِمَ إيمانهم أو ضعف، وأنه ينبغي على المؤمن أن يفتن لمكره؛ لأن الشيطان يخوف المستجيبين له المحجوبين بالمعاصي من أتباعه حتى ينتفش الباطل، ويضخم الشر تحت شعار الخوف والرعبة، وهذه مصلحته.

وفطانة المؤمن تتمثل في إدراكه أن الخوف لا يكون إلا ممن يملك النفع والضرر، وأنه حين يخشى الله وحده لا تقف في وجهه قوة في الأرض، فالمُتَّبَطُّ للهمم هو الشيطان، والمشركون ضعاف لا ناصر لهم، فلا تخافوا إلا الله، وأقبلوا عليه وأطيعوه، وقاتلوا أولياء الشيطان إن كيد الشيطان كان ضعيفاً؛ فالشيطان هو المبتط لكم عن لقاء عدوكم، وهو الذي يوسوس في قلوبكم بالشر، ومن شأن المؤمنين الصادقين ألا يتأثروا به ﴿إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ﴾ [الإسراء: ٦٥].

وسبب الخوف من العدو: حب الدنيا، وكراهية الموت، وأهم أسباب القوة: تقوى الله تعالى؛ فإنها تزيل الخوف، فأولياء الشيطان من الكفار والمنافقين هم الذين يخافونه ويطيعون أمره ووسوسته، فلا تخافوا من أولياء الشيطان، فإن نواصيهم بيد الله، وخافوا الذي ينصر أوليائه ويخذل أعداءه.

وأولياء الله، وهم المؤمنون، لا يخافون الشيطان إذا خَوْفَهُمْ، ولا يطيعونه إذا أمرهم ووسوس لهم.

أَرْبَعَةُ تَعْقِيبَاتٍ عَلَى أَحْدَاثِ غَزْوَةِ أُحُدٍ

التَّعْقِيبُ الْأَوَّلُ: عَدَمُ التَّحَسُّرِ عَلَى الْمُتَخَاذِلِينَ

١٧٦- ﴿وَلَا يَحْزَنكَ^(١) الَّذِينَ يُسْرِعُونَ فِي الْكُفْرِ إِنَّهُمْ لَن يَضُرُّوا اللَّهَ شَيْئًا يُرِيدُ اللَّهُ أَلَّا يَجْعَلَ لَهُمْ حِطًّا فِي الْآخِرَةِ وَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ (١٧٦)

ثم يأتي التعقيب على أحداث الغزوة، موجهاً الخطاب فيه للنبي ﷺ ألا يدخل الحزن إلى قلبه بسبب مسارعة المنافقين إلى الكفر ونشاطهم فيه، ممن يُمعن في الجحود والضلال، أو يترد عن الإسلام إلى الكفر، أو يعاون الكفار ويواليهم ويناصرهم ويتخذهم أمناء ومستشارين على أسرار المسلمين، وكان النبي ﷺ حريصاً على هداية الخلق، مجتهداً في نصحتهم، يحزن لعدم إيمانهم وعدم هدايتهم، وهم بهذا لن يضرُوا الله شيئاً، ولن يضرُوا أولياء الله، ولن ينقصوا شيئاً من دين الله، إنما يضرُون أنفسهم بحرمانها من الإيمان، وحرمانها جزيل الثواب ونعيم الآخرة؛ فمسارعتهم في الكفر وموالاته أهله يُعاقبون عليه بالعذاب الشديد يوم لقاء الله.

والمعنى: لا تحزن - يا محمد - لمسارعة هؤلاء الضالين، في الكفر؛ فإنهم لن يضرُوا أوليائي بشيء من الضرر، ولأن كفرهم ليس مراغمة لله تعالى، إنما هو بإرادته سبحانه ﴿فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسْرَتٌ﴾ [فاطر: ٨].

﴿فَلَعَلَّكَ بَنِيعٌ نَفْسُكَ عَلَىٰ عَآثِرِهِمْ إِن لَّرَ يُؤْمِنُوا بِهَذَا الْحَدِيثِ أَسَفًا﴾ [الكهف: ٦].

فلا تبال بهم، فإنهم يسعون في ضرر أنفسهم بترك الإيمان في الدنيا وحصول العذاب في الآخرة. وقد أراد الله تعالى ألا يجعل لهم حظاً ولا نصيباً من الخير في الآخرة؛ لأنهم استحبوا العمى على الهدى، وإلى جوار هذا الحرمان فلهم في الآخرة عذاب عظيم.

(١) قرأ نافع (ولا يحزنك) بضم الياء وكسر الزاي، مضارع أحزن الرباعي، وقرأ الباقون (ولا يحزنك) بفتح الياء وضم الزاي مضارع حزن الثلاثي.

التَّعْقِيبُ الثَّانِي: اَلْمُتَّخَذُونَ عَنِ الْجِهَادِ لَنْ يَضُرُّوا اللَّهَ شَيْئًا

١٧٧ - ﴿إِنَّ الَّذِينَ اشْتَرُوا الْكُفْرَ بِالْإِيمَانِ لَنْ يَضُرُّوا اللَّهَ شَيْئًا وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾

لقد كان الحزن يساور قلب النبي ﷺ حسرة على المسارعين إلى النار، وهو لا يملك ردهم، ولا يسمعون له قولاً، ويشمرون إلى المبادرة في الكفر، فلما أسلمت قريش ودخلت في دين الله أفواجاً، أراح الله قلب نبيه، وطمأنه، وواساه، ومسح عنه الحزن بمثل هذه الآية الكريمة، وبَيَّنَّ له أن هؤلاء العباد أضعف من أن يضروا دعوة الله وحاملي لواءها، مهما أصابوهم من الأذى، ومهما سارعوا في الكفر ﴿إِنَّ الَّذِينَ اشْتَرُوا الْكُفْرَ بِالْإِيمَانِ﴾ فاستبدلوه به، بأن أخذوا الكفر وتركوا الإيمان، ممن يرتدون عن الإسلام ونحوهم ﴿لَنْ يَضُرُّوا اللَّهَ شَيْئًا﴾ باستبدالهم الكفر بالإيمان، بل ضررهم يعود عليهم، وقد خذلهم الله وسلبهم التوفيق، ولهم عذاب موجه يوم لقاء الله، وقد قبض الله لدينه من عباده الأبرار، وأصحاب البصائر والعقول، مَنْ هم خير منهم، ممن رغبوا فيما عند الله، فباعوا أنفسهم وأموالهم لله بجنة عرضها السموات والأرض أعدت للمتقين.

التَّعْقِيبُ الثَّالِثُ: زِيَادَةُ النِّعَمِ لِلْكَافِرِ إِمْهَالٌ لَهُ

١٧٨ - ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّمَا نُمَلِّ لَهُمْ خَيْرٌ لِّأَنفُسِهِمْ إِنَّمَا نُمَلِّ لَهُمْ لِيَزْدَادُوا إِثْمًا وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾

أي ولا يظن الذين كفروا ببرهم وحاربوا رسوله، أن إمهالنا لهم، وعدم تعذيبنا إياهم، خير لأنفسهم ومحبة منا لهم، ليس الأمر كذلك، وإنما نمهلهم ليزداد طغيانهم، ثم نأخذهم بذنوبهم ونعاقبهم بما يستحقون.

وهكذا: يكشف القرآن الكريم عن الحكمة في إمهال الكفار بإطالة أعمارهم وطول آجالهم، وتمتعهم بمتع الدنيا ونعيمها ووسائل العيش الرغيد فيها، وعدم تعجيلهم بالعقوبة في الدنيا، ومؤاخذتهم على كفرهم وذنوبهم، وأن ذلك ليس خيراً لهم، بل هو فتنة واستدراج، وإنما يؤخر الله آجالهم؛ ليزدادوا إثماً وظلماً وطغياناً، ولهم في الآخرة عذاب يهينهم ويذلهم مقابل ما كانوا فيه في الدنيا من نعيم ومتاع.

سئل النبي ﷺ: أي الناس خير؟ قال: «من طال عمره وحسن عمله»، قيل: فأئني الناس

شر؟ قال: «من طال عمره وساء عمله»^(١).

وعن ابن مسعود رضي الله عنه قال: «ما من نفس برّة، ولا فاجرة، إلا والموت خير لها من الحياة، إن كان برّاً، فقد قال الله: ﴿وَمَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ لِلْآزِرِينَ﴾ وإن كان فاجراً، فقد قال الله تعالى: ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّمَا نُمِلُّ لَهُمْ خَيْرٌ لِّأَنفُسِهِمْ إِنَّمَا نُمِلُّ لَهُمْ لِيَزَادُوا إِثْمًا﴾»^(٢).

وفي الحديث عن عقبه بن عامر رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «إذا رأيت الله يعطي العبد من الدنيا على المعاصي ما يحب، فإنما هو استدراج»^(٣).

وقال الزجاج: هؤلاء قوم أعلم الله نبيّه أنهم لا يؤمنون أبداً، وأن نفاقهم يزيدهم كفراً كما قال تعالى ﴿يَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُم بِهِ مِنْ مَّالٍ وَنَبِينٍ﴾ سورة القصص: ٥٥، ٥٦. وقال سبحانه: ﴿فَذَرْنِي وَمَنْ يَكْذِبْ بِهَذَا الْحَدِيثِ سَنَسْتَدْرِجُهُمْ مِنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ﴾ القلم: ٤٤.

وعن ابن عباس أن الآية نزلت في أحبار اليهود الذين كتموا صفة محمد صلى الله عليه وسلم ونبوته، وأراد بالبخل كتمان الذي آتاهم الله تعالى^(٤).

التَّعْقِيبُ الرَّابِعُ: لَا بُدَّ مِنَ التَّمْيِيزِ بَيْنَ الْخَبِيثِ وَالطَّيِّبِ

١٧٩ - ﴿مَا كَانَ اللَّهُ لِيَذَرَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ حَتَّى يَمِيزَ﴾^(٥) الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى الْغَيْبِ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَجْتَبِي مِنْ رُسُلِهِ مَنْ يَشَاءُ فَتَأْمِنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَإِنْ تُؤْمِنُوا وَتَتَّقُوا

(١) رواه البغوي بسنده عن عبد الرحمن بن أبي بكر عن أبيه رضي الله عنهما وأخرجه الطيالسي (٨٦٤) والدارمي (٢٧٤٢) والطحاوي في شرح مشكل الآثار (٥٢٠٨) وهو في «المسند» عن أبي بكره عن أبيه (٢٠٤١٥، ٢٠٤٤٣) حديث حسن، وعن عبد الله بن بسر (١٧٦٨٠، ١٧٦٩٨).

(٢) أخرجه عبد الرزاق (٤٢/١) وابن أبي شيبة (٣٠٣/١٣) وابن جرير (٢٦٢/٦) وابن أبي حاتم (٤٥٥٥) وابن المنذر (١٢١١) والطبراني (٨٧٥٩) والحاكم وصححه إسناده في «المستدرک» (٢٩٨/٢).

(٣) من حديث عقبه بن عامر في «المسند» برقم: (١٧٣١١) حديث حسن، أخرجه الطبري في التفسير (٧/١٩٥) والطبراني في الأوسط (٩٢٦٨) والبيهقي في الأسماء والصفات ص (٤٨٨) وفي الشعب (٤٥٤٠). (٤) «زاد المسير» (٥١٢/١).

(٥) قرأ حمزة والكسائي ويعقوب وخلف العاشر (يُمَيِّزُ) بضم الياء الأولى وفتح الميم وكسر الياء المشددة، مضارع (يُمَيِّزُ)، وقرأ الباقر بفتح الياء وكسر الميم وإسكان الياء مَدْيَةً، مضارع (ماز) وهما لغتان.

فَلَكُمْ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿١٧٩﴾

وفي نهاية التعقيب على غزوة أحد يبين الله سبحانه أنه لن يترك الباطل ليسيطر على الحق، وأن علو الباطل في بعض المعارك، أو بعض الأزمنة، ليس معناه بقاء الحق ضعيفاً يقتله الباطل ويرديه، وإنما هذه حكمة الله تعالى وتديره، يملي للباطل إلى نهاية الطريق، ويرتكب أبشع الأوزار؛ لينال أشد العذاب، وليميز الله الخبيث من الطيب، فيظهر إخلاص المخلصين، ونفاق المنافقين، وكفر الكافرين، وينكشف ما في الضمائر ودخائل النفوس، وما كان من شأن الله تعالى أن يطلعكم على ما استأثر به في علم الغيب عنده؛ لتطلعوا بأنفسكم وتعرفوا صادق الإيمان من المنافق، والخبيث من الطيب.

وقد أرسل الله الرسل وأمر بطاعتهم ووعده عباده على الإيمان والتقوى الأجر العظيم، فأنقسم الناس بحسب اتباعهم للرسل إلى قسمين، مطيعين وعاصين، ومسلمين وكافرين ومنافقين، ليرتب على ذلك الثواب والعقاب، وليظهر عدله وفضله وحكمته في خلقه.

وسنة الله جارية بهذا فلا سبيل إلى معرفة المؤمن من الكافر والمنافق، إلا بالمحن والابتلاءات والمصائب؛ فهي تُمَيِّزُ المخلص بثباته على الإيمان، وتزلزل المنافق، وتظهر جحود الكافر وعناده، غير أن الله تعالى يصطفي ويختار رسلاً من عباده فيخصهم بالوحي ويخبرهم بشيء من الغيب ﴿عَلِمَ الْغَيْبُ فَلَا يُظْهِرُ عَلَى غَيْبِهِ أَحَدًا﴾ ﴿١٧٨﴾ إِلَّا مَنْ أَرَضَىٰ مِنْ رَسُولٍ فَإِنَّهُ يَسْلُكُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ رَصَدًا ﴿١٧٩﴾ [الجن].

فليس أمامكم أيها الجاحدون إلا الإيمان بالله ورسوله، فإن صدقتم، وامثلتم أمري، واجتنبتم نهبي، فلکم عند الله أجر عظيم، وثواب جزيل هو الجنة^(١).

الْوَعِيدُ الشَّدِيدُ عَلَى الْبُخْلِ بِالْمَالِ

١٨٠ - ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَبْخُلُونَ^(٢) يَمَاءَ أَنَّهُمْ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ هُوَ خَيْرٌ لَّهُمْ بَلْ هُوَ شَرٌّ لَّهُمْ

(١) ذكر ابن الجوزي في «زاد المسير» خمسة أقوال في نزول الآية ليس فيها شيء مسند.

(٢) (ولا يحسبن الذين كفروا) (ولا يحسبن الذين يبخلون) قرأ حمزة بقاء الخطاب فيهما، والمخاطب هو النبي صلى الله عليه وسلم وكل من يتأتى منه الخطاب، وقرأ الباقون بياء الغيبة فيهما، والفاعل فيهما لفظ (الذين)، وقرأ بفتح السين فيهما: ابن عامر وعاصم وحمزة وأبو جعفر، والباقون بكسرها وهما لغتان.

سَيُطَوَّفُونَ مَا بَخِلُوا بِهِ يَوْمَ الْقِيَمَةِ وَلِلَّهِ مِيرَاثُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿١٨٠﴾

وبعد أن حثت الآيات على بذل النفس في الجهاد في سبيل الله، شرعت تحرض على بذل المال في سبيل الله، وتذكر بالوعيد الشديد لمن يبخل بماله، فلا يظن الذين يبخلون بما أنعم الله عليهم من المال والمتاع، والجاه والعلم أن هذا البخل خير لهم، بل هو شر لهم؛ لأن المال الذي جمعه سيزول عنهم، ويبقى عليهم وبال بخلهم، فيجعل لهم طوقاً من نار يوضع في أعناقهم يوم القيامة.

والآية تشمل مانع الزكاة، والبخل بإنفاق المال في وجوه الخير.

والله سبحانه سيرث الأرض ومن عليها، فهو الباقي بعد فناء خلقه وزوال أملاكهم، فيموتون وتبقى أموالهم فيرثها غيرهم، وهو سبحانه خير بأعمال الخلق جميعاً، وسيجازيهم عليها. ﴿إِنَّا نَحْنُ نَرِثُ الْأَرْضَ وَمَنْ عَلَيْهَا وَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ﴾ [مريم: ٤٠]

عن أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «من آتاه الله ما لا فلم يؤدّ زكاته، مثّل له شجاعاً أقرع، له زبيبتان، يطوّقه يوم القيامة، يأخذ بلهزمتيه، يقول: أنا مالك، أنا كنزك»، ثم تلا الآية ^(٢).

والشجاع: الحية الذكر، والأقرع: كثير السم، واللهزمتين: الشدقين.

وفي الحديث عن ابن مسعود رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «لا يمنع عبد زكاة ماله إلا جُعِلَ له شجاع أقرع يتبعه، يفرّ منه وهو يتبعه فيقول: أنا كنزك ثم قرأ عبد الله مصداقه في كتاب الله ﴿سَيُطَوَّفُونَ مَا بَخِلُوا بِهِ يَوْمَ الْقِيَمَةِ﴾» [آل عمران: ١٨٠] ^(٣).

فكيف لا تنفقون، وجميع ما في الكون ملك لله يعود إليه بعد فناء خلقه، وهو سبحانه مطلع على أعمالكم وسيجازيكم عليها ﴿وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾.

(١) قرأ ابن كثير وأبو عمرو ويعقوب (يعملون) بياء الغيبة؛ لمناسبة (الذين يبخلون)، وقرأ الباقون بقاء الخطاب، على الالتفات.

(٢) البخاري برقم: (١٤٠٣، ٤٥٦٥) وفي فتح الباري (٧٨/٨) وابن حبان (١٠٧/٥) و«المسند» عن أبي هريرة برقم: (٨٦٦١) حديث صحيح وإسناده حسن (محققوه) وانظر (٧٧٥٦) والنسائي (٣٨/٥).

(٣) أخرجه أحمد عن أبي وائل عن عبد الله بن مسعود عن النبي ﷺ «المسند» (٣٧٧/١) (٣٥٧٧) إسناده صحيح على شرط الشيخين (محققوه) والنسائي (١١/٥) وابن ماجه (١٧٨٤) و«المستدرک» (٢٩٨/٢) وابن خزيمة (٢٢٥٦) و«صحيح سنن الترمذي» (٢٤١٠).

وهكذا فقد أخبر الله تعالى أن ما في يد العبد من مال، إنما هو مال الله، أودعه في يده، ولولا فضل الله تعالى وإحسانه لم يصل إليه منه شيء، فَمَنْ مَنَعَ الْبَذْلَ مِنْهُ فِي وَجْهِهِ الْخَيْرِ، فقد منع فضل الله وإحسانه.

كما أخبر أن ما في يد العبد سيرجع إلى الله وهو خير الوارثين، فلا معنى للبخل بشيء زائل ومنتقل إلى الآخرين.

وأخير فإن العبد سيُجزى أحسن الجزاء على ما أنفق منه في وجوه البر.

خَمْسٌ مِنْ قَبَائِحِ الْيَهُودِ

١٨١- ﴿لَقَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَاءُ سَنَكْتُبُ^(١) مَا قَالُوا وَقَتْلُهُمُ الْأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَقَوْلُ دُفُوعُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ^(٢)﴾

ثم تتحدث تسع آيات من سورة آل عمران بعد المئة والثمانين آية قبلها، عن بعض قبائح اليهود وجرائمهم، فذكرت خمسًا من قبائحهم:

القبيحة الأولى: قولهم ﴿إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَاءُ﴾

فقد أخبر الله سبحانه عن مقالة اليهود الشنيعة، التي وصفوا فيها أنفسهم بالغنى، ووصفوا رب العزة بالفقر، وأخبر سبحانه أنه سمع مقالته، وأنه سيكتبها مع أفعالهم الشنيعة كقتلهم الأنبياء بغير حق، وسوف يعاقبهم على ذلك أشد العقوبة.

وهذه المقولة هي أول القبايح الخمس، فقد أشارت إليها الآية الأولى من هذه الآيات التسع، وكان سبب نزولها أن النبي ﷺ كتب إلى يهود بني قينقاع يدعوهم إلى الدخول في الإسلام، وإقامة الصلاة، وإيتاء الزكاة، وأن يوفّوا ويلتزموا ببند المعاهدة بينهم وبين المسلمين من دفع الالتزامات المالية تجاه تَمَتُّعِهِمْ بالأمن والاستقرار في بلاد المسلمين،

(١) قرأ حمزة (سُيُكْتَب) بياء مضمومة وفتح التاء، مبنياً للمفعول، و (ما) اسم موصول بمعنى: سيكتب الذي قالوه، أو مصدرية بمعنى: سيكتب قولهم، وهي نائب فاعل (وقتلهم) برفع اللام؛ عطفاً على (ما) (ويقول) بياء الغيبة؛ لمناسبة (لقد سمع الله)، وقرأ الباقون (سنكتب) بنون مفتوحة، وضم التاء، مبنياً للفاعل والفاعل ضمير يعود على (الله) و (ما) مفعول به (وقتلهم) بنصب اللام؛ عطفاً على (ما) و (نقول) بنون العظمة.

ومقابل انتفاعهم بالمرافق العامة ونحو ذلك، حيث أرسل النبي ﷺ إليهم أبا بكر رضي الله عنه بهذا الكتاب، فذهب إليهم، ووجد معظمهم يجلسون في بيت معلّمهم، الحبر الأكبر: فنحاص.

قال أبو بكر: اتق الله يا فنحاص وأسلم؛ فإنك لتعلم أن محمداً ﷺ صادق، وإنك لتجد صدق قوله في كتابكم التوراة، فآمن وصدق، وأقرض الله قرضاً حسناً، يدخلك الجنة، ويضاعف لك الثواب.

فقال فنحاص: يا أبا بكر، تزعم أن ربنا يستقرض أموالنا، وما يستقرض إلا الفقير من الغني، فإن كان ما تقول حقاً، فوالله ما بنا من حاجة إلى الله، ونحن أغنياء عنه، وهو فقير إلينا، إن ربنا يقبل العطية والصدقة إنه الفقير ونحن الأغنياء، إنه ينهانا عن الربى ويُرّابي، ويعطي على الحسنة عشرة أمثالها، ويقول: ﴿مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَاعِفَهُ لَهُ أَضْعَافًا كَثِيرَةً﴾ [البقرة: ٢٤٥]. فالله فقير ونحن أغنياء.

لم يملك أبو بكر زمام نفسه أن يستمع إلى هذه الوقاحة وإلى هذا الكفر، فما كان منه إلا أن صفعه على وجهه ضربة شديدة، وقال له: لولا العهد الذي بيننا وبينكم يا عدو الله لضربت عنقك.

ذهب فنحاص إلى النبي ﷺ يشكو له ما حدث من أبي بكر، فسأله النبي ﷺ فذكر أبو بكر رضوان الله عليه مقالة فنحاص ﴿إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَاءُ﴾ وقال: فغضبت وضربت وجهه.

فجحد فنحاص مقولته وكذب أبا بكر، فأنزّل الله تعالى تكذيباً لفنحاص وللإهود إلى يوم القيامة وتصديقاً لأبي بكر ﴿لَقَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَاءُ سَنَكْتُبُ مَا قَالُوا﴾^(١).

أي: يسجل ذلك عليهم، ويحصيه في صحف أعمالهم.

ويكتب أيضاً ما فعله أسلافهم من قتلهم الأنبياء بغير حق؛ كزكريا ويحيى، ورضاهم بذلك، وشروعهم في قتل عيسى ظلماً وعدواناً، ويقال لهم يوم القيامة وهم في النار يعذبون: ﴿ذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ﴾ الذي ينفذ من البدن إلى الأفتدة. قال تعالى:

(١) ذكرته بالمعنى، يُنظر: ابن إسحاق عن عكرمة، والسدي ومقاتل، وقال الحسن: إن القائل هو: حيي بن أخطب ويُنظر: سيرة ابن هشام (١/٥٣٩) وتفسير الطبري (٧/٤٤٢) وابن أبي حاتم.

١٨٢ - ﴿ذَلِكَ يَمَّا قَدَّمْتَ أَيْدِيكُمْ وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ﴾

فهذه النار المحرقة وهذا العذاب الشديد بسبب ما قدمتموه في حياتكم الدنيا من المعاصي: القولية، والفعلية، والاعتيادية، والله تعالى عادل لا يظلم الخلق، بل يثيب المحسن ويعاقب المسيء، هذه قبيحة من قبائحهم.

الْقَبِيحَةُ الثَّانِيَةُ: تَكْذِيبُهُمْ لِرُسُلِ اللَّهِ

١٨٣ - ﴿الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ عٰهَدَ إِلَيْنَا أَلَّا نُؤْمِنَ لِرَسُولٍ حَتَّىٰ يَأْتِيَنَا بِقُرْبَانٍ تَأْكُلُهُ النَّارُ قُلْ

قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّن قَبْلِي بِالْبَيِّنَاتِ وَبِالَّذِي قُلْتُمْ فَلِمَ^(١) قَتَلْتُمُوهُمْ إِن كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾

وفي هذه الآية، يخبر سبحانه وتعالى عن مقولة أخرى من مقولات اليهود، حيث يفترون على الله الكذب فيقولون: إن الله تعالى أوصى إلينا أن لا نؤمن لرسول من رسل الله، حتى يأتينا بقربان تأكله النار، وهذا محض كذب وافتراء، فإن الله تعالى يؤيد رسله بالمعجزات والبراهين، وقد أمر الله رسوله أن يخبرهم بأنه قد أرسل رسلاً قبله، وأيدهم بالآيات الدالة على صدقهم، وأيدهم بما قلتم، فقد أتوكم بقربان تأكله النار، فلم قتلتموهم إن كنتم صادقين في دعواكم بالإيمان برسول يأتي بقربان تأكله النار، وبهذا فقد تبين كذبكم وتناقضكم.

وكان سبب ذلك أن عدداً من اليهود وفدوا على رسول الله ﷺ، فقالوا: يا محمد إنك تزعم أنك رسول الله، وأن الله قد أنزل إليك كتاباً، وإن الله قد أوصانا وعهد إلينا في التوراة أن لا نؤمن لرسول من رسل الله حتى يأتينا هذا الرسول بقربان نتقرب به إلى الله سبحانه، من صدقة أو ذبيحة ونحو ذلك، وتنزل نار من السماء فتأكل هذه الذبيحة مثلاً، وهي نار بيضاء ليس لها دخان، ويكون نزولها علامة على قبول القربان، وعلى صدق هذا الرسول، إذا التهمت القربان.

وكانت القرابين والغنائم لا تحل لبني إسرائيل، فإذا قبلت هذه القرابين نزلت نار من السماء تحرقها، وإذا لم تقبل بقيت كما هي ولم تنزل نار، وكانت النار تنزل بدعاء نبيهم

(١) وقف البزي ويعقوب بخلف عنهما بهاء السكت على (لم) عوضاً عن الألف المحذوفة، والباقون بدونها.

وتضرعه إلى الله تعالى، فأنزل الله تعالى ﴿الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ عَهِدَ إِلَيْنَا﴾ وفيها إجابة من الله سبحانه على اليهود:

قل لهم يا رسولنا: ﴿قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّن قَبْلِي بِالْبَيِّنَاتِ﴾ رسل كثيرة، أرسلهم الله تعالى وأيدهم بالمعجزات، وأيدهم بالذي قلم وطلبتهم من القربان، فلم لم تؤمنوا بهم؟ ولم لم تتبعوهم؟ ولم قلمتموهم كزكريا ويحيى وأشعيا وأرميا إن كنتم صادقين في قولكم؟ فأنتم كاذبون في دعواكم.

وهذا القربان، كان قد حدث في زمن موسى ﷺ، حين ذبح أول قربان شرعه الله لبني إسرائيل، فخرجت نار من عند الرب فأحرقته، كما جاء في سفر اللاويين، إلا أن هذا غير مُطَرَّد، فلا ينطبق على ما بعد موسى من الرسل^(١).

ومعجزة كل رسول جاءت من نوع ما نبغ فيه قومه، والعرب أرباب فصاحة وبلاغة فكانت معجزة محمد ﷺ هي القرآن.

وفي الحديث عن أبي هريرة ؓ أن النبي ﷺ قال: «ما من الأنبياء نبي إلا أُوتِيَ من الآيات ما مثله آمن عليه البشر، وإنما كان الذي أُوتيت وحياً أوحى الله إليّ، فأرجو أن أكون أكثرهم تابعا يوم القيامة»^(٢). قال تعالى:

١٨٤ - ﴿إِن كَذَّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَ رَسُولٌ مِّن قَبْلِكَ جَاءُوا بِالْبَيِّنَاتِ وَالزُّبُرِ^(٣) وَالْكِتَابِ الْمُنِيرِ ﴿١٨٤﴾

والله سبحانه يسلي رسوله ويخفف عنه، ويقول له: لا تحزن، ولا تيأس فهذا شأنهم وهذه طبيعتهم ﴿إِن كَذَّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَ رَسُولٌ مِّن قَبْلِكَ﴾؛ كنوح، وهود، وصالح، وإبراهيم، وجميعهم ﴿جَاءُوا بِالْبَيِّنَاتِ﴾ أي: المعجزات والأدلة الواضحة الدالة على صدق دعواهم، وجأؤوا بالزبر؛ وهي الصحف المنزلة من عند الله، المشتمة على المحاسن

(١) يُنظَر: تفسير التحرير والتنوير (٤/ ١٨٥).

(٢) الحديث في البخاري (٤٩٨١، ٧٢٧٤) ومسلم (٢٣٩، ١٥٢) و«المسند» (٨٤٩١) و«سنن النسائي الكبرى» (٧٩٢٣، ١١٠٦٤).

(٣) قرأ ابن عامر بزيادة باء بعد الواو من (والزبر) موافقة لرسم المصحف الشامي، وقرأ هشام بخلف بزيادة باء بعد الواو من (والكتاب) وفق المصحف الشامي، والباقون بدونهما.

العقلية، والأخبار الصادقة، والأحكام التشريعية، وجاؤوا بالكتب؛ كالطورا، والإنجيل، والزبور، قال تعالى: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَا التَّوْرَةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ﴾ [المائدة: ٤٤]. وقال سبحانه ﴿جَاءُوا بِالْبَيِّنَاتِ وَالزُّبُرِ وَالْكِتَابِ الْمُنِيرِ﴾.

فليس تكذيبهم للرسول بسبب قصور فيما جاءت بالرسول، أو عدم بيان لحجتهم، بل إنهم جاؤوا بالحجج العقلية، والبراهين النقلية، والكتب المنزلة من عند الله، التي لا يأتي بها غير الرسول.

النَّجَاحُ الْحَقِيقِيُّ لِلْفَائِزِ يَوْمَ لِقَاءِ اللَّهِ

١٨٥- ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أَجُورَكُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ فَمَنْ زُحِرَ عَنِ النَّارِ وَأَدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْفُرُورِ﴾ (١٨٥)

لا تحزن يا محمد؛ فإن مرجعهم إلينا، وسوف نجازيهم ونعاقبهم، لا تحزن فكل مخلوق سيعود إلينا ويموت، الحاكم يموت والمحكوم يموت، الصالح يموت والطالح يموت، الصحيح يموت والمريض يموت، الجبان يموت والشجاع يموت، الكل يموت ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ﴾، وفي هذا ترهيد في الدنيا، بأنها فانية ومتاعها زائل، وزخرفها فانٍ، فهي تخدع بغرورها ومحاسنها، وليست بدار قرار، بل ينتقل منها الخلق إلى دار القرار، حيث تُوفى كل نفس ما عملت من خير أو شر، فمن زحزح عن النار، -مجرد زحزحة - وأدخل الجنة، فقد حصل له الفوز العظيم، ومن لم يزحزح عن النار فقد شقي وابتلي بالعذاب السرمدي:

كل ابن أنشئ وإن طالت سلامته يوماً على آلة حدباء محمول
وما المرء والأهلون إلا ودائع ولا بُدَّ يوماً وأن ترد الودائع
قيل: لما خلق الله آدم، اشتكت الأرض إلى ربها مما أخذ منها، فوعدها أن يرد إليها ما أخذ منها، حيث يدفن فيها من يموت، وذلك كقوله تعالى:
﴿مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَى﴾ [طه].

وفي الآية تعزية لجميع الناس، وأنه لن يبقى أحد حتى يموت، فالجن والإنس يموتون، وكذا الملائكة وحملات العرش، ويبقى الحي القيوم ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ﴾ [القصص: ٨٨].

ولما نزل قول الله سبحانه: ﴿قُلْ يَتُوبُكُمْ مَلِكُ الْمَوْتِ الَّذِي وُكِّلَ بِكُمْ﴾ [السجدة: ١١]. وقالوا: هذا خاص بالإنسان، فأين ذكر الموت للجن والأنعام والوحوش والطيور؟ أنزل الله تعالى: ﴿كُلُّ نَفْسٍ﴾ إنسان وغير إنسان ﴿ذَائِقَةُ الْمَوْتِ﴾ في الدنيا، والمرجع والمصير إلينا ﴿وإِنَّمَا تُوفُونَ أَجُورَكُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ﴾ إن خيرًا فخير، وإن شرًا فشر، ﴿فَمَنْ رُحِّحَ عَنِ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ﴾ ظفر بالنجاة، وهذا هو النجاح الحقيقي، فمن أكرمه ربه فنَجَّاهُ من النار وأدخله الجنة فقد نال غاية ما يطلب، وهذا هو الفوز الحقيقي ﴿وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا﴾ وما فيها من نعيم ورغد عيش ومتاع ﴿إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ﴾.

قال سعيد بن جبير: هي متاع الغرور لمن لم يشتغل بطلب الآخرة، فأما من اشتغل بطلب الآخرة، فهي له متاع وبلاغ إلى ما هو خير منها.

١- في الصحيحين وغيرهما: عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «قال الله ﻋَﻠَﻴْهِ: أعددت لعبادي الصالحين ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر، اقرؤوا إن شئتم: ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ﴾»^(١).

ودار الغرور: هي الدنيا، سميت كذلك لأنها فانية، يغتر الإنسان فيها بطول البقاء، ثم ينقطع هذا الأمل قريبًا.

والغرور: كل ما يغتر الإنسان مما لا يدوم، فهو متاع متروك.

والمتاع: كل ما استمتع به الإنسان من مال وغيره.

٢- وفي الحديث عن المستورد بن شداد رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «والله ما الدنيا في الآخرة إلا كما يغمس أحدكم إصبعه في اليمِّ، فليُنظر بم ترجع إليه؟»^(٢).

٣- وفي الحديث عن عبد الله بن عمرو رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «من أحب أن يزحزح عن النار وأن يدخل الجنة فلتدركه منيته وهو يؤمن بالله واليوم الآخر، وليأت إلى

(١) البخاري (٤٧٨٠) ومسلم (٢٨٢٤) والترمذي (٣٢٩٢) وابن ماجه (٤٣٢٨) و«المسند» (٨١٤٣)، ٩٦٤٩، ١٠٠١٧ وابن أبي شيبة (١٠١/١٣).

(٢) رواه مسلم (٢١٩٣/٤) برقم: (٢٨٥٨) و«سنن الترمذي» برقم: (٢٣٢٣) وابن ماجه برقم: (٤١٠٨) من حديث المستورد بن شداد.

الناس ما يحب أن يؤتى إليه»^(١)، وما دامت الدنيا متعة زائلة فلا تغتروا بها.

وفي معنى الآية قوله تعالى: ﴿بَلْ تُؤْثِرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ۖ وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ﴾ [الأعلى].

وقوله: ﴿وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا مَتَعٌ﴾ [الرعد: ٢٦].

وقوله: ﴿مَا عِنْدَكُمْ يَنْفَدُ وَمَا عِنْدَ اللَّهِ بَاقٍ﴾ [النحل: ٩٦].

وقوله: ﴿وَمَا أُوتِيتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَمَتَّعُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزَيَّنَّهَا وَمَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ﴾ [الفصل: ٦٠].

٤- وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إن موضع سوط أحدكم في الجنة لخير من الدنيا وما فيها، اقرؤوا إن شئتم ﴿فَمَنْ ذُخِرَ عَنِ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَعُ الْفُورِ﴾»^(٢).

الْقَبِيحَةُ الثَّالِثَةُ: إِيْذَاءُ الْيَهُودِ الْمُسْتَمِرِّ لِلْمُسْلِمِينَ

١٨٦- ﴿لَتُبْلَوُنَّ فِي أَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا أَذًى كَثِيراً وَإِنْ نَصَرُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ﴾

والله ﷻ يسلي ويسري عن رسوله ﷺ ويقول له: لا تحزن يا محمد؛ فإنك سوف تبلى والمسلمون كذلك يتلون في النفس والمال، وسوف تسمعون الأذى الكثير من أهل الكتاب ومن الوثنيين المشركين ﴿لَتُبْلَوُنَّ فِي أَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ﴾.

أي: لتختبرن - أيها المؤمنون- في أموالكم بإخراج النفقات الواجبة والمستحبة، وبالجوائح التي تصيبها، ولتبلون في أنفسكم بما يجب عليكم من الطاعات، ومنها الجهاد، وما يحل بكم من جراح، أو قتل وفقد للأحباب؛ وذلك حتى يتميز الصادق في إيمانه من غيره، قال تعالى: ﴿وَلَتُبْلَوُنَّكُم بِشَيْءٍ مِنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنْفُسِ وَالثَّمَرَاتِ﴾

(١) رواه أحمد عن عبد الله بن عمرو، «المسند» (١٩١/٢) (٦٧٩٣، ٦٨٠٧) وإسناده صحيح على شرط مسلم ورجاله ثقات (محققوه) ورواه مسلم وفيه عبد الرحمن بن عبد رب الكعبة من رجال مسلم، وهو مستور الحال ورقمه (١٨٤٤) وأخرجه ابن ماجه (٣٩٥٦) وابن أبي شيبة (٢١٤/١٢) والبيهقي في السنن (١٦٩/٨)

(٢) أخرجه الترمذي وقال: حديث حسن صحيح، وصححه الألباني في صحيح السنن، ورقمه في «السنن» (٣٠١٣) و«المستدرک» (٢٩٩/٢) وصححه الحاكم على شرط مسلم ووافقه الذهبي، وهو في صحيح البخاري عن سهل بن سعد بدون الآية رقم: (٣٢٥٠)، وصحيح مسلم (١٨٨١) بنحوه.

[البقرة: ١٥٥]. وقال سبحانه: ﴿الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ [الملك: ٢].

ولتسمعن من اليهود والنصارى والمشركين ما يؤدي أسماعكم من ألفاظ الشرك والطعن في دينكم، وكتابكم ورسولكم وإن تصبروا على ذلك، وتلزموا طاعة الله واجتناب معصيته، فإن ذلك من الأمور التي يعزم عليها وينافس فيها^(١).

وخطب المسلمون بهذا ليوطنوا أنفسهم على احتمال ما سيلقونه من شدائد حتى يستعدوا للصبر عليها.

قال الزهري: نزلت في كعب بن الأشرف كان يهجو رسول الله ﷺ في شعره وكان يسب المسلمين، ويحرّض المشركين على قتال المسلمين في شعره.

أو نزلت في فنحاص الذي قال: إن الله فقير ونحن أغنياء، وما بلغه أبو بكر من الغضب حين سمع ذلك.

ومما لحق بالمسلمين من أذى: أن النبي ﷺ مر ذات يوم وهو على حمار يركبه بمجلس فيه خليط من المسلمين واليهود والمشركين، فأصاب المجلس بعض غبار من أقدام الدابة، وكان في المجلس رأس النفاق عبد الله بن أبي بن سلول، فخرّ وجهه وأنفه بردائه من عجاج الدابة، ثم نزل النبي ﷺ ودعاهم إلى الإسلام، وذكر لهم شيئاً من محاسنه، وقرأ عليهم القرآن، فقال عبد الله للنبي ﷺ: ما أحسن ما تقول لو كان حقاً: وأفضل لك أن تجلس في بيتك، ومن جاء إليك فاقصص عليه، ولا تؤذنا ولا تغشانا في مجالسنا^(٢).

وقد أنزل الله في عبد الله بن أبيّ، وفي كعب بن الأشرف، وفي فنحاص، وغيرهم من المنافقين واليهود وسائر أعداء الإسلام وأهله إلى قيام الساعة هذه الآية ﴿وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا أَذًى كَثِيرًا﴾.

والمسلم الذي يدعو إلى الله تعالى يوطن نفسه على تحمل الأذى في سبيل الله ﷻ وإن تصبروا وتتقوا فإن ذلك من عزم الأمور، وكان النبي ﷺ مأموراً بالعفو والصبر قبل الأمر بالقتال، وقد أسلم ابن أبي نفاقاً بعد غزوة بدر، وقد أخبر الله عباده بذلك:

(١) التفسير الميسر بتصرف، نخبة من العلماء.

(٢) يُنظر النص في البخاري (١٧٣/٨) برقم: (٤٥٦٦) ومسلم برقم: (١٧٩٨).

- ١- لبيان حكمته في خلقه، حتى يتميز المؤمن الصادق من غيره.
- ٢- وليعلموا أن الله تعالى يُقدّر عليهم هذه الأمور، ليرفع درجاتهم، ويكفر عن سيئاتهم، ويزداد إيمانهم و يقينهم.
- ٣- وقد أخبرهم الله تعالى بذلك ليُوطّنوا أنفسهم على وقوع ذلك، فيستعدوا لوقوعه، ويلجئوا إلى الصبر والتقوى، فقد ختم الله بهما الآية، لهذه الحكمة العظيمة، وليبين أن الصبر و التقوى من عزائم الأمور ﴿وَمَا يُلْقِنَهَا إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُلْقِنَهَا إِلَّا ذُو حِظٍّ عَظِيمٍ﴾ [فصلت: ٣٥].

الْقَبِيحَةُ الرَّابِعَةُ: نَقْضُهُمُ لِلْعَهْدِ

١٨٧- ﴿وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُ^(١)﴾ فَنَبَذُوهُ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ وَأَشْرَوْا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا فَبُئْسَ مَا يَشْتُرُونَ ﴿١٨٧﴾

والله ﷻ أخذ العهد والميثاق على كل ذي علم، أن يبلغ علمه، وأن لا يكتُم ما علّمه الله إياه، وأن لا يخبر الناس بغيره، ويتحتم هذا عند السؤال، أو حدوث ما يستلزم ذلك، أما الموفقون فقاموا بهذا خير قيام، وعلموا الناس مما علّمهم الله، ابتغاء مرضاة الله، وخوفًا من إثم الكتمان.

وقد أخذ الله سبحانه هذا العهد والميثاق على أهل الكتاب من اليهود في التوراة، والنصارى في الإنجيل، أن يبلغوا وأن لا يكتُموا ما فيهما، فما كان منهم إلا أن كتموا أوصاف النبي ﷺ وحرّفوها وغيّروها وبدّلوها، مخالفين بذلك ما أُخذ عليهم من وجوب الوفاء بالعهد ﴿وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُ﴾ فماذا كانت النتيجة؟ ﴿فَنَبَذُوهُ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ﴾ وخافوا على أنفسهم، وعلى مناصبهم، وعلى مكانتهم ووجاهتهم، إن ظهر نبي من العرب، فإنه ستزول عنهم الرئاسة، وأخذوا الرشوة مقابل تغيير صفات النبي ﷺ وتركوا العهد ولم يعملوا به، وأخذوا ثمنًا قليلًا مقابل كتمان الحق ﴿وَأَشْرَوْا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا فَبُئْسَ مَا يَشْتُرُونَ﴾ أي بسّ الشراء شراؤهم.

(١) قرأ ابن كثير وأبو عمرو وشعبة بياء الغيبة في (لتبينه للناس ولا تكتُمونه) في الكلمتين على إسناد الفعل إلى أهل الكتاب، وقرأ الباقر بناء الخطاب فيهما على الحكاية.

والآية تعم المسلم إذا كتم علماً، ولم يبلغه، أو حرّفه، أو غيّره، أو بدّله، ففي الحديث عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «من سئل عن علم فكتمه ألجمه الله يوم القيامة بلجام من نار»^(١). قال أبو هريرة: لولا ما أخذه الله على أهل الكتاب ما حدثتكم بشيء.

وقال علي رضي الله عنه: ما أخذ الله على أهل الجهل أن يتعلموا، حتى أخذ على أهل العلم أن يعلموا.

وفي الآية دليل على أنه يجب على العلماء أن يبينوا الحق للناس ولا يكتُموا منه شيئاً؛ لتطيب نفوس بعض الناس، أو لجرّ منفعة، أو دفع ضرر، أو بُخلٍ بعلم، أو خوفاً من أحد، أو تقرّباً لأحد.

قال قتادة: إياكم وكتمان العلم؛ فإن كتمان العلم هلكة، ولا يتكلّفن رجل ما لا علم له به، ومثّل علم لا يقال به، كمثّل كنز لا يُنفق منه، ومثّل حكمة لا تخرج، كمثّل صنم قائم لا يأكل ولا يشرب، طوبى لعالم ناطق، وطوبى لمستمع واعٍ، هذا رجل عليم علماً فعلمه وبذله ودعا إليه، ورجل سمع خيراً فحفظه ووعاه فانتفع به.

الْقَبِيحَةُ الْخَامِسَةُ: إِنَّهُمْ يُحِبُّونَ أَنْ يُحْمَدُوا بِمَا لَمْ يَفْعَلُوا

١٨٨ - ﴿لَا تَحْسَبَنَّ^(٢) الَّذِينَ يَفْرَحُونَ بِمَا آتَاوْا وَيُحِبُّونَ أَنْ يُحْمَدُوا بِمَا لَمْ يَفْعَلُوا فَلَا تَحْسَبَنَّهُمْ^(٢) بِمَقَارِقٍ مِنَ الْعَذَابِ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾

جاء في هذه الآية أن اليهود يفرحون بما يفعلون من القبائح، ويفرحون بما آتاهم الله،

(١) حديث حسن، أخرجه أحمد عن أبي هريرة في «المسند» (٢/٢٩٦) برقم (٢٧٥٧١، ٧٩٤٣) وابن ماجه عن أنس بن مالك (٢٦٤) برقم: (٢٦٦)، وصححه الألباني في صحيح سنن ابن ماجه (٢١٢) وفي مشكاة المصابيح (٢٢٣) والتعليق الرغيب (٧٣/١) والروض (١١٥٠) وهو عن أبي هريرة عند ابن ماجه (٢٦٦) وصحيح سنن ابن ماجه (٢١٣).

(٢) ، (٢) قرأ ابن كثير وأبو عمرو بياء الغيبة فيهما، وفتح الباء في الأولى وضمها في الثاني، أي: لا يحسبن الرسول الفرحين ناجين، وقرأ عاصم وحمزة والكسائي ويعقوب وخلف العاشر، بقاء الخطاب وفتح الياء فيهما، والمعنى: لا تحسبن الفرحين ناجين، لا تحسبنهم كذلك، وقرأ نافع وابن عامر وأبو جعفر بياء الغيبة في الأول وتاء الخطاب في الثاني، وفتح الباء فيهما، على إسناد الفعل الأول إلى (الذين) والثاني إلى المخاطب، وقرأ ابن عامر وعاصم وحمزة وأبو جعفر بفتح السين، والباقون بكسرهما، وهما لغتان.

فَرَحَ أَشْرَ وَبَطَرَ، وَيُحِبُّونَ أَنْ يُحْمَدُوا عَلَى مَا لَمْ يَفْعَلُوا مِنَ الْأَعْمَالِ الْحَسَنَةِ، وَأَنْ اللَّهَ تَعَالَى قَدْ تَوَعَّدَهُم بِالْعَذَابِ الْأَلِيمِ، فَشَأْنُهُمْ شَأْنٌ مِنْ يَلْبَسُ ثَوْبِي زُورٍ.

فلا تحسبن الذين يفرحون بما أتوا من القبائح وباطل القول والفعل، ويحبون أن يُحمدوا على الخير الذي لم يفعلوه، والحق الذي لم يقولوه، فجمعوا بين الفرح بفعل الشر وقوله، وبين محبة أن يُحمدوا على فعل الخير الذي لم يفعلوه، ومن ذلك اليهود الذين فرحوا بما عندهم من العلم، ولم يؤمنوا برسول الله، وزعموا أنهم محقون في ذلك، ويدخل في ذلك كل من ابتدع شيئاً في دين الله وفرح بها ودعا إليها، زعم أنه محق، فلا تظن أنهم بمنجاة من النار ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾.

وقد أشكل معنى هذه الآية على مروان بن الحكم فقال: لئن كان كل منا قد فرح بما أوتي، أي: بما أعطاه الله، ويحب أن يُحمد بما لم يفعل، إن كان هذا معذباً، لنعذب أجمعين، فكل منا يحب أن يُحمد بما لم يفعل.

وهذه ليست صفة المسلم، فالمسلم الحقيقي لا يلبس ثوب زور، كالمسؤول الذي يُسند إليه أنه فعل كذا، أو أعطى كذا، وهو لم يفعل شيئاً، فالمتشبع بما لم يعط كلابس ثوبي زور.

عن عائشة رضي الله عنها أن امرأة قالت: يا رسول الله، أقول: إن زوجي أعطاني ما لم يعطني، فقال ﷺ: «المتشبع بما لم يعط كلابس ثوبي زور»^(١).

وقد توعد الله سبحانه الذي يحب أن يحمده الناس ويشكروه على شيء لم يفعله ويفرح بذلك، بالعذاب الأليم.

ولا يدخل في الآية من لم يقصد بعمل الخير رياء وسمعة، فحمده الخلق، وأثنوا عليه، فإن هذا من عاجل ثوابه في الدنيا.

أَسْبَابُ النَّزُولِ

١- أخرج الطبري بسند صحيح عن مجاهد في معنى الآية قال: أي: فرحوا بإعجاب

(١) حديث صحيح أخرجه البخاري في كتاب النكاح: (٤٤/٧) برقم: (٥٢١٩) ومسلم في كتاب اللباس (١٦٨) برقم: (٢١٢٩) ومسند أحمد عن عائشة (١٦٧/٦) برقم: (٢٥٣٤٠) وعن أسماء بنت أبي بكر (٢٦٩٢١، ٢٦٩٢٩، ٢٦٩٧٧) وغيرهم.

الناس بتبديلهم الكتاب وحمدهم إياهم عليه، ولا تملك يهود ذلك.

وعن ابن عباس رضي الله عنه: هم علماء ليسوا بأهل علم، لم يحملوا الناس على خير ولا هدى، ويحبون أن يقول الناس: قد فعلوا^(١).

٢- وأرسل مروان إلى عبد الله بن عباس رضي الله عنه يسأله عن معنى الآية فقال: ما لكم وهذه؟ إنما نزلت في أهل الكتاب، ثم تلا الآية وقال: سألهم النبي ﷺ عن شيء فكتموه وأخبروا بغيره، فخرجوا وقد رأوا أن قد أخبروه بما سألهم عنه، واستحمدوه بذلك إليه، وفرحوا بما أتوا من كتمانهم ما سألهم عنه^(٢).

٣- وعن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه أن رجلاً من المنافقين على عهد رسول الله ﷺ كان إذا خرج رسول الله ﷺ إلى الغزو، وتخلفوا عنه، فرحوا بمقعدهم خلاف رسول الله، فإذا قدم اعتذروا إليه، وحلفوا، وأحبوا أن يحمدا بما لم يفعلوا، فنزلت: ﴿لَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَفْرَحُونَ بِمَا أَتَوْا وَيُحِبُّونَ أَنْ يُحْمَدُوا بِمَا لَمْ يَفْعَلُوا﴾^(٣).

٤- قال الضحاك: كتب يهود المدينة إلى يهود العراق واليمن، ومن بلغهم كتابهم من اليهود في الأرض كلها إن محمداً ليس نبي الله، فاثبتوا على دينكم، واجمعوا كلمتكم على الكفر بمحمد والقرآن، وفرحوا بذلك، وقالوا: الحمد لله الذي جمع كلمتنا ولم نفرق، ولم نترك ديننا، وقالوا: نحن أهل الصوم والصلاة، ونحن أولياء الله، فذلك قوله تعالى: ﴿يَفْرَحُونَ بِمَا أَتَوْا﴾ بما فعلوا ﴿وَيُحِبُّونَ أَنْ يُحْمَدُوا بِمَا لَمْ يَفْعَلُوا﴾ بما ذكروا من الصوم والصلاة والعبادة^(٤).

وسواء نزلت الآية في أهل الكتاب أو في المنافقين، فإن الآية عامة في كل من ينطبق عليه الوصف، كسائر الآيات التي لها سبب أو أكثر من سبب نزول.

(١) الطبري (٣٠٤/٦) وابن المنذر (١٢٥٦) وابن أبي حاتم (٤٦٣٨).

(٢) أخرجه البخاري في التفسير (٥١/٦) (٤٥٦٨) ومسلم: (٢٧٧٨) و«المستدرک» (٢٩٩/٢) وأخرجه أيضاً أحمد (٢٧١٢) والترمذي (٣٠١٤) والنسائي وابن أبي حاتم (٤٦٤٧) وابن خزيمة وابن مردويه.

(٣) أخرجه البخاري (١٧٥/٨) (٤٥٦٧) برقم: (٤٥٦٧) ومسلم (٢٧٧٧) وابن جرير (٣٠٠/٦) وابن المنذر

(١٢٥٧) وابن أبي حاتم (٤٦٤٦) والبيهقي في «الشعب» (٤٧٨٢).

(٤) «زاد المسير» (٥٢٣/١) والطبري (٣٠٢/٦).

وسياق الآيات يتعلق باليهود، وأن النبي ﷺ سألهم عن شيء فكتموه وأخبروه بغيره، فخرجوا وقد رأوا أنهم أخبروه بما سألهم، وأنهم قالوا له الحقيقة، وطلبوا من الرسول أن يشكرهم وأن يحمدهم على ذلك، أي يحمدهم على كتمان الحق فأنزل الله هذه الآية^(١).

وقد فرح اليهود والنصارى بكتمان صفة محمد ﷺ وفرحوا بالفساد والشرك، وبأنهم غيَّروا وبدَّلوا شريعة الله، ويحبون أن ينسب الناس إليهم أعمال الخير والصلاح وليسوا بفاعليه وليسوا من أهله ﴿فَلَا تَحْسَبَنَّاهُمْ بِمَفَازٍ مِّنَ الْعَذَابِ﴾ أي: ليسوا ناجين من عذاب الله ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ وعيدٌ من الله سبحانه لهم.

ومن مدحه الناس في الدنيا على عمله، من غير قصد منه، وهو مخلص في علمه، فإن هذا من عاجل ثوابه في الدنيا، ولا يذم عليه.

جاء عن الزهري عن محمد بن ثابت الأنصاري أن ثابت بن قيس الأنصاري قال: يا رسول الله، والله لقد خشيت أن أكون هلك، قال: «لِمَ؟» قال: نهى الله المرء أن يُحمد بما لم يفعل، وأجذني أحب الحمد، ونهى الله عن الخيلاء، وأجذني أحب الجمال، ونهى الله أن نرفع أصواتنا فوق صوتك، وأنا امرؤ جهورٍ الصوت. فقال رسول الله ﷺ: «ألا ترضى أن تعيش حميداً، وتُقتل شهيداً، وتدخل الجنة؟» قال: بلى، يا رسول الله، فعاش حميداً، وقتل شهيداً يوم مُسيلمَةَ الكذاب^(٢).

والمعنى: لا تظن الذين يفرحون بما أتوا من أفعال قبيحة كاليهود والمنافقين وغيرهم، ويحبون أن يثني عليهم الناس بما لم يفعلوا، فلا تظنهم ناجين من عذاب الله في الدنيا، ولهم في الآخرة عذاب موجه.

وفي الآية وعيد شديد لكل آت لفعل السوء معجب به، ولكل مفتخر بما لم يعمل ليثني الناس عليه ويحمدوه.

(١) يُنظَر النص في «المسند» (٢٩٨/١) برقم: (٢٧١٢)، عن ابن عباس وإسناده صحيح على شرط الشيخين وهو الحديث السابق عن ابن عباس.

(٢) رواه الطبراني في المعجم الأوسط برقم: (٤٢) والحاكم في «المستدرک» (٢٣٤/١) وابن حبان برقم: (٢٢٧٠) في الموارد والطبراني في «المعجم الكبير» (٦٧/٢) وعبد الرزاق في المصنف برقم: (٢٠٤٢٥) وابن مردويه، وهي طرق متعددة، وإسناده حسن.

الرَّدُّ عَلَى قَبَائِحِ الْيَهُودِ

١٨٩- ﴿وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾

ولله وحده ملك السموات والأرض وما فيهما وما بينهما، وهو المتصرف في الكون بكمال القدرة وبديع الصنعة، فلا يمتنع عليه أحد، ولا يعجزه شيء وهو سبحانه قادر على كل شيء، فكيف يكون مالكا للعالم العلوي والسفلي ويكون فقيرا؟ وهو الذي أرسل رسله وأيدهم بالآيات الباهرات، وهو الذي يرجع إليه العالم كله فيجازيهم على ما قدمت أيديهم، وهو الذي يتلى عباده ويعافيههم. وبهذا يختم الرد على قبائح اليهود، إنه سبحانه صاحب السلطان القاهر، يخلق ما يشاء ويختار، يحيي ويميت، يعذب ويثيب، لا يعجزه أمر، ولا يدفع عقابه شيء، فعليكم أن تطيعوه، فاحذروا غضبه وانتقامه.

دَلَالَةُ التَّوْحِيدِ فِي الْآيَاتِ الْعَشْرِ الْأَخِيرَةِ

١٩٠- ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ أَيْلٍ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِأُولِي الْأَلْبَابِ﴾

وبعد أن تعرضت السورة لأحوال المنافقين وأهل الكتاب، وكانت قد بدأت بأدلة التوحيد والنبوة، وقد ختمت أيضا بدلائل الوحدانية والقدرة، متمثلة في التفكير في خلق الله، والتدبر في صفحة الكون المفتوح، واتصال هذا الفكر بذكر الخالق سبحانه، للتوصل إلى بعض أسرار الله تعالى في هذا الكون.

وهذه هي الشحنة الإيمانية التي يُعِدُّ الله بها الجماعة المسلمة لمواجهة الأحداث الجسام، واستقبال السَّراء والضَّرَّاء، ومقاومة أهل الشرك والكفر والإلحاد في كل زمان ومكان.

وبيَّنت الآيات أن أول ثمرات هذا التفكير النفسي، هو ما ثبت لهم من أن هذه المخلوقات لم تُخلق باطلاً، وهذا يستدعي تنزيه الله والتسبيح بحمده. ﴿رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَطَلًا سُبْحَنَكَ﴾.

وينتج عن هذا التفكير أن يرى الإنسان من بين المخلوقات المطيع والعاصي فيعلم أن وراء هذا العالم ثواباً وعقاباً، فسألوا الله تعالى أن يقيهم عذاب النار، واستعاذوا بالله ممن حقت عليه كلمة العذاب، ﴿فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ﴾.

ثم توسلوا إلى الله تعالى بأنهم بذلوا غاية جهدهم في طلب النجاة؛ لأنهم استجابوا لمنايدي الإيمان وهو الرسول ﷺ فسألوا الله غفران الذنوب، وتكفير السيئات، والموت على البر والتقوى ﴿رَبَّنَا فَاعْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّئَاتِنَا وَتَوَفَّنَا مَعَ الْأَبْرَارِ﴾.

ولما نزلت هذه الآيات وشاعت بين الناس، اهتدى لهذا التفكير من لم يكن انتبه له من قبل، فنفعه الله به، ﴿فَاسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّي لَا أُضِيعُ عَمَلَ عَمِلٍ مِّنْكُمْ﴾.

وقد ورد في هذه الآيات أحاديث، منها ما جاء:

١- عن عبد الله بن عباس ؓ قال: أمرني العباس أن أبيت بآل رسول الله ﷺ وأحفظ صلاته، قال: فصلى رسول الله بالناس صلاة العشاء الآخرة، حتى إذا لم يبق بالمسجد أحد غيره، قام فمرّ بي، فقال: «من هذا؟ عبد الله؟» فقلت: نعم، قال: «فمه؟» قلت: أمرني العباس أن أبيت بكم الليلة، قال: «فالحق»، فلما أن دخل قال: «افرش، عبد الله!» فأتى بوسادة من مسوح، قال: فنام رسول الله ﷺ عليها حتى شُيع غطيته، ثم استوى على فراشه قاعدًا، قال: فرفع رأسه إلى السماء، فقال: «سبحان الملك القدوس» ثلاث مرات، ثم تلا الآيات العشر من آخر آل عمران حتى ختمها^(١).

٢- وعنه ؓ أن النبي ﷺ خرج ذات ليلة بعدما مضي ليل، فنظر إلى السماء وتلا هذه الآيات ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَكَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ حتى آخر السورة، ثم قال: «اللهم اجعل في قلبي نورًا، وفي سمعي نورًا، وفي بصري نورًا، وعن يميني نورًا، وعن شمالي نورًا، ومن بين يدي نورًا، ومن خلفي نورًا، ومن فوقي نورًا، ومن تحتي نورًا، وأعظم لي نورًا يوم القيامة»^(٢).

٣- وعن عطاء قال: انطلقت أنا وابن عمر، وعبيد بن عمير، إلى عائشة ؓ، فدخلنا عليها، وبيننا وبينها حجاب، فقالت: يا عبيد، ما يمنعك من زيارتنا؟ قال: قول الشاعر: زُرْ غَبًا تَزِدَّ حُبًّا، فقال ابن عمر: رضى الله عنهما، أخبرينا عن أعجب شيء رأيته من رسول الله ﷺ.

(١) «صحيح مسلم»، كتاب الصلاة: (١٨٠/٢) برقم: (٧٦٣) و«صحيح البخاري» (٧٦٣، ٦٣١٦) وأبو داود برقم: (١٣٥٣) والسنائي في «السنن» (٢٣٦/٣).

(٢) «صحيح مسلم» (١٨١/٢) برقم: (٧٦٣) و«صحيح البخاري» برقم: (٤٥٦٩).

فبكت، وقالت: كل أمره كان عجباً، أتاني في ليلتي حتى مسَّ جلده جلدي، ثم قال: «ذريني أتعبد لربي»، وفي هذا الوقت لا يوجد صلاة مفروضة، وإنما هي نافلة (صلاة التهجد).

- وكان هذا وقت عائشة وليلتها - وهو الوقت الذي يسكن فيه الإنسان إلى زوجه، ويرقد في فراشه، ويستتر، ويشعر بشهوة ولذة ومتعة، ولأن هذا من حق عائشة رضي الله عنها، فإن النبي صلى الله عليه وسلم أراد أن يُطِيب خاطرها، ويستأذنها في أن يترك فراشه، ويفارقها ليعبد ربه - (قالت) عائشة: في الرد على رسول الله صلى الله عليه وسلم: (والله إني لأحب قربك، وإني أحب أن تعبد ربك)؛ أحب أن أكون قريبة منك، وأحب ما تهوى، فقام إلى القربة فتوضأ، ولم يكثر صب الماء، وهذا شأن المؤمن: عدم الإسراف في الماء، لا يفتح الماء على آخره وإنما بمقدار يسير، فهو نعمة أنعم الله بها على الإنسان، لا ينبغي له أن يسرف فيها، وقد منع الإسلام أن يتوضأ المسلم أكثر من ثلاث مرات، وإن كان يتوضأ من نهر جارٍ، توضأ النبي صلى الله عليه وسلم ولم يكثر من صب الماء، قالت عائشة: ثم قام يصلي، فبكي حتى بلَّ لحيته، ثم سجد حتى بلَّ الأرض، ثم اضطجع على جنبه فبكي، حتى أتى بلالٌ يؤذنه بصلاة الصبح، قالت: فقال: يا رسول الله، ما يبكيك؟ وقد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر، فقال: «ويحك يا بلال، وما يمنعني أن أبكي، وقد أنزل الله عليَّ في هذه الليلة: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ إلى آخر الآيات العشر من سورة آل عمران، ثم قال صلى الله عليه وسلم: «ويل لمن قرأها ولم يتفكر»^(١).

٤- وكان النبي صلى الله عليه وسلم يكثر من قراءة هذه الآيات العشر في صلاة التهجد.

قال عبد الله بن عباس رضي الله عنه: بتَّ عند خالتي أم المؤمنين ميمونة، قال: فتحدث النبي صلى الله عليه وسلم إلى أهله ساعة، ثم رقد، فلما كان ثلث الليل الآخر، قعد فنظر إلى السماء، فقال:

(١) أخرجه ابن حبان كما في «موارد الظمآن» (١٣٩) و«إحسان» رقم: (٦٢٠) قال الشيخ مقبل الوادعي في تحقيقه لتفسير ابن كثير؛ فالحديث صحيح، وقد ذكرته بالمعنى وألفاظه ما بين القوسين، وهو في «الترغيب والترهيب» برقم: (٦٦٦) وعند أبي الشيخ في «أخلاق النبي» ص (١٦٠) بإسناد رجاله ثقات، وأخرجه ابن مردويه، وعبد بن حميد، وابن المنذر (١٢٦١) وابن أبي الدنيا، من طرق متعددة، قال محقق ابن حبان (٦٢٠): إسناده قوي على شرط مسلم، وقد حسنه الألباني في صحيح الترغيب والترهيب برقم (١٤٦٨).

يشرك به سواه .

قال عيسى عليه السلام: يا بن آدم الضعيف، اتق الله حيثما كنت، وكن في الدنيا ضعيفاً، واتخذ المساجد بيئات، وعلم عينيك البكاء، وجسدك الصبر، وقلبك الفكر، ولا تهتم برزق غد^(١).

إن في إيجاد هذا الكون وخلقه من العدم على غير مثال سابق، وفي تعاقب الليل والنهار، واختلافهما طولاً وقصرًا، لدلائل وبراهين عظيمة على وحدانية الله تعالى، لأصحاب العقول السليمة الذين يتأملون ما في العالم العلوي والسفلي من كواكب، وأفلاك وبحار وجبال وأشجار ونبات وزرع وثمار وحيوان ومعادن ومنافع مختلفة.

وفي هذا رد على اليهود الذين قالوا: إن الله فقير ونحن أغنياء؛ إذ كيف يكون رب العالمين فقيراً وله ملك السموات والأرض، وهو سبحانه خالق هذا الكون بعالمه العلوي والسفلي، ولكن الذي يتنفع بهذا هم أصحاب العقول، وأولو البصائر النيرة، ولذا خصهم الله تعالى بالذكر.

ذِكْرُ اللَّهِ تَعَالَى وَالتَّفَكُّيرُ فِي خَلْقِهِ

١٩١ - ﴿الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمٰوٰتِ وَالْأَرْضِ﴾

أهل البصائر النيرة هم الذين وصفهم الله سبحانه في هذه الآية بصفتين:

الصفة الأولى: أنهم الذين يذكرون الله قيامًا وقعودًا وعلى جُنُوبِهِمْ، وفي جميع أحوالهم في الصلاة وخارج الصلاة، وهذا يشمل جميع أنواع الذكر بالقلب والقول، ويدخل في ذلك الصلاة، وذكر الله سبحانه يكون بالتسبيح والتحميد والتهليل والتكبير، ويكون بالاستغفار من الذنوب، ويكون بتلاوة القرآن، ويكون بالتفكير في خلق الله وغير ذلك.

ففي الحديث عن أبي موسى رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «مثل الذي يذكر ربه والذي لا يذكر ربه مثل الحي والميت»^(٢).

وهكذا فالذي يذكر الله مثله مثل الحي والذي لا يذكر الله مثله مثل الميت.

(١) تفسير ابن كثير (٢/ ١٨٥).

(٢) حديث صحيح أخرجه البخاري عن أبي موسى (٦٤٠٧) ومسلم (٧٧٩) بلفظ مختلف.

وفي الحديث عن أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «سبق المفردون يوم القيامة والمفردون هم الذاكرون الله كثيرًا والذاكرات»^(١).

وذكر الله تعالى يصون العبد المحافظ على صلاته وعلى ذكر ربه من ارتكاب الفواحش والذنوب كما قال تعالى: ﴿إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ﴾ [العنكبوت: ٤٥]. فهم الذين يذكرون الله سبحانه في جميع أوقاتهم، وفي جميع أحوالهم، بالليل والنهار، وهم قيام، وهم قعود، وهم مضطجعون، وهم مستلقون، وغير ذلك.

ومن رحمة الله تعالى بعباده أنه جلَّ شأنه يَسَّرَ لمن لم يستطع أن يصلي قائمًا أن يصلي على أية كيفية استطاع، ما دام لم يفقد عقله.

كما جاء في الحديث عن عمران بن حصين رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «صلَّ قائمًا فإن لم تستطع فقاعدًا فإن لم تستطع فعلى جنب - وفي رواية - فمستلقيًا»^(٢) أو يومئ إيماء إلى الصلاة، وذلك لرفع الحرج والتيسير على المسلمين.

وقد سأل عمران بن حصين رسول الله ﷺ عن الرجل يصلي وهو قاعد، قال: «من صلى قائمًا فهو أفضل، ومن صلى قاعدًا فله نصف أجر القائم، ومن صلى نائمًا فله نصف أجر القاعد»^(٣).

هؤلاء هم الذين يذكرون الله في جميع أوقاتهم وفي سررائهم وضرائهم، كما في حديث عائشة رضي الله عنها أن النبي ﷺ كان يذكر الله في كل أحيانه^(٤).

والصفة الثانية: أنهم يتفكرون ويتدبرون في خلق السموات والأرض، ليستدلوا بها على خالقها، فالتفكر من صفات أولياء الله العارفين، فإذا تفكروا عرفوا أن الله تعالى لم يخلق

(١) ينظر: صحيح مسلم عن أبي هريرة برقم (٢٦٧٦) وبنحوه في «المسند» (٨٢٩٠، ٩٣٣٢).

(٢) أخرجه البخاري عن عمران بن حصين، وكانت به بواسير، فسأل عن الصلاة، كتاب الصلاة (٢/ ٦٠) وهو برقم: (١١١٥).

(٣) «صحيح البخاري» برقم: (١١١٦).

(٤) «المسند» برقم: (٢٤٤١٠، ٢٥٢٠٠، ٢٦٣٧٦)، إسناده صحيح ورجاله ثقات، وأخرجه مسلم (٣٧٣).

وأبو داود (١٨) والترمذي (٣٣٨٤).

هذا الكون عبثاً، فيقولون: ﴿رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَطْلًا سُبْحَنَكَ﴾ جل جلالك، وتنزهت صفاتك، فقد خلقت هذا الكون بالحق، لحكمة جليلة، كي يعرف الخلق ربهم فيعبدوه، ونسألك يا الله أن تعصمنا من السيئات، وتوفقنا للأعمال الصالحات، كي ننجو من النيران ونفوز بالجنات.

والتفكر في هذا الكون من صميم العبادة، وقد أمرنا أن نتفكر في مخلوقات الله، وفي صنع الله؛ لتتوصل عن طريق ذلك لمعرفة الله سبحانه، ونُهينا عن التفكير في ذات الله جل شأنه؛ لأن ذلك لا يوصل المؤمن إلى شيء.

وأصل الفكر: أعمال الخاطر وتردد القلب في الشيء طلباً للخشية وإذهاباً للغفلة: «تفكروا في آلاء الله، ولا تفكروا في ذاته فتهلكوا»^(١).

يقول الحسن البصري: تفكر ساعة خير من قيام ليلة.

حكى أن رجلاً من بني إسرائيل كان يعبد الله تعالى ثلاثين عاماً، فأظلمت سحابة، أخذت تلازمه ثم فارقت، فتأمل في نفسه، لماذا فارقت هذه السحابة؟ وذكر ذلك لأمه، فقالت له: لعلك نظرت إلى السماء مرة ولم تعتبر، قال: لعل، أي: أن عدم التفكير ذنب.

وورد عن رسول الله ﷺ أن رجلاً كان مستلقياً في فراشه، فنظر إلى النجوم، ونظر إلى السماء، وقال: أشهد أن لك رباً وخالقاً، اللهم اغفر لي، فنظر الله إليه وغفر له.

فالتفكر في خلق الله، وفي عجب صنع الله، من أعظم أنواع العبادة، وهو يوصل المرء إلى توحيد الله جل شأنه، وقد دعا القرآن إلى النظر والتأمل في ملكوت الله في آيات كثيرة، منها قوله تعالى: ﴿قُلْ أَنْظَرُوا مَاذَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ [يونس: ١٠١].

وقوله: ﴿أَفَلَمْ يَنْظُرُوا إِلَى السَّمَاءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَاهَا وَزَيَّنَّاهَا وَمَا لَهَا مِنْ فُرُوجٍ﴾ (١) وَالْأَرْضَ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ﴾ [ق: ٦، ٧].

وقوله سبحانه: ﴿فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ إِلَى طَعَامِهِ﴾ (٢) أَنَا صَبَّأُ الْمَاءَ صَبًّا (٣) ثُمَّ شَقَقْنَا الْأَرْضَ شَقًّا (٤)

(١) حديث ضعيف كما قال السيوطي في الجامع الصغير (٣٣٤٨) وهو بالفاظ متقاربة عن ابن عمر عند الطبراني في الأوسط، والبيهقي في الشعب، وابن عدي في الكامل، وقد حسنه الألباني في السلسلة الصحيحة.

فَأَلْبَسْنَا فِيهَا حَبًّا ﴿٢٧﴾ وَعَنْبًا وَقَضْبًا ﴿٢٨﴾ وَزَيْتُونًا وَنَخْلًا ﴿٢٩﴾ وَحَدَائِقَ غُلْبًا ﴿٣٠﴾ وَفِكْهَةً وَأَبَا ﴿٣١﴾ مَنَعًا لَّكُمْ وَلَا نَعْمِيكُمْ ﴿[عبس]﴾.

وقوله جل شأنه: ﴿فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ مِمَّ خُلِقَ ﴿٥﴾ خُلِقَ مِنْ مَّاءٍ دَافِقٍ ﴿٦﴾ يَخْرُجُ مِنْ بَيْنِ الصُّلْبِ وَالتَّرَائِبِ ﴿[الطارق: ٥ - ٧]﴾.

وقوله ﷻ: ﴿وَفِي أَنْفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٢١﴾﴾ [الذاريات: ٢١].

وقوله أيضاً: ﴿سَرُّيْهِمْ ءَايَتُنَا فِي الْأَفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ ﴿٥٣﴾﴾ [فصلت: ٥٣].

خَمْسَةُ نِدَاءَاتٍ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ لِرَبِّهِمْ

ثم ذكرت الآيات خمسة نداءات يتوسل فيها العباد إلى ربهم بأعمالهم الصالحة أن يبعدهم عن النار، وألا يخزهم يوم القيامة، وأن يدخلهم الجنة مع عباد الله الأبرار:

النِّدَاءُ الْأَوَّلُ: ﴿رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَطْلًا سُبْحَنَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ ﴿١﴾﴾.

إن الذين يتفكرون في خلق السموات والأرض فيهتدون إلى الفطرة وإلى التوحيد والعقيدة الصحيحة يقولون: ربنا ما خلقت هذا الكون بما فيه ومن فيه باطلاً ولا خلقتة عبثاً، ما خلقتة بغير هدف، ولا لغير غاية، إنما خلقتة لحكمة وهدف وغاية، فأنت منزّه عن العبث

﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لِعَيْنٍ ﴿٣٨﴾﴾ [الدخان: ٣٨]

﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَطْلًا ذَلِكَ ظَنُّ الَّذِينَ كَفَرُوا قَوْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنَ النَّارِ ﴿٢٧﴾﴾ [ص]

فقد خلقت خلقك للعبادة، ومن ثم للحساب والجزاء، فاصرف عنا عذاب النار.

النِّدَاءُ الثَّانِي:

١٩٢- ﴿رَبَّنَا إِنَّكَ مَنْ تُدْخِلِ النَّارَ فَقَدْ أَخْزَيْتَهُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ ﴿١٩٢﴾﴾

فهذه الدنيا نعمل فيها ونسعى ونجد، وكلٌّ ميسرٌ لما خلق له؛ فأهل الخير وأهل الشر قد أبان لهم الله جميعاً الطريق، وأرسل إليهم الرسل، وأنزل عليهم الكتب، ثم إنهم لا يتركون هكذا بلا حساب، وإنما يحاسبون ويجازون يوم القيامة على ما قدمته أيديهم، ولذلك فإن الذي أفلح ونجا هو الذي يزحزح عن النار يوم القيامة ﴿فَمَنْ زُحْزِحَ عَنِ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ ﴿[آل عمران: ١٨٥]﴾. والزحزحة عن النار هي الدرجة الدنيا من

النَّجَاةَ، وهي تساوي الذي نجح في الامتحان بأضعف الدرجات، أي: بخمسين في المئة، مجرد نجاح، مجرد زحزحة عن النار، فضلاً عن درجات القرب والتسابق والتفوق.

فيا ربَّ إن مَنْ تدخله النار قد أهنته وأذلتته وفضحته بدخوله فيها وتعذيبه بها.

فالعاصي من المؤمنين يدخل النار؛ ليظهر من ذنوبه، وينطبق عليه الخزي وهو في النار؛ لأنه يدخلها بصفة مؤقتة، ويكون ممن أهين لحظة وجوده في النار، جزاءً وفاقاً لما اكتسب، ثم يخرج إلى الجنة.

وأما الكافر فإنه يخلد في النار، وخزيه دائم، وهذا هو الخزي الحقيقي المنفي عن المؤمنين في قوله تعالى: ﴿يَوْمَ لَا يُخْزِي اللَّهُ النَّبِيَّ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَهُ﴾ [التحریم: ٨]

ثم قال تعالى: ﴿وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ﴾ أي ليس: لهم ما يمنعهم من عذاب الله، ولا ينقذهم منه، وليس لهم ولي ولا ناصر، ولا شفيع، يحول بينهم وبين عقاب الله تعالى لهم يوم القيامة، فهم قد استحقوه بظلمهم.

ومن ذلك دعاء إبراهيم عليه السلام في قوله: ﴿وَلَا تُخْزِنِي يَوْمَ يُبْعَثُونَ﴾ [الشعراء: ٨٧] لأن دخول النار خزي ومذلة على رؤوس الأشهاد، وفيه قهر للمعذب وإهانة علنية.

الدَّاءُ الثَّالِثُ:

١٩٣- ﴿رَبَّنَا إِنَّا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِي لِلْإِيمَانِ أَنْ ءَامِنُوا بِرَبِّكُمْ فَءَامَنَّا﴾

يدعو المسلم ربّه أنه سمع داعياً يدعو إلى الله، هو محمد ﷺ يرغب الناس في أصول هذا الدين وفروعه ومحاسنه، سمع ذلك مَنْ عاصروا الرسول، وسمعنا نحن هذا الدعاء في هذا الكتاب الذي نزل على خير البشر ﷺ ينادي للتصديق بك، والإقرار بوحدانيتك، والعمل بشرعك، فأجبنا دعوتك وصدقناك، وأسرعنا إلى العمل بشرعك ونحن نتوسل إليك يا ربنا بإيماننا بك وامتنال أمرك واجتناب نهيك أن تغفر ذنوبنا، وتكفر سيئاتنا، وتستر عيوبنا، فإن الحسنات يذهبن السيئات.

وكما أجاب الإنس ربهم في هذه الآية، فإن الجن أجابوا ربهم فأحسنوا الإجابة حين قالوا:

﴿إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا ۖ يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ فَءَامَنَّا بِهِ ۖ وَلَنْ نُشْرِكَ بِرَبِّنَا أَحَدًا﴾ [الجن: ١، ٢].

النِّدَاءُ الرَّابِعُ

﴿رَبَّنَا فَاعْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّئَاتِنَا وَتَوَقَّنَا مَعَ الْأَبْرَارِ﴾

نسألك يا الله بعد أن آمنا بنبيك واستجبنا للحق الذي جاء به أن تغفر لنا ذنوبنا وأن تكفر عنا سيئاتنا من الذنوب والكبائر، والسيئات هي الذنوب الصغائر كما قال تعالى: ﴿إِنْ تَحْتَسِبُوا كِبَائِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ تُكْفِرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ﴾ [النساء: ٣١]. والتكفير: هو الستر والتغطية، وغفران الذنوب: محوها وسترها، فالحقنا واحشرنا يا ربنا ﴿مَعَ الْأَبْرَارِ﴾ الصالحين من عباد الله، الذين بروا في دينهم، وبروا بربهم، وبروا بأبائهم، وبروا بأبنائهم، وقد سألوا ربهم ثلاثة مطالب هي: غفران الذنوب، وتكفير السيئات، والوفاء مع عباد الله الأخيار، وهذا يدل على صدقهم في إيمانهم.

النِّدَاءُ الْخَامِسُ

١٩٤- ﴿رَبَّنَا وَءَاثِمْنَا مَا وَعَدْنَا عَلَى رُسُلِكَ وَلَا تُخْزِنَا يَوْمَ الْقِيَمَةِ إِنَّكَ لَا تُخْلِفُ الْمِيعَادَ﴾

يسأل العبد ربه بما أتم عليه من نعمة الإيمان، ووفقه للدخول في ساحة الرحمة، أن يدخله الجنة، وأن يعطيه في الدنيا حسنة وفي الآخرة حسنة، وأن يَمُنَّ عليه بما وعده به على السنة رسله من دخول الجنة والنجاة من النار، والفوز برضوان الله.

وقد وعد الله المؤمنين على لسان رسله أن ينصرهم في الدنيا على عدوهم إن هم نصرُوا دين الله سبحانه، وأن يثبت أقدامهم، وأن يمكن لهم في الأرض، ووعدهم الجنة في الآخرة وألا يفضحهم على رؤوس الأشهاد كما سألوه في قولهم: ﴿وَلَا تُخْزِنَا يَوْمَ الْقِيَمَةِ إِنَّكَ لَا تُخْلِفُ الْمِيعَادَ﴾ هذه خمس نداءات بلفظ ﴿رَبَّنَا﴾.

قال جعفر الصادق عليه السلام: من حَزَبَهُ أمرٌ فقال خمس مرات: ربنا، أنجاه الله مما يخاف، وأعطاه ما أراد، وقرأ الآية، أي: أن من وقع في ضيق وفي كربة، ثم دعا ربه بقوله: ربنا خمس مرات كما جاء في هذه الآيات؛ فإن الله سبحانه يفرج عنه كربه، ويزيل عنه همه، ويعطيه ما طلب.

هذا: ويستفيد المسلم من هذه النداءات الخمس، كيف يدعو ربه، فيتوسل إليه أولاً

بعمله الصالح، كما جاء في الآيات ﴿رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَطْلًا﴾ ثم يسأل ربه ﴿فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ﴾ وهكذا ﴿رَبَّنَا إِنَّا سَمِعْنَا﴾ يتوسل إلى الله بإيمانه، ثم يطلب ﴿رَبَّنَا فَاعْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا﴾ الآية:

إِجَابَةُ اللَّهِ لِعِبَادِهِ ذُكُورًا وَإِنَاثًا

١٩٥- ﴿فَاسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّي لَا أُضِيعُ عَمَلَ عَمِلٍ مِّنْكُمْ مِّنْ ذَكَرٍ أَوْ أَنُثِّي بَعْضُكُمْ مِّنْ بَعْضٍ فَأَلَّيْنِ هَاجِرُوا وَأُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَأُودُوا فِي سَبِيلِي وَقُتِلُوا وَقُتِلُوا^(١) لَا كُفْرَنَ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلَا دُخِلَتْهُمْ جَنَّتِ بَحْرِي مِنْ تَحْتِهَا أَلَّا نَهْتَرُ ثَوَابًا مِّنْ عِنْدِ اللَّهِ وَاللَّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الثَّوَابِ ﴿١٩٥﴾﴾

وهكذا أجاب الله دعاء عباده، ووعدهم أنه لا يضيع أجر عامل منهم من ذكر أو أنثى، فالكل يلقي ثواب عمله كاملاً موفوراً، وكلهم على حد سواء في الثواب والعقاب، فكل من آمن وعمل صالحاً فإن الله تعالى يعطيه الثواب الجزيل على العمل القليل، وما عند الله تعالى يُطلب بطاعته والتقرب إليه:

قالت أم المؤمنين أم سلمة رضي الله عنها لرسول الله ﷺ: لا أسمع ذكر النساء في الهجرة بشيء^(٢).

أي: أنهن لسن مشاركات للرجال في الأجر، فأنزل الله سبحانه ﴿فَاسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ﴾.

وأنزل أيضاً في إجابة الأبرار وهم ﴿أُولُوا الْأَلْبَابِ﴾ الذين دَعَوْا ربهم بما جاء في النداءات الخمس السابقة حيث بشر الله هؤلاء الأخيار برضاه عنهم وإجابة دعائهم ذكوراً وإناثاً، سواء بسواء، كلكم لآدم، وآدم من تراب، الرجل من المرأة، والمرأة من الرجل، وكلكم وليّ وناصر للآخر، فأنتم إخوة في الدين، وإخوة في النسب لآدم، وكلكم سواء في قبول العمل الصالح والجزاء عليه، وسواء في التكليف، والعبادة، لا فرق بين المرأة والرجل ﴿أَنِّي لَا أُضِيعُ عَمَلَ عَمِلٍ مِّنْكُمْ مِّنْ ذَكَرٍ أَوْ أَنُثِّي بَعْضُكُمْ مِّنْ بَعْضٍ﴾.

(١) قرأ حمزة والكسائي وخلف العاشر (وقتلوا وقتلوا) بتقديم القتل على القتال، وهذا نص فيمن يقتلون أنفسهم بين صفوف العدو، فهم يقتلون أنفسهم ويقاتلون عيودهم في سبيل الله، وباقي القراء عكس هذه القراءة (وقاتلوا وقتلوا) وشدد ابن كثير وابن عامر التاء من (وقتلوا) على التثنية وخففها الباقون.

(٢) الطبري (١٩٥/٧) والحاكم وصححه (٣٠٠/٢) ووافقه الذهبي وسعيد بن منصور برقم: (٥٥٢) و«تفسير عبد الرزاق» (١/١٤٤).

وقد جعل الله للرجل القوامة على المرأة، وجعل له ضعف ما لها في الميراث؛ لأنه يُعول المرأة والأبناء، وجعل شهادته تُعَدُّ شهادة امرأتين؛ لأن المرأة يحدث لها تغيرات نفسية بسبب الحيض وعند سنِّ اليأس، وتجهل غالبًا أكثر من الرجل، وعاطفتها أشد، وهي تؤثر فيها، وهي تنسى أكثر من الرجل.

﴿فَالَّذِينَ هَاجَرُوا﴾ ذكورًا وإناثًا، فجمعوا بين الإيمان والهجرة، ومفارقة الأحباب والأوطان والأموال، سواء أكانت الهجرة في وقت النبي ﷺ، أم في زماننا، أم غيره، فكل من انطبق عليه الوصف، ممن اضطرَّه في بلده، ولم يتمكن من العبادة فيه؛ لعدم وجود مساجد مفتوحة مثلاً، أو لقي الأذى الشديد بسبب الطاعة، ففارقوا الأهل والأحباب ﴿وَأُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ﴾ وأموالهم فتركوا أوطانهم وفرَّوا بدينهم ﴿وَأُودُوا فِي سَبِيلِ وَقَاتِلُوا وَقُتِلُوا﴾ جاهدوا واستشهدوا في سبيل الله لإعلاء كلمته ﴿لَا كُفْرَ عَنْهُمْ سِقَاتِهِمْ﴾ فاستترها عليهم في الآخرة، كما سترتها عليهم في الدنيا، ولا أحاسبهم عليها ﴿وَلَا دُخْلَهُمْ جَنَّتِ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾ أي من تحت قصورها وأشجارها: أنهار اللبن، وأنهار العسل، وأنهار الخمر، وأنهار الماء الذي لم يتغير، مكافأة وثوابًا من الله تعالى، فضلًا وكرمًا منه سبحانه، والله عنده حسن الثواب.

قال رجل للنبي ﷺ: يا رسول الله، أرأيت إن قُتِلْتُ في سبيل الله صابرًا محتسبًا مقبلًا غير مدبر أيكفر الله عني خطاياي؟ قال: «نعم»، ثم قال: «كيف قلت؟» فأعاد عليه ما قال، فقال: «إلا الدين، قاله لي جبريل أنفًا»^(١).

أي: يكفر الله عنك خطاياك إن قُتِلْتَ مجاهدًا صابرًا محتسبًا مقبلًا غير مدبر (إلا الدين) فإن حق العباد لا يغفر إلا بالوفاء به أو الاستحلال منه، هكذا قال جبريل للنبي ﷺ.

وعن عبد الله بن عمرو بن العاص ؓ قال: لقد سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إن أول ثلَّة تدخل الجنة، لفقراء المهاجرين الذين تَتَقَى بهم المكاره، إذا أُمرُوا سمعوا وأطاعوا، وإن كان لرجل منهم حاجة إلى السلطان، لم تُقَضَّ حتى يموت وهي في

(١) «صحيح مسلم»، كتاب الإمارة (٣٧/٦) عن أبي قتادة برقم: (١٨٨٥) والترمذي (١٧١٢) و«المسند» (٢٢٥٤٢) وابن حبان (٤٦٥٤) و«سنن النسائي الكبرى» (٤٣٥٠) وعن أبي هريرة في «المسند» (٨٠٧٥) و«سنن النسائي الكبرى» (٤٣٤٨).

صدره، وإن الله يدعو يوم القيامة الجنة، فتأتي بزخرفها وزينتها، فيقول: أي عبادي الذين قاتلوا في سبيلي، وقُتلوا، وأوذوا في سبيلي، وجاهدوا في سبيلي، ادخلوا الجنة، فدخلونها بغير عذاب ولا حساب، وتأتي الملائكة، فيسجدون، ويقولون: ربنا نحن نسبح الليل والنهار، ونقدس لك، من هؤلاء الذين آثرتهم علينا؟ فيقول الرب جل ثناؤه: هؤلاء عبادي الذين قاتلوا في سبيلي، وأوذوا في سبيلي، فتدخل الملائكة عليهم من كل باب ﴿سَلِّمُ عَلَيْكُمْ بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ﴾ (٢٤) (الرعد: ٣٤).

وفي الأثر عن شداد بن أوس قال: أيها الناس، لا تتهموا الله في قضائه، فإنه لا يبغي على مؤمن، فإذا نزل بأحدكم شيء مما يحب، فليحمد الله، وإذا نزل به شيء مما يكره، فليصبر وليحتسب؛ فإن الله عنده حسن الثواب (٢).

الْمُؤْمِنُ لَا يَغْتَرُّ بِمَتَاعِ الْكَافِرِ

١٩٧، ١٩٦ - ﴿لَا يَغُرَّنَّكَ﴾ (٣) تَقَلُّبُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي الْإِلَادِ ﴿١٩٦﴾ مَتَّعُ قَلِيلٌ ثُمَّ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَيُسَّ إِلَهَادُ﴾

وبعد أن بين القرآن، المنهج الرباني للمجتمع المسلم، المتمثل في التوجه إلى الله تعالى، والإكثار من ذكره سبحانه، والتدبر والتأمل في ملكوت الله، لقوة اليقين وثبات العقيدة، بعد ذلك عرج ﷺ على فتنة المال والمتاع المتاحة للكفار والعصاة؛ لئلا يُفتن بها المؤمن ويغتر؛ لأن ما أعده الله له في الآخرة خير وأبقى، فقد كان المشركون في رخاء ولين من العيش يتجرون ويتنعمون، فقال بعض المؤمنين: أعداء الله فيما نرى من الخير، ونحن في الجوع والجهد، فأنزل الله تعالى ﴿لَا يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي الْإِلَادِ﴾ (١٩٦) (٤) وهذا كقوله تعالى: ﴿أَفَمَنْ وَعَدْنَاهُ وَعْدًا حَسَنًا فَهُوَ لَاقِيهِ كَمَنْ مَنَعْنَاهُ مَتَاعَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ هُوَ يَوْمَ الْقِيَمَةِ مِنَ الْمُحْضَرِينَ﴾ (٦١) [القصص].

- (١) رواه الحاكم في «المستدرک» وصححه ووافقه الذهبي (٧١/٢) وأحمد في «المسند» (١٠٣/١٠) وهو حديث صحيح برقم: (٦٥٧١) والبخاري ورجالهم ثقات، والطبراني، قال الهيثمي في المجمع: (٢٥٩/١٠) ورجال الطبراني رجال الصحيح غير أبي عسانة وهو ثقة والبيهقي في الشعب (٤٢٥٩)
- (٢) هو موقوف على شداد في الأصح، وقد أورده ابن أبي حاتم.
- (٣) قرأ رويس (لا يغرنك) بسكون النون مخففة وهي نون توكيد خفيفة، وقرأ الباقر بفتح النون مشددة.
- (٤) «زاد المسير» (٥٣١/١)

لقد كان المسلمون ولا يزال بعضهم في فقر وشدة وبلاء، والكفار ينعمون برغد في العيش وسعة في الرزق.

والله سبحانه يسلي المسلمين ويواسيهم ويصبرهم ويبين لهم الحكمة والعلة في ذلك، فلا تظن أن إغداق الله وتوسعته على الكفار هو بمقتضى رضى الله عنهم، وإنما الله سبحانه قد سخط عليهم فأعطاهم حظهم في الدنيا كاملاً، وللمؤمنين الجزاء الأوفى يوم القيامة.

فلا تغتر - أيها المسلم - بكثرة متاع الكافر، وبسعة رزقه وكثرة ماله، قال تعالى: ﴿فَلَا يَغْرُرُكَ تَقَلُّبُهُمْ فِي الْأَلْبَدِ﴾ [غافر: ٤]. وقال سبحانه: ﴿مَتَّعَ فِي الدُّنْيَا ثَمَرَ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ نُذِيقُهُمُ الْعَذَابَ الشَّدِيدَ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ﴾ (٧) [يونس]. وقال أيضاً: ﴿فَهَلِ الْكَافِرِينَ أَهْلُهُمْ رُؤُوسًا﴾ (٧) [الطارق].

لا تغتر بتجارتههم وبأرباحهم وسعة أرزاقهم، وأنواع العز والغلبة في بعض الأوقات، فعماً قليل يزول هذا كله، ويضبحون مرتين بأعمالهم السيئة ﴿نَمَتُّهُمْ قَلِيلًا ثُمَّ نَضْطَرُّهُمْ إِلَىٰ عَذَابٍ غَلِيظٍ﴾ (٢٤) [لقمان] ﴿مَتَّعَ قَلِيلًا﴾ في الدنيا ليس له ثبوت ولا بقاء، بل يتمتعون قليلاً ﴿ثُمَّ مَا وَهُمْ إِلَّا فِي سَكَنٍ﴾ مستقرهم ومسكنهم ﴿جَهَنَّمَ﴾ يعذبون فيها ﴿وَبِئْسَ الْيِهَادُ﴾ الفراش والمصير إلى النار.

مَا أَعَدَّ اللَّهُ لِلْمُتَّقِينَ مِنْ رِضْوَانٍ

١٩٨ - ﴿لَكِنَّ﴾ (١) الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا نُزُلًا مِّنْ عِندِ اللَّهِ وَمَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ لِلْأَبْرَارِ﴾ (١٩٨)

وإذا كان هذا هو شأن الكافرين، فما شأن المتقين؟ دخل عمر على رسول الله ﷺ وقد أثر الحصر في جنبه من النوم، ووسادة من ليف تحت رأسه، فبكى عمر ﷺ، قال له النبي ﷺ: «ما يبكيك؟» قال: يا رسول الله، كسرى وقيصر فيما هم فيه، وأنت رسول الله، فقال ﷺ: «أما ترضى أن تكون لهم الدنيا ولنا الآخرة؟» (٢).

(١) قرأ أبو جعفر بتشديد نون (لكن) مع فتحها، وقرأ الباقر بنون ساكنة مخففة مع تحريكها وصلاً بالكسر تخلصاً من التقاء الساكنين.

(٢) يُنْظَرُ الحديث في الصحيحين، البخاري (٨٩، ٤٩١٣) ومسلم (١٤٧٩).

﴿لَكِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ﴾ استدراك لمن خاف ربه، وامثل أمره واجتنب نهيه، فقد أعد الله جنات تجري من تحت أشجارها وقصورها الأنهار، ومنزلة دائمة عند الله في مقعد صدق عند مليك مقتدر ﴿نُزُلًا مِّنْ عِنْدِ اللَّهِ﴾ حُسن منزلة ومكانة وإكرام مكافأة لهم على طاعتهم ﴿وَمَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ لِّلْأَبْرَارِ﴾ خير لأهل الطاعة مما يتقلب فيه الكافر في الدنيا. من نعيم قال تعالى: ﴿إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ﴾ [الأنطار].

وقال سبحانه: ﴿إِنَّ الْأَبْرَارَ يَشْرُونَ مِن كَأْسٍ كَانَ مِزَاجُهَا كَافُورًا﴾ [الإنسان].

ولو أن المؤمن كان - وهو في الدنيا - في بؤس وشقاء، وشدة وعناء، لكان هذا بالنسبة إلى نعيم الجنة وسرورها وبهجتها، شيء يسير، ومنحة في صورة محنة، ولهذا قال تعالى ﴿وَمَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ لِّلْأَبْرَارِ﴾ وهم الذين برت قلوبهم وأقوالهم، وأفعالهم، فأتاهم البر الرحيم، من بره أجرا عظيما، وعطاء جسيما.

قَوْمٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ يُوْتُونَ أَجْرَهُمْ مَّرَّتَيْنِ

١٩٩ - ﴿وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَمَن يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْهِمْ خَشَعِينَ لِلَّهِ لَا يَشْتُرُونَ بِعَايَتِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا أُولَٰئِكَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾

بين سبحانه أن من أهل الكتاب طائفة موفقة للخير، يؤمنون بالله ورسله وكتبه، يخشعون لجلاله ويخضعون لعظمته، لا يكتمون ما أنزل الله في كتبهم من صفات محمد ﷺ، ولا يرتشون، ولا يبيعون أخراهم بدنياههم، وهؤلاء يثيبهم الله على إيمانهم بموسى وعيسى عليهما السلام ويثيبهم مرة أخرى على إيمانهم بمحمد ﷺ وما وعدهم الله به سوف ينالوه في وقت قريب هو يوم الحساب، فلا يستبطئوه، فهو آت لا محالة.

هذا: ولما مات النجاشي نعاء جبريل إلى النبي ﷺ في اليوم الذي مات فيه، فطلب من أصحابه أن يُصلُّوا عليه، فخرج إلى البقيع وصلى عليه، فكبر أربع تكبيرات، واستغفر له.

ولما صلى النبي ﷺ على النجاشي، قال بعض المنافقين: يصلي على علج حبشي نصراني، مات في غير أرضه، وقد ثبت في الحديث أن جعفر بن أبي طالب لما قرأ سورة مريم على النجاشي ملك الحبشة وعنده البطارقة والتساوسة بكى، وبكوا معه حتى

أخضلوا لحاهم^(١).

وكان جبريل قد نعى النجاشي لرسول الله ﷺ في اليوم الذي مات فيه، وكشف له من المدينة إلى الحبشة فأبصر سرير النجاشي وهو يصلي عليه^(٢).

وصلاة الغائب تكون في مثل هذه الحالة على الحاكم المسلم الذي لم يُصلَّ عليه في مكانه وتكون أيضًا على العالم العامل بعلمه، وعلى المسلم الذي مات بأرض الكفار ولم يُصلَّ عليه فيها، فإنه يصلي عليه في بلاد المسلمين، قياسًا على صلاة النبي ﷺ على النجاشي، وفي غير ذلك لا تُشرع صلاة الغائب عليه.

فأنزل الله سبحانه هذه الآية في النجاشي وفي عبد الله بن سلام، وغيرهما من كل من دخل في الإسلام من أهل الكتاب.

وهذا استثناء من الكفار الذين قال الله عنهم ﴿لَا يَغُرُّكَ تَقَلُّبُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي الْبِلَادِ﴾ (١٦٦) ﴿وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ﴾ اليهود والنصارى ﴿لَمَنْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ﴾ من القرآن والرسول ﴿وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِمْ﴾؛ لأنهم آمنوا بيسى قبل محمد، أو بموسى قبل عيسى، أو آمنوا بمحمد وبيسى قبله بالنسبة لليهود.

فإن آمنوا بالرسول الخاتم بعد إيمانهم بمن قبله من الرسل، فإن الله يعطيهم أجرهم مرتين ﴿أُولَئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُمْ مَرَّتَيْنِ﴾ [القصص: ٥٤]. لإيمانهم بالرسول الأول، ثم لما عاصروا الرسول الثاني وأدركوه آمنوا به أيضًا، فضاعف الله أجرهم لذلك.

سئل الحسن البصري عن هذه الآية فقال: هم أهل الكتاب الذين كانوا قبل محمد ﷺ فاتبعوه، وعرفوا الإسلام، فأعطاهم الله تعالى أجر اثنين: للذي كانوا عليه من الإيمان قبل محمد ﷺ وبالذي اتبعوا محمدًا ﷺ^(٣).

قال تعالى: ﴿الَّذِينَ آمَنَتْهُمْ أَكْثَرُ مِنْ قَبْلِهِ هُمْ بِهِ يُؤْمِنُونَ﴾ (٥٢) وَإِذَا يُنَادِي عَلَيْهِمْ قَالُوا آمَنَّا بِهِ

(١) سيرة ابن هشام (٣٥٧/١) ويُنظر قصة الصلاة عليه في الصحيحين وغيرهما، فتح الباري (٢٣٠/٧) ومسلم (٦٥٧/٢).

(٢) الواحدي (١١٨) والسيوطي (٦٥) والقرطبي (٣٢٢/٤) و«زاد المسير» (٥٣٢/١).

(٣) الطبري (٤٩٩/٧).

إِنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّنَا إِنَّا كُنَّا مِنْ قَبْلِهِ مُسْلِمِينَ ﴿٥٣﴾ أُولَئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرُهُمْ مَرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُوا ﴿٥٤﴾ [النقص].

وقال سبحانه: ﴿إِنَّ الَّذِينَ أُوْتُوا الْعِلْمَ مِنْ قَبْلِهِ إِذَا يُتْلَى عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا﴾ [الإسراء: ١٠٧].

﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَءَامِنُوا بِرَسُولِهِ يُؤْتِكُمْ كَهْلينَ مِنْ رَحْمَتِهِ وَيَجْعَلْ لَكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِ وَيَغْفِرْ لَكُمْ﴾ [الحديد: ٢٨]. لأنهم ليسوا كغيرهم، فهم ﴿لَا يَشْتَرُونَ بِعَاقِبَتِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا﴾ لا يكتمون صفة محمد ﷺ ولا يبيعون الآخرة بالدنيا ﴿أُولَئِكَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾.

وقيل: إن الآية نزلت في أربعين رجلاً من أهل نجران، واثنين وثلاثين من الحبشة، وثمانية من الروم، كانوا على دين عيسى، فأمنوا بمحمد ﷺ وصدقوه.

وقيل: نزلت في عبد الله بن سلام وأصحابه الذين دخلوا في الإسلام.

والأصح أنها نزلت في جميع مؤمني أهل الكتاب^(١).

وفي الصحيحين وغيرهما: عن أبي موسى ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «ثلاثة يؤتون أجرهم مرتين»، فذكر منهم: «ورجل من أهل الكتاب آمن بنبيه وآمن بي»^(٢).

فالآية تخبر عن طائفة من أهل الكتاب أنهم يؤمنون بالله حق الإيمان، ويؤمنون بما أنزل على محمد ﷺ مع ما هم مؤمنون به من الكتب المتقدمة، وهم لا يكتمون ما لديهم من البشارة بمحمد ﷺ وذكر صفته ومبعثه، وصفة أمته.

وهذه الصفات توجد في اليهود قليلاً؛ كهؤلاء الذين أسلموا منهم، وهم لم يبلغوا العشرة في زمن النبي ﷺ وتوجد أكثر من ذلك فيمن أسلم من النصارى ممن قال الله فيهم: ﴿وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُمْ مَوَدَّةً لِلَّذِينَ ءَامَنُوا الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصْرِيُّ﴾ [المائدة: ٨٢].

وقد وصف الله تعالى أهل الكتاب الذين اعتنقوا الإسلام بخمس صفات تدل على صفاء نفوسهم، وطهارة قلوبهم، إنصافاً لمن اهتدى منهم، وترك طريق الضلال.

(١) «تفسير الخازن» للآية.

(٢) «صحيح البخاري» برقم: (٩٧، ٢٥٤٤، ٥٠٨٣) و«صحيح مسلم» برقم: (١٥٤) وفي «المسند» برقم:

(١٠٦٠٢، ١٩٦٣٤).

وهذه الصفات هي أنهم:

أولاً: يؤمنون بالله تعالى إيماناً حقاً ظاهراً وباطناً، لا يشوبه شك ولا شرك ولا رياء ولا نفاق.

ثانياً: أنهم يؤمنون بما أنزل إليكم، وهو القرآن الذي نزل على نبيكم محمد ﷺ.

ثالثاً: أنهم يؤمنون بما أنزل إليهم من التوراة والإنجيل، وأنهما قد نُسخا بالرسالة الخاتمة.

رابعاً: أنهم خاضعون لله، خائفون من عذابه، طالبون لرضاه.

خامساً: أنهم لا يبيعون آيات الله، ولا حقيقة من حقائق الإسلام، نظير عَرَض من أعراض الدنيا، ولو بلغ القناطير المقنطرة من الذهب والفضة.

وهكذا قال القرآن عنهم: ﴿لَيْسُوا سَوَاءً﴾ [آل عمران: ١١٣]. وقال: ﴿مِنْهُمْ أُمَّةٌ مُّقْتَصِدَةٌ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ سَاءٌ مَا يَعْمَلُونَ﴾ [المائدة: ٦٦]. وقال: ﴿وَمِنْ قَوْمِ مُوسَى أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ﴾ [الأعراف: ١٥٩].

ومعنى الآية: وإن بعضاً من أهل الكتاب ليقن بالله رباً واحداً وإلهاً معبوداً، وبما أنزل إليكم من هذا القرآن، وبما أنزل إليهم من التوراة والإنجيل، متذللين لله، خاضعين له، لا يشتركون بآيات الله ثمناً قليلاً من حطام الدنيا، ولا يكتمون ما أنزل الله، ولا يحرفونه كغيرهم من أهل الكتاب، أولئك لهم ثواب عظيم عنده يوم يلقونه، فيوفيههم إياه غير منقوص إن الله سريع الحساب، لا يعجزه إحصاء أعمالهم، ومحاسبتهم عليها^(١).

أَرْبَعُ وَصَايَا لِلْمُؤْمِنِينَ فِي خِتَامِ السُّورَةِ

٢٠٠- ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ (٢٠٠)

في هذه الآية حضٌّ للمؤمنين على ما يوصلهم إلى سعادة الدارين، وأن الطريق الموصِل إلى هذه السعادة هو حبس النفس على ما تكره من ترك المعاصي، والصبر على المصائب، وعلى الأوامر والنواهي، ومقاومة الأعداء في جميع الأحوال، وحفظ الحدود والثغور من العدو، وتقوى الله تعالى في السر والعلن، ففي هذا الفوز والفلاح والسعادة الأبدية.

(١) التفسير الميسر نخبة من العلماء.

وختم الله سبحانه سورة آل عمران بهذه الآية الجامعة التي اشتملت على أربع وصايا للمؤمنين وهي: الصبر، والمصابرة، والمرابطة، وتقوى الله:

١- ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَصْبِرُوا﴾ هذا أمر للمؤمنين أن يصبروا على فعل الطاعات وترك المعاصي وما ينزل بكم من ضر وبلاء، ويصبروا على دينهم الذي ارتضاه الله لهم وهو الإسلام، فلا يتركوه لسراء ولا لضرء، ولا لشدة ولا لرخاء حتى يموتوا مسلمين.

٢- ﴿وَصَابِرُوا﴾ المصابرة وهي المغالبة بالصبر، بأن يكون المؤمن أشد صبراً من عدوه ﴿وَصَابِرُوا﴾ أعداءكم في لقائهم والثبات في مواجهتهم.

٣- ﴿وَرَابِطُوا﴾ أي: لازموا الثغور، واحموا الحدود، وأقيموا على جهاد عدوكم وعدوكم، فإن: «رباط يوم في سبيل الله خير من الدنيا وما عليها»^(١).

و«موضع سوط أحدكم من الجنة خير من الدنيا وما عليها».

و«الغدوة أو الروحة في سبيل الله خير من الدنيا وما عليها».

و«عينان لا تمسهما النار: عين بكت من خشية الله وعين باتت تحرس في سبيل الله»^(٢).

« وكل ميت يُختم على عمله إلا الذي مات مرابطاً في سبيل الله، فإنه ينمى له عمله إلى يوم القيامة ويأمن فتنه القبر»^(٣) أي: أن أجر عمله يسري له بعد موته حتى يبعث يوم القيامة.

وعن سلمان الفارسي رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «رباط يوم وليلة خير من صيام شهر وقيامه، وإن مات جرى عليه عمله الذي كان يعمل، وأجرى عليه رزقه، وأمن من الفتان»^(٤).

وكانت المرابطة معروفة في الجاهلية لحراسة الجهات التي يستطيع العدو الوصول فيها.

وكان المسلمون يرابطون فيما بعد في ثغور بلاد فارس والشام والأندلس.

(١) من حديث سهل بن سعد في البخاري برقم: (٢٨٩٢) ومسلم (١٨٨١) والترمذي (١٦٦٤) والبيهقي في «الشعب» (٤٢٨٤).

(٢) أخرجه الترمذي عن ابن عباس (١٦٣٩).

(٣) أخرجه أحمد عن فضالة بن عبيد، «المسند» (٢٠/٦) (٢٣٧٢٧) ومسلم (١٩١٣) وأبو داود برقم: (٢٥٠٠) والترمذي برقم: (١٦٢١) وابن حبان في الإحسان برقم: (٦٩١٧) والنسائي (٣١٦٧) والطبراني (٦١٧٨).

(٤) «صحيح مسلم» برقم: (١٩١٣).

ولما اتسع سلطان الإسلام، امتد الرباط إلى ثغور البحار، فالرباط نوع من الجهاد في سبيل الله. أما المراقبة في الصلاة فهي على التشبيه بحراسة الحدود، كما قال ابن عطية. ومن المراقبة انتظار الصلاة بعد الصلاة، وملازمة مكان الاعتكاف بالمسجد.

قال ﷺ: «ألا أدلكم على ما يمحو الله به الخطايا ويرفع به الدرجات؟» قلنا: بلى يا رسول الله. قال: «إسباغ الوضوء على المكاره، وكثرة الخطا إلى المساجد، وانتظار الصلاة بعد الصلاة؛ فذلكم الرباط، فذلكم الرباط، فذلكم الرباط»^(١) وهذا على التشبيه بالمراقبة لحماية البلاد من العدو.

٤- ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ خافوا الله في جميع أحوالكم، رجاء أن تفوزوا برضاه في الدنيا والآخرة، واتقوا الله لعلكم تفلحون غداً إذا لقيتم ربكم، وفي الحديث: «اتق الله حيثما كنت...»^(٢).

تم تفسير (سورة آل عمران) والله الحمد والمنة.



(١) أخرجه مسلم عن أبي هريرة (٢١٩/١) برقم: (٢٥١) والنسائي (٨٩/١) وفي «السنن الكبرى» برقم: (١٣٩) ومالك في الموطأ برقم: (٥٥) والترمذي (٥١، ٥٢) وعبد الرزاق (١٩٩٣) وأحمد (٧٢٠٩، ٩٦٤٤).
(٢) من حديث أبي ذر ومعاذ بن جبل في «سنن الترمذي» (١٩٨٧) بإسناد حسن صحيح، وفي المسند عن معاذ (٢٢٠٥٩) وعن أبي ذر (٢١٥٣٦) وقد سبق ذكره وتخريجه.

الآية	فهرس الم - و - وعات	الصفحة
	من سورة البقرة:	
٢٠٤-٢٠٦	أَصْنَفُ النَّاسِ أَرْبَعَةً: الأول: من يسعى للدنيا وحدها، الثاني: من يسعى للدارين	٥
	الثالث: منافقون: متصفون بخمسة أوصاف: أسباب النزول	٦
٢٠٧	الصَّنْفُ الرَّابِعُ مِنَ النَّاسِ: الْأَخْيَارُ الصَّالِحُونَ - أسباب النزول	١١
٢٠٨	الْمُسْلِمُ يَأْخُذُ الْإِسْلَامَ كُلَّهُ وَيُسَالِمُ عِبَادَ اللَّهِ	١٣
٢٠٩	وَعِيدٌ مَنْ جَانَبَ طَرِيقَ الصَّوَابِ	١٦
٢١٠	ماذا ينتظر العصاة؟	١٧
٢١١	أَسْبَابُ كُفْرِ الْيَهُودِ بِخَاتَمِ النَّبِيِّنَ	١٨
٢١٢	مَتَاعُ الْكَافِرِ مِنْ أَسْبَابِ شِقَايِهِ	١٩
٢١٣	حَاجَةُ الْبَشَرِ إِلَى التَّشْرِيعِ الْإِلَهِيِّ ضَرُورَةٌ مُلِحَّةٌ - مما اختلف فيه أهل الكتاب	٢١
٢١٤	تَوْطِينُ النَّفْسِ عَلَى تَحْمِلِ الْأَذَى	٢٧
٢١٥	أَفْضَلُ مَصَارِفِ الثَّقَفَةِ	٢٩
٢١٦	الْحُكْمُ التَّشْرِيعِيُّ الْوَاحِدِيُّ عَشْرٌ فِي السُّورَةِ: حُكْمُ الْقِتَالِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ - في فضل الجهاد	٣١
٢١٧	الْحُكْمُ التَّشْرِيعِيُّ الثَّانِي عَشَرَ الْقِتَالِ فِي الْأَشْهُرِ الْحُرْمِ لِإِزَالَةِ الْعَوَاقِقِ مِنْ طَرِيقِ الدَّعْوَةِ	٣٥
	فتنة الناس في الأشهر الحرم:	٣٧
٢١٨	مدار العبادة وعنوان السعادة:	٤٠
٢١٩	الْحُكْمُ الثَّلَاثُ عَشَرَ: التَّدْرُجُ فِي تَحْرِيمِ الْخَمْرِ (السؤال الأول)	٤١
	السؤال الثاني في هذا الربع: عن نفقة التطوع	٤٨
٢٢٠	الْحُكْمُ الرَّابِعُ عَشَرَ: إِضْلَاحُ مَالِ الْيَتِيمِ (السؤال الثالث)	٥٠
٢٢١	الْحُكْمُ التَّشْرِيعِيُّ الْخَامِسُ عَشَرَ: زَوَاجُ الْوَثَنِيَّاتِ وَأَهْلِ الْكِتَابِ سَبَابِ النَّزُولِ	٥١
	أحاديث في الزواج:	٥٥
٢٢٢	الْحُكْمُ التَّشْرِيعِيُّ السَّادِسُ عَشَرَ: تَجَنُّبُ التَّسَاءُّ فِي الْمَحِيضِ - (السؤال الرابع)	٥٧
٢٢٣	الْحُكْمُ التَّشْرِيعِيُّ السَّابِعُ عَشَرَ: مَوْضِعُ الْحَرْثِ	٦٢
	تنظيم النسل - إتيان المرأة في دبرها:	٦٥
٢٢٤	الْحُكْمُ التَّشْرِيعِيُّ الثَّامِنُ عَشَرَ: أَحْكَامُ الْأَيْمَانِ	٦٧
٢٢٥	لَعْنُ الْيَمِينِ لَهُ مَعْنَيَانِ - يمين اللغو - اليمين المنعقدة - اليمين العموس	٧٠
٢٢٦، ٢٢٧	الْحُكْمُ التَّشْرِيعِيُّ الثَّاسِعُ عَشَرَ: الْإِيْلَاءُ	٧٣
٢٢٨	الْحُكْمُ الْعِشْرُونَ: عِدَّةُ الْمَرْأَةِ وَحُقُوقُهَا وَوَجِبَاتُهَا - في الآية خمسة أحكام - أنواع العدة	٧٦
٢٢٩	الْحُكْمُ الْوَاحِدِيُّ وَالْعِشْرُونَ: الطَّلَاقُ الرَّجْعِيُّ - أربعة أحكام في الآية	٨٢

الآية	فهرس المـ ووطـ وعات	الصفحة
	طلاق الغضبان - ألفاظ الطلاق - الطلاق بالثلاث - الإضرار بالمرأة	٨٣
	الإشهاد على الطلاق وعلى الرجعة - الطلاق السني والبدعي - الطلاق بغير سبب يغي وعدوان	٨٨
	الحُكْمُ التَّشْرِيعِي الثَّانِي وَالْعِشْرُونَ: حُكْمُ الْخُلْعِ وأدلتـه - الخلع طلاق بائن	٨٩
٢٣٠	الحُكْمُ الثَّالِثُ وَالْعِشْرُونَ: الطَّلَاقُ الْبَائِنُ يَتَوَقَّعُ كُفْرَى - المحلل	٩٤
٢٣١	الحُكْمُ التَّشْرِيعِي الرَّابِعُ وَالْعِشْرُونَ: عَضْلُ الرَّوْجِ لِلْمَرْأَةِ	٩٧
٢٣٣	الحُكْمُ التَّشْرِيعِي الْخَامِسُ وَالْعِشْرُونَ: عَضْلُ الْأَوْلِيَاءِ لِلْمَرْأَةِ	٩٩
٢٣٣	الحُكْمُ التَّشْرِيعِي السَّادِسُ وَالْعِشْرُونَ: الرِّضَاعَةُ وَالْحَضَانَةُ والأحكام المتعلقة بهما	١٠١
٢٣٤	الحُكْمُ التَّشْرِيعِي السَّابِعُ وَالْعِشْرُونَ: عِدَّةُ الْمُتَوَقَّي عَنْهَا رَوْجُهَا وَجِدَادُهَا	١٠٨
٢٣٥	الحُكْمُ التَّشْرِيعِي الثَّامِنُ وَالْعِشْرُونَ: التَّعَرُّضُ لِلْمُتَوَقَّي عَنْهَا رَوْجُهَا بِالْخِطْبَةِ	١١٢
٢٣٦	الحُكْمُ التَّشْرِيعِي التَّاسِعُ وَالْعِشْرُونَ: متعة المطلقة قبل تسمية المهر وقبل الدخول بها:	١١٥
٢٣٧	الحُكْمُ الثَّلَاثُونَ: الْمُطَلَّقةُ بَعْدَ تَحْدِيدِ الْمَهْرِ وَقَبْلَ الدَّخُولِ بِهَا لَهَا نِصْفُ الْمَهْرِ وَلَا مُتْعَةٌ لَهَا	١١٧
٢٣٨	رَبْطُ أُمُورِ الْحَيَاةِ بِالتَّوَجُّهِ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى وَعِبَادَتِهِ - جملة من الأحاديث في الصلاة	١١٩
٢٣٩	لَا تَسْقُطُ الصَّلَاةُ إِلَّا عَنْ فَاقِدِ الْوَعْيِ - في صلاة الخوف	١٢٤
٢٤٠	الحُكْمُ التَّشْرِيعِي الْحَادِي وَالْثَلَاثُونَ: مُتْعَةُ الْمُتَوَقَّي عَنْهَا رَوْجُهَا	١٢٧
٢٤٢، ٢٤١	الحُكْمُ التَّشْرِيعِي الثَّانِي وَالْثَلَاثُونَ: مُتْعَةُ الْمُطَلَّقةِ الْمَدْخُولِ بِهَا	١٢٩
٢٤٣	الذين خرجوا من ديارهم وهم ألوف حذر الموت - قصة موتهم وإحيائهم	١٣١
٢٤٤	عِزَّةُ الْأُمَّةِ فِي تَسْخِيرِ طَاقَاتِهَا لِجِهَادِ الْعُدُوِّ - السبب الأول الجهاد بالنفس	١٣٤
٢٤٥	السَّبَبُ الثَّانِي - الجهاد بالمال - أبو الدحداح	١٣٥
٢٤٦	تَحَاذُلُ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَنْ قِتَالِ الْعُدُوِّ	١٣٩
٢٤٧	قِصَّةُ طَالُوتَ وَجَالُوتَ	١٤٢
٢٤٨	تَأْبُوْتُ الْعَهْدِ	١٤٣
٢٤٩	لَا يَخْرُجُ لِلْجِهَادِ إِلَّا مَنْ كَانَ عِنْدَهُ صَبْرٌ وَجَلَدٌ وَطَاعَةٌ	١٤٥
٢٥٢-٢٥٠	الدَّعَاءُ مِنْ عَوَامِلِ النَّصْرِ - دَاوُدُ يَقْتُلُ جَالُوتَ فَائِذَ الْجَبَابِرَةِ وقصته	١٤٨
٢٥٣	فَضَائِلُ الرُّسُلِ وَسَبَبُ اخْتِلَافِ الْأُمَمِ - أفضل الرسل - ثلاثة أسباب لهذه الأفضلية	١٥٠
٢٥٤	فضل موسى - فضل عيسى - فضل داود وسليمان عليهم السلام الاختلاف بعد الرسل	١٥٣
٢٥٤	الدَّعْوَةُ إِلَى الْإِنْتِقَافِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ	١٥٨
٢٥٥	آيَةُ الْكُرْسِيِّ - سيدة آي القرآن - أعظم آية في القرآن - فضل آية الكرسي	١٦٠
٢٥٦	الحُكْمُ التَّشْرِيعِي الثَّالِثُ وَالْثَلَاثُونَ: حُكْمُ الْمُرْتَدِّ - أسباب النزول	١٦٨
٢٥٧	الْمُؤْمِنُ وَلِيُّهُ اللَّهُ وَالْكَافِرُ وَلِيُّهُ الشَّيْطَانُ	١٧٢
٢٥٨	قِصَّةُ إِبْرَاهِيمَ وَالْمَلِكِ الطَّاعِيَةِ	١٧٤

الآية	فهرس الم	وجع	ووعات	الصفحة
٢٥٩	فَصَةُ الَّذِي مَرَّ عَلَى قَرْيَةٍ			١٧٧
٢٦٠	الْمِثَالُ الثَّالِثُ: مشاهدة كَيْفِيَّةِ إِحْيَاءِ الْمَوْتَى			١٨٢
٢٦٢، ٢٦١	الحكم الرابع والثلاثون: معالم الاقتصاد الإسلامي. أولاً: مُضَاعَفَةُ أَجْرِ الْمُتَّقِي فِي سَبِيلِ اللَّهِ			١٨٥
	آيَاتُ النِّفَقَةِ الأربعة عشرة في سورة البقرة - سَبَبُ النِّزُولِ - أحاديث في النِّفَقَةِ			١٨٦
٢٦٣	ثانياً: مُبْطَلَاتُ الصَّدَقَةِ: الْمَنُّ وَالْأَذَى وَالرِّيَاءُ			١٩٣
٢٦٤	مثل المرائي في صدقته - شروط قبول الصدقة: عدم المن والأذى والرياء			١٩٥
٢٦٥	مَثَلُ الْمُخْلِصِ فِي صَدَقَتِهِ			١٩٩
٢٦٦	مُقَابَلَةُ بَيْنِ الْمَثَلِ الْمَذْمُومِ وَالْمَثَلِ الْمَحْمُودِ			١٩٩
٢٦٧	وَجُوبُ النَّفَقَةِ مِنَ الْحَلَالِ الطَّيِّبِ - جملة من الأحاديث في هذا المقام			٢٠١
٢٦٨	سَبَبُ الْجَرَصِ عَلَى الدُّنْيَا			٢٠٥
٢٦٩	يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَنْ يَشَاءُ - من الأحاديث الواردة في ذلك			٢٠٦
٢٧٠	الحُكْمُ الشَّرِيعِيُّ الخامس والثلاثون: النَّذْرُ - جملة من الأحاديث في النذر			٢٠٧
٢٧١	صَدَقَةُ السَّرِّ وَالْعَلَنِ - سبب النزول - أحاديث في ذلك			٢١١
٢٧٢	جَوَازُ الصَّدَقَةِ عَلَى غَيْرِ الْمُسْلِمِ			٢١٤
٢٧٣	سِتْنَةُ أَوْصَافٍ لِلْفُقَرَاءِ الْمُتَعَفِّينَ - جملة من الأحاديث في ذم السؤال			٢١٦
٢٧٤	أَجْرُ الْمُتَصَدِّقِ فِي السَّرِّ وَالْعَلَنِ - أسباب النزول			٢٢٢
٢٧٦، ٢٧٥	الحُكْمُ السَّادِسُ والثلاثون: تَحْرِيمُ الرِّبَا ومراحلها، ونوعاه، أحاديث في تحريمه			٢٢٣
٢٧٧	الْوَجْهُ الْمُقَابِلُ لِلرِّبَا الصَّدَقَةُ			٢٣٠
٢٧٩، ٢٧٨	التَّحْرِيمُ الْقَطْعِيُّ لِلرِّبَا: وَالْوَعْدُ عَلَيْهِ			٢٣٤
٢٨٠	إِنْظَارُ الْمُعْسِرِ - في عَظَمِ أَجْرِ إِنْظَارِ الْمُعْسِرِ			٢٣٦
٢٨١	آخِرُ مَا نَزَلَ مِنَ الْقُرْآنِ الْأَمْرُ بِالتَّقْوَى			٢٣٨
٢٨٢	الحُكْمُ السَّابِعُ والثلاثون: أَحْكَامُ الدِّينِ، كِتَابَةُ الدِّينِ - ضريبة العلم - شروط المُمْلِي			٢٣٩
	هذه أربعة شروط فيمن يملي، وهو المدين - الإشهاد على العقود، شهادة المرأة في المعاملات			٢٤٣
	كتابة الدين مهما كان قليلاً، توثيق العقود فيه ثلاث فوائد:			٢٤٧
	الحكم الثامن والثلاثون: التجارة الحاضرة			٢٤٨
	عَدَمُ إِلْحَاقِ الضَّرَرِ بِالْكَاتِبِ وَالشَّاهِدِ - العلم نوعان			٢٤٩
	المعنى العام لآية المُدَانِيَةِ- بعض ما يؤخذ من الآية ٤١ حكماً			٢٥٠
٢٨٣	الحُكْمُ الشَّرِيعِيُّ التاسع والثلاثون: الرَّهْنُ عِنْدَ تَعَسُّرِ الْكِتَابَةِ			٢٥٣
	الحكم الأربعون: النهي عن كتمان الشهادة - أحاديث في ذلك			٢٥٥

الآية	فهرس الم	وفا	وفا	الصفحة
٢٨٤	عَلَّمَ اللَّهُ تَعَالَى مُحِيطٌ بِالسَّرَائِرِ وَالْعَلَانِيَةِ - سبب النزول - حديث النفس	٢٥٦		
٢٨٥	مَنْ يُفَرِّقْ بَيْنَ رُسُلِ اللَّهِ لَا يَدْخُلْ فِي دَائِرَةِ الْإِيمَانِ	٢٦٣		
٢٨٦	الْجَزَاءُ عَلَى الْقَوْلِ وَالْعَمَلِ وَلَا مُوَاخَذَةً عَلَى الْخَطِّ وَالنَّسْيَانِ - سبعة أدعية	٢٦٥		
	تفسير سورة آل عمران مُقَدِّمَةُ السُّورَةِ، وَسَبَبُ النَّزُولِ - قصة وفد نصارى نجران	٢٧١		
	مَوْضُوعَاتُ السُّورَةِ الثَّلَاثِ: النَّصَارَى - غزوة أحد - دلائل التوحيد	٢٧٦		
	فَضْلُ سُورَةِ آلِ عِمْرَانَ مَعَ سُورَةِ الْبَقَرَةِ	٢٨٢		
١	تفسير السورة - حُرُوفُ التَّهَجِّي فِي فَوَاتِحِ السُّورِ	٢٨٣		
٢	وَصَفُ اللَّهِ تَعَالَى لِذَاتِهِ بِأَرْبَعَةِ أَوْصَافٍ - اسم الله الأعظم:	٢٨٤		
٤، ٣	الْكِتَابُ الثَّلَاثَةُ وَأَوْصَافُ الْقُرْآنِ الثَّلَاثَةُ	٢٨٦		
٦، ٥	إِحَاطَةُ عِلْمِ اللَّهِ تَعَالَى بِمَا ظَهَرَ وَمَا بَطَنَ	٢٨٩		
٧	وُجُوبُ التَّقِي عَنِ اللَّهِ تَعَالَى فِي الْمُحْكَمِ وَالْمُتَشَابِهِ وَمَا يَتَعَلَقُ بِهِمَا	٢٩٠		
٩، ٨	الْمُسْلِمُ يَسْأَلُ رَبَّهُ الثَّبَاتَ فِي الدُّنْيَا وَحَسْنَ الْجَزَاءِ فِي الْآخِرَةِ - أحاديث	٢٩٨		
١١، ١٠	مَصِيرُ الْكُفَّارِ قَدِيمًا وَحَدِيثًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ	٣٠١		
١٢	ماذا في الدنيا بالنسبة للكفار؟	٣٠٥		
١٣	مَثَلُ تَارِيخِي لَا يَنْتَصِرُ الْمُسْلِمِينَ عَلَى عَدُوِّهِمْ فِي كُلِّ زَمَانٍ وَمَكَانٍ	٣٠٧		
١٤	أُصُولُ الشَّهَوَاتِ الْبَشَرِيَّةِ سِتَّةٌ	٣١٠		
١٥	أُصُولُ الْمَتَاعِ الْآخِرِيِّ ثَلَاثَةٌ: الْجَنَّةُ - الْحُورُ الْعِينُ - رِضْوَانُ اللَّهِ	٣١٣		
١٧، ١٦	وَصَفُ الْمُتَّقِينَ بِسِتَّةِ أَوْصَافٍ	٣١٥		
١٨	الْأَصْلُ الْأَوَّلُ فِي جَمِيعِ الشَّرَائِعِ السَّمَاوِيَّةِ هُوَ التَّوْحِيدُ	٣١٦		
٢٠، ١٩	الْأَصْلُ الثَّانِي هُوَ الْإِسْلَامُ بِمَعْنَاهُ الْعَامُ - المعنى الخاص للإسلام	٣١٩		
٢٢، ٢١	وَصَفُ الْيَهُودِ بِثَلَاثَةِ أَوْصَافٍ	٣٢٥		
٢٣	أَحْكَامُ الْإِسْلَامِ مِنْهُجٌ لِلدِّينِ وَالْدُّنْيَا	٣٢٧		
٢٦-٢٤	خُرَافَةُ اعْتِقَادِ الْيَهُودِ بِأَنَّهُمْ مُتَمَيِّزُونَ عِنْدَ اللَّهِ تَعَالَى - النُّبُوَّةُ وَالْحُكْمُ لَا يُورَثَانِ	٣٢٩		
	أُمُورُ مَزْعُومَةٌ - الْأَيَّامُ دَوْلٌ - انتقال النبوة من بني إسرائيل إلى العرب	٣٣٠		
٢٧	ثَلَاثَةٌ مِنْ آثَارِ قُدْرَةِ اللَّهِ تَعَالَى	٣٣٣		
٢٨	الْأَصْلُ الثَّالِثُ: عَدَمُ مَوَالَاةِ الْكَافِرِ فِي الظَّاهِرِ وَالْبَاطِنِ - أسباب النزول	٣٣٤		
	التقية - ثمانية من مظاهر موالاة غير المسلمين:	٣٣٨		
٢٩	عَلَّمَ اللَّهُ تَعَالَى مُحِيطٌ بِمَا فِي الصُّدُورِ	٣٤٠		
٣٢-٣٠	عَمَلُ الْخَيْرِ وَالشَّرِّ سَبَبٌ لِمَحَبَّةِ اللَّهِ تَعَالَى وَبُغْضِهِ، وَثَوَابُهُ وَعِقَابُهُ - أَسْبَابُ النَّزُولِ	٣٤١		

الآية	فهرس المـوطـوعات	الصفحة
٣٤، ٣٣	بذء قصء النصارى - العشرة الأولى: آل إبراهيم - والعشرة الثانية: آل عمران	٣٤٥
٣٦، ٣٥	ولادة مريم وكفالتها وخدمتها لبنت العبادء	٣٤٨
٣٧	كفالة زكريا لمريم	٣٥٠
٣٨	طلب زكريا للولد، ووصف (يحيى) بأربعة أوصاف	٣٥٢
٤١-٣٩	زكريا يشرب يحيى، قصة قتل يحيى	٣٥٦
٤٣، ٤٢	اضطفاء مريم على نساء العالمين	٣٥٧
٤٤	قصة مريم من معجزات النبي	٣٥٨
٤٨-٤٥	البشارة بعيسى تضمنت أحد عشر وصفا له، منها: كلامه في المهد وتعليمه الكتاب والحكمة	٣٦٠
٤٩	الوصف الحادث عشر، معجزات عيسى	٣٦٥
٥٠	المعجزة الخامسة نزول الإنجيل على عيسى	٣٦٧
٥٣-٥١	عيسى عبد الله ورسوله - الحواريون	٣٦٨
٥٤	الزعم بقتل عيسى وصلبه	٣٧١
٥٥	هل رُفع عيسى بجسده وروحه؟ - معنى التوفى - بُذء عن عيسى	٣٧٣
٥٨	كتابة الأناجيل: قسطنطين يحرف النصارية:	٣٧٧
٦٠، ٥٩	إبطال ألوهية عيسى	٣٧٩
٦٣-٦١	آية المبالغة والملاعة في شأن عيسى حديث - وفد نصارى نجران	٣٨٠
٦٤	أربع نداءات لأهل الكتاب: النداء الأول: وجوب وحدانية الله تعالى	٣٨٦
٦٧-٦٥	النداء الثاني لأهل الكتاب: التهي عن الجدال بالباطل	٣٨٨
٦٨	أحق الناس بالنسب إلى إبراهيم هم المسلمون	٣٩١
٦٩	سبب الجدال بالباطل عند اليهود	٣٩٢
٧١، ٧٠	النداء الثالث لأهل الكتاب: يفضح كتمانهم دلائل النبوة - والرابع عدم خلط الحق بالباطل	٣٩٣
٧٢	اليهود يشككون المسلمين في عقيدتهم - أربعة أمثلة من مكر اليهود	٣٩٤
٧٤، ٧٣	إحاطة التشكيك في الإسلام بالسرية التامة والرد عليهم	٣٩٦
٧٦، ٧٥	استحلال اليهود لأموال غيرهم	٣٩٨
٧٧	وعيد الله لليهود بحسن عقوبات - سببها أمران: جملة من الأحاديث في معنى الآية	٤٠٣
٤٠٦	أكثر من سبب لنزول هذه الآية	٤٠٦
٧٨	تحريف اليهود لكلام الله تعالى وتلاعبهم بالألفاظ - لى اللسان بالكلام له معنيان	٤٠٨
٨٠، ٧٩	الرسول لا يؤلّهون إلا الله سبحانه، من أسباب النزول	٤١٠
٨٢، ٨١	أخذ الميثاق على الأنبياء أن يؤمنوا بمحمد	٤١٣

الآية	فهرس الم	وحدات	الصفحة
١٢٩، ١٢٨	مَرْجِعُ الْأَمْرِ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى فِي النَّصْرِ أَوْ الْهَزِيمَةِ - سبب النزول	٤٩١	
١٣٢-١٣٠	أَرْبَعَةٌ مِنْ أَسْبَابِ النَّصْرِ عَلَى الْعَدُوِّ	٤٩٣	
١٣٣	وُجُوبُ الْمُبَادَرَةِ إِلَى جَنَّةِ اللَّهِ وَرِضْوَانِهِ	٤٩٦	
١٣٤	خَمْسُ صِفَاتٍ لِلْمُتَّقِينَ وَجَزَائُهُمْ فِي الْآخِرَةِ	٤٩٨	
	جملة من الأحاديث في الغضب: وكظم الغيظ، والأخلاق الحسنة	٤٩٩	
١٣٥	التوبة من الصغائر والكبائر - مِنْ أَسْبَابِ النَّزُولِ - احاديث ترغب في التوبة	٥٠٣	
١٣٨، ١٣٧	الاعتِيَارُ بِأَحْوَالِ الْأُمَمِ	٥٠٧	
١٣٩	التَّهْنِئَةُ عَنْ أَسْبَابِ الْقَتْلِ وَالْوَهْنِ	٥٠٩	
١٤٠	يَوْمَ لَكَ وَيَوْمَ عَلَيْكَ	٥١٠	
١٤٢، ١٤١	حِكْمٌ سِتٌّ فِي ابْتِلَاءِ الْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ أُحُدٍ	٥١١	
١٤٤، ١٤٣	الرُّسُلُ يَمُوتُونَ وَالرَّسَالَةُ تَبْقَى	٥١٤	
١٤٥	لَنْ تَمُوتَ نَفْسٌ حَتَّى تَسْتَوْفِيَ رِزْقَهَا وَأَجَلَهَا	٥١٧	
١٤٧، ١٤٦	مِنْ أَسْبَابِ انْتِصَارِ الرُّسُلِ عَلَى أَعْدَائِهِمْ	٥١٩	
١٥٠-١٤٨	حسن الجزاء في الدنيا والآخرة، التحذير من موالاة المخالفين في الدين	٥٢١	
١٥١	سَبَبُ إِلْقَاءِ الرُّعْبِ فِي قُلُوبِ الْكُفَّارِ	٥٢٢	
١٥٢	أَسْبَابُ النَّصْرِ وَالْهَزِيمَةِ فِي غَزْوَةِ أُحُدٍ	٥٢٤	
١٥٥-١٥٣	أَخْذَاتُ الْهَزِيمَةِ فِي أُحُدٍ رَأْيِي الْعَيْنِ وَسَبَبُهَا	٥٢٧	
١٥٨-١٥٦	التَّحْذِيرُ مِنَ الْمُتَبَطِّينَ عَنِ الْجِهَادِ	٥٣٢	
١٥٩	لين الجانب والتشاور في أمور الدنيا	٥٣٤	
١٦٠	الْمُؤَثَّرُ الْحَقِيقِيُّ فِي الْخُذْلَانِ أَوْ النَّصْرِ هُوَ اللَّهُ سُبْحَانَهُ	٥٣٦	
١٦١	الاسْتِخْفَافُ بِالْمَالِ الْعَامِّ مِنْ أَسْبَابِ الْهَزَائِمِ - من الأحاديث في تحريم الغلول	٥٣٨	
١٦٣، ١٦٢	مُقَابَلَةٌ بَيْنَ أَهْلِ الطَّاعَةِ وَأَهْلِ الْمَعْصِيَةِ	٥٤١	
١٦٤	مِنَّةُ اللَّهِ عَلَى الْعَرَبِ فِي حَمْلِ الرِّسَالَةِ إِلَى الْعَالَمِ - صور من ضلال أهل الجاهلية	٥٤٣	
١٦٥	تَحْلِيلُ أَسْبَابِ الْهَزِيمَةِ يَوْمَ أُحُدٍ فِي خَمْسَةِ أُمُورٍ - السبب الأول: مخالفة القائد	٥٤٥	
١٦٦	السبب الثاني: حكمة أرادها الله - السبب الثالث: تمييز المؤمنين من المنافقين	٥٤٨	
١٦٧	السبب الرابع: إظهار نفاق المنافقين:	٥٤٩	
١٦٨	السبب الخامس: الكشف عن تشييط المنافقين للمجاهدين:	٥٥٠	
١٧١-١٦٩	مَنْزِلَةُ الشُّهَدَاءِ عِنْدَ رَبِّهِمْ - موقعة بدر معونة	٥٥١	
١٧٢-١٧٠	خمس خصائص للشهداء - فضل الشهداء - غَزْوَةُ حَمْرَاءِ الْأَسَدِ	٥٥٨	

الآية	فهرس المـ وـ وعات	الصفحة
١٧٤، ١٧٣	عَزَّوَهُ بَذَرِ الصُّغْرَى	٥٦١
١٧٥	سَبَبُ الْخَوْفِ مِنَ الْعَدُوِّ هُوَ صَعْفُ الْإِيمَانِ - أَرْبَعَةُ تَغْفِيَّاتٍ عَلَى أَحْدَاثِ عَزَّوَهُ أُحْدِ	٥٦٤
١٧٦	التَّعْقِيبُ الْأَوَّلُ: عَدَمُ التَّحَسُّرِ عَلَى الْمُتَخَاذِلِينَ	٥٦٥
١٧٧	التَّعْقِيبُ الثَّانِي: الْمُتَخَاذِلُونَ عَنِ الْجِهَادِ لَنْ يَضُرُّوا اللَّهَ شَيْئًا	٥٦٦
١٧٨	التَّعْقِيبُ الثَّلَاثُ: زِيَادَةُ النِّعَمِ لِلْكَافِرِ إِمَهَالٌ لَهُ	٥٦٦
١٧٩	التَّعْقِيبُ الرَّابِعُ: لَا بُدَّ مِنَ التَّمْيِيزِ بَيْنَ الْحَيْثِ وَالطَّيِّبِ	٥٦٧
١٨٠	الْوَعْدُ الشَّدِيدُ عَلَى الْبُخْلِ بِالْمَالِ	٥٦٨
١٨٢، ١٨١	خَمْسٌ مِنْ قَبَائِحِ الْيَهُودِ: الْأَوَّلَى قَوْلُهُمْ (إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ)	٥٧٠
١٨٤، ١٨٣	الْقَبِيحَةُ الثَّانِيَّةُ: تَكْذِيبُهُمْ لِرُسُلِ اللَّهِ	٥٧٢
١٨٥	النَّجَاحُ الْحَقِيقِيُّ لِلْفَائِزِ يَوْمَ لِقَاءِ اللَّهِ	٥٧٤
١٨٦	الْقَبِيحَةُ الثَّلَاثَةُ: إِيدَاءُ الْيَهُودِ الْمُسْتَمِرُّ لِلْمُسْلِمِينَ	٥٧٦
١٨٧	الْقَبِيحَةُ الرَّابِعَةُ: نَقْضُهُمْ لِلْعُهُودِ	٥٧٨
١٨٨	الْقَبِيحَةُ الْخَامِسَةُ: إِنَّهُمْ يُجْبُونَ أَنْ يُحْمَدُوا بِمَا لَمْ يَفْعَلُوا - أَسْبَابُ التَّرْوَلِ	٥٧٩
١٩٠، ١٨٩	الرَّدُّ عَلَى قَبَائِحِ الْيَهُودِ - دَلَالِيلُ التَّوْحِيدِ فِي الْآيَاتِ الْعَشْرِ الْأَخِيرَةِ	٥٨٣
١٩١	ذَكَرَ اللَّهُ تَعَالَى وَالْتَفَكِيرُ فِي خَلْقِهِ	٥٨٧
١٩٤-١٩٢	خَمْسَةُ نِدَاءَاتٍ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ لِرَبِّهِمْ	٥٩٠
١٩٥	إِجَابَةُ اللَّهِ لِعِبَادِهِ ذُكُورًا وَإِنَاثًا	٥٩٣
١٩٧، ١٩٦	الْمُؤْمِنُ لَا يَغْتَرُّ بِمَتَاعِ الْكَافِرِ	٥٩٥
١٩٨	مَا أَعَدَّهُ اللَّهُ لِلْمُتَّقِينَ مِنْ رِضْوَانٍ	٥٩٦
١٩٩	قَوْمٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ يُؤْتُونَ أَجْرَهُمْ مَرَّتَيْنِ	٥٩٧
٢٠٠	أَرْبَعُ وَصَايَا لِلْمُؤْمِنِينَ فِي خِتَامِ السُّورَةِ	٦٠١
	فهرس الموضوعات	٦٠٣



فاحِشَةُ النَّفْسِ

تأليف :

أحمد بن أحمد محمد عبد الله الطويل

عُضُو الدَّجَنَةِ الْعِلْمِيَّةِ لِمُرَاجَعَةِ مُصْحَفِ الْمَدِينَةِ النَّبَوِيَّةِ
وَلَجَنَةِ الْإِشْرَافِ عَلَى التَّسْجِيلَاتِ الْقُرْآنِيَّةِ
بِمُجْمَعِ الْمَلِكِ فَهْدٍ لَطِبَاعَةِ الْمُصْحَفِ الشَّرِيفِ

قَدَّمَ لَهُ : مَعَالِي الدُّكْتُور / عَبْدُ اللَّهِ بْنُ عَبْدِ الْمُحْسِنِ التُّرْكِي
وَالْأَسْتَاذَ الدُّكْتُور / صَالِحُ بْنُ غَانِمِ السَّدْلَانِ
وَنُخْبَةَ مِنَ الْعُلَمَاءِ الْمُتَخَصِّصِينَ

المجلد الثالث : النساء

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

تَفْسِيرُ سُورَةِ النَّسَاءِ (٤)

مُقَدِّمَةُ السُّورَةِ

سورة النساء هي السورة الرابعة في ترتيب المصحف، والثالثة والتسعون في ترتيب النزول، نزلت بعد سورة الممتحنة وقبل سورة الزلزلة.

وعدد آياتها مئة وسبع وسبعون آية في المصحف الشامي، ومئة وست وسبعون في المصحف الكوفي الذي عليه رواية حفص، ومئة وخمس وسبعون في بقية المصاحف العثمانية.

والسبب في ذلك أن المصحف الشامي اعتبر ﴿فَيَعَذِّبُهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ [١٧٣] آية.

ولم يعدها غيره كما عدَّ المصحف الشامي والكوفي ﴿أَنْ تَضِلُّوا السَّبِيلَ﴾ [٤٤] آية.

وأسقطهما من العدد المصحف البصري والحجازي (المكي والمدني الأول والأخير).

وهي ثلاثة آلاف وخمس وأربعون كلمة، وستة عشر ألفاً وثلاثون حرفاً.

وسورة النساء من السور المدنية، قالت عائشة رضي الله عنها: ما نزلت سورة البقرة والنساء إلا وأنا عند رسول الله ﷺ ^(١).

وقال ابن عباس رضي الله عنهما: أول ما نزل بالمدينة سورة البقرة، ثم آل عمران، ثم الأحزاب، ثم الممتحنة، ثم النساء.

أطول سورة بعد سورة البقرة:

وسورة النساء أطول سورة في القرآن الكريم بعد سورة البقرة، وقد سميت كذلك؛ لأن بعضها يتحدث عن أحكام تشريعية تتعلق بالنساء.

ولذا: فهي تسمى سورة النساء الكبرى أو الطولى، في مقابلة سورة النساء الصغرى أو القصوى، المعروفة بسورة الطلاق.

وقد استغرق نزول سورة النساء على رسول الله ﷺ نحو ثمانية أعوام، وظلت مفتوحة

(١) من حديث طويل في «البخاري» (٤٩٩٣).

طوال هذه المدة، حيث ابتدأ نزولها بعد أحداث الهجرة، وأحداث غزوة أحد، واستمرت الآيات والأحكام تنزل حسب الوقائع والحوادث ومقتضى الحاجة على رسول الله ﷺ حتى يوم أن فتحت مكة في العام الثامن من الهجرة، حيث نزل قوله تعالى ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا﴾ [الآية: ٥٨] يوم فتح مكة، في شأن مفتاح الكعبة، وأن مقتضى الأمانة أن يُردَّ المفتاح إلى بني شيبه، وكان العباس قد تطلعت نفسه إلى سدانة البيت، فطلبه من النبي ﷺ . .

ولما نزلت سورة النساء جاء في الأثر: «لا حبس بعد سورة النساء»^(١) وهو يشير إلى ما كانوا يفعلونه في الجاهلية من حبس مال الميت ونسائه، فقد كانوا إذا كرهوا النساء لقبح فيهن، أو لقلة مال، حبسوهن على أولياء الأزواج من غير عدل في صداقهن؛ لأن أولياء الميت كانوا أولى بهن من غيرهم.

والمعنى: أنه بعد نزول السورة لا يوقف مال ولا يمنع عن وارثه، وليس هناك حبس للمرأة حتى تموت فيرثها ولي الزوج والهاء من (حبس) يجوز فتحها وضمها.

ثماني آيات خير لهذه الأمة مما طلعت عليه الشمس وغربت:

وفي السورة خمس آيات أحب إلى العبد من الدنيا وما فيها كما ورد عن ابن مسعود رضي الله عنه (٢). وهذه الآيات هي: قوله تعالى:

﴿إِنْ تَحْتَبُوا كَبَائِرَ مَا نَنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَنُدْخِلَكُمْ مُدْخَلًا كَرِيمًا﴾ [٣١].

وقوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَظِلُّ مِنْتَالِ ذَرَّةٍ وَإِنْ تَكَ حَسَنَةً يَّضْعِفْهَا وَيُؤْتِ مِنْ لَدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ [٤٠].

وقوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ﴾ [٤٨].

وقوله: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ جَاءُوكَ فَاسْتَغْفَرُوا اللَّهَ﴾ الآية [٦٤].

(١) أخرجه ابن مردويه عن عكرمة عن ابن عباس بإسناد فيه عبد الله وعيسى ابنا لهيعة، وقد ضعفهما الدارقطني في «الميزان»، ويُظنر: ابن الأثير في معنى الحبس، وهو في «السنن الكبرى» للبيهقي (٦/ ١٦٢) و«المعجم الكبير» للطبراني (٣٦٥/ ١١) والدارقطني في «السنن» (٦٨/ ٤) وهو في الطبراني (١٢٠٣٣) والبيهقي (١٦٢/ ٦) و«السلسلة الضعيفة» (٢٧٣).

(٢) أخرجه الحاكم في «المستدرک» (٣٠٥/ ٢) بإسناد فيه ضعف.

وقوله: ﴿وَمَنْ يَعْمَلْ سُوءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ اللَّهَ يَجِدِ اللَّهَ غَفُورًا رَحِيمًا﴾ [١١٠] .

زاد ابن عباس ثلاث آيات هي قوله تعالى: ^(١) ﴿يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ الَّذِي سَنَنَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَيَتُوبَ عَلَيْكُمْ﴾ ، والآيتين بعدها [٢٦-٢٨] ، وقال: هي خير لهذه الأمة مما طلعت عليه الشمس وغربت .

من خصائص الآية الأولى في هذه السورة:

والله ﷻ يأمر الناس جميعاً في الآية الأولى من سورة النساء بتقوى الله ﷻ مرتين، في بداية الآية وفي نهايتها .

وكان النبي ﷺ يقرأ هذه الآية يبدأ بها الخطبة ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ﴾ الآية بعد الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله ﷺ ، ويقرأ معها: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تَقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾ [آل عمران] .

وآيتين من أواخر سورة الأحزاب: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا﴾ [٧١، ٧٠] .

كان عليه الصلاة والسلام يقرأ هذه الآيات الثلاث في بدء خطبة الجمعة، وفي خطبة عقد النكاح، وغير ذلك، ثم يسمي أو يذكر حاجته بعد قوله ﷻ: أما بعد ^(٢) . وكذلك كان السلف الصالح .

قلتُ: والالتزام بذلك في كل خطبة يوهم بوجوبها، ويخرجها عن كونها سنة، والأمر ليس كذلك فينبغي تركها أحياناً، وكذا الالتزام بقراءة سورتي الأعلى والغاشية في صلاة الجمعة، ونحو ذلك .

ولما قَدِمَ قوم من الفقراء على رسول الله ﷺ قام في المسجد، فحمد الله وأثنى عليه ثم قرأ هذه الآية ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ﴾ الآية، وقرأ أيضاً: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَلْتَنْظُرْ نَفْسٌ مَقْدَمَتْ لِغُفْلَةٍ﴾ [الحشر: ١٨] . ثم دعا الناس إلى الصدقة، فجاء كل منهم بما يستطيع، حتى إن أحدهم

(١) الحاكم، كتاب التفسير (٢/ ٣٠٥) وأخرجه عبد الرزاق عن الطبري (٨/ ٢٥٧) وفيه ابن بشير، وهو ضعيف .

(٢) وتسمى خطبة الحاجة، وقد جمع طرقها وحققها الشيخ ناصر الألباني بعنوان (خطبة الحاجة) وهي في

«صحيح سنن أبي داود» (١٨٦٠) والترمذي (١١٠٥) والنسائي (٣٢٧٧) وابن ماجه (١٨٩٢) وابن ابي

شيبه (٤/ ٣٨١) عن ابن مسعود، وانظر أول هذا التفسير .

جاء بَصْرَةً فيها دنائير لا تكاد من ثقلها أن تُحمل، ووضعها بين يدي رسول الله ﷺ، وتتابع الناس حتى أتوا بكومين من طعام وثياب؛ فتهلل وجه النبي ﷺ^(١).

سورة النساء تظهر المجتمع المسلم من رواسب الجاهلية:

وهي سورة تُعنى بالعلاقات الاجتماعية؛ فيتناول ثلثها الأول قضايا الأسرة، وتطهيرها من رذائل الجاهلية، ويتناول بقيتها قضايا المجتمع وشؤون الأمة؛ فهي مليئة بالتشريع الذي ينظم الشؤون الداخلية والخارجية للمسلمين.

ومن خلال السورة يتبين ملامح المجتمع الجاهلي، ورواسب الجاهلية، ومن ذلك أنه مجتمع يُجارُ فيه على الصغار والضعاف والنساء؛ فلا يأخذون حقهم في الميراث، ويستأثر به الرجال الأقوياء القادرون على حمل السلاح، والمرأة تعامل بالعسف والجور، محرومة من الميراث، بل إنها تُورث كما يُورث المتاع.

والسورة تقرر أن التنظيمات الاجتماعية كالزواج والميراث، هي شعائر تعبديّة يثاب المرء على فعلها ويعاقب على تركها، ﴿تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ١٣﴾ وَمَنْ يَعِصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُ يُدْخِلْهُ نَارًا خَالِدًا فِيهَا وَلَهُ عَذَابٌ مُهِينٌ ١٤﴾.

وتبين السورة أنه ينبغي على المؤمن أن يكون ولاؤه لله تعالى وإخوانه المسلمين ﴿يَشِيرَ الْمُتَّقِينَ بِأَنَّهُمْ عَدَاوًا أَلِيمًا ١٣٨﴾ الَّذِينَ يَتَّخِذُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ أَبِئِنَّهُمْ عَنْهُمْ أَلْعِزَّة فَإِنَّ أَلْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا﴾ [الآيتان: ١٣٨، ١٣٩].

وأن الهجرة من دار الحرب إلى دار الإسلام قائمة إلى يوم الساعة ﴿وَمَنْ يُهَاجِرْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يَجِدْ فِي الْأَرْضِ مُرَاعًا كَثِيرًا وَسَعَةً﴾ [الآية: ١٠٠]

وأنه يجب على المسلمين نصره المستضعفين من إخوانهم الذين لا يستطيعون الهجرة، والذين يعيشون أقلية مع غير المسلمين مضطهدين مظلومين، ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّيْتُمُ الْمُشْرِكِينَ ظَالِمِينَ

(١) رواه أحمد في «المسند» (٤/ ٣٥٨) برقم (١٩١٧٤) بإسناد صحيح على شرط مسلم، (محققوه) وهو في «صحيح مسلم» برقم (١٠١٧) من حديث جرير بن عبد الله البجلي، وهو حديث طويل، وأوله (كنا عند رسول الله في صدر النهار..)

أَنْفُسِهِمْ قَالُوا فِيمَ كُنْتُمْ قَالُوا كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي الْأَرْضِ قَالُوا أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللَّهِ وَسِعَةً فَتُهَاجِرُوا فِيهَا فَأُولَئِكَ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَسَاءَتْ مَصِيرًا ﴿٧﴾ إِلَّا الْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ لَا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَلَا يَهْتَدُونَ سَبِيلًا ﴿النساء: ٩٧، ٩٨﴾

والسورة تظهر المجتمع المسلم من رواسب الجاهلية، وتقيم علاقته مع ربه ومع الناس على أساس من التقوى والأخلاق، والآداب وحسن الصلة. ومهمة هذه السورة أنها رفعت النساء من حضيض الجاهلية إلى عدل الإسلام وحضارته، حيث إنهم كانوا يأكلون أموال اليتامى منهن، ويتزوّجون ما لا يُحصى من النساء، وكانت المرأة تُورث كالمتاع والمال، فجاء الإسلام بأحكام تشريعية في هذه السورة رفع فيها من شأن المرأة، وأعلى من قدرها ومكانتها، وجعل لها حق في الميراث بدلاً من أن كانت تُورث قبل الإسلام.

وهكذا فإن محور سورة النساء: هو تنظيم العلاقات الاجتماعية في المجتمع الصغير، وهو محيط الأسرة، والمجتمع الكبير، وهو شؤون الأمة، فتنتقل السورة من القضايا الداخلية للمجتمع، إلى وضع قواعد العلاقات والمعاملات الدولية بين المسلمين وغيرهم من المسالمين والمعادين والمحاربين، ومن ثمّ إلى الاستعداد للأمن الخارجي الذي يحفظ على الأمة استقرارها وهدوءها، ويبدأ التنبيه على هذه العلاقات الداخلية والخارجية في السورة بتذكير الناس أنهم جميعاً أقارب من أب واحد، ومن أم واحدة، وأن بينهما رحماً قريبة أو بعيدة، كما جاء ذلك في الآية الأولى من السورة، وهي تعتمد في هذا النص على الأمر بتقوى الله تعالى مرتين في الآية الأولى؛ ليصلوا ما بينهم من رحم.

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ﴾ [النساء: ١]

والحديث عن الأسرة يتناول الثلث الأول من السورة، بالإضافة إلى آيات منها تتوسط السورة وتُختتم بها.

وآيات السورة تتحدث في هذا الثلث عن المهور والزواج والميراث، والمحرمات بالنسب والرضاع والمصاهرة، وبيان الحقوق الزوجية، وعلاج الشقاق والنزاع بين الزوجين، وغير ذلك، ويتخلل كل ما ذكر الأمر بتقوى الله تعالى وحفظ حدوده.

وفي السورة من الأحكام التشريعية ما يلي:

- ١- المحافظة على ما لليتيم.
 - ٢- تعدد الزوجات.
 - ٣- مشروعية الصداق.
 - ٤- الحجر على السفیه والصغير.
 - ٥- دفع مال اليتيم إليه عند بلوغ رشده.
 - ٦- أحكام الموارث.
 - ٧- مَنْ حَضَرَ الْقِسْمَةَ فَلْيَقْتَسِم.
 - ٨- عدم الإضرار بالضعاف.
 - ٩- عقوبة آكل مال اليتيم.
 - ١٠- ميراث الأصول والفروع والأزواج والحواسي.
 - ١١- عقوبة السحاق.
 - ١٢- عقوبة اللواط.
 - ١٣- التوبة وشروطها.
 - ١٤- النهي عن أخذ شيء من مهر المرأة المدخول بها عند طلاقها.
 - ١٥- المحرمات من النساء.
 - ١٦- نكاح الرقيقات.
 - ١٧- العلاقات المالية في الإسلام.
 - ١٨- اجتناب الكبائر يكفر الصغائر.
 - ١٩- النهي عن تمنى المرأة خصائص الرجل.
 - ٢٠- نسخ الميراث بالتبني والحلف والأخوة.
 - ٢١- قوامة الرجل وأسبابها.
 - ٢٢- عدم صحة صلاة السكران والجنب.
 - ٢٣- عدم صحة صلاة الحائض والنفساء.
 - ٢٤- أحكام التيمم.
- ويتناول ثلثا السورة تنظيم شؤون الأمة داخليًا وخارجيًا.
- وفي هذا المقام نتحدث عن اليهود والمنافقين والنصارى:

حديث السورة عن اليهود:

وفيما يتعلق باليهود وهم الطائفة الأولى - الذين جاء ذكرهم في السورة في ثلاث عشرة آية منها، وكانوا قد اتخذوا لهم مستوطنات بجوار المدينة المنورة انتظارًا لمجيء النبي ﷺ إليها، كما هو مقرر في توراتهم - فإن السورة تُشَنُّ عليهم حملة عنيفة، وتستنكر أنهم أضاعوا كثيرًا من الوحي الذي نزل إليهم، فحرّفوه وغيّروه وبدّلوه، وقالوا: هو من عند الله، وما هو من عند الله، وقالوا: سمعنا وعصينا، والله تعالى يهددهم بأن يطمس على

وجوههم فيردها على أديبارها ﴿يَتَأَيُّهَا الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ ءَامِنُوا بِمَا نَزَّلْنَا مُصَدِّقًا لِمَا مَعَكُمْ مِّن قَبْلِ أَن نَّطْمِسَ وُجُوهًا فَنَرُدَّهَا عَلَىٰ أَدْبَارِهَا أَوْ نَلْعَنَهُمْ كَمَا لَعَنَّا أَصْحَابَ السَّبْتِ وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ مَفْعُولًا﴾ [الآية ٤٧]، وقد محا الله آثارهم من المدينة وما حولها، وطمس وجودهم بها.

ولما سئل اليهود: أي من المسلمين والوثنيين أقرب إلى الحق؟ كان جوابهم: أن الوثنية خير من الإسلام! ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِّنَ الْكِتَابِ يُؤْمِنُونَ بِالْجِبْتِ وَالطَّاغُوتِ وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا هَؤُلَاءِ أَهْدَىٰ مِنَ الَّذِينَ ءَامَنُوا سَبِيلًا﴾ (٥١) أُولَٰئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ وَمَن يَلْعَنِ اللَّهُ فَلَن نَّجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا﴾ [الآيتان: ٥١، ٥٢] وقد حملهم على هذا حسدهم لخاتم النبيين ﷺ وللعرب؛ أن انتقلت النبوة إليهم بعد ما ظلت فيهم ردحاً من الزمن، فحسدوا الناس على ما أتاهم الله من فضله، ﴿أَمْ يَحْسُدُونَ النَّاسَ عَلَىٰ مَا ءَاتَاهُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ فَقَدْ ءَاتَيْنَا آلَ إِبْرَاهِيمَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَءَاتَيْنَاهُم مَّلَكًا عَظِيمًا﴾ (٥٢) فَمِنْهُمْ مَّنْ ءَامَنَ بِهِ وَمِنْهُمْ مَّنْ صَدَّ عَنْهُ وَكَفَىٰ بِجَهَنَّمَ سَعِيرًا﴾ [الآيتان: ٥٤، ٥٥]

وسمعناهم في عصرنا حين دخلوا القدس ١٩٦٧م يهتفون بالثارات القديمة قائلين: محمد مات، وخلف بنات!

فهل نعود إلى ربنا؟ ونوحد صفوفنا؟ ونسخر طاقاتنا المادية والعلمية لبناء جيش إسلامي موحد؟ وتصنيع مختلف وسائل الحرب؛ كي نستقل عن عدونا، فنسترد مقدساتنا، ونحمي ديارنا، ونشر دين ربنا؟

حديث السورة عن المنافقين:

والطائفة الثانية التي تتحدث عنها السورة؛ لما لها من خطر على الإسلام وأهله، هي طائفة المنافقين الذين يُظهرون ما لا يُبطنون، ويبدأ الحديث عنهم بقصة المنافق الذي رفض التحاكم إلى الرسول ﷺ فيما بينه وبين خصمه اليهودي؛ لعلمه أن النبي ﷺ يقضي بالحق، ولا يأخذ رشوة، وطلب التحاكم إلى طاغوت من طواغيت الكفر والشرك ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ ءَامَنُوا بِمَا نُزِّلَ إِلَيْكَ وَمَا أَنْزَلَ مِن قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُوا إِلَى الطَّاغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوا أَن يَكْفُرُوا بِهِ﴾ [الآية: ٦٠].

وقد يكون المنافق قريباً منك ببدنه، ولكنه بعيد عنك بقلبه وروحه، والمنافقون يكرهون

الحكم بما أنزل الله، ويكرهون الدفاع عن الحق، ويكرهون القتال في سبيل الله ﴿وَلَوْ أَنَّا كَتَبْنَا عَلَيْهِمْ أَنِ اقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ أَوْ أَخْرِجُوا مِنْ دِيَارِكُمْ مَا فَعَلُوهُ إِلَّا قَلِيلٌ مِّنْهُمْ﴾ [الآية: ٦٦].

والسورة تنفي الإيمان عن كل من لم يقبل حكم الله تعالى، أو يكون في نفسه منه شيء ﴿فَلَا وَرَيْكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾ [١٥].

والمنافقون يشبطون الهمم التي ترفع راية الجهاد في سبيل الله ﴿وَإِنْ مِنْكُمْ لَمَن لَّيْبِطُنَّ﴾ [٧٢]. ثم هم يفرحون بما يصيب المؤمن من نكبات، ويحزنون لما يسرهم، وهم يروجون الإشاعات في قضايا الدولة الكبرى؛ لتمزيق الصف وتفريق الأمة وإذاعة الفتنة ﴿وَإِذَا جَاءَهُمْ أَمْرٌ مِّنَ الْأَمْنِ أَوْ الْخَوْفِ أَذَاعُوا بِهِ﴾ [٨٣].

وكثيراً ما ينخدع المؤمنون بظاهر المنافقين، فيفضحهم الله تعالى ويكشف سترهم ﴿فَمَا لَكُمْ فِي الْمُنَافِقِينَ فِتْنَةٍ وَاللَّهُ أَرْكَسُهُمْ بِمَا كَسَبُوا﴾ [٨٨].

والمنافقون لا يباليون بتجريح علماء الإسلام، والتشكيك في الإسلام بصورة، أو بأخرى. ولذا: فإن الله تعالى نهانا أن نجالس أمثال هؤلاء ﴿وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ أَن إِذَا سَمِعْتُمْ ءَايَةَ اللَّهِ يُكْفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلَا تَقْعُدُوا مَعَهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ إِذْكُمْ إِذَا مَثَلُهُمْ إِنَّ اللَّهَ جَامِعُ الْمُنَافِقِينَ وَالْكَافِرِينَ فِي جَهَنَّمَ جَمِيعًا﴾ [٩٠].

ومن شأنهم أنهم يتخذون الكافرين أولياء من دون المؤمنين، يبتغون عندهم العزة والحماية والقوة، وهم يظنون أنهم يخادعون الله تعالى، والله تعالى يجازيهم على أعمالهم، ومن شأنهم أنهم إذا قاموا إلى الصلاة قاموا كسالى، يراؤون الناس ولا يذكرون الله إلا قليلاً، مذبذبين بين هؤلاء وأولئك.

حديث السورة عن النصارى:

أما الطائفة الثالثة فهم النصارى الذين غالوا وبالغوا في شأن عيسى عليه السلام حتى غلبت عليهم الحيرة، فزعموا أنه إله وعبدوه، ومع هذا فقد زعموا أنه قد صُلب وقُتل، مع اعتقادهم بأنه إله! كما زعموا أنه ابن للإله، واخترعوا فكرة التثليث، وصاروا فرقاً وشيعاً وأحزاباً، والمسيح لن يستكف أن يكون عبداً لله ولا الملائكة المقربون، وسبحان الله تعالى أن يكون له ولد، له ما في السموات وما في الأرض، فهو الذي خلق ورزق، وهو

الذي خلق النطفة والبويضة، وهو الذي يدبر شئون خلقه ﴿إِنَّمَا اللَّهُ إِلَهُ وَاحِدٌ﴾ [١٧١] .

هذا: إلى جانب كثير من الموضوعات التي تناولتها السورة: كالجهاد، والهجرة، وصلاة الخوف، وحكم القتل الخطأ والعمد، والحث على التوبة، والوصية بالوالدين والأقارب واليتامى والمساكين والجيران، وأحكام الغسل والتميم، والأمر بأداء الأمانات إلى أهلها، وطاعة الله والرسول وأولي الأمر، ورد التحية بمثلها أو أحسن، ومغفرة الذنوب عدا الشرك بالله تعالى في آيتين من السورة، والنهي عن تغيير خلق الله، والإيمان برسل الله وأنبيائه جميعاً، وخُتِمت السورة بآية الكلاله.

موضوعات السورة: ويمكن تقسيم موضوعات السورة على النحو التالي:

١- جاء الحديث عن أحكام الأسرة وتطهير المجتمع من رواسب الجاهلية، بإقامة حدود الله تعالى وامثال أمره واجتناب نهيه، وهذا من أول السورة إلى الآية الثالثة والأربعين، يتبعها أربع آيات في وسط السورة من ١٣٧-١٤٠ وآخر آية في السورة. ويتخلل ذلك: الترغيب فيما عند الله تعالى من ثواب، والترهيب مما عنده من عقاب، فالقرآن كتاب هداية يتخول الناس بالموعظة والتذكير.

٢- ويبدأ الحديث عن أهل الكتاب من الآية الرابعة والأربعين إلى الآية السبعين، وما يتخللها ويعقبها من آيات الوعظ والتذكير، ومن الآية الثالثة والخمسين بعد المئة إلى الآية الخامسة والسبعين بعد المئة، وما يتخللها من الحديث عن رسل الله تعالى صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين.

٣- أما آيات الهجرة والجهاد فهي من الآية الحادية والسبعين إلى الآية الرابعة بعد المئة تنتهي بصلاة الخوف.

٤- والآيات التي تتحدث عن المنافقين تبدأ من الآية السابعة والثلاثين بعد المئة إلى الآية السابعة والأربعين بعد المئة، وهي تشمل قواعد المعاملات المحلية والدولية، والعدل في الإسلام.

إلى جوار آيات الربط والتذكير بالله تعالى التي تتخلل هذه الموضوعات للترغيب فيما عنده من ثواب والترهيب مما عنده من عقاب للوصول إلى ما يهدف إليه القرآن من هداية البشر.

تَفْسِيرُ السُّورَةِ

مَرْجِعُ النَّاسِ إِلَى أَصْلِ وَاحِدٍ

١ - ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ^(٢) إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا ﴿١﴾﴾

ابتدأت السورة بأن بيّن الله تعالى للناس، أنهم جميعاً خُلِقُوا من نفس واحدة، وأن صلة الرحم موجودة بين الخلق جميعاً ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ﴾ يا أمة الدعوة، يا أمة الإجابة ﴿اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ﴾ هذا النداء يشمل جميع المكلفين، ويشير إلى أمرين: أحدهما: وحدة الاعتقاد بأن ربهم واحد، فهو الذي خلقهم ورزقهم، وأحياهم ويميتهم، ويدبر أمرهم.

وثانيهما: وحدة النوع والتكوين، على اختلاف ألوانهم وألوانهم وأجناسهم. والنفس الواحدة هي آدم ﷺ، وخلق الله من هذه النفس زوجها حواء، والذي عليه جمهور العلماء أن (مِنْ) للتبعيض، وقيل: إنها للجنس، في قوله تعالى: ﴿وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا﴾.

كما صح في الحديث الذي في الصحيحين وغيرهما عن أبي هريرة ؓ أن رسول الله ﷺ قال: «استوصوا بالنساء؛ فإن المرأة خلقت من ضلع، وإن أعوج شيء في الضلع أعلاه، فإن ذهبت تقيمه كسرته، وإن تركته لم يزل أعوج، فاستوصوا بالنساء»^(٣) هذا لفظ البخاري.

ولفظ مسلم عن أبي هريرة أيضاً أن النبي ﷺ قال: «إن المرأة خُلِقَتْ من ضلع، وإن أعوج شيء في الضلع أعلاه، فإن ذهبت تقيمه كسرته، وإن استمتعت بها، استمتعت بها وفيها عوج»^(٤).

(١) قرأ عاصم وحزمة والكسائي وخلف العاشر (تَسَاءَلُونَ) بتخفيف السين على حذف إحدى التائين؛ لأن أصلها: تتساءلون، وقرأ الباقر (تَسَاءَلُونَ) بتشديد السين، على إدغام التاء في السين
(٢) قرأ حمزة (وَالْأَرْحَامَ) بالخفض عطفًا على الضمير في (به)، وقرأ الباقر (وَالْأَرْحَامَ) بالنصب على لفظ الجلالة (الله).

(٣) متفق عليه، وهذا لفظ البخاري (٢٦١/٦) برقم (٣٣٣١، ٥١٨٦) ومسلم (١٠٩١/٢) برقم (١٤٦٨).

(٤) «صحيح البخاري» برقم (٥١٨٤) و«صحيح مسلم» برقم (١٤٦٨).

أي: أنها خلقت من ضلع آدم وهو نائم.

قال النووي: وفيه دليل لما يقوله بعض الفقهاء: إن حواء خلقت من ضلع آدم^(١).

وقد صح في حديث سمرة بن جندب رضي الله عنه أنه كان يخطب على منبر البصرة ويقول: سمعت رسول الله ﷺ يقول «إن المرأة خلقت من ضلع، وإنك إن تُردَّ إقامة الضلع تكسرهما، فدارها تعيش بها»^(٢).

وفي الأثر: «أن المرأة لما خلقت من الرجل، كان همها الرجل، وأن الرجل لما خلق من تراب، كان همه التراب».

كما جاء عن ابن عباس رضي الله عنه قال: خلقت المرأة من الرجل، فجعلت نهمتها في الرجل، فاحبسوا نساءكم، وخلق الرجل من الأرض، فجعلت نهمته في الأرض^(٣) والنهمة: الحاجة. وورد أن آدم لما استيقظ رأى حواء عند رأسه، فسألها من أنت؟ قالت: امرأة لتسكن إليها، فمال إليها، وذلك قبل دخوله الجنة، وقيل: إن ذلك حدث وهو في الجنة.

﴿وَبَثَّ مِنْهُمَا﴾ أي: من آدم وحواء ﴿رَجُلًا كَثِيرًا وَنِسَاءً﴾.

ثم أمرت الآية الناس مرة ثانية بتقوى الله تعالى لبيان عظيم حق الله سبحانه على عباده، وتأكيذاً لصلة الرحم فقال تعالى: ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ﴾.

أي: يسأل بعضكم بعضاً بالله سبحانه، فيقول: أسألك بالله أن تفعل كذا، وأنا شددك صلة الرحم والقربة التي بيننا.

واتقوا الأرحام أن تقطعوها، فإن قطيعة الرحم فساد كبير في الأرض، يستوجب مقت الله تعالى وغضبه ولعنته، وكان أهل الجاهلية يسأل بعضهم بعضاً بالرحم، وكانت قريش تحلف بأبائهم، فجاء النهي في الإسلام عن هذا وذاك.

(١) «شرح مسلم» (٥٧/١٠).

(٢) المسند (٢٠٠٩٣) حديث صحيح ورجاله ثقات كما قال محققوه، وأخرجه ابن أبي شيبة (٢٧٥/٥) والبراز (١٤٧٦) «كشف»، «وابن حبان» (٤١٧٨) والطبراني (٦٩٩٢).

(٣) رواه ابن أبي حاتم (٤٧١٨) وابن المنذر (١٣٠٤) والبيهقي في «الشعب» (٧٧٩٨).

عن ابن عمر رضي الله عنهما أن النبي ﷺ قال: «من كان حالفًا فليحلف بالله، لا تحلفوا بأبائكم»^(١).
وعنه أيضًا رضي الله عنهما أن النبي ﷺ: «من حلف بغير الله فقد كفر و أشرك»^(٢).

أما فيما يتعلق بصلة الرحم فقد وردت أحاديث عدة نذكر منها:

- ١- ما رواه أبو هريرة رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «لما خلق الله الخلق قامت الرحم، فقالت: هذا مقام العائد بك من القطيعة، قال سبحانه: أما ترضين أن أصل من وصلك، وأقطع من قطعك؟ قالت: بلى، قال: فذاك لك»، ثم قرأ ﷺ: ﴿فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ تَوَلَّيْتُمْ أَنْ تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَتُقْطِعُوا أَرْحَامَكُمْ﴾ (٣١) أُولَئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فَأَصَمَّهُمْ وَأَعَمَّى أَبْصَرَهُمْ ﴿٣٢﴾ [محمد]
- ٢- وعن عائشة رضي الله عنها قالت: قال رسول الله ﷺ: «الرحم معلقة بالعرش، تقول: من وصلني وصله الله، ومن قطعني قطعه الله»^(٤).

٣- وعن جبير بن مطعم رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «لا يدخل الجنة قاطع»^(٥).

وأن من يصل أرحامه يصله الله تعالى برحمته وفضله، ويوسّع له في رزقه، ويبارك له في عمره.

- ٤- وفي الصحيحين عن أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «من سرّه أن يُبْسَطَ عليه من رزقه، ويُنسأ في أثره، فليصل رحمه»^(٦).

وقد استُعيّر اسم الرحم للقرابة؛ لأنهم خرجوا من رحم واحدة، أو هو مشتق من الرحمة.

(١) أخرجه البخاري (٣٨٣٦، ٦٦٤٨) ومسلم (١٦٤٦) وذكره السيوطي في الجامع الصغير (٨٩٦٦) وانظر «المسند» برقم (٤٧٠٣).

(٢) أخرجه أحمد في المسند (٦٠٧٢) رجاله رجال مسلم غير سعد بن عبيدة فهو من رجال الشيخين (محققوه) والترمذي (١٥٣٥) والحاكم (٤٩٧/٤) في المستدرک عن ابن عمر، وحسنه السيوطي في الجامع الصغير (٨٦٤٢) وأخرجه أيضًا أبو داود (٣٢٥١) وابن حبان (٤٣٥٨).

(٣) البخاري (٤٨٣٠، ٥٩٨٧) ومسلم (٢٥٥٤).

(٤) البخاري (٥٩٨٩) و«صحيح مسلم» (٢٥٥٥).

(٥) البخاري (٥٩٨٤) ومسلم (٢٥٥٦).

(٦) البخاري (٢٠٦٧، ٥٩٨٥) و«صحيح مسلم» (٢٥٥٧).

٥- وأخرج الحاكم بسنده عن ابن عباس رضي الله عنه قال: «إن الرحم لتقطع، وإن النعمة لتكفر، وإن الله إذا قارب بين القلوب لم يرحزحها شيء أبداً، ثم قرأ: ﴿لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مَّا أَلْفَتْ بِكَ قُلُوبُهُمْ﴾ قال: وقال رسول الله ﷺ: «الرحم شُجْنَةٌ مِنَ الرَّحْمَنِ، وإنها تجيء يوم القيامة تتكلم بلسانٍ طلق ذلق، فمن أشارت إليه بوصل وصله الله، ومن أشارت إليه بقطع قطعه الله»^(١).

٦- وفي البخاري عن عبد الله بن عمرو رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «ليس الواصل بالمكافئ، ولكن الواصل مَنْ إِذَا قُطِعَتْ رَحِمُهُ وَصَلَهَا»^(٢).

ومما يدل على تعظيم صلة الرحم قديماً وحديثاً ما ورد أن النبي ﷺ حين قرأ صدر سورة فصلت على عتبة بن ربيعة، فلما بلغ قوله تعالى: ﴿فَإِنْ أَعْرَضُوا فَقُلْ أَنْذَرْتُكُمْ صَاعِقَةً مِثْلَ صَاعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ﴾ [فصلت: ١٣] فأخذت عتبة، رهبة، وقال: ناشدتك الله والرحم^(٣).

﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ أي: مراقباً عليكم في جميع أقوالكم وأعمالكم، حافظاً لها، عالماً بها. وقد صحَّ في الحديث عن عمر رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال عن الإحسان: «أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك»^(٤).

ولهذه التقوى التي أمرنا بها في الآية آثار، هذه الآثار تنعكس على المجتمع المسلم في تصرفاته وأقواله وأعماله، من ذلك:

النهي عن أكل مال اليتيم؛ فإن أكل مال اليتيم من السبع الموبقات المهلكات، ومن عظام الذنوب وكبائرها.

ومثل أكل مال اليتيم كمن يأكل في بطنه ناراً، وإلى هذا سيؤول حاله يوم القيامة عقوبة له، وسيكون هذا المال ناراً يخرج من فيه، ومن سَمِعَهُ وبصره.

(١) قال الحاكم: هذا حديث صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه بهذا السياق، «المستدرک» (٣٠١/٢) ووافقه الذهبي، وأخرج البخاري الجزء الثاني المرفوع منه عن عائشة برقم (٥٩٨٩) وفي مسلم (٢٥٥٥) وعن أبي هريرة في البخاري (٥٩٨٨) ومسلم (٢٥٥٤).

(٢) البخاري (٥٩٩١).

(٣) ينظر: معالم التنزيل للبخاري (١٦٧/٧)، والمتخبر لعبد بن حميد (١١٢١) ومسند أبي يعلى (٣٤٩/٣) والسيرة النبوية لابن هشام (٢٩٣/١).

(٤) جزء من حديث عمر بن الخطاب في «صحيح مسلم» برقم (٢٨).

ومجمل معنى الآية: (يا أيها الناس خافوا الله، والتزموا أمره، واجتنبوا نهيه؛ فهو الذي خلقكم من نفس واحدة، هي آدم ﷺ، وخلق منها زوجها، هي حواء، ونشر منهما في أنحاء الأرض رجالاً كثيراً ونساءً كثيرات، وراقبوا الله الذي يسأل به بعضكم بعضاً، واحذروا أن تقطعوا الأرحام، إن الله مراقب لجميع أحوالكم)^(١).

ثم ذكرت السورة بعد ذلك جملة من التشريعات والأحكام: منها أربعة وعشرون حكماً تشريعياً

الْحُكْمُ الْأَوَّلُ: الْمُحَافَظَةُ عَلَى مَالِ الْيَتِيمِ وَتَنْمِيَّتُهُ

٢- ﴿وَأَتُوا الْيَتَامَى (٢) أَمْوَالَهُمْ وَلَا تَبَدَّلُوا الْوَحْيَ بِالطَّبِيبِ وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ إِلَى أَمْوَالِكُمْ إِنَّكُمْ كَانَ حُوبًا كَبِيرًا﴾

وبعد افتتاح السورة بهذه الآية، مصدرة بالأمر بتقوى الله تعالى مرتين، تبدأ بذكر أحكام التشريع بعد أن ردت الناس إلى خلقهم الأول، وبيّنت وحدة النسب بينهم، وأنهم يرجعون إلى رحم واحدة، وأن المرأة من الرجل، وليست منبعاً للرجس والنجاسة، ولا أصلاً للشر والبلاء، وأن قاعدة الحياة البشرية هي الأسرة، وأول ذلك: المحافظة على مال اليتيم:

فيخاطب الله سبحانه المؤمنين في الآية الثانية من السورة ويأمرهم بأداء حق من مات أبائهم وهم دون سن البلوغ، وكانوا أوصياء عليهم، فيقول لهم: أعطوهم أموالهم إذا وصلوا سن البلوغ، ورأيتم منهم قدرة على حفظ أموالهم، ولا تأخذوا الجيد من أموالهم، وتجعلوا مكانه الرديء من أموالكم، إن من تجرأ على ذلك فقد ارتكب إثماً عظيماً.

واليتيم هو: من مات والده وهو دون سن البلوغ، ولم يبلغ مبلغ الرجال، فإن بلغ الصبي سن الحلم، وصار يستغني بنفسه زال عنه اسم اليتيم.

وقال ابن عباس ؓ: هو من أنس منه الرشد من الأيتام. قلت: ولعل هذا أصوب.

ورد في أسباب النزول: أن رجلاً من غطفان كان وصياً على ابن أخيه اليتيم الذي في حجره، وعنده أموال كثيرة له، فلما بلغ هذا اليتيم رُشدَه وطلب ماله من عمه، امتنع عن

(١) «التفسير الميسر» نخبة من العلماء.

(٢) أمال لفظ (اليتامى) حمزة والكسائي وخلف وقللها ورش بخلفه، وفتحها الباقون.

إعطائه له، فاختصما إلى النبي ﷺ فأنزل الله تعالى هذه الآية^(١).

وقال جابر بن زيد: نزلت هذه الآية في الذين لا يورثون الصغار مع وجود الكبار في الجاهلية^(٢)، فأمر تعالى بعدم الطمع فيها، وبتعيينها ودفعها لهم والقيام على حفظها وعدم تبديلها، حيث إن الرجل منهم كان يعمد في تصرفاته إلى الشاة السمينية فيأخذها، ويعطي الشاة الهزيلة لليتيم، وربما يعمد إلى أخذ التمر الطيب إلى نفسه، ويعطي التمر الرديء إلى اليتيم، هذه هي الصورة التي ترسمها السورة، وهي تنعكس علينا في مجال العقارات والأموال والتجارات والسيارات، وفي أي مجال فيه حق ثابت، أو منقول يتعلق باليتيم، إذا كان الإنسان وصياً أو ولياً على مال اليتيم، ولذا قال تعالى: ﴿وَلَا تَبَدَّلُوا الْحَيْثَ بِالطَّيِّبِ﴾ أي: ولا تستبدلوا الحرام من أموالهم بالحلال من أموالكم فتأكلوا مال اليتامى المحرم عليكم، وتركوا مالكم الذي أحله الله لكم، وكلمة الخبيث تشمل الرديء، فلا تأخذوا الجيد من أموالهم وتجعلوا مكانه الرديء من أموالكم، وتدل الآية على أن أكله حرام بأية طريقة من الطرق المحرمة.

قال تعالى: ﴿وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ إِلَىٰ أَمْوَالِكُمْ﴾ أي: لا تضموا أموالهم إلى أموالكم فتخلطوها وتنفقوا منهما معاً، لتحتالوا بذلك على أكل أموالهم، فربما يكون في هذا جور وظلم على مال اليتيم، ولا تستبدلوا ما حرمه الله عليكم من أموالهم بالحلال من أموالكم، فتأخذوا أموالهم وتأكلوها ظلماً، وتركوا ما أباح الله وتأكلوا ما حرم الله، وسواء أكان أكل مال اليتيم عن طريق خلط أموالكم بأموالهم، أو بدون خلط فهو حرام، وإنما ذكر هذا القيد في الآية؛ لأنه الغالب، وقد أمر الله بإعطاء اليتامى أموالهم بشرطين:

الشرط الأول: بلوغهم سن الحُلُم.

الشرط الثاني: إيناس الرشد منهم، كما قال تعالى: ﴿فَإِنْ عَاسَمْتُمْ مِنْهُمْ رُشْدًا فَادْفَعُوا إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ﴾ [النساء: ٦] وفي هذا أمر بإصلاح مال اليتيم كما أمرنا الله تعالى.

وأكل مال اليتامى من كبائر الذنوب، قال تعالى: ﴿إِنَّهُ كَانَ حُوبًا كَبِيرًا﴾ فيه ظلم وإثم عظيم، وهذا الظلم الكبير له عاقبة وخيمة في الدنيا والآخرة ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَىٰ ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا﴾ [النساء: ١٠].

(١) جاء هذا عن سعيد بن جبيرة عند ابن أبي حاتم (٤٧٢٨، ٤٧٣٥).

(٢) أخرجه الطبري (٣٥٣/٦).

ولذا فإنه لما نزلت هذه الآية قال الرجل الذي نزلت بسببه هذه الآية ممثلاً في ذلك أمر الله ﷻ، قال: أطعنا الله وأطعنا الرسول، نعوذ بالله من الحوب الكبير، ودفع إلى اليتيم ماله، فقال النبي ﷺ: «من يوق شح نفسه يطع ربه - هكذا - فإنه يحل داره - يعني جنته» فلما قبض الصبي ماله أنفق في سبيل الله تعالى، فقال النبي ﷺ: «ثبت الأجر وبقي الوزر» فقالوا: كيف ثبت الأجر وبقي الوزر؟ قال: «ثبت الأجر للغلام، وبقي الوزر على أبيه»^(١).

وورد في معنى الحوب الكبير أن أبا طلحة لما أراد أن يطلق أم سليم، قال النبي ﷺ: «إن طلاق أم سليم لحوب كبير»^(٢).

الحكم الثاني: تعدد الزوجات وتحديدُهُ بأربع

٣- ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُوا فِي الْيَنْبَىٰ فَانكِحُوا مَا طَابَ لَكُمْ مِنَ النِّسَاءِ مَثْنَىٰ وَثُلَاثَ وَرُبْعَ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا فَوَاحِدَةً﴾^(٤) أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ ذَلِكَ آذَنٌ أَلَّا تَعُولُوا ﴿٣﴾

عن عروة بن الزبير أنه سأل عائشة رضي الله تعالى عنها عن قوله تعالى: ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُوا فِي الْيَنْبَىٰ﴾ فقالت: يابن אחתי هذه اليتيمة تكون في حجر وليها، تشركه في ماله، ويعجبها مالها وجمالها، فيريد وليها أن يتزوجها بغير أن يقسط في صداقتها، فيعطيها مثل ما يعطيها غيره، فنهوا عن ذلك إلا أن يقسطوا لهن، ويبلغوا لهن أعلى ستهن في الصداق، وأمرُوا أن ينكحوا ما طاب لهم من النساء سواهن، قال عروة: قالت عائشة: وإن الناس استفتوا رسول الله ﷺ بعد هذه الآية، فأنزل: ﴿وَيَسْتَفْتُونَكَ فِي النِّسَاءِ﴾ وفيها ﴿وَرَغَبُونَ أَنْ تَنْكِحُوهُنَّ﴾ أي: يرغب أحدكم عن يتيمة حين تكون قليلة المال والجمال؛ فنهوا أن ينكحوا من رغبوها في مالها وجمالها من يتامى النساء إلا بالقسط، من أجل رغبتهم عنهن إذا

(١) «تفسير الخازن والقرطبي» للآية.

(٢) أخرجه الحاكم وصححه في «المستدرک» (٣٠٢/٢) والبيهقي في «السنن الكبرى» (٣٢٣/٧) وابن مردويه، والبخاري من حديث أنس بن مالك عن علي بن عاصم عن حميد الطويل، قال الهيثمي في «المجمع» (٢٦٢/٩): فيه علي بن عاصم وهو ضعيف وقد وثق، وبقي رجاله رجال الصحيح.

(٣) أخفى أبو جعفر النون عند الخاء من (وإن خفتم) (فإن خفتم). وأظهرها غيره.

(٤) قرأ أبو جعفر (فواحدة) بالرفع خبر لمبتدأ محذوف، أي: فالمقنع واحدة أو فاعل لفعل محذوف، أي: فيكفي واحدة، وقرأ الباقون (فواحدة) بالنصب على أنها مفعول لفعل محذوف أي: فانكحوا واحدة.

كن قليلات المال والجمال^(١).

هذا: والحديث عن تعدد الزوجات جاء عرضاً في الآية، ولم يكن مقصوداً في حد ذاته، بل جاء في معرض الخوف من عدم إعطاء مهر المثل لليتمة إذا رغب وصيها في الزواج منها، فأمر أن يتركها ويتزوج غيرها من النساء، وله أن يتزوج اثنتين أو ثلاثاً أو أربعاً، وإن أنس في نفسه عدم العدل بالمال فليكتف بواحدة، أو بما عنده من الإماء، وهذا أقرب إلى عدم الجور والتعدي.

والواو لإباحة التعدد بأربع، وليست للجمع بين نساء تسع كما يقول بعضهم، لأن التسعة لها عدد معين، ولو كان مراداً في الآية لصرح الله تعالى به، والبدء بـ ﴿مَتْنٍ﴾؛ لأن من نزلت فيهم الآية؛ كانت لهم زوجات أكثر من أربع أعطوهم أموالهم وحقوقهم.

أخرج البخاري عن عائشة ؓ أن رجلاً كانت له يتيمة، فنكحها، وكان لها عَدَق -أي: نخلة- وكان يمسكها عليه، ولم يكن لها من نفسه شيء، فنزلت فيه ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُوا فِي الْيَتَامَى﴾^(٢) أحسبه قال: كانت شريكته في ذلك العَدَق وفي ماله.

والعَدَق، بفتح العين: النخلة، وبكسرهما: العُرجون الذي فيه الشماريح.

وعن سهل بن عثمان قال: حدثنا يحيى بن أبي زائدة، عن هشام بن عروة، عن أبيه، عن عائشة في قوله تعالى: ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُوا فِي الْيَتَامَى﴾ قالت: أنزلت هذه الآية في الرجل يكون له اليتيمة، وهو وليها، ولها مال، وليس لها أحد يخاصم دونها، فلا يُنكحها حُباً لمالها، ويضُرُّ بها، ويسيء صحبتها، فقال تعالى: ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُوا فِي الْيَتَامَى فَانكِهُوا مَا طَابَ لَكُمْ مِنَ النِّسَاءِ﴾ يقول: ما أحللت لك، ودع هذه^(٣).

وقال سعيد بن جبير، وقتادة، والربيع، والضحاك، والسدي: كانوا يتخرجون عن أموال اليتامى، ويترخصون في النساء، ويتزوجون ما شاءوا، فربما عدلوا، وربما لم

(١) «صحيح البخاري»، كتاب التفسير (٥٣/٦) برقم (٤٥٧٤) والشركة (٢٤٩٤) و«صحيح مسلم» (٤/٢٣١٤) برقم (٣٠١٨) والنسائي (١١٠).

(٢) «صحيح البخاري» برقم (٤٥٧٣).

(٣) أخرجه مسلم برقم (٣٠١٨) والبخاري برقم (٢٤٩٤، ٥٠٦٤) والنسائي (٣٣٤٦) والبيهقي في «السنن» (١٤٢/٧) وابن أبي حاتم (٤٧٤٤، ٤٧٤٥) وابن المنذر (١٣٢٣).

يعدلوا، فلما سألوا عن اليتامى نزلت آية اليتامى ﴿وَأَتُوا الْيَتَامَى﴾ وأنزل الله أيضاً ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ﴾ يقول: كما خفتم ألا تقسطوا في اليتامى، فكذا ذلك خافوا في النساء أن لا تعدلوا فيهن، فلا تتزوجوا أكثر مما يمكنكم القيام بحقهن؛ لأن النساء كاليتامى في العجز والضعف^(١).

قال ابن عاشور: جانبان مستضعفان: اليتيم، والمرأة، وحقان مغبون فيهما أصحابهما: مال اليتامى، ومال النساء، فلذا حرسهما الإسلام أشد حراسة، فابتدأ بالوصية بحق مال اليتيم، وثنى بالوصية بمال المرأة، وتوسط حكم النكاح بين الوصيتين^(٢).

والمقصود بالآية نهْيُ الأولياء والأوصياء عن التزوج من اليتيمات اللاتي تحت ولايتهم أو وصايتهم عند خوف عدم العدل فيهن، بظلمهن والجور عليهن في أكل أموالهن، وأن يتزوجوا بغيرهن.

ويُنهم من الآية ضمناً: النهي عن الزواج بأكثر من أربع؛ لأن لفظ مثني يدل على اثنتين اثنتين، وثلاث يدل على: ثلاث ثلاث، ورباع يدل على أربع أربع، فهي من ألفاظ العدد المكرر، ولا يجمع بينهما بحيث تصبح تسعة.

والمعنى: اقتصروا على اثنتين، أو ثلاث، أو أربع، ولا تتجاوزوا ذلك.

وقد روى أنس رضي الله عنه أن النبي ﷺ تزوج بخمس عشرة امرأة، ودخل منهن بثلاث عشرة، واجتمع عنده إحدى عشرة، ومات عن تسع.

وهذا من خصائص النبي ﷺ: لصالح الدعوة، وتأليف القلوب، ومصلحة الإسلام ولا يجوز ذلك لغيره من الأمة.

وإذا لم يأنس الإنسان في نفسه إصلاح مال اليتيم فلا يتحمل هذه المسؤولية.

ولذا: فإن النبي ﷺ قال لأبي ذر: «يا أباذر، إني أراك ضعيفاً، وإني أحب لك ما أحب لنفسي، لا تأمرن على اثنين، ولا تلين مال يتيم»^(٣).

(١) «أسباب النزول» للواحي (١٢١).

(٢) تفسير «التحرير والتنوير» (٢٣٩/٤) بتصرف.

(٣) «صحيح مسلم» برقم (١٨٢٦).

وَضَعُفُ أَبِي ذَرٍّ مِنْ جِهَةِ الْقُدْرَةِ عَلَى إِدَارَتِهِ، وَلَيْسَ مِنْ جِهَةِ الْأَمَانَةِ.

ولما نزلت هذه الآية تحرج المسلمون أن يكفلوا البنت اليتيمة؛ إذ ربما يكون في هذا ضرر يلحق بها، فمما كان يحدث في الجاهلية أن الرجل يتولى أمر اليتيمة فيعجبه مالها، وإذا كبرت يعجبه جمالها، فيريد أن يتزوجها إذا كان من غير محارمها، ولا يعطيها مثل ما يعطى غيرها من المهر، وربما يمنعها من الزواج فيعضلها لا يتزوجها ولا يزوجه، حتى يبقى المال بين يديه فينتفع به، وظلوا يتخرجون من كفالة اليتيم بعد نزول هذه الآية، وفي نفس الوقت كانوا لا يتخرجون من عدم العدل بين الزوجات، ولا من كثرة الزوجات.

فقد جاء الإسلام فوجد الرجل عنده عشر من النساء، أو عنده ثمان، أو ست، أو خمس نسوة، أو أكثر من ذلك أو أقل، لا يتخرجون في عدم العدل بين الزوجات، ولا في الإكثار منهن، فنزل قول الله سبحانه ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُوا فِي الْيَتَامَى﴾ أي: إن خفتم ألا تعطوهم مهر المثل، أو أن تظلموهم بصورة من الصور، فالنساء كثيرات، لا تتزوجوا هؤلاء اليتامى، اللاتي في حجوركم وتحت كفالتكم ورعايتكم، وأمامكم النساء كثيرات ﴿فَأَنْكِحُوا مَا طَابَ لَكُمْ مِنَ النِّسَاءِ مَثْنَى وَثُلَاثَ وَرُبْعَ﴾ من غير هؤلاء اليتامى اللاتي هن تحت كفالتكم ورعايتكم، انكحوا واحدة، أو اثنتين، أو ثلاثاً إلى أربع، حيث كانوا يتزوجون أكثر من أربع.

ولذلك لما نزلت هذه الآية أمر النبي ﷺ غيلان بن سلمة الثقفي، وكان قد أسلم بعد فتح الطائف، و تحته عشر نسوة فقال له النبي ﷺ: «اختر منهن أربعاً»^(١)، فطلق منهن ستاً، وبقي في ذمته أربع.

وأمر رجلاً آخر كان تحته خمس نسوة قال: فقمتم إلى أطولهن صحبة معي، عجوز

(١) أخرجه أبو داود من طريق هشيم في الطلاق (٢/٢٧٢) وابن ماجه في «السنن» برقم (١٩٥٢، ١٩٥٣) وهو في «صحيح سنن ابن ماجه» (١٥٨٩) قال الألباني في «إرواء الغليل»: إسناده حسن (٦/٢٩٥) برقم (١٨٨٣) و«المستدرک» (٢/١٩٢) وابن حبان في «الموارد» برقم (١٣٧٧) من حديث ابن عمر، وفي «المسند» (٤٦٠٩، ٤٦٣١، ٥٥٥٨) وهو حديث صحيح، رجاله ثقات رجال الشيخين كما قال محققوه. وهو في مشكاة المصابيح (٣١٧٦) والترمذي (١١٢٨) والدارقطني (٣/٢٦٩) وغيرهم.

عافر، عاشت معي ستين عامًا، فطلقْتُها، وأمسكتُ الأربعة الباقيات^(١).

وكان عند الحارث بن قيس الأسدي ثمانى نسوة، فقال له ﷺ: «اختر منهن أربعًا»^(٢).

وعن الضحاك بن فيروز الديلمي عن أبيه قال: أتيت النبي ﷺ فقلت: يا رسول الله إني أسلمت وتحتى أختان، فقال ﷺ: «طلق أيتهما شئت»^(٣) وغير ذلك.

فالإسلام في هذه الآية حدّد من كثرة العدد الذي كان في ذمة الرجل قبل ذلك.

حكمة تعدد الزوجات

وفي هذا العدد، من تعدد الزوجات حكم كثيرة، منها:

ما يحدث في الأمم من حروب تُقتل فيها الرجال وتأتي عليهم، ويبقى منهم عدد قليل، كما حدث في ألمانيا إبّان الحرب العالمية الثانية حيث كان أمام كل ثلاثة من النسوة رجل واحد، واضطرت ألمانيا حينها إلى إباحة تعدد الزوجات، وكما يحدث في بعض الدول حاليا كالعراق وفلسطين وأفغانستان، وقبل ذلك في البوسنة والهرسك.

ولا يُقارن بين تعدد الزوجات والزنى؛ إذ ليس هناك وجه للمقارنة، فالزواج حق مشروع، أحله الله تعالى، والزنى من أكبر الكبائر، والعجب أن تعمّد بعض البلاد المسلمة فتُحل الزنى واتخاذ الصديقة، وتحرّم تعدد الزوجات، وتعاقب عليه، وفي هذا استحلال لما حرم الله، وخروج عن حدود الله، وتعدّد على شرع الله، وإنكار لما هو معلوم من الدين بالضرورة.

ولأن الإسلام حرم الزنى وضيق في تحريمه؛ لِمَا يجرّ من فساد الأخلاق واختلاط الأنساب والعائلات، فناسب ذلك التوسع بتعدد الزوجات، لمن كان مجبوراً على حب النساء، ولأن النساء أكثر عدداً وأطول أعماراً من الرجال، وحتى لا يلجأ الرجل للطلاق إلا لضرورة.

(١) «مسند الشافعي» (١٦٠٦) والبيهقي في «السنن الكبرى» (١٨٤/٧).

(٢) «صحيح سنن ابن ماجه» (١٥٨٨) وابن أبي شيبة (٣١٨/٤) والنحاس في «ناسخه» (٢٩٣). وهو حديث حسن صحيح كما قال الألباني في الإرواء (١٨٨٥) وفي صحيح سنن أبي داود (١٩٣٩).

(٣) سنن ابن ماجه (١٩٥١) وهو حديث حسن، كما في صحيح سنن ابن ماجه (١٥٨٧) وصحيح سنن أبي داود (١٩٤٠) وفي الإرواء (٣٣٤/٦).

ماذا يفعل الرجل الذي مرضت امرأته مرضاً مزمناً؟

ماذا يفعل الرجل الذي عنده قوة تستوعب أكثر من امرأة؟ وامرأة لا تطيق ولا تصبر على كثرة الجماع؟

ماذا يفعل الرجل الذي استحالت العشرة بينه وبين زوجته، ولا يوجد بينهما مودة ولا سكناً، ولا حُسن معاملة، وساءت حالتها النفسية؟

ماذا يفعل الرجل تجاه امرأة ناشز، سيئة الأخلاق، بذينة اللسان؟

ماذا يفعل الرجل الذي لا يصبر على ترك النساء مدة الحيض والنفاس؟

لقد شرع الإسلام تعدد الزوجات، وجعل للتعدد حداً من كثرة العدد التي كانت قبل الإسلام لهذه الحُكْم العظيمة وأمثالها؛ إذ لا يصح للمرأة أن تتزوج بأكثر من رجل، ولا تسافح من شئت، ولا تطلق لتتزوج غيره، أو تبقى معه دون عدل.

ولذا: اشترط الإسلام العدل المادي بين الزوجات ﴿فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْلُوا﴾ هذا العدل الذي في الآية يراد به، هو العدل المادي: عدل في النفقة، عدل في المسكن والملبس والمبيت، وحين يقال: المبيت، لا يشترط فيه حصول الجماع، وإنما المقصود: التسوية في المبيت، ليلة وليلة، ونحو ذلك، ثم يحصل الجماع أو لا يحصل، وفي حالة النشوز بين الزوجين، وخوف المرأة من الطلاق والفراق الكامل، يجوز لها أن تصالح الرجل على ترك ليلتها للآخرى، ومن النساء من يُعرضن عن الرجل، ويمتنعن من الجماع عناداً ونشوزاً، فلا شيء على الرجل في مثل هذه الحالة، على ألا يعتمد الرجل قضاء وطره عند واحدة منهن، وإنما يضع في حسابه حقوق الأخريات ووجوب إعفافهن، فإن خفتم أن لا تعدلوا في هذه الأمور فواحدة، هذا الشرط في العدل المادي هو الذي يمكن فيه التسوية.

وفي أثناء السورة بيان للعدل الذي لا يمكن فيه التسوية، وهو العدل في الميل القلبي، ولا ينبغي للرجل أن يظهر هذا الميل للمرأة الأخرى حتى لا تسوء العشرة بينهما، ولا يميل كل الميل في الحب القلبي الذي نفى رب العالمين إمكانية التسوية فيه، بقوله: ﴿وَلَنْ تَسْتَطِيعُوا أَنْ تَعْدِلُوا بَيْنَ الْإِنْسَاءِ وَلَوْ حَرَصْتُمْ﴾ [النساء: ١٢٩] أي: في الميل القلبي، ولذلك فإن رب العزة يقول: ﴿فَلَا تَمِيلُوا كُلَّ الْمَيْلِ﴾ أي: إلى هذه التي تميلون إليها، لا

تميلوا كل الميل لواحدة، فتصبح الأخرى كالمعلقة، فإذا كنت تقضي حاجتك مع الزوجة الأخرى، فأين تقضي حاجتها هي؟ .

وقد جعل الإسلام مخرجاً إذا استحالت العشرة الزوجية، وهذا من رحمة الله تعالى بخلقه فقال: ﴿وَإِنْ يَنْفَرَا بَعْضُكُمَا إِلَى الْآخَرِ فَاجْتَنِبَا وَلَا يَمْلِكَا لِيَوْمِ تَبَايَعِكُمَا شَيْئًا ۚ وَاتَّقُوا اللَّهَ ۚ إِنَّهُ كَانَ شَافِعًا عَظِيمًا﴾ [النساء: ١٣٠].

قال تعالى: ﴿فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا فَوَاحِدَةً أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ﴾ أي فإن خفتُم على أنفسكم شيئاً من الجور أو الظلم وعدم العدل بين الزوجات، فاقصروا على واحدة من النساء، أو اقتصروا على ملك اليمين فإنه لا يجب عليكم القسم بينهما.

أما ملك اليمين: فقد جاء الإسلام فوجد الرق متفشياً منتشراً، فرغب في فك الرقاب، وجعله قربي إلى الله سبحانه، بها يجتاز الإنسان الحاجز الذي يحول بينه وبين الجنة.

قال تعالى: ﴿فَلَا أَقْنَمَ الْعَقَبَةَ﴾ (١١) وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْعَقَبَةُ (١٢) فَكَ رَقَبَةٍ (١٣) أَوْ إِطْعَمٌ فِي يَوْمٍ ذِي مَسْغَبَةٍ (١٤) [البلد] فتعق الرقبة من أكبر الأعمال الصالحة، وقد جعله الإسلام من الكفارات المختلفة، فيقوم مقام صيام ثلاثة أيام: عتق رقبة، ومقام صيام شهرين متتابعين: عتق رقبة، وعند الحنث في اليمين: عتق رقبة، وفي القتل الخطأ: عتق رقبة، وفي كفارة الظهار: عتق رقبة.

فجعل الإسلام عتق الرقبة، بدلاً من صيام شهرين متتابعين، وبدلاً من صيام ثلاثة أيام؛ رغبة من الإسلام في تحرير الرقاب وفكها، وقد رغب في ذلك بشتى الطرق، ولم يبق هناك باب للرق في الإسلام، إلا إذا قاتل المسلمون أعداءهم من غير المسلمين في حرب إسلامية مشروعة، يُتغنى بها وجه الله تعالى لنشر الدعوة وإعلاء كلمة الله تعالى، ورد العدوان، وتحرير المقدسات، ثم انتصروا عليهم، فقتلوهم وأسروا نساءهم، فإنهن يكنّ أسيرات عند المسلمين، والإسلام مع هذا يرغب إما في الفداء، وإما في المن عليهن وعلى الرجال بالعتق، بحيث يمتن المسلمون على هؤلاء الأسرى فيفكون أسرهم، أو يأخذون الفداء منهم، ويُعطونهم إلى ذويهم كما قال تعالى: ﴿فَإِمَّا مَنًّا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَاءً حَتَّى تَضَعَ الْحَرْبُ أَوْزَارَهَا﴾ [محمد: ٤].

فلا تجاوزوا ما فرض الله عليكم ولا تضلوا ﴿ذَلِكَ﴾ أي الاقتصار على زوجة واحدة أو ما ملكت أيمانكم من الأرقاء ﴿أَذَىٰ أَلَّا تَعُولُوا﴾ أي: أقرب ألا تميلوا ولا تجوروا ولا

تظلموا، وفي هذا إشارة ألا يُعرض العبد نفسه للجور والظلم وعدم القيام بالواجب.
وقال الشافعي: ذلك - أي الاقتصار على واحدة، أو على ملك اليمن، أقرب ألا
تكثُر عيالكم، مِن عال الرجل: إذا افتقر، وأعال: إذا كَثُر عياله.

الحُكْمُ الثَّالِثُ: صَدَاقُ الْمَرْأَةِ عَطِيَّةٌ لَهَا

٤- ﴿وَأَتُوا النِّسَاءَ صَدَقَتِهِنَّ^(١) نِحْلَةً فَإِنْ طِبَّنَ لَكُمْ عَنْ شَيْءٍ مِنْهُ نَفْسًا فَكُلُوهُ^(٢) هَنِيئًا^(٣) مَرِيئًا^(٤)﴾

١- في صحيح البخاري وغيره عن أنس أن عبد الرحمن بن عوف تزوج امرأة على وزن
نواة، فرأى النبي ﷺ عليه بشاشة العُرس، فسأله، فقال: إني تزوجت امرأة على وزن
نواة، ومن طريق قتادة قال: وزن نواة من ذهب^(٤).

٢- وفي صحيح مسلم عن الربيع بن سبرة الجهني أن أباه حدثه، أنه كان مع رسول الله
ﷺ فقال: «يا أيها الناس، إني قد كنت أذنتُ لكم في الاستمتاع من النساء، وإن الله قد
حرم ذلك إلى يوم القيامة، فمن كان عنده منهن شيء فليُخلَّ سبيله، ولا تأخذوا مما
آتيتموهن شيئاً»^(٥).

والمراد بالاستمتاع: نكاح المتعة، وبيانه: أنه أُبيح ثم نُسخ، واستقر تحريره إلى يوم
القيامة، وفي الحديث أنه لا يجوز أخذ شيء من مهر النساء.

٣- وأخرج ابن أبي حاتم عن أبي صالح قال: كان الرجل إذا زَوَّج ابنته أخذ صداقها
دونها، فنهاهم الله عن ذلك، وأنزل هذه الآية^(٦).

والمعنى: وأعطوا النساء مهورهن عطية عن طيب نفس منكم؛ لأن هذه المهور قد
فرضها الله لهن، فلا يجوز أن يطمع فيها طامع، أو يغتالها مغتال.

(١) وقف يعقوب بهاء السكت على (صدقاتهن) بخلف عنه؛ لبيان حركة الموقوف عليه.

(٢) وصل ابن كثير هاء (فكلوه) بحرف مد طبيعي.

(٣) قرأ حمزة بإبدال همزة (هنيئاً) و(مريئاً) ياء مع الإدغام عند الوقف.

(٤) «صحيح البخاري» برقم (٢٠٤٩، ٥١٤٨) و«صحيح مسلم» برقم (١٤٢٧).

(٥) «صحيح مسلم» برقم (١٤٠٦).

(٦) «أسباب النزول» للسيوطي (٦٧) وابن كثير (٢/٢١٣).

والخطاب للأزواج؛ قالوا: لأن الرجل كان يتزوج المرأة بلا مهر ويقول لها: أرثك وترثيني؟ فتقول: نعم، فأمرُوا أَنْ يُسْرِعُوا إِلَى إعطاء المهور^(١).

والخطاب في الآية كما هو موجه للأزواج موجه أيضًا إلى أولياء الأمور من الآباء والإخوان وغيرهم ممن يتولَّون أمور النساء في الزواج وغيره، فإن وهبْنَ لهن شيئًا من الصداق عن طيب نفس فلا عليهم أن يأكلوه.

ويؤخذ من الآية أنه لا بُدَّ في الزواج من صداق يُعطى للمرأة، سواء سُمِّي في العقد أم لم يُسمَّ، وسواء أكان مقدمًا، أم كان بعضه مقدمًا وبعضه مؤخرًا، وقد يكون الصداق عقارًا ثابتًا، أو منقولًا ونحو ذلك، وهو عطاء ليس له عوض.

جاءت امرأة مع زوجها إلى شريح القاضي، في عطية أعطتها إياه، ثم رجعت فيها، فقال شريح: رُدَّ عليها عطيتها، فقال الرجل: أليس الله قد قال: ﴿فَإِنْ طِبَّنَ لَكُمْ عَنْ شَيْءٍ مِنْهُ نَفْسًا فَكُلُوهُ هَنَيْئًا مَرِيئًا﴾؟ فقال شريح: لو طابت نفسها لما رجعت فيه.

وكتب عمر إلى قُضاته: إن النساء يُعطين رغبة ورهبة، فأیما امرأة أعطته، ثم أرادت أن ترجع فذلك لها.

قلت: ولعل ذلك ليس من قبيل من يعود في هبته، فقد شبَّه النبي ﷺ بالكلب يعود في قيئه. والصداق الذي يعطى للمرأة حق شخصي لها، ليس لأبيها فيه حق، وليس لزوجها فيه حق، وليس لأثاث البيت فيه حق، بل تأخذ المرأة مهرها تتصرف فيه كيفما تشاء.

وقد رَغِبَ الإسلام في تيسير المهور ونهى عن التغالي فيها، فأيسرهن مهرًا أكثرهن بركة، وقد قال ﷺ للرجل الذي لا يجد ما يتزوج به: «التمس ولو خاتمًا من حديد»، فالتمس فلم يجد شيئًا، فقال له النبي ﷺ: هل معك من القرآن شيء؟ قال: نعم، سورة كذا وكذا، فقال له النبي ﷺ: «قد زَوَّجْتُكَهَا بما معك من القرآن»^(٢).

(١) «تفسير الألوسي» (٤/١٩٨).

(٢) من حديث سهيل بن سعد في «المسند» (٢٢٨٥٠). إسناده صحيح رجاله ثقات، وهو في موطأ مالك (٥٢٦/٢) والبخاري (٢٣١٠، ١٣٥) وأبي داود (٢١١) والترمذي (١١١٤) والنسائي (١٢٣/٦).

ومن التيسير في الزواج جعل المهر أحياناً حفظ سورة قصيرة، أو آية من كتاب الله تعالى، ولا يلزم تقليد المجتمع في الأثاث والحفلات ونحوهما، والأمور تأتي في المستقبل تباعاً.

وقد كان يحدث في الجاهلية أشياء منها: أنه إذا تزوجت المرأة من الأهل والعشيرة تزوجت بدون مهر، يقول لها: أرثك وترثيني بعد الموت، وإذا تزوجت غريباً حُملت إليه على بعير، وهذا هو مهرها.

وهناك نكاح الشغار: وهو أن يتزوج الرجل بنت أو أخت الآخر على أن يزوجه أخته أو ابنته بلا مهر، مقايضة بينهما أو مخالصة، ومن ذلك أن يأخذ الأب، أو الولي المهر لنفسه.

والمهر علامة للترقية بين الزواج المشروع والزنى الممقوت، وكان الناس في الجاهلية يعطون ما يسمونه حُلواناً، ولا تأخذ المرأة منه شيئاً، فأبطل الإسلام ذلك، وجعل المال حقاً للمرأة.

والله سبحانه أنزل هذه الآية؛ لتصحيح مثل هذه الأوضاع، وعدم بخس المرأة وهضم حقوقها، فقال: ﴿وَأَتُوا النِّسَاءَ صَدُقَاتِهِنَّ﴾ أي: المهر ﴿نِحْلَةً﴾ عطية للمرأة بدون مقابل، فريضة على الرجل واجبة ولازمة عن طيب نفس منه، ومنحة للمرأة، تملكه بمقتضى عقد النكاح، اللهم إلا إذا طابت نفسها، عن طيب خاطر منها، أن تعطي الزوج أو تعطي أباه شيئاً منه، هبة منها فإنه يجوز لهم ذلك، فخذوه فهو حلال طيب ﴿فَإِنْ طِبْنَ لَكُمْ عَنْ شَيْءٍ مِنْهُ نَفْسًا فَكُلُوهُ هَنَيْئًا مَرِيَّاتٍ﴾، لا حرج عليكم في ذلك ولا تبعه، وفي هذا دليل على أن المرأة تتصرف في مالها إن كانت رشيدة بالغة، وإلا فليس لعطيتها حكم.

الحُكْمُ الرَّابِعُ: الْحَجَرُ عَلَى السَّفِيهِ وَالصَّغِيرِ

٥- ﴿وَلَا تُؤْتُوا السُّفَهَاءَ^(١) أَمْوَالَكُمُ الَّتِي جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ قِيَمًا^(٢) وَارْزُقُوهُمْ فِيهَا وَاكْسُوهُمْ وَقُولُوا لَهُمْ قَوْلًا مَعْرُوفًا﴾

وبمناسبة الحديث عن المال، تتوجه الآيات إلى حجز الأموال عن ضعيف العقل والفكر الذي لا يحسن التصرف فيها، والمال لا يعطى إلى أربعة، وهم الذين يُحجَر عليهم من التصرف في الأموال؛ وهؤلاء الأربعة هم:

١ - غير الرشيد؛ لأنه لا يحسن التصرف لصغر سنه.

٢- والمجنون والمعتوه؛ لأنهما فاقدا الأهلية.

٣- والسفيه: الذي يسيء استخدام المال، فيسرف ويبذر، ويصرفه في غير وجهه؛ لنقص عقله ودينه، وربما أفلس بسبب سوء استعماله للأموال.

هؤلاء وأمثالهم سفهاء يقول الله تعالى فيهم: ﴿وَلَا تُؤْتُوا السُّفَهَاءَ أَمْوَالَكُمُ﴾ التي تحت أيديكم، لا تعطوها لهم، فيضعوها في غير وجهها، سواء أكان المال مالكم أنتم، أم كان ماله هو؛ فإنه يُحجَر عليه لسفهه، وعدّه القرآن مالاً لنا جميعاً فقال: ﴿وَلَا تُؤْتُوا السُّفَهَاءَ أَمْوَالَكُمُ الَّتِي جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ قِيَمًا﴾ فهو قوام هذه الحياة وعصبها، وهو لمصالح العباد في دينهم ودنياهم، فأنفقوا عليهم من هذه الأموال، ونمّوا لهم هذا المال، تاجروا لهم فيه، وأنفقوا عليهم منه ﴿وَارْزُقُوهُمْ فِيهَا وَاكْسُوهُمْ وَقُولُوا لَهُمْ قَوْلًا مَعْرُوفًا﴾ قولوا لهم: عندما تحسنون التصرف، وتبلغون الرشد، سنعطيك أموالكم، وندفعها لكم، ولطفوا لهم في القول، جبراً لخواطهم وتطبيياً لنفوسهم.

قال ابن زيد: إن كان ليس من ولدك، ولا ممن يجب عليك أن تنفق عليه، فقل له قولاً

(١) قرأ قالون والبيزي وأبو عمرو ورويس، بإسقاط الهمزة الأولى وتحقيق الثانية مع المد والقصر من (السفهاء أموالكم)، وقرأ الأصهباني وأبو جعفر بتسهيل الهمزة الثانية وتحقيق الأولى، وللأزرق تسهيل الثانية وإبدالها ألفاً مع المد المشيع، ولقنبل ثلاثة أوجه هي: التسهيل بين بين والإبدال في الثانية، والإسقاط في الأولى، وتحقيق الثانية مع المد والقصر.

(٢) قرأ نافع وابن عامر (قيماً) بحذف الألف بعد الياء، على أنها مصدر كالقيام، وقرأ الباقر (قياماً) مصدر قام.

معروفًا، قل له: عافانا الله وإياك، بارك الله فيك^(١).

أخرج الطبري وابن أبي حاتم بسند حسن عن علي بن أبي طلحة عن ابن عباس رضي الله عنهما قال في معنى الآية: يقول الله سبحانه: لا تعتمد إلى مالك وما خَوَّلَكَ الله، وجعله لك معيشة فتعطيه امرأتك أو بنيك، ثم تنظر إلى ما في أيديهم، ولكن أمسك مالك وأصلحه، وكن أنت الذي تنفق عليهم في كسوتهم ورزقهم ومؤونتهم.

قال: وقوله: ﴿فَيَكْمَأْ﴾ بمعنى: قوامكم في معاشكم^(٢) فلا تسلط السفیه من ولدك على مالك، وارزقه منه وأنفق عليه في كل ما يلزمه، ولا تملكه له خشية تلفه وإفساده.

قلت: وما قاله ابن عباس رضي الله عنهما جانب هام من معني الآية، وهو أنه لا ينبغي على الرجل وهو حي أن يعطي أمواله لزوجته أو لأولاده، ثم ينتظر رحمتهم! ويشهد لهذا المعنى أن الخطاب في الآية عام لجميع المكلفين حكاما ومحكومين.

وبعد النهي عن إعطاء المال للسفهاء أمر سبحانه بثلاثة أشياء وهي:

أولاً: رزقهم، أي: الاتجار لهم في هذا المال واستثماره في المشاريع العامة، أو الخاصة فتسعة أعشار الرزق في التجارة.

ثانياً: النفقة عليهم من الأرباح؛ ليقى رأس المال محفوظاً لهم، ويعطى بمقدار ما يكفي حاجاتهم من طعام وشراب وملبس ومسكن.

ثالثاً: أن يعطوا أموالهم وأرباحهم مصحوبة بوجه طلق، وكلام جميل، بعيداً عن المن والأذى.

وقد أخذ العلماء من هذه الآية: وجوب الحجر على السفیه، ووجوب الإقامة على مال اليتيم، ومن لا يحسن التصرف.

وهكذا نهى الله الأولياء عن تمكين السفهاء من التصرف في الأموال التي تقوم بها حياة الناس ومعاشهم، وأمر باستثمارها لهم، والإنفاق عليهم منها، وعدم الترفع عليهم، أو

(١) الطبري (٤٠٢/٦).

(٢) «تفسير الطبري» (٤٩٨/٦) وابن المنذر (١٣٤٩) وابن أبي حاتم (٤٧٩١).

إشعارهم بأنهم أهل فضل عليهم.

عن أبي موسى رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «ثلاثة يَدْعُونَ الله فلا يستجيب لهم: رجل كانت تحته امرأة سيئة الخلق فلم يطلقها، ورجل كان له على رجل مال فلم يُشهِد عليه، ورجل أتى سفيهاً ماله»، وقد قال الله: ﴿وَلَا تُؤْتُوا السُّفَهَاءَ أَمْوَالَكُمُ﴾^(١).

الْحُكْمُ الْخَامِسُ: يُعْطَى الْيَتِيمُ مَالَهُ إِذَا بَلَغَ رُشْدَهُ

٦- ﴿وَابْتَلُوا الَّذِينَ أَلْيَنْتَ حَتَّى إِذَا بَلَغُوا النِّكَاحَ فَإِنْ آنَسْتُمْ مِنْهُمْ رُشْدًا فَادْفَعُوا إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ وَلَا تَأْكُلُوهَا إِسْرَافًا وَبِدَارًا أَنْ يَكْبَرُوا وَمَنْ كَانَ غَنِيًّا فَلْيَسْتَعْفِفْ وَمَنْ كَانَ فَقِيرًا فَلْيَأْكُلْ بِالْمَعْرُوفِ فَإِذَا دَفَعْتُمْ إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ فَأَشْهَدُوا عَلَيْهِمْ﴾^(٢) وَكَفَى بِاللَّهِ حَسِيبًا ﴿٦﴾

ثم إن اليتيم يعطى ماله بشرطين: إذا بلغ سن الحلم، وكان راشداً يحسن التصرف، وقبل ذلك يُتلى ويختبر؛ ليعرف كيف يتصرف في المال؟ فيعطى قدرًا يسيرًا منه، ويُنظر إليه، هل يحسن التصرف في هذا المال، أم لا؟ هل يحسن البيع والشراء أم لا؟ هل ينفقه في وجوهه المشروعة أم لا؟ ولا يُعطى ماله كله إلا بتوفر الشرطين معًا.

جاء رجل إلى النبي ﷺ وعنده مال كثير لابن أخيه اليتيم الذي في حجره وتحت كفالته قال: يا رسول الله، ماذا يحل لي من ماله؟ ومتى أدفع إليه ماله؟^(٣)

أي: متى أعطيه ماله وأرده إليه، وماذا يحل لي منه؟ فأنزل الله هذه الآية.

وكان (رفاعة) قد تُوَفِّي وترك ابنه (ثابتًا) في كفالة عمه وهو المعني في سبب النزول السابق، فأنزل الله ﴿وَابْتَلُوا الَّذِينَ أَلْيَنْتَ﴾ أي: اختبروا تصرفاتهم قبل أن تعطوهم أموالهم، حتى يبلغوا سن النكاح، وهو سن البلوغ، فإذا تبين رشدهم وصلاحتهم ﴿فَادْفَعُوا إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ﴾ تامة كاملة ﴿وَلَا تَأْكُلُوهَا إِسْرَافًا﴾ أي مجاوزة للحد الحلال الذي أباحه الله لكم من أموالكم، إلى الحرام الذي حرمه عليكم من أموالهم، ومعنى ﴿وَبِدَارًا أَنْ يَكْبَرُوا﴾ أي لا

(١) أخرجه الحاكم وصححه (٣٠٢/٢) والبيهقي في «الشعب» (٨٠٤١) وصححه الألباني في «السلسلة الصحيحة» برقم (١٨٠٥).

(٢) قرأ حمزة ويعقوب بضم الهاء من (إليهم) و(عليهم)، والباقون بكسرهما.

(٣) ذكره الواحدي في «أسباب النزول» ص ٨٢ بدون سند، وابن الجوزي في «زاد المسير» (١٤/٢).

تبادروا بأكل أموال اليتامى في صغرهم، فيأخذوها منكم حال كبرهم، وهذا أمر واقع!
هذا: والبلوغ يكون بثلاثة أشياء:

الأول: أن يحتلم الذكر والأنثى؛ لحديث عائشة رضي الله عنها أن النبي ﷺ قال: «رُفِعَ القلم عن ثلاثة: عن الصبي حتى يحتلم، وعن النائم حتى يستيقظ، وعن المجنون حتى يفيق»^(١).

أو يبلغ خمسة عشر عامًا من العمر؛ لما ثبت في الصحيحين عن ابن عمر رضي الله عنهما قال: عُرِضْتُ عَلَى النبي ﷺ يَوْمَ أُحُدٍ وَأَنَا ابْنُ أَرْبَعِ عَشْرَةٍ فَلَمْ يُجْزِنِي، وَعُرِضْتُ عَلَيْهِ يَوْمَ الْخَنْدَقِ، وَأَنَا ابْنُ خَمْسِ عَشْرَةٍ فَأُجَازَنِي. فَقَالَ عُمَرُ بْنُ عَبْدِ الْعَزِيزِ: إِنَّ هَذَا هُوَ الْفَرْقُ بَيْنَ الصَّغِيرِ وَالْكَبِيرِ^(٢) وَهَذَا يَصْدُقُ عَلَى الذَّكَرِ وَالْأُنْثَى.

الثاني: أن ينبت الشعر الداخلي فيه؛ لحديث عطية القرظي قال: عُرِضْنَا عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ يَوْمَ قَرِيبَةَ، فَكَانَ مِنْ أَنْبَتِ قُتُلٍ، وَمَنْ لَمْ يُنْبِتْ خُلِّي سَبِيلُهُ، فَكَتَتَ فَيَمَنْ لَمْ يُنْبِتْ، فَخُلِّي سَبِيلُهُ^(٣).

الثالث: أن يصحب ذلك ضخامة الصوت.

هذه الثلاث، هي أمارات البلوغ عند الذكور، وقد وردت عن أصحاب النبي ﷺ، أما ما يختص بالنساء فهو الحيض والحمل.

ولم يختلف العلماء في بلوغ الأنثى بهما، وأن الفرائض والأحكام تجب بهما.

فإن اختبرتموهم وأنستم فيهم رشدًا، وحسن التصرف في الأموال وغيرها، فادفعوا إليهم أموالهم، ولا تأكلوا هذه الأموال إسرافًا.

(١) حديث صحيح، أخرجه الترمذي (١٧٠/١) وأبو داود (١٩٧/٤) عن علي بن رقم (٤٣٩٨) والدارمي (١٧١/٢) والنسائي في «السنن الكبرى» (٥٥٩٦) وابن ماجه عن عائشة برقم (٢٠٤١) و«المسند» (٢٤٦٩٤) وابن حبان (١٤٢) وهو في صحيح سنن أبي داود (٣٧٠٣) وصححه الألباني في إرواء الغليل (٦٠٥/٢).

(٢) «صحيح البخاري» برقم (٢٦٦٤) وإسناده جيد و«صحيح مسلم» برقم (١٨٦٨).

(٣) أخرجه أحمد في «المسند» (٣١٠/٤) برقم (١٨٧٧٦) بإسناد صحيح ورجال ثقات وأبو داود برقم (٤٤٠٤، ٤٤٠٥) والترمذي برقم (١٥٨٤) وقال: هذا حديث حسن صحيح والنسائي (١٥٥/٦) وابن ماجه برقم (٢٥٤١، ٢٥٤٢).

وهذا الخطاب للأولياء والأوصياء، أي: لا تسرفوا في أموال اليتامى وتبذروا، ولا تنفقوا منها مبادرين ومفرطين بإنفاقها قبل أن يكبروا.

ثم ماذا يحل للولي من مال اليتيم وماذا لا يحل؟ قال تعالى: ﴿وَمَنْ كَانَ غَنِيًّا فَلْيَسْعَفْ﴾. لا يأخذ شيئاً من مال اليتيم لقاء إدارته له وقيامه عليه ﴿وَمَنْ كَانَ فَقِيرًا فَلْيَأْكُلْ بِالْمَعْرُوفِ﴾ أي: بمثل ما يأخذ الناس من أجر.

قالت عائشة ؓ: نزلت هذه الآية في مال اليتيم إذا كان فقيراً، أنه يأكل منه، مكان قيامه عليه بالمعروف^(١) وهذا من باب الرخصة لا من باب العزيمة.

وقال عمر بن الخطاب ؓ: إني أنزلت نفسي من هذا المال بمنزلة والي اليتيم، إن استغنيت استعفت، وإن احتجت استقرضت، فإذا أيسرْتُ قضيت^(٢).

وسأل رجل رسول الله ﷺ فقال: ليس لي مال، ولي يтим، فقال: «كُلْ من مال يتيملك غير مُسْرِفٍ ولا مبذر ولا متأثِّل -أي: جامع- مَالاً، ومن غير أن تقي مالك بماله». أو قال: «تفدي مالك بماله»^(٣).

والتأثِّل: هو الجامع للمال، فهو إن أدار له عملاً، يأخذ عليه أجره مثل نظرائه في عرف الناس، يأخذ أجره كما يأخذ الناس، وإن اضطر إلى القرض ونحوه، فعليه أن يرده في وقت سريع؛ حتى لا يتضرر اليتيم بحبس ماله وعدم الانتفاع به ﴿فَإِذَا دَفَعْتُمْ إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ﴾. أي: إلى اليتامى ﴿فَاشْهَدُوا عَلَيْهِمْ﴾ حتى لا يرجعوا عليكم مرة ثانية ﴿وَكَفَى بِاللَّهِ حَسيبًا﴾.

(١) يُنْظَر: «صحيح البخاري» (١٨١/٨) برقم (٢٢١٢، ٢٧٦٥، ٤٥٧٥) والبيهقي في «السنن» (٤/٦) والطبري (٤٢٥/٦) وغيرهم.

(٢) «تفسير الطبري» (٥٨٢/٧) والبيهقي في «السنن الكبرى» (٥/٦) وعبد الرزاق (١٠٢٨) وابن أبي شبة (٣٢٤/١٢) وسعيد بن منصور (٧٨٧) تفسير، وغيرهم.

(٣) من حديث عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده في «المسند» (١٨٦/٣) برقم (٦٧٤٧، ٧٠٢٢) بتصحيح أحمد شاكر، وحسن إسناده محققه وقال الألباني: حسن صحيح في صحيح «سنن النسائي» برقم (٣٤٢٩) وهو في سنن أبي داود برقم (٢٨٧٢) وقال ابن حجر: إسناده قوي، «فتح الباري» (٩٠/٨) وهو في «صحيح سنن ابن ماجه» (٢١٩٨) وابن أبي حاتم (٤٨٢٤) وهو أيضاً من رواية عبد الله بن عمرو.

وفي حديث جابر رضي الله عنه قال: جاءت امرأة سعد بن الربيع إلى رسول الله ﷺ فقالت: يا رسول الله، هاتان امرأتا سعد بن الربيع، قُتل أبوهما معك في أحد شهيداً، وإن عمهما أخذ مالهما، فلم يدع لهما مالا، ولا يُنكحان إلا ولهما مال، فقال: يقضي الله في ذلك، فنزلت آية الميراث، فأرسل رسول الله ﷺ إلى عمهما، فقال: «أعط ابنتي سعد الثلثين، وما بقي فهو لك»^(١).

والنصيب الذي أجملته هذه الآية جاء مفصلاً في آيات الموارث، فهذه الآية بمثابة التوطئة لأنصبة الموارث في الآيات التالية، وتبين أن علة الميراث هو القرابة، وأن النساء يرثون كالرجال، فهذه ثلاث فوائد.

فأبطل الإسلام ما كان من شأن الجاهلية، وقررت الآية أن الذكور والإناث صغاراً أو كباراً لهم نصيب في الميراث شرعه الله تعالى وفق الأنصبة المحددة، كما فرضها رب العالمين، فيما تركه الوالدان والأقربون من الميراث.

وقد حمل الأحناف القرابة في الآية على العموم، فقالوا: بتوريث ذوي الأرحام؛ لأن العمات والخالات وأولاد البنات ونحوهم من الأقربين، أما مقدار نصيبهم فيستفاد من الآيات الأخرى.

وغير الأحناف خصّصوا الأقارب بالوالدين والأولاد ونحوهم، ولا يدخل فيهم ذوو الأرحام. وتشريع الإسلام للموارث قضى على ما كان عليه الناس قبل ذلك من ظلم وجور، فقد كانوا يورثون الأموال للأقوياء الأشداء، ويحرّمون الضعفاء؛ ليعيشوا في كنفهم، ومنهم النساء والصبية.

وكانوا يؤصّون بأموالهم لعظماء القبائل، ومن تجمعهم بهم صلة الحلف والعزة والمودة، ولا يورثون بالبنوة إلا إذا كان الأبناء ذكوراً، فلا ميراث للنساء؛ لأن الذي يرث - في زعمهم - هو الذي يطعن بالرمح، ويضرب بالسيف، ويرمى بالسهم وينهب ويسلب، فإذا لم يكن للمتوفّي أقارب ذكوراً، ورثه أقرب العصبة كالأب والأخ والعم، وكانوا

(١) «المسند» (١٤٧٩٨) و«صحيح سنن ابن ماجه» (٢١٩٩) وفي السنن (٢٧٢٠) وأخرجه الترمذي (٢٠٩٢) وقال: هذا حديث صحيح لا نعرفه إلا من حديث عبد الله بن محمد بن عقيل، وأفاد محققو المسند أن إسناد الحديث محتمل للتحسين من أجل تفرد به، وأخرجه أبو داود (٢٨٩١) وابن سعد (٥٢٤/٣) وغيرهم.

يورثون المتبني.

مراحل التَّوَارُثِ فِي الْإِسْلَامِ:

١- ولما هاجر النبي ﷺ إلى المدينة كان التورث بالهجرة، كما كان في بدء الهجرة، فالمهاجر يرث المهاجر، ويرث بالحلف، وبالمعاقة، وبالمؤاخاة بين المهاجرين والأنصار، ونزل في ذلك قوله تعالى: ﴿وَلِكُلِّ جَعَلْنَا مَوْلَىٰ مِمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ وَلَٰذِينَ عَقَدْتُمْ بَيْنَهُمْ فَإِنْ كَانُوا عَلَىٰ شَيْءٍ شَهِدُوا بِمَا عَقَدْتُمْ﴾ [النساء].

٢- ثم شرع الله الوصية للوالدين والأقربين كما في قوله تعالى: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ إِنْ تَرَكَ خَيْرًا الْوَصِيَّةُ لِلْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ﴾ [البقرة: ١٨٠].

٣- ثم نُسخ التوارث السابق بقوله تعالى: ﴿وَأُولُوا الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ﴾ [الأنفال: ٧٥] وبالآية الأخرى التي تشمل التوارث بالتبني: ﴿وَأُولُوا الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُهَاجِرِينَ إِلَّا أَنْ تَفْعَلُوا إِلَىٰ أَوْلِيَائِكُمْ مَعْرُوفًا كَانَ ذَلِكَ فِي الْكِتَابِ مَسْطُورًا﴾ [الأحزاب: ٦] .

٤- ثم نزلت هذه الآية ﴿لِّلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا كَسَبُواْ﴾ لتسوي بين الذكور والإناث في الميراث كل بمقداره، فجعلت لكل منهما نصيباً مفروضاً في الميراث قليلاً كان المال أو كثيراً حددته آيات الموارث.

الْحُكْمُ السَّابِعُ: مَنْ حَضَرَ الْقِسْمَةَ فَلْيَقْتَسِمْ

٨- ﴿وَإِذَا حَضَرَ الْقِسْمَةَ أُولُو الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسْكِينُ فَأَرْضُقُوهُمْ مِنْهُ وَقُولُوا لَهُمْ قَوْلًا مَعْرُوفًا﴾

ثم إن الإسلام يحرص على صفاء النفوس، وحسن العلاقات، وتطبيب الخواطر، والحفاظ على الروابط الأسرية، ولما كان بعض الأقارب يحجب بعضهم بعضاً في الموارد، وقد يحضر تقسيم التركة بعض الأقارب والفقراء والمساكين والأيتام ممن ليس لهم حق في الميراث، وهنا فإنه يندب إلى الورثة من أهل الميت أن يطيبوا خاطرهم باليسير من المال الذي آل إليهم دون كد ولا تعب، فإن نفوسهم متشوفة إليه، وقلوبهم متطلعة إلى ما ينفعهم ولا يضرهم، أو يعتذر إليهم إن كان الورثة ذرية صغاراً ضعافاً،

فيحسنون لهم في القول ويردوهم ردًا جميلًا، وإن أعطوهم فعليهم ألا يُتبعوا العطية متأولاً أدى .
عن سعيد بن جبير، أن ابن عباس رضي الله عنهما قال: إن ناسًا يزعمون أن هذه الآية تُسخت،
ولا والله ما تُسخت، ولكنها مما تهاون الناس بها، هما واليان، وال يرث، فذاك الذي
يرزق ويكسُو، ووال لا يرث، فذاك الذي يقول قولًا معروفًا، يقول: لا أملك لك أن
أعطيك إنه مال يتيم، وليس لي فيه شيء^(١).

والإعطاء لهم يكون على سبيل البر والإحسان؛ لأن النفوس تشوّف إلى أخذ شيء منه
لا سيّما إن كان كثيرًا، فالأمر في الآية للندب وليس للوجوب، فإن كان الورثة كبارًا؛ فإنه
يستحب لهم أن يعطوها لذوي القربى واليتامى والمساكين شيئًا غير محدد من التركة
تطبيعًا لنفوسهم، وإن كان الورثة صغارًا فإنه يعتذر لهم بكلام طيب لطيف بأن هؤلاء الورثة
صغارٌ قُصّر، وعندما يكبرون سيعرفون لكم حقكم.

قال يحيى بن معمر: ثلاث آيات مَدَنِيَّاتٌ محكمات ضيعهن كثير من الناس ﴿وَإِذَا حَضَرَ
الْقِسْمَةَ﴾، وآية الاستئذان ﴿وَالَّذِينَ لَا يُلْغُوا أَلْهَمٌ مِنْكُمْ﴾ [النور: ٥٨]، وقوله: ﴿إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ
مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى﴾^(٢) [الحجرات: ١٣].

وقال الزهري والحسن: هي آية محكمة ما طابت به أنفسهم عند أهل الميراث^(٣).
وهذه الآية لا علاقة لها بآية الوصية الواجبة على الصحيح؛ لأنها تتعلق بقسمة التركة،
ولست في تقسيم الوصية، وهي آية محكمة وليست منسوخة، ولكن العمل بها نادر قليل
في دنيا الناس، فبعض الناس لا يهتم بالأمر المندوب غير الملزم، ولا يهتمون بتطبيب
خواطر الآخرين، وكان السلف من الصحابة والتابعين يعملون بها، ومما يشير إلى معناها
قوله تعالى: ﴿وَأَتُوا حَقَّهُ يَوْمَ حَصَادِهِ﴾ [الأنعام: ١٤١]. وقوله: ﴿فَانْطَلَقُوا وَهُمْ يَخْفَتُونَ﴾^(٤)
أَن لَّا يَدْخُلْنَهَا الْيَوْمَ عَلَيْكُمْ مَسْكِينٌ^(٥) [القلم].

فإن الورثة أرادوا أن يحرموا اليتامى والمساكين ما كانوا يأخذونه من الثمر في عهد

(١) أخرجه البخاري (٢٧٥٩) و (٤٥٧٦) والطبري (٤٣٣/٦) وابن المنذر (١٤١٢) وغيرهم قال ابن حجر

في «الفتح» (١٨١/٨): هذا سند صحيح معتمد، وسعيد بن منصور (٥٧٦) تفسير.

(٢) سعيد بن منصور (٥٧٨) تفسير وابن جرير (٤٣٤/٦) وابن المنذر (١٤١٣).

(٣) عبد الرزاق (١٤٩/١) وابن أبي شيبه (١٩٤/١١).

أبيهم، فكانت العقوبة أن حرمهم الله ثمرها إلى الأبد، وكان أصحاب النبي ﷺ إذا بدأت باكورة أشجارهم، أتوا بها رسول الله ﷺ، فباركها، ثم نظر إلى أصغر وليد عنده فأعطاه إياها.

وإلى هذا المعنى يشير قوله ﷺ من حديث ابن مسعود ؓ: «إذا جاء خادم أحدكم بطعامه، فليقعه معه، أو ليناوله منه، فإنه هو الذي ولي حَرَّه ودُخانَه»^(١).

ولفظ أبي هريرة ؓ (ليأخذ لقمة فليجعلها في يده) فالحث على مشاركة الخادم لسيده في الطعام أو إعطائه منه، لأن نفسه تشوف إليه.

والمعنى: إذا حضر قسمة التركة من لا نصيب لهم في الميراث من الأقارب والمحتاجين والضعفاء، فأعطوهم شيئاً منها توثيقاً للروابط العائلية والاجتماعية، وقياماً بالحقوق الأخوية الإنسانية.

الْحُكْمُ الثَّامِنُ: عَدَمُ الْإِضْرَارِ بِالْوَرَثَةِ الصَّغَارِ

٩- ﴿وَلْيَخْشَ الَّذِينَ لَوْ تَرَكَوْا مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَّةً ضِعَفًا خَافُوا عَلَيْهِمْ فَلْيَتَّقُوا اللَّهَ وَلْيَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا﴾
وقبل أن يحدد القرآن أنصبة الموارث، فإنه يحذّر من أكل أموال اليتامى، والحيثف على الذرية الضعفاء منهم، الذين فقدوا آباءهم، فإنهم لا يدرون أن ذريتهم ربما تؤول حالهم إلى مَنْ بعدهم من الأحياء، كما وُكِّل إليهم شأن هؤلاء، فكما لا يرضى المرء شيئاً لنفسه لا يرضاه لغيره، وكما يكره بقاء ذريته في الجوع والضعف، فليكره هذا لغيره، وليتعض بالموت مَنْ هُمْ حول مَنْ تحضره الوفاة، فالخطاب في الآية لمن يحضر؛ مَنْ حَضَرَهُ الموت؛ وجار في وصيته أن يأمره بالعدل والمساواة، وهي تشمل أولياء الصغار والضعاف حتى يعاملوهم بما يحبون أن يعامل به ذريتهم بعدهم.

(١) من حديث عبدالله بن مسعود في سنن ابن ماجه (٣٢٩) وعند أبي يعلى (٥١٢٠) وفي المسند (٤٢٦٦، ٤٢٥٧، ٣٦٨٠) وهو حديث صحيح لغيره، لأن فيه إبراهيم بن مسلم الهجري، لين الحديث وقد وثقه أكثرهم، وقال الألباني في صحيح ابن ماجه (٢٦٦٢) حسن صحيح، وفي السلسلة الصحيحة (١٠٤٣، ١٠٤٢) وللحديث شاهد في الصحيحين البخاري (٥٤٦٠) ومسلم (١٦٦٣).

وليعلم الحي أن الذرية لا تغني عنه من الله شيئاً، فليترك الله ولا يحف في تقسيم التركة، ولا في أمور الوصاية على اليتيم ﴿وَلْيَخْشَ الَّذِينَ لَوْ تَرَكَوْا مِنْ خَلْفِهِمْ﴾ أي: لو أنهم ماتوا وتركوا أبناء صغاراً ﴿خَافُوا عَلَيْهِمْ﴾ من الظلم والضياع، فليراقبوا الله فيما تحت أيديهم من اليتامى وغيرهم، وليحفظوا أموالهم، ويحسنوا تربيتهم، ويدفعوا الأذى عنهم، وليقولوا لهم قولاً موافقاً للعدل والمعروف.

وقد يحضر الإنسان الموت، فيراه أو يسمعه بعض الناس وهو يوصي وصية تضر بالورثة، فعلى هؤلاء الناس أن ينصحوه ويسددوه للصواب، ولينظر إلى ورثته من بعده، فقد يفعل بهم مثل ذلك فيخاف عليهم الضيعة، وليخش عذاب الله سبحانه.

جاء في الصحيحين وغيرهما أن رسول الله ﷺ لما دخل على سعد بن أبي وقاص يعود، قال: يا رسول الله، إني ذو مال، ولا يرثني إلا ابنة لي، أفأصدق بثلاثي مالي؟ قال: «لا»، قال: فالشطر؟ قال: «لا»، قال: فالثلث؟ قال: «الثلث، والثلث كثير»، ثم قال ﷺ: «إنك إن تذر ورثتك أغنياء، خير من أن تتركهم عالة يتكففون الناس»^(١).

قال ابن عباس ؓ: وددت لو أن الناس غضوا من الثلث إلى الربع، فإن رسول الله ﷺ قال: «فالثلث، والثلث كثير»^(٢).

فعلى من يحضر ميتاً يوافيه الأجل أن يأمره بالعدل والإحسان، وينهاه عن الحيف والجور في وصيته، ولا يأمره بما لا يرضاه لنفسه ولأولاده، فيخاف على عيال غيره ما يخافه على عياله لو نزل به الموت، فافعلوا باليتامى ما تحبوا أن يفعل مع ذرياتكم الضعاف بعدكم، وعلى من حضره الأجل أن يتقي الله في أولاده من بعده، وألا يفعل ما يضرهم بعد موته، وأن يشفق عليهم، فلا يسرف في البوصية، ولا يتجاوز ما أمر به الشرع، وقد خوف الله تعالى الناس بالحالة التي لا يبقى معها مطمع في الحياة، ولا دفاع عن ذريته الصغار.

(١) «صحيح البخاري» برقم (١٢٩٥، ٢٧٤٢، ٦٧٣٣) و«صحيح مسلم» برقم (١٦٢٨) و«الموطأ» (٧٦٣/٢) و«المسند» (١٤٨٢، ١٥٢٤) وأبو داود (٢٨٦٤) والترمذي (٢١١٦) والنسائي (٣٦٢٨) وغيرهم.

(٢) «صحيح البخاري» برقم (٢٧٤٣) و«صحيح مسلم» برقم (١٦٢٩) وابن أبي شيبة (١٩٩/١١).

والأمر بالخوف على الذرية والأمر بتقوى الله تعالى يشمل المريض الموصّي، ويشمل عوّاده، ويشمل الأوصياء، ومن يَحْرُمُونَ النساء من الميراث، أو يَحْرُمُونَ بعض الورثة، فليتقوا الله في حقوق الناس، وليحسنوا إليهم في القول والمعاملة.

الْحُكْمُ النَّاسِغُ: عُقُوبَةُ أَكْلِ مَالِ الْيَتِيمِ

١٠- ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَى ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا وَسَيَصْلَوْنَ^(١) سَعِيرًا﴾

والذين يعتدون على أموال اليتامى فيأخذونها بغير حق، إنما يأكلون في بطونهم ما يسبب دخولهم النار، وسوف يدخلونها ويقاسون حرّها، فمن يأكل مال اليتيم إنما يأكل ما يفضي به إلى النار، وهذا أعظم وعيد ورد في أكل مال اليتيم، ليس هناك وعيد أشد منه وهو يدل على شناعة أكل مال اليتيم ظلماً وأنها موجبة لدخول النار، فدل ذلك، على أنها من أكبر الكبائر.

في الصحيحين عن أبي هريرة أن النبي ﷺ قال: «اجتنبوا السبع الموبقات»، قيل: يا رسول الله، وما هن؟ قال: «الشرك بالله، والسحر، وقتل النفس التي حرم الله إلا بالحق، وأكل الربا، وأكل مال اليتيم، والتولي يوم الزحف، وقذف المحصنات المؤمنات الغافلات»^(٢).

ولما أنزل الله تعالى هذه الآية، انطلق من كان عنده يتيم، فعزل طعامه من طعامه، وشرابه من شرابه، فاشتد ذلك عليهم، فذكروا ذلك لرسول الله ﷺ فأَنْزَلَ اللهُ تَعَالَى ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْيَتَامَى قُلْ إِصْلَاحٌ لَهُمْ خَيْرٌ﴾ قال: فخلطوا طعامهم بطعامهم، وشرابهم بشرابهم^(٣).

وقال مقاتل بن حيان: نزلت في رجل من غطفان يقال له: مرثد بن زيد، ولي مال ابن أخيه وهو يتيم صغير فأكله، فأَنْزَلَ اللهُ هذه الآية.

وفي هذه الآيات العشر من السورة، خمس آيات تتحدث عن اليتامى، فتأمر الأولياء بحفظ أموالهم، وتوجّه أولياء اليتيمات أن يتزوجوا بغيرهن عند خوف الحيف والظلم،

(١) قرأ ابن عامر وشعبة (وسيصلون) بضم الياء على البناء للمفعول، وقرأ الباقر بفتح الياء على البناء للفاعل.

(٢) «صحيح البخاري»، كتاب الوصايا: (١٢/٤) برقم (٢٧٦٦، ٥٧٦٤، ٦٨٥٧) و«صحيح مسلم»، كتاب الإيمان (٦٤/١) برقم (٨٩).

(٣) «تفسير القرطبي» (٥٣/٥) و«زاد المسير» (٢٣/٢).

وتأمر باختبار تصرفات اليتيم قبل دفع ماله إليه، وتأمر من حضروا قسمة التركة أن يعطوهم منها شيئاً.

ولما بلغ الضعف باليتامى مبلغه، بلغت عناية الله تعالى بهم غاية قصوى، فأمر سبحانه بإيتاء اليتامى أموالهم وعدم تبديل الخبيث بالطيب، وأمر سبحانه بعدم فعل ما يضرهم، ثم نهى عن أكل أموالهم وتوعد على ذلك وعيداً شديداً.

الحُكْمُ العَاشِرُ: مِيرَاثُ الْأُصُولِ وَالْفُرُوعِ وَالْأَزْوَاجِ وَالْحَوَاشِي

أولاً: ميراث الفروع:

١١- ﴿يُوصِيكُمُ اللَّهُ فِي أَوْلَادِكُمْ لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنثَيَيْنِ فَإِنْ كُنَّ نِسَاءً فَوْقَ اثْنَتَيْنِ فَلَهُنَّ ثُلُثًا مِمَّا تَرَكَ وَإِنْ كَانَتْ وَاحِدَةً^(١) فَلَهَا النِّصْفُ

وللميراث ثلاث آيات من سورة النساء:

الآية الأولى: خاصة بميراث الأصول والفروع. ﴿يُوصِيكُمُ اللَّهُ . . .﴾

والآية الثانية: خاصة بالزوجين والكلالة. ﴿وَلَكُمْ نِصْفُ . . .﴾

والآية الثالثة: في نهاية السورة تتعلق أيضاً بالكلالة. ﴿سَتَقْسَمُوكَ قُلُ اللَّهُ يُفْتِيكُمْ . . .﴾

وبيّنت السُّنَّةُ تفريعاتها، واجتهد الفقهاء في تطبيقها على الأصول.

ومما جاء في أسباب النزول:

أ- ما قاله السدي: أن عبد الرحمن أخا حسان بن ثابت، مات، وترك امرأة وخمس بنات، فأخذ ورثته ماله، ولم يعطوا أمراًته ولا بناته شيئاً، فجاءت تشكو إلى النبي ﷺ فنزل: ﴿يُوصِيكُمُ اللَّهُ فِي أَوْلَادِكُمْ^(٢)﴾ إلى جوار ما سبق من أسباب النزول عند بداية آيات المواريث وما يتعلق بابنتي سعد بن الربيع.

ب- وذلك أن جابر بن عبد الله رضي الله عنه قال: جاءت امرأة سعد بن الربيع بابنتيها من سعد إلى رسول الله ﷺ فقالت: يا رسول الله، هاتان ابنتا سعد بن الربيع، قُتل أبوهما معك

(١) قرأ نافع وأبو جعفر (واحدة) بالرفع، على أن كان تامة، وقرأ الباقر بنصبها، على أن كان ناقصة.

(٢) يُنْظَرُ: «تفسير الطبري» (٤٥٧/٦) وابن أبي حاتم (٤٨٩٤).

يوم أحد شهيداً، وإنَّ عَمَّهُمَا أَخَذَ مَالَهُمَا، فلم يدع لهما مَالاً، ولا يُنْكِحَانِ إِلَّا وَلَهُمَا مال، قال: «يقضي الله في ذلك»، فنزلت آية الميراث، فبعث رسول الله ﷺ إلى عمهما فقال: «أعطِ ابنتي سعد الثُّلُثَيْنِ، وأعطِ أمَّهُمَا الثُّمَنَ، وما بقي فهو لك»^(١).

ج- وعن جابر أيضاً قال: عادني رسول الله ﷺ وأبو بكر في بني سلمة يمشيان، فوجداني لا أعقل، فدعا بماء فتوضأ، ثم رشَّ عليَّ منه، فأفقتُ، فقلت: كيف أصنع في مالي يا رسول الله؟ فنزلت الآية ﴿يُؤْصِيكُمُ اللَّهُ﴾^(٢).

د- وصح عن ابن عباس ؓ قال: كان المال للولد، وكان للوالدين والأقربين، فنسخ الله من ذلك ما أحب، فجعل للذكر مثل حظ الأنثيين، وجعل للأبوين لكل واحد منهما السدس مع الولد، وجعل للزوجة الثُّمَنَ والرُّبْعَ، وللزوج الشطر والرُّبْعَ^(٣).

هذا: وعلم الفرائض من أعظم العلوم قدراً، وأفضلها ذكراً، وأشرفها ذكراً، اشتغل به أصحاب رسول الله ﷺ وتكلموا في أصوله وفروعه، وجاءت آثار كثيرة تنوّه بفضل تعلّمه وتعليمه.

والموارث محددة من قِبَلِ رب العالمين بالثُّلُثَيْنِ، والنصف، والثُّلُثُ، والرُّبْعُ، والسُّدُسُ، والثُّمَنُ، تولّى الله تعالى قسمتها بنفسه، وبَيَّنَّ أنها حدود الله وفرائضه، وليس لأحد أن يستدرك على الله تعالى؛ لفرط محبة أو كره أو أيِّ شأن آخر لبعض ورثته.

ومن الحق أن يتدخل الإنسان فيما يكون من الأحوال بعد موته، فالمصلحة يعلمها مَنْ خَلَقَ الخلق ﴿وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَكُمْ﴾ [البقرة: ٢١٦]. ولا ينبغي للمسلم أن يزيد نفسه سؤالاً وحساباً وجزاء بالتعدي على حدود الله تعالى في الموارث وغيرها.

(١) «سنن الترمذي» برقم (٢٠٩٢) و«المستند» (٣٥٢/٣) (١٤٧٩٨، ١٥٠٢٠) وأبو داود برقم (٢٨٢٩) و«صحيح ابن ماجه» (٢١٩٩) و«المستدرك» (٤/٣٣٣) وأبو يعلى (٢٠٣٩) والطيالسي (١٧٧٥) وغيرهم وانظر تخريجه أيضاً في تفسير الآية السابعة.

(٢) «صحيح البخاري» برقم (٤٣٠١، ٤٥٧٧، ٥٦٥١) و«صحيح مسلم» برقم (١٦١٦) و«سنن النسائي الكبرى» برقم (٦٣٢٣) وأبو داود (٢٨٨٦) والترمذي (٢٠٩٧) و«سنن النسائي» (٨٧/١) وابن ماجه (٢٧٢٨) وابن أبي حاتم (٤٨٨٦) وابن المنذر (١٤٣٢) والبيهقي في «السنن» (٢٣٥/١).

(٣) البخاري (٢٧٤٧، ٤٥٧٨) والطبري (٤٥٩/٦) وابن المنذر (١٤٣٣) وغيرهم.

وإذا مات الميت فإنه يُبدأ بتجهيزه من ماله، ثم تُقضى ديونه إن كان عليه ديون، وتُنَفَّذ وصاياه، ويُخرج ما عليه من زكاة، أو كفارات، أو نذور، أو حقوق لم يخرجها، أو لم يف بها، ويُحج عنه من ماله إن كان لم يحج الفريضة وترك مالا.

والورثة أصناف ثلاثة:

١- صُنِفَ يرث بالفرض، وهم: الزوجات، والبنات، والأخوات، والأمهات، والجَدات، وأولاد الأم.

٢- وصنف يرث بالتعصيب، وهم: الأبناء، والإخوة، وبنوهم، والأعمام، وبنوهم.

٣- وصنف يرث (الثلث) بالتعصيب تارة، وهم: الأب، والجَد، إن لم يكن للميت ولد، وتارة يرث (السُّدُس) بالفرض، إن كان له ابن، فإن كان له بنت، ورث السدس فرضاً، وأخذ الباقي بالتعصيب.

والجد يحجب الإخوة، أشقاء أو لأب أو لأم كما يحجبهم الأب، فحكم الجد حكم الأب عند عدم وجوده في الميراث مع الأولاد وبنو الإخوة والأعمام وبنوهم.

وأَسباب الميراث ثلاثة: النسب، والنكاح، والولاء، وهو أن العتيق يرث المعتق.

وأَسباب المنع من الميراث أربعة:

١- اختلاف الدين؛ فالكافر لا يرث المسلم، والمسلم لا يرث الكافر، كما جاء في الصحيحين^(١).

٢- القتل؛ فالقاتل لا يرث، سواء أكان القتل عمداً، فإنه يمنع الإرث باتفاق، أو خطأ

في أحد القولين، عن عمر رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «ليس للقاتل من الميراث شيء»^(٢).

(١) صحيح البخاري (٦٧٦٤) ومسلم (١٦١٤) ومالك (١٩/٢).

(٢) حسنه الألباني من حديث طويل في «صحيح سنن أبي داود» (٣٨١٨) وهو في السنن (٤٥٦٤) عن عبدالله بن عمرو بإسناد حسن، وفي إرواء الغليل (١١٧/٦) والنسائي في الكبرى (٦٣٦٨) والبيهقي (٢٢٠/٦)، وابن ماجه (٢٦٤٦) والمسند (٣٤٧، ٣٤٨) عن عمر، وهو حديث حسن لغيره، لأن مجاهد بن جبر لم يدرك عمر، ولأن عمرو بن شعيب لم يدرك عمر. (محققوه)

٣- والرق يمنع الإرث؛ لأن الرقيق مملوك، ولا ملك له، فهو لا يرث؛ لأنه لو ملك شيئاً لكان هذا الشيء لسيده أيضاً وهو لا يرث، لأنه ليس له مال يرث عنه.

٤- وجهل حالة الموت: كأن يموت أحد المتوارثان غرقاً، أو حرقاً، أو تحت هدم في آن واحد ولم يُدَرَّ أيهما سبق الآخر، فلا يرث أحدهما الآخر، بل تكون التركة لمن كانت حياته يقيناً من ورثته بعد موته.

والوارثون من الرجال عشرة هم: الابن وإن سفل، والأب والجد وإن علا، والأخ الشقيق أو لأب أو لأم، وابن الأخ الشقيق أو لأب وإن سفل، والعم الشقيق أو لأب، وابنهما وإن سفل، والزوج، والمعتق.

والوارثات من النساء سبع: البنت، وبنت الابن وإن سفلت، والأم والجدّة وإن علت، والأخت من جميع الجهات، والزوجة، والمعتقة.

وسنة لا يُحْبَبُونَ حَبَبَ حرمان بغيرهم، وهم: الأبوان، والولدان، والزوجان؛ لأنه ليس بينهم وبين الميت واسطة.

وأربعة من الذكور يعصّبون الإناث، وهم: الابن، وابن الابن، والأخ الشقيق، والأخ لأب.

في الصحيحين عن ابن عباس رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال: «ألحقوا الفرائض بأهلها، فما بقي، فهو لأولى رجل ذكر»^(١).

وفي البخاري عن ابن عباس قال: كان المال للولد، والوصية للوالدين، فنسخ الله من ذلك ما أحب، فجعل للذكر مثل حظ الأنثيين، وجعل للأبوين لكل واحد منهما السدس والثلث، وجعل للمرأة الثمن والربع، وللزوج الشطر والربع^(٢).

حكم الوصية للوارث

هذا: ولا وصية لوارث؛ لسبب أو لغير سبب، إلا بإجازة الورثة. ولا يجوز التحايل بالبيع الوهمي لأحد الورثة لنفعه، أو لإلحاق الضرر بالآخرين، مع ملاحظة أن مال الإنسان

(١) البخاري (٦٧٣٢) ومسلم (١٦١٥).

(٢) «صحيح البخاري» برقم (٢٧٤٧، ٤٥٧٨).

وهو حي ليس من باب التركة، وهو حر التصرف فيه في حدود الشرع.

مشروعية الوصية لما بعد الموت

روى نافع عن ابن عمر رضي الله عنهما أن النبي ﷺ قال: «ما حق امرئ مسلم له شيء يوصي فيه، أن يبيت ليلتين -وفي رواية ثلاث- إلا ووصيته مكتوبة عنده» قال نافع: سمعت عبد الله بن عمر يقول: ما مرّت عليّ ليلة منذ سمعت رسول الله يقول ذلك إلا وعندي وصيتي مكتوبة^(١).

وقد جاء في السنّة ما يخص الوصية المطلقة في الآية بالثلث، كما في الصحيحين وغيرهما من حديث سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه السابق، ومن ذلك أن النبي ﷺ عاده في مرضه، فقال: يا رسول الله، لا يرثني إلا ابنة لي، فهل أوصي بالثلثين؟ فقال ﷺ: الثلث، والثلث كثير، إنك إن تذر ورثتك أغنياء خير من أن تذرهم عالة يتكفون الناس^(٢).

ففي الحديث أن الوصية لا تجوز بأكثر من الثلث، وتجاوز دون الثلث.

وفي حديث عمرو بن خارجة رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إن الله ﻻ يعطي كل ذي حق حقه، فلا وصية لوارث، والولد للفراش، وللعاهر الحجر»^(٣).

والإضرار بالورثة في الوصية من كبائر الذنوب، عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «إن الرجل ليعمل، والمرأة لتعمل، بطاعة الله ستين سنة، ثم يحضرهن الموت، فيضار في الوصية، فتجب لهما النار»، ثم قرأ أبو هريرة رضي الله عنه ﴿مَنْ بَعْدَ وَصِيَّيْهِ يُوصِي بِهَا أَوْ دِينَ﴾^(٤).

(١) البخاري (٢٧٣٨) ومسلم (١٦٢٧) وأبو داود (٢٨٦٢) وابن ماجه (٢٦٩٩) والترمذي (٩٧٤، ٢١١٨) و«سنن النسائي الكبرى» (٦٤٠٩، ٦٤١٢) و«المسند» (٤٤٦٩) وابن حبان (٦٠٢٤، ٦٠٢٥).

(٢) البخاري (١٢٩٥، ٦٧٣٣) ومسلم (١٦٢٨) وأبو داود (٢٨٦٤) وابن ماجه (٢٧٠٨) والترمذي (٢٧١٦) و«المسند» (١٤٤٠) وابن حبان (٤٢٤٩) و«الأدب المفرد» (٥٢٠).

(٣) ابن ماجه (٢٧١٢) وصححه الألباني في صحيح سنن ابن ماجه (٢١٩٢) والإرواء (٨٨/٦) وهو في الترمذي (٢١٢١) والنسائي في «الكبرى» (٦٤٣٥، ٦٤٣٧) و«المسند» (١٧٦٦٤، ١٧٦٦٣) صحيح لغيره، كما قال محققوه، وهو في مصنف عبدالرزاق (١٦٣٠٧) وأبي داود (٥١١٥) عن أنس.

(٤) أبو داود (٢٨٦٧) والترمذي (٢١١٧) وقال: حديث حسن صحيح غريب، وأحمد (٢٧٨/٢) وابن ماجه (٢٧٠٤) والبيهقي (٢٧١/٦)، و مصنف عبدالرزاق (١٦٤٥٥).

وقد بيّنت السُّنَّة أن ما زاد على الثلث في الوصية، وكذا الوصية للوارث، إن أجازهما الورثة فإنها تجوز. ويجوز للإنسان وهو حي أن يغير ويبدل في الوصية، ويشرع له أن يوصي على مشاريع الخير وأن تكون له صدقة جارية.

أنصبة الموارث: وتبدأ آيات الميراث بوصية من الله تعالى للوالدين في أولادهم، فالله تعالى أولى بالمؤمنين من أنفسهم، وهو سبحانه أرحم بعباده من الوالدة بولدها، وما فرضه من الأنصبة في الميراث إنما هو من مدبر لشؤون خلقه، العالم بما يُصلح أحوالهم، المقسّم لأرزاقهم.

والوصية من الله تعالى: عهد وأمر وفرض واجب التنفيذ على خلقه بعد الموت.

﴿يُوصِيكُمُ اللَّهُ فِي أَوْلَادِكُمْ﴾ أيها الآباء، أن تقوموا بمصالحهم الدينية والدنيوية، فتؤدّبوهم وتعلّموهم، وتأمرؤهم بطاعة الله وترك نواهيه، فلا تضعوا هذه الوصية فتستحقوا بذلك الوعيد والعقاب، فقوا أنفسكم وأهلكم نارًا وقودها الناس والحجارة، وتنفيذ حدود الله تعالى في الموارث من أهم الوصايا.

وقد خصصت السُّنَّة عموم الأولاد في الآية، فأخرجت الكافر بحديث أسامة ابن زيد عن النبي ﷺ: «لا يرث المسلم الكافر، ولا الكافر المسلم»^(١).

ميراث الفروع: ولأن قلب الإنسان معلق بولده أشد من تعلقه بغيره، فقد بدأ سبحانه بميراث الأولاد، ولأن الذكر له ضعف الأنثى قُدِّم عليها، فالله تعالى يأمركم في شأن أولادكم إذا مات أحد منكم وترك أولادًا: ذكورًا وإناثًا، فميراثه كله لهم، إذا لم يكن هناك وارث غيرهم، يقسم هذا الميراث على أساس أن الذكر له ضعف حظ الأنثى، ومع وجود أولاد الصلب ذكورًا وإناثًا لا شيء في الميراث لأولاد الابن.

عدم مساواة المرأة للرجل في الميراث:

وفي إرث المرأة نصف نصيب الرجل من العدل والتوازن ما يجلب عن الوصف؛ فإن أعباء الذكور في الأسرة والمجتمع مختلف عن المرأة؛ فالرجل هو الذي يدفع المهر،

(١) البخاري (٤٢٨٣، ٦٧٦٤) ومسلم (١٦١٤) وأبو داود (٢٩٠٩) وابن ماجه (٢٧٢٩) والترمذي (٢١٠٧) و«المسند» (٢١٧٤٧) وابن حبان (٦٠٣٣).

ويؤثت البيت، ويربّي الأولاد ويعلمهم، ويعول من يستحق الإعالة من الوالدين والإخوة، وهو مكلف بإعالة الزوجة، سواء تحقق هذا أو لم يتحقق، بأن كانت موظفة أو أيسر حالاً منه؛ فالأصل أن الرجل هو العائل حتى في حالة الطلاق، والرجل هو الذي يدفع للمرأة حقوق الطلاق والنفقة والعدة والرضاع.

والمرأة مُعالة في جميع حالاتها: أمًا، وأختًا، وبيتًا، وزوجة، وغير ذلك، وفي هذا من العدل والتوازن ما لا يحتاج إلى بيان؛ حيث إن أخذ المرأة نصف ميراث الرجل مع مراعاة ما ذكر، فيه حظ كبير لها، ومراعاة لظروفها من احتمال عدم وجود العائل، وعدم توفر الوظيفة لها، وهي في هذه الأحوال غير مكلفة إلا بنفسها، وغير مطالبة بإعالة غيرها إلا إذا تطوعت، ومع هذا فإن المرأة في بعض الحالات تراث أكثر من الرجل، وتساويه أحيانًا، كما في مسألة الكلاله، ونحوها.

وقد بيّن القرآن أن تفضيل الذكر على الأنثى في الميراث بسبب قوامة الرجل على مصالح المرأة وإنفاقه عليها، والقائم هو المنفق الذي ينقص ماله بسبب الإنفاق، وهو أيضًا القائم على شؤون البيت، أما المرأة فغير مطالبة بالإنفاق، وبالتالي فإن مالها لا ينقص، وإن كانت موظفة أو موسرة وأنفقت على البيت فهذا من باب التطوع، وهي غير ملزمة، فإن شاءت أنفقت، وإن شاءت لم تنفق إلا بمقدار تقصيرها في شؤون البيت وفي حقوق الزوج بسبب الوظيفة.

فإذا أضفنا إلى هذا أن الإسلام قد ورّثها النصف بعد أن كانت تُورث، فإن الإسلام بهذا قد رفع من شأنها وكرّمها، بما لا يوجد له نظير في قوانين العالم.

قال تعالى: ﴿لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنثِيَيْنِ﴾ من العقار والأثاث والأموال والذهب والفضة والأنعام والأسهم والسندات وغير ذلك.

فإن لم يكن للمُتوفّي ذكور، وترك بنات فقط، اثنتين فأكثر، فلهما أولهنّ ثلثا التركة، وبقية التركة إلى أقرب عاصب ﴿فَإِنْ كُنَّ نِسَاءً فَوْقَ اثْنَتَيْنِ فَلَهُنَّ ثُلُثَا مَا تَرَكَ﴾ وتقديرها: فإن كنّ نساء، اثنتين فما فوقهما - بنات صلب أو بنات ابن - فلهن الثلثان، ويوضح هذا قوله تعالى: ﴿فَإِنْ كَانَتَا اثْنَتَيْنِ فَلَهُمَا الثُّلُثَانِ مِمَّا تَرَكَ﴾ والبتان أولى من الأختين، ولا شيء بعد فرض النصف للبت الواحدة، إلا الثلثان في حالة الزيادة على الواحدة.

ولا يزيد الفرض على الثلثين .

وقد قضى النبي ﷺ بالثلثين لابنتي سعد بن الربيع، وهذا نص في المسألة.

وقد سئل أبو موسى عن ابنة، وابنة ابن، وأخت، فقال: للابنة النصف، وللأخت النصف، وائت ابن مسعود فسيُتابعني، فسئل ابن مسعود، وأخبر بقول أبي موسى، فقال: لقد ضللت إذا وما أنا من المهتدين، أقضي فيها بما قضى النبي ﷺ: للابنة النصف، ولابنة الابن السدس، تكملة الثلثين، وما بقي فللأخت، فأتيا أبا موسى فأخبراه بقول ابن مسعود فقال: لا تسألوني ما دام هذا الحبر فيكم^(١).

وقد بين القرآن أن البنت الواحدة لها النصف، ولما قال تعالى: ﴿فَاضْرِبُوا فَوْقَ الْأَعْنَاقِ﴾ [الأنفال: ١٢] فهم منها: اضربوا الأعناق، وهذا كما قال تعالى: ﴿فَإِنْ كُنَّ نِسَاءً فَوْقَ اثْنَتَيْنِ﴾ أي: اثنتين فما فوق.

فإن ترك الميت بنتاً واحدة فلها نصف التركة فرضاً، والباقي للعصبة.

فميراث الأولاد في الآية على أحوال ثلاثة:

أولاً: إذا ترك الميت أولاداً ذكوراً وإناثاً، فإن التركة تقسم للذكر مثل حظ الأنثيين بعد إعطاء الأبوين والزوجة نصيبهم.

ثانياً: إذا كان للميت بنات فقط، اثنتان فما فوق، فلهن ثلثا ما ترك، وتأخذ الزوجة والأبوان نصيبهم إن كانوا على قيد الحياة، والباقي لأقرب رجل عاصب.

ثالثاً: إذا كان للميت بنت واحدة، فإنها تأخذ نصف التركة ﴿وَإِنْ كَانَتْ وَاحِدَةً فَلَهَا النِّصْفُ﴾ وتأخذ الزوجة والأبوان نصيبهم، والباقي لأقرب رجل عاصب.

هذا: ويلاحظ أن الأبناء يأخذون نصيبهم من التركة بعد أن يأخذ الأبوان وأحد الزوجين نصيبهما أولاً، ثم يُقسَّم الباقي بين الأبناء، ولفظ (الأبناء) يطلق على أبناء الأبناء أيضاً، وبنات الأبناء، وهذا في حال عدم وجود أبناء، فالطبقة الأولى تقدم على الطبقة الثانية وهكذا، ولا يدخل في ذلك أبناء البنات؛ لأنهم ليسوا من فروعه.

(١) «صحيح البخاري» برقم (٦٧٣٦، ٦٧٤٢).

ثانيًا: ميراث الأصول:

﴿وَلِأَبَوَيْهِ لِكُلِّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا السُّدُسُ مِمَّا تَرَكَ إِن كَانَ لَهُ وَلَدٌ فَإِن لَّمْ يَكُنْ لَهُ وَلَدٌ وَوَرِثَتُهُ أَبَوَاهُ فَلِأُمِّهِ^(١) الثُّلُثُ فَإِن كَانَ لَهُ إِخْوَةٌ فَلِأُمِّهِ السُّدُسُ﴾

وللأبوين في الإرث أحوال:

أولها: إذا ترك الميت أصولًا (والدين)، وترك (فروعًا) أبناء، ذكورًا وإناثًا، واحدًا فأكثر، فلكل من الأبوين السدس، ومثل الابن، ابن الابن، فإن لم يكن للميت إلا بنت واحدة مع وجود الأبوين، فللبنت النصف، ولكل واحد من الأبوين السدس، وللأب السدس الآخر تعصيبًا، فيجمع له بين الفرض والتعصيب.

فإن كان للميت بنتان فأكثر، فلهما، أو لهن الثلثان، وللأبوين لكل منهما السدس.

وكذا إذا ترك الميت ذكرًا فأكثر مع وجود الوالدين، فيكون لكل منهما السدس.

قال تعالى: ﴿وَلِأَبَوَيْهِ﴾ أي لأبوي المتوفى ﴿لِكُلِّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا السُّدُسُ﴾ أي: من الأب والأم ﴿مِمَّا تَرَكَ﴾ من الميراث ﴿إِن كَانَ لَهُ وَلَدٌ﴾ من صلبه أو ولد ابن، ذكرا أو أنثى، واحدًا أو أكثر.

وثانيها: ألا يترك الميت وارثًا سوى أبويه، فلاؤه في هذه الحالة الثلث، والباقي لأبيه تعصيبًا، فيأخذ مثل الأم مرتين.

وثالثها: ألا يترك الميت فرعًا وارثًا أيضًا، وإنما ترك أبويه وترك إخوة ذكورًا أو إناثًا، فإن الأخوة لا يرثون مع وجود آبائهم، وإنما يحجبون الأم حجب نقصان من الثلث إلى السدس، ويأخذ الأب ما بقي من التركة تعصيبًا ما لم يكن هناك زوجة أو زوج.

والأخ الواحد أو الأخت الواحدة، لا تحجب الأم من الثلث إلى السدس، بل تأخذ الثلث، كما لو لم يكن هناك ولد، ولا شيء للأخوة. وهذا معنى ﴿فَإِن لَّمْ يَكُنْ لَهُ وَلَدٌ﴾ من صلبه أو ولد ابن ﴿وَوَرِثَتُهُ أَبَوَاهُ﴾ لعدم وجود فرع وارث من الأبناء ﴿فَلِأُمِّهِ الثُّلُثُ﴾ والباقي للأب تعصيبًا ﴿فَإِن كَانَ لَهُ إِخْوَةٌ فَلِأُمِّهِ السُّدُسُ﴾ فقد نقص ميراث الأم من الثلث

(١) قرأ حمزة والكسائي بكسر الهمزة وصلًا من (فلاؤه) في الموضعين لمناسبة كسر اللام قبلها، وقرأ الباقون بضم الهمزة فيهما، وهما لغتان.

إلى السدس بسبب وجود الإخوة مع أنهم لا يرثون، والأخ الواحد لا يحجبها من الثلث إلى السدس، إنما يحجبها الأخوان فأكثر، وإنما حُجبت الأم من الثلث إلى السدس دون الأب؛ لأن الأب هو القائم على شؤون الأسرة، ينفق عليها، فيربي الأبناء ويعلمهم، ويرعى شؤونهم، ويزوجهم، والأم لا تفعل شيئاً من ذلك.

هذا: وميراث الأبوين له ثلاث حالات:

أولاً: أن يجتمع الأبوان مع الأولاد في الميراث؛ فيأخذ كل من الأبوين السدس ﴿وَلِأَبَوَيْهِ لِكُلِّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا السُّدُسُ مِمَّا تَرَكَ إِنْ كَانَ لَهُ وَلَدٌ﴾.

ثانياً: أن لا يكون للميت أبناء ولا إخوة، وينفرد الأبوان بالتركة؛ فتأخذ الأم الثلث، والباقي للأب تعصيباً ﴿فَإِنْ لَّمْ يَكُنْ لَهُ وَلَدٌ وَوَرِثَهُ أَبَوَاهُ فَلِأُمِّهِ الثُّلُثُ﴾.

فإن كان له زوجة أخذت الربع من التركة أولاً، ويقسم الباقي للأم الثلث وللأب الثلثين، أو تأخذ الأم الثلث أولاً من التركة كلها، وتأخذ الزوجة الربع، والباقي للأب.

ثالثاً: إذا ترك الميت أبوين، وإخوة أشقاء، أو لأب، أو لأم؛ ذكوراً أو إناثاً، فإن الإخوة في هذه الحالة لا يرثون مع وجود الوالدين، ولكن وجود الإخوة يُغيّر حصة الأم من الثلث إلى السدس ﴿فَإِنْ كَانَ لَهُ إِخْوَةٌ فَلِأُمِّهِ السُّدُسُ﴾. يأخذ الزوج، أو الزوجة نصيبه، والباقي للأب.

الْوَفَاءُ بِالذِّينِ، ثُمَّ إِنْفَازُ الْوَصِيَّةِ قَبْلَ تَقْسِيمِ التَّرَكَةِ:

﴿مَنْ بَعْدَ وَصِيَّةٍ يُوصَىٰ بِهَا أَوْ دَيْنٍ ۖ ءَابَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ لَا تَدْرُونَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ لَكُمْ نَفْعًا فَرِيضَةٌ مِّنَ اللَّهِ ۚ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾.

وهذا التقسيم لأنصبة الأولاد والوالدين في الميراث، يكون بعد قضاء ديون المتوفى، وإنفاذ وصيته فإن هذا من باب الأمانة والمسؤولية التي ألقيت على عاتق الورثة، وهم مسؤولون عنها أمام الله تعالى، فيبدأ بسداد الدين، ثم تنفيذ الوصية ﴿مَنْ بَعْدَ وَصِيَّةٍ يُوصَىٰ بِهَا أَوْ دَيْنٍ﴾ ثم تقسيم التركة، وقدّمت الوصية في الآية على الدين مع أنه مقدّم عليها للاهتمام بها، ولأن تنفيذها يكون شاقاً على الورثة غالباً.

(١) قرأ ابن كثير وابن عامر وشعبة (يُوصَى) بفتح الصاد وألف بعدها، على البناء للمفعول، و(بها) نائب فاعل، وقرأ الباقون بكسر الصاد، وياء بعدها، على البناء للفاعل، أي: يوصى بها الميت.

وهذا الذي أوصيتكم به -أيها المسلمون - مفروض عليكم من الله ربكم ﴿فَرِيضَةً مِّنَ اللَّهِ﴾ فرضها عليكم مَنْ أحاط علمه بكل شيء، فشرع لكم ما يصلحكم في كل حال، وفي كل زمان ومكان. ﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا﴾ بخلقه ﴿حَكِيمًا﴾ فيما شرعه لهم.

ثالثًا: ميراث الأزواج

١٢- ﴿وَلَكُمْ نِصْفُ مَا تَرَكَ أَزْوَاجُكُمْ إِن لَّوْ يَكُن لَّهُنَّ وَلَدٌ فَإِن كَانَ لَهُنَّ وَلَدٌ فَلَكُمْ الرُّبْعُ مِمَّا تَرَكَنَّ مِنْ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُّوصِينَ بِهَا أَوْ دَيْنٍ﴾

قال سعيد بن جبیر في معنى الآية: للرجل ما تركت امرأته إذا ماتت، إن لم يكن لها ولد من زوجها الذي ماتت عنه أو من غيره، فإن كان لها ولد ذكر أو أنثى، فللزوجة الربع مما تركت من المال، من بعد وصية يوصين بها، أو دين عليهن، والدين قبل الوصية ﴿وَلَهُنَّ الرُّبْعُ﴾ يعني: للمرأة الربع مما ترك زوجها من الميراث إن لم يكن لزوجها الذي مات عنها ولد منها أو من غيرها، فإن كان للرجل ولد ذكر أو أنثى، فلها الثمن مما ترك الزوج من المال.

١- ميراث الزوج: يرث الزوج نصف تركه زوجته، إذا ماتت دون أن تترك مولودًا منه، ولا من زوج قبله، ذكرًا أو أنثى، فإن كان لها ولد أو أكثر - ذكر أو أنثى - منه، أو من غيره، فإن زوجها يرث الربع.

وأولاد الأبناء للزوجة المتوفاة يأخذون حكم الأبناء، فيحجبون الزوج حجب نقصان من النصف إلى الربع، سواء كانوا منه، أو من زوج آخر.

وبهذا، فإن ميراث الزوج له حالتان:

الأولى: أن يأخذ نصف ما تركته الزوجة، إن لم يكن لها ولد منه أو من غيره، وفي حكم الابن، ابن الابن (الحفيد) وفي هذه الحالة يأخذ الأبوان حقهما إن كانا أحياء، أحدهما أو كلاهما، والباقي لأقرب رجل عاصب (الأب، وإلا فلاخوة).

الثانية: أن يأخذ الزوج الربع إن كان لها ولد منه أو من غيره، ومثله الحفيد، ويأخذ الأبوان حقهما، ثم يتقاسم الأبناء الباقي، الذكر ضعف الأنثى.

ثم تقسم التركة بعد الوفاء بالدين والوصية الجائزة.

٢- ميراث الزوجة

﴿وَلَهُنَّ الرُّبُعُ مِمَّا تَرَكْتُمْ إِنْ لَمْ يَكُنْ لَكُمْ وَلَدٌ فَإِنْ كَانَ لَكُمْ وَلَدٌ فَلَهُنَّ الثُّمُنُ مِمَّا تَرَكْتُمْ مِنْ بَعْدِ وَصِيَّاتِهِ تُوَصَّوْنَ بِهِآ أَوْ دِينَ﴾.

فإذا مات الزوج، ولم يترك ولداً أو أكثر، من هذه الزوجة أو من غيرها ذكراً أو أنثى، فإن الزوجة ترث الربع في هذه الحالة، فإن ترك ولداً فلها الثمن.

فالأبناء يحجبون الزوجة حجب نقصان من النصف إلى الربع ويكون هذا بعد الوفاء بالدين والوصية.

والزوجتان، أو الثلاث، أو الأربع، كلهن كزوجة واحدة، يشتركن في الربع أو الثمن. وبهذا فإن ميراث الزوجة له حالتان أيضاً:

الأولى: أن تأخذ ربع ما تركه الزوج، إذا لم يكن له أولاد ولا أحفاد منها ولا من غيرها.

الثانية: أن تأخذ الثمن، إذا كان للزوج أولاد، أو أحفاد منها أو من غيرها.

رابعاً: ميراث الكَلَالَةِ (الْحَوَاشِي)

﴿وَإِنْ كَانَتْ رَجُلٌ يُورَثُ كَلَالَةً أَوْ امْرَأَةً وَلَهُ أَخٌ أَوْ أُخْتُ فَلِكُلِّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا السُّدُسُ فَإِنْ كَانُوا أَكْثَرَ مِنْ ذَلِكَ فَهُمْ شُرَكَاءُ فِي الثُّلُثِ مِنْ بَعْدِ وَصِيَّتِهِ يُوَصَّى بِهَا أَوْ دِينَ غَيْرِ مُضَآءٍ وَصِيَّةٍ مِنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَلِيمٌ﴾.

الكَلَالَة هي: من يموت وليس له أصول ولا فروع يرثونه، لا أب ولا جد، ولا ابن، ولا بن ابن، ولا بنت، ولا بنت ابن، وإن نزلوا.

فإذا مات الميت ولم يترك أصلاً ولا فرعاً (والداً ولا ولداً) وترك أخاً أو أختاً من الأم على وجه الخصوص؛ ﴿فَلِكُلِّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا﴾ أي من الأخ والأخت ﴿السُّدُسُ﴾.

وهذا الحكم خاص بالإخوة لأم ذكوراً أو إناثاً؛ إذ لو كان المراد الإخوة الأشقاء، أو من أب، لورثا كما جاء في آية الكَلَالَة التي في آخر السورة ﴿لِلَّذَكَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنثِيَيْنِ﴾.

وذكرُ الإخوة مرة في هذه الآية، ومرة في الآية التي في آخر السورة، يدل على وجود فرق بينهما، وهو أن ميراث الأخ الذي في آخر السورة، أكثر من ميراث الأخ الذي في

أول السورة، فدل هذا على أنهما مختلفان.

فإن كان الإخوة لأم أكثر من اثنين، فإنهم يشتركون في الثلث، مهما بلغ عددهم.

وإخوة الأم يخالفون بقية الورثة فيما يأتي:

١- أن ذكورهم وإناتهم في الميراث سواء.

٢- أنهم لا يرثون إلا في حالة الكلالة.

٣- أنهم لا يزيدون في الميراث على الثلث مهما كثروا.

ودل لفظ الكلالة على أن الفروع وإن نزلوا، والأصول الذكور وإن علّوا، يُسقطون أولاد الأم من الميراث، لأن الله تعالى لم يورثهم إلا في الكلالة.

وعلى هذا فإن الإخوة والأخوات من الأم لهما حالتان في الميراث:

الأولى: أن يأخذ الواحد أو الواحدة السدس إذا انفرد ﴿فَلِكُلِّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا السُّدُسُ﴾.

الثانية: أن يكون أكثر من واحد ذكورا أو إناثا ، وفي هذه الحالة يشترك الجميع في الثلث، فيقتسمونه بالسوية بين الذكور والإناث، لا فرق بينهم ﴿فَإِنْ كَانُوا أَكْثَرَ مِنْ ذَلِكَ فَهُمْ شُرَكَاءُ فِي الثُّلُثِ﴾.

وإن كان رجل أو امرأة يورث كلاله، ليس له ولد ولا والد، فإن كانوا أكثر من واحد، اثنين إلى عشرة فصاعداً فهم شركاء في الثلث^(١).

ومسألة الكلالة من المشكلات، فقد سئل عنها أبو بكر رضي الله عنه فقال: أقول فيها برأيي، فإن يكن صواباً فمن الله، وإن يكن خطأ فمني ومن الشيطان، والله ورسوله بريئان منه، الكلالة: من لا ولد له ولا والد، فلما ولي عمر بن الخطاب الخلافة قال: إني لأستحي أن أخالف أبا بكر في رأيي رآه^(٢).

(١) ابن أبي حاتم (٤٩١٦، ٤٩٢٣، ٤٩٣٥).

(٢) «تفسير الطبري» (٥٤/٨) ورواه سعيد بن منصور في «سننه» برقم (٥٩١) والبيهقي في «السنن الكبرى» (٢٤٤/٦) من طريق سفيان عن عاصم الأحول بنحوه.

وقد نزلت آية الكلاله في شأن جابر بن عبد الله، فقد قُتل يوم أحد، ولم يكن له يوم نزولها أب ولا ابن.

وقصة جابر تبين المراد من الكلاله كما في الآية الأخيرة من السورة.

وقد نزلت آية الكلاله في آخر عمر النبي ﷺ .

وقال عمر رضي الله عنه: ما راجعت رسول الله ﷺ في شيء ما راجعته في الكلاله، وما أغلظ لي في شيء ما أغلظ لي في الكلاله، حتى طعن بأصبعه في صدري وقال: «يا عمر، ألا يكفيك آية الصيف»، وهي التي في آخر السورة، وكانت قد نزلت في الصيف.

أما الآية التي معنا في أول السورة فقد نزلت في الشتاء، وفي الآية الأخيرة ما ليس في الآية الأولى من البيان، فلذا أحاله عليها.

وهذا كله بعد قضاء الدين وإنفاذ الوصية التي لا ضرر فيها على الورثة، قال تعالى مشيراً إلى ما جاء من أول الآية: ﴿مَنْ بَعْدَ وَصِيَّهِ يُوصِي بِهَا أَوْ دَيْنٍ غَيْرَ مُضَارٍّ﴾.

فتكون الوصية بقصد المصلحة وليست بقصد الإضرار بالورثة أو ببعضهم، وقد كره الله الضرر في الحياة وعند الممات ونهى عنه وهذا معنى ﴿غَيْرَ مُضَارٍّ﴾ أي غير مضار ورثته بالإكثار من الوصية أو التجاوز فيها بالزيادة عن الثلث أو الوصية لوارث.

وهذه وصية صادرة من الله تعالى لعباده ذكرت في هاتين الآيتين أربع مرات بصيغ مختلفة تأكيداً لحق الدائنين والموصي لهم، وتبرئة لذمة المتوفى، وقُدِّمت الوصية على الدين في الآيتين؛ لأنها مال يُعطى بغير عوض، فكان إخراجها شاقاً على النفس، بخلاف الدين فإن أصحابه يطلبونه والنفوس تطمئن على أدائه، فلذا أُخِّر في الذكر، وقُدِّم في الأداء.

وقد ختم الله كل حكم من أحكام الميراث بهذين الشرطين، ثم بيّن جلّ شأنه أن الله عليم بمصالح العباد ومضارهم، وعليم بمن يجور في وصيته ﴿حَلِيمٌ﴾ لا يعاجلهم بالعقوبة، يصفح ويغفر، ولا يستخفه جهل جاهل.

وهكذا ذكرت الآيتان الميراث ونصابه بالنسبة للأصول والفروع والحواشي، وعصمة الزوجية، وسكتت عن العصب، وذوي الأرحام، والمولى المعتقد، والمولى بالحلف، وقد أخذ كثير من الفقهاء توريث ذوي الأرحام من قوله تعالى: ﴿وَأُولُوا الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَى

بَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ ﷻ من سورتي الأنفال والأحزاب.

وأخذوا التورث بالولاء من قوله تعالى: ﴿وَلِكُلِّ جَعَلْنَا مَوْلَىٰ مِمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ وَلَّذِينَ عَقَدْتُ أَيْمَنُكُمْ فَآتَوْهُمْ نَصِيْبَهُمْ﴾ [النساء: ٣٣].

أما تورث العصبة فقد أخذ مما صح عن النبي ﷺ من حديث ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال: «ألحقوا الفرائض بأهلها فما بقي فهو لأولى رجل ذكر»^(١).

فإذا ألحقنا الفروض بأهلها ولم يبق شيء، لم يستحق العاصب شيئاً، وإن بقي شيء أخذه أولى العصبة بحسب درجاتهم.

وجهاً العصوبة خمس: البنوة، ثم الأبوة، ثم الأخوة وبنوهم، ثم العمومة وبنوهم، ثم الولاء، فيقدم منهم الأقرب جهة، فالأقرب.

ومن قوله ﷺ في حديث أبي هريرة رضي الله عنه: «أنا أولى بالمؤمنين من أنفسهم، فمن مات وترك مالاً، فماله لموالي العصبة، ومن ترك كلاً أو ضياعاً فأنا وليه»^(٢).

المَوَارِيثُ مِنْ حُدُودِ اللَّهِ تَعَالَى

١٣- ﴿تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ وَمَنْ يُطِغِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ (١٣)

أحكام الموارِيث والوصايا والطلاق والنكاح ونحوها حدود الله تعالى وفرائضه وتشريعاته: شرعها لعباده، وفق علمه وحكمته لتنظيم العلاقات العائلية والاقتصادية والاجتماعية في المجتمع، ويجب عليهم الوقوف معاً وعدم مخالفتها، ولا يجوز لهم أن يتجاوزوها ولا يقصروا فيها، وفي تنفيذها طاعة لله تعالى، وامثال لما أمر الله به واجتناب لما نهى عنه، وفي ذلك بلوغ جنات كثيرة الأشجار والقصور، تجري من تحتها الأنهار بمياهها العذبة، وهم باقون في هذا النعيم، لا يخرجون منه أبداً، وذلك هو الثواب العظيم.

(١) من حديث ابن عباس في «صحيح البخاري» (٦٧٣٢، ٦٧٣٥، ٦٧٣٧، ٦٧٤٦) ومسلم (٢/١٦١٥) وابن

ماجه (٢٧٤٠) وأحمد في «المسند» (٣١٣/١)، برقم (٢٦٥٧، ٢٩٩٣)

(٢) من حديث أبي هريرة في البخاري (٢٢٩٨، ٦٧٤٥) ومسلم (١٦١٩).

١٤- ﴿وَمَنْ يَعِصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُ يُدْخِلْهُ^(١) نَارًا خَالِدًا فِيهَا وَلَهُ عَذَابٌ مُهِينٌ

أي: ﴿وَمَنْ يَعِصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾ في كل أموره، لا سِيَّما ما يتعلق بالمواريث، فلم يرض بقسمة الله ورسوله ﴿وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُ﴾ فأنكر شرع الله وأحكامه، وتجاوز ما أمر به، أو غير وبدل شرع الله مستحلاً لذلك، فطالب أو أعطى المرأة - مثلاً - كما يُعطي الرجل في الميراث، واعتبر ذلك من باب المساواة بينهما، أو عطّل العمل بما شرعه الله، اعتقاداً منه أن شرع الله تعالى لا يصلح لهذا العصر، وأن قوانين البشر أفضل. وأكمل، فإن الله تعالى ﴿يُدْخِلْهُ نَارًا خَالِدًا فِيهَا﴾ فقد كفر بما أنزل الله، إذا استحل ذلك، ولم يتب منه قبل موته، بل أصر عليه إلى الممات، كان مخلداً في النار لِكُفْرِهِ ﴿وَلَهُ عَذَابٌ مُهِينٌ﴾ يخزيه ويهينه، لهوانه على الله تعالى يوم لقائه.

وقد قال تعالى في شأن أهل الجنة ﴿خَالِدِينَ فِيهَا﴾ بالجمع، وقال في شأن أهل النار ﴿خَالِدًا فِيهَا﴾ بالافراد، للإشارة إلى أن أهل الجنة جديرون بقبول الشفاعة فيهم، وبالشفاعة لغيرهم، فهو يدخل مع غيره في جنات الله، وهم في أنس وبهجة.

أما أهل النار فلا يشفعون في غيرهم ولا يشفع لهم أحد، فيبقون فرادى، تحيط بهم الذلة والمهانة من كل جانب، فهم في وحشة وهم.

والمراد بالمعصية في الآية الكفر الأكبر والشرك الأكبر، ومن ذلك استحلال ما حرم الله، وإنكار ما هو معلوم من الدين بالضرورة، فإن المعصية بهذا المعنى هي التي تخلد صاحبها في النار، وهو مراد الآية، أما ما دون ذلك من المعاصي فلا تخلد صاحبها في النار كما دلت هذه النصوص المتواترة، ومن اجتمع فيه طاعة ومعصية كان فيه من موجب الثواب والعقاب بحسب ما فيه من الطاعة والمعصية.

والموحدون لا يخلدون في النار، لأن التوحيد مانع لهم من ذلك.

(١) قرأ نافع وابن عامر وأبو جعفر (نُدْخِلْهُ) بنون العظمة، وقرأ الباقر (يُدْخِلْهُ) بالياء، والفاعل ضمير يعود على الله تعالى وهاتان القراءتان في الموضعين (ندخله جنات) و(ندخله ناراً).

الحُكْمُ الْحَادِي عَشَرَ: عُقُوبَةُ السَّحَاقِ (الْفَاحِشَةِ بَيْنَ النِّسَاءِ)

١٥- ﴿وَالَّذِي يَأْتِيكَ الْفَاحِشَةُ مِنْ نِسَائِكُمْ فَاسْتَشْهِدُوا عَلَيْهَا^(١) أَرْبَعَةً مِنْكُمْ فَإِنْ شَهِدُوا فَأَمْسِكُوهَا فِي الْبُيُوتِ^(٢) حَتَّى يَتَوَفَّيَنَّ الْمَوْتُ أَوْ يَجْعَلَ اللَّهُ لَهُنَّ سَبِيلًا ﴿١٥﴾﴾

وتمضي السورة في سياق حديثها عن الأسرة لحمايتها وحراستها من الجريمة، وتطهير المجتمع وتنظيمه من الفاحشة.

وهذه الآية تتكلم عن جريمة الفاحشة بين النساء، والآية التي بعدها تتناول الفاحشة بين الرجال، وكلاهما فاحشة يعاقب عليها بالسجن وخلافه وتطلق الفاحشة على كل ما فحش وقبح من الذنوب، وتطلق على خصوص فاحشة الزنى، قال تعالى ﴿وَلَا تَقْرَبُوا الزَّانِيَةَ إِنَّهَا كَانَتْ فَاحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلًا﴾ [الإسراء] وقال ﴿وَلَا تَنْكِحُوا مَا نَكَحَ آبَاؤُكُمْ مِنَ النِّسَاءِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَمَقْتًا وَسَاءَ سَبِيلًا﴾ [النساء] والجمهور على أن الآية في الزنى وأنها منسوخة برجم الزاني المحصن، وجلد غير المحصن مئة جلدة وسجنه وتعريبه عام.

وحد الزنى قد نزل في سورة النور سنة ست من الهجرة بعد غزوة بني المصطلق، ولكي تنجح الأسرة في رسالتها لا بُدَّ لها أن تتطهر مما استهان به الغرب ففشا فيه مثل الإيدز، والأمراض التناسلية.

وتنادي بعض المجتمعات في عصر الرقي والتقدم والحضارة بممارسة الحرية الشخصية في الشذوذ الجنسي بمختلف ألوانه، ووجود الجنس الثالث، وتريد أن تعتبر ذلك حقًا مشروعًا للإنسان، لا تتدخل فيه الدولة، ولا تتدخل فيه الشرائع الإلهية، وهذا يحط من مكانة الإنسان إلى مستوى الحيوان، فيهدر كرامته، ويبدد طاقته، ويؤدي إلى الدمار والخراب.

والإسلام منذ فجره، طهر الإنسانية من مثل هذه الخبائث، ومن سائر الأرجاس والأدناس.

والآية في معرض الحديث عن ذلك تتناول المرأة البغيِّ الداعرة، فتعتبرها جرثومة يجب تطهير المجتمع منها، يجب أن تعزل، وأن لا تخالط الناس؛ فتُحبس لئلا تنتقل عدواها إلى الآخرين، والإمساك في البيوت بمثابة الحبس أو السجن حتى يتوفاها الموت، أو يجعل الله لها مخرجًا آخر، وسبيلًا مشروعًا، أو عقوبة أخرى.

(١) وقف يعقوب بهاء السكت على (عليهن) بخلف عنه، لبيان حركة الموقوف عليه، والباقون بدونها.

(٢) قرأ قالون وابن كثير وابن عامر وشعبة وحمزة والكسائي وخلف العاشر (البيوت) بكسر الباء، وقرأ الباقون (البيوت) بضم الباء وهما لغتان.

وأكثر أهل العلم على أن هذه الآية والتي بعدها نزلتا في عقوبة الزنى في بدء الإسلام، وكانت تعني سجن المرأة وإيذاء الرجل بعقوبة تعزيرية، وظل العمل بها حتى جعل الله لهن عقوبة أخرى، هي حدّ الزاني المحصن وغير المحصن.

في صحيح مسلم وغيره عن عبادة بن الصامت رضي الله عنه قال: كان النبي ﷺ إذا نزل الوحي عليه كُرب لذلك، وتربّد وجهه، فأنزل الله عليه ذات يوم، فبقى كذلك، فلما سُرى عنه قال: «خذوا عني، خذوا عني، قد جعل الله لهن سبيلاً: البكر بالبكر، جلد مائة، ونفي سنة، والثيب بالثيب، جلد مائة والرجم»^(١).

الْحُكْمُ الثَّانِي عَشَرَ: عُقُوبَةُ اللَّوَاطِ (الْفَاحِشَةِ بَيْنَ الرِّجَالِ)

١٦- ﴿وَالَّذَانِ يَأْتِيَانِيَا مِنْكُمْ فَعَاذُوهُمَا فَإِن تَابَا وَأَصْلَحَا فَأَعْرِضُوا عَنْهُمَا إِنَّ اللَّهَ كَانَ تَوَّابًا رَّحِيمًا﴾

يقال في هذه الآية ما قيل في الآية السابقة من حيث النسخ وعدمه. أي: ومن يأت الفاحشة من الرجال فآذوهما، فجعلت الآية الأولى عقوبة الشذوذ الجنسي من المرأة بالنسبة للمرأة: الحبس في البيت، وهو السجن الذي يحدد مدته ولي الأمر، وليس المراد به المسكن الذي تقيم فيه حتى الموت أو يتوب الله عليها، أو يغير عقوبتها، وبالنسبة للرجل مع الرجل الشاذ جنسياً: الإيذاء ﴿فَعَاذُوهُمَا﴾.

والإيذاء عقوبة تعزيرية حسبما يرى القاضي من ضربه بالنعال، أو شتمه، أو جلده، أو نفيه، أو حبسه ونحو ذلك.

ولم يُعمل بهذه العقوبة مدة كبيرة حتى قال عليه الصلاة والسلام لأصحابه: «خذوا عني قد جعل الله لهن سبيلاً» وهذا السبيل بيّنته آية سورة النور في البكر ﴿الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ

(١) «صحيح مسلم» برقم (١٦٩٠) و«المسند» (٣١٨/٥)، (٢٢٦٦٦، ٢٢٧١٥) وأبو داود (٤٤١٥) والترمذي (١٤٣٤) والنسائي في «السنن الكبرى» (١١٠٩٣) وفي «السنن» (٧١٤٣) وابن ماجه (٢٥٥٠) والطيالسي (٥٨٥) وعبد الرزاق (١٣٣٦٠) وابن أبي شيبة (٨٠/١٠).

(٢) قرأ ابن كثير (واللذان) بتشديد النون مع المد ست حركات، وهذا على أن إحدى النونين عوض عن الياء المحذوفة، فهي مثل القاضي، وقرأ الباقر (واللذان) بتخفيف النون مع المد الطبيعي، على الأصل.

مَنْهُمَا، وفي الثيب: (الشيخ والشيخة إذا زنيا فارجموهما) وهي منسوخة التلاوة باقية الحكم.

قال ابن عباس رضي الله عنه: كانت المرأة إذا زنت جلست في البيت حتى تموت. وكان الرجل إذا زنى أُوذي بالتعزير والضرب بالنعال؛ فإن كانا محصنين رُجما في سنة رسول الله ﷺ وهذا وذاك سبيلهما الذي جعل الله لهما^(١).

والقول بالنسخ في هذه الآية والتي قبلها هو ما عليه الجمهور. وقد أنزل الله سبحانه عقوبة ثابتة إلى يوم القيامة هي عقوبة الزاني والزانية التي نزلت في قوله تعالى: ﴿فَلْيُجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا مِائَةَ جَلْدَةٍ وَلَا تَأْخُذْكُمْ بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلَشَهِدَ عَدَاؤُهُمَا طَائِفَةٌ مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [النور: ٢] هذا الجلد بالإضافة إلى ما بيّنه النبي ﷺ من نفي عام، والنفي بمعنى السجن والطرْد والإبعاد، وذلك بالنسبة للزاني والزانية غير المتزوج، أما المتزوج فقد ثبت من فعل النبي ﷺ وصح عنه بالنسبة للزاني المحصن أنه الرجم حتى الموت، فقد رجم النبي ﷺ ماعزًا ورجم المرأة اليهودية، والرجل اليهودي، ورجم المرأة الغامدية، والتي من جهينة، ثبت ذلك من فعل النبي ﷺ.

أما رجم ماعز بن مالك الأسلمي فكان بعد أن اعترف بالزنى ثلاث مرات، والنبي ﷺ يُعرض عنه، ثم أرسل إلى أهله يقول: «أبه جنون؟» قالوا: لا، ثم قال: «أبكر هو أم ثيب؟» قالوا: بل ثيب، فأمر به فرجم حتى مات.

وأما المرأة الغامدية فقد جاءت إلى النبي ﷺ معترفة بالزنى وهي حبلى، فأمرها أن تذهب حتى تضع، ثم حتى تطفمه بعد الرضاعة، فلما فطمته، بعد تمام الرضاعة جاءت به، فأمر بها فرجمت.

أما المرأة الجهنية التي زنى بها المزارع الأجير الذي كان يعمل عند زوجها، فافتداه أبوه بمائة شاة وجارية، ثم أخبره أهل العلم أن على ابنه جلد مائة وتغريب عام، وعلى المرأة الرجم، فجيء بها فاعترفت، فرجمها حتى ماتت.

وقد أجمع الصحابة على رجم الزاني المحصن وهو الذي سبق له الزواج بعقد صحيح ودخل على من تزوج بها، فالرجم ثابت بالتواتر العملي.

وحكم الرجم ثابت في التوراة في سفر التثنية "٢٢": (إذا وُجد رجل مضطجعاً مع

(١) أخرجه الطبري (٤٩٩/٦) وابن أبي حاتم بسند حسن (٤٩٨٤) وابن المنذر (١٤٧٢).

امراة زوج بعل، يُقتل الاثنان، وإذا وَجد رجل فتاة عذراء غير مخطوبة فاضطجع معها فوُجدا، يُعطي الرجل الذي اضطجع معها لأبي الفتاة خمسين من الفضة، وتكون هي له زوجة، ولا يقدر أن يطلقها كل أيامه^(١).

ويختار بعض أولي العلم في معنى الآيتين أن الآية الأولى ﴿وَالَّتِي يَأْتِيكِ الْفَحِشَةُ﴾ تشير إلى السُّحاق من الشذوذ الجنسي الذي يكون بين المرأة والمرأة، فالآية تخص المرأة وحدها، والآية الثانية تخص الرجال في اللواط ونحوه والخطاب للمؤمنين في ﴿فَاسْتَشْهِدُوا عَلَيْهِنَّ أَرْبَعَةً مِّنْكُمْ﴾ أي: أربعة رجال شهود عدول مسلمون، وشهادة غير المسلم لا تصلح؛ لأن الحكم يتعلق بالمسلمين الفاعلين في قوله تعالى: ﴿مِنْ نِّسَائِكُمْ﴾ ﴿يَأْتِيْنَهَا مِنْكُمْ﴾ وفي الشاهدين ﴿أَرْبَعَةً مِّنْكُمْ﴾ فالخطاب في القضية كلها يخص المسلمين، ولا تقبل شهادة النساء في الحدود قال تعالى: ﴿فَإِنْ شَهِدُوا فَأَمْسِكُوهُنَّ فِي الْبُيُوتِ﴾ أي احبسوهن عن الخروج الموجب للريبة وامنعوهن منه.

هذه هي عقوبة الزنى في بادئ الأمر، وهو الحبس في البيت حتى يتوفاهن الموت، أو يجعل الله لهن سبيلاً غير الحبس في البيوت، وفي هذا وقاية للمجتمع، فإن الحبس للمرأة يقطع دابر المعصية.

وكان الأمر على ذلك في أول الإسلام حتى جعل الله لهن سبيلاً وهو رجم المحصن حتى الموت، وجلد غير المحصن، وهذا تدرج في الحكم وليس نسخاً للآية. أما الرجل فإنه يحتاج إلى السعي للمعاش، واكتساب القوت لأولاده، وإلا حدث ضرر أكبر، ولذا كانت عقوبته الإيذاء بالفعل والقول.

والآية التي بعدها تشير إلى اللواط الذي يكون بين الرجل والرجل ﴿وَالَّذَانِ يَأْتِيْنَهَا مِنْكُمْ فَكَأْذُوهُمَا﴾ يعني: يفعلان اللواط، وقد بين النبي ﷺ في الحديث عن ابن عباس رضي الله عنهما: «من رأيتموه يعمل عمل قوم لوط فاقتلوا الفاعل والمفعول»^(٢) فتصل العقوبة إلى حد

(١) تفسير «التحرير والتنوير» (٢٧٤/٤).

(٢) من حديث ابن عباس عند أبي داود (٤٤٦٢) وفي صحيح سنن أبي داود (٣٧٤٥) قال الألباني: حسن صحيح والترمذي (١٤٥٥) وابن ماجه (٢٥٦١)، وصححه الألباني أيضاً في صحيح سنن ابن ماجه (٢٠٧٥) والإرواء (٢٣٥٠) والمشكاة (٣٥٧٥).

القتل كما بين ذلك المصطفى ﷺ.

وعلى هذا فإن آية سورة النور فيها الحكم بالنسبة للزنى، وهاتان الآيتان في حكم السَّحَاق واللواط، وليس هناك نسخ ولا تكرار بين الآيات، وهذا يكون أولى من القول بالنسخ، والله أعلم، وبهذا قال أبو مسلم الأصفهاني، وجمهور أهل العلم على خلافه.

قلت: وعقوبة الإيذاء بالنسبة لجريمة اللواط عقوبة تعزيرية تصل إلى حد القتل، والسُّنَّة قد بينت ذلك ﴿فَإِنَّ تَابَا وَأَصْلَحَا فَأَعْرِضُوا عَنْهُمَا﴾ اتركوهما، إن تاب الزاني والزانية، وتاب اللاتطون، وتاب أهل السَّحَاق فلا تؤذوهم ولا تعينوا الشيطان عليهم بعد التوبة لا تعيروهم بالذنب الذي تابا منه وأصلحا، فأعرضوا عنهما ولا تؤذوهم ﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ تَوَّابًا رَحِيمًا﴾ يفتح الأبواب لكل قارع في أية لحظة من ليل أو نهار، دون موعد ولا توسط ولا حاجب، ولا مانع ولا تأنيب ولا توبيخ، بل بترحيب وحسن استقبال: «من أتاني يمشي أتيت به هرولة».

الْحُكْمُ الثَّالِثُ عَشَرَ: التَّوْبَةُ وَشُرُوطُهَا

١٧- ﴿إِنَّمَا التَّوْبَةُ عَلَى اللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السُّوءَ بِجَهَالَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِنْ قَرِيبٍ فَأُولَٰئِكَ يَتُوبُ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾

والإسلام لا يغلق الباب في وجه من أخطأ، ولا يطرده من المجتمع نتيجة اندفاعه إلى الهاوية بسبب جهله، بل يفسح له الطريق، ويشجعه على حسن السلوك، والله تعالى يقبل التوبة ممن يرتكبون المعاصي بسبب جهلهم بعاقبتها وإيجابها لسخط الله تعالى، وكل عاصٍ ارتكب ذنبًا خطأً أو عمداً فهو جاهل بهذا الاعتبار، وإن كان عالماً بالتحريم، فإن تاب قبل معاينة الموت، فهو من الذين يقبل الله توبتهم.

ثم بين الله سبحانه شروط التوبة بالإضافة إلى الشروط المعروفة وهي:

- ١- الإقلاع عن الذنب.
 - ٢- والندم على ما فات.
 - ٣- والعزم على عدم العودة إلى الذنب.
 - ٤- ورَدُّ المظالم إلى أهلها.
- وقد ذكرت هذه الآية ثلاثة شروط أخرى:

الشرط الأول: عدم الإكثار من المعاصي، أي الإقلاع عن الذنوب، مع التوبة منها وعدم الإصرار على ارتكابها، وقد جاء هذا في قوله سبحانه: ﴿إِنَّمَا التَّوْبَةُ عَلَى اللَّهِ﴾ أي أن توبة الاختيار يوفق الله إليها العبد، ويقبلها منه، فهي توبة أوجبها الله تعالى على نفسه لمن أفلح عن الذنب، باختياره، فهي مستحقة على الله تعالى ﴿لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السُّوءَ﴾ أي الذنب القليل دون إصرار عليه، وسمي سوءاً: لسوء عاقبته إذا لم يتب، فأفرد لفظ السوء في هذه الآية، وجمع في الآية التي بعدها، وهي التي لا يقبل فيها التوبة، حيث قالت: ﴿وَلَيْسَتِ التَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ﴾ وفرق بين السوء والسيئات.

فالذي يعمل السوء هو الذي يعمل قليلاً من الذنوب، وهذا شرط في قبول التوبة (قلة الذنب) وليس على سبيل التكرار والمعاودة والمداومة، ولكنه الذي يعمل السوء، ثم يتوب بعد المرة الأولى، ثم تضعف نفسه مرة ثانية فيذنّب ثم يتوب، وهكذا، وهو غير مصرّ على الذنب، أما الذي يعاود الذنب ويكرر السيئة، فهو المكثّر من فعل السيئات، فالشرط الأول: هو قلة الذنوب.

والشرط الثاني: أن يرتكب الإنسان الذنب عن جهالة منه بعاقبتها وأنها توجب سخط الله تعالى، وعن جهل منه بأن الله تعالى يراقبه وينظر إليه، وعن جهل منه بأن المعصية تكون سبباً في نقص الإيمان، فكل من عصى الله تعالى فهو جاهل، يرتكب الذنب في لحظة غفلة وجهل إنساني دون تروّ ولا نظر في العواقب، وهذا معنى ﴿يَعْمَلُونَ السُّوءَ بِجَهْلَةٍ﴾ وهذا وصف كاشف لعمل السوء مع الإيمان، وفي هذا إبطال لقبول التوبة مع الإصرار على المعصية، والجهالة تطلق على سوء المعاملة، وعلى الإقدام على الفعل دون رويّة، وليس المراد بها نفي العلم بالشيء؛ لأن هذا يسمى جهلاً، ولو عمل أحد معصية لم يكن يعلم أنها معصية، لا يعتبر آثماً.

قال قتادة: أجمع الصحابة على أن كل من عصى الله تعالى فهو جاهل، سواء ارتكب الذنب عمداً أو خطأ^(١).

وقال ابن عباس رضي الله عنهما: مَنْ عمل السوء فهو جاهل، ومن جهالته عمل السوء، قال تعالى

(١) «تفسير عبد الرزاق» (١/١٥٢).

حكاية عن يوسف عليه السلام: ﴿وَلَا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُنْ مِنَ الْجَاهِلِينَ﴾ [يوسف: ٣٣].

وقال عن موسى عليه السلام: ﴿أَعُوذُ بِاللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ﴾ [البقرة: ٦٧].

وقال تعالى مخاطباً نوحاً عليه السلام: ﴿إِنِّي أَعْطُكَ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ﴾ [هود: ٤٦].

والمراد بالجهل في الآيات الثلاث ظلم النفس، وليس المراد به نفى العلم.

ويسمى فعله هذا جهالة، ويسمى الفاعل جاهلاً؛ لأنه لم يَفْعَلْ ما معه من العلم بالثواب والعقاب، فهو جاهل بهذا الاعتبار.

وقيل: معنى الجهالة: أن يأتي الإنسان الذنب مع علمه أنه ذنب، لكنه يجهل عقوبته.

وقيل: الجهالة: اختيار اللذة الفانية على اللذة الباقية.

فإذا أضيف إلى ذلك أن ارتكاب الذنب كان في لحظة ضعف إنساني وغلبة شهوة أو حاجة ملحة، فلعله يكون المراد بالجهالة في الآية.

الشرط الثالث: عدم التسويف بالتوبة ﴿ثُمَّ يَتُوبُ﴾ من قريب أي: لا يسوّف، ولا يؤخر التوبة، ولا يتمادى ولا يصّر، ولا يستصحب الإصرار على الوقوع في الذنب. والتوبة من قريب: معناها الإقلاع عن الذنب من قريب؛ لئلا يُعَدَّ من المصّرّين.

بمعنى أنه يتوب في صحته قبل مرضه، وفي غناه قبل فقره، وفي شبابه قبل هرمه، وفي حياته قبل معاينة الموت وأحواله، فهذه توبة المضطر.

وسمي الموت قريباً؛ لأن كل ما هو آتٍ قريب، وعمر الإنسان مهما طال فهو قليل، والموت متوقع في كل لحظة.

فالتوبة عند الغرغرة، وعند طلوع الشمس من مغربها، توبة المضطر، لا تنفع صاحبها ولا يوفق لها، كحال فرعون عندما أدركه الغرق.

وقيل في معنى القريب: أن يتوب الإنسان قبل أن يحيط السوء بحسناته فيحبطها، وقبل أن يصير من الران على قلوبهم.

وحديث الرجل الذي قتل مائة نفس، فلما عزم على التوبة قبل الله توبته، وهو حديث

معروف مشهور^(١).

وعن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «إن الشيطان قال: وعزتك يارب لا أبرح أغوي عبادك ما دامت أرواحهم في أجسادهم، فقال الله تعالى: لا أزال أغفر لهم ما استغفروني»^(٢).

والمقصود بالتوبة من قريب أن يكون ارتكاب الذنب ليس عن عمد، ولا عن إسراف، ولكن في لحظة نسيان، وغفلة عن العقوبة التي أعدها الله ﷻ لمرتكب هذا الذنب وهو في لحظة ضعف إنساني، قد استولى عليه الشيطان، وملك زمام نفسه، ثم بادر بالتوبة ولم يسوّف، ولم يصر على الذنب.

وفي الحديث عن ابن عمر رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «إن الله يقبل توبة العبد ما لم يغرغر»^(٣).

هذه شروط ثلاثة:

- ١- يعملون السوء.
 - ٢- بجهالة.
 - ٣- ثم يتوبون من قريب.
- وهذه توبة العصاة من المؤمنين، ويلزم لقبول التوبة رد الحقوق والمظالم إلى أهلها، وقضاء ما فات من الفرائض، وأداء ما عليه من الزكاة، وغير ذلك من شروط التوبة العامة.
- والله تعالى يعلم الصادق والكاذب، فيجازى كلاً منهما بما يستحق، حيث يوفق للتوبة من صدقت نيته، ويخذل من سوّف وأصرّ على الذنب حتى وقت الاضطرار، ولذا ختمت الآية بقوله تعالى: ﴿وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾

(١) وهو في «صحيح مسلم» (٢٧٦٦) و«المسند» (١١١٥٤، ١١٦٨٧) وابن حبان (٦١١، ٦١٥) وأبو يعلى (١٣٩٩) وابن أبي شيبة (١٨٨/١٣) عن أبي سعيد الخدري.

(٢) أخرجه أحمد في «المسند» (٩٢/٣) برقم (١١٢٣٧) وفي سننه ابن لهيعة وهو ضعيف، وفيه عمرو بن عمرو لم يسمع من أبي سعيد، فهو مروي من الطريقين وهو حديث حسن، وانظر (١١٢٤٤) وهذا سند رجاله ثقات رجال الشيخين، (محققوه) وأخرجه الطبراني في الأوسط (٨٧٨٣) وأبو يعلى (١٣٩٩) والبغوي في شرح السنة (١٢٩٣) من طريقين.

(٣) أخرجه أحمد في المسند عن ابن عمر (١٣٢/٢) (٦١٦٠، ٦٤٠٨) بإسناد حسن من أجل ابن ثوبان، وبقية رجاله ثقات، (محققوه) وأخرجه البيهقي في الشعب (٧٠٦٤) والبغوي (١٣٠٦). وأخرجه الترمذي في كتاب الدعوات برقم (٣٥٣٧) وقال: هذا حديث حسن غريب، وأخرجه ابن ماجه في كتاب الزهد برقم (٤٢٥٣) و«صحيح سنن ابن ماجه» (٣٤٣٠).

شَرْطَانِ لِعَدَمِ قَبُولِ التَّوْبَةِ

١٨- ﴿وَلَيْسَتِ التَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ حَتَّىٰ إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ إِنِّي تُبْتُ الْفَنَ^(١) وَلَا الَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمْ كُفَّارٌ أُولَٰئِكَ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٨﴾﴾

ثم ذكر تعالى توبة الذي يتكرر منه فعل المعصية غير مبالٍ بها، ويجاهر بالمعصية، وربما يفتخر بها، وربما يتحدث عن نفسه أنه فعل كذا، وفعل كذا، بين أقرانه ونظرائه، وربما يتحدث عن شبابه وفترة مراهقته، وأنه فعل وفعل.

وقد بين النبي ﷺ كما في حديث أبي هريرة ؓ أن جميع الأمة يُغفر لها وتُعافى من ذنبها إلا المجاهر بالمعصية: «كل أمتي معافي إلا المجاهرون»^(٢) فالمجاهرة ذنب آخر إلى جوار ذنب قد ارتكبه، والمجاهر بالمعصية جرثومة في المجتمع، والمعصية إذا خفيت لا تضر إلا صاحبها، أما إذا جهر الإنسان بها وكانت علانية فإنها تتفشى وتنتشر.

والمراد بالسيئات الشرك، وقيل: إنها لعصاة المؤمنين ممن يستمر في معاصيه وذنوبه حتى تأتبه سكرات الموت وتضعف عنده الرغبة في الشهوة وتقل الحيلة فيتوب؛ لأنه لم تصبح عنده الإمكانية وأصبح في موقف ضعيف يتوب توبة فرعون حين رأى الموت بعينه وأدركه الغرق ﴿قَالَ إِنِّي تُبْتُ الْفَنَ﴾ فتوبته غير مقبولة؛ لأنها وقعت في حال الاضطرار، لا في حال الاختيار، وهذه توبة المضطرين والمنافقين، التي يقول الله سبحانه فيها: ﴿حَتَّىٰ إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ إِنِّي تُبْتُ الْفَنَ﴾.

ويقول: ﴿يَوْمَ يَأْتِي بَعْضُ أُولَٰئِكَ رَبَّكَ لَا يَنْفَعُ نَفْسًا إِيْمَتُهَا لَمْ تَكُنْ ءَامَنَتْ مِنْ قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِي إِيمَانِهَا خَيْرًا﴾ [الأنعام: ١٥٨].

فالتوبة لا تقبل عند خروج الروح (الغرغرة)، ولا عند طلوع الشمس من مغربها، ولا من مات على الكفر والشرك ﴿حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ارْجِعُونِ﴾ [المؤمنون]. فهو يتمنى العودة إلى الدنيا مرة ثانية قائلاً: ﴿لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحًا فِيمَا تَرَكْتُ﴾ يقول سبحانه: ﴿كَلَّا إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَائِلُهَا وَمِنْ وَرَائِهِمْ بَرْزَخٌ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾ [المؤمنون: ١٠٠].

(١) نقل ورش وابن وردان بخلف عنه حركة الهمزة من (تبت الآن) إلى ما قبلها، وفيها ثلاثة وجوه: مد البذل للأزرق عن ورش عند الابتداء بها.

(٢) من حديث أبي هريرة في البخاري (٦٠٦٩) ومسلم (٢٩٩٠).

فليست التوبة لمن يموت على الكفر والجحود والإنكار لوحداية الله تعالى، مع الإصرار على المعاصي حتى الموت قال تعالى: ﴿فَلَمْ يَكْ يَنْفَعُهُمْ إِيْمَانُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا﴾ [غافر: ٨٥].

فالذي يتوب عند الموت، أو يموت على الكفر عقابه شديد عند رب العالمين. ﴿أُولَئِكَ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ مؤلماً موجعاً؛ لأنهم ماتوا كفاراً.

وقد حرم الله تعالى المغفرة على من مات كافراً، وأرجأ أهل التوحيد إلى مشيئته سبحانه.

قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ﴾ [النساء: ٤٨]. وقال سبحانه: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بَعْدَ إِيْمَانِهِمْ ثُمَّ أَزْدَادُوا كُفْرًا لَنْ تُقْبَلَ تَوْبَتُهُمْ﴾ [آل عمران: ٩٠].

قال سعيد بن جبیر: الآية الأولى ﴿إِنَّمَا التَّوْبَةُ﴾ في المؤمنين، والوسطى ﴿وَلَيْسَتْ التَّوْبَةُ﴾ في المنافقين، والأخرى ﴿وَلَا الَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمْ كُفَّارٌ﴾ في الكفار، فلا وجه لحملها على المؤمنين على هذا.

وقد ختمت الآية الأولى بالترغيب في التوبة ﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ تَوَّابًا رَحِيمًا﴾.

وخُتِمت الآية الثانية التي تتحدث عن التوبة المقبولة بقوله تعالى: ﴿وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ يعلم الثائب الحقيقي من المتلاعب ويضع العفو في مكانه.

وعن المتلاعبين بالتوبة الذين لا تُقبل لهم توبة كان ختام الآية الثالثة بقوله تعالى: ﴿أُولَئِكَ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾.

أَرْبَعُ قَضَايَا فِي هَذِهِ الْآيَةِ

١٩- ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا يَحِلُّ لَكُمْ أَنْ تَرِثُوا النِّسَاءَ كَرِهًا^(١) وَلَا تَعْضُلُوهُنَّ لِتَذْهَبُوا بِبَعْضِ مَا ءَاتَيْنَهُنَّ إِلَّا أَنْ يَأْتِيَنَّ بِفَحِشَةٍ مُبَيَّنَةٍ^(٢) وَعَاشِرُوهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ فَإِنْ كَرِهْتُمُوهُنَّ فَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَيَجْعَلَ اللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا^(٣)﴾

كان الرجل إذا مات في الجاهلية، رأى وارثه: كابنه من زوجة أخرى، أو أخيه أو ابن عمه، أنه أحق بزوجة المتوفي، فإن أحبها تزوجها بمهر لا يعدل فيه، وإن كرهها منعها

(١) قرأ حمزة والكسائي وخلف العاشر (كُرْهًا) بضم الكاف، وقرأ الباقر (كَرْهًا) بفتح الكاف: وهما لغتان.

(٢) قرأ ابن كثير وشعبة (مُبَيَّنَةٍ) بفتح الباء مشددة، على أنها اسم مفعول من الفعل المتعدي، أي: يُبَيِّنُهَا مَنْ يَدَّعِيهَا، وقرأ الباقر (مُبَيَّنَةٍ) بكسر الباء مشددة على أنها اسم فاعل بمعنى ظاهرة.

من الزواج حتى تدفع له شيئاً من ميراث قريبه أو من صداقها .

وكان الرجل إذا كره زوجته عضلها حتى تغدى نفسها منه، فنهى الله المؤمنين عن ذلك .
وهكذا فإن الإسلام ورّث المرأة بعد أن كانت تُورّث وأمر بحسن عشرتها . جاء في أسباب النزول لهذه الآية؛ من ذلك :

١- أن الناس كانوا قبل الإسلام، إذا مات الرجل، وخلف امرأة، جاء ابنه من غيرها، أو قريبه من ذوي عصبته، فألقى ثوبه على تلك المرأة، وعلى خبائها، فصار أحق بها من نفسها ومن غيره .

فإن شاء تزوّجها بغير صداق، إلا الصداق الأول الذي أصدقها إياه الميت .

وإن شاء زوّجها غيره، وأخذ صداقها .

وإن شاء عضلها ومنعها من الزواج، يضارها بذلك لتفتدي منه بما ورثته من الميت، أو تموت هي فيرثها .

فإن ذهبت المرأة إلى أهلها قبل أن يُلقَى عليها وليُّ زوجها ثوبه كانت أحق بنفسها .

وكانوا على ذلك حتى تُوفّي أبو قيس بن الأسلت الأنصاري، وترك امرأته (كبيشة بنت معن الأنصارية)، فقام ابن له من غيرها يقال له: حصن، أو قيس بن قيس، فطرح ثوبه عليها، فورث نكاحها، ثم تركها، فلم ينفق عليها؛ يضارها بذلك لتفتدي منه، فأَتَتْ (كبيشة) رسول الله ﷺ فقالت: يا رسول الله، إن أبا قيس تُوفّي، وورث نكاحي ابنه، وقد أضرّني، وطوّل عليّ، فلا هو ينفق عليّ، ولا هو يدخل بي، ولا يخلّي سبيلي، فقال: «اقعدي في بيتك حتى يأتي أمر الله فيك»، فانصرفت، وسمعت بذلك النساء في المدينة، فأَتَيْنَ رسول الله ﷺ وقُلْنَ: ما نحن إلا كهَيْئَة (كبيشة)، غير أنه لم ينكحنا الأبناء، ونكحنا بنو العم، فأنزل الله الآية^(١) .

(١) يُنظر: «صحيح البخاري»، كتاب التفسير وكتاب الإكراه، وأبو داود، كتاب النكاح رقم (٢٠٨٩) مختصراً وصحيح أبي داود (١٨٣٩)، و«تفسير الطبري» (١٠٨/٨) و«تفسير الخازن» (٢٣٨/١) و«زاد المسير» (٣٩/٢)، مع اختلاف بينهما زيادة ونقصاً .

٢- وفي البخاري وغيره عن ابن عباس رضي الله عنه قال: كانوا إذا مات الرجل، كان أولياؤه أحق بامرأته، إن شاء بعضهم تزوجها، وإن شاءوا زوّجوها، وإن شاءوا لم يزوّجوها وهم أحق بها من أهلها - وكان هذا أمراً سائداً لدى الناس - فنزلت هذه الآية ^(١).

٣- وعن أبي أمامة بن سهل عن أبيه قال: لما تُوفّي أبو قيس بن الأسلت، أراد ابنه أن يتزوج امرأته من بعده - وكان ذلك في الجاهلية - فأنزل الله تعالى: ﴿لَا يَحِلُّ لَكُمْ أَنْ تَرِثُوا النِّسَاءَ كَرِهًا﴾ ^(٢).

وفي رواية أنها قالت: لا أنا ورثتُ فأُنكِح، ولا أنا تركتُ فأُنكِح ^(٣).

٤- وأخرج الطبري وابن أبي حاتم بسند حسن عن علي بن أبي طلحة عن ابن عباس رضي الله عنه قال: كان الرجل إذا مات وترك جارية ألقى عليها حميمه ثوبه، فمنعها الناس، فإذا كانت جميلة تزوّجها، وإن كانت ذميمة حبسها حتى تموت فيريثها ^(٤).

٥- وقال زيد بن أسلم في الآية: كان أهل يثرب إذا مات الرجل منهم في الجاهلية ورث امرأته من يرث ماله، وكان يعضلها حتى يرثها، أو يزوّجها من أراد، وكان أهل تهامة يسيء الرجل صحبة المرأة حتى يطلقها، ويشترط عليها ألا تنكح إلا من أراد، حتى تفتدي منه ببعض ما أعطاها، فنهى الله المؤمنين عن ذلك ^(٥).

٦- ونقل الطبري عن عطاء بن أبي رباح: أن أهل الجاهلية كانوا إذا هلك الرجل وترك امرأة، حبسها أهله على الصبي يكون فيهم، فنزلت الآية ^(٦).

(١) «صحيح البخاري» برقم (٤٥٧٩) و (٦٩٤٨) والنسائي في «السنن الكبرى» برقم (١١٠٩٤) والطبري (٦/٥٢١).

(٢) «سنن النسائي» برقم (١١٥) وفي «السنن الكبرى» (١١٠٩٥) و«تفسير الطبري» برقم (٨٨٧٠) وابن أبي حاتم برقم (٢٥٨٠) قال ابن حجر في «الفتح» (٩٥/٨): إسناده حسن، وحسنه السيوطي في «لباب النقول» ص ٦٥.

(٣) يُنظر: عبد الرزاق (١/١٥١) والطبري (٦/٥٢٦).

(٤) الطبري (٦/٥٢٦) وابن أبي حاتم (٥٠٢٨).

(٥) «تفسير ابن كثير» (٢/٢٤٠) وهو عند ابن أبي حاتم (٥٠٣٣).

(٦) ابن المنذر (١٤٩٥) والطبري (٦/٥٢٣).

٧- وقال الزهري: نزلت في الرجل يحبس المرأة عنده، لا حاجة له بها، ويستظر موتها حتى يرثها^(١).

٨- وقال القرطبي: كان يكون عند الرجل عجوز، ونفسه تنوق إلى الشابة، فيكره فراق العجوز لمالها، فيمسكها ولا يقربها حتى تفتدي منه بمالها، أو تموت فيرث مالها، فنزلت الآية^(٢).

٩- وعن أبي مالك قال: كانت المرأة في الجاهلية إذا مات زوجها، جاء وليه فألقى عليها ثوباً، فإن كان له ابن صغير، أو أخ، حبسها عليه حتى يشب، أو تموت فيرثها، فإن هي انفلتت فأدت أهلها ولم يلق عليها ثوباً نجت، فأنزل الله ﴿لَا يَحِلُّ لَكُمْ أَنْ تَرِثُوا النِّسَاءَ كَرِهًا﴾^(٣).

ومجموع هذه الروايات يفيد أن مقصود الآية هو إبطال ما كان الناس عليه في الجاهلية من أنهم يرثون المرأة كما يورث المال والمتاع، فلا يحل لكم أيها الرجال أن تأخذوا نساء موتاكم بطريق الإرث، وهن كارهات لذلك أو مكرهات عليه؛ لأن هذا من فعل الجاهلية، وقد حرمه الإسلام لما فيه من ظلم المرأة وإهانة كرامتها.

ولا يحل لكم أن تقهروا المرأة؛ كي تضطر لافتداء نفسها منه برّد مهره، أو التنازل عن حقها في النفقة والمتعة أو الحضانة، أو بقية مهرها عنده، فإن زنت أو أساءت العشرة، أو امتنعت من الجماع، أو آذت الزوج بطريقة من الطرق فلکم العذر في أخذ ما لكم من حقوق عندهن.

وليس حسن الخلق مع المرأة بكف الأذى عنها، بل باحتمال الأذى منها، والحلم على طيشها وغضبها، فإن كرهتم العشرة معهن فلا تتعجلوا في مفارقتهن، فعسى أن يكون صبركم عليهن فيه خير كثير لكم في الدنيا والآخرة، وقد تكره النفس ما كانت عاقبته خيراً، وهكذا فإن الآية تناولت أربع قضايا:

الأولى: تحريم أن يرث الرجل المرأة كالمَتَاعِ ﴿لَا يَحِلُّ لَكُمْ أَنْ تَرِثُوا النِّسَاءَ﴾.

الثانية: لا يجوز للرجل أن يسيء معاملة المرأة حتى تضطر لخلع نفسها منه، إلا إذا أتت بفاحشة الزنى مع الاعتراف، أو شهادة أربع، فيقام عليها الحد، أو تسيء معاملة

(١) وهي في الطبري (٥٢٣/٦) وابن المنذر (١٤٩٥).

(٢) «تفسير القرطبي» (٩٤/٥).

(٣) أخرجه ابن أبي حاتم (٥٠٣١).

الزوج بأن تمتنع من الفراش، أو تسيء له في القول أو الفعل وهذا معنى ﴿وَلَا تَعْضُلُوهُنَّ لِيَذْهَبُوا بِبَعْضِ مَا ءَاتَيْتُمُوهُنَّ إِلَّا أَنْ يَأْتِيَنَّ بِفَحِشَةٍ مُبَيَّنَةٍ﴾ أي: فاحشة ظاهرة بأدلتها وشهودها الأربع.

الثالثة: وجوب حسن عشرتها وتحمل أذاها ﴿وَعَاشِرُوهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ﴾.

الرابعة: ليس الطلاق شرًّا في جميع الأحوال، فقد يكون خيرًا للزوجين وقد لا يكون ﴿فَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَيَجْعَلَ اللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا﴾ وقوله تعالى ﴿وَإِنْ يَنْفَرَا بَعْضُكُم مِّنَ الْآخَرِ﴾ [النساء: ١٣٠].

القضية الأولى: المرأة ليست متاعا يُورَث

كما جاء في أسباب النزول لقد كانت المرأة إذا مات زوجها فإن ابنه الأكبر من غيرها يأتي فيضع ثوبه على زوجة أبيه، فإذا وضع ثوبه عليها صارت في ملكه، وتحت تصرفه، وورثها كما يرث مال أبيه ومتاعه، إن شاء تزوجها، أي: تزوج زوجة أبيه بالمهر الذي تزوجها به أبوه، وهو الصداق الأول، وإن شاء زوّجها من يشاء، ويأخذ هو صداقها، وإن شاء أوقفها بلا زواج، لا سيمًا إذا كانت دميمة وعندها أموال، فإنه يحبسها ويمنعها من الزواج؛ كي يرث هذا المال بعد موتها، أو تعطيه له قبل موتها، فأُنزل الله سبحانه ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا يَحِلُّ لَكُمْ أَنْ تَرِثُوا النِّسَاءَ كَرِهًا﴾ أي: لا يحل لكم أن تروثوا نكاح النساء وأموالهن على كره منهن، فجعل الإسلام للمرأة حق التصرف في أن تزوّج نفسها، أو يزوّجها وليها، تتزوج من تشاء، ولا تُورث، وإنما ترث كالرجل، سواء بسواء.

القضية الثانية: عضل المرأة

ومن أنواع الظلم والإجحاف الذي كان يقع على المرأة، أن الرجل إذا تزوج امرأة ولم تطب له العشرة معها، وكرهها لسبب من الأسباب، فإنه يضيق عليها حتى يضطرها إلى أن تردّ إليه المهر، أو تقدي نفسها بمالها منه، والله سبحانه رفع هذا الظلم عن المرأة فنهى عن المضايقة لها، والمنع لها من الزواج للمضارة بها، فقال تعالى: ﴿وَلَا تَعْضُلُوهُنَّ لِيَذْهَبُوا بِبَعْضِ مَا ءَاتَيْتُمُوهُنَّ﴾ وهو المهر الذي دفعتموه ﴿إِلَّا أَنْ يَأْتِيَنَّ بِفَحِشَةٍ مُّبَيَّنَةٍ﴾ أي: إلا إذا وقعت في الزنى، وذلك قبل نزول حد الزنى في سورة النور، أو كانت ناشزًا

أوبذينة، أو لا تُطاول الرجل في المباحات، ولا تعطيه حقه المشروع، فإن مضايقتها في هذه الحالة لا حرج فيها.

قال ابن زيد: كان العضلُ في قريش بمكة، أن ينكح الرجل المرأة الشريفة، فلعلها لا توافقه، فيفارقها، على ألا تتزوج إلا بإذنه، فيأتي بالشهود فيكتب ذلك عليها ويُشهد، فإذا خطبها خاطب، فإن أعطته وأرضته أذن لها وإلا عضلها^(١).

ويدخل في معنى العضل، الأب الذي يمنع ابنته من الزواج؛ كي يَبْقَى مالها في جيبه، يمنعها من الزواج حفاظاً على راتبها الشهري، وكم من أحوال في المجتمع بهذا الشكل.

وقد منعت الآية جميع هذه الصور التي يُقَصَّدُ بها التضييق على المرأة؛ لأخذها، أو أخذ مالها، أو لتفدي نفسها بجزء من مهرها ونحوه.

ومن صور العضل أن الرجل كان يطلق المرأة ثم يراجعها، ثم يطلقها، يضارها بذلك، فنهوا عن هذا، إلا إذا أتت بفاحشة بيّنة، وهي الزنى، أو النشوز وسوء الخلق، أو إيذاء الزوج، أو إيذاء والديه، فلکم حينئذ إمساكن حتى تأخذوا ما أعطيتموهن.

ولتكن مصاحبتكم لنسائكم قائمة على التكریم والمحبة والإجمال في القول، وأن تحب لها - أيها الرجل - ما تحب لنفسك، وتؤدي لها ما عليك من حقوق وحسن معاشرة، فإن كرهتم عشرتهن وضحبتهن، وآثرتم فراقهن لسبب من الأسباب الدنيوية، فاصبروا عليهن مع الكراهة، فلعل لكم تـكـرهونه خيراً كثيراً لا يتوافر فيما تحبون، وإن حدثت المفارقة فربما يعوض الله كلا منهما خيراً منه.

وهذا ما تشير إليه الآية، وفيها أنواع من المظالم التي كانت تحرق المرأة قبل الإسلام، وجاء الإسلام فطهر المجتمع المسلم من رواسب الجاهلية، ورفع من شأن المرأة، وأعلى من قدرها ومكانتها.

القضية الثالثة: حُسْنُ العِشْرَةِ

وكما نهى الإسلام عن عضل المرأة، فقد أمر بِحُسْنِ معاملتها، وعدم الإساءة لها في

(١) أخرجه الطبري (٦/ ٥٣٠).

العشرة، وقد كان الرجل يسيء عِشْرَةَ المرأة، يضربها ويؤذيها ويشتمها، والله سبحانه رفع هذا الظلم عن المرأة في قوله: ﴿وَعَاشِرُوهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ﴾ وهو التعامل الذي يعرفه ذوو الأخلاق الحميدة، وتألفه الطباع السليمة، ولا يستنكره الشرع ولا العقل ولا العرف ولا المروءة ولا الأخلاق، وما يليق بوضعها الاجتماعي من حيث التعامل والنفقة والمسكن والملبس، فإن لهن من الواجبات مثل ما عليهن من الحقوق.

وقد كان النبي ﷺ مثلاً أعلى في بيته، يضاحك نساءه ويمازجهن، ويكون وهو في بيته في خدمة نفسه يرفع ثوبه، ويطهو طعامه، وهكذا، وهذا لا يُنقص من شأن الرجل في شيء، وليس من الرجولة ولا من الكرامة أن يشمخ الرجل بأنفه، ويستعرض قوته وجبروته على المرأة، كمن يستعرض قوته أمام العدو، فالرجل أمام المرأة لا يكون قوياً ولا جباراً، بل يمثل الأثر القائل: «لَا يُكْرِمُهُنَّ إِلَّا كَرِيمٌ وَلَا يُهَيِّئُهُنَّ إِلَّا لَيْثٌ» ويكون وهو في بيته في خدمة أهله.

والرسول عليه الصلاة والسلام سَابَقَ عائشة، مداعبة لها، فسبقته مرة وسبقها مرة، وقال لها: «هذه بتلك»^(١) وكان هذا لِمَا ثَقُلَ وزنها عن المرة الأولى.

عاشروهن بالحسنى، من الصحة الجميلة، وكف الأذى، وبذل الإحسان، وحسن المعاشرة القولية والفعلية، ولا تطلبوا الكمال من المرأة؛ لأنها خلقت من ضلع أعوج، فكيف تستقيم؟ وطلب الكمال أمر مستحيل حتى في واقع الرجال، فكيف بالمرأة؟.

عن جابر رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «... فاتقوا الله في النساء، فإنكم أخذتموهن بأمانة الله، واستحللتم فروجهن بكلمة الله، وإن لكم عليهن ألا يوطئن فرشكم أحداً تكرهونه، فإن فعَلن ذلك فاضربوهن ضرباً غير مبرح، ولهن عليكم رزقهن وكسوتهن بالمعروف»^(٢).

(١) يُنْظَرُ أبو داود برقم (٣٥٩٠) كتاب الجهاد، ورقم (٢٥٧٨) وابن ماجه، كتاب النكاح: من حديث عائشة برقم

(١٩٧٩) وسنده صحيح والنسائي في «السنن الكبرى» برقم (٨٨٩٣-٨٨٩٦) والحميدي (٢٦١) وابن حبان

(٤٦٩١) وهو في «المسند» برقم (٢٤١١٨)، وإسناده صحيح على شرط الشيخين. كما قال محققوه.

(٢) الحديث في «صحيح مسلم» (١٢١٨)، كتاب الحج - من حديث طويل -

القضية الرابعة: الطلاق

فاستمعوا بهن على ما فيهن من عوج، وقد بين النبي عليه الصلاة والسلام أنك إن كرهت منها خلقاً رضيت منها خلقاً آخر، فإن كانت المرأة تصل في أخلاقها وتعاملها للرجل إلى نسبة الخمسين في المئة أو الستين، فإنها تكون قد أتت بدرجة النجاح، ولا ينبغي التمرد عليها حينئذ؛ لأنها بهذا المستوى قد تجاوزت مرحلة الرسوب في الحياة الزوجية، فلا تطلقها -أيها الرجل- بمجرد الكراهية؛ فالأمور تتغير، والأحوال تتبدل، عسى أن يرزقك الله منها ولدًا، فيقوم على خدمتك وعلى رعايتك في كبرك، وتقرّ به عينك، وعسى أن يبدل الله هذه الكراهية إلى محبة.

وهذا عمر رضوان الله عليه، لما أراد ابنه أن يطلق زوجته، سأله عن السبب، فقال: إنه لا يحبها، فعلاه بالدرّة على رأسه، وقال له: أو كلّ البيوت بنيت على الحب؟! أين العشرة؟ أين الرعاية؟ أين الذمم؟ أين السكن؟ أين المودة؟ أين المعروف؟ فإن كرهتموهن لِعيب في الخُلقة، أو الخُلُق، فإن الله تعالى يأمركم بالصبر وحسن العشرة.

كما في الحديث عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «لا يفرك مؤمن مؤمنة إن كره منها خلقاً رضي منها خلقاً آخر»^(١) فقد يصلح حالها وتخدمه في آخر عمره، أو يصلح حالها نتيجة لصبره ويعوضه الله خيرًا، فإن استحالت العشرة فقد جعل الله لهما مخرجًا بالطلاق، وآخر العلاج الكي.

الحُكْمُ الرَّابِعُ عَشَرَ:

النَّهْيُ عَنْ أَخْذِ شَيْءٍ مِنْ مَهْرِ الْمَرْأَةِ الْمَدْخُولِ بِهَا عِنْدَ طَلَاقِهَا

٢٠- ﴿وَإِنْ أَرَدْتُمْ اسْتِبْدَالَ زَوْجٍ مَكَاتٍ زَوْجٍ وَءَاتَيْتَهُمْ قِنْطَارًا فَلَا تَأْخُذُوا مِنْهُ شَيْئًا أَتَأْخُذُونَهُ بُهْتَانًا وَإِنَّمَا مُبِينًا﴾

(١) «صحيح مسلم» (١٤٦٩) و«المسند» (٨٣٦٣) وإسناده صحيح على شرط مسلم، كما قال محققوه، وأخرجه أبو يعلى (٦٤١٨) والبيهقي (٢٩٥/٧).

لا يجوز للرجل إذا أراد أن يطلق امرأته ويتزوج غيرها، إن وجد عندها أي مقدار من المال أو المتاع، سواء أكان هذا المقدار هو مهرها، أو ما أضيف إليه بعد ذلك من هدايا أهداها إليها، أو أنها اكتسبت ذلك من عملها، أو ورثته من ميراث لها، وتجمع عندها قليل أو كثير من المال، لا ينبغي للرجل إذا أراد أن يستبدل زوجته بأخرى أن يضايقها ويضطرها؛ ليأخذ شيئاً من هذا المال.

﴿وَإِنْ أَرَدْتُمْ اسْتِبْدَالَ زَوْجٍ مَّكَانَ زَوْجٍ وَءَاتَيْتُمْ إِحْدَهُنَّ قِنْطَارًا﴾ على سبيل الفرض والمبالغة، أو على سبيل المثال، كما قال ﷺ في حديث ابن عباس ؓ: «من بنى لله مسجداً ولو كمِفْحَصٍ قِطَاةٍ لبيضا بنى الله له بيتاً في الجنة»^(١)

أي: ولو قدر عش العصفور؛ إذ ليس هناك مسجد بهذا القدر، وإنما هو مثال ضربه النبي ﷺ لمن يبنى لله مسجداً، وهذه المبالغة تدل على أن إيتاء القنطار مهر مباح شرعاً؛ لأن الله تعالى لا يمثل بما لا يرضى من الحرام.

وعلى ذلك: فالآية لا يؤخذ منها المغالاة في المهور، إنما هي تنهى عن أخذ شيء من المرأة عند طلاقها، وتحرم مضارعتها في ذلك.

والإسلام لم يضع حداً ولا قدراً معيناً في أقل المهر أو أكثره، والآية تشير إلى أن المهور قد تصل إلى القنطار.

ويستأنس لذلك بما جاء في القصة المشهورة، على ما بها من ضعف، أن عمر رضوان الله عليه صعد المنبر يوماً، ونهى الناس عن المغالاة في المهور، وقال: لو كان ذلك مكرمة للمرأة أوتقوى عند الله تعالى، لكان أولى به رسول الله ﷺ فإنه عليه الصلاة والسلام لم يمهر واحدة من نسائه ولا بناته أكثر من اثنتي عشرة أوقية، أو ما يعادل أربع مئة درهم، والأربعة دراهم تعادل ديناراً واحداً، أي: ما يساوي مئة دينار، ولما قال ذلك عمر، اعترضته امرأة قالت: يا عمر، الله يعطينا وأنت تحرمنا، يقول سبحانه: ﴿وَءَاتَيْتُمْ إِحْدَهُنَّ قِنْطَارًا فَلَا

(١) من حديث ابن عباس في «المسند» (٢١٥٧) صحيح لغيره لضعف جابر الجعفي، (محققوه) وأخرجه البزار (٤٠٢) كشف والطيالسي (٢٦١٧) وابن أبي شيبة (٣١٠/١).

تَأْخُذُوا مِنْهُ شَيْئًا ﴿١﴾ قال عمر: أصابت امرأة وأخطأ عمر، كل الناس أفقه منك يا عمر^(١). وهذه القصة قال عنها السيوطي: بسند جيد^(٢)، وقال عنها ابن كثير: فيها انقطاع^(٣)، وضعفها الألباني^(٤).

وخير المهور أيسرها وأسهلها، وأكثر النساء بركة أيسرهن مهرًا، ففي الحديث عن عقبة بن عامر رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «خير النكاح أيسره»^(٥).

وقال ﷺ لابن أبي حدود، وقد جاءه يستعين في مهره فسأله عنه فقال: متين، فغضب ﷺ وقال: «كأنكم تقطعون الذهب والفضة من عرض الحرة»^(٦).

وقد زوّج النبي ﷺ أحد أصحابه على ما يحفظه من القرآن فقال: «زوجتكها بما معك من القرآن» بعد أن قال له: «التمس ولو خاتمًا من حديد»^(٧).

وزوّج سعيد بن المسيب ابنته على درهمين، ولم ينكر عليه أحد، فليس للمهر حد في القلة أو الكثرة. قال تعالى:

٢١- ﴿وَكَيْفَ تَأْخُذُونَهُ وَقَدْ أَفْضَى بَعْضُكُمْ إِلَى بَعْضٍ وَأَخَذْتُ مِنْكُمْ مِيثَاقًا غَلِيظًا ﴿١﴾﴾

(١) روى من عدة طرق في أسانيدنا ضعف؛ لأن فيها مجالد بن سعيد وهو ضعيف، وفيها عبد الله بن مصعب، وهو أيضًا ضعيف، تُنظر هذه الطرق في كل من: «المسند» (٤٠/١) وأبي داود (٢١٠٦) والترمذي (١١١٤) و«سنن النسائي» (١١٧/٦) وابن ماجه (١٨٨٧) وسعيد بن منصور في «السنن» (٥٩٨) بتحقيق الأعظمي، والبيهقي في «السنن الكبرى» (٢٣٣/٧) و«مصنف عبد الرزاق» (١٠٤٢٠) وانظر: «إرواء الغليل» (٣٤٨/٦، ٣٤٨/١) حيث قال الألباني: ضعيف منكر.

(٢) عند سعيد بن منصور وأبي يعلى عن مسروق، كما في «الدر المنثور» (٢٩٣/٤).

(٣) «تفسير ابن كثير» (٢١٣/٢).

(٤) كما في «إرواء الغليل» (٣٤٨/٦).

(٥) أبو داود عن عقبة بن عامر في كتاب النكاح (٢٣١/٢) برقم (٢١١٧) وصححه الألباني في صحيح سنن أبي داود (١٨٥٩) في نهاية حديث طويل.

(٦) تفسير القرطبي (١٠١/٥).

(٧) ينظر حديث سهل بن سعد في «المسند» (٢٢٨٥٠) بإسناد صحيح ورجال ثقات، (محققوه) وهو في البخاري (٢٣١٠) و«الموطأ» (٥٢٦/٢) والترمذي (١١١) وأبي داود (٢١١١) والبيهقي (٢٣٠٢) وصحيح سنن الترمذي (٨٨٨)، وقد سبق.

ثم إن الرجل قد أفضى إلى المرأة، فاختلى بها وجامعها واطلع منها على ما لم يطلع عليه أبوها وأخوها، والتقت مشاعره بمشاعرها، وعواطفه بعواطفها، وتقاسما الأسرار والهموم، والهمسات واللمسات، والنظرات والعبرات، والخواطر والخلجات.

أفضى إليها بعقله وقلبه، وأفضى إليها بجسده وبدنه، وأفضى إليها بفكره ومشاعره، وأفضت هي إليه بكل ما ذكر، واستمتع كل منكما بالآخر.

أفلا يخجل الرجل مع هذا كله أن يطلب من المرأة عند الطلاق بعض ما دفع إليها، أو يأخذ منها شيئاً عن غير طيب خاطر، فأين ما كان بينهما من فضل ومودة وسكن ومحبة وحسن عشرة؟! وقد قال تعالى: ﴿وَلَا تَسْأُوا الْفَضْلَ بَيْنَكُمْ﴾ [البقرة: ٢٣٧]. إن ذكريات العشرة تجعله ينسى أسباب الطلاق وساعة الفراق ﴿وَكَيْفَ تَأْخُذُونَهُ وَقَدْ أَفْضَى بَعْضُكُمْ إِلَى بَعْضٍ﴾ وفوق ذلك ما كان بينهما من رباط الزوجية ﴿وَأَخَذَتْ مِنْكُمْ مِيثَاقًا غَلِيظًا﴾ هو مقتضى عقد الزواج على كتاب الله وسنة رسوله، ومما يقوله العاقد عند العقد: «زوجتكها على ما أخذ الله للنساء على الرجال من إمساك بمعروف أو تسريح بإحسان» وهذا هو وقت التسريح بإحسان، ويدل عليه ما جاء عن النبي ﷺ: أنه قال للمتلاعنين: «الله يعلم أن أحكما كاذب، فهل منكما تائب؟» ثلاثاً، فقال الرجل: يا رسول الله، مالي، أي: الذي دفعته لها مهراً؟ فقال ﷺ: «لا مال لك، إن كنت صدقت عليها، فهو بما استحلتت من فرجها، وإن كنت كذبت عليها فهو أبعد لك منها»^(١).

فبأي: وجه من الوجوه تستحلون - يا معشر الرجال - أن تأخذوا شيئاً من الصداق الذي أعطيتموه لنسائكم عند مفارقتهم، والحال أنه قد اختلط بعضكم ببعض، وصار كل واحد منكم لباساً لصاحبه، وأخذ الله عهداً موثقاً هو عقد الصداق القائم على الإيجاب والقبول، فلا يحل لكم أن تنقضوا هذا العهد أو تخالفوه، فإفضاء بعضكم لبعض، وعهد الله بينكم سببان يمتنعان سوء العشرة.

والذي تشير إليه الآية هو استحقاق المهر بالوطء، فلا يجوز أخذ شيء منه إلا عن طيب نفس، وذلك لأن المباشرة بين الرجل والمرأة لم يحل إلا بدفع المهر، ولا يجوز الرجوع في

(١) من حديث عبد الله بن عمر في «صحيح البخاري» (٥٣١٢) و«صحيح مسلم» (١٤٩٣).

هذا المهر بعد أن دخل الرجل بالمرأة وأفضى إليها ، فإن ذلك من أعظم الظلم والجور .
وقد أباح الله تعالى في سورة البقرة أن تفدي المرأة نفسها ، بأن تدفع شيئاً للرجل برضاها
لرغبتها في الطلاق منه ﴿فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا فِيمَا افْتَدَتْ بِهِ﴾ [البقرة: ٢٢٩] .
وفي حديث جابر رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «.. فاتقوا الله في النساء؛ فإنكم
أخذتموهن بأمانة الله، واستحللتم فروجهن بكلمة الله»^(١).
وفي الأثر: أن (كلمة الله) هي التشهد في الخطبة^(٢).
والإسلام يدعو الناس بهذه الصفة أن يحترموا هذا الميثاق الغليظ، وهكذا تتمتع المرأة
بحقوقها في الإسلام، وبموازنة بين وضع المرأة قبل الإسلام ووضعها بعده يتضح هذا
المعنى، فقد جاءت فتاة إلى النبي ﷺ وقالت: إن أبي زوجني من ابن أخيه، فجعل
الرسول ﷺ الأمر إليها، فقالت: قد أجزت ما صنع أبي، ولكنني أردت أن أعلم النساء أن
ليس للآباء من الأمر شيء^(٣).

الْحُكْمُ الْخَامِسُ عَشَرَ: الْمُحَرَّمَاتُ مِنَ النِّسَاءِ

أَوَّلًا: زَوْجَةُ الْأَبِ

٢٢- ﴿وَلَا تَنْكِحُوا مَا نَكَحَ آبَاؤُكُمْ مِنَ النِّسَاءِ﴾^(٤) إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ إِنَّهُ كَانَ فَحْشَةً
وَمَقْتًا وَسَاءَ سَبِيلًا ﴿٢٢﴾

وتمضي الآيات لتحديد المحرمات من النساء على الرجال، فتبدأ بأشد الحالات،

(١) «صحيح مسلم»، كتاب الحج (٤/٤١) برقم (١٢١٨) وهو حديث طويل سبق ذكره في الآية السابقة.

(٢) حديث مرسل، رواه الربيع بن أنس عن أبي جعفر الرازي، مختلف فيه، كما في «تهذيب التهذيب».

(٣) رواه ابن ماجه مختصرا عن ابن عباس ورجاله رجال الصحيح برقم (١٨٧٤) وفي صحيح سنن ابن ماجه (١٥٢٠) والروض النضير (٤٢٢).

(٤) قرأ قالون والبري بتسهيل الهمزة الأولى مع المد والقصر في (من النساء إلا) وسهل الثانية الأصبهاني وأبو جعفر، وسهل الأزرق الثانية، وأبدلها ياء ساكنة مع المد المشيع للساكنين، ولقنبل ثلاثة أوجه هي: إسقاط الأولى مع المد والقصر، وتسهيل الثانية وإبدالها ياء ساكنة مع إشباع المد، وأسقط الهمزة الأولى مع المد والقصر أبو عمرو ورويس وحقق الهمزتين الباقون.

وهي: تحريم زوجة الأب:

حيث كان في الجاهلية يحل للولد الذي من امرأة أخرى إذا مات أبوه أن يتزوج بامرأة أبيه، وقد حدثت زيجات كثيرة بهذا الشكل، وهناك أسماء لأعداد من الرجال ولدوا من هذا القبيل، أسماؤهم موجودة في كتب الفقه والتفسير والحديث، ومنهم: أبو قيس بن الأسلت، تُوفِّي، فلما مات جاء ابنه قيس، إلى زوجة أبيه وخطبها لنفسه، فقالت له: إنما أَعُدُّكَ وَلَدًا، أنت بمثابة الولد لي، وأنت في حكم إخوانك لأب، وذهبت المرأة إلى النبي ﷺ تسأله في حكم هذا الزواج فأنزل الله سبحانه ﴿وَلَا تَنْكِحُوا مَا نَكَحَ آبَاؤُكُمْ مِنْ النِّسَاءِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ﴾ أي إلا ما مضى قبل نزول هذه الآية فلا مؤاخذه فيه.

وقد حرمت الآية منذ نزولها على الولد أن يتزوج بامرأة أبيه، حتى لو كان أبوه قد عقد عليها ولم يدخل بها، فمجرد العقد من جهة الأب يُحرّم على الابن الزواج بامرأة أبيه أو مخطوبته.

وقد سمى القرآن الكريم الزنى فاحشة، وسمى نكاح زوجة الأب زيادة على ذلك نكاح المقت؛ لأنه يسبب مقت الله تعالى وغضبه، فهو أشد جرمًا من الزنى، وكان يسمى هذا النكاح أيضًا في الجاهلية نكاح المقت ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا فَحِشَةً وَمَقْتًا وَسَاءَ سَبِيلًا﴾ أما في الزنى فيقول سبحانه: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا الزِّنَى إِنَّهُ كَانَ فَحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلًا﴾ (٣٢) وقالت الآية هنا: ﴿فَحِشَّةٌ وَمَقْتًا وَسَاءَ سَبِيلًا﴾.

١- قال ابن عباس: كان أهل الجاهلية يحرمون ما حرم الله، إلا امرأة الأب، والجمع بين الأختين، فنزل قوله تعالى: ﴿وَلَا تَنْكِحُوا مَا نَكَحَ آبَاؤُكُمْ مِنْ النِّسَاءِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ﴾ (١).

٢- وقال عدي بن ثابت الأنصاري: تُوفِّي أبو قيس، وكان من صالحى الأنصار، فخطب ابنه (قيس) امرأة أبيه، فقالت: إني أَعُدُّكَ وَلَدًا، ولكني آتي رسول الله ﷺ أستأمره، فأتته فأخبرته، فأنزل الله الآية (٢).

٣- ونزلت في (محسن) ابن أبي قيس تزوّج امرأة أبيه كُبَيْشَةَ بنت معن.

(١) ابن جرير (١٣٣/٨) بإسناد حسن.

(٢) أخرجه البيهقي في «سننه» بسند مرسل (١٦١/٧) ورواه الطبراني (٩٧٨) عن شيخه عبد الله بن محمد بن سعيد بن أبي مريم وهو ضعيف كما في «مجمع الزوائد» (٣١٧) وأخرجه ابن المنذر (١٥٢٥) وابن أبي حاتم (٥٠٧٣).

٤- ونزلت في الأسود بن خلف، تزوج امرأة أبيه.

٥- ونزلت في صفوان بن أمية بن خلف، تزوج امرأة أبيه (فاخته) بنت الأسود بن المطلب.

٦ - وفي منصور بن مازن، تزوج امرأة أبيه مليكة بنت خارجة^(١).

هذا: وقد أجمع العلماء على أن من عقد عليها الأب حرمت على ابنه، وإن لم يمسه الأب، وكذلك عقد الابن يحرمها على الأب وإن لم يمسه، فالمراد بقوله تعالى: ﴿وَلَا تَنْكِحُوا مَا نَكَحَ آبَاؤُكُمْ﴾ هذا النكاح يشمل مجرد العقد، ويشمل العقد مع الدخول.

ولفظ النكاح في القرآن قد يراد به الجماع بعد العقد كما في قوله تعالى: ﴿فَإِنْ طَلَّقَهَا فَلَا حِلَّ لَكُمْ مِنْ بَعْدُ حَتَّى تَنْكِحَ زَوْجًا غَيْرَهُ﴾ [البقرة: ٢٣٠]. وقد يراد به مجرد العقد دون مساس للمرأة، كما في قوله تعالى: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا نَكَحْتُمُ الْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ طَلَقْتُمُوهُنَّ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَمْسُوهُنَّ﴾ [الأحزاب: ٤٩]. والآية التي معنا تشمل الأمرين معاً.

قال ابن عباس رضي الله عنه: كل امرأة تزوجها أبوك أو ابنك، دخل بها أو لم يدخل، فهي عليك حرام^(٢).

وعن محمد بن كعب القرظي قال: كان الرجل إذا تُوفِّي عن امرأته، كان ابنه أحق بها أن ينكحها إن شاء، إن لم تكن أمه، أو ينكحها من شاء، فلما مات أبو قيس بن الأسلت قام ابنه محصن، فورث نكاح امرأته ولم ينفق عليها ولم يورثها من المال شيئاً، فنزلت ﴿وَلَا تَنْكِحُوا مَا نَكَحَ آبَاؤُكُمْ﴾ ونزل ﴿لَا يَحِلُّ لَكُمْ أَنْ تَرِثُوا النِّسَاءَ كَرِهًا﴾^(٣).

وكان العرب يسمون زواج الرجل من امرأة أبيه (نكاح المقت) ويسمون الولد منه (مقيتاً) أي: الخبيث الممقوت، الذي يبغضه رب العالمين.

وقد وصف الله تعالى هذا النكاح بثلاثة أوصاف:

١- فاحشة. ٢- ومقتاً. ٣- وساء سبيلاً.

ووصف الزنى في [الإسراء: ٣٢] بوصفين:

(١) يُنْظَر: «تفسير الطبري» (٨/ ١٣٣).

(٢) الطبري (٦/ ٥٥٠) وابن المنذر (١٥٢٦).

(٣) أخرجه ابن سعد (٤/ ٣٨٥).

١- فاحشة.

٢- وساء سيلا.

فدل هذا على أن نكاح المقت أفضع من الزنى، ولم يُعلم أن أحداً ممن ذُكروا في أسباب النزول أنه أسلم وبقي مع من تزوجها بعد أبيه، فقد منع الإسلام ذلك وحرّمه.

وكان أهل الجاهلية يحرمون ما حرمه الإسلام إلا امرأة الأب، والجمع بين الأختين، ولم تكن الأم حلالاً قط لابنها من عهد آدم ﷺ، وكانت الأخت التوأم حراماً، وغير التوأم حلالاً، ثم حرم الله الأخوات مطلقاً من عهد نوح ﷺ، ثم حرمت بنات الأخ، ويوجد تحريمهن في شريعة موسى ﷺ، وثبت هذا التحريم عند العرب في الجاهلية.

وقد رفع الإسلام الإثم عما سبق في الجاهلية مما حرمه الإسلام، ولم يكن العرب يحرمونه في جاهليتهم؛ وذلك لأن امرأة الأب تقوم مقام الأم، ولا ينبغي للابن أن يخلف أباه في الزواج منها؛ لأن الزوج الأول يكره الزوج الثاني عادة، وفي هذا قطع لأواصر الأبوة والبنوة، ولأن هذا يشبه ما كان عليه أهل الجاهلية من إرث زوجة الأب، ولمثل هذه الاعتبارات حرّم الإسلام زوجة الأب، وجعله في غاية الشناعة.

وبداية المحرمات بعد تحريم زوجة الأب ما يحرم بالمصاهرة. قال تعالى:

٢٣- ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَاتُكُمْ وَبَنَاتُكُمْ وَأَخَوَاتُكُمْ وَعَمَّاتُكُمْ وَخَالَاتُكُمْ وَبَنَاتُ الْأَخِ وَبَنَاتُ الْأُخْتِ﴾

ثم ذكر سبحانه سائر المحرمات من النساء على الرجال؛ لما يترتب على ذلك من أحكام شرعية، منها: أنه يحل للمرأة أن تسافر مع محارمها، وأن تختلي بهم، ولها أن تُبدي أمامهم ما يبدو منها وهي تدير شؤون البيت من الرأس والعنق وأطراف القدمين واليدين، وكذا ما يظهر من زينة خفية: كالحلي، والخضاب، والكحل، أما غير المحارم فلا يجوز للمرأة أن تسافر معهم، ولا أن تختلي بغير محرم، ولا يبدو منها أمامهم ما ذُكرت من الزينة الخفية.

وقد جاء تفصيل ذكر المحارم في سورة [النور: ٣١] وجاء على وجه الإجمال في [الأحزاب: ٥٥]، وجاء ذكر المحرمات من النساء على الرجال في هذه السورة.

والمحرمات من النساء على أصناف ثلاثة: محرمات من جهة النسب، وعددهن سبع، ومحرمات بالسبب من جهة الرضاعة، وعددهن سبع كذلك، ومحرمات بسبب المصاهرة

وعدهن خمس .

ثانيًا: المحرمات من جهة النسب سبع:

وهنّ: الأم، والبنت، والأخت، والعمة، والخالة، وبنت الأخ، وبنت الأخت .
ويدخل في الأم كل من لها عليك ولادة وإن بعدت، أي: الجدة من جهة الأب، أو من جهة الأم وإن علت .

ويدخل في البنت كل من لك عليها ولادة، أي: بنت الابن، أو بنت البنت؛ فهي محرمة كذلك وإن سفلت .

ويدخل في الأخت: الشقيقة، أو من الأب، أو من الأم، وكذا بنات الأخ، وبنات الأخت .

والعمة: كل امرأة شاركت الأب في أصله، أو في أحدهما وإن علا .

ويدخل فيها كل أخت لأبيك أو لجدك وإن علا، أي: عمة الأب وإن علا .

والخالة: كل امرأة شاركت الأم في أصلها، أو في أحدهما وإن علت .

وهي كل أخت لأمك أو لجدتك، وكذا خالة الأم وإن علت .

كل ذلك من المحرمات بالنسب على الرجل .

وماعدا هؤلاء السبع يدخل في قوله تعالى: ﴿وَأَحَلَّ لَكُم مَّا وَرَاءَ ذَلِكَ﴾ كبنت العمة والعم، وبنت الخال والخالة .

ثالثًا: المحرمات من الرضاعة

﴿وَأُمَّهَاتُكُمُ اللَّائِي أَرْضَعْنَكُمْ وَأَخَوَاتُكُم مِّنَ الرَّضَعَةِ﴾ .

وهن نفس المحرمات من النسب، كما في قول النبي ﷺ فيما يرويه ابن عباس ؓ: «يحرم من الرضاعة ما يحرم من النسب» .

وجاء في الآية ذكر اثنين فقط من المحرمات بالرضاعة؛ تنبيهًا على الأصول والفروع، والحديث فصل ووضح هذا، ففي الآية: ﴿وَأُمَّهَاتُكُمُ اللَّائِي أَرْضَعْنَكُمْ وَأَخَوَاتُكُم مِّنَ الرَّضَعَةِ﴾ فذكرت الأمهات والأخوات، وأشار الحديث عن ابن عباس ؓ إلى أنه:

«يحرم من الرضاعة ما يحرم من النسب»^(١).

وفي الحديث عن عائشة رضي الله عنها: «الرضاعة تحرم ما تحرم الولادة»^(٢).

وكان أبو القعيس أبا لعائشة من الرضاع، فجاء أخوه أفلح يستأذن في الدخول عليها فقالت: حتى أستأذن رسول الله ﷺ فقال: «اأذن له». فكانت عائشة تقول: حرّموا من الرضاعة ما تحرمون من النسب^(٣).

ويتنشر التحريم من جهة المرضعة ومن له اللبن كما ينتشر في الأقارب، فصاحب اللبن يكون أبا للمرتضع، فإذا ثبتت الأبوة والأمومة ثبت ما هو فرع عنهما.

فإذا رضع طفل من امرأة صارت هذه المرأة أمًّا له، وجميع ذريتها -السابق واللاحق منهم ذكورًا وإناثًا- إخوة له، وزوجها أبا له، وعماتها وخالاتها وبناتها وأخواتها يُحرَّمْنَ عليه، كما يحرم ذلك من جهة النسب، فإن كان للذي رضع أخ آخر لم يرضع من هذه المرأة، فلا علاقة له بهذا التحريم؛ لأن القاعدة أن من يجتمعان على ثدي واحد فهما اللذان تكون الحرمة بينهما، ومن لم يجتمعا على ثدي واحد لا يحرمان.

عدد الرضعات التي تُحرَّم:

القول الأول: من الفقهاء من ذكر أن قليل الرضاعة وكثيره يحرم، فعند الأحناف والمالكية ورواية عن أحمد، أنَّ الرضعة الواحدة تحرم، وهو قول عدد من الصحابة والتابعين، أخذًا من إطلاق الآية.

ولما جاء في صحيح البخاري وغيره أن عقبة بن الحارث قال: تزوجت أم يحيى بنت أبي إهاب، فجاءت أمه سوداء، فقالت: قد أرضعتكما، فأتيت النبي ﷺ فذكرت ذلك

(١) «صحيح مسلم» برقم (١٤٤٤، ١٤٤٧) و«صحيح البخاري» برقم (٢٦٤٥، ٣١٠٥) وسعيد بن منصور في «سننه» (٩٧١) وابن أبي شيبة (٢٨٩/٤) والبيهقي (١٥٨/٧).

(٢) من حديث عائشة في البخاري برقم (٥٠٩٩) و«صحيح مسلم» برقم (١٤٤٤) وعبد الرزاق (١٣٩٥٢) وابن أبي شيبة (٢٨٩/٤).

(٣) يُنظر الحديث في «صحيح مسلم» برقم (١٤٤٥).

له، فقال: «دعها عنك»^(١).

فأمره النبي بتركها ولم يسأل عن عدد الرضعات، فدل هذا على أن القليل والكثير سواء في عدد الرضعات المحرّمات.

والقول الثاني: ويجري العمل على أن خمس رضعات متفرقات معلومات مشبعات يحرم، وبه قال الشافعية وقول عند الحنابلة، وابن حزم، وبعض أهل الحديث، وبعض الصحابة والتابعين، أخذوا من حديث عائشة الآتي ذكره، وفيه تقييد لإطلاق الآية، وليس نسخاً ولا تخصيصاً.

والرضعة هي: أن يلتقم الطفل الثدي، ثم ينصرف عنه ليتنفس من نفسه، دون أن يُنزع منه الثدي، أو يصرفه عنه صارف خارجي، هذه رضعة، فالمصة التي يأخذها بنفسه كاملة، تسمى رضعة مشبعة، فإذا رضع على هذا النحو، خمس رضعات معلومات مشبعات فإنهن يُحرّمن.

والرضعة تحرم سواء أكانت شرباً أو صباً في حلق الصبي.

والرضاع المحرم هو ما كان بشرطين:

الشرط الأول: أن يكون في سن الرضاعة، ضمن حَوْلِي الرضاعة، وهي الرضاعة التي تُنبت اللحم وتُفتق الأمعاء.

عن أم سلمة رضي الله عنها أن النبي ﷺ قال: «لا يُحرّم من الرضاع إلا ما فتق الأمعاء في الثدي، وكان قبل الفطام»^(٢)، وقال ﷺ في حديث عائشة رضي الله عنها: «فإنما الرضاعة من المجاعة»^(٣).

وعن مدة الرضاع قال تعالى: ﴿وَالْوَالِدَاتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَدَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ لِمَنْ أَرَادَ أَنْ يُنِمَّ الرِّضَاعَةَ﴾ [البقرة: ٢٣٣].

(١) ينظر: صحيح البخاري (٨٨، ٢٦٥٩، ٢٦٦٠).

(٢) قال الترمذي: حديث حسن صحيح (١١٥٢)، وصححه الألباني في صحيح سنن الترمذي (٩٢١) وصحيح سنن ابن ماجه (١٩٤٦).

(٣) من حديث عائشة في البخاري برقم (٥١٠٢) ومسلم (١٤٥٥) وصحيح سنن ابن ماجه (١٥٨١) وابن أبي شيبه (٢٨٥/٤)، وصحيح سنن أبي داود (١٧٩٧).

رضاع الكبير:

وقد أرضعت سهلة بنت سهل، زوجة أبي حذيفة بن عتبة (سالمًا) متبنًى أبي حذيفة، وزوجته ابنة أخيه، فلما حرّم الإسلام التبني، أصبح سالم أجنبيًا عن زوجة أبي حذيفة، فشق ذلك على الجميع، وصار دخول سالم للبيت أمرًا محرّجًا، فأمرها النبي ﷺ أن ترضعه، فأرضعته وهو كبير خمس رضعات^(١).

قال بعضهم: إنها سقته في إناء، وقال آخرون، إن هذه حالة خاصة بسالم مولى أبي حذيفة.

وقال ابن تيمية: إنها رخصة لمن كان حاله مثل حال سالم مع أبي حذيفة والله أعلم.

الشرط الثاني: أن يكون خمس رضعات متفرقات لحديث عائشة: كان فيما أنزل من القرآن: عشر رضعات معلومات يحرمن، ثم نسخن بخمس معلومات، فتوفّي رسول الله ﷺ وهن فيما يقرأ من القرآن^(٢).

القول الثالث: أن التحريم يثبت بثلاث رضعات فأكثر، وبه قال بعض التابعين، ورواية عند أحمد، وذلك لما جاء في صحيح مسلم وغيره عن عائشة رضي الله عنها: «لا تحرم المصّة ولا المصتان»^(٣).

وهذا نص في نفي التحريم فيما دون الثلاث، فيكون التحريم منحصرًا فيما زاد عليها.

وفي لفظ عن أم الفضل أن النبي ﷺ قال: «لا تحرم الإملاحة والإملاحتان»^(٤).

وهذا القول مبني على أن المصّة أو الإملاحة رضعة كاملة وليست دونها.

والرضاعة لا ينبغي أن يُفتح بابها على مصراعيه، ولا ينبغي للمرأة أن تتصرف من نفسها وتتبرع بإرضاع الآخرين، إلا بإذن الزوج، وأن تكون هناك ضرورة ملحة، حتى لا يقع الناس في حرج.

(١) يُنظر: الحديث في «صحيح مسلم» (١٤٥٣) وفي صحيح سنن ابن ماجه (١٥٧٩) والإرواء (٢٦٤/٦) والروض النضير (٣٥٤).

(٢) مسلم (١٦٧/٤) برقم (١٤٥٢) و«الموطأ» (٦٠٨/٢) وعبد الرزاق (١٣٩١٣).

(٣) «صحيح مسلم» برقم (١٤٥٠) من طريق ابن أبي مليكة عن عبد الله بن الزبير، وأخرجه أبو داود والنسائي.

(٤) «صحيح مسلم» برقم (١٤٥١).

وقد سبق بيان أن تزوج عقبة بن الحارث ابنة أبي إهاب بن عزيز، فقالت امرأة: إنها أرضعت عقبة الذي تزوجها، فسأل عقبة رسول الله ﷺ فأنكر عليه النبي ﷺ ففارقها وتزوجت غيره بعد ذلك.

رابعًا: المحرمات بالمصاهرة أربع

﴿وَأَمْهَاتُ نِسَائِكُمْ وَرَبِّبَاتُكُمُ الَّتِي فِي حُجُورِكُمْ مِّنْ نِّسَائِكُمُ الَّتِي دَخَلْتُم بِهِنَّ فَإِنْ لَّمْ تَكُونُوا دَخَلْتُم بِهِنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ وَحَلَائِلُ أَبْنَائِكُمُ الَّذِينَ مِّنْ أَصْلَابِكُمْ﴾.

يشمل هذا المقطع من الآية، أربع حالات للمحرمات بالمصاهرة:

الحالة الأولى: حلائل الآباء وإن علوا، وقد سبق بيان ذلك في الآية السابقة (تحريم زوجة الأب).

الحالة الثانية من التحريم بالمصاهرة: أم الزوجة، فهي تحرم على من يتزوج بابنتها حرمة أبدية لقوله تعالى: ﴿وَأَمْهَاتُ نِسَائِكُمْ﴾ والمراد بالنساء: المرأة التي تم العقد عليها سواء أدخل بها أم لا، فإن مجرد العقد على الأمهات يحرم البنات، بخلاف ما إذا كان المعقود عليها هو البنت، فإن الدخول بالبنات يحرم الأمهات وليس مجرد العقد، وسأوى بعض الصحابة بينهما، حملاً للمطلق على المقيّد^(١).

الحالة الثالثة: بنت الزوجة من الرجل الآخر بعد البناء بأمرها، أي الربيبة، سواء أكانت هذه الربيبة في حجره، أي: تربي في بيته، أم كانت في بيت أبيها، أو في بيت آخر.

قال تعالى: ﴿وَرَبِّبَاتُكُمُ الَّتِي فِي حُجُورِكُمْ مِّنْ نِّسَائِكُمُ الَّتِي دَخَلْتُم بِهِنَّ﴾ أي: بشرط أن يدخل بأمرها ﴿فَإِنْ لَّمْ تَكُونُوا دَخَلْتُم بِهِنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ﴾ وقد أخذ من هذه الجملة قاعدة أن: (الدخول بالبنات يحرم الأمهات، والعقد على الأمهات يحرم البنات) ﴿فَإِنْ لَّمْ تَكُونُوا دَخَلْتُم بِهِنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ﴾ و تحريم الربيبة لأنها بمنزلة البنت يجوز الخلوة بها عند أمن الفتنة، فمن المستقيح إباحة الزواج بها.

(١) قال بذلك علي بن أبي طالب، وزيد بن ثابت، وابن عمر، وابن عباس وجابر، وابن الزبير، ومجاهد من التابعين فقالوا: لا تحرم أم المرأة على زوج ابنتها حتى يدخل بها. ينظر: زاد المسير والبعث وغيرهما.

في صحيح البخاري وغيره أن أم حبيبة رضي الله عنها عرضت على النبي ﷺ أن يتزوج أختها، بنت أبي سفيان، فقال ﷺ: «إنها لا تحل لي»، فقالت له: بلغني أنك تخطب، قال: «ابنة أم سلمة؟» قلت: نعم، قال: «لو لم تكن ربيتي ما حلت لي، إنها لابنة أخي من الرضاعة أرضعتني وأباها ثويبة، فلا تعرضن عليّ بناتكن ولا أخواتكن»^(١).

فأشار النبي ﷺ أن (درة) بنت أبي سلمة محرمة عليه لسببين هما: كونها ربيبة، وكونها رضعت معه، وقال ﷺ عن ابنة حمزة بن عبد المطلب: «إنها ابنة أخي من الرضاعة».

وقد اتفق الفقهاء على أن الربيبة تحرم على زوج أمها، إذا دخل بالأم، وإن لم تكن هذه الربيبة في حجره، خلافاً لأهل الظاهر، ومعنى الدخول بالأم هو الجماع عند ابن عباس، وقال مالك والثوري وأبو حنيفة: إذا مسها بشهوة حرمت عليه أمها وابنتها، وحرمت على الأب والابن، وهو أحد قولي الشافعي^(٢).

الحالة الرابعة: حلائل الأبناء وإن نزلوا وارثين أو محجوبين، أي زوجة الابن الذي هو من الصلب، وأشار القرآن إلى ابن الصلب؛ لأن زوجة المتبني قد حرّمها القرآن الكريم في موضع آخر فقال ﴿وَمَا جَعَلَ أَدْعِيَاءَكُمْ أَبْنَاءَكُمْ ذَلِكَ قَوْلُكُمْ بِأَفْوَاهِكُمْ وَاللَّهُ يَقُولُ الْحَقَّ وَهُوَ يَهْدِي السَّبِيلَ﴾ [الأحزاب: ٤]. وقال سبحانه معللاً ذلك: ﴿لَكِنِّي لَا يَكُونُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِي أَنْزَاجِ أَدْعِيائِهِمْ إِذَا قَضَوْا مِنْهُنَّ وَطَرًا﴾ [الأحزاب: ٣٧].

والمتبني ليس عليه حرج ولا مانع من أن يتزوج بزوجة من تبناه إذا طلقها، فقد طبق القرآن الكريم هذه القاعدة عملياً على زواج أم المؤمنين زينب بنت جحش رضوان الله عليها من رسول الله ﷺ بعد إلغاء قاعدة التبني لزيد بن حارثة، فقال تعالى: ﴿وَحَلَائِلُ أَبْنَائِكُمُ الَّذِينَ مِنْ أَصْلَابِكُمْ﴾ حلائل أبنائكم، أي: زوجات الابن ومجرد العقد على المرأة من الأب أو الابن، يحرمها على الآخر سواء كان وطناً، أم لا.

خامساً: المحرمات بالجمع

﴿وَأَنْ تَجْمَعُوا بَيْنَ الْأُخْتَيْنِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ﴾ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَفُورًا رَحِيمًا.

(١) يُنظر الحديث في: «صحيح البخاري» برقم (٥١٠٦، ٥١٠١) و«صحيح مسلم» (١٠٧٢/٢) برقم (١٤٤٩).

(٢) «تفسير القرطبي» (١١٢/٥).

هذا المقطع الأخير من الآية يشمل حالتين حرمهما الإسلام في جمع الرجل بين أكثر من زوجة:

الحالة الأولى: الجمع بين الأختين: لا يجوز للرجل أن يتزوج المرأة وأختها حفاظاً على علاقة الود بين الأخوات، وهو عقد فاسد لا يصح، سواء كانت أخته من النسب أو من الرضاعة.

حدّث الضحاك بن فيروز الديلمي عن أبيه قال: أتيت النبي ﷺ فقلت: يا رسول الله، إني أسلمت وتحتي أختان، قال رسول الله ﷺ لي: «طَلِّقْ أَيْتَهُمَا شِئْتَ».

وفي لفظ «اختر أَيْتَهُمَا شِئْتَ»^(١) كما لا يجوز الجمع بين الأختين في ملك اليمين^(٢).

الحالة الثانية: الجمع بين الزوجة وعمتها أو خالتها: فقد جاءت السُّنَّةُ فحرمت الجمع بين المرأة وعمتها، وبين المرأة وخالتها.

في حديث عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده أن النبي ﷺ قال يوم فتح مكة: «... ولا تُنكح المرأة على عمتها ولا على خالتها»^(٣)

وفي حديث أبي هريرة ؓ: «لا يُجمع بين المرأة وعمتها، ولا بين المرأة وخالتها»^(٤).

وكل امرأتين بينهما رحم محرم، لو قُدِّرَ إحداهما ذكراً والآخر أنثى، حَرُمَ الجمع بينهما لما فيه من أسباب التقاطع بين الأرحام.

ثم استثنى سبحانه فقال: ﴿إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ﴾ أي: إلا ما سبق من فعل الجاهلية قبل نزول هذه الآية، فقد عفا الله عنه.

(١) حُسِّنَه الألباني في «صحيح ابن ماجه» برقم (١٥٨٧) وفي «صحيح سنن الترمذي» برقم (٩٠٢) وهو في السنن (١١٤٤) وقال ابن حجر: صححه ابن حبان والدارقطني والبيهقي كما في «سبل السلام» (٢٧٩/٣) وهو في «المسند» (٢٣٢/٤) بإسناد محتمل للحسن، وابن ماجه برقم (١٩٥٠) وفيه ابن لهيعة، ضعيف، ولكنه توبع من طرق عدة، مما حسن إسناده وهو في «صحيح سنن أبي داود» (١٩٦٢).

(٢) يُنْظَرُ ذلك في «الموطأ» (٥٣٨/٢) برقم (٣٣) باب كراهية إصابة الأختين بملك اليمين عن قبيصة بن ذؤيب.

(٣) حُسِّنَه الألباني في «إرواء الغليل» (٢٩١/٦) وهو عند ابن أبي شيبه (٢٤٧/٤) و«المسند» (٦٦٨١، ٦٧٧٠) بإسناد حسن (محققه)، وجاء الحديث عن أبي هريرة وجابر وعليّ ؓ.

(٤) أخرجه مالك (٥٣٢/٢) وابن أبي شيبه (٢٤٦/٤) والبخاري (٥١٠٩) ومسلم (١٤٠٨) و«المسند» (٩٩٥٢، ١٠٨٨٦).

سادساً: المحصنات من النساء:

٢٤- ﴿وَالْمُحْصَنَاتُ^(١) مِنَ النِّسَاءِ إِلَّا مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ كَتَبَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ وَأُحِلَّ^(٢) لَكُمْ مَا وَرَاءَ ذَلِكَ أَنْ تَبْتَغُوا بِأَمْوَالِكُمْ مُحْصِنِينَ غَيْرَ مُسْفِحِينَ فَمَا اسْتَمْتَعْتُمْ بِهِ مِنْهُنَّ فَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ فَرِيضَةً وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيهَا تَرْضَيْتُمْ بِهِ مِنْ بَعْدِ الْفَرِيضَةِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿٢٤﴾﴾

وكما حرم الله تعالى عليكم نكاح الأمهات والأخوات والبنات فقد حرم عليكم نكاح المرأة المتزوجة قبل مفارقة الزوج لها وانقضاء العدة منه؛ حتى لا تختلط المياه فتضيع الأنساب، فكما أنه لا يجوز الجمع بين الأختين، فكذلك لا يجوز للمرأة أن تجمع بين زوجين.

وفي الجاهلية كان الرجال دون العشرة يشتركون في وطء المرأة، فإذا حملت ووضعت، ألحقت ولدها بمن شاءت منهم، فحرم الإسلام اشتراك رجلين في امرأة، كما حرم نكاح الاستبضاع وهو أن الزوج إذا أراد ولداً نجيباً، أو تقاضى مبلغاً من المال، أو أراد أن يجامل صديقه، فإنه يقول لزوجته إذا طهرت من الحيض: أرسلني إلى فلان فاستبضعي منه، ثم يعتزلها حتى يظهر حملها من هذا الرجل، وقد حرم الإسلام كل هذه الصور، كما جاء في هذا الحديث بألفاظه المتعددة:

١- عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: لما سبى رسول الله ﷺ أهل أوطاس، قلنا: يا نبي الله، كيف نقع على نساء قد عرفنا أنسابهن وأزواجهن؟ فنزلت الآية^(٣).

٢- وعنه أيضاً أن النبي ﷺ بعث جيشاً إلى أوطاس ولقي عدواً، فقاتلوهم فظهروا عليهم، وأصابوا لهم سبايا، وكان ناس من أصحاب رسول الله ﷺ تحرّجوا من غشيانهن من أجل أزواجهن من المشركين، فأنزل الله الآية^(٤).

٣- وفي لفظ ثالث عنه أيضاً قال: أصبنا سبايا يوم أوطاس، لهن أزواج من أهل

(١) اتفق القراء العشرة على قراءتها بفتح الصاد (والمحصنات).

(٢) قرأ حفص وحزمة والكسائي وأبو جعفر وخلف العاشر (وأُحِلَّ) بالبناء للمفعول، و(ما) اسم موصول نائب فاعل وقرأ الباقر (وأُحِلَّ) بالبناء للفاعل، و(ما) مفعول به.

(٣) «تفسير الطبري» (٣/٥).

(٤) الواحدي (١٢٤) والسيوطي (٧٠) والطبري (٣/٥) وهو في مسلم (١٤٥٦) و«المسند» (١١٦٩١)، (١١٧٩٨) حديث صحيح كما قال محققوه، والطيالسي (٢٣٥٣) والنسائي (٣٣٣٣) وغيرهم.

الشرك، فكرهنا أن نقع عليهن، فسألنا رسول الله ﷺ فنزلت ﴿وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ النِّسَاءِ﴾^(١) والإحصان إحصانان: إحصان نكاح، وإحصان عفاف في الحرائر والمملوكات:

أ- فالمرأة المحصنة المتزوجة مطلقاً من مسلم أو كافر لا تحل لشخص آخر أن يتزوجها وهي في ذمة زوج آخر.

ب- والمرأة المعتدة لا يصح الزواج بها وهي معتدة.

ج - والمرأة الملاعنة، وهي التي لاعنها زوجها بسبب إثبات حالة الزنى عليها فقد حرمت عليه تحريماً أبدياً.

د- والرجل الذي تزوج أربعاً لا يحل له أن يتزوج خامسة إلا إذا خرجت من ذمته الزوجة الرابعة من الأربعة.

وإحصان المرأة له أربعة معانٍ:

١- فهي محصنة أي: متزوجة. ٢- أو عفيفة. ٣- أو حرة. ٤- أو هي مسلمة.

فالمرأة المتزوجة الحرة العفيفة لا يجوز وطؤها إلا بعقد ومهر وشهود، أما ملك اليمين فيجوز وطؤها دون عقد، وكذا المتزوجة التي سُبيت في الحروب يجوز وطؤها بعد براءة الرحم، وقد حرم الإسلام جميع مصادر الرق عدا أسرى الحروب.

واستثنى سبحانه من المحصنات من النساء ما كان بملك اليمين عن طريق السبي ﴿إِلَّا مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ﴾ أي: أن النساء المُسَبَّيات في الجهاد الإسلامي فلا يدخلن في هذا التحريم.

قال أنس بن مالك: ذوات الأزواج الحرائر حرام، إلا ما ملكت أيمانكم^(٢).

بمعنى: يحرم عليكم نكاح المتزوجات من النساء إلا مَنْ سبيتم منهن في الجهاد، فإنه يحل لكم نكاحهن بعد استبراء أرحامهن بحيضة.

أما إذا بيعت الأمة المزوجة أو وُهبَت، فإن نكاحها لا ينفسخ، لأن المالك الثاني حل

(١) «المسند» (٧١/٣) برقم (١١٦٩١) ومسلم (١٠٧٩/٢) برقم (١٤٥٦) والترمذي (٨٦/٤) برقم (٣٠١٧)

و«السنن الكبرى» للنسائي (١١٠٩٧) و«تفسير الطبري» (١٥٣/٨) و«تفسير عبد الرزاق» (١٥٣/١).

(٢) «مصنف ابن أبي شيبة» (٢٦٦/٤) وابن المنذر (١٥٧٤).

محلّ المالك الأول.

قال ابن عباس رضي الله عنهما: كل امرأة لها زوج فهي عليك حرام إلا أمة ملكتها، ولها زوج بأرض الحرب، فهي لك حلال إذا استبرأتها^(١).

وقال ابن عباس أيضًا: كل ذات زوج إتيانها زنى، إلا ما سببت^(٢).

فقد كتب الله عليكم تحريم نكاح هؤلاء وهذا معنى: ﴿كَتَبَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ﴾ أي هذا ما أحله الله، وهذا ما حرمه الله، وهذه هي حدود الله، وما نبّه عليه من المحرمات في هذه الآيات الثلاث، فالزموه واهتدوا به.

الزواج المشروع:

ثم قال تعالى: ﴿وَأَحِلَّ لَكُمْ﴾ أيها الرجال ﴿مِمَّا وَرَاءَ ذَلِكَ﴾ أي: وأجاز الله لكم ما وراء ذلك من النساء، مما لم يذكر في هذه الآيات الثلاث، فإنه حلال طيب، فالحرام محصور، والحلال ليس له حد ولا حصر، لطفًا من الله تعالى، ورحمة بعباده وتيسيرًا عليهم، وذلك ﴿أَنْ تَتَزَوَّجُوا بِأَمْوَالِكُمْ﴾ أي تدفعوا المهر وتطلبوا الزواج بأموالكم من اللاتي أباحهن الله لكم، طلبًا للعفة عن اقتراف المحرم ﴿مُحْصِنِينَ﴾ أي: حالة كونكم تحصنون أنفسكم وتحصنون نساءكم وتعقوهن بالحلال عن الزنى وعن السفاح ﴿غَيْرَ مُسْفِحِينَ﴾ أي غير زناة، والمسافح الذي يضع نطفته في الحلال والحرام، وهو بهذا لا يحصن زوجته، لأنه وضع شهوته في الحرام فلا يكن محصنًا لزوجته ﴿وَلَا مُتَّخِذِي أَخْدَانٍ﴾ أي صديقات وعشيقات، فما استمتعتم به منهن بالنكاح الصحيح، فأعطوهن مهورهن التي فرض الله لهن عليكم نحلة وعطية، مقابل الاستمتاع بهن وهذا معنى ﴿فَمَا اسْتَمْتَعْتُمْ بِهِ مِنْهُنَّ﴾ هذا بالنسبة للزوجات، والاستمتاع هو النكاح ﴿فَقَاتُوهُنَّ أَجُورَهُنَّ﴾ أي المهر ولو كان النكاح مرة واحدة.

﴿فَرِيضَةً﴾ فرضها الله عليكم ﴿وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا رَزَقْتُمْ بِهِ مِنْ بَعْدِ الْفَرِيضَةِ﴾ أي ولا إثم عليكم فيما تم به التراضي بينكم من الزيادة أو النقصان في المهر، أو إسقاط من

(١) الطبري (٥٦٢/٦) وابن المنذر (١٥٦٦) وابن أبي حاتم (٣٢٥١١٤).

(٢) ابن أبي شيبة (١٦٨/٤) والحاكم (٣٠٤/٢) والبيهقي (١٦٧/٧) وغيرهم.

الزوجة عن رضى وطيب نفس بعد ثبوت الفريضة، فإذا طابت نفس المرأة عن طيب خاطر منها أن تتنازل عن صداقها، أو عن شيء منه فلا بأس.

وقد أجاز الفقهاء أن ينعقد النكاح مع السكوت عن المهر، ويسمى نكاح التفويض؛ لأنهم يعلمون أنه مهر المثل ﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ بأمور عباده في أحكامه وتديبره، كامل العلم والحكمة، ومن علمه وحكمته أن شرع لكم هذه الشرائع، وحدد لكم هذه الحدود الفاصلة بين الحلال والحرام.

تحريم نكاح المتعة:

قال بعض من أهل العلم: إن هذا الاستمتاع المذكور في الآية، هو نكاح المتعة، وليس المراد به الاستمتاع بالزوجة.

والمتعة أجازها الإسلام وأباحها لفترة معينة، في وقت معين، وفي ظرف معين، فقد كانت المتعة حلالاً قبل يوم خيبر، ثم حُرِّمت يوم خيبر، ثم أبيحت يوم فتح مكة إلى يوم أوطاس لاتصالهما، ثم حُرِّمت تحريمًا مؤبدًا إلى يوم القيامة، بعد أن وقع التحريم والإباحة مرتين، وقد حرمها النبي ﷺ تحريمًا قطعيًا ثابتًا في أحاديث صحيحة صريحة.

١- عن سَبْرَةَ قال: رأيت رسول الله ﷺ قائمًا بين الركن والباب وهو يقول: «يا أيها الناس، إني كنت أذنت لكم في الاستمتاع، ألا وإن الله حرمها إلى يوم القيامة، فمن كان عنده منهن شيء، فليُخْلَّ سبيلها، ولا تأخذوا مما آتيتموهن شيئًا»^(١).

فقد بيّن عليه الصلاة والسلام في هذا الحديث أنه كان قد أذن للرجال في الاستمتاع بالنساء، وأن الله قد حرم ذلك إلى يوم القيامة فما كان عنده منهن شيء فيُخْلَّ سبيلها، ولا تأخذوا مما آتيتموهن شيئًا.

٢- وعن سلمة بن الأكوع قال: رخص لنا رسول الله ﷺ في متعة النساء عام أوطاس ثلاثة أيام، ثم نهى عنها بعدها^(٢).

وأوطاس وادٍ في ديار هوازن، وقعت فيه غزوة حنين في العام الثامن للهجرة.

(١) أخرجه مسلم (٢٠/١٤٠٦) وأحمد (١٥٣٤٦) وابن أبي شيبة (٢٩٢/٤).

(٢) مسلم (١٨/١٤٠٥) و«المسند» (١٦٥٥٢) وابن أبي شيبة (٢٩٢/٤).

٣- كما في صحيح مسلم وغيره عن علي عليه السلام أن النبي ﷺ نهى عن نكاح المتعة، وعن أكل لحوم الحمر الأهلية يوم خيبر^(١)، ونهى عنها كذلك في فتح مكة.

قال علي بن أبي طالب لابن عباس رضي الله عنه: والله لا أوتى بمستمعين إلا رجمتهما.

وبهذا يكون الإسلام قد حرم في هذه الآيات الثلاث سبعا من جهة النسب هن: الأمهات، والبنات، والأخوات، والعلمات، والخالات، وبنات الأخ، وبنات الأخت، وحرّم مثلهن من جهة الرضاع.

وحرّم من جهة الصهر: زوجة الأب، وزوجة الابن، وأم الزوجة، والربيبة.

وحرّم من جهة الجمع: أخت الزوجة وعمتها وخالتها.

وهناك أنواع أخرى حرّمها الإسلام بنصوص أخرى مثل: المطلقة ثلاثا، والمشرقة، والمرتدة، والزانية التي لم تتب.

الْحُكْمُ السَّادِسُ عَشَرَ: نِكَاحُ الرِّقِيقَاتِ وَشُرُوطُهُ

٢٥- ﴿وَمَنْ لَّمْ يَسْتَطِعْ مِنْكُمْ طَوْلاً أَنْ يَنْكِحَ الْمُحْصَنَاتِ^(٢) الْمُؤْمِنَاتِ فَمِنْ مَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ مِنْ فُتَيَاتِكُمُ الْمُؤْمِنَاتِ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَانِكُمْ بَعْضُكُم مِّنْ بَعْضٍ فَاذْكُوهُنَّ بِإِذْنِ أَهْلِهِنَّ وَءَاثُوهُنَّ أَجُورَهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ مُحْصَنَاتٍ^(٣) غَيْرَ مُسْفَحَاتٍ وَلَا مُنْجَذَبَاتٍ أَخَذَائٍ﴾

جاء الإسلام فوجد الرق منتشرا، ولم تنزل آية ولا حديث يرغب الناس في الرق ويبيحه، وإنما عمل الإسلام منذ نزوله على تحرير الرقاب بوسائل عديدة، قال تعالى: ﴿فَلَا أَفْنَحُمُ الْعَقَبَةَ﴾ ١١ وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْعَقَبَةُ ١٢ فَكُ رَقَبَةً ١٣ [البلد: ١١-١٣] فجعل عتق الرقبة قرينة إلى الله سبحانه تُدخل الجنة، سواء في ذلك فك الرقاب وعتقها، أو مكاتبها، وقد رغب الإسلام

(١) «صحيح البخاري» برقم (٤٢١٦، ٥١١٥) و«صحيح مسلم» برقم (١٤٠٧) ومالك (٥٤٢/٢) وعبد الرزاق (١٤٠٣٢) وابن أبي شيبة (٢٩٢/٤) والترمذي (١١٢١) والنسائي (٤٣٣٤) وابن ماجه (١٩٦١).

(٢) قرأ الكسائي (المُحْصَنَات) في الموضعين بكسر الصاد اسم فاعل؛ لأنهن يُحْصَنُ أنفسهن بالعفاف وفروجهن بالحفظ، وقرأ الباقر (والمُحْصَنَات) بفتح الصاد، اسم مفعول، والإحصان مسند لغيرهن من زوج أو ولي أمر.

(٣) قرأ الكسائي (مُحْصَنَات) بكسر الصاد، وقرأ الباقر (محْصَنَات) بفتح الصاد.

في ذلك بطرق متعددة، فجعله حلاً للكفارات: كفارات الأيمان والظهار والقتل.

أسرى الحروب:

وتوجد قوانين دولية لأسرى الحروب، وقبل الإسلام كانت توجد أعراف تتعلق بأسرى الحروب، وقد وضع الإسلام لهم طريقتين.

الطريق الأول: هو إطلاق سراحهم بعد أسرهم، قال تعالى ﴿وَإِذَا لَقِيتُمْ الَّذِينَ كَفَرُوا فَضَرْبَ الرِّقَابِ حَتَّىٰ إِذَا أَثْخَسْتُمُوهُمْ﴾ أي: أكثرتم فيهم الجراح والقتل ﴿فَشُدُّوا أَلْوَتَاكُم﴾ يعني: الأسر، ثم ماذا بعد الأسر؟ ﴿فَإِمَّا مَنًّا بَعْدُ﴾ تمنون عليهم وتطلقوا سراحهم دون مقابل، هذا طريق.

والطريق الآخر: هو أخذ الفدية منهم، قال تعالى: ﴿وَأِمَّا فِدَاءٌ﴾ تأخذون منهم الفدية، أي: فإما أن تطلقوا سراحهم بدون مقابل، وإما أن تأخذوا منهم الفدية، وكان النبي ﷺ في أسرى بدر يأخذ على الرجل الذي يعرف القراءة والكتابة أن يعلم عشرة من أبناء المسلمين ويكون في ذلك فداء أسره، ويظل هذا الأسر والمن عليهم: ﴿حَتَّىٰ تَضَعَ الْحَرْبُ أَوْزَارَهَا﴾ [محمد: ٤].

وقد جاء الإسلام فوجد الرق حقيقة قائمة فعمل على تحرير الناس منه، ولم يُبَيِّقْ منه إلا طريق واحد، وهو لو أننا حاربنا غير المسلمين في جهاد إسلامي شرعي وانتصرنا عليهم، وأكثرنا فيهم القتل، وأخذنا أسراهم، فالنساء أسيرات، بمجرد هذا الأسر؛ حيث تنفك العلاقة والرابطة بينها وبين زوجها السابق، فإن أسلمت فإن الزواج منها في هذه الحالة يكون حفظاً لدينها وحررتها، ويجوز للمسلم أن يسترقها إن بقيت على دينها، فتعامل معاملة الأسرى ويحل نكاحها بعد استبراء رحمها بحيضة.

والله سبحانه يقول في الآية التي بعد آية المحصنات: ﴿وَمَنْ لَّمْ يَسْتَطِعْ مِنْكُمْ طَوْلاً أَنْ يَنْكِحَ الْمُحْصَنَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ﴾ أي: من ليس عنده قدرة مالية على الزواج من الحرائر المؤمنات، وخاف على نفسه الوقوع في الزنى فله أن ينكح غيرهن من الإماء المملوكات، وهذا معنى: ﴿فَمِنْ مَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ﴾ أي: فليتزوج من النساء الأسيرات في الجهاد، أو المملوكات بموافقة أهلهن أي سيدهن أو أسيادهن وإعطائهن المهر كما يعطى للحر، فإنه كما يجب المهر للحر يجب للأمة، على ما تراضيت به عن طيب خاطر، بشرط أن يكن متعفات عن الحرام غير مجاهرات بالزنى، ولا مُسَرَّاتٍ به، وذلك ﴿مِنْ فَيَسَّخَرَكُمْ

الْمُؤْمِنَاتِ ﴿٢٥﴾ أي: بعد أن تُسَلِّمَ، وفي هذا رخصة لمن لم يستطع الزواج من الحرائر أن يتزوج من الإماء المؤمنات، وتُفَضَّلُ الأمة المؤمنة على الحرة الكتابية.

وعلى هذا فلا يجوز للحر المسلم نكاح الأمة إلا بأربعة شروط هي:

١- الإيمان بالله. ٢- العفة ظاهراً وباطناً.

٣- عدم الاستطاعة على دفع مهر الحرة. ٤- خوف الوقوع في الزنى.

فإذا تحققت هذه الشروط جاز نكاحهن، ومع هذا فترك الزواج بهن أفضل لما فيه من تعريض الأبناء للرق.

﴿وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَانِكُمْ﴾ يعلم الظاهر والباطن، والسر والعلانية.

وقررت الآية المساواة بين الحرائر والإماء في حق المهر وصيانة الأعراض، كما قررت المساواة بين السادة والعبيد؛ لثلا يتناول أو يستعلي بعضهم على بعض، فقال تعالى: ﴿بَعْضُكُمْ مِنْ بَعْضٍ﴾.

وقد أمر الإسلام بنكاح الإماء عند العجز عن الحرائر؛ لأنهم كانوا لا يرضون بالأمة زوجة، ولكن يقضون معها الشهوة بالبغاء، فأكرم الإسلام الإماء ورفع من شأنهن وسأوى بينهن وبين الحرائر في الزواج والمهر، وأخذوا بالظاهر، فإذا أسلمت في ظاهر الأمر، فإن لنا ما ظهر، والله أعلم بما في القلوب وحسابها عند رب العالمين، ولا تستكفوا أن تزوجوا منهن، فأنتم كلكم من رجل واحد وأم واحدة، بعضكم من بعض.

﴿فَأَنْكِحُوهُنَّ بِإِذْنِ أَهْلِهِنَّ﴾ أي: بإذن ولي الأمر، إن كان أباً، أو أخاً، أو سيِّداً هي في حوزته، ونكاحها بغير إذن سيدها باطل، ومهرها لسيدها؛ لأنه مالها ﴿وَأَتَوْهُنَّ أَجُورَهُنَّ﴾ أعطوهن المهر، وسُمِّيَ أجراً من باب بدل المنافع، وليس بدل الأعيان.

في حديث جابر رضي الله عنه: «أَيُّمَا عَبْدٍ تَزَوَّجَ بِغَيْرِ إِذْنِ مَوَالِيهِ فَهُوَ عَاهِرٌ»^(١) أي: زانٍ.

(١) أبو داود (٢٠٧٨) والترمذي (١١١١) وقال: حديث حسن، والمسند (١٤٢١٢) بإسناد ضعيف لتفرد عبدالله بن عقيل به ولم يتابعه عليه أحد (محققوه) وأخرجه الطيالسي (١٦٧٥) وابن ماجه (١٩٦٠) وفيه منديل بن علي ضعيف.

وفي لفظ «بغير إذن سيده»^(١)

فإن كان مالك الأمة امرأة زوّجها من يزوج المرأة بإذنها ولا تزوج نفسها لحديث أبي هريرة رضي الله عنه: «لا تزوّج المرأة المرأة، ولا المرأة نفسها، فإن الزانية هي التي تزوج نفسها»^(٢).

ويشترط فيمن يتزوج الأمة أن لا يجد ما يتزوج به الحرة المؤمنة، وأن يخشى على نفسه العنت، ويشترط في الأمة أن تكون مؤمنة لا كافرة، وأن تكون عفيفة حافظة لعرضها، كما وصفها ربنا:

﴿مُحْصَنَاتٌ غَيْرُ مُسَفِّحَاتٍ﴾: والمسافحة هي المعلنة بالزنى لأكثر من واحد (وذوات الأخدان) هي التي لها عشيق واحد لا تزني مع غيره، وكان أهل الجاهلية يحرمون ما ظهر من الزنى ويستحلون ما خفي منه، وهذا هو ما تقرره القوانين الوضعية المعاصرة، فهي لا تعاقب على ما كان بين زانئين بالرضى وفي مكان مستتر، ويدفع غرامة يسيرة جداً إذا كان في هذا خدش للحياء العام.

عُقُوبَةُ الرَّقِيقِ إِذَا زَنَى :

قال تعالى:

﴿فَإِذَا أَحْصَنَ^(٣) فَإِنْ أَتَيْكَ بِفَحِشَةٍ فَعَلَيْهِنَّ^(٤) نِصْفُ مَا عَلَى الْمُحْصَنَاتِ مِنَ الْعَذَابِ ذَلِكَ لِمَنْ^(٥) خَشِيَ الْعَنَتَ مِنْكُمْ وَأَنْ تَصْبِرُوا خَيْرٌ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ

فإذا تزوجت الأمة المسلمة وأتت بفاحشة الزنى بعد الإحصان فعقوبتها على النصف من عقوبة الحرة؛ لأن الحرة لها إطار يحفظ عفافها وصيانتها وتربيتها وولاية أمرها، بخلاف الأمة فهي ممتهنة في عِشْرَةِ الرجال وخدمتهم وولدها يكون معرضاً للرق، ولهذا يُكره

(١) عن جابر في المسند (١٥٠٣١، ١٥٠٩٢) وإسناده ضعيف أيضاً للعلة السابقة، وأخرجه الترمذي (١١١٢) وعبدالرزاق (١٢٩٧٩).

(٢) ابن ماجه (١٨٨٢) وقد صححه الألباني في صحيح سنن ابن ماجه (١٥٢٧) دون جملة الزانية وهو في أرواء الغليل (١٨٤١).

(٣) قرأ شعبة وحمزة والكسائي وخلف بفتح الهمة والصاد من (أَحْصَنَ) مبنياً للمعلوم، وقرأ الباقر بضم الهمة وكسر الصاد على البناء للمجهول.

(٤) ضم يعقوب الهاء من (فعلين) ووقف عليها بهاء السكت.

(٥) أخفى أبو جعفر النون في الخاء من (لمن خشي) مع الغنة والباقر بالإظهار.

زواجها مع وجود الحرية، والإسلام يخفف عنها في العقوبة؛ لما سبق بيانه ﴿فَإِنْ أَتَىكَ بِفَحْشَةٍ فَعَلَيْهَا نِصْفُ مَا عَلَى الْمُحْصَنَاتِ مِنَ الْعَذَابِ﴾ فالأمة تُجلد خمسين جلدة، ولا تُرجم؛ لأن الموت لا يتجزأ، فإن كانت بكرًا أو ثيبًا فعقوبتها خمسون جلدة.

ولا فرق كذلك بين المملوك الذكر المتزوج وغير المتزوج، فإنه يُجلد خمسين جلدة ولا يُرجم في قول الأكثر، ولم يساوِ الإسلام بين الحرية والأمة في العقوبة، بل عاقب الشريف أكثر من الوضيع، كما نجد ذلك في مضاعفة العقوبة بالنسبة لزوجات النبي ﷺ إن أتى بفاحشة مبينة، يضاعف لهن العذاب ضعفين، فالطبقة العليا تعاقب أكثر.

فأين هذا من مظالم القوانين الوضعية؟ ففي القانون الروماني أن العبد إذا زنى بحرة يقتل، وإذا زنى الشريف يحكم عليه بغرامة مالية، وقد مقت الإسلام ذلك وندد بمن إذا سرق فيهم الشريف تركوه، وإن سرق فيهم الضعيف أقاموا عليه الحد.

وقد أوجب الإسلام إقامة الحد في الآية على الأمة المتزوجة في قوله تعالى: ﴿فَإِذَا أَحْصَنَ﴾ أي: تزوجن ﴿فَعَلَيْهَا نِصْفُ مَا عَلَى الْمُحْصَنَاتِ﴾ وأوجب السُّنَّة إقامة الحد على الأمة غير المتزوجة، ففي الصحيحين أن النبي ﷺ سئل عن الأمة إذا زنت ولم تحصن - أي: لم تتزوج - فأوجب عليها الحد.

قال عليّ رضي الله عنه: يا أيها الناس، أقيموا الحد على أرقائكم، من أحصن منهم ومن لم يُحصن، فإن أمةً لرسول الله ﷺ زنت، فأمرني أن أجلدوها، فإذا هي حديث عهد بنفاس، فخشيت إن أنا جلدتها، أن أقتلها، فذكرت ذلك للنبي ﷺ فقال: «أحسن»^(١).

وعن أبي هريرة وزيد بن خالد الجهني أن النبي ﷺ قال: «إذا زنت الأمة ولم تُحصن فأجلدوها، ثم إذا زنت فأجلدوها، ثم بيعوها ولو بضعير»^(٢).

وروى الإمام أحمد وغيره عن الحسن بن سعد عن أبيه أن صبيّة قد زنت برجل من الحمس، فولدت غلامًا، فادعاه الزاني، فاختصما عند عثمان بن عفان، فرفعهما إلى عليّ

(١) «صحيح مسلم» برقم (١٧٠٥).

(٢) «صحيح مسلم» برقم (١٧٠٣، ١٧٠٤) و«صحيح البخاري» برقم (٢٣٥٥، ٢٤٥٥، ٢٥٥٥، ٢٥٥٦) وعبد الرزاق (١٣٥٩٨).

بن أبي طالب، فقال عليٌّ: أقضي فيهما بقضاء رسول الله ﷺ: «الولد للفراش، وللعاهر الحجر» وجلدهما خمسين خمسين^(١).

أي: أن الولد ينسب إلى أبيه، والزانية ترحم، ويجلد كل منهما خمسين

قال تعالى: ﴿ذَلِكَ لِمَنْ خَشِيَ الْعَنَتَ﴾ وهو الزنى والمشقة، أي: أن هذا الذي أبيح من زواج الإماء، إنما أبيح لمن خاف الوقوع في الزنى، وشق عليه الصبر على ترك الجماع ﴿وَإِنْ تَصَبَّرُوا﴾ على ترك الزواج وتصوموا ﴿خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ أي: وإن تصبروا عن نكاح الإماء مع العفة أولى وأفضل ﴿وَاللَّهُ غَفُورٌ﴾ فيما أذن لكم من نكاحهن عند العجز عن الحرائر ﴿رَجِيمٌ﴾ بكم.

وقد استدل الجمهور بالآية على أنه لا بُدَّ في جواز نكاح الإماء من عدم الطُّول لنكاح الحرائر بعدم وجود المهر للحرّة، والخوف من الوقوع في الزنى؛ لما في نكاحهن من مفسدة رق الأولاد، ولما في نكاحهن من العدول عن الحرائر، وخالف أبو حنيفة فلم يشترط ذلك، فله أن يتزوج الأمة ولو كان موسراً لا يخاف الزنى، وفي الآية دليل على جواز نكاح الكتابية كذلك.

مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ بِالْأُمَّةِ وَرَفَقِهِ بِهِمْ فِي خَمْسَةِ أُمُورٍ

٢٦- ﴿يُرِيدُ اللَّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ وَهُدًى سُنَنَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَيَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾

والله سبحانه يختم هذا المقطع من السورة ببيان فضل الله سبحانه وسعة رحمته بهم وعظيم امتنانه على عباده ورفقه بهم في خمسة أمور:

الأمر الأول: وضوح الشريعة وبيان أحكامها

﴿يُرِيدُ اللَّهُ﴾ بهذه التشريعات من تحريم الأمهات والبنات... وما إلى ذلك ﴿لِيُبَيِّنَ لَكُمْ﴾ أي يوضح لكم الحلال والحرام، والهدى والضلال، والظلمات والنور، وجميع ما تحتاجون إلى بيانه من الحق والباطل وسائر معالم الدين.

(١) «المسند» (١٠٤/١) برقم (٤١٦، ٤٦٧) عن عثمان بإسناد ضعيف و(٨٢٠) عن علي، وهذا لفظ الأخير قال محققوه: مرفوعه صحيح، وهذا إسناد ضعيف، وأخرجه البزار مختصراً (٨١٦) وأخرجه الطيالسي (٨٦).

الأمر الثاني: هداية الأمة إلى طريق المنعم عليهم

قال تعالى: ﴿وَهَدَيْكُمْ سُنَنَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ﴾ من الذين أنعم الله عليهم بطريق الفلاح والاستقامة والهداية في سيرهم الحميدة، وأفعالهم السديدة وشماثلهم الكريمة، وقد كان سنة الذين من قبلكم من الأنبياء والصالحين هو الطريق الحق الموصل إلى سعادة الدنيا والآخرة.

الأمر الثالث: إن الله تعالى يحب لنا التوبة وعدم الوقوع في المعاصي

قال تعالى: ﴿وَيَتُوبَ عَلَيْكُمْ﴾ فيجعلكم أهلاً لمغفرته ورضوانه بالرجوع إلى الله تعالى، ومن توبته عليكم أنكم إذا أذنبتم فتح لكم باب الرحمة وقبل ما وفقكم إليه من الإنابة والتدلل بين يديه ﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ بشؤون خلقه وما يصلحهم.

يريد الله بما شرعه لكم من أحكام: التيسير وعدم التشديد عليكم؛ لأنكم خلقتم ضعفاء كما قال تعالى: ﴿وَمَا جَعَلْ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ﴾ [الحج: ٧٨].

وقال سبحانه ﴿يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمْ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ﴾ [البقرة: ١٨٥].

وفي الحديث عن ابن عباس ؓ أنه قيل: يا رسول الله، أي الأديان أحب إلى الله؟ قال: «الحنيفية السمحة»^(١).

الرابع: تَوْبَةُ اللَّهِ عَلَى هَذِهِ الْأُمَّةِ، وَ مُحَافَظَةُ أَهْلِ الشَّهَوَاتِ وَالْمُوبِقَاتِ

٢٧- ﴿وَاللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَيُرِيدُ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الشَّهَوَاتِ أَنْ يَمِيلُوا مِيلًا عَظِيمًا﴾

أي: والله تعالى يريد أن يقبل منكم توبتكم متى رجعتم إليه بصدق وإخلاص، ويتجاوز عن خطاياكم، هذه رغبة ملحة من رب العالمين، وهي عكس ما يريده أرباب الشهوات، والداعون إلى الفاحشة، والمحبون إشاعتها بين الناس، ورغبتهم في أن تنحرفوا عن الدين ﴿وَيُرِيدُ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الشَّهَوَاتِ أَنْ يَمِيلُوا مِيلًا عَظِيمًا﴾ إلى الشهوات والموبقات والرذائل

(١) «المسند» (٢١٠٧) صحيح لغيره، (محققو) والبخاري في «الأدب المفرد» (٢٨٧) وصحيح «الأدب المفرد»

(٢٢٠) وعبد بن حميد (٥٦٩) والطبراني (٧٨٦٨) و«السلسلة الصحيحة» (٨٨١) وهو حديث حسن لغيره كما

قال الألباني، وله شاهد بسند قوي من حديث عائشة مرفوعاً «إني أُرْسِلْتُ بحنيفية سمحة».

ممن لا ينظرون إلى مفاسد الذنوب وعقوبتها كأصحاب الأقلام الضالة، والروايات الفاسدة والمسلسلات الهابطة، وأصحاب الدعاية إلى الدعارة، يريد هؤلاء الفجرة أتباع الشيطان أن تعدلوا عن الحق إلى الباطل، وتكونوا فسقة مثلهم، فتخيروا لأنفسكم ما فيه صلاحكم وسعادتكم في الدارين.

الخامس: إرادة التَّخْفِيفِ وَالتَّيْسِيرِ عَلَى الْأُمَّةِ

٢٨- ﴿يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُخَفِّفَ عَنْكُمْ وَخُلِقَ الْإِنْسَانُ ضَعِيفًا﴾

أي: أن الله تعالى يريد أن يخفف عنكم بسهولة ما أمركم به وما نهاكم عنه في شرائعه وأحكامه بما هو في طاقتكم وقدرتكم؛ كي ترداوا طاعة واستجابة، وعند حصول المشقة في بعض التكاليف أباح لكم ما تقتضيه حاجتكم كالميتة والدم ونحوهما للمضطر، وتزوج الحر للأمة بالشروط السابقة، وكل ذلك رحمة من الله تعالى بعباده.

ثم قرر سبحانه ضعف الإنسان، فقال: ﴿وَخُلِقَ الْإِنْسَانُ ضَعِيفًا﴾ لا يصبر على مشاق الطاعة، فهو ضعيف في بدنه، وفي إرادته وعزيمته، وفي إيمانه وصبره، ضعيف من جميع الوجوه، فناسب ذلك أن يخفف الله عنه ما يضعف عنه مما لا يطيقه ولا يصبر عليه، وهذا هو منهج الإسلام: إن هذا الدين متين فأوغل فيه برفق، ولن يشاد الدين أحد إلا غلبه، فيسروا ولا تعسروا، وبشروا ولا تنفروا.

قال ابن عباس رضي الله عنهما: ثمانى آيات نزلت في سورة النساء خير لهذه الأمة مما طلعت عليه شمس وغربت؛ وهي قوله تعالى:

١- ﴿يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ لَكُمْ سُنُنَ الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ وَيَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾

٢- ﴿وَاللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَيُرِيدُ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الشَّهَوَاتِ أَنْ تَمِيلُوا مَيْلًا عَظِيمًا﴾

٣- ﴿يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُخَفِّفَ عَنْكُمْ وَخُلِقَ الْإِنْسَانُ ضَعِيفًا﴾

٤- ﴿إِن تَجْتَنِبُوا كَبَائِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَنُدْخِلْكُمْ مُدْخَلًا كَرِيمًا﴾

٥- ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ وَإِن تَكُ حَسَنَةً يُضَعِفَهَا وَيُؤْتِ مِن لَّدُنْهِ أَجْرًا عَظِيمًا﴾

٦- ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَن يَشَاءُ﴾

٧- ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ جَاءُوكَ فَاسْتَغْفَرُوا اللَّهَ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ لَوَجَدُوا

اللَّهُ تَوَّابًا رَحِيمًا ﴿٦٤﴾

٨- ﴿وَمَنْ يَعْمَلْ سُوءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ اللَّهَ يَجِدِ اللَّهَ غَفُورًا رَحِيمًا ﴿١١﴾﴾

الحُكْمُ السَّابِعُ عَشَرَ: الْعَلَاَقَاتُ الْمَالِيَّةُ فِي الْإِسْلَامِ

٢٩- ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ إِلَّا أَنْ تَكُونَ تِجَارَةً ^(١) عَنْ تَرَاضٍ مِّنْكُمْ وَلَا تَقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا ﴿٢٩﴾﴾

وبعد هذا التعقيب الشامل على ما جاء في السورة من تشريع وأحكام؛ لبيان رحمة الله تعالى بعباده وتخفيفه عنهم، يأتي في مجال الترية والتشريع للفرد والمجتمع المسلم: حكم العلاقات المالية في المجتمع المسلم؛ لبيان وجه الفرق بين أكل أموال الناس بالباطل وبالحق، أي: بالحرام الذي لا يحل في الشرع، وبما يحل فيه، وأكل المال بغير حق يكون بأنواع المكاسب غير المشروعة، عن طريق الرشوة، والأيمان الكاذبة لترويج السلعة، والخيانة، وشهادة الزور، والعقود الفاسدة، ونحو ذلك، فنهى عباده المؤمنين عن كل ذلك.

ونبه بالأكل على جميع التصرفات الباطلة؛ لأن المقصود من المال غالباً هو الأكل وما في معناه، ويدخل فيه أن يأكل الإنسان مال نفسه بالباطل، وذلك بإتفاقه في وجوه المعاصي، وهذه الآية أصل عظيم في حرمة الأموال، وأنه لا يحل منها إلا ما كان عن طيب نفس.

ومن أسباب النزول:

عن عكرمة عن ابن عباس رضي الله عنهما: أن هذه الآية نزلت في الرجل يشتري من الرجل الثوب، فيقول: إن رضيته، أخذته، وإلا رددته ورددت معه درهماً ^(٢).

وعن ابن أبي طلحة عن ابن عباس أيضاً: أن هذه الآية لما نزلت، قال المسلمون: إن الله قد نهانا أن نأكل أموالنا بيننا بالباطل، والطعام هو أفضل الأموال، فلا يحل لأحد منا أن يأكل عند أحد، فكف الناس عن ذلك، فأنزل الله بعدها ﴿لَيْسَ عَلَى الْاَعْمَى حَرَجٌ﴾ ^(٣) [النور: ٦١].

(١) قرأ عاصم وحمزة والكسائي وخلف بنصب التاء من (تجارة) على أن كان ناقصة، واسمها ضمير يعود على الأموال وتجارة خبرها، وقرأ الباقون برفع التاء على أن كان تامة.

(٢)، (٣) «تفسير ابن كثير» (٢/٢٦٨).

فالله ﷻ يمنع عباده المؤمنين أن يأكلوا أموالهم بينهم بالباطل .

والباطل كلمة تشمل : كل ما أخذ من إنسان بغير عوض ، كالرشوة والغصب و السلب والنهب ونحو ذلك سواء اقترضه ، أو استدانه من شخص . ثم أكله ، أو ائتمنه أحد على مال ثم أكله ، أو شاركه في تجارة ، أو استثمر معه .

فالباطل كلمة تشمل المعاملات الباطلة بكل وجه من الوجوه التي حرمها الله : كالربا ، والسرقة ، والرشوة ، والظلم ، والغصب ، والقمار ، والسلب والنهب ، وقد أضاف الله الأموال في الآية إلى الناس جميعاً ، ولم يقل لا يأكل بعضكم مال بعض ، تنبيهاً على التكافل ، وأن المال مال الناس جميعاً .

والباطل أيضاً يشمل عقود البيع الفاسدة ، كأن يبيع الإنسان ما لا يملك ، أو يبيع سلعة فاسدة انتهى أجلها لا تصلح للغذاء أو الدواء وغيرهما ، أو يبيع ما لا يُتُّفَع به ، كأن يبيع القرد أو الهرة أو الميتة ، وكل ما لا وجه فيه للانتفاع ، مما جاء النهي عنه في هذه الآية ، ولما حرم الإسلام أكل المال بالباطل أباح لهم أكلها بالتجارات والمكاسب الخالية من الموانع المشتملة على التراضي والشروط المشروعة .

وجه العلاقة بين أكل المال بالباطل والتجارة :

ولأن التجارة عن تراض ليست من جنس أكل المال بالباطل ، فإن الاستثناء هنا منقطع ، معناه : لكن يحل أكل المال بالتجارة عن تراض وطيب نفس بينكم ، وهذا كقوله تعالى : ﴿وَأَحَلَّ اللَّهُ الْبَيْعَ وَحَرَّمَ الرِّبَا﴾ [البقرة: ٢٧٥] .

والقرآن يوضح اللبس بين أكل المال بالباطل المحرم ، وأكله عن طريق التجارة المشروعة .

كما يوضح اللبس بين أكل المال عن طريق البيع والشراء ، وأكله عن طريق الربا .

وذلك أن المرابين والمبطلين يقولون : إن الربح في التجارة زيادة في المال ، كما أن الربا والمقامرة زيادة في المال ، وكلاهما من أكل المال ، فلماذا يحل هذا ، ويحرم هذا ؟ والقرآن ينفي التماثل بينهما ، ويفرق بينهما في وجوه التعامل بين الناس ، فكأن الله تعالى يقول : لا تتعاملوا بالأسباب المحرمة في اكتساب الأموال ، لكن تعاملوا بالمتاجرة المشروعة وهي التي تكون عن تراض من البائع والمشتري قد أحلها الله تعالى .

ومن شأن الربا أن يجعل الناس عبيدًا مُسْتَعْدِمِينَ لدى فئة قليلة من البشر، وهذا هدف صهيوني، والتجارة تتعرض للربح والخسارة، وتعتمد على الجهد والخبرة والمهارة، وهي مبنية على السماحة: «رحم الله رجلاً سمحاً إذا باع، سمحاً إذا اشترى، سمحاً إذا اقتضى»^(١).

فالباع يكون فيه الرضا والقبول والخيار بين المتبايعين، كما صح عن ابن عمر رضي الله عنهما أن النبي ﷺ قال: «إذا تباع الرجلان فكل واحد منهما بالخيار ما لم يتفرقا»^(٢).

أما المعاملات المحترمة فإنه لا رضى فيها، ولا قبول ولا خيار، وإنما فيها النهب والسلب والغصب، وملء القلوب بالبغضاء والكراهية وحب الانتقام.

والتجارة: اسم يقع على عقود المعاوضات التي يقصد بها طلب الربح، وأكثر أسباب الرزق تتعلق بها، فعن معاذ بن جبل أن رسول الله ﷺ قال: «إن أطيب الكسب كسب التجار الذين إذا حدثوا لم يكذبوا، وإذا وعدوا لم يخلفوا، وإذا اتتمنوا لم يخونوا، وإذا اشتروا لم يذموا، وإذا باعوا لم يمدحوا، وإذا كان عليهم لم يمتطوا، وإذا كان لهم لم يعسروا»^(٣).

وعن عبد الرحمن بن شبل قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إن التجار هم الفجار»، قالوا: يا رسول الله، أليس الله قد أحل البيع؟ قال: «بلى، ولكنهم يحلفون فيأثمون، ويحدثون فيكذبون»^(٤).

وعن رفاعه بن رافع أن رسول الله ﷺ قال: «إن التجار يبعثون يوم القيامة فجاراً، إلا من اتقى وبراً وصدق»^(٥).

والتراضي هو الرضا من الجانبين ويعرف بالإيجاب والقبول قبل التفرق عن مجلس العقد.

(١) من حديث جابر في البخاري (٢٠٧٦) وابن ماجه (٢٢٠٣) وهو في الجامع الصغير (٤٤٣٤) وفي صحيح سنن ابن ماجه (١٧٩٠).

(٢) «صحيح البخاري»، كتاب البيوع: (٨٤/٣) برقم (٢١٠٩) و«صحيح مسلم» برقم (١٥٣١) وأبو داود (٣٤٥٧، ٣٤٥٩) والترمذي (١٢٤٥) والنسائي (٤٤٨١).

(٣) أخرجه الأصبهاني كما في «الترغيب» (٥/٢) قال المنذري: غريب جداً.

(٤) «المستدرک» (٧٠٦/٢). وقال الحاكم: صحيح الإسناد و«المسند» (١٥٥٣٠، ١٥٦٦٩) قال محققوه:

حديث صحيح، بإسناد قوي ورجال ثقات وأخرجه الطبري (٩٧) والبيهقي في الشعب (٤٨٤٦).

(٥) الحاكم (٦/٢) وحسنه الألباني في «السلسلة الصحيحة» (٩٩٤).

وقد استثنى الله سبحانه من أكل المال بهذه الطرق التي أشرنا إليها: أكل المال عن طريق التجارة عن تراضٍ من المأكول حقه، وعن رضى من الله سبحانه.

وأشارت الآية إلى إباحة جواز التعامل بالتجارة المشروعة، والتي تكون عن رضى الطرفين، بعد تحري الحلال والحرام في نوعية هذه التجارة.

فقد حرم الإسلام تجارات: كالتجارة في الخمر، أو الخنزير، أو الميتة، أو آلات اللهو وبيعها، وحرّم ثمن الكلب.

وحرّم بيعاً معينة، فيها ضرر وغبن، أو غرر يتعلق بالمشتري كبيع المنابذة، والملازمة، والحصاة، وغير ذلك من أنواع البيوع التي حرمها الإسلام، وشرع التجارة فيما هو مشروع، وأحل للمسلمين التعامل فيها، فقال: ﴿إِلَّا أَنْ تَكُونَ تَحَكُّمًا عَنْ رَاضٍ مِنْكُمْ﴾، فإنها مباحة لكم، ومن شروط الرضى أن يكون المعقود عليه معلوماً مقدوراً على تسليمه، وألا يكون عقد ربا.

والخلافات في الأموال تؤدي إلى وقوع الجرائم: فالمال عصب الحياة، وهو قرين النفس، وقرين الولد، ولذلك فإن الجرائم التي تقع في المجتمع، غالباً ما تكون بسبب المال، وتؤدي إلى جرائم القتل، وفيما يُبَيِّث في وسائل الإعلام من: مسلسلات، وأفلام، ومسرحيات، وتمثيلات، هي غالباً تتعلق بالأموال وجرائم الأخلاق، وحرّيت بنا ألا يرتضع أبناءنا من ألبانها حتى لا يعم الفساد ويهلك الحرث والنسل.

تحريم قتل النفس وعقوبته

ومن هنا جاء النهي عن قتل الإنسان نفسه، أو قتله غيره، أو الإلقاء بنفسه إلى التهلكة، أو فعل الأخطار المفضية إلى التلف والهلاك، ولذا جاء قتل النفس مقروناً بأكل المال بالباطل؛ لأن الربا، والغش، والقمار، والسرقة، وما إلى ذلك يؤدي إلى دمار المجتمع وخرابه، وهذا يؤدي إلى قتل النفس، وقتل الآخرين.

ولذلك فإن الله سبحانه نهى عن قتل النفس وعن قتل غيرها، بعد ذكر قاعدة التعامل بين الناس؛ حتى لا تُهْلِكُوا أَنْفُسَكُمْ بارتكاب محارم الله ومعاصيه في التجارة، فإن الخلافات المالية تؤدي بين بعض الناس إلى وقوع الجرائم ومنها القتل والقتال، فلا يقتل

بعضكم بعضًا، لذلك ختم الله الآية بقوله: ﴿وَلَا تَقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا﴾. هذا والخلافات في الأمور المالية تكون إذا أخذ المال سرقة، أو غصبًا، أو ظلمًا، أو نهبًا، وما إلى ذلك فإنه يؤدي إلى القتل والقتال، والله سبحانه رحيم بعباده ينهاهم أن يقتلوا أنفسهم، وأن يقعوا في المحظور.

وهذه الجملة من الآية تشمل معاني عدة منها: لا تقتلوا أنفسكم بالانتحار؛ فالذي ينتحر ساخط وغاضب وغير راضٍ على قضاء الله تعالى وقدره، والإيمان بالقضاء والقدر من أركان الإيمان الستة، فالذي ينتحر لا يصبر على ركن من أركان الإيمان؛ لأنه يستعجل أجله ولا يصبر:

١- وفي الحديث عن جندب بن عبد الله البجلي: «أن رجلا فيمن قبلكم كان به جرح، فأخذ سكينًا نحر بها يده، فما رقا الدم حتى مات، قال الله تعالى: بادرني عبدي بنفسه حرمت عليه الجنة»^(١)

٢- وصح عن رسول الله ﷺ من حديث ثابت بن الضحاك أن: «من قتل نفسه بشيء عذّب به يوم القيامة»^(٢).

٣- وعن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «من تردى من جبل فقتل نفسه فهو في نار جهنم يتردى فيها خالدًا مخلدًا فيها أبدًا، ومن قتل نفسه بحديدة، فحديدته في يده يتوجأ بها في بطنه في نار جهنم خالدًا مخلدًا فيها أبدًا، ومن تحسّى سمًا فقتل نفسه فسمه في يده يتحساه في نار جهنم خالدًا مخلدًا فيها أبدًا»^(٣).

٤- وفي الصحيحين عن رسول الله ﷺ: أنه نهى أن يقتل الرجل أخاه قال تعالى: ﴿مَنْ قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعًا﴾ [المائدة: ٣٢].

(١) «صحيح مسلم» من كتاب الإيمان (٧٥/١) برقم (١١٣) من حديث جندب بن عبد الله البجلي و«صحيح البخاري» برقم (١٣٦٤، ٣٤٦٣).

(٢) «مسند أحمد» (٣٣/٤) عن ثابت بن الضحاك برقم (١٦٣٨٥، ١٦٣٨٦، ١٦٣٨٩، ١٦٣٩٢) وأخرجه الجماعة عن أبي قلابة، البخاري (٦٠٤٧، ٦١٠٥) ومسلم (١١٠) وأبو داود (٣٢٥٧) وغيرهم.

(٣) «صحيح البخاري» برقم (٦٠٤٧، ٦١٠٥) و«صحيح مسلم» برقم (١١٠) وأبو داود (٣٢٥٧) و«سنن النسائي» (٦٠٥/٧) وابن ماجه (٢٠٩٨) والترمذي (١٥٤٣).

٥- ومن ذلك حديث جابر أن رجلاً من أصحاب رسول الله ﷺ كان في رأسه جرح غائر، فأصابته جنابة، فسأل الصحابة، فقالوا له: لا بُدَّ أن تغتسل، فاغتسل الرجل فمات بعد وقت قصير: قال النبي ﷺ «قتلوه قتلهم الله إنما كان عليهم أن يسألوا فإن شفاء العي في السؤال»^(١).

٦- وفي غزوة ذات السلاسل: احتلم عمرو بن العاص ؓ في ليلة شديدة البرد، قال: فأشفقتُ إن اغتسلتُ أن أهلك، فتيمنتُ ثم صليتُ بأصحابي، فلما قَدِمْتُ على النبي ﷺ ذكرت ذلك له، فقال: «يا عمرو، صليتُ بأصحابك وأنت جُنُب؟» قال: يا رسول الله، إني احتلمت في ليلة باردة، شديدة البرد، فأشفقت إن اغتسلت أن أهلك، فذكرت قول الله تعالى: ﴿وَلَا تَقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا﴾ فتيمنت ثم صليت، فضحك رسول الله ﷺ ولم يقل شيئاً^(٢).

وفي الآية إشارة إلى أن من كان مريضاً، ولم يأخذ بأسباب الوقاية والتداوي والعلاج، فإنه يكون قد قتل نفسه، وكذلك من كان عنده رخصة، ولم يستعمل هذه الرخصة عند الحاجة، وأدت به العزيمة إلى قتل نفسه، فإنه يكون قد قتل نفسه قال تعالى:

٣٠- ﴿وَمَنْ (٣) يَفْعَلْ ذَلِكَ عُدْوَانًا (٤) وَظُلْمًا فَسَوْفَ نُصْلِيهِ نَارًا وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا﴾

ومن يفعل ذلك، أي يأكل أموال الناس بالباطل ويرتكب ما حرم الله متجاوزاً حد الشرع عن قصد وتعمد، أو يقتل نفسه، أو يقتل غيره عدواناً وظلماً بوضع الشيء في غير موضعه، والظلم والعدوان يشمل كل ارتكاب لمحارم الله قصداً ﴿فَسَوْفَ نُصْلِيهِ نَارًا﴾ ندخله ناراً يقاسي حرها ﴿وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا﴾.

(١) من حديث جابر في «صحيح سنن أبي داود» (٣٢٥) بإسناد حسن، وفي سنن أبي داود (٣٣٦).

(٢) «المسند» (٢٠٣/٤) (١٧٨١٢) حديث صحيح وفي إسناده ابن لهيعة وقد توبع، وباقي رجال ثقات رجال الصحيح، (محققوه) وأبو داود (٣٣٤، ٣٣٥) و«صحيح سنن أبي داود» (٣٢٣) وابن حبان في الإحسان (١٣١٥) قال محققه: إسناده صحيح على شرط مسلم، وقال ابن حجر في «الفتح» (٤٥٤/١): إسناده قوي و«المستدرک» (١٧٧/١) و«إرواء الغليل» (١٨١/١) وله أكثر من طريق.

(٣)، (٤) قرأ خلف عن حمزة وأبو الحارث عن الكسائي بإدغام النون في الياء من (ومن يفعل) والتنوين في الواو من (عدواناً وظلماً) بدون غنة، وبقية القراء بالإدغام مع الغنة.

الْحُكْمُ الثَّامِنَ عَشَرَ: اجْتِنَابُ الْكَبَائِرِ يُكَفِّرُ الصَّغَائِرَ

٣١- ﴿إِنْ تَجْتَنِبُوا كَبَائِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَنُدْخِلَكُمْ مُدْخَلَ كَرِيمٍ﴾

قال ابن مسعود: إن في سورة النساء خمس آيات ما يسرني أن لي بها الدنيا وما فيها، ولقد علمت أن العلماء إذا مروا بها يعرفونها، قوله تعالى: ﴿إِنْ تَجْتَنِبُوا كَبَائِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ﴾ وقوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ﴾ [٤٠]. وقوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ﴾ [٤٨]. وقوله: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ جَاءُوكَ فَاسْتَغْفَرُوا اللَّهَ﴾ [٦٤]. وقوله: ﴿وَمَنْ يَعْمَلْ سُوءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ اللَّهَ﴾ [١١٠].

الكبائر والصغائر: وهذه الآية تشير إلى أن الذنوب التي يرتكبها العباد على قسمين: صغائر وكبائر، والكبيرة: كل ذنب عليه عقوبة في الدنيا والآخرة، بأن كانت عقوبته: الحدود، والتعزيرات والقصاص، فالقتل وشبه القتل فيهما القصاص، والسرقة فيها قطع اليد، والزنى فيه حد الرجم أو الجلد.

وهكذا كل ذنب توعد الله فاعله أو قائله بعذاب النار، أو بلعنة الله سبحانه، أو بغضبه.

وكل ذنب فيه مقت الله تعالى وغضبه، وفيه تهديد ووعيد بالطرد، والإبعاد من رحمة الله سبحانه هو ذنب كبير، وهذه قاعدة عامة.

جاء في تعريف الكبيرة: أنها كل ذنب ختمه الله بنار، أو غضب، أو لعنة، أو عذاب.

وقال سفيان الثوري: الكبائر: ما كان فيه المظالم فيما بينك وبين العباد.

والصغائر: ما كان بينك وبين الله تعالى؛ لأن الله تعالى كريم يغفر ويعفو، واحتج لذلك بما روي عن أنس بن مالك قال: قال رسول الله ﷺ: «ينادي مناد من بطنان العرش يوم القيامة: يا أمة محمد، إن الله قد عفا عنكم جميعاً، المؤمنين والمؤمنات، تهاهبوا المظالم، وادخلوا الجنة برحمتي».

(١) قرأ نافع وأبو جعفر (مدخلًا) بفتح الميم، على أنه مصدر أو اسم مكان من (دخل) وقرأ الباقون بضم الميم من أدخل.

(٢) أبو عبيد في فضائله ص ١٥٠، وسعيد بن منصور (٦٥٩) تفسير والطبراني (٩٠٦٩) وغيرهم.

وقال السدي: الكبائر ما نهى الله عنه من الذنوب، والسيئات مقدماتها وتوابعها التي يقع فيه الصالح والفاسق مثل: النظرة واللمسة والقُبلة.

في الصحيحين عن أبي هريرة أن النبي ﷺ قال: «كُتِبَ على ابن آدم نصيبه من الزنى، مدرك ذلك لا محالة؛ فالعينان زناهما النظر، والأذنان زناهما الاستماع، واللسان زناه الكلام، واليدان زناهما البطش، والرجل زناها الخطا، والقلب يهوى ويتمنى، ويصدق ذلك الفرج أو يكذبه»، وهذا لفظ مسلم^(١).

والتكفير: هو الستر والتغطية، فصغائر الذنوب يكفرها ترك الكبائر، ويكفرها فعل الحسنات، وهذا من فضل الله تعالى وإحسانه على عباده المؤمنين.

أما الكبيرة فيكفرها التوبة والإقلاع عن الذنب.

في الصحيح عن أبي هريرة ؓ أن النبي ﷺ قال: «الصلوات الخمس، والجمعة إلى الجمعة، ورمضان إلى رمضان، مكفرات ما بينهن إذا اجتنب الكبائر» رواه مسلم^(٢).

وأخرج الطبري بسنده عن أبي هريرة وأبي سعيد ؓ قالوا: خطبنا رسول الله ﷺ يوماً فقال: «والذي نفسي بيده» - ثلاث مرات، ثم أكبَّ - أي: أخذ بيكي - فأكبَّ كل رجل منا بيكي، لا ندري على ماذا حلف عليه، ثم رفع رأسه وفي وجهه البشري، فكان أحب إلينا من حمر النعم، فقال ﷺ: «ما من عبد يصلي الصلوات الخمس، ويصوم رمضان، ويخرج الزكاة، ويجتنب الكبائر السبع، إلا فتحت له أبواب الجنة، ثم قيل له: ادخل بسلام»^(٣).

والأحاديث تذكر أنواعاً من الكبائر، ولكنها لا تحصيها ولا تحصرها.

قال ابن عباس ؓ: هي إلى السبعين أقرب منها إلى السبع.

(١) «صحيح مسلم» (٢٦٥٧) و«صحيح البخاري» (٦٢٤٣، ٦٦١٢).

(٢) «صحيح مسلم» (٢٣٣).

(٣) «تفسير الطبري» (٢٣٨/٨) برقم (٩١٨٥) و«سنن النسائي» (٨/٥) و«المستدرک» (٢٠٠/١) و«سنن النسائي الكبرى» (٢٢٣٠) وابن خزيمة (٣١٥) والبيهقي (١٨٧/١٠) وأخرجه ابن حبان (١٧٤٨) وبمعناه في «المعجم الكبير» للطبراني برقم (٣) وفيه مسلم بن الوليد.

وفي رواية عنه: هي إلى سبع مئة أقرب منها إلى سبع، غير أنه لا كبيرة مع استغفار، ولا صغيرة مع إصرار، ومن ذلك:

أحاديث في الكبائر:

١- عن أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «اجتنبوا السبع الموبقات»، قيل: وما هي يا رسول الله؟ قال: «الشرك بالله، وقتل النفس التي حرم الله إلا بالحق، والسحر، وأكل الربا، وأكل مال اليتيم، والتولي يوم الزحف، وقذف المحصنات الغافلات المؤمنات»^(١) زادت بعض الروايات: «عقوق الوالدين والإلحاد في الحرم»، وفي لفظ: «وبكاء الوالدين من العقوق»^(٢).

ومن ذلك ما رواه عمير الملقبي قال: قال رسول الله ﷺ: «إن أولياء الله، المصلُّون؛ من يقيم الصلوات الخمس التي كتبها الله على عباده، ومن يؤدي زكاة ماله طيبة بها نفسه، ومن يصوم رمضان يحتسب صومه، ويجتنب الكبائر»، فقال رجل من الصحابة: يا رسول الله، وكم الكبائر؟ قال: «هن تسع: أعظمهن الإشراك بالله، وقتل النفس المؤمنة بغير حق، والفرار يوم الزحف، وقذف المحصنة، والسحر، وأكل مال اليتيم، وأكل الربا، وعقوق الوالدين المسلمين، واستحلال البيت الحرام قبلتكم أحياء وأمواتاً»^(٣).

وما من كبيرة من الكبائر السبع إلا وفيها آية من كتاب الله تعالى تنهى عنها.

وقال عبد الله بن عمر رضي الله عنه: هي تسع، بزيادة الإلحاد في الحرم، وعقوق الوالدين.

٢- وعن أبي بكرة أن النبي ﷺ قال: «ألا أنبئكم بأكبر الكبائر» ثلاثاً، قلنا: بلى يا رسول الله، قال: «الإشراك بالله، وعقوق الوالدين، وكان متكئاً فجلس وقال: ألا وقول الزور،

(١) البخاري برقم (٢٧٦٦، ٦٨٥٧) ومسلم، كتاب الإيمان (١/٦٤) برقم (٨٩) وأبو داود (٢٨٧٤) والنسائي (٢٥٦/٦) (٣٦٧٣).

(٢) يُنظر: البخاري في الصحيح (٨) وفي صحيح «الأدب المفرد» (٦) و«السلسلة الصحيحة» (٢٨٩٨) و«إرواء الغليل» (١٥٦/٣) وغيرهم.

(٣) «صحيح سنن أبي داود» (٢٤٩٩) والنسائي (٤٠٢٣) والطبراني في الكبير (١٠٢) والحاكم (٤٠٥٩/١) وغيرهم.

وشهادة الزور، فما زال يكررها حتى قلنا: ليته سكت»^(١)

٣- وعن ابن مسعود رضي الله عنه قال: سألت رسول الله ﷺ: أيُّ الذنب أعظم عند الله؟ قال: «أن تجعل لله نداً وهو خلقك»، قلت: إن ذلك لعظيم، ثم أي؟ قال: «أن تقتل ولدك مخافة أن يطعم معك»، قلت: ثم أي، قال: «أن تزاني حليلة جارك»^(٢).

٤- وعن عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنه: أن النبي ﷺ قال «الكبائر: الإشراك بالله، وعقوق الوالدين، وقتل النفس، واليمين الغموس»^(٣).

٥- وفي رواية أن أعرابياً سأل النبي ﷺ: ما الكبائر؟ قال: «الإشراك بالله»، قال: ثم ماذا؟ قال: «اليمين الغموس»، قلت: وما اليمين الغموس؟ قال: «الذي يقتطع مال امرئ مسلم بيمين هو فيها كاذب»^(٤).

٦- وعن عبد الله بن عمرو رضي الله عنه أيضاً أن النبي ﷺ قال: «من الكبائر شتم الرجل والديه»، قالوا: وهل يشتم الرجل والديه؟! قال: «نعم، يسب أبا الرجل فيسب أباه، ويسب أمه فيسب أمه»^(٥).

٧- وعن أبي بكر وعمر رضي الله عنهما أن عدداً من أصحاب النبي ﷺ جلسوا بعد موته يذكرون أعظم الكبائر، فلم ينتهوا إلى شيء، فأرسلوا يسألون عبد الله بن عمرو بن العاص، فأخبرهم أن أعظم الكبائر: شرب الخمر، وأخبرهم عن قصة حدث بها النبي ﷺ عن ملك من ملوك بني إسرائيل؛ أنه أخذ رجلاً فخيره بين أن يشرب خمرًا، أو يقتل نفسًا، أو يزاني، أو يأكل لحم خنزير، أو يقتله، فاختار شرب الخمر، ولما شربها فقد وعيه

(١) عن عبد الرحمن بن أبي بكرة عن أبيه، البخاري برقم (٢٦٥٤، ٥٩٧٦) ومسلم، كتاب الإيمان (٦٣/١) برقم (٨٧) والترمذي (٢٣٠، ١٩٠١) وابن المنذر (١٦٥٢).

(٢) يُنظر «صحيح مسلم» برقم (٨٦) و«صحيح البخاري» برقم (٤٤٧٧).

(٣) «المسند» (٢٠١/٢) (٦٨٨٤) و«صحيح البخاري» برقم (٦٦٧٥، ٦٨٧٠) و«سنن الترمذي» برقم (٣١٠٢١) و«سنن النسائي» (٦٣/٨) (٤٠٢٢، ٤٨٨٣).

(٤) «المسند» (١٦٤/٢) والبخاري (٥٩٧٣) ومسلم (٩٠) والترمذي (١٩٠٢).

(٥) البخاري (٥٩٧٣) ومسلم (٩٠) والترمذي (١٩٠٢) وابن أبي شيبة (٨٨/٩).

وارتكب كل هذه الموبقات، وأن رسول الله ﷺ قال: «ما من أحد يشرب خمرًا إلا لم تقبل له صلاة أربعين ليلة، ولا يموت أحد وفي مثانته منها شيء إلا حرم الله عليه الجنة، فإن مات في أربعين ليلة، مات ميتة جاهلية»^(١).

٨- وعن أنس رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «شفاعتي لأهل الكبائر من أمتي»^(٢).

وقال ابن عباس رضي الله عنهما: كل شيء عُصِي الله به فهو كبيرة، فمن عمل شيئًا فليستغفر الله؛ فإن الله لا يخلد في النار من هذه الأمة إلا من كان راجعًا عن الإسلام، أو جاحدًا فريضة، أو مكذبًا بقدر.

ففي الأحاديث السابقة ذُكِر عدد من الكبائر ليست على وجه الحصر لها.

ولذلك فإن ابن عباس رضي الله عنهما يقول: إن الكبائر إلى السبعين أو السبع مئة أقرب منها إلى السبع، أي: أن عددها كثير، لكن هناك قاعدة عامة وهي: أن من يترك الكبائر، يكفر الله عنه الصغائر، فاجتناب الزنى يكفر النظرة وهكذا.

وهناك قاعدة أخرى تقول: (لا صغيرة مع الإصرار)، أي: إذا أصر العبد على صغيرة وتعمدها واحتقرها وظل مداومًا عليها، صارت عادة له، فهي صغيرة في حد ذاتها، ولكنها بالنسبة له كبيرة؛ (فلا كبيرة مع الاستغفار ولا صغيرة مع الإصرار)^(٣).

والمعنى: إن تبعدوا -أيها المؤمنون- عن كبائر الذنوب نكفر عنكم ما دونها من الصغائر، وندخلكم الجنة.

(١) يُنظر نصه في «المستدرک» (١٤٧/٤) قال الحاكم: صحيح على شرط مسلم ولم يخرجاه، وسكت عنه الذهبي والطبراني في «المعجم الأوسط» برقم (١٣٨) قال الهيثمي في «مجمع الزوائد» (٨/٥): رجاله رجال الصحيح، خلا صالح بن داود التمار وهو ثقة.

(٢) ابن خزيمة في كتاب التوحيد (٦٥٦/٢) والضياء المقدسي في «المختارة» برقم (١٦٢٢، ١٦٢٣) والترمذي برقم (٢٤٣٥) وابن حبان في الإحسان برقم (٦٤٣٤) و«المستدرک» (٦٩/١) وصححه الألباني في «صحيح الترمذي» (١٩٨٣) وهو في «المسند» (١٣٢٢٢) قال محققوه: إسناده صحيح، وقال الترمذي: حديث حسن صحيح، وصححه الحاكم على شرط الشيخين.

(٣) أخرجه البيهقي في «الشعب» (٧٢٦٨) عن ابن عباس.

ويدخل في اجتناب الكبائر فعل الفرائض، فإن من تركها يكون مرتكباً كبيرة.

وعليه فإن العبد كلما ألمّ بذنب يندب له أن يستغفر الله سبحانه، وأن يتوب إليه توبة صادقة، وأن يعزم على عدم الرجوع إليه، وأن يعيد الحقوق والمظالم إلى أهلها؛ فإن الله تعالى يمحو عنه ذنوبه، ويتبوأ عند الله ﴿مُدْخَلًا كَرِيمًا﴾ أي: مكاناً حسناً شريفاً هو الجنة، وفيها ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر.

الْحُكْمُ التَّاسِعُ عَشَرَ: النَّهْيُ عَنْ تَمَنِّيِ الْمَرْأَةِ خَصَائِصِ الرَّجُلِ

٣٢- ﴿وَلَا تَتَمَنَّوْا مَا فَضَّلَ اللَّهُ بِهِ بَعْضَكُمْ عَلَى بَعْضٍ لِّلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا اكْتَسَبُوا وَلِلنِّسَاءِ نَصِيبٌ مِّمَّا اكْتَسَبْنَ وَسَأَلُوا^(١) اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ يَكُلُّ شَيْءٍ عَلِيمًا﴾
ينهى الله تعالى المؤمنين أن يتمنى بعضهم ما فضل الله به غيره، من الأمور الممكنة وغير الممكنة، فلا تتمنى المرأة ما فضل الله به الرجل عليها، ولا يتمنى الفقير ما عند الثري، ولا يتمنى الضعيف ما عند القوي، ولا يتمنى المريض ما عند الصحيح، وهكذا، لأن هذا يقتضي الحسد، والسخط، ويدعو إلى الكسل والأمانى الباطلة، بلا كد ولا عمل، والمطلوب أن يسعى العبد ويتخذ الأسباب، ويسأل الله من فضله وألا يتواكل ويتطلع إلى غيره.

وقد خلق الله ﷻ الرجال والنساء، وجعل لكل منهما خصائصه وميزاته، للرجل خصائصه، وللمرأة خصائصها، ولا ينبغي للرجل أن يتمنى ما عند المرأة، ولا للمرأة أن تتمنى ما عند الرجل من الخصائص والميزات التي منحها الله إياها، فإذا كان الله سبحانه أعطى الرجل مثل حَظِّي المرأة فيما يتعلّق بالميراث، فإنه لا ينبغي للمرأة أن تتمنى أن تكون مثل الرجل في الميراث ونحوه.

وإذا كان الله قد أعطى الرجل من راحة العقل وتملّك العاطفة، فكانت شهادته تعدل شهادتين من النساء، فإن المرأة لا ينبغي لها أن تتطلع إلى ذلك.

(١) قرأ ابن كثير والكسائي وخلف العاشر بنقل حركة الهمزة إلى السين قبلها من (وأسألوا) مع حذف الهمزة وصلًا ووقفًا، وكذا حمزة عند الوقف، والباقون بعدم النقل.

وإذا كانت المرأة في ذلك على النصف من الرجل، فإن الرجل لا تكون أوزاره على الضعف من أوزارها، فقد حدث في عهد النبي ﷺ أن تمنى بعض الرجال أن يضاعف الله لهم الحسنات ضعف المرأة، وأن يحط عنهم من الأوزار، مثل مسألة الميراث.

وتمنت بعض النسوة وسألن رسول الله ﷺ أن يكنَّ مثل الرجل في الميراث، وتمنت المرأة أن تغزو وتجاهد في سبيل الله كالرجل، متمنية الأجر مثله في الدنيا والآخرة، والآية تشير إلى أن المرأة تتمنى أن تؤدي واجبات أكثر، وتطمع في الحصول على رضى الله تعالى، وعلى حب التنافس في الخير والبذل والعطاء، وفي الآية دليل على حق المرأة في التملك والتكسب وأن يكون لها ذمة مالية خاصة.

وفي القانون المدني الفرنسي: أن (المرأة المتزوجة لا يجوز لها أن تهب، ولا أن تنقل ملكيتها، ولا أن ترهن، ولا أن تملك بعوض أو بغير عوض، بدون اشتراك زوجها في العقد أو موافقته عليه موافقة كتابية)^(١).

وبقتضي العرف هناك أن تفقد المرأة اسمها واسم عائلتها بمجرد الزواج، وتحمل اسم زوجها وأسرته، وهذا فقد لشخصيتها وأصلها.

ومما ورد في أسباب النزول:

أن أم سلمة سألت رسول الله ﷺ ثلاثة أسئلة في هذا المعنى، فأنزل الله الآية مبيِّناً أن لكل من الذكور والإناث نصيباً مما اكتسبوا من الحسنات والسيئات، ومما اكتسبوا من أعمالهم ونشاطهم وجهدهم في هذه الدنيا من الأرزاق، ومما اكتسبوا من الميراث مما تركه المورثون:

١- ومن ذلك ما قالته أم سلمة ؓ: يا رسول الله، يغزو الرجال ولا تغزو ولا نقاتل فُنُستشهد، ولنا نصف الميراث، فنزلت^(٢).

(١) من كتاب حقوق الإنسان للدكتور/ عبد الواحد وافي.

(٢) أخرجه أحمد عن مجاهد، «المسند» (٣٢٢/٦) (٢٦٧٣٦) والترمذي (١٢٧/٢) برقم (٣٠٢٢) وأبو يعلى (٦٩٥٩) وعبد الرزاق (١٥٦/١) وسعيد بن منصور (٦٢٤) تفسير والحاكم (٣٠٥/٢) وصححه ووافقه الذهبي و«تفسير الطبري» برقم (٩٢٤١) والطبراني في الكبير ٢٣ (٦٠٩) وصححه الألباني في «صحيح الترمذي» برقم (٢٤١٩) ووصله الشيخ أحمد شاكر فقال: إن مجاهداً ولد سنة (٢١) وأم سلمة ماتت بعد (٦٠) سنة على اليقين، فمجاهد أدركها يقيناً وعاصرها، ورد بهذا على من قال: إن الحديث مرسل أو منقطع، وقال الحافظ في «الفتح» (١٩٤/٦): سماع مجاهد من عبد الله بن عمرو ثابت، وليس بمندلس.

قال مجاهد: فأنزل فيها ﴿إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ﴾ [الأحزاب: ٣٥] وكانت أم سلمة أول طعينة قدمت المدينة مهاجرة.

٢- وعن حصيف عن عكرمة أن النساء سألن الجهاد، فقلن: ودنا أن الله تعالى جعل لنا الغزو، فنصيب من الأجر ما يصيب الرجال، فأنزل الله الآية.

٣- وقال قتادة والسُّدِّي: لما نزل قول الله تعالى: ﴿لِلذَّكَرِ مِثْلُ مِثْلِ الْأُنثِيَيْنِ﴾ [النساء: ١] قال الرجال: إنا لندرجو أن نفضل على النساء بحسناتنا في الآخرة، كما فضلنا عليهن في الميراث، فيكون أجرننا على الضعف من أجر النساء.

وقالت النساء: إنا لندرجو أن يكون الوزر علينا نصف ما على الرجال في الآخرة، كما لنا من الميراث، على النصف من نصيبهم في الدنيا، فأنزل الله الآية^(١).

٤- وأخرج ابن أبي حاتم بسنده عن ابن عباس قال: أتت امرأة النبي ﷺ فقالت: يا نبي الله، للذكر مثل حظ الأنثيين، وشهادة امرأتين برجل، فنحن في العمل هكذا؟ إن عملت امرأة، حسنة، كتبت لها نصف حسنة؟ فأنزل الله ﴿وَلَا تَتَمَنَّوْا﴾ فإنه عدل مني، وأنا صنعته^(٢).

والآية تنهى عن تمني ما للآخرين من أمور الدنيا، أما أمور الآخرة فإنه يجوز للمرء أن يغبط أخاه على ما فيه من نعمة أخروية ويتمناها لنفسه، وعلى رأس ذلك من آتاه الله القرآن، وهو يعمل بما فيه، ومن آتاه الله مالاً وهو ينفقه في وجوه الخير: «لا حسد إلا في اثنتين: رجل آتاه الله مالاً، فسلطه علىهلكته في الحق، فيقول رجل: لو أن لي مثل ما لفلان لعلمت مثله، فهما في الأجر سواء»^(٣) الحديث.

وهكذا فإن بعض أسباب النزول في هذه الآية، في تمني النساء للجهاد، وبعضها في طلبهن الشهادة في سبيل الله، وبعضها في تمني ما للرجل من الميراث والشهادة لدى القاضي.

والتمني في الأصل هو: طلب حصول ما يعسر حصوله للطالب، والآية تنهى عن طلب ما لا يمكن تحصيله بالكسب وأسبابه، أما ما يمكن تحصيله من غير ضرر بالآخرين فلا نهى فيه،

(١) «أسباب النزول» للواحدي (١١٧) ويُنظر: ابن أبي حاتم (٥٢٢٩) والطبري (٦٦٦/٦).

(٢) ابن أبي حاتم (٥٢٢٣).

(٣) «صحيح البخاري» برقم (٥٠٢٦) وانظر: (٧٢٣٢، ٧٥٢٨).

وقد يكون النهي؛ لتنزيه المؤمنين ألا يَشْغُلُوا أَنْفُسَهُمْ بما لا يمكنهم الحصول عليه، فيكونوا كاليهود الذين تَمَنَّوْا على الله الأمانى، وإنما يكونون ممن يسأل الله تعالى من فضله.

وللتمني أحوال، منها: تمنى ما عند الله تعالى دون التفات إلى ما عند الآخرين، كتمني الشهادة في سبيل الله كما في الحديث: «وددتُ أن أقتل في سبيل الله، ثم أحيأ، ثم أقتل ثم أحيأ، ثم أقتل...» وهذا جائز شرعاً.

ومن التمني ما لا يمكن حصوله لمانع شرعي كتمني المرأة مثل ميراث الرجل، أو عدم الرضى بما أعطاه الله تعالى للعبد، أو تمنى ما عند غيره، مع تمنى زوال هذه النعمة عنه، وهذا تمنى محرم، منهى عنه.

ويبدأ التمني بالخطر، ثم يزيد في النفس حتى يصير مَلَكَةً تَقُودُ الإنسان ليشفي غلته، فإن كان هناك وازع من دين وخلق زجر صاحبه وأوقفه عند حدود الله سبحانه، وما الثورات، والتطلع إلى الكراسي، وإراقة الدماء، وابتذال الأموال، إلا أثراً من آثار التمني، وما الفجور والعري والانحلال والتفسخ إلا بسبب تمنى الشهرة بين الناس، وما ارتكاب جرائم القتل والتزوير والرشوة وغير ذلك إلا بسبب تمنى كثرة الأموال.

فالتمني إذن: إرادة الشيء وتشهّي حصوله، والمراد في أسباب نزول الآية: تمنى ما للرجال من خصائص دون زوال ما حباهم الله به من نعمة، وهو أمر محمود، والله سبحانه أعلم وأخبر بعباده، وهو الذي حكم بهذا، وهو الذي فضّل وقَدَّر، فلا يتمنى الرجل ما عند غيره من المال، أو المنصب، أو الجاه، أو الزوجة، أو الولد، ولكن يسأل فضل الله تعالى، فإن أول جريمة قَتْلٍ وَقَعَتْ في الأرض كانت بسبب الحسد وتمنى ما للآخر، فلا تطلبوا المساواة - أيها الناس - في كل شيء، ولكن اطلبوا فضل الله سبحانه ﴿وَسْأَلُوا اللَّهَ مِنْ فَضْلِهِ﴾ فإن فضل الله واسع، إن ما عند الله شيء عظيم، ونعمه لا تُحصى ولا تعد...

فلا تتمنّين - أيها النساء - ما خصَّ الله به الرجال من المواهب والأرزاق، فلكل منكما نصيب مقدر من الجزاء بحسب عمله، واسألوا الكريم الوهاب، يعطكم من فضله بدلاً من التمني، والله أعلم بما يصلح عباده فيما قسمه لهم من خير، فالعبد يطلب من الله تعالى ما فيه صلاح لدينه ودنياه.

عن أنس رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «ما سأل رجل مسلم الله الجنة ثلاثاً، إلا قالت الجنة: اللهم أدخله، ولا استجار رجل مسلم بالله من النار ثلاثاً، إلا قالت النار: اللهم أجره»^(١).

الْحُكْمُ الْعِشْرُونَ: نَسْخُ الْمِيرَاثِ بِالتَّبْنِيِّ وَالْحِلْفِ وَالْأُخُوَّةِ

٣٣- ﴿وَلِكُلِّ جَعَلْنَا مَوْلَىٰ مِمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَكُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾^(٢) أَيْمَنُكُمْ فَتَأْتُوهُمْ نَصِيبُهُمْ إِنْ اللَّهُ كَانَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدًا ﴿٣٣﴾

أ- يراد بالموالي في الآية: ورثة الميت من الأصول والفروع والحواشي.

ب- ويراد بهم أيضاً أهل الحلف وعقود الولاء والتوارث والأخوة والعق ونحوها.

ج - ويراد بهم كذلك كل من تحالفوا على النصرة والمساعدة والاشتراك في الأموال.

فالموالي أيضاً هم من يتولون الإنسان ويتولاهم بالتعزز والنصرة والمعاونة على الأمور، حيث يجب نصرتهم ومعاونتهم ومساعدتهم في غير معصية الله تعالى، كما يجب الميراث لمن يستحقه من الموالي وهذا معنى ﴿فَتَأْتُوهُمْ نَصِيبُهُمْ﴾.

وقد نهى الله سبحانه الطمع في مال الآخرين عن طريق التمني، وَبَيَّنَ مَنْ لَهُمْ حَقُّ التَّوَارِثِ مِنَ الْمَوَالِي.

معاني كلمة (موالي): وكلمة مولى ومولانا من ألفاظ التضاد التي تستعمل في المعنى وضده. فكلمة (مولى) تطلق على:

١- الورثة من العصب، فهم الأقارب الذين يلون ميراث الميت.

وزكريا عليه السلام يطلب من الله تعالى أن يكون له ولي يرثه فيقول: ﴿وَإِنِّي خِفْتُ الْمَوَالِيَّ مِنْ

(١) «المسند» (١٢١٧٠، ١٢٥٨٥) إسنادهما حسن، من أجل يونس بن أبي إسحاق، وفي رقم (١٣١٧٣) قال محققوه: إسناده صحيح، ورجاله ثقات رجال الشيخين غير ابن أبي مريم فقد روى له البخاري في الأدب المفرد، وكذا أصحاب السنن وهو ثقة، وبين الأحاديث الثلاثة تقديم وتأخير، والمعنى واحد، وقد أخرجه الطبراني في الدعاء (١٣١٠) والحاكم (٥٣٤/١) والضياء في المختارة (١٥٦٠).

(٢) قرأ عاصم وحمزة والكسائي وخلف العاشر (عَقَدْتُ) بغير ألف على إسناده الفعل إلى (أيمانكم) وحذف المفعول وهو العهود، والأيمان جمع يمين، ويراد بها: العد، بألف بعد العين من باب المفاعلة بين المتعاقدين في الحلف وغيره، وقرأ الباقر (عَقَدْتُ).

وَرَأَى وَكَانَتْ أَمْرًا قَافِرًا فَهَبَ لِي مِنْ لَدُنْكَ وَلِيًّا ﴿٥٦﴾ يَرِثُنِي ﴿٥٧﴾ [مريم: ٦٠، ٥٨].

فَهُمُ الْعَصْبَةُ وَالْمَوَالِي وَالْأَقَارِبُ.

٢- والمولى هو الحليف المناصر للإنسان المدافع عنه.

٣- والمولى هو السيد ﴿ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ مَوْلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَأَنَّ الْكَافِرِينَ لَا مَوْلَى لَهُمْ﴾ [محمد]

٤- والمولى أيضاً هو العبد، فزيد بن حارثة مولى رسول الله ﷺ (ومواليكم).

ولذلك فإن بعض الناس لا يقول: (مولانا) للشيخ العالم؛ لأن فيها ملابسات، حيث إنها تحتمل هذه المعاني كلها ومعناها (سيدنا) في هذه الحالة.

والموالي في الآية المراد بهم العصبة الذين يرثون ﴿وَلِكُلِّ جَعَلْنَا مَوْلَىٰ مِمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ﴾ أي: لكل من الرجال والنساء الذين جاء ذكرهم في الآية السابقة جعلنا نصيباً في الميراث على نحو ما ذكرت آيات الموارث السابقة:

فالمعنى: جعلنا لكل إنسان ورثة من أقاربه.

أنواع من التوارث: وكان في الجاهلية أنواع من التوارث بين الناس:

١- فالابن المتبني كان يرث كابن الصلب فيمن تبناه.

٢- ولما هاجر النبي ﷺ وأخى بين المهاجرين والأنصار، كان كل منهم يرث الآخر إذا مات.

٣- وكان الرجل يتحالف مع غيره، بمعنى أن كلاً منهم ينصر الآخر على عدوه، ويقف معه، ويقا تل دونه؛ فإذا مات أخذ الطرفين المتحالفين فإنه يرث فيه الثلث، يقول له: دمي دمك، وهدمي هدمك، أرثك وترثني، فكل منهما يرث الآخر، ويحصل بينهما عقود وحلف بهذا المعنى^(١).

أبطل الإسلام هذه الموارث:

ولما جاء الإسلام منع ذلك كله، فسورة النساء تصحح الرواسب والأوضاع الأسرية المختلفة، التي كانت موجودة قبل الإسلام، تزيلها وتضع بدلاً منها من هدي الله تعالى،

(١) يُنظَر: «تفسير الطبري» (٥٢/٥).

وَهَذِي رَسُولُ اللَّهِ ﷺ .

ولما نزل قول الله سبحانه ﴿وَأُولُوا الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُهَاجِرِينَ﴾ [الأحزاب: ٦] . أبطلت الميراث بالتبني والحلف .

ولما نزلت ﴿وَأُولُوا الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ﴾ [الأنفال: ٧٥] نسخت التوارث بين المهاجرين والأنصار .

أي: إن الميراث في آخر مراحلہ اقتصر على أولي الأرحام من الأصول والفروع، وعلى من يكون بينهم عقود، مثل: عقد الزواج، أو الوصية .

أما غير الورثة الذين قال الله فيهم: ﴿وَإِذَا حَضَرَ الْقِسْمَةَ أُولُوا الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسْكِينُ﴾ فإنهم يُعطون شيئاً من التركة غير محدد تطيياً لخاطرهم وجبراً لنفوسهم ﴿فَارْزُقُوهُمْ مِنْهُ وَقُولُوا لَهُمْ قَوْلًا مَعْرُوفًا﴾ [النساء: ٨] .

وأبطل الإسلام أنواع التوارث الأخرى، وهو سبحانه مطلع على أعمالكم، وسيجازيكم عليها .

أنواع عقود التوارث في أول الإسلام:

ومن أنواع العقود التي كانت في أول الإسلام، عقود تجعل الإرث يؤول إلى غير الأقارب، فتُنزل الحليف والمتبني منزلة الابن والأخ في الميراث، وهي خمسة عقود:

١- عقد ولاء العتق: وهو الذي يلتزم فيه السيد تجاه الرقيق بما يلتزم به حيال أقاربه، فيصبح بمنزلة عضو في الأسرة، له من الحقوق ما لهم، وعليه ما عليهم، ويرث سيده إذا مات ولم يترك عَصَبَةً .

٢- عقد الموالاة: وهو مثل سابقه، إلا أنه يكون بين العربي وغيره، إذا لم يكن له وارث من أقاربه .

٣- العقود التي كانت بين المهاجرين والأنصار على التوارث بينهم في أول الهجرة، ثم نسخت .

٤- عقود كانت في الجاهلية، يقول الرجل فيها لغيره: ترثني وأرثك .

٥- ومن العقود: أبناء التبني، وكانوا يرثون ويورثون المتبني في الجاهلية .

وهذا ما تشير إليه الآية في قوله تعالى ﴿وَالَّذِينَ عَقَدَتْ أَيْمَانُكُمْ فَآتَوْهُمْ نَصِيبَهُمْ﴾

والمراد بالأيّمان في الآية: الأيدي؛ لأنهم كانوا يضعون أيديهم في أيدي بعض، عند إبرام العقد.

وقد صُنِّيَ الإسلام هذه العقود، وأبطلها كما أبطل الربا بمثل قوله ﷺ: «لا حِلْف في الإسلام، وأيّما حِلْف كان في الجاهلية لم يزد الإسلام إلا شدة»^(١).

وفي الصحيحين عن ابن عباس ؓ أن رسول الله ﷺ قال: «ألحقوا الفرائض بأهلها، فما بقي فهو لأولى رجل ذكر»^(٢).

أي: قسّموا الميراث على أصحاب الفروض، فما بقي فأعطوه للعصبة، ولا حقّ للحليف فيها؛ لأنه ليس من عصبة الميت.

فكل من مات وله عَصْبَة، فَوَرَثَتْهُ هذه العصبة في المال والمتاع الذي تركه الميت من ذكر أو أنثى كالوالدين والأقربين، وهذا يشمل جميع الأصول والفروع والحواشي.

فمعنى الآية: ولكل واحد من الذكر والأنثى السابق ذكرهما في الآية السابقة جعلنا ورثة يرثون تركته بعد موته، ويوضح معنى بقية الآية ما جاء في أسباب النزول:

١- أخرج البخاري وغيره بسنده عن ابن عباس ؓ أن المراد بالموالي في الآية هم الورثة، وأن المراد بالذين عقدت أيمانكم هو التوارث الذي كان بين المهاجرين والأنصار، دون الأقارب والأرحام، للأخوة التي آخى النبي ﷺ بينهم، وقد نُسخ هذا التوارث بهذه الآية، وبقي للذين عقدت أيمانكم حق النصرة والرفادة والنصيحة، وعقد الوصية له وقد ذهب الميراث^(٣).

٢- وقال ابن عباس أيضًا: كان الرجل يعاقد الرجل، أيهما مات ورثه الآخر، فأنزل

(١) «المسند» (٨٣/٤) (١٦٧٦١) من حديث جبير بن مطعم وغيره ورواه مسلم برقم (٢٥٣٠) وأبو داود برقم (٢٩٢٥) والنسائي في «السنن الكبرى» برقم (٦٤١٨) و«تفسير الطبري» (٢٨٥/٨) والنحاس ص ٣٣٥.

(٢) «صحيح البخاري»: كتاب الفرائض (١٨٨/٨) برقم (٦٧٣٥) ومسلم، كتاب الفرائض (٥٩/٥) برقم (١٦١٥).

(٣) يُنظَر هذا المعنى في الحديث رقم (٤٥٨٠، ٢٢٩٢، ٦٧٤٧) وجاء في البخاري حيث قال: سمع أبو أسامة إدريس، وسمع إدريس من طلحة عن سعيد بن جبير عن ابن عباس، وفي أبي داود (٢٩٢٢) والنسائي في «السنن الكبرى» (٦٤١٧، ١١١٠٣) والحاكم (٣٠٦/٢).

الله ﴿وَأُولُوا الْأَرْحَامِ﴾ [الأحزاب: ٦]. يقول: إلا أن يوصوا لأوليائهم الذين عقدوا لهم وصية، فهو لهم جائز من ثلث مال الميت، وهذا معنى ﴿وَقُولُوا لَهُمْ قَوْلًا مَعْرُوفًا﴾^(١).

٣- وقال سعيد بن المسيب: نزلت هذه الآية في الذين كانوا يتبنون رجالاً غير أبنائهم ويورثونهم، فأنزل الله فيهم فجعل لهم نصيباً في الوصية، وردّ الميراث إلى الموالي من ذوي الرحم والعصبة، وأبى الله أن يجعل للمدّعين ميراثاً ممن ادّعاهم وتبنّاهم، ولكن جعل لهم نصيباً من الوصية^(٢).

٤- وعن عكرمة عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: كان الرجل يحالف الرجل ليس بينهما نسب؛ ليرث أحدهما الآخر، فنسخ الله ذلك بآية الأنفال ﴿وَأُولُوا الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ﴾^(٣).

وبهذا يتضح أن الآية تصفّي العقود القديمة، وتقرر أن الميراث سببه القرابة، لكنه لا يُبطل المؤاخاة والنصرة، حيث يشدد الإسلام على الوفاء بها؛ لأنها من الأخلاق التي جاء ليتمّمها، ولذا قال ابن عباس في معنى الآية: منع الوراثة إلا للقرابة، واستبقى للذين عقدت أيمانهم النصره والنصيحة.

فيكون المعنى: ولكلّ منكم -أيها الناس- جعلنا عصبة يرثون مما ترك والده وأقرباؤه من الميراث، فليتنفع كل واحد بما قسم الله له من الميراث، ولا يتمنّ مال غيره^(٤).

وأقرباء الوالدين مثل: الأعمام والأجداد والأخوال، وأقرباء الأقربين، مثل: أبناء الأعمام وأبنائهم، وأبناء الإخوة والأخوات، وإن تعدّدوا.

فالآية تشير إلى الميراث بالتعصيب عند جمهور العلماء، وتشير إلى ميراث الأرحام عند بعض الفقهاء، بعد استيفاء أصحاب الفروض أنصبتهم، كما في قوله ﷺ: «ألحقوا الفرائض

(١) «تفسير ابن كثير» (٢/٢٩١) وقد أخرجه الطبري (٦/٦٧١) وابن أبي حاتم بسند حسن (٥٢٣٤، ٥٢٣٧) وابن المنذر (١٦٩٦).

(٢) «تفسير الطبري» (٥/٣٥) والقرطبي (٥/١٦٥) عن سعيد بن جبير والنحاس ص ٣٣٢.

(٣) «المستدرک» (٤/٣٤٦) وسكت عنه الحاكم والذهبي، وقد جاءت عدة روايات تقوي ما جاء عن ابن عباس وتشهد له، منها مرويات أحمد في التفسير (١/٣٥٣).

(٤) يُنظر: «تفسير الطبري» (٥/٥١) والقرطبي (٥/٥١).

بأهلها فما بقي فلاؤلى رجل ذكر»^(١)، وقوله: «ابن اخت القوم منهم، أو من أنفسهم»^(٢).

وقوله ﷺ فيما ترويه عائشة ؓ: «الخال وارث من لا وارث له»^(٣).

وقوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ عَقَدَتْ أَيْمَنُكُمْ﴾ جملة مستأنفة، والآية محكمة وليست منسوخة؛ لأن الله تعالى ذكر فيها أن بقية ميراث الميت للعصبة، وأن أصحاب العقود والعهود لهم نصيبهم من الوصية والنصرة والمعونة.

الْحُكْمُ الْحَادِي وَالْعِشْرُونَ: قِوَامَةُ الرَّجُلِ وَأَسْبَابُهَا

٣٤- ﴿الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ بِمَا فَضَّلَ اللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ وَبِمَا أَنْفَقُوا مِنْ أَمْوَالِهِمْ﴾

أنزل الله ﷻ هذه الآية؛ لبيان أن الرجل له حق القِوامة على المرأة، فكل شركة، وكل مؤسسة، وكل تجارة، تحتاج إلى من يديرها، ويتحمل المسؤولية والتبعية فيها، ويرعى شؤونها، والبيت كذلك، في حاجة إلى من يتحمل المسؤولية والتوجيه فيه، فمن في البيت يتحمل هذه المسؤولية ويقوم بها؟ الرجل أم المرأة؟ والقِوامة تعني توجيه النساء ورعايتهن، وإدارة البيت والقيام على شؤونه، فالرجل هو أمير البيت، يقوم على مصالحه وتدير شؤونه، ويقوم بأمر المرأة، وعليها أن تطيعه في حدود شرع الله.

وللمرأة دورها في تربية الأبناء وإصلاح شؤون البيت، إلى جوار الحمل والولادة والرضاعة وتوفير السكن والمودة، ومن الإرهاق على المرأة مضاعفة الجهد عليها فوق تربية الأولاد والقيام على شؤون البيت، وتكليفها بالقِوامة والإنفاق، والله ﷻ بين في هذه الآية أن الرجل له هذا الحق لسببين:

(١) من حديث ابن عباس في المسند (٢٦٥٧، ٢٩٩٣) بإسناد صحيح على شرط الشيخين، وأخرجه الطيالسي (٢٦٠٩) والدارمي (٢٩٨٧) والبخاري (٦٧٣٢، ٦٧٣٥) ومسلم (١٦١٥) والترمذي (٢٠٩٨).

(٢) «صحيح سنن أبي داود» (٤٢٧٢) عن أبي موسى وكذا «صحيح سنن الترمذي» (٤١٧٥) و«صحيح سنن النسائي» (٢٤٤٧، ٢٤٤٨) و«صحيح الجامع» (٤٣) و«السلسلة الصحيحة» (٧٧٦) وأحمد (١٢٧٧٧، ١٣٩٣٣) عن أنس بإسناد صحيح على شرط الشيخين.

(٣) صحح إسناده الألباني في «صحيح سنن الترمذي» (١٧٠٨، ١٧٠٩) وهو في «سنن الترمذي» برقم (٢٢٠٠، ٢٢٠١) وفي «سنن ابن ماجه» (٢٧٣٧)، وصحيح سنن ابن ماجه (٢٢١٢) وهو في المسند عن عمر (١٨٩، ٣٢٣) بإسناد حسن كما قال محققوه، وعن المقدم بن معد يكرب (١٧١٧٥، ١٧٢٠٣).

السبب الأول: أن الله جلَّ شأنه فضَّل جنس الرجال على جنس النساء في الجملة، وإلا فهناك بعض النساء قد يَكُنَّ أفضل من بعض الرجال، ولكن جنس الرجال في الجملة أفضل من جنس النساء؛ ذلكم أن الله سبحانه قد اختص الرجال بمزايا خاصة بهم.

١- فجعل فيهم الرسالة والنبوة ولم تكن في النساء.

٢- وجعل في الرجال الولاية، والإمامة، والحكم، وبَيَّن عليه الصلاة والسلام في حديث أبي بكرة أنه لما هلك كسرى قال: مَنِ اسْتَخْلَفُوا؟ قالوا: ابنته، قال: «لن يفلح قوم ولوا أمرهم امرأة»^(١).

٣- وفي الرجال مناصب: القضاء والإفتاء، والقيام بشعائر الإسلام: كالإمامة في الصلاة والخطبة، والأذان والإقامة، والجهاد، وحضور الجمعة والجماعات.

٤- والرجل يملك حق الطلاق، ويتزوج أكثر من امرأة، وشهادته وميراثه يَعْدِلان نصاب امرأتين.

فالقَوَام هو الذي يقوم على كل شأن يلي أمره فيصلحه، فهو قيام على الحفظ والدفاع، والاكتساب والإنتاج المالي.

والرجل قَوَام على المرأة؛ لأنه الذي يعلوها عند الجماع، وبدون أن ينتصب ذكر الرجل لا يمكن للمرأة تحقيق الغرض، فهو القائم عليها، وهو الأمير عليها، صاحب الكلمة والأمر النافذ^(٢).

وإلى هذا كله يشير قوله تعالى: ﴿يَمَا فَضَّلَ اللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ﴾ في العقل والدين، والولاية والقوة البدنية، وزيادة الرجال في العلم غالبًا، والقدرة على تحمل الأعباء، والدفاع عن المرأة، وبما خص الله به الرجل من خصائص القَوَامَة والتفضيل، ومن ذلك تأديب الزوجة الناشز، ومنعها من الخروج.

والسبب الثاني: هو أن الرجل هو الذي يدفع المهر للمرأة، فالرجل هو الذي أمهرها،

(١) البخاري (٤٤٢٥، ٧٠٩٩) والترمذي (٢٢٦٢) و«المسند» (٢٠٤٣٨) وابن حبان (٤٥١٦) و«سنن النسائي الكبرى» (٥٩٠٥).

(٢) ينظر هذا المعنى في تفسير الآية عند الشيخ الشنقيطي في أضواء البيان.

وهو ملزم شرعًا بالإففاق عليها وكسوتها، وإطعامها وإسكانها.

والأصل أن الله سبحانه قد وزَّع اختصاصات الرجال والنساء، فالمرأة تحمل وتضع وتُرضع، وتُربي الأجيال، وهي مهمة عظيمة.

وللمرأة أمور خصَّها الله بها، وجعل في تكوينها البدني، والعضوي، والعقلي، والعصبي ما يجعلها صالحة للبيت من العاطفة، وفيها من عدم التروِّي وسبق العاطفة للعقل، بما يجعلها أصلح في تربية الأولاد.

والأصل في الرجل: العقل والاعتزان، والتروِّي، والنظر بفكره قبل الاستجابة للعواطف، والرجل يقوم بالتكاليف، ويتحمل الأعباء، ويكد ويكدح، وإذا عملت المرأة وشاركت في النفقة في البيت فليس هذا على وجه الإلزام لها، ولا هي مطالبة ولا مكلفة بهذا، ولكنه طوعية واختيار منها.

والأصل في عمل المرأة أنه خدمة لبني جنسها من النساء: في التعليم، والتمريض، والطب، ونحو ذلك، مما يخلو من الخلوة والاختلاط، ووقوع المحرمات الشرعية.

أخرج الطبري وابن أبي حاتم بسند حسن عن علي بن أبي طلحة عن ابن عباس رضي الله عنهما قال في ﴿قَوَّامُونَ﴾ يعني: أمراء، عليها أن تطيعه فيما أمرها الله به من طاعته، وطاعته أن تكون مُحسنة إلى أهلها، حافظة لماله وفضله عليها بنفقته وسعيه، فقوله تعالى:

﴿بِمَا فَضَّلَ اللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ﴾ هو السبب الأول، وقوله تعالى:

﴿وَبِمَا أَنْفَقُوا مِنْ أَمْوَالِهِمْ﴾ هو السبب الثاني.

فالرجال قوامون على النساء بالزامهن بحقوق الله تعالى، من المحافظة على فرائضه وترك المحرمات، وقَوَّامون عليهن أيضًا بالإففاق عليهن والكسوة والمسكن، وذلك بسبب فضل الرجال على النساء، لاختصاصهم بالولايات والنبوة والرسالة، وكثير من العبادات كالجهاد والجمع والأعياد، ولما خصهم به من العقل والرزانة والصبر والجلد، ولأن الرجل هو الذي يعلو المرأة عند قضاء الشهوة.

وليست هذه القِوامة استبدادًا من الرجل، ولا تحكم في المرأة، إنما هي إدارة للبيت، وتدير لشؤونه، مع مشاركة المرأة وأخذ رأيها إن كان فيه صلاح، وكان وفق قواعد الشرع.

والرسول ﷺ في صلح الحديبية طلب من أصحابه أن يتحللوا، وأن يحلقوا رؤوسهم، فلم يفعل ذلك منهم أحد، فدخل ﷺ على زوجته أم سلمة رضي الله عنها فأخبرها بذلك، فأشارت عليه أن يحلق هو رأسه أولاً، ثم يخرج عليهم، فإذا رأوه فإنهم سيفعلون، واستجاب النبي ﷺ لمشورتها، وحلق رأسه وخرج على القوم، فلما رأوه حلقوا رؤوسهم جميعاً.

فلا بأس إن كان هناك رأي ومشورة -وكان في المرأة علم وسداد، وعقل واتزان وفق ضوابط الشرع- أن يأخذ الرجل برأي المرأة.

عِلَاجُ نَشُوزِ الْمَرْأَةِ

﴿فَالضَّالِّحَتُ قَبِذَتْ حِفْظَتُ لِلْغَيْبِ بِمَا حَفِظَ^(١) اللَّهُ وَالَّتِي تُخَافُونَ نَشُوزَهُنَّ فَعْظُمُوهُنَّ وَاهْجُرُوهُنَّ^(٢) فِي الْمَضَاجِعِ وَاضْرِبُوهُنَّ فَإِنْ أَطَعَكُمْ فَلَا تَبْغُوا عَلَيْهِنَّ سَبِيلًا إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا كَبِيرًا ﴿٣٤﴾﴾

ثم بيّن ﷺ أن النساء على قسمين:

١- مطيعات، قانتات. ٢- وعاصيات، متمرdates، ناشزات.

فالمرأة الصالحة المطيعة لله ولزوجها، المستقيمة على شرع الله، هي التي وصفها الرسول ﷺ بأنها: تصلى خمسها، وتصوم شهرها، وتحفظ فرجها، وتطيع زوجها، وتطيع ربها قبل ذلك كله، فإنها إن فعلت ذلك تدخل من أي أبواب الجنة شاءت^(٣).

﴿فَالضَّالِّحَتُ قَبِذَتْ حِفْظَتُ لِلْغَيْبِ﴾ مطيعات لله ﷻ، ومطيعات لأزواجهن عن طيب نفس واطمئنان قلب ﴿حَفِظَتُ لِلْغَيْبِ﴾ لا تبيع من نفسها لأحد ما لا يباح إلا للزوج، إنها تحفظ فراشها، وتحفظ فرجها في غيبة زوجها وحضوره ولا تدنسه، وتحفظ شرف بيتها، وأموال زوجها، وتحفظ كل ما غاب عن أزواجهن مما ائتمن عليه ﴿بِمَا حَفِظَ اللَّهُ﴾ أي: بما قرر

(١) قرأ أبو جعفر (بما حفظ الله) بنصب لفظ الجلالة على أن ما موصولة، وقرأ الباقر (بما حفظ الله) برفع لفظ الجلالة على أن ما مصدرية.

(٢) وقف يعقوب بهاء السكت بخلف عنه على هذه الألفاظ الأربعة (نشوزهن، فعظوهن، واهجروهن، واضربوهن)؛ وذلك لبيان حركة الموقوف عليه.

(٣) يُنْظَرُ الحديث: أخرجه أحمد عن عبد الرحمن بن عوف، «المسند» (١/١٩١) برقم (١٦٦١) وهو حديث حسن لغيره، وفيه ابن لهيعة وهو ضعيف، وقد وثق، وباقي رجاله ثقات رجال الصحيح، كما قال محققوه، وهو عند ابن حبان (٤١٦٣) والبخاري (١٤٦٣).

الله وشرع لخلقه من الحلال والحرام، وليس بما يوافق الأهواء والشهوات، وهذا كله بحفظ الله لهن وتوفيقه، وقد أوصاهن الله سبحانه بذلك كما أوصى أزواجهن بأداء حقوقهن.

وفي الحديث عن أبي هريرة رضي الله عنه: أن رسول الله ﷺ قال: «خير النساء امرأة إذا نظرت إليها سرتك، وإذا أمرتها أطاعتك، وإذا غبت عنها حفظتك في مالها ونفسها»، ثم قرأ الآية^(١) هذا النوع هو الأول من النساء.

وأصل التشوز: الارتفاع، ونشوز المرأة: ارتفاعها عن طاعة زوجها وعصيانها وبغضها لزوجها وإظهار الكراهية له، والترفع بنفسها عنه، وإعراضها عنه، والتكبر عليه.

وللنشوز أمارات قولية: كأن لا تطيعه إذا دعاها، ولا تتجاوب معه إذا خاطبها، وترفع صوتها عليه، وتستخف بحقوقه وتصرفاته.

وأمارات فعلية: كأن تقوم إذا دخل عليها، وتتعمد عدم النظافة وعدم التجميل، والعبوس في وجهه وسوء التصرف، ولا تطيعه في الفراش ومقدماته.

١- عن الحسن وقتادة: إن هذه الآية نزلت في سعد بن الربيع، وكان من النقباء، وامرأته حبيبة بنت زيد بن أبي هريرة، وأنها نشزت عليه فلطمها، فانطلق معها أبوها إلى رسول الله ﷺ فقال: أفرشتُ كريمتي فلطمها، فقال النبي ﷺ: «لِتَقْتَصَّ من زوجها»، فانصرفت مع أبيها؛ لِتَقْتَصَّ منه، فقال النبي ﷺ: «ارجعوا، هذا جبريل أتاني»، فأنزل الله آية القَوَامَةِ، فقال النبي ﷺ: «أردنا أمراً، وأراد الله أمراً، والذي أراد الله خير» ورُفِعَ القصاص^(٢).

٢- وعن هشيم قال: حدثنا يونس، عن الجهني: أن رجلاً لطم امرأته، فخاصمته إلى النبي ﷺ فجاء معها أهلها، فقالوا: يا رسول الله، إن فلاناً لطم صاحبتنا، فجعل رسول الله ﷺ يقول: «القصاص، القصاص، ولا يقضي قضاء»، فنزلت الآية، فقال ﷺ: «أردنا

(١) أخرجه ابن جرير (٢٩٥/٨) برقم (٩٣٢٨) بإسناد صحيح، ورواه البغوي بسنده عن الثعلبي، وهو في مسند الطيالسي برقم (٢٣٢٥) و«سنن النسائي» (٦٨/٦) والبيهقي (٨٢/٧) و«المسند» (٢/٢٥١، ٤٣٢، ٤٣٨) و«المستدرک» (١٦١/٢) وله شواهد وصححه الألباني في «الأحاديث الصحيحة» برقم (١٨٣٨) وابن ماجه (١٨٥٧/١) وابن أبي حاتم (٥٢٥٥).

(٢) «تفسير القرطبي» (١٦٨/٥) والطبري (٦٨٩/٦) وابن المنذر (١٧٠١) وابن أبي حاتم (٥٢٤٦).

أمرًا، وأراد الله غيره»^(١).

٣- وفي حديث سعد أن النبي ﷺ قال: «ثلاث من السَّعادة: المرأة تَرَاهَا تُعْجِبُكَ، وَتَغِيبُ عَنْهَا فَتَأْمَنُهَا عَلَى نَفْسِكَ وَمَالِكَ، والدابة تكون وطيفة -أي: سهلة- فتَلْحَقَكَ بِأَصْحَابِكَ، والدار تكون واسعة كثيرة المرافق. وثلاث من الشقاء: المرأة تَرَاهَا فَتُسَوِّوْكَ، وتحمل لسانها عليك، وإن غبت لم تأمنها على نفسها ومالك، والدابة تكون قَطُوفًا -أي: بطيئة سيئة السير- فإن ضربتها أتعبتك، وإن تركتها لم تُلْحَقَكَ بِأَصْحَابِكَ، والدار تكون ضيقة قليلة المرافق»^(٢).

٤- عن حُصَيْنِ بْنِ مَحْصَنٍ قَالَ: حَدَّثَنِي عَمِّي قَالَتْ: أَتَيْتُ النَّبِيَّ ﷺ فِي بَعْضِ الْحَاجَةِ فَقَالَ: «أَيُّ هَذِهِ، أَذَاتُ بَعْلٍ أَنْتِ؟» قُلْتُ: نَعَمْ، قَالَ: «كَيْفَ أَنْتِ لَهُ؟» قَالَتْ: مَا أَلُوهُ إِلَّا مَا عَجَزْتُ عَنْهُ، قَالَ: «انْظُرِي أَيْنَ أَنْتِ مِنْهُ، فَإِنَّمَا هُوَ جَنَّتُكَ وَنَارُكَ»^(٣).

ويؤخذ من ذلك جواز تأديب المرأة الناشز، وأن للرجل عليها حُسْنَ الْقَوَامَةِ، وعلى الرجل أن يتعرف على طبيعة المرأة، ويعلم أن من طبيعتها الاعوجاج، فلا يطلب منها الكمال، وإنما يتمتع بها على عوج، وإن سخط منها خلقًا رضي منها خلقًا آخر، وأنه مأمور بالوصاية بها ومراعاة جانبها.

في الصحيحين عن أبي هريرة ؓ: أن النبي ﷺ قال: «استوصوا بالنساء خيرًا؛ فإن المرأة خلقت من ضلع أعوج، وإن أعوج ما في الضلع أعلاه، فإن ذهبت تقيمه كسرته، وإن تركته لم يزل أعوج، فاستوصوا بالنساء»^(٤).

وعلى المرأة أن تطيع زوجها في غير معصية الله تعالى، وألا تخالفه فتمتنع منه عند الجماع، ولو كانت على ظهر بعير، أو أمام التنور.

(١) الواحدي (١٢٧) والسيوطي (٧١) والطبري (٣٧/٥).

(٢) الحاكم (١٦٢/٢) وحسنه الألباني في «السلسلة الصحيحة» (١٠٤٧).

(٣) ابن سعد (٤٥٩/٨) وابن أبي شيبة (٣٠٤/٤) والحاكم (١٨٩/٢) والبيهقي (٢٩١/٧) وحسنه الألباني في «صحيح الجامع» (١٥٠٥).

(٤) متفق عليه، وهذا لفظ البخاري (٢٦١/٦) برقم (٣٣٣١، ٥١٨٤، ٥١٨٦) ومسلم (١٠٩١/٢) برقم (١٤٦٨).

وعن أبي هريرة أيضًا أن رسول الله ﷺ قال: «إذا دعا الرجل امرأته إلى فراشه فأبت لعتنها الملائكة حتى تصبح»^(١).

ولفظ مسلم: «إذا باتت المرأة هاجرة فراش زوجها لعتنها الملائكة حتى تصبح»^(٢).

والمرأة الناشز: هي العاصية المتمردة، وقد وضع الإسلام لها علاجًا إذا كانت تتعالى وتترفع على الرجل، وتتمرد عليه ولا تطيعه في المعروف ﴿وَالَّذِينَ تَخَافُونَ زُفُوزَهُمْ فَعُظُوهُمْ﴾ هذه وصفة علاجية مكونة من أربعة مراحل:

الْمَرْحَلَةُ الْأُولَى مِنْ مَرَاكِحِ عِلَاجِ نَشُوزِ الْمَرْأَةِ (الْوَعْظُ)

تكون بالوعظ، ويبدأ الوعظ بالتعليم، فقد تجهل المرأة ولا تعرف أن هذا الحكم في الشرع حرام أم حلال، فعليه أن يبين لها ما يقوله، ويعلمها هذا حلال وهذا حرام.

وإن كانت تعلم الحلال والحرام فيذكرها، ثم يرغبها ويرهبها، يرغبها في طاعة الله سبحانه، وفي طاعة زوجها، ويبين لها أثر ذلك ونتائجه وعواقبه عند الله سبحانه، يذكرها بمثل قول النبي ﷺ: «لو كنت امرأةً أحدًا أن يسجد لأحد، لأمرت المرأة أن تسجد لزوجها من فرط حقه عليها»^(٣).

زاد أحمد عن عبد الله بن أبي أوفى ؓ: «ولا تؤدي المرأة حق الله ﷻ عليها كله حتى تؤدي حق زوجها عليها كله»^(٤).

وأن المرأة إذا باتت وزوجها عليها ساخط لعتنها الملائكة حتى تصبح.

أخرج الطبري وابن حاتم بسندٍ حسنٍ عن علي بن أبي طلحة عن ابن عباس ؓ قال في

(١) «صحيح البخاري»، كتاب بدء الخلق (٤/١٤١) برقم (٣٢٣٧، ٥١٩٣، ٥١٩٤) و«صحيح مسلم» (١٤٣٦).

(٢) «صحيح مسلم»، كتاب النكاح (٤/١٥٦) برقم (١٤٣٦) و«صحيح البخاري» (٥١٩٤).

(٣) حديث صحيح مروي عن جماعة من الصحابة، وممن أخرجه الترمذي (٢/٢٤٤) برقم (١١٥٩) وقال الألباني: حسن صحيح في «صحيح الترمذي» برقم (٩٢٦) وهو في «المسند» (٤/٣٨١) وابن ماجه رقم (١٨٥٢) وصححه الحاكم ووافقه الذهبي في «المستدرک» (٢/١٨٧) وصححه السيوطي في الجامع الصغير برقم (٧٤٨٢).

(٤) «المسند» (١٩٤٠٣) من حديث طويل، وهو حديث جيد، وعن عائشة (٢٤٤٧١) وفيه ابن جدعان ضعيف، وباقي رجاله ثقات رجال الشيخين غير ابن سلمة فمن رجال مسلم. (محققوه).

النشوز: تلك المرأة تنشر وتستخف بحق زوجها ولا تطيع أمره، فأمره الله ﷻ أن يعظها ويذكرها بالله، ويُعلمها حقَّه عليها، فإن قبلت، وإلا هجرها في المضجع، ولا يكلمها، من غير أن يذر نكاحها - وذلك عليها شديد - فإن رجعت وإلا ضربها ضرباً غير مبرح، ولا يكسر لها عظماً، ولا يجرح لها جرحاً، فإن أطاعته فلا يتجنَّ عليها.

وقال أيضاً: عظوهن، فإن أطعنكم وإلا فاهجروهن، والهجر ألا يجامعها، ويضاجعها على فراشها ويوليها ظهره، فعليه أن يرغبها.

ثبت في الصحيح أن عمر بن الخطاب ؓ قال: «كنا معشر المهاجرين قوماً تغلب نساءنا، فإذا الأنصار قوم تغلبهم نساؤهم، فأخذ نساؤنا يتأدبن بأدب نساء الأنصار»^(١).

ولهذا أذن الله تعالى في تأديبهن، فأمر الرجل أن يرغبها ويذكر لها الأحاديث، ويأتي لها بالكتيبات المناسبة، ويأتي لها بشريط (كاسيت) مناسب، أو بقرص (سي دي) عليه الحقوق الزوجية ونحوها، ويجعلها تستمع وتشاهد وتقرأ ما في وسائل الإعلام المختلفة لأهل العلم الموثوق بعلمهم، يعظها بشتى أنواع الوعظ، وهي كثيرة متيسرة في وقتنا والحمد لله، فيخوفها عذاب الله تعالى، ويبين لها عظم حق زوجها عليها، وينصحها بالكلمة الطيبة ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا قُوا أَنْفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ﴾ [التحريم: ٦]. فالوعظ يبدأ بالتعليم، ثم التذكير بآيات الله، ثم تحريك المشاعر الإيمانية عن طريق الترغيب والترهيب، وعن هذه المرحلة يقول تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يَخَافُونَ نُشُوزَهُمْ فَعُظُّهُمْ﴾.

الْمَرْحَلَةُ الثَّانِيَّةُ مِنْ مَرَاكِحِ عِلَاجِ نُشُوزِ الْمَرْأَةِ (الْهَجْرُ)

وتأتي هذه المرحلة إن لم يُجْدِ الوعظ مع الزوجة، وهي مرحلة الهجر في المضجع، وهذا من باب الاستعلاء عليها قال تعالى عن هذه المرحلة: ﴿وَاهْجُرُوهُنَّ فِي الْمَضَاجِعِ﴾.

قال ابن عباس: ينام معها في الفراش، ويدير ظهره لها وليصبر على ذلك؛ إذ ربما يفيد فيها هذا النوع من العلاج.

وأدب هذا الهجر: أن يكون في البيت، ولا يعلم به الأبناء، ولا يعلم به قريب أو صاحب، وأن لا يُعلم به الجيران، ولا الغرباء، وأن يكون ذلك أدباً بينه وبينها.

(١) «صحيح مسلم» برقم (١٢١٨).

الْمَرْحَلَةُ الثَّالِثَةُ مِنْ مَرَاجِلِ عِلَاجِ نُشُوزِ الْمَرْأَةِ (الضَّرْبُ)

وهي: الضرب غير المبرح، وينتقل الزوج إلى الضرب إذا لم يفد علاج المرحلة الثانية.

والضرب على قسوته أهون من تحطيم الأسرة وتشتيت الأبناء، وهدم هذا الكيان القائم، وفي الحديث عن إياس بن عبد الله بن أبي ذياب مرفوعاً: «لا تضربوا إماء الله»^(١).

وقد رخص ﷺ في ضربهن، بعد أن اشتكى عمر زئير النساء، وهذا الضرب مباح عند الحاجة، وعند الضرورة فقط، وزئير النساء: جراتهن ونشوزهن.

وعندما يفيد الوعظ لا ينتقل علاج النشوز إلى الهجر، وعندما يفيد الهجر لا ينتقل إلى الضرب، ولا يلجأ إليه إلا بعد استحالة الفائدة من الوعظ والهجر.

والمراد بهذا الضرب: التأديب وليس التعذيب، كما جاء في الأحاديث: يضربها بسواك ونحوه، لا يكسر عضواً ولا يجرحها، ولا يضرب الوجه، ولا يُقَبَّح، ولا يُضْرَبُ ضرباً مبرحاً.

وقد بين النبي ﷺ أنه لا يضرب خياركم، أي: أن الضرب مباح، ولكن خيار القوم وأفضلهم لا يستعين بالضرب، إنما يستعمله الزوج في الحالة القصوى إذا اقتضى الأمر ذلك، وإن تركه كان أولى؛ فالنبي ﷺ رغب في عدم الضرب، وبين أن الذي لا يضرب خير من الذي يضرب، ولذلك لما سأل والد المرأة التي ضربها زوجها، وأرادت أن تقتص منه فأنزل الله الآية ﴿الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ﴾ وقال ﷺ: «أردنا أمراً، وأراد الله أمراً، وما أراد الله خيراً»^(٢) وامثل الرجل وابنته لأمر الله سبحانه.

وفي صحيح مسلم عن جابر رضي الله عنه: أن النبي ﷺ قال في حجة الوداع: «فاتقوا الله في النساء؛ فإنهن عوان عندكم -أي: أسيرات- ولكم عليهن ألا يوطئن فرشكم أحداً تكرهونه، فإن فعلن فاضربوهن ضرباً غير مبرح، ولهن عليكم رزقهن وكسوتهن بالمعروف»^(٣).

(١) يُنْظَرُ: أبو داود (٢١٤٦) وابن ماجه (١٩٨٥) وصحيح سنن ابن ماجه (١٦١٥) وصحيح سنن أبي داود (١٨٦٣) قال الألباني: حسن صحيح، وهو في الكبرى للنسائي (٩١٦٧) وفي ط. (٢٠٠١م) برقم (٩١٢٢) وابن حبان (٤١٨٩)، وغاية المرام (٢٥١) ومشكاة المصابيح (٣٢٦١) التحقيق الثاني.

(٢) جاء هذا عن الحسن في الطبري (٦/٦٨٨، ٦٨٩) وابن المنذر (١٧٠١).

(٣) من حديث جابر الطويل في «صحيح مسلم» (١٢١٨).

﴿فَإِنْ أَطَعْتَكُمْ فَلَا تَبْغُوا عَلَيْهِنَّ سَبِيلًا﴾ أي: لا يجوز الطلاق حال طاعة المرأة، ولا يجوز الخلاف معها، ولا يجوز التعدي عليها
وفي هذا حَثٌّ للأزواج ألا يظلموا الزوجات، وأن يتركوا معاتبة المرأة على الأمور الماضية، ويتركوا التَّنْقِيبَ عن العيوب، فإن إثارتها تَضُرُّ وتُحْدِثُ الشَّرَّ، وتُزْرِعُ البُغْضَ.
﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا كَبِيرًا﴾ وقُدْرته تعالى أكبر من قُدرة الرجل على المرأة، فالله أكبر من كل متكبر وكل مستعَلٍّ؛ فقد رأى رسول الله ﷺ رجلاً يضرب عبده فقال له: «اعلم أبا مسعود أن الله أقدر عليك منك عليه»، فقال: هو حر لوجه الله فقال: «أما إنك لو لم تفعل لمَسَّتْكَ النار»^(١).

فالأصل عند طاعة المرأة لزوجها عدم الطلاق، وعدم ضربها، أو شتمها، أو إهانته؛ لأنها قامت بواجب حقه عليها.

وهذه المراحل من التأديب لا موضع لها في حالة الوفاق؛ لأن المرأة الناشز امرأة منحرفة قد يؤدي انحرافها إلى وقوع الجريمة، ولذا سمح الإسلام بتأديبها.
ولامحل لهذا التأديب إذا كانت المرأة تكره الرجل وتبغضه.

ومما يذكر أن عمر رضي الله عنه قال لامرأة صرَّحت بأنها لا تحب زوجها: إذا كانت إحداكن لا تحب أحدنا، فلا تخبره بذلك؛ فإن أقل البيوت ما بني على الحب، وإنما يتعاشر الناس بالحب والإسلام، أي: إن الحب الشريف، وتطبيق أحكام الإسلام يمنعان المرء من سوء العشرة، ويحملانه على العشرة بالمعروف.

ولما أراد ابن عمر أن يطلق زوجته؛ لأنه لا يحبها، قال له عمر: أو كُلُّ البيوت بُنيت على الحب؟ فأين المروءة والتزم، أي: أين البعد عن مذمة الله ومذمة الناس؟!

وعن حكيم بن معاوية عن أبيه قال: قلت: يا رسول الله، ماحق زوجة أحدنا عليه، قال: «أن تطعمها إذا طعمت، وتكسوها إذا اكتسيت، ولا تضرب الوجه، ولا تقبح، ولا

(١) من حديث أبي مسعود الأنصاري في «المسند» بنحوه (٢٢٣٥٤) و(١٧٠٨٧) عن عبد الرزاق عن سفيان الثوري وإسناده صحيح على شرط الشيخين، وأخرجه مسلم (١٦٥٩) والترمذي (١٩٤٨) وهو عند عبد الرزاق في المصنف (١٧٩٥٩) والطبراني في الكبير ١٧ (٦٨٣) وقال الترمذي: حديث حسن صحيح واللفظ لمسلم.

تَهْجُرُ إِلَّا فِي الْبَيْتِ»^(١).

وفي الصحيح وغيره عن عبد الله بن زمعة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «لا يجلد أحدكم امرأته جلد العبد، ثم يجامعها من آخر اليوم»^(٢).

وأخرج الترمذي وغيره عن معاذ بن جبل رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «لا تؤذي امرأة زوجها في الدنيا، إلا قالت زوجته من الحور العين: لا تؤذيه قاتلك الله، فإنما هو دخیل عندك، يوشك أن يفارقك إلينا»^(٣).

وعن أم سلمة رضي الله عنها أن رسول الله ﷺ قال:- «أَيُّمَا امْرَأَةٍ مَاتَ وَزَوْجُهَا رَاضٍ عَنْهَا دَخَلَتْ الْجَنَّةَ»^(٤).

ومعلوم أن ذلك مشروط بطاعة الله تعالى.

وفي حديث أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «إِذَا دَعَا الرَّجُلُ امْرَأَتَهُ إِلَى فِرَاشِهِ فَأَبَتْ؛ فَبَاتَ غَضَبَانٍ؛ لَعْنَتْهَا الْمَلَائِكَةُ حَتَّى تُصْبِحَ»^(٥).

وفي حديث طلق بن علي قال: سمعت النبي ﷺ يقول: «إِذَا دَعَا الرَّجُلُ امْرَأَتَهُ لِحَاجَتِهِ فَلْتَجِبْهُ وَإِنْ كَانَتْ عَلَى التُّورِ»^(٦).

الْمَرْحَلَةُ الرَّابِعَةُ مِنْ مَرَاكِحِ عِلَاجِ نُشُوزِ الْمَرْأَةِ: التَّحَاكُمُ بَيْنَ الزَّوْجَيْنِ

٣٥- ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ شِقَاقَ بَيْنِهِمَا فَأَبْعَثُوا حَكَمًا مِّنْ أَهْلِهِ وَحَكَمًا مِّنْ أَهْلِهَا إِنْ يُرِيدَا إِصْلَاحًا

(١) قال الألباني في «صحيح سنن أبي داود» برقم (١٨٧٥): حسن صحيح، وهو في السنن (٢١٤٢) وأخرجه ابن حبان في «صحيحه» برقم (٤١٦٣) والحاكم في «المستدرک» (١٨٧/٢).

(٢) البخاري (٥٢٠٤) ومسلم (٢٨٥٥) والترمذي (٣٣٤٣) و«المسند» (١٦٢٢١، ١٦٢٢٤) وابن أبي شيبه (٣٦٩/٨) والنسائي في «الكبرى» (٩١٦٦).

(٣) «صحيح سنن الترمذي» (٩٣٧) وفي السنن (١١٩٠) و«صحيح سنن ابن ماجه» (١٦٣٧) وهو في سنن ابن ماجه (٢٠١٤) وفي السلسلة الصحيحة (١٧٣) وفي آداب الزفاف (١٧٨).

(٤) ابن أبي شيبه (٣٠٣/٤) والحاكم (١٧٣/٤) والبيهقي (٨٧٤٤).

(٥) البخاري (٥١٩٣، ٥١٩٤) ومسلم (١٤٣٦) وابن أبي شيبه (٣٠٦/٤).

(٦) ابن أبي شيبه (٣٠٦/٤) والترمذي (١١٦٠) و«السنن الكبرى» للنسائي (٨٩٧١) والبيهقي (٢٩٢/٧) وصححه الألباني في «السلسلة الصحيحة» (١٢٠٢).

يُوفِّقُ اللَّهُ بَيْنَهُمَا إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿٣٥﴾

وحين يستعصي الحل، ولا تنفع الإجراءات السابقة، فهناك محاولة أخيرة لإنقاذ الأسرة من الانهيار، وهي التحكيم بينهما، والنشوز السابق يكون من جانب المرأة فقط، فإن حدث الشقاق بين الرجل والمرأة، وصار كل منهما في وادٍ، هذا في شقٍّ وذاك في شقٍّ، فهذه هي المرحلة الرابعة والأخيرة، وهي:

أن يكون هناك حَكَمَان من أهل الزوج وأهل الزوجة، رجلين مكلفين عدلين عاقلين، يعرفان ما بين الزوجين، ويعرفان الجمع والتفريق، يختارهما القاضي، أو يختارهما الزوجان، أو يختارهما ولي أمرهما تتوافر فيهما النية الصادقة، والإرادة الجازمة، والقدرة التامة على تقريب وجهات النظر، ولا يكون في أحدهما مأرب في الفراق بينهما ﴿حَكَمًا مِّنْ أَهْلِهِ وَحَكَمًا مِّنْ أَهْلِهَا﴾ يحسمان الخلاف بما تقتضيه المصلحة سواء أَرْضِيَ المحكوم عليه أم لا، فإن وصلت الحال إلى أنه لا يمكن اجتماعهما وإصلاحهما، ورأيا أن التفريق أصلح، فرقا بينهما.

وفي حالة التفرقة بينهما فلا بُدَّ أن يكون هذا برضاهما فإن عجزا عن التوفيق بينهما فقد انتهت مهمتهما، والضمير في ﴿إِنْ يُرِيدَا﴾ يعود على الحكّمين، والضمير في ﴿يُوفِّقُ اللَّهُ بَيْنَهُمَا﴾ يعود على الزوجين، وكون الحكّمين من أهلها؛ لعلمهما بحال الزوجين، فإن كانا أجنبيين مع وجود الأقرب كان فيه مخالفة للنص، وتنصيب الحكّمين يكون من طرف القاضي، أو أهل الرأي من الناس.

والله تعالى يعلم ما في القلوب، ﴿إِنْ يُرِيدَا إِصْلَاحًا يُّوفِّقُ اللَّهُ بَيْنَهُمَا﴾ أي: إن علمتم وتيقنتم يا أولياء الزوجين شقاقاً بينهما يؤدي إلى الفراق فأرسلوا إليهما حكماً عدلاً من أهل الزوج، ومثله من أهل الزوجة ينظران، أو يحكمان بما فيه المصلحة، وبسبب رغبة الحكّمين في الإصلاح يوفق الله بين الزوجين، فإخلاص الحكّمين، وصدق النية، وبذل الجهد في التوفيق بين الزوجين يؤدي إلى الإصلاح بينهما بتسديد الله لهما، والعكس صحيح.

وكان عمر رضي الله عنه يؤنب الحكّمين في حالة عدم التوفيق، ويقول لهما: لماذا لا تريدان إصلاحاً؟ فلو أردتما إصلاحاً لأصلح الله بينهما.

وهذه الآية أصل في جواز التحكيم في سائر القضايا والحقوق.

أخرج الطبري وابن أبي حاتم بسند حسن عن علي بن أبي طلحة عن ابن عباس قال في معنى الآية: هذا الرجل والمرأة، إذا تفسد الذي بينهما، فأمر الله سبحانه أن يبعثوا رجلاً صالحاً من أهل الرجل، ومثله من أهل المرأة، فينظرا أيهما المسيء:

فإن كان الرجل هو المسيء، حجبوا عنه امرأته، وقصّروه على النفقة.

وإن كانت المرأة هي المسيئة، قصّروها على زوجها ومنعوها النفقة.

فإن اجتمع رأيهما على أن يُفَرَّقَا أو يُجْمَعَا، فرضي أحد الزوجين وكره الآخر، ثم مات أحدهما، فإن الذي رضي يرث الذي كره، ولا يرث الكاره الراضي، على خلاف في ذلك.

وأخرج الإمام أحمد وغيره بسنده إلى عبد الله بن شداد أنه دخل على عائشة رضي الله عنها بعد أن رجع من العراق وقتل عليّ، وكان عندها أناس، فسألتها أن يحدثها عن هؤلاء القوم الذين قتلوا عليّاً؟ قال: فإن عليّاً لما كاتب معاوية، وحكّم الحكماء، خرج عليه ثمانية آلاف من قراء الناس، فنزلوا بأرض يقال لها: (حروراء) من جانب الكوفة، وأنهم عتبوا عليه، فقالوا: انسلخت من قميص ألبسك الله تعالى، واسم سمّاك الله تعالى به، ثم انطلقت فحكمت في دين الله، فلا حكم إلا لله تعالى، فأمر عليّ منادياً ينادي في الناس، ألا يدخل علي أمير المؤمنين إلا رجل قد حمل القرآن، فلما امتلأت الدار من قراء الناس، دعا بمصحف إمام عظيم، فوضعه بين يديه، وأخذ يصكّه بيده، ويقول: أيها المصحف، حدّث الناس، فقالوا: يا أمير المؤمنين، إنما هو مداد في ورق! ونحن نتكلم بما رَوَيْنَا منه، فماذا تريد؟ قال: أصحابكم الذين خرجوا، بيني وبينهم كتاب الله، يقول الله تعالى في كتابه في امرأة ورجل: ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ شِقَاقَ بَيْنِهِمَا﴾ فأمّة محمد أعظم دماً وحرمة من امرأة ورجل^(١).

(١) صححه أحمد شاكر في «المسند» برقم (٦٥٦) وهذه فقرة منه، وهو حديث طويل، قال محققوه: إسناده حسن لأن يحيى بن سليم مختلف فيه وباقي رجاله ثقات، وأخرجه أبو يعلى (٤٧٤)، وصححه ابن كثير في «اللبداء والنهاية» (٢٧٩/٧) وصححه الألباني في «صحيح الجامع» (٥٥٣٥) وصححه محقق «المختارة» للضياء المقدسي برقم (٦٠٥) وقال الهيثمي في «المجمع» (١١٩/٣): رجاله ثقات.

فِي هَذِهِ الْآيَةِ عَشْرَةُ حُقُوقٍ لِلْمُجْتَمَعِ الْمُسْلِمِ

٣٦- ﴿وَأَعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَنًا وَبِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسْكِينِ وَالْجَارِ ذِي الْقُرْبَىٰ وَالْجَارِ الْجُنُبِ وَالصَّاحِبِ بِالْجَنبِ وَابْنِ السَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ مُخْتَالًا فَخُورًا﴾ (٣٦)

حَقُّ اللَّهِ تَعَالَى وَحَقُّ الْوَالِدَيْنِ وَثَمَانِيَةُ حُقُوقٍ أُخْرَى لِلتَّرَابِطِ الْاجْتِمَاعِيِّ

وبما أن سورة النساء تقوم بتربية المجتمع المسلم وترسم له الطريق؛ لتُصلح الأفراد، وتُصلح البيت وهو (الأسرة الصغيرة)، ومن ثم تُصلح المجتمع وهو (الأسرة الكبيرة) فهي تقتلع رواسب الجاهلية، وتضع الأسس التي يسير عليها المجتمع المسلم.

ولذلك: فإن الآيات في هذه السورة بعد أن تحدثت عن إصلاح البيت من خلال (إصلاح الزوجين) وأمرت بالإحسان إلى الزوجة، ذكرت في هذه الآية حقوقاً عشرة للمجتمع المسلم كله، تستوعب أفرادهم جميعاً، بدءاً بالوالدين بعد حق الله سبحانه، ومروراً بالأقارب والجيران وسائر المسلمين، حتى يكون في ذلك إصلاح المجتمع بصفة عامة، وهي آية محكمة متفق عليها في جميع الكتب:

الحق الأول: التوحيد ﴿وَأَعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا﴾

بدأت هذه الوصايا العشر بالأمر بعبادة الله وحده والانقياد لأوامره ونواهيه وعدم الإشراف به سبحانه؛ لأنه أساس الدين ومداره الأعظم، وجميع الأعمال الصالحة لا فائدة منها إذا لم تقم على هذا الأساس، ولم يتوافر فيها الركن الأول في العبادة وهو إخلاص التوجه بالعبادة إلى الله وحده.

والعبادة: كلمة جامعة، تشمل كل ما يحبه الله تعالى ويرضاه من الأقوال والأعمال الظاهرة والباطنة، وتشمل أعمال القلوب وأعمال الجوارح، والانقياد لله وحده، فهو الذي يستحق العبادة وحده دون سواه؛ لأنه الخالق الرزاق، المنعم على خلقه بجميع النعم، فلا تشركوا مع الله أحداً في ربوبيته وعبادته.

والإشراك بالله تعالى على نوعين: شرك أكبر، وشرك أصغر.

فالشرك الأكبر: أن تجعل لله تعالى ندًا تدعوه، وتخاف منه، وترجوه، وتذبح له كما تذبح لله سبحانه، وتنذر له كما تنذر لله تعالى، وتحبه كمحبتك لله عز وجل، وتستعين به وتلجأ إليه، وتطلب منه قضاء الحاجات، تطلبها من وليّ، أو من عبد صالح، أو من نبيّ، أو ملك، أو إنس، أو جن، أو غير ذلك، ومن يفعل ذلك فقد اتخذهُ معبودًا مع الله سبحانه كما قال تعالى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ اللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّوهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ﴾ [البقرة: ١٦٥]. إذا دعاهم من دون الله فقد أشرك، وإذا استعان بهم فيما لا يقدر عليه إلا الله فقد أشرك، وإذا سألهم قضاء حاجة هي من خصائص الله تعالى فقد أشرك، وإذا اعتقد فيهم نفعًا أو ضررًا فقد أشرك، وإذا ذبح أو نذر لهم، أو ذبح عندهم، فقد أشرك بالله جل شأنه شركًا أكبر.

وفي الحديث القدسي عن أبي هريرة رضي الله عنه: أن رسول الله ﷺ قال: «قال الله تعالى: أنا أغنى الشركاء عن الشرك، من عمل عملاً أشرك فيه معي غيري تركته وشركه»^(١).

والشرك الأصغر: كل وسيلة وذريعة توصل إلى الشرك الأكبر، فاليسير من الشرك في العبادة شرك أصغر، ومنه الرياء؛ كالذي يتصدق رياءً، ويصلي رياءً، ويقرأ القرآن رياءً. والرياء يبطل العمل، واليسير منه مدخل إلى الشرك الأكبر.

ومن الشرك الأصغر: أن يحلف العبد بغير الله سبحانه، أو يقول لزيد من الناس: ما شاء الله وشئت، أو اعتمدتُ على الله وعليك، أو توكلت على الله وعليك، ونحو ذلك من الألفاظ الشركية، التي فيها العطف بالواو؛ لأنها تسوّي بين الخالق والمخلوق في قضاء الحوائج، وقد يكون هذا من باب الشرك الأكبر حسب مقصد المتكلم، وحسب عقيدته ونيته.

في الصحيحين عن معاذ بن جبل رضي الله عنه قال: كنت رديف النبي ﷺ على حمار يقال له: عفير أو يعفور، فقال: «يا معاذ، هل تدري ما حق الله على عباده، وما حق العباد على الله؟ قلت: الله ورسوله أعلم. قال: فإن حق الله على العباد: أن يعبدوه، ولا يشركوا به شيئًا. وحق العباد على الله، ألا يعذب من لا يشرك به شيئًا. فقلت: يا رسول الله أفلا

(١) من حديث أبي هريرة في «صحيح مسلم» (٢٩٨٥).

أبشر الناس؟ قال: «لا تبشرهم فيتكلموا»^(١).

أي: لئلا يتكلموا على هذه البشارة، ويتركوا العمل.

وحق الله على العباد هو: ما يستحقه سبحانه مما أوجبه عليهم من عبادة الله تعالى وحده وعدم الإشراك به.

وأما حق العباد على الله تعالى فهو من باب المقابلة لحقه تعالى عليهم، وإلا فإنهم لا يستحقون عليه شيئاً من باب الوجوب، وما ألزم الله تعالى به نفسه هو من باب التفضل والإكرام.

الحق الثاني: بر الوالدين ﴿وَالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا﴾

وبعد الأمر بعبادة الله سبحانه يأتي الأمر بإحسان إلى الوالدين؛ لأن لهم الفضل بعد الله سبحانه في مجيء العبد إلى هذه الحياة، فذكرهما بعد حق الله تعالى تعظيم لحقهما.

هذا الإحسان هو الذي قال الله سبحانه عنه: ﴿أَنْ أَشْكُرَ لِي وَلَوْلَايَكَ﴾ [لقمان: ١٤]. الشكر لله ثم للوالدين.

وقال سبحانه ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا﴾ [الإسراء: ٢٣].

وقال جل شأنه ﴿قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا﴾ [الأنعام: ١٥١].

وقد أخذ الله الميثاق على بني إسرائيل أن يعبدوا الله، ويحسنوا إلى الوالدين.

فقال تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَءِيلَ لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا﴾ [البقرة: ٨٣].

ومن الإحسان بالوالدين: أن يقوم الابن أو الابنة بخدمتهما، وألا يرفع صوته عليهما، وأن يسعى جاهداً فيما يطلبانه، وأن ينفق عليهما إن احتاجا، حسب قدرته.

سئل رسول الله ﷺ: أي العمل أحب إلى الله؟ قال: «الصلاة على وقتها»، قال: ثم

أي؟ قال: «ثم بر الوالدين»، قال: ثم أي؟ قال: «الجهاد في سبيل الله»، قال الراوي: حدثني بهن، ولو استزدته لزادني^(٢).

(١) يُنظر: «صحيح البخاري» برقم (٦٥٠٠، ٧٣٧٣) و«صحيح مسلم» برقم (٣٠).

(٢) «صحيح البخاري» برقم (٥٢٧).

في صحيح مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه: أن النبي ﷺ قال: «رغم أنفه، رغم أنفه، رغم أنفه، قيل: من يارسل الله؟ قال: من أدرك أبويه عند الكبر أحدهما أو كليهما، ثم لم يدخل الجنة»^(١).

فمن أدرك والديه أو أحدهما، وجب عليه أن يجتهد في رعايتهما وبرهما، ولا يسعى إليهما بوجه من الوجوه .

وهذا الإحسان إلى الوالدين فسرته الآية: ﴿إِنَّمَا يَبْلُغَنَّ عِنْدَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُلْ لَهُمَا أُفٍّ وَلَا نَهْرَهُمَا وَقُلْ لَهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا﴾ [الإسراء: ٢٣].

و(أف) أدنى درجات الضجر والاكْتئاب، والعبس والقنوط الذي يعلو الوجه، ويعبر عن الاستياء . قال تعالى: ﴿وَأَخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذَّلِيلِ مِنَ الرَّحْمَةِ﴾ حتى وإن كان أبواك جائرين، وإن كانا ظالمين، وإن أجحفا بحقك، فعليك أن تقوم بواجبك نحوهما، فلا تعاملهما بالمثل، ولا تحاسبهما إن كانا قد أساءا إليك، أحدهما أو كلاهما، ويكفي أنهما كانا سيئاً في وجودك ﴿وَقُلْ رَبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيْنِي صَغِيرًا﴾ [الإسراء: ٢٤] .

هذا الإحسان إلى الوالدين لا ينقطع بموتهما وإنما يستمر بعد الممات أيضاً .

فقد سئل رسول الله ﷺ: هل بقي من بر أبوي شيء أبرهما به بعد موتهما، قال: «نعم، الصلاة عليهما -والصلاة بمعنى: الدعاء- والاستغفار لهما، وإنفاذ وصيتهما -أي: تنفيذ الوصية الشرعية التي أوصياك بها- وإكرام صديقيهما، وصلة الرحم التي لا توصل إلا بهما»^(٢) . كالعمة والخالة، والعم والخال، حتى إن النبي ﷺ كان يكرم صديقة خديجة رضي الله عنها بعد موتها .

الحق الثالث: الترابط الاجتماعي

ثم ذكرت الآية ثمانية حقوق لعدد من أبناء المجتمع لهم حقوق عليك، في مقدمتهم الأقارب والأرحام، الأقربون والأبعدون من جهة الأب أو الأم:

١- قال تعالى عطفًا على الأمر بالإحسان للوالدين ﴿وَيَذَى الْقُرْبَى﴾ أي وأحسنوا إلى جميع الأقارب بالقول والفعل، من قرب منهم ومن بعد، ولا تقطعوا أرحامكم بالإساءة

(١) «صحيح مسلم» برقم (٢٥٥١).

(٢) من حديث أبي أسيد مالك بن ربيعة الساعدي، في سنن أبي داود، كتاب الأدب، باب في بر الوالدين برقم (٥١٤٢).

إليهم بوجه من الوجوه فإن هذا من الإفساد في الأرض ﴿فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ تَوَلَّيْتُمْ أَنْ تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَتَقَطَّعُوا أَرْحَامَكُمْ﴾ (٢٢) أُولَئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فَأَصَمَّهُمْ وَأَعَمَّى أَبْصَرَهُمْ ﴿[محمد]

في الصحيحين عن أنس: أن النبي ﷺ قال: «من سرّه أن يبسط له في رزقه، ويُنسأ له في أثره، فليصل رحمه»^(١).

وعن سلمان بن عامر الضّبيّ أن النبي ﷺ قال: «الصدقة على المسكين صدقة، وعلى ذي الرحم صدقة وصلة»^(٢).

٢- ثم أمر سبحانه بالإحسان إلى ﴿الْيَتَامَى﴾ بكفالتهم وتربيتهم وتعليمهم وتأديبهم وبرهم، وسواء كانوا أقارب أم لا.

واليتيم: هو ما دون سن الحلم وقد فقد من ينفق عليه ويقوم على مصالحه، وبعد البلوغ لا يقال له: يتيم، وإن كان لا يزال في حاجة إلى الرعاية إذا كان يسلك طريق العلم، واليتيم له حق الإحسان عليك، وليس أدل على هذا الحق من أن النبي ﷺ قال: «أنا وكافل اليتيم في الجنة هكذا كهاتين وأشار إلى السبابة والوسطى»^(٣).

وعن عمرو بن مالك القشيري قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «من أعتق رقبة مسلمة فهي فداؤه من النار، مكان كل عظم من عظام محرّره بعظم من عظامه، ومن أدرك أحدَ والديه ثم لم يُغفر له، فأبعده الله، ومن ضم يتيمًا من أبوين مسلمين إلى طعامه وشرابه حتى يغنيه الله، وجبت له الجنة»^(٤).

(١) البخاري (٢٠٦٧، ٥٩٨٦) ومسلم (٢٥٥٧).

(٢) «تحفة الأحوذى»، كتاب الزكاة (٣/٣٢٤) وابن ماجه، كتاب الزكاة (١/٥٩١) رقم (١٨٤٤) وفي «المسند» عن سليمان بن عامر (٤/١٧، ٢١٤) برقم (١٦٢٢٧، ١٧٨٨٤) حديث صحيح لغيره، لجهالة الرباب بنت صُلَبع، وبقية رجاله ثقات رجال الصحيح، كما قال محققوه، وصححه الألباني في صحيح سنن ابن ماجه (١٤٩٤) وفي المشكاة (١٩٣٩) والتعليق الرغيب (٢/٣٢).

(٣) أخرجه البخاري عن سهل بن سعد (١٠/٣٦٥، ٥٣٠٤، ٦٠٠٥) والترمذي (١٩١٩) وأبو داود (٥١٥٠) وبنحوه في مسلم (٢٩٨٣) و«المسند» (٢٢٨٢٠) إسناده صحيح على شرط الشيخين.

(٤) «المسند» (١٩٠٣٠) وفيه علي بن زيد ضعيف، وباقي رجال الإسناد ثقات رجال الشيخين غير حماد بن سلمة ضمن رجال مسلم قال محققو «المسند»: حديث صحيح لغيره، وجاء عن عقبه بن عامر برقم (١٧٣٢٦) وعن معاذ بن جبل (٢٢١٣) وجاء عن عمرو بن عبسة (١٧٠٢٠، ١٩٤٤١) وابن سعد (٧/٤١) وغيرهم.

٣- ثم أمر سبحانه بالإحسان إلى المساكين في قوله: ﴿وَالْمَسْكِينِ﴾ وهم الذين لم يحصلوا على كفايتهم الضرورية، ولا كفاية من يعولون، فأمر الله تعالى بسد حاجتهم، ودفع فاقتهم والقيام بما يمكن لهم، والحض على ذلك.

قال تعالى: ﴿كَلَّا بَلْ لَا تَكْرُمُونَ الْيَتِيمَ ﴿٧﴾ وَلَا تَخْضَعُونَ عَلَى طَعَامِ الْمَسْكِينِ﴾ [الفجر]

وقال سبحانه: ﴿إِنَّكُمْ كَانُمْ لَا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ الْعَظِيمِ ﴿٣٣﴾ وَلَا يَحْضُ عَلَى طَعَامِ الْمَسْكِينِ﴾ [الحاقة]

وقال جل شأنه عن أهل سقر: ﴿قَالُوا لَوْ نَكُ مِنَ الْمُصَلِّينَ ﴿١٣﴾ وَلَوْ نَكُ نَطْعُمُ الْمَسْكِينِ﴾ [المدثر]

وقال عز وجل عن المكذب بالدين: ﴿فَذَلِكَ الَّذِي يَدْعُ الْيَتِيمَ ﴿٦﴾ وَلَا يَحْضُ عَلَى طَعَامِ الْمَسْكِينِ﴾ [الماعون]

في الحديث عن أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «الساعي على الأرملة والمسكين كالمجاهد في سبيل الله أو كالذي يصوم النهار ويقوم الليل»^(١)

والمساكين: هم ذوو الحاجات الذين لا يجدون ما يكفي حاجتهم الضرورية، سواء أكانوا أقارب أم غير أقارب، جيران أم غير جيران.

٤- ثم أمر جلّ شأنه بالإحسان إلى الجار القريب والبعيد فقال: ﴿وَالْجَارِ ذِي الْقُرْبَى﴾ أي: الجار المسلم الذي هو من أقربائك.

فالمعنى: وأحسنوا إلى الجيران الأقارب وأكرمهم، والجار القريب له حقان، حق القرابة وحق الإحسان، فله على جاره حق الإحسان والمودة والصلة والسؤال والتهنئة والتعزية والعيادة وسد الحاجة وما إلى ذلك.

والجيران أنواع ثلاثة: جار له حقوق ثلاثة: الجار القريب المسلم، له حق الجوار، وحق القرابة، وحق الإسلام.

وجار له حقان، وهو: الجار المسلم غير القريب، فله حق الإسلام وحق الجوار.

وجار له حق واحد، وهو جارك الكافر، له حق الجوار فقط.

وحد الجوار أربعون دارًا من كل جهة، وما تعارف عليه الناس سواء أكان الجوار في

(١) البخاري (٥٣٥٣، ٦٠٠٧) ومسلم (٢٩٨٢) وفي البخاري أيضًا عن صفوان بن سليم برقم (٦٠٠٦).

السكن، أم في العمل، أم في الدراسة، أم في المجلس، ونحو ذلك؛ فقد أمر تعالى بالإحسان إلى كل جار.

٥- ﴿وَالْجَارِ الْجُنُبِ﴾ هو الذي بجوارك جنبًا إلى جنب، وليس بينك وبينه قرابة وإن كان يهوديًا أو نصرانيًا.

فعلى المسلم أن يتعاهد جاره بالهدية والصدقة والدعوة، واللطف في القول والفعل، وعدم أذيته بقول أو فعل، والتودد والإحسان إليه، وإن كان غليظًا جافًا مؤدبًا، يأمره بالمعروف وينهاه عن المنكر فيما ظهر من المنكرات.

وقد جاءت الوصية بالجار في كثير من الأحاديث، منها:

أ- قوله ﷺ في حديث عائشة ؓ: «ما زال جبريل يوصيني بالجار حتى ظننت أنه سيورثه»^(١).

ب- وفي البخاري وغيره عن عائشة ؓ قالت: قلت: يا رسول الله، إن لي جارين، فإلى أيهما أهدى، قال: «إلى أقربهما بابًا منك»^(٢).

ت- وفي صحيح مسلم وغيره عن أبي ذر ؓ: أن رسول الله ﷺ قال: «يا أباذر، إذا طبخت مرقة فأكثر ماءها وتعاهد جيرانك»^(٣).

ث- عن أبي هريرة ؓ: أن النبي ﷺ قال: «والله لا يؤمن، والله لا يؤمن، والله لا يؤمن»، قيل: من يا رسول الله؟ قال: «الذي لا يأمن جاره بوائقه»^(٤).

ج - وعنه ﷺ: «لا تحقرن جارة لجارتها ولو فرسن شاة»^(٥).

(١) أخرجه الشيخان عن عائشة، البخاري (٦٠١٤) ومسلم (٢٦٢٤) و«المسند» (٢٤٢٦٠، ٢٤٩٤٢) بإسناد صحيح على شرط الشيخين، وابن أبي شيبه (٣٥٧/٨) وفي «المسند» أيضًا (٨٥/٢) عن عبد الله بن عمر برقم (٥٥٧٧) والبخاري برقم (٦٠١٥) ومسلم (٢٦٢٥).

(٢) «صحيح البخاري» برقم (٦٠٢٠) كتاب الشفعة (١١٥/٣) و«المسند أحمد» (١٧٥/٦) برقم (٢٥٥٣٦، ٢٦٠٢٦، ٢٥٣٢٣) وإسناده صحيح على شرط البخاري (محققوه).

(٣) «صحيح مسلم» برقم (٢٦٢٥) و«المسند» (٢١٣٢٦) إسناده صحيح على شرط مسلم، ورجاله ثقات رجال الشيخين غير عبد الله بن الصامت فمن رجال مسلم (محققوه) وأخرجه البخاري في الأدب المفرد (١١٤) والبخاري في مسنده (٣٩٦١) والترمذي (١٨٣٣) وابن ماجه (٣٣٦٢) والبيهقي (١٦٨٩).

(٤) البخاري (٦٠١٦).

(٥) البخاري برقم (٦٠١٧) وانظر: (٢٥٦٦) ومسلم (١٠٣٠).

أي: ولو أن تَهْدِي لها ظلف الشاة، والمراد أي شيء ولو كان يسيرًا.

ح - وعن أبي هريرة رضي الله عنه أيضا أن النبي ﷺ قال: «من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فلا يؤذ جاره، ومن كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليكرم ضيفه، ومن كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقل خيرا أو ليصمت»^(١).

خ - وعن عبد الله بن عمرو رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «خير الأصحاب عند الله خيرهم لصاحبه، وخير الجيران عند الله خيرهم لجاره»^(٢).

د - وعن المقداد بن الأسود أن النبي ﷺ قال: «لأن يزني الرجل بعشر نساء أيسر عليه من أن يزني بحليلة جاره ولأن يسرق الرجل من عشرة أبيات، أيسر عليه من أن يسرق جاره»^(٣).

ر - وعن أبي هريرة قال: قيل للنبي ﷺ: إن فلانة تقوم الليل، وتصوم النهار، وتفعل، وتصدق، وتؤذي جيرانها بلسانها، فقال ﷺ: «لا خير فيها هي من أهل النار»، قالوا: وفلانة تصلي المكتوبة، وتصوم رمضان، وتصدق بأثوار - أي: بالجبن اليابس - ولا تؤذي أحدا، فقال ﷺ: «هي من أهل الجنة»^(٤).

ذ - وعن ابن مسعود رضي الله عنه قال: «قلت: يا رسول الله، أي الذنب أعظم؟ قال: «أن تجعل لله ندا وهو خلقك»، قلت: ثم أي؟ قال: «أن تقتل ولدك خشية أن يطعم معك»، قلت: ثم أي؟ قال: «أن تزاني حليلة جارك»^(٥).

٦ - ﴿وَالصَّاحِبِ بِالْجَنبِ﴾ وهو الرفيق في السفر ونحوه، له حق عليك: أن تُحسِّن

(١) في البخاري برقم (٥١٨٥، ٦٠١٨) وفي مسلم برقم (٤٧).

(٢) «تفسير الطبري» (٥٥/٥) و«زاد المسير» (٨١/٢) والحديث في «السلسلة الصحيحة» برقم (١٠٣٠) ومشكاة المصابيح (٤٩٨٧) والترمذي (١٩٤٤) و«صحيح سنن الترمذي» (١٥٨٦) والحاكم (١٦٤/٤)، والمسند (٦٥٦٦) إسناده قوي على شرط مسلم ورجاله ثقات عدا ابن لهيعة (محققوه).

(٣) جزء من حديث: أخرجه أحمد عن المقداد بن الأسود، «المسند» (٣٢/٥، ٨/٦) (٢٣٨٥٤) والبخاري في «الأدب المفرد» (١٠٣) والبيهقي (٩٥٥٢) وصحيح «الأدب المفرد» (٧٦) والطبراني في الكبير (٦٠٥) والأوسط (٦٣٢٩) وإسناده جيد.

(٤) صحيح «الأدب المفرد» (٨٨) والحاكم (١٦٦/٤) والبيهقي (٩٥٤٥، ٩٥٤٦) و«السلسلة الصحيحة» (١٩٠).

(٥) البخاري: تفسير سورة البقرة (٢٢/٦) برقم (٤٧٦١) ومسلم، كتاب الإيمان (٦٣/١) برقم (٨٦).

صحبتة، وتقضي حاجته، وقيل: إن صاحب بالجنب الزوجة، وقيل صاحب مطلقاً في الحضر والسفر، فيجب مساعدته في أمور دينه ودنياه، والنصح له، والوفاء له في العسر واليسر، والمنشط والمكره، ويحب له ما يحب لنفسه، ويكره له ما يكره لنفسه، وكلما قويت الصحبة تأكدت هذه الحقوق وزادت.

٧- وممن له حق عليك: الغريب الذي انقطعت به السبل في أماكن بعيدة، واحتاج إلى المساعدة، قال تعالى: ﴿وَأَبْنِ السَّبِيلَ﴾ وهو المنقطع في سفر بعيد عن بلده، ويريد الطعام، أو الإيواء، أو المؤونة، أو المعونة التي توصله إلى دياره وتنقله إلى مكانه.

٨- وممن لهم حقوق عليك من ذكرهم الله تعالى في قوله: ﴿وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ﴾ أي من العبيد والأرقاء، والخدم والحشم الذين جعلهم الله تعالى تحت أيديكم، فقد سماهم الرسول ﷺ إخواناً، فمن كان أخوه، أي: خادمه، تحت يده، فليطعمه مما يأكل، وليلبسه مما يلبس، ولا تكلفوهم من العمل ما لا يطيقون.

قلت: إنني أرى السائقين في شدة البرد والحر، وهم في انتظار وترقب لما عسى أن يكون من الخدمة إلى ما بعد منتصف الليل، وهذا إجحاف ومجافاة لأخلاق الإسلام، وظلم لهم، وهضم لحقوقهم.

ففي الحديث عن أبي هريرة ؓ أن النبي ﷺ قال: «إخوانكم خولكم جعلهم الله تحت أيديكم فمن كان أخوه تحت يده فليطعمه مما يأكل، وليلبسه مما يلبس، ولا تكلفوهم من العمل ما لا يطيقون فإن كلفتموهم ما يغلبهم فأعينوهم»^(١).

وفي حديث المقدام بن معدى كرب أن النبي ﷺ قال: «ما أطعمت نفسك فهو لك صدقة، وما أطعمت ولدك فهو لك صدقة، وما أطعمت زوجتك فهو لك صدقة، وما أطعمت خادمك فهو لك صدقة»^(٢).

(١) «صحيح البخاري» برقم (٢٥٤٥، ٦٠٥٠) و«صحيح مسلم» برقم (١٦٦١) عن أبي هريرة و«المسند» (٢١٤٢٢) وسنن الترمذي (١٩٤٥) وقال: حسن صحيح وعبد الرزاق (١٧٩٦٥).

(٢) «المسند» (١٣١/٤/٤) برقم (١٧١٧٩) حديث حسن، وأورده الهيثمي في مجمع الزوائد (١١٩/٣) وقال: رواه أحمد وأحمد ورجاله ثقات، وأخرجه البخاري في الأدب المفرد (١٩٥، ٨٢) والبيهقي في السنن (١٧٩/٤). وهو في «السنن الكبرى» للنسائي برقم (٩٢٠٤) وصححه ابن كثير، عند تفسير الآية.

إنهم أناس لهم حقوق وواجبات، ومن حقهم أن يستريحوا كما يستريح الآخرون، ومن حقهم ألا يتحملوا من العمل فوق طاقتهم، ومن حقهم أن يأكلوا ويشربوا ويلبسوا ويسكنوا، ويحفظوا من الحر والبرد.

عن أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «إذا أتى أحدكم خادمه بطعامه، فليقعد معه فليأكل، فإن كان الطعام قليلاً فليضع في يده أكلة أو أكلتين»^(١).

ومن آخر ما أوصى به النبي ﷺ وهو في مرض الموت: الصلاة وملك اليمين.

قال ابن عمر رضي الله عنهما جاء رجل إلى النبي ﷺ فقال: يا رسول الله، كم نغفو عن الخادم في اليوم؟ فصمت النبي ﷺ ثم أعاد فصمت، فلما كان في الثالثة قال: «سبعين مرة»^(٢).

وقد ختم الله الآية ببيان عدم محبته سبحانه للمختال المتكبر الذي يتعاضم على الناس، ويفتخر عليهم ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ مَنْ كَانَ مُخْتَالًا فَخُورًا﴾.

والاختيال والفخر شأن الذي يأنف من أقاربه الفقراء، وجيرانه الضعفاء، فلا ينظر إليهم، ولا يتعامل معهم، ولا يحسن إلى المحتاج منهم، ويشمخ بأنفه عليهم تعالياً وتفاوتاً، والله تعالى لا ينظر إلى من جرَّ ثوبه خيلاء، أو بطراً أو أشراً وترفعاً على الناس.

١- عن جابر بن سليم قال: رأيت رجلاً يضدر الناس عن رأيه، لا يقول شيئاً إلا صدروا عنه، قلت: من هذا؟ قالوا: هذا رسول الله ﷺ قلت: عليك السلام يا رسول الله، مرتين، قال: «لا تقل عليك السلام، فإن عليك السلام تحية الميت، قل: السلام عليك»، قال: قلت: أنت رسول الله؟ قال: «أنا رسول الله الذي إذا أصابك ضرٌّ، فدعوته - أي دعوت الله تعالى - كشفه عنك، وإن أصابك عامة سنة، فدعوته أنبتها لك، وإذا كنت بأرض قفراء أو فلاة، فضلت واصلتك، فدعوته ردها عليك»، قلت: اعهد إليّ، قال: «لا تبسبن أحداً» قال: فما سببت بعده حُرّاً ولا عبداً ولا بعيراً ولا شاة، قال: «ولا تحقرن شيئاً من المعروف، وأن تكلم أخاك وأنت منبسط وجهك، إن ذلك من المعروف،

(١) يُنظر: «صحيح البخاري» برقم (٣٠، ٢٥٥٧، ٥٤٦٠) و«صحيح مسلم» برقم (١٦٦٣) عن أبي هريرة.

(٢) «صحيح سنن أبي داود» (٤٣٠١) والترمذي (١٩٤٩) والبيهقي (٨٥٨٢) وهو في سنن أبي داود (٥١٦٤) وصححه الألباني أيضاً في صحيح سنن الترمذي (٢٠٣١).

وارفع إزارك إلى نصف الساق، فإن أبيت فإلى الكعبين، وإياك وإسبال الإزار فإنها من المخيلة، وإن الله لا يحب المخيلة، وإن امرؤ شتمك وعيرك بما يعلم فيك، لا تعيره بما تعلم فيه، فإنما وبال ذلك عليه^(١).

٢- وعن أبي ذر رضي الله عنه أنه سمع النبي ﷺ يخبر عن: «ثلاثة يحبهم الله، وثلاثة يبغضهم الله، أما الثلاثة الذين يحبهم الله تعالى فهم: رجل غزا في سبيل الله، فلقى العدو مجاهداً محتسباً فقاتل حتى قتل. ورجل له جار يؤذيه، فيصبر على أذاه ويحتسبه حتى يكفيه الله إياه بموت، أو حياة. ورجل يكون مع قوم فيسيرون حتى يشق عليهم الكرى أو النعاس، فينزلون في آخر الليل، فيقوم إلى وضوئه وصلاته». قال: قلت: من الثلاثة الذين يبغضهم؟ قال: «الفخور المختال، وأنتم تجدون ذلك في كتاب الله ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ مُخْتَالًا فَخُورًا﴾ والبخيل المئان، والتاجر والبياع الحلاف»^(٢).

٣- وعن ابن مسعود رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «لا يدخل الجنة من كان في قلبه مثقال ذرة من كبر»، فقال رجل: إن أحدنا يحب أن يكون ثوبه حسناً، ونعله حسناً، فقال ﷺ: «إن الله جميل يحب الجمال، الكبر بطر الحق وغمط الناس»^(٣).

فالمظهر الحسن ليس من الكبر ما لم يصحبه العجب والخيلاء، وخفض الجناح للناس والتواضع لهم، وتحمل الأذى منهم من علامات الإحسان إلى الناس.

(١) «صحيح سنن أبي داود» برقم (٣٤٤٢) و«سنن الترمذي» برقم (٢٧٢٢) وقال: حسن صحيح، وفي «صحيح سنن الترمذي» برقم (٢٨٨٧) والحاكم (١٨٦/٤) و«المسند» (٦٣/٥) عن أبي تيممة الجهني، عن رجل من قومه بنحوه برقم (١٥٩٥٥) بإسناد صحيح ورجال ثقات رجال الصحيح كما قال محققوه، وصححه ابن حجر في «الفتح» (٥/١١).

(٢) يُنظر الحديث في «المسند» (١٧٦/٥) برقم (٢١٥٣٠) بإسناد صحيح على شرط مسلم، رجاله ثقات رجال الشيخين غير الأسود بن شيبان فمن رجال مسلم، وانظر (٢١٣٥٥) وأخرجه ابن المنذر (١٧٦٨) وابن أبي حاتم (٥٣١٣) والطيالسي (٣٦٨) عن الأسود و«المعجم الكبير» للطبراني (١٦٣٧) و«المستدرک» (٨٨/٢) والبيهقي في «السنن» (١٦٠/٩) وفي «الشعب» (٩٥٤٩) والترمذي (٢٥٦٨) و«سنن النسائي» (٨٤/٥) وابن حبان (٣٣٤٩) و«صحيح الجامع» (٣٠٧٤).

(٣) «المسند» (٣٧٨٩) بنحوه و«سنن الترمذي» (١٩٩٩)، وهو في صحيح مسلم (٩١) عن عبدالله بن مسعود.

خرج زين العابدين (علي بن الحسين) إلى المسجد يوماً، فسبّه رجل، فأراد الناس أن يؤدّبوه، فقال لهم: دعوه، ثم أقبل عليه فقال: ما ستره الله عنك من عيوبنا أكثر، ألك حاجة نُعينك عليها؟ فاستخيا الرجل، فألقى إليه خَمِيصَةً كانت عليه، وأمر له بألف درهم، فكان الرجل إذا رآه بعد ذلك يقول: إنك من أولاد الأنبياء.

فمن قام بهذه المأمورات فهو الخاضع لربه، المتواضع لعباده، المنقاد لشرع الله، الذي يستحق الثواب الجزيل، والثناء الجميل، ومن لم يقم بذلك فهو مُعْرِض عن أمر ربه، غير متواضع لخالقه، متكبر على عباد الله، معجب بنفسه فخور بقوله.

ثم وصفت الآيات هذا الصنف من الناس بخمس صفات:

خَمْسُ صِفَاتٍ لِلْمُخْتَالِ الْفُخُورِ: الْوُصْفُ الْأَوَّلُ: الْبُخْلُ

٣٧- ﴿الَّذِينَ يَبْخُلُونَ وَيَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبُخْلِ^(١) وَيَكْنُتُونَ مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُهِينًا ﴿٣٧﴾﴾

ثم وصف الله سبحانه المختال الفخور بأنه الذي يمنع ما عليه من الحقوق الواجبة، ويمنع العطاء مما رزقه الله، ويمنع النفقة في سبيل الله، ويجحد فضل الله تعالى ونعمه عليه، ويحض الناس على منع النفقة بأقواله وأفعاله ويقطع بهذا أوامر الأخوة في المجتمع، ويعتذر للناس بأنه لا يجد ما ينفق منه.

قال ابن عباس وابن زيد: نزلت في جماعة من اليهود كانوا يأتون رجالاً من الأنصار ويخالطونهم، ويقولون لهم: لا تنفقوا أموالكم فإننا نخشى عليكم الفقر فأنزل الله الآية^(٢).

قال تعالى: ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَبْخُلُونَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ هُوَ خَيْرًا لَّهُمْ بَلْ هُوَ سَرٌّ لَّهُمْ﴾ [آل عمران: ١٨٠].

وعن عبد الله بن عمرو رضي الله عنه قال: خطب رسول الله ﷺ فقال: «إياكم والشح، فإنما

(١) قرأ حمزة والكسائي وخلف العاشر (الْبَخْلُ) بفتح الباء والخاء، وقرأ الباقر (الْبُخْلُ) بضم الباء وسكون الخاء وهما لغتان مثل: العَرَب، والعُزْب.

(٢) «سيرة ابن هشام» (١/ ٥٦٠) والطبري (٢٤١٧) وابن المنذر (١٧٧١) وابن أبي حاتم (٥٣٢٧).

هلك من كان قبلكم بالشح: أمرهم بالبخل فبخلوا، وأمرهم بالقطيعة فقطعوا، وأمرهم بالفجور ففجروا^(١).

وقد حُتِمت الآية السابقة التي تبيّن أخلاق أهل الإيمان، ومنها: الإحسان والبر إلى الوالدين والجيران واليتامى والمساكين وابن السبيل، حُتِمت بقول الله سبحانه: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ مَنْ كَانَ مُخْتَالًا فَخُورًا﴾ أي: لا يحب من كان متعالياً متكبراً على الناس.

وكأن الذي يمنع إحسانه وبره وتعاونه إلى والديه وأقاربه، وإلى جيرانه واليتامى والمساكين، موصوف بهذا الوصف، فهو مختال فخور، يبخل ويضنّ بماله كما وصفته هذه الآية والتي بعدها حيث شرحت الآيتان وفصّلت هذا الاختيال، وبَيّنت أهل الفخر بأنهم الذين يبخلون بما أتاهم الله من فضله، فهم في أنفسهم بخلاء، وهم يأمرؤن غيرهم بالبخل، وإن أنفقوا من أموالهم أنفقوها رياءً، وهذا من أخلاق أهل الكفر.

والمختال: هو المتكبر الذي تمكّن الكبر من نفسه، حتى أصبح الكبر يُرى في تصرفاته وحركاته وسكناته، ومن ذلك مَنْ جَرَّ ثوبه فخراً أو خيلاء.

وفي الحديث عن عبد الله بن عمر رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «لا ينظر الله إلى من جرّ ثوبه خيلاء»^(٢). والفخور: هو الذي يتحدث عن نفسه بالفخر، ويتنقص من شأن الآخرين.

عن يزيد بن الأسود أن: «من الثلاثة الذين يبغضهم الله تعالى: المختال والفخور، تجدون ذلك في كتاب الله المنزل؟ ثم قرأ ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ مَنْ كَانَ مُخْتَالًا فَخُورًا﴾»^(٣).

وحينما سمع خالد بن قيس رضي الله عنه هذه الآية بكى خشية أن ينطبق عليه الوصف، فقال يا رسول الله: إني رجل أحب المظهر الحسن، أحب أن يكون ثوبي حسناً، ونعلي حسناً، لائق

(١) «المسند» (٦٤٨٧، ٦٧٩٢، ٦٨٣٧) بإسناد صحيح ورجال ثقات، كما قال محققوه، وأخرجه ابن حبان (٥١٧٦) والطيالسي (٢٢٧٢) والبيهقي في السنن (٢٤٣/١٠) وفي الشعب (١٠٨٢٤) و«صحيح سنن أبي داود» (١٤٨٩) وصحيح ابن حبان (٥١٧٦) و«المستدرک» (١١/١) وصححه ووافقه الذهبي، وصححه الألباني في «صحيح الجامع» الصغير (٢٩٠٦).

(٢) يُنْظَر: الشيخان عن ابن عمر، البخاري (٣٦٦٥، ٥٧٨٣) ومسلم (٢٠٨٥).

(٣) يُنْظَر: حديث أبي ذر السابق عن الثلاثة الذين يبغضهم الله، والثلاثة الذين يبغضهم الله.

المظهر، جميل المنظر، فهل يُعدّ هذا من الكبر، ومن الفخر والخيلاء؟ فبيّن عليه الصلاة والسلام للناس إلى يوم القيامة، أن الكبر ليس في هذا، وإنما الكبر ينحصر في أمرين اثنين:

الأمر الأول: هو احتقار الناس وازدراؤهم، والانتقاص من شأنهم.

والأمر الثاني: هو العناد والمكابرة، ورفض الحقيقة، والتمسك بالرأي بالباطل، فإن كنت تحاور المتكبر في قضية، أو في أمر من الأمور تراه يتمسك برأيه كبراً ومعاندة، فيجحد الحق ولا يخضع للحقيقة، ولا يعترف بها.

«الكبر بطر الحق وغمط الناس» واطر الحق: رفضه وعدم قبوله، وغمط الناس: ازدراؤهم واحتقارهم فهو مبغوض عند الله سبحانه، ربما يأنف من والديه وأقاربه إن كانوا فقراء ويطرف على جيرانه إن كانوا ضعفاء، يترفع عليهم بماله أو بجاهه، أو بعمله ومنزله، ونحو ذلك، فهو مختال فخور في كل أحواله، وقد وصفه الله تعالى بأوصاف ثلاثة:

وقد وصف الله سبحانه المختال الفخور بأنه بخيل ويأمر غيره بالبخل فقال:

﴿الَّذِينَ يَبْخُلُونَ وَيَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبُخْلِ﴾.

وهكذا وصف الله الإنسان في قوله: ﴿إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنُودٌ﴾ ١ وَإِنَّهُ عَلَىٰ ذَٰلِكَ لَشَهِيدٌ

﴿٧﴾ [العاديات]

وفي قوله: ﴿إِنَّ الْإِنْسَانَ خُلِقَ هَلُوعًا﴾ ١٩ إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعًا ٢٠ وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعًا ٢١

إِلَّا الْمَصْلِينَ ﴿٢٢﴾ [المعارج].

وجاء في الأثر: (وأي داء أدوأ من البخل؟) (١).

في حديث مُطَرِّف بن عبد الله الشَّخِير عن أبي ذر رضي الله عنه أن النبي ﷺ حدثهم أن الله تعالى يحب ثلاثة، ويُبغض ثلاثة. أما الثلاثة الذين يحبهم الله تعالى فهم:

رجل غزا في سبيل الله صابراً محتسباً مجاهداً، فلقى العدو حتى قتل.

ورجل له جار سوء يؤذيه فيصبر على أذاه حتى يكفيه الله إياه؛ إما بحياة وإما بموت.

ورجل سافر مع قوم حتى إذا كانوا في آخر الليل وضرب النوم رؤوسهم، قام فتطهر

(١) أثر صحيح من قول أبي بكر رضي الله عنه، يُنظر: «مسند الإمام أحمد» (٣/٣٠٧) من حديث جابر بن عبد الله.

رهبة لله ورغبة فيما عنده.

أما الثلاثة الذين يُبغضهم الله، فهم: المختال الفخور، والبخيل المنان، والبائع الحلاف^(١). وقد سبق ذكر هذا الحديث في الآية السابقة.

وفي الحديث عن أبي هريرة رضي الله عنه: أن رسول الله ﷺ قال: «بينما رجل يمشي في حلة تُعجبه نفسه، مُرَجَّل جُمْتَه، يختال في مشيته إذ خسف الله به، فهو يتجلجل إلى يوم القيامة»^(٢).

فلا بُدَّ للعبد من التواضع وخفض الجناح لغيره، وهذا لا ينافي ظهور أثر النعمة عليه.

والبخل على أنواع: بخل مادي، وبخل معنوي.

١- بُخُلَ بالمال بعدم الإنفاق منه في الأمور المباحة، وعدم إخراج الزكاة، وعدم التصديق به، وعدم بذله في وجوه الخير.

٢- وبُخِلَ بالعلم، يكون بكتمانه وعدم بذله وإنفاقه، وعدم بذل النصيحة للناس، وعدم الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والخوف من الناس أن يمسّه أذى بسبب دعوتهم إلى الحق، إنه بُخِلَ وكتمان في كل شيء: بخل بالمال، بخل بالطعام.

٣- ومن ذلك بخل بالجاه، بحيث لا يقضي حوائج الناس، ولا يشفع عند من يملك قضاءها، فإن كان يعرف مسؤولاً -أميراً، أو زيراً، أو رئيساً- فإنه يضمن ويشح أن يشفع عند هذا المسؤول لهذا الإنسان الضعيف، ويرفع إليه مظلمته، فيضمن ويشح بجاهه، ولا يوصل شكواه إليه، إنه بُخِلَ وشحَّ بالجاه، وامتلات نفسه أنانية بالمنافع حتى لا تتعدى النفس إلى الآخرين.

٤- ومن الناس من يبخل بالسلام، فلا يُلقِي السلام إلا على من يعرف، وكأن السلام خاص بالمعارف والأقارب، وأبخل الناس من يبخل بالسلام لا سِيَّماً على الجيران، إنه

(١) يُنظَرُ الحديث في «المسند» (٢١٥٣٠) قال محققوه: إسناده صحيح على شرط مسلم ورجاله ثقات رجال الشيخين غير الأسود بن شيان فمن رجال مسلم، وأخرجه البيهقي في «الشعب» (٩٥٤٩) وابن المنذر (١٧٦٨) والحاكم (٨٨/٢) وابن أبي حاتم (٥٣١٣).

(٢) أخرجه الشيخان عن أبي هريرة رضي الله عنه، البخاري (٥٧٨٩) ونحوه (٥٧٩٠) ومسلم (٢٠٨٨) و«المسند» (٩٠٦٥) بإسناد حسن والنسائي في الكبرى (٩٦٧٩).

يخل به على الأقارب والأبعد، كما أنَّ حفاوته وكرمه يكون مقصوراً على من يعرف، وعلى من له عندهم حاجة، أو مجاملة ومكافأة، أو ينافق ويرائي، فالذين لا يعرفهم لا يعرفون شيئاً من كرمه وإحسانه ومعروفه.

الوصف الثاني : كتمان العلم:

ويشير المقطع الثاني من الآية إلى أن البخيل من شأنه أنه يكتُم العلم الذي يهتدي به الضالون، ويسترشد به الجاهلون، فيكتمه عنهم، ويحول بينهم وبين معرفة الحق، فجمع هؤلاء بين البخل بالمال والبخل بالعلم، ومن ذلك كتمان اليهود والنصارى أوصاف محمد ﷺ التي جاءت في التوراة والإنجيل، وهذا معنى ﴿وَيَكْتُمُونَ مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ﴾.

وأكثرُ المفسرين على أن الآية نزلت في اليهود كتموا صفة محمد ﷺ، ولم يبينوها للناس وهم يجدونها مكتوبة عندهم في كتبهم، قال مجاهد: نزلت هذه الآيات الثلاث [٣٧-٣٩] في اليهود.

قلت: والآية عامة ويدخل فيها اليهود دخولاً أولياً.

والظاهر أن المراد البخل في الآية هو البخل بالمال، والبخل بالعلم داخل فيه بطريق أولى؛ ولذا: فقد قيل: إن الآية نزلت في اليهود الذين بخلوا ببيان صفة محمد ﷺ فكتموها.

وكما سبق عن ابن عباس ؓ: أنها نزلت في نفر من اليهود كانوا يأتون إلى رجال من الأنصار يخالطونهم ويقدمون لهم النصيحة، يقول لهم: لا تنفقوا أموالكم في الصدقة والجهاد، أو على محمد وأصحابه فإننا نخشى عليكم الفقر.

والآية تقرر أن البخل صفة ملازمة لليهود وأنهم يأمرؤن غيرهم به.

والآية عامة في كل من ينطبق عليه هذا المعنى، فهو يشمل اليهود وغيرهم، ويشمل البخل بالمال والبخل بالعلم، ومن بُخل اليهود كتمانهم وصف النبي ﷺ في التوراة كما قال تعالى: ﴿وَيَكْتُمُونَ مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ﴾ وكل من أوتي علماً من قرآن أو علم ديني، أو دنيوي، أو ذُكر، ونحو ذلك ويكتمه، تنطبق عليه هذه الآية، وفي مقدمة هؤلاء اليهود والنصارى الذين كتموا نعت محمد ﷺ ووصفه في التوراة والإنجيل، وكأن الله تعالى يقول: هؤلاء هم الكافرون حقاً، فهذا وصف من صفات الكفار، وليس من

أوصاف المؤمنين .

يقول عليه الصلاة والسلام: «خصلتان لا يجتمعان في مؤمن: البخل، وسوء الخلق»^(١)
فالبخل ليس من صفات المؤمن، وسوء الخلق ليس من أوصاف المؤمن كذلك .

ومن دعاء الرسول عليه الصلاة والسلام: «اللهم إني أعوذ بك من البخل، وأعوذ بك من الجبن،
وأعوذ بك أن أرد إلى أذل العمر، وأعوذ بك من فتنة الدنيا، وأعوذ بك من عذاب القبر»^(٢) .

ثم بيّن سبحانه عقوبتهم في الآخرة فقال: ﴿وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ﴾ الذين يجحدون نعمة
الله عليهم ﴿عَذَابًا مُّهِينًا﴾ مُذَلًّا وَمُخْزِيًّا، كما تكبروا على عباد الله ومنعوا حقوقهم،
وتسببوا في بخل غيرهم وعدم اهتدائهم .

فخلاصة هذا الوصف: أنهم يمتنعون عن الإنفاق والعطاء مما رزقهم الله، ويأمرون
غيرهم بالبخل، ويجحدون نعم الله عليهم، ويخفون فضله وعطاءه، ويكتمون العلم
والحق، وأعتدنا للجاحدين عذابًا مخزياً .

الْوَصْفُ الثَّالِثُ لِلْمُخْتَالِ الْفَخُورِ: هُوَ الرِّيَاءُ

٣٨- ﴿وَالَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ رِئَاءَ^(٣) النَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَمَنْ يَكُنِ
الشَّيْطَانُ لَهُ قَرِينًا فَسَاءَ قَرِينًا﴾

أي: إن هذا الإنسان - المختال الفخور - إذا أنفق مالا كانت نفقته رياء ليست لله،
ولا يتبغي بها وجه الله، إنما يريد السمعة والذكر بين الناس، ليقال: إنه قد فعل، وفعل،
فالآية تشير إلى النفقة الصادرة عن رياء وسمعة وعدم إيمان بالله تعالى، لا عن إخلاص
وإيمان ورجاء ثواب، وفيها بيان أنها من خطوات الشيطان وأعماله، والشيطان يدعو حزبه

(١) أخرجه الترمذي من حديث أبي سعيد الخدري وقال: حديث غريب وفي إسناده ضعف .

(٢) من حديث سعد بن أبي وقاص في «المسند» (١٥٨٥، ١٦٢١) بإسناد صحيح على شرط الشيخين
(محققه) وأخرجه البخاري (٦٣٧٠، ٦٣٦٥) والبخاري (١١٤٤) والنسائي في المجتبى (٢٥٦/٨) وابن أبي
شيبه (٣/٣٧٦) وأبو يعلى (٧٧١) وابن حبان (١٠٠٤) .

(٣) قرأ أبو جعفر بإبدال الهمزة ياء من (رئاء) وكذا حمزة وقفًا، وأبدل حمزة وهشام الهمزة الثانية حرف مد
عند الوقف عليها .

ليكونوا من أصحاب السعير.

فقد صح في الحديث عن أبي هريرة رضي الله عنه: أن رسول الله ﷺ قال: «إن أول من تُسَرَّ عليهم النار يوم القيامة: رجل قرأ القرآن رياء؛ ليقال قارئ، ورجل تصدق رياء؛ ليقال متصدق، ورجل قاتل العدو رياء؛ ليقال مجاهد في سبيل الله، فقد قيل هذا في الدنيا، وقد أخذ جزاءه فيها بهذا الثناء عليه، أما يوم القيامة فيؤمر به فيسحب على وجهه، ثم يرمى به في النار»^(١).

والرياء شرك أصغر، والشرك الأصغر أعظم من كبائر الذنوب، وهو محبط للعمل، مبطل له.

فقد صح في الحديث القدسي: «قال الله تعالى: أنا أغنى الشركاء عن الشرك، من عمل عملاً أشرك معي فيه غيري تركته وشركه»^(٢) وصاحبه موكول في تحصيل ثواب عمله ممن أشركه مع الله تعالى، والرياء من النفاق، فالمرائي بعمله مشرك منافق.

الْوَصْفُ الرَّابِعُ لِلْمُخْتَالِ الْفَخُورِ: هُوَ نَفِي كَمَالِ الْإِيمَانِ عَنْهُ

هو نفي كمال الإيمان عنهم بالله تعالى، وبالיום الآخر وما فيه من ثواب وعقاب، إذ لو تحقق فيهم هذا الإيمان، لما بخلوا بما في أيديهم ولما حثوا غيرهم على البخل.

الْوَصْفُ الْخَامِسُ: أَنَّهُ قَرِينٌ لِلشَّيْطَانِ:

فقد أعد الله تعالى العذاب المخزي في الآخرة للذين ينفقون أموالهم رياء وسمعة، ولا يصدقون بالله ولا باليوم الآخر، وهذا من عمل الشيطان الملازم لهم، وبئس القرين هو، وهذا وصف للمنافق المرائي بعمله، ووصف للكافر، غير المؤمن بالله واليوم الآخر، فقد زَيَّنَ لهم الشيطان أعمالهم، فهو قرينهم، وهو الذي يخوفهم من الفقر ومن المستقبل، وهو الذي يُغري الإنسان ويدفعه إلى الشر ﴿الشَّيْطَانُ يَعِدُكُمُ الْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُم بِالْفَحْشَاءِ وَاللَّهُ

(١) يُنْظَرُ الحديث بنصه في «صحيح مسلم» (٤٧/٦) برقم (١٩٠٥) و«تحفة الأحوذى»: كتاب الزهد برقم (٢٣٨٢)، و«مسند أحمد» (٣٢١/٢) برقم (٨٢٧٧)، بإسناد صحيح على شرط مسلم ورجال ثقات رجال الشيخين، غير يونس بن يوسف، فمن رجال مسلم، (محققوه) وهو عند البخاري في خلق أفعال العباد (٣٣٥) وابن خزيمة (٢٤٨٢) وابن حبان (٤٠٨) والبيهقي (٤١٤٣).

(٢) أخرجه مسلم عن أبي هريرة برقم (٢٩٨٥).

يَعِدُّكُمْ مَغْفِرَةً مِنْهُ وَفَضْلًا وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٣٩﴾ [البقرة: ٢٦٨].

﴿وَمَنْ يَكُنِ الشَّيْطَانُ لَهُ قَرِينًا فَسَاءَ قَرِينًا﴾ أي: ومن يكن الشيطان صاحبه و خليله، فبئس الصاحب وبئس الخليل الشيطان، وصحبة الشيطان: وسوسته، وتزيينه العمل السيئ فيراه العبد صالحًا. قال تعالى:

٣٩- ﴿وَمَاذَا عَلَيْهِمْ لَوْ ءَامَنُوا بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَأَنْفَقُوا مِمَّا رَزَقَهُمُ اللَّهُ وَكَانَ اللَّهُ بِهِمْ عَلِيمًا﴾

والله سبحانه يعقّب على موقف البخلاء المرائين ويوبّخهم فيقول: ﴿وَمَاذَا عَلَيْهِمْ﴾ أي شيء يضرهم؟ وأي شيء يؤذيهم، وأي مشقة تلحقهم لو أنهم آمنوا في دنياهم إيمانًا صادقًا بالله واليوم الآخر؟ وماذا عليهم أيضًا لو أنفقوا مما رزقهم الله، فجمعوا بين الإخلاص والإنفاق؟ فالله هو المعطي المانع، فأى ضرر يلحقهم؟ وأي خسارة يخسرونها لو صدقوا بالله، وأنفقوا أموالهم باحتساب وإخلاص؟ إنه لا ضرر يلحقهم مطلقًا، بل الخير كل الخير في فعلهم ما أمر الله به، وتركهم ما نهى عنه، والشر كل الشر في اتباع خطوات الشيطان، والله عليم بهم ويعملهم وسيحاسبهم عليه، والإخلاص سر بين العبد وربّه لا يطلع عليه إلا هو.

عَدْلُ اللَّهِ تَعَالَى وَفَضْلُهُ

٤٠- ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ وَإِنْ تَكَ حَسَنَةً^(١) يُضَاعِفْهَا^(٢) وَيُؤْتِ مِنْ لَدُنْهُ^(٣) أَجْرًا عَظِيمًا﴾

في هذه الآية بيان كمال عدل الله تعالى وفضله، وتزييه عن الظلم قليله وكثيره، والله سبحانه سوف يجازي يوم القيامة كل إنسان على ما قدمت يداه، إن خيرًا فخير، وإن شرًا فشر، وهو سبحانه عدل حكم، لا يظلم أحدًا مثقال ذرة، ولا ينقص أحدًا من أجله أو عمل له وزن ذرة، ولا يزيد أحدًا شيئًا فوق سيئاته، إن كان قد فعل، بل إن الله سبحانه يضاعف الحسنات إلى أضعاف مضاعفة.

(١) قرأ نافع وابن كثير وأبو جعفر (وإن تك حسنة) بالرفع على أن كان تامة، وقرأ الباقون (حسنة) بالنصب، خبر كان الناقصة، واسمها ضمير يعود على (مثقال ذرة).

(٢) قرأ ابن كثير وابن عامر وأبو جعفر ويعقوب (يُضَاعَفْهَا) بحذف الألف مع التشديد، مضارع ضَعَفَ، وقرأ الباقون (يُضَاعِفْهَا) بإثبات الألف مع التخفيف، مضارع ضَاعَفَ.

(٣) قرأ ابن كثير بصلة الهاء من (لَدُنْهُ) بحرف مد والباقون بالقصر.

- ١- قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ النَّاسَ شَيْئًا وَلَكِنَّ النَّاسَ أَنْفُسُهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ [يونس].
- ٢- وقال سبحانه: ﴿وَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَٰئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ نَقِيرًا﴾ [النساء].
- أي: لا يظلم في قليل ولا كثير، ولو بلغ هذا القليل قدر الهباءة، أو النقرة التي في ظهر النواة، وما هو أدنى من ذلك بما لا يرى إلا بالمجهر.
- ٣- وقال تعالى: ﴿وَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا يَخَافُ ظُلْمًا وَلَا هَضْمًا﴾ [طه].
- ٤- وقال جل شأنه: ﴿وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَمَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَإِنْ كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَىٰ بِنَا حَاسِبِينَ﴾ [الأنبياء].
- ٥- وقال عز وجل: ﴿فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ﴾ [٧] وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ [٨] [الزلزلة].
- ٦- وقال سبحانه: ﴿وَوَضَعَ الْكِتَابَ فَفَرَى الْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يُوَلِّئُنَا مَا لَ هَذَا الْكِتَابِ لَا يَغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا﴾ [٤٩] [الكهف].
- ٧- وقال أيضاً: ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّاهُ حَيَوَةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [٩٧] [النحل].
- ٨- وقال سبحانه: ﴿يَبْقَىٰ إِلَٰهًا إِنَّكَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ فَتَكُنْ فِي صَخْرَةٍ أَوْ فِي السَّمَاوَاتِ أَوْ فِي الْأَرْضِ يَأْتِ بِهَا اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ﴾ [١١] [لقمان].
- جاء في حديث أنس رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «إن الله لا يظلم مؤمناً حسنة، يُعطى بها في الدنيا، ويُجزى بها في الآخرة، وأما الكافر فيُطعم بحسنات ما عمل بها لله في الدنيا، حتى إذا أفضى إلى الآخرة لم تكن له حسنة يُجزى بها»^(١).

وعن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «يخرج من النار من كان في قلبه مثقال ذرة

(١) «صحيح مسلم» (٥٦/٢٨٠٨) و«المسند» (١٢٢٣٧) وإسناده صحيح على شرط الشيخين، والطيايلى

(٢١٢٣) والبخاري في خلق أفعال العباد (٤٣٢)

من الإيمان»، قال أبو سعيد، فمن شك فليقرأ ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ﴾^(١).

قال قتادة: لأن تفضل حسناتي على سيئاتي بمِثقال ذرة، أحب إليّ من الدنيا وما فيها. والمؤمن تضاعف له الحسنات في الآخرة، والكافر يُجزى بحسناته في الدنيا وليس له شيء في الآخرة^(٢).

وأقل ما تضاعف به الحسنة عشر أمثالها، وربما بلغت سبع مئة ضعف إلى ما شاء الله كما قال تعالى: ﴿مَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَتَتْتَ سَبْعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنبُلَةٍ مِائَةُ حَبَّةٍ وَاللَّهُ يُضَاعِفُ لِمَن يَشَاءُ﴾ [الأنعام: ١٦٠].

وقال: ﴿مَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ﴾ [البقرة: ٢٦١].

وجاء في حديث البطاقة أن سجلات السيئات بالنسبة للمؤمن تطيش يوم القيامة أمام كلمة التوحيد، فلا يثقل معها شيء.

وفي الصحيحين من حديث الشفاعة الطويل لأبي سعيد الخدري: «... ارجعوا فمن وجدتم في قلبه مِثقال ذرة من خير فأخرجوه منها ...» أي: من النار.

وفي لفظ: «... فمن وجدتم في قلبه مِثقال حبة خردل من إيمان فأدخلوه الجنة»^(٣).

ويدخل في معنى الآية أن الله تعالى لا يظلم مِثقال ذرة للخصم على خصمه في الآخرة، بل يأخذ له حقه كاملاً، ولا يظلم مِثقال ذرة من الأجر، بل يشبه الله عليها ويضاعفها له يوم القيامة.

جاء في الأثر: أنه إذا كان يوم القيامة «... ينادي منادٍ على رؤوس الأولين والآخرين، هذا فلان بن فلان، من كان له حق على فلان فليأت إلى حقه، ثم يقال له: آت هؤلاء

(١) صححه الألباني في «صحيح سنن ابن ماجه» (٥١) وهو في سنن ابن ماجه (٦٠) من حديث طويل، وانظر نحوه من حديث متفق عليه في حديث الشفاعة الآتي، وعبد الرزاق (٢٠٨٥٧) وابن أبي حاتم (٥٣٣١) والطبري (٣٠/٧).

(٢) جاء هذا المعنى في «صحيح مسلم» عن أنس بن مالك، ينظر حديث أنس السابق.

(٣) يُنظر: «البخاري» كتاب التوحيد (١٥٩/٩) برقم (٢٢، ٧٤٣٩) و«صحيح مسلم» برقم (١٨٣)، وينظر حديث أبي سعيد السابق.

حقوقهم، فيقول: أي رب، من أين؟ وقد ذهبَت الدنيا، فيقول الله تبارك وتعالى للملائكة: انظروا في أعماله الصالحات، فأعطوهم منها، فإن لقي مثقال ذرة من حسنة، قالت الملائكة: يا ربنا - وهو أعلم بذلك - أعطينا كل ذي حق حقه، وبقي له مثقال ذرة من حسنة، فيقول للملائكة: ضَعُفوها لعبدي وأدخلوه بفضل رحمتي الجنة»^(١).

ومع أن الكافر مخلد في النار في الآخرة؛ لأنه يُجزى بحسناته في الدنيا، فإذا كان يوم القيامة لم يكن له حسنة، إلا أن الأحاديث الصحيحة تشير إلى أن أبا طالب في النار وأنه يخفف عنه من عذابها شيئاً ما؛ لأنه حمى الدعوة، ومنع الرسول ﷺ من أذى المشركين وقام بكفالاته وهو صغير، بعد أن مات جده عبد المطلب.

فقد ثبت أن العباس ؓ قال: يا رسول الله، إن أبا طالب كان يحوطك وينصرك، فهل نفعتَه بشيء؟ قال: «نعم، هو في ضحضاح من نار، ولولا أنا، لكان في الدرك الأسفل من النار»^(٢).

كما ورد أن أبا لهب يخفف عنه شيئاً من العذاب ليلة الإثنين؛ لأنه أعتق جاريته ثوية حين بشرته بولادة النبي ﷺ.

فمعنى الآية: إن الله تعالى لا يَنْقُصُ أحداً من جزاء عمله مقدار ذرة، وإن تكن له زنة الذرة حسنة، فإن الله سبحانه يزيدها وَيَكْثُرُها لصاحبها، ويتفضل عليه بالمزيد، فيعطيه مِنْ عِندِهِ ثواباً كبيراً وهو الجنة، كما يخفَّفُ عن حاتم الطائي لكرمه، فالمشرك العاصي أشدَّ عذاباً من المشرك المحسن، والمحسن والمسيء لا يستويان عند الله.

حَالُ الْخَلْقِ يَوْمَ الْحَشْرِ وَالنَّشْرِ

٤١- ﴿فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَى هَؤُلَاءِ شَهِيدًا﴾

أي: فإذا أيقنت بأن الله تعالى لا يظلم مثقال ذرة، فكيف حال الناس إذا جاء الشهداء يوم القيامة، وظهر موجب الشهادة، وكانوا بين مستبشر ومتحسر، لا شك أن حال الكفار

(١) موقوف على عبد الله بن مسعود بسند صحيح إلا هارون بن عنترة، وقد وثقه أحمد وابن معين كما في «تهذيب التهذيب»، وفيه أيضاً أبو عمر والكندي (زاذان) وهو صدوق، فرجاله ثقات، وقد أخرجه ابن أبي حاتم وغيره بأطول من هذا برقم (٥٣٣٥) وابن جرير (٣٢/٧).

(٢) «صحيح البخاري» (٦٥/٥) برقم (٣٨٨٣، ٦٢٠٨) و«صحيح مسلم» برقم (٢٠٩).

سيكون أسوأ وأقبح؛ بسبب كفرهم، وبخلهم، وريائهم، واتباعهم طرق الشيطان، وهذا موقف من مواقف يوم القيامة، يجسّد حال الناس في ساحة العرض، ويختم به الأوامر والنواهي: فكيف يكون حال الخلق يوم الحشر والنشر؟! وكيف يكون حال الكفار والفجار حين تأتي كل أمة برسولها؛ ليشهد عليها بما عملت، وجيء بك - أيها الرسول - لتكون شهيداً على أمتك أنك بلغتهم، وشهيداً على الرسل أنهم بلغوا أممهم رسالات ربهم؟! فالنبي ﷺ يأتي يوم القيامة شهيداً على الرسل أنهم قد بلغوا أممهم ما أوحاه الله تعالى إليهم.

إنه يوم مشهود، الحكم فيه رب العالمين، والشاهد فيه أكرم الخلق على الله، والمحكوم عليهم مُقرّين لربهم بالعدل والفضل والحكمة والحمد والثناء.

وكل رسول يأتي يوم القيامة شهيداً على أمته أنه قد بلغها رسالة ربه، فيؤتى بنبي كل أمة يشهد عليها ولها؛ لمطابقة الأقوال بالأفعال، وأنهم قد قاموا بها وأدّوها كما أمرهم نبيهم ولمطابقة العقائد والعبادات والأخلاق كما جاء بها إليهم هذا الرسول، كما قال تعالى: ﴿وَأَشْرَقَتِ الْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا وَوُضِعَ الْكِتَابُ وَجَاءَ بِالنَّبِيِّينَ وَالشُّهَدَاءُ﴾ [الزمر: ٦٩].

ولكل أمة من الأمم رسول ليس في المنطقة العربية من العالم فحسب، وإنما في العالم كله، ما علمنا منهم وما لم نعلم، قال تعالى: ﴿وَإِنْ مِنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ﴾ [فاطر: ٢٤].

وقال سبحانه: ﴿وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ﴾ [الرعد: ٧].

وقال جل شأنه: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانٍ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ﴾ [إبراهيم: ٤].

وقال عز وجل: ﴿يَوْمَ نَدْعُوا كُلَّ أُنَاسٍ بِإِسْمِهِمْ﴾ [الإسراء: ٧١].

وقال أيضاً: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنْ أَعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾ [النحل: ٣٦].

كل أمة يؤتى برسولها وكتابها ويشهد هذا الرسول على قومه وأمته في أرض المحشر، ويؤتى بمحمد عليه الصلاة والسلام؛ ليشهد على الأمم كلها وعلى الرسل جميعاً، وعلى من عصى وكفر من أمتهم ﴿يَوْمَ نَبْعَثُ فِي كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا عَلَيْهِمْ مِنْ أَنْفُسِهِمْ وَجِئْنَا بِكَ شَهِيدًا عَلَى هَؤُلَاءِ﴾ [النحل: ٨٩]، وهناك يسعد أقوام بالفوز والفلاح والعز والنجاح، ويشقى أقوام بالخزي والفضيحة والعذاب المهين.

كان عبد الله بن مسعود ؓ حسن الصوت قد أوتي زمزماً من مزامير آل داود، وذات

يوم طلب منه النبي ﷺ أن يقرأ عليه شيئاً من القرآن، فقال: يا رسول الله، أقرأ عليك وعليك أنزل؟ قال: «نعم، أحب أن أسمع من غيري»، فقرأ عبد الله بن مسعود سورة النساء حتى وصل إلى هذه الآية ﴿فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَى هَؤُلَاءِ شَهِيدًا﴾ (٤١) نظر ابن مسعود إلى النبي ﷺ على إثر رجل بجواره ركَّله برجله، قال ابن مسعود: فالتفت فوجدت عيني رسول الله ﷺ تذرْفان الدموع، وعندئذ قال عليه الصلاة والسلام: «حسبك»^(١) يكفيننا ما قرأت.

ويؤخذ من هذا أن القارئ إذا قرأ القرآن الكريم لا يلزم أن يقول: صدق الله العظيم، بصفة دائمة حتى لا يتصور الناشئة أنها من ضمن التلاوة، أو أنها من جملة القرآن، وإن أتى بها أحياناً فلا بأس، لا سيما إن أعقب القرآن شيء من اللهو والغناء، للفصل بين القرآن وبين غيره، والله سبحانه صادق في كل وقت، قال تعالى: ﴿وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ حَدِيثًا﴾ [النساء: ٨٧]. وقال سبحانه: ﴿وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ قِيلًا﴾ [النساء: ١٢٢].

وقال عز وجل: ﴿قُلْ صَدَقَ اللَّهُ﴾ [آل عمران: ٩٥]. قال تعالى:

٤٢ - ﴿يَوْمَ يَوْمُذُيُودُ الَّذِينَ كَفَرُوا وَعَصَوُا الرَّسُولَ لَوْ تُسَوَّىٰ بِهِمُ^(٢) الْأَرْضُ وَلَا يَكْتُمُونَ اللَّهَ حَدِيثًا﴾

وفي يوم العرض والحشر والنشر: يود الذين كفروا بالله وعصوا رسولهم ﴿لَوْ تُسَوَّىٰ بِهِمُ الْأَرْضُ﴾ أي لو أنهم لم يبعثوا، ولو أن الأرض قد طوَّتهم، ولو أنهم كانوا تراباً كالبهائم بعد أن يقتص منها ولها، ويقال لها: كوني تراباً ﴿يَوْمَ يَنْظُرُ الْمَرْءُ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ وَيَقُولُ الْكَافِرُ

(١) يُنْظَرُ الحديث بنصه في «صحيح البخاري»، فضائل القرآن (٢٤١/٦، ٤٥٨٢، ٥٠٥٠، ٥٠٥٥) و«صحيح مسلم»، باب فضل استماع القرآن (١٩٥/٢) برقم (٨٠٠) و«المسند» (٣٥٥١) مختصراً، و (٣٦٠٦) وإسناده صحيح على شرط الشيخين، وأخرجه ابن أبي شيبه (٥٦٣/١٠) والترمذي (٣١٢٤) والنسائي في «الكبرى» (٨٠٧٩، ٨٠٧٥).

(٢) قرأ حمزة والكسائي وخلف العاشر (تَسَوَّى) بفتح التاء وتخفيف السين، على حذف إحدى التاءين وقرأ نافع وابن عامر وأبو جعفر (تَسَوَّى) بفتح التاء وتشديد السين على إدغام التاء في السين، وقرأ الباقون (تَسَوَّى) بضم التاء وفتح السين مخففة على البناء للمفعول

(٣) قرأ أبو عمرو ويعقوب بكسر الهاء والميم وصلأ من (بهم الأرض)، وقرأ حمزة والكسائي وخلف العاشر بضمهما وصلأ، وقرأ الباقون بكسر الهاء وضم الميم وصلأ، وعند الوقف على (بهم) يكون بكسر الهاء وسكون الميم عند جميع القراء.

يَلْتَنِي كُتُّ رَبِّكَ [النبا: ٤٠]. فالكافر يتمنى مصير البهائم يوم القيامة، وأنه لو كان تراباً مثلهم، إنه بشئ الموقف.

والكافر يومئذ في حضرة الخالق الذي كفر به، وفي حضرة الرسول الذي كفر به، وفي حضرة اليوم الآخر الذي أنكره، وهو في هذا الموقف يتمنى أن تسوى به الأرض، ولا يكتم الله شيئاً لما يرى من أهوال الساعة، بل يقر بكل ما عمل وتشهد عليه أعضائه وجوارحه، ﴿يَوْمَئِذٍ يُؤْفِكُهُمُ اللَّهُ دِينَهُمُ الْحَقَّ وَيَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ الْمُبِينُ﴾ [النور: ٢٥]

الكفار يكتمون كفرهم وجحودهم: وذلك أن الكفار يوم القيامة ينظرون في أرض المحشر، فيرون أن الله ﷻ لا يُدْخِلُ الجنة إلا الموحد المسلم، وأنه يغفر جميع الذنوب إلا من مات على الشرك، فيقولون في أنفسهم: تعالوا نجحد أننا كنا مشركين في الدنيا، فيحلفون بالله قائلين: ﴿وَاللَّهُ رَبَّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾ [الأنعام: ٢٣].

وهذا كقوله تعالى عنهم: ﴿مَا كُنَّا نَعْمَلُ مِنْ سُوءٍ﴾ [النحل: ٢٨].

وقوله: ﴿بَلْ لَمْ نَكُنْ نَدْعُوا مِنْ قَبْلُ شَيْئًا﴾ [غافر: ٧٤].

يقولون ذلك حين يُسألون: ﴿أَيْنَ شُرَكَائُكُمْ الَّذِينَ كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ﴾ [الأنعام: ٢٢]. أنهم شركاء لله في العبادة في الدنيا، أين ألهمتكم وشفعاءكم الذين كنتم تعتقدون فيهم النفع والضرر، وتندرون لهم، وتستغيثون بهم في الأمور التي لا يقدر عليها إلا الله، وتلجؤون إليهم عند الحاجة؟ أين هم اليوم؟! قال تعالى: ﴿ثُمَّ لَمْ تَكُنْ فِتْنَتُهُمْ إِلَّا أَنْ قَالُوا وَاللَّهُ رَبَّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾ [الأنعام: ٢٣]. يجحدون أنهم أشركوا بالله تعالى في الدنيا.

وحين يقولون ذلك، يختم الله سبحانه على أفواههم، فلا ينطق اللسان ولا يتكلم ﴿الْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَى أَفْوَاهِهِمْ﴾ وتنطق الجوارح ﴿وَتُكَلِّمُنَا أَيْدِيَهُمْ وَنَشْهَدُ أَرْجُلُهُمْ﴾ [يس: ٦٥]. فيقولون: بلى كنا مشركين^(١)؛ إذ ليس بإمكانهم أن يكذبوا، فإن الفم يُختم عليه، وتنطق الجوارح، وهم يومئذ يعترفون بهذا الذي كتموه في أنفسهم من الإشراك بالله تعالى في الدنيا؛ حيث لا يستطيعون إنكاره يوم القيامة، ولا يبقى للكتمان نفع ولا فائدة، وعندئذ

(١) يُنظر هذا المعنى في «تفسير الطبري» (٣٧٣/٨) وعبد الرزاق (١٦٠/١) وابن أبي حاتم (٥٣٤٨) وفي الطبراني الكبير (١٠٥٩٤) والحاكم (٣٠٦/٢) والبيهقي في الأسماء والصفات (٨٠٩).

يتمنى الكفار بالله جل وعلا، المخالفين للرسول ﷺ لو يجعلهم الله تعالى هم والأرض سواء، فيصرون تراباً؛ حتى لا يُعَذَّبوا، أو تُوَارِي الأرض أجسادهم فترتفع إلى مستواهم ويتساوون بهم، حيث ختم الله على أفواههم وشهدت عليهم جوارحهم بأعمالهم.

أخرج ابن جرير عن الضحاك عن نافع بن الأزرق - وكان ممن يسألون عن مثابه القرآن - أتى نافع إلى ابن عباس، فقال: يابن عباس: قول الله تعالى: ﴿وَلَا يَكْفُرُونَ اللَّهَ حَدِيثًا﴾ وقوله: ﴿وَاللَّهُ رَيْنًا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾ كيف الجمع بينهما؟ فقال ابن عباس: إني أحسبك قمت من عند أصحابك، فقلت: أُلقي على ابن عباس مثابه القرآن، فإذا رجعت إليهم، فأخبرهم أن الله تعالى يجمع الناس يوم القيامة في بقيع واحد، فيقول المشركون: إن الله لا يقبل من أحد شيئاً إلا ممن وحده، فيقولون: تعالوا نجحد، فيسألهم، فيقولون: ﴿وَاللَّهُ رَيْنًا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾ قال: فيختم على أفواههم، وتستنطق جوارحهم، فتشهد عليهم جوارحهم أنهم كانوا مشركين، فعند ذلك تمنوا لو أن الأرض سُويت بهم ولا يكتمون الله حديثاً.

وفي رواية عن سعيد بن جبير: أنهم لما رأوا أنه لا يدخل الجنة إلا أهل الإسلام، قالوا: تعالوا فلنجحد فقالوا: ﴿وَاللَّهُ رَيْنًا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾ فختم الله على أفواههم، وتكلمت أيديهم وأرجلهم^(١).

ثَلَاثَةُ أَحْكَامٍ شَرْعِيَّةٍ فِي هَذِهِ الْآيَةِ

٤٣ - ﴿يَتَأَيَّأُ الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَقْرَبُوا الصَّلَاةَ وَأَنْتُمْ سُكَرَى حَتَّى تَعْلَمُوا مَا تَقُولُونَ وَلَا جُنُبًا إِلَّا عَابِرِي سَبِيلٍ حَتَّى تَغْتَسِلُوا﴾

اشتملت هذه الآية على ثلاثة أحكام، وهي الأحكام ٢٢، ٢٣، ٢٤ في السورة ومضمونها:

- ١- عدم صحة صلاة فاقد الوعي والجنب.
- ٢- الاغتسال من الجنابة والحيض والنفاس.
- ٣- التيمم عند فقد الماء أو تعذر استعماله للمريض والمسافر، وفي الحدث الأصغر والأكبر.

(١) «تفسير الطبري» (٩٤/٥).

الْحُكْمُ الثَّانِي وَالْعَشْرُونَ: عَدَمُ صِحَّةِ الصَّلَاةِ مِنْ فَاقِدِ الْوَعْيِ

مراحل تحريم الخمر:

وقد كانت الخمر في الجاهلية وفي صدر الإسلام يشربها الناس بلا أدنى حرج، في مجتمعاتهم، وفي مجالسهم، وعلى مواعدهم، قبل التحريم القاطع للخمر.

صنع عبد الرحمن بن عوف طعاماً لبعض أصدقائه، وعلى المأدبة خمر كالعادة، فشربوا ثم أذن وأقيم للصلاة، فتقدم أحدهم وصلى بهم المغرب، فقرأ: قل يا أيها الكافرون اعبدوا ما تعبدون ونحن نعبد ما تعبدون، فأنزل الله سبحانه ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَقْرَبُوا الصَّلَاةَ﴾ أي لا تقربوا مواضع الصلاة، لأن السكران يُمنع من دخولها، ولا تقربوا الصلاة نفسها، لأن السكران لا تجوز عبادته لاختلاط عقله، وعدم علمه بما يقول ﴿وَأَنْتُمْ سُكَرَىٰ حَتَّىٰ تَعْلَمُوا مَا تَقُولُونَ﴾^(١) وهو خطاب للثمل الذي به نشوة، أي: في أول سكره، يفهم التكليف والكلام، وليس المراد: السكران الذي لا يفهم ولا يدري ما يقال.

وهذه هي المرحلة الثالثة من مراحل تحريم الخمر، حيث كانت المرحلة الثانية بآية سورة البقرة (٢١٩) في أول الهجرة، فقال فريق من المسلمين: نحن نشربها لمنافعها لا لإثمها، وهم يعلمون أن الإثم هو الحرج والمضرة والمفسدة، وما يشمل الإثم مناسب للتحريم، فكانت المرحلة الثالثة بآية سورة النساء هذه، إيداناً بأن الخمر يوشك أن تكون حراماً؛ فنزلت هذه الآية بعد ثلاث سنين، ثم نزلت بعدها الآية القاطعة المحرمة للخمر تحريماً نهائياً وهي قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْأَصْنَابُ وَالْأَزْلَمُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ﴾ [المائدة: ٩٠].

١- قال سعد: نزلت في أربع آيات: صنع رجل من الأنصار طعاماً، فدعا أناساً من المهاجرين وأناساً من الأنصار، فأكلنا وشربنا حتى سكرنا، ثم افتخرنا، فرفع رجل لحي

(١) جاء هذا المعنى من عدة طرق كما في الترمذي، تفسير سورة النساء (٢٣٠/٨) وفيه اختلاف في السند والمتن في رواياته، يُنظر: «تحفة الأحوذى» (٩٨/٤) طبعة هندية، وهو في «سنن الترمذي» برقم (٣٠٢٦) وقال: هذا حديث حسن غريب صحيح، وأبي داود برقم (٣٦٧١) و«تفسير الطبري» (٣٧٦/٨) وفي «سنن النسائي الكبرى» برقم (١٠١٧٥) وصححه الألباني في «صحيح سنن الترمذي» (٢٢٢٩) وصحيح سنن أبي داود (٣١١٨) وصححه محقق «المختارة» برقم (٥٦٦).

بعير ففزر به أنف سعد، أي: جرحه وشقه، فكان سعد مفزور الأنف، وذلك قبل تحريم الخمر، فنزلت الآية^(١).

٢- قال علي بن أبي طالب عليه السلام: صنع لنا عبد الرحمن بن عوف رضي الله عنه طعاماً، فدعانا وسقانا من الخمر، فأخذت الخمر منا، وحضرت الصلاة فقدموني فقرأت: ﴿قُلْ يَتَّخِذُ الْكَافِرُونَ ① لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ ②﴾ ونحن نعبد ما تعبدون، فأنزل الله هذه الآية^(٢).

٣- وعن عكرمة أن علياً صنع لهم طعاماً فأكلوا وشربوا، ثم صلى بهم المغرب فقرأ في آخر سورة الكافرون: ليس لي دين وليس لكم دين، فنزلت الآية^(٣).

أما آيات مراحل تحريم الخمر فهي على التوالي:

- ١ - ﴿وَمِنْ ثَمَرَاتِ النَّخِيلِ وَالْأَعْنَابِ نَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَرًا وَرِزْقًا حَسَنًا﴾ [النحل: ٦٧].
- ٢ - ﴿يَتَّخِذُونَكَ عَنْ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنْفَعٌ لِلنَّاسِ وَإِنَّهُمَا أَكْبَرُ مِنْ نَفْعِهِمَا﴾ [البقرة: ٢١٩].

- ٣ - ﴿يَتَّخِذُهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَقْرَبُوا الصَّلَاةَ وَأَنْتُمْ سُكَارَى حَتَّى تَعْلَمُوا مَا تَقُولُونَ﴾ [النساء: ٤٣]
- ٤ - ﴿يَتَّخِذُهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنْصَابُ وَالْأَزْلَامُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ﴾ [المائدة: ٩٠].

فالآية التي معنا نزلت فيمن يشربون الخمر ويحضرون الصلاة لا يدرون كم يصلون، ولا ما يقولون في صلاتهم، والخمر أم الخبائث، حرمتها جميع الديانات، ومع أن العرب كانوا يدمنون الخمر، إلا أنه سرعان ما استجاب المسلمون لداعي الله، بمجرد أن سمعوا منادي رسول الله ينادي في أزقة المدينة: ألا إن الخمر قد حرمت؛ فسكبوها من فورهم حتى امتلأت بها شوارع المدينة، إن الإيمان يصنع في نفوس أبنائه ما لا يمكن للنظم والقوانين أن تصنعه، مهما كان الإغواء والإغراء، ومهما كانت العقوبات الصارمة،

(١) «صحيح مسلم» برقم (١٧٤٨) كتاب فضائل الصحابة (١٢٦/٧) قبل الحديث رقم (٢٤١٣) من ط. بيت الأفكار و«مسند أحمد» (١٨١/١) وما بعدها، برقم (١٦١٤، ١٥٦٧) بإسناد حسن مطوّلًا، وأخرجه البزار (١١٤٩) وابن حبان (٦٩٩٢)، و«سنن الترمذي» برقم (٣٠٧٩) و«سنن النسائي الكبرى» مختصرًا برقم (١١١٩٦).

(٢) صححه الألباني في «صحيح سنن أبي داود» (٣١١٨) وصحيح سنن الترمذي (٢٢٢٩) وهو في الترمذي (٣٠٢٦) وابن أبي حاتم (٥٣٥٢) وابن المنذر (١٧٩٨). وقد سبق ذكره قريباً.

(٣) أخرجه ابن المنذر (١٨٠٠).

وليس أدل على ذلك من محاولة أمريكا حيث سنت قانوناً سنة ١٩١٩م لمنع الخمر، سُمي قانون الجفاف، وأنفقت في الدعاية ضدها ستين مليوناً من الدولارات، ومئتين وخمسين مليوناً من الجنيهات، واستمر هذا القانون أربعة عشر عاماً دون جدوى، فاضطرت إلى إلغائه سنة ١٩٣٣م بعد أن باء بالفشل الذريع، والإسلام منع الخمر منعاً باتاً بكلمة، ولم يتكلف قرشاً واحداً.

ومعنى: ﴿لَا تَقْرَبُوا الصَّلَاةَ وَأَنْتُمْ سُكَرَىٰ حَتَّىٰ تَعْلَمُوا مَا تَقُولُونَ﴾ أي: لا تقربوا أماكن الصلاة، ولا تقربوا الصلاة ذاتها ولا تتلبسوا بها، ولا تقربوا المساجد، وأنتم سكارى، حيث يشدد تحريم الخمر وقت حضور الصلاة، لأنها تسكر القلب، وتصدّ عن ذكر الله وعن الصلاة، وفي معنى ذلك النعاس الذي لا يشعر صاحبه بما يقول ويفعل، على تفصيل في ذلك بين الفقهاء.

الْحُكْمُ الثَّالِثُ وَالْعِشْرُونَ: عَدَمُ صِحَّةِ الصَّلَاةِ مِنَ الْجُنْبِ وَالْحَائِضِ وَالنَّفْسَاءِ

قال تعالى: ﴿وَلَا جُنْبًا إِلَّا غَيْرِي سَبِيلٍ حَتَّىٰ تَغْتَسِلُوا﴾ أي ولا تقربوا الصلاة وأنتم سكارى، ولا تقربوها وأنتم جنب، الكل داخل في المعنى، أي: لا يحل لكم أن تؤدوا الصلاة على هيئتها المخصوصة بقيامها وركوعها وسجودها والقراءة فيها، وأنتم في حالة السكر حتى تعقلوا ما تقرؤون فيها، وتؤدوها بخشوع وخضوع.

ولما نزلت هذه الآية صاروا لا يشربون الخمر في أوقات الصلاة، فإذا صلوا العشاء شربوها، فلا يصبحون إلا وقد ذهب عنهم السكر وعلموا ما يقولون^(١)، ثم استثنى الله تعالى من هذا المنع، مَنْ اجتاز المسجد، أو مكان الصلاة، وعَبَرَهُ ولم يمكث فيه.

والجنابة: هي البعد، وسمي جنباً؛ لأنه يتجنب الصلاة والمسجد ﴿وَلَا جُنْبًا إِلَّا غَيْرِي سَبِيلٍ حَتَّىٰ تَغْتَسِلُوا﴾ وقد كانت بيوت بعض الصحابة مفتوحة في المسجد، وكانت تصيبهم جنابة ولا ماء عندهم، فيريدون الماء ولا يجدون ممرًا، إلا المسجد فأنزل الله الآية^(٢) والعابر من العبور وهو قطع الطريق من جانب لآخر، أي: إلا مجتازين للخروج منه، أو

(١) «تفسير الألوسي» (٣٩/٥).

(٢) أخرجه ابن جرير بسند مرسل.

الدخول فيه للمرور من غير مُكْتَفٍ فيه .

أو يكون المعنى: إلا أن تكونوا مسافرين، ولم تجدوا ماء فتييموا، فعابر السبيل هو المسافر أو مجتاز الطريق وهو الأصح .

عن عائشة رضي الله عنها أن رسول الله ﷺ قال: «إني لا أحلُّ المسجد لحائضٍ ولا جُنُبٍ»^(١) .

وأمر عليه الصلاة والسلام كل من كان باب بيته مفتوحاً في المسجد أن يغلقه من هذه الجهة، وأن يفتحه من جهة أخرى .

وثبت أن رسول الله ﷺ قال فيما يرويه ابن عباس رضي الله عنهما: «سُدُّوا عني كل خَوْخَةٍ في المسجد غير خَوْخَةِ أَبِي بَكْرٍ»^(٢) .

كان هذا في آخر حياة النبي ﷺ إشارة منه لأُمته أن أبا بكر رضي الله عنه سيلي الأمر بعده، ويحتاج إلى الدخول في المسجد كثيراً لما فيه مصلحة المسلمين .

وجمهور الفقهاء - أبو حنيفة ومالك والشافعي - أنه يحرم على الجُنُبِ المكث في المسجد حتى يغتسل أو يتيمم .

وذهب أحمد إلى عدم جواز المكث في المسجد للجنب حتى يتوضأ دون أن يغتسل^(٣) .

واستدل بما ورد عن عطاء بن يسار قال: رأيت رجلاً من أصحاب رسول الله ﷺ يجلسون في المسجد وهم مجنبون إذا توضؤوا وضوء الصلاة^(٤) .

ويحرم على الجنب أيضاً الطواف وقراءة القرآن كما تحرم عليه الصلاة .

(١) أبو داود، كتاب الطهارة برقم (٢٣٢: ٢١٢/١) وابن ماجه برقم (٦٤٥) من حديث أم سلمة، وسنده ضعيف وفيه أبو الخطاب مجهول، قال البوصيري في الزوائد (١/٢٣٠): هذا إسناد ضعيف لم يوثق .

(٢) البخاري برقم (٤٦٧) وابن أبي عاصم في السنة (١٤٦٣) والنسائي في الكبرى (٨١٠٢) وابن حبان (٩٨٦٠)، وانظر في البخاري: (٣٦٥٦، ٣٦٥٧، ٦٧٣٨) و«المسند» (٢٤٣٢)، إسناده صحيح ورجاله ثقات .

(٣) ولم يصح عنده حديث عائشة: لا أحل المسجد لحائض ولا جنب؛ لأن في رواه مجهول، وقال عبد الحق: لا يثبت من قبل إسناده، وهو عند أبي داود، وقد سبق ذكره .

(٤) أخرجه سعيد بن منصور في سننه بإسناد حسن، وقال ابن كثير: هذا إسناد على شرط مسلم (١٣/٢) .

وفي الحديث عن عليٍّ عليه السلام أن النبي ﷺ كان يقرأ القرآن على كل حال ما لم يكن جنباً^(١).

ويجب الغُسل: بإنزال المني، وهو الماء الدافق، أو بإيلاج الحشفة في الفرج وإن لم ينزل؛ لما ورد عن عائشة رضي الله عنها أن رسول الله ﷺ سئل عن الرجل يجد بللاً ولا يذكر احتلاماً؟ قال: «يغتسل»، وسئل عن الرجل يرى أنه احتلم ولا يجد بللاً؟ قال: «لا غسل عليه».

قالت أم سليم: والمرأة ترى ذلك أعليها غسل؟ قال: «نعم، إنما النساء شقائق الرجال»^(٢).

وفي الصحيحين عن أبي هريرة رضي الله عنه: أن رسول الله ﷺ قال: «إذا جلس بين شعبها الأربع، ثم جهدها فقد وجب الغسل - زاد في رواية - وإن لم ينزل»^(٣).

أما صفة غسل الجنابة فهو كما روته عائشة رضي الله عنها أن النبي ﷺ كان إذا اغتسل من الجنابة، بدأ فغسل يديه، ثم يغسل فرجه، ثم يتوضأ كما يتوضأ للصلاة، ثم يدخل أصابعه في الماء، فيخلل بها أصول شعره، ثم يصب على رأسه ثلاث غرف بيديه، ثم يفيض على جلده كله، بادئاً بالشق الأيمن ثم الأيسر مع تعاهد الإبطين وداخل الأذنين، والسرة وبين الأصابع، وإذا وصل الماء إلى أصول شعر المرأة فلا يجب عليها تنقض ضفيريها لحديث أم سلمة «إنما يكفيك أن تحثي عليه ثلاث حفنات تصبها على رأسك»^(٤).

وحديث عائشة رضي الله عنها منكرة على عبد الله بن عمرو أمره النساء بنقض رؤوسهن: «لقد كنت أغتسل أنا ورسول الله ﷺ من إناء واحد، فما أزيد أن أفرغ على رأسي ثلاث إفراغات»^(٥).

(١) أخرجه أبو داود برقم (٢٢٩) والنسائي في «السنن الكبرى» (٢٥٨) وهو في «المسند» (٦٢٧) وابن حبان (٧٩٩) والترمذي وقال: حديث حسن صحيح، وهذا لفظه ورقمه: (١٤٦) وأخرجه أيضاً ابن ماجه (٢٩٤) والحميدي (٥٧) وابن أبي شيبة (١٠١/١).

(٢) أخرجه أبو داود (٢٣٦) وفي «صحيح سنن أبي داود» (٢١٦) بإسناد حسن عن عائشة والترمذي برقم (١٢٢) وصحيح سننه (١٠٦) عن أم سلمة، وفيه أنها قالت: فضخت النساء يا أم سليم، وهو في «صحيح سنن ابن ماجه» (٦٠٠) بإسناد صحيح، وفي الجامع الصغير (١١٣).

(٣) «صحيح البخاري» برقم (٢٩١) و«صحيح مسلم» برقم (٣٤٨).

(٤) أخرجه أحمد في المسند بإسناد صحيح على شرط مسلم (محققوه) برقم (٢٦٦٧٧) وهو في مسلم (٣٣٠) ومصنف عبدالرزاق (١٠٤٦).

(٥) أخرجه أحمد في المسند (٢٤١٦٠) بإسناد صحيح على شرط مسلم (محققوه)، وهو في مسلم (٣٣١) وابن ماجه (٦٠٤) وابن خزيمة (٢٤٧) وابن أبي شيبة (٧٣/١) والنسائي (٢٠٣/١).

وفي حديث عائشة وميمونة رضي الله عنهما قالتا: توضأ رسول الله ﷺ وضوءه للصلاة غير رجله، وغسل فرجه وما أصابه من الأذى، ثم أفاض عليه الماء، ثم نحى رجله فغسلهما، هذا غُسلُه من الجنابة^(١).

ويؤخذ من هذا أن المسلم في غُسل الجنابة والحيض والنفاس، يخلل بين أصابع يديه ورجليه، ويخلل شعر رأسه ولحيته حتى يصل الماء إلى منابت الشعر من الرجل والمرأة، ويتعاهد إبطيه وما بين فخذيه، وإن كان له عانة مشعرة، ثم يفيض الماء على جميع بدنه، ولا يلزم التدليك إلا في الأماكن الغائرة التي لا يصل إليها الماء إلا بتعاهدها.

حكمة الاغتسال من الجنابة:

والإنسان وهو جنب، يكون في أعصابه وبدنه تهيج، يعقب هذا التهيج ضعف وفطور، فإذا اغتسل فإنه يرجع إلى حالته الطبيعية التي كانت قبل ارتكاب الجنابة، ومن هنا شرع الإسلام الغسل ليهذا البدن، وتسكن الأعضاء، وتقوى روح الإيمان في العبد.

الحُكْمُ الرَّابِعُ وَالْعِشْرُونَ: أَحْكَامُ التَّيْمُمِ

﴿وَأَن كُنْتُمْ مَّرْضَىٰ أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ أَوْ جَاءَ أَحَدٌ مِّنْكُم مِّنَ الْغَائِطِ أَوْ لَمَسْتُمُ النِّسَاءَ فَلَمْ يَجِدُوا مَاءً فَتَيَمَّمُوا صَعِيدًا طَيِّبًا فَامْسَحُوا بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَفُوًّا غَفُورًا﴾

مشروعية التيمم:

وقد شرع التيمم عند فقد الماء أو تعذر استعماله بهذه الآية، وقرئته آية سورة [المائدة: ٦]؛ لأن سورة النساء نزلت قبل سورة المائدة، وكان ذلك في غزوة المريسيع سنة ست من الهجرة.

(١) يُنظَر: «صحيح البخاري» برقم (٢٤٨، ٢٤٩).

(٢) قرأ قالون والبري وأبو عمرو ورويس بخلفه بإسقاط الهمزة الأولى من ﴿أَوْ جَاءَ أَحَدٌ﴾ مع المد والقصر وقرأ ورش وأبو جعفر ورويس في وجهه الثاني بتسهيل الهمزة الثانية بين بين، وللأزرق إبدالها ألفاً بدون مد مشيع، ولقبل ثلاثة أوجه هي: إسقاط الهمزة الأولى، وتسهيل الثانية، وإبدالها ألفاً. والباقون بتحقيقهما.

(٣) قرأ حمزة والكسائي وخلف العاشر (لَمَسْتُمْ) بحذف الألف من اللمس وقرأ الباكون (لَامَسْتُمْ) من الملامسة بإثبات الألف.

وشرع التيمم أيضًا بحديث أبي أمامة رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «وجعلت الأرض كلها لي ولأمتي مسجدًا وطهورًا»^(١).

وسببه ما جاء في الصحيح عن عائشة رضي الله عنها قالت: خرجنا مع رسول الله ﷺ في بعض أسفاره حتى إذا كنا بالبيداء، أو بذات الجيش، انقطع عِقد لي، فأقام رسول الله ﷺ على التماسه وأقام الناس معه، وليسوا على ماء، وليس معهم ماء، فأتى الناس إلى أبي بكر الصديق، فقالوا: ألا ترى إلى ما صنعت عائشة؟ أقامت برسول الله ﷺ والناس ليسوا على ماء، وليس معهم ماء، فجاء أبو بكر ورسول الله ﷺ واضع رأسه على فخذي قد نام، فقال: حَبَسَتْ رسول الله والناس، وليسوا على ماء، وليس معهم ماء، فعاتبني أبو بكر، وقال ما شاء الله أن يقول، وجعل يطعنني بيده في خاصرتي، فلا يمنعني من التحرك إلا مكان رسول الله على فخذي، فقام رسول الله حين أصبح على غير ماء، فأنزل الله آية التيمم، فقال أُسَيْدُ بْنُ حُضَيْرٍ: ما هي بأول بركتكم يا آل أبي بكر، فوالله ما نزل بك أمر تكرهينه إلا جعل الله ذلك لك وللمسلمين فيه خيرًا، قالت: فبعثنا البعير الذي كنت عليه، فأصبنا العقد تحته^(٢).

من أسباب النزول:

١- في الحديث السابق أن النبي ﷺ كان في غزوة في بعض أسفاره ومعه عائشة رضوان الله عليها، فضاع عقدها في الصحراء، فأخذ رسول الله ﷺ يلتمسه، وتأخر حتى ظهر النهار وليس معهم ماء، وجاء أبو بكر إلى عائشة وأخذ يضربها في خاصرتها ويلومها؛ لأنها تسببت في هذا التأخر لرسول الله ﷺ وأصحابه دون وجود ماء معهم، ثم إنهم لما أقاموا البعير وجدوا العقد تحته^(٣).

ولهذا السبب أنزل الله سبحانه الرخصة للمسلمين أن يتيمموا إذا هم فقدوا الماء، أو تعذر عليهم استعماله في السفر أو المرض، في حال الحدث الأكبر والأصغر.

(١) مسند أحمد (٢٢١٣٧، ٢٢٢٠٩) قال محققوه: صحيح لغيره وأخرجه الترمذي (١٥٥٣) والطبراني في الكبير (٧٩٣١) وجاء من طرق متعددة بألفاظ متقاربة.

(٢) صحيح البخاري برقم (٣٣٤، ٣٦٧٢، ٤٦٠٨) و«صحيح مسلم» برقم (٣٦٧).

(٣) صحيح البخاري: كتاب التيمم (٩١/١) برقم (٣٣٤) وصحيح مسلم (٣٦٧) و«المسند» (٥٧/٦).

٢- وفي الصحيحين من حديث عمران بن حصين: أن رسول الله ﷺ رأى رجلاً معزلاً، لم يُصلِّ في القوم، فقال: «يا فلان، ما منعك أن تصلي مع القوم؟ ألسنت برجل مسلم؟» قال: بلى يا رسول الله، ولكن أصابتني جنابة، ولا ماء، قال: «عليك بالصعيد فإنه يكفيك»^(١).

٣- وعن زر بن حبیش عن عليٍّ ؓ قال: نزلت هذه الآية في المسافر ﴿وَلَا جُنُبًا إِلَّا عَابِرِي سَبِيلٍ حَتَّى تَغْتَسِلُوا﴾ قال: إذا أجنب فلم يجد الماء تيمم وصلّى، حتى يدرك الماء، فإن أدرك الماء اغتسل وصلّى^(٢) ولا إعادة عليه.

٤- وفي البخاري وغيره عن عبد الرحمن بن أبزي عن أبيه أن رجلاً جاء إلى عمر بن الخطاب فقال: إني أجنب فلم أصب الماء، فقال عمار بن ياسر لعمر: أما تذكر أنا كنا في سفر أنا وأنت، فلم تُصلِّ، وأما أنا فتمعّكت فصليت، فذكرت ذلك للنبي ﷺ فقال: «كان يكفيك هذا» فضرب النبي ﷺ بكفيه الأرض ونفخ فيهما، ثم مسح بهما وجهه وكفيه^(٣).

ومن تيمم بالتراب ثم وجد الماء فليغتسل، ولا يعيد الصلاة التي صلاها بالتيمم، وكل شيء غير نجس عليه غبار يصح التيمم به.

ومن ذلك ما جاء عن أبي سعيد أن رجلين خرجا في سفر فحضرت الصلاة وليس معهما ماء، فتيمما صعيداً طيباً، فصليا، ثم وجدا الماء في الوقت، فأعاد أحدهما الوضوء والصلاة، ولم يُعد الآخر، ثم أتيا رسول الله ﷺ وسألاه، فقال للذي لم يُعد: «أصببت السنة وأجزأتك صلاتك» وقال للذي توضعاً وأعاد: «لك الأجر مرتين»^(٤).

التيمم من خصوصيات هذه الأمة:

لماذا التراب؟ ثم إنه لماذا حل التراب محل الماء؟ هذه خصوصية من خصائص المصطفى ﷺ ومن خصائص هذه الأمة كما جاء عن حذيفة ؓ أن النبي ﷺ قال: «فُضِّلْنَا

(١) «صحيح البخاري» برقم (٣٤٤، ٣٤٨) و«صحيح مسلم» برقم (٦٨٢).

(٢) أخرجه ابن أبي حاتم في تفسيره برقم (٣١٩٦) والطبري في تفسيره برقم (٩٥٣٧) من طريق آخر وإسناده حسن.

(٣) «صحيح البخاري» برقم (٣٣٨) و«صحيح مسلم» برقم (٣٦٨).

(٤) أخرجه أبو داود (٣٣٨) والنسائي والدارمي و«المستدرک» (١٧٨/١) وقال: حديث صحيح على شرط الشيخين، والدارقطني برقم (٧٢٧) عن عبد الله بن نافع عن الليث بن سعد عن بكر بن سودة عن عطاء بن يسار عن أبي سعيد، وصححه الألباني في صحيح سنن أبي داود (٣٢٧).

على الناس بثلاث: جُعِلَتْ صفوفنا كصفوف الملائكة، وجُعِلَتْ لنا الأرض كلها مسجدًا، وجُعِلَتْ تربتها لنا طهورًا إذا لم نجد الماء»^(١)

هذا: وللتيمم أربع حالات يشرع فيها:

- ١- ويشرع التيمم للمريض بقوله تعالى: ﴿وَإِنْ كُنْتُمْ مَرَضَىٰ﴾.
- ٢- ويشرع أيضًا للسفر لقوله تعالى: ﴿أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ﴾.
- ٣- ويشرع التيمم عند فقد الماء أو تعذر استعماله، لنقض الوضوء بسبب من الأسباب لقوله تعالى: ﴿أَوْ جَاءَ أَحَدٌ مِنْكُم مِّنَ الْغَائِطِ﴾.
- ٤- كما يشرع في الجنابة لقوله تعالى: ﴿أَوْ لَمَسْتُمُ النِّسَاءَ﴾ على أصح القولين في تفسير الآية، فهذه أربعة أحوال للتيمم، تحتاج إلى تفصيل:

حَالَاتُ التَّيْمِمِ الْأَرْبَعِ

الحالة الأولى: المَرَضُ

فإذا انتقض وضوء العبد المريض لسبب من الأسباب، كالحادث الأصغر أو الأكبر، فله أن يتيمم إن لم يجد ماء، وقد يراد بالمرض، الذي يضرُّ معه مساس الماء، مثل: الجدري، أو إحراق النار، أو كان في بعض أعضائه جروح أو قروح يخاف معه من التلف، أو زيادة الوجع، فإنه يتيمم ويصلي مع وجود الماء، وإن كان بعض أعضائه صحيحًا وبعضه جريحًا، غسل الصحيح وتيمم للجريح في الوجه واليدين.

لما ورد عن جابر رضي الله عنه قال: خرجنا في سفرنا فأصاب رجلًا منا حجر شجه في رأسه ثم احتلم، فسأل أصحابه: هل تجدون لي رخصة في التيمم؟ فقالوا: ما نجد لك رخصة وأنت تقدر على الماء، فاغتسل فمات، فلما قدمنا على رسول الله ﷺ أخبر بذلك، فقال: «قتلوه، قتلهم الله، ألا سألوا، إذا لم يعلموا؟ فإنما شفاء العي السؤال، إنما كان يكفيه أن يتيمم، ويعضب على جرحه خرقة، ثم يمسح عليه ويغسل سائر جسده»^(٢).

(١) «صحيح مسلم» برقم (٥٢٢).

(٢) أخرجه أبو داود (٣٣٦) وفي صحيح سننه (٣٢٥) بإسناد حسن والدارقطني، ولم يجوز أصحاب الرأي: الجمع بين الغسل والتيمم، قالوا: إذا كان أكثر أعضائه أوبدنه صحيحًا غسل الصحيح ولا يتيمم عليه، وإن كان الأكثر جريحًا اقتصر على التيمم، والحديث حجة لما عليه الجمهور من الجمع بين الغسل والتيمم.

قال مجاهد: نزلت ﴿وَإِنْ كُنْتُمْ مَرَّحِينَ﴾ في رجل من الأنصار كان مريضاً فلم يستطع أن يقوم فيتوضأ، ولم يكن له خادم فيناوله، فأتى رسول الله ﷺ فذكر له ذلك، فأنزل الله الآية^(١).

وقد أباح الله التيمم للمريض مطلقاً مع وجود الماء وعدمه، مادام يشق عليه استعمال الماء ويتعذر عليه.

ولا يُصلي بالتيمم أكثر من فرض واحد، وما يتبعه من نوافل، ومثل ذلك لو كان يقضي أكثر من فرض في وقت واحد، والتيمم مبيح للصلاة عند الضرورة غير رافع للحدث على الصحيح.

الحالة الثانية: التَّيْمُمُ في السفر

أما المسافر سفرًا طويلاً أو قصيراً إن لم يجد الماء بعد مفارقة بنيان بلده؛ فإنه يتيمم ويصلي، ولا إعادة عليه؛ لما ورد عن أبي ذر رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال:

«الصعيد الطيب وضوء المسلم ولو إلى عشر سنين»^(٢)

وفي لفظ آخر: «الصعيد الطيب طهور المسلم، وإن لم يجد الماء عشر حجج»^(٣).

والصعيد: هو الأرض الترابية التي لا نبات فيها ولا شجر، سواء أكانت مستوية أم لا، والمراد به وجه الأرض البارز غير الصخر والحجارة.

فإذا لم يكن المسلم مريضاً ولا على سفر، فلا يجوز له التيمم إلا عند فقد الماء، بأن كان في مكان يعدم فيه وجود الماء عادة، وبعد بذل الجهد في البحث عنه عند كل صلاة.

الحالة الثالثة: التَّيْمُمُ عِنْدَ نَقْضِ الْوُضُوءِ

وكل ما خرج من السبيلين: كالبول، والغائط، أو الريح، أو رذاذ، فإنه ينقض الوضوء.

(١) «تفسير ابن كثير» (٣١٢/٢) والطبري (٦١/٧).

(٢) من حديث طويل أخرجه أبو داود برقم (٣٣٢) وهو في «صحيح سنن أبي داود» (٣٥٧) وابن حبان برقم (٣١١) والحاكم (١٧٦/١) و«صحيح سنن الترمذي» (١٠٧) و«إرواء الغليل» (١٥٣) و«المسند» (٦/٥)، (١٨٠/٥) برقم (٢١٣٠٥) بنحوه من حديث طويل، صحيح لغيره رجال ثقات رجال الشيخين غير عمرو بن بجدان وهو ثقة من طرق متعددة. (محققه).

(٣) أخرجه ابن حبان في «صحيحه» (٣٠٣/٢) والبزار في «مسنده»، ورجاله رجال الصحيح، «مجمع الزوائد» (٢٦١/١).

أما الغائط فهو المكان المنخفض من الأرض؛ سُمِّي كذلك لأنه يحجب الإنسان عن أعين الناس، فتسمية الحدث به من باب تسمية الشيء باسم مكانه، ومعناه قضاء الحاجة، وقد كان العرب إذا أراد أحدهم أن يقضي حاجته طلب غائطاً من الأرض، وهو أحد أسباب الحدث الأصغر الموجب للوضوء.

أما ما لم يخرج من السبيلين؛ كالفصد، والحجامة، والرعا، والقيء، والدم، ونحو ذلك، فذهب مالك والشافعي إلى عدم الوضوء فيه، وذهب أصحاب الرأي، وأحمد إلى إيجاب الوضوء فيه، واتفقوا على أن القليل منه لا ينقض.

وينتقض الوضوء بزوال العقل بجنون، أو إغماء، أو تخدير، أو نوم، أو لمس المرأة على خلاف بين الفقهاء، والنعاس الخفيف لا ينقض.

أما مس الذكر فالرخصة فيه أنه لا ينقض الوضوء لحديث: «ما هو إلا بضعة منك»^(١) والعزيمة فيه على الوضوء لما صح عن بُسْرة بنت صفوان أن النبي ﷺ قال: «إذا مس أحدكم ذكره فليتوضأ»^(٢) وجاء مثل ذلك عن أم حبيبة^(٣) وجابر بن عبد الله^(٤) وأبي أيوب^(٥).

فإن لم تجدوا ماء في هذه الحالات الأربع ﴿فَتَيَمَّمُوا صَعِيدًا طَيِّبًا فَامْسَحُوا بِوُجُوْهِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ﴾. ويشرع التيمم للصلاة حال نقض الوضوء في الحضر أو السفر عند فقد الماء أو تعذر استعماله بلا خلاف عند أهل العلم.

الْحَالَةُ الرَّابِعَةُ: التَّيْمُمُ مِنَ الْحَدَثِ الْأَكْبَرِ والحدث الأكبر كالجنابة والحيض، والنفاس.

(١) الجامع الصغير (٢٧١٨٢)، مسند طلق بن علي، وكنز العمال المجلد التاسع، ما لا ينقض الوضوء، وانظر سنن ابن ماجه (٤٨٣) وصحيح سنن ابن ماجه (٣٩٢) والمشكاة (٣٢٠) وهو حديث حسن وفي إسناده ضعف كما قال محققو المسند (٤٦٠/٣٩) وصححه ابن حبان (١١١٩).

(٢) ابن ماجه (٤٧٩) وصحيح سننه (٣٨٨).

(٣) صحيح ابن ماجه (٣٩٠).

(٤) صحيح ابن ماجه (٣٨٩).

(٥) صحيح ابن ماجه (٣٩١) والإرواء (١١٦، ١١٧) وصحيح أبي داود (١٧٤) والروض النضير (١٧٤).

أما ملامسة النساء: فيراد بها الجماع، وقد كَتَّى الله تعالى باللمس عن الجماع؛ فتكون الآية نصًّا في جواز التيمم للجنب، لأن اللمس يوَصِّل إليه.

قال ابن عباس رضي الله عنه: إن الله حيي كريم، يَكْنِي عن الجماع باللمس.

وهذا على قراءة ﴿أَوْ لَمَسْتُمُ﴾ بإثبات الألف، فإن الملامسة مفاعلة، والمفاعلة تدل على المجامعة.

أو يراد به: التقاء البشريتين، أي مجرد اللمس باليد، فتكون الآية دالة على نقض الوضوء باللمس، قالوا: لأن حقيقة اللمس أن يكون باليد، وحُمِّلَهُ على الجماع مجاز، والأصل حمل الكلام على الحقيقة لا على المجاز، وهذا على قراءة ﴿أَوْ لَمَسْتُمُ﴾ بحذف الألف.

وكان الغسل من الجنابة معروفًا في الجاهلية، فقد حلف أبو سفيان عقب رجوعه من غزوة بدر ألا يمس رأسه غسل من جنابة حتى يغزو محمدًا، فلعلهم عرفوه من اليهود، أو من بقايا الحنيفية.

١- ومجرد لمس المرأة باليد أو ببعض الجسد بدون حائل ينقض الوضوء عند الشافعي.

٢- وعند مالك وأحمد ينقض إن كان اللمس بشهوة وإلا فلا.

٣- وعند أبي حنيفة لا ينتقض الوضوء باللمس إلا إن أحدث انتشارًا.

ولكل دليله، ودليل القول الأخير أقوى؛ لأنه في الصحيحين من حديث عائشة رضي الله عنها أن النبي ﷺ كان يصلي وكانت رجلاًها في اتجاه القبلة، فإذا سجد غمزها فقبضت رجلها، وكان البيت غرفة واحدة صغيرة، وكان النبي ﷺ يتعبد في الليل طويلاً، ولا يوجد أنوار تضيء البيوت آنذاك.

أما لمس المحارم فلا ينقض الوضوء في أصح القولين، فإذا أخذنا بعموم الآية فإنه ينتقض وضوء اللامس والملموس، وإذا أخذنا بالمعنى وهو تحرك الشهوة فإنه لا ينتقض.

حكم التيمم من الجنابة:

وكان المسلمون لما عدموا الماء وهم في الغزوة صلُّوا بغير وضوء فنزلت آية التيمم، والاستجمار ضرب من التيمم.

وقد تناظر أبو موسى الأشعري وعبد الله بن مسعود رضي الله عنهما في حكم التيمم:

قال أبو موسى لابن مسعود: أرايت إذا أجنب فلم يجد الماء، كيف يصنع؟

قال ابن مسعود: لا يصلي حتى يجد الماء.

فقال أبو موسى: فكيف تصنع بقول عمار حين قال له النبي ﷺ وكان جُنُبًا: «كان

يكفيك هذا، فضرب بكفيه الأرض ثم مسح بهما وجهه وكفيه»^(١)؟

قال ابن مسعود: ألم تر عُمر لم يَقْنَع منه بذلك؟

قال أبو موسى: فدعنا من قول عمار، كيف تصنع بهذه الآية ﴿وَأَن كُنْتُمْ مَّرْهُوًّا أَوْ عَلَى سَفَرٍ﴾؟

فما درى عبد الله ما يقول، فقال: إنا لو رَخَّصْنَا لهم في هذا لأَوْشَك إذا بَرَدَ على

أحدهم الماء أن يدعه ويتيمم.

١- ولذا قال عمر وابن مسعود رضي الله عنهما: لا يقع التيمم بدلاً إلا عن الوضوء دون الغسل،

وهذا بناء على أن المراد بالملامسة: مجرد مس الجلد الناقض للوضوء كما يقول الشافعي.

٢- وخالف علماء الأمة عُمر وابن مسعود في هذا فقالوا: إن فاقد الماء ومن يخاف على

نفسه الهلاك أو زيادة المرض، يتيمم في الحدثين الأصغر والأكبر؛ لأن الله تعالى لم يكلف

الأمة بما فيه مشقة، ولأن عمرو بن العاص تيمم في ليلة باردة في غزوة ذات السلاسل وصلى

بالناس، فذكروا ذلك للنبي ﷺ فسأله، فقال عمرو: إني سمعت الله يقول: ﴿وَلَا تَقْتُلُوا

أَنفُسَكُمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا﴾ [النساء: ٢٩]. فضحك النبي ﷺ ولم ينكر عليه.

وقد ظن بعض الصحابة أن التيمم بدلاً عن الغسل لا يجزئ إلا بمسح جميع البدن

بالتراب، فعلمهم النبي ﷺ أن التيمم للجنازة مثل التيمم للوضوء.

كما صح أن عماراً رضي الله عنه كان في سفر فأجنب، فتمرغ في التراب وصلى، فلما علم النبي

ﷺ بذلك قال: «يكفيك الوجه والكفان»^(٢).

فالله سبحانه أنزل الرخصة، ويسر على أمته باستعمال التراب مكان الماء في الوضوء

(١) البخاري، كتاب التيمم، باب التيمم للوجه، والكفين برقم (٣٣٩، ٣٣٨) وأخرجه مسلم مطولاً (٣٦٨).

(٢) الجامع الصغير، وهو في البخاري (٣٣٤، ٣٣٨) وأخرجه مسلم مطولاً (٣٦٨).

والاغتسال من الجنابة عند فقد الماء أو تعذر استعماله.

وقد أباح الله التيمم للمحدث حدثاً أصغر أو أكبر في الحضر والسفر حال عدم وجود الماء، أو وجود ما لا يزيد على الطعام والشراب، أو عند حصول المشقة وتعذر استعمال الماء لمرض أو تأخر شفاء، أو حصول ضرر بالغ.

والتراب موجود في كل وقت وفي كل مكان، ولا يصح التيمم على الجدار، ولا على حجر أملس أو خشب، أو ملاءة السرير، ونحو ذلك مما لا غبار فيه، ولا يتيمم على غير التراب كالكلحل مثلاً، إنما يكون التيمم على الصعيد الطيب، أي: التراب الطاهر، على اختلاف فقهي في كيفية التيمم، هل يضرب التيمم ضربة واحدة أو ضربتين؟

كيفية التيمم: جمهور الفقهاء على أنه يضرب على التراب ضربة واحدة يمسح بها وجهه وكفيه.

لحديث عمار بن ياسر رضي الله عنه حين أجنب ولم يجد ماء فتمرغ في التراب، فقال ﷺ: «إنما كمان يكفيك أن تقول بيدك هكذا»، ثم ضرب بيديه الأرض ضربة واحدة، ثم مسح الشمال على اليمين وظاهر كفيه وباطنهما ووجهه^(١).

وفي رواية: «أن تقول هكذا» وضرب بيديه الأرض، فنفض يديه، فمسح وجهه وكفيه^(٢).

أما حديث جابر «التيمم ضربتان، ضربة للوجه وضربة لليدين إلى المرفقين».

وما ورد عن ابن الصمة أن النبي ﷺ تيمم فمسح وجهه وذراعيه، كما جاء في الأم للشافعي (٤٢/١) فكلاهما لا يصح، والأول أرجح، لأن دليله في الصحيحين، وهو أقوى.

وهذه رخصة من الله ﷻ فيها رفع للحرَج وتيسير على المسلمين ﷻ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَفُورًا عَفُورًا يتجاوز عن ذنوب عباده ويعفو ويصفح، ومن يغفر الذنوب ويتجاوز عنها فهو

(١) هذا لفظ مسلم (٣٦٨) وفي البخاري (٣٤٥-٣٤٧) عن عبدالله وأبي موسى، وفي المسند (١٨٣٣٢)، (١٨٣٣٤) وإسناده صحيح على شرط الشيخين عن عبدالرحمن بن أبيزي، كما قال محققوه.

(٢) هذا من حديث أبي معاوية في صحيح مسلم (٣٦٨) وأبي داود (٣٢١، ٣٢٢) وصحيح أبي داود (٣١٣، ٣١٢) عن عبدالرحمن بن أبيزي، والترمذي (٤٤) والنسائي (٣١١) وابن ماجه (٥٦٩) وابن أبي شيبة (١٥٨/١). هذا: ورواية (مرفقة) منكورة.

جدير أن يرخص للعاجز في العبادة.

معنى الآية: يا أيها الذين صدّقوا بالله واتبعوا رسوله، لا تقربوا الصلاة ولا تقوموا إليها حال السكر؛ حتى تميّزوا وتعلموا ما تقولون، وهذا قبل التحريم القاطع للخمر في كل حال، ولا تقربوا الصلاة حال الجنابة، ولا تقربوا مواضعها وهي المساجد إلا من اجتاز المسجد من باب إلى باب حتى تتطهروا، وإن كنتم في حال مرض لا تقدرون معه على استعمال الماء، أو حال سفر، أو تبوّل أحدكم أو تبرز، أو جامعتم النساء فلم تجدوا للطهارة ماء، فاقصدوا ترابًا طاهرًا فامسحوا بوجوهكم وأيديكم منه، إن الله كان عفواً عنكم، غفوراً لكم .

بَدَأَ الْحَدِيثَ عَنِ الْيَهُودِ فِي السُّورَةِ فِي ثَلَاثِ عَشْرَةِ آيَةٍ:

التحذير من ضلالهم وإضلالهم

٤٤ - ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَاتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُمْ بِإِذْنِ اللَّهِ وَإِذَا سَأَلُواكَ عَنَّا فَخَبِّرْهُمْ بِأَقْسَرِ مَا أَنتَ بِهٖ عَلِيمٌ ۚ﴾ (٤٤)

الأمر بالطهارة وترك شرب الخمر وقت الصلاة، من الهدى الذي لم يسبق لليهود نظيره، فهم يحسدون المسلمين عليه؛ لأنهم حُرِّموا مثله، وأرادوا إضلال المسلمين عداً لهم.

وسورة النساء تكوّن المجتمع المسلم الجديد وقت التنزيل، وتشريع له الأحكام التي تصلح دنياه وأخراه، وتربي أبنائه على الفضيلة إلى يوم القيامة، وتنزع عنه رواسب الجاهلية، وتعمل على إزالتها من المجتمع، ومن أجل ذلك فإن السورة إلى جوار آيات التشريع فيها، تعرض تجارب الأمم السابقة، لا سيّما الأمة التي سبقت أمة الإسلام مباشرة، وهم بنو إسرائيل من اليهود والنصارى؛ لترسم لأمة الإسلام كيف تتعامل وتقود المعركة مع أعدائها.

وفي هذه الآية تحذير من الاغترار بهم والوقوع في شرهم، فهم يؤثرون الضلال على الهدى، والكفر على الإيمان، وهم حريصون على إضلالكم غاية الحرص.

ولقد وقّع بنو إسرائيل في ابتلاءات ومحن وجرائم كثيرة، والإسلام يريد من أبنائه أن

(١) قوله تعالى (أن تضلوا السبل) عدّه آية، الكوفي الشامي، وتركه غيرهما من العدد.

يستفيدوا من هذه الأخطاء، وأن لا يقعوا في مثل هذه الجرائم، وأن يحذروا من ألعاب اليهود وتدبيرهم للقضاء على الإسلام وأهله في كل زمان ومكان، ولذلك فإن السورة تتحدث عن اليهود بصفة خاصة في ثلاث عشرة آية بدءاً من قول الله سبحانه: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيحًا مِّنَ الْكِتَابِ﴾ وهم فريق من أهل الكتاب أعطو حظاً من علم التوراة، فعرفوا منها نبوة موسى، وأنكروا منها أيضاً نبوة عيسى ومحمد ﷺ وهم أحبار اليهود.

وكلمة ﴿أَلَمْ تَرَ﴾ تأتي كثيراً في القرآن لإثارة الانتباه إلى أمر هام، أو حادثة هامة، يحدثنا الله عنها ويلفت أنظارنا إلى خطورتها، وقد تكون هذه الرؤية، رؤية علمية أو بصرية أو تاريخية أو رؤية واقعية كونية، مثل قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُزَيِّجُ سَحَابًا﴾ [النور: ٤٣] أو رؤية مثلية، أي: نرى مثلها في الواقع، كهذه الآية التي معنا؛ للتعجب من أحوالهم، فهم يشتررون الضلالة بشرهة ويدفعون فيها أعلى الأثمان وهو الهدى، ويريدون من المؤمنين أن يكونوا مثلهم، فلا ترى أسوأ ممن جمع بين الضلال والإضلال فهم ﴿يَشْتَرُونَ الضَّلَالَةَ﴾ وهو البقاء على اليهودية، ويُعرضون عما أنزل الله على رسوله، ويتركون ما بأيديهم من العلم فيكذبون محمداً ﷺ؛ ليأخذوا عليه الرشوة، وتحصل لهم الرياسة، والبقاء على اليهودية، مع وضوح الآيات الدالة على نبوة محمد ﷺ ﴿وَيُرِيدُونَ أَن تَضَلُّوا السَّبِيلَ﴾ أي: الطريق المستقيم الموصل إلى الحق؛ ليلبسوا عليكم دينكم فيجتنبوه. قال تعالى:

٤٥ - ﴿وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِأَعْدَائِكُمْ وَكَفَى بِاللَّهِ نَصِيرًا﴾

والله أعلم بأعدائكم منكم أيها المؤمنون، فأخبركم بأحوالهم وبين لكم شرورهم فاحذروهم، وأعدوا العدة لتأديبهم، واكتفوا بولاية الله ونصرته.

أخرج ابن أبي حاتم بسند حسن عن محمد بن إسحاق عن ابن عباس ؓ قال: كان رفاعة بن زيد من عظماء اليهود، إذا كلم النبي ﷺ لوى لسانه وقال: أرعنا سمعك يا محمد؛ حتى نفهمك، ثم طعن في الإسلام وعابه، فأنزل الله الآية^(١).

وبين تعالى أن اليهود اختاروا الضلالة طريقاً لهم، وفضلوها على الهدى، وأنهم يتمنون ردة المسلمين، والسبب الحامل لهم على ذلك هو الحسد؛ لأن ما صدر منهم كان بعد معرفتهم

(١) يُنظَر: «سيرة ابن هشام» (١/ ٥٦٠) والطبري (٧/ ٩٩) وابن المنذر (١٨٢٦) وابن أبي حاتم (٥٣٨١).

لِلْحَقِّ، وَقَدْ بَيَّنَّ سُبْحَانَهُ أَنَّهُمْ كُثُرٌ، قَالَ تَعَالَى: ﴿وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّوكُمْ مِّنْ بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّارًا حَسَكًا مِّنْ عِنْدِ أَنْفُسِهِمْ مِّنْ بَعْدِ مَا بَيَّنَّ لَهُمُ الْحَقُّ﴾ [البقرة: ١٠٩].

وهذا الإضلال الذي يتمناه اليهود للمسلمين لا يقع ضرره ووبأله إلا عليهم ﴿وَدَّتْ طَائِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يُضِلُّوكُمْ وَمَا يُضِلُّوكُمْ إِلَّا أَنْفُسُهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ﴾ [آل عمران].

واختيارهم لطريق الضلال كان عن عمد؛ لضعف إيمانهم بكتابهم، وقلة جدوى علمهم ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرُوا الضَّلَالَةَ بِالْهُدَى وَالْعَذَابِ بِالْمَغْفِرَةِ فَمَا أَصْبَرَهُمْ عَلَى النَّارِ﴾ [البقرة].

وهذا شأن المنافقين الذين قال الله تعالى عنهم: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرُوا الضَّلَالَةَ بِالْهُدَى فَمَا رَبَحَت بِخَدْرَتِهِمْ وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ﴾ [البقرة].

فاطمثوا - أيها المسلمون - فإن الله وليكم، يهديكم ويتولى شؤونكم، وينصركم على عدوكم، ويُسِرُّ لكم طريق السعادة ﴿وَكَفَى بِاللَّهِ وَلِيًّا﴾ يتولى أحوالكم ﴿وَكَفَى بِاللَّهِ نَصِيرًا﴾ ينصركم ويعينكم عليهم، فولايته تعالى فيها حصول الخير، ونصره لكم فيه زوال الشر.

هذا؛ والرسول ﷺ يصف مرحلة التخلف في هذه الأمة، حين تتدهور فيها المدارك والعلوم، فتعجز عن التفاعل مع كتاب ربها، كما حدث من الذين أوتوا نصيبًا من الكتاب قبلهم.

جاء ذلك في حديث زياد بن لبيد حين تعجَّب من إخبار الرسول ﷺ عن ذهاب العلم، فقال زياد: وكيف يذهب العلم يا رسول الله، ونحن قرأنا القرآن، ونُفِّرُهُ أبناءنا، وأبناءؤنا يقرؤون أبناءهم؟! فقال ﷺ: «تَكَلَّتْ أُمُكْ يَا بَنِ لَبِيدَ، إِنْ كُنْتُ لَأَرَاكَ مِنْ أَفْقِهِ رَجُلٌ بِالْمَدِينَةِ، أَوْ لَيْسَ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى يَقْرَءُونَ التَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ، وَلَا يَنْتَفِعُونَ مِمَّا فِيهِمَا بَشِيءٌ»^(١).

إن القرآن وحده لا يتحرك لإنهاض الأمة، لكنه نزل لأصحاب العقول والألباب الذين ينهضون بالإيمان والعلم، فيحققون منهج الله تعالى في أرضه، ويردُّون كيد عدوهم وغدره ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّأُولِي النُّهَى﴾ [طه: ٥٤].

﴿وَذَلِكَ الْأَمْثَلُ نَصْرُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا الْعَالِمُونَ﴾ [العنكبوت].

(١) أخرجه أحمد في «المسند» برقم (١٧٤٧٣، ١٧٩١٩)، حديث صحيح وإسناد رجاله ثقات، كما قال

محققه، وأخرجه ابن أبي شيبة (٥٣٦/١٠) وابن ماجه (٤٠٤٨) والطبراني (٥٢٩٠) وغيرهم.

إن الخطر يأتي على الأمة من الخلل الداخلي، والاعتماد على الدول الكبرى لا يفيد، بل لا بُدَّ من توحيد الصفوف، والترفع عن المصالح الخاصة، وتسخير الطاقات والإمكانات لبناء الجيش والمصانع قبل بناء العمارات وتعبيد الطرق.

جاء في الحديث عن ثوبان أن رسول الله ﷺ قال: «سألت الله ألا يهلك أمتي بسنة بعامة، فاستجاب لي، وسألت الله ألا يسلط عليهم من يكسر بيضتهم، فاستجاب لي، وسألت الله ألا يجعل بأسهم بينهم، فلم يستجب لي»^(١).

الْيَهُودُ يُنْكِرُونَ نُبُوَّةَ مُحَمَّدٍ ﷺ وَيَتَلَاَعِبُونَ بِالْأَلْفَاظِ

٤٦- ﴿مِنَ الَّذِينَ هَادُوا يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ وَيَقُولُونَ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَاسْمِعْ غَيْرَ مُسْمِعٍ وَرَاعِنَا لَيًّا بِالسِّنِّينَهِمْ وَطَعْنًا فِي الدِّينِ وَلَوْ أَنَّهُمْ قَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَاسْمِعْ وَانْظُرْنَا لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ وَأَقْوَمَ وَلَكِنْ لَعَنَهُمُ اللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ (٤٦)

بين سبحانه في هذه الآية كيفية ضلال اليهود وعنادهم وإيثارهم الباطل على الحق، فوصف سبحانه علماء الضلال من اليهود، وهم الذين أوتوا نصيبًا من الكتاب بقوله: ﴿مِنَ الَّذِينَ هَادُوا﴾ أي: فريق من اليهود الذين أوتوا حظًا من الكتاب ﴿يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ﴾ يؤوّلونه على غير وجهه، ويفسّرونه بغير مراده، ويبدّلون ألفاظه قصدًا وافتراءً، ومن ذلك أنهم يغيّرون صفة محمد ﷺ التي نزلت في التوراة، وهي لا تصدّق إلا عليه ﷺ ولكنهم يكتُمونها ويحجّدونها، على أنه ﷺ غير مراد ولا مقصود بها في زعمهم، بل أريد بها غيره، فيقلبون الحقائق وينكرون الحق، وكانوا يسألون النبي ﷺ عن الأمر فيخبرهم، ثم يحرفون كلامه، ويخبرون بغيره، بإلقاء الشبهة الباطلة والتأويلات الفاسدة على الناس، فيحرفون اللفظ عن معناه، هذا حال اليهود في كتمان العلم وتغييره.

أما حالهم في العمل والانقياد؛ فإنهم يقولون: ﴿سَمِعْنَا﴾ قولك ﴿وَعَصَيْنَا﴾ أمرك، وهذا غاية الكفر والعناد وعدم الانقياد.

(١) رواه مسلم بنحوه رقم (٢٨٨٩)، والمسند (٢٢٤٥٢)، إسناده صحيح على شرط مسلم، وأبو داود (٤٢٥٢) وصحيح أبي داود (٣٥٧٧) وصحيح ابن ماجه (٣٩٥٢) والطيالسي (٩٩١) وابن أبي شيبة (٤٥٨/١١).

وهذه الآيات الثلاث نزلت في شأن قوم من اليهود على رأسهم رجل يقال له: رفاعة بن زيد، ومالك بن دخشم، وغيرهما، كانوا إذا تحدثوا إلى النبي ﷺ يُلَوْنُ أَلْسِنَتَهُمْ بالكلام، أي: يَفْتَلُونُ لِسَانَهُمْ بالكلام تمويهًا على رسول الله عليه الصلاة والسلام، فيعيبونه، ويأتون بالفاظ تحتمل معنيين: معنى مدح، ومعنى ذم، وكانوا يقصدون معنى الذم على سبيل التهكم والسخرية، وفيه سبٌّ وشم لرسول الله ﷺ في لغتهم العبرية.

وهذا المعنى القديم حادث متجدد؛ فاليهود إلى يومنا يعلمون أبناءهم وصبيانهم إذا خاطبوا المسلمين أن يتعاملوا معهم على هذا النحو، يعلمونهم مثل هذه الألفاظ؛ كي يُظهِروا للمسلمين الاحترام والتوقير، وهم يُضْمِرُونَ لهم السخرية والبغض والاستهزاء.

ومن هذه الألفاظ قولهم لرسول الله ﷺ - في عصر التنزيل - إذا دعاهم إلى الإسلام: ﴿سَمِعْنَا﴾ يقولون ذلك بألسنتهم في الظاهر، ويقولون في صدورهم ﴿وَعَصَيْنَا﴾ أي: سمعنا قولك، وعصينا أمرك، ويخاطبون الرسول ﷺ بأقبح خطاب وأبعده عن الأدب، فيسيؤون إليه ويدعون عليه بالفاظ تحتمل المدح والذم، فهم حين يتحدثون إلى الرسول ﷺ يقولون له في خطابهم له: ﴿وَأَسْمَعُ﴾ مَّا تَكْرَهُ ﴿غَيْرَ مُسْمِعٍ﴾ لما تحب.

(وغير مسموع) كلمة تحتمل معنيين:

المعنى الأول: اسمع لا سمعت مكروهاً، وهذا هو المدح، أي: المعنى الطيب الذي لا يقصدونه.

أو أسمع من غير أمر عليك، كما تقول العرب: افعل كذا وأنت غير مأمور.

١- والمعنى: اسمع وأنت غير مأمور بأن تسمع، وهذا من باب الاحترام في الظاهر.

٢- والمعنى الآخر لقولهم: غير مسموع، أي: اسمع لا سمعت، وهذا دعاء على النبي

ﷺ بالصمم أو بالموت.

٣- أو أن المعنى: اسمع فإنك غير مطاع، أو غير مجاب الدعوة، أو غير مسموع الكلام.

والكلمة الثانية قولهم: ﴿وَرَعَيْنَا﴾ وهي كلمة مرّت في سورة البقرة في قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَقُولُوا رَاعِنَا﴾ [١٠٤] حيث قلّد المنافقون اليهود في هذه الكلمة، وهي تستعمل في اللسان العربي بمعنى انتظرنا، أي: تمهّل، واستمع إلينا، وأرّعنا انتباهك.

ويراد بها أيضًا معنى الرعونة، وهو سب وشتم ودعاء بالحق والسفه على النبي ﷺ، فهم يَقْصِدُونَ بذلك الدعاء عليه ﷺ بالحق والسفه والرعونة، وهو المعنى الثاني للكلمة، يقولون ذلك ﴿لِيَأْ بِأَلْسِنَتِهِمْ﴾ أي: تحريفًا للكلم عن ظاهره ومعناه الواضح، وتغييرًا وتبديلًا للحقائق، ﴿وَوَطَعْنَا فِي الدِّينِ﴾ فهم يقولون: نحن نشتم ونسب محمدًا ﷺ وهو لا يعلم ما نقول، ولو كان رسولًا من عند الله، لعلم أننا نشتمه، وعرف ما في نفوسنا، فأَنْزَلَ اللهُ سبحانه يفضحهم وَيُطْلِعُهُ عَلَى خُبِّ ضَمَائِرِهِمْ، وعداوة قلوبهم، وبَغْضَاءِ نفوسهم.

أَنْزَلَ اللهُ تعالى على نبيه ﷺ هذه الآيات الثلاث، يبين أن اليهود قوم اشتروا الضلالة بالهدى، واشتروا الكفر بالإيمان، مع علمهم صدق محمد ﷺ في دعوته، وأنه رسول من عند الله، وأنهم غَيَّرُوا ذلك، وحرَّفُوا صفاته في التوراة التي نزلت على نبي الله موسى عليه وعلى نبينا أفضل الصلاة وأتم التسليم، فأَوَّلُوا عبارات التوراة بغير المقصود منها، وأسأَوْوا في خطابهم إلى النبي ﷺ.

والمسلم الفطن يحذر مغالطات اليهود وتلاعبهم بالمصطلحات، ويحذر كيدهم، ويكشف أوراقهم، ولذا قال عمر ؓ: لَسْتُ بِالْخَبِّ وَلَا الْخُبِّ يَخْدَعْنِي. فلا يكن المسلم غرًّا مغفلًا يأكله الآخرون.

والله سبحانه يبيِّن لليهود والمنافقين الذين استعملوا هذا الأسلوب مع النبي ﷺ فيرشدهم إلى ما هو خير لهم من ذلك بما فيه حسن الخطاب والأدب اللائق بخطاب النبي ﷺ فيقول: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ قَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا﴾ وانقدنا لأمرك ونهيك بدل ﴿سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا﴾ وأيضًا لو أنهم قالوا: ﴿وَأَسْمَعُ وَأَنْظُرُ﴾ أي: انتظرنا، بدل قولهم راعنا ﴿لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ وَأَقْوَمَ﴾؛ لأنه أمر واضح لا يحتمل أمرين.

﴿وَلَكِنْ لَعَنَهُمُ اللَّهُ بِكُفْرِهِمْ﴾ هذا لعن من الله سبحانه لليهود، فقد طردهم الله تعالى وأبعدهم من رحمته؛ بسبب كفرهم وتكذيبهم بخاتم النبيين ﷺ وإيمانهم ببعض الكتب وبعض الرسل دون بعض، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَيُرِيدُونَ أَنْ يُفَرِّقُوا بَيْنَ اللَّهِ وَرُسُلِهِ وَيَقُولُوا نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ وَيُرِيدُونَ أَنْ يَتَّخِذُوا بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلًا ﴿٥٠﴾ أُولَٰئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ حَقًّا﴾ [النساء].

وصدق الله العظيم فإنه لم يدخل في دين الإسلام على مدى التاريخ، إلا القلة القليلة من هذه الفئة أو الطائفة من البشر، ومن آمن منهم فإن إيمانه هش ضعيف قاصر، تصديقاً لقول الله سبحانه: ﴿فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ وقد ذكرت الآية أربعة أنواع من مغالطاتهم وتلاعبهم بالألفاظ وهي:

١- تحريفهم للكلم. ٢- وقولهم: ﴿سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا﴾.

٣- وقولهم: ﴿وَأَسْمَعُ غَيْرَ مُسْمِعٍ﴾. ٤- وقولهم: ﴿رَاعِنَا﴾.

دَعْوَةُ الْيَهُودِ إِلَى الدُّخُولِ فِي الْإِسْلَامِ قَبْلَ سُوءِ الْعَوَاقِبِ

٤٧- ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَلْكَتِبَ ءَامِنُوا بِمَا نَزَّلْنَا مُصَدِّقًا لِمَا مَعَكُمْ مِّن قَبْلِ أَن نَّطْمِسَ وُجُوهًا فَنَرَدَهَا عَلَىٰ أَذْبَارِهَا أَوْ نَلْعَنَهُمْ كَمَا لَعَنَّا أَصْحَابَ السَّبْتِ وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ مَفْعُولًا ﴿٤٧﴾﴾

يأمر الله تعالى أهل الكتاب من اليهود والنصارى أن يؤمنوا بخاتم الأنبياء ﷺ، وبما أنزل الله عليه من القرآن المهيمن على غيره من الكتب، المصدق لها، فإنها قد أخبرت به قبل مجيئه ﷺ كما هو مبشر به في كتبهم؛ حتى لا تنزل بهم العقوبة في الدنيا قبل الآخرة.

وقد لقي النبي ﷺ طائفة من اليهود فدعاهم إلى الإسلام، وهم على علم بأنه دين صحيح بمقتضى ما في التوراة والإنجيل من البشارة به، ولكنهم نسوا نصيباً منها، فحرفوها وبدّلوها ولم يعملوا بمقتضاها، فلم يستجيبوا لدعوته ولم يؤمنوا به، وهذا معنى ﴿وَسُوا حَظًّا مِمَّا ذُكِّرُوا بِهِ﴾ [المائدة: ١٣] أي: نسوا وفقدوا قسطاً كبيراً من التوراة التي أحرقت وضاعت مع التابوت في السبي البابلي، وليس في أيديهم منها شيء، ثم إنهم غيروها وبدّلوها، فكتبوها بأيديهم، وضمّنوها ما يخدم قضيتهم، ويجمع شتاتهم من أرجاء الأرض.

يقول لهم النبي ﷺ: والله إنكم لتعلمون أنني رسول الله حقاً، وأن ما جئت به من عند الله - وهو القرآن العظيم - حق وصدق، تعلمون ذلك في أوصافي في كتابكم، فلماذا لم تدخلوا في الإسلام؟ أجابوا النبي ﷺ بقولهم: نحن لا نعلم هذا، ولو عرفناه لآمنّا بك، وأصرّوا على كفرهم.

قال ابن عباس ؓ: كَلَّمَ رسول الله ﷺ رؤساء من أحبار يهود، منهم: عبد الله بن

صُوريا، وكعب بن أسد، فقال لهم: «يا معشر يهود، اتقوا الله وأسلموا، فوالله إنكم لتعلمون أن الذي جئكم به الحق»، فقالوا: ما نعرف ذلك يا محمد، وجحدوا ما عرفوا وأصرُّوا على الكفر فأنزل الله سبحانه هذه الآية^(١) يخاطبهم، ويستجيش صدورهم، بالصفة التي ينبغي لهم أن يدخلوا بها في الإسلام، وبالسبب الذي يقودهم إليه، وهو كونهم أهل كتاب سماوي، حتى تأخذهم العصية الدينية كما أخذت أهل مكة العصية الجاهلية:

﴿يَتَأْتِيهِمُ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ﴾ من اليهود والنصارى، ويقصد بهم هنا اليهود والتعجب من أحوالهم ﴿ءَامِنُوا بِمَا نَزَّلْنَا﴾ على عبدنا ورسولنا محمد ﴿مُصَدِّقًا﴾ وموافقًا للتوراة التي بين أيديكم، والإنجيل الذي نزل على عيسى عليه السلام.

لقد تعرضت الكتب السماوية إلى تغيير النصوص وتأويلها بغير المقصود، وتعطيل التبليغ والدعوة إلى الدين الصحيح، وقد حفظ الله الكتاب الأخير من هذا كله، وتولَّى سبحانه حفظه بنفسه؛ لأن العمل به مطلوب إلى يوم الدين، وقد يكون ضلال يهود ونصارى العصر، نتيجة تصديقهم لما حرَّفه لهم الأولون، وهم مطالبون بالبحث والتفتيش؛ ليصلوا إلى الحقيقة.

ثم يأتي تهديد ووعيد من الله سبحانه لأهل الكتاب إن لم يؤمنوا بخاتم النبيين، بأن يطمس وجوههم ويغيِّر معالم الآدمية فيهم، فقال: ﴿مَنْ قَبْلَ أَنْ نَطْمَسَ وُجُوهًا فَرَدَّهَا عَلَىٰ أَذْبَارِهَا﴾، كما طمسوا الحق، وآثروا الباطل، وقلبوا الحقائق، فجعلوا الباطل حقا والحق باطلاً، فعاقبهم الله بطمس وجوههم، وردّها على أذبارها بأن تُجعل في أقفائهم، وهذا أشنع ما يكون.

وأصل الطمس: إزالة الأثر بالمحو، وإزالة معالم الآدمية، بمسخهم قردة وخنازير، كما مُسخ الذين اصطادوا في يوم السبت، وخالفوا ما حرم الله عليهم، وهذا قياس مماثل لطبيعتهم الصُّلبة، وقلوبهم القاسية.

(١) «تفسير الطبري» (١٢٤/٥) وسنده حسن، و«تفسير القرطبي» (٢٤٤/٥) و«زاد المسير» (١٠١/٢) وابن المنذر (١٨٣٧، ١٨٤٠) وابن أبي حاتم (٥٣٩٧)، والحديث في المسند من رواية أنس بن مالك (١٣٢٠٥) بنحوه وإسناده صحيح على شرط الشيخين كما قال محققوه، وأخرجه البخاري في صحيحه (٣٩١١) والبيهقي في الدلائل (٥٢٨/٢).

والطمس له معنى حقيقي، ومعنى معنوي، وهذا هو المعنى الحقيقي، أي: نطمس وجوههم حقيقة، فنزيل معالم أنوفهم وأفواههم وأبصارهم، ونردُّهم على أدبارهم، أي: نجعل القفا مكان الوجه، أو مِنْ قَبْلِ أَنْ نطمس وجوهاً فغيرها، ونجعلها كحافر البعير، ليس لها معالم ولا مميزات.

وبمجرد أن سمع عبد الله بن سلام هذه الآية ذهب مسرعاً إلى رسول الله ﷺ يعلن إسلامه قبل أن يصل إلى أهله، وهو يقول: خشيتُ أن تدركني هذه الآية، فيطمس الله وجهي قبل أن أصل إلى بيتي وأهلي.

والرجل عنده علم من الكتاب، وصدَّق بما أنزل الله سبحانه على رسوله، فخشي على نفسه وأسلم.

وفي زمن عمر بن الخطاب ؓ مرَّ كعب الأحبار بالمدينة وهو في طريقه إلى بيت المقدس، فقال له عمر: أسلم يا كعب، فقال: أَلَسْتُ تَقْرَؤُونَ فِي كِتَابِكُمْ: ﴿مَثَلُ الَّذِينَ حُمِلُوا التَّوْرَةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا﴾ [الجمعة: ٥]. وأنا قد حملت التوراة، فتركه عمر، وسار كعب حتى وصل إلى حِمَص، فسمع رجلاً حزيناً من أهلها يقرأ هذه الآية ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ ءَامِنُوا بِمَا نَزَّلْنَا مُصَدِّقًا لِمَا مَعَكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَطْمِسَ وُجُوهَ فَرَدَّهَا عَلَى أَذْبَارِهَا﴾ فأسرع كعب الأحبار إلى الماء ليغسل وجهه، ويتحسس أنفه وفمه وعينه، مخافة أن يطمس الله وجهه قبل الدخول في الإسلام، ثم قال من فوره: يارب أسلمت، يارب آمنت؛ مخافة أن تصيبه الآية، ثم رجع وأتى أهله في اليمن وجاء بهم مسلمين^(١).

وكان أمر الله نافذاً إذا قضى أمراً يقول له: كن فيكون.

أما الطمس المعنوي فمعناه: نطمس على قلوبهم، ونطبع عليها فنردها إلى الضلالة.

أو نغيّر أحوالهم، من العز إلى الذل والصَّغار، أو نمحو آثارهم من المدينة فنردهم إلى أريحا وأذرعات كما حدث لبني النضير.

(١) «تفسير الطبري» (٤٤٦/٨) وتُكَلِّم في بعض رواته بما يفيد أن الأثر منقطع، وأخرجه أيضاً ابن أبي حاتم (٥٤١٢، ٥٤١٥) عن أبي إدريس الخولاني، وهذه الرواية منهما معاً.

والوعيد بالطمس مشروط بعدم إيمان أحد منهم، وقد آمن منهم عدد كبير، فرفعت العقوبة عن الباقين، ففات الشرط لفوات المشروط.

وقد توعدهم الله تعالى في الآية بأحد أمرين:

الأمر الأول: الطمس على وجوههم كما فعل بإخوانهم الذين اعتدوا في السبت.

والأمر الثاني: هو اللعنة والطرده من رحمة الله تعالى؛ فالوعيد متحقق بأحدهما، وهو سوء المصير في الدنيا والآخرة، كما حدث لقوم من اليهود الذين حرم الله عليهم الصيد في يوم السبت، فتحايلوا على استحلال ما حرم الله تعالى بحيل قبيحة، فأنزل الله سبحانه عذابه بهم ومسحهم قرده وخنازير، وقد جاء هذا المسخ في قوله تعالى: ﴿قُلْ هَلْ أُنَبِّئُكُمْ بِشَرٍّ مِنْ ذَلِكَ مَثُوبَةً عِنْدَ اللَّهِ مَنْ لَعَنَهُ اللَّهُ وَغَضِبَ عَلَيْهِ وَجَعَلَ مِنْهُمْ الْفِرَّةَ وَالْخَنَازِيرَ﴾ [المائدة: ٦٠]. وغيرها من الآيات.

آيَةُ الشَّرْكِ الْأَكْبَرِ

٤٨ - ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ افْتَرَىٰ إِثْمًا عَظِيمًا﴾

هذه الآية نزلت في صدد الحديث عن اليهود بعد ترغيبهم في الإسلام وتهديدهم بعقاب دنيوي؛ حيث أعلمهم الله تعالى بأنه سبحانه يتجاوز عنهم إذا حصل الإيمان منهم، وفي هذا إشارة إلى أنهم قوم مشركون، وفيها تهديد أخروي لهم بعد التهديد الدنيوي في الآية السابقة، والشرك هو الذنب الوحيد الذي لا يُغْفَرُ إذا لقي العبد ربه به، ويغفر ما دون الشرك من الذنوب صغائرها وكبائرها لمن شاء من عباده.

ومادون الشرك من الذنوب، له أسباب كثيرة لمحوه وتكفيره، فالحسنات تكفر السيئات، والمصائب تكفر الذنوب، ودعاء المؤمنين لبعضهم يكفر الذنوب، وشفاعة الشافعين يوم القيامة ترفع الذنوب، وفوق ذلك رحمته سبحانه بأهل الإيمان والتوحيد.

أما المشرك فقد سد على نفسه أبواب المغفرة، وأغلق دونه أبواب الرحمة، فلا تنفعه الحسنات ولا تفيده النكبات قال تعالى على لسانهم: ﴿فَمَا لَنَا مِنْ شَافِعِينَ﴾ (١٣) وَلَا صَدِيقٍ

حَمِيمٍ ﴿الشعراء﴾

وقال سبحانه: ﴿مَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ حِمِيمٍ وَلَا شَفِيعٍ يُطَاعُ﴾ [غافر: ١٨]

وقال جل شأنه: ﴿إِنَّهُمْ مَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَاهُ النَّارُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ

أَنْصَارٍ﴾ [المائدة: ٧٢]

عن أبي أيوب الأنصاري رضي الله عنه قال: جاء رجل إلى النبي ﷺ، فقال: إن لي ابن أخ لا ينتهي عن الحرام قال: «وما دينه؟» قال: يصلي ويوحد الله، قال «استوهب منه دينه، فإن أبي فابتعه منه»، فطلب الرجل ذلك منه فأبى عليه، فأتى النبي ﷺ فأخبره، فقال: وجدته شحيحاً على دينه فنزلت الآية^(١). وفي الآية قاعدتان:

القاعدة الأولى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ﴾ أحدًا من خلقه كائنًا من كان، وهذا في حالة ما إذا مات العبد عليه، أما إذا تاب من الشرك قبل موته فإن الله تعالى يقبل منه توبته، يقول الله سبحانه عن الكفار والمشركين يدعوهم إلى التوبة: ﴿أَفَلَا يَتُوبُونَ إِلَى اللَّهِ وَيَسْتَغْفِرُونَ﴾ [المائدة: ٧٤]. أي: أنهم إذا تابوا ورجعوا إلى الله تعالى، قَبِلَ الله منهم توبتهم إن كانت قبل الغرغرة كما قال تعالى: ﴿قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ يَنْتَهُوا يُغْفَرْ لَهُمْ مَا قَدْ سَلَفَ﴾ [الأنفال: ٣٨].

ورحمة الله واسعة، وفضله عظيم، يقبل التوبة من الشرك والكفر ومن كبائر الذنوب وصغائرها: لَمَّا نَزَلَ قَوْلُ اللَّهِ سُبْحَانَهُ: ﴿قُلْ يَاعِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا﴾ [الزمر: ٥٣]. رفع رَجُلٌ يده إلى النبي ﷺ قال: والشرك يا رسول الله؟ -أي: الذي هو أعظم الذنوب- قال: «والشرك».

قيل: إن هذه الآية نزلت في وحشي قاتل حمزة، فقد ندم على ما فعل، وأراد أن يسلم، ومنعه من ذلك أنه أشرك بالله، وقتل حمزة، فقرؤوا عليه قول الله تعالى: ﴿إِلَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَالِحًا﴾ [الفرقان: ٧٠]. فخاف ألا يعمل صالحًا، فنزلت هذه الآية ﴿وَيَغْفِرْ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ﴾ فخاف ألا يدخل تحت المشيئة، وقد ارتكب كبيرة، فقرؤوا عليه قول الله تعالى: ﴿قُلْ يَاعِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ﴾

(١) «أسباب النزول» للسيوطي (٧٤) وابن أبي حاتم (٥٤٢٤) والطبراني في الكبير (٤٠٦٣) قال الهيثمي: فيه واصل بن السائب وهو ضعيف، «مجمع الزوائد» (٥/٧).

فأسلم، فلما سأله النبي ﷺ: كيف قُتل حمزة؟ فأخبره، فقال: «ويحك، غيَّب عني وجهك»، والروايات تدل على أنه شارك في حروب الردة وقتل مسيلمة .

القاعدة الثانية: ﴿وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَن يَشَاءُ﴾ أي: يغفر ما عدا الشرك من الكبائر وغيرها، ومرد ذلك إلى مشيئة الله تعالى، إن شاء غفر وإلا فلا يغفر ما دون ذلك، ليس هذا مطلقاً، وإنما لمن يشاء، وقد ختمت الآية بقوله تعالى: ﴿وَمَن يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ افْتَرَىٰ إِثْمًا عَظِيمًا﴾ أي افترى جُرمًا كبيرًا حيث سوى بين الخالق لكل شيء، الغني بذاته عن مخلوقاته، الذي بيده النفع والضرر والعطاء والمنع، وبين المخلوق الذي لا يملك موتاً ولا حياة ولا نشوراً.

وفي آخر الآية المماثلة من هذه السورة قوله تعالى: ﴿وَمَن يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا بَعِيدًا﴾ [١١٦].

وفي الآيتين تهديد بعدم المغفرة لجريمة الشرك التي لحقت صاحبها حتى الموت، مع فتح أبواب الرحمة الإلهية كلها لِمَا دون ذلك من الذنوب.

وفي الآية تقرير لشرك اليهود، ومن ثَمَّ فهي تدعوهم إلى التوحيد والإيمان الخالص؛ لأن بعضهم قال: عزيز ابن الله، وفيها تقرير لشرك النصارى ﴿اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ﴾ [التوبة: ٣١]. بمعنى: أنهم أعطوهم حق التشريع والتحليل والتحريم، وأطاعوهم في ذلك، ولا يملكه إلا رب العالمين، وهذا ما يسميه القرآن (عبادة الطاغوت).

والإسلام لم يتسامح في إثم الشرك؛ لأن الشرك يقطع الصلة بين العبد وربّه، فلا يبقى معه رجاء في المغفرة، أما ما عدا الشرك فإنه يدخل في حدود المغفرة، ما دام العبد موصولاً بربه، يَشْعُرُ بذنبه، ويرجو مغفرة الله، ويطمع في رحمته ورضوانه، ويعتقد أنه سبحانه قادر على العقاب والمغفرة، وهذه الآية هي الحاكمة بين آيات الوعد والوعيد.

الناس بين الإيمان والكفر والجنة والنار:

قال ابن عطية: وتلخيص الكلام فيها أن يقال: الناس أربعة أصناف:

١- كافر مات على كفره، فهذا مخلد في النار بإجماع

٢- ومؤمن محسن، لم يُذنب قَطُّ، ومات على ذلك، فهو في الجنة بإجماع

٣- وتائب مات على توبته، فهو عند أهل السُّنَّة، وجمهور فقهاء الأمة لاحق بالمؤمن المحسن.

٤- ومذنب مات قبل توبته، فهذا موضع الخلاف:

أ- فقالت المرجئة: هو في الجنة بإيمانه، ولا تضرُّه المعاصي صغيرها وكبيرها، وبنَّوا هذا على أن آيات الوعيد كلها خاصة بالكفار، وآيات الوعد عامة في المؤمنين، التَّقي منهم والعاصي.

ب - وقالت المعتزلة: إن كان صاحب كبيرة فهو في النار ولا بُدَّ؛ لأن مرتكب الكبائر عندهم يخلد في النار.

ج - وقالت الخوارج: إذا كان صاحب كبيرة أو صغيرة فهو مخلص في النار، ولا ينفعه إيمانه؛ لأنهم يرون أن كُلَّ الذنوب كبائر، وبنَّوا كلامهم هذا على أن آيات الوعد كلها خاصة بالمؤمن المحسن الذي لم يعص الله قَطُّ، وبالمؤمن التائب، وآيات الوعيد عامة في العصاة، كفارًا ومؤمنين، وهذا عكس قول المرجئة.

د - وقال أهل السُّنَّة: آيات الوعد ظاهرة العموم في المؤمن المحسن وفي التائب، ومن سبق في علم الله تعالى أن يعفو عنهم ولا يعذبهم من العصاة.

وآيات الوعيد ظاهرة العموم في الكفار، ومن سبق في علم الله أن يعذبهم من العصاة، وآية الشرك نص في هذا النزاع، فإنها رَدَّت على المرجئة والمعتزلة والخوارج في مغفرة ما دون الشرك من الذنوب، وأن ذلك متوقف على مشيئة الله تعالى إن شاء غفر، وإن شاء عذب.

ومعنى ﴿وَمَنْ يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُتَعَمِّدًا فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ﴾ أي: مستحلًّا لقتله، كما قال ابن عباس رضي الله عنه؛ لأن من استحل ما حرم الله فقد كفر، فالتعمد معناه: الاستحلال، والقصاص يكون للقاتل المؤمن، والوعيد بالنار لمستحلِّ القتل؛ لأنه في حكم الكافر^(١).

والمعنى: إن الله تعالى لا يغفر لمشرك بالله مات على شركه، ويغفر ما دون الشرك من الذنوب والمعاصي لمن يشاء أن يُغْفَرَ له إذا مات على غير توبة، فمن مات من

(١) يُنْظَر: «تفسير ابن عطية» (٢/٦٤) بتصرف، دار الكتب العلمية بيروت عام ١٤١٣ هـ - ١٩٩٣ م طبعة أولى.

المسلمين بدون توبة من الذنوب، فأمره مَفْوَضٌ إلى الله، إن شاء عفا عنه وأدخله الجنة، وإن شاء عذبه ثم أدخله الجنة.

قال ابن عمر رضي الله عنهما: كنا معشر أصحاب النبي ﷺ لا نشك في قاتل النفس، وأكل مال اليتيم، وشاهد الزور، وقاطع الرحم، حتى نزلت هذه الآية، فلما سمعناها كففتنا عن الشهادة، وأرجينا الأمور إلى الله تعالى^(١).

وفي لفظ له: كنا نُمسك عن الاستغفار لأهل الكبائر حتى سمعنا الآية.

عن أنس رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «إني ادخرت دعوتي وشفاعتي لأهل الكبائر من أمتي، فأمسكنا عن كثير مما كان في أنفسنا، ثم نطقنا ورجونا»^(٢).

وقد استبشر الصحابة بهذه الآية، حتى قال علي بن أبي طالب: إنها أحب آية إليّ في القرآن^(٣).

دخول الجنة لمن مات على غير الشرك:

١- عن أبي ذر رضي الله عنه: عن النبي ﷺ فيما يرويه عن ربه ﷻ أنه قال: «بشّر أمتك أنه من مات لا يشرك بالله شيئاً دخل الجنة، قلت: يا جبريل، وإن سرق وإن زنى؟ قال: نعم، قلت: وإن سرق وإن زنى؟ قال: نعم، وإن شرب الخمر»^(٤).

زاد في رواية أحمد وغيره: «على رغم أنف أبي ذر» قال: فخرج أبو ذر يجرّ إزاره، وهو يقول: «وإن رغم أنف أبي ذر» وكان أبو ذر يحدث بهذا بعد ويقول: وإن رغم أنف أبي ذر^(٥).

٢- وعن جابر بن عبد الله رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «ما من عبد يموت لا يشرك بالله شيئاً،

(١) من مجموع روايتي الطبري (٨/ ٤٥٠) وابن أبي حاتم، وفي إسناده الطبري الهيثم بن جمار ضعفه بعضهم.

(٢) رواه أبو يعلى (٣٠٢٢) ورجاله رجال الصحيح غير حرب بن سريج، وهو ثقة، وانظر الجامع الصغير (٤٨٩٢) والمسند (٤١١١، ١٣١٧٠) عن أنس و (٧٧١٤) عن أبي هريرة بنحوه وإسناده صحيح على شرط البخاري كما قال محققوه وأخرجه مسلم (٢٠٠، ٣٤١).

(٣) «تفسير الألوسي» (٥٣/٥).

(٤) البخاري برقم (١٢٣٧، ٥٨٢٧، ٦٤٤٣) ومسلم، كتاب الإيمان برقم (٩٤) وفي كتاب الزكاة (٧٥/٣).

(٥) «المسند» (١٦٦/٥) (٢١٤٦٦) و«صحيح البخاري» برقم (٥٨٧٢) و«صحيح مسلم» برقم (٩٤) والترمذي (٢٦٤٤) والنسائي (١٠٩٥٥، ١٠٩٦٢).

إِلَّا حَلَّتْ لَهُ الْمَغْفِرَةُ، إِنْ شَاءَ غُفِرَ لَهُ، وَإِنْ شَاءَ عَذَّبَهُ، إِنْ أَلَّاهُ اسْتَشْنَى» وَقَرَأَ الْآيَةَ^(١).

٣- وعن سلمة بن نعيم أن رسول الله ﷺ قال: «مَنْ لَقِيَ اللَّهَ لَا يَشْرِكُ بِهِ شَيْئًا دَخَلَ الْجَنَّةَ وَإِنْ زَنَى وَسَرَقَ»^(٢).

ولا يمكن أن يُقَطَعَ لأحد بالمغفرة، أو بالجنة أو النار، أو يرى الإنسان نفسه ناجيًا وغيره هالكا.

٤- فقد قال النبي ﷺ للذي قال لأخيه: «والله لا يغفر الله لك، أو لا يدخلك الجنة أبداً» بعد أن أوجب له النار، قال ﷺ: «والذي نفسي بيده لقد تكلم بكلمة أوبقت دنياء وآخرته»^(٣).

وآية سورة الزمر: ﴿قُلْ يَعْبادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا﴾ [٥٣] وما بعدها تتضمن شرط التوبة لغفران الذنوب.

أما الآية التي معنا فإنها لا تشترط التوبة في غفران الذنب، لما عدا الإشراك بالله تعالى، فهي أرجى من آية الزمر.

٥- وقد سئل النبي ﷺ: أي الذنب أعظم؟ قال: «أَنْ تَجْعَلَ لِلَّهِ نِدًّا وَهُوَ خَلْقُكَ»^(٤).

٦- وجاء في الأثر عن عائشة ؓ مرفوعاً: الدواوين عند الله ثلاثة:

ديوان لا يعبأ الله به، وهو ظلم العبد نفسه في الذنوب التي بينه وبين الله تعالى، فالله يغفرها.

وديوان لا يترك الله منه شيئاً، وهو ما يتعلق بحقوق العباد.

(١) الحديث في «صحيح مسلم» (٩٣) وأبي يعلى (٢٢٧٨) وابن أبي حاتم (٥٤٢٠، ٥٤٢٥). وغيرهم.

(٢) «المسند» (١٨٢٨٤) قال محققوه: إسناده صحيح، رجاله ثقات رجال الشيخين، غير صحابية، لم يرو لها سوى أبي داود، وأخرجه الطحاوي في شرح مشكل الآثار (٣٩٩٩) والطبراني في الكبير (٦٣٤٧) وأبو نعيم في الحلية (٤٦/٥).

(٣) حديث حسن، أخرجه أحمد عن أبي هريرة في «المسند» (٣٢٣/٢) وأبو داود في كتاب الأدب (٤/٢٨٥) برقم (٤٩٠١)، وصححه الألباني في صحيح سنن أبي داود (٤٠٩٧) ومشكاة المصابيح (٢٣٤٧) التحقيق الثاني والطحاوية (٢٩٦).

(٤) في «صحيح البخاري» من حديث ابن مسعود (٤٤٧٧، ٤٧٦١) و«صحيح مسلم» (٨٦).

وديوان لا يغفره الله، وهو الشرك بالله^(١).

قال تعالى: ﴿إِنَّهُ مَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَهُ النَّارُ﴾ [المائدة: ٧٢].

وقال سبحانه: ﴿وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ السَّمَاءِ فَتَخْطَفُهُ الطَّيْرُ أَوْ تَهْوِي بِهِ الرِّيحُ فِي مَكَانٍ سَحِيقٍ﴾ [الحج: ٣١].

وقال على لسان لقمان: ﴿إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ [لقمان: ١٣].

٧- وفي صحيح مسلم وغيره عن جابر رضي الله عنه قال: جاء أعرابي إلى النبي ﷺ فقال: يا رسول الله، ما الموجبتان؟ قال: «من مات لا يشرك بالله شيئاً دخل الجنة، ومن مات يشرك به دخل النار»^(٢).

٨- وعن ابن عمر رضي الله عنه قال: كنا على عهد رسول الله ﷺ إذا مات الرجل على كبيرة شهدنا أنه من أهل النار، حتى نزلت ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ﴾ فأمسكنا عن الشهادة^(٣).

وقديماً كان الناس أمة واحدة، على دين واحد هو التوحيد من لدن آدم إلى نوح لا يعرفون الشرك.

وفي عهد نوح ﷺ غالى الناس في محبة الصالحين بعد وفاتهم، فقلّدوهم في عبادتهم، وتوسّلوا بهم إلى الله تعالى، واتخذوهم ذريعة ووسيلة إلى الله سبحانه، فكان الشرك وعبادة الأصنام من عهد نوح ﷺ، فعبدوا في عهده: (وداً وسواعاً ويغوث ويعوق ونسراً) وهذه ليست بأصنام، وإنما هي في الأصل أسماء رجال صالحين، وتُسَمَّى أصناماً حين تُعبد أو يُتقرب بها إلى الله تعالى، حتى قُبر النبي ﷺ فالرسول يقول عن نفسه: «اللهم لا

(١) أخرجه أحمد عن عائشة في «المسند» (٢٤٠/٦) بسند فيه ضعف، لضعف صدقه بن موسى وقد انفرد به، وبقية رجاله ثقات كما قال محققوه، وهو برقم (٢٦٠٣١) وبلغظ الظلم بدلاً من الديوان، في مسند البزار (٣٤٣٩) قال الهيثمي في «مجمع الزوائد» (٣٤٨/١٠): رواه أحمد، وفيه صدقة بن موسى، ضعفه الجمهور، ورواه البزار عن شيخه أحمد بن مالك القشيري ولم أعرفه، وبقية رجاله قد وثّقوا، ورواه الطيالسي في «مسنده» (٦٠/٢) وأبو نعيم في «الحلية» (٣٠٩/٦) وفيه يزيد الرقاشي ضعيف، وأخرجه البيهقي في «الشعب» (٣٤٧٣) وابن أبي حاتم (٦٦٤٣) ويُنظر: «السلسلة الصحيحة» (١٩٢٧).

(٢) «صحيح مسلم» برقم (٩٣) وعن ابن مسعود برقم (٩٢) والبخاري (١٢٣٨، ٤٤٩٧).

(٣) رواه أبو يعلى ورجال الصريح غير حرب بن سريج ففيه كلام، «مجمع الزوائد» (٥/٧).

تجعل قبري من بعدي وثناً يعبد»^(١).

فلو أن الناس توجهوا إلى قبر الرسول ﷺ، وسألوه دفع الضر وجلب الخير والنفع، وطلبوا منه ما هو من خصائص الله سبحانه، فإن قبره ﷺ يصبح وثناً، أو صنماً يعبد من دون الله.

والعرب قديماً كانوا لا يعرفون الشرك، وكانوا يعبدون الله تعالى على الحنيفية، ملة إبراهيم وهي التوحيد الخالص، حتى خرج رجل من الجزيرة اسمه (عمرو بن لحي) الذي يقول عنه النبي ﷺ: «إني رأيته يجرُّ أمعاءه في النار»^(٢).

وهو أول من بحر البحيرة، وسيب السائب، فقد خرج هذا الرجل إلى الشام متاجراً، وخرج إلى البلقاء في الأردن، فوجد العمالقة يعبدون الأصنام من دون الله، فسألهم صنماً وقال لهم: ماذا تفعلون به؟ قالوا: نستشفع به، ونستنصر به، فجاء بهذا الصنم إلى مكة، وهذا هو مبدأ وجود الشرك في الجزيرة من هذا التاريخ.

وظل الناس بعد ذلك كل من سافر منهم من مكة يأخذ معه حجراً يتبرك به، فإن لم يجد حجراً جاء بحفنة من التراب وصب عليها حلياً من صرغ الشاة أو الناقة ثم يعجنها ويسويها إلهاً، وهكذا.

ومجمل معنى الآية: إن الله لا يغفر ولا يتجاوز عمن أشرك به أحداً من مخلوقاته، أو كفر بأي نوع من أنواع الكفر، ويتجاوز ويعفو عما دون الشرك من الذنوب لمن يشاء من عباده، ومن يشرك بالله غيره فقد اختلق ذنباً عظيماً.

الْيَهُودُ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ بِتَزْكِيَّتِهِمْ لِأَنْفُسِهِمْ

٤٩- ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يُزَكُّونَ أَنْفُسَهُمْ بَلِ اللَّهُ يُزَكِّي مَن يَشَاءُ وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا﴾

في هذه الآية تعجب من أمر اليهود الذين يحرفون الكلم عن مواضعه، ويتناولون على

(١) الحديث عن جابر وابن عمر وأبي هريرة في البيهقي والحميدي (١٠٢٥) وأبي داود والمسند (٧٣٥٨) بألفاظ متقاربة وأخرجه ابن عبد البر في التمهيد (٤٣/٥) وعبدالرزاق عن زيد بن أسلم مرسلًا بلفظ (يصلى إليه) وانظر فيض القدير (٥٩٩٥) والموطأ مرسلًا عن عطاء بن يسار (١١٢/١).

(٢) ينظر مسند أحمد عن ابن مسعود والجامع الصغير (٣٤٠٨٩) وكتر العمال المجلد الثاني عشر.

رب العزة جلّ وعلا، وهم يزكون أنفسهم ويئون عليها، ويكذبون على الله تعالى، ويدعون أنهم مقربون إليه.

جاء عدد من اليهود إلى النبي ﷺ معهم أطفال وصبيان، وسألوه: هل على هؤلاء من ذنب؟ قال: «لا»، قالوا: ما نحن إلا كهؤلاء الأطفال، مبرؤون من كل ذنب، ما عملناه بالنهار، يُكفّر بالليل، وما عملناه بالليل يكفر بالنهار، فهذا الذي زكوا به أنفسهم^(١).

وقيل: إنهم قالوا للنبي ﷺ: إن لنا آباءً سبقونا، وهم يشفعون لنا^(٢).

وقيل: نزلت في اليهود والنصارى الذين قالوا: ﴿نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ وَأَحِبُّونَهُ﴾ [المائدة: ١٨].
﴿وَقَالُوا لَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَنْ كَانَ هُودًا أَوْ نَصْرَى﴾ [البقرة: ١١١].

﴿وَقَالُوا لَنْ تَمَسَّنَا الْفَكَاكُ إِلَّا أُنِيسًا مَعْدُودَةً﴾ [البقرة: ٨٠]. وفي هذا مدح وتركية للنفس.

والله سبحانه تعالى يخاطب رسوله ﷺ ويلفت نظر كل مخاطب إلى الذين يثنون على أنفسهم وأعمالهم، ويصفونها بالطهر والبعد عن سوء، فيبين أنهم مخطئون في ذلك، والله وحده هو الذي يثني على من يشاء من عباده؛ لعلمه بحقيقة حالهم وأعمالهم، لا ينقص منها ولا قدر الخيط الذي يكون في ظهر النواة.

فالذين يزكون أنفسهم يعاقبون على تلك التزكية، والذين يزكيهم الله تعالى لا ينقصون من ثواب أعمالهم شيئاً.

وثناء الناس على العبد في غيبته هو من عاجل ثوابه في الدنيا، وليس مؤاخذاً عليه، والله سبحانه ينهاهم، وينهى كل مسلم أن يزكي نفسه؛ لأن حقيقة التقوى مردّها إلى الله سبحانه.

والتزكية: مدح الإنسان نفسه بالصلاح والدين، وهي صفة باطنية متعلقة بالتقوى، وزيادة القربى إلى الله تعالى، ولا يعلم ذلك إلا هو سبحانه ﴿فَلَا تَزْكُوا أَنْفُسَكُمْ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اتَّقَى﴾ [النجم: ٣٢]. قال تعالى ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْكُونَ أَنْفُسَهُمْ﴾ وهم اليهود؛ فهم يقولون:

(١) الواحدى (١٣٢) والسيوطى (٧٥) و«زاد المسير» (١٠٤/٢) وتفسير الكشاف (٢/٢٥٠) وانظر: «تفسير

الطبري» (١٢٥/٧) وابن أبي حاتم (٥٤٣٠).

(٢) الطبري (١٢٧/٧) عن ابن عباس.

إنهم شعب الله المختار، وأنهم خلقوا من نطفة تختلف عن نطفة غيرهم، وأن الله تعالى فضّلهم على العالمين إلى يوم الساعة، يقول الله سبحانه: ﴿بَلِ اللَّهُ يُرَكِّي مَن يَشَاءُ﴾ بالإيمان والعمل الصالح والأخلاق الحميدة، قال تعالى ﴿بَلَى مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُ أَجْرُهُ عِنْدَ رَبِّهِ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [البقرة: ١١٢] وليس لأحد أن يزكي نفسه، أو يمدح نفسه، فيصفها بالصلاح، أو البر، أو التقوى، أو القرب من الله تعالى، وفي حديث معاوية أنه سمع النبي ﷺ يقول: «ياكم والتماذج؛ فإنه الذبح»^(١).

لقد نهينا عن المدح والتزكية للنفس، وبيّن النبي ﷺ أن من يمدح نفسه أو يمدح غيره في وجهه، فقد خرج عن أدب الإسلام، لا سيّما المتملّقين والمنافقين والمتزلفين الذين ينافقون الرؤساء والحكام ومن يرأسونهم في أعمالهم، ومن هم أكبر جاهًا ومنزلة منهم، فيأمرنا عليه الصلاة والسلام أن نحشو التراب في وجوه المدّاحين^(٢).

ولما سمع النبي ﷺ رجلاً يثني على رجل قال له: «ويحك قطعت عنق صاحبك» أي: كأنك قتلتَه بمدحك له، وثنائك عليه «إن كان أحدكم مادحًا صاحبه لا محالة فليقل: أحسبه كذلك، ولا أزكي على الله أحدًا»^(٣).

ومدح الرجل غيره في غيبته تحريضًا للناس على التشبه به، لا بأس به؛ فقد مدح النبي ﷺ في الشُّعر والخُطب والمخاطبة، وكان لحسان بن ثابت منبر في المسجد لهذا الغرض، وقد مدح النبي أصحابه في قوله: «إنكم لتقلون عند الطمع وتكثرون عند الفزع»^(٤).

والله تعالى لن يَحْرِمَ أحدًا مما هو جدير به، وتزكية الله لأحد ليس فيها ظلم؛ لأنه

(١) سنن ابن ماجه برقم (٣٧٤٣) و«صحيح ابن ماجه» برقم (٣٠١٧) وحسنه البوصيري والألباني وهو جزء من حديث في «المسند» (٩٣/٤) برقم (١٦٩٠٣، ١٦٨٣٧) بإسناد صحيح ورجال ثقات رجال الشيخين، (محققوه) وأخرجه البيهقي في الشعب (٤٨٧٠) والطبراني في الكبير (٨١٧). وهو في «السلسلة الصحيحة» (١١٩٦، ١٢٨٤).

(٢) «صحيح مسلم»، كتاب الزهد عن المقداد بن الأسود (٢٩٩/٨) برقم (٣٠٠٢).

(٣) «صحيح البخاري»، كتاب الشهادات، من حديث عبد الرحمن بن أبي بكره عن أبيه (٢٣١/٣) وكتاب الأدب (٢٢/٨) برقم (٢٦٦٢) ومسلم، كتاب الزهد (٢٢٧/٨) برقم (٣٠٠٠).

(٤) ينظر الجامع الصغير (٣٧٩٥١) عن أنس، وكنز العمال، المجلد الرابع عشر.

سبحانه يقول الحق ولا يظلم أحداً.

وقد ختم الله الآية بقوله ﴿وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا﴾ أي لا يظلمون شيئاً ولا مقدار الفتيل الذي هو في شق النواة.

والمعنى ألم يبلُغك أيها المخاطب خبر هؤلاء اليهود الذين يمدحون أنفسهم، ويصفونها بالتقوى والطاعة، مع ما هم عليه من الكفر وسوء الأخلاق، وليس الأمر - كما يزعمون - بتزكيتهم أنفسهم؛ لأن الله تعالى أعلم بحقائق الأمور وغوامضها، وهو الذي يزكي الأطهار الأبرار من عباده، ولا يزكي الأشرار.

والمسلم لا يثني على نفسه، ولا يقرُّ أحداً على الثناء عليه في حضوره أو في وسائل الإعلام، بل يكون متواضعاً غير محب للفخر، أو الزَّهو والظهور.

ولما دخل رجل على رسول الله ﷺ ترتعش فرائضه خوفاً منه قال له ﷺ: «هُون عليك، فإنما أنا ابن امرأة كانت تأكل القديد في هذه البطحاء»^(١)

والمسلم يعمل بإخلاص وتفانٍ في صمت وتسترٍ، إن كان في مؤخرة القوم لا يغضبه ذلك، وإن كان في مقدمة القوم لا يفرحه ذلك، ويعمل بجِدٍّ وإقبال في كلتا الحالتين.

كما حدث في فتح إحدى المدن الإسلامية، حيث خصَّص (مسلمة) قائد الجيش، جائزة لمن يفتح نقباً في الحصن، فقام جُندي مجهول بهذه المهمة، وفتحت المدينة، ومكث قائد الجيش ينادي في خطبته أياًماً: أين صاحب النقب؟ حتى قال: عزمْتُ عليه أن يأتيني، فجاءه رجل ملثَّم وقال: أنا أخبرك عنه لكنه يشترط ألا تسأله عن اسمه، ولا تعطه جائزة، ولا ترفع أمره للخليفة، فقبل القائد بالشروط، فقال الرجل: أنا هو، وانصرف مسرعاً - وكان ملثَّمًا حتى لا يعرفه أحد - فصار (مسلمة) كلما اجتهد في الدعاء يقول: اللهم اجعلني مع صاحب النقب.

أين هذا ممَّن يحبون أن يحمدا بما لم يفعلوا، ومن يَمْتَنُّون على الناس في وسائل الإعلام بأياديهم البيضاء؟ ألم يسمعوا قول النبي ﷺ عن أحد السبعة الذين يظلمهم الله في ظله يوم لا ظل إلا ظله: «رجل تصدَّق بصدقة فأخفاها حتى لا تعلم شماله ما تنفق

(١) أخرجه الحاكم عن جرير (٤٦٦/٢) وصححه الألباني في «السلسلة الصحيحة» (١٨٧٦).

يَمِينِهِ»^(١)؟ أَلَمْ يَقْرَأُوا قَوْلَ اللَّهِ سُبْحَانَهُ: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَبْلُغُوا صِدْقَتَكُمْ بِالْمَنِّ وَالْأَذَى﴾؟ [البقرة: ٢٦٤]. قال تعالى:

٥٠- ﴿أَنْظُرْ^(٢) كَيْفَ يَقْرَءُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَكَفَى بِهِ إِثْمًا مُّبِينًا ﴿٥٠﴾﴾

والله تعالى يقول عن اليهود الذين يزكون أنفسهم متعجباً من أمرهم وأمثالهم: ﴿أَنْظُرْ كَيْفَ يَقْرَءُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ﴾ في تركيتهم لأنفسهم بأنهم على حق وما عليه المسلمون على باطل، وهذا من أعظم الكذب، وقلب الحقائق، ومن ذلك قولهم: إنهم شعب الله المختار، وغير ذلك، مع ارتكابهم الأفعال القبيحة والأقوال المذمومة في جانب الله تعالى والله سبحانه المنزه عن كل نقص، ولهذا قال تعالى: ﴿وَكَفَى بِهِ إِثْمًا مُّبِينًا﴾ أي: وكفى بهذا الاختلاق والافتراء ذنباً كبيراً كاشفاً عن فساد معتقدتهم، موجباً للعقوبة البالغة والعذاب الأليم.

الْيَهُودُ يَتَحَالَفُونَ مَعَ غَيْرِهِمْ لِاسْتِئْصَالِ شَافَةِ الْمُسْلِمِينَ

٥١- ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِّنَ الْكِتَابِ يُؤْمِنُونَ بِالْجِبْتِ وَالطَّلُوتِ وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا هَؤُلَاءِ^(٣) أَهْدَىٰ مِنَ الَّذِينَ ءَامَنُوا سَبِيلًا ﴿٥١﴾﴾

وكيف يزكي اليهود أنفسهم وهم يؤمنون بالباطل وما لا يستند إلى دليل، ويشهدون لأهل الشرك الوثنيين بأنهم خير وأهدى من المؤمنين.

في أعقاب غزوة أحد، خرج سبعون من يهود المدينة، منهم: حُيَيُّ بن أخطب، وكعب بن الأشرف إلى مكة، لمقابلة رؤسائها: أبي سفيان ومن معه؛ لنقضهم العهد الذي بينهم وبين النبي ﷺ والتحالف مع قريش على قتال الرسول ﷺ؛ لاستئصال شافة المسلمين،

(١) من حديث أبي هريرة في «صحيح مسلم» (١٠٣١) والبخاري (١٤٢)، ٦٦٠، (٦٤٧٩).

(٢) (فتيلاً أَنْظُرْ) عند وصل هاتين الكلمتين ببعضهما قرأ أبو عمرو وعاصم وحزمة ويعقوب وابن ذكوان بخلف عنه بكسر التنوين وصلاً، وقرأ الباقون بالضم وصلاً، وعند البدء بكلمة (انظر) فكل القراء يضمون همزة الوصل؛ نظراً لأن الحرف الثالث مضموم ضمّاً أصلياً.

(٣) قرأ نافع وابن كثير وأبو عمرو وأبو جعفر ورويس بإبدال همزة ﴿هَؤُلَاءِ أَهْدَىٰ﴾ المفتوحة ياء خالصة، وحققتها غيرهم.

بعد أن هُزموا في أحد، فلما ذهبوا إليهم نزل كعب على أبي سفيان، ونزل بقية الوفد في دور قريش، فقال لهم المشركون: أنتم أهل كتاب، ولعلكم تكونون أدنى إلى محمد منّا، فلا نأمن مكركم، فقالوا لهم: إن عبادة الأصنام أرضى عند الله تعالى مما يدعو إليه محمد وأنتم أهدي سبيلاً منهم، فقال مشركو مكة إلى كعب بن الأشرف ومن معه: إن أردتم أن نخرج معكم فاسجدوا لهذين الصنمين، فسجدوا، وهذا معنى ﴿يُؤْمِنُونَ بِالْجِبْتِ وَالطَّاغُوتِ﴾ .

قال كعب بن الأشرف لأهل مكة: لِيَجِيئَ مِنْكُمْ ثَلَاثُونَ رَجُلًا وَمِنَّا ثَلَاثُونَ، فَتُلْزَقَ أَكْبَادُنَا بِالْكَعْبَةِ، فَنُعَاهِدَ رَبَّ الْكَعْبَةِ عَلَى قِتَالِ مُحَمَّدٍ ﷺ ففعلوا، ثم قال أبو سفيان ومن معه من المشركين لكعب ومن معه من اليهود: أنتم أهل العلم بالكتاب الأول، وأصحاب علم بالتوراة، ومحمد أهل كتاب، ونحن نسألكم: أنحن خير وأهدى سبيلاً، أم محمد وأصحابه؟ أديننا خير، أم هم؟ قال كعب لأبي سفيان: اعرض عليّ دينكم، فقال أبو سفيان: نحن نصل الأرحام، ونطعم الحجيح ونسقيهم، وفينا السقاية والرفادة والسدانة للبيت، ونحن نكرم الضيف، وننحر له الكوماء. ومحمد قطع أرحامه، وفارق دين آبائه، وديننا قديم، ودين محمد حديث. فقال اليهود للمشركين: أنتم خير وأهدى سبيلاً فأنزل الله هذه الآية^(١).

وعن عكرمة عن ابن عباس ؓ قال: لما قدم كعب بن الأشرف مكة، أتوه فقالوا: نحن أهل السقاية والسدانة، وأنت سيد يثرب، فنحن خير، أم هذا الضنبيير المُنْبِتُّ من قومه يزعم أنه خير منّا؟ فقال: أنتم خير منه. فنزل على رسول الله ﷺ ﴿إِنَّ شَأْنَكُمْ هُوَ الْأَبْتَرُ﴾ [الكوثر] ونزلت هذه الآية^(٢).

وإيمان اليهود بالجبت والطاغوت، وتصوبيهم للمشركين بعيد عن أصول شرعهم بمراحل شاسعة؛ لأن ذلك ليس من قواعد التوراة، ففي أول كلماتها العشر: (لا يكن لك آلهة أخرى أمامي، لا تصنع لك تمثالاً منحوتاً، لا تسجد لهن ولا تعبدهن) فكان من

(١) مرسل، وسنده إلى عكرمة صحيح، وقد رويته بالمعنى، والكوماء: الناقة عالية السنام، يُنظر: «زاد المسير» (١٠٦/٢) والقرطبي (٢٤٩/٥) والسيوطي في «أسباب النزول» (٧٦) وعبد الرزاق (١٦٤/١) والطبري (١٤٣/٧).

(٢) ابن حبان، الإحسان برقم (٦٥٧٢) و«تفسير الطبري» برقم (٩٧٨٦) وعزاه ابن كثير للبزار وقال: إسناده صحيح (٥٩٨/٤) وهو في الطبراني (١١٦٤٥) والبيهقي في الدلائل (١٩٣/٣).

الواجب على اليهود ألا يقعوا في هذا الخطأ الفاحش، ولو أدى بهم الأمر إلى خذلان المشركين وعدم نصرتهم؛ لأن هذا الموقف يناقض ما في التوراة، وهي تنفرهم من عبادة الأصنام.

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيحًا مِّنَ الْكِتَابِ﴾ وهم: اليهود، كعب بن الأشرف ومن معه ﴿يُؤْمِنُونَ بِالْجِبْتِ وَالطَّاغُوتِ﴾ والجبت: هو الشيطان والكاهن والساحر، وأصلها جَبْتُ، وهو ما لا خير فيه، وهي كلمة حبشية معربة.

والطاغوت: كل ما عُبد من دون الله، أو شرع له شرعاً غير شرع الله، فقد سجدوا للأصنام لما طُلب منهم مشركو مكة ذلك، وكل من طُلب منه الخير أو الشر، والنفع أو الضر فهو طاغوت، وكل من دعا غير الله، وذبح أو نذر لغير الله، فهو مؤمن بالجبت كما فعل اليهود، وكما يفعل المشركون، وكل من اتخذ مشرعاً له غير الله، أو هدياً غير هدي الله، فهو مؤمن بالطاغوت، متعدياً على خصائص الله، فالجبت والطاغوت اسمان لكل ما عظمه الناس من دون الله، فخضعوا له وأطاعوه مِنْ حَجَرٍ، أو إنسان، أو شيطان.

وقد فسّر عمر بن الخطاب الجبت بأنه الساحر والطاغوت هو الشيطان^(١).

وقال أبو العالية: **الطاغوت:** الساحر، **والجبت:** الكاهن.

فيدخل في الجبت **والطاغوت:** السحر والكهانة، وعبادة غير الله تعالى، وطاعة الشيطان، والحكم بغير ما أنزل الله، واعتقاد النفع والضرر في أحد من خلق الله.

معنى الآية: ألم تعلم - يا محمد - أمر اليهود الذين أعطوا حظاً من العلم يصدقون بكل ما يعبد من دون الله من الأصنام، ومن شياطين الإنس والجن، ويقولون للذين كفروا بالله تعالى ورسوله محمداً ﷺ: هؤلاء الكافرين أقوم وأعدل طريقاً من المؤمنين، حسداً منهم لصاحب الرسالة ﷺ، وقد حملهم هذا الحسد على تفضيل عبدة الأصنام على المؤمنين، كما حملهم عليه تملقهم ومداهمتهم للكافرين وإلا فهل يُفَضَّل دين قام على عبادة الأصنام والأوثان، وتحريم الطيبات وإباحة الخبائث، وتسوية الخالق بالمخلوق، والكفر بالله ورسله وكتبه، هل يُفَضَّل هذا دين قام على عبادة الرحمن، والإحسان

(١) يُنْظَر: سعيد بن منصور (٦٤٩) تفسير، والطبري (٥٥٦/٤) وابن المنذر (١٨٧٨) وابن أبي حاتم (٥٤٤٣، ٥٤٤٩) و«فتح الباري» (٢٥٢/٨).

إلى المخلوقين، وصلة الأرحام، وإقامة العدل بين الناس، وتحريم الخبائث والصدق في الأقوال والأفعال؟ القول بهذا جهل فاضح، وضرب من الهذيان، وغاية في العناد والتمرد، وإبطال للحق وافتراء على الله تعالى. قال سبحانه معقبًا على ما فعله اليهود:

٥٢- ﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ وَمَنْ يَلْعَنِ اللَّهُ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ نَصِيرًا ۝٥٢﴾

وهذا لعن لهم وطرده وإبعاد من رحمة الله تعالى في الدنيا والآخرة، ومن يلعنه الله فلن تجد له وليًا يتولاه ويقوم بمصالحه ويحفظه عن المكاره، وهذا غاية الخذلان، ولا نصيرًا يدفع عنه عذاب الله تعالى يوم لقائه، فإذا كان الغرب كله نصيرًا لليهود، فإن وعيد الله تعالى لهم باللعة وعذاب جهنم ليس له نصير، ولا دافع يدفعه.

أولئك الذين كثر فسادهم، وعمَّ ضلالهم، لقد طردهم الله تعالى من رحمته؛ فلن تجد لهم من ينصرهم، ولا من يدفع عنهم سوء العذاب.

قال قتادة: نزلت هذه الآية في كعب بن الأشرف وحيي بن أخطب، رجلين من يهود بني النضير، فلقيا قريبًا بالموسم، فقال لهما المشركون: أنحن أهدي، أم محمد وأصحابه، فإنا أهل السدانة - أي: خدمة الكعبة - والسقاية - أي: سقاية الحجيج، وتأمين المياه لهم - ونحن أهل الحرم؟ فقالا: بل أنتم أهدي من محمد وأصحابه، فأنزل الله تعالى ﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ﴾ فلما رجعا إلى قومهما بالمدينة، أخبروهما بما نزل فيهما من قرآن، فقالا: صدق والله، ما حملنا على ذلك إلا بغضه وحسده^(١).

الْيَهُودُ يَكْفُرُونَ بِالْإِسْلَامِ حَسَدًا لِأَهْلِهِ

٥٣- ٥٥ ﴿أَمْ لَهُمْ نَصِيبٌ مِنَ الْمُلْكِ فَإِذَا لَا يُؤْتُونَ النَّاسَ نَقِيرًا ۝٥٣ أَمْ يَحْسُدُونَ النَّاسَ عَلَىٰ مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ فَقَدْ آتَيْنَا آلَ إِبْرَاهِيمَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَءَاتَيْنَاهُمْ مُلْكًا عَظِيمًا ۝٥٤ فَمِنْهُمْ مَنْ ءَامَنَ بِهِ وَمِنْهُمْ مَنْ صَدَّ عَنْهُ وَكَفَىٰ بِجَهَنَّمَ سَعِيرًا ۝٥٥﴾

أي: هل هؤلاء اليهود الذين منحوا حلفاءهم شيئًا من النصر، لهم نصيب من الملك،

(١) «أسباب النزول» للواحدي (١٣٣) و«تفسير الطبري» (١٤٦/٧) وابن المنذر (١١٨٥) وابن أبي حاتم (٥٤٥٩).

يشاركون الله فيه، فيعطون من شأؤوا ويمنعون من شأؤوا، فهم شركاء لله في تدبير ملكه؟! فإذا كان الأمر كذلك فلن ينتفع أحد منهم بشيء، ولا بمثل البروز الصغير الذي يكون في رأس النواة لأنهم أشد الناس حرصًا، ﴿فَإِذَا لَا يُؤْتُونَ النَّاسَ نَقِيرًا﴾ أي: ولا يعطون ما يملأ النقطة التي تكون في قلب النواة، أو أدنى من ذلك، فهم أبخل الناس وأبعدهم عن القسط والعدل، ولذا فقد عَقَبَ الله سبحانه على ذلك بقوله: ﴿أَمْ يَحْسُدُونَ النَّاسَ﴾ المراد بالناس: محمد ﷺ ﴿عَلَىٰ مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ﴾ المراد بالفضل: النبوة والعلم والحكمة، فليس لهم مستند ولا حجة في تكذيب محمد ﷺ، وليس تكذيب محمد ﷺ بأعجب من تكذبيهم لأبناء يعقوب وعقبه ونسله، فقد أعطاهم الله النبوة والحكمة، ومنهم داود وسليمان ولوط وغيرهم، فمنهم من صدَّقهم ومنهم من كذَّبهم.

والمعنى: بل ألَّهم حظ من الملك، ولو أوتوه لما أعطوا أحدًا منه شيئًا، ولو كان مقدار النقرة التي في قلب النواة.

وليس اليهود بخلاء فقط، بل إن فيهم صفة أقبح من ذلك وهي الحسد، وهم بهذا الحسد قد ضلوا وسلخوا طريق الشيطان، واختلفوا في الإيمان برسالة من أرسل منهم، فلا يُنتظر منهم أن يؤمنوا بمن هو خارج عنهم.

وقد حسد اليهود محمدًا ﷺ وأبغضوه؛ لأن النبوة انتقلت من بني إسرائيل إلى العرب بعدما ظَلَّتْ فيهم مدة طويلة، فهم يتمنون أن تعود النبوة إليهم، ويكونوا أهل ملك وحُكم، والله ﷻ يقرر أنه لو حصل ذلك، فإنهم سيمنعون فضل الله تعالى عن الناس، فيمنعونهم خيره ويكتمون رسالته، كما قال تعالى: ﴿قُلْ لَوْ أَنْتُمْ تَمْلِكُونَ خَزَائِنَ رَحْمَةِ رَبِّي إِذَا لَا تُمَسِّكُمُ خَشْيَةُ الْإِنْفَاقِ وَكَانَ الْإِنْسَنُ قَتُورًا﴾ [الإسراء: ٨٠].

والمعنى: بل أychسدون محمدًا ﷺ على ما أعطاه الله من نعمة النبوة والرسالة، ويحسدون أصحابه على نعمة التوفيق إلى الإيمان، والتصديق بالرسالة، والتمكين في الأرض، ويتمنون زوال هذا الفضل عنهم، فقد أعطينا ذرية إبراهيم - من قبل - الكتب التي أنزلها الله عليهم، وأعطيناهم ملكًا واسعًا، فكيف ينكرون إنعامه بالنبوة والنصر لمحمد ﷺ وهو أفضل الخلق وأكرمهم عند الله منزلة.

جاء عن ابن عباس ؓ أن أهل الكتاب قالوا: زعم محمد أنه أوتي ما أوتي في تواضع

وله تسع نسوة، وليس همُّه إلا النكاح، فأَيُّ مُلْكٍ أَفْضَلُ مِنْ هَذَا؟ فَأَنْزَلَ اللَّهُ هَذِهِ الْآيَةَ إِلَى قَوْلِهِ ﴿مُلْكًا عَظِيمًا﴾ يعني: ملك سليمان^(١).

وقال قتادة: أولئك اليهود حسدوا هذا الحيَّ من العرب على ما آتاهم الله من فضله، بعث الله منهم نبيًّا، فحسدوهم على ذلك^(٢).

وفي حديث أبي هريرة ؓ أن النبي ﷺ قال: «لا يجتمع في قلب عبد الإيمان والحسد»^(٣).

وفي لفظ آخر «لا يجتمعان في جوف عبد: غبار في سبيل الله، ودخان جهنم، ولا يجتمعان في قلب عبد: الإيمان والشح»^(٤).

فليس محمد وحده هو الذي أُوتِي النبوة والكتاب والحكمة، بل هناك الكثير من الرسل آتاهم الله ذلك من اليهود وغيرهم، وهم غارقون في فضل الله تعالى، من عهد إبراهيم ؑ، وذريته من بعده كداود وسليمان، ولكنهم لم يُجمعوا على الإيمان بنبوتهم، ومنهم من آمن بمحمد ﷺ ومنهم من صدَّ عنه، وكفى بجهنم عقوبة لمن كفر وعاند، فمن هؤلاء الذين أوتوا حظًّا من العلم مَنْ صدَّق برسالة محمد ﷺ، وعمل بشرعه، ومنهم من أعرض ولم يستجب لدعوته، ومنع الناس من اتباعه، وحسبكم - أيها المكذبون - نار جهنم تُسَّعَّر بكم.

مَصِيرُ الْكَافِرِ وَمَصِيرُ الْمُؤْمِنِ

٥٦- ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا سَوْفَ نُصْلِيهِمْ نَارًا كَلِمًا تَضَجَّتْ جُلُودُهُمْ بِدَلَّتْهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا الْعَذَابَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾ ﴿٥٦﴾

يُخْتَمِمْ هَذَا الرَّبْعُ بِآيَةٍ تَبَيَّنَ شِقَاءُ الْكَافِرِ، وَمَصِيرُهُمْ فِي الْآخِرَةِ، وَعَذَابُهُمْ فِيهَا، وَآيَةٌ أُخْرَى تَبَيَّنَ مَا أَعَدَّ اللَّهُ تَعَالَى لِأَهْلِ السَّعَادَةِ مِنَ النِّعَمِ الْآخِرِيِّ، وَهِيَ قَاعَةُ الْجَزَاءِ فِي كُلِّ دِينٍ،

(١) الطبري (١٥٦/٧) وابن أبي حاتم (٥٤٧٠).

(٢) الطبري (١٥٥/٧).

(٣) صحيح «سنن النسائي» (٢٩١٢) بتحسين الألباني له، وفي التعليق الرغيب (١٦٧/٢).

(٤) «المسند» (٨٤٧٩) حديث صحيح وإسناد قوي كما قال محققوه، وابن حبان (٤٦٠٦) والبيهقي في

«الشعب» (٦٦٠٩)، والطبراني في الصغير (٤١٠).

جزاء المؤمنين وجزاء المكذبين؛ فجزاء الكافرين المكذبين نارًا مؤجلة، عظيمة الوقود، شديدة الحرارة في مقابله جنة نعيم، جلود مشوية في احتراق متجدد، في مقابله خلود دائم في النعيم، وأزواج مطهرة، سَموم وحميم، في مقابله ظل ظليل، ومشهد النعيم، كلما احترقت جلودهم ولم يبق فيها حياة ولا إحساس، عَوَضَانَهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا، مع بقاء نفس صاحبها، عذاب مستمر متجدد، دائم غير منقطع ﴿بَدَّلْنَاهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا الْعَذَابَ﴾. ليلغ العذاب منهم كل مبلغ، وتكرار العذاب بسبب تكرار الكفر والعناد، جزاء وفاقا.

وبعد إعادة الجلد الأول مرات ومرات، وهو منطقة الحساسية والألم من الجسم، لا يموت الكافر في جهنم ولا يحيى، وإذا كان هذا العذاب يخص الكافر؛ فإن المؤمن عليه أن يعتبر وينزجر ويشفق على نفسه أن يصيبه أدنى شيء من الشرك أو الكفر.

سمع عمر رضي الله عنه هذه الآية فطلب من القارئ أن يعيدها فأعادها، فقال معاذ بن جبل: عندي تفسيرها، تُبَدَّلُ الجلود في كل ساعة مئة مرة، فقال عمر: هكذا سمعت رسول الله ﷺ ^(١).

وسمع عمر أيضًا رجلًا يقرأ سورة الطور إلى قوله تعالى: ﴿إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَاقِعٌ﴾ (٧) مَا لَكَ مِنْ دَافِعٍ (٨) [الطور] فارتكن إلى الجدار، ثم رجع إلى بيته يعود الناس شهرًا مما ألمَّ به.

سمع بعض المشركين هذه الآية فقال: لقد تصدَّع فؤادي وكاد قلبي أن يطير.

أما الحسن البصري فقد أتى له بإناء فيه ماء بارد، فَلَمَسَهُ ثم أَغْمِيَ عليه، وبعد أن أفاق سئل عن سبب إغمائه، فقال: تذكرت وأنا أَلْمَسُ هذا الماء البارد قول الله سبحانه في يوم القيامة: ﴿وَنَادَىٰ أَصْحَابُ النَّارِ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ أَنِ افْضُوا عَلَيْنَا مِنَ الْمَاءِ أَوْ مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ حَرَّمَهَا عَلَى الْكَافِرِينَ﴾ (٥٦) [الأعراف].

ونحن نرتع في نعيم الله تعالى، في صباحنا ومساءنا وغدونا ورواحنا، في نعيم لا حصر لها، ولا تُؤدي شكرها بامثال الأوامر واجتناب النواهي واتباع الشبهات.

والمعنى: إن الذين جحدوا ما أنزل الله من آياته، ووحى كتابه، ودلائله وحججه، سوف ندخلهم نارًا يقاسون حرَّها، كلما احترقت جلودهم بدَّلهم الله جلودًا أخرى؛ ليستمر عذابهم وألمهم، إن الله كان عزيزًا لا يمتنع عليه شيء، حكيماً في تدبيره وقضائه،

(١) «تفسير ابن كثير» (٢/ ٣٣٧) وهو عند ابن أبي حاتم (٥٤٩٣) والطبراني في الكبير (٤٥١٧) بإسناد فيه نظر.

قال تعالى في بيان نعيم أهل الجنة مقابل شقاء أهل النار السابق ذكره:

٥٧- ﴿وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا لَّهُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ مُطَهَّرَةٌ وَنُدْخِلُهُمْ ظِلًّا ظَلِيلًا ﴿٥٧﴾﴾

أما المؤمنون الذين آمنوا وعملوا الصالحات، فسيدخلهم الله تعالى جنات تجري من تحتها الأنهار؛ أنهار من خمر وعسل ولبن، وماء غير آسن لا يختلف ولا يتغير كما في الدنيا ﴿لَهُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ مُطَهَّرَةٌ﴾ من الحيض والنفس، ومطهرة من العيوب الخلقية ﴿وَنُدْخِلُهُمْ ظِلًّا ظَلِيلًا﴾ وارفًا جميلًا لا يصيب صاحبه حرٌّ ولا سموم، وهو ظل دائم لا تنسخه الشمس ﴿وَلَهُمْ رِزْقُهُمْ فِيهَا بُكْرَةً وَعَشِيًّا﴾ [مريم: ٦٢].

والمعنى: والذين اطمأنت قلوبهم بالإيمان بالله تعالى، والتصديق برسالة محمد ﷺ واستقاموا على الطاعة، فرائضها ونوافلها، واجباتها ومستحباتها، سيدخلهم الله جنات يُنعمون فيها أبدًا ولا يخرجون منها، ولهم فيها أزواج طهرها الله سبحانه من كل أذى، ومن كل خلق ذميم، مما يكون في نساء الدنيا، ويدخلهم ظلًا كثيفًا ممتدًا في الجنة. ﴿مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعدَ الْمُتَّقُونَ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ أُكُلُهَا دَائِمٌ وَظُلُّهَا نَارٌ لَكَ عُقْبَى الَّذِينَ اتَّقَوْا وَعُقْبَى الْكَافِرِينَ النَّارُ﴾ [الرعد: ٣٥]

عن أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «إن في الجنة لشجرة يسير الراكب في ظلها مائة عام لا يقطعها، شجرة الخلد»^(١).

وظل الجنة: وُصف هنا بأنه ظل ظليل، ووُصف في آية أخرى بأنه ظل دائم كما قال تعالى: ﴿أُكُلُهَا دَائِمٌ وَظُلُّهَا﴾ [الرعد: ٣٥].

ووُصف في آية ثالثة بأنه ظل ممدود ﴿وَزُلْزِلَ زُلْزُلًا مَدِيدٌ﴾ [الواقعة].

وبين سبحانه في آية رابعة أن الظلال متعددة ﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي ظِلِّلٍ وَعُيُونٍ﴾ [المرسلات].

وبين جلَّ شأنه في آية خامسة أن أهل الجنة يتكئون مع أزواجهم على الأرائك في تلك

(١) «تفسير الطبري» (٤٨٩/٨) وهذا لفظه وهو في «صحيح مسلم» (٢٨٢٦) وعن سهل بن سعد برقم (٢٨٢٧) والبخاري (٣٢٥٢، ٤٨٨١).

الظلال فقال: ﴿هُمْ وَأَزْوَاجُهُمْ فِي ظِلِّ عَلَى الْأَرْيَافِ مُتْكُونَ﴾ [يس: ٥٦] .

آيةُ الأَمْرَاءِ وَالْحُكَّامِ: الْأَمَانَةُ وَالْعَدْلُ مِنْ سِمَاتِ الْمُجْتَمَعِ الْمُسْلِمِ

٥٨- ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ^(١) أَنْ تُؤَدُّوا^(٢) الْأَمَانَاتِ إِلَى أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ أَنْ تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ إِنَّ اللَّهَ نِعِمَّا^(٣) يَعْظُمُ بِهِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ سَمِيعًا بَصِيرًا﴾ (٥٨)

إن القرآن الكريم، فيه أمور الدين والدنيا، وفيه أحداث الساعة، والأحكام الفقهية، والسيرة النبوية، وغير ذلك، والآية الثامنة والخمسون من سورة النساء يسميها ابن تيمية رحمة الله عليه بأنها آية الأُمراء والحكام، والخطاب فيها موجه للقضاة والأُمراء والرؤساء والملوك وكل محكم بين الناس، وأهل الأمانة: هم مستحقوها وأربابها وهي قول الله سبحانه: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَى أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ أَنْ تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ﴾ ويسمى الآية التي بعدها وهي ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ﴾ آية الرعية والمحكومين، والخطاب فيها موجه لجميع المسلمين.

ومعنى الآية التي معنا: إن الله تعالى يأمركم -أيها الناس- بأداء مختلف الأمانات التي ائتمتم عليها إلى أصحابها، فلا تُفَرِّطُوا فيها، ويأمركم بالقضاء بين الناس بالعدل والقسط إذا قضيتم بينهم، ونعم ما يعظكم الله به ويهديكم إليه، إن الله تعالى كان سميعاً لأقوالكم، مطلعاً على أعمالكم، بصيراً بها.

والآية تعم جميع الأمانات الواجبة على الإنسان فيما بينه وبين الله تعالى، وفيما بينه وبين الناس.

(١) قرأ أبو عمرو بإسكان الراء من (يأمركم) واختلاس ضميتها، وللدوري عن أبي عمرو وجه ثالث، وهو إتمام الحركة كبقية القراء.

(٢) قرأ ورش وأبو جعفر بإبدال همزة (تؤدوا) واواً خالصة وصلًا ووقفًا، ومثلها حمزة وقفًا.

(٣) قرأ ابن عامر وحمزة والكسائي وخلف العاشر (نِعَمًا) بفتح النون وكسر العين على الأصل، وقرأ ورش وابن كثير وحفص ويعقوب، بكسر النون، اتباعاً لكسرة العين، وهي لغة هذيل، وقرأ أبو جعفر بكسر النون وإسكان العين، واختلف عن قالون وأبي عمرو، وشعبة، فورد عن كل منهم وجهان: الأول: كسر النون مع اختلاس كسرة العين. الثاني: كسر النون مع إسكان العين كقراءة أبي جعفر، وهي لغة صحيحة، واتفق القراء على تشديد الميم.

سبب النزول:

ولآية الأمراء والحكام سبب نزول مشهور: ذلكم أن النبي ﷺ لما دخل مكة عام الفتح، ودخل المسجد الحرام، كان مفتاح الكعبة مع سادنها، أي: خادمها، وهو رجل يقال له: (عثمان بن أبي طلحة بن عبد الدار من بني شيبه) وقد طلب النبي ﷺ منه مفتاح الكعبة، وكان عثمان قد أسلم في أصح القولين^(١).

ولما طلب النبي ﷺ منه المفتاح سلمه إياه، وفتح الكعبة لرسول الله ﷺ فدخل النبي عليه الصلاة والسلام جوف الكعبة وصلى فيها ركعتين.

وكان العباس ؓ موكلاً إليه سقاية حجيج البيت، فطلب من النبي ﷺ أن يعطيه مفتاح الكعبة؛ ليجمع له بين السقاية والسدانة، فأنزل الله تعالى جبريل عليه السلام في لحظتها بهذه الآية ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا﴾ فدعا النبي ﷺ (عثمان) وأعطاه المفتاح، وقال له: «خذوها يا بني عثمان خالدة تالدة، لا ينتزعها منكم إلا ظالم»^(٢).

وبقيت خدمة الكعبة في بني شيبه إلى يومنا هذا، وإلى أن يرث الله الأرض ومن عليها. قال عمر بن الخطاب ؓ: لما خرج رسول الله ﷺ وهو يتلو هذه الآية: فداء أبي وأمي ما سمعته يتلوها قبل ذلك.

روى ابن إسحاق عن صفية بنت شيبه، أن رسول الله ﷺ لما نزل بمكة واطمأن الناس، خرج حتى أتى إلى البيت، فطاف به سبعا على راحلته، يستلم الركن بمِخْجَنٍ في يده، فلما قضى طوافه دعا عثمان بن أبي طلحة فأخذ مفتاح الكعبة منه ففتحت له فدخلها، ثم قام على باب الكعبة فقال: «لا إله إلا الله وحده لا شريك له، صدق وعده،

(١) يُنظر: إسلام عثمان بن أبي طلحة، كما جاء في الصحيحين من حديث ابن عمر، وذكر البغوي وغيره أن عثمان بن أبي طلحة منع المفتاح وقال: لو أعلم أنه رسول الله ما منعته، وأنه قد أسلم يوم الفتح، وهذا مردود عليه بما ثبت في الصحيحين من أنه أسلم قبل ذلك وهاجر إلى المدينة.

(٢) يُنظر: ابن عبد البر وابن الأثير وابن كندة وابن مردويه من طريق الكلبي عن أبي صالح عن ابن عباس، والكلبي وأبو صالح ضعيفان، وانظر: السيوطي في «الدر المنثور»: (١٧٤/٢) و«زاد المسير» لابن الجوزي و«تفسير الخازن» والقرطبي (٢٥٦/٥) والطبري (٩٢/٥) و«أسباب النزول» للواحدي (١٣٣) والسيوطي ويُنظر: ابن سعد (١٣٧/٢) والطبراني (١١٢٣٤) وابن عساكر (٣٨٩/٣٨).

ونصر عبده، وهزم الأحزاب وحده، ألا كل مأثرة أو دم أو مال يدعى فهو تحت قدمي هاتين: إلا سدانة البيت وسقاية الحاج»، ثم قال ﷺ: «أين عثمان؟ فدعني له فقال: هاك مفتاحك يا عثمان، اليوم يوم بر ووفاء»^(١).

والنبي ﷺ لم يأخذ المفتاح من عثمان بن أبي طلحة انتزاعاً، ولكنه أخذه ينتظر الوحي فلما نزلت الآية تقرر حكم بني عبد الدار فيه، فبقيت سدانة الكعبة في بني عبد الدار، وتنازل عنها عثمان إلى ابن عمه شيبه بن عثمان.

هذا سبب خاص في نزول هذه الآية الكريمة، ولكن معناها عام شامل، يشمل جميع الأمانات، وفي مقدمة تلك الأمانات: الأمانات التي تكون بين الحكام والولاة والرعية؛ لأن سبب نزول الآية كان في هذا الصدد على وجه الخصوص، وإن كان الحكم عامًا، وأمور العباد والرعية أمانة عند ولاة الأمر وحكامهم.

والله ﷻ يأمر بإعطاء الحقوق إلى أصحابها، ورد الأمانات إلى أهلها كاملة غير منقوصة، والعدل بينهم في الحكم، ويدخل في ذلك أمانات الولايات، والأموال، والودائع، والأسرار، وما لا يطلع عليه إلا الله تعالى.

ثلاثة أنواع من الأمانات:

١- والأمانة: كلمة عامة جامعة: فهي تشمل جميع التكاليف الشرعية، وهي مقتضى الخلافة التي خلق الله الإنسان في هذه الأرض ليقوم بأدائها ﴿إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا﴾ ﴿٧٦﴾ [الأحزاب].

ظلومًا لنفسه على ضعفه، وعلى عدم قيامه بها على الوجه الأكمل.

وأمانة التكليف، أمانة امتثال أوامر الله سبحانه من: زكاة وصلاة وصيام، وكفارات ونذور، وغسل جنابة، وحفظ اللسان والسمع والعين وسائر الجوارح، وأداء المأمورات جميعها، واجتناب جميع ما نهى الله عنه من المحرمات والمكروهات وترك ما فيه شبهة ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ [البقرة: ٣٠].

(١) يُنظر: «السيرة النبوية» لابن هشام (٤١٣/٣) بتصرف.

والخليفة هو الإنسان يخلف غيره، ويخلف بعضه بعضاً في هذه الأرض؛ لإقامة ما أمره الله تعالى به فيها، واجتناب ما نهى عنه سبحانه. وهذا القسم من الأمانة يكون مع الله تعالى فيما يتعلق بالعبادة وحفظ الجوارح.

٢- وهناك رعاية الأمانة فيما بين العبد وسائر العباد، سواء أكانت أمانات مادية، كرد الودائع والرهون، والوفاء بالعقود والعهود والوفاء بالكيل والميزان أم غير ذلك.

ومن ائتمن على أمانة وجب عليه حفظها في حرز مثلها، لأن أداءها لا يكون إلا بحفظها وحرزها، ولا تدفع الأمانة لغير صاحبها أو وكيله، ولو دفعها لغيرهما لم يكن مؤدياً لها.

ومن الأمانات: أمانات معنوية؛ كحفظ السر للأفراد والمجالس، وأمانة الدين والعلم والحق والنعمة، وما ائتمن عليه العبد من رعاية اليتيم وحسن تربيته، ورعاية جيرانه في حضورهم وغيبتهم.

٣- ومن الأمانة: عدل الأمراء والحكام بين الرعية.

قال زيد بن أسلم: أنزلت هذه الآية في ولاة الأمر، وفيمن ولي من أمور الناس شيئاً^(١) ومن الأمانات: نصح العلماء لأولياء الأمور ولعامة الناس، جاء في الحديث عن أنس رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «لا إيمان لمن لا أمانة له، ولا دين لمن لا عهد له»^(٢) «والمجلس بالأمانة».

وقد وصف الله المؤمنين المفلحين بقوله: ﴿وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمْتِنَتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ﴾ [المؤمنون]. [المعارج: ٣٢]. وقال سبحانه ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَخُونُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ وَتَخُونُوا أَمْنَتَكُمْ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [الأنفال].

١- عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه: القتل في سبيل الله تعالى يكفر الذنوب كلها غير الأمانة، يؤتى بالشهيد في سبيل الله ﷻ، فيقال: أَدْ أمانتك، فيقول: من أين أوديها، فقد

(١) ابن أبي شيبة (١٢٢/١٢) والطبري (١٦٩/٧) وابن المنذر (١٩١٩) وابن أبي حاتم (٥٥٢٢).

(٢) من حديث أنس في «المسند» (١٢٣٨٣، ١٢٥٦٧، ١٣١٩٩، ١٣٦٣٧) حديث حسن، وإسناد رجاله ثقات، (محققوه) وأخرجه ابن أبي شيبة (١١/١١) وعبد بن حميد (١١٩٨) وأبو يعلى (٢٨٦٣) والبخاري (١٠٠) كشف، والطبراني في الأوسط (٢٦٢٧) وغيرهم.

ذهبت الدنيا؟ فيقال: اذهبوا به إلى الهاوية حتى إذا انتهى به إلى قرار الهاوية مُثِّلَتْ له أمانته كهيتها يوم ذهبَتْ، فيحْمِلُها فيضعها على عاتقه، فيصعد في النار، حتى إذا رأى أنه قد خرج منها هوت وهو في أثرها أبد الأبدين، ثم قرأ ابن مسعود هذه الآية^(١).

قال أبو العالية: الأمانات: ما أمروا به ونهوا عنه.

٢- وعن مصعب بن سعد قال: قال علي عليه السلام: كلمات أصاب فيهن؛ فحَقُّ على الإمام أن يحكم بما أنزل الله، وأن يؤدي الأمانة، وإذا فعل ذلك فَحَقُّ على الناس أن يسمعوا وأن يطيعوا وأن يُجيبوا إذا دُعوا^(٢).

٣- وفي حديث أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «آية المنافق ثلاث: إذا حدث كذب، وإذا وعد أخلف، وإذا ائتمن خان»^(٣).

٤- وعن عبد الله بن عمرو رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «أربع إذا كن فيك فلا عليك ما فاتك من الدنيا: حفظ أمانة، وصدق حديث، وحسن خلق، وعفة في طعمة»^(٤).

وقال أبو هريرة رضي الله عنه: رأيت رسول الله ﷺ يقرأ هذه الآية إلى ﴿سَمِيعًا بَصِيرًا﴾ ويضع إبهامه على أذنه والتي تليها على عينه، قال عبد الله بن يزيد المقرئ: يعني: إن لله سَمْعًا وبَصَرًا^(٥).

(١) هذا إسناد صحيح عن ابن مسعود، أخرجه في المطالب العالية ل/ (١٣٣) وابن أبي شيبه (٣٦٨/١٣) وابن المنذر (١٩١٧) وفي «تفسير ابن أبي حاتم» برقم (٣٤٨١) والخرائطي في «مكارم الأخلاق» برقم (١٤٤) وأبو نعيم في «الحلية» (٢٠١/٤) والطبري في التفسير (٥٦/٢٢) والبيهقي في «شعب الإيمان» برقم (٥٢٦٦) والهيثمي في «مجمع الزوائد» (٢٩٣/٥) وقال الدارقطني: الموقوف هو الصواب: العلل (٧٨/٥) ولكن له حكم الرفع؛ إذ ليس للاجتهاد فيه مجال.

(٢) أخرجه الطبري وابن أبي حاتم بإسناد صحيح رجاله ثقات (١٦٩/٧) وابن أبي حاتم (٥٥٢٠) وابن المنذر (١٩٢٢) وابن أبي شيبه (٢١٣/١٢) وسعيد بن منصور (٦٥١) تفسير.

(٣) البخاري (٣٣، ٥٩، ٦٩٥، ٢٦٨٢) ومسلم (٥٩، ١٠٧) والترمذي (٢٦٣١) والمسند (٨٦٨٥)

(٤) البيهقي في «الشعب» (٥٢٥٧) و«السلسلة الصحيحة» (٧٣٣)، والمسند (٦٦٥٢) بإسناد ضعيف لانقطاعه، لأن الحارث بن يزيد يروي عن عبد الله بن عمرو بواسطة. (محققه).

(٥) «صحيح سنن أبي داود» برقم (٣٩٥٤) وابن خزيمة برقم (٤٦) قال محققه: رجال السند كلهم ثقات في الصحيحين أو في أحدهما وصححه الحاكم ووافقه الذهبي، «المستدرک» (٢٣٦/٢) وابن حبان برقم (٧٣٢) في «الموارد» والإحسان (٤٩٨/١) وابن المنذر (١٩٢٣) وابن أبي حاتم (٥٥٢٤) والبيهقي في الأسماء والصفات (٣٩٠).

والسميع البصير هو الذي لا تخفى عليه خافية، ويعلم مصالح عباد، وما يدفع عنهم المضار، ويجلب لهم المنافع.

العدل في الحكم بين الناس:

والجانب الثاني في الآية، هو العدل في الحكم بين الناس، فيجب على الحاكم أن يأخذ الحق ممن وجب عليه إلى من وجب له.

وأصل العدل هو: المساواة بين الناس، فكل ما خرج عن الظلم والاعتداء سمي عدلاً.

قال بعض العلماء: ينبغي للقاضي أن يسوي بين الخصمين في خمسة أشياء:

في الدخول عليه، والجلوس بين يديه، والإقبال عليهما، والاستماع منهما، والحكم بالحق فيما لهما وما عليهما.

وذلك لأن مقصود الحاكم هو إيصال الحق إلى مستحقه، قال تعالى: ﴿يَتَأْتِيَ الَّذِينَ ءَامَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّهِ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَاٰنُ قَوْمٍ عَلَىٰ أَلَّا تَعْدِلُوا ءَعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ [المائدة]

وقال ﴿يَتَأْتِيَ الَّذِينَ ءَامَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَىٰ أَنْفُسِكُمْ أَوَّلَآلِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ﴾

[النساء: ١٣٥]

وقوله: ﴿يَبْدَأُودُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ فَاحْكُم بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَىٰ﴾ [ص: ٢٦].

١- وفي صحيح مسلم وغيره، عن عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إن المقسطين عند الله على منابر من نور عن يمين الرحمن - وكلتا يديه يمين - الذين يعدلون في حكمهم وأهليهم وما ولّوا»^(١).

٢- ومن السبعة الذين يظلمهم الله في ظله يوم لا ظل إلا ظله: «إمام عادل»^(٢).

(١) «صحيح مسلم» برقم (١٨٢٧) والنسائي (٢٢١/٨) و«المسند» (١٦٠/٢) برقم (٦٤٨٥) وابن حبان (٤٤٨٤، ٤٤٨٥) و«سنن النسائي الكبرى» (٥٨٨٥، ٥٨٨٦).

(٢) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه في البخاري (٦٦٠) ومسلم (١٠٣١) والترمذي (٢٣٩١) وابن خزيمة (٣٥٨) وأحمد في المسند (٩٦٦٥).

قال عطاء ومجاهد في تفسير الآية: طاعة الرسول: اتباع الكتاب والسنة، وأولي الأمر، قال: أولي الفقه والعلم^(١)

والأصل في الحكام أن يكونوا فقهاء علماء، وفي طاعتهم حفظ الأمن، وحقن الدماء، وسلامة العباد والبلاد؛ وطاعة الله والرسول:

وأساس الملك في هذه الأرض يقوم على أمرين: أداء الأمانات، والعدل بين الناس، وذلك من جانب الأمراء والحكام، وإذا حكمتهم بين الناس أن تحكموا بالعدل، فيما تنازعتهم فيه من خلاف وشقاق، ويكون كتاب الله وسنة رسوله عليه الصلاة والسلام هما الفاصل بين كل متنازعين بالحكم بين الناس بما أنزل الله سبحانه.

والحكم بين الناس، يشمل الحكم بينهم في الدماء والأموال والأعراض، فيما قلّ من ذلك أو كثر، يستوي فيه القريب والبعيد، والبر والفاجر، والحبيب والعدوّ، ويكون الحكم بينهم بما شرعه الله تعالى من عقوبات الحد والقصاص والتعزير والأحكام الشرعية، ولا يكون الحكم بين الناس بغير ما أنزل الله سبحانه.

والأولى لمن يكون مجبوراً على الحكم بالقوانين المخالفة لشرع الله تعالى، أن يبحث له عن عمل آخر، وإن قلّ ماله أو ذهب جاهه، وأولى منه من يقلب الحقائق وهو يعلم، فيكون بارعاً، ذائع الصيت، عظيم الأجر من الناس، إذا اشتهر بينهم ببراءة المجرم، وتجريم البريء!! أين هو من يوم يشتد فيه الحساب، ويرجف فيه القواد؟!

من عدل الحكام والأمراء:

١- اشتكى أهل سمرقند إلى عمر بن عبد العزيز أن المسلمين فتحوا بلادهم ودخلوها قبل أن يعرضوا عليهم الإسلام، أو الجزية، أو القتال، وأنه كان هناك تقصير في التفاوض بين الطرفين، فأرسل عمر إلى قاضي المسلمين هناك، أن ينظر في الأمر بكل نزاهة وتجرد، فإذا تحقق أن دعواهم حق، فليخرج المسلمون من سمرقند كلياً، ثم يتفاوضوا من جديد، وقد حكم القاضي بذلك، فأسلم أهل سمرقند كلهم.

(١) الطبري (١٧٥١٧) وابن أبي حاتم (٥٥٢٨، ٥٥٣٥) وسعيد بن منصور (٦٥٣) تفسير.

- ٢- قال عمر لسعد رضي الله عنه: عليك بالعدل، وإن رُئي ضعيفاً فإنه أقمع للباطل وأرهب للباغي.
- ٣- وقالت امرأة فقيرة لعمر رضي الله عنه وهي لا تعرفه، وكان أطفالها جوعاً: وأها لعمر يتولى أمرنا، ولا يعلم حالنا، قلت: وكان عمر من أعدل الناس.
- ٤- ولما قدم رجل من دولة مجاورة ووجد عمر رضوان الله عليه نائماً على التراب دون حرس ولا حُجَّاب، وقف يتأمل البؤن الشاسع بين هذا المجتمع وبيئته، ويقول: حكمتَ فعدلتَ فأمنتَ فمنتَ يا عمر.
- ٥- أمّا ذلكم الطفل الذي كان يلعب مع أصحابه، فخرج عليهم عمر، فتنحى الصبيان هيبة من عمر، وبقي هذا الطفل واقفاً في مكانه، فسأله عمر: لِمَ لم تفعل كما فعل أصحابك؟ فقال: لم أرتكب ذنباً فأخافك، وليست الطريق ضيقة فأفسح لك. لقد كان هذا الطفل يتشرب ثقافة العدل والأمانة من مجتمعه.
- وقد أمر الإسلام بالعدل في مواطن كثيرة، منها قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَنِ وَإِيتَايَ ذِي الْقُرْبَىٰ﴾ [النحل: ٩٠].
- وقوله: ﴿وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ﴾ [الأنعام: ١٥٢].
- وفي الحديث عن أبي هريرة رضي الله عنه: أن النبي ﷺ قال: «لتؤدّن الحقوق إلى أهلها حتى يُقَادَ للشاة الجلحاء من الشاة القرناء»^(١)
- ويتحقق العدل بالحكم بالأشياء لمستحقيها، وتنفيذ تلك الأحكام، وتمكين كل ذي حق من حقه، وتعيين الحقوق يأتي من الجهة القضائية، وتنفيذ هذه الأحكام يأتي من الجهة التنفيذية دون تأخير، والعدل وسط بين إنكار الحق وإجحافه، وبين إعطاء صاحب الحق فوق حقه، وكلاهما يسمى جوراً.

(١) «صحيح مسلم» برقم (٢٥٨٢).

آية الحاكم والمحكوم: الطاعة المطلقة والطاعة المقيدة

٥٩- ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِيَ الْأَمْرِ مِنْكُمْ فَإِنْ تَنَزَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا ﴿٥٩﴾﴾

سبب النزول:

قال السدي: نزلت هذه الآية في خالد بن الوليد، لما بعثه النبي ﷺ على سرية فيها عمار بن ياسر، فساروا إلى عدوهم، فلما علموا بقدومهم هربوا، إلا رجلاً جاء إلى عمار، فأسلم، فأمنه عمار، ولما دخل خالد ومن معه، ديار القوم، وجدهم قد هربوا، ولم يبق إلا هذا الرجل، فأخذه خالد ومن معه وأخذ ماله، فبلغ عماراً ذلك فأخبر خالداً أنه قد أسلم، وأنه قد أجاره، فغضب خالد من ذلك، وحدث بينهما مشادة عند رسول الله ﷺ، فقال ﷺ لخالد: «لا تسب عماراً؛ فإن من يسب عماراً يسب الله، ومن يبغضه يبغضه الله، ومن سفه عماراً يسفه الله» وغضب عمار وانصرف، فتيعة خالد، وأخذ بثوبه واعتذر إليه، فرضي عمار عن خالد، فأنزل الله تعالى يبين وجوب طاعة أولي الأمر^(١).

هذه هي الآية الثانية: وهي آية الرعية، وفيها يأمر الله تعالى بطاعته وطاعة رسوله، وذلك بامثال أمره الواجب، والمستحب، واجتناب نهيه، كما يأمر سبحانه بطاعة أولي الأمر، وهم الولاة على الناس من الأمراء والحكام والمفتين، شريطة ألا يأمرُوا بمعصية الله، ولا يستقيم أمر الدين والدنيا إلا بطاعتهم، وعند التنازع في شيء من أصول الدين أو فروعه، فكلمة الفصل في ذلك إلى الكتاب والسنة، إما بالتصريح أو بالعموم أو بالإشارة أو بالقياس أو الاستنباط، ومن لم يرد المسائل الخلافية إلى أصلها، فليس مؤمناً على وجه الحقيقة، بل هو مؤمن بالطاغوت، فإن حكم الله تعالى أحسن الأحكام وأعد لها. وفي هذه الآية ثلاثة أنواع من الطاعة:

(١) يُنظر: «تفسير الطبري» (٤٩٨/٨) والواحيدي (١٣٦) والحديث في الطبراني (٣٨٣٥، ٣٨٣٠) وابن أبي شيبه (١٢٠/٢) والحاكم (٣٨٩/٣) وهو في «المسند» (١٦٨١٤) بنحوه، حديث صحيح كما أفاده محققوه، و«سنن النسائي الكبرى» (٨٢١٤) وابن حبان (٧٠٨١).

النوع الأول والثاني: طاعة الله والرسول

بعد أن أمر الله سبحانه الأمراء والحكام بأداء الأمانات إلى الرعية، وبالحكم بين الناس بالعدل، أمر سبحانه الرعية أن يطيعوا الله ورسوله، وأن يطيعوا ولاية الأمور منهم. وإذا نظرنا إلى الآية نجد أن الله تعالى يقول: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ﴾ وهذا أصل قائم بذاته، لأن طاعة الله سبحانه، طاعة مستقلة قائمة بذاتها.

ويقول سبحانه: ﴿وَأَطِيعُوا رَسُولَ﴾ طاعة مستقلة أيضاً؛ فهي أصل قائم بذاته كذلك.

وأصل الطاعة: الانقياد، وهو امتثال الأمر، فطاعة الله تعالى: امتثال أمره فيما أمر، وترك ما نهى عنه وزجر.

وطاعة الله تعالى واجبة على كافة الخلق، وكذا طاعة الرسول ﷺ؛ لقوله تعالى: ﴿وَأَطِيعُوا رَسُولَ﴾ فأوجب الله تعالى طاعة رسوله ﷺ على الخلق، وبالنسبة لطاعة الرسول ﷺ؛ فإن المطاع في الحقيقة هو الله تعالى، فكأن التقدير: أطيعوا الله فيما قضى عليكم في القرآن، وأطيعوا الرسول فيما بين لكم من القرآن، وما يقضه عليكم من السنة.

والمعنى: أطيعوا الله فيما أمركم من الوحي المتعبد بتلاوته، وأطيعوا الرسول فيما يأمركم به من الوحي الذي ليس بقرآن.

ففي الحديث عن المقدم بن معدي كرب أن رسول الله ﷺ قال: «ألا إني أوتيت القرآن ومثله معه، ألا يوشك رجل شبعان مُتْكِيء على أريكته يقول: عليكم بهذا القرآن، فما وجدتم فيه من حلال فأحلوه، وما وجدتم فيه من حرام فحرموه، وإنَّ ما حرَّمه رسول الله ﷺ كما حرم الله»^(١).

فالسُّنَّة هي المبيِّنة للكتاب، الموضحة لما فيه، وطاعة الرسول ﷺ تعني طاعة الشريعة؛ لأن الله تعالى هو منزل الشريعة، والرسول ﷺ مبلغها والحاكم بها.

(١) أخرجه أبو داود بإسناد صحيح عن المقدم بن معدي كرب (٢٧٩/٤) برقم (٤٦٠٤) وفي «صحيح سنن أبي داود» (٣٨٤٨) وانظر: الحافظ ابن حجر في «فتح الباري» ويُظَنَّر: «صحيح سنن ابن ماجه» (١٢، ١٣) ومشكاة المصابيح (١٦٣، ١٦٢).

قال تعالى: ﴿مَنْ يُطِيعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ﴾ [النساء: ٨٠].

وقال سبحانه: ﴿قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ﴾ [آل عمران: ٣١].

وقال جل شأنه: ﴿وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ﴾ [النساء: ٦٩].

وقال ﷻ: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَا تَوَلَّوْا عَنْهُ وَأَنْتُمْ تَسْمَعُونَ﴾ [الأنفال: ٢٠].

وقد نزلت هذه الآية في أبي سعيد بن المعلى لما تأخر في إجابة النبي ﷺ حتى فرغ من صلاته، فبين تعالى أنه يجب الاستجابة للرسول ﷺ، ولو كان في الصلاة قال جل شأنه: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾ [الأنفال: ٢٤].

وفي الاستجابة لله وللرسول جمع لكلمة الأمة ووحدة الصف، كما قال تعالى: ﴿وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَا تَتَزَوَّجُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ﴾ [الأنفال: ٤٦].

وفي طاعة الله والرسول الفوز والفلاح يوم لقاء الله عز وجل ﴿وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَخْشَ اللَّهَ وَيَتَّقْهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ﴾ [النور: ٥٢].

وفي طاعة الله والرسول طريق الهداية والنجاة ﴿قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْهِ مَا حُمِّلَ وَعَلَيْكُمْ مَا حُمِّلْتُمْ وَإِنْ تُطِيعُوهُ تَهْتَدُوا﴾ [النور: ٥٤].

الثالث: طاعة أولي الأمر

ثم تأمر الآية بالطاعة لولاة الأمور، تبعاً لطاعة الله ورسوله، فهي ليست أصلاً مستقلاً بذاته؛ إذ ليس فيها إعادة للفظ ﴿وَأَطِيعُوا﴾ بالنسبة لولي الأمر، وإنما هي معطوفة بواو الجمع ﴿وَأُولَى الْأَمْرِ مِنْكُمْ﴾ من غير إعادة للفظ الطاعة؛ لبيان أن طاعة أولي الأمر إنما تكون في حدود الشرع، وأنه لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق.

وفي سنة رسول الله ﷺ كثير من الأحاديث الصحيحة التي توجب على المحكومين والرعية طاعة الحكام والأمراء، وهذه النصوص تقيد هذه الطاعة بالمعروف، وأن تكون في غير معصية الله سبحانه:

١- من ذلك قول النبي ﷺ في حديث أنس رضي الله عنه: «وأطيعوا الله ورسوله وأولي الأمر

منكم، وإن تأمر عليكم عبد حبشي كأن رأسه زبيبة»^(١).

وبهذا المبدأ أخذ خلفاء رسول الله ﷺ؛ فهذا الخليفة الأول أبو بكر الصديق رضوان الله عليه يقول في خطبة توليته للخلافة: «وُلِّيتُ عليكم ولست بخيركم، أطيعوني ما أطيعت الله ورسوله، فإن عصيت الله فلا طاعة لي عليكم».

٢- وفي الصحيحين وغيرهما عن عليٍّ ؓ أن عبد الله بن حذافة أرسله النبي ﷺ في سرية، واستعمل عليهم رجلاً من الأنصار وأمرهم أن يستمعوا ويطيعوا، فأغضبوه في شيء، فقال: اجمعوا لي حطباً، فجمعوا له، ثم قال: أَوْقِدُوا ناراً، فأوقدوا، ثم قال: ألم يأمركم رسول الله ﷺ أن تسمعوا لي وتطيعوا؟ قالوا: بلى، قال: فادخلوها، قال: فنظر بعضهم إلى بعض، فقالوا: إنما فَرَزْنَا إلى رسول الله من النار، فكانوا كذلك، وسكنَ غضبه، وطُفِئَت النار، فلما رجعوا ذكروا ذلك لرسول الله ﷺ فقال: «لو دخلوها ما خرجوا منها، إنما الطاعة في المعروف»^(٢).

أي: أننا إنما أطعنا رسول الله؛ حتى لا نُحَرِّق يوم القيامة في النار، فهل يعقل بعد هذا أن نُلقَى بأنفسنا في النار؟! فرد عليهم النبي ﷺ بيِّن لهم أن هذه الطاعة خاطئة؛ لأنها ليست في إطار طاعة الله والرسول، وبيِّن أن الطاعة لا تكون إلا في المعروف.

٣- وفي حديث ابن عباس ؓ: أن رسول الله ﷺ قال: «من رأى من أميره شيئاً فكرهه، فليصبر، فإنه ليس أحد يفارق الجماعة شبراً فيموت، إلا مات ميتة جاهلية»^(٣).

٤- وفي حديث ابن عمر ؓ: أنه سمع النبي ﷺ يقول: «من خلع يداً من طاعته، لقي الله يوم القيامة لا حجة له، ومن مات وليس في عنقه بيعة مات ميتة جاهلية»^(٤).

(١) يُنْظَر: «صحيح البخاري» برقم (٦٩٣، ٦٩٦).

(٢) الحديث أخرجه البخاري (١٩٠/٨) رقم (٤٣٤٠، ٧٢٥٧، ٧١٤٥) ومسلم (١٤٦٥/٣) برقم (١٨٤٠) وابن أبي شيبة (٥٤٢/١٢) ويُنْظَر: قصة حذافة بطولها في البخاري (١٠٩/١٣) ومسلم (١٤٦٩/٣) والحديث عند الإمام أحمد في «المسند» (٦٢٢/٢) برقم (١٠١٨) بإسناد صحيح على شرط الشيخين، والنسائي في الكبرى (٨٧٢٢) وأبي يعلى (٣٨٧)، وغيرهم.

(٣) «صحيح البخاري» برقم (٧١٤٣) و«صحيح مسلم» برقم (١٨٤٩).

(٤) «صحيح مسلم» برقم (١٨٥٠).

٥- وفي صحيح مسلم عن عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنه: أنهم كانوا مع النبي ﷺ في سفر فأمر مناديه أن ينادي في الناس: الصلاة جامعة، فاجتمعوا إلى رسول الله ﷺ، فقال: «إنه لم يكن نبي قبلي إلا كان حقاً عليه أن يدل أمته على خير ما يعلمه لهم، ويُذرهم شر ما يعلمه لهم، وإن أمتكم هذه جعل عافيتها في أولها، وسيصيب آخرها بلاءٌ وأمورٌ تنكرونها، وتجيء فتن يرفق بعضها بعضاً، وتجيء الفتنة، فيقول المؤمن: هذه مهلكتي، ثم تنكشف، وتجيء الفتنة، فيقول المؤمن: هذه، هذه. فمن أحب أن يزحزح عن النار ويدخل الجنة، فلتأته منيته وهو يؤمن بالله واليوم الآخر، وليأت إلى الناس الذي يحب أن يؤتى إليه، ومن بايع إماماً فأعطاه صفقة يده وثمرة قلبه، فليطئه إن استطاع. فإن جاء آخر ينازعه فاضربوا عنق الآخر». قال عمرو سمعته أذناي، ووعاه قلبي، قال عبد الرحمن بن عبد رب الكعبة: هذا ابن عمك معاوية، يأمرنا أن نأكل أموالنا بالباطل ونقتل أنفسنا، والله تعالى يقول: ﴿يَتَأَيَّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ إِلَّا أَنْ تَكُونَتْ بِحَكْرَةً عَنْ تَرَضٍ مِّنْكُمْ وَلَا تَقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا ٢٩﴾ [النساء]. قال: فأطرق ساعة، ثم قال: أطيعه في طاعة الله، واعصه في معصية الله^(١).

٦- وعن عبادة بن الصامت رضي الله عنه قال: بايعنا رسول الله ﷺ على السمع والطاعة في منشطنا ومكرهنا، وعسرنا ويسرنا، وأثرة علينا، وألا ننازع الأمر أهله، قال: «إلا أن تروا كُفراً بواحا، عندكم فيه من الله برهان».

وفي لفظ: وأن نقول بالحق حيثما كنا ولا نخاف في الله لومة لائم دون (إلا أن تروا...)^(٢).

٧- وفي الحديث عن جبير بن مطعم رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «ثلاث لا يغل عليهم قلب مؤمن: إخلاص العمل لله، والطاعة لذوي الأمر، ولزوم جماعة المسلمين، فإن دعوتهم تحيط من ورائهم»^(٣).

(١) يُنظر: «صحيح مسلم» برقم (١٨٤٤).

(٢) «صحيح البخاري» برقم (٧١٩٩/٧٢٠٠) و«صحيح مسلم» برقم (٤١، ١٧٠٩).

(٣) «المستدرک» (١/٨٦) على شرط الشيخين بموافقة الذهبي، وابن ماجه (٢٣١) و«المعجم الكبير» للطبراني برقم (١٥٤٤) قال في «المجمع» (١/١٣٩) رجاله موثقون، وقال الألباني: إسناده حسن، صحيح الترغيب (١/٤٢) وهو في المسند (١٦٧٣٨، ١٦٧٥٤) صحيح لغيره، لأن فيه محمد بن إسحاق، وبقيه رجاله ثقات رجال الشيخين، (محققوه) وللحديث طرق وشواهد صحيحة عن زيد بن ثابت، وأنس، وابن مسعود.

ثم إن في الأحكام الشرعية أمورًا تجدُّ وتحدث في الحياة لم تكن موجودة من قبل، تتعلق بما قد يحدث للناس من أحوال، وهذه الأمور ليس فيها نص صريح صحيح يعود إلى كتاب الله تعالى، أو سنة رسوله ﷺ؛ فإن الحكم فيها يرجع إلى القياس والاجتهاد، وهذا معنى ﴿فَإِنْ نَزَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ﴾

والله سبحانه علق ذلك على الإيمان، فليس لغير المؤمن أن يجتهد أو يقيس الأمور ببعضها مهما كان علمه ﴿إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾ .

والمراد بـ ﴿وَأُولَى الْأَمْرِ مِنْكُمْ﴾ العلماء والحكام، وطاعة العلماء تكون في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وطاعة الحكام تكون فيما يشرعونه من نظم لا تخرج على شرع الله تعالى، والأصل أن يكون الحاكم عالمًا يجتمع فيه علم الدنيا وعلم الآخرة.

قال علي عليه السلام: حقُّ على الإمام أن يحكم بما أنزل الله ويؤدي الأمانة، فإن فعل ذلك فَحَقُّ على الرعية أن يسمعوا ويطيعوا. ويدخل في أولي الأمر: كل مسئول، وكل أمير، وكل سلطان:

٨- في الصحيحين عن أبي هريرة عليه السلام أن رسول الله ﷺ قال: «من أطاعني فقد أطاع الله، ومن عصاني فقد عصى الله، ومن يطع الأمير فقد أطاعني، ومن يعص الأمير فقد عصاني»^(١).

٩- وفي الصحيحين وغيرهما عن ابن عمر عليه السلام أن رسول الله ﷺ قال: «على المرء المسلم السمع والطاعة فيما أحب أو كره، إلا أن يؤمر بمعصية الله تعالى، فإن أمر بمعصية فلا سمع ولا طاعة»^(٢).

١٠- وفي البخاري وغيره عن أنس بن مالك عليه السلام أن رسول الله ﷺ قال: «اسمعوا وأطيعوا وإن استعمل عليكم عبد حبشي كأن رأسه زبيبة، ما أقام فيكم كتاب الله»^(٣).

١١- وعن أبي أمامة عليه السلام قال: سمعت رسول الله ﷺ يخطب في حجة الوداع فقال: «اعبدوا ربكم وصلُّوا خمسكم، وصوموا شهركم، وأدُّوا زكاة أموالكم، وأطيعوا ذا

(١) «صحيح البخاري» برقم (٧١٣٧) و«صحيح مسلم» برقم (١٨٣٥) وابن أبي شيبة (٢/٢١٢).

(٢) أبو داود برقم (٢٦٢٦) والبخاري برقم (٧١٤٤) ومسلم برقم (١٨٣٩).

(٣) البخاري، كتاب الأحكام (٧٨/٩) برقم (٦٩٣) وانظر: (٦٩٦، ٧١٤٢).

أمركم، تدخلوا جنة ربكم»^(١).

١٢- وفي حديث عمران بن حصين رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «لا طاعة في معصية الله»^(٢).

١٣- وعن أم الحصين الأحمسية أنها سمعت رسول الله ﷺ وعليه بُرْدٌ متلفّع به وهو يقول: «إن أمر عليكم عبد حبشي مُجَدَّع، فاسمعوا له وأطيعوا ما قادكم بكتاب الله»^(٣).

١٤- روى البغوي بسنده عن الحسن عن أنس مرفوعاً: قال: «مثل أصحابي في أمتي كالملح في الطعام، ولا يصلح الطعام إلا بالملح».

قال الحسن: قد ذهب ملْحُنَا فكيف نصلُح؟!.

وطاعة الإمام واجبة على الرعية ما دام الحاكم على الطاعة، فإذا خرج عن الكتاب والسنة فلا طاعة له، وإنما تجب طاعته فيما وافق الحق، فإذا خالفه فلا طاعة له؛ لقوله ﷺ: «لا طاعة لمخلوق في معصية الله ﷻ»^(٤).

حكى أن مسلمة بن عبد الملك بن مروان قال لأبي حازم: ألتسم قد أمرتم بطاعتنا بقوله تعالى: ﴿وَأُولَى الْأَمْرِ مِنْكُمْ﴾؟ فقال أبو حازم: أليس قد نزعنا طاعة عنكم إذا خالفتم الحق بقوله: ﴿فَإِنْ نَنْزَعْنَاهُ مِنْ شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ﴾؟ أي: القرآن ﴿وَالرُّسُولُ﴾ في حياته وحضرته، وإلى سنته بعد مماته.

والتنازع هو اختلاف الآراء؛ لأن كل واحد من المتنازعين ينزع الحجة لنفسه، ورد الأمر المتنازع فيه إلى كتاب الله وسنة رسوله واجب يلزم الأخذ به، فإن لم يوجد في كتاب الله، ففي سنة رسوله ﷺ فإن لم يوجد في السنة فسبيله القياس والاجتهاد، وهذا الرد إلى الكتاب والسنة يكون إلى المفتي والقاضي الشرعي والعالم المجتهد عند اختلاف

(١) «صحيح سنن الترمذي» (٥٠٢) و«السلسلة الصحيحة» (٨٦٧) و«المسند» (٢٢١٦١، ٢٢٢٥٨) والبيهقي في «الشعب» (٧٣٤٨) والحاكم (٩/١).

(٢) ابن أبي شيبة (٥٤٥/١٢) و«السلسلة الصحيحة» (١٧٩، ١٨٠).

(٣) «صحيح سنن الترمذي» (١٣٩٥) وابن أبي شيبة (٢١٤/١٢).

(٤) من حديث علي رضي الله عنه في «المسند» برقم (١٠٩٥) و(٧٢٤) بإسناد صحيح على شرط الشيخين، كما قال محققوه، وعن ابن مسعود (٣٨٨٩) وعن الحاكم بن عمرو الغفاري (٢٠٦٥٣، ٢٠٦٥٦) والحديث في البخاري (٧٢٥٧) ومسلم (١٨٤٠) وأبو داود (٢٦٢٥) والبخاري (٥٨٩) وابن حبان (٤٥٦٧).

الآراء، ومن هذا القبيل اختلاف أهل العلم في الأحكام الشرعية التي طريقها الاجتهاد والنظر في الأدلة الشرعية، مثل معاملات البنوك، والتبرع بالأعضاء، ونحو ذلك.

ويؤخذ من الآية أن الأحكام الشرعية أربعة هي: الكتاب، والسنة، والإجماع، والقياس؛ لأن الأحكام إما منصوصة من الكتاب والسنة، وإما مجمع عليها بعد استنادهم إلى الدليل، وهذا مأخوذ من ﴿وَأَوَّلَىٰ الْأَمْرِ مِنْكَ﴾ وإما عن طريق الاجتهاد والرد إلى الله والرسول عند التنازع في الحكم، وهذا مأخوذ من قوله تعالى: ﴿فَإِنْ لَنَزَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ﴾.

ويرى الأحناف دليلاً خامساً هو الاستحسان.

ويرى المالكية دليلاً سادساً هو المصالح المرسلة.

ويرى الشافعية دليلاً سابعاً هو الاستصحاب.

وظاهر الآية يفيد أن أدلة الأحكام أربعة فقط: هي الكتاب، والسنة، والإجماع، والقياس. ومن لم يعتقد وجوب طاعة الله تعالى، ولا طاعة الرسول ﷺ، ولا متابعة السنة، والحكم بما صح من أحاديث الرسول ﷺ واعتقد أن الحكم إلى غير الله والرسول، خير وأحسن عاقبة، لا يكون مؤمناً بالله واليوم الآخر.

وهذه الآية كقوله تعالى ﴿وَمَا اخْلَفْتُمْ فِيهِ مِنْ شَيْءٍ فَحُكْمُهُ إِلَى اللَّهِ﴾ [الشورى: ١٠].

وقوله: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكُمْ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾ [النساء: ٥٩].

بَدْءُ الْحَدِيثِ عَنِ الْمُنَافِقِينَ فِي السُّورَةِ، فِي تِسْعِ آيَاتٍ مُتَتَابِعَةٍ:

وَجُوبُ التَّحَاكُمِ إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ

٦٠- ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ آمَنُوا بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِنْ قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَنْ يَتَحَكَّمُوا إِلَى الظَّالِمِينَ وَقَدْ أُهْمُوا أَنْ يَكْفُرُوا بِهِ وَيُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُضِلَّهُمْ ضَلَكَلًا بَعِيدًا﴾^(١)
ثم تأتي الآية الثالثة؛ لنفي الإيمان عن كل من يُحَكِّمُ شريعة غير شريعة الله سبحانه، وتُنكر إنكاراً توبيخياً على كل من يتخذ حكماً غير حكم الله سبحانه، ويدّعي بزعمه أنه

مؤمن، مع أن الإيمان يقتضي الانقياد لشرع الله تعالى وتحكيمه في كل أمر من الأمور، فمن زعم أنه مؤمن واختار حكم الطاغوت على حكم الله فهو كاذب في دعواه، وهذا من إضلال الشيطان وإغوائه له.

أسباب النزول:

١- ورد أن رجلاً منافقاً يقال له: بَشْر، ورجلاً من اليهود، اختصما فيما بينهما، فقال اليهود: نتحاكم إلى محمد ﷺ؛ لعلمه أنه يحكم بالعدل، ولا يأخذ رشوة، وقال المنافق: بل نتحاكم إلى كعب بن الأشرف (زعيم اليهود) لعلمه أنه يأخذ الرشوة، وهو الذي سماه القرآن بالطاغوت، تشبيهاً له بالشيطان والصنم، أو لإفراطه في الطغيان؛ لأن كل حُكْم غير حكم الله، وغير حكم رسول الله ﷺ يقال له: طاغوت.

والطاغوت: كل ما عُبد من دون الله تعالى، صنماً أو شيطاناً أو غيرهما، وكل من يَحْكُم بغير كتاب الله وسُنَّة رسوله فهو طاغوت أيضاً، فأبى اليهودي إلا أن يتحاكما إلى رسول الله ﷺ، فذهبا إلى النبي ﷺ فحكم بينهما، وقضى إلى اليهودي، فلم يرض المنافق ولم يقبل بحكم رسول الله ﷺ، فلما خرجا من عنده قال المنافق: انطلق بنا إلى عمر، فأتيا عمر، فقال اليهودي: اختصمت أنا وهذا إلى محمد ﷺ فقضى لي عليه، فلم يرض بقضائه، فقال عمر للمنافق: أكذلك؟ قال: نعم، فقال لهما عمر: رويداً حتى أخرج إليكما، فدخل وأخذ السيف وضربه حتى برد، وقال: هكذا أفضي بين من لم يرض بقضاء الله وقضاء رسوله، فنزلت الآية في شأن هذا المنافق.

وقال جبريل: إن عمر فرّق بين الحق والباطل، فقال رسول الله ﷺ: «أنت الفاروق»، فسُمِّي بالفاروق^(١). وهو أثر ضعيف.

ولا غرابة في هذا؛ فإن من يرفض حكم الله وحكم رسوله فهو كافر مرتد؛ لأنه يمثل فتنة في الإسلام؛ لرجوع الناس عن دينهم ﴿وَالْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ الْقَتْلِ﴾ و﴿أَكْبَرُ مِنَ الْقَتْلِ﴾، وهذا الرجل كان منافقاً يُظهر الإسلام ويبطن الكفر، ثم أظهر الله كفره لمَّا رفض حكم

(١) يُنظر الحكيم الترمذي في «نوادير الأصول» (٢٣١/١) وقد رواه الواحدي في «أسباب النزول» عن أبي صالح عن ابن عباس بسند ضعيف، ص ٩٢، وهو في «تفسير الألوسي» (٦٧/٥) وهو في تخريج أحاديث الكشاف للزيلعي (٣٣٠/١).

الله وحكم رسوله، فوجب قتله؛ لأنه مرتد.

٢ - وقال ابن عباس والسُّدِّي: نزلت في منافقي أهل الكتاب؛ لأن الله تعالى يقول: ﴿ءَامِنُوا بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِنْ قَبْلِكَ﴾.

وذلك أنه حدث نزاع بين بني قريظة، حلفاء الخزرج، وبين بني النضير، حلفاء الأوس، وكان بنو النضير يقتلون من بني قريظة، ولا يقتلون منهم، والدية بينهما مختلفة، فلما جاء الإسلام أراد المنافقون منهم أن يحتكموا إلى (أبي بردة - الكاهن الأسلمي)، وأراد المسلمون أن يتحاكموا إلى النبي ﷺ، فأبى المنافقون وانطلقوا إلى أبي بردة ليحكم بينهم، فقال: أعظموا اللقمة، يعني: الرشوة، فقالوا: لك عشرة أوسق، قال: لا، بل مئة وُسق، ديتي إن قتلني قريظة، فأبوا أن يعطوه فوق عشرة أوسق، وأبى أن يحكم بينهم، فأُنزل الله الآية، فدعا النبي ﷺ كاهنَ الإسلام، فأبى وانصرف، فقال النبي ﷺ لا بُنْيَه: «أدركا أباكما؛ فإنه إن يدرك عقبة كذا، لم يُسَلِّم أبداً فأدركاه، فلم يزاالا به حتى انصرف وأسلم، وأمر النبي ﷺ منادياً ينادي: ألا إن كاهن أسلم قد أسلم^(١).

٣ - وقال قتادة: ذُكر لنا أن هذه الآية أنزلت في رجل من الأنصار يقال له: قيس، وفي رجل من اليهود، في حق كان بينهما، فتحاكما إلى كاهن بالمدينة، وتركوا نبي الله ﷺ، وكان اليهودي يدعو المنافق إلى التحاكم إلى رسول الله ﷺ؛ لعلمه أنه لن يجور عليه، والأنصاري يرفض مع زعمه أنه مسلم، فأُنزل الله تعالى يعيب على المنافق الذي يدَّعي الإسلام^(٢).

٤ - وجاء عن الشعبي مثل ذلك، قال: فاتفق المنافق واليهودي على التحاكم إلى كاهن من جبهة^(٣).

قال البغوي عن جابر بن عبد الله ؓ: كانت الطواغيت التي يتحاكمون إليها: واحد في جبهة، وواحد في أسلم، وفي كل حيٍّ أحد الكهان^(٤).

٥ - وأخرج ابن أبي حاتم بسند حسن عن ابن عباس ؓ قال: كان الجُلَّاس بن

(١) يُنظَر: «المعجم الكبير» للطبراني رقم (١١٦٤٥) و«مجمع الزوائد» (٦/٧) وصححه السيوطي في «الدر المنثور» (١٧٨/٢) ورجاله ثقات، وإسناده صحيح وهو في الطبري (١٩٣/٧) وابن أبي حاتم (٥٥٤٩).

(٢) «تفسير الطبري» (٩٧/٥).

(٣) «تفسير القرطبي» (٢٦٣) وابن المنذر (١٩٤٢، ١٩٤٥).

(٤) جاء هذا عن وهب بن منبه عند ابن أبي حاتم (٥٤٥٢).

الصامت قبل توبته فيما بلغني، ومُعْتَب بن قُشَيْر، ورافع بن زيد، وبشير، كانوا يدعون الإسلام، فدعاهم رجال من قومهم من المسلمين في خصومة كانت بينهم، إلى رسول الله ﷺ فَدَعَوْهُمْ إلى الكهان، حُكَّام الجاهلية، فأنزل الله الآية^(١).

والآية عامة في كل من لم يرض بحكم الله ورسوله، فقد نفى الله ﷻ عنه وعن أمثاله الإيمان عن كل من لا يرتضون حكم الله وحكم رسول الله، ولا يُحْكَمُونَ شرع الله وشرع رسوله، ويستبدلون بهما حُكْمًا آخر ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ ءَامَنُوا بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ﴾ هذا هو المنافق الذي يُظهر الإيمان بمحمد ﷺ، ويزعم أنه مؤمن بك، ويزعم أيضًا أنه يؤمن بما ﴿أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ﴾ وهذا هو اليهودي الذي يؤمن بالتوراة ﴿يُرِيدُونَ أَن يُتَحَاكَمُوا إِلَى الطَّاغُوتِ﴾ مثل كعب بن الأشرف، وكل من لا يحكم بما أنزل الله، يُسَمَّى طاغوتًا؛ لإفراطه في الطغيان، وقد كان الناس في الجاهلية يتحاكمون إلى بعض زعماء اليهود، يزعمون أنهم مؤمنون، أو يتحاكمون إلى العُرف والعادة، كما يفعل الناس اليوم في التحاكم إلى القوانين الوضعية، وكل ما سوى حكم الله تعالى فهو طاغوت ﴿وَقَدْ أُمِرُوا أَنْ يَكْفُرُوا بِهِ﴾ أي: يكفروا بكل حُكْمٍ مخالف لحكم الله ورسوله ﴿وَيُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُضِلَّهُمْ ضَلَالًا بَعِيدًا﴾ إنه يدفعهم إلى الانحراف عن منهج الله ولو بدرجة، وكلما ابتعد المؤمن عن الحق كان الرجوع إليه أصعب.

والمؤمن مطالب بأمرين: أن يعلن كفره بغير ما أنزل الله من أحكام الطواغيت، ويعلن إيمانه بالله تعالى ﴿فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِرْ بِاللَّهِ فَقَدْ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى﴾ [البقرة: ٢٥٦].

والمعنى: ألم تعلم - أيها الرسول - أمر أولئك المنافقين الذين يدعون الإيمان بما أنزل إليك - وهو القرآن - وما أنزل إلى الرسل من قبلك، وهم يريدون أن يتحاكموا إلى غير ما شرع الله في فصل الخصومات بينهم، وقد أمروا أن يكفروا بالباطل، ويريد الشيطان أن يبعدهم عن طريق الحق بعدًا شديدًا.

وفي هذه الآية دليل على أن الإيمان الصادق يقتضي الانقياد لشرع الله تعالى والحكم به كما

(١) يُنْظَر: «سيرة ابن هشام» (٥٢٦/١) وابن المنذر (١٩٤٤، ١٩٤٧).

في قوله: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾ [النساء: ٦٥]. وذلك في كل أمر من الأمور.

٦١- ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُم تَعَالَوْا إِلَىٰ مَا أَنزَلَ اللَّهُ وَإِلَىٰ الرَّسُولِ رَأَيْتَ الْمُنَافِقِينَ يَصُدُّونَ عَنْكَ صُدُودًا﴾
فمن زعم أنه مؤمن مع اختياره حُكْم الطاغوت على حُكْم الله تعالى، فهو كاذب في كل زعمه، وقد صرح الله تعالى باسم هذه الفئة، وكشف عن حقيقتها في قوله: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَىٰ مَا أَنزَلَ اللَّهُ وَإِلَىٰ الرَّسُولِ رَأَيْتَ الْمُنَافِقِينَ﴾ هذا هو وصفهم؛ لأنهم مخادعون مذبذبون، ولذلك فهم ﴿يَصُدُّونَ عَنْكَ صُدُودًا﴾ أي: يعرضون عنك إعراضاً شديداً مستكبرين عن الامتثال لأمر الله ورسوله، كما قال تعالى عن المشركين: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا﴾ [لقمان: ٢١]. وهذا الإعراض علامة النفاق، وله وسائل عديدة، مثل: التسويف، واختلاق الأعذار، واختلاق الأسباب، والتعلل بالأمور الاقتصادية والسياسية والاجتماعية وغير ذلك.

فإذا نُصَح هؤلاء وقيل لهم: تعالوا إلى ما أنزل الله وإلى الرسول، أبصرت هؤلاء المنافقين يُعْرِضُونَ عَنْكَ إِعْرَاضًا، وهذا بخلاف المؤمنين الذين قال الله فيهم: ﴿إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ الْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَنْ يَقُولُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا﴾ [النور: ٥١]. قال تعالى:

٦٢- ﴿فَكَيْفَ إِذَا أَصَابَتْهُمُ مُصِيبَةٌ يَمَّا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ثُمَّ جَاءُوكَ يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ إِنْ أَرَدْنَا إِلَّاٰ إِحْسَانًا وَتَوْفِيقًا﴾ [٦٢]

يقول الله سبحانه وتعالى على وجه الإنكار والتعجب من أقوال المنافقين وأفعالهم: ﴿فَكَيْفَ﴾ يكون حالهم ﴿إِذَا أَصَابَتْهُمُ﴾ مصيبة ﴿يَمَّا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ﴾ أي: بسبب بعدهم وإعراضهم عن حكم الله وشريعته، مِنْ نَكَبَاتٍ وَهَزَائِمٍ وَأَمْرَاضٍ وَفَقْرٍ وَجَدْبٍ، أو أن يجعل الله بأسهم بينهم، أو أن يُنْزَلَ بِهِمْ زَلَزَلٌ، أو براكين، وأعاصير، وغير ذلك بسبب ما قدمت أيديهم من المعاصي والذنوب ﴿ثُمَّ جَاءُوكَ﴾ أي: المنافقون يعتذرون إليك عما صدر منهم ﴿يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ إِنْ أَرَدْنَا إِلَّاٰ إِحْسَانًا وَتَوْفِيقًا﴾ أي ما قصدنا بذلك إلا الإحسان إلى المتخاصمين والتوفيق بينهم، وهم كذبة في ذلك، فإن الإحسان كل الإحسان في

تحكيم كتاب الله وسنة رسوله، وهم يقولون: إنهم يريدون أن يُحكّموا شرع الله، لكن هناك أسباباً فوق إرادتهم تمنعهم من ذلك، ولا نريد الإساءة إلى الإسلام بذلك، ولا نريد إلا التوفيق والصلح بين الناس.

والمعنى: فكيف يكون حالهم إذا حلت بهم مصيبة بسبب ما اقترفوه من الذنوب، ثم جاءوك - يا محمد - يعتذرون ويؤكدون لك أنهم ما قصدوا بأعمالهم تلك إلا الإحسان والتوفيق بين الخصوم، أو لمداراتهم واتقاء شرهم ومصانعتهم، وليس اعتقاداً منهم بصحة حكمهم، كما قال تعالى: ﴿فَرَى الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ يُسْرِعُونَ فِيهِمْ يَقُولُونَ نَحْشَىٰ أَنْ تُصِيبَنَا دَآئِرَةٌ﴾ [المائدة: ٥٢] قال تعالى:

٦٣- ﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ يَعْلَمُ اللَّهُ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَعِظْهُمْ وَقُلْ لَهُمْ فِي أَنْفُسِهِمْ قَوْلًا بَلِيغًا﴾ (٦٣)

يُبَيِّنُ الله تعالى أنه ليس غافلاً عن بواطن المنافقين، ولا عن أعمالهم فيقول: ﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ يَعْلَمُ اللَّهُ مَا فِي قُلُوبِهِمْ﴾ من النفاق والقصد السيء، ويعلم حقيقة أمرهم، ثم بيّن سبحانه أن علاج هذه الفئة من الناس يتمثل في ثلاثة أمور هي:

- ١- الإعراض عنهم، وعدم البشاشة في وجوههم.
 - ٢- نصحهم بتعليم الجاهل، وتنبيه الغافل، والتذكير بالعواقب.
 - ٣- الوعظ الشديد المؤثر عن طريق التهديد والترهيب والترغيب.
- وما دام الأمر كذلك ﴿فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ﴾ أي لا تبال بهم، ولا تعاملهم بما يعاملوك به: أعرض عن قبول عذرهم وعن عقوبتهم ﴿وَعِظْهُمْ﴾ باللسان وحُسن الكلام، وبين لهم حكم الله تعالى بالترغيب في ثوابه والترهيب من عقابه ﴿وَقُلْ لَهُمْ فِي أَنْفُسِهِمْ قَوْلًا بَلِيغًا﴾ يؤثّر في قلوبهم، ويأخذ بهم إلى التوبة؛ فالله سبحانه محاسبهم ومجازيهم يوم القيامة على ما قدمت أيديهم.

والقول البليغ: هو الذي يوصل المعنى إلى الفهم في أحسن صورة من اللفظ، مع الإيجاز وقوة التأثير بالترغيب والترهيب، أي أنصحهم سرا بينك وبينهم، وبالغ في زجرهم وقمعهم، وفي هذا دليل على أن مقترف المعاصي ينصح سرا، ويبالغ في وعظه

بما يظن حصول المقصود به .

والمعنى : إن هؤلاء لا يخفى حالهم على الله تعالى ، فتركهم ، وخوفهم عاقبة أمرهم ، وأثر فيهم بالموعظة الحسنة ، والكلام الرادع الذي يزرهم . فأصلحوا أنفسهم أيها المنافقون ، وطهروا قلوبكم ، وداؤوها من مرض النفاق ، وإلا أنزل الله بكم ما أنزله بغيركم من العقوبة قال تعالى : ﴿وَأَخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ (٦٥) فَإِنْ عَصَوْكَ فَقُلْ إِنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٦٦﴾ [الشعراء] .

اللُّجُوءُ إِلَى الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ عِنْدَ ظُلْمِ النَّفْسِ؛ اسْتِجَابَةُ لِلَّهِ وَالرَّسُولِ

٦٤- ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَّسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذْنِ اللَّهِ وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ جَاءُوكَ فَاسْتَغْفَرُوا اللَّهَ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ لَوَجَدُوا اللَّهَ تَوَّابًا رَحِيمًا﴾ (٦٤)

في هذه الآية حث على طاعة الله تعالى وطاعة رسوله ، وبيان أن الغاية من إرسال الرسل ، أن يكونوا مطاعين في كل ما أمروا به ونهوا عنه ، فقد أرسل الله ﷺ الرسل ليس لمجرد الوعظ والإرشاد والبلاغ ؛ وإنما للطاعة العملية ، وتحقيق ما أمر الله به ، وتطبيق شريعة الله في خلقه ، وقد أرسل الله الرسول ؛ ليطاع ويُتَحاكم إليه فكيف يُعرض عن حكمه إلى حكم غيره .

والواجب اتباع ما جاء به الرسل من الأمر والنهي والترغيب والترهيب ، وفي هذا إثبات لعصمة الرسل فيما يبلغونه عن الله ، لأن الله تعالى أمر بطاعتهم ، طاعة مطلقة ، ولولا عصمتهم لما أمر بذلك ، وهذه العصمة لا تكون لغير الرسل من خلق الله .

قال تعالى : ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَّسُولٍ﴾ أي : لم يأت رسول من رسل الله ، إلا والأصل أن يطاع هذا الرسول ويُتَّبَع ، وهذا معنى ﴿إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ ويَهْتَدِي به الخلائق ، فقد بَيَّنَّت الآية أن الطاعة مقيدة بإذن الله ، أي : بأمره ووصايته ، وقضائه وقدره .

ولذا : فمن الرسل من أطيع ، ومنهم من عُصي تارة ، أو دائماً ، فقد عُصي نوح ﷺ ، وعُصي موسى ﷺ في مواقع ، وعُصي عيسى ﷺ في أغلب حالاته .

ولما كانت رسالة محمد ﷺ مؤيدة بالسلطة ، فهو الرسول وهو الحاكم لم يحدث

عصيان للرسول ﷺ إلا بتأول ممن عصى، وطاعته تجب على الخلق بأمر الله تعالى وإذنه؛ لأنه مبلغ عن ربه، وليس هذا بكلام أجوف، يخلو من الناحية العملية، بل لا بُدَّ من التطبيق العملي في جميع مناحي الحياة، ومنها التحاكم إلى الله ورسوله، ولذا يقول ﷺ عن الذين يحكّمون غير شرع الله تعالى من القوانين الوضعية، وعن اليهودي والمنافق اللذين جاءا إلى الطاغوت، واحتكما إلى غير شرع الله:

ثم أخبر سبحانه عن سعة رحمته لمن اقترف ذنباً ثم رجع إلى ربه فأقلع عنه معترفاً به مقبلاً على ربه فقال: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ﴾ بترك طاعة الرسول والإعراض عن حكمه، فرجعوا عن تحكيم الكفار والكهنة، وجأؤوا إلى النبي ﷺ يعتذرون له، ويطلبون منه العفو لغفر الله لهم، ورحمهم، وقبل توبتهم، فوفّقهم لها وأثابهم عليها.

أي: ولو أنهم حين رجعوا إلى غير حكم الله ورسوله ﴿جَاءُوكَ﴾ أي جأؤوا إلى رسول الله في حياته وهو موجود، أو جأؤوا إلى كتاب الله الذي أنزله عليك -أيها الرسول - وعلى أمتك بعد مماتك ﴿فَاسْتَغْفِرُوا اللَّهَ﴾.

وباب الله مفتوح في كل وقت لا يغلق، وندموا على ما قدموا، فتابوا من النفاق، وتنصّلوا من التحاكم لغير الله ﴿وَأَسْتَغْفِرَ لَهُمُ الرَّسُولُ﴾ وهو حيّ، وبالغوا في الاعتذار إليك حين لم يقبلوا حكمك ﴿لَوْ جَدُوا اللَّهَ تَوَّابًا رَحِيمًا﴾ يقبل توبتهم، ويغفر زلتهم.

وقد عدل السياق من الخطاب إلى الغيبة تعظيماً وتفخيماً لاستغفار من خصه الله تعالى بالرسالة، وجعله سفيراً بينه وبين خلقه؛ فإن الله تعالى لا يرد شفاعته صلوات الله وسلامه عليه فيمن هم من أهل الشفاعة، فيعفو ويتجاوز عنهم، ويتوب عليهم ويرحمهم، وباب الله مفتوح لا يُغلق، ووعدته قائم إلى قيام الساعة.

والضمير في ﴿جَاءُوكَ﴾ خطاب للنبي ﷺ حال حياته، أي: جأؤوك مستغفرين تائبين، معترفين بخطاياهم، وبعد موت النبي ﷺ يكون الرجوع إليه بالعودة إلى شرعه.

فالمجيء إلى الرسول ﷺ في الآية مختص بحياته، لأن استغفار الرسول للمذنب لا يكون إلا في حياته، وأما بعد بعد موته ﷺ فلا يُطلب منه شيء.

وجاء في حديث أوس بن أبي أوس الثقفي، وهو أوس بن حذيفة، أن الصلاة على النبي ﷺ تُعرض عليه بعد موته، قالوا يا رسول الله، وكيف تعرض عليك صلاتنا وقد بليت؟ قال: «إن الله عز وجل حرم على الأرض أن تأكل أجساد الأنبياء»^(١).

فهذا الحديث وأمثاله يدل على أن النبي ﷺ حي في قبره، بمعنى أن البدن يبقى سالمًا، وأن الروح تعود إلى البدن، فيردّ السلام على من يصلي عليه، وسلامة أبدان الأنبياء في قبورهم أمر خارق للعادة، بخص الأنبياء، ولذا فإن الصلاة على النبي ﷺ تبلغه من حيث كان العبد في أي مكان من العالم، والأحاديث في هذا الباب تتعلق بهذا الجانب.

وعمّمها بعض أهل العلم بما يشمل الصلاة عليه وغيرها، وقالوا: بعموم الآية.

فمعنى الآية: وما بعثنا من رسول إلا ليطاع فيما أمر ونهى وحكم، بأمر الله تعالى وقضائه، فطاعة الرسول فرض على من أرسل إليهم، وإنكارها كفر، ولو أن هؤلاء الذين ظلموا أنفسهم باقتراف السيئات، والخروج عن تعاليم الإسلام، والتحاكم لغير شرع الله، لو أنهم جاؤوك يا محمد في حياتك تائبين توبة صادقة، سائلين الله تعالى أن يغفر لهم ذنوبهم، وطلبت لهم من الله المغفرة لوجدوا الله توابًا رحيماً.

قال سعيد بن الجبير: الاستغفار على نحوين، أحدهما: في القول، والآخر في العمل، فأما استغفار القول، فإن الله تعالى يقول: ﴿فَاسْتَغْفِرُوا اللَّهَ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمُ الرَّسُولُ﴾.

وأما استغفار العمل، فإن الله تعالى يقول: ﴿وَمَا كَانِ اللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾ [الأنفال: ٣٣].

فُعني بذلك أن يعملوا عمل الغفران، ولقد علمت أن أناسًا سيدخلون النار وهم يستغفرون الله بالستهم، ممن يدّعي الإسلام ومن سائر الملل^(٢).

(١) الأثر عند ابن المنذر (١٩٥٥) وابن أبي حاتم (٥٥٥٧).

(٢) مسند أحمد (١٦١٦٢) قال محققوه: إسناده صحيح، رجاله رجال الصحيح، غير صحابية، فمن رجال أصحاب السنن، قالوا: وقد أعلّ هذا الحديث بعض الحفاظ بما لا مقدح فيه، انظر: جلاء الأفهام ص (٨١-٨٥) وأو بن حذيفة غير أوس بن أوس، وأخرجه أبو داود (١٠٤٧) وابن ماجه (١٠٨٥) والنسائي في الكبرى (١٦٦٦) وغيرهم.

نَفْيُ الْإِيمَانِ عَمَّنْ لَمْ تَطِبْ نَفْسُهُ بِأَحْكَامِ الشَّرْعِ

٦٥- ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجًا مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾ (١٥)

ومن طاعة الرسول ﷺ وجوب تحكيم شرع الله تعالى فيما شجر بين العباد، بعد أن فصل بآية معترضة، فيها لوم وتوبيخ لمن لم يُقلع عن ذنبه بالرجوع إلى الله ورسوله، فيبين سبحانه أن من ينصرف عن حكم الإسلام وحدوده انتهامًا له بالقسوة أو الغلظة، أو خوفًا من الجور أو الحيف، فهو غير مؤمن، حتى يقبل حكم الله تعالى، ويعتقد أنه الأصلح للبشر.

فالإعراض عن حكم الله ورسوله لأي سبب من الأسباب كفر ونفاق، قال تعالى في شأن المنافقين: ﴿وَإِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِنْهُمْ مُعْرِضُونَ﴾ (٤٨) وَإِنْ يَكُنْ لَهُمُ الْحَقُّ يَأْتُوا إِلَيْهِ مُذْعِنِينَ (٤٩) أَفِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ أَمْ ارْتَابُوا أَمْ يَخَافُونَ أَنْ يَحِيفَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَرَسُولُهُ بَلْ أُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ (٥٠) [النور].

ثم بين سبحانه شأن المؤمنين في قوله: ﴿إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ الْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَنْ يَقُولُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ (٥١) [النور].

لأن حكم الرسول ﷺ بما شرع الله تعالى هو الحق والعدل، وليس فيه ظلم ولا جور ولا حيف، فلا يجوز للمسلم أن يعترض على حكم يوافق نصوص الكتاب والسنة.

وهذه الآية جاءت في سياق سبب النزول في قضية الخصومة بين اليهودي والمنافق، وتحاكم المنافق إلى الكاهن، وقد أقسم سبحانه في هذه الآية على أنه لا يؤمن أحد حتى يحكم رسول الله ﷺ في جميع الأمور، ثم ينقاد لما حكم به ظاهرًا وباطنًا، ويسلم تسليمًا كليًا من غير ممانعة ولا مدافعة ولا منازعة، وشأن المؤمن الانقياد التام لحكم الله ورسوله، ولا يكون المؤمن كامل الإيمان إلا إذا توافرت فيه ثلاثة شروط ذكرتهم الآية:

الأول: أن يتحاكم إلى رسول الله ﷺ في حياته، وإلى شريعته بعد مماته.

الثاني: أن يقبل حكم الشريعة برضى وطيب خاطر، ويعتقد أنها الحق والعدل التام.

الثالث: أن يذعن لأحكام الشريعة إذعانًا تامًا في مظهره ومخبره، ويخضع لها خضوعًا تامًا؛ فالمسلم لا يكون مسلمًا إلا إذا تحاكم لشرع الله أولاً، ولا يكون مؤمنًا إلا إذا

رضي وسلّم بقلبه لحكم الله ورسوله فيما أوحى الله به إليه ثانيًا .

فالتحاكم إلى الله ورسوله هو رتبة الإسلام، وانتفاء الحرج في هذا التحاكم هو رتبة الإيمان، والتسليم بحكم الله ورسوله هو رتبة الإحسان، فمن استكمل هذه المراتب فقد استكمل الدين، ومن ترك هذا التحاكم جحودًا له، أو اعتقادًا أن حكم البشر أكمل وأفضل منه فهو غير مؤمن! ولهذا ينفي الله تعالى الإيمان عن كل من لا يرضى بحكم الله ورسوله، ويحكم عليه بالكفر، وكذا كل من لم يسلم ويدعن لحكم الله ورسوله ويرضى به .

وهذا الزبير بن العوام ابن عمّة رسول الله ﷺ كان له أرض فيها نخيل، يسقيها بالماء، وكان له جار من الأنصار، والماء يمرّ أولًا بأرض الزبير، ثم يمر على أرض الأنصاري، ولكن الأنصاري يريد أن يسقي أرضه ونخيله قبل الزبير، فاختصما إلى النبي ﷺ .

ونظرا لأن الماء يمرّ أولًا بأرض الزبير، فإن من الطبيعي أن تشرب أرضه أولًا، ثم يذهب الماء إلى الأرض التي بعدها، ولذا: فإن النبي عليه الصلاة والسلام قال للزبير: اسق يا زبير، ثم أرسل الماء إلى جارك، فغضب الأنصاري وقال: أن كان ابن عمّك حَكَمْتَ له؟

بكل هذه الجرأة على رسول الله ﷺ، مع أنه ليس حاكمًا من البشر الذين يحكمون بالقوانين الوضعية وغيرها، إنما هو حاكم من عند الله يبلغ الوحي عن ربه، والنبي ﷺ لم يأمر بحبسه، أو إيقافه من عمله، أو ضربه، وإنما قال: «اسق يا زبير، ثم احبس الماء حتى يصل إلى الجدار، ثم أرسله إلى جارك»، فنزلت الآية^(١).

ففي المرة الأولى حَكَمَ النبي ﷺ بما فيه سعة بين الجارين، وترك فضلًا يتنازل عنه الزبير إلى جاره، ولكنه لمّا لم يرض بحكم الله ورسوله قطع النبي ﷺ بالحكم كاملاً لصاحب الحق، واستوفى حقه في صريح الحكم، وهو أن من كانت أرضه أقرب إلى فم الوادي فهو أولى، وحقه تمام السقيا أولًا، ثم يسقي من كان بعده، وهكذا..

(١) يُنظر هذا المعنى في البخاري (٢٦/٥) برقم (٢٣٥٩، ٢٣٦٠، ٤٣٠٩) ومسلم (١٨٣٠/٤) برقم (٢٣٥٧) عن عروة عن عبد الله بن الزبير، ويُنظر: «المسند» (١/١٦٥، ٤/٤) بإسناد صحيح على شرط الشيخين و«سنن النسائي» (٨/٢٣٨، ٢٤٥) وأبو داود برقم (٣٦٣٧) والترمذي برقم (١٣٦٣) وابن ماجه برقم (١٥) وذلك من طرق صحيحة متعددة.

ولمَّا لم يقبل خصمه بالحكم، أمر الرسول ﷺ باستيفاء الزبير حقه، وحمل خصمه على الحق المرّ. أنزل الله سبحانه هذا القرآن الذي يُتلى إلى يوم القيامة ﴿فَلَا وَرَيْكَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ وهذا نفي للإيمان ﴿حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ﴾ أي: فيما اختلفوا فيه وأشكل عليهم من الأمور فصار فيه خلاف ونزاع.

قال البغوي: رُوي أنهما - أي الزبير وخصمه - لما خرجا - أي من عند النبي ﷺ - مرًّا على المقداد، فقال لمن كان قد ولي القضاء: قال الأنصاري: لابن عمته، - أي رسول الله ﷺ - ولوى شدقه، ففطن له يهودي كان مع المقداد، فقال: قاتل الله هؤلاء، يشهدون أنه رسول الله، ثم يتهمونه في قضاء قضاه بينهم، وإيم الله، لقد أذنبنا ذنبًا في حياة موسى فدعا موسى إلى التوبة منه، فقال: ﴿فَأَقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ﴾ فبلغ قتلانا سبعين ألفًا في طاعة ربنا حتى رضي عنا، فلما سمع ذلك ثابت بن قيس قال: أما والله، إن الله ليعلم مني الصدق، ولو أمرني محمد أن أقتل نفسي لفعلت^(١).

والمعنى متصل بالآية السابقة، أي: ليس الأمر كما يزعمون أنهم آمنوا، وهم يخالفون حكمك، بل لا بُدَّ أن يرضى المسلم بحكم الله تعالى، وحُكْم رسول الله ﷺ في كل شأن وفي كل أمر فيه نص صحيح صريح، فهما المرجع عند الاختلاف والتنازع، والصد عن التحاكم إليهما علامة النفاق، فيجب التحاكم إليهما وقبول الحكم بهما، وإن لم تُطعْه نفسه، وإن لم يرض هواه، وإن لم يرض شيطانه، فلا بُدَّ له أن يقنع ويسلم، وهذا معنى ﴿ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجًا﴾ ضيقًا، أو شكًا ﴿مِمَّا قَضَيْتَ﴾ لهم ﴿وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾ فينقادوا لأمرك انقيادًا ولا يعارضوك، ويسلموا فيما تنازعوا فيه لحكمك.

تَخَاذُلُ الْمُنَافِقِينَ عَنِ الاسْتِجَابَةِ لِأَمْرِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ

٦٦- ﴿وَلَوْ أَنَّا كَتَبْنَا عَلَيْهِمْ أَنْ (٢) اقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ أَوْ أَخْرِجُوا (١) مِنْ دِيَارِكُمْ مَا فَعَلُوهُ إِلَّا قَلِيلٌ

(١) ورد هذا عن عبد الله بن الزبير عند ابن أبي حاتم (٥٥٦٦) وهو في «تفسير الخازن» (١/ ٣٧٥).

(٢) قرأ نافع وابن كثير وابن عامر والكسائي وأبو جعفر وخلف العاشر بضم النون والواو وصلًا من (أن) اقتلوا) و(أن اخرجوا)، وقرأ عاصم وحزمة بكسرها وصلًا، وقرأ أبو عمرو ويعقوب بكسر النون وضم الواو وصلًا.

مِّنْهُمْ^(١) وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُوا مَا يُوعَظُونَ بِهِ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ وَأَشَدَّ تَبَتُّلًا ﴿٦٦﴾

ثم بيّن ﷺ أنه لم يكلف هذه الأمة إلا بما تستطيعه، فلم يكلفهم إلا باليسير رحمة بهم، ولو أنه كتب عليهم أن يقتل بعضهم بعضًا، أو يهاجروا من ديارهم ويتركوا أوطانهم، ونحو ذلك مما يشق عليهم، ما استجاب لذلك إلا قليل من الناس، ولو أنا كلّفنا المنافقين - الذين لم يرضوا بحكم رسول الله ﷺ، وأرادوا التحاكم إلى الطاغوت - بتكاليف شاقة؛ كقتل النفس، وهجرة الأوطان، لَقَعَدُوا وتخاذلوا، ولم يفعل ذلك منهم إلا القليل، فالضمير في ﴿عَلَيْهِمْ﴾ من الآية يعود على المنافقين كما فسرهما ابن عباس ومجاهد.

يقول سبحانه: ﴿وَلَوْ أَنَّا كَتَبْنَا﴾ أي: فرضنا وأوجبنا على المنافقين المذكورين في الآية السابقة، ﴿أَن أَقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ أَوْ أَخْرِجُوا مِنْ دِيَارِكُمْ﴾ كما كتبنا على بني إسرائيل أن يقتل بعضهم بعضًا، وأن يخرجوا من ديارهم التي كانوا فيها؛ كي يتوب الله على من عبد العجل منهم.

الجواب: لو كتب الله ذلك على هذه الأمة ﴿مَا فَعَلُوهُ إِلَّا قَلِيلٌ مِّنْهُمْ﴾.

والله تعالى قد أكرم هذه الأمة، بمجرد أن تستغفر وترجع إلى الله تعالى، وتعزم على ترك الذنب، فإن الله يقبل توبتها، فماذا لو كتب الله علينا ما كتبه على غيرنا كما فعل ببني إسرائيل؟ فليحمدوا الله وليشكروه على تيسير ما أمرهم الله به حتى لا يشق عليهم فعله.

ولما نزلت هذه الآية قال بعض الصحابة: والله لو أمرنا لفعلنا، والحمد لله الذي عافانا، فبلغ ذلك النبي ﷺ فقال: «إن في أمتي رجالًا، الإيمان في قلوبهم أثبت من الجبال الرواسي»^(٢).

وعن عامر بن عبد الله بن الزبير أن هذه الآية لما نزلت قال رسول الله ﷺ: «لو نزلت لكان ابن أم عبد منهم»^(٣) أي: لو أن الله تعالى فرض علينا ذلك، لكان عبد الله بن مسعود من القلة الذين يفعلونه.

(١) قرأ ابن عامر (إلا قليلًا منهم) بالنصب على الاستثناء، وقرأ الباقر (إلا قليل) بالرفع على أنه بدل من الواو في (فعلوه).

(٢) «تفسير الطبري» (٢٥٦/٨) وابن أبي حاتم (٥٥٦٥) وهذا عن الحسن وزيد بن الحسن والشعبي.

(٣) رواه ابن أبي حاتم عن سفيان (٥٥٦٧).

وعن شريح بن عبيد قال: لما تلا رسول الله ﷺ هذه الآية، أشار بيده إلى عبد الله بن رواحة فقال: «لو أن الله كتب ذلك، لكان هذا من أولئك القليل»^(١).

والمعنى: أن الله تعالى ما كتب على عباده إلا طاعته واطاعة رسوله والرضى بحكمه، وفي هذا نصح للمشركين والمنافقين في كل زمان ومكان، وبيان لنعمة الله تعالى على هذه الأمة وفضله عليها.

ولو ثبت أن هؤلاء الذين أمرناهم بطاعتنا ﴿فَعَلُوا مَا يُوعَظُونَ بِهِ﴾ في كل وقت بحسبه فبدلوا جهدهم وصرفوا همتهم للقيام بما أمرناهم به من اتباع الرسول والانقياد لحكمه ﴿لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ﴾ في دينهم ودنياهم وأقوى ثباتاً على الحق والصواب. قال تعالى:

٦٧، ٦٨ - ﴿وَإِذَا لَآتَيْنَهُمْ مِنْ لَدُنَّا أَجْرًا عَظِيمًا ۖ وَلَهَدَيْنَهُمْ صِرَاطًا ۖ مُسْتَقِيمًا﴾

أي: ولو أنهم استجابوا لما يُنصحون به وثبتوا على طاعتنا، لكان ذلك نافعاً لهم، وأقوى لإيمانهم، ولأعطيناهم ثواباً عظيماً في الدنيا والآخرة.

ولهديناهم وأرشدناهم إلى الأعمال الصالحة، ووفقناهم إلى الطريق التي تؤدي إلى الصراط المستقيم، والثبات على الحق، فيثابون في جنات النعيم، وقد رتب الله سبحانه ما يحصل لعباده على فعل ما يوعظون به أربعة أمور:

أحدها: أن يكونوا من الأخيار الفاعلين للخير التاركين للشر جاء هذا في قوله تعالى ﴿لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ﴾.

ثانيها: حصول الثبات لهم عند حدوث الفتن والمصائب، فيوفقون للصبر والرضى والشكر وفعل الأوامر وترك النواهي، فيكونوا كما قال الله عنهم ﴿وَأَشَدَّ تَثَبُّتًا﴾.

ثالثها: حصول الأجر العظيم في الدنيا للروح والقلب والبدن، وحصول النعيم المقيم في دار الخلود قال تعالى ﴿وَإِذَا لَآتَيْنَهُمْ مِنْ لَدُنَّا أَجْرًا عَظِيمًا﴾ أي: في الدنيا والآخرة.

(١) ابن أبي حاتم (٥٥٦٥).

(٢) قرأ رويس وقنبل في أحد وجهيه بالسین في (صراط) وهي لغة عامة العرب، وقرأ خلف عن حمزة بإشمام الصاد صوت الزاي وهي لغة قيس، وقرأ الباكون بالصاد الخالصة وهي لغة قريش.

رابعها: حصول الهداية إلى الصراط المستقيم، فيوفق لكل خير ويندفع عنه كل شر ﴿وَلَهَدَيْنَهُمْ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا﴾.

هذا: والآيات من قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ﴾ إلى هنا، قد بيّنت ما عليه المنافقون من فسوق وعصيان وأكاذيب، وصورت نفورهم من أحكام الله تعالى تصويراً بليغاً، وكشفت عن أحوالهم ورذائلهم، وأرشدت إلى أنجع الوسائل لعلاجهم، وفتحت لهم باب التوبة؛ حتى يطهروا أنفسهم من السوء والفحشاء، ووضّحت هذه الآيات التسع، مظاهر اليسر والتخفيف عن هذه الأمة، ووعدت من يستجيب لله والرسول بالثواب الجزيل، وتوعدت من يترك حكم الله تعالى بالعذاب الأليم، ووصفتهم بعدم الإيمان، وفي هذه الآيات دلائل على أن من ردّ حكم رسول الله، أو شيئاً من أوامره ونواهيه فهو خارج عن الإسلام سواء أكان شاكاً أو متمرداً.

مَنْزِلَةُ مَنْ يُطِيعُ اللَّهَ وَالرَّسُولَ

٦٩- ﴿وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَٰئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ (١) وَالصَّالِحِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَٰئِكَ رَفِيقًا﴾ (٦٩)

يشير سبحانه إلى أن كل من أطاع الله ورسوله على حسب حاله، قدر ما يجب عليه، من ذكر وأنثى، وصغير وكبير، فهو من أهل السعادة في الدارين، مع أفضل خلق الله.

وسورة النساء مع أنها تُعنى بالمجتمع الإسلامي، والأسرة المسلمة، وبالأحكام والآداب الاجتماعية، إلا أنها مع ذلك لم تُغفل جانب الجهاد في سبيل الله؛ لأن الجهاد في سبيل الله ماضٍ إلى يوم القيامة: «وما ترك قوم الجهاد إلا ذلوا» ولأن الحق لا بُدَّ له من قوة تسانده، فتحّميه وتدافع عنه، ولأن هذه الأمة منوط بها نشر الإسلام في أرجاء المعمورة، وحمايته والدؤد عنه، ومنوط بها كذلك نُصرة المستضعفين في سبيل الله في كل زمان ومكان، ومن أجل ذلك اهتم القرآن الكريم والسنة النبوية كثيراً بالجهاد في سبيل الله.

وفي هذه الآية بيّن سبحانه ما يترتب على طاعة الله ورسوله في كل شأن من شؤون الدنيا والآخرة، ومن ذلك الجهاد في سبيل الله والنصر على العدو فهي توطئة للحديث

(١) قرأ نافع (والنبيين) بالهمز، وقرأ الباقون بإبدال الهمزة ياء مع إدغامها في الياء التي بعدها.

عن القتال في الإسلام، حيث تبدأ آيات الجهاد في سورة النساء بهذه الآية التي نحن بصددناها، فهي تمهّد له، وتدّل على أن النصر على العدو، والتمكين للمسلمين في الأرض، هو سبيل الكرامة والعزة والقوة والمنعة، إذ لا بُدَّ للجهاد أولاً من طاعة الله تعالى وطاعة الرسول ﷺ وذلك بامثال أمر الله سبحانه وأمر رسوله ﷺ .

ولا بُدَّ له ثانيًا من اجتناب ما نهى الله ﷻ عنه، وما نهى عنه رسوله ﷺ .

وبطاعة الله والرسول يتحقق النصر على أعداء الله تعالى مع الأخذ بالأسباب المادية له، وهذه الطاعة شرطٌ لسعادة المسلم في الدار الآخرة، وشرط لأن يكون العبد رقيقًا للأنبياء والصالحين من عباد الله تعالى في جنات النعيم.

المرء مع من أحب:

١- ورد في أسباب نزول هذه الآية الكثير من الروايات، وكلها تشير إلى أن أعدادًا من أصحاب رسول الله ﷺ منهم ثوبان مولى رسول الله ﷺ وكان شديد الحب لرسول الله ﷺ قليل الصبر على فراقه، فأتاه ذات يوم وقد تغير لونه ونحل جسمه، يُعرف في وجهه الحزن، فقال ﷺ: «يا ثوبان، ما الذي غيرَ لونك؟» قال: يا رسول الله، ما بي من ضر ولا وجع غير أنني إذا لم أرك اشتقتُ إليك، وأخذتني وخشة شديدة حتى ألقاك، وهكذا كانوا لا يصبرون على مفارقة النبي ﷺ ساعة من ليل أو نهار، حيث يأخذهم الشوق والحنين إلى رؤية الرسول ﷺ والجلوس معه كلما ابتعدوا عنه ساعة من ليل أو نهار.

وهكذا فقد رأى النبي ﷺ يومًا أحد أصحابه من الأنصار، حزينًا فسأله: «ما الذي ألمَّ بك من حزن؟» قال: يا رسول الله، إننا لا نصبر على فراقك، والرجل منا يكون في بيته، يغدو ويروح فلا يصبر ولا ينطفئ حبه حتى يأتي إليك ويجالسك ويشاهدك، ثم إنني تذكرت أنك ستُرفع غدًا، وتكون يوم القيامة في درجة أعلى مع الأنبياء، ونكون نحن في درجة أدنى، فكيف يتسنى لنا أن نراك يوم القيامة، تذكرتُ هذا الشيء وفكرتُ فيه، فكان ما ألمَّ بي من حزن وأسى، سكت النبي ﷺ، فأنزل الله ﷻ هذه الآية فبعث إليه النبي ﷺ فبشره^(١).

٢- ولفظ ابن مردويه عن الأسود عن عائشة ؓ قالت: جاء رجل إلى النبي ﷺ، فقال:

(١) يُنظر: «تفسير الطبري» (٧/٢١٣).

يا رسول الله، إنك لأحب إليّ من نفسي، وأحب إليّ من أهلي، وأحب إليّ من ولدي، وإني لأكون في البيت فأذكرك، فما أصبر حتى آتيك فأنظر إليك، وإذا ذكرت موتي وموتك، عرفت أنك إذا دخلت الجنة رُفعت مع النبيين، وإن دخلت الجنة خشيت ألا أراك، فلم يرد عليه النبي ﷺ حتى نزلت الآية، فقال ﷺ: أبشر يا أبا فلان^(١).

٣- في البخاري وغيره عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «إن أهل الجنة يتراؤون أهل الغرف من فوقهم، كما يتراؤون الكوكب الدرّيّ الغابر في الأفق من المشرق أو المغرب؛ لتفاضل ما بينهم»، قالوا: يا رسول الله، تلك منازل الأنبياء لا يبلغها غيرهم؟ قال: «بلى، والذي نفسي بيده، رجال آمنوا بالله وصدقوا المرسلين»^(٢).

٤- ويوضح هذا المعنى حديث أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال في آخره: «بلى، والذي نفسي بيده، أقوام آمنوا بالله وصدقوا المرسلين»^(٣).

٥- وفي صحيح مسلم وغيره عن عائشة رضي الله عنها قالت: كنت أسمع أنه لن يموت نبي حتى يُخَيَّر بين الدنيا والآخرة، قالت: فسمعت النبي ﷺ في مرضه الذي مات فيه، وأخذته بُحّة، يقول: ﴿مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَئِكَ رَفِيقًا﴾ قالت: فظننته خيّر حينئذ^(٤).

وهذا قوله ﷺ في حديث عائشة أيضاً: «اللهم في الرفيق الأعلى»، ثلاثاً، ثم قضى ﷺ^(٥).

أما الشهداء الذين ذكرتهم الآية، فلعلهم أعم من شهداء المعركة.

(١) جاء هذا المعنى في حديث مرفوع عن عائشة رضي الله عنها عند ابن مردويه، قال الهيثمي (٧/٧) رجاله رجال الصحيح، إلا عبد الله بن عمران العابدي، وهو ثقة، وقال أبو عبد الله المقدسي: لا أرى بإسناده بأساً. وروى مسلاً عن مسروق، وأخرجه ابن جرير، وفي سنده ضعف، وقد ذكرته بالمعنى من الرواية المرفوعة عن عائشة (٨/٥٣٤) والحلية (٨/١٢٥) و«تفسير الطبري» (٨/٥٣٤، ٥٣٥) برقم (٩٩٢٥) والطبراني في الأوسط برقم (٢٤٧٧، ٣٣٠٨) والصغير (١/٢٦) وقال: غريب من حديث فضيل ومنصور تفرد به العابدي، و«تفسير القرطبي» (٥/٢٧١) و«تفسير ابن أبي حاتم» برقم (٣٥٧٥).

(٢) «صحيح البخاري» برقم (٣٢٥٦، ٦١٦٧) و«صحيح مسلم» برقم (٢٦٣٩، ٢٨٣١) واللفظ لمسلم.

(٣) «المسند» (٢/٣٣٩) برقم (٨٤٢٣، ٨٤٧١) حديث صحيح، وأخرجه الترمذي (٢٥٥٦) وابن خزيمة (٢/٩٠٧).

(٤) «صحيح مسلم» برقم (٢٤٤٤) و«صحيح البخاري» برقم (٤٤٣٥).

(٥) يُنظر: البخاري برقم (٤٤٣٦) عن عائشة.

ففي حديث أبي هريرة رضي الله عنه: أن النبي ﷺ قال: «ما تعدون الشهيد فيكم؟» قالوا: يا رسول الله، من قتل في سبيل الله فهو شهيد، قال ﷺ: «إن شهداء أمتي إذاً لقليل»، قالوا: فمن هم يا رسول الله؟ قال: «من قُتل في سبيل الله فهو شهيد، ومن مات في سبيل الله فهو شهيد، ومن مات في الطاعون فهو شهيد، ومن مات في البطن فهو شهيد» زاد في رواية: «والغريق شهيد»^(١).

وقد ذكرت السُّنة أقوامًا يكونون في مرتبة من ذكرتهم الآية، كما في حديث أبي سعيد: «التاجر الصدوق الأمين مع النبيين والشهداء والصالحين، وحسن أولئك رفيقا إن شاء الله»^(٢).

والنبيون هم مَنْ فضّلهم الله بوحيه، وأرسلهم إلى خلقه يدعونهم إلى وحدانية الله تعالى، ويبشرونهم برضوان الله ويخوفونهم عذاب الله.

والصديقون هم أول من صدقوا رسل الله، وكان تصديقهم كاملاً، فعلموا الحق وصدقوه بيقين، وقاموا به قولاً وعملاً، ودعوة إلى الله تعالى، كالحواريين، والسابقين الأولين من المؤمنين،

والشهداء هم من قُتلوا في سبيل الله لإعلاء كلمة الله تبارك وتعالى.

والصالحون هم من لزموا طريق الاستقامة، فصلح ظاهراً وباطناً، وصلحت أعمالهم.

وهؤلاء هم الأخيار أهل المنازل العالية في الآخرة، فكلهم في الجنة، وإن تفاوتت درجات أهل المرتبة الأولى في الفضل وهم الأنبياء عمن سواهم، إلا أن الحُجُب في الجنة مكشوفة، حيث يرى بعضهم بعضاً كلما أرادوا التلاقي والزيارة وقد حسنت هذه الرفقة والمصاحبة في الجنة مع هؤلاء الأبرار، وهي رفقة تشرح الصدور، وتبهج النفوس بجوار رب العالمين.

وهؤلاء الأربعة: الأنبياء، والصديقون، والشهداء، والصالحون، هم صفوة الله من عباده، يتصل كل منهم بمن هو فوقه، أو بمن دونه في الجنة.

٦- وقد أثنى الله سبحانه على هذه الصفوة من الأنبياء ومن بعدهم ممن يرافقونهم في

(١) «صحيح مسلم» برقم (١٩١٥).

(٢) قال الترمذي (٢٠٩): حديث حسن لا نعرفه إلا من هذا الوجه.

الجنة، وهذه الرفقة في جنات النعيم سأل عنها ربيعة بن كعب الأسلمي رسول الله ﷺ، وكان هذا الصحابي يأتي بالماء قبيل الفجر؛ ليصب على النبي ﷺ ليتوضأ، فقال له الرسول ﷺ: «سل» (اطلب) قال يا رسول الله: أسألك مرافقتك في الجنة، قال: «أو غير ذلك؟» (أطلب شيئاً آخر؟) قال: هو ذاك، أي: ليس لي مطلب إلا هذا، فقال عليه الصلاة والسلام: «أعني على نفسك بكثرة السجود»^(١).

فبين النبي ﷺ أن الطريق الموصل إلى مرافقته ﷺ في الجنة هو كثرة السجود، أي: كثرة الصلاة، بأداء الفرائض، والإكثار من النوافل، فإن هذا أعظم الأسباب التي تكون سبباً لمرافقة العبد نبي الله ﷺ في جنة النعيم.

٧- وعن عائشة رضي الله عنها قالت: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «ما من نبي يمرض إلا خيّر بين الدنيا والآخرة»، وكان في شكواه الذي قبض فيه أخذته بحة شديدة، فسمعه يقول: «مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ» فعلمت أنه خير^(٢).

٨- وجاء رجل إلى النبي عليه الصلاة والسلام فقال: يا رسول الله، شهدت أن لا إله إلا الله، وأنت رسول الله، وأديت الخمس، وأخرجت زكاة مالي، وصمت رمضان، قال عليه الصلاة والسلام: «من مات على هذا كان مع النبيين والصديقين والشهداء والصالحين يوم القيامة» هكذا، ونصب ﷺ أصبعيه وأشار بهما، أي: هو معه في الجنة، ثم قال عليه الصلاة والسلام كما في رواية أحمد: «ما لم يعق والديه»^(٣).

أي: ما لم يكن عاقاً لوالديه، فهو في الجنة مع النبيين والصديقين والشهداء والصالحين، إذا هو قام بفرائض الله، واجتناب نواهي الله ﷻ.

٩- وقد سئل النبي ﷺ عن رجل يحب القوم ولمّا يلحق بهم؟ فقال: «المرء مع من

(١) يُنظر: «صحيح مسلم» برقم (٤٨٩) وأبو داود (١٣٢٠) والنسائي (١١٣٧).

(٢) البخاري (٤٥٨٦) ومسلم (٢٤٤٤) وابن ماجه (١٦٢٠).

(٣) قال الحافظ المنذري: رواه أحمد والطبراني بإسنادين أحدهما صحيح، ورواه ابن خزيمة وابن حبان في «صحيحهما» ما باختصار، يُنظر: «الترغيب والترهيب» (٣/٣٢٩) وفيه ابن لهيعة وهو ضعيف، والحديث عن عمرو بن مرة الجهني، وقال محققو «المسند»: حديث صحيح، رجاله ثقات، غير ابن لهيعة وقد توبع، وهو برقم (٢٤٠٩).

أحب». قال أنس رضي الله عنه: فما فرح المسلمون بشيء فرحهم بهذا الحديث ^(١).

وفي رواية قال أنس رضي الله عنه: فما فرحنا بشيء أشد فرحًا بقول النبي ﷺ: «أنت مع من أحبيت»، قال أنس: فأنا أحب النبي ﷺ، وأبا بكر، وعمر رضي الله عنهم، وأرجو أن يعشني الله معهم، وإن لم أعمل كعملهم ^(٢).

١٠- وفي الصحيحين عن أنس أيضًا: أن رجلاً سأل النبي ﷺ، فقال: متى الساعة؟ قال: «وما أعددت لها؟» قال: لا شيء، إلا أنني أحب الله ورسوله، فقال: «أنت مع من أحبيت» ^(٣).

ومعنى الآية: ومن يستجب لأوامر الله تعالى، وهدي رسوله محمد ﷺ، فأولئك الذين عظم شأنهم وقدرهم، فكانوا في صحبة من أنعم الله تعالى عليهم بالجنة من الأنبياء والصديقين الذين صدّقوا تصديقًا خالصًا، والشهداء في سبيل الله، وصالح المؤمنين، وحسن هؤلاء رفيقًا في الجنة، قال تعالى:

٧٠- ﴿ذَٰلِكَ الْفَضْلُ مِنَ اللَّهِ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ عَلِيمًا﴾ (٧٠)

أي وهذا العطاء الجزيل الذي منحه الله تعالى لعباده المطيعين من الثواب العظيم، ومزيد الهداية، وحسن الرفقة، هو محض فضل ومنة وتوفيق من الله تعالى لمن أخلصوا له العمل، والله سبحانه يعلم أحوال عباده، ومن يستحق منهم هذا العطاء، ثوابًا من الله تعالى على ما قام به من الأعمال الصالحة التي تواطأ عليها القلب والجوارح في دنياه، وفي هذا حض للمسلمين على التزود بالعمل الصالح؛ لأن الله تعالى محاسبهم ومجازيهم على ما قدمت أيديهم.

(١) ثبت هذا الحديث عن جمع من الصحابة، في الصحاح والمسانيد وغيرهما من طرق متواترة، يُنظر: البخاري برقم (٦١٦٧) و(٦١٧٠) عن أبي موسى بدون (قال أنس) كتاب الأدب (٤٨/٨) ومسلم برقم (٢٦٣٩) و(٢٦٤٠) عن أبي موسى أيضًا، كتاب البر (٤٢/٨) و«مسند أحمد» (١٠٤/٣) برقم (١٣٨٢٨)، (١٢٠١٣).

(٢) يُنظر: «صحيح مسلم» برقم (٢٦٣٩).

(٣) من حديث أنس في البخاري (٦١٦٧، ٧١٥٣) ومسلم (٣٦٣٩).

بَدْءُ الْحَدِيثِ عَنِ الْجِهَادِ فِي السُّورَةِ: الاستعداد للقاء العدو في كل وقت

٧١- ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا خُذُوا حِذْرَكُمْ فَانْفِرُوا ثُبَاتٍ أَوْ اَنْفِرُوا جَمِيعًا﴾ ﴿٧١﴾

يأمر الله عباده أن يأخذوا حذرهم من أعدائهم الكافرين، فيأخذوا بجميع الأسباب والوسائل المكافئة، التي يستعان بها على قتالهم، ويعرف بها مداخلهم ومخارجهم، وقوتهم وفنونهم.

والقتال صورة من صور الجهاد، والإسلام لا يحب القتال ويعده أمرًا قبيحًا في حد ذاته، ولا يبيحه إلا لما هو أقبح منه كما قال تعالى: ﴿وَالْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ الْقَتْلِ﴾ وهذا الجهاد أمر من الله سبحانه للأمة الإسلامية في كل زمان ومكان، وهذا الأمر يدخل ضمن طاعة الله والرسول أن تكون الأمة على أهبة الاستعداد في وقت السلم والحرب، وأن تنهيا بأحدث الأسلحة، وإعداد العدة لملاقاة العدو في أي وقت، فجهاد العدو أمر لا يفرغ، ولا ينتهي؛ لأن الجهاد ماضٍ إلى يوم القيامة، والصراع بين الحق والباطل قائم قيام الدنيا، والدعوة الإسلامية لا بُدَّ من انتشارها ومقاومة أعدائها.

وقد نزلت هذه الآيات في وقت خطط فيه أعداء الإسلام للنيل منه، فحذر الله المؤمنين منهم ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا خُذُوا حِذْرَكُمْ﴾ أي: احذروا من عدوكم بحمل السلاح وإعداد العدة، كما قال أبو بكر لخالده رضي الله عنه يوم حرب اليمامة: حاربهم بمثل ما يحاربونك به: السيف بالسيف والرمح بالرمح.

فاستعدوا لمجابهة أعدائكم بشتى الأساليب ومختلف الوسائل، فإن حصل قتال ﴿فَانْفِرُوا ثُبَاتٍ أَوْ اَنْفِرُوا جَمِيعًا﴾ لا تخرجوا للجهاد أفرادًا؛ فإن العدو يتصيدكم، وإنما اخرجوا جماعات، سرايا وفصائل، وقيم غيرهم وهذا معنى ﴿ثُبَاتٍ﴾، أو اخرجوا كلكم مجتمعين، إذا تطلب الأمر ذلك وهذا معنى ﴿جَمِيعًا﴾، قال تعالى ﴿وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ﴾ [الأنفال: ٦٠] وقال سبحانه ﴿اَنْفِرُوا خِفَافًا وَثِقَالًا﴾ [التوبة: ٤١]

الْمُتَّبِعُونَ

٧٢- ﴿وَإِنَّ مِنْكُمْ لَمَنْ لَّيَبْطُلَنَّ^(١) فَإِنْ أَصَابَتْكُمْ مُصِيبَةٌ قَالُوا قَدْ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْنَا^(٢) إِذْ لَمْ أَكُنْ مَعَهُمْ شَهِيدًا﴾

ثم تكشف الآيات عن أصحاب النفوس الفاسدة، وضعفاء الإيمان المتكاسلين عن الجهاد، فتشير إلى أنه قد يندس في صفوف المؤمنين من يُتَّبِعُ الهمم، من المنافقين وضعفاء الإيمان ممن يتثاقلون عن الجهاد، ويدعون غيرهم إلى التخلف عنه، ويعوقون طريق الجهاد بكل سبيل ممن ينطبق عليهم وصف النفاق، والخطاب للمؤمنين؛ لأنهم محسوبون عليهم، ولأن من المؤمنين مَنْ هو صادق في إيمانه، ومنهم ضعيف الإيمان الذي لا يقوي على الجهاد ﴿وَإِنَّ مِنْكُمْ﴾ أيها المؤمنون ﴿لَمَنْ لَّيَبْطُلَنَّ﴾ يتثاقل ويتخلف عن الجهاد في سبيل الله، ضعفا وجبنًا وخورًا، ويدعو غيره إلى التخلف عن الجهاد والزهد فيه، وهذا من علامات النفاق وهم منكم يعيشون بينكم، ويدعون الإسلام، وذلك كما حدث من المنافقين يوم أحد برئاسة عبد الله بن أبيي.

ثم بين تعالى ما انطوت عليه نفوسهم في قوله: ﴿فَإِنْ أَصَابَتْكُمْ مُصِيبَةٌ﴾ هزيمة أو قتل كان ذلك من باب الفرح والتشفي، ويعتبر ذلك مغنمًا، ويقول: ﴿قَدْ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْنَا إِذْ لَمْ أَكُنْ مَعَهُمْ شَهِيدًا﴾ أي: أن المنافقين إذا سمعوا بأن المسلمين أصابتهم مصيبة: من قتل الأعداء لهم، أو جراح أصابتهم، أو نحو ذلك.

فإنهم يقولون: إن عدم حضورنا معهم من نعم الله علينا، حيث سلمنا من هذه النكبات، فهم يفرحون بما أصاب المسلمين من سوء، وهذا ضعف في العقل والإيمان، وإلا فإن القعود عن الجهاد هو المصيبة، والنعمة الحقيقية، هي التوفيق لهذه الطاعة الكبرى، التي يقوي بها إيمان العبد، ويسلم من العقوبة، ويحصل له الأجر العظيم والثواب الجزيل.

قال تعالى: ﴿وَإِنْ تُصَبِّحُكُمْ سَيِّئَةٌ يَفْرَحُوا بِهَا﴾ [آل عمران: ١٢٠].

فهم يفرحون بالتخلف عن المؤمنين عنهم والقعود عن الجهاد معهم، والمؤمن إذا

(١) قرأ أبو جعفر بإبدال همزة (ليبطن) ياء في الوصل والوقف، ويوافقه حمزة عند الوقف، وقرأ الباقر بالهمز.

(٢) وقف يعقوب بهاء السكت على (علي) والباقر بدونها.

تخلف عن الجهاد لا يفرح ولا يقول: ﴿قَدْ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيَّ﴾ حيث لم أحضر معهم، بل يتمنى أن يفوز بالشهادة.

لفظ الشهيد في الآية إما أن يراد به: الحاضر المشاهد للقتال، وإما أن يراد به الاستشهاد في سبيل الله، ويكون قولهم هذا من باب التهكم. قال تعالى:

٧٣- ﴿وَلَيْنَ أَصَبَكُمْ فَضْلٌ مِّنَ اللَّهِ لَيَقُولَنَّ كَأَن لَّمْ تَكُنْ^(١) بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُ مَوَدَّةٌ يَلَيْتَنِي كُنْتُ مَعَهُمْ فَأَفُوزَ فَوْزًا عَظِيمًا

أي: ولئن حدث لكم -أيها المؤمنون - نصر وظفر وغنيمة ونعم ورزق ﴿مِّنَ اللَّهِ لَيَقُولَنَّ﴾ أي: هذا المنافق ﴿كَأَن لَّمْ تَكُنْ بَيْنَكُمْ﴾ وبين هؤلاء المنافقين صلة ولا مودة ولا علاقة في الدين، فهم يتمنون أن لو كانوا معكم؛ ليفوزوا بالنصر والغلبة والغنيمة ﴿يَلَيْتَنِي كُنْتُ مَعَهُمْ﴾ في ساحة الحرب والقتال ﴿فَأَفُوزَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾ بالمغانم الدنيوية ليس له قصد غير ذلك.

وهؤلاء المنافقون يمثلون العدو الداخلي للمؤمنين، ويجب الحذر منهم أكثر من العدو الخارجي، فهم الخطر الداهم الذي يُخلخل صفوف المقاتلين، وَيَقُتُّ في عضدهم، وربما سلَّم - هذا المنافق - الأرض للعدو، وتحالف معه على نصرته ومنفعته الشخصية مقابل ذلك؛ فالاحتلال لا يتمكن في أرض متماسكة البنيان، لا يوجد فيها مجال للحروب النفسية، أو إشاعة الإرجاف والخوف والوهم في نفوس المقاتلين.

وقد وصف الله تعالى المنافقين وضعاف الإيمان بقوله: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَعْبُدُ اللَّهَ عَلَى حَرْفٍ فَإِنْ أَصَابَهُ خَيْرٌ اطْمَأَنَّ بِهِ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ انْقَلَبَ عَلَى وَجْهِهِ خَسِرَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةَ﴾ [الحج: ١١].

وقد أمر سبحانه بالخروج للقتال على أي حال كانوا، شبابًا وشيوخًا، مشاة وركبًا، فقال: ﴿انْفِرُوا خِفَافًا وَثِقَالًا وَجَاهِدُوا بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ذَلِكَ خَيْرٌ لَّكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ

﴿١١﴾ [التوبة].

(١) قرأ ابن كثير وحفص ورويس (كأن لم تكن) بالتاء على التأنيث لمناسبة لفظ (مودة)، وقرأ الباقون (كأن لم يكن) بالياء، على التذكير؛ لأن لفظ (مودة) مؤنث مجازي، يجوز في فعله التذكير والتأنيث.

ولما سمع أبو طلحة الأنصاري هذه الآية وهو شيخ طاعن في السن، قال: أرى ربنا استغفرنا شيوفاً وشباباً، جهزوني يابني، ولما أراد أبناؤه أن يمنعه رحمة به قائلين له: نحن ننوب عنك، أبى وخرَجَ.

وقد بينَ ﷺ أنه لا يكمل إيمان العبد حتى يكون الجهاد في سبيل الله أحب إليه من كل متاع الدنيا وزخرفها، كما جاء في الآية (٢٤) من سورة التوبة.

ولا بُدَّ للنصر على العدو من التسليح بقوة الإيمان وترك المعاصي مع إعداد العدة المضارعة لما لدى العدو.

قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه وهو يوصي قواده وجنوده: آمرك ومن معك أن تكونوا أشد احتراساً من المعاصي منكم ومن عدوكم؛ فإن ذنوب الجيش أخوف عليكم من عدوكم، ولولا ذلك لم تكن لنا بهم قوة، فإذا استوينا معهم في المعاصي غلبونا بقوة السلاح، ولا نتصر عليهم بفضلنا، ولا نغلبهم بقوتنا، واسألوا الله العون على أنفسكم كما تسألونه النصر على عدوكم.

وَأُمَّةٌ تُرَوِّحُ عَنْ جُنُودِهَا بِالرَّقْصِ وَالْأَغَانِي، أُمَّةٌ لَا تَسْتَحِقُّ النَّصْرَ.

وأمة يسهر قُوداها الليالي الحمراء، وينغمسون في شهواتهم وملذاتهم، لا سيما في الليالي التي نستعد فيها لملاقاة عدونا، ويستغلون نفوذهم في نهب البلاد واقتسام الثروات، أمة لا تستحق النصر على العدو.

إن الجندي بحاجة إلى من يزهده في الدنيا ونعيمها ويرغبه فيما عند الله سبحانه وحب لقائه، فإن هو عاش في الشهوات وإشباع الرغبات، فكيف يقدم على قتال العدو؟!

﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ﴾ [الرعد: ١١].

الْجِهَادُ وَمَوَاقِفُ الْمُتَّبِطِينَ الْمُتَخَاذِلِينَ مِنْهُ

٧٤- ﴿فَلْيُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يَشْرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا بِالْآخِرَةِ وَمَن يُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيُقْتَلْ أَوْ يَغْلِبْ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ (٧٤)

ثم استنهض الله الهمم للجهاد في سبيله، فإذا كان ما سبق بيانه شأن المنافقين المتخاذلين

والمعوقين المتباطئين ﴿فَلْيَقْتَلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ إذا، المخلصون لله، الباذلون لأنفسهم وأموالهم في سبيل الله، الذين يبيعون الدنيا بالآخرة، وفي هذا ذم للمبطلين عن القتال وترغيب للمؤمنين فيه، فهم ﴿الَّذِينَ يَشْرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا بِالْآخِرَةِ﴾ ولفظ الشراء يُستعمل في البيع والشراء، والمعنى يبيعون الدنيا رغبة عنها ويختارون الآخرة، رغبة فيها، ثم بين الله سبحانه أن المؤمن حين يخرج مقاتلاً مجاهداً في سبيل الله ليس أمامه إلا أمران:

الأمر الأول: هو الاستشهاد في سبيل الله.

والأمر الثاني: هو تحقيق النصر على العدو.

ولم يعرف الإسلام نكسة ولا هزيمة ولا غير ذلك، إنما الذي يعرفه هو إما النصر وإما الشهادة ﴿وَمَنْ يُقْتَلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلْ﴾ هذه هي الشهادة ﴿أَوْ يَغْلِبْ﴾ هذا هو الانتصار، وكل من قاتل في سبيل الله، سواء قُتل، أو غلب، أو سلب ماله، أو فقد أهله وولده، فله عند الله أجر عظيم ﴿فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا﴾.

وقد ذم الله المتثاقلين عن القتال ذمًا شديدًا في قوله: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمْ أَنْفِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَتَأْتَلْتُمْ إِلَى الْأَرْضِ أَرْضَيْتُمْ بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا مِنَ الْآخِرَةِ فَمَا مَتَّعَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ﴾ (٣٨) إِلَّا تَنْفِرُوا يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَيَسْتَبَدِلَ قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّوهُ شَيْئًا وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٣٩) [الرعد].

وخروجهم مع المسلمين لا يزيدهم إلا نكبة ودسًا ووقعة، قال تعالى: ﴿لَوْ خَرَجُوا فِيكُمْ مَا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا وَلَأَوْضَعُوا حُلَلَكُمْ﴾ [التوبة: ٤٧] ولذا كره الله خروجهم فنبطهم، أما المؤمنون المخلصون فقد وطنوا على جهاد العدو، والدؤد عن حمى الإسلام، وإزالة العقبات أمام نشر الدعوة، لذا: عظم أجرهم وجزل ثوابهم.

في الصحيحين عن أبي هريرة: أن النبي ﷺ قال: «تضمن الله لمن خرج في سبيل الله لا يخرج به إلا جهاد في سبيلي وابتغاء مرضاتي فهو عليّ ضامن أن أدخله الجنة، أو أرجعه إلى مسكنه الذي خرج منه نائلاً ما نال من أجر، أو غنيمة»^(١) هذا لفظ مسلم.

(١) «صحيح مسلم» برقم (١٨٧٦) عن أبي هريرة و«صحيح البخاري» برقم (٧٤٥٧، ٧٤٦٣).

فالمجاهد في سبيل الله ضامن أن يدخله الله الجنة إن قتل شهيداً، أو يعود إلى أهله بالنصر والغنيمة.

تَعْنِيفُ الْمُتَقَاعِسِينَ عَنْ نُصْرَةِ إِخْوَانِهِمُ الْمُسْلِمِينَ

٧٥- ﴿وَمَا لَكُمْ لَا تُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْ هَذِهِ الْقَرْيَةِ الظَّالِمِ أَهْلُهَا وَاجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا وَاجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ نَصِيرًا ﴿٧٥﴾﴾

في هذه الآية حث من الله تعالى لعباده المؤمنين على الجهاد في سبيله، وتوجيه اللوم العظيم لهم على تركه، وعلى عدم نصرة الضعفاء من الرجال والنساء والصبيان الذين لا حيلة لهم في التخلص من ظلم الأعداء.

فالجهاد لا ستفادهم من الظلم، فيه أجر عظيم وفائدة كبيرة، فكان الآية تقول:

ثم هناك المستضعفون في الأرض، ومنهم قوم في صدر الدعوة كانوا في مكة، ولم يستطيعوا الخروج منها، وهناك الأقليات المسلمة في العالم، هناك الجمهوريات الإسلامية المستقلة من الحكم الشيوعي في العصر الحديث، هناك أهل فلسطين والعراق وكشمير وغيرهم، ممن يَلْقَوْنَ الْعَنْتَ وَالْقَتْلَ والتشريد والتضييق عليهم، هؤلاء المستضعفون في الأرض كانوا أيضاً في وقت النبي ﷺ، ومنهم من بقي من المسلمين مستضعفاً في مكة، فالرسول ﷺ قد خرج إلى المدينة وبقي في مكة قوم ضعاف: شيوخ كبار، نساء وأطفال، فيجب على الرجال الأقوياء أن يدافعوا عنهم ويقاتلوا لنصرتهم.

قال ابن عباس كما جاء في الصحيح: كنت أنا وأمي من المستضعفين^(١).

وفي رواية ابن أبي مليكة قال: كنت أنا وأمي ممن عذر الله ﷺ^(٢) أي: أنا من الولدان، وأمي من النساء، وهو الذي قال فيه النبي ﷺ: «اللهم أنج الوليد بن الوليد، وعبد الله بن عباس، وسلمة بن هشام، وعياش بن أبي ربيعة، والمستضعفين من المؤمنين...»^(٣).

وكان ابن عباس طفلاً صغير السن.

(١) «صحيح البخاري» برقم (٤٥٨٧) وانظر: (١٣٥٧).

(٢) «صحيح البخاري» برقم (٤٥٨٨).

(٣) البخاري عن أبي هريرة (٨٠٤، ١٠٠٦، ٦٩٤٠) ومسلم (٦٧٥).

فالمستضعفون ممن عذرهم الله في ترك القتال، وممن يجب نصرتهم والدفاع عنهم ويجب حمايتهم وتخليصهم مما هم فيه.

قال تعالى: ﴿وَمَا لَكُمْ لَا تُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ هذا توبيخ وتقريع من الله سبحانه للمتخاذلين القاعدين عن القتال: ما لكم - أيها المسلمون - لا تدافعون عن إخوانكم المضطهدين في أرجاء المعمورة من الحكم الكافر، والملحد، والصهيوني، والصليبي، وفي هذا حض من الله سبحانه على الجهاد؛ لإنقاذ المؤمنين الضعفاء من أيدي الكفار، فلا عذر لكم - أيها المؤمنون - في ترك القتال لنصرتهم، فهم الذين قال الله فيه: ﴿وَالْمُسْتَضْعِفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ الَّذِينَ يَقُولُونَ﴾ أي يدعون ربهم لكشف الضر عنهم، كما دعا أهل مكة ربهم قائلين: ﴿رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْ هَذِهِ الْقَرْيَةِ الظَّالِمِ أَهْلُهَا﴾ بالشرك، والكفر، والإلحاد ﴿وَأَجْعَلْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ وَلِيًّا وَاجْعَلْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ نَصِيرًا﴾.

ولما دعا أهل مكة هذا الدعاء، حقق الله تعالى لهم دعاءهم، فجعل لهم خير ولي، وخير نصير، وهو رسول الله ﷺ؛ حيث فُتحت مكة فتحاً إسلامياً، واستعمل النبي ﷺ عليها قائداً فتى شاباً يافعاً يبلغ الثامنة عشرة من عمره، هو عتّاب بن أُسيد، فكان ينصر المظلومين من الظالمين، وينصر الضعفاء من الأقوياء، فرأوا منه الولاية والنصرة، وتحققت فيهم الدعوة^(١).

مَا أَبْعَدَ الْفَرْقَ بَيْنَ قِتَالِ الْمُؤْمِنِ وَالْكَافِرِ!!

٧٦- ﴿الَّذِينَ آمَنُوا يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ الطَّاغُوتِ فَقَاتِلُوا أَوْلِيَاءَ الشَّيْطَانِ إِنَّ كَيْدَ الشَّيْطَانِ كَانَ ضَعِيفًا﴾ (٧٦)

ثم بيّن سبحانه الهدف والغاية من القتال بين المؤمنين والكفار، فأخبر أن المؤمنين يقاتلون في سبيله، وأن الكافرين يقاتلون في سبيل الشيطان.

قال تعالى: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾؛ لإعلاء كلمة الله، وابتغاء مرضاته، لا للظلم، ولا للتعدي، ولا لاستعباد شعب، ولا للسيطرة عليه، ولا لاحتلاله، أو استغلال ثرواته، إنما لشق الطريق أمام كلمة التوحيد، وإزالة العقبات من طريقها.

(١) يُنظر: «الإصابة» لابن حجر (٤٤٤/٢) عن ابن عباس.

﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا يُقْتَلُونَ فِي سَبِيلِ الطَّاعُوتِ﴾ وَشَتَّانَ مَا بَيْنَ الْأَمْرَيْنِ: مَنْ يُقَاتِلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ، وَمَنْ يُقَاتِلُ فِي سَبِيلِ الشَّيْطَانِ، وَهُوَ يَدْعُو إِلَى الْكُفْرِ وَالطَّغْيَانِ ﴿فَقَتِلُوا﴾ يَا أَوْلِيَاءَ اللَّهِ، قَاتِلُوا ﴿أَوْلِيَاءَ الشَّيْطَانِ إِنَّ كَيْدَ الشَّيْطَانِ كَانَ ضَعِيفًا﴾؛ لِأَنَّهُ يَخْذِلُهُ وَيَغْرِرُهُ وَلَا يَنْصُرُهُ، فَإِنَّكُمْ سَتَغْلِبُونَهُ، وَتَنْتَصِرُونَ عَلَيْهِ، وَعَلَى أَتْبَاعِهِ.

والكيد هو سلوك الطرق الخفية لضرر العدو، ومهما بلغ كيد الشيطان فهو في غاية الضعف، لأنه لا يقوم على شيء من الحق، ولذا وصفه الله تعالى بالضعف، ويستفاد من الآية:

١- أن الجهاد في سبيل الله أثر من آثار الإيمان ومقتضياته ولوازمه، وعلى قدر الإيمان يكون الإخلاص والمتابعة، كما أن القتال في سبيل الطاغوت يكون شعبة من شعب الكفر ومقتضياته.

٢- وإذا كان أولياء الشيطان يصبرون ويقاومون وهم على باطل، فأهل الحق أولى بالصبر والجلد، قال تعالى: ﴿إِنْ تَكُونُوا تَأْلَمُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كَمَا تَأْلَمُونَ وَتَرْجُونَ مِنَ اللَّهِ مَا لَا يَرْجُونَ﴾ [النساء: ١٠٤].

٣- ثم إن المقاتل في سبيل الله يعتمد على ركن وثيق هو الحق والتوكل على الله تعالى، بخلاف من كان على باطل، فهو لا يدافع عن حقيقة، ولا ينتظر عاقبة حميدة.

تَبْلِيغُ الدَّعْوَةِ يَكُونُ وَفْقَ مُفْتَضَى الْحَالِ مِنْ ضَعْفٍ وَقُوَّةٍ

٧٧- ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ قِيلَ لَهُمْ كُفُّوا أَيْدِيَكُمْ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ إِذَا فَرِيقٌ مِنْهُمْ يَخْشَوْنَ النَّاسَ كَخَشْيَةِ اللَّهِ أَوْ أَشَدَّ خَشْيَةً وَقَالُوا رَبَّنَا لِمَ كُتِبَ عَلَيْنَا الْقِتَالُ لَوْلَا أَخَّرْنَا إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ قُلْ مَتَاعُ الدُّنْيَا قَلِيلٌ وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ لِمَنِ اتَّقَى وَلَا يُظْلَمُونَ﴾^(١) فَنِيلاً ﴿﴾

هذه الآية تتضمن مرحلة الدعوة الإسلامية في مكة قبل الهجرة، وقبل تكوين المجتمع الإسلامي، وهذه المرحلة هي التي تحمّس فيها بعض الناس؛ لقتال المشركين في مكة؛

(١) وقف البزي ويعقوب بهاء السكت على (لَمْ) بخلف عنهما، عوضاً عن الألف المحذوفة، ووقف الباقر والبزي ويعقوب معهم في الوجه الآخر بسكون الميم وفقاً للرسم العثماني.

(٢) قرأ ابن كثير وحمزة والكسائي وأبو جعفر وخلف العاشر وروح بخلف عنه (وَلَا يُظْلَمُونَ) بياء الغيب؛ لمناسبة صدر الآية، وقرأ الباقر ومعهم روح في الوجه الثاني (وَلَا تُظْلَمُونَ) بقاء الخطاب؛ لمناسبة قوله تعالى: (رَبَّنَا لِمَ كُتِبَ عَلَيْنَا الْقِتَالُ).

ليُدْفَعُوا الْأَذَى عَنْ أَنْفُسِهِمْ، وَإِلَى هَذَا أَشَارَ شَطْرُ الْآيَةِ الْأُولَى ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ قِيلَ لَهُمْ كُفُّوا أَيْدِيَكُمْ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ﴾.

أي: ألم تعلم -أيها الرسول- خبر هؤلاء الذين قلتَ لهم قبل أن يُؤْذَنَ لك في الجهاد: امنعوا أيديكم عن قتال أعدائكم من المشركين، وعليكم أداء ما فرض الله عليكم من الصَّلَاةِ والزَّكَاةِ، أي التصدق ومواساة الفقراء، وليست الزكاة المفروضة، فإنها لم تفرض إلا في المدينة، وهذه الآية تتكلم عما قبل الهجرة إلى المدينة.

فإنكم - أيها المؤمنون - مأمورون في هذه المرحلة بتحقيق التوحيد ونبذ الشرك، ولم تؤمروا بقتال، لعدم قيام الدولة وتحقيق القوة اللازمة لمواجهة العدو.

وهذا الاستفهام على وجه التعجب من حالهم، والإنكار على من تخاذل منهم عن الجهاد فيما بعد.

وتتضمن هذه الآية أيضًا مرحلة ما بعد الهجرة؛ حيث تَكُونُ المجتمع المسلم، وأُذِنَ الله للمسلمين في الجهاد؛ فكرهه بعضهم خوفًا من لقاء العدو، وحُبًا في الدنيا، وإلى هذا جاءت الإشارة في بقية الآية من قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ﴾... إلخ.

و أحبه بعضهم دفاعًا عن النفس والمال والعرض والأرض، وقمعًا لمن وقف في طريق الدعوة إلى الله عز وجل، رغبة فيما أعده الله تعالى للمجاهدين في سبيله من الأجر والمثوبة، والأدلة على ذلك من الكتاب والسنة كثير:

١- ولم يؤمر المسلمون بجهاد العدو في الفترة المكية، لأن الإسلام يبدأ بالأهم فالأهم، والأسهل فالأسهل، والبدء بنبذ الشرك وتحقيق التوحيد هو الفرض الأساس من دعوة الرسل، وهو الأيسر.

٢- ولو فرض الله الجهاد على من أجابوا الدعوة في مكة، مع قلة عددهم وعُدَّتْهم، وكثرة أعدائهم وقوتهم، لأدى ذلك إلى ضعف الإسلام في مهده، فَرُوعِيَ جانب المصلحة في ذلك، بتشريع ما لا يشق على المسلمين.

وسياق الآيات يدلُّ على أن هذه الآية نزلت في تقرير المنافقين وتوبيخهم، الذين كرهوا القتال بعد أن فرض عليهم ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهُ لَكُمْ﴾ [البقرة: ٢١٦].

أسباب النزول:

١- قال السدي: ﴿الَّذِينَ قِيلَ لَهُمْ كُفُّوا أَيْدِيَكُمْ﴾ قومٌ أسلموا قبل أن يُفرض القتال، وسألوا أن يُفرض عليهم القتال، فلما فُرض عليهم القتال ﴿إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُمْ﴾^(١) وهذا الفريق هم الذين تظاهروا بالرغبة في القتال، فلما فُرض القتال على المسلمين جبن المنافقون، وخافوا من بأس المشركين، وهذا الفريق لا يدخل فيه خيارُ الصَّحابة ممن جاء ذكرهم في سبب النزول الآتي ذكره؛ لأن الآية تخصُّ المنافقين.

٢- ونقل الطبري عن مُجاهد: أن الآية نزلت في اليهود، وعليه فتكون الآية مثلاً ضربَه الله للمسلمين؛ تحذيراً لهم من الوقوع فيما وَقَعَ فيه غيرهم، كما قال تعالى: ﴿الَّذِينَ تَرَى إِلَى الْكَلْبِ مِنْ بَنِي إِسْرَءِيلَ مِنْ بَعْدِ مُوسَى إِذْ قَالُوا لِنَبِيِّنَا لَئِنْ لَمْ يَأْتِنَا بَأْتًا نَكُونُ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾^(٢) قال هَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ أَلَّا تُقَاتِلُوا قَالُوا وَمَا لَنَا أَلَّا نُقَاتِلَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَقَدْ أُخْرِجْنَا مِنْ دِينِنَا وَأَبْنَائِنَا فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ تَوَلَّوْا إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ ﴿٢٤﴾ [البقرة] وهم الذين قالوا لموسى: ﴿فَاذْهَبْ أَنْتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلَا إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ﴾ [المائدة: ٢٤].

والآية عامَّة في كلِّ مَنْ تَخَاضَلْ عن قتال أعداء الإسلام المحاربين له، وسبب النزول يَشْمَلُ المسلمين، ويُخْرِجُ منهم كلِّ مَنْ خَالَفَتْ أفعالهم أقوالهم:

٣- أخرج الحاكم وغيره بسنده عن ابن عباس رضي الله عنهما: أن عبد الرحمن بن عوف رضي الله عنه وأصحاباً له، أتوا النَّبِيَّ ﷺ بمكة، فقالوا: يا نَبِيَّ الله، كُنَّا فِي عِزٍّ وَنَحْنُ مُشْرِكُونَ، فَلَمَّا آمَنَّا صِرْنَا أَذْلَةً؟ قَالَ ﷺ: «إِنِّي أُمِرْتُ بِالْعَفْوِ فَلَا تُقَاتِلُوا» فَكَفُّوا، فَأَنْزَلَ اللَّهُ الْآيَةَ^(٣).

٤- وفي رواية أخرى: أنها نزلت في عبد الرحمن بن عوف، والمقداد بن الأسود،

(١) «تفسير التحرير والتنوير» (٥ / ١٢٥).

(٢) «المستدرک» (٢ / ٣٠٧) قال الحاكم: هذا حديثٌ صحيحٌ على شرط البخاري، ولم يخرجاه، ووافقه الذهبي، وأخرجه ابن أبي حاتم من طريق علي بن الحسن بن شقيق به، ورجاله ثقات، وسنده صحيح، وهو في «تفسير الطبري» (٥ / ١٠٨).

وقدامة بن مظعون، وسعد بن أبي وقاص، وغيرهم^(١) ممّن كان المشركون يؤذونهم قبل هجرة النبي ﷺ إلى المدينة، وقبل أن تكون هناك قيادة، ودولة إسلامية، ومجتمع إسلامي، له نظم وقوانين وأحكام، وقبل أن يأذن الله للمؤمنين بالقتال، حيث كان المسلمون في مكة مُستضعفين أذلاء، يطلبون من النبي ﷺ أن يُقاتل المشركين، قالوا: يا رسول الله، إن المشركين آذونا بعد أن دخلنا في الإسلام؛ فأذن لنا في قتالهم، فقال النبي عليه الصّلاة والسلام: «كفوا أيديكم، فإني لم أؤمر بقتال، وأدوا ما فرضه الله عليكم من الصّلاة والزكاة بشكل عام»، وكان النبي ﷺ يأمرهم بالإكثار من الأعمال الصالحة، والتضرع بالدعاء إلى الله ﷻ، ريثما يأتي الأمر بالجهاد.

وهذه الآية كقوله تعالى: ﴿وَيَقُولُ الَّذِينَ ءَامَنُوا لَوْلَا نُزِّلَتْ سُورَةٌ فَإِذَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ مُحْكَمَةٌ وَذُكِرَ فِيهَا الْقِتَالُ رَأَيْتَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ نَظَرَ الْمَغْشِيِّ عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ فَأُولَئِكَ لَهُمْ طَاعَةٌ مَعْرُوفَةٌ إِذَا عَزَمَ الْأَمْرُ فَلَوْ صَدَقُوا اللَّهَ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ ﴿٦٦﴾﴾ [محمد]

فلما أذن الله تعالى للنبي ﷺ بالقتال، وطلب منهم أن يُجاهدوا في سبيل الله، بعد أن قامت دولة الإسلام في المدينة، وأصبح للمسلمين جيوشٌ يفتحون بها البلاد، ويذودون بها عن حِمَى الإسلام، وصار المؤمنون أقوياء أعزاء عندئذٍ ظهر التفاق.

وظهر نتيجة لذلك التخاذل والتباطؤ من بعضهم، وهم الذين عناهم القرآن الكريم بقوله: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ قِيلَ لَهُمْ كُفُّوا أَيْدِيَكُمْ﴾ عن قتال المشركين في مكة، أثناء هذه الفترة، فإنّ وقت القتال لم يحن بعد، فلما أذن الله لهم في الجهاد بعد الهجرة ﴿إِذَا فُرِيقٌ مِّنْهُمْ﴾ وهم المنافقون المتخاذلون عن القتال يظهرون على حقيقتهم، وقد تغيّر حالهم؛ فأصبحوا يخافون النَّاسَ، ويرهبون لقاء عدوهم، كخوفهم من الله أو أشد، فهم ﴿يَخْشَوْنَ النَّاسَ كَخَشْيَةِ اللَّهِ أَوْ أَشَدَّ خَشْيَةً﴾؛ وذلك لأنهم يخافون من الموت، ويحرصون على الدنيا، ويخافون أن يتركوا شهواتهم، وهم يُعلنون عمّا اعتراهم من شدة الخوف، فيقولون: ﴿رَبَّنَا لِمَ كُتِبَ عَلَيْنَا الْقِتَالُ﴾ في هذا الوقت، وفي هذا تضجّر واعتراض على الله

(١) ينظر: «أسباب النزول» للواحدي (١٤٠) وهو عن الكلبي، معروف بضعفه، ولكن الرواية التي قبله تشهد له.

تعالى، وكان ينبغي عليه أن يُسلم لأمر الله تعالى، ويصبر على أوامره ونواهيه ولكنهم قالوا: ﴿لَوْلَا أَخَّرْنَا إِلَىٰ أَجَلٍ قَرِيبٍ﴾ أي: هَلَّا أَمَهَلْتَنَا وأخرت عنا فرض القتال إلى وقت قريب، وطلبُ هذا الإمهال رغبة منهم في متاع الدنيا، وهذا حال من يستعجل الأمور ولا يصبر عليها وقت حلولها.

يقول الله تعالى لرسوله ﷺ قل لهم: ﴿مَتَعُ الدُّنْيَا قَلِيلٌ﴾ مهما كثر، ومهما طال، ومهما بلغ، هذا الكرسي الذي تحرصون عليه، وهذه المرأة التي تحرصون عليها، وهذا المال، وهذه الوظيفة، وجميع الشهوات، متاع الدنيا كله قليل زائل، وهذا المتاع إن كان لعدة سنوات هي عُمرُ الإنسان فهو قليل.

وإن كان المراد متاع الدنيا كله؛ أي: بمقدار عُمر الدنيا كلها؛ فإن متاعها قليل أيضًا، كما قال تعالى في شأن الكفار: ﴿مَتَعُ قَلِيلٌ ثُمَّ مَأْوَهُمْ جَهَنَّمُ﴾ [آل عمران: ١٩٧] والآخرة وما فيها خيرٌ وأعظم وأبقى لمن امتثل أمر الله تعالى، واجتنب نهيه ﴿وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ لِّمَنِ اتَّقَى﴾ في ذاتها ولذاتها وزمانها، فإن موضع سوط أحدكم من الجنة خير من الدنيا وما فيها، ولذات الآخرة صافية من النواغص والمكدرات، والهموم والغموم، ولذات الآخرة دائمة لا تنفنى ولا تنقطع، وهذا بخلاف لذات الدنيا فهي لا تخلو من المكدرات والمنغصات، وهي لذات فانية منقضية، فكيف تبيعون آخرتكم بدنياكم.

ويوم القيامة لا يظلم ربك شيئًا ولو بمقدار الحَيْط الذي يكون في ظهر النواة من التمرة؛ أي: لا تُنْقُصُونَ من حسناتكم، ولا يُزَادُ على سيئاتكم ﴿وَلَا تُظَلَمُونَ فَنِيلاً﴾ فسعيكم للدار الآخرة، ستجدونه كاملاً غير منقوص.

في صحيح مسلم وغيره عن المستورد بن شداد قال: قال رسول الله ﷺ: «ما الدنيا في الآخرة إلا مثل ما يجعل أحدكم إصبعه هذه -وأشار إلى السبابة- في اليم، فلينظر بما يرجع»^(١).

(١) مسلم (٢٨٥٨) وابن ماجه (٤١٠٨) والترمذي (٢٣٢٣) والبخاري (٣٤٦٠٥) والمسنَد (١٨٠٠٨) بإسناد صحيح على شرط مسلم ورجال ثقات، كما قال محققوه، وابن حبان (٤٣٣٠، ٦١٥٩) و«سنن النسائي الكبرى» (١١٧٩٧).

تَوْبِيخُ الْمُتَقَاعِسِينَ عَنِ الْقِتَالِ

٧٨- ﴿أَيْنَمَا تَكُونُوا يُدْرِكَكُمُ الْمَوْتُ وَلَوْ كُنْتُمْ فِي بُرُوجٍ مُّسَيَّدَةٍ وَإِنْ تُصِبْهُمْ حَسَنَةٌ يَقُولُوا هَٰذَا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَإِنْ تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَقُولُوا هَٰذَا مِنْ عِنْدِكَ قُلْ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ فَمَالِ هَٰؤُلَاءِ الْقَوْمِ لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثًا ۖ﴾

هذه الآية ذات شقين: شق يُوبِّخُ الجُبْناء الذين طلبوا تأخير وقت القتال؛ زعمًا منهم أن الاقتراب من موقع القتال يُعَجِّلُ بالموت، فأخبر سبحانه أنه لا يغني حذر من قدر، وأن القعود عن القتال، لا يدفع الموت عمّن حضر أجله، وهذا الشق هو قوله تعالى: ﴿أَيْنَمَا تَكُونُوا يُدْرِكَكُمُ الْمَوْتُ وَلَوْ كُنْتُمْ فِي بُرُوجٍ مُّسَيَّدَةٍ ۖ﴾.

والشق الآخر: يَصِفُ المنافقين غير المستجيبين للقتال بأنهم لا يُصَدِّقُونَ ما يبلغهم به النَّبِيُّ ﷺ، من وَعْدِ الله تعالى بنصر المؤمنين، وينسبون ما يُصِيبُهُمْ من قِلَّةِ الأرزاق ونحوها إلى النَّبِيِّ ﷺ، وأنها كانت بسبب دخولهم في الإسلام.

فقد نزل في المنافقين الذين قالوا: ﴿رَبَّنَا لِمَ كَتَبْتَ عَلَيْنَا الْقِتَالَ﴾ ما يفيد أن الإقدام والشجاعة لا تُقدِّم العمر لحظة، كما أن التخاذل والتباطؤ والخوف من الموت لا يزيد في عمر الإنسان لحظة.

والموت يأتي في أيِّ زمان وفي أيِّ مكان، ولو كان الإنسان في جوف الأرض، أو في جوِّ السماء، ولو كان داخل أسوار مؤصدة؛ فلا بُدَّ من الموت، ولو كنتم في حصون منيعة ومنازل رفيعة، في أعلى الأرض، أو في قعرها، فالموت نازل بكم لا محالة عند حلول آجالكم، وإذا كان لا بُدَّ لكم منه؛ فإن القتل في سبيل الله، وجهاد أعدائه أفضل من الموت على الفراش ألف مرة، فبالشهادة تُنالُ السعادة الأخروية.

والإسلام يحث على الجهاد في سبيل الله تارة بالترغيب في فضله وثوابه، وتارة بالترهيب من عقوبة تركه، وتارة بالإخبار أن القعود عن الجهاد لا يمنع من الموت، كما في هذه الآية، وتارة بتهيئة أسباب النصر وإلقاء الرعب في قلوب الأعداء من مسيرة شهر، ونحو ذلك.

وكان من آثار ذلك أن أحب المسلمون لقاء الله، ورغبوا في الشهادة في سبيل الله،

(١) يجوز الوقف لجميع القراء اضطراراً، أو اختاراً على لفظ (ما) من (فما هؤلاء القوم) ويبدأ القارئ من (فما).

ومن ذلك أنه لما جاء خالد بن الوليد الموت، وهو على فراشه بكى وقال: لقد شهدت مئة زحف وزحف، أو زهاءها، وما في بدني موضع شبر إلا وفيه ضربة بسيف أو طعنة برمح أو رمية بسهم، وهأنذا أموت على فراشي كما يموت البعير، فلا نامت أعين الجبناء^(١).

فالموت يأتي في مواعده، وسواء أجاهد العبد أم لم يُجاهد؛ فإن له أجلاً محتوماً لا يتقدم ولا يتأخر، فلن تموت نفس حتى تستوفي رزقها وأجلها، ولو أن أحداً بقي في هذه الدنيا لكان رسول الله ﷺ أولى بذلك ﴿وَمَا جَعَلْنَا لِشَرِّ مِنْ قَبْلِكَ الْخَلْدَ﴾ [الأنبياء: ٣٤] ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ﴾ [آل عمران: ١٨٥]

﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ ﴿٣٦﴾ وَيَبْقَى وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ ﴿٣٧﴾﴾ [الرحمن]

﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ﴾ [القصر: ٨٨].

فيأيتها الخائفون من الموت، إن ظننتم أن قعودكم عن القتال سينجيكم من الموت؛ فأنتم واهمون مخطئون ﴿قُلْ إِنْ الْمَوْتَ الَّذِي تَفِرُّونَ مِنْهُ فَإِنَّهُ مُلَاقِيكُمْ﴾ [الجمعة: ٨] ﴿قُلْ لَنْ يَنْفَعَكُمْ الْفِرَارُ إِنْ فَرَرْتُمْ مِنَ الْمَوْتِ أَوِ الْقَتْلِ وَإِذَا لَا تُنْعَوْنَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٦﴾﴾ [الأحزاب].

﴿قُلْ لَوْ كُنْتُمْ فِي بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ الَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقَتْلُ إِلَى مَضَاجِعِهِمْ﴾ [آل عمران: ١٥٤].

لقد تغلغل مفهوم الآخرة في أعماق نفوس الصحابة، وأشربت قلوبهم محبة لقاء الله تعالى، حتى إن حنظلة بن عامر ليستقبل الموت في ساحة المعركة، بعد أن فارق حِضْنِ زَوْجِهِ في ليلة عُرْسِهِ، حين سمع داعي الجهاد، ونزل من فوره ناسياً أنه جُنُبٌ، ولما جاءت الطعنة القاتلة استقبلها فرحاً مسروراً وهو يقول: فزت ورب الكعبة!

ومحبة لقاء الله تعالى جعلت عُمَيْرَ بن الحمام الأنصاري، يشاق إليها، فأخذ يرمي بتمرات قليلة كانت في يده يأكلها، ويقول: لئن عشتُ حتى آكل هذه التمرات إنها لحياة طويلة.

ومحبة لقاء الله تعالى جعلت أحدهم يقول وهو مُتَوَجِّهٌ للمعركة: واهّا لريح الجنة، إني لأجد رائحة الجنة دون أحد، وقاتل العدو حتى سقط شهيداً.

ولما بلغ بعضهم إشاعة أن رسول الله ﷺ قد مات، قال لمن حوله: فماذا تصنعون

(١) «مختصر تاريخ دمشق» (٨ / ٢٦) بمعناه.

بالحياة بعده، قوموا فموتوا على ما مات عليه رسول الله ﷺ!

سبب نزول الآية:

١- قال ابن عباس من رواية أبي صالح: لَمَّا اسْتَشْهَدَ اللَّهُ مِنَ الْمُسْلِمِينَ مَنْ اسْتَشْهَدَ يَوْمَ أُحُدٍ، قَالَ الْمُنَافِقُونَ الَّذِينَ تَخَلَّفُوا عَنِ الْجِهَادِ: لَوْ كَانَ إِخْوَانُنَا الَّذِينَ قُتِلُوا عِنْدَنَا، مَا مَاتُوا وَمَا قُتِلُوا، فَأَنْزَلَ اللَّهُ الْآيَةَ^(١).

أَمَّا الشُّقُّ الْآخَرُ مِنَ الْآيَةِ: فَإِنَّ الضَّمِيرَ الَّذِي فِي أَوَّلِهَا مِنْ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَإِنْ تُصِيبَهُمْ حَسَنَةٌ﴾ يَعُودُ عَلَى الْمُشَبَّطِينَ الْكَارِهِينَ لِلْقِتَالِ، فَهَمَّ يَعْمِدُونَ إِلَى تَجْرِيجِ الْقِيَادَةِ؛ كَيْ يَبْرُرُوا تَخَاذُلَهُمْ وَتَقَاعُسَهُمْ عَنِ تَنْفِيزِ أَوْامِرِ النَّبِيِّ ﷺ، وَمِنْ ذَلِكَ نَسْبُهُ مَا يَحْدِثُ لَهُمْ فِي الدُّنْيَا إِلَى دُخُولِهِمْ فِي الْإِسْلَامِ؛ مِنْ مَرَضٍ أَوْ هَزِيمَةٍ أَوْ فَقْرٍ، أَوْ مَوْتٍ، أَوْ حَيَاةٍ؛ لِإِلْصَاقِ التَّهْمِ بِالْإِسْلَامِ:

٢- قَالَ الْقُرْطُبِيُّ: نَزَلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ فِي الْيَهُودِ وَالْمُنَافِقِينَ، وَذَلِكَ أَنَّهُمْ لَمَّا قَدِمَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ الْمَدِينَةَ قَالُوا: مَا زَلْنَا نَعْرِفُ النِّقَصَ فِي ثِمَارِنَا وَمَزَارِعِنَا مِنْذُ قَدِمَ عَلَيْنَا هَذَا الرَّجُلُ وَأَصْحَابُهُ^(٢).

٣- وَفِي الْبُخَارِيِّ وَغَيْرِهِ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ ؓ: أَنَّ الرَّجُلَ كَانَ يَقْدُمُ الْمَدِينَةَ، فَإِنْ وَلَدَتْ أَمْرَأَتُهُ غُلَامًا، وَنَتَجَتْ خِيْلُهُ؛ قَالَ: هَذَا دِينُ صَالِحٍ، وَإِنْ لَمْ تَلِدْ أَمْرَأَتُهُ، وَلَمْ تَنْتِجْ خِيْلُهُ؛ قَالَ: هَذَا دِينُ سَوْءٍ، وَهَؤُلَاءِ هُمُ الَّذِينَ يَعْبُدُونَ اللَّهَ عَلَى حَرْفٍ، وَمِنْهُمْ الْأَعْرَابُ، وَهُمْ أَهْلُ غِلْظَةٍ وَجَفْوَةٍ، وَلَعَلَّ مِنْهُمْ مَنْ جَابَهُ النَّبِيُّ ﷺ بِقَوْلِهِ: هَذِهِ مِنْ عِنْدِكَ.

وَهَكَذَا كَانَ بَعْضُ الْأَعْرَابِ إِذَا أَسْلَمَ وَهَاجَرَ إِلَى الْمَدِينَةِ، فَإِنْ زَادَتْ أَنْعَامُهُ، وَحَسُنَتْ صَحَّتُهُ، وَكَثُرَتْ أَوْلَادُهُ؛ حَمِدَ الْإِسْلَامَ وَأَثْنَى عَلَيْهِ، وَإِنْ أَصَابَهُ مَرَضٌ، أَوْ مَوْتُ فِي أَنْعَامِهِ وَأَبْنَائِهِ، وَضِيقٌ فِي الرِّزْقِ؛ تَشَاءَمَ بِالْإِسْلَامِ وَارْتَدَّ عَنْهُ! وَمِنْ ذَلِكَ حَدِيثُ الْأَعْرَابِيِّ الَّذِي أَصَابَتْهُ الْحُمَّى فِي الْمَدِينَةِ فَرَجَعَ فِي بَيْعَتِهِ لِلنَّبِيِّ ﷺ، وَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ فِي شَأْنِهِ: «الْمَدِينَةُ كَالْكَبِيرِ، تَنْفِي خَبِيثَهَا وَيَنْصَعُ طَيِّبَهَا»^(٣).

(١) الواحدي (١٤٠) والسيوطي (٨٠) وابن الجوزي (٢/ ١٣٧) والقرطبي (٥/ ٢٨٢).

(٢) «تفسير القرطبي» (٥/ ٢٨٤).

(٣) من حديث جابر في البخاري (٧٢٠٩، ٧٣٢٢) ومسلم (١٣٨٣) والترمذي (٣٩٢٠) و«المسند» (١٤٢٨٤) والنسائي في «السنن الكبرى» (٤٢٤٨).

٤- وكان اليهود يقولون: لَمَّا جاء محمدٌ المدينة قَلَّتِ الثمار، وغلَّت الأسعار فجعلوا وجود الرسول ﷺ في المدينة هو المؤثر في الأحداث.

ومن شأن المنافقين أن يَنْسُبُوا المشكلاتِ والتَّكَبَّاتِ إلى الإسلام، وذلك أن المدينة النبوية، كانت ذات خيرٍ ونِعَمٍ وأرزاقٍ عند مَقْدَمِ النَّبِيِّ ﷺ إليها، فَلَمَّا ظهر النفاق وظهر عنادُ اليهود؛ قَلَّتِ الخيرات؛ بسببِ تَمَرْدِهِمْ وعدم طاعتهم، فقال المنافقون واليهود كما سبق: لم نعرف النَّقْصَ في ثمارنا ومزارعنا إلا عندما قَدِمَ علينا هذا الرجل وأصحابه؛ فنزلت الآية.

وقوله تعالى: ﴿وَإِنْ تُصِيبَهُمْ حَسَنَةٌ﴾ هذا إخبار من الله تعالى عن المعرضين عما جاء به الرسل، بأنهم إذا جاءتهم حسنة أي: خيرٌ في الثمار وزيادة في الأرزاق، ﴿يَقُولُوا هَذِهِ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ﴾ لا يقولون هذا أدباً مع الله، ولا حُبّاً في رسول الله، وإنما يقولونه طَعْنًا في الإسلام، بدليل قول الله تعالى بعدها: ﴿وَإِنْ تُصِيبَهُمْ سَيِّئَةٌ﴾ أي: جذب ونقص وقلة في الأرزاق، ومرض وموت ﴿يَقُولُوا هَذِهِ مِنْ عِنْدِكَ﴾ أي بسبب ما جئتنا به يا محمد، وهذا خِطَابٌ منهم للنَّبِيِّ ﷺ؛ يعني: أن ما أصابنا من نقصٍ في الأرزاق وغيره إنما هو بسبب شؤمك، وسوء تدبيرك، وبسبب إيماننا بك، واتباعنا لك.

كما قال قوم فرعون لموسى: ﴿فَإِذَا جَاءَهُمْ الْحَسَنَةُ قَالُوا لَنَا هَذِهِ وَإِنْ تُصِيبَهُمْ سَيِّئَةٌ يَطَّيَّرُوا بِمُوسَى وَمَنْ مَعَهُ﴾ أي: أن هذا من شؤمك علينا، قال تعالى: ﴿أَلَا إِنَّمَا طَّيَّرَهُمْ عِنْدَ اللَّهِ وَلَكِنْ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الأعراف: ١٣١].

وكما قال قوم ثمود لصالح عليه السلام ﴿قَالُوا أَطَّيَّرْنَا بِكَ وَيَمِنْ مَعَكَ قَالَ طَّيَّرَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ مُفْسِدُونَ﴾ [النمل: ٤٧]

وكما قال أصحاب قرية أنطاكية لرسولهم ﴿قَالُوا إِنَّا تَطَيَّرْنَا بِكُمْ لَئِنْ لَمْ تَنْتَهُوا لَنَرْجُمَنَّكُمْ﴾ [يس: ١٨] فكان الرد عليهم ﴿قَالُوا طَّيَّرَكُمْ مَعَكُمْ﴾ [يس: ١٩].

يقول سبحانه تعالى في الرَّدِّ على مَنْ نَسَبَ الشُّؤْمَ للنَّبِيِّ محمد ﷺ، وزعم أن ما أصابهم بسبب إسلامهم: ﴿قُلْ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ﴾ الحسنة والسيئة كلاهما من الله سبحانه، الخير والشر، والغنى والفقر، والنصر والهزيمة، والصحة والمرض، كله بقضاء الله وقدره، فعجباً لهؤلاء من جهلهم، وقلة فهمهم وعلمهم، قال تعالى: ﴿فَالِ هَؤُلَاءِ الْفَوَهم﴾

الصادر منهم هذه المقالة الباطلة ﴿لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثًا﴾ هذا ذم وتوبيخ لهم على عدم فهمهم وعدم فقههم، وفيه مدح ضمني لمن يفهم مراد الله تعالى ورسوله، وفيه حث على الأخذ بالأسباب المعينة على ذلك، وسلوك الطرق الموصلة إلى فهم وتدبر الكتاب والسنة، حتى يعلم المرء أن الخير والشر، والحسنات والسيئات، كلها بقضاء الله وقدره، وأن الرسل لا يكونون سبباً لوقوع الشر، لأن الله تعالى بعثهم بصلاح الدنيا والدين. قال تعالى:

٧٩- ﴿مَا أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ اللَّهِ وَمَا أَصَابَكَ مِنْ سَيِّئَةٍ فَمِنْ نَفْسِكَ وَأَرْسَلْنَاكَ لِلنَّاسِ رَسُولًا وَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا﴾

ثم إن الله تعالى علّم خلقه أن كل ما يحدث في الكون، من الخير والشر في الدين والدنيا، له مؤثر حقيقي هو الله تعالى، وله أسباب مقارنة، وأدلة تنبئ عن عواقبه؛ أما الحسنة فهي إنعام من الله تعالى، وأما السيئة فهي ابتلاء وتمحيص من الله سبحانه، وهو سبحانه على وجه الحقيقة متفضل بها على خلقه، ومن ذلك ما فتح الله على نبيه يوم بدر، وما أصابه من الغنيمة والفتح ﴿وَمَا أَصَابَكَ مِنْ سَيِّئَةٍ فَمِنْ نَفْسِكَ﴾؛ لأن الإنسان هو الجاني والمكتسب لها، ومن ذلك ما أصاب النبي ﷺ يوم أُحُد؛ حيث شجَّ وجهه، وكُسرت ربايعته، وكان ذلك بسبب مخالفة بعض الرماة لأمر النبي ﷺ.

فالمراد بالحسنة والسيئة في هذه الآية: ما يُصيب الإنسان من النعم والمحن، وهي من فعل الله تعالى، وهي التي يُقال فيها: أصابني، بدليل أنه تعالى لم يذكر عليها ثواباً ولا عقاباً، والحسنة والسيئة التي هي فعل الله تعالى، كقوله عن بني إسرائيل: ﴿فَإِذَا جَاءَتْهُمْ الْحَسَنَةُ قَالُوا لَنَا هَذِهِ وَإِنْ تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَطَّيَّرُوا بِمُوسَى وَمَنْ مَعَهُ﴾ [الأعراف: ١٣١].

ولمّا كان الله تعالى هو الخالق والموجد لجميع الأشياء على الحقيقة، أُضيفت إليه الحسنة والسيئة معاً ﴿قُلْ كُلٌّ مِّنْ عِندِ اللَّهِ﴾ خلقاً وإيجاداً، وأضيفت السيئة إلى العبد على سبيل التأديب مع الله تعالى، أو لأنها تُسبب عقوبة له، كما في الآية ﴿وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ﴾ [الشعراء] فنسب إبراهيم المرض إليه تأديباً مع الله تعالى.

أمّا الحسنات والسيئات الشرعية، التي هي من فعل العبد، فيقال فيها: أصبْتُها وأصابني؛ لأنها من باب الطاعة والمعصية، ويترتب عليها الثواب والعقاب، وهذا كقوله تعالى: ﴿مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا وَمَنْ جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَى إِلَّا مِثْلَهَا وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ [الأنعام]

وقد أُنعمَ الله على عباده بالحسنات وأمرهم بفعلها، وابتلاهم بالسيئات، ونهاهم عن فعلها، وأخبرهم أنها تمنع عنهم فضل الله تعالى وإحسانه إليهم، فإذا فعلها العبد فلا يلومن إلا نفسه.

أما السيئة التي هي من فعل العبد فهي من باب المعاصي، وليست مقصودةً هنا، وذلك بقوله تعالى ﴿وَمَا أَصْبَحْكُمْ مِنْ مُّصِيكَةٍ فِيمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ﴾ [الشورى: ٣٠]

وقوله: ﴿ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ﴾ [الروم: ٤١].

وعلى هذا فالسيئة هي ما يُصيب الإنسان من مَحَنٍ وابتلاءاتٍ، وهي من عنده تعالى يُوقعها بعباده؛ عقوبةً لهم على ذنوبهم وآثامهم.

وما يُصيب المسلمين من أحداثٍ، واضطراباتٍ، وهزائمٍ، ومَحَنٍ، ليس الإسلامُ هو المُتَّهَمُ فيها، ولكن المتهم فيها هم الخارجون عن منهج الله تعالى وتعاليمه؛ عقوبةً لهم من الله سبحانه، كما جاء في الحديث: «والذي نفسي بيده، لا يُصيب المؤمنَ همٌّ، ولا حزنٌ، ولا نصبٌ، حتى الشوكة يشاكها إلا كفرَّ الله عنها بها من خطاياها»^(١).

والمخاطبُ في الآية هو الإنسان، أو هو النَّبِيُّ ﷺ تشريعاً للأمة، والنَّبِيُّ ﷺ مَعْصُومٌ من الوقوع في السيئات من بعثته حتى موته، وقد غَفَرَ اللهُ له ما تقدم من ذنبه وما تأخر.

وعليه فإن السيئة والحسنة كلتاهما من الله تعالى؛ لأنه الخالقُ لهما، وقد أعطى الله الإنسان قدرةً التغلب على مُشكلاتِ الحياة، باتباع سننها، وسلوك أسبابها، فمن استفاد من سنن الله في الكون؛ تغلب على مشكلاته، ومن أهمل أو أغفل أو قصر في الأخذ بالأسباب؛ أصابته المصائب، فكان هو السبب فيها.

فموضوعُ هذه الآية هو اتخاذُ الأسباب وتصحيح المفاهيم، وموضوعُ الآية التي قبلها هو بيان قول المنافقين وافتراءهم على الإسلام:

١- وقد ذكر القرآن الكريم صنفًا من البشر يُرذُّ الحسنة، وكثرة المال إلى مهارته وعِلْمه وخبرته، كما قال قارون: ﴿إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ عِنْدِي﴾ [القصص: ٧٨] ومنهم من اغترَّ بماله

(١) من حديث أبي سعيد وأبي هريرة في «صحيح مسلم» برقم (٢٥٧٣) ومن حديث عائشة برقم (٢٥٧٢) وفي البخاري (٥٦٤١، ٥٦٤٢).

ومتاعه؛ فزعم أنه سيكون في الآخرة أفضل مما هو عليه في الدنيا فقال: ﴿وَلَيْنَ زُودَتْ إِلَى رَبِّي لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِمَّنْهَا مُنْقَلَبًا﴾ [الكهف: ٣٦]

وقال أيضًا: ﴿وَلَيْنَ تُجِيعْتُ إِلَى رَبِّي إِنَّ لِي عِنْدَهُ لَلْحُسْنَى﴾ [فصلت: ٥٠].

٢- وذكر القرآن صنفًا آخر من البشر يردُّ فعل المعاصي وارتكاب الموبقات، وما يَقَعُ في هذه الحياة من نكباتٍ إلى الله تعالى فيقول: ﴿لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا عَبَدْنَا مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ﴾ [النحل: ٣٥] وهذا النوع من النَّاسِ، كلُّ شيءٍ عندهم مكتوبٌ على الجبين، وكلُّ شيءٍ مقدَّرٌ، ولو شاء الله لهداه، فهو ينسب كلَّ ما جنت يده، وكلَّ ما وقع فيه من سوء إلى الله تعالى، وكأنه حيوان مُجْبَرٌ، ليس له حرية، ولا عقل، ولا اختيار، فهو لِعَجْزِهِ عن كَبْحِ شهوات نفسه ونزواتها يتمسَّح في القضاء والقدر، ويُلقِي باللائمة عليه، ويَرْضَى لنفسه أن يكون مسلوب الإرادة، فاقد الإنسانية.

٣- وذكر القرآن صنفًا ثالثًا من البشر، وهم المؤمنون الذين يَحْمَدُونَ الله تعالى، ويشكرونه على ما يُصِيبُهُمْ من الخير والنَّعم، وينسبون الفضل فيه إلى الله تعالى، وليس إلى مهارتهم وخبرتهم، وإن أصابهم الشرُّ والنَّقم لم يلوموا إلا أنفسهم، ويقولون كما قال أبوههم آدم: ﴿رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنْفُسَنَا وَإِنْ لَمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ [الأعراف: ٢٣].

وكما قال ذو القرنين بعد أن أُنْجَزَ بناء السَّدِّ: ﴿هَذَا رَحْمَةٌ مِنْ رَبِّي﴾ [الكهف: ٩٨] وليس من قدراتي، ولا من خبراتي، فأنت صاحب الفضل فيه يا رب، وأنا عبدٌ آخذٌ بالأسباب، وأتمس التوفيق، والسداد منك سبحانه.

ثم أخبر جل شأنه عن عموم رسالة محمد ﷺ فقال: ﴿وَأَرْسَلْنَاكَ لِلنَّاسِ﴾ كافَّةً ﴿رَسُولًا﴾ يُبَلِّغُهُمْ ﴿وَكُفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا﴾ على أنك رسول الله، بما أيدك بنصره، وبالبراهمين الساطعة، والمعجزات الباهرة، وكفى بالله شهيدًا على تبليغ ما أُرْسِلْتَ به إلى النَّاسِ عامَّةً، وإنك لصادقٌ فيما تُبَلِّغه عنه سبحانه، فلا يجوز لأحدٍ أن يخرج عن طاعته ﷺ،

طَاعَةُ الرَّسُولِ ﷺ طَاعَةٌ لِلَّهِ عَزَّ وَجَلَّ

٨٠- ﴿مَنْ يُطِيعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ وَمَنْ تَوَلَّى فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِظًا﴾

تشير الآية إلى أن كل من أطاع رسول الله ﷺ في أوامره ونواهيه، فقد أطاع الله تعالى

لأنه لا يأمر ولا ينهى إلا بأمر الله تعالى وشرعه ووحيه، والأمر بالطاعة المطلقة للنبي ﷺ تفيد عصمته في كل ما يبلغه عن ربه.

ولمّا قال اليهود والمنافقون: إن ما يُصيّهم من نكبات مَصْدَرُها هو الإسلام ورسول الإسلام، أراد الله سبحانه أن يُرَدَّ زعمهم، ببيان أن هناك فَرْقًا بين الخالق والمخلوق، فالمؤثّر الحقيقي في هذا الكون هو خَالِقُه، أما الرّسول ﷺ فهو مُبَلِّغٌ عن ربّه، أَمْرُهُ أَمْرُ الله، وَنَهْيُهُ نَهْيُ الله، وطاعته طاعةُ الله، فالطاعة في الحقيقة واحدة، إنها طاعةُ الله تعالى، والمُطَاعُ واحدٌ هو الله سبحانه، والرّسول مُبَلِّغٌ للأوامر والنّواهي، والطاعة ليست له، وإنما هي لله تعالى، وما ذاك إلا لأن الرّسول ﷺ ما يَنْطِقُ عن الهوى، إن هو إلا وَحْيٌ يُوحَى.

جاء في الحديث عن عدي بن حاتم ؓ أن رسول الله ﷺ قال: «مَنْ يُطِعِ اللهَ ورسوله فقد رَشَدَ، وَمَنْ يَعِصِ اللهَ ورسوله فإنه لا يَضُرُّ إِلَّا نَفْسَهُ»^(١).

وفي البخاري وغيره عن أبي هريرة ؓ: أنه سَمِعَ رسولَ الله ﷺ يقول: «مَنْ أَطَاعَنِي فقد أطاع الله، وَمَنْ عَصَانِي فقد عصى الله، وَمَنْ يُطِعِ الأَمِيرَ فقد أطاعني، وَمَنْ يَعِصِ الأَمِيرَ فقد عصاني، وإنما الإمام جُنَّةٌ، يُقَاتِلُ مِنْ ورائه، وَيَتَّقَى بِهِ، فإن أمر بتقوى الله، وَعَدَلَ، فإن له بذلك أجرًا، وإن قال بغيره؛ فإن عليه منه»^(٢).

وجاء في الأثر: أن النَّبِيَّ ﷺ لَمَّا قال: «مَنْ أَحْبَبَنِي فقد أَحَبَّ الله، وَمَنْ أَطَاعَنِي فقد أطاع الله».

قال المنافقون: ما يُريد هذا الرَّجُلُ إلا أن نتخذَه إلهًا، كما اتَّخذَ النَّصَارَى عيسى ابن مريم، لقد قارف الشرك، وهو يَنْهَى أن يُعْبَدَ غير الله؛ فَأَنْزَلَ الله تعالى رَدًّا عليهم ﴿مَنْ يُطِيعِ الرَّسُولَ﴾ أي فيما أَمَرَ به، وَنَهَى عنه، فيستجيب له ويعمل بهدّيه؛ فهو بهذا يكون قد ﴿أَطَاعَ اللَّهَ﴾ وَمَنْ يُخَالَفِ الرَّسُولَ فقد خَالَفَ الله، فلا سبيلَ لطاعة الله ﷻ، إلا عن طريق طاعةِ الرَّسُولِ ﷺ، فهو المبلِّغُ عن ربّه وَحْيَه إلى خَلْقِه، والمُوصِّلُ إليهم أَمْرَه وَنَهْيَه،

(١) من حديث عدي بن حاتم ؓ في «صحيح مسلم» برقم (٨٧٠) وفي «المسند» (١٨٢٤٧)، إسناده صحيح على شرط مسلم، ورجاله ثقات، (محققوه) وأخرجه ابن حبان (٢٧٩٨) وأبو داود (١٠٩٩) وصححه الحاكم (٢٨٩/١) على شرط مسلم ووافقه الذهبي.

(٢) «صحيح البخاري» برقم (٢٩٥٧) و«صحيح مسلم» برقم (١٨٣٥، ١٨٤١).

ومثل ذلك قوله جل شأنه: ﴿قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [آل عمران]

وقوله سبحانه: ﴿فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ﴾ أي: عن أمر النبي ﷺ ﴿أَنْ تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [النور: ٦٣].

وما يقوله الرسول عليه الصلاة والسلام للناس على نوعين:

النوع الأول: نَوْعٌ يَبْلُغُ فِيهِ وَحْيُ اللَّهِ سبحانه، وهو ما يتعلق بأحكام الشَّرْع، والتكاليف الشرعية؛ من أوامر ونواهٍ، وحلالٍ وحرام، وصلاةٍ وصيام، وسائر الفرائض والنوافل، وما يتعلق بأمور الآخرة وغيرها، فطاعةُ النبي ﷺ في كلِّ هذا طاعةٌ لله ﷻ، وهي طاعةٌ مَفْرُوضَةٌ على كل مسلم ومسلمة.

والنوع الثاني: ما يتعلق بأمور الدُّنْيَا، ممَّا يتوقف على العلوم، والأمور التجريبية؛ كأمر الصناعة والزراعة والتجارة، وغير ذلك من الأحوال التي تتوقف على الخبرة والتَّجَرِبَةِ في شؤون الحياة، وليست من باب العقيدة أو العبادة، ويحصل الأجر عليها، إذا كانت بِنَيَّْةِ نَفْعِ النَّاسِ، وتعمير الأرض، والاستغناء عن السؤال، ولا يلزم فيها اتِّباعُ أمر النبي ﷺ.

كما قال صلوات الله وسلامه عليه لأصحابه في مسألة تأبير النخل، حين مرَّ عليهم وهم يؤبِّرون النخل (أي: يُلَقِّحونه) فقال ﷺ: «لو لم تفعلوا لكان خيراً»؛ فخرج شيئاً غير صالح (أي: خرج البلح شبيهاً)، فذكروا ذلك للنبي عليه الصلاة والسلام فقال: «أنتم أعلم بشئون دنياكم»^(١).

أي: أن هذه الأمور تخضع للتَّجَرِبَةِ، وتخضع للأمور الدنيوية، وليس فيها وحْيٌ مُنَزَّلٌ من الله ﷻ، فطاعةُ النبي ﷺ فيها ليست واجبة؛ لأنه لا يبلغ عن ربِّه شيئاً في هذا المجال.

ومن ذلك أنه ﷺ حين نزل بمنزِلٍ بعيد من الماء، في يوم بدر، فأشار عليه بعض الصَّحَابَةِ بمكان آخر قريب من الماء؛ فنزل على مشورتهم وترك رأيه؛ لأن في هذا خيراً ومصلحةً، ولم يَنْزِلْ فيه وحْيٌ من الله ﷻ يأمره بشيء معيَّن، وهو من أمور الدُّنْيَا، وليس

(١) من حديث رافع بن خديج في «صحيح مسلم» (٢٣٦٢).

من باب العقيدة أو العبادة ﴿مَنْ يُطِيعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ﴾ في أمور الآخرة، وفي التكاليف الشرعية، في كل ما يبلغ عن ربه.

ومثل ذلك في حفر الخندق بمشورة سلمان الفارسي عليه السلام، ومثله حين أشارت عليه أم سلمة رضي الله عنها بحلق رأسه حين صدّه المشركون عن الوصول للبيت، فنزل على مشورتها.

قال تعالى: ﴿وَمَنْ تَوَلَّى﴾ أي أعرض عن طاعة الله والرسول، فإنه لا يضر إلا نفسه، ولن يضر الله شيئاً، وأنت -أيها الرسول- لم تُرسل لحفظ أعمالهم ﴿فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِظًا﴾ أي: ومن يترك طاعة النبي ﷺ ويعرض عنها، فإن الرسول لا يجبر أحداً على شيء، وإنما هو مبلغ فقط، وليس عليه إكراه الناس، ولا إلزامهم بالطاعة، ولا أن يحفظهم من الوقوع في المعصية، ولا يراقب عليهم، أو يحاسبهم، فحسابهم على الله، قال تعالى: ﴿فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنْتَ مُذَكِّرٌ﴾ ﴿٢٨﴾ لَسْتَ عَلَيْهِمْ بِمُصَيِّرٍ﴾ [الغاشية]

لذلك فإن النبي ﷺ يقول في الحديث عن أبي هريرة رضي الله عنه: «كل أمتي يدخلون الجنة إلا من أبى» أي: إلا من يابى ويمتنع من دخول الجنة، قالوا: كيف؟ هل يمتنع المسلم من دخول الجنة؟ قال: «نعم»، يمتنع منها بعدم امتثاله للأوامر واجتناب النواهي، فيكون بهذا ممتنعاً عن الأسباب التي تؤصله إلى الجنة، آخذاً بالأسباب التي توصله إلى النار: «كل أمتي يدخلون الجنة إلا من أبى» قالوا: ومن يابى يا رسول الله؟ قال: «من أطاعني دخل الجنة، ومن عصاني فقد أبى»^(١)؛ أي: هو الذي أبى أن يدخل الجنة؛ بسبب ارتكابه الآثام والمعاصي، فهو السبب في عدم إدخال نفسه الجنة.

هذا: وطاعة الرسول ﷺ من الحقوق المشتركة، فإن الحقوق في هذا المقام ثلاثة:

- ١- حق مختص بالله تعالى، وهو توحيده سبحانه وإفراده بالعبادة، وعدم الإشراك به.
- ٢- وحق مختص بالنبي ﷺ وهو توقيره وتعزيزه ونصرتة.
- ٣- وحق مشترك، وهو الإيمان بالله والرسول، ومحبتهم وطاعتهم، وقد جاء ذلك في قوله تعالى ﴿إِتَّوَسَّوْا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتَعَزَّوْهُ وَتَقَرَّوْهُ وَنَسِّحُوْهُ بُكْرَةً وَأَصِيلاً﴾ [الفتح: ٩]

(١) «المسند» (٨٧٢٨) بإسناد صحيح على شرط البخاري و«صحيح البخاري» (٧٢٨٠). والحاكم (٥٥/١) والطبراني في الأوسط (٨/٢) بنحوه.

فالتعزيز والتوقير للرسول ﷺ ، والتسبيح خاص بالله تعالى .

الْكَشْفُ عَنْ طَاعَةِ أَهْلِ النِّفَاقِ لِلرَّسُولِ ﷺ

٨١- ﴿وَيَقُولُ طَاعَةٌ فَإِذَا بَرَزُوا مِنْ عِنْدِكَ بَيَّتَ طَائِفَةٌ مِّنْهُمْ غَيْرَ الَّذِي تَقُولُ وَاللَّهُ يَكْتُبُ مَا يُبَيِّتُونَ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلًا﴾ (٨١)

أي أن طاعة الله والرسول لا بد أن تكون في السر والعلن والظاهر والباطن، لذا كشف سبحانه عن شأن المنافقين، فبين أنهم لضعف نفوسهم، لا يعرضون عن الإسلام جهراً، وإنما يظهرهم الطاعة، فإذا أمرهم الإسلام قالوا: سَمِعَ وطاعة، وأمرنا طاعة، فلا يكون منا عصيان، وهم يضمرون خلاف ذلك، وهذا حال المنافقين الذين كانوا يقولون بألسنتهم: آمنا بك وصدقناك، فمَرْنَا فأمرك طاعة ﴿وَيَقُولُ طَاعَةٌ﴾ أي أنهم يظهرهم الطاعة أمامك، فإذا خرجوا من عندك وخلّوا بأنفسهم دبّروا لك المكائد وأضمرّوا لك الشرور والمآثم، أو أسروا في أنفسهم عدم السمع والطاعة وعدم الاستجابة لأمر الله والرسول.

والآية عامّة فهي تُشير إلى نوع من الناس، إذا استمع إلى القرآن، أو إلى موعظة، أو خطبة الجمعة، أو مجلس علم، أو جلس مع رجل صالح، أو كان في المسجد ونحو ذلك، فإنه يعزم في نفسه أنه سيكون سميعاً مطيعاً مقبلاً على الله تعالى بدءاً من هذه اللحظة التي يرقُّ فيها قلبه بهذه الموعظة، أو حين يستمع إلى القرآن الكريم، فهو يلزم نفسه بأنه سيقوم بهذه التكاليف الشرعية، ويلزم طريق الاستقامة.

ثم إذا خرج من المسجد، أو انتهت الموعظة ومضى عليه بعض الوقت، وانصرف إلى أمر من أمور الدنيا بعد سماعه القرآن، أو بعد حضوره مجلس العلم، أو بعد انتهاء جلوسه مع هذا الرجل الصالح، أو بعد توبته، فإن العزيمة تضعف، وتفتّر، ولا يمضي في تنفيذ ما أخذه على نفسه بالأمس، أو من نحو ساعة، وهذه علامة النفاق، وعلامة ضعف الإيمان ﴿وَيَقُولُونَ آمَنَّا بِاللَّهِ وَبِالرَّسُولِ وَأَطَعْنَا ثُمَّ يَتَوَلَّى فَرِيقٌ مِّنْهُمْ مِّنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَمَا أُولَئِكَ بِالْمُؤْمِنِينَ﴾ (٤٧) [النور].

وقد كان المنافقون يأتون إلى رسول الله ﷺ فيسمعون منه القرآن، ثم يعلنون السمع والطاعة والاستجابة لما في هذا القرآن، فإذا خرجوا من مجلس رسول الله ﷺ فإنهم يبيتون العزم على عدم التنفيذ الذي عقّدوه آنفاً، ذلكم ما يشير إليه قول الله سبحانه:

﴿وَيَقُولُ طَاعَةٌ﴾ وذلك حين يَستمعون إلى العلم، أو يجلسون مع الرَّسُول ﷺ في حياته، أو يَستمعون إلى القرآن أو الموعظة في الجمعة أو غيرها، فإنهم يقولون: سمعنا وأطعنا؛ استعدادًا للدخول في الطاعة، واستعدادًا للتوبة.

فإذا خرجوا من عند الرَّسُول عليه الصَّلَاة والسلام -وكان ذلك في حياته- أو خرجوا من المسجد، -أي مسجد- أو انفضوا من سماع القرآن، أو من مجلس العلم، خالف أقوالهم أفعالهم، وهذا معنى ﴿فَإِذَا بَرِزُوا﴾ أي: خرجوا ﴿مِنْ عِنْدِكَ بَيَّتَ طَائِفَةٌ مِّنْهُمْ﴾ أي: فريق من النَّاس، وهم ضعافُ الإيمان يَبْتَوِا ﴿غَيْرَ الَّذِي تَقُولُ﴾ أي: أنهم يعزمون على عدم تنفيذ الطاعة التي اشترطوها على أنفسهم.

والأمر المُبَيَّت: هو المدبر بليلى، أو هو المُبَدَّل والمُعَيَّر، فهم يُظهرون الطاعة أمام الرَّسُول ﷺ، أو أمام الداعية، أو المُصلح، فإذا ابتعدوا عنه غيَّروا ما أعلنوه.

والله سبحانه يُخبر الرَّسُول ﷺ، ويطمئنه أنه يراهم، ويطلع عليهم، ويُسجل أعمالهم بواسطة الملائكة، ويحصيها بدقة، وسيجازيهم عليها أتم الجزاء.

﴿وَاللَّهُ يَكْتُبُ مَا يُيَسِّرُونَ﴾ لا تفوته شاردة ولا واردة، ولا حركة ولا سكون، فاطمئنوا أيها المؤمنون، فربكم مُطَّلِعٌ على تدبيرهم ويعلم نيَّاتهم ومقاصدِهم، وسيجازيهم على أقوالهم وأفعالهم.

قال تعالى: ﴿أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لَا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُمْ بَلَىٰ وَرُسُلْنَا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ﴾ [الزخرف].

ويقول الله تعالى لرسوله ﷺ: فتولَّ عنهم، ولا تبالِ بهم، فإنهم لن يَضُرُّوكَ، وما عليك إلا البلاغ، فإن أعرضوا عنك ﴿فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ﴾ وحسبك به وليًا ونصيرًا ﴿وَكَفَىٰ بِاللَّهِ وَكِيلًا﴾ أي: ناصرًا ومعينًا لمن تَوَكَّلَ عليه وأُناوبَ إليه.

الْعَقْلُ الْوَاعِي يَقْطَعُ بِأَنَّ الْقُرْآنَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ تَعَالَى

٨٢- ﴿أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا﴾ (٨٢)

يُرْغَبُ الله عباده في تدبر كتابه وتأمل معانيه، والعمل بما فيه، لأن تحديق النظر والفكر في كتاب الله عز وجل مفتاح العلوم والمعارف، فبه يزداد الإيمان، ويعرف العبد ربه، ويعرف

الطريق الموصلة إلى جنته، والمبعدة عن ناره، وكلما ازداد العبد تأملًا ازداد علمًا وعملاً وبصيرة، قال تعالى ﴿كَتَبَ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُوا الْأَلْبَابِ﴾ [ص: ٢٩]

فلماذا هذا الصنف المنافق من الناس يُكذِّب القرآن؟ هل يَشْكُ في الإسلام؟ هل يَشْكُ في الوحي المُنزَّل من عند الله؟ هل يَشْكُ في هذا القرآن؟ فإن كان الأمر كذلك فما عليه إلا أن يتدبَّر كتابَ الله سبحانه، ويتأمل ما فيه، فإن من هَجَرَ القرآن عدم تدبُّر معانيه، وقد تحدَّى الله تعالى الخلق بمعاني القرآن كما تحدَّاهم بألفاظه وبلاغته ﴿وَقَالَ الرَّسُولُ يَرَبِّ إِنَّ قَوْمِي اتَّخَذُوا هَذَا الْقُرْآنَ مَهْجُورًا﴾ (٣٠) [الفرقان] .

ومن أعظم الهَجَر: قراءته بغفلة، ومن ذلك السَّهْو أثناء القراءة في الصَّلَاة وخارجها، فالمسلم قد يمرُّ على الفاتحة، وعلى غيرها من الآيات بعدها دون وعي، ولا إدراك أو تعقُّل، ولو تأمَّل القرآن في صلاته؛ لأعانه ذلك على الخشوع فيها ﴿أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ﴾ [الفرقان] إنكارٌ من الله سبحانه عليهم، أي: أَغْفَلَ هؤلاء القوم؟ فلا يتدبرون دلائل آيات القرآن على مقاصده، ولا يدركون ما فيه من حِكَمٍ وأحكام ومواعظ، وأخبار الأولين والآخرين، وما يكون في الدار الآخرة من ثوابٍ وعقابٍ، فيعملون بما فيه، ويزول ما في نفوس بعضهم من شك.

ثم أعلمهم - سبحانه - بأن هذا القرآن من عند الله، ولن يجدوا - وهم يتأملونه - تناقضًا ولا باطلاً، كما يحدث في كلام البشر ﴿وَلَوْ كَانَ﴾ هذا القرآن ﴿مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ﴾ أي: من عند محمد ﷺ كما يزعم بعضهم ﴿لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا﴾ أي: لوجدوا فيه تناقضًا وتضادًا، ووجدوا فيه اختلافًا بين ألفاظه وأحكامه وحِكَمه ومعانيه، فالقرآن لا يُكذِّب بعضه بعضًا، ولا يَنْقُضُ بعضه بعضًا، فإن ظَهَرَ غير ذلك فهو من جَهْلِ النَّاسِ وتقصير عقولهم، والمسلم يؤمن بالْمُتَشَابِه، ولا يَضْرِبُ بعضه ببعض، فإن جَهِلَ أمرًا فَلْيَكِلْ علمه إلى الله تعالى.

والمعنى: إن هؤلاء المنافقين قد خيَّب الله سعيهم، وكشَفَ خباياهم، وبيَّن سوء عاقبتهم، أفلا ينظر هؤلاء في القرآن وما جاء به من الحق نظرًا تأمليًا وتدبُّريًا؟! حيث جاء على نَسَقٍ مُحْكَمٍ، يَقْطَعُ بأنه من عند الله وحده، ولو كان من عند غيره؛ لاختلَفَتْ فيه وجهاتُ النَّظَر، وتعددت فيه الآراء.

وأصل التدبر: النظر في عواقب الأمور، والتفكر في أدبارها.

ومعنى تدبر القرآن: تأمل معانيه، والعمل بما فيه، والتفكر في تصديق بعضه لبعض، وتدبر ما فيه من مواعظٍ وحِكَمٍ وأحكام وأوامر ونواہٍ.

قال العلماء: إن الله تعالى احتجَّ بالقرآن وتدبره على صحة نبوة محمد ﷺ من وجوه ثلاثة:

أحدها: فصاحته في أسلوبه وبلاغته التي عجز الخلق عن الإتيان بمثلها.

ثانيها: إخباره عن الغيوب؛ ومنها: فضح أحوال المنافقين، وإطلاع النبي ﷺ على مكرهم وكيدهم، وما يخفونه في نفوسهم، وذكره أحوال الأولين والآخرين، وما يكون في المستقبل من أمور لم تحدث بعد.

ثالثها: سلامة القرآن من الاختلاف والتناقض؛ إذ لو كان القرآن من عند مخلوق؛ لكان على قياس كلام المخلوق، بعضه فصيحٌ وبعضه ركيكٌ، بعضه صحيحٌ وبعضه غير صحيح، فلما كان على منهاج واحدٍ في الفصاحة والبلاغة؛ ثبت أنه من عند الله الذي يعلم ما لا يعلمه سواه، ويُقدِّر على ما لا يُقدِّر عليه سواه ﴿وَالْحَقُّ أَنزَلْنَاهُ بِالْحَقِّ نَزْلًا﴾ [الإسراء: ١٠٥] ﴿أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ الْفُرَاتِ أَمْرٌ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا﴾ [محمد]

فهو حقٌ ليس فيه باطلٌ، وكلامُ الناس فيه الحقُّ والباطلُ.

وفي الآية دعوة للناس في كلِّ زمان ومكان إلى تدبر القرآن، وتأمل أحكامه ومواعظه، والعمل بما فيه من أوامر ونواہٍ؛ ليستعدوا في دنياهم وأخراهم، ولو تدبروا هدي القرآن؛ لحصل لهم خيرٌ كثيرٌ، ولزالت الشبهة والفتن التي يضيرها المنافقون والملحدون في قلوبهم.

ولذا: كان تدبر القرآن فرضاً على كلِّ مكلفٍ.

ويشترط لهذا التدبر: معرفة لغة القرآن بمفرداته وأصاليه؛ لمعرفة المقاصد والغايات التي جاء بها الشرع، وكلُّ مسلم يفهم من القرآن بقدر ما يملك من طاقات، والأجر من الله تعالى حاصلٌ له على كلِّ حال، فهم العبد أو لم يفهم، وتأمل القرآن يُحرِّرُ فكرَ المسلم من التقليد الأعمى، والتعصب المذموم، فيوسع المدارك، ويفتح الأذهان، والتاجر لا يعرف قيمة بضاعته إلا إذا عرَفَ بضائع من حوله، كما أن الصحة تاجٌ على

رؤوس الأصحاء لا يراه إلا المرضى، وكذلك لا يدرك المتأمل قيمة هذا القرآن، إلا مَنْ وقف على غيره من الكتب المُحرَّفة، والفلسفات البشرية، والقوانين الوضعية.

في حديث عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده: أن رسول الله ﷺ عندما رأى قومًا اختلفوا في فهم آية من القرآن حتى ارتفعت أصواتهم، قال: «إن القرآن لم ينزل يكذب بعضه بعضًا، بل يصدق بعضه بعضًا، فما عرفتم منه فاعملوا به، وما جهلتم منه فردوه إلى عالمه»^(١).

وخرج ﷺ ذات يوم على قوم يتكلمون في القدر؛ فغضب، وقال لهم: «ما لكم تضربون كتاب الله بعضه ببعض؟ بهذا هلك من كان قبلكم»^(٢).

الْحَرْبُ النَّفْسِيَّةُ

٨٣- ﴿وَإِذَا جَاءَهُمْ أَمْرٌ مِّنَ الْأَمْنِ أَوْ الْخَوْفِ أَدَّعَوْا بِهٖ وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى الرَّسُولِ وَإِلَى أُولَى الْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ الَّذِينَ يَسْتَنَيطُونَهُ مِنْهُمْ وَلَوْ أَنَّهُ فَضَّلَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتَهُ لَاتَّبَعْتُمُ الشَّيْطَانَ إِلَّا قَلِيلًا﴾

في هذه الآية تأديب من الله تعالى لمن يشيع الأخبار الهامة بين الناس دون تثبيت، وأنه يجب عليهم أن يردوا الخبر إلى أهل الاختصاص، فإن رأوا في إذاعته مصلحة للفرد والمجتمع، أذاعوه، وإن رأوا أن في نشره مضرة تتعلق بالأمن أو بالعرض أو بأسرار الدولة ونحو ذلك، لم يفشوه، وقد توعد الله سبحانه من يحبون إشاعة الفاحشة بين الناس، بأن لهم عذابًا أليمًا في الدنيا والآخرة.

في سبب النزول:

عن ابن جريج قال: نزلت هذه الآية في شأن المنافقين الذين كانوا إذا بعث النبي ﷺ سرية من السرايا؛ فإنهم يستخبرون عن حالها، ثم يُشيعون أخبارها بين الناس، ويتحدثون بها قبل أن يتحدث النبي ﷺ عنها، فيقولون: أصاب المسلمون كذا وكذا من عدوهم، وأصاب العدو كذا وكذا، من قتل أو هزيمة؛ بقصد إضعاف نفوس المؤمنين.

(١) من حديث عبد الله بن عمرو في «المسند» (٦٧٠٢) حديث صحيح بإسناد حسن، (محققوه) وابن ماجه (٨٥)

(٢) «المسند» (٦٦٦٨) من حديث عبد الله بن عمرو، وهو حديث صحيح وإسناده حسن كما قال محققوه،

وفي «صحيح سنن ابن ماجه» برقم (٦٩) عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده.

وهذا لا يُلَيِّقُ بفردٍ من أفرادِ الأمة؛ لأن الأمنَ يَعُمُّ كلَّ مواطنٍ، مسلمًا، أو مسيحيًا، أو يهوديًا، أو منافقًا، أو ملحدًا، أو علمانيًا.

هذا: والضمير في ﴿وَإِذَا جَاءَهُمْ﴾ يَعُودُ على المنافقين الذين يُحاولون بثَّ الشائعاتِ بينَ المؤمنين، لا سيَّما في وقت الحروب؛ لإذاعة الخَوْفِ والرُّعبِ وإحداثِ البلبلةِ بينَ الصفوفِ؛ للتغريبِ بهم، وإضعافِ عزيمتهم.

وهذه الآياتُ في صَدَدِ الحديثِ عن الجهاد، ومن الأمور المهمة في الجهاد، عدمُ إشاعة الأخبارِ بين النَّاسِ، والله تعالى يُنكر على مَنْ يُسارع إلى إذاعة الشائعات، فيفشئها وَيُنْشُرُها من غير تحقُّقٍ ولا تَبَيُّنٍ، فبعضُ النَّاسِ بمجرد أن يسمع خبرًا مَّا مِنْ شخصٍ مَّا، يُذيعه وَيُنْشُرُه بين النَّاسِ، دون تروٍّ، ودون تَبَيُّنٍ.

وهذه الإشاعات يَمَقَّتُها الإسلام؛ لأنها تُوهن من عَزْمِ الأُمَّةِ، وتُضْعِفُ من شأنها، وتُوقِعُ بين النَّاسِ الدسائسَ والفتنَ، لا سيَّما في مجال الحروب، وما يتعلق بالخوف والأمن، فالخبرُ الذي مِنْ شأنه أن يُذيع الرعب والخوف بين النَّاسِ لا ينبغي إشاعته، فإذا سَمِعَ الإنسان خبرًا مَّا مِنْ شخصٍ مَّا، لا ينبغي له أن يَنْقَلِه هنا وهناك؛ لأن إذاعة الأخبار دون تَبَيُّنٍ، خصوصًا في أوقات الحرب؛ تؤدي إلى أعظمِ المفاسد والشرور.

وإن كانت هذه الإشاعات تتعلق بالأمن؛ فهي تُحدث لَوْنًا من التراخي وعدم الحَذَرِ، وإن كانت تتعلق بالخوف؛ فهي تُحدث بلبلةً واضطرابًا في الصفوف، ولا ينبغي بثُّ الأخبارِ إلا من مصادرها الأصلية.

وهذه النَّشْرَاتُ التي تأتي بالأخبار العالمية والمحلية لا تُذيعها الدولة، ولا تنشرها إلا بعد أن تمرَّ على رقابة من قِبَلِ فئة متخصصة، وخبراء يُصيغونها في ألفاظ مناسبة، ويتحققون منها، ثم تُعلن على النَّاسِ.

والنَّبِيُّ ﷺ يقول في حديث أبي هريرة ؓ: «كفى بالمرء كذبًا أن يُحدث بكل ما سَمِعَ»^(١).

(١) مسلم في المقدمة (١ / ٨) برقم (٥) عن أبي هريرة، و«سنن أبي داود» برقم (٤٩٩٢) بلفظ: (كفى بالمرء إثماً) وهو في «صحيح سنن أبي داود» (٤١٧٧) و«السلسلة الصحيحة» (٢٠٢٥) و«صحيح الجامع» (٤٤٨٠).

بمعنى: أن كل كلمة يسمّعها الإنسان، لا ينبغي له أن يقولها، إن صدقًا وإن كذبًا، ومن الكذب أن يحدث بكل ما سمع، لأنه لا يدرى صدق الناقل لها من عدمه.

وإذا حدث بحديث يعلم أنه كذب؛ فهو أحد الكاذبين، لاسيما إذا نسب هذا الحديث إلى رسول الله ﷺ على وجه التعمد، فإن فيه هذا الوعيد الشديد كما جاء في حديث أبي هريرة: «مَنْ كَذَبَ عَلَيَّ مُتَعَمِّدًا؛ فليتبوأ مقعده من النار»^(١).

وفي الحديث أيضًا: «مَنْ حَدَّثَ بِحَدِيثٍ يَرَى أَنَّهُ كَذِبٌ؛ فَهُوَ أَحَدُ الْكَاذِبِينَ»^(٢).

وعن المغيرة بن شعبة: أن النبي ﷺ نهى عن قيل وقال ...^(٣).

وفي حديث أبي مسعود الأنصاري: «بِئْسَ مَطِيَّةُ الرَّجُلِ زَعَمُوا»^(٤).

ذلكم ما يشير إليه قول الله سبحانه: ﴿وَإِذَا جَاءَهُمْ أَمْرٌ مِّنَ الْأَمْنِ أَوْ الْخَوْفِ أَذَاعُوا بِهِ﴾ فإن من شأن المنافقين سرعة إذاعة ما يتعلق بالمعركة من هزيمة أو نصر، أو من الأمن أو الخوف، فيفشونه وينشرونه بين الناس.

فأمن الوطن أمن للجميع، ويجب على من سمع الإشاعات أن يرد ما سمعه إلى أصله، وأهل الاختصاص فيه، والقرآن يوجه إلى هذا في قوله تعالى: ﴿وَلَوْ رَدُّوهُ﴾ أي: ردوا هذا الخبر ﴿إِلَى الرَّسُولِ وَإِلَى أُولَى الْأَمْرِ مِنْهُمْ﴾ أي: إلى جهة الاختصاص ﴿لَعَلَّهُمُ الَّذِينَ يَسْتَنْبِطُونَهُ مِنْهُمْ﴾ وهم أهل الخبرة والاختصاص، من أولي العلم والبصيرة، في المسائل الدنيوية أو المسائل الشرعية الاجتهادية، مما ليس فيه نص، ومن أمراء السرايا والبعوث وقادة الحروب الذين يعلمون حقيقة الأمر.

أمثلة من معالجة بعض الشائعات في العهد النبوي:

١- ورد أن النبي ﷺ لما بلغه نقض بني قريظة للعهد والميثاق، وخيانتهم له، وعقدتهم العزم على قتاله، لم يتأثر به ويتصرف على أساسه، بل أخذ يتأكد ويتثبت من صدقه أو كذبه.

(١) من حديث أبي هريرة في البخاري (١١٠، ٦١٩٧) ومسلم (٣).

(٢) مقدمة «صحيح مسلم» برقم (١) باب: وجوب الرواية عن الثقات.

(٣) «صحيح البخاري» برقم (١٤٧٧).

(٤) «سنن أبي داود» (٤٩٧٢) و«صحيح سنن أبي داود» (٤١٥٨) و«السلسلة الصحيحة» (٨٦٦).

والخبر يَلْقَى ترحيًّا في نفس الإنسان، لو جاءه من طَرَفٍ معادٍ له، لا يَصُدُّ عنه إلا مثل هذا، فهو يصدِّق الخبر فورًا، دون أن يَتَبَيَّنَ أو يَتَرَيَّنَ، ولكن ماذا فعل النَّبِيُّ ﷺ عندما بَلَغَهُ خبرُ عدوِّه؟ لم يأخذ بهذا الخبر بمجرد وصوله إليه، وإنما أرسل سعدَ بن معاذ، وسعدَ بن عبادَةَ إلى بني قريظة؛ ليتأكدا بأنفسهما من هذا الخبر، ثم أوصاهما إن وجدا صحَّةَ الخبر أن لا يُشيعاه بين النَّاسِ، وأن لا يُذيعاه على الملأ، إنما يرمزان إليه رمزًا، ويُشيران إليه إشارةً^(١)، فإن كان النَّبِيُّ ﷺ في مجتمع أو مجلس عام؛ فإن ناقل الخبر يرمز إليه بإشارة، أو بكلمة، أو بكلمتين خفيفتين، بحيث يُفهم النَّبِيُّ ﷺ المراد، دون أن يَعْرِفَ الجالسون شيئًا.

٢- وفي غزوة أُحُد أُشيعَ أن النَّبِيَّ ﷺ قد قُتِلَ، فَلَمَّا رآه أَحَدُ الصَّحَابَةِ سَلِيمًا مُعَافَى؛ أَخَذَ يُنادي بأعلى صوته: إن رسول الله حيٌّ، لم يُقتل، فأشار إليه النَّبِيُّ ﷺ أن اسكت، أي فليس هذا من اختصاصك، إنما يرجع الأمر إلى أولي الشأن، فهم الذين يَتَوَلَّوْنَ هذا.

٣- وَلَمَّا اعتزل النَّبِيُّ ﷺ نساءه حين اجتمعن عليه يَطْلُبْنَ زيادةَ النفقة، شاعَ بين الصَّحَابَةِ أنَّ محمدًا قد طَلَّقَ نساءه، فكانوا يجلسون في المسجد ينكتون بالحصى، ويذكرون هذا الخبر، ويتناقلونه بينهم، وعندما قَدِمَ عمرُ ؓ، وَسَمِعَ هذه المقالة، فماذا كان منه؟ هل صدَّقها؟ ومنهن ابنته (حفصة)، فهي من ضمن النِّسوة.

ولكنه ﷺ أَخَذَ الخبر، وذهب إلى المصدر الأصلي يَتَبَيَّنُ منه صحَّةَ الخبر، فذهب إلى رسول الله ﷺ يسأله: هل طَلَّقْتَ نساءك؟ قال: «لا»، فرجع إلى المسجد، والنَّاسُ جلوسٌ، وأخذ ينادي بأعلى صوته، يُعلن لهم أن الخبر كاذبٌ، وأن محمدًا ﷺ لم يُطَلِّقَ نساءه، قال عمر: فنزلت الآية، وكنتُ أنا استنبطتُ ذلك الأمر^(٢).

وهكذا: فإن من مبادئ الإسلام، عدم نقل الكلام، في مقام إشاعة الأخبار ذات الخطر العظيم، الذي يوهن من عزائم الأمة، ويُضعف من قوتها.

والاستنباط: هو الاستخراج، يقال: استنبطَ الفقيه المسألة، إذا استخرجها باجتهاده وفهمه.

(١) ابن جرير (٨ / ٥٦٨) وابن المنذر (٢٠٤٢، ٢٠٤٥).

(٢) ينظر هذا المعنى في «صحيح مسلم» (٢ / ١١٠٥) برقم (١٤٧٩) و«صحيح البخاري» برقم (٨٩، ٥١٩١) و«تفسير الطبري» (٥ / ١١٤) وابن أبي حاتم (٥٦٨٢، ٥٦٩١).

وفي الآية دليلٌ على جواز القياس، وأنَّ من العِلْمِ ما يُدْرِكُ بالنص من الكتاب والسُّنَّةِ، ومنه ما يُدْرِكُ بالاستنباط، وهو القياس عليهما.

والمعنى: وإذا جاء هؤلاء المنافقون - الذين لم يَسْتَقِرَّ الإيمانُ في قلوبهم - أمرٌ يَجِبُ كِتْمَانُهُ، متعلِّقًا بالأمن الذي يَعُودُ خيرُهُ على الأمة، أو بالخوف الذي يُلقِي الرُّعبَ وعدمَ الاطمئنان، أَفْشُوهُ وأذاعوه في النَّاسِ، ولو رَدَّ هؤلاء الحُكَمَ الذي يَخْتَلِفُونَ فيه إلى كتاب الله، وسنة رسوله، وإلى أهل العلم والفقه؛ لَعَلِمَ حقيقة معناه أهل الاستنباط منهم، ولولا تَفَضُّلُ الله عليهم وتوفيقه لهم؛ لاتبعوا طريق الشيطان ووساوسه، إلا قليلاً منهم.

لأن الإنسان بطبعه ظالم جاهل،، يميل إلى الشر، فإذا لجأ إلى ربه واعتصم به لطف به، ووقفه للخير وعصمه من الشيطان الرحيم.

والاستثناء الذي في آخر الآية من قوله تعالى: ﴿لَا تَبْعُثُ الشَّيْطَانَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ راجع إلى ﴿أَذَاعُوا بِهِ﴾.

والتقدير: وإذا جاءهم أمرٌ من الأمن أو الخوف أذاعوا به إلا قليلاً منهم، فأخرج بعضهم من الإذاعة، وهم الذين لم يُذيعوا ما عَلِمُوهُ من أمر الحروب وغيرها، ثم تَرَبَّطُ الآية القلوبَ بالله تعالى، وتُبَيِّنُ فضلَه، ورحمته بالأمة، والبعد بهم عن طريق الشيطان، وبثِّ الشائعات.

التَّرْغِيبُ فِي جِهَادِ الْعَدُوِّ

٨٤- ﴿فَقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ لَا تُكَلَّفُ إِلَّا نَفْسُكَ وَحَرِّضِ الْمُؤْمِنِينَ عَسَى اللَّهُ أَنْ يَكُفَّ بَأْسَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَاللَّهُ أَشَدُّ بَأْسًا وَأَشَدُّ تَنكِيلًا﴾ (٨٤)

ثم أمر الله نبيه، وأمر كل قائد للمسلمين بعده أن يجاهد عدوّه، وأن يرعّب المؤمنين في الجهاد؛ لمنع الظلم، وإنقاذ المُستضعفين، وطَمَأَنَّهُ رَبُّهُ بأنه لن يُؤَاخِذَ على فِعْلٍ غَيْرِهِ من المُتخلفين عن الجهاد، فَلَعَلَّ الله تعالى أن يَمْنَعَ به وبِمَنْ قَاتَلَ معه بَأْسَ الكُفَّارِ، وَيَكْثِرَ شوكتهم، والله أشدُّ قوَّةً، وأعظمُ عقوبةً لهم.

والآية عامة تأمر كل مسلم بامتنال أمره تعالى في الجهاد وغيره، ويحرض غيره عليه.

وقد لا يكون للإنسان قدرة على حمل غيره على الجهاد، وحيث لا يكون مكلفاً بفعل

غيره، وهذا معنى ﴿لَا تُكَلِّفُ إِلَّا نَفْسَكَ﴾.

والإسلام قد أمرَ بقتالِ العدو حتى لو استدعى الأمرُ أن يُقاتل المسلم وخذَه في قتالِ الفريضة؛ لإعلاء كلمة الله، وإزالة العقبات أمام نشرِ الدعوة، ودفعِ الصائل، وتحريرِ المقدسات، وكذلك كل قائد للأمة الإسلامية يجب عليه أن يحذو حذو النبي ﷺ.

وقد نزلت هذه الآية في شأن غزوة بدر الصغرى، وكانت بعد غزوة أُحد، حينما وقف أبو سفيان أمام النبي ﷺ وقال له: موعدنا في بدر العام القادم، فلما جاء الموعدُ أراد النبي ﷺ أن يخرج إليه، فدعا أصحابه إلى الجهاد؛ فكروا ذلك، ولم يخرج معه إلا سبعون، فأنزل الله هذه الآية يُبين لهم أن القتال فريضة؛ لحماية الدعوة ونشرها.

إذا كَلَّفَكَ الأمرُ على سبيلِ الفرض والمبالغة أن تخرج وحدك، وتقاتل وحدك فافعل، ولا تترك قتال العدو، ونصرة المستضعفين، وهكذا القائد الأول للجيش في ظل دولة من دول العالم الإسلامي، فهو الذي يقوم بالصدارة، وخيرُ أسوة في ذلك رسولُ الله ﷺ.

يقول علي عليه السلام: كنا إذا اشتد البأس، وحَمِيَ الوطيس اتقينا برسول الله ﷺ، فما أحد أقرب إلى العدو منه^(١) أي: أن النبي ﷺ، يكون بنفسه أقرب الناس إلى العدو، في مجابهته ومواجهته، فيحجز ما بين أصحابه وبين العدو.

وعليك - أيضًا أيها الرسول، وأيها القائد للجيش الإسلامي في كل زمان ومكان - أن تحرّض المؤمنين على القتال، فتحثهم وتدعوهم إليه، وترغبهم فيما عند الله تعالى من أجرٍ عظيم، كما حدث في يوم بدر حينما قال النبي ﷺ لأصحابه: «قوموا إلى جنة عرضها السموات والأرض»^(٢).

ولما سمع رجلٌ من الصحابة، اسمه (عمير بن الحمام)، هذا الحديث، وكان في يده تمرات يأكلها قال في نفسه: جنة عرضها السموات والأرض؟ بَخِ بَخِ، والله لئن عشتُ

(١) ينظر: «المسند» (٦٥٤) بمعناه، وإسناده صحيح ورجاله ثقات، كما قال محققوه، ومثله (١٠٤٢) وابن أبي شيبه (١٤/ ٣٥٧) وأبو الشيخ في أخلاق النبي ﷺ ص ٥٧، و«سنن النسائي الكبرى» (٨٥٨٥). وفي المسند أيضًا عن علي (١٣٤٧) بلفظ يشبهه.

(٢) من حديث أنس في «صحيح مسلم» (١٩٠١).

حتى آكلَ هذه التمرات، إنها لحياة طويلة، وألقى بالتمرّات من يده، وَقَاتَلَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ حَتَّى سَقَطَ شَهِيدًا.

قَاتَلَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ - أَيُّهَا الْمُسْلِم - ﴿عَسَى اللَّهُ أَنْ يَكْفَ بِأَسِ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ بِقِتَالِكُمْ لَهُمْ، وَتَحْرِيزُكُمْ بَعْضًا عَلَى الْقِتَالِ، وَقَدْ تَحَقَّقَ ذَلِكَ، فَكَفَّ اللَّهُ بِأَسِهِمْ، وَرَدَّ كَيْدَهُمْ، فَلَمَّا خَرَجَ الرَّسُولُ ﷺ إِلَى بَدْرِ الصَّغْرَى، وَلَمْ يَلَقَ قِتَالًا، حَيْثُ لَمْ يَخْرُجْ أَبُو سَفْيَانَ لِلْمَوْعِدِ، وَكَفَّ اللَّهُ بِأَسِ الَّذِينَ كَفَرُوا، وَكَفَى الْمُؤْمِنِينَ الْقِتَالَ.

وَقَدْ عَاتَبَ اللَّهُ تَعَالَى مَنْ تَخَلَّفَ عَنِ الْخُرُوجِ مَعَ النَّبِيِّ ﷺ بِهَذِهِ الْآيَةِ.

وَفِيهَا دَلِيلٌ عَلَى أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ كَانَ أَشْجَعَ النَّاسِ، وَأَعْلَمَهُمْ بِشُؤْنِ الْحَرْبِ؛ لِأَنَّ اللَّهَ تَعَالَى أَمَرَهُ بِالْقِتَالِ وَحْدَهُ، فَخَرَجَ وَمَا مَعَهُ إِلَّا سَبْعُونَ مِنْ أَصْحَابِهِ، وَلَوْ لَمْ يَخْرُجْ مَعَهُ أَحَدٌ لَخَرَجَ وَحْدَهُ، وَقَدْ اقْتَدَى بِهِ أَبُو بَكْرٍ ؓ فِي حُرُوبِ الرَّدَةِ فَقَالَ: وَاللَّهِ لَا قَاتِلَ مَنْ فَرَّقَ بَيْنَ الصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ، وَاللَّهُ لَوْ مَنَعُونِي عَنَّا كَانُوا يُؤَدُّونَهَا لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ لَقَاتَلْتُهُمْ عَلَى مَنَعِهَا، وَلَوْ خَالَفْتَنِي يَمِينِي لَجَاهَدْتُهُمْ بِشِمَالِي^(١).

وَقَدْ دَلَّتِ الْآيَةُ عَلَى أَنَّهُ لَوْ لَمْ يَسَاعِدْهُ عَلَى الْخُرُوجِ لِلْقِتَالِ أَحَدٌ، لَمْ يَجْزُ لَهُ التَّخَلُّفُ عَنْهُ.

وَدَلَّتْ أَيْضًا عَلَى أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى أَوْجَبَ الْقِتَالَ عَلَى رَسُولِهِ، وَأَوْجَبَ عَلَيْهِ تَبْلِيغَ الْمُؤْمِنِينَ الْأَمْرَ بِالْقِتَالِ وَتَحْرِيزَهُمْ عَلَيْهِ، أَمَا إِجَابُ الْقِتَالِ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ فَقَدْ عَلِمَ مِنْ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَلْيُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يَشْرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا بِالْآخِرَةِ﴾ [النساء: ٧٤] وَقَوْلُهُ: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كَرْهٌ لَكُمْ﴾ [البقرة: ٢١٦]

أَمَا عِلَّةُ الْأَمْرِ بِالْقِتَالِ فَهِيَ رَجَاءُ أَنْ يَكْفَ اللَّهُ بِأَسِ الْكُفَّارِ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ.

وَقَدْ وَضَعَتِ الْآيَةُ قَاعِدَةً عَامَةً هِيَ: أَنْ يَبْدَأَ الْإِنْسَانُ بِنَفْسِهِ قَبْلَ أَنْ يَدْعُوَ الْآخَرِينَ، فَإِنْ الْإِنْسَانُ إِذَا أَلْزَمَ نَفْسَهُ بِمَا يَدْعُو إِلَيْهِ، وَسَبَقَ النَّاسَ فِي ذَلِكَ؛ فَإِنَّ الْآخَرِينَ سَيَنْضَمُونَ إِلَيْهِ تَلْقَائِيًّا دُونَ جَهْدٍ وَلَا إِحْلَاحٍ.

وَأَنَّ عَمَلًا وَاحِدًا يَبْدَأُ فِيهِ الْإِنْسَانُ بِنَفْسِهِ، وَيُطَبِّقُهُ عَلَيْهَا، يُوَثِّرُ فِي غَيْرِهِ، أَكْثَرَ مِنْ

(١) «تفسير القرطبي» (٥/ ٢٩٣) والحديث في «المسند» (١١٧، ٢٣٩، ١٠٨٤) عَنْ أَبِي بَكْرٍ وَأَبِي هُرَيْرَةَ، وَهُوَ فِي الْبُخَارِيِّ (١٣٩٩، ١٤٥٦) وَابْنِ حَبَانَ (٢١٦).

عشرات الخطب الرثانة، إذا كانت خطبًا جوفاء تخلو من القدوة والتطبيق العملي، وإن مناقضة السلوك للقول أمرٌ مشين، يُشكك النَّاسَ في النصوص، ويجعلهم يَأْلَفُونَ أن القول شيءٌ، والتطبيق شيءٌ آخر، وأن هذه الآيات والأحاديث للقول فقط، وليست للفعل، وبعد أن يبدأ الإنسان بنفسه، ويلزمها بالعمل، يدعو الآخرين ويحرضهم؛ لأن فاقده الشيء لا يُعطيه.

وكأنني بالآية وفيها يأمر الله تعالى المسلم أن يقاتل العدو وحده لو استدعى الأمر، وهي تقول: ﴿لَا تُكَلِّفُ إِلَّا نَفْسَكَ﴾ أي: لا تهتم بتخلف الآخرين عنك، ولا تبالِ بهم، كأنني بها تشير إلى إمكانية أن يُلقِيَ الإنسان بنفسه داخل صفوف العدو بصورة أو أخرى؛ ليوثق بالعدو أكبر قدرٍ ممكن من الخسائر، ما لم يكن له حيلةٌ غير ذلك، فقد سئل البراء: عن الرجل يحمل على المشركين، أهو ممن ألقى بيده إلى التهلكة؟ قال: لا، قد قال الله تعالى لنبيه: ﴿فَقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ لَا تُكَلِّفُ إِلَّا نَفْسَكَ وَحَرِّضِ الْمُؤْمِنِينَ﴾^(١).

وجاءت أحاديث كثيرة تُرْعِبُ في الجهاد؛ منها حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «مَنْ رَضِيَ بِاللَّهِ رَبًّا، وَبِالْإِسْلَامِ دِينًا، وَبِمُحَمَّدٍ نَبِيًّا، وَجَبَتْ لَهُ الْجَنَّةُ» فعجب لها أبو سعيد فقال: أَعَدَّهَا عَلَيَّ يَا رَسُولَ اللَّهِ، ففعل، ثم قال: «وَأُخْرَى يَرْفَعُ اللَّهُ بِهَا الْعَبْدَ مِثَّةً دَرَجَةً فِي الْجَنَّةِ، مَا بَيْنَ كُلِّ دَرَجَتَيْنِ كَمَا بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ» قال: وما هي يا رسول الله؟ قال: «الجهاد في سبيل الله»^(٢).

وفي حديث أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «إِنْ فِي الْجَنَّةِ مِثَّةٌ دَرَجَةٍ، أَعَدَّهَا اللَّهُ لِلْمُجَاهِدِينَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ، بَيْنَ كُلِّ دَرَجَتَيْنِ كَمَا بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ، فَإِذَا سَأَلْتُمُ اللَّهَ فَاسْأَلُوهُ الْفَرْدُوسَ، فَإِنَّهُ أَوْسَطُ الْجَنَّةِ، وَأَعْلَى الْجَنَّةِ، وَفَوْقَهُ عَرْشُ الرَّحْمَنِ، وَمِنْهُ تُفَجَّرُ أَنْهَارُ الْجَنَّةِ»^(٣).

الشَّفَاعَةُ الْحَسَنَةُ وَالشَّفَاعَةُ السَّيِّئَةُ

٨٥- ﴿مَنْ يَشْفَعْ شَفْعَةً حَسَنَةً يَكُنْ لَهُ نَصِيبٌ مِّنْهَا وَمَنْ يَشْفَعْ شَفْعَةً سَيِّئَةً يَكُنْ لَهُ كِفْلٌ مِّنْهَا وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ مُّقِينًا﴾

(١) رُوي مرفوعًا وموقوفًا من عِدَّةٍ وجوه عند أحمد وابن مردويه عن أبي إسحاق، «الدر المنثور» (٢/ ٦٠٢).

(٢) «صحيح مسلم» برقم (١٨٨٤).

(٣) «صحيح البخاري» برقم (٢٧٩٠) وانظر (٧٤٢٣).

ثم يَبَيِّنُ سبحانه أن التحريضَ على القتال في سبيل الله كي يَشْفَعَ الإنسان أخاه، فيكون الواحد اثنين، والألف ألفين، في مواجهة العدو، حيث يكون له نصيبٌ عظيمٌ من الأجر، وهذه بُشْرَى لكلِّ مَنْ يَحْضُرُ على الجهاد، وكلُّ مَنْ يَسْعَى في وُجوه الخير، كما يَبَيِّنُ جل شأنه أن سَعْيَ الْمُثْبِطِينَ لِلْهَمَمِ، الْمُرَوِّجِينَ لِلشَّائِعَاتِ الدَّاعِيَةِ إِلَى التَّخَاذُلِ عن الجهاد، من قبيل الشفاعة السيئة، وفي هذا ترغيبٌ في فِعْلِ الخير، وترهيبٌ من ضِدِّهِ.

والأصل في لفظ الشفاعة: أن يكون الإنسان فردًا (وِتْرًا) ثم يُشْفَعُ بغيره؛ فيكون اثنين، وعلى هذا فإن مَنْ يَشْفَعُ غيره في قِتَالِ العدو بحيث يكون الواحد اثنين، يكون له حظٌّ وافرٌ من أجر شفاعته.

ويراد بالشفاعة: المعاونة على أمر من أمور الخير، فمن يشفع للمظلوم يكن له نصيب من الأجر في شفاعته بسبب سعيه وعمله، ولا ينقص هذا من أجر الأصيل شيء، ومن عاون غيره على فعل الشر، كان عليه من الإثم بحسب ما قام به.

والآيةُ عامَّةٌ في الشفاعة الحسنة والسيئة، فالوَسَاطَةُ الحسنة أمرٌ شائعٌ مُتَشَرِّعٌ، يُسَمِّيها القرآن الشفاعة، وهذه الشفاعة أو الوساطة على نوعين:

نوع مَحْمُودٌ: يتمثل في قَضَاءِ حَوَائِجِ المسلمين، وهذا له أَجْرٌ عَظِيمٌ، والذي يَسْعَى فيه لا تَزِلُّ قَدْمُهُ على الصراط يومَ تَزِلُّ الأقدام، وله عند الله تعالى منزلةٌ خَاصَّةٌ؛ لأنه يَسْعَى في الخير لأخيه المسلم، من غير أن يكون هذا على حساب الآخرين، وليس فيه ضَرَرٌ لأحدٍ، ومن غير هدية أو رِشوة أو مكافأة، فهو يسعى لوجه الله تعالى، وعندما يعرف مسؤولًا أو وزيرًا أو أميرًا يُوصِّلُ إليه حاجةَ هذا الإنسان المَغمور، فيقضي الله الحاجةَ على يديه حين يَشْفَعُ لأخيه شفاعَةً حَسَنَةً، ويقضي الله على لسانه ما يَشَاءُ، هذه هي الشفاعة الحسنة المحمودة التي تشير إليها الآية ﴿مَنْ يَشْفَعْ شَفْعَةً حَسَنَةً يَكُنْ لَهُ نَصِيبٌ مِّنْهَا﴾.

أما الشفاعة السيئة وهي النوع الثاني من الشفاعة، فهي الوَسَاطَةُ المذمومة، وهي التي تكون في الحدود أو القصاص؛ لإسقاطه وعدم تنفيذه؛ بمعنى: أن العبد إذا ارتكب جريمة تُوجب إقامة الحدِّ عليه، ووصل أمره إلى القاضي أو الحاكم أو الأمير، وصَدَرَ بشأنه حُكْمٌ شرعيٌّ، يقضي بإقامة الحدِّ عليه، فإن الشفاعة في هذا المقام شفاعَةً مذمومةٌ، وهي التي قال

عنها النَّبِيُّ ﷺ: «حَدِّثْهُمْ بِهِ فِي الْأَرْضِ خَيْرٌ لِلْعِبَادِ مِنْ أَنْ يُمَطَّرُوا أَرْبَعِينَ صَبَاحًا»^(١).

ومن هذا القبيل أنه حين سُرقت المرأة المخزومية قالوا: مَنْ يَشْفَعُ فِيهَا، وهي مِنْ أَشْرَافِ الْقَوْمِ، ولها عند رسول الله ﷺ منزلةٌ، قالوا: أَسَامَةُ بْنُ زَيْدٍ، حَبُّهُ وَابْنُ حَبِّهِ، وعندئذٍ ذهب أَسَامَةُ لِيَشْفَعَ لَهَا عِنْدَ النَّبِيِّ ﷺ فَقَالَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «يَا أَسَامَةُ، أَتَشْفَعُ فِي حَدِّ مَنْ حُدِّدَ لَهُ مِنَ اللَّهِ؟ وَاللَّهِ لَوْ سُرِقَتْ فَاطِمَةُ بِنْتُ مُحَمَّدٍ؛ لَقَطَعْتُ يَدَيَّهَا، إِنَّمَا هَلَكَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ، أَنْتُمْ كَانُوا إِذَا سُرِقَ فِيهِمْ الشَّرِيفُ تَرَكُوهُ، وَإِذَا سُرِقَ فِيهِمُ الضَّعِيفُ قَطَعُوهُ»^(٢).

هذه الشفاعة السيئة آفةٌ كُبرى، والإسلام يدعو إلى تركها، وهي الشفاعة في الحدود أو القصاص أو الشفاعة في أمرٍ يَضُرُّ بِالْآخَرِينَ، بَأَن يَأْخُذَ الْإِنْسَانُ مَا لَا يَحِقُّ لَهُ، وَغَيْرَ ذَلِكَ مِمَّا يَدْخُلُ فِي شَفَاعَةِ السَّيِّئَةِ.

فَالْمُرَادُ بِالشَّفَاعَةِ الْحَسَنَةِ فِي الْآيَةِ: شَفَاعَةُ الْإِنْسَانِ لغيره؛ لِيَجْلِبَ لَهُ بِشَفَاعَتِهِ نَفْعًا أَوْ يُخَلِّصَهُ مِنْ بَلَاءٍ نَزَلَ بِهِ.

وَفِي الصَّحِيحِينَ عَنْ أَبِي مُوسَى رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: كَانَ النَّبِيُّ ﷺ جَالِسًا، فَجَاءَ رَجُلٌ يَسْأَلُ، فَأَقْبَلَ عَلَيْنَا بِوَجْهِهِ وَقَالَ: «اشْفَعُوا؛ تَوْجَرُوا؛ وَيَقْضِي اللَّهُ عَلَى لِسَانِ نَبِيِّهِ مَا شَاءَ».

وَفِي رِوَايَةٍ: أَنَّهُ ﷺ كَانَ إِذَا جَاءَهُ طَالِبُ حَاجَةٍ، أَقْبَلَ عَلَى جُلَسَائِهِ، وَقَالَ: «اشْفَعُوا؛ تَوْجَرُوا»^(٣).

وَعَلَى كُلِّ، فَإِنْ مَنْ يَسْعَ لِحَصُولِ الْخَيْرِ لغيره يَكُنْ لَهُ ثَوَابُ شَفَاعَتِهِ، وَمَنْ يَسْعَ لِإِيصَالِ الشَّرِّ إِلَى غَيْرِهِ يَكُنْ لَهُ نَصِيبٌ مِنَ الْوِزْرِ وَالْإِثْمِ، وَاللَّهُ تَعَالَى شَاهِدٌ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ، وَحَفِيزٌ لَهُ، فَمَعْنَى ﴿مُقِيمًا﴾ أَي: حَافِظًا وَرَقِيبًا وَمُقْتَدِرًا، وَالْمُقِيمُ: مِنَ الْقُوَّةِ، وَهُوَ مَا يُمَسَّكُ الرَّمَقُ مِنَ الْأَقْوَاتِ؛ فَتَحْفَظُ بِهِ الْحَيَاةَ.

(١) رواه ابن ماجه (٢٥٣٨) والنسائي بإسناد حسن كما في «السلسلة الصحيحة» (٢٣١) وصحيح سنن ابن ماجه (٢٠٥٧) وصحيح سنن النسائي (٤٥٥٤) و«صحيح الجامع» (١١٥٠) بنحوه، وكذا «نيل الأوطار» (٢٤٧/٧).

(٢) من حديث عائشة في الصحيحين كما في «اللؤلؤ والمرجان فيما اتفق عليه الشيخان» (١١٠٠) و«كنز العمال» (٦٤٩٤).

(٣) ينظر: «صحيح البخاري» برقم (١٤٣٢) و«صحيح مسلم» برقم (٢٦٢٧).

تَحِيَّةُ الْإِسْلَامِ

٨٦- ﴿وَإِذَا حُيِّتُمْ بِتَحِيَّةٍ فَحَيُّوا بِأَحْسَنَ مِنْهَا أَوْ رُدُّوهَا إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ حَسِيبًا﴾ (٨٦)

ثم إن أول بوادر اللقاء بين الشفيع ومن يطلب الشفاعة، هو السلام وردّه، فعلم الله سبحانه عباده أدب المقابلة واللقاء في الشفاعة وغيرها، وذلك بإلقاء السلام بينهم، وهو تحية الإسلام، فتأتي هذه الآية لتأمر ببيت السلام ونشره بين الناس.

والسلام شعار إسلامي، وتحية المسلمين الخاصة بهم.

هذا الشعار يكاد يُفقد في المدن الكبرى؛ حيث تجد الرجل يقابل الآخر على باب المسجد، أو في المسجد، أو في الدّرج، أو في الطريق، أو في المكتب ونحو ذلك، ثم يتأفف ويتكبر، ويصعّر وجهه في غلظة وقسوة أو في تغافل وتعام وبُعدٍ عن أدب الإسلام، فلا يُلقي السلام على أخيه، وربما يُلقَى عليه السلام، ولكنه لجهله وغبائه لا يردّ السلام على أخيه، وربما يردّ من طرف لسانه؛ فلا تكاد تسمع له إلا همساً، وفي هذا بُعدٌ عن شعائر الإسلام.

والمجتمع الذي يتفشى فيه عدم إلقاء السلام يكون مُقطّع الأواصر، فاقد الأخوة بين أبنائه، وأبخل الناس من بخلٍ بالسلام، وخيرُ الناس هو الذي يبدأ بالسلام.

والسلام ليس خاصاً بالمعارف والأقارب والأصحاب، وإنما بين النبي ﷺ أن إلقاء السلام يكون على من عرفت، وعلى من لم تعرف، وإن كان الذي لا تعرفه غير مسلم، فإن لك الأجر على كل حال؛ لأن الأجر بإلقاء السلام وردّه أمرٌ عامٌ في الآية: ﴿وَإِذَا حُيِّتُمْ بِتَحِيَّةٍ فَحَيُّوا بِأَحْسَنَ مِنْهَا أَوْ رُدُّوهَا﴾، وهذه التحية هي اللفظ الصادر من أحد المتلاقيين على وجه الإكرام والدعاء، وما يقترن بذلك من البشاشة ونحوها، وأعلى أنواع التحية ماورد به الشرع، من السلام ابتداء وردّاً، وقد أمر الله المؤمنين أن يردّوا التحية بأحسن منها لفظاً وبشاشة أو بمثلها على الأقل، ويفهم من الآية النهي عن عدم السلام، أو رده بأقل منه وفيها حث على الابتداء بالسلام وبيان أن التحية مطلوبة شرعاً.

تحية أهل الكتاب:

وإلقاء السلام على أهل الكتاب المحاربين غير جائز كما جاء في السنة، فقد علّمنا

النَّبِيِّ ﷺ أَنْ نَقُولَ لَهُمْ إِذَا أَلْقَوْا عَلَيْنَا السَّلَامَ: (وعليكم)، وَلَا تَبْدُؤُوهُمْ بِالسَّلَامِ، وَهَذَا يَخْصُ أَهْلَ الْقِتَالِ الْمُحَارِبِينَ لَنَا.

كَمَا فِي حَدِيثِ أَبِي هُرَيْرَةَ ؓ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: «لَا تَبْدُؤُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى بِالسَّلَامِ، وَإِذَا لَقِيتُمُوهُمْ فِي طَرِيقٍ فَاضْطَرُّوهُمْ إِلَى أَضِيقِهِ»^(١).

وَعَنْ ابْنِ عُمَرَ ؓ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: «إِذَا سَلَّمَ عَلَيْكَ الْيَهُودُ فَإِنَّمَا يَقُولُ أَحَدُهُمْ: السَّامُ عَلَيْكَ، فَقُلْ: وَعَلَيْكَ»^(٢).

وَفِي الْحَدِيثِ عَنْ أَبِي عَبْدِ الرَّحْمَنِ الْجَهَنِيِّ ؓ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: «إِنِّي رَاكِبٌ غَدًا إِلَى يَهُودَ، فَلَا تَبْدُؤُوهُمْ بِالسَّلَامِ، وَإِنْ سَلَمُوا عَلَيْكُمْ؛ فَقُولُوا: وَعَلَيْكُمْ»^(٣)؛

وَذَلِكَ لِأَنَّهُ ﷺ كَانَ يَنْوِي غَزْوَهُمْ، فَإِذَا سَلَّمَ عَلَيْهِمْ أَحَدٌ مِنَ الْمُسْلِمِينَ فَقَدْ أَعْطَاهُم الْأَمَانَ، فَكَيْفَ يَغْزُوهُمْ بَعْدَ ذَلِكَ وَقَدْ أَمَّتْهُمْ؟!

وَلَمَّا سُئِلَ النَّبِيُّ ﷺ عَنْ ذَلِكَ قَالَ: «لَا تَبْدُؤُوهُمْ بِالسَّلَامِ»^(٤) وَلِأَنَّ السَّلَامَ أَمَانٌ، وَلَا أَمَانَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ، فَكَيْفَ نُلْقِي عَلَيْهِمُ السَّلَامَ؟! وَكَيْفَ نَسْتَأْمَنُهُمْ؟! وَنَرُدُّ عَلَيْهِمُ السَّلَامَ؟! أَمَّا إِذَا أَلْقَى أَحَدٌ عَلَيْكَ السَّلَامَ، فَرُدَّ عَلَيْهِ السَّلَامَ، فَإِذَا قَالَ: السَّلَامُ عَلَيْكُمْ؛ فَرُدَّ عَلَيْهِ قَائِلًا: وَعَلَيْكُمْ السَّلَامُ.

أَخْرَجَ الْبُخَارِيُّ فِي الْأَدَبِ الْمَفْرَدِ، وَأَخْرَجَ أَحْمَدُ وَالتِّرْمِذِيُّ وَالنَّسَائِيُّ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ ؓ

(١) «صحيح مسلم» برقم (٢١٦٧) والمسند (٧٥٦٦) (٩٩١٩). بإسناد صحيح على شرط مسلم ورجال ثقات، (محققوه) والبخاري في الأدب المفرد (١١٠٣) والترمذي (١٦٠٢، ٢٧٠٠).

(٢) «صحيح البخاري» برقم (٦٢٥٧، ٦٩٢٨) و«صحيح مسلم» برقم (٢١٦٤).

(٣) أخرجه أحمد في «المسند» (١٧٢٩٥، ١٨٠٤٥). حديث صحيح كما قال محققوه، وأخرجه ابن ماجه (٣٦٩٩) والبخاري في الأدب المفرد، (١١٠٢) وابن أبي شيبة (٦٣٠/٨) والطبراني في الكبير (٢١٦٤) وصححه الألباني في صحيح سنن ابن ماجه (٢٩٨٤) وإرواء الغليل (١١٢/٥).

(٤) من حديث أبي بصرة الغفاري في «المسند» (٢٧٢٣٦، ٢٧٢٣٧). حديث صحيح وفيه ابن لهيعة، وقد توبع، وأخرجه الطبراني في الكبير (٢١٦٣) وابن أبي شيبة (٦٣١/٨).

قال: لو أن فرعونَ قال لي: بارك الله فيك، لقلتُ: وفيك بارك الله^(١).

وتقديم الظرف وهو (عليكم) للاهتمام بالمُخاطَب.

وأصل التحية: أن يقول الإنسان لأخيه: حيَّاك الله؛ أي: أطال الله حياتك.

وفي حديث عمر أو عثمان أن جابر بن سليم سلَّم على النَّبي ﷺ فقال: عليك السلام يا رسول الله، فقال له: «إن عليك السلام تحية الموتى، قل: السلام عليك»^(٢).

وكانت العرب تستعملها قبل الإسلام ويقولون: عِم صباَحًا، وعِم مساءً، فلَمَّا جاء الإسلام استبدلها بـ (السلام)، وهو المراد في الآية؛ بمعنى: إذا سلَّم عليكم المسلم فأجيبوه بأحسن ممَّا سلَّم عليكم به، ورُدُّوا عليه بأفضل ممَّا قال مع البَشاشة، أو رُدُّوا عليه بمثل ما قال على الأقل، ولكلِّ ثوابه وجزاؤه:

وهذه جملة من الأحاديث في هذا المقام:

١- في الصحيحين عن عبد الله بن عمرو بن العاص ؓ أن رجلاً سأل النَّبي ﷺ: أيُّ الإسلام خير؟ قال: «تطعم الطعام، وتقرأ السلام على من عرفت، ومن لم تعرف»^(٣).

٢- وفي صحيح مسلم وغيره عن أبي هريرة ؓ أن النَّبي ﷺ قال: «لا تدخلوا الجنة حتى تؤمنوا، ولا تؤمنوا حتى تحابُّوا، أو لا أدلكم على شيء إذا فعلتموه تحاببتم؛ أفشوا السلام بينكم»^(٤).

٣- وعن عائشة ؓ أن النَّبي ﷺ قال: «ما حسَدْتُكُم اليهود على شيء ما حسدتكم على

(١) «صحيح الأدب المفرد» (٨٤٨) وابن المنذر (٢٠٢٧). والمسند (١٥٩٥٥) عن أبي تميمة الجهمي وهو تابعي، عن رجل صحابي، وهو حديث طويل، إسناده صحيح ورجاله ثقات رجال الصحيح، والرجل الذي أبهم هو سليم بن جابر، ويقال: أبو جُرِّي جابر بن سليم، (محقَّقه) والحديث في سنن النسائي الكبرى (١٠١٤٩) والترمذي (٢٧٢١).

(٢) أخرجه أبو داود من حديث أبي جُرِّي الجهمي وهو جابر بن سليم ورقمه (٤٠٨٤، ٥٢٠٩) وقد صححه الألباني برقم (٣٤٤٢، ٤٣٤١) في «صحيح سنن أبي داود».

(٣) «صحيح مسلم» برقم (٣٩) والبخاري (١٢، ٢٨، ٦٢٣٦).

(٤) «صحيح مسلم» برقم (٥٤).

السلام والتأمين»^(١).

٤- وعن عبد الله بن سلام ؓ قال: سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: «يأيها النَّاسُ، أفسحوا السلام، وأطعموا الطعام، وصلُّوا الأرحام، وصلُّوا والنَّاسُ نيامٌ، تدخلوا الجنةَ بِسلامٍ»^(٢).

٥- وفي الصحيحين عن أبي هريرة عن النَّبِيِّ ﷺ: «إنَّ اللهَ تعالى قال لآدمَ: اذهب فسلِّم على أولئك، نفرٌ من الملائكة جلوسٌ، فاستمع ما يُحِثُّونك به، فإنها تحيُّتُك وتحيَّةُ ذريَّتِكَ، فقال: السلام عليكم، فقالوا: عليك السلام ورحمة الله، فزادوه رحمة الله»^(٣).

قال العلماء: يُستحب لمن يتدبَّر بالسلام أن يقول: السلام عليكم ورحمة الله وبركاته، فيأتي بضمير الجمع، وإن كان المسلم واحدًا، ويقول المُجِيب: وعليكم السلام ورحمة الله وبركاته، فيأتي بواو العطف في قوله: وعليكم.

٦- وعن أنس ؓ قال: قال النَّبِيُّ ﷺ: «إنَّ السلام اسم من أسماء الله، وضعه الله في الأرض فأفسَّه»^(٤).

٧- وعن عمران بن حصين ؓ قال: جاء رجلٌ إلى النَّبِيِّ ﷺ فقال: السلام عليكم، فردَّ عليه، ثم جلس، فقال رسول الله ﷺ: «عشر»، ثم جاء آخر، قال: السلام عليكم ورحمة الله، فردَّ عليه، فجلس، فقال: «عشرون»، فجاء آخر، فقال: السلام عليكم ورحمة الله وبركاته، فردَّ عليه، فجلس، فقال: «ثلاثون»^(٥).

(١) «صحيح الأدب المفرد» (٧٥٩).

(٢) قال الترمذي: حديث صحيح برقم (٢٤٨٥) وابن ماجه (٣٢٥١) (١٣٣٤) والدارمي (٢ / ٢٧٥) بأسانيد جيدة، وصححه الألباني في صحيح سنن ابن ماجه (٢٦٣٠).

(٣) البخاري (٣٣٢٦) ومسلم (٢٨٤١).

(٤) «صحيح الأدب المفرد» (٧٦٠) و«السلسلة الصحيحة» (١٨٤).

(٥) «مسند أحمد» (٤ / ٤٣٩) (١٩٩٤٨) إسناده قوي على شرط مسلم ورجاله ثقات رجال الشيخين غير الضبي فممن رجال مسلم وهو صدوق حسن الحديث (محققوه) وأخرجه أبو داود برقم (١٥٩٥) والترمذي برقم (٢٦٨٩) وقال: حديث حسن صحيح غريب من هذا الوجه، وصححه الألباني في «صحيح الترمذي» برقم (٢١٦٣) و«سنن النسائي الكبرى» برقم (١٠١٦٩) وقال ابن حجر في الفتح (١١ / ٦): سنده قوي، وهو في الدارمي (٥١٩٥).

فإذا ألقى المسلمُ السلامَ؛ فالمُجيبُ يزيده الرحمة، وإذا ألقى السلام والرحمة، فليزده البركة، فإذا ألقى السلام والرحمة والبركة عليه فليرد بمثله، حيث لم يُبقِ له فضلاً.

٨- وفي حديث زيد بن أسلم رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «يُسلم الراكب على الماشي، والماشي على القاعد، والقليل على الكثير، والصغير على الكبير، وإذا مرَّ بالقوم فسَلِّم منهم واحدٌ أجزاءهم، وإذا ردَّ من الآخرين واحدٌ أجزاءهم»^(١).

وإذا وصل إلى الإنسان سلامٌ من شخص غائب؛ فعليه أن يردَّ على المبلِّغ فيقول: وعليك وعليه السلام.

ولا يكون السلام بالإشارة باليد ونحوها، فإن كان المسلم عليه بعيداً لا يسمع الصوت؛ فلتكن الإشارة إليه مقرونةً بالتلفظ بالسلام، ويُسَلِّم على الصبيان تعليمًا لهم، وعلى المرأة المستنة، وعلى جماعة النساء، ويُستحب السلام على مَنْ يُظن أنه لن يردَّ، وعلى مَنْ بينك وبينه خصامٌ؛ لإزالة عداوته، واستجلاب مودَّته.

ويُستحب للمسلم أن يرفع صوته بالسلام، وأن يكون الردُّ على الفور، والملائكة تردُّ على مَنْ ألقى السلام إذا لم يرد المسلم عليه.

ولا يُشرع ردُّ السلام أثناء حُطبة الجمعة، ولا في قراءة القرآن جهراً، ولا في أثناء الأذان والإقامة، ولا عند مذاكرة العلم، إلا إذا علِمَ أن ترك السلام سيترك أثراً في نفسه.

ولا يُسَلِّم على مَنْ يقضي حاجته، ولا على مَنْ هو داخل الحمام، ولا على النائم، أو المُصَلِّي، أو المؤذن، ولا على من يقرأ القرآن، ولا على من يستمع إلى الخطبة، ولا على من أمر الشارع بهجره وعدم تحيته، وهو العاصي المجاهر غير التائب، ولا على الفتاة الشابة عند خوف الفتنة، ويُسَلِّم الرَّجُل على أهل بيته، ويُسَلِّم الراكب على الماشي، والصغير على الكبير، والأقل عدداً على الأكثر.

(١) البيهقي (٨٩٢٣) وينظر: «السلسلة الصحيحة» (١١٤٨) وهو في المسند عن أبي هريرة (١٠٦٢٤)، (١٠٦٢٥) مختصراً وإسناده صحيح على شرط الشيخين، كما قال محققوه، وانظر (٨١٦٢، ٨٣١٢) وأخرجه الترمذي (٢٧٠٣) وأبو يعلى (٦٢٣٤).

والبدء بالسلام سُنةٌ، وردّه واجبٌ، قال الحسن: السلام تطوعٌ، والردُّ فريضةٌ^(١) فإن كانوا جماعة وسَلَّمَ واحدٌ كفى، وإذا دخل المسجد أو البيت، وليس فيه أحد فليقل: السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين^(٢).

ولا بأس باللقاء التحية التي اعتادها الناس، أوردّها، بعد إلقاء السلام أو ردّه، مثل صباح الخير، مساء الخير، كيف حالكم، كيف أصبحت، ما لم تكن هذه التحية محظورة شرعاً، فإنها تدخل في رد التحية المأمور به في الآية.

ويبدأ بالسلام قبل الكلام، وطلب الحاجة، ويُسَلَّم على الصبيان الصغار. ومَرَّ النَّبِيُّ ﷺ على مجلس فيه أخلاطٌ من المسلمين وغيرهم فسَلَّم عليهم. والسلام اسم من أسماء الله تعالى فأفشوه^(٣).

وفي ورود تحية الإسلام ضمن آيات القتال إشارة إلى أن القرآن دين حياة، وأن الإسلام هو دين السلام، وأنه حريصٌ على إقامة عَلاَقَاتِ المَوَدَّةِ والمَحَبَّةِ في المجتمع، وربُّ قلوبِ النَّاسِ بعضهم ببعضٍ.

الرُّجُوعُ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى يَوْمَ الْحِسَابِ وَالْجَزَاءِ

٨٧- ﴿اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ لِيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَمَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ وَمَنْ أَصْدَقُ^(٤) مِنْ اللَّهِ حَدِيثًا

والله وحده هو المتفرّد بالألوهية والربوبية، لارب غيره ولا معبود سواه، وهو الكامل في ذاته وصفاته، المتفرّد بالخلق والتدبير، وإسباغ النعم ظاهرة وباطنة، وهو المستحق للعبادة دون سواه، المجازي عليها يوم القيامة، ليجمعنكم من قبوركم إلى يوم القيامة الذي لا شك فيه؛ للحساب والجزاء، ولا شبهة في عدم وقوعه بوجه من الوجوه، فقد

(١) «صحيح الأدب المفرد» (٧٩٤) والطبري (٧/ ٢٧٨).

(٢) «الموطأ» (٢/ ٩٦٢).

(٣) هذا حديث صحيح عن ابن مسعود، ينظر: «صحيح الجامع» برقم (٣٦٩٧) و«سلسلة الأحاديث الصحيحة» برقم (١٨٤)، وهو في «مصنف ابن أبي شيبة» برقم (٥٧٩٦، ٥٨٠٧) والبخاري برقم (١٧٧٠) وما بعده وغيرهم.

(٤) قرأ حمزة والكسائي وخلف العاشر ورويس بخلف عنه (ومن أصدق) بإشمام الصاد صوت الزاي (أشبهه بالطاء العامة)، وهي لغة قيس، وقرأ الباقون بالصاد الخالصة (أُصْدَق)، وهي لغة قریش.

أخبرنا بذلك رب العالمين، وقام الدليل العقلي على إمكانه، من مشاهدة إحياء الأرض بعد موتها، ومن وجود الخلق الأول، ولأن الله تعالى لم يخلق خلقه عبثاً بلا تفرقة بين المحسن والمسيء، ولا أحد أصدق من الله حديثاً فيما أخبر به، وهو سبحانه لا يخلف الميعاد، فلا ينبغي أن يمر العبد على الآيات التي تتحدث عن الآخرة، وكأنه في مأمن من عذاب الله تعالى، فاثمروا بأوامر القرآن، واجتنبوا نواهيه، واخشوا يوماً لا ينفع فيه مال ولا بنون، إلا من أتى الله بقلب سليم.

قَوَاعِدُ الْمُعَامَلَاتِ الْمَحَلِّيَّةِ وَالْدَوْلِيَّةِ

٨٨- ﴿فَمَا لَكُمْ فِي الْمُنَافِقِينَ فِتْنَةٍ﴾^(١) وَاللَّهُ أَرْكَسَهُمْ بِمَا كَسَبُوا أَتُرِيدُونَ أَنْ تَهْدُوا مَنْ أَضَلَّ اللَّهُ وَمَنْ يُضِلِلِ اللَّهُ فَلَنْ يَجِدَ لَهُ سَبِيلًا ﴿٨٨﴾

وبعد أن أرسَتْ سورة النساء قواعد المجتمع المسلم، بدأت الحديث عن قواعد المعاملات الدولية والمحلية، التي تُعرض للمعسكر الإسلامي مع غيره، ممَّن يقيمون في بلاد المسلمين، أو من الدول الأجنبية القريبة أو البعيدة منهم، ممَّن يتظاهرون بمحبة المسلمين، وموالاتهم ونصرة قضايائهم، وتربطهم بهم علاقات اقتصادية وسياسية وعسكرية أحياناً، وينخدع المسلمون بظواهرهم، وهم يكيدون ويُدبِّرون لهم في الخفاء، ولا يعرفون إلا مصالحهم.

وقد بدأت الآيات بالحديث عن العدو الداخلي؛ لأنه الأخطر، وذلك أن الناظر في أوصاف المنافقين في الآيات السابقة من السُّورَة لا يشك في كُفرهم وخبث طويتهم، ولا يتردد في الحكم عليهم بالخروج عن الإسلام، فهم يُظهرون لكم المودة، وقلوبهم مع أعدائكم، وهم أخطر عليكم من العدو الخارجي، ومن الأهمية بمكان اتِّخاذ موقف مُوحَّد تجاه المنافقين الذين أعلنوا الكُفر في أسلوب التعامل معهم، فقد ساق الله لكم من أحوالهم ما يكشف عن مكرهم وخداعهم، بما يدعو إلى الحذر منهم، وسوء الظنَّ بهم.

وإذا كان هذا حالهم، فما الذي سوَّغ لكم أن تختلفوا في شأنهم إلى فئتين؟! فئة تُحسن الظن بهم، وتُدافع عنهم، وفئة أخرى صادقة الفِرَاسَة فيهم، فأخذت حذرَها منهم، وأَعَرَضَتْ عنهم، وَحَكَمَتْ عليهم بالكُفر.

(١) قرأ أبو جعفر بإبدال الهمز ياء وصلًا ووقفًا في كلمة (فتنين)، ومعه حمزة عند الوقف.

والقرآن الكريم يَرفُضُ حالةَ التَّمَيُّعِ وعدمَ الحَسَمِ، والانقسام إلى فئتين في مواجهة هذه الأصناف، وَيَسْتَنَكِرُ عدمَ تحديدِ الأمورِ وَحَسْمِهَا ﴿فَمَا لَكُمْ فِي الْمُنَافِقِينَ فِئَتَيْنِ﴾ أي: ما لكم أيها المؤمنون أصبحتم فرقتين في التعامل مع المنافقين والضُّلُوعِ في موالاة الأعداء، فيرى بعضكم الضرب على أيديهم بصرامة، ويرى آخرون تَرْكَهُم، والصبر عليهم، ما داموا يُظْهِرُونَ حُبَّكُمْ وموالاةكم لعلهم يتوبون.

فالمراد بالمنافقين في الآية في وقت التنزيل: الذين أظهروا الإسلام ولم يعملوا بمقتضاه، وكان قد وقع بين الصحابة اشتباه فيهم، فبعضهم تَحَرَّجَ من قتالهم وقطع موالاةهم، بسبب ما أظهروه من الإسلام، وبعضهم حَكَمَ بكفرهم، لأنهم لم يهاجروا، وَلَمَّا عَمِلُوا من أحوالهم وقرائن أفعالهم كمظاهرة المشركين على المسلمين، فأخبر الله تعالى في هذه الآية بأنهم منافقون، قد تكرر منهم الكفر، وأن أمرهم واضح، فلا تشبهوا فيهم ولا تشكوا في كفرهم.

وهذا المعنى ينطبق على كثير من بني آدم إلى قيام الساعة، ممن يظهرون خلاف ما يبطنون، ليكيدوا إلى الإسلام وأهله، ويدبروا له الفتن والمحن، وَحَسْمًا لهذا الخلاف نزل القرآن بهذه الآيات الأربع.

أسباب النزول

١- صَحَّ في أسباب النزول عن زيد بن ثابت رضي الله عنه أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ لَمَّا خَرَجَ إِلَى أُحُدٍ، رَجَعَ مِنَ الطَّرِيقِ نَاسٌ مِمَّنْ خَرَجُوا مَعَهُ (يعني: عبد الله بن أبي، حينما رجع بثلاث النَّاسِ، وقال: علام نقتل أنفسنا؟! فافترقَ في شأن هؤلاء المنافقين أصحابُ رسول الله ﷺ فرقتين؛ فرقة تقول: نقتلهم، وفرقة تقول: لا نقتلهم، فتزلت هذه الآية ﴿فَمَا لَكُمْ فِي الْمُنَافِقِينَ فِئَتَيْنِ﴾^(١). فقال رسول الله ﷺ: «إِنَّهَا طَيِّبَةٌ، وَإِنَّهَا تُنْفِي الْخَبْثَ، كَمَا تُنْفِي النَّارَ خَبْثَ الْفُضَّةِ»^(٢).

(١) البخاري (١٩٣ / ٨) برقم (١٨٨٤، ٤٥٨٩) ومسلم (٢١٤٢ / ٤) برقم (١٣٨٤) و (٢٧٧٦) وهو أيضًا في «المسند» (١٨٧ / ٥) والطيالسي (٦٠٧) والترمذي (٣٠٢٨) والنسائي في الكبرى (١١١١٣).
(٢) هذه الزيادة في «مسند أحمد» (٥ / ١٨٤) بإسناد صحيح على شرط الشيخين برقم (٢١٥٩٩، ٢١٦٣٠، ٢١٦٣٤، ٢١٦٣٦) وهو في مسلم (١٣٨٤) والبخاري (٤٠٥٠). وابن أبي شيبة (٤٠٦ / ١٤).

٢- وقيل: نزلت هذه الآيات في قوم من المنافقين استأذنوا النَّبِيَّ ﷺ في الخروج إلى ضواحي المدينة مُتَعَلِّلين بوخامة جوِّها، فَلَمَّا خرجوا استقبلهم نفرٌ من المسلمين، فقالوا: ما لكم خرجتم؟ قالوا: أصابنا وباءٌ بالمدينة، واجتويناها، فقالوا: أما لكم في رسول الله أسوة؟ فقال بعض المسلمين: هم نافقوا، وقال بعضهم: لم ينافقوا، وهم مسلمون، فَأَنْزَلَ اللَّهُ الْآيَةَ ﴿فَمَا لَكُمْ فِي الْمُنَافِقِينَ فِتْنَةٌ﴾^(١).

٣- وقال مُجاهد: هم قومٌ خرجوا من مكة حتى جاؤوا المدينة مُظْهِرين إيمانهم، ثم استأذنوا النَّبِيَّ ﷺ في العودة إلى مكة؛ لِيَأْتُوا بِبِضَاعٍ لَهُمْ يَتَّجِرُونَ فيها، زاعمين أنهم لا يزالون مؤمنين، فاختلَفَ فيهم المؤمنون؛ فقائل يقول: هم منافقون، وقائل يقول: هم مؤمنون، فبينَ الله تعالى نفاقهم، وأنزل هذه الآية، يَأْمُرُ بِقَتْلِهِمْ في قوله تعالى: ﴿فَإِنْ تَوَلَّوْا فَعُدُّوهُمْ وَأَقْبِلُوهُمْ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ﴾ فجاؤوا ببضاعتهم من مكة يريدون هلال بن عويمر الأسلمي، وكان بينه وبين النَّبِيِّ ﷺ حِلْفٌ، وهو الذي حصر صدره أن يقاتل المؤمنين، فرفع عنهم القتل بقول تعالى: ﴿إِلَّا الَّذِينَ يَصِلُونَ إِلَى قَوْمٍ﴾^(٢).

٤- وعن ابن عباس ؓ: أنها نزلت في قوم من أهل مكة يُبْطِنُونَ الشُّرْكَ، وَيُظْهِرُونَ الْإِسْلَامَ للمسلمين؛ ليكونوا في أَمْنٍ من تَعَرُّضِ المسلمين لهم، عند خروجهم بِتِجَارَةٍ وغيرها، فَلَمَّا بلغ المسلمون أنهم خرجوا من مكة في تِجَارَتِهِمْ، قال فريق من المسلمين: نخرج لقتالهم، وقال فريق آخر: كيف نقتلهم وقد نطقوا بالإسلام؟ فاختلَفَ المسلمون في شأنهم، ولم يتعرض رسول الله ﷺ لِأَيٍّ من الفريقين حتى نزلت الآية^(٣).

٥- وقال الضحاك: نزلت في قوم أظهرُوا الإسلام بمكة، ولم يهاجروا، وكانوا يُظَاهِرُونَ الْمُشْرِكِينَ عَلَى الْمُسْلِمِينَ؛ فَاخْتَلَفَ النَّاسُ فِيهِمْ، هل هم مسلمون أم منافقون؟

(١) «المسند» (٣/ ١٣١) (١٦٦٧) عن عبدالرحمن بن عوف و«مجمع الزوائد» (٧/ ٧) عن أحمد، والسيوطي في «أسباب النزول» ص ٧١، وفي سنده محمد بن إسحاق، وبقية رجاله ثقات إلا أن أبا سلمة لم يسمع من أبيه والصحيح في نزول الآية ما سبق ذكره في الحديث السابق..

(٢) «تفسير الطبري» (٥/ ١٢١) و«زاد المسير» (٢/ ١٥٣) والواحدي (١٤٣) وابن المنذر (٢٠٨٣) وابن أبي حاتم (٥٧٤٤).

(٣) ينظر: «تفسير ابن كثير» (٢/ ٣٧١) عن ابن أبي حاتم (٥٧٤١) والطبري (٧/ ٢٨٣).

فَسَمَّاهُمُ اللَّهُ ظَالِمِينَ، وأمر المسلمين بالتبرؤ منهم، وعدم موالاتهم، وهم الذين قال الله فيهم ﴿إِنَّ الَّذِينَ قَفَلْتُمْ عَنْهُمُ أَمْلَكْتُكُمْ ظَالِمِينَ أَنْفُسِهِمْ﴾^(١) [النساء: ٩٧] والمعاني متقاربة.

التعليق على أسباب النزول

بالنظر في هذه الأسباب يؤخذ منها: أن المراد بالآية عموم المنافقين يومئذٍ، من أهل مكة والمدينة، إلا أن منافقي المدينة لم يَرِدْ أمرٌ بقتالهم، وإنما استعمل معهم الرسول ﷺ وسائل أخرى، أدَّتْ إلى تَبْذِهِمُ وَهَوَانِ أَمْرِهِمُ، فالآيةُ تَنْصِبُ على المنافقين الذين قَدِمُوا إلى المدينة مِن خارجها، وتشمل أمثالهم إلى قيام الساعة، وإلى هذا تشير الأسباب الأربعة الأخيرة؛ أي: ما عدا السبب الأول، وهو داخل في حُكم الآية وعُمومها.

والذين تَخَاذَلُوا وَرَجَعُوا مِنَ الطَّرِيقِ إلى غزوة أُحُدَ بقيادة رأس النفاق (عبد الله بن أبيّ ابن سلول) هم من أهل المدينة، وليسوا من خارجها، والنَّبِيُّ ﷺ لم يَقْتُلْ من المنافقين إِلَّا مَنْ ارْتَدَّ بعد إسلامه علناً، وَسَعَى بالفساد في الأرض، كقصّة الذين اسْتَوْخَمُوا جَوْ المدينة، فَلَمَّا كانوا خارجها قتلوا الراعي وساقوا الإبل، هذه نقطة.

ونقطة ثانية لَا بُدَّ منها لفَهْم الآية؛ وهي أن الهجرة المذكورة في قوله تعالى: ﴿فَلَا تَتَّخِذُوا مِنْهُمْ أَوْلِيَاءَ حَتَّىٰ يُهَاجِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ هذه الهجرة تكون إلى المدينة، وليس منها؛ لأنها دارُ الإسلام، ولم تكن مكة قد فُتِحَتْ عند نزول هذه الآيات؛ لأن سورة النساء نزلت في آخر السنة الرابعة للهجرة، إلى ما قبل صلح الحديبية سنة ست من الهجرة، وكان فتح مكة سنة ثمان من الهجرة، ونزل منها آية الأمر بأداء الأمانة إلى أهلها يوم فتح مكة.

وعليه فيكون المراد بالمنافقين في أسباب النزول: هم مَنْ جَاءُوا إلى المدينة مِن خارجها، ما عدا السبب الأول الخاص بغزوة أحد -وهو في الصحيحين- وهو داخل في عمومها فيراد بالهجرة فيه: الجهاد في سبيل الله؛ بمعنى: أن الله تعالى نَهَى المسلمين عن ولايتهم حتى يَخْرُجُوا للجهاد في سبيل الله في غزوة أخرى تقع بعد نزول هذه الآية؛ لأن غزوة أحد كانت قبل نزول هذه السورة، وفي عدم التعرض لهم بأذى أثناء هذه المدة

(١) «تفسير التحرير والتنوير» (٤/ ١٥٠) وينظر: «تفسير الألوسي» (٥/ ١٠٧) والفخر الرازي (١٠/ ٢٨١) والطبري (٧/ ٢٨٥).

استدراج لهم إلى يوم الفتح .

وقد ابتدأت الآية بالإنكار على المؤمنين في اختلافهم في شأن المنافقين؛ فمنهم من يقول: إنهم كافرون يجب قتالهم، ومنهم من يقول: إنهم مسلمون لا يُقاتلون، وهذا معنى ﴿فَمَا لَكُمْ فِي الْمُنَافِقِينَ فِتْنَةً﴾ أي: لماذا تختلفون فيهم؟ يقول بعضكم: نقتلهم، ويقول الآخرون: لا نقتلهم، والحال أنهم مُنافقون، وقد ردَّهم الله إلى الكُفر، كما قال تعالى ﴿وَاللَّهُ أَرْكَسَهُمْ بِمَا كَسَبُوا﴾ فلا تختلفوا في شأنهم، ولا تظنوا فيهم الخير، فإن الله تعالى قد حَكَمَ بضلالهم، فلا سبيل إلى هدايتهم ﴿وَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ فِتْنَتُهُ فَلَنْ تَمْلِكَ لَهُ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا﴾ [المائدة: ٤١] ﴿وَمَنْ يُضِلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ﴾ [الزمر: ٣٦] .

ومعنى الآية: فما لكم أيها المؤمنون اختلفتم في شأن المنافقين إلى فرقتين؛ فرقة تقول بكفرهم، وفرقة تقول بإيمانهم؟ فرقة تعاديهم، وفرقة تُدافع عنهم؟ فنهى الله تعالى الفرقة التي تذبُّ عنهم، وأمر المؤمنين جميعاً أن يكونوا على مِنْهَاجٍ واحد في التبرؤ منهم، فإنه لا يجوز موالاته المشركين، والكافرين، والمنافقين، والمشتهرين بالزندقة والإلحاد.

ثم أخبر ﷺ عن كُفْرِهِمْ فقال: ﴿وَاللَّهُ أَرْكَسَهُمْ﴾ أي: أوقعهم في الكُفر والضلال، وردَّهم إليه أسوأ ما يكون؛ بسبب ما اكتسبوا من الأعمال الخبيثة.

أتودُّون أيها المؤمنون هداية مَنْ صَرَفَ الله قلبه عن الإيمان؟! فلا تختلفوا في أمرهم، ولا تظنوا فيهم الخير؛ لأن الله تعالى قد عَلِمَ منهم في الأزل أنهم على ضلال وكُفر، وليسوا من المهتدين ﴿أَتُرِيدُونَ أَنْ تَهْدُوا مَنْ أَضَلَّ اللَّهُ﴾ وَمَنْ خَذَلَهُ الله عن دينه، واتباع منهجه، فلا طريق له إلى الهدى، والله لا يضل إلا الضال ﴿وَمَنْ يُضِلِلِ اللَّهُ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ سَبِيلًا﴾ وهكذا ينبغي أن يتعامل المسلمون مع كل مَنْ كاد للإسلام، ومكر بأهله، دون هودة ولا مهادنة.

كَيْفِيَّةُ التَّعَامُلِ مَعَ الْعَدُوِّ

٨٩- ﴿وَدُّوا لَوْ تَكْفُرُونَ كَمَا كَفَرُوا فَتَكُونُونَ سَوَاءً فَلَا تَتَّخِذُوا مِنْهُمْ أَوْلِيَاءَ حَتَّىٰ يُهَاجَرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَخُذُوهُمْ وَأَقْتُلُوهُمْ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ وَلَا تَتَّخِذُوا مِنْهُمْ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا﴾ (٨٩) .
ثم أوضحت هذه الآية حقيقة أمر الكُفَّار، وَمَنْ تَظَاهَرَ بالإسلام من المنافقين في كلِّ

زمان ومكان، ومنهم مَنْ تتحدث عنهم الآيات، فتبين أنهم يَتمنون لكم أيها المؤمنون أن تكونوا على دينهم، فتكفرون كما كفروا، حتى تستوتوا معاً في الإنكار والكُفر والنفاق والضلال ﴿وَدُّوا لَوْ تَكْفُرُونَ كَمَا كَفَرُوا فَتَكُونُوا سَوَاءً﴾ .

ثم نهت الآية عن اتِّخاذ أصدقاء وأحباب من الكُفار، حتى يُخلصوا دينهم لله، ويظهر ذلك في أقوالهم وأفعالهم، يفعلون كما فعلتم، بأن يُهاجروا ويُجاهدوا في سبيل الله؛ برهاناً على صدق إيمانهم، ﴿فَلَا تَتَّخِذُوا مِنْهُمْ أَوْلِيَاءَ حَتَّى يُهَاجِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ وهذا يستلزم عدم محبتهم، لأن الولاية فرع عن المحبة، ويستلزم هذا بغضهم وعداوتهم، لأن النهي عن الشيء أمر بضده، وهذا النهي موقوت بالهجرة، فإذا هاجروا جرى عليهم ما يجري على المسلمين، وإن لم يهاجروا فلا توالوهم ولا تناصروهم، واقتلوهم في أي زمان أو مكان لأنهم ارتدوا عن دينهم وأعلنوا كفرهم، وهذا معنى ﴿فَإِنْ تَوَلَّوْا فَخُذُوهُمْ وَأَقْتُلُوهُمْ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ وَلَا تَتَّخِذُوا مِنْهُمْ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا﴾ .

والهجرة تكون بالدخول في الإسلام وترك الكُفر، وبإخلاص الإيمان وترك النفاق، وبهجر المعاصي وكل ما نهى الله تعالى عنه.

وكانت الهجرة في صدر الإسلام من مكة إلى المدينة أمراً واجباً قبل فتح مكة، ولما فُتحت مكة قال النبي ﷺ: «لا هجرة بعد الفتح، ولكن جهاد ونية، وإذا استنفرتم فانفروا»^(١)، وهذه الهجرة باقية من دار الكُفر إلى ديار الإسلام إلى يوم القيامة.

وأفضل أنواع الهجرة: هجرة الصحابة مع رسول الله ﷺ إلى المدينة، وخروجهم معه صابرين محتسبين، وكذا من لحق به، أو هاجر قبله.

فالهجرة بمعناها العام: هي الانخراط في صفوف المسلمين، والقيام بمنهج الله تعالى، والانتقال من مكان لا يتمكن فيه العبد من التَّعبُد ونشر الدَّعوة، إلى مكان آخر يتمكن فيه المسلم من العبادة، وإقامة شعائر الله، والدَّعوة إلى ذلك.

ذلكم قولُ الله تعالى: ﴿فَلَا تَتَّخِذُوا مِنْهُمْ أَوْلِيَاءَ حَتَّى يُهَاجِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ وبالنسبة لمنافقي المدينة الذين تقاعسوا عن الجهاد في غزوة أُحُد فلا توالوهم حتى يخرجوا للجهاد معكم

(١) من حديث ابن عباس في البخاري (١٣٤٩، ٢٧٨٣) ومسلم (١٣٥٣).

في الغزوات التالية؛ برهاناً على إيمانهم وصدق توبتهم، وإقلاعهم عن الكُفر والضلال كما قال تعالى: ﴿مَا لَكُمْ مِنْ وَلِيَّتِهِمْ مِنْ شَيْءٍ حَتَّىٰ يُهَاجِرُوا﴾ [الأنفال: ٧٢] وقال: ﴿لَوْ خَرَجُوا فِيكُمْ مَا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا وَلَا أُضْعِفُوا خِلَالَكُمْ﴾ [التوبة: ٤٧].

فإن أعرضوا عمّا دُعوا إليه من الإسلام والهجرة والجهاد؛ فخذوهم أيها المؤمنون أينما كانوا، واقتلوهم في أيّ مكانٍ وجدتموهم، كما هو الحال والشأن مع المشركين الوثنيين من أهل مكة، ولا توالوا منهم أحداً، ولا تستنصروا بهم على أعدائكم ﴿فَإِنْ تَوَلَّوْا﴾ أي: أظهروا الكُفر ﴿فَخُذُوهُمْ وَأَقْتُلُوهُمْ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ﴾ وقد جاء الأمر الصريح بقتل هؤلاء المنافقين المرتدين في هذه الآية والتي بعدها ﴿فَخُذُوهُمْ وَأَقْتُلُوهُمْ﴾ وهذا بالنسبة للمنافقين من غير أهل المدينة، وهم الطائفة الوحيدة التي سُمِحَ بقتلها.

وبالنسبة للمشركين الوثنيين في آية سورة التوبة، فقد جاء الأمر بقتلهم والقعود لهم كل مَرَصِدٍ؛ وذلك لأن المرتد أخطر من المُشرك، وقد نهى الله تعالى عن ولايتهم ونصرتهم فقال: ﴿وَلَا تَنَجِدُوا مِنْهُمْ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا﴾، فإن الأمة لا تقوم على رابطة الدّم واللغة والقبيلة، ولا على الروابط الاقتصادية والسياسية... وإنما تقوم على الانخراط في المجتمع المسلم بالعقيدة والعبادة.

ثَلَاثَ حَالَاتٍ مُسْتَثْنَاةٍ مِنَ الْقَتْلِ وَعَدَمِ الْمَوَالَاةِ

٩٠- ﴿إِلَّا الَّذِينَ يَصِلُونَ إِلَى قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ مِيثَاقٌ أَوْ جَاءَكُمْ حَصْرَتٌ^(١) صُدُّوهُمْ أَنْ يُقْتَلُوا أَوْ يُقْتَلُوا قَوْمَهُمْ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَسَلَّطَهُمْ عَلَيْكُمْ فَلَقَنَلُوكُمْ فَإِنْ أَعَزَّلُوكُمْ فَلَمْ يُقْتَلُوا أَوْ الْقَوَا إِلَيْكُمْ أَلْسَلَّمْ فَمَا جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ عَلَيْهِمْ سَبِيلًا ﴿٩٠﴾﴾

ثم استثنى الله سبحانه من الحكم السابق؛ وهو القتل وعدم الموالاة حالتين أمر الإسلام بتركهما وعدم قتالهما؛ وفي هذه الآية ثلاثة مقاطع:

المقطع الأول: قوله تعالى: ﴿إِلَّا الَّذِينَ يَصِلُونَ إِلَى قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ مِيثَاقٌ﴾ وهذه حالة من يستجير بأهل الذمة.

(١) قرأ يعقوب (حصرة) بالتونين والنصب، على الحال (أي: ضيقة)، وقرأ الباقون (حصرت) بسكون التاء، فعل ماضٍ، والجملة في موضع نصب حال.

المقطع الثاني: قوله تعالى: ﴿أَوْ جَاءَكُمْ حَصْرَتْ صُدُورُهُمْ أَنْ يُقَاتِلُوكُمْ أَوْ يُقَاتِلُوا قَوْمَهُمْ﴾ وهذه حالة من كره قتال المسلمين وقتال قومه.

والمقطع الثالث: قوله تعالى: ﴿فَإِنْ أَعْرَضُوا عَنْكُمْ فَلَمْ يُقَاتِلُوكُمْ وَأَلْقَوْا إِلَيْكُمُ السَّلَامَ فَمَا جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ عَلَيْهِمْ سَبِيلًا﴾ وهذه حالة من سالم ولم يقاتل المسلمين، فهذه ثلاث حالات في الآية:

الحالة الأولى: حالة المستجير: وهو مَنْ يلجأ أو يَحْتَمِي في معسكر أهل الذمة، أو عند شخص بينه وبين المسلمين عهدٌ وميثاقٌ وأمانٌ، ففي هذه الحالة يأخذ هذا المستجير حُكْمَ مَنْ أَجَارَهُ، ولجأ عنده؛ لحمايته في حَقْنِ دمه، وعدم أسره، فيعامل معاملته، ويسالَمُ مسالمته، فيحقن دمه وماله ويصان عرضه.

والمعنى: فالذين أعلنوا كُفْرَهُمْ من المنافقين، خذوهم واقتلوهم حيث وجدتموهم، ولا تقتلوا أهل هذه الحالة الذين استثناهم الله تعالى، في قوله: ﴿إِلَّا الَّذِينَ يَصِلُونَ إِلَى قَوْمِ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ مِيثَاقٌ﴾ أي: إِنَّ كُلَّ مَنْ اتصل بقوم لهم عهدٌ مع المسلمين؛ فاحتُمى بهم ولجأ إليهم، فإنهم يَلْتَحِقُونَ بهم، ويأخذون حُكْمَهُمْ، فلا تقتلوهم ولا تأسروهم.

وقيل المعنى: إلا الذين يتصلون بهم بسبب النسب، والأول أصح، فَمَنْ لجأ إلى المُعَاهِدِ، فله الجِوَار والأمان مثله؛ بمعنى: أن مَنْ دخل في عهده فله حكمه؛ لأن مَنْ عاهد المُعَاهِدَ كان مثله.

وقد ذكر العلماء أقوالاً في القوم الذين كان بينهم وبين المسلمين عهدٌ وأمانٌ؛ فقيل: هم الأسلميُّون، وكان النَّبِيُّ ﷺ وقت خروجه إلى مكة، قد وادع (هلال بن عويمر الأسلمي) على ألا يُعِينَهُ ولا يُعِينِ عليه، وعلى أن مَنْ وصل إلى هلال ولجأ إليه، فله من الجِوَار مثل الذي لهلال، وقيل: هم بنو بكر بن زيد، وقيل: هم خزاعة^(١).

أخرج ابن أبي حاتم وابن مردويه عن الحسن: أن سراقه بن مالك المدلجي -لَمَّا نصر الله نبيّه في بدر- عقد عهداً مع النَّبِيِّ ﷺ لقومه بني مدلج أن يوادعهم، فإن أسلم النَّاسُ دخلوا معهم في الإسلام، وإن لم يُسَلِّمُوا لا يقاتلهم، فأخذ النَّبِيُّ ﷺ بيد خالد وقال: «أذهب معه فافعل ما يريد»؛ فصالحهم خالد على ألا يُعِينُوا أحداً على

(١) «حاشية الجمل على الجلالين» (١/ ٤٠٨).

رسول الله ﷺ، وإن أسلمت قريش أسلموا معهم، وأنزل الله: ﴿إِلَّا الَّذِينَ يَصِلُونَ إِلَى قَوْمِ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ مِيثَاقٌ﴾ فكان من وصل إليهم كان معهم على عهدهم^(١).

وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن عباس قال: نزلت: ﴿إِلَّا الَّذِينَ يَصِلُونَ إِلَى قَوْمِ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ مِيثَاقٌ﴾ في هلال بن عويمر الأسلمي، وسراقة بن مالك المدلجي، وفي بني جذيمة بن عامر بن عبد مناف^(٢).

الحالة الثانية: حالة المحاييد:

ويستثنى أيضًا من القتل من كرهوا أن يُقاتلوا المسلمين، أو يقاتلوا قومهم، وأحبوا ترك قتال الفريقين، فضأقت نفوسهم ولم ينحازوا لأحد، وكانوا حياديين بين المسلمين والمحاربين لهم، فلم يُقاتلوا قومهم، ولم يُقاتلوا المسلمين، فاقبلوا منهم ذلك، ولا تُقاتلواهم.

وقد كان من الممكن أن يُسلطهم الله على المسلمين فيقاتلونهم مع أعدائهم المحاربين، ولكن الله كف أيديهم عنكم، وصرفهم عنكم بفضلهم وقدرته، وهذه منة من الله تعالى بكف بأس المعاهدين، وعدم تقويتهم على قتال المسلمين، وإلقاء الرعب في قلوبهم.

وإلى هذا الفريق يشير قوله تعالى: ﴿أَوْ جَاءُوكُمْ﴾ أي: أن هذه الفرقة رجعوا، فدخلوا في دينكم و﴿حَصَرَتْ صُدُورُهُمْ أَنْ يُقَاتِلُوكُمْ﴾ أي: ضأقت وكرهت قتالكم أيها المسلمون، وضأقت صدورهم أيضًا أن يقاتلوا قومهم، وهذا معنى: ﴿أَوْ يُقَاتِلُوا قَوْمَهُمْ﴾ أي الموالين والمعاهدين لهم، وهم قوم هلال وبنو بكر وقت التنزيل، وقد نهى الله تعالى عن قتالهم؛ لأنهم أصحاب عهد مع ذوي عهد، فلهم حكمهم ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَسَلَّطَهُمْ عَلَيْكُمْ﴾ فقوى قلوبهم على قتالكم ﴿فَلَقَاتِلُوكُمْ﴾، فاقبلوا من الله عافيته، واحمدوا ربكم الذي كف أيديهم عنكم مع تمكنهم من ذلك.

الحالة الثالثة: حالة من سالم وترك قتال المسلمين:

فإن تركوكم، ولم يقاتلوكم، وانقادوا إليكم مُستسلمين مصالحين، فليس لكم عليهم

(١) رواه ابن أبي شيبة في «المصنف» (١٤ / ٢٣٢) حدثنا أسود بن عامر عن حماد بن سلمة به، ورواه ابن أبي حاتم (٥٧٥٠) وابن مردويه.

(٢) «تفسير الطبري» (٥ / ١٢٤) و«أسباب النزول» للسيوطي (٨٢) وابن أبي حاتم (٥٧٥٧).

طريقاً لقتالهم ﴿فَإِنْ أَعْرَضُوا عَنْكُمْ فَلَمْ يَقْبَلُواكُمْ فَمَا جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ عَلَيْهِمْ سَبِيلًا﴾ فقد أوجب الله تعالى قتال الكفار من المنافقين المرتدين في هذه الآية، إلا من كان معاهداً، أو لجأ إلى معاهد، أو ترك قتل المسلمين، وكان هذا الحكم رخصة للمسلمين في وقت معين.

ونظمُ الآيات الثلاث إلى هنا هكذا: اقتلوا المنافقين الذين اختلفتم فيهم:

١- إلا أن يُجاهدوا ويهاجروا معكم.

٢- وإلا أن يتصلوا بمن بينكم وبينهم ميثاق؛ فلهم حكمهم.

٣- وإلا إذا كرهوا قتالكم وقتال قومهم، وكانوا على الحياد.

قال الجمل: معاهدة المشركين وموادعتهم في هذه الآية منسوخة بآية السيف ﴿فَإِذَا أَسْلَخَ الْأَشْهُرُ الْحُرُمَ فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ﴾ [التوبة: ٥]؛ وذلك لأن الله تعالى لما أعز الإسلام وأهله أمر ألا يقبل من مشركي العرب إلا الإسلام أو القتل^(١).

ولما أعز الله الإسلام والمسلمين أمر الله رسوله بجهاد كل من لم يدخل في الإسلام، واعترض طريقه فمنع وصوله إلى الناس، وألا يقبل من المشركين الوثنيين من أهل الجزيرة إلا الإسلام، وهذا في قوله تعالى: ﴿وَقَاتِلُوا الْمُشْرِكِينَ كَافَّةً كَمَا يُقَاتِلُونَكُمْ كَافَّةً﴾ [التوبة: ٣٦]. وقاتل المشركين في هذه الآية مشروط بقتالهم لنا، أما من نقص العهد منهم ولم يحترم ما بيننا وبينه من عهد وميثاق، فقد أمرنا الإسلام أن نقتله ونقعد له بكل طريق: ﴿فَإِذَا أَسْلَخَ الْأَشْهُرُ الْحُرُمَ فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ وَخُذُوهُمْ وَأَحْضُرُوهُمْ وَأَقْعُدُوا لَهُمْ كُلَّ مَرْصِدٍ﴾ [التوبة: ٥] ما لم يتوبوا ويدخلوا في الإسلام.

أما أهل الكتاب فلهم حكم آخر؛ وهو قتالهم إلى أن يدفعوا الجزية مقابل تمتعهم في ديار المسلمين بالأمن والمرافق العامة، كما يدفع المسلمون الزكاة، فإذا انخرط أهل الكتاب مع المسلمين في الجيش وفي سائر الخدمات العامة، ومنها الدفاع عن أمن البلاد، رُفعت عنهم هذه الجزية، وهذا هو الواقع في الوقت الحاضر، في البلاد التي

(١) «حاشية الجمل على الجلالين» (١/ ٤١٠).

يوجد فيها مسلمين وغير مسلمين.

قال تعالى: ﴿قَاتِلُوا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حَتَّى يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَنْ يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ﴾ [٢٩] [التوبة]

وقبول الجزية يكون من اليهود أو النصارى، إذا كانوا مقيمين بدار الإسلام، ملتزمين بعهودهم ومواثيقهم، فإن اشتركوا في الدفاع عن أمن البلاد؛ تسقط الجزية عنهم. ولا تقبل الجزية من عبدة الأوثان، لا سيما في جزيرة العرب، إذ لا يجتمع فيها دينان، ولا يقبل فيها غير الإسلام بالنسبة لأهل البلاد الأصليين.

طَائِفَةٌ رَابِعَةٌ لَا يَتَسَامَحُ مَعَهَا الْإِسْلَامُ

٩١- ﴿سَتَجِدُونَ ءَاخِرِينَ يُرِيدُونَ أَنْ يَأْمَنُوكُمْ وَيَأْمَنُوا قَوْمَهُمْ كُلٌّ مَا رَدُّوا إِلَى الْفِتْنَةِ أُرْكِسُوا فِيهَا فَإِنَّ لَمْ يَعْتَرِزْكُمْ وَيُلْقُوا إِلَيْكُمْ السَّلَمَ وَيَكْفُوا أَيْدِيَهُمْ فَخُذُوهُمْ وَأَقْلُبُوهُمْ حَيْثُ تَفَقَّصْتُمُوهُمْ وَأُولَئِكَمُ جَعَلْنَا لَكُمْ عَلَيْهِمْ سُلْطَانًا مُبِينًا﴾ [٩١]

وبعد أن ذكرت الآية الأولى في هذا السياق، حُكم المنافقين الذين انتكسوا، ورجعوا إلى الكفر.

ونَهَتْ الآية الثانية عن موالاتهم حتى يُجاهدوا ويُخلصوا إيمانهم.

وذكرت الآية الثالثة ثلاثة أصناف من الناس يأخذون حُكمهم.

بعد ذلك ذكرت هذه الآية طائفة رابعة يمثلون العدو الخارجي للمسلمين، وهي طائفة لا يتسامح الإسلام معها؛ لأنها منافقة شريرة كالطائفة الأولى، وهذه الطائفة ليس لها ميثاق، ولا هي متصلة بقوم لهم ميثاق، وهم يُظهرون الإسلام للمسلمين، ويُظهرون الكفر للكافرين، ليأمنوا على أنفسهم عند هؤلاء وهؤلاء، فهم يريدون مصلحة أنفسهم ولا يهمهم شرع ولا دين:

١- روى ابن جرير الطبري عن مُجاهد أن قوماً من مكة، كانوا يأتون النبي ﷺ فيُسلمون رياءً، ثم يرجعون إلى قريش، فيرتكسون في الأوثان، يريدون أن يأمنوا على أنفسهم عند النبي ﷺ وعند قومهم، فأمر الله تعالى بقتالهم إن لم يعتزلوا ويُصلحوا^(١)،

(١) «تفسير الطبري» (٥/ ٢١٠) وابن المنذر (٢١٠١) وابن أبي حاتم (٥٧٦٩، ٥٧٧٥).

قيل: إنهم من أسد وغطفان.

٢- وقال قتادة: هذا حيٌّ كان بتهامة قالوا: يا نبيَّ الله لا نقاتلك، ولا نقاتل قومنا، وأرادوا أن يأمنوا نبي الله، ويأمنوا قومهم، فأبى الله ذلك^(١).

٣- وقال السدي: هذا نُعَيْم بن مسعود الأشجعي كان يأمن في المسلمين والمشرِكين بِثَقْلِ الحديث بين النَّبِيِّ والمشرِكين^(٢)، وقيل: غير ذلك

﴿سَتَجِدُونَ ءَاخِرِينَ﴾ من المنافقين، يريدون الاطمئنان على أنفسهم من جانبكم؛ فيُظهرون لكم الإيمان، حتى يحقنوا دماءهم وأموالهم، ويريدون أيضًا أن يطمئنوا على أنفسهم من جانب قومهم الكفار، فيُظهرون لهم الكُفْر حتى لا يتعرضوا لهم بأذى، وهذا قوله تعالى: ﴿يُرِيدُونَ أَن يُأْمِنُوكُمْ﴾ خوفًا منكم ﴿وَيَأْمِنُوا قَوْمَهُمْ﴾ ومثله قوله تعالى: ﴿وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ ءَامَنُوا قَالُوا ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوْا إِلَىٰ شَيَاطِينِهِمْ قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزَءُونَ﴾ [البقرة].

فهم بوجهين، يَلْقَوْنَ المسلمين بوجه، ويلقون المشرِكين بوجه، وهذه الطائفة كلما أعيدت إلى موطن الكُفْر كفروا، وكلما دُعوا إلى الشرك أشركوا، وكلما دعاهم قومهم إلى قتال المسلمين، وقَعُوا في أسوأ حال، ورجعوا إلى ما كانوا فيه منكوسين على رؤوسهم ﴿كُلُّ مَا رَدُّوا إِلَىٰ الْفِتْنَةِ﴾ وهي الشرك والكُفْر ﴿أُرْكَسُوا﴾ أي: انهمكوا ووقعوا فيها؛ وكلما خرجوا من فتنة رجعوا إليها، وكلما عرض لهم عارض من عوارض الفتن، ازدادوا كفرا ونفاقًا، فهم لا يزالون مقيمين على كفرهم ونفاقهم، إنهم يتركون القتال مع الفريقين خوفًا على أنفسهم، ولو وجدوا فرصة لقتال المسلمين، دون أن يمسه أذى، لانتهزوها.

وهذا الصنف من المنافقين إن لم ينصرفوا عنكم، وينقادوا لكم، ويمنعوا أيديهم عن قتالكم؛ فخذوهم بقوة، وأسروهم، واقتلوهم أينما وجدتموهم ﴿فَإِن لَّمْ يَعْزِلُوا وَتَلْفُوا إِلَيْكُمْ أَلْسَلَمَ﴾ أي المسالمة والموادة ﴿وَيَكُونُوا أَيْدِيَهُمْ﴾ عن قتالكم وإيذائكم ﴿فَخُذُوهُمْ وَأَقْلُبُوهُمْ حَيْثُ تَفَقَّهْتُمُوهُمْ﴾ أي: حيث وجدتموهم، وهؤلاء الذين بلغوا هذا المسلك المشين، جعلنا لكم على أخذهم وأسرههم وقتلهم حجة واضحة؛ بسبب عَدْرِهِم وخيانتهم، فهم معتدون ظالمون لكم، تاركين للمسالمة، فلا يلومون إلا أنفسهم.

(١) ابن المنذر (٢١٠٢) وابن أبي حاتم (٥٧٦٨، ٥٧٧١) وابن جرير (٣٠٢ / ٧).

(٢) الطبري (٣٠٢ / ٧) وابن أبي حاتم (٥٧٧٤).

﴿وَأُولَئِكَ جَعَلْنَا لَكُمْ عَلَيْهِمْ سُلْطَانًا مُبِينًا﴾ إنهم قومٌ لا يَسْعُونَ إِلَّا فِي خَاصَّةِ أَنْفُسِهِمْ، ولا يعبؤون بغيرهم، فيُظهرون الْوُدَّ لقومهم؛ ليأمنوا غوائلهم، ويُظهرون الْوُدَّ للمسلمين؛ ليأمنوا غزوهم، وليسوا بمخلصين لأحدِ الفريقين، ولذلك فهم يَرْتَدُّونَ عن الإسلامِ إلى الْكُفْرِ بين الحين والآخر، وكلما أسلموا كفروا من جديد ﴿كُلَّ مَا رُدُّوا إِلَى الْفِتْنَةِ أُرْكَسُوا فِيهَا﴾ أي: رجعوا إلى الْكُفْرِ رَدًّا شَنِيعًا على أسوأ حال، وهؤلاء هم أهل غطفان وبنو أسد، ممَّن كانوا حول المدينة قبل أن يَحْسُنَ إسلامُهم.

وكان بنو عبد الدار - وهم من أهل مكة - يأتون المدينة فيُظهرون الإسلام، ويرجعون إلى مكة فيعبدون الأصنام، وقد أَمَرَ الله المؤمنين أن يُعاملوا هؤلاء بمعاملة الفريق السابق ذكره في قوله تعالى: ﴿إِلَّا الَّذِينَ يَصِلُونَ إِلَى قَوْمٍ﴾ وهو تركُّهم والإعراض عنهم إذا سالموا المسلمين، وقَتَلهم إذا ناصبوا العداء لهم، مع اختلاف الشَّرْطِ بينهما، فَشَرُطُ السابقين أن يعتزلوا المسلمين ويُسالموهم ولا يقاتلوهم، وَشَرُطُ هؤلاء - وهم الفريق الأخير - ألا يعتزلوهم ولا يسالموهم، ولا يكفوا أيديهم عنهم.

هذا، والمتأمل في الآيات الأربع السابقة يجد أن الله تعالى قد رَسَمَ للمسلمين كيف تكون علاقتهم بغيرهم من المنافقين والمشرِكين، فذكرت أصنافاً أربعة، وبيَّنت كيفية التعامل مع كل صِنْفٍ:

أولاً: المنافقون الذين ارتدُّوا إلى الْكُفْرِ، لا تُدَافِعُوا عنهم، ولا تُحسنوا الظن بهم، ولا تُوالوهم، ولا تستعينوا بهم حتى يُخلصوا إيمانهم؛ فيهاجروا ويُجاهدوا معكم، وإلا حلَّ أخذهم وقَتَلهم. ﴿فَإِنْ تَوَلَّوْا فَخُذُوهُمْ وَأَقْتُلُوهُمْ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ﴾.

ثانياً: قومٌ التجؤوا إلى قومٍ بينكم وبينهم عهدٌ وميثاقٌ أمان، فهم يُسالَمون ولا يُقاتلون، ويأخذون حُكْمَ مَنْ نزلوا في جوارهم ممَّن لهم عندكم عهدٌ وميثاقٌ. ﴿إِلَّا الَّذِينَ يَصِلُونَ إِلَى قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ مِّيثَقٌ﴾.

ثالثاً: قومٌ محايدون، يكرهون قتال المسلمين، ويكرهون قتال قومهم المشرِكين، وقد أظهروا الانقياد والاستسلام للمسلمين، فهؤلاء سالِموهم أيضاً، ولا تتعرضوا لهم بأذى. ﴿أَوْ جَاءُوكُمْ حَصِرَتْ صُدُورُهُمْ أَنْ يَقْتُلُوكُمْ أَوْ يُقَتِّلُوكُمْ قَوْمَهُمْ﴾ إلى نهاية الآية.

رابعاً: قوم متلاعبون بالعقيدة والدين، وقد بَلَغَ بهم الأمرُ أنهم يُظهرون الإسلام للمسلمين، ويُظهرون الكُفر للكافرين، فيوهمون كلَّ فريقٍ أنهم معهم وضد الآخر، وهم يريدون أن يأمنوا جانب الفريقين، وكلما رجعوا عن الكفر رجعوا إليه، هؤلاء خذوهم واقتلوهم جزاء خداعهم وردّتهم المتعددة، وهؤلاء هم من عنتهم الآية الرابعة:

﴿سَتَجِدُونَ ءَاخِرِينَ يُرِيدُونَ أَنْ يَأْمَنُوكُمْ وَيَأْمَنُوا قَوْمَهُمْ﴾ الآية.

وهم أصناف من البشر في كل زمان ومكان:

١- منهم: مَنْ يَتَرَبَّصُ بِنَا الدَّوَائِرِ، وَيُوَدُّ لَنَا الْعَنْتَ، والتخلي عن ديننا، وهؤلاء يقول الله تعالى عنهم: ﴿فَلَا تَتَّخِذُوا مِنْهُمْ أَوْلِيَاءَ حَتَّىٰ يُهَاجِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَخُذُوهُمْ وَأَقْتُلُوهُمْ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ﴾.

٢- ومن الناس من يلجأ إلى قوم بيتنا وبينهم عهد وميثاق ليحتموا فيهم، فهؤلاء نسالمهم ولا نقاتلهم، لأنهم اتصلوا بمن لهم عقد أمان معنا، ﴿إِلَّا الَّذِينَ يَصِلُونَ إِلَى قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ مِيثَاقٌ﴾.

٣- ومنهم: قومٌ مُحايدون، ليسوا معنا ولا ضدنا، وهؤلاء علينا أن نسالمهم ﴿فَإِنْ أَعْرَضُوا عَنْكُمْ فَلَمْ يَقْتُلُواكُمْ وَأَلْقَوْا إِلَيْكُمُ السَّلَامَ فَمَا جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ عَلَيْهِمْ سَبِيلًا﴾.

٤- ومنهم: قوم مُداهنون، يُجيدون التعامل على الوجهين، فإذا أُتيحت لهم فرصة؛ انتهزوها، وهؤلاء ينبغي أن نكون معهم صارمين، فإذا بدت عداوتهم فلا معنى للسكوت عليهم، لا لعدم دخولهم في الإسلام، بل لأنهم عقبه في طريق الدَّعْوَةِ ﴿سَتَجِدُونَ ءَاخِرِينَ يُرِيدُونَ أَنْ يَأْمَنُوكُمْ وَيَأْمَنُوا قَوْمَهُمْ كُلٌّ مَا رَدُّوا إِلَى الْفِتْنَةِ أُرْكِسُوا فِيهَا فَإِنْ لَمْ يَعْرِضُوا عَنْكُمْ فَلْيُكْفَرُوا أَيْدِيَهُمْ فَاذْكُوهُمْ وَأَقْتُلُوهُمْ حَيْثُ تَقِفْتُمُوهُمْ﴾ والإسلام لا يُكره أحداً على الدخول فيه، ولا يُكره أن يكون على الحياد صادقاً شريفاً، وإنما الذي يرفضه هو العدوان الصريح أو الماكر على نحو ما قيل: لست بالخُبِّ ولا الخُبُّ يخدعني^(١).

وهذا في علاقة المسلمين مع غيرهم من أهل الكُفر والرَّذَّة، أما علاقة المسلمين بعضهم ببعض، مهما تباعدت الديار، واختلفت الألسنة والألوان، فلا قتل ولا قتال، إلا في حدٍّ أو قصاص.

(١) من حديث زيد بن ثابت، وهو الصحيح المسند في نزول الآية، وغير ضعيف.

فالمسلم لا يقتل المسلم أبداً إلا أن يكون من باب الخطأ، وفيه الذية والكفارة، أما القتل العمد فلا كفارة له؛ لأنه فوق الحدود، ووراء الحسابان.

حُكْمُ الْقَتْلِ الْخَطَا بِالنِّسْبَةِ لِلْمُسْلِمِ وَالْمُعَاهِدِ وَالْعَدُوِّ

٩٢- ﴿وَمَا كَانَ لِلْمُؤْمِنِ أَنْ يَقْتُلَ مُؤْمِنًا إِلَّا خَطَاً وَمَنْ قَتَلَ مُؤْمِنًا خَطَاً فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُؤْمِنَةٍ وَدِيَّةٌ مُسْلَمَةٌ إِلَىٰ أَهْلِهِ إِلَّا أَنْ يَصَدَّقُوا فَإِنْ كَانِ مِنْ قَوْمٍ عَدُوٍّ لَكُمْ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُؤْمِنَةٍ وَإِنْ كَانَ مِنْ قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَاقٌ فَدِيَّةٌ مُسْلَمَةٌ إِلَىٰ أَهْلِهِ وَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُؤْمِنَةٍ فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ تَوْبَةً مِّنَ اللَّهِ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿٩٢﴾﴾

أي أن الإيمان الصحيح يمنع المؤمن من قتل أخيه عمداً، لأن هذا لا يصدر إلا من كافر أو فاسق ناقص الإيمان نقصاً عظيماً، فالمؤمن لا يصدر منه قتل أخيه المؤمن بحال.

وبعد تحديد مُعاملة المسلمين لغيرهم في الآيات السابقة، ماذا لو قتل المؤمن أخاه خطأ؟ وكان قد وقع بالمدينة حادثه قتل خطأ، وحادثه قتل عمد، فجاءت هذه الآيات؛ لتبين حُكم الله تعالى في ذلك.

والمعنى: وما كان لمؤمن أن يقتل مؤمناً قتلاً متعمداً به الإرادة والقصد بحال من الأحوال. ثم استثنى سبحانه قتل الخطأ فقال: ﴿إِلَّا خَطَاً﴾ لأن المخطيء الذي لا يقصد القتل غير آثم، ولا مجتريء على ما حرم الله، ولكنه لما صدر منه فعلاً شنيعاً وإن لم يقصده، أوجب الإسلام عليه الدية.

فالمسلم لا يقتل المسلم بحالٍ من الأحوال إلا أن يقع ذلك عن طريق الخطأ، كأن يُقاتل المسلمون أعداءهم، ويوجد مسلمٌ بين هؤلاء الأعداء لا يعرفه المسلمون، فيقتل خطأً.

وكما في حوادث السيارات، ما لم يكن فيها إهمالٌ أو سُكْرٌ أو تهوُّرٌ ونحو ذلك، وكما لو ضرب الإنسان أخاه بيده أو بعصا ليس من شأنها أن تُفضي إلى الموت؛ فمات، كما حدث من موسى عليه السلام بالنسبة للقبطي، حيث ضربه موسى ضربة خفيفة بيده ليس من شأنها أن تقتل ﴿فَقَضَىٰ عَلَيْهِ قَالَ هَذَا مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ عَدُوٌّ مُّضِلٌّ مُّبِينٌ﴾ [القصص: ١٥].

وجملة ﴿وَمَا كَانَ لِلْمُؤْمِنِ أَنْ يَقْتُلَ مُؤْمِنًا﴾ جملة مستقلة عما بعدها، ليست للتشريع، وإنما هي مقدمة للتشريع الذي بعدها؛ بقصد تفتيح حال قتل المؤمن خطأً.

سبب النزول:

ومن الجائز أن تكون آية القتل الخطأ قد نزلت في (عياش بن أبي ربيعة المخزومي)، وهو رجل كان قد أسلم في مكة سرًا قبل الهجرة، وخاف على نفسه؛ فهاجر إلى المدينة، وتحصن في حصن من حصونها، وعياش هذا أخ لأبي جهل من أمه، وأخ للحارث بن هشام، شقيق أبي جهل، قالت أمه لأبي جهل وأخيه هشام: والله لا أستظل بظل، ولا أذوق طعامًا ولا أشرب شرابًا حتى تأتيا بي بعياش.

فخرج أبو جهل وأخوه، وخرج معهما (الحارث بن زيد بن أنيسة) للبحث عن عياش، فوجدوه في المدينة في حصنه، قالوا له: إن محمدًا يأمرُك بصلة الرحم، فارجع وصل أمك وأبق على دينك، فإنها قد أقسمت ألا يظلمها بيت حتى تراك، فلن نتعرض لك بسوء، فنزل معهما، ولمّا اقتربوا من مكة أوثقوه من يديه ورجليه، وجلده أبو جهل مئة جلدة، وجلده الحارث بن زيد مئة جلدة.

وقالوا له: لن نحل وثاقك حتى تكفر بالذي آمنت به، فقال عياش: هذا أخي أبو جهل ضربني، فمن أنت؟ والله لئن ظفرت بك خاليًا لأقتلنك، ومضى الوقت إلى يوم الفتح حيث أسلم الحارث، وخرج إلى المدينة مهاجرًا، ولقيه عياش بقاء فقتله، وهو لا يعلم أنه قد أسلم، ثم علم بعد ذلك أنه قد أسلم، فذهب إلى النبي ﷺ يُخبره بالحادثة؛ فنزلت الآية^(١).

فأمره الرسول ﷺ أن يكفر عن قتله هذا، فهو من باب القتل الخطأ؛ لأنه لم يكن يعلم بإسلامه، فأمره أن يعتق رقبة، ولم يأمره بإخراج الدية؛ لأنه من قوم مشركين محاربين، فالمسلم لا يقتل المسلم أبدًا إلا إذا حدث ذلك من باب الخطأ كهذه الحادثة.

٢- وجاء هذا السبب مختصرًا عن محمد بن إسحاق، عن عبد الرحمن بن القاسم، عن أبيه: أن (الحارث بن زيد)، كان شديدًا على النبي ﷺ، فجاءه وهو يُريد الإسلام، فلقيه (عياش بن أبي ربيعة)، والحارث يُريد الإسلام، وعياش لا يشعر، فقتله؛ فأنزل الله الآية^(٢).

(١) ابن جرير (٣٣ / ٩) وفيه انقطاع في السند، وقد ذكره ابن المنذر (٢١٠٧) وابن أبي حاتم (٥٧٨١) وذكره الواحدي في «أسباب النزول» ص ١٤٤ والسيوطي (٨٣) وابن الجوزي في «زاد المسير» (٢ / ١٦١).

(٢) «سنن البيهقي» (٨ / ٧٢).

٣- وقال ابن عطية: نزلت في اليمان، والد حذيفة، وكان المسلمون قد قَتَلُوهُ خطأ يومَ أحد^(١).

٤- وفي رواية للطبري: أنها نزلت في أحد الصَّحَابَةِ؛ قيل: هو أبو الدرداء، وقيل: أسامة بن زيد، كان في سَرِيَةٍ، فوجد رجلاً في غَنَمٍ له، فحمل عليه بالسيف، فقال الرَّجُلُ: لا إله إلا الله، فضربه فقتله، وجاء بغنمه إلى السَّرِيَةِ، ثم وجد في نفسه شيئاً، فجاء إلى النَّبِيِّ ﷺ، وذكر له ذلك؛ فقال له النَّبِيُّ ﷺ: «هلا شققت عن قلبه»؛ ونزلت الآية^(٢).

والآية وإن كانت قد نزلت في حادثة معينة، إلا أن حُكْمَهَا يتناول كلَّ مؤمنٍ قَتَلَ أخاه خطأ؛ لأن العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب.

وهذه جملة من الأحاديث ترهب من قتل النفس:

صح عن رسول الله ﷺ أنه قال: «إِنْ أَوَّلَ مَا يُحَاسِبُ عَلَيْهِ الْمَرْءُ مِنْ حَقِّقِ اللَّهِ تَعَالَى الصَّلَاةَ فَإِنْ كَانَ أَتَمَّهَا كَتَبَتْ لَهُ تَامَةً، وَإِنْ لَمْ يَكُنْ أَتَمَّهَا يَقُولُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ هَلْ تَجِدُونَ لِعَبْدِي مِنْ تَطَوُّعٍ فَتَكْمَلُوا بِهَا فَرِيضَتَهُ..»^(٣)؛ لأنها أعظم حقٍّ لله ﷻ.

١- وصحَّ عن رسول الله ﷺ فيما يرويه عبد الله بن مسعود ؓ: «أَوَّلُ مَا يُقْضَى بَيْنَ النَّاسِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِي الدِّمَاءِ»^(٤).

وهذا من حقوق العباد؛ لأن جريمةَ القتل أعظم حقٍّ للعبد على أخيه.

٢- وقد بيَّن النَّبِيُّ ﷺ فيما يرويه عبد الله بن عمرو ؓ: «لَزَوَالِ الدُّنْيَا أَهْوَنُ عِنْدَ اللَّهِ

(١) «تفسير ابن عطية» (٢/ ٩٢).

(٢) «تفسير الطبري» (٩/ ٣٤) وابن أبي حاتم (٥٧٩٦، ٥٧٩٨).

(٣) من حديث تميم الداري في المسند (١٦٩٥٤) (١٦٦١٤، ١٦٩٤٩). إسناده صحيح، رجاله ثقات رجال الصحيح، كما قال محققوه، وأخرجه الطحاوي في شرح مشكل الآثار (٢٥٥٢) والحاكم (٢٦٣/١) والنسائي في المجتبى (١/ ٢٣٣).

(٤) أخرجه الشيخان عن ابن مسعود، البخاري برقم (٦٨٦٤) ومسلم برقم (١٦٧٨) وابن أبي شيبة (٩/ ٤٢٦) والترمذي (١٣٩٦) والنسائي (٤٠٠٢) وابن ماجه (٢٦١٥).

تعالى من قَتَلَ مؤمِنٍ بغيرِ حقٍّ»^(١).

٣- وعن أبي سعيد وأبي هريرة رضي الله عنهما أن النبي ﷺ قال: «لو أن أهل السموات والأرض اشتركوا في دم مؤمنٍ؛ لأَكْبَهُم الله في النار»^(٢).

٤- وقد حرَّم الإسلامُ قَتَلَ النفس، ويُنَّ عليه الصَّلَاة والسلام أن: «مَنْ قَتَلَ نفسه بشيءٍ في الدنيا عُدَّ بِه يوم القيامة»^(٣)، وحرَّم الإسلام الاعتداء على الجنين في بطن أمه.

٥- وصحَّ عن أبي هريرة رضي الله عنه أنه قال: اقتلت امرأتان من هُذَيْل، فرمَتْ إحداهما الأخرى بِحَجَرٍ فقتلتها وما في بطنها، فاخصموا إلى رسول الله ﷺ فقضى أن دية جنيها غُرَّة عَبْد أو وليدة، وقضى بدية المرأة على عاقلتها^(٤).

٦- وكفل الإسلام الحياة للمسلم ولغير المسلم ممَّن لا يحاربون المسلمين، فقد صحَّ عن عبد الله بن عمرو رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ أنه قال: «مَنْ قَتَلَ معاهدًا لم يَرَحْ رائحة الجنة، وإن ريحها توجد من مسيرة أربعين عامًا»^(٥).

٧- وعن أبي بكرة رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «رِيحُ الجنة تُوجد من مسيرة مائة عام، وما من عبد يَقتل نفسًا معاهدة إلا حرَّم الله عليه الجنة ورائحتها أن يجدها»^(٦).

(١) «سنن ابن ماجه» كتاب الديات، الحديث (٨٧٤ / ٢) (٢٦١٩) من حديث البراء، ورواه النسائي في «السنن» (٨٢ / ٧) (٣٩٩٨) والترمذي برقم (١٣٩٥) من حديث عبد الله بن عمرو، وهو حديث صحيح، قال البوصيري: هذا إسناد صحيح، ورجاله ثقات، وصححه الألباني في «صحيح ابن ماجه» (٩٢ / ١) و«صحيح سنن النسائي» (٣٧٢١).

(٢) رواه الترمذي من حديث أبي سعيد وأبي هريرة (٦٥٤ / ٤) (١٣٩٨) ورواه الطبراني في «المعجم الصغير» برقم (٥٦٥) عن أبي بكرة، وقد صححه الألباني في «صحيح سنن الترمذي» (١١٢٨) وهو في «صحيح سنن ابن ماجه» (٢١٢١) عن البراء بن عازب.

(٣) من حديث ثابت بن الضحاك في «المسند» (١٦٣٨٥، ١٦٣٨٦) بإسناد صحيح على شرط الشيخين، والحديث في صحيح مسلم (١١٠، ١٧٧) وصحيح البخاري (١٣٦٣) والترمذي (١٥٢٧) وغيرهم.

(٤) «صحيح البخاري» برقم (٦٩١٠) و«صحيح مسلم» برقم (١٦٨١).

(٥) من حديث عبد الله بن عمرو في البخاري برقم (٣١٦٦، ٦٩١٤) وابن أبي شيبة (٤٢٦ / ٩) وابن ماجه (٢٦٨٦) والحاكم (١٢٦ / ٢).

(٦) «صحيح سنن النسائي» (٤٤٢٢ - ٤٤٢٥) بمعناه، وهو في صحيح الجامع (٦٤٥٦ - ٦٤٤٨) وصحيح ابن ماجه (٢١٧٥) وغاية المرام (٤٤٩) وابن أبي شيبة (٤٢٥ / ٩) والحاكم (١٢٦ / ٢).

٨- وفي حديث أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «أَلَا مَنْ قَتَلَ مَعَاهِدًا لَهُ ذِمَّةُ اللَّهِ، وَذِمَّةُ رَسُولِهِ، فَقَدْ أَخْضَرَ بِذِمَّةِ اللَّهِ، وَلَا يُرَحَّ رِيحُ الْجَنَّةِ، وَإِنْ رِيحُهَا لِيُوجَدَ مِنْ مَسِيرَةِ سَبْعِينَ خَرِيفًا»^(١).

٩- وفي الحديث عن عدد من الصحابة، منهم عبدالله بن عمر رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «لَا تَرْجِعُوا بَعْدِي كَفَارًا يَضْرِبُ بَعْضُكُمْ رِقَابَ بَعْضٍ»^(٢).

١٠- وقد بَيَّنَّ النَّبِيُّ ﷺ أَنْ حُكْمَ الْإِعْدَامِ فِي الْإِسْلَامِ يَخْتَصُّ بِثَلَاثَةِ أَحْوَالٍ، فَالْمُسْلِمُ لَا يُقْتَلُ إِلَّا فِي هَذِهِ الْأَحْوَالِ الثَّلَاثَةِ؛ فَعَنْ ابْنِ مَسْعُودٍ رضي الله عنه أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: «لَا يَحِلُّ دَمُ امْرِئٍ مُسْلِمٍ إِلَّا بِأَحَدٍ ثَلَاثٍ؛ النَّفْسُ بِالنَّفْسِ، وَالثِّبُّ الزَّانِي، وَالتَّارِكُ لِدِينِهِ الْمَفَارِقُ لِلْجَمَاعَةِ»^(٣)؛ أَيْ: الَّذِي دَخَلَ فِي الْإِسْلَامِ ثُمَّ خَرَجَ مِنْهُ مَرْتَدًّا.

١١- وَقَدْ عَظَّمَ اللَّهُ تَعَالَى أَمْرَ قَتْلِ الْمُسْلِمِ لِأَخِيهِ، وَجَعَلَهُ فِي إِطَارِ مَا لَا يَكُونُ إِلَّا بِصِغَةِ الْجُحُودِ، وَالْمُبَالَغَةِ فِي النَّفْيِ؛ ذَلِكَ لِأَنَّ الْمُؤْمِنَ إِذَا قَتَلَ أَخَاهُ الْمُؤْمِنَ، فَقَدْ سَلَبَ عَنْهُ الْإِيمَانَ، كَمَا جَاءَ فِي الْحَدِيثِ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: «لَا يَزْنِي الزَّانِي حِينَ يَزْنِي وَهُوَ مُؤْمِنٌ، وَلَا يَسْرِقُ السَّارِقُ حِينَ يَسْرِقُ وَهُوَ مُؤْمِنٌ، وَلَا يَشْرِبُ الْخَمْرَ حِينَ يَشْرِبُهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ»^(٤)؛ إِذْ إِنَّهُ لَوْ كَانَ مُؤْمِنًا لِحِظَةِ ارْتِكَابِهِ لِمِثْلِ هَذِهِ الْجَرَائِمِ لَمَنَعَهُ إِيْمَانُهُ، وَحَالَ بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْقَتْلِ، أَمَا وَقَدْ وَقَعَ فِيهَا فَقَدْ ارْتَفَعَ عَنْهُ الْإِيمَانُ حَالَ ارْتِكَابِهِ لَهَا.

١٢- عَنْ ابْنِ مَسْعُودٍ رضي الله عنه أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «سَبَابُ الْمُسْلِمِ فَسُوقٌ وَقِتَالُهُ كُفْرٌ»^(٥).

١٣- وَعَنْ ابْنِ عُمَرَ رضي الله عنه قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «لَا يَزَالُ الْمُؤْمِنُ فِي فُسْحَةٍ مِنْ دِينِهِ، مَا لَمْ يُصِْبْ دَمًا حَرَامًا»^(٦).

(١) «صحيح سنن الترمذي» (١١٣٢) والحاكم (٢/ ١٢٧). و صحيح سنن ابن ماجه (٢٦٨٧).

(٢) من حديث عبدالله بن عمر في البخاري (٦١٦٦) ومسلم (٦٦) وأبو داود (٤٦٨٦) والمسند (٥٥٧٨) وابن أبي شيبة (٣٠/ ١٥) وروى من عدة طرق.

(٣) أخرجه الشيخان من حديث ابن مسعود، في البخاري برقم (٦٨٧٨) وفي مسلم برقم (١٦٧٦).

(٤) من حديث أبي هريرة في مسلم (٥٧) والبخاري (٢٤٧٥، ٥٥٧٨، ٦٧٧٢، ٦٨١٠).

(٥) «صحيح البخاري» برقم (٤٨، ٦٠٤٤) و«صحيح مسلم» (١/ ٨١) كتاب الإيمان برقم (٦٤).

(٦) «صحيح البخاري» برقم (٦٨٦٢، ٦٨٦٣).

١٤- وأخرج البخاري وغيره بسنده عن الأحنف بن قيس قال: ذهبْتُ لأنصر هذا الرَّجُل، فلقيني أبو بكر، فقال: أين تريد؟ قلت: أنصر هذا الرَّجُل، قال: ارجع، فإني سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: «إذا التقى المسلمان بسيفيهما فالقاتل والمقتول في النار»، قلت: يا رسول الله، هذا القاتل، فما بال المقتول؟ قال: «إنه كان حريصًا على قتل صاحبه»^(١).

وفي لفظ مسلم: «إذا تواجه المسلمان بسيفيهما» وعنده الأحنف، قال: قلت: أريد نَصْرَ ابن عم رسول الله ﷺ يعني: عليًّا^(٢).

ومن القتل الخطأ ما جاء في هذه الآية، وما فيها من معرفة ما على القاتل خطأ من كفارة.

والقتل الخطأ له ثلاث حالات

الأولى: المقتول مؤمن، وأهله مؤمنون.

الثانية: المقتول مؤمن، وأهله أعداء محاربون.

الثالثة: المقتول مؤمن أو ذمي، وأهله ذميون معاهدون.

الحالة الأولى: كفارة قتل المؤمن خطأ، وهو من قوم مؤمنين:

وقد جاء ذلك في قوله تعالى: ﴿وَمَنْ قَتَلَ مُؤْمِنًا خَطَاً فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُؤْمِنَةٍ وَدِيَةٌ مُسْلَمَةٌ إِلَىٰ أَهْلِهَا إِلَّا أَنْ يَصَّدَّقُوا﴾

المقتول مؤمن، وهو من قوم مؤمنين، وهم في ديار الإسلام، فكفارته أمران:

الأمر الأول: تحرير رقبة؛ أي: عتق رقبة من الرِّقِّ، وهذا العتق فيه تعويضٌ للمجتمع المسلم عن المقتول الذي افتقده، فهو يُعوضه برقيق يَخرج إلى الحياة حرًّا ﴿وَمَنْ قَتَلَ مُؤْمِنًا خَطَاً فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُؤْمِنَةٍ﴾ وكأن الرِّقَّ مَوْتُ، وتحرير الرقيق حياة.

سواء كان القاتل ذكراً أو أنثى، صغيراً، أو كبيراً، حرّاً أو عبداً، عاقلاً أو مجنوناً، مسلماً أو كافراً، كما يفيد لفظ (وَمَنْ) الدالة على العموم، وسواء كان المقتول ذكراً أو

(١) «صحيح البخاري» برقم (٣١، ٦٨٧٥) «صحيح مسلم» (٢٨٨٨).

(٢) «صحيح البخاري» (٦٨٧٥) «صحيح مسلم» برقم (٢٨٨٨).

أنثى، صغيراً أو كبيراً، كما يفيد التذكير في سياق الشرط.

ويشترط في هذه الرقبة أن تكون مؤمنة، سواء أكانت ذكراً أو أنثى، صغيرة أم كبيرة.

فقد جاء رجلٌ من الأنصار بأمة سوداء فقال للنبي ﷺ: عليّ عتق رقبة مؤمنة، فإن كنت ترى هذه مؤمنة أعتقها؟ فقال ﷺ: «أتشهدين أن لا إله إلا الله؟» قالت: نعم، قال: «أتشهدين أني رسول الله؟» قالت: نعم، قال: «أتؤمنين بالبعث بعد الموت؟» قالت: نعم، قال: «اعتقها فإنها مؤمنة»^(١).

وجاء معاوية بن الحكم السلمي بجارية سوداء، وكان قد لطمها، وأراد أن يعتقها بعد أن استعظم ذلك، فقال لها النبي ﷺ: «أين الله؟» قالت: في السماء، قال: «من أنا؟» قالت: أنت رسول الله، قال: «اعتقها فإنها مؤمنة»^(٢).

فإن لم يوجد الرقيق، تنتقل الكفارة إلى البديل وهو الصيام.

والأمر الثاني: دية مسلمة إلى أهله، وهم ورثته، جبراً لخاطرهم، وقد بينت السنة أن هذه الدية مئة من الإبل أو مقدارها، على تفصيل في ذلك، تُسلم لأهله، فيقتسمونها كما يُقسم الميراث بين الورثة، لا فرق بينها وبين سائر التركة ﴿وَدِيَّةٌ مُسْلَمَةٌ إِلَى أَهْلِهِ﴾ أي: فعلى قاتله الدية تُدفع إلى أهله إلا أن يتصدق بها، وعليه أيضاً عتق رقبة مؤمنة.

الدية في الجاهلية والإسلام:

والدية كانت معروفة عند العرب بمعناها ومقاديرها، وكانت دية المليك عندهم ألفاً من الإبل، ودية السادة مئتين من الإبل، ودية الحليف على النصف من دية غيره.

(١) «المسند» (٣/ ٤٥) بسند صحيح ورجال ثقات رجال الشيخين غير صحابية، (محققوه) ورقمه (١٥٧٤٣) و (٧٩٠٦) وعبد الرزاق في المصنف (١٦٨١٤)، ومالك في الموطأ (٧٧٧/٢) والبيهقي في السنن (١٠/ ٥٧) وابن عبد البر في التمهيد (٩/ ١١٤).

(٢) «الموطأ» (٢/ ٧٧٧) و«المسند» (٥/ ٤٤٧) برقم (٢٣٧٦٢، ٢٣٧٦٧) قال محققوه: إسناده صحيح على شرط مسلم ورجاله ثقات رجال الشيخين غير صحابية و«صحيح مسلم» برقم (٥٣٧) وأبو داود برقم (٩٣٠، ٢٣٨٢) و«سنن النسائي» (٣/ ١٤) (١٢١٧) والبيهقي في «الأسماء والصفات» (٨٩٠) وابن خزيمة (٨٥٩).

وأول مَنْ دُفِعَتْ فِيهِ دِيَّةُ الْإِبْلِ (زيد بن بكر بن هوازن)، حين قَتَلَهُ أَخُوهُ مُعَاوِيَةَ .

وأول مَنْ جَعَلَ الدِّيَّةَ مِثَّةً مِنَ الْإِبْلِ (عبد المطلب بن هاشم)، حين فَدَى وَلَدَهُ (عبد الله) بِمِثَّةٍ مِنَ الْإِبْلِ، وَكَانَ قَدْ نَذَرَ أَنْ يَذْبَحَهُ عِنْدَ الْكَعْبَةِ، وَسَارَتْ قَرِيشٌ عَلَى هَذَا، وَتَبِعَهُمُ الْعَرَبُ، وَلَمَّا جَاءَ الْإِسْلَامُ أَقَرَّ هَذِهِ الدِّيَّةَ .

عن جابر بن عبد الله رضي الله عنه أَنَّ النَّبِيَّ صلى الله عليه وسلم قَضَى فِي الدِّيَّةِ عَلَى أَهْلِ الْإِبْلِ مِثَّةً مِنَ الْإِبْلِ، وَعَلَى أَهْلِ الْبَقَرِ مِثَّتَيْ بَقَرَةٍ، وَعَلَى أَهْلِ الشَّاةِ أَلْفِي شَاةٍ، وَعَلَى أَهْلِ الْحُلَلِ مِثَّتَيْ حُلَّةٍ، وَعَلَى أَهْلِ الْقَمْحِ شَيْئًا لَمْ يَحْفَظْهُ مُحَمَّدُ بْنُ إِسْحَاقَ ^(١) .

وعن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جَدِّهِ قَالَ: كَانَتْ قِيَمَةُ الدِّيَّةِ عَلَى عَهْدِ رَسُولِ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم ثَمَانِ مِثَّةٍ دِينَارًا، أَوْ ثَمَانِيَةِ آلَافِ دِرْهَمًا، وَدِيَّةُ أَهْلِ الْكِتَابِ عَلَى النِّصْفِ مِنْ دِيَّةِ الْمُسْلِمِينَ، وَكَانَ ذَلِكَ حَتَّى اسْتُخْلِفَ عُمَرُ، فَقَامَ خُطْبِيًّا فَقَالَ: إِنْ الْإِبْلُ قَدْ غَلَّتْ، فَفَرْضُهَا عَمْرٌ عَلَى أَهْلِ الذَّهَبِ أَلْفُ دِينَارٍ، وَعَلَى أَهْلِ الْوَرِقِ -الْفُضَّةِ- اثْنِي عَشَرَ أَلْفًا، وَعَلَى أَهْلِ الْبَقَرِ مِثَّتَيْ بَقَرَةٍ، وَعَلَى أَهْلِ الشَّيْءِ أَلْفِي شَاةٍ، وَعَلَى أَهْلِ الْحُلَلِ مِثَّتَيْ حُلَّةٍ، وَتَرَكَ أَهْلَ الذِّمَّةِ لَمْ يَرْفَعْهَا فِيمَا رَفَعَ مِنَ الدِّيَّةِ ^(٢) .

وهذا إِذَا كَانَتْ حَالَةُ الْقَتْلِ فِي بَيْتَةِ ذَاتِ مَرْعَى وَإِبِلٍ وَأَغْنَامٍ، وَإِلَّا قُدِّرَتْ قِيَمَتُهَا نَقُودًا، وَهَذَا يَخْتَلِفُ بِاخْتِلَافِ الْعُصُورِ وَالْأَقْطَارِ .

وَمِنَ الْعَجَبِ أَنْ نَرَى فِي هَذَا الْعَصْرِ دِيَّةَ الْأَوْرَبِيِّ وَالْأَمْرِيكِيِّ تَفُوقُ دِيَّةَ الْعَرَبِيِّ بِأَضْعَافٍ مُضَاعَفَةٍ، وَكَأَنَّهُمْ خُلِقُوا مِنْ مَادَّةٍ أُخْرَى، وَكَأَنَّ أَصْلَهُمْ لَيْسَ مِنْ آدَمَ وَحَوَاءَ، وَكَأَنَّ الْجِنْسَ أَوِ اللَّوْنِ أَوْ مَنْ يَدِينُ بَغَيْرِ الْإِسْلَامِ لَهُ مِيزَةٌ خَاصَّةٌ!!

دِيَّةُ الْمَرْأَةِ: وَدِيَّةُ الْمَرْأَةِ كَذَلِكَ عَلَى النِّصْفِ مِنْ دِيَّةِ الرَّجُلِ عِنْدَ الْجُمْهُورِ، وَهِيَ مِثْلُهُ تَمَامًا عِنْدَ أَبِي حَنِيفَةَ .

(١) أخرج هذا الأثر أبو داود بسند ضعيف كما في «ضعيف سنن أبي داود» (٩٨٣).

(٢) «صحيح سنن أبي داود» (٣٨٠٦) وهو حديث حسن، وفي سننه (٤٥٤٢) وهو في: «إرواء الغليل» (٧/

٣٠٧). (٢٢٤٧) ومشكاة المصابيح (٣٤٩٨)

حكم الدين حكم الميراث:

فُيُخْرَجُ مِنْهَا أَوَّلًا الْوَصِيَّةُ وَالَّذِينَ حَسَبَ قَوَاعِدِ الْمِيرَاثِ الْعَامَةِ ﴿مِنْ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصِي بِهَا أَوْ دَيْنٍ﴾ [النساء: ١١] وَلَهُمْ أَنْ يَتَصَدَّقُوا بِالْذِّيَّةِ أَوْ يَتَنَازَلُوا عَنْهَا وَلَا يَطْلُبُوهَا، وَهَذَا مَعْنَى ﴿إِلَّا أَنْ يَصَّدَّقُوا﴾ أَيِ إِلَّا أَنْ يَتَصَدَّقَ وَرَثَةُ الْقَتِيلِ بِالْعَفْوِ عَنِ الذِّيَّةِ فَإِنَّهَا تَسْقُطُ، وَفِي ذَلِكَ حَثٌ لَهُمْ عَلَى الْعَفْوِ، لِأَنَّ اللَّهَ تَعَالَى سَمَّاها صَدَقَةً.

هذه هي الحالة الأولى في الآية، وهي إذا كان المقتول مؤمنًا، وهو من قوم مؤمنين.

الحالة الثانية: كفارة قتل المؤمن خطأ وهو من قوم محاربين

وَقَدْ جَاءَ ذَلِكَ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَإِنْ كَانَتْ مِنْ قَوْمٍ عَدُوٍّ لَكُمْ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُؤْمِنَةٍ﴾ أَيِ إِنْ كَانَ الْمَقْتُولُ مُؤْمِنًا، وَهُوَ مِنْ قَوْمٍ كُفَّارٍ، أَعْدَاءُ، مُحَارِبِينَ لِلْإِسْلَامِ، سِوَاءِ أَكَانَ هَذَا الْمُؤْمِنُ الْمَقْتُولُ، يُقِيمُ بَيْنَ قَوْمِهِ الْكُفَّارِ، أَمْ يُقِيمُ فِي دِيَارِ الْإِسْلَامِ، قَالَ تَعَالَى: ﴿فَإِنْ كَانَتْ مِنْ قَوْمٍ عَدُوٍّ لَكُمْ وَهُوَ مُؤْمِنٌ﴾ أَيِ: إِنْ كَانَ الْمَقْتُولُ مُؤْمِنًا وَقَوْمُهُ كُفَّارًا، فَلَيْسَ لَهُ ذِيَّةٌ، وَلَكِنْ عَلَى عَاقِلَةِ الْقَاتِلِ تَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُؤْمِنَةٍ، أَيِ فَكْفَارَتُهُ أَمْرٌ وَاحِدٌ هُوَ عَتَقُ الرَقَبَةِ. وَهَذَا مَعْنَى ﴿فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُؤْمِنَةٍ﴾ صَغِيرَةٍ أَوْ كَبِيرَةٍ، ذَكَرَ أَوْ أُنْثَى.

وَالرَّقَبَةُ الْكَافِرَةُ لَا تَجْزِي؛ إِذِ الْمُرَادُ تَحْرِيرُ الرَّقَبَةِ الْمُؤْمِنَةِ دُونَ الْكَافِرَةِ.

فَلَيْسَ هُنَاكَ ذِيَّةٌ فِي هَذِهِ الْحَالَةِ تُعْطَى لِأَهْلِهِ؛ لِأَنَّهُمْ أَعْدَاءُ مُحَارِبُونَ، فَلَا تُدْفَعُ لَهُمْ ذِيَّةٌ؛ لِأَنَّهُمْ لَيْسُوا مُسْلِمِينَ، وَحَتَّى لَا يَتَّقَوْا بِهَذِهِ الْأَمْوَالِ عَلَى الْمُسْلِمِينَ، وَيَحَارِبُوهُمْ بِهَا، وَهَذِهِ الْحَالَةُ كَحَالَةِ عِيَّاشِ الَّذِي نَزَلَتْ فِيهِ الْآيَةُ.

أَخْرَجَ الطَّبْرِيُّ وَابْنُ أَبِي حَاتِمٍ بِسَنَدٍ حَسَنٍ عَنْ عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَلْحَةَ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ: فَإِنْ كَانَ مِنْ أَهْلِ الْحَرْبِ، وَهُوَ مُؤْمِنٌ، فَقَتَلَهُ خَطَأً، فَعَلَى قَاتِلِهِ أَنْ يُكْفِّرَ بِتَحْرِيرِ رَقَبَةٍ مُؤْمِنَةٍ، أَوْ صِيَامِ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعِينَ، وَلَا ذِيَّةَ عَلَيْهِ، قَالَ تَعَالَى: ﴿مَنْ قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا﴾ [المائدة: ٣٢].

الحالة الثالثة: كفارة قتل المؤمن أو الذمي المستأمن أهله:

وَقَدْ جَاءَ ذَلِكَ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَإِنْ كَانَ مِنْ قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ مِيثَاقٌ فَذِيَّةٌ

مُسْلَمَةً إِلَىٰ أَهْلِهِ. وَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةً ﴿٩٢﴾

وهذا كالحالة الأولى تمامًا؛ وهي ما إذا كان المقتول مؤمنًا، أو ذميًا، وقومُه معاهدون مستأمنون، والآية قد أطلقت، ولم تُحدِّد المراد: هل هو مؤمن أم ذمي؟ فالأولى حملُها عليهما معًا.

وفي الحالة الأولى حُكم المؤمن من قوم مؤمنين، وفي هذه الحالة حُكم مؤمنٍ من قوم غير مؤمنين، ولكنهم أهل ذمة وأمان، فهذا يختلف عن الأول بالنسبة إلى أهل كل منهما. أخرج الطبري وابن أبي حاتم بسند حسن عن علي بن أبي طلحة عن ابن عباس قال: وإذا كان كافرًا في دِمَّتِكُمْ قَتِلَ، فعلى قاتله الدية مسلَّمة إلى أهله، وتحريرُ رقبة مؤمنة، أو صيام شهرين متتابعين، ويؤخذ من هذا أن المراد بصاحب هذه الحالة هو المعاهد الذمي، وليس المؤمن.

﴿وَإِنْ كَانَتْ﴾ المقتول مؤمنًا، وهو ﴿مِنْ قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ مِيثَاقٌ﴾ أي: بينكم وبينهم عهدٌ وذمةٌ وميثاق، كما يحدث بين الدول في وقتنا، وذلك مثل غير المسلمين في ديار المسلمين يُقيمون بينهم، ولهم عقدٌ وعهدٌ وذمةٌ، فكفارته ككفارة المؤمن الذي هو من قوم مؤمنين ﴿فَدِيَةٌ مُّسْلَمَةٌ إِلَىٰ أَهْلِهِ. وَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ﴾ كما سبق بيانه في الحالة الأولى، دية تسلم إلى أهله وتحرير رقبة مؤمنة، لأن أهله لهم عهد وميثاق، فيعاملون معاملة المسلمين، وليسوا أعداء محاربين.

دية الكتابي: والإسلام يُقرر أن دية الكتابي (اليهودي أو النصراني) الذمي نصف دية المسلم؛ لما جاء عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده أن النبي ﷺ قال: «دية المعاهد نصف دية المسلم»^(١)، وهذا قول الشافعي ومالك وأحمد.

وقال قومٌ: ديةُ الذمي كدية المسلم؛ أخذًا من ظاهر قوله تعالى: ﴿وَإِنْ كَانَتْ مِنْ قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ مِيثَاقٌ فَدِيَةٌ مُّسْلَمَةٌ إِلَىٰ أَهْلِهِ. وَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ﴾ وهو قول

(١) من حديث رواه أحمد بلفظ: (دية الكافر) عن عبد الله بن عمرو (٦٦٩٢، ٧٠١٢) حديث صحيح وإسناده حسن ورواه الترمذي (١٥٨٥) وحسنه الألباني في صحيح سننه (١١٤٢) والنسائي في المجتبى (٤٥/٨)، وابن ماجه (٢٦٤٤)، وهو حديث حسن وانظر البخاري (٢٢٩٤) ومسلم (٢٥٢٩) وغيرهم.

أصحاب الرأي؛ أبو حنيفة وأصحابه.

حكم من لم يجد عتق رقبة:

قال تعالى: ﴿فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ تَوْبَةً مِّنَ اللَّهِ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾.

﴿فَمَنْ لَمْ يَجِدْ﴾ الرقبة ولا ثمنها، بأن كان معسرًا ليس عنده ثمن الرقبة، بعد استيفاء حوائجه الأصلية له ولمن يعول، فالكلام يعود على تحرير الرقبة، لا على الدية؛ لأن الدية تجب على العاقلة؛ أي: على أسرة القاتل، تحملها عنه على طريق المواساة، وهم عصبته من غير الأصول والفروع، فإن لم يكن له عاقلة، أو كانوا فقراء، فعلى بيت المال.

وقد ثبت أن النبي ﷺ قضى بدية الخطأ على العاقلة؛ وهم عصبه الجاني من ذوي النسب.

وفي صحيح البخاري عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما قال: بعث رسول الله ﷺ خالد بن الوليد إلى بني جذيمة فدعاهم إلى الإسلام، فلم يُحسنوا أن يقولوا: أسلمنا، فجعلوا يقولون: صبأنا، صبأنا، فجعل خالد يقتلهم، فبلغ ذلك رسول الله ﷺ فرفع يديه وقال: «اللهم إني أبرأ إليك مما صنع خالد»^(١).

قال ابن اسحاق: وبعث عليًا، فودى قتلاهم، أي: دفع لهم الدية، وعوَّضهم عما أُلُف من أموالهم، حتى مِلَّغَة الكلب؛ أي: الإناء الذي يشرب فيه.

ويؤخذ منه أن خطأ الإمام أو نائبه يكون في بيت المال.

﴿فَمَنْ لَمْ يَجِدْ﴾ رقبة يعتقها ولا يجد ثمنها ﴿فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ﴾ لا يُفصل بينهما بإفطار، إلا الحائض والنفساء والمريض والمسافر ويوم العيدين، ففي ذلك خلاف بين الفقهاء، والصحيح أن هذه الأعذار لا تقطع التابع.

وهكذا حُكِم صيام شهرين متتابعين في كفارة الظَّهَارِ، وكفارة مَنْ جامع أهله في نهار رمضان، فإن أفطر يومًا متعمدًا لغير عذر، انقطع التابع واستأنف الصيام من جديد.

قال مُجاهد: لا يُفطرُ في الشهرين، ولا يُقَطَّعُ صيامهما، فإن فعل من غير مرضٍ ولا عُذر استقبل صيامهما جميعًا، فإن عرض له مرضٌ أو عُذرٌ صام ما بَقِيَ منهما، فإن مات

(١) البخاري، كتاب الأحكام (٩/ ٩١) برقم (٧١٨٩) وكتاب المغازي (٥/ ٢٠٣) برقم (٤٣٣٩).

ولم يَصُمْ أَطْعِمَ عَنْهُ مَسْكِينًا، لِكُلِّ مِسْكِينٍ مُدٌّ^(١)

أما إطعام ستين مسكينًا: فتكون في كَفَّارَةِ الظَّهَارِ، وَكَفَّارَةُ مَنْ جَامَعَ أَهْلَهُ فِي نَهَارِ رَمَضَانَ، إِنْ عَجَزَ عَنِ الصِّيَامِ؛ أَمَّا هَذِهِ الْآيَةُ، الَّتِي هِيَ فِي شَأْنِ الْقَتْلِ الْخَطَا، فَلَمْ تَذْكُرْ طَعَامًا عَوَضًا عَنِ الصِّيَامِ.

وَالْكَفَّارَةُ الْمَغْلُظَةُ: هِيَ عَتَقُ رَقَبَةٍ مُؤَمَّنَةٍ، تَجِبُ فِي مَالِ الْقَاتِلِ، سَوَاءَ أَكَانَ الْمَقْتُولُ مُسْلِمًا أَوْ مُعَاهِدًا، رَجُلًا أَوْ امْرَأَةً، حُرًّا أَوْ عَبْدًا، وَلَمْ يَذْكُرِ اللَّهُ تَعَالَى لِلصِّيَامِ بَدَلًا فِي كَفَّارَةِ قَتْلِ الْخَطَا، وَبِهَذَا قَالَ الْجُمْهُورُ، وَقَالَ الشَّافِعِيُّ: مَنْ لَا يَسْتَطِيعُ الصِّيَامَ يَجِبُ عَلَيْهِ إِطْعَامُ سِتِينَ مَسْكِينًا كَمَا فِي كَفَّارَةِ الظَّهَارِ.

أنواع القتل عند الفقهاء:

والقتل عند جمهور العلماء: إما أَنْ يَكُونَ عَمْدًا أَوْ خَطَا، وَزَادَ الشَّافِعِيُّ: شِبْهَ الْعَمْدِ، كَأَنْ يُضْرَبَ إِنْسَانٌ إِنْسَانًا آخَرَ بِشَيْءٍ لَا يُقْتَلُ بِهِ غَالِبًا، كَالْعَصَا الْخَفِيفَةِ، أَوْ حَجَرٍ صَغِيرٍ فَيَمُوتُ.

أما القتل الخطأ: فالقاتل فيه لَا يَقْصِدُ الْقَتْلَ أَصْلًا، بَلْ قَصَدَ شَيْئًا آخَرَ؛ هُوَ التَّأْدِيبُ أَوْ التَّهْدِيدُ أَوْ التَّخْوِيفُ، فَأَصَابَ الْمَقْتُولُ بِشَيْءٍ فَمَاتَ.

ومن ذلك حوادث السيارات والطائرات والسفن والعمليات الجراحية ونحوها.

والقتل العمد: هو أَنْ يَقْصِدَ قَتْلَهُ بِمَا يُقْتَلُ بِهِ غَالِبًا فَيَمُوتُ.

وبتشرع الإسلام للقصاص في القتل العمد، وَالْكَفَّارَةُ فِي الْقَتْلِ الْخَطَا، انْتَقَلَ بِالْعَرَبِ عَمَّا كَانُوا عَلَيْهِ فِي الْجَاهِلِيَّةِ نَقْلَةً كَبِيرَةً، حَيْثُ كَانَتْ الدَّمَاءُ تُرَاقُ لِأَتْفَةِ الْأَسْبَابِ.

كَمَا حَدَّثَ مِنْ عَمْرِو بْنِ هَنْدٍ حِينَ قَتَلَ مُضَيْفَهُ، وَأَشْعَلَ حَرْبًا؛ لِأَنَّ أُمَّ الْمُضَيْفِ طَلَبَتْ مِنْ أُمِّهِ أَنْ تَتَوَلَّاهَا وَعَاءً، فَصَرَخَتْ أُمُّ عَمْرِو: وَادَّلَاهُ.

وَكَمَا حَدَّثَ فِي حَرْبِ الْبُسُوسِ الَّتِي اسْتَمَرَّتْ أَكْثَرَ مِنْ عِشْرِينَ عَامًا؛ بِسَبَبِ سَهْمِ أَصَابِ نَاقَةٍ.

وَلَمَّا جَاءَ الْإِسْلَامَ تَرَكَوا الثَّأْرَ، وَأَصْبَحُوا بِنِعْمَةِ اللَّهِ إِخْوَانًا؛ فَهَذَا عَمْرُ بْنُ الْخَطَّابِ رضي الله عنه يَقُولُ لِقَاتِلِ زَيْدِ أَخِيهِ -وَكَانَ كَافِرًا حِينَ قَتَلَ زَيْدًا ثُمَّ أَسْلَمَ- يَقُولُ لَهُ: اذْهَبْ، فَإِنِّي لَا

(١) ابن أبي حاتم (٥٨١٠).

أحْبُكَ، فقال الرَّجُلُ: هل سيمنعك بغضك لي من أن تعدل معي؟ قال: لا، فقال: إنما ييكى على الحب النساء.

ومجمل معنى الآية: لا يحل لمؤمن الاعتداء على أخيه المؤمن، وقتله بغير حق، إلا أن يَقَعَ ذلك منه على وجه الخطأ؛ فعليه عتق رقبة مؤمنة، وتسليم دية مُقَدَّرَةٍ إلى أوليائه، إلا أن يتصدقوا بها عليه، ويعفوا عنه، فإذا كان المقتول من قوم كفاراً أعداء للمؤمنين، وهو مؤمن بالله تعالى، وبما أنزل من الحق على رسوله ﷺ؛ فعلى قاتله عتق رقبة مؤمنة وليس عليه دية.

وإن كان المقتول من قوم بينكم وبينهم عهدٌ وميثاقٌ، فعلى قاتله دية تُسَلَّم إلى أوليائه، وعتق رقبة مؤمنة، فمن لم يجد القدرة على القيام بما لزمه من ذلك، فعليه صيام شهرين متتابعين؛ ليتوب الله عليه، ﴿تَوْبَةً مِّنَ اللَّهِ﴾ على عباده رحمة بهم، وتكفيراً عما حدث منهم من تقصير في حق الله تعالى وحق عباده ﴿وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا﴾ بشؤون خلقه، ﴿حَكِيمًا﴾ فيما شرَّعه لهم، كامل العلم والحكمة، لا يخفي عليه مثقال ذرة في الأرض ولا في السماء، ولا أصغر من ذلك ولا أكبر، ولا يخرج عن حكمته شيء، ومن علمه وحكمته أن أوجب على القاتل كفارة عما صدر منه، لأنه تسبب في إعدام نفس وإخراجها من الوجود إلى العدم، لتكون هذه الكفارة رادعة لغيره، حاملة له على التيقظ وعدم الغفلة أو التهور، والأخذ بالأسباب التي تحول بينه وبين الوقوع في مثل هذا الخطأ مرة أخرى، ومن حكمته تعالى أن أوجب الدية على أهل القاتل لأنه لم يعتمد القتل، فناسب هذا أن يتعاون الأهل والعشيرة على تخفيف العبيء عمن وقع منه القتل خطأً.

وهذه التوبة ليست من إثم القتل الخطأ؛ لأن الخطأ والنسيان، وما استكُره الإنسان عليه مرفوعٌ عَمَّن ارتكبه، كما في الحديث عن ابن عباس ؓ أن رسول الله ﷺ قال: «إن الله وضع عن أمتي: الخطأ والنسيان وما استكرهوا عليه»^(١) ﴿رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا إِن نَّسِينَا أَوْ

(١) «صحيح سنن ابن ماجه» (١٦٦٤) بتصحیح الألباني وفي المشكاة (٦٢٨٤) والروض النضير (٤٠٤) وابن حبان (٧٢١٩) وابن المنذر (١٨٥) والطبراني في «الصغير» (١/ ٢٧٠) والدارقطني (٤/ ١٧٠) والحاكم (٢/ ١٩٨) والبيهقي في «السنن» (٧/ ٣٥٦). وانظر صحيح أبي داود (١٩١٥) وصحيح ابن ماجه (١٦٦٣) وفي سننه (٢٠٤٤).

أَخْطَأْنَا ﴿البقرة: ٢٨٦﴾ وإنما التوبة من التقصير وقلة الثبوت والتأني والتروي.

حُكْمُ اسْتِحْلَالِ الْقَتْلِ الْعَمْدِ

٩٣- ﴿وَمَنْ يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُتَعَمِّدًا فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِدًا فِيهَا وَعَظِبَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُ وَأَعَدَّ لَهُ عَذَابًا عَظِيمًا﴾ (٩٣)

ولمّا تحدثت الآية السابقة عن حُكْم القتل الخطأ، تحدثت هذه الآية عن حُكْم القتل العمد، فتوعدت من قتل مؤمناً عمداً بوعيد يتصدع له الفؤاد ويرجف له القلب، وينزعج له العقل، حيث لم يرد الوعيد بالخلود في نار جهنم على أيّ ذنب آخر من كبائر الذنوب، بالإضافة إلى سخط الله تعالى ومقته وغضبه، كما ورد في شأن القاتل عمداً.

سبب النزول يوضح معنى الآية:

ومما جاء في سبب النزول: أن رجلاً يقال له: مِقْس بن ضُبابة -بالصاد أو الضاد^(١)- وجد أخاه هشاماً مقتولاً في بني النجار، وكان مسلماً، فذهب إلى النبي ﷺ يقول له ذلك، فأرسل عليه الصلاة والسلام رجلاً من بني فهر إلى بني النجار، يقول لهم: إن كنتم تعلمون قاتل أخيه، فسلموه له للقصاص، وإن كنتم لا تعلمون فأعطوه الدية، فقالوا: سمعاً وطاعة، والله ما نعلم قاتلاً، ولكننا نعطى دية، فأعطوه دية أخيه مئة من الإبل.

فلمّا أخذها ورجع إلى المدينة، وسوس له الشيطان، فقال له: كيف تُقْبَلُ الدية؟ وقتل أخيك يظل مسبة في شأنك مُلازماً لك؟ أقتل هذا الرجل الذي معك، وهو رسول النبي ﷺ إلى بني النجار، فتكون قد قتلت نفساً مكان نفس، وأخذت الدية أيضاً، فقتله بصخرة شَدَحَ بها رأسه، وساق الإبل التي أُعطيَتْ له، ورجع إلى مكة كافراً، وأنشد أبياتاً من الشعر قال فيها إنه أول من رجع إلى عبادة الأصنام^(٢).

هذا الرجل: أخذ الدية، وكفّر بعد إسلامه، وقتل نفساً بريئة متعمداً؛ ولذلك فإن النبي ﷺ أهدر دمه يوم فتح مكة، فقد أعلن ﷺ عفواً عاماً عن جميع المشركين الذين قاتلوه

(١) انظر: «الإصابة» (٦/ ٥٣٩) و«تاريخ الطبري» (٢/ ٦٠٩).

(٢) أخرجه الواحدي في «أسباب النزول» ص ٩٨ عن الكلبي عن ابن صالح، ورواه ابن جرير عن عكرمة

(٩٠/ ٦١) وابن هشام في «السير» (٢/ ٤٩٣) وابن الجوزي (٢/ ١٦٦) وابن أبي حاتم (٥٨١٦).

قبل ذلك، وأهدر دم بضعة أشخاص، منهم هذا الرَّجُل حيث أمر النَّبِيُّ ﷺ بقتله في الحِلِّ والحَرَم، فقتل (مِقَيْس بن ضَبَابَة الكِنَانِي) في سوق مكة، وفيه وفي أمثاله نزلت هذه الآية في شأن القتل العمد ﴿وَمَنْ يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُتَعَمِّدًا﴾.

و(مِقَيْس) قد قَتَلَ الرَّجُلَ عمدًا، وارتدَّ عن الإسلام، ورجع إلى مكة كافرًا؛ فكانت العقوبة التي في الآية هي عقوبة الكُفْرِ ﴿فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِدًا فِيهَا﴾ وقد حَلَّتْ عليه اللعنة والغضب ﴿وَعَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُ﴾ وهو في الآخرة مُعَذَّبٌ في نار جهنم. ﴿وَأَعَدَّ لَهُ عَذَابًا عَظِيمًا﴾

عموم الآية: فالآية تنطبق على كل مَنْ ضَمَّ جريمة القتل إلى جريمة الكُفْرِ التي هي أكبر منها، وتنطبق أيضًا على كل مَنْ استحلَّ القتل، لأن القاعدة الأصولية تقول: كل من استحلَّ كبيرةً من الكبائر، وأنكر ما هو معلوم من الدين بالضرورة، فهو كافر.

عن ابن عباس ؓ أن رجلاً أتاه فقال: أرايت رجلا قتل رجلا متعمداً، قال: ﴿وَمَنْ يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُتَعَمِّدًا فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِدًا فِيهَا وَعَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُ وَأَعَدَّ لَهُ عَذَابًا عَظِيمًا﴾ [النساء: ٩٣] قال: لقد أنزلت آخر ما نزل وما نسخها شيء حتى قبض رسول الله ﷺ وما نزل وحي بعد رسول الله ، قال: أرايت إن تاب وآمن وعمل صالحاً ثم اهتدى، قال: وأنى له بالتوبة، وقد سمعت رسول الله ﷺ يقول: «ثكلته أمه، رجل قتل رجلاً متعمداً، يجيء يوم القيامة آخذاً قاتله بيمينه أو بيساره، وآخذاً رأسه بيمينه أو بشماله، تشخب أوداجه دماً في قُبُلِ العرش، يقول: يا رب، سل عبدك فيم قتلني؟»^(١).

قلت: وهذا محمول على من استحل القتل، أو ضم جريمة القتل إلى جريمة الكفر ومات على ذلك، فالله تعالى لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء.

أما قَتْلُ النفس في حَدِّ ذاته فليس بكفر، ولا خلود في النار إلا للكافر.

فإذا كان القاتلُ مؤمناً فخلوده في النار معناه: طول المكث فيها؛ لأنه تعمَّد قَتَلَ

(١) ينظر في «سنن النسائي» (٤٠١٠) وصحيح سننه (٢٤٢٥) و«سنن ابن ماجه» (٢٦٢١) و«المسند» (٢١٤٢)، ٢٦٨٣، ٣٤٤٥ و«سنن الترمذي» (٣٠٢٩) والسلسلة الصحيحة (٢٦٩٧) و ينظر ما جاء كذلك في البخاري (٣٨٥٥، ٤٧٦٥، ٤٧٦٦)، ومسلم (١٢٢، ٣٠٢٣).

المؤمن، وليس المراد الخلود الأبدي، وإذا تاب القاتل إلى ربه؛ فإن الله تعالى يتوب عليه، يوضح ذلك قوله تعالى في وصف عباد الرحمن: ﴿وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ يَلْقَ أَثَامًا ۖ يُضَاعَفْ لَهُ الْعَذَابُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِ مُهَكَّنًا ۗ﴾ (٢٩) إِلَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَالِحًا فَأُولَئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا ﴿٧٠﴾ [الفرقان]

فهذه التوبة تشمل الكفر والشرك كما قال تعالى: ﴿وَلِيَّ لَغَفَّارٍ لِمَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا ثُمَّ اهْتَدَى﴾ [طه: ٨٢].

وإذا كانت توبة الكافر والمشرک مقبولة، وهما أعظم الذنوب على الإطلاق، فإن توبة القاتل عمداً مقبولة من باب أولى، ولفظ ﴿وَمَنْ يَقْتُلْ﴾ من صيغ العموم، فحكم الآية عامٌ يشمل كلَّ مَنْ قَتَلَ مؤمناً عامداً متعمداً.

عن خارجة بن زيد قال: سمعتُ زيد بن ثابت يقول: أنزلت هذه الآية ﴿وَمَنْ يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُتَعَمِّدًا﴾ بعد التي في الفرقان ﴿وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ﴾ بستة أشهر^(١) والآية خبر عن وقوع العذاب بالكافر القاتل، والنسخ لا يدخل الأخبار، وعلى احتمال النسخ بينهما فالمعنى: فجزاؤه جهنم إلا من تاب، فلا تعارض بينهما؛ لإمكان الجمع، والصحيح أن آية النساء لم ينسخها شيء.

قال مغيرة بن النعمان: سمعتُ ابن جبير قال: اختلف فيها أهل الكوفة، فرحلتُ إلى ابن عباس، فسألته عنها، فقال: نزلت هذه الآية ﴿وَمَنْ يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُتَعَمِّدًا﴾ وهي آخر ما نَزَلَ (يعني: بشأن القتل) وما نسخها شيء^(٢).

والقاتل إذا تاب تاب الله عليه.

(١) أخرجه أبو داود والنسائي.

(٢) البخاري، تفسير سورة النساء (٦/ ٥٩) برقم (٤٥٩٠، ٤٧٦٣) ومسلم، كتاب التفسير (٨/ ٢٤١) برقم (٣٠٢٣) و«سنن النسائي» (٨/ ٦٢) وعن سعيد بن جبير (٤٠١١) ورواه أبو داود وابن جرير عن عبد الرحمن بن أبزة، ينظر «سنن أبي داود» برقم (٤٢٧٥) والطبراني في «الكبير» (١٢٣١٤، ١٢٣١٥) والطبري (٧/ ٣٤٦).

ففي الحديث عن جابر رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «مَن مات لا يُشرك بالله شيئاً دخل الجنة، ومَن مات يُشرك به شيئاً دخل النار»^(١).

وكان ابن عباس رضي الله عنه يُشَدُّ في زَجْرِ القاتل، ويُهدِّدُه بأنه لا توبةَ له، لئلا يجترئ النَّاسُ على قتل النفس عمداً، فقد جاء عن سعد بن عبيدة أن ابن عباس جاءه رجلٌ فقال: أَلَمْ تَقْتُلْ مؤمناً متعمداً توبة؟ قال: لا، إلا النار، فلَمَّا ذهب، قال له جلساؤه: أهكذا كنت تُفَتِّينا؟ فقد كنت تقول: إن توبته مقبولة، فقال: إني لأحسب السائل رجلاً مغضباً يريد أن يقتل مؤمناً، قال: فبعثوا في أثره فوجدوه كذلك^(٢).

وكان ابن شهاب إذا سأل عن ذلك مَن يفهم منه أنه قَتَلَ نفساً يقول له: توبتك مقبولة، وإذا سأل من لم يقتل، وتوسَّم مِنْ حَالِهِ أنه يُحاول قَتْلَ نفس، قال له: لا توبةَ لقاتل^(٣).

وعلى هذا المعنى يُحْمَلُ ما جاء عن ابن عباس رضي الله عنه مِنْ أَنَّ مَن قَتَلَ نفساً مؤمنة لا توبةَ له؛ أي: إِنْ قَتَلَهُ مُسْتَحِلًّا لقتله، أو أنه ضَمَّ جريمةَ القتل إلى جريمةِ الكُفْرِ، وكذا القول بأن آية سورة الفرقان منسوخة بآية سورة النساء.

وهكذا المُفتي الحاذق، تكون إجابته موافقةً لمقتضى الحال، فَمَنْ سأل عن الحكم بعد وقوع الذَّنْب منه يَختلف حاله عَمَّن سأل عنه قبل وقوعه، فيُشَدُّ المفتي على الأخير حتى لا يَقَعَ في المحذور، ويلتمس مخرجاً لِمَنْ وقع في الذَّنْب بالفعل، ومثل ذلك أحوال الطلاق وغيرها.

وكذلك كان النَّبِيُّ ﷺ تَخْتَلِفُ إجابته من شخصٍ لآخر؛ طبقاً لِمَا يرى من حال السائل، كما سُئِلَ عن أَحَبِّ الأعمال إلى الله تعالى مِنْ أَكْثَرِ من سائل، فكان الجواب مختلفاً، فقد يكون السائل مُقَصِّراً في أداء الصَّلَاة في وقتها، وقد يكون عاقاً لوالديه، وقد يكون جباناً مُتَقَاعِساً عن الجهاد في سبيل الله، فيجيبه النَّبِيُّ ﷺ بِمَا يُنَاسِبُ حاله.

وَمَنْ استَحِلَّ قَتْلَ مسلم كان كافراً يُخَلَّدُ في النار؛ بسبب استحلاله لما حرم الله إن مات عليه.

(١) أخرجه مسلم برقم (٩٣).

(٢) أخرجه النحاس ص ٣٤٩، وكذا عبد بن حميد.

(٣) «تفسير التحرير والتنوير» (٤/ ١٦٥).

والمعنى: ومن يتعدَّ على مؤمن فيقتله عن عمدٍ بغير حقٍّ، مستحلًّا لهذا القتل، فعاقبته جهنم خالداً فيها، مع سَخَطِ الله عليه، وطَرْدِهِ من رحمته، وأعدَّ له أشدَّ العذاب؛ بسبب ما ارتكبه من هذه الجناية العظيمة.

للقتل العمد أحكام في الدنيا وأحكام في الآخرة:

أما في الدنيا: فتسلطُ أولياء المقتول على الجاني، قال تعالى: ﴿وَمَنْ قُتِلَ مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا لَوْلِيهِ سُلْطَانًا فَلَا يَسْرِفُ فِي الْقَتْلِ إِنَّهُ كَانَ مَنْصُورًا﴾ [الإسراء: ٣٣].

ثم إن أولياء القتل مُخَيَّرُونَ بين ثلاثة أشياء هي: العفو، أو أخذ الدية مئة من الإبل، أو مقدارها، أو القصاص بواسطة ولي الأمر، قال تعالى ﴿وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَوةٌ يَتَأُولَى الْأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [البقرة: ١٧٩].

قال الإمام أحمد: ليس في القتل العمد كفارة، فهو أعظم من أن يُكفَّر عنه، كاليمين الغموس. وقال الشافعي وبعض العلماء: إذا وَجِبَتِ الكَفَّارَةُ في القتل الخطأ، فلأن تَجِبُ في القتل العمد من باب أولى.

أما عقوبة القاتل عمداً في الآخرة:

فإن كان القاتل كافراً، ومات على كفره؛ فهو مُخْلَدٌ في نار جهنم، كما ذكرت الآية. وإن كان مؤمناً، وقُتِلَ قصاصاً فهو جزاؤه؛ لأن الله تعالى لا يجمع على عبده عقوبتين: العقوبة المقررة له شرعاً إذا أخذاها في الدنيا، مع عقوبة في الآخرة.

وإن كان القاتل مؤمناً، ولم يُقتل قصاصاً، كأن لم يُعرف، أو لم يعترف، أو أفلت من العقاب لسبب ما، فإن تاب إلى الله تعالى ورجع إليه؛ فإن الله يتوب عليه، كما قال تعالى: ﴿وَنَعْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ﴾ [النساء: ٤٨، ١١٦] ﴿إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا﴾ [الزمر: ٥٣].

وإن مات على الإيمان مع ارتكابه لجريمة القتل، ولم يُعاقب عليها في الدنيا على سبيل القصاص؛ فإنه يُعَذَّبُ في الآخرة بمقدار ذنبه، ثم مصيره إلى الجنة؛ لأنه مات على التوحيد، كما في حديث البطاقة^(١).

(١) وفيه أن كلمة التوحيد توضع في كفة، وذنوب العبد توضع في كفة، فتطيش الكفة التي فيها ذنوب العبد.

وحديث أنس رضي الله عنه فيما يرويه رسول الله ﷺ عن ربّه: «يا ابن آدم: إنك لو أتيتني بقراب الأرض خطايا، ثم لقيتني لا تشرك بي شيئاً؛ غفرت لك على ما كان منك ولا أبالي»^(١).

وفي حديث عقبة بن عامر رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «ما من عبد يلقى الله لا يشرك به شيئاً لم يتندّد بدم حرام إلا أدخل الجنة من أي أبواب الجنة شاء»^(٢) ومعنى يتندّد أي: لم يُصب دمًا حرامًا، ولم ينل منه شيء.

وإذا كان الله تعالى يقبل توبة الكافر كما قال تعالى: ﴿قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ يَنْتَهُوا يُغْفَرْ لَهُمْ مَا قَدْ سَلَفَ﴾ [الأنفال: ٣٨] فإنه سبحانه يقبل من باب أولى توبة القاتل المؤمن، إذا هو تاب إلى الله سبحانه ورجع إليه ﴿قُلْ يَبْعَادَى الَّذِينَ اسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا﴾ [الزمر: ٥٣]

وهذه الآية مُخَصَّصَةٌ بآية الشرك ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ﴾ وما دون ذلك يدخل فيه القتل، ﴿وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ﴾ فالذنب الذي لا يغفر إذا مات العبد عليه هو ذنب الشرك.

والمعنى: فجزاؤه جهنم إلا من تاب، حملاً للمطلق على المُقَيَّد.

وحديث الرَّجُل الذي قَتَلَ مِئَةَ نَفْسٍ، ثم تاب الله عليه وقَبِلَ توبته، حديثٌ صحيحٌ مشهور عن رسول الله ﷺ.

فهذا الوعيد الذي في الآية، توَعَّد الله به الكافر الذي يَقْتُلُ مؤمناً، أو توَعَّد به كُلٌّ مَنْ اسْتَحْلَّ جريمة القتل، وهذه عقوبته في الآخرة.

أما عقوبة القاتل عمداً في الدُّنْيَا: فجاءت في قوله تعالى: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا كُتُبٌ عَلَيْهِمْ أَلْفَصَاصُ فِي الْقَتْلِ﴾ [البقرة: ١٧٨] وفي القصاص مساواةً وعدلٌ ومُماثلة.

(١) جزء من حديث الترمذي (٣٥٤٠) بإسناد حسن، وفيه كثيرٌ من فائد، لم يوثقه غير ابن حبان، لكن له شاهد من حديث أبي ذر عند أحمد (١٧٢ / ٥) برقم (٢١٣١١) بإسناد صحيح على شرط الشيخين ومن حديث ابن عباس عند الطبراني، وقد صححه الألباني عن أنس في صحيح سنن الترمذي (٢٨٠٥) وفي السلسلة الصحيحة (١٢٧، ١٢٨) والروض النضير (٤٣٢) ومشكاة المصابيح (٤٣٣٦) التحقيق الثاني.

(٢) البيهقي (٥٣٢٢) و«صحيح سنن ابن ماجه» (٢١٢٠) و«السلسلة الصحيحة» (٢٩٢٣).

وذلك أن قبيلتين كان بينهما ثأرٌ وقِتَالٌ في الجاهلية، وكانت إحدى القبيلتين تَرَى أنها أشرفُ من الأخرى، فَتَقْتُلُ في الرَّجُلِ رجلين، وفي المرأة امرأتين، وتَقْتُلُ الرَّجُلَ بالمرأة، والحرَّ بالعبد؛ فَأَنْزَلَ الله تعالى يُبَيِّنُ وجوبَ المُمَاثِلَةِ والمساواة في القصاص، فلا يُقْتَلُ في الرَّجُلِ رجلان، ولا في المرأة امرأتان، قال تعالى: ﴿الْحُرُّ بِالْحُرِّ وَالْعَبْدُ بِالْعَبْدِ وَالْأُنْثَى بِالْأُنْثَى﴾ [البقرة: ١٧٨].

وفي ذلك بعض التفصيل: حيث أفادت سُنَّةُ النَّبِيِّ ﷺ، وأَجْمَعَ أهلُ العلم على أن الرَّجُلَ يُقْتَلُ في المرأة إذا قَتَلَهَا.

كما أَمَرَ النَّبِيُّ ﷺ بِقَتْلِ يَهُودِيٍّ قَتَلَ امرأةً، بِجَنَسِ ما قَتَلَهَا به، بِرَضْخِ رأسه تحت حجر.

وأما الحر فجمهور العلماء على أنه لا يُقْتَلُ بالعبد، وأجاز ذلك أبو حنيفة، وكذلك الذَّمِّي.

والمسلم لا يُقْتَلُ بالكافر المحارب إجماعاً.

أما الذَّمِّي فإن فيه خلافاً عند أهل العلم، حيث يُجِيزُ أبو حنيفة قتله، وله أدلةٌ عامَّةٌ مأخوذة من قوله تعالى: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِصَاصُ فِي الْقَتْلِ﴾ فذكر أن الآية عامَّةٌ، وكذا قوله تعالى: ﴿وَكُتِبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَا أَنْ النَّفْسَ بِالنَّفْسِ﴾ [المائدة: ٤٥] والنفس عامة لم تُخصَّص، ولكن جاء في صحيح البخاري عن علي رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «لا يُقْتَلُ مسلمٌ بكافر»^(١).

وفي حديث عمرو بن شعيب عن أبيه عن جَدِّه رضي الله عنه أن النَّبِيَّ ﷺ قال: «المسلمون تتكافأ دماؤهم، ويسعى بذمتهم أدناهم، وهم يد على من سواهم»^(٢).

وليس هناك تكافؤ بين المسلم وغير المسلم.

الْأَخْذُ بِالظَّاهِرِ

٩٤- ﴿يَتَأْتِيَكَ أَهْلُكَ إِذَا ضَرَيْتَهُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَتَيَبَّسُوا^(٣) وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ أَلْفَقَ إِلَيْكُمْ

(١) من حديث علي بن أبي طالب في البخاري (١١١، ١٨٧٠، ٦٧٥٥) وغيرهما وفي مسلم (١٣٧٠).

(٢) أبو داود (٢٧٥١) وابن ماجه (٣٦٨٣) عن ابن عباس والنسائي (٤٧٣٤) وهو حديث صحيح.

(٣) قرأ حمزة والكسائي وخلف العاشر (فَتَيَبَّسُوا) بالثاء من التثبت، وقرأ الباقون (فَتَيَبَّسُوا) بالباء من التبيين، وذلك في موضعي الآية.

الْسَّلَامُ^(١) لَسْتَ مُؤْمِنًا^(٢) تَبْتَغُونَ عَرَضَ الْحَيَوةِ الدُّنْيَا فَعِنْدَ اللَّهِ مَعَانِمُ كَثِيرَةٌ كَذَلِكَ كُنْتُمْ مِنْ قَبْلُ فَمَنْ أَكَلَّ اللَّهُ عَلَيْكُمْ فَتَبَيَّنُوا^(٣) إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴿٩٤﴾

يأمر الله تعالى عباده المؤمنين إذا خرجوا مجاهدين في سبيله أن يَتَّبِعُوا وَيَتَّبِعُوا فِي جَمِيعِ أُمُورِهِمُ الْمَشْتَبِهَةِ لِمَعْرِفَةِ إِمْكَانِيَةِ الْإِقْدَامِ عَلَيْهَا مِنْ عَدَمِهِ.

هذا: والأخذُ بظواهر الأمور واجبُ المؤمن، وقد حَذَّرَ ﷺ مِنْ قَتْلِ الْمُؤْمِنِ بِحَالٍ مِنَ الْأَحْوَالِ، فَإِذَا عَرَضَتْ لِلْإِنْسَانِ شُبُهَةٌ فِي قَتْلِهِ، فَلَا يَتَسَاهَلُ وَلَا يَتَعَجَّلُ، وَعَلَيْهِ أَنْ يَتَّبَعَ، وَلِيَكُنْ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ أَمْرِهِ، فَإِنْ حُرِّمَ دَمُ الْمُسْلِمِ أَعْظَمُ عِنْدَ اللَّهِ تَعَالَى مِنْ حُرْمَةِ الْكَعْبَةِ.

أسباب النزول يوضح معنى الآية:

وقد ورد في هذه الآية أسباب كثيرة للنزول؛ ومن ذلك ما يلي:

١- أرسل النَّبِيُّ ﷺ سرية فيها (المقداد بن الأسود)، فَلَمَّا وَصَلَتْ هَذِهِ السَّرِيَّةُ إِلَى الْقَوْمِ، وَجَدُوهُمْ قَدْ هَرَبُوا وَتَفَرَّقُوا، وَلَمْ يَبْقَ مِنْهُمْ إِلَّا رَجُلٌ وَاحِدٌ مَعَهُ مَالٌ كَثِيرٌ، لَمْ يَبْرَحْ مَكَانَهُ، وَالرَّجُلُ كَانَ مُؤْمِنًا يُخْفِي إِيْمَانَهُ، وَلَكِنْ أَصْحَابُ السَّرِيَّةِ لَا يَعْرِفُونَ أَنَّهُ مُسْلِمٌ، وَيَعْتَقِدُونَ أَنَّهُ كَافِرٌ يَجِبُ قَتْلُهُ وَسُلْبُ مَالِهِ، فَلَمَّا رَأَاهُم الرَّجُلُ قَالَ: أَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، السَّلَامُ عَلَيْكُمْ، فَظَنَّ (المقداد) أَنَّ الرَّجُلَ يُرِيدُ أَنْ يَنْجُوَ بِنَفْسِهِ وَمَالِهِ، وَأَنَّهُ يَضْحَكُ عَلَيْهِمْ بِهَذِهِ الْكَلِمَةِ، يَقُولُهَا بِلِسَانِهِ؛ لَكِي يَنْجُوَ مِنْهُمْ، وَأَنَّهُ كَافِرٌ فِي حَقِيقَةِ الْأَمْرِ، فَقَتَلَهُ الْمَقْدَادُ.

فَقَالَ لَهُ أَحَدُ أَصْحَابِهِ: لَقَدْ شَهِدَ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، لِأَذْكُرَنَّ ذَلِكَ لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ، فَلَمَّا وَصَلُوا إِلَى النَّبِيِّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ وَذَكَرُوا لَهُ ذَلِكَ، طَلَبَ الْمَقْدَادُ، وَقَالَ لَهُ: «أَقْتَلْتَ رَجُلًا يَقُولُ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ؟ فَكَيْفَ بَكَ بِلَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ غَدًا، إِنَّهُ رَجُلٌ مُؤْمِنٌ يُخْفِي إِيْمَانَهُ بَيْنَ قَوْمٍ كَافِرِينَ، فَلَمَّا رَأَاكَ أَظْهَرَ إِسْلَامَهُ، وَكَذَلِكَ كُنْتَ مِنْ قَبْلِ تَخْفِي

(١) قرأ نافع وابن عامر وحمزة وأبو جعفر وخلف العاشر (السَّلَام) بدون ألف بعد السين؛ بمعنى: الانقياد، وقرأ الباقر بألف بعد اللام؛ بمعنى: التحية.

(٢) قرأ أبو جعفر بخلف عنه (لست مؤمناً) بفتح الميم الثانية اسم مفعول (أي: لن نُؤْمِنَكَ عَلَى نَفْسِكَ)، وقرأ الباقر (مؤمناً) بكسر الميم الثانية، اسم فاعل (أي: إنما فعلت ذلك متعوذاً، وليس عن إيمان صحيح)، وأبدل ورش وأبو جعفر وأبو عمرو بخلف عنه همزة (مؤمناً) حرف مد، وصلاً ووقفاً، ومعهم حمزة عند الوقف.

إِيْمَانِكَ قَبْلَ أَنْ يَمُنَّ اللَّهُ عَلَيْكَ بِالْعِزَّةِ وَالْمَنْعَةِ وَإِظْهَارِ الْإِيْمَانِ» فَأَنْزَلَ اللَّهُ سُبْحَانَهُ هَذِهِ الْآيَةَ فِي هَذِهِ الْحَادِثَةِ وَأَمْثَالِهَا^(١).

٢- وعن المقداد بن الأسود رضي الله عنه قال: قلت: يا رسول الله، أَرَأَيْتَ إِنْ اخْتَلَفْتُ أَنَا وَرَجُلٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ بِضَرْبَتَيْنِ فَقَطَعَ يَدَيَّ، فَلَمَّا عَلَوْتُهُ بِالسَّيْفِ قَالَ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، أَضْرِبُهُ أَمْ أَدْعُهُ؟ قَالَ: «بَلْ دَعُهُ» قلت: قَطَعَ يَدَيَّ! قَالَ: «إِنْ ضَرَبْتَهُ بَعْدَ أَنْ قَالَهَا فَهُوَ مِثْلَكَ قَبْلَ أَنْ تَقْتُلَهُ، وَأَنْتَ مِثْلُهُ قَبْلَ أَنْ يَقُولَهَا»^(٢).

٣- وفي رواية لابن عباس رضي الله عنه: أَنَّهَا نَزَلَتْ فِي رَجُلٍ مِنْ أَهْلِ فَدَكٍّ، لَمْ يُسَلِّمْ مِنْ قَوْمِهِ غَيْرُهُ، وَاسْمُهُ (مِرْدَاسُ بْنُ نَهَيْكٍ)، وَقَدْ أَرْسَلَ النَّبِيُّ صلى الله عليه وسلم سِرِّيَّةً إِلَى غُطَفَانَ، وَكَانَ عَلَى السَّرِّيَّةِ (غَالِبُ بْنُ فُضَالَةَ)، فَلَمَّا سَمِعَ (مِرْدَاسُ) تَكْبِيرَهُمْ عَرَفَ أَنَّهُمْ مِنْ أَصْحَابِ رَسُولِ اللَّهِ، فَكَبَّرَ مَعَهُمْ، وَسَلَّمْ عَلَيْهِمْ، وَنَطَقَ بِالشَّهَادَتَيْنِ، وَظَنَّ (أَسَامَةَ بْنَ زَيْدٍ) أَنَّهُ يُنَافِقُ، فَقَتَلَهُ وَاسْتَأْذَنَ مِنْهُ، فَلَمَّا رَجَعُوا قَالَ النَّبِيُّ صلى الله عليه وسلم: «كَيْفَ أَنْتَ إِذَا خَاصَمَكَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ بِلَا إِلَهٍ إِلَّا اللَّهُ؟» يَقُولُهَا ثَلَاثًا، قَالَ أَسَامَةُ: فَمَا زَالَ رَسُولُ اللَّهِ يُكْرِّرُهَا حَتَّى وَدِدْتُ أَنِّي لَمْ أَكُنْ أَسَلَمْتُ إِلَّا يَوْمَئِذٍ.

قِيلَ: إِنْ أَسَامَةُ قَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، إِنَّمَا قَالَهَا خَوْفًا مِنَ السَّلَاحِ، فَقَالَ صلى الله عليه وسلم: «أَفَلَا شَقِيقَتْ عَنْ قَلْبِهِ حَتَّى تَعْلَمَ أَقَالَهَا خَوْفًا أَمْ لَا؟»^(٣).

(١) قَالَ الْهَيْثَمِيُّ فِي «الْمَجْمَعِ» (٧/ ٩): رَوَاهُ الطَّبْرَانِيُّ وَالبَزَارُ، وَسَنَدُهُ جَيِّدٌ، وَقَالَ الْبَزَارُ: لَا نَعْلَمُهُ يُرْوَى إِلَّا عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ وَلَيْسَ لَهُ عَنْهُ إِلَّا هَذَا الطَّرِيقُ، وَهُوَ طَرِيقُ حَبِيبِ بْنِ أَبِي عَمْرَةَ، عَنْ سَعِيدِ بْنِ جُبَيْرٍ، عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ، وَهُوَ فِي «مُسْنَدِ الْبَزَارِ» بِرَقْمٍ (٢٢٠٢) «كَشَفَ الْأَسْتَارَ» وَالتَّبْرَانِيُّ فِي «الْكَبِيرِ» (١٢٣٧٩) وَرُؤْيٍ مُرْسَلًا كَمَا فِي «تَهْذِيبِ التَّهْذِيبِ» تَرْجُمَةُ جَعْفَرِ بْنِ سَلَمَةَ الْبَصْرِيِّ، وَالحَدِيثُ فِي صَحِيحِ الْبُخَارِيِّ (٢٨٦٦٦، ٦٨٦٥) وَانْظُرْ فَتْحَ الْبَارِيِّ (٨/ ٢٥٨، ١٢/ ١٨٩) وَقَدْ ذَكَرْتُهُ بِالْمَعْنَى.

(٢) «صَحِيحُ مُسْلِمٍ» (٩٥) وَأَبُو دَاوُدَ (٢٦٤٤) وَالنَّسَائِيُّ فِي «الْسِّنَنِ الْكَبِيرِ» (٨٥٩١) وَابْنُ أَبِي عَمْرَةَ فِي «الْأَسْمَاءِ وَالصِّفَاتِ» (١٧٧) وَاللَّفْظُ لَهُ وَابْنُ أَبِي شَيْبَةَ (١٢/ ٣٧٨) وَالشَّافِعِيُّ فِي «شَفَاءِ الْعِيِّ» (٣٢٠).

(٣) جَاءَ هَذَا الْمَعْنَى مُخْتَصَرًا فِي «صَحِيحِ الْبُخَارِيِّ» (٤٥٩١) وَ(٤٢٦٩) وَ(٦٨٧٢) وَمُسْلِمٍ (٣٠٢٥) وَ(٩٦) وَ(١٥٩) وَنَحْوَهُ فِي «الْمُسْنَدِ» (٢٠٢٣) (٢١٧٤٥) بِإِسْنَادٍ صَحِيحٍ عَلَى شَرْطِ الشَّيْخَيْنِ، (مُحَقَّقُوهُ) وَيَنْظُرُ: «تَفْسِيرُ الْخَازَنِ» وَ«تَفْسِيرُ الطَّبْرِيِّ» (٩/ ٧٦) وَابْنُ أَبِي حَاتِمٍ (٥٨٣٢) وَ«أَسْبَابُ النُّزُولِ» لِلْوَحَّادِيِّ ص ١٤٧ عَنْ السُّدِّيِّ وَتَقَادَةُ، وَقَدْ ذَكَرْتُهُ بِالْمَعْنَى.

٤- وفي الصحيحين وغيرهما أن النَّبِيَّ ﷺ أَرْسَلَ أُسَامَةَ بْنَ زَيْدٍ ﷺ إِلَى حَرَقَةَ بْنِ جَهينة^(١)، قَالَ: فَصَبَّحْنَا الْقَوْمَ فَهَزَمْنَاهُمْ، وَلَحَقْتُ أَنَا وَرَجُلٌ مِنَ الْأَنْصَارِ رَجُلًا مِنْهُمْ فَلَمَّا غَشِيَاهُ قَالَ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، فَكَفَّ عَنْهُ الْأَنْصَارِيُّ، وَطَعْنَتْهُ بِرُمَحِي فَقَتَلَتْهُ، فَلَمَّا قَدِمْنَا بَلَغَ ذَلِكَ النَّبِيَّ ﷺ، فَقَالَ: «يَا أُسَامَةُ أَقْتَلْتَهُ بَعْدَمَا قَالَ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ؟» قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، إِنَّمَا كَانَ مَتَعُودًا، قَالَ: «أَقْتَلْتَهُ بَعْدَمَا قَالَ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ؟» قَالَ: فَمَا زَالَ يَكْررها، حَتَّى تَمْنَيْتُ أَنِّي لَمْ أَكُنْ قَدْ أَسْلَمْتُ قَبْلَ ذَلِكَ الْيَوْمِ^(٢).

٥- وفي الْبُخَارِيِّ وغيره عن ابن عباس ؓ قَالَ: كَانَ رَجُلٌ فِي غُنَيْمَةٍ لَهُ، فَلَحِقَهُ الْمُسْلِمُونَ، فَقَالَ: السَّلَامُ عَلَيْكُمْ، فَقَتَلُوهُ وَأَخَذُوا غُنَيْمَتَهُ؛ فَأَنْزَلَ اللَّهُ الْآيَةَ^(٣).

- وفي رواية أن النَّبِيَّ ﷺ حَمَلَ دِيَةَ الرَّجُلِ، وَذَهَبَ بِهَا إِلَى أَهْلِهِ، وَرَدَّ إِلَيْهِمْ غَنَمَهُ.

٦- أخرج الإمام أحمد وغيره بسنده عن عكرمة عن ابن عباس ؓ قَالَ: مَرَّ رَجُلٌ مِنْ بَنِي سُلَيْمٍ بِنَفَرٍ مِنْ أَصْحَابِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، وَهُوَ يَسُوقُ غَنَمًا لَهُ، فَسَلَّمَ عَلَيْهِمْ، فَقَالُوا: مَا سَلَّمَ عَلَيْنَا إِلَّا لِيَتَعَوَّذَ مِنَّا، فَعَمِدُوا إِلَيْهِ فَقَتَلُوهُ، وَأَتَوْا بِغَنَمِهِ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ؛ فَتَزَلَّتِ الْآيَةُ^(٤).

٧- وعن عبد الله بن أبي حُدُودٍ ؓ قَالَ: بَعَثَنَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ إِلَى إِضْمٍ، وَهُوَ مَوْضِعٌ فِي شِمَالِ الْمَدِينَةِ خَلْفَ جَبَلٍ أُحِدَ مِنْ أَرْضِ جَهينة، قَالَ: فَخَرَجْتُ فِي نَفَرٍ مِنَ الْمُسْلِمِينَ فِيهِمْ: أَبُو قَتَادَةَ (الْحَارِثُ بْنُ رَبِيعٍ) وَ(مُحَلَّمُ بْنُ جَثَامَةَ بْنِ قَيْسٍ)، فَخَرَجْنَا حَتَّى إِذَا كُنَّا بِبَطْنِ إِضْمٍ،

(١) حرقه رجل اسمه جهيش بن عامر، وسمي كذلك لأنه حرق قومًا بالقتل، وبالع في ذلك، وسمي المكان (حُرقات)، وقيل لأهله: قبائل الحُرقات من جهينة.

(٢) ينظر: «صحيح البخاري» برقم (٦٨٧٢) وصحيح مسلم برقم (٩٦، ١٥٨) وأبو داود (٢٦٤٣) و«السنن الكبرى» للنسائي (٨٥٩٤). وانظر في قصة أسامة الحديث السابق.

(٣) «صحيح البخاري» برقم (٤٥٩١) و«صحيح مسلم» (٤/ ٩/ ٢٣) برقم (٣٠٢٥) و«تفسير الطبري» (٩/ ٧٥) وعبد الرزاق (١/ ١٧٠) والنسائي في «السنن الكبرى» (١١١١٦) وابن أبي حاتم (٥٨٣٠، ٨٥٢٥).

(٤) «المسند» (١/ ٢٢٩) (٢٠٢٣، ٢٤٦٢، ٢٩٨٦) من طريق يحيى بن بكير (١/ ٢٧٢) من طريق حسين بن محمد وخلف بن الوليد، و«سنن الترمذي» برقم (٣٠٣٠) و«المستدرک» (٢/ ٢٣٥) و«تفسير الطبري» (٩/ ٧٦) وابن أبي شيبه (١٠/ ١٢٥) والطبراني (١١٧٣١) والحاكم (٢/ ٢٣٥) والبيهقي في «السنن» (٩/ ١١٥) و«صحيح سنن الترمذي» (٢٤٢٦).

مرَّبَّنَا (عامر بن الأضبط الأشجعي)، على قَعُودٍ له، معه مُتَيْع، ووطْبٍ من لَبَن، فلما مرَّ بنا سلَّم علينا، فأمسكنا عنه، وحمل عليه (مُحَلَّم بن جُثَّامة)، فقتله بشيء كان بينه وبينه، وأخذ بعيره ومُتَيْعَه، فلما قَدِمْنَا على رسول الله ﷺ وأخبرناه الخبر؛ نزل فينا القرآن^(١).

٨- في رواية الطبري عن نافع عن ابن عمر رضي الله عنهما: أَنَّ مُحَلَّم بن جُثَّامة بَعَثَ النَّبِيَّ ﷺ مَبْعَثًا، فَلَقِيَ عامر بن الأضبط، فحيَّاهم بتحية الإسلام، وكان بينهما إحن في الجاهلية، فرماه بسهم فقتله، ثم جاء مُحَلَّم في بُردين، فجلس بين يدي رسول الله ﷺ؛ ليستغفر له، فقال ﷺ: «لا غفر الله لك» فقام وهو يتلقَّى دموه ببردِيه، فما مضى عليه سبعة أيام حتى مات، فلفظته الأرض، فجاؤوا إلى النَّبِيِّ ﷺ فذكروا له ذلك؛ فقال: «إِنَّ الْأَرْضَ تَقْبَلُ مَنْ هُوَ شَرٌّ مِنْ صَاحِبِكُمْ، وَلَكِنَّ اللَّهَ يَرِيدُ أَنْ يَعْظَكُم» ثم طرحوه بين صَدْفِي جبل، وأَلْقَوْا عليه الْحِجَارَةَ، ونزلت الآية^(٢).

٩- وفي رواية الحسن شرحًا أوضح للفظ الأرض: قال مُحَلَّم بن جُثَّامة: إن أصحاب النَّبِيِّ ﷺ خرجوا يَطُوفُونَ، فَلَقُوا الْمُشْرِكِينَ، فهزموهم، فشَدَّ مِنْهُمْ رَجُلٌ، فَتَبِعَهُ رَجُلٌ مِنَ الْمُسْلِمِينَ وأَرَادَ مَتَاعَهُ، فلما غَشِيَهِ بِالْبِسْتَانِ، قال: إني مسلم، إني مسلم، فكذَّبه ثم أَوْتَقَهُ وقتله وأخذ متاعه وكان قليلًا.

فَرُفِعَ ذَلِكَ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فقال: «أَقْتَلْتَهُ بَعْدَمَا زَعَمَ أَنَّهُ مُسْلِمٌ؟» فقال: يا رسول الله، إنما قالها مُتَعَوِّذًا، قال: «هَلَّا شَقَقْتَ عَنْ قَلْبِهِ لَتَنْظُرَ أَهْوُ صَادِقٌ أَمْ كَاذِبٌ؟» قال: قلت: أعلم ذلك يا رسول الله، قال: «ويلك، إنك لم تكن تعلم ذلك، إنما بيَّن بلسانه».

قال: فما لبث القاتل أن مات، فدُفِنَ، فأصبح وقد وُضِعَ إِلَى جَنْبِ قَبْرِهِ، قال: ثم عادوا، فحفروا له، وأمكنوا، ودفنوه، فأصبح وقد وُضِعَ إِلَى جَنْبِ قَبْرِهِ، مرتين أو ثلاثًا،

(١) «المسند» (٦/ ١١) (٢٣٨٨١) وابن أبي حُدُودٍ مُخْتَلَفٌ فِي صَحْبَتِهِ، وَالرَّاجِحُ أَنَّهُ لَا صَحْبَةَ لَهُ، وَالصَّحْبَةُ لِأَيِّهِ وَجَدَهُ، قَالَ الْهَيْثَمِيُّ فِي «مَجْمَعِ الزَّوَائِدِ» (٧/ ٧): رَجَالُهُ ثِقَاتٌ، وَحَسَنُهُ د/ حَكَمْتُ بِشِيرٍ «مُرُويَاتِ الْإِمَامِ أَحْمَد» (١/ ٣٨٦).

(٢) ينظر: «تفسير الطبري»، الأرقام (١٠٢١٢، ١٠٢١٣) وغيرهما وينظر: ابن سعد (٤/ ٢٨٢) وابن أبي شيبه (١٤/ ٥٤٧) وابن أبي حاتم (٥٨٢٦) وورد هذا عن جندب البجلي في الطبراني الكبير (١٧٢٣) وهو في الصحيح باختصار.

فلما رَأَوْا أن الأرض لا تقبله أَلْقَوْه في بعضِ الشَّعَابِ، قال: فَأَنْزَلَ اللهُ الْآيَةَ.

قال الحسن: إن الأرض تحبس مَنْ هو شرٌّ منه، ولكن وَعَظَ اللهُ الْقَوْمَ أَلَّا يُعُودُوا^(١).

١٠- وفي سنن ابن ماجة عن عمران بن حصين رضي الله عنه قال: بعث رسول الله ﷺ جيشًا من المسلمين إلى المشركين فقاتلوهم قتالًا شديدًا، فحمل رجلٌ من المسلمين على رجلٍ من المشركين بالرُّمَحِ، فلما غشيه قال: أشهد أن لا إله إلا الله، إني مسلم، فطعنه فقتله. وبعد أن عتقه النبي ﷺ قال له: «فلا أنت قبلت ما تكلم به، ولا أنت تعلم ما في قلبه».

ثم سكت عنه النبي ﷺ، فلم يلبث الرجل إلا يسيرًا حتى مات، فدفنوه، فلم تقبله الأرض، ولفظته على ظهرها، فكرروا دفنه ثلاث مرات، وفي كل مرة يجدوه في الصباح على ظهر الأرض، قال عمران بن حصين: فنبذته الأرض، فأخبر النبي ﷺ وقال: «إن الأرض لتقبل من شر منه، ولكن الله أحب أن يُريكم تعظيم حُرمة - لا إله إلا الله -»^(٢)

١١- وعن (عقبة بن عامر الليثي) أن النَّبِيَّ ﷺ بعث سرية فغارت على قوم، فشدَّ رجلٌ من القوم، فاتَّبعه رجلٌ من السرية شاهرًا سيفه، فقال الرَّجُلُ: أنا مسلم، فلم يَنْظُرْ إليه وضربه فقتله، فتمى ذلك إلى النَّبِيِّ ﷺ فقال فيه قولًا شديدًا، فبلغ القاتل.

فبينما رسول الله ﷺ يَخْطُبُ إذ قال القاتل: والله ما قال الذي قال إلا تعوُّذًا من القتل، فأعرض عنه النَّبِيُّ ﷺ وعمَّن قبله من النَّاسِ، فكرر الرَّجُلُ مقولته ثلاث مراتٍ، فأقبل النَّبِيُّ ﷺ تُعْرِفُ الْمَسَاءَةَ في وجهه فقال: «إن الله أبى عليَّ أن أقتل مؤمنًا» ثلاث مرات^(٣).

فهذه وغيرها روايات متعددة متقاربة المعنى في سبب نزول الآية.

وخلاصة معانيها: أن الآية نزلت في قوم من المسلمين، مرُّوا في سفرهم برجلٍ معه جَمَلٌ وَغَنَمٌ يبيعهما، فسلم على القوم، وقال: «لا إله إلا الله محمد رسول الله» فحَمَلَ عليه

(١) ينظر: ابن أبي حاتم (٥٨٢٤) والبيهقي (٤/ ٣١٠) والواحدي (١٤٥) والسيوطي (٨٤).

(٢) حديث حسن كما في صحيح سنن ابن ماجة (٣١٧٥) وهو في سننه (٣٩٣٠).

(٣) «المسند» (٢٤٤٩٠) وابن سعد (٧/ ٤٨) وابن أبي شيبة (١٢/ ٣٧٨) والنسائي في «السنن الكبرى»

(٨٥٩٣) قال محققو المسند: إسناده صحيح إن كان بشر بن عاصم الليثي هو الذي وثَّقه النسائي، وإلا

كان الإسناد حسنًا، والحديث صحيح لغيره.

أَحَدُهُمْ فَقَتَلَهُ ؛ ظَنًّا مِنْهُ أَنَّ الْمَقْتُولَ نَطَقَ بِالشَّهَادَتَيْنِ ؛ لِیَأْمَنَ عَلَى نَفْسِهِ مِنَ الْقَتْلِ ، فَلَمَّا ذَكَرُوا ذَلِكَ لِلنَّبِيِّ ﷺ شَقَّ عَلَيْهِ ذَلِكَ ، وَنَزَلَتِ الْآيَةُ ، فَوَبَّخَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ الْقَاتِلَ ، وَقَالَ لَهُ : «هَلَّا شَقَقْتَ عَنْ بَطْنِهِ فَعَلِمْتَ مَا فِي قَلْبِهِ» وَحَمَلَ رَسُولُ اللَّهِ دِيَةَ الْقَتِيلِ إِلَى أَهْلِهِ ، وَرَدَّ عَلَيْهِمْ غَنِيمَاتِهِ .

ويبدو أن الحادثة حصلت أكثر من مرة، حيث تعدد اسم القاتل واسم المقتول في الروايات : ففي سيرة ابن إسحاق : أن القاتل (مُحَلَّم بن جَثَّامَة) ، والمقتول (عامر بن الأَضْبَط). وفي رواية ابن القاسم عن مالك : أن القاتل (أسامة بن زيد) ، والمقتول (مِرْدَاس بن نَهْيَك الْفَزَارِي) ، من أهل فَدَك ، من بني مرة . وقيل : إن القاتل أبو قتادة ، وقيل : أبو الدرداء .

قال القرطبي : ولعل هذه الأحوال جَرَتْ في زمان متقاربٍ ، فنزلت الآية في الجميع^(١) . وقد كان عمر بن الخطاب ؓ يَنْهَى عن قتل مَنْ أعلن الاستسلام ، ويُحذِّر مَنْ يقتله بأنه سيقتله به ، وقد أُرْسِلَ بذلك إلى قُوداد جيوشه ؛ لِأَنَّ الَّذِينَ يَقْتُلُونَ مَنْ يَطْلُبُ الْأَمَانَ طَمَعًا فِي مَالِهِ لَا يَكُونُ جِهَادُهُمْ خَالِصًا لِلَّهِ تَعَالَى .

أخرج الطبري وابن أبي حاتم بسند حسن عن علي بن أبي طلحة عن ابن عباس ؓ قال : حَرَّمَ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَنْ يَقُولُوا لِمَنْ شَهِدَ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ ﴿لَسْتَ مُؤْمِنًا﴾ كَمَا حَرَّمَ عَلَيْهِمُ الْمِيتَةَ ، فَهُوَ آمَنٌ عَلَى مَالِهِ وَدَمِهِ ، لَا تَرُدُّوا عَلَيْهِ قَوْلَهُ .

قال العلماء : إذا رأى الغزاة في بلد أو قرية أو حيٍّ من العرب ، شعارَ الإسلام ، يَجِبُ أَنْ يَكْفُوا عَنْهُمْ ، وَلَا يُغَيِّرُوا عَلَيْهِمْ ؛ لِمَا رُوِيَ عَنْ عَصَامِ الْمَزْنِيِّ قَالَ : كَانَ النَّبِيُّ ﷺ إِذَا بَعَثَ جَيْشًا أَوْ سَرِيَّةً يَقُولُ لَهُمْ : «إِذَا رَأَيْتُمْ مَسْجِدًا أَوْ سَمِعْتُمْ مُؤَذِّنًا فَلَا تَقْتُلُوا أَحَدًا»^(٢) .

والكافر إذا نطق بالشهادتين حَرَّمَ قَتْلُهُ ؛ لِأَنَّهُ عَصَمَ نَفْسَهُ مِنْ هَذِرِ دَمِهِ وَمَالِهِ .

(١) «تفسير القرطبي» (٥ / ٣٦٣) وانظر : «تفسير الطاهر بن عاشور» (٤ / ١٦٧) .

(٢) أخرجه أبو داود (٢٦٣٥) والترمذي (١٥٤٩) ، وحسنه ، والنسائي في الكبرى (٨٨٣١) والبخاري (١٧٣١) (زوائد) والطبراني في الكبير ١٧ (٤٦٧) والبيهقي في شرح السنة (٢٧٠٣) والمسند (١٥٧١٤) عن عصام المزني ، وإسناده ضعيف لجهالة ابن عصام المزني ، كما قال محققوه .

هذا: وآيات الجهاد والهجرة التي نحن بصددّها، وإن كانت قد واجهت حالات خاصّة وقت نزولها، إلا أنها تؤصّل مبادئ وقواعد، للمجتمع المسلم في الجهاد بالنفس والمال في كل زمان ومكان.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا ضَرَبْتُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ أي: إذا سافرتُم للغزو والجهاد والقتال في سبيل الله فتبيّنوا حقيقة أمرٍ من هو أمامكم، حتى لا تقتلوا مؤمناً قبل أن تبيّنوا حقيقة كفره، حتى لا ﴿تُضَيِّبُوا قَوْمًا بِجَهْلَةٍ فَتُصَيِّحُوا عَلَىٰ مَا فَعَلْتُمْ نَادِمِينَ﴾ [الحجرات: ٦] فإن عدم التثبت يوقع الإنسان في الشرور والمهالك، ومن ذلك ما حدث من قتل الرجل وأخذ ماله، فقد أمرتم أن تأخذوا بالظاهر، ومن قال كلمة التوحيد بلسانه فقد عصم دمه وماله، وحسابه على ربّ العالمين، والله ﷻ هو الذي يتولى السرائر، فخذوا بظاهر الحال، واتركوا ما في القلوب لعلام الغيوب ﴿وَلَا تَقُولُوا لِمَن أَلْقَىٰ إِلَيْكُمُ السَّلَامَ لَسْتَ مُؤْمِنًا﴾ فإن الذي حملكم على هذا هو الاستعجال والطمع في عرض الدنيا الذي في حودثهم.

ثم نبّههم الله سبحانه ووبّخهم على ما فعلوه من أخذ ماله؛ لأن ذلك يُوحى بأن قتله كان من أجل ذلك، فقال لهم: ﴿تَبْتَغُونَ عَرَضَ الْحَيَوةِ الدُّنْيَا﴾ هل قتلتموه من أجل الأموال والغنائم التي معه؟ من أجل حطام الدنيا الزائل؟ ﴿فَعِنْدَ اللَّهِ﴾ ما هو أعظم من ذلك، وعنده ﴿مَغَانِمٌ كَثِيرَةٌ﴾ أي: أرزاق في الدنيا، وجنات النعيم يوم لقاء ربّ العالمين.

ثم ذكّره الله سبحانه بأنهم كانوا كذلك في وقت من الأوقات، يُخفون إسلامهم خوفاً من عدوّهم، فكما هداكم بعد ضلال، يهدي غيركم، وكما حصلت لكم الهداية شيئاً فشيئاً تحصل لغيركم ﴿كَذَٰلِكَ كُنْتُمْ مِّن قَبْلُ﴾ أي: كنتم تُخفون إيمانكم من كُفّار مكة، فمنّ الله عليكم بالإسلام والهداية، وبالهجرة والتوبة، والأمن والأمان، وآواكم وأيدكم بنصره ﴿فَمَن كَانَ اللَّهُ عَلَيْكُم مِّن تَبَيَّنُوا﴾ ولو أن أحداً أبى أن يُصدّقكم في إسلامكم، أكان يُرضيكم هذا؟ لقد منّ الله عليكم بإظهار الإسلام وإعلاء كلمة الله.

وهذا كقوله تعالى: ﴿وَاذْكُرُوا إِذْ أَنتُمْ قَلِيلٌ مُّسْتَضْعَفُونَ فِي الْأَرْضِ تَخَافُونَ أَن يَخَطَفَكُمُ النَّاسُ فَتَأْوِنَكُمْ وَإَيْدِكُمْ بِنَصْرِهِ﴾ [الأنفال: ٢٦] أي: وكنتم كذلك قبل الإسلام تُقاتلون للحصول على المغانم، وتتقاتلون لأنفه الأسباب، ولا تتحرّجون من سفك الدماء، أما الآن فقد منّ الله عليكم بالإسلام، فلا تُقاتلون إلا لسبب مشروع وهدف نبيل، ومع هذا فإن الحروب

على قَدَمٍ وَسَاقٍ هنا وهناك، والفتن والمعارك يدور رحاها في بعض بلاد المسلمين.

وكذلك الجماعات التي تتخذ من الإسلام شعارًا لها، وليست على قدم راسخة في فهم الإسلام، تُهدد الأمن في بلاد المسلمين، وتسيل الدماء، وتُخرب اقتصاد البلاد، وهي مصدر قلق وإزعاج وترويع للآمنين، وعنوان غير صحيح للإسلام وأهله، ولا يترتب على أفعالهم إلا الضرر.

فأين هم من هذه الآية ﴿وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ أَلْفَقَ إِلَيْكُمْ السَّلَامَ لَسْتَ مُؤْمِنًا﴾ إنهم يكفرون الحُكَّام والعلماء؛ لِشُبْهِهِ في أذهانهم، وجزئيات في الإسلام لا بُدَّ لها من الانضمام إلى غيرها، وردّها إلى أصول الإسلام العامة ﴿وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى الرَّسُولِ وَإِلَى أُولَى الْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ الَّذِينَ يَسْتَنْبِطُونَهُ مِنْهُمْ﴾ وهم الراسخون في العلم، المُحيطون بكامل الكتاب والسنة.

وقد أعاد الله تعالى لفظ ﴿فَتَبَيَّنُوا﴾ مرة أخرى تأكيدًا لوجوب بثِّ الثقة والأمان بين أفراد الأمة، ولأنه ينبغي على الإنسان أن ينظر إلى حاله قبل الهداية حتى يعامل غيره على ضوءها، فيدعوه بالحكمة والموعظة الحسنة، ليحصل النفع والانتفاع لكلا الطرفين، وإذا كان من خرج لجهاد أعداء الله، مأمور بالتبين والتثبت، فإن غير المحارب مأمور بذلك في جميع أحواله من باب أولى ﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا﴾ فيجازي كُلًّا على عمله وقوله ونيته، وهو أعلم بأحوال عباده ونياتهم.

والمعنى: يأيها الذين صدقوا الله واتبعوا رسوله، إذا خرجتم في الأرض مُجاهدين في سبيل الله، فكونوا على بَيِّنَةٍ مِمَّا تَأْتُونَ وتتركون، ولا تنفوا الإيمان عَمَّنْ بَدَأَ مِنْهُ شيء من علامات الإسلام ولم يقاتلكم؛ لاحتمال أن يكون مؤمنًا يُخفي إيمانه، طالبن بذلك متاع الحياة الدُّنْيَا، والله تعالى عنده من الفضل والعطاء ما يُغنيكم به، كذلك كنتم في بدء الإسلام تُخفون إيمانكم عن قومكم المشركين، فَمَنَّ الله عليكم، وأعزَّكم بالإيمان والقُوَّة، فكونوا على بَيِّنَةٍ ومعرفة في أموركم، إن الله تعالى عليمٌ بكلِّ أعمالكم، مُطَّلِعٌ على دقائق أموركم، وسيجازيكم عليها^(١).

(١) هذا المعنى من «التفسير الميسر» نخبة من العلماء.

فَضْلُ الْجِهَادِ

٩٥- ﴿لَا يَسْتَوِي الْقَاعِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُولِي الضَّرَرِ^(١) وَالْمُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ عَلَى الْقَاعِدِينَ دَرَجَةً وَكُلًّا وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَىٰ وَفَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ عَلَى الْقَاعِدِينَ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٩٥﴾﴾

ثمَّ تحدثت الآيات عن فضل الجهاد في سبيل الله، بعد أن لآَمَ الله تعالى بَعْضَ الْمُجَاهِدِينَ عَلَى مَا حَدَثَ مِنْهُمْ مِنْ مُخَالَفَاتٍ تَقْدُحُ فِي جِهَادِهِمْ وَإِيمَانِهِمْ، فَبَيْنَ سَبْحَانَهُ أَنَّهُ لَا يَسْتَوِي مَنْ جَاهَدَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ بِنَفْسِهِ وَمَالِهِ، وَمَنْ لَمْ يَخْرُجْ لِلْجِهَادِ وَيَقَاتِلْ أَعْدَاءَ اللَّهِ، غَيْرَ أَهْلِ الْأَعْدَارِ كَالْمَرِيضِ وَالْأَعْمَى وَالْأَعْرَجِ، فَإِنَّهُمْ لَا يَسْتَوُونَ بِالْقَاعِدِينَ عَنِ الْجِهَادِ مِنْ غَيْرِ عَذْرٍ، فَإِنَّ أَهْلَ الْأَعْدَارِ يَتِمَتُونَ الْجِهَادَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَيُحَدِّثُونَ بِهِ أَنْفُسَهُمْ لَوْ لَا وَجُودَ الْمَانِعِ، فَإِنَّهُمْ بِمَنْزِلَةٍ مِنْ خَرَجَ مُجَاهِدًا، وَفِي الْآيَةِ نَفْيُ التَّسْوِيَةِ بَيْنَ الْمُجَاهِدِ وَغَيْرِهِ.

ثم صرَّحَ سَبْحَانَهُ بِتَفْضِيلِ الْمُجَاهِدِينَ عَلَى الْقَاعِدِينَ بِالرَّفْعَةِ وَالْمَكَانَةِ، وَوَعَدَهُمْ بِالْمَغْفِرَةِ وَالرَّحْمَةِ، كَمَا جَاءَ فِي الصَّحِيحِينَ «إِنَّ فِي الْجَنَّةِ مِثَّةَ دَرَجَةٍ، مَا بَيْنَ كُلِّ دَرَجَتَيْنِ كَمَا بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أَعَدَّهَا اللَّهُ لِلْمُجَاهِدِينَ فِي سَبِيلِهِ»^(٢).

ونظير ذلك قوله تعالى ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا هَلْ أَذِلُّكُمْ عَلَىٰ تَحَرُّوْهُ شَيْعُكُمْ مِنْ عَذَابِ أَلِيمٍ ﴿١٠﴾ تَوَّعَّنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَتُجَاهِدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ ذَلِكَ خَيْرٌ لَّكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١١﴾ يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَيُدْخِلْكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَمَسْكِنٌ طَيِّبٌ فِي جَنَّاتٍ عَدْنٍ ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿١٢﴾ وَأُخْرَىٰ يُحِبُّونَهَا نَصْرٌ مِنَ اللَّهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ وَبَشِيرٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الصف]

وكان النَّبِيُّ ﷺ إذا أراد الخروج لغزوة من الغزوات أَعْلَمَ قَوْمَهُ، وَفِي غَزْوَةِ بَدْرٍ اسْتَشَارَ قَوْمَهُ فِي الْخُرُوجِ، فَأَرَادَ قَوْمُ التَّخَلُّفِ عَنِ الْجِهَادِ مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، وَالْمُجَاهِدِ فِي السَّابِقِ كَانَ يُعِدُّ نَفْسَهُ لِلْجِهَادِ بِالْمَالِ وَالنَّفْسِ مَعًا، فَيَحْضُرُ سِلَاحَهُ وَزَادَهُ وَمَتَاعَهُ مِنْ مَالِهِ الْخَاصِّ، وَيَذْهَبُ بِنَفْسِهِ مُجَاهِدًا فِي سَبِيلِ اللَّهِ.

(١) قرأ ابن كثير وأبو عمرو وعاصم وحزمة ويعقوب (غَيْرُ) بالرفع على أن (غَيْرُ أُولِي الضَّرَرِ) بدل من (القاعدون) أو صفة، وقرأ الباقون (غَيْرَ) بالنصب، على الاستثناء أو الحال من (القاعدون).

(٢) يأتي تخريجه قريباً.

فَبَيَّنَ سبحانه في هذه الآية أَنَّ الْمُجَاهِدِينَ الَّذِينَ يَخْرُجُونَ فِي غَزْوَةٍ مِنَ الْغَزَوَاتِ مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ يُجَاهِدُونَ بَأَنْفُسِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ؛ لِإِعْلَاءِ كَلِمَةِ اللَّهِ فِي كُلِّ زَمَانٍ وَمَكَانٍ، لَهُمْ فَضْلٌ عَظِيمٌ، وَدَرَجَةٌ كَبِيرَةٌ، عَنِ الْقَاعِدِينَ عَنِ الْجِهَادِ.

في أسباب النزول:

١- روى البراء بن عازب وسهل بن سعد الساعدي وخارجة بن زيد بن ثابت قالوا: قال زيد بن ثابت كاتب الوحي الملازم لرسول الله ﷺ: إني كنتُ قاعدًا إلى جنبِ رسول الله ﷺ إذ أُوحِيَ إِلَيهِ، قال: وَغَشِيَتْهُ السَّكِينَةُ، قال: فوقع فخذته على فخذي حين غَشِيَتْهُ السَّكِينَةُ، ثُمَّ سُرِّيَ عَنْهُ، فقال: «اكتب يا زيد»، فَأَخَذْتُ كِتْفًا، فقال: «لَا يَسْتَوِي الْقَاعِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُجَاهِدِينَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ»، هَكَذَا نَزَلَتِ الْآيَةُ أَوَّلًا، بِدُونِ ﴿عَبْدُ أُولَى الضَّرَرِ﴾.

وبينما الرَّسُولُ ﷺ يُمْلِي، وَزَيْدٌ يَكْتُبُ، إِذْ دَخَلَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ أُمِّ مَكْتُومٍ، الرَّجُلُ الْأَعْمَى الضَّرِيرُ، فَسَمِعَ الْآيَةَ وَفِيهَا فَضْلُ الْمُجَاهِدِينَ، فقال: يَا رَسُولَ اللَّهِ، لَوْ أَسْتَطِيعُ الْجِهَادَ مَعَكَ لَذَهَبْتُ، كَيْفَ لِي وَأَنَا رَجُلٌ أَعْمَى؟ فَغَشِيَتْ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ السَّكِينَةُ، ثُمَّ سُرِّيَ عَنْهُ، فقال: «اقْرَأْ يَا زَيْدُ، اقْرَأْ مَا أَمْلَيْتُهُ عَلَيْكَ»، فَقَرَأْتُ: ﴿لَا يَسْتَوِي الْقَاعِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ قال: «اكتب ﴿عَبْدُ أُولَى الضَّرَرِ﴾» قال زيد: فَأَلْحَقْتُهَا، فَوَاللَّهِ لَكَأَنِّي أَنْظُرُ إِلَى مُلَحَقِهَا عِنْدَ صَدْعٍ كَانَ فِي الْكَتِفِ^(١).

٢- وعن ابن عباس أن عبد الله بن جحش^(٢) -الرَّجُلُ الْأَعْمَى كَذَلِكَ- قال مِثْلَ هَذِهِ الْعِبَارَةِ لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ حِينَ نَزَلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ^(٣).

(١) ينظر مسند أحمد (٥/ ١٩١) (٢١٦٠١) بإسناد صحيح على شرط الشيخين، وهو حديث حسن لذاته صحيح لغيره، (محققوه) وأخرجه مسلم (١٨٩٨، ١٤١) وأبو داود، كتاب الجهاد (٣/ ١١) برقم (٢٥٠٧) وقد ذكرْتُ بَعْضَهُ بِالْمَعْنَى، وينظر البخاري: تفسير سورة النساء (٦/ ٦٠) برقم (٤٥٩٢، ٤٥٩٤) و«تحفة الأحوذى» (٨/ ٣٨٨) و«تفسير عبد الرزاق» (١/ ١٦٤) والطبراني (٤٨٥١، ٤٨٥٢) والحاكم (٢/ ٨١) وابن سعد (٤/ ٢١١) وسعيد بن منصور (٦٨١) و«صحيح سنن أبي داود» (٢١٨٨).

(٢) وهو غير عبد الله بن جحش الذي أَمَرَهُ الرَّسُولُ عَلَى سَرِيَّةٍ، وَقُتِلَ فِي أَحَدٍ، وَهَذَا أَخُوهُ، وَالصَّوَابُ أَنَّ اسْمَهُ عَبْدُ بَنِ جَحْشٍ، كَمَا قَالَ ابْنُ حَجَرٍ فِي الْفَتْحِ (٨/ ٢٦٢).

(٣) جاء هذا في «صحيح سنن الترمذي» (٢٤٢٨) والنسائي في «السنن الكبرى» (١١١١٧) والطبراني (٧/ ٣٧٠) والبيهقي في «السنن» (٩/ ٤٧).

٣- وأخرج البخاري وغيره بسنده عن سهل بن سعد، عن مروان بن الحكم، عن زيد بن ثابت قال: كنتُ عند النبي ﷺ حين نزلت عليه ﴿لَا يَسْتَوِي الْقَاعِدُونَ﴾ ولم يُذكر (غير أولي الضرر) فقال ابن أم مكتوم: كيف وأنا أعمى لا أبصر؟ قال زيد: فتغشى النبي ﷺ (أي: جاءه) في مجلسه الوحي، فأتكأ على فخذي، فوالذي نفسي بيده، لقد ثقل عليّ فخذي حتى خشيتُ أن يرَضَّها، ثم سرَّي عنه، فقال: «اكتب ﴿لَا يَسْتَوِي الْقَاعِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُولِي الضَّرَرِ﴾» فكتبتها^(١).

٤- وقال أبو إسحاق: سمعتُ البراء يقول: لما نزلت هذه الآية، دعا رسول الله ﷺ زيداً، فجاء بكتف وكتبها، فشكا ابن أم مكتوم ضرارته فنزلت ﴿غَيْرُ أُولِي الضَّرَرِ﴾^(٢).

٥- وفي لفظ أن زيداً جاء ومعه الدواة واللوح والكتف، وأن ابن أم مكتوم قال: يا رسول الله، أنا ضير^(٣).

والكتف: من الأشياء التي كان يُدَوَّنُ فيها القرآن، ولم يكن الورق موجوداً آنذاك.

٦- وأخرج ابن عساكر من طريق عتيق بن يعقوب الزبيري قال: قدِمَ هارون الرشيد المدينة، فوجّه البرمكيّ إلى مالك وقال له: احمل إليّ الكتاب الذي صنَّفته حتى أسمعَه منك، فقال للبرمكيّ، أقرئه السلام وقل له: إن العلم يُزار ولا يزور، وإن العلم يُؤتى ولا يأتي، فرجع البرمكيّ إلى هارون فقال له: يا أمير المؤمنين، يبلغ أهل العراق أنك وجَّهْتَ إلى مالك فخالفك، اعزم عليه حتى يأتِكَ.

فإذا بمالك قد دخل، وليس معه كتابٌ، وأتاه مسلماً فقال: يا أمير المؤمنين، إن الله جعلك في هذا الموضع لعلمك، فلا تكن أنت أوَّلَ مَنْ يضع العلم فيضعك الله، ولقد رأيتُ مَنْ ليس في حسبك ولا بيتك يُعزُّ العلم ويجلُّه، فأنت آخرى أن تُعزَّ وتُجلَّ علم ابن عمك.

ولم يزل يُعَدُّ عليه من ذلك حتى بكى هارون الرشيد، ثم قال: أخبرني الزهري، عن

(١) «صحيح البخاري» برقم (٢٨٣٢، ٤٥٩٢، ٤٥٩٤) و«صحيح مسلم» (٣/ ١٥٠٨) برقم (١٨٩٨).

(٢) ينظر البخاري برقم (٢٨٣١، ٤٩٩٠) ومسلم في الإمارة برقم (١٨٩٨) و«أسباب النزول» للواحدي (١٤٧) والسيوطي (٨٥).

(٣) البخاري برقم (٤٥٩٣، ٤٥٩٤).

خارجة بن زيد، قال: قال زيد بن ثابت: كنت أكتب بين يدي رسول الله ﷺ في كتيف (لا يستوي القاعدون من المؤمنين والمجاهدون) وابن أم مكتوم عند النبي ﷺ فقال: يا رسول الله، قد أنزل الله في فضل الجهاد ما أنزل، وأنا رجلٌ ضريّرٌ، فهل لي من رخصة؟ فقال النبي ﷺ: «لا أدري».

قال زيد بن ثابت: وقلمي رطبٌ ما جفَّ حتى غشي النبي ﷺ الوحي، ووقع فخذه على فخذي حتى كادت تُدَقَّ من قبل الوحي؟ ثمَّ جُلِّيَ عنه فقال لي: «اكتب يا زيد ﴿عَيَّرَ أُوْلَى الضَّرَرِ﴾»، فيا أمير المؤمنين، حرفٌ واحدٌ بُعث به جبريل والملائكة عليهم السلام، من مسيرة خمسين ألف عام حتى أنزل على نبيه ﷺ، أفلا ينبغي لي أن أعزّه وأجلّه؟^(١).

٧- وقال قتادة: نزلت في ابن أم مكتوم أربع آيات: ﴿لَا يَسْتَوِي الْقَاعِدُونَ﴾ ونزل فيه: ﴿لَيْسَ عَلَى الْأَعْمَى حَرْجٌ﴾ [الفتح: ١٧] ونزل فيه: ﴿فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَرُ﴾ [الحج: ٤٦] ونزل فيه: ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّى﴾ ﴿١﴾ فدعا به النبي ﷺ فأدناه وقربه، وقال: «أنت الذي عاتبني فيك ربي»^(٢).

هذا: وكما فضّل الله المُجَاهِدِينَ على القاعدين، فَضَّلَ بعضَ المُجَاهِدِينَ على بعض، كما قال تعالى: ﴿لَا يَسْتَوِي مِنْكُمْ مَنْ أَنْفَقَ مِنْ قَبْلِ الْفَتْحِ وَقَتْلَ أَوْلِيَّكَ أَعْظَمَ دَرَجَةً مِنَ الَّذِينَ أَنْفَقُوا مِنْ بَعْدُ وَقَتْلُوا وَكُلًّا وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَى﴾ [الحديد: ١٠].

ومفهومُ المخالفة لاستثناء أولي الضّرر يفيد أن من يترك الجهاد لعذر، إذا كانت نيّته سالحة يحصل على ثواب المُجَاهِدِينَ.

والقاعدون: هم الذين قعدوا عن الجهاد؛ بسبب مانع من مباشرته، وهذا السبب حدّده القرآن بالأعمى والأعرج والمريض ﴿لَيْسَ عَلَى الْأَعْمَى حَرْجٌ وَلَا عَلَى الْأَعْرَجِ حَرْجٌ وَلَا عَلَى الْمَرِيضِ حَرْجٌ﴾ [الفتح: ١٧].

وقد نزلت جملة ﴿عَيَّرَ أُوْلَى الضَّرَرِ﴾ وخدّها؛ لعذر عبد الله بن أم مكتوم، ولعذر الأعمى والأعرج والمريض، وسائر أهل الأعذار في التخلف عن الجهاد، نَزَلَ بها جبريلُ، وأمر

(١) أخرجه ابن عساكر (٢٦/ ٣١١) و انظر المسند برقم (٢١٦٦٤) حديث صحيح بإسناد حسن لأن فيه عبدالرحمن بن أبي الزناد، كما قال محققوه.

(٢) أخرجه ابن المنذر كما في «الدر المنثور» (٤/ ٦٣١).

النَّبِيِّ ﷺ زَيْدًا أَنْ يَضَعَهَا فِي مَكَانِهَا .

وقد بَيَّنَّتِ الآيَةُ أَنَّ الْمُجَاهِدِينَ وَالْقَاعِدِينَ لَا يَسْتَوِيَانِ، لَا يَسْتَوِي هَؤُلَاءِ وَهَؤُلَاءِ ﴿فَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ عَلَى الْقَاعِدِينَ دَرَجَةً﴾ والمراد: القاعدون من أهل الأعذار من أولي الضرر وعندهم نيَّةُ الجهاد، ولكنهم لم يُباشروه لوجود الموانع، فَضَّلَ الله الْمُجَاهِدِينَ عَلَيْهِمْ بدرجة؛ لوجود النيَّةِ وعدم مباشرة الجهاد، قال تعالى: ﴿وَكَلَّا وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَى﴾ أي: كَلَّا من القاعدين والمُجَاهِدِينَ الذين عندهم نيَّةُ الجهاد، ولكن الضرر هو الذي حال بينهم وبين المشاركة في الجهاد، وَعَدَهُمَ الله الجنة.

والجهاد يكون فرضَ عينٍ إذا دخل العدو جزءًا من ديار المسلمين، فيتعيَّن على أهل هذه الديار قتالهم، فإن لم يستطيعوا مقاومتهم وحدهم، انضم إليهم أهل البلد المسلم المجاور، ثُمَّ أهل البلد الذي يليه، وهكذا.

ويكون الجهاد فرضَ كفايةٍ في حالة السلم؛ لنشر الدَّعوة، وتأمين وصولها إلى الناس، وحماية الثغور الإسلامية، وأهل الأعذار مُستثنون من الجهاد بالنفس، ولكن لهم إمكانية الجهاد بالمال واللسان والمقال.

في صحيح البخاري وغيره عن أبي هريرة ؓ أن رسول الله ﷺ قال: «إن في الجنة مئة درجة، أعدّها الله للمجاهدين في سبيله، ما بين الدرجتين كما بين السماء والأرض، فإذا سألت الله فاسأله الفردوس، فإنه أوسط الجنة، وأعلى الجنة، ومنه تَفْجَرُ أنهار الجنة»^(١).

وبَيَّنَ عليه الصَّلَاة والسلام أن أولي الضرر، وهم في أَمَكَّتِهِمْ يُشاركون إخوانهم الْمُجَاهِدِينَ في سبيل الله في الأجر، فقال ﷺ فيما يرويه أنس ؓ: «لقد تركتُم بالمدينة أقوامًا ما سرتُم من مسيرٍ، ولا أنفقتُم من نفقة، ولا قطعتم من وادٍ، إلا وهم معكم فيه»، قالوا يا رسول الله، كيف يكونون معنا وهم بالمدينة؟ قال: «نعم، حَبَسَهُمُ العذر»^(٢).

(١) من حديث أبي هريرة في البخاري برقم (٢٧٩٠، ٧٤٢٣) وفي مسلم برقم (١٨٨٤) والبيهقي في «الأسماء والصفات» (٨٤٥).

(٢) «المسند» (١٢٦٢٩، ١٣٢٣٧)، بإسناد صحيح على شرط مسلم، رجاله ثقات رجال الشيخين غير حماد بن سلمة فمن رجال مسلم (محققه) وأخرجه أبو يعلى (٤٢٠٩) والبخاري معلقا (٢٨٣٩) وأبو داود (٢٥٠٨).

فالذي منعهم عن الجهاد معكم هو الأعذار الحقيقية، وقد عَلَّمَ الله صِدْقَ نِيَّاتِهِمْ؛ فَأَثَابَهُمْ عَلَيْهَا.

وعن أنس أيضًا قال: رجعنا من غزوة تبوك مع النَّبِيِّ ﷺ فقال: «إِنْ أَقْوَامًا خَلَّفْنَا بِالْمَدِينَةِ، مَا سَلَكْنَا شِعْبًا، وَلَا وَادِيًا، إِلَّا وَهُمْ مَعَنَا، حَبَسَهُمُ الْعَذْرُ»^(١).

قال تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ لَا يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ وَلَا نَصَبٌ وَلَا مَخْمَصَةٌ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَطْغُونَ مَوْطِنًا يَعْصِمُ الْكُفَّارَ وَلَا يَتَأَلَوْنَ مِنْ عَدُوٍّ نَيْلًا إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ بِهِ عَمَلٌ صَالِحٌ إِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ ﴿١٧٠﴾ وَلَا يُنْفِقُونَ نَفَقَةً صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً وَلَا يَقْطَعُونَ وَادِيًا إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ لِيَجْزِيَهُمُ اللَّهُ أَحْسَنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [التوبة].

والمعنى: لا يَتَسَاوَى المتخلفون عن الجهاد في سبيل الله - غير أصحاب الأعذار منهم - والمجاهدون في سبيل الله بأموالهم وأنفسهم، فَضَّلَ الله الْمُجَاهِدِينَ على القاعدين، وَرَفَعَ منزلتهم درجةً عاليةً في الجنة، وقد وَعَدَ الله كُلًّا من الْمُجَاهِدِينَ بأموالهم وأنفسهم والقاعدين من أهل الأعذار الجنة؛ لِمَا بذلوا وَضَحُّوا في سبيل الحق، وَفَضَّلَ الله الْمُجَاهِدِينَ على القاعدين ثوابًا جزيلاً قال تعالى:

٩٦- ﴿وَرَجَعَتْ مِنْهُ وَمَغْفِرَةٌ وَرَحْمَةٌ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا﴾ ﴿٩٦﴾

هذه الدرجات هي: درجة الإسلام، ودرجة الهجرة، ودرجة الجهاد، ودرجة الشهادة، وهذا الثواب الجزيل درجاتٌ عاليةٌ في الجنات؛ ثوابًا من الله تعالى لخاصَّة عباده الْمُجَاهِدِينَ في سبيله، ومغفرةً لذنوبهم، ورحمةً واسعةً فينعمون فيها، ﴿وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا﴾ لِمَنْ تاب وأُتَابَ ﴿رَحِيمًا﴾ بأهل طاعته الْمُجَاهِدِينَ في سبيله.

عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «يَا أَبَا سَعِيدٍ، مَنْ رَضِيَ بِاللَّهِ رَبًّا، وَبِالْإِسْلَامِ دِينًا، وَبِمُحَمَّدٍ نَبِيًّا، وَجَبَتْ لَهُ الْجَنَّةُ» فعجب لها أبو سعيد، فقال: أَعَدَّهَا عَلَيَّ يَا رَسُولَ اللَّهِ، ففعل، ثُمَّ قَالَ: «وَأُخْرَى يُرْفَعُ بِهَا الْعَبْدُ مِائَةَ دَرَجَةٍ فِي الْجَنَّةِ، مَا بَيْنَ كُلِّ دَرَجَتَيْنِ كَمَا بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ»، قال: وما هي يَا رَسُولَ اللَّهِ؟ قال: «الْجِهَادُ فِي سَبِيلِ

(١) أبو داود، كتاب الجهاد (٣/ ١٢) برقم (٢٥٠٨) وانظر «صحيح البخاري» برقم (٢٨٣٨، ٢٨٣٩)

و«صحيح مسلم» برقم (١٩١١) عن جابر بمعناه و«المسند» (٣/ ١٠٣).

الله، الجهاد في سبيل الله»^(١).

وقد فَضَّلَ الله الْمُجَاهِدِينَ بأموالهم وأنفسهم على القاعدين من أولي الضَّرَرِ درجةً واحدةً؛ لجهادهم بأنفسهم، هذا معنى ﴿فَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ عَلَى الْقَاعِدِينَ﴾ أي: بعذر ﴿دَرَجَةً﴾ وَفَضَّلَ الْمُجَاهِدِينَ على القاعدين بغير عذر درجاتٍ وأجرًا عظيمًا، وهذا معنى ﴿وَفَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ عَلَى الْقَاعِدِينَ﴾ أي: بغير عذر ﴿أَجْرًا عَظِيمًا﴾ ﴿٩٥﴾ دَرَجَاتٍ مِنْهُ.

فالمُفَضَّلُ عليهم بدرجة واحدة هم أهل الأعذار، والمفضل عليهم بدرجاتٍ وأجرٍ عظيم ومغفرةٍ ورحمةٍ هم مَنْ لا عُذْرَ لهم في التخلف عن الجهاد، وهذا أَوْلَى مَنْ يَقُولُ: إنَّ المُفَضَّلَ عليهم بدرجة وبدرجات صنفٌ واحدٌ، وهم الذين قعدوا عن الجهاد بدون عُذر، أما أهل الأعذار فهم مُتَسَاوُونَ في الأجر مع الْمُجَاهِدِينَ^(٢).

قال القرطبي: فَضَّلَ الله الْمُجَاهِدِينَ على القاعدين من أولي الضَّرَرِ بدرجة واحدة، وَفَضَّلَ الله الْمُجَاهِدِينَ على القاعدين من غير عذر درجاتٍ^(٣).

وهذا على أن المراد بالقاعدين هم أولو الضرر^(٤).

فقد مَيَّزَتِ الآيَةُ الْمُجَاهِدِينَ في سبيل الله على القاعدين ولا عذر لهم بأربع مزايا هي:

١- الأجر العظيم. ٢- الدرجات الكثيرة.

٣- مغفرة الذنوب. ٤- رحمة الله ورضوانه.

وَجُوبُ الْهَجْرَةِ مِنْ دِيَارِ الْكُفْرِ بِسَبَبِ الْاضْطِهَادِ

٩٧- ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّيْتُمُ^(٥) الظَّالِمِينَ أَنْفُسِهِمْ قَالُوا فِيمَ^(٦) كُنْتُمْ قَالُوا كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي الْأَرْضِ

(١) «صحيح مسلم» برقم (١٨٨٤) والنسائي (٣١٣١) والحاكم (٩٣ / ٢) وأبو داود مختصرًا (١٥٢٩).

(٢) وبالأول قال الزمخشري في «الكشاف» (٥٥٤ / ١)، وبالتالي قال الألوسي في تفسيره (١٢٣ / ٥).

(٣) «تفسير القرطبي» (٥ / ٢٤٤).

(٤) كما قال الجمل في حاشيته على الجلالين (٤١٥ / ١) وانظر «تفسير الطبري» (١ / ٢٣١).

(٥) قرأ البزي بتشديد التاء وصلًا من (توفاهم) بخلف عنه، وقرأ الباقر بالتخفيف وابتدئ جميع القراء بتاء واحدة مخففة.

(٦) وقف البزي ويعقوب على (فيم) بهاء السكت بخلف عنهما.

قَالُوا أَلَمْ تَكُنْ أَرْضَ اللَّهِ وَسِعَةً فَهَاجِرُوا فِيهَا فَأُولَٰئِكَ مَأْوَهُمْ ^(١) جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا ﴿٩٧﴾

ولمَّا ذَكَرَ الله سبحانه حُكْمَ القاعدين عن الهجرة بعذر وبغير عذر، ذَكَرَ سبحانه حُكْمَ الذين قعدوا عن إظهار إسلامهم، فَفَتَنَهُمُ المشركون عن دينهم، وأعادوهم إلى عبادة الأصنام، فَبَيَّنَ حالَهُم من حال الذين أظهروا إسلامهم، وَلَحِقُوا بالمسلمين في المدينة النَّبَوِيَّةِ، وفي هذه الآية وعيد شديد لمن ترك الهجرة من ديار الكفر إلى ديار الإسلام مع قدرته عليها، وبقي مستضعفًا في دينه ونفسه وولده حتى مات، وعندئذ توبخه الملائكة هو وأمثاله عند قبض الروح قائلة ﴿فِيمَ كُنْتُمْ﴾ على أي حال كنتم؟ لقد عشتُم أذلاءً في دينكم ودنياكم مظلومين مقهورين، وكان بإمكانكم أن تهاجروا في أرض الله الواسعة، فإن لكم فيها متسعًا وفسحة تتمكنون فيها من عبادة الله تعالىن وتعيشون أعزة أحرارًا كما قال تعالى: ﴿يَعْبَادِي الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنَّ أَرْضِي وَسِعَةٌ فَإِنِّي فَاعْبُدُونِ﴾ [العنكبوت: ٥٦].

وقد توَعَدَ الله هذا الصنف من الناس ممن لا عذر لهم في ترك الهجرة، بعذاب جهنم وبئس المصير مصيرهم، توَعَدَهُمُ الله تعالى بهذا الوعيد لأن منهم من ارتدَّ وقُتِلَ كافرين، ومنهم من آثر البقاء بين ظهرائي المشركين على الهجرة إلى ديار المسلمين والإقامة بينهم.

وقد كانت الهجرة في بدء الدَّعْوَةِ مطلوبةً من كلِّ مسلم، ذلكم أنه لَمَّا أُوْذِيَ المسلمون في مكة، أَذِنَ رسول الله ﷺ في الهجرة إلى الحبشة؛ فهاجروا إليها مرتين، ثُمَّ تَكَوَّنَتْ نواةُ الإسلام في المدينة، فَأَمَرَ أصحابه بالهجرة إليها كما هاجر ﷺ إليها أيضًا، وأُقيمت دولةُ الإسلام بالمدينة، وكانت الهجرة قبل فتح مكة فرضًا على كل مسلم، لا يَسْتَقِيمُ الإيمان، ولا يُعَدُّ العبد مسلمًا، إلا إذا لَحِقَ بالمسلمين وهاجر إليهم؛ ليكونَ معهم دولةُ الإسلام، ويقوِّي شَوْكَةَ المسلمين.

ولكن بَقِيَ في مكة فئةٌ قليلةٌ لم يهاجروا، فقد آثروا مَصْلَحَتَهُم ووطنهم وديارهم وأهلهم، ولم يخرجوا للهجرة.

ولَمَّا كانت غزوةُ بدر، لم تترك قريشٌ أحدًا في مكة إلا أخذته عَنُوَّةٌ وكُرْهًا لقتال المسلمين، وكان من الذين أخذتهم قريش، بعضَ الذين آمنوا ولم يُهاجروا، مثل: الفاكهة بن المغيرة، وقيس بن الوليد بن المغيرة، فخرجوا في صفوف المشركين يوم بدر، فأصيب

(١) أبْدَل السوسي وأبو جعفر همزة (مأواهم) أَلْفًا، وكذا حمزة عند الوقف.

بعضهم بسهم قتله، فعرفهم إخوانهم المسلمون الذين قدموا من المدينة حين رأوهم، وقالوا: هؤلاء إخواننا، كانوا قد أسلموا، ولكنهم لم يُهاجروا وأُكْرهوا على الخروج مع المشركين والقتال معهم، فاستغفروا لهم، فأنزل الله تعالى هذه الآية.

﴿إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّيْتُمُ الْمَلَائِكَةَ ظَالِمِينَ أَنْفُسِهِمْ﴾^(١) بالإقامة في دار الشرك، وإخفاء إيمانهم، وقد ظلموا أنفسهم بعدم الهجرة والخروج مع رسول الله ﷺ، وظلموا أنفسهم ببقائهم في ديار الكُفر، ولم يتمكنوا من إقامة دينهم وشعائهم.

ثُمَّ أَخْبَرَ سبحانه عن حالهم عند الموت؛ حيث قالت لهم الملائكة تَأْنِيئًا وتوبيخًا حين قَبَضُوا أرواحهم ﴿فِيمَ كُنْتُمْ؟﴾ لماذا لم تهاجروا؟ ﴿قَالُوا كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي الْأَرْضِ﴾ لم نتمكن من الهجرة لضغفنا، فكذَّبهم الله تعالى في نفس الآية على لسان الملائكة ﴿قَالُوا﴾ أي قالت لهم الملائكة وهي تقبض أرواحهم تَأْنِيئًا لهم ﴿أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللَّهِ وَسِعَةً فَهَاجِرُوا فِيهَا﴾ لقد كان في إيمانهم أن يخرجوا من مكة، ولكنهم فَضَّلُوا البقاء فيها لمصلحتهم، قال سبحانه متوعداً لهم بعذاب جهنم؛ لأن منهم من ارتدَّ وَقُتِلَ كَافِرًا: ﴿فَأُولَٰئِكَ مَأْوَهُمْ جَهَنَّمُ وَسَاءَتْ مَصِيرًا﴾.

وهذه الآية تنطبق على كلِّ مسلم يُقيم في ديارِ الكُفر، وليس في إمكانه أن يعبد الله تعالى، ولا يقدر أن يظهر شعائر دينه بين أظهر المشركين، فإنه يجب عليه أن يخرج من هذه الديار، ولا يبقى بين أهلها، ومثله من لا يتمكن من أداء شعائر الإسلام الظاهرة في بلاد المسلمين، ويكون عرضة للسجن والتعذيب، وهو أهل الاعتدال والوسطية.

أما إذا كان الإنسان حرًّا طليقًا يعبد الله تعالى كما يشاء، ويُظهر شعائر دينه كما يُريد، فلا يكون ظالمًا لنفسه، ولا تنطبق عليه الآية.

ولمَّا نَزَلَتْ هذه الآية أُرْسِلَ المسلمون الذين في المدينة إلى المسلمين الذين في مكة، يُعلمونهم بما نَزَلَ على رسول الله ﷺ في المدينة، ولا يعلم به أهل مكة، أُرْسِلُوا إليهم يقولون: لا عذر لكم في عدم الهجرة واللحاق برسول الله ﷺ.

(١) ينظر: ابن جرير (٧/ ٣٨١، ٣٨٣) وابن أبي حاتم (٥٨٦٣، ٥٨٦٥، ١٧١٧٠) والبيهقي في «السنن» (٩/ ١٤) عن ابن عباس.

فخرجوا من مكة مهاجرين، فلاحقهم المشركون فقاتلوه، وعذبوهم، وفتنوه، وأخرجوا بعضهم عن دينهم؛ فأنزل الله سبحانه عشر آيات من أول سورة العنكبوت: ﴿الْعَمَّ ١١١﴾ أَحَسِبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا ءَامَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ ﴿١١٢﴾ وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ ﴿١١٣﴾ إِلَى قَوْلِهِ سبحانه: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ ءَامَنَّا بِاللَّهِ فَإِذَا أُوذِيَ فِي اللَّهِ جَعَلَ فِتْنَةَ النَّاسِ كَعَذَابِ اللَّهِ﴾.

فأبلغوهم بنزول هذه الآيات، فحزبوا وخرجوا مرة ثانية مهاجرين إلى المدينة؛ فلاحقهم المشركون، وقتلوا منهم من قتلوا، ونجا منهم من نجا؛ فأنزل الله سبحانه: ﴿ثُمَّ إِنَّكَ رَبُّكَ لِلَّذِينَ هَاجَرُوا مِنْ بَعْدِ مَا فُتِنُوا ثُمَّ جَاهِدُوا وَصَبَرُوا إِنَّكَ رَبُّكَ مِنْ بَعْدِهَا لَعَفُورٌ رَحِيمٌ ١١٠﴾ [النحل] فكتبوا إليهم: إن الله قد جعل لكم مخرجاً^(١).

والآية عامة في كل من أقام بديار الكفر بغير هدف الدعوة إلى الله، أو لسبب يوجد له نظير في بلاد المسلمين، كالعلاج والتعليم ونحوهما، ولم يتمكن من إقامة شعائر دينه، وكذا إذا كان في بلاد الإسلام التي فيها اضطهاد للإسلام وأهله.

١- قال عكرمة: أخبرني ابن عباس أن ناساً من المسلمين كانوا مع المشركين، يكثر سواد المشركين على رسول الله ﷺ، فيأتي السهم فيرمى به، فيصيب أحدهم فيقتله، أو يضرب عنقه فيقتل، فأنزل الله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّيْتُمْ أَمْلَكُكُمْ ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ﴾^(٢).

٢- وعن الأشعث بن سواد، عن عكرمة، عن ابن عباس ؓ قال في الآية: كانوا قومًا من المسلمين بمكة، فخرجوا في قوم من المشركين في قتال، فقتلوا معهم؛ فنزلت^(٣).

٣- وقال عكرمة: نزلت هذه الآية في شباب من قريش، كانوا تكلموا بالإسلام بمكة، منهم: علي بن أمية بن خلف، وأبو قيس بن الوليد بن المغيرة، وأبو العاص بن منبه بن

(١) ينظر النص في «مجمع الزوائد» (٧/ ١٠٠) قال الهيثمي: رجاله رجال الصحيح غير محمد بن شريك، وهو ثقة، وهو في «تفسير الطبري» برقم (١٠٢٦٠) وابن أبي حاتم برقم (٣٩٦٩) والطحاوي في «مشكل الآثار» (٤/ ٣٢٨).

(٢) أخرجه البخاري في تفسير سورة النساء (٦/ ٦٠) برقم (٤٥٩٦) والنسائي في «الكبرى» (١١١١٩) والطبري (٣٨٢٧) والطبراني (١١٥٠٥).

(٣) «تفسير القرطبي» (٥/ ٣٤٥).

الحجاج، والحارث بن زُمعة^(١)، وخامسهم قيس بن الفاكهة بن المغيرة^(٢).

٤- وقال الضحاك: نزلت هذه الآية في ناس من المنافقين، تَخَلَّفُوا عن رسول الله ﷺ بمكة، وخرجوا مع المشركين يوم بدر، فَأُصِيبُوا فَيَمَنُ أَصِيبَ، فنزلت هذه الآية الكريمة عامة في كل مَنْ أقام بين ظهрани المشركين، وهو قادرٌ على الهجرة، وليس متمكناً من إقامة الدين، فهو ظالمٌ لنفسه، مرتكبٌ حراماً بالإجماع، وينص هذه الآية^(٣).

وظلم النفس معناه: أن يفعل الإنسان فعلاً يؤدي إلى مَضَرَّتِهِ.

وأكبر أنواع الظلم: أن يظلم الإنسان نفسه بالشرك والكفر، كما قال تعالى على لسان لقمان: ﴿إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ [لقمان: ١٣] وقال: ﴿الَّذِينَ ءَامَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولَٰئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُمْ مُهْتَدُونَ﴾ [الأنعام].

قال ابن عباس ؓ: المراد بظلم النفس في الآية، الكفر والرّدة؛ لأنها نزلت في قوم أسلموا بمكة، فلما هاجر النبي ﷺ أقاموا مع قومهم بمكة ففتنهم فارتدوا، وكان منهم: أبو القيس بن الفاكهة، والحارث بن زُمعة، وأبو قيس بن الوليد بن المغيرة، وعلي بن أمية بن خلف، والعاص بن منبه بن الحجاج، وهؤلاء قُتلوا.

وكان العباس بن عبد المطلب، وعُقيل ونوفل ابنا أبي طالب فيمن خرج معهم، ولكن هؤلاء الثلاثة أُسروا، وقَدُوا أنفسهم، وأَسْلَمُوا بعد ذلك^(٤).

وقيل: إن المراد بظلم النَّفْسِ التَّقَاعُسُ عن الهجرة إلى المدينة بدون عُذْرٍ مانع، فقد كانت الهجرة واجبةً قبل فتح مكة، وتاركها يُعَدُّ مُرْتَكِباً للذنْبِ عَظِيمٍ، ومعصيةٌ كُبْرَى، تُوجب عدم موالاته، وله علينا حَقُّ النَصْرَةِ إِنْ كَانَ مُسْتَضْعَفاً وَطَلَبَ نُصْرَتَهُ والاستعانة على الخروج من بين ظهрани المشركين، قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَلَمْ يُهَاجِرُوا مَا لَكُم مِّن وَلِيَّتِهِم

(١) أثر مرسل عن محمد بن إسحاق في «سيرة ابن هشام» (١/ ٤٦١) بدون سند، وعن عكرمة في «تفسير الطبري» (٩/ ١٠٥) وفي ابن أبي حاتم (٥٨٦٤).

(٢) ابن هشام (١/ ٤٦١).

(٣) ينظر: «تفسير ابن كثير» (٢/ ٣٨٩).

(٤) ينظر: «سيرة ابن هشام» (١/ ٤٦١).

مِنْ شَيْءٍ حَتَّى يُهَاجِرُوا وَإِنْ اسْتَنْصَرُوكُمْ فِي الدِّينِ فَعَلَيْكُمْ النَّصْرُ ﴿٧٢﴾ [الأنفال: ٧٢] .

وقول ابن عباس يَصْدُقُ على مَنْ لم يهاجر، وارتدَّ عن إسلامه، والقول الآخر يَصْدُقُ على مَنْ بَقِيَ على إسلامه، ولم يهاجر بدون عذر.

والمستضعف: هو الذي لا يُعبأ به بين النَّاسِ؛ لفقره وضعفه، فهو يَضْطَرُّ إلى كِتْمَانِ إسلامه، وليس له حيلة لإظهار إسلامه، والخروج من بين ظهرائي المشركين.

وحُكْمُ هذه الآية بالنسبة للهجرة إلى المدينة قد انتهى بفتح مكة، ويبقى قياس الحكم عليها بالنسبة للأقليات الإسلامية في ديار غير المسلمين ونحوهم، من بلاد الظلم والطغيان واضطهاد المسلمين ومحاربة شرع الله تعالى، من كلِّ بلد يُفْتَنُ فيه المؤمن عن دينه على وجه الحقيقة، وليس من باب الغلوِّ والتشدد، وعدم الإحاطة بمقاصد الشريعة.

فإذا أرغم المسلم على الكُفْرِ، وهو يستطيع الخروج من هذه البلد، فإن الهجرة تُلْزِمُهُ، وإذا لم يُرْغَمِ العبد على الكُفْرِ، ولكن يلحق به ضررٌ فِعْلِيٌّ كبيرٌ، كالسجن أو مصادرة الأموال، أو انتهاك عِرْضِهِ، فإن له أن يهاجر من هذه البلد.

أما إذا كان في غير بلاد المسلمين، وتَجْرِي عليه أحكامهم إذا عَرَضَ له حادثٌ أو قضيةٌ ونحو ذلك، وهو غيرُ مفتونٍ في دينه، فإنه يُكْرَهُ له الإقامة في بلادهم، ما لم يكن مضطراً إليها، وكان أمامه مَخْرَجٌ يَمَكِّنُهُ من الإقامة في بلاد المسلمين، ولو بمستوى ماديٍّ أقل، وكذا إذا كان له دَوْرٌ في نشر الدَّعوة، وخدمة الإسلام بوجه من الوجوه، ولم يتأثر في أخلاقه وسلوكه، وهذا ينطبق على أبناء المسلمين في بلاد غير المسلمين.

وإذا تغلَّبَ غيرُ المسلمين على بلدٍ من بلاد المسلمين، كما هو الحال في فلسطين، فإن أبناء هذه البلد يجب عليهم البقاء في بلادهم؛ لمقاومة الاحتلال، وإنقاذ البلاد والعباد.

وإذا كان لغير المسلمين سلطانٌ ونفوذاً على بعض بلاد المسلمين مع بقاء حُكْمِ الإسلام فيها، واستمرار تصريف شؤون الأمة، واحترام الشرائع فيها، مع وجود الحماية أو الوصاية الأجنبية على بعض الشؤون العسكرية ونحوها، فلا شبهة في عدم الخروج من هذه البلاد؛ لأنه يُمارَسُ شعائر دينه بحرية.

والبلاد التي يكثر فيها البدع والمنكرات، وخلط العمل الصالح بالسيئ، وفيها مخالفات

صريحة للإسلام، ولكن المسلم لا يُجبر فيها على ارتكاب شيء منها، ولا يستطيع التغيير إلا بالقول، وقد لا يستطيع، هذه البلاد لا موجب للهجرة منها إلى غيرها.

ولا مانع من السفر لطلب العلم والعلاج، إذا لم يكن لهما نظير في بلاد المسلمين.

ومعنى الآية: إن الذين تقبض أرواحهم الملائكة عند انتهاء آجالهم، وقد ظلموا أنفسهم؛ بسبب رضاهم بالذل والهوان، وبقائهم في أرض لم يستطيعوا أن يباشروا تعاليم دينهم فيها، ولم يهاجروا إلى أرض يتمكنون فيها من إظهار إسلامهم، وممارسة شعائر دينهم بحرية، مع قدرتهم على الهجرة، وعدم وجود ما يمنعهم منها، هذا الصنف من الناس، تقول لهم الملائكة عند قبض أرواحهم تقريباً وتوبيخاً لهم: في أي شيء كنتم من أمر دينكم؟ أكنتم في عزة أم في ذلة؟ وكيف رضيتم بالذل، وقبلتم الضيم والسخرية والاستهزاء بدينكم مع قدرتكم على الهجرة؟

فيقولون: كنا ضُعفاء في أرضنا، عاجزين عن دفع الظلم والقهر عنا، فنقول لهم الملائكة توبيخاً: ألم تكن أرضُ الله واسعة؟ فتخرجوا من أرضكم إلى أرضٍ أخرى تُمارسون فيها شعائر دينكم، وتؤمنون فيها على أنفسكم، فهؤلاء القوم مثوهم النار، وقُبِحَ هذا المرجع والمآب، وبئس المصير مصيرهم.

وفي الآية توبيخٌ لمن يقبل حياة الذل والضيم والهوان، مع قدرته على الهجرة، وتوَعَّد له على ضعف إيمانه بسوء المصير، وتحريضٌ على الهجرة إذا لزم الأمر في كل زمان ومكان.

أَهْلُ الْأَعْدَارِ فِي غَيْرِ بِلَادِ الْمُسْلِمِينَ

٩٨- ﴿إِلَّا الْمُسْتَغْنَيْنِ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ لَا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَلَا يَهْتَدُونَ سَبِيلًا﴾

ثُمَّ اسْتَشْنَى اللَّهُ سُبْحَانَهُ مِنْ وَجُوبِ الْهَجْرَةِ مِنْ بِلَادِ الْكُفْرِ، الْمُسْتَغْنَيْنِ عَلَى وَجْهِ الْحَقِيقَةِ، مِمَّنْ لَا قُدْرَةَ لَهُمْ عَلَى الْهَجْرَةِ بِوَجْهِ مِنَ الْوُجُوهِ.

واستثنى سبحانه من فَرَضِ الْهَجْرَةِ مِنْ مَكَّةَ إِلَى الْمَدِينَةِ قَبْلَ الْفَتْحِ الشُّيُوخَ، وَالْمَرْضَى مِنَ الرِّجَالِ، وَالْعَجِزَةَ مِنَ النِّسَاءِ، وَالضَّعْفَاءَ مِنَ الْأَوْلَادِ وَالصِّبْيَانِ، وَكَانَ مِنْهُمْ فِي عَصْرِ التَّنْزِيلِ: عَبْدُ اللَّهِ بْنُ عَبَّاسٍ، وَأُمُّهُ، وَعِيَّاشُ بْنُ أَبِي رِبْعَةَ، وَمُسْلِمُ بْنُ هُشَامٍ.

هؤلاء وأمثالهم، هم الذين نزلت فيهم الآية، وذلك أنه لما ذَكَرَ سبحانه حال الذين ظلموا أنفسهم، إذ لم يكن لهم عُدْرٌ في عدم الهجرة، ذَكَرَ في هذه الآية حال الذين قعدوا عن الهجرة؛ بسبب عَجْزِهِم عن الخروج من مكة؛ لفقرهم أو لقلّة جُهدِهِم وضعفهم، أو لإكراه المشركين لهم، فأوثقوهم وحبسوهم ومنعوهم من الهجرة، وهؤلاء هم المستضعفون حقًا.

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: بينما النبي ﷺ يُصلي العشاء إذ قال: «سمع الله لمن حمده» ثم قال قبل أن يسجد: «اللهم نجّ عبّاش بن أبي ربيعة، اللهم نجّ سلمة بن هشام، اللهم نجّ الوليد بن الوليد، اللهم نجّ المستضعفين من المؤمنين، اللهم اشدد وطأتك على مضر، اللهم اجعلها عليهم سنين كسني يوسف»^(١).

وقال ﷺ: «أسلم سألها الله، وغفار غفر الله لها»^(٢).

وقال ابن عباس رضي الله عنه: كنت أنا وأمي من المستضعفين، أنا من الولدان، وأمي من النساء^(٣).

فهذا الصنف من الناس قد انسدت عليهم أبواب الحيل بعد بذل الجهد، فهم ممن لا يندرج تحت الذين ظلموا أنفسهم، واستحقوا المصير السيئ؛ لأنهم مغلوبون على أمرهم، بخلاف الذين في الآية السابقة، فإن بإمكانهم الهجرة.

وفي الآية دليل على أن من عجز عن المأمور به فإنه معذور، لقوله تعالى ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ﴾ [التغابن: ١٦]

ولقوله: ﴿لَيْسَ عَلَى الْأَعْمَى حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْمَرِيضِ حَرَجٌ﴾ [الفتح: ١٧]

ولقوله: ﴿لَيْسَ عَلَى الضُّعَفَاءِ وَلَا عَلَى الْمَرْضَى وَلَا عَلَى الَّذِينَ لَا يَحْدُونَ مَا يُفْقُونَ حَرَجٌ إِذَا نَصَحُوا لِلَّهِ وَرَسُولِهِ﴾ [التوبة: ٩١].

(١) البخاري، تفسير سورة النساء (٦/ ٦١) برقم (٤٥٩٨) وفي الاستسقاء برقم (١٠٠٦) ومسلم برقم (٦٧٥).

(٢) من حديث ابن عمر في «المسند» (٤٧٠٢، ٥١٠٨) إسناده صحيح على شرط الشيخين وأخرجه الترمذي (٣٩٤٩) ومسلم (٢٥١٨) وابن ماجه (٧٢٨٩) والبخاري (٣٨٥١).

(٣) أخرجه عبد الرزاق عن عبد الله بن يزيد (١/ ١٦٦) وهو صحيح على شرط الشيخين، وهو في البخاري (١٣٥٧، ٤٥٨٧) والطبري (٧/ ٣٨٩) وابن أبي حاتم (٥٨٧١) والبيهقي (٩/ ١٣).

ولمَّا أنزل الله سبحانه: ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّيْتُمُ الْمَلَائِكَةَ﴾ الآيتين، تحامل بعض أهل الأعذار على أنفسهم، وعزموا على الخروج من مكة على أي حال كانوا من المرضى، أو كبار السن، أو العجز، إلى درجة أن بعضهم فارق الحياة بمجرد خروجه من بيته.

أخرج ابن جرير عن ابن زيد في معنى الآية: أن النبي ﷺ لما بُعث ونُبِّح الإيمان، نَبَّح معه النِّفاق، فأتى رجالٌ إلى النبي ﷺ يقولون: إنهم يخافون من تعذيب الكفار لهم إن أسلموا، ودخلوا في الإسلام سرًّا، فلمَّا كان يوم بدر قال المشركون: لا يتخلف عنا أحدٌ إلا هَدَمْنَا داره، واستَبَحْنَا ماله، فخرج معهم هؤلاء الذين أسلموا سرًّا، فقتلت منهم طائفةٌ وأسرت طائفةٌ، أما الذين قُتلوا فهم الذين قال الله فيهم: ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّيْتُمُ الْمَلَائِكَةَ ظَالِمِينَ أَنْفُسِهِمْ قَالُوا فِيمَ كُنْتُمْ قَالُوا كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي الْأَرْضِ قَالُوا أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةً فَهَاجِرُوا فِيهَا فَأُولَئِكَ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَسَاءَتْ مَصِيرًا ﴿٩٧﴾﴾.

ثمَّ عذر الله أهل الصدق في قوله: ﴿إِلَّا الْمُسْتَضْعَفِينَ﴾؛ لأنهم لو خرجوا لَهلكوا فعفا الله عنهم إقامتهم بين ظهрани المشركين، أما الذين أسروا فقالوا: يا رسول الله، أنت تعلم أننا أسلمنا سرًّا، وخرجنا معهم خوفًا؛ فأنزل الله فيهم ﴿يَتَأْتِيهَا النَّبِيُّ قُلْ لِمَنْ فِي آيْدِكُمْ مِنَ الْأَسْرَى إِنْ يَعْلَمِ اللَّهُ فِي قُلُوبِكُمْ خَيْرًا يُؤْتِكُمْ خَيْرًا مِمَّا أُخِذَ مِنْكُمْ وَيَغْفِرَ لَكُمْ﴾ صنعكم الذي صنعتم، وهو خروجكم مع المشركين ضدَّ النبي ﷺ ﴿وَإِنْ يُرِيدُوا خِيَانَتَكَ فَقَدْ خَانُوا اللَّهَ مِنْ قَبْلُ﴾ وخرجوا مع المشركين^(١)، وقال تعالى في شأن هؤلاء المستضعفين:

٩٩- ﴿فَأُولَئِكَ عَسَى اللَّهُ أَنْ يَعْفُو عَنْهُمْ وَكَانَ اللَّهُ عَفُوًّا غَفُورًا ﴿٩٩﴾﴾

أي هؤلاء المغلوبون على أمرهم، يُرجى لهم من الله تعالى العفو؛ لعلمه تعالى بحقيقة أمرهم، وعدم قدرتهم على الهجرة، ولفظ ﴿عَسَى﴾ إن كانت صادرةً من الخلق فهي للترجي، وإن كانت صادرةً من الخالق فهي على الحقيقة، وفي الإتيان بها في هذه الآية إشارة إلى أن ترك الهجرة الواجبة على العبد أمرٌ خطيرٌ، حتى إن المضطر الذي لا يستطيع الهجرة ينبغي عليه أن يعدَّ ذلك ذنبًا، فلا يكن في مأمنٍ من أمره، وعليه أن يترصد

(١) «تفسير الطبري» (٧/ ٣٨٧).

(٢) أخفى أبو جعفر التنوين في الغين من (عفوًا غفورًا)، وأظهره الباقون.

الفرصة للخروج، ويعلق قلبه بها^(١).

فَعَفُوَ اللَّهُ تَعَالَى عَزِيزُ الْمَنَالِ، لَا يُقَطِّعُ بِحَصُولِهِ، وَلَا يَسْعَدُ بِهِ مَنْ تَسَاهَلَ وَفَرَّطَ فِي جَنْبِ اللَّهِ تَعَالَى.

وقد عذّر الله سبحانه المستضعفين على وجه الحقيقة؛ رخصة لهم، وتوسعة عليهم؛ لأن البقاء على إظهار الشرك أمرٌ عظيمٌ، وأهل الإيمان الصحيح والعزيمة القوية، يُعلنون إسلامهم، ولو جلب لهم ذلك شيئاً من التعذيب، كما فعلت (سُمَيَّة) أم عمار بن ياسر، وكما فعلت (أم سليم) حين أسلمت، ولم تتأثر بتهديدات زوجها الكافر حتى رَحَلَ عنها وتركها.

وبلال وصهيب من الضعفاء الذين أسلموا، وتَحَمَّلُوا العذاب، ثُمَّ هاجروا، وكان عبد الله بن مسعود يَغْشَى نوادي الكفار، ويقرأ عليهم القرآن، فيضربونه حتى يُغَمَى عليه.

وهذا مؤمن آل فرعون، وحبيب النجار صاحب قصة سورة يس، وكان العز بن عبد السلام يَسْتَنَكِرُ على المنبر موالاة الأعداء؛ لأن سلطان الشام كان موالياً للصليبيين، فلم يسكت عن الحق عند سلطانٍ جائرٍ حتى سَجَنَهُ، وكلُّ ذلك مُنْضِبٌ بضوابط شرعية، وعدم الإلقاء بالنفس إلى التهلكة، ليس تخوفاً من بعيد، ولا توقفاً، ولكن على وجه الحقيقة والتطبيق العملي.

أَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةٌ لِلْهَجْرَةِ فِيهَا

١٠٠ - ﴿وَمَنْ يُهَاجِرْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يَجِدْ فِي الْأَرْضِ مُرْعَاً كَثِيراً وَسَعَةً وَمَنْ يَخْرُجْ مِنْ بَيْتِهِ مُهَاجِراً إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ يُدْرِكْهُ الْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ وَكَانَ اللَّهُ غَفُوراً رَحِيماً﴾ (١٠٠)

في هذه الآية حث على الهجرة، وترغيب فيها، وبيان أن من يهاجر في سبيل الله ابتغاء مرضاته، فسوف يحصل على سعادة الدنيا والآخرة، لأنه سيتمكن من إقامة دين الله، وجهاد أعدائه، ومراغمتهم، فإن المراغمة اسم جامع لكل ما يحصل به إغاطة العدو من قول وفعل، والسعة تعني حصول الرزق وسائر مصالح الدنيا.

وهكذا فإن أصحاب النبي ﷺ لما هاجروا في سبيل الله وتركوا ديارهم وأولادهم وأموالهم حصل لهم الإيمان التام، والجهاد العظيم، والنصر لدين الله وحصول الفتوحات

(١) ينظر: «تفسير الألوسي» (٥/ ١٢٧).

والغنائم، وصاروا أئمة يُهتدى بهم، ومن خرج من بيته مهاجرًا قاصدًا رضى ربه ومحبة رسوله ثم أدركه الموت بقتل أو غيره، حصل له أجر المهاجر كاملاً، وغفر الله له ما اقترف من الخطايا، ويسر له أسباب السعادة والفلاح، ورحمه رحمة واسعة.

في سبب النزول:

١- قال عكرمة: لَمَّا نَزَلَتْ: ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّيْتُمُ الْمَلَائِكَةَ﴾ قَالَ جُنْدُبُ بْنُ ضَمْرَةَ الْجُنْدَعِيُّ: اللَّهُمَّ أَبْلَغْتَ الْمَعْدَرَةَ وَالْحُجَّةَ، وَلَا مَعْدَرَةَ لِي وَلَا حُجَّةَ، ثُمَّ خَرَجَ وَهُوَ شَيْخٌ كَبِيرٌ، فَمَاتَ بَعْضُ الطَّرِيقِ، فَقَالَ أَصْحَابُ النَّبِيِّ ﷺ: مَاتَ قَبْلَ أَنْ يُهَاجِرَ، فَلَا نَدْرِي أَعْلَى وَلَا يَهِجَرُ أَمْ لَا؟ فَتَنَزَّلَتْ: ﴿وَمَنْ يَخْرُجْ مِنْ بَيْتِهِ مُهَاجِرًا﴾^(١).

٢- من ذلك ما جاء عن عكرمة عن ابن عباس ؓ قال: خَرَجَ ضَمْرَةُ بْنُ جُنْدُبٍ مِنْ بَيْتِهِ مُهَاجِرًا، وَقَالَ لِأَهْلِهِ: احْمِلُونِي فَأَخْرِجُونِي مِنْ أَرْضِ الْمُشْرِكِينَ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، فَمَاتَ فِي الطَّرِيقِ قَبْلَ أَنْ يَصِلَ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ؛ فَتَنَزَّلَتْ الْآيَةُ^(٢).

٣- وجاء عن سعيد بن جبيرة عن أبي ضمرة بن العيص، وكان رجلاً أعمى يُقيم بمكة، فلما نزلت: ﴿إِلَّا الْمُسْتَضْعَفِينَ﴾ قال: إِنِّي لَغَنِيٌّ، وَإِنِّي لَذُو حِيلَةٍ، فَتَجَهَّزَ يَرِيدُ النَّبِيَّ ﷺ فِي الْمَدِينَةِ، فَأَدْرَكَهُ الْمَوْتُ بِالتَّعْنِيمِ؛ فَتَنَزَّلَتْ الْآيَةُ^(٣).

٤- وعن عكرمة عن ابن عباس قال: كَانَ بِمَكَّةَ رَجُلٌ يُقَالُ لَهُ: ضَمْرَةُ، مِنْ بَنِي بَكْرِ، وَكَانَ مَرِيضًا، فَقَالَ لِأَهْلِهِ: أَخْرِجُونِي مِنْ مَكَّةَ، فَإِنِّي أَجِدُ الْحَرَّ، فَقَالُوا: أَيْنَ نُخْرِجُكَ؟ فَأَشَارَ بِيَدِهِ نَحْوَ الْمَدِينَةِ، وَمَاتَ، فَتَنَزَّلَتْ: ﴿وَمَنْ يَخْرُجْ مِنْ بَيْتِهِ مُهَاجِرًا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ يُدْرِكُهُ الْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ﴾^(٤).

(١) الطبري (٧/ ٣٩٦).

(٢) رواه أبو يعلى في مسنده (٥/ ٨١) (٢٦٧٩) والطبراني في «المعجم الكبير» (١١/ ٢٧٢) (١١٧٠٩) من طريق الأشعث بن سوار قال الهيثمي: رجاله ثقات، وفي إسناده الأشعث بن سوار، وهو ضعيف، ورواه ابن أبي حاتم في تفسيره (٥٨٨٩).

(٣) ذكره ابن أبي حاتم في تفسيره مرسلًا (٥٨٨٧) ورواه مرسلًا أيضا سعيد بن منصور في سننه برقم (٦٨٥) والطبري في تفسيره (٩/ ١١٨) من طرق مختلفة.

(٤) «تفسير ابن أبي حاتم» برقم (٤٠٠١) و«تفسير الطبري» برقم (١٠٢٩٤) و«الدر المنثور» (٢/ ٢٠٧) وكذا الطبراني وأبو يعلى، وإسناده صحيح، قال الهيثمي في «مجمع الزوائد» (٧/ ١٠): رجاله ثقات.

٥- وقال قتادة: لما نزلت: ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّيْتُمُ الْمَلَائِكَةَ﴾ قال رجلٌ من المسلمين يومئذٍ وهو مريض: والله ما لي من عُذْرٍ، إني لدليلٌ بالطريق، وإني لموسرٌ، فاحملوني، فاحملوه، فأدركه الموت بالطريق، فنزل فيه: ﴿وَمَنْ يَخْرُجْ مِنْ بَيْتِهِ مُهَاجِرًا﴾^(١).

وأَسبابُ النزولِ متعددةٌ للآية، وهي تحمِلُ أسماءَ متقاربةٍ لَمَنْ نزلتْ فيهم، تُشيرُ إلى وجودِ أحداثٍ متشابهةٍ في أوقاتٍ متقاربةٍ، وفيهم جميعًا وفي أمثالهم إلى قيام الساعة نزلتِ الآية.

وعليه فيمكن القول: إنه لما سمع هذه الآية رجلٌ شيخٌ كبيرٌ يقال له: ضمرة بن جندب أو ضمرة بن العيص^(٢) أو غيرهما، وكان مريضًا على سريره، فلما سَمِعَ هذه الآية قال: لستُ ممَّن استثنى الله، لستُ من المستضعفين، وإني لأملك حيلةً، وعندي من المال الذي يبلغني إلى المدينة وأكثر، فقال لأبنائه: لأبيتنَّ هذه الليلة في مكة، ولألحقنَّ برسول الله ﷺ مُهاجرًا، وهو شيخ كبير مريض على سريره.

فحمَله أبنائُه، فلما وصلوا به حدود الحرم (عند التنعيم) حضرته الوفاة، فضرب الرجل يده اليمنى على شماله، وقال: هذه لله، وهذه لرسول الله، أبايك (أي: أبايع ربَّ العالمين) على ما بايع عليه رسولُ الله ﷺ، وفاضتُ روحه إلى بارئها، فلما مات، وبلغ خبره أصحابُ الرُّسُولِ ﷺ قالوا: لو وافى المدينة لكان أتمَّ وأوفى أمرًا، وضحك المشركون، وقالوا: ما أدرك ما طلب؛ فأنزل الله سبحانه^(٣):

﴿وَمَنْ يَخْرُجْ مِنْ بَيْتِهِ مُهَاجِرًا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ يُدْرِكُهُ الْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا﴾.

(١) أخرجه عبد الرزاق (١/ ١٧٠) والطبري (٧/ ٣٩٤).

(٢) اختلف في اسم مَنْ نزلت فيه الآية على عشرة أقوال؛ وهي: ١- جندب بن حمزة الجندعي ٢- جندب بن ضمرة الليثي الخزاعي ٣- ضمرة بن بغيص الليثي ٤- ضمرة بن جندب الضمري ٥- ضمرة بن ضمرة بن نعيم ٦- ضمرة الخزاعي ٧- ضمرة بن العيص ٨- العيص بن ضمرة ٩- حبيب بن ضمرة ١٠- أكثم بن صيفي، «تفسير ابن عاشور» (٤/ ١٨١)، ورجح ابن حجر أن الذي نزلت فيه الآية: جندب بن ضمرة.

(٣) ينظر: «تفسير الخازن» و«تفسير ابن كثير» و«أسد الغابة»، ترجمة ضمرة بن عمرو الخزاعي (٣/ ٦١) في سنده أشعث بن سوار، وفيه سالم بن أبي حنيفة، وينظر: البيهقي في سننه (٩/ ١٤) عن سعيد بن جبير وابن جرير (٩/ ١١٨) و«مجمع الزوائد» (٧/ ١٠) و«الدر المنثور» (٢/ ٧) عن أبي يعلى.

وكذلك حال كل من شرع في طاعة وعزم على الفعل، ثم منعه مانع خارج عن إرادته؛ فإن أجره حاصل، كما قال ﷺ: «إنما الأعمال بالنيات، ولكل امرئ ما نوى»^(١).

ولكنه لم يبلغ الغاية، ومات على نيته، فإنه سيأخذ أجره كاملاً إن شاء الله.

ومن ذلكم قصة الرجل الذي قتل مئة نفس، وهو لم يصل لله ركعة، هذا الرجل حين أقبل على الله تعالى تائباً، وعلم الله صدق نيته، ثم خرج مهاجراً من أرض المعصية إلى أرض الطاعة، وحضرته ملائكة الرحمة وملائكة العذاب، كل يريد قبض روحه؛ لأنه في منتصف الطريق، لم يصل إلى أرض التوبة بعد، ولم يبق في أرض المعصية، قالت ملائكة العذاب: إنه لم يعمل خيراً قط، ولم يصل لله ركعة، وقالت ملائكة الرحمة: إنه أقبل على الله تائباً، والتوبة تجب ما قبلها، فقبضته ملائكة الرحمة^(٢).

وهكذا كل مسلم يقبل على الله تعالى بقلبه ويتوب ويضرع إليه سبحانه؛ فإن أجره عند الله عظيم، ويبلغ مبتغاه، ويصل إلى جنات النعيم.

وبعد أن ذكر سبحانه حال غير المهاجرين بعذر وبدون عذر، بين ﷺ أن المؤمن أمامه موقفان كي يحافظ على دينه:

١- إما أن يعلن إيمانه، ويدعو إلى الله، ويصبر على ما يلاقي من أذى.

٢- وإما أن يهاجر إلى بلد يستطيع أن يعبد الله فيها، ويدعو إليه.

والله ﷻ لم يحصر قوته ورزقه في بقعة واحدة ﴿يَعْبَادِيَ الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنَّ أَرْضِي وَسِعَةٌ فَإِنِّي فَاعْبُدُونِ﴾ [العنكبوت: ٥٦] ﴿وَأَرْضُ اللَّهِ وَسِعَةٌ﴾ [الزمر: ١٠]

جاء في حديث عبد الله بن عتيك قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «من خرج من بيته مجاهداً في سبيل الله، فخر عن دابته فمات؛ فقد وقع أجره على الله، ومن لدغته دابة فمات؛ فقد وقع أجره على الله، ومن مات حنفاً أنفه؛ فقد وقع أجره على الله، ومن قتل قعصاً (أي: ضربه إنسان فمات مكانه)؛ فقد استوجب الجنة»^(٣).

(١) جزء من حديث عمر في البخاري (١، ٥٤، ٥٢٥٩) ومسلم (١٩٠٧).

(٢) ينظر الحديث في «صحيح البخاري» برقم (٣٤٧٠) و«صحيح مسلم» برقم (٢٧٦٦).

(٣) ينظر الحديث في «المسند» (٤/ ٣٦) (١٦٤١٤) بإسناد ضعيف، لأن فيه ابن إسحاق وابن عتيك وهما ضعيفان كما قال محققوه، وقال الهيثمي في «مجمع الزوائد» (٥/ ٥٦٠): فيه محمد بن إسحاق، مدلس، وبقيّة رجاله ثقات، وأخرجه الحاكم (٢/ ٨٨) وابن أبي شيبة (٥/ ٢٩٣) والطبراني في الكبير (١٧٧٨).

وَيَدْخُلُ فِي هَذَا الْحَدِيثِ حَوَادِثُ السَّيَّارَاتِ، وَالطَّائِرَاتِ، وَالْبَوَاحِرِ، وَالْغُرُقِ، وَالْحَرِيقِ، وَالْهَدْمِ، وَالزَّلَازِلِ، وَكُلُّ مَنْ مَاتَ حَتْفَ أَنْفِهِ؛ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ.

وَفِي الْبُخَارِيِّ وَغَيْرِهِ عَنْ خُبَّابٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: هَاجَرْنَا مَعَ النَّبِيِّ ﷺ نَلْتَمِسُ وَجْهَ اللَّهِ تَعَالَى، فَوَقَعَ أَجْرُنَا عَلَى اللَّهِ، فَمِنَّا مَنْ مَاتَ، لَمْ يَأْكُلْ مِنْ أَجْرِهِ شَيْئًا، مِنْهُمْ مَصْعَبُ بْنُ عَمِيرٍ، وَمِنَّا مَنْ أَيْنَعَتْ لَهُ ثَمَرَتُهُ، فَهُوَ يَهْدِيهَا، وَلَمَّا قُتِلَ مَصْعَبُ يَوْمَ أُحُدٍ، لَمْ نَجِدْ مَا نَكْفِيهِ، إِلَّا بُرْدَةً، إِذَا غَطَّيْنَا بِهَا رَأْسَهُ خَرَجَتْ رِجْلَاهُ، وَإِذَا غَطَّيْنَا رِجْلَيْهِ خَرَجَ رَأْسُهُ، فَأَمَرَنَا النَّبِيُّ ﷺ أَنْ نُعْطِيَ رَأْسَهُ، وَأَنْ نَجْعَلَ عَلَى رِجْلَيْهِ مِنَ الْإِذْخَرِ^(١).

وَكَأَنَّ الرَّجُلَ إِذَا أَسْلَمَ، خَرَجَ عَنْ قَوْمِهِ مَرَاغِمًا؛ أَي: مُغَاضِبًا لَهُمْ؛ لِأَنَّهُ غَلَبَ قَوْمَهُ بِاسْتِقْلَالِهِ عَنْهُمْ، فَقَدْ وَجَدَ مَكَانًا يَرْغَمُ فِيهِ عَلَى الْكُفْرِ وَعَدَمِ الْهَجْرَةِ، وَالْمَرَاغِمُ: اسْمُ مَكَانٍ مِنْ رَاغَمٍ، إِذَا ذَهَبَ فِي الْأَرْضِ وَسَارَ فِيهَا.

وَالرَّغَامُ: هُوَ التُّرَابُ، يُقَالُ رَغِمَ أَنْفُهُ، إِذَا التَّصَّقَ بِالتُّرَابِ، وَهَذَا كُنَايَةٌ عَنْ وَقْعِ الدَّلِّ بِالْإِنْسَانِ؛ لِأَنَّ الْأَنْفَ عُضْوٌ شَرِيفٌ فِي أَعْلَى الْوَجْهِ، وَالتُّرَابُ ذَلِيلٌ فِي الْأَرْضِ.

وَالْمَرَاغِمَةُ: اسْمُ جَامِعٍ لِكُلِّ مَا يَحْصُلُ بِهِ إِغَاظَةُ الْعَدُوِّ مِنْ قَوْلٍ وَفِعْلٍ، وَكُلِّ مَا يَصْلُحُ بِهِ الدِّينَ.

وَيُقَالُ: أَرغَمْتُ الرَّجُلَ إِذَا فَارَقْتَهُ، وَهُوَ يَرَى أَنَّ مَفَارِقَتَكَ لَهُ مَذَلَّةٌ، لِمَذَلَّةٍ تَلْحَقُهُ بِذَلِكَ.

أَمَّا السَّعَةُ: فَيُرَادُ بِهَا كَثْرَةُ الْأَرْزَاقِ، وَكُلِّ مَا يَحْصُلُ بِهِ مَصَالِحُ الدُّنْيَا.

وَفِي الْآيَةِ بَعَثُ لِلطَّمَأْنِينَةِ فِي قُلُوبِ الْمُهَاجِرِينَ، وَحَفَظَ لَهُمْ عَلَى الْهَجْرَةِ؛ لِإِعْلَاءِ كَلِمَةِ اللَّهِ.

وَقَدْ وَقَعَتِ الْهَجْرَةُ فِي الْإِسْلَامِ عَلَى وَجْهَيْنِ:

الْأَوَّلُ: الْإِنْتِقَالُ مِنْ دَارِ الْخَوْفِ إِلَى دَارِ الْأَمَنِ، كَمَا فِي هَجْرَتِي الْحَبْشَةِ، وَابْتِدَاءُ الْهَجْرَةِ إِلَى الْمَدِينَةِ.

الثَّانِي: الْهَجْرَةُ مِنْ دَارِ الْكُفْرِ إِلَى دَارِ الْإِيمَانِ، وَذَلِكَ بَعْدَ أَنْ اسْتَقَرَّ النَّبِيُّ ﷺ بِالْمَدِينَةِ، وَلَحِقَهُ الْمُسْلِمُونَ.

(١) «صحيح البخاري» برقم (١٢٧٦) وانظر (٣٨٩٧، ٦٤٤٨) و«صحيح مسلم» برقم (٩٤٠).

وكانت الهجرة مُختَصَّةً بالمدينة حتى فُتحت مكة، فُسخ ذلك بفتحها، وبقي عموم الانتقال من دار الكُفَّار إلى ديار الإسلام باقياً، فالهجرة واجبة على مَنْ أسلم في بلاد الكُفر، وخشي أن يُفتن في دينه.

عن معاوية رضي الله عنه قال: سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: «لا تنقطع الهجرة حتى تنقطع التوبة، ولا تنقطع التوبة حتى تطلع الشمس من مغربها»^(١).

ومن مات في طريق هجرته استوفى أجره كاملاً غير منقوص، وكلُّ هجرة لغرض مشروع، كطلب العلم الذي لا يوجد في بلاد المسلمين، أو العلاج الذي لا يوجد في بلاد المسلمين، أو للدعوة إلى الله تعالى -فهى هجرة في سبيل الله.

أما الهجرة للشهوات طلباً للأموال، أو من باب المتعة واللذة، أو للهرب من المتاعب والمشكلات، أو لأيّ عرض من أعراض الحياة، فليس من باب الهجرة في سبيل الله، بل هي في سبيل الهوى والشيطان.

فقد جاء في الحديث المشهور أن: «مَنْ كانت هجرته إلى الله ورسوله؛ فهجرته إلى الله ورسوله، ومن كانت هجرته لدنيا يصيبها أو امرأة ينكحها؛ فهجرته إلى ما هاجر إليه»^(٢).

ومعنى الآية: ومن يخرج من أرض الشرك إلى أرض الإسلام فراراً بدينه، راجياً فضل ربّه، قاصداً نصرة دينه، ثم يدركه الموت قبل بلوغ مقصده؛ فقد ثبت له جزاء عمله على الله، فضلاً منه وإحساناً، ﴿وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا﴾ لعباده ﴿رَحِيمًا﴾ بهم.

(١) من حديث أخرجه أحمد في «المسند» (١٦٩٠٦) وهو حسن لغيره، لجهالة أبي هند البجلي، كما قال محققوه، وأبو داود (٢٤٧٩) وصحيح سنن أبي داود (٢١٦٦) بتصحيح الألباني، والنسائي في الكبرى (٨٧١١) والطحاوي في شرح مشكل الآثار (٢٦٣٤).

(٢) من حديث عمر بن الخطاب في البخاري (٥٤١) ومسلم (١٩٠٧) وأبو داود (٢٢٠١) والترمذي (١٦٤٧) والنسائي (٥٩ / ١) وابن ماجه (٤٢٢٧) و«المسند» (١ / ٢٥) برقم (١٦٨) بإسناد صحيح على شرط الشيخين والحميدي (١ / ١٦) برقم (٢٨) والطيالسي (٢ / ٢٧) برقم (٣٧) وغيرهم، وأوله: «إنما الأعمال بالنيات».

قَصْرُ الصَّلَاةِ فِي السَّفَرِ

١٠١- ﴿وَإِذَا ضَرَبْتُمْ فِي الْأَرْضِ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَقْصُرُوا مِنَ الصَّلَاةِ إِنْ خِفْتُمْ أَنْ يَفْتِنَكُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنَّ الْكَافِرِينَ كَانُوا لَكُمْ عَدُوًّا مُبِينًا﴾ (١١)

ولمّا كانت الهجرة تَتَطَلَّبُ السفر والضرب في الأرض، وكان المسافر أحوج ما يكون إلى قوة الصلوة بالله تعالى، فقد شرع الإسلام له قصر الصلاة تخفيفاً عليه ورحمة به، فما أحوج المهاجر إلى الالتجاء لحِمَى الله تعالى، وما أحوج الخائف والمضطّر إلى أن يطمئن قلبه بذكر الله تعالى.

ولمّا كانت الصلوة يُستعان بها في الشدائد والمُليّات، ناسب هذا ذكر أحكامها في السفر والمرض، وعند الخوف من العدو والالتحام معه في قتال، كما قال تعالى: ﴿وَأَسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ﴾ [البقرة: ٤٥]، وهذه الآية أصل في رخصة قصر الصلاة في السفر:

﴿وَإِذَا ضَرَبْتُمْ فِي الْأَرْضِ﴾ أي: إذا سافرتُم للجهاد، أو للحجّ، أو لطلب العلم، أو للعلاج، أو لغير ذلك من أسفار الطاعة، والأسفار المُباحة، فليس عليكم حرج أن تَقْصُرُوا الصَّلَاةَ الرباعية إلى ركعتين، فلا قَصْرَ للصلوة في سفر المعصية، كالبಾಗಿ وقاطع الطريق وأصحاب الشهوات، وذلك عند جمهور العلماء، ومنهم الأئمة الثلاثة: المالكي، والشافعي والحنبلي، خلافاً لأبي حنيفة، فقد قال: إن ظاهر الآية يفيد الرخصة للمسافر في قصر الصلاة، ولو كان سفره سفر معصية.

وقد سَمَّى القرآن السفر ضرباً في الأرض، كما قال تعالى: ﴿وَأَخْرَجُوا يَظْرُونَ فِي الْأَرْضِ يَلْتَمِعُونَ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ﴾ [المزمل: ٢٠]

وقوله: ﴿فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ﴾ أي: لا إثم ولا حرج عليكم ﴿أَنْ تَقْصُرُوا مِنَ الصَّلَاةِ﴾.

ونفى الحرج والإثم عن قاصر الصلاة في السفر والخوف، لا ينافي كون القصر أفضل، ويدل على ذلك أمران:

أحدهما: ملازمة النبي ﷺ لقصر الصلاة الرباعية في جميع أسفاره.

وثانيهما: أن القصر من باب الرخصة والرحمة بالعباد، والله تعالى يحب أن تؤتي

رخصه كما يكره أن تؤتي معصيته .

وفي قوله تعالى: ﴿مِنَ الصَّلَاةِ﴾ دون أن تقصروا الصلاة، يفيد أن هذا القصر محدد منضبط، يُرجع فيه إلى فعل النبي ﷺ .

ولفظ (من) يفيد التبعض، وأنه خاص بالصلاة الرباعية .

وهذا القصر في الصلاة ذكر المفسرون له معنيان :

المعنى الأول: قَصُرُ الصَّلَاةِ الرباعية بحيث تُصَلَّى ثنتين، وكان يغلب في السفر في بدء الدَّعْوَةِ الخوف من العدو؛ لكثرة المشركين وقلة المؤمنين، وكثرة القتال والجهاد في سبيل الله وقت نزول الآية، فكانت الأسفار لا تخلو من الخوف؛ ولذلك فإن الله تعالى قيّد قَصْرَ الصَّلَاةِ بالخوف فقال: ﴿إِنْ خِفْتُمْ أَنْ يَفْتِنَكُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ لبيان الواقع .

وليس هذا قيداً ولا شرطاً عند جمهور أهل العلم، ولكن نظراً لأن الخوف كان هو الغالب في السفر حال نزول الآية، فقد كانت أغلب الأسفار مُحَوَّفَةً، وما خرج مخرج الغالب فلا مفهوم له، كما قال تعالى ﴿وَلَا تُكْرِهُوا فَتِنَتَكُمْ عَلَى الْإِلَاحِ إِنَّ أَرْدَنَ تَحَصُّنًا﴾ [النور: ٣٣] فإرادة التَّحَصُّن من الأَمَّة ليس شرطاً في عدم إكراهها على الزَّنى .

وقال سبحانه: ﴿وَرَبِّيبُكُمْ أَلَّتِي فِي حُجُورِكُمْ﴾ [النساء: ٢٣] وكون الربيبة ليست في حجر زوج أمها ليس شرطاً في تحريمها عليه، فهي مُحَرَّمَةٌ عليه على كلِّ حالٍ، كما أن الزنى مُحَرَّمٌ في كل حال .

وعلى هذا، فإن المراد بـ ﴿أَنْ تَقْصُرُوا﴾ في الآية، قصر العدد والصفة معاً، واجتماع السفر والخوف معاً، أقصى ما يتصور من المشقة المناسبة للقصر، فإذا وجد السفر والخوف معاً، جاز قصر العدد وقصر الصفة معاً، وإذا وُجد السفر وحده، جاز قصر العدد فقط، وإذا وُجد الخوف وحده جاز قصر الصفة فقط كما بيّنته الآية ١٠٢ التالية .

المعنى الثاني: خاصٌ بحالة الحرب أثناء المعركة؛ ومعناه: أن المراد قصر صفة الصلاة وهيئتها والتخفيف فيها، فليس المراد في هذا المعنى قَصْرُ الرباعية إلى اثنتين، فهو قصر في الكيفية لا في الكمية، وهذا في شدة الخوف عند التحام الصفوف في قتال العدو، فيمكن للمصلي فيها أن لا يتقيد بالركوع والسجود، وأن يُخفف من القراءة فيها،

ويُقلل من عدد التسيّحات في الركوع والسجود، وأن يُومئ إلى السجود أخفض من الركوع، وهذا قصرٌ في كيفية وأداء الصّلاة.

قال الجصاص: المراد قصر صفة الصّلاة ذاتها، قصر كيفية لا كمية، كالقيام بلا ركوع ولا سجود ولا قعود للشهد، والإيماء للركوع والسجود^(١).

فالمراد بهذا القصر قصر صفة الصّلاة في أثناء القتال مع العدو، وهذا النوع من قصر الصّلاة يكون بالنسبة لصلاة الجماعة عند مواجهة العدو والخوف من غدره، وقد وضّحته الآية التالية.

وقد وردت أحاديث كثيرة في قصر الصّلاة حالة الأمن والخوف معاً؛ منها:

١- ما جاء عن ابن عباس رضي الله عنه أن النبي ﷺ خرج من المدينة إلى مكة لا يخاف إلا الله ربّ العالمين، فصلّى ركعتين^(٢).

٢- وقد سأل يعلى بن أمية، عمر بن الخطاب رضوان الله عليه، عن معنى هذه الآية، وقد أمن الناس، وليس هناك خوفٌ من العدو في أسفارهم، فقال عمر: عَجِبْتُ مما عَجِبْتَ منه، وسألتُ رسول الله ﷺ فقال: «صَدَقَ اللهُ بها عليكم، فاقبلوا صدقته»^(٣).

أي: أن هذه الصّلاة المَقْصُورة رخصةٌ من الله تعالى، وصدقته تصدّق عليكم بها، وهذه الرخصة قائمةٌ إلى يوم القيامة، وهي رخصةٌ مشروعةٌ، سواء في حالة الأمن، أو في حالة الخوف من العدو، وهذا هو المراد بقصر الصّلاة عند جمهور العلماء.

٣- وأخرج أحمد وغيره بسنده عن أبي حنظلة قال: سألتُ ابن عمر عن صلاة السفر؟ فقال: ركعتين، قال: قلت: فأين قول الله تعالى: ﴿إِنْ خِفْتُمْ﴾ ونحن آمنون؟ قال: سُنَّةٌ

(١) ذكر ذلك الجصاص في «أحكام القرآن» (٢/ ٣٠٧) وابن الجوزي في «زاد المسير».

(٢) قال الترمذي: صحيح، برقم (٥٤٧) وهو في «صحيح سنن الترمذي» (٤٥٢) و«سنن النسائي» (٣/ ١١٧) (١٤٣٤، ١٤٣٥) وابن أبي شيبة (٢/ ٤٤٨).

(٣) «المسند» (١/ ٢٥) (١٧٤، ٢٤٤، ٢٤٥) و«صحيح مسلم» برقم (٦٨٦) وأبو داود (١١٩٩) و«سنن النسائي» (٣/ ١١٦) وفي «الكبرى» (١٨٩١، ١١١٢٠) وابن ماجه (١٠٦٥) وابن أبي شيبة (٢/ ٤٤٧) والترمذي (٣٠٣٤) وابن خزيمة (٩٤٥) وغيرهم.

رسول الله ﷺ، أو قال: كذلك سنة رسول الله ﷺ^(١).

فدلّت هذه الأحاديث الثلاثة على أن قصر الصّلاة يكون في الأمن والخوف معاً.

والقرآن في هذه الآية لا يهدف إلى بيان الحكم الفقهي لصلاة الخوف، ولكنه يهدف إلى التربية والتوجيه، وإعداد الصف المسلم لحرب العدو، وأنه لا بُدّ للمسلمين وهم في أشدّ الحالات أن يكونوا على اتصال بالله تعالى بصورة أو بأخرى، مع أخذ الحذر من العدو أثناء الصّلاة، وحال التعبئة الروحية تجاه العدو.

أما إذا بلغ الخوف مداه، والتحمت الصفوف في القتال؛ فتؤدّى الصّلاة على أيّ وضع كان ﴿فَإِنْ خِفْتُمْ فِجَآلًا أَوْ رُكْبَانًا﴾ على أيّ حال كانت الصّلاة، وهذا هو المعنى الأول لقصر الصّلاة.

مشروعية قصر الصلاة:

أما عن قصر الصّلاة الرباعية في السفر فقد ثبتت في السنة الصحيحة المتواترة عن رسول الله ﷺ، كما في الحديث عن عائشة ؓ قالت: فُرِضَت الصّلاة ركعتين ركعتين في السفر والحضر، فأقرت صلاة السفر، وزيد في صلاة الحضر^(٢).

زاد في لفظ: «إلا المغرب فإنها وتر النهار، وصلاة الفجر لطول قراءتها»^(٣)

٢- وأخرج البخاري بسنده عن يحيى بن أبي إسحاق قال: سمعتُ أنساً يقول: خرجنا مع النّبي ﷺ من المدينة إلى مكة، فكان يُصلي ركعتين ركعتين، حتى رجعنا إلى المدينة، قلتُ: أقمتُم بمكة شيئاً؟ قال: أقمنا بها عشراً^(٤).

حكم قصر الصلاة: وهي سنة ورخصة عند جمهور العلماء.

(١) «المسند» بتصحيح أحمد شاكر رقم (٦١٩٤) وقال محققو المسند بإشراف د/ التركي: صحيح لغيره، وفيه أبي حنظلة، متكلم فيه، وأخرجه ابن أبي شيبة (٢/ ٤٤٧).

(٢) رواه مالك في «الموطأ» برقم (٨) والبخاري (٣٥٠، ١٠٩٠) ومسلم (٦٨٥) وأبو داود (١١٩٨) و«سنن النسائي» (١/ ٢٢٥).

(٣) ينظر: مسند أحمد والبيهقي وابن حبان وابن خزيمة.

(٤) «صحيح البخاري» برقم (١٠٨١) وانظر (٤٢٩٧) وهو في «صحيح مسلم» (٦٩٣).

وقال المالكية: القصر سنة مؤكدة.

وقال الحنابلة: القصر جائز وهو أفضل من الإتمام، وكذا عند الشافعية.

وعند أبي حنيفة أنها واجبة قال: لأن النبي ﷺ لم يُتِمَّ صلاته الرباعية في سفره، وكان إذا خرج إلى السفر قصر صلاته دائماً، فأخذ من ذلك أنها واجبة، وليست برخصة.

وبهذا قال بعض الصحابة كعمر وعلى وابن مسعود وجابر رضي الله عنهم.

ولم تبين الآية الصلوات التي تُقصر، وبيئت سنة النبي ﷺ أنها الصلاة الرباعية: الظهر والعصر والعشاء، ولم تقصر صلاة الصبح؛ لأنها تصير ركعة واحدة، ولم تقصر صلاة المغرب؛ لثلاث توجب الركعة الثانية، فتكون شفعاً، وهي وتر النهار، ولثلاث تكون ركعة واحدة.

كما بيئت السنة أن الظهر يُجمع مع العصر، والمغرب يُجمع مع العشاء، جمع تقديم أو تأخير، وأن الصبح لا يُجمع مع الظهر، كما أن العصر لا يُجمع مع المغرب.

وقد شرع قُصِرُ الصلاة الرباعية في السنة الرابعة من الهجرة على الأصح، كما أن نُسَخَ صلاة الحضر من ركعتين إلى أربع في الصلاة الرباعية كان في بدء الهجرة، ولمّا كانت الغزوات خَفَّفَ الله عنهم ببقاء الصلاة الرباعية على ما كانت عليه ركعتين ركعتين.

هل الخوف شرط في قصر الصلاة؟

١- وما قدمناه من أن قوله تعالى: ﴿إِنْ خِفْتُمْ أَنْ يَفْتِنَكُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ ليس قيداً ولا شرطاً في قُصْرِ الصلاة هو ما عليه جمهور الصحابة.

٢- وورد عن عائشة وسعد بن أبي وقاص رضي الله عنهما أن هذه الآية خاصة بصلاة الخوف، وهو القصر الذي له هيئة خاصة في صلاة الجماعة، كما شرحته الآية التالية، وأن قُصِرَ الصلاة في السفر قد ثبت بالسنة الفعلية، فكان الآية التالية شارحة وموضحة لما أجملته هذه الآية، فيما يتعلق بقصر صفة الصلاة وصلاة الجماعة حال الخوف.

وعليه: فإن جملة ﴿إِنْ خِفْتُمْ﴾ -عند القائلين بهذا- شرط صريح في قصر الصلاة يدل على تخصيص الإذن بقُصْرِ الصلاة حال الخوف من العدو حتى لا يتمكن منهم، ويُبطِل عليهم صلاتهم، وهذا رأي مالك.

واستُدِلَّ على ذلك بما جاء في الموطأ: أن رجلاً من آل خالد بن أُسَيْد، سأل عبد الله بن عمر: إنا نجد صلاة الخوف وصلاة الحَضَر في القرآن، ولا نجد صلاة السفر، فقال ابن عمر: يا بن أخي، إن الله بعث إلينا محمداً ولا نعلم شيئاً، فإنما نفعل كما رأيناه يفعل^(١)؛ أي: أن ابن عمر أقرَّ السائل، وأشعره بأن صلاة السفر قد ثبتت بالسنّة.

وقال الشنقيطي: إن قوله تعالى: ﴿فَإِذَا أَطْمَأْنَنْتُمْ فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ﴾ وقوله: ﴿فَإِذَا أَمِنْتُمْ فَأَذْكُرُوا اللَّهَ كَمَا عَلَّمَكُم مَّا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٢٣٩] يدل على أن الخوف شرطٌ مُعْتَبَرٌ في الآية ﴿إِنْ خِفْتُمْ﴾ أي: وإن لم تخافوا منهم أن يفتنوكم فصلوها على أكمل الهيئات، كما صرح به في قوله تعالى ﴿فَإِذَا أَطْمَأْنَنْتُمْ فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ﴾ وفي قوله ﴿فَإِنْ خِفْتُمْ فِرْجَالًا أَوْ رُكْبَانًا﴾^(٢).

وأقول: إن مجموع النصوص الواردة في ذلك تدلُّ على أن الآية مسوقة لتشريع صلاة السفر، سواء أكان المسافر خائفاً أم آمناً، فهي تشمل الأمرين جميعاً، ولا تعارض بينهما، وهذا يختلف عن صلاة الجماعة التي تكون عند لقاء العدو، فهي تجعل الركعتين ركعة واحدة مع التخفيف في أدائها.

مسافة القصر: ثُمَّ إِنْ أَقَلَّ مَسَافَةً لِهَذَا الْقَصْرِ مَأْخُودَةٌ مِنْ أَحْوَالِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ:

١- فقد قصر الصلاة في ستة عشر فرسخاً؛ أي: نحو واحد وثمانين كيلو.

٢- وقصرها في النصف من ذلك.

٣- وقصرها في أكثر من مئة وعشرين كيلو؛ أي: نحو أربعة وعشرين فرسخاً، وأخذ بذلك أبو حنيفة رحمته الله.

وأقلُّ مسافة قصر فيها النَّبِيُّ ﷺ الصلاة في السفر، ما ثبت أن النَّبِيَّ ﷺ صَلَّى الصَّلَاةَ الرباعية تامةً في المدينة، وقصرها في ذي الحليفة، وبينهما ما يُقَرَّبُ من ثلاثة أميال، فهذه المسافة (أي: ما بين المدينة وذي الحليفة) مسافة قصر، ثبت أن النَّبِيَّ ﷺ قصر الصلاة فيها، ويُرجح أنها أقصر مسافة للقصر، وهي نحو خمسة كيلو ونصف، ويكون القصر

(١) «الموطأ» برقم (٣٧٥) رواية أبي مصعب الزهري المدني.

(٢) ينظر: «تفسير أضواء البيان» للآية.

ومسافته بعد مفارقة البنيان للبلد الذي يُقيم فيه المسافر.

قال أنس رضي الله عنه: كان النبي ﷺ إذا خرج مسيرة ثلاثة أميال أو فراسخ يصلي ركعتين، قال الحافظ: وهو أصح حديث في بيان ذلك وأصرحه.

وحديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: (كان رسول الله ﷺ إذا سافر فرسخاً يقصر الصلاة) وهذا الحديث يحدد أن المراد في حديث أنس الفرسخ وليس الميل، وهو يدفع هذا الشك، والفرسخ ثلاثة أميال ومقداره (٥٥٤١) متراً، والميل (١٧٤٨) متراً. وحديث أبي سعيد أخرجه سعيد بن منصور وأقره الحافظ في التلخيص بسكوته عنه.

ويرى المالكية والشافعية أن السفر الذي تُقصر فيه الصلوة ما كان مسيرة يوم وليلة على الإبل. لِمَا رواه ابن عباس رضي الله عنه أن النَّبِيَّ ﷺ قال: «يا أهل مكة، لا تقصروا في أدنى من أربعة بُرْدٍ، من مكة إلى عُسْفَانَ»^(١).

وقُدِّرَتْ هذه المسافة بِمَسِيرِ يومٍ وليلة على الأقدام.

٥- ويرى أهل الظاهر أن مُطلقَ السفر قليلاً أو كثيراً يَجُوزُ فيه القصر، أخذًا من إطلاق الآية وهو يتناول كل ضرب في الأرض، وسواء أكان السفر ماشيًا أم على دراجة أو في قطار أو سفينة أو طائرة أو سيارة ونحو ذلك.

ويُشرع القصر عند مفارقة الحضر والخروج من البلد، ويكون الإتمام عند الدخول في أول بيوت البلد الذي خرج منه.

مدة القصر: ثُمَّ إِنْ عَدَدَ الْأَيَّامِ الَّتِي يَقْصُرُ فِيهَا الْمَسَافِرُ صَلَاتَهُ كَالْآتِي:

أ- فإذا كان لا يعلم متى يرحل من سفره؛ لأنه قَدِمَ لأداء مهمة، ومدة إقامته غير محددة، ولكنه قد يسافر آخر النهار، وقد يسافر غدًا، ثُمَّ يَأْتِي غَدًى فَيَتَأَخَّرُ إِلَى مَا بَعْدَهُ،

(١) رواه البيهقي برقم (٥١٨٧) وقال: هذا حديث ضعيف، إسماعيل بن عباس، لا يحتج به، وعبد الوهاب بن مجاهد، والصحيح أن ذلك من قول ابن عباس، وضعفه الدار قطني، وكذا الألباني في الإرواء برقم (٥٦٥) وابن حجر في الفتح (٥٦٦/٢) وانظر معجم الطبراني الكبير (٩٧/١١) والموطأ من رواية محمد بن الحسن (١٩٤).

وهو لا يعلم متى تنتهي مهمته، فالعلماء يُجمعون على أنه في هذه الحال يُقصر الصَّلَاة، وإن طالت المُدَّة.

فالنَّبِيُّ ﷺ قام في تبوك عشرين يومًا، وهو لا يعلم متى تنتهي الغزوة، ومتى ينتهي لقاءه مع العدو، وكان عليه الصَّلَاة والسلام يُقصر الصَّلَاة خلال هذه المدة انتظارًا للفراغ من لقاء العدو.

عن جابر رضي الله عنه قال: أقام رسول الله ﷺ بتبوك عشرين يومًا يقصر الصلاة،^(١).

وفي البخاري عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: أقام النبي في بعض أسفاره تسع عشرة يصلي ركعتين، والظاهر أن ذلك كان مدة إقامته في مكة عند الفتح.

كما جاء في لفظ آخر (أقام النبي ﷺ بمكة تسعة عشر يومًا) قال ابن عباس رضي الله عنهما أقام النبي تسعة عشر يقصر، فنحن إذا سافرنا تسعة عشر قصرنا، وإن زدنا أتممنا البخاري.

ب- كذلك قَصَرَ النَّبِيُّ ﷺ الصَّلَاةَ عشرة أيام في بعض أسفاره^(٢). كما في حديث أنس رضي الله عنه قال: (أقمنا بمكة عشرًا نقصر الصلاة)^(٣)، وقصرها في أكثر من ذلك وأقل.

ج - وأقل مدة قصر فيها النبي ﷺ صلاته كانت أربعة أيام بيوم السفر، وهي أيام أداء العمرة، حيث أقام هذه الأيام الأربعة بمكة، يُقصر فيها الصَّلَاة. واحتج من قال ذلك بقوله ﷺ «يقيم المهاجر بمكة بعد قضاء نسكه ثلاثًا»^(٤).

وفي صحيح مسلم أن النبي ﷺ أقام بمكة أربعة أيام يقصر الصلاة، حيث دخل مكة في

(١) ينظر حديث جابر في المسند (١٤١٣٩) بإسناد صحيح على شرط الشيخين، كما قال محققوه، وسنن أبي داود (١٢٣٥) وابن أبي شيبة (٤٥٤/٢) قال الحافظ في (تلخيص الحبير) صححه ابن حزم والنووي، وأخرجه ابن حبان (٢٧٤٩) وهو في مصنف عبدالرزاق (٤٣٣٥).

(٢) كما في صحيح البخاري (١٠٨١) و(٤٢٩٧) بنحوه ومسلم (٦٩٣) وأبي داود (١٢٣٣) وصحيح أبي داود (١١١٦) والإرواء (٥/٣) والترمذي (٥٤٨) والنسائي (٣/ ١١٨) وابن ماجه (١٠٧٧). وصحيح ابن ماجه (٨٨٢).

(٣) البخاري (٤٢٩٧) ومسلم (٦٩٣) والمسند (١٢٩٧٥).

(٤) من حديث العلاء بن الحضرمي في صحيح مسلم (٢٤٢) (١٣٥٢). والمسند (١٨٩٨٥) والبخاري (٣٩٣٣).

حجة الوداع الرابع من شهر ذي الحجة وخرج منها الثالث عشر ويشمل هذا أداء المناسك في منى وعرفة .

وثبت في الصحيح من حديث جابر وابن عباس رضي الله عنهما أن النبي ﷺ قدم مكة صُبح رابعة ذي الحجة، فأقام أربعة أيام وصلى الفجر بالأبطح يوم الثامن، فكان يقصر الصلاة في هذه الأيام .

وفي الصحيحين عن البراء بن عازب رضي الله عنه أن النبي ﷺ أقام بمكة في عمرة القضاء ثلاثة أيام ثم خرج كما اشترط المشركون^(١) .

وقد أخذ جمهورُ الفقهاء من مدة إقامة النبي ﷺ بمكة في العمرة تحديدَ أيام القصر للمسافر بأربعة أيام بيوم السفر، أو ثلاثة بدونه، إن كان يعلم مسبقاً أنه سيقوم هذه المدة . هذا: وقد ذهب مالك والشافعي وأبو ثور وأحمد في إحدى الروايتين إلى قصر الصلاة إذا نوى المسافر الإقامة أربعة أيام .

والشافعية يقولون: لا يحسب فيها يوم الدخول ولا يوم الخروج، فإن نوى المسافر الإقامة أكثر من أربعة أيام أتم وإن نوى دونها قصر .

ومالك يقول: إذا نوى الإقامة أربعة أيام صحاح أتم وإن نوى دونها قصر .

والرواية المشهورة عن أحمد أنه يتم فيما زاد على إحدى وعشرين يوماً .

وقال أبو حنيفة هي نصف شهر^(٢) وإن نوى أقل منه قصر .

قلت: وأحوال النبي ﷺ في أسفاره تتسع لما هو أكثر من ذلك كما نطقت به الأحاديث السالفة .

فَمَنْ كانت مدَّة سفره ثلاثة أيام أو يومين فله أن يَقْصُر الصَّلَاةَ، وإن كان يعلم أنه سوف يجلس فوق أربعة أيام؛ فإنه لا يقصر الصَّلَاةَ من أول لحظة يَصِلُ فيها إلى البلد المسافر إليها؛ لأنه في حكم المُقيم .

(١) مسلم (١٧٨٣) والبخاري (٢٦٩٨) .

(٢) ينظر: الترمذي في سننه، باب ما جاء في كم تقصر الصلاة (٣٨٧) من أبواب الصلاة، وأضواء البيان للشيخ الشنيطي (١/٢٧٤) .

ولو كان للمسافر زوجة في بلد، وليس له زوجة في بلد أخرى؛ فإن البلد التي فيها زوج هي بلد إقامة له.

وإن نزل وقتًا قصيرًا في بلد لوجود الزوجة به؛ فهو موطن إقامة بالنسبة له، وليس موطن سفر؛ لأن فيه إحدى زوجاته.

والمسلم الذي يقصر الصلاة لا ينبغي له أن يترك الصلاة مع الجماعة لكي يقصر الصلاة، أو يجمعها، والمسافر يُتِمُّ صلاته خلف الإمام المقيم.

والمقيم إذا ائتم بالمسافر، فعلى المسافر أن يُنبِّه مَنْ خَلَفَهُ من المقيمين أنه على سفر، وعليهم أن يُتِمُّوا صلاتهم بعد أن يسلم.

وعلى المسافر إذا قدم من سفر، وكان يسمع الأذان، ألا يتخلف عن الجماعة؛ لأنه مسافر، بل يجب عليه الحضور للمسجد؛ لأداء الصلاة مع جماعة المسلمين، ما لم يكن معذورًا، فإذا صلى مع الإمام المقيم صلى بصلاته صلاة تامة.

أما إذا صلى وحده لسبب من الأسباب المانعة، بأن كان مريضًا أو خائفًا، أو حضر بعد فوات الجماعة؛ فيَقْصُر من صلاته، وكذلك إذا صلى مع مسافرين مثله؛ فإنهم يصلُّون كلُّهم قصرًا.

الجمع بين الظهر والعصر والمغرب والعشاء:

وكلُّ مَنْ جاز له قصر الصلاة يجوز له الجمع، ولكن لا علاقة بين الجمع والقصر، فلا يلزم مَنْ قصر الصلاة، الجمع بين الظهر والعصر، أو المغرب والعشاء جمع تقديم أو تأخير، فقد يجمع بين الصلاتين لمرضٍ أو مطرٍ أو عذرٍ، ولا يجوز له القصر.

ومما هو مُتَّفَقٌ عليه بين أهل العلم: أن الجمع يكون بين صلاتي الظهر والعصر في عرفة جمع تقديم، وبين صلاتي المغرب والعشاء في مزدلفة جمع تأخير أفضل، بخلاف غير ذلك من حالات السفر، فيكون الجمع فيها عند الحاجة.

ويجوز الجمع للمسافر الجاد في مسيره، لحديث نافع عن ابن عمر أن رسول الله ﷺ

كان إذا جذبَه السير جمع بين المغرب والعشاء^(١).

ويكون ذلك بين الظهر والعصر، وبين المغرب والعشاء، جمع تقديم، بأداء كل منهما في أول وقت الأولى، أو جمع تأخير بأدائهما في أول وقت الثانية، ولا يشترط تقديم النية لهذا الجمع عند جمهور العلماء، فقد كان النبي ﷺ يصلي بأصحابه جمعًا وقصرًا، ولم يكن يأمر أحدا منهم بنية الجمع والقصر، كما أنه لا دليل على شرط الموالاة بين الصلاتين لأن هذا يسقط مقصود الرخصة.

فإن كان السفر سيستغرق وقت صلاة الظهر مثلاً؛ أخره إلى صلاة العصر، ويجمع بينهما جمع تأخير، وكذا صلاة المغرب، إن كان وقته سوف ينفذ في السفر، أخره إلى العشاء وجمع بينهما جمع تأخير.

فإن بدأ المسافر سفره بعد أذان الظهر، وكان وقت العصر سيذهب وهو في السفر؛ فله أن يُقدِّمه جمع تقديم مع صلاة الظهر، ولكن إن كان الوقت يمرُّ عليه، وهو في حالة استقرار، وعدم تنقل؛ فيُصلِّي الصَّلَاةَ لوقتها مع الجماعة.

الجمع بسبب المطر:

والجمع بين الصلاتين يُشرع للمقيم في المغرب والعشاء، عند نزول المطر، دون قصر للصلاة، وعندما يكون الطريقُ إلى المسجد فيه طينٌ ووحلٌ ومشقةٌ، كما أمرَ عمرُ ؓ مؤذنه أن يقول وهو يؤذن حال نزول المطر: صلوا في رحالكُم.

وإذا كان المطر مصاحباً لصلاة المغرب، وكان نزوله غزيراً؛ فإن له أن يجمع بين المغرب والعشاء جمع تقديم، فقد روى البخاري أن النبي ﷺ جمع بين المغرب والعشاء في ليلة مطيرة:

١- وعند مالك يجوز الجمع في المسجد بين المغرب والعشاء جمع تقديم، إذا كان المطر واقعاً ومتوقعاً، ويكره الجمع بين الظهر والعصر بسبب المطر.

٢- وعند الحنابلة يجوز الجمع بين المغرب والعشاء فقط تقديمًا وتأخيرًا.

(١) مسلم (٧٠٣) ومن حديث سالم بن عبدالله عن ابن عمر في البخاري (١٠٩١) والمسند (٤٥٤٢) (٤٤٧٢).

٣- والشافعية تجوز للمقيم الجمع بين الظهر والعصر، وبين المغرب والعشاء جمع تقديم فقط بشرط وجود المطر عند تكبيرة الإحرام.

قلت: الجمع بين الظهر والعصر في المطر ليس عليه دليل صحيح، ولا يشرع الجمع لمن كان يصلي في بيته، أو كان ساكنًا في المسجد، أو مستترا تحت مظلة أو في سيارته، وليس في الطريق طين ووحل يتأذى به.

الجمع بسبب المرض:

وكذلك المريض يجوز له الجمع إن كانت تَشَقُّ عليه الصَّلَاة، أو يشق عليه الوضوء لكل صلاة؛ بسبب ما يلحقه من العنت والضعف بسبب أداء كل صلاة في وقتها، فإنه يُشَرَّع له الجمع بين الظهر والعصر، وبين المغرب والعشاء جمع تقديم أو تأخير ﴿تَخْفِيفٌ مِّن رَّيِّكُمْ وَرَحْمَةٌ﴾، فمشقة المرض أشد من مشقة المطر.

الجمع لغير سبب:

وفي صحيح مسلم عن ابن عباس رضي الله عنه أن النبي ﷺ جمع بين الظهر والعصر، والمغرب والعشاء بالمدينة من غير خوف ولا مطر، وفي لفظ (من غير خوف ولا سفر) ^(١).

قلت: والظاهر أن هذا لو حدث أحيانًا على النحو الآتي، فإنه يجوز، على ألا يكون ديدنًا للمسلم لقوله تعالى ﴿إِنَّ الصَّلَاةَ كَانَتْ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ كِتَابًا مَّوْقُوتًا﴾ [النساء] ولذا قال ابن عباس رضي الله عنه: أراد ألا يخرج أمته.

والصلاة في أول وقتها من أحب الأعمال إلى الله تعالى. وفي المسند (١٩١٨) أن أبا الشعثاء قال: أظنه آخر الظهر وعجل العصر، وآخر المغرب وعجل العشاء، قال ابن عباس: وأنا أظن ذلك.

قال ابن عبد البر في التمهيد (٢١٦/١٢): يحتمل أنه جمع بينهما بأن صلى الأولى في آخر وقتها، وصلى الثانية في أول وقتها، فكانت رخصة في التأخير إلى آخر الوقت للسعة، وهذا جمع مباح في الحضر والسفر، لأن جبريل صلى بالنبي في أول الوقت وآخره، وقال له: الوقت بين

(١) البخاري (٥٤٣) ومسلم (٧٠٥، ٥٦) وفيه (كي لا يُخرج أمته) وهو في المسند (١٩٥٣) و (٢٥٥٧) و (٣٢٦٥) وأبو داود (١٢١١) والترمذي (١٨٧) والبيهقي (١٦٧/٣) والموطأ (١/١٤٤).

هذين، وكذلك صلى النبي ﷺ بالناس في المدينة عند سؤال السائل عن وقت الصلاة.

اختلاف النية بين الإمام والمأموم:

ولو دخل المسافر الذي فاتته صلاة الظهر، ووجد الجماعة يُصلون صلاة العصر؛ فله أن يُصلي معهم بنية صلاة الظهر، حيث يجوز أن تختلف النية بين الإمام والمأموم، وله أجر الجماعة، فإن فرغوا من صلاتهم فله أن يصلي صلاة العصر مع جماعة أخرى إن وجد، أو يصليها منفردًا إن لم يجد.

صلاة المغرب خلف من يصلي العشاء:

ولو فاتته صلاة المغرب ويريد قضاءها، ووجد الجماعة يُصلون العشاء، والمغرب صلاته ثلاثية، والعشاء رباعية، فإن كان من بدء الصلاة، فله أن يفوت من صلاة الإمام ركعة، ثم يعقد النية لصلاة المغرب؛ كي تتفق عدد الركعات، ويتشهد التشهد الوسط بعد ركعة تالية؛ لأن التشهد الذي أتى به بعد الركعة الأولى كان لموافقة الإمام، وهو في هذه الحالة سيتشهد ثلاث مرات، ولا شيء في هذا.

وله أن يدخل مع الإمام من أول الصلاة، فإذا قام الإمام للركعة الرابعة يظل جالسًا، ولا يسلم حتى يفرغ الإمام من التشهد في الركعة الرابعة، ويسلم معه، وبذلك يكون قد صلى المغرب خلف من يصلي العشاء.

ويصح صلاة المفترض خلف المتفل، وصلاة المتفل خلف المفترض.

ومُجمل معنى الآية: وإذا سافرتم - أيها المؤمنون - في أرض الله، برًا أو بحرًا أو جواً، فلا حرج عليكم، ولا إثم في قصر الصلاة الرباعية، إن خفتهم من عدوان الكفار عليكم بما تكرهونه من قتالٍ وغيره حال صلاتكم، وكان غالب أسفار المسلمين في بدء الإسلام مخوفةً، والقصر رخصة في السفر حال الأمن أو الخوف، وإن كان الكافرون مجاهرين لكم بعداوتهم فاحذروهم، حيث لا يمنعونهم اشتغالكم بالصلاة أن ينقضوا عليكم، ويقتلوكم.

كيفية صلاة الجماعة حال الخوف من العدو

١٠٢- ﴿وَإِذَا كُنْتَ فِيهِمْ فَأَقَمْتَ لَهُمُ الصَّلَاةَ فَلَنْفُذًا مِنْهُمْ مَعَكَ وَلْيَأْخُذُوا أَسْلِحَتَهُمْ

فَإِذَا سَجَدُوا فَلْيَكُونُوا مِنْ وَرَائِكُمْ وَلِتَأْتِ طَائِفَةٌ أُخْرَىٰ لَمْ يُصَلُّوا فَلْيُصَلُّوا مَعَكَ وَلْيَأْخُذُوا حِذْرَهُمْ وَأَسْلِحَتَهُمْ وَذَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ تَغْفُلُونَ عَنْ أَسْلِحَتِكُمْ وَأَمْتِعَتِكُمْ فَيَمِيلُونَ عَلَيْكُمْ مَيْلَةً وَاحِدَةً وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِنْ كَانَ بِكُمْ أَذًى مِنْ مَطَرٍ أَوْ كُنْتُمْ مَرَضَىٰ أَنْ تَضَعُوا أَسْلِحَتَكُمْ وَخُذُوا حِذْرَكُمْ إِنَّ اللَّهَ أَعَدَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُهِينًا ﴿١٠٢﴾

ثُمَّ بَيَّنَّتْ هذه الآية كيفية صلاة الخوف عند مواجهة العدو، إذا كان من المتوقع أن العدو يُباغت المسلمين وينقض عليهم، وتوجد مرابطة بين المسلمين والكفار، فإذا أقام الإمام صلاة الخوف، فعليه أن يلتزم بما جاء في الآية، ويُبين للمسلمين ما يجب عليهم فعله، وهو أن يُقسم الإمام الجيش إلى طائفتين، يصلي بكل طائفة ركعة.

فإذا أكملت الطائفة الأولى صلاتها (رُكعتها) وهذا استفاد من قوله تعالى ﴿فَإِذَا سَجَدُوا﴾ أي أنهوا صلاتهم، وعبر بالسجود، لأن هذه الطائفة ستُنتهي صلاتها مع الإمام بالسجود الثاني، ولأن السجود أفضل أركان الصلاة، فإذا أكملت هذه الطائفة الركعة الثانية بنفسها، فإنها تنصرف للحراسة، وهذا معنى ﴿فَلْيَكُونُوا مِنْ وَرَائِكُمْ﴾.

ثم تأتي الطائفة الثانية التي كانت تحرس فلتتحق بالإمام وهو ينتظرها فتصلي معه ركعة، ثم يسلم بهم، وفي هذه الصلاة خلف إمام واحد ما يشير إلى اجتماع كلمة المسلمين واتفاقهم وعدم تفرقهم، ليكون ذلك أوقع في قلوب أعدائهم، وأكثر هيبة لهم، وخوفاً منهم.

متى شرعت صلاة الخوف؟

وقد شُرِعَتْ صلاةُ الخوف في غزوة ذات الرِّقَاع بين سنة سِتٍ وسبعٍ من الهجرة، حين لَقِيَ النَّبِيُّ ﷺ جموعَ غطفان مُحارِبًا، وأنمار، وثعلبة، في موضع يقال له: نخلة، بين عسفان وضُجَّان، وأول صلاة صَلَّيْتُ بها، هي صلاة العصر.

سبب النزول:

١- وسببها: أن المشركين لما رأوا جِرْصَ المسلمين على الصلاة؛ قالوا: هذه الصلاة فُرْصَةٌ لنا أن نأخذهم على غِرَّةٍ، فأخبر الله تعالى نبيّه بذلك، ونزلت الآية.

٢- وقد حَدَّثَ أن المشركين كانوا بين النبي ﷺ وبين القبلة في عسفان، بين مكة والمدينة، فصَلَّى النبي ﷺ بأصحابه صلاة الظهر، فنَدِمَ المشركون وقالوا: كان يُمكن أن

نُبَاغِتْهُمْ ونَأْتِيَهُمْ على غِرَّةٍ وهم في الصَّلَاةِ، فقال بعضهم: إن صلاة العصر سوف تأتي عليهم، وهي أحبُّ إليهم من أنفسهم وأبنائهم فنباغتهم أثناءها؛ فأنزل الله هذه الآية بين الظهر والعصر.

٣- وعن أبي عياش الزرقى قال: كنا مع النَّبِيِّ ﷺ بعُسفان، فاستقبلنا المشركون، عليهم خالد بن الوليد، وهم بيننا وبين القبلة، فصلَّى بنا النَّبِيُّ ﷺ الظهر، فقال المشركون: لقد كانوا على حال لو أصبنا غُرَّتْهم، ثُمَّ قالوا: تأتي عليهم الآن صلاة هي أحبُّ إليهم من أبنائهم وأنفسهم، فنزل جبريل بهذه الآيات بين الظهر والعصر ﴿وَإِذَا كُنْتَ فِيهِمْ﴾ فحضرت الصلاة، فَأَمَرَهُمُ النَّبِيُّ ﷺ فأخذوا السلاح، وصفُّوا خلفه صفين، ثُمَّ ركع، فركعنا جميعاً، ثُمَّ سَجَدَ بالصف الذي يليه، والآخرون قيام يحرسونهم، فلما فرغوا جلس الآخرون، فصلَّوا في مكانهم . . . وفي نهاية الحديث قال: فصلاها رسول الله ﷺ مرتين، مرة بعُسفان، ومرة بأرض بني سليم^(١).

وهذه الحادثة أثَّرت في خالد بن الوليد؛ ف شعر بأن المؤمنين مُؤَيَّدُونَ بقوة خفية، ممَّا جعله يُفكر في الإسلام.

٤- أخرج الترمذي وغيره بسنده عن أبي هريرة ؓ أن رسول الله ﷺ نزل بين ضُجَّنان وعُسفان، فقال المشركون: إن لهؤلاء صلاة هي أحبُّ إليهم من آبائهم وأبنائهم، وهي صلاة العصر، فَأَجْمِعُوا أَمْرَكُمْ، فَمِيلُوا عليهم ميلة واحدة، وإن جبريل أتى النَّبِيَّ ﷺ فأمره أن يُنْسِمَ أصحابه شطرين فيصليَّ بهم، وتقوم طائفة أخرى وراءهم، وليأخذوا جذرهم وأسلحتهم، ثُمَّ يأتي الآخرون، ويصلُّون معه ركعة واحدة، ثُمَّ يأخذ هؤلاء جذرهم وأسلحتهم؛ فتكون لهم ركعة ركعة، ولرسول الله ﷺ ركعتان^(٢).

(١) ينظر الحديث بنصه في «المسند» (٤/ ٦٠٤٩) (١٦٥٨٠) بإسناد صحيح ورجال ثقات كما قال محققوه، وأبي داود (١٢٣٦) و«سنن سعيد بن منصور» (٦٨٦) و«سنن النسائي» (٣/ ١٧٦) (١٥٤٨، ١٥٤٩) وعبد الرزاق (٤٢٣٧) وابن أبي شيبه (٢/ ٤٦٣) و«صحيح سنن أبي داود» (١٠٩٦) والطبراني (٥١٣٢)، (٥١٤٠) والحاكم (١/ ٣٣٧) وغيرهم.

(٢) قال أبو عيسى: هذا حديث حسن غريب من هذا الوجه، من حديث عبد الله بن شقيق عن أبي هريرة، «سنن الترمذي» برقم (٣٢٣٩) وحسن الألباني إسناده في «صحيح سنن الترمذي» (٣/ ٤٢) (٢٤٣١) وهو حديث حسن عن عبد الله بن شقيق، كما في «علل الترمذي» (١/ ٣٠٣).

وفي توجيه الخطاب للنبي ﷺ في أول الآية ﴿وَإِذَا كُنْتَ فِيهِمْ﴾ يُفِيدُ أَنَّ هَذِهِ الصَّلَاةَ خَاصَّةٌ بِصَلَاةِ الْجَمَاعَةِ عِنْدَ الْخَوْفِ مِنْ مُبَاغَةِ الْعَدُوِّ، وَحُكْمُهَا قَائِمٌ إِلَى قِيَامِ السَّاعَةِ.

وَقَدْ صَلَّى (حَدِيثُهُ) بِالنَّاسِ صَلَاةَ الْخَوْفِ فِي طَبْرِسْتَانَ بِمَحْضَرٍ مِنَ الصَّحَابَةِ، فَصَفَّ النَّاسَ خَلْفَهُ، وَجَعَلَ صَفًّا مُوَازِيًّا لِلْعَدُوِّ، فَصَلَّى بِالَّذِي خَلْفَهُ رُكْعَةً، ثُمَّ انْصَرَفَ هَؤُلَاءِ مَكَانَ هَؤُلَاءِ، وَجَاءَ أَوْلَئِكَ فَصَلَّى بِهِمْ رُكْعَةً، وَلَمْ يَقْضُوا؛ فَدَلَّ هَذَا عَلَى أَنَّهَا لَيْسَتْ خَاصَّةً بِالنَّبِيِّ ﷺ^(١).

وَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ ؓ: فَرَضَ اللَّهُ الصَّلَاةَ عَلَى لِسَانِ نَبِيِّكُمْ فِي الْحَضَرِ أَرْبَعًا، وَفِي السَّفَرِ رَكْعَتَيْنِ، وَفِي الْخَوْفِ رُكْعَةً^(٢).

كيفية صلاة الخوف من فعل النبي ﷺ:

عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عُمَرَ ؓ قَالَ: غَزَوْتُ مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ قَبْلَ نَجْدٍ، فَوَازَيْنَا الْعَدُوَّ، فَصَافَفْنَا لَهُمْ، فَقَامَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يُصَلِّي لَنَا، فَقَامَتْ طَائِفَةٌ مَعَهُ تُصَلِّي، وَأَقْبَلَتْ طَائِفَةٌ عَلَى الْعَدُوِّ، وَرَكَعَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ بَيْنَ مَعَهُ، وَسَجَدَ سَجْدَتَيْنِ، ثُمَّ انْصَرَفُوا مَكَانَ الطَّائِفَةِ الَّتِي لَمْ تَصَلِّ، فَجَاؤُوا، فَرَكَعَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ بِهِمْ رُكْعَةً، وَسَجَدَ سَجْدَتَيْنِ، ثُمَّ سَلَّمَ، فَقَامَ كُلُّ وَاحِدٍ مِنْهُمْ فَرَكَعَ لِنَفْسِهِ رُكْعَةً وَسَجَدَ سَجْدَتَيْنِ^(٣).

٢- وَعَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ ؓ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ صَلَّى بِذِي قَرَدٍ، فَصَفَّ خَلْفَهُ صَفَيْنِ؛ صَفًّا خَلْفَهُ، وَصَفًّا مُوَازِيًّا لِلْعَدُوِّ، فَصَلَّى بِالَّذِينَ خَلْفَهُ رُكْعَةً، ثُمَّ انْصَرَفَ هَؤُلَاءِ إِلَى مَكَانِ هَؤُلَاءِ، وَجَاءَ أَوْلَئِكَ فَصَلَّى بِهِمْ رُكْعَةً وَلَمْ يَقْضُوا^(٤).

وَذُو قَرَدٍ: مَوْضِعٌ عَلَى بَعْدِ لَيْلَتَيْنِ مِنَ الْمَدِينَةِ.

٣- وَعَنْ صَالِحِ بْنِ خُوَّانَ بْنِ جَبْرِ عَنْ سَهْلِ بْنِ أَبِي خَثْعَمَةَ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ صَلَّى بِأَصْحَابِهِ فِي الْخَوْفِ، فَصَفَّهُمْ خَلْفَهُ صَفَيْنِ، فَصَلَّى بِالَّذِينَ يَلُونَهُ رُكْعَةً، ثُمَّ قَامَ، فَلَمْ يَزَلْ

(١) انظر: «تفسير الألوسي» (٥/ ١٣٤) وابن أبي شيبة (٢/ ٤١١) و«صحيح سنن أبي داود» (١١٠٩) والنسائي (١٥٢٨) وابن حبان (١٤٥٢٣).

(٢) ينظر: «صحيح مسلم» (٦٨٧) وابن أبي شيبة (٢/ ٤٦٤) والطبري (٧/ ٤١٩).

(٣) «صحيح البخاري»، صلاة الخوف (٩٤٢، ٤١٣٢) و«صحيح مسلم» برقم (٣٠٥، ٣٠٦، ٨٣٩).

(٤) رواه النسائي (٣/ ١٦٩) ورجال إسناده ثقات، وابن أبي شيبة (٢/ ٤٦١).

قائماً حتى صلى الذين خلفهم ركعة، ثم تقدموا وتأخر الذين كانوا قد أمَّهم فصلَّى بهم ركعة، ثمَّ قعد، حتى صلى الذين تخلفوا ركعة، ثمَّ سلَّم^(١).

وفي لفظ مالك: أن ذلك كان في غزوة ذات الرِّقَاع^(٢).

أخذ الحذر من العدو أثناء المطر، وقصة غورث بن محارب:

وعن ابن عباس رضي الله عنه أن النَّبِيَّ ﷺ غزا بني محارب، وبني أنمار، فنزلوا منزلاً لا يرون فيه من العدو أحداً، فوضع النَّاسُ أسلحتهم، فخرج الرَّسُولُ ﷺ لحاجة، وقطع الوادي، فنزل المطر، وسال الوادي، وحال السيل بين الرَّسُولِ وأصحابه، فجلس تحت شجرة، فجاء غورث بن الحارث المحاربي، يريد قتل النَّبِيِّ ﷺ فوقف على رأس النَّبِيِّ ﷺ وقد سلَّ سيفه من غمده، وقال: يا محمد، مَنْ يَمْنَعُكَ مِنْي الْآنَ؟

فقال ﷺ: «اللهم اكفني غورث بن الحارث بما شئت»، فأهوى غورث بالسيف ليضرب النَّبِيَّ ﷺ فنكب على وجهه، ووقع السيف من يده، فقام رسول الله ﷺ وأخذ السيف، ثمَّ قال: «يا غورث، مَنْ يَمْنَعُكَ مِنْي الْآنَ؟» فقال: لا أحد، فقال: «تشهد أن لا إله إلا الله، وأن محمداً عبده ورسوله، وأعطيك سيفك؟» فقال: لا، ولكن أشهد ألا أقاتلك أبداً، ولا أعين عليك عدواً، فأعطاه رسول الله ﷺ سيفه، فقال غورث: لَأَنْتَ خَيْرٌ مِنْي.

ورجع غورث إلى أصحابه، فقالوا له: وَيْلَكَ، ما منعك من قتله؟ قال: والله لقد أهويت إليه بالسيف لأضربه، فوالله ما أدري مَنْ زحلني بين كتفي، فخررت لوجهي، قال: وسكن الوادي، فقطعه النَّبِيُّ وأخبر أصحابه وقرأ الآية: ﴿وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِنْ كَانَ بِكُمْ أَذًى مِنْ مَطَرٍ أَوْ كُنْتُمْ مَرَضَى﴾، وفي رواية جابر زيادة لكيفية صلاة الخوف^(٣).

(١) «صحيح مسلم» (١/ ٥٧٥) برقم (٣٠٩) و«صحيح البخاري» برقم (٤١٣١) ورواه الجماعة وأحمد، ورواه مالك في «الموطأ».

(٢) ينظر: «الموطأ» (١/ ١٨٣) والشافعي في «شفاء العي» (٥٠٧) وابن أبي شيبة (٢/ ٤٦٦) والبخاري (٤١٢٩) ومسلم (٨٤٣) مطولاً وأبو داود (١٢٣٨) والترمذي (٥٦٥) والنسائي (١٥٣٥) وابن ماجه (١٢٥٩) وغيرهم.

(٣) وهو في البخاري بنحوه دون قصة غورث برقم (٤١٣٥) من طريق الزهري عن جابر، ومن طريق يحيى بن أبي كثير عن أبي سلمة ورقم (٢٩١٠) ورَوَى بعضه معلقاً ٤٧٦/٧ وفي مسلم (٨٤٣) وهو في «المسند» (٣/ ٣٩٠) برقم (١٤٩٢٨، ١٤٩٢٩) وفيه ذكر (غورث) عن جابر أيضاً.

أخذ الحذر من العدو أثناء المرض:

وقال ابن عباس: كان عبد الرحمن بن عوف جريحاً؛ فنزلت فيه: ﴿أَنْ تَضَعُوا أَسْلِحَتَكُمْ وَخُذُوا حِذْرَكُمْ﴾ أي: من عدوكم، قال تعالى: ﴿وَإِذَا كُنْتَ فِيهِمْ﴾ والخطابُ للرسول الله ﷺ، وإلى كل مسلم يتأتى منه الخطاب ويؤم المسلمون في صلاة الخوف، كما في قوله تعالى: ﴿فَأَقَمْتَ لَهُمُ الصَّلَاةَ فَلَنَقُمْ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ مَعَكَ﴾.

وقد بينت الآية أن الإمام يكون واحداً، وأن المأمومين يتناوبون الصلاة خلفه.

وقد جاءت الأحاديث ببيان صفات متعددة لصلاة الخوف، وعلى أية هيئة صلى فيها المصلي أجزأه، وقد ذكرت الآية إحدى صفاتها:

وهي أن ينقسم الجيش إلى فرقتين؛ فرقة تحرس في مواجهة العدو، والفرقة الأخرى تقتدي بالإمام، فيصلّي بهم ركعة واحدة، ثم إذا قام للركعة الثانية أتمت هذه الفرقة الركعة الثانية لنفسها وانصرفت لمقابلة العدو، والإمام قائم ينتظر، وتأتي الطائفة التي كانت تحرس فتقتدي بالإمام، وتصلّي معه ركعة، ثم إذا جلس للشهادة تقوم هذه الطائفة؛ لتأتي بالركعة الثانية، وينتظر الإمام -وهو جالس- حتى يُسلم بهم، هذه هي الصفة التي ذكرتها الآية في صلاة الخوف.

أما صلاة الخوف في وقت المغرب، فالجمهور على أن الإمام يُصلّي بالطائفة الأولى ركعتين، وبالطائفة الثانية ركعة، ثم تتم كل طائفة ما بقي عليها.

والله سبحانه يأمرنا في جميع الأحوال أن نأخذ حذرنا، وأن نحمل أسلحتنا، وأن نكون فطنين متيقظين في مواجهة العدو؛ لأن العدو يؤد أن يُباغتتنا ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَوِ تَغْلَبُوا عَنْ أَسْلِحَتِكُمْ وَأَمْتِعَتِكُمْ فَيَمِيلُونَ عَلَيْكُمْ مَيْلَةً وَاحِدَةً﴾.

قال الحافظ ابن حجر: روي صلاة الخوف عن النبي ﷺ على أربعة عشر نوعاً، وليس بينها تضاد، ولكنه ﷺ صلى صلاة الخوف مراراً، وهي من الاختلاف المباح، والمرء يُصلّي ما شاء من هذه الأنواع عند الخوف^(١).

(١) وقد ذكرها ابن حزم في جزء مفرد، وبعضها في «صحيح مسلم»، ومعظمها في «سنن أبي داود»، وذكر الحاكم منها ثمانية أنواع، وذكر ابن حبان تسعة، ينظر: «التلخيص» ص ١٤١.

وسبب كثرة أنواع صلاة الخوف أن العدو تارة يكون تجاه القبلة، وتارة يكون في غير اتجاهها، والصلاة تكون رباعية، أو ثلاثية أو ثنائية، وتارة يشتد الخوف حال التحام القتال؛ فيصلون فرادى مستقبلين القبلة وغير مستقبلينها، ورجالاً وركباً، ووقوفاً ومشاةً.

وقال الإمام أحمد: ثبت في صلاة الخوف ستة أحاديث أو سبعة، أيها فعل المراء جاز.

وقال ابن القيم: أصولها ست: وهذه الكيفيات الست، ثلاثة منها أن يكون العدو في جهة القبلة، وثلاثة منها أن يكون العدو في غير جهة القبلة.

وفي الأحاديث السابق ذكرها بيان لكيفياتها.

ومن حالات ما إذا كان العدو في جهة القبلة: أن يصلي الإمام بكل طائفة ركعتين، فتكون الأليان له فرضاً، والآخران له نفلاً، كما في حديث جابر عند أحمد والشيخان قال: كنا مع النبي ﷺ بذات الرقاع وأقيمت الصلاة، فصلى بطائفة ركعتين، ثم تأخر وصلى بالطائفة الأخرى ركعتين فكان للنبي أربع وللقوم ركعتان.

ومن حالات ما إذا كان العدو في غير جهة القبلة: أن تقتصر كل طائفة على ركعة مع الإمام، فيكون للإمام ركعتان، ولكل طائفة ركعة، لحديث ابن عباس ؓ أن النبي ﷺ صلى بذي قرد. الحديث سبق ذكره قريباً.

ومعنى الآية بإجمال: وإذا كنت يا محمد في ساحة القتال مع أصحابك، فأردت أن تُصليَ بهم جماعة، فلتقم جماعة منهم معك للصلاة، وليأخذوا معهم سلاحهم؛ استعداداً للقاء العدو لو بغي عليهم، فإذا سجد هؤلاء الرجال الذين قاموا معك للصلاة فلتكن الجماعة الأخرى من خلفكم في مواجهة عدوكم؛ لحماية ظهوركم، وليكونوا في مقابلة عدوكم للحراسة، وتتم الجماعة الأولى ركعتهم الثانية بدونك ويسلمون.

ثم تأتي الجماعة الأخرى التي لم تبدأ الصلاة فليأتوا بك في ركعتهم الأولى، ثم يكملوا بأنفسهم ركعتهم الثانية، ثم تسلم بهم، وليحذروا من عدوهم وهم في صلاتهم، وليأخذوا أسلحتهم، ود الجاحدون لدين الله أن تغفلوا عن سلاحكم وزادكم وأمتعتكم التي تستعملونها في القتال؛ ليحملوا عليكم حملة واحدة، فينقضوا عليكم، فكونوا في غاية الحذر واليقظة والانتباه.

وعليكم أن تجمعوا بين الصلاة والجهاد، ولا إثم عليكم حينئذ إن كان بكم أذى من مطرٍ يُثْقَلُ معه حَمْلُ السلاح، أو كنتم في حال مرضٍ، بحيث يشق عليكم حمله أن تركوا أسلحتكم، مع أخذ الحذر دائماً، إن الله أعدَّ للجاحدين لدينه عذاباً يُهينهم ويُخزيهم، ومن العذاب المهين ما أمر الله به عباده المؤمنين من قتلهم وقتالهم حيثما ثقفوهم، ويأخذوهم ويحضرهم ويقعدوا لهم كل مرصد.

ويؤخذ من الآية أهمية صلاة الجماعة ووجوبها، لأن الله تعالى شرعها في حالات: الخوف والمرض والمطر، وَتَجَوَّزَ فيها عن الطمأنينة، وأسقط منها ركعة عن الخائف من العدو، فهي في حالة الأمن والصحة وعدم نزول المطر من باب أولى.

ذَكَرَ اللَّهُ تَعَالَى فِي جَمِيعِ الْأَحْوَالِ

١٠٣- ﴿فَإِذَا قَضَيْتُمُ الصَّلَاةَ فَادْكُرُوا اللَّهَ قِيَمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِكُمْ فَإِذَا اطْمَأْنَنْتُمْ فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ إِنَّ الصَّلَاةَ كَانَتْ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ كِتَابًا مَوْقُوتًا ﴿١٠٣﴾﴾

فإذا أدَّيْتُمُ الصَّلَاةَ وفرعتم منها فأدِّيموها ذَكَرَ الله تعالى في جميع أحوالكم وهيئاتكم قياماً وقعوداً وعلى جنوبكم، وقد خُصَّت صلاة الخوف بذلك:

١- لأن ذكر الله تعالى يجبر ما يكون فيها من اشتغال القلب والبدن حال الخوف.

٢- ولأن الإكثار من الذكر فيه علاج للقلق والخوف بتقوية الإيمان، وعلاج لضعف البدن عن مقاومة العدو.

٣- ولأن ذكر الله تعالى بالإضافة إلى الثبات والصبر، سبب للنصر على العدو، والفوز بالفلاح والسعادة في الدنيا والآخرة، ﴿يَتَأَيَّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَاثْبُتُوا وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [الأنفال: ٤٥].

٤- كما أن الصلاة صلة بين العبد وربّه بشكل عام، ففيها صلاح القلب بالإنابة إلى الله تعالى والضراعة إليه والثناء عليه.

(١) قرأ الأصهباني، وأبو جعفر، وأبو عمرو بخلف عنه بإبدال همزة (اطمأننتم) ألفاً وصلّاً ووقفاً، وكذا حمزة عند الوقف.

وإذا زال الخوف عنكم، وأقمتم في مساكنكم، فأدوا الصلاة كاملة، بأركانها وشروطها وأدابها وخشوعها، بعد أن وضعت الحرب أوزارها، ولا تفرطوا فيها بأي حال، فإنها واجبة في أوقات محددة معلومة في الشرع، لا يجوز مجاوزتها في سفر أو حضر، أو أمن أو خوف، أو صحة أو مرض.

فإذا التحمت الصفوف واشتد الخوف، ودارت رحى الحرب بين المسلمين والمشركين؛ فالصلاة تكون على أية كيفية، ولا تلزم صلاة الجماعة في هذه الحالة، وإنما كل جندي يصلي إذا جاء وقت الصلاة حسبما اتفق، وكيفما استطاع، فيصلّي وهو يمشي، يؤم بركوعه وسجوده بذكر الله تعالى كيفما استطاع.

وقد بينت هذه الآية أن الصلاة أمر مكتوب حتمًا على كل مسلم ومسلمة، وواجب على كل من بلغ حد التكليف، وذكرت أن لها أوقاتًا تجب بدخولها، وقد أشار سبحانه إلى هذه الأوقات في مثل قوله تعالى: ﴿أَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِكَ الشَّمْسِ إِلَى غَسَقِ اللَّيْلِ وَقُرْآنَ الْفَجْرِ إِنَّ قُرْآنَ الْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا﴾ [الإسراء]

وقوله: ﴿فَسَبِّحْنَا اللَّهَ حِينَ نُسُوتُ وَحِينَ تَضِيحُونَ﴾ (٧) وَلَهُ الْحَمْدُ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَعَشِيًا وَحِينَ يُظَاهِرُونَ (٨) [الروم]

وقوله: ﴿وَأَقِمِ الصَّلَاةَ طَرَفِي النَّهَارِ وَزُلْفًا مِنَ اللَّيْلِ﴾ [هود: ١١٤] وقوله: ﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا وَمِنْ آنَاءِ اللَّيْلِ فَسَبِّحْ وَأَطْرَافَ النَّهَارِ لَعَلَّكَ تَرْضَى﴾ [طه: ١٣٠].

وصح في حديث ابن عباس أن جبريل أم النبي ﷺ عند البيت مرتين، في أول كل وقت من الأوقات الخمسة، وفي آخره، وقال له: يا محمد، هذا الوقت وقت النبيين قبلك، الوقت ما بين هذين الوقتين^(١).

وأخرج الترمذي وغيره بسنده عن أبي هريرة ؓ أن رسول الله ﷺ قال: «إن للصلاة أولًا وآخرًا: وإن أول وقت صلاة الظهر حين تزلو الشمس، وآخر وقتها حين يدخل وقت العصر، وإن أول وقت العصر حين يدخل وقتها، وإن آخر وقتها حين تصفر الشمس، وإن

(١) «صحيح سنن الترمذي» (١٢٧) و«المسند» (٣٠٨١) بإسناد حسن، وعبد الرزاق في مصنفه (١٤٩) وأبو داود (٣٩٣) والترمذي (١٤٩) وابن خزيمة (٣٢٥) وابن أبي شيبة (٣١٧/١).

أَوَّلَ وقت المغرب حين تغرب الشمس، وإن آخر وقتها حين يغيب الأفق، وإن أَوَّلَ وقت العشاء الآخرة حين يغيب الأفق، وإن آخر وقتها حين ينتصف الليل، وإن أَوَّلَ وقت الفجر حين يطلع الفجر، وإن آخر وقتها حين تطلع الشمس»^(١).

ومعنى إقامة الصَّلَاة: أداؤها تامة على وجهها الأكمل ظاهراً وباطناً بأركانها وشروطها وخشوعها، دون قَصْرٍ، وأكثرُوا -أيها المسلمون- من التَّسْبِيح والتَّحْمِيد والتَّهْلِيل والتَّكْبِير، على كُلِّ حالٍ كنتم في الليل والنهار، والبرِّ والبحر والجوِّ، والسفر والحَضَر، والغنى والفقر، والصحة والمرض، وأدُّوا الصَّلَاةَ وَفَّقَ استطاعتكم قياماً أو قعوداً أو على جنبٍ ﴿الَّذِينَ ءَامَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ اللَّهِ أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ﴾ [الرعد] واذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿[الأنفال: ٤٥] فلا يُعْذَرُ أَحَدٌ فِي تَرْكِ الذِّكْرِ إِلَّا مَنْ فَقَدَ وَعْيَهُ.

والصلاة ميزان الإيمان، وعلى حسب إيمان العبد تكون صلاته، وهذه الصلاة لها وقت لا تصح إلا فيه ﴿إِنَّ الصَّلَاةَ كَانَتْ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ كِتَابًا مَوْقُوتًا﴾.

مُلَاحَظَةُ الْعَدُوِّ أَيْنَمَا كَانَ

١٠٤- ﴿وَلَا تَهِنُوا فِي ابْتِغَاءِ الْقُوَى إِنْ تَكُونُوا تَأْلُمُونَ^(٢) فَإِنَّهُمْ يَأْلُمُونَ كَمَا تَأْلُمُونَ وَتَرْجُونَ مِنْ اللَّهِ مَا لَا يَرْجُونَ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾

ثُمَّ رَغَّبَ الله عباده في مواصلة طلب أعدائهم وملاحقتهم أينما كانوا؛ فلا تضعفوا ولا تتهاونوا في طلب عدوكم من الكفار لأن ما أصابكم - أيها المسلمون - من الجراح والآلام قد أصاب عدوكم مثله أو أكثر، وفضلاً عن ذلك فإنكم تَطْلُبُونَ رضى الله تعالى، وإعلاء كلمته، وهم يُقاتلون لإشباع رَغْبَاتِهِمْ وشياطينهم وانتصار باطلهم، ولا تَضَعُفُوا في طلب عدوكم وقتاله، فإنكم إن تكونوا تتألمون من القتال وآثاره، فأعداؤكم كذلك يتألمون

(١) «صحيح سنن الترمذي» برقم (١٢٩) وفي «السنن» برقم (١٥١) وأخرجه أحمد في «المسند» بتحقيق أحمد شاكر رقم (٧١٧٢) بإسناد صحيح ورجال ثقات، وأخرجه ابن أبي شيبة (١/ ٣١٧، ١٤/ ١٠٨).
(٢) قرأ ورش وأبو جعفر وأبو عمرو بخلف عنه بإبدال همزة (تألمون) و(يألمون) ألفاً وصلًا ووقفًا في المواضع الثلاثة في الآية، وكذا حمزة عند الوقف.

منه أشدّ الألم ﴿إِنْ يَمَسُّكُمْ فَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ فَرْحٌ مِّثْلُهُ﴾ [آل عمران: ١٤٠] ومع ذلك فهم لا يَكْفُونَ عن قتالكم، فأنتم أولى بذلك منهم؛ لِمَا تَرْجُونَهُ من الثواب والنَّصْرِ والتأييد، وهم لا يَرْجُونَ ذلك، وكان الله عليماً بكل أحوالكم، حكيماً في أمره وتدبيره. وقد ذكر الله تعالى في الآية أمران، بهما يقوي قلوب المؤمنين.

الأمر الأول: أن ما يصيب المؤمنين من الألم والجراح، يصيب العدو مثله، فلا ينبغي أن نكون أضعف منهم.

والأمر الآخر: أن المؤمنين يرجون من الله الفوز بثوابه والنجاة من عقابه، وهذا من شأنه أن يقوي المؤمنين ويضاعف نشاطهم وشجاعتهم.

وكان النَّبِيُّ ﷺ لَمَّا أَمَرَ أَصْحَابَهُ أَنْ يَسِيرُوا فِي أَثَرِ أَبِي سَفْيَانَ يَوْمَ أُحُدٍ شَكَّوْا مَا بِهِمْ مِنْ جَرَّاحٍ؛ فَأَنْزَلَ اللَّهُ تَعَالَى الْآيَةَ، وَمِصْدَاقُ ذَلِكَ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ مَوْلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَأَنَّ الْكَافِرِينَ لَا مَوْلَى لَهُمْ﴾ [محمد].

الْعَدَالَةُ الْمُطْلَقَةُ

١٠٥- ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ بِالْحَقِّ لِنُحْكِمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرْتَهُ اللَّهُ وَلَا تَكُنْ لِلْخَائِنِينَ خَصِيمًا﴾
الإسلام دينُ الحقِّ والإنصاف، والحكم بالعدل بين الناس، ولو كان الخَصْمُ كافراً، وهناك حادثة لم يعرف التاريخ لها مثيلاً في نُصرة الحقِّ، فريدة من نوعها، تبين أن الإسلام يُنصِف المظلوم من الظالم، حتى ولو كان المظلوم كافراً والظالم مسلماً.

ويبدأ الكلام عن هذه الحادثة، ببيان أن الله تعالى أنزل الكتاب على رسوله بالحق، محفوظاً من الشياطين، لا يتطرق إليه الباطل، فأخبره صدق، وأوامره ونواهيه عدل ﴿وَنَمَتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا﴾ [الأنعام: ١١٥]

وأخبر سبحانه أنه أنزل عليه الكتاب ليحكم به بين الناس في مسائل النزاع والاختلاف، كما أن الله تعالى أنزل الكتاب لبيان أصول الدين وفروعه، قال تعالى: ﴿وَأَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ﴾ [النحل: ٤٤]

وقال أيضًا: ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِّكُلِّ شَيْءٍ﴾ [النحل: ٨٩]

وقد أمر الله رسوله أن يحكم بين الناس بما علمه الله وألهمه ، وليس بهوى النفس وميولها .
ولمّا أمره ربه بالعدل والقسط نهاه عن الظلم والجور، وألا يدافع عمن عَرَفَ خيانتَه،
وادعاء ما ليس له، أو أنكر حقا ثابتًا عليه .

وهذه الآيات الإحدى عشرة بدءًا من هذه الآية إلى الآية الخامسة عشرة بعد المئة .
لها سبب نزول وردّ بالفاظٍ متعددة متقاربة المعنى .

وجمهورُ المفسرين على أن هذه الآيات نزلت بسبب حادثةٍ جاء ذكرُها في عدَّةٍ مصادرٍ،
أصحّها ما رواه الترمذي بسندٍ صحيحٍ عن قتادة بن النعمان، ما مُلخصه:

أن إخوةً ثلاثة هم: بِشْرٌ وَبُشَيْرٌ وَمُبَشِّرٌ، أبناء أبيرق، وكان بشير رجلًا منافقًا يهجو
بشعره أصحابَ محمدٍ ﷺ، وكانت كُنيتُه أبا طُعْمة، وكان هؤلاء الثلاثة فقراء، وجيرانًا
لرفاعة بن زيد، فجاءت عيرٌ من الشام فيها دقيقٌ أبيض فاخر، فاشتري رفاعة منها حِمْلًا،
وكان طعام أهل المدينة التمر والدقيق والشعير، فوضع رفاعة الدقيق في مكانٍ عنده يسمى
مشربة، ووضع معه في المشربة سلاحًا ودرعًا وسيفًا .

فلما أصبح رفاعة وَجَدَ أن المشربة قد نُقِبَتْ وسُرِق ما فيها، فأخبر ابن أخيه قتادة بن
النعمان؛ فتحسّسوا وسألوا فوجدوا أن أبناء أبيرق قد أوقدوا نارًا هذه الليلة، ولعلّها على
خبز من دقيق رفاعة، فلما افتضح بنو أبيرق طرخوا المسروق في بيت لبيد بن سهل، وفي
رواية: أنه زيد بن السمين اليهودي، أو أبو مُلَيْل الأنصاري، فجاء إلى النَّبِيِّ ﷺ بعضُ بني
ظفر بن الحارث، وهم عشيرة بني أبيرق، يَشْتَكُونَ إليه أن رفاعة وابن أخيه قتادة يتهمان
أهل بيت إيمان وصلاح بالسرقة!

قال قتادة: فَأَتَيْتُ رسول الله ﷺ فقلتُ له: إن أهلَ بيتٍ مِنَّا سرقوا عمي رفاعة، فقال
لي: «عمدتُ إلى أهل بيتِ إسلامٍ وصلاحٍ، فرميتهم بالسرقة من غير بَيِّنَةٍ» قال: فرجعتُ
وَلَوَدِدْتُ أَنِّي قد خرجتُ من بعض مالي ولم أكلَم رسول الله ﷺ في ذلك، قال: فَأَتَيْتُ
عمي رفاعة، فسألني ما صنعت؟ فأخبرته بما قال النَّبِيُّ ﷺ فقال: الله المستعان، فلم

يَلْبَثُ أَنْ نَزَلَ الْقُرْآنُ بِهَذِهِ الْآيَةِ^(١).

﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ بِالْحَقِّ لِنَتَحَكَّمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرَبَكَ اللَّهُ﴾ أَي: بِمَا أَطْلَعَكَ اللَّهُ عليه، وأوحاه إليك من الطرق والقضايا الدالة على وصف الأحوال؛ لتقضي بينهم بحكم الله الذي أنزله عليك.

قال عمر رضي الله عنه: لا يقولنَّ أحدكم قضيتُ بما أراني الله، فإن الله لم يجعل ذلك إلا لنبئهِ، ولكن ليجتهد رأيهِ.

وفيه دليلٌ على أن النبي ﷺ لا يحكم إلا بالوحي، وأن الذين خانوا أنفسهم بالسرقة وكتمان الحق هم أبناء أبيرق، لا تجادل عنهم، ولا تدافع عنهم.

وقوله تعالى: ﴿وَلَا تَكُنْ لِلْخَائِنِينَ خَصِيمًا﴾ خِطَابٌ مُوجَّهٌ فِي الْأَصْلِ، إِلَى النَّبِيِّ ﷺ، يُشِيرُ إِلَى قَوْلِهِ ﷺ إِلَى قِتَادَةِ حِينَ جَاءَهُ يَشْتَكِي مَنْ سَرَقُوا عَمَّهُ (رفاعة)، فقال له النبي ﷺ: «عمدتُ إلى أهل بيت ذكر منهم إسلامٌ وصلاحٌ بالسرقة من غير ثبَتٍ ولا بَيِّنَةٍ».

فهذا الكلام فيه دفاعٌ عن أبناء أبيرق، وهم الذين سرقوا، وكانوا قد جاؤوا إلى النبي ﷺ قبل قتادة يشتكون إليه اتهام قتادة وعمه لهم بالسرقة، وذكروا أنهم أهل صلاح وإيمان، ولهذا عاتبه ربُّهُ على الانتصار لهم قبل نزول الوحي، وكان ﷺ قد قال لقتادة: «سأمرُ في ذلك» وأنزل الله الآية، وهو خطابٌ موجه إلى كل مسلم، وإلى كل مُحَامٍ بارع يجعل القاتل بريئاً ألا يُجادل ويبرئ ساحة مُجرمٍ.

والآية تُشير إلى أنه إذا ظهر نفاقٌ مُنافِقٍ، وبُطلان حُجَّتِهِ وَجَبَ أَلَّا يُنْتَصَرَ لَهُ، وأن هذا من باب الخيانة لله والرَّسُول، فلا يكن مدافعاً عنهم بِمَا ظَهَرَ مِنْهُمْ من مُخَالَفَةِ الْحَقِيقَةِ؛ لَتُحَقِّقَ الْحَقُّ وتُبْطَلَ الْبَاطِلُ، وتُظْهَرَ الْعَدْلُ وَالْإِنْصَافُ، وتبرئ ساحة المتهم البريء. قال تعالى:

(١) حسن إسناده الألباني في «صحيح سنن الترمذي» (٢٤٣٢) وهو في «السنن» برقم (٣٠٣٦) وأخرجه الطبري في تفسيره برقم (١٠٤١١) وابن أبي حاتم (٥٩٣٣، ٥٩٣٤) والحاكم (٣٨٥ / ٤) وقال: صحيح على شرط مسلم ولم يخرجاه ووافقه الذهبي، وقد وردت روايات واهية عند الطبري والواحدى والسيوطي في «سبب النزول» وفي بعض كتب التفسير، فيها قصة اليهودي، وأن بني ظفر جاؤوا يطلبون من النبي ﷺ أن يجادل عن بني أبيرق، وأنه برأ اليهودي، وما ذكرته هو أصح شيء في القصة، والله أعلم.

١٠٦- ﴿وَاسْتَغْفِرِ اللَّهُ إِنْ كَانَ غَفُورًا رَحِيمًا﴾

أي: واطْلُبْ من الله المغفرة مما صدر منك، واطلبها في جميع أحوالك، واستغفر الله -أيها الرسول- لهؤلاء الخائنين؛ لكي يتوبوا إلى الله تعالى، ويُلهمهم الصواب والرشد، فذلك أجدرُّ من دفاع المدافعين عنهم، وأنفعُ لهم ممَّا ارتكبوه، وهذا كقوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ جَاءُوكَ فَاسْتَغْفَرُوا اللَّهَ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ لَوَجَدُوا اللَّهَ تَوَّابًا رَحِيمًا﴾ [النساء: ٦٤].

إن الله تعالى كثيرُ المغفرة لمن تاب إليه، كثيرُ الرحمة لمن آمن به واتَّقاهُ، يوفقه للعمل الصالح الموجب للثواب وزوال العقاب، وقد كان النَّبِيُّ ﷺ يَسْتَغْفِرُ الله في اليوم مئة مرة، وقد غَفَرَ الله له ما تقدَّم من ذنبه وما تأخر.

المُسْلِمُ لَا يُدَافِعُ إِلَّا عَنْ صَاحِبِ الْحَقِّ

١٠٧- ﴿وَلَا تُجَادِلْ عَنِ الَّذِينَ يَخْتَانُونَ أَنْفُسَهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ مَنْ كَانَ خَوَافًا أَثِيمًا﴾

لا تدافع -أيها الرسول- عن الذين يختانون أنفسهم إنَّ الله لا يُحِبُّ مَنْ كَانَ خَوَافًا أَثِيمًا ولا إصرار عليها؛ لأن مَنْ وَقَعَ في ذنب فقد خان نفسه، والله تعالى لا يُحِبُّ مَنْ كَثُرَتْ خِيَانَتُهُ وَعَظُمَ ذَنْبُهُ، وقد عَلِمَ اللهُ تعالى أن هذا الرَّجُل كثيرُ السرقة، كثيرُ الخيانة، كثيرُ الوقوع في المآثم، وهذا ينطبق على أمثاله إلى يوم القيامة، والله تعالى يَسْتُرُ العبدَ ما سَتَرَ نفسه، وما دام فيه بقيةٌ من خيرٍ، ورجاء التوبة، فَإِنْ أَكْثَرَ مِنَ الذنوب وأصرَّ عليها وجاهرَ بها فهو جديرٌ بالفضيحة في الدُّنْيَا، والعقوبة يومَ لقاءِ الله.

وفي الآية نهى عن المجادلة عمَّن أذنب ووجبت عليه العقوبة، من حدٍّ أو تعزيز أو قصاص، فلا يجادل عنه لرفع ما صدر منه من خيانة، ولا لدفع ما ترتب عليها من عقوبة شرعية.

أمرَ عمرُ ؓ بقطع يد سارقٍ؛ فجاءت أمُّه تبكي وتقول: هذه أوَّلُ مرَّةٍ سَرَقَ فيها، فاعفُ عنه يا أمير المؤمنين، فقال عمر: إن الله أكرمُ من أن يُفْضِحَ عبده لأوَّلِ مرَّةٍ.

المُسْلِمُ لَا يَخَافُ إِلَّا مِنَ اللَّهِ وَلَا يَنْتَصِرُ لِلْبَاطِلِ

١٠٨- ﴿يَسْتَحْفُونَ مِنَ النَّاسِ وَلَا يَسْتَحْفُونَ مِنَ اللَّهِ وَهُوَ مَعَهُمْ إِذْ يُبَيِّتُونَ مَا لَا يَرْضَى مِنَ الْقَوْلِ

وَكَانَ اللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطًا ﴿١٠٨﴾

ثُمَّ بَيَّنَّ سبحانه شأن المنافقين في كلِّ زمانٍ ومكانٍ، الذين يَسْتَتِرُونَ مِنَ النَّاسِ؛ خَوْفًا أَنْ يَطَّلِعُوا عَلَى أَعْمَالِهِمُ السَّيِّئَةِ، ولا يَسْتَتِرُونَ مِنَ اللَّهِ تَعَالَى، ولا يَسْتَحْيُونَ مِنْهُ سبحانه، وهذا من ضعف الإيمان ونقصان اليقين، فهم يحرصون على عدم الفضيحة بين الناس، وهم قد بارزوا الله تعالى بارتكاب المحرمات، ولم يبالوا بمراقبته لهم، وهو مُطَّلِعٌ عَلَى جَمِيعِ أَعْمَالِهِمْ، يَعْلَمُ سِرَّهُمْ وَعَلَانِيَتَهُمْ ﴿يَعْلَمُ خَائِنَةَ الْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ﴾ ﴿١٠٩﴾ [غافر]

﴿يَعْلَمُ الْسِّرَّ وَآخَفَى﴾ [طه: ٧] إنه سبحانه معهم، يَطَّلِعُ عَلَيْهِمْ، ويعلم أحوالهم ﴿إِذْ يُبَيِّنُونَ مَا لَا يَرْضَى مِنَ الْقَوْلِ﴾ أي: يُدَبِّرُونَ لِيلاً من الحِيلِ والمَكْرِ وَسُوءِ الْأَقْوَالِ والأَفْعَالِ ما يُغْضِبُ الله تعالى.

وَسُمِّيَ التدبير قولاً باعتبار أن النفس تتحدث به قبل أن تَفْعَلَ، وقد أَطَّلَعَ الله تعالى نبيَّه على ما أَسْرَهُ مَنْ سَرَقُوا دِرْعَ رِفَاعَةَ، وما دَبَّرُوهُ لِيلاً، وَبَيَّنَّ لَهُ أَنْ هَذَا لَا يَرْضَاهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ، إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى لَا يَرْضَى إِلَّا الْحَقَّ، وَلَا يَرْضَى إِلَّا الْإِنصَافَ والْعَدْلَ بَيْنَ النَّاسِ جَمِيعًا ﴿وَكَانَ اللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطًا﴾ مُطَّلِعٌ عَلَيْهِمْ، لَا تَخْفَى عَلَيْهِ خَافِيَةٌ.

فلم يعاجلهم بالعقوبة، بل أمهلهم، وعرض عليهم التوبة، وحذَّره من الإصرار على الذنب الموجب للعقوبة. قال تعالى:

١٠٩ - ﴿هَاتِئُنَّ هَؤُلَاءِ جَدَلْتُمْ عَنْهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فَمَنْ يُجَدِّدُ اللَّهُ عَنْهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ

أَمْ مَنْ يَكُونُ عَلَيْهِمْ وَكِيلًا﴾ ﴿١٠٩﴾

ثُمَّ وَجَّهَ الله تعالى اللوم لِمَنْ انتصر لهؤلاء الذين كتموا الحقَّ، وخَانُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ، وهو لَوْمْ مُوجَّهٌ لكلِّ مُحَامٍ، يُدَافِعُ بِالْبَاطِلِ، وعنده من لَحْنِ الْحُجَّةِ ومن البراعة والفصاحة ما يَبْرِي سَاحَةَ الْمَجْرَمِ، فلو أن هؤلاء وأمثالهم انتصروا في الدُّنْيَا بسبب قيام الأدلة الكاذبة؛ - لأن القضاة يَحْكُمُونَ بما ظَهَرَ لهم، وهم مُتَعَبِّدُونَ بذلك؛ لأن الباطن لا يعلمها إلا الله -، فمن يُدافع عنهم في الموقف العظيم، يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ.

سَمِعَ النَّبِيُّ ﷺ ببابه رجلين يَخْتَصِمَانِ حَتَّى عَلَتْ أَصَوَاتُهُمَا، وكانا يَخْتَصِمَانِ فِي مِيرَاثٍ لَيْسَ عَلَيْهِ بَيِّنَةٌ، فَقَالَ ﷺ: «إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ» أَحْكُمُ بما ظَهَرَ من الأمور، وبما أَطَّلَعَنِي اللَّهُ

عليه، لا أعرف الغيب، ولا أعرف ما في الصدور «وإنكم تختصمون إليّ» في ميراثٍ أو غيره «ولعلَّ بعضكم يكون ألحن بحجته من بعض» عنده من الفصاحة، والقدرة على إبراز الحجّة وإفحام الخصم، وربما يكون على باطل، والطرف الآخر لا يستطيع أن يتحدث مثله، وقد يكون على حقٍّ، فربّما يكون بعضكم ألحن (يعني: أقوى) وأبلغ بحجته من بعض «فأقضي له بنحو ما أسمع» حسب الظاهر «فمن قضيت له بشيءٍ من حقِّ أخيه فإنما أقطع له قطعةً من النار»^(١).

سَمِعَ الرَّجُلَانِ حَدِيثَ الْمُصْطَفَى ﷺ فَبُكِيََا، واعترف المُجَادِلُ بِحَقِّ صَاحِبِهِ، ورجع عن باطله، إنها قلوبٌ رقيقةٌ، تُعوذُ إلى الحقِّ فوراً عند التذكير بالله تعالى، فقال كلُّ واحدٍ منهما لرسول الله ﷺ: حقي لأخي (أي: تنازلت عنه لأخي).

﴿هَآأَنَآمُ﴾ أَيَهَا الْمُؤْمِنُونَ ﴿هَؤُلَاءِ جَدَلْتُمْ عَنْهُمْ﴾ ودفعتم عنهم العار والفضيحة ﴿فِي الْحَيَوةِ الدُّنْيَا﴾ وكنتم مدافعين ومُجَادِلِينَ عَنْهُمْ بِالْبَاطِلِ، ﴿فَمَنْ يُجَادِلُ اللَّهَ عَنْهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ﴾ فَمَنْ يَسْتَطِيعُ أَنْ يَقِفَ هَذَا الْمَوْقِفَ أَمَامَ رَبِّ الْعَالَمِينَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ؟ لِيَدَافِعَ عَنْهُمْ وَعَنْ أَمْثَالِهِمْ مِنَ الظَّالِمَةِ وَالْمُجْرِمِينَ.

مَنْ يَقِفُ مَخَاصِمًا عَنْهُمْ تَجَاهَ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ ﴿١١٠﴾ يَوْمَذِ يُوفِّيهِمُ اللَّهُ دِينَهُمُ الْحَقَّ وَيَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ الْمُبِينُ [النور] ﴿أَمْ مَنْ يَكُونُ﴾ عَلَى هَؤُلَاءِ الْخَائِنِينَ ﴿وَكَيْلًا﴾؟ يُدَبِّرُ شُؤْنَهُمْ وَيَقُومُ عَلَى نَصْرَتِهِمْ.

بَابُ التَّوْبَةِ مَفْتُوحٌ عَلَى مِصْرَاعَيْهِ

١١٠- ﴿وَمَنْ يَعْمَلْ سُوءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ اللَّهَ يَجِدِ اللَّهَ غَفُورًا رَحِيمًا﴾ ﴿١١٠﴾

ويأتي التوجُّهُ الإلهي بوضع ثلاث قواعدَ عامّةٍ تتمثل في التَّحْلِيَّةِ بعد التَّخْلِيَّةِ، بالتوبة والإناابة بعد الوقوع في الذنب، والآياتُ تُرْسِمُ القواعدَ التي ينبغي أن تكون عَقَبَ ارتكاب مثل هذه الجريمة، فتفتح باب التوبة لطعمة وأمثاله من كلِّ مُجْرِمٍ يقع منه إثمٌ أو ذنبٌ كبير أو صغير.

(١) ينظر الحديث عن أم سلمة ؓ في البخاري (٧٧ / ٥) برقم (٢٤٥٨) ومسلم (٣ / ١٣٣٧) برقم (١٧١٣).

القاعدة الأولى للتوبة:

أن باب التوبة مفتوحٌ على مُضْرَاعَيْهِ، وأن عَفْوَ الله تعالى ورحمته ومغفرته أوسعُ من كلِّ شيءٍ، فمن يرتكب ذنبًا صغيرًا أو كبيرًا، ثم يرجع، ويتوب إلى الله سبحانه، ويستغفره، ويندم على ما فعل، ويعزم على عدم العودة؛ فإن الله سبحانه يَقْبَلُ توبته وَيَغْفِر ذنبه.

قال تعالى: ﴿وَمَنْ يَعْمَلْ سُوءًا﴾ أي من تجرأ على الله تعالى بارتكاب المعاصي والآثام، ولفظ السوء، يشمل جميع المعاصي التي تضر بالنفس وتضر بالآخرين، وسمي السوء سوءًا لكونه غير حسن، ولأن عاقبته تكون سيئة، ومن السيئات ما يؤذي غير فاعله وَيُضُرُّه قال تعالى: ﴿أَوْ يَظْلِمَ نَفْسَهُ﴾ أي بارتكاب ذنب يعود ضرره عليه، بأن يقع في ذنب صغير أو كبير يتعلق به شخصيًا، وظلم النفس يشمل ظلمها بالشرك فما دونه، من ظلم الناس في دمائهم وأموالهم وأعراضهم، ويفسر ظلم النفس بالمعاصي التي تكون بين العبد وربّه، وسمى ظلم النفس ظلمًا، لأن نفس العبد ليست ملكًا له يتصرف فيها كما يشاء، وإنما هي ملك لله تعالى.

وقد أمر الله العبد أن يحمل نفسه على الاستقامة، ويُلْزِمها الصراط المستقيم علمًا وعملاً، فسعيه في غير هذا الطريق ظلم للنفس وعدول بها عما خلقت من أجله.

ومن الظلم ما يَقَعُ ضرره على غير الفاعل، أو يَكُون فيه حقوق للعباد، وهذا ظلم الآخرين.

قال تعالى: ﴿ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ اللَّهُ﴾ في كلِّ الأحوال استغفارًا تامًا يستلزم الإقرار بالذنب، والندم عليه والإقلاع عنه، والعزم على عدم العودة إليه.

وفي هذه الحالة فإنه ﴿يَجِدِ اللَّهُ عَفْوًَا رَّحِيمًا﴾ مهما عَظُمَتْ ذنوبه، هكذا بلا حِجَابٍ ولا أبواب ولا واسطة، إذ ليس هناك واسطة بين الخالق والمخلوق حتى في التوبة من الكُفْرِ والشُّرْكِ.

فأين هذا من بني إسرائيل، حيث كان ذنب الواحد منهم يُكتب على بابه، وتُكتب كفارته على باب بيته أيضًا؛ فضيحة له على الملأ، وكان البؤل إذا أصاب ثوب أحدهم لا يَطْهَرُ بالماء، إنما يُقرض ويُقطع من الثياب.

ومن رحمة الله تعالى بهذه الأمة أن جعل الماء طهورًا، وجعل الأرض طهورًا لمن لم

يَجِدِ الْمَاءَ فَيَنبِغِيهِ وَيُضِلِّيهِ، وَالْمَاءُ يَطْهَرُ النَّجَاسَةَ فِي الْإِسْلَامِ، وَلَا يَلْزَمُ قَطْعُهَا مِنَ الثَّوبِ، وَالذَّنْبُ يُغْفَرُ بِمَجْرَدِ أَنْ يَسْتَغْفَرَ الْعَبْدَ رَبَّهُ، فَإِنَّ اللَّهَ تَعَالَى يَقْبَلُهُ وَيَتُوبُ عَلَيْهِ.

فَأَيْنَ هَذِهِ الرَّحْمَةُ الَّتِي حَبَاَ اللَّهُ بِهَا هَذِهِ الْأُمَّةَ مِمَّا ذَكَرَهُ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ قَيْسٍ أَبُو مُوسَى الْأَشْعَرِيُّ، قَالَ: كَانَ بَنُو إِسْرَائِيلَ إِذَا أَصَابَ أَحَدُهُمْ ذَنْبًا، أَصْبَحَ قَدْ كُتِبَ كَفَّارَةٌ ذَلِكَ الذَّنْبِ عَلَى بَابِهِ، وَإِذَا أَصَابَ الْبُولُ شَيْئًا مِنْهُ قُرِضَ بِالْمَقْرَاضِ^(١).

فَالْحَمْدُ لِلَّهِ أَنْ جَعَلَنَا مُسْلِمِينَ، وَمِنْ أُمَّةٍ خَاتَمَ الْمُرْسَلِينَ.

قِيلَ: إِنَّ الْآيَةَ نَزَلَتْ لِتَرْغِيبِ (طُعْمَةٍ) فِي التَّوْبَةِ، يَعْرضُهَا عَلَيْهِ رَبُّ الْعَالَمِينَ.

وَقِيلَ: إِنَّهَا نَزَلَتْ فِي قَوْمِهِ الَّذِينَ جَادَلُوا عَنْهُ، وَهِيَ عَامَّةٌ فِي كُلِّ مَسِيٍّ مَذْنِبٍ.

وَالْآيَةُ تَدُلُّ عَلَى أَنَّ التَّوْبَةَ مَقْبُولَةٌ مِنْ جَمِيعِ الذَّنُوبِ، الصَّغَائِرِ وَالْكِبَائِرِ؛ لِأَنَّ ظُلْمَ النَّفْسِ أَعَمُّ مِنْ عَمَلِ السَّوِّءِ.

وَفِي الْبَابِ أَحَادِيثُ كَثِيرَةٌ تَبَيَّنَ سَعَةً فَضْلُ اللَّهِ تَعَالَى وَرَحْمَتُهُ:

١- مِنْ ذَلِكَ مَا ثَبَتَ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: «مَا مِنْ مُسْلِمٍ يُذْنِبُ ذَنْبًا، ثُمَّ يَتَوَضَّأُ وَيُصَلِّيُ لِلَّهِ رَكْعَتَيْنِ، ثُمَّ يَسْتَغْفِرُ اللَّهَ لَذَلِكَ الذَّنْبِ، إِلَّا غَفَرَ اللَّهُ لَهُ» ثُمَّ قَرَأَ هَاتَيْنِ الْآيَتَيْنِ: ﴿وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَحْشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ وَمَنْ يَغْفِرِ الذُّنُوبَ إِلَّا اللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَى مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ [آل عمران] (٢).

٢- وَعَنْ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ رضي الله عنه أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «مَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ يَتَوَضَّأُ فَيُسَبِّحُ الْوُضُوءَ، ثُمَّ يَقُولُ: أَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ

(١) ذَكَرَهُ الطَّبْرِيُّ فِي تَفْسِيرِ الْآيَةِ (٧ / ٤٧٥) وَعِنْدَ الطَّبْرَانِيِّ (٨٧٩٤) وَابْنِ أَبِي شَيْبَةَ (٧١٤٣) وَهُوَ فِي «الْمُسْنَدِ» (٥ / ٤٠٢) وَهُوَ مَوْقُوفٌ عَلَى عَبْدِ اللَّهِ بْنِ قَيْسٍ بِإِسْنَادٍ حَسَنٍ، يَنْظُرُ: تَعْلِيقُ الشَّيْخِ مَقْبَلِ الْوَادِعِيِّ عَلَيْهِ فِي «تَفْسِيرِ ابْنِ كَثِيرٍ» (٢ / ٤٩٤).

(٢) مِنْ حَدِيثِ أَبِي بَكْرٍ رضي الله عنه فِي «الْمُسْنَدِ» (١ / ٢، ١٠) بِرَقْمِ (٤٧، ٢، ٥٦) بِإِسْنَادٍ صَحِيحٍ، وَأَخْرَجَهُ أَبُو يَعْلَى (١٤) وَابْنُ مَاجَهَ (١٣٩٥) وَ«صَحِيحُ سَنَنِ أَبِي دَاوُدَ» (١٣٤٦) وَ«مُسْنَدُ الْحَمِيدِيِّ» بِرَقْمِ (٤) وَ«مُصَنَّفُ ابْنِ أَبِي شَيْبَةَ» (٢ / ٣٨٧) وَ«مُسْنَدُ الْبَزَارِ» بِرَقْمِ (٨) وَ«الْعُلَلُ» لِلدَّارِقُطَنِيِّ بِرَقْمِ (٨). وَابْنُ أَبِي شَيْبَةَ (١) وَابْنُ أَبِي شَيْبَةَ (١٨٤١).

ورسوله، إلا فُتحت له أبوابُ الجنة الثمانية، يدخل من أيَّها شاء»^(١).

٣- وحَدَّث أبو الدرداء رضي الله عنه أن هذه الآية ﴿وَمَنْ يَعْمَلْ سُوءًا﴾ لَمَّا نَزَلَتْ بِشَرِّ النَّبِيِّ ﷺ بها أصحابه، قال أبو الدرداء: وكانت قد شَقَّتْ على النَّاسِ آية ﴿مَنْ يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَ بِهِ﴾، فقلت: يا رسول الله، وإن زَنَى وإن سَرَقَ ثم استغفر ربَّه غُفِرَ له؟ قال: «نعم» فرددها ثلاثًا، وقال في الثالثة: «رغم أنف عُوَيْمِر» قال: فرأيت أبا الدرداء يَضْرِبُ أنفَ نفسه بأصبعه^(٢).

٤- وجاءت امرأة إلى عبد الله بن مُعْقِل، قالت له: إنها حَمَلْتُ من الزَّنى، ولمَّا وَلَدْتُ قَتَلْتُ وَلَدَهَا، فقال لها: ما أراك إلا أحد أمرين: إما أن تكوني مَمَّنْ عَمِلَ سُوءًا، أو مَمَّنْ ظَلَمَ نَفْسَهُ - كما تقول الآية - فانصرفت المرأة وهي تَمْسَحُ عَيْنَيْهَا من البكاء^(٣).

القَاعِدَةُ الثَّانِيَةُ لِلتَّوْبَةِ

١١١- ﴿وَمَنْ يَكْسِبْ إِثْمًا فَإِنَّمَا يَكْسِبُهُ عَلَى نَفْسِهِ، وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾

وهذه القاعدة تتعلق بالأعمال القبيحة التي يعودُ ضررها على فاعلها وحده، وذلك أنه ليس في الإسلام أحدٌ يُؤْخَذُ بِجُرْمٍ غيره، ولا يَحْمَلُ وزَرَ غيره، فالتبعة فردية، يَتَحَمَّلُهَا صاحبُها الذي اقترف إثمًا أو ذنبًا، وليس هناك مَنْ يَحْمَلُ الخطايا عن غيره، ولا مَنْ يَفْقِدُ بنفسه خطايا البشر.

﴿وَمَنْ يَكْسِبْ إِثْمًا﴾ صغيرًا أو كبيرًا ﴿فَإِنَّمَا يَكْسِبُهُ عَلَى نَفْسِهِ﴾ يتحمل وحده عقوبته الدنيوية والأخروية، ولا يتحمل الآخرون منه شيء، كما قال تعالى: ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى﴾ [فاطر: ١٨]

وقال ﴿فَإِن تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْهِ مَا حُمِّلَ وَعَلَيْكُمْ﴾ [النور: ٥٤] ووبأله ومضرته تعودُ على نفسه.

فأكْثَرُ من الاستغفار - أيها المسلم - ، ولا تَبْأَسْ من قَبُولِ التَّوْبَةِ، والله تعالى لا يُعَاقِبُ بالذنب غيرَ فاعله، قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْسِبُونَ الْإِثْمَ سَيُجْزَوْنَ بِمَا كَانُوا يَقْرَفُونَ﴾ [الأنعام: ١٢٠]

(١) «صحيح مسلم» برقم (٢٣٤).

(٢) رواه الطبراني في «المعجم» كما في «مجمع الزوائد» (٧ / ١١) قال الهيثمي: فيه مبشر بن إسماعيل، وثقه ابن معين وغيره، وضعفه البخاري وغيره، وروى بعضه أبو داود في «السنن» برقم (٤٨٥٤).

(٣) مختصرًا من «تفسير الطبري» (٩ / ١٩٥) عن حبيب بن أبي ثابت.

وقال سبحانه: ﴿مَنْ يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَ بِهِ﴾ [النساء: ١٢٣]

وكما يَكْتَسِبُ العبدُ الشرَّ فإنه يكتسب الخيرَ أيضًا، قال تعالى: ﴿يَوْمَ يَأْتِي بَعْضُ أَيْتِ رَبِّكَ لَا يَنْفَعُ نَفْسًا إِمْتِنَانُهَا لَمْ تَكُنْ ءَامَنَتْ مِنْ قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِي إِيمَانِهَا خَيْرًا﴾ [الأنعام: ١٥٨] وقال سبحانه في العاملين للصالحات: ﴿فَأُولَئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ نَقِيرًا﴾ [النساء: ١٢٤].

فإذا ظهرت السيئات فلم تُنكر عَمَّت عقوبتها وشمل إثمها الجميع، كما قال تعالى: ﴿وَاتَّقُوا فِتْنَةً لَا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ خَاصَّةً﴾ [الأنفال: ٢٥].

وفي الحديث أن المنكر إذا ظهر ولم يغيره الناس أوشك أن يعمهم الله بعقاب.

وفي الآية بيان لعدل الله تعالى وحكمته، وأنه سبحانه لا يعاقب أحدا بذنب أحد، ولا يعاقب أحدا أكثر مما يستحق، ومن علمه تعالى وحكمته أنه يعلم الذنب، ويعلم من صدر منه، ويعلم السبب الداعي لفعله، والعقوبة المترتبة على فعله، ويعلم حالة المذنب ودواعي نفسه الأمارة بالسوء، ويعلم متى سيُوفى للتوبة، ويعلم هل ستكون هذه التوبة قاطعة للذنب أم سيعود إليها مرة أخرى، لهذا وغيره ختمت الآية بقوله تعالى ﴿وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾.

القاعدة الثالثة من قواعد التوبة

١١٢- ﴿وَمَنْ يَكْسِبْ خَطِيئَةً أَوْ إِثْمًا ثُمَّ يَرَوْهَا بَرِيًّا فَقَدْ آخَضَ رُبُّهُ إِيَّاهُ إِثْمًا وَيُسِيئًا ۖ وَإِنْ عَمِدًا أَوْ خَطًّا ثُمَّ يَرْمِ بِهِ شَخَصًا بَرِيًّا﴾

أي: أن مَنْ يكسب خطأً أو إثماً كبيراً أو صغيراً، عمداً أو خطأً ثم يرم به شخصاً بريئاً (كما وقع في حادثة طُعْمَة)، والمتهم فيها بريء، فقد تحمّل كذباً وذنباً واضحاً، وهذا يدل على أن ذلك من كبائر الذنوب وموبقاتها، فإنه قد جمع بين عدة مفاصل هي: كسب الخطيئة والإثم، ورمى الآخرين بما لم يفعلوه، وتبرئة النفس واتهام البراء، ونحو ذلك.

قيل: إن الخطيئة هي الذنب الكبير، والإثم هو الذنب الصغير.

أو أن الإثم ما يتعدى فيه الضرر إلى الآخرين، والخطيئة هي ما تختص بالفاعل.

وقوله تعالى ﴿فَقَدْ آخَضَ رَبُّهُ إِيَّاهُ إِثْمًا وَيُسِيئًا﴾ أي فقد حمل فوق ظهره إفكاً وكذباً شنيعاً للبريء وتحمّل إثماً ظاهراً يعاقب عليه في الآخرة.

والبهتان: هو افتراء الكذب، والإثم: هو الذنب الواضح، وقد جَمَعَ الله بينهما في الآية.

في صحيح مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «أتدرون ما الغيبة؟»، قالوا: الله ورسوله أعلم، قال: «ذكرك أخاك بما يكره»، قال: أفرأيت إن كان في أخي ما أقول؟ قال: «إن كان فيه ما تقول؛ فقد اغتبته، وإن لم يكن فيه ما تقول؛ فقد بهته»^(١) أي: رميته بالبهتان، وهو الافتراء بالباطل، قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ بَغَيْرِ مَا اكْتَسَبُوا فَقَدْ احْتَمَلُوا بُهْتَانًا وَإِثْمًا مُّبِينًا﴾ [الأحزاب].

وحادثه الإفك كانت بهتاناً وافتراءً، كما قال تعالى:

﴿وَلَوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ قُلْتُمْ مَا يَكُونُ لَنَا أَنْ نَتَكَلَّمَ بِهَذَا سُبْحَنَكَ هَذَا بُهْتَانٌ عَظِيمٌ﴾ [النور]

وسمّاه الله تعالى إفكاً وكذباً وافتراءً، قال تعالى:

﴿لَوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ الْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بِأَنفُسِهِمْ خَيْرًا وَقَالُوا هَذَا إِفْكٌ مُّبِينٌ﴾ [النور]

والبهتان عقابه شديد ﴿وَتَحْسَبُونَهُ هَيئًا وَهُوَ عِنْدَ اللَّهِ عَظِيمٌ﴾ [النور: ١٥].

فَضْلُ اللَّهِ تَعَالَى عَلَى رَسُولِهِ ﷺ

١١٣- ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ وَرَحْمَتُهُ لَهَمَّتْ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ أَنْ يُضِلُّوكَ وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّا أَنفُسَهُمْ وَمَا يَضُرُّونَكَ مِنْ شَيْءٍ وَأَنزَلَ اللَّهُ عَلَيْكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ وَكَانَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا﴾

والله سبحانه يَمُنُّ على رسوله بأنه قد علّمه عن طريق النبوة ما لم يكن يعلم، وأنزل عليه الكتاب؛ ليحكم بالعدل بين الناس، ومنهم: عشيرة ذاك الرّجل الذين جاؤوا إلى النبي ﷺ يطلبون منه أن يُدافع عنهم ويُنصّرهم، وكان أحدهم قد سرق، فلما عُرِفَت السرقة خافوا على فضيحتهم، فأخذوا السرقة ورموها في بيت بريء، ثم جاؤوا إلى النبي ﷺ يطلبون منه أن يبرئ صاحبهم على رؤوس الأشهاد، وقالوا: إنه لم يسرق، وإنما الذي سرق هو الذي وُجِدَت السرقة في بيته، فهم النبي ﷺ أن يبرئ صاحبهم، فأنزل الله هذه الآيات بياناً للحق، وتحذيراً من الدفاع عن المبطل.

(١) «صحيح مسلم» برقم (٢٥٨٧).

وقيل: إن وفدٌ ثقیف قدّموا على النبی ﷺ فقالوا: جئنا نبايعك على ألا نُحشر ولا نعسر، -أي لا نفتقر- وعلى أن تمتّعنا بالعزى سنة، فلم يجبههم؛ فنزلت هذه الآية^(١).

فهم يطلبون في شرطهم عدم البعث في الآخرة، وعدم الفقر في الدنيا.

والله سبحانه قد عصم رسوله، وحفظه من الوقوع في الخطأ والزلل، بما أنزل عليه من الكتاب والحكمة ﴿مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ وَلَكِنْ جَعَلْنَاهُ نُورًا نَهْدِي بِهِ مَنْ شَاءَ مِنْ عِبَادِنَا﴾ [الشورى: ٥٢] ﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَذَا الْقُرْآنَ وَإِنْ كُنْتَ مِنْ قَبْلِهِ لَمَنِ الْغَفْلِينَ﴾ ﴿٢﴾ [يوسف] ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِكُلِّ شَيْءٍ﴾ [النحل: ٨٩].

ولولا هذا الوحي الذي عصمك الله به لعزمت جماعة من الذين يخونون أنفسهم أن يزلوك عن طريق الحق، ولو عزموا على ذلك وهموا به لكان الضلال لاحقاً لهم إلى يوم القيامة، ولم يزل فضله عليك عظيم، فاشكره على نعمه وإحسانه.

ومن ذلك أنه سبحانه صرف عنك الذين يختانون أنفسهم، وحال بينهم وبين إضلالك، وبين أن كيدهم وفكرهم يعود عليهم، والضلال نوعان:

ضلال في العلم، وهو الجهل بالحق.

وضلال في العمل، وهو العمل بغير ما يجب، وقد عصم الله رسوله وحفظه من الضلالين، وعلمه علم الأولين والآخرين وأنزل عليه القرآن مبيّناً لكل شيء.

مِنْ خَيْرِ كَلَامِ النَّاسِ

١١٤- ﴿لَا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِنْ نَجْوَاهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَاحٍ بَيْنَ النَّاسِ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ ﴿١١٤﴾

(١) هذه قول ابن عباس من رواية الضحاك.

(٢) لفظ (مرضات) رسم بالتاء، ووقف عليه الكسائي بالهاء، وهي لغة قريش، ووقف غيره بالتاء وفقاً لرسم المصحف، وهي لغة طيء.

(٣) قرأ أبو عمرو وحمة وخلف العاشر (يؤتيه) بياء الغيبة؛ لمناسبة قوله تعالى: (ومن يفعل)، وقرأ الباقر (نؤتيه) بنون العظمة على الالتفات، ووصل ابن كثير الهاء بحرف مد، وأبدل الهمزة واوًا، وورش وأبو جعفر وأبو عمرو بخلف عنه.

ولأن حادثة السرقة - سابقة الذكر - لم تَحُلْ من التناجي والتحاور سرًّا وجهراً؛ لتدبير الخيانة وإخفائها، كان التعقيب على مثل هذه الحادثة بما بيَّنه الله سبحانه، من أن أغلب الكلام الذي يكون سرًّا بين النَّاسِ يتناجَوْنَ به بينهم، ليس فيه خيرٌ إلا في ثلاثة أمور؛ هي: الحَضُّ على الصدقة، والأمر بالمعروف، والصُّلْحُ بين النَّاسِ، فهو استثناء متصل، وقيل: هو استثناء منقطع، تقديره: لكن أمر بصدقة... إلخ.

وأضلُّ النَّجْوَى: المكان المرتفع من الأرض، وقد نَهَى الله تعالى عن التناجي بالإثم والعُدوان، وهذه جملة من الأحاديث في حفظ اللسان من الشر:

١- عن أبي شُرَيْح الخُزَاعِي رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «مَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَلْيَقُلْ خَيْرًا أَوْ لِيَصْمُتْ»^(١).

٢- وعن سهل بن سعد رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «مَنْ يَضْمَنُ لِي مَا بَيْنَ لَحْيَيْهِ وَمَا بَيْنَ رِجْلَيْهِ أَضْمَنُ لَهُ الْجَنَّةَ»^(٢).

٣- وعن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «إِنْ أَكْثَرَ مَا يُدْخِلُ النَّاسُ النَّارَ الْأَجُوفَانِ: الْفَمُ وَالْفَرْجُ»^(٣).

٤- وعن سفيان بن عُبيد الله الثَّقَفِي رضي الله عنه قال: قلت: يا رسول الله، مُرْنِي بِأَمْرٍ أَعْتَصِمُ بِهِ فِي الْإِسْلَامِ، قَالَ: «قُلْ: آمَنْتُ بِاللَّهِ ثُمَّ اسْتَقِمْ» قلت: يا رسول الله، مَا أَخُوفُ مَا تَخَافُ عَلَيَّ؟ قَالَ: «هَذَا» وأخذ رسول الله ﷺ بَطَرْفِ لِسَانِ نَفْسِهِ^(٤).

٥- وعن عقبة بن عامر رضي الله عنه قال: قلتُ: يَا نَبِيَّ اللَّهِ، مَا النِّجَاةُ؟ قَالَ: «أَمْسِكْ عَلَيْكَ

(١) من حديث في «المسند» (١٦٣٧٠، ١٦٣٧٤) بإسناد صحيح على شرط الشيخين، وأخرجه البخاري (٦٠١٩، ٧٤٧٦) ومسلم (٤٨) والترمذي (١٩٦٧) وابن ماجه (٣٦٧٥) والبيهقي في «الشعب» (٤٩١٢) والطحاوي في شرح مشكل الآثار (٢٧٧٥).

(٢) البخاري (٦٤٧٤) والبيهقي في «الشعب» (١٩١٣).

(٣) «المسند» (٩٦٩٦) حديث حسن، والترمذي (٢٠٠٤) بنحوه، و«صحيح سنن ابن ماجه» (٣٤٢٤) وابن حبان (٤٧٦) والحاكم (٤ / ٣٢٤) والبيهقي (٤٩١٤) والسلسلة الصحيحة (٩٧٧).

(٤) مسلم (٣٨) والترمذي (٢٤١٠) و«السنن الكبرى» للنسائي (١١٤٨٩، ١١٤٩٠) وابن ماجه (٣٩٧٢)، وصحيح ابن ماجه (٣٢٠٧).

لسانك، وَلَيْسَعُكَ بَيْتُكَ، وَاَبِكِ عَلَى خَطِيئَتِكَ»^(١).

فكلام ابن آدم كله عليه لا له، إلا أمرًا بمعروف، أو نهيًا عن منكر، أو ذِكرًا لله ﷻ.

٦- كما جاء في حديث أبي سعيد الخدري ﷺ رَفَعَهُ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «إِذَا أَصْبَحَ ابْنُ آدَمَ، فَإِنْ كُلَّ شَيْءٍ مِنَ الْجَسَدِ يُكْفَرُ اللِّسَانُ يَقُولُ: نَشْهَدُكَ اللَّهُ فِينَا، فَإِنَّكَ إِنْ اسْتَقَمْتَ اسْتَقَمْنَا، وَإِنْ اعْوَجَجْتَ اعْوَجَجْنَا»^(٢).

٧- وفي حديث معاذ بن جبل ﷺ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: «وَهَلْ يُكَبُّ النَّاسُ فِي النَّارِ عَلَى مَنَآخِرِهِمْ فِي جَهَنَّمَ إِلَّا حَصَائِدَ أَلْسِنَتِهِمْ»^(٣).

وكان ابن مسعود ﷺ يقول: وَالَّذِي لَا إِلَهَ غَيْرُهُ مَا عَلَى الْأَرْضِ شَيْءٌ أَحْوَجُ إِلَى طَوْلِ سِجْنٍ مِنْ لِسَانٍ^(٤).

وفي الآية إشارة إلى التناجي والتدبير الذي حَدَّثَ بَيْنَ عَشِيرَةِ أَبِيرٍ؛ لِقَلْبِ مَوَازِينِ الْحُكْمِ بِالْعَدْلِ بَيْنَ النَّاسِ، فَتَنْهَى الْآيَةُ عَنْ ذَلِكَ، وَتَأْمُرُ أَنْ يَكُونَ التَّجَاجِي بَيْنَ النَّاسِ عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى.

وَلَا خَيْرَ فِي أَيْ كَلَامٍ آخَرَ فِيهِ إِثْمٌ وَعُدْوَانٌ، قَالَ تَعَالَى: ﴿يَتَأَيَّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا تَجَاجَيْتُمْ فَلَا تَنَاجَوْا بِالْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَمَعْصِيَةِ الرَّسُولِ وَتَنَاجَوْا بِالْبِرِّ وَالتَّقْوَى﴾ [المجادلة: ٩]

وَقَالَ سُبْحَانَهُ: ﴿إِنَّمَا التَّجَوَّى مِنَ الشَّيْطَانِ﴾ [المجادلة: ١٠].

وَقَدْ ذَمَّ اللَّهُ تَعَالَى التَّجَوَّى، وَنَهَى عَنْهَا فِي كَثِيرٍ مِنَ الْآيَاتِ، وَبَيَّنَّ أَنَّهَا مِنْ صِفَاتِ الْمُنَافِقِينَ، كَمَا فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ نُهُوا عَنِ التَّجَوَّى ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا نُهُوا عَنْهُ﴾

(١) «صحيح سنن الترمذي» (١٩٦١) وفي ابن ماجه (٢٥٣٠) والبيهقي (٨٠٥)، وهو حديث صحيح كما في السلسلة الصحيحة (٨٨٨).

(٢) البيهقي (٤٩٤٥) و«صحيح سنن الترمذي» (١٩٦٢) بإسناد حسن، كما في صحيح ابن ماجه (٣٢٠٩) وهو في الترمذي (٢٥٣١) وفي مشكاة المصابيح (٤٨٣٨) التحقيق الثاني والإرواء (٤١٣).

(٣) من حديث طويل في «المسند» (٢٢٠١٦، ٢٢٠٤٧) إسناده حسن بطرقه وشواهد، وهو في مصنف عبدالرزاق (٢٣٠٣) وعبد بن حميد (١١٢) والبغوي في شرح السنة (١١) والنسائي في الكبرى (١١٣٩٤). والترمذي (٢٦١٦) و«صحيح سنن ابن ماجه» (٣٢٠٩) والحاكم (٤١٢ / ٢) والبيهقي في الشعب (٣٣٥٠).

(٤) أحمد في «الزهد» ص ١٦٢.

[المجادلة: ٨] وقوله: ﴿تَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَسْتَعْمُونَ بِهِ إِذْ يَسْتَعْمُونَ إِلَيْكَ وَإِذْ هُمْ نَجْوَى﴾ [الإسراء: ٤٧].

والاستثناء الذي في الآية يُفيد أن النَّجْوَى قسمان: منها ما هو خيرٌ، وهو ما ذُكر في الآية، ومنها ما هو شرٌّ، كحادثة السرقة التي في الآيات.

قال تعالى: ﴿لَا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِّنْ نَّجْوَاهُمْ﴾ أي: لا خير في كثير من الكلام الذي يكون بين طرفين أو أطراف من النَّاس يتتاجون به إلا لثلاثة أسباب؛ لأن عمل الخير إما أن يكون بإيصال منفعة مادية إلى الآخر كالصدقة، أو يدفع عنه مضرّة، كالإصلاح بين المتخاصمين، أو بالخيرات الروحانية كالأمر بالمعروف، وهذه الثلاثة هي:

أولاً: ﴿إِلَّا مَن أَمَرَ بِصَدَقَةٍ﴾ أي: حثّ غيره سرّاً أو علانية على التصدق بالمال أو بالعلم أو بأي وجه من وجوه النفع على جهة محتاجة، أو على شخص ضعيف مسكين، والحضّ على طعام المسكين من أصل الإيمان.

فأهل الشّمال الذين يأخذون كتابهم بشمالهم، يقول الله تعالى عنهم: ﴿إِنَّمْ كَانَ لَا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ الْعَظِيمِ (٣٣) وَلَا يَحْضُ عَلَى طَعَامِ الْمَسْكِينِ (٣٤)﴾ [الحاقة].

والمُكَذِّبُ بالذين يقول الله تعالى عنه: ﴿أَرَأَيْتَ الَّذِي يُكَذِّبُ بِالذِّبِّ (١) فَذَلِكَ الَّذِي يَدْعُ الْيَتِيمَ (٢) وَلَا يَحْضُ عَلَى طَعَامِ الْمَسْكِينِ (٣)﴾ [الماعون].

ومن الصدقات ما جاء في الحديث «إن لك بكل تسبيحة صدقة، وكل تكبيرة صدقة، وأمر بالمعروف صدقة، ونهي عن المنكر صدقة، وفي بُضْع أحدكم صدقة» الحديث.

ثانياً: ﴿أَوْ مَعْرُوفٍ﴾ والمعروف هو ما عَرَفَهُ الشَّرْع واستحسنه يقول: كلمة فيها أمرٌ بالمعروف أو نهْيٌ عن المنكر، وهذه الكلمة فيها خيرٌ لأخيك المسلم أو لغيره، تدعوه فيها إلى المعروف أو تنهاه عن المنكر.

ثالثاً: ﴿أَوْ إِصْلَاحٍ بَيْنَ النَّاسِ﴾ الإصلاح بين المتخاصمين المتنازعين له شأنٌ عظيمٌ، لأن النزاع والخصام يوجب من الشر والفرقة ما لا يمكن حصره، فلذلك حث الشارع على الإصلاح بين الناس في الدماء، والأموال والأعراض، فقد ثَبَتَ عن رسول الله ﷺ أنَّ أَجَرَ الْمُصْلِحِ بَيْنَ النَّاسِ أَفْضَلُ عِنْدَ اللَّهِ تَعَالَى مِنْ أَجْرِ كَثِيرٍ مِنَ الْعِبَادَاتِ، فهو أفضل من درجة الصيام والقيام.

فإصلاح ذات البين من الأمور التي سَوَّغَ الإسلامُ فيها عدمَ الصدقِ أحياناً، إذا اقتضتِ الضرورة ذلك، بغرض التوفيق والصلح، فإذا ذهبتَ إلى أحد المتخاصمين وقلتَ له: إنَّ أخاك يُحبك ويُثني عليك، ويقول فيك خيراً، ويذكرُ عنك كذا وكذا، والأمر قد يكون بالعكس، فهو يذمه ويسبُّه، فليس هذا من باب الكذب، وإنما هو من باب الإصلاح بين النَّاسِ، فالكذبُ يجوزُ في الإصلاح بين النَّاسِ، وفي الحرب، وما بين الزوجين.

والإصلاح بين النَّاسِ يحتاج إلى حِكْمَةٍ وَخَبْرَةٍ وَحِجَّةٍ، وإلا فقد يُزِيدُ الخِلافَ حِدَةً، ويُفسد أكثر ممَّا يُصلح؛ ولهذا رَخَّصَ الإسلامُ فيه باستعمال الكذب؛ لأنَّ الخَصْمَ في وقت الغضب يقول كلاماً لا يَرْضَى عنه عندما يهدأ، والحَكِيمُ الذي يُصلح بين النَّاسِ هو الذي يعرف موضعَ الداء والدواء، فيعالج الأمورَ بأسلوبٍ حكيم، وعندما يتوفر الصدق والإخلاص يَتِمُّ الصِّلُحُ على يديه، ولذا فقد عَظَّمَ أَجْرَهُ، وَأَجْزَلَ اللَّهُ ثَوْبَتَهُ.

وقد أمرنا الله سبحانه بالإصلاح بين المتنازعين في الشرائع فقال:

﴿وَأَعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا﴾ [آل عمران: ١٠٣]

وأمرنا بالصلح بين الزوجين فقال عن الحكمين.

﴿إِنْ يُرِيدَا إِصْلَاحًا يُوَفِّقِ اللَّهُ بَيْنَهُمَا﴾ [النساء: ٣٥] وقال ﴿وَالصُّلْحُ خَيْرٌ﴾ [النساء: ١٢٨].

والله تعالى لا يصلح عمل المفسدين، ويضاعف الأجر للمصلحين:

١- عن أبي الدرداء رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «ألا أخبركم بأفضل من درجة الصَّلاة والصَّيام والصدقة؟» قالوا: بلى، قال: «إصلاح ذات البين، وفساد ذات البين هي الحالقة»^(١).

٢- وفي حديث أمِّ كلثوم بنت عقبة رضي الله عنها أنها سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: «ليس الكَذَّابُ الذي يُصلح بين النَّاسِ فيُثْمِي خيراً، أو يقول خيراً» وقالت: لم أسمعُه يُرَخِّصُ إلا في ثلاث: في الحرب، والإصلاح بين النَّاسِ، وحديث الرَّجُلِ امرأته، وحديث المرأة

(١) «المسند» (٦/ ٤٤٤) (٢٧٥٠٨) بإسناد صحيح ورجال ثقات رجال الشيخين، كما قال محققوه، وأبو داود (٤٩١٩) و«صحيح سنن أبي داود» (٤١٠٦) والترمذي (٢٥٠٩) وقال: هذا حديث صحيح، وأخرجه ابن حبان (٥٠٧٠) و«صحيح سنن الترمذي» (٢٠٣٧) وأبوداود (٤٩١٩) والبخاري في الأدب المفرد (٣٩١) ويروى أن النبي ﷺ قال: «لا أقول تحلِّق الشعر، ولكن تحلِّق الدين».

زوجها، وكانت أم كلثوم بنت عقبة من المهاجرات اللاتي بايعن رسول الله ﷺ^(١).

وكما يكون الصلح بين الناس في الدنيا، فإن الله تعالى يصلح بين عباده في الآخرة.

٣- قال أنس رضي الله عنه: «بيننا رسول الله ﷺ جالس، إذ رأيناه ضحك حتى بدت ثناياه، فقال عمر: ما أضحكك يا رسول الله؟ قال: «رجلان من أمتي جثيا عند رب العزة، فقال أحدهما: يا رب خذ لي مظلمتي من أخي، قال الله تعالى: أعط أخاك مظلمته، فقال الأول: يا رب، لم يبق من حسناتي شيء، قال الآخر: يا رب، ليحمل عني أوزاري».

ففاضت عينا رسول الله ﷺ حين ذكر هذا، وقال: «إن هذا اليوم عظيم، يحتاج الناس فيه إلى من يحمل عنهم أوزارهم، فقال الله تعالى للطالب: ارفع رأسك، وانظر إلى الجنان، فرفع ونظر، وقال: يا رب، أرى مدائن من فضة، وقصوراً من اللؤلؤ، لأي نبي هذا؟ قال: لمن أعطى ثمنه، قال: ومن يملك ثمنه؟ قال تعالى: أنت تملك ثمنه، قال: وما هو؟ قال: تعفو عن أخيك، قال: إني قد عفوت عنه، قال الله تعالى: خذ بيد أخيك فادخلا الجنة»، فقال ﷺ: «اتقوا الله وأصلحوا ذات بينكم، فإن الله يصلح بين المؤمنين يوم القيامة»^(٢).

والمراد بالناس في الآية ﴿أَوْ إِصْلَاحٍ بَيْنَ النَّاسِ﴾ هم المؤمنون خاصة، كما قال تعالى: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلَحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ﴾ [الحجرات: ١٠]

وقال سبحانه: ﴿وَإِنْ طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلَحُوا بَيْنَهُمَا﴾ [الحجرات: ٩] وقال: ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَصْلَحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ﴾ [الأنفال: ١] والإصلاح بين الناس فريضة اجتماعية، يقوم بها من صفت نفوسهم، وقويت عزائمهم، ورسخ إيمانهم.

وقد خص الإسلام هذا الفضل على الصلح بين الناس، سواء أكانوا أفراداً أم جماعات أم أمماً وشعوباً لما له من أثر إصلاح في المجتمع، وقد جاء في الحديث: «كلام ابن آدم

(١) «المسند» (٦: ٤٠٣) (٢٧٢٧٣، ٢٧٢٧٧) مختصراً وإسناده صحيح على شرط الشيخين، (محققوه) والبخاري (٢٦٩٢) ومسلم (٢٦٠٥) وأبو داود (٤٩٢٠) والترمذي (١٩٣٨) والنسائي في «السنن الكبرى» (٩١٢٣) والبيهقي في «الشعب» (١١٠٩٥).

(٢) أخرجه أبو يعلى كما في «تفسير ابن كثير» (٣/ ٥٥٠) وهو في «المطالب العالية» (٥١٥٩) وعند الحاكم (٤/ ٥٧٦) قال ابن حجر في «المطالب»: ضعيف جداً، وقد ذكرته لجميل معناه والوقوف على درجته.

كُلُّهُ عَلَيْهِ لَا لَهُ، إِلَّا ذَكَرَ اللَّهَ، أَوْ أَمَرَ بِمَعْرُوفٍ، أَوْ نَهَى عَنِ مَنكَرٍ»^(١).

ومن ذلك مناجاة العبد ربه في صلاته وذكره وتلاوته للقرآن ونحو ذلك.

فهذه الأمور الثلاثة؛ الصدقة، والأمر بالمعروف، والإصلاح بين الناس، هي جماع الخير الذي يخرج من التناجي المذموم.

ثُمَّ يَبَيِّنُ ۞ جزاء مَنْ يقوم بهذه الفضائل الثلاث، بأنَّ له عند الله تعالى أجراً، لا يحيط به الوصف.

أما التناجي المذموم، فإما أن يكون كلاماً لا فائدة فيه، كفضول الكلام المباح، وإما أن يكون شراً ومضرة محضة، كالكلام المحرم بجميع أنواعه.

سُوءُ عَاقِبَةِ الْمُخَالِفِ لِأَمْرِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ

١١٥ - ﴿وَمَنْ يُشَاقِقِ الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ مَا بَيَّنَّ لَهُ الْهُدَىٰ وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ تُوَلَّهِ مَا تَوَلَّىٰ وَتُصْلِهِ جَهَنَّمَ ۖ وَسَاءَتْ مَصِيرًا ۝﴾^(٣)

وبعد أن ذَكَرَ سبحانه أن مَنْ يَأْمُرُ بالصدقة وبالمعروف ويقوم بالإصلاح بين الناس؛ ابتغاء مرضاة الله، له أَجْرٌ عَظِيمٌ، يَبَيِّنُ سبحانه الوجه المقابل لهذا، وهو سُوءُ عَاقِبَةِ الْمُخَالِفِ لِأَمْرِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ، المعاند للحق، بعد قيام الدليل الصحيح.

ومن ذلك قصة بشير بن أبيرق الذي سرق الدرع، حيث إنه لما حكم عليه النَّبِيُّ ﷺ بقطع اليد، وافتضح شأنه في المدينة؛ هَرَبَ إلى مكة، وأرتدَّ عن الإسلام، ونزل في ضيافة رجلٍ، فعَلِمَ أن عنده ذهباً، فأخذ ينقب الحائط ليلاً؛ ليسرق هذا الذهب، فلَمَّا رَأَوْهُ أرادوا أن يَرجموه، ولكنهم تركوه حيّاً، فَلَحِقَ بحرة بن سليم يَعبُدُ صنمهم حتى مات على الشرك، وقيل: إن الجدار قد سقط عليه فمات كافراً فأُنزل^(٤) الله سبحانه يقول:

(١) ينظر: «سنن الترمذي» (٢٤١٢) وابن ماجه (٣٩٧٤) قال الترمذي: غريب لا نعرفه إلا من حديث ابن خنيس.

(٢)، (٣) قرأ أبو عمرو وشعبة وحزمة بإسكان الهاء من (نوله) و(نصله) وصلاً ووقفاً، وقرأ قالون ويعقوب باختلاس الكسرة فيهما، وقرأ أبو جعفر بالإسكان والاختلاس، وقرأ ابن ذكوان بالاختلاس والكسرة الكاملة مع الإشباع، وقرأ هشام بالإسكان والاختلاس والإشباع، والباقون بالإشباع.

(٤) ينظر: «تفسير القرطبي» (٥/ ٣٨٥) وينظر: «تفسير البغوي» و«تفسير الخازن» للآية.

﴿وَمَنْ يُشَاقِقِ الرَّسُولَ﴾ أي: يكون في شِقِّ والرَّسُول في شِقِّ، وهذا الذي كَفَرَ وارتدَّ قد فعل ذلك، حيث خرج عن هُذِي النَّبِيِّ ﷺ، وَاتَّبَعَ طريقًا غير طريق المؤمنين ﴿مِنْ بَعْدِ مَا بَيَّنَّ لَهُ الْهُدَى﴾ وظَهَرَ له الحقُّ.

﴿وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ أي: يخرج عن جماعتهم، في عقيدته وأعماله ويكفر بعد إيمانه ﴿تَوَلَّى﴾ ما تَوَلَّى أي: تركه واختاره الفاسد لنفسه، ونخذله فلا نوقفه للخير ﴿وَنُصِّلَهُ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا﴾، لأنه قد اختار طريق الضلال لنفسه ﴿فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ﴾ [الصف: ٥] ﴿وَنَقَلْبُ أَفْئِدَتِهِمْ وَأَبْصَرُهُمْ كَمَا لَوْ يُؤْمِنُوا بِهِ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ [الأنعام: ١١٠]

ومن كان هذا شأنه فجزاؤه أن يبقى حائرًا في ضلاله، وأن يزداد ضلالًا إلى ضلاله، ويلقي جزاءه في عذاب جهنم، وبئس المصير مصيره، والآية عامة في كل من ينطبق عليه هذا المعنى.

قيل: إن الشافعي أَخَذَ يَبْحَثُ في القرآن عن آية تدلُّ على أن إجماع الأمة حُجَّةٌ، يُسْتَدَلُّ به على الأحكام الشرعية، فقرأ القرآن ثلاث مئة مرة حتى اهتدى إلى هذه الآية، على معنى: أن مَنْ يخرج عن إجماع الأمة فيما عُلِمَ اتفاقهم عليه على وجه الحقيقة، فهو خارجٌ عن حكم الشرع.

ولعلَّه لا حجة في الآية على الإجماع؛ لأن غير سبيل المؤمنين هو الخروج عن دين الإسلام إلى غيره، فالآية نزلت بمناسبة رِدَّة السارق، وخروجه من الإسلام.

ومعناها: وَمَنْ يُخَالَفَ طريقَ الحقِّ ﴿تَوَلَّى﴾ ما تَوَلَّى أي: تركه وما توجَّه إليه نتيجة عمله، ثم ندخله جهنم، وبئست مرجعًا ومصيرًا له ولأمثاله، ونظيرها قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَشَاقُّوا الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ مَا بَيَّنَّ لَهُمُ الْهُدَى لَنْ يَضُرُّوا اللَّهَ شَيْئًا وَسَيُحِطُّ أَعْمَلُهُمْ﴾ [محمد] وقوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ أَرْتَدُّوا عَلَى أَدْبَارِهِمْ مِنْ بَعْدِ مَا بَيَّنَّ لَهُمُ الْهُدَى الشَّيْطَانُ سَوَّلَ لَهُمْ وَأَمْلَى لَهُمْ﴾ [محمد].

عن ابن عباس ؓ أن النَّبِيَّ ﷺ قال: «لا يَجْمَعُ الله أمتي -أو قال: هذه الأمة- على الضلالة أبدًا، ويدُّ الله على الجماعة»^(١).

(١) البيهقي (٧٠٢) و«صحيح سنن أبي داود» (١٧٦٠) وهو حديث صحيح.

الشِّرْكُ بِاللَّهِ تَعَالَى: مَظَاهِرُهُ وَعَوَاقِبُهُ

١١٦- ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا بَعِيدًا﴾ ﴿١١٦﴾

وتمضي الآيات لتبين أن مغفرة الله تعالى تشمل كل الذنوب، إلا من مات على الشرك بالله تعالى، والشرك الأكبر يتحقق بأمرين:

أحدهما: اتخاذ آلهة تُعبد من دون الله تعالى، أو يُتوسط بها إلى الله سبحانه، وصرف شيء منها للمخلوق، كما يحدث في بعض بلاد العالم من عبادة البقر أو النار أو الوثن في الهند واليونان وغيرهما، وكذا من يُشرك المسيح وعزيرًا وغيرهما مع الله تعالى.

وثانيهما: عدم إفراد الله تعالى بالعبادة، كاتخاذ اليهود والنصارى أجبارة ورهبانًا يتبعونهم في التحليل والتحریم، ومثل توجه بعض الصوفية إلى بعض الأضرحة يعتقدون فيها نفعًا أو ضرًا ويُنذرون لهم، ويذبحون عندهم، ويدعون عند قبورهم، ويصلون عندها، ويقيمون لهم الموالد والأعياد، ويُغالون في إطرائهم ومحبتهم.

والسبب في عدم مغفرة الشرك بالله تعالى إذا مات الإنسان عليه أنه مُفسدٌ للفطرة، وفيه مساواةٌ لغير الله تعالى مع الله، وفيه وضعٌ للشيء في غير موضعه، وتسوية الخالق بالمخلوق، وفي الشرك قدح في وحدانية رب العالمين.

قال ابن عباس رضي الله عنه: إن هذه الآية ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ﴾ نزلت في شيخ من العرب جاء إلى النبي ﷺ فقال: يا رسول الله، إني مُنهمك في الذنوب، إلا أنني لم أشرك بالله شيئًا منذ عرفته وآمنتُ به، ولم أأخذ من دونه وليًا، ولم أواقع المعاصي جرأة على الله تعالى، وما توهمتُ طرفة عين أنني أعجز الله هربًا، وإني تائب نادم مُستغفر، فما حالي عند الله؟ فأنزل الله الآية^(١).

هذا الرجل يُقرُّ بأنه ارتكب ذنوبًا كثيرة، لكنه لم يجهز بها، ولم يحدث بها، ولم يقع في الشرك أبدًا، وهو معتقد أنه في قبضة الله تعالى لا يعجزه في شيء، وهو تائب من

(١) «تفسير القرطبي» (٣/ ١٥٦) والألوسي (٥/ ١٤٧).

ذنوبه، نادماً عليها، راجعٌ عنها إلى ربّه.

وقد أخبر الله سبحانه في هذه الآية أنه جل شأنه لا يغفر لمن مات على الشرك بالله، كما قال تعالى: ﴿إِنَّهُ مَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَهُ النَّارُ﴾ [المائدة: ٧٢].

١- وفي الحديث: جاء رجلٌ إلى النبي ﷺ فقال: يا رسول الله، ما الموجبتان؟ قال: «مَن مات لا يشرك بالله شيئاً وجبت له الجنة، ومَن مات يُشرك بالله شيئاً وجبت له النار»^(١).

٢- وعن ابن مسعود ؓ قال: قلتُ يا رسول الله، أيُّ الذنب أعظم؟ قال: «أن تجعل لله نداً وهو خلقك»^(٢).

قال عليّ ؓ: ما في القرآن آية أحب إليّ من هذه الآية ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ﴾.

٣- وفي الحديث القدسي: «يا بن آدم، لو أتيتني بقراب الأرض خطايا ثم لقيتني لا تشرك بي شيئاً، لأتيتك بقرابها مغفرة»^(٣).

فهذه نصوصٌ صريحةٌ ثابتةٌ تبينُ أن المُشركَ غيرُ مَغْفُورٍ له إذا مات عليه.

وثبتَ أيضاً أن المشرك إذا تاب من شركه وآمن قبلت توبته، وصحَّ إيمانه، وغُفر ذنبه كلُّه الذي عمله حال الشرك، قال تعالى: ﴿قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ يَنْتَهُوا يُغْفَرْ لَهُمْ مَا قَدْ سَلَفَ﴾ [الأنفال: ٣٨].

وقال سبحانه حثاً للمشرِكين على التوبة: ﴿أَفَلَا يَتُوبُونَ إِلَى اللَّهِ وَيَسْتَغْفِرُونَهُ وَاللَّهُ عَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [المائدة: ٧١].

فهو سبحانه يَغْفِر ما دون الشرك لمن يشاء من أهل التوحيد، ويَغْفِر الشرك والكُفر إذا تاب الإنسان منه.

(١) رواه مسلم من حديث ابن الزبير عن جابر برقم (٩٣) مختصراً.

(٢) البخاري، كتاب التفسير (٦/ ٢٢) برقم (٤٤٧٧، ٧٥٣٢) ومسلم برقم (٨٦) و«صحيح سنن الترمذي» (٢٥٤٤) ورقمه في «سنن الترمذي» (٣٤١٠).

(٣) رواه الترمذي برقم (٣٧٨٩) وفي «صحيح سنن الترمذي» (٢٨٠٥) عن أنس عن رسول الله ﷺ عن ربه ﷻ في «السلسلة الصحيحة» (١٢٧، ١٢٨) و«الروض النضير» (٤٣٢) و«مشكاة المصابيح» (٤٣٣٦).

قال العلماء: لَمَّا أخبر الله سبحانه أنه يَغْفِرُ الشُّرْكَ بِالْإِيمَانِ والتَّوْبَةِ، عَلَّمَنَا أَنَّهُ جَلَّ شَأْنُهُ يَغْفِرُ مَا دُونَ الشُّرْكَ بِالتَّوْبَةِ، وهذه المشيئة لَمَنْ لَمْ يَتَّبِعْ مِنْ ذُنُوبِهِ مِنْ أَهْلِ التَّوْحِيدِ.

فَإِذَا مَاتَ صَاحِبُ الْكَبِيرَةِ أَوْ الْمُصِصِرُ عَلَى الصَّغِيرَةِ مِنْ غَيْرِ تَوْبَةٍ، فَهُوَ تَحْتَ الْمَشِيئَةِ، إِنْ شَاءَ غَفَرَ اللَّهُ لَهُ، وَأَدْخَلَهُ الْجَنَّةَ بِفَضْلِهِ وَرَحْمَتِهِ، وَإِنْ شَاءَ عَذَّبَهُ بِمَقْدَارِ ذَنْبِهِ، ثُمَّ يَدْخُلُهُ الْجَنَّةَ بَعْدَ ذَلِكَ.

أَمَّا مَنْ مَاتَ عَلَى الشُّرْكَ فَقَدْ حُرِّمَ الْخَيْرُ كُلُّهُ، وَضَلَّ عَنْ طَرِيقِ الْهُدَى. وَآيَةُ الشُّرْكَ الْأُولَى فِي هَذِهِ السُّورَةِ نَزَلَتْ فِي سِيَاقِ الْحَدِيثِ عَنْ أَهْلِ الْكِتَابِ، حَتَّى لَهُمْ أَنْ يَتُوبُوا عَمَّا فِيهِ مِنْ شُرْكَ بِاللَّهِ تَعَالَى.

وَقَدْ خُتِمَتِ الْآيَةُ السَّابِقَةُ (آيَةُ ٤٨) بَيَانًا أَنَّ إِشْرَاقَ الْمَخْلُوقِ مَعَ اللَّهِ تَعَالَى افْتِرَاءً وَكَذِبًا عَلَى اللَّهِ سُبْحَانَهُ فِي قَوْلِهِ: ﴿فَقَدْ افْتَرَىٰ إِثْمًا عَظِيمًا﴾؛ لِأَنَّ شَرِيعَةَ مُحَمَّدٍ ﷺ نَاسِخَةٌ لِجَمِيعِ الشَّرَائِعِ، وَالتَّمَسُّكُ بِغَيْرِهَا افْتِرَاءٌ.

أَمَّا هَذِهِ الْآيَةُ فَقَدْ نَزَلَتْ فِيمَنْ ارْتَدَّ وَمَاتَ عَلَى الشُّرْكَ، وَلِذَا خُتِمَتْ بِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا بَعِيدًا﴾ وَأَيُّ ضَلَالٍ هُوَ فِيهِ هَذَا الْمَشْرُكُ؟ حَيْثُ خَرَجَ عَنْ حَظِيرَةِ الْإِيمَانِ إِلَى رَذِيلَةِ الشُّرْكَ، وَالشُّرْكَ بِاللَّهِ تَعَالَى أَعْظَمُ الظُّلْمِ وَأَبْعَدُ الضَّلَالِ، وَمِثْلُ ذَلِكَ الْوُثْنُونَ؛ لِأَنَّهُمْ لَمْ يَعْرِفُوا كِتَابًا، وَلَا وَحْيًا، فَكَانُوا بَعِيدِينَ عَنِ الصَّوَابِ.

أَمَّا الشُّرْكَ الْأَصْغَرُ - وَيُسَمَّى الشُّرْكَ الْخَفِيُّ أَيْضًا - فَهُوَ الرِّيَاءُ، كَأَن يَقْصِدُ الْإِنْسَانُ بِعَمَلِهِ مَدْحَ النَّاسِ أَوْ ثَنَاءَهُمْ، أَوْ التَّظَاهَرَ بِالْإِيمَانِ أَمَامَ الْآخَرِينَ، فَلَا يَكُونُ عَمَلُهُ خَالِصًا لِلَّهِ تَعَالَى.

وَقَدْ كَانَ أَصْحَابُ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ يَخْشَوْنَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ مِنَ الرِّيَاءِ، حَتَّى إِنْ عَمَرَ ﷺ عِنْدَمَا عَلِمَ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ أَخْبَرَ حَذِيفَةَ بِأَسْمَاءَ بَعْضِ الْمُنَافِقِينَ، أَخَذَ يَسْتَحْلِفُهُ وَيَقُولُ لَهُ: هَلْ أَنَا مِنْهُمْ؟ فَيَقُولُ حَذِيفَةُ: لَا، وَلَا أُؤْمِنُ بِعَدُكَ أَحَدًا، وَذَلِكَ حَرَصًا مِنْ حَذِيفَةَ ﷺ عَلَى حِفْظِ سِرِّ اسْتَأْمَنِ الرَّسُولَ ﷺ عَلَيْهِ.

وَلَمَّا تَكَلَّمَ رَجُلٌ عَنِ الْحَجَّاجِ - وَفِي الْمَجْلِسِ ابْنُ عَمْرٍ - قَالَ لَهُ ابْنُ عَمْرٍ ﷺ: لَوْ كَانَ الْحَجَّاجُ حَاضِرًا هَلْ كُنْتَ تَتَكَلَّمُ بِذَلِكَ؟ قَالَ: لَا، قَالَ: كُنَّا نَعُدُّ ذَلِكَ مِنَ النِّفَاقِ.

وَالرِّيَاءُ يَتَسَرَّبُ لِلْإِنْسَانِ فِي الْخَفَاءِ، وَقَدْ لَا يَحْسُ بِهِ الْعَبْدُ، وَلِهَذَا فَقَدْ عَلَّمَنَا النَّبِيُّ ﷺ

أَن نَدْعُوَ اللَّهَ تَعَالَى قَاتِلِينَ عِنْدَمَا يَخَالِجُنَا هَذَا الْإِحْسَاسُ: «اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَشْرِكَ بِكَ شَيْئًا وَأَنَا أَعْلَمُ، وَأَسْتَغْفِرُكَ مِنَ الذَّنْبِ الَّذِي لَا أَعْلَمُ»^(١).

ونقول: «اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِي مَا قَدَّمْتُ وَمَا أَخَّرْتُ، وَمَا أَسْرَرْتُ وَمَا أَعْلَنْتُ، وَمَا أَنْتَ أَعْلَمُ بِهِ مِنِّي»^(٢)، «اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِي ذَنْبِي كُلَّهُ، خَطَأً وَعَمْدًا، وَسِرًّا وَعَلَانِيَةً»^(٣).

والإخلاصُ يتمثلُ في استواء السرِّ والعلانية، فَمَنْ كَانَتْ عِلَانِيَتُهُ أَفْضَلَ مِنْ سَرِيرَتِهِ؛ فَذَلِكَ النِّفَاقُ وَالرِّيَاءُ، وَمَنْ كَانَتْ سَرِيرَتُهُ أَفْضَلَ مِنْ عِلَانِيَتِهِ؛ فَهُوَ وَرَعٌ وَتَقَى.

ضَلَالُ الْمُشْرِكِينَ فِي عِبَادَتِهِمْ غَيْرَ اللَّهِ تَعَالَى

١١٧- ﴿إِنْ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ إِلَّا إِنْتًا وَإِنْ يَدْعُونَ إِلَّا شَيْطَانًا مَرِيدًا﴾ (١٧)

ثم فصل سبحانه بعض ما عليه المشركون من ضلال، فذكر أنهم يعبدون من دون الله تعالى آلهة شتى مزعومة، يدعونها، ويرثون عبادتها عمَّن قبلهم، فهم يعبدون أوثانًا لا تنفع ولا تضر، وقد كانوا يُسمون أصنامهم بأسماء الإناث، فيقولون: اللات والعزى ومناة، فالمراد بالإناث في الآية: الأصنام وكانوا يقولون لصنم كل قبيلة: أنثى بني فلان، أي: صنمها، قال تعالى ﴿أَفَرَأَيْتُمُ اللَّاتَ وَالْعُزَّىٰ﴾ (١٦) وَمَوَدَّةَ الثَّلَاثَةِ الْأُخْرَىٰ ﴿﴾ (٢٠) [النجم: ١٩، ٢٠]

وعن أبي بن كعب ؓ قال: مع كل صنم جنية^(٤).

ويطلق اسم الأنثى على الأموات، وعلى كل شيء لا روح فيه، كالخشب والحجر، كما قال الحسن.

(١) ينظر الجامع الصغير (٤٩٣٤، ١٥٥٩) وهو في الحكيم الترمذي عن أبي بكر ؓ، والمسند، وابن أبي شيبه بنحوه من حديث أبي موسى، وقال الهيثمي في المجمع (٢٢٣/١٠): رواه أحمد والطبراني في الكبير والأوسط، ورجال أحمد رجال الصحيح غير أبي علي، وثقه ابن حبان.

(٢) من حديث طويل عن علي في صحيح مسلم (٧٧١، ٢٠٢) وعن أبي موسى في البخاري (٦٣٩٨). وعن عليّ برقم (٧٢٩)، (٨٠٣).

(٣) انظر حديث أبي موسى في البخاري (٦٣٩٩) ومسلم (٢٧١٩) والمسند عن عثمان بن أبي العاص (١٦٢٦٩).

(٤) أخرجه أحمد (٢١٢٣١) وابن أبي حاتم (٥٩٧٠) والضياء في «المختارة» (١١٥٧) قال محققو المسند:

إسناده حسن.

وعبر سبحانه عن الأصنام بالإناث؛ لأن المشركين سموا أكثر الأصنام بأسماء الإناث، وكانوا يعبدون الملائكة ويقولون: بنات الله، كما قال تعالى: ﴿وَجَعَلُوا بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْجَنَّةِ نَبَآءً﴾ [الصافات: ١٥٨] وقال سبحانه: ﴿وَجَعَلُوا الْمَلَائِكَةَ الَّذِينَ هُمْ عِبْدُ الرَّحْمَنِ إِنثًا﴾ [الزخرف: ١٩]، فيراد بالإناث أيضًا الأوثان والملائكة، فهذه أربعة أقوال.

ومن آلهتهم طاعة الشيطان فيما يزينه لهم، وطاعته تعني عبادته باتباع إشارته ووسوسته، فهم يعبدون شيطانا مريدا، أي: متمرداً على الله تعالى كما قال: ﴿بَلْ كَانُوا يَعْبُدُونَ الْجِنَّ أَكْثَرُهُمْ بِهِمْ مُؤْمِنُونَ﴾ [سبأ: ٤١].

والشيطان هو الذي أغراهم وأغواهم فأطاعوه، وبلغوا في الفساد والإفساد حداً كبيراً، فيراد بالشيطان المريد: الأصنام التي عبدوها، أو إبليس الذي أضلهم وأغواهم، أو الشيطان الذي يكون مع الصنم، كما قال ابن عباس ؓ: «في كل صنم شيطان». وكما قال أبي بن كعب «كل صنم شيطان»

قال تعالى: ﴿أَلَمْ نَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَبْنَىءَ آدَمَ أَنْ لَا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ﴾ [يس: ٦٠]. وقال تعالى على لسان خليل الرحمن: ﴿يَتَابَتْ لَا تَعْبُدُ الشَّيْطَانَ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلرَّحْمَنِ عَصِيًّا﴾ [مريم: ٤٤].

وقال سبحانه: ﴿وَإِنَّ الشَّيْطَانَ لِرُوحِوَ إِلَهَ أَوْلِيَآئِهِمْ لِيُجْدِلُوَكُمْ وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ﴾ [الأنعام: ١٢١].

ومعنى الآية: ما يدعو هؤلاء المشركون من دون الله إلا أوثاناً وأصناماً، سموها بأسماء الإناث كالعزى ومناة، ونحوهما، وهي أسماء مؤنثة ناقصة، وهذه الآلهة المزعومة لا تخلق ولا ترزق، ولا تنفع ولا تضر، وليس لها أسماء ولا أبصار ولا أفئدة، فكيف يُعبد مَنْ هذا شأنه؟ إنه لمن أقبح القبيح الدال على نقص صاحبه، إنهم يعبدون صورة هذه الأوثان، والذي زين لهم ذلك هو الشيطان الذي يريد إهلالهم، فهم في الحقيقة يعبدون الشيطان، والشيطان يدعو حزبه ليكونوا من أصحاب السعير.

الشَّيْطَانُ يَتَحَدَّى بَنِي آدَمَ بِخَمْسَةِ أُمُورٍ

١١٨- ﴿لَعَنَهُ اللَّهُ وَقَالَ لَأَتَّخِذَنَّ مِنْ عِبَادِكَ نَصِيبًا مَفْرُوضًا﴾ ﴿١١٨﴾

هذا الشيطان العاتي المتمرد طرده الله تعالى وأبعده من رحمته وأخرجه من جنته. ﴿لَعَنَهُ اللَّهُ﴾ وهذا وقف تام كامل المعنى، يقف القارئ عليه؛ لأن وصله بما بعده يوهم خلاف المراد، ﴿وَقَالَ﴾ الشيطان متحدياً بني آدم بخمسة أمور:

الأمر الأول: ﴿لَأَتَّخِذَنَّ مِنْ عِبَادِكَ نَصِيبًا مَفْرُوضًا﴾ أي: جزءاً معلوماً وقدرًا معيناً أغويهم وأبعدهم عن دين الله، وأخرجهم عن الفطرة.

لقد علم اللعين أنه لا يقدر على إغواء عباد الله كلهم، وأن عباده المخلصين ليس له عليهم سلطان كما قال تعالى على لسانه ﴿قَالَ فِيعَزُّكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ ﴿٨٢﴾ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمْ الْمُخْلِصِينَ ﴿٨٣﴾ [ص: ٨٢، ٨٣] وهذا النصيب المفروض هو غير المخلصين من عباد الله. ويمضي الشيطان في تحدّيه قائلاً:

١١٩- ﴿وَلَأُضِلَّنَّهُمْ وَلَأُمَنِّيَنَّهُمْ وَلَأَمْرُنُهُمْ فَلَيَكُنَّ عَادَاتُ اللَّغْوِمْ وَلَأَمْرُهُمْ فَلَيَغْيِرُنَّ خَلْقَ اللَّهِ وَمَنْ يَتَّخِذِ الشَّيْطَانَ وَلِيًّا مِّن دُونِ اللَّهِ فَقَدْ خَسِرَ خُسْرَانًا مُّبِينًا﴾ ﴿١١٩﴾

الأمر الثاني: ﴿وَلَأُضِلَّنَّهُمْ﴾ عن طريق العلم والعمل الصالح، فأوسوس لهم، وأزين لهم أعمالهم، وأغويهم وأبعدهم عن طريق الحق، وهؤلاء الذين يضلهم الشيطان هم الذين عندهم استعداد وتقبل لاتباع خطوات الشيطان والسير في ركابه.

قال تعالى: ﴿فَالْمُهْمُ فُجُورُهَا وَقَوْلُهَا ۖ قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا ۖ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّاهَا﴾ ﴿١٠﴾ [الشمس]. أما المؤمنون المخلصون، فليس له عليهم سلطان ﴿إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ﴾ [الإسراء: ٦٥].

﴿إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمْ الْمُخْلِصِينَ﴾ [ص: ٨٣] فهؤلاء هم الخارجون عن النصيب المفروض.

الأمر الثالث: ﴿وَلَأُمَنِّيَنَّهُمْ﴾ أي: أفتنهم بطول الأجل وبلوغ الأمان، وأجعلهم يسوفون في التوبة ويؤخرونها، ويؤملون في الدنيا، ويكثرون من حبها وحب نعيمها والبقاء فيها، ويؤثرونها على الآخرة، وأزين لهم حب الشهوات والشبهات واتباع الهوى، وأشككهم في

أن هناك جنة ونارًا وبعثًا ونشورًا.

وأمنّهم أن ينالوا ما ناله المهتدون، فلم يقتصر الشيطان على إضلالهم، بل زين لهم ما هم فيه من الضلال حتى إنهم ليعملوا بأعمال أهل النار ويحسبوا أنها من أعمال أهل الجنة، كما قال تعالى: ﴿قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا ۝ الَّذِينَ ضَلَّ سَعِيَّهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا﴾ [الكهف] وقال ﴿أَفَمَنْ زُينَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ فَرَأَاهُ حَسَنًا﴾ [فاطر: ٨]

الأمر الرابع: ﴿وَلَا أُمِرْتُمْ فَلَئِنَّكُمْ أَتَاكُمْ الْأَنْعَامَ﴾ البتة: هو القطع، وكان أهل الجاهلية يقطعون أذن الأنعام ليحرّم ركوبها وأكلها، ويشقون أذن الناقة إذا ولدت خمسة أبطن وجاء الخامس ذكرًا، ويحرّمون الانتفاع بها، ولا يردونها عن ماء أو مرعى، ويجعلونها للطواغيت، ويسمونها بحيرة، أي: مشقوقة الأذن، وهذا من أفعالهم القبيحة التي يقول الله تعالى عنها: ﴿مَا جَعَلَ اللَّهُ مِنْ بَحِيرَةٍ وَلَا سَائِبَةٍ وَلَا وَصِيلَةٍ وَلَا حَامٍ﴾ [المائدة: ١٠٣] ويوجد لهذا الفعل نظائر لدى بعض الرعاة في يومنا، وهذا نوع من الإضلال يقتضي تحريم ما أحل الله، أو تحليل ما حرم الله، وفيه من الاعتقادات الفاسدة، والأحكام الجائرة ما هو أكبر من الضلال.

الأمر الخامس: ﴿وَلَا أُمِرْتُمْ فَلَئِنَّكُمْ خَلَقَ اللَّهُ﴾ أي: ولأدعونهم إلى تغيير خلق الله في الفطرة، وتغيير الهيئة التي خلق الناس عليها، ومن ذلك الوشم، والنمص والتفليج للحسن، وتضخيم الشفتين، وتصغير الأنف، ونحو ذلك.

وتغيير الفطرة معناها تغيير دين الله، بتحليل الحرام وتحريم الحلال، أو تغيير ما فطر الله الناس عليه من التوحيد وإسلام الوجه لله، وذلك بالدخول في اليهودية أو النصرانية أو المجوسية، أو التوجه بالمولود نحو هذه الشرائع، أو عبادة الكواكب أو الشمس أو الحجارة... إلخ، فالفطرة هي خلق الله، وتغييرها العدول عنها إلى غيرها، والإسلام هو مقتضى الفطرة، فمن بدّله فقد غيّر خلق الله، وهذا المعنى مروى عن عدد من الصحابة والتابعين، أما تغيير هيئة الإنسان فله صورٌ ست:

أولًا: تغيير هيئة الإنسان، قد يكون هذا التغيير (بالاختصاص) للتبثّل والانقطاع للعبادة، حتى إن أنسًا ﷺ كرهه للغنم، ومن تغيير خلق الله وضع المخلوقات في غير ما خلقت له كجعل الكواكب آلهة.

ثانيًا: ومن تغيير خلق الله (التخنُّث)، وهو تشبُّه الرجال بالنساء في كلامهن وحركاتهن ومشيتهن وملابسهن وهيئتهن وشعورهن وحلق اللحى، على نحو ما يطالب به بعض الشباب على أنه من الحرية الشخصية، ومنه ما يحدث في بعض الأفلام والتمثيلات والمسلسلات حتى إن الرجال ليقبلن النساء في الرقص والملابس ووضع المساحيق!! وكأن النساء بحاجة إلى زيادة عددهن واحدة!!

والمرأة كذلك تقلد الرجل في كلامه وملابسه وهيئته وحركاته وغير ذلك، وقد لعن الله المتشبهين من الرجال بالنساء والمتشبهات من النساء بالرجال، واللعن يكون في كبائر الذنوب.

وتغيير خلق الله يتضمن السخط من خلقته تعالى، والقبح في حكمته، وعدم الرضى بتقديره وتديره، واعتقاد أن ما يصنعه البشر أحسن من خلق الله.

ثالثًا: ومن ذلك تغيير خلق الله في البهائم، (بشق أذنها) ونحوه، لتحريم أكلها وركوبها، وفق عاداتهم السيئة.

رابعًا: ومن تغيير خلق الله (الوشم) وهو غرز إبرة في مكان الجسم حتى يسيل الدم ثم يُعبأ بالكحل.

خامسًا: ومن ذلك (النمص) وهو إزالة شعر الحاجبين ووضع خط مكانه، أو ترقيق الحاجبين حتى يكونا كالخط، وقد كان النمص في الجاهلية علامة على المرأة البغي، فحرّم الإسلام التشبه بالبغايا حتى لا يتعرض الحرائر لما يتعرضن له من الرجال، وقد كثر هذا الشيء في زماننا، وزالت العلة، ولم يعد النمص علامة مميزة للبغايا، فهل يبقى الحكم كما هو، أم يزول مع زوال العلة؟ كما أن البنطال كان قديمًا من ملابس الإفرنج (غير المسلمين)، ولكنه عمّ وانتشر، فهل لا يزال فيه تشبه بالكفار؟

سادسًا: ومن تغيير خلق الله (المتفلجة) وهي التي توسّع ما بين أسنانها -إذا كانت متلاصقة- للحسن والجمال، صحّ عن ابن مسعود رضي الله عنه أنه قال: «لعن الله الواشمات والمستوشمات، والنامصات والمتنمصات، والمتفلجات للحسن، المغيرات خلق الله ﷻ» ثم قال: «ألا ألعن من لعن رسول الله ﷺ وهو في كتاب الله ﷻ، يعني قوله ﴿وَمَا آتَاكُمُ

الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَأْنِهُوا^(١) [الحشر: ٧].

وفي لفظ آخر قال: «لعن الله الواشمات والمتوشمات، والمتنمصات والمتفلجات للحسن، المغيرات خلق الله» فبلغ ذلك امرأة من بني أسد، يقال لها (أم يعقوب)، فجاءت فقالت: إنه بلغني أنك لعنت كيت وكيت، فقال: وما لي لا ألعن من لعن رسول الله ﷺ ومن هو في كتاب الله، فقالت: لقد قرأت ما بين اللوحين فما وجدت فيه ما تقول، قال: لئن كنت قرأته لقد وجدته، أما قرأت: ﴿وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَأْنِهُوا﴾؟ قالت: بلى، قال: فإنه قد نهى عنه، قالت: فإني أرى أهلك يفعلونه، قال: فاذهبي فانظري، فذهبت فنظرت، فلم تر من حاجتها شيئاً، فقال: لو كانت كذلك ما جامعتها^(٢).

والغرض من الحديث: النهي عن سمة من سمات العواهر أو المشركات اللاتي كنّ في الجاهلية، فقد كان النمص والوسم وتفليج الأسنان علامة مميزة لهن، ولا يزال الأمر كذلك لدى هذه الفئة ولكن التقليد فشا وعم وانتشر!!

ولعن من غير خلق الله، يكون فيما إذا كان فيه حظ من طاعة الشيطان، وعدول عن الإسلام إلى غيره.

فالمعنى: لا تبدلوا فطرة الله ودعوا الناس على فطرتهم، كما جاء في الحديث.

١- عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «كل مولود يولد على الفطرة، فأبواه يهودانه وينصرانه ويمجسانه، كما تولد البهيمة، بهيمة جمعاء، هل يحسنون فيها من جدعاء؟»^(٣)

٢- وفي صحيح مسلم عن عياض بن حمار رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «قال الله ﷻ: إني خلقت عبادي حنفاء، فجاءتهم الشياطين فاجتالهم عن دينهم، وحرمت عليهم ما أحللت لهم»^(٤).

(١) «صحيح البخاري» برقم (٥٩٤٨) وانظر (٤٨٨٦) و«صحيح مسلم» (٢١٢٥) مطوّلًا.

(٢) «صحيح البخاري» برقم (٤٨٨٦، ٥٩٣١، ٥٩٤٨) و«صحيح مسلم» كتاب اللباس والزينة برقم (٢١٢٥) مطوّلًا.

(٣) «المسند» (٧١٨١، ٧٧١٢، ٩١٠٢، ١٠٢٤٠) حديث صحيح، رجاله ثقات رجال الشيخين، وأخرجه مسلم (٢٦٥٨) وابن حبان (١٢٨) وأبو يعلى (٦٥٩٣).

(٤) «صحيح مسلم» برقم (٢٨٦٥).

٣- وعن أسماء بنت أبي بكر رضي الله عنها قالت: أتت النبي ﷺ امرأةٌ فقالت: يا رسول الله، إن لي ابنة عروسًا، وإنه أصابَتْها حصبة فتمرَّق شعرها -أي: تساقط- أفأصله؟ فقال رسول الله ﷺ: «لعن الله الواصلة والمستوصلة»^(١).

٤- وعن عائشة رضي الله عنها أن جارية من الأنصار تزوّجت وأنها مرضت فتمعَّط شعرها -أي: تناثر- فأرادوا أن يصلوها، فسألوا النبي ﷺ فقال: «لعن الله الواصلة والمستوصلة»^(٢).

وليس من تغيير خلق الله ما أذن به الإسلام كالختان وحلق الشعر وتقليم الأظافر ونتف الإبط وحلق العانة وسائر خصال الفطرة ﴿فَطَرَتَ اللَّهُ أَلَنِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا بُدَّ لَهُ لِيَخْلُقَ اللَّهُ﴾ [الروم: ٣٠] ويدخل في تعبير خلق الله: كل فعل نهى الله، وترك كل أمر أمر الله به^(٣) -مما جاء ذكره في هذه الآية وغيرها لأن الشيطان يدعو إلى جميع المعاصي، وينهى عن جميع الطاعات، ومنه تغيير خلق الله. ومن يُطع الشيطان ويستجب له -في شيء مما ذكر، ويتخذ ناصرًا ومستشارًا له من دون الله القوي العزيز- فقد خسر وهلك.

وقد وعد الشيطان بأن يضل عددًا من الخلق ﴿نَصِيبًا مَفْرُوضًا﴾ هم حزب الشيطان وأعوانه، كما قال تعالى على لسانه: ﴿لَا حَتَّيْكَ ذُرِّيَّتَهُ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [الإسراء: ٦٢] وقال: ﴿ثُمَّ لَا يَأْتِيَنَّهُمْ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَنِهِمْ وَعَنْ شَمَائِلِهِمْ وَلَا يَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ﴾ [الأعراف: ١٧].

والمعنى: أنه سيجتهد ويحرص على إغواء ما استطاع منهم ﴿وَمَنْ يَتَّخِذِ الشَّيْطَانَ وَلِيًّا مِمَّنْ دُوِنَ اللَّهِ فَقَدْ خَسِرَ خُسْرَانًا مُبِينًا﴾ وأي خسران أعظم فمن خسر دينه ودنياه، فحصل له الشفاء الأبدي، وفاته النعيم السرمدي، وبالمقابل فإن من تولّى مولاه وآثر رضاه، ربح كل الربح، فأصبح قرير العين، وفاز بسعادة الدارين.

الشَّيْطَانُ يَعِدُ أَوْلِيَاءَهُ بِطُولِ الْعُمْرِ وَتَحْقِيقِ الْأَمَالِ

١٢٠- ﴿يَعِدُهُمْ وَيُمَنِّيهِمْ﴾^(٤) وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُورًا ﴿١٢٠﴾

(١) «المسند» (٢٤٨٠٤، ٢٦٩٧٩) والبخاري (٥٩٣٥، ٥٩٤١) ومسلم (٢١٢٢).

(٢) «المسند» (٢٤٨٠٣، ٢٥٠٦٩) والبخاري (٥٩٣٤) ومسلم (٢١٢٣).

(٣) وهذا اختيار ابن جرير (٢٢٢/٩).

(٤) قرأ يعقوب بضم الهاء من (ويمنيهم)، وقرأ الباقون بكسرها.

ثم إن الشيطان يَعِدُ حزبه وأولياءه، فيوقع في قلوبهم ويوسوس لهم ويمنيهم بطول العمر، وتحقيق الآمال، والحرص على الشهوات والملذات، وكأنه يقول للإنسان: اجتهد في تحصيلها فلا جنة ولا نار ولا بعث ولا حساب!! وهذه وعودٌ كاذبة وأمانٌ باطلة، وهي مجرد خديعة وإغراء، ثم يتنصل منهم يوم القيامة ﴿وَقَالَ الشَّيْطَانُ لَمَّا قُضِيَ الْأَمْرُ إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ وَوَعَدْتُكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ وَمَا كَانَ لِي عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ إِلَّا أَنْ دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي فَلَا تَلُومُونِي وَلُومُوا أَنْفُسَكُمْ﴾ [إبراهيم: ٢٢] قال تعالى:

١٢١- ﴿أُولَئِكَ مَا وَلَّهُمْ جَهَنَّمُ وَلَا يَجِدُونَ عَنْهَا مَحِيصًا﴾

أما مصير أولياء الشيطان في الآخرة فهو جهنم -والعياذ بالله- هي مرجعهم ومستقرهم، لا يجدون عنها ملجأ ولا معدلاً ولا مفراً إلى غيرها، ولا بد لهم من الخلود فيها أبد الآباد.

ثَوَابُ الْمُؤْمِنِينَ فِي الْآخِرَةِ

١٢٢- ﴿وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا وَعَدَ اللَّهُ حَقًّا وَمَنْ أَصْدَقُ﴾ (٢) مِنْ اللَّهِ قِيلًا ﴿١٢٢﴾

وبعد بيان مصير الأشقياء يأتي بيان مصير السعداء، وما أعد الله لهم من النعيم في دار الكرامة ﴿وَالَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ أي: صدقوا في إيمانهم بالله تعالى وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر، وبالقدر خيره وشره على الوجه الذي أمروا به علماً وتصديقاً واعتقاداً جازماً، وأتبعوا الإيمان بالعمل الصالح الناشئ عن الإيمان، وهذا يشمل سائر المأمورات من واجب ومستحب، بما في ذلك أعمال القلوب وأعمال اللسان وأعمال الجوارح، كما قال تعالى: ﴿وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ أي: صدقوا بقلوبهم وعملوا بجوارحهم ولم يتبعوا أمانى الشيطان وما يمليه عليهم.

هؤلاء المؤمنون العاملون للصلوات ﴿سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾ ثوابا لهم

(١) قرأ الأصهباني وأبو جعفر وأبو عمرو بخلف عنه بإبدال الهمزة ألفاً من (مأواهم) في الوصل والوقف، وكذا حمزة عند الوقف.

(٢) قرأ حمزة والكسائي وخلف العاشر ورويس بخلف عنه بإشمام الصاد صوت الزاي من (أصدق) وهي لغة قيس، وقرأ الباقون بالصاد الخالصة وهي لغة قريش.

على أعمالهم بحسب أحوالهم وقوة إيمانهم وحُسن أعمالهم.
أي: جنات تجري من تحت قصورها ومساكنها وغرفها وأشجارها الأنهار، يصرّفونها حيث شاؤوا وأين شاؤوا، وفيها ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر، من الطعام والشراب والأزواج والقصور والمناظر الجميلة والغرف العالية، والأشجار المتدلّية والفواكه الدانية، والأصوات الشجيّة، والنعم السابغة.

وأكبر من ذلك كله رضوان الله تعالى، وتمتّع الأرواح بقربه، والعيون برؤيته، والأسماع بخطابه، فما أحلى هذا النعيم الذي لا يحيط به الوصف ولا يدركه العقل.

وهم ماكثون في الجنة بلا زوال ولا انتقال ولا انقطاع، مخلدون فيها على الدوام ﴿خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا﴾ وهذا وعدٌ مقطوعٌ به من الله تعالى لا يتخلف ﴿وَعَدَ اللَّهُ حَقًّا﴾ وليس هناك من هو أوفى وأصدق من الله تعالى ﴿وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ قِيلًا﴾ وهذا في مقابلة خداع الشيطان وأمانيه وغروره لأتباعه بالأماني الكاذبة، وشتان بين من يثق بوعد الله تعالى ومن ينخدع بتغريير الشيطان.

ومما يُستأنس به في قول: (صدق الله العظيم) في نهاية تلاوة القرآن هذه الجملة من الآية، ونظيرتها في هذه السورة ﴿وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ حَدِيثًا﴾ [٨٧] وفي سورة آل عمران ﴿قُلْ صَدَقَ اللَّهُ﴾ [٩٥] وكان النبي ﷺ يقول في خطبته: «إن أصدق الحديث كتاب الله، وخير الهدي هدي محمد ﷺ وشر الأمور محدثاتها، وكل محدثة بدعة وكل بدعة ضلالة»^(١) وفي رواية ضعيفة: «وكل ضلالة في النار».

وأخرج البخاري وغيره عن عبد الله بن مسعود ؓ قال: «إن أحسن الحديث كتاب الله، وأحسن الهدي هدي محمد ﷺ وشر الأمور محدثاتها، وإن ما توعدون لآت وما أنتم بمعجزين»^(٢).

ونقول: إن هذه الجملة ليست من القرآن قطعاً، وكل مسلم يعلم ذلك، والله تعالى

(١) من حديث جابر في مسلم (٨٦٧) والنسائي وابن ماجه (٤٥) وأحمد (١٤٤٣١) كما في الجامع الصغير (١٦٠٤) وإسناده صحيح على شرط مسلم، وجملة «وكل ضلالة في النار» من زيادات البيهقي في الأسماء والصفات ص (١٨٩) بإسناد ضعيف.

(٢) «صحيح البخاري» برقم (٧٢٧٧) وانظر (٦٠٩٨) و«المسند» (٣/ ٣١٠) برقم (١٤٤٣١) عن جابر.

صادقٌ في كل حال وفي كل وقت، وهذه الجملة لم تكن معروفة لدى السلف، وعلى هذا فلو كان القرآن متبوعاً بموسيقى أو أغاني -كما في الإذاعات ونحوها- فلا حرج من التصديق، للفصل بين القرآن وغيره، على أن يؤتى بها تارة وتترك تارة، حتى لا يُعتقد لزومها، ولا وجوب الإتيان بها.

قَاعِدَةُ الْجَزَاءِ الْعَامَّةِ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ

١٢٣- ﴿لَيْسَ بِأَمَانِيكُمْ وَلَا أَمَانِي﴾^(١) أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَى بِهِ وَلَا يَحِذُّ لَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِلَهًا وَلَا نَصِيرًا ﴿١٣٣﴾

يراد بالأمانى: أحاديث النفس المجردة عن العمل، المقترن بها دعوى كاذبة كدعوى أهل الكتاب أنه لن يدخل الجنة إلا من كان هودا أو نصارى، فهي دعوى لا يصحبها عمل يمتنون بها أنفسهم، ومن ذلك من يمتنى نفسه بدخول الجنة وهو لا يصلي مثلاً.

وبعد بيان جزاء الكفار والمؤمنين يوم القيامة تذكر الآيات القاعدة العامة في الجزاء الدنيوي والآخرى وتبين الأصل الثابت والسنة التي لا تتخلف في قاعدة الثواب والعقاب، وذلك في مواجهة دعوى اليهود والنصارى أنهم أبناء الله وأحباؤه، وأن النار لن تمس اليهود إلا أياماً معدودة قدر عبادتهم للعجل، وأنهم شعب الله المختار، وقول الوثنيين: إن الأصنام تشفع لهم، وقولهم: لن نُبعث ولن نُعذب، وما هي إلا حياتنا الدنيا نموت ونحيا.

قال قتادة: ذكر لنا أن المسلمين وأهل الكتاب افتخروا، فقال أهل الكتاب: نبينا قبل نبيكم، وكتابنا قبل كتابكم، فنحن أولى بالله منكم، وقال المسلمون: نحن أولى بالله منكم، نبينا خاتم النبيين، وكتابنا يقضي على الكتب التي كانت قبله، فأنزل الله ﴿لَيْسَ بِأَمَانِيكُمْ وَلَا أَمَانِي أَهْلِ الْكِتَابِ﴾ الآيتان^(٢).

وقال ابن عباس والضحاك: تخاصم أهل الديانات، فقال أهل التوراة: كتابنا خير الكتب، ونبينا خير الأنبياء، وقال أهل الإنجيل مثل ذلك، وقال أهل الإسلام: لا دين إلا

(١) قرأ أبو جعفر بياء ساكنة خفيفة مدية في كلمتي (بأمانيكُم ولا أمانِي)، والباقون بياء مشددة فيهما.

(٢) «تفسير الطبري» (٢٢٩/٩) وهو أثر مرسل.

الإسلام، وكتابنا نسخ كل كتاب، ونبينا خاتم النبيين. ففضى الله بينهم^(١).

فبين الفصل الذي يشملهم ويشمل غيرهم، وهو أن فضل الله تعالى ونعيمه في الآخرة لا ينال بالأمانى التي يتمناها أهل الكتاب والمسلمون، وإنما ينال بالإيمان الصادق وإحسان العمل الذي يرضي رب العالمين، فليس الإيمان بالتمني ولا بالتحلي، ولكن ما وقر في القلب وصدقه العمل، وإن قومًا غرتهم الأمانى حتى خرجوا من الدنيا ولا حسنة لهم وقالوا: نحن نحسن الظن بالله وكذبوا، لو أحسنوا الظن لأحسنوا العمل^(٢).

قوله تعالى: ﴿لَيْسَ بِأَمَانِيكُمْ وَلَا أَمَانِي أَهْلِ الْكِتَابِ﴾ أي: ليس كل من ادعى شيئًا يحصل له بمجرد دعواه، ومع أن الكلام يتعلق بأهل الكتاب، إلا أن الله تعالى أدخل فيهم من يتنسب إلى الإسلام، لكمال العدل والإنصاف، فإن الانتساب إلى أي دين كان، لا يفيد شيئًا إلا إذا اقترن ذلك بالعمل الذي يُصدق هذه الدعوى.

وهكذا، فكل من يرتكب معصية يُجزَّ بها إن عاجلاً أو آجلاً، وليس ما تتمنونه وتدعونه يحصل لكم إلا بالإيمان الصادق والعمل الصالح.

ثم فصلت الآيات فبيّنت أن ﴿مَنْ يَعْمَلْ سُوءًا﴾ يشرك بالله تعالى، أو يعمل ما هو أدنى من ذلك من جميع أنواع السيئات صغيرها وكبيرها ﴿يُجْزَ بِهِ﴾ أي: أنه يجازى به يوم القيامة إذا مات عليه، وهذا بالنسبة للكافر، وهو شامل لكل جزاء، قل أو كثر، في الدنيا والآخرة، فإنه إن مات على الشرك فذنبه لا يُغفر، وإن مات على غيره فيرجع إلى مشيئة الله تعالى، وإن تاب المؤمن قبل الموت تاب الله عليه، ومن كان عمله صالحًا وهو مستقيم في غالب أحواله، ويصدر منه بعض الذنوب الصغار، فما يصيبه من الهم والغم والأذى، مكفرات لذنوبه، وهذا الجزاء على عمل السوء يختص بغير التائبين، لأن التائب من الذنب كمن لا ذنب له.

وقد وعد الله المؤمنين بتكفير سيئاتهم وتبديلها حسنات عند التوبة فقال تعالى:

﴿إِلَّا مَنْ تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَالِحًا فَأُولَٰئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ﴾ [الفرقان: ٧٠]

(١) رواه السدي ومسروق والضحاك وغيرهم كما في «تفسير ابن كثير» (٤١٧/٢) والطبري (٥١١/٧).

(٢) من كلام الحسن البصري رحمه الله تعالى، ابن أبي شيبة (٢٢/١١، ٥٠٤/١٣).

﴿وَلَا يَجِدْ﴾ الكافر ﴿لَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ تعالى مَنْ يتولى أمره وشأنه، ولا من يدفع عنه سوء العذاب أو ينصره غير الله تعالى، فهو لا يجد ﴿وَلَيْتَ﴾ يحصل له المطلوب.
﴿وَلَا نَصِيرًا﴾ يدفع عنه المرهوب.

أما المؤمن فإن الله تعالى وليه وناصره بدليل الآية بعدها ﴿وَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أَنْتَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ﴾.

وقوله تعالى: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ مَوْلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَأَنَّ الْكَافِرِينَ لَا مَوْلَى لَهُمْ﴾ [محمد].

قال ابن عباس رضي الله عنه من رواية أبي صالح: لما نزلت هذه الآية ﴿مَنْ يَعْمَلْ سُوءًا﴾ شَقَّتْ على المسلمين مشقة شديدة وقالوا: يا رسول الله وأينا لم يعمل سوءا غيرك؟ فكيف الجزاء؟ قال: «منه ما يكون في الدنيا، فمن يعمل حسنة فله عشر حسنات، ومن جوزي بالسيئة نقصت واحدة من عشر حسناته، وبقيت له تسع حسنات، فويل لمن غلبت آحاده أعشاره. وأما من كان جزاؤه في الآخرة: فيقابل بين حسناته وسيئاته، فيلقى مكان كل سيئة حسنة، ويُنظر في الفضل، فيُعطي الجزاء في الجنة، فيؤتى كل ذي فضل فضله».

ويدل على صحة هذا ما جاء عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: لما نزلت ﴿مَنْ يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَ بِهِ﴾ بلغت من المسلمين مبلغا شديداً، فقال عليه الصلاة والسلام: «قاربوا وسددوا، ففي كل ما يصاب به المسلم كفارة حتى النكبة ينكبها، والشوكة يشاكها»^(١).

ورد أن أبا بكر رضي الله عنه لما نزلت هذه الآية قال: جاءت قاصمة الظهر، فقال النبي ﷺ «إنما هي المصائب في الدنيا» أي: أن المؤمنين يلقون جزاء أعمالهم السيئة في الدنيا، وأما الآخرون فيجتمع عليهم في الآخرة^(٢).

لقد أرجفت هذه الآية نفوس المؤمنين وهزّت كيانهم، وأرعشت جوارحهم.

(١) أخرجه مسلم كتاب البر (١٦/٨) برقم (٢٥٧٤) وأحمد (٢/٢٤٨) برقم (٧٣٨٦) بإسناد صحيح على شرط مسلم، وأخرجه الحميدي (١١٤٨) وابن أبي شيبة (٣/٢٢٩) والترمذي (٣٠٣٨).

(٢) رُوِيَ هذا عن أبي بكر من غير وجه، وفي سنده مقال، ينظر: «تفسير ابن كثير» للآية، وعبد بن حميد (٧) وابن جرير (٥٢٥/٧).

روى ابن جرير من حديث هشيم عن عائشة رضي الله عنها قالت: قلت يا رسول الله، إني لأعلم أشد آية في القرآن، فقال: ما هي يا عائشة؟ قلت: ﴿مَنْ يَعْمَلْ سُوًّا يُحْزَرْ بِهِ﴾ فقال: «ما يصيب العبد المؤمن حتى النكبة يُنْكَبُهَا»^(١).

فهذه أدلة على أن المؤمن يُجزى بسيئاته في الدنيا حتى يلقي ربه وما عليه خطيئة، ومن الأدلة على ذلك:

١- وعن أبي سعيد وأبي هريرة رضي الله عنهما أنهما سمعا رسول الله ﷺ يقول: «ما يُصِيبُ الْمُؤْمِنَ مِنْ نَصَبٍ وَلَا وَصَبٍ وَلَا سَقَمٍ وَلَا حَزَنٍ حَتَّى الْهَمُّ يَهْمُهُ، إِلَّا كَفَرَ اللَّهُ بِهِ مِنْ سَيِّئَاتِهِ»^(٢).

٢- ما جاء في الحديث أن أبا بكر رضي الله عنه قال: يا رسول الله، كيف الصلاح بعد هذه الآية، فكل سوء عملناه جُزينا به، فقال ﷺ: «غفر الله لك يا أبا بكر، أَلَسْتَ تَمْرُضُ؟ أَلَسْتَ تُنْصَبُ؟ أَلَسْتَ تَحْزَنُ؟ أَلَسْتَ تَصِيبُكَ الْأَوَاءُ؟» قال: بلى، قال: «فَهُوَ مَا تُجْزَوْنَ بِهِ»^(٣).

٣- وفي حديث عائشة رضي الله عنها أن النبي ﷺ قال لها عن الآية ﴿مَنْ يَعْمَلْ سُوًّا يُحْزَرْ بِهِ﴾: «يا عائشة، هذه مبايعة الله للعبد»، وفي لفظ «معاقبة الله العبد مما يصيبه من الحمى والنكبة والشوكة»^(٤).

٤- وعن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه أن رجلاً قال للنبي ﷺ: أرايت هذه الأمراض التي تصيبنا،

(١) «تفسير الطبري» (٢٤٦/٩) ورجاله رجال الصحيح، وينظر: «سنن أبي داود» (٣٠٩٣)، بنحوه.

(٢) البخاري، كتاب المرض (١٤٨/٧) ومسلم، كتاب البر (١٦/٨) برقم (٢٥٧٣) و«المسند» (٨٠٢٧، ١١٠٠٧) وابن أبي شيبه (٢٣٠/٣).

(٣) «المسند» (١١/١) برقم (٦٨) و«سنن سعيد بن منصور» برقم (٦٩٦) وأبو يعلى (٩٩، ٨٨) و«صحيح ابن حبان» برقم (١٧٣٤، ٢٩١٠) في «الموارد» و«المستدرک» (٧٤/٤) والبيهقي في «الشعب» (٩٨٠٥) وهو حديث صحيح بطرقه وشواهده، كما قال محققو «المسند»، وأخرجه الترمذي (٢٩٩١) وقال: هذا حديث حسن غريب من حديث عائشة لا نعرفه إلا من حديث حماد بن سلمة، وله طريق آخر صحيح عند ابن حبان (٢٩٢٣) وفي الباب عن أبي هريرة في صحيح مسلم (٢٥٧٤).

(٤) من حديث عائشة رضي الله عنها في «مسند الطيالسي» برقم (١٥٨٤) والترمذي (٢٩٩١) وقال: هذا حديث حسن غريب، والبيهقي في الشعب (٨٩٠٩) و«مسند أحمد» (٢١٨/٦) من طريق حماد بن سلمة برقم (٢٥٨٣٥)، وإسناده ضعيف، لضعف ابن جدعان، وجهالة أمية. (محققوه).

ما لنا بها؟ قال: «كفارات» قال أبي: وإن قلت؟ قال: «وإن شوكة فما فوقها» الحديث^(١).

٥- وعن عائشة رضي الله عنها أن النبي ﷺ قال: «ما من مصيبة تصيب المسلم إلا كفر الله بها عنه، حتى الشوكة يشاكها»^(٢).

٦- وعن عائشة رضي الله عنها قالت: قال رسول الله ﷺ: «لا يصيب المؤمن شوكة فما فوقها إلا رفعه الله بها درجة وحطَّ عنه بها خطيئة»^(٣).

٧- وعن عائشة رضي الله عنها أن النبي ﷺ طرده وجع، فجعل يشتكي ويتقلب في فراشه، فقالت عائشة: لو صنع هذا بعضنا لوجدت عليه فقال النبي ﷺ: «إن الصالحين يُشدَّد عليهم، وإنه لا يصيب مؤمناً نكبة من شوكة فما فوق ذلك إلا حطَّت به عنه خطيئة، وُرفِع له بها درجة»^(٤).

فالمؤمن إذا أصابته الأسقام ثم عافاه الله علم أن ذلك كفارة لما مضى من ذنوبه وموعظة له فيما يستقبل من عمره، وغير المؤمن إذا مرض وعوفي كان كالبعير، عقله أهله ثم أطلقوه، لا يدري فيما عقلوه ولا فيما أطلقوه.

وهذه الآية جاء فيها الجزاء على السيئات مطلقاً، ليس فيه ذكر للدنيا ولا للآخرة، فدل هذا على أنها شاملة للدارين، أما الآية التي بعدها فقد نصَّت على النتائج المترتبة على العمل الصالح في الآخرة.

هذا: وما سبق بيانه على أساس أن لفظ (سوء) في الآية عام يشمل جميع المعاصي، وقيل: المراد بالسوء في الآية الكفر فقط.

وأقول: هذا هو المناسب لأسباب النزول، وما ورد من آثار فيها تحاور بين أهل

(١) من حديث رواه أحمد في «المسند» (٢٣/٣) برقم (١١١٨٣) بإسناد حسن كما قال محققوه، وأبو يعلى في مسنده (٢٨١/٢) برقم (٩٩٥) والنسائي في الكبرى (٧٤٨٩) والحاكم (٣٠٨/٤). وقال الهيثمي في «مجمع الزوائد» (٣٠١/٢): رجاله ثقات وله شواهد صحيحة.

(٢) «المسند» (٢٤٥٧٣) قال محققوه: إسناده صحيح على شرط البخاري ورجاله ثقات، والبخاري (٥٦٤٠) ومسلم (٢٥٧٢).

(٣) مسلم (٢٥٧٢) وابن أبي شيبة (٢٢٩/٣) و«المسند» (٢٤١١٤، ٢٦٣٧٧).

(٤) «المسند» (٢٥٢٦٤) إسناده صحيح ورجاله ثقات، كما قال محققوه، وأخرجه الحاكم (٣١٩/٣) وابن حبان (٢٩١٩) وابن سعد (٢٠٦/٢) والطحاوي في شرح مشكل الآثار (٢٢١١، ٢٢١٢).

الكتاب وغيرهم، وهو أيضًا الأليق بختام الآية، حيث يقول تعالى: ﴿وَلَا يَحِذُّ لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا﴾ وهذا المعنى ينصبُّ على من مات على الكفر والشرك، وينصبُّ على من أدرك شرع خاتم النبيين ولم يدخل فيه، وهذا شاملٌ لكل شريعة يُخالف شريعة الإسلام، منذ بعثة النبي ﷺ إلى قيام الساعة. قال تعالى:

١٢٤- ﴿وَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أَنْتَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَئِكَ يَدْخُلُونَ^(١) الْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ نَقِيرًا^(٢)﴾

ولما نزلت ﴿مَنْ يَعْمَلْ سَوَاءً يُجْزَ بِهِ﴾ قال أهل الكتاب: نحن وأنتم سواء، فنزلت^(٢) الآية التي تليها تُبين أن كل من يعمل الصالحات القولية والبدنية -من الذكور والإناث، والإنس والجن، وهو مؤمن بالله وبخاتم الرسل، وباليوم الآخر- فأجره عند الله عظيم.

قال المفسرون: بيّن الله تعالى بهذه الآية فضيلة المؤمنين على غيرهم، ولأنه ليس في استطاعة أحد أن يعمل جميع الصالحات، فقد أشارت الآية بلفظ ﴿مَنْ﴾ التي هي للتبعية، أي أن من يعمل بعض الصالحات يستحق الثواب عليها سواء أكان ذكرًا أم أنثى ﴿وَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أَنْتَى﴾.

وقوله تعالى ﴿وَهُوَ مُؤْمِنٌ﴾ نصٌّ صريحٌ في اشتراط الإيمان لقبول العمل، فالأعمال لا تكون صالحة ولا تقبل، ولا يترتب عليها ثواب ولا يندفع بها عقاب إلا بالإيمان، والأعمال بدون إيمان كأغصان شجرة قُطع أصلها، فالإيمان هو القاعدة والأساس التي يبنى عليها كل شيء.

قال تعالى ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ نَقَبَلُ عَنْهُمْ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا وَنَتَجَاوَزُ عَنْ سَيِّئَاتِهِمْ فِي أَصْحَابِ الْجَنَّةِ وَعَدَ الْبِصْدَقِ الَّذِي كَانُوا يُوعَدُونَ^(٣)﴾ [الأحقاف].

فالآية خاصةٌ بالمؤمنين ولا تشمل غيرهم، وقد أوضحت أن من يعمل الأعمال الصالحة من ذكرٍ أو أنثى، وهو مؤمنٌ بالله تعالى، وبما أنزله من الحق، فهؤلاء الذين

(١) قرأ ابن كثير وأبو عمرو وشعبة وأبو جعفر وروح (يَدْخُلُونَ) بضم الياء وفتح الخاء على البناء للمجهول، وقرأ الباقيون بفتح الياء وضم الخاء على البناء للمعلوم.

(٢) قاله مسروق، «تفسير البغوي» للآية.

جمعوا بين الإيمان والعمل الصالح يدخلون جنة النعيم ولا يُنْقَضُونَ من ثواب أعمالهم شيئاً، ولا مقدار النقرة التي تكون في ظهر النواة التي تنبت منها النخلة، بل يجدونه كاملاً مضاعفاً أضعافاً كثيرة.

الإِيمَانُ الْكَامِلُ

١٢٥- ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ وَاتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ^(١) حَنِيفًا وَاتَّخَذَ اللَّهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلًا﴾ (١٢٥)

ولما بيّن ﷺ أن الجنة لمن يعمل الصالحات وهو مؤمن شرح في هذه الآية معنى الإيمان، وبيّن فضله فقال: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ﴾ فأخلص العمل لربه إيماناً واحتساباً، واتبع شرع الله وسنة رسوله ﴿وَهُوَ مُحْسِنٌ﴾ أي: لا أحد أحسن إسلاماً ولا أخلص إيماناً ممن هو كامل العبودية والانقياد والخضوع لله ﷻ، وأسلم وجهه لله، فلا يعرف له ربّاً ولا معبوداً سواه، وهو مع هذا الإخلاص والاستسلام متبع لشريعة الله التي أنزلها على خاتم النبيين ﷺ.

وقد تضمنت هذه الآية ثلاث صفات هي: الإيمان والإحسان والإسلام، وهي أسس ملة إبراهيم، ودين الإسلام أحسن الشرائع؛ لأنه خاتمها ومشمّلٌ عليها وأفضلها.

وخصّ الوجه بالذكر؛ لأنه أشرف الأعضاء وأعلاها، فإذا خضع الوجه خضعت سائر الجوارح. والآية تشترط لقبول العمل أن يكون خالصاً صواباً، أي: خالصاً من الشرك والرياء، وصواباً، أي: موافقاً لهدي النبي ﷺ، وبدون هذين الشرطين يفسد العمل.

قال سبحانه: ﴿فَمَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا﴾ [الكهف: ١١٠]

ولذا قال تعالى: ﴿وَاتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا﴾ أي: اتبع دين إبراهيم مائلاً عن الشرك والعقائد الفاسدة والباطلة.

وجاء في هذا آيات كثيرة منها قوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ أَنْ اتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا﴾ [النحل: ١٢٣].

(١) قرأ ابن عامر بخلف عنه وابن ذكوان (إبراهيم) بألف بعد الهاء في الموضعين، والباقون (إبراهيم) بياء بعد الهاء، وهو الوجه الثاني لابن ذكوان، وهما لغتان.

وقوله: ﴿قُلْ إِنِّي هَدَيْتُ رَبِّيَ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ دِينًا فِيمَا مَلَئَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا﴾ [الأنعام: ١٦١].

وقوله: ﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِلَّهِ حَنِيفًا﴾ [النحل: ١٢٠].

وقال تعالى مخاطباً رسوله: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا﴾ [الروم: ٣٠].

وذلك لأن شرع إبراهيم وملته داخله في شرع محمد وملته، مع ما خصَّ الله به محمداً ﷺ من الخصائص، والمراد بملة إبراهيم شريعته التي أوحاها الله إليه، والتي كان يدين الله بها، ومنهاجه الذي يوافق منهاج محمد ﷺ المتضمن للتوحيد الخالص.

وخصَّ إبراهيم بالذكر؛ لأنه مقبولٌ عند جميع الأمم، والكلُّ يفتخر به ويتسبب إليه، وإذا كان شرع إبراهيم هو شرع محمد لزم الجميع الدخول في دين محمد ﷺ وقبول شرعه.

ثم رغب ﷺ في اتباع إبراهيم ﷺ والافتداء به؛ لأنه وصل إلى أعلى مرتبة يتقرب بها العبد إلى ربه، حيث بلغ رتبة الخلَّة لكثرة طاعته لربه ووفائه بما أمر به وكرمه وإطعامه الطعام وحسن خلقه؛ فبلغ أعلى مقامات المحبة والاصطفاء ﴿وَاتَّخَذَ اللَّهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلًا﴾ وفي الآية إثبات صفة الخلَّة لله تعالى.

ولما أرسل النبي ﷺ معاذاً إلى اليمن وصلى بهم الصبح انتهى في تلاوته بهذه الآية، فقال رجل من القوم: لقد قرئت عينُ أم إبراهيم^(١)

والخلَّة هي: الاصطفاء والاختصاص والاختيار والمحبة:

١- وعن إسحاق بن يسار قال: لما اتخذ الله إبراهيم خليلاً ألقى في قلبه الوجَل، حتى إن كان خفقان قلبه ليُسمع من بعيد كما يُسمع خفقان الطير في الهواء، وهكذا جاء في صفة رسول الله ﷺ: أنه كان يُسمع لصدره أزيز كأزيز المرجل من البكاء^(٢).

٢- وعن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «ألا إني أبرأ إلى كل خلٍّ من خلِّه، ولو كنت متخذاً خليلاً لاتخذت أبا بكر خليلاً؛ إن صاحبكم خليل الله»^(٣).

(١) البخاري، كتاب المغازي (٢٠٦/٥) (٤٣٤٨) وأوله (إن معاذاً لما قدم اليمن) وابن أبي شيبة (١/٣٥٤).

(٢) عن «تفسير ابن كثير» (٢/٤٢٤).

(٣) «صحيح مسلم» (٤/١٨٥٦) برقم (٢٣٨٣).

وسُمِّي إبراهيم خليلًا؛ لكثرة محبة الله تعالى له، لما قام به من الطاعة وامتنال الأوامر واجتناب النواهي، والخلة أعلى مراتب المحبة، وقد حصلت الخلة للخليلين إبراهيم ومحمد عليهما السلام، أما المحبة فهي لعموم المؤمنين.

٣- وكما اتخذ الله إبراهيم خليلًا فقد اتخذ محمدًا خليلًا؛ عن جندب بن عبد الله رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «إني أبرأ إلى الله أن يكون لي منكم خليل، فإن الله قد اتخذني خليلًا كما اتخذ إبراهيم خليلًا» الحديث^(١).

٤- وصحَّ عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «ولو كنت متخذًا خليلًا غير ربي لاتخذت أبا بكر خليلًا ولكن أخوة الإسلام»^(٢).

٥- وعن عكرمة عن ابن عباس رضي الله عنه أن النبي ﷺ خرج على قومه وهم يذكرون أن الله تعالى اتخذ إبراهيم خليلًا، وكَلَّمَ موسى تكليمًا، وعيسى روح الله وكلمته، واصطفى آدم ونوحًا، فقال عليه الصلاة والسلام: «... هو كذلك، ألا وإني حبيب الله ولا فخر، وأنا حامل لواء الحمد يوم القيامة ولا فخر، وأنا أول شافع وأول مُشَفَّع ولا فخر، وأنا أول من يُحرَّك حِلَقُ الجنة، فيفتح الله فيدخلنيها ومعني فقراء المؤمنين ولا فخر، وأنا أكرم الأولين والآخرين يوم القيامة ولا فخر»^(٣). قال تعالى:

١٢٦- ﴿وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ مُّحِيطًا﴾

ثم يأتي التعقيب على قضية العمل والجزاء والشرك والإيمان برد كل شيء في هذا الكون إلى بارئه وخالقه؛ لتوحيده تعالى والتوجه بالعبادة إليه وحده، وهو محيط بكل ما في العالم العلوي والسفلي ولله سبحانه جميع ما في هذا الكون من مخلوقات، فهي ملك لله وحده، وجميع ما في الكون ومن فيه مفتقرٌ إلى الله تعالى، فهم الذين يحتاجون لاتخاذ الخليل، والله سبحانه غنيٌّ عن الجميع مُنَزَّه عن الاحتياج إلى الخلة وغيرها، وهو

(١) «صحيح مسلم» برقم (٥٣٢) عن جندب بن عبد الله.

(٢) «صحيح مسلم»، كتاب فضائل الصحابة (١٠٨/٧) برقم (٢٣٨٢) و«صحيح البخاري» برقم (٣٦٥٤) وهذا لفظه.

(٣) ينظر: «سنن الترمذي» برقم (٣٦١٦) وقال: هذا حديث غريب، قال ابن كثير: ولبعضه شواهد في الصحاح وغيرها.

سبحانه مُهيمن ومُحيط بكل ما في هذا الكون، لا يندُّ عنه شيء منه، فالكل في قبضته، لا راد لما قضى، ولا معقَّب لما حكم، ولا يُسأل عما يفعل، ولا يخفى عنه شيء من أمور خلقه، وفي ظل هذا التصور يصلح الضمير، وتخلص العبادة، ويصلح السلوك، وتصفو الحياة.

أَرْبَعُ فَتَاوَى عَنْ مِيرَاثِ النِّسَاءِ وَشُؤُونِ الْيَتَامَى

١٢٧- ﴿وَيَسْتَفْتُونَكَ فِي النِّسَاءِ قُلِ اللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِيهِنَّ^(١) وَمَا يُتْلَى عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ فِي يَتْلَى النِّسَاءِ الَّتِي لَا تُوْتُونَهُنَّ مَا كُتِبَ لَهُنَّ وَرَغِبُونَ أَنْ تَنْكِحُوهُنَّ وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الْوِلْدَانِ وَأَنْ تَقُومُوا لِلْيَتَامَى بِالْقِسْطِ وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِهِ عَلِيمًا ۝١٢٧﴾

الاستفتاء: طلب السائل من المسؤول بيان الحكم الشرعي في مسألة مَّا، وقد أخبر الله تعالى عن المؤمنين أنهم يستفتون النبي ﷺ في أمرٍ يتعلق بالنساء، فتولى الله تعالى بنفسه الجواب عن هذه المسألة، وأمر الرجال أن يقوموا بحقوق النساء ولا يظلموهن، وهذا جواب عام يشمل الزوجات وغيرهن، صغارًا وكبارًا.

وبعد هذا التعميم خص بالسؤال اليتامى من النساء اللاتي تحت ولاية الرجال أن يعطوهن مهر المثل إذا أرادوا الزواج بهن، و ألا يظلموهن.

كما خص صغار الذكور من اليتامى الذين تحت وصاية الرجال، أن يعطوهم حقهم من الميراث، وألا يستولوا على أموالهم، وأن يقوموا على مصالحهم ويحسنوا تدبير شؤونهم، ومن ذلك تنمية أموالهم، وعدم هضم حقوقهم، وهذا إخبار عن حالة واقعية كانت موجودة في عصر التنزيل، والحكم عام في نظائرها إلى قيام الساعة، والنظائر تملأ الآفاق.

والإشارة بقوله تعالى ﴿وَمَا يُتْلَى عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ﴾ المراد بالكتاب هو القرآن، ﴿وَمَا يُتْلَى﴾ أي ما سبق تلاوته عليكم في أول السورة من الأمر بالقسط فيما هم تحت أيديكم من يتامى النساء في قوله تعالى ﴿وَأِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُوا فِي الْيَتَامَى﴾ ومن الولدان في قوله تعالى ﴿وَلَا تَأْكُلُوهُمَا إِسْرَافًا وَبِدَارًا أَنْ يَكْبُرُوا﴾ [النساء: ٦]

(١) ضم يعقوب الهاء من (فيهن)، وكسرها غيره.

(٢) أخفى أبو جعفر النون في الخاء من (من خير)، وأظهرها الباقون.

فهذه الآية تقرر ما سبق بيانه في أول السورة، وتبين أن هذين الحكمين يكثر السؤال عنهما.

مناسبة الآية لما قبلها:

ذكر الله تعالى في أول السورة أنواعاً من التشريع والأحكام، وأتبعها بشرح أحوال الكافرين والمنافقين، وتخلل ذلك آيات كثيرة فيها الوعد والوعيد، والترغيب والترهيب، وآيات أخرى دالة على عظمة الله تعالى وكمال كبريائه، ثم عادت الآيات إلى التشريع والأحكام، وهذا شأن القرآن في تربية النفوس، وهداية البشر، إذ الكلام لا يقع موقع القبول إلا إذا كان مقروناً بالترغيب والترهيب^(١).

قال القرطبي: نزلت هذه الآية بسبب سؤال قوم من الصحابة عن أمر النساء، وأحكامهن في الميراث وغيره. وهذه الآية رجوع إلى ما افتتحت به السورة من أمر النساء كما قال سعيد بن جبير^(٢).

فالسؤال في الآية ليس عن ذوات النساء، وإنما هو عن أحكام تتعلق بهن:

قال سعيد بن جبير: كان لا يرث إلا الرجل الذي قد بلغ أن يقوم بالمال ويعمل فيه، ولا يرث الصغير ولا المرأة شيئاً، فلما نزلت آية الموارث شق ذلك على الناس وقالوا: أيرث الصغير الذي يقوم في المال وكذا المرأة كما يرث الرجل الذي يعمل في المال؟ فانتظروا أن يأتي خبرٌ من عند الله تعالى، ثم سألوا رسول الله ﷺ عنه، فنزلت الآية^(٣).

وكان الصحابة رضي الله عنهم قد سألوا النبي ﷺ عن أحوال كثيرة تتعلق بالنساء، فما كان منها لم يسبق بيانه في الآيات المتقدمة فالإجابة عنه في هذه الآية، وما سبق بيانه منها فستحيلهم الآية عليه، وعلى هذا فإجابة الفتوى المطلوبة موجودة في كتاب الله، سواء في هذه الآية أو التي قبلها في أول السورة.

قال عمر رضي الله عنه: والله إن كنا في الجاهلية ما نعدُّ للنساء أمراً، حتى أنزل فيهن ما أنزل، وقُسم لهن ما قُسم، قال عمر: فبينما أنا في أمرٍ إذ قالت لي امرأتي: لو فعلت كذا وكذا؟

(١) ينظر: «تفسير الفخر الرازي» (٢١/١١).

(٢) «تفسير القرطبي» (٤٠٢/٥) وابن أبي شيبه (٣٥٨/٤).

(٣) ينظر: «تفسير الطبري» (٣٩٩/٥).

فقلت لها: وما لك أنت في أمر أريده؟ فقالت لي: عجباً لك يا بن الخطاب! إن ابتك لتراجع رسول الله ﷺ حتى يظل يومه غضبان!

فدخل عمر على حفصة وسألها: إنك لتراجعين رسول الله ﷺ؟ قالت: إنا والله لنراجعه.

وأقول: أين لجان حقوق الإنسان في العالم؟ وأين القائلين والقائلات: إن المرأة مهضومة الحقوق؟ المشكلة: أنهم لم يدرسوا تاريخ المرأة قبل الإسلام، ليعرفوا كيف رفع الإسلام مكانتها، فجعلها ترث بعد أن كانت تُورث مع أنها في كفالة الرجل في جميع أطوار حياتها، ورفع مكانتها ومشاركتها له في الرأي والمشورة، وهي معه على قدم وساق في العبادة والثواب والعقاب.

وهذه الآية تشتمل على أربع فتاوى، وهي:

١- ميراث المرأة. ٢- مهر اليتيمة.

٣- ميراث الصغير. ٤- العدل بشأن اليتيمة.

وهكذا تمضي السورة في معالجة رواسب الجاهلية، ورفع مستوى الأسرة الاجتماعي، لا سيما ما يختص بالمرأة والأطفال والأيتام والضعاف، فيأتي هذا الاستفتاء للنبي ﷺ عن ميراث النساء؛ لأنهم كانوا لا يورثون النساء ولا الصغار من الأولاد ويقولون: كيف نعطي المال من لا يركب فرساً ولا يحمل سلاحاً ولا يقاتل عدواً.

وكانت اليتيمة تكون في حجر وليها فيرغب في نكاحها إن كانت تحل له وهي ذات جمال ومال، فإن كانت دميمة وذات مال فإنه يعضلها، فينتفع بأموالها ويحبسها حتى تموت، وكان الرجل يُلقي ثوبه على اليتيمة، وهذا يعني أنه ورثها وأدخلها في حوزته، فإذا فعل ذلك لم يستطع أحد أن يتزوجها أبداً، فلما نزلت آية الميراث قالوا: يا رسول الله، كيف ترث المرأة والصغار؟ فأجابهم الله تعالى بهذه الآية، قال تعالى:

١- ﴿وَسَتُورُنَّ﴾ أيها الرسول في شأن ميراث النساء وغيره، لتبين لهم ما أشكل عليهم فهمه من قضايا النساء وأحكامهن ﴿قُلِ اللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِيهِنَّ﴾ ويبين لكم أمورهن، بما تلي عليكم من آيات الميراث في أول السورة وآخرها

٢- ويفتيكم أيضاً في يتامى النساء اللاتي لا تعطونهن ما فرض الله لهن من المهر

والميراث وغير ذلك من الحقوق وتحبسون نكاحهن.

وقد أجاب الله تعالى عن ذلك فيما تلي علينا أول السورة في قوله تعالى: ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُوا فِي الْيَنْبَىٰ فَانكِحُوا مَا طَابَ لَكُمْ مِنَ النِّسَاءِ﴾ وعدم القسط يكون بقليل من المهر إن كانت ذات مال وجمال، وإلا منعها من الزواج ليرثها بعد الموت، فحرّم الله ذلك ونهى عنه.

٣- ويفتيكم كذلك في شأن الضعفاء من الصغار الذين يُحرّمون من الميراث، ويأمركم بإعطائهم حقهم في الميراث، وهؤلاء هم المستضعفون من ولدان.

٤- ويوجب عليكم إعطاء اليتامى حقوقهم في الميراث والمهر وغير ذلك، وعدم الجور على حقهم، كما قال تعالى ﴿وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ [الإسراء: ٣٤].

وقال سبحانه ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْيَتَامَىٰ قُلْ إِصْلَاحٌ لَّهُمْ خَيْرٌ﴾ [البقرة: ٢٢٠].

٥- ويرغبكم الله في الإحسان إلى الجميع، فهو مسجلٌ عند الله تعالى، لا يضيع شيء منه، ولا يخفى عليه منه ولا من غيره خافية.

وقد اشتملت الآية أيضًا على وصايا خمس وهي:

١- عدم حرمان النساء من الميراث كما كانت عادة الجاهلية.

٢- إعطاء اليتيمة مهر المثل وعدم منعها من الزواج.

٣- عدم حرمان الصغار من الميراث كما كان عادة الجاهلية.

٤- الحكم بالعدل والإنصاف، بالنسبة لليتامى وعدم الجور عليهم ﴿وَأَنْتَ تَقُومُوا لِلْيَتَامَىٰ بِالْقِسْطِ﴾.

٥- الترغيب في الإحسان إلى الجميع وتقديم الخير لهم ﴿وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِهِ عَلِيمًا﴾.

عن عائشة ؓ قالت في الآية: هو الرجل يكون عنده اليتيمة، هو وليها ووارثها قد أشركته في ماله حتى في العَدَق، فيرغب أن ينكحها، ويكره أن يزوجه رجلًا، فيشركه في ماله بما شركته، فيعضلها، فنزلت الآية^(١).

(١) «صحيح البخاري»، تفسير سورة النساء (٦١/٦) برقم (٤٥٧٤، ٤٦٠٠، ٥١٣١) و«صحيح مسلم» برقم

(٣٠١٨) وابن أبي شيبة (٣٥٧/٤) والنسائي في «السنن الكبرى» (١١١٢٤) والبيهقي في «السنن» (١٤٢/٧).

في صحيح مسلم عن عروة بن الزبير أنه سأل عائشة عن قول الله تعالى: ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُوا فِي الْيَنَى﴾ [النساء: ٣] قالت: يابن أختي، هي اليتيمة، تكون في حجر وليها، تشاركه في ماله، فيعجبه مالها وجمالها، فيريد وليها أن يتزوجها بغير أن يُقْسِطَ في صداقها، فيعطيها مثل ما يعطيها غيره، فنهوا أن ينكحوهن إلا أن يُقْسِطُوا لهن، ويبلغوا بهن أعلى سُتْنِهِنَّ من الصداق، وأمروا أن ينكحوا ما طاب لهم من النساء سواهن.

قال عروة: قالت عائشة: ثم إن النساء استفتوا رسول الله ﷺ بعد هذه الآية فيهن، فأنزل الله ﴿وَسَتَفْتُونَكَ فِي النِّسَاءِ﴾.

قالت: والذي ذكر الله تعالى أنه يُتلى عليكم في الكتاب؛ الآية الأولى التي قال الله فيها: ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُوا فِي الْيَنَى﴾ [النساء: ٣].

قالت عائشة: وقول الله تعالى: ﴿وَرَغَبُونَ أَنْ تَنْكِحُوهُنَّ﴾ رغبة أحدكم عن اليتيمة التي تكون في حجره، حين تكون قليلة المال والجمال، فنهوا أن ينكحوا ما رغبوا في مالها وجمالها من يتامى النساء إلا بالقسط، من أجل رغبتهم عنهن^(١).

ولما فرض الله تعالى توريث النساء والأطفال، شقَّ ذلك علينا بعد أن كانوا لا يُورَثُونَ، فسألوا رسول عن ذلك فنزلت الآية^(٢).

وقد اشتملت الآية أيضاً على سؤال النبي ﷺ عن قضايا ثلاث تقدم الإجابة عنها في أول السورة، وهي السؤال عن:

١ - توريث النساء، وكُنَّ لا يرثن قبل الإسلام، وهو المراد بقوله تعالى: ﴿قُلِ اللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِيهِنَّ﴾.

وجوابها في آيات الموارث في أول السورة وآخرها، وقد بيَّنت هذه الآيات أن المرأة ترث إن كانت أمًّا أو زوجة أو بنتًا أو أختًا، وفق نصاب كل حالة منها.

٢ - العدل في شأن يتامى النساء من الوصي عليهن، وهو المراد بقوله تعالى: ﴿وَمَا

(١) «صحيح مسلم» (٢٣١٣/٤) رقم (٣٠١٨) في التفسير والبخاري (٤٥٧٤) والطبري (٣٥٩/٦) وابن أبي حاتم (٤٧٥١، ٦٠٢٥).

(٢) ابن جرير (٢٥٣/٩).

يُنَالَى عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ فِي يَتِمَى النِّسَاءِ .

وجوابها في قوله تعالى: ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُوا فِي الْيَمِينِ فَأَنْكِحُوا مَا طَابَ لَكُمْ مِنَ النِّسَاءِ﴾ فيتزوج غيرها من النساء عند مجرد الخوف من عدم العدل فيهن .

٣ - توريث صغار السن وكانوا لا يورثونهم، وهو المراد في قوله: ﴿وَالسَّغِيرَاتِ مِنَ الْوِلْدَانِ﴾ .
وجوابها في آيات الموارث فهي تشمل الصغار والكبار، الذكور والإناث .

عَلَا جُ نُسُوزِ الرَّجُلِ

١٢٨ - ﴿وَإِنْ أَمْرًا^(١) خَافَتْ مِنْ بَعْلِهَا نُشُوزًا أَوْ إِعْرَاصًا فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا أَنْ يُصْلِحَا^(٢) بَيْنَهُمَا صُلْحًا وَالصُّلْحُ خَيْرٌ وَأُحْضِرَتِ الْأَنْفُسُ الشُّحَّ وَإِنْ تُحْسِنُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا﴾

وبعد التشريع العادل الذي ذكرته السورة للمجتمع المسلم - وفيه حكم نشوز المرأة وعلاجه - يأتي ذكر حكم نشوز الرجل وعلاجه، فإذا خافت المرأة ترفع الرجل عليها وعدم رغبته فيها، فالأفضل في هذه الحالة أن تتنازل عن بعض حقوقها لزوجها رغبة منها في البقاء معه، بأن تتنازل عن ليلتها لضرتها مثلاً، أو ترضى بالقليل من النفقة أو المسكن ونحو ذلك، فإن هذا خير من الفرقة إن اصطلحا عليه ﴿وَالصُّلْحُ خَيْرٌ﴾ وهذا أمر جائز، إذ ليس فيه تحليل لما حرم الله، ولا تحريم لما أحل الله، وقد فعلت ذلك (سودة بنت زمعة) ؓ مع رسول الله ﷺ وتنازلت عن ليلتها لعائشة ؓ، فإذا وُفقت المرأة لهذا فهو خلق حسن، فيه تغلب على شح النفوس وفيه حرصها على عدم التنازل عن الحق .

أَسْبَابُ النَّزُولِ

جاء في سبب نزول الآية عدة روايات، كلها تدور حول معنى واحد، منها:

١ - في البخاري ومسلم وغيرهما عن هشام عن عروة عن أبيه، أن عائشة ؓ قالت: نزلت في المرأة تكون عند الرجل، فلعله أن لا يستكثر منها، وتكون لها صحبة وولد،

(١) أخفى أبو جعفر التنوين من (امرأة خافت)، وأظهره الباقون .

(٢) قرأ عاصم وحزمة والكسائي وخلف العاشر (يُصْلِحَا) مضارع أصلح، وقرأ الباقون (يَصَالِحَا) بفتح الياء وتشديد الصاد بعدها ألف، وأصلها: يتصالحا، فأدغمت التاء في الصاد .

فكره أن يفارقها، فتقول له: أنت في حل من شأني^(١) هذا لفظ مسلم.

٢- وأخرج الإمام مسلم والبخاري بسندهما عن عائشة رضي الله عنها قالت: أنزلت في المرأة تكون عند الرجل، فتطول صحبتها، فيريد طلاقها، فتقول: لا تطلقني وأمسكني، وأنت في حل مني، فنزلت الآية^(٢).

وجاءت عدة روايات تتعلق بسودة رضي الله عنها.

٣- ومنها ما رواه هشام بن عروة عن أبيه قال: قالت عائشة: يا بن أختي، كان رسول الله ﷺ لا يفضل بعضنا على بعض في القسم، من مكثه عندنا، وكان قل يوم إلا وهو يطوف علينا جميعاً، فيدنو من كل امرأة من غير مسيس، حتى يبلغ التي هو يومها، فيبيت عندها، ولقد قالت سودة بنت زمعة حين أسنت، وفرت أن يفارقها.

وفي الرواية الأخرى: ففزعت فقالت يا رسول الله: يومي لعائشة، فقبل ذلك منها، وفي ذلك أنزل الله تعالى الآية وفي أشباهها..^(٣)

٤- وفي الصحيحين عن عائشة قالت: لما كبرت سودة بنت زمعة وهبت يومها لعائشة، فكان رسول الله ﷺ يقسم لعائشة يومها ويوم سودة^(٤).

٥- وأخرج الترمذي وغيره عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: خشيت سودة أن يطلقها النبي ﷺ فقالت: لا تطلقني وأمسكني، واجعل يومي لعائشة، ففعل، فنزلت: ﴿فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا أَنْ يُصْلِحَا بَيْنَهُمَا صُلْحًا وَالصُّلْحُ خَيْرٌ﴾ قال ابن عباس: فما اصطلحا من شيء فهو جائز^(٥).

(١) البخاري برقم (٢٤٥٠، ٥٢٠٦) ومسلم برقم (٣٠٢١) وابن أبي شيبة (٢٠٢/٤) والطبري (٥٥٢/٧).

(٢) «صحيح مسلم» برقم (٣٠٢٠) و«صحيح البخاري» برقم (٢٤٥٠، ٤٦٠١).

(٣) أخرجه أبو داود في «السنن» (٣٢٦/٢) برقم (٢١٣٥) و«صحيح سنن أبي داود» (١٨٦٨) والحاكم في «المستدرک» (١٨٦/٢) ووافقه الذهبي وابن سعد (٥٣/٨) والحاكم (١٨٦/٢) والبيهقي (٧٤/٧). وهو

حديث حسن صحيح.

(٤) من حديث هشام بن عروة عن أبيه في البخاري برقم (٢٥٩٣، ٥٢١٢) ومسلم برقم (١٤٦٣).

(٥) قال أبو عيسى: هذا حديث حسن غريب، «سنن الترمذي» برقم (٣٠٤٠) وصححه الألباني في «صحيح سنن الترمذي» (٢٤٣٤) و«الإرواء» (٢٠٢٠) وهو في «المستدرک» (١٨٦/٢) والطبراني (١١٧٤٦) والطيالسي (٢٨٠٥).

٦- وفي رواية أن سودة قالت للنبي ﷺ لما أراد طلاقها: أُنشُدكَ بالذي أنزل عليك كلامه واصطفاك على خلقه لَمَّا راجعتني، فإني كُبرت، ولا حاجة لي في الرجال، لكن أريد أن أبعث مع نسائك يوم القيامة، فراجعها، فقالت: إني جعلت يومي وليتي لحبة رسول الله ﷺ^(١).

٧- ومن ذلك أن بنت محمد بن مسلمة كانت تحت رافع بن خديج، فكره منها أمراً، إما كبيراً وإما غيره، فأراد أن يطلقها، فقالت: لا تطلقني واقسم لي ما شئت، فنزلت الآية^(٢).

٨- وأخرج الطبري وابن أبي حاتم بسنديهما الحسن، عن علي بن أبي طلحة عن ابن عباس قال: فتلك المرأة تكون عند الرجل، لا يرى منها ما يحب، وله امرأة غيرها أحب إليه منها، فيؤثرها عليها، فأمره الله أن يخيرها، فيقول لها: إن شئت أن تُقيمي على ما تريين من الأثرة فأواسيك وأتفق عليك، فأقيمي، وإن كرهت خليتُ سبيلك، فإن هي رضيت أن تقيم بعد أن يخيرها فلا جناح عليه، وهو قوله تعالى: ﴿وَالصُّلْحُ﴾ وهو التخيير بين الإقامة والفراق؛ ﴿خَيْرٌ﴾ من تمادي الزوج على أثره غيرها عليها^(٣).

٩- وقال ابن عباس في الآية: هو الرجل تكون تحته المرأة الكبيرة، فينكح عليها المرأة الشابة ويكره أن يفارق أم ولده، فيصالحها على عطية من ماله ونفسه فيطيب له ذلك الصلح^(٤).

وبمطالعة أسباب النزول هذه يتضح منها أن هذه الآية تتعلق بحالة نفور الرجل من المرأة، وهو معنى: نشوز الرجل، أو ما يحدث بينهما من اتفاق على بقاء المرأة في عصمة الرجل مقابل التنازل عن بعض حقها للزوج، وقبول الزوج ذلك وهذا هو الصلح بينهما لعلاج نشوز الرجل، وليس فيه عقوبة له، كما هو الحال في نشوز المرأة، فإن

(١) حديث مرسل عن القاسم بن أبي بزة، رواه ابن سعد في «الطبقات الكبرى» (٥٤/٨) من طريق مسلم بن إبراهيم.

(٢) «الموطأ» (٥٤٨/٢) عن ابن شهاب عن رافع بن خديج و«الأم» (١٧١/٥) و«المسند» للشافعي (٢٨/٢) و«جامع البيان» (٢٧٥/٩) عن الزهري عن سعيد بن المسيب والحاكم (٣٠٨/٢).

(٣) الطبري (٥٥٠/٧).

(٤) الطبري (٥٥٦/٧).

علاجها يتمثل في وعظها ثم في هجرها، ثم في تأديبها بالضرب غير المبرح، وذلك لأن الرجل هو الذي يملك حق الطلاق، فإن كرهها واستحالت العشرة بينهما طلقها، أما إن كرهت المرأة البقاء مع الرجل فقد شرع الإسلام لها أن تخلع نفسها منه، وتُرضيه بالتنازل عن شيء من حقوقها.

والمراد: أن الرجل إذا كره المرأة وأراد أن يطلقها فإن له أن يخيرها بين الطلاق أو تبقى في عصمته مقابل التنازل عن قسمتها أو نفقتها أو مؤخر صداقها ونحو ذلك، وله أن يقبل ذلك، جاء في الأثر عن ابن عمر: (أبغض الحلال إلى الله الطلاق)^(١).

ونشوز الرجل معناه: إغراضه عن المرأة بسوء عشرتها، والعبس في وجهها، وترك مضاجعتها، وإيذاؤها بالسب أو الشتم أو الضرب، ومنعها من النفقة أو التقدير عليها، وإظهار الخشونة لها في القول والفعل.

ومن علامات النشوز: قلة محادثة المرأة وقلة مجالستها ومؤانستها وإدخال السرور عليها، ولا يلزم من النشوز أن يحدث هذا كله، بل إن واحداً منه يدل عليه.

فإن علمت المرأة من زوجها ترفعاً عنها أو تعالياً عليها أو انصرافاً عنها؛ فلا إثم ولا حرج على كل منهما أن يصطلحا على ترك القسمة أو النفقة، فإن رضيت وأقيم الصلح بينهما على شيء من ذلك فهو خير، ولا تُجبر على ذلك، وإن لم ترضَ كان على الزوج أن يوفّيها حقها من القسمة والنفقة أو يسرّحها بإحسان، وإن صالحته على شيء من ذلك كان لها ما تُريد.

ولمّا كان الوفاق أحب إلى الله من الفراق قال تعالى: ﴿وَالصُّلْحُ خَيْرٌ﴾.

ولأن النفوس قد جُبلت على الحرص والشح، فإن الله تعالى يدعو الطرفين إلى الإحسان، ومعالجة الشح الموجود في النفوس بالمال أو غيره، وألا ينسوا الفضل بينهم؛ لأن كلاهما يحرص على ألا يتنازل للآخر عن شيء، فحث سبحانه على مخالفة هذا الطبع ومتابعة الشرع فقال سبحانه: ﴿وَأَحْضَرْتُ لَأَنْفُسِ الشُّحِّ﴾ وهي جملة معترضة جيء بها لبيان ما طُبع عليه الإنسان من حرص وبخل كي يجاهد الإنسان نفسه ويحاول التغلب

(١) «ضعيف سنن الترمذي» (٤٧٢) وابن ماجه (٢٠١٨) بسند ضعيف، والحاكم (١٩٦/٢) والبيهقي (٣٢٢/٧).

على هذا الجانب فيه قال تعالى: ﴿وَمَنْ يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [الحشر: ٩].

ثم خاطب الله سبحانه الأزواج فطالبهم بحسن العشرة والصحبة وتقوى الله تعالى في حق المرأة، فهي أمانة عندهم، فلا يجوزوا عليها وإن كرهوها، وإن تحسنوا معاملة زوجاتكم وتخافوا الله فيهن وتعطوهن الحقوق الزوجية فإن الله كان بما تعملون من هذا وغيره عالماً لا يخفى عليه شيء، وسوف يُجازيكم عليه.

وهذه الآية أعم من آية سورة البقرة ﴿وَلَا يَحِلُّ لَكُمْ أَنْ تَأْخُذُوا مِمَّا ءَاتَيْتُمُوهُنَّ شَيْئًا إِلَّا أَنْ يَخَافَا أَلَّا يُعِيمَا حُدُودَ اللَّهِ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا فِيمَا افْتَدَتْ بِهِ﴾ [البقرة: ٢٢٩] فسمّاه هناك افتداء، وسمّاه هنا صلحاً.

والمقصود بالصلح: التراضي بين الزوجين على إسقاط بعض الحق، وهذا الصلح يرفع الإثم والخرج عن الزوجين حال التراضي عليه بينهما.

كان عمران الخارجي رجلاً أسود، وكانت امرأته من أجمل النساء، فنظرت إليه وقالت: الحمد لله على أنني وإياك من أهل الجنة، قال: كيف؟ قالت: لأنني رزقت مثلك فصبرت، ورزقت مثلي فشكرت، والجنة موعودة للشاكرين والصابرين.

وقد ختم الله الآية بالحث على الإحسان إلى الخالق سبحانه في العبادة، والإحسان إلى الخلق بنفعهم وبرهم، ومن ذلك الإحسان في التعامل مع الزوجة، سيما عند الاختلاف والتنازع ﴿وَإِنْ تَحَسَّنَا وَتَتَّقُوا﴾ الله بفعل المأمورات وترك المنهيات ﴿فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا﴾ قد أحاط بكل شيء علماً وخبراً بظاهره وباطنه، تسجله عليكم الملائكة، ويجازيكم الله عليه يوم لقائه أتم الجزاء.

الْعَدْلُ الْمَادِّي وَالْعَدْلُ الْقَلْبِيُّ بَيْنَ الزَّوْجَاتِ

١٢٩- ﴿وَلَنْ تَسْتَطِيعُوا أَنْ تَعْدِلُوا بَيْنَ النِّسَاءِ وَلَوْ حَرَصْتُمْ فَلَا تَمِيلُوا كُلَّ الْمِيلِ فَتَدْرُوهَا كَالْمُعَلَّقَةِ وَإِنْ تُصْلِحُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ عَفُورًا رَحِيمًا﴾ (١٢٩)

وقد أباحت السورة تعدد الزوجات في مطلعها إلى أربع، وبيّنت أن الرجل إذا خاف من عدم العدل بين الزوجتين أو الزوجات في المبيت والنفقة وسائر الأمور المادية فليكتفِ

بواحدة ﴿فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْلُوا فَوَاحِدَةً﴾ [النساء: ٣]

ثم بيّن ﷺ هنا أن العدل الذي يُطلب التسوية فيه بين الزوجات هو العدل المادي بما فيه القسمة والمبيت والحقوق الشرعية، أما العدل في ميل القلب ومحبه وجانب الشهوة فهو غير مستطاع، وبالتالي فلا عقاب عليه.

وقد أخبر الله سبحانه أن العدل التام بين النساء ليس في مقدور الرجال، لأن العدل يستلزم التسوية في المحبة، وفي ميل القلب إليهم، وهذا أمر متعذر.

فلا تملوا - أيها الرجال - كل الميل، بل افعلوا ما هو باستطاعتكم من العدل، ولا تركوا كل ما يجب لزوجاتكم من الحب والوطء، فتكون المرأة كالمعلقة التي لا زوج لها فتستريح، ولا ذات زوج يقوم بحقوقها!!

عن عائشة رضي الله عنها قالت: أن النبي ﷺ كان يقسم بين نسائه فيعدل، ويقول: «اللهم هذه قسمتي فيما أملك فلا تلمني فيما تملك ولا أملك»^(١).

والإسلام يطالب المسلم ألا يميل بكل قلبه إلى واحدة، بل ينبغي عليه أن يقاوم نفسه، وينظر إلى الزوجة الأخرى وإشباع رغبتها الجنسية والمادية، فلا يتركها بالكلية فتصبح معلقة، لا هي متزوجة ولا هي مطلقة، فإذا كان هو يقضي شهوته مع الزوجة الأخرى فأين ستقضي هذه المهجورة وطرها؟!

وإذا كان الإسلام يطلب منه العدل في المبيت، فعليه أن يراعي هذا الجانب حتى لا يدفع بها إلى ارتكاب الفاحشة، أو يطلقها بإحسان ولا يتركها معلقة، لا هي متزوجة ولا هي مطلقة، فلا يميل كل الميل، فيشهر ليله عند واحدة، وينام الليل عند الأخرى.

فإذا كان العدل الكامل من جميع الوجوه غير ممكن ولو حرص الإنسان عليه فلا تملوا كل الميل إلى إحداهن وجاهدوا أنفسكم في العدل بينهن لعدم المضارة، فلا تعرضوا عن

(١) أبو داود (٣٢٦/٢) برقم (٢١٣٤) و«ضعيف سنن أبي داود» (٣٧٠) والنسائي (٦٤/٧) والترمذي بشرح ابن العربي (٨٠/٥) ورقمه في «السنن» (١١٤٠) والنسائي (٣٩٥٣) وابن أبي شيبة (٣٨٦/٤) وابن ماجه (٦٣٤/١) ورقمه (١٩٧١) بسند ضعيف، ورواه الحاكم (١٨٧/٢) وانظر: إرواء الغليل (٢٠١٨) والطرف الأول من الحديث حسن.

المرغوب عنها كل الإعراض حتى لا تكون بلا زوج، وإنما وفوها حقها وراعوا مشاعرهما حتى لا تأثموا، فالتسوية واجبة بين زوجتيه أو زوجاته، في النفقة والسكن والملبس والزينة والمبيت، وحسن العشرة والملاطفة ولين الجانب..

وقد عذر الله الرجال في شأن النساء، وبَيَّن أن تمام العدل بينهما لا يتأتى؛ لأن المرأة بحسبها وحسن خلقها تؤثر في النفس أشدَّ التأثير، فربَّ امرأة خفيفة الروح، سريعة الفهم، قوية الذكاء، تكون أقرب إلى قلب الرجل، وأخرى ثقيلة حمقاء، بذينة اللسان لا تُطاق، ومع ذلك فلا ينبغي إظهار الميل إلى إحداهن حتى لا يسوء الأخرى، وعلى الرجل أن يروِّض نفسه على الإحسان، ويوطِّئها على الحلم وحسن المعاشرة، وينظر إلى الحسنات، وبالتكرار والتعود يصبح هذا ميلاً طبعياً في الإنسان.

ولعل عدم التسوية في الجماع والنفقة، هو الذي جاء عليه الوعيد في قول النبي ﷺ فيما يرويه أبو هريرة رضي الله عنه: «من كانت له امرأتان فمال إلى إحداهما جاء يوم القيامة يجرُّ أحد شقيه ساقطاً»^(١) ولفظ أبي داود «جاء يوم القيامة وشقه مائل» أي: نصفه مائل وفي هذا دلالة على وجوب القسم بين الزوجات.

والمكروه من الميل هو بَخْسُ الحق دون ميل القلب، فإن القلوب لا تُملَك، وفي هذا نزلت الآية:

قال تعالى ﴿وَإِنْ تُصْلِحُوا وَتَتَّقُوا﴾ أي: إن أصلحتُم أموركم واتقيتم الله فيما أمركم به ونهاكم عنه، وقسمتم بالعدل، وأجبرتم أنفسكم على فعل ما لا تهواه النفس احتساباً وقياماً بحق الزوجة ﴿فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا﴾ لما سبق من الميل إلى إحداهن، يغفر لكم ما صدر منكم من التقصير ﴿رَجِيًّا﴾ بعباده حيث لم يكلفكم فوق طاقتكم.

وقد ختم الله الآية بقوله: ﴿وَإِنْ تُصْلِحُوا وَتَتَّقُوا﴾ ولم يقل: (تحسنوا وتتقوا) كالأية السابقة؛ لأن الصلح يحتاج إلى عدل، والإحسان قد يكون على حساب الآخرين، والعدل

(١) من حديث أبي هريرة، «مسند أحمد» (٣/٣٤٧، ٧٩٣٦، ٨٥٦٨، ١٠٠٩٠) بإسناد صحيح على شرط الشيخين، كما قال محققوه و«تحفة الأحوذى» كتاب النكاح (٤/٢٩٥) ورقمه في «سنن الترمذي» (١١٤١) وأبو داود برقم (٢١٣٣) و«صحيح سنن ابن ماجه» (١٦٠٣) وابن أبي شيبة (٤/٣٨٨) والنسائي (٣٩٥٢)، والطيالسي (٢٤٥٤) والدارمي (٢٢٠٦) والحاكم (٢/١٨٦).

في هذه الآية هو المطلوب، لأن العشرة قائمة بين الزوجين، والإحسان في الآية السابقة هو المطلوب؛ لأن الرجل غير راجب في المرأة ويريد طلاقها.

ومما يتعلق بذلك: أن الرجل إذا تزوج بكرة خصها بسبع ليالٍ، وإن تزوج ثيباً خصها بثلاث ليالٍ، بحيث لا تدخل هذه المدة في القسمة بين الزوجتين أو الزوجات.

وإن خرج لسفرٍ أقرع بين نسائه، وأخذ مَنْ تُصيّبها القرعة، ولا يلزمه أن يعوّض الأخرى عن مدة السفر، إذا كانت مدة سفر معتادة، وليست إقامة.

وفي البخاري وغيره عن عائشة رضي الله عنها: أن النبي ﷺ كان إذا أراد سفرًا أقرع بين نسائه، فأيتهن خرج سهمها خرج بها معه^(١).

هذا ولم يحسن بعض الناس فهم عدم استطاعة العدل بين الزوجات مع قوله تعالى في أول السورة: ﴿فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا فَوَاحِدَةً﴾ فقالوا: إن الله تعالى اشترط العدل في الآية الأولى بين الزوجات، ونفى إمكانيته في الآية الثانية، وعلى هذا فيلزم عدم التعدد!

وربما جاء هذا المعنى في وسائل الإعلام المرئية والمسموعة والمقروءة في المسلسلات والتمثيلات والمسرحيات والأفلام وغيرها، فشعر العامة بالتضاد أو التناقض بين الآيتين، وأن تعدد الزوجات لا يجوز!

والإجابة عن ذلك تؤخذ من فهم الآيتين، بمعنى: أن العدل الذي في الآية الأولى غير العدل الذي في الآية الثانية، فالمقصود بالعدل في الآية الأولى: العدل في الحقوق الشرعية، كالنفقة والكسوة والسكنى والمبيت.

أما العدل الذي في الآية الثانية: فالمراد به الشعور الداخلي، والميل القلبي، والتجاوب العاطفي، والارتياح النفسي، وهذا النوع من العدل غير مستطاع، ولا بين الأبناء، ولا بين الإخوة والأخوات، وكيف تكون التسوية في هذا والناس متفاوتون في أخلاقهم ومحاسنهم؟

فمثلاً: لو كان للرجل أربعة أبناء أو أربع بنات فلا يمكن أن تكون درجة المحبة

(١) البخاري (٢٥٩٣، ٢٨٧٩) ومسلم (٢٧٧٠) مطولاً.

متساوية بين الجميع، ولكنه في جانب العطاء والتربية عليه أن يعدل في القسَم بينهم.

أما تعدد الزوجات على مدى التاريخ، فهو أمرٌ معروف في كل الأمم، وبدون حدود لعدد الزوجات، وذلك في الأمم الوثنية والأمم ذات الرسالات السماوية، بدءًا من خليل الرحمن، ومرورا بأبنائه وأحفاده، ومنهم يعقوب وداود وسليمان وغيرهم.

وقد بقي تعدد الزوجات في المسيحية إلى القرن السابع عشر، وكان يتكرر كثيرًا في حالات لا تُحصيها الكنيسة.

ولما جاء الإسلام حُدِّد التعدد بأربع زوجات كحدٍّ أعلى، وشدَّد في المطالبة بالعدل بينهن وملاً ضمير المسلم بالخوف من الله تعالى ومراقبته في حُسن المعاشرة بينهن.

آخِرُ الْعِلَاجِ الْكَيِّ (الطَّلَاق)

١٣٠- ﴿وَإِنْ يَفْرَقَا يَغْنِ اللَّهُ كُلًّا مِنْ سَعَتِهِ. وَكَانَ اللَّهُ وَاسِعًا حَكِيمًا﴾

فإن استحالت العشرة بين الزوجين -لسبب أو آخر- فإن الله تعالى شرع الطلاق رحمة بعباده، وجعله مخرجًا لهم مما هم فيه، وعسى أن يعوض الله كُلًّا من الطرفين أفضل من الآخر، فإذا وقعت الفرقة بين الزوجين سواء بطلاق أو فسخ أو خلع أو غير ذلك، فإن الله تعالى يُغني كُلًّا منهما عن الآخر من فضله ورزقه، يغني الزوج بامرأة أخرى، ويغني الزوجة برجل آخر، ويعوّض كُلًّا منهما بما يحب، ويوسّع عليهما، وهو سبحانه واسع الفضل والمنة، حكيمٌ فيما يقضي بين عباده.

التَّقْوَى وَصِيَّةُ اللَّهِ لِجَمِيعِ الْأُمَمِ وَعُقُوبَةُ الْمُعْرِضِ عَنْهَا

١٣١- ﴿وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَلَقَدْ وَصَّيْنَا الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ

وَأَيَّاكُمْ أَنْ اتَّقُوا اللَّهَ فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ غَنِيًّا حَمِيدًا﴾

ولما ذكرت الآية السابقة، أن الزوجين إن يفرقا فإن الله تعالى يُغني كُلًّا منهما عن الآخر -بفضله ورزقه وسعة رحمته- بيّنت هذه الآية وجوب الرغبة إلى الله تعالى في طلب ما عنده من الخير؛ لأن هذا الكون ملكٌ لله تعالى، وخزائنه لا تفتنى، وما دام هو صاحب الملك فإن الخير لا يُطلب إلا منه سبحانه.

﴿وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمٰوٰتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾ ملكًا وخلقًا وعبيدًا وإيجادًا وعدمًا، وما بينهما مما حوته السموات السبع والأرضون السبع فالكل خلقه، والكل عبيده، والكل مملوكٌ له سبحانه.

وهو سبحانه يدبر شؤون خلقه ويصرفها كيف يشاء، ومن ذلك أنه سبحانه وصَّى الأولين والآخرين بتقوى الله تعالى، بامثال أوامره طلبًا لرضاه، واجتناب نواهيه خوفًا من عقابه وسخطه، وما يستلزم ذلك من تشريع الأحكام والآداب.

وقد عهد الله سبحانه إلى أهل الكتب السابقة من اليهود والنصارى وعهد إلينا أيضًا أن نتقي الله تعالى ونخافه، فتمثل أمره ونجتنب نهيه ﴿وَلَقَدْ وَصَّيْنَا الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ﴾ كاليهود والنصارى ﴿وَأَيَّاكُمْ﴾ يا أمة محمد، أي: ووصيناكم يا أمة القرآن - كما وصينا من كان قبلكم من أهل الكتاب - أن اتقوا الله، ووصينا بها جميع الأمم كذلك.

ثم إن سماعكم - أيها الناس - لهذه الوصية، لا ينتفع به رب العالمين، وعدم سماعكم لها لا يضره في شيء، فإن كفرتم ولم تؤمنوا فإن كُفْرَكُمْ لن يُنْقِصَ مِنْ مُلْكِ اللَّهِ شَيْئًا ﴿وَإِنْ تَكْفُرُوا﴾ بأن تركوا تقوى الله تعالى، أو تشركوا بالله ما لم ينزل به سلطانا، فإنكم لا تضرون إلا أنفسكم، وأنتم لا تُمَثِّلُونَ شَيْئًا يَذْكُرُ فِي هَذَا الْكُونِ الْفَسِيحِ، فإن لله في سمواته وأرضه من الملائكة والثقلين من يوحده ويعبده ويتقيه، والكفر يكون بعدم سماعكم للوصية وعدم القيام بها وتنفيذها، فإن كفرتم فاعلموا أن الله مالك الملك والملوك، لن يضره كُفْرُكُمْ ومعاصيكم، كما أنه لا ينفعه شكركم وتقواكم.

وقد وصاكم الله بالتقوى لرحمته بكم لا لحاجته إليكم، قال تعالى: ﴿إِنْ تَكْفُرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنْكُمْ وَلَا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ الْكُفْرَ وَإِنْ تَشْكُرُوا يَرْضَهُ لَكُمْ﴾ [الزمر: ٧] فلا يضره كفركم، وفي نفس الوقت لا يرضاه لكم، مع أن ما في هذا الكون غيركم، كالملائكة والشجر والدواب وغيرها، هم أطوع منكم لله ﷻ، وهو سبحانه خالق هذا الكون ومالكة، وهو الغني عن عباده، المستحق للحمد والثناء دون سواه، المُنْعِمُ على خلقه بجلال النعم ودقائقها ﴿وَكَانَ اللَّهُ غَنِيًّا﴾، خزائنه لا تنفذ ولا ينقصها النفقة، والكل مفتقر إليه في جميع أحوالهم وشؤونهم ﴿حَمِيدٌ﴾ مستحقا لكل حمد ومحبة وثناء، لما اتصف به من صفات الحمد، التي هي صفة الجمال والجلال، ولما أنعم به على خلقه بجميع النعم، فهو المحمود على كل حال، له الغنى المطلق وله الحمد كله.

وهذا كقوله تعالى على لسان موسى: ﴿إِنْ تَكْفُرُوا أَنْتُمْ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا فَإِنَّ اللَّهَ لَغَفُورٌ حَمِيدٌ﴾ [إبراهيم: ٨] وقوله: ﴿فَكْفُرُوا وَقَوْلُوا وَاسْتَعْنَى اللَّهُ وَاللَّهُ غَفُورٌ حَمِيدٌ﴾ [التغابن: ٦].

وفي الحديث القدسي عن أبي ذر رضي الله عنه عن النبي ﷺ فيما يرويه عن ربه: «يا عبادي: إنكم لن تبلغوا ضري فتضروني ولن تبلغوا نفعي فتنفعوني، يا عبادي لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم كانوا على أتقى قلب رجل واحد منكم ما زاد ذلك في ملكي شيئاً، يا عبادي: لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم كانوا على أفجر قلب رجل واحد منكم ما نقص ذلك مما عندي إلا كما ينقص المحيط إذا أُدخل في البحر»^(١).

وكانت الوصية بالتقوى للسابقين واللاحقين؛ لأنها أصل الخير وأعظم وصية، وهي تتضمن اتقاء الشرك وما دونه. وقد جعل الأمر بالتقوى وصية؛ لأن الوصية قول فيه أمرٌ بشيء نافع، جامع لخير كثير، والتقوى كلمة جامعة لامثال ما أمر الله به واجتناب ما نهى عنه؛ ولذلك فإنه لم يتكرر لفظُ في القرآن كما تكرر لفظ التقوى.

وفي حديث العرباض بن سارية رضي الله عنه قال: وعظنا رسول الله ﷺ موعظةً وجلت منها القلوب، وذرفت منها العيون، فقلنا: يا رسول الله، كأنها موعظة مودّع، فأوصنا، قال: «أوصيكم بتقوى الله ﷻ والسمع والطاعة...» الحديث^(٢). قال تعالى:

١٣٢ - ﴿وَاللَّهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلًا﴾ (١٣٢)

ثم أعاد الله سبحانه للمرة الثالثة هذه الجملة: ﴿وَاللَّهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾ ليقرر موجب التقوى، فالكون كله مخلوقٌ لله تعالى وملكٌ له سبحانه، فحقه أن يطاع ولا يعصى، وهو سبحانه القائم على كل نفس بما كسبت، الرقيب عليها، وكفى به سبحانه قائماً بشؤون خلقه، حافظاً لها، والله تعالى حافظٌ لأعمال عباده، محيطٌ بها ﴿وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلًا﴾ في تدبير أمور خلقه وحفظه لمصالحهم، فهو سبحانه القائم على شؤونهم، والكفيل

(١) من حديث أبي ذر في «صحيح مسلم» (٢٥٧٧).

(٢) في «سنن أبي داود» (٤٦٠٧) و«سنن الترمذي» (٢٦٧٦) و«المسند» (١٧١٤٢)، من حديث طويل، وهو حديث صحيح بطرقه وشواهد كما قال محققوه، وأخرجه الحاكم (٩٦/١) وابن ماجه (٤٣) وابن أبي عاصم في السنة (٣٣).

بأموارهم، ومن كان الله وكيله نَجَّاهُ من المهالك، وأَمَّنَهُ مما يخاف، وملاً قلبه خشية وإيماناً. وأساس التقوى الإيمان بالله ورسله؛ ولذا: فإنها قُوبِلت بالكفر في قوله تعالى: ﴿وَإِنْ تَكْفُرُوا فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾.

وقد تكررت هذه الجملة ﴿وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾ في هذه الآيات أربع مرات: بينت الأولى: أن الله تعالى مستغنٍ عن جميع خلقه قادرٌ على إغنائهم جميعاً.

وبيَّنت الثانية: أن الطاعة لا تزيد في ملك الله شيئاً، وأن المعصية لا تُنْقِصُ منه شيئاً. وبيَّنت الثالثة: أنه الوكيل على كل نفس الحافظ لها، فالتوكل يكون عليه وحده، والتقوى واجبة له سبحانه، وقد سبق هذه الثلاث نظيرٌ رابعٌ هو قوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ يَكُلُّ شَيْءٌ مُّحِيطًا﴾ [النساء: ١٢٦] واللفظ متحدٌ في الأربع، والغرض مختلفٌ.

وقد خُتِمت الآية الأولى بقوله تعالى: ﴿وَكَانَ اللَّهُ يَكُلُّ شَيْءٌ مُّحِيطًا﴾ وجاء بعد الثانية الوصية بالتقوى، وخُتِمت الثالثة بقوله تعالى: ﴿وَكَانَ اللَّهُ غَنِيًّا حَمِيدًا﴾ وخُتِمت الرابعة بقوله: ﴿وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلًا﴾ وخُتِمت الآية ينسجم مع أولها، ويرتبط به في المعنى. وتقوى الله تعالى أو الكفر به لا تنفعه ولا تضره في شيء، وهو سبحانه قادر على أن يستبدلكم بقوم آخرين هم أطوع لله منكم، قال تعالى:

١٣٣ - ﴿إِنْ يَشَأْ^(١) يُذْهِبْكُمْ أَيُّهَا النَّاسُ وَيَأْتِ يَخْرِينٌ^(٢) وَكَانَ اللَّهُ عَلَى ذَلِكَ قَدِيرًا

وهو سبحانه غني حميد، له القدرة الكاملة، والمشية النافذة فيكم، قادر على أن يهلككم إن كفرتم ولم تتقوه، ويأتي بقوم غيركم هم خيرٌ وأطوع منكم، كما أهلك من سبقكم من الأمم ممن كذبوا رسل الله، ولم يشكروا نعمه، وهذا أمرٌ سهلٌ على رب العالمين، فهو سبحانه قادرٌ على كل شيء، لا يعجزه أمرٌ في الأرض ولا في السماء، فما أهون العباد على الله إذا أضاعوا أمره ﴿وَإِنْ تَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوا

(١) أبدل همزة (يشأ) ألفاً أبو جعفر في الحاليين، وحمزة وهشام وقفاً.

﴿أَمْثَلَكُمْ﴾ [محمد: ٣٨] ﴿إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ﴾ ﴿وَمَا ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ بِعَزِيزٍ﴾ ﴿٢٠﴾
[إبراهيم: ١٩، ٢٠ وفاطر: ١٦، ١٧].

وفي هذا تهديد ووعد للناس إن أقاموا على كفرهم واعرضوا عن ربهم، فإنه لا يعبا بهم، ولكنه يمهلهم ويملي لهم.

وقد أذهب الله أقوامًا سابقين، وجاء بغيرهم بدلًا منهم، قال تعالى: ﴿إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَسْتَخْلِفْ مِنْ بَعْدِكُمْ مَا يَشَاءُ كَمَا أَنْشَأَكُمْ مِنْ ذُرِّيَةِ قَوْمٍ ءَاخِرِينَ﴾ [الأنعام: ١٣٣] وهو أمرٌ غير صعب ولا ممتنع على رب العالمين.

وهذا التبديل أمرٌ مشاهدٌ في حياتنا، فالإنسان إذا كان عنده أجيرٌ معانِدٌ مشاكس استبدل به غيره، وإذا كان عنده زوجة سيئة العشرة استبدل بها غيرها.

وفي الأمم التي قبلنا هلكت أمم وجاءت أمم، سقطت حضارات وقامت حضارات، وهذه سنة الله في خلقه، فالأمة التي تُعرض عن أمر ربها وتتخلى عن مسؤولياتها أمةٌ أُصيبت بأعراض الانحلال والدمار والزوال.

وَرَدَ أنه لما نزلت هذه الآية ضرب رسول الله ﷺ بيده على ظهر سلمان الفارسي وقال: «إنهم قوم هذا» يريد أبناء فارس^(١).

والآية تشير إلى أن الله تعالى يستخلف من المشركين قومًا آخرين مؤمنين، كما قال ﷺ: «لعل الله أن يخرج من أصلابهم من يعبده».

حَرْثُ الدُّنْيَا وَحَرْثُ الْآخِرَةِ

١٣٤- ﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ ثَوَابَ الدُّنْيَا فَعِنْدَ اللَّهِ ثَوَابُ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَكَانَ اللَّهُ سَمِيعًا بَصِيرًا﴾

أخبر سبحانه وتعالى أن من كانت همته وإرادته دنياه فحسب، وليس له اهتمام بالعمل للدار الآخرة، فإنه لن يحصل من دنياه إلا ما قدر له، ولأن الدنيا والآخرة مملوكان لله تعالى، فإنه ينبغي على العبد أن يطلبهما معًا، فإن ما عند الله تعالى لا يُنال إلا بطاعته، ولا تترك الأمور الدينية والدنيوية إلا بالاستعانة به والافتقار إليه، وهو صاحب الحكمة

(١) «حاشية الجمل على الجلالين» (١/٤٣٢).

في توفيق من يوفقه، وخذلان من يخذله، وفي عطائه ومنعه.

ومن الناس من هو ساقطُ الهمة، ونظره لا يعدو تحت قدميه، فلا يهمله إلا يومه، ولا يعمل إلا للذته وشهوته العاجلة، وليس عنده من الإيمان ما يجعله يعمل لغده، ويبتغي ما عند الله سبحانه.

وهكذا كان بعض المشركين يعترفون بأن الله خالقهم، ولكنهم يُنكرون البعث ولا يؤمنون باليوم الآخر، فكانوا يتقربون إلى الله بالطاعة ليعطيهم من خير الدنيا ويصرف عنهم شرّها.

وكان المنافقون يطلبون بجهادهم مع رسول الله ﷺ ما ينالونه من الغنيمة ولا يصدقون بيوم القيامة، ولو كانوا مؤمنين لطلبوا ثواب الآخرة كما طلبوا ثواب الدنيا، ولكنهم يعملون للدنيا ولا يطلبون الآخرة ﴿وَكَانَ اللَّهُ سَمِيعًا﴾ لأقوالهم ﴿بَصِيرًا﴾ بنياتهم وما يطلبونه لدنياهم.

والمعنى: من يرغب منكم - أيها الناس - بعمله أجر الدنيا مُعْرِضًا عن الآخرة آتاه الله من الدنيا ما أراد وصرف عنه شرّها، وليس له في الآخرة أجرٌ يُجْزَى به، والله تعالى عنده ثواب الدنيا والآخرة، ومنه يُطلب خيرُهما، فهو الذي يملكهما.

ومن كان يرغب بعمله وجه الله وثواب الدار الآخرة فإن الله تعالى يعطيه من الدنيا ما قُدِّرَ له، ويجزيه في الآخرة خير الجزاء، وسوف يُجازيه الله على أقواله وأفعاله، فهو جلّ شأنه سميعٌ لأقواله مطلعٌ على أحواله.

ولهذه الآية نظائر كثيرة في كتاب الله، منها قوله تعالى:

﴿فَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ رَبَّنَا آئِنَا فِي الدُّنْيَا وَمَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِن خَلْقٍ﴾ (٢٠٥) وَمِنْهُمْ مَّن يَقُولُ رَبَّنَا آئِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ حَسَنَةٌ وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ (٢٠٦) أُولَٰئِكَ لَهُمْ نَصِيبٌ مِّمَّا كَسَبُوا وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ (٢٠٦) [البقرة]. وقوله سبحانه:

﴿مَن كَانَ يُرِيدُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوفِ إِلَيْهِمْ أَعْمَالَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ﴾ (١٥) أُولَٰئِكَ الَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ إِلَّا النَّارُ وَحَبِطَ مَا صَنَعُوا فِيهَا وَبِطُلَّ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (١٦)﴾ [هود].

وقوله جل شأنه: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ الْعَاجِلَةَ عَجَلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَاءُ لِمَن نُّرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُ جَهَنَّمَ

يَصْلَاهَا مَذْمُومًا مَذْحُورًا ﴿١٨﴾ وَمَنْ أَرَادَ الْآخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَٰئِكَ كَانَ سَعْيُهُمْ مَشْكُورًا ﴿١٩﴾ كُلًّا نُمِذُ هَتُولَاءِ وَهَتُولَاءِ مِنْ عَطَاءِ رَبِّكَ وَمَا كَانَ عَطَاءُ رَبِّكَ مَحْطُورًا ﴿٢٠﴾ أَنْظِرْ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ وَلِلْآخِرَةِ أَكْبَرُ دَرَجَتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلًا ﴿٢١﴾ [الإسراء].

وقوله عز وجل: ﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الْآخِرَةِ نَزِدْ لَهُ فِي حَرْثِهِ وَمَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ نَصِيبٍ﴾ [الشورى].

والمراد بثواب الدنيا: خيراتها التي تعود على طالبها بالنفع الدنيوي.

والمراد بثواب الآخرة: الجزاء الحسن الذي أعده الله لعباده الصالحين في جنات النعيم، وقد بَكَتَ الله تعالى من يقتصر على أحد السؤالين؛ لأن ثواب الدارين معًا لا يملكه إلا رب العالمين، وبجانب ذلك فإن في الآخرة ما هو أنفع وأعظم وأبقى.

روى الإمام أحمد وغيره بسنده عن زيد بن ثابت ؓ أن رسول الله ﷺ قال: «من كان همه الآخرة جمع الله شمله، وجعل غناه في قلبه، وأتته الدنيا وهي راغمة، ومن كانت نيته الدنيا فرَّق الله عليه ضيعته، وجعل فقره بين عينيه ولم يأته من الدنيا إلا ما كُتِبَ له»^(١).

وفي الآية وعيد للمنافقين وطلّاب الدنيا. وبتقوى الله تعالى ينال العبد خير الدارين، فعلى العبد ألا تشغله الدنيا عن الآخرة، بل عليه أن يقدم الآخرة على الدنيا، كما قال تعالى: ﴿وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ وَلَا تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا﴾ [القصص: ٧٧].

وعلى المرء ألا يُفْتَنَ ويغتر بما عليه طُلاب الدنيا من زخرف ومتاع، ومنهم غير المسلمين، قال تعالى: ﴿لَا يَغْرَنَكَ تَقَلُّبُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي الْبَلَدِ﴾ ﴿١٩٦﴾ مَتَّعَ قَلِيلٌ ثُمَّ مَأْوَهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمِهَادُ ﴿١٩٧﴾ [آل عمران]

والعبرة بالعواقب، ومن يضحك أخيرًا يضحك كثيرًا.

وطلب الدنيا من حلّها -وليس على حساب الآخرة- أمر غير مذموم، وإنما المذموم أن يُلهي طلب الدنيا عن طلب الآخرة، أو تُطلب الدنيا من طرق الحرام، أو يؤدي طلب الدنيا

(١) من حديث طويل في «المسند» (٢١٥٩٠)، بإسناد صحيح، وابن أبي عاصم في السنة (٩٤) وابن حبان (٦٧) وأبو داود (٣٦٦٠) وابن ماجه (٤١٠٥) والترمذي (٢٦٥٦) والطبراني في الكبير (٤٨٩٠).

إلى الإعراض عن دين الله تعالى، والاقتصار على سؤالها، فإن ما عند الله خير وأبقى.

الْعَدْلُ الْمُطْلَقُ فِي الْحُكْمِ وَالشَّهَادَةِ

١٣٥- ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَىٰ أَنْفُسِكُمْ أَوِ الْوَالِدِينَ وَالْأَقْرَبِينَ إِنْ يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَاللَّهُ أَوْلَىٰ بِهِمَا فَلَا تَتَّبِعُوا الْهَوَىٰ أَنْ تَعْدِلُوا وَإِنْ تَلَوْا^(١) أَوْ تَعْرِضُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴿١٣٥﴾﴾

وتمضي الآيات في وضع قواعد المنهج الثابت للمجتمع المسلم، فتوجّه نداءين للمؤمنين قبل فضح أحوال المنافقين.

النداء الأول: يدعوهم لإقامة العدل في الحكم بين الناس.

والنداء الثاني: لبيان عناصر الإيمان المكوّنة لعقيدة المسلم.

قال السّدي: إِنَّ فَقِيرًا وَغَنِيًّا اختصما إلى النبي ﷺ فكان صفوه -أي: ميله- مع الفقير، يرى أن لا يظلم الغني^(٢) فأنزل الله تعالى يأمر بإقامة العدل مع الغني والفقير على حدّ سواء:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ أي: يامن صدّقوا الله بقلوبهم، وأيقنوا بفؤادهم، واتبعوا رسوله فعملوا بجوارحهم، كونوا قائمين بالعدل بين الناس جميعًا، ولا يصرفكم عنه صارفٌ، ولا تعدلوا عنه لسببٍ من الأسباب، فمن الناس من يرقُّ للفقير يظنه مظلومًا، وقد يكون ظالمًا، ومنهم من يظن أنه لو حكم للفقير من مال الغني فإن هذا لا يضره، فنهى الله عباده عن هذه المؤثرات، وأمرهم ألا يتبعوا الهوى، ومن الهوى حب النفس وحب الأهل والأقربين ومجاملة الغني وصاحب الجاه، والإضرار بالآخر والتعصب للعشيرة والوطن.

فاجتهدوا -أيها المسلمون- في إقامة العدل في حقوق الله، وحقوق عباده حتى لا تجوروا، ومن القسط في حقوق الله تعالى ألا يُستعان بنعمه على معصيته بل تصرف كلها في طاعته.

ومن القسط في حقوق الناس: أن يؤدي الإنسان ما عليه من نفقة أو وصية أو زكاة أو

(١) قرأ ابن عامر وحمزة (وإن تلووا) من الولاية، وولاية الشيء هي الإقبال عليه، وقرأ الباقون (تتلّوا) من لَوَى يَلْوِي، يقال: لَوِيت فلانًا حقّه إذا مطلّته.

(٢) رواه الواحدي في «أسباب النزول» ص ١٦١، و«تفسير الطبري» (٢٠٧/٥).

كفارة أو دين، وأن تعاملهم بما تحب أن يعاملوك به.

ومن القسط في الحكم بين الناس، أن تقيم العدل بينهم وألا تميل لأحد الأطراف.

وأدّوا الشهادة لوجه الله تعالى، ولا تأخذكم في الله لومة لائم، فأقيموا الشهادة كما أمركم الله، وقولوا الحق في شهادتكم، ولو كانت الشهادة على أنفسكم، فأقرّوا عليها بالحق، واشهدوا لله على أنفسكم، وقوموا بالعدل عليها، ولا ترفضوا الحقيقة، فلا تعترفوا بها وتجحدها، فإن في هذا شططاً كبيراً، وهذا الإقرار على النفس شهادة؛ لأنه إلزامٌ لها بموجب الحق عليها.

وهذا لأن الدعوى: إخبارٌ عن حق النفس عند الآخر.

والإقرار: شهادة على النفس للآخر.

والشهادة: شهادة للآخر على الآخر.

وأدّوا الشهادة أيضاً ولو كانت على أقرب الناس مثل: الآباء والأبناء والإخوة والزوجات والأقارب.

ومهما كان المشهود عليه -غنياً أو فقيراً أو ضعيفاً أو قوياً أو محكوماً أو حاكماً- فلا تُحابوا غنياً لغناه، ولا تُشفقوا في الشهادة على فقير لفقره؛ لأن الله تعالى أولى بهما منكم، وأعلم بما فيه صلاحهم.

وهو أولى بالنظر إلى كلّ منهما، ورحمته بهم منكم أعظم وأجل. ولا يحملنكم الهوى والتعصب، أو بُغْضُ بعض المتحاكمين على ترك العدل بين الناس، وعدم إقامة الحق في الحكم بينهم أو الشهادة عليهم.

ومن أكبر العوائق والموانع من إقامة العدل بين الناس: اتباع الهوى.

والهوى أنواع كثيرة: كحب الذات، وحب الأهل والأقارب، والتعصب للوطن أو العشيرة، وكرهة الخصم، ومجاملة الغني أو ذي الجاه.

والهوى يعمى عين صاحبه عن الصواب حتى يرى الباطل حقاً، والحق باطلاً، وقد يعرف الحق ويتركه لأجل هواه، وكل هذا لا ينبغي أن يكون مؤثراً في الشهادة على الناس أو الحكم بينهم.

فأقم الشهادة يا بن آدم ولو كانت على نفسك أو على أقرب الناس إليك، أو على أشراف القوم، فإن الشهادة لله وليست للناس، والعدل ميزان الله في الأرض، به يأخذ الضعيف حقه من الشديد، ويأخذ الصادق حقه من الكاذب، والمُحِقُّ من المُبْطِل، وبالعدل قامت السموات والأرض.

ولما بين سبحانه وجوب القيام بالقسط بين الناس، نهى عن ضد ذلك، وهو لئى اللسان عن الحق في الشهادة، ونهى عن اللحن في القول ونحو ذلك، حيث يأتي الإنذار والوعيد على تحريف الشهادة أو الإعراض عن الحق، فيقول تعالى: ﴿وَإِنْ تَلَوُاْ﴾ أي: تغيروا الشهادة أو تحرفوها فتأتوا بها على غير حقيقتها فإن الله تعالى مطلعٌ عليكم ويعلم أحوالكم.

﴿تَلَوُاْ﴾ بمعنى يلوي الشاهد أو الحاكم لسانه بغير الحق ﴿أَوْ تُعْرَضُواْ﴾ أي: تركوا الشهادة وتكتموها ولا تقيموها، فإن الله كان ولا يزال عليماً بدقائق الأمور، وسوف يُجازيكم على كتمان الشهادة أو تزويرها، أو الميل مع أحد الخصمين، فعلم الله تعالى محيط بكم، وفي هذا تهديد شديد لكل من يميل عن الحق إلى الباطل.

فاللّٰهُ هو: التحريف وتعمد الكذب، قال تعالى ﴿وَإِنَّ مِنْهُمْ لَفَرِيقًا يَلُونُ السُّنْتَهُم بِالْكُتْبِ لِيُحْسِبُوهُ مِنَ الْكِتَابِ وَمَا هُوَ مِنَ الْكِتَابِ﴾ [آل عمران: ٧٨].

والإعراض هو: كتمان الشهادة وتركها، قال تعالى: ﴿وَمَنْ يَكْتُمْهَا فَإِنَّهُ فِي النَّفْسِ قَلْبُهُ﴾ [البقرة: ٢٨٣].

وقد أضافت آية سورة [المائدة ٨] ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا كُتُوبًا قَوْمِينَ لِلَّهِ شُهَدَاءُ بِالْقِسْطِ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَاٰنُ قَوْمٍ عَلَيْكُمْ أَلَّا تَعْدِلُواْ أَعْدِلُواْ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى﴾ أضافت أن المؤمن لا يكتُم الحق ولا يحرفه ولا يبدله، ولو كان المحكوم له أو المشهود عليه عدوًّا يبغضه في قرارة نفسه، بل يجب عليه العدل في الحكم والشهادة، فبالعدل قامت السموات والأرض، وبه تتحقق التقوى.

ومما ورد في هذا أن النبي ﷺ لما بعث عبد الله بن رواحة إلى أهل خيبر، يخرص ثمارهم وزرعهم، فأرادوا أن يُرشوه ليرفق بهم، فقال: والله لقد جئتكم من عند أحب الخلق إليّ، ولأنتم أبغض إليّ من أعدادكم من القردة والخنازير، وما يحملني حُبِّي إياه

وبغضي لكم على ألا أعدل فيكم، فقالوا: بهذا قامت السموات والأرض^(١).

وفي الحديث عن زيد بن خالد الجهني رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «خير الشهود الذي يأتي بالشهادة قبل أن يُسألها»^(٢).

ويبدو أن هذا في مواطن دون مواطن، لورود حديث آخر، فيه وعيدٌ لمن يشهد قبل أن يُستشهد، وفي الآية ثلاثة شروط لإقامة الشهادة:

الشرط الأول: أن تكون الشهادة لله، وليست للنفس ولا لأحد من الناس، ومعنى كونها لله أي: ليست بعرض من أعراض الدنيا ولا لسبب مادي أو أدبي.

الشرط الثاني: أن يشهد الإنسان بالحق ولو على نفسه أو على أقرب الناس إليه، فشهادته على نفسه إقرارٌ منه بالحق عليها.

الشرط الثالث: الموضوعية والأمانة في أداء الشهادة والحكم بين الناس، فلا يراعي الشاهد أو القاضي غنيًا لغناه، ولا فقيرًا لفقره، ولا شريفًا لشرفه، وهكذا فقد قدم الله تعالى القيام بالقسط -في الحكم على النفس- على القيام بالشهادة للآخرين؛ لأن الحكم إذا كان على النفس كان شاقًا، فقد يأمر الإنسان غيره بالمعروف، وإذا آل الأمر إليه تركه، وشقَّ عليه أن يدين نفسه؛ ولذلك أمر الله عباده أن يقوموا بالقسط على أنفسهم أولًا ثم أمرهم بالشهادة على غيرهم^(٣).

من آثار عدم إقامة العدل بين الناس:

هذا: وإن جوهر المشكلات القائمة في العالم، والثورات العنيفة التي تحدث في التاريخ، وتأتي على الأخضر واليابس؛ بسبب عدم إقامة العدل بين الناس، فلولا عدم

(١) رواه مالك في «الموطأ» مرسلًا، وأخرجه أبو داود بإسناد حسن من حديث جابر مختصرًا على شرط مسلم (٧٠٠/٣).

(٢) رواه مسلم في الأفضية عن زيد بن خالد الجهني (١٣٣/٥) برقم (١٧١٩) وأحمد في «المسند» (١١٧/٤) برقم (٢١٦٨٧) وابن ماجه (٢٣٦٤) والترمذي (٢٢٩٧) والطبراني في الكبير (٥١٨٣) وهو حديث صحيح، وفي إسناده أبي بن عباس بن سهل، وهو ضعيف، (محققو المسند) فهو صحيح المتن ضعيف السند.

(٣) انظر: «تفسير الفخر الرازي» (١٢/١١).

العدل لما وُجد الآن دولة تُسمَّى (إسرائيل) ولقد عاش اليهود في ظل المسلمين قرونًا ولم يفكروا في قيام دولة خاصّة بهم، والذين ساعدوهم على ذلك قوم ضادّوا الله في حكمه وخالفوا أمره، فقد كتب الله على اليهود التشتت في الأرض إلى قيام الساعة، قال تعالى: ﴿فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الْآخِرَةِ جِئْنَا بِكُمْ لَفِيفًا﴾ [الإسراء: ١٠٤] وقبل ذلك هم مشتتون في الأرض ﴿وَقَطَّعْنَهُمْ فِي الْأَرْضِ أُمَمًا﴾ [الأعراف: ١٦٨] وقد كتب الله عليهم ذلك عقوبةً لهم إذ قالوا لنبيهم: ﴿فَاذْهَبْ أَنْتَ وَرَبُّكَ فَقَتَلَا إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ﴾ [المائدة: ٢٤].

ولولا عدم العدل بين الناس لما وطئت أرض العراق وأفغانستان وفلسطين وغيرها قدمٌ أجنبيٌّ. ولولا ترك العدل بين الناس لما أقام بعض الناس الأحكام على الضعفاء دون الأقوياء، فإذا سرق فيهم الشريف تركوه، وإن سرق فيهم الضعيف أقاموا عليه الحدّ. ولولا ترك العدل بين الناس لما ظل حكامٌ يحكمون الشعوب بالحديد والنار، ويقمعون الناس، وينهبون ثروات العباد والبلاد عقودًا من الزمن، ولما ظل هذا الحكم قائمًا بالتوارث، والشعوب تتجرّع مرارة هذا التابع من الظلم والقهر والجوع والبطالة والمرض والجهل. ولولا ترك إقامة العدل بين الناس لما وُجدت صناديق انتخابات مزوّرة في بعض مناطق العالم، ولا مثّل الشعب في التعبير عن رأيه من لا يمكنه أن يعبر عن نفسه، ولا يجيد إلا التصفيق والمتابعة وأن يهتف بما لا يعرف.

إن العدل الذي جاء به الإسلام جعل رجلًا مصريًا يمشي على قدميه من مصر إلى المدينة ليشكو إلى (عمر) ﷺ ضربة سوط من مسلم!

وإن إقامة العدل بين الناس جعلت رجلًا أعرابيًا يقول لعمر وهو على المنبر: لا سمع لك علينا ولا طاعة، وكان عمر قد أعطى لكل مسلم حلّة مما أفاء الله به على المسلمين من غنائم، وأخذ لنفسه حلّة مثلهم، وأعطى ابنه (عبد الله) حلّة، شأنهما شأن عامة الناس، فرأى (عبد الله) أن حلّة أبيه لا تكفي، وهو أمير المؤمنين، فأعطاه حلته ليكمل بها ثوبه، فلما قال الأعرابي: لا سمع لك علينا ولا طاعة، وذكر السبب، وهو أن الخليفة أخذ لنفسه حلّتان وميّز نفسه عن الناس، عندئذ نادى عمر ابنه وسأله أمام الناس عن الحلّة، فقال ابن عمر ليقول للناس: إني وهبتُ حلّتي لأبي ليُكمل بها ثوبه، وعندئذ

قال الأعرابي: الآن نسمع ونطيع.

ولمّا طلبت زوجة عمر بن عبد العزيز منه أن تُقسم له الطّيب ليوزعه على الناس، قال لها: أتريدين أن يبقى أثره في يديك، فتتفعين برائحته!

يا أله!! أين ثروات الشعوب في البلاد التي لا تنتج طعامًا يكفيها، ولا تصنع سلاحًا تدافع بها عن نفسها؟! وفيها من الخيرات ما فيها، حسبنا الله ونعم الوكيل.

الإِسْلَامُ يُوجِبُ الْإِيْمَانَ بِجَمِيعِ الشَّرَائِعِ السَّابِقَةِ

١٣٦- ﴿يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا ءَامِنُوا بِاللّٰهِ وَرَسُولِهِ ؕ وَالْكِتَابِ الَّذِي نَزَّلَ عَلَىٰ رَسُولِهِ ؕ وَالْكِتَابِ الَّذِي أُنزِلَ^(١) مِن قَبْلُ وَمَن يَكْفُرْ بِاللّٰهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ ؕ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا بَعِيدًا ۝

هذا هو النداء الثاني للمؤمنين في السورة قبل الحديث عن المنافقين؛ وهو يتضمن ثلاث فقرات هي:

١- الأمر الثبات على الإيمان بالله ورسوله وكتابه.

٢- الإيمان بالشرائع السابقة. ٣- أركان الإيمان الست.

ففي هذا النداء: أمر للمؤمنين أن يخلصوا إيمانهم ويصححوه ويثبتوا عليه، ويصدقوا فيه، ويتجنبوا جميع المفسدات، ويتوبوا إلى الله تعالى؛ من جميع ما يكون سببًا في نقص إيمانهم، قال تعالى: ﴿يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تَقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُمْ مُسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٢]

وهذا معنى ﴿يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا ءَامِنُوا بِاللّٰهِ وَرَسُولِهِ﴾ أي اثبتوا ودؤموا على إيمانكم إلى الممات.

ثم بين سبحانه أن من الإيمان الواجب، أن يؤمنوا بالقرآن وهو ﴿وَالْكِتَابِ الَّذِي نَزَّلَ عَلَىٰ رَسُولِهِ ؕ وَالْكِتَابِ الَّذِي أُنزِلَ﴾ محمد ﷺ.

ويؤمنوا أيضًا بالكتب المنزلة على رسله من قبل، وهذا معنى ﴿وَالْكِتَابِ الَّذِي أُنزِلَ مِن قَبْلُ﴾ وهو التوراة التي نزلت موسى، والإنجيل الذي نزل على عيسى، والزبور الذي نزل

(١) قرأ ابن كثير وأبو عمرو وابن عامر (الذي نُزِّلَ - الذي أُنْزِلَ) على البناء للمفعول في الفعلين، ونائب الفاعل يعود على الكتاب، وقرأ الباكون (نَزَّلَ - أُنْزِلَ) على بنائهما للفاعل، والفاعل ضمير يعود على (الله) في قوله تعالى: (آمِنُوا بالله).

على داود، وهكذا سائر الكتب والصحف التي نزلت على رسل الله، ما علمنا منها وما لم نعلم، ولا يكون العبد مؤمناً إلا إذا آمن بالرسول والكتب التي قبل محمد ﷺ.

ثم ذكر الآية أركان الإيمان الستة وبينت أن الكفر بها ضلال بعيد موصل إلى عذاب الله تعالى.

في سبب النزول:

ورد أن نفرًا من أهل الكتاب أتوا رسول الله ﷺ فقالوا: إنا نؤمن بك وبكتابك، وبموسى والتوراة وعُزير، ونكفر بما سوى ذلك من الكتب والرسول، فقال النبي ﷺ: «بل آمنوا بمحمد والقرآن وبكل كتاب ورسول قبله»، قالوا: فأنزل الله الآية^(١) لتقول للمؤمنين: يا من آمنتم بمحمد والقرآن، داوموا واثبتوا على ما أنتم عليه من الإيمان والتصديق الجازم بالله ورسوله النبي الخاتم ﷺ والقرآن الذي نزل عليه، واعمِلوا بطاعته، وآمنوا بجميع الكتب التي نزلت على جميع الرسل قبله، كالتوراة التي نزلت على موسى، والإنجيل الذي نزل على عيسى، ولا تكفروا بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر والقدر خيره وشره.

ولفظ الكتاب: اسم جنس يشمل جميع الكتب المنزلة من عند الله تعالى.

والمعنى: آمنوا بموسى وكتابيه، وآمنوا بعيسى وكتابيه ﴿وَمَنْ يَكْفُرْ بِاللَّهِ﴾ ربًّا ومعبودًا ﴿وَمَلَائِكَتِهِ﴾ الذين لم يرههم ﴿وَكُتُبِهِ﴾ التي أنزلها لهداية الخلق ﴿وَرُسُلِهِ﴾ الذين اصطفاهم لتبليغ الرسالة ﴿وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾ الذي يقوم فيه الناس بعد موتهم للعرض والحساب والجزاء؛ ويكفر بالقدر خيره وشره، فقد أبعد النجعة، وسلك طريق أهل الضلال.

والكفر ببعض ما ذكر كفر ب كله. قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَءَامِنُوا بِرَسُولِهِ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِنْ رَحْمَتِهِ وَيَجْعَلْ لَكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [الحديد]

ومن يكفر برسالة محمد ﷺ من أهل الكتاب فقد آمن ببعض الرسل وكفر ببعض.

هذا: والأمر الموجه للمؤمنين في الآية بالإيمان يُحتمل أنه موجه إلى قوم آمنوا بمحمد ﷺ من اليهود، ثم طلبوا من النبي ﷺ أن يؤمنوا بموسى وكتابيه ولا يؤمنوا بعيسى وكتابيه^(٢).

(١) الواحدي «أسباب النزول» (١٠٦) عن الكلبي.

(٢) وقد جاء ذلك عن ابن عباس، كما أخرجه الثعلبي، ينظر: «الدر المثور» (٧٦/٥) ورواه الواحدي عن الكلبي.

وهؤلاء نفر من اليهود هم: عبد الله بن سلام، وأسد وأسيد ابنا كعب، وثعلبة بن قيس، وسلام ابن أخت عبد الله بن سلام، وسلمة بن أخيه، ويامين بن يامين.

وفيه تعريض بالذين يزعمون منهم أنهم يؤمنون بالله ورُسله، ثم ينكرون نبوة محمد ﷺ وينكرون القرآن، ويكرهون جبريل عليه السلام.

ويُحتمل أن يكون الخطاب في الآية موجَّهاً إلى المنافقين، وكأن الله تعالى يقول لهم: يأيتها الذين أظهرُوا الإيمان أخلصوا إيمانكم حقاً، واجعلوا ظاهركم كباطنكم، -وأمنوا بالكتب والرسل السابقين ولا تكفروا باليوم الآخر وما فيه من بعث وحشر ونشر وحساب وجزاء - وفيه دعوة للمؤمنين بالثبات على إيمانهم^(١).

سَبْعَةُ أَوْصَافٍ لِلْمُنَافِقِينَ

١٣٧ - ﴿إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا ثُمَّ ءَامَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا ثُمَّ ءَزَادُوا كُفْرًا لَّمْ يَكُنِ اللَّهُ لِيَغْفِرْ لَهُمْ وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ سَبِيلًا﴾ (١٣٧)

وبعد الكلام عن الإيمان يأتي الكلام عن النفاق والمنافقين، فيُشرُّ الله المنافقين بعذاب أليم، ويذكرُ بعض صفاتهم العقائدية، ويحذِّرهم وينذرهم، ثم يفتح باب التوبة لهم، وقد وصف الله المنافقين في هذه الآيات بستة أوصاف:

الْوَصْفُ الْأَوَّلُ: التَّرَدُّدُ وَالتَّذَذُّبُ

وأصلُ كلمة النفاق مأخوذة من نافقاء اليربوع، وهذا اسم لجُحر هذا الحيوان المسمى (اليربوع) وهذا الجُحر له بابان، يدخل (اليربوع) من بابٍ، ويخرج من الباب الآخر، فيصُعب عليك أن تُمسك به، كلما أُتيت إليه من هذا الباب هرع إلى الباب الآخر، وهكذا المنافق.

وعن ابن عمر أيضاً أن رسول الله ﷺ قال: «إنما مثل المنافق مثل الشاة العائرة بين الغنمين، تعير إلى هذه مرة وإلى هذه مرة، لا تدري أيهما تُتبع»^(٢).

(١) ينظر: «تفسير التحرير والتنوير» (٢٢٩/٤) بزيادة عليه.

(٢) «المسند» (٥٠٧٩، ٥٧٩٠، ٦٢٩٨) قال محققوه: إسناده صحيح على شرط الشيخين، وانظر (٤٨٧٢)، وأخرجه البيهقي في «الشعب» (٨٤٣٧)، وصحيح مسلم (٢٧٨٤) والطبري في التفسير (١٠٧٢٨) والطبراني في الصغير (٥٨٥) والنسائي (١٢٤/٨).

فالمنافق متذبذب، يكفر بعد إيمان، ويضل بعد هدى، ويعمى بعد إِبْصَار، ثم يستمر على كفره ويزداد منه، إنه يتردد بين الإيمان والكفر كثيرًا، فهو يرتد بعد إيمان، مرة بعد مرة، والكفر الأول يغفره الإيمان ويمحوه، فالإسلام يجب ما قبله، والتوبة تجب ما قبلها، أما الكفر بعد إيمان أكثر من مرة إلى الممات فهو ذنب لا يُغفر، ولا يُعذر فاعله، فهو بعيد من التوفيق والهداية، لأن كفره صار طبعًا وخلقًا لا يزول، وقد أخذ عليٌّ عليه السلام من الآية أن المرتد يُستتاب ثلاثًا.

عن ابن عباس ومجاهد: أن الآية نزلت في المنافقين، آمنوا ثم ارتدوا وثبتوا على كفرهم حتى ماتوا^(١).

فهم قوم آمنوا، ثم رجعوا عن إيمانهم، ثم عادوا إلى الإيمان، ثم رجعوا عنه وازدادوا كفرًا بذنوب أخرى فوق كفرهم، وأصروا على الكفر واستمروا عليه حتى ماتوا، هؤلاء لا توبة لهم بعد موتهم، ولا يغفر الله لهم ما قاموا على الكفر وماتوا عليه، ولم يجعل الله لهم فرجًا ولا مخرجًا ولا طريقًا إلى الهدى ينجون بها من سوء العاقبة؛ لأنهم بكفرهم غير مهتدين، والمؤمن الحق إذا تذوق طعم الإيمان وحلاوته يكره أن يعود إلى الكفر، كما يكره أن يُقذف في النار، وهذا التردد يدل على عدم صحة إيمانه.

ويشبه هذه الآية قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَانِهِمْ ثُمَّ أَزْدَادُوا كُفْرًا لَّنْ تُقْبَلَ تَوْبَتُهُمْ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الضَّالُّونَ﴾ [آل عمران].

ومفهوم الآية أنهم إن رجعوا إلى الإيمان ولم يزدادوا كفرًا، وتركوا ما هم عليه من الكفر فإن الله يغفر لهم وإن تكررت منهم الردة، وإذا كان هذا بالنسبة إلى الكفر، فما دونه من المعاصي من باب أولى، فلو عاد العبد إلى التوبة عاد الله له بالمغفرة.

والآية عامة تشمل كل من تكرر منه الكفر بعد الإيمان مرات وكرات من المرتدين.

وتشمل المنافقين الذين يظهرون الإسلام للمسلمين ويظهرون الكفر للكافرين ﴿وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ ءَامَنُوا قَالُوا ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوْا إِلَىٰ شَيَاطِينِهِمْ قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزَءُونَ﴾ [البقرة]

وتشمل اليهود الذين آمنوا بموسى، ثم عبدوا العجل، ثم آمنوا بموسى، ثم كفروا

(١) رواه ابن جرير عن ابن جريج عن مجاهد (٥٩٧/٧) وأخرجه ابن أبي حاتم (٦١١٤).

بعيسى، ثم ازدادوا كفراً بمحمد، وفيهم قال تعالى: ﴿وَإِذَا جَاءُوكُمْ قَالُوا ءَامَنَّا وَقَدْ دَخَلُوا بِالْكَفْرِ وَهُمْ قَدْ خَرَجُوا بِهِ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا كَانُوا يَكْتُمُونَ﴾ [المائدة].

وفي آية أخرى قال تعالى: ﴿وَقَالَتْ طَائِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ الْكَتَافِ ءَامِنُوا بِالَّذِي أُنْزِلَ عَلَى الَّذِينَ ءَامَنُوا وَجَهَ النَّهَارِ وَكُفُّوا ءَاخِرُهُ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ [آل عمران]

واليهود المعاصرون من بعثة محمد ﷺ إلى قيام الساعة آمنوا بموسى وكفروا ببعض أنبيائهم كنبى الله لوط وداود وسليمان، وكفروا بعيسى، وازدادوا كفراً بمحمد.

والتَّصَارَى آمنوا بعيسى، ثم كفروا حين قالوا: عيسى ابن الله، وثالث ثلاثة، وكفروا بمحمد ﷺ.

وقد حدث هذا الكفر المتكرّر من بعض أهل مكة الذين كانوا يذهبون بتجارتهم إلى المدينة فيؤمنون وهم في المدينة، فإذا عادوا إلى مكة كفروا وهكذا.

وقول الله تعالى: ﴿لَمْ يَكُنِ اللَّهُ لِيَغْفِرْ لَهُمْ﴾ يقطع بعدم إيمانهم، وهذا بالنسبة لعلم الله تعالى، ولم يخبر الله نبيّه ولا أحداً من خلقه بذلك، فهم مخاطبون بالإيمان ومكلّفون به، قال تعالى مبيناً عقوبة المنافقين:

١٣٨- ﴿بَشِّرِ الْمُنَافِقِينَ بِأَنَّهُمْ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾

وتمضي السورة في معالجة الرواسب الجاهلية وتربية المجتمع المسلم، فبعد أن تحدثت عن الإيمان وأهله تكشف سمات المنافقين التي نوّهت بهم الآية السابقة، ويستغرق بيان أحوالهم وأوصافهم إلى نهاية هذا الجزء من السورة.

ويبدأ الحديث عن المنافقين بالتهكّم بهم، وبيان سوء مصيرهم في الآخرة، فقد أمر الله رسوله أن يخبر المنافقين -متهكّماً بهم- بعذابٍ مّوجع يوم القيامة لكل من مات منهم على النفاق العقدي، فأظهر الإسلام وأبطن الكفر؛ لأنهم آمنوا ثم كفروا فطُبع على قلوبهم، وهذا معنى البُشرى في الآية، إذ أن البشارة تكون في الخير، وتستعمل في الشر إذا قُيدت، وقد قُيدت هنا بالمنافقين، وهم الذين يظهرون ما لا يبطنون وقيل: البشارة كلُّ خبر تتغير به بشرة الوجه ساراً كان الخبر أو سيئاً.

الوصف الثاني: المنافقون يتخذون الكافرين أولياء ويتركون المؤمنين

١٣٩ - ﴿الَّذِينَ يَتَّخِذُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ أَبِئِنَّهُمْ عِنْدَهُمُ الْغَزَّةَ فَإِنَّ الْغَزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا﴾

ثم بين سبحانه سبب هذا العذاب بذكر الوصف الثاني للمنافقين، فهم لا يثقون من قلوبهم في الإسلام وأهله، ولذلك فهم يتركون ولاية المؤمنين، ولا يرغبون في مودتهم، ويوالون غير المسلمين فيتخذون منهم أعواناً وبطانةً وأولياء من دون المؤمنين، والذي حملهم على ذلك، أنهم يبتغون عندهم العزة، لقد كشف القرآن عن سوء تصوّرهم لحقيقة القوة، وذلك لأنهم يلتمسون منهم النصرة، ويحتمون فيهم طلباً للعزة والمعونة والمنعة على غيرهم، لقد ساء ظنهم بالله وضعف يقينهم بنصر الله لعباده المؤمنين.

يقول تعالى ردّاً عليهم واستنكاراً لما زعموه: ﴿أَبِئِنَّهُمْ عِنْدَهُمُ الْغَزَّةَ﴾ ليس الأمر كذلك ﴿فَإِنَّ الْغَزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا﴾ هو الذي يعز أوليائه أهل طاعته، ويذل أهل معاصيه الخارجين على حدوده ﴿مَنْ كَانَ يُرِيدِ الْغَزَّةَ فَلِلَّهِ الْغَزَّةُ جَمِيعًا﴾ [فاطر: ١٠] ﴿وَلِلَّهِ الْغَزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [المنافقون: ٨] ولله تعالى القوة والغلبة والقدرة.

بيده نواصي العباد ومشيتته نافذة فيهم، وقد تكفل بنصر دينه وعباده المؤمنين ولو تخلل ذلك بعض الابتلاءات لهم، وظهور الأعداء عليهم، فإن العاقبة للمتقين كما قال سبحانه: ﴿وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الروم: ٤٧].

وقال جل شأنه: ﴿إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ ءَامَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهُدُ﴾ [غافر: ٥١].

وقد فضح الله من يسارعون في مودة غير المسلمين ليتقوا بهم على أعدائهم، وبين أنهم مرضى منافقون في عقيدتهم، وأن الموازين قد تنقلب فيفتح الله على المؤمنين ويذل غيرهم فيندموا على ما أسروه في أنفسهم ﴿فَتَرَى الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ يُسْرِعُونَ فِيهِمْ يَقُولُونَ نَخْشَى أَنْ تُصِيبَنَا دَآئِرَةٌ﴾ يقول تعالى: ﴿فَعَسَى اللَّهُ أَنْ يَأْتِيَ بِالْفَتْحِ أَوْ أَمْرٍ مِنْ عِنْدِهِ فَيُصْبِحُوا عَلَى مَا أَسْرُوا فِي أَنْفُسِهِمْ نَدِيمِينَ﴾ [المائدة: ٥٢].

فإن أرادوا العزة والغلبة على أعدائهم فما عليهم إلا أن يقيموا منهج الله في أرضه، وينصروا دينه، ويأخذوا بأسباب النصر المعنوية والمادية، فينصرهم الله ويعزهم ويقويهم، وطلب العزة لا يكون إلا من الله تعالى؛ لأنه الذي يملكها، وعلى الإنسان ألا يعتز إلا

بالله تعالى، ومجد الإنسان في إيمانه وسلوكه، وليس في ولائه وانتمائه لغير المسلمين، ولا يكون مجد الإنسان في ماله وجاهه، أو حسبه ونسبه، فإن كان له آباء وأجداد ماتوا على الكفر، وكانوا ملوك الدنيا وسادتها وأرباب حضارتها؛ فإن من الجهل والحماسة الانتساب إليهم، كالفراعنة والبابليين وعرب الجاهلية والآشوريين والفينيقيين.

روى الإمام أحمد وغيره بسند فيه انقطاع عن أبي ریحانة رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «من انتسب إلى تسعة آباء كفار يريد منهم عزاً وفخراً فهو عاشرهم في النار»^(١).

وقد دلت هذه الآية على وجوب موالاة المؤمنين ونهت عن موالاة غيرهم، كما قال تعالى: ﴿لَا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ﴾ [المجادلة: ٢٢].

والموالاة تختلف عن الإحسان إلى غير المحاربين منهم وإقامة العدل بينهم، الوارد في قوله تعالى: ﴿لَا يَنْهَكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُمْ مِنْ دِينِكُمْ أَنْ تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ﴾ [المتحنة: ٨].

ومن الولاء لغير المسلمين: الاستعانة بالخبراء والمستشارين منهم، مع وجود أمثالهم في بلاد المسلمين.

الْوَصْفُ الثَّالِثُ: الْمُنَافِقُونَ يَسْتَرِيحُونَ إِلَى الطُّغْنِ فِي الْإِسْلَامِ وَيَقْتَفُونَ أَثَرَهُ

١٤٠ - ﴿وَقَدْ نَزَّلَ^(٢) عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ ءَايَاتِ اللَّهِ يُكْفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلَا تَقْعُدُوا مَعَهُمْ حَتَّى يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ إِنَّكُمْ إِذَا مِثْلَهُمْ إِنَّ اللَّهَ جَامِعُ الْمُنَافِقِينَ وَالْكَافِرِينَ فِي جَهَنَّمَ جَمِيعًا﴾ هذا بيان للحكم الشرعي عند حضور مجالس الكفر أو المعاصي أو البدع والفسوق.

(١) «المسند» (١٣٣/٤) برقم (١٧٢١٢) إسناده ضعيف، لأن عبادة بن نسي لم يدرك أبا ریحانة كما قال محققوه، وقال الهيثمي في «مجمع الزوائد» (٨٥/٨): رجال أحمد ثقات، وأخرجه البخاري في التاريخ (٣٥٦/٢) وقال: ما أراه إلا مرسلًا، وأخرجه أبو يعلى (١٤٣٩) والطبراني في الأوسط (٤٤٦) والبيهقي في الشعب (٥١٣٢).

(٢) قرأ عاصم ويعقوب (وقد نَزَلَ) على البناء للفاعل، والفاعل ضمير يعود على الله تعالى، وقرأ الباقر (وقد نَزَلَ) مبنياً للمفعول، وأن وما بعدها في محل رفع نائب فاعل.

وأول مراتب النفاق أن يجلس المسلم مجلسًا يسمع فيه الاستهزاء والسخرية والاستهانة بالإسلام أو بشيء من تعاليمه، أو يقبل الاستهزاء بالمسلمين أو ببعض الدعاة منهم، فيسكت ويتغاضى مجاملةً ومداهنةً، ويظن ذلك مرونةً وسعةً أفق.

وكان المشركون يفعلون مثل ذلك في مكة فنهى الله المسلمين عن الجلوس معهم ﴿وَإِذَا رَأَيْتَ الَّذِينَ يَخُوضُونَ فِي آيَاتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّى يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ وَإِمَّا يُنسِيَنَّكَ الشَّيْطَانُ فَلَا تَقْعُدْ بَعْدَ الذِّكْرِىَ مَعَ الْقَوَارِظِ الْفٰلِظِينَ﴾ [الأنعام]، وهذه آية مكية من سورة الأنعام.

وكان اليهود يفعلون ذلك في المدينة، فنهى الله المسلمين عن مجالستهم في هذه الآية، وعدَّ ذلك نفاقاً، فقال تعالى: ﴿وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ﴾ أيها المؤمنون ﴿فِي الْكِتَابِ الْمُحْكَمِ﴾ وهو القرآن ﴿أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ﴾ الكفر والاستهزاء بالقرآن وأهله من المنافقين وغير المسلمين فيجب عليكم التصدي لهم وبيان الحق والدفاع عن الإسلام وأهله، فإن لم تكن صاحب علم وحجة، فقاطع هذا المجلس وأهله، وابحث عن من يفند مزاعمهم ويصحح مسارهم ليقوم بهذه المهمة، ولا يجالسوهم حتى يخوضوا في حديث غير حديث الكفر والاستهزاء بآيات الله تعالى، فإن الواجب على كل مسلم مكلف أن يعظم آيات الله ويجلها، ويدافع عنها، ولا يسمح بإهانتها.

ثم يأتي الحكم الإلهي على من قبل ذلك فجاملهم على حساب دينه، فقال تعالى: ﴿إِنَّكَ إِذَا مَثَلْتُمْ﴾ وفي هذا تهديد يرجف له كيان المسلم، أي: إن رضيت بهذا فأنتم وهم في الكفر سواء، وهذا دليل على أن من رضي بالكفر فهو كافر، ومن رضي بمنكر شارك أهله في الإثم وإن لم يباشره، وكذلك الشأن بالنسبة لمجالسة أهل البدع والمنكرات؛ لأن الراضي كالفاعل، فإن اجتمعوا في الدنيا على الاستهزاء بآيات الله تعالى، فإن عذاب الله يجمعهم يوم القيامة، وفي هذا دليل على وجوب اجتناب أهل المعاصي إذا جاھروا بالمنكر.

ومن هذا القبيل بعض الألفاظ التي يُراد بها الضحك والتسلية في المسرحيات والتمثيلات والأفلام، فمنهم من يحرف لفظ الجلالة، ومنهم من يسخر بالإسلام وأهله على سبيل الضحك والنكتة، ويصوّرهم على غير الحقيقة، أو يسخر من تعاليم الإسلام وأوامره ونواهيه وإقامة حدوده، ونحو ذلك.

ورد أن عمر بن عبد العزيز رأى قومًا يشربون الخمر، ف قيل له: إن أحد الحاضرين

صائم، فتوجه إليه قائلا: ﴿إِنكُم إِذَا مَثَلْتُمْ﴾ أي: أن الرضا بالمعصية معصية، ولهذا: فإن الفاعل والراضي تشملهما العقوبة حتى يهلكوا جميعاً، فأول الشرّ سماعُ الشرِّ.

ويتعين على من حضر مجلساً يُعصى فيه رب العالمين، أن ينكر عليهم مع القدرة على ذلك بأي مراتب الإنكار.

وأول مراتب ضعف الإيمان: أن تفتّر حماسة المؤمن في الدفاع عن الحق الذي آمنوا به، والمؤمن الصادق ينبري للدفاع عن دينه بحماسة وشجاعة.

وأول مراتب النفاق: السكوت عن الحق باسم التغاضي أو التسامح والمرونة.

والمرء يحشر يوم القيامة مع من أحب، ومن ذلك حضور مجالس اللهو واللغو وحضور الأعياد الدينية لغير المسلمين؛ لأن فيه اعترافاً بباطلهم، ﴿إِنكُم إِذَا مَثَلْتُمْ﴾ قال تعالى: ﴿وَلَا تَرْكَبُوا إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا فَمَا تَمَسَّكُمُ النَّارُ﴾ [هود: ١١٣] لأنكم رضيتم بكفرهم واستهزائهم، والراضي بالمعصية كالفاعل لها، والركون إلى أهل الكفر والمعاصي يكون سبباً في مشاركتهم العذاب، وكما اجتمعوا في الدنيا على الكفر والنفاق بأنهم يجتمعون جميعاً يوم القيامة في نار جهنم ﴿إِنَّ اللَّهَ جَامِعُ الْمُنَافِقِينَ وَالْكَافِرِينَ فِي جَهَنَّمَ جَمِيعًا﴾ فالمسلم يجب عليه أن يغضب لله تعالى، وقد نعى الله على المؤمنين مودةً غير المسلمين وهم يكفرون بدينهم فقال: ﴿تَلْقَوْنَ إِلَيْهِم بِالْمُودَةِ وَقَدْ كَفَرُوا بِمَا جَاءَكُمْ مِنَ الْحَقِّ﴾ [المتحة: ١].

الْوَصْفُ الرَّابِعُ: الْمُنَافِقُونَ يَتَرَبَّصُونَ بِالْمُؤْمِنِينَ لِإِظْهَارِ تَأْيِيدِهِمْ عِنْدَ كَسْبِ الْمَغْرَكَةِ

١٤١- ﴿الَّذِينَ يَتَرَبَّصُونَ بِكُمْ فَإِنْ كَانَ لَكُمْ فَتْحٌ مِنَ اللَّهِ قَالُوا أَلَمْ نَكُنْ مَعَكُمْ وَإِنْ كَانَ لِلْكَافِرِينَ نَصِيبٌ قَالُوا أَلَمْ نَسْتَحِذْ عَلَيْكُمْ وَتَمْنَعَكُم مِنَ الْمُؤْمِنِينَ فَاللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ وَلَنْ يَجْعَلَ اللَّهُ لِلْكَافِرِينَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ سَبِيلًا﴾ (١٤١)

في هذه الآية بيان لحقيقة موالاة المنافقين للكافرين ومعاداتهم للمؤمنين، فالمنافقون يتربصون الدوائر بالمؤمنين، ويتربصون ما يحدث لكم من خير أو شر، أو نصر أو هزيمة، فهم ينتظرون ما يحل بكم من الفتن والحروب، ويعدون لكل حالة جواباً بحسب نفاقهم، فيظهرون أنهم كانوا مع المؤمنين قلباً وقالاً ليسلموا من القدر والطعن فيهم:

فإن من الله على المؤمنين بالنصر على عدوهم والظفر بالمغانم قالوا لهم: ألم نكن معكم نؤازركم، وكنا معكم نحمي ظهوركم وننصركم؟ فأعطونا مما غنمتم وأشركونا معكم فيما يعود عليكم من خير، وكانوا يخرجون مع المسلمين أحياناً لإحداث البلبلة والخلخلة في صفوف المسلمين كما حدث يوم أحد.

وإن كان للجاحدين لهذا الدين قدرٌ من النصر والغنيمة قالوا لهم: ألم نساعدكم فيما قدّمناه لكم من أسرار تتعلق بالمسلمين، وقد حميناكم من المؤمنين؟ هذا معنى: ﴿وَإِنْ كَانَ لِلْكَافِرِينَ نَصِيبٌ﴾ يصيبونه من حظّ الدنيا بالنصر والمغانم.

وقد عبّر سبحانه في جانب المؤمنين بكلمة ﴿فَتَحْ﴾ وعبّر في جانب الكفار بكلمة ﴿نَصِيبٌ﴾ لأن الكفار لم يحدث لهم فتح يكون مبدئاً لنصرٍ مستمر، وغاية ما هنالك أن يكون لهم نصيب غير مستقر، فإن كان للكافرين مثل هذا النصيب ﴿قَالُوا أَلَمْ نَسْتَحِذْ عَلَيْكُمْ﴾ والاستحواذ هو الغلبة والاستيلاء، ألم نغلبكم ونستولى عليكم، ونتمكّن منكم ومن قتالكم وأشركم، ثم لم نفعل ذلك بكم وقد منعناكم من المؤمنين، فثبّطناهم وخذلناهم، وأعلمناكم بأسرارهم، فهاتوا نصيباً مما غنمتم.

وهكذا فهم يلقّون المؤمنين بوجه ويلقّون الكافرين بوجه، ويكونون مع الكفة الراجحة هنا أو هناك.

قال تعالى كاشفاً الستر عنهم ومبيّناً جزاء مكرهم وكيدهم ﴿قَالَ اللَّهُ يَخِزُّكُمْ بِبَئْزَ الْهَازِ﴾ بمقتضى علمه تعالى ببواطنكم فيلقى كلّ من الفريقين جزاء عمله يوم تُبلى السرائر، فيجازى المؤمن الصادق جنات النعيم، ويعذب المنافقين والمنافقات والمشرّكين والمشركات، وهكذا.

وسمّى الله تعالى ظفر المؤمنين فتحاً تعظيماً لشأنهم، وسمّى ظفر الكافرين نصيباً تخسيساً لشأنهم، والفتح يكون من الله، وأبواب السماء تفتح له حتى ينزل النصر على المسلمين، أما النصيب فهو جزاء ما بذلوه في الدنيا ولا يبقى لهم في الآخرة إلا العقوبة، والعاقبة للمؤمنين، فإن حدث نصرٌ للكافرين في الدنيا فإن أهل الإيمان هم أهل الظفر والفوز في الآخرة.

قال تعالى: ﴿وَلَنْ يَجْعَلَ اللَّهُ لِلْكَافِرِينَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ سَبِيلًا﴾ أي تسلطاً وسلطاناً واستيلاء عليهم، بل لا تزال طائفة من المؤمنين على الحق منصوره، لا يضرهم من خذلهم ولا من خالفهم.

قال علي بن أبي طالب: ولن يجعل الله للكافرين يوم القيامة على المؤمنين سبيلاً^(١).

وقيل: إن المعنى: ولن يجعل الله للكافرين في الدنيا سبيلاً على المؤمنين بالحكم والولاية وإقامة الحجة، إلا إذا تواصى المؤمنون بالباطل، ولم يتناهوا عن المنكر، وسوفوا في التوبة، ولم يقيموا منهج الله في أرضه، فإن الله تعالى يعاقب المؤمنين في هذه الحالة بتسليط الكافرين عليهم ﴿وَمَا أَصْبَكُمْ مِّنْ مُّصِيبَةٍ فِيمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ﴾ [الشورى: ٣٠] وهذا معنى وجيه، ولا يتعارض مع المعنى الأول، فيتحقق عدم ولاية الكفار على المؤمنين في الدنيا والآخرة ما داموا مؤمنين، فإن حدث في إيمانهم ثغرة، فإن الهزيمة تلحق بهم، والتاريخ الإسلامي يشهد بذلك، فليس بيننا وبين النصر على العدو - في كل زمان ومكان - إلا تحقيق الإيمان والاعتماد على الذات في إعداد العدة، وعدم الركون إلى الأعداء، وطلب العزة من الله تعالى، وعزة الله تعالى وحجته غالبية في كل حال، ولن يجعل الله للكافرين على المؤمنين طريقاً للغلبة على عباده الصالحين، بمحو دولتهم واستباحة بيوتهم، فالعاقبة للمتقين في الدنيا والآخرة، قال تعالى: ﴿إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ ءَامَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهُدُ﴾ [غافر].

والمراد بالسبيل في الآية: الولاية عليهم وهزيمتهم والغلبة عليهم.

وما نراه من وصاية غير المسلمين على المسلمين في عصرنا، فيه دلالة واضحة على بُعد المسلمين من ربهم، وعدم تسخير طاقاتهم الروحية والمادية لخدمة دينهم ووطنهم، وركونهم إلى الدنيا وشهواتها.

الْوَصْفُ الْخَامِسُ: الْخِدَاعُ

١٤٢- ﴿إِنَّ الْمُنَافِقِينَ يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَهُوَ خَادِعُهُمْ وَإِذَا قَامُوا إِلَى الصَّلَاةِ قَامُوا كُسَالًا يُرَاءُونَ^(٢)

(١) أخرجه عبد الرزاق (٥١) وابن جرير (٣٢٧/٩) عن ابن عباس بإسناد صحيح، والحاكم (٣٠٩/٢) وصححه ووافقه الذهبي، وغيرهم.

(٢) سهل حمزة همزة (يراءون) وفقاً مع المد والقصر.

النَّاسَ وَلَا يَذْكُرُونَ اللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٤٢﴾

في هذه الآية والتي بعدها خمس خلال من شنائع المنافقين، وهي: الخداع، وصفة صلاة المنافقين، والرياء، وقلة ذكر الله تعالى، والتذبذب.

وهكذا تمضي الآيات في تقرير صفات المنافقين، وقبيح خصالهم، فهم يَظْهَرُونَ للمؤمنين بوجه، وللكافرين بوجه، يُظْهَرُونَ إيمانهم ويُطْطِنُونَ كفرهم؛ مخادعة لله تعالى، والله تعالى لا يُخَادَع؛ لأنه يعلم السرائر والظواهر، فهم يظنون أن ذلك يخفى عليه سبحانه، هذا معنى.

والمعنى الآخر: أنهم يتعاملون مع الله تعالى معاملة المُخَادَع.

أما خِدَاعُ الله لهم فمعناه: والحال أن الله خادعهم، فيستدرجهم ويتركهم في غيهم، ثم يُجَازِيهِمْ بمثل عملهم.

أي: أن الله تعالى يُعَاقِبُهُمْ يوم القيامة بمثل عملهم، فيُعْطِيهِمْ نورًا قليلًا يمشون به على الصراط، ويُعْطِي المؤمنين نورهم كاملاً، ثم ينطفئ نور المنافقين على الصراط وهم يمشون عليه، فيقولون للمؤمنين: انتظرونا نسير في نوركم، فيقولون لهم تهكمًا: ارجعوا إلى الدنيا فالتمسوا نورًا، أو انظروا خلفكم فالتمسوا نورًا، فإذا التمسوا ذلك ضُرب بينهم وبين المؤمنين بسور؛ باطنه فيه الرحمة وظاهره من قبله العذاب.

فومِضُ النور المؤقت الذي يسرون في ضوئه على الصراط هو مقابل الإيمان المؤقت الذي أظهروه في الدنيا، ثم يسرون في ظلام مساوٍ لكفرهم وباطنهم.

قال تعالى: ﴿يَوْمَ تَرَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ يَسْعَى نُورُهُمْ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِمْ بُشْرَاكُمُ الْيَوْمَ جَنَّتُ بَحْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿١٢﴾ يَوْمَ يَقُولُ الْمُنْفِقُونَ وَالْمُنْفِقَاتُ لِلَّذِينَ آمَنُوا انظُرُونَا نَقْتِسِ مِنْ نُورِكُمْ قِيلَ ارْجِعُوا وَرَاءَكُمْ فَالْتَمِسُوا نُورًا فَضُرِبَ بَيْنَهُمْ بِسُورٍ لَمْ يَأْتِ فِيهَا فِيهِ الرَّحْمَةُ وَظَلَهُمْ مِنَ فَيْكِهِ الْعَذَابُ ﴿١٣﴾ ينادونهم أَلَمْ نَكُنْ مَعَكُمْ قَالُوا بَلَى وَلَكِنَّكُمْ فَتَنْتُمْ أَنْفُسَكُمْ وَتَرَبَّصْتُمْ وَارْتَبْتُمْ وَغَرَّتْكُمُ الْأَمَانِيُّ حَتَّى جَاءَ أَمْرُ اللَّهِ وَغَرَّكُمْ بِاللَّهِ الْغُرُورُ ﴿١٤﴾﴾ [الحديد].

وفي هذا المعنى قال تعالى: ﴿كُلَّمَا أَصَاءَ لَهُمْ مَشَوْا فِيهِ وَإِذَا أَظْلَمَ عَلَيْهِمْ قَامُوا﴾ [البقرة: ٢٠].

قال السُّدِّي في معنى الآية: يُعْطِيهِمُ الله يوم القيامة نورًا يمشون به مع المسلمين كما

كانوا معهم في الدنيا، ثم يسلبهم ذلك النور فيطفئته، فيقومون في ظلمتهم، ويضرب بينهم السور، والله تعالى يُمهِّل المنافقين في الدنيا حتى ينطلي أمرهم على الناس ويروج بينهم، وهم يوم القيامة في الدرك الأسفل من النار.

الْوَصْفُ السَّادِسُ: صِفَةُ صَلَاةِ الْمُنَافِقِينَ

ثم إن هؤلاء المنافقين من صفاتهم أنهم إذا قاموا إلى الصلاة وهي أكبر الطاعات العملية، قاموا كُسالى، متبرمين من فعلها، فلا يخافون على ضياع وقتها أو تركها، وإنما يقومون إليها مُتثاقلين في فتور وكسل، ويقصدون بصلاتهم الرياء والسمعة.

والسبب في هذا أن قلوبهم فارغة من الرغبة فيما عند الله تعالى، ولو كان فيها شيء من صدق الإيمان لرغبوا فيها وما تثاقلوا عنها ﴿يَرَاءَوْنَ النَّاسَ﴾.

وفي الحديث عن جندب العَلَقِيّ قال: قال رسول الله ﷺ: «مَنْ سَمِعَ سَمْعَ اللَّهِ بِهِ، وَمَنْ يَرَاءِي يَرَاءِي اللَّهَ بِهِ»^(١) فهم يؤدونها أمام الناس، ولا يعتقدون بوجوبها عليهم، وصلاتهم لا تشتمل على كثير من التسييح والتحميد والقراءة، ولا تؤدَّى بخشوع واطمئنان، فهم ينقرونها نقر الغراب ويؤدونها على عجل، وهم يرقبون الشمس فيؤخرون أداؤها حتى يوشك وقتها على الانتهاء ثم يقومون فينقرونها على وجه السرعة. ﴿وَلَا يَذْكُرُونَ اللَّهَ﴾ فيها ﴿إِلَّا قَلِيلًا﴾ ولا يذكرون الله فيها إلا قليلاً، هذه صفة المنافقين في أفضل الأعمال وأشرفها وخيرها وهي الصلاة.

عن أبي هريرة ؓ قال: قال رسول الله ﷺ: «إِنْ أَثْقَلَ الصَّلَاةُ عَلَى الْمُنَافِقِينَ صَلَاةُ الْعِشَاءِ وَالْفَجْرِ، وَلَوْ يَعْلَمُونَ مَا فِيهِمَا مِنَ الْأَجْرِ لَأَتَوْهُمَا وَلَوْ حَبَوًّا، وَلَقَدْ هَمَمْتُ أَنْ أَمُرَ بِالصَّلَاةِ فَتُقَامَ، ثُمَّ أَمُرَ رَجُلًا فَيُصَلِّيَ بِالنَّاسِ، ثُمَّ أَنْظِلُقُ مَعِيَ بِرَجَالٍ مَعَهُمْ حَزْمٌ مِنْ حَطَبٍ إِلَى قَوْمٍ لَا يَشْهَدُونَ الصَّلَاةَ فَأَحْرِقُ عَلَيْهِمْ بَيْوتَهُمْ»^(٢).

زاد في رواية أحمد: «ولولا ما في البيوت من النساء والذرية لأَقْمْتُ صَلَاةَ الْعِشَاءِ،

(١) «صحيح البخاري» برقم (٦٤٩٩، ٧١٥٢) و«صحيح مسلم» برقم (٢٩٨٧).

(٢) «صحيح مسلم» (٤٥١/١) برقم (٦٥١) و«صحيح البخاري» برقم (٦٤٤، ٦٥٧)، والمسند (١٠٠١٦،

(١٠١٠٠) إلى (حبوا).

وأمرت فتیان يحرقون ما في البيوت بالنار»^(١).

وعن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «تلك صلاة المنافق، تلك صلاة المنافق، تلك صلاة المنافق، يجلس يرقب الشمس، حتى إذا كانت بين قرني الشيطان قام فنقرها أربعاً لا يذكر الله فيها إلا قليلاً»^(٢).

وقد وصف الله المرائين بقوله: ﴿الَّذِينَ هُمْ عَنْ صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ﴾ [الماعون].

وقال عنهم: ﴿خَلَفَ مِنْ بَعدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا الصَّلَاةَ وَاتَّبَعُوا الشَّهْوَةَ﴾ [مريم: ٥٩].

الْوَصْفُ السَّابِعُ: التَّرَدُّدُ بَيْنَ الْإِسْلَامِ وَالْكَفْرِ

١٤٣- ﴿مُذَبِّدِينَ بَيْنَ ذَلِكَ لَا إِلَى هَؤُلَاءِ وَلَا إِلَى هَؤُلَاءِ وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَلَنْ يَجِدَ لَهُ سَبِيلًا﴾

والمنافق حائرٌ مضطربٌ مترددٌ بين الصف الإسلامي وصف الكفر؛ لأنه لا يرجع إلى اعتقاد صحيح، وقد بدأ الله صفاتهم في هذه الآيات بهذا التردد وختمها به، لأنه الوصف الأساس الذي يترتب عليه سائر الصفات.

كما في الحديث السابق عن ابن عمر رضي الله عنه: «مثل المنافق: مثل الشاة العائرة بين الغنمين تعير إلى هذه مرة وإلى هذه مرة ولا تدري أيها تتبع»^(٣).

إنها مترددة بين قطيعين من الغنم ولا تدري أيهما تتبع، وهكذا المنافق مذذب لا يستقر على حال، فلا هو مع المؤمنين، ولا هو مع الكافرين.

وهذه الآية تؤكد الصفة الأولى من صفات المنافقين وهي التردد والذبذبة، يكون مع المؤمنين مثلهم ومع الكافرين مثلهم، وهم إلى الكفر أقرب، ومن يصرف الله قلبه عن الإيمان والاستمسك بهديه فلن تجد له طريقاً إلى الهداية واليقين، ولو أنهم سلكوا طريق

(١) «المسند» (١٠١٠١) بإسناد صحيح على شرط مسلم، وأخرجه مسلم (٦٥١) والترمذي (٢١٧) وعبدالرزاق (١٩٨٦).

(٢) «الموطأ» (٢٢٠/١) ومسلم (٤٣٤/١) برقم (٦٢٢) والترمذي (٣٠١/١) برقم (١٦٠) والنسائي (٢٥٤/١) و«سنن أبي داود» برقم (٤١٣، ٦١٢) وقال الترمذي: حسن صحيح، والبيهقي في «السنن» (٤٤٤/١).

(٣) رواه أحمد في «المسند» (٥٠٧٩) والبخاري (٣٣١/٥) ومسلم (٢١٤٦/٤) برقم (٢٧٨٤) وابن جرير (٣٣٣/٩) وغيرهم.

الهدى لهداهم الله ﴿وَإِنْ تُطِيعُوهُ تَهْتَدُوا﴾ [النور: ٥٤]

﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا﴾ [العنكبوت: ٦٩].

النَّهْيُ عَنْ مُوَالَاةِ الْمُخَالِفِينَ فِي الدِّينِ

١٤٤- ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ أُرِيدُونَ أَنْ يُجْعَلُوا لِلَّهِ

عَلَيْكُمْ سُلْطَانًا مُبِينًا﴾

وبعد أن ذمَّ الله تعالى المنافقين وشرح دخائلهم، وبين ما هم عليه من خداع ورياء وضلال وتدبير لإيذاء المسلمين والنيل منهم، وبين جل شأنه أن من صفات المنافقين اتخاذ الكافرين أولياء من دون المؤمنين.

بعد ذلك حذر سبحانه المؤمنين من موالات الكافرين والمنافقين في هذه الآية الجامعة؛ لأن المنافقين يتظاهرون بالإيمان والصلاح ويوالون غير المسلمين، فلا ينبغي التشبه بهم.

وقد جاء هذا التحذير في آيات كثيرة منها قوله تعالى: ﴿لَا يَتَّخِذِ الْمُؤْمِنُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَلَيْسَ مِنَ اللَّهِ فِي شَيْءٍ إِلَّا أَنْ تَتَّقُوا مِنْهُمْ تُقَنَّةً وَيَحَذِّرْكُمْ اللَّهُ نَفْسُهُ وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ﴾ [آل عمران].

وفي الآية تحريم موالات غير المسلمين، وتوبيخ المذبذبين على مسلكهم المشين.

وقد جاء النهي عن مصادقة غير المسلمين في هذا النداء الحبيب الذي يملك القلوب، ويأخذ بمجامع النفوس ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ وشأن المؤمن عندما يسمع هذا النداء أن يقول: سمعنا وأطعنا.

وقد أمرنا الله سبحانه أن نستجيب لله ورسوله إذا دعانا لما فيه حياتنا وسعادتنا.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾ [الأنفال: ٢٤]

وقد ضرب أصحاب رسول الله ﷺ أعلى الأمثلة على الاستجابة لله والرسول، حتى في وقت الهزائم والنكبات؛ ففي يوم حنين نادى النبي ﷺ أصحابه قائلاً: «يا معشر الأنصار الذين آوؤا ونصروا.. يا معشر المهاجرين الذين بايعوا.. هلموا إلي..» سمع المسلمون هذا النداء وهم منهزمون، والنبال تهمر عليهم، ومع ذلك صاحوا قائلين: لييك

يا رسول الله، وكانوا على رواحلهم، فأخذ كل واحد منهم يحاول أن يرُدَّ راحلته نحو النبي ﷺ فتأبى، لشدة الهول، فيُلقي نفسه من فوقها ويتركها ويُسرِع مُهْرُولاً نحو النبي ﷺ مليّاً رسول الله، غير عابئ بالموت!

تُرى -أيها القارئ الكريم- كم يكون الفرق بيننا وبينهم؟ لقد آتانا الله العلم والعقول النيرة، وآتانا الأموال، وفَجَّرَ لنا الأرض؛ لُتُخْرَجَ كنوزها، من غير حولٍ مِنَّا ولا قوة، والخطأ يَكْمُنُ في حب الخلود إلى الدنيا، وعدم توجيه هذه الطاقات في المسار الصحيح، وهو البناء العسكري الذي تُصارع به الأعداء، ونكوّن قوة مماثلة لهم تُخرجنا من دائرة الوصاية علينا، وتُحرِّرنا من هذه التبعية، وهذا التحكم.

ولذلك فإن الله تعالى يحذّر المؤمنين في هذه الآية أن يسلكوا طريق المنافقين في اتخاذهم الكفار أولياء من دون المؤمنين، فيأخذون نصيحتهم، ويلتمسون فيهم الحماية والنصرة، ويروّجون أسلحتهم وذخيرتهم، ويُسرّون إليهم بالمودة، ويُفْشون أحوال المؤمنين إليهم.

فيجب عليكم - أيها المسلمون - ألا تتركوا موالاة المؤمنين ومودتهم ومصاحبتهن ومصادقتهن والإسرار بالمودة إليهم، ولا تقولوا: ﴿نَحْشَى أَنْ تُصِيبَنَا دَائِرَةٌ﴾ [المائدة: ٥٢] أتريدون -بمودتكم أعداء الله- أن تجعلوا لله عليكم حجة بالغة واضحة على عدم صدقكم في إيمانكم، فإنكم إن فعلتم ذلك كنتم مستحقين معهم لنار جهنم؛ لأنكم أقمتهم على أنفسهم السلطان البين بموالاتهم ومحبتهم. قال قتادة: كل سلطان في القرآن فهو حجة^(١).

مَصِيرُ مُنَافِقِي الْعَقِيدَةِ

١٤٥- ﴿إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرَكِ^(٢) الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ وَلَنْ يَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا

وبعد ذكر صفات المنافقين والتحذير من موالاة الأعداء بين سبحانه ما أعدّه لمنافقي العقيدة في الدار الآخرة، فهم أشد الناس كفرًا؛ لأن المنافق في عقيدته قد ضمَّ إلى كفره

(١) عبد الرزاق (٣٩٩/١) وابن أبي حاتم (١٠٩٧/٤) (٦١٥١).

(٢) قرأ عاصم وحزمة والكسائي وخلف العاشر (في الدَّرَك) بسكون الراء، وقرأ الباقر (الدَّرَك) بفتح الراء، وهما لغتان.

كفرًا آخر، هو الضحك على المسلمين، وخيانة الإسلام بإفشائه أسرار المسلمين ونقلها إلى الكفار، فهو أشدُّ عذابًا من الكافر الصريح، ولكون المنافق قد آمنَ على نفسه في الدنيا -بإظهار الإيمان- فإنه يستحق الدرك الأسفل في العقبى، جزاءً وفاقًا لما قدَّم لنفسه، وهو أشد من الكفار، لأنه قد شاركهم في الكفر ومعاداة رسله، وزاد عليهم المكر والخديعة، وهو يكن العداوة للمسلمين بطريقة لا يشعر بها أحد، لذا كان المنافق أشدَّ عقابًا من الكافر.

والنار سبع دركات بعضها فوق بعض، وهي طبقات جهنم، وسُمِّيت دركات؛ لأنها متوالية متتابعة، والدرك كالدرج، إلا أن الدرج للصعود والدرك للتزول، ولذا فإنه يقال: درجات الجنة ودركات النار.

قال الألوسي: والنار طبقات سبع؛ تسمى الأولى كما قيل: جهنم، والثانية: لظى، والثالثة: الحطمة، والرابعة: السعير، والخامسة: سقر، والسادسة: الجحيم، والسابعة: الهاوية، وقد تسمى النار جميعًا باسم الطبقة الأولى، ويسمى بعض الطبقات باسم بعض؛ لأن لفظ النار يجمعها^(١).

وقيل: إن الدركات بيوتٌ أو توابيت من حديد مقفلة على أهلها -والعياذ بالله- كما قال تعالى: ﴿إِنَّهَا عَلَيْهِمْ مُّوَصَّاةٌ﴾ (٨) فِي عَمَدٍ مُّمدَّدَةٍ ﴿٩﴾ [الهمزة] فالمنافقون إذاً في أسفل منازل النار يوم القيامة، وليس لهم ما يدفع عنهم هذا المصير السيئ، وذلك لأن المنافق في عقيدته منافقٌ كامل النفاق، صاحب قلب منكوس، أما صاحب النفاق العملي: فالخير والشر يتنازعه.

جاء في مسند أحمد وغيره عن أبي سعيد رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «القلوب أربعة: قلب أجرد فيه مثل السراج يزهر، وقلب أغلف مربوط على غلافه، وقلب منكوس، وقلب مصفح؛ فأما القلب الأجرد فقلب المؤمن، سراجُه فيه نوره، وأما القلب الأغلف فقلب الكافر، وأما القلب المنكوس فقلب المنافق الخالص عرف ثم أنكر، وأما القلب المصفح فقلبٌ فيه إيمان ونفاق، ومثل الإيمان فيه كمثل البقلة يمدُّها الماء الطيب، ومثل النفاق فيه

(١) «تفسير الألوسي» (١٧٧/٥).

كمثل القرحة يمدّها القيح والدم، فأَيُّ المادتين غلبت على الأخرى غلبت عليه»^(١).

ومن أعلى درجات النفاق نفاقُ الحكام، وتأويل النصوص لتوافق سياساتهم واتجاهاتهم، وليس للمنافقين منقذ من عذاب الله يوم لقائه، ولا ناصر يدفع عنهم شيئاً من عقابه.

فَتْحُ بَابِ التَّوْبَةِ لِلْمُنَافِقِينَ بِشُرُوطِ أَرْبَعَةٍ

١٤٦- ﴿إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا وَأَصْلَحُوا وَاعْتَصَمُوا بِاللَّهِ وَأَخْلَصُوا دِينَهُمْ لِلَّهِ فَأُولَٰئِكَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ وَسَوْفَ يُؤْتِي اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ أَجْرًا عَظِيمًا﴾^(٢)

ثم استثنى سبحانه مَنْ تاب من المنافقين ورجع إلى الله تعالى؛ فأخلص له العمل وأصلح باطنه وظاهره بطاعة الله تعالى، ووالى المؤمنين واستمسك بدين الله، فأدى الأوامر واجتنب النواهي.

وهذه الأمور الأربعة إذا اجتمعت في كافر أو منافق تاب الله عليه وغفر له ذنبه وعُدَّ في صفوف المؤمنين وهي:

- ١- التوبة من جميع السيئات والمعاصي صغيرها وكبيرها ﴿إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا﴾.
 - ٢- وإصلاح الباطن والظاهر ﴿وَأَصْلَحُوا﴾.
 - ٣- والتمسك بعهد الله تعالى، بالثقة فيه والتوكل عليه، واللجوء إليه في جلب الخير ودفع الضرر ﴿وَاعْتَصَمُوا بِاللَّهِ﴾.
 - ٤- وإخلاص العمل لله تعالى بالبراءة من الرياء والنفاق والشرك ﴿وَأَخْلَصُوا دِينَهُمْ لِلَّهِ﴾.
- فإذا حصلت هذه الأربع فقد تمَّ الإيمان وكُمِّل، وكان العبد منخرطاً في عداد المؤمنين، وإذا توافرت فيهم هذه الخصائص الأربع ﴿فَأُولَٰئِكَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ وهؤلاء المؤمنين سوف

(١) «المسند» (١١١٢٩) إسناده ضعيف، لضعف ليث، ولأن أبا البخري لم يدرك أبا سعيد الخدري، وباقي رجاله ثقات رجال الشيخين، (محققوه) وأخرجه الطبراني في الصغير (١٠٧٥) وأبو نعيم في الحلية (٤/٣٨٥) وابن أبي شيبة (٣٦/١١).

(٢) وقف يعقوب بالياء على (يؤت) مراعاة للأصل؛ لأن المحذوف لعله كالثابت، وهو لغة أهل الحجاز، ووقف الباقر بحذفها؛ للتخفيف وموافقة للرسم.

١- في حالة التظلم، بأن يشكو الإنسان مظلّمته، أو يذكر حالته عند القاضي، أو المفتي، أو صاحب الشرطة.

٢- الاستعانة بكلامه على تغيير المنكر بمن يثق بعلمه وقدرته على النصيحة والتأثير، وإزالة المنكر بيده أو لسانه أو قلمه.

٣- في حالة تحذير الناس من شر فاسق مجاهر بالمعصية، أو من صاحب بدعة.

٤- وعند الاستشارة في زواج أو مشاركة ونحو ذلك، فلا بأس من ذكر الحقيقة، والمستشار مؤتمن.

وليس من الجهر بالسوء إذا كان للإنسان لقب يُعرف به وهو غير محمود، ويخاطب به، وعدم الجهر بالسوء ومقابلة السيئة بالإحسان يكون له وقع وتأثير في النفوس فيصلحها ويحسن أحوالها.

ومن ذلك أنه ذكر للحسن البصري أن رجلاً قد اغتابه، فأرسل إليه بطبق من الرطب، وقال: لقد بلغني أنك أهديت إليّ حسناتك -يعني باغتيابك لي- فأردت أن أكافئك عليها.

ونزل ابن مسعود إلى السوق ومعه دراهمه مربوطة في عمامته، فلما أرادها وجدها قد سُرقَت، فقال لمن حوله: لقد جِلستُ وإنها لمعي! فأخذوا يدعون على من أخذها، فقال ابن مسعود: اللهم إن كان الذي حمّله على أخذها حاجة، فبارك له فيها، وإن كان الذي حمّله على ذلك جرّاءة على الذنب فاجعلها آخر ذنوبه.

هذا: والحب والكثرة بالنسبة لله تعالى لا يراد به الانفعال النفسي الذي يحدث للبشر، وإنما يراد به لازمهما وهو الرضى والغضب، كما في الحديث عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «إن الله يرضى لكم ثلاثاً ويكره لكم ثلاثاً..» إلى أن قال: «ويكره لكم قيل وقال، وكثرة السؤال وإضاعة المال»^(١).

وهكذا تمضي سورة النساء في تطهير النفس البشرية والمجتمع المسلم من كل ما يؤذي الناس في أنفسهم وأموالهم وأعراضهم، وتُبعدهم عن الظلم، وتحثهم على الانتصار

(١) من حديث أبي هريرة في «صحيح مسلم» برقم (١٧١٥).

للمظلوم، وزرع خُلُق العفو والسماحة في نفوس الناس، فشيوع السوء سهلٌ على اللسان، سريع الانتشار، ولكنه يترك أثرًا عميقًا في تقطيع أواصر المحبة والأخوة بين الناس، وفي إشاعة الفُحش وتفشيهِ في المجتمع.

والإسلام يحمي سُمعة الناس ما لم يظلموا غيرهم أو يجهروا بالمعصية، فإنهم بذلك يستبيحون بيعة أنفسهم.

ومن الجهر بالسوء شتم الآخر وسبه والدعاء عليه، إلا أن يكون مظلومًا، فإن الآية رخصت له أن يدعو على مَنْ ظلمه ﴿وَلَمَنْ أَنْصَرَ بَعْدَ ظُلْمِهِ فَأُولَئِكَ مَا عَلَيْهِمْ مِنْ سَبِيلٍ﴾ [الشورى]

كما في الحديث عن أبي هريرة ؓ أن النبي ﷺ قال: «اللهم اشدد وطأتك على مُضر، اللهم اجعلها سنين كسني يوسف»^(١).

وإن صبر وغفر فهو خيرٌ له ﴿وَلَمَنْ صَبَرَ وَعَفَرَ إِنَّ ذَلِكَ لِمِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ﴾ [الشورى].

وُيَاح للمظلوم أن يذكر مظلمته ويبينها للقاضي ونحوه على ضوء ما سبق بيانه، من غير أن يكذب عليه، ولا يزيد على مظلمته ولا يتعدى بشتمه غير ظالمه، والله يعلم ما يُقال وما يخفى، فاحذروا أن تتكلموا بما يُغضب ربكم، فهو يسمع قولكم، ويرى مكانكم، وسوف يعاقبكم على سوء أقوالكم وأفعالكم.

وهو سبحانه لا يحب أن يدعو أحدٌ على أحد، إلا أن يكون مظلومًا، فإنه قد رُخص له أن يدعو على من ظلمه، وإن صبر وعفا فهو خير له، ولا ينبغي دفع الظلم بالظلم، ومقابلة السيئة بمثلها، فإذا افترى أحدٌ على الإنسان فلا ينبغي له أن يفترى عليه.

١- جاء في سبب النزول عن سعيد بن المسيب وقتادة قالا: بينما رسول الله ﷺ جالس -ومعه أصحابه- وقع رجل بأبي بكر ؓ فأذاه فصمت عنه أبو بكر، ثم آذاه الثانية فصمت عنه أبو بكر، ثم آذاه الثالثة فانتصر أبو بكر، فقام رسول الله ﷺ فقال أبو بكر: أَوْجَدْتُ عليَّ يا رسول الله؟ فقال رسول الله ﷺ: «نزل ملكٌ من السماء يكذِّبه بما قال لك، فلما

(١) «المسند» (٧٢٦٠، ٧٤٦٥)، إسناده صحيح على شرط الشيخين، (محققوه) وأخرجه البخاري (٦٢٠٠) ومسلم (٦٧٥) وابن ماجه (١٢٤٤) والحميدي (٩٣٩) والنسائي (٢٠١/٢) وأبو يعلى (٥٨٧٣) وابن خزيمة (٦١٥) والبخاري (٦٣٦).

انتصرت ذهب الملك وقعد الشيطان، فلم أكن لأجلس إذا وقع الشيطان»^(١).

٢- وعن أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «المُستَبَّانِ ما قالَا» أي: يتحمل كل منهما وزر ما قال «فعلى البادئ منهما» الإثم «ما لم يعتد المظلوم»^(٢) فينتصر لنفسه.

٣- وفي الحديث عن عائشة رضي الله عنها أن النبي ﷺ قال: «من دعا على من ظلمه فقد انتصر»^(٣). قال الحسن: دعاؤه عليه أن يقول: اللهم أعني عليه، اللهم استخرج حقي منه.

٤- ومن الظلم الإجحاف بحق الضيف وعدم إكرامه، ففي الحديث عن أبي هريرة رضي الله عنه: «من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليكرم ضيفه»^(٤) وعدم القيام بهذا الحق يُفقد المروءة بين الناس، ولذا فإن التشهير بمن أهان الضيف ليس من الجهر بالسوء.

٥- وعن عقبة بن عامر رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «إذا نزلتم بقوم فأمرؤا لكم بما ينبغي للضيف فاقبلوا منهم، وإن لم يفعلوا فخذوا منهم حق الضيف الذي ينبغي لهم»^(٥).

٦- وعن المقدام بن معدي كرب، أبو كريمة عن النبي ﷺ قال: «أيا مسلم ضاف قومًا فأصبح الضيف محرومًا كان حقًا على كل مسلم نَصْرُهُ حتى يأخذ بِقَرَى ليلته مِنْ زَرْعِهِ وماله»^(٦).

٧- وعنه أيضا أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: «ليلةُ الضيف واجبةٌ على كل مسلم، فإن

(١) رواه أبو داود مرسلًا (٣٧٧/٤) ومتصلًا من طريق ابن عجلان عن أبي هريرة، والمرسل أصح.

(٢) أبو داود (٣٧٧/٤) برقم (٤٨٩٤) و«المستند» (١٩٤/١٤) برقم (٧٢٠٥، ١٠٣٢٩) بإسناد صحيح على شرط مسلم، (محققوه) ومسلم (٢٠٠/٤) والترمذي (١٣٩/٣) برقم (٢٠٦٤) وفي «صحيح سنن الترمذي» (١٦١٣).

(٣) من حديث عائشة عند ابن أبي شيبة (٩٦٢٥) والترمذي (٣٥٥٢) وقال: غريب، وقد ضعفه الألباني في «ضعيف سنن الترمذي» (٧١٠).

(٤) «صحيح البخاري» (٥١٨٥، ٦٠١٨، ٦٤٧٥) و«صحيح مسلم» (٤٧).

(٥) البخاري (١٧٧/٥) برقم (٢٤٦١، ٦١٣٧) ومسلم (١٣٥٣/٣) برقم (١٧٢٧) وأبو داود (٣٧٥٢) والترمذي (١٥٨٩) وابن ماجه (٣٦٧٦).

(٦) أحمد (١٣٣/٤) برقم (١٧١٧٨، ١٧١٩٧) إسناده ضعيف لجهالة ابن المهاجر، وباقي رجال الإسناد ثقات رجال الصحيح، (محققوه) وأخرجه وأبو داود برقم (٣٧٥١) من طريق يحيى عن شعبة، والطيالسي (١١٤٩).

أصبح بفنائه محروماً كان ديناً له عليه، فإن شاء اقتضاه وإن شاء تركه»^(١).

وقد ورد في سبب نزول الآية ﴿لَا يُحِبُّ﴾ أنها رخصة للضيف أن يشكو من أضافه إذا أساء قراءه^(٢).

وللجار حق على جاره، ولذا: فإن ذكر إساءة الجار ليست من الجهر بالسوء.

ومن هذا ما ورد عن أبي هريرة أن رجلاً أتى النبي ﷺ فقال: إن لي جاراً يؤذيني، فقال له: «أخرج متاعك فضعه على الطريق» فأخذ الرجل متاعه فطرحه على الطريق، فجعل كل من مر به قال: ما لك؟ قال: جاري يؤذيني، فيقول: اللهم العنه، اللهم اخزه، قال: فقال: ارجع إلى منزلك، وقال: لا أوديك أبداً^(٣).

والخلاصة: أن الله تعالى لا يحب أن يجهر أحدٌ بالسوء من القول، إلا المظلوم، فإنه يجوز له أن يشتكي مظلّمته، وهذا على أن الاستثناء متصل.

وقيل: إن الاستثناء منقطع، بمعنى: لكن المظلوم يجوز أن يجهر بظلم الظالم.

وعليه: فلا يجوز إظهار أحوال الناس المستورة.

التَّوْبَةُ فِي الْعَفْوِ وَالصَّفْحِ

١٤٩- ﴿إِنْ يُبْدُوا خَيْرًا أَوْ تُخْفُوهُ أَوْ تَعْفُوا عَنْ سُوءٍ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ عَفُوًّا قَدِيرًا﴾ (١٤٩)

ثم حث سبحانه على العفو، وألا يجهر أحد لأحد بالسوء وإن كان على وجه الانتصار، ترغيباً في الأفضل، وإخفاءً للشر، وإبداءً للخير.

(١) أحمد (٤/١٣٠، ١٣٣) برقم (١٧١٧٢، ١٧١٧٣) وإسناده صحيح على شرط الشيخين سوى صحابية أخرج لها البخاري، وأصحاب السنن (محققوه)، وأخرجه الطيالسي (١١٥١) والطحاوي في شرح مشكل الآثار (١٨٣٩) وأبو داود (٢٦٩/٣) برقم (٣٧٥٠).

(٢) ابن جرير (٣٤٧/٩) عن مجاهد.

(٣) أبو داود (٤/٤٦٠) برقم (٥١٥٣) بنحوه والبخاري في «الأدب المفرد» (١/٢١٦) وهو حديث حسن، وقال الحاكم: صحيح الإسناد ولم يخرجاه، وهو على شرط مسلم ووافقه الذهبي، «المستدرک» (٤/١٦٥) من طريق صفوان بن عيسى، وقال الألباني في صحيح سنن أبي داود (٤٢٩٢): حسن صحيح، وفي التعليق الرغيب على الترغيب والترهيب (٣/٢٣٥).

فقد ندب تعالى إلى الصفح عمن أساء، ومهد له بأن المؤمن إما أن يظهر الخير، وإما أن يخفيه .
وفي حالة الانتصار والانتصاف من المسيء فهو كذلك: إما أن يظهر ذلك ويديه للناس،
وإما أن يعفو ويصفح والعفو أفضل؛ فإن من صفات الله تعالى العفو عن عباده مع قدرته
عليهم ﴿إِنْ تُبْدُوا خَيْرًا﴾ بدلاً من السوء، أو مكان الجهر بالسوء، فتعملوا حسنة أو عمل
برٍّ، فإنها تُضاعف لكم ﴿أَوْ تُخَفُّوهُ﴾ أي: تجعلوا عمل هذا الخير سرًّا، فتجلبوا الخير لمن
أساء لكم سرًّا أو علانية وهذا يشمل كل خير قولِيٍّ أو فعليٍّ، ظاهر أو باطن، واجب أو
مستحب ﴿أَوْ تَعْفُوا عَنْ سُوءٍ﴾ أي عمن أساء لكم في أبدانكم أو أموالكم أو أعراضكم
فتسمحوا له وتصفحوا عنه بدلاً من الانتقام ﴿فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ عَفُوًّا قَدِيرًا﴾ فتخلقوا بأخلاق
الله، والجزاء من جنس العمل، فمن عفا، عفا الله عنه، ومن أحسن، أحسن الله له .

جاء في الأثر أن حملة العرش يُسبحون الله تعالى فيقول بعضهم: سبحانك على حلمك
بعد علمك، ويقول آخرون: سبحانك على عفوك بعد قدرتك^(١) .

وفي حديث أبي هريرة ؓ أن النبي ﷺ قال: «ما نقصت صدقة من مال، وما زاد الله
عبدًا بعفو إلا عزًا، وما تواضع أحد لله إلا رفعه الله»^(٢) .

فالله تعالى يعفو عن الزلات، ويستر على عباده، مع قدرته على الانتقام منهم .

التَّمْهِيدُ لِلْحَدِيثِ الْمُبَاشِرِ عَنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ

١٥٠- ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَيُرِيدُونَ أَنْ يُفَرِّقُوا بَيْنَ اللَّهِ وَرُسُلِهِ وَيَقُولُوا
نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ وَيُرِيدُونَ أَنْ يَتَّخِذُوا بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلًا﴾^(١٥٠)

تشير الآية إلى أن الناس أقسام ثلاثة:

١- مؤمن بالله، وبجميع رسله وكتبهم . ٢- كافر بالله وبجميع رسله وكتبهم .

٣- مؤمن بالله وبيعض رسله دون بعض .

(١) «تفسير ابن كثير» (٢/ ٤٤٤) .

(٢) «صحيح مسلم» برقم (٢٥٨٨) .

والصنف الثالث هو الذي تخصه الآية بالذكر، فتقرر أن من كفر برسول فقد كفر بجميع الرسل وليس هناك مرتبة وسط بين الإيمان والكفر.

ثم إن دين الله واحد، وموكب الرسل يحمل مشعل الهداية للبشر، وكل منهم يُسلم الراية إلى من بعده، حتى يحملها خاتم النبيين ﷺ إلى يوم القيامة، والتفرقة بين رسل الله تعالى كفرٌ صريحٌ، ولا يجوز لأمة أو بعض أفرادها أن تظل على الإيمان بالرسول السابق وتكفر بالرسول اللاحق، ولا محل للإيمان بأي رسول أو كتاب بعد مجيء الرسالة الخاتمة، إذ لا بد من الإيمان برسولها وكتابها.

جاء في أسباب النزول أن اليهود آمنوا بموسى والتوراة، وكفروا بيسى والإنجيل، كما كفروا بمحمد والقرآن، وأن النَّصَارَى كفروا بمحمد والقرآن، وقيل: إن المجوس كانوا يؤمنون بنبي لهم يقال له (زرادشت) ثم كفروا بشرعه، وأن السامرة لا يؤمنون بنبي بعد يوشع بن نون^(١).

والقرآن الكريم يحذّر الجميع من إيمانهم ببعض الرسل دون بعض، ويحذرهم من التفرقة بين رسل الله، فدينُ الله واحدٌ، والكفر بوحدة الرسل، كفرٌ بوحدانية الله سبحانه، فلا يجوز الإيمان بوحدانية الله تعالى والكفر بوحدة الرسل، ففي هذا تفرقة بين الإيمان بالله والإيمان برسل الله والإيمان بوحدة الدين.

ولا يصح الإيمان بالله والتكذيب ببعض الرسل، ولا يتوهم متوهم أن الإيمان ببعض الرسل يُزيل اسم الكُفر عنه؛ لأن الكفر ببعضهم كفرٌ بكلهم؛ لأن الدليل الذي دل على نبوتهم واحد، فالوحي الذي نزل على الرسل جميعاً واحد، والمعجزة التي أيد الله بها جميع الرسل واحدة، والله هو المرسل للجميع، فلا مجال للإيمان بالله دون الإيمان بالرسول، ولا مجال لتصديق بعض الرسل دون بعض، أو زعم أن بعضهم افترى على الله كذباً، أو أن محمداً ﷺ رسولٌ للعرب خاصة، وهم بذلك يريدون أن يسلكوا طريقاً وسطاً بين الإيمان والكفر، ولا واسطة بينهما، وإنما هم يتخذون طريقاً إلى الضلالة التي أحدثوها، والبدعة التي ابتدعوها فهم يعترفون بصدق بعض الرسل

(١) «تفسير ابن كثير» و«زاد المسير» للآية.

دون بعض، أو يؤمنون بالله ويكفرون ببعض الرسل ﴿وَيُرِيدُونَ أَنْ يَتَّخِذُوا بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلًا﴾ طريقًا ثالثًا بين الكفر والإيمان.

كُفْرُ مَنْ يُؤْمِنُ بِبَعْضِ الرُّسُلِ دُونَ بَعْضِ

١٥١- ﴿أُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ حَقًّا وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُهِينًا﴾

والله تعالى يقطع الطريق عليهم فيقطع بكفرهم؛ لأن من كانت هذه صفتهم فهم أهل الكفر المحقق الذي لا شك فيه، ولا يرتاب مرتاب في كفرهم، والله تعالى يذلهم ويخزيهم في الدنيا فضلًا عن عذاب الآخرة، كما هو الحال بالنسبة لليهود، فإن ما هم فيه من عدم الأمن والاستقرار والتشتت في الأرض؛ هو نوعٌ من ضرب الذلة والمسكنة عليهم؛ لإيمانهم ببعض الرسل دون بعض، وقد أعد الله للكافرين به وبرسله عذابًا مخزيًا مهينًا يوم القيامة، لأنهم لما تكبروا عن الإيمان بالله، أهانهم الله بالعذاب المخزي، والآية تشير إلى ثلاثة أنواع من الكفر:

١- نوعٌ يكفر بالله ورسله معًا، وهم الماديون الملحدون والشيوعيون.

٢- ونوعٌ يؤمن بالله ويكفر بالرسول، وهؤلاء يفرقون بين الله ورسله.

٣- ونوعٌ يؤمن بالله ويبعض الرسل دون بعض، كمن يؤمن بموسى ويكفر بعبسى ومحمد، ومن يؤمن بعبسى ويكفر بمحمد صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين، وهؤلاء كفَّار برسل الله.

وفي الآية ما يشير إلى أن من التفريق: تطبيق بعض أحكام الإسلام دون بعض، كمن يصوم ويحج ويعتمر ولا يصلي ولا يزكي، أو يؤدي الفرائض ويأكل الربا أو يقترب بعض الكبائر، ففي هذا تفرقة بين حكم وحكم وتطبيق بعض الكتاب دون بعض، وقد نهى الله تعالى عن ذلك في قوله: ﴿أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الْكِتَابِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ فَمَا جَزَاءُ مَنْ يَفْعَلُ ذَلِكَ مِنْكُمْ إِلَّا خِزْيٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ الْقِيَمَةِ يُرَدُّونَ إِلَيْهِ أَشَدَّ الْعَذَابِ﴾ [البقرة: ٨٥].

الْإِيمَانُ الْحَقِيقِيُّ

١٥٢ - ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَلَمْ يُفَرِّقُوا بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ أُولَٰئِكَ سَوْفَ يُؤْتِيهِمْ أَجْرُهُمْ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ ﴿١٥٢﴾

أما المؤمنون - أهل التصور الشامل لوحدة الدين ووحدة الرسل والإيمان بخاتمهم بلا تفرقة بينهم - فقد صدّقوا بوحدانية الله ونبوة جميع أنبيائه وجميع ما جاؤوا به من عند الله، على أنها حقٌّ وصدقٌ، وعملوا بشريعة الله، فهم قد آمنوا بكل ما أخبر الله به عن نفسه، وبكل ما جاءت به الرسل من الأخبار والأحكام، وآمنوا برسول الله كلهم ولم يفرقوا بين أحد منهم.

هؤلاء المؤمنون سوف يعطيهم الله جزاءهم وثوابهم على الإيمان بالله ورسله، وإلى جوار ذلك يتجاوز عن سيئاتهم ويغفرها لهم ويرحمهم: ﴿أُولَٰئِكَ سَوْفَ يُؤْتِيهِمْ أَجْرُهُمْ﴾ هذه واحدة، والثانية ﴿وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ لما سبق من الذنوب والآثام، يغفر السيئات ويتقبل الحسنات فإذا آمنوا بالرسول الخاتم غفر لهم ما كان منهم حال الكفر.

وهذا ترغيبٌ لليهود والنصارى في أنهم لو آمنوا بمحمد ﷺ لغفر الله لهم ما قد سلف ﴿قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ يَنْتَهُوا يُغْفَرْ لَهُمْ مَا قَدْ سَلَفَ﴾ [الأنفال: ٣٨]

وقد وصف الله المؤمنين بأنهم آمنوا بالله وكتبه ورسله ولم يفرقوا بين أحد من رسله، وقالوا سمعنا وأطعنا، كما في الآية (٢٨٥) من سورة البقرة.

سَبْعَةَ عَشَرَ جَرِيمَةً مِّنْ جَرَائِمِ الْيَهُودِ

١٥٣ - ﴿يَسْأَلُكَ أَهْلُ الْكِتَابِ أَنْ تُنَزِّلَ^(٢) عَلَيْهِمْ كِتَابًا مِّنَ السَّمَاءِ فَقَدْ سَأَلُوا مُوسَىٰ أَكْبَرَ مِنْ ذَلِكَ فَقَالُوا أَرِنَا^(٣) آلَٰهَ جَهَنَّمَ فَأَخَذَتْهُمُ الصَّاعِقَةُ بِظُلْمِهِمْ ثُمَّ اتَّخَذُوا الْعِجْلَ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمْ

(١) قرأ حفص (سوف يؤتيهم) والفاعل ضمير يعود على لفظ الجلالة بالياء، وقرأ الباقون (نؤتيهم) بالنون على الالتفات.

(٢) قرأ ابن كثير وأبو عمرو ويعقوب (تُنَزِّل) بسكون النون وتخفيف الزاي مضارع أنزل، وقرأ الباقون (تُنَزِّل) بفتح النون وتشديد الزاي مضارع نَزَّل.

(٣) وقرأ ابن كثير ويعقوب بإسكان الراء من (أرنا) للتخفيف، وقرأها أبو عمرو بإسكان والاختلاس للتخفيف أيضاً، والباقون بالكسر الخالص على الأصل.

أَلْبَيِّنْتُ فَعَفَوْنَا عَنْ ذَلِكَ وَءَاتَيْنَا مُوسَى سُلْطَانًا مُبِينًا ﴿١٥٣﴾

سبب النزول:

١- جاء في أسباب النزول: أن كعب بن الأشرف، وفنحاص بن عازوراء من اليهود، سألا رسول الله ﷺ أن يُنزلَ عليهم من السماء كتابًا يُصدقه في دَعْوَى الرسالة، كما نزلت التوراة على موسى، أو يُنزلَ عليهم كتابًا مُختصًا بهم.

٢- وفي بعض الروايات: أن اليهود سألوا النبي ﷺ أن يرْفَى إلى السماء، وهم يَرَوْنَهُ بأعينهم، فيأتيهم بكتابٍ مقروءٍ من السماء يُصدقه.

٣- وجاء بعض اليهود إلى النبي ﷺ يقولون له: لا نبايعك حتى تأتينا بكتابٍ من عند الله إلى فلانٍ أنك رسول الله، وتأتي بكتابٍ إلى فلانٍ أنك رسول الله، وإلى فلانٍ أنك رسول الله؛ فنزل قول الله تعالى: ﴿يَسْأَلُكَ أَهْلُ الْكِتَابِ﴾^(١).

٤- قال قتادة: إنهم سألوه أن يُنزلَ على رجالٍ منهم بأعيانهم كُتُبًا، تأمُرُ بتصديقه واتباعه، وأهل الكتاب هنا هم اليهود خاصة، يطلبون منك ﴿أَنْ تُنْزَلَ عَلَيْهِمْ كِتَابًا مِنَ السَّمَاءِ﴾ كصحف إبراهيم، وألواح موسى، معجزة تشهد لك بالصدق.

ثم يأتي الحديث المباشر عن اليهود خاصة، بتوجيه سؤال للنبي ﷺ على وجه العناد والتعجيز، يتوقف على هذا السؤال تصديقهم أو تكذيبهم للنبي ﷺ.

وللإجابة على هذا السؤال تذكر الآيات سبعة عشر جريمة من قبائح اليهود، جاء ذكرها بالإشارة إليها هنا، وهي مبسطة في مواضعها المناسبة من القرآن الكريم وجملتها:

أولاً: أنهم سألوا النبي ﷺ أن يُنزلَ عليهم كتابًا من السماء موجّهاً إليهم، مكتوب فيه: إن محمدًا رسول الله، كما نزلت التوراة على موسى، جاء هذا في قوله تعالى: ﴿يَسْأَلُكَ أَهْلُ الْكِتَابِ أَنْ تُنْزَلَ عَلَيْهِمْ كِتَابًا مِنَ السَّمَاءِ﴾.

ثانيًا: أنهم سألوا الله أكبر من ذلك ﴿فَقَالُوا أَرَنَا اللَّهَ جَهْرَةً﴾.

ثالثًا: أنهم عبدوا العجل بعدما أظهر الله كثيرا من المعجزات على يد موسى ﷺ،

(١) ينظر ابن جرير عن محمد بن كعب القرظي والسدي وابن جريج وقاتدة (٣٥٦/٩) بسند ضعيف.

ورأوها بأعينهم، وبعد أن أهلك الله عدوهم فرعون وجنده ﴿ثُمَّ أَخَذُوا الْعِجْلَ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمْ الْبَيِّنَاتُ﴾.

رابعاً: أنهم لم يؤمنوا بالحجج والبراهين والمعجزات التي أيد الله بها موسى عليه السلام ﴿وَأَتَيْنَا مُوسَى سُلْطَانًا مُبِينًا﴾.

خامساً: امتناعهم من قبول أحكام التوراة حتى رفع جبل الطور فوق رؤوسهم وهددوا بسقوطه عليهم. ﴿وَرَفَعْنَا فَوْقَهُمُ الطُّورَ بِمِيثَاقِهِمْ﴾.

سادساً: أنهم لم يدخلوا باب القرية التي كتبها الله لهم، وهي مدينة أريحا، كما أمرهم الله بدخولها سُجَّداً لله تعالى، وأن يشكروه على غُفْرَانِ ذُنُوبِهِمْ عند دخولها، ﴿وَقُلْنَا لَهُمْ ادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا﴾ فدخلوها وهم يزحفون على مقاعدهم مستهزئين ﴿فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا قَوْلًا غَيْرَ الَّذِي قِيلَ لَهُمْ﴾.

سابعاً: اعتداؤهم بالصيد يوم السبت بعد أن نهاهم الله تعالى عن الصيد فيه؛ عقوبة لهم ﴿وَقُلْنَا لَهُمْ لَا تَعْدُوا فِي السَّبْتِ﴾.

ثامناً: نقضهم للميثاق الغليظ الذي أخذ عليهم ﴿وَأَخَذْنَا مِنْهُمْ مِيثَاقًا غَلِيظًا﴾.

تاسعاً: كفرهم بآيات الله ونقضهم العهد والميثاق ﴿فِيمَا نَقَضْتُمْ مِيثَاقَهُمْ وَكُفِّرْتُمْ بآيَاتِ اللَّهِ﴾.

عاشراً: قتلهم الأنبياء بغير حق ﴿وَقَتْلِهِمُ الْأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ﴾.

أحد عشر: ﴿وَقَوْلِهِمْ قُلُوبُنَا غُلْفٌ﴾ لا تقبل غير ما فيها من القسوة والكفر والضلال.

ثاني عشر: ﴿وَقَوْلِهِمْ عَلَى مَرْيَمَ بُهْتَنًا عَظِيمًا﴾ حين رموها بالفاحشة.

ثالث عشر: ﴿وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا الْمَسِيحَ عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ اللَّهِ﴾.

رابع عشر: ودعواهم أنهم صلبوا المسيح، فزعموا أنهم أُوغِرُوا صَدْرَ ملك دمشق،

فأرسل أمراً لواليه على بيت المقدس بصلبه، وقد نفى الله تعالى ذلك في قوله:

﴿وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَكِنْ شُبِّهَ لَهُمْ﴾.

خامس عشر: صدهم الناس عن قبول الحق ﴿وَيَصْدِهِم عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ كَثِيرًا﴾.

سادس عشر: ﴿وَأَخَذَهُمُ الرِّبَا وَقَدْ نُهُوا عَنْهُ﴾.

سابع عشر: ﴿وَأَكْثَرُهُمْ أَتَمَوْلَ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ﴾.

هذه جملة من قبائح اليهود وفظائعهم جاءت في هذه الآيات التسع من هذه السورة، وهي من الآية ١٥٣، إلى الآية (١٦١).

وهذه الآيات تبين أن الذين فعلوا هذه الأفاعيل لا يُستنكر عليهم أن يسألوا محمداً ﷺ أن ينزل عليهم كتاباً من السماء، فقد سألوا نبيهم ما هو أكبر من هذا.

وهذه الطريقة من أحسن الطرق لمحااجة الخصم المبطل، ببيان حاله الخبيثة وأفعاله الشنيعة، لدحض باطله وشبهته، فيقابل الاعتراض بما هو أقوى منه.

وتبدأ هذه القبائح بسؤالهم النبي ﷺ معجزة مادية، مثل الألواح التي نزلت على موسى ﷺ، وفيها الوصايا العشر التي جاءت في آواخر سورة الأنعام، حيث طلب اليهود من موسى ﷺ أن يُنزل عليهم آية.

وكما طلبوا من محمد ﷺ أن يُنزل عليهم آية، طلب النَّصَارَى من عيسى ﷺ أن يُنزل عليهم آية، ففي إنجيل متى، أن قوماً قالوا للمسيح: نريد أن نرى منك آية؟ فقال: (جيل شرير، يطلب آية، ولا تُعطى له آية) وتكرر هذا في واقعة أخرى^(١).

وهكذا فقد سأل المؤمنون بعيسى ﷺ أن يُنزل عليهم آية، كما ذكر القرآن الكريم في قوله تعالى: ﴿إِذْ قَالَ الْهَوَارِيُّونَ يُعِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ أَنْ يُنْزِلَ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِنَ السَّمَاءِ قَالَ اتَّقُوا اللَّهَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ [المائدة]

إلى أن قال: ﴿قَالَ اللَّهُ إِنِّي مُرْسِلُهَا عَلَيْكُمْ فَمَنْ يَكْفُرْ بَعْدُ مِنْكُمْ فَإِنِّي أُعَذِّبُهُ عَذَابًا لَا أُعَذِّبُهُ أَحَدًا مِنَ الْعَالَمِينَ﴾ [المائدة].

قال تعالى مبيناً السبب في عدم إجابة اليهود والمشركين الوثنيين إلى مطلبهم في نزول آية كونية على محمد ﷺ: ﴿وَمَا مَنَعَنَا أَنْ نُرْسِلَ بِالْآيَاتِ إِلَّا أَنْ كَذَّبَ بِهَا الْأَوَّلُونَ﴾ [الإسراء: ٥٩]

وقال سبحانه: ﴿وَنُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ وَأَبْصَارَهُمْ كَمَا لَوْ يُؤْمِنُوا بِهِ أُولَٰئِكَ مَرُّونَ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ [١١٠] وَلَوْ أَنَّا نَزَّلْنَا إِلَيْهِمُ الْمَلَكُوكَ وَكَلَّمَهُمُ النَّوَّاقِحَ وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَيْءٍ قُبُلًا مَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ﴾ [الأنعام: ١١٠، ١١١].

(١) «تفسير التحرير والتنوير» (١٤/٥).

وقد جاء سؤال هذه الآية بياناً لكفر اليهود بمحمد ﷺ كما ذكرته الآية السابقة؛ من أنهم يؤمنون ببعض الرُّسل ويكفرون ببعض؛ وذلك لأن الحديث عن الكُفْرِ يَسْتَلْزِمُ ذِكْرَ نَمُودَجٍ من أهل الكفر، وهم اليهود، فقد ذُكِرَ تَعَثُّهُمْ مع النبي ﷺ، واقترح الآيات عليه، مع وجود القرآن بين أيديهم، وهو معجزته الكبرى، وطلبُ الزيادة عليه من بابِ التَّعَنُّتِ.

فلا تعجب يا محمد فإن هذه جبلَّتْهم من قديم، فقد سأل أسلافهم موسى ﷺ ما هو أعظم من ذلك، وهم النقباء السبعون، الذين اختارهم موسى؛ ليذهبوا معه عند نزول التوراة عليه ﴿فَقَالُوا أَرَنَا اللَّهُ جَهْرَةً﴾ أي: عياناً نلمسه بحواسِّنَا، كما طلبوا منك كتاباً مخطوطاً يلمسونه بأيديهم.

وهذا إشارة إلى قول الله تعالى عنهم: ﴿وَإِذْ قُلْتُمْ يَمُوسَىٰ لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَىٰ اللَّهَ جَهْرَةً﴾ [البقرة: ٥٥] لقد سألوا موسى ﷺ أن يريهم الله علانيةً، فصُعِقُوا بسبب ظلمهم أنفسهم؛ لأنهم سألوا أمراً فيه جُرْأَةٌ على الله تعالى، وليس من حقِّهم ﴿فَأَخَذَتْهُمُ الصَّاعِقَةُ بِأَعْيُنِهِمْ﴾ وبعد أن أَمَاتَهُم الله تعالى بالصَّعْقِ أحياءهم بعده.

وبعد أن أحياءهم الله تعالى، وشاهدوا الآيات البيِّنات على يد موسى ﷺ عبدوا العجل الذي صاغه موسى السامري من الذهب ﴿ثُمَّ أَخَذُوا الْعِجْلَ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَاتُ﴾ وكان الله قد تَقَبَّلَ دعاء موسى عليهم حين: ﴿قَالَ رَبِّ لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُمْ مِنْ قَبْلُ وَإِنِّي﴾ [الأعراف: ١٥٥] ويشير تعالى إلى إحيائهم بعد موتهم في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ بَعَثْنَاكَ مِنْ بَعْدِ مَوْتِكَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [البقرة: ٥٦].

ولمَّا تابوا إلى الله تعالى من عبادتهم للعجل قَبِلَ الله توبتهم ﴿فَعَفَوْنَا عَنْ ذَلِكَ﴾.

أي: عن عبادتهم للعجل بسبب توبتهم، والذين عبدوا العجل غير الذين صُعِقُوا.

قال الراغب الأصفهاني: الصاعقة على ثلاثة أوجه:

١- الموت، كقوله تعالى: ﴿فَصَبَقَ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَنْ شَاءَ اللَّهُ﴾ [الزمر: ٦٨].

٢- العذاب، كقوله تعالى: ﴿فَإِنْ أَعْرَضُوا فَقُلْ أَنْذَرْتُكُمْ صَاعِقَةً مِثْلَ صَاعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ﴾ [فصلت: ١٣].

٣- النار، كقوله تعالى: ﴿وَيُرْسِلُ الصَّوَاعِقَ فَيُصِيبُ بِهَا مَنْ يَشَاءُ﴾ [الرعد: ١٣].

وما ذَكَرَهُ سبحانه في هذه الآية، أشياء حاصلة من الصاعقة، فإن الصاعقة هي: الصوت الشديد في الجوِّ، ثم يكون منه نارٌ فقط، أو عذابٌ، أو موتٌ، وهي في ذاتها شيءٌ واحدٌ، وهذه الأشياء تأثيراتٌ منها^(١).

ويبدو أن المراد بالصاعقة هنا: الصوت الشديد المجلجل المزلزل، المصحوب بنارٍ هائلةٍ، وقد كان من آثاره أنهم صُعِقُوا؛ أي: خَرُّوا مغشياً عليهم فهَلَكُوا، وكان ذلك عقوبةً لجرأتهم على الله تعالى.

وما ذَكَرَتْهُ الآية من عذاب اليهود السابقين بالصاعقة، فيه حَصٌّ لليهود المعاصرين أن يدخلوا في الإسلام، وأنهم إن فعلوا ذلك، غَفَرَ الله لهم ما سلف من ذنوبهم، كما غَفَرَ لآبائهم الذين تَابُوا من عبادة العِجَل، و﴿ثُمَّ﴾ في الآية لترتيب الأخبار، وقد أَعْطَى الله موسى حُجَّةً واضحةً، ومُعْجَزَةً بَيِّنَةً تُؤَيِّدُ صِدْقَ بُيُوتِهِ ﴿وَأَتَيْنَا مُوسَى سُلْطَانًا مُبِينًا﴾ هو التوراة، والشرعة التي تضمنتها، والآيات التسع، التي هي العصا واليد والطوفان، والجراد والقمل والضفادع والدم وفتق البحر ونتق الجبل.

قال الحسن: لو أنهم سألوه مُسترشدين لأعطاهم الله ما طلبوا، ولكن سألهم كان وجه التعنت، ومعلومٌ أن السؤال كان من النقباء السبعين، وأسند إليهم؛ لأنهم كانوا على مذهبهم راضين بالسؤال، ولو أتيتهم بكتابٍ من عند الله مَلْمُوسًا مَخْطُوطًا كما طلبوا ما آمنوا، قال تعالى: ﴿وَنُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ وَأَبْصَارَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ [الأنعام: ١١٠].

وقد اشتملت هذه الآية على ثلاث منكرات من أفعال اليهود وأقوالهم وهي:

- ١- سؤالهم محمداً ﷺ أن يُنزل عليهم كتاباً من السماء.
 - ٢- وطلبهم من موسى أن يريهم الله عِيَانًا.
 - ٣- وعبادتهم للعجل الذهبي.
- واشتملت الآية التالية على ثلاثة أخرى من جرائمهم، جاءت في قوله تعالى:

(١) «المفردات في غريب القرآن» ص ٢٨١ .

١٥٤ - ﴿وَرَفَعْنَا فَوْقَهُمُ الطُّورَ بِمِيثَاقِهِمْ وَقُلْنَا لَهُمْ ادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا وَقُلْنَا لَهُمْ لَا تَعْدُوا^(١) فِي السَّبْتِ وَأَخَذْنَا مِنْهُمْ مِيثَاقًا غَلِيظًا ﴿١٥٤﴾﴾

وهذه الجرائم الثلاث هي:

- ١- امتناعهم عن العمل بما في التوراة، فهددّهم الله تعالى برَفْعِ جبل الطور فوقهم حتى آمنوا.
 - ٢- سخريّتهم من أمر الله لهم أن يدخلوا أريحا ساجدين شاكرين، فدخلوها زحفًا على أدبارهم، وقالوا مستهزئين: حبة حنطة، بدل أن يقولوا: حطّ الله عنا ذنوبنا.
 - ٣- مخالفتهم أمر الله تعالى، باصطيادهم في يوم السبت، بعد أن حرّم عليهم الصيد فيه.
- هذا: ولمّا أنزل الله تعالى التوراة على موسى امتنعوا من قبولها والعمل بما فيها؛ فأخذ الله عليهم عهدًا مؤكدًا أن يعملوا بما أمرهم الله به فيها، وأن يتنّهوا عمّا نهى عنه، وأن يأخذوا التوراة بقوة، ويقوموا بما فيها من تكاليف، وأن يدخلوا باب بيت المقدس أو باب أريحا ساجدين؛ شكرًا لله تعالى، وألا يصطادوا في يوم السبت.

وقد أخذ الله عليهم بنود هذا الميثاق، تحت وطأة التهديد القهريّ الماديّ، حيث رفع الله جبل طور سيناء فوق رؤوسهم، وصاروا ينظرون إليه بعين واحدة وهو فوقهم، حيث كان سجودهم على شقّ واحد من جبهتهم؛ خوفًا من سقوط الجبل عليهم حين رُفع فوقهم، فخرجوا سُجَّدًا، ولكن جبهتهم لم تتمكن من الأرض، حيث أخذوا يختلسون النظر إلى أعلى بعين واحدة، وعندئذ استسلموا، وأعطوا عهدًا مؤكدًا، وميثاقًا غليظًا على القيام بما ذُكر، وعلى أن لا يصطادوا يوم السبت، وقد عاقبهم الله بذلك جزاء فسقهم وظلمهم.

وكان رَفْعُ الطور عليهم، عندما دخل (يوشع بن نون) مدينة بيت المقدس، أو أريحا، فاتحًا، فأوحى الله إليه أن يأمر بني إسرائيل بدخول المدينة خاضعين.

وجاءت قصة النهي عن الصيد في يوم السبت في قوله تعالى:

(١) قرأ ورش (لا تعُدوا) بفتح العين وتشديد الدال، على أن أصلها تعتدوا، فنقلت حركة التاء للعين ثم أدغمت التاء في الدال، وقرأ أبو جعفر وقالون في أحد وجهيه بإسكان العين وتشديد الدال، والوجه الثاني لقالون اختلاس فتحة العين مع تشديد الدال، وقرأ الباكون بإسكان العين وتخفيف الدال مضارع عدا يعدّو.

﴿وَسَأَلَهُمْ عَنِ الْقَرْيَةِ الَّتِي كَانَتْ حَاضِرَةَ الْبَحْرِ إِذْ يَعْدُونَ فِي السَّبْتِ إِذْ تَأْتِيهِمْ حِثَانُهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرْعًا وَيَوْمَ لَا يَسْبِتُونَ لَا تَأْتِيهِمْ كَذَلِكَ نَبْلُوهُمْ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ ﴿١٦٣﴾ وَإِذْ قَالَتْ أُمَّةٌ مِنْهُمْ لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا اللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا قَالُوا مَعذِرَةٌ إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَلَعَلَّهُمْ يَنْفِقُونَ ﴿١٦٤﴾ فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ أَنْجَيْنَا الَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ الْإِسْوَاءِ وَأَخَذْنَا الَّذِينَ ظَلَمُوا بِعَذَابٍ بَئِيسٍ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ ﴿١٦٥﴾ فَلَمَّا عَتَوْا عَنْ مَا نُهُوا عَنْهُ قُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ ﴿١٦٦﴾ وَإِذْ تَأَذَّتْ رُكْبُكَ لِيُبَعِّثَنَّ عَلَيْهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ الْفَيْصَةِ مَنْ يَسُومُهُمْ سُوءَ الْعَذَابِ إِنَّ رَبَّكَ لَسَرِيعُ الْعِقَابِ وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿١٦٧﴾﴾ [الأعراف]

وفي قوله سبحانه: ﴿وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ الَّذِينَ اعْتَدَوْا مِنْكُمْ فِي السَّبْتِ فَقُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ﴾ [البقرة].

وجاءت قصة رفع جبل الطور فوقهم كأنه ظلّة في قوله تعالى:

﴿وَإِذْ نَنقَضْنَا الْجِبَلَ فَوْقَهُمْ كَأَنَّهُ ظِلَّةٌ وَظَنُوا أَنَّهُ وَاقِعٌ بِهِمْ خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ وَاذْكُرُوا مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٧٦﴾﴾ [الأعراف]. وهكذا بقية الجرائم.

وجاءت قصة الأمر بدخولهم باب القرية ساجدين لله، شاكرين لنعمائه في قوله تعالى:

﴿وَإِذْ قُلْنَا ادْخُلُوا هَذِهِ الْقَرْيَةَ فَكُلُوا مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ رَغَدًا وَاَدْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا وَقُولُوا حِطَّةٌ نَغْفِرْ لَكُمْ خَطِيئَتَكُمْ وَسَنَزِيدُ الْمُحْسِنِينَ ﴿٥٨﴾ فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا قَوْلًا غَيْرَ الَّذِي قِيلَ لَهُمْ فَأَنْزَلْنَا عَلَىٰ الَّذِينَ ظَلَمُوا رِجْزًا مِنَ السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ ﴿٥٩﴾﴾ [البقرة]

وفي قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قِيلَ لَهُمْ اسْكُنُوا هَذِهِ الْقَرْيَةَ وَكُلُوا مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ وَقُولُوا

حِطَّةٌ وَاَدْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا نَغْفِرْ لَكُمْ خَطِيئَتَكُمْ سَنَزِيدُ الْمُحْسِنِينَ﴾ [الأعراف].

خَمْسُ جَرَائِمَ هِيَ سَبَبُ الطَّبَعِ عَلَى قُلُوبِ الْيَهُودِ

١٥٥- ﴿فِيمَا نَقُضُّهُمْ مَتَشَقُّهُمْ وَكُفْرِهِمْ بِآيَاتِ اللَّهِ وَقَتْلِهِمُ الْأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَقَوْلِهِمْ قُلُوبُنَا غُلْفٌ

بَلْ طَبَعَ اللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ ﴿١٥٥﴾

وبمجرد أن زال الخوف عن اليهود؛ بسبب رفع الطور فوقهم، وبعد أن غاب عنهم

القهر، تملّصوا من العهد والميثاق الذي أخذه الله عليهم، فنقضوه وكفروا بالله وآياته.

وبدل أن يدخلوا باب بيت المقدس ساجدين، دخلوه وهم يزحفون على أستاههم، واصطادوا يوم السبت، فحقَّ عليهم لعنةُ الله تعالى ومقتهُ وغضبه؛ بسبب نقضهم الميثاق، وبسبب كُفْرِهِمْ بمعجزات موسى ﷺ، وبسبب قتلهم الأنبياء كيحيى وزكريا عليهما السلام ظلماً وعدواناً، فإن الأنبياء لم يُفسدوا في الأرض فيقتلوا، وإنما نُصحوهم، ودعَوْهم إلى ما فيه سعادتهم في الدنيا والآخرة، فقتل الأنبياء لا يكون إلا بغير حقٍّ، ولا يكون قتلهم بحقٍّ أبداً.

وبسبب قولهم: قلوبنا غلف؛ أي: قلوبنا أوعيةٌ للعلم، مليئةٌ به، فلسنا بحاجة إلى ما تدعونا إليه، فقلوبنا عليها أغطية وأغشية، لا تفقه ما تقول، وهذا كقوله تعالى:

﴿وَقَالُوا قُلُوبُنَا فِيْ أَكِنَّةٍ مِّمَّا نَدْعُونَآ إِلَيْهِ وَفِيْ ءَاذَانِنَا وَقْرٌ وَمِنْ بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ﴾ [فصلت: ٥]

والله تعالى يرُدُّ عليهم، بأن قلوبهم ليست مقفلة بدون سبب، بل إن كُفْرَهُمْ، وتعطيل أجهزة الاستقبال فيهم، وعدم تقبلهم للإيمان هو السبب، فقد مردَّت قلوبهم على الطغيان والكفر وعدم الإيمان، ولم ينتفع منهم إلا عددٌ قليلٌ، ممَّن دخل منهم في الإسلام كعبد الله بن سلام، وثعلبة، وأسد وأسيد ابنا كعب، وأسد بن عبد الله، فلم يؤمن منهم إلا عددٌ قليلٌ.

وكان إيمان اليهود قليلاً؛ لأنهم لم يؤمنوا إلا بموسى، وكفروا ببقية الأنبياء، فإيمانهم لا قيمة له، وهذا معنى ﴿فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا﴾.

وقد تضمنت هذه الآية أربع جرائم هي:

- ١- نقض الميثاق. ٢- الكفر بالتوراة.
 - ٣- قتل الأنبياء. ٤- قولهم: قلوبنا غلف.
- قال تعالى:

١٥٦- ﴿وَيَكْفُرُهُمْ وَقَوْلُهُمْ عَلَىٰ مَرْيَمَ بُهْتَانًا عَظِيمًا﴾

وفي هذه الآية جريمةٌ خامسة؛ هي اتهامهم لمريم بالفاحشة، ولهذا لعنهم الله أيضاً؛ بسبب كفرهم بعيسى ﷺ حسداً منهم لما أُيدَّ به من إبراء الأكمه والأبرص وإحياء الموتى بإذن الله، فكذبوه وخالفوه، وسعَوْا في إيدائه، كما لعنهم الله حين أنكروا قُدرة الله تعالى على خلق الولد من غير أب، ومُنكِر قُدرة الله تعالى كافرٌ، ووَصِفُ الكفر لهم يتكرر بتكرر

موجباته، فإنكارهم معجزات موسى كُفْرٌ، وقولهم: قلوبنا لا تقبل الإيمان كُفْرٌ، وإنكارهم قدرة الله تعالى كُفْرٌ، ورميهم مريم بالزنى كُفْرٌ.

وقد لعنهم الله تعالى بسبب قَذْفِهِمْ لِمَرْيَمَ بِيُوسُفَ النِّجَارِ ﴿وَقَوْلِهِمْ عَلَى مَرْيَمَ بُهْتَانًا عَظِيمًا﴾ وَسُمِّيَ بُهْتَانًا عَظِيمًا؛ لأنه قد ظَهَرَ عند ولادتها من المعجزات ما يدلُّ على براءتها؛ ولذا وصف الله قولَ اليهود بالبهتان العظيم، وهذا البهتان العظيم جاء توضيحه في قول الله تعالى على لسانهم: ﴿يَمْرِمُ لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا فَرِيًّا﴾ (٧٧) يَتَأَخَتِ هَرُونَ مَا كَانَ أَوَّلُكَ أَمْرًا سَوْءَ وَمَا كَانَتْ أُمُّكَ بَغِيًّا ﴿٧٨﴾ [مريم].

دَعْوَى قَتْلِ الْمَسِيحِ وَصَلْبِهِ

١٥٧- ﴿وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا الْمَسِيحَ عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ اللَّهِ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَكِنْ شُبِّهَ لَهُمْ وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ لَفِي شَكٍّ مِّنْهُ مَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا اتِّبَاعَ الظَّنِّ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًا﴾ (١٥٧)

لقد لعن الله تعالى اليهود بسبب دَعْوَاهُمْ قَتْلَ عِيسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ، وَلَمَّا صَدَّقَهُمْ بَعْضُ النَّصَارَى فِي ذَلِكَ، نَفَى اللَّهُ تَعَالَى قَتْلَ عِيسَى فِي قَوْلِهِ: ﴿وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَكِنْ شُبِّهَ لَهُمْ﴾.

وذلك أنه لما زعم أكثر اليهود أنهم قتلوا المسيح وصلبوه؛ كَذَّبَهُمُ اللَّهُ تَعَالَى، وَبَيَّنَّ أَنَّهُ قَدْ شُبِّهَ لَهُمُ الْمَقْتُولُ، بَأَن أَلْقَى اللَّهُ عَلَيْهِ شُبَّهَ الْمَسِيحِ، فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَيْهِ لِيَقْتُلُوهُ (أي: يَقْتُلُوا الْمَسِيحَ فِي زَعْمِهِمْ) وَجَدُوا الشَّبِيهَ، فَقَتَلُوهُ وَصَلَبُوهُ، يَظُنُّونَهُ الْمَسِيحَ، وَلَيْسَ هُوَ فِي الْوَاقِعِ، إِذْ قَدْ رَفَعَ اللَّهُ عِيسَى إِلَى السَّمَاءِ، وَنَجَّاهُ مِنْ شَرِّ الْأَعْدَاءِ^(١).

واليهودُ مُؤَاخِذُونَ عَلَى قَضْدِهِمْ، وَإِنْ لَمْ يَقْتُلُوهُ، وَالَّذِي تُؤْمِنُ بِهِ مُوقِنِينَ، هُوَ مَا أَخْبَرَنَا اللَّهُ تَعَالَى بِهِ فِي كِتَابِنَا نَصًّا، أَنَّهُمْ مَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ، وَلَكِنْ شُبِّهَ لَهُمْ، دُونَ أَنْ نَدْخُلَ فِي تَفْصِيلِ كَيْفَ شُبِّهَ لَهُمْ، وَعَلَى مَنْ مِنَ النَّاسِ أُلْقِيَ شُبُّهُ؟ فَهَذَا التَّفْصِيلُ لَمْ نُكَلِّفِ الْإِيمَانَ بِهِ، إِذْ لَمْ يُعْلِمْنَا اللَّهُ تَعَالَى وَلَا رَسُولُهُ بِشَيْءٍ مِنْ ذَلِكَ التَّفْصِيلِ^(٢).

ونظرًا لكثرة الروايات التي أوردها بعضُ المفسرين في هذه المسألة، لَا سِيَّما ابن كثير،

(١) «تفسير صفوة البيان» ص ١٧٨ للشيخ حسين مخلوف.

(٢) «عمدة التفسير» للشيخ أحمد شاكر (٣١/٤).

فإننا سنكتفي بذكر أهم روايتين في بيان كيفية الشَّبه، وهما أصح ما ورد في الباب:

الأولى: أن الله تعالى أَلْقَى شَبَهَ عيسى على أحد الذين خانوه ودبروا قتلَه، وهو (يهودا الإسخريوطي)، الذي كان عَيْنًا وجاسوسًا على المسيح ﷺ، وهو الذي أَرَشَدَ الْجُنْدَ الذين أرادوا قتله إلى مكانه، وقال لهم: مَنْ تجدونه أمامكم يكون هو المسيح، ودخل معهم بيتَ عيسى؛ ليدلَّهم على مكانه ليقتلوه، فرفع الله عيسى، وأَلْقَى شَبَهه على المنافق، فدخلوا عليه فقتلوه، وهم يظنون أنه عيسى.

قال البيضاوي: رُوِيَ أن رجلاً كان يُناقِ لِعيسى، فخرج لِيَدُلَّ عليه، فأَلْقَى الله عليه شَبَهه، فأخَذَ وَصَلِبَ وهم يظنون أنه عيسى^(١).

وهذا الذي نافق، هو يهودا الإسخريوطي، أحد أصحاب المسيح، وَيَشْهَدُ لهذه الرواية ما جاء في إنجيل برنابا، وقد كَتَبَ الحواريُّون عددًا من الأناجيل بعد رَفْعِ عيسى ﷺ بنحو مئة وخمسين عامًا، واختير منها الأربعة المعروفة، واعترفت بها الكنيسة رسميًا، وهي لا تَعترف بإنجيل برنابا؛ لأنه يَشتمَل على التوحيد، ويُخالف الأناجيل الأربعة في قصة القتل والصلب والبنوة والتثليث وغيرها، فيقول:

(ولمَّا دَنَتِ الجنود مع يهودا من المحل الذي كان فيه يسوع، سمع يسوع دُنُوَّ جَمٍّ غفير، فلذلك انسحب إلى البيت خائفًا، وكان الأحد عشر نيامًا، فلمَّا رأى الخطر على عبده أمر جبريل وميخائيل وروفايل وأوريل سفراءه، أن يأخذوا يسوع من العالم، فجاء الملائكة الأطهار، وأخذوا يسوع من النافذة المشرفة على الجنوب، فحملوه، ووضعوه في السماء الثالثة، في صحبة الملائكة التي تُسَبِّح إلى الأبد.

ودخل يهودا بعنف إلى الغرفة التي أُصعد منها يسوع، وكان التلاميذ كلُّهم نيامًا، فأتى الله بأمرٍ عجيبٍ، فغَيَّرَ يهودا في النُّطق وفي الوجه، فصار شبيهاً بيسوع، حتى اعتقدنا أنه يسوع، أما هو فبعد أن أَيْقَظْنَا أَخَذَ يُفَتِّشُ لينظر أين كان المُعلم، لذلك تعجَّبنا وأجبنا: أنت يا سيدي مُعَلِّمُنَا، أنسينا الآن؟) ... إلخ^(٢).

(١) «تفسير البيضاوي» ص ١٤١.

(٢) نقلًا عن كتاب «محاضرات في النصرانية» للشيخ محمد أبو زهرة.

الرواية الثانية: أن الله تعالى أَلْقَى شَبَةَ الْمَسِيحِ عَلَى أَحَدِ تَلَامِيذِهِ الْمُخْلِصِينَ حِينَما اجتمعت اليهود على قَتْلِهِ؛ لأنه يَفْتِنُ اليهود عن دينهم، فأخبره الله تعالى بأنه سيرفعه إليه، فقال لأصحابه: أَيُكُم يَرْضَى أَنْ يُلْقَى عَلَيْهِ شَبْهِي، فَيُقْتَلُ وَيُصَلَّبُ ويدخل الجنة؟ فقال رجل منهم: أنا، فَأَلْقَى الله صورةَ عيسى عليه، فقتلوه وصلبوه^(١)، وَرُفِعَ عيسى من رُوزنة في البيت إلى السماء.

والقرآن الكريم يُرَرِّزُ أن عيسى عليه السلام لم يُقْتَل ولم يُصَلَّبْ، ولكن رفعه الله إليه، وقد قتل اليهود وصلبوا شخصاً آخر سِوَاهُ، أَلْقَى الله شَبَهَ عيسى عليه؛ ظناً منهم أنه عيسى، وقضية قَتْلِ عيسى وصلبه يتخبط فيها كلُّ من اليهود والنصارى.

وفي عيد الألفية الثانية برأ بابا الفاتيكان في زيارته للقدس، اليهود، من قَتْلِ عيسى عليه السلام ويقال: إن بيلاطس والي فلسطين، سُئِلَ في روما عن قضية قَتْلِ عيسى وصلبه؛ فأجاب بأنه لا عِلْمَ له بشيءٍ من هذه القضية، ومع هذا فاليهود يدَّعون قتله وصلبه، ويقول النَّصَارَى: إنه صُلِبَ وَدُفِنَ وقام بعد ثلاثة أيام، ثُمَّ اختلفوا في أمر قَتْلِهِ:

١- فقال بعض اليهود: إنه كان كاذباً في دعواه الرسالة، فقتلناه قَتْلًا حَقِيقِيًّا.

٢- وتردد آخرون فقالوا: إن كان المقتول عيسى فأين صاحبنا؟ وإن كان المقتول صاحبنا فأين عيسى؟

٣- وقال غيرهم: الوجهُ وَجْهُ عيسى، والبدنُ بَدَنُ صاحبنا.

وهذه كلها شكوكٌ وظنونٌ، لا يترجح فيها أحدُ الشاكِّين على الآخر، فكلُّ مِمَّنْ ادَّعى قَتْلَهُ من اليهود، وَمَنْ أَسْلَمَهُ إِلَيْهِمْ من النَّصَارَى، كُلُّهُمْ واقعون في الشَّكِّ والحَيْرَةِ، ولا علمٌ لديهم إلا اتباع الظن.

ومن اختلاف النَّصَارَى في عيسى: أنه إله، أو ابن للإله، أو ثالث ثلاثة.

(١) ورد هذا المعنى بإسناد صحيح عن ابن عباس، ورواه النسائي عن أبي معاوية في «السنن الكبرى» برقم (١١٥٩١) وغير واحد من السلف، وفي رواية ابن إسحاق أن هذا الذي وضع نفسه مكان عيسى كان اسمه (سرجس)، وقد استبعد الشيخ أحمد شاکر هذا الأثر، وذكر أنه من أوهام المنهال بن عمرو الأسدي. «عمدة التفسير» (٣١/٤).

فقلت اليعقوبية: كان فينا ما شاء، ثم صعد إلى السماء.

وقالت النسطورية: كان فينا ابن الله ما شاء، ثم رفعه الله إليه.

وقال المسلمون: كان فينا عبد الله ورسوله ما شاء، ثم رفعه الله إليه^(١).

ثم نَقَى اللهُ قَتْلَ عِيسَى نَفْيًا قَاطِعًا، وَبَيَّنَّ أَنَّ الْيَهُودَ لَمْ يَقْتُلُوهُ مُتَقِنِينَ، بَلْ شَاكِّينَ مُتَوَهِّمِينَ ﴿وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًا﴾.

ومن ذلك الاختلاف في قَتْلِ عِيسَى وَصَلْبِهِ، قَوْلُ بَعْضِ النَّصَارَى: إِنَّهُ صَلَّبَ مِنْ جِهَةِ النَّاسُوتِ، لَا مِنْ جِهَةِ اللَّاهُوتِ، وَقَالَ بَعْضُهُمْ: إِنَّهُ قُتِلَ وَصَلَّبَ بِكَمَالِهِ: نَاسُوتُهُ وَلاهُوتُهُ، وَالنَّاسُوتُ هُوَ الْجَانِبُ الْإِنْسَانِيُّ فِيهِ، وَاللَّاهُوتُ هُوَ الْجَانِبُ الْإِلَهِيُّ فِيهِ، عَلَى حَدِّ زَعْمِهِمْ! وَالْمَسِيحُ لَقَبٌ، لَقَّبَهُ بِهِ الْيَهُودُ، تَهَكُّمًا بِهِ؛ لِأَنَّ الْمَسِيحَ بِالْعِبْرِيَّةِ مَعْنَاهُ الْمَلِكُ، وَهُوَ لَقَبٌ قَصَدُوا بِهِ التَّهَكُّمَ، فَصَارَ لَقَبًا لَهُ، وَقَدْ غَيَّرَ اللهُ تَعَالَى قَصْدَهُمْ وَقَلْبَهُ؛ فَجَعَلَ هَذَا اللَّقَبَ تَعْظِيمًا لَهُ فِي الْقُرْآنِ عَلَى مَدَى الْأَزْمَانِ، قَالَ تَعَالَى فِي الرَّدِّ عَلَى الْيَهُودِ فِي مَسْأَلَةِ الْقَتْلِ وَالصَّلْبِ:

١٥٨ - ﴿بَلْ رَفَعَهُ اللهُ إِلَيْهِ وَكَانَ اللهُ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾ ﴿١٥٨﴾

أُثْبِتَ سُبْحَانَهُ فِي هَذِهِ الْآيَةِ أَنَّهُ رَفَعَ عِيسَى إِلَيْهِ، وَطَهَّرَهُ مِنَ الْكُفَّارِ الَّذِينَ أَرَادُوهُ بِسُوءٍ، فَقَالَ: ﴿بَلْ رَفَعَهُ اللهُ إِلَيْهِ﴾ بِيَدِهِ وَرُوحِهِ حَيًّا ﴿وَكَانَ اللهُ عَزِيزًا﴾ فِي مُلْكِهِ وَانْتِقَامِهِ مِنَ الْيَهُودِ ﴿حَكِيمًا﴾ فِي تَدْبِيرِهِ وَقَضَائِهِ، وَمِنْ ذَلِكَ رَفَعَ عِيسَى إِلَيْهِ كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿إِذْ قَالَ اللهُ يَٰعِيسَىٰ إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ وَمُطَهِّرُكَ مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ [آل عمران: ٥٥]

وفي حديث أبي هريرة ؓ أن النبي ﷺ قال: «أَنَا أَوَّلَى النَّاسِ بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ، وَالْأَنْبِيَاءُ أَوْلَادُ عَلَاتٍ، لَيْسَ بَيْنِي وَبَيْنَهُ نَبِيٌّ»^(٢)

نُزُولُ عِيسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ وَمَا يُصَاحِبُهُ مِنْ أَحْدَاثٍ

١٥٩ - ﴿وَإِنْ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ إِلَّا لَيُؤْمِنَنَّ بِهِ قَبْلَ مَوْتِهِ وَيَوْمَ الْقِيَمَةِ يَكُونُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا﴾ ﴿١٥٩﴾

(١) من حديث ابن عباس بإسناد صحيح عن ابن أبي حاتم كما في «تفسير الطبري» للآية.

(٢) «صحيح البخاري» برقم (٣٤٤٢، ٣٤٤٣) و«صحيح مسلم» (٢٣٦٥).

ثم بَيَّن ﷺ أنه لا يَبْقَى أَحَدٌ من أهل الكتاب -اليهود والنصارى والمسلمون- بعد نزول عيسى آخر الزمان إلا آمن به قبل موته ﷺ، وأيقن أنه عبدُ الله ورسولُه، وكلمته ألقاها إلى مريم، وروحُ منه، ويوم القيامة يكون عيسى شهيدًا بتكذيب مَنْ كذَّبه، وتصديق مَنْ صَدَّقَه، وشهيدًا عليهم بما شاهدته من أعمالهم قبل رَفْعِهِ.

والضمير في ﴿مَوْتِهِ﴾ يعود على عيسى في أصح القولين؛ أي: إلا ليؤمنن بعيسى قبل موت عيسى، بدليل ما ورد عن الحسن قال: لا يموت أحدٌ منهم حتى يؤمن بعيسى قبل أن يموت^(١)، وبه قال ابن عباس والضحاك^(٢).

ويكون ذلك عند اقتراب الساعة وظهور علاماتها الكبرى.

وقيل: إن الضمير يرجع إلى موت الكتابي؛ بمعنى: أنه ما من أحدٍ من أهل الكتاب إلا ويؤمن بعيسى قبل موت ذلك الكتابي؛ أي: اليهودي والنصراني، ويكون ذلك عند الحُشْرَجَةِ، حين لا ينفعه إيمانه، كما يكون هذا الإيمان ممن بقي منهم.

والقول الأول هو الأصح، ويشهد له الأحاديث الكثيرة التي وردت بطريق التواتر، وهي تدل على نزول عيسى ﷺ آخر الزمان؛ ليحكم بشريعة محمد ﷺ؛ منها:

١- ما جاء في الصحيحين وغيرهما عن أبي هريرة ؓ أن النبي ﷺ قال: «والذي نفسي بيده، ليُوشكنَّ أن ينزل فيكم ابن مريم حكماً عدلاً، فيكسر الصليب، ويقتل الخنزير، ويضع الحِزْبَةَ، ويفيض المال حتى لا يقبله أحدٌ، حتى تكون السجدة خيراً من الدنيا وما فيها» ثم قرأ الآية^(٣).

٢- وفي لفظ آخر: «يُوشك أن يكون فيكم ابن مريم حكماً عدلاً، يقتل الدجال، ويقتل الخنزير، ويكسر الصليب، ويضع الحِزْبَةَ ويفيض المال، وتكون السجدة واحدة لله رب العالمين» قال أبو هريرة: اقرؤوا إن شئتم ﴿وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ إِلَّا لِيُؤْمِنَنَّ بِهِ قَبْلَ مَوْتِهِ﴾

(١) أخرجه عبد الرزاق بسند صحيح.

(٢) بسند صحيح كما في «تفسير ابن كثير»، للآية.

(٣) البخاري، كتاب الأنبياء (٢٠٥/٤) برقم (٢٢٢٢، ٢٤٧٦، ٣٤٤٨) من طرق مختلفة، ومسلم، كتاب الإيمان (٩٣/١) برقم (١٥٥) وابن أبي شيبة (١٤٤/١٥).

موت عيسى ابن مريم، ثم يعيدها أبو هريرة ثلاث مرات^(١).

٣- عن أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «الأنبياء إخوة لِعَلَّات، أمهاتهم شتى، ودينهم واحد، وإنني أولى الناس بعيسى ابن مريم؛ لأنه لم يكن بيني وبينه نبي، وإنه خليفتي على أمتي، وإنه نازل، فإذا رأيتموه فاعرفوه، رجل مربع إلى الحُمرة والبياض، عليه ثوبان مُصَّران (أي: أقرب إلى الصفرة) كأن رأسه يقطر وإن لم يُصبه بَلَل، فيُدقُّ الصليب، ويقتل الخنزير، ويضع الحِزْية، ويدعو الناس إلى الإسلام، ويهلك الله في زمانه المَلَل كلَّها إلا الإسلام، ويهلك الله في زمانه المسيح الدجال، ثم تقع الأَمَنَةُ على الأرض، حتى تَرْتَعَ الأسودُ مع الإبل، والثَّمار مع البقر، والذئاب مع الغنم، وتلعب الصبيان بالحِيات، لا تضرهم، فيمكث أربعين سنة، ثم يُتوفَّى، ويصلي عليه المسلمون ويدفنونه»^(٢).

مكان نزول عيسى ﷺ

١- وأخرج الطبراني عن أوس بن أوس رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «ينزل عيسى ابن مريم عند المنارة البيضاء في دمشق»^(٣).

٢- وجاء في حديث عائشة رضي الله عنها عن المسيح الدجال قول النبي ﷺ: «إنه يخرج في يهودية أصبهان حتى يأتي المدينة؛ فينزل ناحيتها، ولها يومئذ سبعة أبواب، على كل نقب منها ملكان، فيخرج إليه شرار أهلها حتى يأتي الشام مدينة بفلسطين بباب لُدَّ فينزل عيسى ابن مريم فيقتله»^(٤).

(١) هذا لفظ ابن مردويه عن أبي هريرة كما في «الدر المنثور» (١١١/٥) وانظر: «فتح الباري» (٤٩٢/٦) و«تفسير ابن كثير» (٤٠٧/٢)، وهو في المسند (٧٢٦٩، ٧٦٧٩) دون السجدة والآية بإسناد صحيح على شرط الشيخين (محققه) وانظر: البخاري (٢٤٧٦) ومسلم (١٥٥) والحميدي (١٠٩٧) وابن ماجه (٤٠٧٨).

(٢) «صحيح أبي داود» (٣٦٣٥) و«السلسلة الصحيحة» (٢١٨٢) وابن أبي شيبة (١٨٥/١٥) و«المسند» (٩٢٧٠) حديث صحيح، وابن حبان (٢٨٢١) والحاكم (٥٩٥/٢) وابن حبان (٦٨٢١).

(٣) الطبراني في «الكبير» (٥٩٠) قال الهيثمي: رجاله ثقات، «مجمع الزوائد» (٢٠٥/٨)، وقد جاء هذا في حديث النواس بن سمعان في صحيح مسلم (٢٩٣٧) وفي المسند (١٧٦٢٩) وغيرهما، وهو حديث طويل.

(٤) من حديث طويل «المسند» (٢٤٤٦٧) بإسناد حسن وأوله (دخل علي رسول الله ﷺ وأنا أبكي) وابن أبي شيبة (١٣٤/١٥) وابن عساكر (٤٩٧/٤٧).

٣- وعن مُجَمِّع بن جارية قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «لَيَقْتُلَنَّ ابن مريم الدجال بواب لُدٍّ»^(١).

والأحاديث في هذا كثيرة عن أبي هريرة، وابن مسعود، وعثمان بن أبي العاص، وأبي أمامة، والنواس بن سمعان، وعبد الله بن عمرو بن العاص، ومُجَمِّع بن جارية، وأبي سريحة، حذيفة بن أسيد، وغيرهم كثير ﷺ، وفيها دلالة على صِفَةِ نزول عيسى ﷺ، ومكان نزوله، وأنه يكون بدمشق، عند المنارة البيضاء، عند إقامة صلاة الصبح، فيقتل الخنزير، وَيَكْسِرُ الصليب، ولا يقبل من أحد إلا الإسلام أو السيف، ولا يَقْبَلُ الْجَزِيَّةَ مِمَّنْ بذلها من اليهود والنصارى.

والامتناع من قَبُولِ الْجَزِيَّةِ في ذلك الوقت شَرُوعُ نَبِيَّنَا مُحَمَّدٍ ﷺ؛ لأن قبول الْجَزِيَّةِ منهم، مقيد بما قبل نزول عيسى ﷺ، والذي نَسَخَ قبول الْجَزِيَّةِ في آخر الزمان، هو محمد ﷺ لأنه هو الذي أخبر بأن عيسى ﷺ سيحكم بشريعة محمد، فدل هذا على أن نسخ الْجَزِيَّةِ وقتئذ هو شرع محمد ﷺ.

وإلى نزول عيسى ﷺ يشير قوله تعالى: ﴿وَإِنَّهُ لَعَلَّمَ لِّلسَّاعَةِ فَلَا تَمُوتُ بِهَا﴾ [الزخرف: ٦١] وقرئ (لعلم) بفتح اللام إشارة إلى أن نزول عيسى ﷺ يكون علامةً على اقتراب الساعة، ويشهد عيسى ببطلان ما عليه النصارى مما يخالف شريعة محمد ﷺ.

أوصاف عيسى عليه السلام:

ووردت أحاديث في البخاري ومسلم وغيرهما تشير إلى أوصاف عيسى عليه السلام، وأنه رجل أحمر، جعد الشعر، عريض الصدر.

في البخاري عن ابن عباس عليه السلام أن رسول الله ﷺ قال: «رَأَيْتُ مُوسَى وَعِيسَى وَإِبْرَاهِيمَ؛ فَأَمَّا عِيسَى فَأَحْمَرٌ، جَعْدٌ، عَرِيضُ الصَّدْرِ، وَأَمَّا مُوسَى فَأَدَمٌ، جَسِيمٌ، سَبْطٌ، كَأَنَّهُ مِنْ رِجَالِ الزُّطِّ»^(٢).

(١) «صحيح سنن الترمذي» (١٨٢٩) و«المسند» (١٥٤٦٦، ١٥٤٦٩) صحيح لغيره، كما قال محققوه، وابن أبي شيبة (١٦١/١٥)، والحميدي (٨٢٨) والطبراني في الكبير (١٠٧٧/١٩) والطيالسي (١٢٢٧) وله شاهد عند مسلم (٢٩٣٧) عن النواس بن سمعان.

(٢) «صحيح البخاري» برقم (٣٤٣٨).

وإن عيسى عليه السلام يَمُكث في الأرض بعد نزوله أربعين سنة، ثم يُتوفى، ويصلي عليه المسلمون.

المسيخ الدجال: ومن الأحاديث الواردة فيه:

١- في صحيح مسلم وغيره عن عبد الله بن عمرو رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «يُخرج الدجال في أمتي، فيمكث أربعين» - لا أدري أربعين يوماً، أو أربعين شهراً، أو أربعين سنة - «فيبعث الله عيسى ابن مريم، كأنه عروة بن مسعود، فيطلبه فيهلكه، ثم يَمُكث الناس سبع سنين، ليس بين اثنين عداوة، ثم يُرسل الله ريحاً باردة من قِبَلِ الشام؛ فلا يَبْقَى على وجه الأرض أحدٌ في قلبه مثقال ذرة من خير أو إيمان إلا قبضته، حتى لو أن أحدكم دخل في كبَد جبل لدخلته عليه حتى تقبضه»^(١).

٢- وفي حديث النّوّاس بن سميان رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «غيرُ الدجال أخوفني عليكم، إن يخرج وأنا فيكم فأنا حجيجهُ دونكم، وإن يخرج ولستُ فيكم فامرؤٌ حجبيحُ نفسه، واللهُ خليفتي على كلِّ مسلم، إنه شابٌ قطط، عينه طافية، كأني أُشَبِّهه بعبد العزى بن قطن، فمن أدركه منكم؛ فليقرأ عليه فواتح سورة الكهف».

ثم بيّن النبي ﷺ أن الدجال يخرج من بين الشام والعراق، وأنه يَمُكث في الأرض أربعين يوماً، وأنه يأمر السماء أن تُمطر فتمطر، ويأمر الأرض أن تُنبِت فتنبِت، ويُمِرُّ بالأرض الخربة فيقول لها: أخرجي كنوزك، فتنبعه كنوزها.

ويقطعُ رأس رجلٍ بالسيف، ثم يدعوه، فيقبل عليه بوجه يتهلّل، ويمرُّ بالقوم يدعوهم إليه فيعرضون عنه، فينصرف عنهم، فيذهب ما بأيديهم من المال.

وبينما هو كذلك، إذ ينزل عيسى عليه السلام عند المنارة البيضاء، شرقي دمشق، واضعاً كَفَّيْهِ على أجنحة ملكين، فيطلبُ الدجالَ حتى يدركه بباب لُدٍّ فيقتله.

ثم يأتي عيسى قوماً قد عصمهم الله من الدجال، فيمسح عن وجوههم ويحدثهم بدرجاتهم في الجنة.

يأجوج وماجوج:

ثم يبعث الله يأجوج ومأجوج، وهم من كل حذب ينسلون، فيمرُّ أوائلهم على بُحيرة طبرية، فيشربون ما فيها، ولا يَمْرُون بشيء إلا أفسدوه، ثم يُرسل الله عليهم النعْفَ، فيموتون موتة نفسٍ واحدة.

ثم يُرسل الله مطرًا؛ فيغسل الأرض من نتنهم، ثم يُقال للأرض: أَنْبِئِي ثَمْرَكَ، وَرُدِّي بَرَكَتَكَ، فَيُبَارِكُ فيها، حتى إن الرمانة تكفي العدد من الناس، واللَّقْحَة الواحدة من الإبل أو البقر تكفي العدد الكبير من الناس، فينما هم كذلك، إذ بعث الله ريحًا طيبة فتأخذ روح كل مؤمن ومسلم، وَيَبْقَى شرارُ الناس، فعليهم تقوم الساعة^(١).

٣- وعن حذيفة بن أسيد الغفاري رضي الله عنه قال: أَشْرَفَ علينا رسول الله ﷺ ونحن نتذاكر الساعة؛ فقال: «لا تقوم الساعة حتى تَرُونَ عَشْرَ آيَات: طلوع الشمس من مغربها، والدخان، والدابة، وخروج يأجوج ومأجوج، ونزول عيسى ابن مريم، والدجال، وثلاثة خسوف: خُسْفٌ بالشرق، وخُسْفٌ بالمغرب، وخسف بجزيرة العرب، ونار تخرج من قعر عَدَن تسوق -أو تحشر- الناس، تبيثُ معهم حيث باتوا، وتقبل معهم حيث قالوا»^(٢).

مِنْ آثَارِ ظُلْمِ الْيَهُودِ: تَحْرِيمُ مَا أَحَلَّهُ اللَّهُ عَلَيْهِمْ

١٦٠- ﴿فِظْلٍ مِنَ الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَاتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ وَبِصَدِّهِمْ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ كَثِيرًا﴾

وَيَمْضِي القرآن الكريم في ذِكْرِ جرائم أخرى من جرائم اليهود، فيذكر في الآيتين التاليتين أربعة من منكراتهم؛ وهي: الظلم، وصدُّ الناس عن الدخول في الإسلام، وأَكْلُ الرِّبَا، وأَكْلُ أموال الناس بالباطل. أما ظلم اليهود فمنه:

(١) ينظر نص الحديث في «صحيح مسلم» برقم (٢٩٣٧) و«المسند» (١٨٢/٤) برقم (١٧٦٢٩) بإسناد صحيح على شرط مسلم، وأبو داود (٤٣٢١) والترمذي (٢٢٤٠) و«سنن النسائي الكبرى» (١٠٧٨٣) وابن ماجه (٤٠٣٧٥).

(٢) «المسند» (٧/٤) برقم (١٦١٤٤) إسناده صحيح ورجاله ثقات، و«صحيح مسلم» برقم (٢٩٠١) وأبو داود (٤٣١١) والترمذي (٢١٨٣) وابن ماجه (٤٠٥٥) والطبراني في الكبير (٣٠٣١).

- ١- الشرك بالله في قول بعضهم: ﴿عُزِّرَ ابْنُ اللَّهِ﴾.
 - ٢- وتطاولهم عليه سبحانه في مثل قولهم: ﴿يَدُ اللَّهِ مَغْلُولَةٌ﴾ وقولهم: ﴿إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَاءُ﴾.
 - ٣- والكفر بعيسى ومحمد عليهما السلام.
 - ٤- ونقضهم الميثاق، الذي أخذه الله عليهم.
 - ٥- وقولهم: ﴿أَجْعَلْ لَنَا إِلَهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ﴾.
 - ٦- وقولهم: ﴿أَرَأَيْتَ اللَّهُ جَهْرَةً﴾.
 - ٧- وتحريف التوراة وعدم العمل بصحيح ما جاء فيها.
 - ٨- وعبادتهم للعجل الذهبي.
 - ٩- ﴿وَقَتْلُهُمُ الْأنبياءَ بِغَيْرِ حَقٍّ﴾.
 - ١٠- ﴿وَقَوْلِهِمْ قُلُوبُنَا غُلْفٌ﴾.
 - ١١- واتهام مريم بالفاحشة . . . وغير ذلك كثير.
- وبسبب هذا الظلم، حرّم الله عليهم طيبات كانت حلالاً لهم، عقوبة لهم على ظلمهم واعتدائهم؛ منها: لحوم الإبل والبانها، المشار إليها في قوله تعالى: ﴿كُلِّ الطَّعَامِ كَانَ حِلالًا لِّنَبِيِّ إِسْرَءِيلَ إِلَّا مَا حَرَّمَ إِسْرَءِيلُ عَلَى نَفْسِهِ مِنْ قَبْلِ أَنْ تُنَزَّلَ التَّوْرَةُ﴾ [آل عمران: ٩٣]
- وقوله: ﴿وَعَلَى الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا كُلَّ ذِي ظُفْرٍ وَمِنَ الْبَقَرِ وَالْغَنَمِ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ شُحُومَهُمَا إِلَّا مَا حَمَلَتْ ظُهُورُهُمَا أَوِ الْحَوَايَا أَوْ الْخَوَايَا أَوْ مَا اخْتَلَطَ بِعَظْمٍ ذَلِكَ جَزَيْنَهُمْ بِبَغْيِهِمْ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ﴾ [الأنعام].
- أما ما حرّمه الله على هذه الأمة فليس عقوبة لهم، وإنما هو تحريم تنزيه لهم عن الخبائث التي تضرهم في دينهم ودنياهم.
- ومن ظلم اليهود صدّ الناس عن اتباع الحقّ، ومنعهم لهم من الإيمان بالرُّسل، لا سيّما دعوة محمد ﷺ.

وصدّهم الناس عن الهدى سَجِيَّةً لهم، مُتَصِفُونَ بها، ومُكررة منهم كثيرًا؛ ولذا كانوا أعداء الرُّسل، فقد قَتَلُوا عددًا من الأنبياء، وكذَّبوا عيسى ومحمدًا عليهما السلام، وهذا ما تشير إليه الآية.

اسْتِحْلَالُ الْيَهُودِ لِلرِّبَا وَأَكْلُ أَمْوَالِ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ

١٦١- ﴿وَأَخْذِهِمُ الرِّبَا وَقَدْ هُمُوا عَنْهُ وَأَكْلِهِمْ أَمْوَالِ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾

وبسبب تناولهم الرِّبَا الذي نهاهم الله عنه، فقد احتالوا عليه بأنواع من الحِيل، وصُنُوفٍ من الشُّبُه، واستحلوا أكل الرِّبَا مع غير اليهودي، ففي الإصحاح الثالث والعشرين من سفر التثنية: (لا تُقرض أخاك بربا، ربا فضة، أو ربا طعام، أو ربا شي مَّا، ممَّا يُقرض بربا، للأجنبي تقرض بربا).

وقد حرَّم الله على اليهود طيباتٍ أُحِلَّت لهم؛ بسبب استحلالهم أكل أموال الناس بالباطل عن طريق الرِّشوة، والسرقة، والخيانة، وأخذ الفداء عن الأسرى من قومهم، وسائر الوجوه المُحرَّمة.

أخرج ابن أبي حاتم بسندٍ حسنٍ عن مُقاتل بن حيان قال: كان الله تعالى قد حرَّم على أهل التوراة حين أفرَّوا بها أن يأكلوا الرِّبَا، ونهاهم أن يبخسوا الناس شيئًا، ونهاهم أن يأكلوا أموال الناس ظُلْمًا، فأكلوا الرِّبَا، وأكلوا أموال الناس ظُلْمًا، وصدَّوا عن دين الله، وعن الإيمان بمحمدٍ ﷺ، فلمَّا فعلوا ذلك؛ حرَّم الله عليهم بعض ما كان قد أُحل لهم في التوراة؛ عقوبةً لهم بما استحلوا، ممَّا كان الله قد نهاهم عنه، فحرَّم عليهم كلَّ ذي ظُفر؛ البعير والنعامة ونحوهما من الدَّوابِّ، ومن البقر والغنم شحومهما إلا ما حَمَلت ظهورُهما من الشحم والحوايا، يقال: هذا البقر، ويقال: هذا البطن غير الثرب، وما اختلط بعظم من اللحم، يقول: ذلك جزيناهم ببغيهم، واستحللهم ما كان الله حرَّم عليهم.

فهذه الآية تعليلٌ لبعض العقوبات التي نزلت باليهود؛ بسبب ظلمهم وبغيهم، وفيها دليلٌ على أن الرِّبَا مُحَرَّمٌ عليهم كما هو مُحَرَّم على المسلمين، وقد نصَّت التوراة في سفر الخروج من الإصحاح الثاني والعشرين على ذلك فقالت: (إن أقرضت فضة لشعبي الفقير الذي عندك، فلا تكن له كالمرايبي، ولا تضعوا عليه ربا).

وقد أعدَّ الله للكافرين به وبرسله من اليهود وغيرهم عذاباً مُوجِعاً في الآخرة.

قال الفخر الرازي في تفسير الآية: اعلم أن الذنوب مَحْصُورَةٌ في نوعين: الظلم للخلق، والإعراض عن الدين الحق؛ أما ظلم الخلق فإليه الإشارة بقوله: ﴿وَيَصْدِهِمْ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ كَثِيرًا﴾ (١٦٥) وَأَخَذَهُمُ الرِّبَا وَقَدْ نُهُوا عَنْهُ ﴿ثم إنهم مع ذلك في غاية الحرص على طلب المال، فتارةً يُحْصِلُونَهُ عن طريق الربا، مع أنهم قد نُهُوا عنه، وتارةً يُحْصِلُونَهُ عن طريق الرِّشَا. المراد بقوله: ﴿وَأَكْلِهِمْ أَمْوَالَ النَّاسِ بِالْبُطْلِ﴾.

فهذه الأربعة هي الذنوب التي شَدَّدَ عليهم بسببها في الدنيا والآخرة؛ أما التشديد في الدنيا، فهو ما تَقَدَّمَ من تحريم الطيبات عليهم، وأما التشديد في الآخرة فهو المراد بقوله تعالى: ﴿وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾.

قال المفسرون: إنما قال ﴿مِنْهُمْ﴾؛ لأن الله تعالى عَلِمَ أن قوماً منهم سيؤمنون؛ فَيَأْمُنُونَ من العذاب.

اسْتِثْنَاءُ مَنْ آمَنَ مِنَ الْيَهُودِ وَالتَّوْبَةُ بِهِمْ وَوَصْفُهُمْ بِسِتِّ صِفَاتٍ

١٦٢- ﴿لَكِنَّ الرَّاكِبِينَ فِي الْعِلْمِ مِنْهُمْ وَالْمُؤْمِنُونَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ وَالْمُقِيمِينَ الصَّلَاةَ وَالْمُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالْمُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ أُولَئِكَ سَنُؤْتِيهِمْ^(١) أَجْرًا عَظِيمًا﴾ (١٦٢)

لما ذكر سبحانه معائب أهل الكتاب، أتبع ذلك بذكر الممدوحين منهم، فلا يترك القرآن الحديث عن اليهود حتى يُنْصَفَ قَلَّةٌ مِنْهُمْ، ممَّنْ دخل في الإسلام في عهد النَّبِيِّ ﷺ إلى يومنا هذا، وإلى أن يَرِثَ الله الأرضَ وَمَنْ عليها، فَيُسْتَنْتَى من اليهود الذين وصفتهم الآياتُ بصفات الكُفْرِ وَالظُّلْمِ، قوماً عرفوا الحقيقة، فأَوْصَلَهُمْ ذلك إلى الإيمان الصحيح، ووصفَهم هذه الآيات بصفات ست؛ هي:

١- الرسوخ في العلم.

٢- الإيمان الكامل بعموم الدين.

٣- إقامة الصلاة.

٤- إيتاء الزكاة.

(١) قرأ حمزة وخلف العاشر (سَيُؤْتِيهِمْ) بالياء، والفاعل ضمير يعود على الله في قوله: (والمؤمنون بالله)، وقرأ الباقون (سَنُؤْتِيهِمْ) بنون العظمة على الالتفات.

٥ - الإيمان بالله.

٦ - الإيمان باليوم الآخر.

قال تعالى ﴿لَكِنَّ الرَّسْحُونَ فِي الْعِلْمِ مِنْهُمْ﴾ الثابتون فيه، الذين لا ترحزهم الرياح، ولا العواصف، ولا تؤثّر فيهم الشبهات، البعيدون عن الميل والانحراف عن الحق، المتقنون له، المتمسكون بأحكامه، البالغون فيه مبلغ البصيرة النيرة، ممن يؤمن على بصيرة وهدى ونور ﴿وَالْمُؤْمِنُونَ﴾ بالله ورسله ﴿يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ﴾ يا محمد من القرآن، وما أيدك الله به من المعجزات ﴿وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ﴾ على الرسل السابقين، كالتوراة والإنجيل وصحف إبراهيم وموسى وشيث وإدريس.

﴿وَالْمُؤْمِنُونَ﴾ عطف على ﴿الرَّسْحُونَ﴾ وقيل: إنها ابتداء وكلام مستأنف، فيكون المراد مؤمني أمة محمد ﷺ، والأول أصح؛ لأن الآية مسوقة فيما استثنى من اليهود؛ فالمراد المؤمنون منهم.

ثم خصّ الله المقيمين للصلاة منهم، ممن أثمر الإيمان في قلوبهم فأتبعوه بالعمل، فمدحهم وأثنى عليهم في قوله: ﴿وَالْمُقِيمِينَ الصَّلَاةَ﴾ المؤدّون لها في أوقاتها، المحافظون عليها وعلى أركانها وشروطها ونوافلها.

وقوله: ﴿وَالْمُقِيمِينَ﴾ هي منصوبة إما على الاختصاص؛ بمعنى: أخص المقيمين الصلاة، وهذا لإبراز قيمة الصلاة وبيان فضلها، أو منصوبة على المدح، أي: وأمدح المقيمين الصلاة، أو أنها مخفوضة بالعطف على ﴿بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ﴾؛ فيكون المعنى: والمؤمنون يؤمنون بما أنزل إليك، وما أنزل من قبلك، وبالمقيمين الصلاة؛ لأنه لم يخلُ شرع من الشرائع من إقامة الصلاة فهذه ثلاثة أوجه في إعرابها.

وللقارئ أن يقف على ﴿مِنْ قَبْلِكَ﴾ ويبدأ ﴿وَالْمُقِيمِينَ﴾ على معنى: وأخص بالمدح المقيمين للصلاة، وهكذا رُسِمَتْ في المصحف، ولا يوجد فيها قراءة أخرى متواترة.

أما ﴿وَالْمُؤْتُونَ الزَّكَاةَ﴾ فهو عطف على ﴿وَالْمُؤْمِنُونَ﴾؛ لأن من صفاتهم إخراج الزكاة لمستحقّيها. ﴿وَالْمُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ﴾ أي: بوحدهانيّه سبحانه، واستحقاقه للعبادة دون سواه.

﴿وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾ وما فيه من بعث وحشر ونشر وحساب وميزان وصراط وجنة ونار.

﴿أُولَئِكَ﴾ الموصوفون بهذه الأوصاف ﴿سَتُؤْتِيهِمْ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ نعطيتهم ثوابًا جزيلاً هو الجنة بسبب إيمانهم مرتين؛ مرة بموسى ومرة بمحمد؛ فهم يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُم مرتين، كما قال تعالى: ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَنَقُوا اللَّهَ وَءَامَنُوا بِرَسُولِهِ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِن رَّحْمَتِهِ﴾ [الحديد: ٢٨].

وفي الحديث عن الذي يُؤْتَى أَجْرَهُ مرتين: رجلٌ من أهل الكتاب، آمن بدينه، ثم آمن بمحمد ﷺ.

وهكذا وصفت الآية مؤمني أهل الكتاب بالإيمان الكامل، بما أوحاه الله تعالى إلى أنبيائه من كُتُبٍ، ثم وصفتهم بالرُسُوخ في العلم، ثم وصفتهم بالإيمان بالله واليوم الآخر، ومدحتهم بإقام الصلاة وإيتاء الزكاة.

وأهل الكتاب هؤلاء مثل: مخيريق، وعبد الله بن سلام، واليهودي الذي كان يخدم النَّبِيَّ ﷺ، وكل من يعتنق الإسلام منهم.

وهذه الآيات من أجمع أوصاف اليهود؛ حيث تحدثت عن رذائلهم وقبائحهم، ثم تحدثت عن عيسى وأمّه، ثم تحدثت عمَّا لَحِقَ بهم من عقوباتٍ؛ بسبب ظُلْمِهِم، ولم تُعَمَّمْ في الأحكام، بل استثنت منهم من آمن.

قَوَافِلُ الْهُدَايَةِ وَالنُّورِ

١٦٣- ﴿إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَى نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ^(١) مِنْ بَعْدِهِ وَأَوْحَيْنَا إِلَى إِبْرَاهِيمَ^(٢) وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطَ وَعِيسَى وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَهَارُونَ وَسُلَيْمَانَ وَءَاتَيْنَا دَاوُدَ زَبُورًا^(٣)﴾

ولا يزال الحديث موصولاً عن اليهود الذين يُفَرِّقُونَ بين الإيمان بالرُّسُل؛ فيؤمنون ببعض ويكفرون ببعض، ويطلبون أن يُنَزَّلَ القرآنُ جملةً واحدةً، مخطوطاً في صحيفة على محمد ﷺ، ويطلبون أن يؤيَّدَ بآيات تُصدِّقه، وذلك على وجه اللجاج والعناد، لا على

(١) قرأ نافع (والنبيين) بالهمز، والباقون بالإبدال مع الإدغام.

(٢) قرأ ابن عامر بخلف عن ابن ذكوان (إبراهيم) بفتح الهاء وألف بعدها، وقرأ الباقون (إبراهيم) بكسر الهاء وياء بعدها، وهما لغتان عند العرب، ولذا: فقد رُسمت بدون ياء بعد الهاء في المصحف؛ لتحتمل القراءتين.

(٣) قرأ حمزة وخلف العاشر (زبوراً) بضم الزاي، وقرأ الباقون (زبوراً) بفتح الزاي، وهما لغتان.

وجه الاسترشاد وطلب الهداية .

وبعد أن تحدثت السورة عن بعض فظائع اليهود، وكان من أبرزها إنكارُ نبوة محمد ﷺ، جاءت هذه الآية لتقررَ نزولَ الوحي على محمد ﷺ كما نَزَلَ على غيره من الرُّسل، وتُبين أن التفرقة بين رسل الله لا تأتي إلا عن حَسَدٍ وتعنتٍ وعصبيةٍ .

والآيات من هنا إلى الآية السبعين بعد المئة -وهي ثماني آيات- تتناول خمسة عناصر؛ هي:

أولاً: تقرير نزول الوحي على خاتم الرُّسل، كما نَزَلَ على سائر الأنبياء والمرسلين قبله ﴿إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَى نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِنْ بَعْدِهِ﴾

ثانياً: بيان الغاية من إرسال الرُّسل إلى الخلق ﴿لئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ﴾ .

ثالثاً: شهادة الله وملائكته لما أنزله على محمد ﷺ من الوحي ﴿وَكُنْ بِاللهِ شَهِيداً﴾ .

رابعاً: تقرير أنه لا مغفرة لأحد، ولا هداية له، إذا مات على الكفر والظلم، وصدَّ النَّاسَ عن دين الله ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَظَلَمُوا لَمْ يَكُنِ اللهُ لِيَغْفِرْ لَهُمْ﴾ .

خامساً: توجيه نداءٍ إلى عموم الخلق بمجيء النبيِّ الخاتم، ودعوتهم إلى الإيمان به، فإن كفروا به؛ فعليهم تحمُّلُ التبعة يومَ يقوم الناس لرب العالمين .

﴿يَأْتِيهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمُ الرَّسُولُ بِالْحَقِّ مِنْ رَبِّكُمْ فَآمَنُوا خَيْرًا لَكُمْ﴾

أنواع الوحي اللغوي والشرعي:

هذا: وكلمة (الوحي) لها معنى شرعيٌّ خاصٌّ بالنسبة للأنبياء؛ وهو كلام الله تعالى المنزل على نبيٍّ من أنبيائه، ولها في اللغة معانٍ أخرى:

١- فتستعمل بمعنى (الإشارة)، كقوله تعالى على لسان زكريا ﷺ: ﴿فَأَوْحَى إِلَيْهِمْ أَنْ سَبِّحُوا بُكْرَةً وَعَشِيًّا﴾ [مريم: ١١] أي: أشار إليهم .

٢- وتستعمل بمعنى الإلهام الفطري للإنسان، كقوله تعالى: ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَيْكَ أَمْرَ مُوسَى﴾ [القصص: ٧] أي: ألهمناها .

٣- وتستعمل بمعنى الإلهام الغريزي للحيوان، كقوله تعالى: ﴿وَأَوْحَى رَبُّكَ إِلَى النَّعْلِ﴾

[النحل: ٦٨] أي: ألهمناه.

٤- وتستعمل كلمة الوحي بمعنى التأثير والوسوسة، كقوله تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيْطَانِ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُورًا﴾ [الأنعام: ١١٢].

هذا: ووحي الله سبحانه إلى رُسُلِهِ جاء بيانه في قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِنْ وَرَائِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِ مَا يَشَاءُ﴾ [الشورى: ٥١].

فهذه ثلاثة أحوال:

أولها: أن يُكَلِّمَهُ الله تعالى مباشرة بدون واسطة، كما حدث لموسى؛ حيث سَمِعَ كلام الله تعالى، وَفَهُمْ مدلوله عن طريق صوتٍ سَمِعَهُ كصوت الرِّعْد؛ فَحَصَلَ له العلم والإدراك دون حروف ولا أصوات، كما صَحَّ في الحديث عن أبي هريرة ؓ عن رسول الله ﷺ: «إِذَا قَضَى اللَّهُ تَعَالَى الْأَمْرَ فِي السَّمَاءِ ضَرَبَتِ الْمَلَائِكَةُ بِأَجْنَحَتِهَا خُضْعَانًا لِقَوْلِهِ، كَأَنَّهُ سِلْسَلَةٌ عَلَى صَفْوَانٍ، فَإِذَا فُزِعَ عَنْ قُلُوبِهِمْ قَالُوا: مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ؟ قَالُوا: لِلَّذِي قَالَ: ﴿الْحَقُّ وَهُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ﴾»^(١).

فهذا النوع من الوحي عِلْمٌ يَحْصُلُ للرسول من جهة سمعه، يَتَّصِلُ بكلام الله تعالى عن طريق صوت قويٍّ يُثِيرُ عوامل الانتباه كصلصلة الجرس، وهي أشدُّ حالات الوحي، وهكذا وحي الله تعالى إلى ملائكته.

وثانيها: أن يتمثَّلَ جبريلُ للرسول في صورة رجلٍ، فكان يَنْزِلُ على النَّبِيِّ ﷺ في صورة (دحية الكلبي)، وكما في حديث الإسلام والإيمان والإحسان، حين نَزَلَ عليه رجلٌ شديدُ بياضِ الثياب، شديد سواد الشعر، لا يُرى عليه أثرُ السَّفَرِ، ولا يعرفه أحدٌ من أصحاب النبي ﷺ.

وقد جَمَعَ هاتين الحالتين حديثُ عائشة ؓ أن الحارث بن هشام ؓ سأل النَّبِيَّ ﷺ عن الوحي فقال: «أحيانًا يأتيني مثل صلصلة الجرس، وهو أشدُّ عليَّ، فَيُفَصِّمُ عني، وقد وَعَيْتُ عنه ما قال، وأحيانًا يتمثل لي الملكُ رجلاً فيكلمني؛ فأعي ما يقول»^(٢).

(١) البخاري برقم (٤٧٠١، ٤٨٠٠).

(٢) البخاري برقم (٢) من حديث عائشة وانظر (٣٢١٥) ومسلم برقم (٢٣٣٣).

وثالثها: الوحي منامًا، كما حَدَّثَ للنبي ﷺ في الأشهر الستة الأولى قبل نزول الوحي عليه.
ومن الوحي النفث في الرُّوع؛ أي: القلب، كما في حديث ابن مسعود مرفوعًا: «إن رُوح القدس نفث في روعي أنه لن تموت نفسٌ حتى تستوفي رزقها وأجلها»^(١).
والوحي منامًا، أو عن طريق النفث في الرُّوع، لا يُوجَدُ منه شيء في القرآن.
والرسول: هو مَنْ أوحى الله إليه بشرع وأمره بتبليغه.
والنبي: هو مَنْ أوحى الله إليه بالنبوة، ولم يَنْزَلْ عليه كتابٌ ولا شرعٌ، ولكنه يدعو الناس بشريعة مَنْ سَبَقَهُ من الرُّسل.
وجاء في بعض الآثار أن عدد الرُّسل ثلاث مئة وثلاثة عشر رسولًا، وأن عدد الأنبياء مئة وأربعة وعشرون ألفًا^(٢).

ومن لدن آدم ﷺ والناس يعرفون ربهم، كما قال هايل لقايل: ﴿إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ﴾ [المائدة: ٢٨]

ويعرفون الثواب والعقاب، كما قال أيضًا: ﴿إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ﴾ [المائدة: ٢٧]
وقال: ﴿إِنِّي أُرِيدُ أَنْ تَبُوءَ بِإِثْمِي وَإِثْمِكَ فَتَكُونَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ وَذَلِكَ جَزَاءُ الظَّالِمِينَ﴾ [المائدة].

وَوَرَدَ أن بعضَ اليهود قالوا للنبي ﷺ: ما أنزل الله على بشرٍ من شيء بعد موسى؛ فنَزَلَ قول الله تعالى: ﴿إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَى نُوحٍ وَاللِّسَّانِ مِنْ بَعْدِهِ﴾^(٣).

إذن، فالله تعالى يُبَيِّنُ أن موكب الدعوة واحدٌ، وأنه يأخذ بزمام القافلة البشرية إلى الهدى والنور، سواء منهم من أرسل إلى عشيرة، أو إلى قبيلة، أو إلى أمة، أو إلى مدينة، ثُمَّ مَنْ أُرْسِلَ إِلَى مَنْ عَمَّتْ رسالته الإنس والجن إلى قيام الساعة، صلوات الله وسلامه

(١) رواه أبو نعيم في «الحلية» بسند صحيح، وأخرجه ابن حبان كما في «الدر المنثور» (١/٤٦٠)، وقد سبق تخريجه بأوفى من ذلك ويأتي في آخر سورة الشورى.

(٢) ينظر الآثار الواردة في ذلك في «تفسير ابن كثير» للآية بأسانيد ضعيفة، ومنها حديث أبي ذر، الطويل، وفي «تفسير الطبري» و«الدر المنثور».

(٣) «سيرة ابن هشام» (١/٥٦٢) وابن جرير (٩/٤٠٠) وابن كثير وابن الجوزي والخازن وغيرهم عن ابن عباس بسند فيه محمد بن أبي محمد مولى زيد بن ثابت، وثقه ابن حبان، وقال الذهبي: لا يعرف.

عليهم أجمعين، قال تعالى: ﴿وَإِنْ مِنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ﴾ [فاطر: ٢٤] وكلهم قد تلقى الوحي من الله تعالى، ولم يأت أحد منهم بشيء من عنده، ومنهم من قص الله علينا، ومنهم من لم يقصص.

وأنت - أيها الرسول - واحد منهم، أوحينا إليك كغيرك، فلست بدعا من الرسل، وقد نزل عليك الوحي كما نزل على غيرك، وفي هذا رد على من أنكر رسالتك من اليهود والنصارى وغيرهم، وقدم النبي ﷺ في الذكر مع تأخر نبوته؛ لتقدمه في الفضل على غيره.

ولم يثبت حديث صحيح في عدد الأنبياء والرسل؛ فنأخذ بظاهر القرآن ﴿مِنْهُمْ مَنْ قَصَصْنَا عَلَيْكَ وَمِنْهُمْ مَنْ لَمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ﴾^(١) [غافر: ٧٨] والمسلم يؤمن بأن لله تعالى رسلا وأنبياء كثيرين، لا يعلم عددهم إلا الله، ويؤمن على وجه التفصيل بمن جاء ذكر أسمائهم في هذه الآية، وآيات سورة الأنعام من (٨٣-٨٦) ويؤيد عليها (آدم ومحمد)، وعدد هؤلاء الذين ذكروا في القرآن الكريم خمسة وعشرون.

وهم: آدم، وإدريس، ونوح، وهود، وصالح، وإبراهيم، ولوط، وإسماعيل، وإسحاق، ويعقوب، ويوسف، وأيوب، وشعيب، وموسى، وهارون، ويونس، وداود، وسليمان، وإلياس، واليسع، وزكريا، ويحيى، وعيسى، وذو الكفل، ومحمد صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين.

قال تعالى ﴿إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ﴾ يا محمد، من الشرع العظيم والأخبار الصادقة من أجل تبليغ الرسالة، كشأن الأنبياء الذين سبقوك، وقد ذكرت هذه الآية أحد عشر رسولا منهم بالإضافة إلى الأسباط.

ترجمة يسيرة لأحد عشر من الرسل و الأسباط:

الأول: نوح ﷺ ﴿كَأَآؤَحَيْنَا إِلَى نُوحٍ﴾ وبدأ به؛ لأنه أول رسول بعث بشريعة إلى قوم مشركين، بعد أن حدثت عبادة الأصنام في عهده، وكان الناس قبله أمة واحدة على دين واحد؛ هو التوحيد.

(١) أورد ابن كثير والطبري وغيرهما في ذكر عددهم كثير من الأحاديث؛ ومنها حديث أبي ذر الطويل، وكلها أحاديث ضعيفة لم يثبت منها شيء.

وقد أنزل الله على نوح عليه السلام عشر صحف، وهو أبو البشر الثاني، فمن نسله كان الناس بعد غرق الطوفان، وهو أطول الأنبياء عمراً، عاش أكثر من ألف عام، وكانت رسالته أطول الرسائل (ألف سنة إلا خمسين عاماً)، وصبر على أذى قومه طول هذه المدة، وأُمته أول أمة عُذبت في الأرض، وأغرَقها الله بالطوفان بدعاء نبيها، ونوح أول الرُّسل كما جاء في حديث الشفاعة في الصحيحين، وقد مات نوح قبل الهجرة بثلاثة آلاف وتسع مئة وأربع وسبعين سنة، كما في كتب اليهود.

الثاني: إبراهيم عليه السلام ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ﴾ وهو أبو البشر الثالث، ومنه تفرعت شجرة النبوة، وقد وُلِدَ إبراهيم سنة ألفين وثمان مئة وثلاث وتسعين قبل الهجرة، في أور الكلدانيين بالعراق، ومات سنة ألفين وسبع مئة وثمان عشرة قبل الهجرة، ودفن في مدينة الخليل بفلسطين.

الثالث: ﴿وَإِسْمَاعِيلَ﴾ عليه السلام، هو ابن إبراهيم عليه السلام، وأُمه هاجر المصرية، كان رسولاً إلى قومه في قبيلة جُرْهُم وغيرها، وقد أرسله الله إلى أهله وأبنائه، قال تعالى عنه: ﴿وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِسْمَاعِيلَ إِنَّهُ كَانَ صَادِقَ الْوَعْدِ وَكَانَ رَسُولًا نَبِيًّا﴾ ﴿٥٢﴾ [مریم]

وهو الذبيح، والموصوف بالحلم في القرآن الكريم، قال تعالى: ﴿فَبَشَّرْنَاهُ بِغُلَامٍ حَلِيمٍ﴾ ﴿١٠١﴾ [الصافات]

وهو أكبر من إسحاق بثلاثة عشر عاماً، وقد وُصِفَ إسحاق بالحلم في قوله تعالى: ﴿وَبَشَّرُوهُ بِغُلَامٍ عَلِيمٍ﴾ [الذاريات: ٢٨] وقد تُوفِّيَ إسماعيل بمكة سنة ألفين وست مئة وست وثمانين قبل الهجرة.

الرابع: ﴿وَإِسْحَاقَ﴾ عليه السلام، هو ابن إبراهيم من سارة ابنة عمه، وكان إسحاق نبياً مؤيداً لشرع أبيه، ولم ينزل عليه شرع مُستقل، تُوفِّيَ سنة ألفين وست مئة وثلاث عشرة.

ويدَّعي اليهود أنه الذبيح، وليس بصحيح؛ لأن الله تعالى بعد أن ذَكَرَ قصة إسماعيل الذبيح قال: ﴿وَبَشَّرْنَاهُ بِإِسْحَاقَ نَبِيًّا مِّنَ الصَّالِحِينَ﴾ ﴿١١٢﴾ [الصافات].

الخامس: ﴿وَيَعْقُوبَ﴾ عليه السلام، هو ابن إسحاق، وهو الملقَّب بإسرائيل، حفيد إبراهيم، أدرك جدَّه إبراهيم، كما قال تعالى: ﴿فَبَشَّرْنَاهَا بِإِسْحَاقَ وَمِنْ وَرَاءِ إِسْحَاقَ يَعْقُوبَ﴾ [هود: ٧١]

وكان نبياً يدعو الناس بمقتضى شريع جده إبراهيم، وليس له شريعة خاصة، ومنه الأبناء الاثنا عشر، إخوة يوسف عليه السلام، وهم الأسباط، حيث تناسل من كل واحد عشيرة تتسب لكل منهم، وقد توفي يعقوب سنة ألفين وخمسة مئة وست وثمانين قبل الهجرة، قال تعالى: ﴿وَوَصَّي بِهَا إِبْرَاهِيمَ بَنِيهِ وَيَعْقُوبَ﴾ [البقرة: ١٣١].

السادس: ﴿وَالْأَسْبَاطُ﴾ المراد بالأسباط: الأنبياء الذين كانوا في قبائل بني إسرائيل الاثنا عشر، الذين هم من ولد يعقوب، وهم إخوة يوسف عليه السلام، وهم أحفاد إسحاق، وأصل بني إسرائيل، وقد أريد منهم عشرة أسباط ونصف في حروب الآشوريين والبابليين، وبقي منهم سبط ونصف، هم أصل اليهود في العالم اليوم، ويريد يهود اليوم الانتقام لأسلافهم الذين قُتلوا في بابل وآشور، فكان التخطيط لاحتلال العراق أخذًا بالثأر؛ ليصلوا إلى المكان الذي تم فيه القضاء على أجدادهم!! وتم لهم ما أرادوا في بابل وآشور.

وأبناء يعقوب الاثنا عشر هم أسباط إسحاق؛ أي: أحفاده، وهم: (رؤبين، وشمعون، وجاد، ويهوذا، ويساكر، وزبولون، ويوسف، وبنامين، ومنسى، ودان، وأشير، ونفتالي).

أما يوسف عليه السلام فكان نبياً رسولاً، أرسله الله في مصر، وهو في السجن، حيث قال عن تأويله للرؤيا: ﴿ذَلِكُمَا مِمَّا عَلَّمَنِي رَبِّي إِنِّي تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ لَا وَاتَّبَعْتُ مِلَّةَ آبَائِي إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ مَا كَانُوا لَنَا أَنْ نُشْرِكَ بِاللَّهِ مِنْ شَيْءٍ ذَلِكَ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ عَلَيْنَا وَعَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ﴾ (٣٨) يَصْخِرُ السِّجْنُ عَنْ رِيبَاتٍ مُتَفَرِّقَاتٍ خَيْرٌ أَمَرَ اللَّهُ الْوَحْدَ الْقَهَّارَ (٣٩) مَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِهِ إِلَّا أَسْمَاءً سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَءَابَاؤُكُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ إِنْ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ ذَلِكَ الَّذِينَ الْقَيْمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ (٤٠) [الآيات].

وأخبر الله تعالى عن رسالته في قومه بقوله: ﴿وَلَقَدْ جَاءَكُمْ يُوسُفُ مِنْ قَبْلُ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا زِلْتُمْ فِي شَكٍّ مِمَّا جَاءَكُمْ بِهِ حَتَّى إِذَا هَلَكَ قُلْتُمْ لَنْ يَبْعَثَ اللَّهُ مِنْ بَعْدِهِ رَسُولًا﴾ [غافر: ٣٤].

أما بقية الأسباط؛ فكان كل منهم قائماً في بنيهِ وقومه بدعوة إبراهيم وشريعته، وهم متفاوتون في مقام النبوة.

السابع: ﴿وَعِيسَى﴾ ابن مريم عليه السلام، ولد من غير أب، كما خلق آدم من غير أب

ولا أم، وكما خلقت حواء من غير أم، وكما خلق سائر البشر من أب وأم، فهو رابع القسم العقلية. ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِنْدَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ﴾ [آل عمران: ٥٩]

وكانت ولادته سنة ست مئة واثنين وعشرين قبل الهجرة، وقد أنزل عليه الإنجيل، وهو شرعٌ ناسخٌ لبعض أحكام التوراة، ويعتمد عليها في بقية الأحكام، وكانت مدة رسالته ثلاث سنوات، أرسل وهو في سن الثلاثين، ورُفع - على الأرجح - بعد ثلاث سنوات من رسالته، وكان رُفَعه إلى السماء سنة خمس مئة وتسع وثمانين قبل الهجرة.

الثامن: ﴿وَأَيُّوبَ﴾ [١١١]، كان رسولاً نبياً، كانت رسالته بعد إبراهيم وقبل موسى في القرن الخامس عشر قبل الميلاد؛ أي: القرن الحادي والعشرين قبل الهجرة، وكان له كُتُبٌ بالعربية، نقلها موسى [١١٢] إلى العبرانية على سبيل الموعظة.

التاسع: ﴿وَيُوشَعَ﴾ [١١٣]، وهو ابن مَتَّى، اسم أمه، وهو من سبط زبولون من بني إسرائيل، بعثه الله إلى أهل (نِثْوَى) عاصمة الآشوريين بالعراق، بعد خراب بيت المقدس، وكان ذلك في حدود القرن الحادي عشر قبل الهجرة، قال تعالى: ﴿وَأَرْسَلْنَاهُ إِلَىٰ مِائَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ﴾ [١١٤] [الصفات] هم أهل نينوى.

العاشر: ﴿وَهَارُونَ﴾ [١١٥]، وهو ابن عمران، الأخ الأكبر لموسى، أرسله الله مع موسى إلى بني إسرائيل، وأُرْسِلَ وهو في مصر، وقد تُوفي سنة ألف وتسع مئة واثنين وسبعين قبل الهجرة.

الحادي عشر: ﴿وَسُلَيْمَنَ﴾ [١١٦]، وهو ابن داود، كان نبياً حاكماً بالتوراة، ومَلِكاً عظيماً، وقد أوحى الله إليه بكثير من المواعظ والحِكَم، تُوفي سنة ألف وخمس مئة وسبع وتسعين قبل الهجرة.

الثاني عشر: ﴿وَعِيسَىٰ ابْنُ مَرْيَمَ﴾ [١١٧]، وقد أنزل الله عليه الزبور، وهو كتاب، أو صحف مكتوبة، فيه مئة وخمسون سورة، كلها تحميدٌ وتسبيحٌ وتقديسٌ وتمجيدٌ وثناءٌ على الله تعالى، ومواعظٌ وحِكَمٌ، وليس فيها أحكامٌ، ولا حلالٌ ولا حرامٌ، وكان داود يقرؤها، والناس خلفه، وفي مقدمتهم العلماء، ثم من سخرهم الله له؛ من الجن والطيور والدواب وغيرهم.

وقد أعطى الله داود صوتاً حسناً، قال عنه النبي ﷺ لأبي موسى الأشعري: «لقد أعطيت مزماراً من مزامير آل داود»^(١)، وهو أحد أسفار الكتاب المقدس عند اليهود، وكان بنو إسرائيل يترنمون بفصوله، وداود هو ابن يسي، وأبو سليمان، توفي سنة ألف وست مئة واثنين وعشرين قبل الهجرة^(٢).

وقدّم عيسى على من كان قبله من الرُّسل؛ ليطعن اليهود فيه، وتقديس النَّصاري له. ولم يُنزل على أحدٍ من هؤلاء الرُّسل جميعاً كتابٌ جملةً واحدةً؛ فلذا جَمَعَهُم في هذه الآية، وهذا هو المقصود من الآية في الردّ على اليهود حين قالوا: ما أنزل الله على بشرٍ من شيء بعد موسى.

ولمّا كان موسى وحده هو الذي نُزِّلَ عليه كتاب يشمل التشريع الكامل، إلى جوار العقيدة وغيرها، وهو التوراة، ذكر وحده في الآية التي تليها. قال تعالى:

١٦٤ - ﴿وَرُسُلًا قَدْ قَصَصْنَاهُمْ عَلَيْكَ مِنْ قَبْلُ وَرُسُلًا لَمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَى تَكْلِيمًا﴾

أي: وأرسلنا رسلاً سبق أن سميناهم لك في القرآن قبل هذه الآية، وعرفناك أخبارهم يا محمد، وبيّنا لك إلى من أرسلوا، وبيّنا لك مواقف أقوامهم منهم، وهؤلاء الرُّسل مثل: هود، وصالح، وشعيب، وزكريا، ويحيى، وإلياس، واليسع، ولوط ﴿وَرُسُلًا لَمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ﴾ لحكمة أردناها، فلم نسّمهم لك، ولم نعرفك أخبارهم، ومنهم من جاء ذكره في السّنة؛ مثل: خالد بن سنان العبسي، ومنهم من لم يرد ذكره في السّنة؛ مثل: حنظلة بن صفوان، نبي أصحاب الرس.

وقد ذكر ابن سعد وابن عساكر عن الكلبي أن أوّل نبيّ بعثه الله في الأرض إدريس، ثم انقطعت الرُّسل حتى بُعث نوح، وكان سام بن نوح نبياً، ثم انقطعت الرُّسل حتى بعث الله إبراهيم، ثم إسماعيل، مات بمكة، ودُفن بها، ثم إسحاق، مات بالشام، ولوط ابن أخي إبراهيم، ثم يعقوب وهو إسرائيل، ثم يوسف، ثم شعيب جدّه مدين بن إبراهيم، ثم هود،

(١) من حديث أبي هريرة في مسند أحمد (٨٦٤٦) حديث صحيح بإسناد حسن، لأن محمد بن عمرو حسن

الديث، وباقي رجاله ثقات رجال الصحيح، (محققوه) وانظر (٧٨٧) وأخرجه أبو داود (٣٧٤٩).

(٢) ينظر في هذه التّبذة عن هؤلاء الرسل «تفسير التحرير والتنوير» (٣٤/٥).

ثم صالح، ثم موسى وهارون، ثم أيوب، ثم الخضر، ثم داود، ثم سليمان، ثم يونس، ثم اليسع وإلياس وذا الكفل، ثم عيسى، وبين موسى بن عمران وبين مريم بنت عمران أم عيسى ألف وسبع مئة سنة، ثم محمد، وكل نبيٍّ ذُكِرَ في القرآن من ولد إبراهيم إلا إدريس ونوح ولوط وهود وصالح، ولم يكن من العرب أنبياء إلا خمسة: هود وصالح وإسماعيل وشعيب ومحمد، وإنما سُمُّوا عَرَبًا؛ لأنه لم يتكلم أحدٌ من الأنبياء بالعربية غيرهم^(١).

وقد اعتنى القرآن بِذِكْرِ مَا اشتهر من أنباء بني إسرائيل بقصدٍ مُحاجتهم بهم.

قال العلماء: والذين سَمَّاهم الله، يدلُّ ذكرهم على تفضيلهم على مَنْ لم يُذكروا.

﴿وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَى تَكْلِيمًا﴾ أي: خاطبه مُخاطبةً من غير واسطة، وهو كلام حقيقي وليس مجازًا؛ ولذا أكَّده الله تعالى بالمصدر لرفع احتمال المجاز؛ لأن الأفعال لا تُؤكَّد بالمصادر، فلا يقال: (أراد الحائط يسقط إرادة)، ولا يقال: (كلمت لك فلانًا) بمعنى: كتبت له كتابًا^(٢)، فلما قال: ﴿تَكْلِيمًا﴾ لم يكن إلا كلامًا مسموعًا من الله تعالى من غير واسطة؛ أي: ليس بواسطة جبريل، ولا عن طريق إلقاء الوحي في نفسه.

وفيه إثباتُ صفة الكلام لله تعالى من غير تشبيه ولا تأويل ولا تعطيل ولا تحريف، وهذا الكلام بكيفية يعلمها الله سبحانه؛ إذ ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ سبحانه.

وقد خَصَّ الله موسى بالكلام المباشر، وبإنزال التوراة جملةً، ولم يكن هذا قاذحًا في رسالة محمد ﷺ، بل كان تشريفًا له، فكَذَلِكَ مَنْ أُنزل عليه القرآن مُفَرَّقًا؛ ليثبت فؤاده، وليناسب حال الأمة؛ لأن فَرَضَ التكليف جملةً واحدةً فيه مشقةً على العباد، كما حدث لبني إسرائيل حيث لم يعملوا بالتوراة حتى رفع الله فوقهم الطور، وأخذ عليهم العهد للعمل بما فيها تحت وطأة التهديد، فكان التشريع في شريعة محمد ﷺ على سبيل التدرج، وقد وردت آثارٌ في تفسير ابن كثير في وصف موسى ﷺ وتكليمه لم يصح منها شيء.

(١) ينظر: ابن سعد (٥٤/١) وابن عساكر (١٦٥/٦).

(٢) القرطبي والخازن و«زاد المسير» وغيره.

هذا : ومن فوائد هذه الآية :

- ١- أن في ذكر هذه الكوكبة من الرسل ، بيان أن محمدا ﷺ ليس بدعاً من الرسل ، بل إن الله تعالى أرسل قبله عددا كثيرا وجما غفيرا من الرسل ، فليس هناك وجه لاستغراب رسالته ﷺ .
- ٢- وقد أوحى الله إليه من العقيدة والشريعة كما أوحى إليهم ، فبعضهم يصدق بعضاً ، ويوافق بعضهم بعضاً .
- ٣- أن دعوته دعوتهم ، فمصدرهم واحد ، وغايتهم واحدة ، وهدفهم واحد .

الْغَايَةُ مِنْ إِرْسَالِ الرُّسُلِ

١٦٥- ﴿رُسُلًا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِثَلَاثٍ^(١) يَكُونُ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾

ثم بين سبحانه الغاية من إرسال الرسل وأنها أمران :

الأول : التبشير للمؤمنين ، والإنذار للكافرين .

الثاني : قَطْعُ الْحُجَّةِ عَلَى النَّاسِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ .

فكانه تعالى يقول لعباده : أرسلت لكم رسلاً مبشرين بثوابي ودخول جنتي من أطاعني واتبع أمري وصدق رُسُلي ، ومنذرين بعقاب من عصاني وخالف أمري وكذب رُسُلي ، وقد أرسلت هؤلاء الرسل إلزاماً للحُجَّةِ ؛ لثلا يحتج الناس على الله يوم القيامة بعد إرسال الرسل في تركهم التوحيد والطاعة ؛ فيقولون : ﴿رَبَّنَا لَوْلَا أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ آيَاتِكَ﴾ [طه : ١٣٤] و[القصص : ٤٧] لتوقظنا من غفلتنا ، وتنبهنا بما وجب علينا .

وفي حديث ابن مسعود ؓ أن النبي ﷺ قال : « لا أحد أغبر من الله تعالى ؛ من أجل ذلك حرم الفواحش ، ما ظهر منها وما بطن ، ولا أحد أحب إليه المدح من الله تعالى ؛ من أجل ذلك مدح نفسه ، ولا أحد أحب إليه العذر من الله تعالى ؛ من أجل ذلك بعث النبيين

(١) قرأ الأزرق عن ورش بإبدال همزة (ثلا) ياء في الوصل والوقف ، وكذا حمزة عند الوقف .

مبشرين ومنذرين» وفي لفظ: «من أجل ذلك أرسل رسله، وأنزل كتبه»^(١).

بلوغ الرسالة شرط في الحساب يوم القيامة:

وفيه دليل على أن الله لا يُعَذِّبُ الْخَلْقَ قَبْلَ بَعْثِ الرُّسُلِ، وقبل أن تصلهم الرسالة.

﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ بَعَثَ رَسُولًا﴾ [الإسراء: ١٥] وقال سبحانه: ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهْلِكَ الْفَرَىٰ حَتَّىٰ يَبْعَثَ فِي أُمَمٍ رَسُولًا يَنْلُوا عَلَيْهِمْ ءَايَاتِنَا﴾ [القصص: ٥٩]

وقال جل شأنه: ﴿كُلَّمَا أَلْقَىٰ فِيهَا فَوْجٌ سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ﴾ [الملك: ٨].

وتبليغ هذه الرسالة للبشر -على مدار التاريخ- مهمة العلماء والحكام المسلمين في كل زمان ومكان، وكل إنسان بلغ سن الحلم وَجَبَ عليه أن يبحث بنفسه عن الرسالة المصاحبة للبشر في عصره دون التأثر بما عليه الآباء، وما تدين به البيئة التي نشأ فيها، وعليه وحده تقع المسؤولية، ما دام قد سمع بالإسلام من وسائل الإعلام وغيرها.

وفي إرسال الرُّسُلِ إلى الْخَلْقِ دليل على أن معرفة الله تعالى لا تكون بالعقل وحده، بل تكون أيضًا عن طريق إرسال الرُّسُلِ وإنزال الكتب، والرُّسُلُ واسطة بين الله تعالى وبين خلقه، يُبلِّغونهم رسالات ربهم، وَيُبينون لهم أحكام الله تعالى التي فَرَضَهَا عليهم.

العقل لا يستقل بمعرفة الهدى والضلال:

ولو علم الله سبحانه أن العقل البشري يَهْتَدِي بنفسه إلى التوحيد، وإلى مصلحته في دنياه وأخراه؛ لَوَكَّلَ الإنسانَ إلى عقله، وَلَمَّا أُرْسِلَ الله الرُّسُلَ على مدى التاريخ، ولكن عَلِمَ الله تعالى أن العقل وحده قاصرٌ بذاته عن الوصول إلى الْهُدَى بغير توجيه الرسالة التي تُخاطب العقل وتوقظه، بأن يأتمر وينتهي متى ثَبَتَ النص في الحكم، ودَوَّرَ العقل هو فَهْمُ مدلول النص وما يَعْنِيهِ، ومن ثَمَّ العمل بموجبه.

والعقل لا يَحْكُم على النص الثابت من عند الله تعالى، أو من رسوله ﷺ بالصحة أو

(١) «صحيح البخاري» برقم (٤٦٣٤، ٥٢٢٠، ٧٤٠٣) و«صحيح مسلم» برقم (٢٧٦٠) والنسائي في «السنن الكبرى» (١١١٨٣) و«المسند» (٣٦١٦، ٤١٥٣). مختصرًا، وإسناده صحيح على شرط الشيخين وعبد الرزاق (١٩٥٢٥) وابن أبي شيبة (٤/٤١٩) مختصرًا، والبغوي (٢٣٧٣).

البطلان، وليس في وسعه الخيار بين القبول والرفض، فإذا لم يسلم ويؤمن لما جاء عن الله تعالى، وما صحَّ عن رسوله ﷺ؛ فهو كافرٌ، وعلى أساس تبليغ الرُّسلِ رسالات ربهم تقوم سعادةُ البشر وشقاوتهم في الدنيا والآخرة، وما يتم للإنسان عن طريق الرسالة لا يُمكن له أن يتم عن طريق العقل.

فهؤلاء أصحاب أكبر العقول في الدنيا، البعيدة عن رسالة الله وهدايته؛ مثل: أفلاطون وأرسطو وإخوانتون وغيرهم، لم يهتدوا بعقولهم النادرة -وحدها- إلى التوحيد الصحيح.

وهذا كله مما يدخل تحت قوله تعالى: ﴿لَئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا﴾ في ملكه ﴿حَكِيمًا﴾ في تديره، والرُّسل يُرشدون العقل لمعرفة الله تعالى ومعرفة صفاته، ويُبينون لهم الحد الذي يجب عليهم الوقوف عنده، ويضعون لهم بأمر الله تعالى قواعدَ عامَّةً للأوامر والنواهي الإلهية، ويحملونهم على ترك أهوائهم إلى رضوان الله تعالى، ويُخبرونهم بما في الآخرة من ثواب وعقاب.

أما مهمة العقل فهي:

أولاً: أن يعمل بحريَّة؛ فيدرك أن ما جاء به الأنبياء هو الحقُّ.

ثانياً: أن يعمل لفهمٍ منهج الله تعالى وتطبيقه، فقد أثبت التجارب البشرية أنه ليس بالإمكان وضع منهج للبشر أفضل منه.

ثالثاً: أن الوحي الذي جاء به الأنبياء، لا يتفاعل معه ولا يفهمه إلا أولو الألباب.

وقد علِّمَ الله تعالى ضَعْفَ الإنسان، وعَلِمَ أنه لا يستطيع الوصول إلى الكمال وحده؛ فأرسل له الرُّسلَ، وأنزل الكتب؛ ليرشدوه إلى الطريق القويم.

الإِسْلَامُ لَيْسَ فِي حَاجَةٍ إِلَى تَصْدِيقِ أَحَدٍ لَهُ بَعْدَ شَهَادَةِ اللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ

١٦٦ - ﴿لَئِنْ أَتَىكَ آيَاتُ الْكُفْرِ فَزَاهُجْهَا يُكْفُوفٌ أُولَئِكَ سِعْلَى﴾ وَالْمَلَائِكَةُ يَشْهَدُونَ وَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا

وبعد هذا البيان لرسول الله تعالى، وبيان مهام رسالتهم، وعلى رأسهم خاتمهم محمدٌ صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين، بعد هذا البيان لا يبقى هناك حُجَّةٌ لأهل الكتاب، ولا غيرهم، في عدم الاعتراف برسالة محمدٍ ﷺ، فإذا أنكر اليهود رسالتك بعد قيام هذه

الأدلة، وكفروا بك - أيها الرسول - فلا عليك من كُفْرِهِمْ، فالله يشهد لك بأنك رسوله الذي أنزل عليه القرآن العظيم.

وكذلك الملائكة يشهدون بصِدْقِ ما أُوحِيَ إليك، وشهادة الله وحدها كافية، وفي شهادة الملائكة تثبيت وتطمين للنبي ﷺ في مواجهة آيَةٍ حملة، كحملة اليهود وغيرهم ضد الإسلام وأهله، فإن زعموا أنهم لا يعرفونك؛ فالله يشهد لك بالرسالة ﴿لَكِنَّ اللَّهَ يَشْهَدُ بِمَا أَنْزَلَ إِلَيْكَ﴾ وهو القرآن والوحي والنبوة ﴿أَنْزَلَهُ بِعِلْمِهِ﴾؛ لِيُطْلِعَ العباد على ما فيه من البينات والهدى، وما يحبه ربُّنا وَيَرْضَاهُ، وما يكرهه ويأباه، أنزله بعلم تام، وحكمة بالغة بما يُصلح أحوال العباد في دنياهم وأخراهم، فهو مشتمل على الأوامر والنواهي، وسائر العلوم الإلهية، والأحكام الشرعية، والأخبار الغيبية، وكل ذلك من علم الله تعالى، وهو صادر عن علم منه سبحانه بأحوال العباد والبلاد، فهو يعلم مَنْ يصدق دعوة نبيه ومن يكذبها، ويعلم من يواليه وينصره، ومن يخذله وينصر أوليائه.

وجملة ﴿أَنْزَلَهُ بِعِلْمِهِ﴾ تحتل أن الله تعالى أنزل هذا القرآن مشتملاً على علمه، أو أنه سبحانه أنزله صادراً عن علمه، فهل توجد شهادة أعظم من شهادة الله تعالى وأكبر؟ والقدح في هذه الشهادة قدح في علم الله تعالى وفي قدرته وحكمته.

أخرج ابن أبي حاتم عن عطاء بن السائب قال: أقرأني أبو عبد الرحمن السلمي القرآن، وكان إذا قرأ عليه أحدنا القرآن قال: لقد أخذت علم الله، فليس أحد اليوم أفضل منك إلا بعمل، ثم قرأ الآية، وكان يقول: حدثنا مَنْ كان يُقرئنا القرآن، أنهم كانوا يقفون عند البضع من الآيات لا يُجاوِزونها حتى يعملوا بها.

وقوله تعالى: ﴿وَالْمَلَكُ يَشْهَدُونَ﴾ أي: يشهدون بتصديقك؛ لأن الله تعالى إذا شهد بشيء شهدَت الملائكة بذلك الشيء، فَهُمُ الواسطة بين الله تعالى وبين رسله، وهم الذين ينزلون بالوحي من عند الله؛ ولذا ذُكرت شهادتهم بعد شهادة الله تعالى في قوله: ﴿شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَكُ وَأُولُوا الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ﴾ [آل عمران: ١٨].

وقوله: ﴿وَكُنِيَ بِاللَّهِ شَهِيدًا﴾ أي: وحسبك شهادة الله وحده، وإن لم يشهد معه أحد غيره، فلا تكثر لأهل الكتاب الذين يُمارون في ذلك، ولا عبرة بجحود الجاحدين.

عن ابن عباس رضي الله عنه قال: دخل على رسول الله ﷺ جماعة من اليهود، فقال لهم: «إني لأعلم والله أنكم تعلمون أني رسول الله» فقالوا: ما نعلم ذلك؛ فأنزل الله ﴿لَكِنَّ اللَّهَ يَشْهَدُ﴾ الآية^(١).

وَوَرَدَ أَنَّ رُؤَسَاءَ أَهْلِ مَكَّةَ أَتَوْا رَسُولَ اللَّهِ ﷺ، فَقَالُوا: سَأَلْنَا عَنْكَ الْيَهُودَ؛ فَرَعَمُوا أَنَّهُمْ لَا يَعْرِفُونَكَ، فَأَتَيْنَا بِمَنْ يَشْهَدُ لَكَ أَنَّ اللَّهَ بَعَثَكَ؛ فَتَزَلَّتِ الْآيَةُ^(٢).

الْعَاقِبَةُ الْوَحِيمَةُ لِمَنْ كَذَبَ رُسُلَ اللَّهِ

١٦٧- ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ قَدْ ضَلُّوا ضَلَالًا بَعِيدًا﴾

لما تحدثت الآيات عن رسل الله تعالى وعن شهادته سبحانه وشهادة ملائكته بصدق رسالة محمد ﷺ، لزم من ذلك تصديقه وتصديق ما جاء به من عند الله تعالى، وأن الكفر به ضلال ما بعده ضلال، وظلم ما بعده ظلم، لقد انسدت في وجوههم طرق الهداية، فباؤوا بالإثم وعدم مغفرة الذنوب، لأنهم ضلوا في أنفسهم وأضلوا غيرهم.

ومن أجل إنكار اليهود رسالة محمد ﷺ بينت هذه الآية أن الكافرين الذين يصدون الناس عن سبيل الله، غارقون في الضلال، وأنهم غير مستحقين للمغفرة والهداية الإلهية.

قال مقاتل وغيره: هم اليهود كفروا بمحمد، وصدوا الناس عن الإسلام، وصدتهم عن الإسلام قولهم لغير المسلمين: ما نجد صفة محمد في كتابنا.

﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ في أنفسهم، فجدوا نبوة محمد ﷺ، ولم يكتفوا بذلك، بل ضموا إليه ذنباً آخر ﴿وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ﴾ أي: منعوا غيرهم من الدخول في الإسلام، وألقوا الشبهات في قلوب الناس ﴿قَدْ ضَلُّوا ضَلَالًا بَعِيدًا﴾ أي: بُعدوا عن طريق الحق بُعداً شديداً، وخرجوا عن طريق الهدى. قال تعالى:

(١) «سيرة ابن هشام» (٢/٢١١) وابن جرير (٩/٤٩) والبيهقي (٢/٥٣٥) ونسبه السيوطي في «الدر المنثور» إلى ابن المنذر (٢/٢٤٨) وفي سنده محمد مولى زيد بن ثابت، وهو مجهول، وقد حسنه ابن جرير عن ابن إسحاق.

(٢) «زاد المسير» (٢/٢٥٧) عن ابن السائب.

١٦٨- ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَظَلَمُوا لَمْ يَكُنِ اللَّهُ لِيَغْفِرْ لَهُمْ وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ طَرِيقًا﴾

ثم ضُمَّتْ هذه الآية وَصَفَ الظلم إلى وَصَفِ الكفر، لكل من يكفر بدعوة محمد ﷺ فَيَنْتُ حُكْمَ الله تعالى فيهم ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ بالله ورسوله ﴿وُظَلَمُوا﴾ أنفسهم باستمرارهم على الكفر حتى ماتوا عليه، وَجَمَعُوا بين الكفر والمعاصي، وعلى رأسها الشرك بالله تعالى، وَجُحُودُ نَبْوَةِ محمدٍ ﷺ، أو قال: إنها خاصة بالعرب.

هؤلاء جميعًا ﴿لَمْ يَكُنِ اللَّهُ لِيَغْفِرْ لَهُمْ﴾ ذنوبهم؛ لأنهم ماتوا على الشرك والكفر، ولا يَسْتَرِ الله عليهم قبائح أفعالهم وأقوالهم، بل يفضحهم في الدنيا ويُعاقبهم عليها في الآخرة، وهذا معنى ﴿وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ طَرِيقًا﴾ أي: ولا يدلهم على طريق ينجون فيه من النار؛ لأنه قد سبق في عِلْمِ الله تعالى أنهم لا يؤمنون.

فالآية السابقة فيها نوعٌ من الناس كفروا بالله، وصدوا الناس عن سبيل الله، وفي هذه الآية نوعٌ آخر من الناس كفروا بالله وظلموا العباد.

والمراد بالهداية في الآية: خَلَقُ الْهُدَى في قلبه، وليست هداية الدلالة والإرشاد.

وقد قَسَمَ ابن تيمية الهداية إلى أربعة أقسام:

١- هداية الغريزة: وهي الهداية التي تشترك فيها سائر المخلوقات (الإنسان والحيوان)، وهي المشار إليها بقوله تعالى: ﴿الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى﴾ [طه: ٥٠].

٢- هداية الإرشاد والدلالة: وقد مَنَّحَ الله الإنسان هذه الدلالة؛ فأعطاه القدرة على أن يطبِّقَ القرآن أو يُخالفه، قال تعالى: ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا﴾ (٧) فَأَلَمَّهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا ﴿٨﴾ قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا ﴿٩﴾ وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا ﴿١٠﴾ [الشمس]

وقال: ﴿وَقُلِ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيُكْفُرْ﴾ [الكهف: ٢٩]

وقال جل شأنه: ﴿قَدْ جَاءَكُمْ بَصَائِرُ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنْ أَبْصَرَ فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ عَمِيَ فَعَلَيْهَا﴾ [الأنعام: ١٠٤].

٣- هداية العمل والتنفيذ: وهذه الهداية لا تُعْطَى للكافر؛ لأنه لم يأخذُ بهداية الإرشاد، ولم ينتفع بما أودع الله فيه من قدرة على اختيار الخير والشر، فعطلَّ أجهزة الاستقبال فيه، ولم يستخدم استطاعته واختياره في ذلك، كما قال تعالى: ﴿وَإِنْ تُطِيعُوهُ تَهْتَدُوا﴾

[النور: ٥٤] وهذا النوع من الهداية هو الذي يقول الله تعالى فيه: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ﴾ [القصص: ٥٦].

٤- وهناك نوع رابع من الهداية يكون في الآخرة؛ وهو الأخذ بيد المجرم إلى النار والعياذ بالله، كما قال تعالى: ﴿أَخْشَرُوا الَّذِينَ ظَلَمُوا وَأَزْوَاجَهُمْ وَمَا كَانُوا يَعْبُدُونَ﴾ (٢٢) من دونِ اللَّهِ فَأَهْدُوهُمْ إِلَى صِرَاطٍ الْجَحِيمِ (٢٣) [الصافات]

وفي هذه الآية ﴿وَلَا يَهْدِيهِمْ طَرِيقًا﴾ (٢٨) إِلَّا طَرِيقَ جَهَنَّمَ أي: لا يهديهم إلى طريق يوصلهم إلى مكان، إلا طريقًا يوصلهم إلى جهنم، فلا مخلص له من ذلك. قال تعالى:

١٦٩- ﴿إِلَّا طَرِيقَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا﴾ (١٦٩)

أي: لكنه سبحانه يهديهم إلى طريق جهنم ماكثين فيها أبدًا، وهو سبحانه لا يُعجزه شيء، فهو القاهر فوق عباده، وليس لأحد من عباده قوة تجعل أخذه عزيزًا على الله تعالى.

عُمُومُ الرِّسَالَةِ الْخَاتِمَةِ

١٧٠- ﴿يَأَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمْ الرَّسُولُ بِالْحَقِّ مِنْ رَبِّكُمْ فَآمِنُوا خَيْرًا لَكُمْ وَإِنْ تَكْفُرُوا فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ (١٧٠)

وبعد دحض مُفتريات أهل الكتاب، وكشف طبيعة اليهود ومنكراتهم، تأتي دعوة عامة شاملة إلى الناس كافة؛ للدخول في الإسلام، فهو كلمة الله الأخيرة إلى خلقه، جاء بالحق ليبين لهم الهدى من الضلال، والغي من الرشاد، وفي الإيمان به خير للأبدان والأرواح والقلوب، وسعادة الدنيا والآخرة، وفي عدم الإيمان به شقاء وتعاسة في الدنيا والآخرة، والله تعالى غني عن طاعة خلقه ولا تضره معصيتهم.

قال تعالى: ﴿يَأَيُّهَا النَّاسُ﴾ خطابٌ عامٌ لجميع الكفار من أهل الكتاب، وعبدة الأوثان، والعلمانيين، والشيوعيين، والملحدين، وغيرهم ﴿قَدْ جَاءَكُمْ الرَّسُولُ﴾ محمدٌ ﷺ بالإسلام الذي ارتضاه الله لعباده إلى قيام الساعة، وبهذا القرآن الذي أودعه منهج الله إلى خلقه ﴿فَآمِنُوا﴾ بالله ربًّا وخالقًا ومعبودًا ﴿خَيْرًا لَكُمْ﴾ واتبعوا دينَ محمدٍ ﷺ يَكُنِ الإيمانُ خيرًا لكم من الكفر والضلال الذي أنتم عليه.

﴿وَإِنْ تَكْفُرُوا﴾ فتجحدوا رسالة محمد ﷺ، وتكذبوا ما جاءكم به من عند الله، وتُصِرُّوا على كفركم ﴿فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ أي: أنه سبحانه غني عنكم وعن عبادتكم وإيمانكم؛ لأنه سبحانه مالك ما في هذا الكون، ومن كان كذلك فهو غير محتاج إلى شيء من ذلك، لا تنفعه العبادة، ولا تُضرُّه المعصية؛ لأنه تعالى قادرٌ على كل شيء.

﴿وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا﴾ بأقوالكم وأفعالكم، وما يكون منكم في السر والعلن، لا يخفى عليه شيء، وسيجزى كلَّ عاملٍ بعمله، وكان الله ولا يزال ﴿حَكِيمًا﴾ في تشريعه وتكليفه لكم، وتديره شؤونكم، وإذا خضعت السموات والأرض وما فيهما وما بينهما لله تعالى؛ فأولى بكم -أيها الناس- أن تؤمنوا بالله ورسوله والقرآن الذي نزل عليه، وتُقادوا له سبحانه، حتى يكون المُلْكُ كله خاضعاً لله تعالى، متقاداً له جل شأنه.

والآية فيها دليلٌ على عموم رسالة محمد ﷺ، ولو لم تكن هذه الرسالة عامة لجميع البشر، فضلاً عن الجن؛ لكان للأجيال والأمم التي جاءت بعد محمد ﷺ حُجَّةٌ على الله تعالى؛ حيث لم يُرسل إليهم رسولاً، وبعموم هذه الرسالة وبقائها إلى قيام الساعة انقطعت الحُجَّةُ لأحد من الثقلين ﴿لَئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ﴾.

مِنْ قَبَائِحِ النَّصَارَى: الْقَوْلُ بِالتَّثْلِيثِ

١٧١- ﴿يَتَّهَلَّ الْكِتَابُ لَا تَقُولُوا فِي دِينِكُمْ وَلَا تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ إِنَّمَا الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ اللَّهِ وَكَلِمَتُهُ أُلْقِيَهَا إِلَى مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِنْهُ فَحَامِلُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَلَا تَقُولُوا ثَلَاثَةٌ انْتَهُوا خَيْرًا لَكُمْ إِنَّمَا اللَّهُ إِلَهُ وَحْدٌ سُبْحَانَهُ أَنْ يَكُونَ لَهُ وَلَدٌ لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلًا﴾

وبعد أن تحدثت الآيات عن افتراءات اليهود، تحدثت عن افتراءات النَّصَارَى، وتجاوزهم الحد في شأن عيسى عليه السلام، ورفعهم له فوق منزلته، فتنهى هذه الآية النصارى من أهل الكتاب عن الغلو في الدين، بتجاوز الحد والقدر المشروع إلى ما ليس بمشروع، فكما أن التفريط والتقصير من المنهيات، فالإفراط وتجاوز الحد من المنهيات كذلك، وهذه التجاوزات في شأن عيسى عليه السلام من الأساطير الوثنية التي تسربت للنصارى من الإغريق والرومان والهنود وقدماء المصريين، وجاء الإسلام ليصحح هذا الغلو، فبدأ بنهي

أهل الكتاب من النَّصَارَى عن الإفراط في تقديس عيسى عليه السلام، ورفعه من مرتبة النبوة والعبودية إلى مرتبة الألوهية وعضوية التثليث.

وقد نصَّ القرآن على تأليه النَّصَارَى للمسيح في قوله تعالى: ﴿اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْكَبًا مِّن دُونِ اللَّهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ﴾ [التوبة: ٣١]
كما نهى الإسلام عن الإفراط والغلو في شأن محمد صلى الله عليه وسلم.

عن عمر رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «لا تطروني كما أطرت النَّصَارَى عيسى ابن مريم، فإنما أنا عبد الله ورسوله»^(١)، والإطراء: هو المدح بالباطل والإفراط فيه.

وعن أنس بن مالك رضي الله عنه أن رجلاً قال: يا محمد، يا سيدنا، وابن سيدنا، وخيرنا وابن خيرنا؛ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «يأيها الناس، عليكم بقولكم، ولا يستهوينكم الشيطان، أنا محمد بن عبد الله، عبد الله ورسوله، والله ما أحب أن ترفعوني فوق منزلتي التي أنزلني الله صلى الله عليه وسلم»^(٢).

وفي الآية والحديثين ردٌّ على من يحتفلون بالمولد النبوي وغيره من أعياد أولياء الله الصالحين، ومحاولة إضفاء الشرعية على ذلك باستدلالات بعيدة في المعنى، كبعض النصوص التي لا تحمل شيئاً صريحاً يفيد قيام السلف بشيء من هذا القبيل.

فكيف يُعتبر تعليل النَّبِيِّ صلى الله عليه وسلم لصيام يوم الإثنين بقوله: «فيه وُلدت، وفيه أنزل علي»^(٣) كيف يعتبر هذا احتفاءً من النَّبِيِّ صلى الله عليه وسلم بمولده؟ وكيف يعتبر شِعْرُ حسان بن ثابت في مدح النَّبِيِّ صلى الله عليه وسلم دليلاً على جواز ذلك؟ وكيف يعتبر إطلاق أبي لهب للجارية التي أخبرته بميلاد النَّبِيِّ صلى الله عليه وسلم حُجَّةً في الشرع؟

ولو كانت هذه الاحتفالات بطريقة شرعية بالنسبة لعامة الناس، ربّما يكون لها مُسَوِّغٌ، ولكن فيها من المنكرات ما لا يخفى على أحد! وكلُّ مُحدثة بدعة، وكلُّ بدعة ضلالة، وهي

(١) رواه أحمد في «المسند» برقم (١٥٤، ١٦٤) حديث صحيح، رجاله ثقات رجال الشيخين (محققوه)، وأخرجه مطولاً برقم (٣٩١) والبخاري برقم (٣٤٤٥).

(٢) «المسند» (١٥٣/٣) وهو على شرط مسلم ورقمه (١٣٥٢٩) حديث صحيح، وأخرجه الضياء في المختارة (٢٠٧٩) والنسائي في عمل اليوم والليلة (٢٤٨).

(٣) صحيح مسلم (١١٦٢) عن أبي قتادة الأنصاري.

احتفالات جوفاء فيها لهو ولعب ومنكرات، والأولى صَرْفُ الهمة إلى اتباع هَدْيِ النَّبِيِّ ﷺ واقتفاء أثره، والبعد عن الشرك الذي يحدث بدعاء غير الله تعالى، واعتقاد النفع والضّر من غيره، والذبح والنذر لغير الله سبحانه، وطلب العون والمدد من غير الله تعالى.

والقرآن في هذه الآية ونحوها يُصَحِّحُ عقيدة المشركين من النَّصَارَى؛ فيقول ﴿يَتَاهَلُ الْكِتَابُ﴾ افتحوا نوافذ العقول والقلوب، واستقبلوا ضياء الحق والخير، فلا تُبالغوا في شأن عيسى ﴿لَا تَقُولُوا فِي دِينِكُمْ﴾ يا أهل الإنجيل، لا تُجاوزوا الاعتقاد الحق في دينكم

وقوله تعالى: ﴿وَلَا تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ﴾ ينهي الله سبحانه عباده أن يقولوا الكذب على الله، وألا يقولوا على الله تعالى بغير علم في أسمائه وصفاته وأفعاله وشرعه ورُسُلِهِ، ويأمرهم بقول الحق في هذه الأمور وغيرها، فكأنه سبحانه يقول لهم: لا تزيّدوا ولا تُنقصوا، ولا تُحرفوا ولا تكتُموا، ولا تحرموا ما أحلَّ الله، ولا تُحلوا ما حرّم الله، فلا تفتروا على الله، ولا تجعلوا له صاحبةً ولا ولدًا، ولا ترفعوا عيسى فوق منزلته، وذلك أن النَّصَارَى في شأن عيسى ﷺ على أصناف ثلاثة:

١- اليعقوبية^(١): وهم يُسمّون الآن (الأرثوذكس)، وهم الذين يقولون: عيسى هو الله؛ لأنه يُحيي الموتى ويرى الأكمه والأبرص.

٢ - النسطورية^(٢): وهم الذين يقولون عن عيسى: إنه ابن الله.

٣ - الملكانية^(٣): وهم يقولون: إن عيسى ثالث ثلاثة.

فالإله عندهم جَوْهَرٌ واحد، مُكوّنٌ من ثلاثة أقانيم (أي: صفات)، وهي صفة الذات الأب، وصفة العلم، وهو الابن، وصفة روح القدس (أي: الحياة)، وهم يقولون كلامًا لا يفهمه حتى النَّصَارَى أنفسهم، يقول أحدهم: قد فهمنا ذلك على قَدْرِ عقولنا، ونرجو أن نفهمه فهمًا أكثر جلاء في المستقبل^(٤).

(١) نسبة إلى راهب اسمه يعقوب البردعاتي، كان راهبًا بالقسطنطينية، فنسبت الفرقة إليه.

(٢) نسبة إلى نسطور الحكيم، وهو راهب من شُراح الأناجيل، ظهر في زمن الخليفة المأمون.

(٣) نسبة إلى ملك قسطنطين، وهم يعتبرون أن الفريقين السابقين مبتدعان.

(٤) القس بطرس، صاحب رسالة (الأصول والفروع).

ومن الأمور غير المفهومة ما يُوجد لديهم في عقيدتهم أن الإله واحد في أقانيم ثلاثة: الأب والابن والروح القدس، والمسيح هو الابن، والأب هو الذات الإلهية -تعالى الله عما يقولون علوًّا كبيرًا- والروح القدس هي الحياة الحائلة في عيسى ﷺ؛ فالإله عندهم ثلاثة في واحد، وواحد في ثلاثة، وقد أطلق الإنجيل اسم الأب على الله، وأطلق اسم الابن على المسيح، وأطلق روح القدس على الكلمة التي كَوَّنَ بها المسيح في بطن أمه، وهذه الكلمة هي الروح، وتُسَمَّى العلم.

وقالوا: إن عِلْمَ الله تعالى اتَّحد في المسيح وحلَّ فيه فصار هو الله، وعقيدة التثليث مُقتبسةٌ غالبًا من الديانات الفرعونية قديمًا، حيث كان التثليث موجودًا عند قدماء المصريين، ويقولون: إن في عيسى ناسوتًا من قِبَل الأم، ولاهوتًا من قِبَل الأب.

والناسوت: يعني الطبيعة البشرية الإنسانية.

واللاهوت: يعني الطبيعة الإلهية، فهو ذو طبيعتين، لاهوتية وناسوتية.

ففيه جزءٌ من البشر، وجزءٌ من الإله، والذي دسَّ هذا في دين النَّصَارَى هو (بولس) الذي تنصَّر من اليهودية؛ لِيُضِلَّ النَّصَارَى عن الدِّينِ الْحَقِّ.

وأما عدم فَهْمِ النَّصَارَى لهذه الألغاز فقد تطورت عندهم فكرة البنوة؛ فقالوا: إنها عبارة عن المحبة بين الأب والابن، وليست ولادة البشر، فقالوا: (الله محبة)، وفسَّروا الإله الواحد في ثلاثة، بأنها صفات لله في حالات مختلفة^(١).

فلا تقولوا أيها النَّصَارَى على الله إلا الحقَّ، ولا تَصِفُوهُ بالحلول والاتحاد في بدن الإنسان، ونزَّهوه عن ذلك، وعظِّموا حقَّ عظمتهم، فلا ربَّ غيره، ولا معبود سواه.

ولمَّا نهاهم الله تعالى عن الغلوِّ في دينهم، أرشدهم إلى الطريق الحقَّ في شأن عيسى ﷺ؛ فقال: ﴿إِنَّمَا الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ﴾ أي أن غاية المسيح عليه السلام، ومتهى ما يصل إليه من مراتب الكمال، وأعلى حالة تكون للمخلوقين هي درجة الرسالة، وهي أعلى الدرجات وأجل المقامات، والمسيح لَقَبٌ لَقَبُهُ به اليهود تَهْكِمًا، وهو لفظ يُطلق عندهم

(١) «في ظلال القرآن» (٢/ ٨١٥).

على الملك، وكان الكاهن يمسح بالدهن ليباركه، والمسيح ﴿رَسُولَ اللَّهِ﴾ أرسله بالحق، وخلقَه بكلمة ﴿كُنْ﴾ التي أرسل بها جبريل إلى أمه، وهي كلمة تكلم الله بها فكان عيسى عليه السلام أي أنه كان بها، ولم يكن تلك الكلمة.

وهذه الكلمة هي نفخةٌ نفَخَهَا جبريل في فتحة ثوب مريم من أعلى بأمر الله تعالى؛ فنفذت إلى رَحِمِهَا وَحَمَلَتْ بعيسى، كما قال تعالى: ﴿وَالَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهَا مِنْ رُوحِنَا وَجَعَلْنَاهَا وَابْنَهَا آيَةً لِلْعَالَمِينَ﴾ [الأنبياء]

وقال جل شأنه: ﴿وَمَرْيَمَ ابْنَتَ عِمْرَانَ الَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهِ مِنْ رُوحِنَا﴾ [التحریم: ١٢] ولَمَّا جاء جبريل إلى مريم؛ لينفخ في جيب درعها ﴿قَالَ إِنَّمَا أَنَا رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَامًا زَكِيًّا﴾ [١٩] ﴿مريم﴾.

وقد بشرتها الملائكة بالمولود الجديد ﴿إِذْ قَالَتِ الْمَلَكَةُ يَمْرُؤُا إِنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِّنْهُ﴾ [آل عمران: ٤٥] وقد بين تعالى أن عيسى عبدٌ من عباد الله شأنه شأن غيره.

فقال تعالى: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا عَبْدٌ أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ وَجَعَلْنَاهُ مَثَلًا لِّبَنِي إِسْرَءِيلَ﴾ [الزخرف]

وقال سبحانه: ﴿وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِّنْهُ﴾.

قال أبي بن كعب: لَمَّا أخذ الله الميثاق على بني آدم، كان عيسى روحًا من تلك الأرواح، فأرسله إلى مريم فحملت به^(١)؛ بمعنى: أن الروح التي خُلق منها عيسى هي الروح التي تكون في البدن، فلما أخذ الله من ظهور بني آدم ذريتهم، وأخذ عليهم الميثاق بوحدانية الله تعالى، كان عيسى روحًا من تلك الأرواح.

وقد سُمِّي النفخ روحًا؛ لأن عيسى يحيا بهذه الروح كما يحيا الناس جميعًا بالأرواح، وجبريل هو الذي قام بنفخ الروح في مريم، فبالكلمة صار عيسى، وليست الكلمة صارت عيسى^(٢).

ونَفَخُ الروح لحياة الإنسان ليست خاصة بعيسى، فقد نفخ الله تعالى من قَبْلُ في طينة

(١) «زاد المسير» (٢/٢٦١).

(٢) ابن أبي حاتم كما في «تفسير الطبري» (٩/٤١٨).

آدم، فصار إنساناً ﴿إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَكَةِ إِنِّي خَلَقْتُ بَشَرًا مِّن طِينٍ ﴿٧٦﴾ فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ ﴿٧٧﴾﴾ [ص]

كما أن سائر البشر نَفَخَ الله فيهم من روحه كذلك، فقال تعالى: ﴿ثُمَّ جَعَلْنَا نَسْلَهُ مِنْ سُلَالَةٍ مِّن مَّاءٍ مَّهِينٍ ﴿٨﴾ ثُمَّ سَوَّيْنَاهُ وَنَفَخْنَا فِيهِ مِن رُّوحِنَا﴾ [السجدة].
فَنَفَخَ الروح يَشْمَلُ الخَلْقَ جميعًا بما فيهم عيسى عليه السلام.

والجديد في أمر عيسى أنه خُلِقَ من غير تلقيح نطفة الأب مع بويضة الأم؛ ليكتمل للبشر إدراك كمال قدرة الله تعالى في خَلْقِ آدم من غير أب ولا أم، وَخَلَقَ حواء من غير أم، وَخَلَقَ عيسى من غير أب، وَخَلَقَ سائر البشر من أب وأم، وليبان أن قدرته سبحانه لا تتوقف على السبب، بل إنه سبحانه إذا أراد شيئاً يقول له: كن؛ فيكون.

قال تعالى: ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقْنَاهُ مِنْ تُرَابٍ ﴿٥٩﴾﴾ [آل عمران: ٥٩] فَتَفَخَّ الروح هذا له سابقة في آدم عليه السلام، وفي كل إنسان، وذلك حين يأتي الملك الموكل بالأرحام للجنين، وهو في بطن أمه، بعد أربعة أشهر، فينفخ فيه الروح؛ فتكون الحياة.

والروح هي عنصر الحياة، ويعتبر الجنين في عداد الأحياء بدءاً من هذا النفخ، وكان لا يتعلق به حُكْمٌ قبل ذلك، فكيف نؤمن بهذا، ولا نؤمن به فيما يتعلق بعيسى عليه السلام؟! وهذه الروح التي نُفِخَتْ في عيسى كسائر الأرواح نُسِبَتْ إلى الله تعالى في قوله: ﴿وَرُوحٌ مِّنْهُ﴾ على سبيل التشريف والتكريم، وَتَمَّتْ بأمر الله تعالى، وهذه الروح من الأرواح التي خلقها الله تعالى وكمّلها بالصفات الفاضلة والأخلاق الكاملة، وقد أرسل الله تعالى جبريل عليه السلام بهذه الروح فنَفَخَ في جيب درعها - فتحة الصدر - فحملت بعيسى بإذن الله تعالى.

في الصحيحين عن عبادة بن الصامت عليه السلام قال: قال رسول الله ﷺ: «مَنْ شَهِدَ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَأَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ، وَأَنَّ عِيسَى عَبْدُ اللَّهِ وَرَسُولُهُ، وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِنْهُ، وَالْجَنَّةُ حَقٌّ، وَالنَّارُ حَقٌّ؛ أَدْخَلَهُ اللَّهُ الْجَنَّةَ عَلَى مَا كَانَ مِنَ الْعَمَلِ» زاد في رواية: «مَنْ أَبْوَابُ الْجَنَّةِ الثَّمَانِيَةِ، مِنْ أَيُّهَا شَاءَ»^(١).

قال بعض المفسرين: لَمَّا خَلَقَ اللَّهُ أرواح البشر جعلها في صلب آدم عليه السلام، وأمسك

(١) «صحيح البخاري» برقم (٣٤٣٥) و«صحيح مسلم» برقم (٢٨).

عنده روح عيسى عليه السلام، فلما أراد الله أن يخلقه، أرسل بروحه مع جبريل إلى مريم، فنفخ في جيب درعها فحملت بعيسى عليه السلام^(١).

ويشهد له ما ورد عن أبي بن كعب عليه السلام قال: خَلَقَ الله أرواح بني آدم لَمَّا أَخَذَ عَلَيْهِم الميثاق، ثم رَدَّهَا إلى صُلْب آدم، وأمسك عنده روح عيسى عليه الصلاة والسلام، فلما أراد خَلَقَهُ أرسل تلك الروح إلى مريم، فكان منها عيسى عليه السلام^(٢).

وبعد أن بيّن سبحانه حقيقة عيسى عليه السلام، أمر أهل الكتاب أن يؤمنوا بالله ورسله.

فقال تعالى: ﴿فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ﴾ أي: صدّقوا أيها النَّصَارَى بأن الله واحد، وأسلموا له، ولا تدينوا بغير وحدانية الله تعالى، وصدّقوا رسله فيما جاؤوا به من عند الله، وصدّقوا بأن عيسى من رسل الله، ولا تجعلوه وأمه شريكين لله تعالى.

﴿وَلَا تَقُولُوا ثَلَاثَةٌ﴾ لا تنطقوا بهذه الكلمة المشتملة على: الأب والابن وروح القدس، ولا تقولوا بحلول الله تعالى في عيسى وأمه، ولا تُثَبِّتُوا له سبحانه ثلاث ذوات متعددة، فهذا كُفْرٌ مَحْضٌ.

ثم نهاهم سبحانه عن التثليث فقال: ﴿أَنْتَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ أي: انتهوا عن هذه المقالة فهو خير لكم ممّا أنتم عليه، فإن في هذا طريق النجاة، وما سواه طريق الهلاك والضلال، ونزّهوا الله تعالى عن الشريك والولد.

وبعد أن نهاهم الله تعالى عن التثليث أمرهم بالتوحيد؛ فقال تعالى: ﴿إِنَّمَا اللَّهُ إِلَهُ وَاحِدٌ﴾ تأكيدٌ لِمَا قبله، فهو سبحانه المتفرد بالألوهية ولا تنبغي العبادة إلا له.

ثم نزّه نفسه سبحانه فقال: ﴿سُبْحَنَهُ﴾ أي تنزهه وتقدس ﴿أَنْ يَكُونَ لَهُ وَلَدٌ﴾؛ لأن الولد جزء من الأب، والله تعالى لا يتجزأ.

وفي سورة المائدة أربع آيات في هذا المعنى؛ وهي قوله تعالى: ﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ﴾ [المائدة: ١٧ و٧٢].

(١) «تفسير الخازن» (٤٢٦/١).

(٢) «أضواء البيان» للشيخ الشنقيطي (٤٩٤/١) وقد سبق هذا المعنى مختصراً في الصفحة السابقة.

وقوله: ﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ ثَالِثُ ثَلَاثَةٍ﴾ [المائدة: ٧٣].

وقوله: ﴿وَإِذْ قَالَ اللَّهُ يَعْيسَى ابْنُ مَرْيَمَ إِنَّا أَنْتَ قُلْتِ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَإِيمَى إِلَهَيْنِ مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ [المائدة: ١١٦].

وقد قرّرت هذه الآيات أَنَّ مِنَ النَّصَارَى مَنْ يَعْتَقِدُ أَنَّ عِيسَى إِلَهٌ، ومنهم مَنْ يَعْتَقِدُ أَنَّهُ ابْنُ لِلَّهِ، ومنهم مَنْ يَعْتَقِدُ أَنَّهُ شَرِيكَ فِي الْأُلُوْهِيَّةِ، وهذه الأقوال الثلاثة هي المختارة من بين عشرات الأقوال المتناقضة للأحزاب المختلفة التي ظهرت منهم في عهد قُسطنطين، سنة أربع مئة من الميلاد في اجتماعهم الكبير، وكان كُلُّ مِنْهُمْ يُكْفِّرُ الطائفة الأخرى، وكانوا نحو ألفي عالمٍ نصراني، والله ﷻ مُنْزَعٌ عَنْ أَقْوَالِهِمْ، فهو جل شأنه خالقُ هذا الكون بما فيه ومن فيه ﴿يَدْعُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ أَنْ يَكُونُ لَهُ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُنْ لَهُ صَاحِبَةٌ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ [الأنعام: ١٠١] وهذا ما تشير إليه نهاية الآية.

﴿لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾ فالكلُّ خَلْقُهُ، والكلُّ عِيْدُهُ، والكلُّ مِلْكُهُ، والكل مفتقر إليه، فلا حاجة له إلى ولد، ولا إلى شريك، وعيسى ومريم من جُمْلَةِ هذا الكون، فكيف يُعْقَلُ أَنْ يَكُونَ عِيسَى وَلَدَهُ، وأمه زوجته؟! والله تعالى مُنْزَعٌ عَنْ صِفَاتِ الْمَخْلُوقِينَ.

﴿وَكُنْ لِلَّهِ وَكِيلًا﴾ يكفي البشر أن يرتبطوا به سبحانه ارتباطَ المعبود بالعابد، فيراعهم جميعًا، وهو القائم بتدبير شئون خلقه، وتصريف معاشهم، فتوكلوا عليه شؤون وحده فهو كافيكُم، ولا حاجة إلى غيره، فهو غني عن خلقه، والكلُّ مُحتَاجٌ إليه.

تَضَحِيحُ عَقِيْدَةِ النَّصَارَى: عِيسَى عَبْدُ اللَّهِ وَرَسُولُهُ

١٧٢- ﴿لَنْ يَسْتَنْكِفَ الْمَسِيحُ أَنْ يَكُونَ عَبْدًا لِلَّهِ وَلَا الْمَلَائِكَةُ الْمُقَرَّبُونَ وَمَنْ يَسْتَنْكِفْ عَنْ عِبَادَتِهِ وَسْتَكْبِرْ فَسَيَحْشُرْهُمْ إِلَهُ جَمِيعًا﴾ (١٧٢)

ثم صَحَّحَ الْقُرْآنُ عَقِيْدَةَ النَّصَارَى فِي شَأْنِ عِيسَى ﷺ، فبيّن أنه لن يأنف أو يمتنع أن يكون عبدَ الله، ولن يتعالى عن ذلك، وهو خيرٌ مَنْ يَعْرِفُ أَنَّهُ مِنْ خَلْقِ اللَّهِ، وأن هذه العبودية لا تُنْقِصُ مِنْ قَدْرِهِ، فالعبودية لا يابأها إلا كافرٌ بنعمة الخلق والإيجاد، وهي المرتبة التي يصف الله بها رُسُلَهُ في أرقى حالاتهم وأكرمها عند الله.

ولا يظن أحد أن رفع عيسى إلى السماء يعني رَفْعَهُ فَوْقَ مَنْزِلَتِهِ وَتَرْفَعَهُ عَنِ الْعِبَادَةِ، أو

ترفعه على الخلق، فقد رفع الله إدريس مكاناً علياً، ورفع محمداً ليلة العروج إلى سدره المنتهى، حيث سمع صريف الأقلام في الألواح، وهكذا فإن هذا الرفع ليس فيه خصوصية لعيسى عليه السلام.

وفي الإنجيل كثير من النصوص التي تدل على أن عيسى عبدٌ لله، فقد قال الله له: (للرب إلهك تسجد، وإياه وحده تعبد) وجاء عطف الملائكة على المسيح؛ لأن المشركين يزعمون أن الملائكة بناتُ الله من نساء الجن، فبيّن سبحانه أنهم أيضاً عبادُ الله، كما أن المسيح عبدُ الله، وهذا ردٌّ على اعتقادهم الفاسد ﴿وَجَعَلُوا بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْجَنَّةِ نِجَالًا﴾ [الصافات: ١٥٨].

قيل: إن وَقَدْ نَصَارَى نَجْرَان قالوا: يا محمد، لِمَ تذكّر صاحبنا؟ قال: «وَمَنْ صَاحِبُكُمْ؟»، قالوا: عيسى، قال: «وَأَيُّ شَيْءٍ أَقُولُ فِيهِ؟ هُوَ عَبْدُ اللَّهِ»، قالوا: بل هو الله، فقال: «إنه ليس بعارٍ عليه أن يكون عبدُ الله»، قالوا: بلى، فنزلت هذه الآية^(١).

وكذلك لن يأنف الملائكة المقربون من الإقرار لله تعالى بالعبودية ﴿وَلَا الْمَلَائِكَةُ الْمُقَرَّبُونَ﴾ فنزههم عن الاستنكاف والاستكبار، فعيسى والملائكة المقربون قد رغبوا في عبادة ربهم، فأحبوها وسعوا فيها فأوجب الله لهم ذلك الشرف العظيم، وفيهم جبريل روح القدس، شأنهم في ذلك شأن عيسى وسائر الأنبياء.

وقد قال تعالى في شأن الملائكة: ﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا سُبْحَنَهُ بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ ﴿٢٧﴾ لَا يَسْـَٔفُونَ بِالَّذِينَ لَمْ يَأْمُرْهُمْ بِعَمَلٍ ﴿٢٨﴾ يَكُونُوا يَدْرُسُونَ ﴿٢٩﴾ وَمَنْ يَقُلْ مِنْهُمْ إِنِّي إِلَهُ مِنْ دُونِهِ فَذَلِكَ نَجْزِيهِ جَهَنَّمَ كَذَلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ ﴿٣٠﴾﴾ [الأنبياء].

وإذا كانت الملائكة المقربون لا يستنكفون أن يكونوا عباداً لله؛ فغيرهم من باب أولى، والملائكة خُلِقُوا من غير أب ولا أم، وأجرى الله على أيديهم ما هو أعظم من المعجزات.

وقد ذكر بعض المفسرين أن في الآية ما يُشير إلى أن خواص البشر -وهم الأنبياء- أفضل من خواص الملائكة؛ مثل: جبريل وميكائيل وإسرافيل، وأن خواص الملائكة أفضل من عوام المؤمنين، وعوام المؤمنين أفضل من عوام الملائكة.

(١) «زاد المسير» (٢/ ٢٦٢) والخازن (١/ ٤٢٧).

وذلك لأن الملائكة جُبلوا على الطاعة، ولا مُنازع لهم من شهوة وهوى، بخلاف الإنسان؛ ففيه الشهوة والهوى، والأنبياء معصومون من الخطأ، ففُضِّلوا بقهر البواعث النفسية، والدواعي الجسدية^(١).

والكلام في هذه المسألة اجتهادي، وليس عن دليل، وقد نُهينا عن الخوض في تفاضل الأنبياء، ومن باب أولى التفاضل بينهم وبين غيرهم من المخلوقات الأخرى.

ومن يأنف من الخضوع لله تعالى، ويستكبر عن العبودية له سبحانه، ويتعاضم على التذلل لجلاله ﴿فَسِيَّحُورُهُمْ إِلَيْهِ جَمِيعًا﴾ ويفصل بينهم يوم القيامة بحكمه العادل، ويُجازي كُلًّا بما يستحق، ولا يملكون لأنفسهم شيئًا، شأنهم في ذلك شأن جميع المقرّين بالعبودية، المستسلمين لله تعالى.

وقد اشتمل مفهوم الآية على أن الناس يوم البعث فريقان: المؤمنون والمستكبرون، وبيّنت الآية التالية مصير كل منهم.

مَا أَعَدُّهُ اللَّهُ تَعَالَى لِمَنْ آمَنَ وَمَنْ كَفَرَ

١٧٣ - ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدُهُم مِّن فَضْلِهِ وَأَمَّا الَّذِينَ اسْتَنكَفُوا وَاسْتَكْبَرُوا فَيُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا^(٢) وَلَا يَجِدُونَ لَهُم مِّن دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا﴾

فأما الذين آمنوا بالله اعتقادًا وقولًا وعملاً، واستقاموا على شريعة الله، وعرفوا الحق، وأقروا بعبوديتهم لله تعالى، وأكثرُوا من العمل الصالح، وهو ثمرَةُ الإيمان الصحيح؛ فجمعوا بين الإيمان والعمل الصالح من واجبات ومستحبات، بما يشمل حقوق الله تعالى وحقوق عباده، فإن الله تعالى يُعطيهم ثواب أعمالهم الصالحة، كل بحسب إيمانه وعمله، ويُضاعف لهم الأجرَ والمثوبة، الحسنة بعشر أمثالها إلى سبع مئة ضعف، ويدخل في ذلك كل ما في الجنة من نعيم، وكل خير دنيوي وأخروي.

وأما الذين أنفوا وتكبروا على عبادة الله، وامتنعوا من العمل الصالح، ولم يُقروا لله بالعبودية ﴿فَيُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ موجعًا مؤلمًا إلى جوار سخط الله تعالى وغضبه.

(١) «تفسير النسفي» للآية.

(٢) عَذَّ (عذاباً أليماً) آية، الشامي وحده، وتركها الباقون.

﴿وَلَا يَجِدُونَ لَهُمْ﴾ يوم القيامة غير الله تعالى مَنْ يَتَوَلَّى أَمْرَهُمْ، وَيُنَجِّبُهُمْ مِنْ عَذَابِ اللَّهِ تعالى، وَلَا يَجِدُونَ مَنْ يَنْصُرُهُمْ فِي الدُّنْيَا، وَيُدْفَعُ عَنْهُمْ الْبَلَايَا وَالْمَحَنَ، فَلَا يَحْصِلُ لَهُمْ مَطْلُوبٌ، وَلَا يُدْفَعُ عَنْهُمْ مَرْهُوبٌ، لِأَنَّ أَرْحَمَ الرَّاحِمِينَ قَدْ تَخَلَّى عَنْهُمْ وَتَرَكَهُمْ فِي عَذَابِ جَهَنَّمَ خَالِدُونَ، قَالَ تَعَالَى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾ [غافر: ٦٠] وَإِذَا رَأَى الَّذِينَ اسْتَكْفُوا وَاسْتَكْبَرُوا عَنْ عِبَادَةِ اللَّهِ تَعَالَى أَجُورَ الْمُطِيعِينَ لِلَّهِ وَنَعِيمَهُمْ، وَعَظِيمَ ثَوَابِهِمْ؛ فَإِنَّهُمْ يَصَابُونَ بِالْحَسْرَةِ وَالْعَمِّ وَالنَّدَمِ.

النَّدَاءُ الْأَخِيرُ لِإِنْقَاذِ الْبَشَرِ مِنَ الضَّلَالِ

١٧٤- ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمْ بُرْهَانٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ نُورًا مُبِينًا﴾ (١٧٤)

وَيُخْتَمُ هَذَا الدَّرْسُ بِتَوْجِيهِ نَدَاءٍ عَامٍ؛ فِيهِ إِنْقَاذٌ لِلنَّاسِ مِنَ الضَّلَالِ وَالشَّرْكِ، وَهُوَ مُوجَّهٌ إِلَى الْبَشَرِيَّةِ جَمِيعًا بِمَا فِيهِمُ الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى مَعًا.

وَمُقْتَضَاهُ: أَنَّ هَذِهِ الرِّسَالَةَ الْأَخِيرَةَ تَحْمِلُ مِنَ اللَّهِ الْبَرهَانَ الْكَاشِفَ لِلظُّلُمَاتِ وَالشُّبُهَاتِ؛ لِلإِعْتِرَافِ بِنُبُوَّةِ مُحَمَّدٍ ﷺ.

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ﴾ هَذَا خُطَابٌ عَامٌ لِجَمِيعِ النَّاسِ فِي الْقَارَاتِ السَّتِ ﴿قَدْ جَاءَكُمْ بُرْهَانٌ مِنْ رَبِّكُمْ﴾ هُوَ مُحَمَّدٌ ﷺ، وَفِي هَذَا امْتِنَانٍ مِنَ اللَّهِ تَعَالَى عَلَى خَلْقِهِ، بِمَا أَوْصَلَ إِلَيْهِمْ مِنَ الْبَرَاهِينِ الْقَاطِعَةِ وَالْأَنْوَارِ السَّاطِعَةِ، وَإِقَامَةِ الْحُجَّةِ وَتَوْضِيحِ الْمَحْجَةِ.

وَسَمِيَ بَرهَانًا؛ لِإِقَامَتِهِ الْبَرهَانَ عَلَى الثَّقَلَيْنِ بِالْأَدْلَةِ الْعَقْلِيَّةِ وَالنَّقْلِيَّةِ عَلَى إِحْقَاقِ الْحَقِّ وَإِبْطَالِ الْبَاطِلِ، بِمَا جَاءَ بِهِ مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالْحُجَجِ الْقَاطِعَةِ، وَأَعْظَمِهَا الْقُرْآنُ الْكَرِيمُ شَاهِدًا لَهُ عَلَى وَجْهِ الْقَطْعِ بِصَحَّةِ الرِّسَالَةِ وَخَتْمِ النُّبُوَّةِ بِمَا لَا يَدْعُ عُذْرًا، وَلَا حُجَّةَ لِأَحَدٍ مِنَ الْخَلْقِ بِعَدَمِ اتِّبَاعِهِ.

أَوْ أَنَّ الْبَرهَانَ هُوَ الْأَدْلَةُ الْقَاطِعَةُ لِلْعُذْرِ، وَالْحُجَّةُ الْمُزِيلَةُ لِلشُّبُهَةِ، وَالْمَعْجَزَاتُ الدَّالَّةُ عَلَى صِدْقِ مُحَمَّدٍ ﷺ فِيمَا يُبَلِّغُهُ عَنْ رَبِّهِ.

وَوُصِفَ الْبَرهَانَ بِأَنَّهُ مِنَ اللَّهِ تَعَالَى فِيهِ تَقْوِيَّةٌ وَتَشْرِيفٌ لِلنَّبِيِّ ﷺ، وَبِنَبْغِي أَنْ نُفَرِّقَ بَيْنَ الْإِحْتِجَاجِ بِالْقُرْآنِ، وَالْإِحْتِجَاجِ بِبَرَاهِينِ الْقُرْآنِ.

فلاحتجاج بالقرآن يكون مع المؤمن؛ بأن تذكر له الآية التي فيها حكم شرعي واضح صريح؛ فيؤمن به ويعمل بمقتضاه، كقوله تعالى: ﴿وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ﴾ [البقرة: ١١٠].

أما الاحتجاج ببراهين القرآن فيكون مع المؤمن ومع غير المؤمن؛ لأن البراهين عامة للناس جميعاً، وذلك مثل قوله تعالى: ﴿أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمْ الْخَالِقُونَ﴾ ٣٥ ﴿أَمْ خُلِقُوا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بَلْ لَا يُوقِنُونَ﴾ ٣٦ [الطور: ٣٦].

ومثل قوله تعالى: ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا﴾ [الأنبياء: ٢٢].

ومثل قوله تعالى: ﴿يَتَأْتِيهَا النَّاسُ ضُرْبَ مَثَلٍ فَاستَمِعُوا لَهُ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَنْ يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَلَوْ اجْتَمَعُوا لَهُ وَإِنْ يَسْلُبْهُمُ الذُّبَابُ شَيْئًا لَا يَسْتَنْقِذُوهُ مِنْهُ ضَعُفَ الطَّالِبُ وَالْمَطْلُوبُ﴾ ٧٣ [الحج: ٧٣].

وأسلوب القرآن في تربية المسلم أسلوب برهاني علمي، كقوله تعالى: ﴿قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ [النمل: ٦٤].

وقوله: ﴿وَإِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًى أَوْ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾ [سبأ: ٢٤].

وبعد الحديث عن البرهان يتحدث القرآن عن النور المبين، المتضمن للأحكام المشتملة على سعادة البشر في الدنيا والآخرة، فقال تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَا إِلَيْكُمْ نُورًا مُبِينًا﴾ هو القرآن، المشتمل على علوم الأولين والآخرين، والأخبار الصادقة، والعلوم النافعة، والأمر بالعدل والإحسان، والنهي عن الفحشاء والمنكر، فالناس في ظلمة، إن لم يستضيئوا بأنواره، وفي شر وشقاء إن لم يقتبسوا من خيره.

وسمي نوراً؛ لأنه يُزيل ظلمات الجهل والشك، كما يُزيل النور الحسي ظلمة الليل؛ ولأنه يسبب وقوع نور الإيمان في القلب، وهو هُدى وموعظة وشفاء لما في الصدور، له تأثير خاص، ووقع خاص، وحس خاص، يجذب القارئ والمستمع، ويكشف الحق من الباطل.

وقد وُصِفَتِ الشرائع والمواعظ والحكم والآداب التي اشتمل عليها القرآن بالنور البين الواضح؛ لأنها تشتمل على الحق، وهو لا يخفى إلا على من انطمست بصائرهم، وفَسَدَتْ مداركهم، ومع ذلك فقد كان الناس تجاهه فريقين: فريق آمن فانتفع واهتدى، وفريق كفر فضل وغوى. قال تعالى:

١٧٥ - ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا بِاللّٰهِ وَاعْتَصَمُوا بِهِۦ فَسُيِّدْ لَهُمْ فِي رَحْمَةِ مِّنْهُ وَفَضْلٍ وَيَهْدِيْهِمْ اِلَيْهِ صِرَاطًا مُّسْتَقِيْمًا﴾

فالذين صدّقوا واعتقدوا من قلوبهم بوحدانية الله تعالى، ووصفوه بكل كمال، ونزهوه عن كل نقص وآمنوا برسالة محمد ﷺ قولاً وعملاً، واستمسكوا بما أنزل إليه، ولجئوا إلى الله تعالى، فاعتصموا به، وتجردوا من حولهم وقوتهم، فاعتمدوا على ربهم واستعانوا به، وتمسكوا بالعروة الوثقى، فقد صانهم ذلك الإيمان عن زيف الشيطان.

ولذا: فإن الله تعالى يوفّقهم في الدنيا إلى منّهاج الاستقامة، وطريق السلامة، ويدخلهم الجنة في الآخرة، ويمتّعهم بالنظر إلى وجهه الكريم، ويروّن في الجنة ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر، وكلّه من فضل الله تعالى؛ حيث يوفّقهم إلى الطريق المفضي إلى روضات الجنّات، وهو دين الإسلام، فيرشدهم لدينه ويسدّدهم لسلوك منهجه.

ومن لم يؤمن بالله تعالى ويعتصم به، ويتمسك بكتابه، فقد مُنِع من رحمة الله تعالى، وحُرم فضله، وحُلّي بينه وبين نفسه، فلم يهتد، بل ضلّ ضلالاً مبيناً عقوبة له على تركه الإيمان، فباء بالخيبة والحرمان، نسأل الله العفو والعافية.

وقد ذكرت الآية ثواب الذين آمنوا بالله واعتصموا به، ولم تذكّر عقاب الذين كفروا إهمالاً لهم؛ لأن عاقبتهم معروفة، وهي عاقبة كلّ كافر، وكأنهم في حيز الطرد والإبعاد، فأمرهم معلوم، ولا يحتاج إلى بيان.

آيَةُ الْكَلَالَةِ

١٧٦ - ﴿يَسْتَفْتُونَكَ قُلِ اللّٰهُ يُفْتِيْكُمْ فِي الْكَلَالَةِ اِنْ اَمْرُؤَا هٰلِكَ لَيْسَ لَهٗ وَلَدٌ وَلَهٗ اُخْتُ فَلَهَا نِصْفُ مَا تَرَكَ وَهُوَ يَرِثُهَا اِنْ لَّمْ يَكُنْ لَهَا وَلَدٌ اِنْ كَانَتَا اُنثٰى فَلَهُمَا الثُّلٰثَانِ مِمَّا تَرَكَ وَلِنْ كَانُوْا اِخْوَةً رِّجَالًا وَنِسَاءً فَلِلَّذَكَرِ مِثْلُ حِظِّ الْاُنثٰى بَيْنَ اللّٰهِ لَكُمْ اَنْ تَضِلُّوْا وَاللّٰهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيْمٌ ﴿١٧٦﴾﴾

أخبر سبحانه وتعالى بأن الناس استفتوا رسول الله ﷺ في ميراث الكلاله وأن الله سبحانه وتعالى تولى الإجابة عليها ﴿قُلِ اللّٰهُ يُفْتِيْكُمْ فِي الْكَلَالَةِ﴾.

وهكذا فقد، خُتِمت سورة النساء بآية الكلاله.

والكلالة: هي ميراث الميت الذي يموت وليس له ولد من صلبه ولا ولد ابن، وليس له والد؛ أي: لم يترك والدًا ولا ولدًا، وفي هذه الحالة، فإن الإخوة والأخوات هم الذين يرثونه.

وآيات الميراث - في كتاب الله تعالى - أربع؛ في سورة النساء ثلاث:

الآية الأولى: في ميراث الأبناء والآباء في قوله تعالى: ﴿يُوصِيكُمُ اللَّهُ فِي أَوْلَادِكُمْ﴾ الآية.

والآية الثانية: هي التي بعدها في ميراث الأزواج والزوجات ﴿وَلَكُمْ نِصْفُ مَا تَرَكَ أَزْوَاجُكُمْ﴾ الآية، وفيها ميراث الإخوة لأم، وهي جزء من الكلالة، وهذا في قوله تعالى: ﴿وَإِنْ كَانَتْ رَجُلٌ يُوْرَثُ كَلَلَةً أَوْ امْرَأَةً وَلَهُ أَخٌ أَوْ أُخْتٌ فَلِكُلِّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا الشُّدُسُ﴾.

والآية الثالثة: هي هذه الآية؛ وهي في ميراث الإخوة والأخوات الأشقاء أو لأب إذا مات أحدهم ولم يترك ولدًا، ولا ولد ولد، ولا والدًا ولا جدًا.

والآية الرابعة: في آخر سورة الأنفال، وهي في شأن الأرحام ﴿وَأُولُوا الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ﴾.

قال قتادة: ذكر لنا أن أبا بكر رضي الله عنه قال في خطبته: ألا إن الآية التي أنزلت في أول سورة النساء في شأن الفرائض، أنزلها الله في الولد والوالد، والآية الثانية أنزلها في الزوج والزوجة والإخوة لأم، والآية التي ختم الله بها سورة النساء أنزلها في الإخوة والأخوات من الأب والأم، والآية التي ختم الله سبحانه بها سورة الأنفال أنزلها في أولي الأرحام، بعضهم أولى ببعض في كتاب الله مما جرّت الرحم من العصبية^(١).

قلت: أما آية ﴿وَسَتَقُونَكُمْ فِي النِّسَاءِ﴾ الآية فليست فيها أنصبة للميراث، وإنما هي تُقرّر ما سبق ذكره في أول السورة، من ميراث المرأة والصغير الضعيف واليتيمة، بعد أن كانوا لا يرثون في الجاهلية، ومجيء ذلك في صورة سؤال مُوجّه إلى النبي صلى الله عليه وسلم مع ما تقدم من الجواب على السؤال؛ ولذا: لم تُعد هذه الآية ضمن آيات الميراث.

سبب النزول: جاءت روايات كثيرة عن جابر بن عبد الله رضي الله عنه في سبب نزول هذه الآية،

(١) رواه ابن جرير في تفسيره مرسلاً؛ لأن قتادة لم يدرك أبا بكر، «تفسير الطبري» (٤٣١/٩).

وبعض هذه الروايات تفيد أن رجلاً كان له تسع أخوات، وبعضها يفيد أنه كان له سبع أخوات، ولعله الأصح، وهذه الروايات معناها واحدٌ، ونذكر بعضها لما فيها الفوائد والعبر:

١- ففي البخاري وغيره، عن جابر بن عبد الله رضي الله عنه قال: دخل عليَّ رسول الله ﷺ وأنا مريض لا أعقل؛ فتوضأ، ثم صبَّ عليَّ فَعَقَلْتُ، فقلت: إنه لا يرثني إلا كلاله، فكيف الميراث؟ فنزلت آية الفرائض^(١).

٢- وعن هشام بن عبد الله، عن ابن الزبير، عن جابر قال: اشتكيتُ، فدخل عليَّ رسول الله ﷺ وعندي سبع أخوات، فنفع في وجهي، فأفقتُ، فقلت: يا رسول الله، أوصي لأخواتي بالثلثين؟ قال: «أَحْسِن» فقلت: الشطر؟ قال: «أَحْسِن» ثم خرج، فتركني، قال: ثم دخل عليَّ وقال: «يا جابر، إني لا أراك تموت في وجعك هذا، إن الله قد أنزل، فبين الذي لأخواتك الثلثين» وكان جابر يقول: نزلت هذه الآية في ﴿وَسَقِّتُكَ﴾^(٢).

٣- وفي لفظ آخر: عن جابر رضي الله عنه قال: مرضتُ فأتاني رسول الله ﷺ يعودني هو وأبو بكر، فوجدني قد أغمي عليَّ؛ فتوضأ رسول الله ﷺ ثم صبَّ عليَّ من وضوئه؛ فأفقت، وقلت: يا رسول الله، كيف أصنع في مالي، وكان لي تسع أخوات، ولم يكن لي ولد، فلم يجبني بشيء، ثم خرج وتركني، ثم رجع إليَّ وقال: «يا جابر، لا أراك ميتاً من وجعك هذا، وإن الله ﷻ قد أنزل في أخواتك، وجعل لهن الثلثين» فقرأ عليَّ هذه الآية ﴿يَسْقِتُكَ قُلُوبُ اللَّهِ يُفْتِيكُمْ فِي الْكَلَالَةِ﴾ فكان جابر يقول: أنزلت هذه الآية في^(٣).

قلتُ: ولعل الجمع بين عدد البنات بأنهن كنَّ تسعاً، وقد بقي منهن سبع في آخر حياته.

(١) البخاري (١٩٤، ٦٧٢٣، ٦٧٤٣) ومسلم (١٦١٦) وأحمد في «المسند» (٢٩٨/٣) (١٤١٨٦) إسناده صحيح على شرط الشيخين (محققوه) وأبو داود (٢٨٨٦) والترمذي (٢٠٩٧) و«سنن النسائي الكبرى» (١١٣٤) وابن ماجه (١٤٣٦) وابن جرير (٥١٧/٧) والبيهقي (٢٣٥/١).

(٢) صحيح أبي داود (٢٥١٠) و«سنن أبي داود» برقم (١٨٨٧) والمسند (١٤٩٩٨) حديث صحيح وإسناده على شرط مسلم (محققوه) و«تفسير القرطبي» (٢٨/٦) و«أسباب النزول» للواحدي (١٥٨) والسيوطي (٩٥) وعبد بن حميد (١٠٦٤) والطالسي (١٧٤٢) والنسائي في الكبرى (٦٣٢٤).

(٣) أبو داود (١٦٤/٣) برقم (٢٨٨٦) والطالسي في مسنده (١٧/٢) وابن جرير (٤٣٢/٩) والبيهقي (٦/٢٣١) «زاد المسير» (٢٦٥/٣) وبنحو هذه الرواية في «صحيح مسلم» برقم (١٦١٦) عن محمد بن المنكدر، و صححه الألباني في صحيح سنن أبي داود (٢٥٠٩).

٤- وفي صحيح مسلم عن مَعْدَانَ بن أَبِي طلحة أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه خطب يوم الجمعة، فذكر نبيَّ الله ﷺ، وذكر أبا بكر، ثم قال: إني لا أدعُ بعدي شيئاً، أهم عندي من الكلالة، ما راجعتُ رسول الله ﷺ في شيء ما راجعته في الكلالة، وما أغلظ لي في شيء ما أغلظ لي فيه، حتى طعن بإصبعه في صدري، وقال: «يا عمر، ألا تكفيك آية الصيف التي في آخر سورة النساء؟» وإني إن أعشُ أقضٍ فيها بقضية يقضي بها من يقرأ القرآن، ومن لا يقرأ القرآن^(١).

٥- وكان عمر رضي الله عنه يقول عن آية الكلالة: اللهم إن كنت بيئتها له (أي: حذيفة) فإنها لم تُبين لي، وكان عمر قد طلب من حفصة أن تسأل رسول الله ﷺ عن الكلالة، ويقول: ما أراني أعلمها، وفي رواية أن النبي ﷺ قال عنه: «ما أراه يُقيمها»^(٢).

٦- وكان عمر رضي الله عنه يتخرج أن يعطي حُكمًا في الكلالة دون أن تتضح له تمامًا، وتوفي رضي الله عنه وهو يقول ذلك لابن عباس، أما أبو بكر فقد حَكَمَ بأنها (مَن لا والد له ولا ولد) وقال عمر: إني لأستحي أن أخالف أبا بكر^(٣).

والذي قاله الصديق رضي الله عنه هو الذي عليه جمهور الصحابة والتابعين والأئمة في قديم الزمان وحديثه.

٧- وكان عمر رضي الله عنه قد كتب في الجد والكلالة كتابًا، فمكث يستخير الله تعالى فيه ويقول: اللهم إن علمت فيه خيرًا فأْمُضِهِ، فلما طُعن دعا بالكتاب فمحاها، وقال: رأيتُ أن أترككم على ما أنتم عليه^(٤).

٨- وعن عمر أيضًا قال: ثلاث وددتُ أن رسول الله ﷺ كان عهد إلينا فيهن عهدًا تنتهي إليه: الجد والكلالة وأبواب من الربّا^(٥).

(١) «صحيح مسلم» برقم (١٦١٧).

(٢) ينظر: «مُصنّف عبد الرزاق» برقم (١٩٩٤) من طريق سفيان بن عُيَيْنَةَ و«سنن سعيد بن منصور» برقم (٥٨٧).

(٣) ينظر: «سنن سعيد بن منصور» برقم (٥٩١) و«سنن البيهقي الكبرى» (٦/٢٢٤).

(٤) «تفسير الطبري» (٩/٤٣٨) بتصرف.

(٥) البخاري في الأشربة (٥٥٨٨) ومسلم في التفسير (٣٢/٣٠٣٢) وأبو داود في الأشربة (٦٩/٣) وعبد الرزاق (١٩١٨٤) والطبري (٧/٧٢١).

٩- وعنه عليه السلام قال: ثلاث لأن يكون النبي صلى الله عليه وسلم بيّنها لنا أحب إلّٰي من الدنيا وما فيها: الخلافة والكلالة والربا^(١).

وقد سأل كثير من الصحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم عن الكلالة؛ فنزلت هذه الآية، وهي آخر ما نزل بالنسبة لآيات الميراث.

وتسمى هذه الآية آية الصيف؛ لأنها نزلت في الصيف، والآية الأخرى التي في أول السورة ﴿وَلَكُمْ نِصْفُ مَا تَرَكَ أَزْوَاجُكُمْ﴾ وهي التي فيها ﴿وَإِنْ كَانَتْ رَجُلٌ يُوْرَثُ كَلَالَةً﴾ تسمى آية الشتاء؛ لأنها نزلت في الشتاء.

١٠- قال عمر رضي الله عنه: ما سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم عن شيء أكثر مما سألتُه عن الكلالة، حتى طعن بإصبعه في صدري وقال: «أما تكفيك آية الصيف التي في آخر سورة النساء»^(٢).

وهذه الآية هي الشطر الثاني المتعلق بالكلالة التي من جهة الرحم، حيث لا يوجد عَصَبَةٌ. وذهب الجمهور إلى أن الأخوات الشقيقات لأب عَصَبَةٌ للبنات، وإن لم يكن معهم أخ، وذهب أهل الظاهر إلى أن الأخوات لا يُعَصِّبن البنات، واحتجوا بظاهر هذه الآية. وقد صرّحت هذه الآية، بأن الأختين تَرِثَانِ الثلثين، والمراد بهما الأختان من غير أم؛ أي: الشقيقتان، أو من الأب، وهذا بإجماع أهل العلم.

ولم تبين هذه الآية، ميراث الأخوات الثلاث فأكثر؛ لأن آية الميراث السابقة بينت هذا الحكم، وهو أن الأخوات لا يَزِدْنَ على الثلثين مهما بلغ عددهن، وذلك في قوله تعالى ﴿فَإِنْ كُنَّ نِسَاءً فَوْقَ اثْنَتَيْنِ فَلَهُنَّ ثُلُثَا مَا تَرَكَ﴾ [النساء: ١١].

وقد ذكرت كلمة الكلالة في السورة مرتين:

المرة الأولى: في قوله تعالى: ﴿وَإِنْ كَانَتْ رَجُلٌ يُوْرَثُ كَلَالَةً أَوْ امْرَأَةً وَلَهُ أَخٌ أَوْ أُخْتٌ فَلِكُلِّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا السُّدُسُ فَإِنْ كَانُوا أَكْثَرَ مِنْ ذَلِكَ فَهُمْ شُرَكَاءُ فِي الثُّلُثِ﴾

(١) «المستدرک» (٢/٣٠٤) صححه الحاكم ووافقه الذهبي.

(٢) «فتح القدير» للشوكاني (١/٦٣٦) وهو في «المسند» (١/٢٦) و«صحيح مسلم» (١٦١٧) ومالك في الفرائض (٧).

[النساء: ١٢] والمراد بالإخوة والأخوات في هذه الآية الإخوة من أم، والأخوات من أم.

والمرة الثانية: في هذه الآية ﴿يَسْتَفْتُونَكَ﴾ والمراد بالإخوة والأخوات فيها: الأشقاء، أو من الأب فقط.

ولفظ الولد في الآية ﴿إِنْ أُمْرُؤًا هَلَكَ لَيْسَ لَهُ وَلَدٌ﴾ يشمل الذكر والأنثى؛ لأن معنى الكلالة: مَنْ يموت وليس له ولد أصلاً، لا ذكر ولا أنثى، وليس له والد أيضاً.

والمراد بالأخت في الآية ﴿وَلَهُ أُخْتٌ﴾ أي: شقيقة، أو من أب، فمَنْ مات ولم يترك والدًا ولا ولدًا، وترك أختًا شقيقة، أو من أب؛ فلهذه الأخت نصف تركة الميت فرضًا، والباقي للعصبة، فإن لم يوجد له عصبة فيعود الباقي عليها بالرد.

وإن ماتت الأخت قبل الأخ، وليس لها والد ولا ولد؛ فيأخذ الأخ جميع التركة.

والإخوة لا يرثون مع الأب؛ لحديث ابن عباس عن النبي ﷺ: «ألحقوا الفرائض بأهلها، فما بقي فلأولى رجل ذكر»^(١).

ثم ذكرت الآية صورتين أخريين للكلالة؛ وهما:

١- إن كان الوراثة أختين فأكثر؛ فلهما ثلثا ما ترك أخوهما، وهذا معنى ﴿فَإِنْ كَانَتَا اثْنَتَيْنِ فَلَهُمَا الثُّلُثَانِ مِمَّا تَرَكَ﴾.

٢- فإن كان الوراثة للأخ المتوفى رجالًا ونساءً؛ فتقسم التركة بينهم للذكر مثل حظ الأنثيين.

وظاهر الآية يفيد أنه لا فرق في هذه المسألة بين ميراث الإخوة الأشقاء والإخوة لأب، وقدّمت السنة الإخوة الأشقاء على الإخوة من أب عند اجتماعهما معًا.

أمثلة من الأقضية في ميراث الكلالة:

١- ثبت أن النبي ﷺ قضى في بنت، وبنت ابن، وأخت، فجعل للبنت النصف، ولبنت الابن السدس، وللأخت الباقي^(٢).

(١) «صحيح البخاري» برقم (٦٧٣٥) و«صحيح مسلم» برقم (١٦١٥).

(٢) البخاري عن ابن مسعود (٦٧٣٦، ٦٧٤٢).

فكانت هذه السُّنَّةُ مُفسَّرةً لتفسير الولد بالابن دون البنت.

٢- وثبت في السنة أن معاذًا رضي الله عنه قضى على عهد النبي ﷺ في بنت وأخت، فجعل للبنت النصف، وللأخت النصف^(١).

٣- وعن زيد بن ثابت رضي الله عنه أنه سئل عن زوج وأخت لأب وأم؛ فأعطى الزوج النصف، والأخت النصف، فكلَّم في ذلك، فقال: حضرتُ رسول الله ﷺ قضى بذلك^(٢).

٤- وقضى ابن مسعود رضي الله عنه في ميراث ابنة، وابنة ابن، وأخت، فقال: للابنة النصف، ولابنة الابن السدس تكملة الثلثين، وما بقي فللأخت، وقد أثنى أبو موسى على ابن مسعود في هذه المسألة، وقال: لا تسألوني ما دام هذا الخبر فيكم، وكان أبو موسى قد رأى أن بنت الابن لا شيء لها، ولكل من الابنة والأخت النصف^(٣).

وقد بيَّن الله تعالى لعباده هذه الأحكام المتعلقة بالمواريث؛ خشية أن يضلوا عن طريق الحق، فيعطون مَنْ لا يستحق، أو يهملون مَنْ يستحق، والله تعالى لا تخفى عليه خافية من أحوال خلقه، وسوف يُجازيهم ويحاسبهم على أعمالهم.

وقد ذكرت الآية أربع صور للكلالة:

١ - أن يكون الوارث أختًا واحدة، شقيقة أو من أب، فلها النصف، والباقي للعصبة، فإن لم يوجد عصبة؛ فيعود باقي الميراث عليها بالرد.

٢ - أن يكون الوارث أختًا واحدًا، شقيقًا أو من أب، والميت امرأة؛ فله جميع التركة، إلا في حالة وجود الزوج، فإن كلاً منهما يأخذ النصف.

٣ - أن يكون الوارث أختين فأكثر؛ فلهما الثلثان مما تركه أخوهما تنقاسمانه بالتساوي.

٤ - أن يكون الوارث ذكورًا وإناثًا؛ فللذكر مثل حظ الأنثيين.

وظاهر الآية يفيد أن لا فرق بين الإخوة الأشقاء والإخوة لأب، وقد خصصت السنة

(١) البخاري في الفرائض عن الأسود بن يزيد (٦٧٣٤، ٦٧٤١).

(٢) «المسند» (١٨٨/٥).

(٣) ينظر: «صحيح البخاري» برقم (٦٧٣٦).

هذا العموم؛ فقدمت الإخوة الأشقاء على الإخوة لأب، فإذا اجتمعوا يحجب الإخوة الأشقاء الأخوة لأب.

أمثلة من الكلاية:

١- مَيِّتٌ ذَكَرَ مَات، وليس له والد ولا ولد، وله أخت شقيقة أو لأب، فلها نصف ما ترك، والباقي للعصبة إن كان عنده أعمام أو أولاد عمومة، فإن لم يوجد له عصبة يعود الباقي على الأخت بالردِّ عليها، وهذا معنى ﴿إِنْ أَمْرُؤَا هَٰلِكَ لَيْسَ لَهُ وَلَدٌ﴾ من صُلبه، لا ذكر ولا أنثى، ولا ولد ابن ﴿وَلَهُ أُخْتُ﴾ شقيقة أو لأب.

أما الأخت لأم فقد ذُكرت في آية الميراث الثانية في أول السورة ﴿فَلَهَا نِصْفُ مَا تَرَكَ﴾ أي ما ترك أخوها من نقود وعقار وأثاث وغير ذلك، بعد إخراج الدين والوصية.

٢- ثم إن كان الميت أنثى، وتركت أخاً؛ فإنه يأخذ جميع التركة، وهذا معنى: ﴿وَهُوَ﴾ أي أخوها الشقيق أو من أب ﴿يَرِثُهَا إِنْ لَمْ يَكُنْ لَهَا وَلَدٌ﴾ يرثها، لأنه عاصب فيأخذ ما لها كله والولد يُطلق على الذكر والأنثى على ما اختاره المحققون.

٣- فإن مات الميت، وترك أختين؛ فلهما الثلثان، أخذًا من قوله تعالى: ﴿فَإِنْ كَانَتَا اثْنَتَيْنِ﴾ فما فوق ﴿فَلَهُمَا الثَّلَاثَانِ مِمَّا تَرَكَ﴾ وإن كانوا أكثر من أختين فلهما أيضًا الثلثان؛ لقوله تعالى: ﴿فَإِنْ كُنَّ نِسَاءً فَوْقَ اثْنَتَيْنِ فَلَهُنَّ ثُلُثُ مَا تَرَكَ﴾ [النساء: ١١].

٤- فإن مات ولم يترك والدًا ولا ولدًا، وترك إخوة، ذكورًا وإناثًا ﴿وَلَوْ كَانُوا إِخْوَةً رِجَالًا وَنِسَاءً﴾ أشقاء أو من أب وإن كثروا ﴿فَلِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنثِيَّيْنِ﴾ من البنين، وبني البنين والإخوة، أشقاء أو من أب، إذا اجتمع ذكورهن وإناثهن، فيعطي الذكر مثل الأنثيين.

ومعنى الآية: يسألونك يا محمد، عن حكم ميراث الكلاية، وهو من مات وليس له ولد ولا والد، قل: الله يبين لكم الحكم فيها: إن مات امرؤ ليس له ولد ولا والد، وله أخت لأبيه وأمه، أو لأبيه فقط؛ فلها نصف تركته، ويرث أخوها شقيقًا كان أو لأب جميع مالها إذا ماتت وليس لها ولد ولا والد.

فإن كان لمن مات كلاية أختان، فلهما الثلثان مما ترك، وإذا اجتمع الذكور من الإخوة

لغير أم مع الإناث، فللذكر مثل نصيب الأنثيين من إخوانه.

يَبَيِّنُ اللهُ لَكُمْ قِسْمَةَ الْمَوَارِيثِ، وَحُكْمَ الْكَلَالَةِ؛ فَيُوضِّحُهَا وَيُشْرَحُهَا لَكُمْ لئَلَّا تُضِلُّوا عَنِ الْحَقِّ فِي أَمْرِ الْمَوَارِيثِ، فَتَعْمَلُوا بِمَا فِيهَا مِنْ أَحْكَامٍ، وَاللَّهُ عَالِمٌ بِعَوَاقِبِ الْأُمُورِ، وَمَا فِيهَا مِنَ الْخَيْرِ لِعِبَادِهِ.

تم تفسير (سورة النساء) والله الحمد والمنة



الآية	فهرس الم ووجع	الصفحة
	سورة النساء (٤) مقدمة السورة - حديثها عن اليهود والنصارى والمنافقين	٥
١	تفسير السورة - مَرَجَعُ النَّاسِ إِلَى أَضْلَى وَاحِدٍ، أحاديث في المرأة وصلة الرحم	١٤
٢	أربعة وعشرون حكماً تشريعياً في مطلع السورة، الْحُكْمُ الْأَوَّلُ: وَجُوبُ الْمُحَافَظَةِ عَلَى مَالِ الْيَتِيمِ وتنميته	١٨
٣	الْحُكْمُ الثَّانِي: تَعُدُّ الزَّوْجَاتِ وَتَحْدِيدُهُ بِأَرْبَعٍ - حكمة تعدد الزوجات	٢٠
٤	الْحُكْمُ الثَّالِثُ: صَدَاقُ الْمَرْأَةِ عَطِيَّةٌ لَهَا	٢٧
٥	الْحُكْمُ الرَّابِعُ: الْحَجْرُ عَلَى السَّفِيهِ وَالصَّغِيرِ	٣٠
٦	الْحُكْمُ الْخَامِسُ: يُعْطَى الْيَتِيمُ مَالَهُ إِذَا بَلَغَ رُشْدَهُ	٣٢
٧	الْحُكْمُ السَّادِسُ: أَحْكَامُ الْمَوَارِيثِ - مراحل التوارث في الإسلام	٣٥
٨	الْحُكْمُ السَّابِعُ: مَنْ حَضَرَ الْقِسْمَةَ فَلْيَقْسِمِ	٣٧
٩	الْحُكْمُ الثَّامِنُ: عَدَمُ الْإِضْرَارِ بِالْوَرْتَةِ الصَّغَارِ	٣٩
١٠	الْحُكْمُ التَّاسِعُ: عُقُوبَةُ أَكْلِ مَالِ الْيَتِيمِ	٤١
	الْحُكْمُ الْعَاشِرُ: مِيرَاثُ الْأَصُولِ وَالْفُرُوعِ - أولاً: ميراث الفروع - أسباب النزول	٤٢
	أصناف الورثة - أسباب المنع من الميراث - الوصية للوارث	٤٤
	مشروعية الوصية لما بعد الموت - عدم مساواة المرأة للرجل في الميراث - ميراث الأولاد	٤٦
	ثانياً: ميراث الأصول	٥٠
	الوفاء بالذَّيْنِ، ثم إنفاذ الوصية قبل تقسيم التركة	٥١
١٢	ثالثاً: مِيرَاثُ الْأَزْوَاجِ - أولاً: ميراث الزوج - ثانياً: ميراث الزوجة	٥٣
	ميراث الكلاله (الحواشي) - ميراث الإخوة لأم	٥٤
١٤، ١٣	الْمَوَارِيثُ مِنْ حَدُودِ اللَّهِ تَعَالَى	٥٧
١٥	الْحُكْمُ الْحَادِي عَشَرَ: عَقُوبَةُ السَّخَاقِ (الفاحشة بين النساء والفاحشة بين الرجال)	٥٩
١٦	الْحُكْمُ الثَّانِي عَشَرَ: عَقُوبَةُ اللَّوْاطِ	٦٠
١٧	الْحُكْمُ الثَّالِثُ عَشَرَ: التَّوْبَةُ وَشُرُوطُهَا	٦٣
١٨	شَرْطَانِ لِعَدَمِ قَبُولِ التَّوْبَةِ	٦٧
١٩	أربع قضايا في هذه الآية - سبب النزول	٦٨
	القضية الأولى: المرأة ليست متاعاً يُورث - القضية الثانية: عَضْلُ الْمَرْأَةِ	٧٢
	القضية الثالثة: حُسْنُ الْعِشْرَةِ - القضية الرابعة: الطلاق	٧٣
٢١، ٢٠	الْحُكْمُ الرَّابِعُ عَشَرَ: التَّهْنِئَةُ عَنْ أَخْذِ شَيْءٍ مِنْ مَهْرِ الْمَرْأَةِ الْمَدْخُولِ بِهَا عِنْدَ طَلَاقِهَا	٧٥
٢٣، ٢٢	الْحُكْمُ الْخَامِسُ عَشَرَ: الْمُحَرَّمَاتُ مِنَ النِّسَاءِ، أولاً: (زَوْجَةُ الْأَبِ)	٧٩
	ثانياً: المحرمات بالنسب. ثالثاً: الْمُحَرَّمَاتُ مِنَ الرِّضَاعَةِ	٨٣
	عدد الرضعات التي تحرم - رضاع الكبير:	٨٤
	رابعاً: المحرمات بالمصاهرة أربع - خامساً: المحرمات بالجمع	٨٧
٢٤	سادساً: المحصنات وملك اليمين - معاني الإحصان:	٩٠

الآية	فهرس المـ وـ وعات	الصفحة
	الزواج المشروع - تحريم نكاح المتعة:	٩٢
٢٥	الحُكْمُ السادس عشر: نِكَاحُ الرِّقَقَاتِ وَشُرُوطُهُ - أسرى الحروب - شروط نكاح الأمة	٩٤
	عقوبة الرقيق إذا زنى	٩٧
٢٦	مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ بِالأُمَّةِ ورفقه بِهِمْ فِي خَمْسَةِ أُمُورٍ - الأول: وضوح الشريعة وبيان أحكامها -	٩٩
	الثاني: هداية الأمة إلى طريق المنعم عليهم - الثالث: الله تعالى يحب لنا عدم الوقوع في المعاصي	١٠٠
٢٧	الرابع: توبة الله على هذه الأمة، و مخالفة أهل الشهوات والموبقات	١٠٠
٢٨	الخامس: إرادة التخفيف والتيسير على الأمة	١٠١
٣٠، ٢٩	الحُكْمُ السابع عشر العَلَاَقَاتُ المَالِيَّةُ فِي الإِسْلَامِ - أسباب النزول:	١٠٢
	وجه العلاقة بين أكل المال بالباطل والتجارة:	١٠٣
	تحريم قتل النفس وعقوبته	١٠٥
٣١	الحُكْمُ الثامن عشر: اجْتِنَابُ الكَبَائِرِ يُكْفِرُ الصَّغَائِرَ - أحاديث في الكبائر	١٠٨
٣٢	الحُكْمُ التاسع عشر: التَّهْيِ عَنْ تَمَتِّي المَرْأَةِ خَصَائِصِ الرَّجُلِ - في أسباب النزول	١١٣
٣٣	الحُكْمُ العشرون: نَسْخُ الوِثَرَاتِ بِالتَّبَيِّ وَالْجَلْفِ وَالْأُخُوَّةِ - التوارث قبل الإسلام	١١٧
	موارث أبطلها الإسلام - أنواع عقود التوارث في أول الإسلام:	١١٨
٣٤	الحُكْمُ الحادي والعشرون: قِوَامَةُ الرَّجُلِ وَأَسْبَابُهَا	١٢٢
	علاج نشوز المرأة - المرحلة الأولى: من مراحل علاج نشوز المرأة (الوعظ)	١٢٥
	المرحلة الثانية: من مراحل علاج نشوز المرأة (الهجر) - المرحلة الثالثة (الضرب)	١٢٩
٣٥	المرحلة الرابعة: من مراحل علاج نشوز المرأة التحاكم بَيْنَ الزَّوْجَيْنِ	١٣٢
٣٦	في هذه الآية عشرة حقوق للمجتمع المسلم	١٣٥
	(حَقُّ اللَّهِ تَعَالَى وَحَقُّ الوَالِدَيْنِ وَتَمَانِيَةُ حُقُوقٍ أُخْرَى لِلتَّرَاْبِطِ الاجْتِمَاعِيِّ)	١٣٥
	الحق الأول: التوحيد - الحق الثاني: بر الوالدين - الحق الثالث: الترابط الاجتماعي	١٣٥
٣٧	خمس صفات للمختال الفخور: الوصف الأول: البخل -	١٤٦
	الوصف الثاني كتمان العلم	١٥٠
٣٩، ٣٨	الوصف الثالث الرياء - الرابع: نفي كمال الإيمان عنه - الخامس: أنه قرين الشيطان	١٥١
٤٠	عَذْلُ اللَّهِ تَعَالَى وَفَضْلُهُ	١٥٣
٤٢، ٤١	حَالُ الخَلْقِ يَوْمَ الحَشْرِ والنَّشْرِ	١٥٦
٤٣	ثَلَاثَةُ أَحْكَامٍ شَرْعِيَّةٍ فِي هذه الآية هي الأحكام ٢٢، ٢٣، ٢٤ في السورة	١٦٠
	الحكم الثاني والعشرون: عَدَمُ صِحَّةِ الصَّلَاةِ مِنْ قَائِدِ الوَعْيِ - مراحل تحريم الخمر	١٦١
	الحكم الثالث والعشرون: عدم صحة صلاة الجنب، والحائض والنفساء، الجنب وما يحرم عليه:	١٦٣
	حكمة الاغتسال من الجنابة: - الحُكْمُ الرابع والعشرون: أحكام التَّيْمُمِ مشروعية التيمم:	١٦٦
	من أسباب النزول: - التيمم من خصوصيات هذه الأمة	١٦٧
	حَالَاتُ التَّيْمُمِ الأَرْبَعِ - الحالة الأولى: المَرَضُ	١٦٩

الآية	فهرس المـ ووجـ وعات	الصفحة
٨٣	الْحَرْبُ النَّفْسِيَّةُ - سبب النزول	٢٦٤
	أمثلة من معالجة بعض الشائعات في العهد النبوي	٢٦٦
٨٤	التَّزْيِيبُ فِي جِهَادِ الْعُدُوِّ	٢٦٨
٨٥	الشَّفَاعَةُ الْحَسَنَةُ وَالشَّفَاعَةُ السَّيِّئَةُ -	٢٧١
٨٦	تَحِيَّةُ الْإِسْلَامِ - تحية أهل الكتاب - أحاديث في المعنى	٢٧٤
٨٧	الرُّجُوعُ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى يَوْمَ الْحِسَابِ وَالْجَزَاءِ	٢٧٩
٨٨	قَوَاعِدُ الْمَعَامَلَاتِ الْمُحَلِّيَّةِ وَالْدَّوْلِيَّةِ - أسباب النزول - التعليق على أسباب النزول	٢٨٠
٨٩	كَيْفِيَّةُ التَّعَامُلِ مَعَ الْعُدُوِّ	٢٨٤
٩٠	ثلاث حالات مُسْتَثْنَاةٌ مِنَ الْقَتْلِ وعدم الموالاة	٢٨٦
٩١	طَائِفَةٌ رَابِعَةٌ لَا يَتَسَامَحُ مَعَهَا الْإِسْلَامُ	٢٩٠
٩٢	حُكْمُ الْقَتْلِ الْخَطِئِ بِالنِّسْبَةِ لِلْمُسْلِمِ وَالْمُعَاهِدِ وَالْعُدُوِّ - أسباب النزول: - أحاديث في المعنى	٢٩٩
	القتل الخطأ له ثلاث حالات - الحالة الأولى كفارة قتل المؤمن خطأ	٢٩٩
	الدية في الجاهلية والإسلام- دية المرأة - حكم الدين حكم الميراث	٣٠٠
	الحالة الثانية كفارة قتل المؤمن وهو من قوم محاربين - الثالثة كفارة قتل المؤمن أو الذمي المستأمن أهله	٣٠٢
	دية الكتابي - حكم من لم يجد عتق رقبة	٣٠٣
	أنواع القتل عند الفقهاء:	٣٠٥
٩٣	حُكْمُ اسْتِحْلَالِ الْقَتْلِ الْعَمْدِ - سبب النزول يوضح معنى الآية:	٣٠٧
	للقتل العمد أحكام في الدنيا وأحكام في الآخرة:	٣١١
٩٤	الْأَخْذُ بِالظَّاهِرِ - أسباب النزول	٣١٣
٩٦، ٩٥	قَضْلُ الْجِهَادِ - في أسباب النزول	٣٢٢
٩٧	وُجُوبُ الْهَجْرَةِ مِنْ دِيَارِ الْكُفْرِ بِسَبَبِ الاضطهاد	٣٢٨
٩٩، ٩٨	أَهْلُ الْأَعْذَارِ فِي غَيْرِ بِلَادِ الْمُسْلِمِينَ	٣٣٤
١٠٠	أَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةٌ لِلْهَجْرَةِ فِيهَا - سبب النزول	٣٣٧
١٠١	قَضْرُ الصَّلَاةِ فِي السَّفَرِ - أحاديث في المعنى	٣٤٣
	مشروعية قصر الصلاة - هل الخوف شرط في قصر الصلاة؟ مسافة القصر ومدته	٣٤٦
	الجمع بين الظهر والعصر والمغرب والعشاء: - الجمع بسبب المطر والمرض ولغير سبب:	٣٥٢
١٠٢	كَيْفِيَّةُ صَلَاةِ الْجَمَاعَةِ حَالَ الْخَوْفِ مِنَ الْعُدُوِّ - متى شرعت الخوف - سبب النزول	٣٥٢
	كيفية صلاة الخوف من فعل النبي ﷺ:	٣٥٨
	أخذ الحذر من العدو أثناء المطر، وقصة غورث بن محارب: - أخذ الحذر من العدو أثناء المرض: ...	٣٥٩
١٠٣	ذَكَرَ اللَّهُ تَعَالَى فِي جَمِيعِ الْأَحْوَالِ	٣٦٢
١٠٤	مُلَاحَظَةُ الْعُدُوِّ أَيْنَمَا كَانَ	٣٦٤
١٠٦، ١٠٥	الْعَدَالَةُ الْمُطْلَقَةُ	٣٦٥

الآية	فهرس المـ وعات	الصفحة
الحالة الثانية: التَّيْمُّمُ في السفر - الحالة الثالثة: التَّيْمُّمُ عِنْدَ تَقْصُرِ الرُّضْوَاءِ	١٧٠	
الحالة الرابعة: التَّيْمُّمُ مِنَ الْحَدَثِ الْأَكْبَرِ - حُكْمُ التَّيْمُّمِ مِنَ الْجَنَابَةِ	١٧١	
بَدَأَ الْحَدِيثُ عَنِ الْيَهُودِ فِي السُّورَةِ فِي ثَلَاثِ عَشْرَةِ آيَةٍ: التحذير من ضلالهم وإضلالهم	١٧٥	٤٥، ٤٤
اليهود ينكرون نبوة محمد ﷺ ويتلاعبون بالألفاظ	١٧٨	٤٦
دَعَا الْيَهُودَ إِلَى الدُّخُولِ فِي الْإِسْلَامِ قَبْلَ سُوءِ الْعَوَاقِبِ	١٨١	٤٧
آيَةُ الشَّرْكَ الْأَكْبَرِ - النَّاسُ بَيْنَ الْإِيمَانِ وَالْكَفْرِ وَالْجَنَّةِ وَالنَّارِ	١٨٤	٤٨
دخول الجنة لمن مات على غير الشرك:	١٨٨	
الْيَهُودُ يَقْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ بِتَرْكِهِمْ لَأَنْفُسِهِمْ	١٩١	٥٠، ٤٩
الْيَهُودُ يَتَخَالَفُونَ مَعَ غَيْرِهِمْ لِاسْتِئْصَالِ شَأْفَةِ الْمُسْلِمِينَ	١٩٥	٥٢، ٥١
الْيَهُودُ يَكْفُرُونَ بِالْإِسْلَامِ حَسَدًا لِأَهْلِهِ	١٩٨	٥٥-٥٣
مَصِيرُ الْكَافِرِ وَمَصِيرُ الْمُؤْمِنِ	٢٠٠	٥٧، ٥٦
آيَةُ الْأُمَرَاءِ وَالْحُكَّامِ: الْأَمَانَةُ وَالْعَدْلُ مِنْ سِمَاتِ الْمُجْتَمَعِ الْمُسْلِمِ - سبب النزول:	٢٠٣	٥٨
ثلاثة أنواع من الأمانات	٢٠٥	
العدل في الحكم بين الناس - من عدل الحكام والأمراء:	٢٠٨	
آيَةُ الْحَاكِمِ وَالْمَحْكُومِ: الطَّاعَةُ الْمَطْلُوقَةُ وَالطَّاعَةُ الْمُقَيَّدَةُ - سبب النزول	٢١١	٥٩
طاعة الله والرسول و طاعة أولي الأمر	٢١٢	
بدء الحديث عن المنافقين في السورة في تسع آيات متتابعة:	٢١٨	٦٣-٦٠
وَجُوبُ انْتِخَاكِمُ إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ - أسباب النزول	٢١٨	
الْجُوءُ إِلَى الْكِتَابِ وَالسُّتُوْءُ عِنْدَ ظُلْمِ النَّفْسِ؛ اسْتِجَابَةُ اللَّهِ وَالرَّسُولِ	٢٢٤	٦٤
نَفْيُ الْإِيمَانِ عَنْ مَنْ تَطَبَّ نَفْسُهُ بِأَحْكَامِ الشَّرْعِ	٢٢٧	٦٥
تَخَاذُلُ الْمُنَافِقِينَ عَنِ الْاسْتِجَابَةِ لِأَمْرِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ	٢٢٩	٦٨-٦٦
مَنْزِلَةُ مَنْ يُطِيعُ اللَّهَ وَالرَّسُولَ - المرء مع من أحب	٢٣٢	٧٠، ٦٩
بدء الحديث عن الجهاد في السورة: الاستِعْدَادُ لِلِقَاءِ الْعَدُوِّ فِي كُلِّ وَقْتٍ	٢٣٨	٧١
الْمُنَبِّطُونَ	٢٣٩	٧٣، ٧٢
الْجِهَادُ وَمَوَاقِفُ الْمُنَبِّطِينَ الْمُتَخَاذِلِينَ مِنْهُ	٢٤١	٧٤
تَغْنِيْفُ الْمُتَقَاعِسِينَ عَنْ نُصْرَةِ إِخْوَانِهِمُ الْمُسْلِمِينَ	٢٤٣	٧٥
مَا أَبْعَدَ الْفَرْقَ بَيْنَ قِتَالِ الْمُؤْمِنِ وَالْكَافِرِ	٢٤٤	٧٦
تَبْلِيغُ الدَّعْوَةِ يَكُونُ وَفْقَ مُقْتَضَى الْحَالِ مِنْ ضَعْفٍ وَقُوَّةٍ - أسباب النزول	٢٤٥	٧٧
تَوْبِيخُ الْمُتَقَاعِسِينَ عَنِ الْقِتَالِ - سبب نزول الآية	٢٥٠	٧٩، ٧٨
طَاعَةُ الرَّسُولِ طَاعَةٌ لِلَّهِ	٢٥٦	٨٠
الْكَشْفُ عَنْ طَاعَةِ أَهْلِ النَّفَاقِ لِلرَّسُولِ ﷺ	٢٦٠	٨١
الْعَقْلُ الْوَاعِي يَقْطَعُ بِأَنَّ الْقُرْآنَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ	٢٦١	٨٢

الآية	فهرس المـ ووجـ وعات	الصفحة
١٠٧	الْمُسْلِمُ لَا يَدْفَعُ إِلَّا عَنْ صَاحِبِ الْحَقِّ	٣٦٨
١٠٩، ١٠٨	الْمُسْلِمُ لَا يَخَافُ إِلَّا مِنَ اللَّهِ وَلَا يَتَّصِرُ لِلْبَاطِلِ	٣٦٨
١١٠	بَابُ التَّوْبَةِ مُنْتَوَجٌ عَلَى مَضْرَاعَيْهِ - القاعدة الأولى للتوبة - أحاديث في المعنى	٣٧٠
١١١	القاعدة الثانية للتوبة	٣٧٣
١١٢	القاعدة الثالثة	٣٧٤
١١٣	فَضَّلَ اللَّهُ تَعَالَى عَلَى رَسُولِهِ ﷺ	٣٧٥
١١٤	مِنْ خَيْرِ كَلَامِ النَّاسِ	٣٧٦
١١٥	سُوءُ عَاقِبَةِ الْمُخَالِفِ لِأَمْرِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ	٣٨٢
١١٦	الشُّرْكُ بِاللَّهِ تَعَالَى: مَقَاهِرُهُ وَعَوَائِبُهُ	٣٨٤
١١٧	ضَلَالُ الْمُشْرِكِينَ فِي عِبَادَتِهِمْ غَيْرَ اللَّهِ تَعَالَى	٣٨٧
١١٩، ١١٨	الشَّيْطَانُ يَتَحَدَّى بَنِي آدَمَ بِخَمْسَةِ أُمُورٍ	٣٨٩
١٢١، ١٢٠	الشَّيْطَانُ يَعِدُ أَوْلِيَاءَهُ بِطُولِ الْعُمُرِ وَتَحْقِيقِ الْأَمَالِ	٣٩٣
١٢٢	ثَوَابُ الْمُؤْمِنِينَ فِي الْآخِرَةِ	٣٩٤
١٢٤، ١٢٣	قَاعِدَةُ الْجَزَاءِ الْعَامَّةِ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ	٣٩٦
١٢٦، ١٢٥	الْإِيمَانُ الْكَامِلُ	٤٠٢
١٢٧	أَرْبَعُ فِتَاوَى عَنْ مِيرَاثِ النِّسَاءِ وَشُرُورِ الْيَتَامَى - مناسبة الآية لما قبلها	٤٠٥
١٢٨	عِلَاجُ نُشُوزِ الرَّجُلِ - أَسْبَابُ التَّزْوِيلِ	٤١٠
١٢٩	الْعَدْلُ الْمَادِّيُّ وَالْعَدْلُ الْقَلْبِيُّ بَيْنَ الزُّوْجَاتِ	٤١٤
١٣٠	آخِرُ الْعِلَاجِ الْكَمِّي (الطَّلَاق)	٤١٨
١٣٣، ١٣١	التَّقْوَى وَصِيَّةُ اللَّهِ لِجَمِيعِ الْأُمَمِ وَعَقُوبَةُ الْمُعْرِضِ عَنْهَا	٤١٨
١٣٤	حَرْثُ الدُّنْيَا وَحَرْثُ الْآخِرَةِ	٤٢٢
١٣٥	الْعَدْلُ الْمَطْلُوقُ فِي الْحُكْمِ وَالشَّهَادَةِ - من آثار عدم إقامة العدل بين الناس	٤٢٥
١٣٦	الإسلام يوجب الإيمان بجميع الشرائع السابقة	٤٣٠
١٣٨، ١٣٧	سَبْعَةُ أَوْصَافٍ لِلْمُتَافِقِينَ - الوُصْفُ الْأَوَّلُ: التَّرَدُّدُ وَالتَّذَدُّبُ	٤٣٢
١٣٩	الوُصْفُ الثَّانِي الْمُتَافِقُونَ يَتَّخِذُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ وَيَتْرَكُونَ الْمُؤْمِنِينَ	٤٣٥
١٤٠	الوُصْفُ الثَّالِثُ الْمُتَافِقُونَ يَسْتَرِيحُونَ إِلَى الظُّلَمِ فِي الْإِسْلَامِ وَيَقْتَفُونَ أَثَرَهُ	٤٣٦
١٤١	الوُصْفُ الرَّابِعُ الْمُتَافِقُونَ يَتَرَبَّصُونَ بِالْمُؤْمِنِينَ لِإِظْهَارِ تَأْيِيدِهِمْ عِنْدَ كَسْبِ الْمَعْرَكَةِ	٤٣٨
١٤٢	الوُصْفُ الْخَامِسُ: الْخِدَاعُ	٤٤٠
	الوُصْفُ السَّادِسُ: صِفَةُ صَلَاةِ الْمُتَافِقِينَ	٤٤٢
١٤٣	الوصف السابع: التردد بين الإسلام والكفر	٤٤٣
١٤٤	النَّهْيُ عَنْ مُوَالَاةِ الْمُخَالِفِينَ فِي الدِّينِ	٤٤٤
١٤٥	مَصِيرُ مُتَافِقِي الْعَقِيدَةِ	٤٤٥

الآية	فهرس المـ ووجـ وعات	الصفحة
١٤٦	فَتَحُ بَابُ التَّوْبَةِ لِلْمُنَافِقِينَ يَشْرُوطُ أَرْبَعَةٌ.....	٤٤٧
١٤٧	تَغْذِيبُ الْكَافِرِ مُقْتَضَى الْعَذَلِ الْإِلَهِيِّ.....	٤٤٨
١٤٨	الْحَالَاتُ الَّتِي يَجُوزُ فِيهَا الْجَهْرُ بِالسُّوءِ - أحاديث في المعنى.....	٤٤٩
١٤٩	التَّرْغِيبُ فِي الْعَفْوِ وَالصَّفْحِ.....	٤٥٣
١٥٠	التَّمْهِيدُ لِلْحَدِيثِ الْمُبَاشِرِ عَنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ.....	٤٥٤
١٥١	كُفْرُ مَنْ يُؤْمِنُ بِبَعْضِ الرُّسُلِ دُونَ بَعْضٍ.....	٤٥٦
١٥٢	الإيمان الحقيقي.....	٤٥٧
١٥٤، ١٥٣	سَبْعَةُ عَشَرَ جَرِيمَةً مِنْ جَرَائِمِ الْيَهُودِ - سبب النزول.....	٤٥٧
١٥٦، ١٥٥	خَمْسُ جَرَائِمٍ هِيَ سَبَبُ الْقَطْعِ عَلَى قُلُوبِ الْيَهُودِ.....	٤٦٤
١٥٨، ١٥٧	دَعَايُ قَتْلِ الْمَسِيحِ وَصَلْبِهِ.....	٤٦٦
١٥٩	نُزُولُ عِيسَى ﷺ وَمَا يُصَاحِبُهُ مِنْ أَحْدَاثٍ - مكان نزول عيسى ﷺ - أوصاف عيسى.....	٤٦٩
١٦٠	المسيح الدجال - يأجوج ومأجوج:.....	٤٧٣
١٦١	مِنْ آثَارِ ظُلْمِ الْيَهُودِ: تحريم ما أحله الله تعالى عليهم وأسبابه.....	٤٧٤
١٦٢	اسْتِخْلَالُ الْيَهُودِ لِلرَّبَا وَأَكْلُ أَمْوَالِ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ.....	٤٧٦
١٦٤، ١٦٣	اسْتِثْنَاءُ مَنْ آمَنَ مِنَ الْيَهُودِ وَالتَّوْبَةُ بِهِمْ وَوَصْفُهُمْ بِسِتِّ صِفَاتٍ.....	٤٧٧
١٦٥	قَوَافِلُ الْهَدَايَةِ وَالتَّوْبَةِ - أنواع الوحي اللغوي والشعري.....	٤٧٩
١٦٦	ترجمة يسيرة لأحد عشر من الرسل و الأسباط:.....	٤٨٣
١٦٧-١٦٩	الْعَاقِبَةُ مِنَ إِرسَالِ الرُّسُلِ - بلوغ الرسالة شرط في الحساب يوم القيامة:.....	٤٨٩
١٧٠	العقل لا يستقل بمعرفة الهدى والضلال:.....	٤٨٩
١٧١	الْإِسْلَامُ لَيْسَ فِي حَاجَةٍ إِلَى تَصْدِيقِ أَحَدٍ لَهُ بَعْدَ شَهَادَةِ اللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ.....	٤٩١
١٧٢	الْعَاقِبَةُ الْوَحِيمَةُ لِمَنْ كَذَّبَ رُسُلَ اللَّهِ - أنواع الهداية.....	٤٩٣
١٧٣	عُمُومُ الرِّسَالَةِ الْخَاتَمَةِ.....	٤٩٥
١٧٤، ١٧٥	مِنْ قَبَائِحِ النَّصَارَى: الْقَوْلُ بِالتَّثْلِيثِ - أصناف النصارى.....	٤٩٦
١٧٦	تصحيح عقيدة النصارى: عيسى عَبْدُ اللَّهِ وَرَسُولُهُ.....	٥٠٣
١٧٧	مَا أَعَدَّهُ اللَّهُ تَعَالَى لِمَنْ آمَنَ وَمَنْ كَفَرَ.....	٥٠٥
١٧٨، ١٧٩	النِّدَاءُ الْأَخِيرُ لِإِنْقَاضِ الْبَشَرِ مِنَ الضَّلَالِ.....	٥٠٦
١٧٩	آيَةُ الْكَلَالَةِ - سبب النزول - آية الصيف وآية الشتاء.....	٥٠٨
١٨٠	أمثلة من الأفضية في ميراث الكلاله.....	٥١٣
١٨١	صور الكلاله - أمثلة من الكلاله.....	٥١٤
١٨٢	فهرس الموضوعات.....	٥١٧

فاحِشَةُ النَّفْسِ

تأليف :

أَحْمَدُ بْنُ أَحْمَدَ مُحَمَّدَ عَبْدَ اللَّهِ الطَّوِيلَ

عُضُو الدَّجَنَةِ الْعِلْمِيَّةِ لِمُرَاجَعَةِ مُصْحَفِ الْمَدِينَةِ النَّبَوِيَّةِ
وَلَجَنَةِ الإِشْرَافِ عَلَى السَّجِيَلَاتِ الْقُرْآنِيَّةِ
بِمُجْمَعِ الْمَلِكِ فَهْدٍ لَطَبَاعَةِ الْمُصْحَفِ الشَّرِيفِ

قَدَّمَ لَهُ : مَعَالِي الدُّكْتُور / عَبْدُ اللَّهِ بْنُ عَبْدِ الْمُحْسِنِ الشُّرْكِي
وَالْأُسْتَاذُ الدُّكْتُور / صَالِحُ بْنُ غَانِمِ السَّدْلَانِ
وَنُحْبَةً مِنَ الْعُلَمَاءِ الْمُتَخَصِّصِينَ

المجلد الرابع

المائكة والأنةام

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

9

10

تَفْصِيرُ سُورَةِ الْمَائِدَةِ (٥)

مُقَدِّمَةُ السُّورَةِ

١- سورة المائدة هي السورة الخامسة في ترتيب المصحف، والحادية والتسعون في ترتيب النزول، نزلت بعد سورة الفتح على الأرجح. وهي مئة وعشرون آية في العدد الكوفي^(١).

وهي ألفان وثمان مئة وأربع كلمات، وأحد عشر ألفاً وسبع مئة وثلاثة وثلاثون حرفاً. ٢- وتسمى (سورة المائدة) و(سورة العقود) و(المنقذة)؛ لأنها تنقذ العبد من ملائكة العذاب، ويقال لها: (سورة الأخيار)، أي: الذين يوفون بالعهد، فهذه أربعة أسماء لها. وسميت سورة المائدة؛ لذكر قصة نزول المائدة فيها، وقد طلبها الحواريون من عيسى ﷺ للدلالة على صدق نبوته، وجاء ذكرها في أربع آيات من آخر السورة [١١٢-١١٥].

والأولى أن تُسمَّى سورة العقود؛ لأنها افتتحت بذكر العقود، واشتملت على عدد منها صراحة أو ضمناً؛ فالصريح منها: عقود الأنكحة، وعقد الصداق، وعقد الحلف، وعقد المعاهدة والأمان.

ومن الضمني: عقد الوصية، والوديعة، والوكالة، والعارية، والإجارة، وغير ذلك. وفي السورة ستة عشر نداء للمؤمنين؛ كل نداء يتضمن أمراً، أو نهياً، أو توجيهاً، أو حكماً، وفيها خمس نداءات لأهل الكتاب، ونداء خاص بالنبي ﷺ.

٣- وسورة المائدة سورة مدنية باتفاق، نزل كثير منها بعد العام السادس من الهجرة بعد سورة الممتحنة، وبعد نزول سورة الفتح التي نزلت بعد صلح الحديبية، وبعد عقد شروط الصلح التي وقَّع عليها النبي ﷺ بينه وبين المشركين، ونزل ضمن الآية الثالثة من هذه السورة قوله تعالى: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ﴾ في يوم عرفة في حجة الوداع من السنة العاشرة للهجرة.

(١) ومئة واثنان وعشرون آية في العدد المكي والمدني والشامي، ومئة وثلاث وعشرون آية في العدد البصري.

٤- وسورة المائدة - كالسور الثلاث التي قبلها- تهدف إلى إنشاء أمة، وإقامة دولة، وتنظيم مجتمع يقيم منهج الله، ويتحاكم إليه في جميع شؤون، وتبين علاقة المسلم بغيره، وعلاقة الأمة الإسلامية بغيرها من الأمم.

٥- والسورة كلها تشريع، وكلها حلال وحرام، فقد اشتملت على كثير من أحكام التشريع، كما ذكرت: أحكام الصيد، والذبائح، والإحرام، ونكاح الكتابيات، والردة، والطهارة، وحد الحرابة، والسرقه، والحكم بغير ما أنزل الله تعالى، وكفارة اليمين، وقتل الصيد في الحرم، وفي أثناء الإحرام، وذكرت حكم الخمر، والميسر، والبحيرة والسائبة والوصيلة والحام، والوصية عند الموت.

وخُتِمت السورة بذكر الموقف الرهيب يوم الحشر الأكبر، وهي تتحدث كثيراً عن أهل الكتاب. لا سيما اليهود وتخاذلهم عن دخول الأرض المقدسة، وتحدث عن عقيدة الولاء والبراء في الإسلام.

وسورة المائدة من آخر ما نزل على الرسول ﷺ، وقد نزل بعدها سورة التوبة، وسورة النصر.

عن جبير بن نفير قال: حججت فدخلت علي عائشة رضي الله عنها فقالت لي: يا جبير، تقرأ المائدة؟ فقلت: نعم، قالت: أما إنها آخر سورة نزلت، فما وجدتم فيها من حلال فاستحلوه، وما وجدتم من حرام فحرموه^(١).

وعن أسماء بنت يزيد رضي الله عنها قالت: إني لآخذة بزمام العضباء - ناقة رسول الله ﷺ - إذ نزلت عليه المائدة كلها، فكادت من ثقلها تدق عنق الناقة^(٢).

وكل سور القرآن يجب أن يُحلَّ حلالها ويحرم حرامها، وإنما خُصت سورة المائدة

(١) الحديث سنده حسن، وفيه معاوية بن صالح، صدوق، له أوهام، وقد رواه الحاكم في «المستدرک»

(٣١١/٢) وقال: صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه ووافقه الذهبي، ورواه أحمد في «المسند» (٦/

١٨٨) برقم (٢٥٥٤٧) قال محققوه: إسناده صحيح، رجاله ثقات رجال الصحيح، وأخرجه النسائي في

التفسير رقم (١٥٨) وفي «السنن الكبرى» برقم (١١١٣٨) والبيهقي في «السنن» (٧/١٧٢).

(٢) أخرجه أحمد برقم (٢٧٥٧٥، ٢٧٥٩٢) فيه ليث بن أبي سليم، وشهر بن حوشب، ضعيفان، وباقي رجاله

ثقات، والطبري (٨/ ٨٩) والطبراني في الكبير (٤٤٨) والبيهقي في الشعب (٢٤٣٠) قال محققو المسند:

حسن لغيره، وجاءت أحاديث أخرى بنحو هذا المعنى في المسند (٢٧٥٩٢) وعن عبدالله بن عمرو (٦٦٤٣).

بالذكر؛ لزيادة الاعتناء بها، ولأن فيها كثيرًا من أحكام التشريع لم تنزل في غيرها، ولم ينزل ناسخ ينسخ هذا التحليل أو هذا التحريم، فهي آخر ما نزل في التشريع والحلال والحرام.

والصحيح أنها لم تنزل جملة، وإنما نزلت متفرقة بعد صلح الحديبية، وبعد غزوة ذات الرقاع، والمريسي، وفي حجة الوداع، وغير ذلك.

فقد نزلت آية التيمم بالبيداء عند دخول الصحابة المدينة بعد انتهاءهم من غزوة المريسي، ونزل قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ هُمْ قَوْمٌ أَن يَبْسُطُوا إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ﴾ [١١] ببطن نخلة.

ونزل ﴿وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ﴾ [٦٧] في غزوة ذات الرقاع.

وكان بعض السورة معروفًا لدى الصحابة قبل غزوة بدر، فقد قال المقداد بن الأسود: يا رسول الله، امض لما أمرك الله، فوالله لا نقول لك كما قال بنو إسرائيل لموسى: اذهب أنت وربك فقاتلا إنا ههنا قاعدون، ولكننا نقاتل عن يمينك وعن شمالك، وبين يديك ومن خلفك^(١).

ومن المعلوم أن قوة اليهود، ونفوذهم في المدينة قد انتهى بعد فتح خيبر في أوائل السنة السابعة من الهجرة، وقد ذكرت السورة ألوانًا من تعنت اليهود وتحاكمهم إلى النبي ﷺ لا لأجل الوصول إلى الحق، وإنما من أجل إظهاره بمظهر الجاهل بأحكام التوراة، ومن ذلك أنهم كانوا ﴿يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ مِنْ بَعْدِ مَوَاضِعِهِ يَقُولُونَ إِنْ أُوتِيتُمْ هَذَا فَخُذُوهُ وَإِنْ لَمْ تُؤْتَوْهُ فَاحْذَرُوا﴾ [٤١]. ومع هذا فإن جانبًا كبيرًا من السورة نزل بعد صلح الحديبية وبعد فتح مكة، وفي حجة الوداع.

٦- وقد نزلت هذه السورة ولم يبق معاند للإسلام سوى اليهود المستوطنين في المدينة وما حولها، والنصارى المتأخمين لحدود الشام؛ حيث بلغ الفتح الإسلامي.

ولأن نزول السورة كان في آخر عهد اليهود بالمدينة، فقد كان نطاق المجادلة معهم قليلًا، ولأن الاختلاط مع النصارى أصبح أشد من اليهود، فقد اتسع نطاق المجادلة معهم في السورة.

(١) «صحيح البخاري» (٩٢/٥) برقم (٤٦٠٩) من حديث عبد الله بن مسعود وانظر: (٣٩٥٢).

وقد جاء في السورة خمس نداءات لأهل الكتاب: اثنين منها مباشرين وهما قوله تعالى: ﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيرًا مِمَّا كُنْتُمْ تُخْفُونَ مِنَ الْكِتَابِ﴾ [١٥].

﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ عَلَى فَتْرَةٍ مِنَ الرُّسُلِ﴾ [١٩]

وثلاث نداءات بواسطة النبي ﷺ، وهي:

﴿قُلْ يَتَّهَلُ الْكِتَابَ هَلْ تَقُومُونَ مِنَّا إِلَّا أَنْ أَمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنْزِلَ مِن قَبْلُ﴾ [٥٩].

﴿قُلْ يَتَّهَلُ الْكِتَابَ لَسْتُمْ عَلَى شَيْءٍ حَتَّى تُقِيمُوا التَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ﴾ [٦٨].

﴿قُلْ يَتَّهَلُ الْكِتَابَ لَا تَعْلَمُوا فِي دِينِكُمْ غَيْرَ الْحَقِّ﴾ [٧٧].

وذكرت السورة تاريخاً موجزاً لموقف أهل الكتاب من شرائع الدماء والأعراس، فبينت أنها أحكام نزلت في التوراة ليلتزم بها اليهود، وتؤكدت هذه الشرائع في الإنجيل؛ ليحكم بها النصارى، فمن ترك هذه الأحكام جحوداً أو جوراً أو فسقاً؛ فهو داخل في الكفر؛ أو الظلم؛ أو الفسق.

وهذه الأحكام كانت صالحة للعمل مدة صلاحية التوراة، ثم انتقل الأمر إلى الإنجيل، وبعد مجيء القرآن وجب على اليهود والنصارى وغيرهم الانتقال إلى الوحي الجديد، والرسالة الخاتمة ﴿وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيِّئًا عَلَيْهِ﴾ [٤٨]. ﴿وَأَنَّ أَحْكَمَ بَيْنَهُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ﴾ [٤٩].

فالدين الأخير قد اكتملت فيه العقيدة والشرعية، وقد ارتضاه الله لعباده إلى يوم القيامة، ناسخاً لجميع الشرائع التي سبقته.

وقد ذكرت السورة فئتين من اليهود والنصارى، ونهتينا عن موالاتهم ومودتهم:

الفئة الأولى: فئة تكره الإسلام وتفضل عليه أي شرع آخر، وقد امتلأت قلوبهم بالضغائن، حتى قال بعضهم أخيراً: نحن نقبل تشريعات استراليا أو أمريكا، ولا نقبل شريعة محمد، وفيهم وفي أمثالهم يقول تعالى: ﴿فَإِنْ تَوَلَّوْا فَأَعْلَمْنَا أَنَّا يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُصِيبَهُمْ بِبَعْضِ دُورِهِمْ﴾ [٤٩].

الفئة الثانية: فئة تسخر من شعائر الإسلام كما في قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا

الَّذِينَ أَخَذُوا دِينَكُمْ هُرُوءًا وَلَعِبًا مِّنَ الَّذِينَ أَوْتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ وَالْكَفَّارَ أُولَئِكَ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ كُفْرَكُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿٥٧﴾ وَإِذَا نَادَيْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ أَخَذُوهَا هُرُوءًا وَلَعِبًا ذَلِكَ يَإَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَعْقِلُونَ ﴿٥٨﴾.

وقد ذكرت السورة في نحو أربع صفحات منها، تناقض أهل الكتاب في أقوالهم وأفعالهم، وضرورة استنكار ما يفعلون، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿وَرَأَى كَثِيرًا مِّنْهُمْ يُسْرِعُونَ فِي الْآثِمِ وَالْعُدْوَانِ وَأَكْلِهِمُ الشَّحْتُ لَيْسَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ (١١) لَوْلَا يَنْهَاهُمُ الرَّبِّيُّونَ وَالْأَحْبَارُ عَنْ قَوْلِهِمُ الْإِثْمَ وَأَكْلِهِمُ الشَّحْتُ لَيْسَ مَا كَانُوا يَصْنَعُونَ ﴿١٢﴾.

وقوله سبحانه: ﴿تَرَى كَثِيرًا مِّنْهُمْ يَقُولُونَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَيْسَ مَا قَدَّمَتْ لَهُمْ أَنفُسُهُمْ أَنْ سَخِطَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَفِي الْعَذَابِ هُمْ خَالِدُونَ﴾ (٨٠).

هذا فضلاً عما نعتة السورة عليهم بسبب نقضهم العهود والمواثيق، وفي ذلك يقول تعالى عن اليهود: ﴿فِيمَا نَقُضُهُمْ ثَبَتْنَا لَهُمْ لَعْنَتَهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَاسِيَةً﴾.

ويقول عن النصارى: ﴿وَمِنَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصْرِي أَخَذْنَا مِيثَقَهُمْ فَنَسُوا حَظًّا مِمَّا دُكِّرُوا بِهِ﴾ [١٤].

ولن يدخل أهل الكتاب ساحة الإسلام إلا إذا ضمُّوا إلى التوراة والإنجيل ما جاء به النبي الخاتم، فآمنوا وعملوا بما جاء به، واعترفوا بأن رسالته تؤمن برسالة موسى وعيسى في زمانهما ومكانهما، ولكنها رسالات لا تصلح بعد بعثة خاتم المرسلين والنبين..

﴿قُلْ يَٰأَهْلَ الْكِتَابِ لَسْتُمْ عَلَىٰ شَيْءٍ حَتَّىٰ تُقِيمُوا التَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ﴾ [٦٨].

﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْكِتَابِ ءَامَنُوا وَاتَّقَوْا لَكَفَّرْنَا عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلَأَدْخَلْنَاهُمْ جَنَّاتِ النَّعِيمِ﴾ (١٥) وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا التَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِمْ مِّن رَّبِّهِمْ لَأَكَلُوا مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ﴾ [٦٥، ٦٦].

إن تراث أهل الكتاب السابق يشبه دواء محدد الصلاحية، بمدة معينة لا يصلح بعدها للاستشفاء، بل يكون ضاراً ومضاعفاً للآلام بعد انتهاء تاريخ صلاحيته، وشرعية الإسلام تضمنت أسباب بقائها إلى آخر الدهر، فهي توائم طباع البشر، وتتجاوب مع نداء الفطرة، وبها يصلح كل زمان ومكان.

وقد ذكرت السورة قصتين في سياق الحديث عن أهل الكتاب:

القصة الأولى: قصة بني إسرائيل عندما كُفُوا بمُقاتلة الجبارين ودخول الأرض المقدسة، بعد أن أثار موسى حماسهم وذكّرهم بنعم الله تعالى عليهم، ثم دعاهم للجهاد فقال: ﴿يَقُومُوا ادْخُلُوا الْأَرْضَ الْمَقْدَسَةَ الَّتِي كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَرْتَدُّوا عَلَى أَدْبَارِكُمْ فَتَنْقَلِبُوا خَاسِرِينَ﴾ (١٦) ولكنهم جَبُنُوا وتخاذلوا، وظنوا أنهم مقبولون عند الله تعالى مهما كانت أقوالهم وأفعالهم، وعندئذ تَقَرَّرَ طردهم وتشتيتهم في أرجاء الأرض دون أن يكون لهم وطن خاص يجمعهم إلى يوم القيامة؛ حيث حُرِّمَ عليهم دخول الأرض المقدسة إلى الأبد، وحُرِّمَ عليهم إقامة وطن لهم فيها كما جاء في قوله تعالى: ﴿قَالَ فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ﴾ [٢٦].

وقد جعل الله تعالى أرض سيناء مصيدة لهم، يتيهون فيها ويحتسبون داخلها أربعين عامًا، فقال تعالى: ﴿أَرْبَعِينَ سَنَةً يَتِيهُونَ فِي الْأَرْضِ﴾ [٢٦]. فلم يعرفوا طريقًا للخروج منها، حتى هلك أكثرهم داخلها، عقوبة لهم على جُرأتهم على الله تعالى، وعلى عدم إجابتهم أمر نبيهم، وعلى جُبْنهم عن قتال أعدائهم.

القصة الثانية: قصة ابني آدم اللذين قتل أحدهما الآخر حسدًا له؛ لأنه رأى أنه أفضل منه، وبعد أن تخلص منه لم يعرف كيف يدفنه بعد مماته ﴿فَبَعَثَ اللَّهُ غُرَابًا يَبْحَثُ فِي الْأَرْضِ لِيُرِيَهُ كَيْفَ يُورِي سَوَاءَ أَخِيهِ﴾ [٣١].

ولقد عدَّ الله سبحانه هذه الجريمة ضد الإنسانية كلها، بدءًا ببني إسرائيل فقال تعالى: ﴿مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ كَتَبْنَا عَلَى بَنِي إِسْرَءِيلَ أَنَّهُ مَن قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا﴾ [٣٢].

٧- هذا: وتقوم سورة المائدة على أصليْن كبيرين:

الأصل الأول: تقرير وحدانية الله تعالى، ونفي كل شرك عنه سبحانه، جاء ذلك في مثل قوله تعالى:

١- ﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ﴾ [٧٢].

٢- وقوله سبحانه: ﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ ثَلَاثَةٌ﴾ [٧٣].

٣- وقوله جل شأنه: ﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيرًا مِمَّا كُنْتُمْ تُخْفُونَ مِنَ الْكِتَابِ﴾ [١٥].

٤- وقوله أيضًا ﴿يَتَأَهَّلَ الْكَتَّابُ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ عَلَى فَتْرَةٍ مِنَ الرُّسُلِ أَنْ تَقُولُوا مَا جَاءَنَا مِنْ بَشِيرٍ وَلَا نَذِيرٍ﴾ [١٩].

الأصل الثاني: التعدي على خصائص الألوهية والعبودية، وما دام الله سبحانه واحدًا في ذاته وصفاته، فلا يجوز لكائن من كان أن يتعدى على خصائص الألوهية والعبودية على الإطلاق، فالله تعالى هو الخالق، وهو المالك، فهو الذي يشرع، وهو الذي يحلل ويحرم، وهو وحده الذي يطاع فيما أمر ونهى، وهو وحده الذي يتوجه إليه الناس بالعبادة، ومنها الوفاء بالعقود والعهود، والذبح لله، والنذر لله.

ومن خصائص الألوهية ما يتعلق بتحقيق العدل بين الناس؛ كإقامة الحدود على المجرمين من السارقين، وشاربي الخمر، وأمثالهم... إلخ.

ومن التعدي على خصائص الألوهية الحكم بغير ما أنزل الله؛ لإقامة المنهج غير الرباني بين الناس، وعدم تقرير أن الذين يحكمون بغير ما أنزل الله هم الكافرون والظالمون والفاسقون، وهم الذين ييغون حكم الجاهلية، وقد تعرضت السورة لهذا الجانب بما لا يوجد في سورة أخرى.

والآيات التي تقرر ذلك وإن جاءت في سياق الحديث عن أهل الكتاب، إلا أنها تعني المسلمين أساسًا؛ لأنها موجّهة إليهم في كتابهم، ولذلك فإن الآيات التي بعدها وجّهت الأمر المباشر إلى النبي ﷺ؛ لتقرير هذه القضية، فقال تعالى: ﴿وَأَنْ أَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَمَا أَنْزَلَ اللَّهُ﴾ [٤٩]. وقال سبحانه: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ مِنْ اللَّهِ حُكْمًا لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾ [٥٠].

وفي جانب التشريع الذي هو من خصائص الألوهية يقول القرطبي:

قال أبو ميسرة: المائدة من آخر ما نزل، ليس فيها منسوخ، وفيها ثماني عشرة فريضة، ليست في غيرها، وهي: ﴿وَالْمُنْخِفَةُ وَالْمَوْفُودَةُ وَالْمَرْدِيَّةُ وَالطَّيْحَةُ وَمَا أَكَلَ السَّبْعُ﴾ ﴿وَمَا دُبِحَ عَلَى النُّصْبِ وَأَنْ تَسْقِفُوا بِالْأَزْلَمِ﴾ ﴿وَمَا عَلَّمْتُمْ مِنَ الْجَوَارِحِ مُكَلِّينَ﴾ ﴿وَطَعَامَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ﴾ ﴿وَالْمُحَصَّنَاتُ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ﴾ وإتمام الطهور: ﴿إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ﴾ أي: إتمام ما لم يذكر في سورة النساء ﴿وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ﴾ ﴿وَلَا تَقْتُلُوا الصَّيْدَ وَأَنْتُمْ حُرْمٌ﴾ إلى قوله: ﴿عَزِيزٌ ذُو انْتِقَامٍ﴾ ﴿وَمَا جَعَلَ اللَّهُ مِنْ بَحِيرَةٍ وَلَا سَائِبَةٍ وَلَا وَصِيلَةٍ وَلَا حَامِرٍ﴾

وقوله تعالى: ﴿شَهِدَةُ بَيْنَكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ﴾.

ثم قال القرطبي: قلت: وفريضة تاسعة عشرة، وهي قوله تعالى: ﴿وَإِذَا نَادَيْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ﴾ إذ ليس للأذان ذكر في القرآن إلا في هذه السورة، أما ما جاء في سورة الجمعة فمخصوص بالجمعة، وهو في هذه السورة عام لجميع الصلوات^(١).

أقول: وفي السورة أحكام تشريعية أخرى؛ كتحريم الخمر والميسر، والأنصاب والأزلام، وأحكام التيمم والغسل، والسرقه وقطع الطريق والإفساد في الأرض، وكفارة اليمين، وحفظ شعائر الله في الحج، والأشهر الحرم، وأحكام القصاص في النفس والجوارح، وأصول التعامل بين المسلمين وغيرهم من أهل الكتاب وسائر المشركين والمنافقين، والولاء والبراء، والتنويه بالكعبة وبكرامتها، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والوصية عند الموت.

أما حظ المؤمنين في سورة المائدة فقد وجَّهت إليهم ستة عشر نداء، وهي تفوق النداءات التي وجَّهت للمؤمنين في سورة البقرة، وقد تضمن كل نداء فيها: تشريعاً، أو توجيهاً، أو أمراً، أو نهياً لتربية المؤمنين على منهج الله تعالى، وهذه النداءات هي قوله تعالى:

- ١- ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَوْفُوا بِالْعُقُودِ﴾ [١].
- ٢- ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَحِلُّوا شَعَائِرَ اللَّهِ﴾ [٢].
- ٣- ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ فَاغْسِلُوا وُجُوهَكُمْ﴾ [٦].
- ٤- ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّهِ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ﴾ [٨].
- ٥- ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ﴾ [١١].
- ٦- ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَابْتَغُوا إِلَيْهِ الْوَسِيلَةَ﴾ [٣٥].
- ٧- ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى أَوْلِيَاءَ﴾ [٥١].
- ٨- ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا مَنْ يَرْتَدَّ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهَ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ﴾ [٥٤].

(١) «تفسير القرطبي» (٦/ ٣٠).

- ٩- ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَكُمْ هُزُؤًا وَلَعِبًا﴾ [٥٧].
- ١٠- ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَحَرِّمُوا طَيِّبَاتِ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكُمْ﴾ [٨٧].
- ١١- ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنْصَابُ وَالْأَزْلَامُ رِجْسٌ﴾ [٩٠].
- ١٢- ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَيَبْلُوَنَّكُمْ اللَّهُ شَيْءًا مِّنَ الصَّيْدِ﴾ [٩٤].
- ١٣- ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْتُلُوا الصَّيْدَ وَأَنْتُمْ حُرْمٌ﴾ [٩٥].
- ١٤- ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَسْأَلُوا عَنَ أَشْيَاءَ إِن بُدَّ لَكُمْ تَسْؤُلُكُمْ﴾ [١٠١].
- ١٥- ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَيْكُمْ أَنْفُسُكُمْ﴾ [١٠٥].

١٦- ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا شَهِدُوا بَيْنَكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدُكُمُ الْمَوْتُ﴾ [١٠٦].

ووجهت السورة ندائين بوصف الرسالة للنبي ﷺ خاصة، وهما قوله تعالى:

١- ﴿يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ لَا يَحْزُنَكَ الَّذِينَ يُسْكِرُونَ فِي الْكُفْرِ﴾ [٤١].

٢- ﴿يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ﴾ [٦٧].

وبعد ذكر قصة المائدة، تأتي دعوة للنصارى أن يُخلصوا دينهم لله، وأن يُنقُوا التوحيد من الأوهام والأباطيل التي ألصقوها به.

وخُتمت السورة بتذكير القارئ لها بكل ما حوته من عقود وعهود، هل حفظوها ووفوا بها، أم ضيعوها وفرطوا فيها؟ ففي يوم القيامة تشهد الرسل على الأمم، ويشهد عيسى على النصارى، ويجمع الله الأولين والآخرين ليوم لا ريب فيه، وهو يوم ينفع فيه الصادقين صدقهم في جنات تجري من تحتها الأنهار، والمُلك يومئذ لله، كما كان الحال في الدنيا ﴿لِلَّهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا فِيهِنَّ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ (١٧٢).

وقد اشتمل الربع الأول من السورة على خمس نداءات موجهة للمؤمنين، تناول:

١- وجوب الوفاء بالعقود.

٢- وتعظيم شعائر الله.

٣- وأحكام الطهارة.

٤- وواجبات المسلم وغير المسلم.

٥- والتذكير بنعمة الله تعالى الذي كف أيدي الأعداء عن الفتك بالمسلمين في مواطن عدة.

هذا: وفي السورة موضوعات ثلاث، تستغرق آيات السورة كلها:

الموضوع الأول: أحكام التشريع، وهي تأتي في الثمن الأول من السورة، إلى جوار الآيات (٣٨، ٣٩) ومن الآية^٤ (٨٩-١٠٩).

الموضوع الثاني: الكلام عن أهل الكتاب، وذلك من الآية (١٢-٢٦) ومن الآية (٤١-٨٦) والثمن الأخير يتحدث عن النصارى.

الموضوع الثالث: قصة ابني آدم، وهي في الثمن الثالث من السورة.



تَفْسِيرُ السُّورَةِ

النِّدَاءُ الْأَوَّلُ لِلْمُؤْمِنِينَ: وَجُوبُ الْوَفَاءِ بِالْعُقُودِ وَالْعُهُودِ

١- ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَوْفُوا بِالْعُقُودِ^(١) أُحِلَّتْ لَكُم بَيْعُكُمْ إِلَّا مَا بَيْنَ يَدَيْكُمْ عَنِ حَليِّ الصِّيدِ وَأَنْتُمْ حُرْمٌ إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ مَا يُرِيدُ ﴿١﴾﴾

في هذه الآية ثلاثة مقاطع:

المقطع الأول يأمر بالوفاء بالعقود ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَوْفُوا بِالْعُقُودِ﴾

في هذا الجزء من الآية أمر من الله تعالى لعباده المؤمنين أن يقوموا بما يقتضيه الإيمان من الوفاء بالعقود، أي بإتمامها وإكمالها وعدم نقضها أو نقصها، وهذا يشمل ما بين العبد وربه من عقود التوحيد وإخلاص العبادة، وما بينه وبين الرسول ﷺ من طاعته واتباع أمره.

ويشمل ما بين العبد ووالديه وأقاربه وبرهم وصلتهم، وما بينه وبين أصدقائه وأصحابه بمواساتهم ومؤازرتهم والقيام بحقوق الصحبة في المنشط والمكروه والعسر واليسر.

ويشمل ما بين العبد وبين الخلق بوجوب الوفاء بعقود المعاملات كالبيع والعمل والإجارة.

كما يشمل القيام بحقوق المسلمين التي عقدها الله بينهم من التناصر والتعارف والتآلف والتعاون وعدم التقاطع ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾ [الحجرات: ١٠].

فهذه الآية شاملة لأصول الدين وفروعه، فكلها داخلية في العقود التي أمر الله تعالى بالقيام بها.

هذا: وكان المشركون قبل نزول آية التوبة، التي تحرم عليهم دخول منطقة الحرم بمقتضى قوله تعالى فيها: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نجسٌ فَلَا يَقْرَبُوا الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَذَا﴾ [التوبة: ٢٨]. كان المشركون حتى نزول هذه الآية يُحرَّمون بالبيت ويعظمونه ويسوقون الهدى إليه، وكانوا يقلّدون الهدى، أي: يضعون في عنقها

(١) لفظ (بالعقود) ليس معدوداً آية لدى العدد الكوفي، وهو معود آية عند غيره من علماء العدد.

قلادة؛ علامة على أنها مسوقة لبيت الله الحرام، فلا يتعرض لها أحد بالغضب أو المنع، ولا يقربها أحد إذا وجدها سائمة ترعى، وليس معها صاحبها، ويفهمون من هذه القلادة المشدودة في عنقها أنها لقوم قصدوا البيت الحرام؛ لأدائهم نسك الحج أو العمرة.

وبعد عقد الصلح الذي أُبرِم بين رسول الله ﷺ وبين المشركين في الحديبية، أراد بعض المسلمين أن يُغَيَّرُوا على بعض المشركين وهم يسوقون هديهم المقلدة، وهي في طريقها إلى الحرم، وأن يَسْلُبُوا ما معهم من بهيمة الأنعام؛ لأنهم قد صدوهم عنه من قَبْلُ، ومنعوهم يوم الحديبية أن يَصِلُوا إليه حين قدموا للعمرة، ومعهم رسول الله ﷺ، فأنزل الله تعالى أمراً عاماً للمؤمنين يأمرهم فيه بالوفاء بالعقود والعهود، وينهاهم أن يتعرضوا بالأذى لكل من قصد البيت الحرام مؤمناً كان أو كافراً، وكان ذلك قبل أن يحرم الله على المشركين دخول المسجد الحرام وحدوده، في قوله تعالى: ﴿مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ أَنْ يَعْمُرُوا مَسْجِدَ اللَّهِ شَاهِدِينَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ بِالْكَفَرِ﴾ [التوبة: ١٧]. وقوله: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلَا يَقْرَبُوا الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَذَا﴾ [التوبة: ٢٨]. ويجب على أهل الكتاب أن يتعاملوا بالمثل، ويوفوا بعقدهم مع رسول الله ﷺ.

ولذا فقد قال (ابن جريج): إن الخطاب في الآية لأهل الكتاب، والذي عليه الجمهور أنه للمؤمنين من هذه الأمة، ولكل مخاطب بالدعوة إلى الله تعالى.

قال ابن عطية: ولفظ المؤمنين يشمل مؤمني أهل الكتاب؛ إذ بينهم وبين الله عقد أداء الأمانة فيما في كتابهم من أمر محمد ﷺ.

ولفظ العقود يعم عقود الجاهلية المبنيّة على برٍّ، مثل دفع الظلم ونحوه، وأما في سائر تعاقدهم على الظلم والغارات فقد هدمه الإسلام، وأمر الله المؤمنين بالوفاء بالعقود التي أجازها الإسلام.

وشيمة المسلم أن لا ينقض عهده مع غيره، وأن يُنجزه حتى ولو كان مع غير المسلم ما دام عقداً مشروعاً يجيزه الإسلام.

والآية عامة لا تختص بحادثة معينة، وإنما تشمل كل عقد بين العبد وربّه، مثل: عقد الإيمان والتوحيد الذي أخذه الله ± على ذرية آدم وهم في أصلاب آبائهم، وأخذه بصفة

خاصة على بني إسرائيل كما ذكر القرآن الكريم في كثير من الآيات منها قوله تعالى : ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَءِيلَ لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ﴾ [البقرة: ٨٣].

ومثل: عقود العبادات، والتشريع، والحلال والحرام الذي جاء في كتاب الله، وما صح من سنة رسول الله ﷺ، ومثل: عقود المعاملات؛ كالبيع والشراء، والإيجار، والعمل، والمضاربة، والمرابحة، وغير ذلك مما يحدث بين الناس، وكذا العقود التي بين الدولة المسلمة وغيرها من الدول.

والوفاء بالعقد يدخل فيه أن يتعاقد الإنسان مع عامل على أداء عمل معين، ثم يزيده في العمل عن المدة المتفق عليها، أو يتعاقد معه على أجر معين، ثم ينقصه من هذا الأجر ويبخسه، أو يأكل عرقه وأجره.

وينطبق العقد على من يشتري سلعة لشركة أو للحكومة، ثم يكتب في الفاتورة أنها بستة، وقد اشتراها بأربعة؛ فإن هذا غلول وسرقة، وعدم وفاء بالعقود والعهود، وهو خيانة وسرقة من المال العام، أو من المال الخاص، ومال الدولة أشد وأعظم، فهو أموال الناس جميعاً، وكل الناس تأخذ بتلايبب العبد يوم القيامة؛ لأن كل واحد منهم له فيه حق، والمال الخاص يخص شخصاً أو أشخاصاً معدودين، فهو حق خاص.

وليس من باب العقود: الاتفاق على شيء محرم؛ كصفقات خمر، أو مخدرات، أو لحم خنزير. ولا يدخل في العقد ما فيه شرط باطل، ليس في كتاب الله، ولا في سنة رسول الله ﷺ.

قال زيد بن أسلم: العقود ستة: عقد الله، وعقد الحلف، وعقد الشركة، وعقد البيع، وعقد النكاح، وعقد اليمين^(١).

وهذا يعني أن المقصود بالعقود: ما يشمل ضوابط الحياة التي قررها الله تعالى، بدءاً من الإيمان به سبحانه، وانتهاء بعقد العمل وما هو أدنى منه.

المقطع الثاني من الآية قوله تعالى : ﴿أَحْلَلْتُ لَكُمْ بَيْعَتُ الْأَنْعَامِ إِلَّا مَا يُتْلَى عَلَيْكُمْ﴾

(١) رواه الطبراني (٤٥٣/٩).

ثم تُفَصِّل الآيات هذه العقود، وهذا التحليل والتحریم، فتمهّد هذه الآية لما بعدها من المنهيات كأن الله تعالى يقول: **إِنْ كُنْتُ قَدْ حَرَمْتُ عَلَيْكُمْ أَشْيَاءَ فَقَدْ أَبَحْتُ لَكُمْ أَكْثَرَ مِنْهَا، فَقَدْ أَهَلَّتْ لَكُمْ بِهَيْمَةِ الْأَنْعَامِ** .

والبهيمة: اسم لكل ذي أربع من الحيوانات، وخصّ بما عدا السباع والوحوش الضارية. وسمّيت بهيمة؛ لأنها أبهمت عن العقل والتمييز، وهي تشمل كل ما يحل وما يحرم، وأضيفت إلى الأنعام؛ ليُعرف جنس ما أحل لنا، ومنها الجنين في بطن أمه، وفي الحديث عن جابر أن رسول الله ﷺ قال: **«ذكاة الجنين بذكاة أمه»**^(١).

وفي حديث أبي سعيد قال: قلنا: يا رسول الله، ننحر الناقة، ونذبح البقرة أو الشاة في بطنها الجنين، أنلقيه أم نأكله؟ فقال: **«كلوا إن شئتم، فإن ذكاته ذكاة أمه»**^(٢).

أي: أحل الله لنا الإبل، والبقر، والغنم الإنسي منها والوحشي، وهي الأزواج الثمانية التي ذكرت في سورة الأنعام في الآيتين (١٤٣، ١٤٤).

ولا يدخل فيها كل ذي مخلب من الطير ولا ذي ناب من السباع، ونحوها؛ لقول النبي ﷺ كما في حديث أبي هريرة ؓ عن النبي ﷺ قال: **«كل ذي ناب من السباع فأكله حرام»**^(٣).

وفي الحديث عن ابن عباس ؓ قال: : نهى رسول الله ﷺ عن كل ذي ناب من السباع وعن كل ذي مخلب من الطير^(٤).

(١) أبو داود من حديث جابر (٢٥٣/٣) برقم (٢٨٢٨) وصححه الألباني في صحيح أبي داود (٢٤٥٢) والحاكم (١١٤/٤) والدارمي (١١/٢) والدارقطني (٢٧٣/٤) وغيرهم من طرق متعددة.

(٢) أبو داود برقم (٢٨٢٧) وصححه الألباني في صحيح أبي داود (٢٤٥١) والإرواء (٢٥٣٩) والحديث في سنن الترمذي برقم (١٥٧٦) وابن ماجه برقم (٣١٩٩) وعند أحمد (٣١/٣) والبيهقي (٣٣٥/٩) والدارقطني (٤/٢٧٢) وهو حديث حسن لغيره، وقال الترمذي: حديث حسن.

(٣) «صحيح مسلم» برقم (١٩٣٣) و«المسند» (٧٢٢٤) عن أبي هريرة بإسناد صحيح على شرط مسلم و«سنن النسائي الكبرى» (٤٨١٧) والموطأ (٤٩٦/٢) وابن ماجه (٣٢٣٣) وابن حبان (٥٢٧٨).

(٤) رواه مسلم في الصيد (١٩٣٤) وأبو داود في الأطعمة (٢٣٨/٦/١٠٥) برقم (٣٨٠٣) وابن ماجه في الصيد (٣٢٣٤) وفي مصنف عبدالرزاق (٨٧٠٧) والمسند (٢١٩٢) عن ابن عباس ؓ هو حديث صحيح، بإسناد صحيح على شرط مسلم، ورجال ثقات رجال الشيخين غير ميمون بن مهران فمن رجال مسلم. (محقّقه).

ثم استثنى الله سبحانه من بهيمة الأنعام، فقال تعالى: ﴿إِلَّا مَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ﴾ أي: مما حرم الله عليكم، وما يتلى عليكم جاء ذكره في الآية الثالثة في قوله تعالى: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أَلْمِيتَةُ وَالْدَّمُ﴾ وهذه الآية ذكر فيها عشر محرمات، وتلى علينا بعض منها في سورة النحل (الآية: ١١٥)، وسورة البقرة (الآية: ١٧٣)، وهي: الميتة، والدم، ولحم الخنزير، وما أهل لغير الله به. وأكملت هذه السورة ما زاد على هذه الأربع، ففيها التفصيل والبيان.

المقطع الثالث من الآية قوله تعالى: ﴿غَيْرَ مُحِلِّي الصَّيْدِ وَأَنْتُمْ حُرْمٌ﴾

فقد استثنى الله سبحانه في هذا المقطع، مما أحله لعباده في كل وقت، وحرّمه عليهم وقت الإحرام، فذكر جلّ شأنه أن صيد بهيمة الأنعام وغيرها الإنسي منها؛ كالإبل والبقر والغنم، والوحشي؛ كالظباء، وحمير الوحش، تحرم على المحرم حال إحرامه فلا يجوز لكم أن تصطادوا وأنتم حرم.

ولا يحل الصيد أيضًا لغير المحرم في أرض الحرم؛ فالحرم له خصائص وحرّمات لا ينبغي انتهاكها، فقوله تعالى: ﴿وَأَنْتُمْ حُرْمٌ﴾ معناه وأنتم محرمون، ويراد به: تحريم الصيد على المحرم، سواء أكان في الحل أم الحرم، وثبت من الشئّة تحريم صيد الحرم على غير المحرم، فصيد الحرم محرّم على المحرم وعلى غير المحرم، وصيد الحلّ محرّم على المحرم فقط. قال الربيع بن أنس في الآية: الأنعام كلها حلّ إلا ما كان منها وحشياً فإنه صيد، فلا يحل إذا كان محرماً^(١).

والحرم محدد من الجهات الأربع بحدود أربعة معروفة وهي:

١- التنعيم من جهة المدينة، والتنعيم نفسه من الحل وليس من الحرم، وهو في حدود ستة أميال.

٢- ومن جهة الطائف تسعة أميال تنتهي إلى الجِعْرانة.

٣- ومن جهة اليمن سبعة أميال تنتهي إلى أضاق لبن.

٤- ومن جهة جدة عشرة أميال، تنتهي بآخر الحديبية، والحديبية ذاتها داخلة في الحرم.

(١) الطبري (١٣/٨).

وهذه الحدود حددها النبي ﷺ، وكانت قبل ذلك محددة من عهد خليل الرحمن إبراهيم ﷺ، وجددها قُصَيٌّ، ووضع لها عمر ﷺ علامات في خلافته سنة سبع عشرة هجرية.

ذكر ابن عطية عن النقاش أن أصحاب الكندي قالوا له: أيها الحكيم، اعمل لنا قرآنًا مثل هذا القرآن، قال: نعم، فاحتجب عنهم أيّامًا، ثم خرج فقال: والله ما أقدر عليه، ولا يطيق هذا أحد، إني فتحت المصحف، فخرجت سورة المائدة، فنظرت فيها، فإذا هو قد أمر بالوفاء، ونهى عن النكث، وحلّل تحليلًا عامًا، ثم استثنى استثناء بعد استثناء، ثم أخبر عن قدرته وحكمته في سطرين، ولا يستطيع أحد أن يأتي بهذا في أجلاده، أي: أسفاره.

أما إخبار الله تعالى عن كمال قدرته وحكمته، فقد جاء في قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ مَا يُرِيدُ﴾ أي: يقضي في خلقه ما يشاء من تحليل وتحريم بمقتضى حكمته البالغة.

قال قتادة: إن الله حكم ما أراد في خلقه، وبيّن ما أراد في عبادته، وفرض فرائضه، وحدّد حدوده، وأمر بطاعته، ونهى عن معصيته^(١).

ومجمل المعنى: يأيها الذين آمنوا وأقرّوا بوحدانية الله، وصدقوا رسوله، وعملوا بسنته، وأتمّوا عهود الله الموثقة، من الإيمان بشرائع الدين والانقياد لها، أدّوا العهود لبعضكم على بعض من الأمانات والبيوع وغيرها، مما لم يخالف كتاب الله تعالى، وسنة رسوله ﷺ.

وقد أحل الله لكم البهيمة من الأنعام، وهي: الإبل، والبقر، والغنم، إلا ما بيّنه لكم من تحريم الميتة والدم وغيرهما، ومن تحريم الصيد وأنتم محرمون، إن الله يحكم ما يشاء وفق حكمته وعدله.

النداء الثاني: وَجُوبُ تَعْظِيمِ شَعَائِرِ اللَّهِ تَعَالَى

٢- ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَحْلُوا شَعَائِرَ اللَّهِ وَلَا الشَّهَرِ الْحَرَامَ وَلَا الْهَدْيَ وَلَا الْفَلَاحِيْدَ وَلَا ءَائِينَ الْحَرَامِ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّن رَّبِّهِمْ وَرِضْوَانًا^(٢) وَإِذَا حَلَلْتُمْ فَاصْطَادُوا وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَاٰنُ^(٣) قَوْمٍ أَن^(٤)

(١) «تفسير الطبري» (٢١/٨)

(٢) قرأ شعبة (ورُضْوَانًا) بضم الراء، وقرأ الباقر (ورِضْوَانًا) بكسر الراء وهما لغتان.

(٣) قرأ ابن عامر وشعبة وأبو جعفر بخلف عن ابن جماز (شَنَاٰنُ) بسكون النون، وقرأ الباقر (شَنَانُ) بفتح النون.

(٤) قرأ ابن كثير وأبو عمرو (إن صدوكم) بكسر همزة (إن)، وقرأ الباقر (أن صدوكم) بفتح الهمزة.

صَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ أَنْ تَعْتَدُوا وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْإِلْرِ وَالنَّقْوَى وَلَا^(١) تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِلْمِ
وَالْعُدُونِ وَأَتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴿٢﴾

وبعد أن أمر الله سبحانه المؤمنين بالوفاء بالعقود؛ يأتي النداء الثاني لينهاهم عن انتهاك
حرمات الله المتعلقة بإحرام الحاج أو المعتمر حتى ينتهي من نسكه بنحر الهدي الذي
ساقه إلى البيت الحرام، وهي شعائر ست ذكرتها هذه الآية، وهي تشير إلى وجوب تأمين
طريق الحج والعمرة؛ حتى يأمن الناس على أنفسهم وأموالهم؛ ولذا كان أمن الطريق من
شروط الاستطاعة.

سبب النزول:

ولهذه الآية سبب نزول؛ فقد ورد أن شريح بن ضبيعة الملقب بالحطم، والمكثي بـابن
هند، نسبة إلى أمه هند بنت حسان بن عمرو بن مرثد، وكان من نزلاء اليمامة، ثم أتى
المدينة وحده، وترك خيله خارج المدينة، ودخل على النبي ﷺ، فقال: إلام تدعو
الناس؟ فقال: «إلى شهادة أن لا إله إلا الله، وإقام الصلاة، وإيتاء الزكاة»، فقال: حسن
ما تدعو إليه، وسأنظر؛ فإن لي أمراء لا أقطع أمراً دونهم، ولعلي أسلم وأتي بهم، فخرج
من عنده، فقال النبي ﷺ: «دخل بوجه كافر، وخرج بقفا غادر، وما الرجل بمسلم» فمر
ابن هند بسرّح من سرح المدينة فاستاقه وانطلق به، وأخذ يرتجز أبياتاً يترنم بها، ولحقه
المسلمون فلم يدركوه، فلما كان العام القابل خرج الحطم حاجاً ومعه تجارة، وقد قلّد
هديه، فقال المسلمون: يا رسول الله، هذا (الحطم)، يعنون: (شريح) فحلّ بيننا وبينه؛
يريدون أن يغيروا عليه كما أغار عليهم، فقال النبي ﷺ: «إنه قد قلّد الهدى»، فقالوا: يا
رسول الله، هذا شيء كنا نفعله في الجاهلية، فأبى النبي ﷺ وأنزل الله هذه الآية، وهي
تشتمل على تعظيم شعائر ثمان، قال ابن عباس: كان المشركون يحجون البيت الحرام،
ويهدون الهدايا، ويعظمون حرمة المشاعر، وينحرون في حجهم، فأراد المسلمون أن
يغيروا عليهم فقال الله تعالى: ﴿لَا تُحِلُّوا شَعَائِرَ اللَّهِ﴾ ولا تستحلوا القتال في الأشهر

(١) قرأ البزي (ولا تَعَاوَنُوا) بتشديد التاء مع المد ست حركات، بخلف عنه؛ لأن أصلها ولا تتعاونوا،
فأدغمت التاء في التاء، وإذا وقف القارئ على (ولا) اختياراً، فيبدأ بتاء واحدة مفتوحة، وقرأ الباقيون
بعدم التشديد والقصر على حذف إحدى التائين.

الحرم، ولا تستحلوا قتال من توجّه إلى البيت الحرام، فكان المؤمنون والمشركون يحجون البيت جميعاً، ثم نهى الله المشركين عن دخول المسجد الحرام^(١).

وهذه هي الشعائر الثمان:

الشعيرة الأولى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَحْلُوا شَعِيرَ اللَّهِ﴾^(٢)

المراد بشعائر الله: محرماته التي أمركم بتعظيمها ونهاكم عن فعلها واعتقاد حلها، ومن ذلك: مناسك الحج، وما حرّمه الإسلام على المحرم من محظورات الإحرام؛ كالنطيّب، وتقليم الأظافر، والصيد، وأخذ شيء من الشعر، وهي تشمل بوجه عام، منهج الإسلام وأحكامه، أي: لا تستحلوا شرائع الله ومعالم دينه، فلا تحلّوا شيئاً من فرائضه، واجتنبوا ما نهى عنه، من كل ما حرّمه عليكم، فلا تنقضوه، ولا تغيروه ولا تبدّلوه، ومن ذلك ما يتعلق بالمحرم وهو حاج أو معتمر، فقد حرم الإسلام عليه محظورات، وهو متلبس بنية الإحرام، يجب عليه أن لا يستحلها، ومنها شعائر الله في مناسك الحج أو العمرة، ومنها الصيد في الحرم، وكذا الهدايا المشعّرة.

والآية عامة تشمل هذا وغيره، فقد كانوا يطعنون سنام البعير بحديدة حتى يسيل دمه، فيكون هذا علامة على أنه هدي، وكذا البقر.

وفي الصحيحين عن عائشة رضي الله عنها قالت: فتلتُ قلائد بُدِنِ النبي ﷺ ثم أشعرها وقلّدها، ثم بعث بها إلى البيت، فما حرّم عليه شيء كان أحلّ له^(٣).

وفي الحديث عن ابن عباس أن رسول الله ﷺ: صلى الظهر بذي الحليفة، ثم دعا بناقته فأشعرها في صفحة سنامها الأيمن، وسلّت الدم عنها، وقلّدها نعلين، ثم ركب راحلته، فلما استوت به على البداء أهلّ بالحج^(٤).

(١) يُنظَر: النحاس في ناسخه ص (٣٥٩) والطبري في تفسيره (٢٢/٨) وما بعدها بتصرف.

(٢) من تفسير الخازن (٤٣١/١) وانظر: «زاد المسير» (٢٧٠/٢) والقرطبي (٣٧/٦) وهو في «أسباب النزول» للواحدي عن ابن عباس ص (١٠٧) وفي الطبري برواية السدي (٤٧٢/٩) ورواه ابن المنذر عن عكرمة.

(٣) «صحيح البخاري» برقم (١٦٩٦، ١٦٩٩) و«صحيح مسلم» (١٣٢١).

(٤) ويُنظَر: البخاري برقم (١٦٩٤، ١٦٩٥) والحديث في المسند (٣١٤٩، ٢٥٢٨) بإسناد صحيح على شرط مسلم ورجال ثقات رجال الشيخين غير مسلم الأعرج فمن رجال مسلم، وانظر في المسند (١٨٥٥).

فلا تُحِلُّوا ذوات القلائد، ولا تتعرضوا لها بسوء، وهي الإبل، والبقر، والغنم.

الشعيرة الثانية: ﴿وَلَا الشَّهْرَ الْحَرَامَ﴾

أي، ولا تستحلوا القتال في الشهر الحرام، ولا تستحلوا غيره من أنواع الظلم، وقد كانوا في الجاهلية يعظمون الأشهر الحرم فلا يقاتلون فيها، ولما جاء الإسلام أقر هذا، ولكن العرب كانوا يتلاعبون فيها فكانوا يؤخرون حرمة شهر محرم إلى شهر صفر إذا أرادوا القتال في محرم، أو يؤخرون حرمة شهر رجب إلى شهر شعبان، إذا أرادوا القتال في شهر رجب، فلما جاء الإسلام منع هذا، وأكد على وجوب عدم التغيير والتبديل فيها.

والأشهر الحرم هي: شهر رجب، وذو القعدة، وذو الحجة، والمحرم، فلا تستحلوا القتال فيها، ولا تقدموا وتؤخروا في حرمتها حسب أهوائكم.

وقد كان جنادة بن عوف يقوم في سوق عكاظ فيقول: إني أحللت كذا، وحرمت كذا، قال تعالى: ﴿إِنَّ عِدَّةَ الشُّهُورِ عِنْدَ اللَّهِ اثْنَا عَشَرَ شَهْرًا فِي كَتَبِ اللَّهِ يَوْمَ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ مِنْهَا أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ﴾ [التوبة: ٣٦].

وفي إبطال النسيء وتحريمه قال تعالى: ﴿إِنَّمَا النَّسِيءُ زِيَادَةٌ فِي الْكُفْرِ يُضَلُّ بِهِ الَّذِينَ كَفَرُوا يُحْلِلُونَ عَامًا وَيُحْكِمُونَ عَامًا لِيُؤْطِغُوا عِدَّةَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ فَيَحِلُّوا مَا حَرَّمَ اللَّهُ﴾ [التوبة: ٣٧].

وفي حديث أبي بكرة وغيره أن رسول الله ﷺ قال: «إن الزمان قد استدار كهيئته يوم خلق الله السموات والأرض، السنة اثنا عشر شهراً منها أربعة حرم...»^(١) فإن اعتدوا فيه فإنه يُرَدُّ عليهم العدوان، ولو كان في الشهر الحرام، ثم لما نزلت الآية: ﴿فَإِذَا أَنْسَلَخَ الْأَشْهُرَ الْحُرُمَ فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ﴾ [التوبة: ٥] بيّنت أنه يجوز ابتداء قتال المشركين الوثنيين في جزيرة العرب على وجه الخصوص وتعقبهم في أي زمان ومكان، أما بالنسبة لغيرهم فلا تستحلوا بدء القتال في الشهر الحرام كما قال تعالى: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الشَّهْرِ الْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ﴾ [البقرة: ٢١٧]، أما استدامة القتال وتكميله إذا كان أوله في غيرها فإنه يجوز، حيث بدأ النبي ﷺ قتال أهل الطائف في حنين في شهر شوال واستمر ذلك إلى شهر ذي القعدة وهو من الأشهر الحرم.

(١) من حديث طويل في البخاري عن أبي بكرة (١٥٧/١) برقم (٤٤٠٦) ومسلم برقم (١٦٧٩) وغيرهما.

أخرج عبد الرزاق بسند صحيح عن قتادة: ﴿لَا تُحِلُّوا شَعَائِرَ اللَّهِ وَلَا الشَّهْرَ الْحَرَامَ﴾ قال: منسوخ، وكان الرجل في الجاهلية إذا خرج من بيته يريد الحج، تقلّد من السمر، فلم يَعرِض له أحد، وإذا رجع تقلّد قلائد من شعر، فلم يعرض له أحد، وكان المشرك يومئذ لا يُصدّ عن البيت، فأمرُوا ألا يقاتلوا المشركين في الشهر الحرام، ولا عند البيت، فنسخها قوله تعالى: ﴿فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ﴾^(١) [التوبة: ٥]. والآية لم تستثن شهراً حراماً ولا غيره.

على أن من أهل العلم من يقول: إن المراد بالشهر الحرام شهر رجب وحده؛ لأن تحريم القتال فيه لم يكن أمراً مجمعاً عليه عند العرب، فخص بالنهي ليتأكد تحريمه؛ حيث كانت قبيلة (مُضَر) وحدها هي التي تختص بتحريمه، ولذا أضيف إليها، فقيل: (رجب مضر)؛ حيث كانت تُبعد فيه السلاح، وتنزع فيه الرماح من الأسنة، وتسميه (الشهر الأصم) أي: الذي لا يُسمع فيه صوت سلاح، أما الأشهر الثلاثة الأخرى فكانت العرب مجمعة على تحريمها.

قال ابن عطية: والأظهر عندي أن الشهر الحرام أريد به شهر رجب؛ ليشتهد أمره، لأنه إنما كان مختصاً بقریش، ثم نشأ في مضر، وبهذا قال أبو عبيدة^(٢).

وأقول: إن جمهور أهل العلم على أن تحريم القتال في الأشهر الحرم الأربعة منسوخ بقوله تعالى ﴿فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ﴾ [التوبة: ٥] وبالآيات التي فيها الأمر بقتال الكفار مطلقاً، ويتأكد هذا في جهاد الدفع، وفي حالة ما إذا ابتدأ المسلمون قتالهم قبل الشهر الحرام، ثم امتد إلى الشهر الحرام فإنه ينبغي تكميله واستدامته كما ابتدأ النبي ﷺ قتال يوم حنين في شوال ثم امتد إلى ذي القعدة.

ومن أهل العلم من قال بعدم النسخ، وقد منع المشركون من دخول حدود الحرم في السنة التاسعة للهجرة؛ حيث نزل قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نجسٌ فَلَا يَقْرَبُوا الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَذَا﴾ [التوبة: ٢٨].

(١) أخرجه عبد الرزاق في تفسيره (١/ ١٨٢) والطبري في تفسيره (٨/ ٢٥) والنحاس في ناسخه ص (٣٥٩).

(٢) يُنظر: «تفسير ابن عطية» (٢/ ١٤٦).

ولو فرض - لا قدر الله - أن وطئت قدم مشرك أرض الحرم، فلا خلاف في أن قتاله فرض عين على كل مسلم، فيقاتل ولو في جوف الكعبة.

وإذا ابتدأ الكفار قتال المسلمين في الشهر الحرام فإنه يجوز لهم أن يدفعوا عن أنفسهم في الشهر الحرام وغيره بإجماع أهل العلم، ﴿الشَّهْرُ الْحَرَامُ بِالشَّهْرِ الْحَرَامِ وَالْحُرُمَتُ قِصَاصٌ فَمَنْ أَعْتَدَى عَلَيْكُمْ فَأَعْتَدُوا عَلَيْهِ يَمِثِلْ مَا أَعْتَدَى عَلَيْكُمْ﴾ [البقرة: ١٩٤].

الشعيرة الثالثة: جاءت في قوله تعالى: ﴿وَلَا الْهَدْيَ﴾.

أي ولا تستحلوا الهدي الذي يهدي إلى بيت الله تعالى، والهدي هو الذبائح التي في طريقها إلى الحرم، يسوقها الحاج أو المعتمر ليزبحها هناك، فلا تُنحر قبل يوم النحر بالنسبة للحاج، وتُنحر بعد انتهاء العمرة بالنسبة لها، ولا يتعرض لها أحد بسوء، كالسرقة أو تحميلها ما لا تطيق، ولا يُنتفع بشيء من أشعارها، وأوبارها، وجلودها، بل تُجعل كلها لفقراء الحرم، وكان هذا يحدث من غير المسلمين قبل أن يحرم دخول الحرم عليهم؛ حيث كانوا يسوقون الهدي معهم، فمنع الإسلام الاقتراب منها إلا لرد عدوان أو صد يمنعها عن الوصول إلى محلها كما قال تعالى: ﴿الشَّهْرُ الْحَرَامُ بِالشَّهْرِ الْحَرَامِ وَالْحُرُمَتُ قِصَاصٌ﴾ [البقرة: ١٩٤].

الشعيرة الرابعة: قوله تعالى: ﴿وَلَا الْقَلْبِدَ﴾.

القلائد نوع خاص من أنواع الهدي، وهو الهدي الذي يُقتل له قلائد أو غرى فيجعل في أعناقهم إظهاراً لشعائر الله، وحملاً للناس على الاقتداء، وتعليماً لهم للسنة، ولتعلم أنه هدي فيُحترم.

أي: ولا تستحلوا على وجه الخصوص: الأنعام المقلدة المسوقة للحرم لتذبح للفقراء في مكة، سواء أكانت هدي تمتع أم قران، أم أضحية، أم فدية نسك، أم وفاء بالنذر ونحوه، وكانوا يعلمونها بشيء من شجر الحرم؛ ليأمنوا عليها. فلا تتعرضوا لها بسوء، ولا تنزعوا شيئاً من شجر الحرم أو غيره، مما علّمت به، وكان الناس يسوقونها مسافات طويلة على أرجلهم، من المدينة مثلاً نحو خمس مئة كيلو، يقلدها الرجل، فيضع قلادة في عنقها من وبر أو صوف تجعل على هيئة ضفيرة، ويربط بها نعل، أو شيء تعلق فيه؛ ليُعلم أنها هدي فلا يقربها أحد، وإن وجدها في الطريق فلا يتعرض لها بسوء، وقد ينذر الرجل نذراً فيضع في عنق هذا النذر علامة على أن هذه البهيمة متروكة حتى يأتي وقت

حلول النذر فتذبح، فتكون هذه البهيمة آمنة على نفسها في الطريق، أو في العراء، تسرح وترعى، فلا يقربها أحد.

والله سبحانه يأمر عباده أن يحترموا هذه القلائد، وأن لا يتعرضوا لهذه الشعائر، فيقول: ﴿ذَلِكَ وَمَنْ يُعْظَمْ شَعْبَرِ اللَّهِ فَإِنَّهَا مِنْ تَقْوَى الْقُلُوبِ﴾ [الحج]. أي: ولا تُحْلُوا حرمة ما يُهْدَى إلى البيت من الأنعام تقرباً إلى الله تعالى، بأن تتعرضوا لها بالغصب أو السرقة، أو الحبس عن الوصول إلى أرض الحرم أو غيرها.

ولا تتعرضوا بسوء؛ لما يُقْلَد من الهدي بوضع علامة له تدل على أنه مُهْدَى إلى الحرم. وخُصَّت القلائد بالذكر؛ لأن العلامة فيها ظاهرة أنه لأهل الحرم، فكأن الله تعالى يقول: لا تتعرضوا لهدي الحرم بأذى وخصوصاً ذوات القلائد منه.

ولهذا فإن النبي ﷺ لما حج بات بذي الحليفة، فلما أصبح طاف على نسائه، وكُنَّ تسعاً، ثم اغتسل وتطيب وصلى ركعتين، ثم أشعر هديه وقلده، وأهلَّ بالحج والعمرة، وكان هديه إبلاً كثيرة تزيد على الستين من الإبل.

وأقول: مع كثرة الناس، وتيسير المواصلات، وقيام الحضارة المعاصرة، أصبح للهدي سوق في منى يتوافر فيه الغنم والبقر والإبل، يأخذ منه الحجاج ما يلزمهم من الهدي، إلى جوار ما يقوم به بنك التنمية الإسلامي بالذبح عن طريق الوكالة عمن يريد من الحجاج أن يدفع القيمة نقداً، و تقوم هذه الجهة المختصة بذبح الهدي وتوزيعه على فقراء المسلمين في العالم.

الشعيرة الخامسة: جاءت في قوله تعالى: ﴿وَلَا آمَنِينَ الْبَيْتَ الْحَرَامَ﴾

أي: ولا تتعرضوا لكل قاصد بيت الله الحرام، لأداء نسك، أو التجارة ومكاسب مباحة، فلا تتعرضوا له بسوء ولا تُهينوه بل أكرموه، وعظموا الوافدين لزيارة بيت ربكم، ابتغاء رضوانه، وما عنده من فضل دنيوي وأخروي.

والكافر ممنوع من قصد البيت الحرام لحج، أو عمرة، أو غيرهما؛ لقوله تعالى: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلَا يَقْرَبُوا الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ بَعْدَ عَمِهِمْ هَكَذَا﴾ [التوبة: ٢٨]. وهو العام التاسع للهجرة، كما جاء عن أبي هريرة أن النبي ﷺ أرسل ينادي سنة تسع:

«ألا لا يحج بعد العام مشرك ولا يطوف بالبيت عريان»^(١).

فلا تستحلوا قاصدي البيت الحرام لأداء النسك، أو للتجارة، أو الزيارة، وأعطوهم الأمن والأمان؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَنْ دَخَلَهُ كَانَ آمِنًا﴾ [آل عمران: ٩٧]. وقوله: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا آمِنًا وَيُخَفَّفُ النَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ﴾ [العنكبوت: ٦٧]. لأنهم (أي: قاصدي البيت الحرام) ﴿يَتَنَفَّسُونَ فَضْلًا مِمَّنْ رَبِّهِمْ﴾ في التجارة ﴿وَرِضْوَانًا﴾ سواء أكانوا حجاجًا أم غير حجاج، معتمرين أم غير معتمرين، فالكل يتنغي فضل الله ورضوانه، ويريد أن يأمن الطريق على نفسه، أما من قصد البيت الحرام ليُلحِد فيه بالمعاصي، فإن من تمام احترام الحرم صدّه عن الإفساد ببيت الله، كما قال تعالى ﴿وَمَنْ يُرِدْ فِيهِ بِالْحَافِظِ بَظْلَمٍ نُذِقْهُ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [الحج: ٢٥]

والمعنى: وحرم عليكم صيد البر مادتم حرمًا، أي لا تتعرضوا بالأذى لمن قصد البيت حاجًا أو معتمرًا؛ فإن حرمة المتوجه إلى البيت الحرام من حرمة البيت الحرام.

الشعيرة السادسة: جاءت في قوله تعالى: ﴿وَإِذَا حَلَلْتُمْ فَاصْطَادُوا﴾.

أي: إذا تحللتم من الإحرام، فقد أبيع لكم الصيد، والأمر إذا جاء بعد النهي فهو للإباحة، وليس للوجوب ولا للندب، بل يرجع إلى أصله قبل التحريم، أي: أن صيد الحرم كان قبل الإحرام بالحج أو العمرة حلالًا، ثم أصبح حرامًا بسبب الإحرام، فإذا انتهى وقت الإحرام، فإن الحكم يرجع إلى وضعه الأول، أي: يعود إلى الإباحة، فيحلّ الصيد للمحرم بعد انتهاء إحرامه، كما كان حلالًا عليه من قبل، كما قال تعالى: ﴿فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلَاةُ فَانْتَشِرُوا فِي الْأَرْضِ﴾ [الجمعة: ١٠]. أي: أبيع لكم الانتشار في الأرض بعد الصلاة؛ فالأمر يعود إلى ما كان عليه قبل الإحرام، وقبل الصلاة، أي: من نوع التكليف السابق.

قال عطاء: خمس من كتاب الله رخصة وليست بعزيمة:

(١) جزء من حديث أبي هريرة أخرجه البخاري (٤٧٧١/١) برقم (٣٦٩، ١٦٢٢، ٣١٧٧، ٤٣٦٣) ومسلم (٩٨٢/٢) برقم (١٣٤٧) وأبو داود (٤٨٣/٢) برقم (١٩٤٦) والنسائي (٢٣٤/٥)، وفي المسند عن أبي بكر برقم (٤) وعن أبي هريرة بنحوه برقم (٧٩٧٧) بإسناد حسن ورجال ثقات، وعن عليّ برقم (٥٩٤) بنحوه، وهو حديث صحيح، رجاله ثقات، كما قال محققو المسند عن هذه الطرق.

- ١- ﴿فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطِعُوا الْبَاسِ الْفَقِيرَ﴾ [الحج: ٢٨]. فمن شاء أكل، ومن شاء لم يأكل.
- ٢- ﴿وَإِذَا حَلَلْتُمْ فَاصْطَادُوا﴾ [٢]. من شاء فعل، ومن شاء لم يفعل.
- ٣- ﴿وَمَنْ كَانَ مَرِيضًا أَوْ عَلَى سَفَرٍ﴾ [البقرة: ١٨٥]. فمن شاء صام، ومن شاء أفطر.
- ٤- ﴿فَكَابِتُهُمْ إِنْ عَلِمْتُمْ فِيهِمْ خَيْرًا﴾ [النور: ٣٣]. إن شاء كَاتَبَ، وإن شاء لم يفعل.
- ٥- ﴿فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلَاةُ فَانْتَشِرُوا فِي الْأَرْضِ﴾ [الجمعة: ١٠] إن شاء انتشر، وإن شاء لم ينتشر^(١).

الشعيرة السابعة: عدم العدوان على أحد

ثم يُعَلِّمُ الإسلام أبناءه ألا ينتقموا من أعدائهم، وألا تكون فيهم نزعة العداوة والبغضاء لغيرهم، يُعَلِّمُ الإسلام العرب خاصة، وهم الذين نزل عليهم هذا القرآن أولاً، وكان فيهم قسوة وغلظة وجفاء، ويعلم غيرهم هذه الآداب السامية من سائر الأمم إلى قيام الساعة، فلا يكذبوا على من كذب، ولا يخونوا من خان، ولا يظلموا من ظلم، وهكذا يعلمهم هذه الأخلاق، وهذه التربية الفاضلة، فيقول تعالى: ﴿وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَاؤُ قَوْمٍ أَنْ صَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ أَنْ تَعْتَدُوا﴾ أي: لا يحملنكم بغضكم لقوم، هم الذين كانوا قد منعوكم بالأمس، وصدوكم عن الوصول إلى البيت الحرام، لا يحملنكم ذلك على أن تعتدوا عليهم، أو أن تنتقموا منهم، أو أن تقابلوا السيئة بمثلها، وقد ربي الإسلام أبناءه على هذه الأخلاق، فمن الإجحاف والجهل وضمهم بالإرهاب والتطرف.

عن زيد بن أسلم قال: كان رسول الله بالحديبية ومعه أصحابه حين صدهم المشركون عن البيت وقد اشتد ذلك عليهم، فمر بهم أناس من المشركين، من أهل المشرق يريدون العمرة، فقال أصحاب رسول الله ﷺ: نَصُدُّ هَؤُلَاءِ كَمَا صَدَّنَا أَصْحَابُنَا، فأنزل الله ﴿وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ﴾^(٢).

أي: لا يحملنكم بغض قوم بسبب أن صدوكم عن المسجد الحرام أن تعتدوا عليهم.

الشعيرة الثامنة: التعاون على البر والتقوى

ثم يضع الإسلام قاعدة عامة للتعاون بين الناس، وهي ألا يكون هذا التعاون على الإثم

(١) أخرجه ابن أبي حاتم كما في «الدر المشثور» (١٦٩/٥).

(٢) أخرجه ابن أبي حاتم كما في «الدر المشثور» (١٦٦/٥) و«تفسير ابن كثير» (١٠/٣).

والفجور، ولا يكون على الظلم والعدوان، وإنما التعاون يكون على البر والتقوى.

والبر: اسم جامع لكل ما يحبه الله ويرضاه من الأعمال والأقوال الظاهرة والباطنة من حقوق الله وحقوق الآدميين.

والتقوى: اسم جامع لكل ما أمر الله بفعله أو نهى عن تركه من الأقوال والأعمال الظاهرة والباطنة.

١- في صحيح مسلم وغيره عن النواس بن سمعان رضي الله عنه قال: سألت رسول الله ﷺ عن البر والإثم، فقال: «البر حسن الخلق، والإثم ما حاك في صدرك وكرهت أن يطلع عليه الناس»^(١)

فلا يُعْنِ بعضكم بعضاً على الإثم، وهذا يشمل: الكفر، والعدوان، والظلم، والبدع، وسائر المعاصي، وكل ما فيه ضرر للنفس وللغير.

٢- وفي حديث أبي أمامة أن رجلاً سأل النبي ﷺ عن الإثم، فقال: «ما حَكَ في نفسك فدعه»، قال: فما الإيمان؟ قال: «من ساءت سيئته، وسرته حسنته فهو مؤمن»^(٢)

٣- وعن أنس رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «انصر أخاك ظالماً أو مظلوماً»، قيل: يا رسول الله، هذا نُصِرْتُهُ مظلوماً، فكيف أنصره ظالماً؟ قال: «تمنعه من الظلم، فذاك نصرك إياه»^(٣)

٤- وفي حديث أبي الدرداء رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «من ردَّ عن عرض أخيه، ردَّ الله عن

(١) ابن أبي شيبه (٥٣٨٧) وأحمد (١٨٢/٤) برقم (١٧٦٣١، ١٧٦٣٣) بإسناد صحيح على شرط مسلم والبخاري في الأدب المفرد (٢٩٥، ٣٠٢) ومسلم (٢٥٥٣) والترمذي (٢٣٨٩) والحاكم (١٤/٢) والبيهقي في «الشعب» (٧٩٩٤) والحاكم (١٤/٢)، والدارمي (٢٧٩٠).

(٢) أخرجه أحمد في المسند (٢٢١٥٩) قال محققوه: حديث صحيح ورجال ثقات رجال الصحيح وانظر (٢٢١٩٩) وأخرجه ابن حبان (١٧٦) والطبراني في الكبير (٧٥٣٩) وفي الأوسط (٣٠١٧) والحاكم (١/١٤) والبيهقي (٥٧٤٦) و عبد الرزاق في المصنف (٢٠١٠٤).

(٣) حديث صحيح، أخرجه البخاري برقم (٢٤٤٣، ٢٤٤٤، ٦٩٥٢) وأبو يعلى (٣٨٣٨) وابن حبان (٥١٦٧) وأحمد في «المسند» (١٣٠٧٩، ١١٩٤٩) بإسناد صحيح على شرط الشيخين و«صحيح مسلم» (٨٢/٢) بشرح النووي، والترمذي (٢٢٥٥) وعبد بن حميد (١٤٠١).

وجهه النار يوم القيامة»^(١).

وإعانة الظالم تعاون على الإثم

عن أبي مسعود الأنصاري رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «من دل على خير فله مثل أجر فاعله»^(٢).

وعن أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «من دعا إلى هدى كان له من الأجر مثل أجور من تبعه لا ينقص ذلك من أجورهم شيئاً، ومن دعا إلى ضلالة، كان عليه من الإثم مثل آثام من تبعه لا ينقص ذلك من آثامهم شيئاً»^(٣).

فالآية تُحَرِّم التعدي على حدود الله تعالى ومعالمه، وتُحَرِّم التعدي على شعائر الله، ومنها الهدي وما قُلِّد منه، بوضع صفائر من صوف، أو وَبَر في عنقه، وتُحَرِّم الصيد في الحرم، وتُحَرِّم قتال قاصدي البيت الحرام من المسلمين لأي سبب، وتُحِلُّ الصيد بعد الإحرام، وتَنْهَى عن ترك العدل ولو مع العدو، وتَأْمُر بالتعاون على الخير، وتَنْهَى عن الشر وتجاوز الحد فيه، وتحذر من مخالفة أمر الله تعالى، وتَأْمُر بتقواه وتعظيم شعائره.

أَحَدَ عَشَرَ نَوْعًا مِنَ اللَّحُومِ الْمُحَرَّمَاتِ:

٣- ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أَلْمَيْتَةُ^(٤) وَالْدَّمُ وَلَحْمُ الْخِنْزِيرِ وَمَا أُهْلَ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ وَالْمُنْخَنِقَةُ^(٥) وَالْمَوْقُوذَةُ وَالْمُتَرَدِّبَةُ وَالنَّطِيحَةُ وَمَا أَكَلَ السَّبُعُ إِلَّا مَا ذَكَّيْتُمْ وَمَا ذُبِحَ عَلَى النُّصُبِ وَأَنْ تَسْقُسُوا بِالْأَزْلَمِ ذَلِكُمْ فَسُقُ^(٦)﴾

ثم فَصَّلَت الآية الثالثة من سورة المائدة المحرمات من المطاعم المستثناة في قوله

(١) «سنن الترمذي» برقم (١٩٣١) قال الترمذي: حديث حسن، وحسنه المنذري، والألباني في «صحيح الجامع» برقم (٦١٣٨) ومحققو المسند برقم (٢٧٥٤٣).

(٢) «صحيح مسلم» (١٨٩٣) وبلفظ (الدال) في مسند البزار، «كشف الأستار» برقم (١٥٤) قال الهيثمي في «مجمع الزوائد» (١/١٦٦) فيه عيسى بن المختار تفرد عنه بكر بن عبد الرحمن وهو في مسند أحمد (١٧٠٨٤، ٢٢٣٥١، ٢٢٣٣٩) والطحاوي (١٥٤٦) والطبراني (٦٢٥).

(٣) «صحيح مسلم» (٢٠٦٠/٤) برقم (٢٦٧٤) و المسند (٩١٦٠) بإسناد صحيح ورجال ثقات، وأبو داود (٤٦٠٩) والترمذي (٢٦٧٤) والدارمي (٥١٣).

(٤) قرأ أبو جعفر (المَيْتَةُ) بتشديد الياء المكسورة، وقرأ الباقر (المَيْتَةُ) بسكون الياء وفتح التاء.

(٥) قرأ أبو جعفر (والمنخنة) بإخفاء النون في الخاء وإظهارها، والباقر بإظهارها.

سبحانه ﴿إِلَّا مَا يُتَىٰ عَلَيْكُمْ﴾ فيما يتعلق بالذبائح وهي محرمات أحد عشر:

حرمها الله تعالى صيانة لعباده، وحماية لهم من الأضرار الموجودة بها، سواء علمنا هذه الأضرار أم لا.

الأولى: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أَلْبَيْتُهُ﴾.

وهي بهيمة الأنعام التي ماتت حتف أنفها، دون أن تذبح، لأن الدم قد بقي في العروق، محتقناً في جوفها ولحمها، وبقيت فيها الجراثيم، وهي ضارة، ولذا حرمها الإسلام.

والميتة: وهي كل ما لهُ نَفْسٌ سائلة من دواب البر وطيره، مما أباح الله أكلها، وفارقته روحها بغير تذكية شرعية، الأهلي منها والوحشي، وقد أجمع العلماء على حرمة أكل لحمها.

وحرم الشافعية الانتفاع بعظمها وشعرها لنجاسته، وأجاز ذلك الأحناف وقالوا بطهارتهما، ويستثنى من الميتة السمك والجراد فإنه حلال.

ويستثنى من الميتة: السمك فإنه حلال، سواء مات بتذكية أم لا؛ لقول النبي ﷺ لَمَّا سُئِلَ عَنْ مَاءِ الْبَحْرِ: «هُوَ الطَّهُورُ مِائُهُ، الْحَلَالُ مِيتَتُهُ»^(١).

(١) مالك في «الموطأ» (٢٢/١) والشافعي في مسنده (٢١/١) رقم (٢٥) وأحمد في «المسند» (٢٣٧/٢)، (٣٦١) برقم (٧٢٣٣، ٨٧٣٥) حديث صحيح ورجال ثقات، وأبو داود برقم (٨٣) والترمذي برقم (٦٩) وقال: حسن صحيح، والنسائي (٥٠/١) وابن أبي شيبة (١٣١/١) والدارمي (٧٢٩) وابن ماجه (٣٨٦) وابن خزيمة (١١١) وابن حبان (١١٩) وكلهم عن أبي هريرة.

الثانية: ﴿وَالْدَّمُ﴾

أي: وقد حرم الإسلام شُرب الدم السائل، وكانوا في الجاهلية يشربون الدم المسفوح، أي: الدم السائل، يضعونه في إناء ويشربونه، وكانوا يخلطون الدم بالوبر، ويأكلونه ويسمونهُ (العُلهز)، وكانوا أيضًا يجعلون الدم في المصارين ويشوونها ويأكلونها، والدم فيه ضرر فتاك، ففيه من الفضلات التي تحمل الجراثيم من الجسم وتضر بالبدن، وفيه قذارة ورائحة كريهة عندما يلتقي بالهواء، وقال كثير من الفقهاء: إنه نجس العين، ولذا حرمه الإسلام، فقال تعالى عطفًا على الميتة: ﴿وَالْدَّمُ﴾ أي: الدم المسفوح السائل.

وقد أحل لنا الإسلام من الدماء: الدم المتجمد في الكبد والطحال، كما جاء ذلك على لسان المصطفى ﷺ فيما رواه ابن عمر رضي الله عنهما «أحل لنا ميتتان ودمان، فأما الميتتان فالسمك والجراد، وأما الدمان فالكبد والطحال»^(١).

والمحرّم هو الدم المسفوح كما في الآية الأخرى ﴿أَوْ دَمًا مَسْفُوحًا﴾ [الأنعام: ١٤٥].

الثالثة: ﴿وَلَحْمُ الْخَنزِيرِ﴾

أي: وحرم عليكم أكل لحم الخنزير وشحمه بجميع أجزائه ومشتقاته، سواء في ذلك الخنزير الإنسي أو الوحشي، تَرَبَّى في بيت، أو في العراء، فهو محرم في ذاته؛ لأنه يشتمل على جراثيم ضارة لا تقتلها حرارة النار عند الطبخ، وليس المراد تحريم اللحم فحسب، بل كل ما يخرج منه، من الدهن، أو من الشحم، أو العظم، أو الجلد، وغير

(١) «مسند الشافعي» (١٧٣/٢) برقم (١٧٣٤) وأحمد (١٠٣/٨) برقم (٥٧٢٣) بإسناد حسن، وابن ماجه (٣٣١٤) والبغوي في شرح السنة (٢٨٠٣) والدارقطني (٢٧١/٤) والبيهقي في «السنن الكبرى» برقم (١/٢٥٤) قال الحافظ ابن حجر في «التقريب»: «والراجح أنه من قول ابن عمر، ثم قال: وإن كان كذلك فهو في حكم المرفوع؛ لأن المحلل والمحرّم هو الشرع».

ذلك، فلا يُتَنَفَّع بشيء منه مطلقًا، والأضرار فيه معلومة طبيًا وعلميًا، وخُص اللحم بالذكر؛ لأنه الذي يؤكل، من أي جزء منه، وقد نفّر الإسلام من لمس الخنزير، فكيف بأكله أو الانتفاع بشيء منه؟!

في حديث بريدة بن الخصيب الأسلمي رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «من لعب بالنردشير، فكأنما صبغ يده في لحم الخنزير ودمه»^(١).

وقال داود الظاهري وأبو يوسف بطهارة جلده إذا دُبِغ؛ لعموم قوله ﷺ في حديث ابن عباس رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «أيما إهاب دبغ فقد طهر»^(٢).

وفي حديث جابر رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «إن الله حرم بيع الخمر والميتة والخنزير والأصنام»، فقيل: يا رسول الله، أرايت شحوم الميتة، فإنها تُطلى بها السفن وتُدَهن بها الجلود، وَيَسْتَصْبَح بها الناس؟ فقال: «لا، هو حرام»^(٣).

الرابعة: ﴿وَمَا أَهْلَ لَغَيْرِ اللَّهِ بِهِ﴾.

أي: وحرم عليكم أيضًا ما دُبِغ على غير اسم الله تعالى؛ لأنه يناقض الإيمان ومقتضى التوحيد. قال تعالى: ﴿وَلَا تَأْكُلُوا مِمَّا لَمْ يُذَكِّرْ أَسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ وَإِنَّهُ لَفِسْقٌ﴾ [الأنعام: ١٢١].

وكان العرب يذكرون أسماء أصنامهم على الذبح، فحرم الإسلام ما ذُكر عليه غير اسم الله، ومن ذلك ما ذبح لغير الله؛ كالندور، والعوائد، والقرايين التي تُذبح في مكان يذبح فيه لغير الله، كما كان أهل الجاهلية يذبحون للآلات والعزى، وفي وقتنا يذبح لفلان الولي، أو النبي، أو صاحب الضريح أو القبر، وكما يذبح السحرة للجن، وكل ذلك مما أُهِّلَ لغير الله، أي: ذبح على غير اسمه تعالى، فالذبح عبادة، وهذه العبادة لا تكون إلا لله، فما ذبح لغير الله، أو ذكر عليه اسم الصليب ونحو ذلك فإنه محرم قطعًا.

(١) «صحيح مسلم» برقم (٢٢٦٠) ومسند أحمد (٢٢٩٧٩، ٢٣٠٢٥) بإسناد صحيح ورجال ثقات.

(٢) من حديث ابن عباس، رواه الترمذي (١٧٢٨) وقال: حسن صحيح، وابن ماجه (٣٦٠٩) وصححه الألباني في صحيح سنن ابن ماجه (٢٩٠٧) وغاية المرام (٢٨) والروض النضير (٤١٣).

(٣) «صحيح البخاري» برقم (٢٣٦، ٤٢٩٦، ٤٦٣٣) و«صحيح مسلم» برقم (١٥٨١).

الخامسة: ﴿وَالْمُنْخَنَقَةُ﴾

أي: وحرم الله عليكم لحم المنخنقة، وهي التي ماتت خنقًا؛ فالميتة هي التي ماتت بنفسها أو حتف أنفها، والمنخنقة هي التي خنقها غيرها بسد مجاري النفس، أو انخنقت بشبكة ونحوها، فاحتبس الدم فيها وفسد، وكانوا يخنقون الشاة فإذا ماتت أكلوها، والفرق بينها وبين الميتة أن المنخنقة ماتت بسبب؛ كعدوان أحد عليها ولم يَسْل منها دم، والميتة ماتت بغير عدوان عليها.

السادسة: ﴿وَالْمَوْقُوذَةُ﴾

وهي التي وُقِذَتْ، أي: رُميت بشيء، مثل: حَجَر، أو سهم، أو ضُربت بعصا، ونحو ذلك، فماتت دون أن تُذَكَّى، ولذا حرمها الإسلام.

قال الشوكاني: وقد سألني جماعة من أهل العلم عن الصيد بالبنادق الحديدية التي يُجعل فيها البارود والرصاص، إذا مات الصيد ولم يتمكن الصائد من تذكيته حيًّا، والذي يظهر لي أنه حلال؛ لأنها تخزق، وتدخل في الغالب، من جانب منه، وتخرج من الجانب الآخر، وقد قال النبي ﷺ في الحديث الصحيح عن عدي بن حاتم رضي الله عنه: «إذا رَمَيْتَ بالمعراض فَخَزَقَ فَكُلْهُ، وَإِنْ أَصَبْتَهُ بَعْرَضَهُ فَإِنَّمَا هُوَ وَقِيدٌ فَلَا تَأْكُلْهُ» فاعتُبر الخَزَقُ في تحليل الصيد^(١)

ومفهومه أن آلة الصيد إذا لم تخزق، بأن لم تدخل من جانب، وتخرج من الآخر، فإنه لا يؤكل. وجاء هذا مصرحًا به في حديث (عدي) في الصحيحين وغيرهما.

وكانوا يضربون الشاة بعصا حتى تموت ثم يأكلوها، فحَرَّمَ الإسلام ذلك.

السابعة: ﴿وَالْمُتَرَدِّةُ﴾

وهي التي تَرَدَّتْ، أي: سقطت من أعلى إلى أسفل، أو وقعت في بئر فماتت.

(١) فتح القدير (١٠/٢) ن والحديث في إرواء الغليل وهو في صحيح مسلم (١٩٢٩) والبخاري (٥٤٧٧، ٧٣٩٧).

الثامنة: ﴿وَالطَّيْحَةُ﴾

وهي التي نطحتها دابة أخرى فماتت، وكانت العرب تأكل ذلك، فحرّمه الإسلام. والهاء في الميتة والمنخقة وما بعدها، دخلت عليها؛ لأنها صفة لموصوف محذوف تقديره الشاة.

التاسعة: ﴿وَمَا أَكَلَ السَّبْعُ﴾

أي: وحرم عليكم ما أكله السبع المفترس دون تذكية؛ كالأسد، والفهد، والنمر، والذئب، والكلب، إذا افترس حيواناً يؤكل لحمه، فأكل بعضه، ومات هذا الحيوان بسبب افتراس السبع له دون تذكية؛ فإنه لا يجوز أكله، ولا أكل ما بقي منه، وقد كانوا في الجاهلية يستحلون ذلك.

قال تعالى: ﴿إِلَّا مَا ذَكَيْتُمْ﴾ أي: إلا ما أدركتم فيه حياة، وذكيتموه قبل أن يموت فكلوه. والاستثناء يعود على كل ما سبق في الآية من الميتة والمنخقة إلى هنا، وقيل: يرجع إلى الأخير فقط، والجمهور على الأول، وعلامة الحياة أن يتحرك المذبوح بعد ذبحه.

أخرج البخاري وغيره بسنده عن عدي بن حاتم رضي الله عنه قال: سألت رسول الله ﷺ عن المعراض، فقال: «إذا أصبت بحده فكل، فإذا أصاب بعرضه فقتل، فإنه وقيد فلا تأكل». فقلت: أرسل كلبى؟ قال: «إذا أرسلت كلبك وسميت فكل». قلت: فإن أكل؟ قال: «فلا تأكل، فإنه لم يمسك عليك، إنما أمسك على نفسه». قلت: أرسل كلبى فأجد معه كلباً آخر؟ قال: «لا تأكل، فإنك إنما سميت على كلبك، ولم تسم على الآخر»^(١)

وسأل أبو ثعلبة الخشني رضي الله عنه رسول الله ﷺ أنه يرسل كلبه المعلم، فمنه ما يدرك ذكاته، ومنه ما لا يدرك، قال: وأرمني بسهمي، فمنه ما يدرك ذكاته، ومنه ما لا يدرك، فقال ﷺ: «كل ما ردّت عليك يدك وقوسك وكلبك المعلم، ذكياً وغير ذكي»^(٢).

(١) يُنظر: البخاري في الذبائح والصيد برقم (١٧٥، ٤٥٧٥) ومسلم في الصيد والذبائح برقم (١٩٢٩).

(٢) «المسند» (١٩٥/٤) برقم (١٧٧٤٨) بإسناد صحيح ورجال ثقات، وأبو داود برقم (٢٨٥٦) كلاهما من طريق الزبيدي وسنن النسائي (١٨١/٧) من طريق ربيعة بن يزيد عن أبي إدريس الخولاني، قال ابن كثير: وهذان إسنادان جيدان، وأخرجه الطبراني في الكبير ٢٢/٥٧٠).

ورد عن علي وابن عباس، والحسن، وقتادة، أنهم قالوا: ما أُدرِكتْ ذكاته بأن توجد له عين تطرف، أو ذَنَبٌ يتحرك، فأكله حلال^(١).

وفي حديث جارية كعب بن مالك أنها كانت ترعى غنماً بسلع، فأصيبت شاة من غنمها، فأدركتها فذبحتها بحجر، فسئل النبي ﷺ، فقال: «كلوها»^(٢).

فإن أدرَكها المرء وفيها حياة مستقرة بحيث يمكنه ذبحها حَلَّتْ؛ لعموم الآية والخبر، فإن عَلِمَ أنها ستموت، فلا تَؤْكَل وإن ذَكَّاهَا^(٣).

أما ما يجب قطعه في الذكاة فأكمل حالاته قطع الحلقوم، والمريء، والودجين: وهما عِرْقَان بينهما الحلقوم والمريء، وهذه إحدى الروايتين عن أحمد، والرواية الأخرى عنه قطع أحد الودجين معهما، وبه قال مالك وأبو حنيفة، وقال الشافعي: يعتبر قطع الحلقوم والمريء^(٤) وهو أقل الذبح.

عن رافع بن خديج قال: قلت: يا رسول الله إنا نلقى العدو غدًا وليس معنا مَدَى، فقال النبي ﷺ: «ما أنهر الدم وذكر اسم الله عليه فكلوا، ما لم يكن سنًا أو ظفرًا، وسأحدثكم عن ذلك، أما السن فعظم، وأما الظفر فَمُدَى الحَبْشَة»^(٥).

العاشرة: ﴿وَمَا ذُبِحَ عَلَى النُّصُبِ﴾

أي: وحرم الإسلام عليكم لحم ما ذبح على النصب، والنُّصُب: حجارة كانوا ينصبونها حول الكعبة، ويعتبرون الذبح عندها أكثر قربى إلى معبوداتهم، وهذه الآية تحرم أكل لحوم ما ذبح على هذه النصب؛ لأنه ذبح لغير الله تعالى، وكان ذلك موجودًا في الشرائع القديمة يَنْصِبُونَ صَخُورًا لذبح القرابين عليها، وكانوا يلتمسون فيها التداوي وغيره، قال تعالى مشبهًا حال الكفار عند القيام من قبورهم يوم القيامة بحال المشركين وهم يسرعون

(١) «زاد المسير» (٢/ ٢٨٠) وأخرجه الطبري بسند حسن عن علي بن أبي طلحة عن ابن عباس.

(٢) رواه أحمد والبخاري برقم (٥٥٠٥).

(٣) يُنْظَرُ: «المغني» لابن قدامة (١١/ ٦١).

(٤) يُنْظَرُ: «المغني» (١١/ ٤٤).

(٥) رواه البخاري برقم (٥٠٧، ٢٤٨٨، ٣٠٧٥، ٥٥٤٣) ومسلم (٣/ ١٥٥٨) برقم (١٩٦٨) وأبو داود (٣/ ١٣٤) وغيرهم.

نحو هذه الأنصاب: ﴿يَوْمَ يَخْرُجُونَ مِنَ الْأَجْدَاثِ سِرَاعًا كَأَنَّهُمْ إِلَى نُصُبٍ يُوفِضُونَ﴾ [المعارج].

وقبل فتح مكة كان يوجد حول الكعبة ثلاث مئة وستون حجراً منصوبة، وكان الناس يعظمونها ويذبحون عليها، وتسمى أنصاباً، وكانوا ينضحونها بدماء الذبيحة، ويشترحون اللحم ويضعونه عليها، فلما جاء الإسلام حرم ذلك؛ لأن الذبح لا يكون إلا لله تعالى، ويشبه ذلك من يأخذ ذبيحة ويذبحها عند ضريح من الأضرحة؛ لبركة صاحب القبر، أو لأنه نذر أن يذبح في هذا المكان لله، وهذا النذر يُعدُّ باطلاً، لا ينبغي الوفاء به.

ويدخل في ذلك ما ذبح على اسم المسيح ونحوه، وكذا ذبائح الوثنيين والشيوعيين ونحوهم، وكان أهل الجاهلية يذبحون عند هذه النُصب، فهي شرك وإن ذكر عليها اسم الله؛ لأنه دَبَحَهَا في مكان يذبح فيه لغير الله، وهي حرام بنص قوله تعالى: ﴿وَمَا ذُبِحَ عَلَى النُّصُبِ﴾.

والمُحَرَّمُ الحادي عشر: ﴿وَأَنْ تَسْتَقْسِمُوا بِالْأَزْلَمِ﴾

أي: وحرم الإسلام عليكم أكل اللحوم التي يُستقسم عليها بالأزلام، والأزلام: جمع زَلَمَ بفتح الزاي واللام، وهي قداح الميسر، والقُدْح بكسر القاف وسكون الدال: عُودٌ سَهْمٌ ليس فيه حديدة. فكان من يريد معرفة حظه، وما سينزل به من خير أو شر، أو أن سفره سيكون ضاراً أو نافعاً ونحو ذلك، فإنه يذهب إلى سادن الصنم، وهو كاهن من الكهان؛ ليُجري له هذا الحظ، وكانوا يتوهمون أن الأصنام أو الجن يأتون بالأمور الغيبية، وهذا النوع من الدجل عن طريق العرافين والمشعوذين منتشر وموجود في عالمنا المعاصر في الشرق والغرب عند المسلمين وغيرهم، وكذلك المقامرة التي نهت عنها الآية، وجاء ذكرها في قوله تعالى: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ﴾ [البقرة: ٢١٩].

وفي قوله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنْصَابُ وَالْأَزْلَمُ رِجْسٌ مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ﴾ [٩٠].

والآية التي نحن بصددتها تشير إلى تحريم أكل اللحوم التي تؤول إلى بعض المقامرين عن طريق المقامرة، كما حرم الإسلام الاستقسام بالأزلام في حد ذاته؛ لأنه ضربٌ من الشرك، وقد كانوا ينحرون الجُزور أو الناقة، ويقسمونها عشرة أسهم، ويضربون القداح عليها.

وقد وصف القرآن هذا العمل بأنه فسق؛ لأنه يجمع بين الشرك والمقامرة، وفيهما خروج عن طاعة الله عزَّ وجلَّ، وكانوا يستشيرون الأزلام في الإقدام على العمل أو تركه،

ويستخدمونها في الميسر، فيقسمون لحم الناقة التي يتقامرون عليها، وقد حرم الإسلام ما يشبه ذلك، مثل: أمور الكهنة، والعرافين، والمنجمين، وضاربي الودع، وقراءة الفنجان، وقراءة الكف، ونحو ذلك، مما يتفائل به الناس أو يتشاءمون، فيقدمون أو يُحجمون عن هذا الشيء، بناءً على ما يقوله السحرة والمنجمون والكهنة إذا أراد أحدكم أن يُقدم على أمر، هل يترشح للرئاسة أم لا؟ هل يخوض هذه الحرب أم لا؟ هل يتزوج فلانة، أو يسافر أو يتاجر، أو يشارك فلاناً على تجارة أم لا؟ تماماً كما كان أهل الجاهلية يفعلون إذا اختلفوا في نسب، أو قتل، أو تحمّل دية، ونحو ذلك من الأمور الكبيرة، فإنهم يختكمون إلى الأزلام فيأتون إلى هبل، أعظم صنم لقريش، وكان داخل الكعبة منصوباً على بئر توضع فيها الهدايا وأموال الكعبة، وكانت الأقداح سبعة أو ثلاثة يُستقسم بها، وكان مكتوباً على أحدها: افعل، أو أمرني ربي. وعلى الثاني: لا تفعل، أو نهاني ربي. والثالث: لا يكتب عليه شيء.

فإن خرج أمرني ربي، فإنه يمضي في طريقه، وينفذ هذا الشيء الذي استقسم عليه. وإن خرج نهاني ربي، يمتنع عن الخروج، وإن خرج الثالث، أعاد الاستقسام مرة ثانية، وهذه أشهر طرق الاستقسام بالأزلام، وكانت لهم طرق أخرى عديدة. عن أبي الدرداء رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «لن يلج الدرجات العلا من تكهن، أو استقسم، أو رجع من سفر تطيراً»^(١).

وقد حرم الإسلام هذه الأنواع من الميسر والمقامرة والاستقسام بالأزلام. وفرّق القرآن بين الأزلام والقمار في قوله تعالى ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنْصَابُ وَالْأَزْلَامُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ﴾ [٩٠].

ولما دخل النبي ﷺ الكعبة وجد المشركين قد صوّروا إبراهيم وإسماعيل صورتين في جوف الكعبة، وفي أيديهما هذه الأقداح فقال ﷺ: «قاتلهم الله، لقد علموا أنهما لم يستقسما بالأزلام أبداً» ثم دخل البيت فكبره في نواحيه، وخرج ولم يُصلِّ فيه^(٢).

(١) أخرجه الطبراني في الأوسط (٢٦٦٣) وابن مردويه بإسناد حسن كما في «صحيح الجامع» (٥١٠٢).

(٢) الحديث في البخاري (٤٦٨/٣) برقم (٤٢٨٨) وأبي داود (٥٢٥/٢) وغيرهما.

أي: أن إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام لم يفعلا هذا الشيء، فكيف يُصَوِّرون خليل الرحمن وابنه إسماعيل بأنهما كانا يستقسمان بالأزلام؟

ولما خرج سراقه في طلب النبي ﷺ وأبي بكر رضي الله عنهما في يوم الهجرة، استقسم بالأزلام ثلاث مرات، فخرج الذي يكره: لا تضرهم، وكان الأمر كذلك، وقد أسلم سراقه بعد ذلك^(١).

وقوله تعالى: ﴿ذَلِكُمْ فَسْقٌ﴾ إشارة إلى الاستقسام بالأزلام، أو إلى جميع المحرمات المذكورة في الآية، وهو أقوى.

وقد جاء الإسلام، فشرع لنا مكان الاستقسام بالأزلام وما يشبهه، صلاة الاستخارة، ودُعاءها، فإذا انشرح صدرُ المسلم إلى هذا الشيء بعد صلاة الاستخارة، فليتوكل على الله، وإذا انقبض صدره فليُحجم.

دعاء الاستخارة: عن جابر بن عبد الله رضي الله تعالى عنهما قال: كان رسول الله ﷺ يعلمنا الاستخارة كما يعلمنا السورة من القرآن، يقول: «إذا هم أحدكم بالأمر فليركع ركعتين من غير الفريضة، ثم ليقل: اللهم إني أستخيرك بعلمك، وأستقدر بقدرتك، وأسألك من فضلك العظيم، فإنك تقدر ولا أقدر، وتعلم ولا أعلم، وأنت علام الغيوب، اللهم إذا كنت تعلم أن هذا الأمر - ويسميه باسمه - خيرٌ لي في ديني ومعاشي وعاقبة أمري، فاقدرْه لي، ويسره لي، وبارك لي فيه، وإن كنت تعلمه شراً لي في ديني ومعاشي وعاقبة أمري، فاصرفني عنه، واصرفه عني، واقدر لي الخير حيث كان، ثم رضني به»^(٢).

(١) النص بطوله في البخاري (٢٣٨/٧) برقم (٣٩٠٦).

(٢) الحديث أخرجه البخاري (٣٧٥/١٣) برقم (١١٦٢) وأبو داود (١٨٧/٢) برقم (١٥٣٨) وصحيح سنن الترمذي (٣٩٧) وصحيح سنن ابن ماجه (١٣٨٣) وهو في سنن الترمذي (٣٤٥/٢) برقم (٤٨٠) والنسائي (٨٠/٦) وابن ماجه برقم (١٣٨٣) وأحمد (٣٤٤/٣) وهذا لفظ أحمد برقم (١٤٧٠٧).

قَطْعُ طَمَعِ الْكُفَّارِ فِي أَنْ تَعْبُدُوا غَيْرَ اللَّهِ

﴿الْيَوْمَ يَبْسُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ دِينِكُمْ فَلَا تَحْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنِ﴾^(١)

المراد باليوم: يوم عرفة، حيث أتم الله دينه، ونصر عبده ورسوله، وانخذل الشرك وأهله، بعد ما كانوا حريصين على ردّ المؤمنين عن دينهم، طامعين في ذلك، فلما رأوا عز الإسلام وظهوره يئسوا كل اليأس أن يرجع المؤمنون إلى دينهم، فلا تخشوا غير المسلمين واخشوا الله الذي نصركم وخذلهم، ورد كيدهم في نحورهم.

هذا: ولما حرّم الإسلام ألواناً من الشرك، وهي: ما أهّل لغير الله تعالى، وما ذبح على النُصب، والاستقسام بالأزلام، وكان في هذا تضيق على أهل الشرك بمفارقة ما ألفوه، أعقب ذلك بيان أن ذلك من كمال الدين، وأنه إخراج للناس مما كانوا عليه من ضلال، وأن الله تعالى قد أنعم عليهم بدين عظيم فيه سعادتهم وصلاحهم، ومنافعهم البدنية والدينية، ولهذه المعاني كانت هذه الجمل الثلاث معترضة بين المحرمات المذكورة في الآية، وبين الرخصة المذكورة في نهاية الآية ﴿فَمَنْ أَضْطَرَّ فِي مَخْصَةٍ﴾... إلخ.

وقد كان الكفار - ولا يزالون- يطمعون في أن يرجع المسلمون عن دينهم، فلما قوي الإسلام أيسوا من ذلك، وكان هذا بعد أن فتح الرسول ﷺ مكة المكرمة، ويئس الكفار من بطلان دين الإسلام، ويئس أهل مكة أن ترجعوا إلى دينهم، كما جاء في حديث جابر رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «إن الشيطان قد يئس أن يعبد المصلون في جزيرة العرب ولكن في التحريش بينهم»^(٢) وقد نزلت هذه الجملة من الآية؛ لتقرر أنه كما يئس الكفار من أن تعبدوا غير الله تعالى، يئسوا من تحريف دينكم ومن تغييره وتبديله، ومن النقصان منه أو الزيادة فيه، فقد كتب الله البقاء لهذا الدين وحفظه من التحريف والتبديل.

وليس المراد بقوله تعالى: ﴿الْيَوْمَ﴾ يوماً بعينه، وإنما المعنى: الآن صرتم بحيث لا يطمع فيكم عدوكم، فقد انقطع رجائهم في التغلب عليكم، وصرفكم عن دينكم ﴿فَلَا

(١) وقف يعقوب على (واخشوني) بإثبات الياء، والباقون بحذفها.

(٢) «صحيح مسلم» (٢٨١٢).

فَخَشَوْهُمْ وَأَخْشَوْهُ لَا تَخْشَوْا إِلَّا اللَّهَ، وَلَا تَخَافُوا مِنَ الْكُفَّارِ أَنْ يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ، أَوْ يُبْطِلُوا دِينَكُمْ، وَهُوَ وَحْدَهُ يَنْصَرِكُمْ، وَهُوَ وَحْدَهُ يَتَوَلَّاكُمْ، فَلَا تَخَالَفُوا أَمْرَهُ وَنَهْيَهُ.

كَمَالُ الدِّينِ وَتَمَامُ النُّعْمَةِ

﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا﴾

في هذا المقطع من الآية ثلاث من امتن الله بها على عباده المسلمين، وهي:

أولاً: كمال الدين:

ثم امتن الله على عباده بكمال الدين، فقال تعالى: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ﴾ بتمام النصر وكمال الشريعة والعقيدة في الأصول والفروع كما تضمنهما الكتاب والسنة.

وقد نزلت هذه الجملة من الآية بعد عصر يوم عرفة، في حجة الوداع، في السنة العاشرة من الهجرة على رسول الله ﷺ وهو بعرفة على ناقته العضاء، فكادت عضد الناقة أن تندق، وبركت الناقة؛ لِثَقُلَ الوحي عليها.

ولما نزلت هذه الآية بكى عمر رضي الله عنه فسأله النبي ﷺ: «ما يبكيك يا عمر؟»، فقال: أبكاني أنا كُفًا في زيادة من ديننا، فأما إذا كمل فإنه لم يكمل شيء إلا نقص، قال: «صدقت»^(١).

وعن طارق بن شهاب قال: جاء رجل من اليهود إلى عمر بن الخطاب، فقال: يا أمير المؤمنين، إنكم تقرؤون آية في كتابكم، لو علينا معشر اليهود نزلت، لاتخذنا ذلك اليوم عيداً، قال: وأي آية؟ قال: قوله: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي﴾ فقال عمر: والله إني لأعلم اليوم الذي نزلت فيه على رسول الله ﷺ والساعة التي نزلت فيها على رسول الله ﷺ نزلت عشية عرفة في يوم جمعة^(٢).

وقول اليهودي: لاتخذنا ذلك اليوم عيداً؛ لكمال الدين فيه بالحلال والحرام، فلم يتزل بعدها حلال ولا حرام.

(١) تفسير «البغوي» و«الخازن» و«ابن كثير» (٢٦/٢) وابن جرير (٥١٩/٩) عن أسماء بنت عميس.

(٢) البخاري في الإيمان (١٠٥/١) برقم (٤٥) وفي المغازي والتفسير برقم (٤٦٠٦) والاعتصام (٧٢٦٨) ومسلم (٢٣١٢/٤) برقم (٣٠١٧) والترمذي (٢٥٠/٥) برقم (٣٠٤٣) والنسائي في الحج (١١٤/٨)، (٣٠٠٢) وأحمد (٢٨/١) وهذا لفظه ورقمه في «المسند» (١٨٨، ٢٧٢) بإسناد صحيح على شرط الشيخين وابن حبان (١٨٥) وعبد بن حميد (٣٠).

وعن عيسى بن حارثة الأنصاري قال: كنا جلوساً في الديوان، فقال لنا نصراني: يا أهل الإسلام، لقد أُنزِلَتْ عليكم آية لو أُنزِلَتْ علينا لاتخذنا ذلك اليوم وتلك الساعة عيداً ما بقي منا اثنان ﴿أَيُّوْمَ أَكَلْتُمْ لَكُمْ دِيْنَكُمْ﴾ فلم يجبه أحد منا، فلقيتُ محمد بن كعب القرظي فسألته عن ذلك فقال: ألا ردّدتم عليه؟ فقال: قال عمر بن الخطاب: أُنزِلَتْ على النبي ﷺ وهو واقف على الجبل يوم عرفة، فلا يزال ذلك اليوم عيداً للمسلمين ما بقي منهم أحد^(١).

وقال عليّ: أُنزِلَتْ هذه الآية ورسول الله ﷺ قائم عشية عرفة^(٢).

وقد أكمل الله الدين بالفرائض والسنن والحدود والأحكام، وبإظهار الدين، وقطع دابر المشركين عن أرض الحرم، وبالنصر على العدو، وتأمين الخوف منه، وبقاء الدين وعدم نسخه، وبتصديق الرسل السابقين، فهو كمال إلى يوم القيامة.

ثانياً: تمام النعمة: ثم قال تعالى: ﴿وَأَتَمَّمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي﴾ وأعظم نعمة هي نعمة الإسلام، وقد أتم الله تعالى فيه العقيدة والشريعة، وختم به النبوة والرسالة، وأخرج به الناس من ظلمات الجهل إلى نور الهدى، فأخرجهم من سفاح الجاهلية، وأساطير الخرافات، وسلطان الكهانة إلى القمة الشامخة، والمبادئ العليا في الإيمان والتوحيد، وليس هناك دين غيره، وليس هناك نبي غير محمد ﷺ إلى قيام الساعة، وليس هناك نسخ ولا تغيير.

أخرج الطبري بسند حسن عن أبي طلحة عن ابن عباس ؓ قال: كان المسلمون والمشركون يحجّون جميعاً، فلما نزلت براءة مُنع المشركون عن البيت، وحجّ المسلمون، لا يشاركون في البيت الحرام أحد من المشركين، فكان ذلك من تمام النعمة.

وهذا هو الدين الذي ارتضاه رب العالمين لعباده في قوله: ﴿وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا﴾ وهو نهاية الكمال، وأعلى المراتب فالزموه ولا تفارقوه، ولن يصلح حال الأمة إلا بالتمسك بعُراه ﴿وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَسِرِينَ﴾ [آل عمران].

وقد عاش النبي ﷺ بعد نزول هذه الآية واحداً وثمانين يوماً، ونزل بعدها من القرآن (سورة النصر) في منى، وفيها نعي للنبي ﷺ بالإشارة إلى الفتح والنصر وتمام الدين.

وآخر ما نزل من القرآن مطلقاً، كان قبل وفاة النبي ﷺ بتسع ليالٍ، وهو قوله تعالى:

(١)، (٢) «تفسير الطبري» (٨/ ٨٨).

﴿وَاتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ﴾ [البقرة: ٢٨٢].

المُسْتَثْنَى مِنَ اللَّحُومِ الْمُحَرَّمَاتِ:

﴿فَمَنْ^(١) اضْطُرَّ فِي مَخَبَصَةٍ غَيْرِ مُتَجَانِفٍ لِإِثْمٍ فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾

ثم استثنى سبحانه من الذبائح الأحد عشر السابقة حالة المضطر:

أي: فمن ألجأته الضرورة إلى شيء من هذه المحرمات في مجاعة شديدة، فلا ذنب عليه إذا تناول ما يدفع الضرورة من غير زيادة، وهذا المعنى يعود على الذبائح المحرمة في الآية، أي: أن من أصابه جوع شديد وألجأته الضرورة إلى أن يأخذ شيئاً من المحرمات بمقدار ما يسد رمقه، وبمقدار ما يُقيم ويحفظ عليه حياته، وهو غير معتدٍ ولا متجاوزٍ في تناول بعد زوال الضرورة، فلا حرج عليه، على ألا يكون سفره لمعصية.

وقد استدل بهذه الآية من يقول: إن العاصي بسفره، لا يترخص بشيء من رخص السفر؛ لأن الرخص لا تُنال بالمعصية.

وعن ابن عمر رضي الله عنهما مرفوعاً أن النبي ﷺ قال: «إن الله يحب أن تؤتى رخصه، كما يكره أن تؤتى معصيته»^(٢).

وعن أبي واقد الليثي أنهم قالوا: يا رسول الله، إنا بأرض تُصيبنا بها المخمصة، فمتى تحل لنا بها الميتة؟ فقال: «إذا لم تضطبحوا، ولم تغتبقوا، ولم تحتفتوا بقلاً، فשאأنكم بها»^(٣).

والمراد بقوله: «تضطبحوا» وقت تناول وجبة الإفطار، أي: إذا جُعتم ولم تجدوا ما تأكلوه.

(١) قرأ أبو جعفر (فَمَنْ اضْطُرَّ) بضم النون وكسر الطاء، وقرأ الباقر (فَمَنْ اضْطُرَّ) بكسر النون وضم الطاء، وقرأ نافع وابن كثير وابن عامر والكسائي وأبو جعفر وخلف العاشر بضم النون وصلًا من (فمن اضطر) تبعًا لضم ثالث الفعل، والباقر بالكسر على الأصل في التخلص من التقاء الساكنين.

(٢) حديث صحيح: «المسند» (١٧٠/٨) برقم (٥٨٦٦، ٥٨٧٣) و«صحيح ابن حبان» برقم (٥٤٥) (موارد) و«مجمع الزوائد» (١٦٢/٣) عن البزار والطبراني في «الأوسط» وقال الهيثمي: رجاله رجال الصحيح، وأخرجه ابن أبي شيبه (٥٩/٩) والبيهقي في السنن (١٤٠/٣).

(٣) حديث حسن بطرقة وشواهده أخرجه أحمد (٢١٨/٥) برقم (٢١٩٨، ٢١٩٠١) وابن جرير (٥٣٨/٩) وأبو داود (٢٨١٧) والدارمي (١٩٩٦) والحاكم (١٢٥/٤) والبيهقي في شرح السنة (٣٠٧) والطبراني في الكبير (٣٣١٦).

ومعنى «تغثّبوا»: وقت تناول وجبة العشاء، أي: وإذا لم يكن معكم بقلًا من البقول تتناولونه.

والمعنى: أنه يحل لكم أن تأكلوا من الميتة حال اضطراركم، ما لم تتناولوا هذه الوجبات الثابتة، أو تأكلوا شيئًا يُقَيِّتُكُمْ كالبقول. والخمص: هو ضمور البطن.

جاء في الصحيحين عن جابر رضي الله عنه أن النبي ﷺ بعث سرية تتكوّن من ثلاث مئة رجل، وأمر عليهم أبو عبيدة، وأعطاهم جرابًا من تمر، فكان أبو عبيدة يُعطي كل واحد ثمرة، فيمضّونها مضًا ويشرب عليها الماء، فتكفيهم يومهم، وكانوا يضربون ورق الشجر بالعصا ليقع الورق، فيبلّوه بالماء ويأكلوه، ثم إنهم وجدوا دابة مئّنة اسمها (العنبر) فترددوا في الأكل منها، فقال أبو عبيدة: لقد اضطررتم فكلوا، قال: فأقمنا عليه شهرًا، فلما قدمنا المدينة، أتينا رسول الله ﷺ فذكرنا له ذلك، فقال: «هو رزق أخرج به الله لكم، فهل معكم من لحمه شيء فتطعموه لنا»، قال: فأرسلنا إلى رسول الله ﷺ منه فأكله^(١).

وخلاصة معنى الآية: أن الله تعالى حرم فيها أحد عشر أمرًا على كل مسلم إلى قيام الساعة وهي:

- ١ - أكل لحم الحيوان الذي فارق الحياة دون ذبح.
 - ٢ - شرب الدم السائل المراق.
 - ٣ - أكل لحم الخنزير ومشتقاته.
 - ٤ - أكل لحم ما لم يذكر عليه اسم الله تعالى عند الذبح.
 - ٥ - أكل البهيمة التي ماتت بسبب حبس أنفاسها.
 - ٦ - أكل لحم البهيمة التي ضربت بعضًا، أو حجر، أو غيرهما، فماتت دون تذكية.
 - ٧ - أكل لحم الحيوان الذي سقط من مكان عالٍ، أو هوى في بئر فمات دون تذكية.
 - ٨ - أكل لحم البهيمة التي ضربتها بهيمة أخرى بقرنها فماتت دون أن تُذكى.
 - ٩ - أكل لحم البهيمة التي أكلها السبع؛ كالأسد، والنمر، والذئب.
- واستثنى الله سبحانه من هذه الحيوانات ما تم ذبحه قبل الموت فهو حلال.

(١) يُنظر: «صحيح مسلم» برقم (١٩٣٥) و«صحيح البخاري» برقم (٢٤٨٣، ٥٤٩٤).

١٠- وحرم الله تعالى ما ذُبِح على ما ينصب للعبادة، من حجر أو قبر، ونحوه فهو من أبواب الشرك.

١١- وحرم الله عليكم اللحم والطعام الذي يحصل لكم عن طريق المقامرة، ومنه ما يُذبح للجن والسحرة، وكذا التحاكم إلى القداح، عند إرادة فعل أمر من الأمور أو تركه، وقد شرع الإسلام لنا الاستخارة بدلاً من ذلك.

وإذا ارتكب العبد شيئاً من ذلك، فهو معصية لله تعالى، وخروج عن طاعته؛ فإن هذا من شأن الكفار، وقد انقطع طمعهم في أن ترتدوا عن دينكم إلى ما هم عليه من الكفر والشرك، فلا تخافوا أحداً غير الله، فقد أكمل الله لكم الدين، وحقق لكم النصر، وأتم لكم الشريعة، وأخرجكم من ظلمات الجاهلية إلى نور الإيمان، ورضى لكم هذا الدين، فالزموه ولا تفارقوه.

هذا: وقد تضمنت الجملة قبل الأخيرة من الآية أربع بشارات وهي:

الأولى: ظهور هذا الدين، ويأس الكفار من ردة المسلمين عن دينهم.

والثانية: إكمال هذا الدين بكل ما يحتاجه البشر.

والثالثة: تمام النعمة عليهم بإخراجهم من الشرك إلى التوحيد.

والرابعة: أن الله تعالى اختار لنا هذا الدين وارتضاه لعباده إلى قيام الساعة.

وفي آخر الآية بيان أن من اضطر إلى تناول شيء مما حرّمه الآية في مجاعة ونحوها، غير متعمّد لذلك فله أن يتناوله، والله غفور له، رحيم به.

حُلُ الطَّيِّبَاتِ وَمِنْهَا: صَيْدُ السَّبَاعِ الْمُعْلَمَةِ

٤- ﴿يَسْأَلُونَكَ مَاذَا أَحَلَّ لَهُمْ قُلْ أُحِلَّ لَكُمْ الطَّيِّبَاتُ﴾.

أي أن الله تعالى أحل لكم كل ما فيه نفع وفائدة من غير ضرر بالعقل ولا بالبدن، ويدخل في ذلك جميع الحبوب والثمار، وجميع حيوانات البر والبحر إلا ما حرّمه الشرع كالسباع والخبائث ونحو ذلك.

أسباب النزول:

١- عن أبان بن صالح، عن القعقاع بن الحكيم، عن سلمى أم رافع، عن أبي رافع قال: أمرني رسول الله ﷺ بقتل الكلاب، فقال الناس: يا رسول الله، ما أحل لنا من هذه الأمة، التي أمرت بقتلها - أي: أمة الكلاب - فأُنزل الله هذه الآية^(١)

٢- وعن ابن عمر رضي الله عنهما أن النبي ﷺ أمر بقتل الكلاب حتى قتلنا كلب امرأة جاءت من البادية.^(٢)

٢- وعن سعيد بن جبير، عن عدي بن حاتم، وزيد بن المهلهل، أنهما سألا رسول الله ﷺ فقالا: يا رسول الله، قد حرم الله الميتة، فماذا يحل لنا منها؟ فنزلت الآية^(٣).

٤- ولما كان النبي ﷺ مع أصحابه في غزوة، شَرَدَ منهم بغير، فرماه رجل بسهم فحبسه، فقال رسول الله ﷺ: «إن لهذه الإبل أوابد كأوابد الوحش، فإذا غلبتكم منها شيء، فاصنعوا به هكذا»^(٤).

اقتناء الكلاب لا يجوز إلا لحاجة:

وقد ثبت أن جبريل عليه السلام استأذن في الدخول على النبي ﷺ، فأذن له الرسول ﷺ، ثم وقف جبريل على الباب وامتنع من الدخول، فسأله النبي ﷺ عن سبب امتناعه، فقال:

(١) رواه الحاكم في «المستدرک» (٣١١/٢) والطبري (٥٤٥/٩) والطبراني في «المعجم الكبير» برقم (٩٢٧) (٣٢٦/١) والبيهقي في «السنن الكبرى» (٢٣٥/٩) وذكره ابن الجوزي في «زاد المسير» (٢٩٠/٢) والقرطبي (٦٥/٦) وغيرهم وفيه موسى بن عبيدة الربذي، ضعيف، والحديث في المسند برقم (٢٧١٨٨) بمعناه، وليس فيه ذكر للآية، وإسناده صحيح وأخرجه الطحاوي في شرح مشكل الآثار (٤٦٦٨) وهو في المسند أيضا برقم (٢٣٨٦٥) وفي تفسير الطبري (٨٨/٦) واللفظ المذكور للحاكم (٣١١/٢) وعنه البيهقي (٢٣٥/٩) وفيه محمد بن إسحاق.

(٢) مسند أحمد (٤٧٤٤) بإسناد صحيح على شرط مسلم ورجال ثقات رجال الشيخين غير أبي داود الحضري فمن رجال مسلم (محققوه)، وأخرجه مسلم (١٥٧٠) وابن أبي شيبه (٤٠٥/٥).

(٣) سنن أبي داود برقم (٢٨١٧) بنحوه ورواه ابن أبي حاتم وفي سننه ابن لهيعة وشيخه عطاء بن دينار، متكلم فيهما.

(٤) انظر الحديث في «صحيح مسلم» برقم (١٩٦٨) و«صحيح البخاري» برقم (٢٤٨٨، ٥٥٠٣، ٥٥٤٣، ٥٥٤٤).

«إنا لا ندخل بيتًا فيه كلب ولا صورة»^(١).

ولفظه عند مسلم: عن عبد الله بن عباس رضي الله عنه قال: أخبرني ميمونة أن رسول الله ﷺ أصبح يومًا واجمًا، فقالت ميمونة: يا رسول الله، لقد استنكرتُ هيتك منذ اليوم! قال رسول الله ﷺ: «إن جبريل كان واعدني أن يلقاني الليلة، فلم يلقني، أما والله ما أخلفني» قال: فظل رسول الله ﷺ يومه على ذلك، ثم وقع في نفسه، جرؤ كلب تحت فسطاط لنا، فأمر به فأخرج، ثم أخذ بيده ماء، فنضح مكانه، فلما أمسى لقيه جبريل، فقال له: «قد كنت وعدتني أن تلقاني البارحة؟» قال: أجل، لكننا لا ندخل بيتًا فيه كلب ولا صورة، فأصبح رسول الله ﷺ يومئذ فأمر بقتل الكلاب، حتى إنه يأمر بقتل كلب الحائط الصغير، ويترك كلب الحائط الكبير^(٢) والحائط هو البستان.

والحديث يشير إلى أن النبي ﷺ فتش البيت، فوجد تحت السرير جرؤًا صغيرًا فأخرجوه منه، فدل ذلك على أن اقتناء الكلاب في البيوت لا يجوز في الإسلام، وأنها تمنع الملائكة من الدخول إلى المكان الذي هي فيه، إلا ما استثناه الرسول ﷺ: من كلاب الصيد، وكلاب حراسة الماشية، أو حراسة المزارع، أو حراسة البيت.

واستثناء كلب الحراسة والماشية؛ لما جاء في الصحيحين عن أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «من أمسك كلبًا فإنه ينقص في كل يوم من عمله قيراط إلا كلب حرث أو ماشية»^(٣).

وفي صحيح مسلم: «من اقتنى كلبًا، ليس بكلب صيد، ولا ماشية، ولا أرض، فإنه ينقص من أجره قيراطان كل يوم»^(٤)، ثم نهى النبي ﷺ عن قتل الكلاب إلا الكلب الأسود في قوله: «ما بالهم وبال الكلاب؟! اقتلوا منها كل أسود بهيم»^(٥).

(١) رواه مسلم عن عائشة (٢٠٤) والبخاري (٣٠٥٥) وعن عبدالله بن عمر برقم (٥٦١٥).

(٢) «صحيح مسلم» (١٦٦٤/٣) برقم (٢١٠٥) وعن طلحة برقم (٢١٠٦) والبخاري بأرقام: (٣٣٢٢، ٣٢٢٥) ٤٠٠٢، ٥٩٤٩ وأبو داود في الصلاة (٢٦٧/٣) والترمذي (٨٠/٤) برقم (٢٨٠٤) والنسائي (١٨٥/٧)

وأحمد (٣٣٣/٣) برقم (١٦٣٤٦) وإسناده صحيح على شرط الشيخين، وغيرهم.

(٣) «صحيح مسلم» برقم (١٥٧٥) و«صحيح البخاري» برقم (٢٣٢٢، ٣٣٢٤).

(٤) «صحيح مسلم» برقم (١٥٧٥).

(٥) أبو داود برقم (٧٤) ومسلم برقم (٢٨٠، ١٥٧٣) والنسائي (١٧٧/١) وابن ماجه برقم (٣٦٥).

وفي الحديث عن أبي طلحة رضي الله عنه: «إن الملائكة لا تدخل بيتاً فيه كلب ولا صورة تماثيل»^(١) أي: مجسمة، وهي صور منحوتة، ويلحق بها الصور المعلقة على الجدار على وجه التعظيم، إلا ما أمُتِهِن من الصور، فليسَ تحت الأقدام، أو جُعل وسادة ونحوها، وإلا ما كانت الضرورة تحتاجه في إثبات الشخصية والوثائق، ونحو ذلك مما يأخذ حكم الضرورة.

وقد اشتملت هذه الآية على حكمين:

أحدهما: حِلُّ الطيبات: والمعنى: يسألك أصحابك - يا محمد: ما الذي أحله الله لهم من المطاعم والمآكل بعد أن عرفوا ما حُرِّم منها؟ قل لهم - يا محمد: أحل الله لكم الأطعمة الطيبة التي تستلذها الطباع السليمة، ولا يمنع الشرع من تناولها، ومفهوم المخالفة: أن الله تعالى حرم على عباده المستقذرات والخبائث، مثل: الخنافس والفئران والحشرات ونحوها، وذلك أنه بعد نزول الآية السابقة وفيها المحرمات الأحد عشر من الذبائح، أخذ أصحاب رسول الله ﷺ يتخرجون ويتوجسون من كل ما ألفوه واعتادوه في الجاهلية، فراحوا يسألون النبي ﷺ في استجابة وأريحية؛ للتوقي مما كان في الجاهلية، والتثبت مما يقره المنهج الجديد، للحذر من مخالفته، بعد ما سمعوا هذه المحرمات التي ثلثت عليهم في الآية السابقة، فأخذوا يسألونه: ماذا أحل لهم أكله من الطعام ومن الذبائح؟ ليكونوا على يقين وبينة مما يؤكل، فكان الجواب: ﴿قُلْ أَحَلَّ لَكُمْ الطَّيِّبَاتُ﴾ أي: أحل لكم كل طيب شرعاً وعرفاً، وكل ما ذبح على اسم الله تعالى، وفيه إشارة إلى تحريم كل خبيث، ومنه ما ذكر في الآية السابقة، من كل خبيث مستقذر تأباه الفطرة السليمة حساً وذوقاً؛ كالميتة، والدم، ولحم الخنزير، والتبغ والتدخين، ونحوه كما قال تعالى: ﴿وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبِيثَ﴾ [الأعراف: ١٥٧].

والجسم الذي اعتاد شيئاً خبيثاً يحسبه المتناول له طيباً؛ لآلفه له، كمدمن الخمر، وكذا من تسمم جسده بمواد التدخين والتبغ والمخدرات، والعبرة بالجسم الذي لا يألَف شيئاً من ذلك، فهو يستقذره في أول تعاطيه له، ثم يتعوده بعد ذلك.

وعلى المسلم أن يسأل نفسه دائماً: إذا ميز الله يوم القيامة بين الطيبات والخبائث،

(١) من حديث أبي طلحة في «البخاري» (٣٢٢٥) و«مسلم» (٢١٠٦).

فمن أي الفريقين يكون هذا الذي يتناوله؟ قال تعالى: ﴿لِيَمِيزَ اللَّهُ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ وَيَجْعَلَ الْخَبِيثَ بَعْضُهُ عَلَى بَعْضٍ فَيَرْكُمَهُ جَمِيعًا فَيَجْعَلُهُ فِي جَهَنَّمَ﴾ [الأنفال: ٣٧].

والحكم الثاني: حكم ما اصطادته السباع المدربة: قال تعالى عطفًا على ﴿الطَّيِّبَتُ﴾:

﴿وَمَا عَلَّمْتُمْ مِنَ الْجَوَارِحِ مُكَلِّبِينَ تُعَلِّمُونَهُنَّ مِمَّا عَلَّمَكُمُ اللَّهُ فَكُلُوا مِمَّا أَمْسَكْنَ عَلَيْكُمْ وَاذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهِ وَانْقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾

أي: وكما أحل الله لكم الطيبات، أحل لكم صيد ما علَّمتموه من الجوارح حال كونها معتادة للصيد ومدربة عليه بتعليمكم لها بعض ما علَّمكم الله من طرق الصيد، بالانقياد لأمركم عند الإرسال وعند الطلب، وعدم الأكل مما يصطاده، وفي هذا رخصة من الله تعالى، وتفضل على عباده؛ حيث سخر لهم من خلق الله ما ينفعهم، فكلوا مما أمسكت هذه الجوارح، واذكروا اسم الله عند إرسالها للصيد؛ فإن هذه التسمية كالتسمية عند الذبح، وكان النبي ﷺ قد أمر أبا رافع بقتل الكلاب، ثم سأل النبي ﷺ: ماذا يحل لنا من هذه الكلاب؟ فنزلت الآية.

ولما سأل عدي بن حاتم وزيد الخير رسول الله ﷺ قالوا: يا رسول الله، إنا قوم نصيد بالكلاب والبزاة، فمنه ما ندرك ذكاته، ومنه ما لا ندرك ذكاته، وقد حرم الله الميتة؟^(١) والبزاة: نوع من الطيور، وهذا سؤال يحتاج إلى جواب، وجوابه في الآية.

وكذا لما سأل عدي بن حاتم الطائي رسول الله ﷺ قائلاً: إنا نصطاد بالكلاب، فماذا يحل لنا منها؟ فأنزل الله سبحانه ﴿يَسْأَلُونَكَ مَاذَا أُحِلَّ لَهُمْ﴾ أي: يسألونك بعد تحريم الميتة والمنخقة... ماذا أحل لهم؟ إلخ. قال سبحانه لرسوله ﷺ في جواب ذلك: ﴿قُلْ أُحِلَّ لَكُمْ الطَّيِّبَتُ﴾ ومنها: ذبائح الأنعام، من الإبل والبقر والغنم، وأحل لكم صيد البحر وطعامه، كما أحل لكم صيد البر إلا ما استثنى في هذه الآية من كل ما لم يذكر اسم الله عليه.

وأحل لكم كذلك صيد الكلاب المعلمة كما في قوله تعالى: ﴿وَمَا عَلَّمْتُمْ مِنَ الْجَوَارِحِ﴾ أي: وأحل لكم صيد ما علمتم من كلاب الصيد، وهي سباع البهائم؛ كالصقر، والسبع، والفهد، والأسد، والذئب، وغير ذلك من ذوات المخالب والأنياب، وكلها يقال لها:

(١) انظر الأحاديث (١٧٥، ٥٤٨٣، ٥٤٨٧) في البخاري و(١٩٢٩) في مسلم.

كلاب الصيد؛ لأن إرسال كلب الصيد يقوم مقام نية الذبح.

وسميت جوارح؛ لأنها تجرح الصيد عند إمساكه، فهو صيد جارج، ولأنها تكتسب الصيد لأهلها، فمعنى اجترَح: اكتسب، وهي الكلاب المدربة، أي: المعلمة للصيد، وهذا معنى مكَلِّين، أي: معلمين، وقد أباح الإسلام ما تمسكه وما تصطاده كلاب الصيد المعلمة في قوله تعالى: ﴿تُعَلِّمُوهُمْ﴾ أي: تعلمون الجوارح طلب الاصطياد لكم ﴿يَمَّا عَلَّمَكُمْ اللَّهُ﴾ أي: من العلم الذي علمكم الله، فلا يجوز صيد جارحة غير معلمة، وهذا التعليم لجارحة الصيد ينبغي أن يتوافر فيه أمور، وهذه الأمور مأخوذة من الآية الكريمة، ومن أحاديث المصطفى ﷺ وهي شروط أربعة:

الشرط الأول: أن يكون الذي يطلقها ويصطادها مسلمًا، فغير المسلم لا يجوز له ذلك.

الشرط الثاني: أن يذكر اسم الله عليها حين إطلاقها؛ لقوله تعالى: ﴿فَكُلُوا مِمَّا أَمْسَكْنَ عَلَيْكُمْ وَاذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهِ﴾.

وفي الحديث عن عدي بن حاتم أن النبي ﷺ قال: «إذا أرسلت كلبك، فاذكر اسم الله، وإذا رميت بسهمك فاذكر اسم الله»^(١) والمراد التسمية عند الإرسال.

وقال بعضهم: تكون التسمية عند الأكل، واستدلوا بحديث عائشة ؓ أنها قالت: يا رسول الله، إن قومًا يأتوننا - حديثو عهدهم بكفر - بلحمان لا ندري أذكر اسم الله عليها أم لا؟ فقال: «سموا أنتم وكلوا»^(٢).

ويشهد للقول الأول ظاهر الآية؛ فإن الضمير في ﴿عَلَيْهِ﴾ يعود على الجوارح على الأرجح، ويشهد له أيضًا ما جاء في الصحيحين:

عن عدي بن حاتم ؓ قال: سألت رسول الله ﷺ قلت: إنا قوم نصيد بهذه الكلاب، فقال: «إذا أرسلت كلابك المعلمة، وذكرت اسم الله عليها، فكل مما أمسكن عليك وإن قتلن، إلا أن يأكل الكلب، فإن أكل فلا تأكل، فإني أخاف أن يكون إنما أمسك على

(١) من حديث عدي بن حاتم في البخاري (٥٤٨٤) ومسلم (١٩٢٩).

(٢) «صحيح البخاري» برقم (٥٠٥٧، ٧٣٩٨).

نفسه، وإن خالطها كلاب من غيرها فلا تأكل»^(١).

ويجمع بينهما بأن حديث عائشة ليس نصًّا في الصيد، بل هو نص في الأكل مطلقًا، وعند الجهل بمصدر الذبيحة بالنسبة لغير المسلم، وقد جاء عن علي وعائشة وابن عمر رضي الله عنهم: «إذا سمعت الكتابي يسمي غير الله فلا تأكل»^(٢).

فالتسمية شرط عند إرسال كلب الصيد على الصحيح، ويشهد لذلك حديث عدي بن حاتم السابق ذكره.

قال في المغني: فإن ترك التسمية عمدًا أو سهوًا لم يبح، هذا تحقيق المذهب، أي: مذهب أحمد.

وتكون التسمية عند بدء الطعام والشراب وفي كل أمر له شأن:

١- ففي صحيح مسلم وغيره عن حذيفة رضي الله عنه قال: كنا إذا حضرنا مع النبي صلى الله عليه وسلم طعامًا لم نضع أيدينا حتى يبدأ رسول الله صلى الله عليه وسلم فيضع يده، وإنّا حضرنا معه مرة طعامًا، فجاءت جارية كأنها تُدفع، فذهبت لتضع يدها في الطعام، فأخذ رسول الله صلى الله عليه وسلم بيدها، ثم جاء أعرابي كأنما يُدفع، فأخذ بيده، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «إن الشيطان يستحل الطعام إلا يذكر اسم الله عليه، وإنه جاء بهذه الجارية ليستحل بها، فأخذت بيدها، فجاء بهذا الأعرابي ليستحل به، فأخذت بيده، والذي نفسي بيده: إن يده في يدي مع يدهما»^(٣).

٢- وفي حديث عمر بن أبي سلمة رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال له: «سم الله، وكُلْ بيمينك، وكل مما يليك»^(٤).

٣- وفي حديث جابر بن عبد الله رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «إذا دخل الرجل بيته فذكر الله عند دخوله وعند طعامه، قال الشيطان: لا مبيت لكم ولا عشاء، وإذا دخل فلم يذكر اسم

(١) «صحيح مسلم» (١٥٢٩/٣) برقم (١٩٢٩) و«صحيح البخاري» برقم (٥٤٧٥) وانظر: (١٧٥).

(٢) فتح القدير (١٧/٢).

(٣) «صحيح مسلم» برقم (٢٠١٧) و«المسند» (٣٨٢/٥) برقم (٢٣٢٤٩) بإسناد صحيح على شرط مسلم وأبو داود (٣٧٦٦) و«سنن النسائي الكبرى» (٦٧٥٤٠) والبيهقي في الشعب (٥٨٣٠) والطحاوي (١٠٧٩).

(٤) البخاري (٥٣٧٦، ٥٣٧٧، ٥٣٨٧) ومسلم (٢٠٢٢).

الله عند دخوله، قال الشيطان: أدركتم المبيت، فإذا لم يذكر اسم الله عند طعامه، قال: أدركتم المبيت والعشاء»^(١).

الشرط الثالث: ألا يأكل كلب الصيد مما اصطاده، فإن أكل منه، فمعنى ذلك أنه اصطاد لنفسه وليس لمعلمه أو مدرّبه، وذلك لحديث ابن عباس رضي الله عنهما «إذا أرسلت الكلب فأكل من الصيد فلا تأكل، فإنما أمسك على نفسه، وإذا أرسلته فقتل ولم يأكل، فكل، فإنما أمسك على صاحبه»^(٢).

١- وجمهور أهل العلم على أنه إذا أكل الكلب مما اصطاده، فإن صيده يحرم أكله مطلقاً، ومما يستدل به أن عدي بن حاتم سأل النبي ﷺ عن صيد الكلاب فقال: «إذا أرسلت كلابك المعلمة وذكرت اسم الله عليها، فكل مما أمسكن عليك وإن قتل، إلا أن يأكل الكلب، فإن أكل فلا تأكل...»^(٣).

٢- وحكي عن طائفة من السلف أنه لا يحرم، واستدلوا بما قاله أبو هريرة «لو أرسلت كلبك فأكل منه، فإن أكل ثلثيه وبقي ثلثه فكل»^(٤).

وفي حديث أبي ثعلبة أن النبي ﷺ قال: «إذا أرسلت كلبك وذكرت اسم الله عليه فكل وإن أكل منه»^(٥).

والعمل على ما عليه الجمهور، ويحمل هذا القول على ألا يكون الأكل عادة له مستمرة.

الشرط الرابع: أن يكون كلب الصيد مدرّباً معلماً مطيعاً، فإذا أطلقه صاحبه انطلق،

(١) هذا لفظ أبي داود (٣٧٦٤) ورواه مسلم (١٥٩٨/٣) برقم (٢٠١٨) وابن ماجه (١٢٧٩/٢)، وصححه الألباني في صحيح ابن ماجه (٣١٣٥) والتعليق الرغيب (١١١٦/٣).

(٢) مسند أحمد (٢٠٤٩) صحيح لغيره، والطبراني (١٢٣١٣)

(٣) أبو داود (٢٨٤٩) وصححه الألباني في صحيح أبي داود (٢٤٧٥) وهو في صحيح مسلم (١٩٢٩) والبخاري (٥٤٨٣، ٥٤٨٧).

(٤) «تفسير الطبري» (٥٦٢/٩) ورواه ثقات، وجاء مثله عن سعد بن أبي وقاص وسلمان وابن عمر.

(٥) سنن أبي داود برقم (٢٨٥٢)، وهو حديث ضعيف، وانظر المسند (١٧٧٥، ١٧٧٣٧).

وإذا زجره انزجر، وإذا طلب منه أن يثبت ثبت، وهكذا.

واستثنى الإمام أحمد من كلاب الصيد المعلّمة الكلب الأسود؛ لأنه يجب قتله عنده، ولا يحل اقتناؤه؛ لحديث أبي ذر: «يقطع الصلاة: الحمار، والمرأة، والكلب الأسود»، فقلت: ما بال الكلب الأسود من الأحمر؟ فقال: «الكلب الأسود شيطان»^(١).

وفي رواية عن جابر: «عليكم بالأسود البهيم ذي النقطتين؛ فإنه شيطان»^(٢).

وفي ختام الآية أمر سبحانه بتقوى الله تعالى والخوف منه، وامتنثال أمره ونهيه، فإنه سبحانه المجازي على الأقوال والأفعال في يوم يشتد فيه الحساب ﴿وَأَنْقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾.

وفي هذه الآية أمور منها:

- ١- لُطف الله تعالى بعباده ورحمته بهم، حيث وسّع عليهم أبواب الحلال، ومن ذلك صيد الكلاب المعلّمة التي إذا أرسلها صاحبها أرسلت، وإذا زجرها انزجرت.
- ٢- جواز اقتناء كلب الصيد، أما اقتناء الكلاب فهو محرم.
- ٣- طهارة ما أصابه فم الكلب من الصيد لأن الله تعالى أباح أكله.
- ٤- الاشتغال بتعليم الكلب أو الطير ونحوهما كالفهد والصقر ليس مذموماً ولا عبثاً أو لهواً.
- ٥- جواز بيع كلاب الصيد المعلّمة.
- ٦- اشتراط التسمية عند إرسال الجارح.
- ٧- جواز أكل ما صاده الجارح.

(١) «صحيح مسلم» برقم (٥١٠) وأبو داود (٤٥٠/١) برقم (٧٠٢) وصحيح سنن أبي داود (٦٥٠) والترمذي (١٦١/٢) والنسائي (٦٢/٢) وابن ماجه (١٠٦٩/٢) و«المسند» (١٤٩/٥) برقم (٢١٤٢٤، ٢١٤٣٠) وجاء من طرق أخرى كثيرة.

(٢) يُنظر: حديث أنس في البخاري (٢٢٠/٥) وجابر في مسلم (١٧٢١/٤) برقم (١٥٧٢) وأبو داود (٦٤٧/٤).

حِلُّ طَعَامِ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالتَّرَوُّجُ مِنْهُمْ

٥- ﴿الْيَوْمَ أُحِلَّ لَكُمُ الطَّيِّبَاتُ وَطَعَامُ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حِلٌّ لَكُمْ وَطَعَامُكُمْ حِلٌّ لَهُمْ وَالْمُحْصَنَاتُ^(١) مِنَ الْمُؤْمِنَاتِ وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ إِذَا ءَاتَيْتُوهُنَّ أَجُورَهُنَّ مُحْصِنِينَ غَيْرَ مُسْفِحِينَ وَلَا مُتَخَذِي أَخْدَانٍ وَمَنْ يَكْفُرْ بِالْإِيمَانِ فَقَدْ حَبِطَ عَمَلُهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴿٥﴾

ثم بيّن سبحانه أنه قد أباح لعباده كل ما هو طيب وشهي مما أحله الله تعالى، من كل ما لذ وطاب، ولم يرِدْ نص في تحريمه، قال تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا﴾ [البقرة: ٢٩]. وقد ذكر سبحانه إحلال الطيبات لبيان الامتنان، لكي يشكر العباد ربهم ويكثرُوا من ذكره حيث أحلّ لهم الطيبات وأباح لهم كل ما تدعو الحاجة إليه.

وقوله تعالى: ﴿الْيَوْمَ أُحِلَّ لَكُمْ الطَّيِّبَاتُ﴾ يراد باليوم: الزمان الحاضر، مع ما يتصل به من الماضي والمستقبل، ويصح أن يراد باليوم: يوم نزول الآية، في يوم عرفة من عام حجة الوداع، وقد اشتملت هذه الآية على ثلاثة أحكام:

الحكم الأول: إباحة الأطعمة الطيبة: كالخبز، واللحم، والسمن، والزيت، والفاكهة، وكل ما ليس فيه مضرة للإنسان، كما قال تعالى: ﴿يَأْتِيهَا النَّاسُ كُلُّوا مِمَّا فِي الْأَرْضِ حَلَالًا طَيِّبًا﴾ [البقرة: ١٦٨]. وقال: ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ﴾ [البقرة: ١٧٢].

الحكم الثاني: ذبائح أهل الكتاب: وقد أعادت هذه الآية لفظ ﴿الطَّيِّبَاتُ﴾ المذكور في الآية السابقة؛ لتبني عليه ما يتعلق بطعام أهل الكتاب من اليهود والنصارى، فقد أحل الله لنا طعامهم كله بما فيه ذبائحهم؛ نظرًا لأن ديانتهم في الأصل ديانة توحيد، فهم ينتسبون إلى الأنبياء والكتب، بغض النظر عما طرأ عليها من الشرك والتحريف، وقد اتفق الرسل جميعًا على تحريم الذبح لغير الله، لأنه شرك، فاليهود والنصارى يتدينون بتحريم الذبح لغير الله، فلذا أبيحت ذبائحهم دون غيرهم، والدليل على أن المراد بالطعام في الآية هو الذبائح؛ أن الحبوب والثمار ليس لأهل الكتاب فيه خصوصية.

ومن دخل في دين أهل الكتاب بعد بعثة النبي ﷺ فإن ذبيحته لا تحل؛ لأنه لا يُقبل من

(١) قرأ الكسائي (والمُحْصَنَات) بكسر الصاد في الكلمتين، وقرأ الباقون (والمُحْصَنَات) بفتح الصاد فيهما معًا.

أحد غير الإسلام بعد مجيء خاتم الرسل ﷺ.

وَمَنْ لَيْسَ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَا تَوَكَّلْ ذُبَائِحَهُمْ؛ كعبدة النار والبقر والأوثان والجن والكواكب، ونحوهم؛ فهم ليسوا أهل كتاب.

وعلى هذا: فالذبائح التي تَرِدُ إلى المسلمين من بلاد أهل الكتاب يجوز أكلها، والذبائح التي تَرِدُ من البلاد الأخرى لا يحل أكلها، وهذا معنى: ﴿وَطَعَامُ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حِلٌّ لَكُمْ﴾ وبالتالي فإن طعام المسلمين يحل لهم ﴿وَطَعَامُكُمْ حِلٌّ لَهُمْ﴾ وإذا ثبت لدينا أن ذبائحهم قد صُغقت بالكهرباء، أو رُميت بالرصاص، أو خُنقت، أو سُحب منها الأوكسجين، فماتت، فإنه لا يجوز أكلها، ومما يدل على جواز أكل ذبائح أهل الكتاب من السُّنَّة أن أهل خير أهدوا إلى النبي ﷺ شاة مشوية، وكانوا قد سَمَّموا ذراعها، لعلمهم أن النبي ﷺ يعجبه لحم الذراع، فتناول منها نهشة، فأخبرته الذراع أنها مسمومة، فلفظها^(١).

الحكم الثالث: الزواج من أهل الكتاب: ﴿وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الْمُؤْمِنَاتِ﴾

أي: وأحل الله لكم أن تتزوجوا النساء المسلمات العفيفات الطاهرات المحصنات من المؤمنات، وقَدِّمَت الآية هذا على نكاح الكتابيات؛ لبيان الأفضلية، وبيان الأولى، فإذا أراد المسلم أن يتزوج وأمامه المسلمة وغير المسلمة، فالأولى له أن يقدم المسلمة؛ لأن الكتابية لا يخلو حالها من اعتياد شرب الخمر، وذكر الصليب، ونحو ذلك، وكما قال ابن عمر: إنها تشرك بالله، وتؤمن أن عيسى إلهًا أو ابنًا، أو ثالث ثلاثة، فلو فُرِض وأن المسلم تزوج الكتابية، فعليه أن يتخير العفيفة التي تصون نفسها عن التبذل وسفاسف الأمور، ثم عطف سبحانه على ذلك فقال: ﴿وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ﴾ أي: ويجوز لكم الزواج من الكتابية ولو بقيت على ديانتها يهودية أو نصرانية.

وقد تزوج عثمان ؓ (نائلة) وهي نصرانية، وتزوج طلحة بن عبيد الله يهودية، وقد أجاز الإسلام ذلك؛ لأن ذريتها ستكون مسلمة، ولأن الإسلام يطمع في إسلامها، فيحل

(١) عند أحمد، في المسند (٢٧٨٤، ٣٥٤٧) عن ابن عباس وكذا (٩٨٢٧، ١٣٢٨٥) والبخاري عن أبي هريرة (٣١٦٩) وانظر سنن البيهقي (٤٦/٨) وفتح الباري (٤٩/٧) والنسائي في الكبرى (١١٣٥٥) وأبوداود (٤٥٠٩) والدارمي (٦٩).

لكم أن تتزوجوا المحصنة الحرة العفيفة غير المجاهرة بالزنى، وغير الخليلات العاشقات سراً، إذا أعطيتوهن المهر الذي يبذله الزوج للمرأة، وكنتم متعفين بهن غير زناة، سراً لا علناً، منفردين لا مجتمعين، على وجه السفاح أو الخلّة والصدّاقة، ولا متخذي أئحدان.

والسفاح: هو الزنى المعلن، بحيث لا تبالي المرأة أن يأتيها أي رجل، فهي مسفحة، أي: كاشفة عن وجهها، معلنة للدعارة، والرجل كذلك قد يكون مسافحًا.

والمتخذة للأخدان هي: ذات الصديق أو العشيق، تتخذه سرًّا صديقًا أو عشيقًا لها، وهي غير معلنة أو غير سافرة.

فالسفاح: أن تكون المرأة لأيّ رجل ، والمخادنة: أن تكون المرأة لرجل خاص بغير زواج.

وقد أباح الإسلام لنا أن نتزوج الكتابية (يهودية كانت أو نصرانية)؛ لأن الأصل في ديانتها هو التوحيد.

وفرق بينها وبين الوثنية التي لا تعرف ربًّا، ولا نبيًّا، ولا كتابًا، وقد نهانا الله تعالى عن الزواج منها، فقال: ﴿وَلَا تَنْكِحُوا الْمُشْرِكَةَ حَتَّىٰ يُؤْمِنَ﴾ [البقرة: ٢٢١]. وفي هذا تخصيص لها، والمراد عابدة الوثن.

أما الكتابية فيجوز زواجها بشرط أن ندفع لها مهرًا؛ لقوله تعالى: ﴿إِذَا مَاتَ أَحَدُكُمْ فَاجْزُوا لَهَا مَا تَرَكَ وَاتَّخِذُوا مِنْ مِّمْلَقَتِهِ فِدَاً لَهَا وَآيَاتُ الْمَوْتِ كُنْتَ بِهَا نَذِيرًا﴾ [النساء: ١٢]. ويجوز أن تنزوجها بعقد صحيح مستوفٍ لشروط الزواج، ويشترط أن تأمن على نفسك -أيها الزوج - من التأثير بدينها، وكما شرط الإسلام الإحصان والتعفف في النساء كما جاء في سورة النساء ﴿مُحْصَنَاتٍ غَيْرَ مُسَفِّحَاتٍ وَلَا مُتَّخِذَاتِ أَخْدَانٍ﴾ [النساء: ٢٥]. شرطه أيضًا في الرجل في سورة المائدة فقال: ﴿مُحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَفِّحِينَ وَلَا مُتَّخِذِي أَخْدَانٍ﴾

ويؤخذ من الآية أن الفاجرة غير العفيفة عن الزنى لا يباح نكاحها، سواء أكانت مسلمة أم كاتبة حتى تتوب، لقوله تعالى ﴿الزَّانِي لَا يَنْكِحُ إِلَّا زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً وَالزَّانِيَةُ لَا يَنْكِحُهَا إِلَّا زَانٍ أَوْ مُشْرِكٌ وَحُرِّمَ ذَلِكَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ﴾ [النور: ٣]

وفي سورة النساء أن المسلمة الرقيقة لا يجوز للحر نكاحها إلا بشرطين، هما: عدم الطول، اي عدم الاستطاعة، وخوف العنت، أي الزنى، لقوله تعالى: ﴿وَمَنْ لَّمْ يَسْتَطِعْ

مِنْكُمْ طَوْلًا أَنْ يَنْكِحَ الْمُحْصَنَاتُ الْمُؤْمِنَاتِ فَمِنْ مِمَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ مَنْ فَنَيْتَكُمْ الْمُؤْمِنَاتِ ﴿إِلَى أَنْ قَالَ: ﴿... ذَلِكَ لِمَنْ خَشِيَ الْعَنَتَ مِنْكُمْ﴾ [النساء: ٢٥].

المسلمة لا تتزوج الكتابي: وهذه الصورة لا تنعكس، أي: لا يجوز للمسلمة أن يتزوجها غير المسلم، وقد فرّق الإسلام بين الأمرين؛ لأن المسلم لا ينكر النصرانية، ولا ينكر اليهودية، بل يعترف بهاتين الديانتين وغيرهما على أنها شرائع سبقت محمدًا ﷺ، وكان لها وقتها وزمانها، فالمسلم يؤمن بما أنزل على محمد، وما أنزل على مَنْ قبله من الرسل، وأن هذه الشرائع قد نُسخَتْ وأدَّتْ مهمتها في زمان معين، وأما المرأة النصرانية أو اليهودية فهي لا تؤمن بمحمد ﷺ، ولا بما أنزل عليه.

ومن هنا فلا تأمن المسلمة على دينها إذا كانت في عصمة الكتابي؛ لأن الزواج فيه ولاية، والرجل له الولاية على المرأة، وقد قال تعالى: ﴿وَلَنْ يَجْعَلَ اللَّهُ لِلْكَافِرِينَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ سَبِيلًا﴾ [النساء: ١٤١]. وولاية غير المسلم على المسلمة يتعارض مع هذه الآية، ويتعارض مع القوامة عليها، فإذا كان الزوج غير مسلم، فلا يجوز له أن يكون قِيَمًا، أو وليًا على المرأة المسلمة، ثم إن المرأة المسلمة لا تقبل أن أبناءها يخرجون لأبيهم على غير الإسلام، وحين يتزوج المسلم من غير المسلمة فإن الأبناء يكونون مسلمين إلى أبيهم، مع أن الأم غير مسلمة، والعكس غير صحيح، ولذلك فقد أباح الإسلام هذا ومنع هذا.

ثم قال ﷺ في ختام الآية: ﴿وَمَنْ يَكْفُرْ بِالْإِيْمَانِ﴾ أي: ومن يجحد ما أمر الله به، ويكفر بشرائع الله وبما أحل وحرم ﴿فَقَدْ حِطَّ عَمَلُهُ﴾ أي: بطل ثواب عمله، فكأن العمل الباطل انتفخ كانتفاخ الدابة المسمومة، ثم ذهب أدراج الرياح، كما ماتت الدابة المسمومة، فالحبوط مأخوذ من انتفاخ بطن الدابة وموتها مسمومة ﴿وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَسِرِينَ﴾ إذا مات على ذلك.

النِّدَاءُ الثَّالِثُ لِلْمُؤْمِنِينَ فِيهِ ثَلَاثَةُ أَحْكَامٍ فِي الطَّهَارَةِ

٦- ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ فَاغْسِلُوا وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى الْمَرَافِقِ وَامْسَحُوا بِرُءُوسِكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ^(١) إِلَى الْكَعْبَيْنِ﴾

في الآية السادسة من سورة المائدة أحكام هامة؛ هذه الأحكام تتعلق بالطهارة: أحكام الوضوء، وأحكام الغسل، وأحكام التيمم، وهي آية جامعة، ذكر الله ﷻ فيها هذه الأحكام الثلاثة وفصلها؛ ويَبَيِّنُ أن امتثالها والعمل بها من لوازم الإيمان، لأن من مقتضيات الإيمان؛ العمل بما شرعه الله لنا في كتابه وعلى لسان رسوله ﷺ.

الْحُكْمُ الْأَوَّلُ: رَفْعُ الْحَدَثِ الْأَصْغَرِ

بَيَّنَّتِ الآية حكم الوضوء وأعضائه التي تُغسل عند إرادة الصلاة، وحددت أعضاء الوضوء الأربعة، بالإضافة إلى ما تضمنته من وجوب النية عند إرادة الوضوء.

والنية: مأخوذة من لفظ ﴿قُمْتُمْ﴾ أى (أردتم)؛ فالإرادة تعني: العزم والتصميم، والنية عند الوضوء وعند الصلاة؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾ [البينة: ٥]. وإخلاص الدين: يعني النية الخالصة في جميع الأعمال التي تُقَرَّبُ العبد من ربه، ولما جاء في الصحيحين وغيرهما عن عمر رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «إِنَّمَا الْأَعْمَالُ بِالنِّيَّاتِ وَإِنَّمَا لِكُلِّ امْرِئٍ مَا نَوَى»^(٢) والوضوء من الأعمال.

والمراد: إذا أردتم القيام إلى الصلاة، وأنتم مُحْدِثُونَ على غير طهارة، فاغسلوا وجوهكم... إلخ.

وقيل: كان الوضوء واجباً لكل صلاة في بدء الإسلام للمحدث والمتطهر معاً، حتى

(١) قرأ نافع وابن عامر وأبو جعفر وحفص والكسائي ويعقوب بنصب لام (وأرجلكم) عطفاً على (وجوهكم) فيكون حكم الرجلين الغسل كالوجه، وقرأ الباقون بخفضها عطفاً على (برءوسكم) إشارة إلى المسح على الخفين في بعض الأحوال، أو إشارة إلى عدم الإسراف في استعمال الماء؛ لأن غسل الرجلين مظنة كثرة صب الماء، فالمراد بالمسح: الغسل الخفيف.

(٢) جزء من حديث البخاري رقم (١)، ٥٤، ٢٥٢٩، ٥٠٧٠) وحديث مسلم رقم (١٩٠٧).

كان يوم فتح مكة، فخفف الله عتاً وأبقى الوجوب للمحدث، والاستحباب والندب لمن كان على طهارة.

وقد ثبت هذا من حديث بريدة عن أبيه قال: كان النبي ﷺ يتوضأ عند كل صلاة، فلما كان يوم الفتح توضأ ومسح على خفيه، وصلى الصلوات بوضوء واحد، فقال له عمر: يا رسول الله، إنك فعلت شيئاً لم تكن تفعله؟ قال: «إني عمداً فعلته يا عمر»^(١) قال الترمذي: والعمل على هذا عند أهل العلم، أنه يُصَلَّى بوضوء واحد ما لم يحدث.

وعن عمرو بن عامر الأنصاري قال: سمعت أنس بن مالك يقول: كان النبي ﷺ يتوضأ عند كل صلاة قال: قلت: فأنتم كيف كنتم تصنعون؟ قال: كنا نصلي الصلوات بوضوء واحد ما لم نحدث^(٢).

صفة الوضوء:

١- أما صفة وضوء النبي ﷺ فمنها ما جاء في الصحيحين عن عمرو بن يحيى المازني عن أبيه أن رجلاً قال لعبد الله بن زيد بن عاصم: هل تستطيع أن تريني كيف كان رسول الله ﷺ يتوضأ؟ فقال عبد الله بن زيد: نعم، فدعا بوضوء، فأفرغ على يديه، فغسل يديه مرتين مرتين، ثم مضمض، واستنشق ثلاثاً، وغسل وجهه ثلاثاً، ثم غسل يديه مرتين إلى المرفقين، ثم مسح رأسه بيديه فأقبل بهما وأدبر، بدأ بمقدم رأسه، ثم ذهب بهما إلى قفاه، ثم ردهما حتى رجع إلى المكان الذي بدأ منه، ثم غسل رجليه^(٣).

٢- وعن عطاء بن يزيد الليثي عن حُمران بن أبان قال: رأيت عثمان بن عفان توضأ، فأفرغ على يديه ثلاثاً فغسلهما، ثم مضمض واستنشق، ثم غسل وجهه ثلاثاً، ثم غسل يده اليمنى إلى المرفق ثلاثاً، ثم غسل اليسرى مثل ذلك، ثم مسح برأسه، ثم غسل قدمه

(١) «مسند أحمد» (٥/ ٣٥٨) برقم (٢٣٠٢٩) و«صحيح مسلم» (١/ ٢٣٢) برقم (٢٧٧) وأبو داود (١/ ١٢٠) برقم (١٧٢) والترمذي (١/ ٨٩) برقم (٦١) وقال: حديث حسن صحيح، وابن ماجه (١/ ١٧٠) برقم (٥١٠) والنسائي (١/ ٨٦) (١٣٢).

(٢) «المسند» (٣/ ١٣٢) بأرقام: (١٢٣٤، ١٢٣٦٤، ١٢٥٦٥، ١٣٧٣٤) والبخاري (٢١٤) وأبو داود (١٧١) والترمذي (٦٠) والنساء (١/ ٨٥) وابن ماجه (٥٠٩).

(٣) «صحيح البخاري» برقم (١٨٥، ١٨٦، ١٩١، ١٩٢) و«صحيح مسلم» برقم (٢٣٥).

اليمنى ثلاثاً، ثم اليسرى ثلاثاً مثل ذلك، ثم قال: رأيت رسول الله ﷺ توضأ نحو وضوئي هذا، ثم قال: «من توضأ نحو وضوئي هذا، ثم صلى ركعتين لا يُحدّث فيهما نفسه، غُفر له ما تقدم من ذنبه»^(١).

وفيد هذا الحديث أن النبي ﷺ غسل أعضائه ثلاث مرات.

٣- وفي حديث ابن عباس قال: توضأ النبي ﷺ مرة مرة^(٢).

٤- وفي حديث عبد الله بن زيد أن النبي ﷺ: توضأ مرتين مرتين^(٣).

٥- وفي حديث رفاع بن رافع أن رسول الله ﷺ قال للمسيء في صلاته: «إنها لا تتم صلاة أحدكم حتى يسبغ الوضوء كما أمره الله، يغسل وجهه، ويديه إلى المرفقين، ويمسح برأسه ورجليه إلى الكعبين»^(٤).

وقد أخذ الفقهاء من هذه الأحاديث وأمثالها أن الواجب في غسل الأعضاء مرة واحدة سابغة، وهو أدنى رتبة للوضوء، وأن المرتين والثلاث للندب والاستحباب، وأنه لا بد من إسباغ الوضوء بإتمامه وإكماله.

أما مسح الرأس، فبعض الفقهاء كالإمام أحمد قال: مرة واحدة، وبعضهم قال ثلاثاً كالشافعي، وقد جاء أفراد الرأس بالمسح في حديث عثمان السابق.

وقد رغب الإسلام في الوضوء، وحث عليه في كثير من الأحاديث، منها:

١- في صحيح مسلم وغيره عن عثمان بن عفان رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «من توضأ فأحسن الوضوء، خرجت خطاياه من جسده حتى تخرج من تحت أظفاره»^(٥).

(١) يُنظر: «صحيح البخاري» برقم (١٥٩، ١٦٠، ١٦٤، ٦٤٣٣) و«صحيح مسلم» برقم (٢٢٦) من طريق الزهري بنحوه.

(٢) «صحيح البخاري» برقم (١٥٧).

(٣) «صحيح البخاري» برقم (١٥٨).

(٤) صحيح سنن أبي داود (٧٦٤) وهو في سننه (٨٥٨) والبيهقي في «السنن» (٢/٣٤٥).

(٥) «صحيح مسلم» برقم (٢٤٥).

وفيه دليل على أنه ينبغي إسباغ الوضوء وإكماله على أحسن وجه .

٢- وفي صحيح مسلم وغيره عن عقبة بن عامر رضي الله عنه قال: كانت علينا رعاية الإبل، فجاءت نؤبتي فروحتُها بِعَشِيٍّ فأدركتُ رسول الله ﷺ قائماً يحدث الناس، فأدركتُ من قوله: «ما من مسلم يتوضأ، فيحسن وضوءه، ثم يقوم فيصلّي ركعتين مقبلاً عليهما بقلبه ووجهه إلا وجبت له الجنة»، فقلت: ما أجود هذا! فإذا قائل بين يدي يقول: التي قبلها أجود، فنظرت فإذا عمر، قال: إني قد رأيتك جئت آفاً، قال: «ما منكم من أحد يتوضأ فيسبغ الوضوء ثم يقول: أشهد أن لا إله إلا الله، وأن محمداً عبده ورسوله، إلا فتحت له أبواب الجنة الثمانية، يدخل من أيها شاء»^(١).

ولم يشرع الإسلام الوضوء لشيء إلا للصلاة، وفي حكمها الطواف بالبيت .

٣- عن ابن عباس رضي الله عنه أن النبي ﷺ خرج من الخلاء، فقدم إليه طعام، فقالوا: ألا نأتيك بوضوء؟ فقال: «إنما أمرت بالوضوء إذا قمْتُ إلى الصلاة»^(٢).

٤- وعن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «لولا أن أشق على أمتي لأمرتهم عند كل صلاة بوضوء، ومع كل وضوء سواك، ولأخرتُ عشاء الآخرة إلى ثلث الليل»^(٣).

٥- ويستحب قبل غسل الوجه: أن يذكُر المتوضئ اسم الله تعالى على وضوئه؛ لما جاء في الحديث عن جماعة من الصحابة أن النبي ﷺ قال: «لا وضوء لمن لم يذكر اسم الله عليه»^(٤).

٦- كما يستحب غسل الكفين قبل البدء في الوضوء، ويتأكد ذلك عند القيام من النوم؛

(١) «صحيح مسلم» برقم (٢٣٤) و«المسند» (١٥٣/٤) وأبو داود (١٦٩) و«سنن النسائي» (٩٥/١).

(٢) أخرجه أبو داود (١٣٦/٤) برقم (٣٧٦٠) وقال الترمذي: حديث حسن (٢٨٢/٤) برقم (١٨٤٧) وصحيح الترمذي (١٨٢٤) و«صحيح مسلم» (٢٨٢/١) وهو في صحيح «سنن أبي داود» (٣١٩٧).

(٣) إسناده صحيح، «المسند» (٢٥٥/١٣) برقم (٩٩٢٨)، دون ذكر الصلاة وثلث الليل.

(٤) أخرجه أبو داود (٧٥/١) برقم (١٠١) وأحمد في المسند (٩٤١٨) عن أبي هريرة بإسناد ضعيف، لجهالة يعقوب اللبثي (محققه) وأخرجه الترمذي (٧٣/١) برقم ٢٥ وحسنه الألباني في صحيح الترمذي (٢٤) وصحيح ابن ماجه (٣١٨) والحاكم (١٤٦/١) وغيرهم، قال الألباني في إرواء الغليل (١٢٢/١): حديث حسن، قلت: وله طرق كثيرة يتقوى بمجموعها، عن أبي سعيد، وسعيد بن زيد، وأبي هريرة، وسهل بن سعد وغيرهم.

لما ثبت في الصحيحين وغيرهما من حديث أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «إذا استيقظ أحدكم من نومه فليفرغ على يده ثلاث مرات قبل أن يدخل يده في إنائه فإن أحدكم لا يدري فيم بات يده؟!»^(١).

قلت: وقوله ﷺ: «فإن أحدكم لا يدري أين بات يده؟!». يفيد أهمية غسل الكفين عند القيام من النوم قبل الوضوء وغيره، ولو لم يأخذ المتوضئ الماء من إناء يُدخل فيه، فإن كان الماء في إناء فهو آكد وأشد استجباً، وصَبَّ الماء على الكفين من الصنابير ونحوها هو المعمول به في الوقت الحاضر، حيث تجري المياه في المواسير.

أعضاء الوضوء:

ولنشرع بعد ذلك بحول الله تعالى في ذكر أعضاء الوضوء الأربعة وهي: غسل الوجه، وغسل اليدين مع المرفقين، ومسح الرأس، وغسل الرجلين، بالإضافة إلى وجوب النية كما أسلفت، وإلى وجوب الترتيب بين أعضاء الوضوء، كما جاءت في الآية، وكما ثبت أن النبي ﷺ لم يخالف هذا الترتيب في وضوئه، كما تجب الموالاة بين أعضاء الوضوء في الغسل، بحيث لا يجف العضو السابق عن اللاحق، ولا يفصل بينهما بلبس شراب ونحوه؛ فهذه ثلاثة أحكام بخلاف أعضاء الوضوء الأربعة، وهي: النية والترتيب والموالاة.

والعضو الأول: غسل الوجه؛ لقوله تعالى: ﴿فَاغْسِلُوا وُجُوهَكُمْ﴾ ويدخل في الوجه: الأنف والفم، أي: المضمضة والاستنشاق عند الإمام أحمد.

عن ابن عباس وعثمان وغيرهما رضي الله عنهم أن النبي ﷺ توضأ فغسل وجهه، ثم أخذ غرفة من ماء، فتمضمض بها واستنثر...^(٢).

وعند الجمهور: أن المضمضة والاستنشاق قبل غسل الوجه، من سنن الوضوء.

وقد ثبت في الصحيحين وغيرهما من حديث عثمان بن عفان، وعبد الله بن زيد، وعلي بن أبي طالب، وعبد الله بن عمرو بن العاص، وغيرهم، في صفة وضوء النبي ﷺ: أنه

(١) يُنظر: «صحيح البخاري» برقم (١٦٢) و«صحيح مسلم» برقم (٢٧٨) واللفظ له.

(٢) الحديث في «المسند» برقم (٤١٥، ٤٢١، ٤٢٩) عن عثمان بن عفان مطوّلًا وأخرجه البخاري برقم (١٤٠) و(١٩٣٤) والنسائي (٧٤/١)، ومسلم (٢٣٥) وغيرهم.

توضاً فغسل كفيه ثلاثاً، ثم تمضمض واستنشق واستنثر ثلاثاً، ثم غسل وجهه^(١).

وهذا يفيد أن المضمضة والاستنشاق منفصلة عن غسل الوجه.

وحدّ الوجه من منابت الشعر إلى أسفل الذقن، وعرضاً ما بين شحمتي الأذنين، ولا عبرة بالصلع، ولا بالشعر الذي يتدلى على الوجه أو القفا، ويجب غسل ما تحت الحاجبين، وأهداب العينين والشارب، وما نزل على الصدغين من الشعر، وما تحت الشفة السفلى، وتخليل اللحية الكثة، وظاهر ما نزل منها، وغسل ما تحتها.

وفي حديث عثمان بن عفان أن النبي ﷺ كان يخلل لحيته^(٢).

وجاء هذا عن عمار بن ياسر وأنس بن مالك وأبي أيوب الأنصاري وغيرهم.

العضو الثاني: غسل اليدين إلى المرفقين؛ لقوله تعالى عطفًا على غسل الوجه: ﴿وَأَيِّدِيكُمْ إِلَى الْمَرَافِقِ﴾ المرفق من الإنسان: أعلى الذراع وأ أسفل العضد، أي: واغسلوا أيديكم مع المرافق، فإلى بمعنى مع، أي مع المرافق.

وجمهور العلماء على وجوب إدخال المرفقين في الغسل؛ لما صح من حديث أبي هريرة ؓ: أن النبي ﷺ غسل يده اليمنى، حتى شرع في العضد، ثم يده اليسرى، حتى شرع في العضد.

وفي حديث أبي هريرة أيضاً أن النبي ﷺ قال: «إن أمتي يدعون يوم القيامة غراً محجلين من آثار الوضوء، فمن استطاع منكم أن يطيل غرته فليفعل»^(٣).

وعنه أيضاً أن رسول الله ﷺ قال: «تبلغ الحلية من المؤمن حيث يبلغ الوضوء»^(٤).

العضو الثالث: مسح الرأس؛ لقوله تعالى: ﴿وَأَمْسَحُوا بِرُءُوسِكُمْ﴾ وجاء ذكر مسح الرأس بين الأعضاء المغسولة؛ لبيان الترتيب في الوضوء، أي: تغسل وجهك - أيها

(١) كما في البخاري (١٥٩، ١٦٤) ومسلم (٢٢٦).

(٢) «صحيح الترمذي» برقم (٢٨) وفي الترمذي (٣١) وابن ماجه (٤٣٠) وصحيح ابن ماجه (٣٤٥) وابن خزيمة (١٥١، ١٥٢) وابن حبان (١٠٧٨) و«المستدرک» (١/١٤٨). وصحيح أبي داود (٩٨).

(٣) «صحيح البخاري» برقم (١٣٦) و«صحيح مسلم» برقم (٢٤٦).

(٤) «صحيح مسلم» برقم (٢٤٦).

المسلم- ثم يديك، ثم تمسح برأسك، ثم تغسل قدميك، فقد جاء ذكر مسح الرأس، قبل غسل الرجلين وبعد غسل الوجه واليدين.

والباء من ﴿رُءُوسِكُمْ﴾ من ناحية اللغة لها معاني متعددة: هل هي زائدة، أو للإلصاق، أو للتبويض، أو للبيان؟ أقوال.

والفقهاء حين يستنبطون الأحكام يرجعون إلى اللغة:

أ- فَمَنْ قال: إن الباء للتبويض، قال: يكفي مسح بعض الرأس، ثم بماذا يُفسَّر هذا البعض؟:

١- بالربع، بذلك قال الأحناف.

٢- وبالثلث، قال الشافعية.

٣- وبشعرات قليلة من الرأس، بذلك قال الشافعية أيضًا.

ب - ومن قال: إن الباء زائدة، أو أنها للإلصاق، قال: الواجب مسح الرأس كله، وبذلك قال المالكية والحنابلة في إحدى الروايتين عن أحمد، والرواية الأخرى: مسح أكثر الرأس.

والذين قالوا بمسح بعض الرأس، وأنه من باب الوجوب، قالوا: بمسح الرأس كلها من باب السُّنَّة.

والأظهر أن مسح الرأس كله واجب؛ لما ثبت في الصحيحين من حديث عبد الله بن زيد: أن النبي ﷺ مسح رأسه بيديه فأقبل بهما وأدبر، بدأ بمقدم رأسه، ثم ذهب بهما إلى قفاه، ثم ردهما حتى رجع إلى المكان الذي بدأ منه^(١).

ويدل على ذلك حديث المغيرة بن شعبة في الصحيحين: أن النبي ﷺ توضأ فمسح بناصيته وعلى العمامة^(٢).

ويؤخذ منه أنه لما شق عليه خلع العمامة مسح عليها؛ لِيُكْمَلَ بذلك الرأس كله.

وفيه دليل على جواز المسح على الناصية والعمامة معًا، وإن كان أبو حنيفة يستدل به على المقدار الذي ينبغي مسحه من الرأس فحسب.

(١) الحديث في البخاري (٣٥٨/١) برقم (١٨٥، ١٨٦، ١٩٩) ومسلم (٣١٠/١) برقم (٢٣٥).

(٢) «صحيح مسلم» برقم (٢٧٤) و«صحيح البخاري» (١٨٢، ٢٠٣، ٣٦٣، ٤٤٢١).

فالأكمل والأحوط أن يمسح المسلم برأسه كله، يُقبل ويُدبر، من مقدّم الرأس إلى آخره، ومن آخره إلى أوله، وبذلك يكون قد أتى بجميع المذاهب، ولو غسل رأسه ولم يمر يده عليه لم يكف، لأنه لم يأت بما أمر الله به.

العضو الرابع: غسل الرجلين؛ لقوله تعالى: ﴿وَأَرْجُلُكُمْ إِلَى الْكَعْبَيْنِ﴾

والكعبان هما العظمان الناثان عند مفصل الساق والقدم، ولكل رجل كعبين، وليس كعب واحد.

وأرجلكم بفتح اللام وكسرها قراءتان متواترتان سبعيتان، كلاهما ثابت قطعي.

أ- وقراءة النصب عطفًا على غسل الأيدي، أي: اغسلوا وجوهكم وأيديكم وأرجلكم إذا كانت مكشوفة، وليست في خف ونحوه، ويشهد لهذا أحاديث كثيرة منها:

١- ما جاء في صحيح مسلم عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أن رجلاً توضأ فترك موضع ظفرٍ على قدمه، فأبصره النبي ﷺ فقال: «ارجع فأحسن وضوءك»^(١).

٢- وفي حديث طويل عن عمرو بن عبّسة، وقد سأل النبي ﷺ عن صفة الوضوء فقال: «... ثم يغسل قدميه إلى الكعبين كما أمره الله...»^(٢).

٣- وكذلك الأحاديث التي فيها الوعيد على ترك شيء من غسل القدم، وهم الذين لا يسبغون الوضوء، ولا يغسلون مؤخر أقدامهم من الخلف، كما جاء في الصحيحين عن عبد الله بن عمرو رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «أسبغوا الوضوء، ويل للأعقاب من النار»^(٣).

وقال بعضهم: نزل القرآن بالمسح والسّنة بالغسل، فيكون مسح الرجلين منسوخًا بالسّنة.

وسن الإسلام إطالة الغرة من الوجه، والتحجيل في اليدين، كما جاء في الأحاديث.

(١) مسلم (٢١٥/١) برقم (٢٤٣).

(٢) مسلم (٥٦٩/١) برقم (٨٣٢) وأحمد في «المسند» (١١٢/٤) برقم (١٧٠١٩)، وبإسناد صحيح على شرط مسلم، وأخرجه البيهقي في السنن (٨١/١) وابن عبد البر في التمهيد (٥٣/٤).

(٣) البخاري (١٤٣/١) برقم (٦٠، ٩٦، ١٦٣) ومسلم (٢١٤/١) برقم (٢٤٢) وأبو داود (٧٣/١) والطيالسي (٢٤٨٦) وابن ماجه (١٥٤/١) برقم (٤٥٤) وأحمد وهو عن عائشة وأبي هريرة وجابر ورقمه عن أبي هريرة في «المسند» (٧١٢٢، ١٠٠٩٢) وعن جابر (١٤١١٥)، بإسناد صحيح على شرط الشيخين.

ب- وأما قراءة الجرّ فهي عطفًا على ﴿وَأَمْسَحُوا بِرُءُوسِكُمْ﴾ وهذا بالنسبة لمن كان يلبس خفًا، وما في معنى الخف من الجوارب ونحوها، وهذه هي الحالة الثانية لطهارة القدمين.
فقراءة النصب محمولة على غسل الرجلين المكشوفتين، وقراءة الجر محمولة على مسح الرجلين المستورتين.

هذا: والمسح على الخفين سُنَّة ثابتة عن رسول الله ﷺ؛ فقد ثبت عن جرير أنه قال، ثم توضأ ومسح على الخفين، وقال: ما يمنعني أن أمسح وقد رأيت رسول الله ﷺ مسح، قالوا: إنما كان ذلك قبل نزول (المائدة) حيث قال: ما أسلمت إلا بعد نزول المائدة^(١).
والمسح على الخفين ثابت بالأحاديث المتواترة، فقد جاوز رواه ثمانين صحابيًا، منهم العشرة المبشرون بالجنة.

فقراءة النصب: لغسل الرجلين، وقراءة الجر: للمسح على الخفين، أو أن المراد بالمسح: الغسل الخفيف.

فالعرب تقول: تمسّحتُ للصلاة، بمعنى توضأت لها، وتقول: هات ما أمسح به للصلاة، أي: أتوضأ، فسمّي الغسل مسحًا بهذا الاعتبار.

ويشهد لهذا المعنى: تحديد الفرض ﴿إِلَى الْكَعْبَيْنِ﴾ فالمسح لا يكون بهذا المقدار، بل يمسح أعلى القدم فقط والتحديد بالكعبين في الآية للغسل لا للمسح، فتعين أن المراد بالمسح هو الغسل في بعض وجوه اللغة، وهذا أولى من قولهم: هو من المؤخر الذي معناه التقديم، على تقدير: فاغسلوا وجوهكم وأيديكم إلى المرافق وأرجلكم إلى الكعبين وامسحوا برؤوسكم.

ويغسل الرجلين قال جمهور العلماء من الصحابة والتابعين، ومن بعدهم من الأئمة الأربعة وأصحابهم، على أن الغسل مفهوم من ظاهر الآية، بعطف الأرجل على الرؤوس، دون إعادة لفظ الغسل، اكتفاء بذكره قبل الوجه، والكسر للمجاورة؛ إذ الرجلين أقرب الأعضاء إلى الأرض.

(١) ينظر: البخاري (٣٨٧) ومسلم (٢٧٢) والبيهقي (١/٢٧٠).

وجمهور الفقهاء على وجوب الترتيب بين أعضاء الوضوء الأربعة السابق ذكرها كما هو واقع الآية، حيث ذكرها الله تعالى مرتبة، وأدخل الممسوح وهو الرأس بين مغسولين هما: اليدين والرجلين، وهذا يفيد الترتيب، وعند الحنفية أن الواو لا تدل على الترتيب، ويستحب تقديم اليمنى على اليسرى من اليدين والرجلين، وتقديم مسح الرأس على مسح الأذنين.

الحكم الثاني: رفع الحدث الأكبر

﴿وَأَن كُنْتُمْ جُنُبًا فَأَطَهِّرُوا﴾

ثم تحدثت الآية عن الغسل من الجنابة، وما في معناها من الحيض والنفاس. والجنب مَنْ أصابته الجنابة بسبب جماع ولو لم ينزل، أو احتلام يجد منه بللاً، فإن لم يجد بللاً فلا غسل عليه، ولفظ الجنب يطلق على الرجل والمرأة، وهو مشتق من المجانبة بمعنى المباحدة بينه وبين الصلاة وغيرها.

والجنب يحرم عليه الصلاة، والطواف بالبيت، ودخول المسجد، ولمس المصحف وحمله، وقراءة القرآن، إلا ما جوزه الفقهاء للحائض والنفاس، من قراءة القرآن عن ظهر قلب.

والغسل من الجنابة فضله وبيّنه أزواج رسول الله ﷺ فذكروا كيف كان ﷺ يغتسل من الجنابة:

في الصحيحين عن عائشة ؓ أن النبي ﷺ كان إذا اغتسل من الجنابة، بدأ فغسل يديه، ثم يفرغ يمينه على شماله فيغسل فرجه، ثم يتوضأ كما يتوضأ للصلاة، ثم يدخل أصابعه في الماء ويخلل بهما أصول شعره، ثم يصب على رأسه ثلاث غرفات بيديه، ثم يفيض الماء على سائر جسده^(١).

ووجوب النية يؤخذ من أول الآية ﴿إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ﴾ أي: إذا أردتم القيام للصلاة، والنية واجبة لجميع الأعمال الشرعية، ومنها الوضوء والاغتسال.

والوضوء يدخل فيه غسل الفم والأنف، وتطهيرهما بالمضمضة والاستنشاق والاستنثار.

ولا يلزم غسل الرجلين إن كان المغتسل يقف تحت ماء يُرش فوقه، أو يُصب عليه، وكانت رجلاه مغموستين في الماء، والسنة أن يتوضأ المغتسل قبل أن يفيض الماء على

(١) البخاري (٢٤٨، ٢٦٢، ٢٧٢) ومسلم (٣١٦) دون ذكر اليدين والرجلين.

جسده، ويخلل بأصابعه شعر رأسه، وشعر لحيته، ويتعهد الأماكن الغائرة في الجسم؛ كالسرة، وتحت إبطيه، وما بين الفخذين، ويغسل الجهة اليمنى من الأمام والخلف، ثم الجهة اليسرى كذلك، وتنقض المرأة صفائر شعرها، إن كان الماء لا يصل إلى جذور الشعر إلا بذلك، فإن عمه الماء فلا يلزم.

وبعد أن يفيض المغتسل الماء على جسده ويتعدهه يصلي دون أن يعيد الوضوء، إلا إذا مس فرجه، عند من يرى أنه من النواقض للوضوء، وهو قول مرجوح. والحدث الأصغر يندرج تحت الحدث الأكبر في النية والطهارة.

الْحُكْمُ الثَّالِثُ: التَّيْمُمُ لِلْحَدَّثَيْنِ عِنْدَ فَقْدِ الْمَاءِ أَوْ تَعَذُّرِ اسْتِعْمَالِهِ

﴿وَإِنْ كُنْتُمْ مَرَضَىٰ أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ أَوْ جَاءَ أَحَدٌ مِنْكُم مِّنَ الْغَائِطِ أَوْ لَمَسْتُمُ^(١) الْنِسَاءَ فَلَمْ يَجِدُوا مَاءً فَتَيَمَّمُوا صَعِيدًا طَيِّبًا فَامْسَحُوا بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ مِنْهُ﴾

والنوع الثالث من الطهارة: التيمم لمن يعجز عن استعمال الماء أو يفقده، وقد ثبتت مشروعية التيمم بهذه الآية ومن السنة حين كان النبي ﷺ وأصحابه في سفر، وعند دخولهم المدينة، سقطت قلادة عائشة رضي الله عنها بالبيداء، فأناخ الرسول ﷺ راحلته ونزل. ومن آثار السفر، وضع النبي ﷺ رأسه في حجر عائشة ونام، ثم جاء أبو بكر ولكز عائشة لكزة شديدة وقال لها: حَبَسَتِ النَّاسَ فِي قِلَادَةٍ، ثم استيقظ النبي ﷺ وقد حضرت صلاة الصبح، فالتمس الماء فلم يجده، فنزلت هذه الآية وفيها مشروعية التيمم، فقال أُسَيْدُ بْنُ الْحَضِيرِ: لقد بارك الله للناس فيكم، يا آل أبي بكر، ما أنتم إلا بركة لهم، قال: فبعثنا البعير الذي كانت عليه، فإذا العقد تحته^(٢).

وكان ذلك عند العودة من غزوة المريسيع سنة ست من الهجرة.

(١) قرأ حمزة والكسائي وخلف العاشر (لَمَسْتُم) بحذف الألف بعد اللام، وقرأ الباقر (لَا مَسْتُم) بألف بعد اللام قال ابن عمر: اللمس هو: الجسُّ باليد، وألحق به باقي البشرة، وبه قال الشافعي، وقال ابن عباس: اللمس هو الجماع.

(٢) انظر: «صحيح البخاري» برقم (٣٣٤، ٤٦٠٧، ٤٦٠٨) و«صحيح مسلم» (١٠٨/٣٦٧).

وعن عمار بن ياسر رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ سئل عن التيمم فقال: ضربة للكفين والوجه^(١). قال ابن عبد البر: أكثر الآثار المرفوعة عن عمار، ضربة واحدة، وما روى عنه من ضربتين فكلها مضطربة^(٢).

وفي حديث عمار أيضًا أن النبي ﷺ قال: «.. إنما كان يكفيك» وضرب النبي ﷺ بيده إلى الأرض، ثم نفخ فيها ومسح بها وجهه وكفيه^(٣).

قال النووي في المجموع (٢/٢٢٩): وحكى أبو ثور وغيره، قولاً للشافعي في القديم أنه يكفي مسح الوجه والكفين... ثم قال: وهذا القول وإن كان قديماً، مرجوحاً عند الأصحاب، فهو القوى في الدليل، وهو الأقرب إلى ظاهر السنة الصحيحة.

قلت: وهو بهذا يشير إلى عدم صحة القول بأن للتيمم ضربتان، ضربة يمسخ بها وجهه، وضربة بمسح بها كفيه مع ذراعيه.

والمتيمم أحد شخصين:

أحدهما: المريض الذي يتعذر عليه استعمال الماء وقد أصابه حدث أصغر، أو أكبر.

وثانيهما: المسافر الذي لا يجد الماء في سفره.

فإن كنتم مرضى، أو على سفر وحدث لكم ما يوجب الوضوء بسبب قضاء الحاجة من بول، أو غائط، أو خروج الريح ﴿أَوْ جَاءَ أَحَدٌ مِّنْكُم مِّنَ الْغَائِطِ﴾ وهذه طهارة صغرى، أي: حدث أصغر، فاقصدوا التراب الطاهر وارفعوا به الحدث.

لمس النساء: والمراد باللامسة في الآية: لمس شيء من جسد المرأة؛ قصداً بشهوة ولذة، لأن القرآن الكريم أطلق المس على الجماع في قوله تعالى: ﴿وَإِنْ طَلَقْتُمُوهُنَّ مِن قَبْلِ أَنْ تَمْسُوهُنَّ﴾ [البقرة: ٢٣٧].

(١) أخرجه أحمد في المسند (١٨٣١٩) بإسناد صحيح على شرط مسلم كما قال محققوه، وأخرجه الدارمي (٧٤٥) والبخاري في مسنده (١٣٨٩) وابن خزيمة (٢٦٧) وأبو داود (٣٢٧) والترمذي (١٤٤).

(٢) تنظر حاشية مسند أحمد (٢٦٢/٣٠) نقلاً عن الحافظ في التلخيص.

(٣) المسند (١٨٣٣٢) وإسناده صحيح على شرط الشيخين، وأخرجه البخاري (٣٤٣) ومسلم (٣٦٨) وابن ماجه (٥٦٩) وغيرهم.

وقوله: ﴿لَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِنْ طَلَقْتُمْ النِّسَاءَ مَا لَمْ تَمْسُوهُنَّ﴾ [البقرة: ٢٣٦]. وقوله: ﴿يَتَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا نَكَحْتُمُ الْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ طَلَقْتُمُوهُنَّ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَمْسُوهُنَّ﴾ [الأحزاب: ٤٩]. وقال في الظهار: ﴿مَنْ قَبِلَ أَنْ يَتَمَاسَّ﴾ المجادلة.

فالمراد بالمس في الآيات: الجماع؛ وقد نصّت الآية على الحدث الأكبر بلفظ الجنابة في قوله تعالى: ﴿وَأِنْ كُنْتُمْ جُنُبًا فَاطَّهَّرُوا﴾ ونصّت على الحدث الأصغر في قوله: ﴿أَوْ جَاءَ أَحَدٌ مِنْكُم مِّنَ الْغَائِطِ﴾ وعطفت عليه اللمس باليد في قوله تعالى: ﴿أَوْ لَمَسْتُمُ النِّسَاءَ﴾ فدل هذا على المشاركة في الحكم.

فالصحيح أن اللمس معناه: الجسُّ باليد، ويلحق به لمس البشرة للبشرة فمصافحة المرأة الأجنبية ولمس شيء من جسدها حرام فضلاً عن أنه ينقض الوضوء. وكذا زوجها إن كان قد مسها عمداً بعد وضوئه مع شعوره بلذة وشهوة؛ فإنه يكون ناقضاً للوضوء.

والفقهاء في هذا على ثلاثة أقوال:

١- منهم من يرى أن لمس المرأة لا ينقض الوضوء مطلقاً.

٢- ومنهم من يرى أنه إن كان بشهوة فهو ناقض، وإلا فلا.

٣- ومنهم من يرى أنه ينقض مطلقاً من غير حائل.

دواعي التيمم: فإن حدث شيء من ذلك، أي من الحدث الأصغر أو الأكبر ﴿فَتَيَمَّمُوا صَعِيدًا طَيِّبًا﴾ وهو التراب الذي له غبار، أما الجدار والسرير والخشب فليس فيه غبار.

ويكون التيمم أيضاً من الحدث الأكبر؛ كالجنابة، والحيض، والنفاس عند عدم وجود الماء، أو تعذر استعماله، وهو ما جاء في قوله سبحانه: ﴿أَوْ لَمَسْتُمُ النِّسَاءَ﴾.

أخرج الشيخان عن عمار بن ياسر رضي الله عنه أنه قال: أجنبت فلم أصب الماء، فتمعكت في الصعيد وصليت، فذكرت ذلك للنبي ﷺ فقال: «إنما كان يكفيك هكذا»، وضرب النبي ﷺ بكفيه الأرض ونفخ فيهما، ثم مسح بهما وجهه وكفيه^(١).

وصفة المسح: أن يضرب المسلم بكفيه الأرض الطاهرة، أو الحجر ضربة واحدة

(١) البخاري (٣٣٨، ٣٤١) ومسلم (٣٦٨).

يمسح بها على وجهه وكفيه، ويبدأ بمسح الوجه قبل مسح اليدين.

والأيدي الواردة في قوله تعالى: ﴿فَامْسَحُوا بِوُجُوْهِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ مِنْهُ﴾ تطلق على الكفين، وتطلق عليهما مع الذراعين، وتفسر صحيح السنة المراد بذلك كما سبق بيانه، على أن اليد عند الإطلاق تعني إلى الكوعين.

والتييم يرفع الحدث مؤقتاً إلى وجود الماء أو إمكانية استعماله، دون إعادة الصلاة التي صلاها، وتييم فاقد الماء، أو المتعذر عليه استعماله لكل فريضة، وما يتبعها من نوافل، والآية عامة في جواز التيمم من الحدثين، الأكبر والأصغر، ومحل التيمم فيهما واحد وهو الوجه واليدان.

التيسير ورفع الحرج: ثم بين سبحانه سعة فضله وتيسيره على خلقه فقال: ﴿مَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُمْ مِنْ حَرَجٍ وَلَكِنْ يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ الله تعالى فيما رخصه لكم من التيمم والمسح على الخفين وغيرهما ﴿وَلَكِنْ يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ﴾ فإذا توضأ المسلم وغسل أعضائه، ثم شهد أن لا إله إلا الله، وأن محمداً رسول الله، ورضي بالله رباً، وبالإسلام ديناً، وبمحمد نبياً ورسولاً، فقد أخبر النبي ﷺ أن أبواب الجنات الثمانية تفتح له، يدخل من أي منها شاء.

وبين ﷺ أن الوضوء على وضوء سُنَّة، وأنه نور على نور، فهو طهارة للبدن، وطهارة للنفس والروح، طهارة حسية ومعنوية، طهارة للظاهر والباطن، وأن الخطايا والذنوب تخرج مع قطرات الماء، حتى تخرج من بين أطراف العبد، ومن تحت شفرة عينه.

وطهارة الأعضاء الظاهرة تكميل لطهارة الباطن بالتوحيد والتوبة النصوح:

في صحيح مسلم وغيره عن أبي هريرة ؓ أن النبي ﷺ قال: «إذا توضأ العبد المسلم أو المؤمن، فغسل وجهه خرج من وجهه كل خطيئة نظر إليها بعينه مع الماء أو مع آخر قطر الماء، فإذا غسل يديه خرج من يديه كل خطيئة بطشتها يده مع الماء أو مع آخر قطر الماء، فإذا غسل رجليه خرج من رجليه كل خطيئة مشتها رجلاه مع الماء، أو مع آخر قطر الماء، حتى يخرج نقياً من الذنوب»^(١).

(١) «موطأ مالك» (٣٢/١) و«صحيح مسلم» برقم (٢٤٤) والطبري (٢١٨/٨).

قال تعالى: ﴿وَلَيْتُمْ نِعْمَتُهُ عَلَيْكُمْ﴾ بيان الشرائع والأحكام وما تحتاجون إليه من أمور دينكم ودنياكم.

ومجمل معنى الآية: يأيتها الذين آمنوا بالله ورسوله، إذا أردتم القيام إلى الصلاة، وأنتم على غير طهارة، فاغسلوا وجوهكم وأيديكم إلى المِفْصَل الذي بين الذراع والعضد، وامسحوا رؤوسكم، واغسلوا أرجلكم إلى العظمين البارزين عند ملتقى الساق بالقدم، وإن أصابكم الحدث الأكبر فتطهروا بالاغتسال منه قبل الصلاة، وإن كنتم مرضى أو على سفر، وأنتم أصحاء، أو تبوّل أحدكم، أو تبرّز، أو جامع زوجته، فلم تجدوا ماء، فاضربوا بأيديكم وجه الأرض، وامسحوا وجوهكم وأيديكم منه، ما يريد الله في أمر الطهارة أن يضيّق عليكم، بل أباح لكم التيمم توسعة عليكم، ورحمة بكم؛ إذ جعله بديلاً للماء في الطهارة، فكانت رخصة التيمم من تمام النعم التي تقتضي شكر المنعم، بطاعته تعالى فيما أمر وفيما نهى لعلمكم تشكرون الله الذي رفع عنكم الحرج وطهركم من الذنوب.

وجوب الوفاء بالمواثيق: ميثاق المسلمين

٧- ﴿وَاذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَمِيثَاقَهُ الَّذِي وَاثَقَكُمْ بِهِ إِذْ قُلْتُمْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَأَتَّفَقُوا اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾

وبعد أن ذكرت السورة عددًا من نعم الله تعالى على عباده، وأجلها نعمة الإسلام الذي ارتضاه الله تعالى لخلقه إلى يوم القيامة؛ حيث أكمل لهم الدين، وأتم عليهم النعمة، وشرع لهم شرائعه ويسرّها لهم، بعد ذلك ذكرهم سبحانه بوجوب القيام بشكر هذه النعم، بذكرها بقلوبهم وألسنتهم، فإن ذلك من دواعي زيادتها واستمرارها.

والوفاء بمواثيق الطاعة، ووجوب توحيد الله تعالى، والإيمان برسوله ﷺ الذي التزموا به بمقتضى إيمانهم وانقيادهم لما أمرهم الله به ونهاهم عنه، كل ذلك من جميع شرائع الدين الظاهرة والباطنة، وفي مطلع هذه السورة ثلاثة مواثيق:

الميثاق الأول: هو الذي أخذه الله تعالى على المسلمين في هذه الآية، بأن يحرصوا على أداء ما أمروا به واجتناب ما نهوا عنه.

والميثاق الثاني: أخذه الله تعالى على اليهود، وهو المذكور في الآية الثانية عشرة من هذه السورة.

والميثاق الثالث: أخذه الله تعالى على النصارى وهو في الآية التي بعدها.

والمراد بالنعمة في الآية: جنس النعم، وعلى رأسها الإسلام، وما فيه من العز والتمكين في الأرض، وصلاح شأن الأمة، وهو عهد وميثاق أخذه الله على المؤمنين جميعاً إلى قيام الساعة، وكان المسلمون قد عاهدوا الله تعالى في زمن رسوله ﷺ بعدد من المواثيق، منها:

١- وجوب الوفاء بالعقود التي ذكرت في أول السورة.

٢، ٣ - ومنها: بيعة العقبة الأولى والثانية، وفيها الميثاق الذي أخذه النبي ﷺ على اثني عشر نقيباً من الأنصار ليلة العقبة.

٤- وكذا أصحاب بيعة الرضوان الذين بايعوه ﷺ تحت الشجرة على السمع والطاعة، في المنشط والمكره، والعسر واليسر، والمتابعة والنجدة، وعدم منازعة الأمر أهله، كما قال تعالى: ﴿وَمَا لَكُمْ لَا تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالرَّسُولِ يَدْعُوكُمْ لِتُؤْمِنُوا بِرَبِّكُمْ وَقَدْ أَخَذَ مِيثَاقَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ ﴿٨﴾ [الحديد].

٥- ومنها بيعة النساء: على ألا يشركن بالله شيئاً، ولا يسرقن، ولا يزنين، ولا يقتلن أولادهن، ولا يأتين ببهتان يفتريه بين أيديهن وأرجلهن، ولا يعصين الله ورسوله في معروف. فاذكروا نعمة الله عليكم - أيها المؤمنون - فيما شرعه لكم، واذكروا عهده الذي أخذه عليكم من الإيمان بالله ورسوله، واتقوا الله فيما أمركم به ونهاكم عنه، إن الله عليم بما تسرون في صدوركم وما تنطوي عليه قلوبكم وخواطركم.

وفي هذه الآية يذكر الله عباده بالميثاق الذي أقروا به على أنفسهم بالإيمان بمحمد ﷺ وكتابه والسمع والطاعة، ويأمرهم بالوفاء به.

أما الميثاق الذي أخذه الله تعالى على بني آدم جميعاً، وهم في أصلاب آبائهم على أن يوحدوه سبحانه ولا يشركوا به شيئاً وهو المذكور في قوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى شَهِدْنَا﴾ [الأعراف: ١٧٢].

فهو ميثاق عام أخذه الله ﷻ على بني آدم جميعًا .

وهكذا : فقد أخذ الله تعالى ميثاق التوحيد على البشر جميعًا .

وأخذه سبحانه على الأمة الإسلامية على وجه الخصوص .

كما أخذ سبحانه ميثاقًا خاصًا على بني إسرائيل ، وجعل منهم اثني عشر كفيلاً يتولون قيامهم ووفاءهم بميثاق التوحيد والطاعة .

وأخذ أيضًا الميثاق على النصارى أن يعبدوا الله تعالى ولا يشركوا به شيئًا كما ستفصل الآيات التالية .

النِّدَاءُ الرَّابِعُ: وَجُوبُ الْعَدْلِ مَعَ الْمُسْلِمِ وَغَيْرِهِ

٨- ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّهِ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَاٰنُ(١) قَوْمٍ عَلَىٰ ءَلَّا تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿٨﴾﴾

ومن بنود الميثاق المأخوذ على الأمة الإسلامية: وجوب إقامة العدل بين الناس والحكم به، ولو مع العدو أو من يبغضهم الإنسان، فإما من أتمتم بالله ورسوله كونوا قائمين بالحق؛ ابتغاء وجه الله، شهداء بالعدل، ولا يحملنكم بغض قوم على أن لا تعدلوا معهم، سواء أكان ذلك البغض بين الأفراد، أم بين الأمم والجماعات، وإذا كان العدل واجبًا مع الكفار وهم أعداء الله، فهو بين المؤمنين الذين هم أولياء الله وأحباؤه من باب أولى؛ فاعدلوا بين الأعداء والأحباب على حدٍّ سواء، فذلك العدل أقرب لخشية الله تعالى، واعدلوا في طاعتكم لله وولائكم له، واعدلوا بين أبنائكم وبين زوجاتكم ومن ولأكم الله عليهم .

ورد في ذلك أن بشير أبا الغلمان ذهب إلى النبي ﷺ يُشْهَدُهُ عَلَى عَظِيَّةٍ خَصَّ بِهَا أَحَدَ أَبْنَائِهِ، وَالابْنُ مِنَ الْوَرِثَةِ، وَالْهَدِيَّةُ لَا تَجُوزُ لَوَارِثٍ إِلَّا بِإِجَازَةِ بَقِيَّةِ الْوَرِثَةِ، فَامْتَنَعَ النَّبِيُّ ﷺ مِنْ

(١) قرأ ابن عامر وشعبة وأبو جعفر بخلف عن ابن جمار (شَنَانٌ) بسكون النون، وقرأ الباقر (شَنَانٌ) بفتح النون وهو الوجه الثاني لابن جمار .

الشهادة كما جاء في الصحيحين عن النعمان بن بشير رضي الله عنه أنه قال: نحلني أبي نُحْلًا، فقالت أمي - عمرة بنت رواحة - لا أَرْضِي حتى تُشْهَد رسول الله ﷺ فجاءه؛ ليشهده على صَدَقَتِي، فقال: «أَكُلْ وَلَدِكَ نَحَلْتُ مِثْلَهُ؟» قال: لا، قال: «اتَّقُوا اللَّهَ، وَاَعْدِلُوا فِي أَوْلَادِكُمْ» وقال: «إِنِّي لَا أَشْهَد عَلَى جُورٍ» قال: فرجع أبي فرد تلك الصدقة^(١).

أي: ردَّ تلك العطية، أو الهبة.

قال أهل العلم: يستحب التسوية بين الأبناء حتى في القُبلة؛ فإن عدم العدل في الأقوال والأفعال تتنافى مع تعاليم الإسلام.

وقد ختم الله الآية بقوله: ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ﴾ أي: احذروا أن تجوروا، وخافوا ربكم في كل ما تفعلون، أو تتركون، وصونوا أنفسكم عما لا يرضيه ﴿إِنَّ اللَّهَ حَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ وسوف يجازيكم على ما قَدَّمْتُمْ أيديكم.

وقد سبق نظير هذه الآية في سورة النساء في الآية الخامسة والثلاثين بعد المائة، بتقديم ﴿الْقِسْطَ﴾ على الشهادة لله، وفي هذه الآية بتقديم الشهادة لله على ﴿الْقِسْطَ﴾ والسبب في ذلك:

١- أن آية النساء: نزلت في المشركين الوثنيين، فاقتضى هذا مزيد الاهتمام بالعدل، والمبالغة فيه.

٢- ومن جهة ثانية: فإن آية النساء جيء بها في معرض الإقرار على النفس والوالدين والأقارب، فبدأ فيها بالعدل لعدم محاباة النفس والأقربين، أما هذه الآية فقد نزلت في اليهود، وجيء بها في معرض ترك العداوة، فناسب ذلك القيام بالشهادة لله أولاً؛ لأنه أَرَدَعَ للنفس، ثم ثَنَّى بالشهادة بالعدل، فجيء في كل معرض بما يناسبه^(٢).

٣- ومن جهة ثالثة: فإن آية النساء جاءت بعد آيات القضاء في الحقوق بين الناس بعد

(١) أخرجه البخاري (٢١٠/٥) برقم (٢٥٨٦، ٢٥٨٧، ٢٦٥٠) وفي الأدب المفرد برقم (٩٣) ومسلم (٣/١٢٤١) برقم (١٦٢٣) وأبو داود (٨١١/٣) برقم (٣٥٤٢) والترمذي (٦٤٠/٣) وقال: هذا حديث حسن صحيح وابن ماجه (٢٣٧٥) و«المسند» (١٨٣٥٤) وابن حبان (٥١٠٢) و«سنن النسائي الكبرى» (٥٩٧٩).

(٢) انظر: «تفسير الألوسي» (٨٣/٦).

قوله تعالى: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرَاكَ اللَّهُ﴾ [النساء: ١٠٥]. وأتبع ذلك بأحكام المعاملة بين الرجال والنساء، فكان الأهم في هذا المقام هو الأمر بالعدل أولاً ﴿كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ لِلَّهِ﴾ [النساء: ١٣٥]. والقسط هو العدل في القضاء، أما الآية التي معنا فقد جاءت بعد التذكير بميثاق الله تعالى، فكان المناسب القيام بالشهادة لله أولاً، أي: الوفاء بالعهد، ثم أتبع ذلك بأن تكون الشهادة بالعدل لا حيف فيها، ولا جور، ولذا عُذِّيت آية النساء بالباء ﴿كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ﴾ وهذه الآية عُذِّيت باللام ﴿كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّهِ﴾^(١).

مَصِيرُ الْمُؤْمِنِ وَالْكَافِرِ

٩، ١٠- ﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ [٩] وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ.﴾

ثم بيَّن ﷻ ما أعده في الآخرة للمؤمنين الذين عملوا الصالحات ووفوا بالعهود والمواثيق وحققوا العدل بين الناس، من مغفرة الذنوب وإنجاز ما وعدهم الله به من جنات النعيم، وما أعده للكافرين الذين جحدوا وحدانية الله تعالى، وكذبوا الأدلة التي جاء بها رسل الله، ونقضوا العهود والمواثيق، ولم يعدلوا في حكمهم، هم أهل النار الملازمون لها.

النِّدَاءُ الْخَامِسُ: نِعْمَةٌ كَفَّ أَيْدِيَ الْأَعْدَاءِ عَنِ الْمُسْلِمِينَ

١١- ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَذْكُرُوا نِعْمَتَ (٢) اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ هُمْ قَوْمٌ أَنْ يَبْسُطُوا إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ فَكَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ (٣)﴾

ثم بيَّن سبحانه للمؤمنين أن من بين النعم التي أنعم الله بها عليهم، أن حَفِظَهُمْ فِي كُلِّ

(١) انظر: «تفسير الشيخ الطاهر بن عاشور» (١٣٥/٦).

(٢) رُسِمَت كلمة (نعمت) في المصحف بالتاء المفتوحة، ووقف عليها ابن كثير وأبو عمرو والكسائي ويعقوب بالهاء، وهي لغة قریش، ووقف عليها الباقون بالتاء اتباعاً للرسم.

(٣) قرأ ورش وأبو جعفر وأبو عمرو بخلف عنه بإبدال همزة (المؤمنون) واوًا، وصلاً ووقفًا وكذا حمزة عند الوقف، وقرأ الباقون بهمزة ساكنة.

زمان ومكان من أعدائهم أن يستأصلوهم، ويأتوا على دعوة الإسلام، كما حفظ سبحانه الرسول ﷺ في زمنه من أن تمتد إليه أيدي اليهود وأيدي المشركين بالاغتيال، بأن يقتلوا النبي ﷺ ويقضوا على شأفة المسلمين.

أسباب النزول: والخطاب في هذه الآية موجه للمؤمنين، وليس موجهاً للنبي ﷺ على وجه الخصوص، ولم يأت نص قاطع يحدد المراد بالقوم الذين في الآية ﴿إِذْ هَمَّ قَوْمٌ أَنْ يَبْسُطُوا إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ﴾ ولذا تعددت الأقوال في سبب نزول الآية ومن هذه الأقوال:

١- أن المشركين رأوا رسول الله ﷺ وأصحابه قاموا إلى صلاة الظهر بعُسفان، في غزوة ذات الأنمار، فلما صلوا ندم المشركون أن لو كانوا قد انقضوا عليهم، ثم قالوا: إن لهم بعدها صلاة هي أحب إليهم من آبائهم وأبنائهم - يعنون صلاة العصر - وهموا أن ينكبوا عليهم إذا قاموا إليها، فنزل جبريل بصلاة الخوف^(١).

٢- ومنها أن أهل مكة قد عزموا على الغدر بالمسلمين حين نزلوا بالحديبية، عام صلح الحديبية، ثم عدلوا عن ذلك، وهو ما أشارت إليه الآية في قوله تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنْكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُمْ بِطَّنِ مَكَّةَ مِنْ بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ﴾ [الفتح: ٢٤].

٣- ومنها أن أهل خيبر وأعوانهم من غطفان وبني أسد عزموا على قتال المسلمين حين حصار خيبر، ثم رجعوا عن عزمهم وألقوا ما بأيديهم من السلاح، وإلى هذا أشارت الآية ﴿وَعَدَكُمْ اللَّهُ مَغَانِمَ كَثِيرَةً تَأْخُذُونَهَا فَعَجَلَ لَكُمْ هَذِهِ وَكَفَّ أَيْدِيَ النَّاسِ عَنْكُمْ﴾ [الفتح: ٢٠].

٤- وقال أبو مالك: نزلت الآية في كعب بن الأشرف وأصحابه، حين أرادوا أن يغدروا بالنبي ﷺ وأصحابه وهم في دار كعب بن الأشرف.

٥- وقال قتادة: نزلت هذه الآية ورسول الله ﷺ ببطن نخلة، حين أراد بنو ثعلبة وبنو محارب أن يفتكوا برسول الله ﷺ وبأصحابه إذا اشتغلوا بالصلاة، وكان ذلك في غزوة ذات الرقاع فأطلع الله نبيه على ذلك وأنزل الله صلاة الخوف^(٢).

وقد شرعت صلاة الخوف في السنة السابعة للهجرة، وكانت الغزوة جهة نجد.

(١) «تفسير الكشاف» (١/٦١٣).

(٢) تفسير «الخازن» (١/٤٤٤) و«زاد المسير» (٢/٣٠٩).

وإذا كانت الآية تُذكر المؤمنين بنعمة الله تعالى عليهم أن نَجَّاهم من غدر عدوهم في أحداث مضت، فإنها تنطبق على هذه الأسباب جميعًا؛ إذ ليس فيها كلها تصريح بنزول الآية فيها عدا السببين الأخيرين، وسبب النزول يوضح الملابس والظروف التي نزلت فيها الآية، ولكن الآية دائمًا يكون حكمها عامًا وقائمًا إلى قيام الساعة، فلولا حِفْظُ الله تعالى لكتابه لاندثر هذا الكتاب ولولا ما يهيئه الله للمسلمين من سبب، أو آخر لقضى أعداء الله على الإسلام وأهله.

٦- محاولة بني النضير اغتيال النبي ﷺ:

هذا: وقد عصم الله دم رسوله محمد ﷺ في حياته من أن تمتد إليه بالاغتيال أيدي الغدر والخيانة، فحفظ الله رسوله من كيد اليهود والمشركين، ونجاه من تدبيرهم، وهذا الحفظ من الله تعالى لرسوله ﷺ نعمة أنعم الله بها على المؤمنين.

ولذا فقد اختار كثير من المفسرين ومنهم الطبري أن هذه الآية نزلت في يهود بني النضير؛ فقد أرادوا قتل النبي ﷺ حين ذهب إليهم ليطلب منهم المشاركة في دفع دية رجلين من المسلمين يقال لهما: (العامرين) من بني سليم قُتِلَا خطأ، وكان بين المسلمين واليهود معاهدات، ومن بينها المعاهدة التي أخذت عليهم في المدينة، ومنها أنهم يتعاونون ماليًا مع المسلمين في تحمل الديات، بأن يشاركوا المسلمين فيها، والمسلمون يشاركونهم في مثل هذا الغرم، فذهب النبي ﷺ ومعه أبو بكر وعمر وعثمان وعلي وطلحة وعبد الرحمن بن عوف -رضوان الله تعالى عليهم أجمعين- إلى اليهود ليطالبوا منهم بمقتضى ما بينه وبينهم من الموائيق والعهود أن يتحملوا شيئًا من دية القتيلين اللذين قُتِلَا خطأ، فما كان منهم إلا أن قابلوا الرسول ﷺ بالترحاب، وفرشوا له مكانًا لائقًا يجلس فيه تحت جدار، وقالوا له: يا أبا القاسم، قد آن لك أن تأتينا وتسالنا حاجة، اجلس حتى نعدُّ لك الطعام، ونعدُّ لك النقود التي تريدها، وجلس النبي ﷺ في انتظار ذلك.

أما اليهود فقد تأمروا بعيدًا فيما بينهم على قتل النبي ﷺ واغتياله في هذه اللحظة، حيث قالوا لبعضهم: إنه قد جاء إليكم بنفسه، ولا تَحْلُصون إليه إلا في مثل هذه الحالة، فما علينا إلا أن نقتله، وندبر أمرًا لاغتياله، فانبرى رجل منهم، هو عمرو بن جَحَّاش، وقرر أن يصعد فوق الجدار الذي يجلس تحته رسول الله ﷺ وأن يحمل رَحَى عظيمة

(حجرًا ثقیلاً كبيراً) وأن يُلقى بها فوق رأس النبي ﷺ فيقتل، ودبروا كيدهم، وارتفع الرجل فوق الجدار، وناولوه هذه الرّحى العظيمة، وحين أراد الرجل أن يلقيها على رسول الله ﷺ أمسك الله يده، وأرسل جبريل ليخبر الرسول ﷺ بتدبير قتله، فخرج ﷺ وأصحابه، بعد ما تبين فِعلة اليهود، وكشف الله أمرهم لرسول الله ﷺ ونزلت الآية^(١).

٧- محاولة غورث بن حارث قتل النبي ﷺ:

ومن ذلك ما جاء في الصحيحين عن سنان بن أبي سنان الدؤلي عن جابر بن عبد الله رضي الله عنه أخبره أنه غزا مع رسول الله ﷺ قبل نجد، فلما قفل رسول الله ﷺ قفل معه فأدركتهم القافلة في وادٍ كثير العِصاة، فنزل رسول الله ﷺ وتفرق الناس في العِصاة، يستظلون بالشجر، ونزل رسول الله ﷺ تحت سُمرة، فعلق بها سيفه، قال جابر: فمنا نومة، فإذا رسول الله يدعوننا، فجئناه، فإذا عنده أعرابي جالس، فقال رسول الله ﷺ: «إن هذا اخترط سيفي وأنا نائم، فاستيقظت وهو في يده صُلْتًا، فقال لي: من يمنعك مني؟ قلت له: الله، فهذا هو جالس»، ثم لم يعاقبه رسول الله ﷺ^(٢).

وفي رواية الحاكم: أن السيف سقط من يد الأعرابي، فأخذ النبي ﷺ السيف، وقام مقامه، ورفع السيف على الأعرابي، وقال له: «من يمنعك مني؟» فقال الأعرابي: كن خير آخذ، قال: فشهد الرجل أن لا إله إلا الله، وأن محمدًا رسول الله، وذكر الحاكم أن اسم الرجل (غورث بن الحارث)^(٣).

ذلكم قول الله سبحانه: ﴿يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ داوموا على شكر نعم الله عليكم، وصونوا أنفسكم عن كل ما نهاكم عنه، و﴿اذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ﴾ بالدفع عنكم، وأن أَمْنَكُمْ من الخوف ضِمَنَ سائر نعمه عليكم، فألقى الرعب في قلب عدوكم، فاذكروا نعم الله عليكم بقلوبكم وألسنتكم وأدوا شكرها بجواركم.

(١) يُنْظَرُ: «تفسير ابن جرير» (١٠٢/١٠) عن مجاهد وعكرمة، وابن هشام في «السيرة» (٢/١٩٠) والواحدي في «أسباب النزول» (١٦٢) وانظر أبو نعيم في «الدلائل» (٤٢٥)

(٢) أخرجه عبد الرزاق في تفسيره (١٨٢/١) والبخاري (٣٣٠/٧) برقم (٤١٣٩) ومسلم (٥٧٦/١) برقم (٨٤٣) وليس فيه أنه سبب لنزول الآية.

(٣) صححه الحاكم ووافقه الذهبي، «المستدرک» (٢٩/٣).

ثم وصف الله هذه النعمة فقال: ﴿إِذْ هَمَّ قَوْمٌ أَنْ يَبْسُطُوا إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ﴾ يمدوا إليكم أيديهم بالبطش والقتل ﴿فَكَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنْكُمْ﴾ بأن صرفهم عنكم، ورد كيدهم في نحورهم، وحال بينكم وبين ما أرادوه بكم، وهذا نصر من الله لعباده المؤمنين ينبغي لهم أن يشكروا الله عليه، وهو يشمل كل مَنْ هَمَّ بالمؤمنين بِشْرٌ من كل كافر ومنافق وباغٍ، كَفَّ الله شرَّه عن المسلمين.

﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ﴾ أي: احذروه واشكروه على نعمه، واستعينوا به في الانتصار على عدوكم وجميع أحوالكم ﴿وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾ في كل أمورهم الدينية والدنيوية، وليثقوا بعونه ونصرته، فداوموا على طاعة الله وشكر نعمه، وعلى حسب إيمان العبد يكون توكله.

مِيثَاقُ الْيَهُودِ وَبَنُوهُمْ

١٢- ﴿وَلَقَدْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَءِيلَ^(١) وَبَعَثْنَا مِنْهُمُ اثْنَيْ عَشَرَ نَقِيبًا وَقَالَ اللَّهُ إِنِّي مَعَكُمْ لَئِنْ أَقَمْتُمُ الصَّلَاةَ^(٢) وَآتَيْتُمُ الزَّكَاةَ وَآمَنْتُمْ بِرُسُلِي وَعَزَّرْتُمُوهُمْ وَأَقْرَضْتُمُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا لَأُكَفِّرَنَّ^(٣) عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَلَأُدْخِلَنَّكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ فَمَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ مِنْكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ ﴿١٢﴾﴾

اشتملت سورة المائدة على ستة عشر نداءً للمؤمنين، جاء في أول ربع منها خمس نداءات تأمرهم بالوفاء بالعقود، وتنهاهم عن استحلال شعائر الله، وتبين ماذا يجب عليهم عند إرادة الصلاة، وتأمرهم بالمداومة على القيام بالتكاليف الشرعية، والتزام العدل في أقوالهم وأحكامهم، ثم تنبههم إلى شكر الله تعالى على نعمه، حين نجاهم من شرور الأعداء.

وبعد هذه النداءات الخاصة بالمؤمنين، شرعت السورة في الحديث عن أهل الكتاب.

وفي هذه الآية بيان الميثاق الهام الذي أخذه الله على اليهود، وبيان صفته، وثوابهم

(١) قرأ أبو جعفر بالتسهيل مع المد والقصر في كلمة (إسرائيل) في الوصل والوقف، وكذا حمزة عند الوقف، وقرأ الأزرق عن ورش بثلاثة أوجه، وبالمدة في الهمزة الثانية، بخلف عنه.

(٢) قرأ الأزرق بتغليظ اللام من لفظ (الصلاة) والباقون بالترقيق.

(٣) قرأ الأزرق بترقيق الراء من (لأكفرن)، وبقية القراءة بتفخيمها، والتفخيم والترقيق لغتان من لغات العرب، وكذا التغليظ في اللام، لغة من لغاتهم.

عند الله إن قاموا به - وقت طلبه منهم - ، وإثمهم إن لم يقوموا به .

ثم ذكر سبحانه أنهم لم يقوموا بهذا الميثاق وبين عقابهم :

وتفصيل ذلك أن الله تعالى لما ذكر في الآيات السابقة أنه أخذ الميثاق على المؤمنين ، وأنهم قالوا: سمعنا وأطعنا ، كما جاء ذلك في قوله تعالى ﴿وَاذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَمِيثَاقَهُ الَّذِي وَاثَقَكُمْ بِهِ إِذْ قُلْتُمْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا﴾ [المائدة: ٧] بين سبحانه بعد ذلك أنه أخذ العهد المؤكد على بني إسرائيل بالتوحيد والطاعة ، ولكنهم نقضوا العهد ولم يوفوا به ، ولم يقوموا بما تعبدهم الله تعالى به فيه ، من شرائع وأحكام خمسة ، بالإضافة إلى المواثيق التي سبق ذكرها في سورة البقرة الآيات (٦٣ ، ٨٣ ، ٨٤ ، ٩٣) ، وغيرها .

ميثاق تقصّى أحوال الجبارين: وأول بند في آية الميثاق التي معنا هو: قتال اليهود للكنعانيين ؛ حيث أمر الله موسى ﷺ أن يختار منهم اثني عشر نقيباً ، وهم رؤساء الجيش بعدد الأسباط المجندين ؛ كي يرسل هؤلاء النقباء إلى الأرض المقدسة لمعرفة أحوال الجبارين فيها ، ثم يخبروا نبيهم موسى بما شاهدوه من أحوالهم .

قال الزمخشري: لما استقر بنو إسرائيل بمصر بعد هلاك فرعون ، أمرهم الله تعالى بالسير إلى أريحا ، حيث كان يسكنها الكنعانيون الجبابرة ، وقال لهم: إني كتبتها لكم داراً وقراراً ، فجاهدوا من فيها ؛ فإنني ناصركم ، وأمر موسى بأن يأخذ من كل سبط نقيباً ، فاختار النقباء وسار بهم ، فلما دنا من أرض كنعان بعثهم يتجسسون الأخبار ، فرأوا قوماً أجسامهم عظيمة ، ولهم قوة وشوكة ، فهابوهم ورجعوا ، وحدثوا قومهم ، وكان موسى قد نهاهم أن يتحدثوا بما يروون ، فنكثوا الميثاق ، وتحدثوا ، إلا اثنين منهم ^(١) .

وقد وعد الله بني إسرائيل أن يكون معهم ، يؤيدهم بنصره وعنايته ورعايته ، إذا وَّفُوا بعهد الله ، وحافظوا على ما فيه من الطاعات الخمسة واتبعوا رسل الله ، فإنه سيمكّن لهم في الأرض وينصرهم على عدوهم ، وهذا مستفاد من قوله تعالى: ﴿وَقَالَ اللَّهُ إِنِّي مَعَكُمْ﴾ أي: بالنصر والتأييد ، أي: في الدنيا ، أما في الآخرة ، فإن ذنوبهم ستمحى ويدخلون جنات تجري الأنهار من تحت غرفها وأشجارها ، ولكن شيئاً من ذلك لم يحدث ؛ حيث لم يوفوا بما أمرهم الله به وخالفوا رسل الله ، فكتب الله عليهم الشّتات

(١) «تفسير الكشاف» (١/٤٧٨) .

في الدنيا وحرّم عليهم الأرض التي جنبُوا عن لقاء من فيها، ولعنهم الله وختم على قلوبهم؛ حيث لم يقوموا بما أمرهم الله به مما جاء ذكره في الآية.

وهذا الميثاق المأخوذ على اليهود جاء بنصه في الآية الكريمة، وجاء معه الشرط والجزاء المترتب على نقضه، وذلك بعد أن ذكرت الآيات السابقة الميثاق الذي أخذه الله على المؤمنين من هذه الأمة، ناسب ذلك ذكر نقض أهل الكتاب للمواثيق لمعرفة طبائعهم والحذر منهم، ولمعرفة جُبْنهم وخوفهم من قتال أعدائهم، وذلك عن طريق تقصّي أحوال الجبارين من عماليق الكنعانيين الذين يسكنون الأرض المقدسة، فرجع كل عرّيف من النقباء الاثني عشر، ينهى سبطه عن قتال الجبارين، وهؤلاء النقباء هم رؤساء للأسباط بعدد القبائل والعشائر، وكل نقيب يشهد على قبيلته، ويكفل قومه في القيام بالعهد والوفاء بهذا الميثاق، والسمع والطاعة لله ولرسوله ولكتابه^(١).

أمراء هذه الأمة بعدد نقباء بني إسرائيل: وهكذا كان عدد النقباء الذين بايعوا النبي ﷺ ليلة العقبة، ثلاثة من الأوس وتسعة من الخزرج.

وجاء في حديث جابر بن سُمرة ؓ قال: سمعت النبي ﷺ يقول: «لا يزال أمر الناس ماضياً، ما وليهم اثنا عشر رجلاً» ثم تكلم النبي ﷺ بكلمة خفيث عليّ، فسألت أبي: ماذا قال النبي ﷺ؟ قال: «كلهم من قريش»^(٢).

ولفظ البخاري قال: سمعت النبي ﷺ يقول: «يكون اثنا عشر أميراً» فقال كلمة لم أسمعها فقال أبي: إنه قال: كلهم من قريش»^(٣).

وفي مسند الإمام أحمد عن عبد الله بن مسعود ؓ، أنهم سألوا النبي ﷺ: كم يملك هذه الأمة من خليفة؟ فقال: «اثنا عشر، كعدة نقباء بني إسرائيل»^(٤).

(١) ذكر ابن كثير في تفسيره أسماء هؤلاء النقباء الاثني عشر، كما جاء عن ابن عباس، وذكره ابن إسحاق وغيره، كما ذكر أسماء النقباء الاثني عشر الذين بايعوا النبي ليلة العقبة.

(٢) «صحيح مسلم» برقم (٨٨٢١).

(٣) عن جابر بن سُمرة في البخاري (٧٢٢٢).

(٤) يُنظر نصه في «المسند» (٣٩٨/١) برقم (٣٧٨١) وفيه مجالد بن سعيد، وثقه النسائي وضعفه الجمهور، وبقية رجاله ثقات، أفاده الهيثمي في «مجمع الزوائد» (١٩٠/٥)، وأخرجه ابن ماجه (٣٨٥) والطبراني في الكبير (٩٩٦١) والدار قطني في السنن (٧٧/١).

وجاء في التوراة: البشارة بإسماعيل عليه السلام، وأن الله تعالى يقيم من صلبه اثني عشر عظيمًا، وهم هؤلاء الاثنا عشر، الذين جاء ذكرهم في حديث جابر بن سُمرة، وابن مسعود، ومن هؤلاء الاثنا عشر: الخلفاء الأربعة، وعمر بن عبد العزيز وغيرهم، وهم غير متتابعين، ولعل آخرهم: هو المهدي المنتظر الذي بشر به النبي صلى الله عليه وآله، وذكر أن اسمه واسم أبيه يوافقان اسم النبي صلى الله عليه وآله واسم أبيه، وأنه يملأ الأرض قسطًا وعدلاً كما ملئت جورًا وظلمًا.

بنود ميثاق اليهود مكون من خمس نقاط:

وقد وعد الله بني إسرائيل أن ينصرهم على الكنعانيين إذا هم استجابوا لدعوة نبيهم، كما في قوله تعالى: ﴿وَقَالَ اللَّهُ إِنِّي مَعَكُمْ﴾ أي: بِالْعَوْنِ والحفظ والنصر، وكان الله قد وعدهم الأرض المقدسة، وأمرهم بقتال الكنعانيين فتخاذلوا وتقاوسوا فحرّمها الله عليهم إلى الأبد وهذا نص الميثاق:

- ١- ﴿لَئِنْ أَقَمْتُمُ الصَّلَاةَ﴾. فداوتم عليها وحافظتم على أركانها وشروطها والخشوع فيها.
- ٢- ﴿وَأَتَيْتُمُ الزَّكَاةَ﴾ لمستحقيها، وكانت الصلاة والزكاة فريضتين على اليهود بكيفية وطريقة أخرى.
- ٣- ﴿وَأَمَنْتُمْ بِرُسُلِي﴾ أي: صدقتم برسول الله جميعًا، فكلهم جاء بشرع من عند الله، فتصديقهم ونصرتهم من أركان الإيمان.
- ٤- ﴿وَعَزَّزْتُمُوهُمْ﴾ أي: قويتموهم ونصرتموهم عظمتموهم، وأديتم ما يجب لهم من الاحترام والطاعة، ودافعتم عن التوحيد، وعن الدعوة التي يقومون بها وتبلغها إلى الناس كافة.
- ٥- ﴿وَأَقْرَضْتُمُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا﴾ والمراد بالقرض: الصدقة العامة، أو صدقة التطوع بالإنفاق في سبيل الله، والإحسان إلى المحتاجين.

هذه هي بنود الميثاق المكونة من خمس نقاط، وهي: إقامة الصلاة، وأداء الزكاة، والإيمان بالرسول وتوقيرهم، والإنفاق في سبيل الله، ورتب الله سبحانه على ذلك تكفير الذنوب، ودخول الجنة، ثوابًا لهم إن عملوا بما في هذا الميثاق، فجمع لهم بين نعيم الجنة وتكفير السيئات.

وهذا الميثاق إلى جوار الميثاق المأخوذ عليهم في سورة البقرة، وهو مكون من ستة بنود: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَءِيلَ﴾

١- ﴿لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ﴾ هذا هو البند الأول، وهو التوحيد.

٢- ثم ﴿وَيَا لَوْلَدِينَ إِحْسَانًا﴾.

٣- ﴿وَذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسْكِينِ﴾.

٤- ﴿وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا﴾.

٥- ﴿وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ﴾.

٦- ﴿وَأَتُوا الزَّكَاةَ﴾.

قال تعالى مبيناً موقفهم من هذا الميثاق: ﴿لَمَّا تَوَلَّيْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْكُمْ وَأَنْتُمْ مُّعْرِضُونَ﴾ [البقرة: ٨٣].

ثم بيّن سبحانه عقوبة من لم يقيم بمقتضى هذا الميثاق في قوله: ﴿فَمَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ مِنْكُمْ﴾ ولم يقيم بمقتضى التوحيد والطاعة، ولم ينفذ هذه الأوامر بعد أخذ الميثاق عليه، فقد أخطأ الطريق وابتعد عن الصواب، وفقد طريق الهداية قبل ذلك وبعده، واستحق حرمان الثواب وحلول العقاب.

فماذا كان من اليهود بعد أن أخذ الله منهم العهد والميثاق على السمع والطاعة، وقتال الجبابرة؟ لقد نقضوا عهد الله سبحانه، فكذبوا رسله بعد موسى ﷺ، وقتلوا أنبياء الله، وضيعوا فرائضه، ونبذوا كتابه، وأشركوا بالله، وحرفوا التوراة، فزادوا ونقصوا، وغيروا وبدلوا، وأنكروا نبوة محمد ﷺ وصفاته التي في التوراة الأصلية، وقتلوا الأنبياء، ودبروا قتل عيسى ﷺ وصلبه، ونسوا حظاً مما ذكروا به وأغفلوا وتناسوا كثيراً من الشريعة التي جاءت في التوراة؛ كإغفالهم آية رجم الزاني، وإغفالهم ما يتعلق بالربا، وغير ذلك.

عقوبة اليهود بسبب نقض الميثاق؟

١٣- ﴿فِيمَا نَقُضُوا مِيثَاقَهُمْ لَعَنَّاهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَاسِيَةً^(١) يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَن

(١) قرأ حمزة والكسائي (قَاسِيَةً) بحذف الألف وتشديد الياء، مبالغة في شدة القسوة، وقرأ الباقون (قَاسِيَةً) بألف بعد القاف وتخفيف الياء.

مَوَاضِعِهِ، وَدَسُّوا حَظًّا مِمَّا ذُكِّرُوا بِهِ، وَلَا تَزَالُ تَطَّلِعُ عَلَى خَائِنَةٍ مِنْهُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِنْهُمْ فَأَعْفُ عَنْهُمْ وَأَصْفَحْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ ﴿١٣﴾

أي: بسبب أن اليهود نقضوا هذا الميثاق، ولم ينفذوا بنوده، عاقبهم الله تعالى بخمس عقوبات هي:

١- اللعن والطرْد من رحمة الله تعالى، حيث أغلقوا على أنفسهم أبواب الرحمة ولم يقوموا بما عاهدوا الله عليه.

٢- قسوة القلوب وغلظتها فلا تُجْدِي فيهم المواعظ ولا تنفعهم الآيات والنذر.

٣- أنهم بسبب هذا النقص صاروا يبدلون أحكام الله، فيجعلون لكلامه تعالى معنى مخالفاً لما أراده.

٤- أنهم بسبب ذنوبهم نسوا نصوص التوراة ونسوا العمل بما فيها عقوبة لهم، وسَمَّى الله ذلك حظاً لأن إتيان كتاب الله أعظم الحظوظ، وماعداه حظوظ دنيوية.

٥- الخيانة المستمرة لله ولعباده المؤمنين.

وهكذا فقد لعنهم الله سبحانه إلى يوم القيامة، وطردهم من رحمته وأبعدهم عنها ﴿وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ﴾ في الدنيا ﴿فَنَسِيَةً﴾ غليظة، كما وصفها الله تعالى في سورة البقرة ﴿كَالْجِبَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسَوَةً﴾ [البقرة: ٧٤]. لا تلين للإيمان، فهي يابسة لا تتنفع بموعظة، ولا تقبل هدى.

من قبائح اليهود: ثم بيّن سبحانه قبيحتين من قبائحهم فقال عن الأولى: ﴿يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ﴾ وقال عن الثانية: ﴿وَلَا تَزَالُ تَطَّلِعُ عَلَى خَائِنَةٍ مِنْهُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِنْهُمْ﴾.

أي: ومن بين الميثاق الذي نقضوه: أنهم يغيرون كلام الله تعالى وحدوده في التوراة ويبدلون ما يقولون: إن أمرهم محمد بما أنتم عليه فاقبلوه وإن خالفكم فاحذروه.

وذلك أنه حين تُوفِّي موسى عليه الصلاة والسلام كانت التوراة المنزلة من عند الله واحدة، لا يوجد غيرها، وهذه النسخة فقدت في السبي البابلي بإجماع المؤرخين من اليهود والنصارى وغيرهم، حين سلطهم الله على اليهود، حيث أُحرقت التوراة في التابوت الذي كانت فيه، ولما أُحرقت التوراة، كَتَبَ الأحبار بعدها شيئاً من ذاكرتهم

وحفظهم، بما يخدم سياساتهم، وجمع شتاتهم في مكان واحد، أما التوراة الحقيقية فقد فُقدت وأُحرقت ولم يبق لها أثر، ولذا: قال تعالى: ﴿وَسُوا حَظًا مِمَّا دُكِرُوا بِهِ﴾ أي: تركوا نصيبًا مما ذكّرهم الله تعالى إياه في التوراة، فلم يعملوا به، وأهملوا أوامر الله وشريعته، في مثل آية الرجم التي سألهم عنها رسول الله ﷺ فأغفلوها؛ لأنهم لا يريدون أن يُقام عليهم هذا الحد، فاستحلف النبي ﷺ رجل دين منهم، حتى أقر واعترف بوجود عقوبة الرجم في التوراة.

ثم قال سبحانه مبيّنًا القبيحة الثانية في الآية ومقررًا أمرًا عامًا هو من شأن اليهود؛ حتى يبين الله لنا طبيعتهم؛ كي نتقي شرهم، ونتعرف على قبائحهم، فقال سبحانه: ﴿وَلَا تَزَالُ تَطْلُعُ عَلَى خَائِنَةٍ مِّنْهُمْ﴾ أي: لا تزال يظهر لك منهم كل خيانة وغدر وكذب وفجور، إلى يوم القيامة، وهذا ما يعانيه أهل فلسطين اليوم من نقض عهودهم، وعدم الوفاء بالمواثيق، أو الالتزام بها.

وقد حدث تكرار ذلك في عهد النبي ﷺ، وفي عهد الخلفاء الراشدين، وعلى مدى العصور، وفي وقتنا الحاضر، وما بعد وقتنا، ولا تزال تطلع على خائنة منهم، في كل زمان ومكان، فتظهر منهم مثل هذه الخيانات، وهذا الغدر، وهذا حالهم مع المسلمين في كل عصر ومصر، فهم على نهج أسلافهم.

ثم استثنى سبحانه من خائني اليهود فقال: ﴿إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ﴾ أي من هؤلاء القليل؟ وهم: عبد الله بن سلام ومن معه ممن أسلم من اليهود وحسن إسلامهم، فهؤلاء هم الذين استثناهم الله سبحانه.

أو أن المعنى: إلا قليلًا من اليهود جُبلوا على الوفاء بالعهد، كما قال تعالى: ﴿لَيْسُوا سَوَاءً﴾ [آل عمران: ١١٣]. وقال: ﴿وَمِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ إِنْ تَأْمَنَهُ بِقِنطَارٍ يُودِّهِ إِلَيْكَ وَمِنْهُمْ مَنْ إِنْ تَأْمَنَهُ بِدِينَارٍ لَا يُودِّهِ إِلَيْكَ إِلَّا مَا دُمْتَ عَلَيْهِ قَائِمًا﴾ [آل عمران: ٧٥]. وهذا المعنى أصح وأولى.

قال تعالى مخاطبًا رسول الله ﷺ: ﴿فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاصْفَحْ﴾ هذا حمّل للنبي ﷺ على مكارم الأخلاق في مقابلة سوء معاملة اليهود للنبي ﷺ، ولا علاقة لهذه الآية بالآية التي تأمر بقتالهم في سورة التوبة؛ حتى يسلموا أو يعطوا الجزية، وهي قوله تعالى: ﴿قَاتِلُوا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ

الْحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حَتَّى يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَنْ يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ ﴿٢٦﴾ [التوبة].

ولعل المراد: الأمر بالعتو والصفح عنهم في غدره هموا بها، حين هموا بقتل النبي ﷺ، أي: ما داموا لم يقفوا في وجه الدعوة، أو ينصبوا لكم حرباً، وعلى هذا فلا نسخ في الآية، بل فيها تخصيص لعموم آية التوبة ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾ أي: يحب من أحسن في العفو والصفح إلى من أساء إليه.

نَقْضُ النَّصَارَى لِلْمَوَاقِيقِ

١٤- ﴿وَمِنَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصْرِي أَخَذْنَا مِيثَقَهُمْ فَنَسُوا حَظًّا مِمَّا ذُكِّرُوا بِهِ فَأَغْرَيْنَا بَيْنَهُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ إِلَى يَوْمِ الْقِيَمَةِ وَسَوْفَ يُنَبِّئُهُمُ اللَّهُ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ ﴿٧٤﴾﴾

أي وكما أخذنا على اليهود العهد والميثاق، فكذلك أخذنا العهد والميثاق على الذين زكوا أنفسهم بالإيمان ورسوله، فقالوا: إنا نصارى لعيسى بن مريم، ولكنهم نقضوا العهد ونسوا ما ذكرهم الله به نسياناً علمياً وعملياً، فعاقبهم الله تعالى بأن سلط بعضهم على بعض، ووقع بينهم البغض والعداء إلى يوم القيامة، وهذا أمر قائم ومُشاهد، لا يمكن إنكاره.

وهكذا فإن بعض الناس يرث عقائد ضالة، وأخلاقاً فاسدة، وعادات سيئة، وكثيراً ما يقلد الأبناء آباءهم، أو يقلدون الجيل الذي قبلهم من غير دراسة، ومن غير بحث وتأمل وإعمال فكر، وليس أدل على ذلك من وجود الكثير من الخرافات والوثنيات في عقائد كثير من الناس، فهذا العدد الكثير، والكم الهائل في العالم يدين بالنصرانية، على ما فيها من خرافات، وما فيها من وثنية، كقولهم: المسيح هو الله، وقولهم: المسيح ابن الله، وقولهم: المسيح ثالث ثلاثة، أو أن المسيح وأمه إلهين من دون الله، ودعواهم أن المسيح له طبيعة إنسانية من طرف أمه، وطبيعة إلهية من طرف أبيه، وهو ما يعبرون عنه بالناسوت واللاهوت، فهو ذو طبيعتين، أو طبيعة واحدة مكونة منهما كما يزعمون، خرافات ووثنيات وأساطير، يدين بها كم هائل من البشر في عصرنا الحاضر.

ولقد جاء عيسى ﷺ بالتوحيد الناصع الخالص من ربه سبحانه، وأخذ يدعو الناس إليه ﴿مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَا أَمَرْتَنِي بِهِ أَنْ عِبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ﴾ [١١٧]. ﴿إِنَّهُ مَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَاهُ النَّارُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ﴾ [٧٢]. جاء عيسى ﷺ بهذا التوحيد

الخالص، و رُفِعَ عليه، دون أن يُكتب في عهده ما يسمى بإنجيل عيسى، وإنما كتبت الأناجيل بعده بفترة طويلة، وكل منها يُنسب إلى تلميذ من تلاميذه، وكل تلميذ منهم كتب الإنجيل من ذاكرته، والإنجيل الذي يقرر أن عيسى رسول الله، وأنه ليس ابنًا ولا إلهاً هو إنجيل برنابا، وهذا الإنجيل لا تعترف به الكنيسة إلى وقتنا هذا.

كَيْفَ دَخَلَ الشَّرْكَ دِينَ الْمَسِيحِ؟!

لقد دخل بولس في النصرانية، وكان قبل أن يدخلها يُسمَّى شاوم، ثم تَسَمَّى ببولس بعد أن دخل المسيحية، وبولس هذا لم ير عيسى ﷺ، ولم يتصل به مباشرة، وإنما اتصل بتلاميذه ﷺ، ثم ادَّعى بعد ذلك أنه كان له اتصال مباشر بعيسى ﷺ؛ حتى يأخذ الناس أقواله.

ودين المسيحية الموجود إلى وقتنا مما وضعه بولس، وهو الذي قال بالصلب والفداء وتكفير الخطايا، أي: أن عيسى ﷺ إنما صُلب وعُذِّب -على حد زعمهم- ليكفِّر عن خطايا بني آدم، وهو الذي قال بأن عيسى ابن الله، هذه الخرافات أدخلها بولس على عقيدة التوحيد التي جاء بها عيسى من عند ربه.

وبولس هذا يهودي الأصل، ولد في طرطوس، وتربي في أورشليم، ودخل في النصرانية؛ ليدخل فيها كثيرًا من عقائد اليهود؛ لكي يؤثر فيها بالتحريف والتبديل، وليُغيِّر من الشرائع التي جاء بها عيسى من عند ربه، وكان ذلك في وقت لاحق لوفاة عيسى ﷺ، أو لرفعه إلى السماء.

ثم دخل الملك قسطنطين في المسيحية من الوثنية في وقت لاحق، ولأنه كان إمبراطور روما، والملك المهيمن على البلاد، فقد قرر في مجمع كنسي كبير في نيقية عام ٣٢٥م حضره ٤٨ ألفًا من الأساقفة والبطارقة: أن عيسى ﷺ هو الله، فقسطنطين هو الذي أطلق الألوهية على عيسى، وأمر بقتل وتعزير وتشريد كل من يخالف هذا القرار، كما قرر في مجمع القسطنطينية الأول ٣٨١م ألوهية روح القدس، بمعنى: روح الله، وروح الله هي حياته كما يقولون، فصار الإله عندهم مكونًا من الأب والابن والروح القدس.

وما ظهرت الأناجيل إلا بعد دخوله النصرانية، فالأقانيم ثلاثة -كما يقولون- وهي شيء واحد، والمسيح هو الله، والله هو روح القدس! معادلة صعبة، وألغاز لا مفهوم لها؛ إذ

كيف يكون الثلاثة واحدًا، والواحد ثلاثة؟ تعالى الله عما يقولون علوًا كبيرًا.

وقد أخذ الله سبحانه الميثاق على النصارى بالتوحيد، وبالسمع والطاعة لرسول الله ﷺ، كما أخذ الميثاق على اليهود قبل ذلك، ففرض الله على النصارى أن يتابعوا عيسى وينصروه ويؤازروه، فبدلوا دينهم كما صنع اليهود، وتركوا نصيبًا مما ذُكِّروا به، فلم يعملوا به، وأخذ عيسى عليهم الميثاق بتوحيد الله سبحانه، والإيمان بمحمد ﷺ وبمتابعته ومناصرتة ومؤازرته حين يأتي زمانه، ويبعثه الله رحمة للعالمين.

نصارى أم مسيحيون؟! وفي مطلع الآية التي نحن بصددھا تقرر أن الله ﷻ يكذب النصارى في دعواهم أنهم نصارى، ويبيّن أن هذه الدعوى لا يحق لهم أن يقولوها؛ لأن النصراني هو الذي قال: نحن أنصار الله ﴿كَمَا قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ لِلْحَوَارِيِّينَ مَنْ أَنْصَارِي إِلَى اللَّهِ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنْصَارُ اللَّهِ﴾ [الصف: ١٤]. ومثل ذلك قوله تعالى: ﴿وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُم مَّوَدَّةَ الَّذِينَ ءَامَنُوا الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصْرِيُّ﴾ [٨٢]. فالنصراني هو الذي يناصر الله عز وجل، وهو الذي ينصر عيسى ﷺ، وينصر دين محمد ﷺ فيؤمن به وقت أن جاء، وقيل: سُموا نصارى نسبة إلى بلدة الناصرة التي نشأ فيها عيسى ﷺ، وأعلن دعوته للناس.

والله ﷻ يرُدُّ عليهم ويكذبهم، ويبيّن أنهم لا يستحقون هذه التسمية، فيقول: ﴿وَمِنَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصْرِيُّ أَخَذْنَا مِيثَاقَهُمْ﴾ على التوحيد، وأخذنا ميثاقهم على السمع والطاعة، وأخذنا ميثاقهم على الإيمان بمحمد ﷺ وبمتابعته ومناصرتة ومؤازرته، كما أخذناه على اليهود من قبل، فماذا فعل النصارى؟ يقول تعالى: ﴿فَسُوا حَظًّا مِمَّا ذُكِّرُوا بِهِ﴾ وهذا النسيان هو قولهم: بالتثليث والبنوة والألوهية من دون الله، نسوا شريعة عيسى، ونسوا التوحيد الذي جاء به عيسى، فغيروه وحرفوه وبدلوه، وقالوا: إن عيسى هو ابن الله، أو هو الله، أو هو ثالث ثلاثة، ونسوا، أو تناسوا ما جاء به الإنجيل الصحيح من وجوب الإيمان بمحمد ﷺ عند بعثته، ومن أوصافه التي يُعرف بها، فنقضوا الميثاق ولم يعملوا بمقتضاه، ومن ذلك أنهم تركوا الإيمان بمحمد ﷺ بعد أخذ الميثاق عليهم أن يؤمنوا به.

فماذا كانت العاقبة؟ وماذا كان الجزاء؟ وماذا كانت النتيجة؟ يقول سبحانه: ﴿فَأَعْرَبْنَا أَي: أَلْصَقْنَا بِهِمْ، وَأَوْقَعْنَا﴾ يَبْنُهُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ إِلَى يَوْمِ الْقِيَمَةِ ﴿هذه عقوبة لهم في الدنيا؛ حيث جعلهم الله سبحانه فِرْقًا متناحرة متخاصمة متجادلة كل فرقة تعادي الأخرى،

وهذا حاصل بين فِرَقَ النصارى، كما أن العداوة والبغضاء على أشدها بين اليهود والنصارى، وبين الفِرَقَ المسيحية المختلفة، ولو أنهم لم يضيّعوا فرائض الله، ولم يعطلوا حدوده، ما افترقوا ولا تباغضوا.

وهكذا نجد الأمم الغربية يتفنن بعضهم في إهلاك بعض، وكل منهم يخترع من أسلحة الدمار الشامل ما يبيد به الآخر، فالضمير يعود على اليهود والنصارى معًا على الأصح، وقيل: إنه يعود على فِرَقَ النصارى وأحزابهم، والفرق القديمة الرئيسة من النصارى، هي: اليعقوبية، والنسطورية، والملكانية، وتسمى حديثًا: الكاثوليك، والأرثوذكس، والبروتستانت، هذه هي الفرق الرئيسة للنصارى، ويتفرع منها فرق كثيرة يقع بينها العداوات والخصومات.

ومن ذلك أنهم اختلفوا في شأن عيسى عليه السلام، واختلفوا في شأن أمه، واختلفوا في الروح القدس، واختلفوا في طبيعة عيسى وأصل خلقه، حتى اختلفوا في أيام أعياد الميلاد التي يحتفلون بها، واختلفوا في عقائدهم وشرائعهم، فأوقع الله بينهم العداوة والبغضاء، وهذه العداوة والبغضاء بين الفرق المتناحرة من النصارى قائمة إلى يوم القيامة، كل طائفة منهم تكفر الأخرى، ويلعن بعضهم بعضًا، وتُحرّم كل طائفة على الأخرى أن تدخل معبدها.

والعداوة أعم من البغضاء؛ لأن العداوة سبب في البغضاء، والعداوة: كراهية في النفس، تسبب الجفاء، أو القطيعة، أو الإضرار، أما البغضاء: فهي شدة البغض، وقد لا يصحبه عداوة، وسبب العداوة بين النصارى: اختلاف الملل والنحل في العقيدة، هذه عقوبة الدنيا.

أما العقوبة في الآخرة فقد جاءت في قوله تعالى: ﴿وَسَوْفَ يُنَبِّئُهُمُ اللَّهُ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ﴾ وهذا تهديد ووعيد لهم، وبيان أن الله تعالى سوف يحاسبهم على ما ينسبونه زورًا إلى الله تعالى، وأنه سبحانه يجازيهم على هذا التحريف، وعلى هذه الخرافات التي أدخلوها في دين عيسى عليه السلام.

دَعْوَةُ أَهْلِ الْكِتَابِ إِلَى اعْتِنَاقِ الْإِسْلَامِ

١٥- ﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيرًا مِمَّا كُنْتُمْ تُخْفُونَ مِنَ الْكِتَابِ وَيَعْفُو عَنْ كَثِيرٍ^(١) قَدْ جَاءَكُمْ مِنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُبِينٌ ﴿١٥﴾﴾.

ثم يوجه القرآن الكريم النداء إلى أهل الكتاب من اليهود والنصارى معاً، بعد أن خص كلا منهما بحديث، فدعا الفريقين إلى الاهتداء بنور القرآن، والدخول في ساحة الرحمن، والإيمان برسول الأنام، وترك ما هم عليه من شرك ووثنية وضلال وأوهام، ففيه السلامة في الدنيا والآخرة والنجاة من كل خوف وشقاء، فبيّن سبحانه أنه يجب عليهم جميعاً أن يؤمنوا بهذا الرسول الخاتم الذي جاء؛ ليصحح ما أفسده اليهود، وما أفسده النصارى من العقائد الحقّة التي جاءت من عند الله سبحانه، فقد جاءكم بآية قاطعة دالة على صحة نبوته، وهي أنه يبين لهم كثيراً مما يخفون عن الناس حتى عن العوام من أهل ملتهم، فإذا بيّن هذا القرآن ما يكتُمونه في أنفسهم مع أن الذي أنزل عليه أميٌّ فإن هذا من أدل الدلائل على القطع برسالته.

فقال تعالى: ﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ﴾ من اليهود والنصارى ﴿قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا﴾ محمد ﷺ إلى جميع أهل الأرض: العربي والعجمي، الأمي والكتابي، وفي هذا حمل لجميع البشر على الدخول في الإسلام للوصول الدعوة إليهم، وإقامة الحجة عليهم، جاءكم محمد ﷺ ﴿يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيرًا مِمَّا كُنْتُمْ تُخْفُونَ مِنَ الْكِتَابِ﴾ أي: يوضح ما أخفيتموه من التوراة ومن الإنجيل؛ حيث أخفى اليهود من التوراة حكم رجم الزاني المُحصّن، وأخفوا بشائر صفة محمد ﷺ في كتبهم ونحو ذلك.

قال ابن عباس: من كفر بالرجم فقد كفر بالقرآن من حيث لا يحتسب^(٢).

قال ابن سوريا بعد أن صدّق النبي ﷺ على وجود الرجم في كتابهم: لكننا نخفيه،

(١) قوله تعالى (عن كثير) غير معدود آية عند الكوفيين، وهي آية عند بقية علماء العدد: المدني الأول والمدني الأخير، والمكي والبصري والشامي.

(٢) صحيح الإسناد، كما قال الحاكم ووافقه الذهبي: «المستدرک» (٣٥٩/٤) وابن حبان في «الإحسان» برقم (٤٤٣٠) بتصحیح الأرنأؤوط و«السنن الكبرى» للنسائي (٧١٦٢، ١١١٣٩).

فتزلت هذه الآية^(١).

وكان ابن صوريا قد قال في شهادته للنبي ﷺ معللاً إخفاء اليهود لحدِّ الرجم: إنه كان بسبب تفشي الزنى فيهم، وأنهم قد جلدوا مئة وحلقوا رؤوسهم^(٢).

وكما أخفى اليهود الآية التي تحرّم التعامل بالربا بين اليهود واليهود، وجعلوا أكل الربا جائزاً بين اليهود وغيرهم.

وأخفى اليهود أيضاً من التوراة القصة المتعلقة بأصحاب السبت وعقوبتهم، وأن الله سبحانه قد مسخهم قردة وخنازير، بسبب مخالفتهم لأوامر الله عزّ وجلّ، ووقوعهم في الصيد المحرم يوم السبت.

كما أخفى اليهود من التوراة نعت محمد ﷺ وبيان أوصافه.

وأخفى النصارى من الإنجيل: التوحيد الذي جاء به عيسى عليه السلام، وأخفوا منه صفات محمد ﷺ ونعته فيه.

وعلى ذلك فإن آمنتم بمحمد ﷺ واتبعتموه عفا الله عنكم، وغفر لكم ما كان من ذنبكم ﴿وَيَعْفُوا عَنْ كَثِيرٍ﴾ أي يترك بيان ما لا تقتضيه الحكمة.

وقيل أيضاً: يعفو عما لم يُعَدْ له حاجة في شريعة موسى وعيسى عليهما السلام.

فقد نسخ من الشرائع السابقة ما كانت صلاحيته محددة بزمان ومكان.

ثم وصف الله سبحانه هذا الكتاب فمدحه، وأثنى عليه بقوله: ﴿قَدْ جَاءَكُمْ مِنَ اللَّهِ نُورٌ﴾ هو محمد ﷺ وعليكم أن تتبعوا هذا النور وهو الرسول الخاتم للنبوّة والرسالة ﴿وَكِتَابٍ مُبِينٍ﴾ ينجيكم من المهالك، ويبين لكم أمور دينكم ودنياكم، ويوضح لكم أقوم الطرق، وهو القرآن يستضاء به في ظلمات الجهالة وعماية الضلالة. قال تعالى:

١٦- ﴿يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ﴾^(٣) سُبُلَ السَّلَامِ وَيُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ

(١) أخرجه ابن المنذر عن ابن جريج كما في «الدر المنثور» (٢٣٦/٥).

(٢) يُنْظَرُ: الطبري (٢٦٣/٨) عن عكرمة.

(٣) قرأ شعبة بخلف عنه (رِضْوَانَهُ) بضم الراء، وقرأ الباقر (رِضْوَانَهُ) بكسر الراء ومعهم شعبة في الوجه الثاني.

إِلَى الْنُّورِ بِإِذْنِهِ وَيَهْدِيهِمْ^(١) إِلَى صِرَاطٍ^(٢) مُسْتَقِيمٍ ﴿١٦﴾

أي: يهدي الله بهذا القرآن من اجتهد واتبع ما رَضِيَهُ الله تعالى لخلقه، وهو دين الإسلام، يهدي للتي هي أقوم، يهدي الأفراد والأمم والمجتمعات إلى طريق الحق؛ فهو يهدي العقل والضمير والأسرة والبيت إلى سبل السلام، ففيه سلامة العقل والروح والبدن والمجتمع، وفيه النجاة من النار، وهذا القرآن يخرجهم من ظلمات الكفر والبدعة والمعصية والشرك إلى نور الإيمان، والعمل بالكتاب والسنة، ويوفقهم إلى طريقه القويم، وهو طريق الإسلام.

قال السُّدِّي عن ﴿سُبُلَ السَّلَامِ﴾: هو سبيل الله الذي شرعه لعباده، ودعاهم إليه، وابتعث به رسوله، وهو الإسلام الذي لا يقبل الله من أحد عملاً إلا به، لا اليهودية، ولا النصرانية، ولا المجوسية، ولا غيرها.

كَفَر مَنْ قَالَ بِالْوَهْيَةِ الْمَسِيحِ

١٧- ﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ قُلْ فَمَنْ يَمْلِكُ مِنْ اللَّهِ شَيْئًا إِنْ أَرَادَ أَنْ يُهْلِكَ الْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٧﴾﴾.

لما ذكر الله سبحانه أخذ الميثاق على أهل الكتابين وذكر أنهم نقضوه ولم يعملوا به، بين بعد ذلك أقوالهم الشنيعة، حيث قالت النصارى: عيسى ابن الله، وقالت اليهود والنصارى: نحن أبناء الله وأحباؤه.

فقد ذكرت سورة المائدة في هذه الآية، بعد دعوة أهل الكتاب إلى الدخول في الإسلام، عقيدة فرقة من النصارى زعموا أن الله تعالى قد حلَّ في عيسى عليه السلام، فترى في كتبهم: (جاء الرب يسوع)، ويسوع هو عيسى، وقد اتفق النصارى على أن المسيح فيه عنصر إلهي، وهذا العنصر الإلهي يختلفون في تفسيره، فمنهم من جعله إلهًا، ومنهم من

(١) ضم يعقوب الهاء من (ويهديهم)، وكسرها الباقون.

(٢) قرأ قبل ورويس بالسين في (صراط)، وقرأ بإشمام الصاد صوت الزاي خلف عن حمزة وقرأ الباقون بالصاد الخالصة.

جعله ابناً، ومن جعله عضواً من ثلاثة أعضاء تكوّن الإله، وهي مذاهب تدور حول بعضها .

قال الدكتور (بوست) في تاريخ الكتاب المقدس: طبيعة الله، عبارة عن ثلاثة أقانيم متساوية الجوهر: الله الأب، والله الابن، والله روح القدس، فالأب ينتمي إلى الخلق بواسطة الابن، وإلى الابن الفداء، وإلى الروح القدس التطهير، غير أن الأقانيم الثلاثة هذه تتقاسم جميع الأعمال على السواء. أما مسألة التثليث فغير واضحة في العهد القديم، كما هي في العهد الجديد.

وفي هذا تصريح بأن الله هو الأب، وأنه أيضاً الابن، وأنه روح القدس كذلك، فكلها آلهة، وهل يعني الشرك أكثر من هذا؟

وفي الآية حَصْرُ القول أن الله هو المسيح لا غير، على معنى: أن الله وعيسى، اسمان لمسمى واحد، بمعنى أن الله تعالى امتزج واتّحد بذات المسيح، أي: أن الطبيعة الإلهية التي في عيسى من جهة نفخ الروح امتزجت بالطبيعة البشرية التي هي من جهة أمه، فاتحد وجود الله سبحانه في وجود عيسى، نعوذ بالله من عمى البصر والبصيرة!

ولهذا الحلول والاتحاد أصل عند النصارى، فهم يقولون: إن الله تعالى جوهر واحد، مكون من ثلاثة أقانيم، هي: أقنوم الذات، وأقنوم العلم، وأقنوم الحياة، ومعنى الأقنوم بالرومية: الأصل، أي: أن هذه الأصول الثلاثة اتحدت في عيسى، ثم فسرها كل من الكاثوليك، والبروتستانت والأرثوذكس بتفسير معين، يجعل عيسى إلهاً، أو ابناً، أو عضواً في الألوهية المثلثة.

وقد جاء الإسلام ليصحح هذه العقائد الضالة ﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ﴾ هذه عقيدة ضالة، افترها بعض النصارى واختلقوها وهو الملك (قسطنطين) ممن دخلوا في المسيحية مؤخراً؛ ليكيدوا لها من واقع نفوذهم وسلطانهم، وقد قرر الله تعالى أن هذا كفر فقال: ﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا﴾ فهم كفرة ومشركون بنص القرآن الكريم، فقد أشركوا مع الله غيره، وكفروا بمحمد ﷺ وبالقرآن، فوصف الكفر والشرك ملازم لهم، وإذا كانوا قد جعلوا عيسى إلهاً، فهل استطاع أن يدفع الصُّلب عن نفسه، وهو هلاك؟ كما زعموا أنه صُلب، إذ كيف يكون إلهاً، أو ابناً للإله ويصلب، ولا يدفع العذاب عن نفسه؟ وحينما جاء الموت إلى أمه وهي جزء من الإله كما يزعمون،

فهل رفع عيسى الموت عنها؟ وإذا كان عيسى لا يستطيع أن يمنع نفسه ولا أمه من الموت، فإن هذا يدل على أنه بشر كسائر الخلق، وفي هذا دليل كافٍ على فساد ما ذهب إليه النصارى؛ فلا أحد يملك من الله شيئاً فيدفع الموت والهلاك عن عيسى وعن أمه وسائر الخلق؟ إنه الله وحده جلّ في علاه.

والآية تفرق تفرقة مطلقة، بين ذات الله تعالى، وذات عيسى، وذات أمه، وتبين أن كل ذات تختلف عن الأخرى، فالله سبحانه هو خالق هذا الكون بما فيه ومن فيه، وهو سبحانه يخلق ما يشاء ويختار، وقد خلق آدم من غير أب ولا أم، وخلق حواء من غير أم، وخلق عيسى ابن مريم من غير أب، وخلق سائر البشر من ذكر وأنثى؛ لتكتمل القسمة العقلية، ويُعلم أن قدرة الله تعالى لا تتوقف على الأسباب، فهو سبحانه خالق السبب والمسبب ﴿يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَيَخْتَارُ﴾ [القصص: ٦٨]. إن شاء خلق من أب وأم، وإن شاء خلق من أب بلا أم، وإن شاء خلق من أم بلا أب، فلا وجه لاستغراب خلق عيسى من غير أب، فالكون كله مملوك لله تعالى يدبر أمره ويصرف شؤونه، وكل شيء مخلوق لله تعالى، والخالق غير المخلوق.

وحقيقة التوحيد: توجب تَفَرُّدَ الله تعالى بصفات الربوبية والألوهية، وتوجب التوجه له وحده بالعبادة دون غيره، وكثيراً ما يقع بعض الناس في الشرك بسبب هذا الغلو الذي حدث من النصارى في شأن عيسى ﷺ ﴿وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ يخلق ما يشاء، ويفعل ما يريد، ولا يسأل عما يفعل، بمقتضى قدرته وسلطانه، وعدله وحكمته، لا يعجزه شيء في الأرض ولا في السماء.

دَعْوَى التَّمَيِّزِ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ

١٨- ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ وَأَحِبُّهُ قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُمْ بِذُنُوبِكُمْ بَلْ أَنْتُمْ بَشَرٌ مِمَّنْ خَلَقَ يَغْفِرْ لِمَن يَشَاءُ وَيُعَذِّبْ مَن يَشَاءُ وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ﴾

دعا النبي ﷺ بعض اليهود إلى الإيمان بالله تعالى واتباع ما جاء به من عنده، وخوفهم عذاب الله إن لم يؤمنوا، فقالوا: أتخوفنا يا محمد، ونحن أبناء الله وأحباؤه، نحن أعزة عليه، فهو لن يعذبنا، كيف تخوفنا ونحن أبناء الله وأحباؤه؟

أخرج الطبري بسند حسن، من طريق ابن إسحاق عن ابن عباس قال: أتى رسول الله ﷺ نعمان بن أضاء، وبحري بن عمرو، وشاس بن عدي، فكلموه، فكلمهم رسول الله ﷺ ودعاهم إلى الله، وحذرهم نقمته، فقالوا: ما نخوفنا يا محمد؟ نحن والله أبناء الله وأحباؤه!! كقول النصارى، فأنزل الله عز وجل هذه الآية^(١).

وهذه الدعوى موجودة في التوراة، كما في الفصل الرابع عشر من سفر التثنية: (أنتم أولاد للرب أبيكم). وفي الإنجيل كثير من ذلك، ومنه ما جاء في الإصحاح العاشر من إنجيل متى: أَلَسْتُمْ أَنْتُمْ الْمُتَكَلِّمِينَ، بَلْ رُوحَ أَبِيكُمْ الَّذِي يَتَكَلَّمُ فِيكُمْ. وَقَدْ أَبْطَلَ اللَّهُ قَوْلَهُمْ بِالْمَنْطِقِ الْوَاضِحِ وَالْبُرْهَانِ الْعَقْلِيِّ بِحُجَّتَيْنِ:

إحدهما: قوله تعالى: ﴿قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُمْ بِذُنُوبِكُمْ﴾ فالمحب لا يعذب حبيبه، والأب لا يعذب ابنه.

وثانيهما: قوله تعالى: ﴿بَلْ أَنْتُمْ بَشَرٌ مِّمَّنْ خَلَقَ﴾ تجري عليكم أحكام العدل والفضل، وكُتِبَ اليهود والنصارى طافحة بذكر العذاب في الدنيا والآخرة، وفي عقيدة النصارى أن عيسى عليه السلام قد عرَّضَ نفسه للصلب؛ ليكفر عن خطايا البشر!! فهذه صور من العذاب يقرُّون بها ويعترفون، إذاً فهي دعوى قالها اليهود كما قالها النصارى، فهل هي أبوة جسد، أو أبوة روح وجسد؟ إنه زعمٌ كاذبٌ في التصوُّرين معاً، وإن قصدوا أنهم مقربون من الله تعالى، أو أنهم أشياعه وأتباعه، كما قال بعض اليهود: إنهم أشياع ابنه عزيز.

وقالت النصارى: نحن أشياع ابنه عيسى، وأنهم الشعب المختار، وكما زعم اليهود أن الله تعالى قال ليعقوب عليه السلام: (أنت ابني بكرى)، وزعم النصارى أن عيسى عليه السلام قال لهم: إني ذاهب إلى أبي وأبيكم. وإن صح هذا فمعناه: ربي وربكم، ويكون على وجه التشریف والتكريم بالنسبة ليعقوب عليه السلام، والواقع يناقض دعواهم، ويكذبهم الله تعالى فيما زعموه، ويبيِّن لهم أنهم بشر كسائر البشر ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ وَأَحِبُّواهُمْ﴾ والله تعالى لا يحب إلا من أطاعه، ولو كنتم أحبائه ما عذبكم، وما أعد لكم نار جهنم إن متم على هذا الشرك.

(١) ورواه أيضاً السيوطي في «أسباب النزول» (١٠٣) و«تفسير القرطبي» (١٢٠/٦) وغيرهم و«سيرة ابن هشام» (٥٦٣/١) والطبري (٢٦٩/٨) والبيهقي في «الدلائل» (٥٣٣/٢).

قل لهم -أيها الرسول-: إن كنتم أبناء الله وأحباءه روحًا، أو جسدًا وروحًا، فهل يعذب الحبيب حبيبه؟ وهل يعذب الأب ابنه؟ والله سبحانه قد عذبكم في الدنيا، وشردكم وخرب دياركم، وأنتم تقولون أنكم تُعذبون في الآخرة أربعين يومًا، وتقولون: ﴿لَنْ تَمَسَّنَا الْنَّكَارُ إِلَّا أَنْتِئَامًا مَّعْدُودَةً﴾ [البقرة: ٨٠]. وأن هذه الأيام المعدودة هي مدة الأربعين يومًا التي عبدتم فيها العجل حتى تطهركم النار، وتأكل خطاياكم، وهي دعوة كاذبة، وأنتم تقولون بها، وأنكم تعذبون في النار بإقراركم واعترافكم، فكيف تكونون أبناء الله وأحباءه؟ كما أن النصارى يعترفون بأن الله تعالى يعذب العصاة منهم.

عن أنس رضي الله عنه أن النبي ﷺ مرَّ في نفر من أصحابه وصبي في الطريق، فلما رأت أمه القوم خشيت على ولدها أن يوطأ، فأقبلت تسعى وتقول: ابني، ابني، فسعت فأخذته، فقال القوم: يا رسول الله، ما كانت هذه لئُلقي ابنها في النار، فقال النبي ﷺ: «لا، والله لا يُلقى حبيبه في النار»^(١). ولو كنتم أحباب الله - كما تزعمون - ما عذبكم.

وإذن فلا خصوصية لكم عند الله تعالى، بل أنتم خلُق من خلُق الله كسائر بني آدم، تُذمُّون على الإساءة، وتُحمدون على الإحسان، وتُجازون بالإحسان إحسانًا، وبالسوء سوءًا بمقتضى عدل الله تعالى وإحسانه ويكرر الله سبحانه بيان أنه المالك لكل شيء، وأن مصير كل شيء إليه، لا رادَّ لقضائه، ولا معقب لحكمه، فيحكم بين عباده، ويجازي كلًّا بما يستحق.

إِقَامَةُ الْحُجَّةِ عَلَى أَهْلِ الْكِتَابِ لِلْإِيمَانِ بِخَاتَمِ النَّبِيِّينَ

١٩- ﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ عَلَى فَتْرَةٍ مِّنَ الرُّسُلِ أَنْ تَقُولُوا مَا جَاءَنَا مِن بَشِيرٍ وَلَا نَذِيرٍ فَقَدْ جَاءَكُمْ بَشِيرٌ وَنَذِيرٌ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾

ثم يوجه الله تعالى النداء إلى أهل الكتاب من اليهود والنصارى؛ لقطع الحجة عليهم، وإيقافهم على المصير المحتوم بسبب عدم إيمانهم بالنبي الخاتم، المرسل للجن والإنس، بشيرًا ونذيرًا، وقد كفر اليهود بـعيسى، وبين عيسى ومحمد نحو ست مئة سنة،

(١) «المسند» (١٢٠١٨) قال محققوه: إسناده صحيح على شرط الشيخين، وأخرجه البزار (٣٤٧٦) كشف، وأبو يعلى (٣٧٤٧) والحاكم (٥٨/١).

وعيسى هو آخر أنبياء بني إسرائيل، وفي هذه المدة اندثر التوحيد، وتبدلت معالم الرسالة الإلهية، وانطمست آثار الوحي، ونشأ الضلال، وتغيّرت العقيدة التي جاء بها عيسى، فبدلت وحُرفت، ولم يعد هناك توحيد لله عزّ وجلّ، إلا نذر يسير من البشر، ظلّوا على الحنيفية السمحة، كانوا يُسمّون بالحنفاء، ولذلك فإن النبي ﷺ يصور هذه الفترة التي فشا فيها الضلال وعبادة الأوثان، بما جاء في الحديث عن عياض بن حمار رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «... إن الله عزّ وجلّ نظر إلى أهل الأرض فمقتهم، عجمهم وعربهم، إلا بقايا من أهل الكتاب»^(١).

هؤلاء البقايا هم الذين بقوا على الحنيفية ملة إبراهيم، وكانوا يُعدّون على الأصابع، منهم: ورقة بن نوفل، وأمّية بن أبي الصلت، وزيد بن عمرو بن نفيل، فالمراد ببقايا أهل الكتاب: الباقون على التمسك بدينهم الحق من غير تبديل ولا تحريف.

جاء في أسباب النزول أن جماعة من الصحابة قالوا لعدد من اليهود: يا معشر يهود، اتقوا الله، فوالله إنكم لتعلمون أنه رسول الله، لقد كنتم تذكرونه لنا قبل مبعثه، وتصفّونه لنا بصفته، فقالوا: ما قلنا لكم ذلك، وما أنزل الله من كتاب بعد موسى، ولا أرسل بشيراً ولا نذيراً بعده فأنزل الله الآية^(٢).

ولم يوجد في هذه الفترة التي بين عيسى ومحمد عليهما السلام، من رسول أرسل إلى الناس، إلا ثلاثة من الرسل، ذكرتهم سورة يس، وهؤلاء الثلاثة كانوا على ملة عيسى، فهم أتباع لعيسى ورسل له، يبلغون دعوته، ولم تكن لهم شريعة خاصة، وإنما أرسلهم الله تعالى إلى قرية أنطاكية يجددون دعوة عيسى ﷺ ويقررونها، فهم بمثابة أنبياء بني إسرائيل، وبمثابة علماء هذه الأمة، وهناك نبي رابع هو (خالد بن سنان) الذي قيل فيه: «نبي ضيعه قومه» وكذلك (حنظلة بن صفوان) وهذان النبيان من غير أهل الكتاب.

وفي الصحيحين عن أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «أنا أولى الناس بعيسى، الأنبياء

(١) الحديث بطوله في «صحيح مسلم» (٢/٢١٩٧) برقم (٢٨٦٥) وفي «المسند» (٤/١٦٢) برقم (١٧٤٨٤)

من حديث طويل، إسناده صحيح على شرط مسلم، والطبراني في الكبير (١٧) (٩٩٤) والطيالسي.

(٢) رواه الطبري بإسناد حسن، من طريق ابن إسحاق عن ابن عباس ؓ ذ (٨/٢٧٣) وذكره السيوطي في

«أسباب النزول» (١٠٣٢) والبيهقي في «الدلائل» (٢/٥٣٣).

أبناء علات، وليس بيني وبين عيسى نبي»^(١).

أي: أن الأنبياء دينهم واحد وشرائعهم متعددة.

وهؤلاء الخمسة ليسوا بأنبياء أوحى إليهم بشرع مستقل من عند الله تعالى، وإنما هم على دين عيسى وشريعته قال تعالى: ﴿وَأَضْرِبْ لَهُم مَّثَلًا أَصْحَابَ الْقَرْيَةِ إِذْ جَاءَهَا الْمُرْسَلُونَ ﴿١٣﴾ إِذْ أَرْسَلْنَا إِلَيْهِمُ اثْنَيْنِ فَكَذَّبُوهُمَا فَعَزَّزْنَا بِثَالِثٍ﴾ [يس: ١٣، ١٤] وهؤلاء الثلاثة كانوا في الفترة التي بين عيسى ومحمد، وبعد أن كثر الضلال، وعمت عبادة الأوثان أخذوا يدعون الناس إلى التمسك بالتوحيد الذي جاء به عيسى عليه السلام، وقد استمرت دعوتهم مدة تزيد على قرن من الزمان.

ثم أرسل الله محمدًا ﷺ؛ ليصحح ما فسد من آثار الوحي، وليعيد التوحيد الذي جاء به إبراهيم عليه السلام إلى الناس كافة، وليكون حجة على الخلق إلى يوم القيامة.

وجاء في أسباب النزول أن النبي ﷺ دعا بعض اليهود إلى الإيمان بالله تعالى واتباع ما جاء به من عنده، فقالوا: يا محمد، ما نعرف من كتاب أنزل من بعد موسى، ولا نعرف من بشير ولا نذير أرسل بعده؟ فأنزل الله سبحانه ﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ﴾ من اليهود والنصارى، وغيرهم ﴿قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا﴾ محمد ﷺ يبين لكم أحكام الدين وشرائعه على فترة انقطاع من الرسل، عمَّ فيها الضلال وعبادة الأوثان بين عيسى ومحمد؛ وذلك لكي لا تقولوا يوم القيامة ﴿مَا جَاءَنَا مِنْ بَشِيرٍ وَلَا نَذِيرٍ﴾ بعد موسى وعيسى يدعونا إلى عبادة الله، قال تعالى مجيباً لهم، ومقيمًا الحجة عليهم: ﴿فَقَدْ جَاءَكُمْ بَشِيرٌ وَنَذِيرٌ﴾ هو محمد ﷺ وهو الرسول الخاتم، من أتبعه وترسم خطاه وعمل بما جاء به وبشرعه، فإنه يفوز برضى الله تعالى، ويفوز بالسعادة في الدنيا والآخرة ﴿وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ ومن قدرته سبحانه إثابة المطيع وتعذيب العاصي، وانقياد الأشياء له طوعاً وإذعاناً لقدرته، ومن قدرته سبحانه أنه أرسل الرسل وأنزل الكتب، وأنه يثيب من أطاع ويعذب من عصى.

(١) رواه البخاري (٣٥٤/٦) برقم (٣٤٤٢، ٣٤٤٣) ومسلم (١٨٣٦/٤) برقم (٢٣٦٥).

مُوسَىٰ يَذْكُرُ بَنِي إِسْرَآئِيلَ بِنِعْمِ اللَّهِ عَلَيْهِمْ

٢٠- ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ يَنْقُورُ أَذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَعَلَ فِيكُمْ أَنْبِيَاءَ^(١) وَجَعَلَ لَكُم مَّلُوكًا وَآتَاكُمْ مَا لَمْ يُؤْتِ أَحَدًا مِّنَ الْعَالَمِينَ ﴿٢٠﴾﴾

ثم بيّن الله تعالى لرسوله ﷺ جبن اليهود، ومخالفتهم لرسولهم موسى ﷺ، وموقفهم من الميثاق الذي أخذه عليهم، مع توالي نعمه تعالى عليهم، وكان الله تعالى قد منّ على بني إسرائيل بنجاتهم من فرعون وقومه، فخرجوا من مصر قاصدين بيت المقدس وما حوله، وكان الله قد فرض عليهم الجهاد لإخراج العمالقة من الديار، فلما اقتربوا من بيت المقدس وعظّمهم موسى وذكّرهم ليقدّموا على الجهاد، ولكنهم تقاعسوا وامتنعوا.

ويحسنُ بنا أن نرجع إلى الوراء قليلاً:

لقد كان سيدنا يوسف ﷺ وزيراً لخزائن مصر، وقد دخل أبوه يعقوب وإخوانه أرض مصر، قادمين من الأرض المقدسة إلى أخيه يوسف في مصر، وتوفي يوسف ﷺ قبل ولادة موسى ﷺ بأربعة وستين عاماً، وبقيت ذرية يعقوب في أرض مصر، إلى أن أرسل الله موسى نبياً ورسولاً، وكان فرعون قد استغلّ بني إسرائيل من ذرية يعقوب، فاستعبدهم وجعل منهم خدماً وعبداً يعملون في الأشغال الشاقة.

أرسل الله موسى ﷺ نبياً ورسولاً، وأمره أن يخلص بني إسرائيل من ظلم فرعون واستعباده لهم، وأن يخرج بهم من مصر إلى فلسطين وقال له ولهارون عليهما السلام: ﴿فَأْتِيَا فِرْعَوْنَ فَقُولَا إِنَّا رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٦﴾﴾ أَنْ أَرْسِلَ مَعَنَا بَنِي إِسْرَآئِيلَ ﴿١٧﴾﴾ [الشعراء] وقال لهما أيضاً: ﴿فَأْتِيَاهُ فَقُولَا إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِي إِسْرَآئِيلَ وَلَا تَعْذِْبَهُمْ فَدَحِشْنَاكَ يَأَاكَ مِنْ رَبِّكَ﴾ [طه: ٤٧]. أي: أن الله تعالى قد أرسلنا؛ لنخلص بني إسرائيل من ظلمك واستعبادك ونخرج بهم من أرضك.

وتستمر القصة إلى أن أغرق الله فرعون وقومه، ونجّى موسى وبني إسرائيل من الغرق، وحيثُتد أمر الله تعالى موسى أن يأخذ بني إسرائيل ويخرج بهم إلى قتال الكنعانيين

(١) قرأ نافع بالهمز بدل الياء في (أنباء) وقرأ غيره بياء خالصة.

الجبابرة الذين سكنوا الأرض المقدسة بعد أن خرجوا منها إلى مصر؛ حتى يجاهدوهم ويخرجوهم، ويدخلوا هذه الأرض المقدسة، وبدأ موسى ذلك بتذكيرهم بنعم الله عليهم قائلًا: ﴿يَقَوْمِ أَذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ﴾ أي: نعمه الكثيرة التي حباكم بها دون غيركم من أهل زمانكم، اذكروها بقلوبكم وألستكم، فَإِنَّ ذِكْرَهَا يَدْعُو إِلَى مَحَبَةِ اللَّهِ تَعَالَى وَيُنْشِطُ عَلَى الْعِبَادَةِ، وكان موسى مشفقًا من تردد القوم ونكوصهم، فأخذ يذكّرهم قبل دعوتهم للجهاد بنعم الله عليهم؛ ليهيئ نفوسهم لقبول هذا الأمر العظيم ويشحذ همتهم، ويبشرهم بالنصر إن قاتلوا أعداءهم، فذكر لهم ثلاث نعم من نعم الله تعالى عليهم:

النعمة الأولى: أن الله تعالى جعل فيكم كثرة من الأنبياء، يدعونكم إلى الهدى، لا توجد في أمة من الأمم سواكم، فكلما مات نبي قام فيكم نبي آخر منكم، ولا تزال النبوة فيكم من لدن إبراهيم عليه السلام حتى خُتِمُوا بعيسى عليه السلام، ومن هؤلاء الأنبياء: إسحاق ويعقوب ويوسف وموسى وهارون، وغيرهم.

النعمة الثانية: أن جعل الله فيكم ملوكًا على وجه الحقيقة؛ كداود، وسليمان عليهما السلام، وجعلكم أحرارًا تملكون أنفسكم وأهليكم وأموالكم وأولادكم، فكنتم تملكون أمركم وتتمكنون من إقامة دينكم بعد أن كنتم خدماً وعبيدًا عند فرعون.

وكان يقال للرجل: مَلِكٌ، إذا كان له مسكن وزوجة وخادم:

قال رجل من الصحابة لعبد الله بن عمرو بن العاص عليه السلام: ألسنا من فقراء المهاجرين؟ قال عبد الله: ألك امرأة تأوي إليها؟ قال: نعم، قال: ألك مسكن تسكنه؟ قال: نعم، قال: فأنت من الأغنياء، قال الرجل فإن لي خادمًا، قال: فأنت من الملوك^(١).

فكان الرجل إذا كان عنده هذه الثلاثة، يقال له: ملك.

وقال الحسن البصري: هل المَلِكُ إلا مركب وخادم ودار؟

وفي الحديث عن عبيد الله بن محصن الخطمي، وكانت له صحبه: «من أصبح منك

(١) يُنْظَرُ: «صحيح مسلم» (٤/ ٢٢٨٥) وقد أورده ابن جرير (١٠/ ١٦١).

أَمَّا فِي سِرْبِهِ، معافى في بدنه، عنده قوت يومه فكأنما حيزت له الدنيا بحذاقها»^(١).

النعمة الثالثة: أن الله تعالى فضّل بني إسرائيل على سائر الأمم في أزمانهم؛ لأنهم كانوا أهل الكتاب في زمانهم، يؤمنون بالله واليوم الآخر، وبقية الأمم عبّاد أوثان، ولا يوجد أهل كتاب غيرهم، فكانوا أفضل من غيرهم؛ كالقبط، واليونان؛ لهذا السبب فضّلهم الله على غيرهم في زمانهم.

ومن جهة أخرى فقد آتاهم الله من النعم الدينية والدنيوية ما لم يؤت أهل زمانهم من النعم، وأعظمها: شريعة التوراة، وأيضًا، فقد أنزل عليهم المن والسلوى، وفلق لهم البحر، وأخرج لهم الماء من الحجر، وظلّلهم بالغمام، وأنجاهم وأغرق فرعون ومن معه، وهذا لم يؤته الله أحدًا من قبلهم، قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا بَنِي إِسْرَءِيلَ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾ [البقرة: ١٢٩].

مُوسَى يَحْضُ قَوْمَهُ عَلَى دُخُولِ الْأَرْضِ الْمُقَدَّسَةِ وَيُحَذِّرُهُمْ مِنَ النُّكُوصِ

٢١- ﴿يَقَوْمُ ادْخُلُوا الْأَرْضَ الْمُقَدَّسَةَ الَّتِي كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَرْتُدُّوا عَلَىٰ آدْبَارِكُمْ فَتَنْقَلِبُوا خَاسِرِينَ﴾

أمر الله اليهود بعد أن خرجوا من مصر أن يدخلوا بيت المقدس، وسميت مقدسة؛ لأنها مباركة، ومبارك حولها، ويُتطهر فيها من الذنوب، وهي مُطَهَّرَةٌ من الشرك؛ لأن الأصنام لم تُعبد فيها؛ لكثرة وجود الأنبياء وتتابعهم في هذا المكان، فلم يُعبد فيها صنم ولا وثن، وقد دُفِن فيها خليل الرحمن، فهي الأرض المقدسة ﴿الَّتِي كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ﴾ أي: فرض عليكم دخولها لقتال من فيها من العمالقة الجبارين، وقد وعدكم الله إياها بشرط الطاعة، وتحريرها من المقيمين بها، فإن جُبُتُمْ ونكصتم على أعقابكم حرّمها الله عليكم تحريمًا أبدًا.

قال ابن عباس: أمر موسى أن يدخل مدينة الجبارين، فسار بمن معه حتى نزل قريبًا من

(١) أخرجه الترمذي (٥٧٤/٤) برقم (٢٤٦٣) وقد حسنه الألباني في صحيح «سنن الترمذي» برقم (١٩١٣) وصحيح «سنن ابن ماجه» (٤١٤١) وهو في ابن ماجه (١٣٨٧/٢) وابن حبان برقم (٢٥٠٣) والبخاري في «الأدب المفرد» (٤٠٠/١).

المدينة -وهي أريحاء- فبعث إليهم اثني عشر نقيباً، من كل سبط منهم عيناً ليأتوه بخبر القوم، فأرأوا من هيئتهم وجسمهم وعظمتهم...، فرجعوا إلى موسى فأخبروه بما عاينوه من أمرهم، فقال: اكنموا عنا، فأخبر كل واحد منهم أباه وصديقه ولم يكتم إلا رجلان هما: يوشع بن نون، وكالب بن يوقنا^(١).

وقد جُبُن عشرة من النقباء عن لقاءهم وكرّهوا غيرهم في الدخول على الجبارين، وأما يوشع وكالب فقد أمرا بالدخول عليهم ورغباً غيرهم في ذلك، وأخبروهم بأنهم غالبون.

فمعنى ﴿كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ﴾ فَرَضَ عليكم الجهاد طاعة لنيبكم، وهذا وعدٌ وعدكم الله به في زمانكم، وقت وجود نبيكم، وأثناء صلاحية الرسالة، ولا يمتد أكثر من ذلك، فإذا انتهى وقت الرسالة بمجيء رسالة عيسى ﷺ، فقد انتهت هذه الصلاحية، وكانت الراية والسيادة للرسول الذي يليه.

ومن المفروض أن لا يبقى يهودي يدين برسالة موسى بعد مجيء عيسى، وإنما يدين بالنصرانية بمجرد ظهور رسالة عيسى ﷺ، وتكون الأرض تابعة لهذا الرسول الجديد.

فإذا انتهت مدة رسالة عيسى ﷺ كانت الأرض كلها إسلامية تبعاً للرسول الخاتم، وكانت أمته مسلمة مؤمنة به إلى يوم القيامة.

وقد فتحت فلسطين فتحاً إسلامياً، في عهد عمر رضي الله عنه، فهي أرض إسلامية، وصاحب الكلمة فيها هو صاحب الرسالة الأخيرة، حيث لم يُعَد لليهود أحقية الوجود فيها بعد حلول النصرانية، ولم يُعَد للنصارى أيضاً حق فيها بعد حلول الإسلام.

والإسلام هو كلمة الله الأخيرة إلى خلقه، ورسول الإسلام هو خاتم الرسل، والحكم الإسلامي هو الذي يجب أن يسود العالم، ومن لم يدخل في الإسلام من أهل الشرائع الأخرى لا يُكرهون على الدخول فيه، ما لم يتعرضوا لنشر الدعوة ويعيشوا في ظل حكمه العادل، لهم ما للمسلمين وعليهم ما عليهم من الحقوق والواجبات.

قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرْثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ﴾ [الأنبياء].

(١) أخرجه ابن أبي حاتم والطبري (٢٩٠/٨) ويقال: كالب بن يوحنا.

وعلى هذا: فقد نُسخَت اليهودية بشريعتين بعدها، لا بشريعة واحدة، ونُسخَت النصرانية بالإسلام، فلم يبق لليهود وجود كشعب، ولا كشريعة، وما عدا هذا فهو من باب الباطل الذي لا ينبغي أن يكون.

وإمامة محمد ﷺ لجميع الرسل ليلة المعراج دليل حُمل الراية في الأرض بعد هؤلاء الرسل إلى يوم القيامة.

وكان بنو إسرائيل قد قالوا للنبي ﷺ: كل نبي قبلك وُلد أو بُعث أو هاجر إلى بيت المقدس، وأنت قد خالفت هذه القاعدة، فأخذ الله تعالى رسوله ﷺ في رحلة الإسراء إلى بيت المقدس، ومنها كان المعراج إلى السموات العلى؛ ليقيم عليهم الحجة، بجمع المرسلين جميعاً له في المسجد الأقصى وإمامته لهم؛ لئلا يكون لهم عذر في عدم الإيمان بالرسالة الخاتمة.

قال موسى لقومه: لا تتخلفوا عن الجهاد، ولا تجبنوا ولا تضعفوا، ولا تخالفوا أمر الله وشرعه فتقلبوا خاسرين في الدنيا بتحريمها عليكم إلى الأبد، وتكونوا خاسرين في الآخرة بعذابكم وعقوبتكم.

فكان ردهم فيه ضعف وخَوَر وقلة يقين، وعدم اهتمام بأمر الله ورسوله:

خَوْفُ بَنِي إِسْرَائِيلَ مِنْ لِقَاءِ الْعَدُوِّ

٢٢- ﴿قَالُوا يَمُوسَى إِنَّ فِيهَا قَوْمًا جَبَّارِينَ وَإِنَّا لَنَنۢدۢخُلُهَا حَتَّىٰ يَخۡرُجُوا مِنۢهَا فَإِنَّا دَاخِلُونَ﴾

وحينما وصل موسى إلى أريحا -قرب الأرض المقدسة، والظاهر أن أريحا كانت حاضرة العماليق يومئذ، وبهذا فسرهما ابن عباس- أرسل النقباء الاثني عشر الذين أخذ الله عليهم الميثاق من بني إسرائيل وجعلهم شهوداً على أقوامهم، وهؤلاء النقباء هم ممثلو الأسباط الاثني عشر وقادة الجيش فيهم- أرسل موسى النقباء إلى الأرض المقدسة يتحسسون القوم الذين سيدخلون عليهم ويجاهدونهم، فوجدوهم قوماً جبارين عظام الأجسام، أولي بأس وقوة وبطش، فرجع النقباء إلى موسى وأخبروه بحال الجبارين، وأنهم وجدوا الأرض تدرُّ لبنًا وعسلًا، غير أن ساكنيها أقوياء، ومدينتهم حصينة، فأخذ

موسى العهد والميثاق على النقباء أن لا يخبروا بني إسرائيل بذلك، وأن يكتموا عنهم قوة العمالقة؛ لأن هذا من شأنه أن يُضعف قوة الجيش، ومن شأنه أن يبعدهم عن الجهاد، ويُوهِن عزيمتهم، ويكون سبباً في الهزيمة، وعدم دخول الأرض المقدسة.

فماذا كان من النقباء؟ وهم الذين اصطفاهم موسى واختارهم، وجعلهم عرفاء عليهم، ما كان منهم إلا أن نقضوا هذا العهد، وأفشوا هذا السر، فذكر كل نقيب إلى السبط، أو العشيرة، أو القبيلة التي هو منها، الخبر الذي منعهم موسى من إفشائه، إلا نقيبين من الاثني عشر، هما يوشع وكالب اللذين أنعم الله عليهما، وجاء ذكرهما في الآية، وكل نقيب منهم نهى قومه عن قتالهم، إلا هذين الرجلين.

ولما عرف بنو إسرائيل قوة الجبارين من الكنعانيين المقيمين في الأرض المقدسة، همُّوا بالرجوع إلى مصر، وضعفوا وجبنوا عن لقاءهم ﴿وَقَالُوا يَمُوسَى إِنَّ فِيهَا قَوْمًا جَبَّارِينَ﴾ لا نستطيع قتالهم، ولا طاقة لنا بهم، ثم أكدوا عدم دخولهم الأرض التي فيها هؤلاء الجبارين بقولهم: ﴿وَأِنَّا لَن نَّدْخُلَهَا حَتَّىٰ يَخْرُجُوا مِنْهَا﴾ قالوا ذلك استبعاداً لخروج الجبارين منها، وليبان أنهم لا قدرة لهم عليهم، وعزموا على العودة إلى مصر.

وهذا الجبن والخور سجله القرآن الكريم على اليهود في كثير من المواطن، من ذلك قوله تعالى: ﴿لَأَن تَشُدَّ رَهْبَةً فِي صُدُورِهِمْ مِّنَ اللَّهِ﴾ [الحشر: ١٣]. فهم لا يقاتلونكم مجتمعين، ولا يقاتلون في العراء، ولا يقاتلون وجهاً لوجه، وقوله: ﴿لَا يَقْتُلُونَكُمْ جَمِيعًا إِلَّا فِي قُرَى مُحَصَّنَةٍ أَوْ مِنْ وَرَاءِ جُدُرٍ﴾ [الحشر: ١٤]. هكذا وصفهم رب العالمين.

وقد رأينا هذا الجبن بأم أعيننا، فأطفال الحجارة يلقون بحجارتهن على العدو وهم في العراء، واليهود المدججون بالمدافع، تَبْرُز عيونهم فحسب من وراء جدار، أو من خلف نافذة الدبابة، أو باب السيارة، وهم بأسلحتهم يهربون من أطفال الحجارة!! ﴿بِأَسْهُمَ يَبْنَهُمْ شَدِيدٌ﴾ فهم في خلاف وفرقة، وتناحر بين الفرق المختلفة، وهم طبقات وجنسيات يحتقر بعضهم بعضاً كالفلأشا وغيرهم ﴿تَحْسَبُهُمْ جَمِيعًا﴾ تظنهم مجتمعين على قلب واحد ﴿وَقُلُوبُهُمْ شَتَّىٰ﴾ متفرقة متناحرة مليئة بالبغض والشحناء ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَعْقِلُونَ﴾ [الحشر: ١٤]. ولما امتنعوا من دخول الأرض المقدسة خوفاً وذعراً من ساكنيها، قالوا لموسى ﷺ: ﴿فَإِن يَخْرُجُوا مِنْهَا فَإِنَّا دَاخِلُونَ﴾.

مَوْقِفُ يُوْشَعَ وَكَالِبَ مِنْ دُخُولِ الْأَرْضِ الْمُقَدَّسَةِ

٢٣- ﴿قَالَ رَجُلَانِ مِنَ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمَا^(١) ادْخُلُوا عَلَيْهِمُ^(٢) الْبَابَ فَإِذَا دَخَلْتُمُوهُ فَإِنَّكُمْ غَالِبُونَ^(٣) وَعَلَى اللَّهِ تَوَكَّلُوا إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿٢٣﴾﴾

ولما امتنع بنو إسرائيل من دخول الأرض المقدسة، حتى يخرج منها العمالقة، عندئذ ﴿قَالَ رَجُلَانِ مِنَ الَّذِينَ يَخَافُونَ﴾ الله، ويخشون عقابه وهما يوشع، وكالب من بين النقباء الاثني عشر، وقد ﴿أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمَا﴾ بالإيمان، وطاعة الله ورسوله، وعدم الخوف من بأس العدو، قالوا لبني إسرائيل مشجعين لهم: ﴿ادْخُلُوا عَلَيْهِمُ الْبَابَ﴾ أي: خذوا بالأسباب، وادخلوا على الجبارين باب مدينتهم، وثقوا بنصر الله لكم، ولا يهولنكم عظم أجسامهم، فقلوبهم خاوية ضعيفة، فإذا دخلتم الباب عليهم فالله معكم، ومؤيدكم بنصره، فليس بينكم وبين نصركم عليهم إلا أن تدخلوا عليهم الباب، وثقوا بالله وتوكلوا عليه، واقطعوا العلائق بغير الله تعالى، واجعلوا قلوبكم متعلقة به سبحانه، فإنهم سيهزمون ﴿وَعَلَى اللَّهِ تَوَكَّلُوا﴾ إن كنتم مصدقين رسول الله موسى فيما جاءكم به من عند الله، عاملين بشرع الله، مجاهدين في سبيله، فإن في التوكل على الله تعالى تيسير للأمر ونصر على العدو، وبحسب إيمان العبد يكون التوكل.

إِضْرَارُ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَى الْامْتِنَاعِ مِنْ دُخُولِ أَرْضِ بَيْتِ الْمُقَدَّسِ

٢٤- ﴿قَالُوا يَكُونُ إِنَّ لَنْ نَدْخُلَهَا أَبَدًا مَا دَامُوا فِيهَا فَاذْهَبْ أَنْتَ وَرَبُّكَ فَقَتِلَا إِنَّا هَهُنَا قَاعِدُونَ﴾

بنو إسرائيل قلوبهم قاسية لا تتأثر بالمواعظ، ولا تعرف الوفاء بالعهود والمواثيق، ولا تستطيع مجابهة العدو، ولذلك لم يتأثروا بنصيحة الرجلين لهم، فنكلوا عن الجهاد، وعزموا على الانصراف والرجوع إلى مصر، وقالوا: لن ندخل مدينة بيت المقدس (إيلياء) مدة حياتنا على وجه التأكيد والتأييد، ما دام العمالقة مقيمين فيها حالاً ومستقبلاً، ثم

(١) قرأ يعقوب بضم الهاء من (عليهما)، والباقون بكسرهما.

(٢) قرأ حمزة والكسائي وخلف ويعقوب بضم الهاء والميم من (عليهم الباب)، والباقون بكسرهما، وعند الوقف على (عليهم) الجميع يُسَكَّن الميم.

(٣) عَدَّ البصري (فإنكم غالبون) آية، وأسقطها غيره من العدد.

قالوا في وقاحة وجرأة على الله تعالى وعلى رسوله، وفي استخفاف واستهانة: ﴿فَآذِهِبَ أَنْتَ وَرَبُّكَ فَقَتَلَا﴾ فنحن لا نريد عزًا ولا ملكًا ولا أرض الميعاد، إن كانت ربوبيتنا لله ستكلفنا القتال، فهم يقولون لموسى: أنت وربك، وكأنه سبحانه رب موسى وحده وليس ربًا لهم، ثم إن في تخلفهم عن الجهاد مخالفة لأمر الله تعالى وأمر رسوله موسى عليه الصلاة والسلام، وهذا فسق واضح.

وقولهم: ﴿فَقَتَلَا﴾ أي: أن موسى ورثه معًا يقاتلان الجبارين، وهذا بناء على مذهبهم في القول بالتجسيم، فهم يُجَوِّزون على الله تعالى أن ينتقل من مكان إلى مكان، فيذهب ويجيء، وهذا كفر بالله سبحانه، تعالى الله عما يقولون علوًا كبيرًا، فهم يقولون: قاتل أنت وربك، ونحن هنا في انتظار النتيجة قاعدون.

لقد وعى المسلمون هذا الدرس حين واجهوا مثل هذه الشدة، وهم قلة، غُدة وعدداً، مستضعفون في الأرض، حين كانوا في مواجهة قريش في غزوة بدر، حيث قال عبد الله بن مسعود رضي الله عنه: لقد شهدت من المقداد مشهدًا، لأن أكون أنا صاحبه أحب إليّ مما عُدل به: أتى المقداد رسول الله ﷺ وهو يدعو على المشركين، فقال: يا رسول الله، لا نقول كما قالت بنو إسرائيل لموسى: ﴿فَآذِهِبَ أَنْتَ وَرَبُّكَ فَقَتَلَا إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ﴾ (٢٤). ولكن نقاتل عن يمينك وعن يسارك، ومن بين يديك ومن خلفك، فرأيت وجه رسول الله ﷺ يُشرق، وسُرَّ بذلك^(١).

وبمثل هذا قال أبو بكر وعمر رضي الله عنهما، وهكذا قال سعد بن معاذ رضي الله عنه مخاطبًا رسول الله ﷺ: قد آمنا بك وصدّقناك، وشهدنا أنّ ما جئت به هو الحق، وأعطيناك على ذلك عهودنا وموآثيقنا على السمع والطاعة، فامض يا رسول الله، لما أردت، فوالذي بعثك بالحق، لو استعرضت بنا هذا البحر لخضناه معك، ما تخلف منا أحد، وما نكُرُهُ أن تلقى بنا عدونا وعدوك، إنا لَصُبْرٌ عند الحرب، صُدُقٌ عند اللقاء، ولعل الله أن يريك منا ما تقرُّ به عينك، فسير بنا على بركة الله تعالى. وفي لفظ: والله لو سرت بنا إلى برك الغماد

(١) أخرجه أحمد بسند صحيح (٣٨٩/١) ورواه البخاري في التفسير والمغازي برقم (٤٦٠٩، ٣٩٥٢) والحاكم (٣٤٩/٣) وأبو نعيم في «الحلية» (١٧٢/١) والبيهقي في «الدلائل» (٤٥/٣).

-وهو موضع في اليمن أو الحبشة- فخضته لخضناه معك (...)^(١).

هذا هو موقف أصحاب رسول الله ﷺ من الجهاد في سبيله، فأين هو من موقف يهود في قتال الكنعانيين؟ أين الثرى من الثريا؟!

مُوسَى يَعْتَذِرُ إِلَى رَبِّهِ

٢٥- ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي لَا أَمْلِكُ إِلَّا نَفْسِي وَأَخِي فَافْرِقْ بَيْنَنَا وَقَوْمِ الْفَاسِقِينَ﴾ (١٥)

ولما امتنع بنو إسرائيل من القتال، توجه موسى ﷺ إلى ربه شاكيًا أمره، وبائًا حُزنه، معتذرًا عن سفاهة القوم، فذكر أنه لا يملك لنصرة دين الله تعالى إلا أمر نفسه وأمر أخيه هارون، وليس في استطاعته أن يُلزم أحدًا بطاعة الله ورسوله، وهو سبحانه أعلم بهذا، ولكنه يُظهر اعتذاره إلى ربه: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي لَا أَمْلِكُ إِلَّا نَفْسِي وَأَخِي﴾ وكان هارون يطيع أمر موسى وينفذه، مع أنه أكبر من موسى بسنة، ولم يذكر موسى اسم الرجلين اللذين أنعم الله عليهما بالطاعة؛ لأن نفوذه لا يمتدُّ لهما، ولأنهما قلة، لا يمثلان قوة ضاربة للجبارين، بالإضافة إلى موسى وهارون، أما قومي الذين خرجوا عن طاعتي، وخالفوا أمرك يا ربي، فافصل بيننا وبينهم بقضائك وعدلك وحكمك، وهذا معنى: ﴿فَافْرِقْ بَيْنَنَا وَقَوْمِ الْفَاسِقِينَ﴾ أي: الخارجين عن طاعتك العاصين لأمرك، فإن الرابطة التي تجمعنا هي الدعوة إلى الله تعالى، وقد نكلوا عنها ونقضوا العهد والميثاق المأخوذ عليهم بنصرة الدين والسمع والطاعة، فاستجاب الله دعاء موسى، وقضى بالجزاء العادل على الفاسقين، وجاء الحكم في الآية التالية:

تَحْرِيمُ الْأَرْضِ الْمُقَدَّسَةِ عَلَى الْيَهُودِ حُرْمَةً أَبَدِيَّةً

٢٦- ﴿قَالَ فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ^(٢) أَرْبَعِينَ سَنَةً يَتِيهُونَ فِي الْأَرْضِ فَلَا تَأْسَ^(٣) عَلَى الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ﴾

(١) انظر: «سيرة ابن هشام» (٦١٥/١) و«المسند» (١٢٠٢٢، ١٢٩٥٤) بنحوه، قال محققوه: إسناده صحيح، على شرط الشيخين، وانظر أيضًا: «السنن الكبرى» للنسائي (٨٣٤٨) وابن حبان (٢٧٢١) وأبو يعلى (٣٧٦٦) وابن حبان (٤٧٢١).

(٢) ضم الهاء من (عليهم) حمزة ويعقوب، وكسرها غيرهما.

(٣) أبدل همزة (تأس) ألفًا ورش والسوسي وأبو جعفر.

ويحسن بالقارئ أن يقف هنا على ﴿عَلَيْهِمْ﴾ فهو كلام تام؛ لإفادة أن تحريم دخول الأرض المقدسة على اليهود تحريم أبدي، بخلاف مدة التيه فقد كانت أربعين سنة^(١)، ودليل تحريم الأرض المقدسة على اليهود تحريمًا أبديًا من كتاب ربنا، ومن كلام اليهود غير الصهاينة:

١ - قال تعالى: ﴿وَقُلْنَا مِنْ بَعْدِهِ لِنَبِيِّ إِسْرَءِيلَ أَسْكُنُوا الْأَرْضَ فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الْآخِرَةِ جِئْنَا بِكُمْ لَفِيفًا﴾ [الإسراء: ١٧].

لفظ ﴿لَفِيفًا﴾ معناه: مجتمعين في الآخرة، بعد أن كانوا موزعين في الدنيا؛ عقوبة لهم. وال (ال) في لفظ ﴿الْأَرْضِ﴾ للجنس، أي: اسكنوا الأرض كلها، وهم كذلك مشتتون في أرجاء العالم.

٢ - وأخوهم يوسف عليه السلام يؤرخ لهم، ويقرر أنهم أهل بدو يسكنون الصحراء دون وطن معين، وذلك حين قال عليه السلام: ﴿وَقَدْ أَحْسَنَ بِي إِذْ أَخْرَجَنِي مِنَ السِّجْنِ وَجَاءَ بِكُمْ مِنَ الْبَدْوِ﴾ [يوسف: ١٠٠]. والبدو قوم رُحَّل لا وطن لهم.

٣ - وقد أقسم ربنا على ذلك في قوله: ﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكَ لَيَبْعَثَنَّ عَلَيْهِمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَمَةِ مَنْ يَسُومُهُمْ سُوءَ الْعَذَابِ إِنَّ رَبَّكَ لَسَرِيعُ الْعِقَابِ وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [١٦٧، ١٦٨] [الأعراف: ١٦٧، ١٦٨] وتقطيعهم في الأرض أممًا، يعني: أنهم متفرقين مشتتين بلا وطن ولا مأوى، ومحاولة تجمّعهم الآن في فلسطين هي بداية النهاية إن شاء الله تعالى.

وقد اقتضت حكمة الله تعالى أن يعاقب اليهود عقوبة أخرى دنيوية جزاء جُبنهم وعصيانهم وقعودهم عن القتال، فَحَكَمَ الله عليهم بالتيه في بقعة محدودة من أرض سيناء، قيل: إنها ستة فراسخ في اثني عشر فرسخًا، والفرسخ ثلاثة أميال، وكان عددهم ست مئة ألف، وكانت مدة التيه أربعين سنة، وذلك حتى ينقرض هذا الجيل الذي استمرأ الظلم والقهر والاستعباد على يد فرعون وجُبن عن لقاء العدو، وضعف عند الشعور بالعز، وفضل حياة الذل مع القعود، على حياة العز والكرامة مع الجهاد، وحتى ينشأ جيل آخر

(١) أما علامة وقف التعانق في الآية فهو من اجتهاد اللجنة التي قامت بوضع علامات الوقف في المصحف حسبما ظهر لها، وهو غير ملزم.

لا يعرف القهر والمذلة؛ فإن الظلم إذا طال أمده صار خُلُقًا مؤروثًا مكتسبًا، كأنه غريزة فطرية مجبول عليها.

هكذا كان فرعون مع قومه، وهكذا حياة الشعوب مع أمثال فرعون!! ثم حدد سبحانه مدة التيه في صحراء سيناء فقال: ﴿أَرْبَعِينَ سَنَةً يَتِيَهُونَ فِي الْأَرْضِ﴾ متحيرين فيها، يسيرون فيها اليوم كله، فإذا أمسوا وجدوا أنفسهم في الموضع الذي بدؤوا منه ورحلوا عنه.

قال مجاهد: تاهوا أربعين سنة، يُصبحون حيث أمسوا، ويمسون حيث أصبحوا؛ عقوبة لبني إسرائيل، وقيل: إن موسى وهارون لم يكونا مع بني إسرائيل في التيه؛ لأن موسى دعا ربه أن يفرق بينه وبين القوم الفاسقين، ودعوة الأنبياء مجابة^(١).

جاء عن السدي: لما ضرب الله عليهم التيه، قالوا لموسى، حين جاعوا وعطشوا، وأصابهم حر الشمس: ما صنعت بنا؟ - أي: حين دعوت علينا، أين الطعام؟ فأنزل الله المن والسلوى.

قالوا: فأين الشراب؟ فأمر موسى أن يضرب بعصاه الحجر، فضربه فانفجرت منه اثنتا عشرة عينًا من الماء بعدد الأسباط ﴿قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرِيقَهُمْ﴾ [البقرة: ٦٠]. أي: عرف كل منهم العين المخصصة لكل عشيرة منهم، وهو حجر أبيض، أخذه من جبل الطور، وكان يحمله على دابة في أسفاره، فإذا احتاج إلى الماء ضربه بعصاه فنبع الماء.

قالوا: فأين الظل؟ فظلّل الله عليهم الغمام.

قالوا: فأين اللباس؟ فكانت لباسهم تطول معهم كما يطول الصبيان^(٢).

ومات كل من جاوز الأربعين منهم في مدة التيه، ومنهم النقباء، ولما مضت مدة التيه، سار موسى بمن بقي من بني إسرائيل من أريحا إلى بيت المقدس، وكان يوشع بن نون على المقدمة، وكان نبيًا مصاحبًا لموسى يغدو ويروح إليه، فحاصر يوشع بيت المقدس بعد عصر يوم الجمعة، فلما دنت الشمس من الغروب، وخاف يوشع دخول ليلة السبت، والعمل فيه محرّم عندهم، عندئذ خاطب الشمس قائلاً: إنك مأمورة، وأنا مأمور، اللهم

(١) يُنظر: تفسير الفخر الرازي (١١/١٩٩) و«فتح القدير» (٢/٣١) و«الخازن» (١/١٥٤).

(٢) يتصرف من «زاد المسير» (٢/٣٣٠) وأخرجه عبد الرزاق بسند صحيح عن قتادة.

احبسها عليّ، فحبسها الله تعالى حتى فُتحت الأرض المقدسة بقيادة يوشع بن نون.

وقال موسى لبني إسرائيل حين اقتربوا من دخول بيت المقدس: ادخلوا باب المدينة وأنتم ساجدون شكرًا لله تعالى، وكلوا منها حيث شئتم رغداً، وقولوا: غفر الله لنا، وحطّ عنا ذنوبنا، فبدّلوا ما أمرهم الله به، ودخلوا المدينة يزحفون على أدبارهم، بدلاً من أن يدخلوها سجدًا، وقالوا: حبة في شعيرة، أو حبة حنطة، بدلاً من: حُطَّت ذنوبنا، فعاقبهم الله على سوء صنيعهم واستهزائهم بنبيهم، بالعذاب الشديد، جزاء فسقهم وخروجهم على طاعة الله تعالى، ومخالفة أوامر نبيهم.

في الصحيحين وغيرهما عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «غزا نبي من الأنبياء، فقال لقومه: لا يتبعني رجل ملك بُضِعَ امرأة، وهو يريد أن يبني بها، ولم يبن بها، ولا أحد بنى بيوتًا ولم يرفع سقوفها، ولا رجل اشترى غنمًا أو خلفات وهو ينتظر أولادها، فغزا فدنا من القرية صلاة العصر، أو قريبًا من ذلك، فقال للشمس: إنك مأمورة وأنا مأمور، اللهم احبسها علينا، فحبست حتى فتح الله عليه، فجمع الغنائم، فجاءت النار لتأكلها، فلم تَطْعَمَهَا، فقال: إن فيكم غلولًا، فليبايعني من كل قبيلة رجل، فلزقت يد رجل بيده، فقال: فيكم الغلول، فجاءوا برأس مثل رأس، بقرة من الذهب فوضعها، فجاءت النار فأكلتها، وكانت الغنائم لا تحل لمن قبلنا وتنزل نار من السماء لتأكلها، فأحلها الله لنا لضعفنا وعجزنا»^(١).

قال القاضي عياض: وقد حُبست الشمس مرة أخرى لنبينا ﷺ يوم غزوة الخندق، حين شغلوا عن صلاة العصر حتى غربت الشمس، فردها الله عليه حتى صلى العصر^(٢).

وحُبست الشمس مرة ثالثة لنبينا محمد ﷺ أيضًا وكان ذلك صبيحة ليلة الإسراء حين انتظر العير التي أخبر بقدمها مع شروق الشمس، يتقدّمها جمل أورك^(٣).

(١) يُنظَر: «صحيح البخاري» برقم (٣١٢٤، ٥١٥٧) و«صحيح مسلم» برقم (١٧٤٧) ومصنف عبد الرزاق (٩٤٩٢) والحاكم (١٣٩/٢)

(٢) ذكره الطحاوي، وقال: رواه ثقات، «تفسير الخازن» (٤٥٤/١) ونقله ابن كثير (٨٠/٢) عن ابن عباس عن عكرمة عن أبي سعيد، عند ابن أبي حاتم بنحوه

(٣) ذكره يونس بن بكير في زيادته على سيرة ابن اسحاق، الخازن (٤٥٤/١)

ودخول موسى بيت المقدس، وعلى مقدمة الجيش يوشع بن نون هو أصح الأقوال؛ لاتفاق العلماء أن الذي قتل ملك الجابرة (عَوَج بن عُنُق) هو موسى ﷺ، وأن هذا كان بعد التيه، واختاره الطبري والبغوي وغيرهما.

وقد مات هارون في التيه، ومات موسى بعده بثلاث سنوات، عن عمر يناهز عشرين سنة بعد المئة.

ومات يوشع بن نون وعمره ست وعشرون سنة بعد المئة، ودفن في جبل (أفرانيم) وتولى أمر بني إسرائيل بعد موسى سبعة وعشرين سنة.

والقول بأن موسى ﷺ مات في التيه قول مرجوح، وكذا القول بأن القرية التي أمر موسى بفتحها كانت أريحا، وليست بيت المقدس، وإنما كان ذهابهم إلى بيت المقدس من جهة أريحا.

وهذه القصة التي في كتاب الله تعالى أشار إليها سِفر العدد، في الإصحاح الثالث عشر والرابع عشر، وذلك: أن الله تعالى أمر موسى أن يرسل اثني عشر رجلاً جواسيس، يتجسسوا على أرض كنعان التي وعدها الله تعالى بني إسرائيل، من كل سبط رجلاً، فعين موسى اثني عشر رجلاً، منهم: يوشع بن نون، من سبط أفرانيم، ومنهم كالب بن يفته، من سبط يهوذا، ولم يُسمُوا بقية الجواسيس، فجاسوا خلال الأرض، من بريّة صين، جنوباً، وهي جبرون (مدينة الخليل) إلى حَمّاه أي: مدخل حماه بسوريا من جهة الشمال، فوجدوا الأرض ذات ثمار وأعناب ولبن وعسل، ووجدوا سُكَّانها معتزّين، طوال القامات، ومُدنهم حصينة، فلما سمع بنو إسرائيل ذلك، وهَنُوا وبَكَّوْا، وتذمَّروا على موسى، وقالوا: لو متنا في أرض مصر كان خيراً لنا من أن تُغنم نساؤنا وأطفالنا.

فقال يوشع وكالب للشعب: إن رضي الله عنا يدخلنا إلى هذه الأرض، ولكن لا تعصوا الرب ولا تخافوا من أهلها، فالله معنا، فأبى القوم دخول الأرض، وغضب الله عليهم، وقال لموسى: لا يدخل أحد من مَن سِنَّهُ عشرون سنة فصاعداً هذه الأرض، إلا يوشع وكالب، وكلكم تُدْفنون في هذا القفر، ويكون أبنائكم رعاة فيه أربعين سنة.

الْيَهُودُ غَيْرُ الصَّهَائِنَةِ لَا يَعْتَرِفُونَ بِالْوُجُودِ الْإِسْرَائِيلِيِّ

هذا هو حال اليهود تنطق به التوراة، جُبْنٌ وتخاذلٌ عن القتال، فما الذي جعل اليهود اليوم يعيشون في الأرض فسادًا: قتلاً، وتشريدًا لأهل فلسطين، وتهديدًا للدول العربية؟ إنه حبل الناس، المشار إليه في قوله تعالى: ﴿ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ أَيْنَ مَا تَفَقَّوْا إِلَّا بِحَبْلِ مِنَ اللَّهِ وَحَبْلٍ مِنَ النَّاسِ﴾ [آل عمران: ١١٢]. ولكن هل جميع اليهود في العالم على هذا النحو الصهيوني، المتحالف مع الصهيونية الأمريكية المسيحية؟

يجيب عن هذا التساؤل الحاخام (ديفيد وايس) الناطق الرسمي باسم (حركة ناطوري كارتا)، ومعناها: حراس المدينة، وهي حركة يهودية عالمية معتدلة تعترف بأن ما يسمى بدولة إسرائيل دولة غير مشروعة، وأنها دولة ضد الله، أي: مضادة لما في التوراة، ومضادة لما كتبه الله على اليهود من التشرد في البلاد عقوبة لهم على عدم استجابتهم لنبيهم موسى ﷺ حين دعاهم لدخول المدينة.

يقول الحاخام ديفيد وايس: اليهودية دين من آلاف السنين، له كتاب التوراة، من الله للشعب اليهودي، وكتاب التوراة يقول: إن من يرتكب خطيئة يخرج من الأرض، وكُتِبَ الأنبياء تقول بكل صراحة: إننا طردنا من هذه الأرض بسبب خطيئتنا، كل يهودي يعترف بذلك، ونحن نقول في صلواتنا: بسبب أخطائنا طردنا من الأرض، هذا اعتقاد يهودي، واليهود قبلوا هذا العقاب من الله تعالى، وقبلوا أن يعيشوا بين الأمم بسلام وأمان، واحترام القانون في كل بلد يقيمون فيه، ثم جاءت الحركة الصهيونية من مئة سنة تقريبًا، فتركوا تعاليم التوراة، ولم يقبلوا حكم الله تعالى، وهم ليسوا متدينين.

ويقول: إن ما يتعرض له الفلسطينيون من اليهود جريمة كبرى تعارض حقيقة التوراة التي تنص على أننا محظور علينا أن تكون لنا دولة صهيونية، ومحظور علينا أن نرتكب جرائم بشعة ضد الشعب الفلسطيني، وضد أي شعب.

إن إسرائيل دولة ضد الله، وهي لا تمثل اليهود، وهي تحول اليهودية من دين روحي قُدسي إلى حركة وطنية علمانية، وكيان علماني، وهذا بالنسبة لنا كُفْرٌ ضد الله؛ لأن الله منعنا من ذلك، وقال: سأبقيكم في التشرد عقوبة لكم.

وهؤلاء يحاربون الله بإقامة هذه الدولة، والصهيونية تستخدم التوراة لجذب اليهود إليها؛ حتى يتبعوهم، وهم يضللونهم ويخدعونهم ويقولون عن قوانينهم: هذا من التوراة، ويستأجرون حاخامات؛ ليقولوا للناس: اتبعوهم، مثل: (عوفاديا يوسف رئيس حركة شاس) الدينية في إسرائيل حينما نسب إلى التوراة قولها: صُبَّ غضبك على الأغيار. ويصف العرب بأنهم أفاع، ودعا الرب أن ينتقم من العرب، وأن يبيد ذريتهم، وأن يسحقهم، وأن يمحوهم من على وجه البسيطة!

وقبل قيام دولة إسرائيل كان اليهود يعارضون قيام دولة، ويعارضون الذهاب إلى فلسطين؛ لأن هذا يعارض حكم الله، يقول ديفيد وايس: ونحن نعارض الهجرة إلى فلسطين، ونعارض تقوية الحركة الصهيونية؛ لأن ذلك يعرضنا لغضب الله تعالى، ونحن ندعو إلى إزالة دولة إسرائيل بالكامل، ليس كما قالت اتفاقية أوسلو أو غيرها، بأن تكون هناك دولتان، بل دولة واحدة؛ إذ لا يحق لنا نحن اليهود أن يكون لنا دولة على حساب الشعب الفلسطيني صاحب الأرض، ونريد أن نعيش تحت ظل الفلسطينيين، وتحت حكم الفلسطينيين، ولن يكون هناك نجاح للسلام طالما هناك دولة صهيونية على أرض فلسطين.

ونحن أيام (أوسلو) تظاهرنّا في واشنطن، وفي مدريد، وقلنا: إن هذه الاتفاقيات لن تكون حجة طالما هناك دولة فيها تمرّد على الله تعالى، والتمرد لا ينجح، ونحن نصلي دائماً أن تكون إزالة دولة إسرائيل بطريق سلمي، وألاً يُسْفَك فيها دم فلسطيني ولا يهودي، نصلي دائماً أن تنتهي دولة إسرائيل بدون سفك دماء، وإذا استمرت دولة إسرائيل فهذا يؤلمنا كثيراً، وهذه مأساة كبيرة، نحن نعرف أن الصهيونية تقوم بالتسلح، ولكننا نؤمن بأن الله تعالى هو الذي سيقف في وجههم.

والشعب الفلسطيني له الحق ١٠٠% في مقاومته للحصول على أرضه، فالأرض أرضه، والصهيونية ليس لها حق أن تحتل بوصة واحدة من أرض فلسطين، هذه أرض فلسطينية، قلنا ذلك منذ بداية الدولة الصهيونية وحتى الآن، هذه معارضة لحكم الله والتوراة، كل الأشياء تعيش من الماء، والصهيونية تقوم على الدم، وسفك الدماء الذي يحدث لليهود الآن عقاب من الله تعالى، وقد عاش اليهود في كنف الدولة الإسلامية حتى عصر الدولة الأندلسية، ولم يحِم اليهود من البطش إلا المسلمون، ولم يكن هناك كراهية

بيننا كما عاش اليهود بسلام في العراق.

ويقول الحاخام ديفيد وايس: إني تعلمت في الخليل، وكنت أعيش بسلام مع العرب، وكان أطفالي يسيرون في الشوارع بكل سلام، ثم جاء الصهيونيون، وبدأ التحريض ضد العرب، ودعّوهم أن يشكّلوا دولة خاصة لهم!

ومن الظلم للشعب الفلسطيني أن يقيم على نصف أرضه، وليس للفلسطينيين حق العودة فقط، بل لهم حق السيادة على الأرض.

إن المسجد الأقصى ملكهم وليس لنا، وتدميره باطل، وهذا الفساد بالمسجد الأقصى، بمفهوم صهيوني وليس بمفهوم يهودي، إن الصهاينة يريدون التحكم في الأماكن المقدسة لأغراض وطنية قومية، وليس لغرض ديني.

هذه مقتطفات يسيرة من كلام الحاخام اليهودي ديفيد وايس، الناطق الرسمي باسم حركة ناطوري كارتا، وهي أكبر الجماعات اليهودية الدولية التي أبقت على عداوتها لإسرائيل والحركات الصهيونية، وقد أسست هذه الجماعة سنة ١٩٣٥م، وهي تعتبر أن الصهيونية أخطر المؤامرات الشيطانية ضد اليهود، وأن دولة إسرائيل غير مشروعة، ومقر هذه الجماعة في نيويورك، ولها تجمعات في تل أبيب والقدس وبريطانيا وأستراليا ودول أخرى، ويعتبرون يوم إعلان دولة إسرائيل يوم حداد، ينكسون فيه الأعلام، ويسيرون فيه بمظاهرات، ويُضدّرون البيانات المعادية لإسرائيل^(١).

ونعود إلى تفسير بقية الآية:

لقد كان موسى رحيماً بقومه، مشفقاً عليهم من مغبة العقوبة، خائفاً عليهم، فواساه رب العزة قائلاً: ﴿فَلَا تَأْسَ عَلَى الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ﴾ أي: لا تأسف ولا تحزن عليهم، فهم فسقة، وخروجهم عن طاعة الله ورسوله سبب لهم هذا، وهم ليسوا أهلاً للعفو، ولا يظلم ربك أحداً، فهم يستحقون ما حلّ بهم من التيه، ومن تحريم دخول الأرض المقدسة عليهم.

قال موسى بلسان حاله: لقد بذلتُ جهداً كبيراً لدفعهم إلى قتال الجبارين ودخول

(١) وقد أجرى هذا الحوار (أحمد منصور) في برنامج (بلا حدود) من قناة الجزيرة الفضائية بتاريخ ١/٥/

٢٠٠٢م، وأعيد هذا اللقاء أكثر من مرة، ونُشر في شبكة المعلومات.

الأرض المقدسة، فذكّرْتهم بنعم ثلاث من أجل نعم الله عليهم، وهي:

١- كثرة الأنبياء فيهم.

٢- ووجود الملوك منهم؛ كداود، وسليمان.

٣- ومنحُ الله لهم ما لم يمنحه لأحد قبلهم من الأمم.

ليكون هذا دافعاً لهم للجهاد، ولكنهم نكصوا على أعقابهم، وقد جرّبتهم قبل ذلك في مواطن كثيرة، فلم تَلْنُ لهم قناة، ومن ذلك أني عَبَرْتُ بهم البحر، وهم ينظرون بأعينهم إلى هلاك قوم فرعون، ومع ذلك فإنهم سرعان ما حُتُوا إلى الوثنية، حين رأوا قوماً يعكفون على أصنام لهم، فقالوا: ﴿أَجْعَلْ لَنَا إِلَٰهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ﴾ أي: اجعل لنا إلهاً وثناً مثل هؤلاء! وأنزل الله عليهم المن والسلوى، فأرادوا استبدال الفوم والعدس والثوم والبصل به، وقد غبَّت عنهم لنزول التوراة عليّ، فعبدوا العجل الذهبي في غيابي، ونكثوا كل العهود والمواثيق.

هذه صفحة من تاريخ يهود، يسجلها القرآن الكريم؛ لتكون درساً لنا، نتبيّن من خلالها أن اليهود ليست لهم عهود ولا مواثيق، وأنهم جنّاء ضعفاء، وليسوا بأقوياء، وأن الله تعالى قد ضرب عليهم الذلة والمسكنة وباؤوا بغضب من الله، ولكن الله تعالى أمدهم بحبل منه، بحفظ دمائهم وأموالهم، إذا عاشوا في كنف المسلمين أهل ذمة، مسالمين، فيكون لهم ما للمسلمين وعليهم ما عليهم، وأمدهم سبحانه بحبل موصول من الناس وهو القوة التي تدعمهم وتساندهم، عن طريق الحلفاء المناصرين لهم، وهذه القوة تزول أمام قوة الإيمان وحب الشهادة في سبيل الله، وإعداد العدة المضارعة لهم.

أَوَّلُ جَرِيمَةٍ قَتَلَ

٢٧- ﴿وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ آدَمَ بِالْحَقِّ إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا فَتُقْبِلَ مِنْ أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُقْبَلْ مِنْ الْآخَرِ قَالَ لَأَقْتُلَنَّكَ قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ﴾

ذكرت سورة المائدة قصتين متواليتين:

الأولى: قصة بني إسرائيل، عندما كُلفوا بقتال الجبارين، وفيها تعقيب على عدم وفائهم بالعهود والمواثيق التي سبق ذكرها في السورة.

ثم جاءت القصة الثانية: تخاطب النبي ﷺ بأن يتلو على يهود زمانه، وهم امتداد لأسلافهم، يتلو عليهم وعلى أمته قصة أول جريمة قتل وقعت على وجه الأرض، تعقيماً على تأمر اليهود على قتل النبي ﷺ.

فقد ذكرت السورة تأمرهم على قتل النبي ﷺ وتذكيره بنعمة الله تعالى عليه حين هموا ببسط أيديهم لقتله ﷺ فكف الله أيديهم عنه. وسفك الدماء من شأن اليهود، فهم الذين قتلوا الأنبياء والمرسلين كزكريا ويحيى عليهما السلام.

وهذه القصة مقدمة لذكر حدّ الحراة والسرقة والقصاص، وفيها بيان لجانب الخير والشر، والصلاح والفساد إلى يوم القيامة، وقد جاء ذكرها في ثنايا حديث السورة عن بني إسرائيل، فلما ذكر الله تعالى تمرد بني إسرائيل وعصيانهم، وأمره لهم بالنهوض لقتال الجبارين، أتبع ذلك بذكر قصة ابني آدم، وعصيان قاييل أمر الله تعالى؛ لبيان أن بني إسرائيل قد اقتفوا أثر أول عاص في الأرض لله تعالى.

والضمير في ﴿وَأَتْلُ عَلَيْهِمْ﴾ يعود على اليهود المذكورين في الآيات السابقة، فهم المقصودون بالقصة، للاستشهاد بها على شرورهم، وطبائعهم، وتعطشهم لسفك الدماء والعدوان على مرّ التاريخ؛ لنستفيد من ذلك في التعامل معهم، ونأخذ حذرنا منهم، وفي هذا مقدمة للتحذير من قتل النفس ومن الحراة والسرقة، وفيها دعوة للتغلب على غرور النفس، والرضى بحكم الله تعالى، وعدم الجرأة عليه سبحانه بمخالفة أمره ونهيه.

والمعنى: قُصَّ - أيها الرسول - على الناس، وأخبرهم بالقضية التي جرت على ابني آدم لِصُلْبِهِ حتى يعتبر بها المعتبرون، وذلك حين أخرج كلاً منهما شيئاً من ماله بقصد التقرب إلى الله تعالى، فقبل الله قربان أحدهما بأن نزلت نار من السماء فأحرقتة، ولم يُقبل قربان الآخر، فحسده أخاه وأضمر قتله.

قصة ابني آدم: لم يرِدْ في القرآن الكريم، ولا في السُّنَّة النبوية، ذكر للزمان أو المكان، أو ذكر لأسماء الأشخاص أصحاب هذه القصة، وقد جاءت قصة ابني آدم في العهد القديم محددة فيها الأسماء والزمان والمكان.

وقد نقل المفسرون عن بني إسرائيل تفاصيل هذه القصة، وهي مما لا يصدق ولا

يكذب، كما علّمنا رسول الله ﷺ بالنسبة لأخبار أهل الكتاب.

ومن ذلك ما قاله الطبري والبغوي وابن كثير وابن اسحاق وغيرهم نقلًا عن أهل العلم بالكتاب الأول (التوراة) ونحن نعتقد بتحريف التوراة وتغيير ما فيها بعد وفاة موسى ﷺ.

وذلك: أن آدم ﷺ كان يغشى حواء في الجنة قبل أن يصيب الخطيئة، فحملت فيها بقايل وتوأمته إقليما، ولم تجد فيهما وخمًا، ولا وصبًا ولا طلقًا حتى ولدتهما، ولم تر معهما دمًا، فلما هبط آدم إلى الأرض تغشاها، فحملت بهابيل وتوأمته ليوذا، ووجدت في الحمل بهما الوصب والطلق، وكان آدم ﷺ، إذا شبَّ أولاده، يزوّج غلام هذه البطن جارية بطن أخرى، فكان الرجل منهم يتزوج أية أخواته شاء، إلا توأمته التي وُلدت معه؛ لأنه لم يكن يومئذ نساء، إلا أخواتهم، فلما وُلد قاييل وتوأمته، ثم هابيل وتوأمته، أمر آدم أن ينكح قاييل أخت هابيل، وينكح هابيل أخت قاييل، وكانت أخت قاييل أجمل، فرفض هابيل أن يتنازل عنها، ولم يرض قاييل، وقال: هي أختي وأنا أحق بها، ونحن من ولادة الجنة، وهو من ولادة الأرض.

قال له أبوه: إنها لا تحل لك، وفق ما كان متبعًا في شريعته عند بدء الخليقة، فأبى قاييل.

قال آدم: قُربًا قُربانًا، فأيكما يُقبل قُربانه، فهو أحق بها، وكان قاييل صاحب زرع، فقدّم حزمة من سنابل القمح، وقدّم هابيل أفضل غنمه، وكان صاحب غنم، ودعا آدم ربه، فقبل، فأكلت قربان هابيل^(١)، وكان هابيل رجلًا صالحًا، وكان قاييل صاحب خطايا.

قالوا: وكانت حواء تلد في كل بطن ذكر وأنثى إلا شيئًا ﷺ، فإنها ولدته منفردًا^(٢).

قيل: وولدت حواء عشرين بطنًا، في كل بطن ذكر وأنثى، وكان قاييل أسنَّ ولد آدم، ورُوي أن آدم سافر إلى مكة؛ ليرى الكعبة، وترك قاييل وصيًا على بنيهِ، فجرت هذه القصة في غيابه^(٣).

(١) بتصرف من كتاب «توفيق الرحمن في دروس القرآن» للشيخ فيصل آل مبارك (٣٠/٢) وهو في الطبري (٤٢٢/٨) وهناك روايات أخرى للقصة.

(٢) «فتح القدير» للشوكاني (٣٣/٢).

(٣) «تفسير ابن عطية» (١٧٨/٢).

وشيث هو النبي الوحيد من ولد آدم ﷺ، وقد أنزلت عليه صحف، وكان الزواج على هذا النحو، شريعة مؤقتة؛ لضرورة إعمار الأرض.

قال المفسرون: وكانت نفس قابيل غير طيبة بقربانه؛ حيث إنه وجد سنبلة طيبة من بين السنبال التي قدمها ففكرها وأكلها، وأن هابيل كانت نفسه طيبة بقربانه، حيث قدم كبشاً هو أنفس ما يملك من الغنم.

قيل: إن هذا الكبش رُفِعَ إلى السماء وبقي في الجنة، حتى نزل به جبريل فداء لذبح إسماعيل، والله أعلم.

فلما قُبل قربان هابيل حقد عليه قابيل، وغضب منه وحسده، وقال له: لأقتلك حتى لا تأخذ توأمتي، قال هابيل: وما ذنبي ﴿إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ﴾؟ المخلصين في أعمالهم، المتبعين هدى نبيهم، وأنا أرجو أن أكون منهم، فحصول التقوى شرط في قبول الأعمال، والتقوى من أعمال القلوب، وإنما أوتيت يا قابيل، من قبل نفسك لانسلاخها من لباس التقوى، وعدم قبول حكم الله تعالى على لسان آدم ﷺ، فأني جناية لي توجب لك قتلي إلا أنني اتقيت الله عز وجل.

وهذه قاعدة عامة تشمل هذه القصة وغيرها في شريعة آدم وشريعتنا، وكل رسالة إلهية.

قَالَ هَابِيلُ لِقَابِيلَ

٢٨- ﴿لَئِنْ بَسَطْتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِي مَا أَنَا بِبَاسٍ بِكَ يَدِي إِلَيْكَ﴾ (١) ﴿لَأَقْتُلَنَّكَ﴾ (٢) ﴿إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ﴾ (٣)

لقد عزم قابيل على قتل هابيل، ولكنه لم يدر كيف يقتله، فهي أول جريمة قتل، فأخذ يلوي عنقه فلم يقتل.

قال عبد الله بن عمر رضي الله عنه: إن هابيل كان أقوى وأشد من قابيل، لكنه خاف من ربه أن

(١) قرأ نافع وأبو عمرو وحفص وأبو جعفر، بفتح ياء الإضافة من (يدي إليك) وصلاً للتخفيف، وقرأ الباقون بإسكانها على الأصل، وهما لغتان.

(٢) قرأ حمزة بتحقيق همزة (لأقتلك)، وإبدالها ياء خالصة في حالة الوقف عليها.

(٣) فتح ياء الإضافة من (إنني أخاف) نافع وابن كثير وأبو عمرو وأبو جعفر، وأسكنها الباقون.

يَمْدُّ يَدَهُ عَلَى أَخِيهِ، فقال له: ﴿لَئِنْ بَسَطْتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِنَقُلَّنِي مَا أَنَا بِبَاسِطٍ يَدِي إِلَيْكَ لِأَقْتُلَكَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ﴾ ﴿٢٨﴾ يقول هايل: ما أنا بمنتصر لنفسي، ولا مبتدئ لك بالقتال، بل أستسلم لأمر الله، وكان هذا سائغاً في شريعتهم، ألا يدفع الرجل عن نفسه، وهو محمول على ترك القتال في الفتنة، وكف اليد عند الشبهة:

فالشرائع تبيح للمعتدى عليه أن يدافع عن نفسه، ولو بقتل المعتدي دون أن يتجاوز الحد الذي يدافع به عن نفسه، وفي حال التنازع على السلطة لا يجوز للمسلم أن يشهر السلاح في وجه أخيه، بل يتنازل أقرب الطرفين إلى الله تعالى، كما فعل عثمان .

وفي الحديث عن سعد بن أبي وقاص ، قال عند فتنة عثمان: أشهد أن رسول الله ﷺ قال: «إنها ستكون فتن، القاعد فيها خير من القائم، والقائم خير من الماشي، والماشي خير من الساعي» قال: أفرأيت إن دخل عليّ بيتي، فبسط يده إليّ ليقتلني، قال: «كن كآبن آدم»^(١).

أما في غير حال الفتنة فإنه يجوز دفع الصائل إجماعاً، وأن «من قتل دون نفسه فهو شهيد».

وثبت في الصحيحين وغيرهما عن أبي بكرة ؓ أن النبي ﷺ قال: «إذا تواجه المسلمان بسيفهما فالقاتل والمقتول في النار». قالوا: يا رسول الله، هذا القاتل، فما بال المقتول؟ قال: «إنه كان حريصاً على قتل صاحبه»^(٢).

قال البخاري: حدثنا عبد الله بن عبد الوهاب، حدثنا حماد، عن رجل لم يسمه، عن الحسن، قال: خرجتُ بسلاحي ليالي الفتنة، فاستقبلني أبو بكرة، فقال: أين تريد؟ قلت: أريد نُصرة ابن عم رسول الله ﷺ قال: . . . وذكر الحديث^(٣).

(١) «المسند» (١٨٢/١) برقم (١٤٤٦، ١٦٠٩) بإسناد صحيح على شرط مسلم ورجال ثقات كما قال محققوه، والترمذي (٤٨٦/٤) برقم (٣١٩٤) وأبو داود برقم (٤٢٥٧) وصححه الألباني في سنن صحيح «أبي داود» (٣٥٨١) وأصله في البخاري (٣٠/١٣) ومسلم (٢٢١٢/٤) عن أبي هريرة دون (أفرأيت) قال الألباني في «إرواء الغليل» (١٠٤/٨): سنده صحيح على شرط مسلم، وله شواهد عدة.

(٢) البخاري (٨٥/١) برقم (٦٨٧٥، ٧٠٨٣) ومسلم (٢٢١٣/٤) برقم (٢٨٨٨) وأبو داود (٤٦٢/٤) وابن ماجه (١٣١١/٢) وأحمد (٤٠١/٤) برقم (٢٠٤٣٩، ٢٠٤٧٢) وعن أبي موسى برقم (١٩٥٩٠، ١٩٦٧٦).

(٣) «صحيح البخاري» برقم (٧٠٨٣) و«صحيح مسلم» (٢٨٨٨).

وهذا الحديث في القتال على الملك والتغلب على السلطة؛ تجنباً للفتنة، وقد أمر النبي ﷺ أصلح الفريقين بالتسليم للآخر، وهو موقف عثمان رضي الله عنه من الفتنة! ثم ذكر سبحانه ما دار بين الأخوين من حوار، حيث خَوَّفَ هابيل قابيل من عذاب الله تعالى قائلاً:

٢٩- ﴿إِنِّي أُرِيدُ^(١) أَنْ تَبْوَأَ بِإِثْمِي وَإِنَّكَ فَتَكُونُ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ^(٢) وَذَلِكَ جَزَاءُ الظَّالِمِينَ ﴿٢٩﴾﴾

أي: ﴿إِنِّي أُرِيدُ أَنْ تَبْوَأَ بِإِثْمِي﴾ أي: إثم قتلي، أو الإثم الذي كان يلحقني لو كنت حريصاً على قتلك ﴿وَإِنَّكَ﴾ الذي تحمله قبل ذلك بسبب عدم تقواك، كما قال تعالى: ﴿وَلِيَحْمِلَنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالًا مَعَ أَثْقَالِهِمْ﴾ [العنكبوت: ١٣].

فإذا دار الأمر بين أن أكون قاتلاً أو مقتولاً، فإني أؤثر أن تقتلني فتبوء بالوزرين معاً.

وهذا المعنى يوافق ما ثبت في صحيح مسلم من قول النبي ﷺ: «يؤتى يوم القيامة بالظالم والمظلوم، فيؤخذ من حسنات الظالم، فيزاد في حسنات المظلوم، فإن لم يكن له حسنات أخذ من سيئات المظلوم فتطرح عليه»^(٣).

صح في الحديث أن النبي ﷺ أردف خلفه أبو ذر، ثم سألته ثلاثة أسئلة:

قال له: «ماذا تصنع إن أصاب الناس جوع شديد لا تستطيع أن تقوم من فراشك إلى المسجد؟» قال أبو ذر: الله ورسوله أعلم، قال ﷺ: «تعفف يا أبا ذر».

ثم قال له: «ماذا تصنع إن أصاب الناس موت شديد، يكون البيت فيه هو القبر؟» قلت: الله ورسوله أعلم، قال: «اصبر يا أبا ذر».

ثم قال له: «ماذا تصنع إن قتل الناس بعضهم بعضاً حتى تغرق حجارة الزيت من الدماء؟» - وحجارة الزيت مكان بالمدينة - قال: الله ورسوله أعلم، قال: «اقعد في بيتك، وأغلق عليك بابك» قلت: فإن لم أترك؟ قال: «فأت من أنت منهم فكن فيهم» قلت: فأخذ سلاحي؟ قال: «إذن تشاركهم فيما هم فيه، ولكن إن خشيت أن يروّعك

(١) فتح باء الإضافة من (إني أريد) نافع وأبو جعفر، وأسكنها غيرهما.

(٢) قرأ أبو عمرو والدوري عن الكسائي بإمالة الألف من لفظ (النار) وقرأها ابن ذكوان بالفتح وإمالة، وقرأها الأزرق عن ورش بالتقليل وفتحها غيرهم.

(٣) رواه مسلم ومعناه في حديث (أندرون من المفلس)

شعاع السيف، فألقى طرف رداك على وجهك؛ كي ييؤء بإثمك وإثمك فيكون من أصحاب النار»^(١). وتمضي الآيات.

قَابِيلُ يَقْتُلُ هَابِيلَ وَيَحَارُ فِي دَفْنِهِ

٣٠- ﴿فَطَوَّعَتْ لَمْ نَفْسُهُ قَتَلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُ فَأَصْبَحَ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾

ثم وعظ هابيل أخاه قابيل حين رآه مُصِرًّا على قتله، فأرشده إلى أن الله تعالى يتقبل من المتقين، وأرشده إلى حقوق الأخوة، والخوف من عاقبة فعله، فذكَّره بالله تعالى واستعطفه، وبيَّن له مصير القاتل، وأنه من أهل النار يوم القيامة، وأنه لا ذنب لمن تقبل الله قربانه حتى يستوجب القتل، وأن التقوى شرط في قبول العمل، ولكن قابيل زَيَّنَتْ له نفسه قتل أخيه، وسهَّلت عليه هذا الفعل ﴿فَطَوَّعَتْ لَمْ نَفْسُهُ قَتَلَ أَخِيهِ﴾.

قال ابن جرير: لما أراد أن يقتله جعل يلوي عنقه، فأخذ إبليس دابة ووضع رأسها على حجر، ثم أخذ حجراً آخر فضرب به رأسها حتى قتلها، وابن آدم ينظر، ففعل بأخيه مثل ذلك.

وعن عبد الله بن عمرو أنه كان يقول: إن أشقى أهل النار عذاباً: ابن آدم الذي قتل أخاه، ما سُفِكَ دم في الأرض منذ قتل أخاه إلى يوم القيامة، إلا لحق به منه شر، وذلك أنه أول من سن القتل^(٢).

والذي حمل قابيل على قتل أخيه هو الحسد، والحسد أول جريمة ظهرت في الأرض. والراجح أن قابيل قتل أخاه غيلة؛ يروى أن هابيل استراح بعض الوقت ونام، بعد أن رعى غنمه، فجاء إليه قابيل وهو نائم فشدخ رأسه بصخرة عظيمة، فمات، ثم تركه في العراء، فقصدته السباع.

(١) روى نحوه مسلم في الفتن عن أبي بكرة (٢٨٨٧/١٣) والبخاري في مسنده (٣٩٥٩) والبيهقي (٤٢٢٠) وأبي داود في الفتن والملاحم (٤٢٦/١) برقم (٤٢٦١) وابن ماجه في الفتن (٣٩٥٨) وصححه الألباني في «صحيح سنن ابن ماجه» برقم (٣١٩٧) و«الإرواء» (٢٤٥١) وصححه الحاكم ووافقه الذهبي (١٥٦/٢) و«المسند» (٥/١٦٣) وإسناده صحيح على شرط مسلم برقم (٢١٣٢٥) وابن حبان (٦٦٨٥) وكلهم عن أبي ذر رضي الله عنه.

(٢) «تفسير الطبري» (٢١٩/١٠).

٣١- ﴿فَبَعَثَ اللَّهُ غُرَابًا يَبْحَثُ فِي الْأَرْضِ لِيرِيَهُ كَيْفَ يُؤَرِّى سَوَاءَ أَخِيهِ قَالَ يُؤَلِّقُ^(١) أَعْجَرْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَذَا الْغُرَابِ فَأُوَرِّى سَوَاءَ أَخِي فَأَصْبَحَ مِنَ النَّادِمِينَ ﴿٣١﴾

قيل: إن قابيل حمل هابيل على كتفه وبين يديه حتى أروح، وهو لا يدري ماذا يصنع به؟ فأرسل الله له غرابين اقتتلا، فقتل أحدهما الآخر، ثم حفر له في التراب ودفنه، قال قابيل: يا ويلتاه، ألا أفعل مثل هذا الغراب فأستر عورة أخي؟ فدفن قابيل أخاه، والغراب صاحب حيلة في الدفن مع ما فيه من سواد اللون، ولذا يتشائم منه الناس، وعاقبه الله بالندامة على عدم جدوى ما فعل، وما أعقب ذلك من عناء وقلق ومشقة، فالندم كان من قابيل على قتله أخاه، وليس ندم توبة، ولذا: لم ينفعه ندمه.

وذكر مجاهد بن جبر أن قابيل عوقب في الدنيا بتعليق ساق فخذة يوم قتل أخاه، وجعل الله وجهه إلى الشمس حيث دارت عقوبة له وتنكيلاً.

وفي الحديث عن أبي بكرة رضي الله عنه: «ما من ذنب أجدر أن يعجل الله عقوبته في الدنيا مع ما يُدْخِر لصاحبه في الآخرة من البغي وقطيعة الرحم»^(٢).

قيل: إنه لما حدث ذلك، ذهب إبليس إلى حواء مسرعاً، وقال لها: إن قابيل قتل هابيل، قالت: ويحك، أي شيء يكون القتل؟ قال: لا يأكل ولا يشرب ولا يتحرك، قالت: ذلك الموت، قال: فهو الموت، فجعلت تصيح حتى دخل عليها آدم، فقال: ما لك؟ فلم تُكَلِّمْه، فرجع إليها مرتين فلم تكلمه، فقال: عليك الصيحة وعلى بناتك، وأنا وبنيتي منها براء^(٣).

لذا كان الصياح والصريخ من طبائع النساء دون الرجال.

وقيل: إن قتله كان عند مسجد البصرة، وكان عمر هابيل عشرين عاماً ﴿فَقَتَلَهُ فَأَصْبَحَ مِنَ

(١) وقف رؤس على (ياويلتاه) بهاء السكت مع المد المشيع للتوجع والتحسر، ووقف الباكون بالألف، وأمالها حمزة والكسائي وخلف العاشر، وقرأها بالفتح والتقليل، أي: بين الفتح والإمالة- الأزرق، ودوري أبي عمرو، والباكون بالفتح.

(٢) أبو داود (٢٠٨/٥) برقم (٤٩٠٢) وابن ماجه (١٤٠٨/٢) برقم (٤٢١١) والحاكم (١٦٢/٤) وصححه الألباني في سلسلة الأحاديث الصحيحة (٩١٧) والتعليق الرغيب (٢٢٨/٣) وصحيح ابن ماجه (٣٣٩٤).

(٣) «تفسير ابن كثير» للآية.

الْخَيْرِينَ ﴿٣٢﴾ خسر دنياه بفقد أخيه وغضب أبيه، وخسر آخرته فأسخط ربه، وصار من أهل النار.
عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «لَا تُقْتَلُ نَفْسٌ ظُلْمًا إِلَّا كَانَ عَلَى ابْنِ آدَمَ الْأَوَّلِ كِفْلٌ مِنْ دِمَهِهَا؛ لِأَنَّهُ أَوَّلُ مَنْ سَنَّ الْقَتْلَ»^(١).

والذي عليه جمهور أهل العلم أن هذه القصة تخص ابني آدم من صلبه كما هو ظاهر القرآن ﴿وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ابْنَيْ آدَمَ﴾ وكما جاء في الحديث: «إِلَّا كَانَ عَلَى ابْنِ آدَمَ الْأَوَّلِ كِفْلٌ مِنْهَا». قالوا: وقد رزق الله آدم بعد قتل هابيل بسنوات شيثاً، ومعناه: هبة الله، وصار نبياً، أنزل الله عليه خمسين صحيفة، وأصبح وصيَّ آدم ووليَّ عهده، وكان من نسله الأنبياء الصالحون، وكان الطالحون من ذرية قاييل.

جاء في الأثر: إن الله ضرب لكم ابني آدم مثلاً، فخذوا من خيرهما ودعوا الشر^(٢).

حُرْمَةُ قَتْلِ النَّفْسِ الْبَشَرِيَّةِ

٣٢- ﴿مِنْ (٣) أَجْلِ ذَلِكَ كَتَبْنَا عَلَى بَنِي إِسْرَءِيلَ أَنَّهُ مَن قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا (٤) فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعًا وَلَقَدْ جَاءَتْهُمْ (٥) رُسُلُنَا (٦) بِالْبَيِّنَاتِ ثُمَّ إِنَّ كَثِيرًا مِنْهُمْ بَعَدَ ذَلِكَ فِي الْأَرْضِ لُمُسْرِفُونَ ﴿٣٢﴾﴾
أي من أجل الذي ذكرناه في قصة ابني آدم، من قتل أحدهما الآخر، وسنَّ القتل لمن

(١) «صحيح البخاري» (٣٦٤/٦) برقم (٣٣٣٥، ٦٨٦٧) ومسلم (١٣٠٤/٣) ورقم (١٦٧٧) والترمذي (٥/٤٢) برقم (٢٦٧٣) وابن ماجه (٨٧٣/٢) برقم (٢٦١٦) والنسائي في «السنن الكبرى» برقم (٣٤٤٧) وفي «السنن» (٣٩٩٦) و«المسند» (٣٦٣٠، ٤٠٩٢) والطبري (٨/٣٣٤).

(٢) «تفسير ابن عطية» (١٨١/٢).

(٣) قرأ أبو جعفر بكسر همزة (من أجل) ونقل حركتها إلى النون قبلها، وإذا وقف على (من) ابتداء (إجل) بهمزة مكسورة، وقرأ ورش بنقل حركة الهمزة المفتوحة إلى النون، وإذا وقف على (من) ابتداء (أجل) بهمزة مفتوحة، وقرأ الباقون بهمزة مفتوحة مع عدم النقل، وهما لغتان.

(٤) قرأ الكسائي بإمالة ألف (أحيها)، وللأزرق عن ورش وجهان هما: الفتح، والتقليل.

(٥) أمال الألف من (جاءتهم) ابن ذكوان وحمزة وخلف العاشر، ولهشام عن ابن عامر وجهان هما: الفتح، والإمالة.

(٦) قرأ أبو عمرو بإسكان السين من (رسلنا) والباقون بضمها، وهما لغتان.

بعده، كتبنا على أهل الكتب السماوية أن من تجرأ على قتل نفس متعمداً بغير حق، فإنه يحل قتله قصاصاً إلا أن يكون القاتل والد المقتول، وكذلك من أفسد على الناس دينهم أو استحل أموالهم وأبدانهم لأنه قد حارب الله ورسوله.

كان الإمام (نافع) يقف على ﴿مَنْ أَجَلَ ذَلِكَ﴾ ويجعله من تمام الكلام السابق، أي: أنه وقف تام.

والمعنى: ﴿فَأَصْبَحَ مِنَ النَّادِمِينَ﴾ من أجل قتل هابيل ولم يواره.

وقال جمهور المفسرين: إن ﴿مَنْ أَجَلَ ذَلِكَ﴾ كلام مستأنف، متعلق بقوله: ﴿كُتِبْنَا﴾ فلا يوقف عليه، ويكون ﴿مَنْ أَجَلَ ذَلِكَ﴾ تعليل لـ ﴿كُتِبْنَا﴾ غير متعلق بـ ﴿النَّادِمِينَ﴾ وفيه إشارة إلى أنواع المفساد الحاصلة بسبب جنابة القتل العمد، ولذلك شرع الله القصاص من القاتل، وهو حكم ثابت في جميع الأمم، وفي جميع الشرائع والملل، وإنما خص بنو إسرائيل بالذكر:

١- لأن قصة القتل هذه جاء ذكرها في سياق الحديث عنهم، وتعداد جنايااتهم.

٢- ولأنهم أول أمة نزل الوعيد عليهم في قتل النفس.

٣- وشُدِّدَ عليهم في ذلك؛ لأنهم أكثروا من سفك الدماء، وقتل الأنبياء.

٤- ولما وصفهم الله تعالى به من قسوة القلب وظلم الناس.

٥- ولأن التوراة هي أول كتاب ذكر فيه حكم القصاص ﴿وَكُتِبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَا أَنَّ النَّفْسَ بِالنَّفْسِ﴾ [٤٥].

٦- ولأن الآيات في سياق ما أقدم عليه اليهود من اغتيال النبي ﷺ.

وحكم القصاص وحْدُ الحُرابة المذكور في الآية كتبه الله على اليهود والنصارى والمسلمين ومن قبلهم، وذلك أنه مَنْ قتل نفساً ظلماً وعدواناً عامداً متعمداً في غير قصاص ولا دفاع عن النفس، وبغير إفساد في الأرض بوجه من الوجوه، وذلك بمحاربة شرع الله تعالى بالكفر بعد إيمان، أو بالشرك الأكبر، أو بقطع الطريق، أو بهتك حرمة الحرم، أو نهب الأموال، أو هدم البنين، أو قطع الأشجار، أو البغي على عباد الله، أو ترويج المخدرات، أو انتهاك الحرمات؛ فإن جريمة قتل النفس الواحدة على هذا النحو

كأنها قتل للناس جميعًا وإحياءها بعدم قتلها حياة للناس جميعًا؛ وذلك لأن انتهاك حرمة النفس الواحدة، مثل قتل جميع الناس، وصيانة حرمة النفس الواحدة خوفًا من الله تعالى، إحياء للناس جميعًا، فحق الحياة ثابت لكل نفس، والاعتداء عليها اعتداء على حق الحياة الذي تشترك فيه جميع النفوس، وقاتل النفس الواحدة بغير قصاص ولا حراة جزاؤه جهنم، وغضب الله عليه ولعنه، ولو قتل الناس جميعًا لم يزد جزاؤه على ذلك، ولو عوقب في الدنيا لم يزد على القتل - قصاصًا - مرة واحدة.

ومن استحل قتل إنسان بغير حق، لم يتورع عن قتل من استطاع من الناس.

ومن استباح الدم المصون في نفس واحدة، فكأنما استباحه في نفوس الناس جميعًا.

فالنفس الواحدة تمثل النوع الإنساني، ولا فرق بين الواحد والجميع من عموم الأنفس؛ فالعقوبة واحدة في الحالتين.

ومن امتنع عن قتل نفس حرم الله قتلها، أو أنقذها من الهلاك، أو الغرق، أو الحريق، أو الهدم، أو شدّ أزرها ونصرها، أو العفو عن القاتل قصاصًا، ونحو ذلك؛ فإن ذلك في حكم إحياء جميع الناس، فالحفاظ على حرمة إنسان واحد حفاظ على حرمة الناس كلهم، وله من الأجر والثوبة، مثل ثواب من أحيا الناس جميعًا، والمحبي والمميت في الحقيقة هو الله تعالى، والكلام في الآية عن حدوث السبب ووقوعه، وفي هذا وعد ووعد، وترغيب وترهيب.

وقد بينت هذه الآية أن قتل النفس الواحدة بمثابة قتل الناس جميعًا، ولم تبين حكم قتل النفس بالنفس، وقد جاء ذلك موضحًا في قوله تعالى: ﴿كُذِّبَ عَلَيْكُمُ الْقِصَاصُ فِي الْقَتْلِ﴾ [البقرة: ١٧٨]. وقوله: ﴿وَمَنْ قُتِلَ مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا لَوْلِيهِ سُلْطَانًا﴾ [إسراء: ٣٣]. وقوله: ﴿وَكُنَّا عَلَيْهِمْ فِيهَا أَنْ النَّفْسَ بِالنَّفْسِ﴾ [٤٥]. وقوله: ﴿وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَوةٌ﴾ [البقرة: ١٧٩].

ويشبه هذه الآية قوله تعالى: ﴿وَمَنْ يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُتَعَمِّدًا فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِدًا فِيهَا وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُ وَأَعَدَّ لَهُ عَذَابًا عَظِيمًا﴾ [النساء: ٩٣]. بمعنى: أن من استحل دم مسلم فكأنما استحل دم الناس جميعًا، ومن حرم دم مسلم، فكأنما حرم دم الناس جميعًا، ولو قتل الإنسان الناس جميعًا لم تزد عقوبته عما جاء في الآية من أن جزاءه جهنم،

وغضبُ الله عليه ولعنه، وفي هذا تعظيم لقتل النفس، وتنفير من الجرأة عليها، وترغيب في صيانتها وحرمتها؛ لأن من أقدم على ذلك يكون قد أهان ما كرم الله، وهتك ما حرم الله؛ وذلك لأن قتل النفس بغير حق جُرم فظيع، كفضاعة قتل الناس جميعًا.

وفي هذا حث على متابعة قاتل النفس، وأخذه أينما تُقف، والامتناع عن إيوائه أو التستر عليه؛ لأن القاتل يوشك أن تدعوه نفسه إلى هضم الحقوق، وكلما سنحت له الفرصة قَتَلَ، ولو دعتُه نفسه أن يقتل الناس جميعًا لفعل. وقاتل النفس عند ولي المقتول كأنما قتل الناس جميعًا، ومن تسبب في إنقاذها من الموت فكأنما أحيا الناس جميعًا.

قال الفخر الرازي: إن اليهود مع علمهم بهذه المبالغة العظيمة، أقدموا على قتل الأنبياء والرسل، وذلك يدل على غاية قساوة قلوبهم، ونهاية بُعدهم عن طاعة الله تعالى، ولما كان الغرض من ذكر هذه القصص تسلية الرسول ﷺ؛ لأنهم عزموا على الفتك به وبأصحابه، كان تخصيص بني إسرائيل بهذه المبالغة العظيمة مناسبًا للكلام، ومؤكدًا للمقصود^(١).

سئل الحسن عن هذه الآية: أهى لنا، كما كانت لبني إسرائيل؟ فقال: إي والذي لا إله غيره، ما كانت دماء بني إسرائيل أكرم من دمانا.

ثم بيَّن ﷺ أن بني إسرائيل اتهم رسل الله بالحجج القاطعة، والدلائل الواضحة، والأحكام والشرائع، وجاؤوهم بما يؤكد صدق رسل الله في دعواهم إلى الإيمان بالله تعالى وأداء ما فرض عليهم من الأحكام والفرائض.

ثم إن كثيرًا منهم بعد مجيء الرسل، وبعد ما علموا تحريم القتل لمتجاوزون حدود الله تعالى بارتكاب ما حرم الله، وترك ما أمر الله به، وقليل منهم دخل في الإسلام، وآمن بالله وخاتم النبيين، وفي هذا تقرير وتوبيخ لما حدث من يهود المدينة الذين كانوا يقاتلون مع الأوس والخزرج، وقد أنكر الله عليهم ذلك في قوله: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ لَا تَسْفِكُونَ دِمَاءَكُمْ﴾ [البقرة: ٨٤].

(١) «التفسير الكبير» (١١/ ٢١١).

حَدُّ الْحَرَابَةِ

٣٣- ﴿إِنَّمَا جَزَاءُ الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا أَنْ يُقَتَّلُوا أَوْ يُصَلَّبُوا أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ^(١) وَأَرْجُلُهُمْ^(٢) مِّنْ خَلْفٍ أَوْ يُنْفَوْا مِنَ الْأَرْضِ ذَلِكَ لَهُمْ جِزْيٌ فِي الدُّنْيَا وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٣٣﴾﴾

وبعد أن قررت الآية السابقة حرمة قتل النفس البشرية، وبيّنت أن صيانة حق الحياة مكفول لكل نفس، نصّت هذه الآية على عقوبة من أفسد في الأرض، بالكفر أو القتل أو أخذ الأموال وإخافة السبيل أو ترويع الآمنين، أو إتلاف المتاع والمال بالحرق أو التفجير ونحو ذلك، فاعتدى على الأنفس، أو الأموال، أو الأعراض، ولم يترك الله تعالى تحديد العقوبة في هذه الجرائم لاجتهاد الناس نظرًا للآثار الخطيرة التي تترتب على ارتكابها؛ ولأن البشر سوف يحتالون في اختلاق بدائل لا تقطع دابر الجريمة، ولا توفر الأمن في المجتمع، ولا تحفظ النظام العام، وسماها الإسلام (حد الحاربة) وبيّن أن التفريط في تطبيق الحدود يؤدي إلى الخسائر المادية والمعنوية؛ حيث يختل الأمن، وتضيع الأموال والأنفس، وتهتك الأعراض، وتحل بالأمم كوارث شتى.

ولذا فإن النبي ﷺ قال: «حَدُّ يَعْمَلُ بِهِ فِي الْأَرْضِ خَيْرٌ لِأَهْلِ الْأَرْضِ مِنْ أَنْ يَمْطَرُوا ثَلَاثِينَ صَبَاحًا»^(٣).

والمسلمون على مدى التاريخ، كانوا يقيمون حدود الله؛ لصيانة الدماء والأموال والأعراض، ولم يتركوا ذلك وعندما أغار عليهم التتار والأوروبيون بعدهم، وضعوا قوانين البشر بأحكام الله أخذت من فحوى الشريعة ومعناها.

قال ابن عباس والضحاك: آية الحاربة نزلت في قوم من أهل الكتاب كان بينهم وبين

(١) ضم الهاء من (أيديهم) يعقوب، وكسرها غيره.

(٢) من حديث أبي هريرة في «المسند» برقم (٨٧٣٨) بلفظ (يقام) و(٩٢٢٦) بلفظ (يعمل) وإسناده ضعيف، لضعف جرير بن يزيد، وأخرجه البخاري في التاريخ الكبير (٢/٢١٢) وابن ماجه (٢٥٣٨) والنسائي (٨/٧٥) وأبو يعلى (٦١١١) وابن حبان (٤٣٩٨).

رسول الله ﷺ عهد وميثاق، فنقضوا العهد، وقطعوا السبيل، وأفسدوا في الأرض^(١) فخير رسول الله ﷺ بين قتلهم أو صلبهم، أو تقطيع أيديهم وأرجلهم من خلاف.

وبهذا يعلم أن سياق الآيات لا يزال في نقض اليهود للعهد والمواثيق.

والآية عامة في كل من حارب الله ورسوله وورّع الأمنين وأخاف السبيل.

وقد جاءت روايات كثيرة في سبب نزول هذه الآية، منها ما جاء في خبر العُرنين من البحرين في شهر شوال سنة ست من الهجرة وكان أمير هذه السرية كرز بن جابر الفهري، وكانت السرية مكونة من عشرين فارسًا، كما جاء في الصحيحين من حديث أبي قلابة عن أنس بن مالك ؓ: أن نفرًا من عُكْل، أو عُرَيْنة (سبعة) قدموا على رسول الله ﷺ فبايعوه على الإسلام، فاستوخموا الأرض، وسقمت أجسامهم، فشكوا ذلك لرسول الله ﷺ فقال: «ألا تخرجون مع راعينا في إبله، فتصيبوا من أبوالها وألبانها»، فقالوا: بلى، فخرجوا فشربوا من أبوالها وألبانها، فصَحُّوا، فقتلوا الراعي، وطرَدوا الإبل، فبلغ ذلك رسول الله ﷺ فبعث في آثارهم، ونودي: يا خيل الله اركبي، فركبوا، وركب رسول الله ﷺ على أثرهم، فأدركوهم، فجيء بهم، فأمر بهم، ففُطعت أيديهم وأرجلهم، وسُمِرَت أعينهم، ثم بُذِلوا في الشمس حتى ماتوا^(٢).

قال البخاري: حدثنا مسدد، حدثنا يحيى عن شعبة، حدثنا قتادة عن أنس ؓ أن ناسًا من عُرَيْنة اجتووا المدينة، فرخص لهم رسول الله ﷺ أن يأتوا إبل الصدقة، فيشربوا من ألبانها وأبوالها، فقتلوا الراعي، واستاقوا الزُود، فأرسل رسول الله ﷺ فأتى بهم ففُطع أيديهم وأرجلهم، وسُمِرَ أعينهم، وتركهم بالحرّة يعضون الحجارة. تابعه أبو قلابة وحُميد وثابت عن أنس^(٣).

(١) «تفسير ابن عطية» (١٨٣/٢).

(٢) «صحيح البخاري» (٢٧٤/٨) و(٢٣٠/١٢) برقم (٢٣٣، ٣٠١٨، ٤٦١٠، ٦٨٩٩) و«صحيح مسلم» (٣/١٢٩٦) برقم (١٦٧١) وأبو داود (٥٣١/٤) برقم (٤٣٦٤، ٤٣٦٧) و«سنن الترمذي» برقم (٧٢، ٢٠٤٢) و«سنن النسائي» (٧/ ٩٧، ٣٠٤، ٤٠٣٩) وفي «الكبرى» (١١١٤٣) وابن ماجه (٢٥٧٨) والبيهقي (٤/ ٨٦) وابن جرير (٢٤٧/١٠).

(٣) «صحيح البخاري» برقم (٢٣٣، ١٥٠١) و«صحيح مسلم» برقم (١٦٧١).

ومعنى أنهم اجتوا المدينة أي استوخموا جوّها وأرضها، وقالوا: نحن أهل ضرع، ولسنا أهل ريف، واستاقوا الزود، أي: سرقوا الإبل، وقد بعث رسول الله ﷺ في طلبهم جرير بن عبد الله البجلي في خيل، فأدركوهم وقد أشرفوا على بلادهم، فجيء بهم، فأمر بهم، ففُطعت أيديهم وأرجلهم، وسُمِلَتْ أعينهم بمسامير أُخْمِيت، ثم حبسهم حتى ماتوا، وقيل: ألقى بهم في الحرة يستقون، فما يُسْقَوْنَ حتى ماتوا، وكان هذا سنة ست من الهجرة، أي: قبل نزول سورة المائدة، وعلى هذا تكون هذه الآية مقررّة لحد الحراة، ناسخة للحد الذي أقامه النبي ﷺ على العرنيين، الذين ارتكبوا جرائم عدة، أرادوا بها التحايل على كيد المسلمين بإظهار الإسلام^(١).

وحد الحراة وقطع الطريق يتعلق بكل من حارب جماعة المسلمين في كل زمان ومكان، وهو غير حد الردة؛ لأن الردة لها جزاء آخر، وليس حد الحراة جزاء للكفار الذين عاندوا الإسلام وحاربوا الرسول ﷺ، وهؤلاء العرنيين قد ارتكبوا جرائم متعددة: ردة، وقتل، وسرقة، وتمثيل، وهرب.

وفي صحيح مسلم عن أنس رضي الله عنه قال: إنما سَمَلْ أعينهم؛ لأنهم سَمَلُوا أعين الرعاة - بتشديد الميم، أو تخفيفها - والسمر، والسمل، بمعنى واحد، والمعنى أنهم كَحَلُوا أعينهم بمسامير قد أُحْمِيَ عليها، وفيه عقوبة بالمثل قصاصًا. رُوي أنهم كانوا أربعة من عُرينة، وثلاثة من عُكل.

قال ابن جرير: إن عبد الملك بن مروان كتب إلى أنس يسأله عن هذه الآية، فكتب إليه أنس يخبره أنها نزلت في النفر العرنيين، وهم مِنْ بَجِيلَة، قال أنس: فارتدوا عن الإسلام، وقتلوا الراعي، واستاقوا الإبل، وأخافوا السبيل، وأصابوا الفرج الحرام، وفيهم نزلت الآية ﴿إِنَّمَا جَزَاءُ الَّذِينَ﴾ قال أبو قلابة: هؤلاء كفروا، وقتلوا وأخذوا الأموال، وحاربوا الله ورسوله.

وقد رَوَى حديث قصة العرنيين جماعة من الصحابة، منهم جابر وعائشة وسعيد بن جبير وأنس بن مالك وغيرهم، واحتج جمهور العلماء بعموم الآية في المحاربة في الأمصار

(١) يُنظَر: تفسير «التحرير والتنوير» لابن عاشور (٦/ ١٨١).

والصحراء والبادي والقرى وسائر الطرق، فحيثما تحققت إخافة المسلمين، وترويع أمنهم فقد تحقق الوصف.

والآية نص في عدم جواز الخروج على الحاكم المسلم بتكوين عصاة ترؤع الآمنين، وتشهر السلاح في وجوههم، وتعتدي على الأرواح والأموال والأعراض، وتقرر أن الحاكم المسلم هو الذي يأخذ الخارجين عليه بهذه العقوبات.

وعند جمهور الفقهاء أن العقوبات التي في الآية مرتبة:

- ١- فمن قُتل، ولم يأخذ المال قُتل.
- ٢- ومن أخذ المال، ولم يقتل قُطِع.
- ٣- ومن قُتل، وأخذ المال قُتل وُصِّل.
- ٤- ومن أخاف السبيل، ولم يقتل ولم يأخذ مالا نُفِيَ حتى تظهر توبته.

والسجن في معنى النفي، وكذا التغريب والإبعاد، والصلب يكون بشد الجاني على خشبة، ومقدار زمان الصلب بمقدار ما يشهر أمره عند الناس ردعا لهم، وقيل: ثلاثة أيام.

وتقطع اليد اليمنى مع الرجل اليسرى، فإن لم يتب تقطع اليد اليسرى مع الرجل اليمنى. وفي الآية عقوبات أربع، هي على الترتيب عند الجمهور، وعند مالك أنها على التخيير، وأن الحاكم مخير في تطبيقها، ويشهد لذلك ظاهر الآية.

ولفظ ﴿أَوْ﴾ في الآية يدل على التخيير، كما في قوله تعالى: ﴿فَفِدْيَةٌ مِّن صِّيَامٍ أَوْ صَدَقَةٍ أَوْ نُسُكٍ﴾ [البقرة: ١٩٦].

وقال جماعة: إن ﴿أَوْ﴾ في الآية للتقسيم وليست للتخيير، وأن المذكور مراتب للعقوبات بحسب ما يرتكبه المحارب من جنایات، فهي عقوبات في يد القاضي، كالدواء في يد الطبيب، يختار من أصنافه ما يراه أنجع في العلاج.

قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس: مَنْ شَهِرَ السلاح في قُبَّةِ الإسلام، وأخاف السبيل، ثم ظُفِرَ به وقُدِرَ عليه، فإمام المسلمين بالخيار، إن شاء قتله، وإن شاء صلبه،

وإن شاء قطع يده ورجله.

وجمهور العلماء على أنه يُقتل، ثم يصلب نكالا لغيره، وتقطع اليد من الرسغ، وتقطع الرجل من المفصل.

وذكر الطبري عن أنس بن مالك أن رسول الله ﷺ سأل جبريل عن حكم المحارب، فقال: من أخاف السبيل، وأخذ المال، فاقطع يده للأخذ، ورجله للإخافة، ومن قتل فاقتله، ومن جمع ذلك فاصلبه.

ومعنى ذلك أن من ارتكب في حراسته جريمة القتل فإنه يُقتل دون تخيير في ذلك.

في حديث عائشة ؓ أن النبي ﷺ قال: «لا يحل دم امرئ مسلم إلا بإحدى ثلاث خصال: زانٍ محصن يُرجم، أو رجل قتل متعمداً فيُقتل، أو رجل خرج من الإسلام فحارب؛ فيُقتل، أو يُصلب، أو ينفى من الأرض»^(١).

وقد جاء هذا الحديث بالفاظ متقاربة في الصحيحين وغيرهما من طرق عدة، عن عدد من الصحابة.

قال القرطبي: ولا خلاف بين أهل العلم في أن حكم هذه الآية ثابت في المحاربين من أهل الإسلام، وإن كانت نزلت في المرتدين أو اليهود، فهي تعم كل من ارتكب ما تضمنته من حراثة، ومحاربة المسلمين في كل عصر ومصر، محاربة لله والرسول، وسماها الله سبحانه محاربة له، إكباراً وتعظيماً لإيذاء المسلم؛ لأن الله سبحانه لا يحارب ولا يغالب.

ومحاربة الله لهم تتضمن عقوبتهم على المعاصي ومخالفة الشرائع.

وهذا الجزاء الذي أعده الله للمحاربين، ذلٌّ لهم في الدنيا، ولهم في الآخرة عذاب شديد إن لم يتوبوا، فعقوبة الكافر في الدنيا لا تُسقط عنه العذاب الأخروي.

(١) ينظر صحيح «أبي داود» (٣٦٥٩) وهو في أبي داود (٤٣٥٣) والنسائي (٤٠٥٩). وانظر المسند (٢٤٣٠٤، ٢٥٧٠٠) وهو عند الطحاوي في شرح مشكل الآثار (١٨٠٠) والطبراني في الأوسط (٣٧٧٢) والدارقطني في السنن (٨١/٣) والبيهقي في السنن (٢٨٣/٨).

والمسلم إذا عوقب بجنايته في الدنيا، العقوبة المقررة له شرعاً، كانت هذه العقوبة كفارة له، فلا يعاقب في الآخرة؛ لأن الله تعالى لا يجمع على عبده عقوبتين، وإن لم يعاقب في الدنيا فهو تحت مشيئة الله تعالى إن شاء عذبه، وإن شاء عفا عنه وأدخله الجنة، ولكن لا يدخل في ذلك من مات على الشرك أو الكفر؛ ففي الحديث عن عبادة بن الصامت رضي الله عنه قال: أخذ علينا رسول الله ﷺ كما أخذ على النساء: ألا نشرك بالله شيئاً، ولا نسرق، ولا ننزي، ولا نقتل أولادنا... فمن وفى منكم كله فأجره على الله، ومن أصاب من ذلك شيئاً فعوقب فهو كفارة له، ومن ستره الله فأمره إلى الله إن شاء عذبه وإن شاء غفر له^(١).

وعن علي رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «من أذنب ذنباً في الدنيا فعُوقب به، فالله أعدل من أن يثني عقوبته على عبده»^(٢).

والآية عامة في قُطَاع الطرق الذين يحاربون النظام الإسلامي القائم للأمة، ويرتكبون جرائم القتل والسرقة أو التخريب أو التفجير أو التحريق والنهب والسلب، سواء أكانوا مسلمين أم غير مسلمين، وسواء أكان ذلك في المدن الكبرى، أو في القرى، أو في المنشآت والهيئات، أو غير ذلك، وإن كان بعضها أفحش من بعض.

وقد عُلِمَ بهذا أن تطهير الأرض من المفسدين وتأمين الطرق، وحفظ الأنفس والأموال العامة والخاصة، من أعظم الحسنات وأجل الطاعات والإصلاح في الأرض.

مَتَى تَسْقُطُ الْعُقُوبَةُ؟

٣٤- ﴿إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِنْ قَبْلِ أَنْ تَقْدِرُوا عَلَيْهِمْ فَأَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَفُوٌّ رَحِيمٌ﴾

ثم استثنى الله سبحانه من عموم المعاقبين بالعقوبات السابقة: التائبين مما ارتكبه قبل

(١) «صحيح مسلم» (١٣٣٣/٣) برقم (١٧٠٩) والبخاري (٦٣٧/٨) بأرقام: (١٨)، (٣٨٩٢)، (٣٨٩٣)، (٦٨٧٣).

(٢) رواه أحمد في «المسند» (٩٩/١) برقم (٧٧٥)، (١٣٦٥) بإسناد حسن، والبخاري (٤٨٢) والطبراني في الصغير (٤٦)، والترمذي في «السنن» (١٦/٥) برقم (٢٦٢٦) وابن ماجه (٨٦٨/٢) برقم (٢٦٠٤) والدارقطني في «العلل» (١٢٩/٢) وقال: رُوي مرفوعاً وموقوفاً ورفعته صحيح.

وقوعهم في يد العدالة، فإذا تاب العبد إلى الله تعالى من غير حصار ولا مطاردة، وردَّ المظالم إلى أهلها، قبل أن يُرفع الأمر إلى الحاكم، وجاء طائعاً نادماً؛ فإن الله سبحانه يتوب عليه، ولا يطالب بشيء مما أصاب من دم، أو مال.

أما التوبة بعد القدرة عليه فلا تسقط بها العقوبات فتوبته لا تنفع، وتقام الحدود عليه، إلا إذا عفا عنه أولياء الدم، أو تنازلوا عن حقوقهم.

وإن أسلم الكافر أو المشرك المحارب فإن الإسلام يَجُبُّ ما قبله، كما أن التوبة تجُبُّ ما قبلها، وتسقط عنه جميع العقوبات إن آمن وأصلح قبل القدرة عليه، وحقوق الآدميين والقصاص لا تُسقطها التوبة، دون رد المظالم إلى أهلها وإنما حق الله تعالى فقط هو الذي يُتجاوز عنه؛ لأن حقه تعالى مبني على المسامحة.

والحكمة من إسقاط الجريمة والعقوبة: تقدير توبتهم واعتبارها دليل صلاح وهداية، والتشجيع على التوبة، وتوفير المؤنة في عقوبتهم؛ وليكون هذا أدعى إلى الدخول في الإسلام.

ولو آمن المشرك المحارب قبل القدرة عليه لا يُطالب بشيء مما أخذ إجماعاً، وكذا المسلم المحارب، وهذا حكم علي بن أبي طالب في حارثة بن بدر التيمي، من أهل البصرة وكان قد خرج محارباً وأفسد في الأرض فتاب قبل أن يُقدر عليه، فأمنه عليٌّ على نفسه^(١).

وجاء رجل إلى أبي موسى الأشعري وهو على الكوفة في خلافة عثمان، فقال: هذا مقام العائذ بك، أنا فلان بن فلان، كنت قد حاربت الله ورسوله، وسعيت في الأرض بالفساد، وثبت قبل أن يُقدر عليّ، فخطب أبو موسى في الناس وقال: فلا يتعرض له أحد إلا بخير^(٢).

والله تعالى غفور لعباده، رحيم بهم، وتأثير التوبة في النجاة من عذاب الآخرة، لا يتقيد بما قبل القدرة عليه، فإن عظم عليكم سقوط العقوبة عمن تاب قبل أن يُقدر عليه فاعلموا أن الله غفور رحيم.

ذكر الطبري أن علياً الأسدي، حارب، وأخاف السبيل، وأصاب الدم والمال، ولم يقدر أحد على الإمساك به، ثم إنه سمع رجلاً يقرأ قوله تعالى: ﴿قُلْ يَكْفِيكَ اللَّهُ إِنِّي مَعَهُ لَشَهِيدٌ﴾ [الزمر: ٥٣]. فقال: يا عبد

(١)، (٢) يُنظر: «تفسير ابن كثير» (٢/١٠٢).

الله، أعدها عليّ، فأعادها، فوضع الرجل سيفه في غمده، وأقبل على المدينة تائبًا، فوصلها وقت السحر، فاغتسل، ثم أتى مسجد رسول الله ﷺ فصلى الصبح، فلما ظهر النهار عرفه الناس، فقال: لا سبيل لكم عليّ جئت تائبًا قبل أن تقدروا عليّ، فأخذ أبو هريرة بيده وأتى به أمير المدينة في زمن معاوية وهو مروان بن الحكم فقال أبو هريرة: هذا عليّ، جاء تائبًا، ولا سبيل لكم عليه ولا قتل، فترك في ذلك كله، ثم إنه خرج مجاهدًا لحرب الروم في البحر، فهربوا منه بعد أن اقتحم عليهم سفيتهم، فمالت بهم السفينة فغرقوا جميعًا^(١).

النِّدَاءُ السَّادِسُ لِلْمُؤْمِنِينَ فِي السُّورَةِ: التَّوَسُّلُ وَالْوَسِيلَةُ

٣٥- ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَابْتَغُوا إِلَيْهِ الْوَسِيلَةَ وَجَاهِدُوا فِي سَبِيلِهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾

بدأت الآيات بنبا ابني آدم، وثنت بالعقوبة التي تنخلع لها القلوب في حد الحرابة، ثم ثلث بالدعوة إلى تقوى الله تعالى وخشيته والخوف من عقابه ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ بالله ورسوله، وصدقوا ما جاء به محمد ﷺ، واتبعوه فيما أوحى إليه ﴿اتَّقُوا اللَّهَ﴾ أي: خافوا الله تعالى، وصونوا أنفسكم عن كل ما لا يُرضيه؛ فإن تقوى الله تعالى هي التي تصاحب الضمير في السر والعلن، وتكف عن الشر في الحالات التي لا يراها الناس، ولا صلاح لمجتمع بلا رقابة غيبية وراءه ﴿وَابْتَغُوا إِلَيْهِ الْوَسِيلَةَ﴾ أي: اطلبوا ما تتوسلون به إلى تحقيق المقصود، وابدلوا الجهد في تلمس الأسباب التي توصلكم إلى النجاح والفلاح، فداوموا على فعل الطاعات، وتزودوا بالأعمال الصالحات، واجتنبوا المعاصي والمنكرات.

ثم خص سبحانه من العبادات المقربة إلى الله تعالى، الجهاد في سبيله بالنفس والمال واللسان، والقلم، لنصرة دين الله والدفاع عن حرمت المسلمين، ﴿وَجَاهِدُوا فِي سَبِيلِهِ﴾ أي: جاهدوا أنفسكم، وجاهدوا أهواءكم وشيطانكم، وجاهدوا أعداءكم.

ورتب سبحانه على جهاد النفس والعدو، الفوز والفلاح في الدارين فقال: ﴿لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ أي: تفوزون بالفلاح، وتسعدون بدخول الجنة، وتنجون من كل مكروه، ففي الآية:

(١) يُنْظَرُ: «تفسير الطبري» (١٠/٢٨٤).

- ١ - طلب الخوف من الله تعالى بتقواه في ترك المنهيات ﴿أَتَقُوا اللَّهَ﴾.
 - ٢ - والتقرب إلى الله تعالى بالطاعات والعمل بما يرضيه ﴿وَابْتَغُوا إِلَيْهِ الْوَسِيلَةَ﴾.
- وتكليف العباد منحصر في هذين النوعين، ولا ثالث لهما، وهما: فعل المأمورات وترك المنهيات.
- ٣ - ثم جهاد النفس والعدو طاعة لله وابتغاء مرضاته ﴿وَجَاهِدُوا فِي سَبِيلِهِ﴾.
- ثم رتب سبحانه على هذه الثلاث: الفوز بالفلاح، وكل محبوب في الدنيا والآخرة.

التوسل والوسيلة

والوسيلة هي التوصل إلى الشيء برغبة، فهي ما يُتوصَّل به، ويُتَقَرَّب به إلى الله تعالى بفعل الطاعات واجتناب المحرمات.

وحقيقتها: مراعاة سبيل الله تعالى بالعلم والعبادة، وتحري مكارم الأخلاق، فالمراد بالوسيلة في هذه الآية، هو القربى إلى الله تعالى بامتثال أوامره واجتناب نواهيه، على وجه ما جاء به محمد ﷺ مع الإخلاص لله تعالى وعدم الإشراك به.

والوسيلة: اسمٌ لأعلى الدرجات في الجنة، وعَلَمٌ على أعلى منزلة فيها، وهي منزلة رسول الله ﷺ وداره في الجنة، وأقرب أمكنة الجنة إلى العرش، فالوسيلة لها معنيان:

المعنى الأول: المقام المحمود، والدرجة الرفيعة في الجنة، وهذا المعنى خاص بخاتم الرسل ﷺ.

والمعنى الثاني: هو طلب التقرب إلى الله تعالى بما يرضيه.

وقد ثبت في صحيح البخاري وغيره من حديث جابر بن عبد الله ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: «من قال حين يسمع النداء: اللهم رب هذه الدعوة التامة، والصلاة القائمة، آت محمداً الوسيلة والفضيلة، وابعثه مقاماً محموداً الذي وعدته، إلا حُلَّتْ له الشفاعة يوم القيامة»^(١).

(١) البخاري (٦١٤، ٤٧١٩) وأبو داود (٣٦٢/١) برقم (٥٢٩) وفي «صحيح سنن أبي داود» (٤٩٦) والترمذي (٤١٣/١) برقم (٢١١) وفي «صحيح سنن الترمذي» (١٧٤) وابن ماجه (٢٣٩/١) ورقمه في «صحيح سنن ابن ماجه» (٧٢٢) وجاء مثله عن سعد بن أبي وقاص بزيادة الشهادتين في الأول.

والمقام المحمود، جاء ذكره في قول الله تعالى: ﴿عَسَى أَنْ يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَحْمُودًا﴾ [الإسراء: ٧٩].

وهو المعنى الأول للوسيلة كما جاء في الحديث أنها الدرجة العالية الرفيعة.

في صحيح مسلم وغيره عن عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنه أنه سمع النبي ﷺ يقول: «إذا سمعتم المؤذن فقولوا مثلما يقول، ثم صلُّوا عليّ، فإن من صلّى عليّ صلاة، صلّى الله عليه بها عشرًا، ثم سلوا الله لي الوسيلة فإنها منزلة في الجنة، لا تنبغي إلا لعبد من عباد الله، وأرجو أن أكون أنا هو، فمن سأل لي الوسيلة حلت عليه الشفاعة»^(١).

وعن ابن عباس رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «سلوا الله لي الوسيلة؛ فإنه لم يسألها لي عبد في الدنيا إلا كنت له شهيدًا - أو شفيعًا - يوم القيامة»^(٢).

سبب النزول: وفي القرآن الكريم آيتان تتحدثان عن الوسيلة، هذه الآية التي نحن بصدددها، والآية الأخرى في سورة الإسراء (٥٦، ٥٧) وقد جاء في سبب نزولهما، عن عبد الله بن مسعود رضي الله تعالى عنه أن جماعة من العرب كانوا يعبدون الجن، فأسلم الجن، ولم يُعجب الإنس إسلام الجن، وظلُّوا يعبدونهم من دون الله، وهم غير راضين عن عبادتهم لهم، فأنزل الله تعالى: ﴿قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِنْ دُونِي فَلَا يَمْلِكُونَ كَشْفَ الضُّرِّ عَنْكُمْ وَلَا تَحْوِيلًا ۝٥٦ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ ۚ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورًا ۝٥٧﴾ والحكم عام في كل من دعا غير الله تعالى، أو توسل إليه بسبب غير مشروع، طلبًا لجلب نفع أو دفع ضرر، سواء أكان من الأحياء أم الأموات.

أنواع الوسيلة: والوسيلة بهذا المعنى الثاني هي طلب التقرب إلى الله تعالى، وهذا المعنى من التوسل المشروع على ثلاثة أنواع:

(١) مسلم (٢٨٨/١) برقم (٣٨٤) وأبو داود (٣٥٩/١) برقم (٥٢٣) وفي «صحيح سنن أبي داود» (٤٩١) والترمذي (٤٠٧/١) برقم (٣٨٧٦) وفي «صحيح سنن الترمذي» (٢٨٦٠) و«المسند» (٢٦٥/٢)، برقم (٦٥٦٨) وإسناده صحيح على شرط مسلم ورجاله ثقات، كما قال محققوه.

(٢) أخرجه الطبراني في الأوسط (١٤٨٩، ٢٦٥) بإسناد حسن، و«المسند» بنحوه عن أبي سعيد (١١٧٨٣) وفيه ابن لهيعة، متكلم فيه، والحديث السابق يشهد لصحته.

النوع الأول: التوسل بأسماء الله الحسنى وصفاته العليا، كأن يقول: يا غفور، اغفر لي، يا رحمن، ارحمني، يا تواب، تب عليّ، وهكذا كما قال تعالى: ﴿رَبَّنَا آمَنَّا بِمَا أُنزِلَتْ وَاتَّبَعْنَا الرَّسُولَ فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ﴾ [آل عمران].

النوع الثاني: التوسل إلى الله تعالى بإيمان العبد وطاعته لربه، كما توسل الثلاثة الذين آواهم الغار، وانطبقت عليهم الصخرة، فسأل كل منهم ربه بعمل صالح قدمه، سأل الأول ربه بطاعته وبره لوالديه، وسأل الثاني بحفظ حق الأجير وتنمية ماله له وإعطائه إياه، وسأل الثالث بامتناعه عن الحرام، بعد أن قعد من ابنة عمه التي يحبها مقعد الرجل من المرأة، ففرّج الله عنهم الصخرة.

فيسأل العبد ربه بصلاته وصيامه وصدقاته أن يهديه أو يشفيه ونحو ذلك، كما يسأله بأسمائه وصفاته أن يفرج كربته ويغفر ذنبه، ونحو ذلك.

النوع الثالث: طلب الدعاء بظهر الغيب من رجل مؤمن صالح حيّ، وهو مثل قولهم: لا تنسنا يا أخي من صالح دعائك.

فالدعاء بظهر الغيب لا سيما من الصالحين، أمر جائز، ينتفع به المؤمن في حياته وبعد مماته: عن أبي الدرداء رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ «ما من عبد مسلم يدعو لأخيه بظهر الغيب، إلا قال الملك: ولك بمثل»^(١).

وأخرج مسلم بسنده عن ابن الزبير عن صفوان قال: قدمْتُ الشام، فأُتيت أبا الدرداء في منزله فلم أجده، ووجدت أم الدرداء، فقالت: أتريد الحج العام؟ فقلت: نعم، قالت: فادع الله لنا بخير، فإن النبي ﷺ كان يقول: «دعوة المرء المسلم لأخيه بظهر الغيب مستجابة، عند رأسه ملك موكل، كلما دعا لأخيه بخير، قال الملك الموكل به: آمين، ولك بمثل»^(٢).

التوسل الممنوع: أما التوسل الممنوع فهو التوسل إلى الله تعالى بذوات بعض الأحياء أو الأموات، أو طلب الشفاعة والوساطة من الأموات عند قبر أو خلافه، وكذا التوسل

(١) صحيح مسلم (٢٧٣٢).

(٢) صحيح مسلم (٢٧٣٣).

بجاه النبي ﷺ وحقه ونحو ذلك، فليس للرسول ﷺ جاه عند الله تعالى، وليس للنبي ﷺ حق على الله تعالى، ولا يجوز الإقسام على الله تعالى بأحد من خلقه، فلا ينبغي السؤال بجاه النبي ﷺ، ولا بحقه على الله، ولا بحرمة، ولا بحرمة البيت الحرام، فكل ذلك توسل غير مشروع.

ويدل على عدم جواز التوسل بالأموات مهما كان شأن الميت ولو كان نبياً رسولاً.

كما عدل عمر رضي الله عنه عن التوسل بدعاء النبي ﷺ بعد موته إلى التوسل بدعاء وشفاعة عمه العباس وهو حي، في قوله: اللهم إنا كنا إذا أجدبنا توسلنا إليك بنبينا فتسقينا، وإنا نتوسل إليك بعم نبينا - العباس - فاسقنا، وهذا توسل بدعائه لا بذاته.

العَذَابُ الْمُؤَبَّدُ لِمَن مَاتَ عَلَى الْكُفْرِ

٣٦- ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ أَنَّهُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُ مَعَهُ لَيَفْتَدُوا بِهِ مِنْ عَذَابِ يَوْمِ الْقِيَمَةِ مَا تُقْبَلُ مِنْهُمْ وَهُمْ عَذَابُ أَلِيمٌ﴾

وبعد أن ذكرت الآيات، المؤمنين المتقين الذين يتقربون إلى الله تعالى بفعل الطاعات، وترك المعاصي، ويجاهدون أهواءهم وأعداءهم، ذكرت في مقابل ذلك الكفار الذين ماتوا على كفرهم، ولم يجدوا في الآخرة ما يغني عنهم من الله شيئاً، فيدفع عنهم عذاب الله تعالى؛ لأنهم لم يتقوا الله تعالى في الدنيا ولم يبتغوا إليه الوسيلة، وأقصى ما يتصوره الإنسان أن يمتلك كنوز الدنيا وكل ما في الأرض.

ولو أن الكافر قدّم ذلك، وقدّم مثله معه - على سبيل الفرض - لينجو من عذاب الله تعالى يوم القيامة ما قبل الله منه ذلك ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ أي: جحدوا وحدانية الله وشريعته ﴿لَوْ أَنَّهُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُ مَعَهُ﴾ أي: لو أنهم ملكوا الدنيا، ودنيا أخرى، وجاءوا بهما يوم القيامة مملوءتين ذهباً ﴿لَيَفْتَدُوا بِهِ مِنْ عَذَابِ يَوْمِ الْقِيَمَةِ مَا تُقْبَلُ مِنْهُمْ﴾ أي: لم يتقبل منهم ذلك الفداء، ولا نجا لهم من عذاب الله، وكان قد طُلب منه في الدنيا ألا يشرك بالله شيئاً، وهو شيء يسير، ولكنه لم يفعل، فكان مصيره النار:

عن أنس بن مالك رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «يؤتى بالرجل من أهل النار، فيقول: يا

بن آدم، كيف وجدت مضجعك؟ فيقول: شر مضجع، فيقول: هل تفتدي بتراب الأرض ذهباً؟ قال: فيقول: نعم، يارب! فيقول: كذبت! قد سألتك أقل من ذلك فلم تفعل، فيؤمر به إلى النار»^(١).

وقد اقتضت حكمة الله تعالى أن تكون نجاة الناس من النار يوم القيامة متوقفة على الإيمان والعمل الصالح، لا على الأموال ولا على الأحساب والأنساب. وقد ذكر الله مقولة قوم توهموا ذلك، فقال: ﴿وَقَالُوا نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَالًا وَأَوْلَدًا وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ﴾ ﴿٢٥﴾ [سبا].

ويشبه هذه الآية قوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مِثْلُ مَعَهُمْ لَافْتَدَوْا بِهِ مِنْ سُوءِ الْعَذَابِ يَوْمَ الْقِيَمَةِ﴾ [الزمر: ٤٧].

وقوله: ﴿لِلَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمْ الْخُسْفَىٰ وَالَّذِينَ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُ لَوْ أَنَّ لَهُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مِثْلُ مَعَهُمْ لَافْتَدَوْا بِهِ﴾ [الرعد: ١٨]. وهكذا فهم:

٣٧- ﴿يُرِيدُونَ أَن يُخْرِجُوا مِنَ النَّارِ وَمَا هُمْ بِخَارِجِينَ مِنْهَا وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّقِيمٌ﴾ ﴿٣٧﴾

أي: أنهم يحاولون الخروج من النار، ولكنهم يُرغمون على البقاء فيها، كلما نضجت جلودهم بدلهم الله جلوداً غيرها؛ ليدوقوا العذاب الدائم المتجدد، ولا سبيل لهم إلى الخلاص منه بوجه من الوجوه؛ فهم يتمنون الخروج من النار بقلوبهم، ويحاولون ذلك بأبدانهم دون جدوى، فكلما رفعهم اللهب إلى أعالي جهنم ضربتهم الزبانية بمقامع من حديد، فيردوهم إلى أسفلها، وهذا العذاب خاص بالكفار، كما قال تعالى عن الكافر:

﴿ثُمَّ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَىٰ﴾ ﴿١٣﴾ [الأعلى].

وقال: ﴿إِنَّهُمْ مِنْ يَأْتِ رَبَّهُمْ جَحِيمًا فَإِنَّ لَهُمُ جَهَنَّمَ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَىٰ﴾ ﴿٧٤﴾ [طه].

وقال أيضاً: ﴿كُلَّمَا أَرَادُوا أَن يَخْرُجُوا مِنْهَا أُعِيدُوا فِيهَا﴾ [السجدة: ٢٠].

وقال سبحانه: ﴿فَالَّذِينَ كَفَرُوا قُطِعَتْ لَهُمْ نِيَابٌ مِّن نَّارٍ يُصَبُّ مِنْ فَوْقِ رُءُوسِهِمُ الْحَمِيمُ ﴿١٦﴾ يُصْهَرُ بِهِ مَا فِي بُطُونِهِمْ وَالْجُلُودُ ﴿١٧﴾ وَلَهُمْ مَقْلِعٌ مِّنْ حَدِيدٍ ﴿٢١﴾ كُلَّمَا أَرَادُوا أَن يَخْرُجُوا مِنْهَا مِنْ غَيْرٍ أُعِيدُوا فِيهَا﴾ [الحج].

(١) البخاري (٤١٥/١١) برقم (٦٥٣٨، ٦٥٥٧) ومسلم (٢١٦١/٤) برقم (٢٨٠٥، ٢٨٠٧) والنسائي (٣٦/٦).

فَالَّذِينَ مَاتُوا عَلَى الْكُفْرِ فِي عَذَابٍ مُسْتَمِرٍّ مُتَجَدِّدٍ ﴿٧٥﴾ إِنَّ الْمُجْرِمِينَ فِي عَذَابٍ جَهَنَّمَ خَالِدُونَ ﴿٧٦﴾ لَا يُفَرِّغُهُمْ عَنْهُمْ وَهُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ ﴿٧٧﴾ وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا هُمُ الظَّالِمِينَ ﴿٧٨﴾ [الزخرف].

ويطلب الكفار من مالك خازن النار أن يقضي عليهم ربهم بالموت، أو الحرق في جهنم ﴿وَوَادُّوا بِمَكَائِكَ لِيَقْضَ عَلَيْنَا رَبُّكَ﴾، فيجيبهم بعد طول مكث: ﴿إِنَّكُمْ مَكْنُوتُونَ﴾ ﴿٧٧﴾ لَقَدْ جِئْتَكُمْ بِالْحَقِّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَكُمْ لِلْحَقِّ كَذِبُونَ ﴿٧٨﴾ [الزخرف] وقال سبحانه: ﴿وَهُمْ يَصْطَرِخُونَ فِيهَا رَبِّنَا أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ﴾ قال تعالى: ﴿أَوَلَمْ نَعْمَرْكُمْ مَا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَنْ تَذَكَّرَ﴾ أي: أعطيناكم عمراً اتعظ فيه من اتعظ، واستثمر حياته في الخير من استثمر ﴿وَجَاءَكُمْ النَّذِيرُ﴾ الرسول، أو الشيب نذير الموت ﴿فَذُوقُوا فَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ نَصِيرٍ﴾ [فاطر: ٣٧].

وصح في الحديث عن أبي هريرة ؓ أن: «أهون أهل النار عذاباً رجل في رجله نعلان من نار يغلي منهما دماغه»^(١) نسأل الله السلامة والعافية.

أما الموحدون من عصاة المؤمنين فإنهم يخرجون من النار بعد عقابهم على قدر عصيانهم، كما في الحديث عن جابر بن عبد الله: «إن الله تعالى يخرج ناساً من النار فيدخلهم الجنة»^(٢).

وفي يوم القيامة يُلقَى أهل النار باللائمة على من أغووههم وأضلوههم في الدنيا، ويلعن بعضهم بعضاً، كما قال تعالى: ﴿ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُم بَعْضًا﴾ [العنكبوت: ٢٥].

أخرج ابن مردويه وغيره عن طلق بن حبيب قال: كنت من أشد الناس تكذيباً بالشفاعة، حتى لقيت جابر بن عبد الله، فقرأت عليه كل آية أقدر عليها، يذكر الله فيها خلود أهل النار، فقال: يا طلق، أترأك أقرأ لكتاب الله، وأعلم بسنة رسول الله مني؟ إن الذي قرأت هم أهلها، هم المشركون، ولكن هؤلاء قوم أصابوا ذنباً فعذبوا، ثم أُخرجوا منها، ثم أهوى بيديه إلى أذنيه، فقال: صُمَمًا إن لم أكن سمعت رسول الله ﷺ يقول:

(١) يُنْظَرُ: «المسند» (٣/٣٥٥) و«صحيح مسلم» (١/٧٨) برقم (١٩١، ٣١٩، ٣٢٠) والبخاري برقم (٤٤، ٦٥٦٥) بنحوه والمراد بهم عصاة المؤمنين كما جاء في بقية الحديث.

(٢) «المسند» وعن أبي هريرة برقم (٩٥٧٦) و(٩٦٦٠) صحيح لغيره، وإسناده جيد، وأخرجه الدارمي (٢٨٤٨) وابن حبان (٧٤٧٢) والحاكم (٥٨٠/٤).

«يخرجون من النار بعد ما دخلوا» ونحن نقرأ كما قرأت^(١).

وعن عكرمة أن نافع بن الأزرق قال لابن عباس رضي الله عنه: تزعم أن قومًا يخرجون من النار، وقد قال الله تعالى: ﴿وَمَا هُمْ بِمُخْرِجِينَ مِنْهَا﴾ فقال ابن عباس: ويحك، اقرأ ما فوقها، هذه للكفار^(٢).

ومعنى هذا أن عدم الخروج من النار خاص بالكفار، أما الشفاعة فتكون في عصاة المؤمنين، يعذبون في النار بقدر ذنوبهم، ثم يخرجون منها بعد ما دخلوها.

حَدُّ السَّرْقَةِ وَقَبُولُ التَّوْبَةِ مِنَ السَّارِقِ

٣٨- ﴿وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا جَزَاءُ بِمَا كَسَبَا تَكْلًا مِّنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾

وبعد ذكر حد الحرابة، ومنها أخذ المال جهارًا، وهي محاربة لله ورسوله، وتسمى السرقة الكبرى، أعقب ذلك بذكر من يأخذ مال غيره خفية، وتسمى السرقة الصغرى، ويطلق عليهما السارق.

وسمي سارقًا؛ لأنه يأخذ الشيء الذي ليس له، في خفاء، ومنه استراق السمع، أي: مستخفيًا.

والسرقة شرعًا: أخذ العاقل البالغ مقدارًا مخصوصًا من مال غيره خفية، من حرز بمكان أو حافظ، وبدون شبهة.

ولا تقطع يد السارق إلا بعد أن يكفل له المجتمع ضمانات العيش والكفاية، فمن حق كل فرد أن يأكل ويشرب ويلبس ويسكن، ويحصل على هذه الضروريات عن طريق العمل والكسب الحلال، فإذا تعطل الإنسان لعدم وجود العمل، أو لعدم قدرته عليه، أو كان كسبه لا يكفي حاجاته الضرورية، فله الحق في الحصول على هذه الضرورات أو استكمالها من الموسرين القادرين من ورثته وأقاربه، من الزكاة والصدقات، أو الضمانات والتكافل الاجتماعي، وخزينة الدولة، ونحو ذلك.

فإذا تحقق له ما يقيم حياته ويحفظها، فإنه لن يسرق إذن لسد حاجته، وإنما طمعًا في الثراء السريع عن طريق الحرام؛ لأنه سرق وهو مكفي الحاجة.

(١) «تفسير ابن كثير» (١٠٧/٢) وهو في «صحيح الأدب المفرد» (٦٢٩) وفي «شعب الإيمان» للبيهقي (٣٢٣).

(٢) أخرجه الطبري (٤٠٦/٨).

وحد السارق: قطع يده اليمنى من مفصل الكوع، لأنه حدّ اليد عند الإطلاق.

فإن سرق ثانية قُطعت رجله اليسرى من مفصل القدم.

فإن سرق ثالثة قطعت يده اليسرى عند أكثر أهل العلم.

فإن سرق رابعة قطعت رجله اليمنى.

فإن سرق بعد ذلك عُرِّر وحُبس حتى تظهر توبته.

وذهب بعض الفقهاء إلى أنه إن سرق الثالثة والرابعة فلا قطع عليه، بل يحبس؛ لما رواه البغوي عن ابن عباس رضي الله عنهما أن الرسول ﷺ قال في السارق: «إن سرق فاقطعوا يده، ثم إن سرق فاقطعوا رجله»^(١).

مقدار السرقة الذي تقطع فيه اليد: وجمهور أهل العلم على أن النصاب الذي تقطع فيه يد السارق: هو ربع دينار، أو متاع يقدر بربع دينار، والحجة في ذلك ما أخرجه الشيخان عن عائشة رضي الله عنها أن النبي ﷺ قال: «تقطع يد السارق في ربع دينار فصاعداً»^(٢).

والدينار: اثنا عشر درهماً.

ولذا: فإن الإمام مالك احتج بقطع يد السارق في ثلاثة دراهم مضروبة خالصة، بما جاء في الصحيحين عن نافع عن ابن عمر رضي الله عنهما أن النبي ﷺ قطع في مِجَنٍّ ثُمْنُهُ ثلاثة دراهم^(٣).

(١) وقد صححه الألباني عن أبي هريرة في إرواء الغليل (٢٤٣٨، ٢٤٣٤) وهو في تلخيص الحبير والطبراني والدارقطني وفي إسناده الواقدي.

(٢) البخاري (٩٦/١٢) برقم (٦٧٨٩، ٦٧٩١) ومسلم (١٣١٢/٣) برقم (١٦٨٤).

(٣) البخاري (٩٧/١٢) برقم (٦٧٩٧) ومسلم (١٣١٣/٣) برقم (١٦٨٦).

والدراهم الثلاثة تعادل ربع دينار، وهو نحو عشرة ريالات سعودية فلا تعارض بينهما .
وكل من سرق ما يعادل ربع الدينار، أو الدراهم الثلاث قُطعت يده بمقتضى عموم الآية، وبحديث ابن عمر وحديث عائشة رضي الله عنها أن رسول الله ﷺ قال: «اقطعوا في ربع دينار، ولا تقطعوا فيما هو أدنى من ذلك»^(١).

وكان ربع الدينار يومئذ: ثلاثة دراهم، والدينار: اثنا عشر درهماً .
وفي لفظ النسائي: «لا تقطع يد السارق فيما دون ثمن المجنّ»، قيل لعائشة: ما ثمن المجنّ؟ قالت: ربع دينار^(٢).

ولما كانت يد الإنسان أمانة كانت ثمينة، ولكنها لما خانت هانت، فقطعت في ربع دينار .
واشترط أبو حنيفة أن يبلغ المسروق عشرة دراهم، ودليله أن ثمن المجنّ في حديث ابن عمر عشرة دراهم على عهد النبي ﷺ، وهذا اختلاف في ثمن المجن .
والصحيح ما عليه الجمهور، وهو قطع يد السارق في ربع دينار للنص الصريح فيه .

اشتراط الحرز فيما يسرق:

ويشترط أن يكون المال المسروق مصوناً ومحفوظاً، ومعنيًا به في حرز يناسب حاله، وقد يكون الشيء غير محروز، ولكنه معلوم أن صاحبه فلان، فهو في حكم الحرز، لا يجوز التعدي عليه؛ وذلك كثمر الشجر والنخيل، والحيوان الذي يرعى في البادية، ونحو ذلك، فقد جرت العادة أن مثل هذا لا يُحرز، وإنما يكون معلوماً من جيرانه ومن أهل المكان، أنه مِلْك لفلان، فهو في حكم المال المحروز .

واشترط الحرز من أقوال الفقهاء، ولا دليل عليه من الكتاب أو السنة، ولم يشترط أهل الظاهر النصاب، ولا الحرز فيما يُسرق، بل قالوا بقطع يد السارق في القليل والكثير، وسواء سرقة من حرز، أو غير حرز لعموم الآية .

(١) «المسند» (٨٠/٦) برقم (٢٤٤٥١٥)، ومسلم (١٦٨٤) و«صحيح سنن النسائي» (٤٥٨١) والنسائي في «الكبرى» (٧٤١٥) والطبراني في «الأوسط» (٢٨٢).

(٢) «سنن النسائي» (٨٠/٨) وقد صححه الألباني في «صحيح سنن النسائي» برقم (٤٥٨٣).

اشتراط عدم وجود شبهة للسارق فيما سرق:

ويشترط كذلك عدم وجود شبهة للسارق في المال، أو المتاع المسروق؛ لقول النبي ﷺ: «ادروا الحدود بالشبهات ما استطعتم»^(١) فلا قطع فيمن سرق مالا له فيه شركة، ولا قطع فيما لو سرق الأب من مال ابنه، أو الابن من مال أبيه، أو سرق العبد من مال سيده، ونحو ذلك، فإنه لا قطع فيه لوجود الشبهة.

فحين توجد شبهة من حاجة، أو غيرها فلا يقام عليه الحد؛ لأنه لم يجد ما يقيم أودّه، أو يستر عورته، أو ما يؤويه من الحر والقر، ولهذا فإن عمر ﷺ لم يقطع يد السارق عام الرمادة، حين عمت المجاعة، ولم يقطع أيضا في حالة خاصة، حينما سرق غلمان ابن حاطب بن أبي بلتعة ناقة رجل من مزينة، فبعد أن أمر بقطع أيديهم، تبين له أنهم كانوا جوعى، وأن سيدهم منعهم الطعام، فدرأ عنهم الحد، وغرم سيدهم ضعف ثمن الناقة تأديبا له. ويشترط في المسروق أن يكون مما يحلّ تملكه، وألا يكون مما يحرم تعاطيه؛ كالخمر، والخزير، وآلات اللهو، فلا تقطع يد السارق في مثل هذا، ويشترط أن يعلم السارق بتحريم السرقة.

بم تثبت السرقة؟

وتثبت السرقة بالإقرار أو البيّنة والشهادة ﴿وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُوهُمَا﴾ يا ولادة الأمر ﴿أَيْدِيَهُمَا﴾ بمقتضى الشرع، اقطعوا يد الذكر إذا سرق، واقطعوا يد الأنثى إذا سرقت، وذلك ﴿جَزَاءُ يَمَا كَسَبَا﴾ مجازاة لهما على أخذهما أموال الناس بغير حق ﴿تَكْلَلًا مِّنَ اللَّهِ﴾ عقوبة لهما، وزجرا وتأديبا لغيرهما؛ كي لا يصنع مثل صنيعهما، والنكال في الأصل هو القيد الشديد وحديدة اللجام ﴿وَاللَّهُ عَزِيزٌ﴾ في ملكه ﴿حَكِيمٌ﴾ في أمره ونهيه.

قال الأصمعي: قرأت هذه الآية وإلى جنبي أعرابي، فقلت في نهايتها: والله غفور رحيم، سهوا، فقال الأعرابي: ليس هذا كلام الله، فتنهت، فقلت: والله عزيز حكيم، فقال: أصبت، هذا كلام الله، فقلت له: أتقرأ القرآن؟ قال: لا، قلت: فمن أين علمت أنني أخطأت؟ فقال: يا هذا، عزّ فحكّم فقطع، ولو غفر ورحم لما قطع.

فقد فهم الأعرابي أن مقتضى العزة والحكمة، غير مقتضى المغفرة والرحمة، وأن الله تعالى يضع كل شيء موضعه من كتابه^(٢).

(١) رواه البيهقي عن علي بن عيسى، يُنظر: «نصب الراية» للزيلعي (٣٣/٣) و«تاريخ بغداد» (٣٠٣/٩) و«كشف الخفاء» للعجلوني (٧٣/١) و«تلخيص الجبير» (٥٦/٤).

(٢) «زاد المسير» لابن الجوزي (٣٥٤/٢).

وجوب إقامة الحد على الشريف والوضيع

والحدود تقام على القوي والضعيف، والشريف والوضيع؛ فالكل أمام الله سواء، فإذا فرّق أولو الأمر بين هذا وذاك في إقامة الحدود، فإن هذا نذير شؤم، ومظنة عقوبة عامة.

لا شفاعة في الحدود:

ولا شفاعة في الحدود إذا وصل الأمر إلى القاضي أو ولي الأمر، وهي شفاعة سيئة يقع وزرها على من يشفع فيها.

عن عمرو بن شعيب قال: إن أول حد أقيم في الإسلام لرجل أتى به رسول الله ﷺ سرق، فشُهد عليه، فأمر به النبي ﷺ أن يُقطع، فلَمَّا حُفَّ الرجل، نُظِرَ إلى وجه رسول الله ﷺ كأنما سُفِّيَ فيه الرَّمَاد، فقالوا: يا رسول الله، كأنه اشتدَّ عليك قطعُ هذا! قال: «وما يمنعني وأنتم أعوان للشيطان على أخيك»، قالوا: فأرسله. أي: خلَّ سبيله. قال: «فهلَّا قبل أن تأتيني به، إن الإمام إذا أتى بحدٍّ لم ينبغ له أن يُعطله»^(١)

لقد سرق شاب في عهد عمر رضي الله عنه، وجيء به إليه، فلما أراد أن يقيم الحد عليه، قالت أمه: اعف عنه يا أمير المؤمنين، فهذه أول مرة، قال عمر: إن الله أكرم من أن يفضح عبده لأول مرة.

وعن عائشة رضي الله عنها أن قريشاً أهمهم شأن المرأة المخزومية، التي سرقت في عهد النبي ﷺ في غزوة الفتح، فقالوا: من يُكَلِّم فيها رسول الله ﷺ؟ قالوا: ومن يجترئ عليه إلا أسامة بن زيد، حب رسول الله ﷺ؟ فأتى رسول الله ﷺ وكَلَّمه فيها، فتلَوَّن وجه النبي ﷺ، وقال: «أتشفع في حدٍّ من حدود الله؟!»، فقال له أسامة: استغفر لي يا رسول الله، فلما كان العشيُّ قام رسول الله ﷺ فاخطب، فأثنى على الله بما هو أهله، ثم قال: «أما بعد: فإنما أهلك الذين من قبلكم؛ أنهم كانوا إذا سرق فيهم الشريف تركوه، وإذا سرق فيهم الضعيف أقاموا عليه الحد، وإنني والذي نفسي بيده، لو أن فاطمة بنت محمد سرقت، لقطعتُ يدها»، ثم أمر بتلك المرأة التي سرقت فُقطعت يدها، قالت عائشة: فحسنتُ

(١) أخرجه عبد الرزاق في «المصنف» (١٣٣١٨).

توبتها بعد وتزوجت، وكانت تأتي بعد ذلك، فأرفع حاجتها إلى رسول الله ﷺ^(١) والشفاعة في الحدود شفاعه سيئة. قال الله تعالى عنها: ﴿وَمَنْ يَشْفَعْ شَفَعَةً سَيِّئَةً يَكُنْ لَهُ كِفْلٌ مِنْهَا﴾ [النساء: ٨٥].

ولمكافحة جريمة السرقة لا بد من إقادة الحد الذي شرعه الله تعالى، فقطع يد واحدة في مكان عام، وتسليط الأضواء ووسائل الإعلام عليها كفيل بردع وزجر آلاف الناس ممن تخوّل لهم نفوسهم سرقة أموال الناس أو متاعهم.

واستبدال السجن بهذه العقوبة ونحوه لا يقطع دابر الجريمة، ولا يكبح جماحها؛ فالسجن مدرسة، يتعلم فيها السجناء فنون الجريمة واحترافها، فعقوبة السجن: لا تحول بين السارق والسرقة إلا مدة الحبس، أما عقوبة القطع فإنها تحول بين السارق والسرقة دائماً، ويده المقطوعة تعلن عن سوابقه، فلا يستطيع أن يخدع الناس، أو يحملهم على الثقة به والتعاون معه، فهو يحمل أثر الجريمة في جسده!! على أن قطع يد السارق كان معمولاً به في الجاهلية قبل الإسلام، ولما جاء الإسلام أقرّه، كما أقر القسامة والدية وغيرهما.

وأول من قُطعت يده في الجاهلية رجلاً يقال له: (دويك) كان قد سرق كنز الكعبة، فقُطعت قريش يده^(٢) وقد قضى بذلك الوليد بن المغيرة في الجاهلية فأقره الإسلام. وأول رجل قطعت يده في الإسلام: الخيار بن عدي بن نوفل بن عبد مناف. وأول امرأة قطعت يدها: المخزومية مروة بنت سفيان.

التَّوْبَةُ لَا تُسْقِطُ الْحَدَّ بَعْدَ رَفْعِ الْأَمْرِ إِلَى الْقَاضِي

٣٩- ﴿فَمَنْ تَابَ مِنْ بَعْدِ ظُلْمِهِ وَأَصْلَحَ فَإِنَّ اللَّهَ يَتُوبُ عَلَيْهِ إِنَّ اللَّهَ عَفُورٌ رَحِيمٌ﴾

يفتح الله سبحانه باب التوبة لمن يريد أن يتوب، على أن يندم ويكف عن السرقة، ويعمل صالحاً، ويصلح ما أفسده، برد ما سرقه إلى ذويه، دون أن يترتب عليه ضرر أكبر،

(١) هذا لفظ مسلم (١٣١٥/٢) برقم (١٦٨٨) والبخاري (٨٧/١٢) برقم (٢٦٤٨) وانظر: (٣٤٧٥، ٦٨٠٠).

(٢) يُنظَر: «تفسير ابن كثير» (١٠٧/٢).

أو يؤدي إلى فتنة أعظم ﴿فَمَنْ تَابَ مِنْ بَعْدِ ظُلْمِهِ﴾ لنفسه وظلمه لخلق الله بالسرقة ﴿وَأَصْلَحَ﴾ برد المسروق إلى صاحبه، وأصلح في جميع أعماله مستقبلاً ﴿فَإِنَّ اللَّهَ يَتُوبُ عَلَيْهِ﴾ فيقبل توبته، ويغفر له فيما هو من حقوق الله تعالى، أما أموال الناس، فلا بد من ردها إليهم أو استحلالهم منها عند الجمهور.

والتوبة لا تُسقط حكم قطع اليد بعد وصول الأمر إلى القاضي، عند الحنفية والمالكية؛ لعموم الأمر بالقطع.

وقال أكثر الشافعية والحنابلة: إن التوبة تمنع إقامة الحد.

فالتائب من الذنب كمن لا ذنب له، ويتجاوز الله عنه فيعفو عنه ﴿إِنَّ اللَّهَ عَفُورٌ﴾ لمن تاب وأُتاب ﴿رَحِيمٌ﴾ رحمة عامة بعباده، ومنهم السارق.

ولا بد لهذه التوبة بعد قطع يد السارق، من الندم، وتقطع القلب حسرة على ما كان منه، والعزم الأكيد على تركه في المستقبل، والإقلاع عن ارتكاب ما فعله في الحال، ورد المال أو المتاع المسروق إلى صاحبه؛ لأن القطع حق الله، والعزم على ترك السرقة حق الآدمي.

وَصِدْقُ التَّائِبِ فِي تَوْبَتِهِ، عَلَّمَهُ عِنْدَ اللَّهِ تَعَالَى، وَاللَّهُ تَعَالَى يَتُوبُ عَلَى مَنْ تَابَ تَوْبَةً نَصُوحًا:

١- عن عبد الله بن عمرو رضي الله عنه قال: سرقت امرأة حلياً، فجاء الذين سرقتهم، فقالوا: يا رسول الله، سرقتنا هذه المرأة، فقال رسول الله ﷺ: «اقطعوا يدها» قال: فقطعت يدها اليمنى، فقالت المرأة: هل من توبة؟ فقال رسول الله ﷺ: «أنت اليوم من خطيئتك كيوم ولدتك أمك»، فأنزل الله الآية ﴿فَمَنْ تَابَ مِنْ بَعْدِ ظُلْمِهِ﴾^(١)

وهذه المرأة هي المخزومية وحديثها ثابت في الصحيحين^(٢) سبق ذكره.

(١) ابن جرير الطبري (٢٩٩/١٠) و«المسند» (٦٦٥٧) فيه ابن لهيعة، حديثه حسن وفيه ضعف، وبقية رجاله ثقات كما قال الهيثمي في المجمع (٢٧٦/٦) وأصله في الصحيحين من غير ذكر سبب النزول.

(٢) البخاري (٦٧٨٨) ومسلم (١٦٨٨) وأبو داود (٤٣٧٣) وصححه (٣٦٧٦) وصحيح ابن ماجه (٣٥٤٧) وصحيح النسائي (٤٥٥٢) عن عائشة، واسمها فاطمة بنت الأسود بن عبد الأسد بن هلال بن عمرو بن مخزوم.

٢- وعن ابن عمر أيضاً: أن امرأة كانت تستعير الحلي، ثم تُمسكه، فقال رسول الله ﷺ: «لتب هذه المرأة إلى الله ورسوله، وترد ما تأخذه على القوم»، ثم قال رسول الله: «قم يا بلال فخذ بيدها فاقطعها»^(١).

٣- وعن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ أتى بسارق قد سرق شملة، فقال: «ما إخاله سارق!» فقال السارق: بلى يا رسول الله، قال: اذهبوا به فاقطعوه، ثم احسموه، ثم اتوني به، ففُطع فأُتي به، فقال: «تب إلى الله» فقال: تبت إلى الله، فقال: «تاب الله عليك»^(٢).

وهذه الأحاديث تفيد أن التوبة المنصوص عليها في الآية: هي ما تكون بعد إقامة الحد، وبهذا أخذ الحنفية والمالكية وقالوا: إن الأمر بقطع يد السارق في الآية عام، يشمل التائب وغيره.

أما أكثر الشافعية والحنابلة فقد قالوا: إن الآية ﴿فَمَنْ تَابَ﴾ مخصصة لعموم ﴿وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ﴾ وقد بينت الأحاديث أن التوبة تجب ما قبلها، وأن التائب من الذنب كمن لا ذنب له، وعليه فالتوبة تمنع إقامة الحد.

قلت: وهذا قول وجيه، ما لم يصل الأمر إلى القاضي، فإن رفع أمر السارق إلى القاضي، وقامت البينة الدالة على صحة الدعوى قُطعت يده، كما سبق بيانه. قال تعالى:

٤٠- ﴿أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ يُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ وَيَعْفُو لِمَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾

ثم يأتي التعقيب على ذكر الجريمة والعقوبة، والتوبة والمغفرة، بأن الله تعالى هو صاحب المشيئة العليا، وهو خالق هذا الكون ومالكة يتصرف فيه كيف يشاء ﴿أَلَمْ تَعْلَمْ﴾ يا محمد، ويا كل إنسان ﴿أَنَّ اللَّهَ لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ خالق هذا الكون ومالكة

(١) «المسند» (٥٥١/٢) بنحوه برقم (٦٣٨٣) حديث صحيح رجاله ثقات رجال الشيخين، وأبو داود (٤)

(٥٣٨) عن عائشة برقم (٤٣٩٥) وكلاهما بسند صحيح، وصحيح أبي داود (٣٦٩٤) و«سنن النسائي» (٨)

(٧٠) و«السنن الكبرى» للنسائي (٧٣٣٥) وهذا لفظه.

(٢) «سنن الدارقطني» (١٠٢/٣) و«المستدرک» (٣٨١/٤) وقال الحاكم: هذا صحيح على شرط مسلم ولم يخرجاه، وسكت عنه الذهبي، ورواه أبو داود في المراسيل برقم (٢٤٤) وكذا مصنف عبد الرزاق (١٣٥٨٣).

ومدبر أمره، ومُصَرِّف أحواله، لا يمتنع عليه شيء، فعال لما يريد ﴿يُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ﴾ على كفره ومعصيته ﴿وَيَغْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ﴾ إذا تاب إلى الله، ورجع عن فعله ﴿وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ فلا رادَّ لقضائه، ولا معقب لحكمه، ولا يُسأل عما يفعل.

وقدَّم سبحانه العذاب على المغفرة؛ لمناسبة المقام في مقابلة قطع السارق، كما قدَّم السارق على السارقة؛ لأن السرقة من شأن الرجال غالباً. كما أن الزنا للمرأة فيه الضلع الأكبر بإغرائها وإغوائها وميولها، وعدم امتناعها، ولذا قدَّمت الزانية على الزاني في قوله تعالى: ﴿الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي﴾ [النور: ٢٢].

الْحُكْمُ بِغَيْرِ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ مُسَارَعَةً فِي الْكُفْرِ

٤١- ﴿يَتَّيْنَاهَا الرَّسُولُ لَا يَحْزَنُكَ^(١) الَّذِينَ يُسْرِعُونَ فِي الْكُفْرِ مِنَ الَّذِينَ قَالُوا آمَنَّا بِأَفْوَاهِهِمْ وَلَمْ تُؤْمِنْ قُلُوبُهُمْ وَمِنَ الَّذِينَ هَادُوا سَكَّعُونَ لِلْكَذِبِ سَكَّعُونَ لِقَوْمٍ آخَرِينَ لَمْ يَأْتُواكَ بِحُكْمٍ الْكَلِمَ مِنْ بَعْدِ مَوَاضِعِهِ يَقُولُونَ إِنْ أُوتِيتُمْ هَذَا فَخُذُوهُ وَإِنْ لَمْ تُؤْتَوْهُ فَاحْذَرُوا وَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ فِتْنَتَهُ فَلَنْ تَمْلِكَ لَهُ مِنَ اللَّهِ شَيْئاً أُولَئِكَ الَّذِينَ لَمْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يُطَهِّرْ قُلُوبَهُمْ لَهُمْ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ^(٢)﴾

كان النبي ﷺ يشتد حزنه على من يُظهر الإيمان ثم يرجع إلى الكفر، فأرشده الله تعالى إلى أنه لا بأسى ولا يحزن على أمثال هؤلاء، ويبين سبحانه السبب الموجب لعدم الحزن عليهم، فذكر أنهم أحدُ رجلين:

إما منافق ﴿مِنَ الَّذِينَ قَالُوا آمَنَّا بِأَفْوَاهِهِمْ وَلَمْ تُؤْمِنْ قُلُوبُهُمْ﴾ ولو كان مؤمناً حقاً لم يرض بالإسلام بديلاً.

وإما يهودي مقلد لرؤسائه الذين أعرضوا عنك ويريدون منك أن تحكم لهم بما يوافق أهواءهم، وهؤلاء وصفهم ربنا بقوله ﴿وَمِنَ الَّذِينَ هَادُوا﴾.

فهم كالمنافقين السابق ذكرهم ﴿سَكَّعُونَ لِلْكَذِبِ﴾ من أحبارهم ورؤسائهم ﴿سَكَّعُونَ

(١) قرأ نافع بضم ياء (لا يحزنك) وكسر الزاي، مضارع أحزن الرباعي، وقرأ الباقون بفتح الياء وضم الزاي مضارع حزن الثلاثي.

لِقَوْمٍ ءَاخِرِينَ لَمْ يَأْتُوكَ ﴿٤١﴾ وإنما أتوك لتحكم لهم بتغيير حكم القتل من القصاص إلى الدية، وتغيير حكم الزاني المحصن، بغير الرجم ﴿يَقُولُونَ إِنْ أُوتِيتُمْ هَذَا فَخُذُوهُ وَإِنْ لَمْ تُؤْتَوْهُ فَاحْذَرُوا﴾ أي إن حكم لكم بما تريدون فاقبلوا حكمه، وإلا فلا، وهذا من عدم طهارة قلوبهم.

ولا يزال الحديث موصولاً عن إقامة حدود الله تعالى، وتطبيق شرعه سبحانه في أرضه على خلق الله جميعاً؛ ونظراً لأن اليهود والنصارى ومن سواهم مأمورون جميعاً باتباع الدين الخاتم، وتنفيذ الشرع الذي جاء به محمد ﷺ، ولأن نظام الحكم والتشريع في الإسلام يشمل الذميين والمستأمنين في دار الإسلام، وأن لهم ما لنا، وعليهم ما علينا، فإن الآيات في هذا الربع من السورة تبدأ بالحديث عن اليهود: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَا التَّوْرَةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ﴾ [٤٤].

وتثني بالنصارى فتقول في سياق الحديث عن عيسى عليه السلام: ﴿وَأَتَيْنَاهُ الْإِنجِيلَ فِيهِ هُدًى وَنُورٌ﴾ [٤٦]. وتثني بالحديث عن محمد ﷺ فتقول: ﴿وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ﴾ [٤٨]. وهذا الكتاب ناسخ لما قبله، يُصلح الله به كل زمان ومكان إلى قيام الساعة.

وجميع الكتب التي نزلت من عند الله تعالى، لم تنزل للقراءة والاستماع والاعتاظ فحسب؛ وإنما نزلت أيضاً للحكم بما فيها بين الناس، ولتكون الدستور الإلهي للبشر، كل منها في زمانه ومكانه.

كما قال تعالى عن التوراة: ﴿يَحْكُمُ بِهَا النَّبِيُّونَ الَّذِينَ أَسْلَمُوا لِلَّذِينَ هَادُوا وَالرَّبَّانِيُّونَ وَالْأَحْبَارُ﴾ [٤٤]. وقال عن الإنجيل: ﴿وَلِيَحْكُمُ أَهْلُ الْإِنجِيلِ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فِيهِ﴾ [٤٧] والحكم بكل منهما ينتهي بانتهاء الرسالة.

وقال سبحانه عن القرآن مخاطباً رسوله ﷺ: ﴿فَأَحْكُم بَيْنَهُم بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ عَمَّا جَاءَكَ مِنَ الْحَقِّ﴾ [٤٨].

وكل رسول نزل عليه كتاب له شريعة ومنهاج ﴿لِكُلِّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا﴾ [٤٨].

ودين الله واحد ﴿إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ﴾ [آل عمران: ١٩]. فالتوحيد عقيدة كل الرسل، أما الشريعة فيكون بينها تفاوت يناسب أطوار حياة البشر من لدن آدم إلى محمد صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين.

والله ﷻ يختم الحديث عن التوراة واليهود المغيرين لحكم الله تعالى بقوله: ﴿وَمَنْ لَّمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ﴾ [٤٤]. وفي الآية بعدها: ﴿فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ [٤٥]. ويختم الحديث عن النصارى والإنجيل بقوله: ﴿وَمَنْ لَّمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ [٤٧].

فالكافرون والظالمون والفاسقون، هم الذين يحكمون بغير ما أنزل الله سبحانه. والخطاب في كل هذا لأمة محمد ﷺ يتعلق بتناول أحوال من سبقهم، وأخذ العبرة مما حدث لهم؛ حتى لا تحذو حذوهم.

وعليه: فمن لم يحكم بما أنزل الله من أمة محمد ﷺ فهو كافر وظالم وفاسق. وأهل العلم يقولون: كفر دون كفر، وظلم دون ظلم، وفسق دون فسق. فإن كان الحاكم يعتقد أن حكم الله تعالى غير مناسب لهذا الزمان، فهو كفر أكبر، وظلم أكبر، وفسق أكبر، وكذا إن جحد حكم الله وأنكره، فكل منهما خارج من الملة. والحاكم الذي يؤمن بالله تعالى بقلبه وقوله، ويعترف بأن حكم الله تعالى أصح للبشر، ولكن توجد أسباب مانعة من تحكيم شرع الله تعالى فوق إرادته، وفوق إرادة الأمة، تحول دون ذلك، فهذا كفر أصغر، وظلم أصغر، وفسق أصغر، ومع أنه أصغر، فهو أكبر من الكبائر، فإن مات على ذلك فأمره إلى الله تعالى إن كان من أهل التوحيد؛ إن شاء عفا عنه، وإن شاء عذبه.

والكلام عن قضية الحكم بما أنزل الله، يستغرق هذا الربع بأكمله من سورة المائدة. سبب النزول: وقد ورد في سبب نزول آيات الحكم بغير ما أنزل الله، جملة من الأحاديث الصحيحة يشير بعضها إلى تحاكم اليهود إلى النبي ﷺ في قضية زنى. وبعضها يشير إلى تحاكمهم إليه ﷺ في قضية دماء.

ولا تعارض في ذلك؛ حيث يقرر العلماء أنه لا مانع من تعدد أسباب النزول للآية الواحدة، أو لطائفة من الآيات.

وسوف أكتفي بذكر سببين للنزول، يتعلق الأول بحكم الرجم عند اليهود، ويتعلق الآخر

بحكم الدية عندهم:

السبب الأول: أخرج مالك عن نافع عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما أنه قال: إن اليهود جاؤوا إلى النبي ﷺ، فذكروا له أن رجلاً منهم وامرأة زنيا، فقال لهم رسول الله ﷺ: «ما تجدون في التوراة في شأن الرجم؟» فقالوا: نفضحهم ويُجلدون، قال عبد الله بن سلام: كذبتُم، إن فيها الرجم، فأتوا بالتوراة فنشروها - وكانوا يُلْقُونَهَا عَلَى عَمُودٍ بِشَكْلِ إِسْطَوَانِي - فوضع أحدهم يده على آية الرجم، فقرأ ما قبلها وما بعدها، فقال له عبد الله بن سلام: ارفع يدك، فرفع يده، فإذا فيها آية الرجم، فقالوا: صدق محمد، فيها آية الرجم، فأمر بهما رسول الله ﷺ فرُجما، فرأيت الرجل ينحني على المرأة يقيها الحجارة^(١).

وفي لفظ للبخاري أن النبي ﷺ قال لليهود: «ما تصنعون بهما» - أي: بمن زنيا؟ - قالوا: نُسَخِّمُ وجوههما - أي: نسوده - ونخزيهما، قال: ﴿فَأَتُوا بِالتَّورَةِ فَأَتْلَوْهَا إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ [آل عمران: ٩٣]. فجاءوا، فقالوا لرجل منهم ممن يرضون، أعور: اقرأ، فقرأ حتى انتهى إلى موضع منها، فوضع يده عليه، قال: ارفع يدك، فرفع، فإذا آية الرجم تلوح، قال: يا محمد، إن فيها آية الرجم، ولكننا نتكاتم بيننا، فأمر بها فرُجما.

وفي صحيح مسلم وغيره عن البراء بن عازب رضي الله عنه قال: مرَّ على النبي ﷺ بيهوديٍّ مُحَمَّمًا مَجْلُودًا، فدعاهم ﷺ فقال: «هكذا تجدون حدَّ الزاني في كتابكم؟» قالوا: نعم، فدعا رجلاً من علمائهم، فقال: «أنشدك بالذي أنزل التوراة على موسى، أهكذا تجدون حدَّ الزاني في كتابكم؟» قال: لا، ولولا أنك نشدتني بهذا لما أخبرتك، نجده الرجم، ولكنه كثر في أشرافنا، فكنا إذا أخذنا الشريف تركناه، وإذا أخذنا الضعيف أقمنا عليه الحد، قلنا: تعالوا فلنجتمع على شيء نقيمه على الشريف والضعيف، فجعلنا التحميم والجلد مكان الرجم، فقال رسول الله ﷺ: «اللهم إني أول من أحيا أمرك إذ أماتوه» فأمر به فرُجم، فأنزل الله: ﴿يَتَأْتِيهَا الرِّسُولُ لَا يَحْزَنُ﴾ إلى قوله: ﴿إِنْ أُوتِيتُمْ هَذَا فَخُذُوهُ﴾ يقول: اتوا محمداً ﷺ فإن أمركم بالتحميم والجلد فخذوه، وإن أفتاكم بالرجم فاحذروا،

(١) «موطأ مالك مع تنوير الحوالك» (٣/٣٨) وفي «الموطأ» من رواية أبي يحيى (٢/٨١٩) وهو في البخاري (٢٢٤/٨) برقم (٣٦٣٥، ٦٨٤١) ومسلم (٣/١٣٢٦) برقم (١٦٩٩) وأبو داود (٤٤٤٦) والترمذي (١٤٣٦) وابن ماجه (٢٥٥٦) وعبد الرزاق (١٣٣١).

فَأَنْزَلَ اللَّهُ: ﴿وَمَنْ لَّمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ﴾ [٤٤].

﴿وَمَنْ لَّمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ [٤٥].

﴿وَمَنْ لَّمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ [٤٧]. في الكفار كلها^(١).

وقد ذهب اليهود إلى النبي ﷺ ليحكم بينهم باعتباره وليّ الأمر في البلاد، ولأن قواعد التوراة تقضي بطاعة ولاة الحكم عليهم. ولذا: فإن حكم الإسلام عليهم وهم في بلاد المسلمين ملزم لهم، ولم يلجؤوا إلى النبي ﷺ؛ ليحكم بينهم تصديقاً له ولدعوته، إلا من آمن منهم.

وقد رجح ابن كثير هذا السبب فقال: والصحيح أنها نزلت في اليهوديين اللذين زنيا، وكانوا قد بدّلوا كتاب الله الذي بأيديهم من الأمر برجم من أحصن منهم. حتى الموت. فحرّفوا، واصطلحوا فيما بينهم على الجلد مئة جلدة، والتحميم - أي: تسويد الوجه، والإركاب على حمار مقلوبين، فلما وقعت تلك الكائنة بعد هجرة النبي ﷺ قالوا فيما بينهم: تعالوا حتى نتحاكم إليه، فإن حكم بالجلد والتحميم فخذوا عنه، واجعلوه حجة بينكم وبين الله، ويكون نبي من أنبياء الله قد حكم بينكم بذلك، وإن حكم بالرجم فلا تتبعوه^(٢).

وحكم النبي ﷺ بما في التوراة في هذه المسألة، ليس من باب المجاملة لليهود، ولكنه بوحى خاص من الله سبحانه.

وسؤالهم عما في التوراة لتقرير ما بأيديهم مما تواطؤوا على كتمانهم وتحريفه، فلما اعترفوا بذلك ظهر ضلالهم وتكذيبهم وتحريفهم لكتاب الله تعالى.

وكذلك الشأن في موافقة النبي ﷺ لليهود في صيام يوم عاشوراء، ليس من باب الإكرام لهم أو مجاملتهم، وإنما هو بوحى خاص من الله تعالى في ذلك.

والظاهر أن حكم الرجم، من الجزء الصحيح الباقي في التوراة، وقد رأى اليهود قديماً تعطيله.

(١) «صحيح مسلم» برقم (١٧٠٠) و«سنن أبي داود» برقم (٤٤٤٨) و«سنن النسائي الكبرى» برقم (٧٢١٨) و«سنن ابن ماجه» برقم (٢٥٥٨) وذكره الواحدي والسيوطي في «أسباب النزول».

(٢) تُنظر رواية أبي هريرة في «المسند» بتحقيق أحمد شاکر رقم (٧٧٤٧) و«سنن أبي داود» برقم (٤٤٥٠) وإسناده ضعيف، و«تفسير الطبري» (٣٠٥/١٠). ويشهد له الحديث السابق، فهو صحيح المعنى.

وحكم الرجم في سفر الثانية: أن من تزوج عذراء، فوجدها ثيبًا، ترجم عند باب بيت أبيها، وإذا وجد رجل مضطجعًا مع امرأة ذات بعل يُقتل الاثنان.

وفيه أيضًا: إذا كانت فتاة عذراء مخطوبة لرجل فوجدها آخر في المدينة، فاضطجع معها، فأخْرِجُوهما كُلَّيْهما إلى باب تلك المدينة، وارْجُمُوهُما بالحجارة حتى يموتا، الفتاة من أجل أنها لم تصرخ، والرجل من أجل أنه أذلَّ امرأة صاحبه، بذلك تنزع الشر من وسطك.

وتسخير اليهود للمرأة في الإغواء والإغراء وتأجيج الشهوات، لخدمة قضاياهم، وقيامها بدور هام في الموساد (من الجاسوسية وخلافها) إنما هو تنفيذ لمخططات الصهاينة في بُرْتُوْكَولات حُكَّماء صهيون.

ونفذ اليهود قد سرى لدى الغرب جميعًا بما فيهم النصارى وأضرابهم، والأوروبيون في هذا المضممار يقتلون آباءهم الأولين، وإن كان فجورهم قد تجاوز الحدود، فشاع في أرجاء الدنيا فساد عريض؛ حيث أبيع الزنى ما دام بالتراضي، فإن كان على قارعة الطريق، فيُغرَّمًا مبلغًا يسيرًا جدًّا؛ لأنهما خدشا الحياء العام!! وأباحَت أرقى دُولهم: اللواط، والسحاق، وسائر ألوان الشذوذ الجنسي، وعَدُّوا ذلك من الحرية الشخصية، وهم بهذا قد أهالوا التراب على شرائع الحدود والقصاص التي جاءت في كتبهم! فلا حول ولا قوة إلا بالله العظيم.

السبب الثاني: ما جاء عن ابن عباس رضي الله عنه أنها نزلت في أقوام من اليهود قتلوا قتيلًا، وقالوا: تعالوا نتحاكم إلى محمد ﷺ فإن أفتانا بالدية، فخذوا ما قال، وإن حَكَم بالقصاص فلا تسمعوا منه، فدسُّوا إلى رسول الله ﷺ ناسًا من المنافقين؛ ليخبروا لهم رأي الرسول ﷺ فلما جاؤوا إلى النبي ﷺ أخبره الله تعالى بأمرهم، وأنزل الآيات: ﴿يَتَأْتِيهَا الرَّسُولُ لَا يَحْزَنُكَ الَّذِي تَكْفُرُونَ فِي الْكُفْرِ﴾.

وتذكر بعض الروايات أن الأقوام هم بنو النضير وبنو قريظة^(١).

وكان اليهود قد اصططحوا على تغيير حكم القتل من القصاص إلى الدية، وجعل عقوبة

(١) يُنظَر: الحديث بطوله في «مسند الإمام أحمد» (٢٤٦/١) برقم (٢٢١٢) بإسناد حسن وابن جرير عن ابن إسحاق في «تفسير الطبري» (٣٢٦/١٠) وأخرجه أبو داود (٣٥٧٦) والطبراني (١٠٧٣٢).

التعزير في جرائم أخرى بدلاً من إقامة الحدود، ولما قدم النبي ﷺ المدينة أرادوا أن يجعلوه حجة لهم عند الله تعالى، فقد أفتاهم بها رسول! أَمَا إِنَّ حَكَمَ بِمَا فِي التَّوْرَةِ لَمْ يَأْخُذْهُ، وَمَنْ هُنَا كَانَ قَوْلُهُ تَعَالَى حِكَايَةً عَنْهُمْ: ﴿إِنْ أُوتِيتُمْ هَذَا فَخُذُوهُ وَإِنْ لَمْ تُؤْتَوْهُ فَاحْذَرُوا﴾ ومن ذلك ما جاء في شأن الرشوة وإرادة استحلالها منهم ﴿سَمِعُوكَ لِلْكَذِبِ أَكْثَرُونَ لِلسَّحْتِ﴾ [آية: ٤٢].

وعلى كَلا السببين للنزول، كان المنافقون من المسلمين يُوالون اليهود، ومن على شاكلتهم، ويُطنون حُبهم.

ومن ثَمَّ يَأْتِي خطاب الله تعالى لنبية في مقام التشريف والتكريم: ﴿يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ لَا يَحْزَنكَ الَّذِينَ يُسْكِرُونَ فِي الْكَفْرِ﴾ وهم الذين جحدوا نبوتك من المنافقين الذين أظهروا الإسلام وقلوبهم خاوية منه؛ حيث تظهر آثار الكفر عندهم لأدنى مناسبة وفي كل فرصة، فلا تهتم بموالاتهم، ولا تبال بهم، فإن الله تعالى ناصرٌ عليهم، وكافيك شرهم، والقرآن لكريم يوضح حالهم، ويكشف سترهم فيقول: ﴿مِنَ الَّذِينَ قَالُوا آمَنَّا بِأَفْوَاهِهِمْ وَلَمْ تُؤْمِن قُلُوبُهُمْ﴾ هؤلاء صنف من البشر، وهم المنافقون الذين كشف الله أمرهم لرسوله ﷺ، وقال له: لا تهتم بهم؛ فهم لن يضروك شيئاً.

أما الصنف الآخر الذي ذكرته الآيات، فهم اليهود الذين عيّنهم الله تعالى ووصفهم بقوله: ﴿وَمِنَ الَّذِينَ هَادُوا﴾ أي اليهود ﴿سَمِعُوكَ لِلْكَذِبِ﴾ فلا يحزنك تسرع اليهود إلى إنكار نبوتك، فهم يستمعون للكذب من رؤسائهم ويقبلونه، ويقولونه لأخبارهم، محبة لهم ورغبة منهم في الكذب.

أو هم يسمعونك لأجل الكذب عليك، فيقولون: سمعنا منه كذا وكذا مما لم تقله، فلا تهتم بهم، ولا يحزنك قولهم.

وهم أيضاً يستجيبون لقوم آخرين لم يحضروا مجلسك فهم ﴿سَمِعُوكَ لِقَوْمٍ آخَرِينَ لَمْ يَأْتُوكَ﴾ وهؤلاء الآخرون يبدلون كلام الله من بعد ما عقلوه، ويقولون: إن جاءكم محمد بما يوافق ما بدلناه وحرّفناه من أحكام التوراة فاعملوا به، وإن جاءكم منه ما يخالفه، فاحذروا قوله والعمل به، فهم ﴿يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ مِنْ بَعْدِ مَوَاضِعِهِ﴾ بتحريف وتغيير أحكام التوراة.

ونص الآية هنا ﴿يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ مِنْ بَعْدِ مَوَاضِعِهِ﴾، وفي آية أخرى: ﴿يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ﴾ [النساء: ٤٦]. لأن الآية هنا بصدد ذكر طائفة معينة من اليهود، أبطلوا العمل بحكم الرجم الثابت في التوراة، دون تعويض عنه بغيره، وهذا أبلغ وأشد جُرأة في التحريف؛ لأن لفظ ﴿بَعْدِ﴾ يقتضي أن حكم الرجم ثابت مستقر، وأنهم أبطلوا العمل به، مع بقاءه قائماً في التوراة.

أما التحريف الذي في هذه السورة، فهو تغيير كلام التوراة، بكلام آخر عن جهل أو خطأ أو قصد، فكان إبعاداً للكلام عن مواضعه، أي: إزالة للكلام الأصلي، سواء عُوض بغيره، أم لم يُعوض^(١).

ومثل ذلك في الآية الثالثة عشرة من سورة المائدة. وهم الذين ﴿يَقُولُونَ إِنْ أُوتِيتُمْ هَذَا﴾ أي من تبديل حكم الرجم والدية والرشوة والتحليل والتحريم ﴿فَخُذُوهُ وَإِنْ لَمْ تَوْتَوْهُ فَاحْذَرُوهُ﴾ أن تقبلوه وتعملوا به.

وهؤلاء الآخرون الذين لم يحضروا مجلس النبي ﷺ، ولم يستمعوا منه، هم أهل خيبر الذين أرسلوا وفداً إلى بني قريظة؛ ليسألوا النبي ﷺ عن رجل وامرأة من أشرف يهود خيبر، وكانا قد زنيا بعد إحصان، فذهب كعب بن الأشرف ومن معه إلى النبي ﷺ وسألاه، فأوحى الله تعالى إلى نبيه ﷺ أن يجعل (ابن سوريا) حَكماً بينه وبينهم، ووصفه الله تعالى له، بأنه: شاب أمرد أبيض أعور، يسكن (فَدَك) فقالوا: نعم، هو أعلم يهودي على وجه الأرض، فجاء (ابن سوريا) وشهد أن حُكْم الزاني المحصن في التوراة هو الرجم حتى الموت، ثم قال للنبي ﷺ: كيف هو في كتابكم؟ فقال عليه الصلاة والسلام: «إذا شهد أربعة رهط عدول أنه أدخله فيها كما يدخل المِرْوَدُّ في المكحلة وجب عليهما الرجم»، فقال ابن سوريا: والذي أنزل التوراة على موسى، هكذا أنزل الله في التوراة على موسى.

فقال له النبي ﷺ: «فما هو أول شيء ترخصتم به من أمر الله؟» قال: كنا إذا زنى الشريف تركناه، وإذا زنى الضعيف أقمنا عليه الحد، فكثر الزنى في أشرفنا، حتى زنى ابن عم الملك، فلم نرجمه، ثم زنى رجل آخر، فأردنا رجمه، فأبى قومه إلا أن نرجم

(١) يُنظَر: تفسير «التحرير والتنوير» (٦/٣٠٠).

ابن عم الملك أولاً، فوضعنا الجلد والتحميم مكان الرجم، فأمر النبي بالرجل والمرأة اللذين هما من يهود خيبر، فرُجما عند باب المسجد، وقال: «اللهم إني أول من أحيا أمرك إذ أमतوه»^(١).

ثم بين الله تعالى لرسوله ﷺ أن هؤلاء المسارعين في الكفر من المنافقين واليهود، قد سلكوا طريق الفتنة ووقعوا فيها، وليس في استطاعتك أيها الرسول، ولا في استطاعة غيرك دفع الفتنة عنهم، وقد ولجوا فيها فكفروا وضلوا وأضلوا ﴿وَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ فِتْنَتَهُ فَلَنْ تَمْلِكَ لَهُ مِنْ اللَّهِ شَيْئًا﴾؛ لأنه قد استحب العمى على الهدى، واختار برغبته طريق الضلال، ومن يشأ الله إضلاله فلن تقدر على هدايته ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ لَمْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يُطَهِّرْ قُلُوبَهُمْ﴾ من دنس الشرك والكفر، فإن من ركب قطار الشر انطلق به، ومن زرع الشوك فلن يجني فاكهة قال تعالى: ﴿وَمَا يُضِلُّ بِهِ إِلَّا الْفَاسِقِينَ﴾ [البقرة: ٢٦].

وقال سبحانه: ﴿فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ﴾ [الصف: ٥].

وهؤلاء الكفرة: ﴿لَهُمْ فِي الدُّنْيَا حِزْبٌ﴾ ذل وهوان وفضيحة ﴿وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ فلا يحزنك كفرهم، ولا تهتم بشأنهم، فهو أمر مقضي عليه، ومفروغ منه.

الرَّشْوَةُ سِمَةٌ مِنْ سِمَاتِ الْيَهُودِ

٤٢- ﴿سَتَجِدُونَ لِلْكَذِبِ أَكْثَلُونَ لِلْحَقِّ^(٢) فَإِنْ جَاءُوكَ فَاحْكُم بَيْنَهُمْ أَوْ أَعْرِضْ عَنْهُمْ وَإِنْ تُعْرِضْ عَنْهُمْ فَلَنْ يَضُرُّوكَ شَيْئًا وَإِنْ حَكَمْتَ فَاحْكُم بَيْنَهُمْ بِالْقِسْطِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾ (٤٢)

ثم يكشف الله سبحانه عن رذيلة أخرى من رذائل اليهود، وهي أنهم يجمعون بين سماع الكذب أكل السحت، في قبول ما يفتريه أحبارهم من الكذب على الله تعالى وتحريف كتابه، ويبالغون في ذلك رغبة منهم في تغيير أحكام الله سبحانه إلى ما هو أسهل؛

(١) يُنظر: «تفسير الخازن» (٤٦٤/١) و«مسند الحميدي» (٥٤١/٢) و«سنن أبي داود» برقم (٤٤٥٢، ٤٤٥٣) و«سنن ابن ماجه» برقم (٢٣٢٨) و«المسند» (١٨٥٢٥) عن البراء بن عازب وإسناده صحيح على شرط الشيخين، (محققوه) وأوله «مُرَّ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ بيهودي..» وهو في صحيح مسلم (١٧٠٠) والنسائي في الكبرى (٧١٢٨) وابن أبي شيبة (٥٠١/٦) وغيرهم.

(٢) قرأ نافع وابن عامر وعاصم وحزمة وخلف العاشر (لِلشُّحْتِ)، والباقون (لِلشُّحْتِ) بضم الحاء، وهما لغتان.

يجمعون بين ذلك وبين أكل السحت، وهو الحرام من الرشوة والربا وما إلى ذلك ﴿سَكَنُوا﴾
لِلْكَذِبِ أَكْثَرُونَ لِلْسُّخْتِ﴾ وسماع الكذب بمعنى الاستجابة له، إنهم من قلة دينهم وعقلهم
يستجيبون لكل من دعاهم إلى القول الكذب، وأكل السحت هو المال الحرام، فهم يجمعون
بين اتباع الكذب وأكل الحرام.

قال قتادة: هذا في حكام اليهود يسمعون الكذب ويقبلون الرشوة.

أي: أن هذه الآية نزلت في حكام اليهود، مثل: كعب بن الأشرف، ونظرائه، فقد
كانوا يرتشون، ويقضون لمن رشاهم.

قال الحسن: كان الحاكم إذا أتاه أحدهم برشوة، جعلها في كفه، ثم يريه إياها،
ويتكلم بحاجته، فيسمع منه ولا ينظر إلى خصمه، فيسمع الكذب ويأكل الرشوة،
وهي السحت، فيكون قد جمع بين سماع الكذب وأكل الحرام في وقت واحد.

وسميت الرشوة سحتاً؛ لأنها تستأصل دين المرتشي، فمعنى السحت: الاستئصال،
يقال: فلان مسحوت المعدة، إذا كان لا يوجد إلا جائعاً؛ لذهاب ما في معدته، فكل ما
لا يحل كسبه مسحوت البركة، وكان الحكام من اليهود يأخذون الرشوة على الأحكام،
وعلى تحليل الحرام.

وقد حرم الإسلام الرشوة بالإجماع على الحاكم، أي: (القاضي) إذا كانت لإحقاق
باطل، أو إبطال حق.

فقد أخرج الترمذي عن أبي هريرة، وأبي داود عن عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنه أن
رسول الله ﷺ قال: «لعن الله الراشي والمرتشي في الحكم»^(١).

(١) أخرجه الترمذي (١٣٣٦) وقال: حديث حسن صحيح، «جامع الترمذي» بشرح «عارضة الأحوزي» (٦/ ٨١) و«المسند» (٩٠٢٣، ٩٠٣١) قال محققوه حديث صحيح لغيره وإسناده حسن، والطحاوي في شرح
مشكل الآثار (٥٦٦١) وابن حبان في «مؤلفه» (١٠٣/٤) والطيبراني في الكبير، ووثق رجاله الهيثمي في
«مجمع الزوائد» (١٩٩/٤) وصححه الألباني في «صحيح الجامع» برقم (٤٩٦٩) وهو في «جامع
الأصول» برقم (٧٦٦٥).

قال الحسن: إنما ذلك في الحاكم إذا رشوته؛ ليحق باطلاً أو يبطل حقاً.
وقال ابن مسعود: من شفع شفاعاً؛ ليرد بها حقاً، أو يدفع بها ظلماً، فأهدي بها إليه فقبل، فهو سحت.

فأكل السحت حرام، سواء أكان عن طريق الرشوة، أم عن أي طريق محرم سواها؛ كالربا، وأكل مال اليتيم، ومهر البغي، وكسب الحجاج والكاهن، والمقامرة، والظلم... ونحو ذلك.

وفي الحديث عن أبي بكرة: «كل جسد نبت من سحت فالنار أولى به»^(١).
سواء أكان السحت عن طريق الرشوة، أو الربا، أو النصب، أو النهب، أو السلب، أو السرقة، أو غير ذلك.

وقد سئل النبي ﷺ: ما السحت؟ فقال: «الرشوة في الحكم»^(٢).
ولما قيل له ﷺ: كنا لا نعدُّ السحت إلا الرشوة في الحكم، قال: «ذلك الكفر».
فرشوة القاضي محرمة على الراشي والمرشي والواسطة بينهما.
حكم الرشوة: وقد تكون الرشوة في غير الحكم كأن يرشو الإنسان الحاكم؛ ليدفع عن نفسه ظلماً، أو لينال حقاً ثابتاً له، فهذه الرشوة محرمة قطعاً على المرشي.
وفي تحريمها على المعطي خلاف بين أهل العلم، فقد قيل: لا بأس أن يدفع الرجل من ماله ما يصون به عرضه، وكذا إذا خاف الظلم على نفسه.

قال الحسن: لا بأس أن يدفع الرجل من ماله ما يصون به عرضه^(٣).
وقال الشعبي، وجابر بن زيد: لا بأس بأن يصانع الرجل عن نفسه وماله إذا خاف الظلم^(٤).

(١) من حديث أبي بكرة في «صحيح الجامع» برقم (٤٣٩٥).

(٢) حديث مرسل ورجاله ثقات، كما قال ابن حجر في «الفتح» (٤/٥٥٤) ورؤي مرفوعاً.

(٣) الجصاص في «أحكام القرآن» (٢/٤٣٣).

(٤) المرجع السابق (٢/٤٣٤) و«المقنع» لابن قدامة (٣/٦١١) والخصاف في «شرح أدب القاضي» (٢/٥٥) وابن الأثير في «النهاية» (٢/٢٦٢).

وحين قسّم النبي ﷺ الغنائم في بعض الغزوات أعطى العباس بن مرداس أقل من غيره، فلم يرض العباس، وأنشد شعراً يتعجب فيه من هذه القسمة، فقال النبي ﷺ: «اقطعوا لسانه» فزاده حتى رضى، وقد رخص النبي ﷺ في ذلك؛ ليدفع عن نفسه ما يصون به عرضه^(١).

وعن جابر بن عبد الله أن النبي ﷺ قال: «إن الرجل يأتيني فيسألني فأعطيه، فينطلق وما يحمل في حضنه إلا النار»^(٢).

فالنبي ﷺ يعطيه وهو يعلم أنه يتأبط ناراً؛ لأنه يسأل، ويأبى الله لرسوله البخل.

فإن جاءك هؤلاء اليهود متحاكمين إليك في قضاياهم، فاقض بينهم بما أنزل الله، أو اتركهم وأعرض عنهم، واعلم أنه لا ضرر عليك منهم إن أهملتهم فأعرضت عنهم، ولم تقض بينهم فيما احتكموا فيه عليك، فالله حافظك من ضررهم، وناصرك عليهم؛ لأنهم يتحاكمون إليك لطلب الأسهل والأهون عليهم.

ولما كان الحكم بين اليهود بما أنزل الله يشق عليهم، فتشتد عداوتهم ومضارّتهم للنبي ﷺ أمّنه الله من ذلك وبيّن سبحانه عزم اليهود على تحكيم النبي ﷺ في حكم الزنى قبل أن يأتوا إليه، وهذا من دلائل النبوة حيث خيّر ربه في الحكم بينهم، أو الإعراض عنهم، وهكذا كل حاكم مسلم فقال تعالى: ﴿فَإِنْ جَاءُوكَ فَاحْكُم بَيْنَهُمْ أَوْ أَعْرِضْ عَنْهُمْ وَإِنْ تُعْرِضْ عَنْهُمْ فَكَنْ يَضُرُّكَ شَيْئًا﴾ فالله حافظك وعاصمك منهم، وهذا الحكم كان في شأن الرجم كما سبق بيانه، وهو قول الحسن ومجاهد والسدي.

والحكم عام يتناول تحريم الكذب، وأكل السحت والرشوة في الحكم في كل زمان ومكان، فالآية محكمة على الأصح، وليست منسوخة، بمعنى أن النبي ﷺ مخير بين أن يحكم بينهم، أو يعرض عن الحكم بينهم، بسبب أن اليهود لا يقصدون الحكم الشرعي

(١) يُنظَر: ابن عابدين في «رد المحتار» (٢٧٢/٥) والجصاص في الموضع السابق، والحديث مرسل، وضعفه العجلوني في كشف الخفا برقم (٤٨٤).

(٢) أخرجه أحمد وأبو يعلى والبزار، قال الهيثمي في «مجمع الزوائد» (٩٤/٢) رجال أحمد رجال الصحيح، ووثق رجال أبي يعلى وهو في «جامع الأصول» برقم (٧٦٤٢) وقد أخرجه ابن حبان في صحيحه برقم (٣٣٩٢) قال محققه: إسناده صحيح على شرط الشيخين.

الصحيح، وإنما يريدون ما يوافق أهواءهم، فإن حَكَمَ بينهم، وجب أن يحكم بالقسط. وعليه: فإن كل مُسْتَفْتٍ إن عُلِمَ من حاله أنه لن يقبل حكم الله إن حَكَمَ له به، لا يلزم الإفتاء له. وعلى هذا فالمعنى بهذا التخيير هم المستأمنون في دار الإسلام:

قال قتادة: نزلت الآية في رجلين من بني قريظة وبني النضير، قتل أحدهما الآخر، وكان (حيي بن أخطب) قد جعل للنضيريين ديتين، وللقرظيين دية واحدة؛ لأنه كان من بني النضير، فقالت قريظة: لا نرضى بحكم (حيي) ونتحاكم إلى محمد ﷺ فأنزل الله تعالى يخيرُ رسوله في الحكم بينهم^(١).

ثم بين الله تعالى لنبيه ﷺ كيفية الحكم بينهم في قوله: ﴿وَأِنْ أَحْكَمْتُمْ بَيْنَهُمْ يَمَا أُنْزَلَ اللَّهُ﴾ فالآية الأولى للتخيير، والآية الثانية (٤٩)؛ لبيان كيفية الحكم.

وهذا التخيير بين الحكم أو تركه، خاص بالمعاهدين المستأمنين في دار الإسلام من غير أهل الذمة، كبني النضير وبني قريظة الذين كانوا في المدينة، فللحاكم المسلم أن يتركهم، أو يحكم بينهم بما أنزل الله، وحكمه فيهم نافذ؛ لأن اليهود حَكَّمُوا النبي ﷺ في بعض قضاياهم ونُفِّذَ فيهم حكم الله على لسان نبيه فهذا التخيير خاص بغير أهل الذمة من غير المسلمين المعاهدين المستأمنين على الأصح.

أما إذا تحاكم مسلم وذمّي إلى القاضي، فإنه لا خلاف في وجوب الحكم بينهم؛ لأنه لا يجوز للمسلم الانقياد لحكم أهل الذمة، ولأن أهل الذمة لهم ما لنا وعليهم ما علينا.

وأهل الذمة محمولون على أحكام الإسلام في البيوع والمواثيق وسائر العقود، ولا يجوز لحاكم أن يحكم فيهم بغير أحكام الإسلام؛ إذ لا فرق بين المسلمين وغيرهم في دار الإسلام.

أما عبادات أهل الكتاب، وأحكام الحلال والحرام، وما يجري بينهم من معاملات يرتضونها، فلا يتعرض لهم المسلمون في ذلك، ويجري عليهم أحكام الإسلام فيما فيه

(١) تفسير «الخازن» (٤٦٦/١) وهو في «سنن أبي داود» برقم (٤٤٩٤) و«سنن النسائي» (١٨/٨) وابن حبان (٥٠٥٧) و«المستدرک» (٣٦٦/٤) وابن أبي حاتم (٥٩) وصححه الألباني في «صحيح أبي داود» برقم (٣٧٤٠).

اعتداء على نفوس الآخرين وأعراضهم. والحكم في جميع الأحوال يجب أن يكون بالعدل والإنصاف، كما أمر الله بذلك نبيه فقال: ﴿وَإِنْ حَكَمْتَ فَأَحْكُم بَيْنَهُم بِالْقِسْطِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾ وهم العادلون فيما ولّاهم الله تعالى، والعادلون في حكمهم بين الناس.

في صحيح مسلم وغيره عن عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «إن المقسطين عند الله يوم القيامة على منابر من نور، عن يمين الرحمن، وكلتا يديه يمين، الذين يعدلون في حكمهم وأهليهم وما ولّوا»^(١)

وهذا من أحاديث الصفات التي نؤمن بها كما جاءت من غير تأويل، وقوله: «وكلتا يديه يمين» ليس المراد باليمين الجارحة، فهذا مستحيل في حق الله تعالى.

الْيَهُودُ يَكْتُمُونَ أَحْكَامَ التَّوْرَةِ

٤٣- ﴿وَكَيْفَ يُحْكِمُونَكَ وَعِنْدَهُ التَّوْرَةُ فِيهَا حُكْمُ اللَّهِ ثُمَّ يَتَوَلَّوْنَ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَمَا أُولَئِكَ بِالْمُؤْمِنِينَ﴾

ثم أنكر ﷺ مسلك اليهود الخبيث، وعَجِبَ من صنيعهم؛ إذ كيف يتركون حكم الله تعالى الذي في التوراة مع اعتقادهم بصحته، ويعدلون عنه إلى حكم النبي ﷺ طلباً للرخصة والأيسر، ورغبة منهم في ميله لأهوائهم واتباع شهواتهم، مع أنهم يجحدون نبوته؟! فلا يؤمنون به، ولا بكتابه ﴿وَكَيْفَ يُحْكِمُونَكَ وَعِنْدَهُ التَّوْرَةُ فِيهَا حُكْمُ اللَّهِ﴾ على الزاني المحصن بالرجم، وهم يعلمون ذلك، وجمعوا بين عدم الرضا بشرعهم وبحكمك؛ كما قال تعالى في المنافقين: ﴿وَإِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِنْهُمْ مُعْرِضُونَ﴾ [النور]. ثم إنهم قد عرضوا عنك وتولوا، ولم يقبلوا حكمك، لأن الحكم لم يوافق أهواءهم ﴿ثُمَّ يَتَوَلَّوْنَ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ﴾ وهم بذلك قد جمعوا بين الكفر بشريعتهم، والإعراض عن حكمك، ولو أنهم كانوا عاملين بما في التوراة، لم يتركوا حكم الله فيها، ويبحثوا عندك عما يوافق أهواءهم.

(١) «صحيح مسلم» برقم (١٨٢٧) ج ٣ ص (١٤٥٧) والمسنند (٦٤٩٢، ٦٤٨٥، ٦٨٩٧) إسناده صحيح على شرط الشيخين، والحميدي (٥٨٨) وابن أبي شيبة (١٣/١٢٧) وابن حبان (٤٤٨٤) والبغوي (٢٤٧٠) والنسائي (٢٢١/٨).

ولذا: فقد سلب الله عنهم وصف الإيمان بالله تعالى وبما أنزل إليهم على لسان موسى ﷺ، وبما حكمت به وفق شرع الله تعالى، لأنهم لم يرضوا به بل أعرضوا عنك فقال تعالى: ﴿وَمَا أُولَئِكَ بِالْمُؤْمِنِينَ﴾ فهم غير مؤمنين بك ولا بكتابك، ولا مؤمنين بكتابهم وشرعهم، وقد أظهر الله جهلهم وعنادهم، وأرجعهم إلى حكم الرسول الموافق لكتابهم، وذلك حتى لا يغتر مغتر بأنهم أهل كتاب محافظين على أمر الله فيه، وفي هذا تقريع وتوبيخ لليهود، لأنهم جعلوا آلهتهم أهواءهم، وجعلوا أحكام الإيمان تابعة لأهوائهم.

وَجُوبُ الْحُكْمِ بِمَا أُنْزَلَ اللَّهُ

٤٤- ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَا التَّوْرَةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ يَحْكُمُ بِهَا النَّبِيُّونَ^(١) الَّذِينَ أَسْلَمُوا لِلَّذِينَ هَادُوا وَالرَّبَّيُّونَ وَالْأَحْبَارُ بِمَا اسْتُحْفِظُوا مِنْ كِتَابِ اللَّهِ وَكَانُوا عَلَيْهِ شُهَدَاءً فَلَا تَخْشَوُا النَّاسَ وَاخْشَوْنِ^(٢)﴾ وَلَا تَشْتَرُوا بِآيَاتِي ثَمَنًا قَلِيلًا وَمَنْ لَمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ ﴿٤٤﴾

ثم شرع ﷺ في بيان شرف التوراة ومنزلتها بعد أن بين أنها مشتملة على حكم حد الزنى وغيره، وهي التي أعرضوا عن حكم الله فيها، وبين سبحانه بعض ما فيها من أحكام، قبل أن تمتد إليها أيادهم الآثمة بالتحريف والتبديل، فقال تعالى: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَا التَّوْرَةَ﴾ على موسى بن عمران عليه السلام، وهي كتاب الله الذي جاء لهداية بني إسرائيل ﴿فِيهَا هُدًى﴾ إرشاد من الضلالة، وهداية إلى الإيمان والحق، مبينة لصحة نبوة محمد ﷺ، ومبينة لما تحاكموا فيه، وفيها نور كاشف للشبهات، وموضح للمشكلات، يستضاء به في ظلمات الجهل والشكوك، والشبهات والشهوات، وفيها إنارة الطريق إلى الله، بما تحمل من عقيدة التوحيد، والشعائر التعبدية، قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى وَهَارُونَ الْفُرْقَانَ وَضِيَاءً وَذِكْرًا لِّلْمُتَّقِينَ﴾ [الأنبياء: ٤٨].

وقد حكم بها النبيون الذين انقادوا لحكم الله، وأقروا به، ولم يخرجوا عن حكمها،

(١) قرأ نافع (النبيون) بهمزة بعد الياء المدية، وقرأ الباقون بياء مشددة، وبدون همز.

(٢) قرأ يعقوب بإثبات الياء من (واخشوني) وصلًا ووقفًا، ووافقه أبو عمرو وأبو جعفر وصلًا فقط، وقرأ بقية القراء العشرة بحذفها في الحالين.

وهم صفوة الله من العباد، فإذا كان هؤلاء النبيون الكرام قد اقتدوا بها وعملوا بما فيها، فما الذي منع هؤلاء الأراذل من اليهود أن يقتدوا بها؟ وما الذي جعلهم يكفرون بما جاء فيها من صفات محمد ﷺ؟ إنه الضلال البين والكفر والجحود.

والمراد بالنبيين: الذين بُعثوا بعد موسى ﷺ، وذلك أن الله تعالى بعث في بني إسرائيل ألوفاً من الأنبياء، وليس معهم كتاب، وإنما بُعثوا بإقامة التوراة وأحكامها، وهم في بني إسرائيل كالعلماء العاملين المبلّغين عن الله دعوته، الآمرين بالمعروف والناهين عن المنكر من أمة محمد ﷺ.

وأيضاً فإن خاتم الرسل ﷺ حكم بينهم في قضية الرجم والدية بما في التوراة.

وشريعة عيسى ﷺ كانت تعتمد على ما في التوراة من أحكام وشرائع.

وقد سماهم الله (مسلمين)؛ لأنهم انقادوا جميعاً لأمر الله تعالى وحكمه، فقال: ﴿يَحْكُمُ بِهَا النَّبِيُّونَ الَّذِينَ أَسْلَمُوا لِلَّذِينَ هَادُوا﴾ أي: يحكم هؤلاء الأنبياء المسلمون، بما في التوراة لليهود، ولا يخرجون عنها، ولا يبدّلونها ولا يحرفونها، وفي هذا مدح وثناء لهم، وفيه أيضاً تعريض بدم اليهود؛ لأنهم ابتعدوا عن الإسلام الذي هو دين الله للخلق جميعاً، وفيه رد على اليهود والنصارى بأن أنبياءهم لم يكونوا موصوفين باليهودية ولا النصرانية، بل كانوا مسلمين موحدين متقادين لله تعالى في أوامره ونواهيه.

ويحكم بما في التوراة أيضاً عبّاد اليهود وفقهاؤهم، الذين يربّون الناس بشرع الله؛ لأن أنبياءهم قد استأمنوهم على تبليغ التوراة، وفقه كتاب الله تعالى والعمل به.

﴿وَالرَّبَّانِيُّونَ﴾ هم العبّاد العاملون بما في التوراة، الذين يربّون الناس أحسن تربية ويسلكون معهم مسلك الأنبياء المشفقون.

﴿وَالْأَجْبَارُ﴾ هم العلماء الكبار، الذين يُقتدى بأقوالهم، ولهم لسان صدق بين أممهم.

وعلماء اليهود وعبّادهم يحكمون ﴿بِمَا أَسْتُحْفَظُوا مِنْ كِتَابِ اللَّهِ﴾ أي: بما استودعهم الله إياه، واستأمنهم عليه من التوراة، وقد وكل حفظه إليهم، وجعلهم أمناء عليه، فلا ينسوا ما حفظوه في صدورهم، ودرسوه بألستهم، ولا يضيّعوا أحكامه، ولا يهملوا شرائعه، وأوجب عليهم حفظه من الزيادة والنقصان والكتمان، وتعليمه لمن لا يعلمه.

سئل إسماعيل بن إسحاق بن حمّاد: لِمَ جاز التبديل على أهل التوراة - أي: التحريف والتغيير - ولم يُجزَ على أهل القرآن؟ فقال: لأن الله تعالى قال في أهل التوراة: ﴿يَمَّا اسْتُحِفُّوا مِنْ كِتَابِ اللَّهِ﴾ فوكل الحفظ إليهم، وقال في القرآن: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ [الحجر]. فتعهد الله بحفظه، فلم يجوز التبديل على أهل القرآن^(١).

قال الفخر الرازي: وحفظ كتاب الله على وجهين:

الأول: أن يُحفظ فلا يُنسى. والثاني: أن يُحفظ فلا يُضَيَّع.

وقد أخذ الله على العلماء حفظ كتابه من وجهين:

أحدهما: أن يحفظوه في صدورهم ويدرسوه بألسنتهم.

وثانيهما: ألا يضيعوا أحكامه ولا يهملوا شرائعه.

والتوراة التي أثنى الله تعالى عليها هي التوراة الأصلية التي لم تمتد إليها أيدي اليهود بالتحريف والتبديل، والزيادة والنقص، وكان هؤلاء الأحرار والرهبان شهداء على أن أنبياءهم قد حكموا بينهم بكتاب الله، وهذا قول الله تعالى: ﴿وَكَانُوا عَلَيْهِ شُهَدَاءً﴾ فالأحرار هم الفقهاء أو العلماء منهم، وهم مقدّمون على الرهبان، وهم العبّاد من اليهود فلا تكونوا - أيها الرهبانيون والأحرار - كالجهاال الذين يقتصرون على مجرد العبادات لأنكم مطالبون بتعليم الناس وتنبيههم على ما يحتاجون إليه من أمور دينهم.

﴿فَلَا تَخْشَوْا الْنَاسَ﴾ - أيها الأحرار والرهبان - في تنفيذ حكمي؛ فإنهم لن يقدروا على نفعكم أو ضرركم ﴿وَأَخْشَوْنِي﴾ وحدي فأنا النافع الضار، فلا تخشوا أحداً غيري، ولا يمنعكم خوف الناس وخشيتهم من القيام بما يجب عليكم.

ولا تأخذوا رشوة أو عَرَضاً من أعراض الدنيا على ترك الحكم بما أنزل الله ﴿وَلَا تَتَّبِعُوا بَاطِلًا قَلِيلًا﴾ أي: عوضاً حقيراً من أجل الطمع في المال والجاه، تستبدلونه بحكم الله تعالى، وتغيرون آياته أو تبدلونها، فتؤثرون الدنيا على الدين، فليس هناك أشنع من تفریط المستحفظ، ولا أشنع من خيانة المستأمن، ولا أخسّ من تدليس المستشهد.

(١) تفسير «التحرير والتنوير» (٢٠٩/٦).

وفي هذا نهي عن جميع المكاسب الخبيثة، ونهي عن التحايل بالعلم لشراء الدنيا بالدين، وهو حكم عام يتناول علماء اليهود كما يتناول علماء هذه الأمة ومن سبقهم ولحق بهم .
والذين بدّلوا حكم الله تعالى الذي أنزله في كتابه، وكنتموه وجحدوه، وحكموا بغيره واعتقدوا حله، وهم كفار خارجون من الملة ﴿وَمَنْ لَّمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ﴾ أي: هم المتصفون بالكفر من قبل، فإذا لم يحكموا بما أنزل الله، فذلك من آثار كفرهم؛ لأن من يرفض حكم الله تعالى يرفض خصائص الألوهية، وهذا كفر محض، وهذه الجملة من الآية معقبة على رفض اليهود لحكم الله تعالى، وذكر هذا في القرآن خطاب موجه لأمة محمد ﷺ؛ كي يأخذوا العبرة المستفادة من هذا الدرس، بأن من لم يرض بحكم الله في كل زمان ومكان فهو كافر بما أنزل الله.

صح عن ابن عباس ؓ أن قوله تعالى: ﴿وَمَنْ لَّمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ﴾ و(الظالمون) و(الفاسقون) نزل في طائفتين من اليهود هما قريظة والنضير، قهرت إحداهما الأخرى في الجاهلية، واصطلحوا على أن دية القتل في الطائفة المغلوبة وهي بنو قريظة على النصف من الطائفة الغالبة وهي بنو النضير، فلما بُعث محمد ﷺ احتجت الطائفة المغلوبة على عدم التسوية بينهما في الدية، وكادت الحرب تنشب بينهما، ثم ارتضوا التحاكم إلى النبي ﷺ فدرست الطائفة الغالبة ناسًا من المنافقين؛ كي يختبروا رأي محمد ﷺ في هذا، فإن كان في صالحهم قبلوا، وإلا رفضوا، فأخبر الله رسوله بما كان من أمرهم، وأنزل ﴿يَتَأْتِيهَا أَرْسُولٌ لَا يَحْزَنُكَ الَّذِينَ يُسْرِعُونَ فِي الْكُفْرِ﴾ إلى آخر هذه الآيات الثلاث التي وصفتهم بالكفر والفسق والظلم، ثم قال: فيهم والله نزلت، وإياهم عني الله^(١).

وقد حكم النبي ﷺ بـرجم الزاني، ولكنهم لم يقبلوا حكم الله الذي أنزله على محمد ﷺ، والذي أنزله على موسى ﷺ من قبل، فغيروه واستبدلوا به التحميم والجلد.

وقد رأى النبي ﷺ يهوديًا محمّمًا مجلودًا، فدعا أكبر علمائهم وقال له: «يا بن

(١) يُنْظَرُ «المسند» (٢٢١٢) بإسناد حسن، فيه عبدالرحمن بن أبي الزناد، صدوق، حسن الحديث وباقي رجاله ثقات، (محققه) والطبري (٤٦١/٨) والطبراني (١٠٧٣٢) وجاء مختصرًا في «صحيح سنن أبي داود» (٣٠٥٣)، وفي سننه (٣٥٧٦).

صوريا، أنشدك الله وأذكرك أيامه عند بني إسرائيل، هل تعلم أن حكم الله فيمن زنى بعد إحصائه بالرجم في التوراة؟ فقال: اللهم نعم، أما والله يا أبا القاسم، إنهم ليعرفون أنك نبي مرسل، ولكنهم يحسدونك فخرج رسول الله ﷺ فأمر بالزانيين اليهوديين فرجما عند باب مسجده، ثم كفر ابن صوريا بعد ذلك، وجحد نبوة محمد ﷺ فأنزل الله ﴿يَتَأْتِيَهَا الرَّسُولُ لَا يَحْزَنُكَ الَّذِينَ يُسَكِّرُونَ فِي الْكُفْرِ﴾ الآية^(١).

وكان اليهود قد قالوا: إن أفتاكم محمد بالتحميم والجلد فخذوه، وإن أفتاكم بالرجم فاحذروه^(٢).

ولما أتوا بالتوراة ونشروها بين يدي النبي ﷺ وضع أحدهم يده على آية الرجم، وقرأ ما قبلها وما بعدها، فقال عبد الله بن سلام: ارفع يدك، فرفع يده فإذا بآية الرجم فأمر بهما رسول الله ﷺ فرجما^(٣)، وعُلم بهذا تغيير اليهود لأحكام الله وتحريفهم لها.

والخلاصة في هذا: أن من لم يحكم بما أنزل الله جاحداً له، وهو يعلم أن الله أنزله - كما فعلت اليهود - فهو كافر كفراً مخرجاً من الملة، وأن ما نزل على بني إسرائيل ونزل علينا، فهو لنا ولهم.

ومن لم يحكم به ميلاً إلى الهوى من غير جحود، وكان مقراً به، وبأنه أصلح للبشر، ولكنه لم يحكم به لسبب أو لآخر، فهو ظالم وفاسق.

والآية عامة في كل من لم يحكم بما أنزل الله معتقداً عدم صلاحيته ومستحلاً له، فهو كافر كفراً أكبر من المسلمين واليهود والنصارى أثناء قيام رسالة كل منهما، أما من فعل ذلك وهو معتقد أنه مرتكب محرماً، ومخالف لأمر الله تعالى، فهو من فساق المسلمين، وأمره إلى الله، إن شاء عفا عنه، وإن شاء عذبه، وهذا ما يسمى بكفر دون كفر، أي: لا يخرج من الملة، وظلم دون ظلم، وفسق دون فسق، أي: أنه كفر أصغر، وظلم أصغر، وفسق أصغر، وهو أكبر من كبائر الذنوب.

ويشهد لهذا ما جاء في صحيح مسلم من حديث البراء بن عازب، قال: أنزل الله تبارك

(١) «سيرة ابن هشام» (٥٦٤/١) وابن جرير (٤١٤/٨) والبيهقي (٢٤٦/٨).

(٢) كما جاء في «صحيح مسلم» (١٧٠٠) و«المسند» (١٨٥٦٢) مختصراً، وغيرهما عن البراء بن عازب.

(٣) يُنظر: البخاري (٣٦٣٥) ومسلم (١٦٩٩) عن ابن عمر.

وتعالى: ﴿وَمَنْ لَّمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ ﴿وَمَنْ لَّمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ﴾ في الكفار كلها.

وعن ابن عباس رضي الله عنه: أنه ليس بالكفر الذي يذهبون إليه، إنه ليس كفرًا ينقل عن الملة ﴿وَمَنْ لَّمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ﴾ كفر دون كفر^(١).

أي إذا لم يكن معتقدا حله وجوازه.

وهذه الآية تتضمن أن من يترك الحكم بصحيح التوراة فهو كافر، وتتضمن أن كل من يترك الحكم بما أنزله الله على الرسل جميعًا فهو كافر، إن ترك ذلك جحودًا له أو استخفافًا به، أو طعنًا في صحته وثبوته، وأعظم من ذلك إلزام الناس بالحكم بغير ما أنزل الله من قبل ولاية الأمور، أما من لم يرضَ بحكم الله تعالى فهو كافر لا محالة.

أحكام القصاص في التوراة

٤٥- ﴿وَكُتِبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَا أَنْ النَّفْسَ بِالنَّفْسِ وَالْعَيْنَ بِالْعَيْنِ وَالْأَنْفَ بِالْأَنْفِ وَالْأُذُنَ بِالْأُذُنِ وَالسِّنَّ بِالسِّنِّ وَالْجُرُوحَ^(٢) قِصَاصٌ فَمَنْ تَصَدَّقَ بِهِ فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَهُ وَمَنْ لَّمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾

ثم شرعت السورة في ذكر بعض من شريعة التوراة التي يحكم بها النيبون والربانيون والأخبار لليهود، وجاء التمثيل بالقصاص، إشارة إلى مخالفتهم لهذا الحكم عمدًا وعنادًا؛ حيث كانوا لا يعدلون في الدية، فالمقتول من بني النضير له دية كاملة، والمقتول من بني قريظة له نصف الدية، فغيروا بهذا حكم الله الذي أنزله في التوراة على موسى عليه السلام، كما بدلوا عقوبة الزاني المحصن من الرجم إلى الجلد والتحميم.

(١) أخرجه الحاكم في «المستدرک» (٣١٣/٢) من طريق سفيان بن عُيينة، وقال: هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه، وقال الذهبي: صحيح.

(٢) قرأ الكسائي برفع الكلمات الخمس على الاستئناف وهي (العين والأنف والأذن والسن والجروح) وقرأ ابن كثير وأبو عمرو وابن عامر وأبو جعفر، بنصب الكلمات الأربع الأول ورفع الجروح قطعًا لها عما قبلها، وقرأ الباقر بن النصب في الكلمات الخمس عطفًا على اسم إن، وسكن نافع الذال من (والأذن بالأذن).

فبين ﷺ أنه فرض على بني إسرائيل في التوراة أن النفس تُقتل بالنفس، والعين تُفقد بالعين، والأنف يجدع بالأنف، والأذن تقطع بالأذن، والسن تقلع بالسن ﴿وَكَبَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَا أَنَّ النَّفْسَ بِالنَّفْسِ وَالْعَيْنَ بِالْعَيْنِ وَالْأَنْفَ بِالْأَنْفِ وَالْأُذُنَ بِالْأُذُنِ وَالسِّنَّ بِالسِّنِّ﴾.

فما بال اليهود يفضلون بعض القبائل على بعض، فيقتلون النفسين بالنفس، ويفقؤون العينين بالعين، وقتل النفس بالنفس يكون عند تكافؤ الدماء.

والاقتصار على ذكر النفس والعين والأذن والسن، دون غيرها من أعضاء الجسد، كاليد والرجل والإصبع؛ لأن القصاص يكون بقطع الرقبة وهذه الأعضاء تتصل بها دون غيرها، ولأن الوجه هو الذي يقابل المعتدي.

وقد صح من حديث علي بن أبي طالب ؓ أن النبي ﷺ قال: «لا يُقتل مسلم بكافر»^(١).

وفي حديث عبد الله بن عمرو ؓ «لا يقتل مسلم بكافر ولا ذو عهد في عهده»^(٢).

والمراد الكافر المحارب فهو تخصيص من العموم وفي الحديث: عن عبد الله بن عمرو ؓ أن النبي ﷺ قال: «المسلمون تكافأ دماؤهم ويسعى بذمتهم أدناهم وهم يد على من سواهم»^(٣).

واستدل أبو حنيفة بعموم الآية على أن المسلم يقتل بالذمي، والحر يقتل بالعبد، والرجل يقتل بالمرأة، ويشهد له قول النبي ﷺ في سياق الحديث عن القصاص: «إن من عباد الله من لو أقسم على الله لأبره»^(٤).

وكان ذلك في قصة جارية كَسَرَتْ سِنَّهَا الرُّبَيْع بنت النضر، حين لطمتها على وجهها، فأبى أهلها إلا القصاص، فحملهم الرسول ﷺ عليه، ثم عفوا عنها.

(١) البخاري (٢٦٠/١٢) برقم (٦٩٠٣) ومسلم (١٣٧٠) والمسنَد (٥٩٩) بإسناد صحيح على شرط الشيخين.

(٢) المسنَد (٦٧٩٦) بإسناد صحيح على شرط الشيخين، (محققوه) ومثله (٦٧٩٠، ٦٧٨٦).

(٣) حديث صحيح بإسناد حسن، عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده، (محققو المسنَد) برقم (٦٧٩٧) وأخرجه أبو داود (٦٧٠/٤) برقم (٢٧٥١، ٤٥٣١) ورواه أيضاً عن علي، النسائي (٢٤/٨) برقم (٤٧٣٤) والطيالسي (٢٢٥٨) ورواه من طريق قتادة (١٢٢/١) و«سنن ابن ماجه» برقم (٢٦٨٣) عن ابن عباس.

(٤) يُنظر: البخاري (٢٢٣/١٢) برقم (٦٨٩٤) ومسلم (١٣٠٢/٣) برقم (١٦٧٥) و«المسنَد» (١٢٨/٣) برقم

(١٢٣٠٢، ١٢٧٠٤، ١٤٠٢٨) عن أنس ؓ.

وتخصيص عدم قتل المسلم بالكافر لصحة الدليل، ولا ينبغي ما عداه.

قال الشيخ الشنقيطي: واعلم أن آيات القصاص في النفس فيها إجمال بيته السنة، وحاصل تحرير المقام فيها: أن الذَّكَرَ الحر المسلم يُقْتَل بالذَّكَرَ الحر المسلم إجماعاً وأن المرأة تقتل بالمرأة إجماعاً، وأن العبد يقتل بالعبد إجماعاً؛ لقوله تعالى: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِصَاصُ فِي الْقَتْلِ الْحَرُّ بِالْحَرِّ وَالْعَبْدُ بِالْعَبْدِ وَالْأُنثَى بِالْأُنثَى﴾ [البقرة: ١٧٨].

وأن المرأة تقتل بالرجل؛ لأنها إذا قُتِلَت بالمرأة، فقتلها بالرجل أولى، وأن الرجل يقتل بالمرأة عند جمهور العلماء فيها^(١).

ومن الأدلة على أن الرجل يُقْتَل بالمرأة ما ثبت في الصحيحين من حديث أنس رضي الله عنه أن النبي ﷺ رصَّ رأس يهودي بالحجارة، قصاصاً بجارية فعل بها ذلك^(٢).

وفي كتاب النبي ﷺ لعمر بن حزم أن الرجل يُقْتَل بالمرأة^(٣).

وفي الحديث الصحيح عن ابن مسعود رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «لا يحل دم امرئ مسلم إلا بإحدى ثلاث: الثيب الزاني، والنفس بالنفس، والتارك لدينه المفارق للجماعة»^(٤).

وبعد أن خصصت الآية هذه الأربعة بالذكر، وهي: (النفس والعين والسن والأذن) جاء التعميم في قوله تعالى: ﴿وَالْجُرُوحُ قِصَاصٌ﴾ بمعنى أنه يقتص في الجروح فيما يمكن أن يقتص منه؛ كاليد، والرجل والذكر والأنثيين ونحوها، أما ما لا يمكن القصاص فيه، ففيه الأرش والقضاء، وذلك ككسر عظم، أو رص في لحم، أو جرح في الجسم، ونحو ذلك، بأن يُفعل فيه كما فعل: حدًّا وموضعًا وطولًا وعرضًا وعمقًا.

وهذه الأحكام كانت مشروعة في التوراة، وهي مشروعة كذلك في القرآن، والذي عليه الجمهور أن شرع من قبلنا شرع لنا ما لم يرد ناسخ، إذا حكاه القرآن مقررًا له، والتعبد

(١) «أضواء البيان» (٥٩/٢).

(٢) يُنظر: البخاري (٢٤١٣، ٦٨٨٥) ومسلم (١٦٧٢) و«صحيح سنن النسائي» (٤٤١٥-٤٤١٧) و«صحيح سنن ابن ماجه» (٢٦٦٥) و«إرواء الغليل» (١٢٥٢).

(٣) وهو حديث مرسل رواه النسائي (٥٨/٨) وغيره.

(٤) البخاري (٦٨٧٨) ومسلم (١٦٧٦).

بهذا من طريق الوحي الذي جاء على محمد ﷺ لا من جهة كتب أهل الكتاب؛ لِمَا اعتراها من تحريف، والوحي المقصود هو إيراد الحكم، وتقريره في القرآن على سبيل الحكاية.

وقوله سبحانه: ﴿فَمَنْ تَصَدَّقَ بِهِ﴾ أي بالقصاص في النفس ومادونها من الأطراف والجروح بأن عفى عمن جنى بعد ثبوت الحق له ﴿فَهُوَ كَفَّارٌ لَهُ﴾ للمجنى عليه لأنه عفى عمن جنى عليه، وقد أضافها للإسلام إلى ما جاء في التوراة، فهي حكم آخر.

والمعنى: فمن تجاوز عن حقه في القصاص من المعتدي، فذلك كفارة لبعض ذنوب المعتدى عليه، وإزالة لها، وهذا على أساس أن الضمير، وهو (الهاء) من (له) يعود على المجروح المجنّي عليه وولي الدم. هذا هو القول الأول.

قال أبو الدرداء: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «ما من مسلم يصاب بشيء من جسده، فيتصدق به، إلا رفعه الله به درجة، وحطّ عنه به خطيئة» قال الأنصاري الذي كسر سنّه رجل من قريش، واستعدى عليه معاوية: أأنت سمعت هذا من رسول الله ﷺ؟ قال: نعم، سمعته أذناي، ووعاه قلبي، فعفا عنه^(١).

والقول الثاني: أن الضمير من (له) يعود على الجراح والقاتل، وهو الجاني، بمعنى: أن المجنّي عليه إذا عفا عن الجاني كان هذا العفو كفارة لذنوب الجاني، لا يؤاخذ به في الآخرة، والأول أرجح.

والتصدق من ولي الدم، قد يكون بالعفو عن القود، وقد يكون بقبول الدية مكان القود، أو بالتنازل عن الدم والدية معاً؛ إذ العفو والعقوبة متروكان له، ويبقى للحاكم تعزيز القاتل بما يراه.

في حديث عبادة بن الصامت ؓ أن رسول الله ﷺ قال: «ما من رجل يخرج في جسده جرحه، فيتصدق بها إلا كفر الله عنه مثل ما تصدق به».

(١) يُنظر: «المسند» (٤٤٨/٦) برقم (٢٧٥٣٤) وفي سنده مقال، والمرفوع منه صحيح لغيره (محققوه) وهو عند الترمذي برقم (١٣٩٣) وقال: هذا حديث غريب، وابن ماجه مختصراً برقم (٢٦٩٣) و«تفسير الطبري» (٣٦٤/١٠) والبيهقي في السنن (٥٥/٨).

وفي لفظ: «من تصدق بجسده بشيء كفر الله عنه بقدر ذلك من ذنوبه»^(١).

ويأتي التعقيب على ترك الحكم بما في التوراة بقول الله تعالى: ﴿وَمَنْ لَّمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ أي: ومن لم يحكم بما أنزل الله في القصاص وغيره، فأولئك هم المتجاوزون حدود الله، الظالمون لأنفسهم بالحكم بغير ما أنزل الله في شريعة موسى وعيسى ومحمد صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين، وهذا وصف آخر يفيد أن من حكم بغير ما أنزل الله يكون قد أورد نفسه موارد التهلكة، وأفسد حياة الناس، وكان ظالماً لها بذلك، بالإضافة إلى الوصف السابق، الذي هو الكفر؛ لتعديه على خصائص الألوهية.

شَرِيعَةُ النَّصَارَى

٤٦ - ﴿وَقَفَّيْنَا عَلَىٰ آثَرِهِم بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَةِ﴾^(٢) وَآتَيْنَاهُ الْإِنْجِيلَ فِيهِ هُدًى وَنُورٌ وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَةِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٤٦﴾

وكما جاء الحديث عن التوراة في آيتين، ثنى في أثره بالحديث عن الإنجيل في آيتين أيضاً، فقال تعالى: ﴿وَقَفَّيْنَا عَلَىٰ آثَرِهِم بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ﴾ أي: وأتبعنا أنبياء بني إسرائيل الذين أسلموا كموسى وهارون وداود وسليمان بعيسى ابن مريم، جاء في عقبهم واقتفى أثرهم، واعتمدت رسالة عيسى كثيراً من التشريعات التي أتى بها موسى، ولم يتضمن الإنجيل إلا بعض التغيير فيها، مما جعله الله تعالى عقوبة لليهود بسبب ظلمهم، ثم رفعه عمن جاء بعدهم، فكان عيسى عليه السلام مصدقاً ومؤمناً بالتوراة التي سبقت، عاملاً بما فيها عدا بعض الأحكام التي نسخت فهو ﴿مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَةِ﴾ شاهد لموسى وللتوراة التي جاء بها من عند الله تعالى، ومؤيد لدعوته، وحاكم بشريعته، وموافق له في أكثر الأمور الشرعية.

(١) أخرجه النسائي برقم (١٦٦) في التفسير بإسناد صحيح، وأخرجه أحمد في «المسند» (٣١٦/٥) برقم (٢٢٧٠١) وصححه الهيثمي في «المجمع» (٣٠٢/٦) وهو في «صحيح الجامع» برقم (٥٥٨٩) والنسائي في «السنن الكبرى» (١١٤٦) قال محققو المسند: صحيح بشواهده.

(٢) أمال (التوراة) في الموضعين ابن ذكوان والبصري والكسائي وخلف، وقللها ورش وحزمة وقالون بخلف عنه.

وكان عيسى يدعو إلى التصديق بالتوراة والعمل بما فيها، ﴿وَأَتَيْنَهُ الْإِنجِيلَ فِيهِ هُدًى وَنُورٌ﴾ من الضلالة؛ ليكون منهج حياة وشريعة حُكم، ينتفع به أهل القلوب الحيّة والبصيرة النافذة، وفيه نور وضياء لعمى البصيرة وموعظة للمتقين، يهدي إلى الحق، ويبيّن ما جهله الناس من حكم الله تعالى، وهو شاهد على صدق ما جاء في التوراة من الأحكام التي اشتملت عليها.

وقوله تعالى: ﴿وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَةِ﴾ ليس هذا بتكرار، وإنما التصديق الأول لعيسى نفسه، والتصديق الثاني للإنجيل، وكل منهما يصدق التوراة، وقد نُسب إلى عيسى قوله: (ما جئت لأنقض الناموس)، أي: التوراة.

وفي الإنجيل هداية أخرى، وهي ما تضمنه من البشارة برسالة محمد ﷺ؛ ليكون سبباً لهداية الناس إلى يوم القيامة، وفي الإنجيل بيان وموعظة بليغة وزواجر وأمثال ينتفع بها المتقون الذين يخافون الله تعالى فيرتدعون عن ارتكاب المحرمات، ذلكم قول الله تعالى: ﴿وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ﴾ فلفظ (هدى) الأول للإنجيل.

ولفظ (هدى) الثاني إشارة لما تضمنه الإنجيل من البشارة برسالة محمد ﷺ؛ فيكون سبباً لاهتداء الناس بنبوته.

وقد وصف القرآن الإنجيل بخمس صفات هي: هدى، ونور، ومصدقاً لما في التوراة، وهدى، وموعظة للمتقين.

ويضيف القرآن دائماً عيسى إلى أمه، إشارة إلى أنه ليس له نسب إلا من جهتها، فليس له أب، وهو عبد من عباد الله، كان خلقه آية دالة على قدرة الله تعالى، كما خلق آدم من تراب، وكما خلق حواء من غير أم، وكما خلق الناس كلهم من أب وأم. قال تعالى:

٤٧ - ﴿وَلِيَحْكُمَ﴾ ^(١) أَهْلَ الْإِنجِيلِ بِمَا أُنْزِلَ اللَّهُ فِيهِ وَمَنْ لَّا يَحْكَمْ بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ

وكما فرض الله تعالى على اليهود أن يعملوا بما في التوراة في قوله سبحانه: ﴿وَكُتِبْنَا عَلَيْهِمْ

(١) قرأ حمزة (وليحكم) بكسر اللام ونصب الميم، على أن اللام لكى، وأن مضمرة بعدها، وقرأ الباقون بسكون اللام وجزم الميم، على أن اللام لام الأمر، وسكنت الميم تخفيفاً.

فِيهَا ﴿فَرَضَ عَلَى النَّصَارَى أَنْ يَعْمَلُوا بِمَا فِي الْإِنْجِيلِ، وَقَالَ لَهُمْ: اْعْمَلُوا بِمُوجِبِهِ وَتَقَيَّدُوا بِهِ وَالتَّزَمُوا بِمَا فِيهِ وَلَا تَحِيدُوا عَنْهُ﴾ ﴿وَلِيَحْكُمُ أَهْلُ الْإِنْجِيلِ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فِيهِ﴾ عَلَى نَبِيِّهِ عِيسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ، وَمِنْ ذَلِكَ وَجُوبُ التَّصَدِيقِ بِمَا بَشَّرَهُ الْإِنْجِيلُ مِنْ مَجِيءِ الرِّسَالَةِ الْعَامَّةِ الْخَاتِمَةِ، وَوَجُوبُ الْعَمَلِ بِمَا فِيهَا بِاعْتِبَارِهَا نَاسِخَةً لِمَا قَبْلُهَا مِنَ الدِّيَانَاتِ، كَمَا قَالَ تَعَالَى عَنِ الْيَهُودِ وَالنَّصَارَى: ﴿قُلْ يَتَاَهَلُ الْكِتَابُ لَسْتُمْ عَلَى شَيْءٍ حَتَّى تُقِيمُوا التَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ وَمَا أَنْزَلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ﴾ [٦٨].

كُلٌّ فِي زَمَنِ صَلَاحِيَةِ الرِّسَالَةِ الْخَاصَّةِ بِهِ قَبْلَ أَنْ تَنْسَخَ بِمَا بَعْدَهَا.

ثُمَّ عَقَّبَ سُبْحَانَهُ عَلَى تَرْكِ الْحُكْمِ بِمَا فِي الْإِنْجِيلِ بِقَوْلِهِ: ﴿وَمَنْ لَمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ أَي: الْخَارِجُونَ عَنْ أَمْرِ اللَّهِ، الْعَاصُونَ لَهُ.

وَهَذَا وَصَفٌ ثَالِثٌ يُضَافُ إِلَى وَصْفَيْ الْكُفْرِ وَالظُّلْمِ، فَتَارَكَ الْحُكْمَ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ جُحُودًا لَهُ. كَافِرًا؛ لِرَفْضِهِ حُكْمَ اللَّهِ، وَظَالِمًا؛ لِأَنَّهُ حَمَلَ النَّاسَ عَلَى غَيْرِ شَرَعِ اللَّهِ، وَأَفْسَدَ حَيَاتِهِمْ، وَفَاسَقًا؛ لِأَنَّهُ خَرَجَ عَنْ مَنَهْجِ اللَّهِ تَعَالَى وَطَاعَةِ أَمْرِهِ.

وَالظُّلْمَ يُطْلَقُ عَلَى الْكُفْرِ، كَمَا أَنَّ الْفُسْقَ يُطْلَقُ عَلَى الْكُفْرِ، فَعَدَمُ الْحُكْمِ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ كُفْرٌ وَظُلْمٌ وَفُسْقٌ.

الشَّرِيعَةُ الْخَالِدَةُ

٤٨- ﴿وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيِّمًا عَلَيْهِ فَاحْكُم بَيْنَهُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ عَمَّا جَاءَكَ مِنَ الْحَقِّ لِكُلِّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمَنْهَاجًا وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِنْ لِنَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ﴾ (٤٨)

وَبَعْدَ ذِكْرِ التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ يَأْتِي ذِكْرُ الرِّسَالَةِ الْخَاتِمَةِ، وَالشَّرِيعَةِ الْأَخِيرَةِ؛ لِتَكُونَ الْمَرْجِعُ النَّهَائِي الَّذِي تَقُومُ عَلَيْهِ حَيَاةُ الْبَشَرِ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ، فَقَالَ تَعَالَى مَا دَحَاً لِلْقُرْآنِ الْكَرِيمِ بَعْدَ مَدْحِهِ لِلتَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ: ﴿وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ﴾ يَا مُحَمَّدُ ﴿الْكِتَابُ﴾ وَهُوَ الْقُرْآنُ، أَنْزَلْنَاهُ ﴿بِالْحَقِّ﴾ أَي: بِالصِّدْقِ الَّذِي لَا شَكَّ فِيهِ أَنَّهُ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ، وَهُوَ مُشْتَمِلٌ عَلَى الْحَقِّ فِي أَوَامِرِهِ وَنَوَاهِيهِ وَأَخْبَارِهِ وَأَحْكَامِهِ.

وَقَدْ صَدَرَ هَذَا الْقُرْآنُ مِنَ الْجِهَةِ الْعُلْيَا الَّتِي تَمْلِكُ حَقَّ التَّشْرِيعِ وَفَرْضِ الْقَوَانِينِ لِكُلِّ مَا

فيه خير العباد والبلاد، وكل ما في هذا الكتاب حق يشهد على صدق الكتب التي قبله، وأنها نزلت من عند الله ﴿مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ﴾ أي: من جنس الكتب السابقة، التي نزلت على رسل الله جميعًا، فالقرآن يصدقها ويؤمن بها، ويشهد لها ويوافقها في أصوله وأخباره وقواعده الكلية.

فلفظ ﴿الْكِتَابِ﴾ الأول، يعني: القرآن، والثاني، يعني: جميع الكتب السماوية، وهذه الكتب تتضمن وجوب الإيمان بك - يا محمد - وتصدق ما جئت به من عند الله، قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مِنْ قَبْلِهِ إِذَا يُتْلَى عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا ۖ وَيَقُولُونَ سُبْحَانَ رَبِّنَا إِنْ كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا﴾ [الإسراء: ١٠٧]. أي: كان وعده لنا على السنة الرسل بمجيء محمد ﷺ وعدًا مفعولًا وكائنًا لا محالة.

وهذا القرآن هو الكتاب المهيمن، أي: الجامع لكل ما اشتملت عليه الكتب السابقة من هدايات وأحكام، فهو أمين ورقيب عليها، وحافظ لما فيها، وشاهد بصدقها وصحتها، وهو محفوظ من التبديل والتغيير والنسخ، يؤيد الكتب التي قبله ويدعو إلى ما فيها ويحكم عليها، ذلكم قول الله تعالى: ﴿وَمُهِمِّنَا عَلَيْهِ﴾ أي مشتملاً على جميع ما جاء في الكتب السابقة، فهو غير تابع لما قبله من الكتب، إنما هو شاهد وأمين وحاكم عليها كلها، وكان نزوله آخرًا؛ لعدم ورود النسخ عليه، وليكون قيماً على ما سبقه، فهو الكتاب الذي فيه خبر السابقين واللاحقين، وفيه الحكمة والحكم والأحكام، فما شهد له بالصدق فهو الحق، وما شهد له بالرد فهو الذي دخله التحريف والتبديل.

وبعد أن قرر الله سبحانه أن هذا القرآن نزل بالحق، يؤيد ما سبقه من كتب ويسيطر عليها، وجّه الخطاب إلى النبي ﷺ في قوله: ﴿فَأَحْكُم بَيْنَهُمْ﴾ أي: احكم بين أهل الكتاب وغيرهم إذا ترفعوا إليك ﴿بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ﴾ من الأحكام الشرعية في هذا القرآن، فهو الكتاب الذي ارتضاه الله تعالى للخلق أجمعين إلى قيام الساعة.

وقد علّم الله سبحانه أن ثمة صوارف كثيرة، وأعداءً متعددة، قد تحول دون تطبيق شرع الله تعالى، فحذّر نبيه مرتين؛ في هذه الآية، والآية التي بعدها: ألا ينصرف عن الحق الذي أمره به ربه إلى اتباع أهوائهم وما اعتادوه، فالتزم - أيها الرسول - في حكمك ما يؤيده القرآن الذي نزل عليك ﴿وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ﴾ أي: ولا تتبع في حكمك أهواء اليهود

وأشباههم، منحرفاً ومائلاً ﴿عَمَّا جَاءَكَ مِنَ الْحَقِّ﴾ فتستبدل الذي هو أدنى بالذي هو خير ومن المعلوم أن النبي ﷺ لا يحكم بغير شرع الله، والمقصود بهذا النهي هو تئیس الطامعين أن يحكم لهم بما يشتهون، وإعلان ذلك ليتقرر في علم الناس، كما قال تعالى: ﴿لَئِنْ أَشْرَكَتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ﴾ [الزمر: ٦٥].

والله تعالى قد عصم رسوله من الزلل، ومن اتباع أهواء الناس، والعدول عن حكم الله إلى حكم غيره، ولكن القرآن الكريم ينبه كل حاكم مسلم ألا يساير الرغبات البشرية التي تميل إلى التساهل في تطبيق شرع الله، كالحرص على الوحدة الوطنية، أو إرضاء بعض الرؤوس، أو الإبقاء على الكرسي، ونحو ذلك.

وهذا يدل على أن اليهود ومن جاء بعدهم، مخاطبون بما جاء في القرآن، وقد أمروا أن يتحاكموا إلى كتبهم قبل نسخها بالقرآن، أما بعد نزوله، فقد أصبح واجباً عليهم الدخول في الإسلام، واتباع ما جاء به محمد ﷺ؛ إذ ليس لأحد بعد بعثته ﷺ إيمان مقبول إلا باتباعه وتصديقه، قال تعالى: ﴿وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ [آل عمران].

ثم خاطب الله سبحانه الأمم الثلاثة: أمة موسى، وأمة عيسى، وأمة محمد صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين بعد أن ذكر التوراة والإنجيل والقرآن، فقال: ﴿لِكُلٍّ﴾ من الأمم الحاضرة والماضية ﴿جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا﴾ خاصاً بهم؛ فلاهل التوراة شريعة ومنهج، ولاهل الإنجيل شريعة ومنهج، ولاهل القرآن شريعة ومنهج، وهذا في الفروع العملية والشرائع التي تختلف باختلاف الأمم، وباختلاف الزمان والمكان، وكلها صالحة في وقت الرسالة الخاصة بها.

أما في أصل الدين، وهو التوحيد، فقد بعث الله به جميع الرسل، قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾ [النحل: ٣٦]. وقال: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ﴾ [الأنبياء]. يعني: التوحيد الذي بُعث به كل رسول، وكذا أصول الدين، من الإيمان بالله واليوم الآخر وملائكته وكتبه ورسله، لم يختلفوا في هذا، والآيات الدالة على التباين بينهم، محمولة على الفروع، وما يتعلق بظواهر العبادات، فالله تعالى قد شرع لكل أمة ما يناسب

طورها في الحياة، حتى اكتملت الرسائل، ونضجت الأمم في الرسالة الأخيرة.

وفي الحديث: عن أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «أنا أولى الناس بعيسى ابن مريم في الأولى والآخرة»، قالوا: كيف يا رسول الله؟ قال: «الأنبياء إخوة من علات وأمهاهم شتى ودينهم واحد فليس بيننا نبي»^(١).

والعلات: يراد بها كثرة الأمهات، أي: من أمهات شتى.

وعليه: فإن شرع من قبلنا إذا قرر في كتابنا ولم ينسخ، فهو شرع لنا، وإلا فإن لكل أمة شريعة خاصة بها، فنحن متعبدون بالشرائع السابقة باعتبار أنها أحكام شريعتنا.

وقد يحرم الله على أمة ما يحله لغيرها في جانب التشريع، كما قال عيسى ﷺ: ﴿وَلَا حُدَّ لَكُمْ بَعْضَ الَّذِي حُرِّمَ عَلَيْكُمْ﴾ [آل عمران: ٥٠].

والشريعة والمنهاج معناهما متقارب، فالمنهج هو الاستمرار على الطريقة، أي: الشريعة التي شرعها الله للناس، فالدين واحد والشرائع مختلفة.

ثم يبين سبحانه بعضاً من مظاهر قدرته وبالع حكمته، في أنه لو شاء لجعلنا أمة واحدة تدين بدين واحد، فالله تعالى لا يعجزه شيء، ولكنه سبحانه خالف بينها ليسجل ابتلاءكم واختباركم، ويظهر المطيع من العاصي ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً﴾ تتبعون شريعة واحدة لا يختلف أولها عن آخرها.

﴿وَلَكِنْ لِّيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ﴾، أي: وقد اختلفت الشرائع ليكلف الله كل أمة بما تقتضيه حكمته تعالى، ويشرع لها ما يناسب حالها في كل حقبة من الزمن.

والمخاطب بهذا في الآية هم أمة محمد ﷺ وهو خطاب يشمل سائر الأنبياء والأمم، وما دام الأمر كذلك فسارعوا - أيها الناس - إلى ما هو خير لكم في الدارين، واعملوا بما جاء في القرآن وهذا معنى: ﴿فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ﴾ بادروا إليها وأكملوها وتنافسوا في المسارعة إليها.

والخيرات: كلمة جامعة لكل فرض ومستحب من حقوق الله تعالى وحقوق عباده،

(١) هذا لفظ مسلم برقم (٢٣٦٥) وهو في البخاري برقم (٣٤٤٣) وأبي داود (٥٥/٥).

فأقبلوا عليها واغتنموا أوقاتها، لأن مردكم ومصيركم إلى الله، فيخبركم بما اختلفتم فيه، ويجازي كلاً بعمله ﴿إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْلِفُونَ﴾ فيحاسبكم ويجازيكم بما تستحقون، فمن وجد خيراً فليحمد الله، ومن وجد غير ذلك فلا يلومن إلا نفسه ﴿وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا﴾.

تَحْذِيرُ الْأُمَّةِ مِنَ الْحُكْمِ بِغَيْرِ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ

٤٩- ﴿وَأَنَّ^(١) أَحْكَمَ بَيْنَهُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ وَأَحْذَرَهُمْ أَنْ يَقْتُلُوكَ عَنْ بَعْضِ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ إِلَيْكَ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَاعْلَمُوا أَنَّا يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُصِيبَهُمْ بِبَعْضِ ذُنُوبِهِمْ وَإِنَّ كَثِيرًا^(٢) مِّنَ النَّاسِ لَفَاسِقُونَ

وبعد أن حذر الله رسوله من اتباع أهواء الناس، وفي مقدمتهم اليهود المعاصرون له ﷺ حذره من فتنهم، ومحاولة إغوائهم وإضلالهم له؛ حتى يعتبر بهذا كل حاكم مسلم في كل زمان ومكان، فالخطاب لرسول الله ﷺ، والمراد كل من يتولى أمر المسلمين أن يحكم بينهم وبين المستأمنين في ديارهم بما أنزل الله من الكتاب والسنة، فإنهما في غاية العدل والقسط، ولا يتبع أهواء أهل الضلال، فهي جور وظلم، فإن لم يقبلوا حكم الله تعالى فاعلم أن ذلك عقوبة لهم في الدنيا، فإن للذنوب عقوبات عاجلة وأجلة، وكثير من الناس طبيعتهم الفسق والخروج عن طاعة الله والرسول.

ومما جاء في أسباب النزول:

١- أن جماعة اليهود قال بعضهم لبعض: اذهبوا بنا إلى محمد ﷺ لعلنا نفتنه عن دينه، فأتوه، وقالوا: قد عرفت أننا أحبار اليهود وأشرفهم، وأنا إن اتبعناك، اتبعك اليهود، وإن بيننا وبين قومنا خصومة، فاحكم لنا عليهم ونحن نؤمن بك، فأبى رسول الله ﷺ^(٣) فنزل قوله سبحانه: ﴿وَأَنَّ أَحْكَمَ بَيْنَهُمْ﴾ أي: بين اليهود وسائر الخلق ﴿بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ﴾ إليك في

(١) قرأ أبو عمرو وعاصم وحمة ويعقوب بكسر النون وصلًا من (وَأَنَّ احْكَم) للتخلص من التقاء الساكنين، وقرأ الباقون بضمها وصلًا كذلك تبعًا لضم ثالث الفعل.

(٢) قرأ الأزرق عن ورش بترقيق الراء وتفخيمها وصلًا من (كثِيرًا) وبتريقها فقط في الوقف، وفخمها الباقون في الحالين.

(٣) الطبري (٣٩٣/١٠) و«الدر المثور» (٢/٢٩٠) وغيرهما وفي إسناده عند الطبري: محمد مولى زيد بن ثابت، لم يوثقه غير ابن حبان.

القرآن، ولا تتبع أهواء الذين يحتكمون إليك في كل عصر ومصر ﴿وَاحْذَرُهُمْ أَنْ يَفْتِنُوكَ﴾ فيصدوك ويصرفوك ﴿عَنْ بَعْضِ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ إِلَيْكَ﴾ في هذا القرآن، فترك العمل به اتباعاً لرغباتهم، وهذا السبب لنزول الآية يتعلق بحكم الرجم الذي طلبوا منه تغييره.

٢- وورد أن جماعة من بني النضير قالوا للنبي ﷺ: هل لك أن تحكم لنا على بني قريظة في أمر الدماء كما كنا من قبل، ونحن نبائعك؟^(١).

وهذا السبب في طلبهم التسوية بين الدماء، فهما سببان مختلفان.

وقد تحاكموا إلى النبي ﷺ في الأمرين جميعاً، فحملهم على الحق، وجعل الدية بينهم سواء، وحكم بالرجم في المحصن الزاني.

وتقدير الآية مع ما قبلها: وأنزلنا إليك الكتاب بالحق أن احكم بينهم بما أنزل الله، فاحكم بينهم به؛ لأن الحكم بما أنزل الله أثر من آثار تنزيل القرآن، كأنه تعالى قال: وأنزلنا إليك الأمر بالحكم بما أنزل الله، فإن حكمت بينهم وأعرضوا عنك، فتلك علامة الشقاء وأماراة الخذلان.

قال تعالى: ﴿فَإِنْ تَوَلَّوْا﴾ فأعرضوا عن الإيمان بك واتباعك والرضى بحكمك ﴿فَاعْلَمْ﴾ يا محمد ﴿أَنَّهَا يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُصِيبَهُمْ بِبَعْضِ ذُنُوبِهِمْ﴾ فيجعل لهم العقوبة في الدنيا؛ ليزيقهم ألواناً من الهزائم، وجور الحكام، وقهر العدو، وضنك المعيشة، والهوان على الناس، عقوبة لهم على عزوفهم عن الحكم بما أنزل الله، ومن ذلك أن الله تعالى يصرفهم عن الحق، واتباع الهدى؛ بسبب ذنوب اكتسبوها كما قال تعالى: ﴿وَمَا أَصَابَكُمْ مِنْ مُصِيبَةٍ فِيمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ﴾ [الشورى: ٣٠].

وقال سبحانه: ﴿أَوْ لِمَا أَصَابَكُمْ مُصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُمْ مِثْلَهَا قُلْتُمْ أَنَّى هَذَا قُلْ هُوَ مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِكُمْ﴾ [آل عمران: ١٦٥].

ثم ختم الله الآية بقوله: ﴿وَإِنَّ كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ لَفَاسِقُونَ﴾ خارجون عن طاعة الله تعالى وحكمه كما قال تعالى: ﴿وَإِنْ تُلَاقَ أَكْثَرُ مَنْ فِي الْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ﴾ [الأنعام: ١١٦].

(١) قاله مقاتل.

التَّعْقِيبُ عَلَى تَرْكِ الْحُكْمِ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ

٥٠- ﴿أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنْ اللَّهِ حُكْمًا لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾.

ثم يأتي التعقيب على ترك الحكم بما أنزل الله لبيان مفرق الطرق، إما حكم الله، وإما حكم الجاهلية، ولا وسط بين الطريقتين؛ فالجاهلية هي حكم البشر للبشر، وعبودية البشر للبشر، وهذه الجاهلية ليست فترة من الزمان، ولكنها موجودة بالأمس واليوم وغداً، كلما وجدت أسبابها ومقوماتها ونتائجها! ﴿أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ﴾ أريد هؤلاء اليهود وأمثالهم أن تحكم بينهم - يا محمد - بما تعارف عليه المشركون عبدة الأوثان، من الضلالات والجهالات والجور في الأحكام، وتحريف ما أمر الله به بلا مستند من شريعة الله، فتغير لهم حكم الرجم، وعدم التساوي في الدماء؟! أيتطلبون بتوليهم وإعراضهم عنك حكم الجاهلية المبني على الظلم والجهل والغبي، ويتركون حكم الله تعالى المبني على العلم والعدل والقسط والنور والهدى؟

وأي حكم أحسن من حكم الله ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ مِنْ اللَّهِ حُكْمًا لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾؟ فلا أحد أعدل من الله تعالى في حكمه لمن عقل عن الله شرعه، وآمن به وأيقن.

واليقين: هو العلم التام الموجب للعلم اليقيني، وفي هذا توبيخ وتقريع لمن يعدل عن حكم الله تعالى إلى حكم غيره.

عن نافع بن جبير عن ابن عباس رضي الله عنه، أن رسول الله ﷺ قال: «أبغض الناس إلى الله ثلاثة: ملحد في الحرم، ومبتغ في الإسلام سنة الجاهلية، ومطلب دم امرئ بغير حق ليهرق دمه»^(١).

النِّدَاءُ السَّابِعُ: النَّهْيُ عَنْ مَوَالَاةِ أَهْلِ الْكِتَابِ

٥١- ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى أَوْلِيَاءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾.

(١) «المعجم الكبير» للطبراني (٣٧٤/١٠) و«صحيح البخاري» برقم (٦٨٨٢) واللفظ له.

وبعد الحديث عن الحكم بما أنزل الله، وإعراض اليهود عنه، وتبديلهم له، يأتي النداء السابع للمؤمنين في هذه السورة حيث يوجه ﷺ ثلاث نداءات إلى المؤمنين في هذا الرُّبْع يحذرهم فيها من موالاة أعدائهم من اليهود والنصارى، ويبين لهم صفاتهم وأحوالهم حتى لا يتخذوهم أولياء، فإنهم الأعداء على الحقيقة، ينصر بعضهم بعضاً ويكونون يدًا على مَنْ سواهم، وهم لا يدَّخرون جُهدًا في ضُرِّكم وإضلالكم، ويعقِّب ذلك حديث عن أهل الكتاب يتناول فيه صورًا من أبشع أقوالهم وأفعالهم، مع تفريعهم وتوبيخهم، وبيان ما أعده الله لهم من عقوبة.

النداء الأول للمؤمنين في هذا الربع السابع في السورة:

قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَىٰ أَوْلِيَاءَ﴾ يا من أيقنتم وصدقتم بالله ربًّا، وبمحمد نبيًّا، وبالإسلام دينًا، وبالقرآن كتابًا، وبالكعبة قبله... لا تتخذوا اليهود والنصارى حلفاء وأنصارًا وأعوانًا على إخوانكم في الدين والعقيدة من أهل الملة، فتسرون إليهم بالمودة، وتستأمنونهم على أسراركم وأموالكم، وتعاشرهم معاشرة المؤمنين، وتنصرونهم وتستنصرون بهم، وتتخذونهم موضع سرٍّ وقرب وبطانة، وتثقون فيهم عن إخوانكم المؤمنين.

فالولاية تعني: التناصر والتعاون والتحالف، وفرق بين ذلك وبين حُسنِ المعاملة وحُسنِ الجوار؛ فالمسلم مطالب بالسماحة مع أهل الكتاب غير المحاربين، كما قال تعالى: ﴿لَا يَنْهَكُكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُمْ مِّن دِينِكُمْ أَنَّ يَبْرُوهُمْ وَلَقَدْ قُتِّلُوا فِي دِينِكُمْ وَإِلَيْهِمُ الْمِمْلَكَةُ﴾ [الممتحنة: ٨] فالله تعالى نهانا أن نوالي من قاتلونا في الدين وظلمونا، وأخرجونا من ديارنا، كاليهود الذين شردوا أهل فلسطين وطردهم منها، واستولوا على ديارهم، وهذا ما تعنيه الآية التي بعدها ﴿إِنَّمَا يَنْهَكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ قَاتَلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَأَخْرَجُوكُم مِّن دِينِكُمْ وَظَاهَرُوا عَلَىٰ إِخْرَاجِكُمْ أَن تَوَلَّوْهُمْ وَمَن يَتَوَلَّهُمْ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ [الممتحنة].

فأهل الكتاب من اليهود هم الذين شردوا العرب المسلمين في فلسطين.

وأهل الكتاب من النصارى هم الذين شنوا الحروب الصليبية على المسلمين متتئ عام، وهم الذين قتلوا المسلمين وأبادوهم في البوسنة والهرسك، والشيشان، والحبيشة، والصومال، وأريتريا، والفلبين، والعراق، وفلسطين.

ثم بَيَّنَّ ﷺ أن أهل الكتاب من شأنهم أنهم لا يوالون المؤمنين ولا يوادونهم؛ فاليهود ﴿بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ﴾ والنصارى بعضهم أولياء بعض، فكل منهم يد واحدة على من خالفهم في دينهم وملتهم.

وقد بَيَّنَّ تعالى أن ولاية اليهود لبعضهم ولاية زائفة لا تقوم على أساس صحيح، ولذلك فقد قرر الله تعالى أن العداوة والبغضاء قائمة بينهم إلى يوم القيامة فقال: ﴿وَأَلَقَيْنَا بَيْنَهُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ إِلَى يَوْمِ الْقِيَمَةِ﴾ [٦٤]. وهي قائمة بين النصارى كذلك، كما قال تعالى: ﴿فَأَغْرَيْنَا بَيْنَهُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ إِلَى يَوْمِ الْقِيَمَةِ﴾ [١٤].

فإن كانت الولاية لليهود والنصارى على سبيل الرضى بدينهم، ونضرهم على المؤمنين مع فقد الثقة في الإسلام وأهله، فهذا كفر مخرج من الملة قال تعالى: ﴿وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ﴾ لأن التولي التام يوجب الانتقال إلى دينهم، والتولي القليل يدعو إلى الكثير، ثم يندرج شيئاً فشيئاً حتى يكون العبد منهم.

وإن كانت الولاية على سبيل المصادقة في العمل، أو الجوار، أو المشاركة في التجارة، ونحو ذلك فهي معصية تختلف درجتها بحسب قوة الموالاة وضعفها. فالمسلم لا يحب عدوه من قلبه، ولا يُفَضِّلُه على المسلم، وإلا كان هذا طعنًا في دينه، ووضعًا للمودة في غير موضعها ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ أي: لا يوفق من وضع الولاية في غير موضعها، وهؤلاء الظالمون لَوَجَّهْتُمْ بكل آية ما تبعوك، ولا انقادوا لك.

ومما ورد في أسباب النزول:

١- أن عبادة بن الصامت قال: يا رسول الله، إن لي موالي من اليهود، وإنني أبرأ إلى الله من ولاية يهود، فقال عبد الله بن أبيّ بن سلول: إنني رجل أخاف الدوائر، ولا أبرأ إلى الله من ولاية يهود، فنزلت الآية^(١)

٢- وورد أنه لما كانت وقعة أحد، خافت طائفة من الناس أن يدال عليهم الكفار (أي:

(١) فيه عطية بن سعد العوفي وهو صدوق يخطئ كثيرًا، وقد أخرجه ابن أبي شيبة (١٣٧/١٢) ورواه الطبري بالمعنى بإسناد حسن، وجاء من عدة طرق يقوي بعضها بعضًا، يُنظَر: ابن جرير (٣٩٥/١٠) و«التقريب» و«الدر المنثور» (٢٩٠/٢) وابن إسحاق في السيرة ص(٢٩٥) وابن أبي حاتم (٦٥٠٦).

يغلبوهم) فقال رجل لصاحبه: أما أنا فألحق بفلان اليهودي، فأخذ منه أماناً.

قال السدي: إنها نزلت في رجلين، قال أحدهما لصاحبه بعد وقعة أحد: أما أنا فأني ذاهب إلى ذلك اليهودي فأواليه وأتهود معه إذا وقع أمر أو حدث حادث، وقال الآخر، وأما أنا فأني ذاهب إلى فلان النصراني بالشام، فأواليه وأت نصر معه فأنزل الله الآية^(١).

٣- وقال عكرمة: نزلت في أبي لبابة بن عبد المنذر حين بعثه رسول الله ﷺ إلى بني قريظة فسألوه: ماذا هو صانع بنا؟ فأشار بيده إلى حلقه، إنه الذبح^(٢).

والولاية لليهود والنصارى إن كانت على سبيل الرضى بدينهم ونصرتهم، والطعن في دين الإسلام كانت كفرًا وخروجًا عن دين الإسلام.

وإذا كانت الولاية بمعنى معاملة غير المسلمين معاملة حسنة من غير محبة ولا مودة قلبية، أو اتخاذهم موضع سر دون المؤمنين، من غير رضى بدينهم، فهي معصية تختلف درجاتها بحسب قوة المخالطة وتأثرها بهذه المصادقة.

وقد سئل فقهاء غرناطة عن عصابة من قواد الأندلس وفُرسانهم، لجؤوا إلى النصارى واستنصروا بهم على المسلمين، واعتصموا بحبل جوارهم، وسكنوا أرضهم، فهل يحل لأحد من المسلمين مساعدتهم وإيواءهم؟ فأجابوا بأن ركونهم إلى الكفار، واستنصارهم بهم قد دخلوا به في وعيد قوله تعالى: ﴿وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ يَتَوَلَّهُمْ يَتَوَلَّهُمْ فَإِنَّهُمْ مِنْهُمْ﴾ فمن أعانهم فهو معين على معصية الله ورسوله، ما داموا مصرين على فعلهم، فإن تابوا ورجعوا عما هم فيه من الشقاق والخلاف، فالواجب على المسلمين قبولهم^(٣).

وأدنى درجات الموالاتة: المخالطة والمصادقة، وليس من الموالاتة تبادل الخبرات والقرض والعمل، فقد عامل النبي ﷺ يهود خيبر على مساقاة النخل، ومات ﷺ ودرعه مرهونة عند يهودي، واستأجر في الهجرة دليلاً غير مسلم لخبرته بالطريق.

وفي الآية تغليظ من الله تعالى وتشديد في مجانبة المخالف في الدين واعتزاله، كما

(١) قاله السدي، يُنظر: الطبري (٣٩٧/١٠) وابن أبي حاتم (٦٥٠٧).

(٢) الطبري (٥٠٦/٨).

(٣) تفسير «التحرير والتنوير» (٢٣٠/٦).

قال ﷺ (لا تراءى ناراهما) فمن تولّى غير المسلمين فإنه يكون منهم، بتولّيه إياهم، وقد بين سبحانه أن تولّيهم موجب لسخط الله تعالى، ولو أن متولّيهم كان مؤمناً ما تولاهم، قال تعالى: ﴿تَكْرَى كَثِيرًا مِنْهُمْ يَتَوَلَّوْنَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَيْسَ مَا قَدَّمَتْ لَهُمْ أَنْفُسُهُمْ أَنْ سَخِطَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَفِي الْعَذَابِ هُمْ خَالِدُونَ﴾ (٨٠) وَلَوْ كَانُوا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مَا اتَّخَذُوهُمْ أَوْلِيَاءَ وَلَكِنَّ كَثِيرًا مِنْهُمْ فَسِقُونَ ﴿٨١﴾.

وبين سبحانه سبب النهي عن موالاتهم في قوله: ﴿يَتَّخِذُوا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَتَوَلَّوْا قَوْمًا غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ﴾ [المتحنة: ١٣].

فإذا كانت الموالاتة بسبب خوف محقق تقيّة منهم، فصاحبها معذور، كما قال تعالى: ﴿لَا يَتَّخِذِ الْمُؤْمِنُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَلَيْسَ مِنَ اللَّهِ فِي شَيْءٍ إِلَّا أَنْ تَتَّقُوا مِنْهُمْ تُقَاتَ﴾ [آل عمران: ٢٨].

فمحلّ السخط في موالاتة الكفار هو حالة الاختيار، أما عند الخوف والتقية فيرخص في موالاتهم بقدر الموالاتة التي يتقى بها شرهم، مع وجوب سلامة الباطن من الموالاتة. ويفهم من ذلك أن موالاتة الكفار عمداً واختياراً رغبة فيهم، هو كفر مثلهم لقوله تعالى: ﴿وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ يَتَوَلَّهُمْ أَجْمَعِينَ﴾.

ذَمُّ الْمَسَارَعَةِ فِي مَوَالَاتِ غَيْرِ الْمُسْلِمِينَ

٥٢- ﴿فَتَرَى الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ يُسْرِعُونَ فِيهِمْ يَقُولُونَ نَخْشَى أَنْ تُصِيبَنَا دَائِرَةٌ فَعَسَى اللَّهُ أَنْ يَأْتِيَ بِالْفَتْحِ أَوْ أَمْرٍ مِنْ عِنْدِهِ فَيُضْبِحُوا عَلَى مَا أَسْرُوا فِي أَنْفُسِهِمْ تَدِيرِينَ﴾ (٥٢)

يذم الله سبحانه من يسارعون في مودة غير المسلمين والتحالف معهم مخافة وقائع الدهر وهذا المعنى هو ما تشير إليه هذه الآية ﴿فَتَرَى الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ﴾ أي شك ونفاق وضعف يقين ﴿يُسْرِعُونَ فِيهِمْ﴾ أي يبادرون إلى مودة اليهود وغيرهم، والتزلف إليهم، والقرب منهم، ومخالطتهم، وغشيان مجالسهم، فهم ﴿يَقُولُونَ نَخْشَى أَنْ تُصِيبَنَا دَائِرَةٌ﴾ أي تكون الغلبة لليهود والنصارى، وتريد أن تكون لنا عندهم يد حتى يكافئوننا عليها، فنحن نخشى من الهزائم في الحروب، ونخاف قلة الموارد، ومغالبة الأعداء،

ونخاف ألا ينصر الله أهل الإسلام، فنجعل لنا يداً عندهم؛ حتى لا يظفروا بالمسلمين فيصيبونا معهم، قال الله تعالى: ﴿فَعَسَىٰ اللَّهُ أَن يَأْتِيَ بِالْفَتْحِ﴾ الذي يعز الله به الإسلام ويقهر أعداءه فيخذلهم، ويؤيد المسلمين بنصرهم وفتح الأبواب عليهم فتتغير الأحوال وتبدل، فيصبح القوي ضعيفاً، والضعيف قوياً، ويصبح الغني فقيراً والفقير غنياً، ويصبح الذليل عزيزاً، والعزيز ذليلاً، عسى الله أن يظهر دينه ويعلي كلمته، ويذحر أعداءه، كما أخرج اليهود من المدينة وهم يُخربون بيوتهم بأيديهم وأيدي المؤمنين، بلا كلفة ولا مؤونة من المسلمين، عسى الله أن يلقي في قلوبهم الرعب، فيخذل أعداءه، وينصر أوليائه، وقد تحقق مثل ذلك في فتح مكة.

وعندما يأخذ المسلمون بأسباب النصر ويتأهلون لملاقاة عدوهم، ويتسلحون بالإيمان الكامل؛ فإن الدائرة ستكون على عدوهم بإذن الله تعالى، فالله سبحانه يسلط رسله على من يشاء ﴿هُوَ الَّذِي أَخْرَجَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِنْ دِيَارِهِمْ لِأَوَّلِ الْحَشْرِ مَا ظَنَنْتُمْ أَن يَخْرُجُوا وَظَنُّوا أَنَّهُمْ مَانِعَتُهُمْ حُصُونُهُمْ مِنَ اللَّهِ فَأَلْنَاهُمْ اللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْسِبُوا وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ يُجْرِبُونَ بِيُوتَهُمْ بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِي الْمُؤْمِنِينَ فَاعْتَبِرُوا يَكُونُوا لِلْبَصْرِ ﴿٢﴾﴾ [الحشر].

قال تعالى: ﴿فَعَسَىٰ اللَّهُ أَن يَأْتِيَ بِالْفَتْحِ أَوْ أَمْرٍ مِّنْ عِندِهِ﴾ ليس في الحسبان، فينصر الله دينه، ويظهر الإسلام والمسلمين على الكفار، أو يهيئ من الأمور والأسباب ما تذهب به قوة اليهود والنصارى، فيخضعون للمسلمين، فحينئذ يندم المنافقون على ما أضمروا في أنفسهم من موالة الأعداء ﴿فَيُضْهِجُوا عَلَىٰ مَا أَسْرَوْا فِي أَنْفُسِهِمْ تَدْمِيمًا﴾ على ما كان منهم متحسرين على ما فرطوا في جنب الله من قلة إيمان وضعف يقين.

ومن هنا فإنه لا ينبغي للمسلم أن يستعمل غير المسلم في الخدمة أو الوظائف أو السكرتارية، ويترك المسلم، بحجة المهارة، أو الأمانة، أو الثقة في غير المسلمين، فهذا ضعف في النفس نابع من ضعف الإيمان، ولو كان الإيمان قوياً لَوَثَّقَ بإخوانه المسلمين والناس بَشَرًا، والخطأ وارد على كل البشر، ولا يوجد معصوم إلا من عصمه الله تعالى.

ورد عن أبي موسى الأشعري ؓ أنه قال: قلت لعمر بن الخطاب ؓ: إن لي كاتباً نصرانياً، فقال: ما لك؟ قاتلك الله، ألا اتخذت حنيفياً؟ أما سمعت قول الله تعالى:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ﴾ قلت: له دينه، ولي كتابته، فقال: لا أُكْرِمُهُمْ إِذْ أَهَانَهُمُ اللَّهُ، ولا أُعِزُّهُمْ إِذْ أَذْلَهُمُ اللَّهُ، ولا أُذْنِيهِمْ إِذَا أَبْعَدَهُمُ اللَّهُ، قلت: لا يتم أمر البصرة إلا به، فقال: مات النصراني، والسلام، أي: هَبْ أَنَّهُ مَاتَ، فما تصنع بعد موته؟ فاستغن عنه بغيره^(١).

وفي رواية أن عمر رضي الله عنه قال له: هل أنت قارئ لنا كتابًا في المسجد جاء من الشام؟ فقال أبو موسى: إنه لا يستطيع، فقال عمر: أجنب هو؟ قال: بل نصراني، قال: فانتهرني وضرب فخذني، ثم قال: أخرجوه، ثم قرأ: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَرَىٰ أَوْلِيَاءَ﴾^(٢).

التَّعَجُّبُ مِنَ الْمَسَارَعَةِ فِي مَوَدَّةِ غَيْرِ الْمُسْلِمِينَ

٥٣- ﴿وَيَقُولُ^(٣) الَّذِينَ ءَامَنُوا أَهَؤُلَاءِ الَّذِينَ أَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَنِهِمْ إِنَّهُمْ لَمَعَكُمْ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فَأَصْبَحُوا خَاسِرِينَ ﴿٥٣﴾﴾

ولما أظهر الله نفاق المنافقين في ميلهم إلى موالاة اليهود والنصارى، تعجَّب المؤمنون من حالهم، واستنكروا ما صدر منهم من خداع وكذب في دعوى الإيمان، وقال بعضهم لبعض وهم يشيرون إلى اليهود والنصارى: أهؤلاء الذين أقسموا أغلظ الأيمان إنهم معنا ومن أنصارنا، فكيف صاروا موالين لأعدائنا، محيين الاختلاط بهم، بطلت أعمال المنافقين التي عملوها في الدنيا، فلا ثواب لهم عليها؛ وهم بهذا قد خسروا دنياهم بافتضاح أمرهم وبيان كذبهم، وخسروا آخرتهم بإحباط ثواب أعمالهم، وحصول العذاب الدائم لهم.

(١) يُنْظَرُ: الفخر الرازي (١٦/١٢) وتفسير «الخازن» (٤٧٢/١).

(٢) يُنْظَرُ: «تفسير ابن كثير» للآية والفخر الرازي (١٦/١٢) وابن أبي حاتم (٦٥١٠) والبيهقي في «الشعب» (٩٣٨٤) عن عياض.

(٣) قرأ نافع وابن كثير وابن عامر وأبو جعفر (يقول) بحذف الواو التي قبل الياء، ورفع اللام، على الاستئناف، كأنه جواب لسؤال مقدر، تقديره: ماذا يقول المؤمنون حينئذ؟ وقرأ أبو عمرو ويعقوب بإثبات الواو ونصب اللام عطفًا على (فيصبحوا) المنصوبة بأن مضمرة بعد الفاء في جواب الترجي، وقرأ الباقون بإثبات الواو، والرفع، على الاستئناف، وإثبات الواو وحذفها موافق للرسم العثماني في كل هذه المصاحف.

﴿وَقُولُوا لِلَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ أي: يقول بعضهم لبعض مستنكرين ما صدر من المنافقين من إيمان كاذبة ومتعجبين من تعاونهم مع أعداء الله ﴿أَهَؤُلَاءِ الَّذِينَ أَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ﴾ أي: أنهم حلفوا أيمانًا مغلظة ﴿إِنَّهُمْ لَمَعَكُمْ﴾ أي: مع المؤمنين بالعون والنصر، وقد بين الله سبب هذا الحلف الكاذب للمسلمين أنهم منهم، إنما هو الخوف، ولو وجدوا ما يسترهم عن المسلمين لسارعوا إليه، لشدة بغضهم لهم، كما قال تعالى: ﴿أَتَعْبُدُوا أَيْمَانَهُمْ جُنتُ﴾ [المنافقون: ٢]. وقال: ﴿لَوْ يَجِدُونَ مَلَجًا أَوْ مَغْرَبًا أَوْ مَدخلًا لَّوَلُوا إِلَيْهِ وَهُمْ يَجْحَدُونَ﴾ [التوبة].

كما بين سبحانه أن المنافقين يحلفون للمؤمنين ليرضوا عنهم، ولو رضي عنهم المؤمنون، فإن الله تعالى غير راضٍ عنهم ﴿يَحْلِفُونَ لَكُمْ لِيَرْضَوْا عَنْهُمْ فَإِنْ تَرْضَوْا عَنْهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَرْضَىٰ عَنِ الْفَاسِقِينَ﴾ [التوبة]. ﴿يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ لِيَرْضَوْكُمْ وَاللَّهُ وَرَسُولُهُ أَحَقُّ أَنْ يُرْضَوْهُ إِنْ كَانُوا مُؤْمِنِينَ﴾ [التوبة].

ثم أخبرت عن حال الموالين لغير المسلمين فقال تعالى ﴿حِطَّتْ أَعْمَلُهُمْ فَأَصْبَحُوا خَاسِرِينَ﴾ يحتمل أن يكون هذا من كلام الله تعالى بتقرير حالتهم فهو إخبار عنهم، ويحتمل أن يكون من كلام المؤمنين عنهم، والأظهر أنه من كلام الله تعالى على وجه الدعاء عليهم إما من الله تعالى، وإما من المؤمنين وهؤلاء خسروا دنياهم وأخراهم.

وهكذا فقد نهت الآيات عن موالات أعداء الله نهياً صريحاً بذكر اليهود والنصارى، وبيّنت علة النهي، وأن بعضهم يوالي بعضاً، وصرّحت بأن من يواليهم فهو منهم، وسجلت الظلم على من يواليهم، وأخبرت أنه لا يواليهم إلا من كان في قلبه ضعف ونفاق، ثم قطعت الآيات أطماع الموالين، وبشّرت المؤمنين بتغيير الأحوال، وتبديل الأمور، والفوز القريب للمؤمنين ﴿فَعَسَىٰ اللَّهُ أَنْ يَأْتِيَ بِالْفَتْحِ أَوْ أَمْرٍ مِّنْ عِندِهِ﴾

وقد تبين مما سبق أن موالاته لغير المسلمين على ثلاثة أنواع:

النوع الأول: هم الذين يعيشون مع المسلمين مسالمين لهم، ولا يعملون لحساب جهة أخرى، ولم يظهر منهم ما يسيء الظن بهم، فهؤلاء لا مانع من حسن التعامل معهم، ومجاملتهم في الأمور الاجتماعية من غير رضى عن ديانتهم، ولا مجاملة في أمور دينهم؛ كالأعياد الدينية، والطقوس الخاصة بهم.

النوع الثاني: هم المحاربون للمسلمين في عقيدتهم، أو المحتلون لأرضهم، والمساعدون لهم في ذلك، والذين يتربصون بنا الدوائر، ويعملون على تبديد طاقاتنا، وفساد شبابنا، وضعف قوتنا، فهؤلاء أعداء وهم مع من أعانهم، لا تجوز موالاتهم، ولا التعامل معهم، ولا الإحسان إليهم.

النوع الثالث: قوم لا يُظهرون العداوة لنا ولا لديتنا، والقرائن تدل على أنهم لا يحبوننا ويحبون أعداءنا، فهؤلاء علينا أن نحذر منهم، ونتعامل معهم بقدر، ولا نعتدي عليهم بدون عدوان علينا.

النِّدَاءُ الثَّامِنُ: الرَّدَّةُ وَالْمَرْتَدُّونَ

٥٤- ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَنْ يَرْتَدَّ^(١) مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهَ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٌ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٌ عَلَى الْكَافِرِينَ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَائِمٍ ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٥٥﴾﴾

أما النداء الثاني للمؤمنين في هذا الربع من السورة، وهو النداء الثامن فيها، فهو يربط بين موالات اليهود والنصارى وبين الارتداد عن دين الإسلام، فكأن محبتهم وكثرة مخالطتهم ومودتهم قد يكون لها من التأثير على عقيدة المسلم فتؤدي به إلى التهود، أو التنصر، والخروج من ربة الإسلام، ولهذا فإن الله تعالى يحذر عباده أن ينسلخوا من دينهم فيرتدوا عن الإسلام، ويهددوهم إن هم فعلوا ذلك، فإن الله تعالى سيستبدل بهم قوماً آخرين لا يتزعزع إيمانهم، ويؤثرون في غيرهم، ولا يتأثرون ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَنْ يَرْتَدَّ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ﴾ فيرجع عنه إلى غيره، ويستبدل به اليهودية، أو النصرانية، أو غيرهما، فإنه بعمله هذا لن يضر الله شيئاً، وإنما ضرَّ نفسه برجوعه عن الدين الصحيح، وقد خسر بذلك دنياه وآخره.

قيل: إنه ارتد عن الإسلام إحدى عشرة فرقة، ثلاث في عهد النبي ﷺ وهم: بنو

(١) قرأ نافع وابن عامر وأبو جعفر (يرتد) بدالين، الأولى مكسورة والثانية مجزومة مع فك الإدغام، على الأصل في الجزم، وهي موافقة لرسم المصحف الشامي والمدني، بلغة أهل الحجاز، وقرأ الباقر (يرتد) بدال واحدة مشددة على الإدغام للتخفيف، وهي لغة تميم.

مدلج، ورئيسهم الأسود العنسي، وبنو حنيفة، قوم مسيلمة الكذاب، وبنو أسد، قوم طلحة بن خويلد الأسدي.

وسبع في عهد أبي بكر الصديق ﷺ، وهم: فزارة، وغطفان، وبنو سليم، وبنو يربوع، وبعض بني تميم، وكندة، وبنو بكر بن وائل.

وارتدت فرقة واحدة في عهد عمر، وهي قبيلة غسان، قوم جبلة بن الأيهم^(١).

أما الأسود العنسي، فكان قد تنبأ باليمن، واستولى على بلاده، وأخرج منها عمال رسول الله ﷺ وقد أهلكه الله على يد فيروز الديلمي فقتله، وأخبر رسول الله ﷺ بقتله ليلتها.

أما مسيلمة الكذاب، فقد تنبأ، وكتب إلى النبي ﷺ يقول له: إنه رسول الله، وإن لي نصف الأرض ولك نصفها. فكتب إليه النبي ﷺ يقول: أما بعد: ﴿إِنَّ الْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [الأعراف: ١٢٨].

أما طلحة بن خويلد، فقد تنبأ، وأرسل إليه النبي ﷺ خالد بن الوليد ﷺ فقاتله وهزمه، ثم أسلم بعد ذلك وحسن إسلامه^(٢).

وهذه الآية مما أخبر عنه القرآن قبل وقوعه، وقد وقع ما أخبر به فكان هذا من معجزاته ﷺ؛ إذ كانت ردة كثير من العرب بعد موته ﷺ، ولم يبق إلا ثلاثة مساجد هي: مسجد مكة، ومسجد المدينة، ومسجد البحرين (جُوثى) بالإحساء، وكانت تسمى البحرين.

أما القوم الذين يخلفون المرتدين في كل زمان ومكان فقد وصفهم ربنا بأوصاف ثلاثة:

الوصف الأول: أن الله تعالى يحبهم ويرضى عنهم، وهم يحبون الله تعالى فيمثلون أمره، ويجتنبون نهيه، فهم عباد مخلصون ورجال صادقون، قد تكفل الرحمن الرحيم بهدايتهم، ووعد بالإتيان بهم، وأنهم أكمل الخلق أوصافاً وأقواهم نفوساً وأحسنهم أخلاقاً.

والمعنى: وسوف يأتي الله بقوم آخرين خير منهم كما قال تعالى: ﴿وَإِنْ تَوَلَّوْا يَسْتَبَدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوا أَمْثَلَكُمْ﴾ [محمد: ٣٨]. وقال سبحانه: ﴿إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ

(١) يُنْظَرُ: «تفسير الألوسي» (٦/ ١٦٠) وتفسير «الخازن» (١/ ٤٧٣).

(٢) يُنْظَرُ: تفسير البغوي، «الخازن» والألوسي والطاهر بن عاشور للآية.

جَدِيدٌ ﴿إِبْرَاهِيمَ: ١٩﴾. وهؤلاء القوم يحبون الله أكثر من حبهم لأنفسهم، ولا يَحِيدُونَ عن محبته طرفة عين، ولا يَرْضُونَ بدين الإسلام بديلاً، وهذا معنى: ﴿فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوِيٍّ مُّحِبِّهِمْ وَيُحِبُّونَهُ﴾ ومحبة الله للعبد أجل نعمة يُنعم بها عليه، وإذا أحب الله العبد يسّر له الأسباب، وهَوْنٌ عليه كل عسير، وأقبل بقلوب العباد إليه بالموددة والمحبة.

ومن لوازم محبة العبد لربه: أن يخلص لله تعالى في طاعته وعبادته، ويتصف بمتابعة الرسول في أقواله وأفعاله.

ومن لوازم محبة الله للعبد: الإكثار من التقرب إليه بالفرائض والنوافل، والإكثار من ذكره سبحانه وتعالى، قال تعالى ﴿قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ﴾ [آل عمران: ٣١]

وقال ﷺ فيما يرويه عن ربه عز وجل «وما تقرب إلي عبدي بشيء أحب إلي مما افترضته عليه، ولا يزال عبدي يتقرب إلي بالنوافل حتى أحبه، فإذا أحببته كنتف سمعه الذي يسمع به، وبصره الذي يبصر به، ويده التي يبطش بها، ورجله التي يمشي بها، ولئن سألني لأعطينه، ولئن استعاذ بي لأعيذه» والحب رتبة فوق رتبة الطاعة والاتباع، إنه رضى متبادل، وتقدير مراد الله تعالى على مراد النفس والهوى، فالله تعالى أولى بالمؤمنين من أنفسهم، فكل من أحب الله وأحبه الله فهو داخل في هذا الحب من غير تخصيص بزمان معين، ولا مكان معين، ولا أشخاص معينين.

وإذا أحب الله العبد، أنعم عليه بفعل الخيرات وترك المنكرات، ووفقه وهداه إلى طاعته والعمل بما يرضيه.

ومن مقتضى محبة العبد لله تعالى: المسارعة إلى طاعته، وألا يفعل ما يوجب سخطه، وأن يتقرب إليه بما يحبه ويرضاه.

قال قتادة: أنزل الله هذه الآية وقد علم أنه سيرتد مرتدّون من الناس، فلما قبض الله نبيه ارتدّ عامة العرب عن الإسلام إلا ثلاثة مساجد؛ أهل المدينة، وأهل مكة، وأهل الجوّاثا من عبد القيس، وهم أهل البحرين في الإحساء، وهم أهل أول موضع جُمعت فيه الجمعة بعد المدينة، فقال الذين ارتدوا نصلي ولا نركي، والله لا تُغْصَبُ أموالنا، فقال أبو بكر: والله لا أفرق بين شيء جمعه الله، ولو منعوني عقلاً مما فرضه الله

ورسوله لقاتلتهم عليه.

قال قتادة: فكنا نحدث أن هذه الآية نزلت في أبي بكر وأصحابه^(١).

ولما ارتد من ارتد من العرب عن الإسلام جاهدتهم أبو بكر وأصحابه حتى ردّهم إلى الإسلام.

وقد وردت أحاديث وآثار تحدد المراد بهم في الآية:

١- ف قيل: إنهم أبو بكر ومن معه من المؤمنين الذين قاتلوا المرتدين، حيث قال أبو بكر: (والله لأقاتلن من فرق بين الصلاة والزكاة) وقال: (والله لو منعوني عقالا أو عناقا كانوا يؤدونه لرسول الله لقاتلتهم عليه)^(٢).

والعناق: الأثني من ولد المعز، ما لم تتم سنة.

٢- وقيل: إنهم الأنصار الذين نصرُوا الرسول ﷺ وآزروه، أو هم المهاجرون والأنصار معًا.

٣- وقيل: هم أهل اليمن الذين جاهدوا في سبيل الله يوم القادسية، وكانوا عشرة آلاف مقاتل.

٤- وقيل: هم أهل فارس، وقد سئل النبي ﷺ عن الذين يحبون الله ويحبهم الله، ف ضرب على عاتق سلمان، وقال: «هذا وذووه، ولو كان الإيمان معلقًا بالثريا لناله رجال من أبناء فارس»^(٣).

٥- وقيل: هم قوم أبي موسى الأشعري، كما جاء عن سماك بن حرب قال: سمعت عياضًا الأشعري يقول: لما نزلت ﴿فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ﴾ قال ﷺ: «هم قومك

(١) الطبري (٥٢٠/٨) والبيهقي (١٧٧/٨) وابن عساكر (٣١٩/٣٠).

(٢) رواه أبو بكر وأبو هريرة في مسند أحمد (١٠٨٤٠، ١١٧، ٢٣٩) وإسناده صحيح على شرط الشيخين، وأخرجه البخاري (١٣٩٩، ١٤٥٦) والبيهقي (١٠٤/٤) والنسائي (٥/٦) وابن حبان (٢١٦).

(٣) ينظر حديث أبي هريرة في البخاري (٤٦١٥) وابن حبان في صحيحه (٧٣٠٨) وصححه الحاكم على شرط البخاري في المستدرک (٨١٩٤) ج ٤ ص ٤٣٧ وعن ابن عمر في فضائل البلدان (١٨٤/١).

يا أبا موسى» وأشار رسول الله ﷺ بيده إلى أبي موسى الأشعري^(١).

وعن أبي هريرة ؓ أن رسول الله ﷺ قال: «أتاكم أهل اليمن، هم أرق أفئدة، وألين قلوبًا، الإيمان يمان، والحكمة يمانية والفقہ يمان»^(٢).

وعلى القول بأنهم الذين قاتلوا المرتدين حين كره بعض الصحابة قتالهم، ففتبوا وقاتلوهم، وكذا على القول بأنهم الأشعريون، تكون الآية إخبارًا عن الغيب، وقد حدث ما أخبرت به.

وهذا يفسر قول الحسن: علم الله تعالى أن قومًا سيرجعون عن الإسلام بعد موت نبيهم، فأخبر أنه سيأتي يقوم يحبهم ويحبونه.

وعن أبي سعيد الخدري ؓ أن رسول الله ﷺ قام خطيبًا، فكان فيما قال: «ألا، لا يمتنعنَّ رجلاً هيبةُ الناس أن يقول بحق إذا علمه» قال: فبكى أبو سعيد، وقال: قد والله رأينا أشياء فهبنا^(٣).

وعنه أيضًا أن رسول الله ﷺ قال: «لا يحقرنَّ أحدكم نفسه»، قالوا: وكيف يحقر أحدنا نفسه؟ قال: «أن يرى أمر الله فيه مقال، فلا يقول به، فيقال له يوم القيامة: ما يمنعك أن

(١) قال الحاكم: هذا حديث صحيح على شرط مسلم ولم يخرجه (٣١٣/٢) وصححه الذهبي وابن الملقن، وأخرجه الطبراني في الكبير برقم (١٠١٦) وابن أبي شيبة في مسنده برقم (١٠٣) و«تفسير الطبري» برقم (١٢١٩١، ١٢١٨٨) وابن أبي حاتم في تفسيره برقم (٢٦٦) وقال الهيثمي في «المجمع» (١٦/٧) رجال الطبراني رجال الصحيح، وقال البوصيري في «الإتحاف»: هذا إسناد رواه ثقات وأخرجه ابن سعد (٤/١٠٧) والبيهقي (٣٥١/٥).

(٢) «المسند» برقم (٧٦٢٧، ٧٧٢٣) بإسناد صحيح على شرط الشيخين وعن أنس (١٣٢١٢) وهو في صحيح مسلم (٨٢، ٥٢) ومصنف عبد الرزاق (١٩٨٨) عن أبي هريرة.

(٣) «صحيح سنن ابن ماجه» برقم (٣٢٣٧) وهو في ابن ماجه برقم (٤٠٠٧) وأخرجه الترمذي برقم (٢١٩١) وقال: حديث حسن صحيح و«المسند» (٥/٣، ٤٦، ٤٤) من طرق متعددة وهو في «المسند» (١١٨٢٤) قال محققوه: حديث صحيح، وفيه انقطاع بين الحسن البصري وأبي سعيد، وبقية رجاله ثقات، وأخرجه ابن حبان برقم (٢٧٥) و«مسند أبي يعلى» برقم (١٤١١) وصحح رجاله الهيثمي في «مجمع الزوائد» (٧/٢٧٤).

تكون قلت في كذا وكذا؟ فيقول: مخافة الناس، فيقول: إياي أحق أن تخاف»^(١).

أما الوصف الثاني للمؤمنين الكَمَل فإنهم رحماء بالمؤمنين أشداء على الكفار ﴿أَذِلَّةٌ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ﴾ أي أنهم أصحاب قلوب ليّنة ورأفة ورحمة ومحبة لإخوانهم المؤمنين، كما قال تعالى ﴿وَخَفِضَ لَهُمَا جَنَاحَ الذِّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ﴾ [الإسراء: ٢٤]

وهذا الوصف ﴿عَزَزَهُ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾ فقد اجتمعت همتهم وعزيمتهم على عداوة المؤمنين، وبذلوا الجهد في كل سبب يحصل به الانتصار عليهم.

وليس المراد بقوله تعالى: ﴿أَذِلَّةٌ﴾ الذل والهوان، وإنما المراد لين الجانب، والرفقة والرحمة والشفقة لإخوانهم المؤمنين، بالتذلل والتواضع والعطف والمحبة، وخفض الجناح لهم، مع شرفهم وعلوهم وفضلهم.

والمراد بالعزة: القوة والشدة والغلظة، بمعنى أن هؤلاء المؤمنين أشداء وأقوياء على الكفار، ودعوتهم إلى الإسلام ليست من باب الشدة ولا الغلظة.

فهم كما قال ابن عباس ؓ: تراهم - بالنسبة لإخوانهم في الدين - كالوالد على ولده، وكالعبد لسيده، وهم في الغلظة على الكافرين كالسبع على فريسته.

وكما قال علي ؓ في وصفهم: أهل رقة على أهل دينهم، وأهل غلظة على من خالفهم في دينهم.

كما قال تعالى: ﴿مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ﴾ [الفتح: ٢٩].

ومن صفات المؤمن أنه هَيِّنٌ لَيِّنٌ، متواضع لأخيه متعزز على عدوه.

الوصف الثالث: أنهم ﴿يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ بأنفسهم وأموالهم وأقوالهم وأفعالهم ﴿وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَائِمٍ﴾ أي: أنهم يجاهدون أعداء الله، لنصرة دينه، ورفع كلمته، ونشر

(١) «المسند» (٧٣/٣) برقم (١١٨٦٨، ١١٢٥٥) إسناده ضعيف لإبهام الراوي عن أبي سعيد، وبقي رجاله ثقات رجال الشيخين، (محققوه) وابن ماجه (٤٠٠٨) قال البوصيري في «الزوائد» (٢٤٤/٣) هذا إسناد صحيح وضعفه الألباني في «ضعيف سنن ابن ماجه» (٨٦٨) وأخرجه الطيالسي (٢٢٠٦) والبيهقي في الشعب (٧٥٧١).

دعوته، وزجر مَنْ حال دون إقرار منهج الله في أرضه، وهم في جهادهم هذا لا يخافون في ذات الله لومة لائم، فلا يردهم عن قتال أعداء الله راد، ولا يصدّهم صادٌ، بل يقدّمون رضى الله تعالى والخوف منه على رضى الخلق والخوف منهم، ولا يَسْلَمَ القلب من التعبد لغير الله تعالى حتى لا يخاف في الله لومة لائم:

عن أبي سعيد الخدري رضى الله تعالى عنه أن رسول الله ﷺ قال: «ألا لا يمنع أحدكم رهبة الناس أن يقول بحق إذا رآه أو شهد، فإنه لا يقرب من أجل، ولا يباعد من رزق أن يقول بحق، أو يذکر بعظيم»^(١).

وقد دخل في الإسلام بعد أحداث الردة كثير ممن يحبهم الله ويحبونه، من عرب الشام والعراق، وأهل فارس، ومصر، وتركيا وإسبانيا وصقلية، والهند والصين والسودان، وغيرهم ممن تحقق بهم وعد الله تعالى.

وعن أبي ذر رضى الله عنه قال: أمرني خليلي بسبع:

- ١- أمرني بحب المساكين والذنو منهم.
- ٢- وأمرني أن أنظر إلى من هو دوني، ولا أنظر إلى من هو فوقى.
- ٣- وأمرني أن أصل الرحم وإن أدبرت.
- ٤- وأمرني ألا أسأل أحدا شيئاً.
- ٥- وأمرني أن أقول الحق وإن كان مرأاً.
- ٦- وأمرني ألا أخاف في الله لومة لائم.

(١) «المسند» (٥٠/٣) برقم (١١٤٧٤) حديث صحيح إلى قوله (أو شهد) وفي باقيه ضعف في السند (محققوه) وابن ماجه (١٣٢٨/٢) وأبو يعلى في مسنده (٤١٩/٢) برقم (١٤١١) والطبراني في الأوسط (٢٨٢٥) وفي سنده انقطاع من طريق أبي سعيد، ولكنه صحيح من طريق أبي نضرة كما في «المسند» (٥/٣)، ص (٤٤) و(٩٢) برقم (١١٠١٧) بإسناد صحيح على شرط مسلم وانظر: (١١٨٣١)، (١١٨٦٩) وغيرهما.

٧- وأمرني أن أكثر من قول: لا حول ولا قوة إلا بالله فإنهن من كنز تحت العرش^(١).

وفي الصحيحين وغيرهما عن عبادة بن الصامت رضي الله عنه قال: بايعت رسول الله ﷺ على السمع والطاعة في العسر واليسر، والمنشط والمكره، وعلى أثرة علينا، وعلى ألا ننازع الأمر أهله، وعلى أن نقول الحق أينما كنا، ولا نخاف في الله لومة لائم^(٢).

وقد ذم الله تعالى قومًا يخافون الناس، ولا يخافون الله، فقال: ﴿يَسْتَخْفُونَ مِنَ النَّاسِ وَلَا يَسْتَخْفُونَ مِنَ اللَّهِ وَهُوَ مَعَهُمْ﴾ [النساء: ١٠٨]. وقد نهانا الله تعالى عن الخوف من الناس، وأمرنا بالخوف منه وحده، فقال: ﴿فَلَا تَخْشَوُا النَّاسَ وَاخْشَوُا اللَّهَ﴾ [٤٤].

وهذا الإنعام من الله تعالى يمنحه كل من اتصف بهذه الأوصاف الثلاثة في كل زمان ومكان ﴿ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ﴾ من خلقه، وهو سبحانه واسع الفضل والجود، عليم بمن يستحق هذه المنزلة من عباده ﴿وَاللَّهُ وَسِعَ كُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا﴾ واسع الفضل والإحسان، جزيل المنن، قد عمّت رحمته كل شيء، ووسع فضله الأولياء من عباده.

مَنْ تَجِبَ مَوَالَاتُهُمْ وَمَحَبَّتُهُمْ

٥٥- ﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ ذَكَرُونَ﴾

وبعد النهي عن موالاة أعداء الله تعالى، بين ﷺ من تجب موالاتهم، فقال: ﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ﴾ أيها المؤمنون ﴿اللَّهُ وَرَسُولُهُ﴾ فولاية الله تعالى تدرك بالإيمان والتقوى، فكل من كان مؤمنًا تقيًا كان لله وليًا، ومن كان وليًا لله كان وليًا لرسوله، ومن تولى الله ورسوله، تولى من تولاها الله ورسوله من المؤمنين الصادقين المخلصين، وليس اليهود والنصارى ومن على شاكلتهم، فالله هو الذي ينصركم على عدوكم، وهو الذي يتولاكم بعنايته

(١) حديث حسن، أخرجه أحمد في «المسند» (١٥٩/٥) برقم (٢١٤١٥) وابن أبي شيبة (٢٣٢/١٣) والطبراني في الصغير (٧٥٨) وفي الدعاء (١٦٤٨) وفي الأوسط (٧٧٣٥) وفي الكبير (١٦٤٨) وابن سعد (٢٢٩/٤) والبيهقي في الشعب (٣٤٢٩) قال محققو المسند: حديث صحيح، وهذا إسناد حسن، وهو في مسند البزار (٣٩٦٦) وابن حبان (٤٤٩).

(٢) البخاري (٩٦/٩) باب كيف يبایع الإمام الناس، كتاب الأحكام برقم (٧١٩٩، ٧٢٠٠) ومسلم (١٧٠٩) والنسائي (٤١٦٠، ٤١٦٥) وابن ماجه (٢٨٦٦).

ورعايته، ووليكم أيضاً عباده المؤمنون ﴿وَالَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ والولاية لله تعالى أصل، ولغيره تبع، قال تعالى: ﴿وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ﴾ [التوبة: ٧١]. فلا تركوا ولاية المؤمنين وتوالوا اليهود والنصارى ومن على شاكلتهم، ومن أخص صفات هؤلاء المؤمنين:

١- أنهم يداومون على أداء الصلاة المفروضة في أوقاتها بخشوع وخضوع، مع المحافظة على الطمأنينة في ركوعها وسجودها والقراءة فيها ﴿الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ﴾.

٢- وهم يخرجون زكاة أموالهم عن رضا نفس وطيب خاطر ﴿وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ﴾.

٣- وهؤلاء المؤمنون يصلّون ويزكّون، وهم خاضعون منقادون لأوامر الله عزّ وجلّ ونواهيهِ ﴿وَهُمْ رَاكِعُونَ﴾.

فالركوع بمعنى الخضوع، والانقياد لله عزّ وجلّ، أي: أن المؤمنين من شأنهم إقامة الصلاة بخضوع وخشوع وتواضع، وخص الله سبحانه الركوع بالذكر تشريعاً له.

والآية عامة في جميع المؤمنين، وهي تنمّة الحديث عن وجوب معاداة أعداء الله تعالى وموالاته أوليائه.

قال جابر بن عبد الله: نزلت في عبد الله بن سلام، وذلك أنه جاء إلى النبي ﷺ فقال: يا رسول الله، إن قومنا قريظة والنضير هجرونا وفارقونا وأقسموا ألا يجالسونا، فنزلت هذه الآية، فقرأها عليه رسول الله ﷺ فقال عبد الله بن سلام: رضينا بالله رباً، وبرسوله نبياً، وبالمؤمنين أولياء^(١).

وقد نزلت هذه الآيات في عبادة بن الصامت ؓ حين تبرأ من ولاية يهود.

وما ورد من آثار تفيد أن هذه الآية نزلت في علي بن أبي طالب ؓ، وأنه تصدّق بخاتمه وهو راکع، فهي روايات لم يصح منها شيء؛ لضعف أسانيدھا، وجهالة رجالها^(٢).

(١) تفسير «الخازن» (٤٧٤/١) و«زاد المسير» (٣٨٢/٢).

(٢) كما ذكر ابن كثير في تفسيره للآية والسيوطي في «الدر المثور» وغيرهما.

ثَمَرَةُ الْحَبِّ فِي اللَّهِ وَالْبُغْضِ فِي اللَّهِ

٥٦- ﴿وَمَنْ يَتَوَلَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا فَإِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْغَالِبُونَ﴾ (٥٦)

ثم بيّن ﷺ الثمرة والنتيجة للحب في الله والبغض في الله، فبيّن سبحانه أن ﴿حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْغَالِبُونَ﴾ الذين لهم العاقبة في الدنيا والآخرة، وحزب الله هم أنصار دينه، الذين لا يوالون من حادّ الله ورسوله، ولو كانوا أقرب الناس إليهم، وهم لا يثقون إلا بالله، ولا يستمدون العون والنصر إلا منه سبحانه، ومن كان من حزب الله وجنده كان له الغلبة والانتصار، كما قال تعالى ﴿وَلَا جُنْدًا لَهُمُ الْغَالِبُونَ﴾ [الصفات: ١٧٣] وهذه بشارة عظيمة.

وبالمقابل فمن يتولّى غير المؤمنين فهو من حزب الشيطان، وحزب الشيطان خاسرون لدينهم ودنياهم ﴿أَلَا إِنَّ حِزْبَ الشَّيْطَانِ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾ (١٦) [المجادلة]

النِّدَاءُ التَّاسِعُ: النَّهْيُ عَنْ مَوَالَاةٍ مَنْ يَسْخَرُونَ مِنَ الْإِسْلَامِ وَأَهْلِهِ

٥٧- ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَكُمْ هُزُؤًا^(١) وَلَعِبًا مِّنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ وَالْكَفَّارَ^(٢) أَوْلِيَاءَ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ كُفْرَكُمْ مُؤْمِنِينَ^(٣)﴾ (٥٧)

النداء الثالث للمؤمنين في هذا الربع من سورة المائدة، والتاسع فيها، وهو نداء يضيف إلى التحذير من موالاة أهل الكتاب: التحذير من موالاة مَنْ لا كتاب لهم من سائر ملل الكفر والشرك، فينهى عن موالاتهم، فلا تحبونهم، ولا تذكرهم لهم أسرار المسلمين، ولا تعاونونهم على ما يضر بالإسلام والمسلمين، مع أن ما معكم من إيمان وتقوى -أيها المسلمون- تدعوكم إلى معاداتهم ومخالفتهم، لا سيما من استهزأ بدينكم واحتقر شعائره.

ويشير هذا النداء في نفوس المؤمنين الغضب لدين الله، والحمية لعبادتهم وصلاتهم التي يهزأ بها هؤلاء ويسخرون منها.

(١) قرأ حفص (هزؤا) بإبدال الهمزة واوا، للتخفيف، مع ضم الزاي وصلًا ووقفًا، وقرأ حمزة بالهمز مع إسكان الزاي، وصلًا فقط، وقرأ خلف العاشر مثله وصلًا ووقفًا، وقرأ الباقون بالهمز مع ضم الزاي وصلًا ووقفًا، ووقف عليها حمزة بنقل حركة الهمزة إلى الساكن قبلها، وإبدال الهمزة واوا موافقة للرسم.

(٢) قرأ أبو عمرو والكسائي ويعقوب بخفض راء (والكفار) عطفًا على الاسم الموصول الأول.

(٣) أبدل ورش وأبو جعفر وأبو عمرو بخلف عنه همزة (مؤمنين) واوا، وصلًا ووقفًا، ويوافقهم حمزة عند الوقف.

فقال تعالى: ﴿يَتَّخِذُهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ أي: أيقنوا وصدّقوا بالله ربًّا، وبمحمد نبيًّا ورسولًا، فأطاعوا الله، واتبعوا رسوله ﴿لَا نَتَّخِذُوا الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَكُمْ هُزُوءًا وَلَعِبًا﴾ أي: لا تتخذوا هذا الدين مادة للسخرية والتهكم وموضعًا للعبث، وكان هذا الاستهزاء والاستخفاف بالصلاة يقع من الكفار الوثنيين الذين لا كتاب لهم. كما يقع من اليهود خاصة في الفترة التي كان الوحي ينزل فيها على رسول الله ﷺ بالمدينة، إذ لم يكن فيها نصارى يهزؤون بالدين.

ورد أن رفاعة بن زيد، والحارث بن سويد، أظهرًا الإسلام، ثم نافقا، وكان رجال من المسلمين يوادونهما^(١)

وكان استهزاؤهما وتلاعبهما في إظهار الإسلام وإخفاء الكفر، وكان بعض المسلمين يوادونهما اغترارًا بظاهرهما، فنهى الإسلام عن مودتهما، وكشف الله سترهما؛ إذ كيف يكون ولاء بين المؤمن وبين من يتلاعب بالدين ويستهزئ به ممن كانوا إذا نودي للصلاة ضحكوا وصاحوا مثل صياح العير.

والله سبحانه يضع قاعدة عامة للمسلمين على مدى التاريخ، سواء أكان هذا المستهزئ بالدين يهوديًا، أم نصرانيًا، أم بوذيًا، أم شيعيًا، أم ملحدًا، أم علمانيًا... إلخ، أي: من أهل الكتاب، أو من غيرهم، وجميع هذه الطوائف تدخل في قوله تعالى: ﴿مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ﴾ وهم الذين ينتمي شرعهم إلى كتاب منزل، هو التوراة والإنجيل، باعتبار الأصل وعدم التحريف، أما غير أهل الكتاب فيشير إليهم قوله تعالى: ﴿وَالْكَافِرَ﴾ وهم أغلظ وأفحش؛ لأنهم عبدة أوثان.

وقد روى ابن عباس ؓ أن نفرًا من اليهود والمشركين ضحكوا من المسلمين وقت سجودهم.

وهذا لا ينافي وصف أهل الكتاب بالكفر بعد مجيء محمد ﷺ لعدم الإيمان به، وكل من لم يؤمن بمحمد ﷺ فهو كافر، ولا ينافي وصفهم بالشرك أيضًا، بعد نسبتهم الولد لله تعالى، وقولهم بالتثليث، فأهل الكتاب كفار؛ لأنهم لم يؤمنوا بمحمد ﷺ، ومشركون؛

(١) ابن جرير الطبري (٤٢٩/١٠) ورجاله ثقات، وهو عن ابن عباس من طريق ابن إسحاق بإسناد حسن، و«زاد المسير» (٣٨٥/٢) والقرطبي (٤٢٣/٦) والألوسي (١٧١/٦).

لأنهم أشركوا مع الله غيره، فلا تتخذوا هؤلاء جميعاً ﴿أَوْلِيَاءَ﴾ توادونهم وتحابونهم وتتخذون منهم بطانة وأنصاراً، ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ﴾ أي وخافوا الله تعالى وراقبوه، ولا توالوا غيره إن كنتم أهل إيمان حقاً بالله ورسوله في سائر أموركم ف ﴿إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ حقاً، ممثلين أمر ربكم، مجتنبين نهيه، فَإِنَّ وَضْفَكُمْ بِالْإِيمَانِ يَحْتَمُّ عَلَيْكُمْ الطَّاعَةَ التَّامَةَ لله والرسول.

السُّخْرِيَّةُ مِنَ الْأَذَانِ سُخْرِيَّةٌ مِنَ الْإِسْلَامِ

٥٨- ﴿وَإِذَا نَادَيْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ اتَّخَذُوهَا هُزُوءًا^(١) وَلَعِبًا ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَعْقِلُونَ ﴿٥٨﴾﴾

بَيَّنَّ ﷺ في هذه الآية لوناً من ألوان استهزائهم بالدين، يتمثل في سُخْرِيَّتِهِمْ مِنَ الْأَذَانِ، فكان المؤذن إذا أَدَّنَ للصلاة سخروا من دعوته وتلاعبوا بها ﴿وَإِذَا نَادَيْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ اتَّخَذُوهَا هُزُوءًا وَلَعِبًا﴾ وهكذا يفعل غير المسلمين في كل زمان ومكان، ومما ورد في ذلك من أسباب النزول ما يأتي:

١ - ورد أن منادي رسول الله ﷺ كان إذا نادى للصلاة قالوا على سبيل الاستهزاء والضحك: قاموا، لا قاموا، صلُّوا، لا صلُّوا فنزلت الآية^(٢).

٢- ولما سمع الكفار الأذان حسدوا رسول الله ﷺ والمسلمين على ذلك، وقالوا: يا محمد، لقد ابتدعت شيئاً لم نسمع به فيما مضى من الأمم الخالية، فَمِنْ أَيْنَ لَكَ الصِّبَاحُ كصباح العير؟ فإن كنت تدَّعي النبوة، فلقد خالفتَ في هذا الأذان الأنبياء قبلك، فما أقبح هذا الصوت! وأسمج هذا الأمر! فنزلت الآية^(٣).

٣- وقال السدِّي: كان رجل من النصارى بالمدينة إذا سمع المنادي ينادي: أشهد أن محمداً رسول الله، قال: حُرِّقَ الكاذب! فدخلت خادمة ليلة من الليالي بنار، وهو نائم،

(١) قرأ حفص بضم الزاي من (هُزُوءًا) وبالواو بعدها، وقرأ حمزة وخلف بسكون الزاي بعدها همزة، وقرأ الباقون بضم الزاي بعدها همزة.

(٢) قاله ابن السائب وعزاه السيوطي في «الدر المنثور» (٢/٢٩٤) للبيهقي في «دلائل النبوة» عن الكلبي عن أبي صالح عن ابن عباس، وانظر: «البحر المحيط» (٣/٥١٥) و«تفسير القرطبي» (٦/٢٢٤).

(٣) «زاد المسير» (٢/٣٨٦) و«الخازن» (١/٤٧٥).

وأهله نيام، فسقطت شرارة فأحرقت البيت، فاحترق هو وأهله^(١).

والاستهزاء والتلاعب بالأذان عند سماعه صفة من صفات الشيطان، فهو كما أخبر النبي ﷺ في الصحيحين وغيرهما عن أبي هريرة ؓ أنه: «إذا سمع الأذان أدبر وله حصاص - ضراط - حتى لا يسمع التأذين، فإذا قضى التأذين أقبل، فإذا ثُوب بالصلاة أدبر، فإذا قضى التثويب أقبل حتى يخطر بين المرء وقلبه، فيقول: اذكر كذا، اذكر كذا، لِمَا لم يكن يذكر، حتى يظل الرجل لا يدرى كم صَلَّى، فإذا وجد أحدكم ذلك، فليسجد سجدتين قبل السلام»^(٢).

وهذا الاستهزاء واللعب من خصال الجاهل والسفهاء الذين لا يعقلون ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَعْقِلُونَ﴾ ولا يفهمون شرع الله تعالى في عبادته وحده، ولا حكمة الصلاة في تطهير النفوس.

ومما ذكره ابن إسحاق في السيرة أن النبي ﷺ دخل الكعبة عام الفتح، وأمر بلالاً أن يؤذن، فسخر بعض الجالسين في فناء الكعبة، حيث قال عتّاب بن أسيد: لقد أكرم الله أسيداً حيث لم يسمع هذا الأذان، فسمع ما يغيظه، وقال الحارث بن هشام: لو أعلم أنه مُحَقٌّ لَاتَّبَعْتُهُ، وسكت أبو سفيان، فخرج عليهم النبي ﷺ وأخبرهم بما قالوا، فقال الحارث وعتاب: نشهد أنك رسول الله، والله ما أطَّل على ما قلناه أحد؛ حتى نقول: إنه قد أخبرك^(٣).

وأخرج الإمام أحمد وغيره بسنده عن ابن أبي محذورة أن رسول الله ﷺ لقيه في نفر ببعض الطريق حين العودة من غزوة حنين، فأذَّن مؤذن رسول الله ﷺ قال: فسمعنا صوت المؤذن، فصرخنا نحكيه ونستهزئ به، فأرسل إلينا رسول الله ﷺ وأوقفنا بين يديه، وقال: «أيكم الذي سمعت صوته قد ارتفع؟» فأشار القوم كلهم إليّ، وصدقوا، فأرسلهم كلهم وحسني، وقال: «قم فأذن بالصلاة» فقامت ولا شيء أكره إليّ من رسول الله ﷺ، ولا مما يأمرني به، فقامت بين يدي رسول الله ﷺ فألقى عليّ التأذين هو بنفسه - وذكر ألفاظ

(١) ابن جرير الطبري (٤٣٢/١٠) تحقيق الشيخ أحمد شاكر والبيهقي في «الدلائل» (٢٧٤/٦) وابن أبي حاتم.

(٢) يُنظَر: البخاري برقم (٦٠٨، ١٢٢٢) ومسلم برقم (١٦، ٣٨٩) و«المسند» (٩١٧٠، ٨١٣٩، ١٠٨٧٨).

بإسناد صحيح على شرط الشيخين، والبلغوي (٤١٣) والبيهقي (٤٣٢/١).

(٣) بتصرف من سيرة ابن هشام (٤١٣/٢).

الأذان - وأن النبي ﷺ قال له: «ارجع فامدد من صوتك» قال: ثم دعاني حين قضيت التأذين، فأعطاني صُرَّةً فيها شيء من فضة، ثم وضع يده على ناصية أبي محذورة، ثم أمرها على وجهه، ثم بين ثدييه، ثم على كبده، حتى بلغت يد رسول الله ﷺ صُرَّةً أبي محذورة، ثم قال ﷺ: «بارك الله فيك، وبارك عليك»، فقلت: يا رسول الله، مُرني بالتأذين بمكة، فقال: «قد أمرتك به» وذهب كل شيء كان لرسول الله ﷺ من كراهة، وعاد ذلك كله محبة لرسول الله ﷺ، فقدمت على عتاب بن أسيد عامل رسول الله ﷺ بمكة، فأذنت معه بالصلاة عن أمر رسول الله ﷺ (...)^(١)

سَبَبُ نِقْمَةِ غَيْرِ الْمُسْلِمِينَ عَلَى الْمُسْلِمِينَ

٥٩- ﴿قُلْ يَٰ أَهْلَ الْكِتَابِ هَلْ تَقِيْمُونَ مِثًّا اِلَّا اَنْ اَمَنَّا بِاللّٰهِ وَمَا اُنْزِلَ اِلَيْنَا وَمَا اُنْزِلَ مِنْ قَبْلُ وَاَنْ اَكْثَرُكُمْ فٰسِقُوْنَ﴾
وبعد أن نهى ﷺ عن موالاة غير المسلمين ومحبتهم، وعدم المسارعة إلى مودتهم، وبينَ جلَّ شأنه أنهم يسخرون من ديننا ويهزؤون منه، وجَّهَ عزَّ وجلَّ الخطاب إلى أهل الكتاب على لسان رسولنا ﷺ؛ ليسألهم سؤال تقييد وتوبيخ وإنكار، فيقول له: قل - أيها الرسول الكريم - لهؤلاء اليهود والنصارى من أهل الكتاب: إن الذي تظنون أنه مَطْعَنًا علينا، وعيًّا فينا، هو مُحَمَّدٌ وفخر لنا، فأنتم لا تكرهوننا، ولا تعيبون علينا، إلا لأننا نؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله، ولا نفرق بين أحد منهم ﴿قُلْ يَٰ أَهْلَ الْكِتَابِ هَلْ تَقِيْمُونَ مِثًّا﴾ أي: تعيبون وتنكرون علينا ﴿اِلَّا اَنْ اَمَنَّا بِاللّٰهِ﴾ ولا نشرك به أحدًا ﴿وَمَا اُنْزِلَ اِلَيْنَا﴾ أي: وآمنا بما أنزل إلينا وهو القرآن على لسان محمد ﷺ ﴿وَمَا اُنْزِلَ مِنْ قَبْلُ﴾ وهي الكتب السابقة التي نزلت على موسى وعيسى وغيرهما، على أن كلاً منها كان له وقت معين، انتهى بمجيء الرسول الذي يليه.

فلا مذمة لكم، ولا مطعن فينا لديكم، إلا أننا مسلمون، ولسنا يهودًا ولا نصارى، كما قال تعالى: ﴿وَمَا نَقَمُوا مِنْهُمْ اِلَّا اَنْ يُؤْمِنُوا بِاللّٰهِ الْغَزِيْرِ الْحَمِيْدِ﴾ [البروج].

(١) يُنْظَرُ: «المسند» (٣/ ٤٠٨) برقم (١٥٣٨٠) حديث صحيح بطرقه، وهذا إسناد حسن (محققوه) و«صحيح مسلم» برقم (٣٧٩) و«سنن أبي داود» برقم (٥٠٢) و«سنن الترمذي» برقم (١٩١) و«سنن النسائي» (٢/ ٤) و«سنن ابن ماجه» برقم (٧٠٨) وابن خزيمة (٣٧٩) وابن حبان (١٦٨٠) والنسائي في الكبرى (١٥٩٦).

فما نقمتم منا، وسخطتم علينا إلا لهذا، ولأن أكثركم فاسقون، خارجون عن طاعة الله تعالى، وآية فسقكم أنكم غير مؤمنين بالرسول الخاتم، وهذه حقيقة قررها ربنا في قوله: ﴿وَلَنْ تَرْضَى عَنْكَ الْيَهُودُ وَلَا النَّصَارَى حَتَّى تَبِيعَ مِلَّتَهُمْ﴾ [البقرة: ١٢٠].

وقوله: ﴿وَدُّوا لَوْ تَكْفُرُونَ كَمَا كَفَرُوا فَتَكُونُونَ سَوَاءً﴾ [النساء: ٨٩].

وقد علم الله سبحانه أن بعضهم سيؤمن بالرسالة الخاتمة فقال: ﴿أَكْذَرُكُمْ﴾ ولم يقل كلكم، وفي الآية إلزام لهم بأن الإسلام هو الدين الحق، وأن قذحهم فيه إنما هو قذح فيما ينبغي مذهبهم.

ورد أن جماعة من اليهود أتوا رسول الله ﷺ فسألوه عمن يؤمن به من الرسل، فذكر جميع الأنبياء، فلما ذكر عيسى جحدوا نبوته، وقالوا: لا نؤمن بمن آمن بعيسى، والله ما نعلم ديناً شراً من دينكم، ولا نعلم أهل دين أقل حظاً في الدنيا والآخرة منكم، فأنزل الله الآية^(١).

والله ﷻ يعلمنا طبائع اليهود؛ كي نكون على حذر في التعامل معهم حتى لا يخرجونا من ديننا؛ فلا يغيظهم من المؤمنين إلا إيمانهم بالله، وإيمانهم بما عند أهل الكتاب، وإيمانهم بما أنزل على محمد ﷺ وهذه أمور جديرة بالمدح لا بالذم، فالإيمان بالله وما أنزل من قبل قدر مشترك بيننا وبينهم، ومن آمن بالوحي المنزل على الرسل السابقين، يؤمن بالوحي المنزل على محمد ﷺ ضرورة، وقد دعا الرسول ﷺ أهل الكتاب إلى الإسلام، وترك لهم حرية الاختيار، كما قال تعالى: ﴿فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيُكْفُرْ﴾ [الكهف: ٢٩]. فما وجه نقمتهم على الإسلام وأهله؟ إلا أن يكون ذلك حقداً وحسداً وخروجاً عن طاعة الله، ونحن لا نملك لكم أن تكونوا صالحين!

(١) يُنظَر: «زاد المسير» (٣٨٦/٢) وتفسير «الخازن» (٤٧٦/١) وابن إسحاق (٢٠٨/٢) وابن جرير (٦/

١٨٩) بإسناد حسن عن ابن عباس من طريق ابن إسحاق والواحدي في «أسباب النزول».

أَشْرُ عُقُوبَةٍ لِأَشْرٍ قَوْمٍ

٦٠- ﴿قُلْ هَلْ أُنَبِّئُكُمْ بِشَرٍّ مِّنْ ذَلِكَ مَثُوبَةً عِنْدَ اللَّهِ مَن لَعَنَهُ اللَّهُ وَغَضِبَ عَلَيْهِ وَجَعَلَ مِنْهُمْ الْقِرَدَةَ وَالْخَنَازِيرَ وَعَبَدَ الطَّاغُوتَ^(١) أُولَئِكَ شَرٌّ مَّكَانًا وَأَضَلُّ عَن سَوَاءِ السَّبِيلِ ﴿٦٠﴾﴾

ثم يلقي الله رسوله الجواب، مذكراً اليهود بما كان من أسلافهم، وقد تضمنت هذه الآية أربعة أوصاف لليهود هي:

١- لعن الله لهم

٢- وغضبه عليهم.

٣- ومسحهم قردة وخنازير

٤- وكونهم عبداً للشيطان.

﴿قُلْ﴾ - أيها الرسول الكريم - لهؤلاء الذين يقولون: ما نعلم ديناً شراً من دينكم، قل لهم على سبيل التهكم والتبكيت والتنبيه على ضلالهم: يأهل الكتاب، الطاعنين في ديننا، كيف يصدر منكم ذلك، مع أن الله تعالى قد غضب عليكم ولعنكم ...

فإن كنتم تعتبرون أن ديننا شر لا خير فيه، فشر منه ما أنتم عليه من طرد من رحمة الله، وأشر منه سوء العاقبة التي تنتظركم في الآخرة.

قل لهم: ﴿هَلْ أُنَبِّئُكُمْ بِشَرٍّ مِّنْ ذَلِكَ مَثُوبَةً عِنْدَ اللَّهِ﴾ أي: هل أخبركم بشر من موقفكم البعيد عن الحق عقوبة عند الله تعالى في الدنيا ومجازاة يوم القيامة أشد من جزاء الفاسقين؟ هو ﴿مَن لَعَنَهُ اللَّهُ﴾ من أسلافكم فطرده وأبعده من رحمته ﴿وَعَضِبَ عَلَيْهِ﴾ أي: سخط عليه لكفره وانهماكه في المعاصي، فمَنعه من عَفْوِهِ ورضاه ﴿وَجَعَلَ مِنْهُمْ﴾ على صورة ﴿الْقِرَدَةِ وَالْخَنَازِيرِ﴾ لافتراءهم وكذبهم على الله تعالى وتكبرهم على عباده.

قيل: إن مسخ القردة، كان في أصحاب السبت، ومسح الخنازير كان فيمن كفر بالمائدة.

ولما نزلت هذه الآية عير المسلمون اليهود، وقالوا لهم: يا إخوان القردة والخنازير، فافتضحوا بذلك فإذا كان حالنا شرا كما تظنون فكيف من اجتمع عليه اللعنة والغضب مع المسخ إلى أقبح صورة.

(١) قرأ حمزة (وعبد الطاغوت) بضم الباء وجر التاء، على أن (عبد) مفرد، أريد به الكثرة، و(الطاغوت) مجرور بالإضافة، بمعنى: وجعل منهم عبد الطاغوت، أي خدمه، وقرأ الباقون بفتح باء (عبد) ونصب تاء (الطاغوت) على أنه فعل ماضٍ، و(الطاغوت) مفعول به

عن ابن مسعود رضي الله عنه قال: سئل رسول الله ﷺ عن القردة والخنازير: أهى مما مسح الله؟ فقال: «إن الله لم يهلك قومًا - أو قال: لم يمسح قومًا - فيجعل لهم نسلًا ولا عقبًا، وإن القردة والخنازير كانت قبل ذلك»^(١).

وقال: ابن مسعود: سألنا رسول الله ﷺ عن القردة والخنازير، أهى من نسل اليهود؟ فقال: «لا، إن الله لم يلعن قومًا قط فمسحهم، فكان لهم نسل، ولكن هذا خلق كان، فلما غضب الله على اليهود فمسحهم، جعلهم مثلهم»^(٢).

والمعنى: أن القردة والخنازير كانت موجودون في بعض اليهود السابقين، وأن الذين مسحوا منهم قد أهلكهم الله تعالى، ولم يجعل لهم ذرية، وهذا هو الصحيح، لصحة الخبر فيه. ومرجع عود الضمير في ﴿أَتَيْنَكُمْ﴾ على اليهود؛ لمناسبة قوله تعالى: ﴿وَأَنَّ أَكْثَرَهُمْ فَاسِقُونَ﴾ قبله، ومعنى مثوبة: عقوبة ومجازاة.

وكما أن الله تعالى لعنهم وغضب عليهم، وجعل منهم على صورة القردة والخنازير، فإنه سبحانه جعل منهم عبادة للشيطان الذي زين لهم عبادة العجل الذهبي، وجعل منهم طاعة الكهان والأخبار في معصية الله تعالى.

وكل ما عُبد من دون الله فهو طاغوت وشيطان، ومن ذلك عبادتهم للعجل من دون الله بعد أن كانوا أهل توحيد وقد وصفهم ربنا بقوله: ﴿وَعَبَدَ الطَّاغُوتَ﴾.

وهؤلاء الموصوفون بهذه الصفات الأربع، وهى: اللعن، والغضب، والمسح، وعبادة غير الله تعالى، مكانهم في الآخرة أشد شرًا من غيرهم، وهم أكثر الناس ضلالًا؛ لأنهم أخطؤوا الطريق الصحيح، وخاب سعيهم في الحياة الدنيا ﴿أُولَئِكَ﴾ الملعونون، الموصوفون بتلك القبائح ﴿شَرُّ مَكَانًا وَأَضَلُّ عَنْ سَوَاءِ السَّبِيلِ﴾ وهذا بيان لسوء عاقبتهم وقبح مكانتهم.

(١) «صحيح مسلم» (٢٠٥١/٤) ورقم (٢٦٦٣) وانظر: «المسند» (٢٦٠/٥) برقم (٤٢٥٤) إسناده صحيح على شرط مسلم ورجاله ثقات رجال الشيخين غير المغيرة الشكري فمن رجال مسلم، (محققوه) وأخرجه النسائي في الكبرى (٩٤) والحميدي (١٢٥) وابن أبي عاصم في السنة (٢٦٣).

(٢) الطيالسي (٣٠٥) و«المسند» (٣٧٠٠، ٤١١٩) وغيرهما بنحوه، وابن أبي حاتم (٦٥٦٢) قال محققو المسند: إسناده صحيح على شرط مسلم، ورجاله ثقات، وأخرجه مسلم (٣٢، ٢٦٦٣) وابن أبي عاصم في السنة (١٦٢) وابن أبي شيبة (١٩٠/١٠).

وليس معنى الآية: أن المؤمنين فيهم شر، وأن اليهود أشر منهم، وإنما الكلام مسوق على سبيل المشاكلة والمجارة على حسب قولهم، وفيه استعمال أفضل التفضيل في غير بابه، فكأن الله تعالى يقول: هب أن الأمر كذلك، لكن من لعنه الله وغضب عليه ومسخ صورته أشد شرًا وأكثر ضلالًا.

الخداع اليهودي

٦١- ﴿وَإِذَا جَاءُوكُمْ قَالُوا ءَامَنَّا وَقَدْ دَخَلُوا بِالْكَفْرِ وَهُمْ قَدْ خَرَجُوا بِهِ ۚ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا كَانُوا يَكْتُمُونَ﴾

ثم أخذ ﷺ يبين لنا بعض خداع اليهود ونفاقهم؛ لتعرف على أخلاقهم وطبائعهم، فنحذر في التعامل معهم، فقال تعالى عن المنافقين منهم: ﴿وَإِذَا جَاءُوكُمْ قَالُوا ءَامَنَّا﴾ نفاقًا ومكرًا، يقولون ذلك بألسنتهم، ونفوسهم تنطوي على الكفر الصريح.

قال قتادة: نزلت هذه الآية في أناس من اليهود دخلوا على رسول الله ﷺ فأخبروه أنهم مؤمنون، راضون بالذي جاء به، وهم في الحقيقة متمسكون بضلالهم وكفرهم، فأخبر الله رسوله بنفاق هؤلاء اليهود الذين يظهرون الإيمان ويبطنون الكفر^(١).

ولعل هؤلاء اليهود هم الذين قال الله عنهم: ﴿وَقَالَتْ طَائِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ ءَامِنُوا بِالَّذِي أُنْزِلَ عَلَى الَّذِينَ ءَامَنُوا وَجَهُ النَّهَارِ وَكُفُّوا ءَاخِرَهُ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ [آل عمران: ٧٢].

والله سبحانه يخبر رسوله أنهم دخلوا كفارًا وخرجوا كفارًا، فهم كفار في الحاليتين، ولم يتعلق الإيمان بقلوبهم، وإنما أظهروه لك كذبًا وخداعًا ﴿وَقَدْ دَخَلُوا بِالْكَفْرِ وَهُمْ قَدْ خَرَجُوا بِهِ﴾ ولم ينتفعوا بشيء مما استمعوا إليه منك، فألستهم تقول غير ما يحملوه في جعبتهم من الكفر حال دخولهم وحال خروجهم، بل كانوا عند خروجهم أشد كفرًا، كما تقول العرب: خرج بغير الوجه الذي دخل به.

وعبر سبحانه وتعالى عن الدخول بقدر، التي تفيد تقريب الماضي من الحال، كما عبر بلفظ ﴿بِهِ﴾ عند الخروج؛ لتأكيد إضافة الكفر إليهم، وبيان أنهم قد خرجوا وهم أشد

(١) أخرجه الطبري بسند حسن عن قتادة والسدي (٥٤٧/٨) وابن أبي حاتم (٦٥٦٤).

كفرًا وأقصى قلبًا؛ لأنهم لا يتأثرون بالمواعظ، وقد وصف الله قومًا بأنهم إذا استمعوا إلى القرآن ازدادوا إيمانًا، ووصف آخرون بأنهم ازدادوا رجسًا إلى رجسهم، وماتوا وهم كافرون، فهم مصرون على اعتقادهم في جميع الأحوال، ثم بيّن سبحانه أن خداعهم ونفاقهم لا يخفى على الله تعالى، فقال: ﴿وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا كَانُوا يَكْتُمُونَ﴾ فيجازيهم على صنيعهم، وفيه وعيد شديد على كفرهم ونفاقهم.

مَسَارَعَةُ الْيَهُودِ إِلَى الْمُنْكَرَاتِ

٦٢- ﴿وَرَوَى كَثِيرًا^(١) مِنْهُمْ يُسْرِعُونَ فِي الْآثِمِ وَالْعُدْوَانِ وَأَكْلِهِمُ السُّحْتَ^(٢) لَيْسَ^(٣) مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾

ثم بيّن ﷺ خصلة أخرى من خصال اليهود، وهي أنهم يبادرون إلى المنكرات، ويسارعون في الإقدام عليها بخفة وإقبال، كأنها جبلّة لهم، أو طَبَع من طباعهم، وأنهم أهل حق فيها، فقال تعالى مخاطبًا رسوله ﷺ، وكاشفًا له عن صفات المجتمع اليهودي: ﴿وَرَوَى كَثِيرًا مِنْهُمْ يُسْرِعُونَ فِي﴾ ثلاثة أشياء هي:

١- ﴿الْآثِمِ﴾ والإثم: اسم جامع لجميع المعاصي والمنهيات التي تختص بالعبد في حد ذاته؛ كالكذب، والبخل، والكفر، وهذه المعاصي متعلقة بحقوق الخالق سبحانه.

٢- ﴿وَالْعُدْوَانِ﴾ وهو الظلم ومجاوزة الحد، وكل ما فيه تعدُّ على الآخرين، وهذا الظلم والعدوان متعلق بحقوق المخلوقين.

٣- ﴿وَأَكْلِهِمُ السُّحْتَ﴾ وهو المال الحرام، ومنه الرشوة والربا، وكل ما فيه أكل لأموال الناس بالباطل.

(١) رفق الرء من (كثيرا) الأزرق عن ورش وفخمها الآخرون.

(٢) قرأ نافع وابن عامر وعاصم وحزمة وخلف العاشر (السحت) في هذه الآية والتي بعدها بسكون الحاء، والباقون بضمها، وهما لغتان وقرأ أبو عمرو ويعقوب بكسر الهاء والميم من (وأكلهم السحت) وضمهما حمزة والكسائي وخلف العاشر. وقرأ الباقر بكسر الهاء وضم الميم. وهذا في حالة الوصل، أما في حالة الوقف على (وأكلهم) فكل القراء يكسرون الهاء ويسكنون الميم.

(٣) أبدل ورش والسوسي وأبو جعفر همزة (لبس) ياء، وحققها الآخرون.

وهؤلاء لم يكتفوا بفعل هذه الذنوب الثلاث، بل يساعون إليها ويقبلون عليها، وهذا من خبث طويتهم وحبهم للظلم والمعاصي.

ثم ذمَّ ﷺ أعمالهم هذه، وأكدها باللام الموطئة للقسم، وبكلمة بئس، الدالة على الذم في قوله: ﴿لَيْتَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ لهذه المنكرات الثلاث، وهي: المسارعة إلى الإثم والعدوان وأكلهم السحت، وهذا تقييح لأعمالهم التي يأبأها الدين والخلق الكريم.

السُّكُوتُ عَنِ الْمُنْكَرِ عَاقِبَتُهُ وَخِيمَةٌ

٦٣- ﴿لَوْلَا يَنْهَاهُمُ الرَّبَّيُّونَ وَالْأَخْبَارُ عَنْ قَوْلِهِمْ^(١) الْإِثْمَ وَأَكْلِهِمُ السُّحْتَ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَصْنَعُونَ﴾

والمجتمع الفاضل هو الذي تكون فيه هيئة أو سلطة تتولى الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والسكوت عن ارتكاب المنكرات في كل أمة نذير شؤم، يُؤذِنُ بنتائج خطيرة وعواقب وخيمة، ومن هنا فقد وبخ الله سبحانه علماء اليهود وهم الأُخْبَارُ، والربانيون وهم العلماء العاملون، أرباب الولايات عليهم، وبخهم وعَنَقَهُمْ على سكوتهم على ارتكاب المنكرات من عامتهم، فالساكت عن الحق شيطان أخرس.

يقول تعالى منكرًا عليهم ﴿لَوْلَا﴾ أي: هَلَا ﴿يَنْهَاهُمُ الرَّبَّيُّونَ وَالْأَخْبَارُ﴾ من العلماء الذين ينصحون الناس ليزول عنهم ما هم فيه من الجهل، ويرغبونهم في الخير ويرهبونهم من الشر، فينهوهم ﴿عَنْ قَوْلِهِمُ الْإِثْمَ﴾ من المعاصي والمنكرات ﴿وَأَكْلِهِمُ السُّحْتَ﴾ وهو المال الحرام، ومنه الرشوة ﴿لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَصْنَعُونَ﴾ لقد ساء صنيعهم حين تركوا النهي عن المنكر، وهذا يدل على أن تارك النهي عن المنكر كفاعله؛ لأن الله تعالى ذمَّ الفريقين معًا في هذه الآية.

قال ابن عباس ؓ: ما في القرآن آية أشد توبيخًا من هذه الآية، يعني بالنسبة لتارك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

وفي الحديث عن أبي بكر ؓ أن رسول الله ﷺ: «إِنَّ النَّاسَ إِذَا رَأَوْا الظَّالِمَ فَلَمْ يَأْخُذُوا

(١) قرأ أبو عمرو ويعقوب بكسر الهاء والميم من (قولهم الإثم وأكلهم السحت)، وضمهما حمزة والكسائي وخلف، وكسر الهاء، وضم الميم الباقيون.

على يديه أوشك أن يعمهم الله بعقابه»^(١).

وفي لفظ آخر «إن الناس إذا رأو المنكر فلم يغيروه أوشك أن يعمهم الله بعقابه»^(٢).

وقد قال سبحانه في المقدمين على الإثم والعدوان وأكل السحت: ﴿لَيْسَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾.

وقال في العلماء والعباد التاركين للنهي عن المنكر: ﴿لَيْسَ مَا كَانُوا يَصْنَعُونَ﴾ والصنع أقوى من العمل؛ لأن العمل يسمى صناعة إذا رسخ وتمكن، فكأن السكوت على ارتكاب المنكر أشد جرماً وأعظم إثماً، وهو منذر بعقوبة عامة.

وقد لعن الله اليهود على لسان داود وعيسى ابن مريم بسبب عدم التناهي عن المنكر، وحذرنا ﷺ أن نكون مثلهم، فأوجب علينا الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر في قوله: ﴿وَلَتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [آل عمران]. وأناط سبحانه خيرية هذه الأمة بقيامها بهذا الواجب في قوله: ﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ﴾ [آل عمران: ١١٠].

خطب علي بن أبي طالب عليه السلام، فحمد الله وأثنى عليه، ثم قال: أيها الناس، إنما هلك من كان قبلكم بركوبهم المعاصي، ولم ينههم الربانيون والأحبار، فلما تهادوا في المعاصي ولم ينههم الربانيون والأحبار أخذتهم العقوبات، فمروا بالمعروف وانهوا عن المنكر قبل أن ينزل بكم مثل الذي نزل بهم، واعلموا أن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر لا يقطع رزقاً، ولا يقرب أجلاً^(٣).

وقد وبَّخ الله علماء اليهود وفقهاءهم على عدم نهيمهم لهم عن قولهم الإثم وأكلهم السحت؛ لأن هاتين الرذيلتين هما جماع الرذائل؛ إذ القول بالباطل الكاذب، إذا تعود عليه الإنسان هانت عليه الفضائل، وتكلم في الناس دون حياء ولا حرج، وأكل المال

(١) رواه الترمذي عن أبي بكر بإسناد صحيح رقم (٢١٦٨) والمسند (٣٠) بإسناد صحيح على شرط الشيخين وأخرجه ابن أبي شيبة (١٧٤/١٥) وابن ماجه (٤٠٠٥) وعبد بن حميد (١) والبخاري (٦٨).

(٢) المسند (١) بإسناد صحيح على شرط الشيخين، وأخرجه الحميدي (٣) وأبو داود (٤٣٣٨) وأبو يعلى (١٣٢) والبخاري (٦٥) وابن حبان (٣٠٤).

(٣) ابن أبي حاتم بسنده (١٤٥ / ٢) برقم (٦٥٧١).

الحرام يقتل في النفس المروءة والشرف، ويجعلها تستهين بحقوق الناس وأموالهم.

وقد ألف علماء اليهود أكل أموال الناس بالباطل، بدعوى أن الله تعالى سيغفر لهم ذلك، كما قال تعالى عنهم: ﴿فَخَلَفَ مِنْ بَٰعِدِهِمْ خَلْفٌ وَرَثُوا أَلْكِتَابَ يَأْخُذُونَ عَرَضَ هَٰذَا الْأَذْنَىٰ وَيَقُولُونَ سَيُغْفَرُ لَنَا وَإِنْ يَأْتِهِمْ عَرَضٌ مِّثْلُ الَّذِي أَخَذُوا﴾ [الأعراف: ١٦٩].

وهم كاذبون في دعواهم، متقولون على الله تعالى ما لم يقله.

مِنْ أَشْبَحَ أَقْوَالِ الْيَهُودِ

٦٤- ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ يَدُ اللَّهِ مَغْلُولَةٌ^(١) غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُمُنُوا بِمَا قَالُوا بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنفِقُ كَيْفَ يَشَاءُ وَلَٰكِيذَٰبِكَ كَثِيرٌ مِّنْهُمْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ طُغْيَانًا وَكُفْرًا وَأَلْقَيْنَا بَيْنَهُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ^(٢) إِلَى يَوْمِ الْقِيَمَةِ كُلَّمَا أَوقَدُوا نَارًا لِلْحَرْبِ أَطْفَأَهَا^(٣) اللَّهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ^(٤)﴾

وبعد أن ذكر الله سبحانه أمثلة من قبيح أفعال اليهود، ذكر صورة من أشبح أقوالهم؛ ليجمع لهم بين قبيح الفعل المتمثل في تسابقهم إلى فعل المنكرات من الإثم والعدوان، وبين قبيح القول: من أن الله تعالى بخل عليهم بالرزق والتوسعة، كما حكى الله تعالى عنهم في قوله: ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ يَدُ اللَّهِ مَغْلُولَةٌ﴾ أي: مقبوضة ومحبوسة عن البذل والعطاء وعن الخير والإحسان والبر.

وقد نهى الله تعالى عن البخل في قوله ﴿وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ﴾ [الإسراء: ٢٩] فنسبوا إلى الله تعالى ما نهى عنه من والبخل بالتوسعة عليهم في الرزق حين لحقهم القحط والجذب، تعالى الله عما يقولون علواً كبيراً.

قال ابن عباس ؓ: لا يَعْثُونَ أن يد الله مَوثقة ولكنهم يقولون: إنه بخيل^(٤)

من أسباب النزول:

١- قيل: إن اليهود لما سمعوا النبي ﷺ يقرأ ﴿مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا﴾

(١) قرأ أبو جعفر بإخفاء التنوين في الغين من (مغلولة غلت).

(٢) سهل الهمزة الثانية من (البغضاء إلى) نافع وأبو جعفر وابن كثير وأبو عمرو ورويس، وحققها الآخرون.

(٣) سهل الهمزة الثانية من (أطفاها) وفقاً حمزة وحققها غيره.

(٤) «تفسير الطبري» (١٠ / ٤٥٢).

[الحديد: ١١]. ورأوا النبي ﷺ في فقر وقلة مال، قالوا: إن إله محمد ﷺ بخيل^(١).

وكان المسلمون في أول الهجرة في فقر وشدة.

٢- وقيل: إن هذه الآية نزلت في فنحاص بن عازوراء، اليهودي الذي أفصح عن مآثمهم وما يسرونه فيما بينهم حين دُعوا إلى الإنفاق في سبيل الله، فقال: ﴿إِنَّ اللَّهَ فَتِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَاءُ﴾^(٢) [آل عمران: ١٨١].

فضربه أبو بكر رضي الله عنه، وكان اليهود قد نزلت بهم شدة وأصابتهم مجاعة.

ولما قال فنحاص هذه المقالة رضي بها اليهود ولم ينهوه، ولذا أشركهم الله معه في المقالة.

٣- ومن ذلك أن شاس بن قيس اليهودي قال للنبي ﷺ: إن ربك بخيل لا ينفق، فنزلت الآية كما قال ابن عباس رضي الله عنهما^(٣).

وهم بهذا القول قد استوجبوا مقت الله وغضبه، وحقت عليهم لعنته وسخطه ﴿وَعَلَّتْ أَيْدِيهِمْ﴾ دعاء عليهم، أو إخبار عن حالهم، بمعنى مُنِعَتْ أَيْدِيهِمْ عن الإنفاق والخير، وُعُلَّتْ في نار جهنم، وَنَفَذَ فِيهِمْ قِضَاءَ اللَّهِ تَعَالَى، وحقت عليهم لعائن الله تعالى ﴿وَلَعْنُوا بِمَا قَالُوا﴾ فَحَبِسَتْ أَيْدِيَهُمْ عن فعل الخيرات، وطرَدوا من رحمة الله، وعذبوا في الدنيا والآخرة، وقد حقت عليهم كلمة الله، فهم أبخل خلق الله، كما وصفهم الله تعالى في قوله: ﴿أَمْ لَهُمْ نَصِيبٌ مِّنَ الْمُلْكِ فَإِذَا لَا يُؤْتُونَ النَّاسَ نَقِيرًا﴾ ﴿٥٧﴾ [النساء].

وهم أحرص الناس على الدنيا ﴿وَلَنَجْذِثَهُمْ أَغْرَصَ النَّاسِ عَلَى حَيَوةٍ﴾ [البقرة: ٩٦].

وليس الأمر كما يفترون على ربهم، بل هو سبحانه واسع الفضل، جزيل العطاء، خزائنه لا تنفذ ﴿بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنفِقُ كَيْفَ يَشَاءُ﴾ لا حَجْرَ عليه، ولا مانع يمنعه من الإنفاق، فإنه جواد كريم، ينفق على مقتضى الحكمة وما فيه مصلحة العباد.

(١) «تفسير القرطبي» (٢٣٨/٦).

(٢) ابن جرير الطبري (٤٥٣/١٠) بسند ضعيف، وانظر «تفسير القرطبي» (٢٣٨/٦) و«أسباب النزول» للسيوطي (١٠٧).

(٣) أخرجه الطبراني في «المعجم الكبير» برقم (١٢٤٩٧) قال الهيثمي في «مجمع الزوائد» (١٧/٧): رجاله ثقات، وذكره ابن إسحاق وابن كثير وغيرهما.

ولما كان أقصى الكرم أن ينفق العبد بكلتا يديه، عبَّرَ ﷺ بذلك فقال: ﴿بَلْ يَدَاهُ﴾ في مقابل قولهم: ﴿يُدُّ اللَّهُ﴾ وقد أجبوا وفق كلامهم من التعبير باليد.

وفي الآية إثبات لصفة اليدين لله تعالى، كما يليق بجلاله من غير تأويل ولا تشبيه ولا تكييف، فنؤمن بها كما جاءت.

وقد صح في حديث أبي هريرة ؓ عن النبي ﷺ أنه قال: «إن يمين الله ملأى، لا يغيضها نفقة، سحاء الليل والنهار»^(١) أي: لا ينقصها النفقة.

وسحاء: أي دائم العطاء، وفي الحديث عن ابن عمر: «وكلتا يديه يمين»^(٢).

وهو سبحانه ﴿يُنْفِقُ كَيْفَ يَشَاءُ﴾ بمقتضى حكمته ومشيتته، يعطي ويمنع، ويسط ويقبض، والعرب يُعَبِّرُونَ باليد عن العطاء فيقولون: صاحب اليد الطولى، أي: كثير البذل والكرم.

ثم بيَّن ﷺ أن كفرهم وطغيانهم سوف يزيدهم على الرسول ﷺ حقداً وحسداً منهم على اصطفائه بالرسالة، وكلما نزل عليه شيء من القرآن ازدادوا كفراً وبعداً قال تعالى: ﴿وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِّنْهُمْ مَّا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ طُغْيَانًا وَكُفْرًا﴾ وهذا من أعظم العقوبات لهم، حيث يزيدهم الوحي المنزل لهداية البشر وسعادتهم، غياً إلى غيتهم، وطغياناً إلى طغيانهم، وكفراً إلى كفرهم، وذلك بسبب إعراضهم ومعاندتهم، حيث أعماهم الحسد، فازدادوا كفراً وطغياناً، وقال سبحانه: ﴿كَثِيرًا﴾ ليُخْرِجَ مَنْ أَسْلَمَ مِنْهُمْ وَحَسُنَ إِسْلَامُهُ.

ثم أخبر الله تعالى رسوله في الشق الثاني من الآية، بما بيَّن طوائف اليهود من العداوة والخصومة والبغضاء في الدين والعقيدة، فمنهم الجبرية، ومنهم القدرية، ومنهم المشبهة، ومنهم الفرسيون، وغير ذلك وبعضهم لبعض عدو، وهم فرق متناحرة متفرقة ﴿تَحَسُّهُمْ جَمِيعًا وَقُلُوبُهُمْ شَتَّى﴾ [الحشر: ١٤]. وحالهم هكذا إلى يوم القيامة، كما قال تعالى ﴿وَالْفِتْنَا بَيْنَهُمُ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاءُ إِلَى يَوْمِ الْقِيَمَةِ﴾، فلا يتآفون ولا يتناصرون ولا يتفقون، بل لا يزالون في عداوة وبغضاء إلى يوم القيامة.

(١) الحديث في البخاري عن أبي هريرة برقم (٤٦٨٤، ٧٤١١، ٧٤١٩) وفي مسلم (٦٩١/٢) برقم (٩٩٣) و«المسند» (٣١٣/٢) برقم (٨١٤٠، ٧٢٩٨، ١٠٥٠٠) والترمذي وابن ماجه (١٩٧).

(٢) «صحيح مسلم» (١٤٥٨/٣) رقم (١٨٢٧).

والعداوة أخص من البغضاء؛ لأن كل مبغض عدو، وقد يبغض من ليس بعدو، والنصارى كذلك فرق مختلفة في العقائد متناحرة فيما بينها: الكاثوليك، والأرثوذكس، والمارون، والبروتستانت، ولم توجد فرق، ولا مذاهب في الإسلام أثناء العهد النبوي، ولا في عصر الصحابة والتابعين، وقد حدث هذا بعد القرون الثلاثة المفضلة، فاليهود طوائف متشاحنة متعادية وإن بدا خلاف ذلك، وهم يحاولون دائماً أن يكون لهم النفوذ السياسي والاقتصادي والعسكري، وأن يكونوا القوة الضاربة في العالم؛ ليضربوا الإسلام والمسلمين بأيدي غيرهم لا بأيديهم.

ونفوذهم في مجلس الشيوخ الأمريكي واضح.

ونفوذهم في اختيار الرئيس الأمريكي في كل انتخاب واضح.

ونفوذهم في أن تكون حقبة الخارجية والدفاع والاقتصاد بأيديهم أمر واضح، وواقع ملموس.

ثم بيّن ﷺ أنه كلما تأمر اليهود على الإسلام والمسلمين فأثاروا الفتن وأشعلوا نار الحرب بين المسلمين، ردّ الله كيدهم، وفرّق شملهم ﴿كُلَّمَا أَوْقَدُوا نَارًا لِلْحَرْبِ أَطْفَأَهَا اللَّهُ﴾ وهذا إخبار عن حال أسلافهم، ومن كان منهم معاصراً للنبي ﷺ.

وكانت بعض القبائل إذا أرادت الحرب أوقدت ناراً على قمة الجبل؛ ليهتدي بها الجيش لكثرتهم فيتجمعوا لساحة القتال، وليس هذا معنى الآية، وليس عادة متبعة لا قديماً ولا حديثاً. وفي عصرنا أججوا نار الحرب في فلسطين بين الحين والآخر، لجسّ نبض المسلمين، وإمكانية القيام بهدم المسجد الأقصى لبناء الهيكل المزعوم على أنقاضه، حدث هذا في حريق المسجد الأقصى عام ١٩٦٩ م.

وحدث أيضاً في حفر الأنفاق حول وتحت المسجد عام ١٩٩٦ م وما بعده.

وحدث اقتحام شارون^(١) للمسجد الأقصى تحت حماية وحراسة مشددة في عام ٢٠٠٠ م، مما أدى إلى انتفاضة العالم الإسلامي بشكل لم يسبق له مثيل، وهكذا كلما أشعلوا نار الفتنة، أرسل الله عليهم من يحطمها، ويوقفها، قال تعالى: ﴿وَإِذْ تَأَذَّتْ رُحُوكَ لِيُبَعَثَ عَلَيْهِمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ يَسُومُهُمْ سُوءَ الْعَذَابِ﴾ [الأعراف: ١٦٧].

(١) رئيس وزراء إسرائيل في التاريخ المذكور.

وقد سلط الله المسلمين على اليهود فأخرجوهم من خيبر ومن المدينة وما حولها، والتاريخ شاهد بذلك، منذ بعث الله عليهم بختنصر البابلي حين أفسدوا في الأرض وبعث عليهم الرومان لَمَّا أفسدوا، وسلط عليهم الفرس لما أفسدوا، كما قال تعالى: ﴿وَإِنْ عُدْتُمْ عُدْنَا﴾ [الإسراء: ٨]. فسنة الله قائمة إلى قيام الساعة حتى يقاتل المسلمون اليهود في آخر نصر لهم عليهم حين يختبئ اليهودي وراء الحجر فينطقه الله ويقول: (يا مسلم، هذا يهودي ورائي فاقتله)

ثم أخبر ﷺ أنهم يمكرون بالمسلمين دائماً، ويجتهدون في النيل من الإسلام، والقضاء على قوة المسلمين، ويسعون سعيًا حثيثًا للإفساد في الأرض عن طريق إثارة الفتن وإيقاظ الأحقاد بين الناس والعمل بمعاصي الله ﴿وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا﴾ لإثارة الفتن بين المسلمين ﴿وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ﴾ بل يبغضهم ويمقتهم.

صَلَاحُ اللَّاحِقِ بِمَا صَلَحَ بِهِ السَّابِقُ

٦٥- ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْكِتَابِ ءَامَنُوا وَاتَّقَوْا لَكَفَّرْنَا عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ﴾^(١) وَلَدْخَلْنَاهُمْ جَنَّاتِ النَّعِيمِ

ثم رسم الله سبحانه قاعدة عامة لصلاح الدنيا والآخرة معًا في كل أمة من الأمم، السابقين والحاضرين واللاحقين، وهي القاعدة والمنهج لكل من وُجد على ظهر الأرض من لدن بعثة النبي ﷺ إلى قيام الساعة، إنها دعوة إلى التوبة والإيمان بالله ورسله وملائكته وكتبه واليوم الآخر، واتقاء المعاصي، فقال سبحانه: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْكِتَابِ ءَامَنُوا وَاتَّقَوْا وَغَرِبَا﴾ بمحمد ﷺ، وصدقوه فيما جاء به من عند الله، بعد توحيدهم لله عزَّ وجلَّ، ثم قرنوا هذا الإيمان بالتقوى، فاجتنبوا ما حرم الله تعالى، وتركوا معاصيه، وامثلوا ما أمرهم الله به، وتركوا ما نهى عنه، وصانوا أنفسهم عن كل ما لا يرضيه سبحانه، لو أنهم فعلوا ذلك ﴿لَكَفَّرْنَا عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ﴾ أي: محونا عنهم ذنوبهم التي عملوها قبل دخولهم في الإسلام؛ لأن الإسلام يَجِبُ ما قبله، فلا نؤاخذهم عليها، بل نسترها ونغفرها ولا نعاقبهم عليها ﴿وَلَدْخَلْنَاهُمْ﴾ في الآخرة ﴿جَنَّاتِ النَّعِيمِ﴾ فيها ما تشتهيhe الأنفس وتلذ الأعين مع جملة المسلمين.

(١) أبْدَلْ حَمْزَةَ هَمْزَةٍ (سَيِّئَاتِهِمْ) يَاءَ خَالِصَةً عِنْدَ الْوَقْفِ، وَحَقَّقَهَا الْآخَرُونَ.

وفي الحديث عن أبي بريدة رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «اثنان يؤتون أجرهم مرتين: رجل من أهل الكتاب آمن بنبيه، ثم آمن بي فله أجران، ورجل كانت له جارية فأدبها فأحسن تأديبها، وعلمها ثم أعتقها فتزوجها فله أجران»^(١).

وهذا منهج مكون من مادتين اثنتين هما: الإيمان، والتقوى. ويترتب عليه أمران هما: سعادة الدنيا والآخرة، فلا افتراق بين الدنيا والآخرة، ولا بين الدين والدنيا، ولا تعارض ولا تناقض، ولا تضاد ولا تصادم بين العمل لكل منهما، فالطريق واحد، ما يصلح الدنيا يصلح الآخرة، وصالح الآخرة هو ذاته الطريق إلى صلاح الدنيا (بالإيمان والتقوى).

فسعادة الآخرة تحصل برفع العقاب وإيصال الثواب، وهذا حاصل بتكفير السيئات ودخول الجنات، أما سعادة الدنيا فتحصل بالعمل بما أنزل الله تعالى على رسله، فالمنهج الإسلامي يجمع بين العمل للدنيا والعمل للآخرة، والفصام بينهما يؤدي إلى التوتر، والقلق والحيرة، والشقاء الدنيوي والأخروي، فكم من البشر منغمسون إلى أذقانهم في الترف والنعيم الدنيوي وجميع الملذات والشهوات بعيداً عن العمل للآخرة، وهم في انحلال نفسي وخلقي، وقلق عصبي، وخوف داخلي، يدمر حياتهم المادية إن عاجلاً أو آجلاً، بسبب الفصام بين منهج الله وحياة الناس. قال تعالى:

٦٦- ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا التَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِمْ^(٢) مِنْ رَبِّهِمْ لَأَكَلُوا مِنْ فَوْقِهِمْ وَمِنْ تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ مِنْهُمْ أُمَّةٌ مُقْتَصِدَةٌ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ سَاءَ مَا يَعْمَلُونَ ﴿١١٦﴾﴾

أي لو أن اليهود والنصارى ﴿أَقَامُوا التَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ﴾ فعملوا بما فيهما، وأطاعوا أوامر الله، واعترفوا بما جاء فيهما، واجتنبوا ما نهى الله عنه فيهما، وحققوا منهج الله كما أنزله على رسولهما من غير تحريف، ولا تغيير، ولا تبديل، لو أنهم فعلوا ذلك؛ لسلموا من غضب الله، ولأغدق الله عليهم نعمه، فيسرّ لهم الأرزاق، وفتح لهم أبواب الأرض والسماء، وهذا يقتضي بالضرورة العمل بما فيهما من البشارة بالنبي ﷺ.

(١) في حديث أبي بردة في البخاري (٩٧) و(٣٠١١) ومسلم (١٥٤) بلفظ (ثلاثة يؤتون أجرهم .) وعن أبي موسى أيضاً كما في صحيح الجامع (١٨٨١).

(٢) قرأ حمزة ويعقوب بضم الهاء من (إليهم) وكسرها الباقون.

ولو أن المعاصرين منهم للنبي ﷺ ومن جاؤوا بعدهم عملوا بما أنزل على محمد ﷺ ﴿وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِمْ مِنْ رَبِّهِمْ﴾ وهو القرآن، ولو أنهم عملوا بما جاء في كتب أنبيائهم من البشارة بمحمد ﷺ مثل كتاب أشعيا، وكتاب أرميا، وزبور داود، لكانوا في عداد المؤمنين بكتب الله ورسله، وفازوا بسعادة الدنيا والآخرة، فجميع الكتب التي نزلت من عند الله تعالى يصدق بعضها بعضاً، والسابق منها يسلم الراية لِلَّاحِقِ، وكلها بشرت بالرسول الخاتم، والقرآن يجمعها، ويصدقها، ويهيمن عليها.

والمراد بإقامة هذه الكتب جميعاً: العمل بما فيها، وعدم تحريفها أو تغييرها، وتصديق ما جاءت به من البشارة بمحمد ﷺ والإيمان به واتباع هديه؛ لأنهم مأمورون باتباعه ﷺ ومخاطبون بما جاء به من عند الله تعالى، فهو منزل إليهم وإلى غيرهم من عند ربهم، كما قال تعالى: ﴿وَأَوْحَىٰ إِلَيْكَ هَٰذَا الْقُرْآنَ لِأَتَذْكُرَ بِهِ وَمَنْ بَلَغَ﴾ [الأنعام: ١٩].

وقال سبحانه: ﴿قُلْ يَتَّيْنَهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا﴾ [الأعراف: ١٥٨].

ثم رتب ﷺ على ذلك كثرة الرزق، وسعة العيش، ومجيء الخيرات من فوقهم بكثرة الأمطار، ومن تحتهم بكثرة النبات، واستخراج كنوز الأرض ﴿لَاكُلُوا مِنْ قَوْحِهِمْ﴾ من رزق الله في الجنة ﴿وَمِنْ تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ﴾ من رزق الله في الدنيا، فالاستقامة على إقامة شرع الله تعالى، سبب لكثرة الخيرات، وعميم البركات، وسعة الأرزاق، كما قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ اسْتَفْتَمُوا عَلَى الطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْنَهُمْ مَاءً عَذَقًا﴾ [الجن].

وهذه سنة الله في خلقه لجميع الأمم، كما قال تعالى عن قوم هود: ﴿وَيَقُولُوا اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَى قُوَّتِكُمْ﴾ [هود: ٥٢].

وقال عن قوم نوح: ﴿فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا ﴿١٠﴾ يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا ﴿١١﴾ وَيُمِدِّدُكُمْ بِأَمْوَالٍ وَبَيْنَ وَجْهَيْكُمْ لِكُمْ جَنَّاتٍ وَيَجْعَلُ لَكُمْ أَنْهَارًا﴾ [نوح: ١١].

وقال سبحانه عن جميع الخلق: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَىٰ ءَامَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَنَحْنَا عَلَيْهِمْ بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ﴾ [الأعراف: ٩٦].

وقال جل شأنه ﴿وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا ﴿٢﴾ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ﴾ [الطلاق].

والآية التي نحن بصددھا نزلت في سياق الحديث عن اليهود الذين قالوا ﴿يَدُ اللَّهِ مَغْلُولَةٌ﴾ حين قُلَّتْ الأرزاق عليهم، فكأن الله تعالى يقول . مع عموم الآية . ولو أن اليهود تركوا ما هم عليه من الكفر، وعدم الإيمان بمحمد ﷺ لانقلبت تلك الشدة إلى خصوبة وسعة رزق، وهذا الشرط ليس خاصًا بهم، فهو لأهل كل كتاب في زمن نبيهم، وأمة هذا القرآن هم أولى الناس به .

وغني عن البيان أن الله تعالى لا يقبل من أحد دينًا آخر بعد بعثة الرسول ﷺ وقد انتهى إليه كل دين قبله .

ثم بيّن ﷺ أن من أهل الكتاب فريقًا معتدلًا ثابتًا على الحق، كما قال تعالى: ﴿وَمِنْ قَوْمِ مُوسَى أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ﴾ [الأعراف]. والمراد بهم الطائفة التي آمنت بمحمد ﷺ مثل: عبد الله بن سلام وأصحابه، والنجاشي وأصحابه، ونصارى نجران وغيرهم، وكل من يحذو حذوهم إلى يوم القيامة ﴿مِنْهُمْ أُمَّةٌ مُّقْتَصِدَةٌ﴾ معتدلة، عاملة بما في التوراة، لا تغالي في دينها ولا في نبيها، ولا تقصّر في طاعة الله تعالى، والمراد بهم من دخل في الإسلام منهم .

وكثير من أهل الكتاب مثل كعب بن الأشرف، ورؤساء اليهود أقاموا على كفرهم، ومثلهم كل يهودي أو نصراني ولد بعد بعثة النبي ﷺ ولم يؤمن به، وهؤلاء قد ساء عملهم وضل سعيهم ﴿وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾، فالمسيء منهم أكثر من المقتصد .

وهكذا قال الله تعالى في النصارى: ﴿فَتَأْتِيْنَا الَّذِينَ ءَامَنُوا مِنْهُمْ أَجْرَهُمْ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فَتْسِفُونَ﴾ [الحديد: ٢٧]. فهم فرقتان أيضًا كاليهود، وهكذا، فإن هذه الآية والتي قبلها بشرت أهل الكتاب بالسعادة في الدنيا والآخرة متى آمنوا بالله تعالى، واتبعوا ما جاء به محمد ﷺ، وإن لم يتحقق ذلك فلا وجه للانتفاع بما في التوراة والإنجيل .

في مسند الإمام أحمد وغيره عن زياد بن لييد قال: ذكر النبي ﷺ شيئًا فقال: «وذاك عند ذهاب أهل العلم» قال: قلنا: يا رسول الله، وكيف يذهب العلم ونحن نقرأ القرآن ونقرئه أبناءنا، ويقرئه أبناءنا أبناءهم إلى يوم القيامة؟ قال: «ثكلتك أمك يا بن لييد، إن كنت لأراك من أفقه رجل بالمدينة، أو ليس هذه اليهود والنصارى يقرؤون التوراة والإنجيل

ولا يتنفعون مما فيهما بشيء»^(١).

وفي رواية عبد الرحمن بن جبير بن نفير عن أبيه أن رسول الله ﷺ قال: «يوشك أن يُرفع العلم» فقال زياد بن لبيد: يا رسول الله، وكيف يُرفع العلم وقد قرأنا القرآن وعلمناه أبناءنا؟ قال: «ثكلتك أمك يا بن لبيد! إن كنت لأراك من أفقه أهل المدينة، أو ليست التوراة والإنجيل بأيدي اليهود والنصارى؟! فما أغنى عنهم حين تركوا أمر الله، ثم قرأ ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا التَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ﴾»^(٢).

أما أهل الإسلام فقد قسمهم الله تعالى إلى ثلاثة طوائف في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ وَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ يُؤْتِي اللَّهَ﴾ [فاطر: ٣٢]. والظالم لنفسه هو الذي خلط عملاً صالحاً وآخر سيئاً، والمقتصد - هو من اقتصر على امثال الأوامر واجتناب النواهي، والسابق بالخيرات - هو من زاد على ذلك بالإكثار من النوافل.

حَفِظَ اللَّهُ تَعَالَى لِرَسُولِهِ ﷺ حَتَّى يَبْلُغَ رِسَالَةَ رَبِّهِ

٦٧- ﴿يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَغْتَ رِسَالَتَهُ﴾^(٣) وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ ﴿٧﴾

وفي سياق الحديث عن أهل الكتاب، ينادي الله تعالى رسوله الكريم أن يبلغ للناس جميع ما أوحى الله به إليه، وإن لم يفعل أو ترك شيئاً مما أمر بتبليغه لأي سبب من الأسباب، فما بلغ وما قام بواجب الرسالة ﴿يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ﴾

(١) «المستند» (١٦٠/٤) برقم (١٧٤٧٣، ١٧٩١٩) بنحوه، حديث صحيح رجال ثقات، (محققوه) وأخرجه ابن أبي شيبة (٥٣٦/١٠) والبخاري في التاريخ الكبير (٣/٣٤٤) والطبراني في الكبير (٥٢٩١) و«سنن ابن ماجه» برقم (٤٠٤٨) قال البوصيري في «الزوائد» (٣/٢٥٣) إسناده منقطع، قال البخاري في «التاريخ الصغير»: لم يسمع سالم بن أبي الجعد من زياد بن لبيد، وانظر الألباني في «صحيح سنن ابن ماجه» (٣٢٧٢).

(٢) رواه الطبراني في «المعجم الكبير» (٤٣/١٨) والبزار في مسنده برقم (٢٣٢) «(كشف الأستار)» وابن أبي حاتم (٦٥٩٥) وهو حديث مرسل.

(٣) قرأ نافع وابن عامر وشعبة وأبو جعفر ويعقوب (رسالاته) بالجمع، والباقون (رسالاته) بالافراد.

ويدخل في هذا الأمر، كل ما أمر الرسول بتبليغه من العقائد والأعمال والأقوال والأحكام الشرعية والمطالب الإلهية، وإن لم تستوف - أيها الرسول - ما أمرت بتبليغه فحكمك في عدم الامتثال حكم من لم يبلغ شيئاً أصلاً، وهذا معنى: ﴿وَإِنْ لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَغْتَ رِسَالَتَهُ﴾ وقد بلغ النبي ﷺ أكمل تبليغ، ودعا وأنذر وبشر، وعلم وبلغ بقوله وفعله وكتبه ورساله، فلم يبق خيراً إلا دل الأمة عليه، ولا شراً إلا حذر منه.

ولما كانت الآية التي قبلها والتي بعدها تتحدث عن أهل الكتاب، كان لهذه الآية في هذا السياق معنى يتعلق بأهل الكتاب خاصة، ثم هي كسائر الآيات تأخذ حكم العموم، وهو هنا: وجوب تبليغ الوحي للخلق أجمعين.

وهذه الآية تشبه قوله تعالى: ﴿يَتَأْتِيهَا الرُّسُولُ لَا يَحْزُنكَ الَّذِيئْتُ يُسْرِعُونَ فِي الْكُفْرِ مِنَ الَّذِيئْتُ قَالُوا ءَأَمَنَّا بِأَفْوَاهِهِمْ وَلَمْ تُؤْمِنْ قُلُوبُهُمْ﴾ [٤١].

وقوله سبحانه: ﴿وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ وَاحْذَرْهُمْ أَنْ يَفْتِنُوكَ عَنْ بَعْضِ مَا أُنْزَلَ اللَّهُ إِلَيْكَ﴾ [٤٩].

والسياق يقتضي حمل الآية بالدرجة الأولى على أن الله تعالى قد أمّن رسوله محمداً ﷺ من مكر اليهود والنصارى، وأمره بإظهار التبليغ وإشهاره من غير مبالاة منهم؛ وذلك لتثبيت قلب النبي ﷺ وتقويته وتأمينه من خوف الأعداء، وهذا هو المراد من قوله تعالى ﴿وَاللَّهُ يَعْصُمُكَ مِنَ النَّاسِ﴾ ففي هذا حماية وحفظ وعصمة من الله لرسوله أن يمسه أذى من الناس، وأنه ينبغي له أن يصرف همته وحرصه على الدعوة والبلاغ، ولا يخاف من المخلوقين، فإن نواصيهم بيد الله سبحانه، وقد تكفل الله بعصمته، ومهمتك - أيها الرسول - هي البلاغ المبين، فمن اهتدى فلنفسه ومن ضل فإنما يضل عليها.

ومما جاء في أسباب النزول:

١ - قالت عائشة ؓ: سهر رسول الله ﷺ ذات ليلة . أي: أصابه أرق . فقلت: ما شأنك؟ قال: «ألا رجل صالح يحرسني الليلة؟» فبينما نحن في ذلك إذ سمعت صوت السلاح، فقال: «من هذا؟» فقال: سعد وحذيفة جئنا نحرسك، فنام رسول الله ﷺ حتى سمعت غطيظه، فنزلت ﴿وَاللَّهُ يَعْصُمُكَ مِنَ النَّاسِ﴾ فأخرج رسول الله ﷺ رأسه من قبة

أدم، وقال: «انصرفوا أيها الناس فقد عصمني الله تعالى»^(١).

٢ - وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: كنا إذا صحبنا رسول الله ﷺ في سفر تركنا له أعظم شجرة وأظلمها، فينزل تحتها، فنزل ذات يوم تحت شجرة وعلّق سيفه فيها، فجاء رجل فأخذه فقال: يا محمد، من يمنعك مني؟ فقال رسول الله ﷺ «الله يمنعني منك، ضع السيف»، فوضعه، فأنزل الله عز وجل ﴿وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ﴾^(٢).

٣ - وقيل: إن الآية ﴿يَتَأْتِيَكَ الرَّسُولُ بِبَلَاغٍ﴾ نزلت في قصة سؤال اليهود للنبي ﷺ عن حكم الرجم والقصاص، بأن يجهر بالحكم فيهما، ولا يباي بهم.

٤ - وعن عبد الله بن شقيق عن عائشة رضي الله عنها قالت: كان النبي ﷺ يُحَرِّسُ حتى نزلت هذه الآية ﴿وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ﴾ قالت: فأخرج النبي ﷺ رأسه من القبة وقال: «يا أيها الناس، انصرفوا فقد عصمني الله عز وجل»^(٣).

هذا: وكان أهل الكتاب والمنافقين قد تظاهروا على النبي ﷺ: فريق مجاهر بالعداوة، وفريق مستتر، فجاءت هذه الآية؛ لتثبت قلب النبي ﷺ وشرح صدره بأن يداوم على تبليغ الرسالة، ويجتهد في ذلك، ولا يكثر بما يلاقه من أهل الكتاب والكفار، والله تعالى حافظ رسوله وعاصمه من أعدائه ومهوّن عليه أمرهم.

والمراد بالعصمة: الوقاية والحفظ من اغتيال المشركين له ﷺ؛ إذ لو حصل ذلك لتعطلت الرسالة، وكان النبي ﷺ حريضاً على هداية الناس، ولذلك فإن النبي ﷺ لما

(١) أخرجه الترمذي (٩٦ / ٤) برقم (٣٠٤٦) والطبري (٤٦٩ / ١٠) والحاكم (٣١٣ / ٢) وقال: هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه، ووافقه الذهبي، وقد حَسَّنَ الحافظ في الفتح إسناده، و«المسند» (١٤٠ / ٦) برقم (٢٥٠٩٣) بلفظ (ليت رجلاً) وهو في الصحيحين من طريق يحيى بن سعيد الأنصاري، يُنْظَرُ: البخاري (٨١ / ٦) برقم (٢٨٨٥، ٧٢٣١) ومسلم (٤ / ١٨٧٥) برقم (٢٤١٠).

(٢) أخرجه ابن مردويه، قال محقق «تفسير ابن كثير» ط دار الراجية بالرياض: شيخ ابن مردويه أبو عمرو وشيخه محمد بن عبد الوهاب لم أقف على تراجمهما، وبقية رجال السند على شرط مسلم، وهو في «صحيح ابن حبان» برقم (١٧٣٩) (موارد) واللفظ له.

(٣) «سنن الترمذي» برقم (٥٠٣٧) وصحيح الترمذي (٢٤٤٠) بتحسين الألباني له و«تفسير الطبري» (١٠ / ٤٦٩) و«المستدرک» (٣١٣ / ٤) وسنن سعيد بن منصور برقم (٧٦٨).

عرض نفسه على القبائل في أول الدعوة طلب منهم أن يبايعوه على أن يمنعوه مما يمنعون منه أنفسهم وأبنائهم حتى يبلغ رسالة ربه .

أما ما دون الاغتيال أو القتل ، فقد حدث للنبي ﷺ وناله من الأذى الشيء الكثير ، فقد رماه المشركون بالحجارة حتى أذمّوه ، وشجّ وجهه الشريف ، وكسرت رباعيته ، ووضعوا سلى الجزور عليه ﷺ وهو ساجد .

وهذه العصمة من القتل والاغتيال قد وعد الله تعالى بها رسوله ﷺ في أكثر من موضع ، كما قال تعالى ﴿ نَسِيكَهُمْ اللَّهُ ﴾ [البقرة: ١٢٧] . وقد أخذ النبي ﷺ من هذه الآية وهو بمكة أن الله تعالى قد عصمه من المشركين .

وفي غزوة ذات الرقاع سنة ست من الهجرة ، أي : قبل نزول هذه الآية وجد غُورث بن الحارث رسول الله ﷺ نائمًا في ظل شجرة ، ووجد سيفه معلقًا ، فاخترطه ، وقال للرسول ﷺ : من يمنعك مني ؟ فقال : «الله» ، فارتعدت يده وسقط السيف من يد الأعرابي (غُورث) ، وقال له النبي ﷺ : «إن الله قد حال بينك وبين ما تريد»^(١) .

وقد جاءت هذه الآية تشيئًا لوعد الله تعالى له بحفظه ، وتطمينًا له بالمداومة على ذلك ، وأن هذا الوعد لا يتغير مع تغير الأعداء ، سواء أكانوا مشركين وثنيين ، أو يهود ، أو غير ذلك ، فكلهم كفار ، وسبب عداوتهم وعدم هدايتهم هو الكفر .

ومع أن رسول الله ﷺ يحب الرفق في الأمر كله ، وقد أخبره ربه ألا يجهر بالسوء من القول إلا من ظلم ، فقد أعلمه ربه أنه لا رفق مع هؤلاء ؛ لأنهم لا يدخلون تحت مَنْ يُجَادَلُونَ بالنبي هي أحسن ، وأمره أن يقول لهم : ﴿ وَأَنْ أَكْذَرُ فَسِقُونَ ﴾ [٥٩] . وأن يقول لهم : ﴿ قُلْ هَلْ أُنَبِّئُكُمْ بِشَرٍّ مِنْ ذَلِكَ مَثُوبَةً عِنْدَ اللَّهِ مَنْ لَعَنَهُ اللَّهُ وَغَضِبَ عَلَيْهِ وَجَعَلَ مِنْهُمْ الْفِرْدَ وَالْخَنَازِيرَ وَعَبَدَ الطَّاغُوتَ أُولَئِكَ شَرٌّ مَكَانًا وَأَضَلُّ عَنْ سَوَاءِ السَّبِيلِ ﴾ . فحذّره ربه من ملايتهم ومن خشية إغراضهم عنه ، وأمره أن يبلغهم قوارع القرآن ، وأخبره أن ذلك سيزيدهم طغيانًا وكفرًا فقال : ﴿ وَلَئِذَا بَلَغَ كَثِيرًا مِنْهُمْ مَا أَنْزَلْ إِلَيْكَ مِنْ رَّبِّكَ طُغْيَيْنًا وَكُفْرًا فَلَا تَأْسَ عَلَى الْكَافِرِينَ ﴾ [٦٨] .

(١) أخرجه ابن أبي حاتم عن جابر بن عبد الله برقم (٦٦١٤) وأصل القصة في «صحيح البخاري» برقم (٢٩١٠ ، ٤١٣٥ ، ٤١٣٦) وفي «صحيح مسلم» برقم (٨٤٣) .

فالمراد بهذا التبليغ في الآية: تقرير أهل الكتاب وعدم المبالاة بهم.

وقد صان الله تعالى رسوله ﷺ في بدء الدعوة بعمه أبي طالب.

ونجّاه الله من تأمر المشركين على قتله ليلة الهجرة.

وقيض له الأنصار فبايعوه، على أن يمنعوه مما يمنعون منه نساءهم وذرياتهم.

وحفظه من تأمر اليهود على قتله أكثر من مرة.

ونجّاه من مكربهم حين همّوا بإلقاء الحجر عليه وهو جالس تحت دار من دورهم.

ووضعوا له السم في ذراع الشاة فأعلمه الله تعالى به.

وحفظه من السحر الذي أرادوه به.

وأنزل عليه المعوذتين.

ولما أتي النبي ﷺ برجل، وقيل له: هذا أراد أن يقتلك، قال ﷺ: «لم تُرْع، لم تُرْع، ولو أردت ذلك لم يسلطك الله علي»^(١).

وعَصَمَهُ الله تعالى في غزواته وحروبه من أن تمتد إليه يد الأعداء على كثرتها، ولا ينافي ذلك ما حدث في غزوة أحد من شج وجهه الشريف وكسر رباعيته؛ لأن العصمة له ﷺ من القتل والاختيال، وليس من الأذى، وقد حفظه الله من القتل حتى الموت.

على أن هذه الآية من أواخر ما نزل على رسول الله ﷺ أي: بعد غزوة أحد التي حدث فيها هذا الأذى.

أما عدم كتمان الرسول ﷺ لشيء مما نزل، فقد شهد له الصحابة جميعاً بأداء الأمانة وتبليغ الرسالة، واستنطقهم بذلك في أعظم المحافل، في خطبته ﷺ يوم حجة الوداع، وكان معه أربعون ألفاً من الصحابة، كما ثبت في صحيح مسلم وغيره.

(١) يُنظر ذلك في «المسند» (٣/ ٤٧١) برقم (١٥٨٦٨) عن أبي إسرائيل الجُشمي بسند ضعيف، والطبراني في الكبير برقم (٢١٨٣) من طريق علي بن الجعد عن شعبة، وأخرجه النسائي في الكبرى (١٠٩٠٣) وفي عمل اليوم والليلة (١٠٦٤).

عن جابر بن عبد الله رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال في خطبته يومئذ: «أيها الناس: إنكم مسؤولون عني، فما أنتم قائلون؟» قالوا: نشهد أنك قد بلغت وأديت ونصحت، فجعل يرفع إصبعه إلى السماء، ويقولها إليهم ويقول: «اللهم هل بلغت، اللهم هل بلغت»^(١).

وفي صحيح البخاري وغيره عن عائشة رضي الله تعالى عنها قالت لمسروق: ثلاث من حدثك بهن فقد كذب، من حدثك أن محمداً كتم شيئاً مما أنزل عليه فقد كذب، والله يقول: ﴿يَأَيُّهَا الرُّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَغْتَ رِسَالَتَهُ﴾ الحديث^(٢).

وفي لفظ: من زعم أن محمداً كتم شيئاً من الوحي فقد كذب^(٣).

وعنها رضي الله عنها قالت: لو كان محمد كاتماً من القرآن شيئاً لكم هذه الآية ﴿وَتُخْفَى فِي نَفْسِكَ مَا اللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى النَّاسَ وَاللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَاهُ﴾^(٤) [الأحزاب: ٣٧].

أوهام شيعية:

وفي صحيح البخاري وغيره من حديث أبي جحيفة قال: قلت لعلي بن أبي طالب رضي الله عنه: هل عندكم شيء من الوحي مما ليس في القرآن؟ فقال: لا، والذي فلق الحبة، وبرأ النسمة، إلا فهما يعطيه الله رجلاً في القرآن، وما في هذه الصحيفة، قلت: وما هذه الصحيفة؟ قال: العقل، وفكاك الأسير، وأن لا يقتل مسلم بكافر^(٥).

(١) يُنظر النص في «صحيح مسلم» في حديث طويل عن جابر رضي الله عنه برقم (١٢١٨) بنحوه وأبي داود (٣٦٠/٥-٣٨٥) في «عون المعبود» وابن ماجه (١٠٢٢/٢-١٠٢٧) و«المسند» (٢٣٠/١) برقم (٢٠٣٦) عن ابن عباس في المقطع الأخير منه.

(٢) البخاري برقم (٣٢٣٤، ٤٦١٢، ٤٨٥٥، ٧٣٨٠) ومسلم برقم (١٧٧) والترمذي برقم (٣٠٦٨) و«سنن النسائي الكبرى» برقم (١١١٤٧).

(٣) البخاري (٣٢٣٤).

(٤) أخرجه مسلم في الإيمان (١٧٧) وأحمد في «المسند» (٤٩/٦) برقم (٢٦٠٤١، ٢٦٢٩٥) وهو حديث صحيح وأخرجه الترمذي (٣٢٠٩) عن محمد بن أبان (وهو ثقة) وقال الترمذي: هذا حديث حسن صحيح، وابن خزيمة في التوحيد ص (٢٢٤) والنسائي في «السنن الكبرى» (١١٤٠٨).

(٥) «صحيح مسلم» (١٦٠/١٣) برقم (١٣٧٠) والبخاري برقم (١١١) وانظر: (١٨٧٠، ٣٠٤٧، ٧٣٠٠) وأخرجه أيضاً الترمذي برقم (١٤١٢) وابن ماجه (٥٦٥٨).

وفي هذا ردُّ على من زعم أن القرآن أكثر مما هو في المصحف الذي جمعه أبو بكر ونسخه عثمان، وأنه قد خُصَّ علي بن أبي طالب بشيء من الوحي يُبلغُ حِمْلًا ورثه أبناءه، وأنه مخزن عند الإمام المعصوم الملقَّب بالمهدي المنتظر، وكانت هذه الأوهام قد ألَمَّت بأنفس بعض المتشيِّعين لعلي عليه السلام في مدة حياته مما دعاهم إلى سؤاله.

ومن ذلك ما جاء في الحديث السابق أن أبا جحيفة سأل عليًّا عليه السلام، إن كان عندهم شيء من القرآن ليس عند الناس، فأقسم عليٌّ بالذي فلق الحبة وبرأ النسمة، أنه لا يوجد عندهم شيء زائد عما هو بين دفتي المصحف، سوى ما يمنحه الله تعالى لبعض خلقه من راحة العقل وحسن الاستنباط لِمَا في كتاب الله عز وجل، ويشير إلى ذلك أيضًا حديث عائشة لمسروق كما سبق، ففيه تبديد لهذا الهاجس الذي قد يحدث لبعض الناس.

اختصاص بعض الصحابة بشيء مما تدعو إليه الحاجة:

وقد يخص النبي ﷺ بعض الناس ببيان شيء ليس في القرآن تدعو إليه الحاجة، كما جاء في حديث أبي جحيفة حيث كان علي عليه السلام قاضيًا باليمن، فكتب إليه النبي ﷺ بحكم فكاك الأسير، وألا يُقتل مسلم بكافر، وبَيَّن له فضيلة العقل، وهذا بيان وشرح لما أنزل على النبي ﷺ كما قال تعالى: ﴿وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [النحل: ٤٤].

كما أسرَّ النبي ﷺ إلى فاطمة عليها السلام بأنه سيموت، وأنها أول من يلحق به.

وأسرَّ إلى أبي بكر عليه السلام بأن الله تعالى أذن له في الهجرة.

وأسرَّ إلى حذيفة عليه السلام بخبر فتنة الخارجين على عثمان عليه السلام، وبأسماء المنافقين.

وعصمة الله تعالى لنبیه من الناس دفعًا لما يُظن أن الخوف من الناس يحمله على الكتمان.

ومجمل معنى الآية: يأيها الرسول، بلغ وحي الله تعالى الذي أنزل إليك من ربك، وإن قصرت في البلاغ فكتمت منه شيئًا، فإنك لم تبْلُغ رسالة ربك، وقد بْلَغَ ﷺ رسالة ربه كاملة، ومن زعم أنه كتم شيئًا مما أنزل عليه، فقد أعظم على الله وعلى رسوله الفرية، والله تعالى حافظك وناصرك على أعدائك، فليس عليك إلا البلاغ، إن الله لا يوفق للرشد من

حاد عن سبيل الحق، وجحد ما جئت به من عند الله^(١) ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ﴾.

أُبْجَدِيَّاتُ الْبَلَاغِ النَّبَوِيِّ

٦٨ - ﴿قُلْ يَٰأَهْلَ الْكِتَابِ لَسْتُمْ عَلَىٰ شَيْءٍ حَتَّىٰ تُقِيمُوا التَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ وَلَازِدَتْ كَثِيرًا مِّنْهُمْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ طُغْيَيْنًا وَكُفْرًا فَلَا تَأْسَ^(٢) عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ^(٣)﴾

ومن أول ما أمر النبي ﷺ بتبليغه أهل الكتاب هذه الآية لبيان ضلالهم وإعلان باطلهم: ﴿قُلْ يَٰأَهْلَ الْكِتَابِ لَسْتُمْ عَلَىٰ شَيْءٍ﴾ يقام له وزنٌ من أمر الدين، فإنكم لا بالقرآن ومحمد آمنتم، ولا بنبينا وكتابكم صدقتم، ولا بحق تمسكتكم، ولا على أصل اعتمدتم، فلستم على شيء ﴿حَتَّىٰ تُقِيمُوا التَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ﴾ وتعملوا بما فيهما، ولا تكتموا شيئاً منهما، وحتى تؤمنوا بالنبي الخاتم، وهذا معنى: ﴿وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ﴾ أي: - قل أيها الرسول الكريم - لهؤلاء اليهود والنصارى: إنكم لستم على شيء من الدين الحق، المرتضى عند الله تعالى، ولستم على شيء مما تدعون أنكم عليه مما جاء به موسى إلى اليهود، ولا مما جاء به عيسى إلى النصارى، حتى تؤمنوا بما بشرت به التوراة والإنجيل، من الرسالة الخاتمة، وبما أنزل الله على محمد ﷺ في الكتاب المهيم على كل ما سبقه من الكتب، فتلتزموا أحكام الله، وتقوموا بما حملتم من أمانة الله وعهده.

ولستم على حظ من الجميع، ما دمت لم تعملوا بما جاء في هذا القرآن، وهو مصداق ما جاء في التوراة والإنجيل، ولكنكم أحدثتم وغيرتم في دين الله وأنكرتم ما جاء فيه.

جاء وفد من اليهود إلى النبي ﷺ فيهم سلام بن مشكم، ورافع بن حارثة، ومالك بن الصَّيف، ورافع بن خريملة، وقالوا: يا محمد، ألسنت تزعمن أنك على ملة إبراهيم ودينه، وتؤمن بما عندنا من التوراة، وتشهد أنها حق؟ فقال رسول الله ﷺ: «بلى، ولكنكم أحدثتم وكنتم، وجحدتم ما فيها، مما أخذ عليكم من الميثاق، وكنتم منها ما أمرتم أن

(١) من «التفسير الميسر» نخبة من العلماء.

(٢) قرأ ورش وأبو جعفر وأبو عمرو بخلف عنه بإبدال همزة (فلا تأس) ألفاً، وصلّاً ووقفاً ووافقهم حمزة حالة الوقف عليها، وتحقيق الهمز وإبداله لغتان للعرب.

(٣) أمال (الكافرين) أبو عمرو ودوري والكسائي ورويس، وقللها ورش.

تبينوه للناس، فأنا بريء من إحدائكم»، قالوا: فأنا نأخذ بما في أيدينا، فأنا على الحق والهدى، ولا نؤمن لك ولا نتبعك، فأُنزل الله الآية^(١).

وتقدم أن مقتضى إقامة التوراة والإنجيل بالدرجة الأولى، هو العمل بما فيهما، من وجوب الدخول في دين الله الذي جاء به محمد ﷺ، فالمقصود: إقامة التوراة والإنجيل عند مجيء القرآن بالاعتراف بما فيهما من البشارة، والإيمان بمحمد ﷺ، وبما أُنزل عليه، وقد كذبت هذه الآية مزاعم اليهود أنهم متمسكون بالتوراة؛ إذ لو تمسكوا بها لآمنوا بمحمد ﷺ.

والله ﷻ يعلم أن مواجهتهم بهذه الحقيقة ستؤدي بكثير منهم إلى الطغيان والكفر والعناد واللجاج، فقال: ﴿وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِّنْهُمْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ طُغْيَانًا وَكُفْرًا﴾ فبدل أن يزدادوا هدى وإيمانًا بمقتضى ما أنزله الله على محمد ﷺ ازدادوا كفرًا وطغيانًا، وهم بهذا يستحقون المصير البائس والعذاب المؤلم، فلا تحزن على من جحدوا نبوتك، ولم يؤمنوا بك، حسدًا منهم لأنك بُعثت بالرسالة الخاتمة، فضرر كفرهم وتكذيبهم لن يعود عليك ﴿فَلَا تَأْسَ عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾ لا تأسف على كفرهم؛ فإنهم قد استحبوا العمى على الهدى، وفي المؤمنين غنى عنهم.

قَوَاعِدُ النِّجَاةِ فِي جَمِيعِ الْأُمَمِ لَهُ ثَلَاثَةُ شُرُوطٍ

٦٩- ﴿إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّابِقُونَ^(٢) وَالنَّصَارَى مَن ءَامَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ^(٣) وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ^(٤)﴾

(١) «سيرة ابن هشام» (٥٦٧/١) والطبري (٥٧٣/٨) وابن أبي حاتم (٦٦/٨) وتفسير «الخازن» (٤٨٠/١) والألوسي (٢٠٠/٦) و«زاد المسير» (٣٩٨/٢) والقرطبي (٢٤٥/٦) والسيوطي (١٠٩) و«فتح الباري» (٢٦٩/٨).

(٢) قرأ نافع وأبو جعفر بنقل حركة همزة (والصابئون) إلى الباء قبلها مع حذف الهمزة، وقرأ باقي القراء بإبقاء الهمزة وعدم النقل.

(٣) قرأ يعقوب بفتح فاء (فلا خوف) وعدم تنوينها، والباقون برفع الفاء منونة.

(٤) قرأ حمزة ويعقوب بضم الهاء من (عليهم)، والباقون بكسرها. وقرأ ابن كثير وأبو جعفر وقالون بخلف عنه بضم ميم الجمع وصلتها مدًا طبيعيًا، والباقون بإسكانها.

وبعد أن بيّن سبحانه أن أهل الكتاب ليسوا على حظ من الدين، ولا يُعتبرون أهل دين حتى يؤمنوا بمحمد ﷺ، ذَكَرَ حُكْمًا عامًا يشمل أهل الملل والنحل جميعًا، وَخَصَّ منهم بالذكر فرقًا أربعة وهم:

الفرقة الأولى: المسلمون، وَقَدَّمُوا في الآية؛ لأنهم المثال الصالح في كمال الإيمان وعدم الشرك بالله تعالى، وهم الذين عَبَّرَ الله عنهم بقوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ من أهل القرآن أي: إيمانًا صادقًا كاملاً، فاعتقدوا بقلوبهم، ونطقوا بألسنتهم، وعملوا بجوارحهم، وَفَقَّ هَذِي محمد ﷺ فاتبعوه في كل ما جاء به.

الفرقة الثانية: اليهود، وهم الذين عَبَّرَ الله تعالى عنهم بقوله: ﴿وَالَّذِينَ هَادُوا﴾ من أهل التوراة، وَسُمُّوا يَهُودًا من قولهم: ﴿إِنَّا هُدْنَا إِلَيْكَ﴾ [الأعراف: ١٥٦]. أو نسبة إلى أبيهم (يهوذا) وهو أكبر أبناء يعقوب، وَخُفِّقَتِ الذال إلى الدال، وهم أتباع موسى ﷺ، وقد أنزل الله تعالى عليه التوراة.

الفرقة الثالثة: الصابئون، هم الخارجون عن الدين الصحيح من عبدة الكواكب أو الملائكة والصابئ هو الخارج عن الدين إلى دين آخر، والصابئة لغة سامية قديمة هي لغة عرب ما بين النهرين في العراق، يسكنون البطائح، وواسط، وَحَرَّانَ من بلاد الجزيرة، وقد ظهر دينهم في الكلدان، ثم انتشر في البلاد المذكورة، ولما ظهر الفرس على العراق أزالوا مملكة الصابئين ومنعواهم من عبادة الأصنام، ودين الصابئة من أقدم الديانات فهم ينتسبون إلى شيث بن آدم، وكانوا مؤمنين بالله تعالى والنبين ولهم عبادات، ثم عبدوا الكواكب. وَسُمُّوا بذلك؛ لأنهم صَبَّؤا إلى اتباع الهوى، فظنوا أن الأرواح تسكن الكواكب، وأنها تنزل إلى النفوس الإنسانية فعبدوها بقصد تركية النفس وتطهيرها، ولم يستمروا على ما جاء الله به من الرسالات، ولا تزال طائفة منهم تسكن تخوم العراق.

فهم اليوم قلة تعيش في شمال العراق، ومن العسير الجزم بحقيقة معتقدتهم حاليًا؛ لأنهم أكتم الناس لعقائدهم خشية أن تتغير بمرور الزمن.

وقد جاء ذكرهم في الآية (٦٢) من سورة البقرة بنحو ما في هذه الآية، بخلاف الآية (١٧) من سورة الحج، فإنها تضيف المجوس والوثنيين إليهم، وتبين أن الله تعالى يفصل

بين الجميع يوم القيامة.

الفرقة الرابعة: النصارى، أتباع عيسى عليه السلام، وقد أنزل الله عليهم الإنجيل، وسُمُّوا نصارى نسبة إلى قرية الناصرة التي ظهر فيها عيسى عليه السلام بفلسطين، أو سُمُّوا نصارى من قول الحواريين منهم ﴿نَحْنُ أَنْصَارُ اللَّهِ﴾ [الصف: ١٤].

وقد بيَّن ﷺ أنه لا يحصل لهؤلاء، ولا لغيرهم فضيلة ولا منقبة ولا سعادة ولا نجاة من عذاب الله تعالى إلا من طريق واحد وأصل واحد، إذا تحقق فيهم ثلاثة شروط:

الشرط الأول: الإيمان بالله تعالى ربًّا وخالقًا، وإفراده جل شأنه بالعبادة دون سواه، وعدم الإشراك به، مع ثبات هذا الإيمان وعدم النفاق فيه، ولا يتحقق كمال هذا الإيمان إلا بالتصديق بمحمد ﷺ وما جاء به من عند الله سبحانه.

الشرط الثاني: الإيمان باليوم الآخر، وما فيه من بعث وحشر ونشر، وحساب وجزاء، وجنة ونار، وثواب وعقاب.

الشرط الثالث: العمل الصالح بامثال الأوامر واجتناب النواهي، والإكثار من النوافل، وتوقِّي الشهوات والشبهات.

فكل من انتمى من هؤلاء وغيرهم إلى دين صحيح في أصله، وآمن بالله واليوم الآخر، وعمل صالحًا، وآمن بالرسول المبعوث إليه، والكتاب الذي نزل عليه، وداوم على إيمانه، فلم يُغيِّره بالشرك، ولم ينكر البعث، ثم مات قبل مجيء الرسول الذي يليه، أي: قبل نسخ رسالته، فهو في مأمن من أهوال يوم القيامة، لا يخاف إذا خاف الناس، ولا يحزن على ما تركه وراءه من الدنيا، فلا خوف من المستقبل، ولا حزن على الماضي؛ لأنه سَيُقدِّم على نعيم دائم لا ينفد.

وقال تعالى عن أوليائه ﴿أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿١٢٧﴾ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ ﴿١٢٨﴾ لَهُمُ الْبُشْرَىٰ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ﴾ [يونس].

كما قال سبحانه عن أهل الاستقامة ﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَمُوا فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [الأحقاف: ١٣].

وهكذا: فرسالة موسى ﷺ تنتهي ببعثة عيسى ﷺ؛ فمن وُجد يدين باليهودية بعد مجيء النصرانية فهو غير داخل في الآية؛ لأنه لم يؤمن بالرسول اللاحق ولا بكتابه، وظل متبعاً لرسالة قد انتهت صلاحيتها.

وكذلك الشأن في كل رسالة، فلا بقاء لنصراني على نصرانيته، بعد بعثة خاتم الرسل ﷺ. وبداية أنه لا مجال ليهودي يكفر برسالتين فكل من جاء بعد بعثة محمد فهو مأمور أن يؤمن بالنبي الخاتم.

وكل من بلغته دعوة الإسلام من تلك الفرق وغيرها ولم يقبلها، ولم يدخل في دين الإسلام، فليس من الناجين من عذاب الله يوم القيامة؛ لأن الإسلام قد نسخ ما قبله، وهذا أمر معلوم من الدين بالضرورة، وفي الحديث: «لو كان موسى حيّاً ما وسعه إلا اتباعي» ولا يدخل في الآية من جعل عزيزاً ابن الله، ومن جعل المسيح ابن الله، أو قال: إن الله ثالث ثلاثة، ولا من قال: إن عيسى كَفَّرَ خطايا البشر بالقتل والصلب، ولا يدخل في الآية أيضاً الصابئة الذين عبدوا الكواكب أو غيرها بعد أن كانوا على دين له كتاب، حيث إن المراد بهذه الفرق التي في الآية من كان منهم موحدًا متمسكًا بأصل الديانة قبل التحريف، وكان كل منهم في زمانه قبل بعثة خاتم المرسلين ﷺ. ومن نافلة القول أن محمدًا ﷺ هو خاتم النبيين، وأنه قد أُرسل إلى البشر كافة، وأن الناس جميعًا على اختلاف مللهم ونحلهم مَدْعَوُونَ إلى الإيمان بما جاء به جملة وتفصيلاً، وكل من لم يؤمن به من الخلق جميعًا فهو ضالٌّ مُضِلٌّ، لا يقبل الله منه صرفًا ولا عدلاً، ولا يدخل في مضمون هذه الآية.

وقد تقدم نظير هذه الآية في سورة البقرة، ولفظ ﴿وَالصَّابِئُونَ﴾ قرأها ابن محيصة^(١) (والصابئين) عطفًا على ما قبلها، وقرأها الجمهور (والصابئون) بالرفع، على أنها مبتدأ حُذِفَ خبره، أي: والصابئون كذلك، كأنه قال: كل هؤلاء إذا آمنوا وعملوا صالحًا حتى الصابئين، فإنهم كذلك لا خوف عليهم ولا هم يحزنون إذا آمنوا بالله واليوم الآخر وعملوا صالحًا، والحكمة في ذلك أن الناس يجهلون حالهم، فالقاعدة التي في الآية

(١) وهو أحد القراء الأربعة ممن نسبت إليهم القراءات غير المتواترة، وهي ما بعد القراءات العشر، وهذه القراءات الشاذة يؤخذ منها الأحكام الشرعية، ويحتج بها في اللغة العربية، ولكنها لا تُقرأ تعبدًا.

تنطبق على كل من توفرت فيه الشروط الثلاثة المذكورة وهي:

- ١- الإيمان بالله. ٢- والإيمان باليوم الآخر. ٣- والعمل الصالح.

مَنْ جَرَّائِمِ الْيَهُودِ: تَكْذِيبِ الرُّسُلِ وَقَتْلِهِمْ

٧٠- ﴿لَقَدْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَءِيلَ^(١) وَأَرْسَلْنَا إِلَيْهِمُ رُسُلًا كَلَّمَا جَاءَهُمْ رَسُولٌ بِمَا لَا تَهْوَى أَنْفُسُهُمْ فَرِيقًا كَذَّبُوا وَفَرِيقًا يَقْتُلُونَ ﴿٧١﴾﴾

والكلام موصول عن بني إسرائيل، فيذكر الله سبحانه في هذه الآية طرفاً من تاريخهم، يبين فيه فساد معتقدهم، وما جُبلت عليه نفوسهم من الجحود والغرور، وما ارتكبه من جرائم لم ترتكبها أمة قبلهم، ولا بعدهم، وهم دائماً ينقضون العهود والمواثيق ﴿لَقَدْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَءِيلَ﴾ أي أخذنا عليهم العهد الثقيل من الإيمان بالله تعالى والقيام بواجباته كما سبق ذكره في الآية الثانية عشرة من هذه السورة ﴿وَأَرْسَلْنَا إِلَيْهِمُ رُسُلًا﴾ هم موسى وهارون ومن جاء بعدهما مثل: يوشع وأشعيا وأرميا وحزقيال وداود وسليمان وعيسى، وهؤلاء الرسل قد توالوا عليهم بالدعوة، وتعاهدوهم بالإرشاد، ولكن ذلك لم ينجح فيهم ولم يفد، ولقد أخذنا عليهم العهد المؤكد في التوراة على السمع والطاعة والإيمان بالرسول الخاتم، بعد توحيد الله عزَّ وجلَّ والعمل بما أمر ونهى، ولكنهم نكثوا ونقضوا.

ولم تذكر هذه الآية بنود هذا الميثاق اكتفاء بذكرها في أوائل هذه السورة في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَءِيلَ وَبَعَثْنَا مِنْهُمُ اثْنَيْ عَشَرَ نَقِيبًا وَقَالَ اللَّهُ إِنِّي مَعَكُمْ لَئِنْ أَقَمْتُمُ الصَّلَاةَ وَآتَيْتُمُ الزَّكَاةَ وَآمَنْتُمْ بِرُسُلِي وَعَزَّرْتُمُوهُمْ وَأَقْرَضْتُمُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا﴾ [١٢].

وفي قوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَءِيلَ لَا نَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَيُحْسِنُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَيُحْسِنُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ﴾ [البقرة: ٨٣].

ثم إن الله تعالى أرسل إليهم رسلاً جاؤوهم بهذه المواثيق والعهود؛ لهدايتهم وإرشادهم إلى أقوم الطرق، فنقضوا ما أخذ عليهم من العهد، واتبعوا أهواءهم، وكانوا

(١) سهل أبو جعفر همزة (إسرائيل) الثانية مع المد والقصر.

كلما جاءهم رسول بما يخالف أهواءهم ناصبوه العداء، وكذبوا فريقاً من الرسل، وقتلوا فريقاً آخر ﴿كُلَّمَا جَاءَهُمْ رَسُولٌ بِمَا لَا تَهْوَىٰ أَنفُسُهُمْ﴾ أي: بما يخالف رغباتهم وشهواتهم، كذبوه وعاندوه وعاملوه أقبح معاملة، وفيه دلالة على فساد أهوائهم ﴿وَفَرِيقًا كَذَّبُوا﴾ وقد كذب اليهود جميع الرسل غير موسى ﷺ، ولم يؤمن بهم إلا قلة ﴿وَفَرِيقًا يَقْتُلُونَ﴾ وقد قتلوا زكريا ويحيى وغيرهما، وقد قرر الله سبحانه مبدأ نقض اليهود الدائم للمواثيق فقال تعالى: ﴿أَوَكُلَّمَا عَاهَدُوا عَهْدًا نَّبَذُو فَرِيقٌ مِّنْهُمْ﴾ [البقرة: ١٠٠].

عَوَاقِبُ اسْتِخْفَافِ الْيَهُودِ بِجَرَائِمِهِمْ وَإِفْسَادِهِمْ فِي الْأَرْضِ

٧١- ﴿وَحَسِبُوا أَنَّا تَكُونُ^(١) فِتْنَةٌ فَعَمُوا وَصَمُوا ثُمَّ تَابَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ ثُمَّ عَمُوا وَصَمُوا كَثِيرٌ مِّنْهُمْ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ﴾

ومع ما ارتكبه من الجحود والإعراض والتكذيب لرسول الله تعالى، فقد ظنوا أن ما فعلوه شيء هين، وأنه لن يصيبهم بلاء ولا عقاب في الدنيا بسبب مفسادهم، وأن الله تعالى لن يعذبهم في الآخرة جزاء عصيانهم وتمردهم وعتوهم؛ لزعمتهم أنهم أبناء الله وأحباؤه، فاستمروا في طغيانهم وشهواتهم، وعموا عن الحق فلم يبصروه، ولم ينتفعوا به ﴿وَحَسِبُوا أَنَّا تَكُونُ فِتْنَةٌ﴾ أي ظنوا أن معاصيهم وتكذيبهم لا يجر عليهم عذاباً ولا بلاء ولا عقوبة في الدنيا ﴿فَعَمُوا﴾ عن الهدى واستمروا على باطلهم ﴿وَصَمُوا﴾ عن سماع الحق، وتمادوا في الغي والضلال وأفسدوا في الأرض بقتل أنبياء الله؛ يحيى، وزكريا، وعزمهم على قتل عيسى ﷺ، وعبدوا العجل، ولم يدخل الهدى إلى قلوبهم بسبب قوة كفرهم وإعراضهم عن قبول الحق، فكانهم لم يروا ولم يسمعوا، فهم عمي وضم.

ثم أنزل الله بهم بأسه، فأصابهم العقاب الدنيوي؛ كالقحط، والجذب، والوباء، والهزائم؛ بسبب مفسادهم.

(١) قرأ أبو عمرو وحمة والكسائي ويعقوب وخلف العاشر، برفع نون (ألا تكون) على أن (أن) مخففة من الثقيلة واسمها ضمير الشأن محذوف، و(لا) نافية، و(تكون) تامة، و(فتنة) فاعلها، والجملة خبر (أن) و(حسبوا) بمعنى أيقنوا؛ لأن (أن) المخففة لا تقع إلا بعد تيقن، وقرأ الباقر بنصب نون (تكون) على أن (أن) دخلت على فعل منفي بلا، وهي ناصبة للفعل المضارع، و(حسبوا) للظن؛ لأن (أن) الناصبة للمضارع لا تقع إلا بعد الظن.

ثم تابوا إلى الله تعالى، ورجعوا إليه مما كانوا فيه، فقبل الله توبتهم، كما قال تعالى ﴿ثُمَّ تَابَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ﴾، أي حين تابوا إليه وأنبأوا.

ثم عادوا إلى عدم الانتفاع بالحق، فلم يبصروه، فكأنهم عُمي، ولم ينفذ الحق إلى مسامعهم، فكأنهم صُمَّ ﴿ثُمَّ عَمُوا وَصَمُّوا كَثِيرٌ مِّنْهُمْ﴾ بهذا الوصف، والقليل منهم استمروا على توبتهم وإيمانهم، وذلك بعد بيان الحق ببعثة محمد ﷺ فكفر به كثير منهم، ولم يؤمن به منهم إلا القليل.

من تاريخ اليهود في فلسطين:

فالمرة الأولى التي عَمُوا وصموا فيها كانت بسبب إفسادهم الكثير في الأرض على نحو ما فصلته سورة الإسراء في قوله تعالى ﴿وَفَضَيْنَا إِلَىٰ بَنِي إِسْرَءِيلَ﴾ [الإسراء: ٤]. والمرة الثانية كانت بسبب كفرهم بمحمد ﷺ وكتمان أوصافه ﴿وَاللَّهُ بِصِرِّهِمْ بِمَا يَفْعَلُونَ﴾ فيجازيهم على جميع أعمالهم خيرا وشرها.

والمعنى: أن الله تعالى أخذ على بني إسرائيل العهد والميثاق أن يؤمنوا بالله ورسله، وأرسل إليهم الرسل لهدايتهم، فكان منهم أن كذبوا بعض الرسل وقتلوا بعضهم، وظنوا أن الله تعالى لن يتليهم في الدنيا، ولن يعاقبهم على ذلك في الآخرة، فأمنوا عقاب الله، واستولى الغرور على قلوبهم، فتمادوا في البغي والفساد، واستخفوا بعذاب الآخرة، وتوهموا أنهم ناجون من عذاب الله سبحانه؛ لأنهم أبناء الله وأحباؤه، وأن النار لن تمسهم إلا أياما معدودة - على حد زعمهم - فأفسدوا في الأرض إفسادتين كبيرتين تتخللهما توبة، ولعل الإفسادة الأولى: أنهم كذبوا الرسل، وقتلوا الأنبياء، فسلط الله عليهم بختنصر ملك آشور، فدخل بيت المقدس ثلاث مرات سنة ٦٠٦، وسنة ٥٩٨، وسنة ٥٨٨ قبل الميلاد، ودخل أورشليم في المرة الثالثة فأحرقها وأحرق المسجد الأقصى، وأخذ جميع بني إسرائيل أسرى ونقلهم إلى بابل بالعراق، وإلى هذا يشير قوله تعالى: ﴿فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ أُولَٰئِهِمَا بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَادًا لَّنَا أُولَىٰ بَأْسٍ شَدِيدٍ فَجَاسُوا خِلَالَ الدِّيَارِ وَكَانَ وَعْدًا مَّفْعُولًا﴾ [الإسراء: ٥].

وبعد هذه العقوبة تاب الله عليهم، فرفع عنهم الفتنة بعد ما أصابتهم، فأذن لليهود أن يرجعوا من بابل إلى بلادهم؛ ليعمروها، وكان ذلك بعد أن تغلب (كورش) ملك فارس

على بابل، واستولى عليها سنة ٥٣٠ قبل الميلاد، وهذا معنى ﴿ثُمَّ رَدَدْنَا لَكُمُ الْكَرَّةَ عَلَيْهِمْ وَأَمْدَدْنَاكُمْ بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَجَعَلْنَكُمْ أَكْثَرَ نَفِيرًا﴾ [الإسراء: ١٦].

فمعنى التوبة: أن الله تعالى ردهم إلى بيت المقدس بعد الإخراج الأول منه ورد إليهم ملكهم، ثم عاد اليهود إلى العمى والصم والإفساد في الأرض، فسلط الله عليهم (تيطس) القائد الروماني فحاصر أورشليم حتى اضطروا إلى أكل الجلود ونحوها، وقتل منهم مليون رجل، وسبي سبعة وتسعين ألفاً، وكان ذلك سنة ٦٩ ميلادية، وتبعه (أدريان) امبراطور الرومان، فسوّى مدينة أورشليم بالأرض، وانقرضت دولة اليهود، وتفرقوا في الأرض، وكان ذلك من سنة ١١٧ إلى سنة ١٣٨ ميلادية، وإلى هذا يشير قوله تعالى: ﴿فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الْآخِرَةِ لِيَسْتَوْسُوا وُجُوهَكُمْ وَلِيَدْخُلُوا الْمَسْجِدَ كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَلِيُتَبَرَّأُوا مَا عَلَوُا تَبَرُّرًا﴾^(١) [الإسراء: ٧].

ولما كفروا بمحمد ﷺ سلطه الله تعالى عليهم فذبح رجال بني قريظة، وسبي نساءهم وذرايعهم، وأجلى بني النضير وبني قينقاع عن المدينة وما حولها.

وكان تفرق اليهود في الأرض، وعدم قيام دولة خاصة بهم وُعد محتوم من الله تعالى؛ حيث حرّم عليهم دخول الأرض المقدسة إلى الأبد، عقوبة لهم على تخاذلهم وعدم استجابتهم لنبيهم موسى ﷺ حين أمرهم بدخولها، فقالوا: ﴿إِنَّ فِيهَا قَوْمًا جَبَارِينَ وَإِنَّا لَنَنذِلُهَا حَتَّىٰ يَخْرُجُوا مِنْهَا فَإِن يَخْرُجُوا مِنْهَا﴾ [٢٢]. وقالوا ردّاً على الرجلين اللذين أنعم الله عليهما وهما (يوشع وكالب) حين أمراهم بامثال أمر نبيهم: ﴿إِنَّا لَنَنذِلُهَا أَبَدًا مَا دَامُوا فِيهَا فَآذِهِبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَتِلَا إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ﴾ [٢٤].

فكان نتيجة ذلك أن حرّم الله عليهم دخولها في قوله: ﴿قَالَ فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ﴾ وكتب عليهم أن يتيهوا في صحراء سيناء أربعين سنة؛ حتى تتطهر الأرض من هذا الجيل المخالف لأمر ربه، فقال: ﴿أَرْبَعِينَ سَنَةً يَتِيهُونَ فِي الْأَرْضِ﴾ [٢٦].

ووجود الكيان الصهيوني الحالي على أرض فلسطين مخالف لما تقرره التوراة، ومخالف لحكم الله على اليهود، وهي حركة صهيونية سياسية، وليست دينية، فإن

(١) يُنظَر تفسير «التحرير والتنوير» (٦/ ٢٧٧).

المتدينين منهم لا يعترفون بهذا الكيان وينكرون قيامه، وقد وعد الله سبحانه بأنه عند قيام الساعة يجمعهم في أرض المحشر فقال: ﴿وَقُلْنَا مِنْ بَعْدِهِ﴾ أي: من بعد موسى ﴿لِيَتَّحِزَّ إِسْرَءِيلَ أَتَسْكُنُوا الْأَرْضَ﴾ أي كلها وتفرقوا فيها ﴿فَإِذَا جَاءَ وَعَدُ الْآخِرَةِ جِئْنَا بِكُمْ لَفِيفًا﴾ [إسراء: ١٠٤] أي: جمعناكم في هذا المكان.

على أن العمى والصمم والتوبة في الآية، غير محدودين بزمان معين ولا بجريمة معينة، والآية تفيد أن اليهود يتوارثون السجايا والأخلاق خَلَفًا عن سلف، فالذين عموا وصموا في المرة الأولى غير الذين عموا وصموا في المرة الثانية.

وقد قضى الله تعالى بتكرار وقوع العقوبة بهم كلما عادوا إلى الإفساد في الأرض فقال: ﴿وَإِنْ عُدْتُمْ عُدُنَا﴾ [إسراء: ٨]. وإقامتهم الكيان الصهيوني في العصر الحديث على أرض فلسطين عودة إلى الإفساد في الأرض، وكذا ما يقومون به من قتل وتشريد لأهل فلسطين، وتقويض للمسجد الأقصى.

عَقِيدَةُ بَعْضِ النَّصَارَى فِي أُلُوهِيَّةِ الْمَسِيحِ

٧٢- ﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ وَقَالَ الْمَسِيحُ يَبْنِي إِسْرَءِيلَ أَعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ إِنَّهُ مَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَهُ النَّارُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ﴾

وبعد الحديث عن فساد اعتقاد اليهود، يأتي الحديث عن فساد اعتقاد النصارى، فقال تعالى: ﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ﴾ وشبهتهم في هذا أن عيسى خُلِقَ من أم بلا أب، وخالف المعهود من الخلقة الإلهية، وهذا قول فريق منهم، هم (اليعقوبية والملكانية) من النصارى، فهم يقولون: إن الله تعالى حلَّ في ذات عيسى واتَّحدَ به، فصار إلهاً واحداً، ويقولون: ربنا يسوع المسيح، ومريم أم الإله، وهو الابن الوحيد، إله حق، من إله حق، ومن أجل خطايانا نزل من السماء، وصُلبَ عنا، وتألَّم وقُبر، ثم قام في اليوم الثالث، وصعد إلى السماء، وجلس عن يمين الرب^(١).

والله ﷻ يُصَدِّرُ هذه الآية بالقسم المؤكد بأن الذين قالوا: ﴿إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ

(١) هذا مختصر ما جاء في كتاب «سوسنة سليمان» لنوفل بن نعمة الله بن جرجس النصراني، وما قرره مجمع نيقية كما في تفسير «الظلال» للآية.

مَرِّمٌ ﴿٢٠﴾ كُفَّارٌ، لأنهم أشركوا بالله حين قالوا (عيسى هو الله) أو هو (ابن الله) ولم يؤمنوا بخاتم النبيين، ثم قرر سبحانه ما قاله عيسى في الرد على مقاتلتهم وتكذيبه لهم حين بُعث نبياً، وهو في سن الكهولة ﴿وَقَالَ الْمَسِيحُ يَبْنَىٰ إِسْرَءِيلَ أَعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ﴾ ﴿٢١﴾ فلست إلهاً ولا ابناً للإله، وليس هناك من فرق بيني وبين غيري في العبودية لله تعالى، فأثبت لنفسه العبودية التامة، والإقرار له سبحانه بالربوبية، فأنا وأنتم في العبودية سواء، والله تعالى لا يكون معه إله آخر، وهذا هو عين ما قاله عيسى عليه السلام ﴿قَالَ إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ ءَاتَنِي الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا﴾ ﴿٢٢﴾ إلى أن قال: ﴿وَإِنَّ اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ﴾ ﴿٢٣﴾ [مريم].

ثم قرر عيسى عليه السلام أنهم بقولهم هذا قد أشركوا مع الله غيره في العبودية، فقال: ﴿إِنَّكُمْ مَن يَشْرِكُ بِاللَّهِ﴾ أحدًا من المخلوقين، لا عيسى ولا غيره ﴿فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَاهُ النَّارُ﴾ لأنه سوى بين الخلق والخالق، وصرف العبادة لغير الله، فاستحق أن يخلد في النار فالجنة دار الموحدين، والنار دار المشركين الذين ماتوا على شركهم، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَن يَشَاءُ﴾ [النساء: ٤٨، ١١٦].

وقد حرم الله تعالى على الكفار والمشركين نعيم الجنة من طعام وشراب وغيرهما، كما قال تعالى: ﴿وَنَادَىٰ أَصْحَابُ النَّارِ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ أَن أَفِضُوا عَلَيْنَا مِنَ الْمَاءِ أَوْ مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ حَرَّمَهُمَا عَلَى الْكَافِرِينَ﴾ ﴿٥٥﴾ [الأعراف].

وصح عن رسول الله ﷺ أنه بعث منادياً ينادي في الناس: «إن الجنة لا يدخلها غير نفس مسلمة»، وفي رواية: «مؤمنة»^(١).

والمشرك قد ظلم نفسه بالشرك، وظل على حاله حتى وافته المنية.

ولذا: فإن النار مستقرُّ المشرك، وهو محروم من دخول الجنة، وهما عقوبتان، إحداهما إيجابية، وثانيهما سلبية، ولا مناص له من ذلك، فليس له ولي ولا ناصر ينقذه من عذاب الله ﴿وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِن أَنْصَارٍ﴾. يحولون بينهم وبين عذاب الله، أو يدفعون عنهم بعض ما ينزل بهم من عقاب.

(١) «صحيح البخاري» من حديث أبي هريرة (٤٧١/٧) برقم (٣٠٦٢، ٤٢٠٤، ٦٦٠٦) و«صحيح مسلم» من حديث عمر بن الخطاب (١٠٧/١) برقم (١١١).

وقد سبق نظير هذه الآية في قوله تعالى: ﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ قُلْ فَمَنْ يَمْلِكُ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا إِنْ أَرَادَ أَنْ يُهْلِكَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ وَ مَنْ فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا﴾ [١٧].

عَقِيدَةُ التَّثْلِيثِ لَدَى بَعْضِ النَّصَارَى

٧٣- ﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ ثَالِثُ ثَلَاثَةٍ وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلَّا إِلَهُ وَاحِدٌ وَإِنْ لَمْ يَنْتَهُوا عَمَّا يَقُولُونَ لَيَمَسَّنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾

ثم أخبر ﷺ بالقسم المؤكد عن الفريق الآخر من النصارى وهم (المرقسية، والنسطورية) القائلون بعقيدة التثليث، وهي عقائد مختلفة، ولكنها تجتمع على الكفر والضلال، فقال تعالى: ﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا﴾ كذبًا وزورًا ﴿إِنَّ اللَّهَ ثَالِثُ ثَلَاثَةٍ﴾ وهم معظم النصارى في الأرض، ولهم في هذا معنيان:

المعنى الأول: أن الله تعالى أحد آلهة ثلاثة، أو أنه واحد من آلهة ثلاثة، والآلهة الثلاثة هي: الله، ومريم، وعيسى، فالإلهية مشتركة بينهم، وكل واحد منهم إله، ويوضح هذا قوله تعالى للمسيح: ﴿أَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّي إِلَهَيْنِ مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ [١١٦].

المعنى الثاني: أنهم قالوا: إن الله جوهر واحد، مكون من ثلاثة أقانيم، هي: الآب، ويسمونه: أقنوم الوجود، والابن، ويسمونه: أقنوم العلم، والروح القدس، ويسمونه: أقنوم الحياة، وهذه الثلاثة إله واحد، كما أن الشمس اسم يتناول: القرص والشعاع والحرارة، وأرادوا بالآب: الذات، وبالابن: الكلمة، وبالروح القدس: الحياة، وقالوا: إن الكلمة هي كلام الله، اختلطت بجسد عيسى، اختلاط الماء باللبن، ويقولون: إن الآب إله أزلي، وقد أرسل ابنه للناس.

ويطلقون أيضًا روح القدس على جبريل، ثم يقولون: إن الكل إله واحد.

وهكذا: فالغموض شديد في عقيدتهم، والتناقض واضح، فالواحد لا يكون ثلاثة، والثلاثة لا تكون واحدًا، والنصارى أنفسهم لا يفهمون هذه المعادلة الصعبة، فيقول بعضهم: قد فهمنا ذلك على قدر طاعة عقولنا، ونرجو أن نفهمه فهمًا أكثر جلاء في المستقبل، حين يكشف لنا الحجاب عن كل ما في السموات وما في الأرض، أما في

الوقت الحاضر ففي القدر الذي فهمناه كفاية^(١).

فهم يعترفون أن العقل يرفض هذا الكلام المتناقض ابتداءً، ويحاولون تأجيل النظر في القضية؛ لأنهم لم يستوعبوها.

قلت: إن الناس ترث مقالات ومفاهيم مَنْ سَبَقَهُمْ وتُسَلِّمُ بها دون فكر، ولا رويّة، ولعل هذه المقولات من تلبّيس إبليس، ويحسن بنا أن نورد في هذا روايتين عن وهب بن منبه، ومحمد بن كعب، يفسر كلامهم:

قال وهب بن منبه: لما وُلِدَ عيسى لم يبق صنم إلا خرّ لوجهه، فاجتمعت الشياطين إلى إبليس، فأخبروه، فذهب، فطاف أقطار الأرض، ثم رجع، فقال: هذا المولود الذي ولد من غير ذكر، أردت أن أنظر إليه، فوجدت الملائكة قد حَفَّتْ بأمه، فليخلف عندي اثنان من مردّتك، فلما أصبح خرج بهما في صورة رجلين، فأتوا مسجد بني إسرائيل وهم يتحدثون في أمر عيسى، ويقولون: مولود من غير أب، فقال إبليس: ما هذا ببشر، ولكن الله أحب أن يتمثل في امرأة؛ ليختبر العباد.

فقال أحد صاحبيه: ما أعظم ما قلت! ولكن الله أَحَبُّ أن يتخذ ولدًا.

وقال الثالث: ما أعظم ما قلت، ولكن الله أراد أن يجعل إلهاً في الأرض.

فألقوا هذا الكلام على ألسنة الناس، ثم تفرقوا، فتكلم بهما الناس.

وأقول: ما أشبه هذا بالشیطان الذي تمثّل في صورة شيخ نجدي ليلة هجرة النبي ﷺ، وأشار على المجتمعين في دار الندوة بأن يأخذوا من كل قبيلة شاباً قوياً، ويشتركوا جميعاً في قتل النبي ﷺ فيتفرق دمه بين القبائل! فهذه مشورة شيطان متمثل في صورة رجل، وهي ثابتة في كتب السيرة والحديث.

وقال محمد بن كعب: لما رُفِعَ عيسى اجتمع مائة من علماء بني إسرائيل، وانتخبوا منهم أربعة.

(١) القس (بوترس) في رسالة (الأصول والفروع) عن كتاب «محاضرات في النصرانية» للشيخ محمد أبو زهرة وتفسير «الفخر الرازي» (٦٠/١٢).

فقال أحدهم: عيسى هو الله، كان في الأرض ما بدا له، ثم صعد إلى السماء؛ لأنه لا يحيي الموتى، ولا يبرئ الأكمه والأبرص إلا الله.

وقال الثاني: ليس كذلك؛ لأننا قد عرفنا عيسى، وعرفنا أمه، فهو ابن الله.

وقال الثالث: لا أقول كما قلتما، ولكن جاءت به أمه من عمل غير صالح.

فقال الرابع: لقد قلتم قبيحًا، ولكنه عبد الله ورسوله وكلمته، فاتَّبِع كل واحد منهم طائفة من النصارى^(١).

ثم بيَّن ﷺ بعد ذكر قول بعضهم بالألوهية، وقول غيرهم بالبنوة، وقول الآخرين بالتثليث، مبيِّنًا الاعتقاد الحق فقال سبحانه: ﴿وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلَّا إِلَهُ وَحْدٌ﴾ متصف بكل صفات الكمال، منزّه عن كل نقص، متفرد بالخلق والتدبير، ما من نعمة إلا وهي منه سبحانه، فكيف يُجعل معه إله غيره، أما عَلِمَ هؤلاء النصارى أنه ليس للناس سوى معبود واحد ﴿وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلَّا اللَّهُ﴾ [آل عمران: ٦٢]. لم يلد ولم يولد، وليس له صاحبة ﴿مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِنْ وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَهٍ﴾ [المؤمنون: ٩١].

ثم توعد سبحانه القائلين بهذا بالعذاب الشديد على كذبهم وافترائهم إن استمروا على ذلك، فقال: ﴿وَأَن لَّمْ يَنْتَهُوا عَمَّا يَقُولُونَ﴾ أي: وإن لم يرجع هؤلاء الذين قالوا بالتثليث عن عقائدهم الفاسدة، وأقوالهم الزائفة، ويعتصموا بعروة التوحيد ليصين الذين استمروا على الكفر منهم عذاب شديد الألم ﴿لَيَمَسَّنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ أي: يصيبهم العذاب الموجه بسبب كفرهم وشركهم.

وقد علم الله سبحانه أن منهم من سيوحده الله تعالى فيما بعد فقال: ﴿لَيَمَسَّنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ﴾ ولم يقل كلهم.

أو أن المعنى: ليمسَّن الذين كفروا من النصارى خاصة نوع شديد الألم من العذاب.

قال تعالى في شأن عيسى ﷺ: ﴿إِنَّ هُوَ إِلَّا عَبْدٌ أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ وَجَعَلْنَاهُ مَثَلًا لِّبَنِي إِسْرَءِيلَ﴾ [الزخرف: ٥٩].

(١) يُنظَر الروايتان في «زاد المسير» لابن الجوزي (٢/٤٠٢).

اللَّهُ تَعَالَى يَقْبَلُ تَوْبَةَ الْكَافِرِ

٧٤- ﴿أَفَلَا يَتُوبُونَ إِلَى اللَّهِ وَيَسْتَغْفِرُونَ اللَّهَ عَفْوَراً رَحِيماً﴾ (٧٤)

أي: ومع هذا فإن الله تعالى يفتح بابه لكل تائب، حتى المشرك والكافر، فهلاً تاب هؤلاء المشركون عما قالوه، ورجعوا إلى الله عز وجل، وسألوه المغفرة، فإن الله تعالى يتوب على من تاب ويرحمه، والتائب من الذنب كمن لا ذنب له، حتى الكافر والمشرك، إذا رجع عن شركه وكفره فإن الله يقبل توبته ﴿قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ يَنْتَهُوا يُغْفَرْ لَهُمْ مَا قَدْ سَلَفَ﴾ [الأنفال: ٣٨]. فإن تابوا واستغفروا الله رفع الله عنهم العذاب وغفر لهم ما سلف.

بَشَرِيَّةُ الْمَسِيحِ وَأُمِّهِ

٧٥- ﴿مَا الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ وَأُمُّهُ صِدِّيقَةٌ كَانَا يَاكُلَانِ مِنَ الطَّعَامِ أَنْظَرُ كَيْفَ بُيِّنْتُ لَهُمْ آيَاتِي ثُمَّ أَنْظَرُ أَنَّ يُؤْفَكُونَ﴾ (٧٥)

ثم بيّن سبحانه حقيقة عيسى وأمه؛ حتى يرى ساحتها مما نسب لهما فقال: ﴿مَا الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ﴾ أيده الله بالمعجزات ﴿قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ﴾ كسائر مَنْ تَقَدَّمَ من الرسل، والرسالة هي غايته ومنتهاى أمره، فهو من عباد الله المرسلين الذين ليس لهم من الأمر ولا من التشريع إلا ما أرسلهم به الله، وهو من جنس الرسل قبله لا مزية له عليهم تُخْرِجُه من البشرية إلى الربوبية.

﴿وَأُمُّهُ صِدِّيقَةٌ﴾ فغايتها ومنتهاى أمرها أنها كانت من الصديقين، والصديقية رتبة بعد رتبة النبوة تعنى العلم النافع والعمل الصالح، فأعلى أحوالها أنها صديقة، وكفى بذلك فضلاً وشرافاً، فإذا كان عيسى من جنس الأنبياء، وأمه صديقة، فلا شيء اتخذهما النصراني إلهين من دون الله؟ قد صدقت تصديقاً جازماً بآيات ربها وكتبه، كما قال تعالى: ﴿وَمَرْيَمَ ابْنَتَ عِمْرَانَ الَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهِ مِنْ رُوحِنَا وَصَدَّقَتْ بِكَلِمَاتِ رَبِّهَا وَكُتِبَ عَلَيْهَا مِنَ الْقَنِينِ﴾ (التحریم). وهي كسائر النساء المؤمنات المصدقات بأنبياء الله.

وذكر ابن حزم أن سارة أم إسحاق، وكذا أم موسى، وأم عيسى، من الأنبياء، أخذوا من خطاب الملائكة لسارة ومريم، والصحيح أن النبوة لا تكون إلا في الذكور، كما قال

تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ إِلَّا رِجَالًا نُوْحِي إِلَيْهِمْ﴾ [الأنبياء: ٧، ويوسف: ١٠٩].

وهذه الآية تنص على أن مريم كثيرة التصديق بالله وملائكته وكتبه ورسله وليست نبيه، والتصديق درجة من درجات الولاية؛ كالشهداء، والصالحين، ثم أبعدهما سبحانه عما نسب إليهما، فبين أن طبيعتهما كسائر البشر يحتاجان إلى الطعام والشراب لحفظ حياتهما، وجسمهما حادث كسائر بني آدم، مؤلف من اللحم والعظم والعروق والأعصاب والشهوة، وكيف يكون إلها من تتوقف حياته على الغذاء، ويحتاج إلى هضمه وإخراجه، وهذا من خواص البشر؛ إذ إن الله تعالى حيي بذاته، قائم بذاته، باقي بذاته، لا يحتاج إلى طعام، ولا يخرج منه بول ولا براز، فكل هذا من شأن الحوادث، ولذا قال تعالى عن عيسى وأمه: ﴿كَانَا يَأْكُلَانِ الطَّعَامَ﴾ فهما عبدان فقيران محتاجان إلى الطعام والشراب كما يحتاج بنو آدم، ولو كانا إلهين لاستغنيا عنهما ولم يحتاجا إلى شيء، فالله هو الغني الحميد.

وهذا شأن جميع الرسل: يأكلون الطعام، ويتزوجون، ويسعون على أرزاقهم، قال تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَيَمْشُونَ فِي الْأَسْوَاقِ﴾ [الفرقان: ٢٠].

وقال سبحانه: ﴿وَمَا جَعَلْنَاهُمْ جَسَدًا لَا يَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَمَا كَانُوا خَالِدِينَ﴾ [الأنبياء: ٨].

وقال جل شأنه: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِنْ قَبْلِكَ وَجَعَلْنَا لَهُمْ أَزْوَاجًا وَذُرِّيَّةً﴾ [الرعد: ٣٨].

وقد ذكر الله تعالى صفة الأكل على وجه الخصوص؛ لأن الأنجيل أثبتتها، كما أثبتها القرآن الكريم من أن مريم أكلت رطباً عند المخاض، وأثبتت الأنجيل أن عيسى أكل مع الحواريين يوم الفصح خبزاً، وشرب خمراً.

فعيسى بشر من البشر، ورسول مثل سائر الرسل الذين سبقوه، وأم عيسى أمة من إماء الله، كسائر النساء، وهما عبدان من عباد الله، كانا يأكلان ويشربان ويتصرفان كما يتصرف البشر.

فتأمل - أيها الرسول - حال هؤلاء الكفار، لقد أوضحنا لهم العلامات الدالة على وحدانيتنا، وبطلان ما يزعمونه في أنبياء الله ﴿أَنْظُرْ كَيْفَ بُيِّنْتُ لَهُمُ الْآيَاتِ﴾ الموضحة للحق، الكاشفة لليقين، ثم هم مع ذلك يضلون عن الحق الذي تهديهم إليه،

فلا يستفيدون منه شيئاً ولا يزالون على كذبهم وافترائهم، وانظر كيف ينصرفون عنه مع هذا البيان الجلي ﴿ثُمَّ أَنْظِرْ أَفَّ يُؤْفَكُونَ﴾ وهذا تعجب من حالهم ومن سوء تفكيرهم، يتأمل كل عاقل فهو أوضح من الشمس في رابعة النهار.

لَا يَسْتَحِقُّ الْعِبَادَةُ إِلَّا مَنْ جَلَبَ الْخَيْرَ وَدَفَعَ الضَّرَّ

٧٦- ﴿قُلْ أَتَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا وَاللَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ ﴿٧٦﴾

والله تعالى يوجه الخطاب إلى رسوله ﷺ؛ ليسأل النصارى وغيرهم عما يعبدونه من دون الله ﴿قُلْ أَتَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ من المخلوقين الفقراء المحتاجين ﴿مَا لَا يَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا﴾ وتدعون من انفرد بالضر والنفع والعطاء والمنع.

والمعنى: قل - أيها الرسول- لهؤلاء الكفار كيف تشركون مع الله من لا يملك ضرركم، ولا يقدر على جلب خير لكم؟! ومن لا يقدر على دفع الضرر، ولا على جلب النفع لا يكون إلهاً.

والآية تنفي أن يكون هناك إله غير الله تعالى يستحق العبادة والخضوع.

وقد وضع لفظ (ما) بدلاً من (من) في قوله تعالى: ﴿مَا لَا يَمْلِكُ لَكُمْ﴾ ليشمل جميع المخلوقات، العاقل وغير العاقل، ويدخل في ذلك عيسى وأمه، ويدخل فيه روح القدس دخولاً أولياً، وفيه توبيخ وإنكار لهم؛ حيث عبدوا من هو متصف بالعجز عن دفع ضرر، أو جلب نفع.

وهذا يشمل كل ما عُبد من دون الله من: بشر، أو كوكب، أو حجر، أو جن، أو ملك، وغير ذلك ﴿وَاللَّهُ هُوَ السَّمِيعُ﴾ لأقوالكم باختلاف لغاتكم ﴿الْعَلِيمُ﴾ بأحوالكم وما تكنه ضمائرکم، من الأمور الماضية والمستقبلية، وسوف يجازيكم على أقوالكم وأفعالكم.

نَهَى أَهْلَ الْكِتَابِ عَنِ الْغُلُوِّ فِي الدِّينِ

٧٧- ﴿قُلْ يَتَاهَلِ الْكِتَابُ لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ غَيْرَ الْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعُوا أَهْوَاءَ قَوْمٍ قَدْ ضَلُّوا مِنْ قَبْلُ وَأَضَلُّوا كَثِيرًا وَضَلُّوا عَنْ سَوَاءِ السَّبِيلِ﴾ ﴿٧٧﴾

ثم أمر الله رسوله أن ينهي أهل الكتاب عن الغلو وتجاوز الحد في دينهم. والغلو: هو مجاوزة الحد ومفارقة الحق وابتداع غيره بالتجاوز المفرط فيه. فَمِنْ غُلُوِّ الْيَهُودِ: تمسكهم بالتوراة بعد

رسالة عيسى ومحمد عليهما السلام. ومن غلّو النصارى: دعوى إلهية عيسى ﷺ، وتكذيبهم محمداً ﷺ، وقد نهى الله تعالى المعاصرين منهم ألا يتابعوا مَنْ سبقهم من الأحرار والرهبان في هذا الضلال، ولا يتبعوا أهواءهم، فهم قد ضلوا وأضلوا، وفي الآية إشارة إلى أصناف الناس بالنسبة لعيسى ﷺ بين الإفراط والتفريط والوسطية:

١- فمنهم صنف فرط في شأن عيسى ﷺ فلم يؤمن برسالته، ونسب إليه وإلى أمه الفاحشة، فقالوا: إنه ابن زنى أتت به أمه من يوسف النجار، وهم اليهود (قبحهم الله).

٢- وصنف من البشر أفرط وغالى في شأن عيسى ﷺ، فرفعه فوق منزلته، وقالوا: إنه الله، أو ابن الله، أو أحد آلهة ثلاثة، وهم النصارى (قبحهم الله).

٣- وصنف وسط، اعتقد أن عيسى عبد الله ورسوله، وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه، خلقه بدون أب كما خلق حواء من غير أم، وكما خلق آدم من غير أب ولا أم، وخلق سائر البشر من ذكر وأنثى، وهم المسلمون.

وهذه الآية والتي بعدها في سياق الحديث عن عقيدة النصارى الذين ألّهُوا عيسى وعبدوه، وغالوا في شأنه فرفعوه فوق بشريته ﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لَا تَغْلُواْ فِى دِينِكُمْ غَيْرَ ٱلْحَقِّ﴾ لا تتجاوزوا ولا تتعدوا الحق إلى الباطل.

والغلو: هو مجاوزة الحد، ومخالفة الحق، فاليهود كفروا بعيسى ونسبوه إلى الزنى، والنصارى جعلوه إلهًا وعبدوه، وما عبد الناس الأصنام إلا بسبب الغلو في الدين؛ كقصّة اللات، وود، وسواع، ويغوث، ويعوق، ونسر.

ولما دخل حكام الرومان النصرانية من الوثنية، عظّموا عيسى فرفعوه فوق منزلته، وقالوا فيه ما قالوا، فلا تتجاوزوا الحق - أيها النصارى - فيما تعتقدون من أمر المسيح ﷺ.

ثم أرشد الله سبحانه النصارى إلى طريق الحق فقال: ﴿وَلَا تَتَّبِعُواْ أَهْوَآءَ قَوْمٍ قَدْ ضَلُّواْ مِن قَبْلُ﴾ وهم اليهود فقد وقعوا في الضلال بسبب اتباع أهوائهم، وحملوا كثيرًا من الناس على الضلال والكفر بالله تعالى ﴿وَأَضَلُّواْ كَثِيرًا﴾ من الناس غيرهم، بدعوتهم إلى دينهم ولما بُعث محمد ﷺ حسدوه، وكفروا به، وبَغَوْا عليه، وهم بهذا خرجوا عن طريق الاستقامة إلى طريق الغواية والضلال ﴿وَضَلُّواْ عَن سَوَآءِ ٱلسَّبِيلِ﴾ ففارقوا الحق،

وابتدعوا غيره وتجاوزوا فيه، وجمعوا بين الضلال والإضلال، وهؤلاء هم أئمة الضلال الذين حذر الله منهم ومن الوقوع في حبالهم واتباع أهوائهم.

واليهود بهذا قد ضلوا قبل بعثة النبي ﷺ بتحريفهم للتوراة، وكتمانهم أوصاف النبي ﷺ ولم يكتفوا بضلال أنفسهم، بل أضلوا كثيراً من الناس ممن قلدهم ووافقهم على كذبهم، ثم ضلوا أخيراً لما بُعث محمد ﷺ فكفروا به، فهذه درجات ثلاث في الضلال. والغلو في الدين نقيض التقصير والتفريط فيه، وقد نهى رسول الله ﷺ عن الغلو في الدين في كثير من الأحاديث، منها ما جاء:

١- عن ابن عباس ؓ أن النبي ﷺ قال: «ياكم والغلو في الدين؛ فإنما هلك من كان قبلكم بالغلو في الدين»^(١).

٢- وعن عمر بن الخطاب ؓ أن رسول الله ﷺ قال: «لا تطروني كما أطرت النصارى ابن مريم، إنما أنا عبد، فقولوا: عبد الله ورسوله»^(٢).

٣- وعن ابن مسعود ؓ أن رسول الله ﷺ قال: «هلك المتنطعون»، قالها ثلاثاً^(٣).

والمتنطعون: هم المتشددون المتجاوزون للحدود التي جاءت بها تعاليم الإسلام.

ونستخلص من الآيات السابقة التي تنادي المؤمنين وتنادي أهل الكتاب: أن الإسلام يرمي إلى تصحيح العقيدة؛ لتقوم على التوحيد الكامل الخالي من شوائب الوثنية والشرك التي أفسدت عقائد أهل الكتاب، ويصرح بكفر اليهود والنصارى، ويقرر أنهم ليسوا على

(١) أخرجه أحمد في «المسند» برقم (١٨٥١) بإسناد صحيح ورجال ثقات رجال الشيخين غير الرياحي فمن رجال مسلم (محققوه) وأوله «هَلُمَّ الْقُطْ لِي، فَلَقَطْتُ سَبْعَ حَصَبَاتٍ مِنْ حَصَى الْخَذْفِ فَلَمَّا وَضَعْنَهُنَّ فِي يَدِهِ قَالَ: نَعَمْ بِأَمْثَالِ هَؤُلَاءِ فَارَمُوا.» وأخرجه أيضاً أبو يعلى (٢٤٧٢) وابن ماجه (٣٠٢٩) وابن خزيمة (٢٨٦٧) وابن حبان (٣٨٧١) والطبراني (١٢٧٤٧)

(٢) «صحيح البخاري» برقم (٣٤٤٥) وعن ابن عباس برقم (٦٨٣٠) و«المسند» برقم (١٥٤) حديث صحيح ورجاله ثقات رجال الشيخين (محققوه) و (٣٩١) في حديث طويل، وصحيح مسلم (١٦٩١) وابن حبان (٤١٤) وغيرهم.

(٣) «صحيح مسلم» برقم (٢٦٧٠) و«المسند» برقم (٣٦٥٥) بإسناد صحيح على شرط مسلم ورجال ثقات، وأخرجه أبو داود (٤٦٠٨) وأبو يعلى (٥٠٠) والطبراني في الكبير (١٠٣٦٨) والبخاري (٣٣٩٦).

دين الله، وليس بعد قول الله قول، وفي ضوء التناقض بين الشرائع، فإنه لا حوار، ولا لقاء، ولا تقارب بينها، ولا ولاء.

وبناء عليه: فلا ولاء، ولا تناصر، ولا مودة بين المسلم وبين أحد من هؤلاء، ومن يسارع في مودتهم ومحبتهم فهو منهم، كافر مثلهم، ويشبه هذه الآية قوله تعالى: ﴿يَتَّخِلْ الْكِتَابُ لَا تَقُولُوا فِي دِينِكُمْ وَلَا تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ﴾ [النساء: ١٧١]. وليس من باب الغلو من يبذل الجهد لمعرفة الحق ويجتهد في تحصيله.

تَرْكُ النَّهْيِ عَنِ الْمُنْكَرِ مُوجِبٌ لِسَخَطِ اللَّهِ تَعَالَى

٧٨، ٧٩- ﴿لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ بَنِي إِسْرَءِيلَ عَلَى لِسَانِ دَاوُدَ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ ﴿٧٨﴾ كَانُوا لَا يَتَنَاهَوْنَ عَنْ مُنْكَرٍ فَعَلُوهُ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ ﴿٧٩﴾﴾.

ثم شرع ﷺ في بيان موقف من مواقف أبناء بني إسرائيل من كفار بني جلدتهم، فبين ﷺ أن تاريخهم في الكفر واللعنة والمعصية عريق، وأن أنبياءهم الذين أرسلوا لهدايتهم وإنقاذهم، وهم الذين لعنهم في نهاية الأمر، فسمع الله دعاءهم، وكتب عليهم السخط واللعنة إلى يوم القيامة ﴿لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ بَنِي إِسْرَءِيلَ﴾ يعني: من اليهود، والنصارى، فطردوا وأبعدوا من رحمة الله تعالى، وذلك في الكتاب الذي أنزله الله على عليهما، وهو الزبور والإنجيل، فكان ذلك ﴿عَلَى لِسَانِ دَاوُدَ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ﴾ بشهادتهما وإقرارهما، ولعنهم هذا فيه إعلان بأنهم لعنوا في الكتب الأربعة، وأنهم قد لعنوا أيضاً على لسان موسى في التوراة، وعلى لسان محمد في القرآن، وقال ابن عباس: إنهم لعنوا بكل لسان.

وخص من أنبيائهم داود؛ لأنه كان قائداً مظفراً قادهم إلى النصر بعد الهزيمة.

وخص عيسى؛ لأنه كان رسولاً مسالماً، جاءهم ليحل لهم بعض الذي حُرِّم عليهم.

جاء في سفر الملوك والمزامير أن داود لعن الذين بدّلوا الدين، وجاء لعنهم في الإنجيل متكرراً على لسان عيسى عليه السلام.

قيل: إن اليهود لما اعتدوا في السبت بالصيد فيه، قال داود عليه السلام: اللهم العنهم،

واجعلهم قردة، فمسيخوا قردة.

أما لَعْنُهُمْ على لسان عيسى عليه السلام، فذلك حين أكلوا من المائدة وادخروا ولم يؤمنوا، فقال عيسى: اللهم العنهم واجعلهم خنازير، فمسيخوا خنازير.

وقيل: إن الله تعالى أعلم داود وعيسى بوقت مجيء رسالة محمد صلى الله عليه وسلم، فلعنا من يكفر به.

وقد جاء في الزبور والإنجيل: ملعون من يكفر من بني إسرائيل بالله، أو بأحد من رسله^(١).

ثم بين سبحانه سبب لعنهم وطردهم من رحمة الله تعالى، وأن ذلك يرجع إلى أمرين هما: معصية الله تعالى، واعتداؤهم على خلق الله سبحانه ﴿ذَلِكَ﴾ الكفر واللعن ﴿يَا عَصَا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ﴾ بسبب عصيانهم لله وظلمهم لعباده، فإن للذنوب وللظلم عقوبات.

وتاريخ بني إسرائيل حافل بالعصيان لله عز وجل، فهم قد أشركوا بالله تعالى، ولم يؤمنوا بمحمد صلى الله عليه وسلم، ولا بعيسى قبله، ولم يتحاكموا إلى شرع الله في قضايا الرجم والقصاص وغيرهما، وانتهكوا حرمة الله تعالى بالاعتداء في يوم السبت فاصطادوا فيه، وغير ذلك.

أما عدوانهم على الناس، فتاريخهم حافل بنقض العهود والمواثيق، وقتل الذين يأمرون بالقسط من الناس، واستحلال المحرمات مع غير اليهود؛ كالربا، والزنى، وغيرهما، وقد ترفعوا على الناس، وزعموا أنهم من نطفة أخرى، وأنهم أبناء الله وأحبابه.

ومن جملة معاصيهم: تركهم الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، فكان اليهود يجاهرون بالمعاصي ويرضونها، ولا ينهي بعضهم بعضاً عن أي منكر فعلوه، ويدأبمون على ارتكابه ﴿كَانُوا لَا يَتَنَاهَوْنَ عَنْ مُنْكَرٍ فَعَلُوهُ﴾ أي كانوا يفعلون المنكر، ولا ينهي بعضهم بعضاً عنه، فيشترك في ارتكابه من باشر فعله ومن سكت عنه.

وقد ذمهم الله تعالى على سوء فعلهم الذي استحقوا عليه الطرد من رحمة الله تعالى ﴿لَيْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ﴾ وكل مجتمع لا يخلو من الشر، ولكن المجتمع الصالح لا يسمح للمنكر أن يصبح عرفاً سهلاً يجترئ الناس عليه كأنه أمر مشروع، والنهي عنه يُستغرب ويُستنكر، كأن الموازين انقلبت، فأصبح المعروف منكراً والمنكر معروفاً،

(١) «تفسير الألوسي» (٦/٢١١).

وارتكاب المنكر علانية ليس مسألة شخصية، وإنما هو جرثومة قاتلة تقوض دعائم المجتمع، وتقضي على وجود الفضيلة فيه.

والمنكر الأكبر أن تستييح الدولة المسلمة ذلك بدعوى أن فيها غير المسلمين، والكبائر محرمة في جميع الشرائع، فلم يرد تحليل الزنى ولا الخمر ولا الربا ونحوها في شريعة من الشرائع السماوية، وميزان المنكر هو ما حرمه الله تعالى.

وعلى علماء الأمة أن يبصّروا حكامهم بالحلال والحرام، ويحملوهم على منع المنكر وإزالته، وإلا شاركوهم في الإثم، وكان عليهم أوزار من يقع في هذا المنكر من عامة الناس.

ويبدأ هذا المشوار بالقبور التي يطاف حولها، ويُدعى أصحابها، ويُنذر لها، ويدبح عندها.

ويُثنى بتحرير البلاد من الربا، وإحلال الفكر الإسلامي في اقتصاد البلاد محل الفكر الأجنبي.

ويُثبّت بضرورة وجود المظهر الإسلامي في المجتمع المسلم، فيخلو الشارع الإسلامي من الخمر، ومن السفور والتبرج، والملاهي، وما إلى ذلك.

مع وجوب احترام أداء الشعائر الإسلامية؛ كفريضة الصيام، وصلاة الجماعة، سيّما صلاة الجمعة، عنوان المجتمع المسلم، وإن وجد في البلي الواحد ديانات أخرى، فلاهل الذمة أحكامهم في بلاد الإسلام. هذه وأمثالها منكرات تحتاج إلى مقاومة، وإلا كنا كبني إسرائيل الذين حقت عليهم اللعنة.

ومعنى التناهي: الكف عن المنكر، ونهي الآخرين عن ارتكابه، فيكون المرء منتهياً عنه في نفسه ناهياً لغيره عن فعله، وليس من شروط النهي عن المنكر أن يكون المرء سليماً من المعاصي، بل ينهى العصاة بعضهم بعضاً.

والمنكر: كل ما أنكره الشرع والعقل السليم، من الأقوال والأفعال.

ومن شر ما تصاب به الأمة أن يفشو فيها اقتراف المنكرات واجتراح السيئات، ولا تجد من يغيّرهما أو يزيلهما، فإن هذا يكون أقوى أسباب انهيار الأمة أخلاقاً وحضارة وقوة مادية ومعنوية، وذلك لتهاونهم بأمر الله تعالى، فلو كان لديهم تعظيم لربهم لغاروا لمحارمه وغضبوا لغضبه، وقد كان السكوت عن المنكر من أعظم المفاسد، لأن الساكت عن الحق شيطان أخرس، متهاون بالمعاصي، يُجرىء غيره على الإكثار منها، ولأن عدم

الإنكار يدل على أنه ليس بمعصية، فيعتقد بعض الناس حل ما حرم الله، ويزين له الشيطان سوء عمله، ويقتدى به غيره، ولذا لعن الله الساكيتين على سماع المنكر. وقد أخذ العلماء من هذه الآية وجوب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ونطقت بذلك الأحاديث:

- ١- فعن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إن أول ما دخل النقص على بني إسرائيل، كان الرجل يلقي الرجل فيقول: يا هذا، اتق الله، ودع ما تصنع فإنه لا يحل لك، ثم يلقاه من الغد فلا يمنعه أن يكون أكيله وشريبه وقعيده، فلما فعلوا ذلك ضرب الله قلوب بعضهم ببعض»، ثم قرأ ﴿لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ بَنِي إِسْرَءِيلَ﴾ إلى قوله: ﴿فَسِفُون﴾ ثم قال: «كلا والله، لتأمرن بالمعروف ولتنهون عن المنكر، ولتأخذن على يد الظالم، ولتأطرنه على الحق أطراً، أو تقضرنه على الحق قصراً»^(١).
- ٢- وفي رواية لأبي موسى الأشعري رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «والذي نفسي بيده لتأمرن بالمعروف، ولتنهون عن المنكر، ولتأخذن على يد المسيء، ولتأطرنه على الحق أطراً، أو ليضربن الله قلوب بعضكم على بعض، وليلعنكم كما لعنهم»^(٢).
- ٣- وعن حذيفة بن اليمان رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «والذي نفسي بيده، لتأمرن بالمعروف ولتنهون عن المنكر، أو ليوشكن الله أن يبعث عليكم عقاباً من عنده، ثم لتدعنه فلا يستجيب لكم»^(٣).
- ٤- وعن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «من رأى منكم منكراً فليغيره

(١) «سنن أبي داود» برقم (٤٣٣٦) و«سنن الترمذي» برقم (٣٠٤٧) و«سنن ابن ماجه» برقم (٤٠٠٦) وعبد الرزاق (١٩٤/١) و«المسند» (٣٧١٣) بإسناد ضعيف، لأن أبا عبيدة لم يسمع من أبيه، والنخعي القاضي سيء الحفظ، وباقي رجاله ثقات، (محققوه) وأخرجه ابن أبي حاتم (٦٦٦١) والبيهقي في «الشعب» (٧٥٤٤، ٧٥٤٥) ضعفه الألباني في «ضعيف سنن ابن ماجه» عقب (٨٦٧).

(٢) «تحفة الأشراف» (١٦١/٧) وقد أخرجه الطبراني (١١٧٠٢) قال الهيثمي: رجاله رجال الصحيح، «المجمع» (٢٦٩/٧).

(٣) «المسند» (٣٨٨/٥) برقم (٢٣٣٠١، ٢٣٣٢٧) حسن لغیره، والبلغوي (٤١٥٤) و«سنن الترمذي» بإسناد حسن رقم (٢١٦٩) والبيهقي (٩٣/١٠) وفي «الشعب» (٧٥٥٨) حسنه الألباني في «صحيح سنن الترمذي» (١٧٦٢).

بيده، فإن لم يستطع فبلسانه، فإن لم يستطع فبقلبه، وذلك أضعف الإيمان»^(١).

٥- وفي حديث أبي سعيد أيضاً أن رسول الله ﷺ قال: «أفضل الجهاد كلمة حق عند سلطان جائر»^(٢).

٦- وعن أبي سعيد ؓ قال: قال رسول الله ﷺ: «لا يحقر أحدكم نفسه»، قالوا: يا رسول الله، كيف يحقر أحدنا نفسه؟ قال: «يرى أمراً لله فيه مقال، ثم لا يقول فيه، فيقول الله له يوم القيامة: ما منعك أن تقول في كذا وكذا؟ فيقول: خشية الناس، فيقول: فيأبى كنت أحق أن تخشى»^(٣).

٧- وفي حديث عائشة ؓ أن النبي ﷺ قال: «مروا بالمعروف وانهاؤا عن المنكر قبل أن تدعوا فلا يستجاب لكم»^(٤).

وفي الآية تعجب من سوء فعل غير المسلمين في عدم الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر. فكيف بالمسلمين إذا فعلوا ذلك، وإذا جمع الناس بين فعل المنكر، والجهر به، وعدم النهي عنه، ففي ذلك فساد كبير، إذ إن من فعل معصية ينبغي عليه أن يتستر، كما في الأثر: من ابتلي منكم بشيء من هذه القاذورات فليستتر. فإذا فعلت المعصية جهاراً، وتواطأ الناس على عدم الإنكار، كان ذلك تحريضاً على فعلها، وسبباً مثيراً لإفشائها وكثرتها.

(١) «صحيح مسلم» برقم (٤٩) وأبو داود (١١٤٠، ٤٣٤٠) والترمذي (٢١٧٢) والنسائي (٥٠٢٣) وابن ماجه (١٢٧٥، ٤٠١٣).

(٢) «سنن أبي داود» برقم (٤٣٤٤) و«سنن الترمذي» برقم (٢١٧٤) و«سنن ابن ماجه» برقم (٤٠١١) و صححه الألباني في صحيح ابن ماجه (٣٢٤٠) والمشكاة (٣٧٠٥) والسلسلة الصحيحة (٤٩١) والروض النضير (٩٠٩).

(٣) سنن ابن ماجه مختصراً برقم (٤٠٠٨) قال البوصيري في «الزوائد» (٢/٢٤٢): هذا إسناد صحيح، وصححه الألباني في صحيح ابن ماجه (٣٢٣٧) والسلسلة الصحيحة (١٦٨) والروض النضير (١٠٠١)، وهو في المسند (١١٤٤٠، ١١٢٥٥) وفيه أبو البخري لم يسمع من أبي سعيد وبينهما رجل مبهم وبقيّة رجال السند ثقات رجال الشيخين، أفاده محققو المسند.

(٤) حديث حسن كما في «صحيح سنن ابن ماجه» (٣٢٣٥) و هو في ابن ماجه (٤٠٠٤) والتعليق الرغيب (١٧٢/٣) والمسند (٢٥٢٥٥) حسن لغيره.

تَحَالَفُ الْيَهُودِ مَعَ الْوَثَنِيِّينَ ضِدَّ الْمُسْلِمِينَ

٨٠- ﴿تَرَى كَثِيرًا مِنْهُمْ يَتَوَلَّوْنَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيَبْلُوَكُمْ مَا قَدَّمْتُمْ لَهُمْ أَنْفُسُهُمْ أَنْ سَخِطَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَفِي الْعَذَابِ هُمْ خَالِدُونَ﴾ (٨٠)

ومن جملة معاصي بني إسرائيل أن كثيراً من المعاصرين منهم للرسول ﷺ يوالون الكافرين الوثنيين ضد المسلمين، ويناصرون كل محارب للإسلام وأهله، كما فعل كعب بن الأشرف وأصحابه حين حالفوا المشركين على قتال النبي ﷺ وأصحابه، وهذا شأنهم في كل زمان ومكان، فقد ذكر القرآن الكريم أن اليهود كانوا يوالون المشركين ويؤلبونهم على المسلمين ﴿وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا هَتُولَاءُ أَهْدَى مِنَ الَّذِينَ ءَامَنُوا سَبِيلًا﴾ [النساء: ٥١]. وكما حدث في غزوة الأحزاب والنضير لما تحالفوا مع المشركين على قتال المسلمين، وكما يحدث منهم حالياً بالتعاون والتحالف مع الكبار مادياً وعسكرياً، وذلك قوله تعالى: ﴿تَرَى كَثِيرًا مِنْهُمْ﴾ أي: من اليهود ﴿يَتَوَلَّوْنَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ أي: يتخذون المشركين الوثنيين، والمشركين النصارى، أولياء لهم ينصرونهم على المسلمين، ثم ذم سبحانه فعلتهم هذه فقال: ﴿لِيَبْلُوَكُمْ مَا قَدَّمْتُمْ لَهُمْ أَنْفُسُهُمْ﴾ أي: ببس ما عملوه من موالة الكفار، وما قدموه لأنفسهم يوم لقاء الله، وبسبب هذه البضاعة الكاسدة، والصفقة الخاسرة، ﴿أَنْ سَخِطَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ﴾ بسبب ما فعلوه من الموالة والنصرة، أن غضب الله عليهم، وهم خالدون في عذاب الله يوم القيامة ﴿وَفِي الْعَذَابِ هُمْ خَالِدُونَ﴾ وما أسوأ ما قدموه لأنفسهم من عمل يسبب لهم غضب الله تعالى وعذابه يوم لقاءه، وهذا الوعيد يتحقق بالنسبة لموالة اليهود وغيرهم ضد المسلمين، واتخاذهم بطانة من دون المؤمنين.

الدُّخُولُ فِي الْإِسْلَامِ هُوَ الْمَطْلُوبُ مِنْ غَيْرِ الْمُسْلِمِينَ

٨١- ﴿وَلَوْ كَانُوا يُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَالْيَوْمِآتِ (١) وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مَا اتَّخَذُوهُمْ أَوْلِيَاءَ وَلَكِنَّ

(١) قرأ نافع بالهمز موضع الياء في (والنبي)، والباقون بياء مشددة.

كَثِيرًا مِّنْهُمْ فَسَيُقُوتَ ﴿٨١﴾

ثم ما الدافع لتولي اليهود للكفار الوثنيين وما الدافع أيضًا من موالة المسلمين لأعداء الله؟ إنه عدم الإيمان بالله تعالى، وعدم الإيمان برسول الله ﷺ وعدم الإيمان بما نزل على رسول الله ﷺ، فلو أن هؤلاء اليهود آمنوا بالله ربًا ومعبودًا وبالرسول محمد ﷺ نبيًا ورسولًا، وأقروا بما أنزل عليه من ربه، وهو القرآن الكريم، لو كانوا كذلك، ما اتخذوهم أنصارًا وأعوانًا، والسبب في ذلك أن كثيرًا منهم خارجون عن طاعة الله ورسوله، وهذا ما يشير إليه قوله تعالى: ﴿وَلَوْ كَانُوا﴾ أي: اليهود ﴿يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالنَّبِيِّ﴾ محمد ﴿وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ﴾ وهو القرآن إيمانًا صادقًا ﴿مَا اتَّخَذُوهُمْ﴾ أي: غير المسلمين ﴿أَوْلِيَاءَ﴾ أصحابًا وأصدقاء، وما ارتكبوا ما ارتكبه من محبتهم في الباطن، فإن الإيمان بالله وبالنبي وما أنزل إليه يوجب على العبد موالة ربه، وموالة أوليائه، ومعاداة من كفر به وعاداه، ولما لم يتحقق منهم ذلك، كانوا من الخارجين على طاعة الله وطاعة رسوله، وكانت موالاتهم لأعداء الله فسق ﴿وَلَكِنَّ كَثِيرًا مِّنْهُمْ فَسَيُقُوتَ﴾ وقليل منهم غير فاسق، وهم من دخل في الإسلام منهم.

وكان اليهود في المدينة قد أظهروا الإسلام نفاقًا، لما وجدوا جميع أهل المدينة من الأوس والخزرج قد أسلم، فتظاهروا بالإسلام؛ ليكونوا عينيًا لليهود خبير وقريظة والنضير، والمراد بالذين كفروا في الآية: مشركو مكة، ومن حول المدينة من الأعراب الذين بقوا على الشرك. ومن هؤلاء اليهود: كعب بن الأشرف رئيس اليهود، وكان مواليًا لأهل مكة يغريهم دائمًا بغزو المدينة.

والآية عامة، وفيها دعوة إلى دخول اليهود في الإسلام، والإيمان بالنبي الخاتم وما أنزل عليه، وكذلك الشأن بالنسبة للنصارى وسائر الملل والنحل الخارجة عن الإسلام.

الْيَهُودُ وَعَبْدَةُ الْأَوْثَانِ الَّذِينَ أَعْدَاءُ الْإِسْلَامِ وَأَهْلِهِ

٨٢- ﴿لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَدَاوَةً لِلَّذِينَ ءَامَنُوا الْيَهُودُ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُم مَّوَدَّةً لِلَّذِينَ ءَامَنُوا الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصْرُكَ إِنَّهُمْ فِتْيَاتٌ مِّنْهُمْ قَتِيلَاتٌ وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ﴾

وفي سياق الحديث عن أهل الكتاب، تمضي الآيات؛ لتكشف لنا عن نوايا اليهود والنصارى تجاه المسلمين، فيقسم ﷺ، ويؤكد هذا القسم على أن اليهود وعبداء الأوثان هم أشد الناس عداوة للمؤمنين.

فهاتان الطائفتان أعظم الناس عداوة للإسلام وأهله على الإطلاق، وأكثرهم سعيًا في وصول الضرر إلى المسلمين وذلك لشدة بغضهم لهم بغيًا وحسدًا وعنادًا وكفرًا.

والتاريخ شاهد بذلك في ماضيه وحاضره ومستقبله، وهذا ما يؤكد قول الله تعالى عنهم ﴿وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِّنْهُمْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ طُغْيَانًا وَكُفْرًا﴾ [٦٤، ٦٨]. فكررها مرتين.

وقوله سبحانه: ﴿تَكَرَّى كَثِيرًا مِّنْهُمْ يَتَوَلَّوْنَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ [٨٠].

وقوله جل شأنه: ﴿وَإِذَا جَاءُوكُمْ قَالُوا ءَامَنَّا وَقَدْ دَخَلُوا بِالْكَفْرِ وَهُمْ قَدْ خَرَجُوا بِهِ﴾ [٦١].

وهذه العداوة تنسحب على الزمن كله في جميع العصور.

ويجعل الله تعالى اليهود في الآية، مع من لا يعرفون لهم ربًا، في كفة واحدة، والمفروض أن تكون عداوة اليهود للمسلمين أقل؛ لأنهم يعترفون بوجود إله خالق، بخلاف الوثنيين فهم لا يعترفون بوجود إله لهذا الكون، ومع هذا فإن الله تعالى يقدم اليهود عليهم في عداوتهم للمسلمين، ولهذه العداوة أسباب أربعة:

السبب الأول: أن من مبادئ اليهود أنه يجب عليهم إيذاء من خالفهم في الدين، بأي لون من ألوان الأذى؛ كالقتل، أو النهب، أو السلب، أو بنوع من أنواع المكر والكيد والخداع والاستفزاز، ولذلك فإنهم قتلوا الأنبياء، وقتلوا الأمرين بالقسط من الناس من بين سائر الأمم.

السبب الثاني: أنهم يعلمون الحق وينكرونه، فقد عرفوا أن محمدًا رسول الله قبل بعثته، وأنكروا ذلك بعد بعثته، كما قال تعالى: ﴿وَلَمَّا جَاءَهُمْ كِتَابٌ مِّنْ عِندِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَمَّا جَاءَهُمْ مَا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ فَلَعْنَهُ اللَّهُ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾ [٨٩] [البقرة].

وكما قال سبحانه: ﴿وَلَمَّا جَاءَهُمْ رَسُولٌ مِّنْ عِندِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ نَبَذَ فَرِيقٌ مِّنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ كِتَابَ اللَّهِ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ كَأَنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [١١] [البقرة].

فهم يحسدون محمدًا ﷺ على الرسالة التي خرجت من بني إسرائيل إلى العرب .

ولذا: فقد غضب الله عليهم؛ لأنهم لم يعملوا بمقتضى علمهم، واستثناهم ممن أنعم الله عليهم في قوله: ﴿غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ﴾ [الفاتحة: ٧] وهم ينكرون رسالة عيسى ومحمد عليهما السلام.

السبب الثالث: أنهم يعملون جاهدين على أن تكون القدس عاصمتهم الأبدية، ويخططون لبناء الهيكل المزعوم على أنقاض المسجد الأقصى.

ولذا: فإنهم يخططون للقضاء على أية قوة مادية، أو بشرية، أو عسكرية، أو علمية بين صفوف المسلمين، سِيَّما دول الطوق التي تحيط بالكيان الصهيوني، فينشرون السموم والشهوات، ويددون طاقات الشباب بكل الوسائل المتاحة.

إن عداوة المشركين في مكة للإسلام وأهله لم تزد عن عشرين عامًا، وعداوة الفرس له قبل اعتناق الإسلام لم تزد عن بضع سنوات، أما عداوة اليهود فهي قائمة إلى قرب الساعة، حتى يقاتل اليهود المسلمين ويختبئ اليهودي وراء الحجر والشجر، وينطق الله الحجر فيقول: يا مسلم، هذا يهودي ورأيي تعالَ فاقتله.

ولذا جاء في الأثر: ما خلا يهودي بمسلم إلا حَدَّثَ نفسه بقتله^(١).

والتاريخ مليء بالمشاهد التي تبرز هذه العداوة:

١ - لما وصل النبي ﷺ إلى المدينة وأقام دولة الإسلام، عقد معاهدة مع اليهود للتعايش السلمي، ودعاهم للإسلام والاعتراف بما جاء في التوراة، ولكنهم لما رأوا الأوس والخزرج قد توحدوا تحت راية الإسلام بعد التمزق والفرقة سرعان ما أثاروا النعرة الجاهلية بينهم وأوقدوا نار الحرب، وبذروا بذور الشقاق والخلاف.

٢ - وهم الذين ألبوا الأحزاب ضد النبي ﷺ لقتاله.

٣ - وهم الذين تحالفوا مع مشركي مكة لقتال النبي ﷺ وأصحابه.

٤ - وهم الذين دبروا قتل النبي ﷺ بإلقاء حجر عليه وهو جالس تحت جدار من جُدُر ديارهم.

(١) ضعيف الجامع برقم (٤٤٣٩) ج ٩.

- ٥ - وهم الذين دسّوا له السم في ذراع الشاة؛ لعلمهم أنه يحب أن يأكل منها .
- ٦ - وهم الذين كانوا وراء الفتنة الكبرى، فتنة قتل عثمان رضي الله عنه بقيادة عبد الله بن سبأ اليهودي .
- ٧ - وهم الذين كانوا وراء تقويض الخلافة العثمانية، وإسقاط السلطان عبد الحميد؛ لتفكيك الخلافة الإسلامية إلى دويلات!!
- ٨ - وهم الذين أخرجوا عرب فلسطين من ديارهم وشردوهم في البلاد .
- ٩ - وهم الذين وراء إخماد الصحوات الإسلامية وتشويه سمعة الإسلام والمسلمين بمصطلحات التطرف والإرهاب والأصولية .
- السبب الرابع:** أن اليهود مخصصون بالحرص الشديد على الدنيا وطلب الرئاسة، وهذا يجعلهم معادين للمسلمين وغيرهم بغية الاستيلاء على زمام الحكم في العالم .
- من المفروض أن تكون عداوة النصارى للمسلمين أشد من عداوة اليهود؛ لأن اليهود ينازعون في النبوة، فينكرون نبوة بعض الأنبياء، أما النصارى فهم ينازعون في الألوهية، ويزعمون أن لله ولدًا .
- والجواب عن ذلك: أن المراد مجرد مدح النصارى في مقابل ذم اليهود .
- أما النصارى فهم ألين عريكة من اليهود، وأقرب إلى المسلمين نظرًا لما يأتي:
- ١ - النصارى يكفرون بنبي واحد، واليهود يكفرون بأكثر من نبي .
- ٢ - الإيذاء والقتال لدى النصارى حرام: مَنْ ضَرَبَكَ عَلَى خَدِّكَ الْيَمَنِ فَأَدِرْ لَهُ خَدَّكَ الْأَيْسَرَ .
- ٣ - لا يحرص النصارى على الدنيا وحب الرئاسة حرص اليهود، ولذلك فهم لا يعادون الناس ولا يحسدون أحدًا كاليهود .
- ٤ - على أن مدح القرآن للنصارى ليس على إطلاقه بما يشمل جميع النصارى، أو بالأحرى بما يشمل كل نصراني باقٍ على ديانته، وإنما يمدح القرآن قومًا مخصوصين من النصارى تأثروا بالقرآن حين سمعوه فرقت قلوبهم واعتنقوه، والآية تشمل كل من كان كذلك إلى قيام الساعة .
- قال قتادة: نزلت في ناس من أهل الكتاب كانوا على شريعة من الحق مما جاء به

عيسى عليه السلام، فلما بُعث محمد ﷺ آمنوا به وصدقوه، فأثنى الله عليهم بقوله: ﴿وَإِذَا سَمِعُوا مَا أُنْزِلَ إِلَى الرَّسُولِ﴾.

والآيات بعدَ ذَمِّ اليهود تصف قومًا قالوا: إنا نصارى، فهي دعوى مزعومة، والحقيقة أنهم ليسوا على دين النصرانية الصحيح، وأن النبي ﷺ وجدهم أقرب الناس مودة لأهل الإيمان بالله ورسوله، ولم يسم لنا أسماءهم، ويجوز أن يكون المراد بهم وفد النصارى الذين أرسلهم النجاشي إلى النبي ﷺ مع جعفر بن أبي طالب بعد قدومه إليه، وكانوا سبعين من قساوسة أهل الصوامع فأسلموا، ولما رجعوا إلى النجاشي وأخبروه أسلم، ولم يزل مسلمًا حتى مات.

وقيل: إنها نزلت في وفد نصارى نجران، وكانوا ثمانين رجلًا فأسلموا، وأيًا ما كان الأمر، فإن الآية عامة تشمل هؤلاء وغيرهم ممن رُقَّ إلى الإسلام ودخل فيه، ولا تنطبق الآية على من لم يدخل في الإسلام من النصارى.

قال تعالى: ﴿لَتَجِدَنَّ﴾ يا محمد ﴿أَشَدَّ النَّاسِ عَدَاوَةً لِلَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ بك وصدقوك واتبعوك ﴿الْيَهُودَ﴾؛ لعنادهم وجحودهم وغمطهم الحق ﴿وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا﴾ مع الله غيره، كعبدة الأوثان وغيرهم، فجعلهم الله قرناء لليهود في الحسد والعداوة وصعوبة إجابتهم للحق.

﴿وَلَتَجِدَنَّ﴾ يا محمد ﴿أَقْرَبَهُمْ مَّوَدَّةً لِلَّذِينَ ءَامَنُوا الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصْرِيُّ﴾ لم يصف الله النصارى بأنهم أهل ود، وإنما وصفهم بأنهم أقرب من اليهود والمشركين، فهو قرب مودة بالنسبة إلى متباعدين، ولذا فقد سُرَّ النبي ﷺ حين غَلَبَت الروم فارس؛ لكونهم أهل كتاب، والفرس عبدة نار، وإذا غلب العدو الأصغر انكسرت شوكة العدو الأكبر، ومن النصارى من هو أرق قلبًا من اليهود ﴿ذَلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قَتِيلِينَ﴾ علماء بدينهم، قرؤوا صفة محمد ﷺ في الإنجيل ﴿وَرُحَبَاءُ﴾ أي: عبادًا في دور العبادة زاهدين متنسكين ﴿وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ﴾ عن قبول الحق والخضوع له، وهم الذين قبلوا رسالة محمد ﷺ وآمنوا بها، فهذان سببان ذُكرا في هذه الآية لقرب مودة النصارى عن اليهود الوثنيين، وهما:

وجود القساوسة، والرهبان، وليس فيهم من الغلظة والجفاء ما عند اليهود.

والسبب الثاني أنه لا يوجد فيهم العُتُوُّ والتكبر الذي عند اليهود.

وذكرت الآية التالية سبباً ثالثاً وهو رقة قلوب بعضهم وإذعانهم للحق والتصديق به، كمن يدخل في الإسلام منهم في قديم الزمن وحديثه، وعلى مدى التاريخ كله.

ثَنَاءُ الْإِسْلَامِ عَلَى مَنْ أَسْلَمَ مِنَ النَّصَارَى

٨٣- ﴿وَإِذَا سَمِعُوا مَا أُنْزِلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرَى أَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا مِنَ الْحَقِّ يَقُولُونَ رَبَّنَا ءَامَنَّا فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ﴾ (٨٣)

ومما يدل على قرب مودة النصارى للمسلمين أنهم يتأثرون بالقرآن عند سماعه ﴿وَإِذَا سَمِعُوا مَا أُنْزِلَ إِلَى الرَّسُولِ﴾ محمد من القرآن الذي نزل عليه ﴿تَرَى أَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا مِنَ الْحَقِّ﴾ فأيقنوا أنه حق منزل من عند الله تعالى، وفاضت أعينهم بالدمع عند البكاء ورقة القلب لسماع القرآن.

قال ابن عباس يريد النجاشي وأصحابه لَمَّا قرأ عليهم جعفر بن أبي طالب سورة مريم: فما زالوا يبكون حتى فرغ جعفر من القراءة، وكان النجاشي قد سأل جعفرًا: هل في كتابكم ذِكرُ مريم؟ فقرأها، وقرأ صدر سورة طه عليه، فبكى وبكت الأساقفة حوله حتى اخضلت لحاهم.

وبكى كذلك الوفد الذي قدم على رسول الله ﷺ من طرف النجاشي حين قرأ عليهم الرسول ﷺ سورة يس. وجاء أيضًا أنها نزلت في إسلام سلمان الفارسي^(١).

وَفِيضُ الْعَيْنِ بِالْدمْعِ يكون بعد امتلائها، فيفيض من جوانبها ﴿يَقُولُونَ﴾ أي: القساوسة والرهبان ﴿رَبَّنَا ءَامَنَّا﴾ برسولك محمد، وصدقناه واتبعناه، وشهدنا أن ما جاء به هو الحق ﴿فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ﴾ الذين يكرمهم الله بشرف الشهادة مع أمة محمد ﷺ على سائر الأمم يوم القيامة، فنشهد له أنه قد بلغ رسالة ربه، كما قال تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾ [البقرة: ١٤٣].

فهذا إيمان صريح، وانضمام إلى أمة الإسلام، وضراعة إلى الله تعالى أن يجعلهم مع

(١) كما أخرجه البيهقي في «الدلائل» في حديث طويل جدًا (٨٢/٢-٩٢) والحاكم (٥٣٢/١) قال الذهبي: هذا حديث جيد حكم الحاكم بصحته.

الشاهدين مع محمد وأمه والشاهدين بصدق محمد ﷺ.

جاء عن ابن عباس ومجاهد وغيرهما أن ثمانية من نصارى الشام كانوا في بلاد الحبشة، وأنهم قدموا المدينة مع اثنين وستين راهبًا من الحبشة، صاحبوا المسلمين الذين رجعوا من هجرتهم بالحبشة، وسمعوا القرآن وأسلموا، وأن هذا الوفد كان قد عاد إلى المدينة سنة سبع من الهجرة، فكانت هذه الآية تذكيرًا بفضلهم، وهؤلاء الثمانية الذين أسلموا هم: بحيرا الراهب، وإدريس، وأشرف، وأبرهة، وثمامة، وقثم، ودريد، وأيمن^(١). وكون هذه الآية مدنية لا يمنع أن تكون قد أُنثت على من دخل في الإسلام من النصرانية قبل الهجرة، كما جاء في الروايات الأخرى.

ومن ذلك ما جاء عن سعيد بن المسيب وعروة بن الزبير قالا: بعث رسول الله ﷺ عمرو بن أمية الضمري بكتاب معه إلى النجاشي، فقدم على النجاشي، فقرأ كتاب رسول الله ﷺ ثم دعا جعفر بن أبي طالب والمهاجرين معه، فأرسل إلى الرهبان والقسيسين فجمعهم، ثم أمر جعفرًا أن يقرأ عليهم القرآن، فقرأ سورة مريم، فآمنوا بالقرآن، وفاضت أعينهم من الدمع، وهم الذين أنزل الله فيهم ﴿وَلْتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُمْ مَوَدَّةً﴾ إلى ﴿فَاكْتَبْنَا مَعَ الشَّهِيدِ﴾^(٢).

وفي رواية الطبري عن علي بن أبي طلحة عن ابن عباس ؓ أن النبي ﷺ خاف على أصحابه من المشركين، فبعث جعفر بن أبي طالب، وابن مسعود، وعثمان بن مظعون في رهط من أصحابه إلى النجاشي، فلما بلغ ذلك المشركين، أرسلوا وفدًا منهم برئاسة عمرو بن العاص، فسبقوا وفد النبي ﷺ ودخلوا على النجاشي، وذكروا له أنه خرج فيهم رجل سَفَّهَ عقول قريش، وهو يزعم أنه نبي، وقد أرسل وفدًا إليك؛ ليفسدوا قومك، فأحببنا أن نخبرك، ولما قدم وفد النبي ﷺ سلموا عليه، فقال لهم: ما منعكم أن تُخَيِّبوني بتحيتي، قالوا: إنا حينئذ بتحية أهل الجنة وتحية الملائكة، ثم سألهم: ما يقول صاحبكم في عيسى وأمه؟ قالوا: يقول: هو عبد الله ورسوله وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه، ويقول في مريم: إنها العذراء البتول، فأخذ النجاشي عودًا من الأرض، وقال: ما زاد عيسى

(١) يُنظَر: «أسباب النزول» للواحدي (١٧٠) والسيوطي (١٠٩).

(٢) «تفسير القرطبي» (٢٥٥/٦) وهو عند ابن أبي شيبة (٣٤٩/١٤) وابن أبي حاتم (٦٦٧٨) وأبو نعيم في «الحلية» (١١٧/١) و«أسباب النزول» للواحدي ص (١٥١).

والله على ما قال صاحبكم قَدَّرَ هذا العود، فكره المشركون قوله، وتغيَّرت وجوههم، ثم قال: هل تعرفون شيئاً مما أنزل عليكم؟ قالوا: نعم، فقرؤوا، وكان منهم قسيسون ورهبانٌ وبعض النصارى في المجلس، قد انحدرت دموعهم مما عرفوا من الحق كما قال تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِيَسِينَ وَرُهْبَانًا وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ﴾ لَا وَإِذَا سَمِعُوا مَا أُنزِلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرَىٰ أَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ وَمَا عَرَفُوا مِنَ الْحَقِّ ﴿١﴾، ثم قالوا:

٨٤- ﴿وَمَا لَنَا لَا نُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَمَا جَاءَنَا مِنَ الْحَقِّ وَنَطْمَعُ أَنْ يُدْخِلَنَا رَبَّنَا مَعَ الْقَوْمِ الصَّالِحِينَ﴾ ﴿٨٤﴾

ورد أن قومهم من النصارى لا يؤمنون بالله ولا يؤمنون بالحق، فاجابوهم ﴿وَمَا لَنَا لَا نُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَمَا جَاءَنَا مِنَ الْحَقِّ﴾ أي: أي لَوْمَ علينا في إيماننا بالله، وتصديقنا بالحق الذي جاء به محمد ﷺ من عند الله واتباعنا له؟ وما الذي يمنعنا من ذلك، وقد ظهر لنا الحق من الباطل؟ ﴿وَنَطْمَعُ أَنْ يُدْخِلَنَا رَبَّنَا مَعَ الْقَوْمِ الصَّالِحِينَ﴾ ونرجو من الله بذلك الإيمان أن يجعلنا مع الصالحين من أهل طاعته، من أمة محمد ﷺ.

وهؤلاء النصارى هم الذين قال الله فيهم: ﴿وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَمَنْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْهِمْ خَشِعِينَ لِلَّهِ﴾ [آل عمران: ١٩٩]. وقال فيهم أيضاً: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ أَلَيْسَ لَهُمْ آيَاتُ أَنْ يَأْتِيَهُمُ الْكِتَابُ مِنَ قَبْلِهِ هُمْ بِهِ يُؤْمِنُونَ﴾ ﴿٥٢﴾ وَإِذَا بَلَغَ الْإِيمَانُ يَدَهُ إِنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّنَا﴾ [القصص].

جَزَاءُ الْمُؤْمِنِ وَالْكَافِرِ

٨٥- ﴿فَأَنبَهُمُ اللَّهُ بِمَا قَالُوا فَجَنَّتْ جَنَّتِي تَجَرَّى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَلَّدِينَ فِيهَا وَذَٰلِكَ جَزَاءُ الْمُحْسِنِينَ﴾ ﴿٨٥﴾

ثم بيَّن ﷻ أنه قد أجاب النصارى الذين أسلموا إلى ما طلبوا، بل أجابهم إلى أكثر مما طلبوا؛ حيث طلبوا من ربهم أن يكونوا من الصالحين، وأن يكتبهم مع الشاهدين، فأعطاهم جنات النعيم، وسماهم محسنين، والإحسان أعلى درجات الإيمان وأكرم أوصاف المتقين ﴿فَأَنبَهُمُ اللَّهُ بِمَا قَالُوا﴾ أي: أجزل لهم الأجر والثوبة، وجزاهم على إيمانهم واعترافهم بالحق، وعلى قولهم: ﴿ءَامَنَّا فَكُتِبَ لَنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ﴾ وقولهم: ﴿وَمَا لَنَا

(١) انظر: «تفسير الطبري» (١٠/٤٩٩) برقم (١٢٣١٧) وابن أبي حاتم عند تفسير الآية برقم (٤٢)، (٤/

لَا تُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَمَا جَاءَنَا مِنَ الْحَقِّ ﴿٨٦﴾ وهذا الذي قالوه فيه اعتزاز بالإسلام، وتضرع إلى الله تعالى أن يكونوا في عداد الصالحين، وأن يدخلهم ﴿جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾ أي: من تحت قصورها وأشجارها ﴿خَالِدِينَ فِيهَا﴾ وقد علم الله منهم صدقهم فيما قالوا، وإخلاصهم العمل له سبحانه، كما بيّنته الآيات الأخرى فوعدهم دار النعيم، فهم ماكثون في الجنة أبداً لا يزولون عنها ولا يُحوّلون ﴿وَذَلِكَ جَزَاءُ الْمُحْسِنِينَ﴾ أي: هذا هو جزاء المحسنين مع الله تعالى في القول والعمل. هذا هو جزاء المؤمن.

٨٦- ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ﴾

أما الذين جحدوا وحدانية الله تعالى فكفروا به، وكذبوا رسول الله محمداً ﷺ فلم يؤمنوا به، وكذبوا بآياته المنزلة عليه، والمنزلة على الرسل قبله، فهم أصحاب النار يلزمونهم ولا يخرجون منها ﴿لَا يُفْضَىٰ عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ مِنْ عَذَابِهَا﴾ [فاطر: ٣٦]. ﴿إِنَّهُمْ مِنْ يَأْتِ رَبُّهُمُ جُجْرًا فَإِنَّ لَهُمْ جَهَنَّمَ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَىٰ﴾ [طه: ٧٤].

النِّدَاءُ الْعَاشِرُ: النَّهْيُ عَنْ طَلَاقِ الدُّنْيَا

٨٧- ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَحَرَّمُوا طَلَبَتَ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ﴾

وفيما يأتي من الآيات إلى بداية الربع الأخير من السورة يوجه الله ﷻ للمؤمنين خمس نداءات تتناول جانب التشريع في الحلال والحرام، وهي: النهي عن تحريم الحلال، والقطع بتحريم الخمر، والنهي عن الصيد في الحرم، وعدم التعنت في السؤال، والوصية عند الموت.

وهذه الآية هي النداء العاشر للمؤمنين في هذه السورة، وله علاقة بالآيات السابقة، وذلك أن الله تعالى لَمَّا ذكر من أسباب قُرب النصارى من المسلمين: أن منهم قسيسين ورهباناً.

ومن مقتضى ذلك أن يَرْغَبَ المؤمنون في الرهبانية والزهد والتقشف، ويظنون أنها مَرْتَبَةٌ تُقَرِّبُهُمْ من الله تعالى، وهذا يتحقق - كما يزعمون - بتحريم التمتع بالطيبات.

ولذا فقد رفع الله سبحانه هذا الظن بهذه الآية فقال: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَحَرَّمُوا طَلَبَتَ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكُمْ﴾، من المطاعم والمشارب والملابس والمناكح، فإنها نعم أنعم الله

عليكم بها، فاحمدوه إذ أحلها لكم واشكروه، ولا تردّوا نعمته بكفرها أو عدم قبولها، أو اعتقاد تحريمها، فتقولوا على الله الكذب، وتعتقدو تحريم ما أحل الله.

جملة من الأحاديث في معنى الآية:

١- صحَّ أن النبي ﷺ ذكّر أصحابه النار يومًا، ووصف القيامة، فرقّ الناس وبكّوا، واجتمع عشرة منهم^(١) في بيت عثمان بن مظعون، واتفقوا على أن يترهّبوا، ويلبسوا المسوح^(٢)، ويقوموا الليل، ولا يناموا على الفرش، ولا يأكلوا اللحم، ولا يقربوا النساء، ولا الطيب، ويسبحوا في الأرض، فبلغ ذلك النبي ﷺ فأتى دار ابن مظعون فلم يجده، فسأل امرأته، فكرهت أن تُفشي سر زوجها، وقالت: إن كان قد أخبرك عثمان فقد صدق، وانصرف، فلما جاء عثمان أخبرته، فذهب هو والعشرة إلى رسول الله ﷺ، وقالوا: يا رسول الله، ما أردنا إلا الخير، فقال ﷺ: «إني لم أُؤمر بذلك»، ثم قال ﷺ: «إن لأنفسكم عليكم حقًا، فصوموا وأفطروا، وقوموا وناموا؛ فإني أقوم وأنام، وأصوم وأفطر، وأكل اللحم، وآتي النساء، فمن رغب عن سنتي فليس مني»، ثم جمع الناس وخطبهم، فقال: «ما بال أقوام حرّموا النساء والطعام والطيب وشهوات الدنيا؟! فإني لست آمركم أن تكونوا قسيسين ورهبانًا؛ فإنه ليس في ديني ترك اللحم والنساء، ولا اتخاذ الصوامع، وإن سياحة أمتي الصوم، ورهبانيتهم الجهاد، اعبدوا الله ولا تشركوا به شيئًا، وحُجّوا واعتمروا، وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة، وصوموا رمضان، واستقيموا يُستقم لكم، فإنما هلك من كان قبلكم بالتشديد، شدّدوا على أنفسهم فشدد الله عليهم، فتلك بقاياهم في الديار والصوامع» فأنزل الله الآية^(٣).

(١) هم: (أبو بكر وعلي وابن مسعود وابن عمر وأبو ذر وسالم والمقداد وسلمان ومقل بن مقرن وعثمان بن مظعون).

(٢) كساء من شعر يلبسه الرهبان علامة على الزهد والتقشف.

(٣) صُحِّح هذا المعنى في الصحاح والسنن والمسانيد، بنصه مع تصرف يسير من تفسير «الخازن» (٤٨٨/١) وهو باختصار عن أبي صالح عن ابن عباس في «زاد المسير» (٤١٠/٢) وعن عكرمة بمعناه في «تفسير الطبري» (٥١٩/١٠) ونسبه في «الدر المنثور» لابن المنذر وأبي الشيخ، وعن عائشة مختصرًا في البخاري (١٠٤/٩) برقم (٥٠٦٣) ومسلم (١٠٢٠/٢) عن أنس برقم (١٤٠٠١) وفي «أسباب النزول» للواحدي (١٧٥) والسيوطي (١١٠).

٢- وعن عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنه قال: قال لي رسول الله ﷺ: «يا عبد الله، ألم أخبر أنك تصوم النهار وتقوم الليل؟» قلت: بلى يا رسول الله، قال: «فلا تفعل، صم وأفطر، وقم ونم؛ فإن لجسدك عليك حقًا، وإن لعينك عليك حقًا، وإن لزورك عليك حقًا، وإن لزورك عليك حقًا، وإنَّ بحسبك أن تصوم من كل شهر ثلاثة أيام؛ فإن بكل حسنة عشر أمثالها، فإن ذلك صيام الدهر كله»، قلت: إني أجد قوة، قال: «فصم صيام نبي الله داود ولا تزدد عليه»، قلت: وما كان صيام نبي الله داود؟ قال: «نصف الدهر»^(١).

٣- وعن أنس رضي الله عنه أن ناسًا من أصحاب النبي ﷺ سألوا أزواج النبي ﷺ عن عمله في السر، فقال بعضهم: لا أكل اللحم، وقال بعضهم: لا أتزوج النساء، وقال بعضهم: لا أنام على فراش، فبلغ ذلك النبي ﷺ، فحمد الله وأثنى عليه فقال: «ما بال أقوام يقول أحدهم كذا وكذا؟ لكنني أصوم وأفطر، وأنام وأقوم، وأكل اللحم، وأتزوج النساء فمن رغب عن سنتي فليس مني»^(٢).

٤- وفي حديث أنس رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «إذا تزوج العبد، فقد استكمل نصف الدين، فليتق الله في النصف الباقي»^(٣).

٥- وجاء معقل بن مقرن إلى عبد الله بن مسعود رضي الله عنه فقال: إني حرمت فراشي عليَّ سنَّة، فقال له: نم على فراشك وكفر عن يمينك، وتلا عليه الآية^(٤).

٦- وعن مسروق قال: كنا عند عبد الله بن مسعود، فجاء بضرع، فتنحَّى رجل، فقال عبد الله: اذُن، فقال: إني حرمت أن آكله، فقال عبد الله: اذُن فاطعم وكفر عن يمينك، وتلا الآية^(٥).

٧- وقال زيد بن أسلم: سبب هذه الآية أن عبد الله بن رواحة ضافه ضيف من أهله، وهو عند النبي ﷺ فانقلب ابن رواحة إلى أهله، فقال لزوجته: ما عشيته؟ قالت: كان الطعام قليلًا فانتظرتك، فقال: حبست ضيفي من أجلي، طعامك عليَّ حرام إن ذقته،

(١) البخاري (١٩٧٧، ١٩٧٩) ومسلم (١١٥٩) وأبو داود (٢٤٢٧) والنسائي (٢٣٩٦، ٢٤٠٠).

(٢) مسلم (١٤٠١) من حديث أنس واللفظ له.

(٣) البيهقي (٥٤٨٦) وصححه الألباني في «السلسلة الصحيحة» (٦٢٥).

(٤) سنده صحيح إلى ابن مسعود، كما في الطبري (٦٤٨/٨) وابن أبي حاتم (٦٦٩٠) والطبراني (٩٦٩٣).

(٥) أخرجه الحاكم في «المستدرک» (٣١٣/٢).

فحرمته هي أيضًا على نفسها، وحرمة الضيف كذلك، فلما رأى ابن رواحة ذلك قال: قَرَّبِي الطعام، كلوا باسم الله، فأكلوا جميعًا، ثم ذهب إلى النبي ﷺ فأخبره، فقال ﷺ: «أحسن»، ونزلت الآية^(١).

٨- وعن ابن عباس ؓ أن رجلاً أتى النبي ﷺ فقال: يا رسول الله، إني إذا أكلت اللحم انتشرت للنساء، وإني حرمت علي اللحم، فنزلت ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَحَرَّمُوا طَيِّبَاتِ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكُمْ﴾^(٢).

٩- وعن عبد الله بن مسعود ؓ قال: كنا نغزو مع رسول الله ﷺ وليس معنا نساء، فقلنا: ألا نستخصي؟ فنهانا رسول الله ﷺ عن ذلك، ورخص لنا أن ننكح النساء إلى أجل، ثم قرأ عبد الله الآية^(٣) وكان هذا قبل تحريم نكاح المتعة.

وعند الشافعي أن من حرم أكلاً أو شرباً أو ملبساً أو شيئاً مما عدا النساء، أنه لا يحرّم عليه، ولا كفارة عليه، واحتج بحديث الذي حرم اللحم على نفسه، السابق ذكره؛ حيث لم يأمره النبي ﷺ بكفارة، فهو بمثابة اللغو لا يلزم صاحبه شيء.

وذهب أبو حنيفة وأحمد إلى أنه يجب عليه كفارة يمين، أخذاً من قوله تعالى: ﴿قَدْ فَرَضَ اللَّهُ لَكُمْ تَحِلَّةَ أَيْمَانِكُمْ﴾ [التحريم: ٢]. أما تحريم الزوجة فلأن عقد العصمة يتطرق إليه التحريم.

١٠- ونقل ابن جرير عن السدي أن (الحولاء) امرأة عثمان بن مظعون، واسمها عائشة، دخلت على أزواج النبي ﷺ فقلن لها: ما بالك يا حواء متغيرة اللون، لا تتمشطين ولا تتطيبين؟! فذكرت أن زوجها لا يقربها، فلما علم النبي ﷺ بذلك أرسل إليه وسأله. فقال: إني تركته لله؛ لكي أتخلى للعبادة، وكان عثمان قد أراد أن يجب نفسه، فقال له النبي ﷺ: «أقسمت عليك إلا رجعت فواقعت أهلك» فقال: يا رسول الله، إني

(١) بتصرف من «تفسير ابن عطية» (٢/٢٢٨) وهو في الطبري (٨/٦١٣) و«الدر المنثور» (٣/١٤٣) ونقله ابن كثير عن ابن أبي حاتم وقال: هذا أثر منقطع (٢/١٧٠) ورقمه: (٦٦٩٢).

(٢) «سنن الترمذي» برقم (٣٠٥٤) وقال: حسن غريب وقد صححه الألباني في «صحيح سنن الترمذي» (٢٤٤١) وهو في الطبراني في «الكبير» (١١٩٨١) وابن أبي حاتم (٦٦٨٧).

(٣) «صحيح البخاري» برقم (٤٦١٥، ٥٠٧١، ٥٠٧٥) و«صحيح مسلم» برقم (١٤٠٤) وابن أبي شيبة (٤/٢٩٤) والنسائي في «الكبرى» (١١١٥٠) وابن حبان (٤١٤١) وابن أبي حاتم (٦٦٨٨).

صائم، قال: «فَأَفْطِرْ وَأَتِ أَهْلَكَ»، ثم قال ﷺ: «ما بال أقوام حرّموا النساء والطعام والنوم؟ ألا إني أنام وأقوم، وأفطر وأصوم، وأنكح النساء، فمن رغب عن ستي فليس مني»، ونزلت الآية، فقال ﷺ لعثمان: «لا تجب نفسك، فهذا هو الاعتداء»، وأمرهم أن يكفروا عن أيمانهم، فقال تعالى: ﴿لَا يُؤْخَذُكُمُ اللَّهُ بِالْفِعْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ وَلَكِنْ يُؤْخَذُكُمْ بِمَا عَقَدْتُمُ الْأَيْمَانَ﴾^(١) [٨٩].

١١- وفي رواية أن ناسًا قالوا: إن النصارى قد حرّموا على أنفسهم، فنحن نحرم على أنفسنا بعض الطيبات، فحرم بعضهم على نفسه أكل اللحم، وبعضهم النوم، وبعضهم النساء، وأنهم ألزموا أنفسهم بأيمان حلفوها على ترك ما التزموا بتركه فنزلت الآية^(٢).

١٢- وفي الصحيح من حديث أنس ؓ قال: جاء ثلاثة رهط إلى بيوت أزواج رسول الله ﷺ يسألون عن عبادته، فلما أخبروا عنها كأنهم تقالُّوها، قالوا: أين نحن من رسول الله ﷺ، وقد غفر الله له ما تقدم من ذنبه وما تأخر؟! قال أحدهم: أما أنا فأصلي الليل أبداً، وقال الآخر: وأنا أصوم الدهر ولا أفطر، وقال الآخر: وأنا أعتزل النساء ولا أتزوج أبداً، فجاء رسول الله ﷺ إليهم فقال: «أنتم الذين قلتم كذا وكذا؟ أما والله إني لأخشاكم لله وأتقاكم له، ولكني أصوم وأفطر، وأصلي وأرقد، وأتزوج النساء، فمن رغب عن ستي فليس مني»^(٣).

١٣- وعن عائشة ؓ قالت: صنع النبي ﷺ شيئاً ترخص فيه، وتنزه عنه قوم، فبلغ ذلك النبي ﷺ فحمد الله وأثنى عليه، ثم قال: «ما بال أقوام يتنزهون عن الشيء أصنعوه؟ فوالله إني أعلمهم بالله، وأشدّهم له خشية»^(٤).

وهذه الأخبار تقتضي أن ذلك كان في أول الهجرة؛ لأن عثمان بن مظعون لم يكن له دار بالمدينة، وأسكنه النبي ﷺ دار أم العلاء الأنصارية، قيل: إنها زوجة زيد بن ثابت، وتوفي عثمان بن مظعون سنة اثنتين من الهجرة. وهكذا قال النبي ﷺ لعبد الله بن عمرو

(١) يُنْظَرُ: «تفسير الطبري» (٦٠٩/٨-٦١١).

(٢) تفسير «التحرير والتنوير» (١٤/٧).

(٣) «صحيح البخاري» برقم (٥٠٦٣) و«صحيح مسلم» برقم (١٤٠١).

(٤) «صحيح البخاري» برقم (٧٣٠١) و«صحيح مسلم» برقم (٢٣٥٦).

بن العاص، كما سبق، لما علم أنه يقوم الليل ويصوم النهار فقال له: «إن لنفسك عليك حقًا، ولأهلك عليك حقًا، فصم وأفطر، وقم ونم» وبمثله قال سلمان لأبي الدرداء.

والله ﷻ ينادي المؤمنين بمقتضى إيمانهم ألا يزاولوا خصائص الألوهية التي يتفرد بها رب العالمين، فليس لهم أن يحرموا ما أحله الله لهم من الطيبات، ولا يمتنعوا عن المباح على وجه التحريم، والطيبات هي اللذائذ التي تشتهيها النفس من المأكّل والمشرب، ثم إن أهل الجاهلية حرموا على أنفسهم أشياء لم يقرها الإسلام كما جاء في قوله تعالى: ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ﴾ [الأعراف: ٣٢].

والمعنى: لا تتركوا ما أحله الله لكم من المطاعم والمشارب والنساء على وجه التحريم لها، أما من ترك شيئًا من المباحات على وجه الزهد والتفرغ للعبادة من غير إضرار بالنفس ولا تفويت حق الزوجة، فلا حرج في ذلك، ولذلك فإن الله تعالى قال: ﴿وَلَا تَقْسِدُوا﴾ أي: لا تتجاوزوا حدود ما حرم الله؛ فإن التحليل والتحريم من حق الله وحده ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ﴾ أي: المتجاوزين حدود الله، فيبغضهم ويمقتهم ويعاقبهم على ذلك. قال تعالى:

٨٨- ﴿وَكُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ حَلَلًا طَيِّبًا وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي أَنْتُمْ بِهِ مُؤْمِنُونَ﴾

وبعد أن نهى الله ﷻ عن تحريم الطيبات، أمر بتناولها ورغب في التمتع بها فقال: ﴿وَكُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ حَلَلًا طَيِّبًا﴾ كلوا وتمتعوا - أيها المؤمنون - من رزق الله الذي رزقكم إياه، وأحله لكم من المطاعم والمشارب والملابس والمراكب والشهوات، وما حرمه الله تعالى من ذلك ليس من الرزق الحلال، ولا يُسمّى رزقًا، إنما يأمر الله تعالى بالأكل من الرزق الحلال الطيب، وترك ما عداه ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ﴾ بامثال الأوامر، واجتناب النواهي ﴿الَّذِي أَنْتُمْ بِهِ مُؤْمِنُونَ﴾ فإن إيمانكم يوجب تقوى الله ومراقبته، واتباع طاعته، واجتناب مخالفته فلا تضيعوا إيمانكم بالتقصير في طاعة الله، وفي هذا دعوة إلى التقوى بالطف الوجوه، وليس المراد الأكل وحده، بل يدخل فيه ألوان التمتع بالطيبات، وخص الأكل بالذكر لكونه أكثر حاجات الإنسان.

والتمتع بالطيبات لا ينافي التقوى، ولا يجوز لأحد من خلق الله أن يحرم على نفسه شيء أحله الله تعالى، وقد كان النبي ﷺ يحب الحلوى.

وجاء رجل إلى الحسن البصري فقال له: إن له جارًا لا يأكل الفالودج؛ لأنه لا يؤدي شكره، فقال له الحسن: أفيشرب الماء البارد؟ قال: نعم، قال: إن نعمة الله عليه في الماء البارد أكثر من نعمته عليه في الفالودج^(١).

وترك الأكل من الطيبات يؤدي إلى إضعاف العقول والأجسام، والإسلام يريد من أتباعه أن يكونوا أقوياء في أجسامهم وعقولهم وسائر شؤونهم، فالمؤمن القوي خير وأحب إلى الله من المؤمن الضعيف:

قال تعالى: ﴿وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ﴾ [الأعراف: ٣١].

وقال: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُلُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَاشْكُرُوا لِلَّهِ إِنْ كُنْتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ﴾ [البقرة].

وقال: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ كُلُوا مِن مَّا فِي الْأَرْضِ حَلَالًا طَيِّبًا وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾ [البقرة].

وبهذا أمر الله المرسلين فقال: ﴿يَا أَيُّهَا الرُّسُلُ كُلُوا مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَاعْمَلُوا صَالِحًا﴾ [المؤمنون: ٥١].

فالمؤمن لا يترك ما أحل الله من الطيبات، ويتمتع بها دون إسراف ولا تقتير، ويداوم على شكر الله تعالى، ويطعم الفقراء والمساكين مما رزقه الله سبحانه.

الْأَيْمَانُ وَكَفَارَاتُهَا

٨٩- ﴿لَا يُؤَاخِذُكُمُ اللَّهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ وَلَكِنْ يُؤَاخِذُكُمْ بِمَا عَقَّدْتُمُ^(٢) الْأَيْمَانَ فَكَفَرْتُمْهُ إِطْعَامُ عَشْرَةِ مَسْكِينٍ مِنْ أَوْسَطِ مَا تُطْعَمُونَ أَهْلِيكُمْ أَوْ كِسْوَتُهُمْ أَوْ تَحْرِيرُ رَقَبَةٍ فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ ذَلِكَ كَفَرْتُمْهُ أَيْمَانَكُمْ إِذَا حَلَفْتُمْ وَاحْفَظُوا أَيْمَانَكُمْ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ ءَايَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾

وقد يحلف الإنسان على ترك المباح كما علمنا من الآية السابقة، وكما يُقدَّم ضيف على شخص مَّا، فيحلف عليه رب المنزل أن يذبح له ذبيحة، ويحلف الضيف ألا يأكل

(١) «تفسير القرطبي» (٢٦٢١٦).

(٢) أبدل همزة (يؤاخذكم) واوًا في الموضعين ورش وأبو جعفر، ومثلهما حمزة وقفًا، وقرأ الباقون بالواو.

(٣) قرأ ابن ذكوان (عاقدم) بألف بعد العين، وقرأ شعبة وحمزة والكسائي وخلف العاشر (عقدتم) بتخفيف القاف مع حذف الألف بعدها، وقرأ الباقون بحذف الألف مع تشديد القاف، على التكثير.

منها. وكما يحلف الرجل ألا يأتي أهله، أو لا يصل رحمه، ونحو ذلك، وآية كفارة اليمين التي نحن بصددتها جاءت في هذا السياق؛ لتشريع كفارة اليمين لمن حرّم على نفسه ما أحل الله له.

قال ابن عباس: سبب نزولها: القوم الذين حرّموا طيبات المطاعم والملابس والمناكح على أنفسهم، حلفوا على ذلك، فلما نزلت ﴿لَا تُحَرِّمُوا طَيِّبَاتٍ مَّا أَحَلَّ اللَّهُ لَكُمْ﴾ قالوا: كيف نصنع بأيماننا؟ فنزلت هذه الآية^(١).

والأيمان ثلاثة أنواع:

أولاً: اليمين اللغو وهو: ما يسبق إليه اللسان من غير قصد؛ كقولهم: لا والله، وبلى والله.

أو هو: أن يحلف الحالف على شيء يعتقد أنه صادق فيه، ثم يتبين له خلاف ذلك. والله تعالى لا يعاقب على ما لا تقصدون عقده من الأيمان، فليس فيه كفارة في الدنيا، ولا عقوبة في الآخرة، ولكن لا ينبغي التهاون باسم الله تعالى وتعريضه للحلف في الصغيرة والكبيرة، وتعويد اللسان على ذلك. فإن حلف أنه لم يفعل كذا، أو أنه فعل كذا، وهو يعتقد أنه صادق فيما قال، ثم ظهر خلافه، فلا إثم عليه ولا كفارة في أصح القولين.

ثانياً: اليمين المنعقدة وهي: التي تكون عن قصد ونية، وفيها كفارة عند الحنث فيها، ومثالها قول القائل: والله لا أفعل كذا، فيفعل، أو يقول: والله لأفعلن كذا، ولا يفعل.

ثالثاً: يمين الغموس وهي: التي يتعمد فيها الحالف الكذب، كأن يخبر بخلاف الواقع عن شيء مضى، أو يقصد بحلفه اقتطاع حق امرئ مسلم، وسُميت غموساً؛ لأنها تغمس صاحبها في النار، فهو مستحق للعذاب الأخروي؛ لأنه صمم على الكذب وقصده وحنث فيه وهذه اليمين الغموس وهي من كبائر الذنوب، وعقابها شديد:

عن أبي مالك قال: الأيمان ثلاثة: يمين تُكْفَر، ويمين لا تُكْفَر، ويمين لا يؤاخذ بها، فأما التي تُكْفَر فالرجل يحلف على قطعة رحم، أو معصية الله، فيكْفَر يمينه، والتي لا تُكْفَر، الرجل يحلف على الكذب متعمداً، والتي لا يؤاخذ بها، فالرجل يحلف على الشيء يرى أنه صادق، فهو اللغو لا يؤاخذ به^(٢).

(١) «تفسير الطبري» (١٣/٧).

(٢) أخرجه عبد بن حميد كما في «الدر المثور» (٥/٤٤١).

١- أخرج البخاري عن عبد الله بن عمرو رضي الله عنه قال: جاء أعرابي إلى النبي ﷺ فقال: يا رسول الله، ما الكبائر؟ قال: «الإشراك بالله»، قال: ثم ماذا؟ قال: «عقوق الوالدين»، قال: ثم ماذا؟ قال: «اليمين الغموس»، قلت: وما اليمين الغموس؟ قال: «التي يقطع بها مال امرئ مسلم وهو كاذب فيها»^(١).

٢- وأخرج مسلم عن أبي أمامة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «من اقتطع حق امرئ مسلم بيمينه فقد أوجب الله له النار، وحرم عليه الجنة»، فقال رجل: وإن كان شيئاً يسيراً يا رسول الله؟ قال: «وإن كان قضيباً من أراك»^(٢).

٣- وفي البخاري وغيره عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «من اقتطع مال امرئ مسلم بيمين كاذبة، لقي الله وهو عليه غضبان»^(٣).

٤- وعن أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «ثلاثة لا يكلمهم الله يوم القيامة، ولا ينظر إليهم، رجل حلف على سلعة، لقد أُعطيَ بها أكثر مما أعطى وهو كاذب، ورجل حلف على يمين كاذبة بعد العصر؛ ليقطع بها مال امرئ مسلم، ورجل منع فضل ماء، فيقول الله يوم القيامة: اليوم أمنعك فضلي كما منعت فضل ما لم تعمل يداك»^(٤).

والحالف في اليمين الغموس قد جمع بين الكذب، واستحلال مال غيره، والاستخفاف باليمين بالله تعالى.

وجمهور أهل العلم على أن اليمين الغموس لا كفارة فيها؛ لأنها أعظم من أن تُكفر، ويجب على صاحبها التوبة الصادقة، والرجوع إلى الله تعالى، وردُّ المظلمة لأهلها إن كان قد ترتب عليها مظلمة، ويرى الشافعي أن فيها كفارة كسائر الأيمان المنعقدة.

أما كفارة اليمين المنعقدة فهي إما: إطعام عشرة مساكين، أو كسوتهم، أو تحرير رقبة،

(١) «صحيح البخاري» برقم (٦٦٧٥، ٦٨٧٠، ٦٩٢٠).

(٢) «صحيح مسلم» برقم (١٣٧).

(٣) «صحيح البخاري» برقم (٧٤٤٥) وانظر: (٢٣٥٦) و«صحيح مسلم» (١٣٨).

(٤) «صحيح البخاري» برقم (٧٤٤٦) وانظر: (٢٣٥٨) و«صحيح مسلم» (١٠٨).

فمن لم يجد شيئاً من ذلك فليصم ثلاثة أيام، فهذه أربعة أنواع للكفارة، والحالف مخير بين الثلاثة الأولى يفعل منها ما يشاء، فإن عجز عن الثلاثة انتقل إلى الرابعة وهي الصيام:

أولها: إطعام عشرة مساكين، وفي كيفية هذا الإطعام ومقداره ثلاثة أقوال:

القول الأول: تملك كل فقير من العشرة وإعطاؤه (مُدًّا) أي: ربع صاع، وهو ما يعادل ثلاثة أرباع الكيلو تقريباً، من البرّ، أو الأرز، أو الشعير، ونحو ذلك من غالب قوت أهل البلد، ومن خيار ما يطعم الحالف، وبهذا قال مالك والشافعي، والقيمة عندهما لا تجزئ، والتمليك شرط في الإطعام.

القول الثاني: وقال أبو حنيفة: يطعم من الحنطة نصف صاع، ومن غيرها صاع، ولو غداهم وعشاهم جاز، أي: أن الإطعام عنده لكل فقير وجبتان، وعنده أن القيمة بالدرهم والدنانير تجزئ.

عن سعيد بن جبير عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: كان الرجل يقوت أهله قوتاً فيه سعة، وكان الرجل يقوت أهله قوتاً فيه شدة فتزلت ﴿مَنْ أَوْسَطَ مَا تَطْعَمُونَ أَهْلِيكُمْ﴾^(١) وبسط اليد في النفقة على الأهل، أو قبضها أمر موجود في كل زمان ومكان.

القول الثالث: قال أحمد: يطعم لكل مسكين مد من البرّ، ونصف صاع من غيره، ويشترط أن يملك الفقير هذا المقدار، ولو غداهم وعشاهم لا يجزئ، ولو أطعم فقيراً واحداً عشر مرات أجزأه، ولا تخرج الكفارة إلا لمسلم.

قلت: الأمر واسع، ولفظ الإطعام إذا تحقق بصورة من الصور فإنه يجزئ إن شاء الله، فلو صنع للفقير طعاماً في بيته أجزأه، وإن دفع له القيمة في أحد المطاعم أجزأه، وإن ملكه حبوباً يعطيه معها إداماً، أو لحماً؛ لأنه لن يأكل الحبوب وحدها أجزأه.

وثانيها: الكسوة، ولا تطلق الكسوة إلا على ما يستر العورة وتصح الصلاة فيها، فتصدق على الثياب، والقميص الطويل، والإزار، ولا تصدق على العمامة أو الطاقية أو الخمار.

وثالثها: عتق الرقبة المؤمنة السليمة من العيوب إن وجدت، وفي آية كفارة القتل الخطأ

(١) صححه الألباني في «صحيح سنن ابن ماجه» موقوفاً علي ابن عباس برقم (١٧١٧) وهو في ابن ماجه (٢١١٣) وصححه إسناده البوصيري في «مصابيح الزجاجة» (١٣٥/٢).

تقييد الرقبة بكونها مؤمنة، قال تعالى: ﴿وَمَنْ قَتَلَ مُؤْمِنًا خَطَاً فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُؤْمِنَةٍ﴾ [النساء: ٩٢]. وجاءت آية كفارة الظهار، وهي قوله تعالى: ﴿فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَتَمَاسَّ﴾ [المجادلة: ٣]. غير مقيدة بكونها مؤمنة، كما في آية كفارة اليمين التي معنا. والجمهور على حمل المطلق على المقيد، ويشهد له ما صح في حديث معاوية بن أبي الحكم السلمي أنه ذكر للنبي ﷺ أن عليه عتق رقبة، وجاء معه بجارية سوداء، فقال لها رسول الله ﷺ: «أين الله؟» قالت: في السماء، قال: «من أنا؟» قالت: أنت رسول الله، قال: «اعتقها فإنها مؤمنة...» الحديث^(١).

وأخذ أبو حنيفة بإطلاق الآية فقال: تجزئ الرقبة الكافرة كما تجزئ الرقبة المؤمنة في الكفارة.

ولا ينتقل الحاث في يمينه إلى الصيام إلا إذا عجز عما سبق، وحد العجز عن الإطعام: ألا يملك المكفر قوت يومه وليلته، له ولأهل بيته، فإن كان عنده أكثر من ذلك بما يكفي لإطعام المساكين العشرة أطعم، ولا ينتقل إلى الصيام، وتقوّم الدراهم بما يعادل ما يكفي قوت يوم وليلة له وللمن يعول، وما زاد عليها يشتري بها كسوة عشرة مساكين، أو ثمن عتق الرقبة إن كانت تكفي لذلك قبل الانتقال للصيام، فإن عجز عما ذكر، فعليه صيام ثلاثة أيام، والتتابع فيها أولى، فإن صامها من غير تتابع أجزأه ذلك، وقد بدأت الآية بالأسهل فالأسهل، ومن صام من كفارة اليمين يومًا أو يومين، ثم وجد ما يطعم فليطعم، ويجعل صومه تطوعًا^(٢).

ومن حلف على أمر فرأى أن غيره خير منه فليحنت في يمينه، وليأت الذي هو خير؛ لما صح عن رسول الله ﷺ من حديث عدي بن حاتم قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «من حلف على يمين، ثم رأى غيرها خيرًا منها فليأت الذي هو خير» أخرجه مسلم^(٣).

وجاء في حديث عائشة ؓ أن أبا بكر ؓ لم يكن يحنت في يمين قط، حتى أنزل الله

(١) في «الموطأ» (٧٧٧/٢) و«مسند الشافعي» برقم (١١٩٦) و«صحيح مسلم» برقم (٥٣٧).

(٢) قاله سعيد بن جبير كما عند ابن أبي حاتم (٦٧٣٧، ٦٧٤٠).

(٣) في الصحيح برقم (١٦٥٠) وفي المسند (١٨٢٤٤) بإسناد صحيح على شرط مسلم ورجال ثقات، وهو عن عبد الله بن عمرو برقم (٦٩٠٧) وعن أبي هريرة برقم (٨٧٣٤) وعن أبي سعيد برقم (١١٧٢٧) وفي البخاري عن أبي موسى (٣١٢٣) ومسلم (١٦٥٢).

كفارة اليمين، وقال: لا أحلف على يمين فرأيت غيرها خيراً منها إلا أتيت الذي هو خير وكفرت عن يميني^(١).

وقال ﷺ لعبد الرحمن بن سُمرة: «... وإذا حلفت على يمين، فرأيت غيرها خيراً منها، فكفر عن يمينك وأت الذي هو خير»^(٢).

وهذا ينطبق على من حلف ألا يصل رحمه، أو منع زوجته من صلة رحمها، ونحو ذلك من الحلف على ترك فعل خير، وكذا لو حلف على فعل معصية، فإنه يجب عليه أن يحث في يمينه، بل هو من قبيل اللغو، وفيه إصرار على الذنب، وهو يحتاج إلى التوبة. والكفارة تكون بعد وقوع اليمين.

وتجوز الكفارة قبل وقوع اليمين؛ لقول النبي ﷺ: «واني والله إن شاء الله لا أحلف على يمين فأرى غيرها خيراً منها إلا كفرت عن يميني وأتيت الذي هو خير»^(٣). وبه قال أربعة وعشرون من الصحابة، وجمهور الفقهاء.

ولا تنعقد اليمين إلا بأسماء الله تعالى وصفاته، لما رواه الشيخان من حديث ابن عمر رضي الله عنهما أن النبي ﷺ قال: «من كان حالفاً فلا يحلف إلا بالله» وكانت قريش تحلف بأبائها فقال «لا تحلفوا بأبائكم»^(٤).

والحلف بغير الله تعالى كفر أو شرك؛ فقد سمع النبي ﷺ رجلاً يحلف بأبيه فقال: «ألا إن الله ينهاكم أن تحلفوا بأبائكم، فمن كان حالفاً فليحلف بالله، أو ليصمت»^(٥).

فلا يجوز الحلف بالنبي ﷺ ولا بالكعبة، ولا بحياة أحد، ونحو ذلك.

كما لا يجوز وضع الطلاق موضع اليمين لفعل شيء، أو الامتناع عن شيء، فمن

(١) «صحيح البخاري» برقم (٤٦١٤، ٦٦٢١) وعبد الرزاق (١٦٠٣٨).

(٢) «صحيح البخاري» برقم (٦٦٢٢) وانظر: (٦٧٢٢، ٧١٤٦).

(٣) من حديث أبي بريدة عن أبيه في «صحيح البخاري» برقم (٦٦٢٣) وانظر: (١٦٤٩، ٣١٣٣).

(٤) «صحيح مسلم» برقم (١٦٤٦).

(٥) «صحيح مسلم» برقم (١٦٤٦) و«صحيح البخاري» برقم (٢٦٧٩، ٦٦٤٦).

حلف بالطلاق اعتقاداً منه أنه أعظم من الحلف بالله، أو أن الحلف بالطلاق موضع اهتمام أكثر لدى المحلوف له، فإنه يقع في ذنب أكبر؛ لأن اليمين بالله تعالى أعظم من الطلاق، وإذا عدل الحالف عن الحلف بالله تعالى إلى الطلاق، فإنه يُسأل عن نيته، فإن نوى الطلاق، فإنه يؤاخذ به ويُعدُّ طلاقاً، وإن قصد المنع أو التهديد فإنه يُعدُّ بمثابة اليمين بالله تعالى، وعليه كفارة يمين.

ومن حلف على فعل واجب أو تركٍ محرم يحرم عليه الحنث فيه؛ لأنه تأكيد لما كلفه الله به. أما من فعل العكس بأن حلف على ترك واجب أو فعل معصية، فإنه يجب عليه الحنث فيه؛ لأنه يمين معصية لا يجوز الوفاء به، وكذلك الأمر بالنسبة إلى فعل المندوب وترك المكروه. والحلف يكون على نية المحلّف، ولا حَلِف فيما لا يملك العبد.

ومعنى الآية: أن الله تعالى لا يعاقب على أيمان اللغو التي لا تنعقد عليها نية الحالف، ولكن يعاقب على ما قصدتموه من الأيمان وعقدتم النية عليه، فإن لم تفؤا باليمين، فإن الله تعالى يمحو عقوبته بما شرع لكم من الكفارة، وهي إطعام عشرة مساكين، بتملك كل منهم نصف صاع من أغلب قوت البلد، ومعه شيء من اللحم والإدام، أو ستر عورة كل منهم بكسوة تكفيه، أو عتق مملوك من الرق، وهو مخير بين هذه الثلاث، فإن لم يجد واحداً منها فليصم ثلاثة أيام، وإن كانت متتابعة فهو أولى له.

واحفظوا - أيها المسلمون - أيمانكم باجتناب الحلف، والوفاء به إن حلفتُم، أو إخراج الكفارة إن لم تفؤا به ﴿وَأَحْفَظُوا أَيْمَانَكُمْ﴾ فلا تحلفوا إلا لضرورة، ولا تحلفوا كذباً، ولا تكثروا من الحلف، ولا تحثثوا فيها إذا حلفتُم، إلا إذا كان الحنث خيراً.

وكما بيّن الله لكم حكم الأيمان والتحلل منها، بيّن لكم أحكام دينه؛ لشكروا الله على هدايته إياكم إلى الطريق المستقيم ﴿كَذَلِكَ يَبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ ءَايَاتِهِ﴾ المينة للحلال والحرام الموضحة للأحكام ﴿لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ أي: مثل ذلك التبين بيّن الله لكم الأحكام الشرعية وبوضحها؛ لشكروه على هدايته وتوفيقه لكم حيث علمكم ما لم تكونوا تعلمون، ومن ذلك معرفة الأحكام الشرعية.

النَّدَاءُ الْحَادِي عَشَرَ: التَّحْرِيمُ الْقَاطِعُ لِلْخَمْرِ وَالْقِمَارِ

٩٠- ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْأَنصَابُ وَالْأُمْسِرُ وَالْأَزْلَامُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾

النداء الحادي عشر لأهل الإيمان في هذه السورة جاء بصدد تحريم أربعة أشياء هي: الخمر، والميسر، والأنصاب، والأزلام، فيذمها، ويخبر أنها من عمل الشيطان، وأنها رجس، فإن الفلاح لا يتم إلا بترك ما حرم الله.

وهذا النداء يرتبط بالنداء الذي قبله، وذلك أن الله تعالى نهانا عن تحريم ما أحله لنا من الطيبات، وأمرنا أن نتمتع بها، ولما كانت الخمر والميسر من الأمور المعتادة المستطابة عند العرب في الجاهلية، بين الله سبحانه أن هذه الأمور الأربعة المذكورة في الآية غير داخلية في جملة الطيبات المحللة، بل هي من المحرمات.

وقد كانت هذه الأمور الأربعة من معالم الجاهلية المتغلغلة في المجتمع، وكانت كلها ذات ارتباط واحد، يتسابقون إليها، ويتباهون بها، ولا تخلو منها مجالسهم للشعر والمدح والمفاخرة.

وكانت مجالس شراب الخمر يصاحبها نحر الذبائح، وكانت هذه الذبائح تُنحر على الأنصاب، وهي أصنام كانوا يذبحون عليها ذبائحهم وينضحونها بدمها.

وفي هذه المجالس كان الميسر يجري عن طريق الأزلام، وهي قداح كانوا يقتسمون بها الذبيحة، فيأخذ كل منهم نصيبه بحسب قَدَحِهِ.

وأنصبه القداح تبدأ من أعلى وتنتهي بلا شيء، وقد يخرج القدح الأخير لصاحب الذبيحة، فيخسرها كلها، ويبان هذه المحرمات الأربع فيما يأتي:

أولاً: الخمر وهي أم الخبائث، سميت كذلك؛ لأنها تخامر العقل، أي: تستره وتخالطه وتغطيه، ومنه خمار المرأة؛ لأنه يغطي وجهها، والخمر: كل مسكر يغطي العقل:

ومن مفسد الخمر:

١- أنها رجس، أي نجسة نجاسة معنوية.

٢- وهي من عمل الشيطان التي يجب الحذر منها لمنع الوقوع في مصايدة.

٣- ولا يمكن الفلاح للعبد إلا باجتناب الخمر.

٤- والخمر موجبة للعداوة والبغضاء بين الناس.

٥- والخمر تصد القلب عن ذكر الله تعالى ولذا وجب تركها والانتهاؤها.

والمشهور أن الخمر حُرمت سنة ثلاث من الهجرة بعد غزوة أحد، ولعل هذه الآية نزلت قبل سورة العقود، ثم وضعت بعد ذلك في موضعها من السورة بأمر النبي ﷺ.

أسباب النزول:

١- في صحيح مسلم وغيره عن سعد بن أبي وقاص ﷺ قال: (.. وأتيْتُ على نفر من الأنصار والمهاجرين فقالوا: تعال نطعمك ونسقيك خمرًا - وذلك قبل أن تحرم الخمر - قال: فأتيتهم في حَشٍّ - والحشُّ هو البستان - فإذا رأسُ جَزُور مشوي عندهم، وزقٌّ من خمر، قال: فأكلت وشربت معهم، قال: فذكرت الأنصار والمهاجرين عندهم، فقلت: المهاجرون خير من الأنصار، قال: فأخذ رَجُلٌ أَحَدَ لَحْيِي الرأسِ^(١) فضربني به، فجرح أنفي، فأتيت رسول الله ﷺ فأخبرته، فأنزل الله في شأن الخمر ﴿إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنْصَابُ وَالْأَزْلَمُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ﴾^(٢).

٢- وعن مصعب بن سعد عن سعد قال: أنزلت في الخمر أربع آيات - فذكر الحديث - قال: وصنع رجل من الأنصار طعامًا، فدعانا فشربنا الخمر قبل أن تحرم حتى انتشينا، فتفاخرنا فقالت الأنصار: نحن أفضل، وقالت قريش: نحن أفضل، فأخذ رجل من الأنصار لَحْيِي جَزُور فضرب أنف سعد ففزره، وكان أنف سعد مفزورًا، فنزلت الآية ﴿إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ﴾ إلى ﴿فَهَلْ أَنْتُمْ مُّنْهَوْنَ﴾^(٣).

٣- وعن أبي ميسرة، عن عمر بن الخطاب ﷺ أنه قال: لما نزل تحريم الخمر قال:

(١) للجمال لحيان، وهما العظامان اللذان فيهما الأسنان داخل الفم.

(٢) «صحيح مسلم» برقم (١٧٤٨) في فضائل الصحابة من حديث طويل بعد الحديث رقم (٢٤١٢) و«المسند» (٨٢/٣) و«سنن البيهقي» (٢٨٥/٨) وابن جرير (٥٦٩/١٠).

(٣) حديث صحيح أخرجه مسلم أيضًا من حديث شعبة (١٨٧٨/٤) برقم (١٧٤٨) والبيهقي في «السنن الكبرى» (٢٨٥/٨).

اللهم بين لنا في الخمر بياناً شافياً فنزلت هذه الآية ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ﴾ [البقرة: ٢١٩] فدُعي عمر فقرئت عليه، فقال: اللهم بين لنا في الخمر بياناً شافياً، فنزلت الآية ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَقْرَبُوا الصَّلَاةَ وَأَنْتُمْ سُكَرَى﴾ [النساء: ٤٣] فكان منادي رسول الله ﷺ إذا أقام إلى الصلاة نادى: (أن) لا يقربن الصلاة سكران، فدُعي عمر، فقرئت عليه، فقال: اللهم بين لنا في الخمر بياناً شافياً، فنزلت الآية التي في المائدة، فدُعي عمر، فقرئت عليه، فلما بلغ ﴿فَهَلْ أَنْتُمْ مُنْهَوُونَ﴾ [٩٠] قال عمر: انتهينا، انتهينا. ^(١)

٤- ومثله حديث أبي هريرة ؓ قال: حُرمت الخمر ثلاث مرات، قدم رسول الله ﷺ المدينة وهم يشربون الخمر ويأكلون الميسر، فسألوا رسول الله ﷺ عنهما، فأنزل الله ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنْفَعٌ لِلنَّاسِ﴾ [البقرة: ٢١٩] فقال الناس: ما حُرِّم علينا، إنما قال: ﴿فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ﴾ وكانوا يشربون الخمر، حتى كان يوم من الأيام، صلى رجل من المهاجرين، أم أصحابه في المغرب، خلط في قراءته، فأنزل الله عز وجل آية أغلظ منها ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَقْرَبُوا الصَّلَاةَ وَأَنْتُمْ سُكَرَى حَتَّى تَعْلَمُوا مَا تَقُولُونَ﴾ [النساء: ٤٣] وكان الناس يشربون حتى يأتي أحدهم الصلاة وهو مفق، ثم أنزلت آية أغلظ من ذلك ﴿إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنْصَابُ وَالْأَزْلَامُ رِجْسٌ مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ﴾ قالوا: انتهينا ربنا، وقال الناس: يا رسول الله، ناس قُتلوا في سبيل الله، وناس ماتوا على سرفهم، كانوا يشربون الخمر، ويأكلون الميسر، وقد جعله الله رجساً من عمل الشيطان، فأنزل الله تعالى: ﴿لَيْسَ عَلَى الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جُنَاحٌ فِيمَا طَعِمُوا﴾ [٩٣] وقال النبي ﷺ فيما يرويه أبو هريرة ؓ: «لو حُرِّم عليهم لتركوها كما تركتم» ^(٢).

(١) أخرجه أحمد في «المسند» (٣١٦/١) برقم (٣٧٨) إسناده صحيح ورجاله ثقات، (محققوه) وصححه الألباني في صحيح أبي داود (٣١١٧) وصحيح الترمذي (٣٢٥٥) قال ابن كثير: وصح هذا الحديث علي ابن المديني والترمذي، وقال الشيخ مقبل بن هادي الوادعي في تعليقه عليه: وعلى كل فتصحيحه متوقف على ثبوت سماع ميسرة من عمر، قال محققو المسند: وأبو ميسرة، وهو عمرو بن شرحبيل الهمداني سمع من عمر، كما في الجرح والتعديل (٢٣٧/٦) وهو في «سنن أبي داود» (٤٤٤/٣) برقم (٣٦٧٠) والنسائي (٢٨٦/٨) والترمذي (٩٨/٤) برقم (٣٠٤٩) والبخاري (٣٣٤) وابن أبي شيبة (١١٢/٨).

(٢) انفرد به أحمد في «المسند» (٣٥١/٢) برقم (٨٦٢٠) وهو حديث حسن لغيره، لضعف أبي معشر السندي، وجهالة أبي وهب مولى أبي هريرة.. كما قال محققوه.

٥- وفي حديث ابن عمر رضي الله عنهما قال: نزلت في الخمر ثلاث آيات، فأول شيء نزل آية سورة البقرة، فقليل: حُرِّمَت الخمر، فقالوا: يا رسول الله، ننتفع بها كما قال الله تعالى، قال: فسكت عنهم، ثم نزلت آية النساء، فقليل: حُرِّمَت الخمر، فقالوا: يا رسول الله، إنا لا نشربها قُرْبَ الصلاة، فسكت عنهم، ثم نزلت آية المائدة، فقال ﷺ: «حُرِّمَت الخمر»^(١).

٦- وحدث أن قبيلتين من الأنصار شربوا، فلما ثملوا عبث بعضهم ببعض، فلما صحوا، جعل الرجل يرى الأثر بوجهه وبرأسه وبلحيته، فيقول: صنع بي هذا أخي، حتى وقعت في قلوبهم الضغائن، وكانوا إخوة ليس في قلوبهم ضغائن، فنزلت هذه الآية^(٢).

تدرج تحريم الخمر: أما الآيات الأربع التي نزلت في تحريم الخمر فهي تمثل مراحل التدرج في تحريمها، نظرًا لشدة إلف أهل الجاهلية لها، وصعوبة إقلاعهم عنها، لتمكُّنها من شغاف قلوبهم، ولو حُرِّمَت مرة واحدة لكان هذا مصادمًا لهم، والإسلام حكيم في تشريعه، وفي تنقية رواسب الجاهلية واقتلاع جذور الشرور من نفوسهم.

أما المرحلة الأولى: في شأن الخمر، فقد كانت قبل هذه المراحل السابق ذكرها، كانت في مكة المكرمة مجرد إشارة، وتعريض بالذم غير صريح، وإطلاق سهم في الاتجاه، وذلك في قوله تعالى: ﴿وَمِنْ ثَمَرَاتِ النَّخِيلِ وَالْأَعْنَابِ نَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَرًا وَرِزْقًا حَسَنًا﴾ [النحل: ٦٧] ففي هذا تعريض بدم (السُّكْر) وهو التمر أو العنب المخمر، في مقابل الرزق الحسن، وهو من (السُّكْر) لا من (السُّكْر).

كما نزلت الإشارة إلى ذم الربا في مكة في سورة الروم، ونزل التحريم النهائي في المدينة.

وحديث عمر ومصعب اللذان سبق ذكرهما فيهما بيان المراحل التي نزل فيها تحريم الخمر.

وأن التحريم في المرحلة الأولى منها كان بتحريك الشعور الديني في نفس المؤمن عن

(١) «مسند الطيالسي» برقم (١٩٥٧).

(٢) رواه سعيد بن جبيرة عن ابن عباس، قال الهيثمي في «مجمع الزوائد» (١٨/٧) رواه الطبراني في «المعجم الكبير» وهو برقم (١٢٤٥٩) ورجاله رجال الصحيح، وأخرجه النسائي في التفسير برقم (١٧١) وأخرجه الحاكم في «المستدرک» (١٤١/٤) قال الذهبي: صحيح على شرط مسلم وهو في ابن جرير (٥٧/١٠) وانظر: «السنن الكبرى» للنسائي برقم (١١١٥١) والبيهقي في «السنن الكبرى» (٨/٢٨٥).

طريق العقل والمنطق، فما دام الإثم أكبر من النفع، فالعقل هو الذي يغلب جانب النفع كما في سورة البقرة.

وفي المرحلة التي تليها كسر لعادة الشرب المستمر، وتضييق لِفُرَصِ مزاولتها، فأوقات الصلاة خمس، وبينها تقارب في الأوقات، وقد يترتب على الشرب خطأ في الصلاة أو في القراءة، كما حدث من بعضهم حين قرأ ﴿قُلْ يَأَيُّهَا الْكَافِرُونَ﴾ ﴿١﴾ أعبد ما تعبدون، كما جاء ذلك في تفسير آية سورة النساء ٤٣، وقد نوّه النبي ﷺ بالتحريم النهائي للخمر قبل نزوله بناء على ذلك.

ففي صحيح مسلم عن أبي سعيد الخدري قال: سمعت رسول الله ﷺ يخطب بالمدينة قال: «يا أيها الناس، إن الله يُعَرِّضُ بالخمر، ولعل الله سَيُنْزِلُ فيها أمراً، فمن كان عنده شيء فليبيعه وليتفع به» قال: فما لبثنا إلا يسيراً حتى قال ﷺ: «إن الله تعالى حرم الخمر، فمن أدركته هذه الآية، وعنده شيء فلا يشرب ولا يبيع» قال: فاستقبل الناس بما كان عنده منها في طريق المدينة فسفكوها^(١).

الامتثال الفوري لتحريم الخمر دون عودة لها :

أما المرحلة الأخيرة: فكانت بعد أن تهيأت النفوس تهيؤاً كاملاً، حيث كان النهي الكلي في المائدة، وكل هذا كان بالمدينة سنة ثلاث من الهجرة بعد غزوة أُحُد، فلم يحتج الأمر حينئذ إلا إلى منادٍ ينادي بصوته العادي في أزقة المدينة وشوارعها - وما عساه أن يُسمع! - ألا - أيها القوم - إن الخمر قد حرّمت، فكل من كان في يده كأس حطّمه، ومن كان في فمه جرعة من خمر مجّها، وسالت الخمرة في شوارع المدينة، وكُسرت قنانيها، وانتهى الأمر، كأن لم يكن سُكر، ولا خمر!!

١- عن أنس ؓ قال: كنت ساقى القوم يوم حرّمت الخمر في بيت أبي طلحة، وما شربهم إلا الفضيخ: البسر والتمر، فإذا مناد ينادي: ألا إن الخمر قد حرمت، فجرت في سكك المدينة، قال: فقال لي أبو طلحة: اخرج فأهرقها، فهرقتها، فقالوا: قُتل فلان وفلان، وهي في بطونهم، قال: فأنزل الله ﴿لَيْسَ عَلَى الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جُنَاحٌ فِيمَا

(١) «صحيح مسلم» برقم (١٥٧٨) في المساقاة، باب تحريم الخمر.

طَعُمُوا إِذَا مَا اتَّقَوْا وَءَامَنُوا^(١) [٩٣].

يا سبحان الله! فرق بين إجابة هؤلاء الأخيار الفورية، بمجرد سماع النهي، وبين أهل هذه العصور التي نعيشها، ففيها استفتاءات لأخذ رأي الناس في حكم العلم الخبير، وفيها اعتماد على تحسُّن الاقتصاد من طريق الخمر والسياحة، وفيها مجاملة غير المسلمين، مع أن الخمر محرمة في جميع الشرائع؛ لما فيها من المضار، أهمها فقدان العقل، الذي هو فرق الإنسان من الحيوان ..

٢- وعن قتادة عن أنس رضي الله عنه قال: بينما أنا أدير الكأس على أبي طليحة، وأبي عبيدة بن الجراح، ومعاذ بن جبل، وسهيل بن بيضاء، وأبي دجاجة، حتى مالت رؤوسهم من خليط بُسُر وتمر، فسمعتُ منادياً ينادي: ألا إن الخمر قد حرمت، قال: فما دخل علينا داخل، ولا خرج منا خارج، حتى أهرقنا الشراب، وكسرنا القلال، وتوضأ بعضنا، واغتسل بعضنا، وأصبنا من طيب أم سليم، ثم خرجنا إلى المسجد، فإذا رسول الله ﷺ يقرأ: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنْصَابُ وَالْأَزْلَمُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ ^(٩٠) إلى قوله: ﴿فَهَلْ أَنْتُمْ مُّنتَهُونَ﴾ فقال رجل: يا رسول، فما منزلة من مات وهو يشربها؟ أنزل الله: ﴿لَيْسَ عَلَى الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جُنَاحٌ فِيمَا طَعُمُوا﴾ [٩٣]. فقال رجل لقتادة: سمعته من أنس بن مالك؟ قال: نعم، وقال رجل لأنس بن مالك: أنت سمعته من رسول الله ﷺ؟ قال: نعم، أو قال: حدّثني من لم يكذب، ما كنا نكذب، ولا ندرى ما الكذب^(٢).

٣- وأخرج ابن جرير عن ابن بريدة عن أبيه قال: بينما نحن قعود على شراب لنا، ونحن رَمْلَةٌ، ونحن ثلاثة أو أربعة، وعندنا باطية لنا، ونحن نشرب الخمر حلاً، إذ قمْتُ حتى أتى رسول الله ﷺ فأسلم عليه، إذ نزل تحريم الخمر ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ﴾ فقرأتها إلى ﴿فَهَلْ أَنْتُمْ مُّنتَهُونَ﴾ قال: وبعض القوم شربته في يده، قد شرب بعضها وبقي بعضها في الإناء، فقال بالإناء تحت شِفْته العليا كما يفعل الحجاج، ثم صبوا ما في باطيتهم، فقالوا: انتهينا ربنا^(٣).

(١) أخرجه البخاري (٣٦/١٠) برقم (٢٤٦٤) ومسلم (١٥٧٠/٣) برقم (١٩٨٠) وهذا لفظه وأبو يعلى بسند صحيح (٣٣٦٢).

(٢) «تفسير ابن جرير» (٥٧٨/١٠) ورواه البزار في مسنده برقم (٢٩٢٢) «كشف الأستار» من طريق عباد بن راشد.

(٣) «تفسير الطبري» (٥٧٢/١٠).

الخمير أم الخبائث: وكانت الخمير أم الخبائث؛ لأنها تُفقد العقل، فإذا غاب الوعي انتهك العبد جميع المحرمات:

قال الزهري: حدثني أبو بكر عبد الرحمن بن الحارث بن هشام أن أباه قال: سمعت عثمان بن عفان رضي الله عنه يقول: اجتنبوا الخمير؛ فإنها أم الخبائث، إنه كان رجل فيمن خلا قبلكم يتعبد ويعتزل الناس، فعَلَّقَتْهُ امرأة غويّة، فأرسلت إليه جاريتها فقالت: إنا ندعوك لشهادة، فدخل معها، فطفِقتُ كلما دخلتُ بابًا أغلقته دونه، حتى أفضى إلى امرأة وضيئة، عندها غلام، وباطية خمير، فقالت: إني والله ما دعوتك لشهادة، ولكني دعوتك لتقع عليّ، أو تقتل هذا الغلام، أو تشرب هذا الخمير، فسقته كأسًا، فقال: زيدوني، فلم يرم حتى وقع عليها، وقتل النفس، فاجتنبوا الخمير، فإنها لا تجتمع هي والإيمان أبدًا إلا أوشك أحدهما أن يُخرِج صاحبه^(١).

الخمير والإيمان لا يجتمعان:

أما أن الخمير لا تجتمع مع الإيمان في قلب مسلم في وقت واحد، فيشهد له قول النبي ﷺ من حديث أبي هريرة رضي الله عنه: «لا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمن، ولا يسرق السارق حين يسرقها وهو مؤمن، ولا يشرب الخمير حين يشربها وهو مؤمن»^(٢).

وكان الصحابة يقولون: ما حرّم الله شيئًا أشد من الخمير، وذلك لما فهموه من الآية، ووعيد صاحبها في الأحاديث.

تحريم كل ما يتعلق بالخمير: ولمّا حرم الإسلام الخمير حرّم كل ما يمتُّ إليها بصلة:

١- أخرج الإمام أحمد وغيره بسنده أن عبد الرحمن بن وُعلة قال: سألت ابن عباس عن بيع الخمير، فقال: كان لرسول الله ﷺ صديق من ثقيف - أو: من دؤس - فلقبه يوم الفتح براوية خمير يهديها إليه، فقال رسول الله ﷺ: «يا فلان، أما علمت أن الله حرّمها؟» فأقبل الرجل على غلامه فقال: اذهب فبيعها، فقال رسول الله ﷺ: «يا فلان، بماذا أمرته؟» فقال:

(١) رواه البيهقي في سننه (٢٨٧/٨) وإسناده صحيح إلى عثمان بن عفان من قوله، ورواه عمر بن سعيد بن السرحة مرفوعًا في رواية ابن أبي الدنيا.

(٢) البخاري (١١٩/٥) برقم (٦٨١٠) ومسلم (٧٦/١) برقم (٥٧) من حديث أبي هريرة.

أَمَرْتُهُ أَنْ يَبِيعَهَا، قَالَ: «إِنَّ الَّذِي حَرَّمَ شَرْبَهَا حَرَّمَ بَيْعَهَا، فَأَمَرَ بِهَا فَأُفْرِغَتْ فِي الْبُطْحَاءِ»^(١).

٢ - وفي رواية أخرى قال ابن عباس: قدم رجل من دؤس على النبي ﷺ براوية من خمر أهداها له، فقال النبي ﷺ: «هل علمت أن الله حرّمها بعدك؟» فأقبل الدؤسي على رجل كان معه فأمره ببيعها، فقال له النبي ﷺ: «هل علمت أن الذي حرّم شربها حرّم بيعها وأكل ثمنها»، وأمر بالمزادة فأهرقت حتى لم يبق فيها قطرة^(٢).

٣ - وعن ابن عمر رضيهما أن رسول الله ﷺ قال: «لُعِنَتِ الْخَمْرُ عَلَى عَشْرَةِ وُجُوهِ: لُعِنَتِ الْخَمْرُ بَعَيْنُهَا، وَشَارِبُهَا، وَسَاقِيهَا، وَبَائِعُهَا، وَمُبْتَاعُهَا، وَعَاصِرُهَا، وَمُعْتَصِرُهَا، وَحَامِلُهَا، وَالْمَحْمُولَةُ إِلَيْهِ، وَأَكَلَ ثَمْنُهَا»^(٣).

٤ - وعن جابر بن عبد الله رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال عام الفتح: «إِنَّ اللَّهَ حَرَّمَ بَيْعَ الْخَمْرِ وَالْأَنْصَابِ وَالْمَيْتَةِ وَالْخَنْزِيرِ»، فقال بعض الناس: كيف ترى في شحوم الميته يُذْهِنُ بِهَا السَّفَنَ وَالْجُلُودَ، وَيَسْتَضِيحُ بِهَا النَّاسُ؟ فقال: «لَا، هِيَ حَرَامٌ»، ثم قال رسول الله ﷺ: «عِنْدَ ذَلِكَ: «قَاتِلِ اللَّهَ الْيَهُودَ، إِنَّ اللَّهَ لَمَّا حَرَّمَ عَلَيْهِمُ الشَّحُومَ جَمَلُوهُ» أَي: أَذَابُوهُ وَاسْتَخْلَصُوا مِنْهُ الدَّهْنَ. «فَبَاعُوهُ وَأَكَلُوا ثَمَنَهُ»^(٤).

وقليل الخمر وكثيره حرام، وعقابها وخيم يوم لقاء رب العالمين إن مات شاربها على غير التوبة:

١- عن ابن عباس رضي الله عنهما عن النبي ﷺ قال: «كُلُّ مُخَمَّرٍ خَمْرٌ، وَكُلُّ مُسَكَّرٍ حَرَامٌ، وَمَنْ

(١) الحديث صحيح، «المسند» (١/٢٣٠-٢٤٤) برقم (٢٠٤١، ٢٩٧٨، ٣٣٧٣) حديث صحيح ورواه مسلم في البيوع (٣/١٢٠٦) برقم (١٥٧٩) والنسائي (٧/٣٠٧) ومالك في «الموطأ» (٢/٨٤٦) وأبو يعلى (٢٢٤٦٨) والدارمي (٢١٠٣).

(٢) الحديث صحيح بطرقه وشواهد هذا إسناده حسن، كما قال محققو «المسند» (٢/٢٥) برقم (٤٧٨٧، ٥٣٩١) وأخرجه أبو داود (٤/٨٢) برقم (٣٦٧٤) وابن ماجه (٢/١١٢١) برقم (٣٣٨٠) وابن أبي شيبة (٦/٤٤٧) وأبي يعلى (٥٥٩١).

(٣) البخاري (٢٢٣٦) ومسلم (١٥٨١) وأبو داود (٣٤٨٦) والترمذي (١٢٩٧) والنسائي (٤٢٦٧) وابن ماجه (٢١٦٧).

(٤) «المسند» بنحوه (٢٠٤١، ٢١٩٠، ٣٣٧٣) حديث صحيح رجاله ثقات، كما قال محققوه ومسلم (١٥٧٩)، والدارمي (٢٥٧١) وانظر الحديث رقم (١).

شرب مسكرًا بخست صلاته أربعين صباحًا، فإن تاب تاب الله عليه، فإن عاد الرابعة كان حقًا على الله أن يسقيه من طينة الخبال»، قيل: وما طينة الخبال يا رسول الله؟ قال: «صديد أهل النار، ومن سقاه صغيرًا لا يعرف حلالًا ولا حرامًا كان حقًا على الله أن يسقيه من طينة الخبال»^(١).

٢ - وفي صحيح مسلم وغيره عن جابر رضي الله عنه أن رجلًا قدم من اليمن، فسأل النبي ﷺ عن شراب يشربونه بأرضهم من الذرة يقال له: المِزْر، فقال النبي ﷺ: «أَوْ مُسْكِرٌ هُوَ؟» قال: نعم، قال ﷺ: «كل مسكر حرام، إن على الله عزَّ وجلَّ عهدًا لمن يشرب المسكر أن يسقيه من طينة الخبال»، قالوا: يا رسول الله، وما طينة الخبال؟ قال: «عَرَقُ أَهْلِ النَّارِ، أَوْ عَصَاةُ أَهْلِ النَّارِ»^(٢).

٣- وعن ابن عمر رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «كل مسكر خمر، وكل مسكر حرام، ومن شرب الخمر فمات وهو يدمنها ولم يتب منها، لم يشربها في الآخرة»^(٣).

٤- وعنه أيضًا أن رسول الله ﷺ قال: «ثلاثة لا ينظر الله إليهم يوم القيامة: العاق لوالديه، والمدمن الخمر، والمنان بما أُعْطِيَ»^(٤).

٥- وعنه ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: «من شرب الخمر في الدنيا، ثم لم يتب منها حُرِمَها في الآخرة»^(٥).

(١) حديث صحيح، تفرد به أبو داود (٨٦/٤) برقم (٣٦٨٠) صححه الألباني في صحيح أبي داود (٣١٢٧) والسلسلة الصحيحة (٢٠٣٩).

(٢) «صحيح مسلم» برقم (٢٠٠٢).

(٣) رواه مسلم (١٥٧٣/٣) برقم (٢٠٠٣) وهذا لفظه، وأبو داود (٨٢/٤) والنسائي في الكبرى (٥٠٩٦) وابن حبان (٥٣٦٨) والترمذي (٥٧٩/٣) و«المسند» (١١٩/٣) بأرقام منها: (٤٦٤٥) و(٦٢١٨) مختصرًا وهو حديث صحيح وإسناد قوي، كمال محققوه.

(٤) «سنن النسائي الكبرى» برقم (٢٣٥٤) والبيهقي في «السنن الكبرى» (٢٨٨/٨) عن عبد الله بن وهب والبزار (١٨٧٥) و«المسند» (٥٣٧٢) بلفظ مختلف، وابن حبان (٧٣٤٠) وأبو يعلى (٥٥٥٦) والطبراني في «الكبير» (١٣١٨٠).

(٥) حديث حسن صحيح، أخرجه النسائي (٨٠/٤) وهو في «مسند الشافعي» برقم (١٧٦٣) و«صحيح البخاري» برقم (٥٥٧٥) و«صحيح مسلم» برقم (٢٠٠٣).

ولا يجوز الانتفاع بالخمير بوجه من الوجوه:

عن أنس بن مالك رضي الله عنه أن أبا طلحة سأل النبي ﷺ عن أيتام في حجره، ورثوا خمراً، فقال: «أهرقها، قال: أفلا نجعلها خلّاً؟ قال: لا»^(١)

وشارب الخمر لا يُلعن ولا يُسبّ

ففي صحيح البخاري عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: أتى النبي ﷺ بسكران، فأمر بضربه، فمنا من يضربه بيده، ومنا من يضربه بنعله، ومنا من يضربه بثوبه، فلما انصرف، قال رجل: ما له أخزاه الله؟ فقال رسول الله ﷺ: «لا تكونوا عون الشيطان على أخيك»^(٢).

وفي حديث عمر بن الخطاب رضي الله عنه أن رجلاً كان يُلقَّب حماراً، وكان يُضحك رسول الله ﷺ، وكان النبي ﷺ قد جلده في الشراب، فأُتي به يوماً فجُلِد، فقال رجل من القوم: اللهم ألعه، ما أكثر ما يؤتى به؟! فقال ﷺ: «لا تلعنوه، فوالله ما علمت إلا أنه يحب الله ورسوله»^(٣)، فنهى النبي ﷺ عن لعنه، لعلمه أنه محب لله ورسوله.

حدُّ شارب الخمر

وشارب الخمر يُجلد أربعين جلدة، فإن استمر في شربه، ولم يتب يجلد ثمانين جلدة. جاء في صحيح البخاري وغيره عن السائب بن يزيد قال: كنا نُؤتى بالشارب على عهد رسول الله ﷺ وإمرة أبي بكر، وصدرًا من خلافة عمر، فنقوم إليه بأيدينا ونعالنا وأرديتنا، حتى كان آخر إمرة عمر، فجلد أربعين، حتى إذا عتوا وفسقوا جلد ثمانين^(٤).

وثبت أن النبي ﷺ جلد شارب الخمر أربعين جلدة، ففي حديث أنس بن مالك أن النبي ﷺ كان يضرب في الخمر بالنعال والجريد أربعين^(٥).

(١) البخاري (٣٠/١) ومسلم (١٥٨٨/٣) برقم (١٩٨٣) وأبو داود برقم (٣٦٧٥) والترمذي برقم (١٢٩٤) و«المسند» (١١٩/٣) برقم (١٢١٨٩) وابن أبي شيبة (٢٠٢/٨).

(٢) «صحيح البخاري» برقم (٦٧٧٧، ٦٧٨١).

(٣) «صحيح البخاري» برقم (٦٧٨٠).

(٤) «صحيح البخاري» برقم (٦٧٧٩) وانظر: «صحيح مسلم» رقم (١٧٠٦).

(٥) كما في «صحيح مسلم» برقم (١٧٠٦) وانظر «صحيح البخاري» برقم (٦٧٧٣، ٦٧٧٦).

ويصل حد شارب الخمر إلى القتل تعزيراً إذا تعدد منه الشرب، وأقيم عليه الحد أكثر من مرتين ولم يتب، وظل يتابع شرب الخمر، كما صح في حديث أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «إذا سكر فاجلدوه، ثم إن سكر فاجلدوه، ثم إن سكر فاجلدوه، فإن عاد الرابعة فاقتلوه»^(١).

الخمر نجسة: والذي عليه الجمهور أن الخمر نجسة العين؛ لأن الله تعالى سماها (رجساً)، والرجس: هو النجس، كما جاء في لسان العرب، وهو كل مستقذر تعافه العرب، وهو مفهوم المخالفة؛ لقوله تعالى: ﴿وَسَقَنَهُمْ رَبُّهُمْ شَرَابًا طَهُورًا﴾ [الإنسان: ٢١]. وقوله: ﴿فَاجْتَنِبُوا الرِّجْسَ مِنَ الْأَوْتَانِ﴾ [الحج: ٣٠]. وقال بعضهم: إنها نجاسة معنوية، ورجس معنوي؛ لأن النجاسة تعني القذارة، والخمر ليست قذرة، ولو كانت كذلك لنهى النبي ﷺ الصحابة عن إراقتها في طرق المدينة.

التوبة من شرب الخمر: ومن تاب تاب الله عليه، عن ابن عمر رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «من شرب الخمر في الدنيا لم يشربها في الآخرة، إلا أن يتوب»^(٢).

فإن مات وهو مُصِرٌّ عليها فوعيده شديد كما في حديث جابر أن رسول الله ﷺ قال: «كل مسكر حرام، إن الله عهد لمن يشرب المسكر أن يسقيه من طينة الخبال»، قالوا: يا رسول الله، وما طينة الخبال؟ قال: «عَرَقُ أهل النار، أو عُصارة أهل النار»^(٣).

أصول الخمر:

١- ثبت في الصحيحين وغيرهما عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أنه قال في خطبته على منبر رسول الله ﷺ: أيها الناس، إنه نزل تحريم الخمر، وهي من خمسة: من العنب،

(١) حديث صحيح، صححه الشيخ أحمد شاكر في تعليقه على «المسند» (٧٨٩٨، ١٠٥٥٤) وهو في ط الرسالة برقم (١٠٥٤٧) بإسناد صحيح على شرط الشيخين، عن يزيد عن ابن أبي ذئب وذكر له شواهد، (محققوه) وصححه الألباني في «السلسلة الصحيحة» برقم (١٣٦٠) وأخرجه أبو داود برقم (٤٤٨٤) والنسائي في «السنن» (٣١٤/٨) الأشربة، وابن ماجه برقم (٢٥٧٢).

(٢) البخاري (٥٥٧٥) ومسلم (٢٠٠٣).

(٣) مسلم (٢٠٠٢) والبيهقي (٥٥٧٩).

والتمر، والعسل، والحنطة، والشعير، والخمر: ما خامر العقل^(١).

٢- وفي البخاري عن عائشة ؓ قالت: سئل رسول الله ﷺ عن البُثْع - وهو نبيذ العسل - وكان أهل اليمن يشربونه، فقال رسول الله ﷺ: «كل شراب أسكر فهو حرام»^(٢).

٣- وفي البخاري وغيره أن أنسًا ؓ قال: حُرِّمَتْ علينا الخمر حين حُرِّمَتْ، وما نجد خمر الأعناب إلا قليلاً، وعامة خمرنا: البسر والتمر^(٣).

فهذه أحاديث صحيحة صريحة في أن ما أسكر من الأشربة المأخوذة من التمر، أو الحنطة، أو الشعير، أو العنب، يسمّى خمرًا.

أما النبيذ: فهو ما لم يتخمر من الزبيب، أو التمر، أو الذرة، ونحوها من نقيع الماء فيها، وهو ما يسمى بالخشاف الذي أجازاه الأحناف.

ثانيًا: الميسر: وهو القمار، ومنه النرد والشطرنج، ومنه المقامرة بالقداح التي كانت في الجاهلية عن طريق الأزلام، والاستقسام بها.

والميسر: مشتق من اليسر والسهولة؛ لأن المال فيه يأتي لمن اكتسبه بدون جهد، وكانوا يسمون الجُزُور الذي يتقامرون عليه ميسرًا؛ لأنه يجرّأ أجزاء، وكل شيء جزأته فقد يسرته:

١ - قال قتادة: كان الرجل في الجاهلية يقامر على أهله وماله، فيُفْتَمِر، فيقعّد حزينًا، سلبًا ينظر إلى ماله في يد غيره، فيورثه ذلك العداوة والبغضاء، فنهى الله عن ذلك.

٢ - وعن علي ؓ قال: الشطرنج من الميسر.

٣- وقال سفيان: كل شيء من القمار فهو من الميسر.

٤- وفي صحيح مسلم والمسند عن بريدة الأسلمي ؓ قال: قال رسول الله ﷺ: «من

(١) البخاري (٢٧٧/٨) برقم (٤٦١٩، ٥٥٨١، ٥٥٨٩) ومسلم (٢٣٢٢/٤) برقم (٣٠٣٢) وابن أبي شيبة (٤٦٤/٧) وأبو داود (٣٦٦٩) والترمذي (١٨٧٤) والنسائي (٥٥٩٤) وابن حبان (٥٣٥٣) والبيهقي (٥٥٧٧) والدارقطني (٢٤٨/٤).

(٢) «صحيح البخاري» برقم (٥٥٨٥، ٥٥٨٦).

(٣) «صحيح البخاري» برقم (٥٥٨٠) و«صحيح مسلم» برقم (١٩٨٠).

لعب بالنردشير، فكأنما صبغ يده في لحم خنزير ودمه»^(١).

٥- وعن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «من لعب بالنرد فقد عصا الله ورسوله»^(٢).

٦- وأخرج ابن أبي حاتم، عن القاسم بن محمد، أنه سئل عن النرد، أهى من الميسر؟ قال: كل ما ألهى عن ذكر الله وعن الصلاة فهو ميسر.

ولفظ الميسر: يشمل كل المراهنات، واليانصيب، والحظ، والمصادفة.

٧- أخرج أحمد عن موسى بن عبد الرحمن الخطمي أن رسول الله ﷺ قال: «مثل الذي يلعب بالنرد، ثم يقوم فيصلي، مثل الذي يتوضأ بالقبح، ودم الخنزير، ثم يقوم فيصلي»^(٣).

وقد قرن الله تعالى الخمر والميسر بالأوثان والأصنام؛ تأكيداً لحرمتهما، فالخمر تنسي، والميسر يلهي.

والميسر الذي في الآية يشير إلى الجُزُور الذي كانوا يتقامرون عليه، وكل شيء يأتي عن طريق الحظ والمصادفة فهو ميسر، وسمي ميسراً؛ لأن المال يأتي عن طريقه بيسر وسهولة.

ثالثاً: الأنصاب: وهي تطلق على الأصنام التي كانت تُنصب للعبادة، والأنصاب أيضاً هي الحجارة التي كانت منصوبة حول الكعبة عند القداح، وكان المشركون يذبحون عندها، تعظيماً لها، وتقرباً للأصنام، وكانت تُنضحُ بدماء الذبائح، وقد حرم الإسلام ما ذُبح لغير الله، وما ذُبح في مكان يذبح فيه لغير الله.

(١) مسلم، كتاب الشعر، باب تحريم النردشير (١٧٧٠/٤) برقم (٢٢٦٠) وفي «المسند» برقم (٢٣٠٢٥)، ٢٢٩٧٩ وإسناده صحيح على شرط مسلم ورجاله ثقات، كما قال محققوه.

(٢) روي مرفوعاً وموقوفاً، أخرجه مالك في «الموطأ» (٩٥٨/٢) وأحمد في «المسند» (٣٩٧/٤) برقم (١٩٥٠١) بلفظ (من لعب بالكعاب) والكعاب ما يُلعب به في النرد، وأخرجه أبو داود (٢٣٠/٥) برقم (٤٩٣٨) وابن ماجه برقم (٣٧٦٢) وهو حديث حسن.

(٣) قال الهيثمي في «مجمع الزوائد» (١١٣/٨) وفيه موسى بن عبد الرحمن الخطمي ولم أعرفه، وبقية رجاله رجال الصحيح، وهو في «المسند» (٣٧٠/٥) برقم (٢٣١٣٨) بإسناد ضعيف وأخرجه البخاري في التاريخ الكبير (٢٩١/٧) وأبو يعلى (١١٠٤) والبيهقي في السنن (٢١٥/١٠) وفي الشعب (٦٥٠٠).

رابعًا: الأزلام: وهي السهام التي كانوا يتقاسمون بها الجُزُور، أو البقرة إذا ذُبِحت، فَسَهِمُ كُتِبَ عليه واحد، وسهم كتب عليه اثنان، وهكذا إلى عشرة.

والأزلام أيضًا: هي السهام التي كانوا يكتبون على أحدها: أمرني ربي، وعلى الآخر: نهاني ربي، ويتركون الثالث بلا شيء، فإذا أرادوا سفرًا، أو حربًا، أو زواجًا، أو غير ذلك، أتوا إلى بيت الأصنام واستقسموها، فإذا خرج: أمرني ربي، أقدموا على ما يروونه، وإن خرج: نهاني ربي، أمسكوا عنه، وإن خرج الثالث، أعادوها ثانية، حتى يخرج الأمر، أو النهي. وقد حرم الإسلام ذلك، وحرم كل ما يشبهه في العصر الحديث، وشرع لنا الاستخارة.

وقد وصف الله سبحانه هذه الأربع وهي: الخمر، والميسر، والأنصاب، والأزلام، بأنها رجس مستقذر، تأباه الفطرة السليمة، وكلها من تزيين الشيطان وكيد لابن آدم، وأمر سبحانه باجتنابها جميعًا، ورتب على تركها الفلاح في الدنيا والآخرة.

وفي الآية تصدير الجملة بإنما، وهي أداة حصر وقصر تفيد التأكيد، وقُرنت الخمر والميسر بعبادة الأصنام، وجعلته رجسًا نجسًا من عمل الشيطان، وأمرت باجتنابه، وجعلت ذلك من الفلاح، وذكرته ما ينشج عن الخمر والميسر من التعادي والبغضاء.

وأنت بصيغة ﴿فَهَلْ أَنْتُمْ مُنْهَوْنَ﴾ وهي أبلغ شيء في النهي، أي: فهل أنتم مع هذه الصوارف منتهون، أم باقون على ما أنتم عليه كأنكم لم توعظوا ولم تُزَجَرُوا؟

وكلمة ﴿فَاجْتَنِبُوهُ﴾ أبلغ من تركوه ونحوها؛ لأن الاجتناب معناه المباحة بين الشئين، كأنه سبحانه يقول: كن في جانب، والخمر والميسر في جانب آخر بعيد، ولا تقترب منهما.

والمعنى: فاجتنبوا شرب الخمر، واجتنبوا اللعب بالقمار، واجتنبوا الذبح في الأماكن التي يُذْبَح فيها لغير الله، واجتنبوا التشاؤم والشعوذة، وضرب القداح ونحوها، كقراءة الكف والفنجان، وضرب الودع والرمل... إن ذلك كله إثم من تزيين الشيطان، فابتعدوا عن هذه الآثام لعلكم تفوزون بالجنة.

مِنْ أَسْبَابِ تَحْرِيمِ الْخَمْرِ وَالْقِمَارِ

٩١- ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُوقَعَ بَيْنَكُمْ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ فِي الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَعَنِ الصَّلَاةِ فَهَلْ أَنْتُمْ مُنْهَوْنَ ﴿٩١﴾﴾

في هذه الآية أربعة أسباب لتحريم الخمر والميسر، وهي أنهما يكونان سبباً لوقوع العداوة والبغضاء بين الناس، وإثارة الشحناء في النفوس، وإيغار الصدور بسبب فقدان الوعي عند شرب الخمر، وفوز أحد الطرفين بالمال أو المتاع، ولأن فيهما صد عن ذكر الله تعالى بنسيان حقه وفضله على الإنسان، وبترك أفضل العبادات وهي الصلاة ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ﴾ بتزوين الآثام والمعاصي لكم ﴿أَنْ يُوقَعَ بَيْنَكُمْ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ﴾ أي: بين المؤمنين، فيقطع ما بينهم من صلوات، ويثير ما في نفوسهم من الأحقاد والضغائن، فالخمر تُذهب العقل، وتجعل الإنسان يسيء لغيره من غير شعور.

والميسر يسبب خسارة المال، فيضمر الإنسان في نفسه الغل والغيط على مَنْ أخذ ماله، وكل ذلك بسبب شرب الخمر ولعب الميسر.

ويريد الشيطان أيضاً أن يصرفكم عن ذكر الله تعالى، وعن أداء الصلاة بغياب العقل في شرب الخمر، والاشتغال باللعب في الميسر.

والسبب في هذا أن الخمر تزيل عقل شاربها، فيتكلم بالفحش، وربما أفضى ذلك إلى المقاتلة بسبب إيقاع الشحناء في النفوس، كما أَنَّ شُرْبَ الخمر ولعب الميسر يسببان نسيان الصلاة أو تركها، والغياب عن ذكر الله تعالى في أية صورة من الصور، وهذا ما يشير إليه قوله تعالى: ﴿وَيَصُدَّكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَعَنِ الصَّلَاةِ﴾.

واقصر الآية على بيان مفسد شرب الخمر، وتعاطي الميسر؛ لأن عبادة الأنصاب والاستقسام بالأزلام قد تقرر قبل هذه الآية حين الدخول في الإسلام؛ لأنهما من مآثر الشرك.

ثم قال تعالى: ﴿فَهَلْ أَنْتُمْ مُنْهَوْنَ﴾ أي: فانتهاوا خيراً لكم، والاستفهام يَكْنَى به عن التحذير من الوقوع في المستفهم عنه، ولذلك فإن عُمَرَ ؓ لَمَّا سمعها قال: انتهينا، انتهينا. وقد أكد هذا المعنى اسمية الجملة بعد (هل) للدلالة على زيادة الخبر وثباته بحصول التحريم والنهي القاطع والجازم. قال تعالى:

٩٢- ﴿وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأَحْذَرُوا فَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ فَأَعْلَمُوا أَنَّمَا عَلَى رَسُولِنَا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ﴾ (٩٢)

أي: امثلوا - أيها المسلمون - ما أمركم الله به، واجتنبوا ما نهاكم عنه، بطاعة الله وطاعة رسوله محمد ﷺ في كل ما تفعلون وفي كل ما تتركون، ويدخل في هذا كل أمر ونهي ظاهر وباطن ﴿وَأَحْذَرُوا﴾ مخالفة الله ومخالفة رسوله، واتقوا الله وراقبوه في جميع أقوالكم وأفعالكم ﴿فَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ﴾ أي: فإن أعرضتم عما أمركم الله به ونهاكم عنه فليس على رسولنا محمد إلا البلاغ المبين.

وهذا وعيد وتهديد لمن أعرض عن أمر الله تعالى ونهيه؛ لأنه بسبب ذلك استحق عذاب الله وسخطه.

لَا عِقَابَ إِلَّا بِنَصِّ، وَلَا مَوَازِنَ قَبْلَ التَّحْرِيمِ

٩٣- ﴿لَيْسَ عَلَى الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جُنَاحٌ فِيمَا طَعِمُوا إِذَا مَا اتَّقَوْا وَءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ثُمَّ اتَّقَوْا وَءَامَنُوا ثُمَّ اتَّقَوْا وَأَحْسَنُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾ (٩٣).

عن البراء بن عازب ؓ قال: لما نزل تحريم الخمر قالوا: كيف بمن كان يشربها قبل أن تُحرّم؟ فنزلت: ﴿لَيْسَ عَلَى الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جُنَاحٌ فِيمَا طَعِمُوا﴾^(١).

وقد سأل جابر بن عبد الله رسول الله ﷺ عن من مات من الصحابة أو استشهد والخمر في بطنه، فأنزل الله تعالى الآية^(٢).

وهذا يشبه سؤالهم عن من مات وهو قد صلى إلى القبلة الأولى، فنزل: ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضَيِّعَ إِيْمَانَكُمْ﴾ [البقرة: ١٤٣].

والآية نزلت لتقرر أن التحريم يبدأ من وجود النص، وليس قبله، فلا عقوبة إلا بنص،

(١) الحديث صحيح على شرط الشيخين، الترمذي (٢٥٤/٥) برقم (٣٢٥٨) وقال: حسن صحيح، وهو في «صحيح سنن الترمذي» (٢٤٤٤) وابن حبان (٥٣٥٠) وابن أبي حاتم (٦٧٧٥) و«مسند الطيالسي» برقم (٧١٥) و«مسند أحمد عن ابن عباس» (٢٧٧٤، ٢٠٨٨).

(٢) نص الحديث في البخاري، يُنظر: فتح الباري (٢٧٧/٨) ورواه أيضا الحافظ البزار والترمذي في سننه برقم (٣٠٥١) و«مسند الطيالسي» برقم (٧١٥).

سواء في الدنيا أو الآخرة، والتحريم لا يكون بأثر رجعي، فالذين كانوا يشربون الخمر، ويلعبون الميسر، وماتوا قبل نزول الآية لا إثم عليهم، ولا مؤاخذه، ولا حرج فيما طعموه من الخمر، أو أكلوه من القمار قبل التحريم.

وليس على الأحياء إثم كذلك، ولا حرج فيما طعموه من الخمر، وما أكلوه من القمار، قبل نزول هذه الآية إذا تركوها عند نزولها، وتابوا إلى الله تعالى من فورهم، واتقوا الله تعالى وآمنوا، وأكثروا من عمل الصالحات التي تدل على إيمانهم، ورغبتهم في رضوان الله تعالى، وهذا معنى قوله تعالى: ﴿إِذَا مَا أَنْقَوْا وَعَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ وتركوا المعاصي والذنوب، ويدخل في هذا مَنْ أكل حراماً ثم اعترف بذنبه فتاب إلى الله واتقى وآمن وعمل صالحاً، فإن الله يغفر له ويرتفع عنه الإثم.

قال تعالى: ﴿ثُمَّ أَنْقُوا وَعَامَنُوا﴾ أي: أنهم ازدادوا بذلك مراقبة لله عز وجل وإيماناً به. ﴿ثُمَّ أَنْقُوا وَأَحْسَنُوا﴾ واستمروا على ذلك، وإلا فقد يتصف العبد بالإيمان والتقوى والإحسان في وقت دون وقت، ولا بد أن يدوم العبد على ذلك حتى يأتيه أجله وهو محسن.

أي: أنهم أصبحوا على درجة من اليقين، وعلو المرتبة، يعبدون الله تعالى كأنهم يرونه، وهم يوقنون أنه سبحانه يراهم ﴿وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾ أي: يحب عباده الذين بلغوا درجة الإحسان حتى أصبح إيمانهم بالغيب كأنه مشاهد أمام أعينهم.

فالتقوى الأولى بمعنى: التوبة والرجوع إلى الله تعالى، واتقاء سخطه مما كان منهم قبل التحريم.

والتقوى الثانية بمعنى: المداومة على الاستقامة، وازدياد الإيمان بالعمل الصالح. والتقوى الثالثة بمعنى: الوصول إلى أعلى الدرجات، وهي مرتبة الإحسان: «أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك» والله أعلم.

وفي هذا ثناء ومدح للإيمان والتقوى والإحسان؛ لأن هذه المقامات أشرف الدرجات وأعلاها.

عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال لما نزلت: ﴿لَيْسَ عَلَى الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا

أَفَصْلَحَتْ جُنَاحٌ فِيمَا طَعَمُوا ﴿٩٣﴾ فقال النبي ﷺ: «قيل لي: أنت منهم»^(١).

ومعناه: أنه قيل للنبي ﷺ: إن ابن مسعود من الذين آمنوا وعملوا الصالحات والتقوى والإحسان، والقائل هو رب العالمين، فيا له من فضل عظيم وخير عميم! وهنيئًا لك يا ابن مسعود بهذه الدرجة العالية.

والأولى حمل الآية على العموم، بمعنى أن الله تعالى رفع الحرج والإثم عن المؤمنين في أي شيء طعموه من مستلذات المطاعم وحلاله إذا اتقوا ما حرم الله عليهم، فليس البر في جرمان النفس من الطيبات، بل البر في التقوى؛ فالآية لها اتصال بالآية التي قبلها ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَحَرِّمُوا طَيِّبَاتِ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكُمْ﴾ ورفع الحرج عن المطاعم والمشارب المباحة أمر حاصل للمؤمن والكافر على السواء، والإيمان والتقوى ليسا شرطًا في ذلك، فتعين أن يكون المراد هو المدح والثناء للمؤمنين، وأنهم جديرون بهاتين الصفتين إلى جانب الإحسان.

وفائدة ذلك: إدخال الطمأنينة عليهم، بأن مَنْ تعاطى شيئًا قبل تحريمه لا يؤاخذ عليه، وإنما يؤاخذ بعد التحريم.

ومن الزندقة: حمل الآية على معنى أنه لا حرج على من شرب الخمر إذا كان مؤمنًا تقيًا محسنًا، ولم يحصل منه عداوة ولا بغضاء للمؤمنين، ولا صدَّ عن ذكر الله، ولا عن الصلاة، فهذا استنباط الجهال الذين لا خلاق لهم، وقد أقام عمر رضي الله عنه الحَدَّ على قُدَّامة بن مضعون الجمحي، الذي تأوَّل هذا المعنى، واحتج به^(٢).

ومثل ذلك كلام الحشَّاشين الذين يقولون: إن الله تعالى قال عن الخمر والميسر: ﴿فَاجْتَنِبُوهُ﴾ ولم يقل: (فاتركوه) ونحوها، وهم يتلمسون تأويلًا يبيح لهم ما هم فيه من السكر ونحوه، وهذا جهل فاضح، أو مغالطة مكشوفة؛ إذ جعل الخمر في جانب، وشاربها في جانب آخر أبلغ تعبير في التحريم والنهي وعدم الاقتراب منها.

(١) أخرجه مسلم في الفضائل (١٩١/٤) برقم (٢٤٥٩) والترمذي في التفسير (٢٥٥/٥) برقم (٣٠٥٣) والنسائي في التفسير برقم (١٧٣) وفي «السنن الكبرى» برقم (١١١٥٣).

(٢) انظر القصة في «تفسير ابن عطية» (٢٣٥/٢).

النِّدَاءُ الثَّانِي عَشَرَ: تَحْرِيمُ صَيْدِ الْحَرَمِ وَكُفَّارَتِهِ

٩٤- ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَبِئْسَ اللَّهُ بِشَيْءٍ مِّنَ الصَّيْدِ تَنَالُهُ أَيْدِيكُمْ وَرِمَاحُكُمْ لِيَعْلَمَ اللَّهُ مَن يَخَافُهُ بِالْغَيْبِ فَمَن أَعَدَّكَ بِدَلِّكَ فَلَهُ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٩٤﴾﴾

النداء الثاني عشر لأهل الإيمان في سورة المائدة، يتعلق بالصيد في الحرم الذي جاء ذكره في أول السورة، والآيات في سياق التحليل والتحريم، فبعد بيان تحريم الخمر، يأتي بيان تحريم الصيد في الحرم.

قيل: إن هذه الآية نزلت عام الحديبية حين كان الصحابة مُحْرَمِينَ بِالْعِمْرَةِ، حيث ابتلاهم الله بالصيد، فكانت الوحوش والطيور وأنواع الصيد تغشى رحالهم من كثرتها، ولم يَرَوْا مثلها قط، فهَمُّوا بصيدها وأخذها، فأنزل الله الآية^(١)، وَوُضِعَتْ في مكانها من هذه السورة؛ لتذكّر المؤمنين وهم في حجة الوداع بما حدث يوم الحديبية.

كما في حديث أبي قتادة أنه رأى عام الحديبية حماراً وحشياً وهو غير مُحْرَمٍ، فاستوى على فرسه، وأخذ رُمحه وشد وراءه الحمار فأدركه، فعفره برمحه وأتى به، وهو صيد سهل ساقه الله إليهم قريباً منهم يطوف بخيامهم ومنازلهم، وأيديهم تنال منه صغار الصيد، ورماحهم تنال كبارها، والله تعالى يتليهم بما هو محبوب إلى نفوسهم؛ ليظهر قوة إيمانهم من ضعفه، وقد ابتلى الله خليله إبراهيم بذبح ولده إسماعيل، فنجح في الامتحان.

وهذا النوع من الابتلاء، وهو الإغراء بالصيد ابتلى الله به اليهود حين ألحوا على نبيهم موسى ﷺ أن يخصص لهم يوماً للراحة والعبادة لا يشتغلون فيه بشيء من أمور المعاش، فجعل لهم يوم السبت، ثم ابتلاهم الله فيه، فساق لهم صيد البحر على الشاطئ قريباً منهم متعرضاً لأنظارهم، ويختفي هذا الصيد في بقية الأسبوع، فاحتالوا على صيده في يوم السبت، وأظهر الله ضعف إيمانهم، فرسبوا في الامتحان.

وهذا الابتلاء بعينه هو الذي ابتلى الله به هذه الأمة، فنجحت حيث أخفق اليهود، وكان هذا الاختبار بالصيد السهل اليسير أثناء فترة الإحرام، عندما يقترب منهم الصيد

(١) قال مقاتل بن حيان، من التابعين، وهو أثر مرسل، يُنظر: «الدر المنثور» للسيوطي (٢/٣٢٧).

على غير المعتاد، حيث يستطيعون أخذ صغاره بغير سلاح، وأخذ كباره بالسلاح، وهذا معنى ﴿تَنَالُهُ أَيْدِيكُمْ وَرِمَاحُكُمْ﴾ وهو ابتلاء تكليف، ونهي وتحذير عما يحدث في المستقبل من أنكم تتمكنون من صيده باليد أو بالرمح.

ثم كشف الله سبحانه عن حكمة هذا الابتلاء فقال: ﴿لَعَلَّ اللَّهَ مَن يَخَافُهُ بِالْغَيْبِ﴾ أي: ليظهر الله للخلق طاعة من يطيعه في السر والعلن، والغيب والمشاهدة، كي يترتب على ذلك الثواب والعقاب، والاعتبار بمن يخاف ربه بالغيب عند عدم حضور الناس عنده، أما إظهار مخافة الله أمام الناس، فلا يثاب عليها حتى يوقنوا بأن الله تعالى مطلع عليهم، يعلم سرهم ونجواهم وجميع أحوالهم، فيمسكون عن الصيد قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِالْغَيْبِ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ﴾ [الملك].

﴿فَمَنْ أَعْتَدَىٰ بَعْدَ ذَلِكَ﴾ أي: فمن خالف بعد هذا البيان الواضح، فأقدم على الصيد، وتجاوز الحد وهو محرم ﴿فَلَهُ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ أي: أنه يستحق العذاب المؤلم الموجه الذي لا يقدر على وصفه إلا الله، بما اجتراً على الحرم، أو على حرمة الإحرام، أو على كليهما معاً، لأنه لا عذر لذلك المعتدي.

وقد حُرِّمَ الله الصيد في منطقة الحرم داخل حدوده من الجهات الأربع، وهي من ٦ إلى ١٦ كيلومتراً.

كما حُرِّمَ سبحانه الصيد على المحرم سواء أكان داخل الحرم، أم خارجه.

النِّدَاءُ الثَّالِثُ عَشَرَ: فِي تَفْصِيلِ عَقُوبَةِ الْمُخَالِفِ بِالصَّيْدِ فِي الْحَرَمِ

٩٥- ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَقْتُلُوا الصَّيْدَ وَأَنْتُمْ حُرْمٌ وَمَنْ قَتَلَهُ مِنْكُمْ مُتَعَمِّدًا فَجَزَاءٌ مِّثْلُ^(١) مَا قَتَلَ مِنْ

(١) قرأ عاصم وحزمة والكسائي ويعقوب وخلف العاشر (فجزاء مثل) بتنوين همزة (جزاء) ورفع لام (مثل) على أن (جزاء) مبتدأ والخبر محذوف، أي: فعلية جزاء، أو على أنه خبر لمبتدأ محذوف، أي: فالواجب جزاء، أو فاعل لفعل محذوف تقديره فيلزمه جزاء، والباقون بحذف تنوين (جزاء) وخفض لام (مثل) على أن (جزاء) مصدر مضاف لمفعوله ثم حذف المفعول لدلالة الكلام عليه، وأضيف المصدر إلى مفعوله الثاني، وتقدير الكلام: فعليه أن يجزي المقتول من الصيد مثله من النعم، فحذف المفعول وهو المقتول، وأضيف المصدر وهو مثل إلى المفعول الثاني.

أَتَنَعَّمُ يَكْفُكُمْ بِهِ ذَوَا عَدْلٍ مِنْكُمْ هَذَا بَلَغَ الْكُفْبَةِ أَوْ كَفَرَةُ طَعَامٍ^(١) مَسْكِينَ أَوْ عَدْلٌ ذَلِكَ صِيَامًا لِيَذُوقَ وَبَالَ أَمْرِ اللَّهِ عَفَا اللَّهُ عَمَّا سَلَفٌ وَمَنْ عَادَ فَيَنْتَقِمُ اللَّهُ مِنْهُ وَاللَّهُ عَزِيزٌ ذُو انْتِقَامٍ ﴿٩٥﴾

وجاء النداء الثالث عشر لأهل الإيمان في السورة؛ ليفضّل عقوبة المخالف بالصيد في الحرم ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَقْتُلُوا الصَّيْدَ وَأَنْتُمْ حُرْمٌ﴾ أي: لا تقتلوا الصيد وأنتم محرمون بالحج أو العمرة، ولا تقتلوا الصيد داخل حدود الحرم وأنتم غير محرمين بحج ولا عمرة.

ورد أن هذه الآية نزلت في أبي اليسر - عمرو بن مالك الأنصاري - في عُمره الحديبية، حيث عرض له حمار وحشي، فحمل عليه وقتله وهو محرم، فنزلت الآية لتقرر حُكمًا عامًا أنه لا يجوز قتل الصيد، ولا التعرض له ما دام العبد محرمًا، كما أنه لا يجوز ذلك في الحرم لغير المحرم، فهي منطقة أمن وأمان للإنسان والحيوان والوحوش والحشرات والطيور والأشجار والنبات وغير ذلك، وهي حرمة ثابتة منذ بُني البيت الحرام.

قال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا ءَامِنًا وَيُخَفِّطُ النَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ﴾ [العنكبوت: ٦٧].

وقال سبحانه: ﴿أَوَلَمْ نُمَكِّنْ لَهُمْ حَرَمًا ءَامِنًا يُجِئُ إِلَيْهِ تُمَرْتُ كُلِّ شَيْءٍ رِزْقًا مِنْ لَدُنَّا﴾ [الفصص: ٥٧].

وقد عظم الله تعالى شأن الكعبة، وأمر إبراهيم أن يتخذ لها حرمًا؛ ليكون حمى لها، وجعل هذا الحمى واسعًا، كما وسّع الأمن فيه حتى شمل الحيوان.

وقد وُضِعَتْ علامات لحدود الحرم من زمن عمر ؓ تحيط به من كل جانب.

ثم بيّن سبحانه حكم من قتل الصيد بأنّ عليه إما جزاء المثل، وإما الإطعام، وإما الصيام، فهذه ثلاثة أشياء:

الحكم الأول: الجزاء المماثل للصيد:

وقد جاء ذلك في قوله تعالى: ﴿وَمَنْ قَتَلَهُ مِنْكُمْ مُتَعَمِّدًا فَجَزَاءٌ مِثْلُ مَا قَتَلَ مِنَ النَّعْمِ﴾ والنهي عن القتل يشمل النهي عن مقدماته وعن المشاركة فيه وعن الدلالة عليه وعن الإعانة عليه، ومن تعظيم النسك أنه يحرم على المحرم قتل وصيد ما كان حلالًا له قبل الإحرام.

(١) قرأ نافع وابن عامر وأبو جعفر (أو كفارة طعام) بعدم تنوين كفارة وخفض طعام على الإضافة، وقرأ الباقون بالتنوين في كفارة ورفع طعام وإضافته إلى مساكين.

أي: ومن قتل أي نوع من صيد البر متعمداً، فجزاء ذلك أن يذبح مثل ذلك الصيد من بهيمة الأنعام: الإبل، أو البقر، أو الغنم، وخرج بذلك ما قُتل خطأ، أو نسياناً ففيه خلاف بين أهل العلم، والجمهور على أن العمد والخطأ سواء.

وقد نص الله تعالى على المتعمد لقتل الصيد، مع أن الجزاء يلزم المتعمد والمخطيء، لأن المتلف للنفوس والأموال المحترمة يضمنها على أي حال كان، والمتعمد عليه الجزاء والعقوبة والانتقام، أما المخطيء فليس عليه عقوبة إنما عليه الجزاء فحسب.

وهذا الجزاء المماثل: ﴿يَحْكُمُ بِهِ ذَوَا عَدْلٍ مِّنكُمْ﴾ أي: يحكم بالجزاء في قتل الصيد ويقدره: رجلان صالحان عدلان من أهل ملتكم ودينكم، وينبغي أن يكونا فقيهين، يعرفان الحكم ووجه الشبه فينظران إلى أشبه الأشياء من بهيمة الأنعام ويحكمان به.

وقد حكم الصحابة في النعامة ببذنة، وفي بقرة الوحش ببقرة، وفي الغزال بعنز.

عن ميمون بن مهران أن أعرابياً أتى أبا بكر، قال: قتلْتُ صيداً وأنا محرم، فما ترى عليّ من الجزاء؟ فقال أبو بكر لأبيّ بن كعب وهو جالس عنده: ما ترى فيما قال؟ فقال الأعرابي: أتيتك وأنت خليفة رسول ﷺ أسألك، فإذا أنت تسأل غيرك؟ فقال أبو بكر: وماذا تنكر؟ يقول الله تعالى: ﴿يَحْكُمُ بِهِ ذَوَا عَدْلٍ مِّنكُمْ﴾ فشاورتُ صاحبي حتى إذا اتفقنا على أمر أمرناك به^(١).

وعلى من قتل شيئاً من الحيوانات، أو الطيور في الحرم عمداً، أو خطأ فعليه أن يهدي مثل ما قتل لفقراء الحرم، وهذا معنى: ﴿هَذَا بَلِغُ الْكَعْبَةِ﴾ أي: واصلاً إليها يُذبح في الحرم ويُتصدق به على فقرائها، ويراد بالكعبة الحرم كله، فيتصدق به على فقرائه، والعرب تسمي كل بيت مرتفع (كعبة).

الحكم الثاني: الإطعام:

فإن لم يكن للصيد الذي قُتل في الحرم مثل، فعلى من قتله أن يشتري بقيمة مثله طعاماً يهديه لفقراء الحرم، وقد جاءت هذه الكفارة في قوله تعالى: ﴿أَوْ كَفَرَةٌ طَعَامُ مَسْكِينٍ﴾

(١) إسناده جيد، وفيه انقطاع بين ميمون والصادق أبي بكر، كما قال ابن كثير في التفسير وقد رواه ابن أبي حاتم برقم (٦٨٠٥).

أي يجعل مقابلة المثل من النعم طعام يطعم المساكين، كفارة لذلك الجزاء، أي يُقَوِّم الجزاء فيشترى بقيمته طعام، فيطعم كل مسكين مُدَّ بُرٍّ أو نصف صاع من غيره.

الحكم الثالث: الصيام:

أو بصوم بدلًا من ذلك يومًا عن كل نصف صاع من الطعام، وقد جاء هذا في قوله تعالى: ﴿أَوْ عَدْلُ ذَلِكَ صِيَامًا﴾ أي يصوم عن إطعام كل مسكين يومًا.

قال ابن عباس رضي الله عنه: إن قتل المحرم ظبيًا فعليه شاة تُذبح بمكة، فإن لم يجد فإطعام ستة مساكين، فإن لم يجد صام ثلاثة أيام، وإن قتل إبلًا فعليه بقرة، فإن لم يجد فإطعام عشرين مسكينًا، فإن لم يجد صام عشرين يومًا، وإن قتل نعامة أو حمارًا وحشيًا فعليه بدنة، فإن لم يجد أطعم ثلاثين مسكينًا، فإن لم يجد صام ثلاثين يومًا^(١).

وجمهور أهل العلم على أن قاتل الصيد مخير بين جزاء المثل، أو الإطعام، أو الصيام؛ لأن (أو) للتخير، وأثر ابن عباس يقتضي الترتيب، والعمل على الأول.

وقد فرض الله ذلك؛ ليدوق من قتل الصيد عاقبة فعله وهذا معنى: ﴿لِيَذُوقَ وَبَالَ أَمْرِهِ﴾ أما الذين وقعوا في شيء من ذلك قبل التحريم فإن الله تعالى قد عفا عنهم ﴿عَفَا اللَّهُ عَنْهَا سَلَفٌ﴾ ومن عاد بعد التحريم إلى قتل الصيد متعمدًا فإنه معرض لانتقام الله تعالى منه كما قال سبحانه: ﴿وَمَنْ عَادَ فَيَنْتَقِمُ اللَّهُ مِنْهُ﴾ ووجوب الجزاء في الدنيا لا يمنع عقاب الآخرة، والعقوبة تتكرر بتكرار قتل المحرم للصيد.

والله سبحانه قوي منيع في سلطانه، ومن عزته أن ينتقم ممن عصاه إذا أراد، ولا يمنعه من ذلك مانع ﴿وَاللَّهُ عَزِيزٌ ذُو انْتِقَامٍ﴾

والحيوانات التي تقتل في الحرم على أقسام أربعة:

القسم الأول: الحيوان البري مأكول اللحم مثل: الغزال، والظبي، والنعامة، والضبع، والأرنب، واليربوع، والوعل، وكذلك الطير، مثل: الحمام، فإن هذا وأمثاله من الحيوان الوحشي (البري) الذي يؤكل، ولا يجوز للمحرم أن يصيده، أو يتعرض له بشيء من الأذى.

(١) «تفسير ابن عطية» (٢/ ٢٤٠) وأخرجه الطبري بسند حسن من طريق علي بن أبي طلحة.

وفي صيده، أو قتله جزاء وعقوبة على ضوء ما جاء في الآية، فيخير من قتل الصيد: بين ذبح مثله إن كان له مثل، وبين تقويمه بدراهم، يشتري بها طعامًا، ويعطى كل مسكين نصف صاع، وقيل: (مُدًّا) بدل نصف الصاع، أو يصوم عن كل نصف صاع يومًا، وهذا النوع من الحيوانات هو المحرَّم صيده على المحرم عمدًا.

القسم الثاني: الحيوان الضار المؤذي وهذا النوع من الحيوانات يُقتل في الحل والحرم، ولا حاجة للناس في اصطیاده، وهو خمسة أنواع جاء ذكرها في هذا الحديث الذي ثبت في الصحيحين من حديث عائشة ؓ أن رسول الله ﷺ قال: «خمس فواسق يُقتلن في الحل والحرم: الغراب، والحدأة، والعقرب، والفأرة، والكلب العقور»^(١).

ويلحق بالكلب العقور: الذئب، والسبع، والنمر، والفهد؛ لأنها أشد ضررًا منه كما قال العلماء، ومنهم مالك وأحمد، ووقف أكثر العلماء عند ظاهر الحديث^(٢).

ولا يقتل غراب الزرع الصغير الذي يأكل الزرع، أما الهر والشعلب والضبع فلا يقتلها المحرم، وإن قتلها كان عليه فدية، وثبت عن عمر بن الخطاب ؓ أنه أمر المحرمين بقتل الحيات، وقتلها محل إجماع، ومثلها ذوات السموم.

القسم الثالث: الحيوان الأهلي المستأنس كبهيمة الأنعام (الإبل، والبقر، والغنم)، والدجاج، ونحوه، فإنه يباح تركيته في كل حال؛ لأنه مملوك للناس، ولا شيء في الانتفاع به؛ لأنه يربى لذلك.

القسم الرابع: الحيوان الذي لا يؤكل لحمه وليس فيه ضرر كبير، مثل الحشرات، من البراغيث، والنمل، والذباب، والجراد، فإنه يكره قتله، وإن قُتل فليس فيه فداء ولا كفارة.

حُكْمُ صَيْدِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ

٩٦- ﴿أَحِلَّ لَكُمْ صَيْدُ الْبَحْرِ وَطَعَامُهُ مَتَاعًا لَكُمْ وَلِلْغِيَارَةِ وَحُرِّمَ عَلَيْكُمْ صَيْدُ الْبَرِّ مَا دُمْتُمْ حُرُمًا وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾ (٩٦)

(١) البخاري (٣٤/٤) برقم (١٨٢٩، ٣٣١٤) ومسلم برقم (١١٩٨) و«الموطأ» (٣٥٦/١) والنسائي (٥/٢٠٨) وابن أبي شيبة.

(٢) يُنظر: «تفسير ابن كثير» للآية.

ولما كان الصيد يشمل الصيد البري والبحري استثنى الله تعالى صيد البحر .
وبعد بيان حكم صيد البر بالنسبة للمحرم، بيّن ﷺ أن صيد البحر حلال في الحل
والحرم، وفي أثناء الإحرام، فقال تعالى: ﴿أَحَلَّ لَكُم صَيْدَ الْبَحْرِ وَطَعَامَهُ﴾ والمراد
بالبحر: جميع المياه العذبة والمالحة، أي: النهر والبحر وفروعهما .
وجملة حيوان الماء على قسمين: سمك، وغير سمك؛ أما السمك فجميعه حلال
للمحرم، وغير المحرم على اختلاف أنواعه وأجناسه؛ وذلك لما رواه أبو هريرة ؓ أن
رجلاً سأل النبي ﷺ، فقال: يا رسول الله، إنا نركب البحر، ونحمل معنا القليل من
الماء، فإذا توفضنا به عطشنا، أنتوضأ بماء البحر؟ فقال رسول الله ﷺ: «هو الطهور
ماؤه، الحل ميتته»^(١).

وعن عبد الله بن عمر ؓ أن رسول الله ﷺ قال: «أحلت لنا ميتتان ودمان؛ فأما
الميتتان فالحيوت، والجراد، وأما الدمان فالكبد، والطحال»^(٢).

وفي الصحيحين وغيرهما عن أبي قتادة أن النبي ﷺ لما خرج حاجاً قال لطائفة من
أصحابه: «خذوا ساحل البحر حتى نلتقي» فأحرموا كلهم إلا أبا قتادة، فأرؤا حُمُرَ وخُش،
فحمل أبو قتادة على الحُمُر فعقر منها أتاناً، فزَلُوا فَأَكَلُوا من لحمها، فقالوا: أأكل لحم
صيد ونحن محرمون؟ قال: فحملنا ما بقي من لحمها، ثم ذكرنا لرسول الله ﷺ فسأل
المحرمين: «أمنكم أحد أمر أبا قتادة أن يحمل عليها، أو أشار إليها»، قالوا: لا، قال:
«فكلوا ما بقي من لحمها»^(٣).

(١) الحديث صحيح ورجاله ثقات، فإنه قد جاء من تسع طرق ذكرها الشوكاني في «نيل الأوطار» وهو في
«المسند» (٣٦١/٢) برقم (٧٢٣٣، ٨٧٣٥، ٩٠٩٩) وعن جابر برقم (١٥٠١٢) وكتاب «الأم» للشافعي
في الطهارة وفي مسنده برقم (٢٥) وفي النسائي (٥٠/١) والترمذي (١٠٠/١) برقم (٩٦) وأبي داود (١/
٦٤) برقم (٨٣) وابن ماجه (١٣٦/١) عن مالك عن صفوان برقم (٣٨٦) و«صحيح ابن خزيمة» برقم
(١١١) و«صحيح ابن حبان» برقم (١١٩).

(٢) «مسند الشافعي» برقم (١٧٣٤) و«المسند» (٩٧/٢) برقم (٥٧٢٣) حديث حسن، فيه عبد الرحمن بن زيد
بن أسلم، ضعيف، وبقية رجاله ثقات رجال الصحيح (محققوه) و«سنن ابن ماجه» برقم (٣٣١٤) و«سنن
الدارقطني» (٢٧١/٤) و«السنن الكبرى» للبيهقي (٢٥٤/١) والبغوي في شرح السنة (٢٨٠٣).

(٣) البخاري في مواضع كثيرة منها (١٨٢٤، ٥٤٩٢) ومسلم (١١٩٦) والحاكم (٤٥٢/١).

ولا فرق بين أن يموت السمك بسبب أو بغير سبب.

وقال الإمام أحمد: يؤكل كل ما في البحر إلا الضفدع والتمساح؛ لأن التمساح يأكل الناس، فهو حيوان مفترس؛ وذلك لأن ما عدا السمك مما يعيش في البر والبحر؛ كالضفدع، والسرطان، والجراد فيه خلاف بين الفقهاء في جواز أكله من عدمه.

وقالوا: كل ما له نظير في البر يؤكل فإن نظيره في البحر يؤكل، وكل ما له نظير لا يؤكل؛ مثل كلب الماء، وخنزير الماء، فلا يحل أكله.

أما طعام البحر، فهو الميت منه، أي: مما لفظه البحر ميتاً، أو ما مُلِح منه بعد موته فإنه يؤكل، وقد أحل الله لنا ذلك؛ لينتفع به المقيم والمسافر، فقال تعالى: ﴿مَتَعًا لَّكُمْ وَلِلنَّاسِ﴾ والمتاع بمعنى: التمتع والانتفاع به، والسيارة بمعنى: المسافرون، أما الإقامة فأخذت من ضمير ﴿لَّكُمْ﴾.

وقد استدلل الجمهور على حل ميتة البحر بهذه الآية، وبالأحاديث الواردة في ذلك، ومنها حديث جابر في البخاري قال: بعثنا النبي ﷺ ثلاث مئة راكب، وأميرنا أبو عبيدة، نرصد عيراً لقريش، فأصابنا جوع شديد حتى أكلنا الخبط، فسمي جيش الخبط، وألقى البحر حوتاً يقال له: العنبر، فأكلنا نصف شهر، وأدّهنا بؤدكه حتى صلحت أجسامنا قال: فأخذ أبو عبيدة ضلعاً من أضلاعه فنصبه، فمرّ الراكب تحته، وكان فينا رجل، فلما اشتد الجوع نحر ثلاث جزائر، ثم ثلاث جزائر، ثم نهاه أبو عبيدة^(١).

وأخرج ابن جرير عن أبي هريرة ؓ أن رسول الله ﷺ قال: «أَحِلَّ لَكُمْ صَيْدُ الْبَحْرِ وَطَعَامُهُ مَتَاعًا لَكُمْ»، قال: طعامه: ما لفظه ميتاً فهو طعامه^(٢).

أما صيد البر فهو محرم على المحرم؛ لقوله تعالى: ﴿وَحُرِّمَ عَلَيْكُمْ صَيْدُ الْبَرِّ مَا دُمْتُمْ حُرُمًا﴾ أي: طالما أنتم محرمون بحج، أو بعمرة، ولا بد للصيد أن يكون وحشياً ومأكولاً لأن الإنسي ليس بصيد، وغير المأكول لا يصاد ولا يطلق عليه اسم الصيد.

(١) «صحيح البخاري» برقم (٥٤٩٤) وانظر: (٢٤٨٣) و«صحيح مسلم» (١٩٣٥).

(٢) قال الشيخ محمود شاكر: إسناده صحيح، ورجاله ثقات كما في «تفسير الطبري» برقم (١٢٧٢٩).

وقد ذكر الله سبحانه تحريم الصيد على المحرم في ثلاثة مواضع من هذه السورة:

أحدها: في أول السورة في قوله تعالى: ﴿غَيْرِ مُحِلِّ الصَّيْدِ وَأَنْتُمْ حُرْمٌ﴾.

والثاني: قوله تعالى: ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَقْتُلُوا الصَّيْدَ وَأَنْتُمْ حُرْمٌ﴾.

والثالث: في هذه الآية قوله تعالى: ﴿وَحَرَّمَ عَلَيْكُمْ صَيْدُ الْبَرِّ مَا دُمْتُمْ حُرُمًا﴾. وذلك

لتأكيد تحريم قتل الصيد على المحرم.

وجمهور العلماء على أنه يجوز للمحرم أن يأكل لحم الصيد إذا لم يصده بنفسه، ولا صيد

له، ولا بإشارته، ولا أعان على صيده، جمعاً بين الأدلة الواردة في ذلك.

ويشهد لهذا الحديث السابق وهو ما جاء في البخاري أن أبا قتادة كان مع النبي ﷺ وصحبه في

طريق الحج ولم يكن محرماً، فاصطاد حماراً وحشياً، فأكلوا من لحمه، ثم قالوا: أنأكل

لحم صيد ونحن محرمون؟ فحملوا ما بقي من لحمه إلى النبي ﷺ وسألوه عن الحكم، فقال ﷺ:

«منكم أحد أمره أن يحمل عليها، أو أشار إليها؟» قالوا: لا، قال: «فكلوا ما بقي من لحمها»^(١).

ولا يجوز للمحرم قبول الصيد الذي يُهدى، أو يُشترى، أو يُصطاد له؛ لما جاء في

البخاري أن الصَّعب بن جثامة الليثي أهدى إلى النبي ﷺ حماراً وحشياً وهو بالأبواء، أو

بودان، فردّه عليه، فلما رأى ما في وجهه قال: «إنا لم نرده عليك إلا أنا حُرْمٌ»^(٢).

وختم الله الآية بقوله: ﴿وَأَتَقُوا اللَّهَ الَّتِي إِلَيْهِ تَحْشُرُونَ﴾ أي: اخشوا ربكم وخافوه،

ونفذوا جميع أوامره واجتنبوا نواهيه؛ حتى تظفروا بعظيم الثواب، وتسلموا من أليم

العقاب عندما تُحشرون للحساب والجزاء فيجازيكم أو يعاقبكم.

تَعْظِيمُ الْكَفْبَةِ وَالْأَشْهُرِ الْحُرْمِ وَمَا يُهْدَى لِلْحَرَمِ

٩٧- ﴿جَعَلَ اللَّهُ الْكَفْبَةَ الْبَيْتَ الْحَرَامَ قِيَمًا^(٣) لِلنَّاسِ وَالشَّهْرَ الْحَرَامَ وَالْهَدْيَ وَالْقَلَائِدَ^(٤)﴾

(١) يُنْظَرُ: «صحيح البخاري» برقم (١٨٢٤) وانظر: (١٨٢١) و«صحيح مسلم» (١١٩٦).

(٢) «صحيح البخاري» برقم (١٨٢٥) وانظر: (٢٥٧٣، ٢٥٩٦، ٣٠١٢) و«صحيح مسلم» (١١٩٣).

(٣) قرأ ابن عامر (قيماً) بحذف الألف بعد الباء على أنها مصدر، وقرأ الباقر (قيماً) بإثبات الألف، مصدر قام.

(٤) قرأ حمزة بتسهيل همزة (القلائد) وفقاً مع المد والقصر.

ذَلِكَ لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَأَنَّ اللَّهَ يَكُلُّ شَيْءٍ عَلَيْهِ ﴿٩٧﴾

والكلام موصول عن أمن البيت الحرام، وقد كان الناس في أرجاء الأرض قبل الإسلام، لهم حكم ونظام يحقق لهم الأمن والرخاء، ويدفع عنهم العدوان، ويعمل على راحة الشعوب. وذلك كملوك فارس والروم وغيرهما، ولم يكن للعرب في الجاهلية دولة، ولا حكم، ولا نظام، وكان البيت الحرام وسط صحراء قاحلة، وكان الناس يقصدونه منذ القدم من شتى أرجاء المعمورة للحج والعمرة والطواف حوله، والطريق إليه يسهل فيه ارتكاب الجرائم، وكذا منطقة الحرم نفسها، فهي صحراء واسعة.

ومن أجل ذلك فإن الله تعالى قد وضع في قلوب عباده منذ القدم هبة البيت الحرام وقديسته ومهابته.

كما أن الأشهر الحرم كان لها أيضًا مكانة خاصة واحترامًا في نفوس الناس جميعًا.

وقد بين النبي ﷺ ذلك يوم فتح مكة حيث قال: «إن هذا البلد حرّمه الله تعالى يوم خلق السموات والأرض، فهو حرام بحرمة الله تعالى إلى يوم القيامة، لا يُعضد شوكة، ولا يُنفر صيده، ولا يُلتقط لقطته إلا من عرّفها، ولا يختلى خلاه»^(١).

وفي الآية التي معنا ذكر الله سبحانه أربعة أمور أضفى عليها الخوف والمهابة والتعظيم في نفوس الخلق، وجعلها مصدر أمن وأمان لهم، وسببًا لقوام مصالح الناس في أمر دينهم ودنياهم وآخرتهم، وهذه الحرمات الأربع هي:

أولاً: الكعبة البيت الحرام

﴿جَعَلَ اللَّهُ الْكَعْبَةَ الْبَيْتَ الْحَرَامَ قِيَمًا لِلنَّاسِ﴾ أي: جعلها الله قيامًا لدينهم ومعالم حجّهم، وضبط نفوسهم، وأداء مناسكهم. وسميت كعبة نظرًا لأنها مكعبة ومرتفعة عن الأرض.

والكعبة علّم على البيت الذي رفع قواعده إبراهيم عليه السلام بمكة المكرمة بأمر الله تعالى؛ ليكون قبلة للناس ومعلمًا للتوحيد، والكعب: هو التواء والبروز.

وكانت الكعبة قيامًا للناس؛ لأن الله تعالى أمر إبراهيم عليه السلام أن يُنزل فيها زوجته هاجر

(١) «صحيح البخاري» برقم (١٥٨٧) وانظر: (١٣٤٩) و«صحيح مسلم» برقم (١٣٥٣) من حديث ابن عباس.

وابنها إسماعيل، وأن تكون نشأة العرب من ذريته فيها، ويتلقَّوا أفضل الشرائع فيها، فأقام لهم الكعبة، وجعلها رمزاً للتوحيد، ووضع في نفوسهم تعظيمها وحرمتها، ودعا الخلق للحج إليها، وجلب إليها من الأرزاق والخيرات بما لا يلحق ساكنيها الجوع ولا العراء، وانتشرت ذرية إسماعيل، ولحقت بهم قبائل كثيرة من العرب القحطانيين، وحقق الله لها الأمن، فجعل أهلها يسرون آمنين لا يتعرض لهم أحد بسوء في أسفارهم وتجارتهم وتقلباتهم.

وفي الكعبة يعظم الناس دينهم ودنياهم، فيتم إسلامهم، وتحط أوزارهم، وتحصل لهم العطايا الجزيلة، وفيها تنفق الأموال، ويجتمع فيها أجناس المسلمين من كل فج عميق، فيتعارفون، ويستعين بعضهم ببعض، ويتشاورون في المصالح العامة، وتنعقد بينهم الروابط الدينية والدنيوية كما قال تعالى ﴿لِيَشْهَدُوا مَنَفَعَهُمْ﴾ [الحج: ٢٨]

ولو ترك الناس الحج لأثم كل قادر، وزال ما به قوام الناس، ولذا لما جاء الإسلام جعل الحج إليها من أفضل الأعمال، وبه تُكفَّر الذنوب.

وسُمِّي البيت الحرام حراماً؛ لأن الله حرمه وشرفه وعظمه عِظَمَ حرمة، وحرَّم أن يُصطاد عنده، وأن يُقطع نباته أو شجره.

والمراد بالبيت الحرام: جميع أرض الحرم من جميع الجهات، وهي:

- ١ - من جهة المدينة: التنعيم، ثلاثة أميال.
- ٢ - من جهة اليمن: أضاة لبن، سبعة أميال.
- ٣ - من جهة العراق: ثنية خل بالمقطع، سبعة أميال.
- ٤ - ومن الجعرانة: تسعة أميال.
- ٥ - ومن جهة جدة: منقطع الأعشاش، عشرة أميال.
- ٦ - ومن الطائف: بطن نمرة، سبعة أميال.
- ٧ - ومن بطن عرفة: أحد عشر ميلاً^(١).

(١) عن كتاب «مفيد الأنام» (٢٥٥/١).

وفي الحديث عن ابن عباس رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «إن الله حرم مكة، فلم تحل لأحد قبلي، ولا تحل لأحد بعدي، وإنما أحلت لي ساعة من نهار...»^(١) الحديث.

وقد كانت العرب تسفك الدماء بغير حلها، وتأخذ الأموال بغير حقها، ويقتل أحدهم غير القاتل، فجعل ﷺ البيت آمناً، وصرف قلوب العباد إليه، وأمن فيه سائر خلقه.

فإذا دخل الحيوان الوحشي الحرم أنس بالناس، ولم يتفر من الكلب، ولم يطلبه الكلب، فإذا خرج عن حدود الحرم طلبه.

والطائر يأنس بالناس في حرم الله، ولا يزال يطير حتى يقرب من البيت، فإذا قرب منه عدل عنه، ولا يطير فوقه إجلالاً له، فإذا لحقه وجع طرح نفسه على سقف البيت استشفاء به.

ويأمن الناس على أنفسهم وأموالهم في مناسك الحج والعمرة وطول العام من النهب والغارة والعدوان والقصاص، فلو لقي الرجل قاتل أبيه أو ابنه في الحرم لم يهيجه، وهذا كله من قيام الدنيا.

وأما قيام الآخرة، فإن المناسك التي تقام عنده أسباب لعلو الدرجات، وتكفير الخطيئات، وزيادة الكرامات والمثوبات، فلما كانت الكعبة المشرفة سبباً لحصول هذه الأشياء، كانت سبباً للقيام على مصالح الناس وانتفاعهم في دينهم ودنياهم.

ثانياً: حرمة الشهر الحرام، قال تعالى: ﴿وَالشَّهْرَ الْحَرَامَ﴾ أي: وجعل الأشهر الحرم آمناً وأماناً للناس ولغيرهم. والمراد الأشهر الحرم الأربعة، وهي: ذو القعدة، وذو الحجة، والمحرم، ورجب، وقد جعل الله الأشهر الحرم مثابة للناس وأماناً، يأمنون فيها من القتال.

وذلك أن العرب كان يقتل بعضهم بعضاً، ويغير بعضهم على بعض، فإذا دخل الأشهر الحرم كفوا عن القتال، وأمسكوا عن الغارات، فיאمنون على أنفسهم وأموالهم وأعراضهم، ولو لم يجعل الله لهم وقتاً للأمن لهلكوا جميعاً، فكانت الأشهر الحرم قياماً للناس لذلك.

ثالثاً: حرمة الهدى، وهو ما يُهدى إلى الحرم من الأضاحي، والكفارات، والفدية،

(١) رواه البخاري عن ابن عباس (٤٠/٤) برقم (١٨٣٣) وانظر: (١٣٤٩) وأخرجه مسلم (١٣٥٣) بأطول منه.

وهَـذِي التمتع، والقران، وقد جاءت الإشارة إليه في قوله تعالى: ﴿وَالْهَدَى﴾ والمراد به بهيمة الأنعام من الإبل، أو البقر، أو الغنم التي تساق إلى الحرم، وتُذبح عنده وتوزع على فقرائه، فقد أمّنها الله تعالى على أنفسها، وهي في طريقها إلى الحرم، فلا يتعرض لها أحد بأذى، ولو كان يعتصر من ألم الجوع.

وقد جعل الله ذلك قيامًا لمصالح العباد بانتفاعهم بها في الدنيا، وأداء مناسك عبادتهم، فينتفعون بها في الآخرة ويثابون عليها، وهذا الأمن والأمان للحيوان بسبب حرمة الحرم وأمنه.

رابعًا: حرمة القلائد، التي جاء ذكرها في قوله تعالى: ﴿وَالْقَلِيدَ﴾ والمراد بها: ما يقلد بلحاء شجر الحرم، من بهيمة الأنعام المهداة إلى الحرم على وجه الخصوص؛ لإظهار الشعائر والمناسك، ففيها قيام لمصالح الناس وانتفاعهم بها في دنياهم وأخراهم.

وهكذا يمتنّ الله على عباده بأن جعل لهم البيت الحرام صلاحًا لدينهم، وأمنًا لحياتهم، فحرّم العدوان في الأشهر الحرم؛ حتى لا يعتدي أحد على أحد.

وحرّم الاعتداء على ما يُهدى إلى الحرم من بهيمة الأنعام.

وحرّم الاعتداء على ما قُلد منها، إشعارًا بأنه يُقصد به النسك.

وقد التزم الناس بهذه الشعائر، وعظموها حتى في الجاهلية، فقد حدث في يوم الحديبية أن قريشًا أرسلت (الحليس) للنبي ﷺ وهم يتفاوضون في صده عن البيت، فلما رآه النبي ﷺ قال لأصحابه: «هذا رجل يعظم الحرمات فقابلوه بالبُدن مُشعرة»، فلما رآها (الحليس) عظمها، وقال: ما ينبغي أن يُصدّ هؤلاء عن الحرم، ورجع إلى قومه^(١).

وكان الرجل إذا خرج يريد الحج تقلّد من ورق شجر الحرم أو غيره، فكان ذلك أمانًا له، فلا يعتدي عليه أحد.

ثم قال تعالى: ﴿ذَلِكَ لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾ وفي هذا إشارة إلى الغيب الذي أخبرنا الله به مما يخفى علينا، ويعلمه علام الغيوب، ومن ذلك أنه يعلم

(١) يُنظر: «تفسير ابن عطية» (٢/٢٤٣).

ما يصلح شؤون العباد والبلاد، فشرع سبحانه ما سبق بيانه لحماية خلقه بعضهم من بعض، وَعِلِّمُ الله تعالى شامل ومحيط: ﴿وَأَنَّ اللَّهَ يَكُلُّ شَيْءًا عَلِيمٌ﴾ لا تخفى عليه خافية في الأرض ولا في السماء ﴿وَمَا تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٌ فِي ظُلْمَةٍ إِلَّا يَكُنْ بِهَا وَكِيلٌ﴾ [الأنعام: ٥٩]. ثم قال تعالى:

٩٨- ﴿اعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ وَأَنَّ اللَّهَ عَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ ﴿٩٨﴾

ولما ذكر سبحانه ألواناً من رحمته بعباده، وأنه أطعمهم من جوع وآمنهم من خوف، رَهَّبَهُمْ من عقابه، ورَغَّبَهُمْ في ثوابه، فذَكَرَهُمْ بعد ذلك بعقوبة المخالف لِهَدْيِ الله تعالى، المنتهك لحرماته، المستحل لها؛ لأن الإيمان لا يتم إلا بحصول الخوف والرجاء، فقال سبحانه: ﴿اعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ لمن عصاه وخالف أمره ونهيه ﴿وَأَنَّ اللَّهَ عَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ لمن تاب وأتاب، وقدم شدة العقاب على مغفرة الذنوب لمناسبة الرحمة في الآية قبله. قال تعالى:

٩٩- ﴿مَّا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا أَلْبَلُغُ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا تَكْتُمُونَ﴾ ﴿٩٩﴾

وفي هذه الآية وعيد للمؤمنين إذا انحرفوا ولم يمثلوا ما بلغه لهم الرسول ﷺ، وفيها إغذار للناس أن الرسول ﷺ قد بلغ عن ربه ما أَرَادَهُ من عباده، فلا عذر لهم في التقصير. وبعد هذا البلاغ من النبي ﷺ وقيام الحجة على العباد، فلا عذر لأحد إذا فرط في جنب الله تعالى، ولم يقم بما أمر الله به ونهى عنه، ومهمة الرسول ﷺ بهذا البلاغ قد انتهت ﴿مَّا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا أَلْبَلُغُ﴾ والقرآن باقٍ إلى قيام الساعة للقيام بهذه المهمة على يد الدعاة إلى الله تعالى. وفي هذا إنذار ووعد لمن عصى الله تعالى، وخالف هداية الرسول ﷺ ودلالته له على الخير.

أما هداية التوفيق التي تنطوي عليها نفوس الناس بما يسرون وما يعلنون من الهدى والضلال، فعلم ذلك عند الله وحده ﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا تَكْتُمُونَ﴾ وهو سبحانه الذي يجازي عباده وفق أعمالهم وأقوالهم. وهكذا أشارت الآية إلى نوعين من الهداية وهما: هداية الإرشاد والدلالة وهذه مهمة النبي ﷺ والدعاة إلى الله تعالى، وهداية التوفيق وهي التي تكون بيد الله تعالى.

الْخَبِيثُ وَالطَّيِّبُ لَا يَسْتَوِيَانِ فِي مِيزَانِ اللَّهِ تَعَالَى

١٠٠- ﴿قُلْ لَا يَسْتَوِي الْخَبِيثُ وَالطَّيِّبُ وَلَوْ أَعْجَبَكَ كَثْرَةُ الْخَبِيثِ فَاتَّقُوا اللَّهَ يَكُونُ الْآلِئِبِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾

وفي ثنايا الحديث عن الحلال والحرام تأتي هذه الآية؛ لتقويم ما في الحياة، وفق قيم الإسلام بميزان الله تعالى، فالخبِيث والطيب في كل شأن من شؤون الدنيا والدين لا يستويان في كل شيء: فالكافر لا يساوي المؤمن، والعاصي لا يساوي المطيع، والجاهل لا يساوي العالم، والمبتدع لا يساوي المتبع، والطالح لا يساوي الصالح، والرديء لا يساوي الجيد، وهكذا في كل شيء.

فالخبِيث: كل ما يُكره؛ لرداءته وخسته، محسوسًا كان أو معقولًا؛ لأنه بغض إلى الله تعالى تمجُّه العقول السليمة، ومصيره إلى الهلاك والبوار.

والطَّيِّب: هو كل حسن أباحت الشريعة، ورضيته العقول السليمة، وهو محمود العاقبة دنيا وأخرى؛ لأنه محبوب إلى الله تعالى.

ولا يستوي في ميزان الله، ولا في ميزان العقلاء، الخبيث والطيب، ولو كان الخبيث كثيرًا، بَرَّاق المنظر، يعجب الناظرين، ومهما فشا وكثر وانتشر، فإنه سيئ العاقبة، سريع الزوال، فهو لذة، تعقبها حسرة، وشهوة تتلوها ندامة ﴿قُلْ لَا يَسْتَوِي الْخَبِيثُ وَالطَّيِّبُ﴾ بوجه عام، في أصناف الناس، وأنواع المكاسب، والمعارف والعلوم، فلا يستوي الإيمان والكفر، ولا الطاعة والمعصية، ولا أهل الجنة وأهل النار، ولا الأعمال الخبيثة والأعمال الطيبة، ولا المال الحرام والمال الحلال وغير ذلك ﴿وَلَوْ أَعْجَبَكَ كَثْرَةُ الْخَبِيثِ﴾ فإنه لا ينفع صاحبه شيئًا بل يضره في دينه ودنياه.

ومن ذلك كل ما في السورة من صور الحلال والحرام ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ يَكُونُ الْآلِئِبِ﴾ اجتنبوا الخبائث، وافعلوا الطيبات يا أصحاب العقول الراجحة ﴿لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ وتفوزون بنيل المقصود الأعظم، وهو رضى الله تعالى والفوز بالجنة، وفي هذا إشارة إلى أن الله تعالى قد خلق العقول للناس؛ ليميزوا الخبيث من الطيب، فيتبعون الطيب ويتروكون الخبيث، وفي مقدمة ذلك معرفتهم بصدق ما جاء به محمد ﷺ.

روى جابر بن عبد الله رضي الله عنه أن رجلاً قال: يا رسول الله، إن الخمر كانت تجارتي، فهل ينفعني ذلك المال إن عملت فيه بطاعة الله؟ فقال له النبي ﷺ: «إن الله طيب لا يقبل إلا طيباً» فنزلت هذه الآية تصديقاً لقول النبي ﷺ ^(١).

وهذا السبب يناسب سياق الآيات في الحلال والحرام، وفيه تحريم ثمن الخمر ونحوها من كل محرم، قال تعالى: ﴿وَالْبَلَدُ الطَّيِّبُ يَخْرِجُ نَبَاتُهُ بِإِذْنِ رَبِّهِ وَالَّذِي خَبثَ لَا يَخْرِجُ إِلَّا نَكِدًا﴾ [الأعراف: ٥٨]. والقليل النافع من الحلال خير من الكثير الضار من الحرام، ومن ذلك أن المؤمنين على قلتهم خير من الكافرين على كثرتهم، فلا يغتروا بهم، ولا يفتنوا بكثرتهم.

النِّدَاءُ الرَّابِعُ عَشَرَ: أَدَبُ السُّؤَالِ

١٠١- ﴿يَتَأْتِيَ الَّذِينَ لَا يَمَنُّونَ لَا تَسْأَلُوا عَنْ أَشْيَاءَ إِنْ بُدِّ لَكُمْ تَسْأَلُونَ عَنْهَا حِينَ يُنْزَلُ^(٣) الْقُرْآنُ^(٤) تَبَدُّ لَكُمْ عَفَا اللَّهُ عَنْهَا وَاللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ^(٥)﴾

وهذا هو النداء الرابع عشر في السورة لأهل الإيمان وهو يتعلق بعدم التعنت في السؤال، حيث يعلم الإسلام أبناءه أدب السؤال، وحدود المعرفة، ومنهج التعليم، والإسلام يأمر أن يتفقه المرء في دينه، وأن يسأل أهل العلم والذكر فيما يجهل ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ إِلَّا رِجَالًا نُوْحِي إِلَيْهِمْ فَسَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ ^(٧) [الأنبياء].

وكما قال ﷺ: «إنما شفاء العيِّ السؤال» ^(٥).

ولكن الإسلام يكره التنطع والمبالغة، والتعمق في السؤال.

يكره أن يبحث الإنسان عما ستره الغيب، ولم ينزل فيه أمر ولا نهي من رب العالمين.

يكره أن يسأل الإنسان عن تفصيل ما أجمله الشرع رحمة بالعباد، يكره الإسلام التنطع في

(١) «أسباب النزول» للواحدي: ص (١٢٠) و«زاد المسير» (٤٣٢/٢).

(٢) قرأ أبو جعفر بإبدال همزة (تسؤلم) وأوًا خالصة وصلًا ووقفًا، ومثله حمزة وقفًا.

(٣) قرأ ابن كثير وأبو عمرو ويعقوب (يُنْزَلُ) بالتخفيف، مضارع أنزل، وقرأ الباقون (يُنْزَلُ) بالتشديد، مضارع نزل.

(٤) قرأ ابن كثير (الْقُرْآنَ) بنقل حركة الهمز إلى الساكن قبلها، والباقون (الْقُرْآنَ) بسكون الراء وتحقيق الهمزة.

(٥) من حديث جابر بن عبد الله عند أبي داود (٣٣٦) بتحسين الألباني، وقال البيهقي في المعرفة: هذا

الحديث أصح ما روي في هذا الباب مع اختلاف في إسناده، نصب الرؤية (١/١٨٧).

الأسئلة الفقهية، وكثرة السؤال فيها: كأن يحمل المرء سؤالاً يسأله أحد العلماء، ثم يذهب ويسأل الثاني والثالث والرابع ونحو ذلك، والله ﷻ أعلم بطاقات خلقه، وأعلم بما يصلحهم في دينهم ودنياهم، فلا تسألوا عن الأشياء التي إذا بُينت لكم ساءتكم وأحزنتكم، كالسؤال الذي يترتب عليه تشديد أو إخراج في الشرع، والسؤال عما لا يعني، وعن حال الإنسان في الجنة أو النار وهكذا فلا تسألوا عن أشياء إن تظهر لكم إجابتها تسؤكم.

وإذا وافق سؤالكم محله، فسألتم عن آية أشكلت عليكم، أو خفي حكمها عنكم وكان ذلك وقت تنزل الوحي على رسول الله ﷺ، يُبين لكم معناها ويظهر لكم حكمها، وإلا فاسكتوا عما سكت الله عنه، فكل ما سكت عنه رب العالمين فهو مما أباحه وعفا عنه، فتعرضوا لمغفرة الله وإحسانه، واطلبوا رحمته ورضوانه.

عدد الأسئلة في القرآن:

والقرآن الكريم قد سجّل أربعة عشر سؤالاً من أصحاب رسول الله ﷺ، وأجاب عنها رب العالمين في الوحي المنزل على رسوله ﷺ جاء ذكرها في القرآن، وأُجيبوا إليها؛ لأنها تبحث عن المعرفة، ومن هذه الأسئلة قوله تعالى:

١- ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَهْلِ قُلْ هِيَ مَوَاقِيتُ لِلنَّاسِ وَالْحَجِّ وَلَيْسَ الْبِرُّ بِأَنْ تَأْتُوا الْبُيُوتَ مِنْ ظُهُورِهَا وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنِ اتَّقَى وَأَتُوا الْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَابِهَا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٧٩﴾﴾ [البقرة].

٢- ﴿يَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ قُلْ مَا أَنْفَقْتُ مِنْ خَيْرٍ فَلِلَّذِينَ وَالْأَقْرَبِينَ وَالْيَتَامَى وَالْمَسْكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ ﴿٦٥﴾﴾ [البقرة].

٣- ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الشَّهْرِ الْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ قُلْ فِيهِ كِبِيرٌ وَصَدٌّ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَكُفْرٌ بِهِ وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِ مِنْهُ أَكْبَرُ عِنْدَ اللَّهِ وَالْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ الْقَتْلِ وَلَا يَزَالُونَ يَقْتُلُونَكُمْ حَتَّى يَرُدُّوكُمْ عَنْ دِينِكُمْ إِنِ اسْتَطَاعُوا وَمَنْ يَرْتَدِدْ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ فَأُولَئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿١٧٧﴾﴾ [البقرة].

٤- ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنْفَعٌ لِلنَّاسِ وَإِنَّهُمَا أَكْبَرُ مِنْ نَفْعِهِمَا﴾ [البقرة: ٢١٩].

٥- ﴿يَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ قُلِ الْغَفْوُ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ﴾ [البقرة: ٢١٩].

- ٦- ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الَّتِي تَمَىٰ قُلْ إِصْلَاحٌ لِّهِنَّ خَيْرٌ﴾ [البقرة: ٢٢٠].
- ٧- ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْمَحِيضِ قُلْ هُوَ أَذَىٌّ﴾ [البقرة: ٢٢٢].
- ٨- ﴿يَسْأَلُونَكَ مَاذَا أَحَلَّ لِهِنَّ قُلْ أَحَلَّ لَكُمُ الطَّيِّبَاتُ وَمَا عَلَّمْتُم مِّنَ الْجَوَارِجِ مُكَلِّبِينَ تَعْلَمُونَهُنَّ مِمَّا عَلَّمَكُمُ اللَّهُ فَكُلُوا مِمَّا أَمْسَكْنَ عَلَيْكُمْ وَاذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهِ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾ [المائدة: ٤].
- ٩- ﴿يَسْأَلُكَ أَهْلُ الْكِتَابِ أَن تُنَزِّلَ عَلَيْهِمْ كِتَابًا مِّنَ السَّمَاءِ فَقَدْ سَأَلُوا مُوسَىٰ أَكْبَرَ مِنْ ذَلِكَ فَقَالُوا أَرِنَا اللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْهُمُ الصَّاعِقَةُ بِظُلْمِهِمْ ثُمَّ اتَّخَذُوا الْعِجْلَ مِن بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمْ الَّتِي نُنَزِّلُ فَأَعْفَوْنَا عَنْ ذَلِكَ وَإِنَّا لَمُنذِرُونَ﴾ [النساء: ١٥٣].
- ١٠- ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ رَبِّي لَا يُجِيبُهَا لَوْفَهَا إِلَّا هُوَ نُقِلَتْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ لَا تَأْتِيكُمُ إِلَّا بَغْثَةٌ يَسْأَلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِيٌّ عَنْهَا قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ اللَّهِ وَلَكِنِّي أَكْثَرُ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الأعراف: ١٨٧].
- ١١- ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَنْفَالِ قُلِ الْأَنْفَالُ لِلَّهِ وَالرَّسُولِ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ إِن كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ [الأنفال: ١].
- ١٢- ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [الإسراء: ٨٥].
- ١٣- ﴿يَسْأَلُكَ النَّاسُ عَنِ السَّاعَةِ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ اللَّهِ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ السَّاعَةَ تَكُونُ قَرِيبًا﴾ [الأحزاب: ٦٣].
- ١٤- ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا﴾ [النازعات: ٤٢].

هذه الأسئلة تبحث عن المعرفة: يسألونك عن الخمر؟ يسألونك عن الأهلة؟ يسألونك عن اليتامى؟ يسألونك ماذا ينفقون؟ وغير ذلك من الأسئلة التي جاء ذكرها، والجواب عنها في القرآن الكريم.

في صحيح البخاري وغيره عن أنس رضي الله عنه قال: خطب رسول الله ﷺ خطبة ما سمعتُ مثلها قط، قال: «لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلاً ولبكيتم كثيراً»، قال: فغطى أصحاب رسول الله ﷺ وجوههم، وله خنين، فقال رجل: من أبي؟ قال: فلان، فترلت الآية^(١).

(١) «صحيح البخاري» برقم (٤٦٢١) وانظر: (٩٣) و«صحيح مسلم» (٢٣٥٩).

والسائل هو عبد الله بن حذافة السهمي، كما جاء في الحديث الآخر، أن النبي ﷺ خرج -أي: على المنبر- فقام عبد الله بن حذافة، فقال: مَنْ أَبِي؟ فقال: «أبوك حذافة» ثم أكثر أن يقول: «سلوني» فبرك عمر على ركبتيه فقال: رضينا بالله رباً، وبالإسلام ديناً، وبمحمد ﷺ نبياً، فسكت^(١).

وفي صحيح مسلم وغيره من حديث أبي موسى قال: سئل النبي ﷺ عن أشياء كرهها، فلما أكثر عليه غضب، ثم قال للناس: «سلوني عما شئتم» فقال رجل: من أبي؟ قال: «أبوك حذافة» فقال آخر: من أبي؟ يا رسول الله، قال: «أبوك سالم مولى شيبه» فلما رأى عمر ما في وجه النبي ﷺ من الغضب، قال: يا رسول الله، إنا نتوب إلى الله^(٢).

وفي صحيح البخاري من حديث ابن عباس ؓ قال: كان قوم يسألون رسول الله ﷺ استهزاء، فيقول الرجل: من أبي؟ ويقول الرجل تضل ناقته: أين ناقتي؟ فأنزل الله فيهم الآية^(٣).

ولما أكثر بعض الأعراب والجهال والمنافقين من سؤال النبي ﷺ على وجه أثقله، حيث كان بعضهم يسأل: ماذا ألقى في سفري هذا؟ وبعضهم يسأل استهزاء واستخفافاً وتعتناً، فيقول: ماذا في بطن ناقتي؟ وأين ناقتي؟ وبعضهم كان يسأل النبي ﷺ أين ناقتي التي ضلّت عنه؟ وفي أي مكان يجدها؟

ثم إن النبي عليه الصلاة والسلام صعد المنبر، وخطب فيهم خطبة بليغة أثرت في نفوسهم أيما تأثير، ثم قال لهم: «ما سألتُموني عن شيء في مقامي هذا إلا بيّنته لكم»، قال أنس راوي الحديث: فجعلت لا ألتفتُ يميناً ولا شمالاً إلا وجدت كُلاًّ لافاً رأسه في ثوبه يبكي من كلام النبي ﷺ، وكان عبد الله بن حذافة إذا تخاصم مع رجل وتلاحي معه ينسبه إلى غير أبيه، قال عبد الله للنبي ﷺ: من أبي يا رسول الله؟ فقال النبي عليه الصلاة والسلام: «أبوك حذافة» أي: أن أباك الذي تتسب إليه حذافة، فلما سمعت أمه بهذه المقولة، قالت له: ما رأيت ابناً أعق منك، هل ظننت أنني قاربتُ مثل ما يقارب نساء أهل الجاهلية، فتريد أن تفضحني بين الناس؟ ولما رأى عمر الغضب على وجه رسول الله ﷺ

(١) «صحيح البخاري» برقم (٩٣) وانظر: (٤٥٠، ٧٤٩٠) و«صحيح مسلم» (٢٣٥٩).

(٢) «صحيح مسلم» برقم (٢٣٦٠) و«صحيح البخاري» برقم (٧٢٩١، ٩٢).

(٣) «صحيح البخاري» برقم (٤٦٢٢).

جلس على ركبتيه وقال: رضينا بالله ربًّا، وبالإسلام دينًا، وبمحمد نبيًّا، وبالقرآن إمامًا، يا رسول الله، كُنَّا حديثي عهد بالجاهلية، ولا يدري أحدنا من أبوه؟ فسكن غضب النبي ﷺ^(١).

وهكذا كانوا يسألون رسول الله ﷺ عن بعض الأسئلة التي إن ظهرت تسوهم، وإن كانت الإجابة تنزل عليهم، ربما يحدث فيها مشقة على المسلمين.

والنبي عليه الصلاة والسلام يقول: «إن أعظم المسلمين جرمًا، من سأل عن شيء لم يحرم، فحرم من أجل مسألته»^(٢).

والنبي عليه الصلاة والسلام يقول: «إن الله تعالى يرضى لكم ثلاثًا، ويكره لكم ثلاثًا، فيرضى لكم أن تعبدوه ولا تشركوا به شيئًا، وأن تعتصموا بحبل الله جميعًا ولا تفرقوا، ويكره لكم: قيل وقال، وكثرة السؤال، وإضاعة المال»^(٣).

وقد جاء في الأثر: أن هناك أشياء سكت عنها الشرع فلم يذكرها، أو أنه أجملها ولم يفضلها، رحمة بنا من غير نسيان، ونهانا أن نسأل عنها؛ لأن هذا من باب التنطع والتشدد والتكلف، ولذلك أمثلة كثيرة:

هب أنك أردت الصلاة في بيت زيد من الناس، وليس أمامك نجاسة ظاهرة في المكان، لا ينبغي لك أن تسأل: هل هذا المكان نجس أم طاهر؟

وكذا إذا نزل عليك ماء وأنت في الطريق، وليس فيه أماراة من أمارات النجاسة الظاهرة، من تغيير لون أو ريح أو طعم، لا ينبغي لك أن تقف وتسأل: هل هذا الماء طاهر أم نجس؟

وبعض الناس يرى رجلًا صالحًا في ظاهر حاله، ثم يشق على نفسه ويكلفها عناء،

(١) هذه روايات بالمعنى، والنص في البخاري برقم (٦٣٦٢، ٧٠٨٩) و«صحيح مسلم» برقم (٢٣٥٩) وأحمد في «المسند» (٢١٠/٣) برقم (١٢٠٤٤، ١٢٦٥٩، ١٣٦٦٦) وفي «تفسير الطبري» (١١/١٠٠) و«سنن الترمذي» برقم (٣٠٥٦).

(٢) يراجع الحديث في البخاري (٣٦٤/١٣) برقم (٧٢٨٩) ومسلم (١٨٣١/٤) برقم (٢٣٥٨) واللفظ للبخاري.

(٣) من حديث أبي هريرة في «صحيح مسلم» برقم (١٧١٥) وهذا لفظه وفي البخاري عن المغيرة بن شعبة برقم (١٤٧٧، ٢٤٠٨).

ويؤثّمها حين يقول: لا أدري عن عقيدة فلان؟ وأقول: إذا كنت لم تر منه شرًا ظاهرًا، ولم تر منه شيئًا يظهر في أقواله وأفعاله، فلماذا تظلم نفسك، وتتهم أخاك، وتظن فيه ظن السوء، وأنت تقول: لا أدري؟ وما دمت لا تدري فلماذا تظلم نفسك، وتظن ما ليس لك به علم، وقد أمرنا الإسلام أن نأخذ بالظاهر، وأن نحسن الظن بالناس، حتى يثبت العكس.

والقرآن الكريم يجيب عن هذا كله في هذه الآية من سورة المائدة ﴿يَتَأْتِيَ الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَسْأَلُوا عَنْ أَشْيَاءَ إِنْ بُدِّ لَكُمْ تَسْأَلُكُمْ﴾ إن ظهر لكم الجواب عنها يكون فيها مشقة عليكم وكلفة.

وهذا السؤال المنهي عنه هو الذي لم يأت له ذكر في الكتاب أو السنة، أما السؤال عن حكم شرعي لفهمه ومعرفته فهو أمر مطلوب ﴿وَإِنْ تَسْأَلُوا عَنْهَا﴾ مما لم يرد فيها نص ﴿حِينَ يُنَزَّلُ الْقُرْآنُ﴾ أي: وقت نزول الوحي في زمن النبي ﷺ ﴿بَدَّ لَكُمْ﴾ ينزل الجواب عليها من السماء فيسيء إليكم، كهذا الذي سأل النبي ﷺ: أين أنا؟ أو أين أبي؟ فقال: «في النار» فلا شك أن هذا مما يسوء السائل، والأسئلة التي سألها بعضهم ليست في شؤون الدين، ولكنها في شؤون ذاتية خاصة بهم، لا يتعلق بها مهمة الرسول ﷺ في البلاغ عن ربه، وكانوا قد ألحوا في ذلك، والله تعالى لم يكلفهم هذا البحث، وهي مما ﴿عَفَا اللَّهُ عَنْهَا﴾ أي: لم يكلفكم بها ولم يفرضها عليكم.

ثم ختم الله الآية بقوله: ﴿وَاللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ﴾ حيث لم يكلفهم فوق طاقتهم قد تكون هذه المسألة من الأمور التي أجملها الشرع ولم يفصلها، رحمة بالعباد، والله تعالى هو اللطيف الخبير ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ﴾ [الملك: ١٤] وهو سبحانه أدرى بعباده، وما يصلح شؤونهم في الدين والدنيا.

وفي الأثر عن أبي ثعلبة الخشني: «إن الله تعالى فرض فرائض فلا تضيّعوها، وحدّ حدودًا فلا تعتدوها، وحرم أشياء فلا تنتهكوها، وسكت عن أشياء رحمة بكم من غير نسيان، فلا تسألوا عنها»^(١).

وهذه الأمور قد تكون مما عفا الله عنها، فالحلال بيّن وواضح، والحرام كذلك، وهناك

(١) الأثر عن أبي ثعلبة، الحاكم في «المستدرک» (٣٧٥/٢) والبيهقي في «السنن الكبرى» (١٣/١٠) وفي سنده مقال.

أمر سكت عنها الشرع ولم يذكرها، فلا تكلف نفسك مشقة العناء في السؤال عنها.

وقد صح عن النبي ﷺ أنه قال: «دعوني ما تركتكم فإنما أهلك من كان قبلكم كثرة سؤالهم واختلافهم على أنبيائهم، فإذا نهيتكم عن شيء فاجتنبوه، وإذا أمرتكم بشيء فأتوا منه ما استطعتم»^(١).

سَبَبُ النَّهْيِ عَنْ سُؤَالِ التَّعَنُّتِ

١٠٢- ﴿قَدْ سَأَلَهَا قَوْمٌ مِّن قَبْلِكَ ثُمَّ أَصْبَحُوا بِهَا كَافِرِينَ﴾

ثم بيّن ﷺ سبب النهي عن سؤال التعنت، بأن مثل هذه المسائل قد سألتها من قبلكم على وجه التعنت، فلما بُيِّنَتْ لهم كفروا بها، كأن الله سبحانه يقول: لا تكونوا كقوم صالح الذين سألوهم أن يخرج لهم ناقة حلوب من صخرة صماء، فأجابهم الله تعالى إلى سؤالهم، ومع ذلك لم يؤمنوا فعقروها، ولم يُدْعُوا ﴿ثُمَّ أَصْبَحُوا بِهَا كَافِرِينَ﴾ فأهلكهم الله، وكثيراً ما كان بنو إسرائيل يستفتون أنبياءهم عن أشياء، فإذا أمروا بها تركوها، فهلكوا.

فلا تكونوا كبني إسرائيل الذين سألو الله يوماً خاصاً للطاعة والعبادة فأعطوا يوم السبت، فلم يوفؤا بما طلبوا.

ولا تكونوا كبني إسرائيل شددوا على أنفسهم فشدد الله عليهم، فقد أمرهم بذبح بقرة، ولو ذبحوا آية بقرة لأجزأتهم، ولكنهم سألو عن سنّها وعن لونها وعن عملها وهكذا، حتى اشتروها بملء جلدّها ذهباً، وما كادوا يفعلون مع ذلك كله، شددوا على أنفسهم فشدد الله عليهم.

ولا تكونوا كبني إسرائيل حين سألو موسى أن يريهم الله جهرة، فأخذتهم الصاعقة وهم ينظرون.

ولا تكونوا كبني إسرائيل طلبوا ملكاً يقاتل معهم في سبيل الله، فلما أجابهم الله تعالى إلى ما طلبوا تولّوا وأعرضوا ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الْمَلَكِ مَنِ ابْنَىٰ إِسْرَءِيلَ مِنْ بَعْدِ مُوسَىٰ إِذْ قَالُوا لِنَبِيِّهِمْ اأَبْعَثْ لَنَا مَلِكًا نُّقَاتِلَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ قَالَ هَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ

(١) من حديث أبي هريرة في البخاري برقم (٧٢٨٨) ومسلم برقم (١٣٣٧).

أَلَّا نَقْتُلُوهُمْ قَالُوا وَمَا لَنَا أَلَّا نُقَاتِلَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَقَدْ أَخْرَجَنَا مِنْ دِيَارِنَا وَأَبْنَاءِنَا فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ تَوَلَّوْا إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ ﴿٢٤٦﴾ [البقرة].

ولا تكونوا كقوم عيسى الذين طلبوا المائدة وسألوها، فلما أجيئوا إليها لم يعملوا بها وكفروا، فأهلكهم الله كما أهلك قوم صالح وغيرهم.

وفي الحديث عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: خطبنا رسول الله ﷺ فقال: «أيها الناس، قد فرض الله عليكم الحج فحجوا»، فقال رجل: أكل عام يا رسول الله؟ فسكت حتى قالها ثلاثاً، فقال رسول الله ﷺ: «لو قلت نعم، لوجبت، ولما استطعتم»، ثم قال: «ذروني ما تركتكم، فإنما هلك من كان قبلكم بكثرة سؤالهم واختلافهم على أنبيائهم، فإذا أمرتكم بشيء فأتوا منه ما استطعتم وإذا نهيتكم عن شيء فدعوه»^(١).

فالآية والحديث فيهما النهي عن سؤال ما لم نؤمر به، وما هو غير موجود، وما يترتب عليه تشديد، لو كلّفنا الله به لشق علينا، وقد نعجز عنه إذا كلّفنا به، مع أن الله تعالى أعفى عباده منه.

ومثل هذه الأسئلة قد سألها قوم من قبلنا لرسولهم، فلما أمروا بها جحدوها، ولم يتقدّوها، فاحذروا أن تكونوا مثلهم أيها المؤمنون، ومن الأسئلة المذمومة:

١- السؤال عما لا ينفع في الدين، كسؤال عبد الله بن حذافة، من أبي يا رسول الله؟ فأجابه: «أبوك حذافة».

٢- وسؤال بعضهم: أين ناقتي، وماذا في بطنها؟

٣- السؤال عن شيء بيّنه القرآن، كسؤال الرجل عن الحج: أكل عام يا رسول الله؟

٤- السؤال عما لم ينزل فيه حكم: «ذروني ما تركتكم».

٥- السؤال عن أصعب المسائل وأشدّها، كسؤال بني إسرائيل عن البقرة.

(١) أخرجه مسلم (٩٧٥/٢) برقم (١٣٣٧، ٢٣٥٧) وأحمد في «المسند» (٥٠٨/٢)، (١١٣/١) برقم (٧٣٦٧، ٨١٤٤، ١٠٦٠٧) والترمذي برقم (٣٠٥٥) وابن ماجه برقم (٢٨٨٤) و«تفسير الطبري» (١١/١٠٥) والرجل السائل هو الأقرع بن حابس كما جاء في بعض الروايات.

- ٦- السؤال عن علة الحكم في العبادات، كسؤال لماذا تقضي الحائض الصوم دون الصلاة؟
- ٧- التكلف والتعمق في السؤال، كسؤال عمرو بن العاص صاحب الحوض: هل ترد حوضك السباع؟ فقال عمر بن الخطاب: يا صاحب الحوض لا تخبرنا، فإننا نرد على السباع وترد علينا.
- ٨- السؤال عن الأمور المتشابهة، كالسؤال عن الاستواء والنزول.
- ٩- السؤال عما كان بين الصحابة والسلف من خلاف، كما قال عمر بن عبد العزيز: تلك دماء كف الله عنها يدي، فلا أحب أن أطح بها لساني.
- ١٠- سؤال التعتن والإفحام، وطلب الغلبة على الخصم، كما في الحديث عن عائشة رضي الله عنها: «أبغض الرجال إلى الله الألدُّ الخصم»^(١).
- ١١- السؤال عن وقوع آيات، كما سألت قريش النبي ﷺ أن يجعل لهم أنهارًا، وأن يجعل لهم الجبل ذهبًا، وسؤال اليهود لموسى أن ينزل عليهم كتابًا من السماء. ويقاس على ذلك سواها مما يحرم، أو يكره، أو يُنزه عنه اللسان، أو لا تدعو إليه الحاجة.

صُورٌ مِنْ تَحْرِيمِ مَا أَحَلَّ اللَّهُ

١٠٣- ﴿مَا جَعَلَ اللَّهُ مِنْ بَحِيرَةٍ وَلَا سَائِبَةٍ وَلَا وَصِيلَةٍ وَلَا حَامٍ وَلَكِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَكَثُرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾

ولما بيّن الله سبحانه أنه جعل الكعبة قيامًا للناس، وجعل الهدى والقلائد قيامًا لهم كذلك، ذكر في هذه الآية أمورًا يزعم بعض أهل الجاهلية أن لها حرمة وقُدسية، ثم فَرَّقَ جُلَّ شأنه بين الخبيث والطيب حتى لا يخلط الناس بين الهدى والضلال، وكان من الأسئلة التي وُجِّهَت للنبي ﷺ السؤال عن أمور كانت في الجاهلية مما يفعله الناس، ولم يحرمه رب العالمين، بل حرموه هم على أنفسهم، وهو السؤال عن البحيرة والسائبة والوصيلة والحام، وكانوا يظنون أن هذه الأشياء ينبغي أن تُعظَّم، كما تُعظَّم الكعبة والحرَم، فسألوا عنها، فأجيبوا بأن الله تعالى لم يُحرِّم شيئًا من ذلك، ولا سنَّ لعباده،

(١) يُنظر: «الموافقات» للشاطبي، والحديث في البخاري عن عائشة برقم (٢٤٥٧، ٤٥٢٣) وفي مسلم (٢٦٦٨).

ولكن رؤساء الكفار؛ كعمرو بن لُحَيٍّ، هم الذين فعلوا ذلك، افتراء على الله، وظنوا أنها قربي إليه سبحانه.

وهكذا فالله ﷻ يجيب على هذه الأسئلة بأنه جلَّ شأنه لم يحرم شيئاً من ذلك، ما بحر بحيرة، ولا سبب سائبة، ولا وصل وصيلة، ولا حمى حام ﴿وَلَكِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يَقْتُلُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ﴾ وفي هذا ذم للمشركين الذين شرعوا في دين الله ما لم يأذن به الله، وحرّموا على أنفسهم ما أحله الله، فجعلوا شيئاً من مواشيهم محرّماً فها هذه الأشياء التي ابتدعتموها، وما معنى هذه المسميات؟:

البحيرة: هي الناقة، وكانت إذا نتجت أو ولدت خمساً وأت بالسادس أنثى، فإنهم يبحرونها، أي: يشقون أذنّها ويعلمونها ويتركونها، فلا ينتفعون بشيء منها، لا بألبانها، ولا بأوبارها، ولا غير ذلك، وتترك للآلهة، فلا تتركب ولا يُحمل عليها ولا يؤكل لحمها.

أما السائبة: فهي الناقة أو البقرة أو الشاة، ينذر المرء إن شفاه الله من مرضه، أو إن قدم من سفر، فإنه يسب هذه الشاة أو هذه الناقة، أي: يتركها للآلهة، تسير وترعى، فلا يعترضها أحد، ولا يُنتفع بشيء من ألبانها، أو أشعارها، أو أصوافها، بل تُسب للآلهة، فلا تتركب ولا يُحمل عليها ولا تؤكل.

أما الوصيلة: فهي الناقة أو الشاة تأتي بأنثى، وتعتقبها بأنثى أخرى ليس بينهما ذكر، فإذا جاءت بذكر يقولون: قد وصلت أخاها، فيمتنعون عنها، ويحرّمونها على أنفسهم، وربما خصوها بالهتيم على تفصيل طويل في ذلك.

والوصيلة: هي الناقة البكر، تُبكر في أول نتاج الإبل، ثم تُثنى بعدها بأنثى، وكانوا يسيبونها لآلهتهم إذا وصلت إحداها بالأخرى ليس بينهما ذكر.

أما الحامي: فهو الجمل الذي يحمى ظهره عن الركوب وحمل المتاع عليه إذا نتج من صُلبه عشرة، فيقولون: حمى ضرعه.

فالحام: فحل الإبل، يضرب الضراب المعدود، فإذا قضى ضرابه تركوه للطواغيت، وأعفوه من الحمل، فلم يحمل عليه شيء، وسمّوه: الحامي^(١).

(١) يُنظر: البخاري (٢٨٣/٨) برقم (٣٥٢١، ٤٦٢٣، ٤٦٦٣) ومسلم (٢١٩١/٤) برقم (٢٨٥٦) وأحمد في «المسند» (٣٦٦/٢) برقم (٧٧١٠، ٨٧٨٧)، حديث صحيح ورجاله ثقات رجال الشيخين. (محقّقه).

١- أخرج البخاري بسنده عن سعيد بن المسيب قال: «البحيرة: التي يُمنع درُّها للطواغيت، فلا يحلبها أحد من الناس، والسائبة: كانوا يسيبونها لآلهتهم، لا يُحمل عليها شيء، وقال: قال أبو هريرة: قال رسول الله ﷺ: «رأيت عمرو بن عامر الخزاعي يجرُّ قُضْبَهُ في النار» - كان أول من سيَّب السوائب.

٢- وعن عائشة رضي الله عنها أن رسول الله ﷺ قال: «رأيت جهنم يحطم بعضها بعضاً، ورأيت عمرو يجرُّ قُضْبَهُ، وهو أول من سيَّب السوائب»^(١).

٣- وعن زيد بن أسلم قال: قال رسول الله ﷺ: «إني لأعرف أول من سيَّب السوائب، وأول من غيَّر دين إبراهيم»، قالوا: من هو يا رسول الله؟ قال: «عمرو بن لُحَيٍّ، أخو بني كعب، لقد رأيته يجرُّ قُضْبَهُ في النار، يؤذي ريحه أهل النار، وإنني لأعرف أول من بَحَّرَ البحائر»، قالوا: من هو يا رسول الله؟ قال: «رجل من بني مُدَلِج، كانت له ناقتان، فجذع أذانهما، وحرَّم ألبانهما، ثم شرب ألبانهما بعد ذلك، فلقد رأيته في النار، وهما بعضانه بأفواههما، ويطَّانه بأخفافهما»^(٢).

هذه أشياء صنعها البشر ما أنزل الله بها من سلطان، فيحرمونها من غير دليل ولا برهان، إنما كان ذلك افتراء على الله صادر من جهلهم وعدم عقلهم، وقد أبطلها الإسلام جملة وتفصيلاً ﴿وَأَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾ فلا نقل فيها ولا عقل.

ولهذه الأربع السابقة وهي البحيرة والسائبة والوصيلة والحامي معان أخرى غير ما سبق بيانه، وحين نقرأ هذه الآية، نشم السخف الذي كان في عقول هؤلاء القوم، وهذه الأشياء لها نظائر موجودة في وقتنا، وهذه النظائر توضحها الآية بعدها.

ذُمُّ التَّقْلِيدِ الْأَعْمَى

١٠٤ - ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَى مَا أَنزَلَ اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ قَالُوا حَسْبُنَا مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا ؕ أُولَئِكَ كَانُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ لَا يَعْلَمُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ﴾^(١٤)

(١) البخاري (٢٨٣/٨) برقم (٤٦٢٤) وقد تفرد به وفي مسلم مطولاً برقم (٩٠١).

(٢) تفسير عبد الرزاق (١/١٩١) و«تفسير الطبري» (١١/١٢٠) من طريق عبد الرزاق وابن أبي شيبة (١٤/٩٢).

أي: وإذا قيل لهؤلاء الذين ينسبون إلى الله تعالى -كذبًا وافتراء- ما لم يأمر به من البحيرة والسائبة والوصيلة والحامي، إذا قيل لهم: اتبعوا شرع الله فيما أحل وحرم، واتركوا ما كان عليه آبائكم من الجهل والضلال، أعرضوا عنه فلم يقبلوا، وتمسكوا بما كان عليه من سبقهم، وقالوا: نكتفي بما كان عليه أجدادنا وأسلافنا، وهذا شأن العوام المقلدين في كل زمان ومكان -إلا من رحم الله- وهذه حجة كل مقلد في الضلال، من غير تعقل ولا تدبر، حتى ولو كان هؤلاء الآباء أجهل من دابة.

وهذه القاعدة توجد كثيرًا في المجتمعات، فالناس غالبًا يقلدون من سبقهم، الابن يقلد أبويه، ويقلد المجتمع، فإن نشأ في بيئة تعبد الأصنام قلدها غالبًا، وإن رآهم يطوفون حول الأضرحة وينذرون لها ويذبحون عندها، قلدهم دون نظر ولا فكر، ودون بحث عن الدليل والحكم الشرعي، والتقليد في العبادة والعقيدة، قد يخرج الإنسان من الملة، بخلاف التقليد في الأمور الاجتماعية؛ كالمآكل والمشرب ونحوهما مما لم ينزل فيه تحريم، فقد لا يكون به بأس.

وكثيرًا ما تسأل فلانًا، لماذا تفعل الشيء الفلاني؟ فيقول: وجدنا آباءنا كذلك، والمجتمع يفعل ذلك، ويفعله فلان وفلان، ممن يتسبون إلى العلم، المسؤول الفلاني يفعل، وأكبر الناس في المال والجاه يفعله، والجواب على ذلك أن الحق لا يُعرف بالرجال، وإنما يُعرف بالدليل والحكم الشرعي، فما وافق الشرع فعلناه، وما خالفه تركناه وإن فعله الناس كلهم ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوَلَوْ كَانَ الشَّيْطَانُ يَدْعُوهُمْ إِلَىٰ عَذَابِ السَّعِيرِ﴾ [لقمان].

وما أنزله الله هو القرآن والسنة، يقول سبحانه: ﴿أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ﴾ أي: يقلدونهم ولو كانوا على غير بصيرة، ولو كانوا على غير هدى ولو كانوا على ضلال. والافتداء إنما يكون بالعالم المهتدي، الذي يبني قوله على الحجة والبرهان والدليل، ويعمل به، ولا تخالف أقواله أفعاله.

الدُّعَاءُ الْخَامِسَ عَشَرَ: النَّهْيُ عَنِ الْمُنْكَرِ مِنْ جُمْلَةِ الْإِهْتِدَاءِ

١٠٥ - ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَيْكُمْ أَنْفُسَكُمْ لَا يَضُرُّكُمْ مَن ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فِئْتِنَتُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [١٠٥]

هذا هو النداء الخامس عشر لجماعة المؤمنين في السورة، وهو يتعلق بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، فيما يصدر عن المؤمن من حلال، أو حرام، أو مندوب، أو مكروه، والمسلم مطالب بأمرين:

الأمر الأول: أن يُصلح نفسه، وأن يُلزمها طاعة الله عزَّ وجلَّ، مخلصاً في ذلك لله سبحانه، ومتبعاً ما جاء به رسول الله ﷺ.

والأمر الثاني: مطلوب من المسلم أن يصلح غيره، كلما استطاع إلى ذلك سبيلاً، يصلح أبنائه وأهل بيته، ويصلح كل مسلم عاص، وكل ضالَّ، ويصلح جيرانه، وجلساءه وأصدقاءه وزواره، يأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر، وهذه وظيفة الأمة الإسلامية، فلا يكفي أن تكون في نفسك صالحاً، وإنما عليك تبعة ومسؤولية، هي هداية الناس وإرشادهم.

وقد سئل الرسول عليه الصلاة والسلام: **أنهلك وفينا الصالحون؟** قال: **«نعم، إذا كثر الخبث»**^(١).

قال تعالى: ﴿وَاتَّقُوا فِتْنَةً لَا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ خَاصَّةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ [الأنفال] فالنقمة تعم، لو أن الناس رأوا المنكر ولم يغيروه.

ولا بد لمن يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر أن يصاب بشيء من الأذى، بالقول أو بالفعل، ولا يُثنيه ذلك عن القيام بواجب الدعوة ومهمة الأمة التي أناط الله بها خيريتها وأفضليتها، كما قال تعالى: ﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾ بماذا كانت هذه الخيرية؟ ﴿تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَوْ ءَامَنَ أَهْلُ الْكِتَابِ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ مِنْهُمْ الْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ [آل عمران: ١١٠].

ولأمرٍ مَّا قَدَّمَ الله تعالى الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، على الإيمان بالله تعالى في هذه الآية، فإذا لم تفعلوا ذلك لم تكونوا خير أمة، ولم يتحقق فيكم واجب الخلافة

(١) أخرجه الشيخان عن زينب بنت جحش رضي الله عنهما، يُنظر: «صحيح مسلم» برقم (٢٨٨٠) و«صحيح البخاري» برقم (٣٣٤٦، ٣٥٩٨، ٧٠٥٩، ٧١٣٥).

التي أمرنا الله سبحانه بإقامتها .

فالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر قطب هام عظيم، وركن كبير في الإسلام، وينبغي أن تقوم كل أمة من دول الإسلام بهذه المهمة؛ إذ لا بد لكل دولة مسلمة من رفع راية الجهاد لنشر الدعوة وحمايتها، ولا بد لها من وجود هيئة تأمر بالمعروف وتقوم عليه، وتنهى عن المنكر، فتمنعه بين الناس، ومن ذلك أنها تقيم الصلاة في الناس وتأمرهم بها، وتجمع الزكاة وتوزعها على مستحقيها، وتمنع الغش من الأسواق، وتمنع المحرمات، والسفور والخلوة في الأماكن العامة والخاصة، والمحلات التجارية، والأسواق، وفي الشوارع ووسائل الإعلام، ودواوين العمل، وغير ذلك ﴿تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ﴾ .

فلا بد أن يهتدي الإنسان في نفسه أولاً، وأن يهدي غيره ثانيًا، يشير إلى ذلك قول الله سبحانه: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا عَلَيْكُمْ أَنفُسَكُمْ﴾ أصلحوا أنفسكم، والزمو الهداية، وأصلحوا غيركم، فإنكم إذا أصلحتم أنفسكم، وأمرتم غيركم بالمعروف ونهيتموهم عن المنكر، تكونوا قد اهتديتم، فإن العبد لا يتم هداه إلا إذا اجتهد في إصلاح نفسه وإصلاح غيره .

بعد ذلك ﴿لَا يَضُرُّكُمْ مَن ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ﴾ أي: إذا أمرتم بالمعروف ونهيتم عن المنكر، فلن تشفع لكم هدايتكم وخدمكم، وقد لا تستطيعون أن تغيروا المنكر، ولكن إن أدبتم الواجب، فلا عليكم من ضلال غيركم بعد بذل السبب في هدايته .

والله سبحانه يبين أن الناس جميعًا في خسران وهلاك، وأقسم على ذلك في قوله تعالى: ﴿وَالْعَصْرِ ۝١ إِنَّ الْإِنسَانَ لَفِي خُسْرٍ ۝٢﴾ [العصر]، ثم استثنى سبحانه ﴿إِلَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ [العصر: ٣] وهؤلاء هم الذين أصلحوا أنفسهم، هذا هو الشق الأول، وأما الشق الثاني فهم الذين أصلحوا غيرهم: ﴿وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ﴾ [العصر: ٣] فلم يكتف القرآن الكريم أن يبين أنهم صلحاء في أنفسهم فقط، وإنما أوجب عليهم أن يصلحوا غيرهم ﴿وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ﴾ .

قيل: إن هذه الآية حين نزلت كان في مجلس عبد الله بن مسعود رجلان يختصمان، فقام أحد الناس يصلح بينهما، قال له الآخر: عليك نفسك، فغضب عبد الله بن مسعود وقال: إن هذا مخالف للإسلام، وأن هذه الآية ليس معناها هكذا، ثم بين أن عدم الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر إنما يكون في آخر الزمان عند ظهور علامات الساعة، حيث

يعم الفساد ويستشري في الأرض، ولا يوجد من يقبل الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر^(١).

فقد خطب أبو بكر رضي الله عنه في الناس، فحمد الله وأثنى عليه، وقال: يَا أَيُّهَا النَّاسُ، إِنَّكُمْ تَقْرَوْنَ هَذِهِ الْآيَةَ ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَيْكُمْ أَنْفُسُكُمْ لَا يَضُرُّكُمْ مَنْ ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ﴾ وَإِنَّكُمْ تَضَعُونَهَا فِي غَيْرِ مَوْضِعِهَا، وَإِنِّي سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «إِنَّ النَّاسَ رَأَوْا الْمُنْكَرَ وَلَمْ يَغْيُرُوهُ أَوْشَكَ أَنْ يَعْصِمَهُمُ اللَّهُ بِعِقَابٍ»^(٢).

وتتعطل هذه الفريضة، ويتعطل هذا الركن الهام في الإسلام، إذا فسدت الناس وذلك عند قرب قيام الساعة.

قال عليه الصلاة والسلام فيما يرويه أبو ثعلبة الخشني: «اتَّمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَتَنَاهَاوْا عَنِ الْمُنْكَرِ حَتَّى إِذَا رَأَيْتَ شَحًّا مَطَاعًا، وَهَوًى مُتَبَعًا، وَدُنْيَا مُؤَثَّرَةً، وَإِعْجَابَ كُلِّ ذِي رَأْيٍ بِرَأْيِهِ، فَعَلَيْكَ بِخَاصَّةِ نَفْسِكَ، وَدَعْ عَنْكَ الْعَوَامَ، فَإِنَّ مِنْ رِثَائِكُمْ أَيَّامًا، الْقَابِضُ فِيهَا عَلَى دِينِهِ كَالْقَابِضِ عَلَى الْجَمْرِ، لِلْعَامِلِ فِيهِمْ مِثْلُ أَجْرِ خَمْسِينَ مِنْكُمْ»، قيل: يَا رَسُولَ اللَّهِ، مِنْهُمْ، قَالَ: «بَلْ مِنْكُمْ؛ لِأَنَّهُمْ لَا يَجِدُونَ عَوْنًا عَلَى الْخَيْرِ وَأَنْتُمْ تَجِدُونَ»^(٣).

فالوقت متغير، والأحوال مختلفة ﴿إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا﴾ في يوم العرض والحساب ﴿فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ في الدنيا من خير أو شر.

قال عبد الله بن مسعود رضي الله عنه: ليس هذا بزمان هذه الآية، قولوا الحق ما قبل منكم، فإن رُدَّ عليكم، فعليكم أنفسكم^(٤).

(١) انظر هذا المعنى في «تفسير الطبري» (١١/١٤٣)

(٢) حديث أبي بكر رواه أحمد في المسند بسند صحيح (٥/١) برقم (١، ١٦، ٢٩، ٥٣) وأبو داود (٤/٥٠٩) برقم (٤٣٣٨) والترمذي (٤/٤٦٧) برقم (٢١٦٨) وقال: حديث حسن صحيح وابن ماجه (٢/١٣٢٧) برقم (٤٠٠٥) وابن حبان (١/٢٦١) والنسائي في «السنن الكبرى» برقم (١١١٥٧) وصححه الألباني في «صحيح الترمذي» برقم (٢٤٤٨)

(٣) من حديث أبي ثعلبة الخشني أخرجه الترمذي (٥/٢٥٧) برقم (٣٠٥٨) وفيه عمرو بن جارية وشيخة أبي أمية وهما مجهولان، وعند أبي داود (٤/٥١٢) برقم (٤٣٤١) وابن ماجه (٢/١٣٣٠) برقم (٤٠١٤) و«تفسير الطبري» (١١/١٤٥).

(٤) «تفسير ابن عطية» (٢/٢٤٩).

والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، متعين على أفراد هذه الأمة، ما لم يخف الناهي عن المنكر ضررًا محققًا يلحق به، أو يخف فتنه يقع فيها، كشق عصا المسلمين، أو يخف فتنه تلحق بطائفة من الناس، فإن خاف ذلك فعليكم أنفسكم.

أخرج الطبري عن جُبَيْر بن نُفَيْر قال: كنت في حلقة فيها أصحاب رسول الله ﷺ وإني لأصغر القوم، فتذاكروا الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، فقلت: أليس الله يقول في كتابه: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا عَلَيْكُمْ أَنْفُسَكُمْ لَا يَضُرُّكُمْ مَن ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ﴾؟ فأقبلوا عليّ بلسان واحد وقالوا: تنزع آية من القرآن ولا تعرفها، ولا تدري ما تأويلها؟ حتى تمنيتُ أني لم أكن تكلمت، ثم قالوا: إنك غلام حديث السن، وإنك نزع آية ولا تدري ما هي؟! وعسى أن تدرك ذلك الزمان: إذا رأيت شُحًا مطاعًا، وهوى متبعًا، وإعجاب كل ذي رأي برأيه، فعليك بنفسك، لا يضررك من ضل إذا اهتديت^(١).

وقال الزمخشري: كان المسلمون تذهب أنفسهم حسرة على الكفرة، يتمنون دخولهم في الإسلام، فقليل لهم: عليكم أنفسكم بإصلاحها، والمشي في طريق الهدى، لا يضرركم الضلال عن دينكم إذا كنتم مهتدين، كما قال تعالى لنيه: ﴿فَلَا تَذْهَبَ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسْرَتٌ﴾^(٢) [فاطر: ٨].

فليس في الآية رخصة لترك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، فإن من جملة الاهتداء: دعوة غير المسلمين إلى الإسلام، ودعوة المسلمين إلى الطاعة وترك المنكرات، وذلك حسب وسائل التغيير المتاحة للقائم بذلك، إن كان مسؤولًا، أو داعيًا، أو من عامة الناس، فيكون التغيير بالقوة، أو باللسان أو بالقلم، أو بالقلب مع ظهور علامات الإنكار على المنكر. وبعد ذلك لا يضره ضلال من ضل، وكذلك إذا كان الأمر بالمعروف في زمان أو مكان لا يستطيع فيه أن يقوم بهذه المهمة، بسبب إغراض الناس وصددهم، أو بسبب قوة حاكمة طاغية، فإنه أيضًا لا يضره ضلال من ضل وعليه نفسه.

ففي الآية أمر للمؤمنين أن يلزموا أنفسهم طاعة الله تعالى، وأنه ليس عليهم شيء من أثم غيرهم إذا نصحوهم وأرشدوهم إلى الخير.

(١) «تفسير الطبري» (١١/١٤٢).

(٢) «تفسير الكشاف» (١/٥٣٤).

فإذا اختلفت القلوب، وألبستم شيعًا، وذاق بعضكم بأس بعض، فعليكم أنفسكم.

ومعنى الآية: يأيها الذين صدقوا الله ورسوله، ألزموا أنفسكم بالعمل بطاعة الله واجتناب معصيته، وداوموا على ذلك؛ فإن فيه هدايتكم، ومن الهداية أن تأمروا غيركم بالمعروف وتنهوه عن المنكر، فإن فعلتم ذلك ولم يستجب الناس لكم، فلا يضركم ضلال من ضل إذا لزمتم طريق الاستقامة، فأمرتم بالمعروف ونهيتهم عن المنكر، وسوف ترجعون جميعًا إلى الله تعالى فيخبركم بأعمالكم ويجازيكم عليها، فليس في الآية ما يدل على ترك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

سأل رجل عبد الله بن عمر رضي الله عنه عن ستة رجال يشهد بعضهم على بعض بالشرك، فقال له: عظمهم، وانهمهم، فإن عصوك فعليكم نفسك، فإن الله تعالى يقول ﴿عَلَيْكُمْ أَنْفُسُكُمْ لَا يَضُرُّكُمْ مَنْ ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ﴾^(١).

ففيه بيان أن الإنسان يلزم نفسه بعد أداء واجبه ولم يقبل منه، وإلا فهو مسؤول عنه أمام الله تعالى.

في البخاري والترمذي وغيرهما عن النعمان بن بشير رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «مثل القائم في حدود الله والواقع فيها، كمثل قوم استهموا على سفينة، فصار بعضهم أعلاها وبعضهم أسفلها، وكان الذين في أسفلها إذا استقوا من الماء مروا على من فوقهم، فقالوا: لو أنا خرقنا في نصيبنا خرقًا ولم نؤذ من فوقنا، فإن تركوهم وما أرادوا، هلكوا جميعًا، وإن أخذوا على أيديهم نجوا، ونجوا جميعًا»^(٢).

قال ابن الجوزي:

١- إن قوله تعالى ﴿عَلَيْكُمْ أَنْفُسُكُمْ﴾ فيه إغراء الإنسان بمصالح نفسه، ويتضمن الإخبار بأنه لا يعاقب بضلال غيره، وليس من مقتضى ذلك ألا ينكر على غيره.

(١) يُنظر: «تفسير الطبري» (١٤٠/١١) برقم (١٢٨٥٤) ورجاله ثقات وإسناده صحيح.

(٢) «صحيح البخاري» برقم (٢٤٩٣، ٢٦٨٦) والمسند (١٨٣٧٠، ١٨٣٦١) بإسناد صحيح على شرط الشيخين، وأخرجه الترمذي (٢١٧٣) والبيهقي في الشعب (٧٥٧٦) والبخاري في شرح السنة (٤١٥١) وابن حبان (٢٩٧).

٢- إن الآية تدل على وجوب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر؛ لأن قوله: ﴿عَلَيْكُمْ أَنْفُسُكُمْ﴾ أمر بإصلاحها وأداء ما عليها، وقد ثبت وجوب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، فصار من جملة ما على الإنسان في نفسه أن يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر، بدليل قوله تعالى: ﴿إِذَا أَهْتَدَيْتُمْ﴾.

٣- إن الآية قد حملها قوم على أهل الكتاب إذا أدوا الجزية، فلا يلزمون غيرها.

٤- إن الله سبحانه لمّا عابهم في تقليد آبائهم بالآية المتقدمة، أعلمهم بهذه الآية أن المكلف إنما يلزمه حكم نفسه، وأنه لا يضره ضلال غيره إذا كان مهتدياً، حتى يعلموا أنه لا يلزمهم من ضلال آبائهم شيء من الذم والعقاب.

قال: وإذا تَلَمَّحَتْ هذه المناسبة بين الآيتين لم يكن للأمر بالمعروف والنهي عن المنكر هنا مدخل، وهذا أحسن الوجوه^(١).

النِّدَاءُ السَّادِسُ عَشَرَ: الْوَصِيَّةُ عِنْدَ الْمَوْتِ وَالْإِشْهَادُ عَلَيْهَا

١٠٦- ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا شَهِدُوا بَيْنَكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدُكُمْ الْمَوْتُ حِينَ الْوَصِيَّةِ اثْنَانِ ذَوَا عَدْلٍ مِّنْكُمْ أَوْ ءَاخَرَانِ مِّنْ غَيْرِكُمْ إِنْ أَنْتُمْ ضَرَبْتُمْ فِي الْأَرْضِ فَأَصْبَحْتُمْ مَصِيبَةُ الْمَوْتِ تَحْسِبُونَهُمَا مِنْ بَعْدِ الصَّلَاةِ فَتُقْسِمَانِ بِاللَّهِ إِنْ أَرَبْتُمْ لَا نَشْتَرِي بِهِ ثَمَنًا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ وَلَا نَكْتُمُ شَهَادَةَ اللَّهِ إِنَّا إِذًا لَّمِنَ الْآثِمِينَ﴾
هذا هو النداء السادس عشر والأخير لأهل الإيمان في سورة المائدة، وهو يتناول الوصية عند الموت والإشهاد عليها.

وهذه الآيات الثلاث المتتابعة، قال عنها بعض أهل العلم: إنها أصعب ما في القرآن الكريم فهماً وحُكماً ونظماً، تحتاج في فهمها إلى دقة، وإلى معرفة سبب النزول فيها حتى يتضح المعنى، والآية غير منسوخة وحكمها قائم إلى يوم القيامة.

وقد جاء ذكر الوصية الواجبة ومشروعيتها في سورة البقرة قبل آيات الصيام: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ إِذَا حَضَرَ أَحَدُكُمُ الْمَوْتُ إِنْ تَرَكَ خَيْرًا﴾ أي: إن ترك ما لا كثيراً ﴿الْوَصِيَّةَ لِلَّذِينَ لِلَّهِ

(١) «نواسخ القرآن» ص (٨٥).

وجاءت مشروعية الوصية في مثل قول النبي ﷺ من حديث عبد الله بن عمر رضي الله عنهما: «ما حق امرئ مسلم له شيء يريد أن يوصي فيه يبيت ليلتين إلا ووصيته مكتوبة عنده»^(١).

أي: أنه لا ينبغي للإنسان أن يبيت ليلتين إلا ووصيته مكتوبة عند رأسه، فإنه لا يدري أين يموت، ولا متى يموت؟

وتأكد كتابة الوصية في حالة المرض، وفي حالة السفر، وفي حالة الغزو، ونحو ذلك من الحالات التي يتأكد أن يكتب المسلم فيها وصيته.

وكتابة الوصية قد تكون واجبة، أي: يجب عليه أن يكتبها، وقد تكون محرمة، وقد تكون مكروهة، وقد تكون سنة مستحبة، فهذه أربعة أنواع للوصية؛ وبيانها كالتالي:

أولاً: الوصية الواجبة، وذلك إذا كان على الإنسان دين، أو له دين، أو مشاركة، أو ودائع أو أمانات ونحو ذلك.

فيجب على المسلم أن يكتب وصيته إن كان عليه دين؛ كي يسدّد عنه هذا الدين بعد موته، وكذا إن كان له دين، أو حسابات في بنوك، أو أسهم في شركات، أو تجارة أو عقارات، ونحو ذلك، وكذا إن كان عنده ودايع وأمانات للناس يكتبها ويشهد عليها؛ حتى لا تضيع الحقوق، وحتى لا يُدخل على ورثته مالاً ليس لهم، فيوقعهم في الحرام، وحتى لا تضيع أمواله هنا وهناك إن كان الورثة لا يعرفونها.

وإن كان عليه زكاة لم يخرجها، وجب عليه أن يوصي؛ حتى يتم إخراجها للناس بعد موته وتبرأ ذمته.

وإن كان عليه كفارة يمين، أو كفارة ظهار، أو كفارة قتل، أو كفارة جماع في نهار رمضان، ونحو ذلك، فعليه أن يوصي بإخراجها.

وإن كان عليه حج الفريضة وعنده مال، فإنه يُحج عنه منه، وكذا العمرة.

فإن كتابة الوصية في هذه الحالات واجبة، وعليه أن يكتبها ويشهد عليها، فيبين ما له وما عليه.

ولا يجوز للورثة أن يُقسِّموا الميراث إلا بعد تنفيذ هذه الوصية، وسداد الديون التي

(١) من حديث عبد الله بن عمر في البخاري (٢٧٣٨) ومسلم (١٦٢٧).

عليه وإن لم يوص بها، وبعد إخراج الزكاة، ورد الأمانات والودائع إلى أهلها، وإخراج الكفارات والنذور ونحو ذلك.

وقد جاء الأمر بذلك مكرراً في آيتي الميراث من سورة النساء بعد بيان ميراث الآباء والأبناء ﴿مِنْ بَعْدِ وَصِيَّتِهِ يُوصَىٰ بِهَا أَوْ دَيْنٍ ؕ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ لَا تَدْرُونَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ لَكُمْ نَفْعًا فَرِيضَةٌ مِنَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ [النساء: ١١].

وبعد بيان ميراث الزوج والزوجة ﴿مِنْ بَعْدِ وَصِيَّتِهِ يُوصِيَّتُ بِهَا أَوْ دَيْنٍ﴾ وأيضاً ﴿مِنْ بَعْدِ وَصِيَّتِهِ تُوصَوْنَ بِهَا أَوْ دَيْنٍ﴾.

وبعد بيان ميراث من لا أصل له ولا فرع، في مسألة الكلالة ﴿مِنْ بَعْدِ وَصِيَّتِهِ يُوصَىٰ بِهَا أَوْ دَيْنٍ غَيْرَ مُضَكَرٍ﴾ [النساء: ١٢].

وهكذا ختم الله سبحانه كل حكم في آيات الميراث بوجوب تنفيذ الوصية وسداد الدين قبل تقسيم التركة.

ثانياً: الوصية المحرمة: وقد تكون الوصية محرمة، وذلك إذا قصد الموصي أن يحرم الوارث من الميراث، أو يضر بوصيته أحد الورثة، ولذلك قال ﷺ: ﴿مِنْ بَعْدِ وَصِيَّتِهِ يُوصَىٰ بِهَا أَوْ دَيْنٍ غَيْرَ مُضَكَرٍ﴾ [النساء: ١٢]. أي: غير مضار بوصيته للورثة، إذا أراد أن يمنعهم، أو يقلل من نصيب بعضهم ولو أوصى بوقف ماله، أو بعضه على شيء محرم؛ كدور الملاهي، ونحوها، فإن هذه الوصية محرمة، ولا يجوز تنفيذها.

وكذلك إذا كانت الوصية لوارث، فالوارث له نصيب في الشرع، فلا يوصى له لما بعد الموت، ولا يجوز الوصية في أكثر من الثلث.

فإذا أوصى الإنسان بوصية لأحد من الورثة بعد موته، وكانت هذه الوصية في حدود الثلث، فعند أهل العلم أن ذلك يتوقف على إجازة بقية الورثة البالغين العاقلين، إن أجازوها نفذت، وإن لم يجيزوها لا تنفذ، فهي تتوقف على رضى الورثة جميعاً وبمقتضى منطق قوله تعالى: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ إِذَا حَضَرَ أَحَدُكُمُ الْمَوْتُ إِنْ تَرَكَ خَيْرًا الْوَصِيَّةُ لِلْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ بِالْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى الْمُتَّقِينَ﴾ [البقرة] فالوالدين أول الوارثين، وقد أجازت الآية الوصية لهم، وليست منسوخة، أما العطاء للوارث في حياة الإنسان فليس هناك ما يمنعه.

ثالثاً: الوصية المكروهة: وقد تكون الوصية مكروهة، وذلك إذا كان الإنسان عنده أطفالاً، وليس عنده إلا شيء قليل من المال، وعنده ورثة، فإن الوصية بشيء من تركته في هذه الحالة مكروهة؛ لأنها تضر بالورثة؛ لقول النبي ﷺ في حديث سعد ؓ: «لأن

تدع ورثتك أغنياء خير من أن تتركهم عالة يتكففون الناس»^(١).

رابعاً: الوصية المستحبة: وقد تكون الوصية مستحبة يتقرب بها العبد إلى الله عز وجل، وذلك إذا كان الإنسان ميسوراً، من فضل الله تعالى عليه، وعنده مال يكفي ورثته ويزيد، فإنه يشرع له في هذه الحالة أن يوصي في حدود الثلث من تركته على وجه من وجوه الخير والبر، أو على أشخاص، أو أسر فقراء، أو على طلبة علم، أو على مساجد، أو على دور تحفيظ القرآن الكريم، أو نحو ذلك من وجوه الخير والبر، فإن هذا صدقة جارية، له بعد موته أجرها وثوابها، كما في الحديث عن أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «إذا مات ابن آدم انقطع عمله إلا من ثلاث: صدقة جارية، أو علم ينتفع به، أو ولد صالح يدعو له»^(٢)، فهذه صدقة جارية له بعد موته تنفعه في قبره وفي آخرته.

ففي الحديث عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «أيكم مال وارثه أحب إليه من ماله؟» قالوا: ما منا أحد إلا ماله أحب إليه، قال: «فإن ماله ما قَدَّم، ومال وارثه ما أخر»^(٣).

فما قَدَّمه العبد لنفسه من الإنفاق في سبيل الله فهو ماله الحقيقي، وما تركه لأولاده بعد موته فهو مال غيره، ومن الحُمق والغباء أن يكون مال الآخرين أحب إلى الإنسان من ماله الذي ينفعه يوم لقاء ربه.

والإسلام دين لا يخصص زماناً دون زمان، ولا مكاناً دون مكان، ولا بيئة دون بيئة، ولا قومًا دون آخرين، إنما هو دين يُصلح الله تعالى به أهل كل زمان وأهل كل مكان، يجد فيه البدوي ما يتعلق به من أحكام، ويجد فيه الحضري ما يتعلق به من أحكام.

يجد فيه المريض ما يتعلق به من أحكام، ويجد فيه الصحيح والسليم ما يتعلق به من أحكام.

يجد فيه المسافر ما يتعلق به من أحكام، ويجد فيه المقيم ما يتعلق به من أحكام.

(١) يُنظر: حديث سعد عن ثلاثة من أولاده في البخاري (٥٦٥٩) ومسلم (١٦٢٨).

(٢) من حديث أبي هريرة في «المسند» برقم (٨٨٤٤) بإسناد صحيح، وأخرجه مسلم (١٦٣١) والبخاري في الأدب المفرد (٣٨) والترمذي (١٣٧٦) والدارمي (٥٥٩) وابن خزيمة (٢٤٩٤) وأبو داود (٢٨٨٠) وابن ماجه (٢٤٢).

(٣) من حديث ابن مسعود في «المسند» (٣٦٢٦) وهو في الصحيحين.

يجد فيه أهل السلم وأهل الحرب حاجتهم ومساثلهم.

ويجد فيه المسلم أحكامه إذا عاش مع إخوانه المسلمين، أو إذا عاش مع غير المسلمين، وهكذا.

إشهاد غير المسلم عند فقد المسلم في السفر ونحوه:

وفي الآيات الثلاث الأخيرة قبل الربع الأخير من سورة المائدة بيان حكم من الأحكام التي تتعلق بالمسلم مع غير المسلم، فقد يمرض المسلم، أو يموت في بلد غير مسلم، وقد يمرض أو يموت في سفر، ولا يحضره مسلمون، ويحضره غير المسلمين، ويريد أن يردّ متاعه وماله إلى أهله وورثته، أو يريد أن يكتب وصيته ويوصلها إلى أهله.

فإن كان المسلم في سفر، وأشرف على الموت، وتغذر وجود المسلم في سفره هذا، فإن له أن يضع أمانته وما معه من مال ومتاع مع اثنين من غير المسلمين للضرورة، وله أن يُشهد على وصيته اثنين من غير المسلمين في هذه الحالة؛ حيث لا يجد مسلمًا يشهد له على وصيته إلا من غير المسلمين، على تفصيل بين الفقهاء في جواز هذه المسألة.

عن شريح قال: لا تجوز شهادة اليهودي والنصراني إلا في سفر، ولا تجوز في سفر إلا في وصية^(١).

فإذا صدّق الشاهدين أهل الميت فيما أوصى به بعد موته فلا خلاف في ذلك، فإن شكوا وارتابوا واتهموهما بشيء من الكذب أو الخيانة أو الكتمان، فإن للحاكم المسلم أن يأتي بهؤلاء الشهود من غير المسلمين في وقت يجتمع فيه الناس من بعد صلاة العصر، كما فعل النبي ﷺ فإذا كانا من أهل الكتاب؛ يهوديين أو نصرانيين، أو يهودي ونصراني، فإنهما يحلفان بالله أنهما ما كذبا، وما خانا، وما كتما، وما غيّرا، وما سرقا. وإن ظهر أنهما كذبا فيما قالا، فإن على أهل الميت أن يشهد منهم اثنان برّد شهادة غير المسلمين، وبأن كلامهما كذب، ويُحكم لهم في هذه الحالة بالوصية.

(١) أثر سنده صحيح إلى شريح وهو عند الطبري (١٦٣/١١)

وفي عهد رسول الله ﷺ حدثت أحوال مثل هذه الحالة:

١- عن سعيد بن جبير عن ابن عباس ؓ قال: خرج رجل من بني سهم مع تميم الداري وعدي بن بَدَاء، فمات السَّهْمِي بأرض ليس فيها مسلم، فلما قدما بتركته فقدَّ أهله جامًا من فضة مُخَوَّصًا بالذهب، فاشتكوا إلى النبي ﷺ، فأحلفهما رسول الله ﷺ ثم إنهم وجدوا الجام بعد ذلك بمكة، فقالوا: اشتريناه من تميم وعدي، فقدم رجلان من أولياء السهمي فحلفا بالله: لشهادتهما أحق من شهادة الرجلين، وأن الجام لصاحبهما، وفيهم نزلت الآية، ولهذا السبب قصة:

فإن تميم الداري، وعدي بن بَدَاء، رجلان من النصارى، كانا يتاجران بين مكة والشام، وبين المدينة والشام، وذات مرة خرج معهما بُدَيْل بن أبي مارية، مولى لعمر بن العاص، أو لأبيه العاص بن وائل السهمي، وهذا المولى أو الخادم كان مسلمًا، وخرج معهما في تجارة، ولمَّا كان في الشام مرض بُدَيْل مرضًا شديدًا، وأشرف على الموت، فكتب وصيته بخط يده، وأودع في الموصى به قائمة بأسماء الأشياء التي سوف يردها مع هذين الرجلين إلى قومه وأهله، ودس هذه القائمة في متاعه دون أن يراه الرجلان، وأعطاهما ما معه من متاع، وتُوَفِّي الرجل، فلما مات، فتَّشَّا هذه الأمانة (متاعه) فوجدوا فيه أثنى شيء يملكه الرجل في تجارته، وهو إناء يقال له: (جام) من فضة منقوشًا عليه، على هيئة خوص النخيل؛ صفائح من الذهب، وفيه ثلاث مئة مثقال من الفضة، فأخذوا هذا الإناء - أي: سرقاه - ولمَّا وصلا إلى المدينة، دفعوا ما معهما من متاع إلى أخيه، ما عدا هذا الإناء، وفتش أهله المتاع ووجدوا الوصية مكتوبة بخط يده، ووجدوا أن الأشياء ينقصها هذا الجام، والرجلان - الشاهدان - لم يريا هذه الكتابة، فذهب أهل الميت إليهما يسألونهما: هل صاحبنا مرض مرضًا كثيرًا، واحتاج إلى النفقة، وباع شيئًا مما كان معه؟ قالوا: لا، هل باع واشترى شيئًا؟ قالوا: لا، قالوا: إنا وجدنا الأمتعة تنقص إناء من فضة مخوَّصًا بالذهب قد ذكره في القائمة، وكتبه بخط يده، ولم نجد، قال الرجلان: ما وجدنا شيئًا من ذلك، وما أعطاه لنا دفعناه لكم، ولا نعرف شيئًا عن هذا الإناء، فذهبوا واشتكَوا إلى النبي ﷺ فأتى بهما رسول الله عليه الصلاة والسلام واستحلفهما بعد صلاة العصر في ملأٍ من الناس، أنهما ما كتبا وما كذبا وما خانا وما سرقا، وحلفا.

ومضت مدة، وبعد وقت رأى أهل الميت هذا الإناء بين يدي قوم في مكة، وعرفوا أنه إناءهم، فسألوا من أين هذا الإناء لكم؟ قالوا: اشتريناه من تميم وعدي بألف درهم.

فذهبوا يشتكون إلى النبي ﷺ مرة ثانية أنهم وجدوا الإناء، فأُنزل الله الآيات الثلاث من سورة المائدة^(١)، وقد حدثت هذه القصة سنة تسع من الهجرة.

وفيها يأمر الله تعالى رسوله أن يُشهد اثنين من أقرب الناس إلى الميت -من الورثة- بصديق قولهما، وبأنهما وجدا خلاف ما حلف عليه الرجلان سابقًا، وقد حلف عمرو بن العاص والمطلب بن أبي وداعة على أن تميمًا وعديًا أخفيا الجام، وزُدت شهادة النصرانيين، وأعيد الإناء إلى أهله.

وتميم الداري أسلم فيما بعد، وجاء إلى النبي ﷺ بعد إسلامه نادمًا تائبًا معترفًا بخطيئته يقول: يا رسول الله، أخذنا الإناء، وبِغناه بألف درهم، وهذه هي الخمس مئة التي أخذتها.

وأما عدي بن بذاء -صاحبه- فمات على غير الإسلام، وقيل: إنه أسلم.

ولما شهد اثنان من بني سهم بصفة القضية، قام عمرو بن العاص وأخذ من عدي الخمس مئة درهم عنوة.

٢- وحدث مثل هذه القضية أيضًا بعد موت النبي ﷺ:

فقد أسند الطبري إلى الشعبي، أن رجلًا حضرته المنية بمكان يسمى (دقوقا) ولم يجد أحدًا من المسلمين يشهد على وصيته، فأشهد رجلين من أهل الكتاب، فقدموا الكوفة، فأتيا أبا موسى الأشعري، فأخبراه، وقَدِمَا عليه بتركته، فقال أبو موسى: هذا أمر لم يكن بعد الذي كان في مدة النبي ﷺ، ثم أحلفهما بعد صلاة العصر، وأمضى شهادتهما^(٢).

وأبو موسى في هذه القضية حَلَفَ الذَمِيمَيْنِ، وأكمل شهادتهما باليمين، ونَفَذَ الوصية لأهلها، ولم يحدث ريبة في الشهادة، وأشار أبو موسى إلى القضية المماثلة في عصر النبوة.

(١) يُنظر: سبب النزول هذا بنصه في البخاري (٣٠٧/٥) برقم (٢٧٨٠) مختصرًا وأبي داود (٤١٨/٣) والترمذي (١٠٠/٤) برقم (٣٠٥٩) ابن جرير (١٨٥/١١) في تفسيره والبيهقي في «السنن» (١٦٥/١٠) وفي «الدر المشور» (٣٤٢/٢).

(٢) «تفسير ابن عطية» (٢٥١/٢) و«تفسير الطبري» (١٦٥/١١).

وكانت الوصية معروفة ومتداولة في الإسلام والجاهلية، ولذلك اكتفى فيها القرآن بشهادة اثنين عدلين، دون التوثيق والكتابة، كما في التابع والدين؛ لأن هذه المعاملات تكون بين طرفين، أما الوصية فهي من جانب واحد، وكان العرب في الجاهلية يُشهدون على وصاياهم عند الموت من يثقون به من أصحابهم، أو كبير القبيلة، أو من كان حاضراً عند احتضار الموصي.

وفي هذه المسألة وفي أشباهها إلى يوم القيامة نزل قول الله سبحانه: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا شَهْدَةُ بَيْنِكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ﴾ أي: إذا ظهرت علامات الموت ومقدماته على الإنسان ﴿حِينَ الْوَصِيَّةِ﴾ أي: يشهد على الوصية إذا كنتم في سفر، وحضر أحدكم الموت: ﴿اِثْنَانِ ذَوَا عَدْلٍ مِّنْكُمْ﴾ من المسلمين ممن تعتبر شهادتهما ﴿أَوْ آخَرَانِ مِّنْ غَيْرِكُمْ﴾ أو اثنان من غير المسلمين إذا لم تجدوا مسلمين، لأن قولهما في تلك الحال مقبولة ﴿إِنْ أَنْتُمْ ضَرَبْتُمْ فِي الْأَرْضِ﴾ أي: سافرتُم في أرجائها للتجارة ونحوها ﴿فَأَصْبَحْتُمْ مُّصِيبَةُ الْمَوْتِ﴾ وأوصيتم إلى اثنين عدلين في ظنكم، ودفعتم إليهما ما معكم من المال ولم تجدوا مسلمين، ففي هذه الضرورة يشهد على الوصية غير المسلمين، وفي حالة الشك من أمرهما ﴿تَحْسِبُونَهُمَا مِنْ بَعْدِ الصَّلَاةِ﴾ أي: تحسبون الشاهدين وتوقفونهما أمام الناس بعد صلاة العصر، فهو وقت اجتماع الناس، كما فعل النبي ﷺ عندما استحلف عدياً وتميماً ﴿فَيَقْسِمَانِ بِاللَّهِ﴾ أي: يحلف الشاهدان اللذان هما من غير المسلمين على الوصية أنهما صدقا ولم يُعَيَّرَا ولم يُدَلَّا، هذا ﴿إِنْ أَرَبْتُمْ﴾ فيهما، ويقولان: نحن نقسم بالله، ولا نعتاض بيمين الله عوضاً، ولو كان ذلك إرضاء لذوي القربى أو نفعهم، فنحن ﴿لَا نَشْتَرِي بِهِ ثَمَنًا﴾ أي: لسنا كاذبين، ولا نستبدل بيمين الله شيئاً، ولا نرضى أن نبيعه بعرض من أعراض الدنيا ﴿وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَى﴾ أي: فلا تراعيه من أجل إرضاء الأقارب ﴿وَلَا نَكْتُمُ شَهَادَةَ اللَّهِ﴾ التي أمرنا بها بل نؤديها كما ينبغي ﴿إِنَّا إِذَا﴾ إن كتمنا الشهادة ﴿لَمِنَ الْآثِمِينَ﴾ ولما صلى النبي ﷺ العصر نادى الرجلين، فاستحلفهما عند المنبر، فدل هذا على أن المراد بالصلاة، صلاة العصر، والخطاب موجه للمسلمين، وهذه صلاتهم.

والآية تشير في مجملها إلى أنه إذا قُرِبَ الموت من أحدكم، فليُشهد على وصيته اثنين أميين من المسلمين، فإن لم يجد فمن غير المسلمين سيمًا في السفر وفي بلاد الغربة،

فإن ارتبتم في شهادتهما فارفعوا الأمر للحاكم المسلم فيوقفهما بعد الصلاة في مشهد من الناس، ويقسمان أنهما لا يأخذان عوضاً ولا يحاييان قريباً، ولا يكتمان شهادة؛ حتى لا يلحقهما إثم. قال تعالى:

١٠٧- ﴿فَإِنْ عُرِيَ عَلَىٰ أَنَّهُمَا اسْتَحَقَّ إِثْمًا فَخَارَانِ يَقُومَانِ مَقَامَهُمَا مِنَ الَّذِينَ اسْتَحَقَّ عَلَيْهِمُ الْأُولَٰئِينَ^(٢) فَيَقْسِمَانِ بِاللَّهِ لَشَهِدْنَا أَحَقُّ مِنْ شَهِدَتَيْهِمَا وَمَا اَعْتَدَيْنَا إِثْمًا إِذَا لَمِنَ الظَّالِمِينَ^(١)﴾
وبعد أن يحلف شاهدا الوصية من غير المسلمتين على أنهما ما خانا وما كتما ﴿فَإِنْ عُرِيَ﴾ أي: إذا ظهر وتبين من القرائن خلاف ما قالا، فظهر كذبهما أو خيانتهما، كما حدث في هذه المسألة حيث اتضح ﴿أَنَّهُمَا اسْتَحَقَّ إِثْمًا﴾ أي: خالفا ما حلفا عليه.

والإثم هو مرتكب الإثم، واستحقا بمعنى: ارتكبا إثمًا، وبهذا فإن الإثم يكون قد وقع عليهما، وبطلت شهادتهما وخانا وكذبا، وفي هذه الحالة: ﴿فَخَارَانِ يَقُومَانِ مَقَامَهُمَا﴾ أي فليقم رجلان من أولياء الميت، وليكونا من أقرب الأولياء إليه، يقومان في الشهادة بدلاً منهما ﴿مِنَ الَّذِينَ اسْتَحَقَّ عَلَيْهِمُ الْأُولَٰئِينَ﴾ من أقارب الميت؛ أي: يشهد شاهدان آخران من ورثة الميت؛ كي يردوا شهادتهما، ويأتیان بشهادة مكان شهادة، وتكون هذه الشهادة من أولى الناس بالميت وأقربهم إليه؛ كي يشهدان ويردان شهادة من شهد من غير المسلمين، ثم يبين سبحانه كيفية اليمين التي يحلفها الأوليان فقال: ﴿فَيَقْسِمَانِ بِاللَّهِ﴾ قائلين: ﴿لَشَهِدْنَا أَحَقُّ مِنْ شَهِدَتَيْهِمَا﴾ أي: من يمينهما ﴿وَمَا اَعْتَدَيْنَا﴾ أي: وما تجاوزنا الحق، ولا نسبنا لهما خيانة ﴿إِنَّا إِذَا لَمِنَ الظَّالِمِينَ﴾ إن حدث منا شيء من ذلك بأن ظلمنا واعتدنا وشهدنا بغير الحق.

والمعنى: أن الإنسان إذا حضره الموت وهو في سفر، فليشهد على وصيته شاهدين عدلين مسلمين، فإن لم يجد إلا كافرين جاز له أن يوصي إليهما للضرورة كما هو في

(١) قرأ حفص (الذين استحق) بالبناء للفاعل، وإذا ابتدأ القارئ بها كسر الهمزة والباقون (الذين استحق) بالبناء للمفعول، وإذا ابتدأ القارئ بـ (استحق) ضم الهمزة.

(٢) قرأ شعبة وحزمة ويعقوب وخلف العاشر (الأولين) بتشديد الواو وفتحها وكسر اللام بعدها، وفتح النون، جمع (أول) وهو مجرور، بدل أو صفة، وقرأ الباقون (الأوليان) بإسكان الواو وفتح اللام وكسر النون، مثني (أولى) وهو مرفوع على أنه خبر لمبتدأ محذوف، أي: وهما الأوليان.

مذهب الإمام أحمد، فإن ظهر لأولياء الميت أن الشاهدين الكافرين قد كذبا وخانا في الشهادة أو الوصية، ووجدوا قرينة تدل على ذلك، فليأتوا بشاهدين من أقارب الميت، فيقسمان بالله أنهما صادقان، وأنهما لم يتجاوزا الحق في شهادتهما؛ لأنهما لو فعلا ذلك لكانا من الظالمين المتجاوزين لحدود الله تعالى. قال سبحانه معقبا على هذه القصة:

١٠٨ - ﴿ذَلِكَ أَتَى أَنْ يَأْتُوا بِالشَّهَدَةِ عَلَىٰ وَجْهٍ أَوْ يَخَافُوا أَنْ تُرَدَّ أَيْمَنٌ بَعْدَ أَيْمَنِهِمْ وَأَنْفُوا اللَّهَ وَاسْمَعُوا وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴾ (١٨)

أي: ذلك الذي شرعه رب العالمين من التوثيق والضبط، ورد الشهادة عند الارتياح فيها أدنى وأقرب طريق لأداء الشهادة، وأضمن للشهود ألا يكتموا شهادتهم، وألا يخونوا، وألا يكذبوا؛ خوفاً من الله تعالى، ومن الفضيحة بين الناس، وهذا معنى ﴿أَوْ يَخَافُوا أَنْ تُرَدَّ أَيْمَنٌ بَعْدَ أَيْمَنِهِمْ﴾ فيفتضحوا برد شهادتهم، ويشهد عليهم غيرهم أنهم كاذبون ﴿وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴾ الخارجين على حدوده وشرائعه، ممن لا يريدون الهدى وسلوك الصراط المستقيم، وفي هذا تحريض على التقوى والطاعة، وتحذير من مخالفة أمر الله تعالى.

والمعنى: أن هذا الحكم عند الارتياح في شهادة الشاهدين، وتحليفهما بعد صلاة العصر وعدم قبول شهادتهما، أقرب إلى أن يأتوا بالشهادة على حقيقتها خوفاً من الله تعالى، ومن عذاب الآخرة، أو خشية أن ترد عليهم اليمين الكاذبة من قبل أهل الحق، فيفتضح الكاذب وتظهر خيائته.

فخافوا الله وراقبوه؛ حتى لا تقطعوا بأيمانكم ما لا حراماً، واسمعوا ما توعظون به، فالله لا يهدي من خرج عن طاعته.

ومن الأحكام التي تؤخذ من هذه الآيات الثلاث:

- أ - الحث على الوصية وتأكيدها في حال السفر والمرض وعدم التهاون فيها.
- ب - الإشهاد على الوصية في الحضر والسفر؛ لأن عدم الإشهاد عليها يشكك فيها.
- ج - جواز تحليف الشهود إذا ارتاب الحاكم، أو الخصوم في شهادتهم.

د - اختيار الوقت، والمكان المناسب للوصية، واختيار الكلام المناسب المؤثر على الشهود بما يحملهم على النطق بالحق.

هـ - جواز شهادة غير المسلمين عند الحاجة، وعند عدم وجود المسلمين.

سؤال الرُّسُلِ عَنْ إِجَابَةِ الْأُمَمِ لَهُمْ

١٠٩- ﴿يَوْمَ يَجْمَعُ اللَّهُ الرُّسُلَ فَيَقُولُ مَاذَا أُجِبْتُمْ قَالُوا لَا عِلْمَ لَنَا إِنَّكَ أَنْتَ عَلَّمَهُ الْغُيُوبَ﴾^(١)

وبعد أن ذكر سبحانه حكم الوصية عند دُنُوِّ الأجل، وأمر في نهايتها بالسمع والطاعة وتقوى الله عزَّ وجلَّ، أعقبه بذكر يوم القيامة حيث يجمع الله الأولين والآخرين للحساب والجزاء في يوم تشد فيه الأهوال، وتشيب فيه رؤوس الأطفال.

ومن عادة القرآن الكريم أنه إذا ذكر أنواعاً من الأحكام والتشريع، أتبعها إما بذكر التوحيد، أو ذكر بعض أحوال الأنبياء، أو بعض أحوال القيامة، وقد أتبع ذُكْرَ الوصية في هذه الآيات، سؤال الرسل يوم القيامة؛ لأنهم قادة الخلق، ويكون ذلك في يوم عظيم مهيب، تشيب فيه رؤوس الأطفال، وتتصدع فيه السموات والأرض، يحشر الله سبحانه الخلائق جميعاً في صعيد واحد، على اختلاف أجناسهم وألوانهم وألستهم، وعلى تفاوت أزمانهم وأمكنتهم، فيسأل الله سبحانه الأقوام والأمم بماذا أجابت رسلها؟ ويسأل الرسل بماذا أجابتهم الأمم عما دعوهم إليه من التوحيد والإيمان والعمل الصالح؟ كما قال تعالى: ﴿فَوَرَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٩٢﴾ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [الحجر: ٩٢، ٩٣].

وقال سبحانه: ﴿فَلَنَسْأَلَنَّ الَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْأَلَنَّ الْمُرْسَلِينَ ﴿٩٦﴾﴾ [الأعراف]. الكل يُسأل: الرسل، والمرسل إليهم، الجميع يقدّم كشف حسابه، وكتاب أعماله؛ لتظهر النتائج في هذا اليوم العظيم على مشهد من الخلائق أجمعين.

فاذكروا - أيها الناس - ﴿يَوْمَ يَجْمَعُ اللَّهُ الرُّسُلَ﴾ في صعيد واحد، مَنْ أُرسل منهم أول الزمان، وَمَنْ أُرسل آخره، مَنْ أُرسل في شرق الأرض، وَمَنْ أُرسل في غربها، يجمعهم الله جميعاً يوم القيامة، ويسألهم: ماذا أجابتكم الأمم؟ وهذا السؤال لإقامة الحجة على

(١) قرأ شعبة وحزمة بكسر غين (الغيبوب) والباقون بضمها، وهما لغتان.

الأمم، بماذا أجابتكم الأمم من الإيمان والكفر والطاعة والعصيان؟ ماذا عملوا؟ ماذا أحدثوا؟ فالأمم قد تُحدث في دين الله ما ليس منه بعد موت رسولها.

في الصحيحين عن أنس رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «ليردَّن على الحوض رجال ممن صاحبي، حتى إذا رأيتهم ورُفِعوا إليَّ اختلجوا دوني، فلاقولن: أي رب، أصحابي، أصحابي، فيقال لي: إنك لا تدري ما أحدثوا بعدك»^(١).

زاد في رواية: فأقول: «سحقاً لمن بدَّل بعدي».

كما أحدث قوم عيسى؛ حيث أتاهم رسولهم بالتوحيد الخالص، فغيَّروا وبدَّلوا وعبدوه إلهاً من دون الله.

ولأن الرسل لا يعلمون إلا ما ظهر من الأمور، وقد يُظهر بعض الناس الإيمان، ويبطن النفاق والكفر في قلبه، ولذلك فإن الرسل يجيئون ربهم يوم القيامة في أدب وتفويض، ووثوق بعدل الله تعالى، فيقولون: ﴿لَا عِلْمَ لَنَا﴾ وإنما العلم لك يا ربنا ﴿إِنَّكَ أَنْتَ عَلَّمُ الْغُيُوبِ﴾ أي: لا علم لنا بجوار علمك، فأنت سبحانه المحيط بكل شيء، أنت تعلم ظواهر الأمور وبواطنها، أنت تعلم ما ظهر لنا وما خفي علينا، والغرض من هذا السؤال: توبيخ الأمم التي كذَّبت رسلها.

تَسْعَ مَعْجَزَاتِ أَيْدِ اللَّهِ بِهَا عِيسَى العليه السلام

١١٠- ﴿إِذْ قَالَ اللَّهُ يَٰعِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ اذْكُرْ نِعْمَتِي عَلَيْكَ وَعَلَىٰ وَلَدَتِكَ إِذْ أَيَّدْتُكَ بِرُوحِ الْقُدُسِ^(٢) تُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلًا وَإِذْ عَلَّمْتُكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ^(٣) الطَّيْرِ^(٤) يَأْذِنُ فَتَنْفُخُ فِيهَا فَتَكُونُ طَيْرًا^(٥) يَأْذِنُ وَتُريُّ الْأَكْصَى

(١) «صحيح مسلم» (٢٣٠٤) و«صحيح البخاري» (٦٥٨٢).

(٢) قرأ ابن كثير بإسكان الدال من (القدس)، والباقون بضمها.

(٣) قرأ أبو جعفر (كهية)، والباقون (كهينة).

(٤) قرأ أبو جعفر (الطاير) بألف بعد الطاء، بعدها همزة مكسورة، وقرأ الباقر (الطير) دون ألف وياء ساكنة.

(٥) قرأ نافع وأبو جعفر ويعقوب (طاير) بألف بعد الطاء بعدها همزة مكسورة، وقرأ الباقر (طير) دون ألف

بعد الطاء، وياء ساكنة.

وَالْأَبْرَصَ بِإِذْنِهِ وَإِذْ تُخْرِجُ الْمَوْتَى بِإِذْنِهِ وَإِذْ كَفَفْتُ بَنِيَ إِسْرَءِيلَ عَنْكَ إِذْ جِئْتَهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ ^(١) مُبِينٌ ﴿١١٠﴾

وفي هذا الربع الأخير من سورة المائدة يفرد الله ﷻ عيسى عليه السلام من بين الرسل الذين يجمعهم ربهم ويسألهم، حيث يُفرد بالحوار والسؤال والمناقشة يوم القيامة، وهذا اتصال بمن قالوا: إنا نصارى ممن سبق ذكرهم في السورة، وبمن سبق تكفيرهم ممن قالوا بالبنوة والتثليث.

ولسائل أن يسأل: لماذا خصَّ هذا الرسول من بين رسل الله بالسؤال يوم القيامة؟

والجواب: لأن النصارى هم أشد الأمم احتياجاً إلى التوبيخ والاملاحة؛ لأنهم تعدّوا على ذات الله تعالى، وتطاولوا عليه فنسبوا له الزوجة والولد، وفي هذا تنبيه لهم على قبح مقاتلتهم، وفساد اعتقادهم، وإقامة الحجة عليهم، ودلالة قاطعة على كمال قدرة الله تعالى.

ولأن عيسى عليه السلام هو الذي اختلف فيه الناس؛ حيث إن ولادته كانت آية من آيات الله تعالى، على غير مثال سبق في الناس، فاختلف فيه البشر؛ اليهود قالوا عنه: إنه ابن زنى، وإنه ساحر، ورموا أمّه بالفاحشة، والنصارى عبدوه إلهاً، أو جعلوه ثالث ثلاثة، أو ابن الله سبحانه، وقال المسلمون: عبد الله ورسوله.

ولهذا فإن الله تعالى يخص عيسى عليه السلام بالسؤال يوم القيامة؛ ليبين لهم خطاياهم على الملأ، ويوبخ هؤلاء الذين عبدوه من دون الله، وليقرر عيسى بنفسه أنه عبدٌ من عباد الله سبحانه، وأنه دعا قومه إلى توحيد الله تعالى.

وليبين سبحانه للخلائق جميعاً أن ما أُيّد الله به عيسى من إبراء الأكمه والأبرص، ومن إحياء الموتى بإذن الله، ليس لأن عيسى إلهاً، ولا ابن إله، ولا عنده من خصائص الإلهية شيء، وإنما هو من باب المعجزات وخوارق العادات التي يؤيد الله بها رسله، كما أُيّد صالحاً بالناقة، فأخرجها لهم من صخرة صماء، وكما أُيّد محمداً بالقرآن، وأُيّد موسى بإبطال السحر، وغير ذلك من المعجزات التي يؤيد الله تعالى بها رسله.

وفي هذا الحوار يبين الله سبحانه تسعاً من المعجزات، هي مننٌ ونعمٌ، أنعم الله بها على عيسى عليه السلام كرامة له خصه بها، كما خص سائر رسل الله تعالى بالكرامات، والله

(١) قرأ حمزة والكسائي وخلف العاشر (ساحر)، وقرأ الباقون (سحر).

سبحانه يبين هذه المعجزات في قوله: ﴿إِذْ قَالَ اللَّهُ يَٰعِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ اذْكُرْ نِعْمَتِي عَلَيْكَ﴾ حيث خلقتك بلا أب؛ لتكون آية على قدرة الله تعالى، كما خلقت آدم بلا أب ولا أم، و خلقت حواء بدون تلقيح من الذكر للأنثى، و خلقت سائر البشر من ذكر وأنثى، اذكُرْها بقلبك ولسانك، وقم بواجب شكرها لربك حيث أنعم عليك نعمًا لم ينعم بها على غيرك فقد أنعمت عليك ﴿وَعَلَىٰ وَلَدَيْكَ﴾ حيث كنت آية من آيات الله مُبَرِّئًا لأمك من الفاحشة التي ألصقها بها اليهود، فاذكر نعمتي عليها؛ حيث أنبئها نبأًا حسنًا، وطهرتها واصطفيتها على نساء العالمين، فتذكر هذه المعجزات التسع، وهي:

أَوَّلًا: تَأْيِيدُ عِيسَى بِالْوَحْيِ وَالرَّسَالَةِ

﴿إِذْ أَيْدَتُكَ بِرُوحِ الْقُدُسِ﴾ أي: قوّيتك وأعنتك بالروح الطاهرة، وهي جبريل عليه السلام، نزل عليك بالرسالة من عند الله، وحين نفخ في جيب درع أمك فحملت بك، و خلقتك بقول: كن، أي: بقدرة الله سبحانه، وأيدتك بخوارق العادات، وأيدتك بالوحي والرسالة؛ حيث أتاك جبريل وأنت كهل، قد بلغت سن الثلاثين، وأنزل الله عليك النبوة والكتاب، قال تعالى: ﴿وَأَتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّنَاتِ وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ﴾ [البقرة: ٨٧].

ثَانِيًا: كَلَامُهُ وَهُوَ رَضِيعٌ لِبَرَاءَةِ أُمِّهِ، وَكَلَامُهُ وَهُوَ شَابٌّ لِإِعْلَانِ الرِّسَالَةِ

وهذا معنى: ﴿تُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلًا﴾ حيث أنطقك الله وأنت طفل رضيع في المهد، ودعوتهم إلى التوحيد وأنت كبير في سن الثلاثين كما جاء في سورة مريم: ﴿قَالَ إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ لِيُعْلَنَ رَسُولُهُ وَهُوَ فِي الْمَهْدِ، وَيُرَىٰ سَاحَةَ أُمِّهِ مِمَّا اتَّهَمَهَا بِهِ الْقَوْمُ، ثُمَّ قَالَ: ﴿وَجَعَلْنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنْتُ وَأَوْصِنِي بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيًّا﴾ [مريم].

ولم يتكلم في المهد إلا ثلاثة وهم: عيسى، وصاحب جريج، وشاهد يوسف^(١)، وهكذا فقد امتاز عيسى عليه السلام على غيره من الرسل بكلام الناس في المهد.

(١) يُنظَرُ: «صحيح مسلم» برقم (٢٥٥٠) و«صحيح البخاري» برقم (١٢٠٦، ٣٤٣٦).

ثَالِثًا: مِنَّةُ اللَّهِ عَلَى عِيسَى بِتَعْلِيمِهِ أَرْبَعَةَ أَشْيَاءَ

جاءت في قوله تعالى: ﴿وَإِذْ عَلَّمْنَاكَ الْكِتَابَ﴾ المنزل من عند الله تعالى، وفيه العلم النافع، وتدبير الأمور وتصريفها. ولفظ الكتاب: اسم جنس يشمل جميع الكتب المنزلة من عند الله، ثم قال تعالى: ﴿وَالْحِكْمَةَ﴾ أي: وعلمتك الحكمة وهي الفهم والإدراك، والاطلاع على أسرار العلوم ووضع الأمور في مكانها المناسب.

وقد وهب الله تعالى الأنبياء من العصمة بحيث لا ينطقون عن الهوى.

وقد يراد بالكتاب: الكتابة والخط، أي: أن الله تعالى علّمه ذلك بدون معلم، ثم أشار سبحانه إلى أن الله قد علّم عيسى الكتاب الذي أنزله على موسى قبله، فقال: ﴿وَالْتُورَةَ﴾ أي: وعلمتك التوراة التي نزلت قبلك على موسى ﷺ ﴿وَالْإِنْجِيلَ﴾ الذي أنزلته عليك، فهذه أربعة أشياء علمها الله عيسى ﷺ.

رَابِعًا: ﴿وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ بِإِذْنِ﴾

أي: تُصَوِّرُ مِنَ الطِّينِ عَلَى هَيْئَةِ الْخَفَافِشِ طَيْرًا مَصُورًا لَا رُوحَ فِيهِ ﴿فَتَنْفُخُ فِيهَا فَتَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِ﴾ أي: فتنفخ في هذا الطين، فيكون طيرًا بإذن الله، فيه حياة وفيه روح، آية ومعجزة، أيد الله بها عيسى ﷺ.

خَامِسًا: إِبْرَاءُ الْأَمْرَاضِ الْمُسْتَعْصِيَةِ

﴿وَتَبْرِئُ الْأَكْمَهَ﴾ فتُشْفِي الَّذِي وُلِدَ أَعْمَى فَيُبْصِرُ ﴿وَالْأَبْرَصَ﴾ البرص: مرض جلدي معروف، ليس له علاج إلى وقتنا، وهو من الأمراض المستعصية، وأنت يا عيسى، تبرئه وتشفيه ﴿بِإِذْنِ﴾.

سَادِسًا: إِخْرَاجُ الْمَوْتَى مِنْ قُبُورِهِمْ بِإِذْنِ اللَّهِ

﴿وَإِذْ تُخْرِجُ الْمَوْتَى بِإِذْنِ﴾ أي: أن عيسى ﷺ يدعو الله تعالى أن يحيي الموتى، فيقومون بعد موتهم، وقد أخرج عيسى ﷺ عددًا من الأموات بإذن الله، فجاء بنو إسرائيل إليه وطلبوا منه أن يحيي لهم سام بن نوح، فوقف عيسى على قبره وناداه ودعا ربه، فقام سام من قبره وهم ينظرون إليه، وليس هذا من خصائص الإلهية في عيسى ﷺ،

وإنما هو معجزة أيده الله بها .

سَابِعًا : نَجَاتُهُ مِنْ كَيْدِ الْيَهُودِ

﴿وَإِذْ كَفَفْتُ بَنِي إِسْرَءِيلَ عَنْكَ﴾ حين تأمر اليهود على قتلك، وصَلِّبِكَ فنجاك الله منهم ورفعك من البيت الذي أحاطوك فيه مع الحواريين، وكفاك الله شرهم ﴿إِذْ جِئْتَهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ﴾ أي: لَمَّا جِئْتَهُمْ بِالْآيَاتِ الْمَعْجَزَاتِ الدَّالَّةِ عَلَى صِدْقِ دَعْوَتِكَ ﴿فَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ﴾ ممن استمر على كفره وجحد نبوته ﴿إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُؤْتٍ بِرَمَاهُ بِالْSِحْرِ وَكَذَّبُوهُ، وَنَسَبُوهُ إِلَى الزُّنَى .

عن عبد الله بن عمرو ؓ قال: إن أشد الناس عذابًا يوم القيامة ثلاثة: المنافقون، ومن كفر من أصحاب المائدة، وآل فرعون^(١).

والمعنى: لقد أعطيناك - يا عيسى - ما أعطيناك من النعم والمعجزات؛ لتكون دليلًا ناطقًا بصدقك، وشاهدًا يحمل الناس على الإيمان بنبوتك، ولكن الكافرين من بني إسرائيل الذين أرسلت إليهم لم يصدقوا ما جئت به من النبوة والرسالة، فكذبوك، ووصفوا ما جئت به من المعجزات بالسحر الواضح، وهذه ممن امتن الله بها على عبده ورسوله عيسى ﷺ ودعاه إلى شكرها، فقام به أتم قيام، وصبر كما صبر إخوانه أولى العزم من الرسل.

ثَامِنًا: إِيمَانُ الْخَوَارِيِّينَ

١١١- ﴿وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى الْخَوَارِجِ أَنْ آمِنُوا بِرِسُولِي قَالُوا ءَامَنَّا وَأَشْهَدُ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾ واذكر نعمتي عليك - يا عيسى - إذ يسرت لك أتباعًا وأعوانًا وألقيت في قلوب جماعة من المخلصين لك أن يصدقوك، فيؤمنوا بالله ربًا، وأنت رسول الله، ويشهدوا بذلك، وهكذا: يمتن الله سبحانه على عيسى ﷺ أن جعل له أصحابًا وأنصارًا، هم الخواريون يؤمنون به وبرسالته، ويؤيدونه وينصرونه، فقالوا: ربنا آمنا بقلوبنا، وانقذنا، وخضعنا لك بجوارحنا، فجمعوا بين الإسلام الظاهر والإيمان الباطن، المخرج لصاحبه من النفاق ومن ضعف الإيمان.

(١) أثر صحيح إلى عبد الله بن عمرو ؓ.

وإيمان الحواريين بعيسى ﷺ نعمة أنعم الله عليه بها؛ إذ لو لم يؤمنوا به لما وُجد من يؤمن به، فهم الذين قالوا: ﴿نَحْنُ أَنْصَارُ اللَّهِ﴾ [الصف: ١٤] حين كفرت به طائفة من بني إسرائيل، فكان الحواريون هم السابقون إلى الإيمان به، ولم يترددوا في تصديقه وملازمته وعونه في الدعوة إلى الله تعالى، والوحي إليهم بمعنى الإلهام وقذف الإيمان في القلب، كما قال تعالى: ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَيْكَ أَمْرَ مُوسَىٰ أَنْ أَرْضِعِيهِ﴾ [القصص: ٧]

وقال: ﴿وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ﴾ [النحل: ٦٨].

وسُمُّوا حواريين من (الحوَر) وهو شدة الصفاء ونصوع البياض؛ ولأنهم طهَّروا أنفسهم من النفاق والخداع، وأخلصوا نياتهم لله تعالى.

تاسعاً: معجزة المائدة

١١٢- ﴿إِذْ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ يَٰعِيسَىٰ ابْنَ مَرْيَمَ هَلْ يَسْتَطِيعُ^(١) رَبُّكَ أَنْ يُنْزِلَ^(٢) عَلَيْنَا مَائِدَةً مِنَ السَّمَاءِ قَالَ اتَّقُوا اللَّهَ إِن كُنْتُمْ مُّؤْمِنِينَ﴾

ثم حكى ﷺ ما دار بين عيسى والحواريين، وهو مثال نافع لكل أمة مع نبيا، أي: واذكر يا عيسى حين سأل الحواريون نزول مائدة من السماء عليهم، فيها طعام لهم، فكان الجواب: أَنَّ أمرهم الله تعالى باتقاء عذاب الله إن كانوا مؤمنين.

والحواريون لم يشكُّوا في قدرة الله سبحانه، وإنما أرادوا سؤال عيسى ﷺ من باب العرض والأدب أن يطلب من ربه أن ينزل عليهم مائدة من السماء، فقالوا: ﴿هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ﴾ وفي قراءة الكسائي (هل تستطيع ربك) هل بإمكانك أن تسأله هذا السؤال؟ وتوجَّه إليه هذا الطلب؟ وهل يسهل عليه ذلك؟

وكانوا مؤمنين معترفين بكمال قدرة الله تعالى، ولكنهم أرادوا مزيد الاطمئنان، كما

(١) قرأ الكسائي بقاء الخطاب في (تستطيع) ونصب الفعل، ونصب (ربك) على التعظيم، والمخاطب هو عيسى، أي: هل تستطيع سؤال ربك، وقرأ سائر القراء بقاء الغيب في (يستطيع) ورفعها، ورفع (ربك) على أنه فاعل، أي هل يطيعك ربك، ويجيبك إلى مسألتك، واستطاع بمعنى أطاع، والكسائي يدغم لام هل في التاء بعدها.

(٢) قرأ ابن كثير وأبو عمرو ويعقوب بتخفيف (يُنْزِل) مضارع (أنزل)، وقرأ الباقون بالتشديد مضارع (نَزَلَ).

قال إبراهيم عليه السلام ﴿وَلَكِنْ لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِي﴾ [البقرة: ٢٦٠] ولما كان هذا السؤال منافياً للانقياد للحق، قال لهم عيسى: يا قوم، اتقوا الله؛ فإن ما مع المؤمن من الإيمان، يحمله على ملازمة التقوى وأن ينقاد لأمر الله، ولا يقترح الآيات فهو لا يدري ما يكون بعدها، لأن من سنن الله في خلقه أنهم إذا سألوا رسولاً من رسل الله أن يأتيهم بآية معينة من آيات الله الكونية، وأنزل الله عليه هذه الآية، ثم كذبوه فلم يؤمنوا به ولا بهذه الآية، تكون النتيجة أن الله ﷻ يهلكهم ويبيدهم جميعاً، فهو سبحانه يخشى عليكم هذه العاقبة إن لم تؤمنوا.

فلا تقترحوا عليه الآيات، وقفوا عند حدود الله، واملأوا قلوبكم هيبة وخشية لله تعالى، ولا تطلبوا مثل هذه المطالب، ونصوص القرآن تفيد أن الحواريين كانوا مؤمنين، وقد أرادوا زيادة الاطمئنان بالمشاهدة، وكان طلب الحواريين للمائدة في أول عهدهم بالإيمان.

والمائدة: اسم للطعام، وقد يكون هذا الطعام على خِوان من خشب له قوائم، وقد يوضع الطعام على سُفرة أرضية من الجلد، أو البلاستيك، أو الورق المقوى، ونحو ذلك، ولا ينبغي أن يوضع الطعام على ورق الصحف؛ لأن فيه امتهان لما في هذه الصحف من اسم الله تعالى وآياته، وحديث رسوله ﷺ، فماذا كان رد الحواريين على عيسى عليه السلام حين أمرهم بتقوى الله تعالى؟ وجواباً على طلب المائدة؟

١١٣- ﴿قَالُوا زَيْدٌ أَنْ نَأْكُلَ مِنْهَا وَتَطْمَئِنَّ قُلُوبُنَا وَنَعْلَمَ أَنْ قَدْ صَدَّقْنَا وَكَوْنُ عَلَيْنَا مِنَ الشَّاهِدِينَ﴾

أي: قال الحواريون لعيسى: مقصدنا حسن، ونحن نريد أن نأكل من هذه المائدة وتسكن قلوبنا لرؤيتها، وتسكن أيضاً إليك وإلى دعوتك، ونعلم أن قد صدقتنا في نبوتك، ونشهد أن هذه الآية أنزلها الله حجة له علينا في توحيده تعالى وعظيم قدرته، وحجة لك - يا عيسى - على صدقك في نبوتك فنزداد إيماناً و يقيناً بأنك رسول الله، عز وجل، فالعبد محتاج إلى زيادة العلم واليقين والإيمان في كل وقت.

فهذه أربعة أسباب من أجلها طلبوا نزول المائدة، وهي:

١- الأكل منها لحصول البركة، والتشرف بأكل شيء نازل من السماء.

٢- اطمئنان القلب بمشاهدتها؛ حتى يرسخ الإيمان ويقوى اليقين.

٣- تصديق دعوة النبوة، والإذعان لما تأمرنا به -أيها النبي- أو تنهانا عنه.

٤- الشهادة على أن نزول المائدة معجزة من عند الله تعالى؛ حتى نبْلغ من لم يحضر نزولها فيؤمنون بدعوتك.

لما سمع عيسى كلامهم وعلم مقصودهم أجابهم إلى ما طلبوا، حيث طلب منهم عيسى ﷺ لما سألوا نزول المائدة أن يتطهروا ويتوبوا ويصوموا ثلاثين يوماً، ثم يسألوا الله سبحانه ما يشاؤون فإنه معطيهم، فصاموا ثلاثين يوماً وسألوه المائدة، ودعا عيسى ربه طالباً منه نزول المائدة عليهم بعد أن توضأ وصلى، وتضرع إلى ربه، وبكى بكاء كثيراً.

١١٤- ﴿قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ اللَّهُمَّ رَبَّنَا أَنْزِلْ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِنَ السَّمَاءِ تَكُونُ لَنَا عِيدًا لِأَوَّلِنَا وَآخِرِنَا وَآيَةً مِنْكَ وَارْزُقْنَا وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ﴾

في هذه الآية حكى الله تعالى ما تضرع به عيسى إلى ربه، يطلب منه سبحانه أن تكون هذه المائدة حجة له، وتكون برهاناً ومعجزة دالة على صدق دعوته ﷺ، فدعا ربه قائلاً: اللهم ربنا أنزل علينا مائدة طعام من السماء، نتخذ يوم نزولها عيداً لنا نعظمه نحن ومن بعدنا، وتكون هذه المائدة علامة وحجة على وحدانيتك سبحانه، وتكون دليلاً على صدق نبوتي، فارزقنا - يارب - من فيضك العميم، فأنت جواد كريم، وأنت خير المانحين.

وهكذا توسل عيسى إلى ربه مرة بذاته العلية فقال: ﴿اللَّهُمَّ﴾ أي يا الله، ومرة بوصف الربوبية فقال: ﴿رَبَّنَا﴾ وفي هذا غاية التضرع، فكأنه يقول: يا إلهي ومعبودي وخالقي، ويا مُربِّيني بخيرك ونعمك أجب دعائي.

ويلاحظ أن الحوارين لما طلبوا المائدة قدّموا في سؤالهم الغرض الديني وهو الأكل منها، على الغرض الأخروي، وهو تصديقهم بنبوة عيسى ﷺ.

وظهر عكس ذلك في طلب عيسى ﷺ للمائدة؛ حيث قدّم الغرض الأخروي؛ وهو كون نزولها يوم عيد يفرحون فيه بنزولها، وأن تكون هذه المائدة آية دالة على صدق الرسالة، وآخر الغرض الديني وهو الرزق والأكل منها.

١١٥ - ﴿قَالَ اللَّهُ إِنِّي مُنَزِّلُهَا^(١) عَلَيْكُمْ فَمَنْ يَكْفُرْ بَعْدَ مِنْكُمْ فَإِنِّي^(٢) أُعَذِّبُهُ عَذَابًا لَا أُعَذِّبُهُ أَحَدًا مِنَ الْمُعْلِمِينَ﴾

وجمهور أهل العلم على أن الله تعالى أيد عيسى، وأنزل عليه المائدة تحقيقاً لوعده الله سبحانه في قوله: ﴿قَالَ اللَّهُ إِنِّي مُنَزِّلُهَا عَلَيْكُمْ﴾ وكان نزولها في يوم الأحد فاتخذها النصارى عيداً، قيل: نزلت المائدة من السماء تطير بها الملائكة من عند الله، وكان عليها خبز وسمك، أو خبز ولحم، أو ثمر من ثمار الجنة، وأياً ما كان الأمر، فقد أيد الله سبحانه عيسى عليه السلام بما طلب القوم، ونزلت عليه المائدة من السماء، ولكن القوم كفروا بها، وقد توعد الله من يكفر بها بالعذاب الذي لم ينزل بأحد من خلقه، فقال: ﴿فَمَنْ يَكْفُرْ بَعْدَ مِنْكُمْ﴾ أي: من يكفر بعد نزول المائدة، فيجحد وحدانيته ونبوة عيسى عليه السلام ﴿إِنِّي أُعَذِّبُهُ عَذَابًا لَا أُعَذِّبُهُ أَحَدًا مِنَ الْمُعْلِمِينَ﴾ لأنه شاهد الآيات الباهرة، وكفر عناداً وظلماً، فاستحق العذاب الأليم والعقاب الشديد.

قال لهم عيسى عليه السلام كما أمره ربه: كلوا من المائدة، ولا تخونوا ولا تدخروا، فأكلوا وخالفوا ما أمروا به.

عن عمار بن ياسر رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «نزلت المائدة من السماء، عليها خبز ولحم، وأمروا ألا يخونوا، ولا يرفعوا لغد، فخانوا وادخروا ورفعوا، فمسخوا قرده وخنازير»^(٣).

وحديث عمار -على ما في سنده من مقال- يفيد أن المائدة كان عليها خبز ولحم، وجاءت آثار أخرى تفيد أن عليها أحواتا وأرغفة، أو أن عليها ثمرًا من ثمار الجنة، وغير ذلك من الأخبار^(٤) التي لا يترتب على معرفتها فائدة عملية للمؤمنين، ونحن متعبدون بما جاء في القرآن وصحيح السنة، وليس فيهما شيء من هذا القبيل، ولو كان في معرفته

(١) قرأ ابن كثير وأبو عمرو وحزمة والكسائي ويعقوب وخلف العاشر (منزلها) بالتخفيف، أي: بسكون النون وعدم تشديد الزاي، على أنها اسم فاعل، من (أنزل)، وقرأ الباقون بفتح النون وتشديد الزاي المكسورة اسم فاعل من (نزل).

(٢) قرأ نافع وأبو جعفر (فإنني أعذبه) بفتح ياء الإضافة وصلًا، والباقيون بإسكانها.

(٣) أخرجه الترمذي (٢٦٠/٥) برقم (٣٠٦١) وهو عند الطبري (٢٢٨/١١) وقد روي مرفوعاً وموقوفاً وهو أصح، قال الترمذي: ولا نعرفه مرفوعاً إلا من حديث الحسن بن قزعة، ولا نعلم للحديث المرفوع أصلاً.

(٤) انظر: «تفسير ابن عطية» (٢/٢٦١) و«تفسير ابن كثير» (٢/٢٢٦) و«زاد المسير» والقرطبي، وغيرهم.

مصلحة للمؤمن لبيته رب العالمين، فيكفينا ظاهر القرآن، وما بيته النبي ﷺ.

وخبر المائدة لا تعرفه النصارى، ولا يوجد في كتبهم، ومن الجائز أن يكونوا قد أخفوه كما أخفوا غيره ضمن تحريفهم لكتاب الله تعالى.

وقد وردت آثار عن الحسن ومجاهد تفيد أن المائدة لم تنزل، والذي عليه جمهور العلماء والمفسرين أنها نزلت؛ لأن الله تعالى قال: ﴿إِنِّي مُنَزِّلُهَا عَلَيْكُمْ﴾ وهذا وعد من الله تعالى بإنزالها، وقد توعدهم الله سبحانه بالعذاب، إن كفروا بهذا الوعد. ولم تصرح الآية بنزولها، فيحتمل أنها لم تنزل، وليس في الأناجيل التي بأيدي النصارى الآن ما يدل على نزولها.

وفي الآية تحذير من الكفر بعد الإيمان، وأن عذاب الله للكافر بعد قيام الحجة عليه، وبعد إجابة ما طلب، يكون سببه الجحود والعناد، فيستحق بذلك أقسى العذاب وأشدّه.

وقد جاء هذا المعنى في حديث ابن عباس ؓ قال: قالت قريش للنبي ﷺ: ادع لنا ربك أن يجعل لنا الصفا ذهباً ونؤمن بك، قال: «وتفعلون؟» قالوا: نعم، قال: فدعا، فأتاه جبريل فقال: إن ربك يقرأ عليك السلام، ويقول لك: إن شئت أصبح لهم الصفا ذهباً، فمن كفر منهم بعد ذلك عذبتهم عذاباً لا أعذبه أحداً من العالمين، وإن شئت فتحت لهم باب التوبة والرحمة، قال: «بل باب التوبة والرحمة»^(١).

بَطْلَانُ دَعْوَى الْوَهْيَةِ عِيسَى وَأُمِّهِ

١١٦- ﴿وَإِذْ قَالَ اللَّهُ يَٰعِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ ءَأَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّيٓ (٢) إِلَٰهَيْنِ مِن دُونِ اللَّهِ قَالِ سُبْحٰنَكَ مَا يَكُونُ لِيٓ (٣) أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِيٓ بِحَقِّٖٓ إِن كُنتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتُمْ تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي

(١) «المسند» (٢٤٢/١) برقم (٢١٦٦) بإسناد صحيح على شرط مسلم، ومثله (٣٢٢٣) وصححه أحمد شاكر و«المستدرک» (٥٣/١) قال الحاكم: صحيح الإسناد، ووافقه الذهبي والطبراني في «المعجم الكبير» (١٥٢/١٢) برقم (١٢٧٣٦) من طريق سفيان، قال الهيثمي في «مجمع الزوائد» (١٩٦/١٠): رجاله رجال الصحيح، وأخرجه عبد بن حميد (٧٠٠) والبيهقي (٢٧٢/٢).

(٢) قرأ نافع وأبو عمرو وابن عامر وجعفر بفتح ياء (وَأُمِّي) وصلأ، والباقون بإسكانها.

(٣) قرأ نافع وابن كثير وأبو عمرو وأبو جعفر بفتح ياء (مَا يَكُونُ لِي) (أن) وصلأ، والباقون بإسكانها.

وَلَا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ إِنَّكَ أَنْتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ ^(١) ﴿١١٦﴾

وبعد بيان المعجزات التسع التي ذكرتها الآيات السابقة، يأتي مشهد على مرأى من الخلائق جميعاً يوم لقاء الله؛ ليعلموا أن عيسى عليه السلام ليس إلهاً، وليس ابناً، ولا مشاركاً لله سبحانه؛ حيث يأتي هذا السؤال من الله تعالى ليعلم عيسى عليه السلام ماذا فعل قومه من بعده بالتوحيد الذي أتى به من عند الله.

وليعلم اليهود والنصارى أنهم قد كذبوا وخرجوا عن حدود طاعة الله ورسوله ﴿وَإِذْ قَالَ اللَّهُ يَحْيَى ابْنُ مَرْيَمَ ءَأَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ﴾ من أهل دينك ﴿اتَّخِذُونِي وَأُمِّي إِلَهَيْنِ مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ وفي الآية توبيخ للنصارى الذين قالوا: ﴿إِنَّ اللَّهَ ثَالِكُ ثَلَاثَةٍ﴾.

أي: واذكر -أيها الرسول- حين يقرر الله تعالى شأن عيسى يوم القيامة، ويسأله عن التوحيد، وعدم اتخاذه وأمه معبودين من دون الله، وهذا السؤال توبيخاً للنصارى الذين زعموا ذلك في الدنيا، والله سبحانه يبين لجميع خلقه أن عيسى ما قال ذلك.

وهذا بيان للأمم على رؤوس الأشهاد؛ لإبطال هذه الدعوى، ولتعلم الملايين من البشر التي تؤمن بهذه الخرافة أن عيسى عليه السلام ليس ابن الله.

وبعد السؤال يأتي الجواب: ﴿قَالَ سُبْحَنكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقِّ﴾ قرآن ناطق، لا يحتاج إلى بيان ولا إيضاح، ما ينبغي لي أن أقول للناس غير الحق، فما تجاوزت فيما قلت حدَّ التبليغ لما أمرتني به، وكيف أقول هذا وأنا لست له بأهل؟! ولو أنني قلته لعلمته ﴿إِنْ كُنْتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ﴾ فأنت أعلم بما في نفسي، لا يخفى عليك شيء ﴿تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي﴾ من الخفايا والنوايا، وعلمك محيط بكل شيء، ثم قال عيسى عليه السلام على سبيل المشاكلة والمطابقة في الكلام ﴿وَلَا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ﴾ فأنت تعلم ما لا أعلم، ونفس الشيء وذاته بمعنى واحد، وفي هذا اعتذار من عيسى لربه، وبراءة من القول المنسوب إليه، ومبالغة في الأدب وإظهار الذلة والمسكنة. قال القرطبي: اختلف في وقت هذه المقالة:

١- فقال قتادة وابن جريج وأكثر المفسرين: إنما يقول له هذا يوم القيامة.

(١) قرأ شعبة وحمزة بكسر غين (الغيوب) والباقون بضمها.

٢- وقال السُّدِّي وقطرب: قال له ذلك حين رفعه إلى السماء.

٣- وقالت النصارى فيه ما قالت.

والأول أصح^(١). لأن سياق الآيات قبل هذه الآية وبعدها في الحديث عن يوم القيامة، ولأن عبادة عيسى حدثت بعد رفعه.

وقد ناداه الله سبحانه بقوله: ﴿يَعِيسَى﴾ إشارة إلى نفي الألوهية عنه، وأنه ليس ابناً لله كما يزعمون، ولا يحمل عنصر الإلهية بأي شكل من الأشكال، والبشرية والإلهية نقيضان لا يجتمعان.

ونقل الألوسي ما حكاه أبو جعفر الإمامي عن بعض النصارى أنه كان فيما مضى قوم يقال لهم: (المُرِيْمِيَّة) يعتقدون في مريم الألوهية^(٢).

وقد بدأ عيسى جوابه بتنزيه الله تعالى فقال: ﴿سُبْحَنَكَ﴾ وقدم تنزيه الله تعالى على براءة نفسه، ثم أكد هذا التنزيه بأنه ليس من حقه أن يقول هذا القول، ثم استشهد بالله تعالى على براءته وضعفه فقال: ﴿إِنْ كُنْتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتُمْ﴾ وأكد نفيه لما سئل عنه بجملة تأكيدات؛ منها:

١- (إِنْ) المؤكدة. ٢- وبالضمير (أَنْتِ). ٣- وبصيغة المبالغة (عَلَّام).

٤- وبصيغة الجمع للفظ (الغيوب)، فلم يقل: أَنْتَ عالم الغيب.

والله تعالى يعلم أن عيسى لم يقل ذلك، ولكنه سبحانه أراد إعلان كذب من كفر من النصارى.

١١٧- ﴿مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَا أَمَرْتَنِي بِهِ أَنْ (٣) أَعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ وَكُنْتُ عَلَيْهِمْ (٤) شَهِيدًا مَا دُمْتُ فِيهِمْ (٥) فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنْتُ أَنْتَ الْغَرِيبَ عَلَيْهِمْ وَأَنْتَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾

وبعد هذا النفي المؤكد لما سئل عنه عيسى، يذكر القرآن ما قاله عيسى لقومه، فقال

(١) «تفسير القرطبي» (٦/ ٣٧٤).

(٢) «تفسير الألوسي» (٧/ ٦٥).

(٣) قرأ أبو عمرو وعاصم وحزمة ويعقوب بكسر نون (أَنْ أَعْبُدُوا) وصلًا، على الأصل في التخلص من التقاء الساكنين، وقرأ الباقر بضمها.

(٤) (٥) (٦) (٧) (٨) (٩) (١٠) (١١) (١٢) (١٣) (١٤) (١٥) (١٦) (١٧) (١٨) (١٩) (٢٠) (٢١) (٢٢) (٢٣) (٢٤) (٢٥) (٢٦) (٢٧) (٢٨) (٢٩) (٣٠) (٣١) (٣٢) (٣٣) (٣٤) (٣٥) (٣٦) (٣٧) (٣٨) (٣٩) (٤٠) (٤١) (٤٢) (٤٣) (٤٤) (٤٥) (٤٦) (٤٧) (٤٨) (٤٩) (٥٠) (٥١) (٥٢) (٥٣) (٥٤) (٥٥) (٥٦) (٥٧) (٥٨) (٥٩) (٦٠) (٦١) (٦٢) (٦٣) (٦٤) (٦٥) (٦٦) (٦٧) (٦٨) (٦٩) (٧٠) (٧١) (٧٢) (٧٣) (٧٤) (٧٥) (٧٦) (٧٧) (٧٨) (٧٩) (٨٠) (٨١) (٨٢) (٨٣) (٨٤) (٨٥) (٨٦) (٨٧) (٨٨) (٨٩) (٩٠) (٩١) (٩٢) (٩٣) (٩٤) (٩٥) (٩٦) (٩٧) (٩٨) (٩٩) (١٠٠) (١٠١) (١٠٢) (١٠٣) (١٠٤) (١٠٥) (١٠٦) (١٠٧) (١٠٨) (١٠٩) (١١٠) (١١١) (١١٢) (١١٣) (١١٤) (١١٥) (١١٦) (١١٧) (١١٨) (١١٩) (١٢٠) (١٢١) (١٢٢) (١٢٣) (١٢٤) (١٢٥) (١٢٦) (١٢٧) (١٢٨) (١٢٩) (١٣٠) (١٣١) (١٣٢) (١٣٣) (١٣٤) (١٣٥) (١٣٦) (١٣٧) (١٣٨) (١٣٩) (١٤٠) (١٤١) (١٤٢) (١٤٣) (١٤٤) (١٤٥) (١٤٦) (١٤٧) (١٤٨) (١٤٩) (١٥٠) (١٥١) (١٥٢) (١٥٣) (١٥٤) (١٥٥) (١٥٦) (١٥٧) (١٥٨) (١٥٩) (١٦٠) (١٦١) (١٦٢) (١٦٣) (١٦٤) (١٦٥) (١٦٦) (١٦٧) (١٦٨) (١٦٩) (١٧٠) (١٧١) (١٧٢) (١٧٣) (١٧٤) (١٧٥) (١٧٦) (١٧٧) (١٧٨) (١٧٩) (١٨٠) (١٨١) (١٨٢) (١٨٣) (١٨٤) (١٨٥) (١٨٦) (١٨٧) (١٨٨) (١٨٩) (١٩٠) (١٩١) (١٩٢) (١٩٣) (١٩٤) (١٩٥) (١٩٦) (١٩٧) (١٩٨) (١٩٩) (٢٠٠) (٢٠١) (٢٠٢) (٢٠٣) (٢٠٤) (٢٠٥) (٢٠٦) (٢٠٧) (٢٠٨) (٢٠٩) (٢١٠) (٢١١) (٢١٢) (٢١٣) (٢١٤) (٢١٥) (٢١٦) (٢١٧) (٢١٨) (٢١٩) (٢٢٠) (٢٢١) (٢٢٢) (٢٢٣) (٢٢٤) (٢٢٥) (٢٢٦) (٢٢٧) (٢٢٨) (٢٢٩) (٢٣٠) (٢٣١) (٢٣٢) (٢٣٣) (٢٣٤) (٢٣٥) (٢٣٦) (٢٣٧) (٢٣٨) (٢٣٩) (٢٤٠) (٢٤١) (٢٤٢) (٢٤٣) (٢٤٤) (٢٤٥) (٢٤٦) (٢٤٧) (٢٤٨) (٢٤٩) (٢٥٠) (٢٥١) (٢٥٢) (٢٥٣) (٢٥٤) (٢٥٥) (٢٥٦) (٢٥٧) (٢٥٨) (٢٥٩) (٢٦٠) (٢٦١) (٢٦٢) (٢٦٣) (٢٦٤) (٢٦٥) (٢٦٦) (٢٦٧) (٢٦٨) (٢٦٩) (٢٧٠) (٢٧١) (٢٧٢) (٢٧٣) (٢٧٤) (٢٧٥) (٢٧٦) (٢٧٧) (٢٧٨) (٢٧٩) (٢٨٠) (٢٨١) (٢٨٢) (٢٨٣) (٢٨٤) (٢٨٥) (٢٨٦) (٢٨٧) (٢٨٨) (٢٨٩) (٢٩٠) (٢٩١) (٢٩٢) (٢٩٣) (٢٩٤) (٢٩٥) (٢٩٦) (٢٩٧) (٢٩٨) (٢٩٩) (٣٠٠) (٣٠١) (٣٠٢) (٣٠٣) (٣٠٤) (٣٠٥) (٣٠٦) (٣٠٧) (٣٠٨) (٣٠٩) (٣١٠) (٣١١) (٣١٢) (٣١٣) (٣١٤) (٣١٥) (٣١٦) (٣١٧) (٣١٨) (٣١٩) (٣٢٠) (٣٢١) (٣٢٢) (٣٢٣) (٣٢٤) (٣٢٥) (٣٢٦) (٣٢٧) (٣٢٨) (٣٢٩) (٣٣٠) (٣٣١) (٣٣٢) (٣٣٣) (٣٣٤) (٣٣٥) (٣٣٦) (٣٣٧) (٣٣٨) (٣٣٩) (٣٤٠) (٣٤١) (٣٤٢) (٣٤٣) (٣٤٤) (٣٤٥) (٣٤٦) (٣٤٧) (٣٤٨) (٣٤٩) (٣٥٠) (٣٥١) (٣٥٢) (٣٥٣) (٣٥٤) (٣٥٥) (٣٥٦) (٣٥٧) (٣٥٨) (٣٥٩) (٣٦٠) (٣٦١) (٣٦٢) (٣٦٣) (٣٦٤) (٣٦٥) (٣٦٦) (٣٦٧) (٣٦٨) (٣٦٩) (٣٧٠) (٣٧١) (٣٧٢) (٣٧٣) (٣٧٤) (٣٧٥) (٣٧٦) (٣٧٧) (٣٧٨) (٣٧٩) (٣٨٠) (٣٨١) (٣٨٢) (٣٨٣) (٣٨٤) (٣٨٥) (٣٨٦) (٣٨٧) (٣٨٨) (٣٨٩) (٣٩٠) (٣٩١) (٣٩٢) (٣٩٣) (٣٩٤) (٣٩٥) (٣٩٦) (٣٩٧) (٣٩٨) (٣٩٩) (٤٠٠) (٤٠١) (٤٠٢) (٤٠٣) (٤٠٤) (٤٠٥) (٤٠٦) (٤٠٧) (٤٠٨) (٤٠٩) (٤١٠) (٤١١) (٤١٢) (٤١٣) (٤١٤) (٤١٥) (٤١٦) (٤١٧) (٤١٨) (٤١٩) (٤٢٠) (٤٢١) (٤٢٢) (٤٢٣) (٤٢٤) (٤٢٥) (٤٢٦) (٤٢٧) (٤٢٨) (٤٢٩) (٤٣٠) (٤٣١) (٤٣٢) (٤٣٣) (٤٣٤) (٤٣٥) (٤٣٦) (٤٣٧) (٤٣٨) (٤٣٩) (٤٤٠) (٤٤١) (٤٤٢) (٤٤٣) (٤٤٤) (٤٤٥) (٤٤٦) (٤٤٧) (٤٤٨) (٤٤٩) (٤٥٠) (٤٥١) (٤٥٢) (٤٥٣) (٤٥٤) (٤٥٥) (٤٥٦) (٤٥٧) (٤٥٨) (٤٥٩) (٤٦٠) (٤٦١) (٤٦٢) (٤٦٣) (٤٦٤) (٤٦٥) (٤٦٦) (٤٦٧) (٤٦٨) (٤٦٩) (٤٧٠) (٤٧١) (٤٧٢) (٤٧٣) (٤٧٤) (٤٧٥) (٤٧٦) (٤٧٧) (٤٧٨) (٤٧٩) (٤٨٠) (٤٨١) (٤٨٢) (٤٨٣) (٤٨٤) (٤٨٥) (٤٨٦) (٤٨٧) (٤٨٨) (٤٨٩) (٤٩٠) (٤٩١) (٤٩٢) (٤٩٣) (٤٩٤) (٤٩٥) (٤٩٦) (٤٩٧) (٤٩٨) (٤٩٩) (٥٠٠) (٥٠١) (٥٠٢) (٥٠٣) (٥٠٤) (٥٠٥) (٥٠٦) (٥٠٧) (٥٠٨) (٥٠٩) (٥١٠) (٥١١) (٥١٢) (٥١٣) (٥١٤) (٥١٥) (٥١٦) (٥١٧) (٥١٨) (٥١٩) (٥٢٠) (٥٢١) (٥٢٢) (٥٢٣) (٥٢٤) (٥٢٥) (٥٢٦) (٥٢٧) (٥٢٨) (٥٢٩) (٥٣٠) (٥٣١) (٥٣٢) (٥٣٣) (٥٣٤) (٥٣٥) (٥٣٦) (٥٣٧) (٥٣٨) (٥٣٩) (٥٤٠) (٥٤١) (٥٤٢) (٥٤٣) (٥٤٤) (٥٤٥) (٥٤٦) (٥٤٧) (٥٤٨) (٥٤٩) (٥٥٠) (٥٥١) (٥٥٢) (٥٥٣) (٥٥٤) (٥٥٥) (٥٥٦) (٥٥٧) (٥٥٨) (٥٥٩) (٥٦٠) (٥٦١) (٥٦٢) (٥٦٣) (٥٦٤) (٥٦٥) (٥٦٦) (٥٦٧) (٥٦٨) (٥٦٩) (٥٧٠) (٥٧١) (٥٧٢) (٥٧٣) (٥٧٤) (٥٧٥) (٥٧٦) (٥٧٧) (٥٧٨) (٥٧٩) (٥٨٠) (٥٨١) (٥٨٢) (٥٨٣) (٥٨٤) (٥٨٥) (٥٨٦) (٥٨٧) (٥٨٨) (٥٨٩) (٥٩٠) (٥٩١) (٥٩٢) (٥٩٣) (٥٩٤) (٥٩٥) (٥٩٦) (٥٩٧) (٥٩٨) (٥٩٩) (٦٠٠) (٦٠١) (٦٠٢) (٦٠٣) (٦٠٤) (٦٠٥) (٦٠٦) (٦٠٧) (٦٠٨) (٦٠٩) (٦١٠) (٦١١) (٦١٢) (٦١٣) (٦١٤) (٦١٥) (٦١٦) (٦١٧) (٦١٨) (٦١٩) (٦٢٠) (٦٢١) (٦٢٢) (٦٢٣) (٦٢٤) (٦٢٥) (٦٢٦) (٦٢٧) (٦٢٨) (٦٢٩) (٦٣٠) (٦٣١) (٦٣٢) (٦٣٣) (٦٣٤) (٦٣٥) (٦٣٦) (٦٣٧) (٦٣٨) (٦٣٩) (٦٤٠) (٦٤١) (٦٤٢) (٦٤٣) (٦٤٤) (٦٤٥) (٦٤٦) (٦٤٧) (٦٤٨) (٦٤٩) (٦٥٠) (٦٥١) (٦٥٢) (٦٥٣) (٦٥٤) (٦٥٥) (٦٥٦) (٦٥٧) (٦٥٨) (٦٥٩) (٦٦٠) (٦٦١) (٦٦٢) (٦٦٣) (٦٦٤) (٦٦٥) (٦٦٦) (٦٦٧) (٦٦٨) (٦٦٩) (٦٧٠) (٦٧١) (٦٧٢) (٦٧٣) (٦٧٤) (٦٧٥) (٦٧٦) (٦٧٧) (٦٧٨) (٦٧٩) (٦٨٠) (٦٨١) (٦٨٢) (٦٨٣) (٦٨٤) (٦٨٥) (٦٨٦) (٦٨٧) (٦٨٨) (٦٨٩) (٦٩٠) (٦٩١) (٦٩٢) (٦٩٣) (٦٩٤) (٦٩٥) (٦٩٦) (٦٩٧) (٦٩٨) (٦٩٩) (٧٠٠) (٧٠١) (٧٠٢) (٧٠٣) (٧٠٤) (٧٠٥) (٧٠٦) (٧٠٧) (٧٠٨) (٧٠٩) (٧١٠) (٧١١) (٧١٢) (٧١٣) (٧١٤) (٧١٥) (٧١٦) (٧١٧) (٧١٨) (٧١٩) (٧٢٠) (٧٢١) (٧٢٢) (٧٢٣) (٧٢٤) (٧٢٥) (٧٢٦) (٧٢٧) (٧٢٨) (٧٢٩) (٧٣٠) (٧٣١) (٧٣٢) (٧٣٣) (٧٣٤) (٧٣٥) (٧٣٦) (٧٣٧) (٧٣٨) (٧٣٩) (٧٤٠) (٧٤١) (٧٤٢) (٧٤٣) (٧٤٤) (٧٤٥) (٧٤٦) (٧٤٧) (٧٤٨) (٧٤٩) (٧٥٠) (٧٥١) (٧٥٢) (٧٥٣) (٧٥٤) (٧٥٥) (٧٥٦) (٧٥٧) (٧٥٨) (٧٥٩) (٧٦٠) (٧٦١) (٧٦٢) (٧٦٣) (٧٦٤) (٧٦٥) (٧٦٦) (٧٦٧) (٧٦٨) (٧٦٩) (٧٧٠) (٧٧١) (٧٧٢) (٧٧٣) (٧٧٤) (٧٧٥) (٧٧٦) (٧٧٧) (٧٧٨) (٧٧٩) (٧٨٠) (٧٨١) (٧٨٢) (٧٨٣) (٧٨٤) (٧٨٥) (٧٨٦) (٧٨٧) (٧٨٨) (٧٨٩) (٧٩٠) (٧٩١) (٧٩٢) (٧٩٣) (٧٩٤) (٧٩٥) (٧٩٦) (٧٩٧) (٧٩٨) (٧٩٩) (٨٠٠) (٨٠١) (٨٠٢) (٨٠٣) (٨٠٤) (٨٠٥) (٨٠٦) (٨٠٧) (٨٠٨) (٨٠٩) (٨١٠) (٨١١) (٨١٢) (٨١٣) (٨١٤) (٨١٥) (٨١٦) (٨١٧) (٨١٨) (٨١٩) (٨٢٠) (٨٢١) (٨٢٢) (٨٢٣) (٨٢٤) (٨٢٥) (٨٢٦) (٨٢٧) (٨٢٨) (٨٢٩) (٨٣٠) (٨٣١) (٨٣٢) (٨٣٣) (٨٣٤) (٨٣٥) (٨٣٦) (٨٣٧) (٨٣٨) (٨٣٩) (٨٤٠) (٨٤١) (٨٤٢) (٨٤٣) (٨٤٤) (٨٤٥) (٨٤٦) (٨٤٧) (٨٤٨) (٨٤٩) (٨٥٠) (٨٥١) (٨٥٢) (٨٥٣) (٨٥٤) (٨٥٥) (٨٥٦) (٨٥٧) (٨٥٨) (٨٥٩) (٨٦٠) (٨٦١) (٨٦٢) (٨٦٣) (٨٦٤) (٨٦٥) (٨٦٦) (٨٦٧) (٨٦٨) (٨٦٩) (٨٧٠) (٨٧١) (٨٧٢) (٨٧٣) (٨٧٤) (٨٧٥) (٨٧٦) (٨٧٧) (٨٧٨) (٨٧٩) (٨٨٠) (٨٨١) (٨٨٢) (٨٨٣) (٨٨٤) (٨٨٥) (٨٨٦) (٨٨٧) (٨٨٨) (٨٨٩) (٨٩٠) (٨٩١) (٨٩٢) (٨٩٣) (٨٩٤) (٨٩٥) (٨٩٦) (٨٩٧) (٨٩٨) (٨٩٩) (٩٠٠) (٩٠١) (٩٠٢) (٩٠٣) (٩٠٤) (٩٠٥) (٩٠٦) (٩٠٧) (٩٠٨) (٩٠٩) (٩١٠) (٩١١) (٩١٢) (٩١٣) (٩١٤) (٩١٥) (٩١٦) (٩١٧) (٩١٨) (٩١٩) (٩٢٠) (٩٢١) (٩٢٢) (٩٢٣) (٩٢٤) (٩٢٥) (٩٢٦) (٩٢٧) (٩٢٨) (٩٢٩) (٩٣٠) (٩٣١) (٩٣٢) (٩٣٣) (٩٣٤) (٩٣٥) (٩٣٦) (٩٣٧) (٩٣٨) (٩٣٩) (٩٤٠) (٩٤١) (٩٤٢) (٩٤٣) (٩٤٤) (٩٤٥) (٩٤٦) (٩٤٧) (٩٤٨) (٩٤٩) (٩٥٠) (٩٥١) (٩٥٢) (٩٥٣) (٩٥٤) (٩٥٥) (٩٥٦) (٩٥٧) (٩٥٨) (٩٥٩) (٩٦٠) (٩٦١) (٩٦٢) (٩٦٣) (٩٦٤) (٩٦٥) (٩٦٦) (٩٦٧) (٩٦٨) (٩٦٩) (٩٧٠) (٩٧١) (٩٧٢) (٩٧٣) (٩٧٤) (٩٧٥) (٩٧٦) (٩٧٧) (٩٧٨) (٩٧٩) (٩٨٠) (٩٨١) (٩٨٢) (٩٨٣) (٩٨٤) (٩٨٥) (٩٨٦) (٩٨٧) (٩٨٨) (٩٨٩) (٩٩٠) (٩٩١) (٩٩٢) (٩٩٣) (٩٩٤) (٩٩٥) (٩٩٦) (٩٩٧) (٩٩٨) (٩٩٩) (١٠٠٠) (١٠٠١) (١٠٠٢) (١٠٠٣) (١٠٠٤) (١٠٠٥) (١٠٠٦) (١٠٠٧) (١٠٠٨) (١٠٠٩) (١٠١٠) (١٠١١) (١٠١٢) (١٠١٣) (١٠١٤) (١٠١٥) (١٠١٦) (١٠١٧) (١٠١٨) (١٠١٩) (١٠٢٠) (١٠٢١) (١٠٢٢) (١٠٢٣) (١٠٢٤) (١٠٢٥) (١٠٢٦) (١٠٢٧) (١٠٢٨) (١٠٢٩) (١٠٣٠) (١٠٣١) (١٠٣٢) (١٠٣٣) (١٠٣٤) (١٠٣٥) (١٠٣٦) (١٠٣٧) (١٠٣٨) (١٠٣٩) (١٠٤٠) (١٠٤١) (١٠٤٢) (١٠٤٣) (١٠٤٤) (١٠٤٥) (١٠٤٦) (١٠٤٧) (١٠٤٨) (١٠٤٩) (١٠٥٠) (١٠٥١) (١٠٥٢) (١٠٥٣) (١٠٥٤) (١٠٥٥) (١٠٥٦) (١٠٥٧) (١٠٥٨) (١٠٥٩) (١٠٦٠) (١٠٦١) (١٠٦٢) (١٠٦٣) (١٠٦٤) (١٠٦٥) (١٠٦٦) (١٠٦٧) (١٠٦٨) (١٠٦٩) (١٠٧٠) (١٠٧١) (١٠٧٢) (١٠٧٣) (١٠٧٤) (١٠٧٥) (١٠٧٦) (١٠٧٧) (١٠٧٨) (١٠٧٩) (١٠٨٠) (١٠٨١) (١٠٨٢) (١٠٨٣) (١٠٨٤) (١٠٨٥) (١٠٨٦) (١٠٨٧) (١٠٨٨) (١٠٨٩) (١٠٩٠) (١٠٩١) (١٠٩٢) (١٠٩٣) (١٠٩٤) (١٠٩٥) (١٠٩٦) (١٠٩٧) (١٠٩٨) (١٠٩٩) (١١٠٠) (١١٠١) (١١٠٢) (١١٠٣) (١١٠٤) (١١٠٥) (١١٠٦) (١١٠٧) (١١٠٨) (١١٠٩) (١١١٠) (١١١١) (١١١٢) (١١١٣) (١١١٤) (١١١٥) (١١١٦) (١١١٧) (١١١٨) (١١١٩) (١١٢٠) (١١٢١) (١١٢٢) (١١٢٣) (١١٢٤) (١١٢٥) (١١٢٦) (١١٢٧) (١١٢٨) (١١٢٩) (١١٣٠) (١١٣١) (١١٣٢) (١١٣٣) (١١٣٤) (١١٣٥) (١١٣٦) (١١٣٧) (١١٣٨) (١١٣٩) (١١٤٠) (١١٤١) (١١٤٢) (١١٤٣) (١١٤٤) (١١٤٥) (١١٤٦) (١١٤٧) (١١٤٨) (١١٤٩) (١١٥٠) (١١٥١) (١١٥٢) (١١٥٣) (١١٥٤) (١١٥٥) (١١٥٦) (١١٥٧) (١١٥٨) (١١٥٩) (١١٦٠) (١١٦١) (١١٦٢) (١١٦٣) (١١٦٤) (١١٦٥) (١١٦٦) (١١٦٧) (١١٦٨) (١١٦٩) (١١٧٠) (١١٧١) (١١٧٢) (١١٧٣) (١١٧٤) (١١٧٥) (١١٧٦) (١١٧٧) (١١٧٨) (١١٧٩) (١١٨٠) (١١٨١) (١١٨٢) (١١٨٣) (١١٨٤) (١١٨٥) (١١٨٦) (١١٨٧) (١١٨٨) (١١٨٩) (١١٩٠) (١١٩١) (١١٩٢) (١١٩٣) (١١٩٤) (١١٩٥) (١١٩٦) (١١٩٧) (١١٩٨) (١١٩٩) (١٢٠٠) (١٢٠١) (١٢٠٢) (١٢٠٣) (١٢٠٤) (١٢٠٥) (١٢٠٦) (١٢٠٧) (١٢٠٨) (١٢٠٩) (١٢١٠) (١٢١١) (١٢١٢) (١٢١٣) (١٢١٤) (١٢١٥) (١٢١٦) (١٢١٧) (١٢١٨) (١٢١٩) (١٢٢٠) (١٢٢١) (١٢٢٢) (١٢٢٣) (١٢٢٤) (١٢٢٥) (١٢٢٦) (١٢٢٧) (١٢٢٨) (١٢٢٩) (١٢٣٠) (١٢٣١) (١٢٣٢) (١٢٣٣) (١٢٣٤) (١٢٣٥) (١٢٣٦) (١٢٣٧) (١٢٣٨) (١٢٣٩) (١٢٤٠) (١٢٤١) (١٢٤٢) (١٢٤٣) (١٢٤٤) (١٢٤٥) (١٢٤٦) (١٢٤٧) (١٢٤٨) (١٢٤٩) (١٢٥٠) (١٢٥١) (١٢٥٢) (١٢٥٣) (١٢٥٤) (١٢٥٥) (١٢٥٦) (١٢٥٧) (١٢٥٨) (١٢٥٩) (١٢٦٠) (١٢٦١) (١٢٦٢) (١٢٦٣) (١٢٦٤) (١٢٦٥) (١٢٦٦) (١٢٦٧) (١٢٦٨) (١٢٦٩) (١٢٧٠) (١٢٧١) (١٢٧٢) (١٢٧٣) (١٢٧٤) (١٢٧٥) (١٢٧٦) (١٢٧٧) (١٢٧٨) (١٢٧٩) (١٢٨٠) (١٢٨١) (١٢٨٢) (١٢٨٣) (١٢٨٤) (١٢٨٥) (١٢٨٦) (١٢٨٧) (١٢٨٨) (١٢٨٩) (١٢٩٠) (١٢٩١) (١٢٩٢) (١٢٩٣) (١٢٩٤) (١٢٩٥) (١٢٩٦) (١٢٩٧) (١٢٩٨) (١٢٩٩) (١٣٠٠) (١٣٠١) (١٣٠٢) (١٣٠٣) (١٣٠٤) (١٣٠٥) (١٣٠٦) (١٣٠٧) (١٣٠٨) (١٣٠٩) (١٣١٠) (١٣١١) (١٣١٢) (١٣١٣) (١٣١٤) (١٣١٥) (١٣١٦) (١٣١٧) (١٣١٨) (١٣١٩) (١٣٢٠) (١٣٢١) (١٣٢٢) (١٣٢٣) (١٣٢٤) (١٣٢٥) (١٣٢٦) (١٣٢٧) (١٣٢٨) (١٣٢٩) (١٣٣٠) (١٣٣١) (١٣٣٢) (١٣٣٣) (١٣٣٤) (١٣٣٥) (١٣٣٦) (١٣٣٧) (١٣٣٨) (١٣٣٩) (١٣٤٠) (١٣٤

﴿مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَا أَوْحَيْتَ إِلَيَّ، وَأُمَرْتُنِي بِهِ مِنْ إِفْرَادِكَ بِالتَّوْحِيدِ وَالْعِبَادَةِ، فَقُلْتُ لَهُمْ: اعْبُدُوا خَالِقِي وَخَالِقَكُمْ، فَأَنَا بَشَرٌ مِثْلَكُمْ وَعَبِدْ مِنْ عِبَادِ اللَّهِ، وَكُنْتُ شَاهِدًا عَلَى أَعْمَالِكُمْ وَأَنَا مُقِيمٌ بَيْنَهُمْ، أَيُّ: كُنْتُ شَاهِدًا عَلَى أَقْوَالِهِمْ وَأَفْعَالِهِمْ وَأَنَا حَيٌّ بَيْنَ أَظْهَرِهِمْ، وَقَدْ حَالَتْ الْوَفَاةُ بَيْنِي وَبَيْنَهُمْ.﴾

﴿فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي﴾ أَيُّ: قَبَضْتَنِي إِلَيْكَ حَيًّا، وَوَفَّيْتَنِي أَجْلِي فِي الدُّنْيَا، وَرَفَعْتَنِي إِلَيْكَ ﴿كُنْتُ أَنْتَ﴾ وَحْدَكَ ﴿الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ﴾ أَيُّ: الْحَفِيزَ عَلَيْهِمْ، الْمُرَاقِبَ لِأَحْوَالِهِمْ، الْعَلِيمَ بِتَصَرُّفَاتِهِمْ، وَلَا أَعْلَمَ عَنْهُمْ شَيْءٌ ﴿وَأَنْتَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ عَلَمًا وَسَمْعًا وَبَصَرًا، فَأَنْتَ تَعْلَمُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُمْ، وَأَنْتَ الْمَطْلَعُ عَلَى السَّرَائِرِ، لَا تَخْفَى عَلَيْكَ خَافِيَةٌ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ، وَأَنْتَ الَّذِي تَجَاوِزُ عِبَادَكَ بِمَا تَعْلَمُهُ فِيهِمْ مِنْ خَيْرٍ وَشَرٍّ.

وآيات القرآن الكريم يُفهم منها أن عيسى عليه السلام توفاه الله في الدنيا ثم رفعه إليه سبحانه.

ويفهم من الآثار والأحاديث الكثيرة أن عيسى رُفِعَ حَيًّا بجسده وروحه؛ إذ لا معنى لرفع جسده ميتًا، ولا يصح حمل التَّوْفِي في الآية على الإمامة؛ لأن إمامة عيسى في وقت حصار أعدائه له، ليس فيها ما يسوغ الامتنان به عليه، وكذا رفعه إلى السماء جثة هامة، فليست السماء قبرًا لجثث الموتى، والسماء مستقر جميع الأرواح الطاهرة، فلا معنى ولا مزية لرفع روح عيسى إلى السماء، بل إن الشهداء أحياء عند ربهم يرزقون، كما يرزق الإنسان الحي، ويفرحون ويستبشرون فيها.

وقد دلت الآية على أن الأنبياء بعد استيفاء آجالهم ونقلهم إلى البرزخ لا يعلمون أعمال أمتهم.

فقد روى البخاري عن سعيد بن جبير عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: خطب رسول الله ﷺ فقال: «يا أيها الناس إنكم محشورون إلى الله حفاة عراة غُرُلًا» - أي: غير مختونين - ثم قال: ﴿كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُعِيدُهُ وَعَدًا عَلَيْنَا إِنَّا كُنَّا فَاعِلِينَ﴾ [الأنبياء: ١٠٤].

ثم قال: «ألا وإن أول الخلاق يُكسى يوم القيامة: إبراهيم، ألا وإنه يُجاء برجال من أمتي فيؤخذ بهم ذات الشمال، فأقول: يارب أصحابي، فيقال: إنك لا تدري ما أحدثوا بعدك، فأقول كما قال العبد الصالح ﴿وَكُنْتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مِمَّا دُمْتُ فِيهِمْ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنْتُ أَنْتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ﴾

وَأَنْتَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴿١١٨﴾ فيقال: إن هؤلاء لم يزالوا مرتدين على أعقابهم منذ فارقتهم»^(١).

عِيسَى يَفْوضُ أَمْرَ أُمَّتِهِ إِلَى رَبِّهِ

١١٨ - ﴿إِنْ تُعَذِّبُهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِنْ تَغْفِرَ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنْتَ الْمَرْيُومُ الْحَكِيمُ﴾ ﴿١١٨﴾

أي: إن عيسى عليه السلام فوض الأمر في قومه إلى ربه؛ إن شاء عذبهم، وإن شاء غفر لهم، فقال: إن تعذب هؤلاء الذين قالوا هذه المقالة، واستمروا عليها حتى الموت فإنهم عبادك تفعل بهم ما تشاء وأنت العادل فيهم، وأرحم بهم من أنفسهم وأعلم بأحوالهم، وإن تغفر لمن تاب منهم عن شركه وكفره، فذلك فضل منك ورحمة، فالأمر مفوض إليك، وأنت صاحب العدل والحكمة، فمغفرتك صادرة عن تمام عزة وقدرة، لا كمن يغفر ويعفو عن عجز وعدم قدرة.

عن عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم تلا قول الله عز وجل في إبراهيم عليه السلام: ﴿رَبِّ إِبْرَاهِيمَ أَضَلَّنَا كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ فَمَنْ تَبِعْنِي فَإِنَّهُ مِنِّي وَمَنْ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ ﴿١١٨﴾ [إبراهيم]. وفي عيسى عليه السلام: ﴿إِنْ تُعَذِّبُهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِنْ تَغْفِرَ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنْتَ الْمَرْيُومُ الْحَكِيمُ﴾ ﴿١١٨﴾ فرفع يديه وقال: «اللهم أمتي أمتي، وبكى، فقال الله عز وجل: يا جبريل، اذهب إلى محمد -وربك أعلم- فسله: ما يبكيك؟ فسأله، فأخبره رسول الله صلى الله عليه وسلم بما قال -وهو أعلم-: فقال الله: يا جبريل اذهب إلى محمد، فقل: إنا سنرضيك في أمتك ولا نسوءك»^(٢).

وعن أبي ذر رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قام يصلي ليلة كاملة حتى أصبح بآية واحدة، والآية هي قوله تعالى: ﴿إِنْ تُعَذِّبُهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِنْ تَغْفِرَ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنْتَ الْمَرْيُومُ الْحَكِيمُ﴾ ﴿١١٨﴾، ثم قال: «إني سألت ربي عز وجل الشفاعة لأمتي فأعطانيها، وهي نائلة إن شاء الله لمن لا يشرك بالله شيئاً»^(٣).

(١) «صحيح البخاري» برقم (٣٣٤٩، ٤٦٢٥) و«صحيح مسلم» برقم (٢٨٦٠).

(٢) رواه مسلم (١٩١/١) برقم (٢٠٢) ورواه أحمد في «المسند» (١٤٩/٥) وابن حبان (٧٢٣٤، ٧٢٣٥) و«سنن النسائي الكبرى» (١١٢٠٥).

(٣) يُنظر: «المسند» (١٤٩/٥) برقم (٢١٣٨٨) مختصراً، بإسناد حسن، والنسائي في «السنن الكبرى» (١٠٨٤، ١١٠٩٦) وابن ماجه (١٣٥٠)، وابن أبي شيبة (٤٧٧/٢) والبغوي (٩١٥) وحسنه الألباني في صحيح ابن ماجه (١١١٠) والمشكاة (١٢٠٥).

فُضِّلَ الْقَضَاءُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ بِنَجَاةٍ مَنْ نَجَا وَهَلَكَ مَنْ هَلَكَ

١١٩- ﴿قَالَ اللَّهُ هَذَا يَوْمُ^(١) يَنْفَعُ الصَّادِقِينَ صِدْقُهُمْ لَمْ يَكُنْ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَلِّدِينَ فِيهَا أَبَدًا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾

في هذه الآية جواب من الله تعالى عن قول عيسى عليه السلام: ﴿إِنْ تُعَذِّبَهُمْ فَإِنَّهُمْ عَبْدُكَ﴾ الآية. وذلك أن عيسى عليه السلام بعدما قرر أن الله تعالى يفعل في عباده ما يشاء من تعذيب ومغفرة، بيّن جلّ شأنه أن الأمر قد انتهى وفُرج منه، فقد نجا من نجا، وخاب من خاب، فوصل إلى رحمة الله من وصل، وهلك في العذاب من هلك، وذلك بمجيء يوم القيامة.

وكل من اتقى الله تعالى وأخلص له العبادة داخل تحت هذه الآية؛ حيث يقول الله تعالى لعيسى يوم القيامة: هذا يوم الجزاء الذي ينفع فيه توحيد الموحدين، وصدقهم في أقوالهم وأفعالهم ونياتهم، فصدقهم في الدنيا ينفعهم يوم القيامة؛ حيث تجازى كل نفس بما كسبت، فقد أعد الله لهم جنات تجري الأنهار تحت أشجارها وقصورها، يمكنون فيها أبداً، وقد رضي الله عنهم فقبل أعمالهم الحسنة، ورضوا عن ربهم بما أعطاهم من جزيل الثواب في هذا اليوم، وهذا الجزاء وذلك الرضى، هو الفوز العظيم يوم لقاء الله رب العالمين، ﴿لِيُثْلَ هَذَا فَلْيَعْمَلِ الْعَمَلُونَ﴾ [الصافات]. ﴿وَفِي ذَلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ الْمُتَنَافِسُونَ﴾ [المطففين: ٢٦]. والصادقون هم الأنبياء والمؤمنون، أما الكافرون فليسوا منهم، وصدقهم بدون إيمان لا ينفعهم.

خِتَامُ السُّورَةِ فِي نَفْيِ الشَّرِيكِ لِلَّهِ تَعَالَى فِي مَلِكِهِ

١٢٠- ﴿لِلَّهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا فِيهِنَّ^(٢) وَهُوَ^(٣) عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾

(١) قرأ نافع (هذا يوم) بالنصب على الظرف، و(هذا) مبتدأ، والخبر متعلق بالظرف، أي: هذا القول واقع يوم ينفع، وقرأ الباقون (هذا يوم) بالرفع، على أنه خبر (هذا) أي: هذا اليوم، يوم ينفع، والجملة في محل نصب مقول القول.

(٢) قرأ يعقوب بضم الهاء من (فيهن)، وكسرهما الباقون.

(٣) سكن الهاء من (وهو) قالون وأبو عمرو والكسائي وأبو جعفر، وضمها الباقون.

ويختتم الله سبحانه السورة بهذه الآية الدالة على شمول ملكه تعالى لكل شيء في هذا الكون، لله وحده دون غيره ملك السموات والأرض وما فيهن من جميع الكائنات والمخلوقات، فهو مالِكها ومبدعها، والجميع تحت قهره وسلطانه، وعيسى وأمه من جملة ما في هذا الكون، ومن عبيده في ملكه، ومن زعم أن لله شريكاً في ملكه، فقد أعظم الفِرْيَةَ على الله، واستحق خزي الدنيا وعذاب الآخرة، وهو سبحانه القادر الذي لا يعجزه شيء، وجميع المخلوقات منقادة له ومسخرة بأمره.

تم تفسير (سورة المائدة) والله الحمد والمنة



تفسير سورة الأنعام (٦)

مقدمة السورة

سورة الأنعام هي السورة السادسة في ترتيب المصحف، والخامسة والخمسون في ترتيب النزول، نزلت بعد سورة الحجر وقبل سورة الصافات، وهي مئة وخمسون وستون آية في العدد الكوفي، ومئة وسبع وستون آية في العدد المكي والمدني، ومئة وست وستون آية في العدد الشامي والبصري، وهي ثلاثة آلاف واثنان وخمسون كلمة، واثنان عشر ألفاً وأربع مئة واثنان وعشرون حرفاً.

وقد أوردَ بعضُ المفسرين كثيراً من الآثار الضعيفة التي تُحدِّدُ وقت نزول السورة وكيفيتها، وتبيَّن فضلها، كتفسير ابن كثير، وفتح القدير للشوكاني، وكلها لا تخلو من مقال، وأقوى هذه الآثار ما جاء عن أنس رضي الله عنه: أن رسول الله ﷺ قال: «نزلت سورة الأنعام ومعها موكب من الملائكة تسدُّ ما بين الخافقين، لهم زجل بالتسبيح والتكديس، والأرض ترتج، ورسول الله ﷺ يقول: سبحان الله العظيم، سبحان الله العظيم»^(١).

وعن جابر وابن عباس وأنس وابن مسعود وغيرهم: لما نزلت سورة الأنعام سَبَّحَ رسول الله ﷺ ثم قال: «لقد شيع هذه السورة من الملائكة ما سدَّ الأفق»^(٢).

وقد نزلت سورة الأنعام ليلاً جملة واحدة، ودعا الرسول ﷺ كُتَّابَ الوحي فكتبوها من ليلتهم^(٣).

(١) أخرجه البيهقي في «الشعب» (٢٢١٠) وقال الهيثمي في «مجمع الزوائد» (٢٣/٧): رواه الطبراني عن شيخه محمد بن عبد الله بن عرس عن أحمد بن محمد بن أبي السلمي ولم أعرفه، وبقيّة رجاله ثقات، ورواه الطبراني في «الأوسط» (٦٤٤٧) وابن مردويه.

(٢) «المستدرک» (٣١٤/٢) وهو صحيح على شرط مسلم كما قال الحاكم، ورواه البيهقي في «شعب الإيمان» برقم (٢٤٣١) وقد ردّ الذهبي قول الحاكم بأن في إسناده جعفر، ولم يدرك السدي، قال: وأظنه موضوعاً، ولكن وفاة السدي كانت سنة (١٢٧ هـ)، وولادة جعفر كانت سنة (١٠٩ هـ)، فاللقاء بينهما مُحتمَلٌ، ولا وجه لكلام الذهبي، انظر تعليق سامي بن محمد السلامة على «تفسير ابن كثير» في أول السورة، وانظر موسوعة فضائل سور آيات القرآن (٢٥٥/١) واللفظ لجابر، ورواه عبد بن حميد عن محمد بن المنكدر.

(٣) جاء هذا في أثرٍ منسوبٍ لابن عباس في «المعجم الكبير» للطبراني (٢١٥/٢) وفي «فضائل القرآن» لأبي عبيدة ص ١٢٩، و«فضائل القرآن» لابن الضريس ص ١٥٧، وفي إسناده علي بن زيد، وهو ضعيف، ورواه أيضاً إسحاق بن راهويه في مسنده برقم (١٦) وعبد بن حميد عن شهر بن حوشب.

ولم يَنْزِلْ من السور السبع الطوال جملة واحدة غيرها، ولعل أسباب النزول لبعض آياتها قد تجمعت عند نزول السورة في مدّة قصيرة متلاحقة.

قال الفخر الرازي: والسبب في إنزالها دَفْعاً واحدةً أنها مُشتملةٌ على دلائل التوحيد، والعدل، والنبوة، والمعاد، وإبطال مذاهب المعطّلين والملحدين.

فإنزال ما يتعلق بالأحكام والتشريع، قد تكون المصلحة في نزوله على قَدَرِ الحاجة حسب الحوادث والأحوال، أما ما يدل على علم الأصول فقد أُنْزِلَ جملةً واحدةً، ومن ذلك سورة الأنعام.

وقد نزلت سورة الأنعام غالباً في السنة الرابعة للبعثة بعد الأمر بالجَهْرِ بالدَّعوة، وهي فترةٌ عنيفةٌ في تاريخ الدَّعوة؛ لأنها تواجه الشرك والمشركين، وتقاوم عقائد فاسدةً، لاقتلاع جذور الشرك من نفوسهم، وتصحيح العقيدة لديهم.

وسُمِّيَتْ بسورة الأنعام؛ لذكر الأنعام فيها ست مرات، في أربع آيات؛ هي الآيات: (١٣٦، ١٣٨، ١٣٩، ١٤٢)، ولم يُعرَف لها اسمٌ آخر.

والمراد بالأنعام: كل ما له حُفٌّ وظلف من الحيوانات، وهي: الإبل والبقر والغنم.

وقد سُبقت سورة الأنعام بسورة البقرة وآل عمران والنساء والمائدة، وهي السور الأربع الأولى بعد سورة الفاتحة حسب ترتيب المصحف.

وقد نزلت هذه السور الأربع على رسول الله ﷺ بالمدينة المنورة، وهي سورٌ تخاطب المؤمنين، وترسم لهم منهج الحياة، ومنهج الحُكْم الإسلامي، وتضع لهم قواعد العبادات والمعاملات المالية، وأحكام الأسرة، ومعاملة أهل الكتاب، والجهد في سبيل الله، وتبيّن أحوال النفاق والمنافقين وغير ذلك من الأحكام التشريعية.

وأكبر ما تعالج سورة الأنعام قضية العقيدة، وتعريف العباد برب العباد، وقد سلكت السُورة في هذا مسلكين:

المسلك الأول: أسلوب التقرير؛ بعرض الأدلة المتعلقة بتوحيد الله تعالى، مصدرة بضمير الغائب، واسم الموصول المفرد، مع التسليم بدلائل وجود الله تعالى وقدرته، بما لا يشك في ذلك عقلٌ راشد.

وضمير الغيبة يجعل المستمع في حالة حضور، كأن الله تعالى يخاطبه، ويضع يده على مظاهر عظمته: ١- ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ طِينٍ﴾ [٢]

٢- ﴿هُوَ اللَّهُ فِي السَّمَوَاتِ وَفِي الْأَرْضِ﴾ [٣] ﴿وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ﴾ [١٨]

٣- ﴿هُوَ الَّذِي يَنْفَخُ فِي نَفْسِكُمْ بِاللَّيْلِ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُمْ بِالنَّهَارِ﴾ [٦٠]

٤- ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ﴾ [٧٣]

٥- ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ النُّجُومَ لِتَهْتَدُوا بِهَا﴾ [٩٧]

٦- ﴿هُوَ الَّذِي أَنْشَأَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ فَمُسْتَقَرٌّ وَمُسْتَوْدَعٌ﴾ [٩٨]

٧- ﴿هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً﴾ [٩٩]

٨- ﴿هُوَ الَّذِي أَنْشَأَ جَنَّاتٍ مَعْرُوشَاتٍ وَغَيْرَ مَعْرُوشَاتٍ﴾ [١٤١].

المسلك الآخر: أسلوب التلقين والتعليم؛ حيث يُلقنُ الله تعالى رسوله الحجة التي يقذف بها في وجه الباطل، بما يملك على الإنسان سمعه وقلبه، وذلك عن طريق السؤال وتلقين الجواب، وربما تكرر ذلك أربع مرات في آية واحدة.

١- ﴿قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ﴾ [١١] ٢- ﴿قُلْ لِمَنْ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ قُلْ لِلَّهِ﴾ [١٢]

٣- ﴿قُلْ أَغَيْرَ اللَّهِ اتَّخَذُ وَلِيًّا فَاطِرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ يُطْعِمُ وَلَا يَطْعَمُ قُلْ إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَسَلُ﴾ [١٤].

٤- ﴿قُلْ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي﴾ [١٥] ٥- ﴿قُلْ أَيُّ شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهَادَةً قُلِ اللَّهُ شَهِيدٌ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ﴾ [١٩]

٦- ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَنْتُمْ عَذَابُ اللَّهِ أَوْ أَنْتُمْ السَّاعَةُ أَغَيْرَ اللَّهِ تَدْعُونَ﴾ [٤٠]

٧- ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَخَذَ اللَّهُ سَمْعَكُمْ وَأَبْصَارَكُمْ وَخَمَّ عَلَى قُلُوبِكُمْ مَنْ إِلَهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُمْ بِهِ﴾ [٤٦]

٨- ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَنْتُمْ عَذَابُ اللَّهِ بَغْتَةً﴾ [٤٧]

٩- ﴿قُلْ إِنِّي عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي وَكَذَّبْتُمْ بِهِ﴾ [٥٧].

١٠- ﴿قُلْ لَوْ أَنَّ عِنْدِي مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِ لَفُضِيَ الْأَمْرُ﴾ [٥٨]

١١- ﴿قُلْ إِنِّي نُهَيْتُ أَنْ أَعْبُدَ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ [٥٦]

- ١٢- ﴿قُلْ مَنْ يُجِيرُكَ مِنَ ظُلُمَاتِ اللَّيْلِ وَالْبَحْرِ﴾ [٦٣]
- ١٣- ﴿قُلِ اللَّهُ يُجِيرُكَ مِنْهَا وَمِنْ كُلِّ كَرْبٍ﴾ [٦٤]
- ١٤- ﴿قُلْ هُوَ الْقَادِرُ عَلَى أَنْ يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا﴾ [٦٥]
- ١٥- ﴿قُلْ أَدْعُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُنَا وَلَا يَضُرُّنَا﴾ [٧١].
- ١٦- ﴿قُلْ إِنَّ هُدَى اللَّهِ هُوَ الْهُدَى﴾ [٧١] ١٧- ﴿قُلْ يَقْوِمْ أَعْمَلُوا عَلَى مَكَاتِبِكُمْ﴾ [١٣٥]
- ١٨- ﴿قُلْ لَا أَجِدُ فِي مَا أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا عَلَى طَاعِمٍ يَطْعَمُهُ إِلَّا أَنْ يَكُونَ مَيْتَةً﴾ [١٤٥]
- ١٩- ﴿قُلْ فَلِلَّهِ الْحُجَّةُ الْبَلِغَةُ﴾ [١٤٩]
- ٢٠- ﴿قُلْ هَلَمْ شَهِدْكُمْ الَّذِينَ يَشْهَدُونَ أَنَّ اللَّهَ حَرَّمَ هَذَا﴾ [١٥٠]
- ٢١- ﴿قُلْ تَكَالَوْا أَنْتُمْ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ﴾ [١٥١]
- ٢٢- ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ﴾ [١٦٢]
- ٢٣- ﴿قُلْ أَغَيْرَ اللَّهِ أَبْغَى رَبًّا وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَيْءٍ﴾ [١٦٤].

وهكذا يكثر أسلوب التلقين في أول وأطول سورة مكية في القرآن؛ عن طريق السؤال والجواب في جوانب متعددة تتعلق بالعقيدة، والعبادة، والأخلاق، والتشريع، وغير ذلك.

والسبب في كثرة هذا الأسلوب في السورة، أنها نزلت في ذروة المعركة المحتدمة بين الحق والباطل، فهي تلقينات متتابعة، يقول الله تعالى فيها لنبيه وهو يجادل المشركين: قل لهم كذا وكذا، لمناقشة المشركين وإفحامهم بالحُجج القاطعة، وتفنيد شبه المعارضين، وبيان وجه الحق فيها، وقد بلغ هذا الأسلوب أربعاً وأربعين مرة في السورة.

وسورة الأنعام أول سورة مكية في ترتيب المصحف، وهي والتي بعدها (سورة الأعراف) أطول سورتين مكيتين في القرآن الكريم، وخصائص القرآن المكي يختلف عن خصائص القرآن المدني.

ونحن لا نجد في سورة الأنعام نداءً ولا خطاباً واحداً للمؤمنين، فليس فيها ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾، ولا نجد فيها حديثاً يخاطب أهل الكتاب من اليهود والنصارى؛ لأن

ذلك كان في المدينة، ولا نجد فيها حديثاً عن النفاق والمنافقين؛ لأن النفاق ظهر في المدينة، ولا نجد في السور المكية حديثاً عن القتال وأحكام الجهاد؛ لأن الجهاد شرع في المدينة أيضاً، ولا نجد تفصيلاً لأحكام العبادات؛ كالصوم والزكاة والحج، وأحكام المعاملات؛ كالربا وأحكام الأسرة والجنايات من القتل والسرقة والجرائم وغيرها.

والقرآن المكي في ترتيب المصحف بدأ من سورة الأنعام، على خلاف في سورة الفاتحة، هل هي مكية أم مدنية، أو نزلت مرتين؟

والفترة المكية استمرت نحو ثلاثة عشر عاماً، نزل فيها أربع وثمانون سورة؛ منها سبع وأربعون سورة متوالية، هي جزأ (تبارك) و(عم) غالباً؛ أي: من سورة الملك إلى سورة الناس، وهي من متوسط وقصار السور وعددها سبع وأربعون سورة.

ويتناول القرآن المكي ثلاث قضايا؛ وهذه القضايا الثلاث هي:

القضية الأولى: قضية تصحيح العقيدة، وتوحيد الإله المعبود، ونبد الشرك، والتنديد بالمشركين، وكل ما يُعبد من دون الله.

القضية الثانية: تتناول الوحي والرسالة؛ بمعنى أن الوحي المنزل من عند الله تعالى على نوح، وعلى إبراهيم، وعلى موسى وعيسى ﷺ، هو نفسه الذي نزل به جبريل ﷺ على محمد ﷺ، ومن آمن بالوحي الذي نزل على الرسل السابقين، عليه أن يؤمن بالوحي الذي نزل على خاتم الأنبياء والمرسلين محمد ﷺ، وهذا يستلزم الإيمان به ﷺ.

القضية الثالثة: قضية البعث والحشر والنشور والحساب والجزاء يوم القيامة، فالقرآن يغرس في نفوس الخلق أن هناك يوماً آخرًا، يبعث الله فيه العباد، ويحاسبهم على ما قدّمتم أيديهم من خير أو شر، وأن الدنيا ليست نهاية المطاف، وفترة البرزخ يتم فيها استيفاء الأعمال، ثم يكون البعث والحساب، والجنة أو النار، نسأل الله حسن الخاتمة.

هذه القضايا الثلاث هي المحاور التي يدور حولها القرآن الذي نزل بمكة على رسول الله ﷺ، وفي مقدمة ذلك سورة الأنعام، وهذه القضايا ذكرتها سورة الأنعام في الآيات الأربع الأول منها على وجه الإجمال؛ حيث جاءت قضية التوحيد في الآية الأولى منها، وقضية البعث والنشور في الآية الثانية، وقضية الوحي والرسالة في الآية الرابعة منها.

وقد اشتملت سورة الأنعام على هذه القضايا الثلاث في مشاهد مختلفة:

١- فأقامت الأدلة على وحدانية الله تعالى في كثير من الآيات، التي تتناول جوانب الكون كلها:

﴿قُلْ أَغَيَّرَ اللَّهُ أَخِيذُ وَلِيًّا فَاطِرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ يُطْعِمُ وَلَا يُطْعَمُ﴾ [١٤]

﴿وَإِنْ يَمَسُّكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ﴾ [١٧]

﴿وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ﴾ [٥٩]

﴿قُلْ أَدْعُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُنَا وَلَا يَضُرُّنَا﴾ [٧١]

﴿إِنَّ اللَّهَ فَالِقُ الْحَبِّ وَالنَّوْءِ يُخْرِجُ الْحَى مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَى﴾ [٩٥].

ومن دلائل التوحيد حوار إبراهيم لقومه، وهو يُقيم الحجة عليهم، ويأخذ بأيديهم خطوة خطوة، حتى يعترفوا بوحداية الخالق سبحانه، وقد جاء هذا في أسلوب تربويٍّ بديع.

٢- وأقامت سورة الأنعام الأدلة على قضية البعث والحساب والجزاء في مثل قوله تعالى:

﴿وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا آيِنَ شُرَكَائِكُمُ الَّذِينَ كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ﴾

﴿وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ وَقَعُوا عَلَى النَّارِ فَقَالُوا يَلَيْسَ لَنَا نَرْدُ وَلَا نَكْذِبُ بِآيَاتِ رَبِّنَا وَنَكُونُ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾

﴿وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ وَقَعُوا عَلَى رَبِّهِمْ قَالَ أَلَيْسَ هَذَا بِالْحَقِّ قَالُوا بَلَىٰ وَرَبِّنَا﴾ [٣٠].

﴿حَتَّىٰ إِذَا جَاءَهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً قَالُوا يَحْشَرُنَا عَلَىٰ مَا فَرَطْنَا فِيهَا﴾ [٣١]

﴿وَلَوْ تَرَىٰ إِذِ الظَّالِمُونَ فِي غَمَرَاتِ الْمَوْتِ وَالْمَلَائِكَةُ بَاسِطُوا أَيْدِيهِمْ أَخْرِجُوا أَنْفُسَكُمُ﴾ [٩٣]

﴿وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَادَىٰ كَمَا خَلَقْتَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ [٩٤]

﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا يَمَعَشَرُ الْجِنُّ قَدِ اسْتَكْرَرْتُمْ مِنَ الْإِنْسِ﴾ [١٢٨].

٣- وأقامت السورة الأدلة على قضية الوحي والرسالة في كثير من آياتها؛ منها قوله تعالى:

﴿وَلَوْ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ كِتَابًا فِي قِرْطَاسٍ فَلَمَسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ لَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنَّ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ﴾

﴿وَقَالُوا لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ وَلَوْ أَنزَلْنَا مَلَكًا لَفُضِيَ الْأَمْرُ ثُمَّ لَا يُنْظَرُونَ﴾

﴿وَمِنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ﴾ [٢٥].

﴿وَهُمْ يَنْهَوْنَ عَنْهُ وَيَنْفَرُونَ عَنْهُ﴾ [٢٦]

﴿قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُ لَيَحْزَنُكَ الَّذِي يَقُولُونَ فَإِنَّهُمْ لَا يَكْذِبُونَكَ وَلَكِنَّ الظَّالِمِينَ بَيَّاتٍ اللَّهُ يَجْحَدُونَ﴾ [٣٣]
 ﴿وَلَقَدْ كَذَّبْتَ رَسُولٌ مِّن قَبْلِكَ فَصَبْرُوا عَلَى مَا كُذِّبُوا وَأُودُوا حَتَّى أَنَّهُمْ نَصَرُوا﴾ [٣٤] ﴿قُلْ لَا أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي خَزَائِنُ اللَّهِ وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبَ وَلَا أَقُولُ لَكُمْ إِنِّي مَلَكٌ إِن أَتَيْتُ إِلَّا مَا يُوْحَىٰ إِلَيَّ﴾ [٥٠].

وإلى جوار هذه القضايا الثلاث فنَدَّتِ السورة شُبُهَاتِ المشركين بأسلوب يُقنع العقول ويَهْدِي القلوب، ويَرْضِي العواطف، وذلك في مثل قوله تعالى:

﴿وَجَعَلُوا لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ الْحَرْثِ وَالْأَنْعَامِ نَصِيبًا﴾ [١٣٦]

﴿وَقَالُوا هَذِهِ أَفْنَدُ وَحَرْثٌ حِجْرٌ لَا يَطْعُمُهَا إِلَّا مَن نَّشَاءُ رِزْقِهِمْ﴾ [١٣٨]

﴿وَقَالُوا مَا فِي بُطُونِ هَذِهِ الْأَفْنَامِ خَالِصَةٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا وَمُحَرَّمٌ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا﴾ [١٣٩].

﴿ثُمَّ نَبِّئِ الَّذِينَ آمَنُوا مِنَ الطَّيَّانِ اثْنَيْنِ وَمِنَ الْبَقَرِ اثْنَيْنِ قُلْ آلَّذِينَ كَفَرُوا هَرَمَ أَرِ الْأَنْثَيْنِ﴾ [١٤٣]

﴿وَمِنَ الْإِبِلِ اثْنَيْنِ وَمِنَ الْبَقَرِ اثْنَيْنِ قُلْ آلَّذِينَ كَفَرُوا هَرَمَ أَرِ الْأَنْثَيْنِ﴾ [١٤٤]

﴿وَعَلَى الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا كُلَّ ذِي ظُلْفٍ﴾ [١٤٦]

﴿سَيَقُولُ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا وَلَا آبَاؤُنَا وَلَا حَرَمْنَا مِن شَيْءٍ﴾ [١٤٨].

وسورة الأنعام أجمعُ سورةٍ في القرآن لأحوال العرب في الجاهلية، وأشدُّها مقارعة لجدالهم، واحتجاجاً على سَفَاهَةِ أحوالهم.

في صحيح البخاري أن ابن عباس رضي الله عنهما قال: إذا سَرَّكَ أن تعلم جهلَّ العرب؛ فاقراء ما فوق الثلاثين ومئة من سورة الأنعام ﴿قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ قَتَلُوا أَوْلَادَهُمْ سَفَهًا﴾ إلى قوله ﴿قَدْ ضَلُّوا وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ﴾ (١).

إلى جوار الآيات التي تناولت مقترحات المشركين بنزول معجزاتٍ كونيَّةٍ على النبي ﷺ تُصَدِّقُ دعوته، وردَّ الله عليهم في آياتٍ منها:

﴿وَنُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ وَأَبْصَارَهُمْ كَمَا لَوْ يُؤْمِنُوا بِهِ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَنَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ (١١٥) وَلَوْ

أَنَّا نَزَّلْنَا إِلَيْهِمُ الْمَلَكَيْنِ وَكَلَّمَهُم بِالْوَقْ وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَيْءٍ قُبُلًا مَّا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ ﴿١١٠، ١١١﴾.

والآيات التي تناولت القرآن الكريم تصفه بأنه كتاب مبارك مصدق لما قبله من الكتب، وتأمّر نبيّه ﷺ باتباع ما فيه ﴿أَتَبِعَ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ﴾ [١٠٦]. وعلى هذا الأساس تمضي السورة.

فتبدأ : بإقامة أدلة التوحيد في مواجهة المشركين ﴿ثُمَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ﴾ [١]. وتنتي : بموقف المكذبين بآيات الله في هذا الكون الفسيع ﴿فَقَدْ كَذَّبُوا بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ﴾ [٥]. وتثلاث : بتعريف الناس بحقيقة الألوهية ﴿قُلْ لِمَن مَّا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ قُلْ لِلَّهِ﴾ [١٢]. ورابعا : تُخبر أن أهل الكتاب يعرفون محمدا ﷺ، وكتابه حق المعرفة. ﴿الَّذِينَ ءَاتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ﴾ [٢٠].

وخامسا : تُسلي الرسول ﷺ، وتُسرّي عنه ما يحدث له من تكذيب المكذبين. ﴿قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُ لَيَحْزَنُكَ الَّذِي يَقُولُونَ فَإِنَّهُمْ لَا يَكَذِبُونَكَ وَلَكِنَّ الظَّالِمِينَ بِعَايَتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ﴾ [٣٣]. وسادسا : تُقيم السورة أدلة، مادية لا يسع العاقل أمامها إلا أن يُوحّد الخالق سبحانه ﴿إِنَّ اللَّهَ فَالِقُ الْحَبِّ وَالنَّوَى﴾ [٩٥] ﴿وَهُوَ الَّذِي أَنشَأَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ فَمُسْتَوْعِدٌ﴾ [٩٨] ﴿وَهُوَ الَّذِي أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ نَبَاتَ كُلِّ شَيْءٍ﴾ [٩٩].

وسابعا : تُفند السورة مزاعم أهل الجاهلية في الأنعام والثمار؛ لاقتلاع جذور الشرك، وتصحيح العقيدة ﴿وَجَعَلُوا لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ الْحَرْثِ وَالْأَنْعَامِ نَصِيبًا﴾ [١٣٦] ﴿وَقَالُوا هَذِهِ أَنْعَامٌ وَحَرْثٌ حِجْرٌ﴾ [١٣٨].

﴿ثُمَّ نَبَيَّةٌ آتَتْهُم مِّنَ الْأَنْبِيَاءِ قُلُوبُهُمْ حَرَّمَ أَمْرَ الْأُنثِيَّاتِ﴾ [١٤٣].

وثامنا : تذكّر الوصايا العشر التي جاءت بها كل شريعة من عند الله عز وجل، وفي ثنايا ذلك حديث عن مفاتيح الغيب، وحوار إبراهيم لقومه، وذكّر ثمانية عشر رسولا من رسل الله، والأمر بالاعتداء بهم، وإيحاء كل من شياطين الجن والإنس للآخر.

ولم تَخُلْ السورة من مشاهد القيامة وأهوالها ﴿وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ وُقِفُوا عَلَى النَّارِ﴾ [٢٧]
﴿وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ وُقِفُوا عَلَى رَبِّهِمْ﴾ [٣٠].

وتختتم السورة بابتهاال وإنابة إلى الله تعالى وحده لا شريك له .

فسورة الأنعام أقامت الأدلة على وحدانيّة الله تعالى ، وبينت أنه المستحق للعبادة دون
سواه ، وأقامت الأدلة على صدق النبي ﷺ في دعوته ، وأقامت الأدلة كذلك على أن يوم
القيامة حق ، وأن الحساب والجزاء فيه حق ، وفندت السورة الشُّبهات التي أثارها
المشركون حول هذه الأمور الثلاثة .



تَفْسِيرُ السُّورَةِ

مِنْ دَلَائِلِ وَحْدَانِيَّةِ اللَّهِ تَعَالَى هَذِهِ الْمَخْلُوقَاتُ الْأَرْبَعُ

١ - ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ^(١) ثُمَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ﴾

في هذه الآية يُعَلِّمُنَا الله ﷻ كيف نحمده؛ فيقول لنا: قولوا ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ﴾، وفيها إخبار عن حمده سبحانه والثناء عليه بصفات الكمال ونعوت العظمة والجلال على وجه العموم، وعلى هذه المخلوقات الأربع بوجه خاص، فحمدَ نفسه - سبحانه - على خلق السموات والأرض، وانفراده بالخلق والتدبير، وحمد نفسه على جعل الظلمات والنور محسوسَيْن كالليل والنهار، والشمس والقمر، ومعنويَّين كظلمات الجهل والشك، والشرك والمعصية، وفي هذا دلالة قاطعة على أنه سبحانه المستحق للعبادة دون سواء، ومع هذا فالكفار يعدلون به سواء فيسبونهم معه في العبادة!!

وجملة: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ افْتَتَحَ اللَّهُ ﷻ بها خَمَسَ سُورٍ من القرآن الكريم؛ هي سورة الفاتحة، وسورة الأنعام، وسورة الكهف، وسورتا سبأ وسورة فاطر؛ ليعَلِّمَنَا الله سبحانه كيف نحمده ونمجده، وكيف نثني عليه جل شأنه، وهو تصريح من الله تعالى بأنه جل شأنه المستحقُّ للحمد وحده، والمُخْتَصُّ بالشكر على ما أنعم به على عباده بجلال النعم.

كما يُبَيِّنُ لنا سبحانه في الآية موجبات هذا الحمد، لماذا نحمده؟ والجواب: لأنه تعالى مُبْدِعُ هذا الكون، خالق السموات والأرض، وخالق الليل والنهار، وخالق الظلمات والنور، والشمس والقمر، والأفلاك والكواكب والنجوم، خالق هذا الكون جميعه بعالميه العلوي والسفلي، وما فيهما، وما بينهما.

وقد افْتَتَحَ اللَّهُ سبحانه خَلَقَ هذا الكون بالحمد في هذه السورة، واختتمه بالحمد أيضًا في نهاية سورة الزمر فقال: ﴿وَفُصِّلَ بَيْنَهُمْ بِالْحَقِّ وَقِيلَ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [الزمر: ٧٥].

وخصَّ الله تعالى السموات والأرض بالذكر؛ لأنهما أعظم المخلوقات فيما يُرى

(١) عدَّ لفظ (النور) آية، المدني الأول والمدني الأخير والمكي، وتركها غيرهم.

للعباد، فالسمااء مرفوعةٌ بغير عمدٍ، والأرض هي مَسْكَنُ العباد، فله سبحانه الثناء كله؛ لأنه أنشأ السموات والأرض وما فيهما وما بينهما لفائدة العوالم.

ثم أشار سبحانه إلى صِنْفٍ آخر من المخلوقات فقال: ﴿وَجَعَلَ﴾ أي: خَلَقَ ﴿الظُّلُمَاتِ وَالنُّورِ﴾ وهما ينشآن من تعاقب الليل والنهار، وقد جَمَعَ الله لفظَ ﴿الظُّلُمَاتِ﴾ ولم يَرِدْ في القرآن إلا جَمْعًا، ووَحَّدَ لفظَ ﴿النُّورِ﴾ ولم يرد إلا مفردًا؛ لأن الظلمات تختلف باختلاف ظل كل شيء، فظلمة الليل غير ظلمة البحر غير ظلمة ما تحت الجدار، وهكذا.

أما النور فهو واحدٌ في جميع أحواله، وأراد به اسم الجنس، وباعتبار آخر فإن شُعَب الضلال (وهي الظلمات) متعددة، ومسالكه متنوعة، أما النور فمصدره واحدٌ، هوربُ العالمين.

كما خطَّ النَّبِيُّ ﷺ خطوطًا كثيرة وقال: ما من طريق منها إلا وعليه شيطان يدعو له؛ والصراط المستقيم طريقٌ واحدٌ، قال تعالى: ﴿وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ﴾ [الأنعام: ١٥٣]

وفي خلقِ الظلمات والنور دلالةٌ على عظمة الله تعالى، واستحقاقه للعبادة دون سواه، فلا يجوز لأحد أن يشرك بالله غيره، ومع هذا الوضوح التام فإن الكافرين يُشركون بالله تعالى ويسوُّون معه غيره، ويُسيئون إليه سبحانه؛ فيعبدون معه غيره.

أخرج الطبري بسند حسن عن قتادة: أن الله تعالى خلق السموات قبل الأرض، والظلمة قبل النور، والجنة قبل النار.

فتقديمُ السموات والظلمات مراعاة للترتيب في الوجود، وجُمِعت السموات؛ لأنها عوالمٌ كثيرة؛ فمنها الكواكب السبعة المشهورة، وكلُّ كوكبٍ عالمٌ مستقلٌّ، وأفردت الأرض؛ لأنها عالمٌ واحدٌ.

وخصَّ القرآن بالذكر: الظلمات والنور؛ لأن الناس جميعًا يستوون في إدراكهما والشعور بهما.

وذكرُ هذه الأربع: السموات والأرض، والظلمات والنور، يُشير إلى جنس جميع المخلوقات من جواهر وأعراض، والكفر يشبه الظلمة، والإيمان يشبه النور.

وفي هذا إبطالٌ لعقائد الكُفَّار من مشركين وصابئة ومجوس ونصارى، فكلهم قد أثبتوا

آلهة من الأرض، والصابئة أثبتوا آلهة من الكواكب السماوية، والنصارى أثبتوا إلهية عيسى، أو عيسى وأمه، وهما من الموجودات الأرضية، والمجوس وهم المانوية ألّهُوا النور والظلمة؛ فالنور إله الخير، والظلمة إله الشر عندهم، فأخبر الله تعالى الجميع أنه خالق السموات والأرض بما فيهن، وخالق الظلمات والنور، فهو المستحق للعبادة دون سواه^(١).

والظلمة تكون حسيّة كظلام الليل، وتكون معنويّة كظلمة الشرك والكفر والنفاق، والكفر يشبه الظلمة؛ لأنه انغماس في الجهل والحيرة، والإيمان يشبه النور؛ لأنه ظهور ووضوح للحق والهدى، والظلمة متنوعة بتنوع أسبابها؛ فهناك ظلمة الليل، وظلمة السجون، وظلمة القبور، وظلمة الغمام، وكلها ظلمات حسيّة، وهناك ظلمة الانحراف، وظلمة الجهل، وظلمة الأهواء والشهوات وطمس القلوب.

والمعنى: الحمدُ والثناءُ كُلُّهُ لله تعالى، الذي أنشأ هذه العوالم العلوية والسفلية، وأوجد ما فيها من مخلوقات ناطقة وصامتة، وظاهرة وخفية، وأنشأ الظلمات والنور بتعاقب الليل والنهار، واختلاف الأحوال، وتقلب الأمور ﴿ثُمَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ﴾ عن عبادته إلى عبادة غيره؛ أي: يعدلون عن التوحيد إلى الإشراك بالله ﷻ، مع الأدلة الواضحة، والبراهين الساطعة على وجوب توحيده سبحانه.

والعدل: مساواة الشيء بالشيء، فهم يجعلون لله عديلاً ومماثلاً من خلقه؛ فيعبدون الحجارة وغيرها، مع إقرارهم أنه سبحانه خالق السموات والأرض.

قَضِيَّةُ الْبَعْثِ وَالنُّشُورِ

٢- ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ طِينٍ ثُمَّ قَضَىٰ أَجَلًا وَأَجَلٌ مُّسَمًّى عِنْدَهُ ثُمَّ أَنْتُمْ تَمَعُّونَ﴾ ﴿٢﴾

قضية البعث والحساب والجزاء يوم القيامة تُشير إليها هذه الآية على وجه الإجمال، وهي دليل آخر على أن الله تعالى هو المستحق للعبادة، وهو سبحانه المستحق للحمد كُلِّهِ، وفيها بيان أن القيامة حق.

قال تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ طِينٍ﴾ خطابٌ إلى بني آدم جميعاً؛ أي: خَلَقَ أبوكم

(١) ينظر: «تفسير التحرير والتنوير» (١٢٧/٧).

آدم من طين، وأنتم أبنائه خلقتهم من الطُّفَّة، والنطفة ترجع إلى الطين، فهي من الغذاء، والغذاء من النبات، وهو من الطين.

وفي مراحل خلق الإنسان من طين ثم من نطفة يقول تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ طِينٍ ۝١٢ ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نَظْفَةً فِي قرارٍ مَكِينٍ ۝١٣ ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظْلًا فَكَسَوْنَا الْعِظْمَ لَحْمًا ثُمَّ أَنشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ ۝١٤ ثُمَّ إِنَّكُمْ بَعْدَ ذَلِكَ لَمَيِّتُونَ ۝١٥ ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ تُبْعَثُونَ ۝١٦﴾ [المؤمنون].

وهذا الإنسان المخلوق من الطين، جعله الله بشراً سوياً مفكراً حراً مختاراً، وفي هذا أعظم دليل على أن القادر على الخلق الأول قادرٌ - من باب أولى - على الخلق الثاني ﴿وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَتْ عَلَيْهِ﴾ [الروم: ٢٧]

﴿أَفَعَيْنَا بِالْخَلْقِ الْأَوَّلِ بَلْ هُمْ فِي لَبْسٍ مِنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ ۝١٧﴾ [ق]

﴿وَمِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَى ۝١٨﴾ [طه]

﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ ثُمَّ رَزَقَكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ مَنْ يَفْعَلُ مِنْ ذَلِكَ شَيْئًا﴾ [الروم: ٤٠].

فالله تعالى قدَّرَ لعباده أَجَلَيْنِ: أَجَلًا تنتهي عنده أعمارهم، وهو مدة إقامتكم في هذه الحياة، تتمتعون وتُبتَلَوْنَ بما تأتي به الرسل ﴿أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ [الملك: ٢] ويعمركم في الدنيا مدة يتذكر فيها من تذكركم، ويعتبر فيها من يعتبر.

وأجلاً آخر يمتدُّ من وقت موتهم إلى انتهاء عمر الدنيا، وقد وَصَفَ الله تعالى الأجل الثاني بأنه مُسمى عنده؟ أي: معلوم عند الله تعالى؛ لأن وقت قيام الساعة لا يعلمه إلا الله، وهذا الأجل هو الدار الآخرة التي ينتقل العباد إليها من هذه الدنيا، فيجازيهم بأعمالهم وأقوالهم من خير وشر.

قيل: إن المشركين لما أنكروا البعث، وقالوا: مَنْ يُحْيِي الْعِظَامَ وهي رميم؟ أعلمهم الله بهذه الآية أنه خلقهم من طين، وهو القادر على إعادة خلقهم وبعثهم بعد الموت.

عن أبي موسى الأشعري قال: سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: «إن الله تعالى خَلَقَ آدَمَ مِنْ قَبْضَةٍ قَبْضُهَا مِنْ جَمِيعِ الْأَرْضِ، فَجَاءَ بَنُو آدَمَ عَلَى قَدَرِ الْأَرْضِ، مِنْهُمْ الْأَحْمَرُ

والأبيض والأسود وبين ذلك، والسهل والحزن، والخبيث والطيب»^(١).

قوله تعالى: ﴿ثُمَّ قَضَىٰ﴾ أي: كتب وقدر ﴿أَجَلًا﴾ هو أجل الإنسان المحدود في هذه الدنيا، وهو أجل تعرفون مدته بموت صاحبه ﴿وَأَجَلٌ مُّسَمًّى عِنْدِي﴾ هو الأجل الذي تنتهي فيه هذه الدنيا يوم البعث، ولا يعلمه إلا رب العالمين، فالأجل الأول هو عُمر الإنسان، والأجل الثاني هو يوم القيامة ﴿ثُمَّ أَنْتُمْ تَمْتَرُونَ﴾ أي: تشكون وترتابون في هذا اليوم، وفي وعد الله ووعيده، ولا تعتقدون فيه قدرة الله تعالى على البعث والنشور والحساب والجزاء.

ويُشبه هذه الآية قوله تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُم بِاللَّيْلِ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُم بِالنَّهَارِ ثُمَّ يَبْعَثُكُمْ فِيهِ لِيُقْضَىٰ أَجَلٌ مُّسَمًّى ثُمَّ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ ثُمَّ يُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [الأنعام].

والنتيجة الحتمية: أن الله تعالى هو المعبود في الأرض والسماء، وهو صاحب السلطان المطلق في الكون.

اللَّهُ تَعَالَىٰ هُوَ صَاحِبُ السُّلْطَانِ الْمُطْلَقِ فِي الْكَوْنِ

٣- ﴿وَهُوَ اللَّهُ فِي السَّمَوَاتِ وَفِي الْأَرْضِ يَعْلَمُ سِرَّكُمْ وَجَهْرَكُمْ وَيَعْلَمُ مَا تَكْسِبُونَ﴾

وبعد أن بيّنت السورة أن الله تعالى هو خالق هذا الكون -ممثلًا في السموات والأرض، والليل والنهار، وهو خالق هذا الإنسان- بيّنت أنه سبحانه المعبود في الأرض وفي السماء؛ يعبدُه أهل السموات وأهل الأرض، لأنه سبحانه مالك السموات والأرض، ومدبر الأمر في هذا الكون، فهو سبحانه الخالق الرازق، المحيي المميت، المحيط علماً بجميع الكائنات، كما قال تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي فِي السَّمَاءِ إِلَهٌُ وَفِي الْأَرْضِ إِلَهٌُ﴾ [الزخرف: ٨٤] فهو سبحانه صاحب السلطان المطلق في هذا الكون؛ لأنه المتفرد بالإلهية؛ إذ لا خالق غيره، ولا يعلم السرّ والنجوى إلا هو، فاحذروا معاصيه، وارغبوا في الأعمال التي تقربكم منه وتُذنيكم من رحمته، وابتعدوا عن كل عمل يبعدكم منه ومن رحمته.

فالآية الثالثة تُقرّر ما في الآيتين قبلها، وتُضيف أنه جل شأنه لا يخفى عليه شيء في

(١) أخرجه الترمذي برقم (٣١٤٣) وهو في «صحيح سنن الترمذي» (٢٣٥٥) و«مشكاة المصابيح» (١٠٠) و«السلسلة الصحيحة» (١٦٣٠) و«المسند» (١٩٥٨٢) بإسناد صحيح ورجال ثقات، (محققوه) وأخرجه الطبري في التفسير (٦٤٥) وأبو داود (٤٦٩٣).

الأرض ولا في السماء، فهو يُحيط علماً بالسرّ والجهر، وبكلّ ما يكسبه الإنسان من خيرٍ أو شرٍّ، فالله سبحانه خالقُ العالم العلوي، وخالق العالم السفلي.

﴿وَهُوَ اللَّهُ فِي السَّمَوَاتِ وَفِي الْأَرْضِ﴾ أي: وهو جل شأنه المعبود بحق في السموات وفي الأرض، ومن دلائل وحدانيته أنه ﴿يَعْلَمُ سِرَّكُمْ وَجَهْرَكُمْ﴾ أي: يعلم جميع ما تُخفونه وما تُعلنونه، ويعلم ما تكسبون من أعمال القلوب، ومن أعمال الجوارح، والكل خاضع لله تعالى، مُؤتمِرٌ بأمره، وسوف يُحاسبكم ويُجازيكم على ما قدمتم أيديكم، وسرّ الناس وجههم وكسبهم حاصل في الأرض دون السماء.

مِنْ عَوَاقِبِ الْمُكَذِّبِينَ بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ

٤- ﴿وَمَا تَأْتِيهِمْ^(١) مِنْ آيَةٍ مِنْ آيَاتِ رَبِّهِمْ إِلَّا كَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ﴾

وبعد تقرير حقيقة الوجود الإلهي، ووجوب تفرّده تعالى بالعبادة، وبيان أن جميع من في السموات والأرض يُقرّون له بالألوهية، ذكّر سبحانه من خالف هذه القاعدة من أهل الشرك والضلال، وهم من جحدوا رسالات الله تعالى، ولم يُصدّقوا بالمعجزات التي أيّد الله بها رُسُلَه؛ حيث تشير الآية الرابعة إلى ما فصلته السورة بعد ذلك، وهو أن الرُّسل والأنبياء أيّدهم الله سبحانه بمعجزاتٍ دالّةٍ على صدقِ دعواتهم ورسالاتهم، ومن هذه المعجزات: القرآن الكريم، الذي نزل على محمد ﷺ، وكذا المعجزات الكونية التي نزلت على الرُّسل السابقين، ولكن الكُفّار يُكذبون ويُعرضون ولا يُصدّقون بهذه المعجزات.

﴿وَمَا تَأْتِيهِمْ مِنْ آيَةٍ مِنْ آيَاتِ رَبِّهِمْ﴾ هذا إخبار من الله تعالى عن إعراض المكذّبين وشدة عداوتهم وأنهم لا تنفع فيهم الآيات ممّا تضمنه هذا القرآن الذي نزل على رسول الله ﷺ كانشقاق القمر، أو من المعجزات الأخرى التي أيّد الله بها رسله في مختلف الأزمنة والأمكنة ﴿إِلَّا كَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ﴾ فهؤلاء الكُفّار قد جاءتهم الحجج الواضحة والدلالات البيّنة على وحدانيّة الله تعالى، وعلى صدقِ محمد ﷺ فيما جاء به من عند الله تعالى، ولكنهم أعرضوا عن قبولها ولم يؤمنوا. قال تعالى:

(١) أبدل همزة (تأتيهم) ألفاً ورش، وأبو عمرو بخلف عنه، وأبو جعفر، وعند الوقف حمزة، وضم الهاء يعقوب، ومثلها (يأتيهم) في الآية التالية.

٥- ﴿فَقَدْ كَذَبُوا بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ فَسَوْفَ يَأْتِيهِمْ أَنْبَاءُ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾ (٥)

وحين يكون الإعراض مُتعمداً مع توافر الأدلة؛ فإن التهديد بالبطش يُحدث هزة تفتح نوافذ الفطرة، لقد جحد هؤلاء الكفار الحق الذي جاءهم به محمد ﷺ، وسخروا من دعوته، واغتروا بإمهال الله تعالى إياهم، بعد أن كذبوا بالحق وأعرضوا عنه، فسوف يرون أن ما استهزؤوا به هو الحق، وسيحل بهم عذاب الله إن عاجلاً أو آجلاً، فأحوالهم كما ذكرت هذه الآية والتي قبلها على ثلاث مراتب:

١- كونهم معرضين. ٢- كونهم مكذبين. ٣- كونهم مستهزئين.

وقد وصف الله تعالى هذا الصنف من البشر المعرض عن آيات الله المستهزئ بها بقوله: ﴿وَمَا يَأْتِيهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾ (١١) [الحجر] لقد استهزؤوا بالرسل، واستهزؤوا بما جاؤوا به من الوعد والوعيد والجنة والنار، وقد بين الله تعالى سوء عاقبتهم بخلودهم في النار يوم لقائه، قال تعالى: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ أَخَذُوا آيَاتِ اللَّهِ هُزُواً وَغَرَّتْكُمُ الْحَيَوةُ الدُّنْيَا فَالْيَوْمَ لَا يَخْرُجُونَ مِنْهَا وَلَا هُمْ يُسْعَوُونَ﴾ (٢٥) [الجاثية].

وقد توعد الله تعالى من استهزأ به، أو استهزأ برسوله ﷺ، أو استهزأ بشيء مما جاء به رسول الله ﷺ بالعذاب الشديد يوم لقاء الله، وحكم عليهم بالكفر، حتى ولو كان ذلك من باب المزاح والضحك، قال تعالى في وصف المنافقين: ﴿وَلَكِنْ سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ قُلْ أَبِاللَّهِ وَآيَاتِهِ وَرَسُولِهِ كُنْتُمْ تَسْتَهْزِئُونَ﴾ (٦٥) لَا تَعْدِرُوا فَمَا كَفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ ﴿[التوبة: ٦٥، ٦٦].

ولا يجوز للمسلم أن يجالس قوماً يسخرون من الإسلام، ويأكلون لحوم العلماء، فضلاً عن أن يطعنوا في شيء من القرآن أو السنة، إلا إذا كان ينهاهم عما هم فيه من باطل ﴿وَإِذَا رَأَيْتَ الَّذِينَ يَخُوضُونَ فِي آيَاتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّى يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ وَإِمَّا يُنسِيَنَّكَ الشَّيْطَانُ فَلَا تَقْعُدْ بَعْدَ الذِّكْرَى مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ (١٨) [الأنعام]

﴿وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ آيَاتَ اللَّهِ يُكْفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلَا تَقْعُدُوا مَعَهُمْ حَتَّى يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ﴾ (١٤٠) [النساء].

(١) وقف حمزة على (يستهنون) بحذف الهمزة وضم الزاي، والتسهيل بين بين، وإبدالها ياء خالصة.

الاعتبار بما حلّ بالأمم المكذبة لرسل الله

٦- ﴿أَلَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ قَرْنٍ مَكَّنَّهِمْ فِي الْأَرْضِ مَا لَمْ تُمَكِّنْ لَكُمْ وَأَرْسَلْنَا السَّمَاءَ عَلَيْهِمْ مِدْرَارًا وَجَعَلْنَا الْأَنْهَارَ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهِمْ فَأَهْلَكْنَاهُمْ بِذُنُوبِهِمْ وَأَنْشَأْنَا^(١) مِنْ بَعْدِهِمْ قَرْنًا آخَرِينَ ﴿٦﴾﴾
والقرآن سيقصُّ علينا ما حاقَّ بالأمم التي كذَّبت رسلها، ووجدت وحدانية الله تعالى، من هلاك ودمار، مع ما أعطاهم الله من القوة والملك والتمكين في الأرض.

﴿أَلَمْ يَرَوْا﴾ أي: ألم يعلم هؤلاء المكذبون ما حلَّ بالأمم التي سبَّقت قبلهم فيعتبروا بهم؟ وهم كثرة ﴿كَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ قَرْنٍ﴾ أي: كثيرًا ما أهلكنا أممًا كانوا أعتى منهم وأشدَّ قوة، وأكثر جاهًا وعدداً وعتادًا.

والقرن: هو الجيل من الزمن، ويُقدَّر بمئة عام على الأصح.

وفي الحديث عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه: أن رسول الله ﷺ قال: «خير الناس قرني ثم الذين يلونهم، ثم الذين يلونهم، ثم يجيء أقوامٌ تسبق شهادة أحدهم يمينه، ويمينه شهادته»^(٢).

وهؤلاء الأقوام ﴿مَكَّنَّهِمْ فِي الْأَرْضِ مَا لَمْ تُمَكِّنْ لَكُمْ﴾ أي: أعطيناهم من أسباب التمكين والقوة المادية، ومنحناهم من أسباب السعادة والعيش ما لم نُعطِكم ﴿وَأَرْسَلْنَا السَّمَاءَ عَلَيْهِمْ مِدْرَارًا﴾ أي: أنزلنا عليهم المطرَ غزيرًا متتابعًا، وهيانًا لهم أسباب سعي الأرزاق، ورغد العيش، والنعم الكثيرة ﴿وَجَعَلْنَا الْأَنْهَارَ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهِمْ﴾ أي: وفجَّرنا لهم ينابيع الأرض تجري تحت مساكنهم؛ فعاشوا بين الأنهار والثمار عيشةً خصبةً رغيدةً، ولم يشكروا الله على نعمه، فأقبلوا على شهواتهم وملذاتهم، فجاءتهم رسلهم بالبينات فلم يصدقوها، ولمَّا كَذَّبُوا الرُّسُلَ أَهْلَكْنَاهُمْ بِذُنُوبِهِمْ.

فالذنوب تهلك أهلها، وتُفَوِّضُ دعائم الأمم؛ بسبب الترف والغرور والفساد، والله تعالى يهلكها عقابًا لها، ولمَّا كَذَّبُوا رسلَ الله دَمَّرَهم الله سبحانه؛ فأبادهم وأتى على خبرهم، وذهبوا كما ذهب الأُمس، وصاروا أحاديث للناس، بعد أن مرَّ قَهم الله كلَّ ممزق.

(١) أبدل همزة (وأنشأنا) الثانية ألفًا أبو جعفر وأبو عمرو بخلف عنه، وكذا حمزة وقرأ.

(٢) البخاري (١٩١/٥) برقم (٢٦٥١، ٦٦٩٥) ومسلم (٤/١٩٦٣، ٢٥٣٥) عن عبد الله بن مسعود.

﴿وَأَنشَأْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ قَرْنًا ءَاخَرِينَ﴾ وهذه سنة الله في السابقين واللاحقين، أي: أوجدنا بعدهم أممًا أخرى خلفوهم في عمارة الأرض، كما حدث لقوم عاد وثمود ولوط، فاعتبروا واتعظوا، واحذروا أيها المخاطبون أن يُصيبكم ما أصابهم، فلستم أعزَّ على الله منهم ﴿وَإِن تَتَوَلَّوْا يَسْتَبَدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوا أَمْثَلَكُمْ﴾ [محمد: ٣٨].

وقد وصف الله تعالى مَنْ أهلكهم من الأمم السابقة؛ بسبب تكذيبهم رسل الله تعالى، واقترافهم المعاصي والذنوب بثلاثة أوصاف لم يتمتع بها مَنْ بعدهم من الأمم:

١- فقد وصفهم الله تعالى بأنهم أقوى مُلكًا، وأوسع سلطانًا، وأكثر عُمرانًا، وأعظم استقرارًا، وهذا معنى ﴿مَكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ مَا لَمْ نُمَكِّنْ لَكُمْ﴾ فأعطيناهم المال والبنين ووسائل الرفاهية وألوان المتع.

٢- ووصفهم الله تعالى بأنهم أرغد عيشًا، وأسعد حالًا، وأهنأ بالًا، وأكثر رزقًا، وهذا معنى ﴿وَأَرْسَلْنَا السَّمَاءَ عَلَيْهِمْ مِدْرَارًا﴾، فأنبأ الله لهم الزروع والثمار، يتمتعون بها ويتناولون منها ما يشتهون، ولكنهم لم يشكروا الله على نعمه.

٣- ووصفهم سبحانه بأنهم كانوا مُنعمين بوفرة المياه، وكثرة الأشجار والثمار، تسير معهم حيث كانوا، فيشيّدون المساكن على ضفافها، ويعيشون بين الثمار والأنهار، ويتمتعون بمناظرها الخلابة، وهذا معنى ﴿وَجَعَلْنَا الْأَنْهَارَ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمْ﴾.

وعقابُ الله تعالى لهذه الأمم كان بسبب ذنوبهم وتكذيبهم رسل الله، وإعراضهم عن آيات الله تعالى واستهزائهم بها.

مِنْ مُقْتَرَحَاتِ الْمُكَذِّبِينَ لِخَاتَمِ النَّبِيِّينَ ﷺ

٧- ﴿وَلَوْ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ كِتَابًا فِي قِرْطَاسٍ^(١) فَلَمَسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ لَقَالِ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنَّ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ ﴿٧﴾﴾

ثم يُصَوِّرُ القرآنُ طبيعةَ النفس العنيدة المكابرة، فالحقُّ يخرق عينها، ولكنها لا تراه، وقد أخبر الله رسوله في هذه الآية أن سبب شدة عناد المكذبين هو الظلم والبغي وليس شيئًا آخر وهكذا كان مشركو مكة الذين قالوا للنبي ﷺ: نريد أن تأتي لنا بكتاب من عند الله، معه أربعة من الملائكة، يشهدون عليه أنك رسولُ الله، ويشهدون لهذا الكتاب الذي

(١) أجمع القراء على تفخيم راء (قِرطاس)؛ لوقوع حرف الاستعلاء بعدها في كلمة واحدة.

معك أنه من عند الله، والله سبحانه يجهيهم في قوله: ﴿وَلَوْ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ كِتَابًا فِي قِرْطَاسٍ﴾ أي: مكتوب في الورق والصحف، وقد نَزَلَ هذا الكتاب من السماء جملة واحدة ﴿فَلَمَسُوهُ بَأْيَدِهِمْ﴾ أي: عاينوه وتيقنوه بأعينهم، ولمسوه بحسهم وأيديهم، لو فعلنا ذلك كما طلبوا ﴿لَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ ظلماً وعدواناً ﴿إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ﴾ كما حدث في انشقاق القمر، فهذا هو قولهم الشنيع في هذه البينة العظيمة، حيث أنكروا المحسوس الذي لا يمكن إنكاره.

وهكذا كل كافر معاند، كما قال تعالى في الأمم السابقة: ﴿وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَابًا مِّنَ السَّمَاءِ فَظَلُّوا فِيهِ يَعْرُجُونَ﴾ ﴿٧﴾ لَقَالُوا إِنَّمَا سُكِرَتْ أَبْصَارُنَا بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَّسْحُورُونَ ﴿٨﴾ [الحجر].

وكما قال جل شأنه: ﴿وَلَوْ أَنَّا نَزَّلْنَا إِلَيْهِمُ الْمَلَكُكَةَ وَكَلَّمَهُمُ الْتَوْنُ وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَيْءٍ قُبُلًا مَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ وَلَٰكِنْ أَكْثَرُهُمْ يَجْهَلُونَ﴾ ﴿١١﴾ [الأنعام].

ويصدق على هذه الآية اقتراح عبد الله بن أبي أمية، وتعتته حين قال للنبي ﷺ: لا أومن بك حتى تصعد إلى السماء، ثم تنزل منها بكتاب فيه: من رب العزة إلى عبد الله بن أبي أمية، يأمرني بتصديقك، وما أراني مع هذا كنتُ أصدقك، ثم أسلم عبد الله بعد هذا، ومات شهيداً في الطائف^(١).

وهذا المعنى كان ضمن اقتراح من مقترحات المشركين على النبي ﷺ، وأنهم لن يؤمنوا به حتى يُحَقِّقَها لهم، فكان منها ما ذكره رب العالمين على لسانهم: ﴿أَوْ تَرْقَى فِي السَّمَاءِ وَلَنْ نُؤْمِنَ لِرُفَيْكَ حَتَّى تَنْزِلَ عَلَيْنَا كِتَابًا نَقْرُؤُهُ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّيَ هَلْ كُنْتُ إِلَّا بَشَرًا رَسُولًا﴾ [الإسراء: ٩٣].

وقد بين سبحانه أن صاحب الفطرة المنحرفة لن يؤمن بالرسول الخاتم مهما كان الحق واضحاً، والحجة ساطعة، كما قال تعالى في وصف الكافرين: ﴿وَإِنْ يَرَوْا كِسْفًا مِّنَ السَّمَاءِ سَاقِطًا يَقُولُوا سَحَابٌ مَّرْكُومٌ﴾ ﴿١٤﴾ [الطور].

فالمكذبون بالرسالة لا ينقصهم الدليل على صدق محمد ﷺ، وإنما الذي ينقصهم هو الاستجابة للحق، وترك التقليد والمكابرة؛ لأن العناد لا تُجدي معه معجزة، ولا ينفع معه دليل.

وإذا كان الكُفَّار الأوائل وصفوا القرآن بأنه سحر مبين، فإن كفار اليوم يصفونه بأنه غير ملائم للعصر، ويشترون مع مَنْ سبقهم في وصفه بأنه أساطير الأولين، فالأوصاف

(١) «تفسير ابن عطية» (٢/٢٦٩).

تتعدد، وكلُّها كُفْرٌ وَجْهٌ فَاضِحٌ. قال تعالى:

٨- ﴿وَقَالُوا لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ وَلَوْ أَنزَلْنَا مَلَكَ لَقُضِيَ الْأَمْرُ ثُمَّ لَا يُنْظَرُونَ﴾

ثم بيّن ﷺ بعض مقترحات المكذّبين لخاتم النبيين ﷺ، وبيّن ما يترتب على هذا الاقتراح من هلاكهم واستئصالهم إن لم يؤمنوا، كما حدّث للأمم قبلهم، فقد اقترح المشركون على رسول الله ﷺ أن يُؤيِّده الله بالملائكة ﴿وَقَالُوا﴾ على وجه التعنت والمكابرة ﴿لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ﴾ يشهد بنبوته فيعاونه ويؤيده ويساعده، ونراه بأعيننا يصدقه في دعوته، فالأولى أن يكون مع الرسول الذي أُرسل إلينا مَلَكٌ، قالوا ذلك من جهلهم بطبيعة الملائكة، فالملائكة خلق آخر، خلق من نور، والإنسان لا يستطيع رؤيتهم؛ لأنه إذا رأى المَلَكُ يُصعق ويُعشى عليه.

والنبي ﷺ رأى جبريل على صورته الحقيقية مرتين، أول مرة حين نزل عليه الوحي، رآه بست مئة جناح، وقد سدّ الأفق، فأخذت النبي عليه الصلاة والسلام رعشة شديدة، مع ما أعطاه الله من قوّة خاصة، وإعداد معيّن لتلقي الوحي، ومع ذلك فقد ذهب إلى أهله يَرْجُفُ فؤاده ويقول: زملوني زملوني؛ أو دثروني دثروني؛، وذلك ممّا لِحَقَّ به من رؤية المَلَكِ، فالطبيعة البشريّة لا تقوى على رؤية المَلَكِ.

ولذلك فإن الله سبحانه كان يُرسل جبريل ﷺ إلى النبي عليه الصلاة والسلام في صورة رجل من أصحابه، حسن الهيئة والمنظر، يقال له: دحية الكلبي، فكان الوحي ينزل في صورة إنسان.

والمَلَكُ اللذان أرسلهما الله تعالى إلى داود ﷺ؛ كي يحتكما إليه في الخصومة بينهما، نزلا في صورة رجلين.

والملائكة الذين أرسلهم الله تعالى إلى إبراهيم ولوط عليهما السلام، كانوا في صورة رجال؛ لأن البشر ليس في استطاعتهم رؤية الملائكة، يقول جل شأنه: ﴿وَلَوْ أَنزَلْنَا مَلَكَ﴾ كما اقترحوا ثم كفروا به بعد أن عاينوه ﴿لَقُضِيَ الْأَمْرُ﴾ وَوَجَبَ إهلاكهم وعدمُ إنظارهم ﴿ثُمَّ لَا يُنْظَرُونَ﴾ أي: لو أجبناهم إلى ما طلبوا واقترحوا فأنزلنا عليهم المَلَكِ، ثم كذبوا؛ فإن الله سبحانه سيهلكهم عن آخرهم، كما فعل ذلك بالأمم السابقة، ومعنى لقضي الأمر أي: أنهم لا يُمهلون طَرْفَةَ عَيْنٍ، بل يُعَجَّلُ لهم العذاب.

وقد قرَّرَ الله سبحانه هذا المعنى في قوله: ﴿مَا نَزَّلُ الْمَلَائِكَةَ إِلَّا بِالْحَقِّ وَمَا كَانُوا إِذَا مُنْظَرِينَ﴾ (٨) [الحجر] وقوله: ﴿يَوْمَ يَرَوْنَ الْمَلَائِكَةَ لَا بُشْرَى لِّلْمُجْرِمِينَ وَيَقُولُونَ حِجْرًا مَّحْجُورًا﴾ (٢٢) [الفرقان] وقد عَلِمَ الله تعالى أنهم لن يؤمنوا كما قال تعالى: ﴿وَنَقُصِّبُ أَفْعَدَّهُمْ وَأَبْصُرُهُمْ كَمَا لَوْ يُؤْمِنُوا بِهِ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَنَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ (١١٦) [الأنعام].

فمن رَحمة الله بهم عدم إجابة مَطْلَبِهِمْ، كما قال تعالى: ﴿قُلْ لَّوْ كَانَتْ فِي الْأَرْضِ مَلَائِكَةٌ يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِمْ مِنَ السَّمَاءِ مَلَكًا رَسُولًا﴾ (٩٥) [الإسراء]

أي: لا يستطيع الملك أن يكون في وسط الإنس، يعيش معهم ويمشي بينهم؛ لأنه مخلوق من جنس آخر، فالطبيعة بينهما مختلفة؛ ولذلك فإنه لما كان يوم بدر، وأيد الله المؤمنين بالملائكة، صعدَ رَجُلَانِ على الجبل ليريا ما يكون في حرب النبي ﷺ مع المشركين؛ فسمعا صوت الملائكة، يقول أحدهما للآخر: أَقْدِمَ حِيزُومَ (اسم فرس الملك) فمات أحد الرجلين من هَوْلٍ ما رأى، فكيف برؤية الملك على خِلْقَتِهِ؟^(١).

فلو أنزل عليهم ملك، وأرسل لهم هذا الملك، لم يُطِيقوا التلقَى عنه، ولا احتملوا رؤيته، ولا طاقته قواهم، فطلبهم إنزال الملك شر لهم لو كانوا يعلمون.

ولو أن الله تعالى أرسل ملائكة للبشر؛ لَمَا أَمْهَلُوا أَهْلَ الضلال والفساد، ولناجزوهم العذاب جزاء تكذيبهم وإعراضهم، فيكون اقتراحهم بنزول الملائكة سبباً لوقوع الضرر بهم من حيث لا يشعرون.

قال ابن إسحاق: دعا رسول الله ﷺ قومه إلى الإسلام، وكلمهم فأبلغ إليهم، فقال له زمعة بن الأسود بن المطلب، والنضر بن الحارث بن كلدة، وعبد بن يغوث، وأبي بن خلف بن وهب، والعاص بن وائل بن هشام: لو جعل معك - أيها الرسول - ملكٌ يحدثُ عنك الناس ويروي معك؛ فأنزل الله الآية^(٢).

فهم لا يريدون ملكاً لا يروونه، وإنما يريدون ملكاً يمشي معه، ويشاهدونه بأعينهم، وقد ردَّ الله عليهم بِرَدِّينِ:

(١) «تفسير ابن عطية» (٢/ ٢٧٠).

(٢) ابن أبي حاتم (٧١٢٠).

أحدهما: ﴿وَلَوْ أَنزَلْنَا مَلَكًا لَّفُضِيَ الْأَمْرُ ثُمَّ لَا يُنْظَرُونَ﴾ أي: ولو أنزل الله عليهم الملك، وهم على ما هم عليه من الكفر والمعاصي؛ لجاءهم من الله العذاب من غير إمهال ولا إنظار، وهم يريدون من هذا الملك أن يُشارك الرسول ﷺ في تبليغ الدُّعْوَةِ، كما قال تعالى عنهم: ﴿وَقَالُوا مَا هَذَا الرَّسُولُ يَأْكُلُ الطَّعَامَ وَيَمْشِي فِي الْأَسْوَاقِ لَوْلَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونُ مَعَهُ نَذِيرًا﴾ (٧) [الفرقان]. وثانيهما:

٩- ﴿وَلَوْ جَعَلْنَاهُ^(١) مَلَكًا لَجَعَلْنَاهُ^(١) رَجُلًا وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِمْ مَا يَلِيسُوتَ﴾ (٩)

أي: لو جعلنا الرسول الذي أرسل إليهم ملكًا؛ لجعلناه في صورة رجل؛ لأن الحكمة لا تقتضي سوى ذلك، لعدم مقدرتهم على رؤية الملك، وليمكنوا من رؤية من يبلغهم عن الله تعالى، ومن سماع كلامه الذي يُبلِّغه عن ربِّ العالمين؛ لأن كلَّ جنسٍ يألفُ جنسه، وينفر من غير جنسه، ولو أنزل الله إليهم الملك في صورة رجل؛ لكانت النتيجة واحدة، ولاختلط الأمر والتبس عليهم؛ فظنوه بشرًا وشكوا في كونه ملكًا وكذبوه.

﴿وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِمْ مَا يَلِيسُوتَ﴾ فكما قالوا عن النبي ﷺ إنه بشرٌ، فيقولون عن الملك أيضًا إنه بشر، فتعود المسألة كما هي، ولو كان الرسول ملكًا ونظروا إليه لصَبَحُوا عند رؤيته وغشبي عليهم، ولذا كان الأنبياء بشرًا ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلَّا رَجُلًا نُوحِيَ إِلَيْهِمْ﴾ [النحل: ٤٣] وقد صرَّحَ المشركون بطلب نزول الملك عليهم في قوله تعالى يَحْكِي قَوْلَهُمْ: ﴿قَالُوا لَوْ شَاءَ رَبُّنَا لَأَنْزَلَ مَلَائِكَةً فَإِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ﴾ [فصلت: ١٤].

وبهذين الجوابين يكون القرآن قد دحض شبهات المكذبين لخاتم النبيين ﷺ، وتبين أن السبب في كُفْرِهِمْ، هو اللجاج والعناد، وأنهم ما أرادوا إلا التعجيز والاستهزاء.

ثم أخذ القرآن في التخفيف عن الرسول ﷺ ممَّا أصابه من قومه:

١٠- ﴿وَلَقَدْ أَسْتَهْزِئُ^(٢) بِرُسُلٍ مِنْ قَبْلِكَ فَحَاقَ بِالَّذِينَ سَخِرُوا مِنْهُمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾

قال ابن إسحاق: مرَّ رسولُ الله ﷺ -فيما بلغني- بالوليد بن المغيرة، وأمّية بن خلف،

(١) وصل ابن كثير الهاء في (جعلناه) و(لجعلناه) بحرف مد، وقصرها سائر القراء.

(٢) قرأ أبو عمرو ويعقوب وعاصم وحمة بكسر الدال من (ولقد استهزئ) حالة الوصل؛ للتخلص من التقاء الساكنين، وقرأ الباقون بضمها، وأبدل أبو جعفر الهمزة ياء.

وأبي جهل بن هشام، فهمزوه واستهزؤوا به، فغاضه ذلك؛ فأنزل الله الآية^(١).

يقول سبحانه مسلماً رسولهُ ﷺ ومقوياً له على مُحاجة المشركين، ومخبراً له بما نَزَلَ بالمكذِّبين قبله، ومتوعداً كلَّ مَنْ كَذَّبَ رسولَ الله ﷺ إلى قيام الساعة، يقول له: لا تحزن، فإن هذا من شأن الدعاة إلى الحقِّ في كلِّ زمان، ولقد أُوذِيَ مَنْ قبلك فصبروا؛ وكانت العاقبة لهم.

والاستهزاء بالرُّسُل أمرٌ قديمٌ، فلا تحزن - أيها الرسول - لأن المكذِّبين طلبوا منك رسولاً من الملائكة، يُصدقك، على وجه الاستهزاء، فلك أسوة في الأنبياء قبلك، وقد أحاط العذاب بمن استهزأ برسُل الله جميعاً، فاحذروا أن يحلَّ بكم - أيها المكذبون - ما حلَّ بهم.

دَعْوَةٌ إِلَى السَّيَاحَةِ وَالْاِعْتِبَارِ

١١- ﴿قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ ثُمَّ أَنْظِرُوا كَيْفَ كَانَتْ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ ۝﴾

قل - أيها الرسول - لهؤلاء المستهزئين المكذِّبين: إن شككتم أو ارتبتم فيما نزل بالأمم المكذبة لرسُل الله، فسيروا في الأرض معتبرين، ومتفكرين، وسيحوا فيها؛ لتروا بأعينكم آثارَ الأمم الخالية، وما لحقَّ بهم من الخزي والهلاك ﴿قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ﴾ وانظروا يميناً، وشمالاً، وشرقاً، وغرباً.

ففي الشمال توجد آثارُ قومٍ صالح، فانظروا كيف أتى الله عليهم حين كذبوا رسولهم. وفي الجنوب توجد آثار قوم هود، فتأملوا كيف أهلكهم الله تعالى. وهكذا قوم لوط ﴿وَالْأَنْكُرُ لَكُمْ رُونَ عَلَيْهِمْ مُصْبِحِينَ ۝﴾ [الصافات: ١٣٧، ١٣٨] وغيرهم وغيرهم. فاعتبروا يا أولي الألباب، واحذروا أن يصيبكم ما أصابهم، وتأملوا كيف نَجَّى الله أوليائه من الهلاك في الدنيا، فضلاً عما ينتظركم من العذاب في الآخرة.

وقد فضَّل الله سبحانه في كثيرٍ من آياته صنوفَ العذاب التي لحقت بهذه الأمم، وبيَّن نوعيَّةَ العذاب الذي لحق بكل منهم:

١- فقد سَخَّرَ قومُ نوح منه، وهو يصنع السفينة، وقالوا له: بعد أن كنتَ نبياً صِرْتَ نجاراً؟

(١) ابن أبي حاتم (٧١٣٧).

فتوَعَّدْهُمْ اللهُ تَعَالَى بِالْعَذَابِ فِي قَوْلِهِ: ﴿إِنْ تَسْحَرُوا مِنَّا فَإِنَّا نَسْحَرُ مِنْكُمْ كَمَا تَسْحَرُونَ﴾ (٢٨) ﴿فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَنْ يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُقِيمٌ﴾ (٢٩) [هود]

فكان العذاب الذي أتى عليهم، كما قال تعالى: ﴿فَأَخَذَهُمُ الطُّوفَانُ وَهُمْ ظَالِمُونَ﴾ [العنكبوت: ١٤].

٢- واستهزأ قوم عاد بنبيهم هودًا؛ حيث قالوا له: ﴿إِنْ نَقُولُ إِلَّا اعْتَرَاكَ بَعْضُ آلِهَتِنَا بِسُوْرٍ﴾ [هود: ٥٤] فكان هلاكهم كما ذكر رب العالمين ﴿وَأَمَّا عَادُ فَأَهْلِكُوهَا بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ﴾ (٦١) [الحاقة].

٣- وقال قوم صالح له: ﴿يَصْلِحْ أَتَيْنَا بِمَا تَعِدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾ [الأعراف: ٧٧] فكانت عقوبتهم كما قال تعالى: ﴿فَأَخَذَتْهُمُ الصَّاعِقَةُ وَهُمْ يَنْظُرُونَ﴾ (٤٤) ﴿مَا اسْتَطَعُوا مِنْ قِيَامٍ وَمَا كَانُوا مُنْصَرِينَ﴾ (٤٥) [الذاريات].

٤- واستهزأ قوم لوط بنبيهم ﴿عليه السلام﴾؛ فقالوا: ﴿أَخْرِجُوا آلَ لُوطٍ مِنْ قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أَنَاسٌ يَظْهَرُونَ﴾ [النمل: ٥٦] و﴿قَالُوا لَيْنَ لَمْ تَنْتَهِ يَلُوطُ لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمُخْرَجِينَ﴾ (١٧) [الشعراء] وقد جاء عذابهم في قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَلَىهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَابًا مِّنْ سَجِيلٍ مَّنْصُودٍ﴾ (٨٢) ﴿مُسَوَّمَةً عِنْدَ رَبِّكَ﴾ [هود: ٨٢، ٨٣].

٥- واستهزأ قوم شعيب بنبيهم ﴿عليه السلام﴾؛ فقالوا له: ﴿يَشْعِيبُ مَا نَفَقَهُ كَثِيرًا مِّمَّا تَقُولُ وَإِنَّا لَنَرِيكَ فِيْنَا ضَعِيفًا وَلَوْلَا رَهْطُكَ لَرَجَمْنَاكَ وَمَا أَنتَ عَلَيْنَا بِعَزِيزٍ﴾ [هود: ٩١]
فكانت النتيجة أن أخذت ﴿الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةَ فَأَصْبَحُوا فِي دِيارِهِمْ جثثٍ﴾ (٩٤) ﴿كَانَ لَمْ يَفْنَوْا فِيهَا﴾ [هود].

وهكذا كل أمة كذبت رسولها، وسخرت منه؛ عذبها الله في الدنيا، مع ما ينتظرها من العذاب المهين في الآخرة ﴿فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذُنُبِهِ فَمِنْهُمْ مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُمْ مَّنْ أَخَذَتْهُ الصَّيْحَةُ وَمِنْهُمْ مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ الْأَرْضَ وَمِنْهُمْ مَّنْ أَغْرَقْنَا وَمَا كَانَتْ أَلَلَّةٌ لِّظَلْمِهِمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ (٩٦) [العنكبوت]

﴿ذَلِكَ مِنْ أَنبَاءِ الْقُرَى نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْهَا قَائِمٌ وَحَصِيدٌ﴾ (١٠٠) ﴿وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِنْ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ﴾ [هود]

﴿وَكَذَلِكَ أَخَذَ رَبُّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَى وَهِيَ ظَالِمَةٌ إِنَّ أَخَذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ﴾ (١٠٢) [هود: ١٠٢].

شُمُولُ مُلْكِ اللَّهِ تَعَالَى لِجَمِيعِ الْأَمْكِنَةِ

١٢- ﴿قُلْ لِمَنْ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ قُلْ لِلَّهِ كُنَّ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةُ لِيَجْمَعَكُمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَمَةِ لَا^(١) رَبَّ فِيهِ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٢﴾﴾

ثم يأمر الله تعالى رسوله ﷺ أن يواجه المشركين في كل عصر ومصر، بما لا يقرون به؛ من الاعتراف بوجود الخالق سبحانه، لِيُرْتَبَّ عليه وجوب إفراده تعالى بالعبادة.

وسورة الأنعام تتحدث عن تصحيح العقيدة، وتوحيد الألوهية، وتقرر ذلك في أسلوبين:

أحدهما: أسلوب التقرير: الذي جاء بكثرة بلفظ (هو)، في مثل قوله تعالى: ﴿وَهُوَ اللَّهُ فِي السَّمَوَاتِ وَفِي الْأَرْضِ﴾ [٣] وقوله: ﴿وَهُوَ أَفْقَاهُ فَوْقَ عِبَادِهِ﴾ [١٨] وقوله: ﴿وَهُوَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُمْ بِاللَّيْلِ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُم بِالنَّهَارِ﴾ [٦٠] فهذا يُسمَّى بلاغياً: أسلوب التقرير.

وثانيهما: أسلوب التلقين: بمعنى أن الله سبحانه يأمر رسوله أن يسألهم، ثم يلقيه ويلقن الأمة الحُجَّةَ والجواب، وجاء هذا بلفظ (قل)، في مثل قوله تعالى: ﴿قُلْ أَتَى شَيْءٌ أَكْبَرُ شَهَدَةٍ قُلْ اللَّهُ شَهِيدٌ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ﴾ [١٩].

وقوله: ﴿قُلْ هُوَ أَفْقَادُ عَلَى أَنْ يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِّنْ فَوْقِكُمْ أَوْ مِنْ تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ﴾ [٦٥].

ومن ذلك ست آيات في هذا المقطع من السورة، وأولها هذه الآية: ﴿قُلْ لِمَنْ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ من إنسي، وجنٍّ، وحيوان، ونبات، وجبال، وبحارٍ، وغير ذلك.

قل لهم - أيها الرسول - يا أيها العادلون عن عبادة ربكم إلى عبادة غيره، إنه الله الخالق الرازق لكم، فكيف تساؤون به غيره وهو مالك هذا الكون بما فيه؟ والمقصود بالاستفهام هو التبكيت والتنبيه على ضلالهم لعلهم يتوبوا.

وهذه أوَّلُ آيةٍ في هذا الأسلوب الذي يُعزِّز توحيد الألوهية بأسلوب التلقين، قل لهم يا محمد: لِمَنْ هذا المُلْكُ من كل ما في السموات وما في الأرض؟ علِّمهم الإجابة ﴿قُلْ لِلَّهِ﴾ كما تقرون أنتم بذلك وتعلمون ﴿وَلَكِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ﴾ [لقمان: ٢٥] ومادمت معترفين بأن الخالق الرازق هو الله؛ فإنكم بهذا تكونون قد

(١) قرأ حمزة بخلف عنه بمد (لا) أربع حركات للمبالغة، والباقون بالقصر، وهو الوجه الثاني لحمزة.

أَقِمْتُمُ الْحُجَّةَ عَلَى أَنْفُسِكُمْ بِالْبَرهَانِ الْقَطْعِيِّ؛ لِأَنَّ الْجَوَابَ قَدْ بَلَغَ فِي الظُّهُورِ بِحَيْثُ لَا يُنْكِرُهُ مُنْكَرٌ، فَغَيَّرَ اللَّهُ تَعَالَى لَيْسَ أَهْلًا لِلْأُلُوهِيَّةِ، فَاعْبُدُوهُ وَحْدَهُ، وَلَا تَشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا.

وَمِنْ جِهَةٍ أُخْرَى؛ فَإِنَّ الْكُفَّارَ يَسْتَعْجِلُونَ نَزُولَ الْعَذَابِ بِهِمْ، وَيَقُولُونَ: لَوْ كَانَ مَا تَقُولُونَ حَقًّا لَعَجَّلَ لَنَا الْعَذَابَ، وَالْمُؤْمِنُونَ يَسْتَبْطِئُونَ تَأْخِيرَ عِقَابِهِمْ؛ فَبَيَّنَ ﷻ لِكِلَا الْفَرِيقَيْنِ أَنَّهُ وَاسِعَ الرَّحْمَةِ، وَهَذَا الْإِمْهَالُ لَهُمْ لَوْ أَنَّ مِنَ الرَّحْمَةِ بِهِمْ.

ثُمَّ إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى رَفَعَ عَنْ هَذِهِ الْأُمَّةِ عَذَابَ الْاسْتِثْصَالِ، الَّذِي كَانَ يَحْدُثُ فِي الْأُمَمِ السَّابِقَةِ ﴿وَمَا كَانَتْ أَلَلُهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ وَمَا كَانَتْ أَلَلُهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾ [الأنفال] لِأَنَّ اللَّهَ تَعَالَى أَرَادَ أَنْ يَكُونَ هَذَا الدِّينَ خَاتَمَ الشَّرَائِعِ، فَكَانَ مِنَ الْحِكْمَةِ إِمْهَالُ الْمَعَانِدِينَ وَالْجَاهِدِينَ؛ لِأَنَّ اللَّهَ تَعَالَى لَوْ اسْتَأْصَلَهُمْ لَأَتَى أَهْلَ مَكَّةَ، وَنَحْنُ نَرَى فِي الْوَاقِعِ أَنَّ كَلِمَةَ الْإِسْلَامِ انْتَشَرَتْ فِي الْآفَاقِ، وَخَرَجَ مِنْ ظُهُورِهِمْ مَنْ يُوحِّدُ اللَّهَ تَعَالَى، وَمَنْ كَانَ مِنْهُمْ عَدُوًّا لِلْإِسْلَامِ بِالْأَمْسِ، أَصْبَحَ مِنْ أَقْوَى الْمُدَافِعِينَ عَنْهُ فِيمَا بَعْدَ.

وَشَأْنُ الْمَلِكِ أَنْ يَكُونَ جَبَارًا شَدِيدًا قَوِيًّا، وَلَكِنَّ اللَّهَ سَبْحَانَهُ لَا يِعَامِلُكُمْ مَعَامِلَةَ الْجَبْرُوتِ، وَإِنَّمَا يِعَامِلُكُمْ بِمَقْتَضَى الرَّحْمَةِ، فَهُوَ سَبْحَانَهُ ﴿كَتَبَ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ﴾ وَأَلْزَمَ نَفْسَهُ بِهَا تَفَضُّلاً مِنْهُ وَإِحْسَانًا، فَكَتَبَ عَلَى نَفْسِهِ كِتَابًا، أَنَّ رَحْمَتَهُ تَغْلِبُ غَضَبَهُ، وَأَنَّ الْعَطَاءَ أَحَبُّ مِنَ الْمَنْعِ، وَأَنَّهُ قَدْ فَتَحَ لِجَمِيعِ الْعِبَادِ أَبْوَابَ الرَّحْمَةِ، إِنْ لَمْ يَغْلِقُوا أَبْوَابَهَا بِذُنُوبِهِمْ وَمَعَاصِيهِمْ.

وَقَدْ جَاءَ ذِكْرُ الرَّحْمَةِ فِي الْآيَةِ مُعْتَرِضًا؛ حَيْثُ أَمَرَ اللَّهُ تَعَالَى بِهَا رَسُولَهُ ﷺ أَنْ يُذَكِّرَهُمْ بِهَا فِي هَذَا الْمَوْقِفِ؛ كَيْ يَثُوبُوا إِلَى رَشْدِهِمْ، وَيَرْجِعُوا عَمَّا هُمْ فِيهِ مِنْ كُفْرٍ وَضَلَالٍ.

١- جَاءَ فِي الصَّحِيحِينَ وَغَيْرِهِمَا عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ؓ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: «إِنَّ اللَّهَ لَمَّا خَلَقَ الْخَلْقَ كَتَبَ كِتَابًا عَنْده فَوْقَ الْعَرْشِ: إِنْ رَحِمْتِي تَغْلِبَ غَضَبِي»^(١).

٢- وَعَنْهُ ؓ قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: «جَعَلَ اللَّهُ الرَّحْمَةَ مِثْلَ جُزْءٍ، فَأَمْسَكَ عَنْده تِسْعَةً وَتِسْعِينَ، وَأَنْزَلَ فِي الْأَرْضِ جُزْءًا وَاحِدًا، فَمِنْ ذَلِكَ الْجُزْءِ تَتَرَاوَحُ الْخَلَائِقُ،

(١) «صحيح البخاري» (٣٨٤/١٣) برقم (٧٤٠٤، ٧٥٥٤) ومسلم (٢١٠٧/٤) برقم (٢٧٥١) من طريق أبي الزناد عن الأعرج عن أبي هريرة بنحوه، وعبد الرزاق (٢٠٥/١) وابن أبي شيبة (١٨٠/١٣) و«صحيح سنن الترمذي» (٢٨٠٨).

حتى ترفع الدَّابَّةُ حافرها عن ولدها خشيةً أن تصيبه».

زاد البخاري في رواية له: «ولو يعلم الكافر بكلَّ الذي عند الله من الرحمة لم ييأس من الجنة، ولو يعلم المؤمن بكلَّ الذي عند الله من العذاب لم يأمن العذاب»^(١).

٣- وفي صحيح مسلم وغيره عن أبي هريرة ؓ أن رسول الله ﷺ قال: «إن لله مئة رحمة، أنزل منها رحمة واحدة بين الجن والإنس والبهائم والهوام، فبها يتعاطفون، وبها يتراحمون، وبها تعطف الوُحْشُ على ولدها، وآخر الله تسعة وتسعين رحمة، يرحم بها عباده يوم القيامة»^(٢).

٤- وعن سلمان الفارسي ؓ عن النبي ﷺ قال: «إن الله خَلَقَ يومَ خَلَقَ السموات والأرض مئة رحمة، منها رحمة يتراحم بها الخلق، وتسعة وتسعون ليوم القيامة، فإذا كان يوم القيامة أكملها بهذه الرحمة»^(٣).

٥- وفي الصحيحين عن عمر ؓ قال: قَدِمَ عَلَى رسول الله ﷺ سَبْيٌ، فإذا امرأة من السَّبْيِ تبتغي؛ -أي: تطلب وتبحث- إذا وجدت صبيًّا في السبي أخذته فألصقته ببطنها وأرضعته، فقال لنا رسول الله ﷺ: «أترون هذه المرأة طارحةً ولدها في النَّارِ؟» قلنا: لا والله، وهي تقدر على ألا تطرحه، فقال ﷺ: «لله أرحم بعباده من هذه بولدها»^(٤).

وهذه الرحمة كَتَبَهَا الله تعالى على نفسه فضلًا منه ومِنَّةً على عباده، فهو سبحانه المالك لهذا الكون، لا يُنازعه مُنازِعٌ، ولا يَقترح عليه مُقترحٌ، بل كُلُّ ما يَجري في الكون إنما هو بمحض إرادته، ومطلق مشيئته.

والرحمة خُلِقَ قرآنِي حَتَّ عليه رسولُ الله ﷺ أُمَّتَهُ أن يتخلقوا به. ففي الحديث عن

(١) «صحيح البخاري» برقم (٦٠٠٠).

(٢) «صحيح البخاري» برقم (٦٤٦٩) وصحيح مسلم (٢٧٥٢).

(٣) أخرجه أحمد (٤٣٩/٥) برقم (٢٣٧٢٠) ومسلم في التوبة (٢٧٥٣/٢٠) بإسناد صحيح على شرط الشيخين برقم (٢٧٥٣) والطبراني (٦١٢٦) والبيهقي في «الأسماء والصفات» (١٠٣٧) وابن حبان (٦١٤٦).

(٤) «صحيح البخاري» برقم (٥٩٩٩) و«صحيح مسلم» برقم (٢٧٥٤) واللفظ له.

جرير بن عبد الله: «لا يرحم الله من لا يرحم الناس»^(١).

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قَبِلَ رسولُ الله ﷺ الحسن بن علي، وعنده الأقرع بن حابس التميمي، فقال الأقرع: إن لي عشرةً من الأولاد ما قَبَلْتُ منهم أحداً؛ فنظر إليه رسولُ الله ﷺ ثم قال: «من لا يَرْحَمُ لا يُرْحَمُ»^(٢).

وهذه الرحمة التي يَحْتُ عليها الإسلام لا تَخْتَصُ بالإنسان وحده، بل تشمل كلَّ روح حيَّة، فتشمل الكلب والهِرَّة والنملة وغير ذلك.

فعن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «بينما رجلٌ يمشي بطريق اشتدَّ عليه العطش، فوجد بئراً فنزل فيها فشرب ثم خرج، وإذا كلب يَلْهَثُ، يأكل الثرى من العطش، فقال الرجل: لقد بلغ هذا الكلب من العطش مثل الذي كان بلغ مني، فنزل البئر، فملاً خَفَّهُ ماءً، ثم أمسكه بفيه حتى رَقِيَ، فسقى الكلب؛ فشكر الله تعالى له، فغفر له» قالوا: يا رسول الله، وإن لنا في البهائم أجراً؟ قال: «في كل كبد رَطِيَّةٍ أَجْرٌ»^(٣).

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: سمعتُ رسولَ الله ﷺ يقول: «قرصت نملةً نبياً من الأنبياء؛ فأمر بقرية النمل فأحرقت؛ فأوحى الله تعالى إليه: أَنْ قرصتك نملة أحرقت أُمَّةً من الأمم تُسَبِّحُ الله؟»^(٤).

فما أشقى مَنْ لم تسعُه هذه الرحمات التي تَفْتَحُ باب التوبة أمام الكافر والعاصي، ولا تُبَسِّسُ أحداً من قَبول توبته.

ولمَّا كان الكُفَّار يُنكرون البعث والنشور؛ فقد أَكَّد سبحانه على حتمية مجيئه كما نطقَتْ به الآية. ومن رحمة الله تعالى بعباده أنه لم يخلقهم عبثاً، ولم يتركهم سُدىً، فهذه الدنيا ليست نهاية المطاف، وإنما خَلَقْنَا الله لغاية، فجعل لنا يوماً آخِراً، يُوفَّى فيه كل إنسان جزاء ما

(١) أخرجه الشيخان والترمذي، من حديث جرير بن عبد الله في «البخاري» برقم (٧٣٧٦) واللفظ له، وانظر (٦٠١٣) وهو في «صحيح مسلم» برقم (٢٣١٩).

(٢) أخرجه البخاري برقم (٥٩٩٧) واللفظ له، ومسلم برقم (٢٣١٨).

(٣) أخرجه مالك والشيخان: البخاري برقم (١٧٣)، ومسلم برقم (٢٢٤٤).

(٤) أخرجه الشيخان: البخاري برقم (٣٠١٩، ٣٣١٩) ومسلم برقم (٢٢٤١).

عمل في الدنيا، حتى لا يضيع كدح كادح، ولا يتساوى مع تقصير مُقَصِّرٍ.

ومن هنا جاء هذا القسم في قوله تعالى: ﴿لَيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَمَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ﴾ فمن مظاهر الرحمة أنه سبحانه يُحاسبكم يوم القيامة، ويجمعكم في هذا اليوم، ويُعطيكم الحسنة بعشر أمثالها، والسيئة بسئة مثلها، ولن يخسر في هذا اليوم إلا غير المؤمنين؛ فقد ظلموا أنفسهم فأوقعوها في سخط الله وأليم عقابه.

﴿الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ﴾ أي: أضاعوها بالكفر، وفرطوا في جنب الله وهم في دنياهم، فهم من الهالكين يوم لقائه، إنها الخسارة الحقيقية، فقد أضاعوا أنفسهم وفقدوها، كما يخسر التاجر رأس ماله، لقد خسروا كل شيء، ولم يكسبوا شيئاً؛ لأنهم عطلوا أجهزة الاستقبال فيهم وهم في الدنيا، ومنعوا استجابة الفطرة، ولم يتفعلوا بدعوة الرُّسل، فليس لهم وزنٌ في الآخرة، ونصيبتهم فيها هو الجحيم، والعذاب الأليم.

ثم بين سبحانه أن من انظمست بصيرته وأصرَّ على عدم الإيمان؛ فإن الإيمان لا يتسرب إلى قلبه ﴿فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ لأن قلبه قد قسا، وتراكت عليه الظلمات، فعدم الإيمان مُتَسَبِّبٌ عن عدم الانتفاع بالدعوة.

شُمُولُ مُلْكِ اللَّهِ تَعَالَى لِجَمِيعِ الْأَزْمِنَةِ وَلِكُلِّ مَا سَكَنَ وَتَحَرَّكَ

١٣- ﴿وَلَمْ يَكُنْ لَكُمْ فِي اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾

وبعد أن قرَّر سبحانه ملكيته لكل الخلق في جميع الأمكنة، قرَّر سبحانه ملكيته لجميع الخلائق أيضاً في جميع الأزمنة، وذلك أنه تعالى بعد أن ذَكَرَ شُمُولَ مُلْكِهِ لكلِّ ما في هذا الكون، خَصَّ بالذكر منها ما خَفِيَ واستتر، سواء في الليل أو النهار، فهو عَظْفٌ للخاص بعد العام؛ لبيان شمول مُلْكِهِ تعالى لِمَا ظهر للخلق وما خفي عنهم، وقد اشتملت هذه السورة على تقرير التوحيد بكل دليل عقلي ونقلي، ومن هذه الأدلة قوله تعالى:

﴿وَلَمْ يَكُنْ لَكُمْ فِي اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ﴾ والسكون من الثبوت والاستقرار، ويدخل فيه ما تحرك أيضاً، فهو سبحانه له ما سَكَنَ وما تحرك في هذا الكون، في الليل والنهار، وكل ما طَلَعَتْ عليه الشمسُ وغربت فهو من ساكني الليل والنهار؛ من إنسانٍ وحيوانٍ وطيورٍ ودوابٍّ ونباتٍ وجمادٍ وبحارٍ وأنهارٍ وغير ذلك في البرِّ والبحرِ، فجميع الموجودات مُلْكٌ لله

تعالى في كلِّ زمان ومكان، إنسها وجنَّها وملائكتها.. الكل خلق الله، الكل عبد مسخر لله في جميع حركاته وسكناته، فالسكون هو استقرار الجسم في حيِّز لا يتنقل عنه مدة، فهو ضد الحركة، والسكون من أسباب الاختفاء، والمختفي يَسْكُنُ ولا يَتَشِيرُ.

وقد بيَّن سبحانه في هذه الآية أنه لا يخفى عليه شيء من أعمال العباد، وهو محاسبهم عليها يوم القيامة ﴿اللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنْثَىٰ وَمَا تَغِيضُ الْأَرْحَامُ وَمَا تَزْدَادُ وَكُلُّ شَيْءٍ عِنْدَهُ بِمِقْدَارٍ﴾ (٨) ﴿عِلْمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ الْكَبِيرُ الْمُتَعَالِ﴾ (٩) سَوَاءٌ مِنْكُمْ مَنْ أَسْرَ الْقَوْلَ وَمَنْ جَهَرَ بِهِ. وَمَنْ هُوَ مُسْتَخْفٍ بِاللَّيْلِ وَسَارِبٌ بِالنَّهَارِ﴾ (١٠) [الرعد]

فالمستخفي بالليل هو ما خفي عن الأنظار، ويطلُّ عليه ربُّ العالمين، ويشهد لهذا المعنى أن ما يتحرك في الكون أكثر ممَّا يَسْكُنُ، ألا ترى إلى الفلك، والشمس، والقمر، والنجوم السابحة، والملائكة، وأنواع الحيوان.

وذكر الله الليل والنهار، لأنهما حاصران للزمان ﴿وَهُوَ السَّمِيعُ﴾ لأقوال العباد على اختلاف اللغات وكثرة الحاجات، وهو ﴿الْعَلِيمُ﴾ بأحوالهم، فيما كان وما يكون ومالم يكن، المطلع على الظواهر والبواطن، وهذا كالنتيجة للمقدمة.

تُوبِيخٌ مَّنْ يَعْبُدُ غَيْرَ اللَّهِ تَعَالَى

١٤- ﴿قُلْ أَغْيَرَ اللَّهُ أَخِيذُ وَلِيًّا فَاطِرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ يُطْعِمُ وَلَا يُطْعَمُ قُلْ إِنِّي أُمِرْتُ^(١) أَنْ أَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَسَدَّ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ (١٤)

وبعد أن تقرَّر أن الله سبحانه هو الخالق المالك لهذا الكون، يأتي الإنكار والتوبيخ لمن يعبد غير الله تعالى، ويوالي غيره؛ لأن هذا مناقض لكونه خالقًا لكل ما سَكَنَ وما تحرك في هذا الكون.

وقد كان المشركون يداهنون النَّبِيَّ ﷺ ويلاينونه؛ ليجعل لآلهتهم مكانًا في دينه، مقابل أن يدخلوا معه في هذا الدِّين، وليترك لهم بعض خصائص الإلهية يُمارسونها في التحليل والتحريم وغيرهما، مقابل أن يكفُّوا عن معارضته.

(١) فتح ياء الإضافة من (إني أمرت) نافع وأبو جعفر وصلًا، والباقون بإسكانها.

ذَكَرَ مَقَاتِلَ أَنْ كَفَارَ قَرِيشَ قَالُوا: يَا مُحَمَّدُ، أَلَا تَرْجِعُ إِلَى دِينِ آبَائِكَ؟ فَتَزَلِ قَوْلَ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿قُلْ أَغَيَّرَ اللَّهُ أَخِيذُ وَلِيًّا﴾^(١).

وقد بينَ ﷺ أنه وحده المستحق للعبادة دون سواه لسببين:

السبب الأول: أنه سبحانه خالق هذا الكون بما فيه ﴿فَاطِرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ مبدعهما ومنشئهما.

والسبب الثاني: أنه سبحانه الرازق لخلقه، الغني عنهم غنى مطلقاً ﴿وَهُوَ يُطْعِمُ وَلَا يُطْعَمُ﴾، يرزق جميع خلقه من غير حاجة منه إليهم.

قل - يا محمد - لهؤلاء المشركين: أغير الله أتعبدوا وناصرياً ومعيناً، من هؤلاء المخلوقات العاجزة، وهو سبحانه الذي خلق الكون بما فيه؟

يقول ابن عباس ﷺ: كنت لا أدري ما معنى فاطر حتى اختصم أعرابيان في بئر، فقال أحدهما: أنا الذي فطرته؛ أي: أنا الذي ابتدأت هذه البئر وأنشأتها^(٢).

فعلم ابن عباس من الأعرابي أن (فاطر) بمعنى خالق وموجد ومبدع ومبتدئ ومنشئ.

وعن جابر ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «كُلُّ مَوْلُودٍ يُوَلَّدُ عَلَى الْفِطْرَةِ، حَتَّى يُعْرَبَ عَنْهُ لِسَانُهُ، فَإِذَا أُعْرَبَ عَنْهُ لِسَانُهُ، إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا»^(٣).

وهو سبحانه يَرْزُقُ وَلَا يُرَزَّقُ، وَمَنْ كَانَ كَذَلِكَ فَهُوَ غَنِيٌّ عَنِ الْخَلْقِ، وَهُمْ فَقَرَاءٌ إِلَيْهِ؛ لِأَنَّهُ سَبْحَانَهُ الرَّازِقُ لَخَلْقِهِ مِنْ غَيْرِ احتِياجٍ إِلَيْهِمْ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿مَا أُرِيدُ مِنْهُمْ مِنْ رِزْقٍ وَمَا أُرِيدُ أَنْ يُطْعَمُوا﴾ [الذاريات].

عن أبي هريرة ﷺ قال: دعا رجلٌ من الأنصار - من أهل قباء - النَّبِيَّ ﷺ، قال: فانطلقنا معه، فلما طَعِمَ النَّبِيُّ ﷺ، وغسل يديه قال: «الحمد لله الذي يُطْعِمُ وَلَا يُطْعَمُ،

(١) «تفسير البغوي» والخازن و«زاد المسير» وغيرهم للآية.

(٢) «تفسير ابن عطية» (٢٧٣/٢) وأبو عبيد في فضائله ص ٢٠٦، والطبري (١٧٥/٩).

(٣) هذا لفظ الإمام أحمد في «المسند» (١٤٨٠٥) بإسناد ضعيف، لضعف عيسى الرازي وعننة الحسن البصري (محققوه) وعن أبي هريرة برقم (٧١٨١، ٧٧١٢) بإسناد صحيح على شرط الشيخين، بلفظ (كل مولود) وجاء في «البخاري» بلفظ (فأبواه يهودانه وينصرانه) (١٣٥٨، ٤٧٧٥) وفي مسلم (ليس من مولود يولد إلا) (٢٦٥٨) وأخرجه أبو يعلى (٦٣٩٤) وابن حبان (١٢٨).

وَمَنْ عَلَيْنَا فِهْدَانَا، وَأَطَعْمَنَا وَسَقَانَا»^(١).

وبعد أن ذَكَرَ سبحانه دليلين على وجوب استحقاقه للعبادة، أمر نبيه ﷺ أن يتبرأ من شرك كل مشرك إلى يوم الدين.

ومعنى بقية الآية: قل يا محمد: إني أمرت أن أكون أوَّلَ مَنْ خَضَعَ وانقاد له سبحانه بالعبودية من هذه الأمة، ونُهِيتُ أن أكون من المشركين معه غيره، ونظير هذه الآية قوله تعالى: ﴿قُلْ أَغَيْرَ اللَّهِ تَأْمُرُونِي أَعْبُدُ أَيُّهَا الْجَاهِلُونَ﴾ [الزمر].

التَّحْذِيرُ مِنَ الْمَعَاصِي

١٥- ﴿قُلْ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ [١٥]

﴿قُلْ﴾ يا محمد، لكلِّ مَنْ عَصَى الله تعالى في ذنب صغير أو كبير، فضلاً عَمَّنْ أشرك بالله تعالى وَعَبَدَ غيره، قل لهم: ﴿إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي﴾ فعبدت غيره، أو أشركت معه غيره، أو خالفت أمره أو نهيه، أن أكون مستحقاً لعذاب ﴿يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ الأهوال، تَذَهَّلُ فيه ﴿كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمَلٍ حَمْلَهَا﴾ [الحج: ٢] فالآية تنهى عن جميع المعاصي؛ خوفاً من العقاب، وطمعاً في الرحمة.

ضع هذه الآية -أيها المسلم- نصب عينيك كلما أردت أن تُقَدِّمَ على معصية، وكلما أردت أن تقترب ذنباً، اقرأ هذه الآية التي أمر الله بها رسوله ﷺ وهو سيّد الخلق: إني أخاف إن خالفت أمر ربي، وأشركت معه غيره في عبادته، أن ينزل بي عذاب عظيم يوم لقائه، وأرجو إن أطعت ربي أن يشملني برحمته وعفوه.

وهو خطابٌ للأمة في شخص رسول الله ﷺ، فإذا كان هذا التحذير الشديد بالنسبة للنبي ﷺ على سبيل الفرض والتقدير، فكيف بمن يُشْرِكُونَ بالله غيره؟ وكيف بمن لا يعترفون

(١) الحديث رواه النسائي في «عمل اليوم والليلة» برقم (٣٠١) وفي «السنن الكبرى» برقم (١٠١٣٢) والحاكم في «المستدرک» (٥٤٦/١) من طريق سهيل بن أبي صالح، وابن حبان في صحيحه (٣٢٦/٧١) برقم (١٣٥٢) من طريق بشر بن منصور - وهو بصري - وهو حديث صحيح.

(٢) فتح باء الإضافة من (إني أخاف) نافع وابن كثير وأبو عمرو وأبو جعفر وصلأ، والباقون بكسرها.

بوجود إله لهذا الكون؟ وكيف بمن هم منغمسون في المعاصي والذنوب ليل نهار؟ قال تعالى:

١٦- ﴿مَنْ يُصْرِفْ^(١) عَنْهُ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمَهُ وَذَلِكَ الْفَوْزُ الْمُبِينُ ﴿١٦﴾﴾

أي: أن مَنْ يَصْرِفِ الله عنه هذا العذاب الشديد، ويكون مَمَّنْ شَمِلَتْهُ رَحْمَةُ الله تعالى ورعايته يوم لقائه؛ فقد نَجَّاه الله من النار، وأناله الثواب لا محالة، وهذه الرحمة بزحزحته عن النار ودخوله الجنة، وذلك هو الظفر العظيم، كما قال تعالى: ﴿فَمَنْ زُحِرَ عَنِ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ﴾ [آل عمران: ١٨٥].

فمن صُرف عنه العذاب يومئذ فقد فاز ونجا، ومن لم ينج منه فقد شقى وهلك.

الله وَحْدَهُ هُوَ النَّافِعُ الضَّارُّ

١٧- ﴿وَإِنْ يَمَسُّكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ^٢ وَإِنْ يَمَسُّكَ بِخَيْرٍ فَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾

ثم ثَبَّتَ الله نَبِيَّهٗ، وَيَأْسَ أعداءه مِنْ أن ينالوا منه شراً أو يصيبوه بأذى؛ فَأَنْزَلَ الله هذه الآيَةَ، وفيها من دلائل التوحيد أن الله تعالى هو الذي يدفع الضر ويَجْلِبُ الخير.

والضُّرُّ: اسمٌ جامعٌ لكلِّ ما ينال الإنسان من أَلَمٍ، ومَكْرُوهِ، وما في معناهما.

والخير: اسمٌ جامعٌ لكلِّ ما ينال الإنسان من فَرَحٍ، وسُرُورٍ، ونحو ذلك.

والضُّرُّ ضد العافية، وقد ناب الضُّرُّ في الآيَةِ مناب الشر، وإن كان الشرُّ أعم، وقد عَدَلَ عنه القرآن؛ لبيان أن الضُّرَّ من الله تعالى ليس شراً، بل هو تربيةٌ واختبارٌ للعبد، وهذا غايةُ البلاغة.

والمعنى: لا تتخذ أيها المسلم ولياً ولا معبوداً غيرَ الله تعالى، فهو وحده القادر على أن يَدْفَعَ عنكَ كُلَّ ما يصيبك من مرضٍ، وفقرٍ، وهزيمةٍ، وعُسْرٍ ويُسْرٍ، وهم وعمٍّ، وغير ذلك، وهو وحده القادر على أن يَجْلِبَ لك الصحة والغنى والنصر وغير ذلك، إنه وحده الذي يكشف عنكَ الضُّرَّ، ويوصل لك الخير، لا راداً لفضله، ولا مانعاً لقضائه، وهو قادرٌ

(١) قرأ نافع وابن كثير وأبو عمرو وابن عامر وحفص وأبو جعفر (من يُصْرِفُ) بالبناء للمجهول، ونائب الفاعل ضمير العذاب، والباقون (من يُصْرِفُ) بالبناء للمعلوم.

على كل شيء، فهو الذي يستحق أن يُفرد بالعبادة دون سواه.

جاء في حديث ابن عباس رضي الله عنهما قول النبي ﷺ: «واعلم أن الأمة لو اجتمعت على أن ينفعوك بشيء لم ينفعوك إلا بشيء قد كتبه الله لك، ولو اجتمعت على أن يضروك بشيء لم يضروك إلا بشيء قد كتبه الله عليك، رفعت الأقلام، وجفت الصحف»^(١).

وفي الصحيحين من حديث المغيرة بن شعبة أن النبي ﷺ كان يقول: «اللهم لا مانع لما أعطيت، ولا معطي لما منعت، ولا ينفع ذا الجد منك الجد»^(٢).

أي: ولا ينفع صاحب الغنى عندك غناه، وإنما ينفعه العمل بطاعتك.

والآية برهاناً على وحدانية الله تعالى؛ لانفراده بالضر والخير والخلق والرزق، وفي معنى الآية قوله تعالى: ﴿مَا يَفْتَحِ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِنْ رَحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا وَمَا يُمْسِكْ فَلَا مُرْسِلَ لَهُ مِنْ بَعْدِهِ﴾ [فاطر: ٢] فالمتصرف المطلق في أحوال العباد هو الله وحده.

والآية عامة بالنسبة لكل إنسان، وهي على وجه الخصوص تبيّن لقلب النبي ﷺ؛ كي يمضي في طريق الدعوة، ولا يخشى بأس المشركين، وتهديدهم، وتخويفهم، ووعيدهم، وفيها وعدٌ للنبي ﷺ بحصول الخير له، ورضى ربه عنه، إلى جوار أن الآية تتحدى المشركين؛ بأنهم لا يستطيعون إيقاع الضرر بالنبي ﷺ، ولا جلب النفع له.

وفيها ردٌّ على من يزعم أن أحداً من خلق الله حيّاً أو ميتاً، فضلاً عن الجن، أو الصنم أو الوثن، يمكنه أن يشفع له عند الله تعالى، ويجلب له خيراً، أو يدفع عنه ضراً، فهي لا تملك للناس ضراً ولا نفعاً؛ وبالتالي فإن عبادتها، أو التوسل بها، خرافة كبرى.

﴿قُلْ أَتَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا﴾ [المائدة: ٧٦] وقال إبراهيم عليه السلام لقومه: ﴿قَالَ هَلْ يَسْمَعُونَكَ إِذْ تَدْعُونَ ﴿٧٧﴾ أَوْ يَفْعَلُونَكَ أَوْ يَضُرُّونَ ﴿٧٨﴾﴾ [الشعراء].

(١) من حديث طويل في «المسند» (٢٧٦٣، ٢٨٠٣) حديث صحيح ورجاله ثقات، وفيه ابن لهيعة وهو متابع، (محققوه) وقد أخرجه الترمذي برقم (٢٥١٦) وقال: حديث حسن صحيح، والحاكم (٣/٦٢٤)، وصححه الألباني في صحيح الترمذي (٢٠٤٣) والمشكاة (٥٣٠٢).
(٢) البخاري (١١/١٣٣) برقم (٨٤٤) ومسلم (١/٣٤٣) برقم (٥٩٣).

الْقُدْرَةُ الْمَطْلَقَةُ

١٨- ﴿وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ﴾ (٧)

أي: أن الخلق جميعًا تحت سلطان الله وقدرته، فالضُّرُّ والنفع بيد الله، فهو صاحب القدرة المطلقة، وتديرُ أمور الخلق تحت قَهْرِ الله، وتذليله، وتسخيره، فهو الذي خضعت له الرِّقَابُ، وذَلَّتْ له الجبابرة، وهو الحكيم الذي يضع الأشياء في موضعها وَفَّقَ حكمته، الخبير الذي لا يَخْفَى عليه شيءٌ، وَمَنْ اتصف بهذه الصفات يجب ألا يُشْرَكَ به شيئًا.

وفي الآية إثباتُ الفوقية لله تعالى، وفيها إبطال أن يكون للأصنام أو غيرها تصرفٌ في أحوال المخلوقات، وإبطال أن يكون غيرُ الله تعالى قاهرًا لأحدٍ، فلا قاهرَ إلا الله، والقاهرُ: هو الغالب الذي لا يَنْفِلُ من عمله وقدرته شيءٌ.

والقَهْرُ الحقيقيُّ هو الذي لا يجد المقهور منه ملاذًا، ولا يستطيع دَفْعَ أسبابه، فلا يُمكن لأحدٍ أن يَدْفَعَ الموتَ عن نفسه مثلاً، ولا عن غيره، ولا يمكن لأحدٍ أن يجعل العقيم وَلُودًا. وهكذا. والعباد هم المخلوقون العقلاء، ومعنى أن الله تعالى قاهرٌ فوق عباده، أنه سبحانه خالقٌ ما لا يَدْخُلُ تحت قدرتهم، ولا يستطيعون دَفْعُهُ، فلا يتصرف متصرف، ولا يتحرك متحرك، ولا يسكن ساكن إلا بمشيئته، ولا يمكن لمخلوق أن يخرج عن ملكه وسلطانه، وإذا كان هو المدير القاهر، كان هو المستحق للعبادة دون سواء.

أَكْبَرُ شَهَادَةٍ عَلَى التَّوْحِيدِ وَعَلَى عَمُومِ الرِّسَالَةِ

١٩- ﴿قُلْ أَتَى شَيْءٌ أَكْبَرُ شَهَادَةً قُلِ اللَّهُ شَهِيدٌ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَذَا الْقُرْآنُ^(١) لِأُنذِرَكُمْ بِهِ وَمَنْ بَلَغَ أَئِنَّكُمْ^(٢) لَتَشْهَدُونَ أَنَّ مَعَ اللَّهِ إِلَهَةً أُخْرَى قُلْ لَا أَشْهَدُ قُلْ إِنَّمَا هُوَ إِلَهٌُ وَاحِدٌ وَإِنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ﴾

وفي نهاية هذه الآيات الخمس المصدرة بلفظ ﴿قُلْ﴾ يأتي التلقين الخامس؛ لبيان مَفْرَقٍ

(١) قرأ ابن كثير (القرآن) بنقل حركة الهمزة إلى الساكن قبلها، والباقون (القرآن) بتحقيق الهمزة.

(٢) قرأ قالون وأبو عمرو وأبو جعفر بتسهيل الهمزة الثانية من (أئنكم) مع إدخال ألف بين الهمزتين، وقرأ ورش وابن كثير بتسهيلها بدون إدخال، وحقق هشام الهمزة الثانية مع الإدخال وعدمه، وبالتسهيل والتحقيق مع عدم الإدخال رويس، والباقون بالتحقيق مع عدم الإدخال.

الطريق بين الإسلام والمشركون، والتوحيد والشرك، وأنه لا سبيل للمشركين والمكذّبين إلا أن يدخلوا في الإسلام، ويؤمنوا بخاتم النبيين.

أتى رؤساء مكة رسول الله ﷺ فقالوا: يا محمد، ما نرى أحداً يُصدّقك بما تقول، ولقد سألنا عنك اليهود والنصارى فزعموا أنه ليس لك عندهم ذكْرٌ ولا صِفَةٌ، فأرنا مَنْ يَشْهَدُ أنك رسول الله؛ فنزلت الآية^(١).

وفيها يأمر الله رسوله أن يسأل المشركين في كلّ زمانٍ ومكانٍ عن أكبر شهادة، بعد أن بين لهم الهدى وأثار الطريق ﴿قُلْ أَيُّ شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهَادَةً﴾ على هذا الأصل العظيم، وهو التوحيد، فيأتي الجواب من ربّ العالمين على لسانِ رسوله ﷺ ﴿قُلِ اللَّهُ شَهِيدٌ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ﴾ أي: أن الله تعالى هو الواحد والأحد، ويَشْهَدُ أنني رسولُ الله، وأن هذا القرآن وَحْيٌ من عند الله، ولا يوجد أعظم شهادة منه تعالى ولا أكبر، وهو سبحانه يقرني على ما قلته لكم، ولو كنت كاذباً لأخذ الله مني باليمين ولقطع مني الوتين.

والمعنى: قل - أيها الرسول - لمن يجحد وحدانية الخالق، وينكر رسالتك: أي شهادة هي أصدق الشهادات وأقواها وأعدلها، بحيث تقبلونها عن إدعانٍ وتسليمٍ؟.

ولمّا كانت شهادة الله تعالى على وحدانيته وعلى صدقِ رسوله ﷺ غير معلومةٍ بالنسبة للمكذّبين لرسالته، كانت شهادة الله تعالى عليهم في معنى القسم، على تقدير: فإني أُشهد الله عليكم، وشهادة الله تعالى أكبر وأعظم شهادة على أنني قد أبلغتكم ما أُرسلتُ به إليكم، وعلى رأسه توحيد الله تعالى، وعدم الإشراف به وشهادة الله تعالى جاءت في مثل قوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ﴾ [الصف: ٩].

فإن لم تنفعكم الآيات والنذر، وترجعوا عن تكذيبكم؛ فحسابكم على الله، وقد أنذرتكم بعذابٍ من عنده في الدنيا والآخرة، فهو سبحانه ﴿شَهِيدٌ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ﴾ أي: هو شهيدٌ على صدقي، وشهيدٌ على تكذيبكم وإنكاركم، كما هو الشأن في شهادات الخصوم.

(١) «أسباب النزول» للواحدي ص ١٨٠، والسيوطي (١١٥) و«زاد المسير» (١٣/٣) و«تفسير القرطبي» (٦/

ولمّا كان القرآنُ مشتملاً على كلّ ما أمَرَ الرسولُ ﷺ بتبليغه؛ فقد جاء ذِكرُهُ في الآية من باب عطف الخاص على العام، وأنتم - أيها العرب - أرباب الفصاحة والبلاغة، وقد عجزتم عن الإتيان بمثل أقصر سورة منه؛ فدل ذلك على أنه من عند الله، أنزله لهداية البشر كافة ﴿وَأَوْحَى إِلَيْكَ هَذَا الْقُرْآنَ لِأَتَذْكُرَ بِهِ وَمَنْ بَلَغَ﴾ أي: وأمرني أن أنذر كلّ مَنْ يأتي بعدي، مِنْ كُلِّ مَنْ بلغه القرآن إلى يوم الساعة، فكأنما سَمِعَهُ من محمدٍ ﷺ، وإن كثرت الوسائط.

وأجهزة الإعلام في الوقت الحالي قد بلغت أرجاء الدنيا، والترجمات والمطبوعات وشبكت المعلومات وصلت إلى العالم كلّهُ بجميع اللغات، فدعوة النَّبِيِّ ﷺ قد بلغت الآفاق، وقد صرحت الآية بأن النَّبِيَّ ﷺ مُنْذِرٌ لكلِّ مَنْ بلغه هذا القرآن العظيم كائنًا مَنْ كان.

وَيُفْهَمُ منها أن الإنذار عام لكلِّ مَنْ بلغته الدَّعوةُ، وأن كلّ مَنْ بلغه القرآن، ولم يؤمن به؛ فهو من أهل النار، وقد جاء الإنذار بعموم الرسالة في مثل قوله تعالى: ﴿قُلْ يَتَأْتِيهَا النَّاسُ إِيَّايَ رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا﴾ [الأعراف: ١٥٨]

وقوله: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا﴾ [سبأ: ٢٨]

وقوله: ﴿تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا﴾ [١] [الفرقان].

وأما دخول النار لمن لم يؤمن بالقرآن؛ فقد جاء في قوله تعالى: ﴿وَمَنْ يَكْفُرْ بِهِ مِنَ الْأَحْزَابِ فَالنَّارُ مَوْعِدُهُ﴾ [هود: ١٧] وفي حديث أبي هريرة أن النَّبِيَّ ﷺ قال: «والذي نفس محمد بيده لا يَسْمَعُ بي أحدٌ من هذه الأمة، يهودي ولا نصراني، ثم يموت، ولم يؤمن بالذي أُرْسِلْتُ به، إلا كان من أصحاب النار»^(١).

وَمَنْ لم تبلغه الدَّعوةُ لا يكون مخاطبًا بتعاليم الإسلام، وإثم عدم البلاغ على الذين قَصُرُوا في وصول الدَّعوةِ إليه.

ثم أمر الله نبيّه أن يستنكر ما عليه المشركون من كُفْرٍ وإلحادٍ، وأن يُعلن براءته منهم، ومن معبوداتهم، فأمره سبحانه أن يقول للمشرّكين: إن كنتم قد تردّيتُم في مهاوي الشرك والضلال، وشهدتم بأن مع الله آلهةٌ أخرى، فأنا بريء منكم، ومن أعمالكم، وفي هذا توبيخٌ لهم على اعتقادهم ﴿أَيُّكُمْ لَتَشْهَدُونَ أَنَّ مَعَ اللَّهِ آلِهَةً أُخْرَى﴾ ثم صارحهم بأنه لا يشهد بشهادتهم، وأنه ثابتٌ على مبدئه ﴿قُلْ لَا أَشْهَدُ﴾ ثم أعلن اعترافه الكامل بوحدة الله

(١) «صحيح مسلم» برقم (١٥٣).

الله تعالى ﴿قُلْ إِنَّمَا هُوَ إِلَهٌ وَاحِدٌ﴾ منفرد بالخلق والتدبير، فهو المستحق للعبادة دون سواه ﴿وَإِنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ﴾ به من الأوثان والأصنام والأنداد.

والمعنى: قل - أيها الرسول - للمشركين: إنكم لتقرؤون أن مع الله معبوداتٍ أخرى تشركونها معه، قل لهم: إني لا أشهد على ما أقررتم به، إنما الله إلهٌ واحدٌ لا شريك له، وأنا بريءٌ من كلِّ شريكٍ تعبدونه معه، وقد أمرنا الإسلامُ بتبليغِ الدَّعوة للعالمين.

قال أنس بن مالك: لما نزلت هذه الآية كتَبَ رسولُ الله ﷺ إلى كسرى وقيصر، وكلِّ جَبَّارٍ يدعوهم إلى الله ﷻ^(١).

وفي البخاري عن عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما أن النَّبِيَّ ﷺ قال: «بلغوا عني ولو آية، وحدثوا عن بني إسرائيل ولا حرج، ومن كَذَبَ عليَّ متعمداً فليتبوأ مقعده من النار»^(٢).

فالحديث يأمر الأمة بإبلاغ ما جاء به النَّبِيُّ ﷺ من قرآنٍ وسُنَّةٍ، ولا حرج في الحديث عن بني إسرائيل ببعض البلاغ، فهو ممَّا لا يُصدَّقُ، ولا يُكذَّبُ، كما أخبر النَّبِيُّ ﷺ.

وعن ابن مسعود رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «نَضَرَ الله امرأ سَمِعَ مِنَّا شيئاً فبلغه كما سَمِعَهُ، فربَّ مبلغٍ أوعى له من سَامِعٍ»^(٣).

وعن زيد بن ثابت رضي الله عنه قال: سمعتُ رسولَ الله ﷺ يقول: «نَضَرَ الله امرأ سَمِعَ مِنَّا حديثاً فحفظه حتى يبلغه غيره، فربَّ حاملٍ فقهِ إلى مَنْ هو أفقه منه، وربَّ حاملٍ فقهِ غيرِ فقهِ»^(٤).

والآية فيها حَضَرُ التوحيد لله تعالى، وإبطالُ كلِّ معبودٍ سواه؛ ومن هنا فقد استحَبَّ العلماء، لكلِّ مَنْ أسلم، أن يأتي بالشهادتين كما تضمنتها هذه الآية، ويبرأ من كلِّ دينٍ يُخالفُ دينَ الإسلام.

(١) أخرجه أبو الشيخ وابن مردويه كما في «الدر المنثور» (٢٩/٦).

(٢) «صحيح البخاري» برقم (٣٤٦١).

(٣) «صحيح سنن الترمذي» برقم (٢١٤٠) والتعليق الرغيب (٦٣/١) والمشكاة (٢٣٠) وسنن الترمذي (٢٨٠٨) و«صحيح ابن ماجه» برقم (١٨٩) وابن ماجه (٢٣٢).

(٤) «المسند» (٢١٥٩٠)، بإسناد صحيح وأبو داود (٣٦٦٠) وابن ماجه (٤١٠٥) والترمذي (٢٦٥٦) والدارمي (٢٢٩) وابن حبان (٦٨) والطبراني في الكبير (٤٨٩٠) وصححه الألباني في صحيح الترمذي وأبي داود وابن ماجه.

وشهادة أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله هي التي عبّر عنها رباعي بن عامر، رسول سعد بن أبي وقاص في القادسية إلى رستم قائد الفرس، وقد سأله: ما الذي جاء بكم؟ فقال: إن الله ابتعثنا لنخرج مَنْ شاء من عبادة العباد إلى عبادة الله وحده، ومن ضيق الدنيا إلى سعة الدنيا والآخرة، ومن جور الأديان إلى عدل الإسلام.

ورستم وقومه لم يعبدوا كسرى بوصفه إلهًا خالقًا للكون، ولكنهم كانوا يعظمونه، فيقومون له ويركعون، وكانوا يُطيعونه في التحليل والتحريم، وهكذا شأن الأحرار والرهبان مع أقوامهم؛ حيث أطاعوهم فيما شرعوه لهم، وهذا المعنى ينطبق على كل من اتبع فيه صنف من البشر علماءهم، أو حكامهم، في غير ما شرعه الله تعالى، ويحكمون بين الناس بما لم يشرعه الله تعالى، فالهدف في كل زمان ومكان هو إخراج الناس من اتباع غير الله تعالى؛ في كل حكم، أو قول، أو فعل، إلى حكم الله تعالى، وقوله، وما أمرهم به رسول الله ﷺ.

قِيَامُ الْحُجَّةِ عَلَى مَنْ أَشْرَكَ بِاللَّهِ وَكَذَّبَ رَسُولَهُ:

أولًا: مَعْرِفَتِي بِمُحَمَّدٍ أَشَدُّ مِنْ مَعْرِفَتِي بِوَلَدِي

٢٠- ﴿الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمُ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾

وإلى جوار شهادة رب العالمين، وهي أعظم شهادة على الإطلاق، لا تحتاج إلى شهادة أخرى تُعصدها، أو تشهد معها على صدق نبوة محمد ﷺ، وعلى صدق الوحي الذي جاء به من عند الله، إلى جوار ذلك شهادة الرسول ﷺ، بأن الله تعالى واحدٌ أحدٌ، لا شريك له، ولا ولد، وأنه بريء من كُفر الكافرين، وإلحاد الملحدين.

وتُقيم هذه الآية شهادةً ثالثة؛ هي شهادة أهل الكتاب من علماء اليهود والنصارى في زمن النبي ﷺ وبعده، على صدقه، وصدق القرآن الذي جاء به من عند الله، وقد كانوا يُخبرون الوثنيين من أهل مكة أنه يُوشك أن يُبعث نبي آخر الزمن، وأنهم أول من سيؤمن به، ويفتح عليه، وهذا معنى ﴿وَكَاوُوا مِنْ قَبْلُ﴾ أي: قبل مجيء محمد ﷺ ﴿يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ أي: يقولون نحن أول من يفتح عليه ويؤمن به.

قال تعالى: ﴿فَلَمَّا جَاءَهُمْ مَا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ فَلَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾ [البقرة: ٨٩]

وهذا معنى قوله سبحانه: ﴿الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ﴾ يعني: اليهود الذين نَزَلَ عليهم التوراة، والنصارى الذين نَزَلَ عليهم الإنجيل، وفيهما البشرى بالرسول الخاتم، وذُكِرَ أوصافه ﷺ، وهم يعرفون محمداً ﷺ بأوصافه وعلاماته في كُتُبِهِمْ، ومنها خاتم النبوة بين كتفيه، وهم ﴿يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ آبَاءَهُمْ﴾ وهذا الاستشهاد لأهل مكة.

فالأية مكيّة تحكي خبراً عن أهل الكتاب، وتقرّر أنهم كَذَبُوا في قولهم: إنهم لا يعرفون محمداً ﷺ.

ولمَّا قَدِمَ النَّبِيُّ ﷺ المدينة، وأسلم عبد الله بن سلام، قال له عمر بن الخطاب ؓ: إن الله ﷻ أنزل على نبيه محمد ﷺ بمكة ﴿الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ آبَاءَهُمْ﴾ فكيف هذه المعرفة؟ قال عبد الله بن سلام: يا عمر، قد عرفته حين رأيته كما أعرف ابني، ولأنا أشدُّ معرفةً بمحمد ﷺ مني بابني، فقال: وكيف ذاك؟ قال: أشهد أنه رسول الله حقاً، ولا أدري ما يصنع النساء^(١).

أي: أنه غير متحقّق من صحة نسب ولده، ولكنه متحقّق من صدقِ محمد ﷺ؛ لأن الذي أخبر أنه رسول الله هو ربُّ العالمين.

فكما أن أبناءهم لا يشبهون عليهم وهم أمامهم، فكذلك محمد ﷺ لا يشبهه بغيره؛ لدقة وصفه في كتبهم، أما الذين أنكروا نبوّته ﷺ فقد خسروا أنفسهم؛ لأنهم اتبعوا أهواءهم حين كفروا بمحمد ﷺ، وبما جاء به من عند الله، فأَوْجَبُوا لأنفسهم عذاب النار؛ بسبب كُفْرِهِمْ هذا، وتركوا أماكنهم التي كانت معدّة لهم في الجنة لو آمنوا.

﴿الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ﴾ وفوتوا عليها ما خلّقوا من أجله، وهو الإيمان والتوحيد ﴿فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ لأنهم جمعوا بين الكذب على الله، وتكذيب ما ثبت بالبرهان القاطع، وفيه إخبار عمّن مات منهم على الشرك، وهو يعلم أن القرآن حقٌّ من عند الله، وأنه يشتمل على خير البشر وصلاحهم، فهم يعرفون أنهم على باطل، وأن ما في القرآن حقٌّ وصدقٌ.

ومن قال: إن الضمير في ﴿يَعْرِفُونَهُ﴾ يعود على القرآن المذكور في قوله تعالى ﴿وَأَوْحَىٰ إِلَّا هَٰذَا الْقُرْآنُ لَا نُذَرِّكُمْ بِهِ﴾ أو يعود على التوحيد المذكور في قوله تعالى ﴿قُلْ إِنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ

(١) «تفسير الخازن» (٩/٢) و«زاد المسير» (١٤/٣) و«حاشية الجمل» (١٥/٢١).

وَيَعِدُ ﴿٢١﴾ فَهُوَ أَوْفَقُ مِنْ نَاحِيَةِ عَوْدِ الضَّمِيرِ عَلَى أَقْرَبِ مَذْكُورٍ، وَلَكِنْ سَبَبُ النُّزُولِ يُشِيرُ إِلَى أَنَّهُ يَعُودُ عَلَى النَّبِيِّ ﷺ.

ويحتمل أن يكون المعنى: أن أهل الكتاب لا يشكون في رسالة محمد ﷺ لما عندهم من البشارات والصفات التي لا تنطبق على غيره ﷺ، ولعله الأرجح.

على أن معرفة اليهود والنصارى بما في كتبهم يتناول هذه المعاني الثلاثة، فهم يعرفون التوحيد، ويعرفون القرآن، ويعرفون محمدًا ﷺ وَفَقَ ما جاء في كتبهم أشد من معرفتهم لأبنائهم.

وكان المشركون الوثنيون يقدِّرون أهل الكتاب، وَيَتَّقُونَ بِعِلْمِهِمْ، ومنهم من اتبع دينَ أهل الكتاب، وأقلع عن الشرك، مثل: ورقة بن نوفل، ولذلك كانت شهادتهم موثوقة عندهم إذا أدوها، ولم يكتموها.

والآية تُشير إلى أن الجاحدين لنبوَّة محمد ﷺ مُصْرُؤُونَ عَلَى ذَلِكَ، حَتَّى وَلَوْ شَهِدَ بِصِدْقِهِ رَبُّ الْعَالَمِينَ، وَلَوْ شَهِدَ أَيْضًا أَهْلُ الْكِتَابِ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كَانَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَكَفَرْتُمْ بِهِ وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِنْ بَنِي إِسْرَءِيلَ عَلَى مِثْلِهِ فَقَامَنَ وَاسْتَكْبَرْتُمْ﴾ [الأحقاف: ١٠].

ثَانِيًا: أَظْلَمَ النَّاسُ مَنْ جَحَدَ وَحْدَانِيَّةَ اللَّهِ وَكَذَّبَ رَسُولَهُ

٢١- ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ إِنَّهُمْ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ﴾

ثم يصف الله سبحانه حقيقة ما يُزاوله الجاحدون لوحْدَانِيَّةَ اللَّهِ تَعَالَى بِأَنَّهُ افْتَرَأَ الْكَذِبَ عَلَى اللَّهِ تَعَالَى، وَذَلِكَ فِي اعْتِدَائِهِمْ عَلَى حَقِّ اللَّهِ تَعَالَى؛ فِي تَوْحِيدِهِ، وَعِبَادَتِهِ وَحْدَهُ، وَدَعَاءِ غَيْرِهِ مَعَهُ.

وهم بهذا قد اعتدوا على أنفسهم، فَأَوْرَدُوهَا مُورِدَ الْمَهَالِكِ وَالْخُسْرَانِ وَالْبَوَارِ، وَاعْتَدُوا عَلَى النَّاسِ؛ فَأَفْسَدُوا دِينَهُمْ وَدُنْيَاهُمْ بِتَعْبُدِهِمْ لغير ربهم ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا﴾ أَي: لَا أَحَدَ أَشَدَّ ظِلْمًا مِمَّنْ كَانَ فِيهِ أَحَدُ هَذَيْنِ الْوَصْفَيْنِ:

أحدهما: أَنْ يَنْسِبُ الشَّرِيكَ وَالْوَلَدَ وَالزَّوْجَةَ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى، أَوْ يُحْلِلُ مَا حَرَّمَهُ اللَّهُ، أَوْ يُحَرِّمُ مَا أَحَلَّهُ اللَّهُ.

وثانيهما: أن يكون مَن كَذَّبَ بهذا القرآن، وهذا معنى ﴿أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ﴾ فكذب بما فيه من حُجَج وبراهين، وأدلة واضحة، جاءت على السنة رُسُلِ الله، كما كَذَّب اليهود بمعجزات الأنبياء، والتكذيبُ بآيات القرآن الكريم التي نزلت على محمدٍ ﷺ تدخل في ذلك دخولاً أولياً، فكيف بمن اجتمع فيه الأمران معاً، فأشرك بالله وكذب بآيات الله.

وهؤلاء الظالمون لا يظفرون بمطالبهم في الدنيا، ولا في الآخرة ﴿إِنَّهُمْ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ﴾ فلن يفلح الشرك، ولا المشركون، ولا يفلح المفتري ولا المكذب، والافتراء: هو الكذب المتعمد، قال تعالى: ﴿وَلَكِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يَقْتُلُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ﴾ [المائدة: ١٠٣].

ثَالِثًا: فِتْنَةُ الْمُشْرِكِينَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ

٢٢- ﴿وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ^(١) جَمِيعًا ثُمَّ نَقُولُ^(٢) لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا إِنِّي سُرَّكَاؤُكُمْ الَّذِينَ كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ ﴿٢٢﴾﴾

ويُصَوِّرُ القرآن عدم فلاح المشركين في يوم الحشر والحساب، حين يتنصّلون من شركهم الذي كان في الدنيا، ويطلبُ منهم أن يأتوا بمن أشركوهم مع الله تعالى من حَجَرٍ، أو صنمٍ، أو إنسٍ، أو جنٍّ، أو مَلَكٍ، أو كَوْكَبٍ، ونحو ذلك في ساحة الموقف؛ ليدفعوا عنهم العذاب.

قال تعالى: ﴿وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا﴾ أي: نحشر أهل الشرك والتكذيب يوم القيامة، ونسألهم سؤال توبيخ وتقريع عمّن أشركوهم مع الله، أين هم؟

فليحذر المشركون المكذبون بآيات الله تعالى يوم نحشر العابد والمعبود في ساحة العرض؛ لنحاسبهم على أقوالهم وأفعالهم، كما قال تعالى: ﴿وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا مَكَانَكُمْ أَنْتُمْ وَشُرَّكَاؤُكُمْ﴾ [يونس: ٢٨] والمقصود من حشر الأصنام إظهار عدم جدواها، قال تعالى ﴿أَحْشُرُوا الَّذِينَ ظَلَمُوا وَأَزْوَاجَهُمْ وَمَا كَانُوا يَعْبُدُونَ﴾ ﴿٢٣﴾ مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ [الصفات].

وبعد هذا الحشر في ساحة العرض والحساب يأتي سؤال التوبيخ والتقريع عن الشركاء المزعومين ﴿ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا إِنِّي سُرَّكَاؤُكُمْ الَّذِينَ كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ﴾ أنها تشفع لكم عند ربكم؛

(١) قرأ يعقوب (ويوم نحشرهم) و(ثم نقول) بياء الغيبة فيهما، والفاعل ضمير يعود على الله تعالى، وقرأ الباكون بنون العظمة فيهما.

لتدفع عنكم ما أنتم فيه من العذاب، أين هذه الآلهة؟ وقد كانوا في الدنيا يذبحون لها، وينذرون لها، ويعتقدون فيها النفع والضّر، كما يفعل بعض الناس اليوم عن علم أو جهل، وهذا كقوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَائِيَ الَّذِينَ كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ﴾ [القصص] والمراد من هذا السؤال هو الإفصاح لا الإيضاح. قال تعالى:

٢٣- ﴿ثُمَّ لَمْ تَكُنْ فِتْنَتُهُمْ^(١) إِلَّا أَنْ قَالُوا وَاللَّهُ رَبُّنَا^(٢) مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾ [القصص]

فماذا يكون موقف المشركين حين يُطلب منهم إحضار الشركاء مع الله في ساحة العرض والحساب؟ إنهم يُنكرون أنهم عبدوا غير الله تعالى، ويحلفون على ذلك ﴿ثُمَّ لَمْ تَكُنْ فِتْنَتُهُمْ﴾ أي: إجابتهم، وسُميت فتنة تشبيهاً بالرجل الذي يُفتن بمحبوبه، ثم تصيبه محنة منه؛ فيتبرأ منه، ويتخلى عنه.

وأصل الفتنة: مأخوذة من الفتن، وهو إدخال الذهب في النار لِتُعرف جودته من رداءته، ثم استعمل في كل ما يشبه الاختبار؛ كالعذاب، والبلاء، والكفر، والمرض، والموت.

والمعنى: ثم لم تكن عاقبة كفرهم حين رأوا الحقائق يوم القيامة ﴿إِلَّا أَنْ قَالُوا وَاللَّهُ رَبُّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾ فيتبرؤون من شركهم، ويقسمون كذباً على ذلك، ومقاتلتهم هذه حين يَرَوُا أهل التوحيد قد نَجَوْا، فيحلفون أنهم لم يكونوا مشركين؛ ليلحقوا بهم، وهنا يختم الله على ألسنتهم، وتنطق الجوارح بكفرهم وشركهم، كما قال تعالى: ﴿يَوْمَئِذٍ يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَعَصُوا الرَّسُولَ لَوْ شِئِيَ بِهِمُ الْأَرْضُ وَلَا يَكْتُمُونَ اللَّهَ حَدِيثًا﴾ [النساء].

أخرج ابن أبي حاتم عن سعيد بن جبیر، عن ابن عباس ؓ قال: أتاه رجلٌ فقال يا بن عباس: سمعتُ الله يقول: ﴿وَاللَّهُ رَبُّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾ وقال في آية أخرى: ﴿وَلَا يَكْتُمُونَ اللَّهَ حَدِيثًا﴾ قال: أما قوله ﴿وَاللَّهُ رَبُّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾ فإنهم رأوا أنه لا يدخل الجنة إلا أهل

(١) قرأ نافع وأبو عمرو وشعبة بخلف عنه وأبو جعفر وخلف (لم تكن فتنتهم) بناء التأنيث في (تكن) ونصب (فتنة) على أنها خبر كان مقدماً، وما بعدها اسمها، وقرأ ابن كثير وابن عامر وحفص (لم تكن فتنتهم) بالتأنيث والرفع، على أن (فتنتهم) اسم تكن، وما بعدها خبرها، والباقون (لم يكن فتنتهم) بالتذكير والنصب، ومعهم شعبة في وجهه الآخر، وجاز تذكير الفعل وتأنيثه؛ لأن الاسم مؤنث مجازياً.

(٢) قرأ حمزة والكسائي وخلف (والله ربنا) بنصب الباء على النداء، أو على المدح، وهي جملة معترضة بين القسم وجوابه، والباقون (والله ربنا) بجر الباء، على أنها بدل من لفظ الجلالة أو نعت أو عطف بيان.

الصلاة، فقالوا: تعالوا فلنُجِدَ، فيجحدون؛ فيُخْتَمِ الله على أفواههم، وتشهد أيديهم، وأرجلهم، ولا يكتُمون الله حديثاً، فهل في قلبك الآن شيء؟ إنه ليس من القرآن شيء إلا قد نزل فيه شيء، ولكن لا تعلمون وجهه. إنهم يظنون أن تبرأهم من الشرك سينجيهم من عذاب الله، كما نَجَّى المؤمنين بفضلِهِ ورضوانِهِ.

قال ابن عباس: يغفر الله تعالى لأهل الإخلاص ذنوبهم، ولا يتعاضم عليه ذنب أن يغفره، فإذا رأى المشركون ذلك قالوا: إن ربنا يغفر الذنوب ولا يغفر الشرك، فتعالوا نقول: إنا كنا أهل ذُنُوبٍ، ولم نكن مشركين؛ فقال الله تعالى: أما إذا كتموا الشرك فاختموا على أفواههم؛ فتنتطق أيديهم، وتشهد أرجلهم بما كانوا يكسبون، فعندئذ يعرف المشركون أن الله لا يُكتم حديثاً^(١). قال تعالى:

٢٤- ﴿أَنْظِرْ كَيْفَ كَذَبُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَصَلَ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾

يقول الله تعالى لرسوله: تعجب وتأمل موقف هؤلاء الذين كذبوا على أنفسهم، بما عاد عليهم بالخسران، فحلفوا كذباً أنهم لم يُشركوا بالله في الدنيا، وقد غاب عنهم في ساحة الموقف ألَهُتُهُم التي عبدوها من دون الله، وظنوا أنها تَشْفَعُ لهم يوم لقاء الله، فأين هم الآن؟ قال تعالى: ﴿ثُمَّ قِيلَ لَهُمْ أَنْتَ مَا كُنْتُمْ تَشْرِكُونَ﴾ (٧٣) مِنْ دُونِ اللَّهِ قَالُوا ضَلُّوا عَنَّا بَلْ لَئِنْ نَكُنْ نَدْعُوا مِنْ قَبْلُ شَيْئاً ﴿[غافر: ٧٣، ٧٤].

رَابِعًا: عَقُوبَةُ الْمَعَارِضِينَ لِخَاتَمِ الرُّسُلِ فِي الدُّنْيَا

٢٥- ﴿وَمِنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ وَجَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا وَإِنْ يَرَوْا كُذُّبًا لَا يُؤْمِنُوا بِهَا حَتَّى إِذَا جَاءُوكَ يُجَادِلُونَكَ يَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنَّ هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ﴾

ومن المكذبين بدعوتك قوم يستمعون إليك استماعاً خالياً من الانتفاع، لأن الله تعالى قد جعل على قلوبهم أغشية وأغطية لئلا يفقهوا كلامه، فصان الله كلامه عن أمثال هؤلاء، وجعل في آذانهم صمماً فلا يستمعون ما ينفعهم.

وهكذا تمضي الآيات لتبين لنا النتيجة الحتمية للمعرض عن آيات الله، المكذب لها،

(١) «تفسير القرطبي» (٤٠١/٦) وهو في «صحيح البخاري».

وَتَقَرَّرُ أَنَّهُ لَا أَمَلَ فِي إِيمَانِ بَعْضِهِمْ، مِنْ أَصْحَابِ الْعُقُولِ، الَّذِينَ يَقَابِلُونَ الدَّعْوَةَ بِالْإِعْرَاضِ التَّامِ؛ فَيَتَظَاهَرُونَ بِالْحِلْمِ وَالْإِنْصَافِ، وَيُخَيَّلُونَ لِلذَّهَمَاءِ أَنَّهُمْ قَادِرُونَ عَلَى مُجَادَلَةِ الرَّسُولِ ﷺ، وَإِبْطَالِ حُجَّتِهِ، ثُمَّ يَنْهَوْنَ النَّاسَ عَنِ الْإِيمَانِ بِهِ، وَرَبَّمَا يَتْلُو الْوَاحِدُ مِنْهُمْ الْقُرْآنَ مُحْتَرَفًا، وَلَكِنَّهُ إِلَى جَوَارِ ذَلِكَ لَا يُحَاوَلُ أَنْ يُطَبَّقَ، أَوْ أَنْ يَغْرَضَ أَقْوَالَهُ وَأَفْعَالَهُ عَلَى كِتَابِ اللَّهِ ﷻ، وَيُحَسِّنَ مِنْ أَحْوَالِهِ، وَيُغَيِّرَ مِمَّا هُوَ عَلَيْهِ إِلَى مَا هُوَ أَحْسَنُ.

وَالْقُرْآنُ الْكَرِيمُ فِي سُورَةِ الْأَنْعَامِ يَذْكُرُ مَوْقِفَيْنِ لِلْمُشْرِكِينَ؛ مَوْقِفٌ فِي الدُّنْيَا وَمَوْقِفٌ فِي الْآخِرَةِ:

أَمَّا مَوْقِفُ الدُّنْيَا: فَقَدْ كَانَ الْمُشْرِكُونَ يَسْتَمْعُونَ إِلَى الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ مِنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، وَهُمْ يَعْتَقِدُونَ صِدْقَهُ دَاخِلَ نَفُوسِهِمْ، وَلَكِنْ الْجُحُودَ وَالْكِبْرَ يَحُولَانِ دُونَ الْاعْتِرَافِ بِهِ.

وَرَدَّ أَنَّهُ اجْتَمَعَ أَبُو سَفْيَانَ وَأَبُو جَهْلٌ وَالْوَلِيدُ وَالنَّضْرُ، وَأُمِيَّةٌ وَأَبِيُّ ابْنِ خَلْفٍ، وَعَتَبَةُ وَشَيْبَةُ ابْنِ رَبِيعَةَ، وَالْحَارِثُ بْنُ عَامِرٍ، يَسْتَمْعُونَ إِلَى الْقُرْآنِ، فَقَالُوا لِلنَّضْرِ: يَا أَبَا قَتِيْبَةَ، مَا يَقُولُ مُحَمَّدٌ؟ قَالَ: مَا أَدْرِي مَا يَقُولُ، إِلَّا أَنِّي أَرَاهُ يُحْرِكُ لِسَانَهُ، وَيَقُولُ أُسَاطِيرَ الْأَوَّلِينَ، مِثْلَ مَا كُنْتُ أَحْدِثُكُمْ عَنِ الْقُرُونِ الْمَاضِيَةِ.

وَكَانَ النَّضْرُ كَثِيرَ الْحَدِيثِ عَنِ الْقُرُونِ الْمَاضِيَةِ وَأَخْبَارِهَا، فَقَالَ أَبُو سَفْيَانَ: إِنِّي لَأَرَى بَعْضَ مَا يَقُولُ حَقًّا، فَقَالَ أَبُو جَهْلٍ: كَلَّا، لَا نَقْرُ بِشَيْءٍ مِنْ هَذَا.

وَفِي رِوَايَةٍ: لَلْمَوْتُ أَهْوَنُ عَلَيْنَا مِنْ هَذَا؛ فَأَنْزَلَ اللَّهُ الْآيَةَ ﴿وَمِنْهُمْ مَن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ﴾.

وَكَانَ النَّضْرُ تَاجِرًا، يَسَافِرُ بَيْنَ مَكَّةَ وَفَارَسَ، وَتَعَلَّمَ أَخْبَارَ الْأَعَاجِمِ، وَأُسَاطِيرَ الْأَوَّلِينَ؛ مِنْ الْقَصَصِ وَالْأَخْبَارِ الْمُتَعَلِّقَةِ بِالْأَكَاسِرَةِ وَمُلُوكِ فَارَسَ، وَعِنْدَهُ مِنْ هَذِهِ الْحِكَايَاتِ الْكَثِيرِ، فَقَالَ: هُوَ يَحْدِثُكُمْ عَنْ أَخْبَارِ عَادَ وَثَمُودَ، وَأَنَا أَحْدِثُكُمْ عَنِ الْمُلُوكِ وَالْأَكَاسِرَةِ، أَحْدِثُكُمْ عَنْ مُلُوكِ فَارَسَ بِحَدِيثٍ أَحْسَنَ مِنْهُ، فَمَا يَقُولُ مُحَمَّدٌ إِلَّا خُرَافَاتٍ، وَحِكَايَاتٍ قَدِيمَةٍ، وَتُرَاهَاتٍ، وَلَيْسَ هَذَا بِوَحْيٍ مِنَ اللَّهِ تَعَالَى.

وَكَانَ النَّضْرُ يَجْلِسُ قَرِيبًا مِنْ مَجْلِسِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، وَحَوْلَهُ جَمْعٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ، وَهُوَ يَصُدُّ النَّاسَ عَنْ أَنْ يَجْتَمِعُوا بِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ، وَيَصْرِفُهُمْ عَنْهُ، وَيَقُولُ لَهُمْ: أَنَا أَحْدِثُكُمْ بِمَا هُوَ خَيْرٌ مِنْ حَدِيثِهِ، وَيَحْكِي لَهُمْ أَخْبَارَ الْفَرَسِ وَالْأَكَاسِرَةِ مِنَ الْحِكَايَاتِ الْقَدِيمَةِ، وَكَانَ

يحدث قريشاً؛ فيستحلون حديثه^(١).

وكان النضر شديد البغضاء للنبي ﷺ، وهو الذي أهدر الرسول دمه، فقتل يوم فتح مكة، ولما قال أبو سفيان: إني لأراه حقاً، قال له أبو جهل: كلا، فوصف الله حالهم بهذه الآية، وقد نفع الله أبا سفيان بن حرب بكلمته هذه؛ فأسلم ليلة فتح مكة.

والله ﷻ يبين ذلك في كتابه؛ فيقول: ﴿وَمِنْهُمْ﴾ أي: من هؤلاء المشركين والمكذبين بالقرآن ﴿مَنْ يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ﴾ أيها الرسول، وأنت تقرأ القرآن ﴿وَجَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً﴾ أي: أغطية وأغلفة؛ لئلا يفهموا القرآن.

فمعنى: ﴿أَنْ يَفْقَهُوهُ﴾ لئلا يدركوا معناه؛ وذلك لأنهم بسبب اتباع أهوائهم جعلنا على قلوبهم أغطية؛ لئلا يفقهوا القرآن، فإدراكهم معطل، وفطرتهم مطموسة، فلا يصل القرآن إلى قلوبهم، والإنذار وعدمه يستوي بالنسبة لهم.

﴿وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا﴾ أي: وجعلنا الحواس فيهم معطلة، وأجهزة الاستقبال غير صالحة، وهكذا المسلم الذي لا ينتفع بما يقرأ، ولا يتعظ، ولا يغير من أحواله، ويقرأ القرآن دون أن يتدبر، ودون أن يطبق ما فيه في حياته، وكأن أجهزة الاستقبال عنده لا تستقبل، فهو يرى الآيات البينات، ولكنه لا يدري، ويقرأ الآيات ولكنه لا يفهم، ولا يتدبر، ولا يعمل، وحواسه معطلة، والآية نزلت في المشركين، والمسلم مأجور على كل حال في قراءته للقرآن بفهم، وبغير فهم.

والوقر: هو الصمم والثقل والغلف الذي ورد فيه قوله تعالى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَشْتَرِي لَهْوَ الْحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّخِذَهَا هُزُوًا أُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾ (١) وإذا تلى عليه آياتنا ولم يستكبر كأن لم يسمعها كأن في أذنيه وقراً فبشره بعذاب أليم (٧) [لقمان].

ولهو الحديث: كل ما يلهي من الأخبار، والقصص، والأغاني، وغير ذلك مما يلهي عن كتاب الله ﷻ، وعن العمل الصالح.

وفي الآية دليل على أن الله تعالى يقبّل القلوب، فيشرح بعضها للهدى والإيمان فتقبله، ويجعل بعضها في أكنة؛ فلا تفقه كلام الله تعالى، ولا تؤمن به؛ وذلك بسبب

(١) ينظر «تفسير الألوسي» (١٢٥/٧) والخازن و«زاد المسير» وابن عاشور وغيرهم.

فساد فطرتها، وعدم استعدادها لقبول الهدى، فهي من تربة سبخة لا تقبل ما ينفع، فكأن قلوبهم لا تُدرِك، وأذانهم لا تسمع، وعيونهم لا تبصر، فكلُّ منها لا يؤدي وظيفته.

قال سبحانه في المشركين: ﴿وَإِنْ يَرَوْا كُلاًّ آيَةً لَا يُؤْمِنُوا بِهَا﴾ وهذا غاية الظلم والعناد، فقد علم الله سبحانه قبل أن يخلقهم أنهم كالموتى، لا يستجيبون لها، ولا يُصدِّقون بها، مهما أنزل الله على رسوله من معجزات؛ كانشقاق القمر، ونُبعِ الماء وشبهه.

ومهما يَرَوْا من الدلائل والحجج والبيّنات، فهم أيضاً لا يؤمنون بها، فلا فُهمَ عندهم، ولا إنصاف، ومهما أنزل الله من آيات في كتابه فإنهم لا يؤمنون بها، كما قال تعالى: ﴿وَمَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا كَمَثَلِ الْإِذَى يَبْعَثُ يَمًا لَا يَسْمَعُ إِلَّا دُعَاءً وَنِدَاءً صُمُّ بِكُمْ عَمَىٰ فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴿٧٦﴾﴾ [البقرة] ﴿وَلَوْ عَلِمَ اللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَّأَسْمَعَهُمْ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوْا وَهُمْ مُّعْرِضُونَ ﴿٧٧﴾﴾ [الأنفال].

وفي الآية تشبيه الحُجُب والموانع المعنوية بالحُجُب والموانع الحِسيّة، فإن القلب الذي لا يفقه الحديث ولا يتدبره، كالوعاء الذي وُضع عليه غطاءٌ حتى لا يدخله شيءٌ، وقد أسند الله تلك الحالة التي في قلوبهم إليه سبحانه؛ لأن لهم عقولاً وإدراكاً كسائر البشر، ولكن أهواءهم منعتهم من اتباع الحق، فكانوا مخاطبين بالإيمان، مع أن الله تعالى يعلم أنهم لا يؤمنون، كما أن عدم الفهم، وعدم العمل جعل بمنزلة الصمم.

وعلى هذا، فإن مَنْ يَسْلُك طريقَ الهداية؛ يرشده الله ويهديه، وَمَنْ يقصد طريق الغواية، ويسير في طريقها؛ فإن النُّذُر تأتيه تَبَاعاً، إنذاراً بعد إنذار، فإن تيقَّظ ضميره وانكشفت العماية عن قلبه؛ فقد اهتدى وأمن بعد كُفْرٍ، وَمَنْ لم ينتفع بالمواعظ والنُّذُر المتتابعة؛ فقد وضع الله على قلبه غشاوةً، وجعل في آذانه وقراً، فأعرض عن الحقِّ مهما وضحت براهينه، ولم يؤمن بكل ما يرى من آيات.

وهذا معنى: ﴿حَتَّىٰ إِذَا جَاءُوكَ﴾ يا محمد، بعد معاينة الآيات الدالة على صدِّقك، ﴿يَجِدُونَكَ يَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ وجحدوا آيات الله تعالى، ﴿إِنَّ هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ﴾ أي: ما هذا الذي يقوله محمدٌ ﷺ إلا حكايات الأولين، وما سَطَّرُوهُ في كتبهم، وليس بوحي من الله تعالى، وكانوا لا يُميِّزون بين التواريخ، والقصص، والخرافات؛ فنسبوا أخبار القرآن إلى الكذب على ما تعارفوه من اعتقادهم في الأساطير، قال تعالى:

٢٦- ﴿وَهُمْ يَنْهَوْنَ عَنْهُ وَيَنْتَوُونَ عَنْهُ وَإِنْ يُهْلِكُونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ﴾ (٢٦)

أي أن المكذبين لرسول الله ﷺ يجمعون بين الضلال والإضلال، فهم ينهون الناس عن اتباع الحق، ويحذرونهم منه، ويتبعون بأنفسهم عنه، وهم بهذا لا يضررون إلا أنفسهم. وهكذا: كان النضر وأمثاله يَنْهَوْنَ الناس عن اتباع محمد ﷺ وعن الجلوس حوله، وعن الاستماع إليه، ويتبعون بأنفسهم عنه؛ مخافة أن يتأثروا بالقرآن فيستجيبيوا له، ومخافة أن يقلدوهم غيرهم من عامة الناس.

﴿وَهُمْ يَنْهَوْنَ عَنْهُ﴾ أي: ينهون الناس عن الاستماع إلى القرآن واتباع ما فيه، والاجتماع بمحمد ﷺ ﴿وَيَنْتَوُونَ عَنْهُ﴾ أي: ويتبعون بأنفسهم عن الإيمان به، وهم بهذا يُوردون أنفسهم المهالك فيضرونها، كما قال تعالى: ﴿وَإِنْ يُهْلِكُونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ﴾ باستمرارهم في الضلال وتضليل الناس.

﴿وَمَا يَشْعُرُونَ﴾ أي: وهم لا يحسبون أنهم يعملون لهلاكها، فهم قد جَمَعُوا بين مُحَارَبَتِهِمْ للحق، وحَمْلِهِمْ غيرهم على محاربتِهِ والبعد عنه، وهم بهذا لا يشعرون بعملهم القبيح؛ لانطماس بصيرتهم، وقسوة قلوبهم، ونهيهم غيرهم عن سماع القرآن، وهذا يشير إلى اعترافهم بأن القرآن حق؛ لأنهم يتخوفون من تأثر الناس به، وليس كما يقولون كذبًا: إنه أساطير الأولين ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا سَمْعُوا لِهَذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَعْلُونَ﴾ [فصلت].

وقيل أيضًا: إن هذه الآية نزلت في أبي طالب، عم النبي ﷺ، فقد كان ينهى المشركين أن يؤذوا رسول الله ﷺ، وينأى هو بنفسه؛ فيبتعد عن الإيمان به، وكان النبي عليه الصلاة والسلام، يعلن دعوته في حِمَى عمه المشرك.

روى سفيان الثوري عن حبيب بن أبي ثابت عمَّن سمع ابن عباس رضي الله عنهما يقول: نزلت في أبي طالب، كان ينهى الناس عن النبي ﷺ أن يؤذى، ولا يُصدَّق به^(١).

ولمَّا ذهب المشركون إلى أبي طالب وقالوا له: أنت ترى كيف أن ابن أخيك يسفه أحلامنا، ويسبُّ آلهتنا، ونريد أن تعطينا إيَّاه، ونحن نعطيك من خيرة الشباب بدلًا منه،

(١) أخرجه ابن أبي شيبة وابن المنذر وأبو الشيخ وابن جرير عن القاسم بن مُخَيَّمرة «تفسير الطبري» (٢٠٤١٩).

قال أبو طالب: عجباً لكم، أعطيتكم ابني كي تقتلوه، وأرئيتكم لكم ابنكم، ثم قال لهم: لو أن الناقة حنّت إلى غير مولودها أعطيتكم لكم محمداً، وأخذ أبو طالب ينشد أحياناً جميلة من الشعر يقول فيها للنبي ﷺ: إنه سينصره ويحميه ما دام حياً لم يواره التراب، وأن محمداً ﷺ جاء بدين هو خير أديان البرية، ويقول له: اصدع بما تؤمر، وأبشر وقر عيناً بحمايتي، ثم يقول في أبياته:

وَلَوْلَا أَنِّي أَخَافُ مَسَبَّةَ الْقَوْمِ وَتَغْيِيرِهِمْ لِي لَأَمَنْتُ بِمَا جِئْتَ بِهِ

هكذا يقول أبو طالب لرسول الله ﷺ، وهذا يُشعر بأن القوم كانوا يؤمنون من قرارة نفوسهم بأن النبي ﷺ صاحب رسالة، وما منعهم من الإيمان به إلا الكبر، وما منعهم إلا خوف ذهاب الزعامة منهم ﴿فَاتَّبَعَهُمْ لَا يُكْذِبُونَكَ وَلَكِنَّ الظَّالِمِينَ بَيَّاتَتْ اللَّهُ يَجْحَدُونَ﴾ [الأنعام: ٢٣].

خامساً: مِنْ مَشَاهِدِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ

أما موقف المكذبين في الآخرة، فقد جاء في قوله تعالى:

٢٧- ﴿وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ يُفْقَرُ عَلَى النَّارِ فَقَالُوا يَلَيْتُنَا نَرُدُّ وَلَا نَكْذِبُ^(١) يَكَايَتْ رَبَّنَا وَتَكُونُ^(٢) مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٧﴾﴾

وتأتي الحسرة والندامة حين يرى الكفار النار بأعينهم؛ فيتمنّون العودة إلى الدنيا ولات ساعة مندم، وهذا هو الموقف الثاني للمشرّكين؛ حيث يكون في يوم القيامة الجزاء والعقوبة على موقفهم في الدنيا من القرآن، ومن رسول الإسلام ﷺ ﴿وَلَوْ تَرَىٰ﴾ أيها المخاطب بعينيك، وتبصر ﴿إِذْ يُفْقَرُ﴾ يوم القيامة ﴿عَلَى النَّارِ﴾ ليؤيخوا ويقرعوا لرأيت أمراً عظيماً، ولرأيتهم كيف أقروا على أنفسهم بالكفر والفسوق، وتمنّوا أن يُردّوا إلى الدنيا مرة أخرى، وذلك حين عُرضوا على النار، وأشرفوا على الهلاك، وجثّوا عندها، وشاهدوا ما فيها، ورأوا سلاسلها، وأغلالها، وسعيرها، وزفيرها، وشهيقها، ورأوا بأعينهم، تلك الأمور العظام، وهم لا يملكون لأنفسهم شيئاً، وليس بإمكانهم أن يغادروها، أو

(١) قرأ حفص وحمزة ويعقوب، بنصب باء (ولا نكذب) ونصب نون (ونكون) على أن الفعل الأول منصوب بأن مضمرة بعد واو المعية في جواب التمني، والثاني معطوف عليه، وقرأ ابن عامر برفع الفعل الأول عطفاً على (نرد) ونصب الفعل الثاني بأن مضمرة بعد واو المعية، وقرأ الباقر برفع الفعلين معاً عطفاً على (نرد) أي: ليتنا نرد ونوقف للتصديق والإيمان.

يكابروا؛ فيجادلوا ويخاصموا كما كانوا يفعلون في الدنيا.

﴿فَقَالُوا﴾ حين شاهدوا من الهول ما علموا أنه جزاء تكذيبهم: ﴿يَلَيِّنَا نُرُدُّ﴾ إلى الدنيا مرة ثانية؛ فنصدق بآيات الله، ونعمل بها ﴿وَلَا نَكْذِبُ بِآيَاتِ رَبِّنَا﴾ وهذا اعتراف صريح بأن الذي كان ينزل على محمد ﷺ هو آيات الله سبحانه، والله جل شأنه قضى ألا عودة ولا رجعة إلى الدنيا مرة أخرى، كما قال تعالى: ﴿وَنَادُوا بِمَلَكِكُمْ لِيَقْضِيَ عَلَيْنَا رَبُّكَ قَالَ إِنَّكُمْ مَرْكُوتٌ﴾ [الزخرف: ٧٧].

وقال سبحانه: ﴿يُرِيدُونَ أَن يُخْرِجُوكَ مِنَ النَّارِ وَمَا هُمْ بِخَارِجِينَ مِنْهَا﴾ [المائدة: ٣٧]

وقال جل شأنه: ﴿كَذَلِكَ يُرِيدُهُ اللَّهُ أَعْمَلَهُمْ حَسَرَاتٍ عَلَيْهِمْ وَمَا هُمْ بِخَارِجِينَ مِنَ النَّارِ﴾ [البقرة: ١٦٧] هذا هو موقف الحسرة والتندامة في وقت لا ينفع فيه الندم، لقد أمهلهم الله ﷻ، وأعطاهم من العمر ما أعطاهم، وأرسل لهم البشير النذير، ولكنهم أعرضوا وظلوا في غفلة حتى جاء الوعد الحق.

لَا مَطْمَعَ لِلْكَافِرِ فِي الْخَلَاصِ مِنْ عَذَابِ النَّارِ

٢٨- ﴿بَلْ بَدَأَهُمْ مَا كَانُوا يُخْفُونَ مِنْ قَبْلُ وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾

في هذه الآية رد الله عليهم قولهم؛ فبين تعالى أنهم كانوا يظهرون ما لا يبطنون، فكانوا يخفون في أنفسهم أنهم كاذبون، فظهر لهم أنه لا مطمع لهم في الخلاص؛ بسبب ما كانوا يخفونه من إنكار التوحيد وتصديق الرسل.

وأخبر سبحانه أنهم على فرض لو رجعوا إلى الدنيا مرة ثانية؛ لعادوا إلى تكذيبهم، وأنهم لم يقولوا ذلك إلا حينما استقبلتهم النار بلهيها، وظهرت لهم عقوبة أعمالهم القبيحة، وظهر لهم ما كانوا يسرونه في الدنيا من المعاصي، والذنوب، والنفاق، والتكذيب، والعناد ﴿بَلْ بَدَأَهُمْ﴾ ظهر ﴿لَهُمْ مَا كَانُوا يُخْفُونَ مِنْ قَبْلُ﴾ أي: أن الذي كانوا يخفونه في نفوسهم في الدنيا؛ من صدق ما جاءت به الرسل ويظهرون خلافه، ظهر لهم اليوم بارزاً من وجوب الصدق بمحمد ﷺ، وظهر لهم عاقبة الذنوب والموبقات التي ارتكبوها سراً، ظهر كل هذا علانية.

قال تعالى: ﴿وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ﴾ وهذا إخبارٌ من الله تعالى عن أمر غيبي، كيف يكونون يوم لقاء الله ﴿وَلَا تَنَّهُمْ لِكَذِبُون﴾ في قولهم: لو عُدنا إلى الدنيا لم نكذب بآيات ربنا، ونكون من المؤمنين.

ويجوز أن يكون المعنى: بل ظهر لهم بنطق جوارحهم ما كانوا يخفونه، ويكتمونه بألسنتهم؛ من تكذيب الرسول ﷺ، ونحو ذلك، فقد كان الإيمان يخطر ببالهم في الدنيا؛ لما يرون من دلائله، فيصدّهم عنه العناد، والحرص على بقاء الزعامة والسيادة فيهم، كما يصدّهم عنه دخول ضعفاء القوم من العبيد والفقراء الذين أمر الله رسوله أن يصبر نفسه معهم، ولا يطردهم عن مجلسه، فيأنفون من الاعتراف بصاحب الرسالة، ويسبق هؤلاء الضعفاء إلى الإيمان، ويدل على ذلك قوله تعالى: ﴿رُبَّمَا يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ كَانُوا مُسْلِمِينَ﴾ [الحجر].

سَادِسًا: الْمُشْرِكُونَ بِاللَّهِ، الْمَكْذِبُونَ لِرَسُولِهِ، يَنْكِرُونَ الْبَعْثَ وَالنُّشُورَ:

٢٩- ﴿وَقَالُوا إِن هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ﴾

ثم أخبر سبحانه عن هؤلاء الكفار الذين وقفوا على النار وتمنّوا العودة إلى الدنيا، أنهم كانوا في الدنيا يُنكرون البعث والنشور، وأنهم لو رُدُّوا إلى الدنيا؛ لعادوا إلى سبئ الأقوال والأعمال، فما الحياة في نظرهم إلا ما فيها من شهوات ومتاع، وما علموا أن الدنيا مزرعةٌ للآخرة، وأنهم ما خلّقوا إلا للعبادة في الدنيا، والحساب والجزاء في الآخرة.

وأن هذه الحياة الفانية تمتد طولًا في الزمان؛ لتشمل الحياة الباقية ﴿وَلَيْتَ الدَّارَ الْآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوَانُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾ [العنكبوت: ٦٤] أي: أنها الحياة التي لا تنتهي، ولا يعلم مداها إلا رب العالمين.

وهذه الحياة تمتد أيضًا في المكان، فتوصل هذه الأرض التي نعيش فوقها إلى أرضٍ أخرى، لا يعلم مساحتها إلا رب العالمين ﴿وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ﴾ [آل عمران: ١٣٣] وفيها أيضًا نارٌ يُقال لها: ﴿هَلِ امْتَلَأَتْ﴾ فتقول: ﴿هَلْ مِنْ مَّزِيدٍ﴾ [ق: ٣٠].

وهذه الحياة تمتد عمقًا في العوالم؛ فتشمل ما نراه، وما رآه كلُّ جيلٍ فوق هذه

الأرض؛ ليجتمع الجميع، ما غاب وما شُهِد، ومن قُبر ومن لم يُقبر، في تجمعٍ يشمل الوجود الإنساني كله مع بقية العوالم.

وتمتد هذه الحياة في حقيقتها إلى مستوى غير معهود للبشر في مذاقه ونعيمه ﴿كَلَّمَا رُزِقُوا مِنْهَا مِنْ ثَمَرَةٍ رِزْقًا قَالُوا هَذَا الَّذِي رُزِقْنَا مِنْ قَبْلُ وَأُتُوا بِهِ مُتَشَابِهًا﴾ [البقرة: ٢٥].

والنار كذلك متجددة في عذابها وتعذيبها ﴿كَلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُمْ بَدَّلْنَاهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا الْعَذَابَ﴾ [النساء: ٥٦].

والإنسان في الآخرة لا يخرج منه نجاسة ولا فضلات ولا قاذورات، هذه هي الحياة في التصور الإسلامي، أما الدهريون، منكرو البعث، فكما أخبر الله تعالى عنهم: ﴿وَقَالُوا إِن هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا﴾ فلا حياة لنا غيرها ﴿وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ﴾ فهم يجزمون ألا بعث، ولا حساب، ولا جزاء، هذا هو موقفهم في الدنيا، إنكار البعث والنشور والحساب والجزاء، فليس عندهم إلا هذه الحياة، يموتون فيها ويحيون، ولو رُدُّوا إلى الدنيا بعد الموت لقالوه أيضًا، وما تخلَّوْا عن كفرهم ومحاربتهم للأنبياء والمصلحين.

اسْتَجَوَابُ الْمَعَارِضِينَ فِي سَاحَةِ الْعَدْلِ الإِلَهِيَّةِ

٣٠- ﴿وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ يُوقَفُوا عَلَىٰ رَبِّهِمْ قَالَ أَلَيْسَ هَذَا بِالْحَقِّ قَالُوا بَلَىٰ وَرَبِّنَا قَالَ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ﴾

ولما ذَكَرَ سبحانه إنكار الكفار للبعث، أَعَقَبَهُ بوصف حالهم حين يُحشرون إلى الله تعالى يوم البعث الذي أنكروه، وما يُوجَّهُ إليهم من التوبيخ والتقريع؛ بسبب كفرهم.

وتبيِّن هذه الآية مَشْهَدَ منكري البعث، البائس المخزي، حين يُحْبَسُونَ بين يدي الله تعالى؛ لقضائه فيهم يوم القيامة، فيقول سبحانه عَمَّنْ كَذَّبُوا بِلِقَائِهِ، وهم وقوف بين يديه في ساحة العرض والحساب: ﴿وَلَوْ تَرَىٰ﴾ الكافرين ﴿إِذْ يُوقَفُوا عَلَىٰ رَبِّهِمْ﴾ لرأيت أسوأ حالٍ، وأجسم هُولٍ، وهم بين يديه سبحانه، وكانوا قد كَذَّبُوا بِلِقَائِهِ في الدنيا، وهم الآن في عَرَصات القيامة، وقد شَبَّهَ القرآن حالهم في الحضور للحساب بحالٍ مَنْ قُبِضَ عليه؛ فوقف بين يدي ربِّه، أليس هذا الموقف الذي أنتم فيه الآن في عَرَصات القيامة حقًا؟ وكنتم قد كذَّبتُم به في الدنيا!

﴿أَلَيْسَ هَذَا﴾ الذي ترونه من العذاب كائنًا ﴿بِالْحَقِّ﴾ فيأتي جوابهم في جملة واحدة ﴿قَالُوا﴾ في اختصارٍ شديدٍ يُناسب رَهْبَةَ الموقف، وهُوَلِ المصير ﴿يَلَا وَرَبَّنَا﴾ إنه لحقٌّ، اعترافٌ صريحٌ موثَّقٌ بالقَسَمِ بما كانوا يُنكرونه بالأَمْس، ولكنه إيمانٌ لا يَنفَع، لأنهم كانوا في الدنيا يَزعمونه باطلاً، قال تعالى ﴿أَفَسِحْرٌ هَذَا أَمْ أَنْتَ لَا تُبْصِرُونَ﴾ [الطور].

ثم يأتي الأمرُ الإلهيُّ بالقضاء الأخير ﴿قَالَ فَذُوقُوا الْعَذَابَ﴾ تذوقونه متجددًا بقوة إحساس دائم ﴿بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ﴾ وهذا العذاب؛ بسبب كفركم وإنكاركم البعث بعد الموت.

التَقْرِيرُ الْخِتَامِيُّ بَعْدَ إِيدَاعِ الْكُفَّارِ نَارَ جَهَنَّمَ

٣١- ﴿قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ كَذَبُوا بِلِقَاءِ اللَّهِ حَتَّى إِذَا جَاءَتْهُمْ السَّاعَةُ بَغْتَةً قَالُوا يَحْسِرُنَا عَلَى مَا فَرَطْنَا فِيهَا وَهُمْ يَحْمِلُونَ أَوْزَارَهُمْ عَلَى ظُهُورِهِمْ أَلَا سَاءَ مَا يَزُونُ﴾ [٣١]

أي: أن الذين أنكروا البعث، هم الذين خسروا أنفسهم وأهلهم يوم القيامة؛ بسبب تكذيبهم بالمصير المحتوم، حين يُلْقَى العبادُ ربَّهم، ويأتون إليه في ساحة العرض والحساب، بعد أن أمهلوا في الدنيا، وأُذِّروا على ألسنة الرُّسُلِ، وهي خسارة مُحَقَّقةٌ، خسروا فيها دنياهم، فالموت لم يتركهم فيما هم فيه من شهوات.

وهم الذين خسروا آخرتهم أيضًا؛ ففاتهم النعيمُ المقيم، وحُرِّموا الخير كله، وأصبحوا في دَرَكَاتِ الجحيم، وهم أيضًا الذين خسروا الرضى الذي يناله المؤمنون من ربِّهم، وخسروا الغذاء الروحي الذي يَغرس في قلب المؤمن الطمأنينة، والصبر عند البلاء؛ لأن المؤمن يعتقد أن ما عند الله خيرٌ وأبقى، بخلاف الكافر؛ فإن الدنيا هي منتهى آماله.

وهؤلاء الخاسرون يستمرون في تكذيبهم بالحق، وإعراضهم عنه ﴿حَتَّى إِذَا جَاءَتْهُمْ السَّاعَةُ بَغْتَةً﴾ وهم على أسوأ حال، فأظهروا غاية الندم، ﴿قَالُوا يَحْسِرُنَا عَلَى مَا فَرَطْنَا فِيهَا﴾ ولكنه ندمٌ لا يَنفَع، وتحسُّرات وقت، إن وقت الندم قد انتهى، ووقت العمل قد انتهى وقد ظلَّ هؤلاء الذين خسروا كلَّ شيءٍ، مكذِّبين بقاء الله حتى قامت الساعة، وفاجأهم سوء المصير.

وسميت القيامة (ساعة)؛ لأنها تفاجئ الناس بغتة، في ساعةٍ لا يعلمها إلا الله، وهي

عَلَّمَ بِالْعَلْبَةِ عَلَى سَاعَةِ الْبَعْثِ وَالْحِسَابِ، أَوْ سَمِيتْ سَاعَةً؛ لِأَنَّ حِسَابَ الْخَلَائِقِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكُونُ فِي نَحْوِ سَاعَةٍ مِنْ نَهَارٍ.

وَحِينَ تَقُومُ السَّاعَةُ يَوْمَ الْبَعْثِ وَالنَّشُورِ؛ تَقْطَعُ قُلُوبُهُمْ حَسْرَةً وَنَدَامَةً عَلَى مَا ضَيَّعُوهُ فِي حَيَاتِهِمْ الدُّنْيَا مِنَ الْعَمَلِ لِهَذَا الْيَوْمِ، وَتَفْرِيطُهُمْ فِي الْأَعْمَالِ الصَّالِحَةِ، وَعَدَمُ الْإِيمَانِ بِلِقَاءِ اللَّهِ تَعَالَى، مِمَّا اسْتَوْجَبَ عَلَيْهِمْ سَخَطُ اللَّهِ تَعَالَى وَعَقُوبَتُهُ، وَتَزِيدُ حَسْرَتَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ حِينَ يَرُونَ مَنَازِلَهُمُ الَّتِي كَانَتْ مُعَدَّةً لَهُمْ فِي الْجَنَّةِ، وَقَدْ سَكَنَهَا غَيْرُهُمْ، وَتَبَوَّؤُهَا هُمْ مَقَاعِدَهُمْ مِنَ النَّارِ.

ثُمَّ يُصَوِّرُ الْقُرْآنُ الْكَرِيمُ حَالَ هَؤُلَاءِ الْمَكْذِبِينَ بِالْبَعْثِ، وَالْحِسَابِ، وَالْجَزَاءِ فِي مَشْهَدِ الْقِيَامَةِ، وَهُمْ كَالدُّوَابِّ الْمَثْقَلَةِ بِالْأَحْمَالِ، فَذُنُوبُهُمْ وَخَطَايَاهُمْ الَّتِي عَمَلُوهَا فِي الدُّنْيَا تُجَسَّدُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ حِمْلًا ثَقِيلًا يَحْمِلُونَهُ عَلَى ظُهُورِهِمْ ﴿وَهُمْ يَحْمِلُونَ أَوْزَارَهُمْ عَلَى ظُهُورِهِمْ﴾ وَلَا يَقْدِرُونَ عَلَى التَّخْلُصِ مِنْهَا، وَلِذَا فَإِنَّهُمْ يَخْلُدُونَ فِي النَّارِ، وَيَسْتَحِقُّونَ التَّأْيِيدَ فِي غَضَبِ الْجَبَّارِ.

وَالظَّهْرُ: هُوَ الَّذِي يَحْمِلُ الْحِمْلَ، وَهُمْ يَحْمِلُونَ أَيْضًا أَوْزَارَ مَنْ أَضْلَوْهُمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ، وَتَسْبِيحُوا فِي إِضْلَالِهِمْ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿لِيَحْمِلُوا أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَمِنْ أَوْزَارِ الَّذِينَ يُضِلُّونَهُمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ أَلَا سَاءَ مَا يَزُرُونَ﴾ [النحل: ٢٥]. أَلَا مَا أَسْوَأَ الْأَحْمَالِ الثَّقِيلَةِ الَّتِي يَحْمِلُونَهَا.

جَاءَ فِي الْخَبَرِ أَنَّ الْكَافِرَ حِينَ يَخْرُجُ مِنْ قَبْرِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، يُمَثَّلُ لَهُ عَمَلُهُ السَّيِّئُ فِي أَقْبَحِ صُورَةٍ، وَأَبْشَعِ مَنْظَرٍ، وَأَنْتَنٍ رَائِحَةٍ، وَيَقُولُ لَهُ: أَلَا تَعْرِفْنِي؟ فَيَقُولُ: لَا، ثُمَّ يَقُولُ: أَنَا عَمَلُكَ السَّيِّئِ، طَالَمَا رَكِبْتَنِي فِي الدُّنْيَا، وَالْيَوْمَ أَرْكَبُكَ كَمَا رَكِبْتَنِي فِي الدُّنْيَا، فَذَلِكَ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَهُمْ يَحْمِلُونَ أَوْزَارَهُمْ عَلَى ظُهُورِهِمْ﴾.

وَأَمَّا الْمُؤْمِنُ، فَإِنَّ عَمَلَهُ يَلْقَاهُ فِي أَحْسَنِ صُورَةٍ، وَأَجْمَلِ مَنْظَرٍ، وَأَطْيَبِ رَائِحَةٍ، وَيَقُولُ لَهُ: أَلَا تَعْرِفْنِي؟ أَنَا عَمَلُكَ الصَّالِحِ، طَالَمَا رَكِبْتُكَ فِي الدُّنْيَا، وَأَنْتَ الْيَوْمَ تَرْكَبُنِي، ذَلِكُمْ قَوْلُ اللَّهِ سُبْحَانَهُ: ﴿يَوْمَ نَخْشِرُ الْمُتَّقِينَ إِلَى الرَّحْمَنِ وَفْدًا﴾ [٨٥] (١) [مريم].

(١) ينظر الأثر في الطبري (٣٢٨/١) عن ابن حميد عن الحكم بن بشير عن عمرو بن قيس، وهو أَثَرُ مُرْسَلٌ موقوف على عمرو بن قيس الملائي، وانظر ابن أبي حاتم (٧٢٢٦، ٧٢٢٨، ٧٢٢٩).

الْمُؤْمِنُ يَعْمَلُ لِلْآخِرَةِ وَالْكَافِرُ يَعْمَلُ لِلدُّنْيَا

٣٢- ﴿وَمَا الْحَيَوةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَلَلْآخِرَةُ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ (٣٢)

في هذه الآية ردُّ الله سبحانه على منكري البعث في قولهم: ﴿إِنْ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ﴾ مخبراً عن حالهم؛ بأن ما في هذه الدنيا ظلٌّ زائل لا بقاء له، فهي قصيرة العمر، سريعة الزوال، بما فيها من متاع، وملذات، وشهوات، وغرور، وباطل، ولهو، ولعب ينقضي بانقضاء وقته، ولا يَبْقَى له أثرٌ ﴿وَمَا الْحَيَوةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَعِبٌ وَلَهْوٌ﴾ فهي دار فانية، منقضية، تشبه اللعب واللهو إذا انقضى وقته، فعليهم أن يستعدوا للحياة الآخرة، ونعيمها الذي لا يحول ولا يزول.

والمؤمن ينتفع بهذه الحياة الدنيوية؛ فيحصل فيها من العمل الصالح ما يكون سبباً للسعادة الآخروية. أما الكافر فإن حياته كلها وباطلٌ عليه، ثم يحصل له الحسرة والندامة وقت لا ينفع الندم.

﴿وَلَلْآخِرَةُ خَيْرٌ﴾ للذين يخشون الله تعالى؛ فيتقون عذابه بطاعته، واجتناب معاصيه ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ أيها المشركون المغترُّون بزينه الدنيا؛ فتقدمون ما يَبْقَى على ما يَفْنَى؟!.

واللعب: قولٌ أو فعلٌ، ليس له غاية مفيدة، ويكون في سرعة وطيش.

أما اللهو: فهو ما ترتاح له النفس ممَّا يشتغل به الإنسان، ولا يتعب عقله في الاشتغال به، على ما يجد فيه من لذة واستمتاع.

وبَيَّنَّ اللهو واللعب عمومٌ وخصوصٌ، فيجتمعان في الخِفة والطيش، كالطرب واللهو

(١) قرأ ابن عامر (وللآخرة) بلام واحدة هي لام الابتداء، وتخفيف الدال، وخفض الآخرة على الإضافة مع حذف الموصوف؛ أي: ولدان الحياة الآخرة، والباقون (وللآخرة) بلامين؛ لام الابتداء ولام التعريف مع التشديد للإدغام، ورفع تاء الآخرة على أنها صفة للدار، و(خير) خبرها، وكلا القراءتين وفقَّ الرسم العثماني في المصاحف.

(٢) قرأ نافع وابن عامر وحفص وأبو جعفر ويعقوب (أفلا تعقلون) بتاء الخطاب على الالتفات، والباقون (أفلا يعقلون) بياء الغيبة لمناسبة (يتقون).

بالنساء، وينفرد اللعب بلعب الصبيان، وينفرد اللهو بالميسر والصيد.

وفي الآية قَصْرٌ للموصوف على الصفة؛ أي: قَصْرُ الحياة الدنيا على اللهو واللعب.

والمراد بالحياة: الأعمال التي يُحِبُّ الإنسان الدنيا لأجلها، أما الأمراض، والأحزان، والآلام، والملّمات، فلا يُلتَفَتُ إليها، ولا يَعْتَدُّ بها؛ لأنها ليست ممّا يَرغب الناس فيها.

قال تعالى: ﴿اعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهُمْ زِينَةٌ وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ﴾ [الحديد: ٢٠] فالحياة الدنيا لعبٌ ولهوٌ لَمَن اتخذها فرصةً للتفاخر والتكاثر وجَمْع الأموال من حلالٍ أو حرامٍ، ولم يقيموا وزناً للأعمال الصالحة التي كلّفهم الله بها.

أما الذين قالوا ربُّنا الله ثم استقاموا، فإن الدنيا تعتبر وسيلةً إلى رضى الله تعالى، الذي يظفرون به يوم القيامة، ولذلك عَقَّبَ الله تعالى بقوله: ﴿وَلِلْآخِرَةِ خَيْرٌ لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ﴾ لِيُعْلَمَ أن أعمالَ المتقين في الدنيا ضدُّ اللهو واللعب، فأعمالهم قُرِبَاتٌ إلى الله تعالى؛ من صلاةٍ، وصيامٍ، وزكاةٍ، وحجٍّ، ونذرٍ، ودعاءٍ، ولَمَّا كان مصيرُهم إلى الجنة كانت الآخرة خيراً لهم من الدنيا. ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ فندركون أي الدارين أحق بالإثارة؟

هذا: والآية تبيّن حقيقة الدنيا وحقيقة الآخرة:

أما حقيقة الدنيا، فإنها لعب بالأبدان، ولهو في القلوب، والنفوس لها عاشقة.

أما حقيقة الآخرة: فإنها خير في ذاتها وصفاتها، وبقائها ودوامها، وفيها ما تشتهيهِ الأنفس وتلد الأعين من نعيم القلوب والأرواح والأبدان.

فَإِنَّهُمْ لَا يَكْذِبُونَكَ

٣٣- ﴿قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُ لَيَحْزَنُكَ^(١) الَّذِي يَقُولُونَ فَإِنَّهُمْ لَا يَكْذِبُونَكَ^(٢) وَلَكِنَّ الظَّالِمِينَ بَيَّاتٍ اللَّهُ يَجْحَدُونَ﴾

ثم يُطَيِّبُ الله سبحانه خاطرَ نبيِّه ﷺ ممّا يُلاقِيه من تكذيب قومِه له، وهو الصادق

(١) قرأ نافع بضم الياء وكسر الزاي من (ليحزنك) مضارع أحزن، وقرأ الباقون بفتح الياء وضم الزاي مضارع حزن.

(٢) قرأ نافع والكسائي بإسكان الكاف وتخفيف الذال من (يَكْذِبُونَكَ) مضارع أكذب، وقرأ الباقون بفتح الكاف وتشديد الذال مضارع كذب، وهما بمعنى، وقيل: التشديد لَمَن كَذَّبَ الرسول، والتخفيف لَمَن كَذَّبَ ما جاء به.

الأمين كما يقرون ويعترفون، والأخبار الواردة تبينُ الأسباب الحقيقية لهذا التكذيب، فتتناول هذه الآية طائفةً من الكُفَّارِ كانوا يعتقدون صدقَ محمدٍ ﷺ، وما منعهم من الإيمان به إلا تفضيل بني هاشم عليهم بالنبوة:

فقد كان النبي ﷺ يُحيي ليله متهجداً، يُصلي ويقرأ القرآن، وذات ليلة مرَّ به أبو سفيان وأبو جهل والأخنس بن شريق، ولَمَّا سمعوا تلاوةَ النبي ﷺ جلس كلُّ منهم حيث هو في مكان لا يعلمه الآخر، جلسوا يستمعون إلى القرآن طول الليل، حتى أصبح الصبح وانصرفوا، فجمعهم الطريق، وسأل بعضهم بعضاً عن السبب الذي أتى به إلى هنا، وتلاوموا.

ثم جاؤوا في الليلة التالية، وكلُّ منهم لا يعرف مكان الآخر، جاء خفية، ففطرتُه تكذبه؛ لأنه من داخله يصدقُ محمداً ﷺ، ويصدقُ هذا القرآن، وهو يريد أن يستمع إليه، ولكنه يخشى القوم، جاء كلُّ منهم وجلس في مجلسٍ لا يراه الآخر، حتى أصبح النهار، وتفرَّقوا، وجمَعهم الطريق، فَلَا مَ بعضهم بعضاً.

وفي الليلة الثالثة فَعَلُوا مثل ذلك، فتعاهدوا على ألا يأتوا مرة أخرى، ثم تفرَّقوا، فلما أصبح الأخنس حمل عصاه وأتى أبا سفيان، وقال له: يا أبا حنظلة، ما تقول فيما سمعت من محمدٍ؟ قال أبو سفيان: يا أبا ثعلبة، والله لقد سمعتُ أشياء أعرفها، وأعرف ما يُراد بها، وسمعتُ أشياء لا أعرفها، ولا أعرف ما يُراد بها، قال الأخنس: وأنا والذي حلفت به.

فذهب إلى أبي جهل، ودخل عليه بيته، وقال: يا أبا الحكم، ما تقول فيما سمعت من محمدٍ؟ قال أبو جهل: تنازعنا نحن وبنو عبد مناف الشرف، أطعمُوا فأطعمنا، وحَمَلُوا فحملنا، وأعطُوا فأعطينا، حتى إذا تجاثينا على الركب، وكنا كفرسي رهان، قالوا: منَّا نبيٌّ يأتيه الوحي من السماء، فمتى ندرك هذه؟ والله لا نؤمن به أبداً، ولا نصدِّقه؛ فقام عنه الأخنس وتركه^(١).

هذا هو السبب الذي جعلهم يكذبون محمداً ﷺ حيث يقول أبو جهل لرسول الله ﷺ:

(١) أخرجه ابن إسحاق عن محمد بن مسلم بن شهاب الزهري «سيرة ابن هشام» (٣١٥/١) مرسل، وابن إسحاق برقم (٢٣٢).

إنا لا نكذبك، ولكن نكذب ما جئت به^(١).

وعن أبي يزيد المدني أن النبي عليه الصلاة والسلام لقي أبا جهل فصافحه، فرآه رجل، فقال له: أتصافح هذا الصبي (يعني: النبي ﷺ) قال أبو جهل: والله إني لأعلم أنه لَنبيّ، ولكن متى كنا تبعاً لبني عبد مناف^(٢).

وروى ابن جرير أنه اجتمع الأخنس وأبو جهل، فقال الأخنس لأبي جهل: يا أبا الحكم، أخبرني عن محمد أصادق أم كاذب؟ فإنه ليس ها هنا أحدٌ يسمعنا غيري وغيرك، فقال أبو جهل: ويحك، والله إن محمداً لصادقٌ، وما كذب محمدٌ قطُّ، ولكن إذا ذهب بنو قصيٍّ باللواء، والسقاية، والحجابه (يعني خدمة البيت)، والنبوة، فماذا يكون لسائر قريش، والله لا نؤمن به أبداً^(٣).

فهذه الروايات تبين أن المكذّبين برسالة محمد ﷺ يعتقدون في قرارة أنفسهم أنه صادقٌ، وإنما يكذبونه حفاظاً على تراثهم، وإبقاءً لمناصبهم، وعدم تبعيتهم.

والنبي عليه الصلاة والسلام كان يحزن، ويكاد يهلك نفسه؛ لعدم إيمان القوم به وبدعوته، والله سبحانه يُسرّي عنه، ويقول له: ﴿قَدْ نَعْلَمُ﴾ أن الذي يقوله المكذبون فيك يحزنك ويسوؤك، ﴿إِنَّهُمْ لَيَحْزَنُونَكَ الَّذِي يَقُولُونَ﴾ إنا لنعلم إنه ليدخل الحزن إلى قلبك؛ بسبب تكذيبهم لك في الظاهر، ولم نأمرك بما أمرناك به من الصبر، إلا لتحصل لك المنزلة العالية، فلا تظن أن قولهم صادر عن شك في أمرك ﴿فَأَنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ﴾ وهم في قرارة أنفسهم يصدقونك، ويعتقدون أنك نبيّ مرسلٌ، وإنما يكذبونك أمام الناس في الظاهر كبراً وجُحوداً. وكان الحارث بن عمرو بن نوفل بن عبد مناف يُكذّبه في العلانية، ويصدّقه في السرّ،

(١) أخرجه الحاكم عن علي، وقال: صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه (٣١٥/٢) وأقره الذهبي، وأخرجه أيضاً الترمذي (١٠٣/٤) برقم (٣٠٦٤) وانظر الطبري (٢٢١/٩) وابن أبي حاتم (٧٢٣٤).

(٢) مرسل «الدر المنثور» (١٠/٣) و«تفسير القرطبي» (٤١٦/٦) وابن أبي حاتم (٧٢٣٩).

(٣) أخرجه الطبري من طريق أسباط، عن السدي مرسلًا في «التفسير» (٣٣٣/١١) ورواه الترمذي في «السنن» برقم (٤٠٦٤) من طريق معاوية بن هشام عن سفيان الثوري عن أبي إسحاق عن ناجية بن كعب عن علي عليه السلام، ورواه الحاكم في «المستدرک» (٣١٥/٢) وقال: صحيح على شرط الشيخين، وتعبه الذهبي بقوله: ناجية بن كعب لم يخرج له شيئاً.

وإذا خلا مع أهل بيته قال: ما محمد من أهل الكذب، ولا أحسبه إلا صادقاً؛ فأنزل الله الآية^(١)، ويقول: نخاف أن تتخطفنا العرب.

ورأى أبو جهل على رأس النبي ﷺ فخلاً عظيماً من الإبل قد همَّ به، وفي هذا دليل نبوته ﷺ، ولكن أبا جهل كَفَرَ مع ذلك.

وأُسند الطبري أن جبريل عليه السلام وجد النبي ﷺ حزيناً؛ فسأله فقال: «كذبني هؤلاء»، فقال: إنهم لا يكذبونك، بل يعلمون أنك صادق^(٢).

وكُفِّر حيي بن أخطب، وأمثاله، ممَّن عرفوا صفات النبي ﷺ في التوراة والإنجيل فيه مغالطة لأنفسهم، يضاف إلى ذلك الحسد، والحرص على بقاء الرئاسة والزعامة، فيتزايد كفرهم، وعنادهم، مع علمهم بصدقه، فاصبر واطمئن ﴿وَلَكِنَّ الظَّالِمِينَ بَيَّاتِ اللَّهُ يَجْحَدُونَ﴾ أي: أن تكذيبهم لك بسبب جحودهم وإصرارهم على الشرك خوفاً على مكانتهم عند الناس، فهم لظلمهم وعدوانهم يجحدون البراهين الواضحة على صدقك، ويكذبون ما جئت به، كما قال تعالى عن بني إسرائيل: ﴿وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنْفُسُهُمْ ظُلُمًا وَعُلُوًّا﴾ [النمل: ١٤].

والجحود: هو الإنكار مع العلم؛ أي: نفى ما ثبت في القلب، أو إثبات ما نفاه القلب، والجحود لآيات الله جحود لما جاء به رسول الله ﷺ، وإنكار له؛ لأنه من آيات الله تعالى.

قال النضر بن الحارث لما تشاورت قريش في شأن الرسول ﷺ قالوا: يا معشر قريش، قد كان محمدٌ فيكم غلاماً، أرضاكم فيكم، وأصدقكم حديثاً، حتى إذا رأيتم الشيبَ في صُدْغِه؛ قُلتُم: ساحر، وقُلتُم: كاهن، وقُلتُم: شاعر، وقُلتُم: مجنون، والله ما هو بأولئكم.

والظالم: هو الذي يجري على خلاف الحق بدون شبهة، فهو يُنكر الحق مع علمه بأنه حق، وكانوا ظالمين؛ لأن دلائل صدق النبي ﷺ بيَّنته واضحة لا يمتري فيها إلا معاند مكابر.

وقد نهى الله رسوله عن الحزن المفرط على تكذيب قومه له في مواضع كثيرة من كتابه

(١) «زاد المسير» (٢٧/٣) عن مقاتل.

(٢) الطبري (٢٢١/٩).

ﷻ، قال سبحانه: ﴿فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسْرَتٍ﴾ [فاطر: ٨]

وقال: ﴿فَلَعَلَّكَ بَنِيعٌ نَّفْسِكَ أَلَّا يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ﴾ [الشعراء]

وقال: ﴿فَلَعَلَّكَ بَنِيعٌ نَّفْسِكَ عَلَىٰ عَائِثِهِمْ إِنَّ لَكَ يُؤْمِنُوا بِهِذَا الْحَدِيثِ أَسَفًا﴾ [الكهف].

اللَّهُ سُبْحَانَهُ يَسْئَلِي رَسُولَهُ ﷺ، وَيَأْمُرُهُ بِالصَّبْرِ عَلَىٰ أَدَىٰ قَوْمِهِ

٣٤- ﴿وَلَقَدْ كَذَّبْتَ رَسُولٌ مِّن قَبْلِكَ فَصَبْرُوا عَلَىٰ مَا كَذَّبُوا وَأَوْدُوا حَتَّىٰ أَنَّهُمْ نَصْرًا وَلَا مَبْدَلَ لِكَلِمَتِ اللَّهِ وَلَقَدْ جَاءَكَ مِنْ نَّبَائِ^(١) الْمُرْسَلِينَ﴾

وفي هذا عَرَضٌ للأسوة التي ينبغي أن يقتدي بها محمد ﷺ، وهو يرجو أن يأتيه مثل ما أتى رسل الله من النصر والتمكين، إذا اتبع ما أمروا به من الصبر على الدَّعْوَةِ. والآية تشير إلى أن موكب الدَّعْوَةِ إلى الله تعالى عن طريق رسله الكرام مُوْغِلٌ في القدم، ضارب في شعاب الزمن، ماضٍ في طريقه إلى يوم القيامة، ثابتُ الخُطَى، يعترض طريقه المجرمون في كل زمان، ويحاول مقاومته الضالون الغاؤون، يصاب الأنبياء والآمرون بالقسط من الناس على مر الزمان بالأذى، فتسيل الدماء، وتتمزق الأشلاء، والموكب ماضٍ في طريقه، لا ينحني ولا يحد.

فاصبر - أيها الرسول - كما صبر مَنْ سبَقَكَ من الرُّسُل الكرام، فإن سنة الله في الدَّعْوَةِ إليه واحدة، تنتهي بالنصر في الموعد المحتوم، ولا يُتَطَّأُ النصر عن مواعده ما يلقاه أصحاب الدعوات من أذى، ولا يعجله أيضًا رغبة صاحب الدَّعْوَةِ في سرعة هداية قومه، فلا مبدلٌ لأحكام الله وشرائعه، ولا مبدلٌ لسننه في الكون، ولا مكذبٌ لما أخبر به؛ ومنها هلاك المكذبين، ونصر المرسلين:

﴿وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِإِيعَادِنَا الْمُرْسَلِينَ﴾ (٧) ﴿إِنَّهُمْ هُمُ الْمُتَّصِرُونَ﴾ (٨) ﴿وَلَنْ جُنْدًا لَهُمُ الْقَالُونَ﴾ (٩) [الصافات]

﴿كَتَبَ اللَّهُ لَأَعْلَبَنِي أَنَا وَرُسُلِي إِنَّكَ اللَّهُ قَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ [المجادلة]

(١) الهمزة في كلمة (نبأ) مرسومة في خط المصحف على ياء هكذا (نباي) بياء بعد الهمزة لا تنطق في التلاوة، ولهذا الرسم وقف عليها حمزة وهشام بإبدال الهمزة ألفًا، وبتسهيلها مع الرُّوم، وإبدالها ياء خالصة موافقة للرسم مع السكون الخالص والروم، فهذه أربعة أوجه.

﴿إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ ءَامَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ﴾ [غافر]

وأخبار الأنبياء وأممهم قبلك جاءت في هذا القرآن ﴿مِنْهُمْ مَنْ قَصَصْنَا عَلَيْكَ وَمِنْهُمْ مَنْ لَمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ﴾ [غافر: ٧٨]

فلك فيمن تقدّم من الرُّسُلِ أسوة وقدوة، فاصبر كما صبروا، واطفّر كما ظفروا ﴿وَلَقَدْ جَاءَكَ مِنْ نَبَائِ الرُّسُلِينَ﴾ ما يثبت به فؤادك، ويطمئن إليه قلبك.

عن خباب بن الأرت ؓ قال: شكونا إلى رسول الله ﷺ وهو متوسدٌ بردةً له في ظل الكعبة، فقلنا: ألا تستنصر لنا؟ ألا تدعو لنا؟ فقال: «قد كان من قبلكم يؤخذ الرجل، فيُحفر له في الأرض، فيُجعل فيها، فيُجاء بالمنشار فيوضع على رأسه، فيُجعل نصفين، ويمشط بأمشاط الحديد من دون لحمه وعظمه، فما يصده ذلك عن دينه، والله ليتمن الله هذا الأمر حتى يسير الراكب من صنعاء إلى حضرموت، لا يخاف إلا الله والذئب على غنمه، ولكنكم تستعجلون»^(١).

ثم ألزم الله نبيه الحجة؛ فبين أنه لا وجه له إلا الصبر، والمُضي لأمر الله، وعَرَضَ عليه من الأحوال ما يجعله يسلم أنه لا سبيل إلى إيمان قومه إلا بمشيئة الله تعالى وإرادته، وأن ما هم عليه من الضلال يرجع إلى سوء اختيارهم وفساد طويتهم.

شِدَّةُ الْحَرِصِ وَالْآيَاتُ الْحَسِيَّةُ لَا يَأْتِيَانِ بِإِيمَانٍ

٣٥- ﴿وَإِنْ كَانَ كَبُرَ عَلَيْكَ إِعْرَاضُهُمْ فَإِنْ اَسْتَطَعْتَ أَنْ تَبْتَغِيَ نَفَقًا فِي الْأَرْضِ أَوْ سُلَّمًا فِي السَّمَاءِ فَتَأْتِيَهُمْ بِآيَةٍ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى الْهُدَى فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْجَاهِلِينَ﴾ (٣٥)

وإن كان قد شق عليك عدم إيمانهم من حرصك عليهم ومحبتك لإيمانهم، فابذل أقصى ما في وسعك لهدايتهم، فإنك لن تستطيع أن تهدي من لم يرد الله هدايته.

لقد قصَّ الله عليك - أيها الرسول - في هذا القرآن من قصص السابقين من الرُّسُلِ ما فيه الكفاية، ولو أجابهم بمعجزة، كآيات التي نزلت على الأنبياء قبله؛ كناقصة صالح، وعصا موسى، فإنهم لا يؤمنون أيضًا.

(١) «صحيح البخاري» بأرقام (٣٦١٢، ٣٨٥٢، ٦٩٤٣).

جاء الحارث بن عامر إلى النبي ﷺ في نفر من قريش، فقال: يا محمد، اتنا كما كانت الأنبياء تأتي قومها بالآيات، فإن فعلت آمنا بك؛ فنزلت الآية^(١).

والله سبحانه يقول له: ﴿وَإِنْ كَانَ كَبُرَ عَلَيْكَ إِعْرَاضُهُمْ﴾ إن كان شقَّ عليك يا محمد عدم إيمانهم بك، وصددهم وإعراضهم عنك ﴿فَإِنْ اسْتَطَعْتَ أَنْ تَبْلُغَ نَفَقًا فِي الْأَرْضِ أَوْ سُلَّمًا فِي السَّمَاءِ فَتَأْتِيَهُمْ بِآيَةٍ﴾ أي: إن استطعت أن تذهب إلى قرار الأرض عبر نفقٍ أو شقٍّ فيها، فتعبره إلى مكان آخر، أو تتخذ لك مصعدًا تصعد فيه فوق السماء، فتأتيهم بآية من تحت أو من فوق، غير ما جئناك به فافعل، وأتِ بهذا البرهان الواضح على صدق نبوتك، فإن ذلك لا يفيدهم شيئاً، وهذا قطع لطمعه في هدايتهم.

والله سبحانه يعلم رسوله ﷺ، ويبيِّن له في كثير من الآيات أنهم مهما أوتوا من الآيات، فلن يؤمنوا أبداً؛ لأنه قد سبق في علم الله ذلك ﴿إِنَّ الَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ ۖ وَلَوْ جَاءَهُمْ كُلُّ آيَةٍ حَتَّى يَرَوْا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ ۖ﴾ [يونس]

﴿وَمَا مَنَعَنَا أَنْ نُرْسِلَ بِالْآيَاتِ إِلَّا أَنْ كَذَّبَ بِهَا الْأَوَّلُونَ﴾ [الإسراء: ٥٩]

﴿إِنْ نَشَأْ نُنزِلْ عَلَيْهِمْ مِنَ السَّمَاءِ آيَةً فَظَلَّتْ أَعْيُنُهُمْ لَهَا خَاضِعِينَ ۖ﴾ [الشعراء: ٤].

﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَأَمَنَّ فِي الْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعاً أَفَأَنْتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّى يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ ۖ﴾ [يونس]

﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ أَنْ يَخْلُقَهُمْ بَعْقُولٍ قَابِلَةً لِلْحَقِّ لَخَلَقَهُمْ بِهَا، ولكنه تعالى جعل على قلوبهم أكنةً أن يفقهوه، كما قال تعالى: ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً﴾ [هود: ١١٨].

ولا تعارض بين هذه المشيئة المتعلقة بالخلق والتكوين، والمشيئة المتعلقة بالأمر والتشريع، كما في قوله تعالى: ﴿سَيَقُولُ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا﴾ [الأنعام: ١٤٨] فلو شاء الله ﴿لَجَمَعَهُمْ عَلَى الْهَدْيِ﴾ بأمرٍ كونيٍّ من عنده، ولكنه أمرهم بالهدى، وترك لهم حرية الاختيار، وعلم أنهم لن يختاروا الهداية، وسيختارون الضلالة منهجاً وطريقاً.

﴿فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْجَاهِلِينَ﴾ الذين لا يعرفون حقائق الأمور، ولا تكن من الجاهلين بما أعلمك الله إياه، حتى لا يشتد حزنك عليهم، فتصل إلى الجزع الشديد، فالجهل ضد

(١) أبو صالح عن ابن عباس «زاد المسير» (٢/ ٣٢).

العلم، أو ضد الحلم. يا له من توجيه حاسم من رب العالمين إلى النبي الصابر، من أولي العزم من الرسل. قال تعالى:

٣٦- ﴿إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ الَّذِينَ يَسْمَعُونَ وَالْمَوْتَى يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ ثُمَّ إِلَيْهِ يُرْجَعُونَ﴾ (٢)

يقول الله تعالى لنبيه: ﴿إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ﴾ لدعوتك ويلبي رسالتك وينقاد لأمرك ونهيك ﴿الَّذِينَ يَسْمَعُونَ﴾ بقلوبهم ما ينفعهم، فيسمعون سماع قبول واستجابة، وإلا فمجرد السماع يشترك فيه البر والفاجر، وقد أخبر الله رسوله ألا يهتم بأمر من لم يستجيبوا لدعوته، وبين سبحانه أن حرص الرسول ﷺ على هداية الكفار لا ينفع؛ لأنهم لا يسمعون سماع قبول، فهم في عداد الموتى، ذلك أن الناس فريقان:

١- فريق، أجهزة الاستقبال الفطرية عنده حيّة؛ فهو يستجيب لدعوة الهدى بمجرد قيام الحجة، ووضوح الدليل.

٢- وفريق، معطل وسائل الفطرة كأنه ميت، لا يسمع ولا يستقبل؛ فهو لا يستجيب، ولا يتأثر مهما قام الدليل، واتضح البرهان.

وهؤلاء الكفار، شبههم الله تعالى بالموتى فقال: ﴿إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ الَّذِينَ يَسْمَعُونَ﴾ وهم الأحياء المؤمنون الذين يستجيبون لدعوتك، ومن الذين يدركون بحواسهم وعقولهم، ويتفكرون، ويتأملون، ولا يُعطّلون أجهزة الاستقبال فيهم.

أما الموتى، وهم الكفار الذين لا يسمعون سماع تدبّر وقبول، فالله يبعثهم ويحشرهم يوم القيامة، وينبئهم بما عملوا، ويحاسبهم، ويجازيهم، وشبّهوا بالموتى لعدم الانتفاع بما يسمعون كالأموات؛ لأن الحياة الحقيقية لا تكون إلا بالإسلام، أو المراد حقيقة الموت، وأن الله يبعثهم من قبورهم أحياء؛ ليوافوا حسابهم وجزاءهم ﴿وَالْمَوْتَى يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ﴾ يوم القيامة ﴿ثُمَّ إِلَيْهِ يُرْجَعُونَ﴾ فينبئهم بما كانوا يعملون.

لقد صرّف الله أنظار القوم إلى آيات الهداية والإيمان في الكون، وهي كثيرة لو نظروا إليها،

(١) قرأ ابن بصله هاء الضمير من (ثم إليه) مع مداها مداً طبعياً، وقصرها بالقون.

(٢) قرأ يعقوب بفتح الياء وكسر الجيم من (يرجعون) بالبناء للفاعل، وقرأ غيره بضم الياء وفتح الجيم بالبناء للمفعول.

وانتفعوا بها، وجاء التعبير بلفظ ﴿يَسْمَعُونَ﴾ لأن السماع طريق العلم بالنبوة والمعجزات.

فكان المعنى: إنما يستجيب الذين يسمعون فيعون، والكُفَّار سيعثهم الله ويردهم إلى عقابه، وهم المعرضون عن الدَّعْوَةِ، فهم مثل الموتى لا يستجيبون، كما قال تعالى: ﴿إِنَّكَ لَا تَسْمَعُ الْمَوْتَى وَلَا تُسْمِعُ الْأَعْمَىٰ إِذَا وَلَّوْا مُدْبِرِينَ﴾ (٨٩) [النمل]

وفقدُ السمع قد يكون من صمم، أو بسبب الموت؛ ولذا شبههم بالأموات، الذين لا تُرجى منهم استجابة؛ لأنهم موتى القلوب، وهذا من باب التهكم والتحقير من شأنهم.

قال قتادة في معنى الآية: هذا مثل المؤمن، سَمِعَ كتاب الله فانتفع به، وأخذ به وعَقَلَهُ، فهو حيُّ القلب، حيُّ البصر ﴿وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا صُمٌّ وَبُكْمٌ﴾ وهذا مثل الكافر أصم أبكم، لا يُبصر هُدى، ولا ينتفع به^(١).

ثم يحكي القرآن الكريم قول المكذبين لخاتم النبيين واقتراحهم نزول الآيات، فقال تعالى:

٣٧- ﴿وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ قُلْ إِنَّ اللَّهَ قَادِرٌ عَلَىٰ أَنْ يُنْزِلَ آيَةً وَلَٰكِنْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾

وبعد أن وجه الله رسوله إلى عدم جدوى نزول الآيات الحسية لإيمان من كَفَرَ، وبيَّن أنهم في عداد الموتى؛ لعدم استجابتهم لداعي الهدى، بيَّن هنا ما يطلبه المشركون من المعجزات الحسية، كالتي نزلت على الأنبياء السابقين، وأنهم لم يكتفوا بهذا القرآن معجزة قائمة إلى يوم الساعة.

ولم يعتدوا أيضًا بكثرة الآيات الخارقة؛ كانشفاق القمر، وتكثير الطعام بين يديه، وتسبيح الحصى في كفيه، وما إلى ذلك؛ عنادًا وجحودًا منهم، كأنه ﷺ لم ينزل عليه شيء ﴿وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ﴾ أي: هَلَّا أنزل الله علامة تدل على صدق محمد ﷺ من نوع العلامات الخارقة التي نزلت على من قبله من الرُّسُلِ تضطرهم إلى الإيمان به؛ كشق الجبل، وفلق البحر، ونزول الملائكة، والعصا، واليد، كما قال تعالى عنهم: ﴿وَقَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ بِكَ حَتَّىٰ تُفَجِّرَ لَنَا مِنَ الْأَرْضِ يَبُوعًا﴾ (٩١) أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِّنْ نَّخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ الْأَنْهَارَ خِلَالَهَا تَفْجِيرًا (٩٢) أَوْ تُسْقِطَ السَّمَاءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا أَوْ تَأْتِيَ بِاللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ

(١) ابن أبي حاتم (٧٢٥٣، ٧٢٦٣) وابن جرير (٢٣٠/٩).

(٢) قرأ ابن كثير (أن ينزل) بالتخفيف في الزاي وإسكان النون، والباقون بالتشديد في الزاي وفتح النون.

فَبَيِّنَا ﴿٤٢﴾ أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيِّنٌ مِّنْ ذِكْرِي أَوْ تَرْقَىٰ فِي السَّمَاءِ وَلَنْ نُؤْمِنَ لِزُفْرِكَ حَتَّىٰ تُنْزِلَ عَلَيْنَا كِتَابًا نَّقْرُؤُهُ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّيَ هَلْ كُنْتُ إِلَّا بَشَرًا رَسُولًا ﴿٤٣﴾ [الإسراء].

وتلبية ما اقترحوه من هذه الآيات ونحوها أمرٌ هينٌ على ربِّ العالمين، وقد أمر الله رسوله أن يجيبهم بأنه لو شاء لأنزل آية كما اقترحوا، ولكن الله لم يرد ذلك؛ لحكمة يعلمها، ونظير هذه الآية قوله تعالى: ﴿وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِّنْ رَبِّهِ إِنَّ مَا أَنْتَ مُنْذِرٌ وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ ﴿٧﴾﴾ [الرعد]

وقوله: ﴿وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِّنْ رَبِّهِ قُلْ إِنَّمَا الْآيَاتُ عِندَ اللَّهِ وَإِنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٥١﴾ أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ﴾ [العنكبوت].

ولما كان القرآن مشتملاً على العلوم، والمواعظ، والحكم، والأحكام، وأحوال الأنبياء والأمم، مع كونه ﷺ أمياً، قد قضى شبابه بين قومه وهم يعلمون أميته، وقد جعل الله تعالى آيات القرآن الكريم علامة دالة على صدقه ﷺ، ولم يشأ الله تعالى أن يجعل المعجزات الكونية علامة على صدق الدَّعوة؛ لأنها دعوة قائمة إلى يوم القيامة، والمعجزات الحسية تقتصر رؤيتها على جيلٍ دون جيلٍ، بخلاف القرآن الكريم فهو معجزة الأجيال إلى قيام الساعة، وتحقيق المعجزات التي يطلبها القوم أمر هين، غير مُعْجِزٍ لله تعالى.

﴿قُلْ﴾ - أيها الرسول - مجيباً قومك ﴿إِنَّ اللَّهَ قَادِرٌ عَلَىٰ أَنْ يُنْزِلَ آيَةً﴾ كما طلبوا، ولكن هل نزول هذه الخوارق ستجعلهم يؤمنون؟ إن أكثر الناس لجهلهم يطلبون ما هو شر لهم، ومن ذلك الآيات التي لوجاءتهم لم يؤمنوا بها، ولعاجلهم الله بالعقاب، كما هي سنة الله في خلقه.

إنَّ البشر هم البشر، والله سبحانه يقول عَمَّنْ سَبَقُوهُمْ فِي طَلَبِ الْخَوَارِقِ:

﴿وَمَا مَنَعَنَا أَنْ نُرْسِلَ بِالْآيَاتِ إِلَّا أَنْ كَذَّبَ بِهَا الْأَوَّلُونَ﴾ [الإسراء: ٥٩]

﴿وَقُلُوبٌ أَفْئَدَتْهُمْ وَأَبْصَرَهُمْ كَمَا لَوْ يُؤْمِنُوا بِهِ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ [الأنعام: ١١٠].

والأمر الآخر: أن الخوارق المادية ينتهي أثرها بانتهاء الجيل الذي رآها، والإسلام باقٍ إلى يوم القيامة على مدى الأجيال، فلا بد أن تكون معجزته خالدة مصاحبة له مدى صلاحية الرسالة.

ثم إنهم لا يدركون حكمة الله تعالى في عدم تلبية ما يطلبون؛ لأنه لو أُجيب اقتراحهم

ولم يؤمنوا؛ فإن سنة الله في خلقه تقتضي أن يهلكهم كما حدث للأمم قبلهم، ولكن الله تعالى أراد إمهال هذه الأمة؛ لِيُخْرِجَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّةً مُّؤَمِّنَةً، فضلاً عن إيمان مَنْ آمَنَ، ذلكم قول الله تعالى: ﴿وَلَكِنْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ أنه لو نزلت الآيات ولم يؤمنوا؛ لعاجلهم الله بالعذاب.

أنواع المخلوقات

٣٨- ﴿وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّا أُمٌّ أَمْثَالُكُمْ مَا قَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ﴾ (٣٨)

ثم إن الله تعالى يُنبه على آياته الموجودة في أنواع المخلوقات؛ ليوظ في نفوس الكفار دلائل الهدى، وموجبات الإيمان، لو أنهم تدبروها وعقلوها، فها هي بعض الآيات الكونية المنبئة في الأرض والجو، المعروضة على البصائر والأبصار، من كل ما يدب على وجه الأرض، وكل ما يطير في جو السماء -أمم من خلق الله مماثلة لنا، أوجدها الله سبحانه، وتكفل بأرزاقها.

﴿وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّا أُمٌّ أَمْثَالُكُمْ﴾ كل ما يدب على الأرض، من ذكرٍ وأنثى، ممّا فيه حياة؛ من حيوان، وحشرات، وهوام، وزواحف، وغيرها، من الحيوانات الأرضية، وكل ما يطير في الجو بجناحيه؛ من الحيوانات الهوائية من كل كائن يطير، وذكر الجناحين؛ لتوجيه الأنظار إلى بديع صنع الله تعالى، قال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ فَوْقَهُمْ صَفَّاتٍ وَيَقْبِضْنَ مَا يُمَسِّكُهُنَّ إِلَّا الرَّحْمَنُ﴾ [الملك: ١٩] كل نوع من ذلك أمة من الأمم، تستوي مع الإنسان في الخلق والرزق، ونفاذ المشيئة والقدرة، ويلحق بما يطير في الهواء ما يطير في البحر؛ من الأسماك، والحيتان، وغيرهما، وكل خلق الله لا يخرج عن هاتين الحالتين.

وخصّ الأرض دون السماء وما فيها من مخلوقات؛ لأن الاحتجاج بالمُشَاهَدِ أَظْهَرُ من غير المُشَاهَدِ، فكل جنس منها أمة؛ الطير أمة، والدواب أمة، والسباع أمة، والجن أمة، والملائكة أمة، ولكل منها اسم يُعرف به، وكلّها تعرف الله وتوحّده، وتسبح بحمده، وتصلّي له، وكل جنس منها يألف جنسه، ويفهم لغته، وكلها أمم أمثالنا في الخلق، والرزق،

والموت، والبعث بعد الموت للحساب، حتى يقتص الله للجماة من القرناء يوم القيامة.

فليس الإنسان وحده في هذا الكون، حتى تكون حياته مصادفةً، ليس لها هدف ولا غاية، فشأنه شأن هذه الأمم في توحيد الله، وبعثه بعد موته، وحشره للحساب والجزاء. وهذه الأمم أكبر من الخوارق، ومن الآيات التي يطلبونها، فهي لجيل واحد، والآيات القرآنية لكل جيل.

والمقصود من الآية: توجيه العقول والقلوب إلى وجود هذه الخلائق وإحصائها في علم الله؛ ولذا فإن الله تعالى قال: ﴿مَا قَرَأْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ﴾

والكتاب: هو اللوح المحفوظ، وهو أم الكتاب.

والمعنى: أن الله تعالى أثبت فيه كل شيء وأحصاه، وأحاط به علماً، فلم يهمل ولم يُغفل منها شيئاً، صغيرها وكبيرها، بل أثبتها في اللوح المحفوظ تجري عليها الحوادث طبق ما جرى به القلم، وهذا أحد مراتب القضاء والقدر وهي أربع:

١- علم الله تعالى الشامل لجميع الأشياء. ٢- كتابه المحيط بجميع الموجودات.

٣- مشيئته وقدرته النافذة في كل شيء. ٤- خلقه لجميع المخلوقات حتى أفعال العباد.

ثم إن جميع الخلائق محشورة إلى ربها في يوم الفصل والجزاء ﴿ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ﴾ أي: تموتون وتبعثون بعد الموت، وتجمعون في عرصات القيامة، قال تعالى: ﴿وَإِذَا أَلْوُحُشُ حُشِرَتْ﴾ [التكوير: ٥].

وعن أبي هريرة ؓ مرفوعاً: «لتؤذن الحقوق إلى أهلها يوم القيامة، حتى يقاد للشاة الجماة من الشاة القرناء»^(١).

وعنه ؓ قال في معنى الآية: «يحشر الخلق كلهم يوم القيامة: البهائم، والدواب، والطير، وكل شيء، فيبلغ من عدل الله يومئذ أن يأخذ للجماة من القرناء» قال: ثم يقول: «كوني تراباً» قال: «فلذلك يقول الكافر: ﴿يَلْتَنِي كُتٌّ تَرَاباً﴾»^(٢).

(١) «صحيح مسلم» (١٩٩٧/٤) برقم (٢٥٨٢) وابن حبان (٧٣٦٣) والمسند (٧٢٠٤، ٧٩٩٩٦) بإسناد صحيح على شرط مسلم، والترمذي (٢٤٢٠).

(٢) رواه الحاكم (٣١٦/٢) على شرط مسلم ووافقه الذهبي، والطبري (٣٤٧/١١) ويشهد له «صحيح مسلم» عن أبي هريرة في الحديث السابق.

وعن أبي ذر رضي الله عنه: أن رسول الله ﷺ رأى شاتين تتطحان، فقال: «يا أبا ذر، هل تدري فيم تتطحان؟» قال: لا، قال: «لكن الله يدري، وسيقضي بينهما»^(١).

وقال أبو ذر: لقد تركنا رسول الله ﷺ وما يقرب طائر جناحيه في السماء إلا ذكرنا منه علماً^(٢).

الْمُكَذِّبُونَ بآيَاتِ اللَّهِ لَا تُجْدِي فِيهِمْ مَوْعِظَةٌ

٣٩- ﴿وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا صُؤً وَبُكْمٌ فِي الظُّلُمَاتِ مَن يَشَأِ اللَّهُ يُضِلَّهُ وَمَن يَشَأِ^(٣) يَجْعَلْهُ عَلَى

صِرَاطٍ^(٤) مُسْتَقِيمٍ ﴿٣٩﴾

ويُختتم هذا السياق بتأكيد أن المكذبين بآيات الله لا يستجيبون للدعوة، ولا تُجدي فيهم موعظة، لأنهم قد سدوا على أنفسهم باب الهدى وفتحوا باب الردي، فبعد أن ذكر الله من مخلوقاته، وآثار قدرته، ما من شأنه أن يعرف الناس بوحدانية الله، ودلائل صدق الرسول ﷺ، أعقَبَ ذلك ببيان أن المكذبين في ضلال بين بعيد عن طريق الهدى والنور، وعن التأمل والتفكير فيه، فقال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا﴾ أي: كذبوا بحُجَجِ الله، وأدلة توحيده؛ وهي الدلائل الحسية الماثلة في هذا الكون؛ وكذبوا برسول الله كأجناس الأمم المختلفة المشار إليها في الآية السابقة.

وكذبوا أيضاً بآيات الله المُسَجَّلَةِ في هذا القرآن العظيم؛ فلم ينتفعوا بهذا أو ذاك، لأن حواسهم لا تستقبل، وإدراكهم مُعَطَّلٌ فهم ﴿صُؤً وَبُكْمٌ﴾ عن سماع الحق ﴿وَبُكْمٌ﴾ عن النطق به فلا ينطقون إلا بالباطل ﴿فِي الظُّلُمَاتِ﴾ أي: وهم منغمسون في ظلمات الجهل والكفر، والظلم والعناد والمعاصي، ومثلهم في جهلهم، وقلة علمهم،

(١) أخرجه أحمد في «المسند» (١٦٢/٥) و(١٧٣) برقم (٢١٤٣٨) وهو حديث حسن، (محققوه) والطبري (٣٤٨/١١) وفي بعض رواه جهالة، قال الهيثمي في «مجمع الزوائد» (٣٥٢/١٠): رجاله رجال الصحيح، وفيه راوٍ لم يُسمَّ، وأخرجه الطيالسي (٤٨٠) وابن أبي شيبة في مسنديهما.

(٢) «تفسير عبد الرزاق» (٢٠٠/١) و«تفسير الطبري» (٣٤٨/١١).

(٣) قرأ أبو جعفر بإبدال همزة (يشأ يجعله) ألفاً في الوصل والوقف، ويوافقه حمزة عند الوقف، أما همزة (يشأ يضلله) التي قبلها فلا إبدال فيها لأحد حالة الوصل، ويبدلها حمزة وأبو جعفر عند الوقف.

(٤) أبدل قبل ورويس الصاد سيئاً من (صراط) وأشمها صوت الزاي خلف عن حمزة.

وعدم فهمهم، كمثل الأصم والأبكم، ومع ذلك فهو في ظلمات لا يُبصر، فكيف يهتدي مثل هذا إلى الطريق القويم؟

والأصم: هو الذي لا يسمع، والأبكم: هو الذي لا يتكلم، وهم يسمعون، ولكنهم لا يستجيبون، ولا ينتفعون بما يسمعون، وهم يتكلمون، ولكنهم لا ينطقون بالحق، فكأنهم صم لا يسمعون، وبكم لا يتكلمون؛ لأن من لا يقبل سماع الحق وينطق به؛ فهو أصم أبكم، فالكافر كالميت الذي لا يسمع ولا يتكلم، وهو مع هذا حائر وغارق في ظلمات الكفر، والجهل، والضلال، والتردد، كما قال تعالى عن المنافقين: ﴿وَرَكِبُوا فِي ظُلُمَاتٍ لَا يُبْصِرُونَ﴾ [البقرة: ١٧] وقال عن الكفار: ﴿أَوْ كَظُلُمَاتٍ فِي بَحْرٍ لُجِّيٍّ يَغْشَاهُ مَوْجٌ مِنْ فَوْقِهِ مَوْجٌ مِنْ فَوْقِهِ سَحَابٌ طُلُمَاتٌ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ إِذَا أَخْرَجَ يَكَدُوا لَمْ يَكَدْ يَرَوْهَا﴾ [النور: ٤٠].

ومن وراء ذلك كله مشيئة الله تعالى الذي خلق الإنسان مزوداً بالاستعداد للهدى والضلال باختياره وإرادته، وهؤلاء لم يختاروا طريق الاستقامة، واختيارهم للضلال لا يخرج عن علم الله تعالى، ومشيئته المطلقة ﴿مَنْ يَشَأِ اللَّهُ يُضِلَّهُ﴾ أي: يجعله يسير في طريق هواه، وإيثاره العمى على الهدى ﴿وَمَنْ يَشَأِ﴾ له الهداية ﴿يَجْعَلْهُ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ لأنه خاف مقام ربه، ونهى النفس عن الهوى، فالحساب والجزاء يكون على هذا التوجه والاختيار مع وضوح الدلائل والبيّنات.

وإضلال الله للعبد معناه: تقدير الضلال له، وليس أمره بالضلال؛ لأن الله لا يأمر بالفحشاء، بل هو وفق رغبة العبد وميوله.

فِطْرَةُ التَّوْحِيدِ كَامِنَةٌ فِي النَّفْسِ الْبَشَرِيَّةِ

٤٠ - ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ^(١) إِنْ أَتَيْتُمْ عَذَابَ اللَّهِ أَوْ أَتَيْتُمْ السَّاعَةَ أَغَيْرَ اللَّهِ تَدْعُونَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾

قل - أيها الرسول - للمكذّبين بالله ورسوله: أخبروني إن نزل بكم كرب، أو حلت بكم داهية، فمن يدفعها عنكم؟ وهل تدعون آلهتكم وأصنامكم لكشفها عنكم أم تدعون ربكم الذي يجيب المضطر إذا دعاه؟

(١) سهل الهمزة الثانية من (أرأيتكم) نافع وأبو جعفر، ولورش وجه آخر هو إبدالها ألفاً مع إشباع المد، وحذفها الكسائي، وسهلها حمزة عند الوقف، وحققها غيرهم ومثلها الآية [٤٧].

وبعد أن خاطب الله سبحانه المشركين بالبراهين الحسيّة، والآيات الكونية، وبيّن لهم إحاطة عِلْمِ الله تعالى وشموله - يخاطب فطرتهم الإنسانية في هذه الآية حال نزول بأس الله بهم، لِمَن يلجؤون؟ وَمَن يسألونه ومن يدعونه أن يكشف عنهم ما هم فيه من ضُرٍّ؟ كي يتحرك في نفوسهم هذا الإيمان الكامن، وتتعري الحقيقة وتتكشف؛ فيقودهم ذلك إلى إظهار الإيمان، والاستجابة إلى فطرة الله تعالى التي أودعها فيهم، وأخذ عليهم الميثاق وهم في أصلاب آبائهم؛ حتى يعرفوا الله في الرخاء كما عرفوه في الشدة. وهذه الآية تذكر أحوالاً قد تعرض للإنسان؛ فيلجأ فيها إلى الله تعالى، مع استمرارهم في ضلالهم وكُفْرهم، حتى يأتيهم العذاب، أو تقوم الساعة.

والدعاء نوعٌ من أنواع العبادة، يتقرب به العبد إلى الله ﷻ، وإن لم يجد العبد إجابةً فوريةً للدعاء، فإن حكمة العليم القدير تكون قد اقتضت.

أن يؤجل الله له إجابة الدعاء إلى وقتٍ لاحق، أو إلى الدار الآخرة.

أو يرفع الله عنه بهذا الدعاء، من الضرِّ والبأس، ما هو في عِلْمِ الغيب ولا يعلم به. أو يرفع الله له به درجات عنده.

والمؤمن من شأنه إن أنعم الله عليه نعمةً أن يحمد الله سبحانه على هذه النعمة ويشكره، ويكون ذلك خيرًا له.

وإن أصابه ضُرٌّ؛ من مرض، أو فقر، أو بأس، أو هزيمة، ونحو ذلك، فإنه يصبر ويأخذ بالأسباب الدنيوية في تحقيق ما يسعى إليه، ويلجأ إلى الله سبحانه، أولاً وآخرًا، أن يرفع عنه هذا البلاء.

يقول المصطفى ﷺ: «عجبًا لأمر المؤمن، إن أمره كله له خيرٌ، وليس ذلك لأحدٍ إلا للمؤمن، إن أصابته سراء فشكر كان خيرًا له، وإن أصابته ضراء فصبر كان خيرًا له»^(١).

فالمؤمن مأجورٌ على كل حال، هذا نوع من البشر هم المؤمنون.

أما الكافر المشرك إذا وقع في شدّة، فإن فطرة التوحيد الكامنة في نفسه، التي خلقها الله فيه، وغرسها في جميع الخلق، هذه الفطرة تظهر من المشرك الكافر في وقت الشدة والبأس؛ فيلجأ إلى الله وحده، ويدعوه، وينسى شركه الذي يُشركه مع الله جل شأنه، وهذا هو النوع الثاني من البشر.

والقرآن الكريم يبيّن لنا موقف الكُفَّار المشركين حينما يقعون في الشدة والبأس، فهم يلجؤون إلى الله سبحانه، في حالة الشدة والضر، فإذا انكشف عنهم هذا البلاء نسوا ربهم، ورجعوا إلى شركهم وكفروهم.

(١) من حديث صهيب في «صحيح مسلم» برقم (٢٩٩٩).

﴿وَإِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فِي الْبَحْرِ ضَلَّ مَنْ تَدْعُونَ إِلَّا إِلَهُهُ فَلَمَّا بَلَغَكُمُ الْبَحْرَ أَعْرَضْتُمْ وَكَانَ الْإِسْنُ كَفُورًا﴾ [الإسراء: ٦٧].

وهناك نوع ثالث من البشر، يغفلون عن ربِّ العزة ﷻ في جميع أحوالهم والعياذ بالله، فترى العبد وهو في حالة الشدة والرخاء، وفي حالة السراء والضراء، إن وقع في شدة، أو مكروه أو ضرر، فهو يَغْفُلُ عن ربِّه في كلِّ حالٍ؛ والسبب الغفلة، واستحواذ الشيطان عليه، وهو إن أصابه خيرٌ ونعمةٌ لا يشكر الله سبحانه بقلبه ولسانه، وأفعاله، وربما ظن أنه أهلٌ لهذه النعمة، جدير بها، مستحق لها دون غيره، أو أنه أوتيتها عن عِلْمٍ وخبرة وحنكة.

﴿قُلْ أَرَأَيْتَكُمْ﴾ أخبروني ﴿إِنْ أَنْتُمْ عَذَابُ اللَّهِ﴾ أي: إن نزل بكم في الدنيا قبل الموت لونٌ من ألوان العذاب، كأن يهيج البحر بالسفينة، أو تعصف بهم الرياح، أو تجرف السيول منازلهم، كما نزل بالأمم السابقة من الغرق، أو الصق، أو الخسف، أو المسخ، أو الريح العاتية، أو الزلازل المدمرة والبراكين، وغير ذلك ﴿أَوْ أَنْتُمْ السَّاعَةُ﴾ التي تُبعثون فيها؛ وهي يوم القيامة، تأتيكم بغتة وفيها العذاب.

﴿أَعْيَرَ اللَّهُ تَدْعُونَ﴾ هل هناك أحد غير الله سبحانه تلجؤون إليه في هذا الوقت كي يكشف عنكم هذا الضر؟ ﴿إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ مُحَقِّقِينَ في زعمكم أن آلهتكم التي تعبدونها من دون الله تنفع أو تضر، وفي هذا دعوة لهم إلى النظر في أن الله تعالى إذا أراد شيئاً يَخْلُقْهُ لا يدفعه عنهم غير الله سبحانه، ثم قرر سبحانه أن الله تعالى هو الذي يدعونه فيكشف ما بهم من ضر، قال تعالى:

٤١- ﴿بَلْ إِلَهُهُ تَدْعُونَ فَيَكْشِفُ مَا تَدْعُونَ إِلَيْهِ إِنْ شَاءَ وَتَنْسَوْنَ مَا تُشْرِكُونَ﴾ (٤١)

قال سبحانه مؤكداً أنهم عند الشدائد والكربات لا يلجؤون إلا إلى الله تعالى:

أي: أنكم تدعون الله وحده حتى يكشف عنكم الضر بمشيئته، فلا تلجؤون في حالة الضرورة إلا إلى الله وحده، وتنسون شرككم الذي طرأ عليكم؛ بسبب التقليد الأعمى،

أو بسبب اتباع الآباء والأجداد.

ولا تدعون إلا ربكم الذي خلقكم لا غير، وتستغيثون به؛ فيفرج عنكم البلاء الذي نزل بكم إن شاء؛ لأنه القادر على كل شيء، وتتركون حيثئذ أصنامكم، وأوثانكم، وأولياءكم، كما قال تعالى: ﴿وَإِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فِي الْبَحْرِ ضَلَّ مَنْ تَدْعُونَ إِلَّا إِلَٰهًا﴾ [الإسراء: ٦٧] وقيد سبحانه إجابة الدعاء بالمشيئة؛ رعاية للمصلحة، وإن كانت الأمور كلها بمشيئة الله تعالى.

قَسْوَةُ الْقُلُوبِ تُبْعِدُ الْعِبَادَ عَنْ رَبِّهِمْ

٤٢- ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَىٰ أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ فَآخَذْنَاهُمْ بِالْبَأْسَاءِ^(١) وَالضَّرَّاءِ لَعَلَّهُمْ يَضُرَّعُونَ﴾

وتمضي الآيات بعد بيان أن المشرك يلجأ إلى الله وحده إذا وقع في شدة، ولا يدعو من يشركه مع الله في هذه الحال، وهو ينسى ربه في حال الرخاء، فيذكر الله سبحانه مثلاً من الواقع التاريخي للبشرية حين ينزل بهم بأسُ الله تعالى لما كذبوا رسله، ولم يستجيبوا لهم، ولما لم يتعرفوا على الله تعالى، ولم يتضرعوا إليه.

وهكذا يضرب القرآن الكريم المثل بالأمم السابقة، التي ابتلاها الله سبحانه بألوان من البأساء والضراء، والشدة والرخاء؛ بسبب أن الله تعالى أرسل إليهم رُسلاً، فدعاهم إلى الإيمان والتوحيد والعبادة، ولكنهم كفروا بهؤلاء الرُّسل، ولم يتعرفوا على الله في الشدة؛ وحيثئذ استدرجهم الله تعالى استدراجاً، وعاقبهم على سوء فعلهم.

(١) أبدل همزة (بالبأساء) الأولى ألفاً أبو جعفر وأبو عمرو بخلف عنه، وعند الوقف حمزة، وحققتها الآخرون وصلاً ووقفاً.

وكلُّ نعمة لا تُقرب العبدَ من ربِّه فهي بليَّةٌ، وهذا الخير والنعيم ابتلاءٌ من الله سبحانه، حيث يتلي الله العبدَ بالغنى، كما يتليه بالفقر، ويتليه بالصحة، كما يتليه بالمرض، هذا ابتلاءٌ وهذا ابتلاءٌ، والمطلوب من العبد أن يشكر الله سبحانه في الرخاء، وأن يدعوهُ ويلجأ إليه في الشدة، ويصبر على ما أصابه في حالة البأساء والضراء.

إذا فُتِحَ عليه أبوابُ الخيرات والأرزاق من حيث لا يحتسب، ومن غير كَدٍّ يُذكرُ، ولا تعب، ولا كبير نصَبٍ؛ فإنه لا يغتر، ولا يتكبر على خَلْقِ الله، ويرفع عليهم، ويظن أن المال خيرٌ من العلم؛ فيفتخر على الناس، ويشمت فيهم، ويقول: انظروا إلى فلان، وانظروا إلى فلان، ولا يشكر الله عليه، وعندئذٍ يأتي عذابُ الله تعالى وانتقامه لهذا النوع من الناس المتكرر على مرِّ العصور.

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَىٰ أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ﴾ من القرون السابقة، يدعونهم إلى الإيمان؛ فكفروا بهم، وكذبوهم، وجحدوا بآياتنا، ﴿فَأَخَذْنَاهُم بِالْبَأْسَاءِ وَالضَّرَاءِ﴾ ابتليناهم بشدة الفقر، وضيق العيش، وابتليناهم بالأمراض والآلام والمصائب والآفات. وَأَخَذُوا أَمَمًا بِالْعِقَابِ فِيهِ حَكْمَتَانِ: إحداهما: زجرهم عن التكذيب.

وثانيهما: إكرام الرُّسُلِ بالتأييد بمرأى من المكذبين.

وفي ذلك إشارة للنبي ﷺ بأن الله ناصره على مَنْ كَذَّبَهُ، وقد فعل الله بهم ذلك ﴿لَعَلَّهُمْ يَفْزَعُونَ﴾ إلى ربهم، ويتذللون له، ويخضعون لجَنَابِهِ، ولكن شيئاً من ذلك لم يحدث، وإصابة الأقوام بالجوع والمرض ونحوهما، مقدمة للعذاب الأكبر؛ أي: قبل أن يستأصل

الله شأفتهم، كما قال تعالى: ﴿وَلَنُذِيقَهُمْ مِنَ الْعَذَابِ الْأَدْنَىٰ دُونَ الْعَذَابِ الْأَكْبَرِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ [السجدة].

وفي القرآن أمثلة كثيرة على ذلك كما حصل لقوم فرعون ﴿وَلَقَدْ أَخَذْنَا آلَ فِرْعَوْنَ بِالسِّينِ وَنَقَّصْنَا مِنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَذْكُرُونَ﴾ [الأعراف] لعلهم يرجعون إلى الله ﷻ؛ فيرفع عنهم البلاء، ويفتح عليهم أبواب الخير، ولكن قست قلوبهم، وزين لهم الشيطان أعمالهم، والقلب الذي لا ترذه الشدة إلى الله تعالى قلبٌ تحجر؛ فلم يعد يشعر بوخز الضمير، وهنا يأتي العقاب الإلهي كما قال تعالى: ﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الطُّوفَانَ وَالْجَرَادَ وَالْقُمَّلَ وَالضَّفَادِعَ وَالْدَّمَ﴾ [الأعراف: ١٣٣]. قال تعالى:

٤٣- ﴿فَلَوْلَا إِذْ جَاءَهُمْ بَأْسُنَا تَضَرَّعُوا وَلَكِنْ قَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾

ثم عاتبهم الله سبحانه على ترك الدعاء وترك التضرع إليه، وأخبر أنهم لم يفعلوا ذلك، والله سبحانه يقول: هَلَّا حين أصابهم الضر والشدة رجعوا إلى الله سبحانه، ولجؤوا إليه أن يكشف ما بهم من ضر وشدة، ويتوبوا إلى خالقهم، ولكن بدلاً من ذلك ظهر منهم نقيض ذلك ﴿وَلَكِنْ قَسَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ تحجرت؛ فلم تتضرع، ولم تخشع، بل أقاموا على كفرهم وتكذيبهم.

﴿وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ أغواهم الشيطان، وحسن لهم أعمالهم السيئة، فظنوا أن ما هم عليه دين الحق، فتمتعوا في باطلهم بعض الوقت، ولعب الشيطان بعقولهم، حيث وجد من طباعهم عوناً له على نفث مراده فيهم؛ فأغراهم وزين لهم تلك المساواة، وقد بين الله سبحانه أن أمرين حالاً بينهم وبين التوبة والتضرع إلى الله تعالى وهما:

١- قسوة القلوب التي صارت كالحجارة أو أشد قسوة.

٢- وتزيين الشيطان لهم أعمالهم السيئة؛ فأوقعهم في الشرك، والكفر، والمعاصي؛ فأصروا على ما هم عليه من الشرك والمعاصي.

كَثْرَةُ النِّعَمِ قَدْ تَكُونُ سَبَبًا فِي الْهَلَاكِ

٤٤- ﴿فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا^(١) عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّى إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا

أَخَذْنَاهُمْ بِغَنَّةٍ فَإِذَا هُمْ مُمِيسُونَ ﴿٤٤﴾

عن عتبة بن عامر رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «إذا رأيت الله يعطي العبد من الدنيا على معاصيه ما يحب؛ فإنما هو استدراج» ثم تلا الآية (فلما نسوا)^(٢).
ثم بين ﷺ أنه قد ابتلاهم بالنعم بعد أن عالجهم بالشدائد فلم يرتدعوا، وشأن المؤمن أن يصبر على البلاء فيحتسب ولا يجزع، ويشكر الله على نعمه، ويحمده عليها، وهو محظوظ في كلا الحالتين.

وبعد الوعظ والتذكير، وإعطاء الأمم المكذبة الفرصة بعد الفرصة، يستدرجهم الله تعالى؛ فيغدق عليهم نعمه، ويفتح لهم أبواب الخير، ومع ذلك لم يشكروا الله تعالى، ولم يحذروا فتنه؛ لأن فطرتهم قد فسدت، ولا يُرجى صلاحها، وحينئذ ينزل بهم عقاب الله تعالى فيستأصل شأفتهم؛ لأن حياتهم لم تعد تصلح للبقاء.

أما الأمم التي كذبت رسلها فإنهم لما تركوا العمل بأوامر الله، وأعرضوا عنها؛ استدرجهم الله تعالى بعد أن ابتلاهم؛ فأعطاهم من النعم، والمتاع والسلطان، ما تدفق عليهم كالسيول، بلا حواجز ولا قيود، فأبدلهم الله بالبأساء رخاء في العيش، وبالضراء صحة في الجسم؛ استدراجاً منه سبحانه، حتى إذا بطروا، وأعجبوا بما أعطاهم الله؛ أخذهم بالعذاب فجأة، فإذا هم آيسون من كل خير، كقوله تعالى: ﴿يَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُم بِهِ مِنْ مَالٍ وَبَنِينَ ﴿٥٥﴾ ضَارِعٌ لَهُمْ فِي الْخَيْرَاتِ بَلْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٥٦﴾﴾ [المؤمنون].

قال تعالى: ﴿فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ﴾ من عظيم عقابه، بما قدم إليهم من البأساء والضراء؛ أي: فلما لم يتعظوا بما ذكروا به من اتباع أوامر الله تعالى، وترك نواهيه؛ فتحننا عليهم الخيرات والأرزاق، تتدفق عليهم من كل طريق، من غير كد ولا تعب، ومن حيث لا يتوقعون، استدراجاً لهم، وهذا معنى ﴿فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ﴾ أي من الدنيا وشهواتها ولذاتها.

وذلك أنهم لما أعرضوا عن الاتعاظ بما ذكّرهم الله به؛ رفع عنهم العذاب، وفتح عليهم أبواب الخير؛ فازدادوا كفرًا وطغيانًا، وكانوا أهلاً لنزول العذاب بهم، كما قال تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِنْ نَبِيٍّ إِلَّا أَخَذْنَا أَهْلَهَا بِالْبَاسَاءِ وَالضَّرَاءِ لَعَلَّهُمْ يَضُرَّعُونَ ﴿٤٤﴾ ثُمَّ بَدَّلْنَا مَكَانَ السَّيِّئَةِ الْحَسَنَةَ حَتَّى عَفَوْا وَقَالُوا قَدْ مَسَّ آبَاءَنَا الضَّرَّاءُ وَالسَّرَّاءُ فَأَخَذْنَاهُمْ بَغْنَةً وَهُمْ لَا

يَشْعُرُونَ ﴿٥٥﴾﴾ [الأعراف].

(١) قرأ ابن عامر وابن وردان وابن جمار ورويس بخلف عنهما بتشديد تاء (فتحننا) للتكثير، وقرأ الباقون بالتخفيف، وهو الوجه الثاني لابن جمار ورويس، وهما لغتان.

(٢) حديث حسن بمجموع طرقه، أخرجه الطبراني (٣٣١/١٣) برقم (٩١٣، ٩١٤) وفي الأوسط (٦٨، ٩٢) والطبري (٣٦١/١١) وقد حسنه العراقي في تخريج الإحياء (١٣٢/٤) والمناوي في «التفسير» (٩٩/١) وهو في «المسند» (١٧٣١١) وابن أبي حاتم (٧٢٨٨) والبيهقي في «الشعب» (٤٥٤٠) وابن أبي الدنيا في كتاب «الشكر» (٣٢) وفيه ابن لهيعة، قال محققو «المسند»: حديث حسن، فيه رشدين بن سعد وباقي رجاله ثقات، ينظر «المسند» (٦١٦).

وقد أناط الله نزول الخيرات بالإيمان والتقوى، كما قال تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَىٰ ءَامَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَلَٰكِن كَذَّبُوا فَأَخَذْنَاهُم بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ [الأعراف] وهكذا الشأن في جميع الأمم، فقد قال تعالى عن اليهود والنصارى: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا التَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْهِم مِّن رَّبِّهِمْ لَأَكَلُوا مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ﴾ [المائدة: ٦٦].

أما الفرح المذموم المصحوب بالبَطَر والاستعلاء فهو سبب لنزول العقاب ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ﴾ [القصص: ٧٦] وهذا بخلاف الفرح المحمود الذي لا يصحبه الأشر والطغيان والتعالي، فهو أمرٌ مطلوبٌ، كما قال تعالى:

﴿قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا﴾ [يونس: ٥٨].

قال تعالى: ﴿حَتَّىٰ إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا﴾ فرح بطر وأشر وتجبر وتعالٍ واحتقار لغيرهم ﴿أَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً﴾ أي: أهلكتناهم فجأة على غرة من غير ترقب ﴿فَإِذَا هُمْ مُبْسُونَ﴾ قد انقطع رجاؤهم، فهم آيسون من النجاة، ومن الخلاص، ومن كل خير. قال تعالى:

٤٥ - ﴿فَقُطِعَ دَائِرُ الْقَوْمِ الَّذِينَ ظَلَمُوا وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾

أي: فكانت النتيجة أن استأصل الله هؤلاء القوم وأهلكهم؛ جزاء كفرهم بالله وتكذيب رُسُلِهِ، ولم يُبقِ منهم أحدٌ، فاستأصل شأفتهم، ومحا آثارهم، ولم يتخلف منهم أحدٌ، بل أهلكهم الله من أولهم إلى آخرهم.

والشكر والثناء لله تعالى على نصره أوليائه، وهلاك أعدائه، فمن رحمة الله بعباده، ومن نعمه عليهم تطهير الأرض من الظالمين؛ فاستحق سبحانه الحمد والثناء على ذلك، فقد أخذ الله قومَ نوحٍ، وقوم هود، وقوم صالح، وقوم لوط، كما أخذ الفراعنة والإغريق والرومان وغيرهم، مع ما كان لهذه الأمم من حضارات عريقة، وتمكين في الأرض، ورخاء ومتاع، وسلطان وجاه، وذلك وَفْق سُنَّةِ اللَّهِ تعالى في خَلْقِهِ حين يستدرج الأمم المتمردة على رسل الله تعالى.

وإذا كان الله سبحانه قد رَفَعَ عذاب الاستئصال عن هذه الأمة، بعد بعثة النَّبِيِّ ﷺ، فهناك ألوانٌ من العذاب الدنيوي للأمم المترفة الخارجة على حدود الله وشرْعه، يتمثل في صور كثيرة قائمة في هذه الشعوب؛ من العذاب النفسي، والشقاء الروحي، والشذوذ

الجنسي، والانحلال الخلقي، وحياة النكد، والقلق، والشقاء التي تُغطي على الإنتاج، والرخاء، والمتاع، وهذا تنبيه من الله سبحانه على سُنته في تدمير الباطل.

قال تعالى: ﴿أَفَأَمِنَ أَهْلُ الْقُرَىٰ أَنْ يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنَا بَيِّنًا وَهُمْ يَقِيمُونَ ﴿٩٧﴾ أَوْ أَمِنَ أَهْلُ الْقُرَىٰ أَنْ يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنَا ضُحًى وَهُمْ يَلْعَبُونَ ﴿٩٨﴾ أَفَأَمِنُوا مَكْرَ اللَّهِ فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ ﴿٩٩﴾﴾ [الأعراف].

وقد ختم الله هذه الآية بقوله: ﴿وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ تلقيناً من الله تعالى لرسوله ﷺ وللمؤمنين؛ كي يحمداوا الله تعالى على هلاك الظالمين المشركين، وعلى نصر المؤمنين الموحدين، وهذه نعمة من الله تعالى يستحق الحمد عليها، فيكون الله تعالى قد أثنى على نفسه، وعلمنا كيف نحمده، ونثني عليه، وفي هذا تعجب من إمهال الله لهم، واستدراجه إيّاهم إلى أَنْ حَقَّ عليهم العذاب.

فالحمد لله على ما قضاه وقدره من هلاك المكذبين، وفي هذا إكرام لأولياء الله، وإهانة لأعدائه، وتصديق لما جاءت به رسل الله.

صُورَةٌ مِنْ بَأْسِ اللَّهِ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ

٤٦- ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَخَذَ اللَّهُ سَمْعَكُمْ وَأَبْصَرَكُمْ وَخَمَّ عَلَىٰ قُلُوبِكُمْ مِّنْ إِلَهِ غَيْرِ اللَّهِ يَأْتِيَكُمْ بِهِ^(١) أَنْظَرُ كَيْفَ تُصَرِّفُ الْآيَاتِ ثُمَّ هُمْ يَصْدِفُونَ^(٢)﴾ ﴿٤٦﴾

ثم يذكر القرآن الكريم صورة من صور بأس الله تعالى التي إن أصابت أحداً من خلقه؛ فإنه يقف عاجزاً أمامها تماماً، لا يستطيع لها ردّاً ولا إصلاحاً، فماذا لو سَلَبَ الله من الإنسان سمعه فأصبح لا يسمع، أو أخذ بصره فأعماه، أو غطى على قلبه فأصبح لا يعرف شيئاً؟ ماذا لو تعطلت هذه الأعضاء فاختلف نظام الإنسان، وأصبحت أعضاؤه لا تؤدي وظائفها، ولا ينتفع بها؟ فأَيُّ إِلَهٍ غير الله يَقْدِرُ على ردّها إليكم؟

﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَخَذَ اللَّهُ سَمْعَكُمْ وَأَبْصَرَكُمْ وَخَمَّ عَلَىٰ قُلُوبِكُمْ﴾ فأصبحتم بلا سمع ولا بصر ولا

(١) قرأ الأصهباني بضم الهاء من (به انظر) تبعاً لضم ثالث الفعل، والباقون بكسرها.

(٢) قرأ حمزة والكسائي وخلف العاشر ورويس بخلف عنه بإشمام الصاد صوت الزاي من (يصدفون) والباقون بالصاد الخالصة.

عقل، والقلوب يراد بها العقول في كلام العرب؛ لأن القلب يمد العقل بقوة الإدراك، وهذه الثلاثة هي أشرف أعضاء الإنسان وأهمها، وعليها تتوقف مصالحه الدينية والدنيوية، فماذا لو سلبها الله منكم كما أعطاكم إياها؟ فهلاً شكرتم الله تعالى على نعمه.

﴿قُلْ هُوَ الَّذِي أَنْشَأَكُمْ وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَرَ وَالْأَفْئِدَةَ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ﴾ [الملك].

وهلاً استعملتم هذه الجوارح فيما خلقت لأجله؟ فإذا كان الله تعالى هو المتفرد بخلق هذه الحواس، فإنه سبحانه هو المتفرد بالوحدانية والألوهية، وهو المستحق للعبادة دون سواه وهذا من أدلة التوحيد وبطلان الشرك.

قال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا لَهُمْ سَمْعًا وَأَبْصَرَ وَأَفْئِدَةً فَمَا أَغْنَى عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَلَا أَبْصَرُهُمْ وَلَا أَفْئِدَتُهُمْ مِنْ شَيْءٍ إِذْ كَانُوا يَجْحَدُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾ [الأحقاف: ٢٦] وهل هناك أحد غير الله، يردُّ عليكم أسماعكم وأبصاركم إذا سلبكم إياها؟ ﴿مَنْ إِلَّا اللَّهُ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُمْ بِهِ﴾ لا أحد يستطيع ردّها إلا خالقها، وماذا لو أن الله تعالى منعكم الانتفاع بها، فختم على سمع الإنسان وقلبه وجعل على بصره غشاوة؟ ﴿أَنْظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ الْآيَاتِ﴾ تأمل - أيها الرسول - كيف ننوع الحجج، ونعدد البراهين الناطقة بوحدانيتنا، وصدق الرُّسل، وتعجّب من أحوالهم كيف يعرضون عن آيات الله ولا يعملوا بها.

فتصريفُ الآيات: اختلافُ أنواعها؛ مرة ببعض المُشاهدات في السموات والأرض، ومرة بدلائل التوحيد في الأنفس، ومرة بأحوال الأمم، وهكذا، والمراد بالآيات في هذه الآية أدلة التوحيد الكونية.

﴿ثُمَّ هُمْ يَصْذِقُونَ﴾ أي: أنهم مع ذلك كله يعدلون عنها إلى غيرها، ويعرضون عن التذكير والاعتبار بها، ومعنى ﴿يَصْذِقُونَ﴾ يعرضون إعراضاً شديداً، كما قال تعالى: ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَذَبَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَصَدَفَ عَنْهَا﴾ [الأنعام: ١٥٧]. وهذه صورة أخرى:

٤٧- ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَنْتُمْ عَذَابُ اللَّهِ بَقْتَةً أَوْ جَهَنَّةً هَلْ يَهْلِكُ إِلَّا الْقَوْمُ الظَّالِمُونَ﴾ [٤٧]

ثم يذكر الله تعالى للمشرّكين به، المكذّبين برسله، صورةً أخرى من صور نزول بأس الله بهم مع عدم قدرتهم على دفع هذا البأس، أو رده عنهم، وذلك إذا وقع العذاب بهم فجأة، ليلاً أو نهاراً، فأهلكهم، فماذا يملكون لدفعه عن أنفسهم؟ وقد ذكّر القرآن الكريم صوراً كثيرة من مصارع الظالمين، وبيّن آثارها، وحدّد معالمها، وهؤلاء المكذّبون لخاتم

الرُّسُلَ ﷺ ليسوا بأعز على الله منهم!

أخبروني أيها القوم، ماذا لو أن عقاب الله حلَّ بكم فجأة، دون مقدمات، ولا ظهور علامات لنزوله، أو حلَّ بكم علانية تروُّه بأعينكم في ساعة من ليلٍ أو نهارٍ، فماذا أنتم فاعلون؟ ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَنْتُمْ عَذَابُ اللَّهِ بَغْتَةً﴾ من غير ترقبٍ، على غِرَّةٍ وأنتم لا تشعرون به ليلاً ﴿أَوْ﴾ أناكم ﴿جَهْرَةً﴾ أي: علانية، وأنتم تنظرونه نهاراً.

﴿هَلْ يَهْلِكُ إِلَّا الْقَوْمُ الظَّالِمُونَ﴾؟ وهم الذين كانوا سبباً لنزول العذاب بهم، لأنهم ظلمة معاندون، والمراد بالقوم الظالمين المخاطبون أنفسهم، والظلم هو الشرك في الآية؛ أي: سواء نزل بكم العذاب بغتة أو جهرة، وأنتم نائمون، أو وأنتم مستيقظون، فإن الهلاك لن يحل إلا بالقوم الظالمين، الذين تجاوزوا حدودَ الله؛ فصرفوا العبادة لعباده، وكذبوا رسله، وفي الآية تهديدٌ ووعدٌ لهم، فاحذروا أن تقيموا على الظلم فإنه الهلاك الأبدي والشقاء السرمدي.

والعذاب الذي يأتي بغتة هو الذي لا تسبقه علامة، والذي يأتي جهرة هو الذي تسبقه علامة، كما قال تعالى: ﴿فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضًا مُسْتَقْبِلَ أَوْدِيَّتِهِمْ قَالُوا هَذَا عَارِضٌ مُّطَرًا﴾ [الأحقاف: ٢٤] وقال: ﴿فَعَقَرُوهَا فَقَالَ تَمَتَّعُوا فِي دَارِكُمْ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ﴾ [هود: ٦٥].

أما المؤمنون الذين وَحَّدُوا الله سبحانه، وصدَّقوا رسله؛ فإنهم بمنجى من العذاب، كما قال تعالى: ﴿وَنَجِّنَا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ﴾ [فصلت] ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون ﴿الَّذِينَ ءَامَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولَٰئِكَ لَهُمُ الْآمَنُ وَهُمْ مُّهْتَدُونَ﴾ [الأنعام].

وَضِيفَةُ الرُّسُلِ

٤٨ - ﴿وَمَا تُرْسِلُ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ فَمَنْ ءَامَنَ وَأَصْلَحَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾

وتُختَم هذه المشاهد ببيان وظيفة الرُّسُل الذين يطالبهم المكذبون بخوارق العادات، فيذكر الله سبحانه أن الرُّسُل ليس في إمكانهم تلبية هذه الاقتراحات؛ لأنها من عند الله، ومهمتهم هي تبشير مَنْ أطاع الله بالنعيم المقيم يوم لقائه، وإنذار مَنْ عصى الله تعالى،

(١) قرأ يعقوب بفتح الفاء وعدم التنوين من لفظ (خوف) والباقون بالرفع مع التنوين.

وأقام على كفره بالعذاب الأليم ﴿وَمَا رُسُلُ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ﴾ هذه هي مهمتهم، وهذه هي وظيفتهم، فإرسال الرُّسُلِ للتبشير والإنذار، وليس من وظائفهم تلبية المقترحات التي تُطلب منهم، ثم إن الناس انقسموا تجاه المبشر به والمنذر به إلى قسمين، فمنهم من آمن ومنهم من كذب:

﴿فَمَنْ ءَامَنَ﴾ بقلبه من خَلَقِ الله، وصدّقت جوارحه هذا الإيمان، وامثل أمرَ ربّه فأمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر وبالقضاء خيره وشره، ﴿وَأَصْلَحَ﴾ أي: عمل صالحًا بقلبه وجوارحه ﴿فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ﴾ مما سيأتي؛ لأنهم في مَأْمَنٍ من عذاب الله ﴿وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ على ما مَضَى، فالله تعالى يعفو عمّا سلف، وإذا كان هذا ثواب المؤمنين، فما عقوبة الكافرين؟ قال تعالى:

٤٩- ﴿وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا يَمَسُّهُمُ الْعَذَابُ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ﴾

ويعد أن طمأن الله سبحانه عبده المؤمن على ماضيه، وحاضره، ومستقبله، بين الصنف الثاني من البشر، وهم الذين كَذَّبُوا القرآن، وكَذَّبُوا معجزات الرُّسُلِ، فإن العذاب يُصيبهم؛ بسبب كفرهم، وخروجهم عن طاعة الله تعالى، وحقيقة المس مباشرة الجسم باليد، ويطلق على ما يُصيب المرء من خير أو شر.

ولما كان من المقترحين على النبي ﷺ نزول الآيات الحسيّة، من قال له: إنما تدعوننا لتتخذك إلها مع الله، أنزل الله تعالى على رسوله:

٥٠- ﴿قُلْ لَا أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي خَزَائِنُ اللَّهِ وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبَ وَلَا أَقُولُ لَكُمْ إِنِّي مَلَكٌ إِن أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ^(١) قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الْأَعْمَىٰ وَالْبَصِيرُ أَفَلَا تَتَفَكَّرُونَ﴾

لقد طلب المشركون من رسول الله ﷺ، إن كان رسولاً حقاً، أن يُنَزَّلَ عليهم كنزاً من السماء، أو أن يجعل الصفا والمروة - وهما جبلان - جبلين من ذهب، وأن يدعو الله لهم فيوسع عليهم، ويغني فقيرهم، ويُقوّي ضعيفهم.

(١) وقف يعقوب بهاء السكت بخلف عنه على لفظ (إليّ) من قوله تعالى: (إن أتبع إلا ما يوحى إليّ) وذلك لبيان حركة الحرف الموقوف عليه، ووقف الباقون بتسكين الياء المشددة.

قالوا: وإن كنت رسولاً فأخبرنا عما يحدث لنا في المستقبل من الضراء، ومن الابتلاء والمحن؛ لكي نتقي ذلك، ونتجنبه، وإن كنت رسولاً فاضعد إلى السماء، وأت لنا بكتاب في قرطاس؛ أي: مكتوب في ورق ملموس ومحسوس يشهد لك، أو ينزل عليك ملك من السماء يؤيدك.

والله ﷻ يبين في هذه الآيات أن مهمة الرُّسل أن يبلغوا أقوامهم دعوة الله، ويبشروهم رضوان الله وجنته إن هم آمنوا واتبعوا هديه، ويخوفوهم من عذاب الله وناره إن هم عصوا وأعرضوا عن دعوة ربهم، هذه هي مهمة الرُّسل.

والرُّسل بشرٌ يُوحى إليهم، ولا يملكون شيئاً آخر، والرسول محمد ﷺ منهم، ليس بيده خزان، ولا مفاتيح الخزائن، حتى ينزل عليهم كنزاً، أو يصير لهم الجبال ذهباً، وهو لا يعلم الغيب حتى يخبرهم بالمستقبل، ولا هو بملك حتى يعمل أعمال الملائكة.

وفي هذه الآية يأمر الله تعالى نبيه أن يعرف المشركين بطبيعة الرسول؛ فيقول لهم:

١- إني لا أدعي أنني أملك خزائن السموات والأرض، حتى أتصرف فيها فأحول لكم الجبل ذهباً، أو أجعل الفقير غنياً، أو أرفع من مستوى المعيشة بالنسبة لكم، كما طلبتم مني، وإنما هذا بيد الله وحده، ذلكم قول الله تعالى: ﴿قُلْ لَا أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي خَزَائِنُ اللَّهِ﴾ أي مفاتيح رزقه ورحمته.

٢- ولا أدعي أنني أعلم الغيب، حتى أخبركم عن الماضي، وعما يحدث في المستقبل؛ كي تجلبوا المصالح لأنفسكم، وتدفعوا عنها المضار، وهذا معنى ﴿وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبَ﴾ فأخبركم بما تريدون كما طلبتم، والله وحده هو عالم الغيب والشهادة، فلا يظهر على غيبه أحداً إلا من ارتضى من رسول، وما يفتح الله للناس من رحمة فلا ممسك لها وما يمسك فلا مرسل له من بعده.

٣- ولا أدعي أنني ملك، فالملك يقدر على ما لا يقدر عليه البشر، ويشاهد ما لا يشاهدون ﴿وَلَا أَقُولُ لَكُمْ إِنِّي مَلَكٌ﴾ حتى تكلفوني الصعود إلى السماء، وعدم المشي في الأسواق، وعدم الأكل والشرب، وإنما أنا رسول الله، أتبع ما يوحى إليّ، وأبلغه للناس، وليس بيدي ما تقترحون من الآيات ﴿إِنْ أَتَيْتُمْ إِلَّا مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ﴾ فلست نافذ

التصرف، ولا أدعى شيئاً فوق منزلي، وإنما أدعو الخلق إلى توحيد الله، وأترسم ما أمرني به ربي.

فأنا لا أدعي شيئاً من هذه الثلاثة، حتى تجعلوا عدم تليبيتها دليلاً على عدم صدقي، فلا تُلزِموني أن أدعى لنفسِي مرتبة فوق مرتبتي.

قل - أيها الرسول - لهؤلاء المكذبين: هل يستوي الكافر الذي عَمِيَ عن آيات الله؛ فلم يؤمن بها، ولم يعمل بمقتضاها، والمؤمن الذي أبصر آيات الله؛ فأمن بها واهتدى بهديها؟ ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الْأَعْمَىٰ وَالْبَصِيرُ﴾ الذي لم يستجب للحق، ولم ينتفع به ﴿وَالْبَصِيرُ﴾ الذي آمن واهتدى؟ واتبع الوحي الذي يخرجُه من الظلمات إلى النور، ومن الضلال إلى الهدى ﴿أَفَلَا تَتَفَكَّرُونَ﴾ أنهما لا يستويان، وتأملوا في آيات الله، وعجائب خلقه؛ لتبصروا الحق فتؤمنوا به.

وهذه الآية نزلت حين قال المشركون للنبي ﷺ: إن كنت رسولاً حقاً فاطلب من ربك أن يوسع علينا، ويغني فقيرنا، وأخبرنا بمصالحنا ومضارنا، فأخبرهم أن ذلك بيد الله^(١).

والمعنى: قل يا محمد لمن يطلبون منك سعة الرزق ومعرفة الأحوال: ليس عندي خزائن الرزق فأعطيكم منها ما تريدون، فإن الخزائن بيد الله، ولست أعلم الغيب حتى أخبركم بما مضى، وما يقع في المستقبل، فعلم ذلك عند الله، ولست ملكاً فأطلع على ما لم يطلع عليه الناس، وأقدر على ما لم تقدرُوا عليه. قال تعالى:

٥١ - ﴿وَأَنْذِرْ بِهِ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْ يُحْشَرُوا إِلَىٰ رَبِّهِمْ لَيْسَ لَهُمْ مِنْ دُونِهِ وَلِيٌّ وَلَا شَفِيعٌ لَّعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾

وبعد أن أمر الله نبيه بتوجيه دعوته إلى الناس كافة، أمره على وجه الخصوص أن يجتهد في تبليغ الرسالة إلى كل من يتوقع منهم الصلاح والاستجابة، ممن تُرجى هدايتهم من عصاة المؤمنين الذين خلطوا عملاً صالحاً وآخر سيئاً، وهم الذين يخشون ربهم، ويخافون عقابه.

فقال سبحانه: ﴿وَأَنْذِرْ بِهِ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْ يُحْشَرُوا إِلَىٰ رَبِّهِمْ﴾ أي: عِظْ وخَوْفٌ يا محمد بهذا القرآن المؤمنين بالبعث، المصدقين بيوم الحساب، وهم الذين يعلمون أنهم

(١) «حاشية الصاوي على الجلالين» (١٦/٢).

محشورون إلى ربهم، مصدقون بوعده ووعيده، وهم ممن تعذيبهم الرهبة عندما يتذكرون أهوال القيامة؛ لأنهم يعلمون أنه يوم لا تنفع فيه خلّة ولا شفاعة، ويعلمون أنه ليس لهم غير الله وليًا ينصرهم، ولا شفيعًا يشفع لهم.

﴿لَيْسَ لَهُمْ مِنْ دُونِهِ وَلِيٌّ﴾ يتولى أمرهم ﴿وَلَا شَفِيعٌ﴾ يشفع لهم، فيحصل لهم المطلوب ويدفع عنهم المحذور، وهؤلاء هم الذين يخشون ربهم، ويخافون سوء الحساب، وهم الذين من خشية ربهم مشفقون، وهم الذين تُرجى هدايتهم، وتأثرهم بالمواعظ والعبر؛ ولذا خُتمت الآية بقوله تعالى: ﴿لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾ أي: رجاء أن يمتثلوا أوامر الله تعالى، ويجتنبوا نواهيه؛ فيعملوا في الدنيا أعمالًا تنجيهم من عذاب الله، وتضاعف لهم الأجر والمثوبة، فإن الإنذار موجب لذلك، وسبب من أسبابه.

وعلى هذا؛ فالمراد بالذين يخافون أن يحشروا إلى ربهم كلّ معترف بالبعث، والمعاد، والحشر، والحساب، من العصاة الذين خلطوا عملاً صالحاً وآخر سيئاً، ومعلوم أن النبي ﷺ مأمور أن يبلغ دعوته إلى جميع الخلق، من كلّ معترف بالحشر، ومنكر له، فينذر من اعتقد بصحة يوم البعث، ومن أنكر ذلك، ومن شكّ فيه، والكفار ليس لهم يوم القيامة ولي ولا شفيع ﴿مَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ حِمِيٍّ وَلَا شَفِيعٍ يُطَاعُ﴾ [غافر: ١٨] لا شفيع مطاع ولا غير مطاع، والآية محمولة على كل هذا؛ أي: أن الدّعوة والإنذار لجميع الخلق، وإن كان العصاة وكلّ من يؤمن بالبعث من أهل الكتاب، هم المعنيون بالدرجة الأولى، فهم الذين يتنفعون بالوحي والدّعوة، وقيام الحجّة عليهم تكون أكد؛ لاعترافهم بالبعث والنشور.

قال عكرمة: جاء عتبة وشيبة ابنا ربيعة، ومطعم بن عدي، والحارث بن نوفل، في أشراف بني عبد مناف من أهل الكفر، إلى أبي طالب عم النبي ﷺ فقالوا: يا أبا طالب، لو أن ابن أخيك محمداً يطرد عنه موالينا وحلفاءنا، فإنهم عبيدنا وعتقائنا، كان ذلك أعظم في صدورنا، وأطوع له عندنا، وأدنى لاتباعنا إياه، وتصديقنا له؛ فأتى أبو طالب النبي ﷺ فحدثه بالذي كلموه به، فقال عمر بن الخطاب ؓ: لو فعلت ذلك حتى تنظر ما الذي يريدون؟ وإلى ماذا يصيرون؟ فأنزل الله ﴿وَأَنْذِرْ بِهِ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْ يُحْشَرُوا إِلَىٰ رَبِّهِمْ﴾ إلى قوله: ﴿أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِالشَّاكِرِينَ﴾ فجاء عمر؛ فاعتذر من مقالته^(١).

(١) رواه الطبري في «التفسير» (١١/٣٧٩).

الإِسْلَامُ مَعَ مَنْ أَجَابَهُ وَلَوْ كَانَ مِنْ غَبَرَةِ النَّاسِ

٥٢- ﴿وَلَا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ^(١) وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِمْ مِنْ شَيْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِمْ مِنْ شَيْءٍ فَتَطْرُدَهُمْ فَتَكُونَ مِنَ الظَّالِمِينَ ﴿٥٢﴾﴾
جاء في أسباب النزول لهذه الآية ما يأتي:

١- عن سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه قال: كنّا مع رسول الله ﷺ في ستة نفر، فقال المشركون للنبي ﷺ: اطردهؤلاء، لا يجترئون علينا، قال: وكنت أنا وابن مسعود ورجل من هذيل وبلال، ورجلان لست أسميهما، فوقع في نفس رسول الله ﷺ ما شاء الله أن يقع، فحدث نفسه؛ فأنزل ﷻ: ﴿وَلَا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ﴾^(٢) والنفر الست هم: سعد، وصهيب، وعمار، والمقداد بن الأسود، وخباب، وابن مسعود.

٢- وقال ابن مسعود رضي الله عنه: مرّ ملاً من قريش بالنبي ﷺ وعنده صهيب، وبلال، وعمار، وخباب، ونحوهم من ضعفاء المسلمين، فقالوا: يا محمد، رضيت بهؤلاء بدلاً من قومك؟ أهؤلاء الذين منّ الله عليهم من بيتنا؟ أنحن نكون تبعاً لهؤلاء؟ اطردهم، فلعلك إن طردتهم أن نتبعك؛ فنزلت الآية^(٣).

٣- وجاء في بعض الروايات أن هذه الآية لما نزلت كان النبي ﷺ يقعد مع هؤلاء الضعفاء، فإذا انتهى قام من مجلسه وتركهم؛ فأنزل الله تعالى: ﴿وَأَصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ﴾ [الكهف: ٢٨] قال خباب: فكان رسول الله ﷺ يقعد معنا بعد ذلك، وندنو منه حتى كانت ركبتنا تمس ركبته، فإذا بلغ الساعة التي يريد أن يقوم

(١) قرأ ابن عامر بضم الغين وإسكان الدال بعدها واو مفتوحة في (بالغدوة) على أن (غدوة) نكرة دخلت عليها لام التعريف، وقرأ الباقون بفتح الغين والدال بعدها ألف (بالغداة) على أن (غداة) اسم لذلك الوقت، ثم دخلت عليها لام التعريف.

(٢) أخرجه مسلم في فضائل الصحابة (٢٤١٣) والنسائي في التفسير (١٨٣) وفي «السنن الكبرى» (٨٢٢٠) وابن ماجه في الزهد (٤١٢٨) وصححه الحاكم على شرط الشيخين، ووافقه الذهبي (٣١٩/٣) ورواه ابن جرير (١٢٨/٧) وأبو يعلى (٨٢٦) والبيهقي في «الدلائل» (٣٥٣/١).

(٣) رواه أحمد في «المسند» برقم (٣٩٨٥) وقال الشيخ أحمد شاكر في تعليقه عليه: إسناده صحيح وحسنه محققو المسند، ورواه الطبري (٣٧٩/١١) والطبراني (١٠٥٢٠) وابن أبي حاتم (٧٣٤٢).

فيها، قمنا وتركناه حتى يقوم، وقال لنا: «الحمد لله الذي لم يُمِثني حتى أمرني أن أصبر نفسي مع قوم من أمتي، معكم المحيا ومعكم الممات»^(١).

٤- وعن أبي سعيد، عن أبي الكنوز، عن خباب بن الأرت قال: فينا نزلت، كنا ضعفاء عند النبي ﷺ بالغداة والعشي، فعلمنا القرآن والخير، وكان يخوفنا بالجنة والنار وما ينفعنا، والموت والبعث، فجاء الأقرع بن حابس التميمي، وعيينة بن حصن الفزاري، فقالوا: إنا من أشراف قومنا، وإنا نكره أن يرونا معهم، فاطردهم إذا جالسناك، قال: «نعم» قالوا: لا نرضى حتى تكتب بيننا كتاباً، فأُتي بأديم ودواء؛ فنزلت الآيات، فرمى رسول الله ﷺ بالصحيفة، ثم دعانا فأتيناه، قال: فكان رسول الله ﷺ يقعد معنا بعدُ فإذا بلغ الساعة التي يقوم فيها قمنا، وتركناه حتى يقوم^(٢).

٥- وقال ابن عباس ؓ: إن بعض الكفار طلبوا من النبي ﷺ أن يؤخر هؤلاء الضعفاء عن الصف الأول في الصلاة، ويقدمهم^(٣).

٦- وروى البيهقي أن رؤساء قريش قالوا للنبي ﷺ: لو طردت هؤلاء الأعداء وأرواح جبابهم (جمع جُبَّة) جلسنا إليك وحادثناك، فقال: «ما أنا بطارد المؤمنين»، قالوا: فأقمهم عنا إذا جئنا، فإذا قمنا فأقعدهم معك إن شئت، فقال: «نعم» طمعاً في إيمانهم؛ فأنزل الله الآية.

٧- وقال مجاهد: كان أشراف قريش يأتون النبي ﷺ وعنده بلال، وسلمان، وصهيب، وغيرهم مثل: ابن أم عبد، وعمَّار، وخباب، فإذا أحاطوا به قال أشراف قريش: بلال حبشي، وسلمان فارسي، وصهيب رومي، فلو نحَّاهم لأتيناها؛ فأنزل الله الآية^(٤).

(١) قطعة من حديث سلمان وخباب، وهو في «المسند» (١/٤٢٠) والطبري (١١/٣٧٦).

(٢) ابن أبي شيبة (١٢/٢٠٧) وابن أبي حاتم (٣٣١/٧٣٤٦) والطبراني (٣٦٩٣) عن عبدالرحمن بن سعد بن حنيف و«إزاد المسير» (٣/٤٤) وانظر «سنن ابن ماجه» برقم (٤١٢٧) قال البوصيري في «الزوائد» (٣/٢٧٦): هذا إسناد صحيح، قال ابن كثير (٢/٢٦٠): الآية مكية، والأقرع بن حابس وعيينة أسلماء بعد الهجرة بدهر، وقد صححه الألباني في «صحيح سنن ابن ماجه» (٣٣٢٩).

(٣) «تفسير ابن عطية» (٢/٢٩٥).

(٤) أخرجه ابن عساكر (٢٤/٢٢٥).

وهكذا نهى الله نبيه عن طرد ضعفاء المسلمين وفقرائهم عن مجلسه، وأمره أن يصبر نفسه معهم، ولا تغد عيناه عنهم إلى أهل الجاه والمنزلة في الدنيا، وأمره بالسلام عليهم، وأن يبشرهم برحمة ربهم، ولا يطيع أهل الكفر، ومن أغفل الله قلبهم عن ذكره.

والمراد بالغداة والعشي الصلاة؛ لأنها كانت في مكة مرتين في اليوم، بكرة وعشيًا.

وكان النبي ﷺ يميل إلى تأليف قلوب الأقوياء للإسلام؛ لينال بهم قوة، إلا أن الله تعالى بين له أن القوة في الإيمان والعمل الصالح، وليست في الأشخاص، وأن هؤلاء الضعفاء يتضرعون إلى ربهم في كل أوقاتهم، ولا يقصدون بعبادتهم غير وجهه تعالى، فكيف يطردون من مجلس الخير؟!

والله تعالى يخاطب رسوله قائلاً: لا تطرد عنك ولا عن مجالستك أهل الإخلاص والعبادة من هؤلاء الضعفاء، رغبة في مجالسة غيرهم ولا تبعدهم عن مجلسك؛ لضعفهم وفقيرهم، ثم وصفهم ربنا بأنهم يعبدونه ويدعونه في أول النهار وآخره؛ بالصلاة والذكر والدعاء وأنواع العبادة، فالمراد بقوله: ﴿يَدْعُونَ رَبَّهُمْ﴾ إما حقيقة الدعاء، وإما صلاة الصبح والعصر، كما فسرهما ابن عباس.

والصلاة تشمل الدعاء، والذكر، والخشوع، والخضوع، والإنابة، وتلاوة القرآن، وهم بهذه الأعمال الصالحة لا يريدون إلا وجهه الكريم، إنهم ﴿يُرِيدُونَ وَجْهَهُ﴾ فهم مخلصون لله في عبادتهم، يرجون ثوابه، ويخشون عقابه، وإن كان لهم ظاهرٌ يخالف الباطن؛ فحسابهم على الله، فهو الذي يتولى حسابهم جزاءهم، ولست مسؤولاً عنهم، فمهمتك البلاغ والإنذار، كما أنهم ليسوا مسؤولين عنك، فحسابك جزاؤك عند رب العالمين، فكل له حسابه، وله عمله الحسن أو القبيح، والكل يلقي جزاءه يوم الحساب.

وكان بعض المشركين قد طعن في إخلاص هؤلاء الضعفاء، وقالوا: إنهم يجتمعون عندك؛ لأنهم يجدون مأكلًا وملبسًا.

﴿مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِمْ مِنْ شَيْءٍ﴾ أي: لست مسؤولاً عن خطاياهم ولم يكلفك الله بأرزاقهم ﴿وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِمْ مِنْ شَيْءٍ﴾ أي: ليسوا مسؤولين عنك أي: لا تطرد الضعفاء حرصاً على إيمان الأقوياء، فحسابهم عند وحساب الأقوياء فحسابهم عند الله على الإيمان بك أو على عدم الإيمان بك

وحساب الأقوياء موكلٌ إلى الله تعالى، وعليك البلاغ، فإن أبعدتهم عن مجلسك؛ فإنك تكون من المتجاوزين حدودَ الله، الواضعين للشيء في غير موضعه، وهذا معنى ﴿فَتَطَرُّدُهُمْ فَتَكُونُ مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ وقد امثل النبي ﷺ أمرَ ربه، فالآن لهم جانبه، وأحسن معاملتهم، وقربهم منه، وصبر نفسه معهم.

وهكذا: بقي أقوياء الإيمان، فقراء الجيوب، في مجلس رسول الله ﷺ، وازدادوا حظوة منه وقرباً؛ فكان يعانقهم، ويرحب بهم، ويصبر نفسه في الجلوس معهم، فلا يقوم من مجلسه -وهو سيد البشر- إلا بعد أن ينصرف عنه هؤلاء الضعفاء المساكين، وازداد فقراء الإيمان، أغنياء الجيوب، أقوياء الجاه والسلطان بُعداً عن مجلس رسول الله ﷺ.

هذا: وقد جعل الله بعض عباده ثرياً وبعضهم فقيراً، بعضهم شريفاً وبعضهم ضيعاً، وهذا ابتلاء من الله لعباده، فإذا منَّ الله بالإيمان على الفقير الضعيف، كان ذلك محنة وفتنة للثري الشريف، فإذا لم يكن الغني صادقاً في طلب الحق، كانت هذه المحنة عقبة تردّه عن الإيمان، هذا ما تشير إليه الآية التالية:

فِتْنَةُ الْمَالِ وَالْجَاهِ وَالنَّسَبِ

٥٣- ﴿وَكَذَلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لِيَقُولُوا أَهَؤُلَاءِ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنْ بَيْنِنَا أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِالشَّاكِرِينَ﴾

ولما قرب النبي ﷺ الضعفاء منه، نفر المستكبرون المستكفون؛ فازدادوا كفرًا، وقالوا: لو كان الذي جاء به محمدٌ خيرًا ما سبقنا هؤلاء الفقراء إليه، ولهدانا الله إليه قبلهم، كما قال تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا لَوْ كَانَ خَيْرًا مَا سَبَقُونَا إِلَيْهِ﴾ [الأحقاف: ١١] فليس من المعقول أن يؤمن الله عليهم من بيننا، وكانت هذه فتنة بسبب المال والجاه والنسب؛ لأن هؤلاء الأثرياء لم يزنوا الأمور بميزان الله، فلم يدركوا أن ما يترفعون به على الناس لا دخل له في قضية الإيمان.

وهذا المعنى هو الذي تقرره هذه الآية ﴿وَكَذَلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُم بِبَعْضٍ﴾ أي: أن الله تعالى ابتلى بعض عباده ببعض؛ بتباين حظوظهم في الأرزاق والأخلاق، فجعل بعضهم قويًا وبعضهم ضعيفًا، وبعضهم غنيًا وبعضهم فقيرًا، وجعل بعضهم يحتاج إلى بعض، اختيارًا منه سبحانه بما يُحقّق مصلحة العباد؛ ليقول الكافرون من الأغنياء، على وجه السخرية

والاستهزاء: أهؤلاء الضعفاء من الله عليهم بالهداية والإسلام من بيننا، ونحن أصحاب الجاه والمال أدنى منهم في الهداية.

وقد ابتلى الله المؤمنين بالمشركين بما يلقون منهم من الأذى، وابتلى المشركين بالمؤمنين بما لهم من شأن في هذا الدين، وما لهم من قدر ومنزلة عند النبي ﷺ.

فمعنى الآية: وكذلك ابتلينا أشراف الكفار بضعفاء المؤمنين؛ ليتعجبوا من ذلك في نفوسهم.

وكان غالب من اتبع النبي ﷺ في أول البعثة ضعفاء الناس من الرجال، والنساء، والعبيد، والإماء، ولم يتبعه من الأشراف إلا قليل، كما سأل هرقل أبا سفيان فقال له: هل اتبعه ضعفاء الناس أم أشرافهم؟ قال: بل ضعفاؤهم، فقال: هم أتباع الرُّسل^(١).

فكيف يُظن أن الله تعالى من على هؤلاء الضعفاء بمعرفة الحق، ومنع منه صناديد قريش؟ وكان قد حدث مثل هذا بالمدينة.

كما جاء في البخاري وغيره أن الأقرع بن حابس جاء إلى النبي ﷺ فقال: إنما بايعك سراق الحجيج، من أسلم وغفار ومزينة وجُهينة، فقال له رسول الله ﷺ: «أرأيت إن كان أسلم وغفار ومزينة وجُهينة خيراً من بني تميم وبني عامر وأسد وغطفان، أخابوا وخسروا؟» فقال: نعم، قال: «فوالذي نفسي بيده إنهم لخير منهم»^(٢).

ومن فتنة بعضهم ببعض فتنة الإعجاب والكبرياء، حين ترفع الأثرياء عن الدخول فيما دخل فيه الضعفاء والعبيد من تصديق محمد ﷺ؛ استكباراً عن مساواتهم بهم حيث قالوا ﴿أَهَؤُلَاءِ مَنْ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنْ بَيِّنَاتٍ﴾ قالوا ذلك احتقاراً لمن يرونهم دونهم.

ومنها فتنة الضعفاء حين يشاهدون طيب عيش الأثرياء مع إشراكهم بربهم، وهذا كما قال قوم نوح له: ﴿وَمَا نَرَاكَ اتَّبَعَكَ إِلَّا الَّذِينَ هُمْ أَرَادُوا بِكَادِي الرَّأْيِ﴾ [هود: ٢٧] والله ﷻ يقرر أنه أعلم بمكنون عبادته وشؤونهم، وأنه يوفق للهداية من علم الله منه أنه أهل لها، وسيسلك طريقها ﴿أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِالشَّاكِرِينَ﴾؟ بلى، فهو سبحانه أعلم بمن

(١) القصة في «صحيح البخاري» برقم (٧) من حديث ابن عباس، ومسلم (١٧٧٣) مختصراً.

(٢) «المسند» (٢٠٤٢٣) بإسناد صحيح على شرط الشيخين، وفي البخاري (٣٥١٦) ومسلم (٢٥٢٢) والطيالسي (٨٦١) والبخاري (٣٨٥٤).

يشكر نعمته فيهديه للإيمان، وأعلم بمن يكفر نعمته فلا يجازيه بنعمة الهداية، كما أراد هو لنفسه، وكلُّ مُيسَّرٍ لِمَا خُلِقَ له، كما قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا﴾ [العنكبوت: ٦٩].

فُقَرَاءُ الْمُسْلِمِينَ وَرَحْمَةُ اللَّهِ بِهِمْ

٥٤- ﴿وَإِذَا جَاءَكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِنَا فَقُلْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ أَنَّهُ^(١) مَن عَمِلَ مِنكُم سُوْءًا يَجْهَلِكُهُ ثُمَّ تَابَ مِن بَعْدِهِ وَأَصْلَحَ فَإِنَّهُ^(١) غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٥٤﴾

والسياق موصولٌ عن فقراء المسلمين، الذين نهى الله تعالى رسوله أن يبعدهم عن مجلسه، فيأمر الله تعالى رسوله ﷺ أن يبدأ هؤلاء الضعفاء بالسلام إذا أقدموا عليه ﴿وَإِذَا جَاءَكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِنَا فَقُلْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ﴾ أي: وإذا جاءك المؤمنون فحيِّهم ورحِّب بهم، وسلِّم عليهم، وبشِّرهم بما يُنشِط عزائمهم وهممهم، وحُثِّهم على كل طريق يوصل إلى ذلك، ورهِّبهم من الإقامة على الذنوب، وأمرهم بالتوبة من المعاصي لينالوا مغفرة ربهم، وهكذا إذا حضر إلى مجلسك الذين يصدِّقون بالقرآن، وبآيات الشاهدة على صدقك من القرآن وغيره، ومنهم هؤلاء الضعفاء الذين نزلت فيهم وفي أمثالهم هذه الآيات - فابدأهم بالسلام؛ إكراماً لهم، وتطبيعاً لخاطرهم، وقد تضمنت الآية كرامتين لهم:

الأولى: أن يبدأهم النبي ﷺ بالسلام حين يدخل عليهم مزية لهم.

والثانية: بشارتهم برضى الله عنهم، وأنه قد غفر لهم ما يعملون من سوء إذا تابوا وأصلحوا. والدعاة إلى الله تعالى، بعد رسول الله ﷺ، يكونون على هذا المنهج الإسلامي والأدب العالي.

فالآية عامة في كلِّ مؤمن، وكلِّ داعية إلى الله تعالى.

قال عكرمة: نزلت في الذين نهى الله نبيّه عن طردهم، فكان إذا رآهم بدأهم بالسلام،

(١) قرأ نافع وأبو جعفر بفتح همزة (أنه) وكسر همزة (فأنه) وقرأ ابن عامر وعاصم ويعقوب بالفتح فيهما، وقرأ الباقر بالكسر فيهما، فالفتح في الأولى على أنها بدل شيء من شيء، أو على الابتداء والخبر محذوف، والفتح في الثانية على أنها في محل رفع بالابتداء، وكسر الأولى على الاستئناف وكسر الثانية على أنها في صدر جملة وقعت خبراً لمن الموصولة، أو جواباً لها إن كانت شرطية.

ويقول: «الحمد لله الذي جعل في أمي من أمرني أن أبدأهم بالسلام»^(١).

وأسند الطبري أن قومًا من المؤمنين استفتوا النبي ﷺ في ذنوب سلفت منهم؛ فنزلت الآية بسببهم.

وقال الفضيل بن عياض: إن قومًا قالوا للنبي ﷺ: إنا قد أصبنا ذنوبًا فاستغفر لنا، فأعرض عنهم؛ فنزلت الآية^(٢).

ثم أمر الله تعالى رسوله ﷺ أن يشرهم بما كتبه الله على نفسه من الرحمة والمغفرة لمن عمل منهم سوءًا بجهالة. وكلُّ مَنْ عمل ذنبًا أو خطيئة عمدًا أم خطأ؛ فهو بها جاهل لعاقبتها وإيجابها لسخط الله تعالى، وسمي جاهلًا؛ لأنه فَعَلَ فِعْلَ السفهاء فُنُسِبَ إلى الجهل، فما يذنب الإنسان إلا من جهالة، حتى ولو كان عالمًا بعاقبة هذا الفعل القبيح المذموم، ولكنه أثر اللذة العاجلة على الثواب الآجل، ولم يصبر على ترك المعصية، فلا بد مع ترك الذنوب والإقلاع والندم عليها من إصلاح العمل وأداء ما أوجب الله عليهم، وإصلاح ما فسد من الأعمال الظاهرة والباطنة.

ومتى تاب العبد؛ فأقلع عن الذنب، وعمل صالحًا؛ فإنه يكون أهلًا لمغفرة الله تعالى ورحمته ﴿كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ﴾ أي: أوجبها على نفسه تفضلاً منه، وإحساناً، وامتناناً، في الحديث عن أبي هريرة أن النبي ﷺ قال: «إن الله تعالى كتب كتاباً، فهو عنده فوق العرش: إن رحمتي سبقت غضبي»^(٣).

وعن سلمان ؓ أن رسول الله ﷺ قال: «إن لله مئة رحمة؛ فمنها رحمة بها يتراحم الخلق، وتسعة وتسعون ليوم القيامة»^(٤).

وعن معاذ بن جبل ؓ أن النبي ﷺ قال: «أتدري ما حق الله على العباد؟... أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئاً» ثم قال: «أتدري ما حق العباد على الله إذا رآهم فعلوا

(١) تفسير القرطبي (٦/٤٣٥).

(٢) «تفسير ابن عطية» (٢/٢٩٧).

(٣) «صحيح البخاري» برقم (٣١٩٤) و«صحيح مسلم» برقم (٢٧٥١) و«المسند» (٢/٣١٣) عن أبي هريرة برقم (٩١٥٩).

(٤) «أسباب النزول» للواحدي (١٢٥) «صحيح مسلم» برقم (٢٧٥٣).

ذلك؟... ألا يعذبهم»^(١).

وهذا المعنى الذي تقرره الآية يشمل كلَّ مؤمن، ويؤيده ما ورد أن قومًا أتوا رسول الله ﷺ فقالوا: إنا أصبنا ذنوبًا عظامًا، فما ردَّ عليهم، فانصرفوا؛ فأنزل الله: ﴿وَإِذَا جَاءَكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِنَا﴾ فدعاهم، فقرأها عليهم^(٢).

والى هذا الحديث استند الطبري والفضيل بن عياض في قولهما السابق.

وعليه فيكون المعنى: إذا جاءك يا محمد من المؤمنين مَنْ يستفتيك عن التوبة من الذنوب السابقة؛ فأكرمهم برّد السلام عليهم، وبشّرهم برحمة الله الواسعة لهم، وهذا هو المعنى العام للآية، ويدخل فيه دخولًا أوليًا، ما يتضمنه سياق الآيات من الحديث عن ضعفاء المسلمين.

كما أن صيغة الأمر في ﴿فَقُلْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ﴾ تتضمن أن يكون هذا السلام ممّا أمر الرسول ﷺ بتبليغه لمن أقبل عليه تائبًا، وكذا بالنسبة للضعفاء الذين نزلت فيهم الآيات، والصيغة تحتمل بدوهم بالسلام عند لقائهم، وعند إقبال الرسول ﷺ عليهم، وتحتمل رده ﷺ للسلام عليهم عند دخولهم عليه.

هذا؛ ومبادئ الإسلام وقيمه السامية رفعت أمثال هؤلاء الفقراء الضعفاء إلى مقدمات الصفوف؛ لسبقهم في الإسلام عمّن دخله بعد ذلك من كبار القوم، كأبي سفيان، وجعلت كبار الصحابة يحرصون على إرضاء الضعفاء وعدم إغضابهم.

في صحيح مسلم وغيره عن عائذ بن عمرو أن أبا سفيان أتى على سلمان، وصهيب، وبلال، ونفر، فقالوا: والله ما أخذت سيوف الله من عدوّ الله مأخذها! قال: فقال أبو بكر: أتقولون هذا لشيخ قريش وسيدهم (يعني: أبا سفيان) فأتى النَّبِيَّ ﷺ (أي: ذهب أبو بكر يسأل رسول الله ﷺ عن قولهم) فقال: «يا أبا بكر، لعلك أغضبتهم؟ لئن كنت

(١) الحديث في الصحيحين عن أنس بن مالك، عند البخاري (٣٣٧/١١) برقم (٧٣٧٣) وعند مسلم (١/٥٨) برقم (٣٠) وفي «المسند» عن أبي هريرة برقم (٢١٩٩١، ٢٢٠٠٦، ٢٢٠٣٩) (٢/٣٠٩).

(٢) أخرجه عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن ماهان، ينظر: ابن جرير (١٣٢/٧).

أغضبتهم، لقد أغضبت ربك» فأتاهم أبو بكر فقال: يا إخوانه، أغضبتكم؟ قالوا: لا، يغفر الله لك يا أخي^(١).

أجل! إنها نَقْلَةُ الإسلام التي غَيَّرَتْ من شأن هؤلاء فرفعتهم من سفح الجاهلية إلى قمة الإسلام، فجعلت أمثال أبي بكر وهو مَنْ أعتق بعضهم من الرق، يترضى عنهم، ويتلاشى غضبهم، وجعلتهم يتقدمون الصفوف على شيخ قريش وسيدها أبي سفيان، أين هذا من حضارة الناس وحقوق الإنسان في عالم اليوم؟! قال تعالى:

٥٥ - ﴿وَكَذَلِكَ نَفْصِلُ الْآيَاتِ وَلِتَسْتَتِينَ^(٢) سَبِيلُ الْمُجْرِمِينَ ﴿٥٥﴾﴾

وبعد أن بيَّنت السورة العقيدة الصحيحة، مجردة من كل زخرف أو باطل، وبيَّنت طبيعة الرسالة والرسول ناصعة واضحة، تُعَقَّبُ على ذلك بأنه يمثل هذا البيان وهذا التفصيل، ويمثل هذا المنهج وهذه الطريقة في أدلة التوحيد وإبطال الشرك، يوضح الله الْحُجَجَ والبراهين التي تدحض كلَّ باطل، ويوضح الأدلة الدالة على كل حق ينكره أهل الباطل؛ وذلك ليظهر الحق، ويتبين طريق المؤمنين الصالحين المخلصين العاملين بمقتضى التوحيد، ويتضح أيضاً طريق المجرمين المخالفين لرسول الله، فيكشف أمرهم ويستبين طريقهم.

﴿وَكَذَلِكَ﴾ أي: يمثل البيان السابق ﴿نَفْصِلُ الْآيَاتِ﴾ أي نوضح آيات القرآن، ونبينها، ونميز بين طريق الحق والضلال، والغي والرشاد، ونوضح الأدلة والحجج والبراهين التي لا تدع في الحق ريباً ولا غموضاً، وتجعله واضحاً جلياً ﴿وَلِتَسْتَتِينَ﴾ أي: تتبين ﴿سَبِيلُ الْمُجْرِمِينَ﴾ طريقهم ومنهجهم، واستبانة طريق المجرمين هدفٌ من أهداف التفصيل الرباني للآيات، حتى إذا استبانَت واتضحت أمكن اجتنابها والبعد عنها، بخلاف ما إذا كانت ملتبسةً مشبهةً فإن هذا البيان لا يحصل.

(١) «المسند» (٢٠٦٤٠) بإسناد حسن ورجال ثقات، ومسلم (٢٥٠٤)، والطبراني في الكبير ١٨ (٢٨).

(٢) قرأ نافع وأبو جعفر بقاء الخطاب في (ولتستين) ونصب لام (سبيل) أي: لتوضح، وقرأ ابن كثير وأبو عمرو وابن عامر وحفص ويعقوب بقاء التأنيث في (ولتستين) ورفع لام (سبيل) على أن الفعل لازماً بمعنى ظهر، وقرأ شعبة وحمزة والكسائي وخلف العاشر بقاء التذكير ورفع لام سبيل.

التَّوْحِيدُ وَالشُّرْكُ لَا يَجْتَمِعَانِ

٥٦- ﴿قُلْ إِنِّي نُهَيْتُ أَنْ أَعْبُدَ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ قُلْ لَا أَتَّبِعُ أَهْوَاءَكُمْ قَدْ ضَلَلْتُ إِذَا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُهْتَدِينَ﴾

وبعد استبانة سبيل المؤمنين وسبيل المجرمين، تعود الآيات إلى التوحيد وحقيقة الألوهية، وقد كان المشركون يدعون الله تعالى عند الشدائد، ويدعون جماداتٍ ونحوها عند الرخاء، ولا مستند لهم في ذلك إلا التقليد واتباع الهوى، وكانوا يطلبون من النبي ﷺ أن يسجد لآلهتهم؛ فيسجدون لإلهه، وأن يوافقهم على دينهم؛ ليوافقوه على دينه.

وفي هذه الآية يأمر الله تعالى نبيه ﷺ أن يواجه المشركين بحقيقة التوحيد، ويبيِّن لهم أن الشرك والتوحيد لا يجتمعان في قلبٍ واحدٍ ﴿قُلْ إِنِّي نُهَيْتُ أَنْ أَعْبُدَ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ نهاني ربي أن أعبد الأوثان والأنداد، وسائر ما تشركونه مع الله من: الجن، والملائكة، والناس، والكواكب، وغير ذلك مما تعبدونه من دون الله، وهي لا تملك نفعاً ولا ضراً ولا موتاً ولا حياة ولا نشوراً، فإن هذه العبادة باطلة وليس لكم فيها حجة ولا شبهة إلا اتباع الهوى وهو من أعظم الضلال ﴿قُلْ لَا أَتَّبِعُ أَهْوَاءَكُمْ﴾ فأنتم تشركون هذه المخلوقات مع الله؛ اتباعاً للهوى، وتقليداً لمن سبقكم، وأنا منهياً عن اتباع الهوى، وعبادتنا لله تعالى عن عِلْمٍ وَحُجَّةٍ ودليل، لا عن هوى وتقليد، فإن عبدت ما تعبدونه من دون الله؛ أكن قد سلكت طريق الضلال، وخرجت عن الصراط المستقيم ﴿قَدْ ضَلَلْتُ إِذَا﴾ إن اتبعت أهواءكم ﴿وَمَا أَنَا مِنَ الْمُهْتَدِينَ﴾ بوجه من الوجوه فإن من يتبع هواه يضل، ولا يهتدي، أما ما أنا عليه من اتباع الحق وإخلاص العمل فإنه هو الحق الذي تقوم عليه البراهين والأدلة القاطعة.

والمعنى: قل - يا محمد - لمن يكذبون دعوتك: إن الله نهاني وصرفني بفضله، وبما منحني من عقلٍ وفكرٍ عن التوجه لغير الله في عبادتي، ولن أتبع أهواءكم وشهواتكم في الانقياد للباطل، ولو أنني ركنت إليكم؛ لضللت عن الحق، وخرجت عن طائفة المهتدين، فلا يطمع أحدٌ في استمالي عن الهدى، أو جنوحي للضلال. قال تعالى:

٥٧- ﴿قُلْ إِنِّي عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي وَكَذَّبْتُم بِهِ ۖ مَا عِندِيَ مَا تُسْتَعْجِلُونَ بِهِ ۚ إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ يَقْضُ ۚ﴾ (١) الْحَقُّ وَهُوَ خَيْرُ الْفَصْلَيْنِ ﴿٥٧﴾

وتأتي ﴿قُلْ﴾ الثانية في هذا المقام لتأمر الرسول ﷺ أن يواجه المشركين المكذبين؛ بأنه على يقين لا يتزعزع، وعلى بصيرة واضحة من شريعة الله تعالى التي أوحاها إليه، وعلى دليل وحجة راسخة في وجوب إفراد الله تعالى بالعبادة وحده دون سواه ﴿قُلْ إِنِّي عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي﴾ أي: على بصيرة من شريعة الله، أوحاها إليّ، وهذه شهادة من الرسول جازمة لا تقبل التردد، وهو أعدل الشهود من الخلق على الإطلاق، وهذه البينة، التي هي من عند الله، قالها الأنبياء السابقون؛ قالها نوح وصالح وإبراهيم لأقوامهم.

قال نوح وصالح: ﴿يَقُومُ أَرْءَايَتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي﴾ [هود: ٢٨] وقال إبراهيم: ﴿أَتُحْجِجُونِي فِي اللَّهِ وَقَدْ هَدَانِ﴾ [الأنعام: ٨٠].

فحقيقة التوحيد تتجلى في قلوب أولياء الله جميعاً، وأنا واحد منهم، ولكنكم أيها المشركون، المكذبون، كذبتُم بهذه الحقيقة؛ فلم تصدّقوا بالقرآن، ولا بالمعجزات، ولا بالبراهين الحسية التي تدل على صحة التوحيد، وصدّق الرسول، وهذا معنى ﴿وَكَذَّبْتُم بِهِ﴾ أي: كذبتُم أيها المشركون بكل ما جئتُ به من ربي، وطلبتُم خوارق العادات، وطلبتُم أن ينزل بكم العذاب؛ وكان النَّبِيُّ يخوفهم بنزول العذاب إن لم يؤمنوا، فإن استمررتُم على التكذيب فاعلموا أن العذاب واقع بكم لا محالة:

جاء في أسباب النزول: أن النضر بن الحارث قام عند الكعبة، وقال: اللهم إن كان ما يقوله محمدٌ حقاً فأنتنا بالعذاب؛ فنزلت الآية، وفيه نزل قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالُوا أَلَلَّهُمَّ إِن كَانَتْ هَذِهِ حَقًّا فَأَتِنَا عَلَيْكَ حِجَارَةً مِّنَ السَّمَاءِ أَوْ آتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [الأنفال] وقوله: ﴿أَوْ تُسْقِطَ السَّمَاءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا﴾ [الإسراء: ٩٢]

فأمر الله رسوله أن يجيبهم بقوله: ﴿مَا عِندِيَ مَا تُسْتَعْجِلُونَ بِهِ﴾ من العذاب.

وكثيراً ما كانوا يستعجلون نزول العذاب بهم، يقولون ذلك للنبي ﷺ؛ استهزاءً به

(١) قرأ نافع وابن كثير وعاصم وأبو جعفر بضم القاف من بعدها صاد مضمومة من قص الحديث، وقرأ الباقون بسكون القاف بعدها ضاد مكسورة من القضاء؛ أي: يقضي القضاء الحق.

وتكذيباً له، واستبعاداً لنزول العذاب ﴿وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ﴾ أي: متى ينزل بنا ما تعدنا به من العذاب ﴿إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ [الملك: ٢٥].

وقد أمر الله نبيه أن يخبر الكفار أن تعجيل العذاب الذي يطلبونه مرجعه إلى الله، إن شاء عجله، وإن شاء أجله، وما حملهم على استعجال العذاب إلا الكفر والتكذيب، ولو أنهم عاينوا العذاب؛ لعلموا أنه عظيم هائل، لا يستعجله إلا جاهل، كما قال تعالى: ﴿يَسْتَعْجِلُ بِهَا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِهَا وَالَّذِينَ آمَنُوا مُشْفِقُونَ مِنْهَا﴾ [الشورى: ١٨] وقال سبحانه: ﴿يَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَلَنْ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ﴾ ﴿٥١﴾ يَوْمَ يَغْشَاهُمْ الْعَذَابُ مِنْ فَوْقِهِمْ وَمِنْ تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ وَيَقُولُ ذُوقُوا مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٥٢﴾ [العنكبوت]

وقال جل شأنه: ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُهُ بَيِّنَاتٍ أَوْ هَارِجًا مَاذَا يَسْتَعْجِلُ مِنْهُ الْمُجْرِمُونَ﴾ ﴿٥٣﴾ أَفَرَأَى إِذَا مَا وَقَعَ آمَنْتُمْ بِهِ ؕ أَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ تَسْتَعْجِلُونَ ﴿٥٤﴾ [يونس].

ولولا أن الله تعالى حدد أجلاً معيناً لنزول العذاب بهم لعجله لهم ﴿وَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَلَوْلَا أَجَلٌ مُسَمًّى لَجَاءَهُمُ الْعَذَابُ﴾ [العنكبوت: ٥٣] قال تعالى: ﴿وَلَكِنْ أَخَّرْنَا عَنْهُمُ الْعَذَابَ إِلَى أُمَّةٍ مَعْدُودَةٍ لِيَقُولُوا مَا نَحْسِبُهُمْ﴾ وقال سبحانه: ﴿أَلَا يَوْمَ يَأْتِيهِمْ لَيْسَ مَصْرُوفًا عَنْهُمْ﴾ [هود: ٨].

وتأخير نزول العذاب بهم لحكمة عظيمة؛ فهو الذي يشيب ويعاقب، ويأمر وينهى، ولذا قال تعالى: ﴿إِنَّ أَلْحَكُمُ إِلَّا إِلَهُ﴾ فنزول العذاب بيد الله تعالى، وأنا لا أملكه، وليس في قدرتي إنزاله، وأمر الله تعالى لا يقدر أحد على تقديمه أو تأخيره، ونزول العذاب يكون بعد أن يقضي الله بين الخلائق، فهو سبحانه (يقض الحق) بسكون القاف وضاد مكسورة، والقراءة الأخرى ﴿يَقْضُ الْحَقُّ﴾ بقاف مضمومة وضاد مشددة مضمومة؛ أي: حين يقول الله الحق، ويخبر به عباده، ويفصل بين الحق والباطل، والثواب والعقاب ﴿وَهُوَ خَيْرُ الْفَصْلَيْنِ﴾ أي: خير من فصل وميز، فلا يقع في حكمه جور، ولا ظلم، ولا يقع في قضائه حيف، ولا تجاوز. قال تعالى:

٥٨- ﴿قُلْ لَوْ أَنِّي عَلِمْتُ مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِ لَفُضِيَ الْأَمْرُ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِالظَّالِمِينَ﴾ ﴿٥٨﴾

أما الآية الثالثة من أسلوب التلقين المبدوء بـ﴿قُلْ﴾ في هذه الآيات، فتؤكد أن نزول العذاب الذي يطلبونه متروك لمشئته الله تعالى، فلا جدوى من الإلحاح في هذا الأمر،

فوقوع العذاب بهم ليس بيد النَّبِيِّ ﷺ، وقد أمره ربُّه أن يخبرهم بذلك ﴿قُلْ لَوْ أَنِّي عِنْدِي مَا فَسْتَعْبِلُونَ بِهِ لَفُضِّي الْأَمْرُ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ﴾ فأنزلته بكم، ولكن الأمر من عند الله.

﴿وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِالظَّالِمِينَ﴾ المستحقين للعذاب، والوقت الذي يستحقونه فيه، ولا يخفى عليه شيء من أحوالهم فيمهلهم ولا يهملهم، وكان النَّبِيُّ يأمل خيراً فيمن يخرج من أصلابهم، فإن ملك الجبال لما عرض عليه ﷺ هلاك المكذبين بأن يطبق عليهم الجبلين؛ اختار النَّبِيُّ ﷺ عدم إهلاكهم، وقال: «إني لأرجو أن يخرج من أصلابهم من يعبد الله، ولا يشرك به شيئاً».

وفي الصحيحين عن عائشة ؓ أنها قالت لرسول الله ﷺ: هل أتى عليك يوم أشد من يوم أحد، فذكر ﷺ ما لقيه يوم العقبة؛ حين عرض نفسه على ابن عبد ياليل، فلم يجبه، قال: «فانطلقْتُ وأنا مهموم على وجهي، فلم أستفق إلا بقرن الثعالب، فرفعت رأسي، فإذا أنا بسحابة قد أظلتني، فنظرتُ فإذا فيها جبريل ؑ، فناداني فقال: إن الله سمع قول قومك لك، وقد بعث إليك ملك الجبال؛ لتأمره بما شئت فيهم» قال: «فناداني ملك الجبال وسلم عليّ، ثم قال: يا محمد، إن الله قد بعثني إليك؛ لتأمرني بما شئت، إن شئت أطبقت عليهم الأخشبين» فقال ﷺ: «بل أرجو أن يخرج الله من أصلابهم من يعبد الله لا يشرك به شيئاً»^(١).

والحديث فيه عَرْضٌ من الملك، بأمر من الله تعالى، لإنزال العذاب بهم، بخلاف الآيات التي يطلبون فيها نزول العذاب بهم على وجه التعنت والاستهزاء.

شَمُولُ عِلْمِ اللَّهِ تَعَالَى وَإِحَاطَتُهُ لِكُلِّ مَا فِي الْكَوْنِ

٥٩- ﴿وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ^(٢) وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَا تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٌ فِي ظُلُمَاتٍ الْأَرْضِ وَلَا رَطْبٌ وَلَا يَأْسٌ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ ﴿٥٩﴾﴾ يتضمن هذا الريع سبعة من أساليب التلقين التي تبدأ بلفظ ﴿قُلْ﴾ وستة من أساليب التقرير التي تبدأ بلفظ ﴿هُوَ﴾ ويتضمن ثلاثة عشر دليلاً على توحيد الخالق جل وعلا؛

(١) ينظر: «صحيح البخاري» برقم (٣٢٣١) و«صحيح مسلم» برقم (١٧٩٥) بتصرفي.

(٢) وقف يعقوب بهاء السكت على (إلا هو) والباقون بدونها.

لتقوية ذلك في نفوس المؤمنين، ولغرس العقيدة الصحيحة في نفوس المشركين.

يبدأ هذا الربع من السورة بقوله سبحانه ﴿وَعِنْدُ مَفَاتِحِ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ﴾ أي: أن ما غاب عن العبد من السعادة، والشقاء، وخواتيم الأعمال، والأرزاق، والآجال، والثواب والعقاب، وخزائن الغيب ومفاتيحها، كل ذلك علمه عند رب العالمين سبحانه.

وقد وصف الله المؤمنين في كتابه بأنهم يؤمنون بالغيب، وفي مقدمته الإيمان بوجود الله تعالى، والإيمان باليوم الآخر، وما فيه من بعث، وحشر، وحساب، وثواب، وعقاب، والإيمان بالرُّسل والكتب، والإيمان بالقدر خيره وشره، وعلم الله تعالى شامل محيط، لا يخرج عنه شيء في السماء، ولا في الأرض، ولا في البر، ولا في البحر، ولا في جوف الأرض، ولا طباق الجو، ولا في الزمان، ولا المكان، من حيٍّ، أو ميت، أو رطب، أو يابس، فهو سبحانه يعلم ما في البراري والقفار، من الحيوانات والأشجار والحصى والرمال والتراب، ويعلم ما في البحار، من حيواناتها ومعادنها وصيدها، وما يشتمل عليه ماؤها، فعلم الله تعالى شامل للغيوب كلها، وكثير منها طوى علمه عن الملائكة المقربين والأنبياء المرسلين، فضلا عن غيرهم من العالمين.

والآية الأخيرة من سورة لقمان مع الحديث الصحيح عن رسول الله ﷺ بيّنان أن رؤوس الغيب خمسة، لا يعلمها إلا الله سبحانه، وهي تعم جميع الأشياء التي لم توجد بعد.

عن سالم بن عبد الله عن أبيه أن رسول الله ﷺ قال: «مفاتيح الغيب خمس لا يعلمها إلا الله ﷻ إِنَّ اللَّهَ عِنْدُ عِلْمِ السَّاعَةِ وَيَتَزَلُّ الْغَيْثُ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْأَرْحَامِ وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ» (١).

قال ابن مسعود ؓ: أوتي نبيكم علم كل شيء إلا مفاتيح الغيب الخمس (٢).

(١) البخاري (٢٩١/٨) برقم (١٠٣٩، ٤٦٢٧، ٤٦٩٧، ٧٣٧٩) و«المسند» عن ابن عمر (٧/٧) برقم (٤٧٦٦، ٥١٣٣، ٦٠٤٣) و«صحيح ابن حبان» (٦٩/١) وابن حاتم (٧٣٦٧).

(٢) الطبري (٤٠١/١١) و«المسند» (٢٤١/٥) قال الشيخ أحمد شاکر في تعليقه على «المسند»: إسناده صحيح ورقمه (٤٢٥٣) وأفاد محققو المسند أنه: صحيح لغيره، لأن فيه محمد بن سلمة، وبقية رجاله ثقات رجال الشيخين، وهو في «مجمع الزوائد» (٢٦٣/٨) قال الهيثمي: رواه أحمد وأبو يعلى، ورجالهما رجال الصحيح وأخرجه الحميدي (١٢٤).

وسئل أحد الصحابة عن العلم بوقت الكسوف قبل ظهوره، فأنكر عليهم، وقال: إنما الغيب خمس، وتلا الآية، وما عدا ذلك فهو غيب، يعلمه قومٌ، ويجهله قومٌ.

والغيب: كل ما غاب عن علم الناس، ولا سبيل لهم إلى معرفته، وهو يشمل الأعيان المغيبيّة كالملائكة والجن، ويشمل الأعراض الخفية، قال تعالى: ﴿عَلِمَ الْغَيْبُ فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِ أَحَدًا ۖ إِلَّا مَن رَّزَقْنِي مِن رَّسُولِي فَإِنَّهُ يَسْلُكُ مِن بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ رَصَدًا﴾ (٧) [الجن].

والمفتاح: هو الآلة التي يُفْتَحُ بها المغلق حسًّا أو عقلاً.

روى ابن ماجة وأبو حاتم البستي في صحيحه عن أنس بن مالك أن رسول الله ﷺ قال: «إن من الناس مفاتيح للخير مغاليق للشر، وإن من الناس مفاتيح للشر مغاليق للخير، فطوبى لِمَن جعل الله مفاتيح الخير على يديه، وويلٌ لِمَن جعل الله مفاتيح الشر على يديه»^(١).

وهذه هي أمّات علم الغيب الخمس كما جاءت في آية سورة لقمان:

(أ) ﴿إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ﴾ متى تقوم القيامة؟ في أيّ عام، وفي أي شهر، وفي أي يوم، وفي أية لحظة؟ علم ذلك عند ربّ العالمين، والتكهن بذلك بناء على مقدمات وأحوال تحدث في الأمة تخرّصٌ، وإفك، وقول بالباطل.

(ب) ﴿وَيُنَزَّلُ الْغَيْثُ﴾ أي: ويعلم متى ينزل المطر، وحساب الأرصاد الجوية، والحسابات الفلكية قد تخطئ وقد تصيب، فهي وإن كانت مبنية على حسابات علمية دقيقة، لكن العلم الحقيقي عند ربّ العالمين، فقد توافق وقد لا توافق.

(ج) ﴿وَيَعْلَمُ مَا فِي الْأَرْحَامِ﴾ أي: وهو وحده يعلم ما في الأرحام، يعلم ما تغيض الأرحام وما تزداد، ويعلم كون الجنين ذكرًا أو أنثى، يعلم سبحانه ذلك قبل التلقيح، وعند تلقيح البويضة، وقبل تكوين الجنين، أما معرفة كون الذكر والأنثى بعد بضعة أيام من تكوين الجنين، ورؤية ذلك عن طريق الصورة أو الأشعة، فليس هذا من قبيل الغيب؛ لأنه صار أمرًا موجودًا في بطن الأم يمكن تصويره ومعرفته بعد بضعة أيام من الحمل.

(د) ﴿وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا﴾ من الخير والشر، ومن الرزق والأجل، ومن

(١) «سنن ابن ماجة» (٢٣٧) و«صحيح سنن ابن ماجة» (١٩٤) و«السلسلة الصحيحة» (١٣٣٢) وفي «ظلال

الجنة» (٢٩٧/٢٩٩) بإسناد حسن.

النصر والهزيمة، وغير ذلك.

(هـ) ﴿وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾ [لقمان: ٣٤].

ثم فصل الله تعالى ما أجمل من مفاتيح الغيب في الآية التي معنا فقال: ﴿وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ﴾ وهذا تنبيه على أعظم المخلوقات المجاورة للبشر، فجميع ما في الأرض إما في بر، وإما في بحر، والله وحده يعلم ما فيه من عجائب وغرائب، يعلم العلم المحيط الشامل بهذا الكون، سمائه وأرضه، بره وبحره.

ولا يقتصر علمُ الله سبحانه على الكائنات الحية، بل الله جل شأنه يعلم حركة الجمادات وغيرها ﴿وَمَا تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا﴾ وهذا يمثل حركة الموت والفناء، فهو سبحانه يعلم الورقة التي تسقط أو تبقى، من نبات أو شجر، على سطح الأرض، يحيط بها علمُ ربِّ العالمين قبل الوقوع.

ويعلم أيضًا الحبة المخبوءة في جوف الأرض، وما يعتريها من تقلبات ﴿وَلَا حَبَّةٌ فِي ظُلُمْتِ الْأَرْضِ﴾ من حبوب الزروع والثمار وحبوب البذور التي يبذر الخلق، وبذور النبات البري، ويعلم الرطب واليابس، فهو سبحانه يعلم ما في ظلمات الأرض، وما في جوفها، وما هو أدنى من الورقة أو الحبة، وكل ذلك ﴿فِي كِتَابٍ مُبِينٍ﴾ هو اللوح المحفوظ، قد حواها واشتمل عليها.

والإنسان قد يضع حبةً في الأرض يتعهداها، ويرقب إنباتها، ولكن علم الله سبحانه أوسع من ذلك، فهو جل شأنه يعلم الحبة التي يضعها الإنسان، وهي مخبوءة في ظلمات الأرض، ويعلم مراحل ظهورها للمخلوق على وجه الأرض، ويعلم الحبة التي لا يضعها الإنسان، وهي موجودة في باطن الأرض، وفي ظلمات طبقاتها، يعلمها رب العالمين وحده، ويعلم الرطب واليابس في أرجاء الأرض جميعًا، وهو يمثل الحياة والموت لكل كائن حي.

وكلُّ ما في هذا الكون يحيط به علمُ ربِّ العالمين، واللوح المحفوظ مكتوبٌ فيه ما كان وما يكون إلى يوم الساعة، وقد كتبت أحوال الخلق في اللوح المحفوظ؛ لتقف الملائكة على نفاذ علمه سبحانه، ومن ثم يقابلونه يوم القيامة بما يحدث في صحيفة كلِّ إنسان؛ فيجدون المطابقة بينهما.

وَذَكَّرُ الله تعالى للحبة والورقة تنبيهاً على دقة الحساب يوم القيامة، وبعد أن جف القلم بما هو كائن، فعلم الله تعالى محيطاً بالكليات والجزئيات، وعلم الغيب مرده إلى الله وحده، وَمَنْ أتى كاهناً أو عرافاً فصدقه بما يقول، فقد كفر بما أنزل على محمدٍ.

وفي صحيح مسلم وغيره عن عائشة رضي الله عنها قالت: مَنْ زعم أن رسول الله ﷺ يُخبر بما يكون في غدٍ؛ فقد أعظم على الله الفرية، والله تعالى يقول: ﴿قُلْ لَا يَعْلَمُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ الْغَيْبَ إِلَّا اللَّهُ﴾ [النمل: ٦٥].^(١)

قال أبو حيان: وانظر إلى حسن ترتيب هذه المعلومات:

بدأ أولاً بأمر معقول لا ندركه نحن بالحس؛ وهو مفاتيح الغيب.

ثم ثنى بأمر ندرك كثيراً منه بالحس؛ وهو البر والبحر.

ثم ثلث بجزأين لطيفين؛ أحدهما: علوي، وهو سقوط الورقة من علو، وثانيهما: سفلي، وهو اختفاء حبة في بطن الأرض؛ فدل ذلك على أنه تعالى عالم بالكليات والجزئيات. قال تعالى:

٦٠ - ﴿وَهُوَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُم بِاللَّيْلِ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُم بِالنَّهَارِ ثُمَّ يَبْعَثُكُمْ فِيهِ لِيُقْضَىٰ أَجَلٌ مُّسَمًّى ثُمَّ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ ثُمَّ يُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾

ومن عِلْمِ الله الشامل بمفاتيح الغيب عِلْمُهُ بما يجري في جَنَابَاتِ الكون؛ أي: أن حياة البشر كلّها في قبضة الله تعالى، وفي علمه، وقدرته، وتدبيره، حال صحوها ومنامها، وموتها وبعثها، وحشرها وحسابها ﴿اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا فِيمِمْسِكَ الَّتِي قَضَىٰ عَلَيْهَا الْمَوْتَ وَيُرْسِلُ الْأَخْرَىٰ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ [الزمر: ٤٢]

فَعِلْمُ الله سبحانه يحيط بكم في الليل والنهار، وهو يعلم الحركات والسكنات حين تنام، وحين تُقبض الأنفاس في الوفاة الصغرى، وهي صورة من صورة الوفاة الكبرى.

والله سبحانه يعلم أحوالك كلّها، يعلمها وأنت نائم، ساكن هادئ، ويعلمها حين تُبعث

(١) الحديث بدون الآية في الصحيحين وهو في الترمذي مطولاً (٣٢٧٦) وصحيح الترمذي (٢٤٥٣) وأوله عن مسروق قال: كنت متكئاً عند عائشة، فقالت: يا أبا عائشة، ثلاث من تكلم بواحدة منهن فقد أعظم الفرية على الله. وذكرت رؤية النبي ﷺ لربه، وكتمان شيء من الوحي، وعِلْمُ ما في غد)

في النهار، وحيث تُرد الروح إلى الحواس إذا ذهب النوم، ويعلمها وأنت في سكونك وحركتك تتقلب بقدرة الله وتديره ﴿سَوَاءٌ مِنْكُمْ مَنْ أَسَرَّ الْقَوْلَ وَمَنْ جَهَرَ بِهِ وَمَنْ هُوَ مُسْتَخَفٌّ بِاللَّيْلِ وَسَارِبٌ بِالنَّهَارِ﴾ [الرعد].

هذا ما يشير إليه قوله تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي يَتَوَفَّنَا بِاللَّيْلِ﴾ أي: يقبض أرواحكم عند النوم بما يشبه قبضها عند الموت، ثم يبعثكم بالنهار ﴿وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُم بِالنَّهَارِ﴾ أي: ويعلم حركاتكم بالنهار، حين تتحركون لكسب أرزاقكم، وكسب الخير والشر، والحسنات والسيئات، وسائر أعمالكم ﴿ثُمَّ يَبْعَثُكُمْ فِيهِ﴾ ثم يحييكم في النهار بعد نومكم بالليل، فيعيد أرواحكم إلى أجسادكم باليقظة من النوم، بما يشبه الإحياء بعد الموت؛ حتى يستوفي كلُّ منا أجله المحتوم في وقته المحدد.

﴿لِيُقَضَّىٰ أَجَلٌ مُّسَمًّى﴾ هو القدر المقرر له في الدنيا بانتهاء أجله، وهو أجل الحياة ثم إلى الله معادكم بعد الموت؛ يبعثكم أحياء من قبوركم، وهذا هو الأجل الآخر، ويكون بالبعث بعد الموت ﴿ثُمَّ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ﴾ الكل يموت ويعود إلى الله سبحانه، ثم يخبركم بأعمالكم في الدنيا، ويجازيكم عليها ﴿ثُمَّ يُنْفِثُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ أي: يخبركم ربُّ العالمين بما قدمتموه في دنياكم من خيرٍ أو شرٍّ، وهذا مثل مضروب للبعث من القبور.

مِنْ مَّظَاهِرِ الْقُدْرَةِ الإِلَهِيَّةِ (الْمَوْتُ وَالْحَيَاةُ)

٦١- ﴿وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ وَيُرْسِلُ عَلَيْكُمْ حَفَظَةً حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَحَدَكُمْ الْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ^(١) رُسُلُنَا^(٢) وَهُمْ لَا يُفْرِطُونَ﴾

أي: أن الله تعالى فوق عباده فوقية مطلقة من كل وجه، فوقية تليق بجلاله، وهو سبحانه المدبِّرُ أَمْرَ عِبَادِهِ، المتصرف فيه، إليه يعود أَمْرُهُمْ في حياتهم، وبعد موتهم، وهم في قبضته في الدنيا والآخرة، والله سبحانه هو القوي القاهر فوق عباده، له الرقابة الدائمة

(١) قرأ حمزة (توفاه) بألف بعد الفاء مماله، وهو فعل ماضٍ حُذِفَتْ منه تاء التأنيث؛ لكون فاعله مجازي التأنيث، ويجوز أن يكون فعلاً مضارعاً، وأصله (تتوفاه) فحذف إحدى التائين، وقرأ الباقون (توفته) بتاء ساكنة مكان الألف على أنه فعل ماضٍ فاعله مؤنث مجازي.

(٢) قرأ أبو عمرو بإسكان السين من (رسلنا) والباقون بضمها.

عليهم، وإليه المصير المحتوم الذي لا مفرّ منه، ولا مهرب.

﴿وَهُوَ أَقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ﴾ ينفذ فيهم إرادته الشاملة، ومشيتته العامة، فلا يملكون من الأمر شيئاً ولا يتحركون ولا يسكنون إلا بإذنه سبحانه، تخضع له رقابُ الجبابرة، وهم تحت سلطانه وقهره، الكلُّ في قبضة الله سبحانه، خاضع لجلاله وعظمته، وتحت تصرفه في الدنيا والآخرة، ومن قَهَرِ الله تعالى لمخلوقاته، أنه سبحانه قَهَرَ العدم بالوجود والتكوين، وقَهَرَ الوجود بالفناء، وجعل لكل شيء ضداً، فيقهر النور بالظلمة، والظلمة بالنور، والنهار بالليل، والليل بالنهار.

قال الفخر الرازي: وتقدير هذا القهر من وجوه:

الأول: أنه سبحانه قهار للعدم بالتكوين والإيجاد.

الثاني: أنه سبحانه قهار للوجود بالفناء، فهو الذي يجعل العدم موجوداً، والموجود معدوماً، وهذا غاية القهر للكائنات.

الثالث: أنه تعالى قهار لكل ضدّ بضده، فيقهر النور بالظلمة، ويقهر الظلمة بالنور، ويقهر الليل بالنهار، والنهار بالليل، قال تعالى: ﴿إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [آل عمران: ٢٦] والإنسان يريد ألا ينام، فيغلبه النوم ويقهره، ويريد ألا يموت، فيقهره الموت، ومن ذلك قولهم: سبحان مَنْ قَهَرَ العباد بالموت.

ومع هذا القهر الإلهي، فقد وُكِّلَ الله بالعباد حفظه من الملائكة لحفظ عباده، ولحفظ أعمالهم، وإحصائها من خير أو شرٍّ، وهم مُوَكَّلُونَ بكتابة حسناتكم، وسيئاتكم، وأقوالكم، وأفعالكم، وأرزاقكم، وأجالكم، وأعمالكم، ويحفظونكم من الشرور.

قال تعالى: ﴿لَمْ مَعْجَبَتْ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ يَحْفَظُونَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا يَقُومُ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ وَإِذَا أَرَادَ اللَّهُ بِقَوْمٍ سُوءًا فَلَا مَرَدَّ لَهُ وَمَا لَهُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ آلٍ﴾ [الرعد]

وقال سبحانه: ﴿وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ ﴿١٥﴾ كِرَامًا كُنِينٍ ﴿١٦﴾ يَعْلَمُونَ مَا تَعْمَلُونَ ﴿١٧﴾﴾ [الأنفطار].

وفي الصحيحين عن أبي هريرة ؓ قال: قال رسول الله ﷺ: «يتعاقبون فيكم ملائكة بالليل وملائكة بالنهار، يجتمعون في صلاة الفجر والعصر، ثم يَعْرِجُ الذين باتوا فيكم،

فيسألهم ربهم وهو أعلم بهم: كيف تركتم عبادي؟ فيقولون: تركناهم وهم يصلون، وأتيناهم وهم يصلون»^(١).

وقال سبحانه: ﴿أَمْ يَحْسِبُونَ أَنَّا لَا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُمْ بَلْ وَرُسُلًا لَدَيْهِمْ يَكْتَثِبُونَ﴾ [الزخرف].

وورد أن كل إنسان معه ملكان، ملك عن يمينه يكتب الحسنات، وملك عن شماله يكتب السيئات، فإذا عمل حسنة كتبها صاحب اليمين، وإذا عمل سيئة قال صاحب اليمين: اصبر لعله يتوب منها، فإن لم يتب كتبها، وهما يسجلان عليه أقواله كما يسجلان أفعاله، قال تعالى: ﴿عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ قَعِيدٌ ﴿٧﴾ مَا يَلْفِظُ مِنْ قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عِنْدٌ ﴿٨﴾﴾ [ق] وهؤلاء الحفظة يحفظون عليه عمله، ورزقه، وأجله، فإذا وفى ذلك قبض إلى ربه.

ومن الملائكة، من هم موكلون بقبض أرواح العباد، قال تعالى: ﴿حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَحَدُكُمُ الْمَوْتُ﴾ انتهى عمره من الدنيا ﴿تَوَفَّاهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لَا يُفَرِّطُونَ﴾ والرُّسُلُ هم أعوان ملك الموت، يعالجون خروج الروح من أطراف الإنسان، ومن بنانه، وأصابع رجله، ويديه، وسائر جسده، حتى إذا بلغت الحلقوم انتزعها ملك الموت من الملائكة، وأخذها بنفسه، وهم لا يفرطون في هذه الروح، بل يحفظونها ويضعونها في موضعها، إن كانت من الأبرار ففي عليين، وإن كانت من الفجار -والعياذ بالله- ففي سجين، فلا يقصرون فيما أمروا به، ولا يضيعونه، قال تعالى: ﴿قُلْ يَتُوفَّكُم مَّلَكُ الْمَوْتِ الَّذِي ذُكِّرَكُمْ ثُمَّ إِلَيْكُمْ رُجُوعٌ ﴿١١﴾﴾ [السجدة].

قال مجاهد: جُعِلَت الأرض لملك الموت مثل الطست، يتناول من حيث شاء، وجعلت له أعوان، يتوفون الأنفس، ثم يقبضها منهم^(٢).

وقال قتادة: إن ملك الموت له رسل، فيلي-أي يتولى- قبضها -أي الأرواح- الرُّسُل، ثم يدفعونها إلى ملك الموت^(٣).

(١) «المستند» (١٠٣٠٩) بإسناد صحيح على شرط الشيخين، والبخاري (٥٥٥، ٣٢٢٣) ومسلم (٦٣٢)، ومالك في الموطأ (١٧٠/١) والبخاري (٣٨٠) والنسائي (٢٤٠/١) وابن حبان (١٧٣٧) وأبو يعلى (٦٣٣٠).

(٢) أخرجه عبد الرزاق (٢٠٩/١) والطبري (٢٩٢/٩) وأبو الشيخ (٤٣٦) وأبو نعيم في «الحلية» (٢٨٦/٣).

(٣) عبد الرزاق (٢٠٩/١) والطبري (٢٩٢/٩) وأبو الشيخ في «العظمة» (٤٥٥).

وجاء في حديث أبي هريرة رضي الله عنه أن المحتضر للموت تأتيه الملائكة، فإن كان رجلاً صالحاً؛ قالت: اخرجي أيتها النفس الطيبة وأبشري بروح وريحان، ورب غير غضبان، ثم يعرج بها إلى السماء، ويقال لها مثل ذلك، وإن كان الرجل رجلاً سوء، تقول: اخرجي أيتها النفس الخبيثة، وأبشري بحميم وغساق، وآخر من شكله أزواج، ثم يعرج بها إلى السماء، فيقال لها: لا مرحباً بالنفس الخبيثة، ارجعي ذميمة، فإن أبواب السماء لن تفتح لك، ثم ترجع إلى القبر^(١).

وليس المراد الرجل وحده في الحديث، بل المراد الإنسان، سواء أكان رجلاً أو امرأة، أما بعد الموت والحياة البرزخية وما فيها من خير وشر، فقد قال تعالى عنها:

٦٢- ﴿ثُمَّ رُدُّوْا۟ اِلَى اللّٰهِ مَوْلٰهُمُ الْحَقُّ اَلَا لَهُ الْحَكْمُ وَهُوَ اَسْرَعُ الْحٰسِبِيْنَ﴾

ثم صرَّح سبحانه بمصير الخلق جميعاً، وعودتهم إلى الله تعالى؛ حيث يرجع العباد بعد البعث إلى ربهم وخالقهم، صاحب الملك والتصرف فيهم، فيحاسبهم على ما قدمت أيديهم ﴿ثُمَّ رُدُّوْا۟ اِلَى اللّٰهِ مَوْلٰهُمُ الْحَقُّ﴾ فهو الذي تولاهم بأمره ونهيه، وأرسل إليهم الرسل وأنزل عليهم الكتب، ثم ردوا إليه ليتولَّى الحكم فيهم بالجزاء، ويشيهم على ما قدمت أيديهم ويعاقبهم على الشرور والآثام، الجميع يرجعون إلى رب العالمين؛ فيقضي بينهم بالعدل، لا يشغله شأن عن شأن، ولا يشغله حساب عن حساب، وحسابُ الله تعالى لخلقِهِ صادرٌ عن عِلْمِهِ بهم، فلا يحتاج إلى إعداد ولا تكلف.

وقد ورد أنه سبحانه يحاسب العباد في مقدار حلب شاة، وهو مقدار نصف يوم. ولَمَّا كان بعض الناس يوالي غير الله سبحانه، يَبَيِّن هنا أن الله مولاهم الحق، فهو الذي خلقهم، وإليه يعودون، أما ما كانوا يوالونه في الدنيا من آلهة مزعومة، أو من غير المؤمنين، فقد كانت ولاية باطلة، وهو سبحانه ﴿اَسْرَعُ الْحٰسِبِيْنَ﴾ لكمال علمه وحفظه، وما أثبتته في اللوح المحفوظ، وما أثبتته الملائكة في صحف الأعمال.

(١) ينظر نص الحديث في «مسند أحمد» (٤١٣/١١) وهو برقم (٨٧٥٤) بتحقيق الشيخ أحمد شاكر رحمته الله، وقال: صحيح، وقال محققو «المسند»: إسناده صحيح على شرط الشيخين (٢٥٠٩٠) وفي «مسند أبي هريرة» برقم (٨٧٦٩) وأخرجه البيهقي في «عذاب القبر» (٣٠). وابن ماجه (٤٢٦٢) والنسائي في الكبرى (١١٤٤٢) وابن حبان (٣٠١٤) والطبراني في الأوسط (٧٤٦).

وهذه الآيات الثلاث أقامت البراهين على كمال قدرة الله تعالى، ونفاذ إرادته، ومحاسبته لعباده يوم القيامة على ما قدموا وأخروا.

مِنْ دَلَائِلِ التَّوْحِيدِ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ:

٦٣- ﴿قُلْ مَنْ يُنَجِّيكُمْ^(١) مِنْ ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ تَدْعُونَهُ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً^(٢) لَّيْنًا أَنْجَنَّا^(٣) مِنْ هَٰذِهِ لَتَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ ﴿١٣﴾﴾

ثم تدعو هذه الآية المشركين بالله تعالى إلى تحكيم فطرتهم في توحيد الخالق سبحانه وإفراده بالعبادة، فالهول والكرب يصيبهم في الدنيا، وساعتها يلجؤون إلى الله وحده، فلماذا ينسون بعد كشف الضر عنهم ﴿هُوَ الَّذِي يُسِرُّكُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ حَتَّىٰ إِذَا كُنْتُمْ فِي الْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِمْ بِرِيحٍ طَبَئًا وَفَرَحُوا بِهَا جَاءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَاءَهُمُ الْمَوْجُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ لَئِنْ أَنْجَيْتَنَا مِنْ هَٰذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ ﴿١٣﴾﴾ فَلَمَّا أَنْجَيْنَهُمْ إِذَا هُمْ يَبْغُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ ﴿يونس﴾]

﴿أَمَّنْ يَهْدِيكُمْ فِي ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَنْ يُرْسِلُ الرِّيَّاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ أَلَيْسَ اللَّهُ بِتَعَالَىٰ اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿١٣﴾﴾ [النمل].

وظلمة البر: ما اجتمع فيه ظلمة الليل وظلمة السحاب؛ فيحصل الخوف الشديد؛ لعدم الاهتداء إلى الطريق.

وظلمة البحر: ما اجتمع فيه ظلمة الليل وظلمة الرياح العاصفة والأمواج الهائجة؛ فيحصل الخوف من الغرق.

والتضرع: المبالغة في الضراعة إلى الله تعالى مع الذل والخضوع.

وعند اجتماع هذه الأسباب الموجبة للخوف لا يلجأ الإنسان إلا إلى الله تعالى،

(١) قرأ يعقوب (مَنْ يُنَجِّيكُمْ) بإسكان النون وتخفيف الجيم مضارع (أنجى)، والباقون (مَنْ يُنَجِّيكُمْ) بفتح النون وتشديد الجيم مضارع (نَجَّى).

(٢) قرأ شعبة (وَخُفْيَةً) بكسر الخاء، والباقون (وَخُفْيَةً) بضم الخاء.

(٣) قرأ عاصم وحزمة والكسائي وخلف (لئن أنجانا) بألف بعد الجيم من غير ياء ولا تاء بلفظ الغيب، والباقون (لئن أنجيتنا) بياء بعد الجيم بعدها تاء مفتوحة على الخطاب حكاية لدعائهم.

وينقطع رجاءه عن كل ما سواه؛ فيدعو ربه ﴿تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً﴾ أي: سرًا وجهراً من لسانه وقلبه، ظاهراً وباطناً، مخلصاً له الدعاء، وبهذا يظهر أصل الفطرة في الإنسان، وأكثر الناس يلجؤون إلى الله تعالى عند الخوف والشدة، فإذا أمنوا وذهب ما بهم من ضُرٍّ رجعوا إلى عادتهم التي كانوا عليها.

والمعنى: قل - أيها الرسول - لهؤلاء المشركين: مَنْ ينقذكم من الشدة في لحظات الضيق وساعات اليأس وهي كثيرة؟ أليس هو الله الذي تدعونه متذللين له في الشدائد وتقولون: لئن أنجانا من هذه المخاوف؛ ل نكونن من الشاكرين بعبادته وحده دون سواه؟

والله سبحانه يقول للمشركين وللمنافقين ولضعاف الإيمان: إلى مَنْ تلجؤون حين يصيبكم الضر، وتضيق بكم السُّبل، وتخافون الوقوع في المهالك؟ ﴿وَإِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فِي الْبَحْرِ ضَلَّ مَنْ تَدْعُونَ إِلَّا إِلَهُه فَلَمَّا نَجَّكُمْ إِلَى الْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ وَكَانَ الْإِنْسَانُ كَفُورًا﴾ [الإسراء] أي: وأنتم في حالة الشدة والكرب لا تدعون إلا الله، وتنسون شرككم وتلجؤون إلى الله وحده.

﴿قُلْ مَنْ يُنَجِّكُمْ مِنْ ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ﴾ حين تحيط بكم ألوان الشدائد والأهوال في البر والبحر ﴿تَدْعُونَهُ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً﴾ أي: أنكم لا تلجؤون إلا إلى الله وحده حين يمسكم الضر، وتقعون في الشدة؛ حيث تدعونه سرًا وجهراً، بيبكاء وضراعة، وخشية وخوف من الله سبحانه، وتقولون: ﴿لَئِنْ أُنجَيْنَا مِنْ هَٰذِهِ الشَّدَّةِ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ﴾ المعترفين بنعمته وأول مقتضيات الشكر توحيد الباري سبحانه، وإفراده بجميع أنواع العبادة. قال تعالى:

٦٤- ﴿قُلِ اللَّهُ يُنَجِّكُمْ^(١) مِنْهَا وَمِنْ كُلِّ كَرْبٍ ثُمَّ أَنْتُمْ تُشْرِكُونَ﴾

ثم يأمر الله رسوله أن يذكر أهل الشرك بأن الله وحده هو الذي يُنقذهم من كل شدة، ومن كل ضيق، ومن كل غم، ثم أنتم - أيها الجاحدون - تشركون بالله بعد ذلك، وتنسون نعمة الله عليكم، فأبي برهان أوضح من هذا على بطلان الشرك وصحة التوحيد!!

قل لهم - يا محمد -: الله سبحانه هو الذي ينجيكم من هذه الظلمات، ومن كل كرب، ولكنكم لا تستقيمون على الإيمان، وإنما تعودون إلى شرككم بعد أن ينجيكم الله

(١) قرأ نافع وابن كثير وأبو عمرو وابن ذكوان ويعقوب (قل الله يُنَجِّكُمْ) بإسكان النون وتخفيف الجيم مضارع (أنجي)، والباقون (قل الله يُنَجِّكُمْ) بفتح النون وتشديد الجيم مضارع (نجى).

من الشدة، فأنتم تتعرفون على الله في الشدة، وتنسونه في الرخاء.

أَلْوَانٌ مِّنْ عِقَابِ اللَّهِ لِلْأُمَمِ الْمَكْذِبَةِ بِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ (الْخَسْفُ وَالزَّلَازِلُ وَالْاِخْتِلَافُ)

٦٥- ﴿قُلْ هُوَ الْقَادِرُ^(١) عَلَىٰ أَنْ يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِّنْ فَوْقِكُمْ أَوْ مِنْ تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ أَوْ يَلْسَنَكُمْ شِعْرًا وَيُلَيِّقَ بَعْضُكُم بِأَس^(٢) بَعْضٍ^(٣) أَنْظَرْ كَيْفَ نُصْرَفُ الْأَلْبَتِ لَعَلَّهُمْ يَنْفَهُونَ

وفي هذه الآية نوعٌ من بأس الله وعقابه لهذه الأمة حال الإقامة على المعاصي، وهو عقاب مستمر يتكرر، وفي هذا تهديدٌ ووعدٌ لكل من أشرك بالله تعالى، وتذكيرٌ بقدرة الله سبحانه؛ حتى يخشوا بأسه في السراء والضراء، والسر والعلانية، فالله سبحانه هو القادر على أن يُعَذِّبَ هذه الأمة عذاب استئصال؛ بأن يبديها ويهلكها، كما فعل بالأمم السابقة؛ كقوم لوط، وقوم صالح، وقوم هود، فيرسل عليهم الرجفة، أو الصاعقة، أو الصيحة، أو حجارة ترميهم من سجيل، أو يخسف بهم الأرض، كقارون، ولكنه جل شأنه أراد لهذه الأمة البقاء، وأراد لرسالة محمد ﷺ أن تبقى إلى يوم الساعة.

فالأمم التي دُمرت، وأهلكت عن بكرة أبيها، انتهت فيها مدة الرسالة، ولم يرد الله لها بقاءها إلى يوم الساعة، أما أمة محمد ﷺ فهي باقية، ورسالتها قائمة إلى يوم الساعة؛ ولذلك فإن الله سبحانه لم يعذب هذه الأمة عذاب استئصال لسببين:

أحدهما: وجود الرسالة الخاتمة فيهم. ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ﴾.

أي: وما كان الله ليبيدهم ويهلكهم وأنت فيهم -أيها النبي- برسالتك القائمة إلى يوم القيامة.

وثانيهما: كثرة الاستغفار ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾ [الأنفال: ٣٣] فالاستغفار، وكثرة التضرع، والرجوع إلى الله سبحانه من أسباب رفع العذاب عن الأمة.

(١) قرأ الأزرق عن ورش بترقيق الراء وتفخيمها من لفظ (القادر)، والباقون بالتفخيم.

(٢) قرأ أبو جعفر وأبو عمرو بخلف عنه بإبدال الهمزة ألفاً من لفظ (بأس) ومعهما حمزة عند الوقف.

(٣) قرأ أبو عمرو وعاصم وحمزة ويعقوب وقنبل وابن ذكوان بخلف عنهما بكسر التثوين وصلًا من (بعض) انظر)، والباقون بالضم، ومعهم قنبل وابن ذكوان في الوجه الآخر.

قال تعالى: ﴿قُلْ هُوَ الْقَادِرُ عَلَىٰ أَنْ يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِّنْ فَوْقِكُمْ﴾ كما فعل بقوم نوح في الطوفان، وقوم لوط، وأصحاب الفيل الذين رُجموا بحجارة من سجيل، وكالصيحة، أو الصاعقة، أو الريح التي نزلت بقوم صالح، وبقوم هود، وما أشبه ذلك.

﴿أَوْ﴾ يبعث عليكم عذابًا ﴿مِّنْ تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ﴾ بالخسف، والرجفة، والزلازل، والبراكين، كما فعل بقارون، وقوم شعيب ﴿فَنَسَفْنَا بِهِ وَبِدَارِهِ الْأَرْضَ فَمَا كَانَ لَهُ مِنْ فِئَةٍ يَنْصُرُوهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَمَا كَانَتْ مِنَ الْمُنتَصِرِينَ﴾ [القصص: ٨١].

لَمَّا نزلت هذه الآية ﴿قُلْ هُوَ الْقَادِرُ عَلَىٰ أَنْ يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِّنْ فَوْقِكُمْ﴾ قال النبي ﷺ: «أعوذ بوجهك» قال الله سبحانه: ﴿أَوْ مِنْ تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ﴾ قال عليه الصلاة والسلام: «أعوذ بوجهك» قال: ﴿أَوْ يَلْسَنُكُمْ شَيْعًا وَيُذِيقَ بَعْضُكُم بَأْسَ بَعْضٍ﴾ أي: يجعلكم فرقًا مختلفة الأهواء، ويبث فيكم الفتن، والجدال، والخصام، والصراع، والنزاع، والاختلاف، والتفرق، وهذا البأس يصيب الله به الأمة كلما انحرفت عن منهج الله، فهو عذابٌ بطيء؛ ولذا قال عليه الصلاة والسلام: «هذه أهون».

وقد صح عن رسول الله ﷺ أنه سأل ربه ثلاثة أشياء؛ فأعطاه اثنين، ومنعه واحدًا، سأل أن يرفع عن أمته عذابًا يأتيها من فوقها؛ فأعطاه الله ذلك، وسأل أن يرفع عن أمته عذابًا يأتيها من تحتها؛ فأعطاه الله ذلك^(١).

فالعذاب الذي يأتي للإنسان من فوق أو من تحت لا قِبَلَ له برده؛ لأن قوته قاهرة فوق طاقته، وهو عذاب غلاب ليس باستطاعتك أن تدفعه.

أما العذاب الذي يأتيك من يمينك، أو من يسارك، أو من أمامك، أو من خلفك، فإنك تستطيع أن تدفعه وأن ترده، بخلاف العذاب الذي يأتي من فوق أو من تحت فإنه يخسف بالعتاة والجبابرة وكبار الرؤوس، مهما أوتوا من أسلحة، أو ذخائر، فليس بأيديهم أن يمنعوا هذا العذاب ﴿وَيُذِيقَ بَعْضُكُم بَأْسَ بَعْضٍ﴾ أي: يقاتل بعضهم بعضًا، ويُعادي بعضهم بعضًا.

عن زيد بن أسلم قال: لَمَّا نزلت هذه الآية قال رسول الله ﷺ: «لا ترجعوا بعدي كفارًا يضرب بعضهم رقاب بعض بالسيوف» قالوا: ونحن نشهد أن لا إله إلا الله وأَنَّ

(١) يأتي نص الحديثين قريبًا.

رسول الله؟ قال: «نعم» فقال بعض الناس: لا يكون هذا أبداً أن يقتل بعضنا بعضاً ونحن مسلمون؛ فنزلت ﴿أَنْظِرْ كَيْفَ نَضْرِفُ الْآيَاتِ لَعَلَّهُمْ يَفْقَهُونَ لَا وَكَذَّبَ بِهِ قَوْمُكَ وَهُوَ الْحَقُّ﴾^(١).

قال تعالى: ﴿ءَأَمِنْتُمْ مَنْ فِي السَّمَاءِ أَنْ يَخِفَّ بِكُمْ الْأَرْضَ فَإِذَا هِيَ تَمُورُ﴾^(٢) أَمْ أَمِنْتُمْ مَنْ فِي السَّمَاءِ أَنْ يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا فَسَتَعْلَمُونَ كَيْفَ نَذِيرِ ﴿٧﴾ [الملك].

قال ابن عباس: ييث فيكم الأهواء المختلفة فتصبرون فرقاً^(٣).

وقال البيضاوي: يخلطكم فرقاً متحزبين على أهواء شتى؛ فينشب القتال بينكم^(٣).

هذا، وسياق هذه الآية، مع ما قبلها وما بعدها، يشير إلى أن الخطاب فيها موجه للمشركين في هذه الأمة، خشية أن تصيب من بجوارهم من المسلمين؛ فيعمهم الله بعقاب، كما قال تعالى: ﴿وَاتَّقُوا فِتْنَةً لَا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ خَاصَّةً﴾ [الأنفال: ٢٥].

وكما جاء في الحديث: قالوا: يا رسول الله، أنهلك وفينا الصالحون؟ قال: «نعم، إذا كثر الخبث»^(٤).

وقد أذاق الله المشركين بأس المسلمين في غزوات وحروب كثيرة؛ ولذا قال النبي ﷺ عن الثالثة: «هذه أهون» أو «أيسر»؛ أي: أن القتل إذا حلّ بالمشركين فسيلحق المسلمين منه أذى كثير، ولكنه أهون وأيسر من عذاب الاستئصال، والقضاء على هذا الدين. ويصح أن يكون المعنى: أن النبي ﷺ استعاذ أن يقع مثل ذلك بين المسلمين^(٥).

(١) «تفسير الطبري» (١٤٣/٧) و«أسباب النزول» للسيوطي (١١٧) و«تفسير ابن كثير» (٢/٢٧٧) وابن أبي حاتم (٧٤١٨) وبعض الحديث في «المسند» (٢٠٣٦) عن ابن عباس، بإسناد صحيح على شرط البخاري، وجاء أيضاً عن ابن مسعود (٣٨١٥) وابن عمر (٥٥٧٨) وغيرهم. وفي «البخاري» برقم (٤٤٠٣) عن ابن عمر، وفي مسلم (٦٦) وروايات كتب الحديث إلى (رقاب بعض) والزائد على ذلك من كتب التفسير وأسباب النزول. (٢) «زاد المسير» (٥٩/٣).

(٣) «تفسير البيضاوي» ص ١٧٣.

(٤) من حديث زينب بنت جحش ؓ في «البخاري» (٣٣٤٦، ٣٥٩٨) ومسلم (٢٨٨٠).

(٥) ينظر: «تفسير ابن عاشور» (٧/٢٨٤).

قال سبحانه: ﴿أَنْظِرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ الْآيَاتِ لَعَلَّهُمْ يَفْقَهُونَ﴾ كيف ننوع الحجج الواضحة لأهل الشرك ونأتي بها على أوجه كثيرة لعلهم يفهمون فيتعظوا ويعتبروا.

هذا، وقد ذكر الحافظ ابن كثير عند تفسير هذه الآية الحديث الذي سأل فيه النبي ﷺ ربّه أن يرفع عن أمته أنواع العذاب الثلاثة التي تضمنتها الآية، فأعطاه الله اثنين ومنعه الثالث، واستقصى ﷺ طرق الحديث الأربعة والعشرين، ونحن نُورد منها بعض ما صحت به الرواية:

١- عن جابر بن عبد الله ؓ قال: لما نزلت هذه الآية ﴿قُلْ هُوَ الْقَادِرُ عَلَى أَنْ يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِّنْ فَوْقِكُمْ﴾ قال رسول الله ﷺ: «أعوذ بوجهك».

﴿أَوْ مِنْ تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ﴾ قال: «أعوذ بوجهك».

﴿أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيْعًا وَيَذِيقَ بَعْضُكُم بِأَسْبَعْ﴾ قال رسول الله ﷺ: «هذا أهون» أو قال: «هذا أيسر»^(١).

٢- وعن سعد بن أبي وقاص، عن أبيه قال: أقبلنا مع رسول الله ﷺ حتى مررنا على مسجد بني معاوية؛ فدخل فصلى ركعتين، فصلينا معه، فناجى ربه ﷻ طويلاً، قال: «سألت ربي ثلاثاً: سألته ألا يهلك أمتي بالغرق فأعطانيها، وسألته ألا يهلك أمتي بالسنّة فأعطانيها، وسألته ألا يجعل بأسهم بينهم فمنعنيها»^(٢).

٣- عن جابر بن عتيك قال: جاءنا عبد الله بن عمر في بني معاوية -قرية من قرى الأنصار- ، فقال لي: هل تدري أين صلى رسول الله ﷺ في مسجدكم هذا؟ فقلت: نعم، فأشرت إلى ناحية منه، فقال: هل تدري ما الثلاث التي دعا بهن فيه؟ فقلت: نعم، قال: فأخبرني بهم،

(١) البخاري في التفسير برقم (٤٦٢٨) وفي الاعتصام (٧٣١٣) وفي التوحيد (٧٤٠٦) والترمذي في التفسير (٣٠٦٥) وقال: حسن صحيح، وابن حبان في فضل الأمة (٧١٧٦) والنسائي في التفسير (١٨٤) وفي السنن الكبرى (١١١٦٤) والبيهقي في «الأسماء والصفات».

(٢) حديث صحيح، رجاله كلهم ثقات، وهو في «المستد» (١٧٥/١) برقم (١٥١٦، ١٥٧٤) بإسناد صحيح على شرط مسلم، ورجال ثقات، وفي مسلم في الفتن (٢٢١٦/٤) برقم (٢٨٩٠) وابن خزيمة (١٢١٧) وابن حبان (٧٢٣٧) وابن أبي شيبة (٣٢٠/١٠) والبزار (١١٢٥) والبخاري (٤٠٤١).

فقلت: دعا أن لا يَظْهَرَ عليهم عدوًا من غيرهم، ولا يهلكهم بالسنين، فأُعْطِيَهُمَا، ودعا بأن لا يجعل بأسهم بينهم، فَمُنِعَهَا، قال: صدقت، فلا يزال الهرج إلى يوم القيامة^(١).

٤- قال خباب بن الأرت: راقبت رسول الله ﷺ في ليلة صلاها كلها، حتى كان مع الفجر، فسلم من صلاته، قلت: يا رسول الله، لقد صليت الليلة صلاة ما رأيتك صليت مثلها، فقال رسول الله ﷺ: «أجل، إنها صلاة رَغَبَ وَرَهَبَ، سألت ربي ﷻ فيها ثلاث خصال؛ فأعطاني اثنتين، ومنعني واحدة؛ سألت ربي ﷻ ألا يهلكنا بما أهلك به الأمم قبلنا؛ فأعطانينا، وسألت ربي ﷻ ألا يظهر علينا عدوًا من غيرنا؛ فأعطانينا، وسألت ربي ﷻ أن لا يلبسنا شيعًا؛ فمَنَعْنِيهَا»^(٢).

٥- وعن شداد بن أوس أن رسول الله ﷺ قال: «إن الله زوى لي الأرض حتى رأيت مشارقها ومغاربها، وإن مثلك أمتي سيلغ ما زُويَ لي منها، وإني أعطيت الكثرَينِ الأبيضَ والأحمرَ، وإني سألت ربي ألا يهلك أمتي بسنةٍ بعامة، وألا يسلط عليهم عدوًا فيهلكهم بعامة، وألا يلبسهم شيعًا، وألا يذيق بعضهم بأس بعض، فقال: يا محمد، إني إذا قضيت قضاء؛ فإنه لا يرد، وإني قد أعطيتك لأمتك ألا أهلكهم بسنة بعامة، وألا أسلط عليهم عدوًا من سواهم فيهلكهم بعامة، حتى يكون بعضهم يهلك بعضًا، وبعضهم يقتل بعضًا، وبعضهم يسبي بعضًا» وقال: قال النبي ﷺ: «إني لا أخاف على أمتي إلا الأئمة

(١) «مسند أحمد» (٤٤٥/٥) برقم (٢٣٧٤٩) و«المستدرک» (٥١٧/٤) قال محققو «المسند»: حديث صحيح، وقال ابن كثير: ليس في شيء من الكتب الستة، وإسناده جيد قوي، وقال الهيثمي في «مجمع الزوائد» (٢٢١/٧): رجاله ثقات، وله شاهد في صحيح مسلم (٢٨٩٠) ومن حديث سعد بن أبي وقاص في المسند (١٥١٦) وأخرج رواية ابن عمر ابن أبي عاصم في الأحاد والمثاني (٢١٤٠) وفي الموطأ من رواية يحيى الليثي (٢١٦/١) وأبي مصعب الزهري (٦٢٤) وهو عند الحاكم (٥١٧/٤).

(٢) رجاله رجال الشيخين، وهو في «المسند» (١٠٨/٥) برقم (٢١٠٥٣، ٢١٠٥٥) بإسناد صحيح، (محققوه) والطبراني (٣٦٢١) والترمذي (٤٠٩/٤) باب (١٤) برقم (٢١٧٥) من حديث الزهري، و«صحيح سنن الترمذي» (١٧٦٧) وفي «سنن النسائي» (٢١٦/٣) برقم (١٦٣٧) و«صحيح ابن حبان» (١٨٠/٩) والنسائي في «السنن الكبرى» كما في «تحفة الأشراف» (١١٥/٣).

المضللين، فإذا وضع السيف في أمتي لم يرفع عنهم إلى يوم القيامة»^(١).

٦- في حديث ابن مسعود وابن عمرو وغيرهما: «ليكونن في هذه الأمة قذف وخسف ومسح»^(٢).

٧- وفي حديث أبي هريرة ؓ أن رسول الله ﷺ قال: «افترقت اليهود على إحدى وسبعين فرقة، وافترقت النصارى على ثنتين وسبعين فرقة، وتفرق أمتي على ثلاث وسبعين فرقة»^(٣).

قال أبي بن كعب في هذه الآية: هن أربع، وكلهن عذاب، فجاءت اثنتان بعد وفاة رسول الله ﷺ بخمس وعشرين سنة، فألبسوا شيعاً، وذاق بعضهم بأس بعض، وبقيت اثنتان، وهما لا بد واقعتان؛ يعني: الخسف والرجم^(٤).

وقال مجاهد في قوله تعالى: ﴿مِن فَوْقِكُمْ أَوْ مِن تَحْتَ آرْجُلِكُمْ﴾ لأمة محمد، فأعفاهم منه ﴿أَوْ يَلْسَكُم شِيعًا﴾ ما كان بينهم من الفتن والاختلاف، زاد غيره: ﴿وَيَذِيقُ بَعْضُكُم بِأَسَ بَعْضٍ﴾

(١) أخرجه عبد الرزاق (٢١٠/١) والطبري (٣٠٣٣/٩) وقال ابن كثير: ليس في شيء من الكتب الستة، وإسناده جيد قوي وهو في «المسند» (١٢٣/٤) برقم (٢٢٣٩٥) و(٢٢٤٥٢) وإسناده صحيح على شرط مسلم (محققه) قال الهيثمي في «مجمع الزوائد» (٢٢١/٧): رجال أحمد رجال الصحيح، وبنحوه عن ثوبان في مسلم (٢٢١٥/٤) برقم (٢٨٨٩)، وأبو داود (٤٢٥٢) مختصراً والطيالسي (٩٩١) والترمذي (٢١٧٦).

(٢) جاء هذا الحديث عن سبعة عشر صحابياً، وهو في «المسند» (١٦٣/٢) برقم (٦٥٢١) عن عبد الله بن عمرو، حسن لغيره (محققه) وأبي داود (٤٢٥٢) والترمذي (٢١٧٦) وابن ماجه (٣٩٥٢) وصحيح ابن ماجه (٣٢٨٣) والبخاري (٣٨٧) وابن حبان (٦٧١٤) والحاكم (٤٤٩/٤) والسلسلة الصحيحة (٣٩٤/٤) والروض النضر (١٠٠٤).

(٣) حديث حسن كما في «صحيح سنن أبي داود» (٣٨٤) والترمذي (٢٦٤٠) وابن ماجه (٣٩٩١) والحاكم (١٢٨/١) ومن حديث عوف بن مالك في «سلسلة الأحاديث الصحيحة» (١٤٩٢) و«صحيح سنن ابن ماجه» (٣٢٢٦).

(٤) ينظر: «المسند» (١٣٤/٥) برقم (٢١٢٢٧) قال محققو «المسند»: إسناده ضعيف لضعف أبي جعفر الرازي، وهو في الطبري (٤٢٢/١١) وأخرجه الهيثمي في «مجمع الزوائد» (٢١/٧) ثم قال: رواه أحمد ورواته ثقات، وقال هو والحافظ ابن حجر: إن أبي بن كعب لم يدرك زمن الفتنة؛ أي: سنة خمس وعشرين بعد وفاة الرسول ﷺ، وكأنه أكمل من رواية أبي العالية المذكورة، وهو عند ابن أبي شيبة (١٥/١٨٠) والضياء المقدسي في «المختارة» (١١٤٩) وغيرهم.

يعني: ما كان من القتل بعد وفاة رسول الله ﷺ.

قلت: والآية ماضية إلى يوم القيامة، وسُنَّه الله في خَلْقِهِ لا تتخلف، والواقع المعاصر يوضح الآية ويفسرها.

وهكذا، فالتفرق الدائم داءٌ وبيل، تصاب به الأمة كلما تهيأت أسبابه، ولم تتحصن منه بما ينبغي، كما يصاب الفرد بالمرض إذا أهمل الوقاية، أو قصّر في العلاج.

وَتَفَرَّقُ الْأُمَّةُ لَيْسَ دَائِمًا فِي كُلِّ الْأَزْمَنَةِ وَالْأَمَكْنَةِ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ، بَلْ يَأْتِي عَلَى طَرِيقِ التَّنْبِيهِ وَالْإِيقَازِ مِنَ الْغَفْلَةِ لِلتَّمَسُّكِ بِمَثَلِ قَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿وَأَعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا﴾ [آل عمران: ١٠٣] وقوله: ﴿وَلَا تَنَزَعُوا فَنَفْسُلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ﴾ [الأنفال: ٤٦]

فالتفرق عقوبة، ترتفع عن الأمة كلما أخذت في الاعتصام بحبل الله، وهذا التمسك يبدو جليًا عندما تكون الأمة في مواجهة عدو لها، كما يحدث حاليًا من الوقوف صفًا واحدًا تجاه اليهود، وإن اعتري ذلك شيء من المداراة أو المصالح تفاديًا للضرر الأكبر. قال تعالى:

٦٦- ﴿وَكَذَّبَ بِهِ قَوْمُكَ وَهُوَ الْحَقُّ قُلْ لَسْتُ عَلَيْكُمْ بِكِيلٍ^(١)﴾

ثم يأمر الله رسوله أن يصارح المكذبين بسوء مصيرهم إذا استمروا في ضلالهم ﴿وَكَذَّبَ بِهِ قَوْمُكَ﴾ أي: وكذب بهذا القرآن الذي جتهد به، الكفار من قومك، وهو الكتاب الصادق، فكل ما جاء به حق، كما قال تعالى: ﴿قُلْ إِنِّي عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي وَكَذَّبْتُم بِهِ﴾ [الأنعام: ٥٧] أي: وكذبتُم بهذا القرآن.

ويصح أن يعود الضمير على العذاب الذي توعدّهم به رسول الله ﷺ، ولم يؤمنوا، قل لهم: لست عليكم بحفيظ ولا رقيب، أحفظ أعمالكم وأجازيكم عليها، إنما أنا مبلغٌ عن ربي، وقد نصحتُ لكم، ولكن لا تحبون الناصحين، كما قال تعالى: ﴿فَإِنْ أَعْرَضُوا فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِظًا إِنْ عَلَيْكَ إِلَّا الْبَلَاغُ﴾ [الشورى: ٤٨]. قال تعالى:

٦٧- ﴿لِكُلِّ نَبَلٍ مُّسْتَقَرٌّ وَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾

ثم يُخْتَم هذا السياق بهذا التهديد ﴿لِكُلِّ نَبَلٍ مُّسْتَقَرٌّ﴾ لكلّ خبر من أخبار القرآن موعّدٌ

(١) عدّ لفظ (بوكيل) آية، الكوفي، وأسقطها غيره من العدد.

وغاية يتحقق فيه، ونهاية ينتهي إليها، يعرف عندها الصدق من الكذب، ولكل خبر وقت يستقر فيه وزمان لا يتقدم عنه ولا يتأخر ﴿وَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ أيها الكفار عاقبتكم في الدنيا وفي الآخرة عند حلول العذاب بكم، وتعلمون كذلك صدق رسول الله ﷺ، وصدق ما جاء به هذا الكتاب العزيز، فالباطل يزول، والحق يثبت، وفي هذا تهديد ووعد لهم، قال تعالى: ﴿وَقُلِ الْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ فَمَن شَاءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَاءَ فَلْيُكْفُرْ﴾ [الكهف: ٢٩] أي: إنما عليّ البلاغ، وعليكم السمع والطاعة، فمن تبعني فقد سعد في الدنيا والآخرة، ومن خالفني فقد شقي في دنياه وأخراه.

وجوب الإعراض عن مجالس المستهزئين بالإسلام ونضحهم

٦٨- ﴿وَإِذَا رَأَيْتَ الَّذِينَ يَخُوضُونَ فِي آيَاتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّى يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ وَإِمَّا يُنسِيَنَّكَ الشَّيْطَانُ فَلَا تَقْعُدْ بَعْدَ الذِّكْرِى مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ (١٨)

وبعد تبليغ الدعوة للناس، فإذا وجد المسلم في مجلس ما من يكفر أو يستهزئ بشيء من القرآن أو يسخر منه؛ أو يتكلم بما يخالف الحق، فيعرض عنه أو يقدح فيه، أو يزعم عدم صلاحيته للزمان والمكان، فعليه أن يقاطع هذا المجلس بعد أن يأمرهم بالمعروف، وينهاهم عن المنكر، فالخطاب في الآية موجهٌ إلى كل مسلم، لا سيما الدعاة إلى الله تعالى، وعلة هذا النهي هي الطعن في الإسلام، وسماع الخوض فيه.

قال ابن جريج: كان المشركون يجلسون إلى النبي ﷺ، يحبون أن يسمعوا منه، فإذا سمعوا استهزؤوا؛ فنزلت الآية، فكان ﷺ بعد ذلك إذا استهزؤوا قام؛ فحذروا وقالوا: لا تستهزؤوا فيقوم (٢).

وقال سعيد بن جبير: لما هاجر المسلمون إلى المدينة جعل المنافقون يجالسونهم، فإذا سمعوا القرآن خاضوا واستهزؤوا كفعل المشركين بمكة، فقال المسلمون: لا حرج علينا،

(١) قرأ ابن عامر (يُسَيِّئُكَ) بفتح النون وتشديد السين مضارع (نَسَى)، والباقون (يُسَيِّئُكَ) بإسكان النون وتخفيف السين مضارع (أَنَسَى)، وهما لغتان، والمفعول الثاني محذوف؛ أي: ما أمرت به من ترك مجالسة الخائضين في آياته فلا تقعد معهم بعد التذكر.

(٢) ينظر: «تفسير الطبري» (٣١٧/٩).

قد رخص الله لنا في مجالستهم، وما علينا من خوضهم؛ فنزلت بالمدينة^(١).

والمعنى: إذا رأيت مَنْ يتكلم بالباطل في القرآن؛ فابتعد عنه حتى ينتقل إلى حديث آخر، فإن نسيت وقعدت معهم ثم تذكرت فلا تجلس بعد تذكرك، فقد يجلس الإنسان مع مَنْ يسخرون بشيء من أحكام الإسلام، كتطبيق الحدود مثلاً، أو فيما يتعلق بأحكام المرأة، كحجابها وميراثها، وغير ذلك مما جاء به القرآن، أو جاء به رسول الله ﷺ، وقد يُبتلى الإنسان ببعض مَنْ لا فقه عندهم من عوام المسلمين، الذين يتأثرون بمخالطتهم غير المسلمين، فيقع على ألسنتهم شيء من هذا الاستخفاف والاستهزاء، أو التكذيب بطريقة ما، فالجِدُّ والهزل في هذه الحالة يستويان.

وقد قال الله سبحانه عَمَّنْ اعتذروا بعد خوضهم في شأن الصحابة والرسول ﷺ: ﴿وَلَمَّا سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ قُلْ أَبِاللَّهِ وَآيَاتِهِ وَرَسُولِهِ كُنْتُمْ تَسْتَهْزِئُونَ﴾ [التوبة] ثم قال لهم: ﴿لَا تَعْتَذِرُوا قَدْ كَفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ إِنَّ نَعْفَ عَنْ طَائِفَةٍ مِّنْكُمْ يُعَذِّبُ طَائِفَةٌ بِأَنَّهُمْ كَانُوا مُجْرِمِينَ﴾ [التوبة] فسماهم كفره؛ لأن هذا مُخرِجٌ من الملة.

إذا رأيت - أيها المسلم - مجلساً، فيه هذا اللغو من الكلام، أو الخوض في مسائل الشريعة، أو التكذيب والاستهزاء بشيء مما جاء به الإسلام، أو الاستخفاف برسول الله ﷺ، أو بستته؛ فخالطهم للأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، ولردعهم وردهم وتفهمهم الصواب، فهذا أمر واجب يُلزمك به الإسلام.

فإن جلست معهم ولم تستطع ردعهم، وليس هناك من سلطة أو هيئة في هذه الديار، كهيئة الأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، تزدع فِعْلَ هؤلاء، وتقف إلى جوارك، فأنت، في هذه الحالة، مُطالب بمقاطعة مثل هذه المجالس، وعدم الجلوس معهم بعد نهيمهم، وبعد وعظهم وتذكيرهم، مع تكرار ومعاودة الموعظة، وعدم مجاملتهم في ذلك.

فالمسلم مُطالب بمقاطعة مثل هذه المجالس، والإعراض عنها حتى يخوضوا في حديث غيره، فإن حدث لك ذلك وجلست معهم ساهياً أو نسياً؛ فعليك، إذا تذكرت، أن تقوم فوراً من مجلسك.

(١) أخرجه أبو الشيخ كما في «الدر المنثور» (٦/٩٠).

وهذه آية مكية من سورة الأنعام، ولها آية مماثلة من سورة النساء مدنية، وآية سورة النساء متأخرة عن هذه الآية، وقد فصلت آية النساء هذا الخوض وبيّنته في قوله تعالى: ﴿وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ آيَاتَ اللَّهِ يُكْفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلَا تَقْعُدُوا مَعَهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ إِذْ أَنْتُمْ مِثْلُهُمْ إِنَّ اللَّهَ جَامِعُ الْمُنَافِقِينَ وَالْكَافِرِينَ فِي جَهَنَّمَ جَمِيعًا ۝﴾ [النساء] فوضّحت أن الخوض يكون بالكفر والاستهزاء ﴿يُكْفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا﴾.

فعليك ترك المجلس في هذه الحالة حتى يتقلوا إلى حديث آخر. وهكذا: فإن أنساك الشيطان أن تُعرض عنهم، وجلست معهم ناسيًا أو غافلاً، ثم تذكرت الإعراض عنهم، والنهي عن مجالستهم؛ فانصرف عن مجلسهم، ولا تقعد معهم ﴿وَإِنَّمَا يُنِيبُكَ الشَّيْطَانُ فَلَا تَقْعُدَ بَعْدَ الذِّكْرِ﴾ أي: بعد تذكر النهي عن الجلوس، فلا تجلس ﴿مَعَ الظَّالِمِينَ﴾ الذين ظلموا أنفسهم بالخوض في آيات الله؛ أي: إذا جلست ساهيًا أو ناسيًا فلا تقعد معهم بعد أن تتذكر، وبعد أن تُذكّرهم بخطر ما هم عليه.

لَا تَبِعَةَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ مَا دَامُوا قَدْ نَصَحُوا وَأَعْرَضُوا عَنْ مَجْلِسِ الْخَائِضِينَ

٦٩- ﴿وَمَا عَلَى الَّذِينَ يَتَّقُونَ مِنْ حِسَابِهِمْ مِنْ شَيْءٍ وَلَٰكِنْ ذِكْرَىٰ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ۝﴾

وهذا النهي والتحريم لمن جلس مع الخائضين، إذا شاركهم أو سكت عنهم ولم ينكر، فإن استعمل تقوى الله تعالى، فنهاهم عن الشر وأمرهم بالخير، فلا إثم عليه ولا حرج.

وفي وقت نزول الآية السابقة كان المشركون متواجدون في المسجد الحرام، وهم يخوضون في رسول الله ﷺ، ويخوضون في القرآن، وفي الرسالة، فقال المسلمون: كيف نقعد في المسجد الحرام، ونطوف بالبيت العتيق، وهم يخوضون فيه؟ وفي رواية، قال المسلمون: إنا نخاف الإثم حين نتركهم، ولا ننهاهم؛ فأنزل الله تعالى هذه الآية^(١).

أي: وما على المؤمنين الذين يخافون الله، ولا يهزؤون بالإسلام، ولا بشيء مما جاء به رسول الإسلام، وأدوا واجبهم؛ فأمروا بالمعروف، ونهوا عن المنكر، وقاموا بواجبهم تجاه هؤلاء، فليس عليهم شيء بعد ذلك، ولكن عليهم أن يذكّروهم، وأن يعظوهم ويذّجروهم ويمنعوهم؛ ليمسكوا عن هذا الكلام الباطل، لعلهم يتقون الله تعالى، ويقلعون

(١) رواه البغوي في «تفسيره» عن ابن عباس.

عمّا هم فيه من الخوض في دين الله، فإذا لم يمتنعوا فليس عليكم شيء بعد ذلك.

ومن الأحكام التي تؤخذ من هذه الآية والتي قبلها

(أ) وجوب الإعراض عن مجالسة المستهزئين بآيات الله، أو برسل الله، سواء أكانوا مؤمنين أو كفارًا؛ لأن القعود معهم مع عدم إظهار الكراهية لهم فيه إقرارًا ومشاركة لهم، ورضى بهذا الكفر وهذا الاستهزاء.

(ب) يجوز مجالسة الكفار، ما لم يخوضوا بالباطل في الإسلام، وما لم يتأثر المسلم بشركهم، أو كفرهم، أو بدعتهم، بأن كان ممّن لا يملك حُجّة يدفع بها الباطل.

(ج) ويؤخذ من الآية أيضًا أن الإنسان غير مُكَلَّفٍ حال نسيانه. وفي الحديث: «إن الله وضع عن أمتي الخطأ، والنسيان، وما استُكْرِهُوا عليه»^(١).

(د) الخطاب في الآية للنبي ﷺ؛ لأنه المبلّغ عن الله تعالى، والمقصود هو الأمة.

مُجَانِبَةُ أَهْلِ الْبَاطِلِ:

٧٠- ﴿وَدَّرِ الَّذِينَ أَخَذُوا دِينَهُمْ لَعِبًا^(٢) وَلَهُوَ غُرَّتُهُمُ الدُّنْيَا وَذَكَّرَ بِهِ أَنْ تُبْسَلَ نَفْسٌ بِمَا كَسَبَتْ لَيْسَ لَهَا مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيٌّ وَلَا شَفِيعٌ وَإِنْ تَعَدَّلَ كُلُّ عَدْلٍ لَا يُؤْخَذَ مِنْهَا أُولَئِكَ الَّذِينَ أُبْسِلُوا بِمَا كَسَبُوا لَهُمْ شَرَابٌ مِّنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ

ثم يكلف الله سبحانه المؤمنين أن يهجروا مجالس الذين يسخرون ويستهزئون بالإسلام وأهله، ويتخذون من ذلك مادةً للهو واللعب والمزاح.

وكان المشركون إذا سمعوا القرآن يلعبون ويلهون، ويحث بعضهم بعضًا على إحداث اللغو، والضوضاء؛ للتشويش عليه ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَسْمَعُوا لِهَذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ

قال تعالى: ﴿وَدَّرِ الَّذِينَ أَخَذُوا دِينَهُمْ لَعِبًا وَلَهُوَ﴾ أي: اترك - يا محمد - هؤلاء

(١) صححه الألباني في صحيح ابن ماجه (١٦٦٤) عن ابن عباس وفي المشكاة (٦٢٨٤) وفي «إرواء الغليل» (٨٢) وفي الروض (٤٠٤)، وهو في «معجم الطبراني»، ورواه ابن ماجه برقم (٢٠٤٥).

(٢) قرأ خلف عن حمزة بالإدغام من غير غنة في (لعبًا ولهوًا وغرَّتْهم)، والباقون بالإدغام مع الغنة.

المشركين وأضرابهم، مَن جعل الإسلام دينَ لعبٍ ولهو، مستهزئًا بآيات الله ﷻ، اتركهم وأعرض عنهم، ولا تبال بكفرهم واستهزائهم، وفي هذا تهديدٌ ووعدٌ لهم؛ بأن الله تعالى كافيك إيّاهم، كما قال تعالى: ﴿ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا ۖ﴾ [المندر] والسبب في سخريتهم أنهم اغتروا بما هم فيه، اغتروا بديناهم ﴿وَعَرَّثَهُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا﴾ بزخرفها وزينتها.

ومن صور الاستهزاء أن يتحدث الإنسان باستخفاف وسخرية عن الأمور الغيبية، كالحديث عن الملائكة والجن، وعن اليوم الآخر، وما فيه من بعث، ونشور، ونحو ذلك حديث استهزاء وإنكار، أو يسخر من الصلاة، أو الزكاة، أو الحج وأعماله وشعائره، أو يتحدث بسخرية عن حجاب المرأة، وعن خلق الحياء، والعفة في الإسلام، أو يسخر من الميراث بالنسبة للمرأة، أو من تعدد الزوجات.

أو يسخر من الأحكام، والحدود الشرعية، ويصفها بأنها لا تلائم العصر في نظره، أو يهزأ بأحاديث رسول الله ﷺ، ويذكر أنها بحرٌ عميقٌ، لا يُعرف منها الصحيح، والضعيف، والموضوع، فتترك كلها، أو يسخر من علماء الإسلام، ويهزأ بهم، وبدعوتهم، ويحقّرهم، ويقلّل من شأنهم وهكذا.

وكلُّ مَنْ لا يجعل لهذا الدين وقاره واحترامه في عقيدته، وعبادته، وخلقّه، وسلوكه، وشريعته، وحدوده، فهو هازئٌ لاعبٌ به. وينطبق هذا على مَنْ لم يدخل في الإسلام، وعلى مَنْ دخل فيه، ثم ارتدّ، من باب أوّلَى، أو اتخذ من الإسلام وقايةً لنفسه وماله؛ وهم المنافقون.

فكلُّ مَنْ خاض في آيات الله يُهجر ويُترك مجلسه، مؤمنًا كان أو كافرًا أو مبتدعًا.

وقد قال بعض المبتدعة لأبي عمران النخعي: اسمع مني كلمة؛ فأعرض عنه، وقال: ولا نصف كلمة.

قال تعالى ﴿فَأَعْرِضْ عَنْ مَنْ تَوَلَّى عَنْ ذِكْرِنَا وَلَمْ يُرِدْ إِلَّا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا﴾ [النجم].

وقال أبو أيوب السجستاني: مَنْ أحب صاحب بدعة؛ أحبط الله عمله، وأخرج الإسلام من قلبه، ومَنْ زوج كريمته من مُبتدع؛ فقد قطع رحمها.

ومثل ذلك مَنْ تعدّى على خصائص الألوهية؛ فشرّع للناس ما لم يشرّعه ربُّ العالمين.

وفي إضافة الدين إلى الذين استهزؤوا به في قوله تعالى: ﴿أَتُخَذُوا دِينَهُمْ﴾ إشارة إلى أن الإسلام دينُ الخلقِ جميعًا؛ بمعنى: أنهم مطالبون بالدخول فيه، ولا دينَ لهم غيره. وليس المراد ترك إنذارهم وتخويفهم من عاقبة استهزائهم، وإنما المراد ترك معاشرتهم وملاطفتهم.

ومعنى اتخاذهم الدين لعبًا ولهوًا: أنهم اتخذوا ما هو لعب ولهو، كعبادة الأصنام وغيرها دينًا لهم، وكانوا يتخذون أعيادهم الدينية لعبًا ولهوًا.

قال ابن عباس: جعل الله لكل قوم عيدًا يعظمونه، ويصلون فيه، ويعمرونه بذكر الله، ثم إن المشركين وأهل الكتاب اتخذوا عيدهم لعبًا ولهوًا، أما المسلمون فإنهم اتخذوا دينهم كما شرعه الله^(١).

ثم قال تعالى: ﴿وَذَكِّرْ بِهِ﴾ أي بهذا القرآن ﴿أَنْ تُبْسَلَ نَفْسٌ﴾ أي لئلا تُبْسَلَ نفس، أي تُحبس وتُرهن ﴿بِمَا كَسَبَتْ﴾ ذكَّروهم قبل اقتحام العبد للذنوب وتجزئته على علام الغيوب، واستمراره على ذلك.

والمعنى: ذكِّر - أيها الرسول - بهذا القرآن، وبهذا الدين، وعِظْ به أمتك من المشركين وغيرهم؛ لترتدع وتترجر وتكف عن فعلها، قبل أن تحيط بها ذنوبها ثم لا ينفعها أحد من الخلق، كي لا تُرتهن نفس يوم القيامة بذنوبها وكُفِّرها بربها.

ذكَّر بالقرآن هذه الأمة؛ مخافة أن تُحبس نفس في جهنم، وتُحرم من الثواب، وتفضح على رؤوس الأشهاد؛ بسبب ما كسبت من الخطايا والآثام، فبالقرآن والعمل بما فيه يَسْلَمُ الناس من المهالك، كما قال تعالى: ﴿كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينٌ﴾ (٢٨) ﴿إِلَّا أَصْحَابَ الْيَمِينِ﴾ (٢٩) [المدثر].

وهذه النفس الهالكة التي لم تنتفع بالقرآن، وسخرت منه، واستهزأت به ﴿لَيْسَ لَهَا مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيٌّ وَلَا سَفِيْعٌ﴾ لا قريب ولا صديق، ولا يتولَّها من دون الله أحد.

أي: ليس لها غير الله ناصر ينصرها، ويدفع عنها العذاب، وليس لها شافع يشفع عنده، ولا يمكنها أن تفدي نفسها من العذاب، ولو قدمت كنوز الدنيا.

وهذا معنى ﴿وَإِنْ تَعَدَّلْ كُفَّ عَدْلٌ﴾ أي: وإن تفدي نفسها بكل فداء ولو بملىء الأرض

(١) ينظر: «تفسير الفخر الرازي» (٨/ ٦٥).

ذَهَبًا ﴿لَا يُؤْخَذُ مِنْهَا﴾ أي: لا يقبل منها هذا الفداء، كما قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَكُمْ لَوْ أَنَّهُمْ تَمَّ فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُ مَعَهُ لَافْتَدَوْا بِهِ﴾ أُولَئِكَ لَهُمْ سُوءُ الْحِسَابِ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَيُشَسَّ لِلْهَادِ ﴿الرعد: ١٨﴾

وقال سبحانه: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَمَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَنْ يُبْعَلَ مِنْ أَحَدِهِمْ قِيلٌ إِلَّا ذَهَبًا وَلَوْ أَفْتَدَى بِهِ﴾ [آل عمران: ٩١].

وقد بيَّنت الآية أن وجوه الخلاص الثلاثة التي تنفع في الدنيا (وهي الولي والشفيع والفدية) لا تنفع في الآخرة، وليس هناك ما يدفع عذاب الله تعالى عمَّن مات على كفره.

قال تعالى: ﴿أُولَئِكَ﴾ إشارة إلى اللاعبين اللاهين بالقرآن الموصوفين بما ذكر ﴿الَّذِينَ أُبْسِلُوا﴾ أي أهلكوا وأيسوا من الخير ﴿بِمَا كَسَبُوا﴾ وهم الذين ارتكبوا بذنوبهم، وأسلموا إلى العذاب؛ بسبب ما اكتسبوا ﴿لَهُمْ شَرَابٌ مِّنْ حَمِيمٍ﴾ لهم في جهنم شراب شديد الحرارة، يشوي الوجوه، ويقطع الأمعاء كما قال تعالى: ﴿تَشَقَّى مِنْ عَيْنٍ عَيْنَةٍ﴾ [الغاشية]

وقال تعالى: ﴿وَأَن يَسْتَعِيثُوا يُغَاثُوا بِمَاءٍ كَالْمُهْلِ يَشْوِي الْوُجُوهَ﴾ [الكهف: ٢٩]

وقال جل شأنه: ﴿وَيُسْقَى مِنْ مَّاءٍ صَدِيدٍ لَا يَتَجَرَّعُهُ وَلَا يَكَاذُ يُسِغُهُ﴾ [إبراهيم: ١٦، ١٧].

والى جوار ذلك فإن عذابهم موجه مؤلم؛ بسبب كفرهم بالله تعالى، وبرسوله محمد ﷺ، وعدم دخولهم في دين الإسلام، وهذا معنى ﴿وَعَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ﴾.

ويؤخذ من الآية أن الرسول ﷺ - وكل من يدعو إلى الله بعده - مأمور بتذكير أمثال هؤلاء، وتخويفهم من عذاب الله تعالى.

وفي الآية أن مخالطة الفسقة أو الظالمين؛ بقصد الموعظة، والتذكير، وتصحيح انحرافهم، وفساد آرائهم - أمرٌ مباح، أما السكوت عمَّا بدر منهم - وإن كان من باب التقية - فهو إقرارٌ بالباطل، ومشاركة فيه، وتلييس على الناس.

الْعُودَةُ إِلَى الْكُفْرِ بَعْدَ الْإِسْلَامِ ضَلَالٌ مُّبِينٌ

٧١- ﴿قُلْ أَدْعُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُنَا وَلَا يَضُرُّنَا وَنُرَدُّ عَلَىٰ أَعْقَابِنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْنَا اللَّهُ كَالَّذِي

أَسْتَهْوَتْهُ^(١) الشَّيَاطِينُ فِي الْأَرْضِ حَيْرَانٌ^(٢) لَهُ أَصْحَابٌ يَدْعُونَهُ إِلَى الْهُدَى أَتَيْنَا^(٣) قُلَّ إِنَّ هُدَى اللَّهِ هُوَ الْهُدَىٰ وَأُمِّرْنَا لِنُسْلِمَ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٧١﴾

وتستنكر هذه الآية العودة إلى الشرك، والردة عن الدين، بعد هدى الله تعالى، وتبين أن الأمر لله وحده، وأن الرسول مبلغ عن ربه فحسب.

قال السدي: قال المشركون للمسلمين: اتبعوا سبيلنا، واتركوا دين محمد؛ فأنزل الله تعالى الآية.

﴿قُلْ﴾ أيها الرسول الكريم، لهؤلاء المشركين الذين يدعونك إلى عبادة الأوثان و نحوها: ﴿أَدْعُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُنَا وَلَا يَضُرُّنَا﴾؟ هذا وصف يدخل فيه كل ما عبد من دون الله، أي: أنعبد من دون الله تعالى ما لا ينفع ولا يضر؛ من أوثان، أو أصنام، أو ملائكة، أو جن، أو إنس، أو حجر، أو شجر؛ فالكل يستوي في عدم النفع أو الضرر ﴿وَنُرْذِلْ عَلَىٰ أَعْقَابِنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْنَا اللَّهَ﴾ أي نرجع إلى الكفر بعد هداية الله لنا للإسلام؟ ونقلب بعد الهدى إلى الضلال، ومن الصراط الموصل إلى جنات النعيم إلى الطريق التي تُفضي إلى العذاب الأليم، ففي هذه الحالة نكون شبه من فسد عقله باستهواء الشياطين له، وسيطرتها عليه، فضلً وتاه عن الطريق.

فمثل الذي يكفر بعد إيمان، كمثل رجل كان يمشي مع قوم على الطريق، فضلً الطريق، فحيرته الشياطين، واستهوته في الأرض، فأخذوا يدعونه، ويقولون له: اتنا، فإننا على الطريق؛ فأبى أن يأتيهم، فهذا مثل من عرف الإسلام، ثم رجع عنه.

وهذه الآية تسوق صورةً فريدةً للشرك والمشركين، وتُبيِّنهم من ارتداد بعض المسلمين عن الإسلام، فقد كان المشركون يحاولون ارتداد بعض قرابتهم عن الإسلام، والآية تدعو

(١) قرأ حمزة (استهوته) بألف مماله بعد الواو على تذكير الفعل (استهوا)، وقرأ الباقون بناء ساكنة بعد الواو غير ألف، على تأنيث الفعل، وجاز تذكير الفعل وتأنيثه؛ لأن الفاعل جمع تكسير.

(٢) رفق الأزرق عن ورش راء (حيران)، وفخمها غيره.

(٣) قرأ ورش وأبو جعفر وأبو عمرو بخلف عنه، بإبدال همزة (اتنا) ألفاً عند الوصل بما قبلها، ومثله حمزة عند الوقف، فإذا وقف القارئ على (الهدى) اضطراراً أو اختياراً، فإن جميع القراء يبتدئون بهمزة وصل مكسورة، وإبدال همزة (اتنا) ياء مدية، وهكذا كل همزة وصل وقع بعدها همزة قطع ساكنة.

المؤمنين إلى أن يزدادوا إيماناً على إيمانهم .

أخرج الطبري، بسند حسن، عن علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس رضي الله عنه قال في معنى الآية: هذا مثلٌ ضربه الله للآلهة ومن يدعو إليها، وللدعاة الذين يدعون إلى الله، كمثّل رجل ضلّ عن الطريق تائهاً ضالاً، إذ ناداه مناد: يا فلان ابن فلان، هلم إلى الطريق، وله أصحاب يدعونه: إلى الهدى يا فلان، هلم إلى الطريق، فإن اتبع الداعي الأول؛ انطلق به حتى يُلقيه في الهلكة، وإن أجاب من يدعوه إلى الهدى؛ اهتدى إلى الطريق^(١).

ثم ساق القرآن صورةً دقيقةً للضلال والحيرة التي تناسب من يشرك بالله تعالى بعد التوحيد، فشبهته بحال الذي فسد عقله باستهواءٍ من الشياطين والجن؛ فتاه في الأرض بعد أن كان عارفاً بمسالكها، وترك رفاهه العقلاء يدعونه إلى موافقتهم، ولكن الشياطين قد سحرته، وخطفت عقله؛ فركب رأسه، وصار كالمجنون الذي لا يتصح.

وهذا معنى: ﴿كَأَلَيْكَ اسْتَهْوَتْهُ الشَّيَاطِينُ فِي الْأَرْضِ حَيْرَانٌ﴾ أي: وهذا الذي ضلّ الطريق له رفقاء عقلاء مؤمنون، يدعونه إلى الطريق الصحيح الذي هم عليه؛ ليسير معهم في الطريق السليم، ولكنه يأبى، فهو حيران لا يدري أين يذهب ﴿لَهُ أَصْحَابٌ يَدْعُونَهُ إِلَى الْهُدَى أَعْتَا﴾ وهذه الحيرة تتاب من يشرك بالله تعالى بعد التوحيد، ومن يتوزع قلبه بين آلهة شتى، ويتفرق إحساسه بين الهدى والضلال، فهو مخلوق تعيس يعيش في التيه والعذاب النفسي.

ثم أمر الله رسوله أن يردّ على المشركين بما يلجمهم فقال: ﴿قُلْ إِنَّ هُدَى اللَّهِ هُوَ الْهُدَى﴾ أي: أن هذا الطريق الذي أوضحه الله لعباده، هو الذي بعث به محمداً صلى الله عليه وسلم، وهو بحق طريق الهدى والنور والاستقامة، وليس ما عليه المشركون من الضلال والعمى، فلا هدى إلا هدى الله، فعليكم باتباعه، واحذروا طرق الغواية والشيطان والهوى.

فقل لهم يا محمد: إن الهدى هدى الله، وقل لهم: أمرنا أن نسلم، ونخلص العبادة لله وحده لا شريك له، فهو ربّ كلّ شيء ومليكه، وبهذا أمرنا ﴿وَأْمُرْنَا لِنُسَلِّمَ لِرَبِّ أَعْلَمِينَ﴾ بأن نقاد لتوحيده ونسلم لأوامره ونواهيه وندخل تحت رق عبوديته قال تعالى: ﴿وَمَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَمَا لَمْ يَنْصُلْ﴾ [الزمر: ٣٧]

وقال سبحانه: ﴿إِنْ تَحَرَّصَ عَلَى هُدَاهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ يُضِلُّ﴾ [النحل: ٣٧].

(١) «تفسير الطبري» (١١/٤٥٢).

الاستعداد لِيَوْمِ الْحَشْرِ قَبْلَ النَّفْخِ فِي الصُّورِ

٧٢- ﴿وَأَنْ أَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتَوْهُ وَهُوَ الَّذِي إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾ (٧٢)

وبعد أن أمر الله عباده بتوحيده، وعدم الإشراك به، أمرهم بأداء التكاليف الشرعية، وأول التكاليف، بعد إخلاص التوحيد، هو أداء الصلاة كاملة بأركانها وشروطها، فقال تعالى: ﴿وَأَنْ أَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتَوْهُ﴾ والتقوى: جماع كل خير، وهي تشتمل على جميع الأوامر والنواهي، ومراد الخلائق إلى الله جميعاً، فيحاسبهم ويجازيهم على ما قدمت أيديهم ﴿وَهُوَ الَّذِي إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾ في يوم القيامة، فيجازيكم بأعمالكم وأقوالكم خيرها وشرها. قال تعالى:

٧٣- ﴿وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ وَيَوْمَ يَقُولُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ (١) ﴿وَالْحَقُّ وَلَهُ الْمُلْكُ يَوْمَ يُنفَخُ فِي الصُّورِ عَلِيمٌ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ﴾ (٧٣)

والله الذي يجمعكم في يوم الحشر للحساب والجزاء، هو خالق هذا الكون بما فيه، ولم يخلقه عبثاً، وإنما خلقه لهدف وغاية؛ هي توحيد الله سبحانه وعبادته، ومجازاة الخلق في اليوم الآخر بما عملوه في الدنيا ﴿وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ﴾ أي: أنه تعالى أنشأ خلق السموات والأرض بالحق، وأنه يعيد خلقهما بالحق، وخلقهما يدل على وحدانية الله سبحانه، وكمال قوته وقدرته، فاتقوا الله الذي إليه تحشرون، واتقوا الله خالق هذا الكون.

واتقوا الله حين تبعثون من قبوركم، وتقومون للحساب والجزاء، واتقوا عقابه وبطشه يوم تخرجون من قبوركم بكلمة ﴿كُنْ﴾ فإن أمره بين الكاف والنون، وإذا قال الله للشيء كن فإنه يكون، فهي كلمة حق وصدق، وهو كائن لا محالة، ذلكم قول الله سبحانه: ﴿وَيَوْمَ يَقُولُ كُنْ فَيَكُونُ قَوْلَهُ الْحَقُّ﴾ أي: أن قوله سبحانه هو القول الحق الكامل؛ لأن أقوال الخلق فيها كثير من الحق، وفيها شيء من الباطل، وكل ما يدل على مراد الله تعالى في يوم الحشر فهو أمر تكويني.

قيل: إن ﴿كُنْ﴾ في الآية تعود على خلق السموات والأرض؛ أي: واذكر يوم قال

(١) قوله تعالى (كن فيكون) أسقطها الكوفي من العدد وعدّها غيره.

للسموات والأرض ﴿كُنْ﴾ .

وقيل : تعود إلى يوم القيامة ؛ أي : يوم يقول للخلق : موتوا فيموتوا ، وقوموا للحساب فيقوموا .
ولعل الأولى أنها تعود على يوم القيامة ؛ عطفًا على قوله تعالى : ﴿وَأَتَّقُوا﴾ فهو أقرب
مذكور ، ثم اعطف عليه الحشر ، وألحق ، ثم البعث ، على ما سبق بيانه ، وما لا يحتاج
إلى تقدير أولى مما يحتاج إليه .

هذا ، وملوك الدنيا لا وجود لنفوذهم ولا جاههم في يوم القيامة ، فليس هنا شبهة مُلك
لملك من ملوك الأرض ، فالمُلك كله لله الواحد القهار ، لا منازع له فيه ﴿وَلَهُ الْمُلْكُ يَوْمَ
يُنْفَخُ فِي الصُّورِ﴾ والله تعالى له المُلك وحده في الدنيا والآخرة ، ولكن الله تعالى يقول لنا :
إن ملوك الدنيا قد زال مُلكهم ، وما كانوا يدعون فيها من مُلكٍ فهو فان وزائل ، قد زال
وذهب أثره ، وانقطعت الأملاك فلا يبقى ملك إلا للواحد القهار كما قال تعالى : ﴿لِمَنِ الْمُلْكُ
الْيَوْمَ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ﴾ [غافر : ١٦] وكما قال : ﴿مَلِكِ يَوْمِ الدِّينِ﴾ [الفاتحة : ٤]

وقال سبحانه : ﴿الْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ لِلرَّحْمَنِ وَكَانَ يَوْمًا عَلَى الْكَافِرِينَ عَسِيرًا﴾ [الفرقان]
ومن ملك الآخرة فملكه للدنيا من باب أولى .

ويوم النفخ في الصور هو يوم القيامة ، وهي النفخة الثانية التي فيها عودة الأرواح إلى الأجساد .

والصور : بوق مجوّف ، ويُسمّى قرنًا بلغة أهل اليمن ، وهو الذي يُنفخ فيه إسرافيل
نفختين ؛ نفخة الصعق ، وهو موت جميع الخلائق ، ونفخة الفزع ، ويطولها إلى البعث ،
قال تعالى : ﴿وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَعِقَ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَنْ شَاءَ اللَّهُ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ
أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنْظُرُونَ﴾ [الزمر] .

ونفخة البعث هي نفخة الفزع الواردة في قوله تعالى : ﴿وَيَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ فَفَزِعَ مَنْ فِي
السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَنْ شَاءَ اللَّهُ﴾ [النمل : ٨٧] بمعنى : أنها تبدأ بالفزع من القبور أو
البرزخ ، وتنتهي بالبعث والنشور .

١- ولذا جاء في بعض الأحاديث أنها نفخات ثلاث ، منها حديث طويل عن أبي هريرة
رضي الله عنه ، وفيه أن النبي ﷺ قال وهو في طائفة من أصحابه : «إن الله تعالى لما فرغ من خلق
السموات والأرض خلق الصور ، فأعطاه إسرافيل ، فهو واضعه على فيه ، شاخصًا بصره

إلى العرش، ينظر متى يؤمر» قلت: يا رسول الله، وما الصور؟ قال: «القرن» قال أبوهريرة: يا رسول الله، مَنْ استثنى الله ﷻ حين يقول: ﴿فَفَزَعَ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَنْ شَاءَ اللَّهُ﴾؟ قال: «أولئك الشهداء، وإنما يصلُ الفزعُ إلى غير الأحياء»^(١).

٢- وفي الحديث، أن الله تعالى يبدل الأرض غير الأرض والسماوات، فمن كان في بطن الأرض فهو في بطنها، ومن كان على ظهرها كان عليها، ثم يُنزل الله عليهم ماء من تحت العرش، ثم يأمر السماء أن تمطر فتُمطر أربعين يومًا، حتى يكون الماء فوقهم اثني عشر ذراعًا، ثم يأمر الله الأجساد أن تنبت؛ فتنبت كنبات البقل، ثم يأمر الله الأرواح فتدخل في الأجساد، ثم تنشق الأرض عن الخلق، وأول من تنشق الأرض عنه محمد ﷺ، وعندما تُنشر الصحف يقول الله تعالى: يا معشر الجن والإنس، إنما هي أعمالكم وصُحفكم تُقرأ عليكم، فمن وجد خيرًا؛ فليحمد الله، ومن وجد غير ذلك فلا يلومن إلا نفسه، ثم يقضي الله بين الخلائق، وأول ما يقضى فيه من حقوق العباد الدماء والمظالم، ثم تكون شفاعة محمد ﷺ، ويدخل أهل الجنة الجنة، وإذا وقع أهل النار في النار، وقع فيها خلق أوبقتهم أعمالهم، فمنهم من تأخذه النار إلى قدميه لا تجاوز ذلك، ومنهم من تأخذه إلى أنصاف ساقيه، ومنهم من تأخذه إلى ركبتيه، ومنهم من تأخذه إلى جفونه، ومنهم من تأخذ جسده كله، ثم تكون شفاعة الله تعالى؛ فيخرج من النار من كان في قلبه شيء من الإيمان^(٢).

وعلى هذا، فالذين استثناهم الله تعالى من الفزع عند النفخ في الصور كما جاء في قوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ فَفَزَعَ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَنْ شَاءَ اللَّهُ﴾ هم الشهداء، كما في حديث الطبراني السابق؛ لأنهم أحياء لا يصل الفزع إليهم^(٣).

٣- وعن أبي هريرة ؓ أن رسول الله ﷺ قال: «إن طُرف صاحب الصور مُدُّ وُكِّل به مستعد، ينظر نحو العرش؛ مخافة أن يؤمر قبل أن يرتد إليه طرفه، كأن عينيه كوكبان دريان»^(٤).

(١) تفسير القرطبي (١٣/٢٤١) وينظر تفسير ابن كثير (٦/٢١٦).

(٢) ينظر الحديث بطوله في «الأحاديث الطوال» للطبراني برقم (٣٦) وينظر صحيح مسلم (٢٩٤٠) عن عبد الله ابن عمرو.

(٣) ينظر الطبراني في «الكبير» (٢٥/٢٦٦).

(٤) أخرجه الحاكم وصححه (٤/٥٥٨) وصححه الألباني في «السلسلة الصحيحة» (١٠٧٨).

٤- وعن أبي هريرة مرفوعاً: «ما بين النفختين أربعون» قالوا: يا أبا هريرة، أربعون يوماً؟ قال: أَيْبْتُ، قالوا: أربعون شهراً؟ قال: أَيْبْتُ، قالوا: أربعون سنة؟ قال: أَيْبْتُ، «ثم ينزل الله من السماء ماءً، فينبتون كما ينبت البقل، قال: وليس من الإنسان شيء إلا يَبْلَى إلا عَظْماً واحداً وهو عَجْبُ الذَّنْبِ، ومنه يُرَكَّبُ الخلق يوم القيامة»^(١).

ومعنى أَيْبْتُ: امتنعْتُ عن تعيين المدة؛ لأن ذلك ليس عندي، بل بتوقيف من رسول الله ﷺ، والدليل على أن الصُّورَ هو القرن ما ورد عن عبد الله بن عمرو بن العاص أنه سأل رسول الله ﷺ عن الصور؛ فقال: «هو قرن يُنفخ فيه»^(٢).

وإسرافيل -منذ بعثة النبي ﷺ- قد التقم القرن، وحنى جبهته في انتظار الأمر بالنفخ في الصور. فعن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «كيف أُنْعَمُ وقد التقم صاحب القرن القرن، وحنى جبهته، وأصغى سمعه، ينتظر أن يُؤمر فينفخ» وكان ذلك ثَقُلَ على أصحاب النبي ﷺ؛ فقالوا: كيف نفعل يا رسول الله، وكيف نقول؟ فقال: «قولوا حسبنا الله ونعم الوكيل، على الله توكلنا»^(٣).

والصور من الأمور الغيبية التي يجب الإيمان بها.

وبعد أن أخبر سبحانه عما يكون في يوم الحشر أَتْبَعَهُ بما يدلُّ على أن الله تعالى يُحاسِب يوم القيامة، على كُلِّ جَلِيلٍ ودَقِيقٍ، فهو سبحانه يعلم ما ظهر وما بطن، ويعلم ما غاب عن حواسكم، وما تشاهدونه ﴿عَلِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ وَهُوَ الْحَكِيمُ﴾ الذي يضع الأمور في مواضعها، وله الحكمة التامة والنعمة السابعة، والعلم المحيط، وهو ﴿الْخَبِيرُ﴾

(١) البخاري (٤٢٤/٨) برقم (٤٨١٤، ٤٩٣٥) ومسلم (٢٢٧٠/٤) برقم (٢٩٥٥).

(٢) «المسند» (١٠/١٠) برقم (٦٨٠٥، ٦٥٠٧) بإسناد صحيح ورجال ثقات (محققوه) والترمذي (٢٩٥/٣) برقم (٣٢٤٤) وحسنه، وأبو داود (٣٢٦/٤) برقم (٤٧٤٢) والحاكم (٢٣٦/٢) وصححه ووافقه الذهبي، والنسائي في الكبرى (١١٣١٢).

(٣) رواه الترمذي (٦٢٠/٤) في صحيح سننه برقم (١٩٨٠) وابن ماجه (١٤٢٨/٢) وأحمد في المسند (٣/٧) برقم (١١٠٣٩، ١١٦٩٦) صحيح لغيره، وفيه عطية العوفي، ضعيف، وبقية رجاله ثقات، رجال الشيخين (محققوه) وصححه الشيخ الألباني في «السلسلة الصحيحة» (١٠٧٩) والحاكم (٥٥٩/٤) والبيهقي في «الشعب» (٣٥٢) وعبد بن حميد (٨٨٦) منتخب، والحميدي (٧٥٤).

بأمور خلقه، فهو سبحانه يبدأ ويعيد، ومنه المنشأ، وإليه المصير، وهو وحده الذي يجب على العباد الانقياد لشرعه، والتسليم لحُكْمِهِ، والتطلع إلى رضوانه ومغفرته.

مَحَاجَّةُ الْخَضَمِ لِلتَّوَصُّلِ إِلَى وَحْدَانِيَةِ اللَّهِ تَعَالَى فِي حِوَارِ إِبْرَاهِيمَ لِقَوْمِهِ

٧٤- ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ أَازَرَ^(١) أَتَتَّخِذُ أَصْنَامًا ءَالِهَةً^(٢) إِنِّي آتَاكَ وَقَوْمَكَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾

ثم نبه الله تعالى محمداً ﷺ على الاقتداء بإبراهيم عليه السلام في مُحاجته قومه؛ للتوصل إلى وحدانية الله تعالى التي جاء بها إبراهيم ومحمد عليهما السلام، وجميع الطوائف والممل معترفةً بفضل خليل الرحمن.

يقول الله تعالى: واذكر - يا محمد - لقومك، قصة إبراهيم عليه السلام مثنيًا عليه حال دعوته قومه إلى التوحيد ونهيه لهم عن الشرك، حين قال لأبيه: أَتَتَّخِذُ أَصْنَامًا لَا تَنْفَعُ وَلَا تَضُرُّ، وليس لها من الأمر شيء، إني أراك وقومك حين عبدتهم من دون الله في ضلال بين.

وهذا المقطع من السورة يتناول عقيدة التوحيد في فقرات متصلة، ويذكر موكب الإيمان الذي يحمله رسل الله الكرام، من نوح بعد آدم إلى محمد صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين، ويُعدد من أسماء هؤلاء الرسل الذين حملوا مشعل الهداية إلى أقوامهم، ثمانية عشر رسولاً بأسمائهم وأعيانهم في هذا المقطع من السورة.

مع إبراهيم وأبيه: ويبدأ هذا المقطع بحوار إبراهيم خليل الرحمن -فهو أبو الأنبياء، وهو أبو المسلمين- مع أبيه وقومه حول التوحيد والشرك، فالتوحيد هو أصل الأصول، وهو دعوة جميع الرسل ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ أَازَرَ﴾ وأزر: هو الاسم الصحيح لوالد إبراهيم بالنص الصريح في القرآن الكريم، لا يحتاج إلى تأويل، فالله سبحانه يقول: أبوه أزر، ولا يحتاج الأمر إلى أن نقول: إنه اسم لعمه، أو نحو ذلك.

وقد جاء هذا الاسم الصحيح الصريح أيضًا في سُنَّةِ رسول الله ﷺ في صحيح

(١) قرأ يعقوب بضم الراء من (أزر) على أنه نادى حذف منه حرف النداء، وقرأ الباقون بفتحها وهو بدل من (أبيه) وهو مجرور بالفتحة نيابة عن الكسرة للعلمية والعجمة.

(٢) قرأ نافع وابن كثير وأبو عمرو وأبو جعفر بفتح الياء من (إني أراك) وصلًا، والباقيون بإسكانها.

البخاري: يُلْقَى إبراهيم أباه آزر يوم القيامة، وعلى وجه آزر قتره وغبرة، فيقول له إبراهيم: ألم أقل لك لا تعصني؟ فيقول أبوه: فاليوم لا أعصيك، فيقول إبراهيم: يا رب، إنك وعدتني أن لا تخزني يوم يبعثون، فأني خزي أخزي من أبي الأبعد؟ فيقول الله تعالى: إني حرمت الجنة على الكافرين، ثم يقال: يا إبراهيم ما تحت رجلحك؟ فينظر فإذا هو بذبح مُتَلَطَّخٌ، فيؤخذ بقوائمه فيلقى في النار^(١).

وليس من عادة القرآن التعرض لأسماء غير الأنبياء، ولم يُذكر اسم آزر إلا في هذه الآية.

وعن الضحاك: أن آزر اسم أبي إبراهيم بلغة الفرس.

وقال مجاهد: آزر اسم الصنم الذي كان يعبده أبو إبراهيم؛ فَلَقَّبَ به.

وفي معجم ياقوت: أن آزر ناحية بين سوق الأهواز ورامهرمز.

وفي كتب بني إسرائيل: أن اسم أبي إبراهيم تارح - بالحاء -.

ففي الفصل الحادي عشر من سفر التكوين في التوراة أن بلد تارح (أور الكلدانيين) وفيه أن تارح خرج هو وابنه إبراهيم من بلده (أور الكلدانيين) قاصدين أرض كنعان، وأنهما مرًا في طريقهما ببلد حاران وأقاما هناك، ومات تارح في حاران.

وفيه أيضًا: أن إبراهيم نُبئ في حاران في حياة أبيه، ولعل أهل حاران لَقَّبُوهُ آزر؛ لأنه جاء إليهم من الناحية المسماة بهذا الاسم^(٢).

وهكذا جاء اسمه في القرآن والسنة، فيسميه النبي عليه الصلاة والسلام آزر.

وآزر في التوراة وعند المؤرخين والنسّابين يسمى تارح بالخاء أو الحاء، وربما يكون لآزر اسمان كيعقوب وإسرائيل، فهما اسمان لنبي واحد، ومحمد وأحمد اسمان لنبي واحد، أو يكون له اسم؛ هو آزر، ولقب هو تارح، أو العكس، ولا يمنع وجود هذا وذاك، واسم أمه (مثاني)، واسم زوجته (سارة) أم إسحاق، واسم سريته (هاجر) أم إسماعيل.

ووالد إبراهيم كان نجارًا يصنع الأصنام وَنَحِثُهَا بيده، وكان يعطيها لابنه إبراهيم وهو

(١) ينظر البخاري برقم (٣٣٥٠).

(٢) ينظر: «تفسير التحرير والتنوير» (٣١١/٨).

صغير ليسوقها، فكان يمشي بها في الأسواق يروّجها ويقول: مَنْ يشتري ما يضره ولا ينفعه، فلا يجد أحدًا يشتري منه، ثم في نهاية الأمر يأخذها ويغمس رؤوسها في الماء، ويقول لها: اشربي؛ تهكمًا واستهزاءً وسخرية^(١).

كان قوم إبراهيم من (كوثي) في أرض العراق، وهي قرية في سواد الكوفة، وولد إبراهيم على الصحيح ببابل من أرض العراق، وبابل كانت أرض الحضارة، وهي المسيطرة على العراق، وكان بها النمرود الملك الطاغية الجبار، الذي ادّعى الألوهية.

وحوار إبراهيم مع أبيه آزر في دعوته إلى الله تعالى تتولى ذكره سورة مريم [٤١-٤٨] وسورة الشعراء [٦٩-٨٩].

وحوار إبراهيم مع النمرود تتناوله سورة البقرة [٢٥٨].

وحوار إبراهيم مع عبدة الكواكب السيارة والنجوم تتناوله هذه السورة [٧٤-٨١] وسورة الأنبياء [٥١-٧٣] والصفات [٨٣-٩٨].

وقوم إبراهيم، منهم مَنْ كان يعبد الأصنام والأوثان، ومنهم مَنْ كان يعبد الكواكب السبعة، وأشهرها الزهرة، والمشتري، والقمر، والشمس وسائر الكواكب السيارة، كانوا يعبدونها من دون الله، كلُّ قرية تعبد كوكبًا، أو تعبد وثناً، وتعتقد أن هذا هو الإله الذي يحميها.

قال إبراهيم لأبيه آزر: ﴿اتَّخِذْ أَصْنَامًا﴾ تعبدها من دون الله الذي خلقك ورزقك.

والأصنام: جمع صنم؛ وهي تمثال يُصنع من خشبٍ، أو من حجارة، أو حديد، أو ذهب، أو فضة على صورة إنسان، والوثن أعظم من الصنم، قال إبراهيم لأبيه: إني أراك وقومك في عبادتكم لهذه الأصنام في ضلال عن طريق الحق واضح البيان.

إن فطرة إبراهيم تنطق على لسانه، وتُنكر ما يعبد القوم من الأصنام والكواكب والنجوم، فالإله الذي يخلق ويرزق وينفع ويضر لا يكون صنمًا من حجرٍ، ولا وثناً من خشبٍ، فعبادتها إذن ضلالٌ بيّنٌ، وإبراهيم يواجه أباه بهذه الحقيقة؛ لأن العقيدة فوق رابطة الأبوة والبنوة، والنصيحة في الدين ليست من العقوق.

(١) ينظر: «تفسير ابن عطية» (٣١١/٢).

حِوَارِ خَلِيلِ الرَّحْمَنِ مَعَ أَبِيهِ

٧٥- ﴿وَكَذَلِكَ نُرَىٰ إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمٰوٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٧٥﴾﴾

وقد استحق إبراهيمُ بصفاء فطرته أن يكشف الله له عن الأسرار الكامنة في هذا الكون، ودلائل التوحيد في هذا الوجود؛ قيل: إن الله تعالى فرَجَ لإبراهيمَ السموات والأرض حتى رأى ببصره الملكوت الأعلى، والملكوت الأسفل^(١)، فالرؤية يجوز أن تكون بصرية، وأن تكون علمية.

وكما أطلعَ الله تعالى إبراهيمَ على ملكوت السموات والأرض، أطلعَ محمدًا ﷺ عليهما كذلك، فقد جاء في حديث المنام الطويل عن معاذ بن جبل ؓ أن النبي ﷺ قال: «أتاني ربي في أحسن صورة، فقال: يا محمد، قلت: لبيك وسعديك، قال: فيم يختصم الملائكة؟ قلت: لا أدري يا رب، فوضع كفيه بين كتفي، فوجدتُ برَدَها بين ثديي، حتى تجلَّى لي ما في السموات وما في الأرض، ثم تلا هذه الآية...»^(٢).

قال تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ نُرَىٰ إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمٰوٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ أي: وكما هدينا إبراهيم إلى الحق في أمر العبادة، وأريناه بعين البصيرة ما عليه قومه من الضلال، نريه ما تحتوي عليه السموات والأرض من مُلك عظيم، وقدرة باهرة.

كما قال تعالى: ﴿قُلْ أَنْظَرُوا مَاذَا فِي السَّمٰوٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [يونس: ١٠١]

وقال سبحانه: ﴿أَوَلَمْ يَنْظُرُوا فِي مَلَكُوتِ السَّمٰوٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [الأعراف: ١٨٥]

وقال أيضًا: ﴿أَفَلَمْ يَرَوْا إِلَىٰ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ مِّنَ السَّمٰوٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [سبا: ٩]

(١) «البحر المحيط» (٤/١٦٥).

(٢) في «المسند» (٢٤٣/٥) برقم (١٦٦٢١) بإسناد ضعيف لا يضر به وانقطاعه، (محققوه) وهو حديث طويل وبرقم (٣٤٨) عن ابن عباس، و«سنن الترمذي» برقم (٣٢٣٣) عن ابن عباس، وأفاد أن بين أبي قلابة وبين ابن عباس رجلاً، وأخرجه عنه عبد بن حميد (٦٨٢) وابن خزيمة في التوحيد (٣٢٠) وابن أبي عاصم في السنة (٤٦٩).

وغير ذلك من الآيات الكثيرة^(١).

ولكي يكون إبراهيم من الراسخين في اليقين، وقوة الإيمان، وزيادة الطمأنينة أراه الله أدلة التوحيد القاطعة بنظره الثاقب، وبصيرته النافذة ﴿وَلْيَكُونَ مِنَ الْمُؤَقِنِينَ﴾ واليقين يحصل عادة عن طريق التأمل، وزوال الشبهة، وكثرة الأدلة تسبب حصول اليقين، والموقن: هو العالمُ علماً لا يقبل الشك.

الاستدراج الأول

٧٦- ﴿فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ رَأَى كَوْكَبًا قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَا أُحِبُّ الْآفِلِينَ ﴿٧٦﴾﴾

وقد استعمل إبراهيم هذا النظر الثاقب من التأمل في هذا الكون، فأمره ربُّه أن يُنكر على قومه عبادة الأوثان، وأن يأخذ بأيديهم عن طريق التدرج إلى اليقين الحق، والتوحيد الخالص، وكان ذلك بعد أن شرف الله إبراهيم بالنبوة، وأكرمه بالرسالة، في أصح القولين.

وقد أراد إبراهيم ﷺ أن يستدرج قومه، ويعرفهم بجهلهم وخطئهم في عبادة النجوم، عن طريق الإنكار، والمناظرة، وقيام الحجة عليهم، وإلزامهم بها، بعد استنتاجها منهم؛ لإلزامهم بالتوحيد ﴿فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ﴾ أي: ستره بظلامه وتغشاه بظلمته، أراد إبراهيم عن طريق الحوار والمناظرة وإعمال الفكر استدراج القوم، وأخذ الحجة من أفواههم؛ كي يأخذ بأيديهم إلى التوحيد، فقال لهم على سبيل الفرض، وهو يتنزل إلى مستواهم، وكان يجلس بين قومه في مجلس يتحدثون ويتسامرون في ليلة من الليالي، وقد رأى في الأفق بعد أن أظلم الليل ﴿كَوْكَبًا﴾ نجماً ساطعاً.

قيل: هو الزهرة أو المشتري، والكوكب من ملكوت السموات؛ أي: رأى كوكباً شديد الضوء ﴿قَالَ﴾ لهم مستدرجاً ﴿هَذَا رَبِّي﴾ على وجه التنزل مع الخصم، أي إن هذا الكوكب هو ربي فهلّم نظروا، هل يستحق الربوبية؟ وكانوا يعبدون الكواكب، فقال لهم: هذا هو الإله الذي تعبدونه، وكان قد رآه مشرقاً من المشرق، وبعد فترة قليلة غاب وغرب

(١) هل هذه الرؤية كانت بعين البصر أو بعين البصيرة؟ الظاهر -والله أعلم- أنها كانت بعين البصيرة، وقد ذكر بعض المفسرين أنها كانت بالبصر؛ كابن جرير والخازن وغيرهما، وهناك أدلة مرفوعة رواها ابن مردويه عن علي ومعاذ لم يصح منها شيء، ونسب ذلك إلى بعض التابعين؛ كابن مجاهد وعطاء وغيرهما.

﴿فَلَمَّا أَفَلَ﴾ غاب الكوكب ﴿قَالَ لَا أُحِبُّ الْأَفْلِينَ﴾ هذا لا يصلح أن يكون إلها؛ لأن الإله لا يغيب، لا أحب عبادة الإله الذي يتغير ويتنقل من حال إلى حال، ومن مكان إلى مكان؛ لأن الإله الحق دائم؛ لتدبير أمر عباده، لا يغيب ولا يتعد، وفي هذا تهيئة لنفوس القوم، وتوطئة لمعرفة الإله الحق.

الاستدراج الثاني

٧٧- ﴿فَلَمَّا رَأَى الْقَمَرَ بَازِعًا قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَيْنَ لَمْ يَهْدِنِي رَبِّي لَأَكُونَنَّ مِنَ الْقَوْمِ الضَّالِّينَ﴾

وفي ليلة أخرى - وهو يخوض التجربة مرة ثانية مع القوم - رأى القمر أكثر ضوءاً من الزهرة أو المشتري؛ فقال لهم مستدرجاً: هذا الذي تعبدونه هو ربي، وبعد فترة قليلة أفل؛ أي: غاب ﴿قَالَ﴾ إبراهيم في صورة المنتصر إلى هداية ربه: ﴿لَيْنَ لَمْ يَهْدِنِي رَبِّي﴾ إلى الصواب في توحيد، ويثبتني على الهدى؛ ﴿لَأَكُونَنَّ مِنَ الْقَوْمِ الضَّالِّينَ﴾ عن سواء السبيل بعبادة غير الله تعالى، فهو يندد بهم، وهم على ضلال، ويطلب الهداية من ربه، ويريد أن يتوصل إليه عن طريق الحجة، والإقناع، والنظر، والاستدلال.

الاستدراج الثالث

٧٨- ﴿فَلَمَّا رَأَى الشَّمْسَ بَازِعَةً قَالَ هَذَا رَبِّي هَذَا أَكْبَرُ فَلَمَّا أَفَلَتْ قَالَ يَنْفَوِرَ إِلَيَّ بَرَاءً مِمَّا تُشْرِكُونَ﴾

هذه هي المرة الثالثة، رأى فيها إبراهيم الشمس وهي أكبر من القمر وأعظم، وقد امتد شعاعها، بحيث لا يستطيع الإنسان أن ينظر إليها نظرة واضحة، ويحدق بها البصر، فلما رأى الشمس طالعةً، ونورها أكبر، قال إبراهيم: هذا ربي، وهذا قول من يُنصف خصمه وهو يعلم أنه مبطل، فيحكي قوله غير متعصب لمذهبه، قال: هذا أكبر من الكوكب والقمر، ولكن لم تلبث الشمس أن غابت، فلما غابت قال: يا قوم، إني بريء مما تشركون من عبادة الأجرام المتغيرة، والنجوم التي تعبدونها من دون الله.

وهذا هو النفي الذي يتضمنه شرط كلمة التوحيد، (لا إله) أي: لا يوجد إله يُعبد بحق، وهذه براءة مما تُشركون، ثم يأتي الإثبات وهو شرط كلمة التوحيد الثاني (إلا الله)، هذا الإثبات يأتي في قول إبراهيم كما حكى عنه ربه: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ إِنَّنِي بَرَاءٌ

مِمَّا تَعْبُدُونَ ﴿٢٦﴾ إِلَّا الَّذِي فَطَرَنِي فَإِنَّهُ سَيِّدِي ﴿٢٧﴾ [الزخرف].

هذا، وقد سلك إبراهيم في الحالات الثلاث، أحكم الطرق في الاستدلال على وحدانية الله تعالى، فترقى بهم من الأدنى إلى الأعلى، مع التعريض بضلالهم؛ ليأخذ بأيديهم إلى النتيجة المطلوبة عن طريق الإقناع.

فقد عرّض بضلالهم في الجولة الثانية، وكان ذلك أقوى وأصرح من قوله في الجولة الأولى: ﴿لَا أُحِبُّ الْآفِلِينَ﴾ ثم صرح بالبراءة من شركهم في الجولة الثالثة.

واحتجَّ إبراهيم بالأفول دون البزوغ؛ لأن الأفول متعدد الدلالة، فهو انتقال مع الاحتجاب، ومَن أَفَلَ يزول سلطانه وقت الأفول، أما البزوغ فليس كذلك^(١).

قال أبو حيان: لَمَّا أَوْضَحَ لَهُمْ أَنَّ هَذَا الْكَوْكَبَ الَّذِي رَأَاهُ لَا يَصْلَحُ أَنْ يَكُونَ رَبًّا ارْتَقَبَ مَا هُوَ أُنُورٌ مِنْهُ وَأَضْوَاءُ، فَرَأَى الْقَمَرَ أَوَّلَ طُلُوعِهِ، ثُمَّ لَمَّا غَابَ ارْتَقَبَ الشَّمْسَ؛ إِذْ كَانَتْ أُنُورٌ مِنَ الْقَمَرِ وَأَضْوَاءُ وَأَكْبَرُ جَرْمًا، وَأَعْمُ نَفْعًا، فَقَالَ ذَلِكَ عَلَى سَبِيلِ الْاِحْتِجَاجِ عَلَيْهِمْ^(٢).

وقد كان إبراهيم مناظرًا لقومه، مبيّنًا لهم بطلان ما كانوا عليه من عبادة الأصنام والكواكب السيارة، وأشدهن إضاءة الشمس، ثم القمر، ثم الزهرة، فلما انتفت الإلهية عن هذه الأجرام الثلاثة التي هي أنور ما تقع عليه الأبصار، وتحقق ذلك بالدليل القاطع ﴿قَالَ يَنْفِقُونَ عَلَيَّ بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ﴾^(٣).

وهذه الآيات تقتضي أن قوم إبراهيم كانوا يعبدون الكواكب، وأنهم كانوا على دين الصابئة، وقد كان هذا الدين شائعًا لدى الكلدانيين حيث نشأ إبراهيم ﷺ، وكانوا يعبدون صور الكواكب، أو تماثيل لها على حسب تخيلاتهم وأساطيرهم، كما كان عليه قدماء اليونان^(٤).

(١) ينظر: «تفسير الألوسي» (٤١/٢).

(٢) «البحر المحيط» (١٦٧/٤).

(٣) ينظر «تفسير ابن كثير» للآية.

(٤) «تفسير التحرير والتنوير» (٣٠٠/٨).

نَتِيجَةُ الْحَوَارِ

قال إبراهيم في النهاية:

٧٩- ﴿إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ حَنِيفًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾

وبعد أن أثبت إبراهيم بالدليل القطعي أن هذه النجوم ليست آلهة، ولا تصلح لذلك، وجد أن الفرصة قد سنحت للتبرؤ من شركهم، وإظهار التوحيد، فختم أسلوب الترقّي في الاستدلال على وحدانية الله تعالى بقوله: ﴿إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ حَنِيفًا﴾ أي: إني صرفت عبادتي، وقصرت توحيدتي، وتوجهت بوجهي للذي أبدع وخلق هذا الكون بما فيه ومن فيه، ماثلاً عن الشرك الذي تشركونه من دون الله، فأقبلت على ربي وأعرضت عمّن سواه، فتبرأ من الشرك وأذعن للتوحيد ﴿وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾، لا في الماضي ولا في الحاضر ولا في المستقبل.

ومن السنة أن نستفتح الصلاة بهذه الآية بعد تكبيرة الإحرام؛ فقد صح عن عليّ ؓ أن رسول الله ﷺ كان إذا استفتح الصلاة كبر، ثم قال: ﴿إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ حَنِيفًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ ﴿٧٩﴾ ﴿قُلْ إِنْ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ ﴿١٦٣﴾ لَا شَرِيكَ لَّهُ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ﴾ ﴿١٦٣﴾ الحديث^(١).

والحنيفي: هو المائل عن طريق الضلال إلى طريق الاستقامة.

وقد وصف الله سبحانه إبراهيم عليه السلام بهذا الوصف كثيراً في القرآن الكريم؛ منه قوله تعالى: ﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ ﴿١٦٠﴾ [النحل] وقوله: ﴿قُلْ إِنِّي هَدَانِي رَبِّي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ دِينًا قِيَمًا مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ ﴿١٦٣﴾ [الأنعام].

وفي الحديث القدسي عن عياض بن حمار عن النبي ﷺ فيما يرويه عن ربه عز وجل قال: «وإني خلقت عبادي حنفاء كلهم، وإنهم أتتهم الشياطين فاجتالتهن عن

(١) «المسند» (٧٢٩، ٨٠٣، ٨٠٤) بإسناد صحيح ورجال ثقات رجال الصحيح، وهو حديث طويل، وأخرجه مسلم (٧٧١) وأبو داود (٧٦٠) والترمذي (٣٤٢١، ٣٤٢٣) والنسائي (٨٩٦) وابن ماجه مختصراً (١٠٥٤) وابن خزيمة (٤٦٣) وعبدالرزاق (٢٥٦٧) وغيرهم.

دينهم...»^(١).

وعن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «كل مولود يولد على الفطرة» الحديث^(٢).
وقال تعالى: ﴿فَطَرَتِ اللَّهُ إِلَهِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا﴾ [الروم: ٣٠] وإبراهيم عليه السلام هو أولى الناس بالفطرة السليمة بعد رسول الله ﷺ.

ولذا: فقد كان مناظرًا لقومه؛ ليبين لهم بطلان ما هم عليه من ضلال في عبادتهم لغير الله تعالى.

مُحَاجَّةٌ مَنْ لَمْ يَتَّبِعْ لَهُ الْهُدَى

٨٠- ﴿وَحَاجُّهُ قَوْمُهُ قَالِ اتَّخَذْتَنِي^(٣) فِي اللَّهِ وَقَدْ هَدَنْيَ^(٤) وَلَا أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ رَبِّي شَيْئًا وَسِعَ رَبِّي كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ﴾

ولمّا أبطل إبراهيم عبادة آلهتهم وأظهر التوحيد؛ خاصمه قومه وجادلوه، فقال: أتجادلونني في توحيد الله بالعبادة، وقد وفقني إلى معرفة الحق، قالوا: إننا نعبد هذه الآلهة منذ آبائنا الأقدمين، ورثناها كابراً عن كابر، وأباً عن جدّ، فنحن نعبدها؛ لتقربنا إلى الله، وتشفع لنا عنده، ونحن نخاف عليك أن تمسك هذه الآلهة بسوء، قال إبراهيم: أترجعونني في الحجة على توحيد الله، وقد دللتكم عن طريق الحوار والمناظرة حتى وصلت بكم إلى هذه النتيجة، وأنا لا أخاف ما تشركون به، فإنها لن تضرنني ولن تمنع عني من النفع شيئاً.

(١) «صحيح مسلم» عن عياض بن حمار (٢١٩٧/٤) برقم (٢٨٦٥) و«المسند» (١٦٢/٤) من حديث طويل برقم (١٧٤٨٤) وإسناده صحيح على شرط مسلم، وأخرجه النسائي في «السنن الكبرى» (٨٠٧٠) والطبراني (١٠٧٩) والطبراني في الكبير (٩٩٤/١٧).

(٢) «صحيح البخاري» برقم (١٣٨٥)، ٦٥٩٩، ٦٦٠٠ و«صحيح مسلم» برقم (٢٦٥٨) بلفظ (ما من مولود إلا) وانظر (٢٦٥٩).

(٣) قرأ نافع وابن ذكوان وهشام بخلف عنه وأبو جعفر (أَتْخَذْتَنِي) بتخفيف النون، والباقون بتشديد النون على الأصل، وهو الوجه الثاني لهشام.

(٤) قرأ أبو عمرو وأبو جعفر بإثبات الياء وصلاً في (وقد هداني)، ويعقوب بإثباتها وصلاً ووقفاً، والباقون بحذفها في الحالين.

ثم استثنى إبراهيم ما يشاء الله به من ضر فقال: ﴿إِلَّا أَنْ يَشَاءَ رَبِّي شَيْئًا﴾ فيصيني بمكرهه، وقد أحاط علمه بجميع الأشياء، وهو أعلم بالحق النفع أو الضر بمن يشاء من عباده، والمعنى: أتعرضون - أيها الغافلون - عن التأمل والتدبر بعد أن أوضحت لكم - بما لا يقبل الشك - أن الله وحده هو المستحق للعبادة دون سواه، وأن معبوداتكم باطلة لا تملك لنفسها نفعًا ولا ضرًا، ويمضي إبراهيم عليه السلام في محاجة قومه فيقول:

٨١- ﴿وَكَيْفَ أَخَافُ مَا أَشْرَكْتُمْ وَلَا تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُمْ بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزَّلْ بِهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَانًا فَأَيُّ الْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِالْأَمْنِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨١﴾﴾

فإن كنتم تخوفوني بالهتكم فأنا لا أرهبا، وإنها لن تضرنني إلا أن يشاء ربي، وقد كان قومه يخوفونه من بطش الهتهم به، كما قال قوم هود له: ﴿إِنْ نَقُولُ إِلَّا اعْتَرَاكَ بَعْضُ آلِهَتِنَا بِسُوءٍ﴾ [هود: ٥٤]

قيل: قالوا لإبراهيم: خَفْ أَنْ تَصِيكَ آلِهَتُنَا بِبَرَصٍ أَوْ دَاءٍ؛ لإيذاك لها، فقال: لا قدرة لها على ذلك، وعدم خوفي من آلهتكم أقل عجبًا من عدم خوفكم من الله تعالى. وكيف أخاف من هذه الآلهة التي تزعمون أنها تضرنني وهي لا تملك شيئًا؟ كيف أخاف أو ثانكم، وأنتم لا تخافون أنكم أشركتم بالله ما لم ينزل به عليكم سلطانًا؟ وليس لكم حجة على عبادتها إلا مجرد إتباع الهوى ﴿إِنْ هِيَ إِلَّا أَسْمَاءٌ سَمِيَّتُوهَا أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ﴾ [النجم: ٢٣] فأَيُّ من فريق الشرك أو فريق التوحيد أَحَقُّ بِالْأَمْنِ من عذاب الله، إن كنتم تعلموا ما أقول فأخبروني؟

الْأَمْنُ قَرِينَ الْإِيمَانِ

٨٢- ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولَٰئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُمْ مُهْتَدُونَ ﴿٨٢﴾﴾

ثم بيّن سبحانه مَنْ هو الفريق الأحق بالأمن، من المخاوف والعذاب والشقاء والبلاء، فبين تعالى أنهم المؤمنون غير الظالمين لأنفسهم، فإذا لم يظلموا أنفسهم بظلم مطلقا، لا

(١) قرأ ابن كثير وأبو عمرو ويعقوب (يُنزَل) بإسكان النون وتخفيف الزاي مضارع (أنزل)، والباقون بفتح النون وتخفيف الزاي مضارع (نزل).

بشرك ولا بمعاصي حصل لهم الأمن التام والهداية التامة، وإذا لم يلبسوا إيمانهم بالشرك وحده، ولكنهم يعملون السيئات، حصل لهم أصل الهداية وأصل الأمن، ولم يحصل لهم كمالهما، ومفهوم الآية أن من لم يحصل له الأمان، لم يحصل له أمن ولا هداية.

والظلم هنا معناه الشرك، ولما نزلت هذه الآية شق ذلك على الصحابة، وقالوا: وأينا لم يظلم نفسه؟ فقال رسول الله ﷺ: «إِنَّهُ لَيْسَ كَمَا تَظُنُّونَ، إِنَّمَا ذَلِكَ كَمَا قَالَ لَقْمَانُ لَابَنِهِ: ﴿إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾»^(١).

أي: إذا كان الأمن من عذاب الله يتحقق فقط، لمن لا يظلم نفسه، فكيف يكون حالنا وكلّ منّا قد ظلم نفسه؟ فبين النبي عليه الصلاة والسلام أن المراد بالظلم هو الشرك الذي قاله لقمان لابنه ﴿وَإِذْ قَالَ لُقْمَانُ لِابْنِهِ وَهُوَ يَعِظُهُ يَبْنَىٰ لَا تَشْرِكْ بِاللَّهِ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ [لقمان]

أي: إن الشرك بالله أعظم الظلم ﴿الَّذِينَ ءَامَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ﴾ أي: بشرك ﴿أُولَٰئِكَ هُمُ الْآمَنُونَ وَهُمْ مُّهْتَدُونَ﴾. والأمن والهداية من أكبر نعم الله على خلقه.

عن ابن عباس أن عمر بن الخطاب كان إذا دخل بيته نشر المصحف يقرؤه، فدخل ذات يوم، فقرأ سورة الأنعام، فأتى على هذه الآية فعظمت عليه، فلبس رداءه وذهب إلى أبي بن كعب وقال: يا أبا المنذر، وسأله عنها، فقال له: إنه الشرك يا أمير المؤمنين، فسري عن عمر^(٢).

وأخرج ابن أبي حاتم، عن عبد الله بن زمر، عن بكر بن سواده قال: حمل رجل من العدو على المسلمين، فقتل رجلاً، ثم حمل فقتل آخر، ثم حمل فقتل آخر، ثم قال: أينفعني الإسلام بعد هذا؟ فقال رسول الله ﷺ: «نعم» فضرب فرسه، فدخل فيهم، ثم حمل على أصحابه، فقتل رجلاً، ثم آخر، ثم قُتل، قال: فيرون أن هذه الآية نزلت فيه^(٣).

ومما يدل على أن المراد بالظلم في الآية هو الشرك أن سياق الآيات في نفي الشركاء والأنداد

(١) ينظر: «صحيح البخاري» برقم (٢٤٢، ٤٦٢٩، ٦٩٣٧) والطيالسي (٢٧٠) والنسائي في الكبرى (١١١٦٥) و«المسند» (٣٧٨/١) برقم (٣٥٨٩، ٤٠٣١، ٤٢٤٠) بإسناد صحيح على شرط الشيخين

ومسلم (١٢٤) والترمذي (٣٠٦٧) وابن حبان (٢٥٣) وأبو يعلى (٥١٥٩) وكلهم عن ابن مسعود.

(٢) «تفسير ابن عطية» (٣١٥/٢) وقد أخرجه الحاكم (٣٠٥/٣) عن سعيد أن عمر.

(٣) «تفسير الطبري» (١٦٧/٧) و«أسباب النزول» للسيوطي ص ١١٧.

عن الله تعالى، وليس فيها ذكر للطاعات والعبادات؛ فوجب حَمْلُ الظلم على الشرك^(١). فالأمن والأمان والاستقرار في الدنيا والآخرة إنما هو للمؤمنين بالله حقاً غير المشركين به، وحين يأتي الشرك بالله في الأمة يكون الدمار والخراب والهزائم والنكبات والنكسات. والآية فيها فَضْلُ القضاء بين مَنْ يستحق الأمن، وَمَنْ لا يستحقه، تعقيباً على المشركين من قوم إبراهيم.

فدلت الآية على أن مَنْ صدَّق بالله رباً، وبمحمد ﷺ نبياً ورسولاً، ولم يخلط إيمانه بالشرك؛ له الطمأنينة والسلامة في دنياه وأخراه، وهو المَوْفَّق إلى طريق الحق.

مَوْكِبُ الرِّسَالَاتِ

٨٣- ﴿وَتِلْكَ حُجَّتُنَا آتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَىٰ قَوْمِهِ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ^(٢) مِّنْ نَّشَأٍ^(٣) إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ

في هذه الآية ذُكر اسم إبراهيم عليه السلام وحده، وفي الآيات الثلاث القصار التي بعدها ذُكر اسم سبعة عشر رسولاً من رسل الله صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين، وَمَنْ يحفظ هذه الآيات الثلاث يحفظ أسماء ثمانية عشر رسولاً من رسل الله، ويبقى سبعة تنتم الخمسة والعشرين رسولاً ونبياً الذين ذُكروا بأسمائهم في القرآن الكريم، بما فيهم آدم عليه السلام على أن آدم عليه السلام رسول، أرسل إلى أبنائه وعشيرته وقومه الذين كان فيهم.

ويزداد على هؤلاء الثمانية عشر (آدم ومحمد) أولهم وآخرهم، واثنان في العرب أرسلوا من غير بني إسرائيل هما (هود وصالح) ثم (شعيب وذو الكفل وإدريس)، فهؤلاء خمسة وعشرون نبياً ورسولاً ذُكروا بأسمائهم في القرآن الكريم، ويجب الإيمان بهم تفصيلاً، ثم الإيمان إجمالاً بأن لله تعالى رسلاً وأنبياء كثيرين لا يعلمهم إلا الله.

(١) ينظر: «تفسير الفخر الرازي» (٨٢/٤).

(٢) نَوْنُ التاء من (درجات) عاصم وحمزة والكسائي ويعقوب وخلف العاشر، على أنه منصوب على الظرفية، و(من) مفعول؛ أي: نرفع من نشاء مراتب ومنازل، أو على أنه مفعول ثانٍ مقدم؛ أي: نعطي من نشاء درجات، وقرأ الباقون بغير تنوين على الإضافة، ودرجات مفعول به لرفع.

(٣) سهل الهمزة الثانية من (نشاء إن) نافع وابن كثير وأبو عمرو وأبو جعفر، وأبدلوا واواً خالصة، والباقون بتحقيقها.

فِي تِلْكَ حُجَّتُنَا إِمَانِيَّةً مِنْ بَعْدِ عَشْرِ رَبَّاقَى سَبْعَةٍ وَهُمْ
 إِدْرِيسَ هُودَ شُعَيْبَ صَالِحَ وَكَذَا ذُو الْكِفْلِ آدَمَ بِاخْتَارِ قَدْ خُتِمُوا
 وجاء ذكر السبعة عشر رسولاً في هذه السطرين ﴿وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ كُلًّا
 هَدَيْنَا وَنُوحًا هَدَيْنَا مِنْ قَبْلُ وَمِنْ ذُرِّيَّتِهِ دَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَى وَهَارُونَ وَكَذَلِكَ
 نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴿٨٤﴾ وَزَكَرِيَّا وَيَحْيَى وَعِيسَى وَإِلْيَاسَ كُلٌّ مِنَ الصَّالِحِينَ ﴿٨٥﴾ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيُوسُفَ
 وَلُوطًا وَكُلًّا فَضَّلْنَا عَلَى الْعَالَمِينَ ﴿٨٦﴾﴾.

ومعنى هذه الآيات الأربع: وتلك الحجة التي حاج بها إبراهيم قومه، واستدل بها على
 بطلان عبادة الأوثان والكواكب هي حجتنا التي وفقنا لها حتى انقطعت حجتهم، نرفع
 مراتب من نشاء من عبادنا في الدنيا بالنبوة والعلم والحكمة والعقل والفضيلة، وفي
 الآخرة بالثواب على العمل الصالح والدرجات العلا، إن ربك حكيم في جميع أفعاله،
 عليم بأحوال خلقه.

وَمِنْ نَعَمِ اللَّهِ عَلَى إِبْرَاهِيمَ:

أولاً: أن الله تعالى آتاه الحجة في توحيد الله، وهداة ووقفه إليها.

ثانياً: أن الله تعالى خصه بالرفعة والدرجات العلا، وجعله أمة وحده.

ثالثاً: أن الله تعالى جعله عزيزاً في الدنيا، صالحاً في الآخرة، يُثني عليه الأولون
 والآخرين، وجعل الأنبياء في نسله إلى يوم القيامة. قال تعالى:

٨٤- ﴿وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ كُلًّا هَدَيْنَا وَنُوحًا هَدَيْنَا مِنْ قَبْلُ وَمِنْ ذُرِّيَّتِهِ دَاوُدَ
 وَسُلَيْمَانَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَى وَهَارُونَ وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴿٨٤﴾﴾

وقد منَّ الله على إبراهيم حيث هداه إلى إفحام خضمه بالحجج القاطعة؛ لإبطال الشرك
 وإظهار التوحيد، ومنَّ الله عليه فرفع درجته في عليين، وأبقى النبوة في ذريته إلى يوم
 الدين، كما قال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِ النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ﴾ [العنكبوت: ٢٧، والحديد: ٢٦]
 فقد رزقه الله إسحاق، ابنه من صلبه، ويعقوب حفيده، ابن إسحاق.

قال تعالى: ﴿فَبَشِّرْنَاهَا بِإِسْحَاقَ وَمِنْ وَرَاءِ إِسْحَاقَ يَعْقُوبَ﴾ [هود: ٧١]

وقال: ﴿فَلَمَّا أَتَتْهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ ۖ وَكُلًّا جَعَلْنَا نَبِيًّا ۖ﴾ [مريم] والضمير في ﴿وَمِنْ ذُرِّيَّتِهِ﴾ يحتمل أن يعود إلى نوح لأنه أقرب مذكور، ولأن لوطاً ليس من ذرية إبراهيم، بل هو ابن أخيه، وهذا أولى من حمل الضمير إلى إبراهيم، نظراً لأن السياق في مدحه وثنائه، وقد وفقهم الله تعالى وهداهم إلى طريق الحق والصواب، كما وفق نوحاً ﷺ للحق والصواب، ومنَّ عليه بالهداية والنبوة قبلهم.

وكذلك هدى الله من ذرية نوح، داودَ وسليمان وأيوب ويوسف وموسى وهارون، عليهم الصلاة والسلام، للحق والصواب ومنَّ عليهم بالنبوة والرسالة.

وكما جزى الله هؤلاء الأنبياء على توحيدهم ودعوتهم وصبرهم على أقوالهم يجزي كلَّ محسن، قال تعالى: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ مِنْ ذُرِّيَةِ آدَمَ وَمِمَّنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ وَمِنْ ذُرِّيَةِ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْرَءِيلَ وَمِمَّنْ هَدَيْنَا وَاجَبَيْنَا﴾ [مريم: ٥٨].

٨٥- ﴿وَزَكَرِيَّا﴾^(١) وَيَحْيَىٰ وَعِيسَىٰ وَإِلْيَاسَ ۖ كُلٌّ مِّنَ الصَّالِحِينَ ﴿٨٥﴾

أي: وهدى الله كذلك كلًّا من زكريا ويحيى وعيسى وإلياس، وكلُّ هؤلاء الأنبياء من الصالحين.

٨٦- ﴿وَإِسْمَاعِيلَ وَالْيَسَعَ﴾^(٢) وَيُوشَعَ وَلُوطًا ۖ وَكُلًّا فَضَّلْنَا عَلَى الْعَالَمِينَ ﴿٨٦﴾

أي: وهدينا كذلك إسماعيل واليسع ويونس ولوطاً، وكلُّ هؤلاء الرسل فضلناهم على عالمي زمانهم، ودرجات الفضائل أربع، ذكرها الله تعالى في قوله ﴿وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصَّادِقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ﴾ [النساء: ٧٠]

وهؤلاء أهل الدرجة العليا، النبوة والرسالة.

وينسب (عيسى) إلى ذرية إبراهيم، أو نوح من ناحية أمه؛ لأن أولاد البنات يدخلون في ذرية الرجال.

(١) قرأ حفص وحزمة والكسائي وخلف (وزكريا) بحذف الهمزة، والباقون (وزكرياء) بإثبات الهمزة.

(٢) قرأ حمزة والكسائي وخلف (والْيَسَعَ) بلام مشددة مفتوحة بعدها ياء ساكنة، على أن الأصل (اليسع) كضيف، فدخلت عليه (أل) ثم أدغمت اللام في اللام، والباقون (والْيَسَعَ) بلام خفيفة ساكنة بعدها ياء مفتوحة.

وقد قال النبي ﷺ عن الحسن بن علي فيما يرويه أبوبكرة قال: رأيت رسول الله ﷺ على المنبر، وحسنٌ معه، وهو يُقبل على الناس مرة وعليه مرة ويقول: «إن ابني هذا سيدٌ، ولعل الله أن يصلح به بين فئتين من المسلمين»^(١).

فسماه النبي ﷺ ابنًا، وفيه دليلٌ دخول أبناء البنات في الذرية.

ولوط ابن أخي إبراهيم، وليس من ذريته، وقد يقال هذا من باب التغليب في حالة عود الضمير في ﴿وَمِنْ ذُرِّيَّتِهِ﴾ على إبراهيم، والصحيح أنه يعود إلى أقرب مذكور وهو نوح، ويكون لوط من ذريته، وهؤلاء الأنبياء الثمانية عشر ذُكروا من غير ترتيب أفضلية ولا زمان، والواو لا تقتضي الترتيب.

من لطائف ترتيب الرسل: وقد التمس بعض المفسرين لطائف لهذا الترتيب^(٢) فقالوا ما معناه:

(أ) ذُكر أولادُ نوح وإبراهيم وإسحاق ويعقوب؛ لأنهم أصول الأنبياء، وإليهم ترجع أنسابهم جميعًا.

(ب) ثم ذُكر داود وسليمان بعدهم؛ لِمَا مَنَّ الله عليهما به من المُلْك بعد النبوة.

(ج) وجاء ذُكر أيوب بعدهم؛ لصبره على البلاء والمحن والشدائد.

(د) وذُكر (يوسف) بعدهم؛ لأن الله جمع له بين الأمرين جميعًا: المُلْك والصبر على البلاء.

(هـ) ثم جاء ذُكرُ موسى وهارون؛ لكثرة المعجزات والبراهين التي خصهما الله بها.

(و) ثم جاء ذُكرُ زكريا ويحيى وعيسى وإلياس، ووصفهم الله بالصالحين؛ لِمَا اشتهروا به من الزهد في الدنيا والإعراض عنها.

(ز) ثم ذُكر بعدهم إسماعيل واليسع ويونس ووط، وهم مَمَّنْ لم يبقَ لهم أتباع ولا شريعة.

وهذا تعريف يسير بهؤلاء الأنبياء والمرسلين عليهم صلوات الله وسلامه أجمعين.

(١) «صحيح البخاري» عن أبي بكرة (٣٠٦/٥) برقم (٢٧٠٤) و(٣٧٤٦) و(٧١٠٩) وأبو داود (٤٨/٥) برقم (٤٦٦٢) والترمذي (٦٨٥/٥) برقم (٣٧٧٣) والمسند (٢٠٤٧٣) و(٢٠٣٩٢) وهذا لفظه، و(٢٠٤٤٨) حديث صحيح، وإسناده صحيح على شرط البخاري.

(٢) ينظر: «تفسير البغوي» والخازن و«حاشية الجمل على الجلالين» وغيرها.

ترجمة يسيرة للرسل الكرام:

- ١- نوح بن لامك، جده إدريس، أول الرسل.
- ٢- إبراهيم بن آزر، أبو الأنبياء، وُلد في سواد العراق، زمن النمرود.
- ٣- إسحاق بن إبراهيم، من زوجته سارة، أصغر من أخيه إسماعيل بثلاثة عشر عامًا.
- ٤- يعقوب بن إسحاق، حفيد إبراهيم، وُلد في حياته، وتزوج في حياته، يُكْنَى إسرائيل؛ أي: عبد الله.
- ٥- داود بن يسى ابن سبط يهوذا، ولد في بيت لحم سنة ١٠٨٥ ق.م تقريبًا، آتاه الله النبوة والملك، وأنزل عليه الزبور، وهو الذي قتل جالوت، ومات في أورشليم سنة ١٠١٥ ق.م.
- ٦- سليمان بن داود، كان مَلِكًا نبيًا كأبيه، ولد في أورشليم سنة ١٠٤٣ ق.م تقريبًا، وتوفي سنة ٩٧٥ ق.م.
- ٧- أيوب بن أموص بن عيصو، من ذرية إسحاق، كان يسكن أرض حوران بالشام، قال الطبراني: كان عمره ٩٣ سنة.
- ٨- يوسف بن يعقوب، حفيد إبراهيم، ولد قبل عيسى بألفي عام تقريبًا.
- ٩- موسى بن عمران بن يصهر بن لاوي، من ذرية يعقوب، ولد في القرن الرابع عشر ق.م.
- ١٠- هارون أخو موسى، شقيقه، أو لأُمّه، أكبر من موسى بسنة، ومات قبيل موسى بزمن يسير.
- ١١- زكريا بن أزن بن بركتا، يصل نسبه إلى سليمان، كفل مريم بنت عمران، أم عيسى، وكان زوجَ خالتها، وهو قريبُ العهد به.
- ١٢- يحيى بن زكريا، وابن خالة عيسى.
- ١٣- عيسى ابن مريم بنت عمران، من ذرية إبراهيم ونوح، وجاء نسبه في الآية إلى أخواله.
- ١٤- إلياس بن نَسَى بن فنحاص، جده هارون أخى موسى من سبط لاوي، ويعرف عند الإسرائيليين باسم إيليا، كان يسكن في جلعاد بشرق الأردن ومنه بعلبك، وكان قومه

يعبدون صنم بعل، ويقال له: إلياس التشبي، قيل: إنه كان في زمن أخاب ملك بني إسرائيل عام ٩١٨ ق.م.

١٥- إسماعيل، الابن الأكبر لإبراهيم، أمه هاجر، ومن ذريته محمد ﷺ.

١٦- اليسع بن أخطوب بن العجوز، واسمه بالعبرية (اليشع)، دفن بالسامرة عام ٨٤٠ ق.م تقريبًا.

١٧- يونس بن مَتَّى، واسمه بالعبرية يونان بن أمتاي، وُلِدَ في فلسطين، وأُرْسِلَ إلى أهل نينوى من بلاد آشور في العراق، في القرن الثامن ق.م، وخرج من قومه مغاضبًا إلى يافا، فركب سفينة الفينيقيين متوجهًا إلى غربي صور على البحر الأحمر.

١٨- لوط بن هاران أخي إبراهيم، ولد في أور الكلدانيين بالعراق، وهاجر مع عمه إبراهيم إلى فلسطين، وافترق عنه بسبب خلاف بين الرعاة، أُرْسِلَ إلى أهل سدوم شرق الأردن. أما بقية الأنبياء الذين ذُكروا في القرآن فهم:

١٩- إدريس وهو أخنوخ بن متوشلح، جد نوح ﷺ، ذُكر مرتين في القرآن، نزل عليه ثلاثون صحيفة، أول مَنْ خط بالقلم، وحاك الثياب، وعرف الطب.

٢٠- ذو الكفل أحد أنبياء بني إسرائيل، وهو ابن أيوب ﷺ، وقد بُعِثَ بعده، واسمه في الأصل يَشْر، وقد تكفل بالطاعات فوفِّي، وتكفَّل بالعدل بين الناس فوفِّي.

٢١- هود بن عبد الله بن رباح بن سام بن نوح، أُرْسِلَ إلى قوم عاد بالأحقاف، من العرب البائدة عام ٢٠٠٠ ق.م تقريبًا.

٢٢- صالح بن عبيد بن آسف بن ثمود، أُرْسِلَ إلى قوم ثمود في الحِجْر بين الحجاز والشام، كان في القرن الخامس قبل الميلاد.

٢٣- شعيب بن ثويب بن مدين بن إبراهيم ﷺ، خطيب الأنبياء، أُرْسِلَ إلى أهل مدين الممتدة من خليج العقبة إلى سيناء، قيل: وهم أصحاب الأيكة، وكان في أرض معان قريبًا من بحيرة لوط.

٢٤- آدم أبو البشر ﷺ، كان نبيًا، واختُلف في رسالته.

٢٥- محمد بن عبد الله بن عبد المطلب، خاتم الأنبياء، أرسل إلى الثقلين: الجن والإنس إلى قيام الساعة. قال تعالى:

٨٧- ﴿وَمِنْ آبَائِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ وَإِخْوَانِهِمْ وَاجْتَنِبْتُمْ وَهْدْيَتَهُمْ إِلَى صِرَاطٍ^(١) مُسْتَقِيمٍ ﴿٨٧﴾

ثم قال تعالى: ﴿وَمِنْ آبَائِهِمْ﴾ أي: وكذلك وفقنا للحق من شئنا هدايته من آباء هؤلاء الرسل. (من) للتبعيض؛ لأن بعضهم كان كافراً ﴿وَذُرِّيَّاتِهِمْ﴾ وذرية بعضهم كان كافراً كابن نوح ﴿وَإِخْوَانِهِمْ﴾ وفقناهم وهديناهم ﴿وَاجْتَنِبْتُمْ﴾ أي: اخترناهم واصطفيناهم؛ لتبليغ رسالتنا ﴿وَهْدْيَتَهُمْ﴾ أرشدناهم ﴿إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ طريق لا عوج فيه؛ وهو توحيد الله، وتنزيهه عن الشرك. قال تعالى:

الشُّرْكُ وَالْكَفْرُ يَهْدِدَانِ مَقَامَ الرِّسَالَةِ:

٨٨- ﴿ذَلِكَ هُدَى اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَلَوْ أَشْرَكُوا لَحِطَ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٨٨﴾

ذلك الهدى إلى صراط مستقيم هو توفيق الله، يُوفِّقُ الله مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ، ومنهم الصفة المختارة من البشر، ولو أشرك أحد من أنبياء الله ورسله -على سبيل الفرض، وعلى علو شأنهم ومنزلتهم- كان نصيبه الإحباط وبطلان عمله؛ لأن الله تعالى لا يقبل مع الشرك عملاً، قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَوْحَىٰ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكَتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴿١٥﴾﴾ [الزمر]

وقال: ﴿وَلَوْ أَشْرَكُوا لَحِطَ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ فكيف بغيرهم؟ والشرك محبط للعمل موجب للخلود في النار. قال تعالى:

٨٩- ﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ^(٢) فَإِنْ يَكْفُرْ بِهَا هَؤُلَاءِ فَقَدْ وَكَلْنَا بِهَا قَوْمًا لَيَكْفُرُنَّ بِهَا

هؤلاء الرسل الذين سميناهم، هم الذين أنزل عليهم الكتاب والحكم والنبوة، والنبوة هي الأشرف، ولكنها أخرت لكون الكتاب والحكم يدلان عليها، والحكم يعني الملك، ويعني الحكمة والفهم والعلم بطرق الخير، والكتب كصحف إبراهيم، وتوراة موسى،

(١) قرأ قبل وروى بالسین في (صراط)، وأشم الصاد صوت الزاي خلف عن حمزة، والباقون بالصاد الخالصة.

(٢) قرأ نافع (والنبوة)، والباقون (والنبوة).

وإنجيل عيسى، وزبور داود، وآتيناهم فهم هذه الكتب.

وقد نصَّ القرآن على أن إبراهيم كانت له صحف، فقال تعالى: ﴿صُحُفَ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى﴾ [الأعلى] أما إنجيل عيسى، فهو كلامه الذي دونه الحواريون بعده، وكان لسليمان الأمثال والأناشيد، وكان لإدريس صحف، وكان لثيث بن آدم، صحف، وكان ليحيى كتاب، قال الله تعالى عنه: ﴿يَتَخَيَّ خُذِ الْكِتَابَ يَفُوقُ﴾ [مريم: ١٢]

وإتاء الرسل هذه الثلاث: ﴿الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ﴾ على التوزيع، فمنهم من أُوتِيَ جميعها، وهم الرسل، وكذا الأنبياء الذين آتاهم الله الملك كداود وسليمان، ومنهم من أُوتِيَ بعضها، وهم الأنبياء غير الرسل.

﴿فَإِنْ يَكْفُرْ بِهَا﴾ أي: بهذه الثلاث (الكتاب والحكم والنبوة) ﴿هَؤُلَاءِ﴾ أي: المعاصرون للتنزيل ﴿فَقَدْ وَكَّلْنَا بِهَا قَوْمًا لَّيْسُوا بِهَا بِكَافِرِينَ﴾ أي: فإن يجحد بآيات القرآن كفار قومك؛ فقد وكلنا بها قومًا هم أصحاب رسول الله ﷺ من المهاجرين والأنصار من أمة محمد ﷺ، الذين حملوا مشعل الإيمان وموكب الهدى والنور، ويدخل معهم كل من سار على نهجهم في كل زمان ومكان، ممن ليسوا بها بكافرين في وقت من الأوقات، وإنما هم مستمرّون على الإيمان بك، والتصديق برسالتك، وفي هذا إشارة إلى أن الله تعالى سينصر دينه، ويُعلي كلمته.

الْأَمْرُ بِاِقْتِضَاءِ أَثَرِ الْأَنْبِيَاءِ

٩٠- ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهِدَّتْهُمْ أَقْتَدَةُ﴾^(١) قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ ﴿٩٠﴾

وبعد أن قصَّ الله تعالى على نبيه ثمانية عشر نبياً، أمره أن يقتدي بهم؛ وأن يسير خلفهم، ويتبع ملتهم، أي: أن هؤلاء الأنبياء هم الذين وفقهم الله تعالى لدينه الحق، فاتَّبِع - أيها الرسول - هُداهم، واسلُك سبيلهم في أصول العقيدة والأخلاق والصبر على الأذى وما إلى ذلك.

(١) قرأ حمزة والكسائي ويعقوب وخلف العاشر بحذف هاء (اقتده) وصلّا، وأثبتها مكسورة مع القصر ابن عامر بخلف وابن ذكوان، وأثبتها ساكنة وصلّا ووفقاً بقیة القراء، ولم يختلفوا في إثباتها وفقاً على الأصل.

وقد اهتدى ﷺ بهدي الرسل قبله، وجمع كل كمال فيهم، فاجتمعت لديه فضائل وخصائص فاق بها العالمين، وكان سيد المرسلين وإمام المتقين.

وقل -أيها الرسول- للمشركين: لا أسألكم على تبليغ الدعوة أجراً ولا عوضاً، فما الإسلام إلا دعوة وتذكير، وهنا مسألتان:

المسألة الأولى: أن في أمر الله تعالى لنبيه محمد ﷺ، أن يقتدي بمن سبقه من الرسل -دليل على أن الله تعالى قد جمّع له هُدى الأولين، وأكمل له الفضائل، كما جمع له كل فضيلة اختص بها كل واحد منهم، ويشمل ذلك الاقتداء بهم في أصول الشرائع، وتزكية النفس، وحسن الخلق.

أما الفروع والأحكام الجزئية في الشرائع الإلهية السابقة ممّا لم يرد فيها نسخ، فإن للفقهاء فيها أربعة أقوال:

١- فقد قال المالكية والحنفية وبعض الشافعية: إن شرع من قبلنا شرع لنا، واحتجوا بحكم القصاص في السن بالسن، فإنه من شريعة التوراة، وبأن من نسي الصلاة فليصلها إذا ذكرها أخذاً من خطاب الله تعالى لموسى عليه السلام ﴿وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي﴾ [طه: ١٤].

قلت: ووجود هذين الدليلين في القرآن - وهما: حكم القصاص، ومن نسي الصلاة - كافٍ في كونهما شرعاً لنا؛ لأن القرآن متضمنٌ لهما، وليس لوجودهما في التوراة.

٢- وقال أكثر الشافعية والظاهرية: إن شرع من قبلنا ليس شرعاً لنا، واحتجوا بقوله تعالى: ﴿لِكُلِّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا﴾ [المائدة: ٤٨].

٣- قيل: إنما يلزم الاقتداء بشرع إبراهيم عليه السلام؛ لقوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ أَنْ اتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا﴾ [النحل: ١٢٣].

٤- وقيل: لا يلزم إلا اتباع شريعة عيسى؛ لأنها آخر الشرائع قبل الرسالة الخاتمة، وقد نسخت ما قبلها^(١).

المسألة الثانية: أنه ما من نبي إلا واجه قومه بأنه لا يطلب منفعة لنفسه على تبليغ

(١) ينظر: «تفسير التحرير والتنوير» (٣٥٨/٨).

الرسالة، ولا يسألهم على تبليغ الدعوة أجراً، وأن الناصح إذا كان له مطمع من وراء نصيحته؛ فإن هذه النصيحة لا تنفع ولا تجدي، وهكذا قال نوح لقومه: ﴿وَيَقُولُ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مَالًا إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى اللَّهِ﴾ [هود: ٢٩]

وقال هود لقومه: ﴿وَيَقُولُ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى الَّذِي فَطَرَنِي﴾ [هود: ٥١]

وقال شعيب لقومه: ﴿إِنْ أُرِيدُ إِلَّا الْإِصْلَاحَ مَا اسْتَطَعْتُ﴾ [هود: ٨٨].

وأمر الله سبحانه محمداً ﷺ أن يقول لقومه: ﴿قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَىٰ﴾ [الشورى: ٢٣] أي: إلا أن توادوني في قرابتي منكم، وتصلوا الرحم التي بيني وبينكم، فلا تعرضوا لي بأذى، وما هذا القرآن إلا ذكرى للعالمين، يتذكرون به ما ينفعهم، فيعملوا به، وما يضرهم فيتركونه، ويتذكرون به معرفة ربهم بأسمائه وصفاته، ويتذكرون به الطرق الموصلة إلى الجنة، والمبعدة لهم عن النار.

إِنْكَارِ الرِّسَالَاتِ وَعَوَاقِبِهَا الْوَحِيمَةِ

٩١- ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِذْ قَالُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ عَلَىٰ بَشَرٍ مِّن شَيْءٍ قُلْ مَن أَنزَلَ الْكِتَابَ الَّذِي جَاءَ بِمُوسَىٰ نُورًا وَهَدًى لِّلنَّاسِ تَجْعَلُونَهُ قُرْآنًا^(١) تُبَدُّونَهَا وَتُخْفَوْنَ كَثِيرًا وَعَلَّمْتُمْ مَا لَمْ تَعْلَمُوا أَنْتُمْ وَلَا آبَاؤُكُمْ قُلِ اللَّهُ ثُمَّ ذَرْهُمْ فِي خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ﴾ (٩١)

وبعد ذكر موكب الرسالات التي جاءت؛ لإقامة التوحيد وإبطال الشرك، تعود الآيات إلى الحديث عن المشركين الذين ينكرون الرسالات والنبوات، فيقولون: إن الله تعالى لم يُرسل رسولا من البشر، ولم يُنزل كتابا على أحد من خلقه، مع أن اليهود كانوا يخالطون المشركين في الجزيرة، ولم ينكر المشركون على اليهود أنهم أهل كتاب أنزله الله على موسى ﷺ.

فكفار قريش كانوا مختلطين باليهود، وقد سمعوا منهم أن موسى جاءهم بالثوراة، وبالمعجزات الباهرات، فلم ينكروا ذلك، وإنما أنكر كفار قريش نبوة محمد ﷺ؛ وعلى هذا فإن كفار قريش واليهود كانوا ينكرون نبوة محمد ﷺ.

(١) قرأ ابن كثير وأبو عمرو بياء الغيب في الأفعال الثلاثة (تجعلونه قرايس تبذونها وتخفون كثيرا) على أنها مسندة للكفار، وقرأ الباقون بياء الخطاب؛ أي: قيل لهم ذلك.

ولذا: فإن الله تعالى يُشَنِّع على كل من نفى الرسالة، وزعم أن الله تعالى ما أنزل على بشر من شيء، ففي هذا قدح في حكمته تعالى، وادّعاء أن الله تعالى قد أهمل عباده، فلم يأمرهم ولم ينههم، وفيه نفى لأعظم منة امتن الله بها عباده وهي نعمة الرسالة.

والآية التي نحن بصددتها تخاطب كل من أنكر رسالة النبي ﷺ، قال تعالى: ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِذْ قَالُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ عَلَى بَشَرٍ مِّن شَيْءٍ﴾ أي: ما عظموه حقَّ تعظيمه، وما عرفوه حقَّ معرفته؛ إذ أنكروا أن يكون الله تعالى قد أنزل على أحد من البشر شيئاً من وحيه، ولو أنهم عرفوا فضل الله تعالى على خلقه، ورحمته بهم في إرسال الرسل، وإنزال الكتب لهداية الخلق والبعد بهم عن النار؛ ما أنكروا رسالات الله تعالى وكتبه، وعلى رأسهم رسالة خاتم النبيين ﷺ، قال سبحانه: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾ [الأنبياء]

﴿يَأْتِيهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَاءٌ لِّمَا فِي الصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ [يونس].

﴿قُلْ﴾ يا محمد لمن لم يؤمن برسالتك: ﴿مَنْ أَنزَلَ أَلِكْتَبَ الَّذِي جَاءَ بِهِ مُوسَى نُورًا﴾ يستضاء به، وهداية لبني إسرائيل؟ ﴿وَهُدًى لِّلنَّاسِ﴾ من الذي أنزل التوراة التي جاء بها موسى إلى قومه نوراً للناس وهداية لهم؟

والجميل في هذا الرد أن من أنزل الله عليه القرآن لا يأتي ذكره هنا، وإنما يستشهد بكتاب موسى وما أودع الله فيه من نور وهداية؛ ذلكم لأن الإسلام يؤمن بجميع الرسل وجميع الكتب.

وبعد أن وبّخت الآية المشركين على إنكارهم نبوة محمد ﷺ وكتبه، وبيّنت أنهم يعرفون رسالة موسى ﷺ من خلال اليهود الموجودين بينهم، توجهت الآية إلى اليهود - المجاورين للمشركين بالمدينة والمخالطين لهم في التجارة وغيرها - لتنكر عليهم تحريفهم للتوراة، فقالت: ﴿تَجْعَلُونَهُ﴾ أي: كتاب التوراة المُنزَّل على موسى ﴿قِرَاطِيسَ﴾ أي: أوراق وصحائف؛ بمعنى أنهم يكتبون التوراة في أوراق مفرقة مقطعة يتلاعبون بها، فيظهرون بعضها، ويكتُمون كثيراً منها.

وممّا كتموه الإخبار عن صفة محمد ﷺ، وآية الرجم، وغير ذلك، ثم خاطبت الآية غير المسلمين، وهم أمة الدعوة المكلفة بالدخول في الإسلام من البعثة النبوية إلى قيام الساعة، بأن الله تعالى قد علّمهم في القرآن الذي أنزله على رسوله محمد ﷺ ما لم يسبق للأمم أن علّمته، فقال تعالى: ﴿وَعَلَّمْتُم مَّا لَمْ تَعْلَمُوا أَنْتُمْ وَلَا آبَاؤُكُمْ﴾ فقد حوى القرآن خبر من قبلكم ومن بعدكم، وما يكون بعد موتكم، وهو ما لم تعلموه أنتم ولا آباؤكم، وكان الأجدر بكم أن تشكروا فضل الله عليكم، ولا تنكروا الوحي والرسالة.

وفي آخر الآية يأتي الجواب على التساؤل الذي في أولها؛ وهو ﴿قُلْ مَنْ أَنْزَلَ الْكِتَابَ الَّذِي جَاءَ بِهِ مُوسَى نُورًا وَهُدًى لِلنَّاسِ﴾ فيلقن الله تعالى رسوله الجواب بأن يقول لهم: الله الذي أنزل التوراة على موسى، هو الذي أنزل القرآن على محمد، وهذا معنى ﴿قُلِ اللَّهُ﴾ هو الذي أنزل التوراة والإنجيل، ثم اتركهم في حديثهم الباطل يخوضون ويلعبون، وهذا معنى: ﴿ثُمَّ ذَرَهُمْ فِي خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ﴾ حتى يلاقوا يومهم الذي يوعدون وفي هذا تهديد ووعيد لهم، بعد إقامة الحجة عليهم، وإعذارهم وإنذارهم، حيث لم يبق عليك - أيها الرسول الكريم - شيء من أمرهم.

هذا، ونظرًا لأن مشركي مكة كانوا يخالطون بعض اليهود فيها، وكلاهما كان ينكر رسالة النبي ﷺ فإن الآية خاطبت الجميع.

ولعل ذكر اليهود في هذه الآية هو الذي جعل بعض المفسرين يقول: إن هذه الآية مدنية، لا سيما وأن بعض أسباب النزول لها يُنصُّ على اليهود.

وكما أسلفنا فإن هذا لا يعني أن الآية مدنية؛ لوجود العلاقة والجوار بين أهل مكة واليهود، والعلم عند الله.

ومن أسباب النزول التي وردت في الآية:

١- أنها نزلت في مشركي قريش، قالوا: ﴿مَا أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَى بَشَرٍ مِّن شَيْءٍ﴾^(١).

وكان المشركون يستبعدون إرسال رسول من البشر، كما قال تعالى: ﴿أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا

(١) رواه ابن أبي نجيح عن مجاهد، ورجحه ابن كثير، وقال: هو الأصح؛ لأن الآية مكية، انظر ابن أبي حاتم (٧٥٩٢).

أَنْ أَوْحَيْنَا إِلَى رَجُلٍ مِّنْهُمْ أَنْ أَنْذِرِ النَّاسَ ﴿يونس: ٢﴾

وقال: ﴿وَعِيبُوا أَنْ جَاءَهُمْ مُنْذِرٌ مِّنْهُمْ وَقَالَ الْكَاذِبُونَ هَذَا سِحْرٌ كَذَّابٌ ﴿١﴾﴾ [ص].

واليهود لم ينكروا إنزال الكتب من السماء في الجملة، ولكنهم أنكروا رسالة محمد ﷺ؛ وبالتالي أنكروا القرآن الذي نزل عليه عنادًا ولجاجًا.

٢- قال سعيد بن جبيرة، وعكرمة، وابن عباس: جاء رجل من اليهود -يقال له: مالك بن الصيف- يخاصم النبي ﷺ، فقال له النبي ﷺ: «أُنشِدك الله الذي أنزل التوراة على موسى، أما تجد في التوراة أن الله يبغض الحبر السمين؟» وكان مالك حبرًا سمينًا؛ فغضب، وقال: والله ما أنزل الله على بشر من شيء، فقال أصحابه الذين معه: ويحك، ولا على موسى؟ فقال: والله ما أنزل الله على بشر من شيء؛ فأنزل الله الآية^(١).

قال البغوي: إن مالك بن الصيف لما سمعت اليهود منه تلك المقالة عتبوا عليه، وقالوا: أليس الله أنزل التوراة على موسى؟ فلم قلت: ﴿مَا أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَى بَشَرٍ مِّن شَيْءٍ﴾؟ فقال مالك بن الصيف: أغضبني محمدٌ فقلت ذلك، فقالوا له: وأنت إذا غضبت تقول على الله غير الحق؟ فتزعه عن أن يكون حبرًا لهم، وجعلوا مكانه كعب بن الأشرف^(٢).

وقال السدي: إن فتاح اليهودي هو الذي قال هذه المقالة^(٣).

قلت: ولا مانع من أن يكون كلُّ منهما قال المقالة نفسها.

٣- قال ابن عباس في رواية الوالبي: قالت اليهود: يا محمد ﷺ، أنزل الله عليك كتابًا؟ قال: «نعم» قالوا: والله ما أنزل الله من السماء كتابًا؛ فأنزل الله تعالى: ﴿قُلْ مَنْ أَنْزَلَ الْكِتَابَ الَّذِي جَاءَ بِهِ مُوسَى نُورًا وَهُدًى﴾^(٤).

٤- قال محمد بن كعب القرظي: أَمَرَ الله محمدًا أن يسأل أهل الكتاب عن أمره،

(١) ابن جرير (٣٩٣١٩) وابن أبي حاتم (٧٥٩٧).

(٢) ينظر عند تفسير الآية: تفسير البغوي و«زاد المسير»، و«تفسير الخازن» وغيرهم.

(٣) ابن أبي حاتم (٧٥٩٤).

(٤) الطبري (٣٩٦/٩) وابن أبي حاتم (٧٥٨٦، ٧٥٩٦) و«تفسير القرطبي» (٣٦١/٧).

وكيف يجدونه في كتبهم، فحملهم حسدُ محمدٍ ﷺ أن كفروا بكتاب الله ورسوله وقالوا: ﴿مَا أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَى بَشَرٍ مِّن شَيْءٍ﴾ فأنزل الله الآية^(١).

ويُفْهَمُ من جملة أسباب النزول هذه أنه لما قامت الحجة على المشركين في أن هذا القرآن ليس بدعاً مما نزل على الرسل، توغل المشركون في المكابرة والجحود فقالوا: ﴿مَا أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَى بَشَرٍ مِّن شَيْءٍ﴾ متجاهلين بذلك ما كانوا يقولونه عن إبراهيم، وما يعلمونه عن موسى، وبعد أن ذكر الله تعالى عدداً من الأنبياء والرسل، وما جاؤوا به من شرائع الهدى والنور، جاءت هذه الآية كالنتيجة لما قبلها؛ لإبطال ما قالوه إفكاً وزوراً على رسل الله، فأنكروا ما هو معلوم بالتواتر في أجيال البشر.

وقد حكى الله تعالى عنهم مثل ذلك في قوله: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَن تُؤْمِنَ بِهِدَا الْقُرْآنَ وَلَا بِالَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ [سبأ: ٣١] وجاءت هذه الآية؛ لإبطال حجج المشركين؛ تعزيزاً لقوله تعالى: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ عَاتَيْنَهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَ وَالنُّبُوَّةَ﴾ ولذلك فقد أمر الله نبيه أن يذكر المشركين بأمر لا يستطيعون إنكاره؛ لأنه متواتر في بلاد العرب، وهو رسالة موسى ﷺ، حيث قال تعالى في الرد عليهم: ﴿قُلْ مَنْ أَنْزَلَ الْكِتَابَ الَّذِي جَاءَ بِهِ مُوسَى فَقَدْ جَاءَ مُوسَى بالتوراة، وهي متداولة بين اليهود الذين كانوا يترددون على مكة في التجارة وغيرها.

وقد جاء خطاب اليهود في الآية على طريقة الإدماج؛ أي: الخروج من خطاب إلى غيره؛ تعريضاً بهم، وإسماعاً لهم، على طريقة: إياك أعني، واسمعي يا جارة.

وقراءة الياء في الأفعال الثلاثة ﴿تَجْعَلُونَهُ﴾ وما بعدها، يشير إلى أن الخطاب في الآية للمشركين الذين سألوا اليهود عن نبوة محمدٍ ﷺ في التوراة، فقرؤوها لهم، وأظهروا ما فيها من التمسك بتعظيم يوم السبت، وأخفوا ما فيها من صفة محمدٍ ﷺ، ويرجح هذا المعنى أن سورة الأنعام نزلت في آخر مدة إقامة النبي ﷺ بمكة، حيث بدأت مداخلة اليهود للمشركين في مقاومة الدعوة بمكة حين بلغت المدينة^(٢). قال تعالى:

(١) «تفسير ابن كثير» (١٥٦/٢) و«الدر المنثور» (١٢٧/٦) عن أبي الشيخ.

(٢) ينظر: «تفسير التحرير والتنوير» (٣٦١/٧).

٩٢- ﴿وَهَذَا كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ مُصَدِّقُ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَلِتُنْذِرَ ^(١) أُمَّ الْقُرَى ^(٢) وَمَنْ حَوْلَهَا وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَهُمْ عَلَى صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ ﴿٩٢﴾

وبعد أن أقام الله سبحانه الحجة على المشركين المنكرين للوحي والرسالة برسالة موسى ﷺ، والتوراة التي نزلت عليه، ثنى بالقرآن، فأمر رسوله ﷺ أن يقول لهم على وجه التبيكيت: الله الذي أنزل التوراة على موسى هو الذي أنزل القرآن على محمد ﷺ.

﴿وَهَذَا كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ﴾ وهو القرآن ﴿مُبَارَكٌ﴾ كثير النفع والخير والبركة؛ لاشتماله على منافع الدنيا والدين، يبشر المؤمنين، وينذر الكافرين ﴿مُصَدِّقُ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ وهو كتاب يصدق جميع الكتب التي نزلت قبله على رسل الله، ويشهد لها، ويوافق ما فيها من التوحيد، والتنزيه لله تعالى، والبشارة والنذارة، ويصدق ما في هذه الكتب من الوعد بمجيء محمد ﷺ، وما فيها من أصول الدين وشرائعه ﴿وَلِتُنْذِرَ أُمَّ الْقُرَى﴾ وهي مكة، وما حولها من ديار العرب، ومن ثم إلى سائر البلدان.

وقد سميت أم القرى:

- ١- لأن الأرض دحيت من تحتها، كما قال ابن عباس.
 - ٢- أو لأن الناس يؤمنونها من جميع أرجاء الأرض في الصلاة، فهم يتجهون إليها وهي قبلتهم.
 - ٣- أو لأنها ذات الشأن الأعظم على البلاد جميعاً.
 - ٤- أو لأنها أول بيت وضع مَعْبَدًا للناس في الأرض.
- والقرية في القرآن تعني العاصمة والمدينة الكبرى ﴿وَمَنْ حَوْلَهَا﴾ أي: ولتنذر أم القرى، والعالم كله من حولها، كما قال تعالى: ﴿قُلْ يَأَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا﴾ [الأعراف: ١٥٨].

وقال سبحانه: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا﴾ [سبا: ٢٨].

(١) قرأ شعبة بياء الغيبة في (ولتنذر) والضمير للقرآن، وقرأ الباقر بتاء الخطاب، والمخاطب هو النبي ﷺ.
(٢) أمال الألف التي بعد الراء في لفظ (القرى) أبو عمرو وحمزة والكسائي وخلف العاشر وابن ذكوان بخلف عنه، وقُلِّلها بين الفتح والإمالة الأزرق عن وَرْش قولاً واحداً، وفتحها الآخرون.

وقال جل شأنه: ﴿تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا﴾ [الفرقان].

وقال ﷻ: ﴿وَأَوْحَىٰ إِلَيَّ هَٰذَا الْقُرْآنُ لِأَتَذْكُرَكُم بِهِ وَمَنْ بَلَغَ﴾ [الأنعام: ١٩].

فليس المراد بمن حولها بلاد العرب فحسب، بل المراد العالم أجمع، بمقتضى هذه الأدلة.

وفي الحديث عن جابر بن عبد الله ﷺ أن النبي ﷺ قال: «.. وكان النبي يُبعثُ إلى قومه خاصة، وبعثت إلى الناس عامة»^(١).

﴿وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ يُؤْمِنُونَ بِهِ﴾ أي: والذين يصدّقون بالحياة الآخرة، وما فيها من بعث وحشر ونشر وحساب وجزاء وثواب وعقاب، يصدّقون بأن هذا القرآن كلامُ الله نزل على محمدٍ ﷺ، ومن كان كذلك رَغِبَ فيما عند الله من ثواب، واتقى ما عنده من عقاب، وحافظ على فرائض الله وحدوده.

﴿وَهُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ﴾ أي: ومن شأنهم أنهم يداومون على أداء الصلاة في أوقاتها، فالصلاة هي رأسُ العبادات، ومن داوم عليها حافظٌ على جميع العبادات، وخصت الصلاة بالذكر؛ لأنها أشرفُ العبادات وأعظمها.

حَال مَنْكَرِي الْوَحْيِ عِنْدَ خُرُوجِ الرُّوحِ

٩٣- ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ قَالَ أُوحِيَ إِلَيَّ وَلَمْ يُوحَ إِلَيْهِ شَيْءٌ وَمَنْ قَالَ سَأُنْزِلُ مِثْلَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَلَوْ تَرَىٰ إِذِ الظَّالِمُونَ فِي غَمَرَاتِ الْمَوْتِ وَالْمَلَائِكَةُ بَاسِطُوا أَيْدِيهِمْ^(٢) أَخْرِجُوا أَنفُسَكُمُ الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ بِمَا كُنْتُمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ وَكُنْتُمْ عَنْ آيَاتِهِ تَسْتَكْبِرُونَ﴾

وبعد أن أبطل القرآن مزاعم الكفار والملحدين في إنكار الوحي والرسالة، أتبع ذلك ببيان عاقبة الذين يفترون على الله الكذب؛ فشرّعوا لأنفسهم ما لم يرضَ به الله، أو استخفوا بالقرآن؛ فزعموا أنهم يأتون بمثله، أو ادّعوا أن الوحي يمكن أن ينزل عليهم كما نزل على محمدٍ ﷺ، فلا أحد أعظم ظلماً ولا أكبر جرماً ممن نسب إلى الله قولاً أو حكماً هو منه

(١) الحديث في «صحيح البخاري» برقم (٣٣٥) وانظر (٤٣٨، ٣١٢٢) و«صحيح مسلم» برقم (٥٢١) من حديث طويل.

(٢) ضم الهاء من (أيديهم) يعقوب، وكسرها الباقون.

بريء، ومن ذلك من يزعم أنه يقدر على معارضة القرآن، وفي استطاعته أن يأتي بمثله.

ويصور القرآن حال هذا الصنف من البشر وهم عند النزاع الأخير، وعند الوقوف بين يدي رب العالمين للحساب والجزاء، وهؤلاء جميعاً ممن لا يؤمنون باليوم الآخر ممن ذكرتهم الآية السابقة.

والآية تشير إلى عموم من ادَّعُوا النبوة في حياة النبي ﷺ وبعده، وتشير إلى كل من يعارض القرآن في كل زمان ومكان، فيزعم أن بإمكانه أن يقول مثل القرآن، فكل ذلك من افتراء الكذب على الله.

ومما جاء في أسباب النزول

- ١- أن النضر بن الحارث قال على وجه الاستهزاء: أنا أعارض القرآن، وقال كلاماً يأتي ذكره.
- ٢- وقال بعض المشركين عن القرآن: إنه قول شاعر، وسأنزل مثله.
- ٣- وكان مسيلمة الكذاب يقول سجعاً، ويتكهن، ويدَّعي النبوة، ويقول: إن الله أوحى إليه.
- ٤- وقال عكرمة: نزل أول هذه الآية في مسيلمة، وآخرها في عبد الله بن سعد بن أبي سرح.
- ٥- وعن السدي أن قوله تعالى: ﴿وَمَنْ قَالَ سَأُنْزِلَ مِثْلَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ﴾ نزلت في عبد الله بن سعد بن أبي سرح الغامدي، كان من كتّاب الوحي للنبي ﷺ، وكان أخاً لعثمان بن عفان من الرضاعة، فلما نزل قول الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ طِينٍ﴾ (٧) ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَكِينٍ (١٣) ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظْمًا فَكَسَوْنَا الْعِظْمَ لَحْمًا ثُمَّ أَنْشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ﴾ [المؤمنون: ١٢-١٤] وأملاها عليه النبي ﷺ ليكتبها؛ عجب عبد الله من تفصيل خلق الإنسان؛ فقال: تبارك الله أحسن الخالقين، وكان قوله هذا موافقاً للوحي في ختام الآية، فقال له النبي ﷺ: «اكتبها، هكذا أنزلت عليّ» وعندئذ توهم عبد الله أن النبي ﷺ أمره أن يكتب قوله، فارتدَّ عن الإسلام، ولحق بمكة، وقال: لئن كان محمداً صادقاً فقد أوحى إليّ كما أوحى إليه، وإن كان كاذباً فقد قلت كما قال^(١).

(١) ينظر: «أسباب النزول» للواحدي ص ١٨٥، والسيوطي ص ١١٨، و«تفسير الطبري» (١٨١/٧) وابن عطية (٣٢٢/٢) و«زاد المسير» (٨٢/٣) والحاكم (٤٥/٣) وابن أبي حاتم (٧٦٢٤، ٧٦٢٦).

ولعل المقصود أن الآية نزلت في عموم من ادعى النبوة، وكذا من ادعى معارضة القرآن؛ لأن ادعاء مسيلمة والأسود العنسي للنبوة كان بعد الهجرة، وكذا قصة عبد الله بن أبي سرح، وسورة الأنعام مكية، وعلى القول بأن هذه الآية مدنية فلا إشكال.

والحديث موصول عن المشركين المنكرين للوحي والرسالة:

- ١- فبين سبحانه أنه لا أحد أشد ظلماً، وأعظم جرماً ممن افترى على الله قولاً كذباً؛ فادّعى أن الله تعالى لم يبعث أحداً من البشر رسولاً إلى الناس.
- ٢- أو ادّعى أن الله أوحى إليه ولم يُوحَ إليه شيء.
- ٣- أو ادّعى أنه قادرٌ على أن يُنزلَ مثل هذا القرآن.

فهذه ثلاث دعاوى كاذبة، والقرآن الكريم يندد بقوم ادّعوا النبوة في عهد النبي ﷺ وبعده، فقد ادعى النبوة مسيلمة الكذاب في بني حنيفة باليمامة، وكذا زوجته سجاح، وهي امرأة ادعت النبوة، وكذا الأسود العنسي في اليمن، وكان ثلاثتهم في وقت الرسول ﷺ.

وقد أخبر النبي ﷺ أنه يدعي النبوة ثلاثة وثلاثون شخصاً، وقد تحقق هذا، ومنهم غلام أحمد القادياني وغيره، وهؤلاء جميعاً يقول الله تعالى عنهم: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا﴾ فزعم أن الله لم يبعث أحداً من البشر، أو ادعى النبوة لنفسه، أو نسب الشريك والولد إلى الله تعالى، أو كذب القرآن ورسول الإسلام، ﴿لَوْ قَالَ أُوْحِيَ إِلَيَّ وَلَمْ يُوحَ إِلَيْهِ شَيْءٌ وَمَنْ قَالَ سَأُنْزِلُ مِثْلَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ﴾.

ومن هؤلاء الذين ادعوا النبوة، من نظموا سجعا إلى أقوامهم، يزعمون أنه قرآن، وكان النضر بن الحارث يعارض القرآن ويقول: (والزارعات زرعاً) (والحاصدات حصداً) (والطاحنات طحناً) (والعاجنات عجناً) (والخابزات خبزاً)، قال تعالى عن الكفار المكذبين بآيات الله: ﴿إِذَا تَنَالَى عَلَيْهِمْ ءَايَتُنَا قَالُوا قَدْ سَمِعْنَا لَوْ نَشَاءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَذَا إِنْ هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ﴾ [الأنفال].

قال قتادة: نزلت هذه الآية ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا﴾ في مسيلمة الكذاب، ادّعى النبوة باليمامة، وتبعه بنو حنيفة.

وكان مسيلمة قد أرسل إلى النبي ﷺ رسولين، فقال لهما رسول الله ﷺ: «أشهدان أن

مسيلمة نبي؟» قالوا : نعم ، فقال لهما النبي ﷺ : «لولا أن الرسل لا تقتل لضربت أعناقكما»^(١) .
وفي الصحيحين عن أبي هريرة ؓ أن رسول الله ﷺ قال : «بينما أنا نائم أتيت بخزائن الأرض ، فوضع في كفي سواران من ذهب ، فكبرا عليّ ؛ فأوحى الله إليّ أن أفخّهما ، فنفختهما ؛ فذهبا ، فأولتُهما الكذابين اللذين أنا بينهما ، صاحب صنعاء ، وصاحب اليمامة»^(٢) .

وقد قتل وحشي - قاتل حمزة - مسيلمة في خلافة أبي بكر الصديق ؓ ، وكان وحشي يقول : قتل خير الناس ، وقتلت شرّ الناس .

أما الأسود العنسي فادعى النبوة باليمن في آخر عهد النبي ﷺ ، وقد قتله فيروز الديلمي قبل موت النبي ﷺ بيومين ، فكان يقول : «فاز فيروز» .

وعلى القول بأن الآية مكية تكون من باب الإخبار بالغيب ، أما على القول بأنها مدنية فلا إشكال .

ثم يأخذ القرآن في بيان حال الكفار وقت الاحتضار مبيّناً عقوبة الظالمين عند الموت ، وجزاء عدم اعترافهم بآيات الله يوم لقائه ، فقال سبحانه : ﴿وَلَوْ تَرَىٰ إِذِ الظَّالِمُونَ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَنفُسَهُم بِالشِّرْكِ وادّعاء النبوة ، وظلموها بالكفر بما أنزل الله على رسوله ، لو تراهم ﴿فِي غَمَرَاتِ الْمَوْتِ﴾ حين الاحتضار ، عند سكرات الموت وخروج الروح ، لرأيت أمراً عظيماً ومشهداً مفزعاً .

﴿وَالْمَلَائِكَةُ بَاسِطُوا أَيْدِيَهُمْ﴾ إليهم بالعذاب والإهانة ، يضربون وجوههم وأدبارهم ، وباسطوا أيديهم بإخراج الروح ، كما قال تعالى : ﴿وَلَوْ تَرَىٰ إِذِ يَتَوَفَّى الَّذِينَ كَفَرُوا الْمَلَائِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَارَهُمْ وَذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ﴾ [الأنفال]

وعندئذ يُقال لهم توبيخاً : ﴿أَخْرِجُوا أَنفُسَكُمُ﴾ أنقذوا أنفسكم وأخرجوها ممّا هي فيه ﴿الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ﴾ أي : الذل والهوان ﴿بِمَا كُنْتُمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ﴾ بادعاء

(١) الطبري (٤٠٦/٩) وابن أبي شيبه (٣٥٧/١٢) عن الحسن ، وهو في مسند أحمد برقم (١٥٩٨٩) عن نعيم بن مسعود وهو حديث صحيح بطرقه وشاهده ، (محققه) وأخرجه أبوداود (٢٧٦١) والحاكم (١٤٢/٢) والبيهقي في السنن (٢١١/٩) وفي الدلائل (٣٣٢/٥) .

(٢) «صحيح البخاري» برقم (٣٦٢١ ، ٤٣٧٤ ، ٤٣٧٨ ، ٧٠٣٧) و«صحيح مسلم» برقم (٢٢٧٤) وهذا لفظه .

النوبة، وتكذيب الرسل، وعدم الانقياد لهم ﴿وَكُنْتُمْ عَنْ آيَاتِهِ تَسْكِبُونَ﴾ فلا تتفكرون فيها، ولا تؤمنون بها، وفي هذا اليوم تنقطع أعمال العبد كلها إلا من العمل الصالح والعمل السيء، وهما مادة الآخرة، حيث ينشأ عنهما السعادة أو الشقاء، فهي التي تنفع أو تضر.

هَيْئَةُ الْكَافِرِ فِي أَرْضِ الْمُخْشِرِ

٩٤- ﴿وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرْدَىٰ كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَتَرْكُمُ مَا خَوَّلْنَاكُمْ وَرَاءَ ظُهُورِكُمْ وَمَا نَرَىٰ مَعَكُمْ شُفَعَاءَكُمُ الَّذِينَ زَعَمْتُمْ أَنَّهُمْ فِيكُمْ شُرَكَاءُ لَقَدْ تَقَطَّعَ بَيْنَكُمْ^(١) وَضَلَّ عَنْكُمْ مَا كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ ﴿٩٤﴾﴾

ثم أخبر ﷺ عن حال الكافرين يوم القيامة، كيف يحشرون، وصور حالهم عندما يُعرضون للحساب، وماذا يقال لهم على سبيل التقرير والتوبيخ، فقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا﴾ يوم البعث والنشور تاركين ما جمعتموه وراءكم في الدنيا من مال ومتاع، وليس معكم ما أشركتموه مع الله في عبادته، جئتمونا ﴿فُرْدَى﴾ في الآخرة يوم القيامة للحساب والجزاء، فرادى حفاة عراة، مجردين من كل شيء؛ من المنزل، ومن المال، ومن الولد، ومن الجاه، ومن أهل الشرك الذين أشركتموه مع الله ﴿كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ أي: كما أوجدناكم في الدنيا أول مرة.

﴿وَتَرْكُمُ مَا خَوَّلْنَاكُمْ وَرَاءَ ظُهُورِكُمْ﴾ من كل ما كنتم تتباهون به مما خولكم الله إياه؛ من المال والأهل والولد والمنصب والجاه، تركتموه وراء ظهوركم في الدنيا ﴿وَمَا نَرَىٰ مَعَكُمْ شُفَعَاءَكُمُ﴾ أي: الآلهة التي كنتم تزعمون أنها تقربكم وتشفع لكم عند الله، وتقولون: إنها تقربكم إلى الله زُلْفَىٰ من ﴿الَّذِينَ زَعَمْتُمْ أَنَّهُمْ فِيكُمْ شُرَكَاءُ﴾ إنهم لا وجود لهم في ساحة المحشر، لقد ضلوا عنهم، وغابوا عن أعينهم؛ وتقطعت الأوصال والأسباب بينهم، فلم يجدوهم.

وعندئذ يناديهم الله تعالى على رؤوس الخلائق قائلاً: ﴿أَيْنَ شُرَكَاءُكُمُ الَّذِينَ كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ﴾ [الأنعام: ٢٢] ويقال لهم يوم القيامة: ﴿أَيْنَ مَا كُنْتُمْ تَعْبُدُونَ﴾ ﴿مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ [الشعراء: ٢٢]

(١) قرأ نافع وحفص والكسائي وأبو جعفر بنصب النون من (بينكم) على أنها ظرف لتقطع، والفاعل ضمير يعود على الاتصال؛ أي: تقطع الاتصال بينكم، وقرأ الباقون بالرفع على التوسع في الظرف وإسناد الفعل إليه مجازاً، أو على أن (بين) اسم وليس ظرفاً.

﴿وَقِيلَ ادْعُوا شُرَكَاءَكُمْ فَدَعَوْهُمُ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُمْ﴾ [القصص: ٦٤].

﴿لَقَدْ نَقَطَ بَيْنَكُمْ﴾ من حبال المودة، وتقطع ما بينكم من الوصل، وتبرأ بعضكم من بعض، كما قال تعالى: ﴿إِذْ تَبَرَّأَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا رَأَوْا الْكَذَابَ وَنَقَطَتْ بِهِمُ الْأَسْبَابُ﴾ [البقرة]

وقال سبحانه: ﴿ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ وَلَيَعْلَمَنَّ بَعْضُكُم بَعْضًا﴾ [العنكبوت: ٢٥]

لقد زال ما كنتم تفترونه من أن آلهتكم شركاء لله في العبادة ﴿وَضَلَّ عَنْكُمْ مَا كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ﴾ أي: غابت عنكم هذه الآلهة، فلا وجود لها، وظهر أنكم خاسرون لأنفسكم وأهلكم وأموالكم، وذهب عنكم ما زينه الشيطان لكم من السعادة والنجاة، وتبين لكم نقيض ما كنتم تزعمون.

قال عكرمة: لما تزوج عمر أم كلثوم بنت علي، اجتمع إليه أصحابه؛ فباركوا له ودعوا له، فقال: لقد تزوجتها وما بي حاجة إلى النساء، ولكني سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: «إن كل نسب وسبب ينقطع يوم القيامة إلا سبي ونسبي، فأحييتُ أن يكون بيني وبين رسول الله ﷺ نسب»^(١).

١- وفي الصحيحين عن ابن عباس ؓ أن النبي ﷺ قال: «يأيها الناس، إنكم تحشرون إلى الله حفاة عراة غرلاً ﴿كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُعِيدُهُ وَعَدًا عَلَيْنَا إِنَّا كُنَّا فَاعِلِينَ﴾» الحديث^(٢) [الأنبياء: ١٠٤].

٢- وفي الصحيحين عن عائشة ؓ قالت: سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: «يحشر الناس حفاة عراة غرلاً» قالت عائشة: فقلت: الرجال والنساء ينظر بعضهم إلى بعض، قال: «الأمر أشد من أن يهمهم ذلك»^(٣).

٣- وعن عائشة أيضًا أنها قرأت ﴿وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرْدَى كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ فقالت: يا رسول الله، واسوأته، إن الرجال والنساء يحشرون جميعًا ينظر بعضهم سوءة بعض؟ فقال

(١) أخرجه عبد الرزاق برقم (١٠٣٥٤).

(٢) مطلع حديث ابن عباس، في «صحيح مسلم» برقم (٢٨٦٠) و«صحيح البخاري» برقم (٣٣٤٩، ٣٤٤٧، ٤٦٢٥).

(٣) «صحيح البخاري» برقم (٦٥٢٧) و«صحيح مسلم» برقم (٢٨٥٩) واللفظ له.

رسول الله ﷺ: ﴿لِكُلِّ امْرِئٍ مِنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ﴾ (١٧) لا ينظر الرجال إلى النساء، ولا النساء إلى الرجال، شُغِلَ بعضهم عن بعض^(١).

٤- وعن أبي هريرة ؓ أن رسول الله ﷺ قال: «يقول العبد: مالي مالي، إنما له من ماله ثلاث: ما أكل فأفنى، أو لبس فأبلى، أو أعطى فاقنتى، وما سوى ذلك فهو ذاهب، وتاركه للناس»^(٢).

٥- وفي لفظ مُطَرَّف عن أبيه قال: أتيتُ النبي ﷺ وهو يقرأ ﴿الْهَنَكُمُ الْكَاكُرُ﴾ (١) قال: «يقول ابن آدم، مالي مالي، وهل لك يا ابن آدم من مالك إلا ما أكلت فأفنى، أو لبست فأبليت، أو تصدقت فأمضيت»^(٣).

٦- وعن أنس بن مالك ؓ أن رسول الله ﷺ قال: «يتبع الميت ثلاثة، فيرجع اثنان ويبقى واحد، يتبعه أهله وماله وعمله، فيرجع أهله وماله، ويبقى عمله»^(٤).

ونظير هذه الآية قوله تعالى: ﴿وَعَرِضُوا عَلَىٰ رَبِّكَ صَفًا لَّقَدْ جِئْتُمُونَا كَمَا خَلَقْتُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ [الكهف: ٤٨].

خَمْسَةُ أَدِلَّةٍ عَلَى كَمَالِ الْقُدْرَةِ الإِلَهِيَّةِ

الدَّلِيلُ الْأَوَّلُ: أَخْوَالُ النَّبَاتِ وَالْحَيَوَانَ

٩٥- ﴿إِنَّ اللَّهَ فَالِقُ الْغَيْبِ وَالنَّوْثِ يُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْأَمْنِ مِنَ الْأَمْنِ (٥) وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ ذَلِكُمُ اللَّهُ فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ﴾^(٦) وبعد الحديث عن التوحيد والوحي والرسالة أَرَدَفَ سبحانه بِذِكْرِ خَمْسَةِ مِنَ الدَّلَائِلِ عَلَى كَمَالِ قُدْرَةِ اللَّهِ تَعَالَى، تنبيهًا عَلَى أَنَّ الْمَقْصُودَ الْأَعْظَمَ هُوَ مَعْرِفَةُ اللَّهِ تَعَالَى، مَبْدِعِ

(١) ابن أبي حاتم (٧٦٣٩) والحاكم (٥٦٥/٤) ويشهد له الحديث السابق.

(٢) «صحيح مسلم» برقم (٢٩٥٩).

(٣) «صحيح مسلم» برقم (٢٩٥٨).

(٤) «صحيح مسلم» برقم (٢٩٦٠) و«صحيح البخاري» برقم (٦٥١٤).

(٥) قرأ نافع وحفص وحزمة والكسائي وأبو جعفر ويعقوب وخلف (المَيِّت) معًا بتشديد الياء، والباقون (الْمَيِّت) بإسكانها.

(٦) أبدل الهمزة واوًا من (تؤفكون) ورش وأبو عمرو، بخلف عنه، وأبو جعفر، ووفقًا حمزة، والباقون بإثبات الهمزة ساكنة.

الأشياء وخالقها، المستحق للعبادة دون سواه، فالله تعالى هو الذي يشق جميع الحب عن جميع النبات الذي يكون منه، ويشق النوى عن جميع الأشجار الكائنة منه.

ومن شأن سورة الأنعام أنها تُعرِّفُ العبد بربِّه، وتجعل المؤمن يزداد إيماناً، والمرتاب يمتلئ يقيناً.

والآيات الخمس الأول، من هذا الربع المبارك، تمتلئ بالبراهين والأدلة العقلية والنقلية الساطعة على وجود الخالق جل شأنه، فالله سبحانه يرينا، في كل لحظة من لحظات هذه الحياة، آية دالة على قدرته وتوحيده ووجوده سبحانه، فهو جل شأنه الذي يُخرج النبتة من الحبة، وهو الذي يخرج النخلة من النواة، والشجرة من البذرة، وتنشق الأرض وتنفلق الحبة في كل لحظة من لحظات هذا الوجود عن كائن حي يسبح بحمد الله، هو الساق الذي يكون في الهواء.

وتنشق الحبة أيضاً عن جذر يمتد في الأرض، ويمد الله كلا منهما بمقومات الحياة من الماء والهواء؛ فيخرج النبات الأخضر من الحب اليابس، ويخرج الشجر الأخضر من النوى اليابس، قال تعالى: ﴿وَأَيُّ هُمُ الْأَرْضُ أَلْيَسَتْ أَحْيَيْنَهَا وَأَخْرَجْنَا مِنْهَا حَبًّا فَمِنْهُ يَأْكُلُونَ ﴿٣٣﴾ وَجَعَلْنَا فِيهَا جَنَّاتٍ مِّنْ نَّجِيلٍ وَأَعْنَبٍ وَفَجَّرْنَا فِيهَا مِنَ الْعُيُونِ ﴿٣٤﴾ لِيَأْكُلُوا مِن ثَمَرِهِ وَمَا عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ أَفَلَا يَشْكُرُونَ ﴿٣٥﴾﴾ [يس]

وفي ذلك أكبر دلالة على قدرة الله التي لا تُحد، وعلى أنه المستحق للعبادة دون سواه.

ومن قدرة الله تعالى، أن النواة لها شق من أعلاها يخرج منه الشجرة الصاعدة إلى الهواء، ولها شق من أسفلها يخرج منه الجذور الضاربة في الأرض، مع أن جرم الأرض صلب كثيف، لا تنفذ فيه المسلة القوية، ولا يغوص فيه السكين الحاد، ومع ذلك فإن هذه الأرض يخرج منها ورق الشجر والنبات وعروقهما، وهما من الدقة واللطفة بحيث لو فركهما الإنسان بين أصابعه؛ لصارت كالماء، فكيف تولدت الشجرة الصاعدة في الهواء؟ وكيف خرجت الأوراق الضعيفة من باطن الأرض الصلبة؟ إلا بتدبير العزيز العليم^(١)، فسبحان الخلاق العظيم.

(١) انظر «تفسير الفخر الرازي» (٩٧/٨).

وفي كل لحظة تخرج ذرات ميتة من الكائن الحي؛ من الإنسان أو الحيوان أو النبات، والعكس صحيح، خلايا حية يُخرجها الله سبحانه من ذرات ميتة.

وهو جل شأنه يخلق من المؤمن كافرًا، ومن الكافر مؤمنًا، ويخلق الإنسان من منيٍّ يُمنى، ويُخرج الفضلات من الإنسان والحيوان ﴿يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ﴾ ولا بد لذلك من الإيمان بوجود الخالق سبحانه، والذين يبحثون عن سرِّ هذا الكون، وعن سر هذا الوجود بعيدًا عن الله سبحانه؛ ضلوا وأضلوا، ووصلوا إلى طريق مسدود، وفي فلق الحب والنوى، وإخراج الحي من الميت، والميت من الحي دليلٌ على أن الله تعالى قادرٌ على إحياء الخلق بعد موتهم، وقادرٌ على مجازاتهم على أعمالهم، يوم البعث والحساب فكيف تُصرفون عن عبادة الله تعالى إلى عبادة غيره مما لا يملك لكم ضرا ولا نفعا؟! ﴿ذَلِكُمْ اللَّهُ فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ﴾.

الدليل الثاني: الأخوال الفلكية

٩٦- ﴿فَالِقُ الْإِصْبَاحِ وَجَعَلَ^(١) أَيْلَ سَكَا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ حُسْبَانًا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ ﴿٩٦﴾﴾

والله وحده هو الذي يخلق الموجودات، وهو الذي يربي الكائنات، هو سبحانه هياً لعباده ما يحتاجون إليه من الأقوات والمساكن والظلمة والنور، وما يترتب عليهما من المنافع، فهو جل شأنه ﴿فَالِقُ الْإِصْبَاحِ﴾ كاشف ظلمة الليل بنور النهار، يشق النور من الظلام، ويجعل الصبح يضيء من الليل، والظلمة عدمٌ، والنور إيجادٌ، والإيجاد هو مظهر القدرة، ومناطُ المنَّة والنعمة، وفلق ظلمة الإصباح نعمةٌ على الناس؛ كي يتنفعوا بحياتهم ومكاسبهم، وخلق الأشياء المتضادة دليلٌ على كمال قدرة الله وعظيم سلطانه، وهو سبحانه ﴿يُعْشَى أَيْلَ النَّهَارِ يَطْلُبُهُ حَيْثُ﴾ [الأعراف: ٥٤].

﴿وَجَعَلَ أَيْلَ سَكَا﴾ وهو سبحانه جاعل الليل سكناً، سباتاً وراحة للعباد، ومستقراً لراحة الأبدان، ينامون فيه، ويقومون لربهم ويتعبدون، وفيه تسكن الأنعام إلى ماواها

(١) قرأ عاصم وحزمة والكسائي وخلف (وَجَعَلَ اللَّيْلَ) على أن (جعل) فعل ماضٍ (والليل) مفعول به منصوب، والباقون (وجاعلُ اللَّيْلِ) على أن (جاعل) اسم فاعل مضاف إلى مفعوله وهو (الليل) المنخفضة في محل نصب.

والطيور إلى أوكارها، والحشرات إلى جحورها، فتأخذ نصيبها من الراحة.

يقول صهيب الرومي ؓ عندما عاتبته امرأته على كثرة سهره: إن الليل سكن إلا لصهيب، إن صهيياً إذا ذَكَرَ الجنة طال شوقه، وإذا ذكر النار طار نومه.

﴿وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ حُسْبَانًا﴾ أي: وجعل الشمس والقمر يجريان في فلكيهما بحساب متعين مقدّر، لا يتغير ولا يضطرب في هذه الدور الفلكية للشمس والقمر والليل والنهار حتى ينتهي إلى أقصى منازلهما، حيث تُتِمُّ الشمس دورتها في سنة، ويُتِمُّ القمر دورته في شهر، وبذلك تنتظم مصالح العباد والبلاد فتعرف الأزمنة والأوقات وتنضبط أحوال العباد ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسُ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُورًا وَقَدَرَهُ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ﴾ [يونس: ٥].

﴿لَا الشَّمْسُ يَنْبَغِي لَهَا أَنْ تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلَا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾ [يس: ٣٨]

إنه نظامٌ محكمٌ دقيقٌ ﴿صُنِعَ اللَّهُ الَّذِي أَنْفَقَ كُلَّ شَيْءٍ إِنَّهُ خَيْرٌ بِمَا تَفْعَلُونَ﴾ [النمل: ٨٨] ﴿وَالنَّهَارُ إِذَا جَلَّاهَا﴾ (٢) ﴿وَاللَّيْلُ إِذَا يَغْشَاهَا﴾ (٤) [الشمس: ٤].

وهو سبحانه المقدّر لكل شيء ﴿ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ﴾ فهو سبحانه عزيزٌ في سلطانه، عليمٌ بمصالح خلقه وتدير شؤونهم.

الدليل الثالث: الكواكب النيرة

٩٧- ﴿وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ النُّجُومَ لِتَهْتَدُوا بِهَا فِي ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ قَدْ فَصَّلْنَا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾

أي: أن الكواكب التي في الفضاء يهتدي بها ساكنو القفار، وراكبو البحار، وهكذا يمتن الله على عباده بأن خلق لهم النجوم؛ ليهتدوا بها إذا ضلوا الطريق، ويعرفوا بها القبلة، فيستدلون على ما يريدون في النهار بحركة الشمس، وفي الليل بحركة الكواكب، ومن النجوم ما يرى ولا يسير عن محله، ومنها ما هو مستمر في السير يعرف به الجهات والأوقات.

وفيها تذكيرٌ بوحداية الله تعالى، وبالنعمة الحاصلة من سير النجوم، وكونها هداية للناس في ظلمات البر والبحر، حيث لا يرى الشمس ولا القمر، فمن مظاهر قدرة الله سبحانه، وأدلة وجوده، خلق هذه الكواكب والنجوم لمهمات ثلاثة، كما بينها جلّ شأنه في قوله: ﴿وَلَقَدْ زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَجَعَلْنَاهَا رُجُومًا لِلشَّيَاطِينِ﴾ [الملك: ٥]

فهي زينة في السماء الدنيا، وهي رجوم وشهب يُرجم بها الشياطين، وهي علامات يُهتدى بها في ظلمات البر والبحر، وَيَعْلَمُ ذلك الذين يتعدون عن المدن المضئية ليلاً، قال تعالى: ﴿وَعَلَّمَنَّا وَإِلْتَجَمَ هُمْ يَهْتَدُونَ﴾ [النحل].

وقد خُتِمَتْ هذه الآية بقوله تعالى: ﴿قَدْ فَصَّلْنَا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ لأن الاهتداء بالنجوم في الظلمات الحسية، وفي ظلمات العقل والضمير، يحتاج إلى علم بمسالكها ودورانها ومداراتها؛ فيستدلون بذلك على معرفة الخلاق العليم.

﴿وَأَيُّهُ لَّهُمَّ أَيْلٌ نَسْلُخُ مِنْهُ أَلْتَهَارَ فَإِذَا هُمْ مُظْلِمُونَ﴾ (٣٧) وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَهَا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ (٣٨) وَالْقَمَرَ قَدَرْتَهُ مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيرِ (٣٩) لَا الشَّمْسُ يَنْبَغِي لَهَا أَنْ تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلَا أَيْلٌ سَابِقُ أَلْتَهَارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾ [يس].

﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ الْآيِلَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ إِلَهُ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُمْ بِضِيَاءٍ أَوْ لَآ تَسْمَعُونَ﴾ (٧) [الفصص].

الدليل الرابع: خلق الإنسان

٩٨- ﴿وَهُوَ الَّذِي أَنْشَأَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ فَمُسْتَقَرٌّ^(١) وَمُسْتَوْدَعٌ قَدْ فَصَّلْنَا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَفْقَهُونَ﴾

والله تعالى ابتداء خلقكم أيها الناس من آدم ﷺ، وحواء مخلوقة منه ﴿يَتَأْتِيهَا النَّاسُ أَتَقُولُوا الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً﴾ [النساء: ١].

وكذا عيسى ﷺ؛ لأنه من مريم، وهي من بنات آدم، وقد خلق الله آدم من طين، وخلقكم من سلالة من ماء مهين، وجعل لكم مستقرًا تستقرون فيه، هو أرحام النساء، ومستودعًا تُحفظون فيه، هو أصلاب الرجال؛ ذلك لأن النطفة لا تبقى في صلب الأب بمقدار ما يبقى الجنين في بطن أمه.

ولكم في نهاية الدنيا مستودع في القبر، ومستقرٌ إما في الجنة أو النار، على وجه

(١) قرأ ابن كثير وأبو عمرو وروح (فمستقر) بكسر القاف، على أنه اسم فاعل مبتدأ، والخبر محذوف؛ أي: فمنكم مستقرٌ في رحم أمه، ومنكم مستودع في صلب أبيه، وقرأ الباقون بفتح القاف، على أنه اسم مكان؛ أي: فلکم مكان تستقرون فيه.

الخلود والتأبید ﴿وَهُوَ الَّذِي أَنشَأَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ﴾ هي آدم ﷺ ﴿فَسَقَرُ وَمُسَدَّدٌ﴾ أي: أن النطفة مستودعة في صلب الرجل زمناً يسيراً، مستقرة في رحم المرأة زمناً أطول، فالإنسان مستودع في ظهر أبيه، ثم ينتقل إلى رحم أمه فيستقر فيه زمناً، ثم ينتقل إلى القبر، ثم ينتقل إلى المحشر، ثم ينتقل إلى الجنة أو النار، فيستقر في أحدهما استقراراً دائماً، قال تعالى: ﴿وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسَقَرٌ وَمَتْنَعٌ إِلَىٰ حِينٍ﴾ [الأعراف: ٢٤] وقال: ﴿وَنُقَرِّ فِي الْأَرْحَامِ مَا نَشَاءُ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ [الحج: ٥] وقد وضع الله ذلك وبيّنه للناس؛ كي يتأملوا صنْعَ الله في خلقه ﴿قَدْ فَصَّلْنَا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَفْقَهُوتُ﴾ بيّنا الحجج، وميّزنا الأدلة وأحكمناها لقوم يُدركون صنْعَ الله في هذا الإنسان؛ فيتعظون ويعتبرون.

الدَّلِيلُ الْخَامِسُ: أَصْنَافُ النَّبَاتِ وَالثَّمَارِ

٩٩- ﴿وَهُوَ الَّذِي أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ نَبَاتَ كُلِّ شَيْءٍ فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِرًا نُّخْرِجُ مِنْهُ حَبًّا مُتَرَاكِبًا وَمِنَ النَّخْلِ مِنْ طَلْعِهَا قِنْوَانٌ دَانِيَةٌ وَجَنَّاتٍ مِنْ أَعْنَابٍ وَالزَّيْتُونَ وَالرَّمَّانَ مُشْتَبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَبِّهِ^(١) أَنْظُرُوا إِلَىٰ ثَمَرِهِ^(٢) إِذَا أَثْمَرَ وَيَنْعِهِ إِنَّ فِي ذَٰلِكُمْ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٩٩﴾﴾ وهو سبحانه الذي أنزل من السحاب ماءً المطر المُتَكَوِّنُ في طبقات الجو العليا، عند تصاعد البخار الأرضي إليها؛ فيصير البخار كثيفاً، يكوّن السحاب، ثم يتحول إلى ماء، كما قال تعالى: ﴿أَوْ كَصَيِّبٍ مِنَ السَّمَاءِ﴾ [البقرة: ١٩] فالسما اسمٌ لأعلى طبقات الجو حيث تتكون الأنهار.

فأخرجنا بسبب ذلك أصناف النبات والثمار المختلفة، وكل ما يأكله الإنسان والحيوان كما قال تعالى: ﴿وَفِي الْأَرْضِ قِطْعٌ مُّتَجَوِّرَةٌ وَجَنَّاتٌ مِنْ أَعْنَابٍ وَزَيْتُونٌ وَنَخِيلٌ صِنَوَاتٌ وَغَيْرُ صِنَوَاتٍ يُسْقَىٰ بِمَاءٍ وَجِدٍ وَنُفْضَلٍ بَعْضُهَا عَلَىٰ بَعْضٍ فِي الْأَكْثَلِ﴾ [الرعد: ٤] وكلُّ ما علا الإنسان فهو سماء. ونزول الماء من السحاب جاء في آيات كثيرة؛ منها قوله تعالى: ﴿أَفَرَأَيْتُمُ الْمَاءَ الَّذِي

(١) قرأ أبو عمرو وعاصم وحزمة ويعقوب وقنبل وابن ذكوان بخلف عنهما بكسر تنوين (متشابه انظر) حالة الوصل، على الأصل في التخلص من التقاء الساكنين، وقرأ الباقر بضمه، وهو الوجه الثاني لقنبل وابن ذكوان.

(٢) قرأ حمزة والكسائي وخلف العاشر بضم الثاء والميم من (ثمره)، وقرأ الباقر بفتحهما، والأول جمع، والثاني اسم جنس.

تَشْرَبُونَ ﴿٦٨﴾ ءَأَنْتُمْ أَنْزَلْتُمُوهُ مِنَ الْمُزْنِ أَمْ نَحْنُ الْمُنْزِلُونَ ﴿٦٩﴾ [الواقعة]

وقوله سبحانه: ﴿وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَكُمْ﴾ [البقرة: ٢٢]

وقوله جل شأنه: ﴿وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ﴾ [الأنبياء: ٣٠].

وقد أخرج الله بهذا الماء أصناف النبات المختلفة؛ فمنه ما هو زرع له ساق ليئة كالقصب، ومنه ما هو شجر له ساق غليظة كالنخل، ومنه ما هو ملتصق بالأرض، كالخيار والقثاء والبطيخ، وهكذا ﴿فَأَخْرَجْنَا بِهِ نَبَاتَ كُلِّ شَيْءٍ﴾ منه ما له ساق، ومنه ما لا ساق له، ومن النبات الذي لا ساق له نبات أخضر رطب، كأنواع الخضراوات، قال الله تعالى عنه: ﴿فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِرًا﴾ أي: أوراقًا وأغصانًا خضراء، ويخرج الله من هذا النبات الخضر ﴿حَبًّا مُتَرَاكِبًا﴾ كالبرّ والأرز والبقول والذرة والشعير وسائر الحبوب، وهذه مَشَاهِدُ تراها الأعين في جَنَابِ الأرض، وتتأملها العقول، وتتدبرها القلوب، فترى بدائع صُنِعَ الله تعالى.

وهو سبحانه الذي يُنْزِلُ ماءَ المطر من السماء؛ فنبُتَ به هذا الزرع عودًا أخضر، يُخْرَجُ من النبتة تنفلق من الحبة؛ فيخرج منها جميع الزروع الخضرة الرطبة، ثم يكون هذا الأخضر سنابل، حَبًّا متراكبًا كهيئة السنبلة في القمح، متراكمًا بعضه فوق بعض، وكذا الشعير والأرز والذرة وغير ذلك من الغذاء الأول للإنسان، كما يُخْرَجُ بالماء غذاء كل شيء من الأنعام والبهائم والطير والوحش.

ثم يعقبه في الآية الغذاء الثاني والأهم للإنسان؛ وهو التمر ﴿وَمِنَ النَّخْلِ﴾ جاء ذِكرُه بعد الزرع؛ لأهميته كغذاء هام للإنسان يخرج ﴿مِنْ طَلْعِهَا قِنْوَانٌ دَانِيَةٌ﴾ أي: يخلق سبحانه من النخيل، الرطب والبسر والبلح بأنواعه، وأول ما يبدو منه ويظهر للناس يُسَمَّى طلعًا، فإذا كَبُرَ سُمِيَ عذْقًا، ثم يكون قِنْوَانًا، ومنه ما يكون قريبًا متدليًا، ومنه ما يكون بعيدًا مرتفعًا، قِنْوَانٌ قريبة من الإنسان دانية، وقِنْوَانٌ بعيدة ليست في متناول يد الإنسان.

والقنو: هو العرجون الذي فيه الشماريخ، ويخلق سبحانه من الماء حدائق وبساتين فيها مختلفُ الفواكه والثمار ﴿وَجَنَّاتٍ مِّنْ أَعْنَابٍ وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَّانَ﴾ وقد بيّن الله ﷻ أن هذه الفواكه منها ما هو متشابه في شجره وورقه، وفي لونه وطعمه ورائحته، ومنها ما هو غير متشابه،

مع أنها جميعًا تشرب ماء واحدًا ﴿يُسْقَىٰ بِمَاءٍ وَاحِدٍ وَنُفِضَ لِبَعْضِهَا عَلَىٰ بَعْضٍ فِي الْوَقْتِ﴾ [الرعد: ٤] فهو متشابهٌ ومتماثلٌ في اللون والطعم، وغير متشابه.

والله سبحانه يلفت الأنظار إلى ما يخرج من هذا النبات وهذا الشجر، كيف ينمو ويثمر ويزدهر، انظروا إليه في بدايته، كيف يكبر وينمو ويصير أخضر، ثم ينضج ثم يصفر ثم يذبل ﴿انظُرُوا إِلَى ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَيَنْعِهِ﴾ أي: نضجه بعد ظهوره.

ثم أمر الله عباده أن يتأملوا في بديع صنعه فقال: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكُمْ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ فالإيمان هو الذي يفتح القلب، وينير البصيرة، ويؤوظ استجابة الفطرة في الإنسان.

وقد ذكرت الآية أربعة أنواع من الشجر بعد الزروع، وقدمت الأهم والأكثر نفعًا على غيره، فالزروع غذاء، والغذاء مقدّم على الفاكهة، والتمر يجري مجرى الغذاء، ثم أعقبه بالعنب؛ لأنه من أشرف الفواكه، ثم الزيتون؛ لِمَا فيه من البركة، وأعقبه بالرمّان؛ لِمَا فيه من المنافع.

وفي الآية أدلة عقلية على البعث والنشور، كما يحيي الله الأرض بعد موتها.

الشُّرْكُ بِاللَّهِ تَعَالَىٰ فِي كُلِّ زَمَانٍ وَ مَكَانٍ

١٠٠ - ﴿وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ الْجِنَّ وَخَلَقَهُمْ وَخَرَقُوا^(١) لُحُوبَهُمْ وَبَنَتِ بَيْنَهُمْ غُورًا سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يُصِفُونَ﴾

أي: ومع هذه البراهين والأدلة القاطعة على وحدانية الخالق سبحانه، فإن الإنسان يستدل عقلًا على أن لهذا الكون خالقًا مدبرًا، ومع هذا، فهناك مَنْ يُشرك مع الله غيره في الجاهلية الماضية، وفي العصر الحاضر، فيسأل غير الله، ويذبح لغير الله، وينذر لغير الله، ويطلب العون والمدد من غير الله، ويعتقد النفع والضّر في غير الله، وعن هؤلاء وأولئك جميعًا.

يقول سبحانه: ﴿وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ الْجِنَّ﴾ ويراد بالجن في الآية الملائكة، وتسميتهم جنًا من باب المجاز؛ لاستتارهم عن الأعين كالجن، أو يراد بهم الشياطين، أو يراد إبليس؛

(١) قرأ نافع وأبو جعفر بتشديد الراء من (وخرقوا) للتكثير، والباقون بالتخفيف، وهما لغتان بمعنى الاختلاق، يقال: خلّق الإفك وخرقه واختلقه وافتراه، وكلُّه من باب الكذب.

أي: وجعلوا لله شركاء من خلقه هم الجن والملائكة، وليس فيهم من خصائص الربوبية والالوهية شيء، ومع هذا فقد جعلوهم شركاء لله في الخلق والتدبير وهو الذي خلقهم، ومع ذلك فقد ﴿وَحَرِّفُوا لَهُمْ﴾ أي أن المشركين افتروا على الله الكذب فنسبوا له ﴿بَيْنَ وَبَيْنَ يَغْيِرَ عِلْمٍ﴾.

وقد كان المشركون يعترفون بأن الله تعالى خالق الجن، ولكنهم كانوا يطيعون الشياطين فيما يأمرونهم به، ويزينونه لهم، وقد نهانا الله عن ذلك في مثل قوله تعالى: ﴿يَنْبَغِي ءَادَمَ لَا يَفْنِنَكُمْ الشَّيْطَانُ كَمَا أَخْرَجَ أَبَوَيْكُم مِّنَ الْجَنَّةِ﴾ [الأعراف: ٢٧]

وقوله: ﴿أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَنْبَغِي ءَادَمَ أَن لَا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ إِنَّهُ لَكُمُ عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾ [١٠] وَأَنِ اعْبُدُونِي هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ ﴿١١﴾ [يس]

وقوله: ﴿إِن يَدْعُونَ مِن دُونِهِ إِلَّا إِنشَاءً وَإِنْ يَدْعُونَ إِلَّا شَيْطَانًا مَّرِيدًا﴾ [١٧] لَعَنَهُ اللَّهُ ﴿[النساء].

والآية تتحدث عن شرك العرب، حيث كان دينهم في الجاهلية خليطاً من عبادة الأصنام والكواكب والملائكة والشياطين والنار؛ وذلك لأن العرب -لجهلهم- كانوا يقلدون الأمم المجاورة لهم، والبلاد التي يرحلون إليها في تجارتهم وغيرها؛ فأخذوا عن الصابئة، وعن المجوس، وعن اليهود والنصارى، وغيرهم، وكانوا ينسبون تصرفاتهم إلى الجن، وأنهم يأتون بالخبر من السماء فيلقونه إلى الكهان، وأن الشاعر له شيطان يُوحِي إليه بالشعر، وأن الملائكة بنات الله من أمات سرّوات الجن.

وقد كان كثير من العرب يعبدون الجن والملائكة، قال تعالى: ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلَائِكَةِ أَهَؤُلَاءِ إِنَّا كُنَّا نَعْبُدُونَ ﴿١١﴾ قَالُوا سُبْحَانَكَ أَنْتَ وَلِيْنَا مِن دُونِهِمْ بَلْ كَانُوا يَعْبُدُونَ آلِجِنَّ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنُونَ ﴿١٢﴾﴾ [سبأ].

والذين زعموا أن الملائكة بنات الله هم قبائل: قريش وجهينة وبني سلمة وخزاعة وبني مليح، ومن العرب من عبَدَ الشيطان، وزعم أنه إله الشر، وأن الله إله الخير.

والمعنى: إنهم أطاعوا الجن فيما سَوَّلَتْ لهم من شركهم بالله تعالى، وكفار العرب كانوا يقولون: الملائكة بنات الله.

والجن: كل ما استتر عن العين، وهذا يصدق على الشياطين وعلى الملائكة، ومن الزنادقة مَنْ قال: إن إبليس خالقُ الظلمة والسباع والحيات والعقارب، والله سبحانه خالق النور والإنسان والأنعام والدواب، فهم قد عبدوا الجن ذواتهم، مع أنهم لم يَرَوْهم ولم يعرفوهم، أو أن الجن قد زينوا لهم عبادة الأصنام والأوثان.

والله سبحانه قد خَلَقَ الجن، وخلق الملائكة، وخلق الكواكب، وخلق عيسى، وخلق عزيزاً، والمشركون قد نسبوا لله البنين والبنات؛ فقالت النصارى: عيسى ابن الله، وقالت اليهود: عزيز ابن الله، وقال المشركون: الملائكة بنات الله ﴿سُبْحَنَ اللَّهُ عَمَّا يُصِفُونَ﴾ [الصافات: ١٥٩] وقد كَذَّبُوا في كُلِّ ما قالوا، وفي كل ما اعتقدوا، فالله جل شأنه هو المستقل بالخلْق وحده، وهو المستحق للعبادة دون سواه.

١٠١ - ﴿يَدْعُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ أَنَّى يَكُونُ لَهُ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُنْ لَهُ صَاحِبَةٌ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾

أي: وهو جل شأنه خالق الكون ومبدعه ومحكم صنعه على غير مثال سَبَقَ، فكيف يكون له ولد ولم تكن له زوجة؟! وكيف يكون له ولد وهو الغني عن خَلْقِهِ وكلهم محتاجون إليه؟ والولد يكون شبيهاً بوالده، والله تعالى مُنَزَّهٌ عن المِثْلِ والشبيه والنظير، والوالد يحتاج إلى ولده، والله تعالى غَنِيٌّ عن خَلْقِهِ، وهو خالق هذا الكون بما فيه؟ والكل مخلوق لله ﷻ، ولا يخفى عليه شيء في الأرض ولا في السماء.

والغرض من الآية الرَّدُّ على مَنْ نسب الولد إلى الله تعالى من وجهين:

أحدهما: أن الولد لا يكون إلا من جنس والده، والله تعالى منزّه عن الأجناس؛ لأنه مبدعها، فلا يصح أن يكون له ولد.

ثانيهما: أن الله تعالى خلق السموات والأرض، ومَنْ كان كذلك فهو غنيٌّ عن الولد، وعن كُلِّ شيءٍ^(١).

قال الزمخشري: وفي هذه الآية إبطال أن يكون لله ولدٌ من ثلاثة أوجه:

الأول: أنه مبتدع السموات والأرض، وهي أجسام عظيمة، وخالق الأجسام لا يكون

(١) «التسهيل لعلوم التنزيل» (١٨/٢).

جسمًا حتى يكون والدًا.

الثاني: أن الولادة لا تكون إلا لمن كان له زوجة، والله تعالى ليس له صاحبة.

الثالث: أنه ما من شيء إلا وهو سبحانه خالقه، ومن كان كذلك كان غنيًا عن كل شيء، والولد إنما يطلبه المحتاج^(١).

وقد ختم الله الآية ببيان أنه جل شأنه عالم بكل شيء، ولو كان له ولد لا تصف بصفاته، ومنها العلم بكل شيء، وهذا منفي عن غير الله تعالى بالإجماع.

ولما ذكر عموم خلقه للأشياء، ذكر إحاطة علمه بها فقال: ﴿وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ كما قال تعالى ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ﴾ [الملك: ١٤] وقال ﴿وَهُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ﴾ [يس: ٨١] قال تعالى:

١٠٢ - ﴿ذَٰلِكُمْ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ خَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَاعْبُدُوهُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ﴾

ذلكم الموصوف بكل ما سبق هو الله المتفرد بالخلق، المتفرد بالملك، المتفرد بالرزق، المتفرد بالعبادة، المدبر لشؤون خلقه، فأخلصوا له العبادة، فهو سبحانه الخالق لكل شيء، وغيره مخلوق، ومن كان كذلك فهو المستحق للعبادة وحده.

والمعنى: ذلكم المبدع للسموات والأرض، الخالق لكل شيء، العليم بكل شيء هو الله، وهو سبحانه الرقيب على عباده، الحفيظ عليهم، المدبر أمرهم، المتولي لجميع شؤونهم، الإله المعبود، الذي خلق الخلق ليعرفوه فيعبدوه وهم جميعًا تحت وكالته وتديره وتصريفه.

رُؤْيَةُ اللَّهِ تَعَالَى فِي الْآخِرَةِ

١٠٣ - ﴿لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ﴾

وهو سبحانه محيط بمخلوقاتة، يعلمها ويراهها، ويعلم حقيقتها، ولكن عقول العباد لا تحيط ببرهم جل شأنه، ولا يعرفون كنهه وحقيقته سبحانه، ولا تحيط أبصارهم بالله جل شأنه ﴿لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ﴾ لعظمته وجلاله وكماله، بمعنى: لا تحيط به ولا تراه الأبصار في الدنيا، ولا تدرك كنهه

(١) «تفسير الكشاف» (٢/ ٥٢).

وحقيقته ﴿وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ﴾ يحيط بها؛ لشمول علمه لكل ما خفي أو ظهر، وكل ما ظهر وما بطن ﴿وَهُوَ اللَّطِيفُ﴾ بأوليائه الرؤوف بهم ﴿الْخَبِيرُ﴾ بدقائق الأمور وغوامضها.

ومما عليه أهل السنة أن عدم الإدراك لا ينافي الرؤية، فالإدراك يكون بالعقل، والرؤية تكون بالبصر، وعقول الناس محدودة، وأبصارهم محدودة، فعقولهم وأبصارهم لا تدرك الخالق جل شأنه، وهو سبحانه يدرك عقول المخلوقات وأبصارهم ويراهم ويحيط بهم ﷻ.

وأهل السنة على أن المؤمنين يرؤن ربهم يوم القيامة بأبصارهم، ولكنهم لا يحيطون به، فهم يرؤنه رؤية ثابتة عند جمهور أهل العلم.

وقد جاء عن جَمْعٍ من الصحابة أن المؤمنين يرون ربهم في الدار الآخرة في العَرَصات، وفي روضات الجنة، قال تعالى: ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا لِمُتَّعًا وَلِزِيَادَةٍ﴾ [يونس: ٢٦] والزيادة هي النظر إلى وجهه الكريم، وقال سبحانه: ﴿وَبُحُّهُ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرًا﴾ ﴿٢٢﴾ إِلَى رَبِّهَا نَاطِرَةٌ ﴿٢٣﴾ [القيامة].

أما الكفار فإنهم محجوبون عن رؤية الله تعالى ﴿كَلَّا إِنَّهُمْ عَنْ رَبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ﴾ ﴿١٥﴾ [المطففين] أي: لا يرون الله ﷻ يوم القيامة.

والرؤية تكون للمؤمنين خاصة، كما بيّن النبي ﷺ فيما ثبت وتواتر من الأحاديث؛ من ذلك ما جاء في الصحيحين عن جرير بن عبد الله البجلي قال: كنا عند رسول الله ﷺ فنظر إلى القمر ليلة البدر وقال: «إنكم سترون ربكم عياناً كما ترون هذا القمر، لا تضامون في رؤيته، فإن استطعتم ألا تغلبوا على صلاة قبل طلوع الشمس وقبل غروبها فافعلوا، ثم قرأ ﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ الْغُرُوبِ﴾»^(١) [ق: ٣٨].

٢- وعن أبي هريرة ؓ أن ناساً قالوا: يا رسول الله، هل نرى ربنا يوم القيامة؟ قال رسول الله ﷺ: «هل تضامون في القمر ليلة البدر؟» قالوا: لا، يا رسول الله، قال: «هل تضامون في الشمس ليس دونها سحاب؟» قالوا: لا، يا رسول الله، قال رسول الله ﷺ: «فإنكم ترونه كذلك»^(٢).

(١) ينظر: «صحيح البخاري» (٥٥٤، ٨٠٦، ٧٤٣٤) عن أبي هريرة و«صحيح مسلم» (٦٣٣).

(٢) أخرجه أبو داود (٤٧٣٠) و«صحيح سنن أبي داود» (٣٩٥٦) و«صحيح سنن ابن ماجه» (١٧٨) والترمذي (٢٦٩٥) و«صحيح سنن الترمذي» (٢٠٧٢) وفي «الطحاوية» (٥٧٦).

٣- وفي حديث عائشة رضي الله عنها أن النبي ﷺ قال لجابر: «وَكَلَّمَ أَبَاكَ كِفَاحًا»^(١).
أي: مواجهة بغير حجاب.

٤- وفي حديث أبي موسى الأشعري رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «إِنَّ اللَّهَ ﻻ يَنَامُ، وَلَا يَنبَغِي لَهُ أَنْ يَنَامَ، يَخْفِضُ الْقَسْطَ وَيَرْفَعُهُ، يُرْفَعُ إِلَيْهِ عَمَلُ اللَّيْلِ قَبْلَ عَمَلِ النَّهَارِ، وَعَمَلُ النَّهَارِ قَبْلَ عَمَلِ اللَّيْلِ، حِجَابُهُ النُّورُ - أَوِ النَّارُ - لَوْ كَشَفَهُ لَأَحْرَقَتْ سُبُحَاتُ وَجْهِهِ مَا انْتَهَى إِلَيْهِ بَصَرُهُ مِنْ خَلْقِهِ»^(٢).

وفي الآية تنويهٌ بالأجسام المتحيزة المحصورة التي تحدها الأبصار، فإن هذا من شأن المخلوقين، ومن ذلك: الجن والملائكة والكواكب، وكل ما عُبد من دون الله، فإن الأبصار تدركها وتحيط بها، وبذلك ينتفي كونها آلهة تُعبد من دون الله.
وقد جاءت هذه الآية في سياق الحديث عن الشرك بالله تعالى.

ولو لم تكن رؤية الله تعالى ممكنة لما علّقها الله تعالى لموسى على استقرار الجبل في قوله: ﴿فَإِنْ أَسْتَقَرَّ مَكَانُهُ فَسَوْفَ نَرِيهِ﴾ [الأعراف: ١٤٣] فاستقرار الجبل جائزٌ، والمعلّق على الجائر جائزٌ.

قال الإمام مالك: لو لم يرَ المؤمنون ربهم يوم القيامة لم يُعَيَّر الكفار بالحجاب في قوله تعالى: ﴿كَلَّا إِنَّهُمْ عَنْ رَبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَمَحْجُوبُونَ﴾ [المطففين: ١٥].

وقال: لم يرَ الله في الدنيا؛ لأنه باقٍ، ولا يُرى الباقي بالفاني، فإذا كانوا في الآخرة ورزقوا أبصاراً باقية، رأوا الباقي بالباقي^(٣).

ولو لم تكن الرؤية ممكنة لما تمدّح الله بها بقوله: ﴿لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ﴾ لأن المعدوم لا يصح التمدح به.

(١) ينظر كشف الأستار للبخاري (٢٧٠٦) والحاكم (٢٠٣/٣) والبيهقي في الدلائل (٢٩٨/٣) وابن أبي عاصم (٦٠٣) وسنده ضعيف.

(٢) «صحيح مسلم» برقم (١٧٩) والمسند (١٩٦٣٢) بإسناد صحيح على شرط الشيخين وابن ماجه (١٩٥) وابن أبي عاصم في السنة وأبو يعلى (٧٢٦٣) والطبراني في الأوسط (١٥٣٥).

(٣) ينظر: «تفسير التحرير والتنوير» (٤١٥/٧).

فَالْآيَةُ دَالَّةٌ عَلَى جَوَازِ الرُّؤْيَا، خِلَافًا لِلْمُعْتَزِلَةِ الَّذِينَ يَنْفُونَ الرُّؤْيَا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ، وَالْإِدْرَاكَ غَيْرَ الرُّؤْيَا؛ لِأَنَّ الْإِدْرَاكَ هُوَ الْإِحَاطَةُ بِكُنْهِ الشَّيْءِ وَحَقِيقَتِهِ عَنْ طَرِيقِ الْعَقْلِ، وَلَا يَلْزَمُ مِنْ نَفْيِ الْإِدْرَاكَ نَفْيُ الرُّؤْيَا.

وَالرُّؤْيَا: هِيَ الْمَعَايِنَةُ لِلشَّيْءِ مِنْ غَيْرِ إِحَاطَةٍ بِهِ، وَهَذَا عَنْ طَرِيقِ الْبَصَرِ، وَالْإِحَاطَةُ تَكُونُ بِالشَّيْءِ الْمَحْدُودِ مَعْلُومِ الْجِهَاتِ، وَاللَّهُ تَعَالَى مُنَزَّهٌ عَنِ الْحَدِّ وَالْجِهَةِ.

وَقَدْ نَفَتْ عَائِشَةُ ؓ حُصُولَ الرُّؤْيَا فِي الدُّنْيَا، وَخَالَفَهَا ابْنُ عَبَّاسٍ ؓ فِي ذَلِكَ، فَلَا فَرْقَ عِنْدَهُ بَيْنَ الْإِدْرَاكَ وَالرُّؤْيَا.

فَالْحَاصِلُ أَنَّ رُؤْيَا اللَّهِ تَعَالَى فِي الْآخِرَةِ لِلْمُؤْمِنِينَ أَمْرٌ ثَابِتٌ، تَوَاتَرَتْ بِهِ الْآيَاتُ وَالْأَحَادِيثُ فِي الصَّحَاحِ وَالْمَسَانِيدِ وَالسُّنَنِ.

أَمَّا الرُّؤْيَا فِي الدُّنْيَا فَهِيَ غَيْرُ مُمَكِّنَةِ الْحُدُوثِ، فَلَمْ تَحْدُثْ لِمُوسَى ؑ فِي طُورِ سَيْنَاءَ، وَلَمْ تَحْدُثْ لِمُحَمَّدٍ ؐ لَيْلَةَ الْمِعْرَاجِ، كَمَا عَلَيْهِ جَمْعُهُورُ أَهْلِ الْعِلْمِ، وَبِهِ قَالَ ابْنُ مَسْعُودٍ وَعَائِشَةُ وَأَبُو هُرَيْرَةَ ؓ، أَخَذًا مِنْ عُمُومِ الْآيَةِ الَّتِي مَعْنَاهَا، وَقَدْ كَلَّمَ اللَّهُ جَابِرًا كَفَاحًا، وَالرُّؤْيَا فِي كُلِّ هَذَا تَكُونُ مِنْ غَيْرِ إِحَاطَةٍ، وَلَا حُدُودٍ.

عَلَى الدَّاعِيَةِ أَنْ يَجْتَهِدَ فِي دَعْوَتِهِ وَالنَّتَائِجِ عِنْدَ اللَّهِ

١٠٤ - ﴿قَدْ جَاءَكُمْ بَصَائِرُ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنْ أَبْصَرَ فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ عَمِيَ فَعَلَيْهَا وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِحَفِيظٍ﴾

قُلْ يَا مُحَمَّدُ، لِمَنْ لَمْ يُؤْمِنْ بِكَ وَلَا بِرِسَالَتِكَ: قَدْ جَاءَكُمْ حُجُجٌ وَبَرَاهِينٌ وَاضِحَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ، تُبْصِرُونَ بِهَا الْهُدَى مِنَ الضَّلَالِ، وَالْحَقَّ مِنَ الْبَاطِلِ، فِي هَذَا الْقُرْآنِ الْعَظِيمِ، وَفِيمَا جَاءَ بِهِ النَّبِيُّ ﷺ مِنَ السُّنَنِ النَّبَوِيَّةِ، فَمَنْ اهْتَدَى بِهَا؛ فَتَنَعَّ ذَلِكَ يَعُودُ عَلَيْهِ، وَمَنْ لَمْ يُبْصِرِ الْهُدَى مَعَ ظُهُورِ الدَّلَائِلِ؛ فَعَلَيْهِ وَبِأُلْ ذَلِكَ، وَمَهْمَةُ النَّبِيِّ ﷺ هِيَ الْبَلَاغُ، وَلَيْسَ عَلَيْهِ إِحْصَاءُ أَعْمَالِكُمْ وَحِفْظُهَا، فَوْضِيَّةُ النَّبِيِّ ﷺ تَقِفُ عِنْدَ الْآثَارِ، وَعِنْدَ الْبَلَاغِ، وَعِنْدَ التَّبَشِيرِ وَالْإِنذَارِ.

وَمَنْ عَمِيَ عَنْ طَرِيقِ الْهُدَى؛ فَضَرَرَهُ عَائِدٌ عَلَيْهِ، وَلَا عَذَرَ لَكُمْ فِي الْإِسْتِمْرَارِ عَلَى الضَّلَالِ، فَإِنْ ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا﴾ [فصلت: ٤٦]

﴿إِنْ أَحْسَنْتُمْ أَحْسَنْتُمْ لِأَنْفُسِكُمْ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا﴾ [الإسراء: ٦]

وقال سبحانه: ﴿مَنْ أَهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِ لِنَفْسِهِ وَمَنْ ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا﴾ [الإسراء: ١٥].

١٠٥- ﴿وَكَذَٰلِكَ نُصَرِّفُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾^(١) وَلَنُبَيِّنَنَّ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿١٠٥﴾

وكما بيَّنا في هذا القرآن البراهين الدالة على التوحيد والنبوة والمعاد، نبين للمشركين كل ما جهلوه، حيث يقولون كذباً: إن محمداً تعلم هذا من أهل الكتاب ودرسه عليهم، مع أنهم يعلمون أن محمداً ﷺ كان أمياً، ولم يجلس إلى معلم قط، قال تعالى: ﴿وَمَا كُنْتَ تَتْلُو مِنْ قَبْلِهِ مِنْ كِتَابٍ وَلَا تَخْطُّهُ بِمِصْرٍ﴾ [الأنعام: ١٠٤] وقال سبحانه: ﴿قُلْ لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا تَلَوْتُمْ عَلَيْكُمْ وَلَا أَدْرَاكُمْ بِهِ فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِنْ قَبْلِهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ [يونس: ١٦].

ثم إن المسافة بعيدة بين نزول القرآن وبين نزول ما سبقه من الكتب، والبنون شاسع بين ما أتى به محمد ﷺ من القرآن، الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، وبين الأنجيل التي كتبت بعد عيسى عليه السلام بعشرات السنين، أما العهد القديم فهو مزيج من التفسير والتحريف بعد حرق التوراة ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنَّ هَٰذَا إِلَّا إِفْكُ افْتَرَاهُ وَأَعَانَهُ عَلَيْهِ قَوْمٌ آخَرُونَ فَقَدْ جَاءُوا ظُلْمًا وَزُورًا﴾ [الفرقان: ٢٤].

وبتفصيل هذه الحجج، وتصريفها، يتبين الحق لمن يقبلون عليه ويتبعونه، وهم المؤمنون بالله ورسوله، ولا يتنفع بها من سلك طريق الضلال، فالله سبحانه يفضّل هذه الآيات ويوضحها ويبينها؛ كي يؤمن بها المؤمنون الذين شرح الله صدورهم للإيمان، أما الكفار فهم يقولون للنبي ﷺ إنه درس؛ أي: تعلم وتلقى هذا على غيره، كما نسب ذلك المشركون لرسول الله ﷺ فقالوا: إنه تعلم ذلك من حداد رومي، كان يجلس إليه في مكة، والله سبحانه يقول: ﴿لَسَاتُ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجِبِي وَهَٰذَا لِسَانٌ عَكِيفٌ مُمِيتٌ﴾ [النحل: ١٠٣].

(١) قرأ ابن كثير وأبو عمرو (دارست) بألف بعد الدال وسكون السين وفتح التاء؛ أي: دارست غيرك هذا الذي جئنا به، وقرأ ابن عامر ويعقوب (درست) بدون ألف مع فتح السين وسكون التاء؛ بمعنى قدمت وبليت، ومضت عليها دهور، وكانت من أساطير الأولين فأحييتها أنت وجئت بها، وقرأ الباقون (درست) بدون ألف، مع سكون السين وفتح التاء؛ أي: حفظت وأتقنت بالدرس أخبار الأولين.

لقد زعم المشركون أن النبي ﷺ إنما تعلّم هذا القرآن بالدرس والتعليم من أهل الكتاب، وزعموا أنه تعلّمه من غلامين يقال لهما: جبر ويسار، وكانا غلامين نصرانيين بمكة، فقالوا: ﴿إِنَّمَا يَعْلَمُهُ بَشَرٌ﴾ وقالوا: ﴿إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ يُؤْتَرُ﴾ [المذثر: ٢٤].

ومعنى ﴿يُؤْتَرُ﴾ يرويه محمدٌ عن غيره في زعمهم الباطل.

فمعنى ﴿دَرَسَتْ﴾ فقهت وقرأت وتعلّمت على اليهود؛ أي: دارست غيرك في الكتب القديمة، فقرأت عليهم وقرؤوا عليك، وأن هذه الكتب قد ترددت على أسماعهم حتى بليت.

والمعنى: إنا نصرف الآيات ونبينها تبييناً من شأنه أن يضدر من العالم الذي درس العلم، فيقول المكذبون: درست هذا وتلقيته من العلماء والكتب؛ لإعراضهم عن النظر الصحيح الموصول إلى أن مثل هذا لا يكون إلا عن طريق الوحي.

والدراسة: هي القراءة بتمهل للحفظ أو الفهم، كما قال تعالى: ﴿بِمَا كُنْتُمْ تُعَلِّمُونَ الْكِتَابَ وَبِمَا كُنْتُمْ تَدْرُسُونَ﴾ [البقرة: ٧٩] ومن ذلك سُمي مكان مدارس العلم المدرسة، والمكان الذي يتعلم فيه اليهود كان يُسمى المدراس.

ثم إن الله تعالى يوضح هذا القرآن، ويبينه لأهل العلم والمعرفة، وهذا التصريف في آيات القرآن حصل منه هدى للموفقين، ومكابرة للمخذولين، كما قال تعالى: ﴿يُضِلُّ بِهِ كَثِيرًا وَيَهْدِي بِهِ كَثِيرًا وَمَا يُضِلُّ بِهِ إِلَّا الْفَاسِقِينَ﴾ [البقرة: ٢٥]

وقال أيضاً: ﴿كَذَلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي مَن يَشَاءُ﴾ [المذثر: ٣١]

وقال جل شأنه: ﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلَّا خَسَارًا﴾ [الإسراء: ٨٢]

وقال سبحانه: ﴿قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدًى وَشِفَاءٌ وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِيْٓءَاذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى﴾ [فصلت: ٤٤] وهكذا. قال تعالى:

١٠٦- ﴿اتَّبِعْ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ﴾ ﴿١٠٦﴾

ثم يقول الله تعالى لرسوله: اتبع هذا القرآن الذي أنزلته عليك واقتف أثره، واستمر في تبليغ الدعوة للناس، متبعاً ما أوحاه الله إليك من آيات وهدايات، معرضاً عن الذين

يفترون على الله الكذب، واعمل بما فيه من الأوامر والنواهي، وبلغه للناس، وأعظم ما أوحيته إليك هو توحيد الله تعالى ونفي الشرك، وهو الحق الذي لا مريّة فيه، فبلغ ذلك ولا تبال بقول المشركين: إنك درست، فما هو إلا جحود وعناد وادعاء باطل.

وفي الآية أمران مضمونهما الاقتصار على تبليغ الوحي، والإعراض عن أذى المكذبين، وعدم الاشتغال بهم، وليس المراد الإعراض عن دعوة المشركين، ولكن المراد الإعراض عن قولهم وأذاهم مع الاستمرار في دعوتهم، كما قال تعالى: ﴿فَاعْرِضْ عَنْهُمْ وَعِظْهُمْ﴾ [النساء: ٦٣]. قال تعالى:

١٠٧- ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكُوا وَمَا جَعَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِظًا وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِوَكِيلٍ﴾ (١٧)

ثم إن الله تعالى يوجه نبيه ﷺ إلى الاهتمام بالدعوة، وألا يعبأ بهؤلاء المكذبين، وألا يعلّق عليهم أملاً كبيراً، وأن يتفرغ أكثر للمقبلين على الله تعالى المستجيبين لدعوته، فإن له حكمة في إضلالهم، ولو شاء لهداهم أجمعين ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكُوا﴾ أي: لو أراد الله ألا يشركوا به لفعل، ولكنه سبحانه تركهم لسوء اختيارهم واتباعهم أهواءهم المنحرفة.

﴿وَمَا جَعَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِظًا﴾ أي: لست رقيباً عليهم - أيها الرسول - تحصى أعمالهم، إنما أنت مبلغ ﴿وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِوَكِيلٍ﴾ فلست موكلًا عنهم، ولا قيماً عليهم.

وفي الآية تلطف مع الرسول ﷺ، وإزالة لما يلقاه من الغم والكدر من استمرارهم على الكفر، وعدم تأثير القرآن والنذر فيهم، فذكر الله رسوله بأنه قادرٌ على أن يحوّل قلوبهم؛ فتقبل الهدى، ولكنه سبحانه أراد أن يحصل الإيمان للناس بالأسباب المعتادة في الإرشاد والاهتداء؛ ليميز الله الخبيث من الطيب، ويظهر مراتب الناس واختلافهم في الخير والشر اختلافاً ناشئاً من استعدادهم وميولهم ورغباتهم وفقّ النشأة والقبول، فإيمان الناس لا يحصل بخوارق العادات ولا بتبديل العقول، ففي الآية تطين لقلب الرسول ﷺ، وتذكير له بحقائق الأمور.

وليس في الآية عُدْرٌ لأهل الشرك ولا لأمثالهم، وقد ردّ الله عليهم في مثل قوله: ﴿وَقَالُوا لَوْ شَاءَ الرَّحْمَنُ مَا عَبَدْنَاهُمْ مَا لَهُمْ بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ﴾ [الزخرف] وأمر رسوله بالتذكير والموعظة في قوله: ﴿فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنْتَ مُذَكِّرٌ﴾ [الغاشية]

وَبَيَّنَ سُبْحَانَهُ أَنَّ مَهْمَةَ الرُّسُولِ هِيَ الْبَلَاغُ، وَعَلَى اللَّهِ الْحِسَابُ ﴿فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ وَعَلَيْنَا الْحِسَابُ﴾ [الرعد: ٤٠].

النَّهْيُ عَنْ سَبِّ آلِهَةِ الْمُشْرِكِينَ سَدًّا لِلذَّرِيعَةِ

١٠٨- ﴿وَلَا تَسُبُّوا الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ فَيَسُبُّوا اللَّهَ عَدْوًا^(١) بِغَيْرِ عِلْمٍ كَذَلِكَ زَيْنًا لِكُلِّ أُمَّةٍ عَلَيْهِمْ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ مَرْجِعُهُمْ فَيُنَبِّئُهُم^(٢) بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٠٨﴾

والله تعالى أَمَرَ نَبِيَّهٗ أَنْ يُعْرَضَ عَنْ أَذَى الْمُشْرِكِينَ، بِأَدَبٍ جَمٍّ، وَتَرْفَعٍ يَلِيقُ بِالْمُؤْمِنِ، وَنَهَاهُ أَنْ يَسُبَّ آلِهَةَ الْمُشْرِكِينَ؛ مَخَافَةً أَنْ يَتَجَرَّؤُوا عَلَى اللَّهِ تَعَالَى؛ فَيَسُبُّوهُ مِنْ بَابِ التَّعَامُلِ بِالْمِثْلِ؛ ذَلِكَ لِأَنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ جَلَالَ اللَّهِ سُبْحَانَهُ، وَلَا عَظِيمَ مَقَامِهِ.

وسب آلِهَةِ الْمُشْرِكِينَ كَانَ أَمْرًا جَائِزًا، وَلَكِنَّهُ لَمَّا كَانَ سَبًِّا يُوْدِي إِلَى سَبِّ الْمُشْرِكِينَ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ، نَهَى اللَّهُ سُبْحَانَهُ عَنْ ذَلِكَ، وَاللَّهُ تَعَالَى يَجِبُ تَنْزِيهِهِ عَنْ كُلِّ عَيْبٍ وَنَقْصٍ وَذَمٍّ وَسَبٍّ وَقَدَحٍ، وَإِذَا سَبَّ الْمُسْلِمُونَ آلِهَةَ الْمُشْرِكِينَ، رَدُّوا عَلَيْهِمْ بِسَبِّ رَبِّ الْعَالَمِينَ، فَيَكُونُ الْمُسْلِمُ مُتَسَبِّيًا فِي سَبِّ رَبِّهِ سُبْحَانَهُ، فَيُؤْثِرُ بِالْإِثْمِ، كَمَا نَهَى الْمُسْلِمُ أَنْ يَسُبَّ أَبَا الرَّجُلِ فَيَسُبَّ أَبَاهُ، أَوْ يَسُبَّ أُمَّهُ فَيَسُبَّ أُمَّهُ، فَيَكُونُ سَبًِّا فِي سَبِّ أَبِيهِ أَوْ أُمِّهِ بِهَذِهِ الطَّرِيقَةِ.

﴿وَلَا تَسُبُّوا الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ أَي: لَا تَسُبُّوا أَوْثَانَ الْمُشْرِكِينَ وَأَصْنَافَهُمْ - سَدًّا لِلذَّرِيعَةِ - حَتَّى لَا يَتَرْتَبَ عَلَى ذَلِكَ سُبُّهُمْ لِلَّهِ تَعَالَى عَدْوَانًا وَتَجَاوُزًا عَنِ الْحَقِّ، وَجَهْلًا مِنْهُمْ بِحَقِّ اللَّهِ تَعَالَى وَقَدْرِهِ ﴿فَيَسُبُّوا اللَّهَ عَدْوًا بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ لِأَنَّهُ إِذَا تَرْتَبَ عَلَى الْمَصْلُوحَةِ مَفْسَدَةٌ أَكْبَرُ كَانَ التَّرْكُ أَوْلَى ﴿كَذَلِكَ زَيْنًا لِكُلِّ أُمَّةٍ عَلَيْهِمْ﴾ أَي: كَمَا حَسَّنَا لَهُؤُلَاءِ عَمَلَهُمُ السَّيِّئَ؛ عَقُوبَةً لَهُمْ عَلَى سُوءِ اخْتِيَارِهِمْ، حَسَّنَا لِكُلِّ أُمَّةٍ أَعْمَالُهَا السَّيِّئَةَ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿أَفَمَنْ زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ فَرَآهُ حَسَنًا﴾ [فاطر: ٨] وَتَزْيِينُ الْعَمَلِ السَّيِّئِ لِلْكَافِرِ أَثَرٌ مِنْ أَثَارِ سُوءِ اخْتِيَارِهِ، وَلَا جَبْرٌ فِي ذَلِكَ وَلَا إِكْرَاهٌ؛ حَيْثُ إِنَّ الْإِيمَانَ وَالْكَفْرَ يَنْشَأَنَّ عَنْ

(١) قرأ يعقوب بضم العين والذال وتشديد الواو من (عدوا)، والباقي بفتح العين وإسكان الذال وتخفيف الواو، يقال: عدا عَدُوًّا وَعَدُوًّا وَعَدُوًّا، وهو منصوب على المصدر، أو مفعول لأجله.

(٢) وقف حمزة بتسهيل الهمزة بين بين ويبدلها ياء خالصة من (فينبئهم).

اختيار العبد، وتأتي مهمة الرسل والكتب؛ لترشد إلى الإيمان، وتنتهي عن الكفر.

﴿ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ مَرْجِعُهُمْ﴾ أي: أن المؤمن والكافر، والطائع والعاصي، الجميع معادهم ومصيرهم المحتوم إلى الله تعالى بعد البعث والنشور ﴿فَيُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ أي: فيخبرهم بأعمالهم في الدنيا، ويحاسبهم ويجازيهم عليها في الآخرة، إن خيرًا فخير، وإن شرًا فشر.

ومما ورد في سبب نزول الآية:

١- قال ابن عباس: لَمَّا نَزَلَتْ ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ﴾ [الأنبياء: ٩٨] قال المشركون: يا محمد، لتنتهين عن سبِّ آلهتنا، أو لنهجون ربَّك، فنهاهم الله أن يسبوا أوثانهم؛ فيسبون الله عدوًّا بغير علم^(١).

٢- وقال قتادة: كان المؤمنون يسبون أوثان الكفار، فيردون ذلك عليهم؛ فنهاهم الله عن ذلك^(٢).

٣- وقال السُّدِّيُّ ما ملخصه: إن وفدًا من قريش ذهب إلى أبي طالب، وهو في مرض الموت، وطلبوا منه أن ينهى ابن أخيه عن سبِّ آلهتهم؛ لأنهم يستحيون من قتله بعد موته، فدعا أبو طالب رسولَ الله ﷺ، وطلب منه الكف عن ذِكْرِ آلهتهم، فقال ﷺ: «أرايتم لو فعلتُ تعطوني كلمة، تملكون بها العرب وتدينون بها العجم» قال أبو جهل: نعم وأبيك، ونعطيك عشرة أمثالها، فما هي؟ قال: «قولوا: لا إله إلا الله» فقاموا ونفروا، قال أبو طالب: قل غيرها يا بن أخي، قال: «يا عم: ما أنا بالذي أقول غيرها، ولو أتوني بالشمس فوضعوها في يدي ما قلتُ غيرها» فقالوا: لتكفنَّ عن شتم آلهتنا، أو لنشتمنك ولنشتمنَّ من يأمرك؛ فأنزل الله الآية^(٣).

٤- وعن علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس أن المشركين قالوا: يا محمد، لتنتهين عن سبِّ آلهتنا، أو لنهجون ربَّك؛ فنهاهم الله أن يسبوا أوثانهم.

٥- وفي حديث عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال: «ملعون من سبَّ والديه» قالوا: يا رسول الله، وكيف يسب الرجل والديه؟ قال: «يسبُّ أبا الرجل؛

(١) الطبري (٤٨٠/٩) وابن أبي حاتم (٧٧٦٠).

(٢) «تفسير الطبري» (٣٤/١٢) بتصرف، وعبد الرزاق (٢١٥/١) وابن أبي حاتم (٧٧٦٣).

(٣) ابن أبي حاتم (٧٧٦٢).

فيسب أباه، ويسب أمه فيسب أمه»^(١).

فلا تسبوا آلهة المشركين -أيها المسلمون - حتى لا يسبوا إلهكم جهلاً وعدواناً، معاملةً لكم بالمثل، فمتى خاف المسلم من سب الكافر لله تعالى، أو لرسوله ﷺ، أو لكتابه، لم يجز له أن يسب آلهتهم ولا دينهم؛ لأن ذلك يؤدي إلى مفسدة أعظم، وهذا أصل في سدِّ الذرائع.

قال الحاكم: وقد نُهوا عن سب الأصنام لوجهين:

الأول: أنها جماد لا ذنب لها.

الثاني: أن ذلك يؤدي إلى سب الله تعالى، والذي يجب علينا هو بغض للأصنام، وبيان أنها لا تضر ولا تنفع، ولا تستحق العبادة.

قال عليّ رضي الله عنه -يوم صفين-: لا تسبوه، ولكن اذكروا قبيح أفعالهم^(٢).

على أن سب آلهة المشركين لا يترتب عليه مصلحة دينية؛ لأن مقصود الدعوة هو إبطال عبادتها، وبيان استحالة أن تكون شركاء لله تعالى، فهذا هو الذي يتميز به المحق من المبطل، وليس بالسب وفحش القول، فإن ذلك في مقدور كل إنسان، فهو مفسدة وليس فيه شبهة مصلحة، كما لو أدى تغيير المنكر إلى مفسدة أكبر.

والمشركون يُنكرون أن الله تعالى يأمر محمداً ﷺ بدم آلهتهم؛ لأنهم يزعمون أن آلهتهم مقربة عند الله تعالى، وإنما يزعمون أن شيطاناً يأمر النبي ﷺ بسب آلهتهم، وذلك كقول امرأة منهم للنبي ﷺ لما فتر عنه الوحي في أول البعثة: ما أرى شيطانه إلا ودَّعه. وكان الدهريون ينكرون وجود الله تعالى، ومثلهم الشيوعيون والملحدون وعُبادُ البقر والوثن في كل عصر ومصر.

وقد أمر الله موسى أن يقول لفرعون قولاً ليناً، ولم يكن رسولُ الله ﷺ فاحشاً ولا متفحشاً وفي الآية دليل على أن الوسائل الجائزة، تكون محرمة إذا كانت تفضي إلى الشر.

(١) «صحيح مسلم» برقم (٩٠) و«صحيح البخاري» برقم (٥٩٧٣).

(٢) «تفسير القاسمي» (٦/٢٤٦٣).

خَوَارِقُ الْعَادَاتِ لَا تَأْتِي بِالْإِيمَانِ

١٠٩ - ﴿وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَنِهِمْ لَئِنْ جَاءَتْهُمْ آيَةٌ لَيُؤْمِنُنَّ بِهَا قُلْ إِنَّمَا الْآيَاتُ عِنْدَ اللَّهِ وَمَا يُشْعِرُكُمْ^(١) أَنَّهُ^(٢) إِذَا جَاءَتْ لَا يُؤْمِنُونَ^(٣)﴾ ﴿١٩﴾

ثم ذَكَرَ القرآن ما كان يعتنقه المشركون المكذبون من طلب خوارق العادات؛ فقد ورد أنه لما نزل قول الله تعالى: ﴿إِنْ شَأْنُ نُزُلٍ عَلَيَّهِمْ مِنَ السَّمَاءِ آيَةٌ فَظَلَّتْ أَعْنَاقُهُمْ لَهَا خَاضِعِينَ﴾ [الشعراء: ٤] أقسموا بالله أنه لو نزلت عليهم آية لآمنوا؛ فنزلت هذه الآية^(٤).

وعن محمد بن كعب القرظي أن قريشاً قالوا للنبي ﷺ: إن موسى كان معه عصا يضرب بها الحجر؛ فينفجر منه اثنتا عشرة عيناً، وكان عيسى يُحيي الموتى، وكان لقوم ثمود ناقة، وقد أخبرتنا بذلك، فأت لنا بمثل هذه الآيات حتى نصدقك، فقال لهم: «أي شيء تحبون أن آتيكم به؟» قالوا: تجعل لنا الصفا ذهباً، وأقسموا على أنه لو فعل ذلك لاتبعته أجمعين، فقام رسول الله ﷺ يدعو ربه، فجاءه جبريل وقال: إن شئت أصبح الصفا ذهباً، فإن لم يصدقوا؛ ليعذبنهم الله، وإن شئت فتركهم حتى يتوب تائبهم، فقال ﷺ: «بل يتوب تائبهم» وأنزل الله الآية^(٥).

والمعنى: وأقسموا بالله على أنهم يؤمنون برسول الله ﷺ إن جاء لهم بآية تصدقه بمثل

(١) قرأ أبو عمرو بإسكان الراء واختلاس حركتها من (وما يشعركم)، وللدوري وجه ثالث هو الضمة الكاملة كبقية القراء.

(٢) قرأ نافع وابن عامر وحفص وحمزة والكسائي وأبو جعفر وشعبة بخلف عنه، بفتح همزة (أنها) بمعنى لعلها، وهي في قراءة أبي لعلها، ذكر ذلك أبو عبيد وغيره، ولعل تأتي في مثل هذا الموضع كثيراً، كما قال تعالى: (وما يدريك لعل الساعة قريب) [الشورى: ١٧] وقال: (وما يدريك لعل يركى) [عبس: ٣] وقال الكسائي والفاء: (أن) وما بعدها مفعول يشعركم على أن لا زائدة لتأكيد المعنى كما قال تعالى: (وحرام على قرية أهلكناها أنهم لا يرجعون) [الأنبياء: ٩٥] وقرأ الباقون بكسر الهمزة على الاستئناف؛ إخباراً بعدم إيمانهم.

(٣) قرأ ابن عامر وحمزة بقاء الخطاب للمشركين في (لا يؤمنون)، والباقيون بياء الغيبة للمؤمنين.

(٤) «تفسير ابن عطية» (٢/٣٣٣).

(٥) حديث مرسل في «تفسير الطبري» (٣٨/١٢) وله شواهد من وجوه أخرى كما قال ابن كثير (٣/٣٠٩).

ما جاءت به الرسل أقوامهم من الآيات، فدعا النبي عليه الصلاة والسلام ربّه أن يُنزلَ عليه آيةً، فقال جبريل للنبي ﷺ: قل لهم: ماذا تطلبون؟ قالوا: نريد جبل الصفا يكون ذهباً، أو تأتي لنا بالملائكة نكلّمهم وتُشهِدُ لك، أو تبعث لنا موتى من أهلنا سابقين، يكلّموننا ويشهدون أنك على حقٍّ، قال جبريل ﷺ للنبي عليه الصلاة والسلام، يقول الله تعالى لك: إن شئتَ فعلت، فجعلتُ لك الصفا ذهباً كما تريد، وأنزلتُ عليك الملائكة، وأحييتُ لهم الموتى يكلّمونهم.

ولكن سنة الله في خلقه جرت أن كلَّ قوم يطلبون مثل ذلك من نبيهم، ويؤيده الله تعالى بما اقترحوا، ثم يكذبونه، يُنزلُ الله عليهم عذاب إبادة يستأصلهم بها، مثل: الصاعقة والصيحة والرجفة التي نزلت بقوم صالح وقوم هود وقوم لوط وغيرهم، فأبادهم الله تعالى، قال جبريل للنبي ﷺ: إن شئتَ فعلت، وإن شئتَ تركتهم حتى يتوبَ منهم مَنْ يتوب، فقال النبي عليه الصلاة والسلام: «بل أتركهم حتى يتوب منهم مَنْ يتوب»^(١).

قال تعالى: ﴿وَمَا كَانَتْ أَلَلَّةٌ لِّعَذَابِهِمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ وَمَا كَانَتْ أَلَلَّةٌ مُّعَذِّبُهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾ [الأنفال] وهذه نعمة من الله سبحانه، تشمل الكافر أيضاً؛ حيث إن هذه الأرض لم تنطبق عليهم، ولم تُدَمَّرْ فوقهم، فبقي الكافر عليها برحمة رسالة النبي ﷺ على وجه هذه الأرض.

لقد أنزل الله سبحانه هذه الآية وفيها ردٌّ حاسم، وبيان لطبيعة المكذبين ﴿وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَنِهِمْ﴾ أي: أقسم هؤلاء المشركون بأيمانٍ مؤكّدة: لئن جاءنا محمدٌ بعلامة خارقة لَنُصَدِّقَنَّ ما جاء به، وهذا معنى ﴿لَئِنْ جَاءَتْهُمْ آيَةٌ﴾ أي: معجزة خارقة ﴿لَيُؤْمِنَنَّ بِهَا﴾ ويصدقون أنك رسول الله.

﴿قُلْ﴾ لهم أيها الرسول: ﴿إِنَّمَا أَلَايْتُ عِنْدَ اللَّهِ﴾ أي: أن الآيات الخارقة التي تطلبونها إنما هي من عند الله، فهو القادر على الإتيان بها ﴿وَمَا يُشْعِرُكُمْ﴾ أي: وما يدريكم - أيها المؤمنون - ما سبق في علم الله من ﴿أَنَّهُآ إِذَا جَاءَتْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ أي: وما يعلمكم أن هذه المعجزات إذا جاءت لا يصدّقُ بها المشركون؟ فعلمُ ذلك عند الله وحده، وقد سبق

(١) تنظر هذه الزيادات في «المسند» (٢٥٨/١) والنسائي في «السنن الكبرى» والحاكم (٣٦٢/٢) وقال: صحيح الإسناد ولم يخرجاه، وقال الذهبي: صحيح، و«دلائل النبوة» ص ٢٥٢، وكلهم عن ابن عباس، وذكره الواحدي في سبب النزول ص ١٨٨، وهو في «تفسير ابن كثير» (٣١٦/٢).

في علم الله أنهم لا يصدقون وأنتم لا تشعرون.

والمعنى: أن الله تعالى يعلم أن المعجزات التي اقترحوها إذا تحققت لا يؤمنون بها، وأنتم لا تدرون ذلك، وكان المؤمنون يطمعون في إيمان المشركين، ويتمنون مجيء هذه الآيات؛ ظناً منهم أن المشركين سيدخلون في الإسلام إذا جاءهم النبي ﷺ بما طلبوه من الآيات.

فالضمير في ﴿وَمَا يُشْعِرُكُمْ﴾ يعود على المؤمنين، وهو الأرجح.

ومن قال: إنه يعود على المشركين؛ يكون المعنى:

وما يدريكم لعل الله يأتي بها ولا يؤمن بها المشركون، والله تعالى لا يأتي بالآيات، لإصرارهم على الكفر ولعلمه تعالى أنها إذا جاءت لا يؤمنون، قال تعالى: ﴿وَمَا مَنَعَنَا أَنْ نُرْسِلَ بِالْآيَاتِ إِلَّا أَنْ كَذَّبَ بِهَا الْأَوَّلُونَ﴾ [الإسراء: ٥٩].

و﴿لَا﴾ من قوله تعالى: ﴿لَا يُؤْمِنُونَ﴾ زائدة للتأكيد المعنى؛ أي: وما يشعركم أنها إذا جاءت يؤمنون، كما قال تعالى: ﴿وَحَكْرُهُمْ عَلَى قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا أَنَّهُمْ لَا يَرْجِعُونَ﴾ (٩٥) [الأنبياء] أي: وحرام على أهل قرية مهلكة رجوعهم.

ويصح أن تكون الواو عاطفة؛ ويكون المعنى: أُمُشِعِرُ يشعركم بعدم إيمانهم، أو تكون الواو للحال؛ بمعنى: والحال أن القرآن والاستقراء أشعركم بعدم إيمانهم، كما في قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ (٩٦) وَلَوْ جَاءَتْهُمْ كُلُّ آيَةٍ [يونس].

وسورة يونس نزلت قبل سورة الأنعام، فلا تطمعوا أيها المؤمنون في إيمانهم، ولو جاءتهم كل آية.

هذا: وطلب المكذبين للخوارق، إنما هو بقصد رد ما جاء به النبي ﷺ من باب التعتن الذي لا يلزم إجابته، وليس بقصد طلب الهدى والرشاد، فإن الله تعالى قد أيد رسوله بالآيات البينات، وبمجرد التأمل فيها لا تبقى أدنى شبهة ولا إشكال في صحة ما جاء به النبي ﷺ، وإجابة هذه الخوارق يوجب التعجيل بالعقوبة إن لم يؤمنوا، والنبي ﷺ لا يملكها بل هي بأمر الله، ومع ذلك فإن مجيئها لا يعني إيمانهم ﴿وَمَا يُشْعِرُكُمْ أَنَّهَا إِذَا جَاءَتْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ أي فليس معلوماً أنهم إذا جاءتهم الآيات التي طلبوها يؤمنون ويصدقون بل الغالب أنهم لا يؤمنون، وقد سبق علم الله بذلك ولكنهم لا يعلمون. قال تعالى:

١١٠ - ﴿وَنُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ وَأَبْصَارَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَنَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾

ثم بيّن ﷺ أنه مُطَّلَعٌ على حقيقة أمرهم، يعلم خفاياهم، وما تحتوي عليه قلوبهم، وما تكنه أفئدتهم، فهو سبحانه يعلم أنهم لن يستجيبوا، ولن يؤمنوا، ولو نزلت عليهم الآيات المقتَرَحَة، والذي منعهم من الإيمان بها هو الذي منعهم من الإيمان أول مرة؛ وهو الجحود والكفر والعناد والطغيان، والقلوب المقفلة عن الحق، قال تعالى: ﴿وَلَا يَنْتَظِرُكَ مِثْلُ خَيْرٍ﴾ [فاطر: ١٤] وقال سبحانه: ﴿بَلْ بَدَأَ لَهُمْ مَا كَانُوا يُحْفَوْنَ مِنْ قَبْلُ﴾ [الأنعام: ٢٨].

فالإيمان والكفر، والهدى والضلال، لا يتوقف أمرهما على البراهين، إنما يتوقف على قبول الحق أو رفضه، وصحة القلب وآفته، فنحن نقلب أفئدتهم وأبصارهم؛ ونعلم أنهم لا يؤمنون بالآية التي تأتيهم كما لم يؤمنوا بالقرآن من قبل، والله سبحانه يعلم أن قلوب هؤلاء القوم هي العائق، وليس العائق نزول الآيات، إنما العائق هو المرض الذي في قلوبهم، وهو الذي منعهم من الإيمان الأول.

فالله تعالى يعلم أنهم لن يؤمنوا بالآيات التي طلبوها إذا جاءتهم، وأنتم - أيها المسلمون - لا تدرون بذلك، ولذلك فإنكم تطمعون في إيمانهم، وهذا على قراءة فتح همزة (أنها) أما على قراءة الكسر؛ فيكون المعنى: وما يشعركم أننا نقلب أفئدتهم عن إدراك الحق فلا يفقهونه، ونقلب أبصارهم عن إظهاره فلا يبصرونه، كشأنهم في عدم إيمانهم بالقرآن الذي نزل عليهم أول مرة، وبما جاء على لسان الرسول ﷺ، قبل أن يقترحوا الآيات الباطلة.

ولذلك فنحن نتركهم مترددين متحيرين، لا يعرفون لهم طريقاً يهتدون إليه، فقد حُرِّموا الانتفاع بحواسهم، ولم ينتفعوا بها؛ لأنهم كابروا وعاندوا؛ فلم يؤمنوا بالقرآن أول ما تحداهم به النبي ﷺ، والأفئدة بمعنى العقول، وهي محل الدواعي والصوارف، فإذا لاح للقلب بارق الدليل، وجّه الحواس إلى الانتفاع بمقتضاه؛ ولذلك قُدمت الأفئدة على الأبصار في الآية. قال تعالى:

١١١- ﴿وَلَوْ أَنَّا زَلَلْنَا إِلَيْهِمُ^(١) الْمَلَائِكَةُ وَكَلَّمَهُمُ الْمَوْتُ وَحِشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَيْءٍ قُبُلًا^(٢) مَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ وَلَٰكِنْ أَكْثَرُهُمْ يَجْهَلُونَ﴾

ثم أخبر سبحانه أنه لو أتاهاهم بجميع ما اقترحوه؛ من إنزال الملائكة وإحياء الموتى وغيرهما ما آمنوا إلا بمشيئة الله تعالى ﴿وَلَوْ أَنَّا زَلَلْنَا إِلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ﴾ كما طلبوا، وزدنا على ما طلبوا، ولم تقتصر عليه ﴿وَكَلَّمَهُمُ الْمَوْتُ﴾ أي: بعثنا لهم الموتى، وحشرناهم فكلموهم ﴿وَحِشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَيْءٍ قُبُلًا﴾ من السباع والطيور والدواب والهوام، حشرناهم وجمعناهم أمامهم ﴿مَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ﴾ كما قال تعالى: ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكُوا﴾ [الأنعام: ١٠٧].

ومشيئة الله هذه لا تعني إجبارهم على الضلال، إنما تعني أن الله سبحانه خلق خلقًا متميزًا عن الملائكة وعن الحيوانات، فالملائكة يطيعون الله سبحانه، وليس لهم خيار، والحيوان ليس عنده عقل، فهو لا يثاب ولا يُعاقب، والإنسان مخلوقٌ وسط، ليس بملك مجبرٍ على الطاعة، وليس بحيوان ليس عنده عقل، ولم يرسل إليه رسل، ولم تنزل عليه كتب.

إنما الإنسان مخلوقٌ متميز، له حرية الاختيار، خلقه الله مستعدًا لهذا وذاك، مائلًا إلى الفطرة والتوحيد، فإن انحرف عنها واختار الضلال فإن مصيره يكون إلى النار؛ لأنه اختار هذا بعقله مع إرسال الرسل وإنزال الكتب، ومع تحذير الله ﷻ له عن الكفر والضلال، وكل ذلك في إطار مشيئة الله جل شأنه.

فالله تعالى يعلم ما يجري، وما يكون في هذا الكون سلفًا وخلفًا، وعلمه جل شأنه أحاط بكل شيء، وبكل حركة تجري في هذا الكون، وأكثر هؤلاء القوم يجهلون ما جئت

(١) قرأ أبو عمرو بكسر الهاء والميم وصلًا من (إليهم الملائكة)، وضمهما حمزة والكسائي ويعقوب وخلف العاشر وصلًا أيضًا، والباقون بكسر الهاء وضم الميم وصلًا.

(٢) قرأ نافع وابن عامر وأبو جعفر بكسر القاف وفتح الباء من (قبلا) بمعنى مقابلة؛ أي: معاينة، ونصبه على الحال، وقيل: بمعنى ناحية وجهة ونصبه على الظرف، وقرأ الباقر بضم القاف والباء جمع قبيل ونصبه على الحال، وقيل: بمعنى جماعة جماعة وصفًا صنفًا؛ أي: حشرنا عليهم كل شيء فوجًا فوجًا، ونوعًا نوعًا من سائر المخلوقات.

به - أيها الرسول - من عند الله ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ يَجْهَلُونَ﴾ وإلى الله المرجع الأخير.

ورد عن ابن عباس ؓ أن المستهزئين وهم: الوليد بن المغيرة، والعاص بن وائل، والأسود بن عبد يغوث، والأسود بن عبد المطلب، والحارث بن حنظلة، أتوا رسول الله ﷺ في رهط من أهل مكة فقالوا: أَرِنَا الملائكة يشهدون لك، أو ابعث لنا بعض موتانا فنسألهم: أحق ما تقول؟

وقال بعض المشركين: لا نؤمن لك حتى يُحْشَرُ قُصِيٌّ فيخبرنا بصدقك، أو اتنا بالله والملائكة قبلاً؛ فنزلت الآية في الرد عليهم^(١).

وقد حكى الله عنهم ذلك في قوله: ﴿وَقَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ﴾ إلى قوله: ﴿أَوْ تَأْتِي بِاللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ قَبِيلًا﴾ [الإسراء: ٩٠-٩٢].

وقد ذكرت الآية ثلاثة خوارق للعادات من مقترحاتهم، ثم أشارت إلى مجموع ما سأله في قوله تعالى: ﴿وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَيْءٍ﴾ أي: بعثنا لهم كل ما سأله وغيره من جنس خوارق العادات والآيات؛ أي: لو أجبناهم إلى كل ما سأله، وزدنا عليه بأن جمعنا لهم جميع الخلائق فشاهدوهم وعاینوهم، لو فعلنا كل ذلك ما استقام لهم إيمان، ولا تحركت فيهم مشاعر؛ لفساد فطرتهم، وانطماس بصيرتهم، والذي ينقصهم هو القلب الحي، الذي يتأثر فيخالط الإيمان شغافه، ولو كانت المعجزات التي يطلبونها تنفعهم لكفنتهم معجزة القرآن، ووضح لهم الحق الذي يدعو إليه محمد ﷺ، ولكنهم مكابرون معاندون، يجهلون أن الإيمان بمشيئة الله تعالى، وليس بخوارق العادات التي يطلبونها، استهزاء، ويتعللون بها.

وإسناد الجهل إلى أكثرهم؛ لإخراج القليل منهم ممن آمن بعد نزول هذه الآية، قال تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْنَا الْمَلَكُوتُ أَوْ نَرَى رَبَّنَا لَقَدْ اسْتَكْبَرُوا فِي أَنْفُسِهِمْ وَعَتَوْا عُتُوًّا كَبِيرًا﴾ [الفرقان].

هذا: وبداية هذا الجزء (ولو أننا) متعلق بما قبله من ناحية المعنى، فلا تبدأ به التلاوة، أيها القارئ، والأولى البدء بالآية التي بعده، أو بآيتين قبله.

(١) ينظر: «تفسير التحرير والتنوير» (٥/٨) و«تفسير ابن عطية» (٢/٣٣٥).

أَعْدَاءُ الرُّسُلِ مِنْ شَيَاطِينِ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ

١١٢- ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَاطِينَ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ زُخْرَفَ الْقَوْلِ غُرُورًا وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ﴾ ﴿١١٢﴾

ثم أعلم الله رسوله ﷺ بأنه ما من نبي قبله إلا وله أعداء يخالفونه، وهو ابتلاء عام، فاصبر كما صبروا، ولا تحزن على ما ينالك منهم ﴿مَا يَقَالُ لَكَ إِلَّا مَا قَدَّ قِيلَ لِلرُّسُلِ مِنْ قَبْلِكَ﴾ [فصلت: ٤٣].

هذا، والآيات السابقة كانت تتحدث عن المشركين المكذبين الذين يقترحون الآيات، وهم أعداء لرسول الله ﷺ، والله ﷻ يقول لرسوله ﷺ: لا تحزن، فهذه سنة الله في خلقه، وما من نبي بعثه الله إلا وله أعداء من الإنس والجن يتعاونون عليه، ويتآمرون على إجهاض دعوته، وهكذا جعل الله لرسوله أعداء من المشركين، فلا تأسف ولا تحزن فلست بدعاً من الرسل ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَاطِينَ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ﴾ يقومون بضد ما جاءت به الرسل.

عن أبي أمامة ؓ قال: قال رسول الله ﷺ: «يا أبا ذر تعوذ بالله من شياطين الجن والإنس» قال: يا نبي الله، وهل للإنس شياطين؟ قال: «نعم، شياطين الإنس والجن يُوحى بعضهم إلى بعض زخرف القول غروراً»^(١).

قال مالك بن دينار: إن شيطان الإنس أشد عليّ من شيطان الجن، وذلك أني إذا تعوذت بالله ذهب شيطان الجن، وشيطان الإنس يجيئني؛ فيجرني إلى المعاصي.

(١) قرأ نافع بالهمز بدل الياء في (نبي) فيكون من قبيل المد المتصل، وقرأ الباقر بالياء المشددة (نبيّ).
(٢) أحمد (٢٦٥/٥) برقم (٢٢٢٨٨) وقد حسنه الألباني في «الترغيب» (١/١٤٥) وهو في الطبراني الكبير (٧٨٧١) قال الهيثمي في «مجمع الزوائد» (٣/١١٨): وفيه علي بن زيد، فيه كلام، وقد أورده ابن كثير من طرق متعددة عند تفسير الآية، ومنها رواية ابن أبي حاتم (٧٧٨٦) وقال: فهذه طرق ومجموعها يفيد قوته وصحته، وقال محققو «المسند»: إسناده ضعيف جداً، وقد ورد هذا الحديث عن أبي ذر في «المسند» برقم (٢١٥٤٦) بإسناد ضعيف أيضاً، وأخرجه ابن حبان (٦١٩٠) والحاكم (٢/٢٦٢) والطبراني في الأوسط (٤٠٥).

فشیطان الجن إذا ذكرت الله خنس وتغلّبت عليه؛ لأنك لا تراه، أما شيطان الإنس فمهما ذكرت الله عليه فإنه ماثلاً أمام عينيك، يأخذك من يدك إلى المعصية، ويجرك إليها، وهكذا ﴿يُوحِي﴾ أي يزين ﴿بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ زُخْرَفَ الْقَوْلِ غُرُورًا﴾ أي يدعوه إلى الباطل فيزخرفه له حتى يجعله في أحسن صورة، ويجعل له الحق باطلاً والباطل حقاً، ليخدعه ويغريه بطريقة خفية دقيقة، فهو لا يضلّه ولا يهديه، إنما يوسوس إليه ويزين له العمل، والشياطين هم مردة الإنس ومردة الجن، والشياطين من الجن يزينون إلى شياطين الإنس، ويحسنون لهم العمل السيئ، وشياطين الجن والإنس يوحى بعضهم إلى بعض بزخرف القول وتزيينه ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ﴾ فكل هذا يتم وفق مشيئة الله تعالى.

والمعنى: وكما ابتليناك يا محمد بأعدائك من المشركين، ابتلينا جميع الأنبياء قبلك بأعداء من مردة قومهم، وأعداء من مردة الجن، فالشيطان هو كل عاتٍ متمردٍ من الإنس والجن، قالوا: وشياطين الإنس أشدّ تمرداً من شياطين الجن؛ لأن شيطان الجن إذا عجز عن إغواء المؤمن الصالح، وأعياه ذلك، استعان على إغوائه بشيطان الإنس ليفتنه، وكل من شياطين الإنس والجن يُناجي بعضهم بعضاً، ويلقي إليه بالقول الذي زينّه بالباطل ليغريه به، ويضلّه عن سبيل الله؛ بمعنى: أن شياطين الجن يزينون الأعمال القبيحة لبني آدم، ويغرونهم بها إغراء.

ومعلوم أن الجن مخلوق من مارج من نار، وهو مزوّد بقدره تجعله يحيا في باطن الأرض وخارجها، ويتشكل بأشكال مختلفة، وهو يملك من الحركة والسرعة ما لا يملكه الإنسان، ومنهم الصالحون ومنهم المردة، وإبليس أبو الشياطين، وهم مسلطون على بني آدم؛ لإغوائهم بالإيحاء إليهم، فإذا ذُكرَ الله خنس، وليس له قدرة على الوسوسة إلى المخلصين من المؤمنين، ويمكن للمؤمن أن يتحصن منه ومن وسوسته بالأذكار المعروفة وقوة الاتصال بالله تعالى.

والجن يحشرون مع الإنس يوم القيامة، ويحاسبون ويجازون بالجنة والنار، ولو شاء الله لمنع الشياطين من إغواء الإنس وإلقاء الوسوسة في قلوبهم، ولو شاء الله لحال بين أنبيائه وبين نصب العداء لهم، ولكنه ابتلاء من الله، ورفع لدرجاتهم؛ ليجزل الثواب لهم على صبرهم، كما قال تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا مِنَ الْمُجْرِمِينَ﴾ [الفرقان: ٣١]

وقال: ﴿وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِكَ فَصَبَرُوا عَلَى مَا كُذِّبُوا وَأَوْدُوا حَتَّىٰ أَنلَهُمْ نَصْرًا﴾ [الأنعام: ٣٤].

قال ورقة بن نوفل للنبي ﷺ حين نزل عليه الوحي: لم يأت أحد بمثل ما جئت به إلا عودي، وإن يدركني يومك أنصرك نصرًا مؤزرًا^(١).

ثم ختم الله الآية بقوله: ﴿فَذَرَهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ﴾ أي: اترك هؤلاء المكذبين، وما يفترونه من كذب وزور، اتركهم وما يزينه لهم إبليس من الكفر والمعاصي، واصبر على أقوالهم وأفعالهم، ولا تترك دعوتهم إلى الحق، وتوكل على الله، وفي هذا تهديد ووعد لهم؛ بمعنى: أنه سبحانه من ورائهم فيجازيهم بما عملوا. قال تعالى:

١١٣ - ﴿وَلِصَّغَىٰ إِلَيْهِ أَفْئِدَةُ^(٢) الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ وَلِيَرَضُوهُ وَلِيَقْرَأُوا مَا هُمْ مُفْتَرُونَ﴾

قال سبحانه في هذه الآية عطفًا على ما قبلها: ﴿وَلِصَّغَىٰ إِلَيْهِ﴾ أي: ولتميل إلى هذا الزخرف والإيحاء، وإلى هذا التزيين من شياطين الإنس والجن غير المؤمنين، أما المؤمنون فإنهم لا يتأثرون به، إنما تصغى إليه ﴿أَفْئِدَةُ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ﴾ لأن من لم يؤمن بالآخرة، وما فيها من ثواب وعقاب، يمشي وراء أهوائه وشهواته، ولا يتبع إلا زخرف القول وباطله، فإذا مال العبد إلى القول المزخرف، صار عقيدة راسخة، وصفة لازمة له، ثم ينتج عنه اقتراف الأعمال والأقوال السيئة.

ولذا قال تعالى: ﴿وَلِيَرَضُوهُ﴾ أي: وليرضوا هذا الفعل الخبيث الذي مالت إليه نفوسهم، فالكفار هم الذين يميلون إلى هذا الباطل من القول المزخرف، ويعملون به ويقبلونه ويحبونه ﴿وَلِيَقْرَأُوا مَا هُمْ مُفْتَرُونَ﴾ أي: لكي يكتسبوا من الأعمال السيئة ما هم مكتسبون، وكل مجزي بعمله يوم لقاء الله قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْتَسِبُونَ الْإِثْمَ سَيُجْزَوْنَ بِمَا كَانُوا يَقْتَرُونَ﴾ [الأنعام: ١٢٠].

(١) رواه البخاري (٢٢/١) برقم (٣، ٢٣٩٢، ٤٩٥٥، ٤٩٥٧، ٦٩٨٢) ومسلم (١٣٩/١) برقم (١٦٠) من

حديث طويل عن عائشة .

(٢) وقف حمزة على (أفئدة) بنقل حركة الهمزة إلى الفاء وحذف الهمزة؛ فيصير النطق بفاء مكسورة بعدها دال .

الْحُكْمُ لِلَّهِ وَخَدَهُ فِي صِدْقِ مَا جَاءَ بِهِ مُحَمَّدٌ ﷺ

١١٤- ﴿أَفَغَيْرَ اللَّهِ ابْتَغَىٰ حَكَمًا وَهُوَ الَّذِي أَنزَلَ إِلَيْكُمُ الْكِتَابَ مُفَصَّلًا وَالَّذِينَ ءَاتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْلَمُونَ أَنَّهُ مُنْزَلٌ^(١) مِن رَّبِّكَ بِالْحَقِّ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ ﴿١١٤﴾﴾

ثم لقن الله رسوله الجواب على المشركين؛ ليخاطبهم بأنه لا يطلب حَكَمًا بينه وبينهم غير الله تعالى، وكان المشركون قد دعوا النبي ﷺ إلى التحاكم في شأن نبوته، وأن القرآن منزلٌ من عند الله، وكان أهل مكة مخالطين لليهود في ترددهم عليهم بالتجارات وغيرها، وما منع أهل الكتاب من الاعتراف بالنبي ﷺ إلا الحسد والعناد والخوف على زوال الجاه والسلطان.

قال أبو حيان: قال مشركو قريش لرسول الله ﷺ: اجعل بيننا حَكَمًا إن شئت من أحبار اليهود أو النصارى؛ ليخبرنا عنك بما في كتبهم من أمرك؛ فنزلت الآية^(٢).

والمعنى: قل يا محمد لِمَنْ يُكْذَّبُ برسالتك: أأميل إلى زخارف الشياطين؛ فأطلب معبودًا سوى الله؛ ليحكم بيني وبينكم، ويميّز المحقَّ من المبطَّل!!

وهل أتقيد بغير أوامر الله ونواهيه؟ فإن غير الله تعالى محكوم عليه لا حاكم.

فلم يطلب الرسول ﷺ حَكَمًا بينه وبينهم غير الله تعالى، وأنكر عليهم التحاكم إلى غير الله سبحانه، مع أن حكم الله ظاهرٌ في الكتب المنزلة، يجدون صدقَه عندهم فيها، وهذا أمر معلوم لا شك فيه، فلا تشك في أيها المسلم.

وسورة الأنعام سميت كذلك؛ لذكر ما يتعلق بالحلال والحرام في ذبح الأنعام.

والسورة تقدم لذلك باستنكار أن يكون الحُكْمُ لغير الله تعالى، وبيان أنه لا يجوز لأحد أن يطلب حَكَمًا في أي شأن من شؤون الحياة من غير كتاب الله وسنة رسوله.

وقضية الحُكْمِ بما أنزل الله تعالى قضيةٌ قديمة متجددة، اهتم بها الإسلام واعتنى بها في مواضع شتى من كتاب الله ﷻ، اهتم بها في بدء الدعوة قبل الهجرة وهو يخاطب

(١) قرأ ابن عامر وحفص بفتح النون وتشديد الزاي من (منزل)، والباقون بإسكان النون وتخفيف الزاي.

(٢) «البحر المحيط» (٢٠٦/٤).

المشركين، قبل أن تقوم للإسلام دولة، واهتم بها في المدينة بعد هجرة النبي ﷺ، بعد أن قامت للإسلام دولة.

والْحُكْمُ بما أنزل الله سبحانه لا يقتصر على إقامة الحدود بين الناس، وإنما يشمل جميع مناحي الحياة؛ يشمل: المجال الإعلامي، والمجال التربوي، والمجال السلوكي، والعبادة، والعقيدة، وغير ذلك من نُظُم الحياة ومنهجها، كما أمر الله سبحانه.

وقد نفى الله ﷻ الإيمان عَمَّن لا يرضى ولا يسلم بحكم الله ورسوله، كما في قوله تعالى: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجًا مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾ (١٥) [النساء].

وسورة الأنعام، نزلت بمكة تخاطب المشركين، وترسي قواعد العقيدة قبل أن يكون للإسلام دولة، وتبين أن الحكم بما أنزل الله يشمل كل صغيرة وكبيرة، بدءًا من العقيدة، وانتهاء بالذبيحة التي يذبحها الإنسان ويأكل منها، أو لا يأكل.

وتُقدِّم سورة الأنعام صورة لهذا الحكم؛ لبيان أن المسلم لا يرضى ولا يقبل حكمًا غير حُكْم الله ورسوله، وأنه إذا قبل حكمًا غير حكم الله ورسوله؛ فإن ذلك يدخله في دائرة الشرك بالله ﷻ.

ولما قال المشركون للنبي ﷺ: اجعل بيننا وبينك حَكَمًا من أحبار اليهود أو من أساقفة النصارى، فيخبرونا عنك بما في كتبهم^(١)؛ أمر الله تعالى رسوله أن يجيبهم بهذا الجواب: ﴿أَفَغَيْرَ اللَّهِ أَبْتَغِي حَكَمًا﴾ أغير الله إلهي وإلهكم أطلب قاضيًا يحكم بيني وبينكم؟ وهل ألتمس حكمًا آخر غير القرآن، الذي أنزله الله على نبيه؟ وهو سبحانه لم يترك شيئًا غامضًا، ولم يترك شيئًا بدون تفصيل، فقد بيَّن الوعد والوعيد، والأمر والنهي، والحلال والحرام، والصغيرة والكبيرة، فسبحانه من حكيم خبير ﴿وَهُوَ الَّذِي أَنْزَلَ إِلَيْكُمُ الْكِتَابَ مُفَصَّلًا﴾ موضحًا فيه الحلال والحرام والأحكام الشرعية، وأصول الدين وفروعه، فلا بيان فوق بيانه، ولا برهان فوق برهانه، وأحكامه مشتملة على الحكمة والرحمة.

وأهل الكتاب من اليهود والنصارى يعلمون علم اليقين من واقع البشارات، ومن واقع

(١) «تفسير الألوسي» (٨/٨).

الأدلة التي في كتبهم أنك رسول الله حقًا، وأن هذا القرآن أنزله الله سبحانه على رسوله ﷺ ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا بِمَا نُزِّلَ مِنْ رَبِّكَ بِالْحَقِّ﴾ وقد تواطأت الأخبار على ذلك.

ثم إن عدم اعتراف اليهود والنصارى بأن هذا القرآن منزل من عند الله سببه الحسد ﴿فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُفْتَرِينَ﴾ أي: فلا تكونن من الشاكين في أن بني إسرائيل يعلمون أن هذا القرآن منزل من عند الله.

ولا تكونن -أيها المخاطب- من الشاكين في أن القرآن من عند الله، وما شك رسول الله ﷺ في شيء مما أنزله الله عليه، كما قال تعالى ﴿فَإِنْ كُنْتَ فِي شكٍ مِمَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ فَسَلِ الَّذِينَ يَقرءُونَ الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكَ لَقَدْ جَاءَكَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُفْتَرِينَ﴾ [يونس] قال ﷺ: «لا أشك ولا أسأل»^(١).

وهذا شرط، والشرط لا يقتضي الوقوع، وأهل الكتاب في قرارة أنفسهم يوقنون أن القرآن منزل عند الله، ولكنه العناد والجحود. قال تعالى.

١١٥ - ﴿وَنَمَتَ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَتِهِ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾

ثم بين سبحانه أن هذا الكتاب كامل في الأزل، ليس فيه نقص ولا تحريف ولا تبديل ﴿وَنَمَتَ كَلِمَتُ رَبِّكَ﴾ وهي القرآن ﴿صِدْقًا﴾ في الأخبار والأقوال ﴿وَعَدْلًا﴾ في الأحكام، والأوامر والنواهي، فكلام الله ﷻ هو الصدق، وأحكامه هي العدل، وخبر الله هو الصادق، وحكم الله هو العادل ﴿لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَتِهِ﴾ ولا تغيير لأحكامه ﷻ، فهي مصونة عن التحريف والتبديل إلى يوم القيامة ﴿وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ أي: والله ﷻ هو الغني عن خلقه، السميع لما يقال، على اختلاف اللغات وكثرة الحاجات، العليم بظواهر الأمور وبواطنها وماضيها ومستقبلها.

(١) سنده صحيح، إلى قتادة كما في «تفسير الطبري» عند تفسير الآية (٩٤) من سورة يونس، وهو حديث مرسل أخرجه عبد الرزاق (٢٩٨/١) والطبري (٢٨٨/٢).

(٢) قرأ عاصم وحمة والكسائي ويعقوب وخلف العاشر (كلمت) بغير ألف بعد الميم على التوحيد، والمراد الجنس، وقرأ الباقون (كلمات) بإثبات ألف بعد الميم على الجمع؛ لأن كلمات الله متنوعة أمراً ونهياً ووعداً ووعيداً، وهي مرسومة بالتاء في جميع المصاحف، فمن قرأها بالجمع وقَفَ عليها بالتاء، ومن قرأها بالإنفراد منهم من وقف بالهاء؛ وهما الكسائي ويعقوب، ومنهم من وقف بالتاء؛ وهم عاصم وحمة وخلف.

وقد أطلق القرآن لفظ (كلمات) على الكتب المنزلة من عند الله، كما قال تعالى:

﴿فَقَامُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ النَّبِيِّ الْأُمِّيِّ الَّذِي يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَكَلِمَاتِهِ﴾ [الأعراف: ١٥٨].

ورحمة الله بعباده تشمل العصاة وغيرهم، والله سبحانه قادرٌ على أن يهلكهم ويبيدهم ويستأصلهم، وإنما يتركهم يتنعمون في هذه الحياة، وهو القادر على إهلاكهم وعلى أن يستخلف قومًا غيرهم رحمةً منه سبحانه.

وقد ورد التحصن والتعوذ بكلمات الله التامة في كثير من الأحاديث؛ منها:

١- ما جاء عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: كان النبي ﷺ يعوذ الحسن والحسين:

«أعيذكما بكلمات الله التامة من كل شيطان وهامة ومن كل عين لامة»

ثم يقول: «كان أبوكم إبراهيم يُعوذ بها إسماعيل وإسحاق»^(١).

٢- وعن خولة بنت حكيم رضي الله عنها أنها سمعت رسول الله ﷺ يقول: «من نزل منزلاً فقال: أعوذ بكلمات الله التامات كلها من شر ما خلق، لم يضره شيء حتى يرتحل من منزله ذلك»^(٢).

٣- وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: جاء رجل إلى النبي ﷺ فقال: يا رسول الله، ما لقيت من عقرب لدغني البارحة، قال: «أما إنك لو قلت حين أمسيت: أعوذ بكلمات الله التامات من شر ما خلق لم تضرْك»^(٣).

رَوَاجُ الْبَاطِلِ لَا يَجْعَلُهُ حَقًّا

١١٦- ﴿وَلَنْ تَقْعَ أَكْثَرُ مَنْ فِي الْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ﴾

(١) البخاري (٣٣٧١) وأبو داود (٤٧٣٧) وهذا لفظه، وهو في صحيح أبي داود (٣٩٦٣) وصحيح ابن ماجه (٣٥٢٥)، والترمذي (٢٠٦٠) والنسائي في «السنن الكبرى» (١٠٨٤٤) وابن ماجه (٣٥٢٥) والبيهقي في «الأسماء والصفات» (٤٠١).

(٢) «صحيح مسلم» (٢٧٠٩) والنسائي في «السنن الكبرى» (١٠٤٢١، ١٠٤٢٨) والبيهقي (٣٦٥، ٤٠٢) والمسند (٢٧١٢٠، ٢٧٣١٠) حديث صحيح والدارمي (٢٦٨٠).

(٣) «صحيح مسلم» (٢٧٠٨) والترمذي (٢٤٣٧) وابن أبي شيبه (٢٨٧/١٠) وابن ماجه (٣٥٤٧) والنسائي في «السنن الكبرى» (١٠٣٩٤، ١٠٣٩٧).

وإذا كان قول الله هو الحق، وحُكْمه هو العدل؛ فامض - يا رسولنا - لما أمرت به، وبلغ رسالة ربك، فإن ما يقرره البشر - مهما بلغت كثرتهم - لا يقين فيه، وهو مبني على التكهن، وغالبًا ما يقود إلى الضلال، ولو فرض أنك أطعتهم أضلوك عن سبيل الله، فإن المؤمنين قلة، وأهل الضلال كثرة، كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ ضَلَّ قَبْلَهُمْ أَكْثَرُ الْأَوَّلِينَ﴾ [الصافات]

وقال: ﴿وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ﴾ [يوسف]

وقال: ﴿قُلْ لَا يَسْتَوِي الْخَبِيثُ وَالطَّيِّبُ وَلَوْ أَعْجَبَكَ كَثْرَةُ الْخَبِيثِ﴾ [المائدة: ١٠٠].

قال ابن عاشور: والظاهر أن المشركين لما آيسوا من ارتداد المسلمين، كما أشار إلى ذلك قوله تعالى: ﴿قُلْ أَدْعُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُنَا وَلَا يَضُرُّنَا﴾ [الأنعام: ٧١] أخذوا يُلقون الشبه والشكوك على المسلمين في أحكام دينهم، كما أشار إليه قوله تعالى بعد الآية السابقة: ﴿وَإِنَّ الشَّيْطَانَ لِيُؤْخَذَ إِلَيْنَا أَولِيَائِهِمْ لِيُجَدِّلُوهُمْ وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ﴾ [الأنعام: ١٢١].

عن ابن عباس رضي الله عنه قال: أتى أناس النبي ﷺ فقالوا: يا رسول الله، أأناكل ما نقتل، ولا نأكل ما يقتل الله؟ فأنزل الله تعالى: ﴿فَكُلُوا مِمَّا ذَكَرَ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ﴾ (٢).

ونحو ذلك مما قاله المشركون، وهم يجادلون النبي ﷺ والمؤمنين حين قالوا لهم: الشاة التي ماتت من نفسها، من أماتها؟ قال لهم: «الله هو الذي أماتها؟» قالوا: كيف لا تأكلونها وأنتم تدعون أنكم تعبدون الله ﷻ، كيف لا تأكلون ما قتل الله - وهي الشاة التي أماتها الله سبحانه - وتأكلون ما قتلتم بأنفسكم، وما ذبحتموه بأيديكم، وما ذبحت الكلاب والسباع الملعونة؟ فأنزل الله ﷻ: ﴿وَإِنْ قُطِعَ أَكْثَرُ مَنْ فِي الْأَرْضِ عَلَى سَبِيلِ الْفُرْضِ وَالْاحْتِمَالِ، وَالْمَرَادُ: مُعْظَمُ سُكَّانِ الْكُرَةِ الْأَرْضِيَّةِ﴾ ﴿يُضِلُّوكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ﴾ أي: يصرفوك عن طريق الحق ومنهج الصدق؛ وسبب هذه الأثرية أن الهدى يحتاج إلى عقول سليمة ونفوس فاضلة، تقدّم الحق على الضلال والخير على الشر.

(١) «تفسير التحرير والتنوير» (٢٣/٨).

(٢) قال الترمذي: هذا حديث حسن غريب وهو برقم (٣٢٧٧) وأخرجه أبو داود أيضًا في كتاب الأضاحي، باب ذبائح أهل الكتاب برقم (٢٨١٩) وهو في «صحيح سنن أبي داود» (٢٤٤٥) وصححه الألباني في «صحيح سنن الترمذي» برقم (٢٤٥٤).

وهذا لا يتوافر إلا لدى بعض الناس، وأكثر أهل الأرض ضالون، وأكثر أهل الأرض هم أهل الشرك والكفر الذين استحبوا العمى على الهدى، فإن أكثرهم قد انحرفوا في شرائعهم وأعمالهم وعلومهم.

ولذا: فإنه لا يستدل على الحق بكثرة أهله، ولا يدل قلة السالكين لطريق الحق على ضلاله.

ثم بيّن سبحانه أن سبب الضلال هو الهوى واتباع الظن فقال: ﴿إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ﴾ وليسوا على بصيرة في دينهم، بل يُقَلِّدُونَ أسلافهم ويتبعون ظنونهم الكاذبة، وهذا الحكم القطعي بضلال أكثر أهل الأرض، تؤيده تواريخ الأمم كلها، ومن ذلك أن أهل الكتاب تركوا هداية أنبيائهم وضلوا ضلالاً بعيداً، وكذلك الأمم الوثنية فهم أبعد ما يكون عن هداية الرسل، وهذا إعلام من الله لرسوله، وهو النبي الأمي الذي لا يعلم إلا شيئاً قليلاً من شؤون الأمم المجاورة لبلاد العرب خاصة^(١). قال تعالى:

١١٧ - ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ مَنْ يَضِلُّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ﴾

ثم يؤكد الله سبحانه مضمون الآية السابقة، ويقرر ما فيها؛ بأنه جل شأنه لا تخفى عليه خافية في الأرض ولا في السماء، فهو أعلم بمن ضلَّ عن طريق الحق ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ مَنْ يَضِلُّ عَنْ سَبِيلِهِ﴾ فخرج عن طريق الرشاد واتبع هواه ﴿وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ﴾ أي: وهو سبحانه أعلم منكم ومنهم بمن كان على استقامة وسداد، وكلٌ ميسرٌ لما خُلِقَ له، لا يخفى عليه منهم أحدٌ، فأخبر سبحانه أنه أعلم بالضال والمهتدي، وأنه يجازي كلًّا بما يستحق، فيجب عليكم - أيها المؤمنون - أن تتبعوا أوامره ونواهيه، لأنه أعلم بمصالحكم، وأرحم بكم من أنفسكم.

وفي الآية بيان أن هدى الإسلام هو الهدى، وأن الضالين لا حظَّ لهم في ذلك؛ لأنهم لم يأخذوا بمنهج الله ورسوله، وعلمُ الناس بالضالين والمهتدين علمٌ قاصر؛ لأنهم يعرفون أحوال بعض الناس، ويجهلون الكثير منهم، أما علمُ الله تعالى فهو محيطٌ بالكون كله من أقصى الدنيا إلى أقصاها، لا يعزب عن علمه شيء ﴿يَبْقَىٰ إِلَٰهًا إِنَّكَ تَكُ مَقَالٌ حَبَقَ مِنْ خَرَدَلٍ فَتَكُنْ فِي صَخْرَةٍ أَوْ فِي السَّمَوَاتِ أَوْ فِي الْأَرْضِ يَأْتِيهَا اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ﴾ [لقمان].

(١) ينظر: «تفسير المنار» (١٦/٧).

قَضِيَّةُ الذَّبَائِحِ وَرَبُّطُهَا بِالْإِيمَانِ وَالْكَفْرِ

١١٨- ﴿فَكُلُوا مِمَّا ذُكِرَ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ إِنْ كُنْتُمْ بِآيَاتِهِ مُؤْمِنِينَ﴾ ﴿١١٨﴾

وبعد هذا التمهيد ببيان أن أكثر أهل الأرض يتبعون الظن في أحكامهم، وأكثرهم يخطئ الطريق ويضل عن الهدى، تأتي قضية ذبح الأنعام وربطها بالإيمان والكفر، وفيها الجواب عن قول المشركين للمسلمين: أتأكلون ممّا قتلتم، ولا تأكلون ممّا قتل ربكم؟ فيأمر سبحانه بأكل ما ذُكِرَ اسم الله عليه من الذبائح والمطعومات، ويشترط لذلك التصديق ببراهين الله الواضحة والإيمان بها.

فالآية تخاطب المؤمنين، ولا قصد فيها سوى ترك التسمية عمداً أو سهواً.

قال عطاء: هذه الآية أمرٌ بذكر اسم الله تعالى على الطعام والشراب والذبح وكل مطعوم إن كان المؤمنون آخذين بحكم الله^(١).

قال سبحانه: ﴿فَكُلُوا مِمَّا ذُكِرَ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ﴾ أي: كلوا ممّا ذبحتم بأيديكم، وذكرتم عليه اسم الله سبحانه، من بهيمة الأنعام وغيرها مما أحله الله لكم.

ومفهوم المخالفة في الآية: ولا تأكلوا ممّا لم يُذَكَّر عليه اسم الله عند ذبحه، كما يفعل الكفار في أكل الميتة ونحوها، فعلامة المؤمن مخالفة أهل الجاهلية بذكر اسم الله تعالى على الذبائح.

جاء في أسباب النزول أن المشركين قالوا للنبي ﷺ: أخبرنا عن الشاة إذا ماتت، من قتلها؟ فقال: «الله قتلها» قالوا: فترغم أن ما قتل أنت وأصحابك حلال، وما قتل الصقر أو الكلاب حلال، وما قتله الله حرام؟ فأنزل الله تعالى ﴿فَكُلُوا مِمَّا ذُكِرَ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ﴾^(٢).

وقال عكرمة: إن المجوس من أهل فارس -لما أنزل الله تحريم الميتة- كتبوا إلى مشركي قريش، وكانوا أولياءهم في الجاهلية، وكانت بينهم مكاتبة: إن محمداً وأصحابه،

(١) ينظر: «تفسير ابن عطية» (٢/٣٣٨).

(٢) الواحدي في «أسباب النزول» وهو في «الدر المنثور» (٣/٤٢) وقد أخرجه عبد بن حميد وأبو الشيخ عن الضحاك.

يزعمون أنهم يتبعون أمر الله، ثم يزعمون أن ما ذبحوا فهو حلال، وما ذبح الله فهو حرام، فوقع في أنفس ناس من المسلمين من ذلك شيء؛ فأُنزل الله تعالى هذه الآية^(١).

فأمَرَ سبحانه بأكل ما ذَكَرَ اسم الله عليه، وترك ما لم يُذَكَرَ اسم الله عليه، مما مات حتف أنفه، أو ذكر عليه اسم مع اسم الله تعالى، أو ذُبِحَ لغيره سبحانه، ولا ينبغي مخالفة المشركين في ذلك، فإن هذا من تخرصاتهم، وممّا تُوحى به الشياطين إليهم، وكان شعارُ أهل الشرك ذكر اسم غير الله على معظم الذبائح، والأمر في الآية للإباحة.

وترك التسمية، سهواً، يدخل في قوله تعالى: ﴿رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا إِنْ نَسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا﴾ [البقرة: ٢٨٦] وفي الحديث عن ابن عباس رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «إن الله وضع عن أمتي الخطأ والنسيان وما استكرهوا عليه»^(٢).

وجمهور أهل العلم على أن الذبيحة إذا لم يُذكر عليها اسم الله عند ذبحها عمداً؛ فهي ذبيحة محرمة، لا يحل أكلها، وكذا ما ذبح على النصب، وما ذبح على غير اسم الله؛ فإنه لا يحل، ولا يجوز أكله.

وإذا ذبحها مسلم وترك البسملة سهواً؛ فإن ذلك لا يضر عند جمهور أهل العلم.

وبعض الفقهاء يقول: إن الذبيحة إذا لم يذكر عليها اسم الله، عمداً أو سهواً، ولو كان الذابح لها مسلماً؛ فإنها لا تحل أخذاً من ظاهر الآية.

وبعضهم قال: إن التسمية مستحبة، فتركها عمداً أو نسياناً لا يضر.

واللحوم المستوردة ممّا يدخل في هذه الآية؛ لقول الله سبحانه: ﴿وَلَطَعَامُ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حَلٌّ لَكُمْ وَلَطَعَامُكُمْ حَلٌّ لَهُمْ﴾ [المائدة: ٥] فذبائح اليهود والنصارى تحل لنا؛ لأن أصل ديانتهم صحيحة، قبل التحريف للتوراة والإنجيل.

(١) «تفسير الطبري» (١٣/٨) و«زاد المسير» (١١٤/٣) وقد أخرجه أبو داود في ناسخه كما في «الدر المنثور» (١٨٦/٦).

(٢) روي هذا الحديث من طرق متعددة عند ابن ماجه في «السنن» وهو عن ابن عباس برقم (٢٠٤٥) ورواه البيهقي في «السنن الكبرى» (٣٥٦/٧) وأبو نعيم في «الحلية» (٣٥٢/٦) وصححه الألباني في صحيح ابن ماجه (١٦٦٤) ومشكاة المصابيح (٦٢٨٤) والروض النضير (٤٠٤) وإرواء الغليل (٨٢).

ولا تَعَارُضَ بَيْنَ حَلِّ طَعَامِ أَهْلِ الْكِتَابِ، وَبَيْنَ تَحْرِيمِ مَا لَمْ يَذْكُرْ اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهِ؛ لِأَنَّ أَهْلَ الْكِتَابِ يُؤَحِّدُونَ اللَّهَ ﷻ فِي الْأَصْلِ، قَبْلَ مَا انْتَهَوْا إِلَيْهِ مِنَ الشَّرْكِ وَالْكَفْرِ، وَهُمْ يَعْتَرِفُونَ بِاللَّهِ رَبًّا.

في صحيح البخاري عن عائشة ؓ قالت: قلت يا رسول الله، إن هناك أقوامًا حديثو عهد بشرك، يأتوننا بلحم، فما ندرى، أيزكرون اسم الله عليها أم لا؟ قال: «اذكروا أنتم اسم الله، واكلوا»^(١).

فلو كانت التسمية شرطًا في الإباحة؛ لكان الشك في وجودها مانعًا من أكلها، كالشك في أصل الذبيحة.

وأما الذبائح التي ترد من جهات إلحادية أو شيعوية كافرة لا تؤمن بأن لهذا الكون ربًّا، فإنها ذبائح لا تحل، ولا يجوز أكلها، والذبائح التي يُعلم من مصدر أكيد أنها صُغت، ولم يذكر عليها اسم الله ﷻ، أو ماتت بكيفية ما، إذا عُلم هذا من طريق قطعي لا يحل أكلها، ولو كان الذابح لها مسلمًا. قال تعالى:

١١٩ - ﴿وَمَا لَكُمْ أَلَّا تَأْكُلُوا مِمَّا ذُكِرَ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ وَقَدْ فَصَّلَ^(٢) لَكُمْ مَا حَرَّمَ^(١) عَلَيْكُمْ إِلَّا مَا اضْطُرَرْتُمْ^(٣) إِلَيْهِ وَإِنَّ كَثِيرًا لِّيُضِلُّونَ^(٤) بِأَهْوَاءِهِمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِالْمُعْتَدِينَ ﴿١١٩﴾

ثم يتساءل القرآن الكريم منكراً على من تردد في أكل ما أحله الله من الطعام؛ لأنه لم يتعود ذلك من قبل فقال: ﴿وَمَا لَكُمْ أَلَّا تَأْكُلُوا مِمَّا ذُكِرَ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ﴾ وأي شيء يمنعكم - أيها المسلمون - من أن تأكلوا مما ذكر اسم الله عليه؟ وقد جعله الله حلالاً، وبيّن ما

(١) البخاري (٧٣٩٨) وانظر (٥٠٥٧).

(٢) قرأ ابن كثير وأبو عمرو وابن عامر (فُصِّلَ لَكُمْ مَا حُرِّمَ) بضم الفاء والحاء وكسر الصاد والراء على البناء للمفعول، وقرأ نافع وحفص وأبو جعفر ويعقوب (فُصِّلَ لَكُمْ مَا حُرِّمَ) بفتح الفاء والصاد من (فصل) وفتح الحاء والراء من (حرم) على البناء للفاعل، وقرأ الباقون وهم شعبة وحزمة وخلف والكسائي العاشر (فُصِّلَ لَكُمْ مَا حُرِّمَ) ببناء الأول للفاعل، وبناء الثاني للمفعول.

(٣) قرأ ابن وردان بخلف عنه بكسر الطاء من (اضطُرَرْتُمْ إِلَيْهِ)، والباقون بضمها، وهو الوجه الثاني لابن وردان.

(٤) قرأ عاصم وحزمة والكسائي وخلف العاشر بضم الياء من (ليضلون) مضارع (أضل)، والمفعول محذوف؛ أي: يضلون غيرهم، وقرأ الباقون بفتح الياء، مضارع (ضل) أي: ضل نفسه وأضل غيره.

حرم عليكم، وقد فصل لكم ذلك في القرآن، وأزال عنكم اللبس والشك، وهو ما فصلته آية سورة المائدة في قوله تعالى:

﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ وَالْدَّمُ وَلَحْمُ الْخِنْزِيرِ وَمَا أُهِلَ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ وَالْمُنْخَفَقَةُ وَالْمَوْفُوذَةُ وَالْمُتَرَدِّيَةُ وَالنَّطِيحَةُ وَمَا أَكَلَ السَّبُعُ إِلَّا مَا ذَكَّيْتُمْ وَمَا ذُبِحَ عَلَى النُّصُبِ وَأَنْ تَسْتَقْسِمُوا بِالْأَزْلَمِ ذَلِكُمْ فُسْطٌ الْيَوْمَ يَسَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ دِينِكُمْ فَلَا تَحْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنِ الْيَوْمَ أَكَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتَمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا فَمَنِ اضْطُرَّ فِي مَخَبَصَةٍ غَيْرِ مُتَجَانِفٍ لِإِثْمٍ فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٢﴾﴾ [المائدة].

هذه العشر المحرمات من الذبائح هي الموضحة في هذه الآية، وذلك وفق علم الله تعالى، وسورة المائدة قبل سورة الأنعام في ترتيب المصحف؛ لأن سورة المائدة مدنية، وسورة الأنعام مكية، وكما قال سبحانه في سورة الأنعام: ﴿قُلْ لَا أَجِدُ فِي مَا أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا عَلَى طَاعِمٍ يَطْعَمُهُ إِلَّا أَنْ يَكُونَ مَيْتَةً أَوْ دَمًا مَسْفُوحًا أَوْ لَحْمَ خِنْزِيرٍ فَإِنَّهُ رِجْسٌ أَوْ فِسْقًا أُهِلَ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَإِنَّ رَبَّكَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿١٤٥﴾﴾ [الأنعام].

وفي تحريم ذلك من الأضرار الصحية والطبية ما لا يتسع له المقام.

ومما ورد في سبب نزول هذه الآية: أن المسلمين كانوا يتخرجون من أكل الطيبات تقشفًا وتزهّدًا، ومن ذلك أكل اللحم، ولَمَّا حَرَّمَ اللَّهُ المَيْتَةَ، وقال المشركون: أنا نأكل ما نقتل ولا نأكل ما قتل الله؟ أنزل الله هذه الآية؛ ليُبطل قياس المشركين، ويبين الفرق بين المَيْتَةِ التي حُبِسَ فيها الدم ولم يذكر عليها اسم الله، وبين المذَكَّى الذي ذبح بطريقة شرعية فسال منه الدم، وذكر عليه اسم الله، وهو فارقٌ كبيرٌ.

ثم شرع سبحانه في بيان حالة الضرورة فقال: ﴿إِلَّا مَا اضْطُرِرْتُمْ إِلَيْهِ﴾ فَمَنِ اضْطُرَّ لِسَدِّ مَجَاعَتِهِ؛ خوفًا من موت يأتيه، أو ضرر بالغ محقق يلحق به، فلا حرج ولا إثم عليه في تناول ما يرفع عنها الضرر، ويسد الرمق، دون زيادة على ذلك، كما قال تعالى: ﴿فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَإِنَّ رَبَّكَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [الأنعام: ١٤٥].

ثم بين سبحانه أن هؤلاء المشركين جهلاء في استحلالهم ما حرم الله، وأنهم يشرعون لأنفسهم بمقتضى أهوائهم بغير علم ولا اتباع شرع، منهم عمرو بن لُحَيٍّ، فهو أول من بحر البحيرة، وسيب السائبة، ووصل الوصيلة، وأباح المَيْتَةَ، وغير دين إبراهيم.

قال تعالى: ﴿وَإِنَّ كَثِيرًا لَّيُضِلُّونَ بِأَهْوَاءِهِمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ فيحلون الحرام ويحرمون الحلال، فلا تستمعوا إلى الشبهات التي يثيرها الكفار ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِالْمُعْتَدِينَ﴾ الذين تجاوزوا الحد، وسوف يحاسبهم ويجازيهم، وفي هذا تهديد ووعد لهم.

وقد دلت الآية، على أن الأصل في الأشياء والأطعمة الإباحة، ما لم يرد الشرع بتحريمه، وقد فصل الله الحرام وبينه، وما سكت عنه الشرع فهو حلال أيضًا. قال تعالى.

١٢٠ - ﴿وَذَرُوا ظَهْرَ الْإِثْمِ وَبَاطِنَهُ إِنَّ الَّذِينَ يَكْسِبُونَ الْإِثْمَ سَيُجْزَوْنَ بِمَا كَانُوا يَقْتَرِفُونَ﴾

ثم يحذر سبحانه من مغبة هذا الإثم، الذي يفترونه، بتحريم ما أحل الله، وينهاهم عن الأكل مما لم يذكر اسم الله عليه من الذبائح، مما ذبح على أسماء آلهتهم، أو الميتة ونحوها، ويأمرهم أن يتركوا جميع المعاصي سرًا وعلايتها؛ لأن الذين يكسبون المعاصي سيعاقبهم ربهم؛ بسبب ما عملوه من المعاصي.

وهذه الآية عامة في تحريم المعاصي والآثام صغيرها وكبيرها، ما ظهر منها وما بطن، وما قلّ منها أو كثر، من أعمال القلوب أو أعمال الجوارح، ما كان منها سرًا أو جهراً، قال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّي الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَالْإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَأَنْ تُشْرِكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنْزَلْ بِهِ سُلْطَانًا وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا نَعْمُونَ﴾ [الأعراف]. ويستوي في ذلك ما يتعلق بحقوق الله تعالى وما يتعلق بحقوق العباد.

ومن المعاصي القلبية: الكبر والعجب والرياء والخيلاء.

ولمّا سئل النبي ﷺ عن الإثم قال: «الإثم ما حاك في صدرك وكرهت أن يطلع عليه الناس»^(١).

وفي ختام الآية بين سبحانه عاقبة المرتكبين للآثام والأعمال القبيحة، وأن ربهم سيحاسبهم على ما اجتروا من سيئات، ويجازيهم بما يستحقون، قال تعالى:

١٢١ - ﴿وَلَا تَأْكُلُوا مِمَّا لَمْ يَذْكُرْ أَسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ^(٢) وَإِنَّهُ لَفَسْقٌ وَإِنَّ الشَّيَاطِينَ لَيُوحُونَ إِلَى أَوْلِيَائِهِمْ لِيُجَدِّلُواكُمْ وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ﴾

(١) والسائل هو النّوّاس بن سميّان، كما في «صحيح مسلم» برقم (٢٥٥٣).

(٢) وصل ابن كثير الهاء من (عليه) بحرف مد، فيمدها مدًا طبيعيًا.

١- ثم نهى سبحانه المسلمين أن يأكلوا من الذبائح التي ذُبحت للأوثان أوللجن أو أصحاب القبور ونحو ذلك.

٢- وكل ما لم يُذكر عليها اسم الله، كالميتة والمنخقة.

٣- ويدخل في ذلك متروك التسمية عمداً مما ذبح لله، كالضحايا أو الهدايا، وما كان للأكل منها، وبيّن جل شأنه أن الأكل منها خروجٌ عن طاعة الله تعالى، فقال: ﴿وَلَا تَأْكُلُوا مِمَّا لَمْ يُذَكِّرْ أَسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ وَإِنَّهُ لَفِسْقٌ﴾ وهذا نهى عام عن أكل الميتة ونحوها، وعن أكل ما تركت التسمية عليه من الذبائح، وعن كل ما ذُبَحَ لغير الله.

قال عكرمة: كتبت فارس إلى قريش: إن محمداً وأصحابه لا يأكلون ما ذبحه الله، ويأكلون ما ذبحوا لأنفسهم، فكتب المشركون إلى أصحاب النبي ﷺ بذلك، فوقع في أنفس ناس من المسلمين من ذلك شيء؛ فنزلت الآية^(١) وقد ذكر هذا السبب في الآية ١١٨. وهذه مقولة فاسدة لا تستند إلى حجة ولا دليل ﴿وَلَوْ أَتَّبَعَ الْخَقُّ أَهْوَاءَهُمْ لَفَسَدَتِ السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ﴾ [المؤمنون: ٧١]

والمراد بالفسق، خصوص ما أُهِّلَ به لغير الله، كما جاء ذلك مفسراً به في قوله تعالى: ﴿قُلْ لَا أَجِدُ فِي مَا أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا﴾ إلى قوله: ﴿فَإِنَّهُ رِجْسٌ أَوْ فِسْقًا أُهِّلَ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ﴾ [الأنعام: ١٤٥] فهو مجمل مفصل به

وقد أفادت الآية النهي والتحذير من أكل ما ذُكِرَ غير اسم الله عليه .

كما نهت عن أكل ما لم يُذكر عليه اسم الله قصداً وتجنباً لذكره عليه، وهذه مسألة مختلف فيها بين الفقهاء على أقوال ثلاثة:

الأول: أن المسلم إن نسي التسمية على الذبح تؤكل ذبيحته، وإن تعمد ترك التسمية عليها قصداً أو تجنباً لم تؤكل.

ومن هذا القليل ترك التسمية على الذبائح التي تُذبح للجن، وهي ذبائح محرمة؛ لأنها ذُبحت لغير الله، وتركت التسمية عليها؛ لأن الجن تنفر من اسم الله، ويُفعل هذا خوفاً من الجن في بعض بلاد المسلمين، ودليل هذا القول ظاهر الآية، وتقيدته بالنسيان إعمالاً لقاعدة رفع الحرج عن الناس، والجاهل كالناسي.

الثاني: أن المسلم إذا ترك التسمية كسلاً وتثاقلاً، وليس استخفافاً ولا تجنباً ولا

(١) «زاد المسير» (١١٤/٢) و«تفسير الخازن» (٤٩/٢) وابن كثير (٣٢٩/٢) وهو في «المعجم الكبير» للطبراني (٢٤١/١١).

سهواً؛ ففي ذلك روايتان:

إحدهما: أنه يجوز أكل الذبيحة مع الإثم على تعمد تركها ثقافلاً، ومعلوم أن ترك التسمية استخفافاً أشد إثمًا.

وثانيهما: أنه لا يجوز أكلها.

وتعمد ترك التسمية إرضاء للجن أو غيره- حُكْمُه حكم التسمية لغير الله، وهؤلاء حملوا الآية على الذبح لغير الله، واستدلوا بحديث مرسل يقول: «ذبيحة المسلم حلال ذكر اسم الله أو لم يذكر»^(١).

الثالث: أن الذبيحة التي لم يذكر عليها اسم الله لا يجوز أكلها، سواء تُركت التسمية عمدًا أو سهواً، ودليلهم هذه الآية، وقوله تعالى: ﴿فَكُلُوا مِمَّا أَمْسَكْنَ عَلَيْكُمْ وَاذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهِ﴾ [المائدة: ٤] وأحاديث، منها حديث عائشة ؓ: «إذا أرسلت كلبك المعلم وذكرت اسم الله عليه فكل ما أمسك عليك»^(٢).

وحديث رافع بن خديج أن رسول الله ﷺ قال: «ما أنهر الدم وذكر اسم الله عليه فكلوه»^(٣)، فقالوا: إن التسمية لا بد منها لذلك.

ثم بيّن سبحانه أن مردة الجن يُلقون إلى أوليائهم من شياطين الإنس بالشبهات حول تحريم أكل الميتة ونحوها، فيأمرونهم أن يقولوا للمسلمين في جدالهم معهم: إنكم بعدم أكلكم الميتة لا تأكلون ما قتله الله، بينما تأكلون ما تذبحون بأيديكم، وهذا ما يشير إليه قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ الشَّيَاطِينَ لَيُوحُونَ إِلَىٰ أَوْلِيَائِهِمْ لِجَدَلُوكُمْ﴾، بغير علم.

ثم بيّن سبحانه أن من اتبع غير دين الله فقد أشرك بالله، فإن أطعموهم - أيها المسلمون - في تحليل الميتة ونحوها، وساعدتموهم على باطلهم، واستحلالات الحرام - فأنتم وهم في الشرك سواء ﴿وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ فِي تَحْلِيلِ الْحَرَامِ، وَتَحْرِيمِ الْحَلَالِ﴾ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ لأنكم

(١) مراسيل أبي داود برقم (٣٧٨) و«سنن النسائي الكبرى» (٢٤٠/٩) ويشهد له حديث الدارقطني برقم (٢٩٥/٤).

(٢) ينظر الحديث في «البخاري» برقم (١٧٥) ومواضع أخرى كثيرة منها (٢٠٥٤، ٧٣٩٧) ومسلم (١٩٢٩).

(٣) ينظر الحديث في «البخاري» (٢٤٨٨) ومواضع كثيرة منها (٥٥٤٣، ٥٥٤٤) ومسلم (١٩٦٨) وغير ذلك.

اتخذتموهم أولياء من دون الله، وفيه دليل على أن من حرم شيئاً ممّا أحله الله، أو حرم شيئاً أحله الله فقد أشرك بالله؛ لأنه اتخذ حاكماً غير الله، وعدّل به عن أمر الله وشرعه.

وهذا هو ما جاء في حديث عدي بن حاتم حين بين له النبي ﷺ أن طاعة الأحرار والرهبان في التحليل والتحریم بغير ما شرع الله هي عبادة لهم، وهو تفسير قوله تعالى: ﴿اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ [التوبة: ٣١].

مَثَلُ الْمُؤْمِنِ وَالْكَافِرِ

١٢٢- ﴿أَوْ مَنْ كَانَ مَيِّتًا^(١) فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَنْ مَثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِنْهَا كَذَلِكَ زُيِّنَ لِلْكَافِرِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾

هذا مثل للإيمان والكفر، بعد أن أمر الله المؤمنين بترك ظاهر الإثم وباطنه، ونهى الكافرين أن يضلوا في أنفسهم، أو يضلوا غيرهم، فضرب مثلاً للفريقين شبه في المؤمنين بالأحياء، وشبه الكافرين بالأموات، وبين أنهم في جهل وحيرة وظلمات لا يمكنهم الخروج ممّا هم فيه.

فالآية تخاطب أهل الشرك، وتبين أن المؤمن في نظر الإسلام هو الحي، والكافر هو الميت؛ لأن الكفر انقطاع عن الحياة الأزلية الأبدية، والإسلام اتصال بها، يقول سبحانه: ﴿أَوْ مَنْ كَانَ مَيِّتًا﴾ كافراً أعمى البصيرة ضالاً في ظلمات الجهل والمعاصي ﴿فَأَحْيَيْنَاهُ﴾ بالإسلام، وأنقذناه بالقرآن ﴿وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا﴾ هو الإسلام والقرآن أي نور العلم والإيمان والطاعة ﴿يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ﴾ مهتدياً متبصراً لأن الإسلام يخرج من الظلمات إلى النور ﴿كَمَنْ مَثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ﴾ باقياً على كفره، ﴿لَيْسَ بِخَارِجٍ مِنْهَا﴾ يتخبط في الظلمات، أفستوي هذا بمن هو في الضلال والجهالة والعمى والكفر والمعاصي فلا يعرف له مَنَقْذاً ولا مخرجاً، قد التبست عليه الطرق وأظلمت عليه المسالك، فحضره الهم والغم والحزن والشقاء ﴿كَذَلِكَ زُيِّنَ لِلْكَافِرِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ من الشرك والمعاصي، فلم يزل الشيطان يحسن لهم أعمالهم ويزينها في قلوبهم حتى استحسوها ورأوها حقاً، والآية عامة في كل مؤمن وكافر.

(١) قرأ نافع وأبو جعفر (مَيِّتًا) بتشديد الياء مع كسرهما، والباقون (مَيِّتًا) بتخفيف الياء مع سكونها.

وفي سبب النزول أقوال؛ منها:

١- أن النبي ﷺ دعا ربه قائلاً: «اللهم أعز الإسلام بأحد العميرين: عمر بن الخطاب، وعمر بن هشام -أبو جهل-» فأحيا الله سبحانه قلب عمر بن الخطاب بالإيمان، أحياه من كفره، ومن ضلاله، وأدخله في الإسلام، وبقي أبو جهل في كفره وفي ظلماته، فهل يستوي عمر بن الخطاب مع أبي جهل^(١)؟

أو هل يستوي حمزة بن عبد المطلب حين أسلم مع أبي جهل في كفره؟ وهل يستوي عمار بن ياسر حين أسلم مع من بقي في ضلاله؟ أو هل يستوي رسول الله ﷺ مع أئمة الكفر؟ وهكذا ترد الآية.

٢- قال ابن عباس ؓ في قوله تعالى: ﴿أَوْ مَنْ كَانَ مَيِّتًا فَأَخْيَيْنَاهُ﴾ يريد حمزة بن عبد المطلب وأبا جهل، وذلك أن أبا جهل رمى رسول الله ﷺ بفَرْثٍ، وحمزة لم يؤمن بعد، فأخبر حمزة بما فعل أبو جهل، وهو راجع من قنصه ويده قوس، فأقبل غضبان حتى علا أبا جهل بالقوس، وهو يتضرع إليه ويقول: يا أبا يعلى، أما ترى ما جاء به؟ سَفَّهَ عقولنا، وسبَّ آلهتنا، وخالف آباءنا، قال حمزة: وَمَنْ أَسْفَهَ مِنْكُمْ؟ تعبدون الحجارة من دون الله، أشهد أن لا إله إلا الله، لا شريك له، وأن محمدًا عبده ورسوله؛ فأنزل الله الآية^(٢).

٣- وعن زيد بن أسلم والضحاك قالا في قوله تعالى: ﴿أَوْ مَنْ كَانَ مَيِّتًا فَأَخْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ﴾ قالا: عمر بن الخطاب ؓ ﴿كَمَنْ مَثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِنْهَا﴾ قالا: أبو جهل بن هشام^(٣).

وإذا كانت الآية قد نزلت في حمزة وأبي جهل، أو عمر وأبي جهل، أو عمار بن ياسر، أو غيرهم، فإنها عامة في كل مؤمن هداه الله للإيمان ونور قلبه وبصيرته، وكل كافر بقي على ضلاله مؤثراً الكفر على الإيمان، ويدخل في ذلك دخولاً أولياً أصحاب السبب الخاص لنزول الآية.

(١) ينظر حديث ابن عمر في «صحيح سنن الترمذي» (٢٩٠٧) والترمذي (٣٦٨١) وقال حديث حسن صحيح

غريب و«المسند» (٥٦٩٦) وابن أبي حاتم (٧٨٥٤) وابن حبان (٦٨٨١) والحاكم (٨٣/٣).

(٢) «أسباب النزول» للواحدي ص ١٨٩، والسيوطي (١٢١) و«زاد المسير» (١١٦/٣).

(٣) «تفسير الطبري» (١٧/٨) وابن أبي حاتم (٧٨٥٢، ٧٨٦٣).

ومعناها: أو من كان ميتاً في الضلالة، هالِكًا حائرًا في ظلمات الكفر، فأحينا قلبه بالإيمان، وهديناه له، ووفقناه لاتباع رسل الله؛ فأصبح يعيش في أنوار الهداية، كمن مثله في الجهالات والأهواء والضلالات المتفرقة، لا يهتدي إلى منقذ، ولا مخلص له مما هو فيه؟ لا يستويان.

وقد نفى القرآن الكريم المساواة بين أهل الهدى وأهل الضلال في آيات كثيرة؛ منها قوله تعالى: ﴿أَفَمَنْ كَانَ مُؤْمِنًا كَمَنْ كَانَ فَاسِقًا لَا يَسْتَوُونَ﴾ [السجدة]

وقوله: ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الْأَعْمَىٰ وَالْبَصِيرُ أَمْ هَلْ سَتَوَى الظُّلُمَتُ وَالنُّورُ﴾ [الرعد: ١٦]

وقوله: ﴿وَمَا يَسْتَوِي الْأَعْمَىٰ وَالْبَصِيرُ﴾ ١٦ ﴿وَلَا الظُّلُمَتُ وَلَا النُّورُ﴾ ٢٠ ﴿وَلَا الظُّلُ وَلَا الْحُرُورُ﴾ ٢١ ﴿وَمَا يَسْتَوِي الْأَحْيَاءُ وَلَا الْأَمْوَاتُ﴾ [فاطر]

وقوله: ﴿أَفَنْ يَتَّخِذَ الْكَافِرُ عَلَىٰ وَجْهِهِ أَهْدَىٰ أَمَّنْ يَتَّخِذَ سَوِيًّا عَلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ [الملك].

ثم بين سبحانه أن بقاء الكافر على كفره؛ سببه أن الشيطان قد زين لهم أعمالهم، وحسنها في أعينهم وكان خذلان الكافر وتزيين سوء عمله له وفقاً لهواه واختياره، فلذلك رضوا بماهم عليه من الشر والقبائح.

أي: وكما خذلتُ هذا الكافر الذي يجادلکم - أيها المؤمنون -؛ فزيتُ له سوء عمله، فرآه حسناً، زينتُ للجاحدين أعمالهم السيئة؛ ليستوجبوا بذلك العذاب، وكان ذلك بناءً على فساد فطرتهم واختيارهم طريق الضلال.

رُؤُوسُ الْكَفْرِ فِي كُلِّ زَمَانٍ وَمَكَانٍ

١٢٣ - ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ أَكْبَرًا مُّجْرِمِينَ لِيُذَكِّرُوا فِيهَا وَمَا يَمْكُرُونَ إِلَّا بِأَنْفُسِهِمْ وَمَا يَشْعُرُونَ﴾ [الأنعام: ١٢٣]

ثم بين سبحانه أنه كما جعل في مكة صناديد من الكفار، فإنه جعل في كل قرية وكل مدينة في العالم أكابر ورؤساء وقادة من المجرمين يدعون إلى الكفر والضلال؛ لأنهم أقدر على المكر والخديعة وتزيين الباطل من غيرهم.

والقرية في القرآن: هي العاصمة، وهي المدينة الكبرى، وسميت مكة قرية وأم القرى،

والمراد العاصمة الكبرى للإسلام.

﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ﴾ أي: وضعنا فيها من السنن الكونية، ومن خلق أسباب الشر والخير في كل مجتمع، جعلنا فيها ﴿أَكْبَرُ مُجْرِمِيهَا﴾ والمراد: الأكابر من الكفار ومن المجرمين في كل زمان ومكان ممن يتزعمون الحيل للصد عن سبيل الله، وهذا معنى ﴿يَمْكُرُوا فِيهَا﴾ أي: بدعوة الناس إلى الضلال وبالخدعة ومحاربة الرسل وأتباعهم، كما قال تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ اسْتَضَعُوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا بَلْ مَكْرُ آلِيلٍ وَالنَّهَارِ إِذْ تَأْمُرُونَنَا أَنْ نَكْفُرَ بِاللَّهِ وَنَجْعَلَ لَهُ أَنْدَادًا﴾ [سبأ: ٣١]

قال تعالى: ﴿وَمَا يَمْكُرُونَ إِلَّا بِأَنْفُسِهِمْ﴾ أي: ما يحقق هذا المكر إلا بهم، فوباله عليهم.

كما قال تعالى: ﴿وَلِيَحْمِلُوا أَنْفَالَهُمْ وَأَنْفَالًا مَعَ أَنْفَالِهِمْ﴾ [العنكبوت: ١٣].

وما يدري هؤلاء أنهم يحملون أوزار غيرهم ﴿وَمَا يَشْعُرُونَ﴾ وهذا موجود في كل زمان ومكان، كما قال تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِّنْ نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِءٍ كَافِرُونَ﴾ ﴿٢٤﴾ [سبأ]

وقال: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا مِّنَ الْمُجْرِمِينَ﴾ [الفرقان: ٣١]

وقال: ﴿وَكَذَلِكَ مَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ فِي قَرْيَةٍ مِّنْ نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ آثَرِهِمْ مُّقْتَدُونَ﴾ ﴿٣٣﴾ [الزخرف]

فلا تيأس أيها الداعية إلى الله؛ بسبب ما يلحق بك من أذى، لا سيما من زعماء الإلحاد وأئمة الضلال، فإن هذا شأن الناس قديماً وحديثاً، وكبرائهم وزعمائهم هم أشد الناس عداوةً للرسل والدعاة والمصلحين. قال تعالى:

١٢٤- ﴿وَإِذَا جَاءَتْهُمْ آيَةٌ قَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ حَتَّىٰ نُؤْتَىٰ مِثْلَ مَا أُوتِيَ رُسُلُ اللَّهِ اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ^(١) سَيُصِيبُ الَّذِينَ أَجْرَمُوا صَغَارٌ عِنْدَ اللَّهِ وَعَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا كَانُوا يَمْكُرُونَ﴾ ﴿١٢٤﴾

ثم كشف سبحانه عن كبر المشركين، وبين أن الذي منعهم من الإسلام هو حرصهم

(١) قرأ ابن كثير وحفص (رسالته) بغير ألف بعد اللام ونصب التاء على الأفراد، والباقون (رسالاته) بإثبات الألف وكسر التاء على الجمع.

على الاحتفاظ لأنفسهم بامتياز ذاتي، وألا يكونوا من أتباع محمد ﷺ.

قال الوليد بن المغيرة للنبي ﷺ: لو كانت النبوة حقاً لكنت أُولَى بها منك؛ لأنني أكبر منك سنّاً، وأكثر منك مالاً؛ فأنزل الله الآية، وهذا كقوله تعالى عنهم: ﴿وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَى رَجُلٍ مِنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ﴾ (٦) أَهْمُ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُمْ مَعِيشَتَهُمْ ﴿٦﴾ [الزخرف] ويريدون بالقريتين مكة والطائف، وبالرجلين سيد قريش، وسيد ثقيف، أبا جهل، وعروة بن مسعود الثقفي.

قال تعالى: ﴿وَإِذَا رَأَوْكَ إِذَا يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا أَهَذَا الَّذِي بَعَثَ اللَّهُ رَسُولًا﴾ (١١) ﴿الفرقان﴾ وقال سبحانه: ﴿وَإِذَا رَأَاكَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا أَهَذَا الَّذِي يَذْكُرُ آلِهَتَكُمْ وَهُمْ بِذِكْرِ الرَّحْمَنِ هُمْ كَافِرُونَ﴾ (٦٦) [الأنبياء].

وقال أبو جهل: زاحمنا بنو عبد مناف في الشرف، حتى صرنا كفرسي رهان، قالوا: منا نبي يُوحى إليه، والله لا نؤمن به، ولا نتبعه أبداً إلا أن يأتينا وحي كما يأتيه، فأنزل الله الآية^(١)، وهذا ما يشير إليه قوله تعالى: ﴿وَإِذَا جَاءَتْهُمْ آيَةٌ﴾ أي: إذا ثلثت عليهم آية من آيات القرآن تدعوهم إلى الإيمان، لم يقتنعوا بمعجزة القرآن، وطلبوا معجزات أخرى حسية؛ كمعجزة موسى وعيسى وصالح، كما قالوا: ﴿فَلْيَأْتِنَا بِنَايَةٍ كَمَا أُرْسِلَ الْأَوَّلُونَ﴾ [الأنبياء: ٥] ﴿وَقَالُوا لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْهِ آيَاتٌ مِنْ رَبِّهِ قُلْ إِنَّمَا الْآيَاتُ عِنْدَ اللَّهِ وَإِنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُبِينٌ﴾ (٥٠) ﴿أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ يُتْلَى عَلَيْهِمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَى لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ (٥١) [العنكبوت].

والسبب في ذلك هو جهلهم بما يناسب حال الأمم وحال الرسل من المعجزات؛ ولذا جاء الحديث عن أبي هريرة ؓ أن النبي ﷺ قال: «ما من نبي من الأنبياء إلا أُعطي من الآيات ما مثله آمن عليه البشر، وإنما كان الذي أوتيتُ وحياً أوحاه الله إليّ وأرجو أن أكون أكثرهم تبعاً يوم القيامة»^(٢).

(١) «حاشية الجمل على الجلالين» (٨٦/٢).

(٢) البخاري (٤٩٨١، ٧٢٧٤) ومسلم (١٥٢) و«المسند» (٨٤٩١، ٩٨٢٨) بإسناد صحيح على شرط الشيخين و«السنن الكبرى» للنسائي (٧٩٧٧) والبخاري (٣٦١٥) والبيهقي (٤/٩).

وعن اعتراض الكفار على خاتم الرسل ﷺ يقول تعالى: ﴿بَلْ يُرِيدُ كُلُّ امْرِئٍ مِنْهُمْ أَنْ يُؤْتَى صُحُفًا مُنشَرَةً﴾ (٥٢) [المدثر] وعلى هذا فيكون المراد بقولهم: ﴿حَتَّىٰ تَأْتِيَنَا مِثْلَ مَا أُوتِيَ رُسُلُ اللَّهِ﴾ أي: حتى يأتينا وحي كالذي نزل على محمد، وكانوا غير معترفين بالوحي المنزل عليه، فكانوا يتهمون به، وينسبون محمداً ﷺ إلى الجنون.

﴿وَقَالُوا يَتَّبِعُنَا إِلَهَ الْإِزْدِجَارِ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ﴾ (٦١) لَوْ مَا تَأْتِيَنَا بِالْمَلَكَةِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿٧﴾ [الحجر].

وقد أفادت الآية بأن الرسالة لا تُنال بالأُماني ولا بالتشهي، ولكن الله تعالى يعلم مَنْ يَصْلُحُ لها وَمَنْ لا يَصْلُحُ، فإن النفوس متفاوتة في قبول الفيض الإلهي والاستعداد له، بالقرب من طبيعة الملائكة والبعد عن الرذائل الحيوانية، والله تعالى يخلق الرسل مزوَّدين بطاقات مناسبة لمراد الله تعالى من رسله، مهَيَّئين للاصطفاء وتَلْقِي الوحي من الله سبحانه.

ومعنى ﴿قَالُوا﴾ أي: قال بعض كبرائهم لبعض: ﴿لَنْ نُؤْمِنَ﴾ أي: لن نصدق بنبوة محمد ﷺ ﴿حَتَّىٰ تَأْتِيَنَا مِثْلَ مَا أُوتِيَ رُسُلُ اللَّهِ﴾ أي: حتى يعطينا الله من المعجزات والنبوة مثل ما أعطى الله رسله السابقين، أو تأتينا الملائكة من الله بالرسالة، كما قال الله تعالى على لسانهم: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْنَا الْمَلَكَةُ أَوْ نَرَىٰ رَسُولًا﴾ [الفرقان: ٢١] قال تعالى في الرد عليهم مخبراً أنهم لا يصلحون للخير، ولا فيهم ما يوجب أن يكونوا من عباد الله الصالحين، فضلاً أن يكونوا من النبيين والمرسلين: ﴿اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ﴾ فهو سبحانه أعلم بمن يستحقها فيشرفه بها؛ ليحمل رسالته ويبلغها للناس، وهو أعلم بالمعجزة المناسبة لكل رسول ولكل أمة، فالرسالة المؤقتة غير الرسالة الدائمة.

وقد اعترف رئيس كفار مكة بأن محمداً ﷺ من أشرف القوم نسباً، كما جاء في حديث هرقل حين سأل أبا سفيان: كيف نسبه فيكم؟ قال: هو فينا ذو نسب، قال: هل كنتم تتهمونه بالكذب، قبل أن يقول ما قال؟ قال: لا.

وفي صحيح البخاري وغيره عن أبي هريرة ؓ قال: قال رسول الله ﷺ: «بعثت من خير قرون بني آدم قرناً فقرناً، حتى بعثت من القرن الذي كنت فيه»^(١).

(١) البخاري (٥٦٦/٦) برقم (٣٥٥٧).

وفي صحيح مسلم عن واثلة بن الأسقع رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «إن الله اصطفى كنانة من ولد إسماعيل، واصطفى قريشاً من كنانة، واصطفى من قريش بني هاشم، واصطفاني من بني هاشم»^(١).

ثم يأتي التهديد والوعيد بالعذاب الشديد لهؤلاء الطغاة بالذل والهوان والصغار في الدنيا والآخرة ﴿سَيُصِيبُ الَّذِينَ أَجْرَمُوا صَغَارٌ عِنْدَ اللَّهِ﴾ أي: سيصيبهم ذل وهوان في الدنيا ﴿وَعَذَابٌ شَدِيدٌ﴾ يوم القيامة؛ ﴿بِمَا كَانُوا يَمْكُرُونَ﴾ بسبب عتوهم وتكبرهم؛ لأنهم تمردوا على رسل الله وكذبوهم، وهذا أمرٌ مقدّرٌ عند الله تعالى، كما جاء في الحديث عن عبد الله بن عمران أن رسول الله ﷺ قال: «ينصب لكلٌ غادرٍ لواءٌ عند استه يوم القيامة، فيقال: هذه غدره فلان بن فلان»^(٢).

والحكمة في هذا أن الغدر كان خفياً في الدنيا فينشر يوم القيامة.

عَلَامَةُ الْإِيمَانِ وَعَلَامَةُ الْكُفْرِ

١٢٥ - ﴿فَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ وَمَنْ يُرِدْ أَنْ يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقًا^(٣) حَرَجًا^(٤)﴾ كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ^(٥) فِي السَّمَاءِ كَذَلِكَ يَجْعَلُ اللَّهُ الرِّجْسَ عَلَى الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿

(١) مسلم (١٧٨٢/٤) برقم (٢٢٧٦) وهذا لفظه، و«المسند» (٣٧٣/٢) برقم (١٦٩٨٦)، بإسناد صحيح على شرط مسلم ورجال ثقات والطبراني في الكبير (١٦١/٢٢) والترمذي (٣٦٠٦) وأبو يعلى (٧٤٨٥) والبغوي في شرح السنة (٣٦١٣).

(٢) البخاري في الفتن (٦٨/١٣) برقم (٣١٨٨، ٦١٧٨، ٦٩٦٦، ٧١١١) ومسلم في الجهاد (١٣٥٩/٣) برقم (١٧٣٥) من حديث عبد الله بن عمر.

(٣) قرأ ابن كثير (ضَيِّقًا) بسكون الياء، والباقون (ضَيِّقًا) بتشديد الياء، وهما لغتان، وقيل: التشديد في الأجرام والتخفيف في المعاني.

(٤) قرأ نافع وشعبة وأبو جعفر بكسر الراء من (حَرَجًا)، والباقون بفتحها (حَرَجًا) وهما بمعنى واحد، وقيل: المفتوح مصدر والمكسور اسم فاعل، وقيل: المكسور: أضيّق الضيق.

(٥) قرأ ابن كثير (يَصَّعَّدُ) بإسكان الصاد وتخفيف العين، مضارع صعد بمعنى ارتفع، وقرأ شعبة بتشديد الصاد وألف بعدها وتخفيف العين وأصلها يتصاعد، أي: يتعاطى الصعود ويتكلفه وأدغمت التاء في الصاد (يَصَّاعَدُ)، والباقون (يَصَّعَّدُ) بفتح الصاد مشدودة وحذف الألف وتشديد العين، مضارع (تَصَّعَّدَ) أي: تكلف الصعود.

ثم بيّن سبحانه علامة السعداء والأشقياء، وبيّن حال المستعد للهدى والمستعد للضلال، ووصف الحالتين داخل القلوب والنفوس، وما علامة الإيمان وعلامة الكفر في هذه الآية. والمراد بالهدى: خَلُقَ الإيمان وإيجاده في قلب العبد. والمراد بشرح الصدر: تسهيل الإيمان وتحببه وإعداد القلب لقبوله وتحصيله.

والآية نص على أن الله تعالى يريد هدى المؤمن وضلال الكافر، بالإرادة القديمة الأزلية، فمن يشأ الله أن يوفقه لقبول الحق يشرح صدره للتوحيد والإيمان، ومن يشأ أن يضلّه يجعل صدره شديد الانقباض عن قبول الهدى كحال من يصعد في طبقات الجو العليا، فيصاب بضيق شديد في التنفس، وكما يجعل الله صدر الكافر شديد الضيق والانقباض، يجعل العذاب على غير المؤمن ﴿فَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرُهُ لِلْإِسْلَامِ﴾ حيث يتسع القلب وينفتح، ويقبل الهدى والنور، فيتلذذ به ولا يستثقل، وينشرح لها صدره، ويشكر على أنك أسديت إليه نصيحة، أما غير هذا النوع من الناس فإنه يضل ويتبرم ويضيق صدره، ولا يقبل منك نصيحة ولا هداية.

وقيل: إن الهدى نور يقذفه الله سبحانه في قلب العبد، فينفتح له الصدر ويتسع، ويقبل الإرشاد والإيمان، وعلامة هذا النور الذي يقذفه الله في القلب: الإنابة إلى دار الخلود بالإقبال والرغبة فيما عند الله ﷻ، والإكثار من العمل الصالح، والتجافي عن دار الغرور بالزهد في الدنيا، وعدم الركون إليها، وعدم الاهتمام بها، والاستعداد للموت قبل النزول، أي: قبل أن ينزل به الموت، فإنه يستعد للدار الآخرة، هذا علامة الهدى والإيمان الذي يقذفه الله سبحانه في قلب العبد.

﴿وَمَنْ يُرِدْ أَنْ يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي السَّمَاءِ﴾ أي: يجعل صدره ضيقًا مغلقًا لا يقبل هدى، قد انغمس في الشهوات والشبهات، فلا ينشرح قلبه لفعل الخير، لأنه قد سد على نفسه باب الرحمة والإحسان، فهو لا يقبل أمرًا بمعروف ولا نهيًا عن منكر، وهو كمن يكلف الصعود إلى جبل، أو إلى أعلى فيصعب عليه، أو كمن يكلف شيئًا شاقًا وعملاً كبيرًا يشق عليه، وكأنه ارتفع إلى مكان عالٍ: فانقطع عنه الهواء أو قلّ، فنفسه تتحرج، وكأن روحه ستخرج، ويضيق به النفس، ويقلّ عنه

الهواء، فيكاد يختنق ويموت، وهذه حقيقة علمية ثابتة من إعجاز القرآن الكريم، أخبر بها الله ﷻ في هذه الآية وقد تحدث عنها كثير من أهل العلم.

قال تعالى: ﴿أَفَمَنْ شَرَحَ اللَّهُ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ فَهُوَ عَلَى نُورٍ مِّن رَّبِّهِٖٓ قَوِيلٌ لِّلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُم مِّن ذِكْرِ اللَّهِ أُولَٰئِكَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ۖ﴾ [الزمر].

وقال سبحانه: ﴿وَلَكِنَّ اللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الْإِيمَانَ وَزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ أُولَٰئِكَ هُمُ الرَّاشِدُونَ﴾ [الحجرات: ٧].

قال تعالى: ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَافَقَىٰ ۖ ۝٥ وَصَدَقَ بِالْحَقِّ ۖ ۝٦ فَنَسِيحُهُ لِلْإِسْرَىٰ ۖ ۝٧ وَأَمَّا مَنْ يَخِلْ وَاسْتَغْنَىٰ ۖ ۝٨ وَكَذَّبَ بِالْحَقِّ ۖ ۝٩ فَنَسِيحُهُ لِلْعُسْرَىٰ ۖ﴾ [الليل].

عن عبد الله بن مسعود ؓ عن رسول الله ﷺ قال: ﴿فَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ﴾ قالوا: يا رسول الله، وكيف يشرح صدره؟ قال: «يدخل فيه النور فينفسح»، قالوا: وهل لذلك علامة يا رسول الله؟ قال: «التجافي عن دار الغرور، والإجابة إلى دار الخلود، والاستعداد للموت قبل أن ينزل»^(١).

وقال ابن مسعود: إن الله نظر في قلوب العباد، فوجد قلب محمد ﷺ خير قلوب العباد، فاصطفاه لنفسه فابتعته برسالته، ثم نظر في قلوب العباد بعد قلب محمد ﷺ فوجد قلوب أصحابه خير قلوب العباد، فجعلهم وزراء نبيه، يقاتلون على دينه، فما رآه المسلمون حسناً فهو عند الله حسن، وما رأوه سيئاً فهو عند الله سيئاً^(٢).

والقلب الضيق الحرج: هو الذي ليس للخير فيه منفذ، فلا يصل إليه شيء من الخير. ولما كان القلب محلاً للعلوم والاعتقاد، وصفه الله تعالى بالانشراح والضيق، بحيث

(١) روي من عدة طرق مرسلة ومتصلة، وهو في الطبري (١٢/١٠٠) وفي «سلسلة الأحاديث الضعيفة» للألباني برقم (٩٦٥) وهو في «تفسير عبد الرزاق» (١/٢١٠) عن أبي جعفر، و«تفسير الطبري» (١٢/٩٨) والبيهقي في «الزهد الكبير» برقم (٩٧٤) من طريق زيد بن أبي أنيسة، وفي «شعب الإيمان» برقم (١٠٥٥٢) وعند الحاكم في «المستدرک» (٤/٣١١) والصواب في هذا الأثر أنه مرسل.

(٢) أخرجه أحمد بإسناد حسن (٣٦٠٠)، لأن فيه عاصم بن أبي النجود وبقية رجاله ثقات رجال الشيخين غير ابن عياش فمن رجال البخاري (محققوه) وأخرجه بنحوه أبو داود الطيالسي (٢٤٦) والطبراني في الكبير (٨٥٨٣) والبغوي في شرح السنة (١٠٥).

يقبل ما أودعه الله فيه من الإيمان أو الكفر، وفق توجهه فطرة العبد واستعدادها إلى الهدى أو الضلال ﴿كَذَلِكَ يَجْعَلُ اللَّهُ الرِّجْسَ عَلَى الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ أي: كذلك يجعل الله العذاب في الآخرة على الذين لا يؤمنون؛ لأن المرض قد رسخ في قلوبهم، كما قال تعالى: ﴿وَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَى رِجْسِهِمْ وَمَاتُوا وَهُمْ كَافِرُونَ ١٢٥﴾ [التوبة].

هذا: والهداية لفظ مشترك له ثلاثة معانٍ:

المعنى الأول: أنه بمعنى الدعوة إلى الخير وقبول الإسلام، كما قال تعالى: ﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ [الشورى: ٥٢].

المعنى الثاني: إرشاد المؤمنين إلى العمل المفضي إلى دخول الجنة، كما قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ قُلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَانْصُرْ أَعْمَلَكُمْ لَا سَيِّئِهِمْ وَيُصْلِحْ بَالَهُمْ ٥٥ وَيُدْخِلُهُمُ الْجَنَّةَ عَرَفَهَا هُمْ ٥٦﴾ [محمد].

المعنى الثالث: خلق الهدى وإيجاده في قلب العبد، كقوله تعالى: ﴿مَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدَىٰ وَمَنْ يُضِلِّ فَإِذْ لَيْتَ كَ هُمُ الْخَاسِرُونَ ١٧٨﴾ [الأعراف].

وقوله: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ﴾ [القصص: ٥٦]. إلا أن هذا الإيمان الذي يخلقه الله في قلب العبد يكون وفق ميوله وتوجهه، كما قال تعالى: ﴿وَمَا يُضِلُّ بِهِ إِلَّا الْفَاسِقِينَ﴾ [البقرة: ٢٦]. وقال: ﴿فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ﴾ [الصف: ٥]. وقد علم الله منهم ذلك في الأزل فقدره عليهم.

ورد أن جماعة من الصحابة قرؤوا أمام عمر رضي الله عنه: ﴿وَمَنْ يُرِدْ أَنْ يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرُهُ ضَعِيفًا حَرَجًا﴾ بكسر الراء، فقال عمر: يا فتى، لرجل من كنانة، ما الحرجة فيكم؟ قال: الحرجة فينا: الشجرة تكون بين الأشجار التي لا تصل إليها راعية ولا وحشية، فقال عمر: كذلك قلب المنافق، لا يصل إليه شيء من الخير^(١). قال تعالى:

١٢٦ - ﴿وَهَذَا صِرَاطٌ^(٢) رَبِّكَ مُسْتَقِيمٌ قَدْ فَصَّلْنَا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ ١٢٦﴾

(١) «تفسير الألوسي» (٢/٨) وقد أخرجه ابن أبي حاتم (٧٨٢٢، ٧٨٧٤، ٧٨٧٧) وعبد بن حميد وابن المنذر وأبو الشيخ والطبري عن أبي الصلت الثقفي.

(٢) قرأ قبل ورويس بالسين في (صراط)، وقرأ خلف عن حمزة بإشمام الصاد صوت الزاي، والباقون بالصاد الخالصة.

ويختتم هذا السياق ببيان أن هذا الدين، الذي شرعه الله لنبيه، هو الطريق الموصل إلى رضى الله وجنته كما قال تعالى: ﴿وَأَنَّ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ﴾ [الأنعام: ١٥٣]. وهذا الصراط قد بينت أحكامه وفصلت شرائعه، وميز الخير فيه من الشر، ولكن هذا التفصيل والبيان ليس لكل أحد إنما هو ﴿لِقَوْمٍ يَذْكُرُونَ﴾ فينتفعون بعلمهم وقد أعد الله لهم الجزاء العظيم والأجر الكبير.

وهذه الأدلة والبراهين قد وضحتها الله تعالى لأهل العقول الراجحة؛ ليعملوا بها وينالوا السعادة في الدنيا والآخرة، ووصف القرآن بأنه صراط الله المستقيم، وحبل الله المتين، والذكر الحكيم. قال تعالى:

١٢٧- ﴿لَهُمْ دَارُ السَّلَامِ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَهُوَ وَلِيُّهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ (١٢٧)

لفظ السلام له معنيان:

أحدهما: أنه اسم من أسماء الله الحسنى.

وثانيهما: أنه مصدر بمعنى السلامة، وقد أضاف الله سبحانه الجنة -دار السلام- إلى نفسه؛ لأنها من ملكه وخلقه، ووصف الجنة بأنها دار السلام؛ لأن أهلها يَسْلَمُونَ فيها من العذاب الذي يناله أهل النار، وليس فيها من الهموم والمنغصات ما يكدر، وهؤلاء الذين يتتفعون بالموعظة لهم يوم القيامة عند ربهم دار السلامة والأمان من كل مكروه، وهي الجنة يطمئنون فيها، وَيَسْلَمُونَ من الآفات والنقائص، ولا يلقون فيها شيئاً يكرهونه، وهو سبحانه ناصرهم وحافظهم ومؤيدهم جزاء لهم على أعمالهم الصالحة. وكلمة ﴿عِنْدَ رَبِّهِمْ﴾ لها معانٍ ثلاثة:

الأول: بمعنى أن الجنة معدة ومهيأة لأصحابها، كقوله تعالى: ﴿جَزَاؤُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ﴾ [البينة: ٨].

الثاني: أن هذه العندية، تُشعر بالقرب من الله تعالى في الشرف والمكانة والرتبة، كما قال تعالى عن الملائكة ﴿إِنَّ الَّذِينَ عِنْدَ رَبِّكَ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ وَيُسَبِّحُونَهُ وَلَهُ يَسْجُدُونَ﴾ [الأعراف: ٢٠٦]. وكما في الحديث: «أنا عند ظن عبدي بي»^(١).

(١) «حاشية الجمل على الجلالين» (٩٠/٢) والحديث في البخاري برقم (٧٤٠٥) ومسلم برقم (٢٦٧٥) عن أبي هريرة.

والذين لهم دار السلام هم مَنْ ذَكَرَهُمُ اللَّهُ فِي الْآيَةِ قَبْلَهَا بقوله: ﴿لَقَوْمٍ يَذْكُرُونَ﴾.

الثالث: أن ثوابهم عند ربهم دار حلول وإقامة، يَسْلَمُونَ فيها من كل مكروه بسبب أعمالهم الصالحة، والله مولاهم ومتولي أمورهم والكافرون لا مولى لهم.

هذا: والمعنى يقتضى أن هذه الآية ﴿لَهُمْ دَارُ السَّلَامِ﴾ تتبع ما قبلها.

والأولى لمن أراد أن يبدأ التلاوة يبدؤها بالآية التالية.

مَصِيرُ شَيَاطِينِ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ (وَالْأَسْتِجَابُ الْأَوَّلُ)

١٢٨- ﴿وَيَوْمَ يُخْشَرُهُمْ^(١) جَمِيعًا يَمْعَشِرُ الْجِنَّ قَدِ اسْتَكْبَرُوا مِنَ الْإِنْسِ وَقَالَ أَوْلِيَاؤُهُمْ مِنَ الْإِنْسِ رَبَّنَا اسْتَمِعْ بَعْضَنَا بَعْضًا وَبَلَّغْنَا أَجَلَنَا الَّذِي أَجَلْتَ لَنَا قَالَ النَّارُ مَثْوَاكُمْ خَالِدِينَ فِيهَا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴿١٢٨﴾﴾

وتستطرد الآيات في قضية الإيمان والكفر، فتبيّن مصير شياطين الإنس والجن، بعد بيان مصير من استقام على منهج الله تعالى، ولمّا ذكر سبحانه أن البشر فريقان: مهتد وضال، وأن منهم من شرح الله صدره وأثار قلبه، فأمن واهتدى. ومنهم من اتبع الهوى، وسار في ركب الشيطان فضلّ وغوى- ذكر هنا أنه سيخسر الخلائق جميعًا يوم القيامة للحساب والجزاء؛ لينال كل من الفريقين جزاء ما قدّم في دنياه.

وبعد أن ذكر سبحانه ثواب (الذين يتذكرون) بأن لهم دار السلام عند ربهم، بيّن هنا جزاء (الذين لا يتذكرون) ممن لا يؤمنون بالآخرة، فبيّن أن النار مَثْوَاهُمْ خالدين فيها، وهم الذين ماتوا على الشرك والكفر بسبب طاعتهم للشياطين حتى وافاهم الموت، ثم يُحْشَرُ الضالون والمضلون من الثقلين.

في حديث أبي ثعلبة الخشني أن رسول الله ﷺ قال: «الجن على ثلاثة أصناف: صنف لهم أجنحة يطيرون في الهواء، وصنف حيات وكلاب، وصنف يحلّون ويظعنون»^(٢).

(١) قرأ حفص وروح (يُخْشَرُهُمْ) بالياء والفاعل ضمير مستتر تقديره (هو) يعود على (ربهم)، وقرأ الباقون (نُخْشَرُهُمْ) بنون العظمة على الالتفات.

(٢) «صحيح الجامع» (٣١٠٩) والبيهقي في «الأسماء والصفات» (٨٢٧) والحاكم (٤٥٦/٢) والطبراني (٥٧٣) والحكيم الترمذي (٢٠٦/١) وغيرهم.

ويبدأ توجيه الخطاب في الآية إلى الجن؛ لأنهم الأصل في إضلال أتباعهم من الإنس، وهم السبب في صدهم عن سبيل الله ﴿وَيَوْمَ يُحْشَرُهُمْ جَمِيعًا﴾ أي: اذكر - يا محمد - يوم يحشر الله الكفار وأولياءهم من شياطين الجن، من ضل منهم، ومن أضل غيره فيقال للجن الذين أضلوا الإنس: ﴿يَمْعَشَرُ الْجِنَّ قَدْ اسْتَكْرَرْتُمْ﴾ من إغواء ﴿الْإِنْسِ﴾ وإضلالهم وصدهم عن سبيل الله، أي: أضللتم كثيرًا منهم بسبب إغوائكم لهم وقبولهم منكم الإيحاء والوسوسة، فكانوا مطيعين لكم، فكيف أقدمتم على محارمي وتجراتم على معاندة رسلي وسعيتم في صد عباد الله عن سبيلي، فاليوم حقت عليكم لعنتي وستزيدكم من العذاب بسبب كفركم وإضلالكم غيركم، وليس لكم عذر تعتذرون به ولا ملجأ تلجؤون إليه.

﴿وَقَالَ أَوْلِيَائُهُمْ﴾ من كفار الإنس ﴿رَبَّنَا اسْتَمْتَعَ بَعْضُنَا بِبَعْضٍ﴾ أي: انتفع بعضنا من بعض، وتمتع كل منهم بصاحبه وكان الإغواء متبادلاً، فانتفع الجن بطاعة الإنس لهم فيما يُغْوُونَهُمْ به من الضلال، واستمتع الإنس بالشهوات والملذات التي زينوها لهم، وكان الجن يفتخر على الإنس بتخويفهم والتعوذ منهم، وظل هذا الانتفاع بيننا قائماً طيلة الحياة حتى وصل الموت إلينا فافعل بنا ما تشاء واحكم فينا بما تريد، ولهذا حكم الله فيهم بحكمه العادل فقال ﴿النَّارُ مَثْوًى لِّمَثْوَكُمُ خَالِدِينَ فِيهَا﴾.

وهكذا بيّن الله ﷻ أنه سيحشر الخلق جميعاً يوم القيامة، ومنهم الإنس والجن، وسيوجه سبحانه هذا الاستجواب إلى الجن، ويقول لهم: قد استكثرتم أيها الجن من إغواء الإنس ومن إضلالهم، ومن تزيين الشهوات والشبهات والمفاسد لهم، فيقول أتباع الشياطين من الإنس:

لقد انتفع الإنس بالجن فدلّوهم على الشهوات، وزينوا لهم المعاصي وحسّنها في أعينهم، فوقعوا فيها، وانتفع الجن بالإنس بما كانوا يُلقُونَهُ إليهم من الأراجيف والسحر والكهانة وكانوا لهم قادة ومتبوعين يسمعون كلامهم، ويستجيبيون لوسوستهم ولا يحياءاتهم وإشاراتهم.

قال الحسن: وما استمتع بعضهم ببعض إلا أن الجن أمرت، وعملت الإنس.

ومن ذلك أن الرجل كان إذا نزل في بيت جديد أو في واد، يستعيز بكبير شياطين الجن في هذا المكان من سفهاء قومهم أن يضرّوهم، فيقول الجن: سُدْنَا الْإِنْسَ، أي: صرنا أسيادًا لهم يستعيزون بنا، ويستجيرون بنا.

قال ابن جريج: كان الرجل في الجاهلية ينزل في الأرض فيقول: (أعوذ بكبير هذا الوادي) وفي هذا استمتاع للجن؛ لأنهم شعروا في أنفسهم أنهم قادة ورؤساء ومتبوعون للإنس، وظلوا على ذلك في الدنيا حتى جاءهم الموت، وجاءهم البعث والحساب والنشور فاعتذروا إلى الله تعالى يوم القيامة بأنهم ظلوا على هذا الاستمتاع حتى جاءهم الموت، وهذا معنى ﴿وَلَقَدْ أَجَلْنَا لِأُولَئِكَ أَجَلَ لَنَا﴾ قال سبحانه: ﴿النَّارُ مَثْوًى لَكُمْ﴾ هذا هو المصير المحتوم لشياطين الإنس والجن من الكفرة والملحدين، النار هي مصيركم يوم القيامة أيها الإنس والجن معًا.

وفي ذلك يقول أهل العلم: هل الجن المؤمن سيُعمَّون في الآخرة، فيأكلون ويشربون ويعيشون أبدًا كالإنس، أم أن مصيرهم بعد البعث والحساب والجزاء كمصير الدواب والبهائم، ثم يقول الله تعالى لهم: كونوا ترابًا فيكونوا ترابًا.

قال تعالى: ﴿النَّارُ مَثْوًى لَكُمْ خَالِدِينَ فِيهَا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ﴾ وعدم الخلود في النار المستثنى في الآية يكون للعصاة من الموحدين.

وهذه المشيئة لبيان أن الله سبحانه لا يُسأل عما يفعل، وأنه جلّ شأنه حرّ التصرف في خلقه، وأنه إن أدخل المؤمنين الجنة فبمحض كرمه وفضله، ولا يستدرك أحد على الله سبحانه.

والإنس الذين كانت لهم معاصي في الدنيا، قد استهوتهم الشياطين فأضلّوهم وارتكبوا بعض المخالفات الشرعية، وهم في الأصل مسلمون موحدون، ولكنهم ماتوا على ما دون الشرك من الذنوب، هؤلاء يدخلون تحت هذه المشيئة، فهم معذبون بمقدار ذنوبهم التي ارتكبوها، ثم يصيرون إلى الجنة.

وأما الكفار الذين ماتوا على الكفر والشرك فهم خالدون مخلدون في النار أبدًا والعياذ بالله.

فقوله تعالى: ﴿إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ﴾ خطاب للنبي ﷺ وأمه، وليس مما يقال يوم القيامة، والمستثنى هو مَنْ شملته رحمة الله بعدم الخلود في نار جهنم من عصاة الموحدين، وما يمكن أن يؤمن في الدنيا عند

توفيق الله تعالى لهم أن يدخلوا في الإسلام، فلا يخلدون في النار، وهذا معنى قول ابن عباس رضي الله عنه: استثنى الله قومًا سبق في علمه أنهم يسلمون.

فهذا الاستثناء خطاب موجه إلى الأحياء الذين يسمعون التهديد الذي في الآية، على وجه الإعذار والإنذار لهم؛ كي يُسَلِّمُوا، فهي جملة معترضة بين ما يقال للمشركين يوم الحشر، وما خوطب به النبي ﷺ ^(١).

ويشير هذا الاستثناء إلى تمام قدرة الله تعالى وكمال مشيئته، كأنه تعالى يقول: ولو شئت لأبطلت ذلك، ويُعْضِدهُ أن الله تعالى ذكر هذا الاستثناء أيضًا بالنسبة لأهل الجنة في سورة هود، الآيات: [١٠٦ - ١٠٨]، بالنسبة للذين شقوا والذين سعدوا.

وذلك أن مردَّ الأمور كلها إلى مشيئة الله تعالى، فخلود أهل النار في نار جهنم، وخلود أهل الجنة في النعيم، إنما هو بمحض إرادة الله ومشيئته، ولو شاء غير ذلك لفعل.

وجملة ﴿إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ﴾ في نهاية الآية توضح هذا المعنى وتقرره، فكما أن علمه - سبحانه - أحاط بكل شيء، فإن حكمته شملت كل شيء، قال تعالى:

١٢٩ - ﴿وَكَذَلِكَ تُولَىٰ بَعْضُ الظَّالِمِينَ بَعْضًا بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ (١٢٩).

أي: وكما متعنا الإنس والجن بعضهم ببعض، سلطنا شياطين الجن على كفار الإنس، فأضلّوهم وأغووهم، وكذلك نسلط الظالمين من الإنس بعضهم على بعض في الدنيا، بسبب ما يرتكبون من المعاصي، فينتقم الله من المنافقين بالمنافقين، ومن الظالمين بالظالمين، أي: يجعل بعض الظالمين أولياء لبعض، بحكم ما بينهم من تشابه وتطابق واتفاق في التوجه والميول، فيقول تعالى: ﴿وَمَنْ يَعْشُ عَنْ ذِكْرِ الرَّحْمَنِ نُقَيِّضْ لَهُ شَيْطَانًا فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ﴾ [الزخرف]. فنسلط ظلمة الجن على ظلمة الإنس.

وهذه سنة الله في خلقه أن تولى كل ظالم ظالمًا مثله ﴿وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ﴾ [فصلت: ٤٦]

وعن ابن مسعود مرفوعًا: «من أعان ظالمًا سلطه الله عليه» ^(٢).

(١) يُنْظَرُ: «تفسير التحرير والتنوير» (٧١/٨) و«تفسير ابن عطية» (٣٤٦/٢).

(٢) رجاله ثقات، وفيه عاصم بن أبي النجود متكلم في روايته للحديث، والأثر في «مختصر تاريخ دمشق» لابن منظور (١٥٣/٤).

وورد عنه بلفظ: «من أعان قومًا على ظلم، فهو كالبعير المتردّي، فهو يُنزع بذنبه»^(١).

ثم يتبع بعضهم بعضًا في دخول النار يوم القيامة، وهذا تعقيب على الضالين والمضلين من شياطين الإنس والجن.

وفي الآية تهديد ووعد لمن لم يقلع عن الظلم، وهكذا الرعية إذا كانت ظالمة سلط الله عليها حاكمًا جائرًا، فإذا أرادوا أن يتخلصوا منه فليتركوا الظلم، فإذا صلح العباد أصلح الله رعاتهم وجعلهم أئمة عدل وإنصاف، لا ولاة ظلم واعتساف.

وقد جعل الله تعالى كلا الفريقين ظالمًا؛ لأن الذي يتولى قومًا يصير منهم، كما قال تعالى عن اليهود والنصارى: ﴿بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَمَنْ يَتَوَكَّمْ مِنْكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ [المائدة: ٥١].

وقال تعالى ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ﴾ [الأنفال: ٧٣].

ومصير الظالم ومن ركن إليه واحد، قال تعالى: ﴿وَلَا تَزْكُوا إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا فَتَنَسَّكُمُ النَّارُ﴾ [هود: ١١٣]. والآية تشمل كل ظالم.

وقد تأول عبد الله بن الزبير معنى الآية لما بلغه أن عبد الملك بن مروان قتل الأشدق عمرو بن سعيد، وكان الأشدق قد خرج على عبد الملك، فصعد ابن الزبير المنبر وقال: ألا إن ابن الزرقاء^(٢) قد قتل لطيم الشيطان^(٣) ثم قرأ الآية^(٤).

ويكون معنى الآية على هذا: نجعل بعض الظالمين ولاة على بعض، فنسلطهم عليهم.

(١) أخرجه البيهقي (٧٦٧٧) و«المسند» (٤٢٩٢) إسناده حسن، من أجل سماك بن حرب، وبقيّة رجاله ثقات رجال الشيخين (محققوه) والحاكم بنحوه.

(٢) ابن الزرقاء، هو عبد الملك بن مروان، كان يلقب بذلك لزرقه عينيه.

(٣) أصيب عمرو بن سعيد باعوجاج في شدة، فلقبوه بالأشدق، وقالوا: لطمه الشيطان.

(٤) انظر: تفسير «التحرير والتنوير» (٧٤/٨).

الاستجواب الثاني للإنس والجن

١٣٠- ﴿يَمَعَشَرِ الْجِنَّ وَالْإِنْسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنْكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ ءَايَاتِي وَيُذَرِّوْنَكُمُ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا قَالُوا شَهِدْنَا عَلَىٰ أَنْفُسِنَا وَغَرَّتْهُمُ الْحَيَوةُ الدُّنْيَا وَشَهِدُوا عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُوا كَافِرِينَ﴾

ثم يأتي الاستجواب الثاني يوم الحشر في هذا المشهد من مشاهد يوم القيامة؛ حيث يوجه الله سبحانه هذا الاستجواب للجن والإنس ﴿يَمَعَشَرِ الْجِنَّ وَالْإِنْسِ﴾ والخطاب موجه إلى المشركين من الجن والإنس معاً ﴿أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنْكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ ءَايَاتِي﴾ الواضحات البينات، بما فيها من الخير والشر، والهدى والضلال، أي: يخبرونكم الأخبار الدالة على وحدانية الله تعالى وأمره ونهيه، ووعدته ووعدته، وأخبار الرسل والأمم وما حل بهم، وكذا الثواب والعقاب والنعيم والعذاب، وأسماء الله تعالى وصفاته.

ومقصود الآية: إعلام المشركين والمكذابين برسل الله وهم في الدنيا بأنهم مأمورون بالتوحيد والدخول في الإسلام، وأن من يضلونهم في الدنيا من شياطين الإنس والجن غير مفلتين من عقاب الله لهم، كما قال تعالى: ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ فَيَقُولُوا أَأَنْتُمْ أَضَلَلْتُمْ عِبَادِي هَٰؤُلَاءِ أَمْ هُمْ ضَلُّوا السَّبِيلَ﴾ [الفرقان].

ثم بين تعالى أن وظيفة الرسل هي الإنذار بالنسبة إلى الكفار فقال: ﴿وَيُذَرِّوْنَكُمُ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا﴾، أي يُعلمونكم أن الفوز والنجاة يوم لقاء الله تعالى إنما هو بامتثال الأوامر واجتناب النواهي، وأن الشقاء والخسران في تضييع ذلك.

وقد اقتضت الآية على ذكر الإنذار دون التبشير؛ لأن المخاطبين في الآية مُمَحَّضِينَ للشر، فكان إخبار الرسل لهم بلقائهم يوم الحشر والنشر مقصوداً على الجانب الخاص بهم؛ لأن يوم القيامة يتضمن خيراً لأهل الخير، وشرّاً لأهل الشر.

وقد جاء جانب الإنذار في آيات كثيرة، منها قوله تعالى: ﴿فَأَنْذَرْتُكُمْ نَارًا تَلَظَّى﴾ [٧] لَا يَصْلَاهَا إِلَّا الْأَشْقَى [١٥] [الليل].

وقوله: ﴿فَإِنْ أَعْرَضُوا فَقُلْ أَنْذَرْتُكُمْ صَاعِقَةً مِّثْلَ صَاعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ﴾ [١٢] [فصلت].

(١) قرأ الأزرق عن ورش بترقيق الرائ من (وينذرونكم). وفخمها الباقون.

وقوله: ﴿وَنُذِرَ يَوْمَ الْجَمْعِ لَا رَيْبَ فِيهِ فَرِيقٌ فِي الْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِي السَّعِيرِ﴾ [الشورى: ٧].

يقول الله سبحانه لهم: لقد أرسلت لكم الرسل، وأنزلت عليكم الكتب، وبيّنت لكم الهدى من الضلال، والخير من الشر، وأتتكم الرسل فأندروكم وبشروكم وخوّفوكم ورغبوكم ورهبوكم.

فيا أيها المشركون من الجن والإنس، ألم يأتكم رسل من أقوامكم يخبرونكم بآياتي الواضحة، المشتملة على الأمر والنهي، والخير والشر، ويخوفونكم عذاب الله يوم القيامة؟ قالوا: شهدنا بأن الرسل قد بلغتنا فكذبناهم، وخدع المشركون بزينة الدنيا، وشهدوا على أنفسهم أنهم كانوا جاحدين لرسل الله.

وهنا قضية: هل يوجد من الجن رسل؟ كما جاء في قوله تعالى: ﴿يَمَعَشَرُ الْجِنُّ وَالْإِنْسُ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ﴾ تعرفونهم وتسمعونهم، والذي عليه أهل العلم في أصح القولين: أن الرسل من الإنس فقط، وأن الله تعالى لم يرسل من الجن رسلاً، فتكون الآية من باب التغليب كما قال تعالى: ﴿يَخْرُجُ مِنْهُمَا اللَّؤْلُؤُ وَالْمَرْجَانُ﴾ [الرحمن: ٧٧]. حيث إن اللؤلؤ والمرجان لا يخرجان من البحرين معاً، وإنما يخرجان من الملح دون العذب.

ورسل الله جميعاً من لدن آدم أو نوح، إلى عيسى عليه السلام كانوا يرسلون إلى الإنس فقط، ومحمد ﷺ أرسله الله تعالى إلى الإنس والجن معاً، وجميع الرسل من الإنس.

وهذه الآية كقوله تعالى: ﴿أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِ رَبِّكُمْ وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا﴾ [الزمر: ٧١].

والخطاب في الآية للإنس والجن معاً، ولعل المراد برسل الجن هؤلاء الدعاة الذين سماهم القرآن الكريم نذراً، أي: أنهم حين سمعوا القرآن يتلوه المصطفى ﷺ ويقرؤه عليهم، رجعوا إلى قومهم وينذرونهم، ويبلغونهم دعوة الله إليهم كما في قوله تعالى: ﴿قُلْ أُوْحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ الْجِنِّ فَقَالُوا إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا ﴿١﴾ يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ فَآمَنَّا بِهِ وَلَنْ نُشْرَكَ بِرَبِّنَا أَحَدًا ﴿٢﴾﴾ [الجن: ١-٢].

فهؤلاء كانوا رسلاً إلى قومهم حين سمعوا القرآن يُتلى من رسول الله ﷺ.

وكما قال تعالى: ﴿وَإِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ الْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ الْقُرْآنَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوا أَنصِتُوا فَلَمَّا قُضِيَ وَلَّوْا إِلَىٰ قَوْمِهِمْ مُّنْذِرِينَ ﴿١٩﴾ قَالُوا يَنْقُومَنَا إِنَّا سَمِعْنَا كِتَابًا أُنزِلَ مِن بَعْدِ مُوسَىٰ مُصَدِّقًا

لَمَّا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ وَإِلَى طَرِيقٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿٣٠﴾ [الأحقاف].

وقد سماهم القرآن منذرين؛ لأنهم يخوفونهم عذاب الله تعالى إن لم يؤمنوا، والنص القرآني يشير في ظاهره إلى الرسل المندرين من الإنس والدعاة من الجن.

إلى كفره الإنس والجن فيقررهم يوم القيامة الله تعالى قد أرسل رسلاً ﴿قَالُوا شَهِدْنَا عَلَى أَنْفُسِنَا﴾ بالتقصير، وأقرنا بالكفر، وفي هذا حكاية لقولهم واعترافهم ﴿وَعَرَّتْهُمْ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا﴾ بما فيها من الشهوات والملذات، فرضوا بها واطمأنوا إليها، فأعرضوا عن لقاء ربهم، ويوم القيامة يشهدون على أنفسهم بالشرك والكفر، فقامت عليهم حجة الله، وعلموا عدل الله فيهم، وحُكِّم عليهم بالعذاب.

وفي القرآن آيات أخرى في مواطن مختلفة بالنسبة للكفار يوم القيامة، منها قوله سبحانه: ﴿وَلَا يُشَلُّ عَنْ دُنُوهُمْ الْمُجْرِمُونَ﴾ [القصص: ٧٨].

فيوم القيامة يوم طويل تختلف مواقفه: ﴿وَلَا يَوْمًا عِنْدَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ﴾ [الحج: ٤٧]. والاستجواب في هذا اليوم، وكذا الأسئلة الموجهة إلى الخلق فيه تستغرق حالات متعددة.

ومن الكفار من لا يسأل عن ذنبه، بل يُطرح في النار طرحاً من غير سؤال.

كما أن من المؤمنين من يدخل الجنة بغير حساب، ولا يُسأل عن شيء.

وهناك ما دون هذه الدرجة، قال تعالى: ﴿فَرَبِّكَ لَسَأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [الحجر].

وقال سبحانه: ﴿فَلَسَأَلَنَ الَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَسَأَلَنَ الْمُرْسَلِينَ﴾ [الأعراف].

قال سعيد بن جبیر: قال رجل لابن عباس: إني أجد أشياء تختلف عليّ، قال الله: ﴿وَلَا يَكْتُمُونَ اللَّهَ حَدِيثًا﴾ [النساء: ٤٢]. وقال: ﴿وَاللَّهُ رَيْنًا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾ [الأنعام: ٢٣]. فقد كتموا، فقال ابن عباس: إن الله يغفر لأهل الإخلاص ذنوبهم، فقال المشركون: تعالوا نُقْلُ: ما كنا مشركين، فيختم الله على أفواههم، فتنتطق أيديهم. وهكذا يوجه السؤال إلى الكفار فيُنَكِّروُن، ثم يعترفون بأنهم كانوا كافرين، وذلك حين يرون النعيم الذي أعده الله

لعباده المتقين الصالحين، فينكرون أنهم كانوا في الدنيا كفارًا أو مشركين.

كما قال سبحانه على لسانهم: ﴿وَاللَّهُ رَبَّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾ [الأنعام: ٢٣].

يقول الله سبحانه: ﴿أَنْظِرْ كَيْفَ كَذَبُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾ [الأنعام: ٢٤]. يقولون هذا كذبًا، والله يعلم حقيقتهم، وعندما ينطق اللسان بذلك يَخْتِمُ الله عليه، كما قال تعالى: ﴿الْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَى أَفْوَاهِهِمْ وَتُكَلِّمُنَا أَيْدِيهِمْ وَنَشْهَدُ أَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ [يس: ١٥].

والجوارح تنطق، وحين تشهد الجوارح والأعضاء على كفرهم ينطق لسانهم مرة ثانية كما قال تعالى: ﴿وَشَهِدُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُوا كَافِرِينَ﴾ وهذا ذم لهم على سوء فعلهم، فإنهم قد اغتروا بالدنيا وأعرضوا عن الآخرة، فكان عاقبة ذلك أنهم استسلموا للعذاب، واضطروا للشهادة على أنفسهم بالكفر.

وفي هذا تحذير للسامعين والتالين لأي الذكر الحكيم إلى قيام الساعة.

وإعادة ذكر الشهادة على أنفسهم؛ لبيان خطأ رأيهم وذم فعلهم.

لَا يُوَاخِذُ أَحَدٌ بِذَنْبِهِ إِلَّا بَعْدَ إِعْذَارِهِ وَإِنْذَارِهِ

١٣١- ﴿ذَٰلِكَ أَنْ لَمْ يَكُنْ رَبُّكَ مُهْلِكَ الْفَرَىٰ يُظْلَمُ وَأَهْلُهَا غَفْلُونَ﴾ [٣٦]

أي أن الله تعالى لا يعذب قومًا ظالمين، قبل أن يرشدهم ويحذرهم ويقيم الحجة عليهم، وقد اقتضت حكمة الله تعالى ألا يُوَاخِذُ أَحَدًا بِذَنْبٍ إِلَّا بَعْدَ إِعْذَارِهِ وَإِنْذَارِهِ بإرسال الرسل وإنزال الكتب، وألا يهلك أمة من الأمم الظالمة إلا بعد إنذارها؛ فالله سبحانه لا يظلم أحداً، ولا يعذب نفساً قبل أن يرسل إليها رسولاً ينذرها ويبشرها ويبين لها الخير من الشر والهدى من الضلال، والله تعالى لم يترك خلقه للفترة التي من شأنها أن تهديهم إلى التوحيد، ولكنه سبحانه يرسل إليهم رسلاً، وينزل عليهم كتباً؛ ليعلم لهم طريق السعادة والشقاء كما قال تعالى: ﴿وَإِنْ مِنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ﴾ [فاطر: ٢٤].

وقال سبحانه: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنْ ابْعُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا زُفْرَاتِ﴾ [النحل: ٣٦].

فليس هناك عقابٌ لأحد لم تبلغه الدعوة، قال تعالى: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا﴾ [الإسراء: ١٥].

وقال جلّ شأنه عن أهل النار: ﴿كُلَّمَا أُلْتِيَ فِيهَا فَوْجٌ سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ لَّا قَالُوا بَلَىٰ قَدْ جَاءَنَا نَذِيرٌ فَكَذَّبْنَا وَقُلْنَا مَا نَزَّلَ اللَّهُ مِن شَيْءٍ ﴿الملك: ٨، ٩﴾.

والله تعالى لا يعذب أحداً إلا بعد تنبيهه وتذكيره ﴿لَّئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ﴾ [البقرة: ١٦٥]. ولئلا يقولوا: ﴿مَا جَاءَنَا مِن بَشِيرٍ وَلَا نَذِيرٍ﴾ [المائدة: ١٩].

وليس من شأن الله تعالى أن يهلك أهل المدن وغيرها من أجل ظلم فعلوه، قبل أن ينهائهم ويرشدتهم بواسطة الرسل والكتب.

وفي الآية تنبيه لجدوى إرسال الرسل؛ كي يتدارك المكذبون أنفسهم قبل يوم الحشر، فيؤمنوا قبل فوات الأوان؛ حتى لا ينزل العذاب بهم إذا أعرضوا عن دعوة الرسل فيقولوا: ﴿رَبَّنَا لَوْلَا أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ آيَاتِكَ مِن قَبْلِ أَن نَّذِلَّ وَنَخْزَىٰ﴾ [طه: ١٣٤]. وقبل ندمهم على سوء المصير ﴿وَقَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ ﴿١٠﴾﴾ [الملك: ١٠]. ومقتضى عدل الله ورحمته أن يهلك من هلك عن بينة ويحيي من حي عن بينة.

١٣٢- ﴿وَلِكُلِّ دَرَجَةٍ مِّمَّا عَمِلُوا وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ﴾^(١)

ثم أخبر سبحانه أن الناس في الآخرة على درجات من التفاضل والعذاب، ولكل من أهل الجنة وأهل النار درجات، فالجنة درجات، درجة فوق درجة، وهي جنات ثمان، لكل عبد من عباده مقام معلوم عند رب العالمين.

والنار دركات، بعضها دون بعض ولذلك قال تعالى: ﴿يَرْفَعُ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا مِنكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ﴾ [المجادلة: ١١]. كما قال تعالى: ﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي الدَّرَكِ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ وَلَنِ جَحْدَ لَهُمْ نَصِيرًا﴾ [النساء].

وكما أن كلاً من المؤمنين والكافرين، في الدنيا درجات في الطاعة والذنوب، فإنهم يكونون كذلك في الآخرة على قدر أعمالهم، وما ربك بغافل عما يعمل العباد، بل هو سبحانه عالم بأعمالهم يحصيها عليهم، ولا يغيب عنه شيء منها، ويحاسبهم على ما

(١) قرأ ابن عامر (تعملون) بقاء الخطاب؛ لمناسبة (رسل منكم)، والباقون (يعملون) بياء الغيبة؛ لمناسبة (مما عملوا).

قدمت أيديهم على حسب تفاوت أعمالهم، فينجي الله المؤمنين وينزل العذاب بالكافرين في الدنيا، وفي الآخرة يصيرون إلى النعيم، أو الجحيم على تفاوت دركاتهم ومراتبهم ودرجاتهم فيها.

في الصحيحين عن ابن عمر رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال: «إذا أنزل الله بقوم عذاباً أصاب العذاب من كان فيهم، ثم بُعثوا على أعمالهم»^(١).

وفي الصحيحين من حديث أم المؤمنين زينب بنت جحش رضي الله عنها أن رسول الله ﷺ قال: «ويل للعرب من شر قد اقترب، فُتح اليوم من ردم يأجوج ومأجوج هكذا - عقد تسعين - أي: عقد إصبعين بعلامة تسعين في الحساب قيل: أنهلك وفينا الصالحون؟ قال: نعم، إذا كثر الخبث»^(٢).

قال تعالى: ﴿وَأَتَقُوا فِتْنَةَ لَا تُصِيبُ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ خَاصَّةً﴾ [الأنفال: ٢٥].

تَهْدِيدٌ وَوَعِيدٌ

١٣٣ - ﴿وَرَبُّكَ الْغَنِيُّ ذُو الرَّحْمَةِ إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَسْتَخْلِفْ مِنْ بَعْدِكُمْ مَا يَشَاءُ كَمَا أَنْشَأَكُمْ مِنْ ذُرِّيَةِ قَوْمٍ ءَاخَرِينَ﴾ (١٢٣)

أي أن الله سبحانه لم يترك العباد هملاً، ومن رحمته بهم أن أرسل إليهم رسلاً، وأنزل عليهم كتباً، وهو غني عن طاعة المطيعين، لا تضره المعصية، ولا تنفعه الطاعة ﴿إِنْ تَكْفُرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنْكُمْ وَلَا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ الْكُفْرَ وَإِنْ تَشْكُرُوا يَرْضَهُ لَكُمْ﴾ [الزمر: ٧].

«يا عبادي لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم كانوا على أتقى قلب رجل واحد منكم ما زاد ذلك في ملكي شيئاً...»^(٣).

﴿وَرَبُّكَ الْغَنِيُّ﴾ عن خلقه جميعاً، لا يفتقر إلى غيره، وهم فقراء إليه، وهو سبحانه ﴿ذُو الرَّحْمَةِ﴾ الواسعة، ومن رحمته سبحانه، أنه لم يؤاخذ الكفرة باستئصالهم وإبادتهم

(١) «صحيح البخاري» برقم (٧١٠٨) و«صحيح مسلم» برقم (٢٨٧٩).

(٢) «صحيح البخاري» برقم (٣٣٤٦، ٣٥٩٨، ٧٠٥٩، ٧١٣٥) و«صحيح مسلم» برقم (٢٨٨٠).

(٣) من حديث طويل عن أبي ذر في «المسند» (٢١٣٦٧، ٢١٤٢٠) حديث صحيح، وفي مسلم (٢٥٧٧)، والترمذي (٢٤٩٥).

في الدنيا، وإنما أمهلهم إلى الآخرة، وأخر عنهم العذاب لعلهم يتوبون، فرحمته سبحانه تتجلى في الإبقاء على الجيل الظالم مع القدرة على إهلاكه ﴿وَرُبُّكَ الْغَفُورُ ذُو الرَّحْمَةِ لَوْ يُؤَاخِذُهُمْ بِمَا كَسَبُوا لَعَجَلَهُمْ الْعَذَابُ﴾ [الكهف: ٥٨].

وإمهاله إياكم؛ لأنه رحيم بخلقه ﴿إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ﴾ بالإهلاك والإبادة ﴿وَيَسْتَخْلِفْ مِنْ بَعْدِكُمْ مَا يَشَاءُ﴾ فلو أراد لأهلككم بعذاب الاستئصال، وأوجد قومًا غيركم يخلفونكم، ويعملون بطاعته ﴿كَمَا أَنْشَأَكُمْ مِنْ ذُرِّيَّتِكُمْ قَوْمٍ آخَرِينَ﴾ أي كما أوجدكم من أصلاب قوم غيركم من نسل قوم نوح، ومن نسل آدم، ومن نسل إبراهيم، وغيرهم، فكما أذهب القرون الأولى، وأتى بمن بعدهم يفعل بكم مثلهم، كما قال تعالى: ﴿إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ أَيُّهَا النَّاسُ وَيَأْتِ بِآخَرِينَ﴾ وَكَانَ اللَّهُ عَلَى ذَلِكَ قَدِيرًا ﴿النساء: ١٣٢﴾.

والله الغني وأنتم الفقراء ﴿وَلَنْ تَتَوَلَّوْا يَسْتَبَدِّلَ قَوْمًا غَيْرَكُمْ﴾ [محمد: ٣٨].

﴿يَتَأْتِيَ النَّاسُ أَنْتُمْ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ﴾ ﴿١٥﴾ إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ لَا وَمَا ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ بِعَزِيزٍ ﴿٢٠﴾ [فاطر].

فإذا عرفتم أنكم لا بد أن تنتقلوا من هذه الدار كما انتقل غيركم، وترتحلوا عنها كما ارتحل من قبلكم، فلماذا ركبتم إليها، ونسيتم أنها دار ممر لا دار مقر، وأن أمامكم دار جمعت كل نعيم، وسلمت من كل آفة ونقص، وهي الدار التي يسعى إليها الأولون والآخرون، ويتنافس فيها المتنافسون، ففيها لذة الأرواح ونيعم الأبدان والقلوب، والقرب من علام الغيوب، فما أعلى همة من تعلق بدار الكرامة، وما أبخس شأن من رضى بالدون فاختر صفقة المغبون. ووعد الله حق لا يتخلف:

١٣٤- ﴿إِنْ مَا تُوعَدُونَ لَآتٍ وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ﴾ ﴿١٣٢﴾

قال سبحانه ﴿إِنْ مَا تُوعَدُونَ﴾ من مجيء البعث والحساب والنشور ﴿لَآتٍ﴾ أي: هو حق وصدق وواقع لا محالة ﴿وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ﴾ فأنتم لن تفلتوا من قبضة الله سبحانه، ولن تُعجزوا الله ﷻ، بل سيدرككم الموت وتحاسبون وتجزون بأعمالكم، فإن نواصيكم بيد الله، وأنتم تحت تدبيره وتصرفه.

جاء في الأثر: «يا بني آدم إن كنتم تعقلون فعدوا أنفسكم من الموتى والذي نفسي بيده إنما توعدون لآت وما أنتم بمعجزين»^(١). قال تعالى:

١٣٥- ﴿قُلْ يَتَقَوِّمُوا أَعْمَالَكُمْ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ﴾^(٢) إِنِّي عَامِلٌ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن تَكُونُ^(٣) لَهُ عَقِيبَةُ الدَّارِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ ﴿١٣٥﴾

ثم أمر الله رسوله أن ينادي المكذبين به، ويتوعدهم بعذاب الله تعالى إن لم يؤمنوا، قل يا محمد لجميع الكفرة: اثبتوا على ما أنتم عليه، وابذلوا أقصى ما في وسعكم، ولا تتغيروا عما أنتم عليه من الكفر، فإني ثابت على الإسلام، وسوف تعلمون، حين يحل بكم العذاب، أيُّنا على حق ﴿قُلْ يَتَقَوِّمُوا أَعْمَالَكُمْ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ﴾ ابقوا أيها الكفرة على كفركم، فإني نذير لكم، ولست مبالي بكم، إن كفرتم، فلا مطمع لي في اتباعكم ﴿إِنِّي عَامِلٌ﴾ وثابت على إسلامي وإيماني ﴿فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ يوم القيامة وقت حلول النعمة بالمؤمنين ﴿مَن تَكُونُ لَهُ عَقِيبَةُ الدَّارِ﴾ أي: من تكون له العاقبة الحسنة أنا أم أنتم ﴿إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ﴾ الذين تجاوزوا حدود الله، وأشركوا معه غيره، فلا يظفروا بمطلوبهم بسبب ظلمهم، وإن تمتعوا في الدنيا بما تمتعوا به ﴿إِن الله ليملي للظالم حتى إذا أخذه لم يفلته﴾ ﴿وَكَذَٰلِكَ أَخَذُ رَبِّي إِذَا أَخَذَ الْقُرَىٰ وَهِيَ ظَالِمَةٌ إِنَّ أَخَذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ﴾ [هود: ١٠٢]

وفي هذا وعيد وتهديد لهم، ومثله قوله تعالى: ﴿وَقُلْ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ أَعْمَلُوا عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنَّا عَمِلُونَ﴾ ﴿١٣٦﴾ وَأَنْتُمْ مُنظَرُونَ ﴿١٣٧﴾ [هود].

(١) رواه البيهقي في «شعب الإيمان» برقم (١٥٠٦٤) وأبو نعيم في «الحلية» (٩١/٦).

(٢) قرأ شعبة (مَكَانَاتِكُمْ) بألف بعد النون على الجمع، لمطابقة المضاف إليه، والباقون (مَكَانَتِكُمْ) بغير ألف على الأفراد، لإرادة الجنس.

(٣) قرأ حمزة والكسائي وخلف (مَن يَكُونُ) بياء التذكير والباقون (مَن تَكُونُ) بياء التأنيث؛ لأن الفاعل مؤنث غير حقيقي.

أَرْبَعُ صُورٍ مِنْ رَوَاسِبِ الْجَاهِلِيَّةِ:

الصُّورَةُ الْأُولَى: جَعَلَ شَيْءٍ مِنَ الْأَنْعَامِ وَالزَّرُوعِ لِغَيْرِ اللَّهِ

١٣٦- ﴿وَجَعَلُوا لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ الْحَرْثِ وَالْأَنْعَامِ نَصِيبًا فَقَالُوا هَذَا لِلَّهِ بِرَعْمِهِ^(١) وَهَذَا لِشُرَكَائِنَا فَمَا كَانَ لِشُرَكَائِهِمْ فَلَا يَصِلُ إِلَى اللَّهِ وَمَا كَانَ لِلَّهِ يَصِلُ إِلَى شُرَكَائِهِمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴿١٣٦﴾﴾

ولأن سورة الأنعام تُرسي قواعد العقيدة الصحيحة، فهي تطهّر المجتمع المسلم من رواسب الجاهلية، وهذا بدء بيان التشريعات الباطلة في السورة، ومنها الذبح والنذر لغير الله تعالى، وجعلُ شيء من الزروع والثمار والمواشي لغير الله سبحانه، فقد كان المشركون في الجاهلية يجعلون من زرعهم وثمارهم وأنعامهم وسائر أموالهم نصيباً لله ونصيباً للأصنام، فما كان لله أنفقوه على الضيوف والمساكين، وما كان للأصنام أنفقوه عليها وعلى خدمتها، وهم يحرصون على حفظ نصيب الأصنام أكثر من حرصهم على نصيب الله سبحانه، وفي هذا تنبيه على ضلالهم والحذر منهم ومن أمثالهم إلى قيام الساعة.

في سبب النزول: وسبب نزول هذه الآية أن العرب كانت تجعل من زرعها وثمارها وأنعامها جزءاً لله وجزءاً للأصنام، وكانوا يهتمون بنصيب الأصنام أكثر من اهتمامهم بنصيب الله تعالى اعتقاداً منهم أن الأصنام أفقر من الله سبحانه، فيجعلون للآلهة ما تحمله الريح وما تجرّه المياه، ونحو ذلك.

في البخاري عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما: «من سره أن يعلم جهل العرب، وما كانوا عليه من ضلال وجهل قبل الإسلام، فليقرأ ما بعد الثلاثين والمائة من سورة الأنعام»^(٢).

(١) قرأ الكسائي بضم الزاي من (بِرْعَمِهِم) في الكلمتين وهي لغة بني أسد، والباقون (بِرْعَمِهِم) بفتح الزاي فيهما وهي لغة أهل الحجاز.

(٢) البخاري (٣٥٢٤).

فإن هذه الآيات تصور مزاعم أهل الجاهلية، وتحريمهم لما أحل الله، وتشريعهم لأنفسهم ما لم يشرعه الله سبحانه، وليس هذا خاصًا بالعرب، وإنما وُجد أدهى منه وأمرُّ عند الإغريق قديمًا، وعند الرومان، وعند الفرس، ولا يزال أمثاله موجودًا في مناطق من العالم، وإن اختلف الشكل والصورة في كل الأقوال والأفعال من النذر والذبح للأضرحة والأوثان بما لم يأذن به الله، فالقرآن في كل زمان ومكان، يعالج أخطاء البشر إلى يوم الساعة، ومنه هذا الضلال الذي صورته الآيات، ومثله في بعض بلاد العالم، وهي أربع صور رئيسة:

الصورة الأولى: أنهم يجعلون مما خلقه الله تعالى لهم ورزقهم إياه، من الحرث، وما يخرج من الأرض، ومن الأنعام (الإبل والبقر والغنم) - نصيبًا لله، وهذا النصيب يُصرف في وجوه الصدقات على الفقراء والمساكين وعلى الضيوف، وهو حق الله تعالى.

ونصيبًا آخر يجعلونه للآلهة، وهذا النصيب يُصرف على السدنة وخدم الآلهة، فكانوا يقولون: هذا حق الله، وهذا حق الآلهة ويُفصلون حق الله من حق الأصنام، ثم يُيحبون للأصنام أن تأخذ حق الله، ولا يبيحون لله أن يأخذ حق الأصنام.

قال ابن إسحاق: إن خولان كان له صنم اسمه (عم أنس) يقسمون له من أنعامهم وحروثهم قسمًا بينه وبين الله، فما دخل في حق (عم أنس) من حق الله الذي سمّوه له، تركوه للصنم، وما دخل في حق الله من حق (عم أنس) ردّوه عليه. . وفيهم نزلت الآية.

وأخرج الطبري، بسند حسن، عن علي بن أبي طلحة عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: جعلوا لله من ثمراتهم ومالهم نصيبًا، وللشيطان والأوثان نصيبًا، فإن سقط من ثمرة ما جعلوه لله، في نصيب الشيطان، تركوه، وإن سقط، مما جعلوه للشيطان، في نصيب الله، التقطوه وحفظوه وردّوه إلى نصيب الشيطان، وإن انفجر، من سقي، ما جعلوه لله في نصيب الشيطان تركوه، وإن انفجر، من سقي، ما جعلوه للشيطان، في نصيب الله سدّوه، فهذا ما جعلوا من الحرث وسقي الماء، وأما ما جعلوه للشيطان من الأنعام فهو قول الله تعالى: ﴿مَا جَعَلَ اللَّهُ مِنْ بَحِيرَةٍ وَلَا سَائِبَةٍ وَلَا وَصِيلَةٍ وَلَا حَامٍ﴾ ^(١) [المائدة: ١٠٣].

(١) البيهقي في «السنن» (١٠/١٠) وابن أبي حاتم (٧٩١١).

هذا ما يشير إليه قوله تعالى ﴿وَجَعَلُوا لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ﴾ أي: خلق وأنشأ وبث في الأرض ﴿مِنَ الْحَرْثِ﴾ الزروع والأشجار والثمار ﴿وَالْأَنْعَامِ﴾ الإبل والبقر والغنم ﴿نَصِيبًا﴾ قسمة وحظاً ﴿فَقَالُوا هَذَا لِلَّهِ بِرْغَمِهِمْ﴾ بكذبهم وادعائهم.
والزعم: هو الاعتقاد الفاسد، وهو الكذب.

أما النصيب الآخر فهو المذكور في قوله تعالى حكاية عنهم:

﴿وَهَذَا﴾ أي: النصيب الآخر ﴿لِشُرَكَائِنَا﴾ وهي الآلهة، سموها شركاء لله؛ لأنها تساهم في الخير والشر بزعمهم، ثم يجورون على نصيب الله سبحانه، ويقولون: لو شاء الله لأزكى الذي له، ولا يجورون على نصيب الآلهة.

فمثلاً: إذا نفذ حق الآلهة، فإنهم يأخذون من حق الله، ولا يكون العكس، ويقولون: إنهم أحوج من الله تعالى.

وإذا جاءت الرياح فحملت من الزرع الذي هو من حق الله ووضعتُه عند حق الآلهة، فإنهم لا يردونه، وإن حملت من حق الآلهة ووضعتُه عند حق الله يردونه.

وهذا التفصيل في القسمة بينه ربنا في قوله: ﴿فَمَا كَانَتْ لِشُرَكَائِهِمْ فَلَا يَصِلُ إِلَى اللَّهِ﴾ هذا هو القسم الأول.

﴿وَمَا كَانَتْ لِلَّهِ فَهُوَ يَصِلُ إِلَى شُرَكَائِهِمْ﴾ وهذا هو القسم الثاني.

يقول الله سبحانه ذاماً لهم: ﴿سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾ بش حكم القوم حكمهم، وبئس القسمة قسمتهم، كما قال تعالى: ﴿تِلْكَ إِذًا قِسْمَةٌ ضِيزَى﴾ [النجم].

والمشركون بهذا قد جمعوا بين ثلاثة محاذير:

أولها: أنهم يمتنون على الله تعالى في جعلهم نصيباً له.

ثانيها: اعتقادهم أن ذلك تبرع منهم.

وثالثها: حكمهم الجائر، في جعلهم حصة من الحرث والأنعام لله، وحصة لشركائهم، وأن ما يصل من نصيب الله للشركاء لا يهتمون به، وما يصل من نصيب الشركاء لله ردوه على الشركاء، فما أسوأ هذا الحكم، وما أظلمه!!.

الصُّورَةُ الثَّانِيَّةُ: قَتْلُ الْأَوْلَادِ

١٣٧- ﴿وَكَذَلِكَ زَيْنَ (١) لِكَثِيرٍ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ قَتَلَ (١) أَوْلَادَهُمْ (١) شُرَكَاءُهُمْ (١) لِيُرْذُوهُمْ وَلِيَلْبِسُوا عَلَيْهِمْ دِينَهُمْ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا فَعَلُوهُ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ ﴿١٣٧﴾﴾

وكما زينت الشياطين للمشركين أن جعلوا لله مما ذرأ من الحرث والأنعام نصيباً، كذلك زينوا لهم قتل أولادهم خشية الإملاق، ووَاد البنات خشية العار، فهذه الرذيلة ترجع إلى تصرفاتهم في ذرياتهم، والرذيلة السابقة ترجع إلى تصرفاتهم في أموالهم.

وإن قبيلة ربيعة ومضر من العرب كانوا يقتلون الذكور خوف الفقر، وخوف السبي في الحروب، وكانوا يقتلون الإناث خوف العار، والشياطين تزين لهم ذلك، قال تعالى: ﴿وَإِذَا الْمَوْءِدَةُ سُئِلَتْ (٨) بِأَيِّ ذَنْبٍ قُتِلَتْ (٩)﴾ [التكوير].

وقال: ﴿وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِالْأُنثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ (٥٨) يَتَوَارَىٰ مِنَ الْقَوْمِ مِن سُوءِ مَا بُشِّرَ بِهِ ۚ أَيَسْكُمُ عَلَىٰ هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُ فِي التُّرَابِ أَلَا سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ (٥٩)﴾ [النحل].
﴿وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ خَشْيَةً إِمَّا لَقِيْتُمْ تَحْنُ تَرْزُقُهُمْ وَإِنَّا لَكُم (٣١)﴾ [الإسراء].

وكانوا يفعلون ذلك بالبنات من شدة الغيرة عليهن؛ حتى لا يفعل بهن ما يفعل بالنساء، ويرون أن ذلك من العار.

فعن أبي عبيدة أن تميمًا منعت النعمان بن المنذر الإتاوة، فوجّه إليها أخاه الريان بن المنذر، فاستاق النعم وسبى الدراري، فوفدت إليه بنو تميم، فأنابوا وأسلموا، وسألوه النساء، فقال النعمان: كل امرأة اختارت أباهاً رُدَّتْ إليه، وإن اختارت الذي صارت إليه بالسبي، تُرِكَت عليه، فكلهن اختارت أباهاً إلا ابنة قيس بن عاصم اختارت صاحبها: عمرو بن المشرمج، فنذر قيس ألا تولد له ابنة إلا قتلها، فكل من وأد ابنته يتعلّل بأنه فعل ذلك أنفة،

(١) قرأ ابن عامر بالبناء للمجهول في (زَيْنَ) ورفع (قتل) على أنه نائب فاعل، ونصب (أولادهم) مفعول للمصدر وهو (قتل) وخفض (شركائهم) من إضافة المصدر إلى فاعله، وقرأ الباقون ببناء (زَيْنَ) للمعلوم، ونصب (قتل) مفعول به، وخفض (أولادهم) على الإضافة إلى المصدر، ورفع (شركائهم) فاعل (زين) والمعنى: زين لكثير من المشركين شركائهم أن قتلوا أولادهم تقريباً لألتهم، أو بالوَاد خوف العار أو الفقر. والفصل بين المضاف والمضاف إليه بغير الظرف سائغ في لغة العرب.

وقد أكذبهم الله في قوله: ﴿قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ قَتَلُوا أَوْلَادَهُمْ سَفَهًا بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾^(١) [الأنعام: ١٤٠]. وذكر البخاري أن أسماء بنت أبي بكر قالت: كان زيد بن عمرو بن نفيل يُحْيِي الموءودة، يقول للرجل إذا أراد أن يقتل ابنته: لا تقتلها أنا أكفيك مؤونتها. وكان صعصة بن معاوية بن مجاشع -جد الفرزدق- يفدي الموءودة، مثل زيد بن عمرو. كما كان الرجل منهم ينذر للآلهة، إن رزقه الله عشرة من الأولاد ليذبحنَّ أحدهم، ومن ذلك نذر عبد المطلب، وكان قد نذر إن رزقه الله عشرة من الأولاد يَحْمُونَهُ ليذبحنَّ للآلهة أحدهم، وقد رزقه الله عشرة من الأولاد، وعزم على ذبح مَنْ خرجت عليه القرعة، وهو عبد الله والد النبي ﷺ، وكان قد استقسم بالأزلام عند هُبَل، وكان هُبَل في جوف الكعبة، فخرج السهم على عبد الله؛ فأخذه ليذبحه بين صنمي إساف ونائلة، فقالت له قريش: لا تذبحه حتى تعذر فيه، فإن كان له فداء فديناه، وأشاروا عليه باستفتاء عرّافة في خيبر، فركبوا إليها وسألوها، فقالت لهم: قَرَّبُوا عَشْرًا مِنَ الْإِبِلِ، فَإِنْ قَبِلَتْ وَإِلَّا زِيدُوا عَلَيْهَا عَشْرًا، فلم يزل عبد المطلب يزيد ويضرب القداح حتى بلغت مائة، فخرج السهم عليها فنحرها. قال تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ زَيَّنَّا لِكَثِيرٍ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ قَتْلَ أَوْلَادِهِمْ شُرَكَّاؤُهُمْ لِيُرْذُوهُمْ﴾ والمراد بالشركاء الشياطين. وكان الكنعانيون يقربون صبيانهم إلى الصنم، وسُفُّوا شركاء؛ لأنهم أطاعوهم فيما أمروهم به من معصية الله وقتل الأولاد، فأشركوهم مع الله في الطاعة، فهم الذين زينوا لهم قتل الأولاد ﴿وَلَيْسُوا عَلَيْهِمْ دِينَهُمْ﴾ أي: يخلطوا عليهم دين إبراهيم وإسماعيل، فيضلوا ويهلكوا ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا فَعَلُوهُ﴾ فلا شيء يحدث إلا بمشيئة الله، ولو شاء الله لمنعهم من هذه الأفعال القبيحة، ومنعهم من الكذب على الله، ولو شاء الله ألا يفعل الشركاء ذلك التزئ وغيره لما فعلوه ﴿فَذَرَهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ﴾ فإن الله سيحكم بينك وبينهم، وقد خلق الله خلقًا للجنة، وخلقًا للنار، وجعل إليهم عقولًا وأرسل إليهم رسلًا، وفي هذا استدراج وإمهال لهم، فلا تبال بهم ولا تحزن عليهم، فإنهم لن يضرروا الله شيئًا. ومعنى الآية: ومثل هذا التزين زين الشياطين لجمع من المشركين قتل أولادهم مخافة الفقر أو العار ليورطو الآباء ويخلطوا عليهم دينهم فلم يفرقوا بين الحق والباطل ولو شاء الله ما فعلوا ذلك أبدا فذرهم وما يختلقون من الكذب^(٢).

(١) عن «تفسير التحرير والتنوير» (١٠٠/٨).

(٢) تفسير المدينة المنورة ٥٧٦/١.

الصُّورَةُ الثَّالِثَةُ: حَجَرُ التَّصْرِيفِ فِي الْمَوَاشِيِّ وَالزُّرُوعِ

١٣٨ - ﴿وَقَالُوا هَذِهِ أَنْعَمُ وَحَرَّتْ حَجَرٌ لَا يَطْعَمُهَا إِلَّا مَنْ نَشَاءُ بِزَعْمِهِمْ﴾^(١) وَأَنْعَمُ حُرِّمَتْ ظُهُورُهَا وَأَنْعَمُ لَا يَذْكُرُونَ أَسْمَ اللَّهِ عَلَيْهَا افْتِرَاءً عَلَيْهِ سَيَجْزِيهِمْ بِمَا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴿١٣٨﴾

هذه الآية تُعَدُّ ما شرعه العرب في الجاهلية لأنفسهم من الحرث والأنعام، فقد حرّموا نوعين منها على أنفسهم، وضيّقوا في استعمال النوع الثالث؛ وذلك أنهم كانوا يقسمون المواشي والزروع ثلاثة أقسام، وهذه الأقسام تبيّن أنواع حجر التصريف في هذه الأموال، وتعيّن مصارفها؛ حيث جعلوها:

١- قسم لا يؤكل لحمه ولا زرع، ولا يتنفع به إلا بإذن خاص للرجال وحدهم من سدنة الآلهة وهذا معنى: ﴿وَقَالُوا هَذِهِ أَنْعَمُ وَحَرَّتْ حَجَرٌ﴾ أي: محجورة ممنوعة على غير سدنة الأصنام، والوافدين عليها ﴿لَا يَطْعَمُهَا إِلَّا مَنْ نَشَاءُ بِزَعْمِهِمْ﴾ أي: أن من يريدون إطعامه منها أطعموه، ومن يريدون منعه منعه.

وكل هذا لا مستند لهم فيه ولا حجة إنما هو بزعمهم الفاسد.

٢- وقسم من الإبل لا يحل ركوبها ولا الحمل عليها، وهو الحامي الذي حمى ظهره، وهذا معنى: ﴿وَأَنْعَمُ حُرِّمَتْ ظُهُورُهَا﴾ لا تؤكل، ولا يحمل عليها شيء، ولا يذهبون عليها إلى الحج أو غيره؛ كالبحيرة، والسائبة وهي التي صارت للآلهة، وينسبون هذه الأفعال إلى الله تعالى، وهم كذبة فجار.

٣- وقسم ثالث: لا يذكرون اسم الله عليها عند الذبح، وإنما يذكرون عليها أسماء الأصنام، أو اسم الجن، ويزعمون أن ذلك قربان، وهذا معنى: ﴿وَأَنْعَمُ لَا يَذْكُرُونَ أَسْمَ اللَّهِ عَلَيْهَا﴾ إنما يذبحونها على اسم الآلهة، ثم عقب الله على ذلك بقوله: ﴿افْتِرَاءً عَلَيْهِ﴾ أي: أنهم يزعمون كذباً أن الله تعالى أمرهم بهذا، وهو اختلاق وكذب على الله قال تعالى: ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ لَكُمْ مِنْ رِزْقٍ فَجَعَلْتُمْ مِنْهُ حَرَامًا وَحَلَلًا قُلْ إِنَّ اللَّهَ أَدَّبَ لَكُمْ أَمْ عَلَى اللَّهِ تَفْتَرُونَ﴾ ﴿٥٩﴾ [يونس].

(١) قرأ الكسائي (بزعمهم) بضم الزاي، والباقون بكسرها.

ثم ختمت الآية بهذا التهديد: ﴿سَيَجْزِيهِمْ بِمَا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾ على الله الكذب وفيه تهديد ووعد لهم، لأنهم يحرمون ما أحل الله. هذا:

- ١- والبحيرة هي التي تلد خمسة أبطن، آخرها ذكر، وكانوا يَشُقُّون أذُنَهَا ويتركونها لآلِهَتِهِمْ، ولا تُنحر إلا إذا ماتت، فيحل أكلها للرجال دون النساء.
- ٢- والسائبة: اسم للناقة التي يتركها صاحبها؛ لأنها نجث في الحرب، أو نُذرت للأصنام، فكانت تُسَيَّب للسدنة وأبناء السبيل، ينتفعون بدرّها، فإذا ماتت أكلها الرجال دون النساء.
- ٣- والوصيلة: اسم للناقة التي تلد أنثى ثم أنثى، فهي قد واصلت في نسلها بين عدة إناث.
- ٤- والحام: اسم للفحل الذي لَفَح ولد ولده، فيقولوا: حمى ظهره، فلا يركب ويترك حتى يموت.

الصُّورَةُ الرَّابِعَةُ: حُكْمُ مَا فِي بَطُونِ الْأَنْعَامِ

١٣٩- ﴿وَقَالُوا مَا فِي بُطُونِ هَذِهِ الْأَنْعَامِ خَالِصَةٌ لِّذُكُورِنَا وَمُحَرَّمٌ عَلَيْنَا أَزْوَاجُهَا وَإِنْ يَكُن مِّتَةً^(١) فَهُمْ فِيهِ شُرَكَاءُ سَيَجْزِيهِمْ وَصَفَهُمْ إِنَّهُ حَكِيمٌ عَلِيمٌ﴾
 هذه الآية تتضمن حالة من أحوال التحريم وهي أن ما في بطون الأنعام البحائر والسوائب من الأجنة، إذا نزل حيًّا جعلوه للذكور، أي: ذبحوه للرجال فقط ولا يقربه النساء، وإن نزل ميتًا جعلوه للرجال والنساء معًا.

قال تعالى: ﴿وَلَا تَقُولُوا لِمَا نَصَبُ اللَّيْسَنُكُمُ الْكَذِبَ هَذَا حَلَالٌ وَهَذَا حَرَامٌ لِّنْفَتَرُوا عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ﴾ [النحل].

وقال ابن عباس رضي الله عنه: إن نزل الجنين أنثى يَبْقُوهُ حيًّا ولا يذبحونه، وإن نزل ذكرًا ذبحوه

(١) قرأ ابن عامر بخلف عن هشام (وإن تكن ميتة) بتأنيث (يكن) ورفع (ميتة) مع سكون الياء، وقرأ أبو جعفر (وإن تكن ميتة) بتأنيث (يكن) ورفع (ميتة) مع تشديد الياء، وقرأ ابن كثير وهشام في وجهه الثاني (وإن يكن ميتة) بتذكير (يكن) ورفع (ميتة)، وقرأ شعبة (وإن تكن ميتة) بتأنيث (يكن) ونصب (ميتة)، والباقون (وإن يكن ميتة) بتذكير (يكن) ونصب (ميتة) وتأنيث (يكن) باعتبار اللفظ وتذكيرها باعتبار المعنى؛ لأن (ميتة) مؤنث مجازي، فهذه خمس قراءات، ومن نصب ميتة فعلى أنها خبر كان الناقصة، ومن رفعها على أن كان تامة، ويجوز أن تكون (ميتة) اسم كان، وخبرها محذوف، أي: وإن تكن هناك ميتة.

للرجال دون النساء، وإن نزل المولود ميتاً اشترك فيه الذكور والنساء، وهذا معنى: ﴿وَقَالُوا مَا فِي بُطُونِ هَذِهِ الْأَنْعَامِ﴾ أي: ما في بطون الأنعام المحرمة؛ كالبحائر، والسواشب من الأجنة إذا نزلت حية فإنها تكون ﴿خَالِصَةً لِّلذَّكَورِ﴾ أي: يباح أكلها للذكور فقط ﴿وَمُحَرَّمٌ عَلَيْهِمْ أَزْوَاجُهَا﴾ أي: لا تحل للنساء المتزوجات؛ لأنهم كانوا يتشاءمون من أكلهن للحوم أجنة الأنعام التي حَجَرُواها على أنفسهم، أو حرموا ظهورها أن يركبوها؛ خشية أن تصاب المرأة بالعقم، أو سوء المعاشرة مع الأزواج، أو النشوز والفراق، ونحو ذلك من أوهام أهل الجاهلية، أو لأن أجنة الأنعام مقدسة عندهم، فلا تحل للنساء؛ لأن المرأة موصوفة لديهم بالنجاسة والخيانة لأجل الحيض، ولذلك فإنهم لا يأكلون معها وهي حائض.

وتفسير ﴿أَزْوَاجُهَا﴾ بالنساء المتزوجات، هو مقتضى ظاهر الآية، وقاس بعضهم الأيامى من النساء على المتزوجات، فهو للنساء جميعاً، وحمله آخرون على عموم الإناث.

وكان من عادة العرب أن يشرب ألبان البهيرة والسائبة، الرجال دون الإناث، فقال بعضهم: إن ما في بطون الأنعام يشمل الألبان.

وما ورد عن ابن عباس في ذلك -مما سبق ذكره- محمول على أن ما في البطون يشمل الألبان؛ لأنها تابعة للأجنة وناشئة عن ولادتها^(١).

ثم بيّن سبحانه أن ما في بطون الأنعام المحرمة إن نزل ميتاً جاز أكله للرجال والنساء، قال تعالى: ﴿وَإِنْ يَكُنْ﴾ المولود ﴿مَيِّتَةً فَهُمْ﴾ أي: الرجال والنساء فيه ﴿شُرَكَاءُ﴾ قال سبحانه متوعداً لهم بالعذاب على تحريمهم ما أحل الله: ﴿سَيَجْزِيهِمْ وَصْفُهمُ﴾ أي: كذبهم على الله، وتشريعهم لأنفسهم ما لم يأذن به الله، وجعلهم الحلال حراماً فنافضوا شرع الله وخالفوه ﴿إِنَّهُ حَكِيمٌ﴾ في شؤون خلقه ﴿عَلِيمٌ﴾ بتدبير أمورهم، لا تخفي عليه خافية.

الْوَعِيدُ الشَّدِيدُ لِمَنْ قَتَلُوا أَبْنَاءَهُمْ وَحَرَّمُوا مَا أَحَلَّ اللَّهُ

١٤٠- ﴿قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ قَتَلُوا^(١) أَوْلَادَهُمْ سَفَهًا بِغَيْرِ عِلْمٍ وَحَرَّمُوا مَا رَزَقَهُمُ اللَّهُ افْتِرَاءً عَلَى اللَّهِ قَدْ ضَلُّوا وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ ﴿١٤٠﴾﴾

قال عكرمة: نزلت هذه الآية فيمن كان يئد البنات، من مُضَر وربيعة، كان الرجل يشترط على امرأته أنك تتدين جارية وتستحيين أخرى، فإذا كانت الجارية التي تُؤادُ، غدا من عند أهله أو راح، وقال: أَنْتِ عَلَيَّ كَأُمِّي إِنْ رَجَعْتُ إِلَيْكَ وَلَمْ تَتْدِيهَا، فترسل إلى نسوتها، فيحفزن لها حفرة، فيتداولنها بينهما، فإذا بَصُرْنَ به مُقْبِلًا دسسنها في حُفرتها وسَوَّين عليها التراب^(٣).

قال قتادة: هذا صنع أهل الجاهلية، كان أحدهم يقتل ابنته مخافة السَّيِّئِ والفاقة ويغذو كلبه، وفي قوله: ﴿وَحَرَّمُوا مَا رَزَقَهُمُ اللَّهُ﴾ قال: جعلوا بحيرة وسائبة ووصيلةً وحامياً تحكُّمًا من الشيطان في أموالهم، وحَرَّمُوا من مواشيهم وحروثهم، فكان ذلك من الشيطان افتراء على الله^(٤).

فهاتان صورتان من رواسب الجاهلية تضمنتهما الآية: قتل الذرية، وتحريم ما أحله الله.

وقد تضمنت هذه الآية التشنيع بقبح أفعالهم، والتعجب من سوء حالهم في وأدهم للبنات، وتحريمهم للحرث والأنعام، قد خسروا وضلوا في الدنيا والآخرة، الذين قتلوا أولادهم بسبب تشريعهم لأنفسهم، وتحريمهم ما أحل الله لهم، سفاهة وجهلاً بأن الله هو الرازق لهم ولأولادهم، وكان وأد البنات في قبيلتي ربيعة ومضر، ومنهم من كان يفعله خوف الفقر، ومنهم من كان يفعله خوف السبي أو العار. ولم يكن جمهور العرب يفعلونه.

إنها خسارة مطلقة، وخسارة فادحة في الدنيا قبل الآخرة، لمن قتلوا أولادهم أو وأدوا بناتهم، فقد فقدوهم في الدنيا، وسوف يعذبون على ذلك في الآخرة، لقد خسروا دينهم

(١) قرأ ابن كثير وابن عامر (قَتَلُوا) بتشديد التاء، والباقون بتخفيفها.

(٢) أدغم الدال في الضاد من (قد ضلوا) ورش وأبو عمرو وابن عامر وحمزة والكسائي وخلف العاشر والباقون بالإظهار.

(٣) أخرجه ابن المنذر وأبو الشيخ كما في «الدر المنثور» (٦/٢١٨).

(٤) ابن أبي حاتم (٧٩٤٣، ٧٩٤٦).

وأولادهم وعقولهم، وكان الرجل منهم يُغذّي كلبه، ويثد ابنته مخافة السبي والعار، ويقول لأُمها: أنت عليّ كظهر أمي إن رجعتُ ولم تتديها، فتتخذ لها في الأرض شقًّا، فإذا رآته دسّتها في التراب، لقد أراد هؤلاء أن يتخلصوا من أضرار محتملة في الدنيا؛ كالفقر، والعار، فأوقعوا أنفسهم في أضرار محققة في الدنيا والآخرة، لقد عطّلوا نعمة النسل، وأتوا على فوائده، ومنها حفظ النوع الإنساني وإعمار العالم، واعتدوا على حق الحياة الذي لا يملكه الأب، فخسروا بذلك دنياهم وأخراهم.

وفعلوا ذلك كذباً وافتراء على الله، وهم بذلك قد ضلّوا ضلالاً بعيداً ولم يكونوا مهتدين في شيء من أمور دينهم.

ذكر القرطبي في تفسيره أن رجلاً من أصحاب النبي ﷺ كان لا يزال مغتماً بين يدي رسول الله ﷺ فقال له الرسول: ما لك محزوناً؟ قال: يا رسول الله، إني كنت من الذين يقتلون بناتهم، فولدت لي بنت، فتشفّعت إليّ امرأتي أن أتركها، فتركتها حتى كبرت، وأدركت وصارت من أجمل النساء، فخطبوها، فدخلتني الحميّة، ولم يحتمل قلبي أن أزوجه أو أتركها في البيت بغير زوج، فقلت للمرأة: إني أريد أن أذهب لزيارة أقربائي فابعثها معي، فسرت بذلك، وزيّنتها بالحليّ والثياب، وأخذت عليّ المواثيق بألاً أخونها، فذهبت بها إلى رأس بئر، فنظرت في البئر، ففطنت الجارية بأنّي أريد أن ألقها فيه، فالتزمتني وجعلت تبكي، فرحمتها، ثم نظرت في البئر فدخلت عليّ الحميّة حتى غلبني الشيطان فألقيتها في البئر منكوسة، ومكثت هناك حتى انقطع صوتها، فرجعت، فبكى رسول الله ﷺ وأصحابه، وقال: «لو أمرت أن أعاقب أحداً بما فعل في الجاهلية لعاقبتك»^(١) فالحمد لله على نعمة الإسلام، وتبّاً لمؤتمرات ولجان حقوق تقول: إن المرأة مهضومة الحق في الإسلام.

هلك هؤلاء، وهلك أيضاً من حرّموا على أنفسهم البحيرة والسائبة والوصيلة والحام، وبعدّوا عن الحق والهدى؛ لأن التحليل والتحريم من حق الله وحده، وليس لأحد من خلقه، ولم يكونوا بما شرعوه لأنفسهم من أهل الهدى والرشاد؛ حيث وقعوا في المفساد العظيمة، وحرّموا أنفسهم وغيرهم من الانتفاع ببعض ما رزقهم الله فأخطؤوا الطريق وأبعدهم الله بذنوبهم.

(١) «تفسير القرطبي» (٩٧/٧).

اللَّهُ تَعَالَى هُوَ خَالِقُ الزُّرُوعِ وَالْأَنْعَامِ

١٤١- ﴿وَهُوَ الَّذِي أَنْشَأَ جَنَّاتٍ مَّعْرُوشَاتٍ وَغَيْرَ مَعْرُوشَاتٍ وَالنَّخْلَ وَالزَّرْعَ مُخْتَلِفًا أَكْلُهُ﴾^(١) وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَانَ مُتَشَكِّبًا وَغَيْرَ مُتَشَكِّبٍ كُلًّا مِنْ ثَمَرِهِ^(٢) إِذَا أَثْمَرَ وَآتُوا حَقَّهُ يَوْمَ حَصَادِهِ^(٣) وَلَا تَسْرِقُوا إِنَّكُمْ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ ﴿١٤١﴾

بعد أن بيّن الله سبحانه في الآيات السابقة جهل العرب قبل الإسلام في تحريم بعض ما أحله الله لهم، مما لا يزال مثله موجوداً في بعض بلاد العالم قديمه وحديثه، بيّن القرآن الكريم في هذه الآية، جهلهم في تحريمهم بعض الزروع والثمار على أنفسهم، وقد أحلها الله لهم، وبيّن بعد ذلك تحريمهم لبعض الذبائح، وجعلها لآلهتهم من أصنامهم، على نحو ما يتقرب به بعض الناس اليوم في بعض بلاد المسلمين من الذبح عند قبر عبد من عباد الله الصالحين، أو النذر له، أو تخصيص شيء من الزرع أو الثمر إلى صاحب هذا القبر، أو إلى شيخ الطريقة ونحو ذلك، وكل ذلك لون من ألوان الشرك بالله تعالى.

والله، سبحانه، قد خلق هذه الزروع، وهذه الثمار، وأنبتها من الأرض، كما خلق الأنعام (الإبل والبقر والغنم) لنفع الإنسان، وليس كما يتصرف فيها المشركون بآرائهم الفاسدة.

وهو سبحانه الذي يملك حق التحليل والتحريم، فلا يجوز لأحد أن يحرم ما أحل الله، ولا أن يحل ما حرم الله ﴿وَهُوَ الَّذِي أَنْشَأَ جَنَّاتٍ مَّعْرُوشَاتٍ وَغَيْرَ مَعْرُوشَاتٍ﴾ أي: أبدع واخترع بساتين وحدثات وزروع وثمار.

والمعروشة هي المرفوعة عن وجه الأرض، ومن ذلك العريش الذي بُني للنبي ﷺ يوم بدر، هذه الجنات خلقها الله سبحانه للإنسان، ومنها ما يحتاج إلى الأعمدة والحوائط بصنع الإنسان، كشجر العنب، ومنها ما لا يحتاج إلى ذلك، فتنبؤ الأشجار وحدها وترتفع، ومنها ما يفتقرش الأرض، ومنها ما له ساق طويل أو قصير، ومنها ما يثمر،

(١) قرأ نافع وابن كثير (أَكْلُهُ) بإسكان الكاف، والباقون بضمها.

(٢) قرأ حمزة والكسائي وخلف العاشر (ثَمَرِهِ) بضم الثاء والميم، جمع ثمرة كخشبة وخُشْب، والباقون بفتحهما اسم جنس شجرة وشجر.

(٣) قرأ أبو عمرو وابن عامر وعاصم ويعقوب (حَصَادِهِ) بفتح الحاء، والباقون بكسرها، وهما لغتان.

ومنها ما لا يثمر، خلق الله كل ذلك للإنسان، وأنعم عليه بها ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا﴾ [البقرة: ٢٩]. ﴿وَالنَّخْلَ وَالزَّرْعَ مُخْتَلِفًا أُكْلُهُ﴾ من الثمر والتمر والحبوب الذي يحتاجه الإنسان، والمراد كل ما يُقتات ويدّخر، والتمر غذاء رئيس، وهو في أهميته كالحبوب التي يكون منها الخبز ونحوه.

وخلق سبحانه الفاكهة على مختلف ألوانها وأشكالها ﴿وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَانَ مُتَشَابِهًا﴾ في الشكل والمنظر ﴿وَعَيْرَ مُتَشَابِهًا﴾ في ثمره وطعمه وذوقه.

وفي هذه الآية امتنان من الله تعالى بما أنعم به على خلقه من الزروع والثمار التي أساء المشركون استخدامها.

ونظير هذه الآية قوله تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ نَبَاتَ كُلِّ شَيْءٍ فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِرًا نُخْرِجُ مِنْهُ حَبًّا مُتَرَاكِبًا وَمِنَ النَّخْلِ مِن طَلْعِهَا قِنْوَانٌ دَانِيَةٌ وَجَنَّاتٍ مِّنْ أَعْنَابٍ وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَانَ مُتَشَابِهًا وَغَيْرَ مُتَشَابِهٍ انظُرُوا إِلَى ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَيَنْعِهِ إِنَّ فِي ذَٰلِكُمْ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٩٩﴾﴾ [الأنعام]. وفيها امتنان على خلقه بأن الله هو الصانع المتفرد بالخلق، وختم كلاً من الآيتين بما يناسب السياق.

ثم توجه سبحانه بالخطاب إلى المؤمنين فقال: ﴿كُلُوا مِن ثَمَرِهِ﴾ هو أمر بإباحة أي: أباح الله لكم أن تأكلوا من ثمره ﴿إِذَا أَثْمَرَ﴾ حيث أحل لكم أن تأكلوا منه إذا صار صالحاً للأكل، ولذّ وطاب، وفي هذا أدلة على وحدانية الله تعالى، منها:

١- أن المتغيرات لا بد لها من مُغيّر، وهو الله سبحانه.

٢- أن الله تعالى لو شاء لم يخلق لنا غذاء، وإذا خلقه لا يلزم أن يكون جميل المنظر، طيب الطعم، سهل الجني.

٣- وأنّ هذا الماء الذي من شأنه الرسوب في الأرض، يصعد بقدرة الله تعالى من أسفل الشجرة إلى أعلاها فينشأ الورق والثمر واللون الزاهر^(١).

ثم أدوا حق الله منه: ﴿وَعَاثُوا حَقَّهُ يَوْمَ حَصَادِهِ﴾ أي: يوم قَطَعَهُ وجُذَذَهُ، وهو حق

(١) يُنظر: «تفسير القرطبي» (٩٩/٧).

الفقير والضعيف والقريب والجار، وسماه الله حقًا في قوله: ﴿وَالَّذِينَ فِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ مَّعْلُومٌ﴾ (١٤١) لِسَائِلِ وَالْمَحْرُورِ [المعارج].

وهذه الجملة ﴿وَأَتُوا حَقَّهُ يَوْمَ حَصَادِهِ﴾ هي الموجبة لزكاة الزروع والثمار من كل ما يقتات ويدّخر، وأنه لا حول لها، عند جمهور الفقهاء، وفي عموم الزروع والثمار بما فيها الخضراوات عند أبي حنيفة، أي: أخرجوا الزكاة منه يوم حصاده، وحصاد الزرع بمنزلة حَوْلَانِ الحَوْل، وهو الوقت الذي تتشوف إليه نفوس الفقراء.

وهذه الآية مكية؛ لأن سورة الأنعام نزلت بمكة.

والزكاة فرضت، بصورة مجملة، في مكة قبل الهجرة، وجاء ذكرها في آيات كثيرة نزلت بمكة منها سور: المزمل، والبيّنة، وفصلت، وغيرها، ثم فصل النبي ﷺ في المدينة أنصبة الزكاة وحدودها ومقاديرها، فبيّن عليه الصلاة والسلام أن الذي يجب فيه الزكاة من الزروع والثمار هو ما بلغ ثلاث مئة صاع، وأن مقدار الزكاة فيما سقت السماء والعيون أي: فيما سُقي بالمطر دون تكلفة ودون جهد ولا مشقة يخرج منه العشر، وفيما سُقي بالنضح والآلة وجهد الإنسان يخرج منه نصف العشر، كما في الحديث عن سالم بن عبد الله عن أبيه رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «فيما سقت السماء والعيون العُشْرُ، وفيما سُقي بالنضح نصف العُشْرِ»^(١).

وفي الزروع والثمار حق سوى الزكاة، كما أن في المال حقًا سوى الزكاة، وقد كان الواحد من أهل المدينة في عهد رسول الله ﷺ إذا غرس نخلاً، وقطع العذق أو القنؤ علقه في جانب المسجد يأكل منه المحتاج والمسكين، وما يتساقط ويتناثر من الزروع والثمار يتركه للمسلمين.

وقد حدث أن ثابت بن قيس بن شماس قطع في يوم واحد خمس مئة نخلة، ثم قال: لا يأتيني اليوم أحد إلا أطعمته، فأطعم حتى أمسى، حتى وزّع ثمار نخيله، ولم يبق عنده في المساء ثمرة واحدة.

(١) «صحيح البخاري» (١٤٨٣) وفي صحيح برقم (١٤٦٤).

وعن جابر بن عبد الله رضي الله عنه أن النبي ﷺ: «أمر من كل جاذ^(١) بعشرة أوسق من التمر، بقتنٍ يعلّق في المسجد للمساكين»^(٢).

وقد ذم الله أصحاب الجنة، في سورة القلم، وهم الذين حرّموا المساكين من ثمر حديقته، وقد عاقبهم الله تعالى بأن أصبحت حديقته سوداء محترقة، لا زرع فيها ولا ثمر.

والله ﷻ ينهى عن الإسراف في كل شيء فيقول: ﴿وَلَا تُسْرِفُوا﴾ أي: ولا تسرفوا في إخراج الصدقة أو الزكاة؛ حتى يبقى لأولادكم وأهلكم شيء فأخرجوا حق الله، وأخرجوا ما تطيب به أنفسكم من الصدقة فوق ذلك، وابدؤوا بأهلكم وعيالكم.

قال أبو العالية: كانوا يعطون شيئاً عند الحصاد، ثم تباروا وأسرفوا فنزلت الآية.

وفي حديث ابن عمر رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال «كلوا واشربوا والبسوا، وتصدقوا في غير إسراف ولا مخيلة»^(٣).

ولا تسرفوا أيضاً في الأكل والشرب، ولا تتجاوزوا حد الاعتدال في كل شيء، ولا تجعلوا شيئاً من ذلك للآلهة، ولا للأصنام ولا للقبور، ولا للصالحين ولا لمشايخ الطرق، فالمعنيان محتملان ﴿إِنَّكُمْ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ﴾ لأن الإفراط في تناول الملذات يفضي إلى استنزاف المال وطلب تحصيله من وجوه غير مشروعة. قال تعالى:

١٤٢- ﴿وَمِنَ الْأَنْعَامِ حَمُولَةٌ وَفَرَشَاتٌ كُلُوا مِنَّا رِزْقُكُمْ اللَّهُ وَلَا تَنْتَعُوا خُطُوتَ^(٤) الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ ﴿١٤٢﴾﴾

(١) أي: من كل محدود، وهو المجذوذ المقطوع من النخل، يتصدق من كل عشرة أوسق بقتنٍ يعلّق في المسجد للفقراء.

(٢) «المسند» (٣/٣٥٩) برقم (١٤٨٦٦) بإسناد حسن، من أجل محمد بن إسحاق وقد صرح بالسماع وبقيه رجاله ثقات رجال الشيخين (محققوه) و«سنن أبي داود» برقم (١٦٦٢)، وأبي يعلى (٢٠٣٨) وابن حبان (٣٢٨٩) وابن خزيمة (٢٤٦٩).

(٣) رواه البخاري معلقاً كما في فتح الباري (١٠/٢٥٢) وقد وصله ابن أبي الدنيا برقم (٥١) في كتاب الشكر وهو في «المسند» (٦٦٩٥، ٦٧٠٨) بإسناد حسن وابن أبي شيبة (٨/٤٠٥) وابن ماجه (٣٦٠٥).

(٤) قرأ ابن كثير بخلف عن البرقي، وابن عامر وحفص والكسائي وأبو جعفر ويعقوب (خُطُوت) بضم الطاء، والباقون بإسكانها وهو الوجه الثاني للبرقي.

تحدثت هذه الآية عن الإبل التي حرّمها أهل الجاهلية على أنفسهم، فبيّنت أن الله تعالى قد خلق للناس صغار الإبل وكبارها، فقال سبحانه: ﴿وَمِنَ الْأَنْعَامِ حَمُولَةٌ﴾ أي: خلق الله لكم الإبل ذات القوائم العالية التي تحمل المتاع لكبرها وارتفاعها. كما قال تعالى: ﴿وَتَحْمِلُ أُنْقَالَكُمْ إِلَىٰ بَلَدٍ لَّمْ تَكُونُوا بِلَاغِهِ إِلَّا بِشِقِّ الْأَنْفُسِ إِنَّ رَبَّكُمْ لَرءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [النحل].

ومنها تأكلون، كما قال تعالى: ﴿اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ الْأَنْعَامَ لِيَتَرَكَبُوا مِنْهَا وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ﴾ [٧٩] وَلَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ وَلِتَبَلَّغُوا عَلَيْهَا حَاجَةً فِي صُدُورِكُمْ﴾ [غافر]. أي: وتحملون عليها أُنْقَالَكُمْ.

وخلق لكم الفرش، وهي الإبل الصغيرة ﴿وَفَرَشًا﴾ وهو اسم جمع لا واحد له من لفظه. وقيل: هي الغنم والبقر التي لا تحمل المتاع؛ لصغرهما وقربها من الأرض، قال تعالى: ﴿وَدَلَّلْنَاهَا لَهُمْ فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ﴾ [يس].

وقال أيضاً: ﴿وَإِنَّ لَكُمْ فِي الْأَنْعَامِ لَعِبْرَةً﴾ [النحل: ٦٦]. وبعضها تحملون عليه وتركبون، وبعضها لا تصلح للحمل ولا للركوب.

وعلى هذا فالحمولة: ما تركبون، والفرش: ما تأكلون وما تحلبون من الإبل والبقر والغنم ﴿كُلُوا وَمِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ﴾ أي: كلوا مما أحله الله لكم من الأنعام والزرع والثمار؛ فالله سبحانه لم يحرم منها شيئاً عليكم ﴿وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ﴾ في تحريم ما أحل الله كما فعل المشركون ﴿إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾ ظاهر العداوة ﴿إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا﴾ [فاطر: ٦].

﴿أَفَنَتَّخِذُوهُ وَذُرِّيَّتَهُ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِي وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّ بِئْسَ لِلظَّالِمِينَ بَدَلًا﴾ [الكهف: ٥٠].

قال تعالى مبيناً أصناف الأنعام الثمانية؛ وبدأ بالغنم:

١٤٣ - ﴿ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ مِنَ الضَّأْنِ اثْنَيْنِ وَمِنَ الْمَعَزِ^(١) اثْنَيْنِ قُلْ ءَالُكَرِينَ^(٢) حَرَّمَ أَمْرُ

(١) قرأ ابن كثير وأبو عمرو وابن عامر بخلف عن هشام ويعقوب (ومن المعز) بفتح العين، والباقون بإسكانها وهو الوجه الثاني لهشام، وهما لغتان.

(٢) (ءالذكرين) معاً، اجتمع في هذه الكلمة همزة الاستفهام وهي الأولى وهمزة الوصل، وهي الثانية، ولجميع القراء في همزة الوصل وجهان: أحدهما: إبدالها ألفاً خالصاً مع المد ست حركات وثانيهما: تسهيلها بينها وبين الألف، ولا يقرأ بالتسهيل على قصر المد المنفصل مع توسط المد المتصل.

الْأُنثَىٰ إِنَّمَا أَشْتَمَلْتُ عَلَيْهِ أَرْحَامُ الْأُنثَىٰ نَبُوءِي^(١) يَعْلَمُ إِن كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿٢٤﴾

فَصَلَّتْ هَاتَانِ الْآيَتَانِ أَنْوَاعَ الْأَنْعَامِ، فَبَيَّنَتْ أَنَّهَا ثَمَانِيَّةٌ، أَرْبَعَةُ ذُكُورٍ وَأَرْبَعُ إُنَاثٍ؛ كُلُّهَا مَخْلُوقَةٌ لِلَّهِ تَعَالَى لِنَفْعِ الْإِنْسَانِ، مِنْهَا الْحَمُولَةُ وَالْفَرْشُ، وَلَيْسَ مِنْهَا: الْبَحِيرَةُ وَالسَّائِبَةُ وَالْوَصِيلَةُ وَالْحَامُ، وَاللَّهُ تَعَالَى لَمْ يَحْرُمْ شَيْئًا مِنْهَا، وَلَا مِنْ أَوْلَادِهَا، وَكُلُّهَا لِبَنِي آدَمَ: أَكَلًا، وَرُكُوبًا، وَحَمُولَةً، وَحَلَبًا، وَغَيْرَ ذَلِكَ مِنَ الْمَنَافِعِ.

وَقَدْ ذَكَرْتُ هَذِهِ الْآيَةَ أَرْبَعَةَ مِنَ الثَّمَانِيَّةِ، وَفِي الْآيَةِ الثَّالِيَةِ الْأَرْبَعَةَ الْآخَرَى ﴿ثَمَانِيَّةٌ أَزْوَاجٌ﴾ يَطْلُقُ الزَّوْجَ عَلَى الْمَفْرُودِ إِذَا كَانَ مَعَهُ آخَرٌ مِنْ جِنْسِهِ بِزَوَاجِهِ مِنْهُ، أَيْ: خَلَقَ لَكُمْ مِنَ الْأَنْعَامِ ثَمَانِيَّةَ أَصْنَافٍ، ثُمَّ فَسَّرَهَا بِقَوْلِهِ: ﴿يَنْبَغُ الضَّأْنُ أَثْنَيْنِ﴾ ذَكَرَ وَأُنْثَى: الْكَبِشُ وَالنَّعْجَةُ، وَهِيَ الْغَنَمُ، وَالضَّأْنُ: هُوَ مَا كَانَ بِهِ صُوفٌ ﴿وَمِنَ الْمَعْزِ أَثْنَيْنِ﴾ ذَكَرَ وَأُنْثَى: الْتَيْسُ وَالْعِزْرُ، وَالْمَعْزُ: هُوَ ذَوَاتُ الشَّعْرِ مِنَ الْغَنَمِ، ثُمَّ أَمَرَ اللَّهُ رَسُولَهُ أَنْ يَجَادَلَ الْمُشْرِكِينَ وَيُبْطِلَ مَزَاعِمَهُمْ.

﴿قُلْ﴾ - أَيُّهَا الرَّسُولُ - لِهَؤُلَاءِ الَّذِينَ حَرَّمُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ مَا أَحَلَّ اللَّهُ، قُلْ لَهُمْ عَلَى وَجْهِ الزَّجْرِ وَالتَّوْبِيخِ ﴿الَّذِينَ كَرَّهُوا حَرَّمَ﴾ مِنَ الضَّأْنِ وَالْمَعْزِ ﴿أَوْ الْأُنثَىٰ﴾ حَرَّمَ مِنْهُمَا ﴿أَمَّا أَشْتَمَلْتُ عَلَيْهِ أَرْحَامُ الْأُنثَىٰ﴾ أَيْ: أَمْ حَرَّمَ الْأَجْنَةَ الَّتِي فِي بَطُونِهَا، وَهِيَ لَا تَشْتَمِلُ إِلَّا عَلَى ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى، فَيُلْزِمُكُمْ تَحْرِيمَ جَمِيعِ الذُّكُورِ وَالْإُنَاثِ، وَأَنْتُمْ لَمْ تَلْتَزِمُوا بِشَيْءٍ مِنْ هَذَا التَّقْسِيمِ، فَإِذَا كُنْتُمْ لَا تَقُولُونَ بِأَحَدِ هَذِهِ الْأَقْوَالِ الثَّلَاثَةِ الَّتِي حَصَرْتُ الْأَقْسَامَ الْمُمْكِنَةَ فِالْيَ أَيِّ شَيْءٍ تَذْهَبُونَ؟! وَفِي هَذَا تَقْرِيرٌ وَتَوْبِيخٌ لَهُمْ؛ لِأَنَّ اللَّهَ تَعَالَى لَمْ يَحْرُمْ شَيْئًا مِنْهَا.

وَأَوَّلُ مَنْ دَخَلَ فِي هَذِهِ الْآيَةِ: عَمْرُو بْنُ لَحِيٍّ، الَّذِي سَيَّبَ السَّائِبَةَ، وَوَصَلَ الْوَصِيلَةَ^(٢).

﴿نَبُوءِي يَعْلَمُ﴾ أَخْبَرُونِي بِبَقِيَّةِ، فِي قَوْلِكُمْ وَدَعَاكُمْ، فَإِنَّ التَّشْرِيعَ لَا يَكُونُ عَنْ ظَنٍّ، وَيَبْنُو لِي عَلَى وَجْهِ التَّأَكُّدِ، مَاذَا حَرَّمْتُمْ عَلَى أَنْفُسِكُمْ مِنْ هَذِهِ الْأَصْنَافِ الْأَرْبَعَةِ الْمَذْكُورَةِ فِي الْآيَةِ ﴿إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ فِي أَنَّ اللَّهَ حَرَّمَ عَلَيْكُمْ، وَهَمْ لَا يَقُولُونَ بِشَيْءٍ مِنْهَا.

(١) قرأ أبو جعفر بحذف الهمزة وضم ما قبل الواو من (نُبُوءِي) وصلاً ووقفًا، وقف عليها حمزة، بالحذف، والتسهيل بين بين، وإبدالها ياء مضمومة.

(٢) جاء ذلك في حديث صحيح عن عائشة ؓ أخرجه البخاري برقم (٣٥٢١، ٤٦٢٣، ٤٦٢٤) ومسلم (٩٠١، ٢٨٥٦) وفيه أنه يجزأ أعماءه في النار؛ لأنه أول من غيّر دين الأنبياء.

قل لهم: هل حرم الله عليكم الذكـرين من الغنم؟ فإن قالوا: نعم، فقد كذبوا في ذلك، لأنهم لا يحرمون كل ذكر من الضأن، والمعز.

وقل لهم: هل حرم عليكم الأنثيين من الغنم؟ فإن قالوا: نعم، فقد كذبوا أيضًا؛ لأنهم لا يحرمون كل أنثى من ولد الضأن، والمعز.

ثم قل لهم: هل حرم الله عليكم ما اشتملت عليه أرحام الأنثيين من الضأن، والمعز من الحمل؟ فإن قالوا: نعم، فقد كذبوا؛ لأنهم لا يحرمون كل حمل منها، فأخبروني، إذًا، عن صحة قولكم فيما نسبتموه إلى ربكم، ثم قال تعالى في الإبل والبقر:

١٤٤- ﴿وَمِنَ الْإِبِلِ اثْنَيْنِ وَمِنَ الْبَقَرِ اثْنَيْنِ قُلْ آلَّذَكَرَيْنِ حَرَّمَ أَمْ الْإُنثَيَيْنِ أَمَّا أَشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ الْإُنثَيَيْنِ أَمْ كُنْتُمْ شُهَدَاءَ^(١) إِذْ وَصَّيْتُكُمْ اللَّهُ بِهَذَا فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا لِيُضِلَّ النَّاسَ بِغَيْرِ عِلْمٍ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴿١٤٤﴾﴾

وفي هذه الآية ذكر للإبل والبقر، بمثل ما في الآية السابقة بشأن الضأن والمعز:

﴿وَمِنَ الْإِبِلِ اثْنَيْنِ﴾ ذكر وأنثى ﴿وَمِنَ الْبَقَرِ اثْنَيْنِ﴾ ذكر وأنثى، فهذه الأصناف الأربعة بقية الثمانية، فأى منها حرم الله عليكم الذكور، أم الإناث؟ ﴿قُلْ آلَّذَكَرَيْنِ حَرَّمَ أَمْ الْإُنثَيَيْنِ﴾ أم الأجنة التي في بطون الإناث منها ﴿أَمَّا أَشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ الْإُنثَيَيْنِ﴾؟ وكانوا يحرمون الذكور تارة، والإناث تارة، وما في بطونها من الأجنة تارة، أم كتم، أيها المشركون، حاضرين حين حرم الله هذه الأنعام، فشاهدتموه وسمعتموه، وأنتم لا تقرون بالنبوة ولا بالوحي! فكيف تثبتون هذا دون مستند ولا حجة؟! وذلك أن ما حرمتوه إما أن يكون أمرًا تعبديًا، وإما أن يكون أمرًا معنويًا، وقد بطل كونه معنويًا بالذكورة أو الأنوثة أو الأجنة؛ لأن العلة غير مطردة في الذكور أو الإناث؛ لأنكم حرمتهم بعضًا وحللتهم بعضًا، ويبطل كونها أمرًا تعبديًا؛ لأنها لم تؤخذ عن الله ورسله؛ فالله تعالى لم يوص أحدًا من رسله بهذا، ولهذا أنكر الله عليهم ما فعلوه وبين أنه لا حيلة لهم في الخروج عما ذكر إلا في اتباع شرع الله، وذلك في قوله: ﴿أَمْ كُنْتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ وَصَّيْتُكُمْ اللَّهُ بِهَذَا﴾ فلا أحد أشد

(١) قرأ نافع وابن كثير وأبو عمرو وأبو جعفر ورويس، بتسهيل الهمزة الثانية بين بين من (شهداء إذ)، والباقيون بتحقيقها.

ظلمًا ممن كذب على الله، وأضاف إليه تحريم ما لم يحرمه؛ ليضل الناس ويصدّهم عن سبيل الله ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا لِيُضِلَّ النَّاسَ بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ أي: لا أحد أشد ظلمًا من هؤلاء الذين يفترون على الله الكذب، وهم درجات:

- ١- فمنهم كبار المشركين الذين وضعوا عبادة الأصنام كعمرو بن لُحي، وهم أظلم الظالمين.
 - ٢- ومنهم الذين جعلوا من أموالهم شيئًا لبيوت الأصنام وسدنتها، وهم المفترون على الله الكذب.
 - ٣- ومنهم من اتبع هؤلاء فشاركوهم وقتلّوهم في الضلال، وهؤلاء متبعون لأهل الضلال، وكان الواجب عليهم اتباع الرسل، ولكنهم صدقوا الكذبة ونصروهم.
- والله تعالى لا يوفق للرشد من تجاوز حده، فكذب على ربه، وأضل الناس بغير علم ولا بصيرة ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ وذلك أن أهل الجاهلية كانوا يقولون: هذه أنعام، وحرث حجر، ويقولون: ما في بطون هذه الأنعام خالصة لذكورنا، ويحرمون البحيرة والسائبة والوصيلة والحام.

فلما جاء الإسلام، وثبتت الأحكام جادلوا النبي ﷺ في ذلك، وكان خطيبهم مالك بن عوف الجشمي فقال: يا محمد، بلغنا أنك تحرم أشياء مما كان آباؤنا يفعلونه، فقال ﷺ: خلق الله هذه الأزواج الثمانية للأكل والانتفاع بها، فمن أين جاء هذا التحريم؟ فسكت مالك بن عوف، ولم يتكلم.

وعمر بن لُحي هو أول من بحر البحيرة، وسبب السائبة، ووصل الوصيلة، وحمى الحامي، وغير دين إبراهيم، ويدخل في هذا كل من أدخل في دين الله ما ليس منه، فابتدع شيئًا ونسبه إلى الله تعالى^(١).

(١) يُنظر: «تفسير البغوي» و«الخازن» للآية.

التَّحْلِيلُ وَالتَّحْرِيمُ لَا يَكُونُ إِلَّا عَنْ طَرِيقِ الْوَحْيِ

١٤٥- ﴿قُلْ لَا أَجِدُ فِي مَا أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا عَلَى طَاعِمٍ يَطْعَمُهُ إِلَّا أَنْ يَكُونَ مَيْتَةً^(١) أَوْ دَمًا مَسْفُوحًا أَوْ لَحْمَ خَنْزِيرٍ فَإِنَّهُ رِجْسٌ أَوْ فِسْقًا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ^(٢) فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَإِنَّ رَبَّكَ غَفُورٌ رَحِيمٌ^(٣)﴾

بَيَّنَّ اللَّهُ ﷻ أَنَّ التَّحْلِيلَ وَالتَّحْرِيمَ لَا يَكُونُ إِلَّا عَنْ طَرِيقِ الْوَحْيِ، فَاللَّهُ سَبْحَانَهُ هُوَ خَالِقُ الزَّرْعِ وَالْأَنْعَامِ، وَمَا أَحْلَاهُ فَهُوَ الْحَلَالُ، وَمَا حَرَّمَهُ فَهُوَ الْحَرَامُ، فَلِلَّهِ وَحْدَهُ حَقُّ التَّشْرِيعِ فِيمَا خَلَقَ وَفِيمَا رَزَقَ، وَالْأَصْلُ فِي الْأَشْيَاءِ الْحَلُّ إِلَّا مَا وَرَدَ الشَّرْعُ بِتَحْرِيمِهِ، وَكَانَ الْمُشْرِكُونَ قَدْ تَسَاءَلُوا بَعْدَ أَنْ ذَمَّ اللَّهُ مَا حَرَّمَهُ عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَقَالُوا: فَمَا الْمَحْرَمُ إِذِنْ؟ فَأَنْزَلَ اللَّهُ تَعَالَى عَلَى رَسُولِهِ يَخْبِرُهُمْ ﴿قُلْ لَا أَجِدُ فِي مَا أُوحِيَ إِلَيَّ﴾ قُلْ لَهُمْ: يَا مُحَمَّدُ إِنِّي لَا أَجِدُ فِيمَا أَوْحَاهُ اللَّهُ إِلَيَّ فِي الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ شَيْئًا مُحَرَّمًا عَلَى مَنْ يَأْكُلُهُ مِمَّا تَذْكُرُونَ أَنَّهُ مُحَرَّمٌ مِنَ الْأَنْعَامِ، إِلَّا هَذِهِ الْمَحْرَمَاتُ الْأَرْبَعُ الَّتِي ثَبَتَتْ بِالنَّصِّ الْقَاطِعِ، وَهِيَ: الْمَيْتَةُ، وَالدَّمُ الْمَسْفُوحُ، وَلَحْمُ الْخَنْزِيرِ، وَمَا ذَبَحَ عَلَى غَيْرِ اسْمِ اللَّهِ:

١- فكل دابة ماتت من غير تذكية شرعية فهي حرام.

٢- وكل دم سائل مرق فهو حرام.

٣- وكل لحم خنزير أو شحمه أو مشتقاته فهو حرام رجس نجس.

٤- وكل ما كانت ذكاته خروجًا على طاعة الله تعالى، كالذي يذبح على غير اسم الله فهو حرام كذلك.

ذَلِكُمْ قَوْلُ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿إِلَّا أَنْ يَكُونَ مَيْتَةً أَوْ دَمًا مَسْفُوحًا﴾ أَي: جَارِيًا سَائِلًا، أَمَّا

(١) قرأ نافع وأبو عمرو وعاصم والكسائي ويعقوب وخلف العاشر (يكون) بالتذكير، وقرأ الباقر بالتأنيث.

(٢) قرأ ابن عامر برفع (ميتة) مع سكون الياء، وقرأ أبو جعفر برفعها أيضًا، ولكن مع تشديد الياء، وقرأ الباقر بالنصب مع سكون الياء ونصب (ميتة) على أنها خبر (يكون) واسمها ضمير يعود على (محرمًا) وأنت الفعل لتأنيث الخبر، ورفع (ميتة) على أن كان تامة، بمعنى توجد ميتة.

(٣) قرأ أبو عمرو وعاصم وحزمة ويعقوب بكسر النون وصلًا من (فمن اضطر)، وقرأ أبو جعفر بضم النون وكسر الطاء، وقرأ الباقر مثل أبي جعفر ولكن بضم الطاء.

الدم المختلط باللحم والخارج من مرق اللحم، وكل ما شاكل هذا فهو حلال معفو عنه، كما حرم الإسلام لحم الخنزير وشحمه ومشتقاته، فقال تعالى عطفًا على التحريم: ﴿أَوْ لَحْمِ خِنْزِيرٍ فَإِنَّهُ رِجْسٌ﴾ أي: نجس محرم، تعافه الطباع السليمة، ويضر الأبدان، وهو خبيث مستقذر ﴿أَوْ فَسَقًا أَهْلَ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ﴾ فكل ما ذُبح على غير اسم الله تعالى فهو فسق وخروج على طاعته، ومن ذلك ما يذبح على النصب، وما ذُبح للجن، أو ذُبح لأصحاب القبور، والإهلال هو رفع الصوت بالبسملة عند الذبح في التذكية الشرعية.

وقد كان أهل الجاهلية يحرمون أشياء، ويستحلون أشياء فنزلت هذه الآية.

قال عمرو بن دينار: قلت لجابر بن زيد: إنهم يزعمون أن رسول الله ﷺ نهى عن لحوم الحمر الأهلية زمن خير، فقال: قد كان يقول ذلك الحكم بن عبد الغفار عندنا بالبصرة عن رسول الله ﷺ، ولكن أبى ذلك الحبر ابن عباس، وقرأ هذه الآية^(١).

وعن عكرمة أن رجلاً جاء إلى ابن عباس، فقال له: أكل الطحال؟ قال: نعم، قال: إن عامتها دم! قال: إنما حرم الله الدم المسفوح^(٢).

وهذه الآية نظير قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَالدَّمَ وَلَحْمَ الْخِنْزِيرِ وَمَا أُهْلَ بِهِ لِغَيْرِ اللَّهِ فَمَنْ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ إِنَّ اللَّهَ عَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [البقرة] ونظير قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَالدَّمَ وَلَحْمَ الْخِنْزِيرِ وَمَا أُهْلَ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ فَمَنْ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ إِنَّ اللَّهَ عَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [النحل]

فآية الأنعام آية مكية، وكذا آية النحل، وقد جاءت بصيغة الخبر موافقة لآية البقرة المدنية، وآية المائدة توضح وتفصل آيات سور: البقرة، والأنعام، والنحل.

وتلحق بالميتة: المنخنقة، والموقوذة، والمتردية، والنطيحة، فهي في حكم الميتة، ولم يكن في الشريعة وقت نزول السور المكية شيء محرم غير ما ذُكر فيها من المحرمات الأربع. وهذه الآية ليس فيها حصر للمحرمات، وإنما هي ترد على مزاعم المشركين.

وقد جاء في السنة تحريم لحوم الحمر الأهلية، وكل ذي ناب من السباع ومخلب من الطير:

(١) البخاري (٥٥٢٩) وأبو داود (٣٨٠٨)

(٢) ابن أبي شيبة (٦٨/٨) وابن أبي حاتم (٨٠٠٩) والبيهقي في «السنن» (٧/١٠)

وهذه جملة من الأحاديث في هذا المعنى:

- ١- ففي الحديث عن المقدم بن معدي كرب أن رسول الله ﷺ قال: «ألا إني أوتيت الكتاب ومثله معه، ألا يوشك رجل شبعان على أريكته يقول: عليكم بهذا القرآن، فما وجدتم فيه من حلال فأحلوه، وما وجدتم فيه من حرام فحرموه، ألا لا يحل لكم الحمار الأهلي، ولا كل ذي ناب من السباع، ولا لُقْطَةٌ معاهد إلا أن يستغني عنها صاحبها..» الحديث^(١).
 - ٢- وعن ابن عباس: نهى رسول الله ﷺ يوم خير عن كل ذي ناب من السباع، وكل ذي مخلب من الطير^(٢).
 - ٣- وعن ابن عمر ؓ: نهى رسول الله ﷺ يوم خير عن أكل لحوم الحمر الأهلية^(٣).
 - ٤- وعن جابر بن عبد الله أن رسول الله ﷺ: نهى عن أكل الهرّ وأكل ثمنه^(٤).
واستثنى الشارع الحكيم من الميتة: السمك والجراد، ومن الدم: الكبد والطحال.
 - ٥- وفي الصحيح من حديث عائشة ؓ أن رسول الله ﷺ قال: «خمس فواسق يقتلن في الحل والحرم، الحية والغراب الأبقع، والفأرة والكلب العقور والحُديّا»^(٥).
 - ٦- وفي الصحيحين عن سعد بن أبي وقاص ؓ أن النبي ﷺ: «أمر بقتل الوزغ»^(٦).
ونهى رسول الله ﷺ عن قتل أربع من الدواب: النملة والنحلة والهدهد والضُرَد كما
-
- (١) «المسند» (١٧/٧٤) برقم (١٧١٧٤) إسناده صحيح ورجاله ثقات (محققوه) رواه أبو داود برقم (٤٦٠٤) والترمذي بنحوه وقال: حديث حسن غريب. ورواه ابن حبان برقم (١٢) وفي مسند الشاميين برقم (١٠٦١) وصححه الألباني في صفة الصلاة ص ١٧١.
- (٢) «صحيح مسلم» برقم (١٩٣٤) وأبو داود (٣٨٠٥) والنسائي (٤٣٥٩) وابن ماجه (٣٢٣٤).
- (٣) «صحيح البخاري» برقم (٤٢١٧، ٤٢١٨، ٤٢١٩) ومسلم (٥٦١) والنسائي (٤٣٤٧، ٨٣٤٨).
- (٤) صحيح «سنن أبي داود» (٢٩٧١) بلفظ (نهى عن ثمن الهرة) وهو في السنن (٣٤٨٠)، والترمذي (١٢٨٠) وابن ماجه (٣٢٥٠).
- (٥) من حديث عائشة في «صحيح مسلم» برقم (١١٩٨) و«صحيح البخاري» برقم (٣٣١٤) وصحيح سنن ابن ماجه (٢٥٠٥) وفي ابن ماجه (٣٠٨٧).
- (٦) وجاء أيضًا عن أم شريك، يُنظر: البخاري (٣٣٠٧، ٣٣٥٩) ومسلم (٢٢٣٧).

في حديث ابن عباس رضي الله عنه ^(١).

٧- وعن أنس رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ جاءه جاء فقال: أَكَلْتَ الْحُمْرَ، ثم جاء جاء فقال: أَفْنَيْتَ الْحُمْرَ، فأمر منادياً، فنادى في الناس: إن الله ورسوله ينهيانكم عن لحوم الحمر الأهلية؛ فإنها رجس، فأُكْفِتَ القدور وإنها لتفور باللحم ^(٢).

٨- وعن ابن عمر رضي الله عنه قال: من يأكل الغراب؟ وقد سماه رسول الله: «فاسقاً»؟ والله ما هو من الطيبات ^(٣).

٩- وعن عبد الرحمن بن أبي عمّار قال: قلت لجابر: الضَّبُعُ، أصيدها؟ قال: نعم، قلت: آكلها؟ قال: نعم، قلت: أشيء سمعت من رسول الله ﷺ؟ قال: نعم ^(٤).

١٠- وعن ابن عمر رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ سئل عن الضب فقال: «لست آكله ولا أُحَرِّمُهُ» ^(٥).

فهذا كله حرام لا يجوز أكله، وما عدا ذلك فمرجهه إلى الغالب من عادات العرب.

١١- عن ابن عباس رضي الله عنه قال: كان أهل الجاهلية يأكلون أشياء ويتركون أشياء تقدراً، فبعث الله نبيه، وأنزل كتابه، وأحل حلاله، وحرم حرامه، فما أحل فهو حلال، وما حرم فهو حرام، وما سكت عنه فهو عفو، وتلا: ﴿قُلْ لَا أَجِدُ فِي مَا أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا﴾ الآية ^(٦).

١٢- وعن ابن عباس رضي الله عنه أيضاً قال: ماتت شاة لسودة بنت زمعة، فقالت: يا رسول

(١) من حديث ابن عباس في «المسند» (٣٠٦٦) بإسناد صحيح على شرط الشيخين (محققوه) وأبي داود (٥٢٦٧) وابن ماجه (٣٢٢٤) وابن حبان (٥٦٤٦)، ومصنف عبدالرزاق (٨٤١٥) وعبد بن حميد (٦٥٠) والدارمي (١٩٩٩).

(٢) البخاري (٢٩٩١، ٤١٩٨، ٥٥٢٨) ومسلم (١٩٤٠) وابن أبي شيبة (٧٤/٨).

(٣) «صحيح سنن ابن ماجه» (٢٦٢٨) وابن ماجه (٣٢٤٨) وهو في السلسلة الصحيحة (١٨٢٥).

(٤) «صحيح سنن ابن ماجه» (٢٦٢٠) وأبو داود (٣٨٠١) والترمذي (٨٥١، ١٧٩١) والنسائي (٤٣٥٧، ٤٣٥٨). وإرواء الغليل (١٠٥٠) بتصحيح الألباني.

(٥) الموطأ (٩٦٨/٢) و«شفاء العي» للشافعي (٦١١) وابن أبي شيبة (٧٨/٨) والبخاري (٥٥٣٦) ومسلم (١٩٤٣) والترمذي (١٧٩٠) والنسائي (٤٣٢٥) وابن ماجه (٣٢٤٢)، وصحيح ابن ماجه (٦٢٤).

(٦) صححه الحاكم ووافقه الذهبي في «المستدرک» (١١٥/٤) وهو في «سنن أبي داود» برقم (٣٨٠٠) وصححه الألباني في صحيح أبي داود برقم (٣٢٢٥) وهو عند ابن أبي حاتم (٨٠٠٠).

الله، ماتت فلانة - تعني الشاة - قال: «فَلِمَ لَا أَخَذْتُمْ مَسْكَهَا؟» قالت: نَأْخُذُ مَسْكَ شَاةٍ قَدْ مَاتَتْ؟! فقال لها رسول الله ﷺ: «إِنَّمَا قَالَ اللَّهُ: ﴿قُلْ لَا أَجِدُ فِي مَا أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا﴾ وَإِنِّكُمْ لَا تَطْعُمُونَهُ، أَي تَذُبُّغُوهُ فَتَنْتَفِعُوا بِهِ، فَأَرْسَلْتُ، فَسَلَخْتُ مَسْكَهَا فَدَبَّغْتُهُ، فَاتَّخَذْتُ مِنْهُ قُرْبَةً حَتَّى تَخْرُقَ عِنْدَهَا»^(١).

١٣ - وعن ابن عباس ؓ قال: وجد النبي ﷺ شاة ميتة أعطتها مولاة لميمونة من الصدقة، فقال ﷺ: «هَلَّا انْتَفَعْتُمْ بِجُلْدِهَا؟» قالوا: إنها ميتة! قال: «إِنَّمَا حُرِّمَ أَكْلُهَا»^(٢).

هذا: وقد قيل: إن هذه الآية نزلت قبل تحريم ما زاد عليها من السنة، فهذا الحصر الوارد في الآية لا ينافي ما جاءت به السنة بعد ذلك، لأنه لم يكن محرما وقت نزول الآية.

وقيل: إن الآية مشتملة على سائر المحرمات بعضها صريحا، وبعضها يؤخذ من المعنى ومن عموم العلة.

فمن اضطر إلى الأكل من هذه المحرمات بسبب شدة الجوع، أو ضرورة قاهرة ألجأتَه إلى الأكل من هذه المحرمات، فليأكل ما يسد الرمق من غير تلذذ بأكله، ولا تتجاوز لحد الضرورة التي تقيم الأود، وتحفظ على المرء حياته فلا حرج عليه ولا إثم ﴿فَمَنْ أَضْطَرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَإِنَّ رَبَّكَ غَفُورٌ﴾ له ﴿رَحِيمٌ﴾ به.

هذا ما حرمه على المسلمين، فماذا حرم على اليهود؟

تَحْرِيمُ الْحَلَالِ عَقُوبَةً لِلْيَهُودِ

١٤٦ - ﴿وَعَلَى الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا كُلَّ ذِي ظُفْرٍ وَمِنَ الْبَقَرِ وَالْفَرَسِ حَرِّمْنَا عَلَيْهِمْ شُحُومَهُمَا إِلَّا مَا حَمَلَتْ ظُهُورُهُمَا أَوِ الْحَوَايَا أَوْ مَا اخْتَلَطَ بِعَظْمٍ ذَلِكَ جَزَيْنَهُمْ بِبَغْيِهِمْ وَإِنَّا لَصَدِّقُونَ﴾
لقد كَذَّبَ الله اليهود في قولهم: إن الله لم يحرم علينا شيئا، وإنما حرمنا على أنفسنا ما

(١) «المسند» (٣٢٧/١) برقم (٣٠٢٦) حديث صحيح ورجال ثقات، والبخاري برقم (٦٦٨٦) والنسائي (٧/ ١٧٣) برقم (٤٢٥١) والطبراني برقم (١١٧٦٥، ١١٧٦٦) وابن أبي حاتم (٨٠٠٣، ٨٠٠٥) وأبو يعلى (٢٣٣٤).

(٢) «صحيح البخاري» برقم (١٤٩٢، ٢٢٢١، ٥٥٣١، ٥٥٣٢) و«صحيح مسلم» برقم (٣٦٣، ٣٦٥).

حرّمه إسرائيل على نفسه، فأخبر الله سبحانه في هذه الآية بتحريم الشحوم، وكل ما كان له ظفر من الحيوان، قال تعالى: ﴿وَعَلَى الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا كُلَّ ذِي ظُفْرٍ﴾ أي: أن الله تعالى حرم على اليهود كل ذي ظفر من الحيوان، أي: كل حيوان قدّمه غير مشقوقة؛ وذلك كالإبل، والنعام، والأوز، والبط، وكل ذي حافر من الدواب، والظفر هو الحافر، والمراد به ما ليس بمنفرج الأصابع من الدواب، وحرم عليهم كذلك كل ذي مخلب من الطير، ثم قال سبحانه:

﴿وَمِنَ الْبَقَرِ وَالْغَنَمِ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ شُحُومَهُمَا﴾ أي: أن الله تعالى حرم على اليهود شحوم البقر والغنم، وهي شحم البطن الذي على الكرش والكلى، واستثنى الله تعالى من تلك الشحوم ثلاثة أماكن:

الأول منها: هو الشحم الذي على الظهر والجنب ﴿إِلَّا مَا حَمَلَتْ ظُهُورُهُمَا﴾ من الشحم فإنه غير محرم على اليهود.

والثاني: الشحم الملف بالأمعاء ﴿أَوْ الْحَوَايَا﴾ وهي المباعر والمصارين، والمراد: الشحم الملتصق بهما.

والثالث: الشحم المختلط بعظم؛ لقوله تعالى: ﴿أَوْ مَا اخْتَلَطَ بِعَظْمٍ﴾ كشحم الألية فإنه مختلط بالعصص، والشحم الذي يكون في الجنب والرأس والعين، فكله حلال على اليهود. وهذه الحرمة خاصة باليهود، عقوبة لهم، فلا تحرم على المسلمين، ولو ذبحها اليهود؛ لأنه تحريم مؤقت إلى مجيء الشريعة الخالدة.

في الصحيحين عن جابر بن عبد الله أن رسول الله ﷺ قال: «... قاتل الله اليهود، إن الله لما حرم عليهم شحومها، جملّوه، ثم باعوه وأكلوا ثمنه»^(١). ومعنى (جملّوه) أي: أذابوه.

والمعنى: أن الله تعالى لما حرم عليهم أكل الشحوم حرم عليهم ثمنها فاستحلوا ما حرّم الله وباعوها.

(١) رواه الجماعة: البخاري (٤/٤٢٤) برقم (٢٢٣٦، ٤٢٩٦، ٤٦٣٣) ومسلم (٣/١٢٠٧) برقم (١٥٨١) وأبو داود (٣/٧٥٦) برقم (٣٤٨٦) والترمذي (٣/٥٨٢) برقم (١٢٩٧) والنسائي (٧/٣٠٩) وابن ماجه (٢/٧٣٢) برقم (٢١٦٧) وأوله «إن الله ورسوله حرم بيع الخمر والميتة».

ثم بَيَّنَّ ﷺ أن هذا التحريم كان عقوبة لهم بسبب بغيتهم وظلمهم، وهو قتل الأنبياء، وأكل الربا، وأكل أموال الناس بالباطل ﴿ذَلِكَ جَزَيْنَاهُمْ بِبَغْيِهِمْ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ﴾ فيما أخبرنا به عنهم، من تحريم بعض الطيبات عليهم، وهم الكاذبون في زعمهم أن ذلك إنما حرمه إسرائيل على نفسه وأنهم حرموه على أنفسهم لتحريم إسرائيل له على نفسه، والذي حرمه يعقوب على نفسه، هو لحوم الإبل والبانها بسبب نذر نذره، أو مصلحة بدنية لا تتعداه إلى ذريته، قال تعالى: ﴿كُلْ الطَّعَامِ كَانَ حِلاَءَ لَبَنِي إِسْرَءِيلَ إِلَّا مَا حَرَّمَ إِسْرَءِيلُ عَلَى نَفْسِهِ مِنْ قَبْلِ أَنْ تُنَزَّلَ التَّوْرَةُ﴾ [آل عمران: ٩٣].

وقد أجملت آية سورة النساء ما حرمه الله على اليهود بسبب ظلمهم وجرمهم في قوله تعالى: ﴿فَظَلَمِ مِنَ الَّذِينَ هَادُوا حَرَمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَاتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ وَبِصَدِّهِمْ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ كَثِيرًا﴾ وَأَخَذَهُمُ الرِّبَا وَقَدْ هُمُوا عَنْهُ وَأَكْلَهُمْ أَمْوَالُ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ ﴿[النساء: ١٦٠، ١٦١].

فسبب هذا التحريم خاص باليهود، ويعقوب لم يحرم على نفسه شيئاً .

وعن ابن عباس ؓ أن النبي ﷺ كان قاعدا خلف المقام، فرفع بصره إلى السماء فقال: «لعن الله اليهود -ثلاثاً-، إن الله حرم عليهم الشحوم، فباعوها وأكلوا ثمنها، إن الله لم يحرم على قوم أكل شيء إلا حرم عليهم ثمنه»^(١).

١٤٧- ﴿فَإِنْ كَذَّبُوكَ فَقُلْ رَبُّكُمْ ذُو رَحْمَةٍ وَاسِعَةٍ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُهُ^(٢) عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ﴾ (١٧)

ثم لقَّن الله رسوله الجواب في تحريم كل ذي ظفر وبعض الشحوم، وهذا شأن اليهود في التكذيب، فقد كذبوا ما حرمه الله عليهم من اللحوم، وقالوا: إن ما حرمه إسرائيل فنحن نحرمه، كما قال السدي .

قال تعالى في الرد عليهم: فَإِنْ كَذَّبَكَ-يا محمد-اليهودُ فيما أخبرتهم به مما حرمه الله

(١) يُنْظَرُ «صحيح البخاري» برقم (٢٢٢٤) و«صحيح مسلم» برقم (١٥٨٣) عن أبي هريرة وأبي داود برقم (٣٤٨٨) من حديث خالد الحذاء وصحيح «سنن أبي داود» (٢٩٧٨) وأحمد (٢٤٧/١) برقم (٢٢٢١)، (٢٦٧٨) وابن مردويه وابن عبد البر في «التمهيد» (٤٤/٩).

(٢) أبْدَلَ همزة (بأسه) أبو عمر ويخلف عنه وأبو جعفر، وكذا حمزة عند الوقف.

عليهم، وقالوا: لم يحرم علينا شيء، وإنما حرمنا ما حرم يعقوب على نفسه، فقل لهم متعجباً ومذكراً لهم برحمة الله وعذابه: ربكم جلّ وعلا ذو رحمة واسعة تشمل المحسن والمسيء، والمؤمن وغير المؤمن، ومن مظاهر رحمته جلّ وعلا أنه لم يعجل لكم العقوبة في الدنيا؛ لأن بعضكم قد يتوب. ومن رحمته سبحانه إمهال الكافر في هذه الدنيا، وعدم التعجيل بأخذه قبل أن يأتي أجله ﴿فَإِنْ كَذَّبُوكَ﴾ أي فإن كذبت اليهود، فاستمر في دعوتك بالترغيب والترهيب، وأخبرهم بياس الله وانتقامه.

﴿فَقُلْ رَبُّكُمْ ذُو رَحْمَةٍ وَاسِعَةٍ﴾ ولا تغتروا بسعة رحمة الله؛ فإن له بأساً وانتقاماً وبقدّر ما يطمع العصاة في رحمة الله تعالى بقدر ما يجب عليهم أن يرهبوا بأس الله تعالى؛ فإن عقاب الله تعالى وعذابه إذا نزل بمن كذب أنبياء الله وكفر بما جاؤوا به، وكذا نقمته ممن اجترح السيئات واكتسب الذنوب، ليس في وسع أحد أن يرده، أو يدفعه.

وفي الآية ترغيب في رحمة الله تعالى، وترهيب من مخالفة أمره، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ الْعِقَابِ وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [الأنعام: ١٦٥].

وقال سبحانه: ﴿غَافِرِ الذَّنْبِ وَقَابِلِ التَّوْبِ شَدِيدِ الْعِقَابِ﴾ [غافر: ٣].

وقال أيضاً: ﴿نَبِّئِ عِبَادِيَ أَنِّي أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ [١٩] وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ الْعَذَابُ الْأَلِيمُ ﴿٥٥﴾ [الحجر].

ثم ختم الله الآية بقوله: ﴿وَلَا يَرُدُّ بَأْسُهُمْ عَنِ الْقَوَامِ الْمُجْرِمِينَ﴾ أي: إن عقاب الله تعالى لا يمنعه مانع إذا نزل بهم بسبب استمرارهم في العناد والتكذيب، فاحذروا عقاب الله، ولا تأمنوا مكره.

وفي هذا تهديد ووعد لهم، وتحذير من الكفر والطغيان والبغي والعدوان؛ حتى يعتبروا ويعودوا إلى الحق.

الْعِبَادُ مُخَيَّرُونَ وَلَيْسُوا مُسَيَّرِينَ

١٤٨- ﴿سَيَقُولُ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا وَلَا آبَاؤُنَا وَلَا حَرَمْنَا مِنْ شَيْءٍ كَذَلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ حَتَّى ذَاقُوا بَأْسَنَا قُلْ هَلْ عِنْدَكُمْ مِنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَا إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ أَنْتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ﴾ [١٨٨]

بَيَّن سبحانه في هذه الآية أن المشركين سيحتجُّون على شركهم وتحريمهم ما أحل الله، بالقضاء والقدر، ويجعلون مشيئة الله تعالى حجة في دفع اللوم عنهم، فبيَّن سبحانه أنه لا حجة للمشركين في قولهم: ﴿لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا﴾ وذلك أنه عندما يضيق الخناق على اليهود الذين يحرمون ما أحل الله، وعندما يضيق الخناق على أهل الشرك والضلال وتلزمهم الحجة، يُلقَّون باللائمة على غيرهم، فيقولون: إنهم مجبرون لا مخيرون، ولو شاء الله لألهمنا الإيمان، وحال بيننا وبين الكفر والشرك، فلو شاء الله لنا الهداية لاهتدينا، ولو أراد الله ألا نشرك به شيئاً نحن وآباؤنا لفعَل، ولو أراد الله ألا نُحرِّم شيئاً، ما فعلنا ذلك، وهذه شبهة قديمة متجددة: ﴿سَيَقُولُ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا وَلَا آبَاؤُنَا وَلَا حَرَمْنَا مِنْ شَيْءٍ﴾ وهذا كلام باطل، كما يقول بعضهم: هذه إرادة الله وهذه مشيئته، والمكلف من خلق الله لا يعرف مشيئة الله ولا إرادته، وهو مكلف بتنفيذ الأوامر واجتناب النواهي، والله تعالى قادر على هداية الناس جميعاً، ولكنه سبحانه خلق لذلك خلقاً آخر هم الملائكة، فلسنا نسخة مكررة منهم، وهم لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون.

ولم يشأ الله سبحانه أن يجعلنا كالبهائم بلا عقول، ولا تكليف، ولا قدرة لنا على اختيار الهدى والضلال، وإنما جعل الله الإنسان خلقاً متميزاً بعقله وشهوته، وإرادته وقدرته على اختيار طريق الحق أو الضلال، فإن اختار طريق الهدى فهو من السعداء، وإن اختار طريق الضلال فهو من الأشقياء.

والله سبحانه لم يتركنا لعقولنا فحسب، بل أرسل لنا الرسل وأنزل علينا الكتب، وبيَّن الخير والشر، فعلى المكلف أن يأتمر بما أمره الله، ويتنهي عما نهى الله، ولا يُلقِي بالتَّبِعة على غيره إذا ضل الطريق، وينسبها إلى إرادة الله التي لا يعرفها، وعلى المؤمن أن يعتقد أنه لا يقع في مُلك الله إلا ما يريد؛ لأن الله تعالى لا يخفى عليه شيء في الأرض ولا في السماء، فهو سبحانه يعلم ما هو كائن وما سيكون وما كان، فليس للمشركين عذر في ترك الإيمان، وليس لهم حجة فيما فعلوه؛ لأن الله تعالى لم يأمر بكل ما أراد، وعلى العبد أن يتَّبِع أمره سبحانه، وليس له أن يتعلق بمشيئته تعالى؛ فإن مشيئته، سبحانه، ليست عذراً

لأحد في مخالفته لأمر الله تعالى ونهيه، فالله تعالى يشاء الكفر من الكافر، ولكنه لم يأمره به، ونهاه عنه، وأوامر الله تعالى ونواهيه معلومة على وجه القطع، ولا يصح ترك ما هو قطعي إلى الحدس والظن الذي يظنونه؛ فإن مشيئة الله تعالى غيب ولا سبيل إلى معرفتها.

وهذه الآية من معجزات القرآن، فهي تُخبر بأمر غيبي، هو أن المشركين سيقولون ذلك

ثم إن الله، تعالى، يرد عليهم مقولتهم الكاذبة في قولهم: ﴿لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا﴾ بقوله: ﴿كَذَلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ حَتَّى ذَاقُوا بَأْسَنَا﴾ أي: أن هذه الشبهة قد أثارها من قبلهم، وكذبوا بها رسل الله، واستمروا على ذلك حتى ذاقوا بأس الله ونقمته. ﴿وَإِذَا فَعَلُوا فَحْشَةً قَالُوا وَجَدْنَا عَلَيْهَا آبَاءَنَا وَاللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا قُلْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ أَتَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [الأعراف: ٢٨].

وبمثل هذا التكذيب كَذَّبَ من قبلهم ممن انغمس في الضلال من خلق الله، وفي هذا إشارة إلى أنهم لم يعتذروا عن ارتكاب القبائح، وإنما أرادوا الاحتجاج على أن ما فعلوه من تحريم الحرث والزرع، حق مشروع مَرْضِيٌّ عند الله تعالى، وهذا كقوله تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا عَبَدْنَا مِن دُونِهِ مِن شَيْءٍ نَّحْنُ وَلَا ءَابَاؤُنَا وَلَا حَرَمْنَا مِن دُونِهِ مِن شَيْءٍ كَذَلِكَ فَعَلَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ [النحل: ٣٥].

وقوله: ﴿وَقَالُوا لَوْ شَاءَ الرَّحْمَنُ مَا عَبَدْنَاهُمْ مَا لَهُم بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ﴾ [الزخرف: ٢٢].

ولا شك أن كل شيء بمشيئة الله، وهذا لا يعني أن كل ما تعلق به المشيئة هو أمر مشروع ومَرْضِيٌّ عنه؛ فالله تعالى لا يأمر بالفحشاء، ولا يرضى لعباده الكفر.

﴿إِنْ تَكْفُرُوا فَإِنَّ اللَّهَ عَنِّي عَنكُمْ وَلَا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ الْكُفْرَ وَإِنْ تَشْكُرُوا يَرْضَهُ لَكُمْ﴾ [الزمر: ٧].

ثم إن الله تعالى يطالبهم بإقامة الدليل على مزاعمهم في قوله: ﴿قُلْ هَلْ عِندَكُمْ مِّنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَا﴾ وفي هذا توبيخ لهم، وإنكار عليهم، أي: هل عندكم فيما أشركتموه مع

الله، وما حرمتوه من الحرث والأنعام، وما زعمتموه من أن الله تعالى قد شاء لكم الكفر ورضيه منكم وأحبه لكم، هل عندكم من علم صحيح ودليل واضح فتظهموه لنا؟ وقد بينا لكم خطأ قولكم وتناقض فعلكم المبني على الخرص والظن ﴿إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ﴾ فلا تكذبوا على الله، ولا تتقوّلوا عليه بالباطل، وإذن فليس لكم حجة فيما زعمتم؛ لأنه تخمين بلا علم ولا يقين ﴿وَإِنْ أَنْتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ﴾ تتوهمون وتكذبون على الله بلا حجة ولا مستند. قال تعالى:

١٤٩- ﴿قُلْ فَلِلَّهِ الْحُجَّةُ الْبَالِغَةُ فَلَوْ شَاءَ لَهَدَيْتُكُمْ أَجْمَعِينَ﴾

ومادامت حجبتكم قد انقطعت؛ لأنها تقوم على الظن والتخمين وسوء التأويل؛ فإن لله تعالى الحجة البالغة على عباده بإرسال الرسل وإنزال الكتب، ولا حجة لمن عصى الله تعالى أو أشرك به؛ لأن حجة الله الواضحة تقطع كل ظن وتخمين، والله تعالى لا يعجزه شيء ﴿فَلَوْ شَاءَ لَهَدَيْتُكُمْ أَجْمَعِينَ﴾ ولكنه سبحانه لم يشأ أن يوفق الجميع لطريق الاستقامة، ولو شاء الله إيمان الكافر لفعل، ولكنه سبحانه لا يسأل عما يفعل.

ونظير هذا قوله تعالى: ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى الْهُدَى﴾ [الأنعام: ٣٥].

وقوله: ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَأَمَنَّ مَن فِي الْأَرْضِ كُلَّهُمْ جَمِيعًا﴾ [يونس: ٩٩].

وقوله سبحانه: ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً﴾ [هود: ١١٨].

ولكنه سبحانه ترك لخلق حرة الاختيار وتوعد الخارجين عن طاعته بنار تحيط بهم، وماء يشوي الوجوه ويقطع الأمعاء: ﴿وَقُلِ الْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَمَن شَاءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَاءَ فَلْيُكْفِرْ إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا وَإِن يَسْتَغِيثُوا يُغَاثُوا بِمَاءٍ كَالْمُهْلِ يَشْوِي الْوُجُوهَ بِئْسَ الشَّرَابُ وَسَاءَتْ مُرْتَفَقًا﴾ [الكهف: ٢٦].

والمعنى: قل، يا أيها الرسول، للذين بنوا قواعد دينهم على أدنى درجات الظن والتخمين: لله وحده الحجة الواضحة، التي بلغت أعلى درجات العلم واليقين، فلا عذر لهم في شركهم بالله تعالى، ولو شاء، سبحانه، لصرف اختيارهم إلى طريق الحق، ولكن الله تعالى جعل في طبيعة البشر الاستعداد للخير والشر، ووهبهم العقل، وأرسل لهم الرسل لتنمية استعدادهم للخير، وعلى هذا فهم معاقبون على اختيارهم طريق الضلال،

ومأجورون على اختيارهم طريق الهدى، وسنة الله تعالى قد اقتضت أن من يفتح عينيه يبصر النور، ومن يفتح قلبه ير دلائل الإيمان ويهتد بها، ومن يحجب قلبه عنها يضل، فلا جبر على طاعة الله، ولا قسر على معصيته ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى وَاتَّقَى﴾ ٥ ﴿وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى﴾ ٦ ﴿فَسَيَسِرُّهُ لِّلْيسْرَى﴾ ٧ ﴿وَأَمَّا مَنْ يَخَلْ وَاسْتَغْنَى﴾ ٨ ﴿وَكَذَبَ بِالْحُسْنَى﴾ ٩ ﴿فَسَيَسِرُّهُ لِّلْعُسْرَى﴾ ١٠ ﴿[الليل]. ومما سبق يتبين أن الاحتجاج بالقضاء والقدر، لو كانت حجة صحيحة لدفعت عنهم العقاب ولما استحقوا العذاب، فعلم أنها حجة فاسدة من عدة أوجه:

- ١- لو كانت حجة صحيحة لم تحل بهم العقوبة.
- ٢- لا بد أن تكون الحجة مستندة إلى العلم والبرهان لا إلى الظن والتخمين.
- ٣- الحجة البالغة هي التي تتفق عليها الرسل والكتب والعقول الصحيحة، وما خالف ذلك يكون باطلاً.
- ٤- لو كلف الله أحداً فوق طاقته لكان الاحتجاج بالقضاء والقدر ظلم محض، وحاشا لله.
- ٥- خلق الله الخلق مختارين لا مجبرين، فلا يحتاج على أفعالهم بالقضاء والقدر.
- ٦- لو أساء إلى الإنسان أحد، ثم احتج بأن هذا قضاء وقدر، ما قبل منه ولا رضى حُجته.
- ٧- إن المكذبين ليس مقصودهم الاحتجاج بالقضاء والقدر، وإنما المقصود دفع الحق ورده.

تَحْرِيمُ مَا أَحَلَّ اللَّهُ يَفْتَقِرُ إِلَى الدَّلِيلِ وَالْبَيِّنَةِ

- ١٥٠- ﴿قُلْ هَلَمْ شَهِدَافُكُمُ الَّذِينَ يَشْهَدُونَ أَنَّ اللَّهَ حَرَّمَ هَذَا فَإِنْ شَهِدُوا فَلَا تَشْهَدُ مَعَهُمْ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ كَذَبُوا بِآيَاتِنَا وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ وَهُمْ بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ﴾ ١٥١.
- وفي نهاية هذه الآيات التي تنعى على المشركين تحريمهم على أنفسهم ما أحله الله لهم من الحرث والأنعام، يأمر الله تعالى رسوله ﷺ بأن يطلب منهم إقامة الدليل وإحضار الشهود الذين يشهدون أن الله تعالى حرّم عليهم ما حرّمه على أنفسهم من الحرث والأنعام، فهي مواجهة للمشركين في قضية الإشهاد على التشريع، كما واجههم في موقف الإشهاد على قضية الألوهية في أوائل السورة في قوله تعالى:
- ﴿قُلْ أَيُّ شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهِدَةً قُلِ اللَّهُ شَهِيدٌ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ﴾ [الأنعام: ١٩].

وهنا يقول سبحانه: ﴿قُلْ﴾ لمن حرم ما أحل الله ونسب ذلك إلى الله ﴿هَلُمَّ شُهَدَاءَكُمْ﴾ أحضروا شهداءكم ﴿الَّذِينَ يَشْهَدُونَ أَنَّ اللَّهَ حَرَّمَ هَذَا﴾ والمقصود بذلك تبكيتهم وإلزامهم الحجة، وبيان أنه لا يوجد عندهم علم نافع، ولا دليل صحيح يظهره، على ما شرّعه لأنفسهم، ولا شاهد عدل يشهد لهم بذلك.

ولو فُرض أنهم شهدوا على أنفسهم كذباً وزوراً فلا تصدقهم، وتجنّب شهادتهم، وقد أمره الله بذلك؛ ليلزمهم الحجة ويلقمهم الحجر، وألاً يسلم لهم بما شهدوا به، ولا يصدقهم؛ لأنه إذا سلم بشهادتهم فكأنه شهد معهم مثل شهادتهم، وهذا معنى: ﴿فَإِنْ شَهِدُوا فَلَا تَشْهَدْ مَعَهُمْ﴾؛ لأنهم كاذبون في شهادتهم. فهم إما أنهم لا يُحْضِرُونَ أحداً يشهد لهم، فتكون دعواهم باطلة لخلوها من الشهود والبرهان، وإما أنهم يُحْضِرُونَ أحداً يشهد لهم، ولا يمكن أن يشهد بهذا إلا كل أفاك أثيم، ولهذا نهى الله رسوله عن هذه الشهادة.

أي: ولا توافق أهواء الذين حَكَمُوا أهواءهم، وجمعوا بين الكفر والكذب، فكذبوا بآيات الله الكونية التي تشهد بأنه سبحانه الخالق الرازق، وكذبوا أيضاً بآيات الله في هذا القرآن، وهي دلائل صريحة وحاسمة في وجوب إفراد الله تعالى بالعبادة، وأن له، وحده، حق التشريع والتحليل والتحريم ﴿وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ كَذَبُوا بِآيَاتِنَا وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ﴾ فقد جمعوا بين التكذيب بآيات الله الكونية والقرآنية، وبين عدم الإيمان باليوم الآخر، وما فيه من بعث وحشر وحساب وجزاء، وهم في النهاية يشركون بربهم، ويعبدون معه غيره، فيعدلون به عبادة غيره ﴿وَهُمْ بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ﴾.

وقد وصف الله المشركين في الآية بوصفين:

أحدهما: الكذب واتباع الهوى.

وثانيهما: الكفر باليوم الآخر، والعدول عن عبادته سبحانه إلى عبادة غيره.

وقد ختم الله هذه الآيات بالجملة التي ختم بها أول آية في السورة ﴿وَهُمْ بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ﴾.

ومادام الله سبحانه لم يُحَرِّمْ على خلقه ما حرّمه المشركون على أنفسهم من الزروع والثمار والأنعام، في جعلهم لله نصيباً، وللآلهة نصيباً، وفي تحريمها على الإناث دون الذكور، وفي تحريم البحيرة والسائبة والوصيلة والحام، فماذا حرّم ربنا علينا؟ الجواب في الآيات الثلاث الآتية.

الْوَصَايَا الْعَشْر

١٥١- ﴿قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبِّي عَلَيْكُمْ أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ مِنْ إِمْلَاقٍ نَحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِنَّهُمْ لَوَاقِحٌ وَلَا تَقْرَبُوا الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنٌ وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ ذَلِكَ وَصَّيْتُكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿١٥١﴾﴾

في الآيات الثلاث التالية بيان ما حَرَّمَ ربنا علينا، وأمر من الله ﷻ إلى رسوله ﷺ أن يدعو جميع الخلق إلى سماع تلاوة ما حرمه ربهم عليهم، وهي عشر محرمات، أو عشر وصايا؛ لأن في آخر كل منها ﴿ذَلِكَ وَصَّيْتُكُمْ بِهِ﴾ وهذه الوصايا على أربعة أقسام:

الأول: إصلاح العقيدة، وقد جاء ذلك في أول وصية منها.

الثاني: أربع وصايا لإصلاح الحالة الاجتماعية العامة بين الناس، جاءت كلها في الآية الأولى.

الثالث: أربع وصايا لحفظ نظام التعامل بين الناس، جاءت كلها في الآية الثانية.

الرابع: وصية جامعة لسبيل الهدى واتباع الحق، والتحرز من طرق الضلال، جاءت في الآية الثالثة.

وهذه المحرمات العشر، أو الوصايا العشر، جاء بها الإسلام في القرآن، كما جاءت على ألسنة الرسل جميعاً، جاء بها موسى في التوراة، وجاء بها عيسى في الإنجيل، بل وجاءت في الديانات الأرضية كالبودية، وقال عنها بعض المشركين: لو لم تكن هذه الوصايا ديناً، لكانت في الناس حُلُقاً حسناً، وهي آيات مكية نزلت في صدر الدعوة، وكان لها أثر فعال في إقبال كثير من المشركين على الإسلام. ومما ورد في فضلها من الأحاديث ما جاء:

١- عن عبادة بن الصامت ؓ قال: قال رسول الله ﷺ: «أَيْكُمْ بِيَايَعَنِي عَلَى ثَلَاث؟ ثُمَّ تَلَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: ﴿قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبِّي عَلَيْكُمْ﴾ حتى فرغ من الآيات، فمن وَفَّى فأجره على الله، ومن انتقص منهم شيئاً فأدركه الله به في الدنيا كانت عقوبته، ومن أخر إلى الآخرة، فأمره إلى الله، إن شاء عذبه وإن شاء عفا عنه»^(١).

(١) البخاري في الحدود (٦٧٨٤) ورقم (١٨) من حديث الزهري وفي مواضع كثيرة، منها: (٣٩٩، ٣٨٩٢،

٧٤٦٨) ومسلم في الحدود (١٧٠٩) والترمذي في الحدود (١٤٣٩) وقال: حسن صحيح، والنسائي (٧/

١٤٢) والحاكم في «المستدرک» (٣١٨/٢) وقال: صحيح الإسناد ولم يخرجاه، ووافقه الذهبي.

٢- وعن ابن مسعود رضي الله عنه قال: من سره أن يقرأ صحيفة رسول الله التي عليها خاتمه، فليقرأ هؤلاء الآيات ﴿قُلْ تَكَلَّوْا أَتْلُو﴾ إلى قوله: ﴿لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾^(١).

٣- وروى البيهقي عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه قال: لما أمر الله نبيه ﷺ أن يعرض نفسه على قبائل العرب، خرج إلى منى، وأنا وأبو بكر معه، فوقف رسول الله ﷺ على منازل القوم ومضاربهم، فسلم عليهم، وردوا عليه السلام، وكان في القوم مفروق بن عمرو، وهانئ بن قبيصة، والمثنى بن حارثة، والنعمان بن شريك، وكان مفروق أغلب القوم لساناً، وأفصحهم بياناً، فالتفت إلى رسول الله ﷺ، وقال له:

إلام تدعوننا يا أبا قريش؟ فقال النبي ﷺ: «أدعوكم إلى شهادة أن لا إله إلا الله، وحده لا شريك له، وأني رسول الله، وأن تؤؤوني وتنصروني وتمنعوني؛ حتى أؤدي حق الله الذي أمرني به، فإن قريشاً تظاهرت على أمر الله، وكذبت رسوله، واستغنت بالباطل عن الحق، والله هو الغني الحميد».

فقال له مفروق: وإلام تدعو أيضاً يا أبا قريش؟ فتلا رسول الله ﷺ ﴿قُلْ تَكَلَّوْا أَتْلُو مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ﴾ إلى آخر الآيات الثلاث.

قال مفروق: وإلام تدعو أيضاً يا أبا قريش؟ فوالله ما هذا من كلام أهل الأرض، ولو كان من كلامهم لعرفناه، فتلا رسول الله ﷺ: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ﴾ الآية فقال له مفروق: دعوتُ والله يا أبا قريش إلى مكارم الأخلاق، ومحاسن الأعمال، وقد أفك قوم كذبوك، وظاهروا عليك.

وقال هانئ بن قبيصة: قد سمعتُ مقاتلك، واستحسنْتُ قولك يا أبا قريش، ويعجبني ما تكلمت به، فبشرهم الرسول -إن آمنوا- بأرض فارس وأنهار كسرى. فقال له النعمان: اللهم وإن ذلك لك يا أبا قريش؟ فتلا رسول الله ﷺ: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَهِيداً وَمُبَشِّراً وَنَذِيراً﴾ وداعياً إلى الله بإذنه وسراجاً منيراً ﴿٤١﴾ [الأحزاب].

ثم نهض رسول الله ﷺ قابضاً على يد أبي بكر^(٢).

(١) رواه الترمذي (٦٤/٥) والحاكم (٣١٧/٢) وقال الذهبي: صحيح، وفيه داود الأزدي وهو ضعيف.

(٢) أخرجه أبو نعيم (٢١٤) والبيهقي (٤٢٢/٢) كلاهما في «الدلائل».

أما نصوص هذه الوصايا العشر في التوراة:

فأولها: أنا الرب إلهك الذي أخرجك من أرض مصر، من بيت العبودية، لا يَكُنْ لَكَ إلهٌ غيري.

ومنها: أَكْرِمْ أَبَاكَ وَأُمَّكَ؛ ليطول عمرك في الأرض التي يعطيك الرب إلهك، لا تقتل، لا تزن، لا تسرق، لا تشهد على قريبك شهادة زور، ولا تشته بنت قريبك، ولا تشته امرأة قريبك، ولا عبده، ولا أُمَّتَهُ، ولا ثورَهُ، ولا حمارَهُ، ولا شيئاً مما لقريبك.

وقد أقسم كعب الأخبار على أن ﴿قُلْ تَعَالَوْا﴾ أول آية في التوراة، فلعله أراد هذه الوصايا التي غني بها اليهود عناية عظيمة.

وقد كتبها أهل الزبور في آخر زبورهم، وأهل الإنجيل في أول إنجيلهم، وهي مكتوبة في لَوْحَيْنِ^(١).

وتأتي هذه الوصايا في مقابلة أوهام أهل الجاهلية، في تحريم ما أحل الله من الزروع والثمار والأنعام؛ لتأخذ بيد المسلم إلى قوام هذا الدين، وارتباط العبد بربه وبأسرته ومجتمعه وبالإسانية جمعاء، وفيها إشارة إلى أن الحقائق الأولى التي قامت عليها السورة، وأولها قضية التوحيد ثم الوحي والرسالة، أصبحت واضحة، لا مفر منها، فالله يأمر، والرسول يبلغ، ونحن نتلقى ونعمل.

وقد جاء خمسٌ من هذه الوصايا بصيغة الأمر، وخمسٌ منها بصيغة النهي، والأمر بالشيء يقتضي النهي عن ضده، والعكس صحيح.

﴿قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ﴾ قل يا أيها الرسول الكريم لهؤلاء الذين حللوا وحرّموا حسب أهوائهم: تعالوا لأبين لكم ما حرّمه ربكم عليكم، ولأتلو على مسامعكم ما أمركم به وما نهاكم عنه، فإن استجبتم وأطعتم سعدتم في دنياكم وأخراكم:

الْوَصِيَّةُ الْأُولَى: ﴿أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا﴾

توحيد الله تعالى، وعدم الإشراف به، هو العقيدة الحقة والقاعدة الأساس، قبل الدخول في التكاليف الشرعية والفرائض والأحكام.

والشرك بالله هو المحرم الأول، والمنكر الأول، والظلم الأعظم، والجرم الأكبر،

(١) عن «فتح القدير» للشوكاني (٢/ ١٨٤).

وهو الذنب الذي لا يغفر إذا مات العبد عليه ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ﴾ [النساء: ٤٨، ١١٦]. ومن مات على غير الشرك من الذنوب، فأمره إلى الله، إن شاء غفر له وإن شاء عذبه، وهو داخل في قوله تعالى: ﴿وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ﴾ [النساء: ٤٨، ١١٦]. وهذا هو شرك العقيدة، والشرك الأكبر.

وعن أبي ذر رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «يقول الله تعالى: يا بن آدم، إنك ما دعوتني ورجوتني فأني أغفر لك على ما كان منك ولا أبالي، ولو أتيتني بقراب الأرض خطايا، أتيتك بقرابها مغفرة، ما لم تشرك بي شيئاً، وإن أخطأت حتى تبلغ خطاياك عنان السماء، ثم استغفرتني غفرت لك»^(١).

وعن ابن مسعود رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «من مات لا يشرك بالله شيئاً دخل الجنة»^(٢). والحديث يشير إلى أن أصحاب الكبائر لا يخلدون في النار، وأن ارتكاب الكبائر لا يسلب اسم الإيمان عن العبد بصفة دائمة، وأن غير الموحدين لا يدخلون الجنة. وجاء في الحديث: «أن أعظم الذنوب عند الله تعالى أن تجعل لله نداً وقد خلقك»^(٣).

ومن هذا القبيل ما يعتقده النصارى في نسبة الولد إلى الله تعالى، أو القول بالتثليث. ومن شرك العقيدة ما يفعله بعض المتصوفة من الاعتقاد في عبد من عباد الله -حي، أو ميت- ليرفع له عملاً إلى الله تعالى، أو يتوسط له عنده سبحانه، كما قال تعالى عن المشركين: ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى﴾ [الزمر: ٣]. ومن ذلك أن يعتقد العبد النفع والضرر من غير الله سبحانه.

ومع أن الله تعالى أقرب إلى عبده من حبل الوريد فإن بعض الناس إذا قيل له: اعبد الله وحده لا يقبل، ولا يستريح إلا إذا أشرك معه غيره ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا إِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ

(١) أصله في «صحيح مسلم» (٢٠٦٨/٤) برقم (٢٦٨٧) بمعناه و«سنن الترمذي» برقم (٢٤٩٥) وقال: هذا حديث حسن، و«سنن ابن ماجه» برقم (٤٢٥٧) ومسنند أحمد (٢١٣١١) مختصراً وبأطول منه في (٢١٣٦٠) و(٢١٣٦٨) وهو حديث حسن، والطيالسي (٤٦٤) والبزار في مسنده (٣٩٨٨).

(٢) «صحيح مسلم» (٩٤/١) برقم (٩٢) والبخاري (١١٠/٣) برقم (١٢٣٨، ٤٤٩٧، ٦٦٨٣) وأحمد برقم (٤٠٣٨، ٣٦٢٥).

(٣) يُنظر نصه في «البخاري» (١٦٣/٨) برقم (٤٤٧٧، ٦٨١١) ومسلم (٩٠/١) برقم (٨٦).

يَسْتَكْبِرُونَ ﴿٢٥﴾ [الصافات]. ﴿وَإِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَحْدَهُ اشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ وَإِذَا ذُكِرَ الَّذِينَ مِنْ دُونِهِ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿٢٥﴾﴾ [الزمر].

ومن أنواع الشرك: شرك العباد، بمعنى أن يتوجه العبد بعبادته لغير الله تعالى، والعبادة أنواع كثيرة، فمنها: الخوف، والرجاء، والذبح، والنذر، والدعاء، والاستغاثة، ونحو ذلك.

فمن صرف شيئاً، من هذه العبادات ونحوها، لغير الله تعالى فقد أشرك بالله شركاً أكبر ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ مَنْ لَا يَسْتَجِيبُ لَهُ إِلَى يَوْمِ الْقِيَمَةِ وَهُمْ عَنْ دُعَائِهِمْ غَفِلُونَ ﴿٥﴾﴾ وَإِذَا حُشِرَ النَّاسُ كَانُوا لَهُمْ أَعْدَاءً وَكَانُوا بِعِبَادَتِهِمْ كَافِرِينَ ﴿٦﴾﴾ [الأحقاف].

ومن أنواع الشرك: الشرك في التشريع والحكم، بأن يتلقى العبد شرعاً أو حكماً من غير الله تعالى، فيعتقد أنه أنسب وأصلح للبشر من شرع الله تعالى فيحكم به، أو يحكمه بين الناس، ويرى أن شرع الله تعالى غير مناسب لهذا الزمن ﴿أَمْ لَهُمْ شُرَكَاءُ شَرَعُوا لَهُمْ مِنَ الدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنْ بِهِ اللَّهُ﴾ [الشورى: ٢١].

والعبد لا يكون مؤمناً إلا إذا رضي وسلم، واقتنع بحكم الله تعالى، ورأى أنه يصلح لكل زمان ومكان ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِي مَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجاً مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيماً ﴿٦٥﴾﴾ [النساء].

الْوَصِيَّةُ الثَّانِيَّةُ: ﴿وَالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا﴾

والإحسان إلى الوالدين يكون بالقول الكريم والفعل الجميل، ولين الجانب، وقضاء الحاجج، وعدم إهانتهم بقول أو فعل أو همز أو لمز، وهو ضد العقوق.

وجاء في القرآن الكريم الإحسان إليهما مقروناً بتوحيد الله سبحانه، كما جاء عقوقهما مقروناً بالإشراك بالله سبحانه، فبرُّ الوالدين في المرتبة الثانية بعد التوحيد، وعقوق الوالدين هو الذنب الثاني بعد الشرك، وحق الوالدين هو الحق الثاني بعد حق الله سبحانه، وللوالدين الفضل الثاني على الولد بعد فضل الله سبحانه؛ فهما السبب المباشر في وجود العبد في هذه الحياة.

جاء هذا الأمر مقررًا في القرآن الكريم في سبعة مواضع، وقد أمر الإسلام ببر الوالدين وإن كانا غير مسلمين، ولا طاعة لمخلوق في معصية الخالق ﴿وَإِنْ جَاهِدَاكَ عَلَىٰ أَنْ تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ

لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطْعَمُهُمَا وَصَاحِبَهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفًا وَاتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَيَّ ﴿١٥﴾ [لقمان: ١٥].

أمر الإسلام ببر الوالدين وإن كانا ظالمين، ففي الأثر: (عليك ببرهما وإن ظلما) فالآباء يجتهدون في تربية الأبناء، وقد يخطئون، فهم بشر، قد يسيء الأب التربية، قد يقصر في حق ابنه، قد يورث، أو يهب، أو يوصي لبعض أبنائه دون بعض أو لغيرهم، قد يفضل الوالد بعض الأبناء على بعض، وفي هذا ونحوه لا ينبغي للابن أن ينتقم لنفسه من أبيه، أو يحاسبه في الكبر، أو يعدد مساوئه وينسى حسناته، وإنما يجب عليه البر والطاعة، والإحسان في جميع الأحوال، وحساب والده على الله.

عن ابن مسعود رضي الله عنه قال: «سألت رسول الله ﷺ: أيُّ العمل أحب إلى الله تعالى؟ قال: الصلاة على وقتها، قلت: ثم أيُّ؟ قال: بر الوالدين، قلت: ثم أيُّ؟ قال: الجهاد في سبيل الله»^(١).
وقد جاءت الوصية بالوالدين بصيغة الأمر الواجب فعله، ولم تأت بصيغة النهي الذي هو لمجرد الترك.

وصح عن رسول الله ﷺ من حديث أبي ذر رضي الله عنه أنه قال: «رغم أنف من أدرك أبويه، أحدهما أو كلاهما، ثم لم يدخل الجنة»^(٢) ثلاث مرات.

وقد أمّن النبي ﷺ ثلاث مرات، على أن من أدرك أبويه، أحدهما أو كلاهما، ولم يحسن إليهما، ويكون برهما سبب في دخوله الجنة، أنه مبعد ومطرود من رحمة الله تعالى.

والإحسان إلى الوالدين يمتد إلى ما بعد موتهما، بالدعاء والاستغفار لهما، وصلة الرحم التي لا توصل إلا بهما، وإكرام صديقيهما، وإنفاذ وصيتهما في طاعة الله والرسول.

وقد أوصى الله الأبناء بالآباء، ولم يوصِ الآباء بالأبناء؛ لأن الله سبحانه يعلم أن حنوَّ الوالد على ولده أمر فطري غريزي في الإنسان، لا يحتاج إلى وصية.

الْوَصِيَّةُ الثَّالِثَةُ: ﴿وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ مِمَّنْ إِمْلَقْتُمْ نَحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ﴾

(١) البخاري (٩/٢) برقم (٥٢٧، ٢٧٨٢، ٥٩٧٠، ٧٥٣٤) ومسلم (٨٨/١) برقم (٨٥) والترمذي (٣٢٥/١) والنسائي (٢٩٢/١) وأحمد (٤٠٩/١) وغيرهم.

(٢) يُنظَر «صحيح البخاري» برقم (٥٨٢٧) و«صحيح مسلم» برقم (٩٤) عن أبي ذر.

أي: لا تقتلوا أولادكم من ذكور وإناث، خوف فقر حاصل نزل بكم؛ أو خوف فقر متوقع، كما كان أهل الجاهلية يفعلونه، فإن الله تعالى يرزقكم وإياهم -والولد يشمل الذكر والأنثى- ومما لا شك فيه أن الحياة حق للصغار كما هي حق للكبار، ومن الظلم البين: التخلص من الأبناء، خوفاً من فقر موجود حاصل، كما في هذه الآية، أو خوفاً من فقر متوقع في المستقبل، كما في قوله تعالى: ﴿وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ خَشْيَةً إِمَّا لَكُمْ تَرْتُفَهُمْ وَإِنَّا لَنَرُوهُمْ﴾ [الإسراء: ٣١]. فلستم الذين ترزقون أولادكم، بل ولا ترزقون أنفسكم، ولذا فإن الآية التي هنا قدّمت رزق الآباء على رزق الأبناء، أي: أن رزق الأبناء يتبع رزق الآباء، أما آية الإسراء فقدّمت رزق الأبناء على رزق الآباء، بمعنى أن الرزق حاصل بالأصالة بالنسبة للأبناء، ويرزقكم الله أيها الآباء تبعاً لهم، وهذا في حالة الخوف المستقبلي من الفقر؛ ليكف الآباء عن التفكير في المستقبل، فإن الله تعالى قد ضمن رزق الأبناء ابتداءً، ضماناً مستقلاً ﴿الشَّيْطَانُ يَدْعُوكُمُ الْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُم بِالْفَحْشَاءِ وَاللَّهُ يَعِدُكُم مَّغْفِرَةً مِنْهُ وَفَضْلًا﴾ [البقرة: ١٦٨].

لقد نجحت الصهيونية العالمية في برنامجها الذي تضمنته بروتوكولات حكماء صهيون في إشغال مجتمعاتنا بالكرة والفن، كما نجحت في القضاء على الطاقة البشرية، أو التقليل منها، حين غرست في أذهان شعوبنا وحكّامنا ما يسمى بتحديد النسل، أو تنظيمه، وأقامت مؤتمرات السكان والأسرة العالمية، فأصبح بعض المسؤولين يرددون التحذير من كثرة النسل والتخوف منه، كأنه القائم على أرزاق العباد، وأن كاهله سوف يكون ثقيلاً لا يتحمل عبء هذا النسل المتدفق، وهذا بعينه ما كانت الجاهلية تفعله من قتل الأولاد خوف الفقر.

وبنظرة فاحصة في واقع العالم اليوم ومقارنته بما هو عليه في الماضي، يجد الإنسان ما يُكذِّبُ هذه الدعاوى، ويبيّن أنها سراب لا أساس لها، لقد كان الناس في الماضي يشكون الجوع، والناس اليوم يشكون التخمّة، ويقيمون المصحّات العالمية لتخفيف الوزن وتقليل السمنة.

كان الرجل فيما مضى يصاب بالصرع من الجوع، ويضع أحد الناس رجله فوقه حتى يفيق، وقد أغمي على أبي هريرة ؓ فوضع أحدهم رجله عليه، فقال أبو هريرة: يظنون أن بي جنوناً، ووالله ما بي جنون، ولكنه الجوع، وكانت الأشهر الثلاثة تمر على بيوت رسول الله ﷺ وهي يومئذ تسعة، ولا يوقد فيها نار، أي تحت قِدرٍ فيه إدام، والناس اليوم تعيش

حياة الترف والكماليات التي تملأ كل بيت، وكانت في الماضي لا تجد الضروريات. وكل أسرة تبدأ صغيرة فقيرة، وحين تكبر الأسرة، وتكثر الذرية، تكثر الخيرات والأرزاق وهذا واقع مشاهد، لا يمكن تكذيبه.

الأراضي الشاسعة التي تملكها بلد واحدة من بلاد المسلمين كالسودان مثلاً، تكفي، حال استصلاحها واستثمارها، للدول العربية مجتمعة.

الطاقات الاقتصادية التي تُبدد في الكرة والفن والتدخين والمخدرات ونحو ذلك، تكفي مجتمعات كاملة بدون موارد ولا عمل !!

أقر النبي ﷺ مسألة العزل، وهذه مسألة تُقدَّر بقدرها، فإن كانت حياة المرأة أو صحتها تتعارض مع الحمل، أو كانت تحمل بصفة متوالية، أو لا تلد إلا ولادة قيصرية، ونحو ذلك من الأضرار البدنية المحققة، فلها أن تعزل أو تفعل ما هو بمعناه، مدة مؤقتة، كما بيّن الله سبحانه أن مدة الرضاع الكاملة حوّلان كاملان لمن أراد أن يتم الرضاعة، وفي هذه المدة تنظيم للنسل، وفضل لما بين الحملين.

الْوَصِيَّةُ الرَّابِعَةُ: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنٌ﴾

الفواحش: كل ما فحش وقبح من كبائر الذنوب، وتطلق الفاحشة في القرآن على خصوص الزنى، والفواحش تشمل جميع المحرمات والمنهيات، وكان الناس فيما مضى يستقبحون الزنى علانية، ولا يرون به بأساً إن كان سرّاً، وهذا ما تقرره القوانين الوضعية، في بعض بلاد المسلمين، في وقتنا الحاضر، فإن وقع الزنى علانية، فالعقوبة تعزيرية يسيرة، تقدر بغرامة مالية تساوي نحو ربع ريال سعودي؛ لأنه خدش الحياء العام، أما إن كان الزنى بالتراضي فلا اعتراض لأحد عليهما.

وقد حرم الإسلام سر الزنى وعلانيته، بل حرم مقدماته، وكل ما ظهر منه وما بطن، خوفاً من الله تعالى، وتعظيماً لأمره ونهيه، فلا تقربوه، ولا تقربوا كل ما كان ظاهراً من كبائر الآثام وما كان خفياً منها، فكل قول أو فعل، تستقبحه العقول، فاحشة يجب البعد عنها.

والمجتمع الذي يتجنب الفواحش مجتمع طاهر نظيف، أما المجتمع الذي يسوي بين

القبیح والحسن، ويقوم على الإباحية التي لا تفرق بين ما يجب فعله وما يجب تركه فمصيره إلى التعاسة والمهانة.

والقرآن الكريم حين نهى عن هذه الفاحشة نهى عن كل طريق أو وسيلة توصل إليها، فلم يقل: لا تنزوا، بل قال: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا الزِّنَىٰ إِنَّهُ كَانَ فَحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلًا﴾ [الإسراء: ٣٢]. فالنهي عن قربان الفواحش، أبلغ من النهي عن مجرد فعلها، لأنه يشمل المقدمات والوسائل الموصلة إليها، وذلك لأن الوسائل تأخذ حكم المقاصد.

فالمحرمات التي لا يميل إليها الإنسان بشهوته: النهي فيها يكون عن نفس الفعل، وليس عن الاقتراب منه، ومن ذلك الوصايا السابقة، وهي الإشراف بالله، وقتل الأولاد، وقتل النفس؛ إذ ربما يفعلها وهو كاره.

أما المحرمات التي يميل الإنسان إليها بشهوته، فإن النهي فيها يكون عن مجرد الاقتراب منها؛ ولذا: فقد حرم الإسلام: النظرة الثانية، والخلو، والتزين، والتهتك، وسفر المرأة بدون محرم، كما حرم الإسلام التكسر والخضوع بالقول، والتبرج والسفور، والإثارة والإغراء، والتعطر، وكل وسيلة تكون سبباً لارتكاب هذه الفاحشة:

وهذه جملة من الأحاديث في تحريم الفواحش:

١- عن أبي وائل، عن ابن مسعود رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «لا أحد أغير من الله تعالى، من أجل ذلك حرم الفواحش ما ظهر منها وما بطن، ولا شيء أحب إليه المدح من الله، ولذلك مدح نفسه»، قلت: سمعته من عبد الله؟ قال: نعم، قلت: ورفعه؟ قال: نعم^(١).

٢- قال سعد بن عباد: لو رأيت مع امرأتي رجلاً لضربته بالسيف غير مضفح، فبلغ ذلك رسول الله ﷺ فقال: «أتعجبون من غيرة سعد؟! فوالله لأنا أغير من سعد، والله أغير مني، من أجل ذلك حرم الفواحش ما ظهر منها وما بطن»^(٢).

٣- وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قيل: يا رسول الله، إنا نغار، قال: «والله إني لأغار،

(١) البخاري (٢٩٥/٨) برقم (٣٦٣٧، ٤٦٣٢) ومسلم (٢١١٣/٤) برقم (٢٧٦٠) والترمذي (٥٤٢/٥).

(٢) أصله عند مسلم (٢١١٤/٤) برقم (١٤٩٩) والبخاري برقم (٦٨٤٦).

والله أكبر مني، ومن غيرته نهى عن الفواحش»^(١).

وفي الحديث إثبات صفة الغيرة لله تعالى على وجه يليق بجلاله، وليست كغيرة المخلوقين، كما قال تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾ [الشورى: ١١].

وأعظم الزنى، الزنى بزوجة الجار، فهو مستأمن على جاره:

٤- عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: قلت: يا رسول الله، أي الذنب أعظم؟ قال: «أن تجعل لله نداً وهو خلقك»، قلت: ثم أي؟ قال: «أن تقتل ولدك خشية أن يطعم معك»، قلت: ثم أي؟ قال: «أن تزاني حليلة جارك»، ثم تلا رسول الله ﷺ: ﴿وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ أَنْفُسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ﴾^(٢).

ومما ورد في تحريم الفواحش قوله تعالى: ﴿وَذَرُوا ظِلَهِرَ الْأَثَمِ وَبَاطِنَهُ﴾ [الأنعام: ١٢٠].

وقوله في وصف المؤمنين: ﴿الَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبِيرَ الْأَثَمِ وَالْفَوَاحِشَ إِلَّا اللَّمَمَ﴾ [النجم: ٣٢].

وقوله أيضاً: ﴿وَالَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبِيرَ الْأَثَمِ وَالْفَوَاحِشَ وَإِذَا مَا عَضِبُوا هُمْ يَغْفِرُونَ﴾ [الشورى: ٣٧].

٥- أخرج الطبري بسند حسن عن علي بن أبي طلحة عن ابن عباس رضي الله عنه قال: ﴿وَلَا تَقْرُبُوا الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ﴾ قال: كانوا في الجاهلية لا يرون بالزنى بأساً في السر، ويستقبحونه في العلانية، فحرم الله الزنى في السر والعلانية.

٦- وعن سلمة بن قيس الأشجعي قال: قال رسول الله ﷺ في حجة الوداع: «ألا إنما هي أربع لا تشركوا بالله شيئاً، ولا تقتلوا النفس التي حرم الله إلا بالحق، ولا تزنوا، ولا تسرقوا» فما أنا بأشح عليهن مني إذا سمعتهن من رسول الله ﷺ^(٣).

(١) «المسند» (٣٢٦/٢) برقم (٨٣٢١) حديث صحيح قال الهيثمي في «مجمع الزوائد» (٣٢٨/٤): فيه كامل أبو العلاء، وفيه كلام لا يضر، وهو ثقة، وبقية رجاله رجال الصحيح، وأخرج مسلم بنحوه (١٤٩٨) وله شاهد صحيح في المسند من حديث عبد الله بن مسعود (٣٦١٦) وقد سبق.

(٢) البخاري (١٦٣/٨) برقم (٤٤٧٧، ٤٧٦١، ٦٠٠١، ٧٥٣٢) ومسلم (٩٠/١) برقم (٨٦) وأبو داود (٢/٧٣٣) والترمذي (٣٣٦/٥) والنسائي (٨٩/٨).

(٣) «المسند» (١٨٩٩٠) والنسائي في «الكبرى» (١١٣٧٣) والطبراني (٦٣١٦، ٦٣١٧) والحاكم (٣٥١/٤) قال محققو «المسند»: إسناده صحيح ورجاله ثقات.

الْوَصِيَّةُ الْخَامِسَةُ : ﴿وَلَا تَقْتُلُوا أَنْفُسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ﴾

أي لا تقتلوا النفس المسلمة، من ذكر وأنثى، صغيرة وكبيرة، برّ وفاجر، وكذا نفس الكافر المعصومة بالعهد والميثاق، إلا بالحق، وهذا الحق جاء ذكره في هذا الحديث بأنه أحد أمور ثلاثة:

١- فعن ابن مسعود رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «لا يحل دم امرئ مسلم يشهد أن لا إله إلا الله وأني رسول الله، إلا بإحدى ثلاث: الثيب الزاني، والنفس بالنفس، والتارك لدينه المفارق للجماعة»^(١).

فقد حدد الحديث أسباباً ثلاثة يُستحل بها قتل المسلم وهي: الزنى بعد إحصان، والقصاص، والردة، فلا يجوز الاعتداء على حرمة المسلم إلا بهذا الحق، فمن قتل يُقتل، ومن ارتد عن دينه يُستتاب، ثم يُقتل إن بقي على رده، ومن زنى، وهو متزوج قبل ذلك، يُرجم حتى الموت:

٢- عن أبي أمامة بن سهل بن حنيف أن عثمان بن عفان رضي الله عنه أشرف عليهم، فسمعهم وهم يذكرون القتل، فقال: إنهم ليتواعدوني بالقتل؟ فلم يقتلونني؟ وقد سمعت رسول الله ﷺ يقول: «لا يحل دم امرئ مسلم إلا في إحدى ثلاث: رجل زنى وهو محصن فرُجم، أو رجل قتل نفساً بغير نفس، أو رجل ارتد بعد إسلامه»، فوالله ما زينت في جاهلية ولا إسلام، ولا قتلت نفساً مسلمة، ولا ارتددت منذ أسلمت»^(٢).

وكما حرم الإسلام الاعتداء على دم المسلم، حرم الاعتداء على دم الذمّي والمعاهد المستأمن في بلاد المسلمين وهو داخل في الآية ﴿وَلَا تَقْتُلُوا أَنْفُسَ﴾ فهو صاحب نفس غير محاربة.

٣- وقد جاء في الحديث عن عبد الله بن عمرو رضي الله عنه: «من قتل معاهداً لم يرح رائحة

(١) أخرجه الشيخان: البخاري برقم (٦٨٧٨) و«صحيح مسلم» برقم (١٦٧٦).

(٢) «سنن ابن ماجه» برقم (٢٥٣٣) والترمذي (٢١٥٨) و«المسند» (٦٣/١) برقم (٤٣٧، ٤٥٢) إسناده صحيح على شرط الشيخين، (محققوه) وصححه الألباني في «صحيح ابن ماجه» (٧٧/٢)، وأخرجه أبو داود (٤٥٠٢) والحاكم (٣٥٠/٤) وصححه ووافقه الذهبي.

الجنة، وإن ريحها توجد من مسيرة أربعين عاماً»^(١).

٤- وفي حديث أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «من قتل معاهداً له ذمة الله وذمة رسوله، فقد أخفر بذمة الله، فلا يرح رائحة الجنة، وإن ريحها ليوجد من مسيرة سبعين خريفاً»^(٢).

وقتل النفس من جملة الفواحش، وإنما أفرداها الله تعالى بالذكر تعظيماً لأمر القتل، وأنه من أعظم الفواحش والكبائر.

ولذا فقد جاء في الحديث عن عبد الله بن عمرو أن النبي ﷺ قال: «لزوال الدنيا أهون على الله من قتل رجل مسلم»^(٣).

هذا: وقد تضمنت الآية الأولى من هذه الآيات الثلاث خمس وصايا هي:

١- عدم الإشراك بالله تعالى. ٢- والإحسان إلى الوالدين.

٣- والنهي عن قتل الذرية خوف الفقر. ٤- والنهي عن إتيان الفواحش علناً وسراً.

٥- والنهي عن قتل النفس بغير حق.

ثم قال تعالى: ﴿ذَلِكُمْ بِمَا لَعَلَّكُمْ تَمْلِكُونَ﴾ عن الله وصيته ثم تحفظونها وتقومون بها، فهو الذي نهاكم عنها، وعهد إليكم باجتنابها، وأمركم ووصاكم بما فيها، لعلمكم تعقلون أو أمره ونواهي، والعاقل لا يقع في مثل هذه المحرمات. قال تعالى:

١٥٢- ﴿وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُ وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ وَالْعَهْدُ الَّذِي بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ اللَّهِ لَا تُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدُوا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ وَبِعَهْدِ اللَّهِ أَوْفُوا ذَلِكُمْ وَصْنَكُمْ بِمَا لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾^(٤)

(١) رواه البخاري في الجزية (٢٦٩/٦) برقم (٣١٦٦، ٦٩١٤) والنسائي (٢٥/٨) من حديث أبي بكرة نفيح بن الحارث.

(٢) حديث صحيح أخرجه ابن ماجه (٨٩٦/٢) برقم (٢٦٨٧) والترمذي (٢٠/٥) برقم (١٤٠٣) وقال: حسن صحيح، وهو في صحيح «سنن ابن ماجه» (٢١٧٦) و«السلسلة الصحيحة» (٢٣٥٦).

(٣) أخرجه النسائي (٣٩٩٨) والنحاس ص ٣٤٧ وهو في صحيح «سنن النسائي» (٣٧٢١).

(٤) قرأ حفص وحمة والكسائي وخلف العاشر بتخفيف الذال من (تذكرون) على حذف إحدى التائين؛ لأن الأصل تذكرون، وقرأ الباقر بإدغام التاء في الذال وتشديدها.

وتضمنت الآية الثانية أربع وصايا هي:

- ١- النهي عن أكل مال اليتيم.
 - ٢- وفاء الكيل والميزان.
 - ٣- العدل في القول.
 - ٤- الوفاء بالعهد.
- وكلها قواعد للتعامل وتبادل الثقة بين الناس.

الْوَصِيَّةُ السَّادِسَةُ: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُ﴾.

ينهى سبحانه الأوصياء على مال الأيتام ألا يقربوه إلا في حالة الإصلاح لهم والانتفاع به بالتجارة فيه واستثماره، وعدم أخذ المقابل على ذلك.

وهذا معنى ﴿إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ وأحسن الحالات تنمية مال اليتيم وعدم الإضرار به، وذلك حتى يصل الصغير إلى سن البلوغ، فإذا بلغ سن الرشد فسلموا له ماله.

وفي هذا دليل على أن اليتيم قبل بلوغه الأشد، محجور عليه، وأن وليه يتصرف في ماله بما يصلحه ولا يضره، وهذا الحجر ينتهي ببلوغ الأشد.

وقد بيّنت سورة النساء وجوب إعطاء اليتامى أموالهم، وعدم استبدال الحلال بالحرام، بضم أموالهم إلى أموال الوصي أو الولي، ففي هذا ظلم كبير، قال تعالى: ﴿وَأَنذَرُوا الْيَتَامَىٰ أَمْوَالَهُمْ وَلَا تَتَبَدَّلُوا الْخَيْرَ بِالْظَلِيلِ وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَهُمْ إِلَىٰ أَمْوَالِكُمْ إِنَّهُ كَانَ حُوبًا كَبِيرًا﴾ [النساء: ٦].

وعلى الوصي أن يتبين حال اليتيم عند بلوغه سن الرشد، فإن كان ممن يحسن استعمال أمواله ردّها عليه كما قال تعالى: ﴿وَابْتَلُوا الْيَتَامَىٰ حَتَّىٰ إِذَا بَلَغُوا النِّكَاحَ فَإِنْ آنَسْتُمْ مِنْهُمْ رُشْدًا فَادْفَعُوا إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ وَلَا تَأْكُلُوهَا إِسْرَافًا وَبِدَارًا أَن يَكْبَرُوا﴾ [النساء: ٦].

وبلوغ سن الرشد يكون بالبلوغ، وصحة العقل، وأهلية التصرف، والقوة التي يخرج بها عن سن الصبا، وهو غير بلوغ الأشد، الذي هو تمام الأربعين من العمر؛ لقوله تعالى: ﴿حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً﴾ [الأحقاف: ١٥].

وينبغي على الوصي أن يترفع عن أخذ الأجر على إدارته لمال اليتيم، فإن كان غنيا فلا يأخذ شيئا، وإن كان فقيرا فليأخذ شيئا يسيرا بما هو متعارف عليه ﴿وَمَنْ كَانَ غَنِيًّا فَلْيَسْتَعْفِفْ وَمَنْ كَانَ فَقِيرًا فَلْيَأْكُلْ بِالْمَعْرُوفِ﴾ [النساء: ٦].

والإسلام يحرص على حفظ مال اليتيم وتنميته وإصلاحه، وعلى الوصي أن يخاف الله تعالى في نفسه؛ فإنه قد يموت غداً، وتُتيم أطفاله، وتدور الدائرة عليه ﴿وَلِيَخْشَ الَّذِينَ لَوْ تَرَكَوا مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَّتَهُ ضَعَفَاءَ خَافُوا عَلَيْهِمْ فَلْيَتَّقُوا اللَّهَ وَلْيَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا ۝ إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ آلَيْتَمَىٰ ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا ۝﴾ [النساء].

إنه يأكل في الدنيا ناراً في بطنه، ويوم القيامة يعذب في نار جهنم.

ولما أنزل الله هذه الآية، وأنزل قوله تعالى: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ انطلق مَنْ كان عنده يتيم فعزل طعامه من طعامه، وشرابه من شرابه، وربما فسد شيء من مال اليتيم نتيجة ذلك، فاشتد ذلك عليهم، فذكروا ذلك لرسول الله ﷺ فأنزل الله تعالى ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْيَتَامَىٰ قُلْ إِصْلَاحٌ لَّهُمْ خَيْرٌ وَإِنْ تُخَالِطُوهُمْ فَإِخْوَانُكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ الْمُفْسِدَ مِنَ الْمُصْلِحِ ۝﴾ [البقرة: ٢٢٠]. فخلطوا طعامهم بطعامهم^(١).

الْوَصِيَّةُ السَّابِعَةُ : ﴿وَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ﴾

هذا أمر بالاعتدال في الأخذ والإعطاء بالعدل والوفاء التام، وبيان أن إيفاء الكيل والميزان خير لفاعله، وأحسن عاقبة، كما قال تعالى: ﴿وَأَوْفُوا الْكَيْلَ إِذَا كَلَّمْتُمْ وَزِنُوا بِالْقِسْطِ ۝﴾ [الإسراء: ٣٥]. ويجب حفظ المال فيما هو أشد من التطفيف من باب أولى، أوفوا الكيل والميزان بالعدل الذي يكون به تمام الوفاء من غير زيادة ولا نقصان.

والإسلام يربط بين العقيدة والمعاملات التجارية، ولا يفصل بين العقيدة والعبادة، والشرائع والمعاملات، والتجارة بالبيع والشراء، فكلها من مقومات هذا الدين.

جاء في الأثر موقوفاً على ابن عباس ؓ أنه قال لأصحاب الكيل والميزان: إنكم وُلِّيتُم أمراً هلك في الأمم السالفة قبلكم^(٢).

(١) رواه أبو داود في «السنن» (٢٩١/٣) برقم (٢٨٧١) وهو عند النسائي (٢٥٦/٦) وفي الكبرى (٦٤٩٦) والحاكم (٢٧٨/٢) وصححه ووافقه الذهبي، وانظر تفسير الطبري (٣٧١/٢) وحسن إسناده الألباني في صحيح أبي داود برقم (٢٤٩٥).

(٢) «جامع الترمذي» بإسناد صحيح (٥١٢/٣) برقم (١٢١٧) والبيهقي في «شعب الإيمان» برقم (٥٢٨٨).

فتطفيف الكيل والميزان من كبائر الذنوب، وقد أرسل الله تعالى لمكافحة هذه الرذيلة رسولاً من رسل الله، كان قومه يطففون الكيل والميزان، فأمرهم أولاً بالقاعدة الأساس التي أرسل الله بها كل رسول ﴿اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ﴾ [هود: ٥٠].

ثم أمرهم بالوفاء بالكيل والميزان ﴿وَيَقَوْمَ أَوفُوا بِالْمِكْيَالِ وَالْمِيزَانِ بِالْقِسْطِ وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ﴾ [هود: ٨٥].

وقد توعدهم الله بالويل والعذاب فقال ﴿وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ﴾ ① الَّذِينَ إِذَا أَكَالُوا عَلَى النَّاسِ يَسْتَوْفُونَ ② وَإِذَا كَالُوهُمْ أَوْ وَزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ ③ [المطففين].

فهم يستوفون حقهم كاملاً، ويبخسون حقوق الناس، ولا يصلح المجتمع إلا بإقامة العدل بين الناس، والتسوية بينهم في الحقوق والواجبات، وعدم غمط أحدهم للآخر.

ولأن الكيل والميزان لا يمكن تحري الدقة فيه، فقد يزيد شيئاً ما، أو ينقص شيئاً ما مع حسن النية، وعدم القصد في الزيادة أو النقصان، فعلى المرء أن يبذل جهده في تحري الدقة، والوفاء بالكيل والميزان، فإن حدث نقص يسير، أو زيادة فيهما، فقد فعل الإنسان ما بوسعها ولا حرج عليه إن شاء الله بعد ذلك.

والله تعالى لم يكلف المعطي أن يعطي فوق الحق، ولم يكلف الآخذ أن يأخذ حقه ناقصاً ﴿لَا تُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ أي: لا نكلفكم تمام القسط في الكيل والميزان بالحبة والذرة، ولكن نكلفكم ما يغلب على ظنكم أنه عدل ووفاء.

فمن حرص على الوفاء بالكيل والميزان، ثم حصل منه تقصير دون قصد ولا تفريط، فإن الله عفو غفور، ويستدل بهذا على أن الله تعالى لا يكلف أحداً فوق طاقته، ولا حرج عليه بعد بذل الجهد فيما أمر به أو نهى عنه.

الْوَصِيَّةُ الثَّامِنَةُ : ﴿وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ﴾

أي: وإذا قلتم قولاً تحكمون به بين الناس، وتفصلون بينهم، فتحروا العدل في قولكم، دون ميل عن الحق في خبر أو شهادة، أو حكم أو شفاعاة، أو جرح أو تعديل، ولو كان الذي يتعلق القول به أقرب الناس إليكم؛ كالوالدين، والأبناء، فلا تتعصبوا لهم، ولا تميلوا عن الحق، بل سؤوا بين الناس جميعاً، كما قال تعالى: ﴿وَلَوْ عَلَىٰ أَنْفُسِكُمْ أَوِ الْوَالِدَيْنِ

وَالْأَقْرَبِينَ ﴿١٣٥﴾ [النساء: ١٣٥]. فالكذب وقول الزور من كبائر الذنوب، وقد خصصت الآية العدل في القول، مع أنه مطلوب في الأقوال والأفعال؛ لأن أكثر ما يكون فيه العدل أقوالاً: كالشهادة، والقضاء، والصلح بين الناس، والمدح والثناء، والخبر والمشورة، والجرح والتعديل، وهكذا.

وليس من خُلُق المسلم أن يترك قول الحق بسبب بُغض أو كُره لأحد أو جماعة من الناس ﴿وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَاٰنُ قَوْمٍ عَلَىٰ أَلَّا تَعْدِلُوا أَعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ﴾ [المائدة: ٨]، وذكر الفقهاء أن القاضي يجب عليه العدل بين الخصمين في لحظه ولفظه.

الْوَصِيَّةُ التَّاسِعَةُ : ﴿وَبِعَهْدِ اللَّهِ أَوْفُوا﴾

أوفوا بما عاهدتم الله عليه فالتزمت به، وأوفوا بما عاهدتم الناس عليه فالتزمت به، وأول عهد بين العبد وربه: أن يعبد ولا يشرك به شيئاً ﴿لَمْ يَكُن لَّهُ مِثْقَ ذَرَّةٍ مِّن شَيْءٍ﴾ [الأنعام: ١٦٠] وَأَنۢ أَغۡبُودُنِي هَٰذَا صِرَاطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴿١٦١﴾ [يس: ١٦١].

وهو الميثاق الذي أخذه الله تعالى على بني آدم وهم في أصلاب آبائهم ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِيٓ آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ شَهِدْنَا﴾ [الأعراف: ١٧٢].

وهو الميثاق الذي أخذه الله على أولي العلم من الناس أن يبينوه للناس ولا يكتُموه ﴿وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُ﴾ [آل عمران: ١٨٧].

وهو الميثاق المأخوذ على بني إسرائيل ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَءِيلَ لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ وَيَالِئِلَٰهِيْنَ إِحْسَٰنًا وَذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسْكِينِ وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ﴾ [البقرة: ٨٣].

وهكذا كل أمة أخذ الله عليها العهد بتوحيده وعدم الإشراف به، ومن ذلك الوفاء بما ألزم الإنسان به نفسه كالنذر، فإنه يجب الوفاء به ويحرم نقضه، والإخلال به.

أما العهود التي بين الناس فهي كثيرة لا تحصى، ومنها الوفاء بالعقود، والوعود والعهود، والديون والتعامل التجاري، والمواثيق الدولية، وغير ذلك مما يجب الوفاء به.

والله سبحانه سيسأل عباده يوم القيامة عن الوفاء بالعهود، كما قال تعالى:

﴿وَأَوْفُوا بِعَهْدِكُمْ إِذَا عَاهَدْتُمْ كَانَتْ مَسْئُولًا﴾ [الإسراء: ٣٤].

هذه الأحكام والشرائع، التي تليت عليكم في هذه الآية، وصاكم بها ربكم رجاء أن تذكروا عاقبة أمركم ﴿ذَلِكُمْ وَمَنْكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ أن هذه الوصايا الأربع من المحامد التي تعرفونها، ويجب عليكم القيام بها، وهذا تذكير لكم فقد يقع في هذه الشهوات من لا يتذكر.

الْوَصِيَّةُ الْعَاشِرَةُ: ﴿وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ﴾

١٥٣- ﴿وَأَنَّ^(١) هَذَا صِرَاطِي^(٢) مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ^(٣) بِعَيْنِنَا وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ وَهُمْ بِرَبِّهِمْ يَعَدُلُونَ ﴿١٥٣﴾﴾

ومما وصاكم الله به: أن هذا الإسلام هو طريق الله المستقيم الموصل إلى دار كرامته، فاتبعوه، لتنالوا الفوز والفلاح، ولا تسلكوا سبل الضلال، فتفرقكم وتبعدكم عن سبيل الله المستقيم، فدين الله الذي ارتضاه لعباده دين قويم لا عوج فيه، فاسلكوا طريقه جملة وتفصيلاً، واحذروا الطرق المختلفة والأهواء المتباينة فضلوا كما ضل اليهود والنصارى ﴿وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ﴾ وهي الأديان الباطلة والبدع والضلالات ﴿فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ﴾ أي: أن هذه السبل تُضلّكم عن طريق الحق وتفرقكم يميناً وشمالاً عن طريقه المستقيم، وهو دين الإسلام، الذي ارتضاه لكم.

وقد أفرد الصراط لأن طريق الحق واحد، وجمع ﴿السُّبُلَ﴾ المخالفة له؛ لأنها كثيرة متشعبة ومتعددة، فإذا ضللتكم عن الصراط المستقيم فليس أمامكم إلا طرق توصل إلى الجحيم.

قال ابن مسعود رضي الله عنه: خطّ رسول الله ﷺ خطاً بيده، ثم قال: «هذا سبيل الله مستقيماً»، وخطّ على يمينه وشماله خطوطاً، ثم قال: «وهذه السبل ليس منها سبيل إلا عليه شيطان

(١) قرأ حمزة والكسائي وخلف العاشر بكسر الهمزة وتشديد النون من (وَأَنَّ هَذَا) على الاستئناف، و(هذا) اسم إن، و(صراطي) خبرها، وقرأ ابن عامر ويعقوب بفتح الهمزة وتخفيف النون، على أن (أَنَّ) مخففة من الثقيلة، واسمها ضمير الشأن، و(هذا) مبتدأ، و(صراطي) خبر، والجملة خبر (أَنَّ)، وقرأ الباقون بفتح الهمزة وتشديد النون على تقدير اللام، أي: ولأن هذا، و(هذا) اسم (أَنَّ) و(صراطي) خبرها.

(٢) قرأ رويس وقبل بخلف عنه بالسین في (صراطي)، وقرأ خلف عن حمزة بإشمام الصاد صوت الزاي، والباقون بالصاد الخالصة، وهو الوجه الثاني لقبيل.

(٣) قرأ البزي بخلف عنه بتشديد الراء من (فتفرّق)، والباقون بتخفيفها، وهو الوجه الثاني للبزي.

يدعو إليه، ثم قرأ الآية^(١).

وقال ابن مسعود أيضًا: إن الله جعل طريقًا -صراطًا مستقيمًا- طرفه محمد ﷺ ونهايته الجنة، وتشعب منه طرق، فمن سلك الجادة نجا، ومن خرج إلى تلك الطرق أفضت به إلى النار^(٢).

وفي الآية أمر للمؤمنين بالوحدة والجماعة، ونهي لهم عن الاختلاف والفرقة، وإخبار لهم بأن هلاك من كان قبلهم كان بسبب الخلاف والخصام في دين الله، واتباع الشهوات والشبهات، وقد نهى الله جميع الرسل عن ذلك في قوله: ﴿أَنْ أَقِيمُوا الَّذِينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ﴾ [الشورى: ١٣]. وقوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيعًا لَسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ﴾ [الأنعام: ١٥٩].

والمسلم يطلب ذلك من ربه في صلواته ودعواته في اليوم الواحد عدة مرات قائلاً: ﴿أَهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ۝﴾ [الفاتحة]. وبذلك أمر الله رسوله والأمة من بعده: ﴿قُلْ إِنِّي هَدَيْتُ رَبِّي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ دِينًا قِيمًا مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا﴾ [الأنعام: ١٦١].

وهذه هي مهمة رسول الله ﷺ ﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدَى إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ۝﴾ صِرَاطُ اللَّهِ الَّذِي لَمْ يَأْتِ فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ. [الشورى: ٥٢، ٥٣].

وصراط الله هو الموصل إلى النجاح والفلاح وسبيل رسل الله ﴿قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي﴾ [يوسف: ١٠٨].

﴿وَهَذَا صِرَاطُ رَبِّكَ مُسْتَقِيمًا قَدْ فَضَّلْنَا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَذْكُرُونَ﴾ [الأنعام: ١٢٦].

وعن النواس بن سمعان عن رسول الله ﷺ قال: «ضرب الله مثلاً صراطاً مستقيماً، وعلى جنبي الصراط سوران فيهما أبواب مفتحة، وعلى الأبواب ستور مرخاة، وعلى باب الصراط داع يقول: أيها الناس، ادخلوا الصراط المستقيم جميعاً ولا تفرقوا، وداع يدعو

(١) «المسند» (٤٦٥/١) برقم (٤١٤٢، ٤٤٣٧) بإسناد حسن من أجل عاصم بن أبي النجود وبقية رجاله ثقات رجال الشيخين (محققوه) والبخاري (٢٢٥/١١) برقم (٦٤١٧) مع اختلاف في اللفظ، والترمذي (٦٣٥/٤) والنسائي برقم (١٩٤) وابن ماجه (١٤١٤/٢) والحاكم (٣١٨/٢) والنسائي في «السنن الكبرى» برقم (١١١٧٤) و«تفسير الطبري» (٢٣/١٢) والدارمي في مسنده (٦٧/١) وابن حبان في صحيحه برقم (٧) وحسنه الألباني في «ظلال الجنة» (١٣/١) برقم (٢٨٥٩) و«سنن النسائي الكبرى» برقم (١١٢٣٣) والبخاري (١٧١٨) والحاكم (٣١٨/٢).

(٢) «تفسير ابن عطية» (٣٦٤/٢) وقد أخرجه عبد الرزاق (٢٢٣/١) والطبري (٦٧١/٩) وابن مردويه.

من فوق الصراط، فإذا أراد الإنسان أن يفتح شيئاً من تلك الأبواب قال: ويحك، لا تفتحه، فإنك إن تفتحه تلجه، فالصراط: الإسلام، والسوران: حدود الله، والأبواب المفتحة: محارم الله، وذلك الداعي على رأس الصراط: كتاب الله، والداعي من فوق (الصراط): واعظ الله في قلب كل مسلم^(١).

وصراط الله، هو الحق الواضح المعتدل باتباع منهج الله تعالى، والذي وصاكم الله به؛ لتتقوا عذابه بفعل الأوامر واجتناب النواهي ﴿ذَلِكُمْ وَصَّكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ الله، فإن فعل الفضائل لا بد له من تقوى الله، وهكذا فإن هذه الوصايا العشر وضعت أساس العقيدة السليمة، وحفظت المجتمع من التصدع، وحفظت الأعراض والأموال، وبنيت الأسرة على البر والرحمة والتعاون، وربطت كل ذلك بتقوى الله تعالى.

كِتَابُ مُوسَى وَكِتَابُ مُحَمَّدٍ (عليهما الصلاة والسلام)

١٥٤- ﴿ثُمَّ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ تَمَامًا عَلَى الَّذِي أَحْسَنَ وَتَفْصِيلًا لِّكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لَّعَلَّهُمْ يُلَفِّقُوا رَبَّهُمْ يُؤْمِنُونَ﴾ (١٥٤)

وهذا المنهج والصراط، الذي أمر الله عباده أن يسلكوه ويتبعوه، هو الذي من أجله أرسل الله الرسل، وأنزل الكتب، والكتاب الذي يحتوي على الشرائع والأحكام قبل الكتاب الأخير -القرآن الكريم- هو كتاب موسى (التوراة)؛ لأن فيه أقرب شريعة للإسلام، وهو كتاب يقرر هذه الوصايا، ويحققها ويمهد لما بعده من الكتب -الإنجيل والقرآن- ﴿ثُمَّ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ﴾ وهو التوراة.

و ﴿ثُمَّ﴾ لا تقتضي الترتيب الزمني، وإنما هي لعطف معنى على معنى، وترتيب الأخبار، لأن زمن موسى متقدم على زمن محمد ﷺ أي: لقد بينت لكم في هذه الوصايا ما فيه صلاحكم، ثم أخبرتكم بأننا آتينا موسى الكتاب هدى ونوراً.

(١) أخرجه أحمد في المسند (١٨٢/٤) برقم (١٧٦٣٤) حديث صحيح بإسناد حسن من أجل الحسن بن سوار وباقي رجاله ثقات (محققوه) والترمذي (١٤٤/٥) و«صحيح الترمذي» برقم (٢٢٩٥) وابن أبي عاصم في السنة (١٩) والطبري في التفسير (١٨٧).

والمعنى: قل -يا محمد- لهؤلاء المشركين: إن الله تعالى هو الذي أنزل التوراة على موسى قبل نزول القرآن على محمد، أنزلها ﴿تَمَامًا عَلَى الَّذِي أَحْسَنَ﴾ أي: تمامًا لنعمته على المحسنين من قومه، دون المسيئين منهم.

فقد آتينا موسى الكتاب تفضلاً على المحسنين من أهل ملته، وإتماماً للنعمة عليهم، فإن من أحسن في الدنيا، تَمَّم الله له ذلك في الآخرة.

أي: تمامًا للنعمة على المحسن؛ لإحسانه في الطاعة والعبادة، وتبليغ الدعوة إلى قومه، فهو إحسان من الله تعالى إلى موسى، ومن أحسن من قومه بامتنال الأوامر واجتناب النواهي.

ثم قال تعالى: ﴿وَتَقْصِيلاً لِّكُلِّ شَيْءٍ﴾ أي: من أمور دينهم ودنياهم، ففي التوراة تبيان لبني إسرائيل من العقائد والعبادات، والشرائع والأحكام، والأخلاق والمعاملات والفضائل، والحلال والحرام ﴿وَهَدَى﴾ من الضلالة والجهالة ﴿وَرَحْمَةً﴾ لهم من الله تعالى، ودلالة على الطريق المستقيم ﴿لَعَلَّهُمْ يَلْقَاءَ رَبَّهُمْ يُؤْمِنُونَ﴾ أي: رجاء أن يصدقوا بالبعث بعد الموت والحساب والجزاء، ويعملوا لذلك.

ونظير هذه الآية قوله تعالى: ﴿وَمِنْ قَبْلِهِ كَتَبَ مُوسَى إِمَامًا وَرَحْمَةً وَهَذَا كِتَابٌ مُصَدِّقٌ لِّسَانًا عَرَبِيًّا﴾ [الأحقاف: ١٢].

وقال تعالى: ﴿قُلْ مَنْ أَنْزَلَ الْكِتَابَ الَّذِي جَاءَ بِهِ مُوسَى نُورًا وَهُدًى لِلنَّاسِ﴾ [الأنعام: ٩١].

قال الطبري: آتينا موسى الكتاب تمامًا لنعمتنا عليه في قيامه بأمرنا ونهينا؛ فإن إيتاء موسى الكتاب نعمة من الله تعالى عليه، ومِنَّة عظيمة عليه؛ لِمَا سلف منه من صالح العمل، وحُسن الطاعة^(١).

وليس المقصود من هذه الآية مجرد ذكر أن الله تعالى أعطى موسى التوراة، وإنما المقصود هو التمهيد للآية التالية ﴿وَهَذَا كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ﴾؛ ليرتب عليها ما بعدها ﴿أَنْ تَقُولُوا إِنَّمَا أَنْزَلَ الْكِتَابُ عَلَى طَائِفَتَيْنِ مِنْ قَبْلِنَا﴾

وقد أشارت الآيات إلى وجود هذه الوصايا في التوراة، أي وفوق هذه الوصايا فقد أنزلت لكم كتاباً مباركاً، جمعت فيه ما نزل على موسى في التوراة، وهي أعظم كتب الأنبياء قبل

(١) «تفسير الطبري» (١٢/٢٣٦).

القرآن، الذي هو مصدق لها ومهيمن عليها، فإن اتبعتموه واتيتم الله تعالى، رحمتكم، ولا معذرة لكم عند الله أن تقولوا لو أنزل علينا كتاب لكننا أفضل هتداء من أهل الكتابين قبلنا وفي هذا رد على من قالوا: ما أنزل الله على بشر من شيء، وبيان لقوله تعالى: ﴿قُلْ مَنْ أَنزَلَ الْكِتَابَ الَّذِي جَاءَ بِهِ مُوسَى نُورًا وَهُدًى لِلنَّاسِ﴾ [الأنعام: ٩١].

وقد كان بنو إسرائيل مؤمنين بقاء الله تعالى، وما يكون من البعث والحساب والجزاء، ثم مضت عليهم أزمان طويلة، جاوروا فيها الوثنيين الفراعنة، فتأثروا بهم في فساد العقيدة والأخلاق، ونسوا لقاء الله، وأصبح حالهم كحال من لا يؤمن بقاء الله، فأراد الله إصلاحهم ببعثة موسى ﷺ؛ ليرجعوا إلى ما كان عليه سلفهم الصالح من مراقبة الله وخشية لقاءه، وفي هذا تعريض لهذه الأمة فقد أرسل الله محمداً ﷺ ليردها إلى الهدى، والإيمان بقاء الله تعالى، كما كانوا على ملة إبراهيم والدين الصحيح بعد أن ضلوا عنه؛ كي يلقوا ربهم وهو راض عنهم^(١).

إِقَامَةُ الْحُجَّةِ وَقَطْعُ الْأَعْدَارِ بِنُزُولِ الْقُرْآنِ

١٥٥ - ﴿وَهَذَا كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ فَاتَّبِعُوهُ وَاتَّقُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾

أي: وهذا القرآن الكريم الملتحم بالتوراة وشريعتهما، هو الذي ختم الله به الكتب السماوية، وختم برسالة محمد ﷺ جميع الرسالات ﴿وَهَذَا كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ﴾ فيه خير كثير، ونفع كبير يشتمل على الفوائد الدينية والدنيوية، وتُستمد منه سائر العلوم وتستخرج منه البركات، فما من خير إلا دعا إليه، ورغب فيه، وما من شر إلا حذر منه ونهى عنه ﴿فَاتَّبِعُوهُ﴾ بامثال الأوامر واجتناب النواهي والعمل بما فيه، فاجعلوه إماماً لكم، واتبعوا حلاله وحرامه، كما قال تعالى: ﴿أَتَبِعَ مَا أَوْحَى إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ﴾ [الأنعام: ١٠٦].

وقال سبحانه: ﴿وَاتَّبِعُوا أَحْسَنَ مَا أُنزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ﴾ [الزمر: ٥٥].

﴿وَاتَّقُوا﴾ الله، واحذروا مخالفة أمره واتباع غيره ﴿لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾.

أي: رجاء أن يرحمكم الله، فتنجوا من عذابه، وتظفروا بثوابه.

(١) تفسير «التحرير والتنوير» (١٧٧/٨).

تُرْوِلُ الْقُرْآنَ يُسْقِطُ عُذْرَ مَنْ لَا عِلْمَ لَهُمْ بِالتَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ

وقد أنزل الله عليكم هذا القرآن لقطع الأعذار يوم لقاء الله، وإقامة الحجة عليكم، قال تعالى:

١٥٦- ﴿أَنْ تَقُولُوا إِنَّمَا أُنْزِلَ الْكِتَابُ عَلَى طَائِفَتَيْنِ مِنْ قَبْلِنَا وَإِنْ كُنَّا عَنْ دِرَاسَتِهِمْ لَغَفْلِينَ ﴿١٥٦﴾﴾

لقد بطلت حجة المشركين، وسقطت معذرتهم بتنزيل هذا الكتاب المبارك، فقد قطع الله حجتهم بإنزال القرآن على محمد ﷺ؛ لئلا يقولوا يوم القيامة: إنما أرسل موسى وعيسى إلى قومهما، ونحن لا علم لنا بكتبهم ولا بلغتهم، فنحن في غفلة عن دراستهما، ولو نزل علينا كتاب بلغتنا، يكلفنا ويحذرنا، لكننا أهدي من أهل الكتاب، فهذا كتاب أنزل عليهم بلسانهم، على رجل منهم، فيه هدى ونور ﴿أَنْ تَقُولُوا﴾ أي لئلا تقولوا ﴿إِنَّمَا أُنْزِلَ الْكِتَابُ﴾ يعني: التوراة، والزبور، والإنجيل ﴿عَلَى طَائِفَتَيْنِ مِنْ قَبْلِنَا﴾ هم اليهود والنصارى، وقد كنا غير عالمين بقراءة كتبهم، وكنا ساهين عنها، وهذا معنى: ﴿وَإِنْ كُنَّا عَنْ دِرَاسَتِهِمْ لَغَفْلِينَ﴾ أي: ولم يكن لنا علم بها؛ لأنها بلغتهم، وفي هذا قطع لعذرهم، كما قال تعالى: ﴿وَلَوْلَا أَنْ تُصِيبَهُمْ مُصِيبَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَيَقُولُوا رَبَّنَا لَوْلَا أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ آيَاتِكَ وَنَكُونُ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٧﴾﴾ [القصاص].

وقال سبحانه: ﴿وَلَوْ أَنَّا أَهْلَكْنَاهُمْ بِعَذَابٍ مِنْ قَبْلِهِ لَقَالُوا رَبَّنَا لَوْلَا أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ آيَاتِكَ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَذِلَّ وَنَخْزَىٰ ﴿١٣٢﴾﴾ [طه].

وكما قطع الله عذر العرب ببعثة محمد ﷺ وإنزال القرآن عليه، فقد قطع عذر أهل الكتاب كذلك في عدم إيمانهم بخاتم الرسل ﷺ بقوله تعالى: ﴿يَتَأَهَّلُ الْكِتَابُ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ عَلَى فَتْرَةٍ مِنَ الرُّسُلِ أَنْ تَقُولُوا مَا جَاءَنَا مِنْ بَشِيرٍ وَلَا نَذِيرٍ فَقَدْ جَاءَكُمْ بَشِيرٌ وَنَذِيرٌ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٩﴾﴾ [المائدة].

وكان المكذبون برسول الله ﷺ قد أقسموا بالإيمان المغلظة: إن جاءهم نذير من عند الله فإنهم سيكونون أهدي من غيرهم من الأمم، فلما أرسل الله محمداً ﷺ لم يزدتهم ذلك إلا نفوراً وإعراضاً عن الحق ﴿وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِنْ جَاءَهُمْ نَذِيرٌ لَيَكُونُنَّ أَهْدَىٰ مِنْ إِبْذَى الْأُمَمِ فَلَمَّا جَاءَهُمْ نَذِيرٌ مَا زَادَهُمْ إِلَّا نُفُورًا ﴿٤٢﴾﴾ [فاطر].

نزول القرآن يسقط العذر بعدم وصول أضل الهداية لغير المسلمين

١٥٧- ﴿أَوْ تَقُولُوا لَوْ أَنَّا أُنزِلَ عَلَيْنَا الْكِتَابُ لَكُنَّا أَهْدَىٰ مِنْهُمْ فَقَدْ جَاءَكُمْ بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ فَمَن أَظْلَمُ مِمَّنْ كَذَبَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَصَدَفَ عَنْهَا سَنَجْزِي الَّذِينَ يَصْدِفُونَ عَنْ آيَاتِنَا سُوءَ الْعَذَابِ بِمَا كَانُوا يَصْدِفُونَ^(١)﴾

وأنزلنا عليك القرآن يا محمد؛ لثلاث يقول الكفار من قومك: لو أنا أنزل علينا كتاب من السماء، كما أنزل على اليهود والنصارى، لكننا أكثر استقامة على طريق الحق وأسرع استجابة منهم، وهذا معنى: ﴿أَوْ تَقُولُوا لَوْ أَنَّا أُنزِلَ عَلَيْنَا الْكِتَابُ لَكُنَّا أَهْدَىٰ مِنْهُمْ﴾ وذلك أن كفار مكة قالوا: قاتل الله اليهود والنصارى، كيف كذبوا أنبياءهم، فوالله لو جاءنا نذير وكتاب لكنا أهدى منهم.

وقد قطع الله حجتهم وعذرهم بنزول هذا القرآن بلغتهم ﴿فَقَدْ جَاءَكُمْ بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ﴾ قرآن عظيم على لسان محمد ﷺ فيه الحلال والحرام ﴿وَهُدًى وَرَحْمَةٌ﴾ جاءكم هذا الكتاب بلسان عربي مبين، حجة واضحة من ربكم، وإرشاداً إلى طريق الحق، ورحمة لهذه الأمة، وهدى ونوراً، وموعظة وشفاء لما في الصدور، فيه سعادة الدنيا والآخرة.

وإزاء تحقيق مطلبهم، بإنزال هذا القرآن على نبيه ﷺ ماذا كان موقف كفار العرب، ومن على شاكلتهم ممن لا يؤمنون بالنبي الخاتم والكتاب الأخير؟ فهذا هو القرآن الكريم نزل بلغتكم، وفيه قيام الحجة عليكم، لقد أنزلنا عليكم كتاباً فيه ذكركم، وجاءكم فيه من البيان، ما يزيل الهاجس الذي في نفوسكم، ويدفع عنكم ما تستشعرونه من الانحطاط عن أهل الكتاب.

ثم أخبر القرآن الكريم بأنه لا أحد أظلم من الذين كذبوا بآيات الله، وأنكروا رسالة خاتم الأنبياء، فزجوا بأنفسهم في النار ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ أَضَلَّ أَعْمَلُهُمْ﴾ [محمد: ١]. ﴿فَمَن أَظْلَمُ مِمَّنْ كَذَبَ بِآيَاتِ اللَّهِ﴾ فأعرض عنها ولم يؤمن بها ﴿وَصَدَفَ عَنْهَا﴾ أي: أنه أعرض عنها ونأى بجانبه، وصد الناس عن اتباعها، فهم يتعدون عن هذا

(١) قرأ حمزة والكسائي وخلف العاشر ورويس بخلف عنه بإشمام الصاد صوت الزاي من (يصدفون)، وقرأ الباقون بالصاد الخالصة ومعهم رويس في الوجه الثاني وهما لغتان.

الدين، وينهون غيرهم عن الإيمان به، كما قال تعالى: ﴿وَهُمْ يَبْهَوْنَ عَنْهُ وَيَنْتَوُونَ عَنْهُ﴾ [الأنعام: ٢٦]. فلا يوجد أحد أشد ظلمًا وعدوانًا ممن كذب بحجج الله تعالى فأعرض عنها، ومنع الناس من الإيمان بها، فهؤلاء المعرضون سنعاقبهم ونعذبهم عذابًا شديدًا في نار جهنم بسبب إعراضهم عن دين الله، وصدّ الناس عنه، ثم هددهم الله تعالى وتوعدهم بقوله: ﴿سَنَجْزِي الَّذِينَ يَصْدِفُونَ﴾ أي: يُعرضون ويصدون غيرهم ﴿عَنْ آيَاتِنَا سُوءَ الْعَذَابِ بِمَا كَانُوا يَصْدِفُونَ﴾ فهم يستحقون أسوأ العذاب وأشدّه بسبب ضلالهم في أنفسهم وإضلالهم غيرهم.

وفي هذه الآيات الأربع دليل على أن القرآن أعظم الكتب وآخرها، وفيه الهداية التامة، والهيمنة ما قبله من الكتب، ولا يلزم معه فكر ولا فلسفة ولا كتب أخرى.

الْوَعِيدُ الشَّدِيدُ لِمَنْ أَقَامَ عَلَى الْكُفْرِ حَتَّى الْمَوْتِ

١٥٨ - ﴿هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ تَأْتِيَهُمُ^(١) الْمَلَائِكَةُ أَوْ يَأْتِيَ رَبُّكَ أَوْ يَأْتِيَ بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ يَوْمَ يَأْتِي بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ لَا يَنْفَعُ نَفْسًا إِمْتِنَانًا لَم تَكُنْ ءَامَنَتْ مِنْ قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِي إِيمَانِهَا خَيْرًا قُلْ انظُرُوا إِنَّا مُنظِرُونَ﴾

ثم هدد الله المقيمين على الكفر إلى الموت، بأشد أنواع العذاب، بعد أن توعد الذين يُعرضون عن آياته، واتباع رسله، بسوء العذاب يوم القيامة، في قوله تعالى في آخر الآية السابقة: ﴿سَنَجْزِي الَّذِينَ يَصْدِفُونَ عَنْ آيَاتِنَا سُوءَ الْعَذَابِ بِمَا كَانُوا يَصْدِفُونَ﴾ وكان سائلاً سأل: متى يكون هذا الجزاء؟ والجواب: أنهم ماذا ينتظرون بعد آيات الله التي نزلت عليهم في كتابه، وما أيد الله به رسوله من معجزات، إنهم لا ينتظرون إلا حلول العذاب بهم، وأن يحل بهم ما لا ينتظرونه، ولا يعملون له حسابًا، وهو: إتيان ملائكة العذاب لقبض أرواحهم، أو مجيء الله تعالى للفصل بينهم، أو ظهور علامات الساعة، وهي مقدمات البعث والنشور.

والمعنى: هل ينتظر الذين استمروا على ظلمهم وعنادهم، إلا تأتيتهم مقدمات العذاب، أو مقدمات الآخرة، بأن تأتي الملائكة لقبض أرواحهم، أو يأتي ربك لفصل القضاء، أو

(١) قرأ حمزة والكسائي وخلف العاشر بياء التذكير في (تأيتهم الملائكة) والباقون بياء التأنيث، وجاز تذكير الفعل وتأنيثه؛ لأن الفاعل مؤنث مجازي وأبدل ورش وأبو عمرو بخلف عنه وأبو جعفر الهمزة ألفًا.

تأتي بعض علامات الساعة، فعندئذ لا تُقبل توبة ولا ينفع إيمان، وفي هذا تهديد ووعد لهم، وفيه تذكير لهم بأن الانتظار والتريث عن الإيمان عاقبته وخيمة؛ لأن صاحبه مهدد بما يمنع التدارك، وما يعقب ذلك من الحسرة والندامة، أو الموت والحساب.

وقد قسّمت الآية الناس إلى قسمين: نفس مؤمنة، ونفس كافرة:

فالنفس الكافرة لا ينفعها إيمانها عند ظهور علامات الساعة، وقُفْلُ باب التوبة.

أما النفس المؤمنة التي اقتصرَت على الإيمان، وفرّطت في جميع أعمال الخير، فلا ينفعها اكتساب أعمال الخير، وإضافة شيء من العمل الصالح إلى رصيدها السابق.

فلا تنتفع نفس غير مؤمنة بإيمانها وتوبتها في ذلك اليوم، ولا ينفع اكتساب الخير لمن قَصُرَ في كسبه قبل ذلك.

فلا إيمان لمن لم يؤمن قبل ذلك اليوم، ولا طاعة لمن يطيع من المؤمنين في ذلك اليوم.

وقد اقتصرَت الآية على ما يكون عند قيام الساعة من أحداث، فماذا ينتظر المكذبون بالرسالة، المنكرون للقرآن، الصادُّون عن سبيل الله، المعرضون عن الإيمان بالله ورسوله؟ وهذا الاستفهام معناه النفي، أي: أنهم لا يؤمنون بك إلا إذا جاءتهم إحدى آيات ثلاث، ويكون ذلك في وقت لا ينفع فيه الإيمان، وهذه الآيات الثلاث هي:

١- أن يأتيهم ملك الموت وأعوانه؛ ليقبض أرواحهم، ويوافيهم الأجل المحتوم.

٢- أو يأتي ربك -يا محمد- للفصل بين عباده يوم القيامة والقضاء بينهم، ومجيء الله تعالى يكون على صفة تليق بجلاله، ولا نعلمها، وهو سبحانه منزّه عن مشابهة المخلوقين.

٣- أو يأتي بعض علامات الساعة وأشراتها الدالة على قيامها، وهي طلوع الشمس من مغربها.

فحين يكون ذلك لا ينفع نفسًا إيمانها، إن لم تكن آمنت قبل طلوع الشمس؛ لأن الإيمان عند الغرغرة، وعند ظهور علامات الساعة لا ينفع صاحبه، كحال فرعون لما آمن عند الفرق؛ وذلك لأن مجيء علامات الساعة يُذهب التكليف، فلا ينفع العمل الصالح لشخص لم يسبق له العمل قبل ظهور أشرار الساعة لبطلان التكليف في هذا الوقت، كما قال تعالى: ﴿فَلَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا قَالُوا ءَامَنَّا بِاللَّهِ وَحَدُّهُ وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِ مُشْرِكِينَ﴾ (٨٤) فَلَمْ يَكُ

يَنْفَعُهُمْ إِيْمَانُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا ﴿١٥٨﴾ [غافر].

وذلك كالكافر الذي أسلم عند رؤيته لأشراط الساعة، وكذلك من أحدث توبة في هذا الوقت، فإن توبته مردودة عليه، وهذا معنى قوله تعالى: ﴿أَوْ كَسَبَتْ فِي إِيمَانِهَا خَيْرًا﴾ أي: كسبت عملاً صالحاً لم تكن عاملة به قبل ذلك.

قال تعالى: ﴿فَهَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا السَّاعَةَ أَنْ تَأْتِيَهُمْ بَغْتَةً فَقَدْ جَاءَ أَشْرَاطُهَا فَأَنَّى لَهُمْ إِذَا جَاءَهُمْ ذِكْرُهُمْ ﴿١٥٩﴾﴾ [محمد].
وقال سبحانه: ﴿هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ يَأْتِيَهُمُ اللَّهُ فِي ظُلَلٍ مِنَ الْغَمَامِ وَالْمَلَائِكَةُ وَقُضِيَ الْأَمْرُ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ ﴿١٦٠﴾﴾ [البقرة].

والحكمة في ذلك أن الإيمان لا ينفع، إلا إذا كان إيماناً بالغيب، وكان اختياراً من العبد، فإذا ظهرت أمارات الساعة كان الإيمان عن شهادة وإضطرار، كإيمان فرعون حين أشرف على الهلاك، والإنسان يكتسب الخير بإيمانه، فإذا خلا القلب من الإيمان لم ينفعه شيء من ذلك.

﴿قُلْ﴾ لهم -أيها الرسول- ﴿اَنْظُرُوا﴾ مجيء إحدى هذه الآيات الثلاث، وانتظروا قيام الساعة وأماراتها؛ لتعلموا المحق من المبطل، والمسيء من المحسن ﴿إِنَّا مُنْظِرُونَ﴾ ذلك. وجمهور أهل العلم على أن المراد ببعض آيات ربك هو طلوع الشمس من مغربها؛ لأنها أول آيات الساعة ظهوراً، والأحاديث في ذلك كثيرة:

١ - عن أبي هريرة ؓ قال: قال رسول الله ﷺ: «لا تقوم الساعة حتى تطلع الشمس من مغربها، فإذا طلعت من مغربها ورأها الناس آمنوا أجمعون، وذلك حين لا ينفع نفساً إيمانها» ثم قرأ هذه الآية^(١).

٢ - وعنه ؓ أن رسول الله ﷺ قال: «ثلاث إذا خرجن لا ينفع نفساً إيمانها لم تكن آمنت من

(١) البخاري برقم (٤٦٣٥، ٤٦٣٦، ٦٥٠٦) ومسلم (١٣٧/١) برقم (١٥٧) وأبو داود (٤٩٢/٤) برقم (٤٣١٢) وأحمد (٢٣١/٢) برقم (٧١٦١، ٨١٣٨، ٨٨٥٠) والنسائي في «السنن الكبرى» برقم (١١١٧٧) و«سنن ابن ماجه» برقم (٤٠٦٨).

قبل، أو كسبت في إيمانها خيرًا: طلوع الشمس من مغربها، والدجال، ودابة الأرض»^(١).

٣- وفي الحديث عن أبي هريرة أيضًا: «لا تقوم الساعة حتى تطلع الشمس من مغربها، فإذا طلعت آمن الناس كلهم، وذلك حين ﴿لَا يَنْفَعُ نَفْسًا إِيْمَانُهَا لَوَ تَكُنْ ءَامَنَتْ مِن قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِي إِيمَانِهَا خَيْرًا﴾» [الأنعام: ١٥٨]^(٢).

٤- وعن أبي ذر، جُنْدُب بن جُنَادَةَ ؓ قال: قال رسول الله ﷺ: «لا تدري أين تذهب الشمس إذا غابت؟» قلت: لا أدري، قال: «إنها تنتهي دون العرش، ثم تخر ساجدة، ثم تقوم حتى يقال لها: ارجعي، فيوشك يا أبا ذر أن يقال لها: ارجعي من حيث جئت، وذلك حين لا ينفع نفسا إيمانها لم تكن آمنت من قبل»^(٣).

٥- وعن حذيفة بن أسيد الغفاري ؓ قال: أشرف علينا رسول الله ﷺ من غرفة، ونحن نتذاكر الساعة، فقال: «لا تقوم الساعة حتى تروا عشر آيات: طلوع الشمس من مغربها، والدخان، وثلاثة خسوف: خسف بالمغرب، وخسف بالشرق، وخسف بجزيرة العرب، ونارًا تخرج من قعر عدن تسوق -أو: تحشُر- الناس، تبيت معهم حيث باتوا، وتقبل معهم حيث قالوا»^(٤).

٦- وجاء في الأثر: أن علامة طلوع الشمس من مغربها أن ليلتها تطول بمقدار ليلتين، والنجوم تقف مكانها، والليل يطول، فيفرغ الناس ولا يصبحون، فبينما هم ينتظرون طلوع الشمس من مشرقها إذا طلعت من مغربها، فإذا رآها الناس آمنوا، ولا ينفعهم إيمانهم^(٥).

(١) «صحيح مسلم» برقم (١٥٨) و«تفسير ابن جرير» (٢٦٥/١٢) و«المسند» (٤٤٥/٢) برقم (٩٧٥٢) بإسناد و«سنن الترمذي» برقم (٣٠٧٢) وابن أبي شيبة (١٧٨/١٥)، وأبو يعلى (٦١٧٠).

(٢) مسلم (١٥٧) والبخاري (٤٦٣٥) وابن حبان (٦٨٣٨) وابن جرير (٢٥٥/١٢).

(٣) البخاري (٥٤١/٨) برقم (٤٨٠٣) ومسلم (١٣٨/١) برقم (١٥٩) والنسائي في «التفسير» برقم (٤٤٦).

(٤) «المسند» (٧/٤) برقم (١٦١٤١، ١٦١٤٣، ١٦١٤٤) بإسناد صحيح رجال ثقات (محققوه) و«صحيح

مسلم» (٢٢٢٥/٤) برقم (٢٩٠١) وأبو داود (٤٩١/٤) برقم (٤٣١١) والترمذي (٤٧٧/٤) برقم (٢١٨٣)

والنسائي «في الكبرى» (١١٣٨٠، ١١٤٨٢) وابن ماجه (١٣٤١/٢).

(٥) رواه ابن مردويه عن حذيفة كما في «الدر المنثور» (٥٧/٣) وفي «اللائل المصنوعة» للسيوطي (٣١/١)

والبداية والنهاية (٢٦١/١٩).

٧- وجاءت آثار تفيد أن أول أشرط الساعة: طلوع الشمس من مغربها^(١).

٨- وفي حديث أبي سعيد الخدري أن المراد ببعض آيات ربك في الآية قال: «طلوع الشمس من مغربها»^(٢).

٩- وفي حديث عبد الله بن عمرو ؓ لما بلغه أن مروان قال: إن أول آيات الساعة خروج الدجال، فقال: قد حفظت من رسول الله ﷺ حديثاً لم أنسه بعد، سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إن أول الآيات خروجاً: طلوع الشمس من مغربها، وخروج الدابة ضحى، فأيتها كانت قبل صاحبته، فالأخرى على أثرها».

ثم قال: وأظن أولها خروجاً: طلوع الشمس من مغربها، وذكر أنها كلما غربت سجدت تحت العرش، واستأذنت في الرجوع فيؤذن لها، فإذا جاء وقت طلوعها من الغرب، استأذنت في الرجوع إلى مشرقها، فلم يؤذن لها -ثلاث مرات- ثم يقال لها: من مكانك فاطلعي، فتطلع على الناس من مغربها، ثم قرأ عبد الله الآية: ﴿لَا يَنْفَعُ نَفْسًا إِيْتِنَاهَا لَمَّا تَكُنْ ءَامَنَتْ مِنْ قَبْلُ﴾^(٣) الآية.

١٠ - وعن أبي ذر ؓ قال: كنت رذف النبي ﷺ على حمار وعليه بردعة وقطيفة، وذاك عند غروب الشمس، فقال: «يا أبا ذر، أتدري أين تغيب هذه؟» قلت: الله ورسوله أعلم، قال: «فإنها تغرب في عين حامية، تنطلق حتى تخر لربها ساجدة تحت العرش، فإذا حان خروجها أذن لها فتخرج فتطلع، فإذا أراد أن يطلعها من حيث تغرب حبسها، فتقول: يارب،

(١) كما رواه الخطيب البغدادي في تاريخه (١٥٦/٢) و«المسند» (٣١/٣) برقم (٦٥٣١) بإسناد صحيح على شرط الشيخين، و«سنن الترمذي» برقم (٣٠٧١) وابن ماجه (٤٠٦٩) والطيالسي (٢٢٤٨) وابن أبي شيبة في «المصنف» (١٧٩/١٥) والطبراني في «الأوسط» كما في «مجمع الزوائد» (٩/٨) زوي مرفوعاً وموقوفاً على أبي سعيد الخدري، ويشهد له الحديث بعد الآتي.

(٢) «المسند» (١١٢٦٦، ١١٩٣٨) صحيح لغيره، وأبو يعلى (١٣٥٣) و«صحيح سنن الترمذي» (٢٤٥٥) وعبد بن حميد في «المنتخب» (٩٠٠) وابن أبي حاتم (٨١٤١) وابن أبي شيبة (١٧٩/١٥) والطبراني في «الأوسط» (٢٠٢٣).

(٣) يُنظر الحديث في «صحيح مسلم» برقم (٢٩٤١) و«سنن أبي داود» برقم (٤٣١٠) و«سنن ابن ماجه» برقم (٤٠٦٩) و«المسند» (٦٨٨١) بإسناد صحيح على شرط الشيخين (محققوه) وعبدالرزاق (٢٠٨١٠) وابن أبي شيبة (٦٧/١٥) وعبد بن حميد في «المنتخب» (٣٦٦).

إِنَّ سَيْرِي بَعِيدٌ، فيقول لها: اطلّعي من حيث غربت، فذلك حين لا ينفع نفسًا إيمانها لم تكن آمنت من قبل»^(١). ولعل طلوع الشمس من مغربها هو أول الآيات السماوية.

وخروج الدابة هو أول الآيات الأرضية، وكلاهما أمر غير مألوف للبشر، وهذا بخلاف خروج الدجال، ونزول عيسى، وخروج يأجوج ومأجوج؛ فإن هذه الثلاثة أمور مألوفة للبشر؛ لأن مشاهدتهم ومخاطبتهم ليس غريبًا، وإذا طلعت الشمس من مغربها فُقل باب التوبة، فيجب على العباد أن يبادروا بالتوبة قبل أن يُقفل بابها.

١١- وعن أبي هريرة ؓ أن رسول الله ﷺ قال: «بادروا بالأعمال ستًّا: طلوع الشمس من مغربها، والدجال، والدخان، ودابة الأرض، وخُوصَصَ أَحَدِكُمْ، وأمر العامة» قال قتادة: خويصة أحدكم: الموت، وأمر العامة: أمر الساعة^(٢).

١٢- وباب التوبة مفتوح على مصراعيه كما جاء عن أبي موسى الأشعري ؓ أن رسول الله ﷺ قال: «إن الله يبسط يده بالليل ليتوب مسيء النهار، ويبسط يده بالنهار ليتوب مسيء الليل حتى تطلع الشمس من مغربها»^(٣).

١٣- وفي حديث أبي هريرة ؓ أن رسول الله ﷺ قال: «من تاب قبل أن تطلع الشمس من مغربها تاب الله عليه»^(٤).

- وأخرج الإمام أحمد عن السعدي أن الهجرة لها معنيان:
أحدهما: هجر السيئات.

(١) مسلم (١٥٩) وأبو داود (٤٠٠٢) والترمذي (٢١٨٦، ٣٢٢٧) والنسائي «في الكبرى» (١١١٧٦) وابن أبي حاتم (٨١٤٣) وانظر في المسند (٢١٣٥٢).

(٢) «المسند» (٨٣٠٣) بإسناد صحيح على شرط مسلم، (محققوه) وأخرجه ابن حبان (٦٧٩٠) ومسلم (٢٩٤٧) والحاكم (٥١٦/٤).

(٣) مسلم (٢٧٥٩) وابن أبي شيبة (١٨١/١٣) والنسائي «السنن الكبرى» (١١١٨٠) والبيهقي في «الأسماء والصفات» (٦٩٩) وأبو الشيخ في «العظمة» (١٢٨) والمسند (١٩٥٢٩) بإسناد صحيح على شرط الشيخين وأخرجه الطيالسي (٤٩٠).

(٤) «صحيح مسلم» برقم (٢٧٠٣) و«المسند» (٢٧٥/٢) برقم (٧٧١١) وإسناده صحيح على شرط الشيخين و«تفسير الطبري» (٢٥٦/١٢) وعبد الرزاق (٢٢١/١)، في التفسير، وابن عدي في الكامل (١٤١٢/٣).

والأخرى: الهجرة إلى الله ورسوله.

وأن الهجرة لا تنقطع ما دام باب التوبة مفتوحًا، وأن التوبة مقبولة حتى تطلع الشمس من مغربها، فإذا طلعت من مغربها طُبع على كل قلب بما فيه، وكُفّي الناس العمل^(١).

١٤- وفي حديث معاوية بن أبي سفيان أن رسول الله ﷺ قال: «لا تنقطع الهجرة حتى تنقطع التوبة، ولا تنقطع التوبة حتى تطلع الشمس من مغربها»^(٢).

١٥- وعن زر بن حبیش قال: أتيت صفوان بن عسال المرادي، فقال: ما جاء بك؟ قلت: ابتغاء العلم... قال زر: فما برح يحدثني حتى حدثني أن الله جعل بالمغرب بابًا عرضه مسيرة سبعين عامًا للتوبة، لا يُغلق ما لم تطلع الشمس من مغربها، وذلك قول الله تعالى: ﴿يَوْمَ يَأْتِي بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ لَا يَنْفَعُ نَفْسًا إِيْمَانُهَا﴾^(٣).

أخرج الطبري بسند حسن عن السُّدِّي قال في معنى الآية: كسبت في تصديقها خيرًا، أي: عملاً صالحًا، فهؤلاء أهل القبلة، فإن كانت مُصدّقة ولم تعمل قبل ذلك خيرًا، فعملت بعد أن رأت الآية، لم يُقبل منها، وإن عملت قبل الآية خيرًا، ثم عملت بعد الآية خيرًا قبل منها.

وقد بيّن سبحانه أن الملائكة يأتون صفوفًا يوم القيامة، كما في قوله تعالى: ﴿وَجَاءَ رَبُّكَ وَالْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا﴾ [الفجر].

وبيّن سبحانه أن الله تعالى يأتي في ظُلُلٍ من الغمام والملائكة، وهذا من صفات الله

(١) يُنظر: «المسند» (١٩٢/١) برقم (١٦٧١) قال محققوه: إسناده حسن قال ابن كثير في «التفسير» (٢/٣٧٥) هذا الحديث حسن الإسناد، وقال الهيثمي في «مجمع الزوائد» (٢٥١/٥) رجال أحمد ثقات والبيهقي (٧٢١٥) وله شواهد صحيحة.

(٢) «المسند» (١٦٩٠٦) وأبو داود (٢٤٧٩) وصحيح «سنن أبي داود» (٢١٦٦) والنسائي في «السنن الكبرى» (٨٧١١) وهو حديث حسن لغيره، وأخرجه الدارمي (٢٣٩/٢) وأبو يعلى (٧٣٧١) والطبراني في الكبير (١٩/٩٠٧).

(٣) قال أبو عيسى: هذا حديث حسن صحيح، «سنن الترمذي» برقم (٣٥٣٦) وعبد الرزاق في تفسيره برقم (٨٧٧) والنسائي في تفسيره برقم (١٩٨) وفي «الكبرى» (١١١٧٨) وابن ماجه في «السنن» برقم (٤٠٧٠) وابن خزيمة في صحيحه برقم (١٩٣) وابن حبان في صحيحه برقم (١٣٢١) و«تفسير الطبري» برقم (١٤٢٠٦) و«المسند» (١٨٠٩٥، ١٨١٠٠) صحيح لغيره وإسناده حسن من أجل عاصم بن أبي النجود وبقية رجاله ثقات (محققوه) والطيايسي (١٢٦٤).

تعالى التي نؤمن بها كما وردت. ونؤمن أن الله تعالى ليس كمثله شيء، ونؤمن بمجيئ الله تعالى يوم القيامة للفصل بين خلقه.

وعندما تأتي بعض آيات ربك بطلوع الشمس من مغربها، لا تنتفع النفس الكافرة بإيمانها في ذلك الوقت؛ لأن باب التوبة قد قُفل، ولا يقبل الله عملاً صالحاً ممن لم يكن قد عمله من قبل.

قال تعالى: ﴿مَا نُنَزِّلُ الْمَلَائِكَةَ إِلَّا بِالْحَقِّ وَمَا كَانُوا إِذَا مُنْظَرِينَ﴾ [الحجر].

وقال: ﴿وَلَوْ أَنزَلْنَا مَلَكًا لَّقُضِيَ الْأَمْرُ ثُمَّ لَا يُنْظَرُونَ﴾ [الأنعام: ٨].

التَّفَرُّقُ فِي الدِّينِ يُنَافِي الْإِيمَانَ

١٥٩- ﴿إِنَّ الَّذِينَ فَرَّقُوا^(١) دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيعًا لَّسَتْ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ إِنَّمَا أَمْرُهُمْ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ﴾

في هذه الآية أمر بالاجتماع والاتلاف، ونهي عن التفرق والاختلاف في الدين، وفي مسأله الأصولية والفروعية، وفيها وعيد لمن فرق دينه أو فارقه، فجعله فرقاً ومذاهب شتى، كل حزب بما لديهم فرحون، وهؤلاء ليس لهم نصيب في الإسلام، فقد أمر الله رسوله أن يتبرأ منهم ﴿لَّسَتْ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ﴾ لأنهم خالفوك وعاندوك، وسوف يُردون إلى ربهم فيجازيهم بأعمالهم.

ثم بيّن سبحانه أحوال الفرق الضالة، بوجه عام، ممن يدخل تحت مسمى الإسلام ولكلمة (الإسلام) معنى عام هو توحيد الله تعالى وإسلام الوجه له، وبهذا أرسل الله جميع الرسل، وأنزل من أجله جميع الكتب، وهذا معنى قوله تعالى: ﴿إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ﴾ [آل عمران: ١٩]. فالدين الواحد: هو الإسلام، والعقيدة الواحدة: هي التوحيد، وكل رسول جاء يقول لقومه: ﴿اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ﴾ [هود: ٦١]. وليس هناك خلاف بين الرسل في العقائد.

أما الشرائع والتكاليف الشرعية، فقد جاءت بالتدرج على لسان كل رسول، بما يناسب

(١) قرأ حمزة والكسائي (فارقوا) بألف بعد الفاء وتخفيف الراء من المفارقة وهي الترك؛ لأن من آمن ببعض وكفر ببعض فقد ترك الدين القيم، وقرأ الباقون (فرقوا) بدون ألف بعد الفاء وتخفيف الراء من التفريق.

أتمته في طور تاريخها، فشرعت الصلاة في هيئة القيام فقط في بعض الأمم، وكذا الركوع، أو السجود، وشرع الصيام ليوم واحد كيوم عاشوراء، أو الامتناع عن نوع معين من الطعام وهكذا، حتى اكتمل نضوج البشرية في آخر رسالة، فكان التشريع الأخير الذي يناسب الأمة كلها إلى قيام الساعة، وبهذا المعنى حملت دعوة محمد ﷺ هذا الاسم وهو (الإسلام)، وبعد أن اكتمل الدين على مدى الأجيال ورسالات الرسل، وبلغ أشده في الرسالة الخاتمة، كان هذا المعنى الخاص لكلمة (الإسلام) بإطلاقه على دين محمد ﷺ.

ومن هنا جاء اتفاق رسالات الرسل كلها في مجال العقيدة على الحنيفية السمحة دين إبراهيم، مع اختلاف في بعض الشرائع بين الرسالات.

وإلى هذا المعنى يشير قول النبي ﷺ في حديث أبي هريرة: «نحن معاشر الأنبياء أولاد علات ديننا واحد»^(١)

والعلات بفتح العين وتشديد اللام: هم الأخوة لأب من أمات شتى، ومعنى الحديث: أن أصل إيمانهم واحد، وشرائعهم مختلفة.

ويشير قول الله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِبَعًا لَسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ﴾ إلا أن اليهود والنصارى فرقوا هذا الدين الواحد وفارقوه، فأمنوا ببعض الرسل، وكفروا ببعض، فقد كفر اليهود بعيسى ومحمد، وكفر النصارى بمحمد، وبهذا فرقوا بين الوحي النازل على هؤلاء الرسل، فأمنوا بنزوله على بعضهم دون بعض، وشايع بعضهم بعضاً في هذا الكفر، وهذا التفريق بين الرسل، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَيُرِيدُونَ أَنْ يُفَرِّقُوا بَيْنَ اللَّهِ وَرُسُلِهِ وَيَقُولُوا نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ وَيُرِيدُونَ أَنْ يَتَّخِذُوا بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلًا ۖ أُولَٰئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ حَقًّا وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُهِينًا﴾ [النساء].

وجبريل الذي نزل على موسى هو نفسه الذي نزل على عيسى ومحمد، فلماذا نؤمن به هنا، ونكفر به هناك؟

والتوحيد الذي جاء به الوحي من عند الله، وهو أصل الرسالات جميعاً: اختلف فيه اليهود والنصارى، ففرقوه وفارقوه، فقال بعض اليهود: عزيز ابن الله، وقالت النصارى المسيح ابن

(١) البخاري (٤٧٧/٦) برقم (٣٤٤٢، ٣٤٤٣) ومسلم (١٨٣٧/٤) برقم (٢٣٦٥) وأبو داود (٥٥/٥).

الله، فأدخلوا الشرك على التوحيد، وفارقوا دين الله الواحد وباينوه، وجعلوه فرقًا متناحرة، فالنصارى فرق: (كاثوليك، وأرثوذكس، وپروتستانت) وغيرهم، واليهود فرق.

والله سبحانه يقول لرسوله محمد ﷺ: أنت بريء من هؤلاء الذين اختلفوا في دين الله، وخرجوا عن التوحيد، وشايع بعضهم بعضًا في ذلك، وإلى هذا المعنى يشير قوله سبحانه: ﴿وَمَا نَفَرَقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمْ الْبَيِّنَةُ﴾ [البينة].

والبينة التي جاءتهم هي رسالة محمد ﷺ التي كفروا بها، وكانوا قبل مجيئه يقولون: نحن أول من سيؤمن بالنبي الخاتم، ويقرر الله سبحانه هذا المعنى في قوله: ﴿شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ﴾ [الشورى: ١٣]. لا تختلفوا في هذا التوحيد الذي جاءت به كل الرسل؛ لأن التفرق في أصول الدين ينافي وحدته، وتفريق أصوله بعد اجتماعها كمن فرق بين الصلاة والزكاة، كما قال أبو بكر ؓ: والله لأقاتلن من فرق بين الصلاة والزكاة.

أما التفريق في استنباط الأحكام، كالاختلاف في الفروع الفقهية والاختلاف في الأصول الفقهية؛ كالفرق بين الفرض، والواجب، فهو مما كلف الله به العلماء، وجعل للمصيب أجرين، وللمخطئ أجرًا بعد استفراغ الجهد والطاقة.

وسياق الآيات يدل على أن المراد بالآية التي نحن بصدددها هم: اليهود، والنصارى؛ لأن في الآيات قبلها ﴿ثُمَّ ءَاتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ تَمَامًا عَلَى الَّذِي أَحْسَنَ﴾ [الأنعام: ١٥٤]. أي: وحَّد الله وأطاعه، وقوله تعالى: ﴿أَنْ تَقُولُوا إِنَّمَا أُنْزِلَ الْكِتَابُ عَلَى طَائِفَتَيْنِ مِنْ قَبْلِنَا﴾ [الأنعام: ١٥٦]. وهم اليهود والنصارى الذين فرقوا دينهم وكانوا شيعًا وفرقًا وطوائف ومذاهب، وآمنوا ببعض الرسل وكفروا ببعض، وجعلوا من التوحيد أبوة وبنوة وتثليثًا، والله تعالى يحذرنا في هذه الآية أن نكون مثلهم؛ فالإسلام يجمع ولا يفرق، ويوحَّد ولا يشكك، ويؤمن بكل الرسل، ويأمر بالتعاون على البرِّ والتقوى، والاعتصام بحبل الله تعالى أمة واحدة.

وكل مسلم في شتى بقاع الأرض، يؤمن بالله ربًّا، وبالإسلام دينًا، وبمحمد نبيًّا، وبالقرآن كتابًا، وبالكعبة قبله، فهو أحد أبناء الإسلام، وواحد من أفراد هذه الأمة، ولا يمنع من ذلك أن يكون بعضهم مرتكبًا لبعض الذنوب صغيرها أو كبيرها، أو أن يكون

خارجًا على الصواب في بعض الفروع؛ فإن هذا لا يخرج عن دائرة الإسلام.

ويوضح هذا المعنى القراءة المتواترة الثانية التي في الآية وهي: ﴿إِنَّ الَّذِينَ فَارَقُوا دِينَهُمْ﴾ أي: باينوه وتركوه، وانصرفوا عنه فأعرضوا عنه بالكلية؛ لأن من فرّق دينه فارقه.

والدين دين الله، وقد أسند الدين إليهم في الآية؛ لأن الله تعالى قد ألزمهم به، فهو دين الناس جميعًا بهذا المعنى، وهذا ينطبق على كل من ترك دين محمد ﷺ من لدن بعثته صلوات الله وسلامه عليه إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها، وهو يشمل أهل الكتاب وغيرهم من المشركين والوثنيين والمسلمين، ويشمل كل من فارق دين الله وخالفه من جميع أهل الملل والنحل والأهواء والضلالات والبدع.

والله تعالى قد برأ رسوله مما هم عليه من تفرق واختلاف وضلالات، فصاروا فرقًا وأحزابًا.

والله تعالى يقول لرسوله: اترك هؤلاء وأولئك؛ فإن حكمهم إلى الله، فسوف يرجعون إليه ويخبرهم يوم القيامة بما عملوا، فيجازي من تاب منهم وأتاب بإحسانه، ويعاقب المسيء بإساءته ﴿لَسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ﴾ اتركهم وشأنهم، وتبرأ منهم ﴿إِنَّمَا أَمْرُهُمْ إِلَى اللَّهِ﴾ فسوف يرجعون إليه ﴿ثُمَّ يَنْتَهُمُ﴾ ويخبرهم ﴿بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ﴾ ويجازيهم عليه:

آثار وأحاديث في المعنى:

- ١- قال مجاهد وقتادة والضحاك والسدي: نزلت هذه الآية في اليهود والنصارى^(١).
- ٢- وجاء في الحديث عن عمر رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال في الآية: «هم أصحاب البدع»^(٢).
- ٣- وقال أبو الأحوص وأم سلمة: الآية في أهل البدع والأهواء والفتن ومن جرى مجراهم من أمة محمد ﷺ^(٣).
- ٤- وعن ابن عباس رضي الله عنهما أن اليهود والنصارى اختلفوا قبل مبعث النبي ﷺ فتفرقوا، فلما بُعث محمد ﷺ أنزل الله الآية^(٤).

(١) «تفسير الطبري» (١٢/٢٦٩).

(٢) قاله الهيثمي في «مجمع الزوائد» (٧/٢٢) رواه الطبراني في «الصغير» (١/٣٣٨) وإسناده جيد.

(٣) «تفسير ابن عطية» (٢/٣٦٧).

(٤) «تفسير ابن كثير» (٢/٣٣٧).

٥- وقال أبو هريرة رضي الله عنه في هذه الآية: هم أهل الضلالة من هذه الأمة^(١).

وهم أهل البدع، وأهل الشبهات من هذه الأمة.

٦- وعن العرياض بن سارية رضي الله عنه قال: صلى بنا رسول الله ﷺ ذات يوم، ثم أقبل علينا بوجهه فوعظنا موعظة بليغة ذرفت منها العيون، ووجلّت منها القلوب، فقال رجل: يا رسول الله، كأن هذه موعظة مودّع، فما تعهّد إلينا؟ فقال: «أوصيكم بتقوى الله، والسمع والطاعة وإن تأمر عليكم عبد حبشي، فإن من يعش منكم بعدي فسيرى اختلافاً كثيراً، فعليكم بستتي، وسنة الخلفاء الراشدين المهديين، تمسّكوا بها، وعضّوا عليها بالنواجذ، وإياكم ومحدثات الأمور؛ فإن كل محدثة بدعة، وكل بدعة ضلالة»^(٢).

٧- وعن عبد الله بن عمر رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «تفرقت بنو إسرائيل على اثنتين وسبعين فرقة، وستفترق أمتي على ثلاث وسبعين فرقة»^(٣).

وعلى هذا فالآية عامة، ويدخل فيها اليهود والنصارى دخولاً أولياً، وفيها حض لهذه الأمة على الائتلاف وعدم الاختلاف، والآية عامة في كل من فارق دين الله وكان مخالفاً له، فقد بعث الله محمداً ﷺ بالهدى ودين الحق؛ ليظهره على جميع الأديان بلا اختلاف ولا تفرق، ويندرج في هذه الآية أصحاب الفرق الباطلة والمذاهب الفاسدة في كل زمان ومكان؛ كالقاديانية، والبهائية، والباطنية.

(١) «تفسير البغوي» و«الخازن» للآية.

(٢) أخرجه أبو داود في السنة (١١/٧) برقم (٤٦٠٧) والترمذي في العلم (٤٣٧/٧) عقب الحديث (٢٦٧٦) وقال: حديث حسن صحيح وهو في المسند (١٧١٤٤، ١٧١٤٢) حديث صحيح ورجال ثقات، (محققه) وأخرجه ابن ماجه (٤٣) والحاكم (٩٦/١) وابن أبي عاصم في السنة (٣٣).

(٣) ورد هذا الحديث من طرق كثيرة بألفاظ مختلفة. فقد أخرجه أبو داود في السنة (٣/٧) برقم (٤٥٩٦) والترمذي في الإيمان (٣٩٧/٧) برقم (٢٦٤٠) وقال: حسن صحيح، وابن ماجه في الفتن برقم (٣٩٩١) وابن حبان برقم (١٨٣٤) في الموارد والدارمي في السير (٢٤١/٢) والحاكم وصححه على شرط مسلم، وابن ماجه في المقدمة برقم (٤٢) والبغوي في «شرح السنة» (٢٠٥/١). والحديث إسناده حسن كما جاء في تحقيق مسند أحمد عن أبي هريرة برقم (٨٣٩٦).

فَضْلُ اللَّهِ وَعَدْلُهُ فِي الْحَسَنَاتِ وَالسَّيِّئَاتِ

١٦٠ - ﴿مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرٌ^(١) أَمْثَالِهَا وَمَنْ جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَى إِلَّا مِثْلُهَا وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ^(٢)﴾

وبعد أن أنذر الله تعالى المؤمنين، وحذّرهم من التقاعس عن اكتساب الخير، بشر من يكتسبون الصالحات بمضاعفة الحسنات، وبمناسبة الحساب والجزاء الذي خُتمت به الآية السابقة، قرر ﷻ في هذه الآية ما كتبه ربنا على نفسه من الرحمة في حساب عباده، فبيّن صفة الجزاء في أقل تضعيف لها، وأن من جاء بالحسنة القولية أو الفعلية، الظاهرة والباطنة، المتعلقة بحق الله تعالى أو حق خلقه، فجعل لمن جاء بالحسنة، مِنْ كُلِّ عمل صالح، له عند الله عشر أمثالها، شريطة أن يكون مؤمناً؛ إذ لا يوجد مع الكُفر حسنة، ومن جاء بالسيئة فلا يُجْزَى إِلَّا مِثْلُهَا؛ إذ لا يظلم ريبك أحداً، ولا يُبخس أحدٌ حقه.

﴿مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ﴾ أي: من لقي ربه بحسنة من الأعمال الصالحة ﴿فَلَهُ عَشْرٌ أَمْثَالِهَا﴾ أي: يجازى على الحسنة الواحدة عشر حسنات مع المضاعفة، ومن لقي ربه بسيئة من السيئات فلا يعاقب إلا بمثلها دون مضاعفة.

والزيادة في الحسنات من باب الفضل، والمعاملة في السيئات بالمثل من باب العدل ﴿وَمَنْ جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَى إِلَّا مِثْلُهَا﴾ فيجازي من تاب وأحسن بإحسانه، ويعاقب المسيء بإساءته، وأن من أتى بسيئة فإن العقوبة لا تضاعف عليه، وإنما يجازى بمثلها، وهذا من تمام عدل الله تعالى الذي لا يظلم مثقال ذرة.

وهذه الآية عامة في جميع الحسنات والسيئات، وعامة لجميع الأمة، أي: أن الله تعالى يضاعف ثواب الحسنة بعشرة مضمونة، وبعدها يزيد ما يشاء لمن يشاء، والتوحيد يوجب الجنة، والشرك يوجب النار ﴿وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ لا ينقصون من جزائهم شيئاً.

وقد جاءت الأحاديث مطابقة لما في هذه الآية، وهذه جملة منها:

١- عن عبد الله بن عمرو ؓ قال: أخبر رسول الله ﷺ أنني أقول: والله لأصومنَّ

(١) قرأ يعقوب بتنوين (عشر) ورفع (أمثالها) صفة لعشر، والباقون بغير تنوين (عشر) وخفض (أمثالها) على الإضافة.

(٢) غلط الأزرق لام (لا يظلمون) الثانية، ورقفها بقية القراء.

النهار، ولأقومنَّ الليل ما عشتُ، فقلت له: قد قلته بأبي أنت وأمي، قال: «فإنك لا تستطيع ذلك»، قال: «فصُِّم وأفطر، وقُمْ ونَمْ، وصُِّم من الشهر ثلاثة أيام؛ فإن الحسنة بعشر أمثالها وذلك مثل صيام الدهر» الحديث^(١).

٢- وعن أبي أيوب الأنصاري رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «من صام رمضان، ثم أتبعه ستاً من شوال كان كصيام الدهر»^(٢).

وذلك لأن الحسنة بعشر أمثالها، وشهر رمضان ثلاثون يوماً يضاف إليه ستة من شوال مضروبة في عشر، فهي حسنات بعدد أيام السنة.

٣- وعن أبي ذر رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «إذا عملت سيئة فأتبعها حسنة تمحها»، قال: قلت: يا رسول الله، أمن الحسنات: لا إله إلا الله؟ قال: «هي أفضل الحسنات»^(٣).

٤- وعن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: قال الله ﻻ، -وقوله الحق-: «إذا همَّ عبدي بحسنة، فاكْتُبها له حسنة، فإن عملها فاكْتُبها له بعشر حسنات، وإذا همَّ بسيئة فلا تكتبوها، فإن عملها فاكْتُبها بمثلها، فإن تركها -وربما قال: لم يعمل بها- فاكْتُبها له حسنة»، ثم قرأ ﴿مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ مِمَالٍ﴾^(٤).

٥- وعن ابن عباس رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ فيما يرويه عن ربه ﻻ قال: قال رسول الله ﷺ: «إن ربكم رحيم، ومن همَّ بحسنة فلم يعملها كتبت له حسنة، فإن عملها كتبت له

(١) «صحيح البخاري» برقم (١٩٧٦، ٣٤١٨) و«صحيح مسلم» برقم (١١٥٩) والنسائي (٢٣٩٢) وفي «الكبرى» (٢٧٠٠) وابن حبان (٣٦٥٨، ٣٦٦٠).

(٢) «صحيح مسلم» برقم (١١٦٤).

(٣) «المسند» (١٦٩/٥) برقم (٢١٤٨٧، ٢١٥٣٦) حسن لغیره، وفي كتاب الزهد (٢٧) و«تفسير الطبري» (٨١/٨) وابن أبي حاتم برقم (١٢١٥) وأبو نعيم في «الحلية» (٢١٧/٤) والبيهقي (١٨٢/١) قال الألباني: وهذا إسناد حسن، رجاله ثقات، غير أشياخ شمر فلم يُسموا، ثم ساقه عن إبراهيم التيمي عن أبيه عن أبي ذر، وقال: وهذا إسناد جيد، رجاله كلهم ثقات، رجال مسلم، وهو في «السلسلة الصحيحة» برقم (١٣٧٣) وانظر سنن الترمذي (٣٣٨٣) وابن ماجه (٣٨٠٠).

(٤) قال أبو عيس: هذا حديث حسن صحيح، «سنن الترمذي» برقم (٣٠٧٣) و«صحيح سنن الترمذي» (٢٤٥٧) وأصله عند مسلم برقم (٢٠٣، ٢٠٦) وعند البخاري برقم (٦٤٩١).

عشرًا إلى سبعمائة إلى أضعاف كثيرة، ومن همّ بسيئة فلم يعملها كتبت له حسنة، فإن عملها كتبت له واحدة أو يمحوها الله ﷻ، ولا يهلك على الله إلا هالك»^(١).

٦- وعن أنس بن مالك ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: «من همّ بحسنة فلم يعملها كتبت له حسنة، فإن عملها كتبت له عشرًا، ومن همّ بسيئة فلم يعملها، لم يكتب عليه شيء، فإن عملها كتبت عليه سيئة واحدة»^(٢).

٧- وعن أبي ذر ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: يقول الله ﷻ: «من عمل حسنة فله عشر أمثالها وأزيد، ومن عمل سيئة فجزاؤه مثلها أو أغفر، ومن عمل قراب الأرض خطيئة، ثم لقيني لا يشرك بي شيئًا جعلتُ له مثلها مغفرة، ومن اقترب إليّ شبرًا اقتربتُ إليه ذراعًا، ومن اقترب إليّ ذراعًا اقتربتُ إليه باعًا، ومن أتاني يمشي أتيته هرولة»^(٣).

٨- وعن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده ﷺ عن النبي ﷺ قال: «يعضر الجمعة ثلاثة نفر: رجل حضرها بَلْفُو فهو حظُّه منها، ورجل حضرها بدعاء، فهو رجل دعا الله، فإن شاء أعطاه وإن شاء منعه، ورجل حضرها بإنصات وسكوت، ولم يتخطَّ رقبة مسلم، ولم يؤذِ أحدًا، فهي كفارة له إلى الجمعة التي تليها وزيادة ثلاثة أيام؛ وذلك لأن الله تعالى يقول: ﴿مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا﴾»^(٤).

٩- وعن أبي ذر ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: «من صام ثلاثة أيام من كل شهر فقد صام

(١) «المسند» (٢٧٩/١) برقم (٢٨٢٧، ٣٤٠٢) بإسناد صحيح على شرط الشيخين (محققوه)، وانظر (٢٥١٩، ٢٠٠١) وهو عند البخاري (١١: ٣٢٣) برقم (٦٤٩١) ومسلم (١١٧/١) برقم (١٣١) والنسائي في «السنن الكبرى» (٧٦٧٠) والبيهقي في «الأسماء والصفات» (١٢١) وفي شعب الإيمان (٣٣٣).

(٢) رواه أبو يعلى على شرط مسلم (١٧٠/٦) ط أولى، ورقمه (٣٤٥١، ٣٤٩٩) ورواه مسلم في حديث الإسراء (١٤٧/١) برقم (١٦٢) من حديث طويل، وقال الهيثمي في «مجمع الزوائد» (١٤٥/١٠) رجاله رجال الصحيح

(٣) «المسند» (١٥٣/٥) برقم (٢١٣٦٠، ٢١٤٨٨) بإسناد صحيح على شرط الشيخين (محققوه) و«صحيح مسلم» برقم (٢٦٨٧) وابن ماجه (٢٨٢١) والبيهقي في «الشعب» (١٠٤٣) والبخاري في مسنده (٣٩٨٨) والطيالسي (٤٦٤) والبخاري (١٢٥٣).

(٤) «سنن أبي داود» برقم (١١١٣) و«صحيح ابن خزيمة» برقم (١٨١٣) وصححه أحمد شاكر في تحقيق «المسند» برقم (٦٧٠١، ٧٠٠٢) وابن أبي حاتم (٨١٦٧)، وحسن إسناده محققو المسند.

الدهر كله» هذا لفظ أحمد^(١).

وزاد الترمذي: «فأنزل الله تصديق ذلك في كتابه ﴿مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا﴾ اليوم بعشرة أيام»، وقال: هذا حديث حسن^(٢).

وعن مضاعفة الحسنات من عشر إلى سبع مئة حسنة إلى أضعاف كثيرة يقول سبحانه: ﴿مَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَكْبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنبُلَةٍ مِائَةٌ حَبَّةٌ وَاللَّهُ يُضَاعِفُ لِمَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾ [البقرة].

ورأس الحسنات كلمة التوحيد، ورأس السيئات الشرك بالله تعالى، ومضاعفة أجر الحسنة يزيد في المضاعفة على إيمان العبد وإخلاصه فيه.

قال ابن كثير: واعلم أن تارك السيئة الذي لا يعملها على ثلاثة أقسام:

- ١- تارة يتركها لله، فهذا تُكْتَبَ له حسنة، على كَفِّه عنها لله تعالى، وهذا عمل ونية، كما جاء في بعض ألفاظ الصحيح: «فإنما تركها من جرّائي» أي: من أجلي.
- ٢- وتارة يتركها نسياناً وذهولاً عنها، فهذا لا له ولا عليه؛ لأنه لم ينو خيراً، ولا فعل شراً.
- ٣- وتارة يتركها عجزاً وكسلًا بعد السعي في أسبابها والتلبس بما يقرب منها، فهذا يتنزل منزلة فاعلها.

كما جاء في الصحيحين: «إذا التقى المسلمان بسيفيهما فالتقاتل والمقتول في النار، قالوا: يا رسول الله، هذا القاتل، فما بال المقتول؟ قال: إنه كان حريصاً على قتل صاحبه»^(٣).

(١) «المسند» (١٤٥/٥) برقم (٢١٣٠١) صحيح لغيره، بإسناد رجاله ثقات رجال الشيخين، (محققوه) و«سنن النسائي» (٢١٩/٤) و«سنن ابن ماجه» برقم (١٧٠٨) والترمذي (٧٦٢) والبخاري (١٨٠١) ومسنند البزار (٣٩٠٤).

(٢) «سنن الترمذي» برقم (٧٦٦). و صححه الألباني في صحيح الترمذي (٦٠٩) وإرواء الغليل (١٠٢/٤) وإسناده على شرط الشيخين.

(٣) رواه البخاري برقم (٣١)، ٦٨٧٥، ٧٠٨٣، ومسلم (٢٢١٣/٤) برقم (٢٨٨٨) وأبو داود (٤٦٢/٤) من حديث أبي بكرة.

أَرْبَعُ آيَاتٍ جَامِعَةٍ لِأَصُولِ الْعَقِيدَةِ وَالْعِبَادَةِ

١٦١ - ﴿قُلْ إِنِّي هَدَيْتَنِي رَبِّي^(١) إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ^(٢) دِينًا قِيَمًا^(٣) مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ^(٤) حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾

وقد خُتمت سورة الأنعام بخمس آيات جامعة لوجوه الخير، مناسبة لمبادئ الدعوة وإعلانها وتبليغها للناس، مؤذنة بختام السورة، وإنهاء المحاجة مع المعارضين، وتشتمل هذه الآيات على ثلاث تلقينات: ﴿قُلْ إِنِّي هَدَيْتَنِي رَبِّي﴾ ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي﴾ ﴿قُلْ أَعْتَدَ اللَّهُ لَأَنبِيَائِهِ خَيْرًا﴾ وهي تشير إلى وحدة الدين، وإخلاص العبادة، ونقاء التوحيد، وعدالة الجزاء، وهذه التلقينات الثلاث مكملة لأربع وأربعين قولاً تلقينياً أمر الرسول ﷺ بترديدها خلال السورة كلها، وهي تشير إلى النبي الخاتم الذي مَحَضَ دعوته ونُصَحَ عبادته لله تعالى، وبلغ شأنًا لم يبلغه أحد قبله ولا بعده:

والتلقين الأول من هذه التلقينات الثلاث الأخيرة يتناول جانب العقيدة من الهداية إلى الطريق القويم والدين القيم، ملة إبراهيم.

والتلقين الثاني يتناول جانب العبادة: الصلاة، والنسك، والمحيا، والممات.

والتلقين الثالث يتناول نتيجة الاختبار الدنيوي في الدار الآخرة، ومهمة الإنسان في هذه الحياة.

﴿قُلْ﴾ يا محمد، لهؤلاء الذين فرقوا دينهم وكانوا شيعًا، وقل لغيرهم ممن أرسلت إليهم، وبلغهم أمر الله تعالى لرسوله ﷺ أن يعلن عن شريعته إلى العالمين، وبنه الناس إلى عدم صلاحية غيرها، ويصف شريعته بالحُسن والفضل والاستقامة، ويبيِّن أن إعراض المكذبين عن رسالته لا يزلزله عن الحق.

(١) قرأ نافع وأبو جعفر بفتح ياء الإضافة من (رَبِّيَ إِلَى) وصلًا، والباقون بإسكانها.

(٢) هذه الكلمة (مستقيم) أسقطها الكوفي من العدد، وعدّها غيره.

(٣) قرأ ابن عامر وعاصم وحزمة والكسائي وخلف بكسر القاف وفتح الياء من (قِيَمًا)، والباقون بفتح القاف وتشديد الياء مصدر قِيَمَ على وزن فَعَلَ.

(٤) قرأ ابن عامر بخلف عن ابن ذكوان (إبراهيم) بفتح الهاء وألف بعدها، وقرأ الباقيون (إبراهيم) بكسر الهاء وياء بعدها ومعهم ابن ذكوان في الوجه الثاني.

قل لهم جميعاً: ﴿إِنِّي هَدَيْتِي رَفِقَ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ أرشدني ربي إلى الطريق المعتدل المتضمن للعقائد النافعة، والأعمال الصالحة، والأمر بكل حسن والنهي عن كل قبيح، وهو الدين الأقوم الموصل إلى جنته ﴿دِينًا قِيمًا﴾ كاملاً لم يسبق أحد إلى مثله، وهو الإسلام الذي ارتضاه الله لعباده، وهو دين ثابت لا يتغير ولا ينسخ، دين مستقيم، لا اعوجاج فيه ولا زيف، يقوم بأمور الدنيا والآخرة، ويُصلح المعاش والمعاد، وهو دين إمام الحنفاء، ووالد الأنبياء، خليل الرحمن، وهو الدين المائل عن كل دين غير مستقيم من شرائع اليهود والنصارى والمشركين ﴿مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا﴾ هو دين التوحيد الخالص الذي جاء به إبراهيم مائلاً عن الضلالة إلى الاستقامة، وعن الشرك إلى إفراد الله تعالى بالعبادة ﴿وَمَا كَانَ إِبْرَاهِيمَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ مع الله غيره.

وفي هذا رد على الذين يزعمون أنهم على دين إبراهيم وهم يشركون بالله غيره، كما قال تعالى: ﴿وَمَنْ يَرْغَبُ عَنْ مِلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلَّا مَنْ سَفِهَ نَفْسَهُ﴾ [البقرة: ١٣٠]. وقال: ﴿وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ مِلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ هُوَ سَمَنُكُمْ الْمُسْلِمِينَ مِنْ قَبْلُ وَفِي هَذَا﴾ [الحج: ٧٨]. وقال: ﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ [١٦] إلى أن قال: ﴿أَتَّبِعَ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ [النحل: ١٢٠-١٢٣].

وفي هذا بيان أن هذا الدين جاء بأصول شريعة إبراهيم وهي: التوحيد، ومسايرة الفطرة، والشكر، والسماحة، وإعلان الحق.

عن ابن عباس ؓ أنه قيل لرسول الله ﷺ: أي الأديان أحب إلى الله؟ قال: «الحنيفية السمحة»^(١).

وكان النبي ﷺ إذا أصبح قال: «أصبحنا على ملة الإسلام، وكلمة الإخلاص، ودين نبينا محمد، وملة إبراهيم حنيفاً، وما كان من المشركين»^(٢).

(١) رواه البخاري تعليقا (٩٣/١) في الإيمان، باب الدين يسير، وحسن إسناده الحافظ في الفتح، وهو في «المسند» (٢٣٦/١) برقم (٢١٠٧) قال محققوه: صحيح لغيره، وفيه ابن إسحاق، متكلم فيه، وله شاهد قوي من حديث عائشة مرفوعاً (إني أرسلت بحنيفية) المسند (١١٦/٦) وأخرجه البخاري في الأدب المفرد (٢٨٧) وعبد بن حميد (٥٦٩).

(٢) حديث حسن، عن ابن أبيزى، عن أبيه، رواه ابن مردويه، وهو في «المسند» (٣٠٦/٣) برقم (١٥٣٦٠)، (١٥٣٦٣) إسناده صحيح على شرط الشيخين، والدارمي (٢٩٢/٢) والنسائي في «عمل اليوم والليلة» ص ٣٤ حديث (٣) وفي الكبرى (٩٨٣١) قال الهيثمي في «مجمع الزوائد» (١١٦/١٠): رجاله رجال الصحيح.

ثم خصص سبحانه من عموم ما سبق أشرف العبادات فقال:

١٦٣، ١٦٢ ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ^(١) وَمَمَاتِي^(٢) لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٦٣﴾ لَا شَرِيكَ لَّهُ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا^(٣) أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ ﴿١٦٤﴾﴾

أمر الله تعالى رسوله أن يعلن للناس أن صلاته وطاعته وذيبحته وتصرفه مدة حياته، وكذا حاله وإخلاصه وإيمانه عند مماته، كل ذلك لله وحده، طلباً لمرضاته وابتغاء وجهه، وفي هذا أمر للمؤمنين بالتأسي والافتداء برسول الله ﷺ؛ كي يلتزموا بذلك في جميع أقوالهم وأفعالهم، كما أن أفعال العبد وأقواله في حياته ومماته كلها بيد الله تعالى.

﴿قُلْ﴾ أيها الرسول، للخلق جميعاً ﴿إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي﴾ أي: عبادتي وذيبحتي، وكل ما يقربني إلى ربي من حج وعمرة ومناسك، ودعاء وعبادة، ونذر وذبح.

والصلاة فيها تقرب إلى الله تعالى بالقلب واللسان والجوارح.

والذبح فيه بذل ما تحبه النفس من المال إلى من هو أحب إليه منه وهو الله سبحانه.

ولذا خص الصلاة والذبح بالذكر دون غيرهما من العبادات.

﴿وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي﴾ أي: حياتي كلها وموتي أيضاً، وكل ما أوتيته في حياتي من العمل الصالح، وما أموت عليه من الإيمان والإخلاص والثبات على الحق، كل هذا خالصٌ ﴿لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ فحياتي كلها في طاعته سبحانه، ومماتي ورجوعي إليه يوم لقائه للحساب والجزاء، له وحده، وليست للأصنام، ولا للأموات، ولا للجن، ولا لغير ذلك مما يتوجه به بعض المشركين لغير الله تعالى، وعلى غير اسمه.

وكان المشركون يعبدون الأصنام ويذبحون لها، فأمر الله تعالى رسوله ﷺ بمخالفتهم في قوله: ﴿فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَأَحْزَرْ﴾ ﴿١٦٤﴾ [الكوثر].

(١) قرأ نافع بخلف عن ورش وأبو جعفر بإسكان ياء الإضافة مع المد ست حركات لاجتماع الساكنين (وَمَحْيَايَ)، والباقون بفتح ياء الإضافة مع عدم المد، ومعهم الوجه الثاني لورش.

(٢) قرأ نافع وأبو جعفر بفتح ياء الإضافة وصلًا من (ومماتي)، والباقون بإسكانها.

(٣) قرأ نافع وأبو جعفر (وأنا أول) بإثبات ألف (أنا) وصلًا ووقفًا فهو مد منفصل عندهم، والباقون بحذف ألف (أنا) وصلًا وإثباتها وقفًا.

وتفسير النسك في هذه الآية بالذبيحة يناسب ما في هذه السورة من الجدل حول الأنعام، ولا يمنع أن يراد به جميع الطاعات والعبادات، ويكون من عطف العام على الخاص.

وعن جابر بن عبد الله رضي الله عنه قال: ضحَّى رسول الله ﷺ في يوم عيد بكشين، وقال حين ذبحهما: «وجهت وجهي للذي فطر السموات والأرض حنيئاً وما أنا من المشركين، إن صلاتي ونسكي ومحياي ومماتي لله رب العالمين لا شريك له وبذلك أمرت وأنا أول المسلمين»^(١).

من أدعية الاستفتاح:

١- وعن علي رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ كان إذا كبرَّ استفتح، ثم قال: «وجهت وجهي للذي فطر السموات والأرض حنيئاً، وما أنا من المشركين، إن صلاتي ونسكي ومحياي ومماتي لله رب العالمين لا شريك له، وبذلك أمرت وأنا أول المسلمين، اللهم أنت الملك، لا إله إلا أنت، أنت ربي، وأنا عبدك، ظلمت نفسي، وأعترف بذنبي، فاغفر لي ذنوبي جميعاً، لا يغفر الذنوب إلا أنت، واهدني لأحسن الأخلاق، لا يهدي لأحسنها إلا أنت، واصرف عني سيئها، لا يصرف عني سيئها إلا أنت، تباركت وتعاليت، أستغفرك وأتوب إليك»^(٢).

والمسلم حين يقول: ﴿وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ﴾ يحكي لفظ القرآن الكريم الذي يخاطب الرسول ﷺ وهو أول مسلمي هذه الأمة.

٢- ومن أدعية استفتاح الصلاة: «اللهم باعد بيني وبين خطاياي كما باعدت بين المشرق والمغرب، اللهم نقني من خطاياي كما ينقى الثوب الأبيض من الدنس، اللهم اغسلني من خطاياي بالثلج والماء والبرد»^(٣).

(١) أبو داود (٢٣١/٣) وابن ماجه (١٠٤٢/٢) بإسناد فيه مقال برقم (٣١٢١) وانظر صحيح مسلم عن أنس (١٩٦٦)

(٢) من حديث علي بن أبي طالب ومحمد بن سلمة وهو في «صحيح مسلم» (٥٣٤/١) برقم (٧٧١) وأبي داود (٤٨١/١٠) وغيرهم مختصراً من حديث ابن عمر برقم (٦٠١) في «صحيح مسلم» ومطولاً من حديث علي.

(٣) من حديث أبي هريرة في «البخاري» برقم (٧٤٤) ومسلم برقم (٥٩٨) وأبي داود والنسائي، كما في «جامع الأصول»، رقم (٢١٤٦).

٣- ومنها: «سبحانك اللهم وبحمدك، وتبارك اسمك، وتعالى جدك، ولا إله غيرك»^(١).

وجميع الأنبياء، قبل محمد ﷺ، كانت دعوتهم إلى الإسلام، وأصل الإسلام: عبادة الله وحده لا شريك له، ورسّل الله جميعًا جاؤوا بشرائع خاصة تناسب حال أممهم، وكل شريعة منها نُسخَت بما بعدها، إلى أن جاءت شريعة محمد ﷺ فنُسخت ما قبلها من شرائع إلى قيام الساعة، ولأن الرسائل متفقة في الأصول، وعلى رأسها عقيدة التوحيد، ومتنوعة في الشريعة، فقد شبههم النبي ﷺ بالإخوة من أب واحد وأمّهات شتى، كما جاء في الحديث: «نحن معاصر الأنبياء أولاد عُلّات، ديننا واحد»^(٢).

وهذه الآية تتضمن إخلاص العبادة لله وحده، وهذا فرع عن التوحيد، ولذلك سُمّي الرياء: الشرك الأصغر، وكان المشركون يزعمون أن النبي ﷺ يرائي بصلاته عند الكعبة فقالوا: ألا تنظرون إلى هذا المرائي، أيكم يقوم إلى جُزور بني فلان، فيعمد إلى فزئها وسَلّاها، فإذا سجد وضعه بين كتفيه؟^(٣).

فأمر الله رسوله أن يقول لهم: إن صلاتي التي أتوجه بها إلى ربي، وعبادتي وتَقَرُّبي إليه، وذبائح الحج والعمرة والأضاحي وغيرها، وكل ما أعمله في حياتي وما أموت عليه من الإيمان والعمل الصالح لله تعالى، وأنا متجرد تجرّدًا كاملاً لخالقي ورازقي بكل خالجة في قلبي، وكل حركة في حياتي.

قال تعالى: ﴿قُلْ إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ مُخْلِصًا لَهُ الدِّينَ ۚ وَأُمِرْتُ لِأَنْ أَكُونَ أَوَّلَ الْمُسْلِمِينَ ۚ قُلْ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ۚ قُلْ اللَّهُ أَعْبُدْ مُخْلِصًا لَهُ دِينِي ۚ فاعْبُدُوا مَا شِئْتُمْ مِنْ دُونِي﴾ [الزمر].

وقال سبحانه: ﴿قُلْ إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَسْلَمَ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ [الأنعام: ١٤]. وهو سبحانه ﴿لَا شَرِيكَ لَّهُ﴾ في ألوهيته، ولا في ربوبيته، ولا في أسمائه وصفاته، ولا

(١) أخرجه الترمذي عن عائشة برقم (٢٤٣) وأبو داود (٧٧٦) والنسائي (٨٩٩) وابن ماجه (٨٠٦) بأسانيد ضعيفة ويُنظر «جامع الأصول» برقم (٢١٥٢) ويُنظر حديث (٢١٥١) وهو في «صحيح مسلم» برقم (٣٩٩) عن عمر بن الخطاب موقوفًا عليه وهو الأصح.

(٢) من حديث أبي هريرة في «البخاري» برقم (٣٤٤٢، ٣٤٤٣) ومسلم (٢٣٦٥).

(٣) تفسير «التحرير والتنوير» (٨/ ٣٠١).

أشرك في عبادته أحداً من خلقه، ولا في شيء من أفعالي وأقوالي، كما أنه ليس له شريك في الملك والتدبير، وليس هذا الإخلاص لله ابتداءً مني، بل إن الله تعالى أمرني به ﴿وَبِذَلِكَ أُفْتِيتُ﴾ وبهذا الدين الخالص، والتوحيد الثابت أمرني ربي ﴿وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ﴾ أي: أنا أول من أسلم من هذه الأمة؛ لأن إسلام كل نبي متقدم على إسلام أمته، وأنا أول من أقر وانقاد لله من هذه الأمة، وغير النبي ﷺ من المسلمين وليس أولهم.

التَّجَرُّدُ الْكَامِلُ لِلَّهِ تَعَالَى

١٦٤- ﴿قُلْ أَغْيَرَ اللَّهُ ابْنِي رَبًّا وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَيْءٍ وَلَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ إِلَّا عَلَيْهَا وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكَ مَرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْلِفُونَ﴾ (١٦٤)

وبعد هذا التجرد الكامل لله تعالى في المحيا والممات، في كل حركة، وكل نفس، وفي كل خالصة وكل خاطرة، يأتي الرجوع إلى ضلال الكافرين، ويأتي توجه النبي ﷺ إلى كل من كفر بالله تعالى وعبد غيره أن يقول له: أغير الله أطلب إلهاً، وهو خالق كل شيء ومالكة ومدبره، أبحسن ويليق بي أن أتخذ رباً وخالقاً غير الله تعالى، وجميع الخلق منقادون لله تعالى، داخلون تحت ربوبيته، فتعين علي وعلى غيري عدم التعلق بأحد غير الله تعالى، فهو خالقه ورازقه ومدبر أمره، ومحبيه ومميته.

وكان الكفار قد قالوا للنبي ﷺ: ارجع إلى ديننا واعبد آلهتنا، ونحن نتكفل لك بكل تبعه تتوقعها في دنياك وآخرتك^(١) فأنزل الله تعالى على رسوله ﷺ ﴿قُلْ أَغْيَرَ اللَّهُ ابْنِي رَبًّا وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَيْءٍ﴾ فهل يصح أن أتخذ رباً غير الله الذي خلق كل شيء قال تعالى: ﴿فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ﴾ [هود: ١٢٣]. وقال سبحانه: ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَاتَّخِذْهُ وَكِيلًا﴾ [المزمل: ٩].

والاستفهام للإنكار وكلمة ﴿رَبُّ كُلِّ شَيْءٍ﴾ تنتظم هذه الكون بما فيه، فتشمل كل حادث، وكل كائن، وتشمل كل مخلوق، يعلمه الإنسان أو يجهله.

أغير الله أطلب رباً، وهو سبحانه يعلم سري ونجواي، ويحاسبني على ما أكتسب من طاعة أو معصية؟

(١) ذكره ابن عطية عن النقاش (٢/ ٣٧١).

أغير الله أبغي ربًّا، وهذا الكون، كله في قبضته، وإليه مرجعكم جميعًا فيجازيكم على أعمالكم؟
أغير الله أبغي ربًّا، وهو سبحانه يحفظني ويكلؤني، ويدبر أمري؟ ولما كان سبحانه
رب كل شيء ومليكه فلا حق لغيره في أن يعبد الخلاق.

﴿وَلَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ﴾ من خير أو شر ﴿إِلَّا عَلَيْهَا﴾ فلا يعمل الإنسان عملاً سيئاً إلا
كان إثمه عليه.

ولا تحمل نفسٌ أئمةً إثمَ نفسٍ أخرى، بل كلُّ عليه وزر نفسه، وإن تسبَّب أحد في
ضلال غيره، فإن عليه وزر التسبب، من غير أن ينقص من وزر المكتسب للعمل السيء
شيء ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى﴾ هذا إخبار عما يقع يوم القيامة وعن حكم الله وتعالى
وعدله، وأن النفوس تُجزى بأعمالها إن خيرًا فخير وإن شرًّا فشر كما قال تعالى:

﴿وَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا يَخَافُ ظُلْمًا وَلَا هَضْمًا﴾ [طه].

وقال جلَّ شأنه: ﴿وَمَا أَلْتَنَّهُمْ مِنْ عَلَيْهِمْ مِنْ شَيْءٍ كُلُّ امْرِئٍ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ﴾ [الطور: ٢١]. لها
ما كسبت وعليها ما اكتسبت، وكسبها لا يتعدها إلى غيرها، ولا تغني نفس عن نفس شيئاً.

قال ابن عباس: كان الوليد بن المغيرة يقول: اتبعوا سبيلي، أحمل عنكم أوزاركم،
فردَّ الله عليه بهذه الآية.

فإثم الجاني على نفسه لا على غيره، ولا يؤاخذ أحد بذنب غيره ﴿وَأَنْ تَدْعُ مَثْقَلَةً إِلَى
حِمْلِهَا لَا يَحْمِلُ مِنْهُ شَيْءٌ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَى﴾ [فاطر: ١٨]. وكل نفس مرتبهة بعملها السيئ إلا
أصحاب اليمين ﴿كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ﴾ (٢٨) إِلَّا أَصْحَابَ الْيَمِينِ ﴿٣٩﴾ [المدثر].

والخلاق كلها ترجع إلى الله ﷻ في يوم المعاد، فيخبرهم بما اختلفوا فيه في الدنيا من
أمر الدين، ويجازيهم على ما قدمت أيديهم ﴿ثُمَّ إِلَى رَبِّكُمْ مَرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنتُمْ فِيهِ
تَخَلِّفُونَ﴾ في الدنيا مما جعلكم فرقاً وأحزاباً ﴿قُلْ يَجْمَعُ بَيْنَنَا رَبُّنَا ثُمَّ يَفْتَحُ بَيْنَنَا بِالْحَقِّ﴾
[سبأ: ٢٦]. فيحاسبنا على ما قدمت أيدينا فيسمعهم الداعي بدون واسطة الرسل، وليس
بينهم وبين الله حجاب.

نَتِيجَةُ الاسْتِخْلَافِ فِي الْأَرْضِ

١٦٥- ﴿وَهُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلَائِفَ الْأَرْضِ وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِّيَبْلُوكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ الْعِقَابِ وَإِنَّكُمْ لَفَنَوْرٌ رَّحِيمٌ﴾ (١٦٥)

وختمت السورة بهذه الآية ﴿وَهُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلَائِفَ الْأَرْضِ﴾ أي: جعلكم تخلفون من سبقكم في عمارة الأرض، من الأمم والقرون الماضية، فأورثكم أرضهم؛ وسخر لكم جميع ما فيها لتخلفوهم فيها وتعمروها بعدهم، وتتحققوا ما خلقتهم لأجله، وهو طاعة الله تعالى وعبادته؛ وذلك لأن محمدا ﷺ هو خاتم الأنبياء وهو آخرهم، وأتمه آخر الأمم، فهي خلف بعد سلف.

وهذه الأمة ورثت الأمة التي قبلها، وهي أمة يخلف بعضها بعضًا في عمارة الأرض فهذا الجيل يخلف الجيل الذي قبله، ثم يأتي الجيل الذي بعده ليرث الوارث، وفي نهاية الأمر يرث الله الأرض ومن عليها.

جاء في الحديث: توفون سبعين أمة أنتم خيرها وأكرمها على الله، وفي رواية: أنتم آخرها وأكرمها على الله^(١).

قال تعالى: ﴿عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَنْ يُهْلِكَ عَذُّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِي الْأَرْضِ﴾ [الأعراف: ١٢٩].

وكما أن هذه الأمة خلفت الأمم قبلها، فإن الإنس خلف الجن، كما قال تعالى:

﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ [البقرة: ٣٠] يعمرها ويسكنها ويعبد الله فيها.

ولكي تسير عجلة الحياة، فإن الله تعالى قد فاوت بين خلقه، ولم يجعلهم متساوين في كل شيء، قال تعالى:

﴿وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ﴾ أي: خالف بين أحوال العباد، فجعل بعضهم فوق

(١) رواه الحسن بن أبي الحسن عن النبي ﷺ كما في «تفسير ابن عطية» (٢/ ٣٧٠). وهو في سنن الترمذي (٣٠١) عن بهز بن حكيم بلفظ (إنكم تتمون سبعين أمة) وقال: هذا حديث حسن، وفي سنن ابن ماجه (٤٢٨٨) (إنكم وفيتم سبعين أمة) بتحسين الألباني له، من حديث معاوية بن حيدة القشيري، وفي المسند عن بهز عن أبيه عن جده (٢٠٠٢٩) بلفظ (ألا إنكم توفون سبعين أمة) بإسناد حسن.

بعض في الرزق والنسب والعقل والقوة والفضل، هذا غني وهذا فقير، هذا حسن وهذا دونه، هذا عالم وهذا جاهل، هذا حاكم وهذا محكوم، هذا رئيس وهذا مرؤوس، هذا صحيح وهذا مريض، وهكذا ﴿نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُمْ مَعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ﴾ [الزخرف: ٣٢].

﴿يَرْفَعُ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ﴾ [المجادلة: ١١].
﴿أَنْظُرْ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ وَلَآخِرَةُ أَكْبَرُ دَرَجَاتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلًا﴾ [الإسراء: ٢١].

وهذا التفاضل للابتلاء والتحميص ورفع الدرجات.
﴿لِيَبْلُوَكُمْ فِي مَا ءَاتَاكُمْ﴾.

أي: ليعاملكم معاملة المختبر، وهو سبحانه أعلم بأحوال عباده؛ ليلوكم فيما أعطاكم من نعمة، فيظهر للناس الشاكر من غيره، والكل مبتلى، فالغني مبتلى بغناه، والفقير مبتلى بفقره، وصاحب المنصب والجاه مبتلى بما هو فيه، والصحيح مبتلى بصحته، والمريض مبتلى بمرضه وهكذا.
عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الدنيا حلوة خضرة، وإن الله مستخلفكم فيها؛ لينظر كيف تعملون، فاتقوا الدنيا، واتقوا النساء، فإن أول فتنة بني إسرائيل كانت في النساء»^(١).

﴿إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ الْعِقَابِ﴾ لمن كفر به وعصاه وكذب بآياته، فحساب الله وعقابه سريع لمن خالف رسله، وكل آت قريب ﴿وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ لمن آمن به وعمل صالحًا، وتاب وأناب، وابتعد عن الموبقات، رحيم به، والغفور الرحيم: اسمان كريمان من أسماء الله الحسنى.
وبهذا الترغيب والترهيب، والوعد والوعيد، تختتم سورة الأنعام، فالله تعالى يدعو عباده تارة بالترغيب في الجنة لمن أطاعه، وتارة بالترهيب من النار لمن خالف أمره.

وفي الحديث عن أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «لو يعلم المؤمن ما عند الله من العقوبة ما طمع بالجنة أحد، ولو يعلم الكافر ما عند الله من الرحمة ما قنط من الجنة أحد، خلق الله مئة

(١) «صحيح مسلم» برقم (٢٧٤٢) كتاب الرقائق.

رحمة، فوضع واحدة بين خلقه يتراحمون بها، وعند الله تسعة وتسعون رحمة^(١).

وكما قال تعالى: ﴿نَحْنُ عِبَادٌ خَلِقْنَاكَ يَا أَلْفُورُ الرَّحِيمِ ۖ وَأَنْ عَذَابِي هُوَ الْعَذَابُ الْأَلِيمُ ۖ﴾ [الحجر].

وفي الآية حث على التوبة لكل من أذنب، وفيها اقتران الوعد بالوعيد، والترغيب بالترهيب ﴿وَإِنْ رَبُّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِلنَّاسِ عَلَى ظُلْمِهِمْ ۖ وَإِنَّ رَبَّكَ لَشَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ [الرعد: ٦].
﴿اعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ وَأَنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [المائدة].

والله تعالى يرغب عباده في طاعته فيعدهم بالجنة ويصفها لهم، ويرهبهم من النار وأنكالها وعذابها وأهوال يوم القيامة؛ ليتعدوا عن معاصيه، وفي هذا جمع بين الخوف والرجاء.

وسرعة العقاب إما في الدنيا بتعجيل الأخذ، أو في الآخرة؛ لأن كل آت قريب.

والخطاب في هذه الآية موجه إلى الذين أمر الرسول ﷺ أن يقول لهم: ﴿أَغَيَّرَ اللَّهُ أَيْنِي رَبًّا﴾؛ كي يذكّرهم بما يصيرون إليه بعد إنذاره لهم، حثاً لهم على تدارك ما فات، وتذكيراً لهم بالنظر في عواقب الأمور، وبما أنعم الله عليهم بأن جعلهم خلائف لمن سبقهم في هذه الأرض؛ كي يشكروا الله تعالى على تلك النعمة، ويبتعدوا في زيادة الفضل والترقي في الدرجات العلا، وينبغي عدم التردد في ذلك؛ فإن الله تعالى سريع العقاب لمن عصاه، غفور رحيم لأهل المغفرة والرحمة، وهذا يستدعي سرعة الإقلاع عما هم فيه من ضلال وسرعة الإقبال على الله تعالى.

وهذا هو موضوع السورة، حيث عالجت قضية العقيدة علاجاً قوياً حكيماً من بدايتها إلى نهايتها، وطوّفت بالنفس البشرية في الكون كله؛ لترشدّها إلى وجوب توحيد الخالق سبحانه.

وكشفت السورة عن مواطن الشرك ومظاهره لتدمغه وتدحضه، وتخلص البشرية من أمراضه وأدرانها، فهي سورة جديرة باحتفاء الملائكة بها حين نزلت على سيد الخلق ﷺ من الملائكة الأعلى هداية للناس وشفاء لما في الصدور، وموعظة وذكرى لمن ألقى السمع وهو شهيد.

تم تفسير (سورة الأنعام) والله الحمد والمنة

(١) «المسند» (٢٨٤/٢) برقم (٨٤١٥، ٩١٦٤، ١٠٢٨٠) بإسناد صحيح على شرط مسلم (محققه) ومسلم (٢١٠٩/٤) برقم (٢٧٥٢) والترمذي (٥٤٩/٥) برقم (٣٥٤٢). وابن حبان (٣٤٥) وأبو يعلى (٦٥٠٩).

الآية	فهرس الم	وجع	وعدات	الصفحة
	تفسير سورة المائدة (٥) - مقدمة السورة - الحديث عن أهل الكتاب	٥		
	تفسير السورة: ستة عشر نداء للمؤمنين ونداءين للنبي ﷺ	١٥		
١	النِّدَاءُ الْأَوَّلُ لِلْمُؤْمِنِينَ: وَجُوبُ الْوَفَاءِ بِالْعُقُودِ وَالْعُهُودِ، - في الآية ثلاثة مقاطع - حدود الحرم ..	١٥		
٢	النِّدَاءُ الثَّانِي: وَجُوبُ تَعْظِيمِ شَعَائِرِ اللَّهِ تَعَالَى، سبب النزول: في الآية ثمانية شعائر ..	٢٠		
	أحاديث في المعنى - إعانة الظالم تعاون على الإثم ..	٢٩		
٣	أحد عشر نوعاً من اللحوم المحرمة: الأزلام - دعاء الاستخارة ..	٣٠		
	قطع طمع الكفار في أن تعبدوا غير الله ..	٤٠		
	كَمَالُ الدِّينِ وَتَمَامُ النُّعْمَةِ - المستثنى من اللحوم المحرمة ..	٤١		
٤	جَلُّ الطَّيِّبَاتِ وَمِنْهَا: صَيْدُ السَّبَاعِ الْمُعْلَمَةِ، أسباب النزول - اقتناء الكلاب لا يجوز إلا لحاجة ...	٤٥		
٥	جَلُّ طَعَامِ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالتَّزْوِجُ مِنْهُمْ - المسلمة لا تتزوج الكتابي ..	٥٤		
٦	النِّدَاءُ الثَّلَاثُ لِلْمُؤْمِنِينَ فِيهِ ثَلَاثَةُ أَحْكَامٍ فِي الطَّهَارَةِ ..	٥٨		
	الْحُكْمُ الْأَوَّلُ: رَفْعُ الْحَدِّثِ الْأَضْعَرِّ، صفة الوضوء: أحاديث في الوضوء - أعضاء الوضوء ..	٥٨		
	الْحُكْمُ الثَّانِي: رَفْعُ الْحَدِّثِ الْأَكْثَرِ ..	٦٧		
	الْحُكْمُ الثَّلَاثُ: التَّيَمُّمُ لِلْحَدِّثَيْنِ عِنْدَ فَقْدِ الْمَاءِ أَوْ تَعَدُّرِ اسْتِعْمَالِهِ ..	٦٨		
	لمس النساء: دواعي التيمم - التيسير ورفع الحرج: ..	٧٠		
٧	وَجُوبُ الْوَفَاءِ بِالْمَوَائِقِ: مِيثَاقُ الْمُسْلِمِينَ ..	٧٢		
٨	النِّدَاءُ الرَّابِعُ: وَجُوبُ الْعَدْلِ مَعَ الْمُسْلِمِ وَغَيْرِهِ ..	٧٤		
٩، ١٠	مَصِيرُ الْمُؤْمِنِ وَالْكَافِرِ ..	٧٦		
١١	النِّدَاءُ الْخَامِسُ: نِعْمَةٌ كَفَتْ أَيْدِي الْأَغْدَاءِ عَنِ الْمُسْلِمِينَ، أسباب النزول: ..	٧٦		
	محاولة بني النضير اغتيال النبي ﷺ ..	٧٨		
	محاولة غورث بن حارث اغتيال النبي ﷺ ..	٧٩		
١٢	ميثَاقُ الْيَهُودِ وَبُنُوْدُهُ - ميثاق تقضى أحوال الجارين ..	٨٠		
	أمرأ هذه الأمة بعدد نقباء بني إسرائيل: بنود ميثاق اليهود مكون من خمس نقاط: ..	٨٣		
١٣	عُقُوبَةُ الْيَهُودِ بِسَبَبِ نَقْضِ الْمِيثَاقِ؟ من قبائح اليهود ..	٨٤		
١٤	نَقْضُ النَّصَارَى لِلْمَوَائِقِ - كَيْفَ دَخَلَ الشُّرْكُ دِينَ الْمَسِيحِ؟! نصارى أم مسيحيون ..	٨٧		
١٥، ١٦	دَعْوَةُ أَهْلِ الْكِتَابِ إِلَى اغْتِنَافِ الْإِسْلَامِ ..	٩١		
١٧	كُفْرُ مَنْ قَالَ بِاللَّوْهِيَّةِ الْمَسِيحِ ..	٩٣		
١٨	دَعْوَى التَّمَيُّزِ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ ..	٩٥		
١٩	إِقَامَةُ الْحُجَّةِ عَلَى أَهْلِ الْكِتَابِ لِلإِيمَانِ بِحَاثِمِ النَّبِيِّينَ ..	٩٧		
٢٠	مُوسَى يُذَكِّرُ بَنِي إِسْرَائِيلَ بِنِعْمِ اللَّهِ عَلَيْهِمْ ..	١٠٠		
٢١	مُوسَى يَحْضُرُ قَوْمَهُ عَلَى دُخُولِ الْأَرْضِ الْمُقَدَّسَةِ وَيَحَذِّرُهُمْ مِنَ التُّكُوصِ ..	١٠٢		
٢٢	خَوْفُ بَنِي إِسْرَائِيلَ مِنْ لِقَاءِ الْعَدُوِّ ..	١٠٤		

الآية	فهرس الم	وجع	الصفحة
٢٣	مَوْقِفُ يُوشَعَ وَكَالِبٍ مِنْ دُخُولِ الْأَرْضِ الْمُقَدَّسَةِ	١٠٦	١٠٦
٢٤	إِضْرَارُ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَى الْاِئْتِنَاعِ مِنْ دُخُولِ أَرْضِ بَيْتِ الْمَقْدِسِ	١٠٦	١٠٦
٢٦، ٢٥	مُوسَى يَغْتَذِرُ إِلَى رَبِّهِ - تَحْرِيمُ الْأَرْضِ الْمُقَدَّسَةِ عَلَى الْيَهُودِ حُرْمَةً أَبَدِيَّةً	١٠٨	١٠٨
٢٨، ٢٧	الْيَهُودُ غَيْرُ الصَّهَابَةِ لَا يَغْتَرِفُونَ بِالْوُجُودِ الْإِسْرَائِيلِيِّ - أَقْوَالُ الْحَاخَامِ دِيفِيدِ وَيَس	١١٣	١١٣
٢٨، ٢٧	أَوَّلُ جَرِيْمَةٍ قُتِلَ - قِصَّةُ ابْنِي آدَمَ - قَالَ هَابِيلُ لِقَابِيلَ	١١٦	١١٦
٣١-٢٩	قَابِيلُ يَقْتُلُ هَابِيلَ وَيَحَارُ فِي دَفْنِهِ	١٢٢	١٢٢
٣٢	حُرْمَةُ قَتْلِ النَّفْسِ الْبَشَرِيَّةِ	١٢٤	١٢٤
٣٣	حَدُّ الْجِرَابَةِ	١٢٨	١٢٨
٣٤	مَتَى تَنْقُطُ الْمُقُوبَةُ؟	١٣٣	١٣٣
٣٥	النَّدَاءُ السَّادِسُ لِلْمُؤْمِنِينَ فِي السُّورَةِ: التَّوَسَّلْ وَالْوَسِيلَةُ	١٣٥	١٣٥
٣٧، ٣٦	الْعَذَابُ الْمُؤَبَّدُ لِمَنْ مَاتَ عَلَى الْكُفْرِ	١٣٩	١٣٩
٣٨	حَدُّ السَّرِقَةِ وَقَبُولُ التَّوْبَةِ مِنَ السَّارِقِ - بِمَ تَبْتَ السَّرِقَةُ؟	١٤٢	١٤٢
٤٠، ٣٩	وَجُوبُ إِقَامَةِ الْحَدِّ عَلَى الشَّرِيفِ وَالْوَضِيعِ، لَا شَفَاعَةَ فِي الْحُدُودِ بَعْدَ وَصُولِ الْأَمْرِ إِلَى الْقَاضِي:	١٤٦	١٤٦
٤١	التَّوْبَةُ لَا تُنْقِطُ الْحَدَّ بَعْدَ رَفْعِ الْأَمْرِ إِلَى الْقَاضِي	١٤٧	١٤٧
٤٢	الْحُكْمُ بِغَيْرِ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ مُسَارَعَةً فِي الْكُفْرِ - سَبَبُ النُّزُولِ	١٥٠	١٥٠
٤٣	الرُّشُوءُ سِمَةٌ مِنْ سِمَاتِ الْيَهُودِ - حُكْمُ الرُّشُوءِ	١٥٨	١٥٨
٤٤	الْيَهُودُ يَكْتُمُونَ أَحْكَامَ التَّوْرَةِ	١٦٣	١٦٣
٤٥	وُجُوبُ الْحُكْمِ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ	١٦٤	١٦٤
٤٧، ٤٦	أَحْكَامُ الْقِصَاصِ فِي التَّوْرَةِ	١٦٩	١٦٩
٤٨	شَرِيعَةُ النَّصَارَى	١٧٣	١٧٣
٤٩	الشَّرِيعَةُ الْخَالِدَةُ	١٧٥	١٧٥
٥٠	تَحْذِيرُ الْأُمَّةِ مِنَ الْحُكْمِ بِغَيْرِ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ - سَبَبُ النُّزُولِ	١٧٩	١٧٩
٥١	التَّعْفِيفُ عَلَى تَرْكِ الْحُكْمِ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ	١٨١	١٨١
٥٢	النَّدَاءُ السَّابِعُ: النَّهْيُ عَنْ مَوَالَاةِ أَهْلِ الْكِتَابِ - سَبَبُ النُّزُولِ	١٨١	١٨١
٥٣	دَمُ الْمُسَارَعَةِ فِي مَوَالَاةِ غَيْرِ الْمُسْلِمِينَ	١٨٥	١٨٥
٥٤	التَّعَجُّبُ مِنَ الْمُسَارَعَةِ فِي مَوَدَّةِ غَيْرِ الْمُسْلِمِينَ	١٨٧	١٨٧
٥٥	النَّدَاءُ الثَّامِنُ: الرَّدَّةُ وَالْمُرْتَدُّونَ	١٨٩	١٨٩
٥٦	مَنْ تَجِبَ مَوَالَاتُهُمْ وَمَحَبَّتُهُمْ	١٩٦	١٩٦
٥٧	تَمَرُّهُ الْحُبِّ فِي اللَّهِ وَالْبَغْضِ فِي اللَّهِ	١٩٨	١٩٨
٥٨	النَّدَاءُ الثَّامِنُ: النَّهْيُ عَنْ مَوَالَاةِ مَنْ يَسْعُرُونَ مِنَ الْإِسْلَامِ وَأَهْلِهِ	١٩٨	١٩٨
٥٩	السُّخْرِيَّةُ مِنَ الْأَذَانِ سُخْرِيَّةٌ مِنَ الْإِسْلَامِ	٢٠٠	٢٠٠
٥٩	سَبَبُ نَقْمَةِ غَيْرِ الْمُسْلِمِينَ عَلَى الْمُسْلِمِينَ	٢٠٢	٢٠٢

الآية	فهرس المـ وة	الصفحة
٦٠	أشُرَّ عقوبة لأشُرِّ قَوْمٍ	٢٠٤
٦١	الْخِذَانُ الْيَهُودِيُّ	٢٠٦
٦٢	مُسَارَعَةُ الْيَهُودِ إِلَى الْمُتَكْرَّاتِ	٢٠٧
٦٣	السُّكُوتُ عَنِ الْمُنْكَرِ عَاقِبَتُهُ وَخِيَمَةٌ	٢٠٨
٦٤	مِنْ أَبْشَعَ أَقْوَالِ الْيَهُودِ - من أسباب النزول	٢١٠
٦٥	صَلَاخُ اللَّاحِظِ بِمَا صَلَّحَ بِهِ السَّابِقُ	٢١٤
٦٧	حِفْظُ اللَّهِ تَعَالَى لِرَسُولِهِ ﷺ حَتَّى يُلَاقَ رِسَالَةَ رَبِّهِ	٢١٨
٢٢٣	أوهام شيعية: اختصاص بعض الصحابة بشيء مما تدعو إليه الحاجة:	٢٢٣
٦٨	أَبْجَدِيَّاتُ الْبَلَاغِ النَّبَوِيِّ	٢٢٥
٦٩	قَوَاعِدُ النَّجَاةِ فِي جَمِيعِ الْأُمَمِ لَهُ ثَلَاثَةٌ شُرُوطٌ - الصابئون	٢٢٦
٧٠	مِنْ جَرَائِمِ الْيَهُودِ: تَكْذِيبُ الرُّسُلِ وَقَتْلُهُمْ	٢٣٠
٧١	عَوَاقِبُ اسْتِخْفَافِ الْيَهُودِ بِجَرَائِمِهِمْ وَإِفْسَادِهِمْ فِي الْأَرْضِ - من تاريخ اليهود في فلسطين	٢٣١
٧٢	عَقِيدَةُ بَغْضِ النَّصَارَى فِي الْوَهْيَةِ الْمَسِيحِ	٢٣٤
٧٣	عَقِيدَةُ التَّثْلِيثِ لَدَى بَغْضِ النَّصَارَى	٢٣٦
٧٥، ٧٤	اللَّهُ تَعَالَى يَقْبَلُ تَوْبَةَ الْكَافِرِ، بِشَرِيَّةِ الْمَسِيحِ وَأُمُو	٢٣٩
٧٦	لَا يَسْتَحِقُّ الْعِبَادَةَ إِلَّا مَنْ جَلَبَ الْخَيْرَ وَدَفَعَ الضَّرَّ	٢٤١
٧٧	نَهَى أَهْلَ الْكِتَابِ عَنِ الْغُلُوِّ فِي الدِّينِ	٢٤١
٧٩، ٧٨	تَرَكَ النَّبِيُّ عَنِ الْمُنْكَرِ مُوجِبٌ لِسَخَطِ اللَّهِ تَعَالَى - أحاديث في المعنى	٢٤٤
٨٠	تَحَالَفُ الْيَهُودِ مَعَ الْوَيْثَنِيِّينَ ضِدَّ الْمُسْلِمِينَ	٢٤٩
٨١	الدُّخُولُ فِي الْإِسْلَامِ هُوَ الْمَطْلُوبُ مِنْ غَيْرِ الْمُسْلِمِينَ	٢٤٩
٨٢	الْيَهُودُ وَعَبْدَةُ الْأَرْنَائِ أَلَدُّ أَعْدَاءِ الْإِسْلَامِ وَأَهْلِهِ - أسباب العداوة وشواهدا	٢٥٠
٨٤، ٨٣	ثَنَاءُ الْإِسْلَامِ عَلَى مَنْ أَسْلَمَ مِنَ النَّصَارَى	٢٥٥
٨٦، ٨٥	جَزَاءُ الْمُؤْمِنِ وَالْكَافِرِ	٢٥٨
٨٨، ٨٧	النَّدَاءُ الْعَاشِرُ: النَّهْيُ عَنِ طَلَاقِ الدُّنْيَا - أحاديث في المعنى	٢٥٨
٨٩	الْأَيْمَانُ وَكَفَّارَاتُهَا، وَالْأَيْمَانُ ثَلَاثَةٌ أَنْوَاعٌ - أحاديث في المعنى	٢٦٤
٩٠	النَّدَاءُ الْحَادِي عَشَرَ: التَّحْرِيمُ الْقَاطِعُ لِلْخَمْرِ وَالْقِمَارِ	٢٧١
٢٧٢	أولاً: الخمر، أسباب النزول - تدرج تحريم الخمر	٢٧٢
٢٧٥	الامتنال الفوري لتحريم الخمر دون عودة لها - الخمر أم الخبائث	٢٧٥
٢٧٧	الخمر والإيمان لا يجتمعان: تحريم كل ما يتعلق بالخمر: أحاديث في المعنى	٢٧٧
٢٨٠	شارب الخمر لا يلعن ولا يشتم ولا يُسَبُّ - حدُّ شارب الخمر	٢٨٠
٢٨١	الخمر نجسة: التوبة من شرب الخمر: أصول الخمر:	٢٨١
٢٨٢	ثانياً: الميسر: ثالثاً: الأنصاب: رابعاً: الأزلام:	٢٨٢

الآية	فهرس الم	وحدات	الصفحة
٩٢، ٩١	مِنْ أَشْيَابِ تَحْرِيمِ الْحُمْرِ وَالْقَمَارِ		٢٨٥
٩٣	لَا عُقُوبَةَ إِلَّا بِنَصٍّ، وَلَا مُؤَاخَذَةً قَبْلَ التَّحْرِيمِ		٢٨٦
٩٤	النَّدَاءُ الثَّانِي عَشَرَ: تَحْرِيمُ صَيْدِ الْحَرَمِ وَكَمَارَتُهُ		٢٨٩
٩٥	النَّدَاءُ الثَّلَاثَ عَشَرَ: فِي تَفْصِيلِ عُقُوبَةِ الْمُخَالِفِ بِالصَّيْدِ فِي الْحَرَمِ		٢٩٠
	الحكم الأول: الجزاء المماثل للصيد - الحيوانات التي تقتل في الحرم		٢٩١
	الحكم الثاني: الإطعام، الحكم الثالث: الصيام		٢٩٢
٩٦	حُكْمُ صَيْدِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ		٢٩٤
٩٧	تَعْظِيمُ الْكَعْبَةِ وَالْأَشْهُرِ الْحُرُمِ وَمَا يُهْدَى لِلْحَرَمِ - أولاً: الكعبة البيت الحرام		٢٩٧
٩٩، ٩٨	ثانياً: حرمة الشهر الحرام. ثالثاً: حرمة الهدى. رابعاً: حرمة القلائد		٣٠٠
١٠٠	الْحَيْثُ وَالطَّيِّبُ لَا يَسْتَوِيَانِ فِي مِيزَانِ اللَّهِ تَعَالَى		٣٠٣
١٠١	النَّدَاءُ الرَّابِعَ عَشَرَ: أَدَبُ السُّؤَالِ - عدد الأسئلة في القرآن		٣٠٤
١٠٢	سَبَبُ النَّهْيِ عَنْ سُؤَالِ التَّعَتُّبِ		٣١٠
١٠٣	صُورٌ مِنْ تَحْرِيمِ مَا أَحَلَّ اللَّهُ		٣١٢
١٠٤	دَمُ التَّقْلِيدِ الْأَعْمَى		٣١٤
١٠٥	النَّدَاءُ الْخَامِسَ عَشَرَ: النَّهْيُ عَنِ الْمُنْكَرِ مِنْ جُمْلَةِ الْإِهْتِدَاءِ		٣١٥
١٠٨-١٠٦	النَّدَاءُ السَّادِسَ عَشَرَ: الْوَصِيَّةُ عِنْدَ الْمَوْتِ وَالْإِشْهَادُ عَلَيْهَا		٣٢١
	أولاً: الوصية الواجبة - ثانياً: الوصية المحرمة		٣٢٣
	ثالثاً: الوصية المكروهة. رابعاً: الوصية المستحبة		٣٢٣
	إشهاد غير المسلم عند فقد المسلم في السفر ونحوه:		٣٢٥
١٠٩	سُؤَالُ الرُّسُلِ عَنْ إِجَابَةِ الْأَمْرِ لَهُمْ		٣٣١
١١٠	تَسْنَعُ مُعْجَزَاتِ أَيْدِ اللَّهِ بِهَا عِيسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ أَوَّلًا: تَأْيِيدُ عِيسَى بِالْوَحْيِ وَالرَّسَالَةِ		٣٣٢
	ثانياً: كَلَامُهُ وَهُوَ رَضِيعَ لِرَاءَةِ أُمِّهِ وَكَلَامُهُ وَهُوَ شَابٌ لِإِعْلَانِ الرَّسَالَةِ		٣٣٤
	ثالثاً: مِثَّةُ اللَّهِ عَلَى عِيسَى بِتَعْلِيمِهِ أَرْبَعَةَ أَشْيَاءَ. رابعاً: ﴿وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ بِإِذْنِي﴾ ...		٣٣٥
	خامساً: إِثْرُ الْأَمْرَاضِ الْمُسْتَعْفِيَةِ. سادساً: إِخْرَاجُ الْمُؤْمِنِ مِنْ قُبُورِهِمْ بِإِذْنِ اللَّهِ سَابِعاً: نَجَاتُهُ مِنْ كَيْدِ الْيَهُودِ		٣٣٥
١١١	ثامناً: إِيْمَانُ الْخَوَارِجِينَ		٣٣٦
١١٥-١١٢	تاسعاً: مُعْجَزَةُ الْمَائِدَةِ		٣٣٧
١١٧، ١١٦	بُظْلَانُ دَعْوَى أُلُوهِيَّةِ عِيسَى وَأُمُّهُ		٣٤١
١١٨	عِيسَى يَقْضُضُ أَمْرَ أُمِّهِ إِلَى رَبِّهِ		٣٤٥
١١٩	فَضْلُ الْقَضَاءِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ بِنَجَاةٍ مَنْ نَجَا وَهَلَكَ مَنْ هَلَكَ		٣٤٦
١٢٠	خِتَامُ السُّورَةِ فِي تَقْيِ الشَّرِيكِ لِلَّهِ تَعَالَى فِي مُلْكِهِ		٣٤٦
	تَفْسِيرُ سُورَةِ الْأَنْعَامِ - مقدمة السورة - أسلوب التقرير والتلقين في السورة - قضايها		٣٤٨
١	التفسير، من دلائلِ وَحْدَانِيَةِ اللَّهِ تَعَالَى هَذِهِ الْمَخْلُوقَاتِ الْأَرْبَعُ		٣٥٧

الآية	فهرس المـ وـعـات	الصفحة
٢	قضية البعث والنشور	٣٥٩
٣	الله تعالى هو صاحب السلطان المطلق في الكون	٣٦١
٥، ٤	مِن عَوَاقِبِ الْمُكَذِّبِينَ بِاللّٰهِ وَرُسُلِهِ	٣٦٢
٦	الَاغْتِيَارُ بِمَا حَلَّ بِالْأُمَمِ الْمُكَذِّبَةِ لِرُسُلِ اللّٰهِ	٣٦٤
١٠، ٧	مِن مَّقْتَرَحَاتِ الْمُكَذِّبِينَ لِحَاثِمِ النَّبِيِّنَ ﷺ	٣٦٥
١١	دَعْوَةٌ إِلَى السَّيَاحَةِ وَالَاغْتِيَارِ	٣٧٠
١٢	شُمُولُ مُلْكِ اللّٰهِ تَعَالَى لِجَمِيعِ الْأَمْكِنَةِ - أحاديث في المعنى	٣٧٢
١٣	شُمُولُ مُلْكِ اللّٰهِ تَعَالَى لِجَمِيعِ الْأَزْمَنَةِ وَلِكُلِّ مَا سَكَنَ وَتَحَرَّكَ	٣٧٦
١٤	تَوْبِيخُ مَنْ يَعْبُدُ غَيْرَ اللّٰهِ تَعَالَى	٣٧٧
١٦، ١٥	التَّحْذِيرُ مِنَ الْمَعَاصِي	٣٧٩
١٧	اللّٰهُ وَخَدَهُ هُوَ النَّافِعُ الضَّارُّ	٣٨٠
١٩، ١٨	الْقُدْرَةُ الْمُطْلَقَةُ، أَكْثَرُ شَهَادَةٍ عَلَى التَّوْحِيدِ وَعَلَى عُمُومِ الرِّسَالَةِ	٣٨٢
٢٠	قِيَامُ الْحُجَّةِ عَلَى مَنْ أَشْرَكَ بِاللّٰهِ وَكَذَّبَ رُسُلَهُ - أَوَّلًا: مَعْرِفِي بِمُحَمَّدٍ أَشَدُّ مِنْ مَعْرِفِي بِوَلَدِي	٣٨٦
٢١	ثَانِيًا: أَظْلَمُ النَّاسِ مَنْ جَحَدَ وَخَدَانِيَةَ اللّٰهِ وَكَذَّبَ رُسُلَهُ:	٣٨٨
٢٤-٢٢	ثَالِثًا: فَتَنَةُ الْمُشْرِكِينَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ	٣٨٩
٢٦، ٢٥	رَابِعًا: عُقُوبَةُ الْمُعَارِضِينَ لِحَاثِمِ الرُّسُلِ فِي الدُّنْيَا	٣٩١
٢٧	خَامِسًا: مِنْ مَشَاهِدِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَوْقِفَ الْمُكَذِّبِينَ فِي الْآخِرَةِ	٣٩٦
٢٨	لَا مَظْتَمَ لِلْكَفَّارِ فِي الْخَلَاصِ مِنْ عَذَابِ النَّارِ	٣٩٧
٢٩	سادسًا: الْمُشْرِكُونَ بِاللّٰهِ، الْمُكَذِّبُونَ لِرَسُولِ اللّٰهِ، يَتَكْرُونَ الْبُعْثَ وَالنَّشُورَ:	٣٩٨
٣٠	اسْتِجْوَابُ الْمُعَارِضِينَ فِي سَاحَةِ الْعُدْلِ الْإِلَهِيِّ	٣٩٩
٣١	التَّقْرِيرُ الْخِتَامِيُّ بَعْدَ إِدَاعِ الْكُفَّارِ نَارَ جَهَنَّمَ	٤٠٠
٣٢	الْمُؤْمِنُ يَعْمَلُ لِلْآخِرَةِ وَالْكَافِرُ يَعْْمَلُ لِلدُّنْيَا	٤٠٢
٣٣	فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ	٤٠٣
٣٤	الله سبحانه يُسَلِّي رُسُلَهُ ﷺ، وَيَأْمُرُهُ بِالصَّبْرِ عَلَى أَدَى قَوْمِهِ	٤٠٧
٣٧-٣٥	شِدَّةُ الْحُرْصِ وَالْآيَاتُ الْحَسَنَةُ لَا يَأْتِيَانِ بِالْإِيمَانِ	٤٠٨
٣٨	أَنْوَاعُ الْمَخْلُوقَاتِ - مراتب القضاء والقدر	٤١٣
٣٩	الْمُكَذِّبُونَ بِآيَاتِ اللّٰهِ لَا تُجِدِي فِيهِمْ مَوْعِظَةً	٤١٥
٤١، ٤٠	فِطْرَةُ التَّوْحِيدِ كَامِنَةٌ فِي النَّفْسِ الْبَشَرِيَّةِ	٤١٦
٤٣، ٤٢	فَسَوْءَ الْقُلُوبِ تَبِعْدُ الْإِبَادَةَ عَنْ رَبِّهِمْ	٤١٩
٤٥، ٤٤	كَثْرَةُ النِّعَمِ قَدْ تَكُونُ سَبَبًا فِي الْهَلَاكِ	٤٢٢
٤٧، ٤٦	صُورَةٌ مِنْ بَأْسِ اللّٰهِ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ	٤٢٤
٥١-٤٨	وِظِيفَةُ الرُّسُلِ	٤٢٦

الآية	فهرس الم وجة وعات	الصفحة
٥٢	الإسلام مع مَنْ أَجَابَهُ وَلَوْ كَانَ مِنْ غَيْرَةِ النَّاسِ	٤٣١
٥٣	فِتْنَةُ الْمَالِ وَالْبَجَاءِ وَالنَّسَبِ	٤٣٤
٥٥، ٥٤	فُقَرَاءُ الْمُسْلِمِينَ وَرَحْمَةُ اللَّهِ بِهِمْ	٤٣٦
٥٨-٥٦	التَّوْحِيدُ وَالشِّرْكُ لَا يَجْتَمِعَانِ	٤٤٠
٦٠، ٥٩	شُمُوءُ عِلْمِ اللَّهِ تَعَالَى وَإِحَاطَتُهُ لِكُلِّ مَا فِي الْكَوْنِ	٤٤٣
٦٢، ٦١	مِنْ مَظَاهِرِ الْقُدْرَةِ الْإِلَهِيَّةِ (الْمَوْتُ وَالْحَيَاةُ)	٤٤٨
٦٤، ٦٣	من دلائل التوحيد في البر والبحر:	٤٥٢
٦٧-٦٥	أَلْوَانٌ مِنْ عِقَابِ اللَّهِ لِلْأُمَمِ الْمَكْذِبَةِ بِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ (الْخَسْفُ وَالزَّلَازِلُ وَالْأَخْيَالُفُ) أَحَادِيثُ	٤٥٤
٦٨	وُجُوبُ النَّصِاحِ وَالْإِعْرَاضِ عَنْ مَجَالِسِ الْمُسْتَهْزِئِينَ بِالْإِسْلَامِ	٤٦١
٦٩	لا تبعة على المؤمنين الذين قاموا بالنصح والمقاطعة - أحكام تؤخذ من الآية والتي قبلها	٤٦٣
٧٠	مجانبة أهل الباطل:	٤٦٤
٧١	الْعَوْدَةُ إِلَى الْكُفْرِ بَعْدَ الْإِسْلَامِ ضَلَالٌ مُبِينٌ	٤٦٧
٧٣، ٧٢	الاسْتِعْدَادُ لِيَوْمِ الْحَشْرِ قَبْلَ التَّفْخِ فِي الصُّورِ	٤٧٠
٧٤	مُحَاجَّةُ الْخَضَمِ لِلتَّرُصْلِ إِلَى وَحْدَانِيَةِ اللَّهِ تَعَالَى فِي جَوَارِ إِبْرَاهِيمَ لِقَوِيهِ - مع إبراهيم وأبيه	٤٧٤
٧٥	حوار خليل الرحمن مع أبيه	٤٧٧
٧٩، ٧٦	الاستدراج الأول - الاستدراج الثاني - الاستدراج الثالث - نَتِيجَةُ الْجَوَارِ	٤٧٨
٨١، ٨٠	محاجة من لم يتبين له الهدى	٤٨٢
٨٢	الْأَمْنُ قَرِينُ الْإِيمَانِ	٤٨٣
٨٣	مَوْكِبُ الرِّسَالَاتِ - من نعم الله على إبراهيم	٤٨٥
٨٧-٨٤	من لطائف ترتيب الرسل - ترجمة يسيرة للرسل الكرام	٤٨٨
٨٩، ٨٨	الشرك والكفر يهددان مقام الرسالة:	٤٩١
٩٠	الْأَمْرُ بِإِقْتَاءِ أَثَرِ الْأَنْبِيَاءِ	٤٩٢
٩٢، ٩١	إِنْكَارُ الرِّسَالَاتِ وَعَوَاقِبُهَا التَّوْحِيدُ	٤٩٤
٩٣	حَالُ مُنْكَرِي الْوُحْيِ عِنْدَ خُرُوجِ الرُّوحِ - في أسباب النزول	٥٠٠
٩٤	هَيْئَةُ الْكَافِرِ فِي أَرْضِ الْمَحْشَرِ - أحاديث في المعنى	٥٠٤
٩٥	خَمْسَةُ أَدْلَةٍ عَلَى كَمَالِ الْقُدْرَةِ الْإِلَهِيَّةِ - الدَّلِيلُ الْأَوَّلُ: أَخْوَالُ النَّبَاتِ وَالْحَيَوَانِ	٥٠٦
٩٦	الدَّلِيلُ الثَّانِي: الْأَخْوَالُ الْفَلَكِيَّةُ	٥٠٨
٩٧	الدَّلِيلُ الثَّالِثُ: الْكَوَاكِبُ النَّبَرَةُ	٥٠٩
٩٨	الدَّلِيلُ الرَّابِعُ: خَلْقُ الْإِنْسَانِ	٥١٠
٩٩	الدَّلِيلُ الْخَامِسُ: أَصْنَافُ النَّبَاتِ وَالْقَمَارِ	٥١١
١٠٢-١٠٠	الشِّرْكُ بِاللَّهِ تَعَالَى فِي كُلِّ زَمَانٍ وَمَكَانٍ	٥١٣
١٠٣	رُؤْيُ اللَّهِ تَعَالَى فِي الْآخِرَةِ	٥١٦

الآية	فهرس الم و وعات	الصفحة
١٠٧-١٠٤	عَلَى الدَّاعِيَةِ أَنْ يَجْتَهِدَ فِي دَعْوَتِهِ وَالتَّائِبُ عِنْدَ اللَّهِ	٥١٩
١٠٨	النَّهْيُ عَنْ سَبِّ آلِهِ الْمُشْرِكِينَ سَدًّا لِلذَّرِيعَةِ	٥٢٣
١١١-١٠٩	خَوَارِقُ الْعَادَاتِ لَا تَأْتِي بِالْإِيمَانِ	٥٢٦
١١٣، ١١٢	أَعْدَاءُ الرُّسُلِ مِنْ شَيَاطِينِ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ	٥٣٢
١١٥، ١١٤	الْحُكْمُ لِلَّهِ وَخُذْهُ فِي صِدْقٍ مَا جَاءَ بِهِ مُحَمَّدٌ ﷺ	٥٣٥
١١٧، ١١٦	رَوَاجُ الْبَاطِلِ لَا يَجْعَلُهُ حَقًّا	٥٣٨
١٢١-١١٨	قَضِيَّةُ الذَّبَائِحِ وَرَبْطُهَا بِالْإِيمَانِ وَالْكَفْرِ	٥٤١
١٢٢	مَثَلُ الْمُؤْمِنِ وَالْكَافِرِ - سبب النزول	٥٤٨
١٢٤، ١٢٣	رُؤُوسُ الْكُفْرِ فِي كُلِّ زَمَانٍ وَمَكَانٍ	٥٥٠
١٢٧-١٢٥	عَلَامَةُ الْإِيمَانِ وَعَلَامَةُ الْكُفْرِ - معاني الهداية	٥٥٤
١٢٩، ١٢٨	مَصِيرُ شَيَاطِينِ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ وَالِاسْتِجْوَابُ الْأَوَّلُ	٥٥٩
١٣٠	الِاسْتِجْوَابُ الثَّانِي لِلْإِنْسِ وَالْجِنِّ	٥٦٤
١٣٢، ١٣١	لَا يُؤَاخِذُ أَحَدٌ بَذَنْبِهِ إِلَّا بَعْدَ إِغْدَارِهِ وَإِنْدَارِهِ	٥٦٧
١٣٥-١٣٣	تَهْدِيدٌ وَوَعِيدٌ	٥٦٩
١٣٦	أربع صور من رَوَاسِبِ الجاهلية: سبب النزول - الصُّورَةُ الْأُولَى	٥٧٢
١٣٩-١٣٧	الصُّورَةُ الثَّانِيَّةُ - الصُّورَةُ الثَّالِثَةُ - الصُّورَةُ الرَّابِعَةُ	٥٧٧
١٤٠	الوعد الشدید لمن قتلوا أبناءهم وحرّموا ما أحل الله	٥٨٠
١٤٤-١٤١	اللَّهُ تَعَالَى هُوَ خَالِقُ الرُّزُوعِ وَالْأَنْعَامِ	٥٨٢
١٤٥	التَّحْلِيلُ وَالتَّحْرِيمُ لَا يَكُونُ إِلَّا عَنْ طَرِيقِ الْوَحْيِ - أحاديث في المعنى	٥٩٠
١٤٧، ١٤٦	تَحْرِيمُ الْحَلَالِ عُقُوبَةٌ لِلْيَهُودِ	٥٩٤
١٤٩، ١٤٨	الْعِبَادُ مُخَيَّرُونَ وَلَيْسُوا مُسَيَّرِينَ	٥٩٧
١٥٠	تَحْرِيمُ مَا أَحَلَّ اللَّهُ يَفْتَقِرُ إِلَى الدَّلِيلِ وَالْيَقِينَةِ	٦٠١
١٥١	الْوَصَايَا الْعَشْرُ - الْوَصِيَّةُ الْأُولَى : ﴿أَلَا تَشْكُرُوا بِمَا سَخَّرْنَا﴾	٦٠٣
	الْوَصِيَّةُ الثَّانِيَّةُ : ﴿وَالَّذِينَ إِتَّسَفُوا﴾	٦٠٧
	الْوَصِيَّةُ الثَّالِثَةُ : ﴿وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ مِنْ إِمْلَاقٍ نَحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ﴾	٦٠٨
	الْوَصِيَّةُ الرَّابِعَةُ : ﴿وَلَا تَقْرَبُوا الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ﴾ أحاديث في المعنى	٦١٠
١٥٢	الْوَصِيَّةُ الْخَامِسَةُ : ﴿وَلَا تَقْتُلُوا أَنْفُسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ﴾ أحاديث في المعنى	٦١٣
	الْوَصِيَّةُ السَّادِسَةُ : ﴿وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُ﴾	٦١٥
	الْوَصِيَّةُ السَّابِعَةُ : ﴿وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ وَالْعَهْدُ بَيْنَ يَدَيْنَا﴾	٦١٦
	الْوَصِيَّةُ الثَّامِنَةُ : ﴿وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدُوا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ﴾	٦١٧
١٥٣	الْوَصِيَّةُ الثَّاسِعَةُ : ﴿وَرَمِدَ اللَّهُ أَوْفُوا﴾	٦١٨
	الْوَصِيَّةُ الْعَاشِرَةُ : ﴿وَأَنَّ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ فَاتَّبِعُوهُ﴾	٦١٩

الآية	فهرس المـ ووجـ وعات	الصفحة
١٥٤	كِتَابُ مُوسَى وَكِتَابُ مُحَمَّدٍ (عليهما الصلاة والسلام)	٦٢١
١٥٥	إِقَامَةُ الْحُجَّةِ وَقَطْعُ الْأَغْذَارِ بِنُزُولِ الْقُرْآنِ	٦٢٣
١٥٦	نُزُولُ الْقُرْآنِ يَسْقُطُ عِذْرُ مَنْ لَا عِلْمَ لَهُمْ بِالتَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ	٦٢٤
١٥٧	نُزُولُ الْقُرْآنِ يَسْقُطُ الْعِذْرُ بِعَدَمِ وَصُولِ أَصْلِ الْهَدَايَةِ لِغَيْرِ الْمُسْلِمِينَ	٦٢٥
١٥٨	الْوَعِيدُ الشَّدِيدُ لِمَنْ أَقَامَ عَلَى الْكُفْرِ حَتَّى الْمَوْتِ - أَحَادِيثُ فِي أَشْرَاطِ السَّاعَةِ	٦٢٦
١٥٩	التَّحَرُّقُ فِي الدِّينِ يُتَافَى الْإِيمَانُ - أَحَادِيثُ فِي الْمَعْنَى	٦٣٣
١٦٠	فَضْلُ اللَّهِ وَعَدْلُهُ - أَحَادِيثُ فِي الْمَعْنَى	٦٣٨
١٦١-١٦٣	أَرْبَعُ آيَاتٍ جَامِعَةٍ لِأُصُولِ الْعَقِيدَةِ وَالْعِبَادَةِ - مِنْ أَدْعِيَةِ الْإِسْفَتَاحِ	٦٤٢
١٦٤	التَّجَرُّدُ الْكَامِلُ لِلَّهِ تَعَالَى	٦٤٧
١٦٥	نَتِيجَةُ الْإِسْتِخْلَافِ فِي الْأَرْضِ	٦٤٩
	فهرس الموضوعات	٦٥٢



10

11

فأحضر النفس

تأليف :

أحمد بن أحمد محمد عبد الله الطويل

عضو اللجنة العلمية لمراجعة مصحف المدينة النبوية
ولجنة الإشراف على الشجيرات القرآنية
بمجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف

قدّم له: معالي الدكتور / عبد الله بن عبد المحسن الشريفي
والأستاذ الدكتور / صالح بن غانم السدّان
ونُحِبُّهُ مِنَ الْعُلَمَاءِ الْمُتَخَصِّصِينَ

المجلد الخامس: الأعراف والأنفال

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

تَفْسِيرُ سُورَةِ الْأَعْرَافِ (٧)

مُقَدِّمَةُ السُّورَةِ

سورة الأعراف هي السورة السابعة في ترتيب المصحف، والتاسعة والثلاثون في ترتيب النزول، نزلت بعد سورة (ص)، وقبل سورة (الجن).

وهي مثنان وست آيات في العدد المدني الأول والثاني والكوفي^(١).

وهي ثلاثة آلاف وثلاث مئة وخمس وعشرون كلمة.

وسورة الأعراف أربعة عشر ألفاً وثلاث مئة وعشرة أحرف.

وسُمِّيت سورة الأعراف؛ لعدم ورود هذا اللفظ في غيرها.

وسمّاها بعضهم^(٢) سورة الميقات؛ لاشتمالها على ذكر ميقات موسى ﷺ.

وتُسَمَّى سورة الميثاق؛ لاشتمالها على الميثاق المأخوذ على بني آدم وهم في عالم الدَّر.

وهي سورة مكية عدا الآيات من [١٦٤-١٦٧] وآية رقم [١٧٢] فهي مدنية.

وهي من السور السبع الطوال في أول القرآن.

وأخرج النسائي وغيره عن عروة عن عائشة ؓ أن النبي ﷺ قرأ في صلاة المغرب بسورة الأعراف، فرّقها في ركعتين^(٣).

وعن ابن أبي مليكة عن عروة عن زيد بن ثابت ؓ أنه قال لمروان بن الحكم: ما لي أراك تقرأ في المغرب بقصار المفصل، وقد رأيت رسول الله ﷺ يقرأ فيها بأطول الطولين، قال مروان: يا أبا عبد الله، ما أطول الطولين؟ قال: الأعراف^(٤).

(١) ومثنان وخمس آيات في العدد البصري والشامي.

(٢) وهو الفيروزآبادي في كتاب «بصائر ذوي التمييز».

(٣) صححه الألباني في «صحيح سنن النسائي» برقم (٩٤٧).

(٤) «المسند» (٢١٦٤١، ٢١٦٤٦) وإسناده صحيح ورجاله ثقات رجال الشيخين غير مروان بن الحكم فمن

رجال البخاري، (محققوه) والبخاري (٧٦٤) مختصراً وأخرجه أبو داود (٨١٢) والنسائي (٩٨٩) وفي

«الكبرى» (١٠٢٢) وابن خزيمة (٥١٥، ٥١٦) والطبراني في «الكبير» (٤٨١١، ٤٨١٢) وصحيح النسائي

(٩٤٦) وصحيح سنن أبي داود (٧٢٨).

وفي لفظ آخر من حديث زيد بن ثابت أيضاً أن رسول الله ﷺ كان يقرأ في المغرب بطولي الطولين (المص)^(١).

وسورة الأعراف هي أطول سورة في القرآن الكريم الذي نزل بمكة على رسول الله ﷺ، وهي أطول من سورة الأنعام المكية التي قبلها.

وسورة الأعراف كسورة الأنعام، كلاهما يعالج قضية العقيدة والتوحيد، ولكن سورة الأنعام تعالج قضية العقيدة ذاتها، وتعالج أوضاع الجاهلية في كل زمان ومكان، الجاهلية التي كانت عند مبعث الرسول ﷺ، وجاهلية الأمم التي لم تتشرف بالوقوف على معالم الرسالة الخاتمة إلى يوم القيامة، فتبين للناس العقيدة الصحيحة، وما أحله الله لهم، وما حرّمه عليهم من الذبائح وغيرها.

وسورة الأعراف تعالج موضوع العقيدة والتوحيد من زاوية أخرى، تعالجها في رحلة الرسل الكرام مع التاريخ البشري الطويل، رحلة الموكب الإيماني مع رسل الله الكرام، الذي يبدأ من لدن آدم إلى محمد صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين.

وهي سورة تُفصّل بتوسّع قصص الأنبياء والمرسلين، وقد سبق قبل ذلك إشارات عابرة في سور القرآن المكي الذي نزل قبل هذه السورة، كما قال تعالى: ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَا إِلَيْكُمْ رَسُولًا شَهِدًا عَلَيْكُمْ كَمَا أَرْسَلْنَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ رَسُولًا ۖ﴾ [المزمل] إلى آخر الآيات، وكما في سورة الفجر، وسورة القمر، وهي إشارات عابرة إلى قصص الأنبياء والمرسلين، وجاءت هذه السورة؛ لتُفصّل وتوسّع الحديث عنها.

وفي هذا الصدد تتناول السورة سبع قصص؛ هي: قصة آدم، وقصة نوح، وقصة هود، وقصة صالح، وقصة لوط، وقصة شعيب، وتتناول بالإطناب قصة موسى بما لم يُذكر في غيرها، ففي هذه السورة بيان أن الله سبحانه أنزل الكتاب على موسى؛ لهداية أهل مصر، ولهداية بني إسرائيل، وتذكر السورة عشر حلقات من قصة موسى مع بني إسرائيل لا يوجد غيرها في القرآن الكريم، وتتحدث عن الفراعنة، وعن اليهود بإسهاب وإطناب.

اشتملت سورة الأعراف على مقاصد السور المكية، وهي إقامة الأدلة على وحدانية الله

(١) ينظر: «الدر المشثور» (٦/٣١١).

تعالى، وعلى صِدْقِ مُحَمَّدٍ ﷺ، وعلى أن يوم القيامة حقٌّ لا رَيْبَ فيه.

واهتمت السورة بأسلوبين بارزين:

أحدهما: أسلوب التذكير بنعم الله تعالى؛ فتلفت أنظار الناس إلى نعمة خَلْقِهِم، وتصويرهم وتمكينهم في الأرض، وتمتُّعهم بما في هذا الكون من خيراتٍ سَخَّرَهَا الله تعالى لهم.

وثانيهما: أسلوب التخويف من العذاب والنقم؛ فتستعرض سورة الأعراف في أكثر من نصفها ما نزل بالأمم الذين لم يستجيبوا لنصائح الرسل من سوء المصير.

وتبدأ السورة بافتتاحية عن القرآن العظيم ألا يكونَ في صَدْرِ الرسول ﷺ حَرْجٌ من إبلاغه للناس، فيخَوْفُ به الكافرين، ويذَكِّرُ به المؤمنين، وأن تَتَّبِعَ الأُمَّةُ ما أنزل الله فيه، ولا تَتَّبِعَ غَيْرَهُ.

ثم تشير السورة في بدايتها إلى ما جاء فيها من الأمم التي كَذَّبَتْ رسلها؛ فأهلكها الله ﴿وَمِنْ قَرْنٍ أَهْلَكْنَاهَا فِجَاءَهَا بِأَسْنَايِنًا أَوْ هُمْ قَائِلُونَ﴾ ﴿٤﴾ وأعقبت ذلك بأن الله تعالى سيسأل الأمم ويسأل الرسل، وسوف يقص على الجميع أخبارهم، ويزن أعمالهم، فمنهم أهل الجنة، ومنهم أهل النار.

وبعد هذه المقدمة تُذَكِّرُ السورة قصة بدء الخلق بآدم وحواء، وما كان من إغواء الشيطان لهما، وتحذّر بني آدم من كيده وعداوته في أربعة نداءات متوالية.

وتنتقل السورة من المنشأ إلى المعاد، فتذَكِّرُ أهل النار وهم يتلاحقون فيها جماعة بعد جماعة، الضالين والمضلين، وتبيِّن استحالة دخولهم الجنة، وعدم خروجهم من النار.

ثم تعرض مشاهد الفِرَقِ الثلاث يوم القيامة: وهم أهل النار، وأهل الجنة، وأصحاب الأعراف، وتعقّب على ذلك بِذِكْرِ شيء من صفحات الكون وتسخيرهِ للإنسان؛ السموات والأرض، والليل والنهار، والشمس والقمر والنجوم، والرياح، والماء، والزرور والثمار؛ للاستدلال بها على وحدانية الخالق سبحانه، وقدرته على البعث والنشور، وتضرب مثلاً للمؤمن بالأرض الطيبة الخصبة، ومثلاً للكافر الذي لا يتنفع بالحجج والبراهين بالأرض الرديئة السبخة.

ثم تأخذ السورة في ذكر الأمم التي تمردت على وحي الله؛ فصرعها بغيتها، ويلاحظ أن أغلب هذه الأمم في المناطق العربية؛ فقوم نوح بالعراق، وقوم عاد باليمن وما جاورها، وقوم ثمود بأطراف الحجاز، وقوم مدين بين سيناء والأردن، وقوم لوط في شرق فلسطين، وهؤلاء جميعاً قاوموا المرسلين، وجحدوا ما جاؤوا به من عند الله.

ويعرض السياق إلى قصة موسى في مواجهته لفرعون، وفي تحدّيه للسحرة، وفي أخذ آل فرعون بالسنين، وفي إغراق فرعون وقومه.

كما يعرض لدعوة بني إسرائيل، وطلبهم من نبيهم أن يجعل لهم إلهاً صنماً كغيرهم، بعد أن نجّاهم الله من الغرق، ويعرض أيضاً إلى ميقات موسى مع ربه؛ لنزول التوراة عليه، وطلبه الرؤية من ربه، ﴿وَلَمَّا جَاءَ مُوسَى لِمِيقَاتِنَا وَكَلَّمَهُ رَبُّهُ قَالَ رَبِّ أَرِنِي أَنْظُرْ إِلَيْكَ...﴾ [الأعراف: ١٤٣] وإلى ميقاته مع نقيب بني إسرائيل السبعين الذين قالوا له: ﴿أَرِنَا اللَّهَ جَهْرَةً﴾ [النساء: ١٥٣] فأخذتهم الصاعقة وهم ينظرون.

﴿وَأَخَارَ مُوسَى قَوْمَهُ سَبْعِينَ رَجُلًا لِمِيقَاتِنَا﴾ [الأعراف: ١٥٥]

وتتحدث السورة عن مخالفة بني إسرائيل لأمر ربهم في دخول القرية، وفي صيد السمك يوم السبت، وعن رَفْعِ جبل الطور فوقهم؛ حتى يقبلوا التوراة ويعملوا بما أنزله الله فيها على موسى ﷺ.

ومن ثَمَّ يَأْتِي ذِكْرُ الميثاق الفِطْرِيِّ الذي أخذه الله على بني آدم لتوحيد الله ﷻ، وَيَتَّبِعَ ذلك مثل الذي آتاه الله آياته فانسَلَخَ منها؛ كبنِي إسرائيل، وكلِّ مَنْ تَأْتِيهِ هِدَايَةُ الله فيزهد فيها ويُعرض عنها.

إن الأمم التي أبادها الله تعالى -مَنْ جاؤوا في هذه السورة وغيرها- هي التي حُفِرَتْ قبرها بيدها ﴿رَلَوْ أَنْ أَهْلَ الْقُرَىٰ ءَامَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَنَحْنَا عَلَيْهِمْ بِرُكْحَتٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَلَٰكِن كَذَّبُوا فَأَخَذْنَاهُم بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ (٩٦).

ولقد كان الجدير بَمَنْ أتى بعدهم أن يتعظوا بمصارع الآباء والأجداد، ولكنهم لم يعتبروا ﴿أَوَلَمْ يَهْدِ لِلَّذِينَ يَرِثُونَ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِ أَهْلِهَا أَنْ لَّوْ نَشَاءُ أَصَبْنَاهُمْ بِذُنُوبِهِمْ وَنَطْبَعُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ﴾ (١٠٠).

إن الصهاينة من يهود اليوم معتدون ظالمون مضادون لله تعالى في إقامة الكيان الصهيوني، وقد كَتَبَ الله عليهم التشرّد في البلاد؛ بسبب تقاعسهم عن نُصْرَةِ نبيهم موسى ﷺ، فخالقوا ذلك، وأقاموا وطنًا لهم، وهم كافرون برسولين بعد موسى، مقاتلون للعرب، محتلون لأرضهم، وإن الطغاة من النصارى ملؤوا الأرض ظلمًا وفسادًا واستعبادًا واستبدادًا، ونصّبوا أنفسهم شُرَطِيًّا على العالم، يولّون مَنْ شاؤوا، ويعزلون مَنْ شاؤوا، ويحتلّون ما شاؤوا.

وإن جُلَّ المسلمين معطلون لحدود الله، مستبيحون لحرماته، تاركون لواء محمد ﷺ، سائرون تحت ألوية الغدر والعصيان، فلا عجب أن ينطبق على هؤلاء وأولئك ما انطبق على غيرهم؛ مصداقًا لقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ الْإِنسِ﴾ [الأعراف: ١٧٩].

إن كلّ أمةٍ يبتليها الله تعالى بالمحن، ثم لا تلجأ إلى الله تعالى وترجع إليه؛ يأخذها ربُّها على غِرَّةٍ ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِّن نَّبِيٍّ إِلَّا أَخَذْنَا أَهْلَهَا بِالْبَأْسَاءِ وَالضَّرَاءِ لَعَلَّهُمْ يَضَّرَعُونَ﴾ ٩٤ ثُمَّ بَدَّلْنَا مَكَانَ السَّيْنَةِ الْحَسَنَةَ حَتَّىٰ عَفَوْا وَقَالُوا قَدْ مَسَّ آبَاءَنَا الضَّرَّاءُ وَالسَّرَّاءُ فَأَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٩٥﴾ [الأعراف] ولا يأمن مكر الله إلا القوم الخاسرون.

هذا هو شأن الأمم التي خذلت أنبياءها ممّن قص الله علينا قصصهم في هذه السورة ﴿تِلْكَ الْقُرَىٰ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِهَا وَلَقَدْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا بِمَا كَذَّبُوا مِنْ قَبْلُ كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِ الْكَافِرِينَ﴾ ١١١ [الأعراف].

فالقلوب المحجوبة والعيون المغلقة تقود أصحابها إلى جهنم، وعلى كلّ مَنْ يريد النجاة من النار أن يفتح قلبه وعينه؛ فيفكر وينظر ويتأمل في ملكوت السموات والأرض، ويتدبر ما جاء به رسول الله ﷺ، فإن حرية الإرادة البشرية لا جدالَ فيها، وإلا سقط تكليفُ الله لخلقه، ولم يعد هناك حاجة للثواب والعقاب في الآخرة.

وقد نصح الله المسلمين أن يتجنبوا مصارع الأولين، وأن يُحَسِّنُوا علاقتهم بالله تعالى؛ فيدعونه بأسمائه الحسنى، ويتعدون عن الشرك والضلال والإلحاد ﴿وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ فَادْعُوهُ بِهَا﴾ [الأعراف].

وعلى المسلم ألا يحاول كشف المجهول من الأمور الغيبية، وقد أخفى الله تعالى

موعد قيام الساعة؛ لأن قيامها يهم المعاصرين لها، ولو علموها لاستعدوا لها ساعة قيامها، أما غير المعاصرين لها، فإن قيامتهم تقوم لحظة وفاتهم، ومعرفة وقت قيامها لا يفيدهم في قليل ولا كثير، وكما بدأت سورة الأعراف بالحديث عن آدم، فإنها تعود قرب نهايتها فتحدث عن ذرية آدم؛ لتبين أن الله تعالى قد غمر أبناء آدم بأنعمه، فبدل أن يشكروه أشركوا به ﴿أَيْشْرِكُونَ مَا لَا يَخْلُقُ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلِقُونَ﴾ (١٩١) وَلَا يَسْتَطِيعُونَ لَهُمْ نَصْرًا وَلَا أَنْفُسُهُمْ يَنْصُرُونَ ﴿١٩٢﴾ [الأعراف].

ثم يتجه الخطاب إلى الدعاة إلى الله، وإمامهم ﷺ، فيندد بجمود المكذبين بالرسالة الخاتمة، ويبين كيفية التعامل معهم، وأن على سيد الدعاة وكل من قام بالدعوة أن يصبر ويتحمل الأذى ﴿خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ﴾ (١٨٩) [الأعراف] ففي هذا استعانة على متاعب الطريق، واقتحام لأصعب المسالك ووصولاً إلى النجاح، وإذا كان الشيطان يحاول إضلال بني آدم فإنه لا يملك إلا الوسوسة، والإنسان المؤمن يدحر الشيطان، ويهزم هذه الوسوس ﴿إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِّنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُمْ مُبْصِرُونَ﴾ (٢٠١) [الأعراف].

إن هذا الذكر يعصم من الزلل، ويستبقي الإيمان في قلب العبد، ويجعله أهلاً لرحمة الله ﴿وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنْصِتُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ (٢٤١) [الأعراف].

وذكر الله تعالى يجب أن يكون موصولاً غير منقطع، ومسيطرًا على السر والعلانية، وباعثاً على الرغبة والرغبة؛ حتى ينتظم العابد مع الكون كله، وهو يسبح بحمد الله ﴿وَاذْكُرْ رَبَّكَ فِي نَفْسِكَ تَضَرَّعًا وَخِيفَةً وَدُونَ الْجَهْرِ مِنَ الْقَوْلِ بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ وَلَا تَكُن مِّنَ الْفَاعِلِينَ﴾ (٢٠٥) وهكذا ملائكة الله لا يستكبرون عن عبادته ويسبحونه وله يسجدون.



تَفْسِيرُ السُّورَةِ

الْحُرُوفُ الْهَجَائِيَّةُ فِي أَوَائِلِ السُّورِ

١- ﴿الْمَصَّ﴾^(١)

تبدأ سورة الأعراف بحروف الهجاء (ا ل م ص) هذه الحروف الهجائية التي يتكون منها نَظْمُ القرآن الكريم، والسور التي تبدأ بهذه الحروف الهجائية في القرآن الكريم تسع وعشرون سورة؛ ثلاث منها نزلت بمكة قبل سورة الأعراف؛ وهي: سورة (ن والقلم)، وسورة (ص) و سورة (ق).

ومن هذه السور ما هو على حرف واحد؛ وهي: ص، ق، ن.

ومنها ما هو على حرفين مثل: (طه)، (يس)، (حم).

ومنها الثلاثي مثل: (الم)، ومنها الرباعي مثل: (المر)، ومنها الخماسي مثل: (كهيعص).

١- وهي للإعجاز القرآني لَمَنْ يتحداهم القرآن إلى يوم القيامة أن يأتوا بمثله في ألفاظه ومعانيه ومعارفه، وهو يتكون من هذه الحروف التي تنطقون بها مثل: الألف، واللام، والميم، والصاد، وقد قال المكذبون: إن هذا القرآن نزل من عند محمد ﷺ.

وغالبًا ما يكون الحديث بعد هذه الحروف عن القرآن الكريم، سواء بالاسم الصريح نحو: ﴿كَتَبَ أَهْكَّتْ أَهْكَّتْ﴾ [هود: ١] أو باسم الإشارة ﴿تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ﴾ [لقمان: ٢] ويكون هدف السورة غالبًا إثبات الرسالة عن طريق هذا القرآن.

ولم يثبت في تفسير هذه الحروف شيء عن النبي ﷺ،

٢- وهذه الحروف الهجائية تجذب وتشد انتباه غير المؤمنين؛ للاستماع إلى القرآن، وتُجبرهم على التأمل في معانيه، ففيها إيقاظ وتنبيه؛ إذ إنها كلام غير مألوف ولا معروف لديهم، فيحملهم هذا إلى الإنصات والتفكير فيه؛ فيتأثرون به وينجذبون إليه فيؤمنون به، وهذا هو

(١) قرأ أبو جعفر بالسكت على (ألف) و(لام) و(ميم) و(صاد) من (المص) سكتة يسيرة بدون تنفس، على أن كلا منها حرف مستقل منقطع عن غيره، وقرأ غيره بعدم السكت. هذا: وقد عدَّ (المص) آية، الكوفي، وتركها غيره فلم يعدها آية.

هدف الإسلام، سَيِّمًا أن المشركين الأوائِل الذين كانوا يمتنعون من سماع القرآن مخافة أن يُؤثِّر في نفوسهم، كما قال تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَسْمَعُوا لِهَذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [فصلت].

فهاتان فائدتان لهذه الحروف:

أولاً: كونها للتحدي والإعجاز.

ثانياً: حمل غير المؤمنين على الاستماع إلى القرآن الكريم.

والمراد من هذه الحروف أسماؤها، لا مسمياتها وأشكالها، وفيها تعريضٌ بعجز الذين ينكرون نزول القرآن من عند الله، وقد كُتِبَتْ هذه الحروف في المصحف بصورتها وشكلها الهجائي، ولم تُكتب بما تُنطق به وفقاً للرسم العثماني.

خِطَابُ النَّبِيِّ ﷺ وَخِطَابُ الْبَشَرِ

٢- ﴿كَتَبَ أَنْزَلَ إِلَيْكَ فَلَا يَكُنْ فِي صَدْرِكَ حَرَجٌ مِنْهُ لِيُنْذِرَ بِهِ وَذِكْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ ﴿٢﴾

وتبدأ سورة الأعراف بعد حروف التهجي بتوجيه خطابين:

١- خطاب إلى الرسول ﷺ.

٢- وخطاب إلى البشر جميعاً إلى يوم الساعة.

أما خطاب النبي ﷺ فهو قوله تعالى ﴿كَتَبَ أَنْزَلَ إِلَيْكَ﴾ وهو القرآن العظيم الذي أنزله الله عليه، من جنس الكتب المنزلة على الأنبياء، اشتمل على كل ما يحتاج إليه العباد، وجميع الأوامر والنواهي الإلهية والمقاصد الشرعية، محكماً مفصلاً ﴿فَلَا يَكُنْ فِي صَدْرِكَ حَرَجٌ مِنْهُ﴾ هذا الحرج: هو الضيق الذي يتأب رسل الله الكرام؛ بسبب ما يلحق بهم؛ من الأذى والعنت والتكذيب الذي يكون من أقوامهم الذين يُبعثون فيهم، وهم يبلغون إليهم دعوة الله سبحانه.

أي: لا يكن في صدرك حرجٌ وضيقٌ؛ بسبب ما تلقاه من عنَتٍ ومشقةٍ وتكذيبٍ من القوم؛ لأنك تجابه عقائدَ وتقاليِدَ، وتعارض نُظماً وأوضاعاً، وتواجه ظُلماً وطغياناً، وفِرَقاً وأحزاباً، ومجتمعاتٍ تحكمها نظم بشرية، وكلُّ ذلك يحتاج إلى إصلاحٍ وتقويمٍ

وَجَهْدٍ وَعَنَاءٍ، وَلَا يَكُنْ فِي صَدْرِكَ شَكٌّ وَاشْتِبَاهٌ، بَلْ لَتَعْلَمْ أَنَّهُ نَزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ، ﴿لَا يَأْنِيهِ الْبَطْلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ﴾ [فصلت: ٤٢] وَأَنَّهُ أَصْدَقُ الْكَلَامِ، فَلْيَنْشَرْحْ لَهُ صَدْرَكَ، وَلَتَطْمَئِنَّ بِهِ نَفْسُكَ، فَاصْذَعِ بِهِ وَلَا تَخْشَ لَائِمًا وَلَا مُعَارِضًا.

فاصبر كما صبر أولو العزم من الرسل، وَلَا يَكُنْ فِي صَدْرِكَ أَدْنَى شَكٍّ فِي أَنَّهُ نَزَلَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ ﴿لِنُنْذِرَ بِهِ﴾ الْخَلْقَ فَتَعْظُمَ وَتَذَكَّرْهُمْ لَتَقُومَ الْحُجَّةُ عَلَى الْمُعَانِدِينَ مِنْهُمْ ﴿إِنْ عَلَيْكَ إِلَّا الْبَلَاغُ﴾ [الشورى: ٤٨] بِأَنْ تَنْذِرَ وَتَبْلُغَ هَذَا الْقُرْآنَ الْكَرِيمَ لِلنَّاسِ، وَلَا تَتَحَرَّجْ فِي إِبْلَاغِهِ وَالْإِنْذَارِ بِهِ، فَبَشِّرْ بِهِ الْمُؤْمِنِينَ، وَخَوْفٌ بِهِ الْكَافِرِينَ، وَهُوَ ذِكْرٌ قَائِمَةٌ بَيْنَ يَدَيِ الْبَشَرِ إِلَى يَوْمِ السَّاعَةِ، يَرْجِعُونَ إِلَيْهِ بَيْنَ الْحَيْنِ وَالْحَيْنِ، فَهُوَ ذِكْرٌ مُتَجَدِّدٌ لِلنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴿وَذِكْرٌ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ فَهُمْ الَّذِينَ يَنْتَفِعُونَ بِمَا فِيهِ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ﴾ [البقرة: ٢] وَفِي هَذَا تَعْرِيفٌ بِغَيْرِ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ لَا يَنْتَفِعُونَ بِمَا فِيهِ مَعَ أَنَّهُ نَزَلَ لِهَدَايَةِ النَّاسِ جَمِيعًا، فَهُوَ ﴿هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِّنَ الْهُدَىٰ وَالْفُرْقَانِ﴾ [البقرة: ١٨٥]

وَيُوضَحُ هَذِهِ الْآيَةُ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿فَلَعَلَّكَ تَارِكٌ بَعْضَ مَا يُوحَىٰ إِلَيْكَ وَضَائِقٌ بِهِ صَدْرُكَ أَنْ يَقُولُوا لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْهِ كُتُبٌ أَوْ جَاءَ مَعَهُ مَلَكٌ إِنَّمَا أَنْتَ نَذِيرٌ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ﴾ [هود].

وَفِي الْآيَةِ تَقْوِيَةٌ لِّقَلْبِ النَّبِيِّ ﷺ، وَتَثْبِيتٌ لِّقَوَادِهِ، وَتَسْلِيَةٌ لَهُ عَمَّا يَقُولُهُ الْمَكْذُوبُونَ الْمُعَارِضُونَ.

وَالْإِنْذَارُ: هُوَ الْإِعْلَامُ مَعَ تَخْوِيفٍ، وَقَدْ أَمَرَ النَّبِيُّ ﷺ أَنْ يَخَوْفَ بِهَذَا الْقُرْآنَ الْمَكْذِبِينَ وَالْمُعَانِدِينَ وَيَنْذِرَهُمْ بِهِ، فَقَالَ: ﴿لِنُنْذِرَ قَوْمًا مَّا أُنْذِرَ آبَاءَهُمْ﴾ [يس: ٦] وَهَذَا الْإِنْذَارُ يَكُونُ لِلْكَافِرِينَ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿إِنَّا أَنْذَرْنَكُمْ عَذَابًا قَرِيبًا﴾ [النبأ: ٤٠] ﴿فَأَنْذَرْتُمْ نَارًا تَلْقَوْنَ﴾ [٤١] لَا يَصْلَاهَا إِلَّا الْأَشْقَى ﴿٤٢﴾ [الليل].

أَمَّا الذِّكْرُ وَالْإِنْتِفَاعُ بِهَا فَهُوَ خَاصٌّ بِالْمُؤْمِنِينَ، يَتَذَكَّرُونَ بِهِ الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ، وَأَعْمَالَهُمُ الظَّاهِرَةَ وَالْبَاطِنَةَ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَذَكَّرْ فَإِنَّ الذِّكْرَ نَفْعُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الذاريات: ٥٥] ﴿فَذَكِّرْ بِالْقُرْآنِ مَنْ يَخَافُ وَعِيدِ﴾ [ق: ٤٥] ﴿إِنَّمَا يَذَكَّرُ أُولُو الْأَلْبَابِ﴾ [الرعد: ١٩] ﴿بَصِيرَةً وَذِكْرًا لِّكُلِّ عَبْدٍ مُّثِيبٍ﴾ [ق: ٨]

وَقَدْ يَقْتَصِرُ ذِكْرُ الْبَشَرِ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ دُونَ غَيْرِهِمْ؛ لِأَنَّهُمُ الْمُتَنَفِّعُونَ بِهِ، وَمَا لَا نَفْعَ فِيهِ كَالْعَدَمِ، وَقَدْ جُمِعَ اللَّهُ بَيْنَهُمَا، كَمَا فِي الْآيَةِ الَّتِي مَعْنَاهَا، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿فَإِنَّمَا يَسَّرْنَاهُ

بِلِسَانِكَ لِتُبَشِّرَ بِهِ الْمُتَّقِينَ وَتُنذِرَ بِهِ قَوْمًا لَّدَا ﴿٩٧﴾ [مريم]. قال تعالى:

٣- ﴿اتَّبِعُوا مَا أُنزِلَ إِلَيْكُمْ مِن رَّبِّكُمْ وَلَا تَتَّبِعُوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ﴾ ﴿٢﴾

والخطاب الآخر للبشر، جاء في قوله تعالى فيما أوحاه الله لرسوله: ﴿اتَّبِعُوا﴾ أيها الناس جميعاً في كلِّ زمانٍ ومكانٍ ﴿مَّا أُنزِلَ إِلَيْكُمْ مِن رَّبِّكُمْ﴾ وهو هذا القرآن الذي نَزَلَ على رسوله من عند الله لهدايتكم، فيه الهدى والنور، فامتثلوا أمره واجتنبوا نهيه، واتركوا ما أنتم عليه من الكفر، ولا تَخْرُجُوا عَمَّا جَاءَكُمْ به الرسول إلى غيره، واتبعوا السُّنَّةَ الْمُبِينَةَ له، التي جاءت على لسان الرسول ﷺ، فامتثلوا ما فيها من الأوامر واجتنبوا ما فيها من النواهي ﴿وَمَا ءَانَكُمْ الرَّسُولُ فَحِذُّوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا﴾ [الحشر: ٧]. فإن اتبعتموه حَسُنَتْ تربيتكم، وتمت عليكم النعمة، وهديتم لأحسن الأعمال والأقوال والأخلاق.

قوله تعالى ﴿وَلَا تَتَّبِعُوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ﴾ كالشياطين والأحبار والرهبان؛ أي: لا تتبعوا في تحليل ما أحل الله، ولا في تحريم ما حرم الله شرعاً غير شرع الله، ولا تتبعوا أولياء آخرين من البشر يُضِلُّونكم؛ منهم الملاحدة الذين لا يعترفون بوجود الله، ومنهم الوثنيون، ومنهم المشركون الذين يقرون بوجود الله ويشركون معه غيره، ومنهم أهل الكتاب من اليهود والنصارى، الذين ينسبون الولد إلى الله ﷻ، ومنهم المسلمون الذين يُقَلِّدُونَ اليهود والنصارى في نُظُمِهِمْ وقوانينهم ويتبعونها حذو القذة بالقذة، فاحذروا أن تتركوا شريعته، واحذروا أن تتخذوا معه شركاء يزينون لكم الباطل، فتتبعون أهواءكم وتركون الحق لأجلها.

﴿قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ﴾ تتعظون وتعتبرون وترجعون إلى الحق، ولو تذكَّرتُم لما آثرتُم الشر على الخير والضلال على الهدى، وإيمان القليل يفيد كفر الكثير، كما قال تعالى: ﴿وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ﴾ ﴿١٣﴾ [يوسف].

وقال سبحانه: ﴿وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللهِ إِلَّا وَهُمْ مُشْرِكُونَ﴾ ﴿١٦﴾ [يوسف: ١٠٦]

وقال جل شأنه ﴿وَإِن تَطَّعْ أَكْثَرُ مَنْ فِي الْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَنْ سَبِيلِ اللهِ﴾ [الأنعام: ١١٦].

(١) قرأ ابن عامر (يتذكرون) بياء قبل التاء وتخفيف الذال على الغيبة والالتفات، والتخفيف على الأصل، وقرأ حفص وحزمة والكسائي وخلف العاشر بحذف الياء وتخفيف الذال (تذكرون)، وقرأ الباقون بإدغام التاء في الذال مع تشديدها، وأصلها (تتذكرون).

والذي أمركم باتباع أمره هو ربكم، خالقكم ورازقكم ومدير أموركم، العليم بما فيه صلاحكم وسعادتكم، فاحذروا أن تتركوا شريعته وتتبعوا شره غيره ﴿وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ﴾ [البقرة: ٢٠٨] ﴿وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ اللَّهُ حَفِظٌ عَلَيْهِمْ﴾ [الشورى: ٦] لا يخفى عليه فعلهم، وسيجازيهم عليه.

وفي النهي عن اتباع غير ما أنزل الله إقامة للحجة على المشركين، وقطع لمعاذيرهم؛ لئلا يقولوا: ما نعبد أولياءنا إلا ليقربونا إلى الله زلفى، فقد كانوا يقولون في تلييتهم: لبيك لا شريك لك إلا شريكاً هو لك تملكه وما ملك، وإذا كان يملك ولا يملك فلا تتبعوا ما يأتىكم من دون الله.

وقد كان المشركون يعترفون بوجود الله، ويتبعون أمر غيره في بعض عبادتهم؛ في مناسك الحج، والحلف بغير الله، والتقرب إليهم بالذبح والنذر، ويسألونهم النفع والضّر والإعانة والمدد، وهكذا يفعل بعض الناس في هذا العصر، ولو أنهم لم يضيّعوا النظر والتذكر لما اتبعوا غير هدى الله، ولما احتاجوا إلى النهي عن ذلك.

الإشارة إلى مصير الأمم المكذبة لرسل الله

٤- ﴿وَكَمْ مِنْ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا فَجَاءَهَا بَأْسُنَا^(١) بَيِّنًا أَوْ هُمْ قَائِلُونَ ﴿١﴾﴾

والله ﷻ في أول سورة الأعراف، يبين ما حلّ بالمكذّبين للرسل على مرّ الأزمنة والأمكنة، من عذاب الله في الدنيا، وما يحلّ بهم من عذاب الله في الآخرة، قبل تفصيل ما حدث من هذه الأمم في هذه السورة وغيرها، فاعتبروا يا أولي الألباب، واحذروا أن تُشابهوهم حتى لا يحلّ بكم ما حلّ بهم.

﴿وَكَمْ مِنْ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا﴾ أردنا إهلاكها؛ أي: كثيراً من القرى؛ وهي المدن الكبرى التي أردنا إهلاك أهلها؛ بسبب مخالفة الرسل وتكذيبهم، فأورثهم ذلك خزي الدنيا موصولاً بذل الآخرة ﴿فَجَاءَهَا بَأْسُنَا﴾ أي: عذابنا الشديد، وانتقامنا بعد ذلك على حين غفلة، مرة وهم نائمون ليلاً، ومرة وهم قائلون نهاراً، في وقت التعب، وفي وقت السكون والراحة

(١) أبدل الهمزة من (بأسنا) ألفاً أبو عمرو بخلف عنه، وأبو جعفر، وحمزة عند الوقف هنا وكذا في الآية التالية.

﴿يَتَنَبَّأُ﴾ لَيْلًا ﴿أَوْ هُمْ فَاقِلُونَ﴾ وقت القيلولة، ومجيء العذاب في هذين الوقتين أفظع وأشد، حيث يأتيهم على غرة وهم في غفلة، فلا يستطيعون دفعه عن أنفسهم، ولا ينصرهم منه ناصر، ولا يدفعه عنهم دافع.

وهذا كقوله تعالى: ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَرِيْبٍ بَطَرَتْ مَعِيشَتَهَا فَنِلَكَ مَسْكِنُهُمْ لَمْ تُسْكَنْ مِنْ بَعْدِهِمْ إِلَّا قَلِيلًا وَكُنَّا نَحْنُ الْوَارِثِينَ﴾ [٥٨] [القصص]

وقوله: ﴿أَفَأَمِنَ أَهْلُ الْقُرَىٰ أَنْ يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنَا بَيِّنًا وَهُمْ نَائِمُونَ﴾ [٩٧] أَوْ أَمِنَ أَهْلُ الْقُرَىٰ أَنْ يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنَا ضُحًى وَهُمْ يَلْعَبُونَ﴾ [٩٨] [الأعراف].

وقوله: ﴿أَفَأَمِنَ الَّذِينَ مَكَرُوا السَّيِّئَاتِ أَنْ يَخْسِفَ اللَّهُ بِهِمُ الْأَرْضَ أَوْ يَأْتِيَهُمُ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ﴾ [٥٥] أَوْ يَأْخُذَهُمْ فِي تَقْلِبِهِمْ فَمَا هُمْ بِمُعْجِزِينَ﴾ [٥٦] أَوْ يَأْخُذَهُمْ عَلَى تَخَوُّفٍ فَإِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَحِيمٌ﴾ [٤٧] [النحل].

وقوله: ﴿وَكَمْ قَصَمْنَا مِنْ قَرِيْبٍ كَانَتْ ظَالِمَةً وَأَنْشَأْنَا بَعْدَهَا قَوْمًا آخَرِينَ﴾ [١١] [الأنبياء].

وهلاك الأمم يكون بسبب بغيها وفسادها وانحرافها عن الطريق المستقيم، وهذه سنة الله في كل زمان ومكان، والعاقل هو الذي لا يغتر برخاء العيش وصفو الليالي، وإنما يكون بين الخوف والرجاء، فلا يأمن مكر الله إلا القوم الخاسرون، وهذا يشمل الأفراد والأمم والجماعات.

قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَسْتَهْزِئُ بِرُسُلٍ مِنْ قَبْلِكَ فَحَاقَ بِالَّذِينَ سَخِرُوا مِنْهُمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾ [١٧] [الأنعام].

وقال سبحانه: ﴿فَكَأَيِّنْ مِنْ قَرِيْبٍ أَهْلَكْنَاهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ فِيْهَا خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا وَيَبْرِىٰ مُعْطَلَةٌ وَقَصِرَ مَشِيدُ﴾ [٥٥] [الحج].

وقال جل شأنه: ﴿فَأَمَّا ثَمُودُ فَأَهْلَكُوا بِطَاغِيَةِ﴾ [٥] وَأَمَّا عَادُ فَأَهْلِكُوا بِرِيْحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ﴾ [٦] [الحاقة].

وقال تعالى: ﴿مَّا ءَامَنَتْ قَبْلَهُمْ مِنْ قَرِيْبٍ أَهْلَكْنَاهَا أَفَهُمْ يُؤْمِنُونَ﴾ [٦] [الأنبياء].

والمراد بالإهلاك في الآية: عذاب الاستئصال والإبادة، ومعنى ﴿أَهْلَكْنَاهَا﴾ أردنا

إهلاكها، كما في قوله تعالى: ﴿فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْتَعِذْ﴾ [النحل: ٩٨] أي: إذا أردت قراءة القرآن، وقوله: ﴿إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ فَاغْسِلُوا﴾ [المائدة: ٦] أي: إذا أردتم القيام للصلاة.

والبأس: هو العذاب، وقد أخبر تعالى عن كيفية إهلاكهم بعد أن أخبر بإهلاكهم، فهو تفصيل بعد إجمال، كما قال تعالى: ﴿كَذَبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ فَكَذَّبُوا عَبْدَنَا وَقَالُوا مَجْنُونٌ وَازْدُجِرَ﴾ [القمر].

فالمعنى: وكم من أهل قرية أهلكناهم؛ لتكذيبهم رسل الله، وجحودهم أوامر الله، وإشراكهم بالله، فاحذروا - أيها المسلمون - أن تكونوا مثلهم؛ فيصيكم ما أصابهم.

وفي الآية وعيدٌ وتهديدٌ لكل مَنْ لم يؤمن بخاتم الرسل، كما قال تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ دَمَّرَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلِلْكَافِرِينَ أَمْتَلُهَا﴾ [محمد].

٥- ﴿فَمَا كَانَ دَعْوَانَهُمْ إِذْ جَاءَهُمْ بِأَسَنَّا إِلَّا أَنْ قَالُوا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ﴾

فما كان قولهم حين يرون نزول العذاب بهم إلا أن يعترفوا بذنوبهم وظلمهم قائلين: ﴿إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ﴾ ويندموا وقت لا ينفع الندم ولا الاعتراف، فيقروا بالشرك والكفر، ويعترفوا أنهم جديرون بالعذاب الذي نزل بهم في الدنيا، وما من قوم أهلكهم الله تعالى إلا ندموا واعتذروا وهم يعاينون بأس الله، وبأس الله لا يكفه ندم ولا توبة، فقد كان الأجدر بهم أن يتوبوا من ذنوبهم قبل حلول العذاب بهم.

ولفظ ﴿دَعْوَانَهُمْ﴾ في الآية له معنيان:

الأول: بمعنى الدعاء؛ أي: فما كان دعاؤهم واستغاثتهم -لرفع العذاب عنهم، حين نزل بهم بأس الله وظهرت علاماته- إلا أن جأروا إلى الله تعالى، ولجؤوا إليه، وسألوه أن يكشف عنهم ما حاق بهم من نعمة، قائلين: إنا كنا ظالمين؛ أي: مشركين بالله تعالى، وهذا الاعتراف يكون مقدمة للتوبة، ولكن دعاءهم هذا كان آخر قولهم في الدنيا قبل أن تشهد عليهم ألسنتهم في يوم الحشر، وهذا من شأنه أن يخفف العذاب عنهم.

وهم قد ظلموا أنفسهم بالعناد، وتكذيب الرسل، والإعراض عن آيات الله، وصموا آذانهم عن الوعد والوعيد، فلمَّا رأوا العذاب ندموا وأقروا على أنفسهم إقراراً مشوباً بالحسرة والندم والشعور بالويل والثبور، ومن شأن مَنْ يقع في شدة أن يجري على لسانه كلام، فإن كان ممن اعتاد قول الخير نطق به، وإن كان ممن اعتاد ضده؛ جرى على لسانه

التسخطُ ومُنكِرُ القول.

واستعمال (دعوى) بمعنى الدعاء كثير في القرآن، ومنه قوله تعالى: ﴿دَعَوْنَهُمْ فِيهَا سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ﴾ [يونس: ١٠] وهذا المعنى هو المراد من الآية التي نحن بصددناها على الأرجح، قال تعالى ﴿فَمَا زَالَتْ تِلْكَ دَعَوْنَهُمْ حَتَّى جَعَلْنَاهُمْ حَصِيدًا خَمِيدِينَ﴾ [الأنبياء: ١٥]

المعنى الثاني: أنها بمعنى الادعاء؛ أي: أنه قد انقطعت كل الدعاوى التي كانوا يدعونها في الدنيا من تعدد الآلهة وغيرها، ولم يبق لهم دعوى؛ فانقطعت حُجَّتُهُمْ واعترفوا أنهم مبطلون^(١).

ثم ينتقل القرآن الكريم إلى العذاب الأخروي بعد بيان العذاب الدنيوي، من الآية السادسة إلى الآية التاسعة.

سُؤَالُ الرُّسُلِ وَالْمُرْسَلِ إِلَيْهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ

٦- ﴿فَلَنَسْأَلَنَّ الَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ^(٢) وَلَنَسْأَلَنَّ الْمُرْسَلِينَ^(٣)﴾

والعذاب الأخروي يكون بعد البعث والسؤال والحساب، ويكون في يوم القيامة مواقف؛ فتارة يُسأل الناس، كما في هذه الآية، وتارة لا يُسألون، كما في قوله تعالى: ﴿وَلَا يُسْأَلُ عَنْ ذُنُوبِهِ الْمُجْرِمُونَ﴾ [القصص: ٧٨] والجميع يُسأل يوم القيامة، الرسل يُسألون عن تبليغهم الدعوة إلى خلق الله، ويُسألون عن إجابة الأمم لهم؛ لإقامة الحجة على الكفار ﴿فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَى هَؤُلَاءِ شَهِيدًا﴾ [النساء: ١٥٩] ﴿يَوْمَ يَجْمَعُ اللَّهُ الرُّسُلَ فَيَقُولُ مَاذَا أُجِبْتُمْ قَالُوا لَا عِلْمَ لَنَا﴾ [المائدة: ١٠٩] والبشر يُسألون عن قيامهم بواجب الدعوة، وبماذا أجابوا الرسل ﴿وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ مَاذَا أُجِبْتُمْ الْمُرْسَلِينَ﴾ [القصص: ١٥].

وربما يكون السؤال المثبت في الآية وأمثالها هو السؤال عن تبليغ الرسل، والسؤال المنفي في مثل قوله تعالى: ﴿فَيَوْمَذٍ لَا يَنْفَعُ عَنْ ذُنُوبِهِمْ إِيَّائِمْ وَلَا جُنَّ﴾ [الرحمن] هو

(١) ينظر: «تفسير ابن جرير» وابن عطية وابن كثير وابن عاشور للآية.

(٢) قرأ حمزة ويعقوب بضم الهاء من (إليهم) و(عليهم) في الآية التالية، وكسرهما الباقيون.

السؤال عن تفاصيل الذنوب، المشار إليه في قوله تعالى: ﴿وَمَا كُنَّا غَائِبِينَ﴾ فلا مجال للمغالطة ولا الجدل ولا الكذب ولا التعريض.

وسؤال الكفار تقرُّع وتوبيخ، وسؤال الأمم للتقرير والاستشهاد، وسؤال الرسل للمؤانسة لهم وإرهاب أممهم، ويعقب سؤال الكفار النكال والعقاب، ويعقب سؤال المؤمنين والأنبياء الكرامة والثواب^(١).

ومن فوائد السؤال الرُّدُّ على مَنْ أنكر من المشركين أن الرسل قد بلغوهم؛ لئلا يقولوا ما جاءنا من بشير ولا نذير، وجاء في الحديث^(٢) أن كل راع مسؤول عن رعيته، فالحاكم راع، والرجل راع في بيته وأهله، والمرأة راعية في بيت زوجها وولده، وكلكم مسؤول عن رعيته، والله سبحانه أعلم، يعلم ما حدث وما يحدث، وقد أحاط عِلْمُهُ بكلِّ شيء قبل السؤال وبعده.

ومن الأحاديث الواردة في ذلك قوله ﷺ فيما يرويه ابن عمر رضي الله عنهما: «كلكم راع وكلكم مسؤول عن رعيته، فالإمام يُسأل عن الناس، والرجل يُسأل عن أهله، والمرأة تُسأل عن بيت زوجها، والعبد يُسأل عن مال سيده»^(٣).

وعن أنس رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «إن الله سائل كل راع عما استرعاه حفظ ذلك أم ضيعه، حتى يسأل الرجل عن أهل بيته»^(٤).

وعنه أيضًا أن رسول الله ﷺ قال: «كلكم راع، وكلكم مسؤول عن رعيته، فأعدوا للمسائل جوابًا» قالوا: وما جوابها؟ قال: «أعمال البر»^(٥).

(١) ينظر: «البحر المحيط» (٤/٢٧٠).

(٢) عن عبد الله بن مسعود وعبد الله بن عمر رضي الله عنهما في «صحيح البخاري» (٨٩٣، ٢٥٥٤) و (٥٢٠٠) و«صحيح مسلم» (١٨٢٩) بنحوه، والمسند (٤٤٩٥) بإسناد صحيح على شرط الشيخين.

(٣) البخاري (٥١٨٨) ومسلم (١٨٢٩) بنحوه والترمذي (١٧٠٥).

(٤) ابن حبان (٤٤٩٢) قال محققه: إسناده صحيح على شرطهما، وأخرجه أبو نعيم (٢٨١/٦) (٢٣٥/٩) وعند النسائي في عشرة النساء (٢٩٢).

(٥) في صحيح البخاري (٢٥٥٤) وصحيح مسلم (١٨٢٩)، والطبراني في «الكبير» (٣٥٧٦) وفي «الصغير»

(١٦١/١) قال الهيثمي: أحد إسناده الأوسط رجاله رجال الصحيح «مجمع الزوائد» (٢٠٧/٥). وهو

في مسند أحمد عن ابن عمر برقم (٤٤٩٥) بنحوه.

٧- ﴿فَلَنَقُصَّنَّ عَنْهُمْ بَعْلَهُمْ وَمَا كُنَّا غَائِبِينَ﴾ ﴿٧﴾

فلنسرُدَنَّ على الخلق كلهم، أعمالهم عن علم و يقين، كل قليل وكثير، و جليل وحقير، والله تعالى لا يغيب عنه شيء، وسوف نُقْصُصُ على الخلق ما عملوه في دنياهم بعلم من الله تعالى لأعمالهم، ﴿أَخَصَّنُهُ اللَّهُ وَسُوَّهُ﴾ [المجادلة: ٦] فيسألهم أولاً ثم يخبرهم بتفصيل ما أجمله جوابهم، والله ﷻ محيطٌ بشؤون خلقه، لا تخفى عليه خافية.

﴿وَمَا تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ إِلَّا يَدْرِيهَا وَلَا حَبَّةٌ فِي ظِلْمَتِ الْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٌ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ﴾ [الأنعام: ٥٩] ولا يغيب عنه مثقال ذرة في السموات ولا في الأرض.

﴿وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ﴾ [يونس: ٦١].

وهذا السؤال؛ ليقيم الله عليهم الحجة يوم لقائه ﴿يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُهُمْ بِمَا عَمِلُوا﴾ أَخَصَّنُهُ اللَّهُ وَسُوَّهُ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴿٦﴾ [المجادلة]

وهو سبحانه لا يجهل شيئاً من أحوالهم ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ﴾ [الحديد: ٤]

وهكذا يقص الله على عباده ما عملوه في الدنيا، ولم يكن سبحانه غائباً عما فعلوه، بل هو رقيبٌ على خلقه، محيطٌ بكل ما قالوه وما فعلوه، لا يغيب عنه شيء. ﴿وَمَا كُنَّا عَنْ الْخَلْقِ غَافِلِينَ﴾ [المؤمنون: ١٧].

ثم ذكر سبحانه الجزاء على الأعمال.

الرَّبْحُ وَالْخَسَارَةُ فِي يَوْمِ الْقِيَامَةِ

٨- ﴿وَالْوِزْنُ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ فَمَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ ﴿٨﴾

ووزن الأعمال يوم القيامة، يكون بالعدل والقسط الذي لا ظلم فيه ولا جور، فمن رجحت كفت حسناته على سيئاته فهم الناجون من كل مكروه المدركون لكل محبوب، الحاصلون على السعادة الأبدية.

وبعد السؤال والتعريف بالأعمال يكون وزن هذه الأعمال، حيث يُنصب الميزان، ويكون الجزاء عليها جزاء لا غبن فيه لأحد.

وهو ميزانٌ حسيٌّ حقيقيٌّ، له كفتان ولسان على ما عليه أهل السنة والجماعة، تُوزن فيه

الأعمال بالعدل والقسط الذي لا ظُلمَ فيه، ويُردُّ على المظلوم من الظالم ما وُجدَ له من حسنات، فإن لم يكن حسنات أُخِذَ من سيئاته فطُرحت على الظالم.

فالأعمال تُجَسَّمُ حتى يكون لها ثِقَلٌ، أو تُوزن صحف الأعمال، ويُعَبَّرُ بخفة الوزن عن الرجل الذي لا قيمة له عند الله، كما في الحديث: «يُؤْتَى يوم القيامة بالرجل السمين فلا يزن عند الله جناح بعوضة»^(١).

ويُعبَّرُ بثقل الوزن عن رفع قَدْرِ العبد عند الله تعالى، كما ذكر النبي ﷺ عن ابن مسعود رضي الله عنه حينما نظر بعض الصحابة إلى ساقيه وهما دقيقتان رفيفتان فقال ﷺ: «أتعجبون من دقة ساقيه، فوالذي نفسي بيده لهما في الميزان أثقل من أُحُدٍ»^(٢) أي: أنهما أثقل عند الله تعالى من جبل أُحُدٍ.

وبالجملة: فهناك وزن للأعمال، والجزاء يكون على مقدارها، والله تعالى يعلم مقادير أعمال العباد، ومع ذلك فإنها تُوزن يوم القيامة؛ إظهاراً لعدل الله تعالى، وإقامة للحجة على الخلق، وتعريفاً للعباد بأعمالهم، وإظهاراً لعلامة السعادة والشقاء، وبياناً لعدم ظلم الله تعالى للناس جميعاً، ومنهم الفائزون في يوم الجزاء، قال تعالى ﴿وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَمَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَإِنْ كَانَ مِثْقَالُ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَى بِنَا حَاسِبِينَ﴾ [الأنبياء]. وقال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ النَّاسَ شَيْئًا﴾ [يونس: ٤٤]

وقال سبحانه ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ﴾ [النساء: ٤٠]

وقال جل شأنه ﴿فَأَمَّا مَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ﴾ ① ﴿فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ﴾ ② ﴿وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ﴾ ③ ﴿فَأُمُّهُ هَاوِيَةٌ﴾ ④ [القارعة]

وقال أيضاً: ﴿فَمَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ ⑤ ﴿وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَٰئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ فِي جَهَنَّمَ خَالِدُونَ﴾ ⑥ [المؤمنون] إنه ميزان لا يظلم، ولا يخطئ، ولا

(١) «صحيح البخاري» برقم (٤٧٢٩) ومسلم (٢١٤٧/٤) من حديث أبي هريرة برقم (٢٧٨٥).

(٢) «المسند» (٤٢٠/١). برقم (٣٩٩١) صحيح لغيره، وإسناده حسن من أجل عاصم بن النجود، وبقية رجاله ثقات (محققوه)، وأخرجه الطيالسي (٣٥٥) وأبو يعلى (٥٣١٠) والطبراني في الكبير (٨٤٥٢) والبخاري (٢٦٧٨) زوائد.

يزيد في حسنات مسيء، ولا يُنقص من حسنات محسن.

وهذه جملة من الأحاديث تتحدث عن الميزان، ومنها حديث البطاقة:

١- عن أبي عبد الرحمن الحُبَلِيِّ قال: سمعتُ عبد الله بن عمرو رضي الله عنه يقول: قال رسول الله ﷺ: «يُصاح برجلٍ من أمتي يوم القيامة على رؤوس الخلائق، فيُنشر له تسعة وتسعون سجلاً، كل سجل مدُّ البصر، ثم يقول الله ﷻ: هل تُنكر من هذا شيئاً؟ فيقول: لا يا رب، فيقول: أظلمتكَ كتبتي الحافظون؟ فيقول: لا يا رب، فيقول: أفلك عذر؟ فيقول: لا يا رب، فيقول: بلى، إن لك عندنا حسنة، وإنه لا ظلم عليك اليوم، فتخرج له بطاقة فيها: أشهد أن لا إله إلا الله، وأن محمداً عبده ورسوله، قال: فيقول: يا رب، ما هذه البطاقة مع هذه السجلات؟ فيقول: إنك لا تُظلم، فتوضع السجلات في كفة والبطاقة في كفة، فطاشت السجلات وثقلت البطاقة»^(١) والبطاقة: هي الرقعة.

٢- وعن عبد الله بن عمرو رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «توضع الموازين يوم القيامة، فيؤتى بالرجل، فيوضع في كفة، ويوضع ما أحصى من عمله في كفة، فيتميل به الميزان، فينعث به إلى النار، فإذا أدبر به إذا صائح يصيح من عند الرحمن: لا تعجلوا، لا تعجلوا، فإنه قد بقي له، فيؤتى ببطاقة فيها: لا إله إلا الله، فتوضع مع الرجل في كفة، حتى يميل به الميزان»^(٢).

والمعنى: أن الشهادتين تكونان في ميزان العبد يوم القيامة أثقل من جميع سيئاته؛ وعلى هذا فإن الصحائف التي كتبها الملائكة لإحصاء أعمال العباد، توضع في هذا الميزان.

٣- كما قال ﷺ: «كلمتان خفيفتان على اللسان، ثقيلتان في الميزان، حبيبتان إلى

(١) «سنن ابن ماجه» برقم (٤٣٠٠) كتاب الزهد، وصححه الألباني في مشكاة المصابيح (٥٥٥٩) و«صحيح سنن ابن ماجه» (٣٤٦٩) و«صحيح سنن الترمذي» برقم (٢١٢٧) وفي «السنن» برقم (٢١٣٩) وهو في «المسند» برقم (٦٩٩٤) قال محققه: إسناده صحيح، وهو في السلسلة الصحيحة (١٣٥) وقال الحاكم: هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه ووافقه الذهبي، «المستدرک» (١/٥٢٩) وأخرجه أيضاً ابن حبان (٢٢٥) والبيهقي في «الشعب» (٢٨٣).

(٢) أخرجه أحمد بإسناد قوي ورجال ثقات (٧٠٦٦). وانظر (٦٩٩٤) وأخرجه الترمذي برقم (٢٦٣٩) وابن حبان (٢٢٥) والبغوي (٤٣٢١) وابن ماجه (٤٣٠٠) والبيهقي في الشعب (٢٨٣).

الرحمن: سبحان الله وبحمده، سبحان الله العظيم»^(١).

٤- وعن أبي الدرداء رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «ما من شيء يوضع في الميزان يوم القيامة أثقل من خُلِقَ حسن»^(٢).

٥- ولمّا سأل أنس بن مالك رضي الله عنه رسول الله ﷺ قائلاً: يا رسول الله، أين أجذك في القيامة؟ فقال: «اطلبي أول ما تطلبي على الصراط» قال: فإن لم ألقك على الصراط، قال: «فاطلبي عند الميزان» قال: فإن لم ألقك عند الميزان، قال: «فاطلبي عند الحوض، فإني لا أخطئ هذه الثلاثة مواطن يوم القيامة»^(٣).

ولو لم يكن الميزان حسياً حقيقياً لمّا أحال عليه رسول الله ﷺ طلبه عنده.

حقيقة الميزان:

والكلام في الميزان من عقائد الإسلام السمعية التي يجب الإيمان بها، وهو من الأمور الغيبية التي أخبرنا عنها الكتاب والسنة، وهو ميزانٌ له عمود وكفتان على هيئة موازين الدنيا، كما صرحت بذلك الأحاديث الصحيحة، وقد تظاهرت الآثار على أن صحائف الحسنات والسيئات تُوضع في كفتي الميزان؛ فيحدث الثقل والخفة، ومعنى ذلك: أن الحسنات والسيئات تكون في صورة محسوسة لها جسم ووزن، كما ورد أن كلمة التوحيد ترجح ميزان من وُضعت في ميزانه، وإن كانت الأعمال أعراضاً فإنها تكون يوم القيامة أجساماً.

الأعمال هي التي توزن: وعلى هذا، فالذي يُوزن هو الأعمال كما في حديث البطاقة، أما وزن صاحب العمل أو فاعله كما في حديث وزن الرجل السمين، فمعناه أنه لا يساوي عند الله شيئاً، كما قال تعالى: ﴿فَلَا تُقِيمُ هُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ وَزَنًا﴾ [الكهف: ١٠٥].

(١) من حديث أبي هريرة في البخاري (٦٤٠٦) ومسلم (٢٦٩٤) والترمذي (٣٤٦٧) والنسائي في «السنن الكبرى» (١٠٦٦٦) وابن ماجه (٣٨٠٦).

(٢) «صحيح سنن أبي داود» (٤٠١٤) والترمذي (٢٠٠٢) وابن حبان (٥٦٣٩)، والمسند (٢٧٥١٧) بإسناد صحيح ورجال ثقات وأخرجه الطيالسي (٩٧٨) وأبو داود (٤٧٩٩) والبخاري في الأدب المفرد (٢٧٠) وابن أبي عاصم في السنة (٧٨٣) وابن حبان (٣٨١).

(٣) من حديث أنس في «صحيح سنن الترمذي» (١٩٨١) و«مشكاة المصابيح» (٥٥٩٥). والمسند (١٢٨٢٥) قال محققوه: رجاله رجال الصحيح، ورقم الترمذي (٢٤٣٣).

وقد بيّنت الآيات أن الذين تُوزن أعمالهم فريقان؛ هما: المؤمنون العاملون للصالحات، فهم الذين تثقل موازينهم، وغير المسلمين تخف موازينهم، وبقي بعد ذلك فريق من المؤمنين ممّن خلطوا عملاً صالحاً وآخر سيئاً، تعرضت له آيات أخرى كآيات الأعراف.

٩- ﴿وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَٰئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ بِمَا كَانُوا بِآيَاتِنَا يَظْلِمُونَ﴾ (٩)

أي: ومن خفت موازينُ أعماله، وكثرت سيئاته ﴿فَأُولَٰئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ﴾ هذا هو الخسران الحقيقي، فقد أضاعوا حظّهم من رضوان الله تعالى، وفاتهم النعيم المقيم، وحصل لهم العذاب الأليم، وهو أعظم خسران، لا خسران مال، ولا خسران منصب، ولا وظيفة ولا جاه ولا ولد، إنما الخسران الأبدي المستمر هو ما يكون بسبب جحودهم لأدلة التوحيد، وعدم الانقياد لها، وتجاوزهم حدود الله تعالى بما كانوا يجحدون بآيات الله، ولعدم إيمانهم بها.

ورد أن أبا بكر الصديق ؓ قال في وصيته لعمر بن الخطاب ؓ حين حضرته الوفاة: إنما ثقلت موازين من ثقلت موازينه يوم القيامة باتباعهم الحق في الدنيا، وإنما خفت موازين من خفت موازينه يوم القيامة باتباعهم الباطل في الدنيا وخفته عليهم، وحُق لميزان يُوضع فيه الباطل غداً أن يكون خفيفاً، وحُق لميزان يُوضع فيه الحق غداً أن يكون ثقيلاً^(١).

ولا يوجد أثقل في ميزان العبد من كلمة التوحيد، حيث يطيش مقابلها كل باطل، والكافر لا إيمان له، حتى يعتبر معه عمل صالح، فلا يكون في ميزانه خيراً؛ وعلى هذا فإن من ثقلت موازينه قد أفلح ونجا وفاز بجنات نعيم، فهو في عيشة راضية، في جنة عالية، ومن خفت موازينه؛ فقد خاب وخسر وعُذّب في نار حامية ﴿وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَٰئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ فِي جَهَنَّمَ خَالِدُونَ﴾ (١٠) تَلَفَحَ وَجُوهُهُمُ النَّارَ وَهُمْ فِيهَا كَالْعِخْلِ ﴿١١﴾ [المؤمنون].

والإنسان لا يذكر أقرب الناس إليه يوم القيامة في ثلاثة مواطن: عند وزن الأعمال، وعند تطاير الصحف، وعند المرور على الصراط.

(١) «تفسير البغوي» والخازن للآية.

قِصَّةُ الْوُجُودِ الْبَشَرِيِّ

١٠- ﴿وَلَقَدْ مَكَنَّاكُمْ فِي الْأَرْضِ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعِيشٌ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ﴾ (١٠)

وبعد هذه المقدمة عن وجوب اتباع ما أنزل الله على رسوله، وبيان عقوبة من خالف أمر الله ورسوله في الدنيا والآخرة، يأتي التمهيد لقصة الوجود البشري بامتنان الله على عباده جميعاً أن خلقهم على وجه الأرض، وخلق عيشهم الذي به بقاء وجودهم إلى أجل معلوم، ومكن لهم في الأرض، وجعلها مقراً صالحاً لنشأته، فيها معاشه وأرزاقه، يحرثها ويزرعها ويبني فوقها ويتنفع بما فيها، فيخرج منها الأشجار والنبات، ومعادن الأرض، وأنواع الصناعات والتجارات.

فأنعم الله عليهم بأن خلق لهم الزروع والثمار وأنواع المأكّل والمشارب، وهياً لهم سبل العيش والكسب عن طريق الزراعة والصناعة والتجارة، وجعل لهم الأرض قراراً، فسخرها وذلّلها للسعي في منابها، والأكل من رزقه، قال تعالى: ﴿فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ إِلَى طَعَامِهِ﴾ (١٢) أَنَا صَبَبْنَا الْمَاءَ صَبًّا (٢٥) ثُمَّ شَقَقْنَا الْأَرْضَ شَقًّا (٢٦) فَأَبْنَا فِيهَا الْجَبَّ (٢٧) وَعَبَا وَقَضَا (٢٨) وَزَيَّنَّا (٢٩) وَخَلَلْنَا (٣٠) وَحَدَّاقْنَا غَلَبًا (٣١) وَفَكَهَهُ وَأَبَا (٣٢) مَنَعَا لَكُمْ وَلَاتَعْمِيَكُمْ (٣٣) [عبس] وقال سبحانه ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ ذَلُولًا فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِن رِّزْقِهِ وَإِلَيْهِ النُّشُورُ﴾ (٥٥) [الملك].

لقد امتنَّ الله عليكم - أيها البشر - فخلق لكم هذه الأرض، وجعلها مستقراً لكم، وهياًها للزراعة، وللعيش فوقها، وجعل مناخها يصلح لإقامة الإنسان فيها، بمقدار قربها وبعدها عن الشمس والقمر دون سائر الكواكب، فقد هياًها لكم لتشكروا نعم الله عليكم، فتوحده ولا تشركوا به شيئاً، ففيها وسائل لتحسين الأرزاق، وفيها الطاقات والقوى والأقوات، وفيها الزراعة والثمار والفاكهة وغير ذلك، ومع ذلك فـ ﴿قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ﴾ الله على منّه وكرمه ونعمه، قال تعالى: ﴿وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ الشَّاكِرُونَ﴾ [سبأ: ١٣]

وقال سبحانه: ﴿وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لَا تَحْصُوهَا﴾ [إبراهيم: ٣٤].

آدَمُ وَإِبْلِيسُ

١١- ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ (١) اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ لَمْ يَكُنْ مِنَ السَّاجِدِينَ ﴿١١﴾﴾

ثم تأتي قصة آدم وإبليس وحواء، وقد سبق في سورة البقرة شيء من هذه القصة؛ حيث خَلَقَ الله آدم من تراب، ثم صار التراب طينًا لازبًا، ثم صار الطين صلصالًا كالفخار، ثم نَفَخَ الله فيه من روحه، وصَوَّرَهُ في أحسن صورة، وجعله في أحسن تقويم، وبنو آدم تبعًا لأبيهم، فالذرية تبع للأب.

﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ﴾ أنعمنا عليكم بَخَلَقِ أَيْبكم آدم من العدم، وخلقنا المادة التي خرجتم منها ﴿ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ﴾ في أحسن صورة وأحسن تقويم أي: وَخَلَقَ الله الذرية من النطفة التي في أصلاب الرجال، وصَوَّرَهُم في أرحام النساء، وأخرجهم في هيئة مفضلة.

قال عكرمة والأعمش: المراد خلقناكم في ظهور الآباء، وصورناكم في أرحام النساء، ومن ذلك خَلَقَ مشاعر الإدراك والتدبير.

ولمَّا خَلَقَ الله تعالى آدم ﷺ، أَمَرَ مَنْ فِي الْمَلَأِ الْأَعْلَى مِنَ الْمَلَائِكَةِ، وَمَنْ يَسْكُنُونَ فِي زمرتهم (وهو إبليس) أن يسجدوا تكريمًا واحترامًا لهذا المخلوق العظيم الجديد سجودًا حقيقيًا؛ لأن الله تعالى هو الذي أَمَرَهُم به، فالسجود لله في الحقيقة، وليس لآدم، وكان آدم بمثابة القِبْلَةِ التي يتوجهون إليها، فامتلأوا أمر ربهم، وسجدوا كلهم إلا إبليس، فقد أبى أن يسجد تكبرًا وإعجابًا بنفسه.

وقد وَجَّهَ الله الأمر إلى الملائكة، وإبليس معهم؛ لأنه كان يقيم معهم في المَلَأِ الْأَعْلَى، فالأمر والخطاب مُوجَّهٌ إليه أيضًا.

أو أن المراد بالسجود سجود تحية وتعظيم بالانحناء، وليس سجودًا حقيقيًا، قيل هذا، وقيل هذا، ولكن الأولى أن يُؤخذ اللفظ على ظاهره، فالسجود لآدم، والله سبحانه هو

(١) قرأ أبو جعفر بخلف عن ابن وردان بضم التاء وصلًا من (للملائكة اسجدوا)، وقرأ الباقر بكسرها والوجه الثاني لابن وردان هو إشمام كسرة التاء للضم.

الذي أَمَرَ به، فهو سجود اعترافٍ لله تعالى بمظهر قدرته العظيمة في خَلْقِ آدَمَ أصل النوع البشري، ولم يمثل إبليسُ أمر الله تعالى مستندًا إلى أفضلية العنصر الذي خُلِقَ منه على العنصر الذي خُلِقَ منه آدم.

وإبليس مخلوق آخر، ليس من الملائكة في أصح القولين، ولكنه كان يقيم معهم، فامتنع من السجود حسدًا لآدم على هذا التكريم والتعظيم.

ومن دواعي السجود لآدم إظهارُ فضله بتعليم الله له أسماء المسميات التي لا تعلمها الملائكة.

واستثناء إبليس من الملائكة يدلُّ على أنه كان في عدادهم، وكان مختلطًا بهم، وقد خلق الله في إبليس جبلةً تدعوه وتدفعه إلى العصيان ومخالفة ما لا يوافق هواه، وقد ظهر هذا العصيان الكامن في نفسه لأول مرة حين دُعي إلى السجود لآدم مع الملائكة؛ فامتنع أشد الامتناع، وظهرت جبلة المخالفة لجبلة الملائكة.

وإبليس هو أصل الجن، والجن منهم المردة الطغاة؛ وهم الشياطين، ومنهم العفريت خفيف الحركة، ومنهم المؤمنون والكافرون والصالحون والطالحون.

ويدور حوار بين رب العالمين مع إبليس اللعين:

١٢- ﴿قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِن طِينٍ﴾

﴿قَالَ﴾ تعالى موبخًا ومنكرًا على إبليس ترك السجود، وعدم الامتثال لأمره تعالى: ﴿مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ﴾ أي شيء صدك وكفك ومنعك من امتثال الأمر؟ قال إبليس: منعتي فضلي عليه، أنا أفضل من آدم خَلَقًا؛ لأنني مخلوق من نار، وهو مخلوق من طين، والنار أشرف من الطين - على حدِّ زعمه - ولا يؤمر الفاضل بالسجود للمفضول، فكيف تأمرني بالسجود له؟

هذا: والأفضلية إنما تكون بحسب الطاعة وقبول الأمر، فالؤمن الحبشي خيرٌ من الكافر القرشي.

وقد خَلَقَ الله آدم من تراب، والملائكة خلقهم من نور، وإبليس خُلِقَ من مارج من نار.

في صحيح مسلم عن عائشة مرفوعًا: «خُلِقَتِ الملائكة من نور، وخُلِقَ الجان من مارج

من نار، وخلق آدم مما وُصِفَ لكم^(١)، وقد جاء هذا مصرِّحاً به في قوله تعالى: ﴿إِلَّا إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ﴾ [الكهف: ٥٠] ولو كان إبليس ملكاً من الملائكة ما عَصَى الله سبحانه طرفة عين؛ لأن الملائكة ﴿لَا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ [التحريم: ٦] فهو خلقٌ آخر.

لقد رأى إبليس أنه خلق من عنصر أفضل من العنصر الذي خلق منه آدم، رأى أنه خلق من نار، وأن النار أفضل من الطين الذي خلق منه آدم لعلو النار على الطين وصعودها في الهواء، والطين: هو التراب المختلط بالنار، والماء عنصرٌ آخر تتوقف عليه الحياة.

قال قتادة: حسد عدو الله إبليس آدم على ما أعطاه الله من الكرامة، وقال: أنا ناري، وهذا طيني، فكان من بدء الذنوب الكبير، استكبر عدو الله أن يسجد لآدم؛ فأهلكه الله بكرهه وحسده^(٢).

وقال أهل العلم: إبليس أول من قاس، حين قاس النار على الطين، وهو قياس فاسد؛ لأنه في مقابلة نص، والقياس إذا عارض النص فإنه قياس باطل لأن القياس يكون فيما لم يأت فيه نص، وما عبد الشمس والقمر إلا بالمقاييس، فمن قاس أمر الدين برأيه قرن يوم القيامة بإبليس، وفي قول إبليس ﴿أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ﴾ تقول على الله تعالى بلا علم، وفيه برهان على النقص وتكبر وإعجاب بالنفس.

والطين منافعه كثيرة، فوَقَّه يحيا الإنسان، ومنه خلق، ومنه يعيش، ومنه الزرع والثمر والفاكهة، وفيه الماء يجري، وهو متواضع يجري في جداول من الأرض، أما النار فهي مرتفعة إلى أعلى، ففيها صفة العلو والارتفاع، كما فعل إبليس، وللنار دُخَانٌ ولهيب وحريق ﴿قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ﴾ وهذه معصية صريحة ﴿خَلَقْنِي مِنْ نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ﴾ وهذا كذب في تفضيل مادة النار على مادة الطين والتراب، ففي الطين الخشوع والسكون والرزانة ومنه تخرج بركات الأرض من الأشجار والنبات على اختلاف أجناسه وأنواعه، أما النار ففيها الخفة والطيش والإحراق.

(١) مسلم (٢٢٩٤/٤) برقم (٢٩٩٦).

(٢) أخرجه عبد بن حميد، وابن المنذر، وابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن قتادة.

والسما والجنة مقرّ للمطيعين من الملائكة، وليست مقرّاً للعصاة، والمتكبر لا يسكن الجنة، والأرض هي التي يكون فيها الطاعة والمعصية، أما السماء فليس فيها إلا طاعة، ونتيجة لهذا العصيان فقد انحط إبليس من مرتبته العالية إلى أسفل السافلين. ويمضي الحوار ليبيّن عاقبة التكبر والعصيان:

١٣ - ﴿قَالَ فَاهْبِطْ مِنْهَا فَمَا يَكُونُ لَكَ أَنْ تَتَكَبَّرَ فِيهَا فَاخْرُجْ إِنَّكَ مِنَ الصَّاغِرِينَ﴾ (١٣)

وقد عاقب الله إبليس بإخراجه من المكان الذي كان فيه مع الملائكة، فإن الجنة لا مكان فيها لعاصٍ متكبرٍ، فهي دار الطيبين الطاهرين ولا تليق بالمتكبرين الخبثاء وقد طرد الله إبليس من الجنة مرة حين امتنع عن السجود لآدم، وأخرجه منها مرة ثانية حين أغوى آدم وحواء فأكلا من الشجرة، ويراد بالهبوط: النزول من مكان مرتفع، أو مجرد التحول من مكان إلى مكان قال تعالى: ﴿أَهْبِطُوا مِصْرًا﴾ [البقرة: ٦١].

﴿قَالَ﴾ الله تعالى لإبليس: ﴿فَاهْبِطْ مِنْهَا﴾ أي: من الجنة ﴿فَمَا يَكُونُ لَكَ أَنْ تَتَكَبَّرَ فِيهَا﴾ أي: في الجنة أو في السماء ﴿فَاخْرُجْ إِنَّكَ مِنَ الصَّاغِرِينَ﴾ أي: من الدليلين الحقيرين، لقد طرد الله سبحانه إبليس من سمائه، ومن جنته، ومن رحمته، وحقت عليه اللعنة، وكتب عليه الذل إلى يوم القيامة.

قال البغوي: جاء لإبليس ملكُ الأرض فأخرجه منها إلى جزر البحر، وعرشه في البحر الأخضر، فلا يدخل الأرض إلا خائفًا على هيئة السارق.

وقد طُرد إبليس من الجنة، وطُرد من رحمة الله، وحُقت عليه اللعنة، وكتب عليه الصغار والذل؛ عقوبة استكباره عن السجود، وذلك أن الله تعالى قد عامل إبليس بنقيض قصده، حيث كان قصده التعاضم والتكبر، فأخرجه الله صاغراً حقيراً ذليلاً متصفاً بنقيض ما كان يحاوله من العلو والعظمة، كما قال تعالى: ﴿أَخْرَجَ مِنْهَا مَذْمُومًا مَذْحُورًا﴾ [الأعراف: ١٨].

والمتكبر لا يحصل له ما أراد من العظمة والرفعة، قال تعالى: ﴿إِنْ فِي صُدُورِهِمْ إِلَّا كِبْرٌ مَّا هُمْ بِيَلْفِيهِ﴾ [غافر: ٥٦]

ومن عواقب الكبر أنه يصرف صاحبه عن فهم آيات الله والاهتداء بها، قال تعالى: ﴿سَاصْرِفْ عَنْ عَائِلَتِي الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَإِنْ يَرَوْا كَلَّاءَةً لَا يُؤْمِنُوا بِهَا

وَأِنْ يَرَوْا سَبِيلَ الرُّشْدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا وَإِنْ يَكُرُّوا سَبِيلَ الْغَيِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا عَنْهَا غَافِلِينَ ﴿٤٦﴾ [الأعراف]

والمتكبر لا يحبه الله ﴿إِنَّهُمْ لَا يُحِبُّ الْمُسْتَكْبِرِينَ﴾ [النحل: ٢٣].

والكبر من أسباب دخول النار والإقامة فيها، قال تعالى: ﴿الَّذِينَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْمُتَكَبِّرِينَ﴾ [الزمر: ٦٠] وقد نهى الله عن الكبر في كلِّ زمان ومكان؛ لأن فيه منازعة لله تعالى في صفة من صفاته، كما قال تعالى في الحديث القدسي: «الكبرياء ردائي، والعظمة إزاري، فمن نازعني واحداً منهما قصمته ولا أبالي»^(١).

ولما أعلن إبليس عداوته لله تعالى ولآدم وذريته سأل الله النظرة والإمهال إلى يوم البعث ليتمكن من إغواء ما يقدر عليه من بني آدم.

١٤، ١٥- ﴿قَالَ رَبِّ فَأَنْظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾ ﴿٣٦﴾ قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ الْمُنْظَرِينَ ﴿٣٧﴾

حَقَّقَ إبليسُ على آدم؛ لأنه كان السبب في هبوطه من الجنة، فطلب من ربِّه أن يمهله عمره إلى يوم البعث، فقد عَلِمَ أن الموت ينقطع بالبعث؛ بحيث يتخطى فترة الموت فلا يموت ويبقى إلى يوم البعث؛ أي: إلى النفخة الثانية التي يقوم فيها العباد لربِّ العالمين، طلب ذلك لَمَّا يئس من رحمة الله؛ ليتمكن من إغراء مَنْ يقدر عليه من بني آدم.

ولمَّا كانت حكمة الله تعالى تقتضي ابتلاء العباد، ليتبين الصادق من الكاذب، والطائع من العاصي، حتى تُحصى الملائكة أعمال العباد.

لما كان الأمر كذلك: أجاب الله سؤاله، ولكن هذا الإنظار وهذا الإمهال، ليس إلى النفخة الثانية، وإنما إلى النفخة الأولى نفخة الصعق، حيث يموت الخلقُ أجمعون، ويموت إبليس معهم كما قال تعالى: ﴿إِلَى يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ﴾ ﴿١٧٨﴾ [الحجر: وص: ٨١] حيث تموت يا إبليس كما يموت سائر الخلق؛ أي: إنك ممَّنْ كتبَ عليهم تأخير الأجل

(١) حديث قدسي عن أبي هريرة عن رسول الله ﷺ في «المسند» برقم (٩٥٠٨) حديث صحيح وإسناد حسن، وانظر (٧٣٨٢) وأخرجه الحميدي (١١٤٩) والبخاري في الأدب المفرد (٥٥٢٩) ومسلم (٢٦٢٠)، وهو في «صحيح سنن أبي داود» (٣٤٤٦) وفي أبي داود (٤٠٩٠) و«صحيح سنن ابن ماجه» (٤١٧٤) وغيرهم.

إلى النفخة الأولى في الصور إذ يموت الخلقُ أجمعون.

وقول الله تعالى له: ﴿إِنَّكَ مِنَ الْمُنْظَرِينَ﴾ يفيد أن إنظار إبليس أمرٌ قد قضاه الله تعالى وقدره من قَبْلُ سؤاله، وأنه من جملة المنظرين قبل حدوث المعصية منه، فقد خلق الله تعالى خلقًا وقَدَّر في الأزل بقاءهم إلى هذا اليوم، ويدلُّ على ذلك أن الله تعالى لم يجب إبليس بقوله: (أنظرتك) أو (أجبتك) ولكن أعلمه أن سؤاله تحصيلٌ حاصل، وأنه قد سأل أمرًا محققًا.

أخرج الطبري بسند حسن عن السدي: فلم ينظره إلى يوم البعث، ولكن أنظره إلى يوم الوقت المعلوم؛ وهو يوم النفخ في الصور النفخة الأولى، فصعق مَنْ في السموات وَمَنْ في الأرض فماتوا جميعًا.

إِبْلِيسُ يَقْعُدُ لِابْنِ آدَمَ بِكُلِّ طَرِيقٍ

١٦- ﴿قَالَ فِيمَا آغَايَيْتَ لِأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ^(١) الْمُسْتَقِيمَ﴾

أخذ إبليس على نفسه عهدًا هو وقبيله في هذه المدة الطويلة أن يغوي ابن آدم، وأن يضله، وأن يقعد له في كلِّ طريق يوصلُه إلى الجنة، ويعرقله عن سبيل النجاة، وعن الوصول إلى الفوز والفلاح، وأن يسعى جاهدًا في صد الناس عن صراط الله المستقيم، ومنعهم من سلوكه.

وقد أخذ إبليسُ هذا العهد على نفسه بعدما أعلمه الله تعالى أنه سيبقى إلى وقت النفخ الأول في الصور، قال: فبسبب ما أضللتني لأجتهدنَّ في إغواء بني آدم، وإخراجهم عن طريقك القويم، ولأصدنَّهم عن الإسلام الذي فطرْتهم عليه.

عن سيرة بن أبي فاكِه قال: سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: «إن الشيطان قعد لابن آدم بأطرقه، فقعد له بطريق الإسلام، فقال: أْتُسَلِّم وتذر دينك ودين آبائك؟ قال: فعصاه وأسلم، قال: وقعد له بطريق الهجرة، فقال: أتهاجر وتدع أرضك وسماءك وإنما مثل المهاجر كالفرس في الطَّوْلِ؟ فعصاه وهاجر، ثم قعد له بطريق الجهاد (وهو جهاد النفس

(١) قرأ قبل ورويس بالسين في (صراطك)، وأشمها صوت الزاي خلف عن حمزة، وقرأها بالصاد الخالصة الباكون.

والمال) فقال: تجاهد فهو جهد النفس والمال، فتقاتل فتُقتل، فتُنكح المرأة ويُقسَم المال؟ قال: فعصاه وجاهد» فقال رسول الله ﷺ: «فمن فعل ذلك كان حقاً على الله أن يدخله الجنة، ومن قتل كان حقاً على الله أن يدخله الجنة، وإن غرق كان حقاً على الله أن يدخله الجنة، أو وقصته دابته كان حقاً على الله أن يدخله الجنة»^(١).

وإغواء الشيطان: وسوسته وتزيينه الباطل والعمل على اكتساب المآثم، وقد دلَّ هذا على أن الله تعالى خلق في نفس إبليس مقدرةً على إغواء الناس، وأنه جعله باقياً متصرفاً بقواه الشريرة إلى انتهاء الدنيا، وقد علم إبليس أنه سيكون داعيةً ضلال وكفر، فصدر منه هذا القول، وفي قوله تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي أَغْوَيْتَنِي لَأَزِيَنَّ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَلَا أُغَيَّرَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [الحجر: ٣٩] إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ ﴿٤٠﴾ [الحجر: ٤٠] تصريحاً بأنه يريد إغواء أهل الأرض كلهم؛ لأن الله تعالى قال: ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ [البقرة: ٣٠].

وقد علم إبليس أن الله تعالى خلق في ابن آدم استعداداً فطرياً لقبول الخير والشر، فأراد أن يستغل جانب الشر في الإنسان، وكان عدواً له بسبب هذا، وقد أفصح الله تعالى عن هذه العداوة في قوله: ﴿بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ﴾ [البقرة: ٣٦]

وهذه العداوة تنقلب إلى ولاية بينه وبين من يستحب الضلال والكفر على الإيمان والصلاح ﴿إِنَّمَا ذَلِكَ الشَّيْطَانُ يَخُوفُ أَوْلِيَاءَهُ فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُوا اللَّهَ إِن كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ [آل عمران: ١٧٥].

١٧ - ﴿ثُمَّ لَآتِيَنَّهُمْ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ^(٢) وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَنِهِمْ وَعَنْ شَمَائِلِهِمْ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ﴾ [١٧] ثم أخبر إبليس أنه أخذ على نفسه عهداً أن يأتي البشر من كل جهة؛ ليحول بينهم وبين الإيمان والطاعة، فيأتيهم من جميع الجهات والجوانب، ومن كل طريق يتمكن فيه من إدراك مقصوده فيهم، ويصدّهم عن الحق، ويزين لهم الباطل، ويرغبهم في الدنيا، ويشككهم في الآخرة، ويجعل أكثرهم غير شاكرين لنعم الله تعالى عليهم.

(١) الحديث في «المسند» (٤٨٣/٣) برقم (١٥٩٥٨) بسند قوي، وأخرجه ابن أبي شيبة (٢٩٣/٥) والبيهقي في الشعب (٤٢٤٦)، وهو عند النسائي (٢١/٦) والطبراني في الكبير برقم (٦٥٥٨) وابن حبان برقم (٤٥٩٣) قال محقق الإحسان لابن حبان: إسناده قوي، وصححه الألباني في «صحيح سنن النسائي» برقم (٢٩٣٧).

(٢) ضم يعقوب الهاء من (أيديهم) وكسرها غيره من القراء.

قيل: يأتيهم من بين أيديهم: أي فيما بقي من أعمارهم، فلا يقدمون فيه طاعة.
ومن خلفهم: أي فيما مضى من أعمارهم، فلا يتوبون ممّا أسلفوا فيه من معاصي.
وعن أيّمانهم: أي من قبل الغنى، فلا ينفقون ولا يشكرون، ومن خلفهم: أي من قبل
الفقر، فلا يمتنعون فيه من محظور ارتكبه.

وقال شقيق البلخي: ما من صباح إلا ويأتي الشيطان من الجهات الأربع، من بين يدي،
ومن خلفي، وعن يميني، وعن شمالي:

أما من بين يدي فيقول: لا تخف فإن الله غفور رحيم، فأقرأ: ﴿وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِّمَن تَابَ
وَأَمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا ثُمَّ اهْتَدَىٰ﴾ [طه]

وأما من خلفي فيخوفني من وقوع أولادي في الفقر، فأقرأ: ﴿وَمَا مِن دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا
عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا﴾ [هود: ٦]

وأما من قبل يميني فيأتيني من جهة الشئ، فأقرأ ﴿وَالْعِيقَةُ لِّلْمُنْفِقِ﴾ [الأعراف: ١٢٨]

وأما من قبل شمالي فيأتيني من الشهوات، فأقرأ: ﴿وَجِلَّ بَيْنَهُم وَبَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ﴾ [سبأ: ٥٤].

هذا، والإنسان مع الشيطان ليس مغلوباً على أمره، وإنما هو مخدوع خداعاً كبيراً،
أو مستغفل مغرر به، إن الشيطان يوسوس للإنسان مجرد وسوسة فحسب، كأنه يملك
إذاعة ذات أمواج طويلة أو قصيرة، والإنسان يستطيع أن يسمع أو لا يسمع، ومن ضبط
جهازه على محطة إرسال معينة، سمع ما يريد، وإلا فهو ليس بمنجى ممّا يقال فيها،
وليس للشيطان قدرة إلا على البث، ولا يقدر على الإضلال بالقوة، ولا ينبغي
على الإنسان أن ينسى ما وقع لأبيه آدم عندما طُرد من الجنة، ولا يبالي من تكرار
المأساة، إن الشيطان أفكّ خداع، واللوم لا يوجّه إليه، إنما يوجه إلى من انخدع به،
ووقع في مصيدته.

عن ابن جبير بن مُطعم رحمته الله أنه سمع عبد الله بن عمر رضي الله عنهما يقول: لم يكن رسول الله يدع
هؤلاء الدعوات حين يصبح وحين يمسي: «اللهم إني أسألك العافية في الدنيا والآخرة،
اللهم إني أسألك العفو والعافية في ديني ودنياي وأهلي ومالي، اللهم استر عوراتي، وآمن
روعاتي، اللهم احفظني من بين يدي ومن خلفي، وعن يميني وعن شمالي ومن فوقي،

وأعوذ بعظمتك أن أغتال من تحتي» قال وكيع: يعني الخسف^(١).

وأخرج الطبري بسند حسن عن قتادة في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ لَآتِيَنَّهُمْ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ﴾ قال: أتاهم من بين أيديهم؛ فأخبرهم أنه لا بعث ولا جنة ولا نار ﴿وَمِنْ خَلْفِهِمْ﴾ من أمر الدنيا؛ فزينها لهم ودعاهم إليها ﴿وَعَنْ أَيْمَنِهِمْ﴾ من قبل حسناتهم بطأهم عنها ﴿وَعَنْ شَمَائِلِهِمْ﴾ زين لهم السيئات والمعاصي ودعاهم إليها وأمرهم بها، أتاك يابن آدم من كل جهة، غير أنه لم يأتك من فوقك، لم يستطع أن يحول بينك وبين رحمة الله، وقد عَلِمَ الشيطان أن الله من فوقهم، وأن الرحمة تَنْزِلُ من فوقهم.

فالمعنى:

١- أن الذي بين أيديهم هو الأمام؛ يعني: يوم القيامة والدار الآخرة، أشككهم في البعث والحساب والجزاء، والجنة والنار.

٢- والذي خَلَفَهُمْ هو الدنيا، أُرْغَبَهُمْ وأُحِبَّهُمْ فيها.

٣- والذي من جهة اليمين هو الحسنات، فأبطأَهُمْ عنها، وأجعلهم يتكاسلون ويعزفون عن اكتسابها والرغبة فيها.

٤- والذي من جهة الشمال هو السيئات، فأرغَبَهُمْ في المعاصي، وأزين لهم الشهوات والشبهات؛ فيرتكبون المعاصي والذنوب، ولكن الشيطان ليس بإمكانه أن يحجبهم من رحمة الله سبحانه، فلا يأتي من فوقهم، إنما يأتي من هذه الجهات الأربع.

قال الطبري: لَآتِيَنَّهُمْ من جميع وجوه الحق والباطل، فأصدهم عن الحق، وأَحَسَّنُ لَهُمُ الباطل.

قال ابن عباس: ولا يستطيع أن يأتي من فوقهم؛ لثلا يحول بين العبد وبين رحمة الله^(٢).

وقد ذَكَرَ إبليس أنه سيوقع بني آدم فيما قاله ظناً منه أنهم سيطيعونه فيما يدعوههم إليه حتى يهلكهم، وقد بَيَّنَّ سبحانه أن ظَنَّهُ صَدَقَ فيهم، كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ صَدَقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُ فَاتَّبَعُوهُ إِلَّا فَرِيقًا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [سبأ].

فجعل أكثر العالم كَفَرَةً، وَبَيَّنَّ ذلك قولُ النبي ﷺ فيما يرويه عن ربه: «يقول الله تعالى

(١) «المسند» (٢٥/٢) برقم (٤٧٨٥) إسناده صحيح ورجاله ثقات و«سنن أبي داود» برقم (٥٠٧٤) والنسائي

(٢٨٢/٨) برقم (٥٥٤٥) وابن ماجه برقم (٣٨٧١) و«المستدرک» (٥١٧/١) وابن حبان (١٥٥/٢) برقم

(٩٦١) و«صحيح سنن أبي داود» (٤٢٣٩) وصحيح ابن ماجه (٣١٢١) وابن أبي شيبة (٢٤٠/١٠)

والبخاري في الأدب المفرد (١٢٠٠).

(٢) «تفسير الطبري» (٣٤١/١٢).

يوم القيامة: يا آدم، أخرج بعث النار، فيقول: يا رب، وما بعث النار؟ فيقول: من كل ألف تسع مئة وتسعة وتسعين، وواحدًا إلى الجنة»^(١).

وقال ﷺ عن أمته فيما يرويه أبو سعيد رضي الله عنه: «ما أنتم يومئذ في الأمم إلا كالشعرة البيضاء في الثور الأسود»^(٢).

وهكذا يحاول الشيطان بكل وسيلة يتوصل بها إلى إغواء بني آدم كهيئة الباحث الحريص على أخذ العدو، يأتيه من كل جهة حتى يصادف الجهة التي يتمكن فيها من أخذه بعد أن تخور قواه ومدافعته، وليس للشيطان مسلك للإنسان إلا من قبل نفسه وعقله بإلقاء الوسوسة في نفسه، وقد نبهنا الله على ذلك لنأخذ حذرنا ونستعد لعدونا، ونبتعد عن الطرق التي يأتينا منها، ونسد عليه منافذه ومدخله.

وقد اقتضت حكمة الله تعالى أن يشق الإنسان طريقه إلى الخير أو الشر، بما أودع فيه من عقل مرجح، وما أمده به من التذكير والتحذير عن طريق الرسل، وكثيرًا ما حذرنا سبحانه من كيد الشيطان في مثل قوله تعالى: ﴿إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا إِنَّمَا يَدْعُو حِزْبَهُ لِيَكُونُوا مِنْ أَصْحَابِ السَّعِيرِ﴾ [فاطر].

وكان الله سبحانه قال لإبليس: مَنْ استطعت أن تغويه من بني آدم فافعل، أما عبادي المخلصون، أصحاب العقيدة الصحيحة، والإيمان الراسخ القوي -فليس لك عليهم سلطان، لا تستطيع أن تفعل معهم شيئًا ﴿إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ﴾ أما مَنْ اتبعك من الغاوين؛ فمأواهم النار وبئس المصير ﴿إِلَّا مَنْ اتَّبَعَكَ مِنَ الْغَاوِينَ﴾ (٤٣) وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمَوْعِدُهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿[الحجر]﴾، بعد ذلك جاء الأمر من الله تعالى إلى إبليس بالخروج من الجنة، وتوعده الله ومن تبعه من بني آدم بعذاب جهنم وبئس المصير.

١٨ - ﴿قَالَ أَخْرَجْ مِنْهَا مَذْمُومًا مَذْمُورًا لَمَنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنْكُمْ أَجْمَعِينَ﴾ (٧)

ثم أمر الله تعالى إبليس بالخروج من الجنة مرة ثانية؛ تأكيدًا للأمر السابق في الآية

(١) من حديث أبي هريرة في البخاري (٣٣٤٨، ٤٧٤١، ٦٥٣٠، ٧٤٨٣) ومسلم (٢٢٢).

(٢) أخرجه مسلم (٢٢٢، ٣٨٠) والبخاري في صحيحه (٣٣٤٨، ٤٧٤١) من حديث طويل عن أبي سعيد

الخدري وهو في «المسند» (١١٢٨٤) والنسائي في الكبرى (١١٣٣٩).

الثالثة عشرة: ﴿قَالَ فَاهْبِطْ مِنْهَا﴾ وهنا ﴿قَالَ﴾ الله تعالى لإبليس: ﴿أَخْرِجْ مِنْهَا﴾ أي: من الجنة ممقوتاً مطروداً؛ بسبب مخالفتك وعصيانك لأمرى، ثم أقسم سبحانه على ملء جهنم منه وممن تبعه، وهذا قسم من الله تعالى أن النار دار العصاة، لا بد أن يملأها من إبليس وأتباعه من الجن والإنس، فقال: ﴿لَمَنْ يَبْعَكَ مِنْهُمْ﴾ أي: أقسم لك ولمن أطاع من الإنس والجن ﴿لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنْكُمْ أَجْمَعِينَ﴾ أي: منك ومنهم، وفي الآية قسم من الله تعالى أن النار دار العصاة، لا بد أن يملأها من إبليس وأتباعه من الجن والإنس، وهذا كقوله تعالى: ﴿قَالَ أَذْهَبَ فَمَنْ يَبْعَكَ مِنْهُمْ فَإِنَّ جَهَنَّمَ جَزَاءُكُمْ جَزَاءً مَوْفُورًا﴾ [الإسراء: ٦٣]. واللام في ﴿لَمَنْ يَبْعَكَ﴾ موطئة للقسم، وهي شرطية، واللام في ﴿لَأَمْلَأَنَّ﴾ جواب القسم، والجواب سد مسدّد جواب الشرط.

آدَمُ وَحَوَاءُ يَأْكُلَانِ مِنَ الشَّجَرَةِ

١٩ - ﴿وَبَدَأُكُمْ أَشْكَنَ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ فَكُلَا مِنْ حَيْثُ شِئْتُمَا^(١) وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ أي: قال الله تعالى لإبليس: اخرج من الجنة مذؤومًا مدحورًا، وقال لآدم محدرا من شره وفتنته: ﴿وَبَدَأُكُمْ أَشْكَنَ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ﴾ وهذا العطف لبعض الكلام على بعض كقوله تعالى: ﴿يُوسُفُ أَعْرِضْ عَنْ هَذَا وَاسْتَغْفِرِي لِذَنْبِكِ﴾ [يوسف: ٢٩] هبط إبليس من الجنة، وهذه الجنة في الأرض، كما يقول أبو مسلم الأصفهاني، وكما يرى جمهور المعتزلة أنها بستان بمكان مرتفع من الأرض، قيل: بالعراق أو فلسطين، خلقه الله لإسكان آدم وحواء؟

وجمهور أهل السنة على أن المراد بها دار الثواب والعقاب التي أعدّها الله للمؤمنين يوم القيامة، وأنها في السماء؟ ثم أهي جنة السلام، أم هي جنة الخلد؟ الله أعلم، وما يقال في ذلك ليس عليه دليل، ولا يصل الإنسان فيه إلى حقيقة، وإنما أخبر الله تعالى أن آدم هبط من الجنة، والجنة حين تُطلق فهي التي في السماء.

وبعد هبوط إبليس من الجنة، وجّه الله سبحانه الخطاب إلى آدم، وأمره أن يأكل هو وزوجه حواء مما في الجنة، فقال لهما: كلا من ثمارها حيث شئتما، ولا تأكلا من ثمر شجرة معينة، فإن فعلتما كنتما من المتجاوزين لحدود الله، ولكن الله ﷻ يُعِدُّ آدم لمهمة،

(١) قرأ أبو عمرو بخلف عنه وأبو جعفر بإبدال الهمزة ياء من (شئتما) وحمزة عند الوقف، وحققها الآخرون.

هذه المهمة هي مهمة الخلافة في الأرض، وآدم خَلَقَ متميز هو وذريته، فهو ليس بحيوان، وليس بملك، إنما هو خلق أودع الله فيه استعدادًا للخير والشر، وأودع فيه عقلاً مُرَجَّحًا، وأرسل له الرسل يبينون له الخير والشر، والهدى والضلال، وأنزل عليه الكتب، وجعله يختار طريقه بنفسه، فهو غير مجبرٍ على الطاعة كالملائكة، وغير مسؤول عن تصرفاته كالحيوان، ولذلك كان هذا الابتلاء هو الأول بالنسبة لآدم حين نهاه ربه عن أول محظور، من باب التعليم والتدريب، فأمره أن يأكل من جميع الأشجار إلا من هذه الشجرة؛ ليتعلم امتثال الأمر واجتناب النهي.

والمهمة التي سيقوم بها آدم في الأرض هي أوامر ونواهٍ يقوم بها، وهذا أول امتحان فيها؛ وذلك لإعداد للخلافة والمهمة التي سيقوم بها الإنسان في الأرض، فالمنع من الشجرة ليس مقصودًا لذاته، إنما ليتعلم منه بنو آدم الوقوف عند حدود معينة وعدم تجاوزها، وأنهم إن فعلوا ذلك عوقبوا على مخالفتهم، كما يقطع الإنسان الإشارة الحمراء ويعاقب عليها، ويسبب إضرارًا للآخرين.

لقد عَيَّنَ الله ﷻ شجرة معينة، أو نوعًا معينًا من الشجر، ما اسم هذه الشجرة؟ الله أعلم، لو أراد الله ذِكْرَهَا في القرآن لَذَكَرَهَا، هل هي شجرة الحنطة (السنبلة)؟ أو غير ذلك - ليس هناك من ضرورة لمعرفة اسمها - لا تأكلا من هذه الشجرة، فقد نهاهما ربهما أن يأكلا من شجرة معينة، وقد جاءت الآية التي في سورة البقرة بالواو ﴿وَقُلْنَا يَتَّكِدُمْ أَشْكَنَ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ وَكُلَا﴾ [البقرة: ٣٥] والتي هنا جاءت بالفاء ﴿فَكُلَا﴾ والعطف بالواو أعم.

وذلك أن هذه الآية أفادت أن يتمتع آدم بالأكل من ثمار الجنة عقب الأمر بالسكنى فيها، وهي منة عاجلة لآدم وزيادة تنغيص لإبليس؛ لأن هذا كان في حضرته، فافتضى المقام إعلام السامعين بغضب الله تعالى على إبليس وطرده من الجنة، أما آية البقرة فقد أفادت السامعين أن الله تعالى امتن على آدم بسكنى الجنة والتمتع بثمارها.

والمقام هناك مقامٌ تذكيرٍ لبني إسرائيل بفضل آدم وبذنبه وتوبته، وزادت آية البقرة كلمة ﴿وَقُلْنَا﴾ لإفادة زيادة التكريم لآدم؛ فحصل من مجموع الآيتين عدة مكارم لآدم موزعة على الآيتين^(١).

(١) ينظر: «تفسير التحرير والتنوير» (٥٤/٨).

ولم يزل آدم وحواء ممثلين لأمر الله تعالى حتى تغلغل إبليس إليهما فخدعهما ووسوس إليهما بالأكل من الشجرة.

ولمّا ظهر من آدم المخالفة بالأكل من الشجرة المنهي عنها أعقب ذلك شعور آدم بما فيه من نقائص وعيوب، وذلك بانكشاف عورته وظهور شهوته له:

٢٠، ٢١- ﴿فَوَسَّوَسَ لَهُمَا الشَّيْطَانُ لِيُبْدِيَ لَهُمَا مَا وُورِيَ عَنْهُمَا مِنْ سَوْآتِهِمَا وَقَالَ مَا نَهَاكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَذِهِ الشَّجَرَةِ إِلَّا أَنْ تَكُونَا مَلَكَائِينَ أَوْ تَكُونَا خَالِدِينَ ﴿٢٠﴾ وَقَاسَمَهُمَا إِنِّي لَكُمَا لَنَاصِحٌ ﴿٢١﴾﴾

وهنا جاء دور إبليس يريد من آدم أن ينزل من الجنة، إذ كيف يُنعم آدم؟ وإبليس قد حقت عليه اللعنة، وطُرد من رحمة الله، فليهبط آدم وحواء من الجنة كما هبط منها إبليس، وسوس لهما الشيطان بأن ألقى في قلبيهما كلاماً خفياً؛ لإيقاعهما في معصية الله بالأكل من الشجرة التي نُهي عن الأكل منها؛ لتكون العاقبة انكشاف ما ستر من عوراتهما، وقال لهما وهو يمكر بهما، مركّزاً على نقطة الضعف فيهما، ومنتقلاً من الوسوسة إلى الخداع: ﴿مَا نَهَاكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَذِهِ الشَّجَرَةِ﴾.

ثم بيّن سبحانه علة النهي على لسان إبليس فقال: ﴿إِلَّا أَنْ تَكُونَا مَلَكَائِينَ أَوْ تَكُونَا خَالِدِينَ﴾ أي:

١- لكيلا تكونا ملكين من جنس الملائكة؛ لطول أعمارهم، وإطلاعهم على ما لم يعلمه الإنسان، مما أطلعهم الله عليه كالخير والشر.

٢- أو تكونا من الخالدين في هذه الحياة، كما قال تعالى ﴿قَالَ يَتَكَاذِبُونَ هَلْ أَتَاكَ عَلَى شَجَرَةِ الْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَّا يَبْلَى﴾ [طه: ١٢٠]

وكان آدم وزوجه قد شاهدا تفضيل الملائكة، فأطمعهما إبليس أن يصيرا من الملائكة إذا أكلا من الشجرة، فالأكل من الشجرة يكون ملكاً وخالداً - كما يزعم - فجعل النهي عن الأكل من الشجرة لا يعدو أحد هذين الأمرين، وكان هذا قبل نبوة آدم ﷺ، وقرئ ﴿مَلَكَائِينَ﴾ بفتح اللام^(١) أي: أن يكون لكما خصائص الملائكة؛ من القوة والبطش والبقاء والخلود، وقرئ بكسر اللام (ملكين)^(٢) من الملك والجاه والنفوذ والعمر الطويل، ونظير

(١) وهي القراءة المتواترة للقراء العشرة.

(٢) وبها قرأ ابن عباس ويحيى بن كثير والضحاك كما في «تفسير ابن عطية» (٢/ ٣٨٥) وهي قراءة شاذة.

هذه الآية، قوله تعالى: ﴿فَوَسَّوَسَ إِلَيْهِ الشَّيْطَانُ قَالَ يَنَادِمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَى شَجَرَةِ الْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَّا يَبْلَىٰ﴾ [طه].

ولم يكتفِ إبليس بالوسوسة لآدم وحواء، ولم يكتفِ بخداعه لهما في القول، فأضاف إلى ذلك القسم المؤكد أنه يسعى في نفعهما وأنه مخلص لهما، فحلف لهما بما يؤهم صدقته، وآدم أول مخلوق لا يعرف الكذب ولم يسمع به، ولا يتصور أن مخلوقاً يحلف بالله كذباً، ومن حلف كاذباً فإن عقابه عند رب العالمين، وقد أقسم الشيطان لهما رأى من آدم أنه غرر به، وأنه متبع لمشورته هو وحواء، أقسم لهما ﴿إِنِّي لَكُمَا لَئِن التَّصَّيْتُ﴾ قال: إني خلقت قبلكما، وأنا أعلم منكما فاتبعاني أرشدكما.

اغتر آدم بهذا القسم، وظن أن إبليس صادق، وكان ذلك قبل أن يُوحى إلى آدم؛ أي: قبل النبوة؛ لأن الله تعالى قال عنه بعد ذلك: ﴿ثُمَّ أَجَبْنَاهُ رَبُّهُ فَقَابَ عَلَيْهِ وَهَدَىٰ﴾ [طه] يعني: بعد الأكل من الشجرة، وبعد وقوع هذه المخالفة المرادة لله سبحانه؛ لتعمير الأرض وسكناها. قال تعالى:

٢٢- ﴿فَدَلَّهُمَا بِغُرُورٍ فَلَمَّا ذَاقَا الشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُمَا سَوْءُهُمَا وَطَفَفَا بِخُصْفَانٍ عَلَيْهِمَا^(١)﴾ من وَرَقِ الْجَنَّةِ وَنَادَاهُمَا رَبُّهُمَا أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَنْ تِلْكَ الشَّجَرَةِ وَأَقُلْ لَكُمَا إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٢٢﴾

ونجح إبليس في خداع آدم وحواء؛ فأنزلهما من رتبة الطاعة إلى رتبة المعصية ﴿فَدَلَّهُمَا بِغُرُورٍ﴾ أي: أغواهما الشيطان فغرهما بقوله، وخدعهما بمكره، وأوقعهما في الطمع؛ ففساداً بدافع الشهوة، وأكلا من الشجرة، وفعلاً ما وسوس به لهما، وخالفاً ما أمرا به ﴿فَلَمَّا ذَاقَا الشَّجَرَةَ﴾ نتج عن المعصية وارتكاب الخطيئة أن ظهرت لهما العورة بعد أن كانت مستورة، وهذا درس يتعلم منه الإنسان وبأل المعصية وآثارها عليه حيث ﴿بَدَتْ لَهُمَا سَوْءُهُمَا﴾ بعد ما كانت مستورة، وكان ذلك بسبب أن تعرية الباطن من التقوى يترتب عليه تعرية الظاهر من اللباس.

و السوءة: هي العورة، قيل: كان آدم طويلاً طول نخلة، وكان شعره كثيراً وكثيفاً،

(١) ضم يعقوب الهاء من (عليهما)، وكسرهما الباقون.

وكان لا يرى عورته، ولا عورة حواء، وحواء كذلك لا ترى عورتها، ولا عورة آدم، وكان يكسوهما نورٌ من الله سبحانه، وهذا النور يحجب رؤية العورة، فلما أكلا من الشجرة بدت لهما سواتهما؛ أي: انحسر هذا النور، وكُشفت العورة؛ جزاء ارتكاب الخطيئة^(١).

ولما ظهرت لهما العورة أصابهما الخجل، وأخذوا يسترانها بأوراق شجر الجنة.

﴿وَطَفِقَا﴾ أي: أخذَا ﴿يَخْصِفَانِ﴾ أي: يلزقان ويلصقان ويضعان ﴿عَلَيْهِمَا مِنْ وَرَقِ الْجَنَّةِ﴾ قيل: إنه ورق شجر التين، أو غير ذلك ﴿وَنَادَاهُمَا رَبُّهُمَا﴾ نداء وحي بواسطة ملك قال لهما: ﴿أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَنْ تِلْكَ الشَّجَرَةِ وَأَقُلْ لَكُمَا إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُبِينٌ﴾ ظاهر العداوة، قال تعالى: ﴿فَقُلْنَا يَتَادُمُ إِنَّ هَذَا عَدُوٌّ لَكَ وَلِرَوْحِكَ فَلَا يُخْرِجُكُمَا مِنَ الْجَنَّةِ فَتَشْقَى﴾ [طه]. ثم امتن الله على آدم وحواء بالتوبة وقبولها فاعترفا بالذنب وسألا الله المغفرة:

٢٣- ﴿قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنْفُسَنَا وَإِنْ لَمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾

التمس آدم وحواء من ربهما الصفح والمغفرة، وإذا كان إبليس قد سأل ربه النظرة، فإن آدم سأل ربه التوبة، وشأن الإنسان أن يرجع ويتوب إلى الله سبحانه، إذا وقع في ذنب أو ألم بخطيئة فإنه يعترف ويندم كما قال آدم وحواء: ﴿رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنْفُسَنَا﴾ هذا الكلام هو الموحى به إلى آدم في قوله تعالى: ﴿فَلَقَىٰ آدَمُ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَتٍ فَلَبَّ عَلَيْهِ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾ [البقرة]

هذه الكلمات هي: ﴿قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنْفُسَنَا﴾ بالأكل من الشجرة ﴿وَإِنْ لَمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ الذين أضاعوا عواطفهم في الدنيا والآخرة، وقد غفر لهما وقبل توبتهما كما قال تعالى: ﴿ثُمَّ أَجَبْنَاهُ رَبُّهُ فَقَابَ عَلَيْهِ وَهَدَىٰ﴾ [طه: ١١٢]

وعن ابن عباس ؓ قال: لما أكل آدم من الشجرة قيل له: لِمَ أَكَلْتَ مِنَ الشَّجَرَةِ الَّتِي نَهَيْتُكَ عَنْهَا؟ قال: حواء أمرتني، قال: فإني قد أعقبتها أن لا تحمل إلا كرهاً، ولا تضع إلا كرهاً، قال: فرئت عند ذلك حواء، فقبل لها: الرئة عليك وعلى ولدك^(٢)؛ ورئت أي: صاحت وصرخت.

(١) ينظر: «تفسير ابن جرير» بسند صحيح موقوف على أبي بن كعب ووهب بن منبه (١٢/٣٥٤).

(٢) «تفسير الطبري» بسند ضعيف؛ لضعف الحسين بن داود.

قال قتادة: قال آدم: يا رب أرأيت إن تبت إليك واستغفرتك، قال: أدخلك الجنة، وأما إبليس فلم يسأل التوبة وسأله أن يُنظره؛ فأعطي كل واحد منهما ما سأل^(١).

وهنا تتم تجربة مخالفة الإنسان بارتكابه المحذور، وتكشف خصائصه ودخوله المعركة مع الشيطان عدوه؛ كي يزاول الخلافة في الأرض.

٢٤- ﴿قَالَ أَهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتْنَعٌ إِلَىٰ حِينٍ﴾ (٢٤)

قال تعالى مخاطباً آدم وحواء وإبليس: اهبطوا من السماء إلى الأرض، أو اهبطوا من الجنة، وسيكون بعضكم لبعض عدو، ولكم في الأرض مكان تستقرون فيه، وتتمتعون فيه إلى انقضاء آجالكم.

وقال سبحانه في سورة أخرى: ﴿أَهْبِطَا﴾ [طه: ١٢٣] بضمير التثنية؛ لأن إبليس كان قد هبط من قبل، والخطاب في هذه السورة لآدم وحواء بصيغة الجمع ﴿أَهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ﴾ أو أن المراد آدم وحواء وإبليس ﴿وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ﴾ مكان إقامة لك ولذريتك، ﴿وَمَتْنَعٌ إِلَىٰ حِينٍ﴾ أي: إلى وقت انتهاء آجالكم، كما قال تعالى: ﴿الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ فِرَاشًا﴾ [البقرة: ٢٢].

قيل: إن آدم لما حضرته الوفاة، حضرت الملائكة فغسلته بماء وسدر وحنوط، وكفنته، وصلّت عليه، ودُفن في الهند بسرنديب.

قال ابن عطية: ورؤي أن آدم ﷺ أهبط بالهند، وحواء بجدة، وتمناها بمنى، وعرف حقيقة أمرها بعرفة، ولقيها بجمع - أي مزدلفة - وأهبط إبليس بميسان، وقيل: بالبصرة، وقيل: بمصر، فباض فيها وفرخ^(٢).

وفي بعض الكتب: لما أهبط إبليس قال: أي رب، أين مسكني؟ قال: مسكنك الحمام، ومجلسك الأسواق، ولهوك المزامير، وطعامك ما لم يذكر عليه اسمي، وشرابك المُسَكَّر، ورسلك الشهوات، وحباثك النساء^(٣).

وقد طوت هذه السورة توبة آدم؛ لأن المقصود من الآيات هنا هو التذكير بعداوة الشيطان، وتحذير الناس من اتباع وسوسته، وإظهار ما يترتب على ذلك من العقوبة

(١) «تفسير ابن كثير» (٢/٣٩٨).

(٢)، (٣) «تفسير ابن عطية» (٢/٣٨٨).

والخسران بعد ذكر أسباب هذا الخسران.

أما آيات سورة البقرة فقد ذكرت توبة آدم؛ لأن المقصود منها بيان فضل آدم وكرامته عند الله، ولكلِّ مقام مقال.

والمقصود من الآيات في السورتين تذكير بني آدم بعداوة الشيطان لهم ولأصلهم، وبيان أن هذه العداوة نشأت من حسد إبليس لآدم، كما يتضح ذلك من قول الله تعالى على لسان إبليس: ﴿قَالَ أَرَأَيْتَكَ هَذَا الَّذِي كَرَّمْتَ عَلَيَّ لَئِنْ أَخَّرْتَنِ إِلَى يَوْمِ الْقِيَمَةِ لَأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [الإسراء] وهنا ينتهي الحوار ببيان المصير الدنيوي والأخروي:

٢٥- ﴿قَالَ فِيهَا تَحْيَوْنَ وَفِيهَا تَمُوتُونَ وَمِنْهَا تُخْرَجُونَ﴾^(١)

ولما أهبط الله آدم وحواء من الجنة أخبرهما بمكان إقامتهما وذرياتهما، وأنه قد جعل الأرض لهما دار إقامة، مليئة بالامتحان والابتلاء، ويرسل الله إليهم فيها رسلا وينزل عليهم كتبًا حتى يأتيتهم الموت فيدفنون فيها، حتى إذا تكاملوا في جوفها بعثهم الله منها إلى دار النعيم والجحيم:

﴿قَالَ﴾ تعالى لآدم وحواء وذريتهما: ﴿فِيهَا تَحْيَوْنَ﴾ أي: في الأرض تعيشون أنتم وآباؤكم ﴿وَفِيهَا تَمُوتُونَ﴾ تقبرون عند انتهاء آجالكم ﴿وَمِنْهَا تُخْرَجُونَ﴾ أي: يوم القيامة تبعثون للحشر والنشر والحساب والجزاء، كما قال تعالى: ﴿مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَى﴾ [طه] وقال: ﴿أَلَمْ نَجْعَلِ الْأَرْضَ كِفَاتًا﴾^(٢) أَحْيَاءً وَأَمْوَاتًا ﴿﴾ [المرسلات].

أَرْبَعُ نِدَاءَاتٍ إِلَى بَنِي آدَمَ

النِّدَاءُ الْأَوَّلُ: وَجُوبُ سِتْرِ الْعَوْرَةِ

٢٦- ﴿يٰٓبَنِي آدَمَ قَدْ أُنْزِلْنَا عَلَيْكَ لِبَاسًا يُورِي سَوَاءَ نَفْسِكُمْ وَرِيشًا وَيٰٓإِبْرَاهِيمُ﴾^(٢) أَلْفَقَوَىٰ ذَٰلِكَ خَيْرٌ ذَٰلِكَ مِنْ

(١) (تَخْرُجُونَ) قرأ ابن ذكوان وحمزة والكسائي ويعقوب وخلف العاشر بفتح التاء وضم الراء، وقرأ الباقون بضم التاء وفتح الراء.

(٢) قرأ نافع وابن عامر والكسائي وأبو جعفر بنصب سين (ولباس التقوى) عطفًا على (لباسا)، وقرأ الباقون برفعها على أنها مبتدأ.

ءَايَاتِ اللَّهِ لَعَلَّهُمْ يَذْكُرُونَ ﴿٦٦﴾

والقرآن الكريم بعد نهاية هذه القصة يُعَقَّب عليها، ويقف وقفة تحذير وتأمل مع ذرية آدم، فيشير إلى التعري وانكشاف عورتهم عند ارتكاب المعصية، فالتعري صفة حيوانية، ومحبه انتكاس وتخلف، كما في أواسط إفريقيا ونوادي العراة في الدول المتقدمة في هذا. والتستر مظهر حضاري وارتقاء إنساني، والقرآن يحذّرهم من ذلك في عشر آيات من هذه السورة، جاء فيها أربع نداءات إلى بني آدم جميعاً؛ كي يحذروا كيد الشيطان، ولا يقعوا في حباله وأساليبه ومداخله كما وقع أبوهم آدم.

ففي النداء الأول منها يمتنُّ الله على عباده بما خَلَقَهُ لهم من اللباس الذي يستر عوراتهم ويَجْمِلُهُم، وما أفاض به عليهم من لباس التقوى الذي يَجْمَلُ باطنهم.

وفي النداء الثاني يحذرهم الله تعالى من كيد الشيطان وفتنته لهم؛ كي لا يُطردون من رحمة الله تعالى.

وفي النداء الثالث يأمرهم سبحانه بأن يتجملوا ويتزينوا عند ذهابهم إلى بيوت الله سبحانه.

وفي النداء الرابع يأخذ الله عليهم العهد أن يصدقوا الرسل ويتنفعوا بهديهم.

وهكذا: تبدأ هذه النداءات الأربع بنداء يتعلق بالعقاب الأول للإنسان الذي يضلّه الشيطان، أو بالسلاح الذي يستخدمه الشيطان في إغواء الإنسان وإضلاله، عندما يتلطح العبد بالذنوب، ومنها العُري وإظهار المفاتن بالنسبة للمرأة، فالمرأة حين تكون كاسية عارية يكون هذا دليلاً على عقوبة الله لها؛ لِمَا هي عليه من المعاصي، ولو كانت مطيعة لله تعالى لكانت من أهل الاحتشام والتستر.

فهذا العري وكشف العورة بالنسبة لآدم وحواء كان العقاب الأول للمعصية التي عوقبَ به حين أكلَا من الشجرة، ولم يقفَا عند نهْي الله لهما، فكان أن نزع الله عن آدم ثوب الجنة الذي كان يستر به عورته هو وحواء، وكان ذلك ثمرة للخطيئة ونتيجة للمعصية، بمجرد أن أكلَا من الشجرة، وفي الآية أمرٌ بستر العورة المغلظة، أما ستر ما عداها فيؤخذ من السنة.

وكان بعض العرب يطوفون بالبيت عراة؛ فأنزل الله سبحانه ينادي ذرية آدم إلى يوم القيامة ممتناً عليهم بأن هذا اللباس الذي يستر عورتهم نعمةٌ خصَّ الله بها الإنسان عن

سائر الحيوان، وقد سخر الله هذه الأرض للإنسان وخلق ما فيها له، وعلمه كيف يصنع الثياب وسائر الملابس من منتجات هذه الأرض؛ ليستر بها عورته، ولتزين بها ويتجمل.

وهذه الآية مقدمة لآية ﴿يَبْنِيْءَ آدَمَ خُذُوا زِينَتَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ﴾ [الأعراف: ٣١].

واللباس على نوعين: منه الضروري الذي لا بد منه لحفظ العورة وسترها، وهو المراد بقوله تعالى ﴿يُؤَرِّى سَوْءَ بَشَرِكُمْ﴾.

واللباس الآخر: هو لباس الزينة والتجمل، وهو لباس كمالي، فوق ستر العورة، مما يلبسه الإنسان فوق ثيابه، من بشت أو غُترَة، أو ما يتجمل به من شملة وكوفية ونحوهما، وهذا هو المراد بقوله تعالى: ﴿وَرِيشًا﴾.

وهكذا سائر الأمور، منها الضروري ومنها الكمالي في الطعام والشراب والمراكب والزواج وغيرها.

قالوا: إن الله سبحانه لما أهبط آدم وزوجه إلى الأرض علمه أسماء الأشياء، وأنزل عليه ما يصلح به دينه وديناه؛ كي يستطيع العيش فوق هذه الأرض، وهو أول مخلوق ينزل عليها، ومما أنزل الله عليه اللباس أو الثياب يستر به عورته ويصلح به دينه؛ لأن ستر العورة شرط في صحة الصلاة، ويصلح به ديناه؛ لأن اللباس يقي الإنسان من الحر والبرد، ففيه منفعة لدينه ومنفعة لديناه، وقد عبر القرآن عن تيسير اللباس للإنسان بالإنزال؛ تشريفًا لهذا المظهر الحضاري الذي سخره الله تعالى لخلقهم وألهمهم صنعه، قال تعالى: ﴿وَجَعَلْ لَكُمْ سَرَائِلَ تَقِيَكُمْ الْحَرَّ وَسَرَائِلَ تَقِيَكُمْ بُسْكُمُ﴾ [النحل: ٨١] فهو منفعة في السلم والحرب وهو من الفطرة الإنسانية.

والناس بالنسبة للملابس قد تتجاوز ما شرع الله، فبعض الناس لهم تجاوزات في هذه الملابس، فمثلاً: الرجل الذي يُظهر فخذه في حلبة المصارعة، أو في ملعب الكرة ونحوهما -متجاوزٌ لشرع الله سبحانه؛ لأنه قد كشف عن عورته أو سواته التي هي من السرة إلى الركبة.

والرجل الذي يلبس الثوب الطويل مسبلاً له؛ إعجاباً بنفسه وتفاخراً وخيلاء بما يبعث في نفسه الكبر والزهو -متجاوز لشرع الله سبحانه.

والمرأة التي تقصّر ثيابها حتى تكاد عورتها تبدو منها، أو التي تلبس ثياباً ضيقة تصف أو تبرز وتكشف عن مفاتن جسمها، والتي تلبس ثياباً يُظهر ذراعيها وشعرها وThغرها ونحرها وساقها، كل ذلك من مداخل الشيطان، ومن انتكاس الإنسان عن فطرته وترديّه إلى الحيوانية، كمن كانوا يطوفون بالبيت عرايا، وربما جعلت المرأة على فرجها شيئاً يستر بعضه، كما كانوا في الجاهلية يتعبدون بالتعرّي في الطواف؛ فأمرهم الله تعالى بستر العورة، وبَيّن سبحانه أن سترها من التقوى، والله جميل يحب الجمال، كل هذه تجاوزاتُ نَهَى عنها الشرع في مقام اللباس.

والرجل الذي يُقوّم الناس بمقدار ما يلبسون قد اختلت عنده الموازين، فقيمة الرجل عنده في غلاء ثوبه، أو في ملبسه، أو سيارته، أو منزله، فإن كان يلبس لباساً غالياً فهو رجل ذو قيمة في نظره وإلا فلا، هذا كله تجاوزٌ لشرع الله والمرأة مثل الرجل في ذلك.

والله سبحانه يبيّن أن شرف الإنسان ليس فيما يلبس، ولا فيما يأكل ولا ما يرتدي، إنما شرفه في لباس آخر، وهذا اللباس الآخر بينه الآية، إنه لباس التقوى.

وملابس الإنسان عون له على عبادة الله وطاعته، ولباس التقوى يستمر مع العبد، لا يبلى ولا يبيد، وهو جمال للقلب والروح، وانكشاف العورة الظاهرة أيسر وأهون من انكشاف العورة الباطنة، فلباس التقوى أفضل من لباس ستر العورة ﴿وَلِبَاسُ الْقَوَى ذَلِكَ خَيْرٌ﴾ لباس التقوى يصلح باطن الإنسان ونفسيته، ويستر عورات قلبه، كما أن اللباس الظاهرة تستر عورة الإنسان الظاهرة وسوآته الجسدية.

وكما أن لباس التقوى يزين القلب فإن لباس الجسم يزين البدن ويستره ﴿ذَلِكَ مِنْ ءَايَاتِ اللَّهِ لَعَلَّهُمْ يَذَكَّرُونَ﴾ ما ينفعهم وما يضرهم، وما أنعم الله به عليهم.

ومجمل معنى الآية: يا بني آدم قد جعلنا لكم لباساً يستر عوراتكم، وهو لباس الضرورة، ولباس للزينة والتجمل، وهو من الكمال والتنعم، ولباس تقوى الله تعالى بفعل الأوامر واجتناب النواهي هو خير لباس للمؤمن، ذلك الذي منّ الله به عليكم من الدلائل على وحدانية الله تعالى وفضله ورحمته بعباده، رجاء أن تذكروا هذه النعم فتشكروا الله

عليها، وفي ذلك امتنانٌ من الله تعالى على خلقه بهذه النعم^(١).

النِّدَاءُ الثَّانِي: فِي التَّحْذِيرِ مِنْ كَيْدِ الشَّيْطَانِ وَمَكْرِهِ

٢٧- ﴿يَبْنَىْ ءَادَمَ لَا يَفْنَنَكُمُ الشَّيْطٰنُ كَمَا اَخْرَجَ اٰبَوٰتِكُمْ مِّنَ الْجَنَّةِ يَنْزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوْءَهُمَاۗ اِنَّمَا يَرٰكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُ مِّنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْۗ اِنَّا جَعَلْنَا الشَّيْطٰنَ اَوْلِيَآءَ لِلَّذِيْنَ لَا يُؤْمِنُوْنَ ﴿٢٧﴾﴾

يا بني آدم لا يخدعنكم الشيطان فيزين لكم المعصية، ويرغبكم فيها وتنقادوا له كما زينها لآدم وحواء؛ فأخرجهما بسببها من دار النعيم، لقد نجح الشيطان في إغواء آدم وإخراجه من الجنة، فهل ينجح في أن يحول بين ذرية آدم وبين دخولهم الجنة؟ وكان الله تعالى قد حذر آدم من مكر إبليس قبل أن يقع فيما وقع فيه ﴿فَقُلْنَا يٰٓءَادَمُ إِنَّ هٰذَا عَدُوٌّ لَّكَ وَلِزَوْجِكَ فَلَا يُخْرِجَنَّكَ مِنَ الْجَنَّةِ فَتَشْقَىٰ﴾ ﴿٢٧﴾ [طه].

وقد بين الله سبحانه أن العبد المؤمن قوي الإيمان بالله ليس للشيطان عليه مدخل ﴿إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطٰنٌ﴾ [الإسراء: ٦٥] فاحذروا وسوسته وإيماءاته، ولا تستسلموا له؛ لأن المعركة قائمة بين الإنسان وعدوه اللدود.

وفي الآية إشارة إلى أن الشيطان يهم بكشف سوءة ابن آدم؛ لأنه يسرُّه أن يراه في حالة سوء وفظاعة، فهو ﴿يَنْزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا﴾ هذا هو العقاب الأول على الخطيئة الأولى، وهو لبيان أن من قدر على إخراج أبويكم من الجنة، فمن باب أولى يقدر على فتنتكم وإضلالكم، فاحذروا غروره بتزيين القبائح وتحسين الرذائل.

والتعري هو سلاح الشيطان الذي يستعمله في إغواء الإنسان وإضلاله، وهو السلاح الذي تعرّف عليه اليهود واستخدموه في مخططاتهم وفي بروتوكولاتهم التي وضعوها؛ للقضاء على البشرية دونهم، وللفتك بأبناء المسلمين على وجه الخصوص، وتبديد طاقاتهم وقواتهم عن طريق المرأة والوقوع في حبالها، بوسائل الإغراء والعري والفن والخلاعة والمجون، وهلم جرا، فهم يستخدمون المرأة للحصول على أغراضهم السياسية، والتعرف على المعلومات العسكرية، والتجسس، والاقتصاد، والاجتماع،

(١) من «التفسير الميسر» للآية، نخبة من العلماء.

وغير ذلك بالطرق المباشرة، وعن طريق الأفلام والصور والمجلات والمسلسلات، وسائر الأحوال.

إن المرأة وكشف عورتها هو سلاح الشيطان الأول، وسلاح اليهود الذي يستخدمونه لفتك والقضاء على شباب الإسلام، سيّما أبناء العرب المحيطون بهم.

وما مسابقات الجمال النسائية في العالم، وبيوت الأزياء، وأماكن التجميل، وغير ذلك - مما يتعلق بالمرأة - إلا ضرب من ضروب الأسلحة التي يقبع وراءها اليهود، ويروجونها للقضاء على شباب المسلمين وفتنتهم.

يقول الله سبحانه عن الشيطان: ﴿إِنَّهُ يَرْتَكِبُ هُوَ وَقَبِيلُهُ مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ﴾ لقد خلق الله في الشيطان قوة إبصار ينفذ منها إشعاع يزيد عن القوة البصرية للإنسان، ورزقه قدرة على سرعة التنقل والتشكل، ولذلك فالشيطان يراكم هو وذريته وأنتم لا ترونهم لا من قريب ولا من بعيد، فأجسام الشياطين خفيفة رقيقة لطيفة، ليست في كثافة جسم الإنسان، وهي تنتقل وتشكل بألوان مختلفة في غير صورتها الحقيقية بتسخير الله تعالى، فيرى الإنسان ما يتمثل به الشيطان أو الجن، ولا يرى صورته الحقيقية، كما حدث لأبي هريرة ؓ حينما رأى شيطاناً يسرق من حبوب الزكاة، وكما همّ النبي ﷺ أن يؤثّق بسارية المسجد عفريتاً من الجن تفلّت عليه في صلاته، ولذلك كانت لهم المقدرة على نقل الأخبار ونقل المعلومات بسرعة في طرفة عين، بما أودع الله فيهم من طاقات وقدرات تزيد على ما أودعه الله في الإنسان.

والشياطين أولياء للذين لا يوحدون الله، ولا يصدقون رسله، ولا يعملون بهديه ﴿أَفَتَتَّخِذُونَهُ وَذُرِّيَّتَهُ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِي﴾ [الكهف: ٥٠]. وعدم الإيمان هو الموجب لعقد الولاية بين الإنسان والشيطان ﴿إِنَّكُمْ لَكُمْ سُلْطَنٌ عَلَى الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ (٩٩) ﴿إِنَّمَا سُلْطَانُنَا عَلَى الَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُ وَالَّذِينَ هُمْ بِهِ مُشْرِكُونَ﴾ [النحل]. قال تعالى:

٢٨- ﴿وَإِذَا فَعَلُوا فَحِشَةً قَالُوا وَجَدْنَا عَلَيْهَا آبَاءَنَا وَاللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا قُلْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ

أَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ (٧٨)

ثم ذكّر سبحانه ما يتعلل به مرتكبو القبائح التي نهى الله عنها من أن آباءهم كانوا يفعلون ذلك، وفي هذا كشف لباطلهم وأعدارهم الفاسدة، ومن الخطأ الفادح أن يقع

المسلم في معصية أو خطيئة ويرتكب قبائح ومساوئ مخالفة لشرع الله تعالى، ثم يتعلل بأنه يفعلها كما يفعلها آباؤه وأجداده؛ لأنه رأى المجتمع الذي يعيش فيه؛ ورأى أهل البلد وأباه يفعلون هذا، رآه يطوف بالقبر، رآه ينذر ويذبح ويلتمس النفع والضر من غير الله سبحانه، فيقول: هؤلاء خلق كثير وأنا مثلهم ﴿إِنَّا وَجَدْنَا ءَابَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ آثَرِهِمْ مُّقْتَدُونَ﴾ [الزخرف: ٢٢] هذه علتة، وهو يظن أن هذا شرع الله، فينسبه إليه، وهذا تدبير فاسد مزيف، ليس له حقيقة في الإسلام، وهذا صنف جاهل من الناس، لم يتعرف على الإسلام الصحيح، إنما قلّد المجتمع الذي حوله، واعتذر إلى الله تعالى بالتقليد، ونسب ارتكاب الذنب إليه تعالى.

وهذا هو شأن أهل الجاهلية الذين عاب عليهم القرآن في كثير من آياته ﴿وَإِذَا فَعَلُوا فَحِشَةً﴾ الفاحشة: هي كل فعل قبيح، وما يبالي في قبحه من الذنوب، مما يستفحش ويُستقبح، ويدخل فيها جميع الكبائر والمعاصي، وغلبت الفاحشة على الأفعال شديدة القبح، التي تنفر منها الفطرة السليمة، أو ينشأ عنها ضر وفساد ياباه العقل الراجح، ويستحي فاعلها من الناس، ويتستر من فعلها، وذلك مثل البغاء والزنى، ومثل التعري في الحج، كما كان يفعله أهل الجاهلية.

فإذا نهي الإنسان عن فعل الفاحشة وأنكر عليه قال: هذا ما وجدنا عليه غيرنا، والله تعالى لم يحرم ذلك، ولم يبلّغنا نهياً من الله في ذلك، ثم نقض الله دعواهم في أنه سبحانه لم يأمر بتلك الفواحش، وأنه تعالى متصف بالكمال، فلا يأمر بما هو نقص يُنكره كل عاقل، فكون العقل قد وصف فعلهم بالفاحشة، كافٍ في الدلالة على أن الله تعالى لا يأمر بها، واعتذارهم بذلك جهل فاضح لا مستند لهم عليه، والتقليد المنهي عنه في الآية هو تقليد من ليسوا أهلاً للتقليد، فهو تقليد في الفساد والضلال.

وقد ذكّر الله تعالى أن الكفار إذا فعلوا فاحشة استدلوا على أنها حق وصواب بأنهم وجدوا آباءهم يفعلونها، وأنهم ما فعلوها إلا لأنها صواب ورشد، وهذا أمر واقع في جميع الأمم، كما قال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ مَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ فِي قَرْيَةٍ مِنْ نَذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا وَجَدْنَا ءَابَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ آثَرِهِمْ مُّقْتَدُونَ﴾ [الزخرف]

وقد ردّ الله عليهم هذا التقليد الأعمى في قوله: ﴿أَوَلَوْ كَانَتْ ءَابَاؤُهُمْ لَا يَفْقَهُونَ شَيْئًا

وَلَا يَهْتَدُونَ ﴿البقرة: ١٧٠﴾

وقوله: ﴿أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ﴾ [المائدة: ١٠٤] وغير ذلك من الآيات.

أما اتباع آثار السلف الصالح مِمَّنْ أَمَرْنَا بِالتَّاسِّيِ والافتداء بهم فهو ممَّا أَمَرَ الله به، كما قال تعالى: ﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ﴾ [الممتحنة: ٤]

وقال: ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾ [الأحزاب: ٢١].

وقال ﷺ: «عليكم بستي وسنة الخلفاء الراشدين المهديين من بعدي»^(١).

وفي حديث حذيفة ؓ عند ابن حبان «إني لا أدري ما قدر بقائي فيكم إلا قليلا، فافتدوا بالذين من بعدي - وأشار إلى أبي بكر وعمر - واهتدوا بهدي عمار، وما حدثكم ابن مسعود فاقبلوه»^(٢).

وقد أخرج الطبري بسند حسن عن السدي في معنى الآية قال: كان قبيلة من العرب من أهل اليمن يطوفون بالبيت عراة، فإذا قيل لهم: لِمَ تفعلون ذلك؟ قالوا ﴿وَجَدْنَا عَلَيْنَا آبَاءَنَا وَاللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا﴾ فهم يحتجون بأمرين: تقليد الآباء، والافتراء على الله الكذب، - بأن الله أمرهم بذلك - فأعرض الله تعالى عن الأول في هذه الآية لأنهم صادقين فيه؛ لظهور فساده، ورد على الثاني بقوله: ﴿قُلْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ﴾ لأنهم كاذبين فيه.

ومن الفاحشة: التعري، ونادي العراة، وطواف العراة حول البيت، ومنه الكاسيات العاريات المائلات المميلات، ومنه الرقص الشرقي والغربي، والتكسر والتغنج والابتذال، والغناء المثير للغرائز، وفيديو كليب، ونحو ذلك.

(١) من حديث العرياض بن سارية في «المسند» (١٧١٤٢، ١٧١٤٤، ١٧١٤٥) حديث صحيح، رجاله ثقات (محققوه) وأبي داود (٤٦٠٧) والترمذي (٢٦٧٦) وقال: حديث حسن صحيح، وابن ماجه (٤٣) وابن أبي عاصم في السنة (٣٣).

(٢) هذا لفظ ابن حبان (٦٩٠٢) وصححه، وهو عند الترمذي (٣٦٦٣) وصححه الألباني في صحيح الترمذي (٢٨٩٦) وانظر صحيح ابن ماجه (٢٨٩٥) وهو في المسند (٢٣٢٧٦)، حديث حسن بطرقه وشواهد، وأخرجه البزار في مسنده (٢٨٢٩) وابن أبي عاصم في السنة (١١٨٤) والطحاوي في شرح مشكل الآثار (١٢٢٤).

فقل - أيها الرسول - لهؤلاء الذين يفترون على الله الكذب: إن كلامكم هذا يناقض العقل والنقل ﴿أَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ من أين لكم هذا؟ هل أخبركم بهذا رسول من عند الله؟ هل نزل عليكم وحي أخبركم أن هذا من الله؟ إنه تقليد للجهل، وافتراء على الله تعالى، وأي افتراء أعظم فيه؟ فهم لم يسمعوا كلام الله، ولم يأخذوه عن أنبيائه، فكيف يقولون على الله بغير علم؟ وكيف يعتذرون إليه بفعل آبائهم وهو باطل لا أصل له؟ قال تعالى:

٢٩- ﴿قُلْ أَسَرَ رَبِّي بِالْقِسْطِ وَأَقِيمُوا وُجُوهَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ^(١)﴾
كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ^(٢) ﴿٢٩﴾

وبعد أن أخبر سبحانه أنه لا يأمر بالفحشاء، بيّن جل شأنه أنه أمر بنقيض ذلك؛ وهو القسط والعدل، ولم يأمر بالظلم والجور، وفي ذلك جماع مقومات الدين الحق.

فالقسط: هو الوسط بين الإفراط والتفريط في كل شيء، كما قال تعالى: ﴿وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَامًا﴾ [الفرقان: ٦٧] وفي هذا إبطال لكل ما ليس من القسط في العبادات والمعاملات.

والتوحيد عدل بين الشرك والتعطيل، فالله سبحانه لا يأمر إلا بالحق والعدل، يأمر بما جاء في كتبه، وبما أرسل به رسله، وهو سبحانه ينكر دعواهم في أنه تعالى يأمر بالفحشاء، ويبيّن لهم أن أمر الله تعالى في اتجاه معاكس، فهو سبحانه يأمر بالعدل والاعتدال والاستقامة على المنهج، ولا يأمر بالفحش والتجاوز.

وأمركم - أيها الناس - أن تخلصوا له العبادة في كل موضع من مواضعها، وبخاصة في المساجد، فوجّهوا وجوهكم في صلاتكم لله في كل مسجد تجاه الكعبة، وأخلصوا الطاعة والعبادة لله وحده، وفي هذا كمال الإقبال على الله تعالى، والأمر بالشيء نهْي عن ضده.

وفي الأمر بإقامة الوجوه عند المساجد تعظيم للمعبود سبحانه، وتعظيم لمكان العبادة، ولم يأمر سبحانه بتعظيم ما سوى ذلك، والتعري والشرك بالله تعالى ينافي إقامة الوجوه عند التوجه إلى الله تعالى، كما قال تعالى: ﴿وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ﴾ [البينة: ٥].

ومظاهر الشرك في العصر الحاضر كثيرة؛ ومنها أن أحدهم إذا قيل له: اسأل الله وحده

(١) قوله تعالى (مخلصين له الدين) عذها البصري والشامي آية، ولم يعدّها غيرهما.

(٢) وقوله تعالى (كما بدأكم تعودون) أثبتها آية العدد الكوفي ولم يعدّها غيره آية.

وتوجه إليه بالدعاء، قال: إن سيدي السيد البدوي أقرب مني إلى الله، والله يقبل منه ولا يقبل مني؛ لأنني مدنس بالمعاصي، وهذا هو عين ما كان السابقون يقولونه بالنسبة إلى الأصنام ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى﴾ [الزمر: ٣].
ومسلم اليوم كمشرك الأمس إذا توسط إلى الله بالسيد البدوي ونحوه، فالآية تشملهما.

أما في العصر الجاهلي فقد كان المشركون يضعون هُبُل على سطح الكعبة؛ ليكون الطواف لله ولهُبُل، ويضعون إساف ونائلة على الصفا والمروة؛ ليكون السعي لله ولهما، وكان فريق من المشركين يلبُّون بالحج عند صنم مناة بالمشلل.

ونقطة البداية للإنسان في الأرض آدم وحواء والشيطان وقبيله، فمن سار على درب آدم وزوجه حواء، أي: على منهج الله تعالى، وما أوحى به إلى آدم، وإلى رسل الله المتتابعين من بعده فهو من الذين هدى الله، وممن فازوا بالفلاح والسعادة الدنيوية والأخروية، ومن سار على درب الشيطان وقبيله فهو من الأشقياء الذين أضلهم الله سبحانه، والكل يرجع ويعود إلى الله تعالى خالقه كنقطة البداية ﴿كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ﴾ وفي هذا إعلام بالبعث؛ أي: كما أوجدكم من العدم يعيدكم بعد الموت، وأهل الإيمان في الدنيا هم أهل السعادة في الآخرة، وأهل الكفر في الدنيا هم أهل الشقاء في الآخرة، فكل فريق يموت على ما عاش عليه، ويُبْعَث على ما مات عليه، والقادر على بدء خلقكم قادر على إعادته، والإعادة أهون من البداية.

وفي الآية إنذار لكل من كذب باليوم الآخر، وبيان أن الله تعالى باعته ومجازيه يوم القيامة، وفيها إثبات للبعث الذي ينكرونه، كما قال تعالى عن هذا الصنف من الناس: ﴿يَقُولُونَ أَءَنَّا لَمُرْدُونَ فِي الْحَافِرَةِ﴾ (١٠) ﴿أَءَذَا كُنَّا عِظْمًا تَخِرَّةً﴾ (١١) ﴿قَالُوا تِلْكَ إِذًا كَرَّةٌ خَاسِرَةٌ﴾ (١٢) ﴿فَإِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ﴾ (١٣) ﴿فَإِذَا هُمْ بِالسَّاهِرَةِ﴾ (١٤) [النازعات] وفي هذا بيان أن إعادة الخلق ليس بأعجب من بدئه، كما قال تعالى: ﴿أَفَعِينَا بِالْخَلْقِ الْأَوَّلِ بَلْ فِي لَبْسٍ مِّنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ﴾ (١٥) [ق]

وقال: ﴿وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَتْ عَلَيْهِ﴾ [الروم: ٢٧]
وفيه تذكير بأن الله تعالى منفرد بالخلق الثاني، كما انفرد بالخلق الأول، وهو سبحانه المنفرد بجزائهم يوم لقائه؛ فيجازي الضالين المرتدين على أعقابهم بما عملوه في الدنيا.

في الصحيحين وغيرهما عن ابن عباس ؓ قال: خطب رسول الله ﷺ فقال: «يأيها

الناس، إنكم محشورون إلى الله حفاة عراة غرلاً» ثم قال: ﴿كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُعِيدُهُ وَعَدًا عَلَيْنَا إِنَّا كُنَّا فَاعِلِينَ﴾ [الأنبياء: ١٠٤] ثم قال: «ألا وإن أول الخلائق يُكسى يوم القيامة إبراهيم، إلا وإنه يُجاء برجال من أمتي، فيؤخذ بهم ذات الشمال، فأقول: يا رب أصحابي، فيقال: إنك لا تدري ما أحدثوا بعدك، فأقول كما قال العبد الصالح: ﴿وَكُنْتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَّا دُمْتُ فِيهِمْ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنْتُ أَنْتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ﴾ [المائدة: ١١٧] فيقال: إن هؤلاء لم يزالوا مرتدين على أعقابهم منذ فارقتهم»^(١). قال تعالى:

٣٠- ﴿فَرِيقًا هَدَىٰ وَفَرِيقًا حَقَّ عَلَيْهِمُ الضَّلَالَةُ ۚ إِنَّهُمْ اتَّخَذُوا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ مِن دُونِ اللَّهِ وَيَحْسَبُونَ^(٣) أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ

ثم إنكم - أيها الناس - تعودون إلى الله في الآخرة فريقين: منكم مؤمن ومنكم كافر ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ فَنُكِّمُ كَافِرٌ وَمِنْكُمْ مُّؤْمِنٌ﴾ [التغابن: ٢] وكما خلقناكم في الدنيا نعيدكم مرة ثانية، ونبعثكم للحساب والجزاء ﴿فَرِيقًا هَدَىٰ﴾ وفقهم الله للهداية، ويسر لهم أسبابها، وصرف عنهم موانعها، وهم السعداء الذين اتبعوا رسل الله ﴿وَفَرِيقًا حَقَّ عَلَيْهِمُ الضَّلَالَةُ﴾ أي: ثبتت عليهم الضلالة بثبوت أسبابها الكسبية، فجعلت غريزة لهم، لأنهم تسببوا فيها وعملوا بأسباب الغواية، وهم الذين اتبعوا الشيطان واكتسبوا السيئات، فهم الأشقياء؛ لأنهم الذين وجبت عليهم الضلالة لانحرافهم عن الطريق المستقيم، فقد هدى الله منهم فريقاً وأضل فريقاً.

﴿إِنَّهُمْ اتَّخَذُوا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ مِن دُونِ اللَّهِ﴾ حين انسلخوا من ولاية الرحمن واتبعوا ولاية الشيطان فحصل لهم النصيب الأوفر من الخذلان، فخسروا أشد الخسران، ﴿وَمَن يَتَّخِذِ الشَّيْطَانَ وَلِيًّا مِّن دُونِ اللَّهِ فَقَدْ خَسِرَ خُسْرَانًا مُّبِينًا﴾ [النساء: ١١٩] إنهم أطاعوهم في

(١) «صحيح البخاري» برقم (٣٣٤٩، ٤٦٢٥) و«صحيح مسلم» (٢١٩٤/٤) برقم (٢٨٦٠) كتاب الجنة، باب فناء الدنيا والترمذي (٦١٦/٤) وتفسير الطبري (٣٨٦/١٢).

(٢) قرأ ابن عمرو بكسر الهاء والميم من (عليهم الضلالة) وصلًا، وقرأ حمزة والكسائي ويعقوب وخلف العاشر بضم الهاء والميم وصلًا أيضًا، وقرأ الباقر بكسر الهاء وضم الميم، وقرأ حمزة ويعقوب بضم الهاء سكون الميم وقفًا، والباقر بكسر الهاء وسكون الميم وقفًا كذلك، قرأ حمزة بإسكان ياء الإضافة وصلًا من (حرم ربي الفواحش) وفتحها غيره.

(٣) قرأ ابن عامر وعاصم وحمزة وأبو جعفر، بفتح السين من (ويحسبون) والباقر بكسرها.

كل ما زينوه لهم من الفواحش والمنكرات.

﴿وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ مُّهْتَدُونَ﴾ فيما تلقنهم الشياطين إياه من الشهوات والشبهات، فقد انقلبت عليهم الحقائق، فظنوا الباطل حقًا والحق باطلاً، والسبب أنهم أطاعوا الشياطين جهلاً منهم، وظناً بأنهم قد سلكوا سبيل الهداية، وكل فريق من أهل السعادة والشقاء يموت على ما عاش عليه، ويبعث على ما مات عليه، فيعودون كما بدؤوا.

١- عن سهل بن سعد رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إن العبد ليعمل -فيما يرى الناس- بعمل أهل الجنة وإنه من أهل النار، وإنه ليعمل -فيما يرى الناس- بعمل أهل النار، وإنه من أهل الجنة، وإنما الأعمال بالخواتيم»^(١).

٢- وعن جابر رضي الله عنه عن النبي ﷺ أنه قال: «يحشر الناس على نياتهم» هذا لفظ ابن ماجه.

٣- ولفظ مسلم: «يُبعث كل عبد على ما مات عليه»^(٢).

ومع أن الله تعالى فطر خلقه على التوحيد، وأودعه في غرائزهم وطبائعهم، إلا أن الشياطين تجتالهم، فيتحولون بسعيهم ويتوجهون بإرادتهم نحو الخير أو الشر، كما قال ﷺ:

أ- في حديث أبي مالك الأشعري «كل الناس يغدو، فبائع نفسه فمعتقها أو موبقها»^(٣).

أي: كل واحد من الناس يسعى، فإما أن يعتق نفسه من النار، وإما أن يوردها المهالك:

كما قال تعالى: ﴿إِنَّ سَعْيَكُمْ لَشَتَّى﴾ [الليل] وقال: ﴿الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى﴾ [طه: ٥٠].

(١) قطعة من حديث البخاري برقم (٢٨٩٨، ٦٤٩٣، ٦٦٠٧) ورواه البغوي في تفسيره (٢٢٤/٣) وهو في «صحيح مسلم» برقم (١١٢).

(٢) «صحيح مسلم» (٢٢٠٦/٤) برقم (٢٨٧٨) و«سنن ابن ماجه» برقم (٤٢٣٠) وصحيح ابن ماجه (٣٤٠٨) وظلال الجنة (٨٦٥) و«تفسير الطبري» (٣٨٤/١٢).

(٣) جزء من حديث في «صحيح مسلم» (٢٠٣/١) برقم (٢٢٣) و«المسند» (٣٤٢/٥) عن أبي مالك الأشعري برقم (٢٢٩٠٢، ٢٢٩٠٨) وابن أبي شيبه (٦/١) (٤٥/١١) وأبو عوانة (٦٠٠) والبيهقي في «السنن» (١/٤٢) والطبراني في «الكبير» (٣٤٢٣) وابن ماجه (٢٨٠) وأول الحديث (الطهور شرط الإيمان) قال محققو «المسند»: حديث صحيح، وهذا إسناد رجاله ثقات رجال الصحيح إلا أن فيه انقطاعاً بين ممطور الحبشي فهو لم يسمع من أبي مالك الأشعري، وبينهما في هذا الحديث عبد الرحمن بن غنم، وهو ثقة.

هدى كل مخلوق لوظيفته التي خُلق لأجلها، ويسر له أسبابها، ووفقه لأدائها:

ب - وفي الحديث عن علي عليه السلام: «فأما مَنْ كان منكم من أهل السعادة فييسر لعمل أهل السعادة، وأما من كان منكم من أهل الشقاوة فييسر لعمل أهل الشقاوة»^(١).

وقد فطر الله الخلق جميعاً على معرفته وتوحيده، وأخذ عليهم الميثاق بذلك ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ﴾ [الأعراف: ١٧٢]

وقال تعالى: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا﴾ [الروم: ٣٠]

ج - وعن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «كل مولود يولد على الفطرة فأبواه يهودانه وينصرانه ويمجسانه»^(٢).

د - وعن عياض بن حمار رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «يقول الله تعالى: إني خلقت عبادي حنفاء كلهم، وإنهم أتتهم الشياطين فاجتالتهم عن دينهم»^(٣).

فَمَنْ وَحَّدَ اللَّهُ تَعَالَى وَتَرَكَ الشَّرْكَ فَهُوَ مِمَّنْ هَدَاهُمُ اللَّهُ، وَهُمْ مِمَّنْ قَالَ اللَّهُ فِيهِمْ: ﴿أُولَٰئِكَ حِزْبُ اللَّهِ أَلَا إِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [المجادلة: ٢٢]

وَمَنْ دَاوَمَ عَلَى الضَّلَالِ وَلَا زِمَ الشَّرْكَ فَهُوَ الْفَرِيقُ الْخَاسِرُ، الَّذِينَ قَالَ اللَّهُ فِيهِمْ: ﴿أُولَٰئِكَ حِزْبُ الشَّيْطَانِ أَلَا إِنَّ حِزْبَ الشَّيْطَانِ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾ [المجادلة: ١٩]

ومن ذلك قوله تعالى: ﴿فَمِنْهُمْ مَنْ هَدَى اللَّهُ وَمِنْهُمْ مَنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلَالَةُ﴾ [النحل: ٣٦].

وبعد هذه الآية قال تعالى: ﴿إِنْ تَحَرَّصَ عَلَىٰ هُدَاهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ يُضِلُّ﴾ [النحل: ٣٧]

والذين حق عليهم الضلالة، لما سمعوا الدعوة إلى التوحيد والإسلام، طابت نفوسهم بوسوسة الشياطين واتسمروا بأمرهم، فثبتوا على الضلالة ولزموها، ولم يمعنوا النظر في

(١) «صحيح البخاري» (١٣٦٢) ومسلم (٢٦٤٧) (٢٠٣٩/٤) وانظر المسند (١٠٦٧، ٦٢١) وأبو داود (٤٦٩٤) والترمذي (٢١٣٦) عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه.

(٢) «صحيح البخاري» برقم (١٣٨٥، ٦٥٩٩، ٦٦٠٠) و«صحيح مسلم» برقم (٢٦٥٨).

(٣) أخرجه مسلم (٢٨٦٥) وهذا لفظه، و«المسند» (١٧٤٨٤) والطبراني في الكبير (١٧) (٩٩٥) والأوسط (٢٩٥٤) والطالسي (١٠٧٩).

صِدْقِ مُحَمَّدٍ ﷺ، وظنوا أنهم مهتدون.

فمwalاة الشيطان طاعته فيما يخالف شرع الله، ومن ذلك أنهم يظنون أنفسهم على هدى، وهم أخسر الناس عملاً ﴿قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا﴾ (١١٣) الَّذِينَ ضَلَّ سَعِيَّهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا ﴿١١٤﴾ [الكهف].

وكل هذه النصوص تشير إلى أن العبد يصير من أهل السعادة أو الشقاء، ويسر للعمل لأحدهما، فيكتسبه ويقدر عليه.

والمعنى في كل ذلك: أن العبد يكون في هذه الحياة وفق ما سبق في علم الله، ويصير إليه، وعلم الله تعالى علمٌ مسبقٌ، وهذا العلم المسبق مُسجل في اللوح المحفوظ، فهو مكتوب، وعلم الله لا يتخلف، ولا يُجبر أحداً على الفعل أو الترك، والله تعالى يأمر بالخير وينهى عن الشر، وفيه دليل على أن الهداية تكون بفضل الله ومَنَّةً، وأن الضلالة تكون بخذلان الله للعبد إذا تولى الشيطان، فتسبب لنفسه في الضلال وظن أنه على هدى.

النِّدَاءُ الثَّالِثُ: التَّزَيُّنُ لِلْعِبَادَةِ وَالتَّمَتُّعُ بِالْحَلَالِ دُونَ إِسْرَافٍ

٣١- ﴿يَبْنَیْ ءَادَمَ خُذُوا زِينَتَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ﴾ (٢١)

يا بني آدم: استروا عوراتكم عند الصلاة، فرضها ونفلها، فإن سترها زينة للبدن، وكشفها يجعل البدن قبيحاً مشوّهاً، والبسوا أحسن الثياب وتجملوا بنظافة البدن والثياب من الأدناس والأنجاس، وتطيبوا، وتخلّقوا بمكارم الأخلاق.

هذا: وقد كانت قريش قد سمّت نفسها في الجاهلية بالحُمس، وميزت نفسها وأحلافها بخصائص ليست لغيرهم من سائر العرب؛ لأنهم يخدمون البيت، ويقومون على رعايته وصيانتها، ومن هذه الأشياء التي خصوا بها أنفسهم، أنهم كانوا وحدهم يطوفون حول البيت في ثيابهم العادية، وغير قريش من سائر القبائل والبلاد المجاورة إما أن يستعير الواحد منهم ثياباً من قريش؛ ليطوف فيها إن وَجَدَ، فإن لم يجد فإنه يطوف عرياناً، ويقولون: نحن لا نطوف بالبيت في ثياب عَصِينَا الله فيها، هكذا زَيَّنَ لهم الشيطان، فيخلعون الثياب، ويطوفون عرايا ويصفقون ويصفقون، وكانت النساء تطوف عرايا ليلاً، والرجال يطوفون عرايا نهاراً، وربما طافت المرأة حول البيت وهي عارية، ووضعت

بعض أصابعها أو سيورًا على فرجها فيظهر بعضه، وكانت تقول: مَنْ يُعِيرُنِي تَطَوُّافًا تجعله على فرجها وتقول:

الْيَوْمَ يَبْدُو بَعْضُهُ أَوْ كُلُّهُ وَمَا بَدَا مِنْهُ فَلَا أَحِلُّهُ^(١)

قال ابن عباس رضي الله عنه: كان رجال يطوفون بالبيت عراة فأمرهم الله بالزينة، وأبطل الإسلام بهذه الآية ما كان يزعمه بعض المشركين من لزوم التعري في الطواف، وعند مساجد معينة.

وفي صحيح مسلم وغيره عن هشام عن عروة عن أبيه رضي الله عنه قال: «كانت العرب تطوف بالبيت عراة إلا الخمس، والخمس قریش وما ولدت، فكان غيرهم يطوفون بالبيت عراة إلا أن تعطيهم الخمس ثيابًا، فيعطي الرجال الرجال، والنساء النساء»^(٢).

وعنه رضي الله عنه قال: كانوا إذا وصلوا إلى منى طرحوا ثيابهم وأتوا المسجد عراة.

وكانت الخمس لا يخرجون من المزدلفة، وكان الناس يلبغون عرفات، ويقولون: نحن أهل الحرم، فلا ينبغي لأحد من العرب أن يطوف إلا في ثيابه، ولا يأكل إذا دخل أرضنا إلا من طعامنا.

فَمَنْ لم يكن له من العرب صديق بمكة يعيره ثوبًا، ولا يجد ما يستأجره به، كان بين أحد أمرين: إما أن يطوف بالبيت عريانًا، وإما أن يطوف في ثيابه، فإذا فرغ من طوافه ألقى ثوبه عنه فلم يمسسه أحد.

وقال مجاهد: كان حيٌّ من أهل اليمن إذا قدم أحدهم حاجًا أو معتمرًا يقول: لا ينبغي لي أن أطوف في ثوب عصيتُ الله فيه، فيقول: مَنْ يعيرني مئزرًا، فإن قدر عليه وإلا طاف عريانًا.

وقال الزهري: إن العرب كانت تطوف بالبيت عراة إلا الخمس، وهم قریش وأحلافهم، فَمَنْ جاء من غير الخمس وضع ثيابه، وطاف في ثوب أحمسي، ويرى أنه لا يحل له أن يلبس ثيابه، فإن لم يجد من يعيره من الخمس فإنه يُلقِي ثيابه ويطوف عريانًا، فإن طاف في ثيابه ألقاها، ورأى أنها محرمة عليه بعد الطواف.

(١) ينظر: «صحيح مسلم» برقم (٣٠٢٨) و«سنن النسائي» (٢٣٣/٥) و«تفسير الطبري» (٣٩/١٢).

(٢) الحديث في البخاري (٤٥٢٠) ومسلم (١٢١٩) وأبي داود (١٩١٠) والترمذي (٨٨٤) والنسائي (٣٠١٢).

لذلك: فإن الله سبحانه أنزل على رسوله ﷺ ما يصحح هذه الأوضاع، فأمر عباده بالتزين لأداء العبادة، فضلاً عن ستر العورة، فقال: ﴿يَبْنَیْ ءَادَمَ خُذُوا زِينَتَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ﴾ أي: عند أداء كل عبادة ومنها الصلاة والطواف، فلا تستروا عوراتكم فحسب، بل تجميلوا وتزينوا والبسوا أحسن ملابسكم عند كل صلاة، سيِّماً في الجمعة والعيدين.

كان الحسن بن علي إذا قام إلى الصلاة لبس أحسن ثيابه، فقليل له في ذلك فقال: إن الله جميل يحب الجمال، فأنا أتجمل لربي.

والإسلام يأمر بالاغتسال والنظافة والطيب والسواك في كل حال؛ لأن ذلك من تمام الزينة، ومنها الثياب البيض.

وعن ابن عباس ؓ أن رسول الله ﷺ قال: «البسوا من ثيابكم البياض، فإنها من خير ثيابكم، وكفنوا فيها موتاكم، وإن من خير أكمالكم الإئتمد، فإنه يجلو البصر، وينبت الشعر»^(١).

وعن سمرة بن جندب ؓ أن رسول الله ﷺ قال: «عليكم بالثياب البياض فالبسوها؛ فإنها أطهر وأطيب وكفنوا فيها موتاكم»^(٢).

ولمَّا نزلت هذه الآية تأمر بأخذ الزينة المشروعة من ثياب ساترة للعورة، ونظافة، وطهارة، ونحو ذلك، سيِّماً في أوقات العبادة؛ أذن مؤذن رسول الله ﷺ: لا يطوفن بالبيت عريان، وقد أبطل الإسلام ذلك حين أمر النبي ﷺ أبا بكر ؓ سنة تسع من الهجرة أن ينادي في الناس: لا يحج بعد العام مُشركٌ، ولا يطوف بالبيت عريان.

وكلوا واشربوا من الطيبات من غير إسراف ولا تبذير، فقد نهى سبحانه عن الإسراف في الطعام والشراب، ويكون ذلك إما بالزيادة على القدر الكافي، وإما بالزيادة في الترف والكماليات، وإما بتجاوز الحلال إلى الحرام، والله تعالى لا يحب السرف لأنه يضر بالإنسان بدنًا ومعيشة.

(١) «المسند» (٢٤٧/١) برقم (٢٢١٩، ٣٤٢٦) حديث صحيح ورجاله ثقات، (محققوه) ومشكاة المصابيح بتصحيح الألباني (١٦٣٨) والروض النضر (٤٠٧) وصحيح أبي داود (٣٢٨٤) وأبو داود (٣٣٢/٤) برقم (٤٠٦١) والترمذي (٣١٠/٣) برقم (٩٩٤) وقال: حسن صحيح، وابن ماجه (١١٨١/٢) برقم (١٤٧٢).

(٢) أخرجه أحمد (٧/٥) برقم (٢٠١٤٠، ٢٠٢٣٥) حديث صحيح ورجاله ثقات (محققوه) و«سنن النسائي» (٢٠٥/٨) وفي الكبرى (٩٦٤٣) وصحيح «سنن النسائي» (٢٣٩٨) وابن أبي شيبه (٢٢٦/٣) والطبراني في

الكبرى (٦٩٧٧) وصحيح الترمذي (٢٢٥٣) وابن ماجه (١٤٧٢).

في سبب النزول:

والعلاقة بين هذه الجملة من الآية وما قبلها: أن بعض القبائل -كبنى عامر- كان يزعم أنه إذا عزم على حج البيت، لا ينبغي له أن يأكل دسمًا، ولا يأكل إلا قوتًا؛ أي: يكتفي بما هو ضروري، ويقلل ما استطاع من الطعام، وكانوا يحرمون الشاة ولبنها وسمنها، ويزعم الحاج منهم أنه يعظم حجّه بذلك، فقال المسلمون: نحن أحقّ بذلك؛ فأنزل الله سبحانه: ﴿وَكُلُوا وَاشْرَبُوا﴾ أي: من اللحم والدسم وغيرهما ﴿وَلَا تُسْرِفُوا﴾ فالإسلام ينهى عن الإفراط والتفريط في الأكل والشرب وغيرهما؛ أي: لا تكن مسرفًا مبدّرًا متجاوزًا للحد، ولا تقتّر على نفسك، فتكن شحيحًا بخيلًا، أو متقشفًا متنعطًا، لا تتجاوز الحدود في كلّ حال.

يقول علي بن الحسن بن واقد: إن رب العالمين جمع الطب كلّ في نصف آية فقال: ﴿وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ﴾ أي: لا تتجاوز حدود الاعتدال في كلّ شيء، فالله تعالى لا يحب المتجاوزين في الطعام والشراب وغيرهما، ولا تحرّموا على أنفسكم ما لم يحرمه الله، وهذه جملة من الأحاديث في معنى الآية:

١- عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده أن النبي ﷺ قال: «كلوا واشربوا والبسوا وتصدقوا من غير مَخِيلَةٍ ولا سرف، فإن الله يحب أن يرى أثر نعمته على عبده»^(١).

٢- وعن المقدم بن معدي كرب الكندي قال: سمعتُ رسول الله ﷺ قال: «ما ملأ آدمي وعاء شراً من بطنه، بحسب ابن آدم لقيمات يقمن صلبه، فإن كان فاعلاً لا محالة؛ فثلث طعام، وثلث شراب، وثلث لنفسه»^(٢).

وقد جمعت الآية أصول حفظ الصحة من جانب الغذاء، ونهت عن الإسراف، فهي إرشاد واستحباب، وليست نهى تحريم بقريئة الآية التالية ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ

(١) «المسند» (١٨٢/٢) برقم (٦٧٠٨، ٦٦٩٥) بإسناد حسن وانظر «سنن النسائي» (٧٩/٥) برقم (٢٥٥٨) و«سنن ابن ماجه» برقم (٣٦٠٥) وابن أبي شيبة (٤٠٥/٨).

(٢) «المسند» (١٣٢/٤) برقم (١٧١٨٦) رجاله ثقات و«سنن النسائي الكبرى» برقم (٦٧٦٨) و«سنن ابن ماجه» برقم (٣٣٤٩) و«المستدرک» (٣٣١/٤) وابن حبان (٤٤٩/٢) و«سنن الترمذي» (٥٩٠/٤) برقم (٢٣٨٠) وقال: حسن صحيح، وصححه الألباني في «صحيح سنن الترمذي» برقم (١٩٣٩).

وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ ﴿٣١﴾ ولأن مقدار السرف لا ينضبط، وهو يختلف باختلاف أحوال الناس، والمظهر الحسن والملابس الجميلة ليست من الكبر في شيء.

٣- فعن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «لا يدخل الجنة مَنْ كان في قلبه مثقال ذرة من كبر» قال رجل: إن الرجل يحب أن يكون ثوبه حسناً ونعله حسناً، قال: «إن الله جميل يحب الجمال، الكبر بطر الحق وغمط الناس»^(١).

٤- وعن ابن عمر رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «إذا صلى أحدكم فليلبس ثوبه، فإن الله ﷻ أحق من تُرَيْن له، فإن لم يكن له ثوبان فليأتزِر إذا صَلَّى، ولا يشتمل أحدكم في صلاته اشتمال اليهود»^(٢).

٥- وعن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «لا يُصَلِّينَ أحدكم في الثوب الواحد ليس على عاتقه منه شيء»^(٣).

٦- وعن بريدة رضي الله عنه قال: نهى رسول الله ﷺ أن يصلي الرجل في لحاف لا يتوشح به، ونهى أن يصلي الرجل في سراويل وليس عليه رداء^(٤).

٧- وفي حديث الأحوص عن أبيه قال: أتيت النبي ﷺ في ثوب دون، فقال: ألك مال؟ قال: نعم، قال: من أي المال؟ قال: قد أتاني الله الإبل والغنم والخيل والرقيق، قال: «... فإذا آتاك الله مالاً فلْيَرِ أثر نعمة الله عليك وكرامته»^(٥).

٨- وأخرج الإمام أحمد وغيره عن أبي أمامة رضي الله عنه قال: خرج رسول الله ﷺ على مشيخة من الأنصار بيض لحاهم، فقال: «يا معشر الأنصار، حمّروا وصرّوا وخالفوا أهل الكتاب» فقلنا: يا رسول الله، إن أهل الكتاب يتسرّوّلون ولا يأتزرون، فقال رسول الله

(١) «صحيح مسلم» برقم (١٤٧).

(٢) الطبراني في «الأوسط» (٩٣٦٨) والبيهقي في «السنن» (٢٣٦/٢) وصححه الألباني في «السلسلة الصحيحة» (١٣٦٩).

(٣) البخاري (٣٥٩) ومسلم (٥١٦) وأبو داود (٦٢٦) والنسائي (٧٦٨) وغيرهم.

(٤) «صحيح سنن أبي داود» (٥٩٤) والبيهقي (٢٣٦/٢)، وهو في سنن أبي داود (٦٣٦) وإسناده حسن.

(٥) «صحيح سنن أبي داود» (٣٤٢٨). والنسائي (٥٢٢٣) وصحيح النسائي (٤٨١٩) ومشكاة المصابيح (٤٣٥٢) والروض النضير (٨٥٢).

﴿تَسْرُوْلُوْا وَاتَّزِرُوْا وَخَالِفُوْا اَهْلَ الْكِتَابِ﴾ قلنا: يا رسول الله، إن أهل الكتاب يتخَفَّفون ولا ينتعلون، فقال: «(تخففوا وانتعلوا وخالفوا أهل الكتاب» قلنا: يا رسول الله، إن أهل الكتاب يقصون عثانينهم (أي: لحاهم) ويوفرون سابلهم (أي: شواربهم) فقال: «قصوا سبالكم، ووفروا عثانينكم، وخالفوا أهل الكتاب»^(١).

الْإِنْكَارُ عَلَى مَنْ حَرَّمَ الطَّيِّبَاتِ

٣٢- ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا خَالِصَةٌ^(٢) يَوْمَ الْقِيَمَةِ كَذَلِكَ نَفْصِلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ (٣٢)

هذا إنكار من الله تعالى على من تعنت وحرّم على نفسه وعلى غيره اللباس المشروع والطيبات من الرزق، لأن التحليل والتحریم حق لله وحده، وقد وسع الله على عباده ليستعينوا بالماكل والمشارب والملابس على طاعته وعبادته، ومن استعان بها على معصية الله فإنه يُسأل عنها يوم القيامة ويُعاقب، والمؤمنون ينتفعون - بفضل الله تعالى - ويعلمون أن هذه الطيبات، من نعم الله عليهم، وهكذا:

فبعد أن بين سبحانه أولاً أن اللباس نعمة من الله تعالى، وثنى بإيجاب التسرر عند كل مسجد، ثلث بالإنكار على من حرّم الزينة والتمتع بالطيبات، ولا يجوز لأحد أن يحرم - برأيه - ما خلقه الله للناس من الزينة ولا من الطيبات؛ لأن التحليل والتحریم من خصائص الله وحده، وقد عاب المشركون على المسلمين لما ستروا عوراتهم وهم يطوفون بالبيت، فقال الله سبحانه: ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ﴾ أي: من حرم عليكم اللباس الحسن، الذي جعله الله زينة لكم، من كل ما زينته الشريعة واستحسنته؟ ومن حرم عليكم التمتع بالحلال الطيب من رزق الله ﴿وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ﴾؟

لقد أحل الإسلام للمسلم أن يتجمل ويتزين ويلبس كلّ ما أحله الله له، وحرّم من اللباس: الحرير ولباس الشهرة، والملابس الخاصة بالكفار، والذهب بالنسبة للرجل، كما

(١) «المسند» (٢٢٢٨٣) قال محققوه: إسناده صحيح، وأخرجه الطبراني في «الكبير» (٧٩٢٤) مختصراً.

(٢) قرأ نافع برفع التاء من (خالصة) على أنها خبر (هي) و (للذين آمنوا) متعلق بخالصة، وقرأ الباقون بالنصب على الحال من الضمير المستتر في الظرف.

جاء النص بتحريم ذلك على الرجال، وما عدا ذلك فهو حلال، يلبس المسلم ما شاء الله له، ويأكل ما شاء الله له، من كل ما أحله الله، ويترك وما حرم الله من الذبائح كالهيئة ونحوها من غير سرف ولا تبذير ولا بخل ولا تقتير ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ مَا أَنزَلَ اللَّهُ لَكُمْ مِنْ رِزْقٍ فَجَعَلْتُمْ مِنْهُ حَرَامًا وَحَلَالًا﴾ [يونس: ٥٩].

﴿قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ أي: أن هذه الطيبات وهذه الزينة خلقها الله بالأصالة للمؤمنين في الدنيا، والكفار يشاركونهم فيها بالتبع، فإذا كان يوم القيامة فإنها تكون للمؤمنين وحدهم، لا يشاركونهم فيها أحد، فهي ﴿خَالِصَةٌ﴾ لهم ﴿يَوْمَ الْقِيَمَةِ﴾ فكل ما أحله الله من المطاعم والمشارب والملابس حق للمؤمنين في الدنيا يشاركونهم فيه غيرهم، وهو حق خالص لهم يوم القيامة، قد خلقه الله تعالى لمن آمن به وعبدَه.

وبمثل ذلك نبين الحلال والحرام لمن يفقهون ما يُبين لهم ﴿كَذَلِكَ نَقُصِّلُ الْآيَاتِ﴾ الدالة على عظيم قدرة الله تعالى، وعلى صدق محمد ﷺ، وقد ميزنا ذلك ووضحناه ﴿لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ فيتدبرون حكمة الله ويفقهون تشريعه.

أخرج الطبري بسند حسن عن علي بن أبي طلحة عن ابن عباس ؓ في معنى الآية قال: شارك المسلمون الكفار في الطيبات؛ فأكلوا من طيبات طعامها، ولبسوا من خيار ثيابها، ونكحوا من صالح نسائها، ثم يخلص الله الطيبات في الآخرة للذين آمنوا وليس للمشركين فيها شيء^(١)، وليس على المؤمنين تبعات يوم القيامة من جراء تناول الطيبات في الدنيا، بخلاف الكفار فإنهم يُسألون عنها، ويُعاقبون على تناولها؛ لأنهم كفروا بنعم الله عليهم.

والمعنى: قل - أيها الرسول - لهؤلاء الذين يطوفون بالبيت عرايا، ويحرمون على أنفسهم ما أحله الله من الطيبات: من حرم عليكم التجميل بالثياب التي خلقها الله لكم لنفعكم، والمستلذات من المأكَل والمشارب؟ فإن هذه الزينة وهذه الطيبات مخلوقة بالأصالة للمؤمنين، وستكون خالصة لهم يوم القيامة، لا يشاركونهم فيها أحد؛ لأن الله تعالى حرّم الجنة على الكافرين، قال تعالى: ﴿وَنَادَىٰ أَصْحَابُ النَّارِ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ أَنِ افْضُوا عَلَيْنَا مِنَ الْمَاءِ أَوْ مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ حَرَّمَهُمَا عَلَى الْكَافِرِينَ﴾ [الأعراف: ٥٥].

(١) الطبري (١٥٨/١٠) وابن أبي حاتم (٨٣٩٢).

تَحْرِيمُ الْفَوَاحِشِ وَالشُّرْكِ وَالْقَوْلِ عَلَى اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ

٣٣- ﴿قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّي^(١) الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَالْإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَأَنْ تُشْرِكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزَّلْ^(٢) بِهِ سُلْطَانًا وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا نَعْلَمُونَ ﴿٣٣﴾﴾

ذكرت هذه الآية خمسة أمثلة لما حرّمه الله تعالى على خلقه وهي:

- ١- فواحش الذنوب.
- ٢- والإثم.
- ٣- والبغي.
- ٤- والشرك بالله تعالى.
- ٥- والقول على الله بدون علم.

وبدأت الآية يذكر الفواحش، لأنها تردّ على ما جاء في الآية السابقة ﴿وَإِذَا فَعَلُوا فَحْشَةً قَالُوا وَجَدْنَا عَلَيْهَا آبَاءَنَا وَاللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا﴾ ﴿٣٢﴾ فردّ الله عليهم بقوله: ﴿قُلْ إِنْ كَانَ اللَّهُ لَا يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ﴾ وزاد على ذلك فقال: ﴿أَتَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا نَعْلَمُونَ﴾ ﴿٣٣﴾.

ثم بينت الآية أن الله تعالى قد حرّم ما هو دون الفواحش: كالإثم وصغائر الذنوب واللمم، وحرّم ما هو أكبر من الفواحش، كالشرك بالله تعالى، والكذب عليه، وتحليل ما حرم الله، أو تحريم ما أحل الله، وكله تقول على الله تعالى بغير علم ولا دليل.

والمعنى: أما الذي حرّمه ربّ العالمين على خلقه في كل شريعة من الشرائع، فهو: أولاً: الفواحش، كالزنى والربا واللواط، فهو من الفواحش، سواء في ذلك ما ظهر منها وما بطن، من كبائر الذنوب التي لها حدّ شرعيّ، والتي لا حدّ لها، يستوي في ذلك المعلن منها، مما يتعلق بحركات البدن، والخافي مما يتعلق بحركات القلوب.

ومن الفواحش الخفية: الضغينة والكبر والعُجب والرياء والنفاق والحسد والبغضاء واتخاذ الخليفة، وسائر الذنوب التي لا يطلع عليها إلا ربّ العالمين.

ومن الفواحش الخفية أيضاً: ازدراء الناس، إذ ربما تجد إنساناً قصير الثياب، كث اللحية، ذا مظهر إسلامي، ويحمل في قلبه كِبَرُ فرعون، إذا أُلقيت عليه السلام لا يحرك

(١) سكن الباء من (ربي الفواحش) حمزة، وفتحها الباقون، والجميع بإسكانها عند الوقف عليها.

(٢) قرأ ابن كثير وأبو عمر ويعقوب (يُنَزَّل) بتشديد الزاي، والباقون بالتخفيف.

شفتيه، وإذا كان كتفه بجوار كتفك في مصعد أو مكتب أو درج، لا يتفوّه بإلقاء السلام عليك، ويصعّر خده عنك، فهذه فواحش خفية تنطوي عليها النفس البشرية.

أما الفواحش الظاهرة فهي واضحة معلومة، كالسبع الموبقات ونحوها، والإسلام يأخذ بظواهر الأمور، لنا ما ظهر منها، وعند الله ما خفي، وهو يحاسب عباده على أقوالهم وأفعالهم.

قال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ فَمَنْ﴾

ثانياً: ﴿وَالْآثِمَ﴾ وهو صغائر الذنوب، أو ما يعم الذنوب كلها مما يؤثم فاعلها، وتوجب له العقوبة من حقوق الله تعالى.

ثالثاً: ﴿وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ﴾ أي: وحرّم الإسلام البغي، وهو الظلم وتجاوز الحد، والتعدي على الناس، وأكل حقوقهم، والبغي عليهم في دماءهم وأعراضهم وأموالهم، فيدخل في هذا كل الذنوب المتعلقة بحق الله تعالى وحق العباد.

رابعاً: ﴿وَأَنْ تُشْرِكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا﴾ وحرّم الإسلام الشرك بالله، وهو أعظم الفواحش وأعظم الآثام، وأعظم الظلم.

وليس في الشرك بالله تعالى حجة ولا سلطان يُحتج به، وإنما أنزل الله تعالى الحجة والبرهان على التوحيد، وقد أفرد الشرك بالذكر؛ للتنبيه على عظم قبحه.

خامساً: ﴿وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا فَعْلَمُونَ﴾، أي وحرّم الإسلام عليكم أن تقولوا على الله بغير علم في أسمائه وصفاته، وأن تحرموا ما أحل الله، أو تُفتُوا بغير علم ولا دليل، وأن تنسبوا إلى الله الشريك والولد، وتشرعوا لأنفسكم ما لم يشرعه الله سبحانه.

أي: وكما حرّم سبحانه قبائح الأعمال الظاهرة والخفية، وحرّم جميع المعاصي، وكل ما يجانب الحق؛ كالاعتداء على الناس، وظلم النفس والآخرين، حرم كذلك أن تنسبوا إلى الله تعالى ما لم يشرعه افتراءً وكذباً؛ كنسبة الولد والشريك إلى الله تعالى، وتحريم بعض الحلال من الملابس والمأكول وغيرهما، قال تعالى: ﴿فَاجْتَنِبُوا الرِّجْسَ مِنَ الْأَوْثَانِ وَاجْتَنِبُوا قَوْلَ الزُّورِ﴾ [الحج: ٣٠].

وقد جاء في الحديث عن عبد الله بن مسعود ؓ أن رسول الله ﷺ قال: «لا أحد أغير

من الله تعالى، فلذلك حرّم الفواحش ما ظهر منها وما بطن»^(١).

وفي حديث المغيرة بن شعبة أن سعد بن عبادَةَ رضي الله عنه قال: لو رأيتُ رجلاً مع امرأتي لضربته بالسيف، فبلغ ذلك رسول الله ﷺ فقال: «أتعجبون من غيرة سعد، فوالله لأنا أغير من سعد، والله أغير مني؛ ومن أجله حرّم الفواحش ما ظهر وما بطن، ولا شخص أغير من الله»^(٢).

ومن أصاب شيئاً من الفواحش فليستتر بستر الله، ولا يجهر بمعصيته، ويسارع في التوبة إلى الله تعالى.

وأصل الغيرة ثوران القلب وهيجان الحفيظة؛ بسبب المشاركة فيما يختص به الإنسان، ولا يرضى أن يشاركه فيه أحدٌ، وغيره الله تعالى منعه لهذا الفعل وتحريمه إياه.

وهذه الآية تبين ما حرّمه الله تعالى على الناس، بعد بيان ما حرّمه الناس على أنفسهم، فهي تجمع أصول أحوال الناس فيما يرتكبونه من الخطايا في مقابلة ما كان يفعله أهل الجاهلية من الفواحش والذنوب.

وهكذا: قل - أيها الرسول - لهؤلاء الذين ضيقوا على أنفسهم ما وسّعه الله: إن ما حرّمه الله عليكم في كتبه، وعلى ألسنة رسله هو خمسة أنواع من الذنوب؛ سبق بيانها، وهي: أولاً: كل ما كان قبيحاً من الأقوال والأفعال في السر والعلن، ما ظهر للناس وما خفي عنهم.

ثانياً: المعاصي كلها، من الصغائر والكبائر، فالإثم أعم من الفاحشة، وقُدّمت الفواحش للاهتمام بالتحذير منها، قبل التحذير من جميع الذنوب، ولأن سياق الآيات يتطلب ذلك.

ثالثاً: البغي؛ وهو الاعتداء على حق الناس وظلمهم والتطاول عليهم؛ بسلب أموالهم أو الكبر والتحقير والتقيص من شأنهم، وما كان بوجه حقٍّ لا يُسمى بغياً، ولكنه أذى.

(١) البخاري برقم (٤٦٣٤، ٥٢٢٠، ٧٤٠٣) ومسلم (٢١٣/٤) برقم (٢٧٦٠) و«المسند» (٣٨١/١) (٣٦١٦) بإسناد صحيح على شرط الشيخين، والنسائي في «الكبرى» (١١١٨٣) والبيهقي في «الأسماء والصفات» (٦٢٠، ٦٢١) من حديث ابن مسعود، والدارمي (١٤٩/٢) والبخاري (٢٣٧٣) وابن حبان (٢٩٤).

(٢) البخاري (٦٨٤٦، ٧٤١٦) ومسلم (١٤٩٩) وابن أبي شيبة (٤١٩/٤).

رابعًا: الشرك بالله تعالى في عبادته؛ إذ لا دليل يشتهه على الناس في عدم استحقاق غير الله تعالى بالعبادة، فذكرُ السلطان في الآية بيان للواقع.

خامسًا: القول على الله بغير علم؛ بتحليل ما حرم الله، أو تحريم ما أحل الله، أو الكذب والافتراء على الله

. قال تعالى مبيّنًا مصير الأمم والأفراد الذين ارتكبوا الفواحش والآثام، وأشركوا بالله، وبَعَوْا في الأرض بغير الحق، وقالوا على الله بغير علم:

٣٤- ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ فَإِذَا جَاءَ أَجْلُهُمْ لَا يَسْتَأْذِنُونَ^(١) سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِرُونَ

لقد خلق الله الإنسان وأسكنه الأرض، وجعل له أجلًا لا يتقدم عليه ولا يتأخر، سواء في ذلك الأفراد أو الأمم.

وقد كان الكفار يستعجلون نزول العذاب بهم؛ فأخبرهم الله تعالى بأن لكل جماعة اجتمعت على الكفر بالله، وكذّبت رسل الله، وقتًا معينًا لحلول العقوبة بإهلاكهم واستئصالهم، فينتهي بذلك الأمد المقدر لقوتها في الأرض واستخلافها فيها، فإذا حان هذا الوقت المحدد المرسوم؛ فإنهم لا يتقدمون عنه ولا يتأخرون، وفي هذا تهديد ووعد لهم.

ويصح أن يكون المراد بالأجل هو الحياة والعمر حين تحضر الوفاة وينتهي الأجل؛ وذلك لتستيقظ النفوس، وتتنبه القلوب الغافلة، فيبين سبحانه أن لكل فرد، ولكل جيل، ولكل أمة أجل ينتهي إليه، لا يتأخر لحظة ولا يتقدم، فكما ينطبق هذا على الأمم والجماعات ينطبق على الأفراد، والساعة مثّل يراد به أقل مدة وأقل زمن، ثم يحاسبهم رب العالمين على ما قدمت أيديهم، وما أنتم إلا أمة من الأمم، لكم أجل سيأتي حينه.

والمراد بالأمة في الآية: الجماعة التي اشتركت في عقيدة الشرك بالله تعالى، أو في تكذيب الرسل، وليس المراد بالأمة الجماعة التي يجمعها نسب أو لغة أو زمان أو مكان، وإنما المراد: جماعة يجمعها رسول أرسل إليهم فكذبوه، وقد أمهل الله هذه الأمة؛ فلم يهلكها عن بكرة أبيها كما حدث لبعض الأمم قبلهم؛ رحمة من الله تعالى، وإجابة لدعوة

(١) قرأ ورش وأبو جعفر وأبو عمرو بخلف عنه وحمزة عند الوقف بإبدال الهمزة ألفًا من (يستأخرون)، والباقون بتحقيقها ساكنة.

نبيها «بل أرجو أن يخرج من أصلابهم من يعبد الله لا يشرك به شيئاً»^(١).

وفي معنى الآية قوله تعالى: ﴿وَتِلْكَ الْقُرَىٰ أَهْلَكْنَاهُمْ لَمَّا ظَلَمُوا وَجَعَلْنَا لِمَهْلِكِهِم مَّوْعِدًا﴾ [الكهف]

وقوله: ﴿لِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ إِذَا جَاءَ أَجْلُهُمْ فَلَا يَسْتَعْجِلُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ﴾ [يونس: ٤٩]

وفي هذا إشارة إلى ما جاء في أول السورة من قوله تعالى: ﴿وَكَمْ مِنْ قَرِيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا فَجَاءَهَا بَأْسُنَا بَيِّنًا أَوْ هُمْ قَائِلُونَ﴾ [الأعراف]

وقوله: ﴿وَحَرَّمْ عَلَىٰ قَرِيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا أَنَّهُمْ لَا يَرْجِعُونَ﴾ [الأنبياء].

النِّدَاءُ الرَّابِعُ: أَخْذُ الْعَهْدِ عَلَىٰ بَنِي آدَمَ بِتَصْدِيقِ الرُّسُلِ

٣٥- ﴿يٰٓبَنِي آدَمَ إِنَّمَا يَأْتِيَنَّكُمْ^(٢) رُسُلٌ مِّنكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ ءَايَاتِي مِمَّنِ اتَّقَىٰ وَأَصْلَحَ فَلَا خَوْفٌ^(٣) عَلَيْهِمْ^(٤) وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [٣٥]

أخرج الله آدم من الجنة، فتناسل وكثرت ذريته، وأرسل الله إليهم رسلاً وأنزل عليهم كتباً، يقصُّون عليهم آيات الله ويبينون لهم أحكامه، فمنهم من آمن ومنهم من كفر، وقد وعد الله المؤمنين بالجنة، وتوعد الكافرين بالنار.

وهذا النداء موجّه إلى البشرية جميعاً، كالنداءات السابقة، فأبناء آدم مخاطبون جميعاً في هذه الآيات؛ الأسود والأبيض، العجمي والعربي، الشريف والوضيع، الرئيس والمرؤوس.

﴿يٰٓبَنِي آدَمَ﴾ إذا جاءكم رسلي من أقوامكم وجنسكم يتلون عليكم آيات ربكم، ويبينون لكم البراهين على صدق ما جاؤوكم به، فأطيعوهم واستجبوا لهم، وهذا عهد من الله لأبناء آدم، وهو شرط الخلافة في الأرض

﴿إِنَّمَا يَأْتِيَنَّكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ﴾ أي: حين يرسل الله لكم رسلاً، يقصون عليكم آياته، فتتلو الرسل كتاب الله على الأمم، وخاتمهم محمد ﷺ حين يبلغ القرآن إلى أمته.

(١) من حديث عائشة في البخاري (٣٢٣١، ٧٣٨٩) ومسلم (١٧٩٥) من حديث طويل.

(٢) أبدل همزة (يأتينكم) ألفاً ورش وأبو عمرو بخلف عنه وأبو جعفر، وحقها غيرهم.

(٣) قرأ يعقوب بفتح الفاء من (خوف)، والباقون برفعها منونة.

(٤) ضم الهاء من (عليهم) حمزة والكسائي وخلف ويعقوب، وكسرها الباقون.

﴿فَمَنْ أَتَقَىٰ وَاصْلَحَ﴾ أي: فإن من اتقى الشرك، وعمل الطاعات، واجتنب المحرمات، وأصلح ما أفسد بالإيمان والعمل الصالح - فإنه لا يحزن على ما فاته في الدنيا، ولا يخاف على مستقبله في الآخرة

﴿فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ لا يخافون من الشر الذي يخاف منه غيرهم، لا يخافون من المستقبل وما يحدث فيه من أحداث، ولا يحزنون على ما مضى وما كان فيه من أعمال وأقوال، وإذا انتفى الخوف والحزن حصل الأمن التام والسعادة الأبدية.

وقد أبلغ الله تعالى الناس هذا الخطاب على لسان كل نبي من لدن آدم إلى محمد ﷺ، والرسالة بعده متتية؛ إذ هو الخاتم الحاشر العاقب، وما من نبي إلا قد بلغ أمته وأمرهم أن يبلغ الشاهد منهم الغائب. وقال تعالى عن الفريق الآخر، المقابل للمتقين المصلحين:

٣٦- ﴿وَالَّذِينَ كَذَبُوا بَيِّنَاتِنَا وَاسْتَكْبَرُوا عَنْهَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾

أما الكفار المكذبون بدلائل التوحيد المتكبرون على اتباعها، فلا آمنت قلوبهم ولا انقادت جوارحهم، فإن مصيرهم إلى النار، يمكنون فيها ولا يخرجون منها أبداً، لأنهم استهانوا بآيات الله وكذبوها ولم يعملوا بما فيها.

وفي الآيتين إخباراً لبني آدم أن رسل الله قد بلغوا الرسالة وأدوا الأمانة، فعلى المرسل إليهم أن يطيعوهم؛ حتى يفوزوا برضى خالقهم، فالخطاب لجميع الأمم قديمها وحديثها، وآخرهم محمد ﷺ وأمته.

الْمُشْرِكُونَ وَالْمُكَذِّبُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ يَأْخُذُونَ حَظَّهُمْ فِي الدُّنْيَا

٣٧- ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ أُولَٰئِكَ يَنَالُهُمْ نَصِيبُهُم مِّنَ الْعَذَابِ حَتَّىٰ إِذَا جَاءَهُمْ رَسُولُنَا^(١) قَالُوا أَيْنَ مَا كُنْتُمْ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ قَالُوا ضَلُّوا عَنَّا وَشَهِدُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَاذِبُونَ كَفَرِينَ﴾

لا أحد أظلم ممن نسب لله الشريك والولد، وقال على الله بغير علم، وكذب بآيات الله، وظل كذلك حتى إذا جاءتهم الملائكة الموكلون بقبض أرواحهم وسألوهم موبخين

(١) قرأ أبو عمرو بإسكان السين من (رسلنا)، والباقون بضمها.

لهم: أين آلهتكم التي كنتم تعبدونها في الدنيا من دون الله، إن كان فيها منفعة لكم أو دفع مضرة عنكم؟ فأجابوهم قائلين: لقد غابوا عنا في ساحة المحشر، فلم نرهم، وليسوا مُعْثِنِينَ عنا من عذاب الله من شيء، وشهدوا على أنفسهم أنهم مستحقين للعذاب المهين الدائم.

هذا: وقد كان المشركون يطوفون بالبيت وهم عرايا، ويقولون: وجدنا آباءنا كذلك، والله أمرنا بهذا، كما قال تعالى: ﴿وَإِذَا فَعَلُوا فَحِيشَةً قَالُوا وَجَدْنَا عَلَيْهَا آبَاءَنَا وَاللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا﴾ [الأعراف: ٢٨] وهكذا سائر المشركين والعصاة إلى يوم القيامة، مِمَّنْ يحللون ما حرم الله، أو يحرمون ما أحل الله، ويشرّعون في دين الله ما ليس منه، وينسبون ذلك إلى آبائهم، أو ينسبونه إلى الله ﷻ، وكذلك اليهود والنصارى الذين يفترون على الله الكذب؛ فينسبون له سبحانه الشريك والولد؛ افتراءً وكذباً على الله سبحانه.

والآيات بعد ذلك تبين أن افتراء الكذب على الله قد يكون بتحريم ما أحل الله، أو بتحليل ما حرم الله، أو بتحكيم غير شرع الله، أو بنسبة الشريك والولد إلى الله سبحانه، وهذه الأخيرة أشبع الجرائم وأقبح الذنوب، فلا يوجد أحد أظلم مِمَّنْ يفتري على الله الكذب؛ فيُشرّع في دين الله ما ليس منه، أو يُنسبُ إلى الله سبحانه ما لا يليق بجلاله.

﴿فَمَنْ أَظْلَمُ﴾ أي: لا أحد أشد ظلماً ولا أعظم جُرماً ﴿مِمَّنْ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا﴾ اختلقه بنسبة الشريك والولد إليه سبحانه، فقال: عيسى ابن الله، أو قال: عزيز ابن الله أو شرع في دين الله ما ليس منه ﴿أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ﴾ المنزلة على نبيه محمد ﷺ، فلم يؤمن بها ولم يعمل بمقتضاها.

وقوله تعالى: ﴿أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ﴾ يفيد أن أهل الظلم والشرك فريقان:

١- فريق منهم افترى على الله الكذب، وهم السادة والكبراء الذين شرعوا لغيرهم من الدين ما لم يأذن به الله، ونسبوه إلى الله تعالى وهم يعلمون، وهذا الفريق من السابقين مثل: عمرو بن لُحي، وأبي كبشة.

٢- وفريق آخر كذبوا بآيات الله، ولم يفتروا على الله الكذب، وهم عامة أهل الضلال والكفر في كل زمان ومكان.

وكلا الفريقين لا أحد أشد ظلماً منهما، سِيَّما مَنْ جَمَعَ بين تشريع الضلال للناس،

وتكذيب محمد ﷺ، وهذا كقوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ قَالَ أُوحِيَ إِلَيَّ وَلَمْ يُوحَ إِلَيْهِ شَيْءٌ وَمَنْ قَالَ سَأُنْزِلُ مِثْلَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ﴾ [الأنعام: ٩٣]

فلا شك في أن من جمَعَ بين الثلاث هو أظلم من كل من انفرد بخضلةٍ منها .

وهؤلاء الذين كذبوا على الله، أو كذبوا بآياته، يصيبهم يوم القيامة ما يكرهونه من العذاب الذي يفرّون منه، وفق ما أخبر الله به بمقتضى علمه الأزلي أنهم يخلدون في نار جهنم دائماً وأبداً، بعد أن أمهلهم الله في الدنيا، وأخذوا نصيبهم من الرزق والعمل والأجل .

فمع كفر الكافرين فإن الله تعالى قد أنعم عليهم بالمال والبنين ومُتَع الحياة، وهم لا يستحقون هذه الحياة، ولا يستحقون ما أودع الله فيها من نِعَمٍ على خَلْقِهِ، ولكن الله سبحانه يعطيهم هذه النعم، ويعطيهم ما قُدِّرَ لهم في الدنيا من رزق، ومن عَمَلٍ، ومن أجل؛ كي يتوبوا ويعودوا إلى الله جل شأنه، وهذا معنى: ﴿أُولَٰئِكَ يَنَالُهُمْ نَصِيبُهُم مِّنَ الْكِتَابِ﴾ حيث يُكتب للإنسان رزقه وأجله وشقي أو سعيد، وهو جنينٌ في بطن أمه، كما صحَّ ذلك في الحديث .

فالكتابُ: هو اللوح المحفوظ، وما تكتبه الملائكة من أعمال الخلق، والنصيب: هو ما سبق في علم الله من أعمال الخير أو الشر، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ لَا مَتَّعَ فِي الدُّنْيَا ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ نُذِقُهُمُ الْعَذَابَ الشَّدِيدَ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ﴾ ﴿٧٥﴾ [يونس]

حال الكفار عند قبض الأرواح:

أي: أنهم مع كفرهم يأخذون ما قُدِّرَ لهم في الدنيا من أعمال، ومن أرزاق، ومن آجال، ويظنون كذلك حتى تأتيهم ملائكة الموت، ويكون المشهد عند الاحتضار للموت وانقضاء الأجل أسوأ ما يكون .

وهذا تصويرٌ لحالهم عند قبض أرواحهم ﴿حَتَّىٰ إِذَا جَاءَهُمْ رُسُلُنَا يَتَوَفَّوْنَهُمْ﴾ قالوا: وهم ملَك الموت وأعوانه، حيث يدور بين الكافر وبين رسل الله هذا الحوار، تقول لهم الرسل: ﴿أَبْنِ مَا كُنْتُمْ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ﴾؟ أين دعواكم الكاذبة التي نسبتموها إلى الله سبحانه؟ وأين آلهتكم وأولياؤكم في الدنيا الذين زعمتم أنهم يشفعون لكم عند الله يوم

القيامة؟ أين هم في هذا الموقف الحاسم وهذا الظرف العظيم؟ حين يُسأل المشركون في ساحة الحشر والنشر هذا السؤال؛ فيجيبونهم قائلين: ﴿صَلُّوا عَنَّا﴾ فلا نراهم في هذا الموقف، وهم لا يعلمون لنا مكاناً، ولا نعتقد أنهم ينفعوننا أو يضرّوننا.

لقد غابوا عن أعيننا؛ فلم نرهم في ساحة الحشر، وفي هذا اعتراف منهم بأنهم عبدوهم في الدنيا، وفي موقف آخر يكذبون ويقولون: ﴿وَاللَّهُ رَبَّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾ [الأنعام: ٢٣] وفي هذا الموقف يشهدون على أنفسهم بالكفر ﴿وَشَهِدُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُوا كَافِرِينَ﴾ اعترفوا بالكفر بعد أن علموا أنه لا محيص من الاعتراف به، وحينئذ يصل إليهم حُطُّهم من العذاب الأخروي، الذي قُدِّرَ لهم وكتب عليهم في اللوح المحفوظ.

الْكَفَّارُ يَتَلَاوَمُونَ وَهُمْ يَدْخُلُونَ النَّارَ

٣٨- ﴿قَالَ ادْخُلُوا فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِكُمْ مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ فِي النَّارِ كُلَّمَا دَخَلَتْ أُمَّةٌ لَعَنَتْ أُخْتَهَا حَتَّىٰ إِذَا دَارَكُوا فِيهَا جَمِيعًا قَالَتْ أُخْرِيَهُمْ لِأُولَئِهِمْ رَبَّنَا هَؤُلَاءِ أَضَلُّونَا^(١) فَفَاتَهُمْ^(٢) عَذَابٌ ضِعْفًا مِّنَ النَّارِ^(٣) قَالَ لِكُلِّ ضِعْفٌ وَلَكِنْ لَا تَعْلَمُونَ^(٤)﴾

ثم ذكر الله سبحانه ما يقوله للكفار يوم القيامة بواسطة ملائكة العذاب، والقرآن الكريم يطوي الزمان، ويطوي المكان، ويأخذنا من مشهد الاحتضار للموت إلى مشهد الدخول في النار، كأنما يُؤخذ هؤلاء الكفار من الدار إلى النار، يطوي القرآن الكريم قصة الموت، وقصة البعث، وقصة الحشر والحساب، وينتقل إلى مشهد حضور الكفار عند النار.

﴿قَالَ ادْخُلُوا﴾ أي يُقال لهؤلاء الكفار يوم القيامة، الذين افترّوا على الله الكذب،

(١) قرأ نافع وابن كثير وأبو عمرو وأبو جعفر ورويس بإبدال الهمزة ياء مفتوحة من (هؤلاء أضلونا)، والباقون بتحقيقها.

(٢) قرأ رويس بضم الهاء من (فاتتهم)، والباقون بكسرها، وقرأ ورش من طريق الأزرق بالقصر والتوسط والمد في الهمزة، وقصرها الباقون.

(٣) عدّ قوله تعالى (من النار) آية، المدني الأول والأخير والمكي، وتركها بقية علماء العدد وهم: البصري والكوفي والشامي.

(٤) قرأ شعبة بياء الغيبة في (لا يعلمون) والضمير يعود على الطائفة السائلة، أو عليهما معاً، وقرأ الباقون بياء الخطاب، والمخاطب هم السائلون.

وجعلوا له شريكًا من خَلْقِهِ، وكذبوا بآيات الله، يقال لهم: ﴿ادْخُلُوا فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِكُمْ﴾ أي: مضت على ما مضت عليه من الكفر والتكذيب والاستكبار، فاستحق الجميع الخزي والبوار، فالأمة المتبوعة تتبرأ من الأمة التابعة؛ لأنها زادت ضلالها، والأمة التابعة تلعن الأمة المتبوعة؛ لأنها كانت سببًا في عذابها؛ أي: ادخلوا النار في جملة جماعات من أمثالكم في الكفر، قد سلفت من قبلكم، فانضموا إلى زملائكم ممن سيقوكم في الكفر ﴿مِنَ الْإِنسِ وَالْإِنسِ﴾ ودخلوا النار قبلكم، الحقوا بهم وانضموا إليهم ﴿فِي النَّارِ﴾ وادخلوها جميعًا، فكلكم سواء.

وقدم الجن على الإنس؛ لأنهم أغرق في الكفر، وإبليس أصل الضلال والإغواء. وهذه الآية نصٌّ في أن كَفَرَةَ الجن في النار، ومعنى ذلك: أن المؤمنين منهم في الجنة، وأنهم مكلفون مبعوثون مثابون على أعمالهم.

ويراد بالأمم: الجماعات والأحزاب، وأهل الملل الكافرة من الجن والإنس.

ثم وصف الله أحوالهم في النار فقال: ﴿كُلَّمَا دَخَلَتْ النَّارَ أُمَّةٌ﴾ من الأمم الكافرة، وكلما دخلت النار جماعة من الجماعات الكافرة ﴿لَعَنَتْ أَخْهَا﴾ السابقة عليها في دخول النار؛ أي: كلما دخلت النار جماعة من أهل ملة لعنت نظيرتها التي ضلت بسبب الاقتداء بها، فيلعن المشركون المشركين، واليهود اليهود، والنصارى النصارى، والصابئون الصابئين، والعلمانيون العلمانيين، والملحدون الملحدين، ... وهكذا.

لقد أغوى إبليس آدم عليه السلام، وأغوى ذريته، فدخل إبليس النار معهم، وكذا من أغواهم من ذرية آدم من الكفار، وهؤلاء منهم القادة والرؤساء، ومنهم الكبار والأغنياء، الذين كانوا قدوة سيئة لغيرهم، فهم يدخلون النار أولًا؛ لأنهم المتبوعون من الأمم أو الجماعات أو الأفراد الذين زينوا لهم طاعة الشيطان؛ فأضلّوهم عن الهدى، واتبعوا طريق الكفر والضلال الذي كانوا عليه، وهذه الأمم تتلاحق وتتتابع، حتى إذا اجتمعوا في النار وتلاحقوا واستقروا فيها جميعًا: القادة والرؤساء، والمقلّدين الأتباع، يبدأ التلاوم بينهم.

﴿حَتَّىٰ إِذَا أَدَارَكُوا فِيهَا﴾ أي: أدرك بعضهم بعضًا في النار، واجتمعوا جميعًا فيها، بدأ الخصام والجدال بين الأتباع والمتبوعين ﴿فَقَالَتْ أَخْرِجُهُمْ﴾ أي المتأخرون منهم في

الدخول، وهم المقلدون التابعون ، ﴿لَاؤَلَيْهِمْ﴾ أي الذين دخلوا النار أولاً وهم القادة والرؤساء من الأمم أو الجماعات، يقولون ﴿هَؤُلَاءِ أَصْلُونَا﴾ إنهم يشكون إلى الله إضلالهم إياهم، كما قال سبحانه: ﴿يَوْمَ تُقَلَّبُ وُجُوهُهُمْ فِي النَّارِ يَقُولُونَ يَلَيْتَنَّا أَطَعْنَا اللَّهَ وَأَطَعْنَا الرَّسُولَ﴾ ﴿٦٦﴾ وَقَالُوا رَبَّنَا إِنَّا أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكِبَرَاءَنَا فَأَضَلُّونَا السَّبِيلَا ﴿٦٧﴾ رَبَّنَا إِنَّا أَتَيْنَا ضَعَفَيْنِ مِنَ الْعَذَابِ وَالْعَنَتُمْ لَعَنًا كَبِيرًا ﴿٦٨﴾ [الأحزاب].

وهكذا تبدأ المهزلة والمأساة، فيكشف الموقف عن أحباب الدنيا أعداء الآخرة، حين يلعن بعضهم بعضاً، ويشمت بعضهم في بعض، ربنا هؤلاء كانوا قدوة سيئة لنا، اتبعناهم في الكفر، واتبعناهم في الضلال، وكانوا كباراً وأغنياء، أو كانوا رؤساء وقادة لنا، ربنا ﴿فَكَاتِبُهُمْ عَذَابًا ضِعْفًا مِّنَ النَّارِ﴾ إنهم يطلبون من الله سبحانه أن يضاعف للمتبعين الجزاء في النار؛ لأنهم أضلوهم وتسبوا في إغوائهم، وزينوا لهم الأعمال الخبيثة.

﴿قَالَ﴾ سبحانه ﴿لِكُلِّ ضِعْفٍ﴾ أنتم وهم، لكل منكم عذاب مضاعف ومشدد في النار، والضعف يصدق على عشرة أمثال ودونها، كما بين سبحانه في سورة غافر ﴿قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا﴾ وهم القادة والمتبعون ﴿إِنَّا كُلٌّ فِيهَا إِنَّكَ اللَّهُ قَدْ حَكَمَ بَيْنَ الْعِبَادِ﴾ [غافر: ٤٨] فالجميع: التابع والمتبع، الكل في النار، سابقون ولحقون ﴿قَالَ لِكُلِّ ضِعْفٍ وَلَكِنْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ أن لكل ضعفاً، ولا تدركون أيها الأتباع ما لكل فريق منكم من العذاب والآلام، فإن من دعا إلى ضلالة كان عليه وزره ووزر من أضله بما لا ينقص من أوزارهم شيء.

ولا يعلم كلا الفريقين قدر ما أُعِدَّ لهم من عذاب الله، قال تعالى: ﴿لَوْ يَعْلَمُ الَّذِينَ كَفَرُوا حِينَ لَا يَكْفُوتُ عَنْ وُجُوهِِهِمُ النَّارَ وَلَا عَنْ ظُهُورِهِمْ وَلَا هُمْ يُنْصَرُونَ﴾ ﴿٣٩﴾ بَلْ تَأْتِيهِمْ بَغْتَةً فَتَبْهَتُهُمْ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ رَدَّهَا وَلَا هُمْ يُنْظَرُونَ ﴿٤٠﴾ [الأنبياء]

وقال: ﴿وَلِيَحْمِلُوا أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالًا مَّعَ أَثْقَالِهِمْ وَلَيَسْئَلَنَّ يَوْمَ الْقِيَمَةِ عَمَّا كَانُوا يَفْعَلُونَ﴾ ﴿٤١﴾ [العنكبوت] وقال جل شأنه: ﴿لِيَحْمِلُوا أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ الْقِيَمَةِ وَمِنْ أَوْزَارِ الَّذِينَ يُضِلُّونَهُمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ أَلَا سَاءَ مَا يَزُرُونَ﴾ ﴿٤٢﴾ [النحل].

وفي يوم القيامة يتبرأ هؤلاء من أولئك ويلعن كل منهم الآخر ﴿ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَمَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ وَلَيَعَنُ بَعْضُكُم بَعْضًا وَمَأْوَاكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُم مِّنْ نَّصِيرِينَ﴾

[العنكبوت: ٢٥] وذلك لأن السبب الذي يمكنهم من إضلالهم، كونهم سادتهم وكبراءهم، والفقراء والضعفاء يُطيعون السادة والكبراء فيما يأمرونهم به.

وفي يوم القيامة يسأل الأتباع ربهم أن يضاعف العذاب للمتبعين، مع أن مضاعفة العذاب لهم لا تنفعهم في شيء، ولا تخفف عنهم شيئاً من العذاب، كما قال تعالى: ﴿وَلَنْ يَنْفَعَكُمْ يَوْمَئِذٍ إِذْ ظَلَمْتُمْ أَنَّكُمْ فِي الْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ﴾ [الزخرف] قال تعالى:

٣٩- ﴿وَقَالَتْ أُولَئِهِمْ لِأَخْرَجَهُمْ فَمَا كَانَتْ لَكُمْ عَلَيْنَا مِنْ فَضْلٍ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْسِبُونَ﴾

أي قال الرؤساء للاتباع، وهم الذين دخلوا النار أولاً، أو قال المتبعون للاتباع: أنتم لا فضل لكم علينا يقتضي تخفيف العذاب عنكم، فلم تنتفعوا حين جاءكم الرسل، بل دمتم على الكفر، فحن وأنتم سواء، نستوي في العذاب كما استوينا في البلاغ، لقد ضللتم كما ضللنا، وكفرتم كما كفرنا، مع وجود الرسل والكتب والعقل لنا ولكم، فلماذا لم تؤمنوا؟ فلا فضل لكم علينا، بل نستوي في الاستحقاق لعذاب الله، يقول سبحانه: ﴿فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْسِبُونَ﴾ أي بسبب ما ارتكبتم من المعاصي.

ومن المعلوم أن عذاب أئمة الضلال أبلغ وأشنع من عذاب الأتباع، كما أن نعيم أئمة الهدى أعظم من ثواب الأتباع، قال تعالى ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ زِدْنَاهُمْ عَذَابًا فَوْقَ الْعَذَابِ بِمَا كَانُوا يُفْسِدُونَ﴾ [النحل: ٨٨].

والمعنى: أن الله تعالى يذكر قول القادة لأتباعهم يوم القيامة، ويذكر قول الأتباع للقادة فيقولون لهم ذلك في مشهد التلاحم والعتاب، أو مشهد الخصام والجدال والتبرؤ، يوم يتبرأ كل من الآخر، ويتنصل منه، ويلقي بالتبعة واللوم على غيره.

هذا المشهد ذكره القرآن الكريم نحو عشر مرات، وهو مشهد التلاوم والتبرؤ بين أهل النار يوم القيامة؛ حيث قال تعالى:

١- ﴿إِذْ تَبَرَّأَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا وَرَأَوُا الْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ الْأَسْبَابُ﴾ [البقرة] وَقَالَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا لَوْ أَنَّا كَرِهْنَا فَنَتَبَرَّأَ مِنْهُمْ كَمَا تَبَرَّءُوا مِنَّا كَذَلِكَ يُرِيهِمُ اللَّهُ أَعْمَالَهُمْ حَسَرَاتٍ عَلَيْهِمْ وَمَا هُمْ بِخَارِجِينَ مِنَ النَّارِ [البقرة].

٢- وقال تعالى: ﴿قَالَ ادْخُلُوا فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِكُمْ مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ فِي النَّارِ كُلَّمَا

دَخَلَتْ أُمَّةٌ لَنْتَ أَخْنَهٗا حَتَّىٰ إِذَا آذَرَكُمَا فِيهَا جَمِيعًا قَالَتْ أَخْرِثُهُمْ لِأُولَٰئِهِمْ رَبَّنَا هَٰؤُلَاءِ أَضَلُّونَا فَتَنَانِهِمْ عَذَابًا ضِعْفًا مِّنَ النَّارِ قَالَ لِكُلِّ ضِعْفٌ وَلٰكِنْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٣٨﴾ وَقَالَتْ أُولَٰئِهِمْ لِأَخْرِثُهُمْ فَمَا كَانَتْ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْسِبُونَ ﴿٣٩﴾ [الأعراف].

٣- وقال تعالى: ﴿وَيَذَرُوا لِلَّهِ جَمِيعًا فَقَالَ الضُّعِفَتَوُا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنْتُمْ مُّعْتَدُونَ عَنَّا مِّنْ عَذَابِ اللَّهِ مِن شَيْءٍ قَالُوا لَوْ هَدَدَنَا اللَّهُ هَدَيْنَاكُمْ سَوَاءٌ عَلَيْنَا أُمْسِرْنَا أَمْ صَبَرْنَا مَا لَنَا مِنْ مَّحِيصٍ ﴿٣٨﴾ وَقَالَ الشَّيْطَانُ لَمَّا قُضِيَ الْأَمْرُ إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ وَعَدْتُكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ وَمَا كَانَ لِي عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ إِلَّا أَن دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي فَلَا تَلُمُونِي وَلُومُوا أَنفُسَكُمْ مَا أَنَا بِمُصْرِخِكُمْ وَمَا أَنَا بِمُصْرِخَتِي إِيَّاهُمْ كَفَرْتُمْ بِمَا أَشْرَكْتُمُونِ مِن قَبْلِ إِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٣٩﴾﴾ [إبراهيم].

٤- وقال جل شأنه: ﴿يَوْمَ ثَقُلَتْ وُجُوهُهُمْ فِي النَّارِ يَقُولُونَ يَلَيْتَنَّا أَطَعْنَا اللَّهَ وَأَطَعْنَا الرَّسُولَ ﴿٣٨﴾ وَقَالُوا رَبَّنَا إِنَّا أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكِبَرَاءَنَا فَأَضَلُّونَا السَّبِيلَ ﴿٣٩﴾ رَبَّنَا آتِنَاهُمْ فِي عَذَابِهِمْ عَذَابَ الْغَاثِ ﴿٤٠﴾﴾ [الأحزاب].

٥- وقال تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَن نُّؤْمِرَ بِهَٰذَا الْقُرْآنِ وَلَا بِالَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَلَوْ رَرَيْتُمُ الْمُظْلِمُونَ مَوْفُوتُونَ عِنْدَ رَبِّهِمْ يَرْجِعُ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ الْقَوْلَ يَقُولُ الَّذِينَ اسْتَضِعُّوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا لَوْلَا أَنْتُمْ لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ ﴿٣٨﴾ قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا لِلَّذِينَ اسْتَضِعُّوا أَنْخُنْ صَدَقْتُمُ عَنِ الْهَدْيِ بَعْدَ إِذْ جَاءَكُمْ بَلْ كُنْتُمْ شَجِرِينَ ﴿٣٩﴾ وَقَالَ الَّذِينَ اسْتَضِعُّوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا بَلْ مَكْرُ الْأَيْلِ وَالنَّهَارِ إِذْ تَأْمُرُونَنَا أَنْ نَكْفُرَ بِاللَّهِ وَنَجْعَلَ لَهُ أَندَادًا وَأَسْرُوا النَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا الْعَذَابَ وَجَعَلْنَا الْأَعْدَلَ فِي أَغْنَاقِ الَّذِينَ كَفَرُوا هَلْ يُحْزَنُونَ إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٤٠﴾﴾ [سبا].

٦- وقال جل وعلا: ﴿وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ ﴿٣٨﴾ قَالُوا إِنَّكُمْ كُنْتُمْ تَأْتُونَنَا عَنِ الْيَمِينِ ﴿٣٩﴾ قَالُوا بَلْ لَمْ تَكُونُوا مُؤْمِنِينَ ﴿٤٠﴾ وَمَا كَانَ لَنَا عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ بَلْ كُنْتُمْ قَوْمًا طَٰغِينَ ﴿٤١﴾ فَحَقَّ عَلَيْنَا قَوْلُ رَبِّنَا إِنَّا لَذَٰئِقُونَ ﴿٤٢﴾ فَأَعْوَبْتُمْ إِيَّاهُ كَمَا غَوَيْنَ ﴿٤٣﴾ فَأَنَّهُمْ يَوْمَئِذٍ فِي الْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ ﴿٤٤﴾ إِنَّا كَذٰلِكَ نَفْعَلُ بِالْمُجْرِمِينَ ﴿٤٥﴾ إِنَّهُمْ كَانُوا إِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ ﴿٤٦﴾﴾ [الصافات].

٧- وقال أيضًا: ﴿وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ ﴿٥٠﴾ قَالَ قَائِلٌ مِّنْهُمْ إِنِّي كَانَ لِي قَرِينٌ ﴿٥١﴾ يَقُولُ أَتَذَكَّرُ ﴿٥٢﴾ لَيْنَ الْمُصَدِّقِينَ ﴿٥٣﴾ أَهَذَا مِنَّا وَكُنَّا تُرَابًا وَعَظْمًا أَوَّٰهًا لَمَدِينُونَ ﴿٥٤﴾ قَالَ هَلْ أَنْتُمْ مُّطَّلِعُونَ ﴿٥٥﴾ فَاطَّلَعَ فَرَآهُ فِي سَوَاءٍ الْجَحِيمِ ﴿٥٦﴾ قَالَ تَاللَّهِ إِن كِدْتَ لَتُرْدِينَ ﴿٥٧﴾ وَلَوْلَا نِعْمَةُ رَبِّي لَكُنْتُ مِنَ الْمُحْضَرِينَ ﴿٥٨﴾﴾ [الصافات].

٨- وقال ﷺ: ﴿هَذَا فَوْجٌ مُّقْتَحِمٌ مَّعَكُمْ لَا مَرْجَاَ بِهِمْ مِنْهُمُ صَالُوا النَّارَ ۖ﴾ (٥٩) قَالُوا بَلْ أَنْتُمْ لَا مَرْجَاَ بِكُمْ أَنْتُمْ قَدْ مَتَمُّوهُ لَنَا فَيَسِّرَ الْفَرَارُ ۖ﴾ (٦٠) قَالُوا رَبَّنَا مَنْ قَدَّمَ لَنَا هَذَا فَزِدْهُ عَذَابًا ضِعْفًا فِي النَّارِ ۖ﴾ (٦١) وَقَالُوا مَا لَنَا لَا نَرَى رِجَالًا كُنَّا نَعُدُّهُمْ مِنَ الْأَشْرَارِ ۖ﴾ (٦٢) أَخَذَتْهُمُ سَحَابًا أَمْ رَأَتْ عَنْهُمْ الْأَبْصَارُ ۖ﴾ (٦٣) إِنَّ ذَلِكَ لَحَقٌّ تَخَاصُّمُ أَهْلِ النَّارِ ۖ﴾ (٦٤) [ص].

٩- وقال سبحانه: ﴿وَإِذْ يَتَحَاوَرُونَ فِي النَّارِ فَيَقُولُ الضُّعَفَاءُ لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنْتُمْ مُغْنُونَ عَنَّا نَصِيبًا مِنَ النَّارِ ۖ﴾ (٤٧) قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُلٌّ فِيهَا إِنَّكَ اللَّهُ قَدْ حَكَمَ بَيْنَ الْعِبَادِ ۖ﴾ (٤٨) وَقَالَ الَّذِينَ فِي النَّارِ لِخَزَنَةِ جَهَنَّمَ ادْعُوا رَبَّكُمْ يُخَفِّفْ عَنَّا يَوْمًا مِنَ الْعَذَابِ ۖ﴾ (٤٩) قَالُوا أَوَلَمْ تَأْتِيَكُمُ رُسُلُكُمْ بِالْبَيِّنَاتِ قَالُوا بَلَى قَالُوا فَادْعُوا وَمَا دُعَاؤُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ ۖ﴾ (٥٠) [غافر].

والمشهد نفسه يُذكر بإيجاز وبإسهاب من موقف لآخر، ومن سورة لأخرى، وهو يصور حالة الكفار حين يدخلون النار.

ويتلخص من مجموع هذه المواقف:

(أ) أن الكافر بعد دخوله جهنم يبحث كيف يخرج من النار، فهو يريد أن يُردَّ للعالم مرة ثانية؛ ليتدارك ما فاتته، ويعمل عملاً صالحاً ﴿يُرِيدُونَ أَنْ يُخْرِجُوكَ مِنَ النَّارِ وَمَا هُمْ بِخَارِجِينَ مِنْهَا وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّقِيمٌ ۖ﴾ (٣٧) [المائدة: ٣٧]

﴿وَرَأَى الظَّالِمِينَ لَمَّا رَأَوْا الْعَذَابَ يَقُولُوكَ هَلْ إِلَى مَرَدٍّ مِنْ سَبِيلٍ﴾ [الشورى: ٤٤]

هل من عودة إلى الدنيا مرة أخرى؟ ﴿وَهُمْ يَصْطَرِحُونَ فِيهَا﴾ أهل النار يتعاونون في النار، ويصطلون بلهيبها ويقولون: ﴿رَبَّنَا أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا﴾ أعدنا إلى الدنيا نعمل عملاً صالحاً ﴿غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ﴾؟ فيكون الجواب ﴿أَوَلَمْ نَعْمَرْكُمْ مَا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَنْ تَذَكَّرْ﴾ أي: أعطيناكم عمراً وأجلاً طويلاً، اعتبر في من اعتبر، وانتفع فيه من انتفع، واتعظ فيه من اتعظ، فلم تعتبروا ولم تتفعلوا ﴿وَحَاءَكُمْ النَّذِيرُ﴾ وهو الشيب، فالشعر حين يشيب يكون نذيراً للموت، وحين يأتي نذير الموت فإنه يكون علامة للإنسان أنه قد دنا أجله، وعليه أن يقترب من الله سبحانه.

وقيل: إن النذير هو رسول الله ﷺ وكتابه الذي بين أيديكم ﴿فَذُوقُوا فَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ

نَصِيرٍ ﴿فَاطِر: ٣٧﴾ لقد تقطعت بهم أسباب العودة إلى الدنيا.

(ب) وبعد هذه المحاولة للخروج من النار، يذهبون إلى خزنة جهنم، كما يذهب السجين إلى حراس السجن يطلب منهم المساعدة، أن يخففوا عنه شيئاً من العذاب، بعد فقد الأمل في الخروج من السجن، فيذهب أهل النار إلى خزنة جهنم يسألونهم ذلك ﴿وَقَالَ الَّذِينَ فِي النَّارِ لِخَزَنَةِ جَهَنَّمَ ادْعُوا رَبَّكُمْ يُخَفِّفْ عَنَّا يَوْمًا مِّنَ الْعَذَابِ ﴿٤٩﴾﴾ [غافر] يطلبون منهم التخفيف من العذاب عنهم ولو للحظة، ولو لساعة، ولو ليوم واحد، أي شيء يخفف عنهم من العذاب ﴿قَالُوا أَوَلَمْ تَكُ تَأْتِيكُمُ رُسُلُكُمْ بِالْبَيِّنَاتِ؟ فَبَلَّغْتُمْ هَذَا وَأَخْبَرْتُمْ بِهِ﴾ ﴿قَالُوا بَلَىٰ قَالُوا فَادْعُوا وَمَا دُعَاتُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ﴾ [غافر: ٥٠]

لا ينفعكم شيء في هذا اليوم، وكلامكم لا يفيد، لقد انتهى وقته، وانتهى أوانه.

(ج) وبعد هذه المحاولة يذهب أهل النار إلى كبير الحراس، أو كبير الخزنة، يذهبون إلى (مالك) خازن النار، وحارسها الأكبر ﴿وَنَادَوْا يَمْلِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ﴾ ما دام الأمر كذلك، ولا مفر من عذاب الله، فإننا نريد أن نموت موتة واحدة، نريد أن نهلك، ولا يتجدد فينا العذاب بصفة مستمرة؛ فيجيبهم (مالك) بعد عام كامل ﴿إِنَّكُمْ مَكْنُوتٌ ﴿٧٧﴾﴾ لَقَدْ حَسَنَّا بِالْحَقِّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَكُمْ لِلْحَقِّ كَرِهُونَ ﴿٧٨﴾﴾ [الزخرف].

(د) ثم يحاول الكفار أن يقدوا أنفسهم من عذاب الله، كما يدفع الإنسان كفالة في الدنيا؛ فيفدي نفسه من الحبس بشيء من المال أو نحوه، كما قال تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُ مَعَهُ لَافْتَدَوْا بِهِ مِنْ سُوءِ الْعَذَابِ يَوْمَ الْقِيَمَةِ﴾ [الزمر: ٤٧] أي: لو أنهم كانوا يملكون الدنيا في أيديهم، وكانت أموالها وجبالها ذهباً؛ ليفدوا بها أنفسهم من عذاب الله لفعلوا ذلك، ولكنه لا جدوى فيه.

(هـ) ثم يكون الجواب الأخير والمصير المحتوم كما صورته ربنا في قوله: ﴿وَلَهُمْ مَقَامِعٌ مِّنْ حَدِيدٍ ﴿٨١﴾ كُلَّمَا أَرَادُوا أَن يَخْرُجُوا مِنْهَا مِنْ غَمٍّ أُعِيدُوا فِيهَا وَذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ ﴿٨٢﴾﴾ [الحج] ﴿وَقِيلَ لَهُمْ ذُوقُوا عَذَابَ النَّارِ الَّتِي كُنتُمْ بِهِ تُكَذِّبُونَ﴾ [السجدة: ٢٠]

لقد كنتم في الدنيا لا تصدقون باليوم الآخر وما فيه، وكنتم في غفلة حين تُتلى عليكم هذه الآيات، فتمرون عليها وكأن شيئاً لم يكن.

وفي هذا التلاوم بين المتبعين والمبتدعين موعظة وتحذير لقادة المسلمين وكبرائهم ألا يكونوا قدوة لغيرهم في الضلال والطغيان، والخروج على منهج الله، وتحذير لعامة الناس ألا يقلدوا غيرهم في الضلال، وأن يتبعوا سبيل الهدى والرشاد.

استحالة دخول الجنة لمن مات على الكفر

٤٠- ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَذَبُوا بِآيَاتِنَا وَاسْتَكْبَرُوا عَنْهَا لَا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَابُ السَّمَاءِ وَلَا يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ حَتَّى يَلِجَ الْجَمَلُ فِي سَمِّ الْخِيَاطِ وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُجْرِمِينَ ﴿١٠﴾﴾

تبيّن هذه الآية استحالة دخول الجنة لمن مات على كفره، فتسد عليهم أبواب الخير، وتبين أسباب حرمانهم من النجاة، والله سبحانه يبين أن الكافر الظالم المكذب بآيات الله، الذي افترى على الله الكذب، لا يقبل منه عمل صالح، ولا يفتح لعمله الصالح أبواب السماء؛ لأن الأصل غير موجود، -وهو الإيمان- فما يترتب على الكفر من عمل صالح لا فائدة منه ﴿وَقَدِمْنَا إِلَى مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَنْثُورًا ﴿١١﴾﴾ [الفرقان].

فهو إذا دعا لا تُجاب دعوته، وإذا قال كلاماً حسناً لا يقبل منه، وإذا مات فإن روحه الخبيثة لا يفتح لها أبواب السماء، إن العمل الصالح الذي يقدمه الكافر يُلف كالخرقة البالية، ويضرب به وجهه، فإذا مات لا يدخل الجنة.

﴿إِنَّ الَّذِينَ كَذَبُوا بِآيَاتِنَا وَاسْتَكْبَرُوا عَنْهَا﴾ فكفروا بها، وجحدوها واستكبروا عن الإيمان بها، ولم يصدقوا بالبراهين الدالة على وحدانية الله تعالى، ولم يعملوا بشرعه كبراً واستعلاء، هؤلاء ﴿لَا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَابُ السَّمَاءِ﴾ بل تغلق دون أعمالهم، ودون أقوالهم، ودون دعائهم، فلا يقبل منهم شيء، وتغلق السماء دون صعود أرواحهم إليها عند الممات كما في الحديث، فالله تعالى لا يصعد إليه من الأعمال إلا ما كان صالحاً طيباً صادراً من عبد مؤمن ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ﴾ [فاطر: ١٠] ولا يصعد إليه سبحانه إلا كل روح طيبة مؤمنة، فالأرواح الخبيثة كالأعمال الخبيثة، لا تفتح لها أبواب السماء، فالكافر إذا مات فإن روحه تصعد تريد العروج إلى ربها

(١) قرأ أبو عمرو بقاء التانيث والتخفيف في (لا تفتح لهم)، وقرأ حمزة والكسائي وخلف العاشر بياء التذكير والتخفيف، وقرأ الباقون بقاء التانيث والتشديد.

فتستأذن فلا يؤذن لها؛ وبالمقابل فإن أرواح المؤمنين تفتح لها أبواب السماء حتى تعرج إلى الله وتصل إلى حيث أراد في العالم العلوي، فتبتهج بالقرب من ربها وتحظى بجنته ورضوانه.

ففي حديث البراء بن عازب رضي الله عنه ذُكر قبض الروح الفاجرة والصعود بها إلى السماء، قال رسول الله ﷺ: «... فيصعدون بها، فلا يمرون على ملائكة إلا قالوا: ما هذه الروح الخبيثة؟ فيقولون: فلان ابن فلان بأقبح أسمائه التي كان يُسمى بها في الدنيا، حتى يُنتهى بها إلى السماء الدنيا، فيُستفتح له، فلا يفتح» ثم قرأ رسول الله ﷺ: ﴿لَا تُفْنَحُ لَهُمْ أَبْوَابُ السَّمَاءِ وَلَا يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ حَتَّى يَلِجَ الْجَمَلُ فِي سَمِّ الْخِيَاطِ﴾ فيقول الله ﷻ: اكتبوا كتابه في سجين، في الأرض السفلى، فتطرح روحه طرْحًا» ثم قرأ: ﴿وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنْ السَّمَاءِ فَتَخْطَفُهُ الطَّيْرُ أَوْ تَهْوِي بِهِ الرِّيحُ فِي مَكَانٍ سَحِيقٍ﴾ [الحج: ٣١] فتعاد روحه في جسده، ويأتيه ملكان فيجلسانه فيقولان له: من ربك... الحديث^(١).

وأخرج ابن ماجة عن سعيد بن يسار عن أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «الميت تحضره الملائكة، فإذا كان الرجل صالحًا، قالوا: اخرجي أيتها النفس الطيبة، كانت في الجسد الطيب، اخرجي حميدة، وأبشري بروح وريحان، ورب غير غضبان، فلا يزال يقال لها حتى تخرج، ثم يُعرج بها إلى السماء، فيفتح لها، فيقال: من هذا؟ فيقولون: فلان، فيقال: مرحبًا بالنفس الطيبة، كانت في الجسد الطيب، ادخلي حميدة، وأبشري بروح وريحان، ورب غير غضبان، فلا يزال يقال لها ذلك حتى يُنتهى بها إلى السماء التي فيها الله ﷻ، وإذا كان الرجل السوء، قالوا: اخرجي أيتها النفس الخبيثة، كانت في الجسد الخبيث، اخرجي ذميمة، وأبشري بحميم وغساق، وآخر من شكله أزواج، فلا يزال يقال لها ذلك حتى تخرج، ثم يُعرج بها إلى السماء، فلا يُفتح لها، فيقال: من هذا؟

(١) من حديث طويل أخرجه أحمد في «المسند» (٢٨٧/٤) برقم (١٨٥٣٦-١٨٥٣٤) إسناده صحيح ورجاله رجال الصحيح (محققوه) وأبو داود في الجائز (٣٢١٢) و«صحيح سنن أبي داود» (٢٧٥١) والطيالسي (٧٨٩) وابن أبي شيبة (٣/٣١٠) والنسائي (٧٨/٤) وابن ماجة في الجائز (١٥٤٨) وابن أبي حاتم (٨٤٦٥) و«تفسير الطبري» (٤٢٤/١٢) وبرقم (١٤٦١٤) و«المستدرک» (٣٧/١) قال الحاكم: حديث صحيح على شرط الشيخين ووافقه الذهبي، وقال البيهقي في «شعب الإيمان» (٣١٦/٢): هذا حديث صحيح الإسناد، وصححه القرطبي وابن القيم والألباني.

فيقال: فلان، فيقال: لا مرحباً بالنفس الخبيثة، كانت في الجسد الخبيث، ارجعي ذميمة، فإنها لا تفتح لك أبواب السماء، فيرسل بها إلى السماء، ثم تصير إلى القبر^(١).

وقد علّق الله سبحانه دخول الكافر الجنة على أمرٍ مستحيلٍ؛ وهو دخول الجمل في ثقب الإبرة، وهو أضيق المنافذ، والجمل أكبر الحيوانات جسمًا عند العرب؛ ودخوله في ثقب الإبرة أمرٌ مُحال، فكانَ هذا نفيًا لدخول الكافر الجنة على وجه التأييد، حتى يدخل الجمل في خرم الإبرة، ﴿وَلَا يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ حَتَّى يَلِجَ الْجَمَلُ فِي سَمِّ الْخِيَاطِ﴾.

وقيل: إن المراد بالجمل هو الحبل الغليظ الذي تُجرُّ به السفن، بناءً على قراءة شاذة بضم الجيم وتشديد الميم مفتوحة^(٢).

قال تعالى ﴿إِنَّهُمْ مَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَهُ النَّارُ﴾ [المائدة: ٧٢].

ثم قال تعالى ﴿وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُجْرِمِينَ﴾ أي: الظالمين الكافرين المكذّبين الذين كثر إجرامهم واشتد طغيانهم. قال تعالى في وصف عذاب المجرمين الظالمين:

٤١- ﴿لَهُمْ مِنْ جَهَنَّمَ مِهَادٌ وَمِنْ فَوْقِهِمْ غَوَاشٍ وَكَذَلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ﴾

ثم وصف الله سبحانه عذاب مَنْ ماتوا على الكفر والتكذيب، فبينَ جل شأنه أنهم يفرشون نار جهنم ويلتحفون بها، فهي لهم فَرْشٌ وغطاءٌ ﴿لَهُمْ مِنْ جَهَنَّمَ مِهَادٌ﴾ فراشهم النار، وغطاؤهم أيضًا النار يلتحفون بها، فهي لهم فراش ومسكن ومضجع يتمهدونه، وهي لهم غطاء وستر، تغشاهم وتحيط بهم من فوقهم ومن تحتهم، كما قال تعالى: ﴿وَمِنْ

(١) «سنن ابن ماجه» برقم (٤٢٦٢) كتاب الزهد، قال البوصيري: هذا إسناد صحيح ورجاله ثقات، ورواه النسائي في التفسير برقم (٤٦٢) وصححه الألباني في «صحيح ابن ماجه» برقم (٣٤٣٧) وأخرجه أحمد في «المسند» (٣٦٤/٢) برقم (٨٧٦٩) وإسناده صحيح على شرط الشيخين (محققوه) وقال الشيخ أحمد شاكِر في «تفسير الطبري» (٤٢٤/١٢): وهذا خبر صحيح، ورقمه (١٤٦١٥، ١٤٦١٦) وصححه الحاكم في «المستدرک» (٣٧/١) ووافقه الذهبي وهو في «السنن الكبرى» للنسائي برقم (١١٤٤٢) وابن حبان (٣٠١٤).

(٢) وهي قراءة شاذة لابن محيصة، كما في «إتحاف فضلاء البشر» (١/٢٢٤).

فَوَقَّهْمَ عَوَاشِرَ ﴿٤١﴾ وقريب من هذه الآية قوله تعالى: ﴿لَهُمْ مِّنْ فَوْقِهِمْ ظُلَلٌ مِّنَ النَّارِ وَمِنْ تَحْتِهِمْ ظُلَلٌ﴾ [الزمر: ١٦].

وهذا تصوير لهيئة أهل النار فيها، وهم يفترشونها ويلتحفونها، فهم مخلدون فيها أبداً، ويمثل هذا العقاب الشديد نعاقب كل من كفر بالله وأشرك به ﴿وَكَذَلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ﴾ والظالمون في الآية: هم المشركون الذين عبدوا غير الله سبحانه.

دُخُولُ الْمُؤْمِنِينَ الْجَنَّةَ وَنَزْعُ مَا فِي صُدُورِهِمْ مِنْ ضَغَائِنَ

٤٢- ﴿وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٤٢﴾﴾

وشأن القرآن الكريم أن يذكر الجنة إلى جوار النار، ويذكر الوعد إلى جوار الوعيد، والترهيب إلى جوار الترغيب، وقد ذكر القرآن في الآيات السابقة أحوال الكفار يوم القيامة، فناسب هذا أن يذكر سبحانه أحوال المؤمنين، وما أعدّه لهم في جنات النعيم، فإذا كان أصحاب النار هم فيها خالدون، فإن المؤمنين الذين يعملون الصالحات في حدود طاقاتهم، فجمعوا بين الإيمان والعمل الصالح، وجمعوا بين فعل الواجبات والمستحبات وترك المنهيات، هؤلاء هم أصحاب الجنة هم فيها خالدون، ماكنون فيها أبداً؛ لأنهم أقرؤا بوحدانية الله تعالى، وصدّقوا رسوله ﷺ، وامثلوا أمر الله واجتنبوا نهيه.

وجملة ﴿لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ جملة معترضة بين العمل الصالح وبين الجزاء المعد لهم في الآخرة وهو الجنة، وهذه الجملة تفيد أن الله سبحانه لم يكلف المؤمنين أن يعملوا فوق طاقتهم، وأن هذا العمل الذي أوصلهم إلى الجنة، هو في قدرتهم وطاقاتهم ووسعهم، ودخولهم الجنة إنما هو بفضل الله ورحمته.

وقال سبحانه ﴿لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا مَّا ءَاتَتْهَا﴾ [الطلاق: ٧]

وقال جل شأنه ﴿وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ﴾ [الحج: ٧٨]

وقال عز وجل ﴿فَأَقْوَ اللَّهُ مَا اسْتَطَعْتُمْ﴾ [التغابن: ١٦] فلا واجب مع العجز، ولا محرم مع الضرورة. قال تعالى ﴿لَا يَكُلِفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ [البقرة: ٢٨٦].

وقد استحق المؤمنون الصالحون الجنة وورثوها دون غيرهم؛ بسبب أعمالهم الصالحة قدر طاقتهم؛ جزاء طاعتهم لله تعالى وعصيانهم للشيطان، ولولا فضل الله ورحمته ما كان عملهم الصالح مكافئاً لنعمة واحدة من نعم الله عليهم في الدنيا؛ كنعمة السمع أو البصر، ومع هذا فقد قِيلَ الله منهم جُهد المقلِّ، وكتبَ لهم الجنة برحمته.

قال أبو حيان: وفائدة التنبيه على أن ذلك العمل في وسعهم وغير خارج عن قدرتهم، فيه تنبيه للكفار على أن الجنة مع عظم ما فيها يُتَوَصَّلُ إليها بالعمل السهل من غير مشقة^(١).

والمتصفون بالإيمان والعمل الصالح مخلدون في الجنة لا يحولون عنها ولا يزولون، ولا ييغون عنها حولا، لأنهم يرون فيها من ألوان النعيم ما تقف عنده الغايات، ولا يطلب أعلى منه. قال تعالى:

٤٣ - ﴿وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِمْ مِنْ غِلٍّ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمْ^(٢) أَنْهَارٌ وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هَدَانَا لِهَذَا^(٣) وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَوْلَا أَنَّ هَدَانَا اللَّهُ لَقَدْ جَاءَتْ رَسُولُ رَبِّنَا بِالْحَقِّ وَتُودُوا أَنْ تُلَكُمُ الْجَنَّةَ أُورِثْتُمُوهَا^(٤) يَمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾

ثم أخبر سبحانه عن نقاء قلوب أهل الجنة من الغل والحقد والحسد الذي كان موجودا في الدنيا حتى يكونوا إخوة متحابين، فإذا كان أهل النار يتلاعنون فيها، ويتبرأ بعضهم من بعض، وصدورهم تغلي بالأحقاد والضغائن، بعد أن كانوا في الدنيا أخلاء أصدقاء، فإن أهل الجنة يكونون أخوة متحابين، ليس في قلوبهم غل ولا حقد ولا حسد لبعضهم، كما

(١) «البحر المحيط» (٢٩٨/٤).

(٢) قرأ أبو عمرو ويعقوب بكسر الهاء والميم من (تحتهم الأنهار) وضمهما حمزة والكسائي وخلف، وكسر الهاء وضم الميم الباقون، والجميع يسكون الميم عند الوقف على (تحتهم).

(٣) قرأ ابن عامر بحذف الواو، وفق رسم المصحف الشامي، من قوله تعالى: (وما كنا لنهتدي) على أن الجملة الثانية موضحة ومبينة للأولى، وقرأ الباقون بإثبات الواو على الاستثناف أو الحال.

(٤) قرأ أبو عمرو وهشام وحمزة والكسائي وابن ذكوان بخلف عنه بإدغام التاء في التاء من (أورثتموها)، والباقون بالإظهار، وهما لغتان.

قال تعالى: ﴿الْأَخْلَاءَ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا الْمُتَّقِينَ﴾ [الزخرف] وكما جاء في الآية التي معنا.

قال الشيخ الشنقيطي: ذَكَرَ الله سبحانه في هذه الآية أنه جل وعلا ينزع ما في صدور أهل الجنة من الحقد والحسد الذي كان في الدنيا، وأنهم تجري من تحتهم الأنهار في الجنة، وذَكَرَ تعالى في موضع آخر أن نَزَعَ الغل من صدورهم يقع حال كونهم إخوانًا على سرر متقابلين آمنين من النَّصَبِ والخروج من الجنة، وهو قوله تعالى: ﴿وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِمْ مِّنْ غِلٍّ إِخْوَانًا عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَابِلِينَ﴾ [٤٧] لَا يَمَسُّهُمْ فِيهَا نَصَبٌ وَمَا هُمْ مِنْهَا بِمُخْرَجِينَ [٤٨] [الحجر].

أحاديث وآثار في معنى الآية:

١- عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «إِذَا خَلَصَ الْمُؤْمِنُونَ مِنَ النَّارِ، حُبَسُوا عَلَى قَنْطَرَةٍ بَيْنَ الْجَنَّةِ وَالنَّارِ، فَيَتَقَاصُونَ مَظَالِمَ كَانَتْ بَيْنَهُمْ فِي الدُّنْيَا، حَتَّى إِذَا هُدُّبُوا وَنُقُوا، أَذِنَ اللَّهُ لَهُمْ فِي دُخُولِ الْجَنَّةِ، فَوَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، إِنْ أَحَدَكُمْ بِمَسْكَنَةٍ فِي الْجَنَّةِ أَدْلُ مِنْهُ بِمَنْزِلِهِ كَانَ فِي الدُّنْيَا»^(١).

٢- وعن علي رضي الله عنه قال: فِينَا وَاللَّهِ أَهْلُ بَدْرِ نَزَلَتْ: ﴿وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِمْ مِّنْ غِلٍّ﴾^(٢).

٣- وعن قتادة عن علي رضي الله عنه قال: إِنِّي لَا أَرْجُو أَنْ أَكُونَ أَنَا وَعِثْمَانُ وَطَلْحَةُ وَالزُّبَيْرُ مِنَ الَّذِينَ قَالَ اللَّهُ فِيهِمْ: ﴿وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِمْ مِّنْ غِلٍّ﴾^(٣).

٤- وعن السدي عن ابن عباس رضي الله عنه قال: إِنْ أَهْلَ الْجَنَّةِ إِذَا سَبَقُوا إِلَى الْجَنَّةِ فَبَلَّغُوا، يَجِدُونَ عِنْدَ بَابِهَا شَجَرَةً فِي أَصْلِ سَاقِهَا عَيْنَانِ، فَيَشْرَبُونَ مِنْ إِحْدَاهُمَا -وهي عين السلسيل- فَيَنْزِعُ اللَّهُ مَا فِي صُدُورِهِمْ مِنْ غِلٍّ، فَهُوَ الشَّرَابُ الطَّهُورُ، وَيَغْتَسِلُونَ مِنَ الْعَيْنِ الْآخَرَى -وهي عين التسنيم- فَلَنْ يَشْعُثُوا، وَلَنْ يَشْحَبُوا بَعْدَهَا أَبَدًا^(٤).

(١) «صحيح البخاري» بشرح الفتح ورقمه (٢٤٤٠) وانظر (٦٥٣٥) والطبري (٣٨/١٤).

(٢) أخرجه الطبري وعبد الرزاق بإسناد حسن «تفسير عبد الرزاق» (٢١٧/١) والطبري (١٩٩/١٠) وابن أبي حاتم (٨٤٦٧).

(٣) «تفسير الطبري» (٤٣٨/١٢) بإسناد مرسل؛ لأن قتادة لم يسمع من علي.

(٤) «تفسير البغوي» وابن الجوزي عن ابن عباس:

فتُشرق ألوانهم، وتصفو وجوههم، وتجري عليهم نضرة النعيم.

٥- وأخرج الطبري بسنده عن علي بن أبي طالب عليه السلام في قوله: ﴿وَسِيقَ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ إِلَى الْجَنَّةِ زُمَرًا﴾ [الزمر: ٧٣] قال: حتى إذا انتهوا إلى بابها، إذا هم بشجرة يخرج من أصلها عINAN، فعمدوا إلى إحداها فشربوا منها كأنما أمروا بها، فخرج ما في بطونهم من قَذَرٍ أو أذى أو قذى، ثم عمدوا إلى الأخرى، فتوضؤوا منها كأنما أمروا به، فجرت عليهم نضرة النعيم، فلن تشعث رؤوسهم بعدها أبدًا، ولن تبلى ثيابهم بعدها، ثم دخلوا الجنة، فتلقّتهم الولدان كأنهم اللؤلؤ المكنون، فيقولون: أبشر، أعد الله لك كذا، وأعد لك كذا وكذا، ثم ينظر إلى تأسيس بنيانه جندل اللؤلؤ الأحمر والأصفر والأخضر، يتلأأ كأنه البرق، فلولا أن الله قضى أن لا يذهب بصره لذهب، ثم يأتي بعضهم إلى بعض أزواجه، فيقول: أبشري قد قديم فلان ابن فلان، فيسميه باسمه واسم أبيه، فتقول: أنت رأيته، أنت رأيته! فيستخفها الفرح حتى تقوم، فتجلس على أسكفة بابها، فيدخل فيتكئ على سريره، ويقرأ هذه الآية ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هَدَانَا لِهَذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَوْلَا أَنْ هَدَانَا اللَّهُ﴾^(١).

ومن آثار نزع الغل والحقد من صدور أهل الجنة أن أهل الدرجة الدنيا في الجنة لا يحسدون أهل الدرجة العليا، وذلك من تمام النعمة عليهم، حتى تكتمل لهم اللذة والسرور، ولا يحصل هذا إلا إذا رضي الإنسان بما هو فيه، ولم يتطلع إلى مَنْ هو أعلى منه درجة أو درجات ﴿وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِمْ مِّنْ غِلٍّ﴾ والنزع: قلع الشيء من موضعه، ونزع الغل من قلوب أهل الجنة إزالة ما كان في قلوبهم في الدنيا من الغل عند تلقّي ما يسوؤهم من الناس، بحيث يُطهر الله نفوسهم عن الانفعال بالخواطر الشريرة، فلا تخطر لهم على بالٍ.

وليس الحسد من الغل، بل هو إحساس باطني آخر، وهذا التطهير من فضل الله تعالى ورحمته، فالغل والحقد والحسد والبغضاء، مرضٌ يَنْغُصُ النفوس، وينغُصُ القلوب ويشغلها، ويجعل الإنسان في هم وغم من إخوانه، وينكّد عليه حياته، وهذا الأمر ينزعه الله تعالى من قلوب عباده المؤمنين يوم القيامة، فلا يلج الغل على القلب المؤمن في

(١) «تفسير الطبري» (٣٥/٢٤) والضياء المقدسي برقم (٥٤١) قال محقق «المختارة»: إسناده صحيح، وقال ابن حجر في «المطالب العالية» (١٩٨): هذا حديث صحيح، وحكمه حكم الرفع؛ إذ لا مجال للرأي في هذه الأمور، وأخرجه ابن المبارك في الزهد ص ٥٠٨ وما بعدها، وعبد الرزاق في تفسير سورة الزمر.

الآخرة، ولا يلج الحسد أو البغضاء على قلب من دخل الجنة.

جاء في الأثر: الغل على أبواب الجنة كمبارك الإبل، قد نزع الله من قلب المؤمن.

فلا يجد في نفسه ضغينة أو حقداً لأخيه المؤمن، وهذه نعمة من الله سبحانه، يسبغها على أهل الجنة، فقد أذهب الله ما في صدورهم من حقد وضغائن.

ومن كمال نعيمهم أنهم ﴿تَجْرَى مِنْ تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ﴾ وهذا نوع من نعيم أهل الجنة، يفجرونها تفجيراً حيث شاؤوا وأين أرادوا، إن شاؤوا في القصور أو في الغرف أو في رياض الجنة من تحت الحدائق والأزهار في غير أخاديد، وهم في خيرات ونعيم لا يحدها حدود.

أما أهل النار فإن ﴿لَهُمْ مِنْ جَهَنَّمَ مِهَادٌ وَمِنْ فَوْقِهِمْ غَوَاشٍ﴾ أي: يفترون النار ويلتحفون بالنار، وأهل الجنة تجري من تحت قصورهم الأنهار، وهم يلهجون بالحمد والثناء والاعتراف لله سبحانه، حيث وفقهم لهذا العمل الصالح، الذي كان مثوبته هذا الجزاء، وهو الجنة التي هداهم الله لها، إنهم يحمدون الله تعالى، ويعترفون بنعمته عليهم.

وأهل النار يتخاصمون ويتجادلون فيها، وكلٌ منهم يُلقِي بالثُّمَّة والتبعة والمسؤولية على غيره، ويعترفون على أنفسهم بكفرهم ﴿وَشَهِدُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَافِرِينَ﴾ في حين يقول أهل الجنة وهم في الجنة: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هَدَانَا لِهَذَا﴾ العمل الصالح الذي مثوبته الجنة، فقد من الله علينا بالإيمان وصالح الأعمال الموصلة إلى الجنان، وهدانا إلى جنة عدن فأوحى إلى قلوبنا بمعرفة مكانها ﴿وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَوْلَا أَنْ هَدَانَا اللَّهُ﴾ أي: ما كنا لنوفق إلى هذا الطريق المستقيم لولا هداية الله لنا ببعثة الرسل وإنزال الكتب.

ولهذا قال أهل الجنة: ﴿لَقَدْ جَاءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِالْحَقِّ﴾ فأخبرونا بوعد أهل الطاعة، ووعيد أهل المعصية، وهذا صدق ما أخبر به الرسل، فمرجع الفضل منه وإليه سبحانه، هذا قول أهل الجنة.

والملائكة تنادي أهل الجنة؛ إكراماً لهم ﴿وَوُودُوا أَنْ تُلَكُمُ الْجَنَّةُ أَوْرِثْتُمُوهَا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ أي: كنتم الوارثين لها بما قدمتموه من الإيمان والعمل الصالح.

والميراث: هو ما يأتي للإنسان بدون عوض، وحين تراث أباك فأنت لا تعطيه شيئاً على هذا الميراث، وهذا الميراث منحة وهبة، يأتيك هكذا، دون جهد، وبدون مشقة، وبدون أن تقدم له عوضاً.

وكذلك الجنة، ميراث من الله سبحانه يمنحك إياها بلا عوض، وإلا فإن العمل الصالح الذي يعمل به المؤمن، لا يقابل نعمة واحدة أنعم الله بها على العبد من نعم الدنيا؛ لا يقابل نعمة البصر، ولا يقابل نعمة اللسان، ولا يقابل نعمة السمع، ولا يقابل حاسة الشم وهكذا.. ﴿وَمَا يَكُم مِّن نَّعْمَةٍ فَمِنَ اللَّهِ﴾ [النحل: ٥٣].

وفي الحديث عن أبي هريرة ؓ في الحديث القدسي: «أعددت لعبادي الصالحين ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر»^(١).

قال تعالى: ﴿يَعْبَادِ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ وَلَا أَنتُمْ تَحْزَنُونَ﴾ (١٨) الَّذِينَ ءَامَنُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا مُسْلِمِينَ ﴿١٩﴾ ادْخُلُوا الْجَنَّةَ أَنتُمْ وَأَزْوَاجُكُمُ تُحْبَرُونَ ﴿٢٠﴾ يُطَافُ عَلَيْهِمْ بِصِحَافٍ مِّن ذَهَبٍ وَأَكْوَابٍ وَفِيهَا مَا شَتَّهِهِ الْإِنْسُ وَتِلْكَ الْأَعْيُنُ وَأَنتُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٢١﴾ وَتِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٢٢﴾ لَكُمْ فِيهَا فَاكِهَةٌ كَثِيرَةٌ مِّنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿٢٣﴾﴾ [الزخرف]

وفي هذا ثناء من الله تعالى على أهل الجنة بأنه سبحانه أعطاهم هذا النعيم الخالد؛ لأجل أعمالهم الصالحة في الدنيا فرضى الله تعالى عنهم ورضوا عنه، وسلمهم من عقابه. ودخول المؤمن الجنة يكون بفضل الله تعالى ورحمته.

قال ﷺ فيما صح عنه من رواية عائشة ؓ: «سددوا وقاربوا، واعلموا أن أحدكم لن يدخله عمله الجنة» قالوا: ولا أنت يا رسول الله؟ قال: «ولا أنا، إلا أن يتغمدني الله برحمة منه وفضل»^(٢).

والإيمان مع العمل الصالح هو السبب لدخول الجنة، وهو سبب ميراث المؤمن لمكان الكافر في الجنة، كيف؟

إن الله ﷻ جعل لكل إنسان مكاناً في الجنة ومكاناً في النار، فقد خلق الله الإنسان

(١) من حديث أبي هريرة في البخاري (٣٢٤٤، ٤٧٧٩) وفي مسلم (٢٨٢٤).

(٢) ينظر: «صحيح البخاري» برقم (٦٤٦٣، ٦٤٦٧) ومسلم (٢١٦٩/٤) برقم (١٧٧، ٢٨١٦، ٢٨١٨) عن أبي هريرة رضي الله عنه، وأحمد (٢٥٦/٢) برقم (٨٢٥٠، ١١٠١٠) وعن عائشة برقم (٢٦٣٤٣) والدارمي (٣٠٥/٢) وابن ماجه في «الزهد» (٤٢٠١).

مستعدًا بفطرته للخير والشر، وجعله حُرًّا مختارًا، فإن اختار طريق الخير فله الجنة، وإن اختار طريق الشر فله النار.

فإذا مات على الكفر ودخل النار -والعياذ بالله- فإن مكانه الذي كان مُعدًّا له في الجنة يأخذه المؤمن، فالمؤمن يرث الكافر في هذه الحالة، وكذلك الكافر يأخذ مكان المؤمن في النار، هذا هو الميراث الأخروي، وهذا هو الغبن الذي قال الله عنه: ﴿ذَلِكَ يَوْمُ النَّعَابِ﴾ [التغابن: ٩] أي: الذي يغبن فيه الكفار، ويأخذ المؤمنون نصيبهم في الجنة.

عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «كل أهل الجنة يرى مقعده من النار فيقول: لولا أن الله هداني، فيكون له شكرًا، وكل أهل النار يرى مقعده في الجنة فيقول: لو أن الله هداني، فيكون عليه حسرة»^(١).

وعن أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «ما من أحد إلا وله منزل في الجنة، ومنزل في النار، فأما الكافر فإنه يرث المؤمن منزله من النار، والمؤمن يرث الكافر منزله من الجنة» زاد في رواية: «فذلك قوله تعالى: ﴿أَوْرَثْتُمُوهَا يَمَّا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾»^(٢).

والقرآن يعتبر المؤمن حيًّا، والكافر ميتًا؛ ولذا صح للمؤمن الحي أن يرث الكافر الميت، وقد جُعِلت الجنة للمؤمنين ثوابًا لهم جزاءً مستديمًا على أعمالهم.

جاء في صحيح مسلم وغيره عن أبي سعيد الخدري وأبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «إذا دخل أهل الجنة الجنة، نادى مناد: إن لكم أن تحيوا فلا تموتوا أبدًا، وإن لكم

(١) النسائي في تفسير سورة الزمر آية (٦٧) برقم (٤٧٤) وهو في «السنن الكبرى» برقم (١١٤٥٤) وفي «تحفة الأشراف» برقم (١٢٤٩٢) و«تفسير الطبري» (٤٤٠/٢) برقم (١٤٦٦٥) وصححه الحاكم (٢/٤٣٥) ووافقه الذهبي وأخرجه أحمد (٥١٢/٢) برقم (١٠٦٥٢) بإسناد صحيح على شرط البخاري (محققوه) وهو في صحيح الجامع برقم (٤٥١٤)، والبخاري (٦٥٦٩).

(٢) الطبري (٦/١٨) وابن أبي حاتم وأحمد كما قال الهيثمي في «مجمع الزوائد» (٣٩٩/١٠) وقال عنها: ورجاله رجال الصحيح، وقد سبق نحوه.

أَنْ تَصِحُّوا فَلَا تَسْقُمُوا أَبَدًا، وَإِنْ لَكُمْ أَنْ تَشْبُوا فَلَا تَهْرَمُوا أَبَدًا، وَإِنْ لَكُمْ أَنْ تَنْعَمُوا فَلَا تَبْأَسُوا أَبَدًا، فَذَلِكَ قَوْلُ اللَّهِ ﷻ: ﴿وَتُودُوا أَنْ تِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾^(١).

ودخول الجنة للمؤمنين بفضل الله تعالى ورحمته، وتقسيم المنازل والدرجات في الجنة يكون على قَدْرِ أعمالهم الصالحة في الدنيا التي يوفقهم الله إليها، ويهديهم إلى طريقها، فالكلُّ يدركه العبد برحمة الله تعالى وفضله.

قال القرطبي: ورثتم منازلها بعملكم، ودخولكم إياها برحمة الله وفضله^(٢).

وقال بعض السلف: أهل الجنة نجوا من النار بعفو الله، وأدخلوا الجنة برحمة الله، واقتسموا المنازل وورثوها بالأعمال الصالحة، وهي من رحمته تعالى.

(١) أخرجه أحمد بن حنبل بنحوه دون الآية في «المسند» (٩٥/٣) برقم (٨٢٥٨) إسناده صحيح على شرط مسلم ورجاله ثقات، والدارمي (٣٣٤/٢) ومسلم في الجنة برقم (٢٨٣٧) والترمذي في التفسير (٣٢٤٦) والنسائي في التفسير (٢٠٤) وابن جرير (١٣٤/٨) وابن أبي حاتم (٨٤٧٧) و«السنن الكبرى» للنسائي (١١١٨٤) وصححه الحاكم (٢١٧/١) على شرط مسلم ووافقه الذهبي.

(٢) «تفسير القرطبي» (٢٠٩/٧).

ثَلَاثَةُ حَوَارَاتٍ فِي أَرْضِ الْمَحْشَرِ وَالْمَنْشَرِ الْحَوَارُ الْأَوَّلُ: أَهْلُ الْجَنَّةِ يُحَاوِرُونَ أَهْلَ النَّارِ

٤٤ - ﴿وَأَدَّيْ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ أَصْحَابَ النَّارِ أَنْ قَدْ وَجَدْنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا حَقًّا فَهَلْ وَجَدْتُمْ مَا وَعَدَ رَبُّكُمْ حَقًّا قَالُوا نَعَمْ^(١) فَاذْنِ مُؤَذِّنٌ^(٢) بَيْنَهُمْ أَنْ^(٣) لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ ﴿٤٤﴾

ثم أخبر سبحانه عما يحدث بين أهل الجنة وأهل النار من حوار، ففي سورة الأعراف أطول مشهد من مشاهد يوم القيامة في القرآن الكريم، وفي هذا المشهد حوار بين أهل الجنة وأهل النار وأهل الأعراف، الذين ذُكروا مرة واحدة في هذه السورة وحدها، وهذا الحوار يكون بعد أن يستقر أهل الجنة في الجنة، وأهل النار في النار، ويجدوا صدق ما أخبرت به الرسل والكتب من الثواب والعقاب.

وقد ذكر الله ﷻ هذا المشهد في كتابه العزيز؛ ليبين لنا ونحن في دار الدنيا، في وقت السعة والمهلة قيمة الإيمان وأهميته، وخطر الكفر ووباله، وعاقبة كل منهما، حتى يتدارك العبد نفسه قبل أن يأتي يوم لا مرد له من الله.

فالحوار الأول يدور بين أهل الجنة وأهل النار بعدما استقر كل منهم في مكانه، فأهل الجنة يعلمون أن ما وعدهم به ربهم على ألسنة الرسل في كتبه المنزل عليهم حقٌّ

(١) قرأ الكسائي بكسر عين (نعم) على لغة كنانة وهذيل، وقرأ الباقون بفتح العين، وهي لغة بقية قبائل العرب، وقد وردت (نعم) بكسر العين عن عمر بن الخطاب عن النبي ﷺ وفي كتاب أبي حاتم عن الكسائي عن شيخ من ولد الزبير، قال: ما كنت أسمع أشياخ قريش يقولون: إلا (نعم) بكسر العين ثم فقدتها بعده، وفيه عن قتادة عن رجل من خثعم قال: قلت للنبي ﷺ: أنت تزعم أنك نبي؟ قال: (نعم) بكسر العين، وفيه عن أبي عثمان النهدي قال: سألت عمر عن شيء فقالوا: نعم، فقال عمر: النعم الإبل والشاء، قولوا: (نعم) بكسر العين، «تفسير ابن عطية» (٣٠٤/٢).

(٢) قرأ الأزرق عن ورش وأبو جعفر بإبدال الهمزة واوًا مفتوحة وصلًا ووقفًا، ووافقهما حمزة عند الوقف، وذلك في كلمة (مؤذن).

(٣) قرأ نافع وأبو عمرو وعاصم ويعقوب وقبل في أحد وجهيه بإسكان النون ورفع (لعنة) من قوله تعالى: (أن لعنة الله) على أن (أن) مخففة من الثقيلة واسمها ضمير الشأن، و (لعنة) مبتدأ، وقرأ الباقون بتشديد النون ونصب لعنة على أنها اسم إن، والجار والمجرور متعلق بمحذوف.

وصدق، وقد تحقق لهم ذلك النعيم الذي وعدهم الله إياه في الدنيا، ورأوه بأعينهم في الآخرة، وهم فيه يتمتعون، ويسألون أهل النار سؤال توبيخ وتقريع؛ ﴿أَنْ قَدْ وَجَدْنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا حَقًّا فَهَلْ وَجَدْتُمْ مَا وَعَدَ رَبُّكُمْ حَقًّا﴾ لأنهم كانوا في الدنيا يكذبونهم، ويكذبون لقاء الله تعالى في اليوم الآخر، ويكذبون البعث والحساب والجزاء.

ويكون هذا النداء بعد قيام الحجة على الكافرين، وثبوت فوز المؤمنين، وهو نداء يُسجل على أصحاب النار الخزي والحسرة والندامة حين يرون ما كذبوه في الدنيا أمراً واقعاً، وحين يرون نعيم أهل الجنة بعدما وجد كل من الفريقين ما وعدهم ربهم حقاً.

والمقصود من ذكر هذه الحوارات في القرآن الإعلام بما يكون في الآخرة من أمور الغيب، وفيها النعيم المقيم لأهل الجنة، والنهاية الأليمة لأهل النار، بما يهز المشاعر ويحرك النفوس؛ لسلوك الطريق القويم، وتجنب الطريق المعوجة.

فبعد نداء الله تعالى لأهل الجنة بما فيه سعادتهم وحسن مستقبلهم في قوله تعالى: ﴿وَنُودُوا أَنْ تِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ يأتي نداء أهل الجنة لأهل النار حينما يشاهدونهم، والظاهر أنه نداء لكل أهل النار من كل أهل الجنة، وفيه إعلام من الله تعالى بأن أهل النار مطرودون مبعدون من رحمة الله تعالى.

ولذلك فإن الملائكة توبيخهم حين تدفعهم إلى النار دفعاً، كما قال تعالى: ﴿يَوْمَ يُدْعَوْنَ إِلَىٰ نَارِ جَهَنَّمَ دَعَاً﴾ ﴿١٢﴾ وتقول لهم الملائكة: ﴿هَذِهِ النَّارُ الَّتِي كُنْتُمْ بِهَا تُكَذِّبُونَ﴾ ﴿١٣﴾ أفصح هذا ﴿كما كنتم تصفون قول محمد ﷺ في الدنيا ﴿أَمْ أَنْتُمْ لَا بُصُورَ﴾؟ [الطور] فلا ترون جهنم وهي ماثلة أمام أعينكم﴾ ﴿أَصْلَوْهَا الْيَوْمَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ﴾ ﴿١٤﴾ [يس] ﴿أَصْلَوْهَا فَاصْبِرُوا أَوْ لَا تَصْبِرُوا سَوَاءٌ عَلَيْكُمْ إِنَّمَا تُجْرَوْنَ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ ﴿١٥﴾ [الطور].

بدء الحوار:

وفي دار الثواب والعقاب يدور هذا الحوار: ﴿وَنَادَىٰ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ أَصْحَابَ النَّارِ أَنْ قَدْ وَجَدْنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا حَقًّا﴾ أي: أن ما وعدنا الله إياه في الدنيا على ألسنة الرسل من النعيم المقيم، على الإيمان والعمل الصالح، وجدناه حقاً وصدقاً فأدخلنا الله الجنة، ورأينا ما وصفه لنا في الدنيا ﴿فَهَلْ وَجَدْتُمْ﴾ أيها الكفار ﴿مَا وَعَدَ رَبُّكُمْ﴾ من العذاب في نار جهنم، على كفركم بالله وتكذيبكم رسوله؟ ﴿حَقًّا﴾؟ السؤال مرّ، والجواب عليه أمرٌ منه.

ولذلك فإن هذا الحوار لا مجال فيه للاعتراض، وليس هناك مجال للنقاش أو الاعتذار، فالأمر قد انتهى، والجنة ماثلة، والنار ماثلة، وهم فيها حقيقة، فلا وجه للمراء ولا للتراع، ولذلك فإن هذا الحوار ينتهي بكلمة واحدة ﴿قَالُوا نَعَمْ﴾ أي: وجدنا ما وعدنا ربنا حقاً من العذاب، وانتهى الأمر، فلا شك ولا شبهة، بل صار الأمر حق اليقين، ومن أصدق من الله قيلاً، لقد فرح المؤمنون بتحقيق وعد الله، وأيس الكافرون من نعيم الله، وأقروا على أنفسهم أنهم مستحقون لعذاب الله.

ومثل هذا التقرير جاء في القرآن الكريم عن الذي كان له قرين من الكفار، فالمؤمن الذي فاز يوم القيامة بدخول الجنة، ينكر على قرينه الكافر الذي كان معه في الدنيا ما قاله له من التشكيك في اليوم الآخر، وما فيه من بعث وحساب وجنة ونار، كما قال تعالى: ﴿قَالَ قَائِلٌ مِّنْهُمْ إِنِّي كَانَ لِي قَرِينٌ ﴿٥١﴾ يَقُولُ أَإِنَّكَ لَمِنَ الْمُصْذِقِينَ ﴿٥٢﴾ إِنَّا مِنَّا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظْمًا إِهْنَا لَمُذِبُونَ ﴿٥٣﴾ قَالَ هَلْ أُتِمُّ مُظْلَعُونَ ﴿٥٤﴾ فَأَطْلَعَ فَأَرَاهُ فِي سَوَاءٍ الْجَحِيمِ ﴿٥٥﴾ قَالَ تَاللَّهِ إِن كِدْتَ لَتُرْدِينَ ﴿٥٦﴾ وَلَوْلَا نِعْمَةُ رَبِّي لَكُنْتُ مِنَ الْمُخْضَرِينَ ﴿٥٧﴾ أَفَمَا نَحْنُ بِمَبْتَلِينَ ﴿٥٨﴾ إِلَّا مَوَازِنَ الْأُولَى وَمَا نَحْنُ بِمُعْزِينَ ﴿٥٩﴾﴾ [الصفات].

وهكذا وبَّخ الرسول ﷺ قتلى القلب يوم بدر حين ناداهم بأسمائهم وقال: «فهل وجدتم ما وعد ربكم حقاً فإني وجدت ما وعدني ربي حقاً» قال عمر: يا رسول الله، تخاطب قومنا قد جَيِّقُوا؟ فقال: «والذي نفسي بيده، ما أنتم بأسمع لما أقول منهم، ولكن لا يستطيعون أن يجيبوا»^(١).

وبعد وجود الأقمار الصناعية والمذياع والتلفاز والهاتف والناسوخ... إلخ، لا يستبعد أحد قدرة الله تعالى على تبليغ أصوات أهل الجنة لأهل النار وبالعكس، مهما بُعدت المسافات، ومهما كان الحاجز حصيئاً، أو كانت الجنة في العالم العلوي والنار في العالم السفلي.

وبعد هذا الحوار ينادي منادٍ من الملائكة -بين أهل الجنة وأهل النار- فيعلن أن لعنة

(١) الحديث بنحوه في «صحيح البخاري» برقم (٣٩٨٠) و (١٣٧٠) وابن أبي شيبة (٣٧٧/١٤) ومسلم (٤/

٢٢٠٣) برقم (٩٣٢) من حديث عبد الله بن عمر، وعن أبي طلحة (٢٢٠٤) عن أنس رضي الله عنه.

الله وغضبه قد حلت على الكافرين الظالمين، الذين تجاوزوا حدود الله وكفروا بالله ورسله، فهم إلى جوار دخولهم النار في مقت الله وغضبه ﴿فَإِنَّ مُؤَذِّنًا يَنبِّئُهُمْ أَنَّ لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ﴾ والظلم: هو الكفر في هذه الآية، فهم مطرودون مبعدون من رحمة الله سبحانه، فقد فتح الله لهم أبواب رحمته فصدوا عنها وصرفوا غيرهم عنها فضلوا وأضلوا كما قال تعالى في وصفهم:

٤٥- ﴿الَّذِينَ يَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا وَهُمْ بِالْآخِرَةِ كَافِرُونَ﴾

وهؤلاء الذين ظلموا أنفسهم بالكفر والشرك وصفهم القرآن بثلاثة أوصاف:

الوصف الأول: أنهم كانوا في الدنيا يصدون الناس ويفتنونهم عن دين الله، ويمنعونهم من اتباع شرعه ومنهجه، أو يمنعون الناس من الدخول في الإسلام، فهم ﴿الَّذِينَ يَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ﴾ وكانوا في الدنيا ينفقون أموالهم؛ ليصدوا الناس عن سبيل الله، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ لِيَصُدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ﴾ ويحولون بين الناس وبين طريق الله المستقيم ﴿فَسَيُنْفِقُونَهَا﴾ أي: هذه الأموال ﴿ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ وَالَّذِينَ كَفَرُوا إِلَىٰ جَهَنَّمَ يُخْشَرُونَ﴾ [الأنفال: ٣٦].

الوصف الثاني: أنهم ييغون سبيل الله طريقًا معوجًا غير مستقيم، ﴿وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا﴾ تابعا لأهوائهم على غير منهج الله وشرعه، يُحلون ما حرم الله، ويحرّمون ما أحل الله.

الوصف الثالث: أنهم كفروا باليوم الآخر، ولم يؤمنوا به، وهم جاحدون ومنكرون له، ﴿وَهُمْ بِالْآخِرَةِ كَافِرُونَ﴾ والذي حملهم على الانحراف عن الصراط والإقبال على شهوات الدنيا وشبهاتها، هو عدم الإيمان بالبعث والنشور، وعدم الخوف من العقاب ورجاء الثواب، هذا هو الحوار الأول بين أهل الجنة وأهل النار.

الحوار الثاني: حوار أهل الأعراف

٤٦- ﴿وَيَنبِئُهَا حِجَابٌ وَعَلَى الْأَعْرَافِ رِجَالٌ يَعْرِفُونَ كُلًّا بِسِيمَتِهِمْ وَكَادُوا أَصْعَبَ الْجَنَّةِ أَنْ سَلَّمَ عَلَيْكُمْ لَوْلَا أَنَّهُمْ يَدْعُوهُمْ وَهُمْ يَطْمَعُونَ﴾

وبين أهل الجنة وأهل النار حجاب أو سور، يقال له: الأعراف، يشرف على الدارين،

يَنْظُرُ مَنْ عَلَيْهِ إِلَى حَالِ الْفَرِيقَيْنِ، وَهَذَا الْحِجَابُ لَيْسَ فِي الْجَنَّةِ وَلَا فِي النَّارِ، وَعَلَيْهِ رِجَالٌ يَعْرِفُونَ أَهْلَ الْجَنَّةِ وَأَهْلَ النَّارِ بِعَلَامَاتِهِمُ الَّتِي يُمَيِّزُونَ بِهَا، فَإِذَا نَظَرُوا إِلَى أَهْلِ الْجَنَّةِ حَيَّوْهُمْ وَطَمَعُوا فِي دُخُولِهَا مَعَهُمْ، وَإِذَا نَظَرُوا إِلَى أَهْلِ النَّارِ اسْتَجَارُوا بِاللَّهِ مِنْ حَالِهِمْ.

فالأعراف: هو حجاب أو سور، يفصل بين الجنة والنار وبين أهل النار وأهل الجنة يوم القيامة؛ فيمنع أهل النار من دخول الجنة، وهو حاجز مرتفع سماه القرآن الأعراف كعُرف الديك المرتفع، وهو نفسه السور الذي جاء ذكره في سورة الحديد، حين يُعْطِي اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ نُورًا يَسْعَى بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَيَأَيِّمَانِهِمْ، فَيَمْشُونَ فِي ضَوْءِ هَذَا النُّورِ، وَيَسِيرُونَ عَلَى الصِّرَاطِ، فَإِذَا كَانُوا فَوْقَهُ فَإِنَّ هَذَا النُّورَ يُسَلِّبُ مِنَ الْمَنَافِقِ، بِقَدْرِ مَا أَظْهَرَ مِنْ إِيمَانٍ فِي الدُّنْيَا وَمَا أَخْفَى مِنْ كُفْرٍ، فَإِذَا سُلِبَ مِنْ هَذَا النُّورِ فَإِنَّهُ يَتَخَبَّطُ فِي الطَّرِيقِ، وَحِينَ يَرَاهُمُ الْمُؤْمِنُونَ فَإِنَّهُمْ ﴿يَقُولُونَ رَبَّنَا أَتَيْمَنَا لَنَا نُورَنَا﴾.

ذَلِكُمْ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿يَوْمَ تَرَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ يَسْعَى نُورُهُمْ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِمْ﴾ وَحِينَئِذٍ يَتَوَسَّلُ الْمَنَافِقُونَ إِلَى الْمُؤْمِنِينَ، وَيَقُولُونَ لَهُمْ: انْتَظِرُونَا نَقْتَبِسَ مِنْ نُورِكُمْ، وَنَسِيرُ فِي ضَوْئِكُمْ، فَيَقُولُونَ لَهُمْ: ﴿أَرْجِعُوا وَرَاءَكُمْ فَالْتَمِسُوا نُورًا﴾ فِيرْجِعُونَ لِيَلْتَمِسُوا النُّورَ الَّذِي يَسِيرُونَ فِيهِ، فَيُضْرَبُ بَيْنَ أَهْلِ الْجَنَّةِ وَأَهْلِ النَّارِ بِسُورٍ، هَذَا السُّورُ ﴿بَاطِنُهُ فِيهِ الرَّحْمَةُ﴾ مِنْ جِهَةِ الْجَنَّةِ ﴿وَوَظْهُهُ مِنْ قِبَلِهِ الْعَذَابُ﴾ مِنْ جِهَةِ النَّارِ ﴿يُنَادُواهُمْ أَلَمْ نَكُنْ مَعَكُمْ قَالُوا بَلَى﴾ كُنْتُمْ مَعَنَا ﴿وَلَكِنَّكُمْ فُتِنْتُمْ أَنْفُسَكُمْ وَتَرَبَّصْتُمْ وَارْتَبْتُمْ وَغَرَّتْكُمُ الْأَمَانِيُّ حَتَّى جَاءَ أَمْرُ اللَّهِ وَغَرَّكُمُ اللَّهُ الْغُرُورُ ﴿١٤﴾﴾ فَالْيَوْمَ لَا يُؤْخَذُ مِنْكُمْ فِدْيَةٌ وَلَا مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مَاؤُنْكُمْ النَّارُ هِيَ مَوْلَانَكُمْ وَيَسُّ الْمَصِيرُ ﴿١٥﴾﴾ [الحديد]

فالحجاب إذن: هو السور الحاجز العظيم، وفي أعلى هذا الحاجز رجال، مَنْ هؤلاء الرجال؟

من هم أهل الأعراف؟

١- يُرْجَحُ بَعْضُ السَّلَفِ أَنَّهُمْ مَنْ اسْتَوَتْ حَسَنَاتُهُمْ وَسَيِّئَاتُهُمْ، حَيْثُ يَكُونُونَ فَوْقَ الْأَعْرَافِ، حَتَّى يَقْضِيَ اللَّهُ بَيْنَهُمْ، ثُمَّ يَكُونُ مَصِيرُهُمْ إِلَى الْجَنَّةِ.

يقول ابن مسعود رضي الله عنه: يحاسب الناس يوم القيامة، فَمَنْ كَانَتْ حَسَنَاتُهُ أَكْثَرَ بِوَاحِدَةٍ دَخَلَ الْجَنَّةَ، وَمَنْ كَانَتْ سَيِّئَاتُهُ أَكْثَرَ بِوَاحِدَةٍ دَخَلَ النَّارَ، وَإِنَّ الْمِيزَانَ يَخْفُ وَيَثْقُلُ بِمَقْدَارِ مِثْقَالِ

حبة من خردل، وَمَنْ استوت حسناته وسيئاته كان من أصحاب الأعراف^(١).

قال تعالى: ﴿وَإِنْ كُنْتَ مِنْكُمْ لَمَمِيزًا لَمَّا يَعْلَمِ مِنَ اللَّهِ يَوْمَ ذُنُوبِهِمْ إِنَّهُمْ كَانُوا فِيهَا كَسَافًا﴾ [الأنبياء: ٤٧].

وفي حديث أبي هريرة ؓ أن رسول الله ﷺ قال: «إِنْ أُحْدَا جَبَلٌ يَحْبُنَا وَنَحْبَهُ، وَإِنَّهُ يَقُومُ الْقِيَامَةَ، يَمُثِلُ بَيْنَ الْجَنَّةِ وَالنَّارِ، يَحْتَبِسُ عَلَيْهِ أَقْوَامٌ يَعْرِفُونَ كُلًّا بِسِيمَاهُمْ، هُمْ إِنْ شَاءَ اللَّهُ مِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ»^(٢).

قال ابن عباس ؓ: إِنْ أَصْحَابُ الْأَعْرَافِ قَوْمٌ اسْتَوَتْ حَسَنَاتُهُمْ وَسَيِّئَاتُهُمْ، فَوُفِّقُوا هُنَاكَ عَلَى السُّورِ، فَإِذَا رَأَوْا أَصْحَابَ الْجَنَّةِ عَرَفُوهُمْ بِبَيَاضِ وَجُوهِهِمْ، وَإِذَا رَأَوْا أَصْحَابَ النَّارِ عَرَفُوهُمْ بِسَوَادِ وَجُوهِهِمْ، وَهُمْ يَطْمَعُونَ فِي دُخُولِهَا، فَأَدْخَلَهُمُ اللَّهُ الْجَنَّةَ»^(٣).

٢- وجاء عن حذيفة ؓ: أَنَّهُمْ قَوْمٌ تَجَاوَزَتْ بِهِمْ حَسَنَاتُهُمُ النَّارَ، وَقَعْدَتْ بِهِمْ سَيِّئَاتُهُمْ عَنِ الْجَنَّةِ، فَإِذَا صُرِفَتْ أَبْصَارُهُمْ تَلْقَاءُ أَصْحَابِ النَّارِ قَالُوا: رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ، فَبَيْنَمَا هُمْ كَذَلِكَ، أَطْلَعَ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ فَقَالَ لَهُمْ: اذْهَبُوا فَادْخُلُوا الْجَنَّةَ فَإِنِّي قَدْ غَفَرْتُ لَكُمْ^(٤).

وقولهم: ﴿رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ يشرح هذا المعنى، فهو الأليق بمن كان مصيره مجهولاً، ينظر إلى أهل الجنة برغبة وتطلع إلى حسن المصير.

ومن فضل الله علينا أن الحسنة بعشر أمثالها؛ كالحرف من كتاب الله، والخطوة إلى المسجد، وإلقاء السلام على أخيك، والصلح بين الناس، وهكذا الأبواب كثيرة.

وجاء في الأثر: (هلك مَنْ كَانَتْ أَحَادُهُ أَكْثَرَ مِنْ عَشْرَاتِهِ) والآحاد هي السيئات، والسيئة تجازى بمثلها، والعشرات هي الحسنات، والحسنة الواحدة تجازى بعشر أمثالها، وهذا الذي تغلب أحاده عَشْرَاتِهِ، يستحق أن يكون من الهالكين.

(١) أثر طويل في «تفسير الطبري» (٤٥٤/١٢) بسند ضعيف، قال المحقق: فيه أبو بكر الهذلي ليس بثقة، ولا يحتج بحديثه.

(٢) «المسند» (٨٤٥٠، ٩٠٢٥) مختصراً إلى (ونحبه) وهو صحيح لغيره، وإسناده حسن، وأخرجه ابن أبي شيبه في تاريخ المدينة (١/٨٢).

(٣) ينظر ابن أبي حاتم (٨٥٠١).

(٤) «تفسير الطبري» (٤٥٢/١٢، ٤٥٣).

واستدل بعضهم على هذا بما رواه جابر بن عبد الله رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «توضع الموازين يوم القيامة، فتوزن الحسنات والسيئات، فمن رجحت حسناته على سيئاته مثقال صؤابة دخل الجنة، ومن رجحت سيئاته على حسناته مثقال صؤابة دخل النار» قيل: يا رسول الله، فمن استوت حسناته وسيئاته؟ قال: «أولئك أصحاب الأعراف، لم يدخلوها وهم يطمعون»^(١).

٣- قال أبو مجلّز: الأعراف مكان مرتفع عليه رجال من الملائكة يعرفون أهل الجنة بسيماهم، وأهل النار بسيماهم، وهذا قبل أن يدخل أهل الجنة الجنة^(٢).

٤- وقال مجاهد: هم قومٌ صالحون فقهاء علماء^(٣).

٥- وقال الزهراوي: إنهم عدول القيامة، الذين يشهدون على الناس بأعمالهم، وهم من كل أمة^(٤).

٦- وقال عبد الرحمن المزني ومالك الهلالي وغيرهما: هم قوم استشهدوا في سبيل الله بعد أن خرجوا للجهاد بغير إذن آبائهم^(٥).

٧- وقيل إنهم من رَضِيَ عنهم أحدٌ والديهم ولم يرضَ الآخر.

٨- أو أنهم أولاد المشركين الذين ماتوا وهم أطفال.

٩- أو أنهم أهل الفترة، وذكر القرطبي فيهم اثني عشر قولاً.

والآثار الواردة في تعيينهم ليس فيها نصٌّ صحيحٌ صريحٌ.

(١) ذكره ابن عطية (٤٠٤/٢) نقلاً عن مسند خثيمة بن سليمان في آخر الجزء الخامس عشر، وأقول: فإن صح هذا الحديث فهو نص في الموضوع ولا معدل عنه، وقد ذكر ابن كثير (٤١٨/٢) آخر هذا الحديث وقال: هذا حديث غريب من هذا الوجه، ونقله السيوطي في «الدر المنثور» (٤٠٣/٦) عن تاريخ ابن عساكر وابن مردويه وأبي الشيخ وهو في تاريخ ابن عساكر (٣١٣/٤).

(٢) أخرجه سعيد بن منصور (٩٥٨) في التفسير، والبيهقي في البعث (١٢١) وابن الأنباري ص ٣٦٩ وابن أبي حاتم (٨٥٠٧).

(٣) ابن أبي حاتم (٨٥٠٦) وهناد (٢٠٣).

(٤) «تفسير ابن عطية» (٤٠٤/٢).

(٥) ينظر الطبراني في «الأوسط» (٣٠٥٣) والبيهقي في البعث (١١٥) و«المطالب العالية» (٣٩٨٥) وغيرهم.

١٠- وأورد ابن الجوزي تسعة أقوال في تعيينهم؛ من أبرزها قال :

وهناك قول آخر هو قول مجاهد وابن الأنباري وأبي مجلز وغيرهم .

وهو أن المراد بأصحاب الأعراف هم الأنبياء وأولو العلم وكبار الدعاة إلى الله تعالى ، وأنهم يكونون فوق هذا السور، ينظرون إلى أهل الجنة تارة، وينظرون إلى أهل النار تارة، فيعرفون أهل الجنة بعلاماتهم، ويعرفون أهل النار بعلاماتهم، وينظرون من فوق السور إلى مصير الأمم التي بلغوها دعوة الله تعالى، وماذا أثمرت نتائج الدعوة، ثم ينادى أهل الأعراف أهل الجنة فيجيئونهم ويبشرونهم بالجنة بعد أن اطمأنوا على ثمرة جهدهم، حيث يكون الناس فريقين: فريق في الجنة، وفريق في السعير .

ومما يؤيد هذا ما نقله البغوي عن ابن الأنباري أن أهل الأعراف هم الأنبياء، قال: إنما جعلهم الله على ذلك المكان العالي؛ تمييزاً لهم على سائر أهل القيامة، وإظهاراً لفضلهم وعلو مرتبتهم، وليكونوا المشرفين على أهل الجنة والنار، والمطلعين على أحوالهم، ومقادير ثواب أهل الجنة، وعقاب أهل النار.

ثم عَقَّب عليه بقوله: وحاصل هذه الأقوال أن أصحاب الأعراف من الأنبياء والدعاة أفضل من أهل الجنة؛ لأنهم أعلى منهم منزلة وأفضل، وإنما أحلهم الله في هذا المكان العالي؛ ليميزوا بين أهل الجنة وأهل النار.

ويرشح هذا القول ما جاء في الآية حكاية عن أهل الأعراف أنهم يقولون لأناس من أهل النار كانوا عظاماً في الدنيا: ﴿مَا أَغْنَىٰ عَنْكُمْ جَمْعُكُمْ وَمَا كُنْتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ﴾ فإن هذا لا يصدر إلا عن أرباب المعرفة، ولا يصدر ممن هم أدنى منزلة من أهل الجنة، فضلاً عن قوم لم يتحدد مصيرهم بعد، ولم يعرفوا أنهم من أهل الجنة أو من أهل النار^(١).

هذا: ولكل فريق أدلة تُرشد قوله، لم تبلغ مبلغ الصحة، روى بعضها ابن ماجه؛ وبعضها رواه ابن مردويه، وبعضها رواه الطبري وهكذا.

(١) «تفسير ابن عطية» (٢/٤٠٤).

والأعراف جعلها الله مكاناً يقف عليه مَنْ هو من أهل الجنة؛ قبل دخوله إياها، وقد يكون هذا ضرباً من العقاب الخفيف قبل دخول الجنة، لتفاوت أهل الجنة في السبق إليها وقد يكون لإلقاء نظرة فاحصة على مَنْ أثمرت فيهم جهود الدعوة فكان مصيرهم الجنة، وَمَنْ لم تثمر فيهم هذه الجهود، فكانت النار مصيرهم، نسأل الله العافية والسلامة.

ولعل تخصيص أهل الأعراف بأنهم رجال يفيد أنهم الأنبياء والشهداء وكبار الدعاة إلى الله تعالى، أو كما قال بعضهم: إنهم الملائكة.

ونمضي مع الآية: ﴿وَبَيْنَهُمَا﴾ أي: بين أهل الجنة وأهل النار ﴿جَبَابٌ﴾ سور حازج ﴿وَعَلَى الْأَعْرَافِ﴾ أي: فوق السور الفاصل ﴿رِجَالٌ﴾ هم الدعاة إلى الله في كلِّ زمان ومكان ﴿يَعْرِفُونَ كُلًّا﴾ من أهل الجنة والنار ﴿بِسِيمَتِهِمْ﴾ يعرفون أهل الجنة بعلاماتهم كيباض الوجوه، وأهل النار بعلاماتهم كسواد الوجوه، وهذه العلامات جاء ذِكْرُها في قوله سبحانه: ﴿وَجُوهٌ يَوْمَئِذٍ مُّسْفِرَةٌ﴾ (٢٨) ضاحكةٌ مُّسْتَبْشِرَةٌ ﴿٣٩﴾ [عبس]

وهم أهل الجنة الذين تبيض وجوههم ﴿يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ﴾ [آل عمران: ١٠٦]

وهم من قال الله فيهم: ﴿تَعْرِفُ فِي وُجُوهِهِمْ نَضْرَةَ النَّعِيمِ﴾ (٢٤) [المطففين]

وقال عنهم: ﴿وَجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ﴾ (٢١) [القيامة: ٢٢].

وأهل النار وجوههم مسودة، كما قال تعالى: ﴿وَجُوهٌ يَوْمَئِذٍ عَلَيْهَا غَبَرَةٌ﴾ (٤٠) [عبس]

نعوذ بالله ﴿تَرَاهُمَا قَرَّةٌ﴾ (٤١) أُولَئِكَ هُمُ الْكَفَرَةُ الْفَجَرَةُ ﴿٤٢﴾ [عبس]

ووصفهم ربنا بقوله: ﴿كَأَنَّمَا أُغْشِيَتْ وُجُوهُهُمْ قُطْعًا مِّنَ اللَّيْلِ مُظْلِمًا﴾ [يونس: ٢٧]

وقال فيهم: ﴿وَنَحْشُرُ الْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ زُرْقًا﴾ [طه: ١٠٢] سواد الوجوه معروف، أما زرقة العيون فليست من المحاسن في الآخرة، كهذه الزرقة التي تكون في أعين بعض الناس في الدنيا، وإنما هي زرقة العيون في الآخرة، وتكون هذه الزرقة من الكد والألم الذي يأتي نتيجة العذاب، حين تحمر العينان وتزرق.

وأهل الأعراف يكون أكثر نظرهم إلى أهل الجنة؛ فيحيئونهم، ويهنتونهم، وينادونهم

ويقولون لهم: ﴿سَلِّمْ عَلَيْكُمْ﴾ يقول الله سبحانه: ﴿لَمْ يَدْخُلُوهَا﴾ أي: أن أهل الأعراف لم يدخلوا الجنة بعد، وهم على الأعراف، يرقبون الأمم وينظرون إليهم، وهم يطمعون في دخولها، ولم يحصل الله الطمع في قلوبهم إلا لأنهم من أهل كرامته، وهم داخلوها إن شاء الله. قال تعالى عن أصحاب الأعراف أيضاً:

٤٧- ﴿وَإِذَا صُرِفَتْ أَبْصَارُهُمْ تِلْقَاءَ^(١) أَصْحَابِ النَّارِ قَالُوا رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿٤٧﴾﴾

أي: إذا تحولت وجوه أهل الأعراف من جهة أهل الجنة عفوًا تجاه أصحاب النار، ورأوا سواد وجوههم؛ وشفاعاة منظرهم، استعاذوا بالله أن يكونوا أمثالهم، وتضرعوا إليه ألا يجعلهم منهم، وقالوا: ﴿رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ الذين ظلموا أنفسهم بشركهم وكفرهم. ثم ذكر سبحانه حوار أصحاب الأعراف لأهل الجنة وأهل النار، فقال:

٤٨- ﴿وَنَادَى أَصْحَابُ الْأَعْرَافِ رِجَالًا يَعْرِفُونَهُمْ بِسِيمَتِهِمْ قَالُوا مَا أَغْنَىٰ عَنْكُمْ جَمْعُكُمْ وَمَا كُنْتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ ﴿٤٨﴾﴾

بين سبحانه أن أهل الأعراف يوجهون ندائين إلى أهل النار وأهل الجنة، فيقولون لأهل النار: أي شيء نفعكم من أموالكم وجاهكم واستكباركم عن الإيمان بالله، ونداء آخر إلى قوم مؤمنين كانوا ضعفاء في الدنيا بأن يدخلوا الجنة، وأصحاب الأعراف في اختيارنا هم الأنبياء والشهداء وأولوا العلم والفضل والدعاة إلى الله تعالى على مدى التاريخ لجميع الأمم، ينادون رجالًا في النار، كانوا عظماء في الدنيا، ﴿وَنَادَى أَصْحَابُ الْأَعْرَافِ﴾ الذين هم فوق السور المضروب بين الجنة والنار، ويحتمل أن يكون هذا النداء وأهل النار في النار، فينادون ﴿رِجَالًا﴾ في النار ﴿يَعْرِفُونَهُمْ بِسِيمَتِهِمْ﴾ أي: بأوصافهم المميزة كسواد الوجوه وزرقة العيون، وهم رجال من رؤساء الكفر، وكبار الطواغيت في سائر الأمم، وهم من الذين يصدون الناس عن سبيل الله، أمثال أبي جهل، والوليد بن المغيرة، والعاص بن وائل، وأمّية بن خلف، وأضرابهم ممن يتزعمون الكفر إلى يوم الساعة،

(١) قرأ قالون والبزي وأبو عمرو ورويس بإسقاط الهمزة الأولى من (تلقاء أصحاب) مع المد والقصر، وقرأ ورش وأبو جعفر ورويس بتسهيل الهمزة الثانية، ولورش من طريق الأزرق إبدالها ألفًا مع إشباع المد في وجهه الآخر، ولقنبل ثلاثة أوجه هي: إسقاط الهمزة الأولى، وتسهيل الهمزة الثانية، وإبدالها ألفًا مع المد المشبع كالأزرق، وقرأ الباقون بتحقيق الهمزتين معًا.

يعرفهم أهل الأعراف بعلاماتهم.

ومنهم مَنْ له وَسْمٌ خاص يُعرف به، كما قال تعالى: ﴿سَنَسِئُ عَلَى الْخُرْطُومِ ۖ﴾ [القلم] أي: سنجعل علامة مميزة على أنف الوليد بن المغيرة يُعرف بها يوم القيامة، حيث يعرف أصحاب الأعراف هؤلاء الرجال بعلاماتهم الدالة على سوء حالهم، وظهور الذلة على وجوههم، يقولون لهم: ﴿مَا أَغْنَىٰ عَنْكُمْ جَمْعُكُمْ وَمَا كُنْتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ﴾

والمعنى: ونادى أولئك الرجال الذين على الأعراف رجالاً عرفوا أنهم من أهل النار حين صرفت أبصارهم إليها، كانوا أصحاب وجاهة وغنى وسلطان، وكانوا جبارين في الدنيا، فيقولون لهم على سبيل التقرع والتوبيخ: ما أغنت عنكم كثرتكم التي كنتم تعتزون بها، وما أغنى عنكم استكباركم في الأرض بغير الحق، فقد صرتم في الآخرة في هذا الوضع المهين؛ بسبب كفركم وعنادكم.

وفي الآية إنذارٌ وموعظةٌ لجبابرة الأرض وطغاتها، وكل مَنْ كذب القرآن والرسول الخاتم ﷺ.

قال ابن الكلبي: يُنادي أهل الأعراف وهم على السور: يا وليد بن المغيرة، يا أبا جهل بن هشام، يا فلان ويا فلان، فهؤلاء من الرجال الذين يعرفونهم بسيماهم، وكانوا من أهل العزة والكبرياء في الدنيا.

وبالمقابل فإن أهل الأعراف - وهم يحاورون أهل النار - يشيرون إلى أناس من أهل الجنة، كانوا في الدنيا ضعفاء فقراء يستهزئ بهم أهل النار، فيقولون لأهل النار:

٤٩- ﴿أَهَؤُلَاءِ الَّذِينَ أَقْسَمْتُمْ لَا يَنَالُهُمُ اللَّهُ بِرَحْمَةٍ ۖ﴾ (١) ادْخُلُوا الْجَنَّةَ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمْ وَلَا أَنْتُمْ تَحْزَنُونَ ﴿

أشار سبحانه إلى خطاب أهل الأعراف لأهل النار؛ زيادةً في توبيخهم وتبكيهم، وهم يشيرون يوم القيامة إلى ضعفاء المسلمين الذين سخر منهم أهل النار في الدنيا، الغني يحتقر الضعيف، ويشخر منه لضعفه وفقره، كما حدث من كبار القوم بالنسبة إلى بلال وصهيب وخباب وسلمان وآل ياسر وغيرهم،

(١) قرأ أبو عمرو ويعقوب وعاصم وحزمة وابن ذكوان بخلف عنه بكسر التنوين وصلًا من (رحمة ادخلوا)، والباقيون بالضم وهو الوجه الآخر لابن ذكوان.

وهذا كقوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ أَجْرَمُوا كَانُوا مِنَ الَّذِينَ ءَامَنُوا يَضْحَكُونَ ﴿٢٩﴾ وَإِذَا مَرُّوا بِهِمْ يَتَغَامِرُونَ ﴿٣٠﴾ وَإِذَا أُنْفِلُوا إِلَىٰ أَهْلِهِمْ أَنفَلَبُوا فَكِهِينَ ﴿٣١﴾ وَإِذَا رَأَوْهُمْ قَالُوا إِنَّ هَٰؤُلَاءِ لَضَالُونَ ﴿٣٢﴾ وَمَا أُرْسِلُوا عَلَيْهِمْ حَافِظِينَ ﴿٣٣﴾ فَالْيَوْمَ الَّذِينَ ءَامَنُوا مِنَ الْكُفَّارِ يَضْحَكُونَ ﴿٣٤﴾ عَلَى الْأَرَائِكِ يَنْظُرُونَ ﴿٣٥﴾﴾ [المطففين]

أي: وفي يوم القيامة يقول أهل الأعراف لأهل النار.

أهؤلاء الذين حلفتهم في الدنيا أنهم لن يعطوا في الآخرة خيراً، ولن ينالهم الله برحمة؛ أي: لا يدخلون الجنة، هؤلاء الضعفاء يقال لهم يوم القيامة: ﴿ادْخُلُوا الْجَنَّةَ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمْ﴾ من العذاب فيما يستقبل من الزمان ﴿وَلَا أَنْتُمْ تَحْزَنُونَ﴾ على ما مضى، فأنتم آمنون مطمئنون فرحون بما أنتم فيه من خير ونعيم.

وها هم أمامكم يتمتعون بالنعيم في الجنة، ولا يخافون من عذاب الله، ولا يحزنون على ما فاتهم من حظوظ الدنيا، وهكذا كذب الله قسَمَهُم، وخيب ظنهم؛ فأدخلهم الجنة، وأمنهم على ما فاتكم من حطام الدنيا وما هو آتٍ، والكلام كله من أهل الأعراف.

وقال الربيع بن أنس: كان رجال في النار قد أقسموا بالله لا ينال أصحاب الأعراف من الله رحمة؛ فأكذبهم الله، فكانوا آخر أهل الجنة دخولاً فيما سمعنا عن أصحاب رسول الله ﷺ^(١).

(١) ابن أبي حاتم (٨٥٣١) وأخرجه أيضاً أبو الشيخ.

الْحَوَارُ الثَّالِثُ: أَهْلُ النَّارِ يُحَاوِرُونَ أَهْلَ الْجَنَّةِ

٥٠- ﴿وَنَادَىٰ أَصْحَابُ النَّارِ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ أَنْ أَفِضُوا عَلَيْنَا مِنَ الْمَاءِ أَوْ مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ حَرَّمَهُمَا عَلَى الْكَافِرِينَ﴾ (٥٠)

هذا هو النداء الثالث وهو من أهل النار إلى أهل الجنة، بعد أن يبلغ العذاب بهم مبلغه ويمسهم الجوع المفرط والظمأ الموجد، فيستغيثون بهم بأن يفيضوا عليهم شيئاً من الماء أو الطعام، فيجيبوهم: إن الله حرم طعام الجنة وماءها على الكافرين.

وأهل النار هم كل من لم يدخل في دين الإسلام من أمة الدعوة بالنسبة لآخر الأمم وآخر الرسالات، وفي يوم القيامة وجوه أهل النار تتغير من العذاب، فلا يعرفهم ذويهم وأبنائهم وإخوانهم وأهلهم؛ لأن أشكالهم من عذاب النار قد تغيرت، ووجوه أهل الجنة ازدادت بهاء ونضرة.

ولذلك فإن أهل النار حين يرون أهل الأعراف قد دخلوا الجنة يطعمون في الفرج عنهم؛ فينظرون إلى أهل الجنة، ويتعرفون على أقاربهم منهم، فلا يعرفون أشكالهم، ويقولون لهم مستغيثين بهم طالبين منهم النجدة: ﴿أَنْ أَفِضُوا عَلَيْنَا مِنَ الْمَاءِ أَوْ مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ﴾ إنه رجاء واستجداء واستغاثة بأقاربهم في الجنة، يقولون لهم بذلة وانكسار: لقد احترقنا؛ فأفيضوا علينا بشيء من الماء أو مما رزقكم الله من طعام نستعين به على ما نحن فيه من سُموم وحميم.

فأجابوهم قائلين: إن الله حرم الطعام والشراب على من جحد توحيد الله وكذب رسله، إنه جواب مرير وأليم ﴿إِنَّ اللَّهَ حَرَّمَهُمَا عَلَى الْكَافِرِينَ﴾ حرمة أبدية، كما حرم على القرية أو الأمة التي أهلكها الله أن تعود إلى الدنيا ﴿وَحَرَّمْ عَلَى قَرِيَةِ أَهْلَكْنَهَا أَنَّهُمْ لَا يَرْجِعُونَ﴾ (٤٥) [الأنبياء].

عن سعيد بن جبیر قال: ينادي الرجل أباه أو أخاه فيقول: قد احترقت، أفيض علي من الماء، فيقال لهم: أجيبوهم، فيقولون: إن الله حرّمهما على الكافرين^(١).

(١) «تفسير الطبري» (٤٧٣/١٢).

ولذا: جاء في الأثر عن ابن عباس رضي الله عنه: أن الماء هو أفضل الصدقة؛ لأنه طلب أهل النار حين استغاثوا بأهل الجنة^(١).

وأخرج أحمد وغيره عن سعد بن عباد رضي الله عنه أن أمه ماتت، فقال: يا رسول الله، أتصدق عليها؟ قال: «نعم» قال: فأَي الصدقة أفضل؟ قال: «سقي الماء»^(٢).

وعن عَقِيل بن سُمَيْرِ الرياحي قال: شرب عبد الله بن عمر رضي الله عنه ماء باردًا فبكى، فاشتد بكاؤه، فقيل له: ما يبكيك؟ قال: ذكرتُ آية في كتاب الله ﴿وَحِيلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ﴾ [سبأ: ٥٤] فعرفتُ أن أهل النار لا يشتهون شيئًا إلا الماء البارد، وقد قال الله تعالى: ﴿أَنْ أَفِضُوا عَلَيْنَا مِنَ الْمَاءِ أَوْ مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ﴾^(٣).

وعن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «يُلْقَى إبراهيم أباه يوم القيامة وعلى وجهه قتره وغبرة فيقول: يا رب إنك وعدتني ألا تخزيني، فأَي خزي أخزى من أبي الأبعد في النار، فيقول الله: إني حرمت الجنة على الكافرين»^(٤).

ولمَّا مرض أبو طالب قالوا له: لو أرسلتَ إلى ابن أخيك يرسل لك بعنقود من جنته لعله أن يشفيك به، فجاءه الرسول وأبو بكر عنده، فقال أبو بكر: إن الله حرهما على الكافرين^(٥).

ثم وصف الله سبحانه أهل النار بأنهم أعرضوا عن دين الله وهم في الدنيا، وسخروا من المسلمين، واستعاضوا بالدين، اللهو واللعب.

(١) رواه البيهقي مرفوعًا في «شعب الإيمان» برقم (٣٣٨٠) والذهبي في «ميزان الاعتدال» (٢٢٤/٤) قال الذهبي: وفيه موسى بن المغيرة مجهول، وشيخه أبو موسى الصفار لا يعرف، وقد جاء هذا المعنى من طرق أخرى صحيحه كما في الحديث التالي.

(٢) «المسند» (٢٢٤٥٩) و (٢٣٨٤٥) قال محققوه: رجاله ثقات رجال الشيخين، وأخرجه النسائي (٢٥٥/٦) والحاكم (٤١٤/١) وأبو داود (١٦٨٠) وابن ماجه (٣٦٨٤) وابن خزيمة (٢٤٩٦):

(٣) أخرجه عبد الله بن أحمد في «زوائد الزهد» (١٩٠) والبيهقي في «الشعب» (٤٦١٤).

(٤) «صحيح البخاري» (٤٧٦٩) و (٣٣٤٩).

(٥) أخرجه أحمد عن أبي صالح (تابعي) بسند مرسل، وهو عند ابن أبي شيبة برقم (٨٥٣٦).

مِنْ أَوْصَافِ أَهْلِ النَّارِ

٥١- ﴿الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَهُمْ لَهْوًا وَلَعِبًا وَغَرَّتَهُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا فَالْيَوْمَ نَنسَهُمْ كَمَا نَسُوا لِقَاءَ يَوْمِهِمْ هَذَا وَمَا كَانُوا بِتَابِعِينَ يَجْحَدُونَ﴾ ﴿٥١﴾

وبعد أن حكى الله سبحانه كلام أهل الجنة عن أهل النار، الذين حرّمهم الله من نعيم الآخرة، وصف أهل النار بأنهم كانوا في الدنيا قد ﴿اتَّخَذُوا دِينَهُمْ لَهْوًا وَلَعِبًا﴾ ويضاف الدين إلى الله تعالى؛ لأنه أمر به، ويضاف إلى الناس؛ لأنهم أمروا به، فتلاعبوا بالدين وسخروا منه وشغلوا عنه، واستبدلوا به لهو القلوب ولعب الأبدان، وغرتهم الحياة الدنيا بزخارفها عن العمل للآخرة، فيوم القيامة يُتركون في عذاب الله الموجه، ويُنسَوْنَ فيه، كما تركوا العمل للقاء الله ونسوا هذا اليوم.

قال تعالى: ﴿فَالْيَوْمَ نَنسَهُمْ﴾ نتركهم في النار، إنه كلام الله سبحانه تصديقًا لكلام أهل الجنة، فيه تحذير وتعقيب وعظة واعتبار لكل مَنْ كَذَّبَ الله ورسوله، وجحد أدلة توحيد الله وبراهينه ﴿كَمَا نَسُوا لِقَاءَ يَوْمِهِمْ هَذَا﴾ فكأنهم لم يُخلَقوا إلا للدنيا، وليس أمامهم حساب ولا جزاء، والحال أن جحودهم ليس قصورا في آيات الله، وإنما لفساد فطرتهم ﴿وَمَا كَانُوا بِتَابِعِينَ يَجْحَدُونَ﴾.

جاء في الحديث القدسي، أن الله تعالى يقول للعبد يوم القيامة: «ألم أزوجك؟ ألم أكرمك؟ ألم أسخر لك الخيل والإبل؟ وأدرك رأس وتربيع، فيقول: بلى، فيقول: أظننت أنك ملاقي؟ فيقول: لا، فيقول الله: فالיום أنساك كما نسيتني»^(١).

ونسيانهم تركهم في النار؛ لأنهم أعرضوا عن الإيمان، وتركوا العمل به، ولم يستعدوا لليوم الآخر، فكان الجزاء من جنس العمل.

ولذا: فإن الله تعالى لا يجيب دعاء أهل النار، ولا يرحم ضعفهم، بل يتركهم في العذاب جياعًا عطاشًا، كما تركوا العمل للقاء الله تعالى، فحرمانهم من رحمة الله كان مماثلًا لعدم تصديقهم بالثواب والعقاب.

(١) ينظر: «صحيح مسلم» برقم (٢٩٦٨) عن أبي هريرة رضي الله عنه.

وهذه الآية يحتمل أن تكون حكاية لكلام أهل الجنة عن أهل النار، ويكون قوله تعالى: ﴿فَالْيَوْمَ نَسْتَنْهَمُ﴾ تصديقاً من الله تعالى لكلام أهل الجنة، ويحتمل أن تكون الآية مستأنفة لكلام الله تعالى، وليست تفریعاً عن كلام أهل الجنة.

وقد أمرنا الله تعالى ألا نخالط الذين يهزؤون بالدين ويسخرون منه، لعدم نهيهم عن المنكر، كما قال تعالى: ﴿وَذَرِ الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَهُمْ لَعِبًا وَلَهْوًا وَعَرَّتْهُمْ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا﴾ [الأنعام: ٧٠] وقال سبحانه: ﴿وَإِذَا رَأَيْتَ الَّذِينَ يَخُوضُونَ فِي آيَاتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّى يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ﴾ [الأنعام: ٦٨].

عَدَمُ إِعْذَارِ الْكُفَّارِ فِي دُخُولِ النَّارِ

٥٢- ﴿وَلَقَدْ جِئْنَهُمْ بِكِتَابٍ فَصَّلْنَاهُ عَلَىٰ عِلْمٍ هُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ (٥٢)

ثم ذكر سبحانه ما يُوجب عقاب الكفار في الآخرة، بعد أن أعذرهم الله في الدنيا؛ بإنزال هذا القرآن على خاتم النبيين ﷺ، فلا حُجة لأحد في عدم اعتناق الإسلام بعد بلوغ الدعوة إليه.

﴿وَلَقَدْ جِئْنَهُمْ بِكِتَابٍ﴾ أي: أنزل الله على الكفار قرآنًا عظيم الشأن، فصلَّ الله فيه كل شيء من الأحكام تفصيلاً حكيماً، وبيَّن فيه الحلال والحرام، والقصاص والمواعظ، والوعد والوعيد، وأحوال الدنيا والآخرة، وفيه أحوال الأمم سياسياً واقتصادياً واجتماعياً ودينياً، مشتملاً على عِلْمٍ عظيم، محتوياً على كل شيء ﴿فَصَّلْنَاهُ عَلَىٰ عِلْمٍ﴾ أي: عِلْمٍ منا بما بيناه وفصلناه، تفصيل عالم بالأمور، وبجميع أحوال العباد، في كل زمان ومكان، وما يصلح لهم وما لا يصلح، لا يخفي عليه شيء من أحوالهم، ولا يجهل شيئاً منها، بل تفصيل من أحاط علمه بكل شيء، ووسعت رحمته كل شيء، وفيه بيان الهداية من الضلال إلى الرشd، كما قال تعالى: ﴿كُنْتُ أَهْكَمْتُ ءَايَاتِي ثُمَّ فُصِّلْتُ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ﴾ [هود: ١].

وبهذا التفصيل والبيان يزول العذر عن كل من لم يؤمن بخاتم الرسل ﷺ وبما أنزل عليه من كتاب، وفيه الرحمة والهداية لمن يؤمنون به، ويعملون بما فيه، وخص الله المؤمنين دون غيرهم؛ لأنهم المتفعلون بما فيه من الهدى ﴿هُدًى وَرَحْمَةً لِّلْمُحْسِنِينَ﴾ لقمان: ٣] كما قال تعالى: ﴿فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ﴾ [البقرة: ٢] ﴿أُولَٰئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ﴾ [البقرة: ٥] ومن لم يؤمن به يُحرَم الاهتداء.

ثم إن هؤلاء الذين حق عليهم العذاب ممن لم يؤمنوا بكتاب الله، ولم ينقادوا لأمره ونهيه، ليس أمانهم إلا أن يحلّ بهم ما أخبر الله به:

٥٣- ﴿هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا تَأْوِيلَهُ يَوْمَ يَأْتِي تَأْوِيلُهُ يَقُولُ الَّذِينَ نَسُوهُ مِنْ قَبْلُ قَدْ جَاءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِالْحَقِّ فَهَلْ لَنَا مِنْ شُفَعَاءَ فَيَشْفَعُوا لَنَا أَوْ نُرَدُّ فَنَعْمَلْ غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ قَدْ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴿٥٣﴾﴾

وبعد أن أخبر سبحانه أن الموجب لعقاب الكفار في الآخرة هو عدم إيمانهم بهذا القرآن، عَقَّبَ على ذلك بالسؤال عما يؤخر المكذبين عن التصديق بالقرآن.

الجواب: ليس هناك ما ينتظرونه سوى ظهور ما توعدّهم به القرآن؛ من نزول العذاب بهم يوم لقاء الله في دار الثواب والعقاب، وهم غير مصدقين بوقوعه.
قال تعالى: ﴿هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا السَّاعَةَ أَنْ تَأْتِيَهُمْ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿١١﴾﴾ [الزخرف]

وقال: ﴿فَهَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا مِثْلَ آبَائِهِ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِهِمْ﴾ [يونس: ١٠٢]

وقال سبحانه: ﴿هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ تَأْتِيَهُمُ الْمَلَائِكَةُ أَوْ يَأْتِيَ رَبُّكَ أَوْ يَأْتِيَ بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ يَوْمَ يَأْتِي بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ لَا يَنْفَعُ نَفْسًا إِيْمَانُهَا لَمْ تَكُنْ ءَامَنَتْ مِنْ قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِي إِيمَانِهَا خَيْرًا﴾ [الأنعام: ١٥٨].

فمعنى ﴿تَأْوِيلُهُ﴾ في الآية ظهور يوم القيامة، وما فيه من بعث وحساب وجزاء، مما توعدّهم به القرآن فكذبوه، واعتبروا ذلك أمراً محالاً، وهو اليوم الذي نسوه وضيعوه، ولم يستعدوا له.

ثم إنهم عند مشاهدة العذاب ﴿يَوْمَ يَأْتِي تَأْوِيلُهُ يَقُولُ الَّذِينَ نَسُوهُ مِنْ قَبْلُ﴾ نادمين متأسفين وهم يعترفون بصدق ما جاءت به الرسل، وعلى رأسهم محمد ﷺ فيقولون: ﴿قَدْ جَاءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِالْحَقِّ﴾ ولكنه اعتراف لا ينفع؛ لأنه جاء بعد فوات الأوان، وبهذا تتحقق الخسارة لهم في الدنيا والآخرة، وإن كانوا لا يشعرون.

والمعنى: هل ينتظر الكفار إلا ما وُعدوا به في القرآن من العقاب الذي يؤول أمرهم إليه، ويوم يأتي هذا الحساب والعقاب يعترف الذين كذبوا بلقاء الله أَنَّ رسل الله كانوا

على حق، ويتلمسون مَنْ يشفع لهم عند الله للخلاص من العذاب، أو العودة إلى الدنيا للعمل بما يُرضي الله سبحانه.

فماذا ينتظر هؤلاء؟ وماذا يمنعهم من الإيمان بخاتم الرسل ﷺ؟ ﴿هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا تَأْوِيلَهُ﴾؟ وهو حقيقة وقوع ما جاء في القرآن ﴿يَوْمَ يَأْتِي تَأْوِيلُهُ﴾ عند قيام الساعة ﴿يَقُولُ الَّذِينَ سُئِلُوا مِنْ قَبْلِ﴾ فضيعوه وتركوا العمل للقاء الله في الدنيا، وهم يقرون ويعترفون به عند معاينة العذاب ﴿قَدْ جَاءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِالْحَقِّ﴾ فبلغونا رسالة الله ونصحوا لنا، ولكنهم اعترفوا بعد فوات الآوان، ثم يطلبون ويتمنون أحد أمرين:

الأمر الأول: وجود شفعاء يشفعون لهم عند الله ﴿فَهَلْ لَنَا مِنْ شُفَعَاءَ فَيَشْفَعُوا لَنَا﴾؟ أي: شفعاء ينقذونهم من عذاب الله، يقول سبحانه: ﴿فَمَا نَنْفَعُهُمْ شَفَعَةُ الشَّافِعِينَ﴾ [المدرثر].

والأمر الآخر: هو العودة إلى الدنيا ﴿أَوْ نُردُّ﴾ نرجع إلى الدنيا؛ لتندارك ما فاتنا من العمل الصالح فيها ﴿فَنَعْمَلْ غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ﴾ يقول سبحانه: ﴿وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾ [الأنعام: ٢٨] قال جل شأنه قاطعاً بدخولهم النار وخلودهم فيها ﴿قَدْ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾ ذهب عنهم في ساحة الموقف ما كانوا يعبدونه من دون الله، وتبين باطلهم وضلالهم، وصدق ما جاءت به الرسل.

أَدِلَّةُ التَّوْحِيدِ وَمُقْتَضَاهُ

٥٤- ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ يُغْشَى^(١) اللَّيْلُ النَّهَارُ يَطْلُبُهُ حَثِيثًا وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ مُسَخَّرَاتٌ^(٢) بِأَمْرِهِ أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ بَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ

وبعد أن تهيأت القلوب والأسماع لقبول الحجة على أن الله تعالى واحد، وأن كل ما يُعْبَدُ من دون الله ضلال وباطل، وبعد بيان عظيم قدرة الله تعالى في خلقه، وبعد هذه

(١) قرأ شعبة وحزمة والكسائي ويعقوب وخلف العاشر، بفتح الغين وتشديد الشين من (يغشى الليل والنهار) مضارع غشى المضاعف، وقرأ الباقر بن إسحاق الغين وتخفيف الشين مضارع أغشى.

(٢) قرأ ابن عامر برفع هذه الألفاظ الأربعة (والشمس والقمر والنجوم مسخرات) على أن الشمس مبتدأ ومسخرات خبر، وما بينهما عطف، وقرأ الباقر بالنصب عطفاً على السموات، ومسخرات حال.

الجلولة في مشاهد القيامة جاءت النتيجة الحتمية لهذه الأدلة والبراهين، وهي أن يَعْلَمَ الْخَلْقُ أن الله واحد أحد، لا رب غيره، ولا معبود سواه.

إن ربكم وسيدكم -أيها الناس- الذي يجب أن تعبدوه وتوحدوه هو الذي أوجد السموات والأرض وما فيهما وما بينهما، من العدم على غير مثال سَبَقَ، وَخَلَقَ هذا الكون وما فيه في مقدار أيام ستة، أولها يوم الأحد وأخرها يوم الجمعة، والأيام الستة غيب ﴿مَّا أَشْهَدُكُمْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَا خَلَقَ أَنْفُسِهِمْ﴾ [الكهف: ٥١].

والعرب كانت تقول: يوم بعث يوم البسوس، فيسمون السنوات العديدة يوماً، فلعل هذه الأيام الستة من هذا القليل، وفي القرآن الكريم ﴿وَأَنْتَ يَوْمًا عِنْدَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ﴾ [الحج: ٤٧] ﴿تَعْرِجُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ﴾ [المعارج: ٤]

وكل ما يقال عن مقدار هذه الأيام الستة، ليس عليه دليل صحيح صريح؛ إذ لم يكن قبلهما شمس ولا قمر يقدر بهما الأيام والليالي، ولا يتحقق اليوم إلا بعد تمام خلق السموات والأرض؛ حتى يمكن ظهور نور الشمس على نصف الكرة الأرضية، وظهور الظلمة على النصف الآخر، والله أعلم إن كانت هذه الأيام من أيام الدنيا أو الآخرة، وهو سبحانه قادر أن يخلق الكون في لحظة ﴿إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ [يس] ولكنه سبحانه يعلمنا الثبوت والتأني في الأمور.

وقد ثبت أن الله تعالى خلق السموات في يومين، وخلق الأرض في يومين، وقدر فيها أقواتها في يومين، كما جاء ذلك في سورة فصلت [٩-١٢] حيث بارك في الأرض، وقدر فيها أقواتها في مجموع أربعة أيام، وانتهى بخلق آدم يوم الجمعة.

قوله تعالى ﴿ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ﴾ أي: علا وارتفع، استواء يليق بجلاله، وثبت في الأحاديث أن عرش الرحمن محيط بالسموات والأرض وما بينهما وما عليهما، فالعرش

أعظم من السموات والأرض، وقد ذُكر العرش في القرآن الكريم في إحدى وعشرين آية، وذكر الاستواء في سبع آيات في سور يونس والرعد [٢] وطه [٥] والفرقان [٥٩] والسجدة [٤] والحديد [٤] وفصلت [١١].

فاستوى على العرش واحتوى على الملك، ودبره، وأجرى عليه أحكامه الكونية والدينية. وحقيقة العرش هو الكرسي المرتفع الذي يجلس عليه المَلِك، وقد خلق الله العرش فوق الماء قبل خلق السموات والأرض، واستواء الله تعالى على العرش استواءً يليق بجلاله وعظمته وسلطانه، يعلم حقيقته رب العالمين.

سأل رجل مالك بن أنس عن معنى الاستواء فقال: الاستواء معلوم، والكيف مجهول، والإيمان به واجب، والسؤال عنه بدعة، وقيل: إن مالكا قال له: وإني لأظنك ضالاً، وفي لفظ: وأظنك رجل سوء، أخرجوه عني^(١).

قال ابن عيينة: كلُّ ما وصف الله به نفسه في كتابه فتفسيره تلاوته والسكوت عنه.

ونحن نؤمن بما جاء في كتاب الله، وبما صَحَّ به حديث رسول الله ﷺ، فهو سبحانه مُنزَه عن مشابهة المخلوقين ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾ [الشورى: ١١].

وجاء عن أم سلمة ؓ أنها قالت: الكيف غير معقول، والاستواء غير مجهول، والإقرار به من الإيمان، والجحود به كُفْرٌ، وليس لنا أن نشبه أو نمثل أو نعطل أو نحرف أو نوول.

ثم قال تعالى: ﴿يَعِشَى اللَّيْلُ الْمَظْلَمُ﴾ ﴿النَّهَارُ الْمَظِيءُ﴾، فيظلم ما على وجه الأرض، ويسكن الخلق وتأوى المخلوقات إلى مساكنها، فتستريح من التعب والذهاب والإياب الذي حدث لهم في النهار، وإضاءة الليل بالأنوار والكهرباء، لا يخرجهم عن وظيفته، إذ لا بد للإنسان أن ينام ويستريح، وإلا فلا يستطيع أن يؤدي وظيفته في الحياة.

والمعنى: يُدخل الليل على النهار فيلبسه إياه ويغطيه ويستره حتى يذهب نوره، ويجعل الكون مظلمًا، ويدخل النهار على الليل فيذهب ظلامه، فالليل يغطي النهار بظلمته، ويطلبه حثيثًا، وفي ذلك منافع للناس وبه تتم الحياة، وكُلُّ من الليل والنهار يطلب الآخر

(١) أخرجه البيهقي عن عبد الله بن وهب (٨٦٦) قال ابن حجر في «فتح الباري» (١٣/٤٠٦): سنده جيد، وأخرجه الكسائي عن جعفر بن عبد الله.

سريعاً باستمرار، ﴿يَطْلُبُهُ حَثِيئًا﴾ يذهب هذا ويأتي هذا، فيذهب الضوء وتأتي الظلمة، والعكس، وهكذا حتى تنتهي هذه الدنيا وينتقل العباد إلى دار القرار.

قال تعالى: ﴿وَأَيَّاهُ لَهُمْ أَلِيلٌ نَّسَلَخَ مِنْهُ النَّهَارَ فَإِذَا هُمْ مُظْلِمُونَ ﴿٣٧﴾ وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَهَا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ ﴿٣٨﴾ وَالْقَمَرَ قَدَرْنَاهُ مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيرِ ﴿٣٩﴾ لَا الشَّمْسُ يَنْبَغِي لَهَا أَنْ تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلَا أَلِيلٌ سَابِقُ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴿٤٠﴾﴾ [يسر]

وقال تعالى: ﴿تَبَارَكَ الَّذِي جَعَلَ فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا وَجَعَلَ فِيهَا سِرَاجًا وَقَمَرًا مُنِيرًا ﴿١١﴾﴾ [الفرقان].

فاللهم لك الملك كله، ولك الحمد كله، وإليك يرجع الأمر كله، أسألك من الخير كله، وأعوذ بك من الشر كله.

قوله تعالى: ﴿وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ مُسَخَّرَاتٌ بِأَمْرِ رَبِّهِ﴾ أي: وخلق الشمس والقمر والنجوم وسخرهن كما شاء سبحانه، مذللات خاضعات لتصرفه، منقادات لمشيئته تعالى، وهذا الكون وما فيه سخره الله سبحانه في خدمة الإنسان، وهو مذل له بأمر الله جل شأنه، والشمس والقمر والنجوم من آيات الله العظيمة الدالة على سعة ملكه وأنه الإله الحق الذي لا تنبغي العبادة إلا له.

﴿أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ﴾ المتضمن للأحكام الكونية والقدرية، وله الأمر المتضمن للشرائع والنبوات، وله أحكام الثواب والعقاب في دار البقاء.

﴿تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ فالخلق كله له، والأمر كله له، فتعالى وتعاظم وتنزه عن كل نقص، وهو رب الخلق أجمعين في العالم العلوي والسفلي.

عن الحسن بن علي ؑ قال: أنا ضامن لمن قرأ عشرين آية في كل ليلة أن يعصمه الله من كل سلطان ظالم، ومن كل شيطان مارد، ومن كل سبع ضار، ومن كل لص عاد: آية الكرسي، وثلاث آيات من الأعراف ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ﴾ وما بعدها [٥٤-٥٦] وعشر آيات من أول الصافات، وثلاث آيات من الرحمن ﴿يَمَعَشَرُ الْجَنِّ وَالْإِنْسِ﴾ وما بعدها [٣٣-٣٥] وخاتمة الحشر^(١).

وورد أن قراءة آية ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ﴾ عند النوم تحفظ من السرقة وتشفى من المرض^(٢).

(١) ابن أبي الدنيا في «الدعاء» والخطيب في تاريخه (١٢٧/٤).

(٢) ينظر: أبو الشيخ عن عبيد بن أبي مرزوق كما في «الدر المنثور» (٤١٨/٦).

وأَسَدُ الطَّبْرِي إِلَى النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: «مَنْ زَعَمَ أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى جَعَلَ لِأَحَدٍ مِنَ الْعِبَادِ شَيْئًا مِنَ الْأَمْرِ فَقَدْ كَفَرَ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ؛ لِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ﴾»^(١).

ولما ذكر سبحانه ما يدل على عظمته وجلاله، أمر بما يترتب على ذلك من عبادة الله وحده، والتوجه إليه جل شأنه بالدعاء فقال:

٥٥- ﴿ادْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً^(٢) إِنَّكُمْ لَا يُحِبُّ الْمُعَذِّبُ

ثم أمر سبحانه عباده أن يعبدوه ويتضرعوا له بالدعاء بما فيه صلاحهم في الدنيا والآخرة فقال: ﴿ادْعُوا رَبَّكُمْ﴾ أيها الناس، واطلبوا الخير منه وحده، وتوجهوا له سبحانه بأنواع العبادة دون سواه، ادعوه دعاء عبادة ودعاء مسألة، فأمر بدعائه ﴿تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً﴾ أي: تذللًا ومسكنة وانكسارًا وخشوعًا وخضوعًا.

فالتضرع: هو التذلل والإلحاح في المسألة.

والخفية: هو السر والإخلاص، لا جهرا ولا علانية يخاف منها الرياء. وقد مدح الله نبيه زكريا بقوله: ﴿إِذْ نَادَى رَبَّهُ نِدَاءً خَفِيًّا﴾ [مريم].

فاسألوا ربكم -أيها الناس- حوائجكم بتذلل واستكانة وإسرار وضراعة، واتجهوا إليه سبحانه بقلب سليم وإخلاص ويقين، فإنه سبحانه يسمع الدعاء، ويجيب المضطر إذا دعاه، ويكشف السوء، ويمنح الخير، ويدفع المكروه، ويعين على نوائب الدهر، فالدعاء من أشرف أنواع العبادة، وفيه الخضوع لله الواحد القهار.

وعن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه قال: رفع الناس أصواتهم بالدعاء، فقال رسول الله ﷺ: «أيها الناس، أربعوا على أنفسكم، فإنكم لا تدعون أصمًا ولا غائبًا، إن الذي تدعونه سميع قريب»^(٣).

وفيه دليل على عدم استحباب رفع الصوت بالدعاء، وأنه الأصل في الذكر والدعاء،

(١) «تفسير الطبري» (١٢/٤٨٤).

(٢) قرأ شعبة بكسر الخاء من (وخفية)، والباقون بضمها، وهما لغتان.

(٣) البخاري برقم (٤٢٠٢، ٤٢٠٥، ٤٩٩٢) ومسلم (٢٠٧٦/٤) برقم (٢٧٠٤).

إلا ما ورد الدليل برفع الصوت فيه؛ كالتكبير في الصلاة، وكان السلف يجتهدون بالدعاء ولا يسمع لهم صوت.

ورَفَعُ الصوت بالدعاء، ودعاء غير الله تعالى، والتوسط بالصالحين - كله اعتداءً في الدعاء نهى عنه رب العالمين ﴿إِنَّهُمْ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ﴾ كما نهى النبي ﷺ عن التجاوز في الدعاء برفع الصوت والصياح والنداء والتفعر، وعدم الحزم والجزم في المسألة، أو سؤال ما لا يصلح للعبد، أو يتنطع في السؤال ويبالغ فيه، كل ذلك من الاعتداء في السؤال.

وإظهار الفرائض في العبادات أفضل من إخفائها، وإخفاء النوافل أبعد عن الرياء، وما دام الأمر كذلك فاعبدوا ربكم، وادعوه خوفاً من ناره، وطمعاً في جنته، ادعوه خوفاً وطمعاً، وخفية وسراً بخشوع، وبُعدٍ عن الرياء، والله لا يحب المتجاوزين شرعه بدعاء غيره من الأموات والأوثان.

ونظير هذه الآية قوله تعالى: ﴿وَأَذْكُرْ رَبَّكَ فِي نَفْسِكَ تَضَرُّعًا وَخِيفَةً وَدُونَ الْجَهْرِ مِنَ الْقَوْلِ بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ وَلَا تَكُنْ مِنَ الْغَافِلِينَ﴾ [الأعراف].

وفي المسند وغيره أن سعد بن أبي وقاص ؓ سمع ابنًا له يدعو وهو يقول: اللهم إني أسألك الجنة ونعيمها وإستبرقها، وأعوذ بك من النار وسلاسلها وأغلالها، فقال: لقد سألت الله خيرًا كثيرًا، وتعوذت بالله من شر كثير، وإني سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: «إنه سيكون قوم يعتدون في الدعاء» وقرأ هذه الآية: ﴿ادْعُوا رَبَّكُمْ﴾ وإن حَسْبُكَ أن تقول: اللهم إني أسألك الجنة وما قرب إليها من قول أو عمل، وأعوذ بك من النار وما قرب إليها من قول أو عمل^(١).

وعن عبد الله بن مغفل أنه سمع ابنه يقول: اللهم إني أسألك القصر الأبيض عن يمين الجنة إذا دخلتها، فقال: يا بني، سل الله الجنة، وعُذ به من النار، فإني سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: «سيكون في هذه الأمة قوم يعتدون في الدعاء والطهور»^(٢).

(١) مسند الإمام أحمد (١٧٢/١) برقم (١٤٨٣، ١٥٨٤) حسن لغیره و«سنن أبي داود» برقم (١٤٨٠) و«صحيح سنن أبي داود» (١٣١٣) والطيالسي (١٩٧) وابن أبي شيبة (٢٨٨/١٠) وابن أبي حاتم (٨٥٩٥). و أبي يعلى (٧٦٥).

(٢) ينظر: «المسند» (٥٥/٥) برقم (١٦٨٠١) حسن لغیره، و«سنن ابن ماجه» برقم (٣٨٦٤) و«سنن أبي داود» برقم (٩٦) و«صحيح سنن أبي داود» (٨٧) وابن أبي شيبة (٢٨٨/١٠) وابن حبان (٦٧٦٣) والحاكم (١٦٢/١) والبيهقي في السنن (١٩٦/١).

وَتَرَكُ الدُّعَاءَ تَكْبِيرٌ عَلَى عِبَادَةِ اللَّهِ تَعَالَى، ودعاء الله تعالى دليل على محبته، فادعوا ربكم؛ لأنه يحبكم ولا يحب المعتدين ﴿وَقَالَ رَبُّكُمْ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾ [غافر].

والله تعالى لا يجيب دعاء الكافرين، كما قال تعالى: ﴿وَمَا دُعَاءُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ﴾ [غافر: ٥٠].

وليس في الآية ما ينهى عن الجهر بالدعاء، وإنما النهي عن شدة المبالغة بالجهر بالدعاء، فقد جهر النبي ﷺ بالدعاء على المنبر بمسمع من الناس في دعاء الاستسقاء وغيره فقال: «اللهم اسقنا» وقال: «اللهم حوالينا ولا علينا»^(١) وقال: «اللهم عليك بقريش»^(٢). قال تعالى:

٥٦- ﴿وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا وَادْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا إِنَّ رَحْمَتَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ الْمُحْسِنِينَ﴾ (٥٦)

وبعد أن أمر الله تعالى عباده بالدعاء نهاهم عن الإفساد في الأرض واتباع الشهوات والشبهات؛ ليكون صلاحهم خاليًا من الفساد لأنفسهم ولغيرهم فقال ﴿وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا﴾ بأي لون من ألوان الفساد، قل هذا الفساد أو أكثر، لا تفسدوا بالشرك بعد الإيمان، لا تفسدوا في الأرض بعد أن أصلحها الله؛ بإرسال الرسل وإنزال الكتب وتقرير الشرائع ووضوح ملة محمد ﷺ، ولا تفسدوا في الأرض بأدنى درجات الفساد؛ كاحتكار الطعام والماء وقطع الشجر المثمر وغير ذلك، ولا تفسدوا بالمعصية بعد الطاعة، والإفساد مذموم ومنهي عنه في كل حال.

قال تعالى: ﴿ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ﴾ [الروم: ٤١] فالمعاصي تفسد الأخلاق والأعمال والأرزاق، والطاعات تصلح الأخلاق والأعمال والأرزاق وأحوال الدنيا والآخرة.

﴿وَادْعُوهُ خَوْفًا﴾ من ناره ﴿وَطَمَعًا﴾ في جنته، فإن الرجاء والخوف كالجناحين للطائر

(١) ينظر حديث جابر في أبي داود (١١٧٥، ١١٧٤) وصحيح أبي داود (١٠٤٢، ١٠٤١) وانظر حديث أنس في البخاري (١٠١٣، ١٠١٩) ومسلم (٨٩٧).

(٢) من حديث عبدالله بن مسعود في البخاري (٢٤٠، ٥٢٠) ومسلم (١٧٩٤).

(٣) لفظ (رحمة) رسم بالتاء ووقف عليها بالهاء ابن كثير وأبو عمرو والكسائي ويعقوب، والباقون بالتاء.

يحملانه على الاستقامة، فإن انفرد أحدهما هلك الإنسان، ولا بأس أن يتغلب جانب الخوف على جانب الرجاء، فإذا جاء الموت تغلب جانب الرجاء على الخوف، وهذا من الإحسان في الدعاء وبذل الجهد والإخلاص فيه واخفائه والخوف من رده وعدم قبوله ﴿إِنَّ رَحْمَتَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ الْمُحْسِنِينَ﴾، في عبادة الله، المحسنين إلى خلق الله، وكلما كان العبد أكثر إحساناً كلما كان أقرب إلى رحمة ربه، وربه قريب منه.

وفي الآية السابقة بيان شرط صحة الدعاء ﴿تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً﴾ والخوف يكون من غضب الله وعقابه، وعدم قبول الدعاء، والطمع يكون في رضى الله وثوابه، ودعاء الخوف نحو الدعاء بمغفرة الذنوب، ودعاء الطمع نحو الدعاء بالتوفيق والسداد، وليس المعنى أن الدعاء في حد ذاته يشتمل على الخوف والطمع، وإنما المراد: ادعوا ربكم من أجل الخوف ومن أجل الطمع، والخوف يشمل جميع المنهيات، والطمع يشمل جميع المأمورات؛ خوفاً من العقاب وطمعاً في الثواب، ورحمة الله مرجوة لمن يطمع في ثوابه ويخاف من عقابه.

وفي هذه الآية بيان فائدة الدعاء ﴿خَوْفًا وَطَمَعًا﴾ وفيها أن رحمة الله قريب من المطيعين الذين يعبدون الله، ويمثلون أمره، ويجتنبون نهيه، كأنه يراهم أو كأنهم يرونه، فهم بين مقامي المراقبة والمشاهدة.

قال تعالى: ﴿وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالَّذِينَ هُمْ بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ﴾ [الأعراف: ١٥٦، ١٥٧] فالجزاء من جنس العمل، ولفظ (رحمة) مؤنث مجازي، يجوز في خبره (قريب) التذكير والتأنيث.

٥٧- ﴿وَهُوَ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيحَ^(١) بُشْرًا^(٢) بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ حَتَّىٰ إِذَا أَقْلَّتْ^(٣) سَحَابًا

(١) قرأ ابن كثير وحمزة والكسائي وخلف العاشر بإفراد لفظ (الريح)، والباقون بالجمع (الرياح).

(٢) قرأ عاصم (بُشْرًا) بالباء وسكون الشين، وقرأ حمزة والكسائي وخلف العاشر (نُشْرًا) بنون مفتوحة وشين ساكنة، وقرأ ابن عامر بضم النون وسكون الشين، والباقون بضم النون والشين وقراءة الباء من البشري، وقراءة النون من الانتشار والتفرق والبث.

(٣) أدغم التاء في السين من (أقْلَّتْ سحَابًا) أبو عمرو وحمزة والكسائي وخلف العاشر وهشام بخلف عنه، والباقون بالإظهار.

ثِقَالًا سُقْنَهُ لِبَلَدٍ مَّيِّتٍ^(١) فَأَنْزَلْنَا بِهِ الْمَاءَ فَأَخْرَجْنَا بِهِ مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ كَذَلِكَ نُخْرِجُ الْمَوْتَى لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ^(٢) ﴿٥٧﴾

ثم بيّن سبحانه بعضاً من دلائل قدرته وبعث الناس بعد موتهم، وأدلة توحيده وتديره شؤون خلقه؛ ومن ذلك أنه جل شأنه يَرْزُقُ العباد بأنواع الرزق المختلفة ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ ثُمَّ رَزَقَكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ﴾ [الروم: ٤٠] فهو الخالق الرازق.

ومن أنواع الرزق نزول المطر ﴿وَهُوَ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيْحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ﴾ أي: يرسل الرياح قبل نزول المطر؛ لتبشر عباده بالغيث الذي تثيره؛ فيستبشر الخلق برحمة الله ﴿حَتَّىٰ إِذَا حُمِلَتِ الرِّيحُ بِخَارٍ﴾ و﴿أَقْلَّتْ﴾ الرياح ﴿سَحَابًا﴾ مثقلاً بالمياه حملته يأذن الله إلى أرض خربة لا تثبت كلاً ولا مرعى ﴿سُقْنَهُ﴾ أي: سُقْنَا ذلك الماء ﴿لِبَلَدٍ مَّيِّتٍ﴾ أجذبت أرضه، ويست أشجاره وزرعه، وكادت حيواناته وأهله أن تهلك.

وذلك أن الرياح تمر على سطح الأرض فيتجمع بها ما على السطح من بخار؛ فتحركه وتسوقه حتى يصل إلى نقطة باردة في أعلى الجو، فينبض البخار ويتجمع أجزاءه، حتى يصبح سحباً كثيفاً فيثقل ثم ينزل المطر، وهذا معنى ﴿فَأَنْزَلْنَا بِهِ﴾ أي: بذلك البلد الميت ﴿الْمَاءَ فَأَخْرَجْنَا بِهِ﴾ أي: بهذا الماء الغزير ﴿مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ﴾ جميع أنواع الثمار والزروع والأشجار والنبات، فأصبحوا مستبشرين برحمة الله.

روى الشافعي بسنده إلى أبي هريرة ؓ أن رسول الله ﷺ قال: «الريح من روح الله، تأتي بالرحمة وتأتي بالعذاب، فإذا رأيتموها فلا تسبوها، واسألوا الله من خيرها، واستعينوا بالله من شرها»^(٣).

قيل: إن الله تعالى يجعل الرياح تتحرك بشدة؛ فتثير السحاب، ثم ينضم بعضها إلى

(١) قرأ نافع وحفص وحزمة والكسائي وأبو جعفر وخلف العاشر بتشديد الياء من (بلد ميت)، وقرأ الباقون بالتخفيف.

(٢) قرأ حفص وحزمة والكسائي وخلف العاشر بتخفيف الذال من (تذكرون)، والباقيون بتشديدها.

(٣) أخرجه الشافعي في «شفاء العي» (٥٠٤) وابن حبان (١٠٠٧) وأبو يعلى (٦١٤٢) وابن أبي شيبه (١/ ٢١٦) و«المسند» (٧٤١٣، ٩٦٢٩) صحيح لغيره، بإسناد حسن ورجال ثقات (محققوه) وأبو داود (٥٠٩٧) والنسائي (١٠٧٦٧) و«صحيح سنن ابن ماجه» (٣٠٠٣) والبخاري في الأدب المفرد (٧٢٠).

بعض، فتراكم وينعقد ويحمل الماء، ثم تسوقه إلى حيث شاء الله.

وجاء في وجه الشبه بين إحياء الأرض وإحياء الموتى ما قاله ابن عباس وأبو هريرة رضي الله عنهما أن الناس إذا ماتوا في النفخة الأولى أمطر الله عليهم ماءً من تحت العرش (يُدعى ماء الحياة) أربعين سنة؛ فينبتون كما ينبت الزرع من الماء^(١).

وقال مجاهد: إذا أراد الله تعالى أن يخرج الموتى أمطر السماء حتى تنشق الأرض، ثم يرسل الأرواح؛ فتعود كل روح إلى جسدها، فكذلك يحيي الله الموتى بالمطر، كإحيائه الأرض به^(٢).

هذا مثلٌ يضربه الله سبحانه لعباده؛ ليرتب عليه ﴿كَذَلِكَ نُخْرِجُ الْمَوْتَى لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ أيها المنكرون للبعث، فكما يخرج الله النبات من الأرض، ويحيي الأرض الميتة، يحييكم من قبوركم بعد موتكم يوم القيامة بعد ما كنتم رفاتاً ممزقين.

أخرج الطبري بسند حسن عن الشَّدي قال: إن الله يرسل الريح فتأتي بالسحاب من بين الخافقين، طرف السماء والأرض، من حيث يلتقيان، فيخرجه من ثمٍّ، ثم ينشره فيسطه في السماء كيف يشاء، ثم يفتح أبواب السماء؛ فيسيل الماء على السحاب، ثم يمطر السحاب بعد ذلك.

ويوضح معنى الآية قوله تعالى في الآيات التالية: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ يُرْسِلَ الرِّيحَ مُبَشِّرَاتٍ﴾ [الروم: ٤٦] وقوله ﴿وَهُوَ الَّذِي يُزِلُّ الْغَيْثَ مِنْ بَعْدِ مَا قَنَطُوا وَيَنْشُرُ رَحْمَتَهُ﴾ [الشورى: ٢٨]

وقوله ﴿فَانْظُرْ إِلَى آثَارِ رَحْمَتِ اللَّهِ كَيْفَ يُخْرِجُ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا﴾ [الروم: ٥٠]

وقوله ﴿وَأَيُّهُمْ لَمْ الْأَرْضُ الْمَيِّتَةُ أَحْيَيْنَاهَا وَأَخْرَجْنَا مِنْهَا حَبًّا فَمِنْهُ يَأْكُلُونَ﴾ [يس: ٣٣]

وقوله ﴿وَأَرْسَلْنَا الرِّيحَ لَوْفِحَ﴾ [الحجر: ٢٢]

وقوله ﴿اللَّهُ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا﴾ [الروم: ٤٨].

وهكذا فإن جمع الريح يصاحب الخير والرزق ونزول المطر، كما أن أفراد الريح يصاحب العذاب، كما قال تعالى: ﴿وَفِي عَادٍ إِذْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الرِّيحَ الْعَقِيمَ﴾ [الذاريات: ٢١]

(١) ينظر: «تفسير ابن عطية» والخازن و«زاد المسير» والبخاري للآية.

(٢) الطبري (٢٥٦/١٠) وابن أبي حاتم (٨٦١٣).

وقال سبحانه ﴿وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُوا بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ﴾ [الحاقة]

وقال جل شأنه ﴿بَلْ هُوَ مَا اسْتَعْجَلْتُمْ بِهِ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [الأحقاف].

وفي الحديث عن ابن عباس ؓ أن النبي ﷺ كان إذا هبت الريح يقول: «اللهم اجعلها رحمة ولا تجعلها عذاباً، اللهم اجعلها رياحاً ولا تجعلها ريحاً»^(١).

وكون ريح الصرصر والعذاب بالإنفراد؛ لأنها شديدة مُهلكة، وشدة الاتصال بأجزائها تجعلها كأنها جسدٌ واحدٌ، أما الرياح فهي منفصلة الأجزاء متغيرة المهب؛ ولذا وُصفت بالكثرة.

وذكرُ الرياح هو المقصود الأهم في الآية؛ لأنها لا تُرسلُ إلا لتبشر بنزول المطر، ولا ينزل المطر إلا بعدها؛ ولذا قُدِّمت على نزول الماء.

وفي الآية تعريضٌ بإنذار المكذبين بالله ورسله، وتحذيرٌ لهم أن تكثر عليهم الأرزاق ابتلاء وفتنة، كما قال تعالى: ﴿وَالْوَلَّوْا اسْتَقَمُوا عَلَى الطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْنَهُمْ مَاءً عَذَقًا﴾ [الجن: ١٦، ١٧] ولو أنهم استقاموا على منهج الله لرزقهم الله من حيث لم يحتسبوا.

والمراد بالرحمة في الآية: المطر، كما وردت في آيات أخرى سَبَقَ ذِكْرُهَا، وفيها دلالة على عِظَمِ قدرة الله تعالى بإنزال نعمة الماء؛ لإغاثة العباد والبلاد، مع أنه سبحانه قادرٌ على إخراج النبات من غير ماء، وفيها دلالة على أن الله تعالى قادرٌ على إحياء الموتى من قبورهم كما أحيا الأرض بوابل السماء.

مَثَلُ الْمُؤْمِنِ وَالْكَافِرِ

٥٨- ﴿وَالْبَلَدُ الطَّيِّبُ يَخْرِجُ نَبَاتُهُ بِإِذْنِ رَبِّهِ وَالَّذِي خَبِثَ لَا يَخْرِجُ^(٢) إِلَّا نَكِدًا^(٣) كَذَلِكَ نُصَرِّفُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَشْكُرُونَ﴾ [٥٨]

(١) من حديث ابن عباس في «شفاء العي» للشافعي (٥٠٢) وأبي الشيخ (٨٧٣) والبيهقي في «المعرفة» (٢٠٢٩) وضعفه الألباني في «ضعيف الجامع» (٤٤٦١).

(٢) قرأ ابن وردان بخلف عنه بضم الياء وكسر الراء من (لا يخرج)، والباقون بفتح الياء وضم الراء ومعهم ابن وردان في الوجه الآخر.

(٣) قرأ أبو جعفر بفتح الكاف من (نكدًا) على أنها مصدر، وقرأ الباقر بكسر الكاف اسم فاعل أو صفة مشبهة.

وبعد ذِكْرِ نزول الماء على الأرض الميتة فتحيا بإذن الله تبارك وتعالى، ذكر الله عز وجل في هذه الآية تفاوت الأراضي التي ينزل عليها المطر، فمنها طيبة التربة والماء يخرج نباتها بإذن ربها، ومنها أرض سبخة لا تُخرج إلا نباتاً لا نفع فيه ولا بركة، فيتدبرونها ويتأملونها، وهذا مثال للقلوب حين ينزل عليها الوحي، وهو مادة الحياة، فكما أن الغيث مادة الحياة، فإن القلوب الطيبة تتنفع بالوحي، والقلوب الخبيثة لا يؤثر فيها شيئاً بل يمر عليها كما يمر الماء على الرمال والصخور فلا يؤثر فيها.

وهكذا يضرب الله مثلاً في هذه الآية للمؤمن والكافر بعد قوله تعالى: ﴿لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ وذلك لأن المؤمن الذي ينتفع بالموعظة والذكرى، وينتفع بالقرآن، وينتفع بالعلم -كالأرض الطيبة التي تتشرب الماء، وتنبت الزرع والثمر؛ لأنها أرض خصبة فيها فائدة- أما الكافر فهو كالأرض السبخة التي لا تتشرب الماء، أو تتشربه ولكنها لا تنبت شيئاً؛ لأنها أرض حجرية صخرية أو رملية.

والأرض الخصبة إذا نزل عليها المطر أخرجت نباتاً طيباً، وكذلك المؤمن الذي ينتفع بالموعظة، والأرض الرديئة لا تخرج إلا نباتاً رديئاً، وكذلك الكافر الذي لا ينتفع بالدعوة.

ذلكم قوله تعالى: ﴿وَالْبَلَدُ الطَّيِّبُ يَخْرِجُ نَبَاتُهُ بِإِذْنِ رَبِّهِ﴾ كالقلب الطيب ﴿وَالَّذِي خَبَثَ﴾ أي: الأرض السبخة ﴿لَا يَخْرِجُ إِلَّا نَكَدًا﴾ وكذلك القلب الخبيث الكافر، قال سبحانه: ﴿كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَشْكُرُونَ﴾ أي: بمثل هذا التنوع البديع أنواع الحجج والبراهين؛ لإثبات الحق لقوم يشكرون نعم الله ويطيعونه.

عن أبي موسى رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «مثل ما بعثني الله به من الهدى والعلم كمثل الغيث الكثير أصاب أرضاً، فكانت منها نقية قبلت الماء؛ فأنبتت الكلاً والعشب الكثير، وكانت منها أجادب أمسكت الماء، فنفع الله بها الناس؛ فشربوا وسقوا وزرعوا، وأصابت منها طائفة أخرى، إنما هي قيعان لا تمسك ماء ولا تنبت كلاً، فذلك مثل من فقه في دين الله ونفعه ما بعثني الله به، فعلم وعلم، ومثل من لم يرفع بذلك رأساً، ولم يقبل هدى الله الذي أرسلت به»^(١).

(١) «صحيح البخاري» برقم (٧٩) ومسلم (١٧٨٧/٤) برقم (٢٢٨٢) و«سنن النسائي الكبرى» برقم (٥٨٤٣) و«المسند» (١٩٥٧٣)، إسناده صحيح على شرط الشيخين.

فهذا مثل للمؤمن الذي يقول طيبًا ويعمل طيبًا منتفعًا بالموعظة، كالأرض الطيبة التي تثمر طيبًا، أما الكافر فهو كالأرض السبخة التي لا تنتفع بالماء.

فالمعنى: أن الأرض كريمة التربة تخرج نباتًا حسنًا غزير النفع والفائدة؛ بسبب انتفاعها بالماء النازل عليها، وهذا مثل المؤمن صاحب الفطرة الطيبة التي تقبل الهدى وتنتفع به، أما الأرض السبخة فلا يخرج نباتها إلا قليلًا عديم الفائدة؛ بسبب عدم انتفاعها بالماء الذي ينزل عليها كحال الكافر صاحب الفطرة الخبيثة فهو لا يقبل الهدى ولا ينتفع به. وفيما يأتي ذكر لستة من قصص الأنبياء والمرسلين:

سِتٌّ مِنْ قِصَصِ الْمُرْسَلِينَ فِي السُّورَةِ

أَوَّلًا: قِصَّةُ نُوحٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ مَعَ قَوْمِهِ

٥٩- ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ فَقَالَ يَفْقَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ^(١)﴾ إِنِّي^(٢) أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿٥٩﴾

ولما تحدثت الآيات السابقة عن دلائل التوحيد والربوبية، وأقامت الأدلة على صحة البعث بعد الموت، وبيّنت بعض مظاهر قدرة الله تعالى بعد أن تحدثت عن قصة آدم، وما يدور بين أهل الجنة والنار من حوار، وهذا هو جوهر رسالات الرسل جميعًا، وكل منهم لقي إعراضًا من قومه، أتبع ذلك بذكر قصص الأمم الخالية، والقرون الماضية، وذكر مصارع المكذبين للرسل في هذه الأمم التي أشار الله سبحانه إلى هلاكها في مطلع السورة في قوله ﴿وَكَمْ مِنْ قَرَبَةٍ أَهْلَكْنَاهَا فَجَاءَهَا بَأْسُنَا بَيِّنًا أَوْ هُمْ قَائِلُونَ﴾ ﴿١﴾ لينبه بذلك على أن إعراض الناس عن قبول الحق هو شيء حاصل في الأمم السابقة، وأن عاقبة المكذبين في كل زمان ومكان هو خسران الدنيا والآخرة، وأن الله تعالى يمهّل ولا يهمل، وفي هذا دلالة على صدق النبي ﷺ، وإلا فَمَنْ أَعْلَمَهُ ذَلِكَ؟

(١) قرأ الكسائي وأبو جعفر بخفض الراء وكسر الهاء من (غيره) على أنها صفة أو بدل من (إله) لفظًا، وقرأ الباقر برفع الراء وضم الهاء على أنها صفة أو بدل أيضًا من (إله) محلاً؛ لأن (من) زائدة، و (إله) مبتدأ.

(٢) قرأ نافع وابن كثير وأبو عمرو وأبو جعفر بفتح ياء الإضافة وصلًا من (إني أخاف)، والباقر بإسكانها.

فسورة الأعراف تمثل صورة ناطقة ومشاهدة حية من دعوة الرسل إلى أقوامهم، كيف بدأت هذه الدعوة؟ وكيف انتهت؟ وكيف كانت النتيجة؟ وما عاقبة المكذبين والمصدقين بدعوة رسل الله أجمعين؟ كي تعتبر أمة محمد ﷺ، وتأخذ الدرس والعبرة من قصص الأنبياء والمرسلين، وكيف أيد الله أهل التوحيد، وأهلك من عاندهم، وكيف اتفقت دعوة الرسل على دين واحد ومعتقد واحد.

وقد بدأت سورة الأعراف في أولها بقصة آدم ﷺ، ثم حذرت بني آدم أن يقعوا في حبال الشيطان، وبينت ما يترتب على ذلك من الجزاء يوم القيامة، من النعيم المقيم لمن خالف الشيطان، والعذاب الأليم لمن سار في فلك الشيطان.

وبعد ذلك تحدثت سورة الأعراف عن قصة ستة من رسل الله عليهم وعلى نبينا أفضل وأتم التسليم، وهؤلاء الرسل هم: نوح وهود وصالح ولوط وشعيب وموسى ﷺ.

نُبذة تاريخية عن رسالة نوح ﷺ

وابتدأت السورة بعد آدم بقصة نوح ﷺ؛ لأن نوحًا ﷺ هو شيخ الأنبياء، وأكبر المعمرين، وأكثرهم تحملاً للأذى، وصبراً على دعوة قومه، وجدُّ نوح الثاني هو إدريس ﷺ، وينتهي نسبه بشيث بن آدم عليهما السلام.

وبين نوح وآدم عشرة قرون، كما جاء في صحيح البخاري عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما أن بين آدم ونوح عشرة قرون كلهم على الإسلام؛ أي: أن الناس في هذه الفترة بين آدم ونوح كانوا يعبدون الله تعالى وحده، ولا يعرفون الشرك ولا عبادة الأصنام، وكانوا في هذه الفترة على التوحيد الخالص.

ويذكر الباحثون بالاستقراء والتتبع أن بين الطوفان ووقتنا هذا يقدر بثمانين قرناً من الزمان.

وجاء ذِكْرُ نوح في القرآن الكريم في ثلاثة وأربعين موضعاً من القرآن؛ فقد ذكرت قصته في سبعة مواضع من القرآن: في سورة الأعراف [٥٩، ٦٤] وهود [٢٥، ٤١] والمؤمنون [٢٣، ٣٠] والشعراء [١٠٥، ١٢٢] والصفات [٧٥، ٨٢] والقمر [٩، ١٧] وسورة نوح كاملة، وجاءت إشارات طفيفة إلى نوح ﷺ وقصته مع قومه في سبعة وثلاثين موضعاً في القرآن الكريم.

أول رسول: وقد بين الله سبحانه أن رسالة نوح هي أول رسالة هامة واجهت الشرك والمشركين، فهو الذي أمر أن يُنذر قومه ويخوفهم عذاب يوم أليم، قال تعالى: ﴿شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ﴾ فقد ابتداءً الله سبحانه بنوح في هذه الآية، ثم قال: ﴿وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ﴾ [الشورى: ١٣].

وفي حديث الشفاعة العظمى في الصحيحين وغيرهما أن الناس يوم القيامة، يشتد عليهم الموقف، فيهرعون إلى أبيهم آدم عليه السلام؛ كي يشفع لهم عند الله تعالى، حتى يقضي أو يفصل بينهم، فيشير عليهم أن يذهبوا إلى نوح عليه السلام، فيذهبون إليه، ويقولون له: أنت أول رسول... إلخ^(١).

ولفظ مسلم أن النبي ﷺ يقول: «ولكن اتوا نوحًا أول رسول بعثه الله...»^(٢).

وقد أخذ العلماء من هذا الحديث -ومن الآية السابقة- أن نوحًا أول رسول أُرسِلَ إلى الناس، والصحيح أنه أول رسول أرسل إلى أمة أشركت بالله تعالى، وقبله كان الناس على التوحيد، وهذا لا ينافي وجود أنبياء قبل نوح عليه السلام.

فقبله كان إدريس عليه السلام، وقد جاء ذكره في القرآن مرتين في سورة مريم ﴿وَأَذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِدْرِيسَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَبِيًّا ٥٦ وَرَفَعْنَاهُ مَكَانًا عَلِيًّا ٥٧﴾ [مريم].

وفي سورة الأنبياء ذكر اسمه ضمن رسل الله سبحانه ﴿وَإِسْمَاعِيلَ وَإِدْرِيسَ وَذَا الْكِفْلِ كُلٌّ مِنَ الصَّابِرِينَ ٨٥﴾ [الأنبياء].

وقبل إدريس كان (شيث) ولد آدم من صلبه، كان نبياً، وقد نزلت عليه صحف.

وآدم تلقى كلمات من ربه أوحى بها إليه ﴿فَلَقَّيْنَاهُ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَتَيْنِ فَنَابَ عَلَيْهِ﴾ [البقرة: ٣٧] وقد أرسله الله إلى بنيه وذريته وأهله، فهؤلاء الأنبياء -آدم وشيث وإدريس- كانوا قبل نوح، ونوح عليه السلام هو أول أولي العزم الخمسة من الرسل، وهم: نوح وإبراهيم وموسى وعيسى ومحمد صلوات الله وسلامه عليهم جميعاً، وقد جاء ذكرهم في آية سورة الشورى [١٣] وهم الذين قال الله فيهم: ﴿فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُو الْعَرْشِ مِنَ الرُّسُلِ﴾ [الأحقاف: ٣٥]

(١) من حديث الشفاعة العظمى في «صحيح البخاري» برقم (٦٥٦٥) من حديث أنس.

(٢) ينظر: الحديث في «صحيح مسلم» برقم (١٩٣).

لأنهم لاقُوا -أكثر من غيرهم- العنت والأذى من أقوامهم، وفي مقدمتهم نوح عليه السلام، ظهور الشرك: وقد كان الناس قبل نوح على التوحيد الخالص يعبدون الله تعالى وحده، ولمّا ظهر الشرك وعبادة الأوثان في قوم نوح أرسل الله إليهم نوحًا. وهكذا كل رسول من رسل الله حين يطغى الشرك على التوحيد، وتذهب معالمه، يُرسل الله تعالى إليهم رسولًا؛ ليردهم إلى عبادة الواحد الديان.

جاء في صحيح البخاري في تفسير قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا لَا تَذَرُنَّ آلِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا﴾ [نوح] أن آلهة قوم نوح أسماء جماعة صالحين، فلما ماتوا قال قومهم: لو اتخذنا في مجالسهم أنصابًا، فاتخذوها وسموها بأسمائهم حتى إذا هلك أولئك نُسِيَ العلم وعُبدت.

إذن فقوم نوح كانوا يعبدون الله سبحانه، وظهر فيهم قومٌ صالحون، ومن شدة محبة الناس لهم زَيَّنَ الشيطان لهم أن يضعوا لهم صورًا مجسدة يقيمونها في مجالسهم بعد موتهم، وَيُطْلِقُونَ عليها أسماءهم تشجيعًا لهم على التشبه بهم في عبادة الله تعالى؛ لكي يكون هذا أدعى إلى عبادة الله سبحانه على حدّ زعمهم.

ثم ذهب هذا الجيل، وجاء الجيل الذي بعده وهكذا؛ فعبدت هذه الصور من دون الله، ونسي الناس أَضْلَ هذه الأصنام، فقبور هؤلاء الأقوام، تماثيل تُعبد من دون الله، وهكذا نَهَى الإسلام عن الصورة المجسدة لأي غرض كان، سواء أكان ذلك تخليدًا لذكرى زعيم، أو أديب، أو حاكم، أو شخصية معروفة، أو غير ذلك، ممّا يكون في المتاحف، أو الميادين العامة، أو غيرها.

وقد بيّن النبي صلى الله عليه وآله وسلم في حديثه لأُم سلمة رضي الله عنها أن النصارى هم شرارُ الخلق عند الله؛ لأنهم كانوا إذا مات فيهم الرجل الصالح أقاموا على قبره مسجدًا وصَوَّروا فيه هذه الصور، فإن هذا هو الطريق إلى عبادة الأوثان.

لذلك فإن النبي صلى الله عليه وآله وسلم شَدَّدَ في هذا الأمر، وقال في حديث ابن مسعود رضي الله عنه: «أشدُّ الناس عذابًا يوم القيامة المصورون»^(١) وهم الذين ينحتون الصور ويجسّدونها ويجعلونها تماثيل، فإذا نُسي

(١) من حديث عبد الله بن مسعود في «صحيح مسلم» برقم (٢١٠٩) و«صحيح البخاري» (٥٩٥٠).

التاريخ، فإنها تُعبد من دون الله، ويُن عليه الصلاة والسلام أنهم يُؤمرون بنفخ الروح فيها تعجيزاً لهم، فيقال لهم: «أحيوا ما خلقتم» وذلك لأنهم يضاهون بذلك خَلْقَ الله^(١).

وكان من أَمْرِ النبي عليه الصلاة والسلام أن أَرْسَلَ عليَّ بن أبي طالب ﷺ وغيره من الصحابة، وأمرهم بطمس كل صورة وتمثال، وهَدَمَ كل قبر مشرف (أي: ظاهر) على وجه الأرض^(٢).

وكان من آخر ما قال عليه الصلاة والسلام وهو يفارق الحياة: «اللهم لا تجعل قبري من بعدي وثناً يُعْبَدُ، لعن الله اليهود والنصارى اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد»^(٣).

وقبر النبي عليه الصلاة والسلام إذا طاف الناس حوله، وطلبوا منه جلب النفع ودفع الضر، واعتقدوا ذلك فيه، وسألوه قضاء حاجاتهم، ونذروا له، وذبحوا عنده، فإنهم يكونون بذلك قد صرفوا العبادة إلى رسول الله ﷺ، ويكون قبره ﷺ في هذه الحالة وثناً يعبد من دون الله؛ ومن هنا يظهر جلياً خطورة الأضرحة والمقابر الموجودة في المساجد في بعض بلاد المسلمين، وخطورة الطواف حولها ودعائها والصلاة عندها، واعتقاد النفع والضر فيها، والذبح عندها، والنذر لها.

فهذا هو المحذور الأول الذي جاءت من أجله الرسالة الأولى رسالة نوح ﷺ، وهو ما يشير إليه قوله تعالى: ﴿كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً﴾ أي: كانوا على التوحيد، على دين واحد، فاختلفوا، وعبدوا الأصنام، فلما عبدوا الأصنام أرسل الله الرسل ﴿فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّنَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنْزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ فِيَمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ﴾ [البقرة: ٢١٣] من عبادة هذه الأوثان والأصنام.

(١) جاء هذا المعنى في حديث ابن عباس في البخاري برقم (٢٢٢٥، ٥٩٥١، ٥٩٦٣، ٧٠٤٢، ٧٥٥٨) ومسلم (٢١٠٧، ٢١٠٨، ٢١١٠).

(٢) أخرجه مسلم عن أبي الهيثج الأسدي (حيان بن حصين)، برقم (٩٦٩) والمسند (٧٤١، ١٠٦٤) وانظر (٦٨٣) وأخرجه أبو داود (٣٢١٨) والنسائي (٨٨/٤) وأبو يعلى (٦١٤) وعبد الرزاق (٦٤٨٧) والطيالسي (١٥٥) والحاكم (٣٦٩/١).

(٣) رواه مالك في «الموطأ» من رواية أبي يحيى برقم (١٢٤) ومن رواية الزهري برقم (٥٧٠) عن عطاء بن يسار بسند مرسل، وهو في «المسند» عن أبي هريرة برقم (٧٣٥٨)، بإسناد قوي (محققه) والحميدي (١٠٢٥) وابن سعد (٢٤١/٢) وابن عبد البر في التمهيد (٤٣/٥) والبخاري في التاريخ الكبير (٤٧/٣).

أطول رسالة: ولمّا ظهرت الوثنية في قوم نوح أرسله الله تعالى إليهم؛ فأخذ يدعوهم إلى توحيد الله تعالى بالحكمة والموعظة الحسنة، ويتفنّن في ذلك مدة طويلة، بلغت تسع مئة وخمسين عامًا بنص القرآن، وعاش نوح قبل الرسالة خمسين عامًا أو أكثر، وبعد الطوفان ظل مُعلِّمًا وهاديًا في قومه ثلاث مئة وخمسين عامًا، وقيل: ضَعُفُ هذه المدة أو نحوها، وعلى هذا فقد عمّر نوح ألفًا وثلاث مئة وخمسين عامًا، أو ألفًا وسبع مئة وسبع وثمانين عامًا على قول ابن عباس، وهكذا فقد دعا نوح قومه ليلاً ونهارًا، سرًّا وجهراً ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلًا وَنَهَارًا ﴿٥﴾ فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَايَ إِلَّا فِرَارًا ﴿٦﴾﴾ [نوح].

وهذه آيات من سورة في القرآن الكريم سميت باسم (نوح) ﴿وإِنِّي كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوا أَصْوَعًا ﴿٧﴾ أَذَانَهُمْ وَاسْتَعْصَفُوا لِيَّائِهِمْ وَأَصْرُوا وَاسْتَكْبَرُوا اسْتِكْبَارًا ﴿٨﴾ ثُمَّ إِنِّي دَعَوْتُهُمْ جِهَارًا ﴿٩﴾ ثُمَّ إِنِّي أَعْلَنْتُ لَهُمْ وَأَسْرَرْتُ لَهُمْ إِسْرَارًا ﴿١٠﴾﴾ [نوح].

ثمرة دعوة نوح الطويلة:

وبشty الطرق ظل نوح يدعو قومه هذه المدة الطويلة ألف سنة إلا خمسين عامًا، وبدلًا من إجابته اتهموه بالجنون والضلال، والسفه والافتراء، وكثرة الجدل والحوار، وهددوه بالرجم والضرب؛ فكانوا يجتمعون عليه، ويضربونه ضربًا مبرحًا، ثم يخنقونه، وينتظرون أن يموت، ويُطلب منه أن يدعو عليهم؛ فيقول: أرجو أن يخرج من أصلا بهم مَنْ يستجيب لدعوتي.

عن عبد الله بن مسعود ؓ قال: كَأَنِّي أَنْظِرُ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ يَحْكِي نَبِيًّا مِنَ الْأَنْبِيَاءِ ضَرَبَهُ قَوْمُهُ، وَهُوَ يَمْسَحُ الدَّمَ عَنْ جَبِينِهِ وَيَقُولُ: «اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِقَوْمِي فَإِنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ»^(١).

ولم يؤمن بنوح خلال هذه المدة الطويلة إلا ثمانون: أربعون رجلًا، وأربعون امرأة، على أكثر الأقوال، وقيل أقل من ذلك، ولكن أكثر الأقوال وأصحها أنهم ثمانون نفسًا، آمنوا في ألف سنة إلا خمسين عامًا؛ أي: بمعدل شخص واحد في أكثر من مئة عام، وكان مَن نجا في السفينة (جُرْهُم)، وكان لسانه عربيًا.

انظروا إلى الصبر، وإلى الجلد والتحمل، وكيف صبر نوح هذه المدة ﴿وَمَا ءَامَنَ مَعَهُ إِلَّا قَلِيلٌ﴾ [هود: ٤٠] ثم أوحى الله تعالى إليه ﴿أَنْتُمْ لَنْ يُؤْمِنُوا مِنْ قَوْمِكِ إِلَّا مَنْ قَدْ ءَامَنَ﴾

(١) البخاري (٣٤٧٧، ٦٩٢٩) ومسلم (١٧٩٢) وابن ماجه (٤٠٢٥).

[هود: ٣٦] فقد انتهى الأمر، ولن يؤمن بك غير هذا العدد، بل إنهم إذا ولدوا فإنهم لن يلدوا إلا فاجرًا كفارًا، وهنا إخبارٌ من رب العالمين لرسوله نوح عليه السلام، فكان الرجل منهم يجمع أولاده ويحذرهم أن يتبعوا هذا الرجل، ويرمونه بالسفه والجنون والضلال، ويحذرون أبناءهم من الإيمان به، وعندئذ دعا نوح عليهم ﴿فَدَعَا رَبَّهُ أَنِّي مَغْلُوبٌ فَانْتَصِرَ﴾ [القمر].

وفي سورة نوح يقول تعالى عنه: ﴿وَقَالَ نُوحٌ رَبِّ لَا تَذَرْنِي عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا﴾ [نوح: ٢١] إِنَّكَ إِن تَذَرَهُمْ يَضِلُّوا عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوا إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا ﴿٢٧﴾ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلِوَلَدَيَّ وَلِمَنْ دَخَلَ بَيْتَنَا مُؤْمِنًا وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَلَا تَزِدِ الظَّالِمِينَ إِلَّا نَبَارًا ﴿٢٨﴾ [نوح].

الطوفان وسفينة النجاة: أوحى الله ﷻ إلى نوح أنه مهلك قومه بالطوفان، وأمره أن يصنع سفينة النجاة التي ينجو فيها هو ومن آمن معه، وذهب نوح بعيدًا عن قومه، وأخذ يصنع السفينة، وهم يمرون عليه يتهاكمون به، ويسخرون منه ويقولون له: يا نوح، كنت نبيا بالأمس، وقد أصبحت اليوم نجارا.

ولما صنع نوح السفينة أوحى الله إليه أنه إذا جاء الطوفان، وظهرت العلامة الدالة على ذلك، فاركب أنت ومن آمن معك السفينة، وهذه العلامة هي فُوران التنور ﴿حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَمْرُنَا وَفَارَ التَّنُّورُ﴾ [هود: ٤٠] والتنور: معروف وهو الفرن الذي يسوى فيه الخبز، ومعنى ذلك أن المياه تنبع من فجاج الأرض، ومن أرجائها جميعًا، حتى يخرج الماء من مواقد النيران، من الأفران؛ أي: التناير، فإذا ظهر الماء يا نوح، ورأيت يخرج من مواقد النيران، فاركب السفينة أنت ومن معك، دعا نوح ربه قائلا: رب إني مظلوم، فلبى الله تعالى دعاءه قائلا: ﴿فَانتَصِرْ﴾ وكانت الإجابة من الله سبحانه على وجه السرعة: ﴿فَفَتَحْنَا أَبْوَابَ السَّمَاءِ بِمَاءٍ مُّثَمَرٍ﴾ [نوح: ١١] وَقَفَرْنَا الْأَرْضَ عُيُونًا فَالْتَقَى الْمَاءُ عَلَىٰ أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ ﴿١٢﴾ وَحَمَلْنَاهُ عَلَىٰ ذَاتِ الْأَوَّاجِ وَدُوسِرَ ﴿١٣﴾ [القمر].

أمر الله نوحًا ومن آمن معه أن يركب السفينة، ويحمل معه ذكرا وأنثى من كل صنف من الكائنات الحية؛ من الحيوانات والطيور والوحوش وغيرها؛ استبقاء للنسل من هذه المخلوقات.

قالوا: إن نوحًا هو أبو البشر الثاني، وإن الناس قد أهلكوا جميعًا في عهده، وبقي منهم هذه البقية التي ركب السفينة مع نوح، وكان الطوفان قد عم أرجاء المساحة المعمورة من الأرض آنذاك، قيل: إن الماء بلغ نحو خمسة عشر ذراعًا فوق سطح الأرض، وأنه استمر مئة وخمسين يومًا، هي مدة الطوفان.

أولاد نوح: وكان لنوح أربعة أولاد؛ هم: سام وحام ويافث وكنعان، قالوا: إن (سام) هو أبو العرب وأشكالهم، و(حام) أبو السودان، ومن على شاكلتهم في اللون، و(يافث) أبو الروم ومن على شاكلتهم كالترك، وهؤلاء الثلاثة من أبناء نوح آمنوا به، وكانوا معه في السفينة.

أما ابنه الرابع (كنعان) فإنه لم يؤمن بأبيه، وناداه نوح قائلاً: ﴿يَبْنَئِ أَرْكَبَ مَعَنَا﴾ [هود: ٤٢] ولكنه أبى وكان من الكافرين ﴿قَالَ﴾ له: ﴿سَآوِيَ إِلَىٰ جَلِّ يَعَصِمُنِي مِنَ الْمَاءِ﴾ وارتقى كنعان إلى أعلى قمم الجبال الشامخة؛ ليفر من الغرق، ولكن قَدَّرُ الله وأمره حال دون ذلك ﴿وَحَالَ بَيْنَهُمَا الْمَوْجُ فَكَانَ مِنَ الْمُغْرَقِينَ﴾ [هود: ٤٣] حال الموج بين نوح وابنه ﴿وَنَادَىٰ نُوحٌ رَبَّهُ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ابْنِي مِنِّي أَهْلِي﴾ من صليبي ﴿وَإِنَّ وَعْدَكَ الْحَقُّ﴾ وقد وعدتني بنجاة أهلي ﴿وَأَنْتَ أَحْكَمُ الْحَاكِمِينَ﴾ [هود: ٤٥] ﴿قَالَ﴾ سبحانه: ﴿يَنْتُوخُ إِنَّهُ لَيْسَ مِنِّي أَهْلِيكَ﴾ فالإيمان يفرق بين المؤمن والكافر، ولو كان من صلبك.

لم ينفع ابن نوح أن أباه كان رسولاً، إنما حال بينهما الموج؛ فكان كنعان من المغرقين، وفرق الله بينهما ﴿إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ﴾ أو (إنه عمل) عملاً (غير صالح) على القراءة الأخرى ﴿فَلَا تَسْتَأْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّهُ يَعْظُكَ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ﴾ [هود: ٤٦] والله تعالى نهى نوحاً أن يراجعه في غرق القوم، وألا يجادله فيهم، كما نهاه أن يشفع لقومه، وأن يحدثه في شأنهم؛ لأنهم مغرقون.

نجاة أهل السفينة يوم عاشوراء: وبعد هذا الطوفان لم يبقَ كافرٌ على وجه الأرض، فأمر الله سبحانه السماء أن تكف عن إنزال الماء، وأمر الأرض أن تبتلع ما على ظهرها ﴿وَقِيلَ يَتَّزِشْ أَرْضُ آبِلَىٰ مَاءِكَ وَتَسْمَأُ أَقْلَىٰ وَعِصْ الْمَاءِ﴾ انتقص ﴿وَقُضِيَ الْأَمْرُ﴾ أغرق الله من أراد، واستوت السفينة على جبل الجودي قرب الموصل بالعراق، وهو ينتهي إلى أرمينيا، ويتصل بجبالها ﴿وَقِيلَ بُعْدًا لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ [هود: ٤٤].

وقال الله تعالى لنوح: انزل من السفينة أنت ومن معك بسلام منا وبركات عليك، ونجى الله نوحاً ومن معه، وكانت نجاته في يوم عاشوراء، وصام نوحُ هذا اليوم شكراً لله تعالى الذي نجاه وقومه من غرق الطوفان، وصام بنو إسرائيل هذا اليوم، وورثوه عن نوح عليه السلام، ولأن الله تعالى نجى فيه موسى أيضاً من الغرق، وصامه أهل مكة، وصامه النبي ﷺ بمكة، وكانت قريش تصومه في الجاهلية، ولما جاء الإسلام صامه المسلمون فرضاً

قبل أن يُفرض صيام رمضان، ثم بيّن النبي ﷺ بعد أن فُرض صيام رمضان أن مَنْ شاء صام، وَمَنْ شاء أفطر؛ أي: أن صيام يوم عاشوراء صار سُنةً بعد وجوب صوم رمضان، وبيّن عليه الصلاة والسلام أن صيام يوم عاشوراء يُكفّر السنة الماضية.

وبيّن جل شأنه في نهاية قصة نوح من سورة هود أن هذه القصة وأمثالها من المعجزات الدالة على صدق محمد ﷺ ﴿تِلْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ﴾ فَمَنْ الذي أعلمك إيّاها يا محمد ﴿نُوحِيهَا إِلَيْكَ مَا كُنْتَ تَعْلَمُهَا أَنْتَ وَلَا قَوْمُكَ مِنْ قَبْلِ هَذَا﴾ الوحي، ومن قبل هذا القرآن ﴿فَاصْبِرْ إِنَّ الْعَقِيبَةَ لِلْمُنْفِقِينَ﴾ [هود: ٤٩].

ونمضي مع آيات قصة نوح ﷺ في هذه السورة:

﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ﴾ أي: والله لقد بعثنا نوح بن لامك بن متوشلح بن إدريس، وهو ابن أربعين سنة -في أصح الأقوال- أرسلناه إلى قومه يدعوهم إلى توحيد الله تعالى، بعد أن عبدوا الأصنام، وهم أول مَنْ عبدها، بعد عشرة قرون مضت كان الناس فيها على التوحيد الخالص، منذ آدم إلى نوح.

وكان نوح نجارًا، وسمي نوحًا؛ لكثرة ما ناح على نفسه، وهو أول رسول بعد إدريس، أرسله الله لقوم مشركين فقال لهم: ﴿يَقَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ﴾ أخلصوا له الطاعة والعبادة، فهو الذي يستحق العبادة دون سواه، فإن سواه مخلوق مدبر ليس له من الأمر شيء، فإن لم تخلصوا العبادة لله، وبقيتم على عبادة أوثانكم؛ فإني أخاف أن يحلّ بكم عذابٌ يوم عظيم إن لم تؤمنوا، حيث يكون عقابكم شديدًا يوم لقاء الله، وهذا من نصحه لهم وشفقته عليهم حيث خاف عليهم العذاب الأبدي والشقاء سرمدي، ونظير هذه الآية قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ﴾ إِنَّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُبِينٌ ﴿١٥﴾ أَنْ لَا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ إِنَّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمِ الْإِسْرِ ﴿١٦﴾ [هود]. فلما نصح نوح قومه ردّوا عليه أقبح رد:

٦٠- ﴿قَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِهِ إِنَّا لَنَرْنَكَ^(١) فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾ ﴿١٧﴾

أي: ولما حذر نوح قومه من عاقبة التكذيب، وأظهر شفقته عليهم إن لم يؤمنوا، قال

(١) أمال الرء حمزة والكسائي وخلف وأبو عمرو، وابن ذكوان بخلف عنه، وقللها ورش، وفتحها باقي القراء.

أشراف القوم، وهم السادة والكبراء والقادة من قومه: نحن نعتقد أنك يا نوح في دعوتك إيانا لِتَرْكِ عِبَادَةِ مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا فِي خَطَأٍ بَيْنَ عَنْ طَرِيقِ الصَّوَابِ، وانحراف عن طريق الحق والرشاد، فأنت منغمس في الضلالة، فلم يكفهم أنهم استكبروا عن اتباعه بل نسبوه إلى الضلال، حتى لا تروج دعوته على ضعاف الناس.

والملا: هم أصحاب الرأي الواحد، ولم تصفهم الآية بالكفر أو التكذيب أو الاستكبار؛ استغناءً بدلالة المقام عليه، ولم يكن هذا جواب قوم نوح عامة، وإنما هو جواب السادة والأشراف الذين امتلأت نفوسهم بحب الرئاسة والجاه والسمعة، وهم المترفون في كل أمة، الذين قال الله فيهم: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ﴾ [سبأ] فالمترفون والسادة والأشراف هم عقبة الإصلاح في كل زمان ومكان، وهذا حالهم مع الرسل جميعاً، فبمثل هذا قال الملا من قوم عاد لنيهم هود، وبمثله قال قوم ثمود لنيهم صالح، وقال قوم مدين وأصحاب الأيكة لنيهم شعيب وهكذا ..

أما جمهور الشعب الذين سلمت قلوبهم من الحسد والضغائن، فهم أتباع الرسل في كل زمان، وهم أنصار كل داعٍ إلى الحق، وبهذا أجاب أبو سفيان هرقل حين سأله عَمَّنْ يَتَّبِعُ مُحَمَّدًا ﷺ أَشْرَافَ النَّاسِ أَمْ ضَعَفَاؤُهُمْ؟ فقال أبو سفيان: بل ضعفاؤهم، قال هرقل: كذلك أتباع الرسل^(١).

فصناديد قريش هم الذين ناصبوا النبي ﷺ العداء، وقلَّبوا له الأمور، وتآمروا على قَتْلِهِ؛ فخذلهم الله، واستقرت الدعوة، وظهر أمرُ الله وهم كارهون.

وفي سورة هود وصف الملا أتباع نوح بأنهم ضعاف القوم وأراذلهم، ووصفوه بالكذب، وأنه لا يتميز عليهم بشيء ﴿فَقَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن قَوْمِهِ مَا نَرَاكَ إِلَّا بَشَرًا مِّثْلَنَا وَمَا نَرَاكَ اتَّبَعَكَ إِلَّا الَّذِينَ هُمْ أَرَادُوا بِادِّى الرَّأْيِ وَمَا نَرَى لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍ بَلْ نَظُنُّكُمْ كَاذِبِينَ﴾ [هود].

وقال تعالى في سورة المؤمنون: ﴿فَقَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن قَوْمِهِ مَا هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُرِيدُ

(١) القصة في «صحيح البخاري» عن ابن عباس برقم (٧) و«صحيح مسلم» (١٧٧٣) مختصراً.

أَنْ يَنْفَضَلَ عَلَيْكُمْ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَأَنْزَلَ مَلَائِكَةً مَا سَمِعْنَا بِهَذَا فِي آبَائِنَا الْأَوَّلِينَ ﴿٦٢﴾ [المؤمنون]
فوصف الله الملأ من قوم نوح في سورة هود بالكفر، وفي سورة المؤمنون بالاستكبار، ولم
يصفهم بشيء في سورة الأعراف؛ لأن هذا أمر معروف لا يحتاج إلى بيان.

نُوحُ يَصِفُ نَفْسَهُ بِأَرْبَعِ صِفَاتٍ

٦١- ﴿قَالَ يَنْفَوْرُ لَيْسَ بِي ضَلَالٌ وَلَكِنِّي رَسُولٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٦١﴾﴾

نَفَى نوح ﷺ الضلال عن نفسه في أيِّ مسألة من المسائل، وبأي وجه من الوجوه،
ووقف موقف المدافع عن نفسه، ولم يوغر صدره بما اتهموه به من ضلال، بل تَلَطَّفَ في
جوابهم وترفق، لعلمهم ينقادون له ﴿قَالَ﴾ نوح مستميلاً لقومه ومدافعاً عن نفسه: ﴿يَنْفَوْرُ
لَيْسَ بِي ضَلَالٌ﴾ ثم كشف عن حقيقة دعوته، فوصف نفسه بصفات أربع:

الأولى: ﴿وَلَكِنِّي رَسُولٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ﴾ أي: أُرْسِلَنِي ربي وربكم ورب العالمين
أجمع لهدايتكم وإنقاذكم من الشرك والكفر، وهو الذي ربي أجسامكم بنعمه، وربي
أرواحكم بشرائعه، وأوجب عليّ تبليغ الرسالة إليكم، وهي تأمركم بالتوحيد والعمل
الصالح والأخلاق الفاضلة وتنهاكم عن ضدها. قال تعالى:

٦٢- ﴿أَبْلَغُكُمْ﴾^(١) رَسَلْتِ رَبِّي وَأَنْصَحُ لَكُمْ وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٦٢﴾

الثانية: ﴿أَبْلَغُكُمْ رَسَلْتِ رَبِّي﴾ فقد أوحى الله إليّ بالأوامر والنواهي، والوعد والوعيد،
والمواعظ والزواجر، والبشائر والنذُر، والعبادات والمعاملات، وأمرني أن أبلغ دعوة الله
إليكم على وجه النصيحة لكم والشفقة عليكم.

والثالثة: ﴿وَأَنْصَحُ لَكُمْ﴾ أي: أمحض لكم النصيحة، وأحب لكم ما أحبه لنفسي؛
فأبشركم بالثواب والأجر الجزيل إن آمنتم، وأحذركم عذاب الله إن لم تؤمنوا، وهذا شأن
رسل الله جميعاً أن يكونوا ناصحين لأقوامهم، كما قال ﷺ لأصحابه يوم عرفة: «وَأَنْتُمْ

(١) قرأ أبو عمرو بسكون الباء وتخفيف اللام من (أبلغكم) مضارع أبلغ، وقرأ الباقر بفتح الباء وتشديد
اللام مضارع بُلِّغ.

تسألون عني، فما أنتم قائلون؟» قالوا: «نشهد أنك قد بلغت وأديت ونصحت، فجعل يرفع إصبعه إلى السماء وينكتها عليهم ويقول: اللهم اشهد، اللهم اشهد، ثلاث مرات»^(١)، فمهمتي أن أرغبكم في قبول دعوة ربي إليكم، وأعلمكم وجه المصلحة فيها.

الرابعة: ﴿وَأَعْلَمُ مِنْ﴾ أمر ﴿اللَّهُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ فأنا أعلم جميع التكاليف والشرائع، وأعلم عاقبة أمركم إن لم تعملوا بها؛ من الغرق بالطوفان في الدنيا، والعذاب يوم لقاء الله، وأعلم من صفات الله قوته الباهرة وبطشه بأعدائه ما تجهلون، وأعلم أن بأسه لا يُردُّ عن القوم المجرمين، فيتعين عليكم أن تطيعوني وتتقادوا لأمري إن كنتم تعلمون.

والفرق بين تبليغ الرسالة والنصح أن تبليغ الرسالة هو التعريف بالتكاليف الشرعية، أما النصح فهو الترغيب في قبول هذه التكاليف.

تَعَجُّبُ جَمِيعِ الْأُمَمِ مِنْ بَشَرِيَّةِ جَمِيعِ الرُّسُلِ

٦٣- ﴿أَوْ عَجِبْتُمْ أَنْ جَاءَكُمْ ذِكْرٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَلَى رَجُلٍ مِّنْكُمْ لِيُنذِرَكُمْ وَلِتَتَّقُوا وَلَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾^(١٢)

وهل أثار عجبكم - أيها المكذبون بالرسالة - أن الله تعالى قد اصطفى رجلاً منكم؟ أوحى إليه بالرسالة؛ ليعلمكم ما فيه خيركم؛ لتتقوا محارم الله، وتخشوا عذابه؛ فتتألموا رضوانه ﴿أَوْ عَجِبْتُمْ أَنْ جَاءَكُمْ ذِكْرٌ مِنْ رَبِّكُمْ﴾ هو الوحي والرسالة التي جاء بها نوح من عند ربه، فنزلت هذه الرسالة ﴿عَلَى رَجُلٍ مِّنْكُمْ﴾ تعرفون حسبه ونسبه وصدقته وأمانته ﴿لِيُنذِرَكُمْ﴾ ويخوفكم عذاب الله إن لم تؤمنوا ﴿وَلِتَتَّقُوا﴾ سخط الله تعالى، وتخافوا بأسه وعقابه فتؤمنوا به ﴿وَلَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ فإنكم إن اتقيتم الله تعالى فزتم بالرحمة في الدار الآخرة، وظفرتم بها، وحصل لكم الثواب الجزيل.

وهكذا: فقد ذكر نوح ﷺ ثلاث علل في هذه الآية لرسالته لقومه؛ وهي: التحذير من العقاب، ولتوجد فيهم التقوى والخشية، وليشملهم الله برحمته.

وكما عجب قوم نوح من كونه رسولاً لهم - وهو رجل منهم - عجب جميع الأمم من رسلهم، قال تعالى عن رسل الله جميعاً: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُ كَانَتْ تَأْتِيهِمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَقَالُوا أَبَشَرٌ

(١) جزء من حديث طويل في «صحيح مسلم» برقم (١٢١٨) عن جابر رضي الله عنه في باب حجة الوداع، كتاب الحج.

يَهْدُونَنَا فَكَفَرُوا وَقُولُوا ۖ وَاسْتَعْنَى اللَّهُ وَاللَّهُ غَنِيٌّ حَمِيدٌ ﴿٦١﴾ [التغابن].

وقال عن قوم صالح: ﴿كَذَبْتَ ثُمُودٌ بِالنَّذْرِ ﴿٦٢﴾ فَقَالُوا ابْشَرْنَا مِنَّا وَحِدًا تَنْبَعُهُ إِنَّا إِذَا لَفِيَ ضَلَالٍ وَسُعُرٍ ﴿٦٣﴾﴾ [القمر].

وقال عن قوم شعيب: ﴿وَمَا أَنْتَ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا وَإِنْ نَظُنُّكَ لَمِنَ الْكَاذِبِينَ ﴿٦٤﴾﴾ [الشعراء].

وقال قوم هود عن نبيهم: ﴿مَا هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يَأْكُلُ مِمَّا تَأْكُلُونَ مِنْهُ وَيَشْرَبُ مِمَّا تَشْرَبُونَ ﴿٦٥﴾ وَلَئِنْ أَطَعْتُمْ بَشَرًا مِثْلَكُمْ إِنَّكُمْ إِذَا لَخَسِرُونَ ﴿٦٦﴾﴾ [المؤمنون].

وقد عجب المكذَّبون الأوائل لخاتم الرسل ﷺ من ذلك، فقال الله تعالى عنهم:

﴿أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَا إِلَى رَجُلٍ مِنْهُمْ أَنْ أَنْذِرِ النَّاسَ وَبَشِّرِ الَّذِينَ ءَامَنُوا أَنَّ لَهُمْ قَدَمٌ صَدَقَ عِنْدَ رَبِّهِمْ﴾ [يونس: ٢]

وقال: ﴿وَعَجِبُوا أَنْ جَاءَهُمْ مُنْذِرٌ مِنْهُمْ وَقَالَ الْكَافِرُونَ هَذَا سَاحِرٌ كَذَّابٌ ﴿٤﴾ أَجَعَلَ الْآلِهَةَ إِلَهًا وَاحِدًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ ﴿٥﴾﴾ [ص].

وقال: ﴿بَلْ عَجِبُوا أَنْ جَاءَهُمْ مُنْذِرٌ مِنْهُمْ فَقَالَ الْكَافِرُونَ هَذَا شَيْءٌ عَجِيبٌ ﴿٦﴾﴾ [ق].

والعجب: انفعال نفسي يحصل عند إدراك شيء غير مألوف، وقد يكون مصحوبًا بالإنكار، قال تعالى:

٦٤- ﴿فَكَذَّبُوهُ فَأَنْجَيْنَاهُ وَالَّذِينَ مَعَهُ فِي الْفُلِكِ وَأَغْرَقْنَا الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا عَمِينَ﴾

أي فكانت النتيجة بعد هذا النصح الخالص والرد المتواضع من نوح لقومه أن كذبوا نوحًا واتهموه بالجنون؛ فأغرقهم الله تعالى بالطوفان، وأنجى نوحًا ومن آمن معه في سفينة النجاة ﴿وَأَغْرَقْنَا الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا﴾ وجحدوا حجج الله الواضحة، قال تعالى: ﴿مِمَّا خَطِيئَتِهِمْ أُغْرِقُوا فَأَذَلُّوا نَارًا فَلَمْ يَجِدُوا لَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَنْصَارًا﴾ [نوح].

ووصف قوم نوح بقوله: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا عَمِينَ﴾ أعمى الله قلوبهم عن رؤية الحق، وقوم هذا حالهم يستحقون من عذاب الله ما حلَّ بهم؛ بسبب تغافلهم عن الحجة، وتكذيبهم لرسول الله نوح ﷺ، وأنجى الله المؤمنين الذين انتفعوا بالموعظة والتذكير، ﴿فَكَذَّبُوهُ فَأَنْجَيْنَاهُ وَالَّذِينَ مَعَهُ فِي الْفُلِكِ﴾ وعاش نوح بعد الطوفان نحو ستين سنة، وهذه سنة الله

فِي خَلْقِهِ: حَسَنَ عَاقِبَةِ الْمُؤْمِنِينَ، وَسُوءَ عَاقِبَةِ الْمَكْذِبِينَ، قَالَ تَعَالَى: ﴿إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ ءَامَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ﴾ [غافر].

عن عبد الله بن عمرو رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «إِنْ نُوْحًا لَمَّا حَضَرَتْهُ الْوَفَاةُ، قَالَ لِابْنِهِ: إِنِّي قَاصٌّ عَلَيْكَ الْوَصِيَّةَ، أَمْرُكَ بِاثْنَتَيْنِ، وَأَنْهَاكَ عَنْ اثْنَتَيْنِ: أَمْرُكَ بِإِلَهِ إِلَّا اللَّهُ، فَإِنْ السَّمَوَاتِ السَّبْعِ وَالْأَرْضِينَ السَّبْعَ لَوْ وُضِعَتْ فِي كِفَّةٍ، وَوُضِعَتْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ فِي كِفَّةٍ لَرَجَحَتْ بِهِنَ، وَلَوْ أَنَّ السَّمَوَاتِ السَّبْعَ وَالْأَرْضِينَ السَّبْعَ كُنَّ حَلَقَةً مَبْهَمَةً قَصَمْتُهُنَّ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، وَسَبَّحَانَ اللَّهَ وَيَحْمَدُهُ، فَإِنَّهَا صَلَاةٌ كُلُّ شَيْءٍ، وَبِهَا يُرْزَقُ كُلُّ شَيْءٍ، وَأَنْهَاكَ عَنِ الشُّرْكِ وَالْكِبْرِ» قِيلَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، مَا الْكِبَرُ؟ أَهَوَ أَنْ يَكُونَ لِلرَّجُلِ حِلَّةٌ حَسَنَةٌ، وَفَرَسٌ جَمِيلٌ يَعْجِبُهُ جَمَالُهُ؟ قَالَ: «لَا، الْكِبَرُ سَفَهُ الْحَقِّ، وَغَمَصُ النَّاسِ»^(١).

ثَانِيًا: قِصَّةُ هُودٍ عليه السلام مَعَ قَوْمِهِ

٦٥- ﴿وَإِلَى عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا قَالَ يَنْفَوِّمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهِ غَيْرُهُ^(٢) أَفَلَا تَنْفَقُونَ﴾

نُبْذَةُ تَارِيخِيَّةٍ عَنْ هُودٍ وَعَادٍ:

وبعد قصة شيخ الأنبياء نوح عليه السلام تأتي قصة نبي الله هود عليه وعلى نبينا أفضل الصلاة وأتم التسليم، وقد ذُكرت قصة هود في القرآن الكريم بإيجازٍ أحياناً، وبتفصيل أحياناً، وبإشارات سريعة أحياناً أخرى، فهي كالحلقات المتصلة يكمل بعضها بعضاً.

ذُكرت هذه القصة في سورة الأعراف [٧٢، ٦٥] وفي السورة التي سُميت باسمه سورة هود [٦٠، ٥٠] وفي سورة المؤمنون [٤١، ٣١] وفي سورة الشعراء [١٢٣، ١٤٠] والذاريات [٤١، ٤٥] والقمر [٢٢، ١٨] والحاقة [٦، ٨] عدا الإشارات السريعة المتفرقة في سور أخرى.

(١) «المستند» (٦٥٨٣، ٧١٠١) إسناده صحيح (محققوه) والبخاري في الأدب المفرد (٥٤٨) والبخاري في «الكشف» (٣٠٦٩) والحاكم (٤٨/١) والبيهقي في «الأسماء والصفات» (١٨٦) وصحيح الأدب المفرد (٤٢٦) وينظر «السلسلة الصحيحة» (١٣٤).

(٢) قرأ أبو جعفر بإخفاء تنوين (إله) في غين (غيره) مع الغنة، والباقون بالإظهار، وقرأ أبو جعفر أيضاً بخفض راء (غيره)، والباقون برفعها.

وذكر اسم (هود) في القرآن الكريم سبع مرات، في ثلاث سور هي: الأعراف وهود والشعراء، مرة في الأعراف ومرة في الشعراء، وخمسة في هود.

وهود وصالح عليهما السلام نبيان مُرسلان، أُرسلَا في شبه الجزيرة العربية في قبيلة عاد، وقبيلة ثمود، من العرب البائدة، التي أُبِيدت وأُهْلكت ولم يبقَ لها أثرٌ، ولا سبيل لمعرفة تاريخهم إلا من القرآن الكريم، فقصة هود وصالح لم يُذكرَا في التوراة ولا غيرها من الكتب السماوية، وإنما ذُكرا فقط في القرآن الكريم لكونهما في جزيرة العرب.

وهودٌ ينتمي إلى جدّه الأكبر عاد، الذي سُميت القبيلة باسمه وهي قوم عاد، الذين أُرسلَ فيهم نبي الله هود، فهو من القبيلة، أخوهم في النسب، وليست أُخُوَّةً في الدين.

وقوم هود هم عادًا الأولى، أما عادًا الثانية فهم قوم صالح، وبينهما مئة عام، وقوم عاد أمة كبيرة تتكون من ثلاث عشرة قبيلة، وقيل: عشر قبائل.

﴿وَالِإِىَّ عَادِ أَخَاهُمْ هُودًا﴾ فهم ينتمون إلى جدهم الأكبر عاد بن عوض بن إرم بن سام بن نوح، وهو هود بن عبد الله بن رباح بن الخلود بن عاد، وقيل: هو هود بن أرفخشذ بن سام بن نوح، فهو على الأول من ذرية عاد، وعلى الثاني من ذرية سام^(١).

وقوم عاد من ذرية مَن نجا في السفينة مع نوح، كانوا على التوحيد يعبدون الله سبحانه، فلمَّا ظهرت فيهم الأصنام، وعبادة الأوثان، بعد أن طال الأمد وتفرقوا في البلاد، أَرْسَلَ الله تعالى إليهم هودًا، يرُدُّهم إلى عبادة الواحد القهار ﴿قَالَ يَاقَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَهِ غَيْرُهُ﴾ فإن عبدتم غيره فأنتم مفترون ﴿أَفَلَا تَنقُوتُ﴾ عذاب الله وسخطه إن أقمتُم على ما أنتم عليه من الكفر ولم تستجيبوا لي.

وهذه الدعوة قالها كل نبي إلى قومه قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾ [النحل: ٣٦].

ولعل عبادة الأصنام التي ظهرت بعد الطوفان، بعد أن كان الناس على التوحيد، لعل السبب في ظهورها مرة أخرى، أن الأجيال اللاحقة قد أفرطت في تعظيم وتقديس مَن نجا في السفينة مع نوح؛ فظهر فيهم بعد تعاقب الأجيال من يُعظَّم هؤلاء القوم؛ فتخيلوهم

(١) ينظر: «التحرير والتنوير» (٨/ ٢٠٠).

في حجارة أو أشجار ونحوها؛ فعبدوها من دون الله .

وذكر ابن إسحاق أنها ثلاثة أصنام هي: صُداء، وصُمُود، وهُبَاء، وأشركوها مع الله سبحانه، واعتقدوا أنها تشفع لهم عند الله ﷻ. فما من رسول أرسله الله سبحانه إلى قومه إلا بعد أن يَظهر فيهم عبادة الأوثان أو الأصنام، فيرسله الله لهم ليردّهم إلى التوحيد الذي فُطروا عليه، بعد أن تناسّته الأجيال، وانسلخ منها التوحيد في تعاقب الأمم .

والمكان الذي أرسل فيه هود عليه السلام هو الأحقاف، والأحقاف: الجبال الرملية، وهذا المكان معروف قديمًا في اليمن، وفيه قبر هود عليه السلام، وهو حاليًا في جنوب الربع الخالي من السعودية، وشمال حضرموت، وشرق عمان .

جاء في الأثر أن علي بن أبي طالب عليه السلام قال: إن قبر هود بحضرموت في كتيب أحمر عند رأسه سدره^(١) .

الْحَوَارُ بَيْنَ هُودٍ وَقَوْمِهِ

٦٦ - ﴿قَالَ أَلَمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ إِنَّا لَنَرْنَكَ فِي سَفَاهَةٍ وَإِنَّا لَنُظُنُّكَ مِنَ الْكَذِبِينَ﴾

أُرسل نبي الله هود إلى قوم عاد، أخوهم في النسب، دعاهم إلى توحيد الله سبحانه، فواجهه المملأ ووقفوا في وجه الدعوة، والمملأ في القرآن كلمة تعني الأشراف وكبار القوم الذين يتعرضون للدعوة؛ لأنهم يخافون على كراسيهم ومناصبهم ومكانتهم، وكان من بين المملأ في قوم عاد من آمن بهود، ولذلك فإن القرآن الكريم يقول: ﴿قَالَ أَلَمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ﴾ أي: قال الكفار من قومه، وهم الكبراء، وفي قصة نوح قال سبحانه: ﴿قَالَ أَلَمَلَأُ مِنْ قَوْمِهِ﴾ وليس فيه ذكر للكفار؛ لأنه لم يؤمن به منهم أحد، وهؤلاء الكفار اتهموا هودًا بالكذب، ورموه بالسفاهة والضلال والجنون، وأنه قد أصيب بمس من الآلهة فهو يهذي ويتخبط .

(١) «تفسير الطبري» (٥٠٧/١٢) وتفسير البغوي للآية وابن كثير عن ابن إسحاق، وقد أخرجه البخاري في تاريخه (١٣٥/١) وابن عساكر (١٣٨/٣٦) .

يا سبحان الله! قوم يصفون نبيهم هذه الأوصاف! كم كان صبر الأنبياء! وكم كان جلدُهم على دعوة أقوامهم وتحملهم في سبيل الله! لم يزد هود على أن قال لهم: ﴿يَقَوْمُ لَا أَشْكُرُ عَلَيْهِ أَجْرًا إِنْ أَجَرْتُمْ إِلَّا عَلَى الَّذِي فَطَرَنِي أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ [هود: ٥٤] فكان ردهم أن قالوا له: ﴿إِنَّا لَنَرِيكَ فِي سَفَاهَةٍ وَإِنَّا لَنُظُنُّكَ مِنَ الْكَذِبِينَ﴾ فيما تقول؛ أي: نعتقد أنك كاذب وفيك سفاهة وعقل ناقص، والسفيه هو الذي يرد الحق ويتكبر عليه، ويسير في ركب الشيطان، ويضع العبادة في غير موضعها.

وقالوا له أيضًا: ﴿إِنْ نَقُولُ إِلَّا اعْتَرَاكَ بَعْضُ آلِهَتِنَا بِسُوءٍ﴾ [هود: ٥٤] يعني: أن آلهتنا أصابتك بمس فأنت تهذي وتتخبط وبك جنون ﴿قَالَ إِنِّي أَشْهَدُ أَنَّ اللَّهَ وَاشْهَدُوا أَنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ﴾ [هود: ٥٤، ٥٥]. ويرد عليهم نوح عليه السلام نافيًا عن نفسه السفاهة ومثبتًا أنه رسول رب العالمين.

٦٧- ﴿قَالَ يَقَوْمُ لَيْسَ بِي سَفَاهَةٌ وَلَكِنِّي رَسُولٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ﴾

ثم كشف لهم هود عن مصدر الرسالة بعد رميه بالسفه والضلالة ﴿قَالَ﴾ لهم: ﴿يَقَوْمُ لَيْسَ بِي سَفَاهَةٌ﴾ لست ناقص العقل وليس بي ضلال ﴿وَلَكِنِّي رَسُولٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ﴾ أمرني ربي أن أدعوكم إلى توحيده وعبادته، وقد جئتكم بالحق من ربي وربكم، ولست كما تزعمون. وقال هود لقومه:

٦٨- ﴿أَبْلِغُكُمْ^(١) رِسَالَتِي وَإِنَّا لَكُم نَاصِحٌ أَمِينٌ﴾

أبلغكم ما بعثني به ربي من الأوامر والنواهي من عند الله ﴿وَإِنَّا لَكُم نَاصِحٌ أَمِينٌ﴾ فيما دعوتكم إليه من توحيد الله والعمل بشريعته.

دعا نبي الله هود قومه، يذكرهم بما أنعم الله به عليهم، ولكنهم قالوا له: ﴿سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَوَعَضْتَ أَمْ لَمْ تَكُن مِّنَ الْوَاعِظِينَ﴾ [الشعراء: ١٣٦] وعظك ودعوتك لا تجدي ولا تفيد، ثم ذكّرهم هود بنعم الله عليهم فقال:

(١) سبق ذكر ما في (أبلغكم) من قراءات في قصة نوح عليه السلام.

٦٩- ﴿أَوْ عَجِبْتَ أَنْ جَاءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَى رَجُلٍ مِّنكُمْ لِيُنذِرَكُمْ وَأَذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِن بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ وَزَادَكُمْ فِي الْخَلْقِ بَصْطَةً^(١) فَأَذْكُرُوا آلَاءَ اللَّهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٦٩﴾﴾

وهل أثار إعجابكم أن أنزل الله إليكم ما يذكركم بما فيه من الخير لكم على لسان رجل منكم تعرفون نسبه وصدقه؛ ﴿وَأَذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ﴾ إذ جعلكم تخلفون في الأرض من سبقكم بعد هلاكهم، وفي هذا تعريض بقوم نوح الذين استأصلهم الله تعالى، فاعتبروا بالأمم السابقة، وبما حلَّ بمن كذبوا رسلهم، واحمدوا الله واشكروه وأطيعوا أمري حتى لا يصيبكم ما أصابهم.

وهكذا انتقل هود من أمرهم بالتوحيد إلى تذكيرهم بنعمة الله عليهم، تذكيراً من شأنه أن يوصلهم إلى أفراد الله تعالى بالعبادة؛ لأن الإنسان ينسى النعم فيكفر بالمنعم، فإذا تذكّر رأى حقاً عليه أن يشكر المنعم، فقال لهم: لقد أنعم الله عليكم، حيث ﴿جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِن بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ﴾ في عمارة الأرض، فقوم عاد أول أمة صنعت الحضارة العمرانية بعد الطوفان، وكان بنو نوح قد تكاثروا وانتشروا في أرمينيا والعراق وبلاد العرب، وكانت عاد أعظم الأمم، ﴿وَزَادَكُمْ فِي الْخَلْقِ بَصْطَةً﴾ وقوة، وفضلكم على غيركم في الرزق والجسم والمال، فاذكروا نعم الله الكثيرة؛ رجاء أن تفوزوا بسعادة الدارين.

وقوم عاد كانوا أشداء أقوياء، بسط الله لهم في الخلق، وقوة البنية الجسدية، كانوا طوالاً عراضاً أقوياء أشداء، ولذلك فإنهم قالوا: ﴿مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً﴾؟ [فصلت: ١٥] ووصفهم الله بقوله: ﴿وَإِذَا بَطَشْتُمْ بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ﴾ [الشعراء] فهم أهل قوة ويطش.

(١) قرأ الدوري عن أبي عمرو وهشام وخلف عن حمزة ورويس وخلف العاشر بالسین الخالصة في لفظ (بسطه) واختلف عن قنبل والسوسي وابن ذكوان وحفص وخلاد، فلكل منهم السین والصاد، وقرأ الباقون بالصاد الخالصة، وقد رسمت في المصحف بالصاد، ووضع فوقها سین صغيرة إشارة إلى الراجح في رواية حفص، ومن يقرأ بقصر المد المنفصل لحفص يلزمه أن يقرأ بالسین فقط.

وقد بسط الله لهم في الرزق، فكانوا في ترف ونعيم لا نظير له، فقد فجر الله لهم الأرض عيونًا، وأخرج لهم الزروع والثمار، وكان من حضارتهم أنهم شيدوا القصور والمباني ﴿أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ ءَايَةً تَعْبَثُونَ﴾ (١٢٨)؟ [الشعراء] فأنتم مقيمون بكل تل مرتفع من الأرض على القمم العالية، آية في البناء، قصورًا فخمة مشيدة ﴿وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ﴾ (١٢٩) وإذا بطشتم بطشتم جبارين ﴿فَاقْتُلُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا﴾ (١٣٠) ﴿وَأَتَقُوا الَّذِي أَمَدَّكُمْ بِمَا تَعْلَمُونَ﴾ (١٣١) ﴿أَمَدَّكُمْ بِأَنْعَامٍ وَبَنِينَ﴾ (١٣٢) وَخَنَتِ وَعْيُونِ ﴿إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ [الشعراء].

تعجب قوم نوح من عبادة الله وحده، وطلبوا نزول العذاب الذي توعدهم به إن كان صادقًا:

٧٠- ﴿قَالُوا أَجِئْنَا^(١) لِنَعْبُدَ اللَّهَ وَحَدُّمُ وَنَذَرَ مَا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا فَأَيْنَا بِمَا نَعِدُنَا إِن كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ (١٧٠)

قالت عاد لهود في إجابة أقل جفوة وغلظة من جوابهم الأول، وفي محاولة لإرجاعه عما دعاهم إليه: أدعوتنا لعبادة الله وهجر ما ورثناه عن آبائنا فأتنا بالعذاب الذي تُخوفنا به إن كنت صادقًا، وهم بهذا قد فضلوا ما وجدوا عليه آباءهم من الضلال والشرك وعبادة الأصنام، على توحيد الله تعالى وتصديق رسوله صلى الله عليه وسلم.

وفي آية أخرى: ﴿قَالُوا أَجِئْنَا لِنُؤْفِكَنَا﴾ [الأحقاف: ٢٢] أي: تصرفنا ﴿عَنْ ءَالِهَتِنَا﴾ وهذا كقول زعماء قريش لأبي طالب لما دعاه النبي ﷺ إلى التوحيد: أترغب عن ملة عبد المطلب؟! وهكذا، فإن تقليد الآباء وتقليد من سبق من الأمم آفة كبرى، حتى إن هذا التقليد ليكون في العقيدة، وعلى المسلم في كل حال أن يرجع إلى كتاب الله، وإلى ما صح عن رسول الله ﷺ، وألا يقلد أحدًا كائنًا من كان، إلا إذا كان قدوة صالحة على طريق الحق، فإنه يُتَّبَع، وما خالف الكتاب والسنة من فعل الآباء لا وزن له ولا قيمة.

قال هود ﷺ لقومه: ﴿إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُمْ مَا مِنْ دَابَّةٍ إِلَّا هُوَ ءَاخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا إِنَّ رَبِّي عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ (٥٦) [هود]

(١) أبدل همزة (أجئنا) ياء أبو عمرو بخلف عنه، وأبو جعفر وحمزة عند الوقف، وحققها الباقون ساكنة.

هود ينذر قومه الهلاك: قال سبحانه لهود: فَإِنْ تَوَلَّوْا وَأَعْرَضُوا عَنْكَ فَقُلْ لَهُمْ:

لَقَدْ ﴿أَبْلَغْتُكُمْ مَا أُرْسِلْتُ بِهِ﴾ إِلَيْكُمْ وَسَنَخْلُفُ رَبِّي قَوْمًا غَيْرَكُمْ ﴿[هود: ٥٧]

وهذا إنذار لهم بالعذاب بأن الله تعالى مبيدهم ومدمرهم كما فعل بغيرهم.

وهذا شأن الله سبحانه في الأمم التي تكذب رسلها، حيث كان الله سبحانه ينذرهم المرة تلو المرة، ويطلب منهم التوبة، فإذا استمروا على طغيانهم، فإن الله تعالى يستأصلهم؛ لأن مهمة هذه الرسالات كانت مؤقتة، لها وقت معين وزمان معين، وأن أمة محمد ﷺ قد أراد الله لها البقاء إلى يوم القيامة؛ لأن رسالته ﷺ خاتمة الرسالات، فهو خاتم الأنبياء والمرسلين، وليس هناك من نبي بعده، ولذلك فإن الله سبحانه رفع هذا النوع من عذاب الإبادة والاستئصال عن أمة محمد ﷺ، وأرجأهم إلى يوم لقاء رب العالمين، قال تعالى: ﴿وَمَا كَانِ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ﴾ يا محمد، باقياً حياً، وأنت فيهم برسالتك بعد موتك ﴿وَمَا كَانِ اللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾ [الأنفال: ٢٣].

هلاك قوم هود ونجاته ﷺ: لما أبى قوم هود أن يدخلوا الإسلام دعا هود ربه ﴿قَالَ رَبِّ انصُرْنِي بِمَا كَذَّبُونِ﴾ [المؤمنون].

وكان بدء العذاب والهلاك الذي حصل لقوم عاد أن حبس الله عنهم المطر ثلاث سنوات، والناس قديماً لم تكن تعرف مياهًا مخزنة أو جوفية أو غير ذلك، ولم يكن بأيديهم الحصول على الماء في أي وقت، وإنما كان سيلهم الوحيد هو الماء الذي ينزل من السماء، لا يشربون منه فقط، وإنما تحلى به بهائمهم وزراعتهم، وبه يعيشون، وبدونه الحياة تتوقف، حبس الله عنهم المطر ثلاث سنوات، وكان من عادة السابقين الأولين من المشركين إذا أصابهم كرب وضر لجؤوا إلى الله تعالى بالدعاء، كما قال تعالى:

﴿وَإِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فِي الْبَحْرِ ضَلَّ مَنْ تَدْعُونَ إِلَّا إِلَهُهُ فَلَمَّا فُجِّكُمُ إِلَى الْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ﴾ [الإسراء: ٦٧]

يتعرفون على الله في الشدة، وينسونه في الرخاء ﴿وَإِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ ضُرٌّ دَعَا رَبَّهُ مُنِيبًا إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَا خَوَّلَهُ نِعْمَةً مِنْهُ نِسِيَ مَا كَانَ يُدْعُوا إِلَيْهِ مِنْ قَبْلُ﴾ [الزمر: ٨]

﴿وَإِذَا مَسَّ النَّاسَ ضُرٌّ دَعَوْا رَبَّهُمْ مُنِيبِينَ إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَا أَذَاقَهُمْ مِنْهُ رَحْمَةً إِذَا فَرِيقٌ مِنْهُمْ بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ﴾ [الروم].

إن المشرك يرجع إلى الشرك بعد زوال الشدة، فهو يلجأ إلى الله تعالى في الشدة، وينساه في وقت الرخاء، وهذا شأن المشركين، وهم أفضل من بعض الناس في زماننا، فإنهم لا يلجؤون إلى الله تعالى لا في الرخاء ولا في الشدة، نسأل الله العافية وحسن الخاتمة والعاقبة.

جاء في الأثر^(١) أن قوم عاد كانوا إذا أصابهم ضر؛ دعوا الله بحرمة بيته، وكان البيت معروفاً في جميع الملل، فيذهبون إليه ويسألون الله عنده رفع الضر عنهم، وقد أرسل قوم عاد وفدًا منهم مكونًا من سبعين رجلًا؛ ليستسقوا لهم عند الحرم، وفيهم رجل مسلم يكتم إسلامه، اسمه (مرثد بن سعد)، ثم نزلوا على (معاوية بن بكر)، وكانت أمه من قبيلة عاد، وكان يقيم خارج حدود الحرم قريبًا من مكة، فلما وصلوا إليه بعد شهر من مسيرهم، أقاموا عنده شهرًا يشربون الخمر ويسمعون الغناء، ثم ملّ منهم الرجل، وأنشد فيهم شعرًا؛ ليرحلوا عنه.

فذهبوا إلى بيت الله الحرام، ودعا (قيل بن عتر) ربه يطلب نزول المطر من السماء؛ فأرسل الله سبحانه ثلاث سحبات: سحابة بيضاء، وسحابة سوداء، وسحابة حمراء، ونودي من السماء عند نزول المطر: أن اختر لنفسك ولقومك واحدة من بين هذه السحابات الثلاث، فاختار السحابة السوداء؛ اعتقادًا أو ظنًا منه أنها مليئة بالماء والمطر، فنودي: أن اخترت سحابة لا تبقي من قوم عاد أحدًا، لا والدًا ولا ولدًا.

فأرسل الله سبحانه هذه السحابة على قوم عاد، وهم ينظرون إلى السماء ويتطلعون إلى نزول المطر، فنظروا فوجدوا سحابة في الأفق سوداء كأنها مليئة بالأمطار فاستبشروا وفرحوا ﴿فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضًا مُّسْتَقْبِلَ أَوْدِيَّتِهِمْ قَالُوا هَذَا عَارِضٌ مُّطْرًا﴾ هذه سحابة قادمة لتمطر علينا، قال سبحانه: ﴿بَلْ هُوَ مَا اسْتَعْجَلْتُمْ بِهِ﴾ [الأحقاف: ٢٤]

وكان قوم عاد قد قالوا لهود: ﴿فَأَنَّا يَكُنَّا تَعِدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصّٰدِقِينَ﴾ [الأحقاف: ٢٢].

لم يطلبوا رحمة الله وثوابه وعفوه عنهم، بل قالوا كما قال مشركو مكة: ﴿إِنْ كَانَتْ

(١) ينظر: «مسند الإمام أحمد» بإسناد حسن (٤٨٢/٣) والنسائي في «السنن الكبرى» وابن إسحاق والترمذي برقم (٣٢٧٤) و«سنن ابن ماجه» برقم (٣٨١٦) و«تفسير الطبري» (٥١٣/١٢) و«تفسير ابن عطية» (٤١٨/٢).

هَذَا هُوَ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَابَهُ مِنَ السَّمَاءِ أَوْ اثْبِتْنَا عَذَابَ الْيَوْمِ ﴿٣٢﴾ [الأَنْفَال: ٣٢]
 قال قوم عاد لهُودٍ ؑ: أَنْتَ تَدَّعِي أَنَّ اللَّهَ مَعَذِبُنَا، فَأَتِ بِهِذَا الْعَذَابَ إِنْ كُنْتَ صَادِقًا،
 قال الله سبحانه بل هذا العارض الذي في السحب، هو العذاب الذي استعجلتموه ﴿رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [الأحقاف: ٢٤] هذه الريح ﴿تُدْمِرُ كُلَّ شَيْءٍ بِأَمْرِ رَبِّهَا﴾ [الأحقاف: ٢٥].

والريح جند من جند الله، يسخرها الله سبحانه لمن يشاء، وعلى مَنْ يشاء من عباده،
 إذا أراد الله جل شأنه أن يمحى أقوى القوى وأكبرها في العالم، فإنه سبحانه يرسل
 عليهم جنداً من جنوده كالريح ونحوها، وهذه الريح وحدها كافية أن تبيد أعتى الأمم،
 يسخرها الله جل شأنه لهزيمة قوم، ونصرة آخرين.

وإذا أمسك الله هذه الريح ولو لمدة قليلة فلن يكون هناك هواء يتنفسه الناس، وكانت
 الريح تحمل الرجل القوي الجبار إلى أعلى، وترطمه في الأرض، وتقذف بالحجارة في
 وجهه، وكانت الريح تتعقبهم داخل المغارات وداخل الجبال والكهوف؛ لتخرجهم منها
 ثم تسقط عليهم وتقتلهم ﴿سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَنِيَةً أَيَّامٍ حُسُومًا﴾

إنها ريح صرصر عاتية، شديدة البرودة والهبوب، يقول الله سبحانه: ﴿فَتَرَى الْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَى﴾ كأنهم لفرط أجسامهم وقوتهم أصول نخل؛ أي: ﴿أَعْبَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ﴾ [الحاقة: ٧]
 يقول سبحانه: ﴿فَهَلْ تَرَى لَهُمْ مِنْ بَاقِيَةٍ﴾ [الحاقة: ٨] إنها ﴿رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ ﴿تُدْمِرُ كُلَّ شَيْءٍ بِأَمْرِ رَبِّهَا فَأَصْبَحُوا لَا يُرَى إِلَّا مَسَكِنُهُمْ كَذَلِكَ نَجْزِي الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ﴾ [الأحقاف: ١٥].

وهذه هي الريح العقيم التي جاء ذكرها في قوله تعالى: ﴿وَفِي عَادٍ إِذْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الرِّيحَ الْعَقِيمَ﴾ ﴿٤١﴾ مَا تَذَرُ مِنْ شَيْءٍ أَنْتَ عَلَيْهِ إِلَّا جَعَلْتَهُ كَالرَّمِيمِ ﴿٤٢﴾ [الذاريات].

وقد أهلك الله بها قوم عاد إلا بطناً منهم كانوا يقيمون بمكة، يقال لهم: بنو اللوذية، وهم
 أصل عاد الأخرى، لقد كان العذاب من جنس افتراء القوم، ومن جنس جبروتهم وطغيانهم.

وهكذا يفعل الله بمن يتجبر من كل أمة عاتية طاغية تعيث في الأرض فساداً ﴿فَأَمَّا عَادُ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَقَالُوا مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً﴾ قال سبحانه: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ﴾ [فصلت: ١٥] فماذا كانت العقوبة؟

ذُكرت هذه العقوبة في قوله تعالى ﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِي أَيَّامٍ نَحْسَاتٍ لِّنُذِيقَهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ [فصلت: ١٦] هذا في الدنيا.

أما في الآخرة ﴿وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَخْرَىٰ وَهُمْ لَا يُصْرُونَ﴾ [فصلت: ١٦] ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ ﴿٦﴾ إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ ﴿٧﴾ الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبَلَدِ ﴿٨﴾﴾ [الفجر].

أخرج الطبري بسند حسن عن السدي: أن عادًا أتاها نبي الله هود، فوعظهم وذكّرهم بما قص الله في القرآن، فكذبوه وكفروا، وسألوه أن يأتيهم العذاب، فقال لهم: إنما العلم عند الله، ولما كفر قوم عاد أصابهم القحط والجذب حتى جهدوا جهدًا شديدًا، فدعا عليهم هود؛ فبعث الله عليهم الريح العقيم، وهي الريح التي لا تلقح الشجر، فلما نظروا إليه قالوا: هذا عارض ممطرنا، فلما دنت منهم نظروا إلى الإبل والرجال تطير بهم الريح بين السماء والأرض، فلما رأوها دخلوا البيوت، فدخلت عليهم، ثم أخرجتهم من البيوت فأصابتهم في يوم شؤم، واستمر عليهم العذاب سبع ليال وثمانية أيام حسومًا، حسمت كل شيء مرت به.

فأصبحوا كما قال تعالى: ﴿تَنَزَّاعُ النَّاسُ﴾ أي: تخرجهم من البيوت ﴿كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَعْلٍ مُّثْقَلَةٍ﴾ [القمر: ٢٠] انقعر من أصوله فحوى وسقط، فلما أهلكهم الله أرسل عليهم طيرًا سودًا؛ فنقلتهم إلى البحر فألقتهم فيه فأصبحوا لا يرى إلا مساكنهم، ولم تخرج ريح قط إلا بمكيال إلا يومئذ، فإنها عتت على الخزنة فغلبتهم، فلم يعلموا كم كان مكيالها.

وقد أرسل الله عليهم الريح الدبور فأفناهم جميعًا، ولم يبق منهم أحدًا، وهذا معنى: ﴿وَقَطَعْنَا دَابِرَ الَّذِينَ كَذَبُوا بِآيَاتِنَا﴾ فقطع الله دابر الضلال في أول عصور إعمار الأرض؛ إعدادًا وتطهيرًا للرسالات التي تلي رسالة هود عليه السلام.

فماذا قال هود لقومه بعد أن تحدّوه أن يأتي لهم بالعذاب الذي توعدّهم به:

٧١- ﴿قَالَ قَدْ وَقَعَ عَلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ رِجْسٌ وَعَصَبٌ أَتَجِدَلُونِي فِي أَسْمَاءٍ سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَآبَاءُكُمْ مَا نَزَّلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ فَانظُرُوا إِنِّي مَعَكُمْ مِنَ الْمُنْتَظِرِينَ ﴿٧١﴾﴾

أي: أن العذاب الذي وعدتكم به لا بد من وقوعه، فإن أسبابه قد انعقدت، وحان وقت الهلاك، إذ كيف تجادلونني في أمور لا حقائق لها، وآلهة سمّيتها بأنفسكم، ولو كانت صحيحة

لَيَبَيِّنَ اللَّهُ مَا فِيهَا مِنَ الْحُجَجِ، فانتظروا ما يحل بكم من العقاب قريباً فإنني منتظر وقوعه بكم.

وهكذا في نهاية قصة قوم هود يأتي جوابه لقومه حاسماً سريعاً منذراً بحلول عذاب الله بهم، وغضبه عليهم، مع تصحيحه لانحراف فطرتهم، وبيان أن ما يعبدونه من دون الله ما هو إلا أسماء لآلهة اختلقوها وزعموها هم وآباؤهم دون أن يكون لها برهان ولا حجة، فهي مخلوقة لا تملك ضرراً ولا نفعاً، والمعبود بحق هو ربُّ الخلق أجمعين، وهذه الأصنام مجرد أسماء ليست لها حقائق.

ثم هددهم وتوعدهم بقوله: فانتظروا نزول العذاب بكم، فإنني منتظره معكم، قال ذلك تأديباً مع الله تعالى كما لقنه ربه، ومن الجائز أن هوداً كان يخاف أن يشملته العذاب النازل بقومه، كما في الحديث عن زينب بنت جحش رضي الله عنها: أنهلك وفينا الصالحون؟ قال: «نعم، إذا كثرت الخبث»^(١) وقد ورد أن الله تعالى أمر هوداً بمغادرة ديار قومه قبل نزول العذاب بهم، ولهذا فرق الله بين الفريقين فقال:

٧٢- ﴿فَأَنجَيْنَاهُ وَالَّذِينَ مَعَهُ رِجْحَاءَ مِنَّا وَقَطَعْنَا دَابِرَ الَّذِينَ كَذَبُوا بِآيَاتِنَا وَمَا كَانُوا مُؤْمِنِينَ﴾

أي: ولما أرسل الله عليهم الريح العاتية التي أتت عليهم؛ نجى الله هوداً ومن آمن معه بفضل الله ورحمته، أما الكفار المكذبون من قومه فقد أهلكهم الله تعالى وأتى على آخرهم، وقطع دابرهم، والسبب في هذا أنهم جمعوا بين الكفر والتكذيب، وترك العمل الصالح، ولم يكونوا مؤمنين، كما قال تعالى: ﴿وَمَا كَانُوا مُؤْمِنِينَ﴾ وطويت صفحة من صفحات المكذبين، وتحقق النذير بعد عدم جدوى التحذير ﴿وَأَنذَرُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا لَعَنَةً وَيَوْمَ أُفْقِئَتِ الْآلَا إِنَّ عَادًا كَفَرُوا رَبَّهُمْ أَلَا بُعْدًا لِعَادٍ قَوْمِ هُودٍ﴾ [هود: ٦٠]

ثالثاً: قصة صالح عليه السلام مع قومه

٧٣- ﴿وَالَّذِي ثَمُدَ آبَاؤُهُمْ صَالِحًا قَالَ يَتَقَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِن إِلَهٍ غَيْرُهُ قَدْ جَاءَتْكُمْ بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ هَذِهِ نَاقَةُ اللَّهِ لَكُمْ آيَةٌ فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِي أَرْضِ اللَّهِ وَلَا تَمْسُوهَا يَسُوءَ فَيَأْخُذْكُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾

(١) الحديث في البخاري (٣٣٤٦، ٣٥٩٨) ومسلم (٢٨٨٠).

نبذة عن نبي الله صالح وقومه:

تأتي قصة قوم ثمود بعد قصة قوم عاد وكان بينهما مئة عام، كما جاءت في سورة هود؛ لتذكر لنا صفحة من صفحات البشرية، وقوم ثمود أرسل فيهم نبي الله صالح عليه وعلى نبينا أفضل الصلاة وأتم التسليم، وثمرود هو الجد الخامس للقبيلة، وهو ابن غاثن بن إرم بن سام بن نوح، وهود وصالح نبيان عرييان، وكذا إسماعيل وشعيب.

وصالح من قبيلة ثمود، ينتمي إلى إرم بن سام بن نوح.

قال ابن عباس: كان هود أول من تكلم بالعربية، وولد لهود أربعة: قحطان، ويقحط، وقاحط، وفالغ، فهو أبو مضر، وقحطان أبو اليمن، والباقون ليس لهم نسل^(١).

وقد أخرج أبو الشيخ عن أبي هريرة أن هودًا عمّر أربع مئة واثنين وسبعين سنة.

وقد ذكرت قصته مع قومه في سور: الأعراف وهود والشعراء والنمل والقمر والذاريات وغيرها.

وجاء ذكر (صالح) في القرآن تسع مرات: ثلاثة في الأعراف، ومرة في الشعراء، ومرة في النمل، وأربعة في هود.

وثمرود وصالح يتسبان إلى سام بن نوح، وهو الجد الثاني لهما، وقوم ثمود هم قوم صالح وقوم عاد الآخرة، وقوم عاد الأولى هم قوم هود، كما قال سبحانه: ﴿وَأَنَّهُ أَهْلَكَ عَادًا الْأُولَى﴾ [النجم] أي: قوم عاد، نبهم هود عليه السلام، أما قوم صالح فهم الذين قال الله عنهم: ﴿وَتَمُودًا فَإِنِّي أَنزَلْتُ﴾ [النجم] ورسالة هود وصالح كانتا بعد نوح وإبراهيم عليهم الصلاة والسلام.

عادًا الأولى وعادًا الأخرى: وكانت رسالة صالح عليه السلام في شمال الجزيرة العربية شمال المدينة النبوية في الحَجْر، قرب وادي القرى، وشرق الأردن في مدائن صالح.

ورسالة هود عليه السلام كانت في جنوب الجزيرة العربية في الربع الخالي، قرب حضرموت، أو الأحقاف، وقد أخبر النبي ﷺ أن هودًا وصالحًا حجًا البيت، ومرا بوادي عُسفان على

(١) أخرجه إسحاق بن بشر وابن عساكر من طريق عطاء عن ابن عباس، كما في «الدر المثور» (٦/٤٤٥).

بكرات حمر خطمها الليف^(١)، ولا يلزم أنهما حجًا في وقت واحد؛ لأن بينهما زمن طويل، وإنما حج كل منهما ومر بالوادي.

وقوم ثمود ورثهم الله سبحانه الأرض بعد قوم عاد، فكانوا أهل حضارة عمرانية لم يشهد لها التاريخ مثيلاً، كانوا يسكنون الصخور والجبال والهضاب، فاتخذوا من السهول قصوراً يقيمون فيها في الصيف، واتخذوا من الجبال بيوتاً ينحتونها ويقيمون فيها في الشتاء، وكانوا أهل ترف ونعيم ﴿فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ لَا زُرُوعَ وَخَلٍ طَلْعُهَا هَضِيمٌ﴾ (١٤٨) وَنَجْتُونَ مِنْكَ الْجِبَالِ بُيُوتًا فَرِهِينَ ﴿ (الشعراء)

وهم الذين قال الله تعالى فيهم: ﴿وَتَمُودَ الَّذِينَ جَابُوا الصَّخْرَ بِالْوَادِ﴾ (٩) [الفجر] أي: نحتوا الصخر بوادي القرى، وهم الذين قال الله فيهم: ﴿وَلَقَدْ كَذَّبَ أَصْحَابُ الْحِجْرِ الْمُرْسِلِينَ﴾ (٨٧) [الحج] وَمَنْ كَذَّبَ رَسُولًا فَقَدْ كَذَّبَ الْمُرْسِلِينَ جميعاً، والمراد هنا نبي الله صالح عليه السلام.

صالح يدعو قومه إلى عبادة الله: عَبْدَ قَوْمِ ثَمُودِ الْأَصْنَامِ بعد أن اندثرت رسالة هود والتوحيد الذي جاء به؛ فأرسل الله إليهم صالحاً ﴿وَإِلَى ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا﴾ فدعاهم إلى التوحيد وأمرهم بما أمر به كل رسول قومه ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ﴾ (٢٥) [الأنبياء] ﴿قَالَ يَنْقُومِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ﴾.

أي: ولقد بعثنا إلى قبيلة ثمود أخاهم في النسب صالحاً؛ لَمَّا عبدوا الأوثان من دون الله، وعاثوا في الأرض فساداً، فأمرهم أن يعبدوا الله وحده خالقهم ورازقهم، فهو سبحانه المستحق للعبادة دون سواه، فقد كان قوم ثمود موحدين، ولعلمهم اتعظوا بما حلَّ بقوم عاد، فهم أبناء نسب واحد، ثم طالبت مدتهم، واتسعت حضارتهم، ونعم عيشهم؛ فعثوا في الأرض فساداً، ونسوا الله وعبدوا الأوثان التي كان يعبدوها قوم عاد، فأرسل الله إليهم صالحاً يدعوهم إلى التوحيد، فلم يتبعه إلا قلة مستضعفة، وعصى أشrafهم وكبراؤهم، ولكنهم لم يُغلظوا له في القول كما أغلظ قوم نوح وقوم هود، بل قالوا له: ﴿قَدْ كُنْتَ فِينَا مَرْجُوًّا قَبْلَ هَذَا﴾ [هود: ٦٢]، كنا نرجوا فيك رجاحة العقل قبل أن

(١) ينظر الحديث الذي أخرجه أحمد في «المسند» (٢٣٢/١) وقال الهيثمي في «مجمع الزوائد» (٣/٢٢٠): فيه زمعة بن صالح، وفيه كلام، وقد وثق.

تأتينا بهذه الدعوة!

فأمهلهم الله مدة لينظروا ويتأملوا ما جاءهم به صالح قبل أن يؤيده الله بالناقة الدالة على صدق دعوته، قال تعالى: ﴿هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ الْأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا﴾ [هود: ٦١]
أي: جعلكم تعمرون الأرض بعد قوم عاد الذين أهلكهم الله وأبادهم.

وكلمة استعمار كلمة حسنة، وهي تخالف الاحتلال، ومن الخطأ إطلاقها عليه، فالاحتلال أن يحتل العدو أرضك، أما أن يستعمرها، فهذا مصطلح حسن، فمعنى استعمرها: عمَّرها بعد خراب، والأمر ليس كذلك بالنسبة للعدو الذي يحتل جزءاً من وطن المسلمين.

كان موقف قوم ثمود تجاه دعوة نبي الله صالح أن ﴿قَالُوا يَصْلِحُ قَدْ كُنْتَ فِينَا مَرْجُوًّا قَبْلَ هَذَا﴾ كنا نظن أنك صاحب عقل وحكمة قبل أن تدعونا إلى هذه الدعوة، كنت فينا مرجوًّا نؤمل فيك خيراً قبل هذه الدعوة ﴿أَتَنْهَانَا أَنْ نَعْبُدَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا﴾؟ فقد وجدنا آبائنا كذلك يعبدون هذه الأصنام فجئت تنهانا عن عبادتها ﴿وإِنَّا لَفِي شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ مُرِيبٌ﴾ أي: أن هذا الذي تقوله نحن في شك منه، ولا نؤمن به، ولا نعتبره شيئاً مفيداً.

قوم صالح يطلبون منه معجزة معينة تدل على صدق دعواه:

أَلَحَّ صالح عليهم في الدعوة إلى الله سبحانه، قال لهم: لقد أرسلني الله إليكم وأمرني بذلك ﴿فَمَنْ يَصْرِفُنِي مِنْكَ اللَّهُ إِنَّ عَصِيئَتُهُ﴾ وكنتم هذا الوحي وهذه الرسالة، ولم أبلغها لكم، مَنْ ينصرنى من الله إن عصيته؟ ﴿فَمَا تَزِيدُونَنِي غَيْرَ تَخْسِيرٍ﴾.

قال سيد القوم (جندع بن عمرو) لصالح: إن كنت تريد أن نؤمن لك ونصدقك فأت لنا بمعجزة تدل على صدق دعواك، وعيَّنوا له معجزة بذاتها؛ فطلبوا منه أن يخرج لهم ناقة عُشراء (حامل) من صخرة معينة منفردة في ناحية الحجر، يقال لها: الكاتبة، قالوا له: أخرج لنا من هذه الصخرة الصماء ناقة عُشراء في بطنها مولود، قال لهم صالح: إن فعل الله لكم ذلك، تؤمنوا بي؟ قالوا: نعم، فأخذ عليهم العهد والميثاق إن أجاب الله مطلبهم أن يؤمنوا به ويصدقوه، وتوجه إلى الله ﷻ يدعو ويطلب منه المعجزة التي طلبوها نصرة لدينه.

ثم توجه إلى الصخرة التي عينوها، ومعه القوم، فانفلقت الصخرة، وأخرج الله منها

ناقة يتحرك جنينها بين جَنِيئِهَا أمام أعينهم كما سألوا، إنها معجزة تجعل قلب القاسي يلين، والكافر يؤمن، لقد تحقق لهم ما طلبوه في لحظة أمام أعينهم، وهم ينظرون ويرون خروج الناقة من الصخرة، خلقها الله بلا ذكر ولا أنثى خلقًا مميزًا، كما خلق سبحانه آدم بلا ذكر ولا أنثى، ولذلك أضافها الله سبحانه إلى نفسه تشريفًا وتكريمًا.

قال لهم صالح: ﴿قَدْ جَاءَكُمْ بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ﴾ وهي البرهان الذي طلبتموه دليلًا على صدق رسالتي، ها هو ماثل أمامكم ﴿هَذِهِ نَاقَةُ اللَّهِ لَكُمْ آيَةٌ﴾ خلقها بلا واسطة، بلا تلقيح ولا حمل، لقد جعل الله سبحانه لهذه الناقة خصائص مميزة عن سائر الحيوانات ﴿فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِي أََرْضِ اللَّهِ وَلَا تَمْسُوهَا إِسْوَاءَ﴾ أمرهم ألا يمسوها بسوء، وقال لهم: اتركوها تأكل في أرض الله ولا تقربوها بأذى، فهي لا تذبح كما تذبح النياق، ولا تُطرد، ولا تُعذب، ولا يُحمل عليها، ولا تُضرب، إنكم إن فعلتم شيئًا من ذلك عرّضتم أنفسكم لعقاب الله تعالى.

وهكذا دعا صالح قومه لتوحيد الله أولًا، ثم أخبرهم بأن الله تعالى قد أيدته بمعجزة بينة تُصدّق أنه مرسلٌ من عند الله، وفي سورة هود جاء ذِكرُ المعجزة بعد أن ردوا دعوته، وصرحوا له بأنهم شكوا في صدقه، وجاء في سورة الشعراء أن القوم تحدّوه أن يأتي لهم بمعجزة تدل على صدقه بعد أن دعاهم إلى توحيد الله تعالى، ويستفاد من مجموع السور أن الدعوة إلى الله والتخويف من بطشه وعذابه كان أولًا، وأن تأييده بالمعجزة كان ثانيًا بعد طلبهم لها.

صَالِحٌ يُذَكِّرُ قَوْمَهُ بِنِعَمِ اللَّهِ عَلَيْهِمْ

٧٤- ﴿وَاذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِن بَعْدِ عَادٍ وَبَوَّأَكُمْ فِي الْأَرْضِ تَتَّخِذُونَ مِنْ سُوءِهَا قُصُورًا وَتَنْجُونَ الْجِبَالَ بَيْوتًا^(١) فَاذْكُرُوا ءَالَاءَ اللَّهِ وَلَا تَعْتُوا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾

ذَكَرَ صَالِحٌ قَوْمَهُ بِنِعَمِ اللَّهِ تَعَالَى عَلَيْهِمْ، بعد أن بَلَّغَهُمْ وأَنْذَرَهُمْ، حيث جعلهم يَخْلُقُونَ قوم عاد في عمارة الأرض بعد أن أهلكهم الله تعالى، فمَكَّنَ لهم في الأرض بعدهم،

(١) قرأ قالون وابن كثير وابن عامر وشعبة وحمزة والكسائي وخلف العاشر بكسر الباء من (بيوتًا)، والباقيون بضمها.

وإن لم يكونوا في أرضهم ذاتها، وذلها الله لهم، بحيث ينون البيوت العظيمة في سهولها، وينحتون بيوتاً أخرى في جبالها، وسهل لكم الأسباب الموصلة إلى ما تريدون، وجعلكم خلفاء لهم في الحضارة والعمران والقوة والبأس، وبوأكم في الأرض وجعلها منازل لكم، وألهمكم فنون الصناعة والتجارة وهندسة البناء، وعلمكم فن النحت وسكنى الجبال والسهول؛ لأجل الزراعة والعمل ومعرفة وسائل العمران، فلا تلوثوا أنفسكم بالمعاصي ولا تدنسوها بالجرائم، واذكروا هذه النعم، ولا تسعوا بالإفساد في الأرض، بل اشكروا فضل الله عليكم واستعملوها لما فيه صلاحكم.

الْحَوَارُ بَيْنَ الْمُسْتَكْبِرِينَ وَالضُّعَفَاءِ:

٧٥- ﴿قَالَ^(١) أَلَمْ أَلَا الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِن قَوْمِهِ لِلَّذِينَ اسْتَضَعُّوا لِمَن ءَامَنَ مِنْهُمْ أَتَعْلَمُونَ أَنكَ صَلَحًا مُّرْسَلٌ مِّن رَّبِّهِ قَالُوا إِنَّا بِمَا أُرْسِلَ بِهِ مُؤْمِنُونَ ﴿٧٥﴾﴾

وهكذا عاشت الناقة فترة بين القوم، وكذا فصيلها التي أنجبته معها، تشرب ماء البئر يوماً، ويشربه القوم يوماً، وكان عندهم بئر كبيرة تسمى بئر الناقة، يتناوبون شرب مائها، للناقة يوم تشرب فيه ماء البئر، ويشربون اللبن من ضرعها، ولهم يوم يشربون ماء البئر والناقة لا تقربها فيه.

وكان سيد القوم قد آمن بصالح لما رأى خروج الناقة، ومعه عدد كبير من المستضعفين، واستمر الملاء والكبراء -الذين يخافون على سلطانهم وعلى جاههم ومنزلتهم بين الناس- استمروا على كفرهم، فصار الناس بين مؤمن وكافر.

وهذا هو الحوار الذي دار بين المستكبرين والمستضعفين وسجلته سورة الأعراف ﴿قَالَ أَلَمْ أَلَا﴾ وهم السادة الكبراء ﴿الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا﴾ وهم عقبة الإصلاح في كل زمان، الذين يثقل عليهم أن يكونوا تابعين لغيرهم، ويخضعوا للأوامر والنواهي، فالتكبر هو الذي صرفهم عن طاعة نبيهم، وهو الذي منعهم من اتباعه، قالوا للمستضعفين الذين آمنوا منهم

(١) قرأ ابن عامر بزيادة واو قبل (قال الملاء) عطفاً على ما قبلها وموافقة لرسم المصحف الشامي، وقرأ الباقون بدون؛ اكتفاء بالربط المعنوي، وموافقة لرسم بقية المصاحف.

على سبيل الاستهزاء والسخرية: ﴿أَتَعْلَمُونَ أَنَّ صَاحِبًا مُّرْسَلٌ مِّن رَّبِّهِ؟﴾ على وجه الحقيقة، أهو صادق أم كاذب؟

قال المستضعفون: نعم إنا مؤمنون به متبعون لشرعه ﴿إِنَّا بِمَا أُرْسِلَ بِهِ مُؤْمِنُونَ﴾ فأمن به بعضُ قومه من المستضعفين، وقالوا: نحن نؤمن بوحداية الله تعالى، ونمثل أمره ونجتنب نهيه ونصدق خبره.

٧٦- ﴿قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا بِالَّذِي ءَامَنْتُمْ بِهِ كَفِرُونَ﴾

ثم بين سبحانه موقف السادة والأشراف من دعوة صالح، وأنهم قد تنصّلوا من إيمان الضعفاء، وثبتوا على كفرهم، وخالفوا من آمن به ﴿قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا﴾ واستعلوا على الإيمان بصالح ﷺ: ﴿إِنَّا بِالَّذِي ءَامَنْتُمْ بِهِ كَفِرُونَ﴾ جاحدون غير مصدقين، لم يذكروا وصفًا لرسالة صالح، وإنما قالوا كما قال فرعون: إنه آمن بما آمنت به بنو إسرائيل، وهؤلاء قالوا: ﴿إِنَّا بِالَّذِي ءَامَنْتُمْ بِهِ كَفِرُونَ﴾. لن نصدق له ولن نقاد لدعوته.

عَقْرُ النَّاقَةِ وَنُزُولُ الْعَذَابِ بِقَوْمِ ثَمُودَ

٧٧- ﴿فَعَقَرُوا النَّاقَةَ وَعَتَوْا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ وَقَالُوا يُصْلِحُ^(١) أَثَنَّا بِمَا عَدُّنَا إِن كُنتَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾

ولما صدع المستكبرون بتكذيب نبي الله صالح؛ عزموا على إغاظته هو ومن آمن به، فاعتدوا على الناقة؛ لئلا يزداد عدد المؤمنين به، فاتفقوا على عقرها، ونفذ ذلك أحدهم وهو (قدار بن سالف)، وتحذوا صالحًا أن يأتيهم بعذاب الله، فأرسل الله عليهم الرجفة فأصبحوا في دارهم جاثمين.

حديث البئر والناقة: وقد كان الماء قليلًا في قوم ثمود، والتمد: هو الماء القليل،

(١) قرأ ورش وأبو جعفر وأبو عمرو بخلف عنه بإبدال همزة (يا صالح اثنتا) ياء حال وصل الكلمتين ببعضهما، وكذا حمزة عند الوقف على (اثنتا)، والباقون بهمزة ساكنة حال الوصل، وعند البدء بلفظ (اثنتا) ينطق بهمزة مكسورة بعدها ياء مدية، وهكذا كل همزة قطع ساكنة وقعت بعد همزة وصل، فإن همزة الوصل تثبت، وتبدل همزة القطع حرف مجانس لما قبلها.

فسميت القبيلة قبيلة ثمود؛ لأن الماء كان قليلاً، ولهم بئر يقال لها: بئر ثمود، يشربون منه.

والنبي ﷺ وهو في طريقه إلى تبوك سنة تسع من الهجرة مرّ بديارهم، ونزل عند بئر الناقة، ومنع أصحابه أن يشربوا من آبارهم ومياههم، وأمرهم أن يسكبوا العجين الذي خلطوه بمائهم، ويجعلوه علفاً للإبل، وأمرهم ألا يدخلوا منازلهم إلا وهم خاشعون باكون، كما جاء في الحديث عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما: «لا تدخلوا على هؤلاء المعذبين إلا أن تكونوا باكين، فإن لم تكونوا باكين، فلا تدخلوا عليهم، أن يصيبكم مثل ما أصابهم» ثم قنع رأسه، وأسرع السير حتى جاوزوا الوادي^(١).

روى الإمام أحمد بسنده عن ابن عمر رضي الله عنهما قال: نزل رسول الله ﷺ بالناس عام تبوك، الحجر، عند بيوت ثمود، فاستسقى الناس من الآبار التي كانت تشرب منها ثمود؛ فعجنوا منها، ونصبوا منها القدور، فأمرهم النبي ﷺ فأهراقوا القدور، وعلفوا العجين للإبل، ثم ارتحل بهم حتى نزل بهم على البئر التي كانت تشرب منها الناقة، ونهاهم أن يدخلوا على القوم الذين عذبوا، وقال: «إني أخشى أن يصيبكم مثل ما أصابهم، فلا تدخلوا عليهم»^(٢).

ومن خصائص هذه الناقة أن الله جل شأنه جعل ماء البئر الذي هو ماء القبيلة قسمةً بين القبيلة كلها وبين الناقة، فهي تشرب وحدها يوماً، والقبيلة تشرب يوماً ﴿لَمَّا شَرِبَ وَلَكُرْ شَرِبَ يَوْمٍ مَعْلُومٍ﴾ [الشعراء: ١٥٥] ﴿وَنَبَّيْتَهُمْ أَنَّ الْمَاءَ قِسْمَةٌ بَيْنَهُمْ كُلُّ شَرِبٍ مُحَضَّرٌ﴾ [القمر]. فكان القوم وحيواناتهم ووحوشهم يشربون في يوم، والناقة لا ترد الماء من نفسها في هذا اليوم، واليوم الآخر تشرب الناقة وحدها، تدلي برأسها في البئر فتأتي عليه مرة واحدة، وفي هذا اليوم يحلبها القوم ويأخذون الحليب الذي يكتفيهم يومهم ويملؤون أوانيهم، فكان اليوم الذي لا يشربون فيه من الماء يشربون فيه من حليب الناقة، معجزة عجيبة صحت عن رسول الله ﷺ ونطق بها القرآن الكريم، ومع هذا فقد أرادوا عقر الناقة.

(١) ينظر البخاري برقم (٤٣٣، ٣٣٨١، ٤٧٠٢) ومسلم (٢٢٨٥/٤) برقم (٢٩٨٠) و«المسند» (٧٤/٢) من حديث عبد الله بن عمر برقم (٥٣٤٢، ٤٥٦١، ٥٧٠٥)، بإسناد صحيح ورجال ثقات، (محققه) وعبدالرزاق (١٦٢٤).

(٢) «المسند» (١٢٧١٢) الحلبي (١١٧/٢)، وانظر الحديث السابق وتخرجه.

عقر الناقة: ولعل بعض القوم تأذى من وجود هذه الناقة، وتأذى من دعوة صالح للتوحيد، وتأذى بعض أرباب الأغنام بناقة صالح، فدبروا المكيدة بعقر الناقة؛ استخفافاً منهم بوعيد الله تعالى، واستعلاء على امثال أمره، وقالوا لصالح على سبيل استبعاد نزول العذاب بهم والاستهزاء بوعيده لهم: ائتنا بعذاب الله، وما تتوعدنا به، إن كنت من رسل الله صادقاً فيما تقول، ونفذوا مقالتهم، وقاموا بقتل الناقة معرضين بذلك عن أمر ربهم، واستغلوا النساء لإغواء الرجال أن يقتلوا الناقة.

فهذه امرأة ذات حسب ونسب ومال وجمال، اسمها (صدوف بنت المحيا) تعرّض نفسها على رجل منهم إن هو عقر الناقة، فإن عقرها يكون هذا العقر مهرها للزواج منه، فأبى.

وامرأة أخرى عجوز تُكْنَى (أم غنم) عندها أغنام كثيرة، وهي ممن كفرن بصالح، وكان زوجها (ذؤاب بن عمرو) من رؤساء القوم، هذه المرأة كان عندها بنات حسان، عرضت أجملهن على رجل يقال له: (قدار بن سالف) وهو أشقى القوم الذي عقر الناقة، والعقر: هو قطع عرقوب البعير، والعقر أيضاً هو النحر، وقد وصفه ربنا بقوله: ﴿إِذْ أَبْعَثَ أَشْقَاهَا﴾ (١٧) قالت له (أم غنم): إن أنت عقرت الناقة أزوجك ابنتي هذه، وكشفت له عن وجهها الحسن، وتبعه في ذلك ثمانية من القوم، فكانوا تسعة تأمروا على قتل الناقة ﴿وَكَاثَ فِي الْمَدِينَةِ سَعَةُ رَهْطٍ يُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ﴾ (١٨) [النمل] انتظروا خروج الناقة ليعقروها.

وتآمر هؤلاء التسعة على قتل الناقة؛ فاختبئوا لها، ومن خارج مورد الماء رُميت الناقة بسهم من رجل يقال له: (مصدع بن مهرج)، فخرجت (أم غنم) وأغرّت (قدار) بابنتها إن هو أجهز على الناقة فرماها بسهم فأصابها في ساقها، ثم مال بسيفه على قوائمها فقطعها، ثم أجهز عليها من لابتها، وأرادوا قتل فصيلها، ولكن الله تعالى منعهم منه، ثم جاء الفصيل إلى نبي الله صالح، وهو يبكي، له رغاء بصوت مسموع ثلاث مرات، فقال الله لهم على لسان صالح: ﴿تَمَتَّعُوا فِي دَارِكُمْ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ ذَلِكَ وَعْدٌ غَيْرُ مَكْدُوبٍ﴾ [هود: ٦٥] يأتيكم العذاب بعد أيام ثلاثة.

نزول العذاب بقوم ثمود: ولما قال لهم ذلك قالوا: نحن سنقضي على صالح أيضاً ونقتله، فيلحق بناقته، فتآمر هؤلاء التسعة على قتل صالح، وأخذوا على أنفسهم العهد المؤكد باليمين على الخلاص منه ﴿قَالُوا تَقَاسَمُوا بِاللَّهِ لَنُبَيِّتَنَّهُ وَأَهْلَهُ﴾ أي: تأمروا على

قتله، وعلى قتل أهله وإخفاء جريمتهم ﴿ثُمَّ لَنَقُولَنَّ لِوَلِيِّهِ﴾ أولياء الدم ﴿مَا شَهِدْنَا مَهْلِكَ أَهْلِهِ وَإِنَّا لَصَدِيقُونَ﴾ [النمل: ٤٩].

ولما بيتوا النية على الفتك بصالح أمطرهم الله بحجارة من السماء، حالت بينهم وبين أن يمسوا صالحًا بسوء ﴿وَمَكْرُوا وَمَكَرَ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَكْرِينَ﴾ [آل عمران] ﴿وَمَكْرُوا مَكْرًا وَمَكْرَنَا مَكْرًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ [النمل] قيل: إن المسافة التي أهلكتها الصيحة تبلغ ثمانية عشر ميلًا، هي بلاد الحِجْر ومراتعها إلى وادي القرى وما حوله^(١). قال تعالى:

٧٨- ﴿فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَنِينَ﴾

قيل: إن عقر الناقة كان يوم الأربعاء، فلمّا كان يوم الخميس اصفرّت وجوههم وتغير لونها، ولما كان يوم الجمعة احمرت وجوههم، وكان بعض القوم ينادي بعضًا قائلاً: ذهب اليوم الأول، ذهب اليوم الثاني، ولمّا كان يوم السبت اسودّت وجوههم كالقار الأسود، فلما أشرقت الشمس في يوم الأحد، كانت الصيحة التي صاح بها جبريل؛ فارتجفت الأرض واضطربت، وزُلزلت تحت أقدامهم، وجاءتهم الصاعقة من السماء؛ فأزهقت أرواحهم في لحظة واحدة.

والقرآن الكريم عبّر هنا بالرجفة، حيث أخذت الكفار الزلزلة الشديدة التي خلعت قلوبهم؛ فأصبحوا في بلدتهم هالكين، لاصقين بالأرض على ركبهم ووجوههم، ميتين هامدين.

﴿وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَىٰ عَلَى الْهُدَىٰ فَأَخَذَتْهُمُ صَاعِقَةُ الْعَذَابِ الْهُونِ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ [فصلت].

وعبّر القرآن في سورة الذاريات [٤٤] بالصاعقة ﴿فَعَتَوْا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ فَأَخَذَتْهُمُ الصَّاعِقَةُ وَهُمْ يَنْظُرُونَ﴾، وفي سورة هود [٦٧] بالصيحة ﴿وَأَخَذَ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةَ فَأَصْبَحُوا فِي دِيارِهِمْ جَنِينَ﴾، وفي سورة الحاقة [٥] بالطاغية ﴿فَأَمَّا ثَمُودُ فَاهْلِكُوا بِطَاغِيَةِ﴾ [٥] وكلها يكمل بعضها بعضًا؛ بمعنى: أن الرجفة أخذتهم من تحت أقدامهم، وصاح بهم جبريل من فوقهم فكانت

(١) ينظر في هذا: «تفسير الطبري» (٢٩٥/١٢) وما بعدها و«تفسير ابن عطية» (٤٢٢/٢) وما بعدها و«تفسير ابن كثير» (٤٤٠/٢) وما بعدها و«تفسير الخازن» وابن الجوزي والبقوي للآية.

الطاغية؛ أي: الداهية والمصيبة العامة، وصُعقوا كما يصعق الإنسان بالكهرباء، فالرجفة: هي الزلزلة والاضطراب.

والصيحة: هي الصوت المرتفع المفزع، والصاعقة: هي الشرارة الكهربائية التي تتصل بالأرض فتحدث تأثيرات عظيمة، فهم قد سقطوا على ركبهم مصعوقين، وجثموا هامدين خامدين، وتلك عقوبة عامة لا تصيب الظالم وحده ﴿وَأَتَقُوا فَتْنَةَ لَا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ خَاصَّةً﴾ [الأنفال: ٢٥].

قيل: لم ينج من لحظتها إلا جارية، ورجل ممن هم في الديار، قُتلا بعد ذلك؛ حيث إن هذه الجارية كانت مقعدة مشلولة، يقال لها: (الزريقة)، كانت كافرة شديدة العداوة لصالح ﷺ، فلما رأت هول العذاب انطلقت فأخذت تجري وذهبت إلى حيِّ قومها، وهي تصف لهم العذاب الذي رآته ينزل بقومها، فطلبت منهم أن تشرب، فلما شربت ماتت، وقد حدث هذا لحكمة أرادها الله سبحانه، حتى يعتبر المعتبرون.

والرجل هو (أبو رغال) والد ثقيف، وهي القبيلة التي سكنت الطائف، وكان أبو رغال وقت نزول العذاب في الحرم، فلم ينزل به العذاب لحظتها، ولمَّا خرج من الحرم أصابه ما أصاب القوم فجاءه حَجَرٌ من السماء فقتله.

١- عن جابر بن عبد الله رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ لما نزل الحجر، قام فخطب الناس فقال: «يأيها الناس، لا تسألوا نبيكم عن الآيات، فإن قوم صالح سألوا نبيهم أن يبعث إليهم آية، فبعث الله إليهم ناقة، فكانت ترد من هذا الفج فتشرب ماءهم يومَ وُردها، ويحتلبون من لبنها مثل الذي كانوا يأخذون من مائها يوم غيَّها، وتصدُّر من هذا الفج، فعتوا عن أمر ربهم فعقروها، فوعدهم الله العذاب بعد ثلاثة أيام، وكان وعدًا من الله غير مكذوب، ثم جاءتهم الصيحة؛ فأهلك الله من كان منهم تحت مشارق الأرض ومغاربها، إلا رجلاً كان في حرم الله، فمنعه حرم الله من عذاب الله» فقيل: يا رسول الله، من هو؟ قال: «(أبو رغال)، فلما خرج من الحرم أصابه ما أصاب قومه»^(١).

٢- وفي لفظ آخر عن جابر رضي الله عنه أيضًا قال: لما مرَّ النبي ﷺ بالحجر قال: «لا تسألوا

(١) «المسند» (١٤١٦٠) والبيزار (١٨٤٤) كشف والطبراني (٩٠٦٩) والحاكم (٣٢٠/٢) وابن أبي حاتم (٨٦٨٥) والطبري (٢٩٦/١٠) قال محققو «المسند»: حديث قوي، وهذا إسناد على شرط مسلم.

الآيات، فقد سألها قوم صالح، فكانت (يعني: الناقة) ترد من هذا الفج، وتصدر من هذا الفج، فعتوا عن أمر ربهم فعقروها، وكانت تشرب ماءهم يومًا، ويشربون لبنها يومًا، فعقروها، فأخذتهم صيحة، أحمدهم الله مَنْ تحت أديم السماء منهم، إلا رجلًا واحدًا كان في حرم الله» قالوا: مَنْ هو يا رسول الله؟ قال: «أبو رغال، فلما خرج من الحرم أصابه ما أصاب قومه»^(١).

٣- وعن عبد الله بن عمرو رضي الله عنه قال: سمعتُ رسول الله ﷺ يقول حين خرجنا معه إلى الطائف فمررنا بقبر فقال: «هذا قبر (أبي رغال)، وهو أبو ثقيف، وكان من ثمود، وكان بهذا الحرم يَدْفَعُ عنه، فلما خرج منه أصابته النقرة التي أصابت قومه بهذا المكان، فدفن فيه، وآية ذلك أنه دفن ومعه غصن من ذهب، إن أنتم نبشتم عنه أصبتموه معه، فابتدره الناس، فاستخرجوا منه الغصن»^(٢).

ولم يذكر القرآن أن دابر قوم ثمود قد انقطع، ومن الجائز أن تكون قبيلة ثقيف من بقايا ثمود؛ أي: ممن نجا منهم، فقد روي أن صالحًا خرج قبل حلول العذاب بقومه ومعه مئة وعشرة من المؤمنين، فسكنوا فلسطين وما حولها، فلما هلك قوم ثمود رجع صالح ومن آمن معه إلى ديارهم^(٣).

صَالِحٌ يُعَاتِبُ قَوْمَهُ عَلَى عَدَمِ إِيْمَانِهِمْ

٧٩- ﴿فَتَوَلَّى^(٤) عَنْهُمْ وَقَالَ يَ قَوْمٍ لَقَدْ أَتَيْتُكُمْ بِرِسَالَةٍ مِنِّي وَصَحْتُ لَكُمْ وَلَكِنْ لَا تُحِبُّونَ النَّصِيحَ﴾

أعرض صالح عن قومه حين عقروا الناقة وحل بهم الهلاك، وقال لهم: يا قوم لقد أبلغتكم ما أمرني ربي بإبلاغه لكم من الأوامر والنواهي، وقد بذلت لكم ما في وسعي من النصيحة

- (١) «المسند» (٢٩٦/٣) برقم (١٤١٦٠) حديث قوي، إسناده صحيح على شرط مسلم، ورجال ثقات، قال الهيثمي في «مجمع الزوائد» (١٩٤/٦): رجال أحمد رجال الصحيح، وقال الحاكم في «المستدرک» (٢/٣٢٠): صحيح الإسناد ولم يخرجاه ووافقه الذهبي و«تفسير الطبري» (٥٣٧/١٢) ويرقم (١٤٨١٧) و«صحيح ابن حبان» برقم (٦١٩٧) وحسنه ابن حجر في الفتح (٢٧٠/٦) وهو عند البزار (١٨٤٤).
- (٢) «سنن أبي داود» برقم (٣٠٨٨) ورواه مرسلاً عبد الرزاق في «المصنف» برقم (٢٠٩٨٩) وفي التفسير (١١٩/١).
- (٣) ينظر: «تفسير التحرير والتنوير» (٢٢٧١٨).
- (٤) أمال حمزة والكسائي وخلف (فتولى) وقللها ورش بخلفه، وفتحها الباقون.

والترغيب والترهيب، وحرصتُ على هدايتكم، واجتهدتُ في الأخذ بيدكم إلى طريق النجاة، ولكنكم رددتم قولي، وأعرضتم عن النصيحة، وأطعتم الشيطان الرجيم.

وهذا تقرُّعٌ من صالح لقومه بعد موتهم لَمَّا أَهْلَكَهُمُ اللَّهُ تَعَالَى، وفيه تحسُّرٌ وتفجُّعٌ وتوجُّعٌ عليهم، فهو يقول لهم: لقد بلغتكم الرسالة، وحذرتكم عذاب الله، وبذلت وسعي في نصحتكم، ولكنكم تبغضون الناصحين وتعادونهم، ولم تزالوا كذلك حتى ألقيتم بأنفسكم إلى التهلكة، وتحقق ما قلته لكم، وهذا يشبه ما قاله النبي ﷺ لقتلى بدر وكان ﷺ قد حدّد أماكن دفنهم:

جاء في الصحيحين وغيرهما أن النبي ﷺ وقف على قلب أهل بدر من قتلى المشركين وقال: «هل وجدتم ما وعد ربكم حقًّا؟ فإني وجدت ما وعدني ربي حقًّا» قال عمر: يا رسول الله، ما تكلم من قوم قد جيفوا فقال: «والذي نفسي بيده، ما أنتم بأسمع لما أقول منهم، ولكن لا يجبيون».

ومما قاله النبي ﷺ لأهل القلب: «يا أهل القلب، بش عشرة النبي كنتم لبيكم، كذبتُموني وصدقتني الناس، وأخرجتموني وآواني الناس، وقاتلتُموني ونصرني الناس» ثم قال: «فَهَلْ وَجَدْتُمْ مَا وَعَدَ رَبُّكُمْ حَقًّا؟»^(١) [الأعراف: ٤٤].

والأولى من هذا أن صالحًا قد خاطب قومه بذلك وهم أحياء؛ لأن هذا الخطاب يليق بالأحياء، أما الفرقة المؤمنة من قوم صالح فقد خرج بهم صالح قبل نزول العذاب بالمكذبين. وقيل: إن صالحًا قد تُوفي بمكة، وهو ابن ثمان وخمسين سنة، وأقام في قومه عشرين سنة.

وبهلاك قوم ثمود تنطوي صفحة من صفحات التاريخ، كما انطوت صفحة من صفحاته بهلاك قوم عاد، وهم من العرب البائدة الذين انتهت آثارهم، يقول سبحانه: ﴿فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةٌ بِمَا ظَلَمُوا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ (٥٢) وَأَنجَيْنَا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ ﴿٥٣﴾ [النمل] وكل هذا بسبب الظلم والشرك، وتكذيب الرسل، وعدم الامتثال لما أمر الله سبحانه وما نهى عنه، فإن هذا يؤدي إلى مثل هذا المصير.

(١) ينظر البخاري في المغازي (٣٩٧٩، ٣٩٨١) ومسلم (٩٣٢) وابن أبي شيبة (١٨٥٥٢) وابن إسحاق (٢)

(٢٠٤) و«سيرة ابن هشام» (٦٣٩/١).

والقرآن يحكي لنا مصارع الظلمة على مدى التاريخ؛ لنستفيد، ولنأخذ العبرة، حتى تقوم هذه الأمة بما جاء به رسول الله ﷺ، وبما جاءت به الرسل قاطبة، وهو الهدف الأساس الذي أرسل الله به جميع الرسل، والذي جاء في قوله سبحانه: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا﴾ أي: في كل أمة من الأمم، ومهمة هذا الرسول جاءت في قوله تعالى عن كل منهم: ﴿أَبِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾ اجتنبوا الشرك والكفر بأنواعه، وأخلصوا التوحيد والعبادة لله وحده ﴿فَمِنْهُمْ مَنْ هَدَى اللَّهُ وَمِنْهُمْ مَنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلَالَةُ فَبِئْسَ مَا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَتْ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ﴾ [النحل: ٣٦] مثل عاقبة قوم عاد، وقوم ثمود، وقوم لوط، وآثارهم باقية ﴿وَإِنَّكُمْ لَتَنُورُونَ عَلَيْهِمْ مُصْبِحِينَ﴾ (٣٧) ﴿وَبِالْأَيْلِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ (٣٨) [الصفافات].

وقد وصف الله عذاب قوم ثمود بأنه عذاب أليم، وفي سورة (الشعراء) أنه عذاب عظيم، وفي سورة (هود) أنه عذاب قريب، وأنه سيقع بعد ثلاثة أيام، فهو عذاب أليم عظيم قريب.

رَابِعًا: قِصَّةُ لُوطٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ مَعَ قَوْمِهِ

٨٠- ﴿وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ مَا سَبَقَكُمْ بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِنَ الْعَالَمِينَ﴾

جاء ذكر (لوط) عليه السلام في القرآن سبعاً وعشرين مرة: مرة واحدة في سور: (الأنعام) و(الأعراف) و(الحج) و(الصفافات) و(ص) و(ق) و(التحریم) ومرتين في كل من سور: (الحجر) و(الأنبياء) و(النمل) و(القمر)، وخمس مرات في سورة (هود)، وثلاث مرات في الشعراء، وأربع مرات في العنكبوت.

هذا: وقد هاجر إبراهيم عليه السلام من العراق إلى فلسطين ومعه من آمن به، بعد اضطهاد الملك له ونصب منجنيق التحريق له، وكان معه أيضاً زوجته سارة، وابن أخيه لوط بن هاران بن آزر عليهما السلام.

ولما حدثت مجاعة في فلسطين هاجر إبراهيم على إثرها ومعه زوجته وابن أخيه إلى مصر، وعاد من مصر -بعد أن قلت المجاعة في فلسطين- بأموال كثيرة، منحها إياه ملك مصر، ومن بين هذه الأموال أغنام وأنعام كثيرة، وهذه الأنعام ضاق بها المكان، وأصبح

لا يتسع لأنعام إبراهيم وأنعام لوط معاً، وكثيراً ما كان رعاة الغنم لإبراهيم ولوط يختصمان فيما بينهم، فاصطلح إبراهيم ولوط على أن يقتسموا الأرض، واختار لوط المكان الذي يناسبه، فاختار شرق الأردن، ونزل في سدوم وعامورة وضواحيهما أموراً وصوبير، وهي خمس قرى يبلغ تعداد سكانها وقتئذٍ نحو أربع مئة ألف نسمة، أقام لوط في هذا المكان، وكان مقر إقامته مدينة سدوم.

وكان أهل هذه القرى يأتون الفاحشة المنكرة، وهم أول من فعل جريمة اللواط من بني آدم؛ حيث إن الفاحشة التي جاء ذكرها في هذه الآية فُسرت بفاحشة اللواط في قوله تعالى: ﴿تَأْتُونَ الذُّكْرَانَ مِنَ الْعَلَمِينَ﴾ [الشعراء]

وقوله: ﴿أَيُنْكِمُ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ شَهْوَةً مِنْ دُونِ النِّسَاءِ﴾ [النمل: ٥٥]

وقوله: ﴿وَتَأْتُونَ فِي كَادِيكُمْ الْمُنْكَرَ﴾ [العنكبوت: ٢٩].

فاذكر - أيها الرسول - لوطاً حين قال لقومه على سبيل الإنكار والتوبيخ: أنفعلون الفعل المنكرة الشنيعة التي بلغت نهاية القبح، ولم يفعلها أحد قبلكم؟! زين لهم الشيطان إتيان الرجال دون النساء، وكانوا لا يفعلون هذا سرّاً، وإنما يجاهرون به، ويفعلونه عياناً في نواديهم العامة، ويقطعون الطريق على المارة والمسافرين فيسلبون أموالهم ويفعلون بهم الفاحشة، فوبخهم لوط وبيّن لهم أنهم أول من فعلها.

عن جابر بن عبد الله رضي الله عنه أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: «إن أخوف ما أخاف على أمتي عمل قوم لوط»^(١).

وعن ابن عباس رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «لعن الله من ذبح لغير الله، لعن الله من غير تُخوم الأرض، ولعن الله من كَمَ الأعمى عن السبيل، ولعن الله من سب والده (وفي رواية: والديه) ولعن الله من تولى غير مَواليه، ولعن الله من عمل عمل قوم لوط، ولعن

(١) حسنه الألباني في «صحيح سنن الترمذي» برقم (١١٧٨) وهو في «السنن» برقم (١٤٥٧) وعند عبد الرزاق (١٣٤٩٣) و«سنن ابن ماجه» برقم (٢٥٦٣) و«المسند» (٣/٣٨٢) برقم (١٥٠٩٣) بإسناد ضعيف كما قال محققوه، و«المستدرک» (٤/٣٥٧) والبيهقي (٥٣٧٤) وأبو يعلى (٢١٢٨).

الله مَن عمل عمل قوم لوط، ولعن الله مَن عمل عمل قوم لوط ثلاثاً^(١).

وتغيير نجوم الأرض، يراد به تغيير حدودها ومعالِمها.

ولم يكن لقوم لوط اسم يُعرفون به، كما لم يكن لقوم نوح اسم يعرفون به كذلك؛ ولذا قال تعالى: ﴿وَلُوطًا﴾ أي: أرسلناه وقت أن قال لقومه: أتأتون الفاحشة، وقوم لوط كانوا خليطاً من الكنعانيين ومَن حولهم، ولم يكن بينه وبينهم قرابة.

ثم بيّن لوط عليه السلام هذه الفاحشة فقال:

٨١- ﴿إِنَّكُمْ^(٢) لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ شَهْوَةً مِّن دُونِ النِّسَاءِ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ ﴿٨١﴾﴾

لقد فسر لوط لقومه هذه الفاحشة التي لم يسبق إليها أحدٌ قبلهم فقال: ﴿إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ﴾ أي: الذكور في أدبارهم شهوة منكم، تاركين ما أحله الله لكم من النساء، فكيف تتركون النساء اللاتي خلقهن الله لكم، وفيهن الاستمتاع الموافق للشهوة والفطرة، وتقبلون على أدبار الرجال وهي محل خروج الغائط، وهذا أمر في غاية الشناعة، ويستحي الإنسان مِنْ ذكره فضلاً عن ممارسته أو ملامسته.

وقد وصف الله تعالى هؤلاء القوم هنا بأنهم قوم مسرفون، متجربون على محارم الله، متجاوزون لحدود الإسراف، مبتدعون ما لم يفعله أحد من الخلائق، ووصفهم في سورة (النمل) بأنهم قوم يجهلون؛ أي: مصابون بفساد الفطرة وانحطاط الخلق والسفه والطيش، فالإنسان إذا ألمَّ برذيلة من الرذائل فإنه يشعر بقبحها في أول مرة، ثم يستخف بها، ثم يداوم عليها؛ فيزول الشعور بقبحها، ثم يستحسنها ويتلذذ بها.

(١) «المسند» (٣٠٩/١) برقم (٢٩١٣) إسناده حسن ورجاله رجال الصحيح (محققه) وانظر (١٨٧٥) وصحيح ابن حبان برقم (٤٤١٧) و«المستدرک» (٣٥٦/٤) صححه الحاكم ووافقه الذهبي من طرق مختلفة، وحسنه الأرناؤوط في حاشية المسند على شرط الشيخين.

(٢) قرأ نافع وحفص وأبو جعفر، بهمزة واحدة مكسورة على الخبر في قوله تعالى (إنكم لتأتون)، وقرأ الباقرن بهمزتين على الاستفهام، وكل حسب مذهبه في الهمزة، فابن كثير ورويس بتسهيل الهمزة الثانية مع عدم إدخال ألف بينهما، وأبو عمرو بالتسهيل مع الإدخال، وهشام بالتحقيق مع الإدخال وعدمه، والباقرن بالتحقيق مع عدم الإدخال.

أرسل الله تعالى إلى هؤلاء القوم نبي الله لوطاً عليه وعلى نبينا أفضل الصلاة وأتم التسليم، مهمته الأساس أن يدعوهم أولاً إلى عبادة الله وحده، وامثال أوامره واجتناب نواهيه.

وبعد ذلك يقضي على هذه الفاحشة التي تضاد الفطرة البشرية، وتتنكس بالإنسانية إلى ما هو أحط من الحيوان، فالحيوان لا يأتي إلا الإناث من بني جنسه، ولا يأتي الذكور، وإنما يأتي الإناث قضاءً لشهوته، وإبقاءً للنسل وعدم تعطيله، هذا هو الحيوان، فما بالكم بالإنسان؟!

يقول الوليد بن عبد الملك: لولا أن الله قَصَّ علينا خبر قوم لوط ما ظننت أن ذكرًا يعلو ذكرًا، فلا بد له أن يقلع عن هذه الفاحشة أو يكون مصيره الهلاك والدمار.

وقد أرسل الله إليهم نبيه لوطاً عليه السلام يدعوهم إلى الإيمان بالله وحده وإلى تقواه، ومن مقتضاها ترك اللواط، كما قال تعالى: ﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ الْمُرْسَلِينَ ﴿١١٠﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ لُوطُ أَلَا نُنْقِذُ ﴿١١١﴾ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١١٢﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا﴾ [الشعراء]

وأنا لا أسألكم أجرًا على تبليغ الدعوة والرسالة ﴿إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١١٢﴾ أَتَأْتُونَ الذُّكْرَانَ مِنَ الْعَالَمِينَ ﴿١١٥﴾﴾ [الشعراء].

والقاعدة أن كل رسول يهتم بالعقيدة والإيمان أولاً فيقول لقومه: ﴿اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ﴾ ثم يأتي على الجوانب الأخرى والمنكرات المتفشية في قومه.

ولكن إذا لاحظنا الآيات عن قصة لوط - في سورة الأعراف وهود والنمل والعنكبوت والقمر - فإننا نجد أنها تبدأ مباشرة بإنكار هذه الجريمة لأهميتها ﴿أَتَأْتُونَ الذُّكْرَانَ مِنَ الْعَالَمِينَ ﴿١١٥﴾﴾ [الشعراء] ﴿أَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ وَأَنْتُمْ بُصُورُكُمْ﴾ [النمل: ٥٤]

﴿إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ مَا سَبَقَكُمْ بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِنَ الْعَالَمِينَ﴾ [العنكبوت: ٢٨]

﴿أَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ مَا سَبَقَكُمْ بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِنَ الْعَالَمِينَ﴾ [الأعراف: ٨٠]

وهي مهمة لوط الأساس، التي أرسل بها إليهم بعد تقوى الله سبحانه والإيمان به وحده، ولكن القوم هددوا نبيهم بالطرد من الديار:

٨٢- ﴿وَمَا كَانَتْ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قَالُوا أَخْرِجُوهُمْ مِّنْ قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أَنَاسٌ يَّظَاهَرُونَ﴾

ولم يكن لوط من القوم، وإنما كان وافداً عليهم؛ ولذا فإن القرآن لم يقل: أخوهم

لوط، فهو ليس أخًا لهم في النسب، وإنما وَقَدَ عليهم من العراق، ولذلك فإنه لما دعاهم إلى الإقلاع عن هذه الفاحشة قالوا: هو غريب، اطروده وأخرجوه من هذه الديار ﴿وَمَا كَانَتْ جَوَابَ قَوْمِهِ﴾ حين أنكر عليهم فعلتهم الشنيعة إِلَّا أَن قَالُوا عَلَى سَبِيلِ الاستهزاء والسخرية بلوط وقومه: أخرجوا لوطًا وأهله من دياركم، فهو وَمَن تَبِعَهُ أَنَاسٌ يَتَنَزَّهُونَ عَنْ إِيْتَانِ أَدْبَارِ الرِّجَالِ، إِنَّهُمْ أَنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ عَنْ إِيْتَانِ الذِّكْرِ، عابوهم بما يُمَدِّحُ بِهِ الْإِنْسَانُ!!

كما قال تعالى ﴿وَمَا نَقَمُوا مِنْهُمْ إِلَّا أَن يُؤْمِنُوا بِاللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ﴾ [البروج: ٨]

وقال سبحانه: ﴿الَّذِينَ أَخْرَجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بَغْيَ حَقٍّ إِلَّا أَن يَقُولُوا رَبُّنَا اللَّهُ﴾ [الحج: ٤٠].

وقال جل شأنه: ﴿أَنفَقْتُمْ رَجُلًا أَن يَقُولَ رَبِّيَ اللَّهُ﴾ [غافر: ٢٨]

فقوم لوط يعتبرون أن هذا أمر طبيعي؛ لأن الموازين انقلبت عندهم، فأصبح المعروف منكراً والمنكر معروفاً ﴿قَالُوا لَئِن لَّمْ تَنْتَهِ يَلُوطُ لَتَكُونَ مِنَ الْمُخْرَجِينَ﴾ [الشعراء: ١٢٧]، هددوه بالضرب والإبعاد، بعد أن خوفهم عذاب الله تعالى إن لم يؤمنوا به.

وكان إبراهيم يأتي مدائن قوم لوط وينصحهم فيأبؤون أن يقبلوا، وكان ينظر إلى سدوم ويقول: أَيُّ يَوْمٍ لَكَ مِنَ اللَّهِ سُدُومَ، إنما أنهاكم ألا تتعرضوا لعقوبة الله، حتى بلغ الكتاب أجله.

ولما لم يستجيبوا لدعوته؛ أعلمهم بأن عذاب الله تعالى سينزل بهم، وعندئذ قالوا له سآخرين مستهزئين به: ﴿أَتَيْنَا بِعَذَابِ اللَّهِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ [العنكبوت: ٢٩] في أنك رسول من عند الله، فأت بهذا العذاب، فنحن ننتظره.

دعا لوط ربه ﴿قَالَ رَبِّ أَنْصُرْنِي عَلَى الْقَوْمِ الْمُفْسِدِينَ﴾ [العنكبوت: ٢٩] فكان أن أرسل الله سبحانه ثلاثة من كبار الملائكة (جبريل وميكائيل وإسرافيل) لإنزال العقوبة بقوم لوط.

الْمَلَائِكَةُ الْمَوْكَلُونَ بِعَذَابِ قَوْمِ لُوطٍ يَنْزِلُونَ أَوَّلًا عَلَى إِبْرَاهِيمَ:

وما كان لرسول الله أن ينزلوا مكاناً فيه إبراهيم خليل الرحمن وأبو الأنبياء قبل أن ينزلوا عليه.

وما كان لهم أن ينزلوا على أحد قبل إبراهيم عليه السلام؛ فنزلوا عليه أولاً.

وما كان لهم أن يمروا على إبراهيم قادمين عليه من عند ربهم دون أن يحملوا له تكريماً وبشرى .

لقد بلغ إبراهيم من العمر المئة والعشرين، وبلغت زوجته التسعين من العمر، ولم يكن لهما ولدٌ، ولم يُنجبا، فكانت هدية الله لإبراهيم التي جاء بها الملائكة حين نزلوا ضيوفاً عليه في أول رحلتهم أن بشروه بغلام عليم .

والغلام العليم: هو إسحاق عليه السلام، كما أن الغلام الحليم: هو إسماعيل عليه السلام، وبشروه أيضاً بأنه سيرى حفيده يعقوب ولدَ إسحاق؛ أي: أنه سيرى أيضاً حفيده .

﴿فَبَشِّرْنَهَا بِإِسْحَاقَ وَمِنْ وَرَاءِ إِسْحَاقَ يَعْقُوبَ﴾ [هود: ٧١] قالت زوجته متعجبة: ﴿يَوْنُلُقَىٰ ءَالِدٌ وَأَنَا عَجُوزٌ وَهَذَا بَعْلِي شَيْخًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عَجِيبٌ﴾ (٧٢) قَالُوا أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ رَحِمْتُ اللَّهُ وَبَرَكْنَاهُ عَلَيْكُمْ أَهْلَ الْبَيْتِ إِنَّهُ حَمِيدٌ مَّجِيدٌ ﴿٧٣﴾ [هود]

أي: أهل بيت إبراهيم صلى الله عليه وعلى نبينا محمد وآله وسلم .

وإبراهيم عليه السلام كان رجلاً مضيافاً كريماً، وحينما رأى الملائكة وهم في صورة رجال (شباب فتیان حسان) لم يعرف أنهم ملائكة، فقام على عادته، وصنع لهم طعاماً، وقدم لهم عجلاً سميناً مشوياً حنيذاً، وضعه بين أيديهم، وقال لهم: ﴿أَلَا تَأْكُلُونَ﴾ [الذاريات: ٢٧] ولكن أيديهم لم تمتد إلى هذا الطعام، فهم ملائكة لا يأكلون ولا يشربون .

هلاك قوم لوط:

أوجس إبراهيم في نفسه خيفة منهم، لماذا لا يأكلون؟ ﴿قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا الْمُرْسَلُونَ﴾ (٢٦) [الذاريات] والحجر ٥٧ قالوا ذلك لما قالوا له: ﴿لَا تَخَفْ إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَىٰ قَوْمٍ لُّوطِيَّ﴾ [هود: ٧٠] جئنا إلى قوم لوط؛ لتنزل بهم عقاب الله سبحانه، حيث لم يرتدعوا عن فعلتهم، ولم يستمعوا إلى قول نبيهم، قالت الملائكة: جئنا ﴿لِنُرْسِلَ عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن طِينٍ﴾ (٣٣) [الذاريات] هذه الحجارة مطبوخة بالنار، حجارة حمراء مسومة (أي: معلمة) كل حَجَرٍ عليه اسم صاحبه، حتى ذكر أن أحدهم وقت نزول الحجارة كان في الحرم، وظل الحجر مُعلّقاً حتى خرج من الحرم فرمى به ﴿مُسَوَّمَةٌ عِنْدَ رَبِّكَ لِلْمُؤْتَرِفِينَ﴾ (٢٤) [الذاريات] .

أخذ إبراهيم يحاول إثناء الملائكة عن إهلاك أهل هذه القرية، قال لهم: إن فيها مؤمنين، وفيها ماشية، وفيها خمسون مؤمناً، وفيها عشر، وفيها خمس، إنه يخاف على

ابن أخيه لوط ﴿قَالَ إِنَّ فِيهَا لُوطًا قَالُوا نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَنِ فِيهَا لَنُنَجِّيَنَّهُ وَأَهْلَهُ إِلَّا أَمْرَاتَهُ﴾ [العنكبوت: ٣٢] فقد كفرت ولم تؤمن به وكانت من الخائنين.

وخيانة امرأة لوط، وخيانة امرأة نوح -التي جاء ذكرها في سورة التحريم- هي خيانة في ترك اتباع الرسالة؛ أي: خانتا في دين الله، ولم يؤمنا بنوح ولا بلوط، وليست خيانة في الشرف ولا في العرض، فلم يحدث هذا لزوجة نبي من أنبياء الله أبداً.

قال تعالى: ﴿فَأَخْرَجْنَا مَنْ كَانَ فِيهَا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٣٥﴾ فَاَوْحَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ﴾ واحد ﴿مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ [الذاريات: ٣٥، ٣٦] هو بيت لوط وبناته.

والإيمان والإسلام هنا بمعنى واحد، فالإسلام إذا اجتمع مع الإيمان في آية واحدة كان معناه واحداً.

وخرج الملائكة وتوجهوا نحو بيت لوط في وقت الظهيرة، وحين رآهم لوط فزع وخاف عليهم، حين رآهم فتیاناً حسناً خاف عليهم من قومه.

﴿وَلَمَّا جَاءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِئَاءَ بِهِمْ وضاقَ بِهِمْ ذَرْعًا وَقَالَ هَذَا يَوْمٌ عَصِيبٌ﴾ [هود]

ولما رأتهم امرأته، ذهبت لتُعلم القوم بأن عند لوط فتیاناً حسناً (وهذا معنى خيانتها) فجاءوا إليه يهرعون مسرعين، يريدون هؤلاء الضيوف الأجانب، قال لهم لوط: ﴿يَقُومُوا هَؤُلَاءِ بَنَاتِي﴾ أي: بنات المسلمين، فبنات المسلمين بنات النبي ﷺ كما قال تعالى: ﴿الَّتِي أُولَىٰ بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنْفُسِهِمْ﴾ [الأحزاب: ٦] وبنات الأمة بنات لرسول الله.

قال لهم لوط: إن بنات أبناء المسلمين ﴿أَطْهَرُ لَكُمْ﴾ فتزوجوهن على كتاب الله وسنة رسوله ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ وَلَا تَخْزُونِ فِي ضَيْفِي أَلَيْسَ مِنْكُمْ رَجُلٌ رَشِيدٌ﴾ (٧٨) قَالُوا لَقَدْ عَلِمْتَ مَا لَنَا فِي بَنَاتِكَ مِنْ حَقٍّ وَإِنَّكَ لَلْعَلَمُ مَا نُريدُ ﴿٧٩﴾ [هود].

أغلق لوط بيته، فأرادوا أن يقتحموه بقوة، ويدخلوا على الضيوف، ﴿قَالَ﴾ لهم لوط: ﴿لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةٌ أَوْ آوَىٰ إِلَىٰ رُكْنٍ شَدِيدٍ﴾ [هود]، يحميني ويمنعني منكم؟

والركن الرشيد هم الأهل والعشيرة، ولم يكن للوط أقارب ولا أرحام في الأردن، لأنه قدم إليها مع عمه من العراق مهاجراً.

قال رسول الله ﷺ كما في حديث أبي هريرة ؓ: «يغفر الله للوط، لقد كان يأوي إلى ركن شديد»^(١) هو الله رب العالمين يحميه ويمنعه منهم، قال ذلك وهم على الباب يتدافعون، فخرج إليهم جبريل، وضربهم بطرف جناحه، فأعمى الله أبصارهم جميعاً، وغارت عيونهم في وجوههم، وأصيبوا بالعمى، كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ زَادُوهُ عَنْ ضَيْفِهِ فَطَمَسْنَا أَعْيُنَهُمْ فَذُوقُوا عَذَابِي وَنُذِرِ﴾ [القمر].

وعد الله رسوله لوطاً أن العذاب نازل بهم بعد هذا العمى الذي أصابهم في الصباح الباكر، فقال سبحانه: ﴿إِنَّ مَوْعِدَهُمُ الصُّبْحُ أَلَيْسَ الصُّبْحُ بِقَرِيبٍ﴾ [هود: ٨١] ولما جاء وقت الإشراق أصبحوا يترقبون ﴿فَاخَذَتْهُمْ الصَّيْحَةُ مُشْرِقِينَ﴾ [الحجر: ٧٣]

حيث صاح بهم الملك، وزُلزِلت الأرض من تحت أقدامهم، ووضع جبريل جناحيه تحت هذه القرى فاقتلعها، ورفعها إلى السماء ثم قلبها، حتى سمع أهل السماء صياح الديكة ونهاق الحمير ﴿فَجَعَلْنَا عَلَيْهَا سَافِلَهَا﴾ [الحجر: ٧٤] وأمطروا بعد ذلك بحجارة من سجيل ﴿مُسَوَّمَةً عِنْدَ رَبِّكَ﴾ [هود: ٨٣] أي: معلمة على كل منها اسم من رُمي بها.

وهذا المكان الذي اقتلعه جبريل، وحدث فيه هذا الخسف، بلغ عمقه في الأرض أربع مئة متر، ويُعرف الآن بالبحر الميت، أو بحيرة لوط بالأردن.

ولقد كانت هذه الأرض، قبل أن يقلبها الله عليهم أرضاً خصبة، فيها زرع وتمر ونبات، وكانت أجود وأخصب بقاع الأرض في شرق الأردن، ودلت الآثار الحديثة على وجود آثار لقوم لوط في هذه المنطقة.

يقول سبحانه موجهاً الأنظار لأخذ العبرة مما أصاب هؤلاء: ﴿وَمَا هِيَ مِنَ الظَّالِمِينَ بِبَعِيدٍ﴾ [هود: ٨٣]

وقال سبحانه ﴿وَلَا تَكْفُرْ لِّلَّذِينَ هَمَزُوا لِكَلِمَةٍ لَّمْ تُكْمَلْ وَلَهُمْ أَلْفٌ مِّنْ ذُنُوبٍ غَافِلُونَ﴾ [الصافات: ١٢٨]

وقال جل شأنه ﴿وَأَنهَا لَيْسَ بِلِئَالٍ مُّقِيمٍ﴾ [الحجر: ٧٦]

(١) من حديث أبي هريرة في «المسند» (٨٢٧٩) بإسناد صحيح على شرط مسلم ورجال ثقات (محققوه)، والبخاري (٣٣٧٢، ٣٣٧٥) ومسلم (١٨٤٠) و (١٥١) مطولاً.

وقال تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرَى لِمَنْ كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ﴾ [ق]. قال تعالى:

٨٣- ﴿فَأَنجَيْنَاهُ^(١) وَأَهْلَهُ إِلَّا امْرَأَتَهُ كَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ﴾ (٨٣)

لقد نجى الله لوطاً وأهله الذين آمنوا به من العذاب، حيث أمره بمغادرة تلك البلد، إلا امرأته فقد كانت من الباقين الهالكين؛ لأنها كانت للوط خائنة، وبالله كافرة، فهلكت مع من هلك، وكان لوط قد أمر بعدم إعلام امرأته عن وقت الخروج وعدم أخذها معه.

وقد وصف القرآن الكريم امرأة لوط بأنها ﴿كَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ﴾ وبين ﷺ في آية سورة (التحريم) أنها كانت خائنة، وأنها من أهل النار، هي وامرأة نوح، فقال تعالى: ﴿صَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِلَّذِينَ كَفَرُوا امْرَأَتُ نُوحٍ وَامْرَأَتُ لُوطٍ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَالِحَيْنِ فَخَانَتَاهُمَا فَلَمْ يُغْنِيا عَنْهُمَا مِنَ اللَّهِ شَيْئًا وَقِيلَ ادْخُلَا النَّارَ مَعَ الدَّاخِلِينَ﴾ [التحريم]. كما بين تعالى أنه قد أصابها ما أصاب قومها من الهلاك فقال: ﴿إِلَّا امْرَأَتُكَ إِنَّهُ مُصِيبُهَا مَا أَصَابَهُمْ﴾ [هود: ٨١].

وأهل لوط: هم زوجه، وابنتان بكران لم يتزوجا، وابنتان متزوجتان - كما جاء في التوراة - وقد امتنع زواجهما عن الخروج مع لوط ﷺ، فهلكتا مع أهل القرية.

ولما خرج لوط بابنتيه وزوجه من القرية لم يلتفت منهم أحد إلا امرأته، فالتفتت، فأصابها العذاب، وكانت تُسِرُّ الكفر وتُظهر الإيمان، والتفاتها كان بتقدير الله تعالى ﴿إِلَّا امْرَأَتَهُ قَدَرْنَهَا مِنَ الْغَابِرِينَ﴾ [النمل: ٥٧] ولعلها كانت غير موقنة بنزول العذاب على قوم لوط.

والظاهر أن امرأة لوط هذه كانت من أهل سدوم، تزوجها لوط بعد هجرته، وكانت أم بناته قد ماتت قبل أن يرسل نبياً، فهي ليست أم بناته غالباً.

قال تعالى في وصف عذاب أهل القرية جميعاً: ﴿إِنَّا مُنزِلُونَكَ عَلَىٰ أَهْلِ هَذِهِ الْقَرْيَةِ رِجْزًا مِّنَ السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ﴾ [العنكبوت]. وقال سبحانه:

٨٤- ﴿وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ مَطَرًا فَأَنْظَرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُجْرِمِينَ﴾ (٨٤)

(١) وصل ابن كثير هاء (فأنجيناه) بحرف مد، والباقون بالقصر.

وعَذَّبَ الله الكفار من قوم لوط فأمطرهم بالحجارة بعد أن قلب ديارهم عليهم، فاعتبروا يا قوم، واتعظوا بما حدث لغيركم ممن اجتراً على معاصي الله، واستحل ما حرم الله، وقد بيّن سبحانه هذا المطر الذي أهلكهم به بأنه حجارة من طين في قوله تعالى: ﴿لَنُرْسِلَ عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن طِينٍ﴾ [الذاريات] وأن هذا الطين حجارة من سجل متتابعة؛ أي: من طين متحجر قد أُحمي عليه، ينزل الحجر تلو الحجر ﴿حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ مَّنْضُورٍ﴾ [٨٧] مُسَوَّمَةً عِنْدَ رَبِّكَ ﴿[هودا].

وكانت هذه عقوبة جريمة اللواط؛ لأن الله تعالى خلق الإنسان، وركب فيه الشهوة؛ لبقاء النسل وعمارة الدنيا، وجعل النساء محلاً للشهوة وموضعا للنسل، فإذا عدل الإنسان عنهن إلى الرجال فقد أسرف وتجاوز وتعدي وأجرم؛ لأنه وضع الشيء في غير موضعه الذي خُلق له، وأدبار الرجال ليست محلاً للولادة التي هي مقصود الشهوة.

والله ﷻ جعل لقضاء الشهوة طريقاً واحداً معلوماً، هذا الطريق: هو الحياة الزوجية المشروعة بين الرجل والمرأة، أو مِلْكُ اليمين إن وُجد، وَمَن ابْتَغَىٰ قِضَاءَ الشَّهْوَةِ فِي غَيْرِ هَذَا الطَّرِيقِ الطَّبِيعِيِّ، الَّذِي فَطَرَ اللَّهُ النَّاسَ عَلَيْهِ يَكُونُ قَدْ تَجَاوَزَ الْحَلَالَ إِلَى الْحَرَامِ، وَيَكُونُ قَدْ اعْتَدَىٰ وَبَغَىٰ، وَانْتَكَسَتْ فِيهِ الْفُطْرَةُ الْبَشَرِيَّةُ، قَالَ تَعَالَى: ﴿وَالَّذِينَ هُمْ لِأُزْوَاجِهِمْ حَافِظُونَ﴾ [٥] إِلَّا عَلَىٰ أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ [٦] فَمَن ابْتَغَىٰ وَرَاءَ ذَلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْعَادُونَ [٧] [المؤمنون].

ومن التعدي على شرع الله، الشذوذ الجنسي بأنواعه: رجل ورجل، امرأة وامرأة، رجل وامرأة ليست زوجة له، إتيان البهائم، الاستمناء، اللواط، السحاق، كل ذلك يدخل في قوله تعالى: ﴿فَمَن ابْتَغَىٰ وَرَاءَ ذَلِكَ﴾ أي: ما عدا الزوجة ومِلْكُ اليمين ﴿فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْعَادُونَ﴾ الذين خرجوا على حدود الله تعالى.

عقوبة اللواط: وجريمة اللواط من أشنع الجرائم، فهي أشنع من الزنى، فيها انتكاسة للرجولة، وإذلال لها، وكسّر لما في الرجال من إباء وشيم، ومفسدة للنساء، وفيها تعطيل للنسل، وإزهاق لطاقات الشباب، وقضاء على النوع الإنساني، ومضادة للفطرة البشرية، وتجاوز لحدود الشريعة، وفيها ذريعة للاستمناء وإتيان البهائم، وتحسين القبيح، وتقبيح

الحسن، وفيها من الأمراض ما هو معلوم، وفيها من التخثث والمنكرات ما كُتب فيه مجلدات، ومن أجل بشاعتها كان عقابها في الإسلام صارماً.

ففي الحديث عن عكرمة عن ابن عباس رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «مَنْ وجدتموه يعمل عمل قوم لوط فاقتلوا الفاعل والمفعول به»^(١).

١- وعقوبة اللواط أشد من عقوبة الزنى بالنسبة لغير المتزوج، حيث يقتل الفاعل والمفعول رجماً بالحجارة كما سبق.

٢- وعند الشافعي في أحد قوليه وأحمد: الرجم بالحجارة حتى الموت، كالزاني المحصن سواء أكان هذا اللائط (الفاعل أو المفعول) متزوجاً أم غير متزوج، وقد جاء ذلك عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «مَنْ عمل عمل قوم لوط فارجموا الفاعل والمفعول به»^(٢). ولفظ ابن ماجه «ارجموا الأعلى والأسفل أَرجموهما جميعاً»^(٣)

٣- والقول الآخر للشافعي أنه كالزاني، إن كان محصناً رُجم، وإن كان غير محصن جُلد مئة جلدة.

عن سالم بن عبد الله، وأبان بن عثمان، وزيد بن حسن، أن عثمان بن عفان رضي الله عنه أتى برجل قد فَجَرَ بغلام من قريش، فقال عثمان: أَحْصَن؟ قالوا: قد تزوج بامرأة ولم يدخل

(١) أخرجه أبو داود (٦٠٧/٤) برقم (٤٤٦٢) والترمذي عن أبي هريرة (٥٧/٤) برقم (١٤٥٥) وابن ماجه (٢/٨٥٦) برقم (٢٥٦١) و«صحيح سنن ابن ماجه» (٢٠٧٥) و«المسند» (٣٠٠/١) برقم (٢٧٣٢) بإسناد ضعيف لضعف عمرو بن أبي عمرو كما قال محققوه وقال الألباني في صحيح الترمذي: وروى محمد بن إسحاق هذا الحديث، عن عمرو بن أبي عمرو (ملعون من عمل قوم لوط) ولم يذكر فيه القتل وذكر فيه (ملعون من أتى بهيمة) قلت: و بهذا يزول الإشكال بين تصحيح الألباني وتضعيف محققو المسند للحديث، وحديث ابن إسحاق في المسند برقم (١٨٧٥)، وهو في «المستدرک» (٣٥٥/٤) قال الحاكم: صحيح الإسناد ولم يخرجاه، ووافقه الذهبي، وصححه الألباني في «صحيح سنن الترمذي» برقم (١١٧٧) وفي مشكاة المصابيح (٣٥٧٥) وإرواء الغليل (٢٣٥٠)، وقد رُوي من طرق مختلفة منها النسائي في «السنن الكبرى» (٧٣٤٠) وعبد الرزاق (١٣٤٩٢) والبيهقي في «الشعب» (٥٣٨٦) وغيرهم.

(٢) الحاكم (٣٥٥/٤) وانظر معناه في «صحيح سنن ابن ماجه» (٢٠٧٦)، بتحسين الألباني، وفي الإرواء (١٧/٦)

(٣) سنن ابن ماجه (٢٥٦٢) وحسنه الألباني في صحيح ابن ماجه (٢٠٧٦) وفي إرواء الغليل (١٧/٦).

بها بعدُ، فقال علي لعثمان: لو دخل بها لحلّ عليه الرجم، فأما إذ لم يدخل بأهله فاجلدّه الحدّ، فقال أبو أيوب: أشهد أنني سمعت رسول الله ﷺ يقول الذي ذكره أبو الحسن، فأمر به عثمان، فجلّد مئة^(١).

٤- وعند أبي حنيفة أنه يُلقى به من شاهق؛ أي: من مكان مرتفع كالمئذنة، ويُرمى على الأرض أوّلاً، ثم يقذف بالحجارة حتى الموت، وقد أخذ هذا مما حدث لقوم لوط من عقوبة، فإن الله سبحانه جعل عالي القرية سافلها ﴿جَعَلْنَا عَلَيْهَا سَافِلَهَا﴾ أي: قلبها، ثم قُذِفوا بحجارة من سجيل، فجعل أبو حنيفة عقوبة اللواط كما فعل بقوم لوط، حيث يُلقى به من شاهق، ثم يُتبع بالحجارة حتى الموت.

وقد حدثت هذه الفاحشة في خلافة أبي بكر رضي الله عنه من رجل يُسمّى الفجاءة، فكتب فيه خالد بن الوليد إلى أبي بكر الصديق، أنه عمل عمل قوم لوط، فجمع أبو بكر أصحاب النبي ﷺ واستشارهم فيه، فقال عليّ: أرى أن يحرق بالنار، واجتمع رأي الصحابة على ذلك، فكتب أبو بكر إلى خالد بن الوليد أن يحرقه فأحرقه.

وكذلك قضى ابن الزبير في جماعة عملوا الفاحشة في زمانه، وهكذا فعل هشام بن الوليد، وخالد القسري بالعراق، ولعلهم قاسوا ذلك على أن الله تعالى أمطر عليهم ناراً، وهي الحجارة من سجيل، ولعل الحديث السابق لم يبلغهم، ولم يفرق الفقهاء في العقوبة بين الفاعل والمفعول.

المطالبة بتقنين الشذوذ الجنسي: ومن الأمور العجيبة ما نراه ونسمعه مؤخراً في المؤتمرات العالمية التي تعقد بترحيب من بعض الدول وبموافقتها، تحت اسم (مؤتمر الأسرة والسكان) ونحو ذلك، ويطلب فيها الاعتراف قانونياً بمختلف الممارسات والشذوذ الجنسي تحت اسم الحرية الشخصية، وتقنين ذلك في التشريعات الدستورية! والإنسان لا يستطيع أن يكون حراً في كل شيء، أنت حر، فهل في استطاعتك أن تمشي عارياً في الشارع؟ أو هل هذه حرية؟ أنت مقيد في كل شيء بحدود معينة.

(١) الطبراني (٣٨٩٧) قال الهيثمي: وفيه جابر الجعفي، وقد صرح بالسماع، وفيه من لم أعرفه «مجمع الزوائد» (٦/ ٢٧٢).

وقد رأينا مَنْ ينادي بوجود نوع ثالث للبشر، غير الذكر والأنثى، شيء ثالث ليس بذكر ولا أنثى، يصلح أن يكون ذكرًا، ويصلح أن يكون أنثى، وجدنا في بلاد المسلمين والعرب مَنْ ينادي بهذا ويطالب أن يكون لهم حقوق، أسوة بغيرهم في الغرب، وأن تكون لهم مجالس نياية!

ومن باب الحرية عندهم إطلاق الحرية للشهوة، بأن تأتي المرأة المرأة، أو يأتي الرجل الرجل، أو يتخذ الرجل خلية، أو صديقة له، أو تتخذ لها كلبًا، إنها شهوة وقدر مشترك بين البهائم والإنسان.

قرأتُ في الصحف عن زواج بين رجل وكلبة، قطع لها تذكرة، وحجز لها في الطائرة الكرسي الذي بجواره، والكلبة مصورة في (الجريدة) وهي ترتدي ثوب الزفاف الأبيض! وقرأتُ أن امرأة تكتفي بوجود كلب معها في البيت، وتفضل ذلك على الزواج، هل يوجد إنسان هكذا؟!!

وعرفت رجالا يتركون نساءهم ويكتفون بالأفلام الجنسية أو ممارسة العادة السرية.

هذه ردة إلى أسوأ من الحيوان، إن الحيوانات لا تقبل هذا، فالحيوان الذكر يأتي الأنثى، والطائر يبنى له عُشًا للزوجية، والحشرة تحفر لها في الأرض لتقيم حياة للزوجية، بقاء للتناسل بينهما.

إن هذه الدعوة في المؤتمرات الخاصة بالأسرة والمرأة، وجعل ذلك حقًا وحرية شخصية، إنها دعوة صهيونية يهودية، وراءها بروتوكولات حكماء صهيون، الذين يخططون لتدمير النوع الإنساني، غير اليهود، لكي يحكموا العالم، وينفردوا بالأرض، ويرَوُّا أن واجبهم القضاء على الجنس البشري غيرهم، فهم من نطفة مميزة، وبقية البشر من نطفة أخرى! وهم من مستوى أعلى وأرقى من غيرهم كما يزعمون، ويجب عليهم القضاء على غيرهم عن طريق المرأة، وعن طريق الشذوذ، وعن طريق الجنس، وعن طريق العُري، وعن طريق الاختلاط، وعن طريق التفسخ، وغير ذلك.

وهناك دعوى أخرى تقابل هذه الدعوى -وهي صهيونية يهودية أيضًا- يقولون فيها: إن سبب الانحراف والشذوذ في المجتمعات الإسلامية هو عدم اختلاط المرأة بالرجل في المجتمع والتعليم والوظائف، والسبب أيضًا هو حجاب المرأة، فإن ذلك يؤدي إلى

الشذوذ في زعمهم! وهذه مضادة لحكم الله ورسوله، ودعاوى غير صحيحة.

إن الإحصائيات الواقعية تُكذِّبُ هذا تمامًا، فإن تعداد الجريمة في الدول الغربية يزيد أضعافاً مضاعفة عما هو في بلاد المسلمين، وإن في حجاب المرأة الصيانة والعفاف.

لقد وصف الله سبحانه الحور العين بأنهن ﴿حُورٌ مَّقْصُورَاتٌ فِي الْخِيَامِ﴾ (٧٦) [الرحمن] ﴿فِيهِنَّ قَصِيرَاتٌ الْظُرْفِ﴾ [الرحمن: ٥٦] لا ترى إلا زوجها، ولذلك فهي تعيش سعيدة، لا ترى غيره، فلا يحدث لها فساد.

إن معدل الجريمة يرتفع بمعدل كثرة الاختلاط، والخلوة بين الرجل والمرأة، وكثرة العري والفساد، وما جريمة اللواط إلا نتيجة لهذا التفسخ، واستجابة لهذه الدعوى الصهيونية التي تهدف إلى القضاء على البشرية.

خَامِسًا: قِصَّةُ شُعَيْبٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ مَعَ قَوْمِ مَدْيَنَ وَ أَصْحَابِ الْأَيْكَةِ

٨٥- ﴿وَإِلَى مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا قَالَ يَنْفَوِرَ أَعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنِّ إِلَهٍ غَيْرُهُ^(١) قَدْ جَاءَكُمْ بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ فَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا ذَلِكَ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ مُّؤْمِنِينَ﴾ (٨٥)

نبذة عن نبي الله شعيب: القصة الخامسة في ترتيب قصص سورة (الأعراف) قصة نبي الله ورسوله شعيب عليه أفضل الصلاة وأتم التسليم، وشعيب عليه السلام جده لأمه لوط عليه السلام، فهو ابن بنت لوط عليهما السلام.

وقد ذكر شعيب في القرآن أحد عشر مرة: خمس مرات في الأعراف، وأربع مرات في هود، ومرة واحدة في كل من الشعراء والعنكبوت.

وشعيب ابن ميكيل بن يشجن بن مدين، ومدين بن إبراهيم، فقد كان لإبراهيم عليه السلام ولدان رسولان هما: إسماعيل من هاجر، وإسحاق من سارة، وولدان غير رسولين هما: مدين ومداين من قطوراء زوجة ثالثة تزوجها في آخر عمره، وتزوج مدين ابنة لوط، وولد له منها

(١) قرأ الكسائي وأبو جعفر بكسر راء (غيره)، وضمها الباقون.

أربعة أبناء، ومن ذريتهم تفرعت بطون مدين، بلغ تعدادهم نحو خمسة وعشرين ألفاً.

وبعدما خرج موسى من مصر نزل بلاد مدين التي تزوج فيها من صفورة بنت شعيب عليها السلام، وكان قد أقام عشر سنين أجيراً عند شعيب مقابل زواجه من ابنته.

وقد سُمِّي المكان بمدين، وهو مكان بين الحجاز والشام من أرض معان، قرب بحيرة لوط، وقرب خليج العقبة على ساحل البحر الأحمر.

تزوج شعيب في هذا المكان وجلس فيه، فسمي المكان بمدين، وسميت القبيلة قبيلة مدين، وهم الذين أرسل الله تعالى فيهم رسوله شعيباً عليه السلام.

قوم مدين قبل الرسالة: وكان قوم مدين على التوحيد ملة أبيهم إبراهيم، فلما طال عليهم الأمد، أشركوا بالله سبحانه، وتفشى فيهم كثير من المنكرات، من أبرزها: تطفيف الكيل والميزان، وبخس الناس حقوقهم المادية والمعنوية.

وتطفيف الكيل والميزان نوعٌ مميزٌ من أنواع التعامل المادي لهذه القبيلة بحكم الموقع الجغرافي لهذا المكان، فأرض مدين تصل بين شمال الجزيرة وجنوبها، وجميع القوافل التجارية التي تمر بهذا المكان كانوا يتحكمون فيها، ويفرضون عليها جباية أو ضريبة، فيأخذون العُشْر من أموال القوافل التي تمر عليهم، وكانوا يسلبون الناس أمتعتهم، ويقطعون الطريق على المارة، وقد اعتادوا المكس، ونقص الكيل والميزان، وبخس الناس أشياءهم.

والبخس: هو النقص، وقد نهينا عنه في قوله تعالى: ﴿وَلَا يَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ﴾ ومن ذلك الكيل والميزان، فكانوا ينقصون من ثمن السلعة، يعيونها ويلمزونها، ويحطون من ثمنها وقدرها؛ ليأكلوا أموال الناس بالباطل، ويبخسون الناس أيضاً في الأمور المعدودة والمكيلة والمبيعة وغير ذلك.

فأرسل الله تعالى إليهم نبيه ورسوله شعيباً عليه السلام ﴿وَإِلَى مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا﴾ أي: ولقد أرسلنا إلى قبيلة مدين أخاهم شعيباً، وهو أخوهم في النسب لا في الدين، ورسالته كانت بعد لوط وقبل موسى صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين.

دعوة شعيب لقومه: ﴿قَالَ﴾ لهم شعيب: ﴿يَقْوَرُ أَعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ﴾ دعاهم

أولاً إلى توحيد الله سبحانه، وعدم الإشراك به، فهو المستحق للعبادة دون سواه، ودعاهم إلى إيفاء الكيل والميزان، وألا يبخسوا الناس أشياءهم، ولا يعثوا في الأرض مفسدين بكثرة المعاصي، وكان شعيب يُسمّى خطيب الأنبياء؛ لفصاحته وبلاغته وحسن دعوته لقومه، وتلطفه معهم، وملايئته ومسالمة لهم، والدعوة إلى التوحيد هي دعوة الرسل جميعاً.

ثم أقام الدليل على رسالته فقال: ﴿قَدْ جَاءَكُمْ بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ﴾ جئتكم بآية وبرهان من ربكم تدل على صدق دعواي، وأني رسول من عند الله حقاً، لكن ما هذه البينة أو الآية؟ القرآن الكريم لم يذكرها، وقد يراد بها الوحي والرسالة، وما يقيمه على قومه من الحجة التي تُبطل ما هم عليه من شرك وسوء فعل وقول.

وقد بيّن النبي ﷺ فيما أخرجه الشيخان من حديث أبي هريرة ؓ أنه: «ما من الأنبياء نبي إلا وقد أعطي ما مثله آمن عليه البشر، وإنما كان الذي أتيته وحياً أوحاه الله إليّ، فأرجو أن أكون أكثرهم تابعاً»^(١).

أي: ما من نبي إلا وأيده الله بمعجزة أو بآية تدل على صدق دعواه ورسالته، ومنها المعجزات الكونية والعقلية، والنبي ﷺ يرجو الله أن يكون أكثر الرسل أتباعاً يوم القيامة. والقرآن الكريم قد ذكّر بعض هذه المعجزات وسكت عن بعضها، ولم يتناول القرآن معجزات الرسل جميعاً، وكل رسول أيده الله بمعجزة تدل على صدق دعواه، سواء أذكرها القرآن أم لم يذكرها، عرفناها أم لم نعرفها.

ولذلك فشعيب يقول لقومه: قد جئتكم بيينة من ربكم، فيها إقامة الحجة عليكم، ولم يذكر القرآن ما هذه البينة.

وبعد أن دعاهم شعيب إلى التوحيد التفت إلى المنكر المتفشي فيهم، وهو تطفيف الكيل والميزان، كتفشي اللواط في قوم لوط، وهو أبرز معالم المنكرات في قوم مدين، فقال لهم: أدوا للناس حقوقهم، ولا تنقصوهم شيئاً فتظلموهم ﴿فَأَوْفُوا الْكَيْلَ

(١) البخاري (٤٩٨١، ٧٢٧٤) ومسلم (١٥٢).

وَالْمِيزَانَ ﴿١﴾ وقوله: ﴿وَلَا تَبْخُسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ﴾ أعم من أوفوا الكيل والميزان، وهو تخصيص بعد تعميم.

وقد توعد الله المطففين بالويل والهلاك فقال: ﴿وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ ﴿١﴾ الَّذِينَ إِذَا أَكَالُوا عَلَى النَّاسِ يَسْتَوْفُونَ ﴿٢﴾ وَإِذَا كَالُهُمْ أَوْ وَزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ ﴿٣﴾ أَلَا يَظُنُّ أُولَٰئِكَ أَنَّهُمْ مَبْعُوثُونَ ﴿٤﴾ لِيَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿٥﴾ يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٦﴾﴾ [المطففي]

وفي هذه الآيات بيان نوع من الناس وأنهم إذا أخذوا حقهم يستوفونه كاملاً، وإذا أعطوه لغيرهم فإنهم يبخسون الناس حقهم، وربما كان عنده نوعان من الموازين والمكاييل، يعطي بكيل، ويأخذ بكيل آخر.

وقوله تعالى: ﴿وَلَا تَبْخُسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ﴾ أعم من الكيل والميزان، فلفظ ﴿أَشْيَاءَهُمْ﴾ يشمل كل شيء من المال والمتاع والحيوان، وكل ما هو معدود أو مكيل أو موزون، والبخس يشمل البخس في المساومة، ويشمل الغش والحيل والحقوق المعنوية، وكل ما تنقص به الحقوق.

معالم دعوة شعيب وأصولها:

وهكذا: فإن شعيباً دعا قومه أولاً إلى توحيد الله تعالى ثم أمرهم بثلاثة أصول؛ هي:

- ١- حفظ الحقوق المالية.
 - ٢- حفظ نظام الأمة ومصلحتها.
 - ٣- حفظ حقوق حرية العقيدة.
- وقد جاء أمره لهم بالتوحيد في قوله: ﴿يَقُولُوا أَعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ﴾.
- وجاء الأصل الأول في قوله: ﴿أَوْفُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ﴾.
- وجاء الأصل الثاني في قوله: ﴿وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا﴾.
- وجاء الأصل الثالث في قوله: ﴿وَلَا تَقْعُدُوا بِكُلِّ صِرَاطٍ تُوعِدُونَ﴾.

أي: ولا تحذرون الناس من سلوك الطريق السوي وتهددنهم بالأذى، ولا تمنعوا من يرغب في إصلاح نفسه بالدخول في دين الله، وقد كانوا يصدون الناس عن دخول المدينة

التي فيها شعيب؛ لئلا يؤمن به أحد.

ثم حذرهم شعيب من ارتكاب الرذائل عمومًا فقال: ﴿وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ﴾ بالكفر والظلم وأكل أموال الناس بالباطل والبغي والعدوان على الأنفس والأعراض وإفساد الأخلاق والآداب بالإثم والفواحش الظاهرة والباطنة، بعد أن أصلح الله حال البشر بنظام الفطرة وكمال الخلق، وما أعطاهم من الجوارح والقوى العقلية، فلا تفسدوا في الأرض بما ترتكبون فيها من ظلم وبغي وكفر وعصيان ﴿بَعْدَ إِصْلَاحِهَا﴾ بشرائع الأنبياء السابقين، فإن الخروج عليها فتنة في الأرض وفساد كبير.

﴿ذَلِكَ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ في دينكم ودنياكم، فالله تعالى لا يأمركم إلا بما فيه نفعكم، ولا ينهاكم إلا عما فيه ضرركم، وهو غني عنكم، ولو شاء لأعتكم أي هذا الذي دعوتكم إليه هو خير لكم في دنياكم وأخراكم ﴿إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ إن كنتم مصدقين دعوتي إليكم، عاملين بشرع الله.

قال ابن عباس رضي الله عنه: كان شعيب حليمًا صادقًا وقورًا.

وكان رسول الله ﷺ إذا ذكر شعيبًا يقول: «ذاك خطيب الأنبياء»^(١) لحسن مراجعته قومه فيما دعاهم إليه، وفيما ردوا عليه وكذبوه وتوعدوه بالرجم والنفي من بلادهم.

وتواعد كبارهم ضعفاءهم، قالوا: ﴿لَئِنْ أَتَيْتُمُ شُعَيْبًا إِنْكُرُوا إِذَا لَخِصِرُونَ﴾ واستمر شعيب في دعوتهم، فلما عتوا عن أمر الله أخذتهم الرجفة، وذلك أن جبريل نزل فوقف عليهم، فصاح صيحة رجفت منها الجبال والأرض، فخرجت أرواحهم من أبدانهم، فذلك قوله: ﴿فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ﴾ وذلك أنهم حين سمعوا الصيحة قاموا قيامًا وفزعوا لها، فرجفت بهم الأرض فرمتهم ميّتين، فلما ردوا عليه النصيحة وأخذهم الله بعذابه قال: ﴿يَقَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَتِي ربي وَنَصَحْتُ لَكُمْ فَكَيْفَ آسَى عَلَى قَوْمٍ كَافِرِينَ﴾.

ثم نهاهم شعيب عن طرق الإفساد فقال:

(١) أخرجه الحاكم في المستدرک عن محمد بن إسحاق برقم (٤٠٧١) وسكت عليه، ومحمد بن إسحاق متکلم فيه، وذكره القرطبي في التفسير (٤/٩) وسكت عليه أيضًا.

٨٦- ﴿وَلَا تَقْعُدُوا بِكُلِّ صِرَاطٍ تُوعِدُونَ وَتَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ مَنْ ءَامَنَ بِهِ وَتَبْغُونَهَا عِوَجًا وَاذْكُرُوا إِذْ كُنْتُمْ قَلِيلًا فَكَذَّبْتُمْ﴾ وَأَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَتْ عَقِيبَةُ الْمُفْسِدِينَ ﴿

وكان القوم يقعدون على الطريق، ويقطعون السبيل، ويسلبون الناس أمتعتهم، ويحولون بينهم وبين الدخول في الإسلام، وكانوا يمنعون الناس من الذهاب إلى شعيب، ويجلسون على أفواه الطرق التي تؤدي إليه؛ فيمنعون الناس من لقائه، ويقولون: إنه كذاب، فيحولون دون الإيمان به، وكانوا يتوعدون ويتهددون بالعذاب مَنْ آمَنَ بشعيب.

والله سبحانه يبين هذا في قوله: ﴿وَلَا تَقْعُدُوا بِكُلِّ صِرَاطٍ﴾ أي: بكل طريق ﴿تُوعِدُونَ﴾ أي: تتوعدون الناس بالقتل وتهددونهم إن لم يعطوكم أموالهم.

عن ابن عباس ؓ أنهم كانوا يجلسون في الطريق فيقولون لمن أتى عليهم: إن شعيباً كذاب، فلا يفتنكم عن دينكم. وهذا صد عن سبيل الله، ودعوة إلى السلب وقطع الطريق، وطريق الحق واحد، وطرق الباطل متعددة، وإلى هذا الصراط يشير قوله تعالى: ﴿وَتَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ مَنْ ءَامَنَ بِهِ﴾ أي تريدون أن تكون سبيل الله معوجة كما قال تعالى: ﴿وَتَبْغُونَهَا عِوَجًا﴾ تبعاً لأهوائكم، وتنفرون الناس منها، وتريدون أن تكون طريقة الرسل معوجة، يشوبها الشرك في العبادة والتشكيك في العقيدة، وقد كان الواجب عليكم تعظيم الطريق التي رسمها الله لعباده وجعلها سبيلاً موصلًا إلى جنته ومرضاته.

ثم أخذ شعيب يذكّرهم بنعم الله عليهم، فقد كانوا قلة فكثّره الله وأصبحوا أقوياء أغزاء، وكانوا فقراء فأغناهم الله ﴿وَاذْكُرُوا إِذْ كُنْتُمْ قَلِيلًا فَكَذَّبْتُمْ﴾ إذا أنعم عليكم بالزوجات والنسل والصحة، ولم يسلط عليكم عدوا يستأصلكم ولا وباءً يقللكم. ﴿وَأَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَتْ عَقِيبَةُ الْمُفْسِدِينَ﴾ في الأرض، وما حل بهم من الدمار والهلاك، فقد أتبعوا في هذه الدنيا لعنة ويوم القيامة خزي وندامة.

حوار بين شعيب وقومه: فماذا كان موقف القوم من دعوة شعيب؟ لقد فصلته سورة (هود)، قالوا في ردهم عليه: يا شعيب ﴿أَصْلَوْنَكَ﴾ أي: عبادتك وعقيدتك ورسالتك تحول بيننا وبين ما نحن عليه من عبادة ما يعبد آباؤنا، وهل لدعوتك هذه علاقة في التعامل بيننا وبين الناس من الأمور الاقتصادية والمالية؟

إنهم يَفْصِلُونَ بين الدين وبين المعاملات المالية ونحوها، ولا يتصوِّرون أن هناك علاقة بين الدعوة التي جاء بها شعيب -من توحيد الله ﷻ وطاعته- وبين الأمور المالية الربوية والاقتصادية وغير ذلك، تمامًا كما يفصل بعض الناس بين الدين والسياسة، ويعتبرون أن الدين طريق، والدنيا طريق آخر، أو أن السياسة تختلف عن الدين، والدين لا دخل له فيها، وهذا جهل فاضح.

فالإسلام مصحف وسيف، دعوة وجهاد، دين ودنيا، والنبى ﷺ قد قامت دعوته وحُكِّمَتْ وجهاده على ذلك؛ إذ ليس هناك أمر من أمور الدنيا: الاجتماعية والعسكرية والاقتصادية والسياسية والشخصية وغيرها، ليس للدين فيه مدخل، إنما الدين يبين للناس المصير الآخروي للبشرية جميعًا، ويبين لهم الأحكام التشريعية في كل أمر من أمور الحياة، إلا ما سكت عنه الشرع فهو عفو كما بيّن النبي ﷺ.

فالدين هو الذي يقوم السياسة، وإذا خرجت السياسة عن إطار الدين؛ فسد الحكم بين الناس، وفسدت العلاقة بين الحاكم والمحكوم، وفسدت شؤون الحياة.

وهذا التصور الذي يتصوره أهل الجاهلية في زمن شعيب هو ما يردده بعضهم اليوم من الفصل بين الدين والسياسة.

هكذا قال قوم مدين لشعيب: ﴿أَصَلَّوْا نَكَّ﴾ عبادتك وعقيدتك هذه ﴿تَأْمُرُكَ أَنْ نَتْرَكَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا﴾ وتنبعك ﴿أَوْ أَنْ تَفْعَلَ فِي أَمْوَالِنَا مَا نَشَاءُ إِنَّكَ لَأَنْتَ الْحَلِيمُ الرَّشِيدُ﴾ [هود: ٨٧] قالوا ذلك له استهزاء وتهكمًا وسخرية.

قال لهم شعيب: يا قوم، قد جاءني بينة من ربكم، وأنا أبلغكم هذه الدعوة ﴿وَمَا أُرِيدُ أَنْ أَمْلِكَكُمْ إِلَّا مَا أَنهَضَكُمْ عَنْهُ إِنْ أُرِيدُ إِلَّا الْإِصْلَاحَ مَا اسْتَطَعْتُ وَمَا تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ﴾ [هود: ٨٨]

فهذه حجج واقعية، وبراهين ساطعة، وحُسنُ عرض للدعوة، يقولها شعيب ﷺ إلى قومه، لكنهم أُنْبِئُوا قائلين: ﴿يَسْأَلُونَكَ مَا نَفَقَهُ كَثِيرًا مِمَّا نَقُولُ﴾ أي: كلامك هذا لا نفهمه ﴿وَأِنَّا لَنَرِيكَ فِيْنَا ضَعِيفًا﴾ ولولا جماعتك ورهطك ونسبك ﴿لَرَجَمْنَاكَ وَمَا أَنْتَ عَلَيْنَا بِعَزِيزٍ﴾ [هود]

قال لهم يا قوم: هل جماعتي ورهطي أعز عليكم من الله؟ أي: من توحيد الله وطاعته

﴿أَرْهَطَىٰ أَعَزُّ عَلَيْكُم مِّنَ اللَّهِ وَاتَّخَذْتُمُوهُ﴾ أي: اتخذتم دعوة الله ﴿وَرَأَىٰ كُمْ ظَهْرِيًّا إِنَّكَ رَقِي بِمَا تَعْمَلُونَ مُحِيطٌ﴾ [هود: ٩٢]. ويمضي شعيب في حوار قوم مدين فيقول:

٨٧- ﴿وَإِنْ كَانَ طَائِفَةٌ مِّنْكُمْ ءَامَنُوا بِالَّذِي أُرْسِلْتُ بِهِ، وَطَائِفَةٌ لَّا يُؤْمِنُوا فَاصْبِرُوا حَتَّىٰ يَحْكُمَ اللَّهُ بَيْنَنَا وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ﴾ (٨٧)

هذا جانب من حوار شعيب لقومه، بعد أن دعاهم إلى التوحيد وعدم الإفساد في الأرض، وصد الناس عن دين الله وتذكيرهم بنعم الله عليهم، حيث نصحهم شعيب في هذه الآية بالعدل وسعة الصدر وأن يتركوا أتباعه أحراراً في عقيدتهم حتى يحكم الله بين الفريقين، وكان من قوم شعيب أن صاروا فريقين: منهم من آمن به ومنهم من كفر؛ ولذلك فإن شعيباً عليه السلام قال كما يحكيه القرآن على لسانه: ﴿وَإِنْ كَانَ طَائِفَةٌ مِّنْكُمْ ءَامَنُوا بِالَّذِي أُرْسِلْتُ بِهِ﴾ أي: وإن كنتم قد اختلفتم عليّ فأمنت طائفة وكفرت طائفة، فاصبروا - أيها الكفرة - حتى يأتي حكم الله بيننا وبينكم، وهؤلاء هم الذين آمنوا بربهم وصدقوا برسالة شعيب ﴿وَطَائِفَةٌ لَّا يُؤْمِنُوا﴾ وهم الذين كفروا به وبرسالته ﴿فَاصْبِرُوا حَتَّىٰ يَحْكُمَ اللَّهُ بَيْنَنَا﴾ أي: انتظروا - أيها المكذبون - قضاء الله الفاصل بيننا وبينكم كما أذذتكم.

والله - سبحانه - خير الحاكمين بين عباده، وهو الحكم الفصل، يبين لنا من هو على الصواب؛ نحن أم أنتم، فإن عذاب الله سوف يحل بمن كذب بالله ورسله. فما كان من قوم مدين إلا أن هددوا شعيباً ومن آمن به بالطرد والإبعاد، أو موافقتهم على دينهم:

٨٨- ﴿قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِن قَوْمِهِ لَنُخْرِجَكَ يَشْعِبُ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَكَ مِن قَرِينِنَا أَوْ لَنَعُودَنَّ فِي مِلَّتِنَا قَالَ أَوَلَوْ كُنَّا كَاهِنِينَ﴾ (٨٨)

وفي هذه الآية رد من كبار القوم على نصيحة شعيب لهم بالصبر حتى يحكم الله بينه وبينهم: ﴿قَالَ الْمَلَأُ﴾ وهم الأشراف والسادة من قوم مدين الذين لم يؤمنوا بشعيب، وهم ﴿الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِن قَوْمِهِ﴾ أي: تكبروا على الإيمان بالله واتباع رسله، وقد أقسموا على أحد أمرين:

١- إما أن نخرجك يا شعيب من ديارنا ومن بين أظهرنا أنت ومن آمن معك.

وهذا معنى: ﴿لَنُخْرِجَكَ يَشْعِبُ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَكَ مِن قَرِينِنَا﴾.

٢- وإما أن تترك - يا شعيب - رسالتك ودعوتك، وتعود أنت ومن آمن معك إلى ديننا وتوافقنا عليه، فتعُدِل عن ديانتك إلى ديانتنا وتنخرط فيها.

وخوِط شعيب مع القوم، من باب التغليب؛ لأن شعيباً لم يكن في يوم من الأيام على دينهم، إنما كان على التوحيد، ولكنهم جعلوا شعيباً من جملة القوم، فقالوا: إما أن تعودوا إلى ملتنا، وهذا معنى: ﴿أَوْ لَتَعُودَنَّ فِي مِلَّتِنَا﴾. أي توافقنا عليه وترجع إليه.

قال شعيب منكرًا ومتعجبًا من قولهم ومجيبًا على الخيار الثاني ﴿أَوَلَوْ كُنَّا كَارِهِينَ؟﴾ أتابعكم على دينكم وملتكم الباطلة ولو كنا كارهين؟

كان شعيب يطمع في إيمانهم ولكنه لم يسلم من شرهم، حيث توعدوه بالطرد من بلده أو يدخل في دينهم ويتبع ملتهم، ويرجع عن دينه إلى دينهم.

فيرد عليهم قائلاً: إننا نكره أن ننخرط معكم في دينكم الباطل، ونكره أن يرجع قومنا في هذه الملة وهي الكفر بعد الإيمان؛ لأننا نعلم أنها باطلة، وهكذا في جميع الأمم.

﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِرُسُلِهِمْ لَنُخْرِجَنَّكُمْ مِنْ أَرْضِنَا أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا﴾ [إبراهيم: ١٣]
وهذا لون من ألوان الوصاية على الأمم والرقابة على الشعوب في كل زمان ومكان، وقد كرّر هذا الرفض بأبلغ وجه في الآية التالية:

٨٩- ﴿قَدْ أَفْرَأْنَا عَلَى اللَّهِ كَذِبًا إِنْ عُدْنَا فِي مِلَّتِكُمْ بَعْدَ إِذْ بَخَّسْنَا اللَّهُ مِنْهَا وَمَا يَكُونُ لَنَا أَنْ نَعُودَ فِيهَا إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّنَا وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنَا رَبَّنَا افْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِالْحَقِّ وَأَنْتَ خَيْرُ الْفَاتِحِينَ﴾

قال شعيب مستدركًا: قد اختلقنا على الله الكذب، وأعظمنا الفرية عليه في جعل المشركين معه أندادًا إن عدنا إلى دينكم بعد أن أنقذنا الله منه، ونجانا من شره، فنحن نعلم أنه لا أحد أعظم جرمًا وافتراءً ممن جعل الله شريكًا، وليس لنا أن نتحول إلى غير دين ربنا إلا أن يشاء الله ربنا، وهذا رد إلى المشيئة، فالله تعالى لا يشاء الشرك، ولكننا نقول: إلا أن يكون الله قد علم شيئًا، لا نعلمه، وهذا معنى ﴿وَمَا يَكُونُ لَنَا أَنْ نَعُودَ فِيهَا إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّنَا﴾ أي أنه من المحال أن نوافقكم على دينكم، ولا يمكننا أن نخرج عن مشيئة الله وإرادته النافذة في خلقه، فكل شيء يرجع إلى مشيئة الله، وقد وسع علمه كل

شيء، وبهذا فإن شعيباً قد آيسهم من موافقته لهم على دينهم من عدة وجوه:

فهو كاره لعبادتهم مبغض لها، وهو كاذب على الله إن اتبعهم فيما هم عليه من الشرك والفساد.

قال الحسن بن أبي الحسن: كلُّ نبي أراد الله هلاك قومه أمره بالدعاء عليهم ثم استجاب له فأهلكهم.

ويتوجه شعيب إلى ربه بالاعتماد عليه وتفويض الأمر إليه، فهو الذي يكفيه أمرهم، ثم دعا شعيب ربه لما يس منهم فقال: ﴿رَبَّنَا أَفْتَحْ بَيْنَنَا﴾ أي: احكم بيننا ﴿وَبَيْنَ قَوْمِنَا﴾ الكفار ﴿بِالْحَقِّ وَأَنْتَ خَيْرُ الْفَاحِشِينَ﴾ أي: خير الحاكمين.

وَفَتَحَ اللهُ تعالى على عباده نوعان: فَتَحَ العلم، كي يتبين الحق من الباطل والهدى من الضلال، وَفَتَحَ الجزاء وإيقاع العقوبة بالظالم ونجاة الصالح، وقد سألوا الله أن يفتح بينهم وبين قومهم بالحق والعدل.

فهو - سبحانه - يعلم ما يصلح شؤون العباد، وعليه وحده اعتمدنا في هدايتنا ونصرتنا، ربنا احكم وافصل بيننا وبين قومنا بالحق وأنت خير الحاكمين.

ثم توجه كبار الكفار بتهديد عامة الناس إن هم اتبعوا شعيباً:

٩٠- ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ لَئِنْ اتَّبَعْتُمْ شُعَيْبًا إِذًا لَخَيْرُونَ ﴿٩٠﴾﴾

هذا تهديد آخر من قوم مدين لمن يتبع دين شعيب:

قال السادة الكبراء المكذبون لشعيب، الرافضون لدعوة التوحيد، إمعاناً في العتو والتمرد، ومحذرين قومهم من اتباع شعيب بأن ذلك سيؤدي بهم إلى الهلاك: ﴿لَئِنْ اتَّبَعْتُمْ شُعَيْبًا إِذًا لَخَيْرُونَ﴾ والخسارة كل الخسارة فيما عليه قوم مدين من الضلال والإضلال، ولكنهم عكسوا الآية، فجعلوا الخسارة في اتباع الرشد والهدى!!

هلاك أصحاب الأيكة :

وفي سورة الشعراء طلب القوم من شعيب ﷺ قائلين له: ﴿فَأَسْقِطْ عَلَيْنَا كِسَفًا مِّنَ السَّمَاءِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ [الشعراء] إن كان هذا العذاب الذي تتوعدنا وتهددنا به حق وصدق، أسقطه علينا، فنحن في انتظاره، يقولون ذلك استهزاء واستبعاداً وسخرية من دعوة شعيب.

فكان من الله ﷻ أن حبس عنهم الريح سبعة أيام، بحيث لا يستطيعون أن يلتقطوا أنفاسهم، وأرسل عليهم حرًا شديدًا كأنه باب من أبواب جهنم، فصاروا لا يمكنهم أن يشربوا ماءً، ولا يروي لهم ظمأً، ولا يظلمهم ظل، حتى هربوا من مساكنهم إلى الخلاء، فأروا سحابة كبيرة فجمعوا تحت هذه السحابة؛ كي تأويهم من الحر الشديد، فأرسل الله سبحانه جبريل فصاح بهم صيحة.

وكان هذا التجمع تحت السحابة هو السبب في القضاء عليهم وإهلاكهم جميعًا؛ حيث رجفت الأرض تحت أقدامهم، وزلزلت، وصاح بهم جبريل من أعلى ﴿فَأَصْبَحُوا فِي دِيَارِهِمْ جَثِيئِينَ﴾ (٦٧) ﴿كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا فِيهَا﴾ يقول القرآن أصبحوا ميتين هلكى، كأنهم لا وجود لهم قبل ذلك، قال تعالى: ﴿أَلَا بُعْدًا لِّمَدْيَنَ كَمَا بَعَدَتْ ثَمُودُ﴾ [هود: ٩٥] وطويت صفحة من صفحات التاريخ على هؤلاء القوم الذين كذبوا رسولهم، وهكذا كل أمة تكذب رسولها، وتخرج على تعاليم الله - سبحانه -، يُنزلُ الله بهم عقابه وعذابه، إن عاجلاً أو آجلاً، في الدنيا أو الآخرة.

قوم مدين وأصحاب الأيكة: وأكثر المفسرين على أن أصحاب الأيكة هم أنفسهم قوم مدين، وأن الدعوة الموجهة إليهم من شعيب دعوة واحدة، وهم أنفسهم الذين كانوا يطففون الكيل والميزان، وشعيب وجه دعوته إلى أهل مدين فقال لهم: ﴿يَقَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَهِ غَيْرُهُ وَلَا تَنقُضُوا أَلْعِيَالَ وَالْمِيزَانَ﴾ [هود: ٨٤] وإلى أصحاب الأيكة ﴿أَوْفُوا الْكَيْلَ وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُخْسِرِينَ﴾ (٨٣) ﴿وَزِنُوا بِالْقِسْطِ أَسْ مِ الْمُسْقِيَةِ﴾ (٨٣) ﴿وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تَعْنُوا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾ (٨٣) [الشعراء: ١٨١-١٨٣] فيرجح كثير من المفسرين أن قوم مدين هم أنفسهم أصحاب الأيكة، وأن الأيكة هي: الشجر الملتف بعضه حول بعض، وسموا كذلك؛ لأنهم عبدوا هذا الشجر الملتف، ف قيل لهم: أصحاب الأيكة؛ أي: الذين عبدوا هذه الأشجار من دون الله، فُنسبوا إليها لعبادتهم إياها.

ويذكر بعض التابعين كفتادة وبعض المفسرين أن أصحاب الأيكة غير قوم مدين، وأن الله تعالى بعد أن نجى شعيباً ومَن آمن معه وأهلك قوم مدين، أرسله الله تعالى إلى أصحاب الأيكة، وهي مكان قريب جداً من أرض مدين، وأنهم كانوا أيضاً يطففون الكيل والميزان، وأن شعيباً دعاهم إلى توحيد الله وتقواه، ثم دعاهم إلى ترك تطفيف الكيل والميزان، فاتهموه بالسحر والجنون ولم يؤمنوا به ولا بدعوته، وذكروا أن عذاب أصحاب الأيكة يختلف عن عذاب قوم مدين.

ففي سورة الأعراف وسورة هود أن الله - سبحانه - أرسل على قوم مدين صيحة زلزلت الأرض من تحت أقدامهم؛ فأصبحوا جاثمين، كما عذب قوم ثمود؛ فكان عذاب قوم مدين أو هلاكهم كهلاك قوم ثمود.

وأما أصحاب الأيكة فقد أهلكوا بعذاب يوم الظلة، قالوا: وهذا عذاب يختلف عن العذاب الأول.

قلت: وهذا له دليل وسند من القرآن الكريم، فقد ذكرت قصة أصحاب الأيكة في سورة (الشعراء) وحدها، وجاء ذِكْرُ الأيكة في أماكن أخرى، ولكن القصة ذكرت في سورة (الشعراء) وجاء في نهايتها ﴿فَأَسْقِطْ عَلَيْنَا كِسْفًا مِّنَ السَّمَاءِ إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ (١٨٧) قَالَ رَبِّ أَعْلَمْ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٨٨﴾ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُم عَذَابُ يَوْمِ الظُّلَّةِ ﴿١٨٩﴾ [الشعراء]

والظلة: هي السحابة أو الغمامة التي فروا واحتموا تحتها، ثم أمطروا نارًا من السماء؛ فأهلكهم الله سبحانه وأبادهم، قال - سبحانه - : ﴿إِنَّهُ كَانَ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ (١٨٩) إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُّؤْمِنِينَ ﴿١٩٠﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴿١٩١﴾ [الشعراء]

وذكرت قصة أهل مدين مع عذابهم المختلف عن عذاب أصحاب الأيكة في عدد من السور.

قال السُّدِّي وعكرمة: إن شعيبًا أرسل إلى أمتين: أهل مدين الذين أهلكوا بالصيحة، وأصحاب الأيكة الذين أخذهم الله بعذاب يوم الظلة^(١)، وأنه لم يُبعث نبي مرتين إلا شعيب ﷺ، ويقال: إن الأيكة هي تبوك بين جبلي حِمْيَر وشَرُورِي^(٢).

والتحقيق: أن مدين تقع شرق خليج العقبة، وأن الأيكة: غيضة تنبت الشجر الناعم الملتف، وهي بادية مدين، فمدين هي الحاضرة، والأيكة هي البادية، وكلاهما في طرف بلاد الحجاز مما يلي الشام^(٣) وقد أرسل شعيب إلى كل منهما، وهما متجاوران.

قال تعالى في عذاب قوم مدين:

(١) «مختصر تاريخ دمشق» (٢٠٨/١٠) عن عكرمة.

(٢)، (٣) ينظر: أطلس القرآن، د. شوقي أبو خليل (ص ٧١، ٧٢).

٩١- ﴿فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جِثِيمِينَ﴾ (٧٨)

وفي هذه السورة يقرر - سبحانه - أن العذاب الذي لحق بقوم مدين هو الرجفة؛ أي: الزلزلة الشديدة التي صرعتهم؛ فأصبحوا هلكى في ديارهم ﴿فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جِثِيمِينَ﴾ (٧٨).

وفي سورة - هود - عبر عنها بالصيحة ﴿وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَحْنُ شُعَبَاءٌ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَأَخَذَتِ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةَ فَأَصْبَحُوا فِي دِيَارِهِمْ جِثِيمِينَ﴾ (٩٤) [هود].
ولعل المراد أن جبريل صاح بهم، فرجعت الأرض تحت أرجلهم، فكلاهما أعمل في العذاب. قال تعالى معقبا على هلاكهم:

٩٢- ﴿الَّذِينَ كَذَبُوا شُعَبَاءً كَان لَمْ يَفْنَوْا فِيهَا الَّذِينَ كَذَبُوا شُعَبَاءً كَانُوا هُمُ الْخَاسِرِينَ﴾ (٩٦)

ثم عقب - سبحانه - على ما أصاب أهل مدين بأن العذاب لمّا نزل بهم أتى عليهم فاستأصلهم كأنهم لم يكونوا في ديارهم، ولم يتمتعوا فيها لحظة من نهار، فلم يبق لهم أثر، وأصابهم الهلاك والخسران في الدنيا والآخرة، وكأنهم ما أقاموا في الدنيا، ولا نعموا بما فيها، ولا تفيؤوا ظلالها، حين فاجأهم العذاب، فنقلهم من دار الشهوات والملذات إلى مستقر الأحزان والدركات، وهذا هو الخسران الحقيقي.

ولما أهلك الله قوم مدين، أعرض عنهم نبههم شعيب وذكرهم بنصحه لهم وتبليغه لهم رسالة ربه، فلا موجب لإسفه عليهم.

٩٣- ﴿فَنُوحِلْهُمْ عَنْهُمْ وَقَالَ يَاقَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَتِي ربي وَنَصَحْتُ لَكُمْ فَكَيْفَ ءَاسَىٰ عَلَىٰ قَوْمٍ كَافِرِينَ﴾

فما كان من شعيب حين تيقن أن العذاب نازل بهم لا محالة، إلا أن أعرض عنهم وذكرهم بما نصحهم به قائلًا لهم معاتبًا ومؤنبًا لهم بعد موتهم: لقد أبلغتكم رسالات ربي، وأرشدتكم إلى الدخول في دين الله، والإقلاع عما أنتم عليه، فلم تسمعوا ولم تطيعوا، فكيف أحزن عليكم، وقد جحدتم وحدانية الله تعالى، وكذبتهم رسله، وتماديتهم في الكفر والطغيان؛ بعد إبلاغكم وإقامة الحجة عليكم بعد نصحي لكم؛ لئلا يصيبكم مثل ما أصاب غيركم، كما قال تعالى على لسان شعيب عليه السلام: ﴿يَاقَوْمِ لَا يَجْرِمَنَّكُمْ شِقَاقِي أَنْ

يُصِيبَكُمْ مِثْلُ مَا أَصَابَ قَوْمَ نُوحٍ أَوْ قَوْمَ هُودٍ أَوْ قَوْمَ صَالِحٍ وَمَا قَوْمَ لُوطٍ مِّنْكُمْ يَبْعِدُ ﴿٨٩﴾ [هود].

كيف أحزن على قوم لا خير فيهم، أتاهاهم الخير فلم يقبلوه، ولا يليق بهم إلا الشر، فكان عاقبة أمرهم خسرا.

أخرج ابن عساكر عن وهب بن منبه: أن شعبياً مات بمكة هو ومن آمن معه من المؤمنين، فقبورهم في غرب الكعبة بين دار الندوة وبين باب بني سهم^(١)، والله أعلم بصحة هذا.

التعقيب على هلاك الأمم المكذبة:

لقد اتبعت سورة (الأعراف) في حديثها عن رسل الله التسلسل التاريخي؛ لتبرز وحدة العقيدة في دعوة الأنبياء جميعاً، فكل منهم يقول لقومه: ﴿اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ﴾ ثم يسوق لهم من الحجج والبراهين ما يدل على صدقه في تبليغ دعوة ربه.

وقصص هلاك المكذبين من جميع الأمم تشير إلى أن طبيعة الإيمان والكفر واحدة في نفوس الناس على مدى التاريخ، فهي متشابهة في كفر المستكبرين وإيمان المستضعفين.

والعاقبة التي حلت بكل الفريقين واحدة لم تتغير، وكأن الله تعالى يقول لنا: لقد سقئ لكم الكثير من أخبار السابقين، وبينت لكم كيف تكون سعادة الأخيار وشقاء الأشرار، وهذه سنة الله في خلقه، فاجتهدوا في سلوك طريق الأخيار، فالله - سبحانه - يمهّل ولا يهمل، ويبتلي بالسراء والضراء؛ كي يتضرع العباد إلى ربهم، فيفتح أبواب الخير والرحمة لمن آمن به واتقاه، وأبواب العقوبة لمن كفر به وعصاه.

والابتلاء بالسراء لا يقلُّ تمحيصاً عن الابتلاء بالضراء، فهو أشد وأعظم، والآيات التالية لا تروي حادثة معينة، وإنما تكشف عن سنة وناموس مُقدَّر تجري على وفقه الأحوال.

التَّعْقِيبُ عَلَى قِصَصِ الْمُرْسَلِينَ:

٩٤ - ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِّن نَّبِيٍّ (٢) إِلَّا أَخَذْنَا أَهْلَهَا بِالْبِأْسِ (٣) وَالضَّرَاءِ لَعَلَّهُمْ يَضَّرَّعُونَ (٤)﴾

(١) ابن عساكر (٨٠/٢٣).

(٢) قرأ نافع (من نبي) بهمزة بعد الياء، وتكون من باب المد المتصل عنده، وقرأ الباقون بياء مشددة.

(٣) قرأ السوسي وأبو جعفر بإبدال همزة (بالبأس) ألفاً، والباقيون بهمزة ساكنة.

ثم أخبر - سبحانه - أنه ما بعث نبياً في مدينة من المدن إلا كذبه أهلها، فقد اقتضت سنة الله في خلقه أن يأخذ أهل كل أمة كذبت نبيها بالبأساء في أنفسهم وأرواحهم، والضراء في أبدانهم وأموالهم؛ كي تضحوا ضمايرهم، وتستيقظ نفوسهم.

﴿وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِّن نَّبِيٍّ يَدْعُوهُمْ إِلَىٰ عِبَادَةِ اللَّهِ، وَينهاهم عن الشرك به إلا كَذَّبَهُ قَوْمُهُ، ومن هؤلاء الأنبياء (خالد بن سنان) بُعث نبياً في بني عبس، و(حنظلة بن صفوان) أرسل إلى أصحاب الرس، وهما من الأمم المكذبة التي قال الله عنها: ﴿إِلَّا أَخَذْنَا أَهْلَهَا بِالْبَأْسَاءِ وَالضَّرَاءِ﴾ أي: ابتليناها بالأمراض والأسقام في أبدانهم، وابتليناهم بالفقر والحاجة في أموالهم ﴿لَعَلَّهُمْ يَضَّرَعُونَ﴾ أي: رجاء أن يستكينوا وينيبوا إلى الله سبحانه، ويرجعوا إليه إذا أصابتهم البأساء والضراء.

وفي هذا تخويفٌ وتحذيرٌ لكل من لم يؤمن بالله تعالى، ويصدق ما جاء به رسل الله تعالى لكل أمة من الأمم، فما يأخذ الله به الأمم من الشدائد يكون لأجل أن ترقَّ القلوب الجامدة، وتتعضَّ المشاعر الخاملة، ويتجه الخلق إلى بارئهم، وهذا مقتضى قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرَىٰ حَتَّىٰ يَبْعَثَ فِي أُمِّهَا رَسُولًا يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا وَمَا كُنَّا مُهْلِكِي الْقُرَىٰ إِلَّا وَأَهْلُهَا ظَالِمُونَ﴾ [٥٩] [القصص].

والمعنى: وما أرسلنا من قبلك - أيها الرسول - في قرية من نبي إلا أخذنا أهلها بما يغير حالهم التي كانوا فيها من رخاء وصحة، عسى أن يعلموا أن سلب النعمة عنهم أمانة على غضب الله عليهم؛ بسبب تكذيبهم لرسول الله، ثم نمهلهم ونستدرجهم فيزدادون ضللاً، فإذا رأوا ذلك قالوا: إن ما أصابهم من البؤس والضر هو عارض من عوارض الزمن كما حدث لأسلافهم من قبل، وليس بسبب تكذيبهم لرسول الله!!

كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَىٰ أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ فَأَخَذْنَاهُم بِالْبَأْسَاءِ وَالضَّرَاءِ لَعَلَّهُمْ يَضَّرَعُونَ﴾ [٤٢] فَلَوْلَا إِذْ جَاءَهُمْ بَأْسُنَا تَضَرَّعُوا وَلَكِن قَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [٤٣] فَلَمَّا دُسُّوا مَا دُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّىٰ إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُم بَغْتَةً فَإِذَا هُمْ مُبْلِسُونَ﴾ [٤٤] فَقُطِعَ دَابِرُ الْقَوْمِ الَّذِينَ ظَلَمُوا وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [٥٥] [الأنعام]

وقال سبحانه: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ﴾ [٣٦] وَقَالُوا نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَالًا وَأَوْلَدًا وَمَا نَحْنُ بِمُعَذِّبِينَ﴾ [٣٧] [سبأ]. قال تعالى:

٩٥- ﴿ثُمَّ بَدَّلْنَا مَكَانَ السَّيِّئَةِ الْحَسَنَةَ حَتَّى عَفَوْا وَقَالُوا قَدْ مَسَّ آبَاءَنَا الضَّرَّاءُ وَالسَّرَّاءُ فَأَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ (٩٥)

أي: ولَمَّا لم يُفد في المرسل إليهم، ما ابتليناهم به من البؤوس والضر، واستمر استكبارهم وازداد طغيانهم، أنزل الله عليهم الأرزاق، وعافي الأبدان، ورفع عنهم البلاء حتى كثروا وكثرت أرزاقهم، وتقلبوا في نعمة الله، نسوا ما كانوا فيه من بلاء، وقالوا: إنَّ ما حدث لهم سنة جارية في الخلق، مع تقلب الزمان وتداول الأيام، وليست للتذكير والموعظة، ولما فرحوا بما أُوتوا وظنوا أنهم أهلاً لهذه النعم، وأنها لن تزول عنهم، عندئذ أخذناهم بغتة وأنزلنا بهم عقوبتنا.

وهكذا: لَمَّا ابتلى الله بعض الأمم بالشدة والبؤس؛ ليتضرعوا إلى الله تعالى، ويرجعوا إليه فلم يفعلوا، غيَّر الله حالهم، فبدَّل أحوالهم السيئة إلى أحوال حسنة، وابتلاهم الله بالرخاء مكان الشدة، واليسر مكان العسر، والصحة مكان المرض، والغنى مكان الفقر، والأمن مكان الخوف؛ ليشكروا نعم الله عليهم، فيثوبوا وينيبوا إليه، وهذا معنى:

﴿ثُمَّ بَدَّلْنَا مَكَانَ السَّيِّئَةِ الْحَسَنَةَ﴾ ليس المراد بهما الطاعة والمعصية، وإنما المراد أبدلنا وحوَّلنا الحالة السيئة كالفقر والمرض، بالحالة الحسنة كالغنى والصحة.

﴿حَتَّى عَفَوْا﴾ أي: حتى تحسنت أحوالهم، وكثرت أموالهم وأولادهم، فغفيت أبدانهم وأصبحوا في سَعَةٍ ورخاء؛ ليستشعروا ابتلاء الله لهم في الحالين؛ إمهالاً لهم واستدراجاً لعلمهم يشكرون الله تعالى، لكنهم لم يعتبروا ولم ينتفعوا، فلم يجدوا في أنفسهم حرجاً من قلة المبالاة والاستخفاف والاستهتار، بل قالوا: هذه عادة فيمن سبقنا وليست عقوبة لنا.

أي: إن ما حلَّ بنا من السراء بعد الضراء هو عادة الدهر في الأجيال المتلاحقة، يوم خير، ويوم شر، وهذا ما جرى لأبائنا الأولين، فما أصابنا من ضر ليس عقوبة لنا على شيء، بل ﴿قَدْ مَسَّ آبَاءَنَا الضَّرَّاءُ وَالسَّرَّاءُ﴾ قبلنا فكانت النتيجة أن أخذهم الله بالعذاب فجأة، على عدم شعور منهم، وهم آمنون مطمئنون، لم يخطر على بالهم هذا الهلاك ﴿فَأَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ كما جاء في الحديث: «موت الفجأة رحمة للمؤمن،

وأخذة أسف للفاجر»^(١).

وهذا ثمرة البعد عن منهج الله، وعدم الشكر في السراء والضراء ليست حال المؤمن، فالمؤمن يشكر الله على السراء، ويصبر على الضراء، كما قال النبي ﷺ: «عَجَبًا لِأَمْرِ الْمُؤْمَنِ، إِنْ أَمَرَهُ كُلُّهُ لَهْ خَيْرٍ، وَلَيْسَ ذَلِكَ لِأَحَدٍ إِلَّا لِلْمُؤْمَنِ، إِنْ أَصَابَتْهُ ضُرَاءٌ صَبَرَ فَكَانَ خَيْرًا لَهُ، وَإِنْ أَصَابَتْهُ سُرَاءٌ شَكَرَ فَكَانَ خَيْرًا لَهُ»^(٢).

ثم يبين سبحانه أن الإيمان والتقوى سببان لنزول الخيرات والبركات، وأن تكذيب الرسل والإعراض عنهم سببان لنزول العذاب، فقال تعالى:

٩٦- ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَىٰ ءَامَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا^(٣) عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَلَٰكِن كَذَّبُوا فَأَخَذْنَاهُم بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿٩٦﴾

أي: ولو أن الذين كذبوا رسل الله آمنوا بقلوبهم، وتركوا محارم الله، لفتح عليهم بركات من السماء والأرض، وأغدق عليهم النعم ظاهرة وباطنة، ولكنهم استمروا في كذبهم فأنزل الله بهم عقوبته.

والأمم التي أُبِيدت هي التي حَفَرَتْ قبرها بيدها، فلم يلحق بها مثقال ذرة من ظلم ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَىٰ ءَامَنُوا وَاتَّقَوْا﴾ أي: لو أنهم صدقوا بالله واتبعوا رسله، بدل التكذيب والاستخفاف، وامثلوا ما أمر الله به، واجتنبوا ما نهى عنه بدلاً من العناد والمخالفة، لو أنهم فعلوا ذلك لفتح الله عليهم أبواب الخيرات والبركات من كل وجه، من فوقهم ومن تحت أرجلهم بلا حساب، وهذا معنى: ﴿لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ﴾ ولكنهم بدل أن يؤمنوا ويمثلوا، كذبوا بالله ورسله؛ فعاقبهم الله

(١) أبو داود (٤٨١/٣) برقم (٣١١٠) وصحيح أبي داود (٢٦٦٧) عن عبيد بن خالد السلمى مرفوعاً وموقوفاً، ورواه أحمد في «المسند» (٤٢٤/٣) بلفظ (مَوْتُ الْفَجَاءَةِ أَخْذَةُ أَسْفٍ) وهو برقم (١٥٤٩٦)، (١٧٩٢٤) عن عبيد بن خالد، إسناده صحيح ورجاله ثقات، وأخرجه البيهقي في السنن (٣٧٨/٣) وابن عدي في الكامل (٦٤٩/٢) وصححه الألباني في «صحيح الجامع» وفي مشكاة المصابيح (١٦١١).

(٢) «صحيح مسلم» (٢٢٩٥/٤) من حديث صهيب بن سنان برقم (٢٩٩٩).

(٣) قرأ ابن عامر وابن وردان وابن جمار ورويس بخلف عنهما (لَفَتَحْنَا) بتشديد التاء، والباقون بتخفيفها، وهو الوجه الثاني لابن جمار ورويس.

بالعذاب المهلك؛ بسبب كفرهم ومعاصيهم ﴿وَلَكِنْ كَذَّبُوا فَأَخَذْنَاهُمْ﴾ بالعقوبات ونزع البركات وكثرة الآفات والهزائم ﴿يَمَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ أي: بسبب ما اكتسبوه من الإعراض عن دعوة الرسل، وكل هذا قد سبق به علم الله تعالى، فقد علم سبحانه أنهم لن يكتسبوا الإيمان والتقوى في حياتهم، وبالتالي فلن ينالوا خير الله ورزقه. ﴿ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ يَمَّا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُمْ بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ [الروم: ٤١].

والمعنى: وما أرسلنا في قرية نبياً فكذبها أهلها إلا نبهناهم واستدرجناهم، ثم عاقبناهم، ولو أنهم آمنوا بما جاءهم به رسولهم واتقوا ربهم؛ لَمَا أصبناهم بالبأساء، ولأحسيناهم حياة كلها خير وبركة، وما ظلمهم الله ولكن ظلموا أنفسهم.

وهذه الآية من آخر ما نزل بمكة، وقد أصيب أهل مكة بالقحط والجوع بعد خروج المؤمنين منها، وبارك الله لأهل المدينة وأغناهم، ولنا وقفتان في هذه الآية:

الوقف الأولى: أن غير المسلمين نراهم في واقع الحياة مفتوحاً عليهم في الرزق والقوة والنفوذ، وأن المسلمين على العكس من ذلك، فهم على الأغلب في فقر وضعف وهوان، وهذا يدل على أن الإيمان والتقوى مسألة تعبدية بحتة لا علاقة لها بواقع الناس.

والجواب على هذا: أن الله تعالى يعطي الدنيا لمن يحب ومن لا يحب، ولكنه لا يعطي الدين إلا لمن يحب، وأن الدنيا سجن المؤمن وجنة الكافر، فالكافر يأخذ حظه كاملاً في الدنيا، والمؤمن يؤجل له حظه إلى آخرته، على أن الذين يفتح الله عليهم في الرزق هم المؤمنون حق الإيمان، الذين يسيرون وفق منهج الله، ويحكمون شرعه في جميع شؤونهم، وكذا أهل الإسلام المشوبون بالمعاصي، فإنهم يخضعون لأنواع الابتلاء والتمحيص.

الوقف الثانية: أن هناك فرقاً بين الرزق في حد ذاته وبين البركة فيه، والله تعالى قال: ﴿لَفَنَحْنَا عَلَيْهِمْ بِرُكْنَتٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ﴾ ولم يقل خيرات أو أرزاق، فالبركات هي لأهل الإيمان والتقوى، فالشيء القليل مع الصلاح والرضى والارتياح، يكون كثير النفع متعدد الفوائد، غير منقطع الخير، يسلم من الآفات التي تنزل به، ويحسّن صاحبه وجوه التصرف فيه، فيصرفه في مواضعه ووجوه الانتفاع به، ويكون متتابعاً مستمراً لا ينقطع، والمال الكثير مع عدم البركة فيه تأتية وجوه المَحَقِّ والزوال، وأنواع الآفات والمحن، وينفق في وجوه الشر، ويكون وبالاً على صاحبه، ويموت صفر اليدين. قال تعالى:

٩٧- ﴿أَفَأَمِنَ أَهْلُ الْقُرَىٰ أَنْ يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنَا بَيِّنًا وَهُمْ نَائِمُونَ﴾ ﴿٩٧﴾

إن على المخاطبين بهذا القرآن أن يتعظوا بمصارع الآباء والأجداد، فيعتبروا بما لحق بهم، ومعنى ﴿أَفَأَمِنَ أَهْلُ الْقُرَىٰ﴾ أي: أظن المكذبون لرسول الله، أنهم في منجاة ومأمن من عذاب الله، أن يأتيهم بأسنا وينزل عليهم عذابنا في أية لحظة من ليل أو نهار، وهم سادرون في غيهم وغفلتهم وقت راحتهم ونومهم؟ قال تعالى:

٩٨- ﴿أَوْ^(١) أَمِنَ أَهْلُ الْقُرَىٰ أَنْ يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنَا ضُحًى وَهُمْ يَلْعَبُونَ﴾ ﴿٩٨﴾

أفأمنوا أن يأتيهم بأس الله وانتقامه منهم في وقت الضحى، وهم غافلون متشاغلون بأمور دنياهم، لا هون فيها، إن بأس الله وعذابه أعظم وأشد من أن يقف في وجهه اليقظ واللاهي، والهازل والجاد، ولكن القرآن يخص بالذكر لحظات الضعف الإنساني؛ لأن الإنسان فيها يكون أغفل ما يكون، فتزول العذاب به يكون أفطع وأشد، فليس هناك ما يؤمنهم من عذاب الله، وهم قد فعلوا أسبابه، وارتكبوا من الجرائم ما يوجب هلاكهم، قال تعالى مبيناً أنه لا يأمن عقاب الله إلا من خسر دنياه وآخرته:

٩٩- ﴿أَفَأَمِنُوا مَكْرَ اللَّهِ فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ﴾ ﴿٩٩﴾

إن العبد يُستدرج من حيث لا يعلم، ويُنْتَلَى بالخير والشر، والغنى والفقر، والصحة والمرض، وما يصيبه من النعم قد يكون استدراجاً له، وإمهالاً بما أنعم الله عليه في الدنيا، وعقوبة له، فعلى العبد ألا يأمن مكر الله تعالى بوقوع عقابه وعذابه في ساعة من ليل أو نهار، فالكافر والمكذّب لا يأمن أن يكون ما أعطاه الله له من نعمة على كفره وتكذيبه استدراجاً له، إلا من خسر آخرته فهلك مع الهالكين، لأنه لم يُحقق الإيمان ولم يصدق بالبعث والجزاء، فلا ينبغي للعبد أن يكون آمناً من عذاب الله على ما معه من إيمان، بل لا يزال خائفاً وجللاً داعياً ربه أن يثبتته على الإيمان ويسعى في كل ما يبغده عن الهلاك وسوء الخاتمة. قال تعالى موجّهاً الأنظار إلى الاعتبار بما حدث للأمم المكذبة:

(١) قرأ نافع وابن كثير وابن عامر وأبو جعفر (أو أمِنَ) بسكون الواو على أن (أو) حرف عطف للتقسيم؛ أي: أفأمنوا إحدى العقوبتين، وقرأ الباقون بفتحها، على أن واو العطف دخلت عليها همزة الاستفهام الإنكاري؛ أي: أفأمنوا مجموع العقوبتين.

١٠٠- ﴿أَوَلَمْ يَهْدِ لِلَّذِينَ يَرِثُونَ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِ أَهْلِهَا أَنْ لَوْ نَشَاءُ^(١) أَصَبْنَهُمْ بِذُنُوبِهِمْ وَنُطْبِعُ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ﴿١٠٠﴾﴾

هذه دعوة وتحذير لمن بقى في الأرض بعد هلاك من هلك، حذرهم فيها ألا يفعلوا مثل ذنوبهم، فيصيبهم ما أصاب الأولين، ويعاقبهم بالطبع على قلوبهم فلا يدخلها حق، ولا يصل إليها خير، وسبب ذلك أنهم ذكروا فلم يتذكروا، ووعظوا فلم يتعظوا، ولم يقبلوا هدى الله، فعاتبهم الله على ذلك.

والمعنى: ألم يظهر لوارث الأرض بعد من كانوا فيها من الأمم المكذبة لرسول الله، أنا نقدر على إهلاكهم؛ بسبب معاصيهم، فنفعل بهم كما فعلنا بمن سبقهم؟ أما كانت مصارع الغابرين عبرة لمن جاء بعدهم؛ فتهددهم وتنير لهم الطريق؟

﴿أَوَلَمْ يَهْدِ﴾ يتبين ويتضح ﴿لِلَّذِينَ يَرِثُونَ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِ أَهْلِهَا﴾ أي: الذين يسكنون الأرض ويقيمون فيها بعد هلاك من سبقهم من الأمم؛ بسبب معاصيهم، لو شئنا أهلكناهم وعاقبناهم؛ بسبب ذنوبهم وسيئهم سيرة السابقين كما فعلنا بأسلافهم، ولو شئنا ختمنا على قلوبهم فلا يدخلها حق، ولا يتفنعون بموعظة ولا تذكرة، وفي هذا تنبيه وتذكير للاعتبار والاتعاظ.

الاعتبار بهلاك الأمم المكذبة

١٠١- ﴿تِلْكَ الْقُرَىٰ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِهَا وَلَقَدْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ^(٢) بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا بِمَا كَذَّبُوا مِنْ قَبْلُ كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِ الْكَافِرِينَ ﴿١٠١﴾﴾

وفي ختام الحديث عن هلاك الأمم المكذبة يرسل الله، والتعليق عليها، اتجهت الآيات بالخطاب إلى النبي ﷺ؛ لِتُطْلَعُ عَلَى النتيجة الأخيرة لابتلاء الأمم مع أنبياء الله ورسله فقال تعالى: ﴿تِلْكَ الْقُرَىٰ﴾ التي تقدم ذكرها؛ وهي قرى قوم: نوح وهود وصالح ولوط وشعيب ﴿نَقُصُّ عَلَيْكَ﴾ يا محمد ﴿مِنْ أَنْبَاءِهَا﴾ وأخبارها، وما كان من أمر رسل

(١) قرأ نافع وابن كثير وأبو عمرو وأبو جعفر ورويس بإبدال الهمزة الثانية واوًا خالصة من (نشاء أصبناهم)، والباقون بتحقيقها.

(٢) قرأ أبو عمرو بإسكان السين من (رسلهم)، والباقون بضمها.

الله الذين أرسلوا إليهم؛ لتحصل العبرة للمعتبرين، والردع للظالمين، والموعظة للمتقين. وفي هذا تحذير لكل كافر ومكذب برسالة محمد ﷺ ﴿وَلَقَدْ جَاءَتْهُمْ﴾ أي جاءت هؤلاء المكذبين لرسول الله ﷺ ﴿رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ﴾ أي: بالحجج والمعجزات الظاهرة، الدالة على صدقهم، فما كانوا ليوفقهم الله إلى الإيمان؛ بسبب تكذيبهم لرسول الله واستمرارهم على ذلك؛ لأن البينات والبراهين الدالة على صدق الرسل لا تنفع الذين عميت قلوبهم؛ بسبب طغيانهم وتكذيبهم بالحق؛ وقد سَبَقَ في عِلْمِ الله أنهم لا يؤمنون، فما كان الله ليهديهم للإيمان، جزاء ردهم الحق وفساد فطرتهم ﴿وَنَقَلِبْ أَفْقَهُمْ وَابْصُرْهُمْ كَمَا لَوْ يُؤْمِنُوا بِهِمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَنَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ [الأنعام: ١١٠]

وهذه الآية كقوله تعالى: ﴿ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْفُرْقَانِ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْهَا قَائِمٌ وَحَصِيدٌ﴾ [هود] وقوله: ﴿أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ كَانُوا مِنْ قَبْلِهِمْ كَانُوا هُمْ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَءَانَارًا فِي الْأَرْضِ فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ يُدَوِّبِهِمْ وَمَا كَانَ لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ وَاقٍ﴾ [غافر]. وبمثل هذا الختم على القلوب المكذبة، يختم الله على قلب الكافر بمحمد ﷺ؛ فلا يدخله هُدًى ﴿كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِ الْكَافِرِينَ﴾ وهم الذين خالفوا الميثاق المأخوذ على بني آدم بالإيمان، وهم في أصلاب آبائهم، فما كانوا ليؤمنوا عند مجيء الرسل كما سَبَقَ في عِلْمِ الله يوم أخذ عليهم الميثاق أنهم لا يؤمنون، وما ظلمهم الله ولكن كانوا أنفسهم يظلمون، قال تعالى:

١٠٢ - ﴿وَمَا وَجَدْنَا لِأَكْثَرِهِمْ مِنْ عَهْدٍ وَإِنْ وَجَدْنَا أَكْثَرَهُمْ لَفَاسِقِينَ﴾

ثم يبين ﷺ أن أغلب الناس وهم الذين كذبوا رسل الله، ولم يؤمنوا بالله ويوحّدوه، قد خالفوا عهد الفطرة الذي أخذه الله على بني آدم في قوله: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى شَهِدْنَا﴾ [الأعراف: ١٧٢]

والله تعالى يخبرنا: ﴿وَمَا وَجَدْنَا لِأَكْثَرِهِمْ﴾ من الأمم الخالية والقرون الماضية الذين قص الله علينا خبرهم ﴿مِنْ عَهْدٍ﴾ يوفونه مع أنفسهم، وهم من باب أولى ليس لهم وفاء بكل

عهد مع غيرهم، ولا أمانة لهم، ولا ثبات لهم على دين، ولا التزام عندهم بوصية الله التي أوصى بها خلقه أجمعين، ولا انقياد منهم لأوامر الله تعالى نواهيه ﴿وَإِنْ جَدْنَا أَكْثَرَهُمْ لَفَاسِقِينَ﴾ أي: وما وجدنا أكثرهم إلا فسقة خارجين عن طاعة الله وأمره، متبعين لأهوائهم بغير هدى من الله، ولقد امتحن الله عباده بإرسال الرسل وإنزال الكتب وأمرهم بالاتباع فلم يمثل لأمره إلا قليل، وخرج أكثرهم عن طاعة الله، والمراد بالعهد في الآية هو ما فطروهم الله عليه من التوحيد والطاعة والامتنال وهم في أصلاب آبائهم.

سَادِسًا: الْقِصَّةُ الْأَخِيرَةُ: قِصَّةُ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ

١٠٣- ﴿ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ بَعْدِهِم مُّوسَىٰ بِآيَاتِنَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ فَظَلَمُوا بِهَا فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَتْ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ﴾ ﴿١٠٣﴾

جاءت قصة موسى عليه السلام بعد قصص الأنبياء المذكورين قبله في هذه السورة؛ وهم: نوح وهود وصالح ولوط وشعيب، حيث قال تعالى: ﴿ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ بَعْدِهِم﴾ أي من بعد الرسل السابق ذكرهم في السورة، بعثنا ﴿مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا﴾ التسع وهي: العصا واليد والسنون ونقص الثمرات والطوفان والجراد والقمل والضفادع والدم؛ أي: أنه بعد هؤلاء الرسل الست، المذكورين كانت رسالة (موسى بن عمران)، من نسل يعقوب عليه السلام بعثناه إلى قوم عتاة جابرة، وهم فرعون وملأه، فلم يتبعوه، وظلموا أنفسهم بمخالفته.

وقد أخذت هذه القصة مساحة كبيرة من هذه السورة، ومن سائر القصص في سور القرآن الكريم، وقد وردت قصة موسى في أكثر من ثلاثين موضعاً في القرآن الكريم، وفُصِّلَتْ في أكثر من عشر سور؛ وهي: البقرة والمائدة والأعراف ويونس والكهف وطه والشعراء والنمل والقصص وغافر والدخان والنازعات.

وذكر (موسى) عليه السلام في القرآن مئة وستاً وثلاثين مرة، في أربع وثلاثين سورة.

وذكر (هارون) عليه السلام في القرآن عشرين مرة في ثلاث عشرة سورة.

وقد بدأت قصة موسى في سورة (القصص) من مولده عليه السلام وبدأت في سورة (طه) من رسالته، وبدأت في هذه السورة من مواجهة فرعون وملئه بالرسالة، وهي في ذلك تتناسب مع جو كل سورة وهدفها، ومن المعلوم أنه في ذلك الزمان كان يقال لملك

مصر فرعون، كما يقال لمَلِكِ الفرس كسرى، ولملك الروم قيصر، ولملك الحبشة النجاشي.

وكان اسم فرعون الذي في عهد موسى (الوليد بن مصعب)، وهو مفتاح بن رمسيس الثاني، الذي حَكَمَ مصر في الفترة من سنة ١٢٣٠ قبل الميلاد إلى سنة ١٢١٥ قبل الميلاد، وكانت عاصمة الفراعنة في (طيبة الأقصر) بمصر^(١) وهو أحد ملوك العائلة التاسعة عشرة من العائلات التي ملكت مصر سنة ١٤٩١ قبل الميلاد.

ومعنى فرعون: نور الشمس؛ وذلك لأن (رع) اسم للشمس، وكان القوم يعبدون الشمس؛ فجعلوا مَنْ يملك مصر بمنزلة نور الشمس؛ لأنه يُصلح الناس، - على حد زعمهم - وبدأ ذلك في القرن الثالث عشر قبل الميلاد تقريبًا.

قصة موسى مع فرعون وقصته مع قومه:

وتتناول قصة موسى في سورة (الأعراف) جانبين من جوانب قصته المتكاملة في سور القرآن كلها:

الجانب الأول: قصة موسى مع فرعون والسحرة من: مواجهتهم بربوبية الله تعالى، إلى إغراقهم في اليمِّ، ومرورًا بإيمان السحرة بموسى ومعجزة العصا واليد.

والجانب الآخر: هو قصة موسى مع قومه، وهم بنو إسرائيل، ويأتي هذا الجانب بعد نهاية قصة السحرة من هذه السورة.

والجانبان يمثلان دعوة موسى فرعون إلى توحيد الله أَوَّلًا، ثم تخلص بني إسرائيل من قهر فرعون ثانيًا.

وإلى الأول يشير قوله تعالى: ﴿إِنِّي رَسُولٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ﴾ وإلى الثاني يشير قوله تعالى: ﴿فَأَرْسِلْ مَعِيَ بَنِي إِسْرَءِيلَ﴾.

وبنو إسرائيل هم أول مَنْ واجه الدعوة: بالعداء، والحرب، والكيد، وبث الإشاعات، والتآمر على الإسلام.

وفي تجربة موسى مع فرعون من الدروس والعبر ما ينفع على مدار القرون.

(١) ينظر: أطلس القرآن للدكتور شوقي أبو خليل (ص ٧٩-٨١).

الْجَانِبُ الْأَوَّلُ: قِصَّةُ مُوسَى مَعَ فِرْعَوْنَ وَالسَّحَرَةِ

لقد أرسل الله ﷻ موسى، وأيده بالمعجزات، ومن أولها: العصا واليد، ولكنهم جحدوا وكفروا بها ظلمًا وعنادًا، كما قال تعالى: ﴿وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنْفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا﴾ [النمل: ١٤] فانظر - يا محمد - متبصرًا كيف أغرقنا آل فرعون بمرأى من موسى ومن معه، وتلك عاقبة المفسدين في كل زمان ومكان، ﴿فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَتْ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ﴾ والنظر والتدبر في عواقب المكذبين للاعتبار بهم والاستفادة مما حدث لهم. وفي هذا الجانب من القصة: ثلاث مواجهات:

الْمُؤَاجَهَةُ الْأُولَى بَيْنَ مُوسَى وَفِرْعَوْنَ

دعوة موسى لفرعون لها هدفان هما: الدعوة إلى التوحيد، وتخليص بني إسرائيل منه:

١٠٤- ﴿وَقَالَ مُوسَى يَنْفِرْعَوْنَ إِنِّي رَسُولٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ﴾

هذا تفصيل لما أجملته الآية السابقة، وفيه حوار موسى مع فرعون:

وقد كانت هذه المواجهة لبيان الحقيقة الكبرى التي جاء بها كل رسول إلى قومه؛ ألوهية واحدة، وعبادة شاملة لله وحده، حيث واجه موسى فرعون بقوله: ﴿إِنِّي رَسُولٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ﴾ وهي دعوة كل رسول لقومه، قال موسى لفرعون محاورًا ومبلغًا ما أمر به: إني رسول من الله خالق الخلق أجمعين، ومدير أحوالهم وأمورهم، وقوله: ﴿رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ يشمل فرعون ومملكته، فتبطل دعواه أنه ملك مصر بطريق اللزوم، ويدخل في ذلك جميع العباد والبلاد، وفيها بيان أن الله تعالى لم يترك عباده سدى، وأنه قد أرسل إليهم الرسل مبشرين ومنذرين، ومنهم موسى ﷺ؛ وهو جدير بقول الحق، مؤيد بالمعجزات والدلائل الواضحة، يدعو الناس إلى وحدانية الله تعالى، ويخلص بني إسرائيل من بطش فرعون، وهذا معنى قوله:

١٠٥- ﴿حَقِيقٌ عَلَىٰ ^(١) أَنْ لَا أَقُولَ عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقُّ قَدْ جِئْتُكُمْ بِبَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ فَأَرْسِلْ

(١) قرأ نافع بياء مشددة مفتوحة بعد اللام من (حقيق على) على أن (على) حرف جر دخل على بياء المتكلم، ثم قلبت الألف ياء وأدغمت الياء في الياء، وقرأ الباقون بألف بعد اللام على أنها حرف جر بمعنى الباء؛ أي: حقيق بقول الحق.

مَعِيَ^(١) بَقِيَ إِسْرَءِيلَ^(٢) ﴿١٥٥﴾

قال موسى لفرعون: وإن الله قد اصطفاني واختارني لرسالته، وأنا جدير بعدم الكذب على الله، وحرى بالتزام الحق، فالرسول لا يقول إلا حقًا، وقد جئتكم ببرهان من ربكم على صدق قلبي، وحجة قاطعة أنني رسول الله حقًا، ولو أنني قلت غير ذلك لعاجلني الله بالعقوبة وأخذني أخذ عزيز مقتدر، وهذا أمر موجب لأن تتبعوني، فقد جئتكم بمعجزات دالة على صدق دعوتي لكم، فأطلق معي يا فرعون بني إسرائيل من أسرك وقهرك وخلّ سبيلهم من الرق لعبادة الله وحده، ولما كان خروجهم من مصر متوقفًا على أمر فرعون ووزرائه؛ بعث الله موسى إليه يدعوه إلى التوحيد، ويطلب منه إطلاق سراح بني إسرائيل، وهما مقصود رسالتي إليكم.

وفي سورة (النازعات) قال الله له: ﴿أَذْهَبَ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَىٰ﴾ ﴿٢٤﴾ [النازعات] بلّغه دعوة ربك، وادعه إلى التوحيد، وإلى عبادة الله وحده، وذهب موسى برفقة أخيه هارون - عليهما السلام - إلى فرعون يدعوه - أَوَّلًا - إلى توحيد الله سبحانه، ويدعوه - ثانيًا - إلى إطلاق سبيل بني إسرائيل ﴿فَأَتَيْنَا فِرْعَوْنَ فَقُولَا إِنَّا رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ ﴿٦٦﴾ أَنْ أَرْسِلَ مَعَنَا بَقِيَ إِسْرَءِيلَ ﴿٧﴾ [الشعراء]

وفي هذا إشارة إلى أن موسى عليه السلام قد أرسله الله إلى فرعون وملاه، وأرسله أيضًا إلى بني إسرائيل، ولم يُوجَّه موسى دعوته إلى أهل مصر، وكانوا يعبدون البقر وقتها، لأن الناس على دين ملوكهم، وإذا آمن فرعون وحاشيته الكبار، فإن الرعية سيتبعونهم حتمًا.

فِرْعَوْنُ يَطْلُبُ الْبَيِّنَةَ مِنْ مُوسَى عَلَىٰ رِسَالَتِهِ وَاللَّهُ تَعَالَىٰ يُؤَيِّدُهُ بِهَا:

١٠٦- ﴿قَالَ إِنْ كُنْتَ جِئْتَ بِآيَةٍ فَأْتِ بِهَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصّٰدِقِينَ﴾ ﴿١٦٦﴾

وبعد أن دعا موسى فرعون إلى توحيد الله تعالى، يأتي الحوار بينهما في شأن السحرة؛ حيث طلب فرعون من موسى دليلًا وبينة على أنه رسول من رب العالمين، قال فرعون لموسى: إن كنت جئت متمكنًا من ظهور المعجزات فأْتِ بآية كما زعمت، وأخضرها عندنا؛ ليثبت صدقك عندي.

(١) قرأ حفص بفتح ياء الإضافة وصلًا من (فأرسل معي)، والباقون بإسكانها.

(٢) قرأ أبو جعفر بتسهيل همزة (إسرائيل) مع المد والقصر، والباقون بالتحقيق.

رَدَّ موسى ﷺ رَدًّا فعلًا سريعًا، مُبينًا له البينة التي أيده الله بها، وهي العصا التي كانت في يده يهش بها على غنمه، وهي عصا يراها الرائي كالعصا العادية ليس فيها شيء قال تعالى مبينًا تأييد الله له بمعجزتي: العصا واليد:

١٠٧ - ﴿قَالَ قَنِ عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ﴾

فأظهر موسى هذه الآية وألقى عصاه، فتحولت حية عظيمة ظاهرة للعيان ﴿فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ﴾ ووصفت هنا وفي آية أخرى بأنها ﴿ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ﴾ [الشعراء: ٣٢] والثعبان: هو الذكر الضخم العظيم من الحيات، والجان: الحية الصغيرة، ألقاها موسى فإذا هي حية تسعى؛ أي: تدب فيها الحياة وتحرك، حية عظيمة فاغرة فاها، اتجهت نحو فرعون بسرعة، ففزع من مكانه ودب الرعب في قلبه، وانقلب من فوق سريره، واستغاث بموسى أن يحول بينه وبينها، فأخذها موسى فصارت عصا، هذه هي المعجزة الأولى، قال تعالى:

١٠٨ - ﴿وَنَزَعَ يَدَهُ فَإِذَا هِيَ بَيْضَاءُ لِلنَّظِيرِينَ﴾

والمعجزة الثانية: معجزة اليد، فقد أمر الله موسى أن يجذب يده من جيبه أو جناحه، فإذا هي بيضاء كاللبن من غير برص، آية لموسى، فإذا ردها عادت كسائر بدنه؛ وكان موسى أسمر اللون.

عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال: «وأما موسى فآدم، جسيم سبط، كأنه من رجال الرُّط»^(١).

والرُّط: جنس من السودان والهنود، فأمره الله - سبحانه - أن يدخل يده في جيبه أي: من فتحة صدره، ويمدها إلى تحت إبطه، ويضغط عليها، ويثني بأعلى كتفه فوق يده تحت إبطه، ثم يخرج يده من جيبه، فإذا هي تخرج بيضاء لها شعاع كشعاع الشمس، كأنها قطعة من القمر، من غير مرض، ومن غير برص، ولا تشوُّه، ولا سوء.

ثم يأمره الله - سبحانه - أن يعيد يده مرة ثانية، بحيث يُدخلها في جيبه ويضعها تحت إبطه، فإذا هي تعود كما كانت في لونها الأول، معجزتان أيد الله بهما موسى ﷺ، تدلّان على صدق دعواه وصحة رسالته.

(١) ينظر: «تفسير ابن جرير» (٣٤٣/١٠) وابن أبي حاتم (٢٧٥٩/٨)، والحديث في البخاري برقم (٣٤٣٨) عن ابن عمر.

ولما دخل موسى على فرعون، قال له فرعون: أعرفك؟ قال: نعم، قال: ﴿أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدًا﴾ [الشعراء: ١٨] فردَّ عليه موسى بما جاء في سورة الشعراء من أنه قتل القبطي خطأ قبل أن يبعث نبيًا، وأنه فرَّ هاربًا منهم، فاصطفاه ربه وبعثه نبيًا ورسولًا، فقال فرعون خذوه، فبادره موسى بإلقاء عصاه ونزع يده، قال تعالى: ﴿وَأَضْمُمُ يَدَكَ إِلَى جَنَاحِكَ تَخْرُجَ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ آيَةً أُخْرَى﴾ [طه].

المُواجهَةُ الثَّانِيَّةُ بَيْنَ فِرْعَوْنَ وَمَلَأِهِ لِمُنَاطَرَةِ مُوسَى:

١٠٩- ﴿قَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِ فِرْعَوْنَ إِنَّ هَذَا لَسَاحِرٌ عَلِيمٌ﴾

استشار فرعون قومه في شأن موسى حين ألقى بمعجزة العصا واليد أمام فرعون، فقال المَلَأُ (وهم رجال الدولة وحاشية فرعون والأشراف والكبار منهم المستعبدون لبني إسرائيل، وقد بهرهم ما رأوه من الآيات، وبدل أن يُصدِّقوها تَلَمَّسُوا لها التأويلات الفاسدة فقالوا: إن موسى لساحر يأخذ بأعين الناس، بخداعه إياهم، حتى يخيل إليهم أن العصا حية، وهو ساحر عليم، ماهر بالسحر، وكان الساحر عندهم في أعلى المراتب، ومن أعظم الرجال).

ثم إن كبار قوم فرعون خَوْفُوا الضعفاء من قوم موسى، وطلب فرعون مشورة قومه في شأنه فقالوا:

١١٠- ﴿يُرِيدُ أَنْ يُخْرِجَكُمْ مِنْ أَرْضِكُمْ فَأَمَّا تَأْمُرُونَ﴾

أي: أن موسى يريد أن يخرجكم - أيها القوم - من أرض مصر بسحره، وكان بنو إسرائيل قد استوطنوا أرض مصر أربعة قرون؛ ولذا قال بعضهم لبعض: ﴿يُرِيدُ أَنْ يُخْرِجَكُمْ مِنْ أَرْضِكُمْ﴾ فهي كالوطن بالنسبة لهم.

ويمكن أن يكون الخطاب في الآية موجهاً إلى أهل مصر الأصليين تخويفاً لهم من موسى وتأليباً لهم عليه.

وهنا قال فرعون: ﴿فَأَمَّا تَأْمُرُونَ﴾؟ أشيروا عليّ، وهذا موقف الحاكم الطاغية، حين يكون في موقف الضعيف، يتشاور معهم فيما يندفع به الضرر، فهو يقول للذين استعبدتهم واستذلهم: ماذا تأمرون؟ يطلب منهم المشورة؛ أي: بماذا تشيرون عليّ؟ وهو الذي يقول

لهم: ﴿أَنَا رَبُّكُمْ الْأَعْلَى﴾ [النازعات: ٢٤] ويقول: ﴿مَا عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرِي﴾ [القصص: ٣٨] وهكذا أدرك فرعون وقومه خطورة الدعوة إلى الله، كما يدركها الطواغيت في كل زمان ومكان، فيحاولون أن يقابلوها بما يبطلها ويدحضها حتى لا تدخل في عقول أكثر الناس.

لقد قال الرجل العربي -بفطرته وسليقته- حين سمع رسول الله ﷺ يدعو إلى التوحيد: هذا أمر تكرهه الملوك! وقال آخر: إذن تحاربك العرب والعجم.

إذ لا يمكن أن يجتمع في قلب واحد، ولا في أرض واحدة، توحيد الله مع الحُكم بغير شرع الله، ولا يجتمع تأليه الله تعالى وتأليه أحد من خلق الله بطاعته واتباع أمره من دون الله، ولا يصح أن يكون السلطان في حياة الناس لعبد من عباد الله، بتشريعه وقوانينه، ففرعون لم يدع الألوهية؛ بمعنى: أنه خالق الكون ومدبره، وإنما ادعاها بمعنى أنه حاكم الشعب ومستدله بشريعته وقانونه.

وعباداة الناس له معناها: الخضوع لإرادته، وعدم عصيان أمره، وعدم معاندتهم له، وكلا المعنيين (العابد والمعبود) بالمعنى اللغوي للربوبية والعبودية، كما أن المعنى اللغوي للألوهية: هو وضع التشريعات للناس وتنفيذها فيهم، وهذا هو الذي ادّعه فرعون في قوله: ﴿مَا عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرِي﴾ [القصص: ٣٨].

وانعقد رأي الملائ على مناظرة موسى بأكابر سحرة الوقت والزمان:

١١١، ١١٢ - ﴿قَالُوا آتِجْهُ^(١) وَأَخَاهُ وَأَرْسِلْ فِي الْمَدَائِنِ خَشِيرِينَ ﴿١١١﴾ يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَحَرٍ^(٢) عَلِيمٍ

(١) (أرجه) فيها ست قراءات:

- ١- قرأ قالون وابن وردان بخلف عنه بترك الهمزة وكسر الهاء من غير صلة.
 - ٢- قرأ ورش والكسائي وابن جمار وخلف العاشر وابن وردان في وجهه الثاني (أرجهي) بترك الهمزة وكسر الهاء مع الصلة.
 - ٣- قرأ حفص وحزمة وشعبة بخلف عنه (أرجه) بترك الهمزة وسكون الهاء.
 - ٤- قرأ ابن كثير وهشام بخلف عنه (أرجه) بهمزة وضم الهاء مع الصلة.
 - ٥- قرأ أبو عمر ويعقوب وهشام وشعبة في وجهه الثاني (أرجه) بالهمزة وضم الهاء من غير صلة.
 - ٦- قرأ ابن ذكوان بالهمز وكسر الهاء من غير صلة.
- (٢) قرأ حمزة والكسائي وخلف بألف بعد السين، ويفتح الحاء وتشديدها وألف بعدها (بكل سَحَار) على وزن فَعَالٍ للمبالغة، وقرأ الباقون (ساحر) بألف بعد السين وكسر الحاء مخففة..

أشار الملاً على فرعون أن يؤجل النظر في أمر موسى وأخيه، فيُمهلهما بعض الوقت وأن يتوجه إلى جُمع السحرة من كل مكان لإبطال سحره، ولم يشيروا عليه بقتل موسى؛ لأن في قتله إدخال شبهة عليهم، والمطلوب أن يغلبه بالحجة ﴿قَالُوا﴾ أي: مَنْ حضر المناظرة بين موسى وفرعون ﴿أَزْجَاهُ﴾ أمهل موسى وهارون، واعطهما موعداً؛ لنجمع لموسى السحرة ونحشرهم له من صعيد مصر ومن سائر أرجائها؛ حتى يبطالوا سحره ﴿فَأَرْسَلَ فِرْعَوْنُ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ﴾ [الشعراء] وقالوا: نحن على ثقة من الفوز والنصر، فأرح نفسك واستسلم لنا.

أرسل فرعون الشرطة في أنحاء مصر؛ ليجمعوا له كل ساحر واسع العلم بالسحر ويحشروهم له، وجاء السحرة من المدائن، فحضرُوا عند فرعون، وكان السحر في ذلك الوقت قد بلغ شأناً عظيماً ومنزلة كبيرة، يتعلمه الناس في دور التعليم العليا في مصر، وفي بابل، وفي الهند، وفي غيرها من البلاد، يتعلمون السحر، ويفعلونه ويحترفونه بين يدي الملوك والأمراء، فيكافتون عليه، ويعظمون مَنْ يفعلُه.

والسحرة: هم كهنة المعابد والديانات الوثنية التي كانت تؤلّه فرعون، وتمكنه من رقاب الناس.

والسحر أنواع: منه ما له حقيقة، ومنه ما فيه التخيل والتمويه وليس له حقيقة، وإنما هو ضَرْبٌ من الشعوذة ونحوها.

السَّحَرَةُ يَطْلُبُونَ الْأَجْرَ عَلَى لِقَاءِ مُوسَى:

١١٣- ﴿وَجَاءَ السَّحَرَةُ فِرْعَوْنَ قَالُوا إِنَّ^(١) لَنَا لَأَجْرًا إِن كُنَّا نَحْنُ الْغَالِبِينَ﴾

أحضر الشرطة السحرة من أرجاء مصر، ومثلوا بين يدي فرعون وسألوه جائزة مالية إذا هم غلبوا موسى.

ولم يأتِ خبر صحيح بمعرفة عدد هؤلاء السحرة، ولكنهم كانوا كثرة، وأدنى مَنْ

(١) قرأ نافع وابن كثير وحفص وأبو جعفر (إن لنا) بهزة واحدة مكسورة على الخبر، والباقون بهزتين على الاستفهام (أئن لنا)، وكل على أصله بالنسبة للتسهيل والتحقيق والإدخال وعدمه.

عَدَّهْم، عَدَّهْم، بالعشرات، وعدَّهْم آخرون بالآلاف، والساحر أدنى مرتبة من السحار، وهو الماهر المداوم على السحر، العليم بصناعته.

قيل: وكان عدد السحرة اثنين وسبعين ساحراً، وكان موسى قد نصحهم - أولاً - بعدم الدخول معه في معركة هم الخاسرون فيها قطعاً ﴿قَالَ لَهُم مُوسَى وَيْلَكُمْ لَا تَفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ كَذِبًا فَيُسْحِتَكُمْ بِعَذَابٍ وَقَدْ خَابَ مَنِ افْتَرَى﴾ [طه: ٦١] صمم السحرة على لقاء موسى، وطلبوا من فرعون المكافأة، فلبى طلبهم، وزاد عليه قُربهم منه:

١١٤ - ﴿قَالَ نَعَمْ﴾ ^(١) وَإِنَّكُمْ لَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ ﴿١١٤﴾

أجابهم فرعون ﴿قَالَ نَعَمْ﴾ لكم أجر وجائزة كبيرة إن غلبتم موسى، وفوق ذلك فإنكم ستُقَرَّبون مني، وتحظون بذلك عندي، وتكونون من أعز خاصتي وحاشيتي، فوعدهم الأجر والتقريب وعلو المنزلة عنده ليجتهدوا ويبدلوا طاقتهم في مغالبة موسى بحضرة الناس كلهم في ساحة المناظرة، واتفقوا مع موسى على الموعد، وعلى الزمان والمكان، اتفقوا أن يكون الوقت وقت الضحى، حيث يكثر تجمعات الناس، ليس بالصباح الباكر، ولا بوقت الحر في الظهيرة، ولا بالمساء المتأخر، وإنما وقت الضحى حيث يكون التجمع أكثر، والناس كلها متيقظة، واتفقوا أن يكون ذلك في يوم الزينة، ويوم الزينة أعظم أيام اليهود، فهو يوم عيدهم، وهو ما نسميه بعيد الربيع، أو شم النسيم، وجاء الآلاف من كبار السحرة - كما جاء في بعض الروايات - ليبطلوا سحر فرعون.

وفي هذا يقول تعالى: ﴿قَالَ أَجِئْتَنَا لِتُخْرِجَنَا مِنْ أَرْضِنَا بِسِحْرِكَ يَمُوسَى﴾ ﴿٥٧﴾ ﴿فَلَنَأْتِيَنَّكَ بِسِحْرٍ مِّثْلِهِ﴾ ﴿٥٨﴾ ﴿فَلَنَجْعَلَ لَبَنِكَ مَوْعِدًا لَا تَخْلَفُهُ نَحْنُ وَلَا أَنْتَ مَكَانًا سَوًى﴾ ﴿٥٩﴾ ﴿قَالَ مَوْعِدُكُمْ يَوْمَ الزَّيْنَةِ وَأَن يُحْشَرَ النَّاسُ ضُحًى﴾ ﴿٥٩﴾ ﴿فَتَوَلَّى فِرْعَوْنُ فَجَمَعَ كَيْدَهُ ثُمَّ أَتَى﴾ ﴿٦٠﴾ [طه].

وورد أنهم في ليلة الموعد باللقاء اتفقوا على أن يسرقوا العصا، وقالوا: هذا اختبار لموسى، إن كانت هذه العصا عادية، فسوف نسرقها وينتهي الأمر، وإن كانت معجزة، فليس في إمكاننا أن نسرقها، وقد كان الأمر الثاني حيث لم يستطيعوا سرقة عصا موسى ﷺ.

(١) قرأ الكسائي (نعم) بكسر العين، والباقون بفتحها.

الْمُؤَاجَهَةُ الثَّالِثَةُ بَيْنَ مُوسَى وَالسَّحَرَةِ

١١٥- ﴿قَالُوا يَكُومُوسَىٰ إِمَامًا أَن تُلْقَىٰ وَإِمَامًا أَن نَّكُونَ نَحْنُ الْمُلْكَيْنِ﴾ (١١٥)

ثم يأتي الحوار بين موسى والسحرة، فقد اطمأن السحرة على الأجر، واشترأبت أعناقهم للقرب من فرعون، واستعدوا للحلبة، وجاء الموعد، يوم الزينة في وقت الضحى، وحشر الناس، فقال السحرة على وجه التحدي لموسى: إما أن تلقي عصاك أولاً، أو نلقي نحن أولاً، قالوا ذلك على سبيل التأديب مع موسى أو على سبيل التحدي، أو أنهم قالوا ذلك على وجه عدم المبالاة بما جاء به، وكأنهم يقولون له: أنت مطلوب لا محالة.

١١٦- ﴿قَالَ أَلْقُوا فَلَمَّا أَلْقَوْا سَحَرُوا أَعْيُنَ النَّاسِ وَاسْتَهْبَهُمْ وَجَاءُوا بِسِحْرِ عَظِيمٍ﴾ (١١٦)

قال موسى للسحرة: ﴿أَلْقُوا﴾ ليرى الناس ما معهم، وليظهر بطلان سحرهم، وأنه تمويه وتخيل، وتظهر معجزته ببطلان سحرهم وزواله، فألقوا حبالهم وعصيهم ﴿فَلَمَّا أَلْقَوْا سَحَرُوا أَعْيُنَ النَّاسِ﴾ فخيّل إليهم أن ما فعلوه حقيقة، ولم يكن إلا مجرد صنعة وخيال ﴿وَاسْتَهْبَهُمْ﴾ أي: أربهاوا الناس إرباباً شديداً حيث أتوا بثلاث مئة وستين بعيراً موقرة بالحبال والعصي، فلما ألقوها تحركت وملأت الوادي وجعلوا فيها الزئبق، فتحرّكت بسرعة هائلة يركب بعضها فوق بعض؛ فأفزعت الناس وأرهبتهم ﴿وَجَاءُوا بِسِحْرِ عَظِيمٍ﴾ قوي التأثير.

قيل: إنهم جعلوها عصياً مجوفة مملوءة بالزئبق، وجعلوا تحتها أسراباً من نار؛ لأن الزئبق يطير إذا أصابته النار، وكلها حيل صناعية، وفي سورة طه ﴿يُخَيَّلُ إِلَيْهِ﴾ إلى موسى ﴿مِنْ سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَى﴾ [طه: ٦٦] وهي لا تسعى في الحقيقة، إنما هذا تمويه وشعوذة، وليس سحراً حقيقياً.

والمعجزات التي أيد الله بها الرسل، منها ما هو في قدرة البشر، ولكن الله تعالى صرفهم عنها؛ ليُظهر أنها من عند الله، ومنها ما ليس في قدرة البشر؛ كقلب العصا حية، وإحياء الموتى، ولما ألقوا سحرهم خاف موسى من تأثيرهم على الناس ﴿فَأَوْجَسَ فِي نَفْسِهِ خِيفَةً مُّوسَى﴾ [طه] قال سبحانه مُطمئناً له: ﴿لَا تَخَفْ إِنَّكَ أَنْتَ الْأَعْلَى﴾ [طه: ٦٨].

اسْتِسْلَامُ السَّحَرَةِ

١١٧- ﴿وَإِذْ نَادَىٰ إِلَىٰ مُوسَىٰ أَنْ أَلْقِ عَصَاكَ فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ^(١) مَا يَأْفِكُونَ ﴿١١٧﴾﴾

أوحى الله تعالى إلى موسى ﷺ يأمره بإلقاء عصاه التي في يمينه؛ ليفرق بها بين الحق والباطل، والحقيقة والخيال، فألقاها فإذا هي تبتلع ما ألقوه، مما يوهمون الناس به أنه حق، وهو باطل، كما قال تعالى: ﴿وَأَلْقَىٰ مَا فِي يَمِينِكَ تَلْقَفَ مَا صَنَعُوا إِنَّمَا صَنَعُوا كَيْدٌ سَاحِرٌ﴾ [طه: ٦٩] ألقى موسى عصاه، فإذا هي تلتقف الحبال والعصي، ومعنى تلتقف: تأكل بسرعة، وتلتهم حبالهم، وتأتي على الشيء سريعاً، فكانت عصا موسى تأكل العصي والحبال التي ألقاها السحرة، وتلتهمها بسرعة منقطعة النظير، حتى أدركوا أن هذا ليس من فعل البشر، وليس بسحر، إنما هو قوة خارقة فوق طاقة العباد.

قال: إن هذه عصا الأنبياء، كانت عند شعيب، فلما رعى موسى الغنم، قال له شعيب: اذهب فخذ لك عصا من مجموع عصي كانت عنده، فوقعت هذه العصا في يد موسى، فأمره شعيب أن يأخذ غيرها ثلاث مرات، وهي تقع في يده؛ فتركها له شعيب بعد أن أمر بذلك.

١١٨، ١١٩- ﴿فَوَقَعَ الْحَقُّ وَبَطَلَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١١٨﴾ فَغُلِبُوا هُنَالِكَ وَانْقَلَبُوا صَغِيرِينَ ﴿١١٩﴾﴾

ولما ألقى موسى عصاه ظهر الحق واضحاً ظهوراً ستعلن، وتبين لمن حضره أن موسى رسول من رب العالمين، وبطل الكذب الذي فعله السحرة ﴿فَوَقَعَ الْحَقُّ﴾ أي: ظهر واستبان.

وحينئذٍ غلب موسى جميع السحرة في مكان اجتماعهم ﴿فَغُلِبُوا هُنَالِكَ﴾ وانصرف فرعون وقومه أذلاء مقهورين، قد اضمحل باطلهم وتلاشى سحرهم، ولم يحصل لهم ما أرادوه، وأكبر من تبين لهم الحق وصدق موسى، أهل الصنعة، الذين يعرفون أنواع السحر وجزئياته، فعرفوا أن ما جاء به موسى ليس سحر، وإنما هو أمر خارق للعادة فوق قدرة البشر، وبينما هم كذلك؛ إذ بالمفاجأة الكبرى التي تُشفر عن زيف السحرة،

(١) قرأ البري بخلف عنه بتشديد التاء وصلًا، وفتح اللام مع تشديد القاف من (تلقف) وعند الابتداء يخفف التاء، وقرأ حفص بسكون اللام وتخفيف القاف مضارع (لقف)، وقرأ الباقون بفتح اللام وتشديد القاف مضارع (تلقف) وهو الوجه الثاني للبري.

واستسلامهم أمام معجزة موسى، وبطلان سحرهم. قال تعالى:

١٢٠-١٢٢- ﴿وَأَلْقَى السَّحَرَةُ سِحْرَينَ ﴿١٢٠﴾ قَالُوا ءَأَمَّنَّا بِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٢١﴾ رَبِّ مُوسَى وَهَارُونَ﴾

انتهى اللقاء بين موسى والسحرة بإيمانهم واستسلامهم، فقد كان من السحرة حين رأوا معجزة موسى - التي ظنها فرعون ومن معه سحرا - أن خروا سُجَّدًا لله رب العالمين، وآمنوا بموسى نبيًا مرسلًا من رب العالمين، وتضرعوا إلى الله تعالى بهذا الدعاء ﴿رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَتَوَفَّنَا مُسْلِمِينَ﴾ [الأعراف: ١٢٦] وذلك نظرًا لما عاينوه من عظيم قدرة الله تعالى.

ذلكم أن القلوب بين إصبعين من أصابع الرحمن يقلبها كيف يشاء، يصبح الإنسان مؤمنًا ويمسي كافرًا، ويصبح كافرًا ويمسي مؤمنًا، إن الحق قد لامس قلوب السحرة في لحظة؛ فغير ما فيها، وحولهم من الكفر إلى الإيمان، ومن الضلال إلى الهدى، وأزال الركام الذي ران على قلوبهم؛ فحولها في لحظة من الكفر إلى الإيمان حين لامس الحق قلوبهم، وتحذوا فرعون لَمَّا توعدهم أن يقطع أيديهم وأرجلهم من خلاف، فقالوا له: ﴿فَاقْضِ مَا أَنْتَ قَاضٍ إِنَّمَا تَقْضِي هَذِهِ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا﴾ [طه: ٧٢].

وحينئذ أعلن السحرة إيمانهم برب العالمين؛ لأن الحق أبهرهم، فكانوا في أول النهار كفارًا سحرة، وفي آخر النهار مؤمنين بررة، وكان من عادة القبط أنهم يسجدون لفرعون، وقد سجد السحرة لله رب العالمين.

وهو الذي يجب أن يُعبد وحده دون سواه، وورد أن السحرة خروا سجدا لله-اعترافًا منهم بأن ما أتى به موسى معجزة من عند الله، وليس بسحر- وعندئذ أراهم الله - سبحانه - منازلهم وقصورهم في الجنة، فأصروا على موقفهم من الإيمان بموسى، كما أصروا على عناد فرعون، وذلك أنهم لما رأوا عصا موسى تلقف حبالهم وعصيهم؛ جزموا بأن ذلك خارج عن طاقة الساحر، فعلموا أنه تأييد من الله لموسى ﷺ، وأيقنوا أن موسى رسول من عند الله، وأن ما يدعوههم إليه حق.

فِرْعَوْنُ يَتَوَعَّدُ السَّحَرَةَ

١٢٣- ﴿قَالَ فِرْعَوْنُ ءَامَنْتُمْ^(١) بِهِ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ إِنَّ هَذَا لَمَكْرٌ مَكْرَتُمُوهُ فِي الْمَدِينَةِ لِتُخْرِجُوا مِنْهَا أَهْلَهَا فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿١٢٣﴾﴾

لم يرق لفرعون وملئه ما شاهدوه من إيمان السحرة، ولم يدركوا ما يفعله الإيمان في قلوب الناس؛ فأنكر فرعون على السحرة إيمانهم بموسى، وأخذ يتهددهم ويتوعددهم بالموت والصلب، وكان فرعون حاكماً مستبداً يملك أبدان الناس وأقوالهم، فقوله هو المطاع، وأمره هو النافذ ﴿فَاسْتَحَفَّ قَوْمَهُ فَأَطَاعُوهُ﴾ [الزخرف: ٥٤] وهكذا الأمم التي تضعف، فتتخط وتعجز عن المدافعة عن حقوقها، وتقبل الضيم والذل والهوان، ولذلك قال فرعون للسحرة توبيخاً لهم: ﴿ءَامَنْتُمْ﴾ بموسى ﴿قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ﴾ بالإيمان به؟

والإيمان في القلب لا يستأذن في الدخول، وإنما هذا موقف المتخاذل، حيث قال لهم فرعون: إن إيمانكم ليس عن قناعة منكم، بل إن إيمانكم بالله وإقراركم بنبوة موسى لحيلة احتلتموها أنتم وموسى فتواطأتم أنتم وهو على أن تغلبوا له، حتى تظهر رسالته فتتبعوه ويتبعكم جمهور الناس: ﴿إِنَّ هَذَا لَمَكْرٌ مَكْرَتُمُوهُ فِي الْمَدِينَةِ﴾ أي: مدينة مصر، لتخرجوا أهلها منها إلى الصحراء، وتستأثروا أنتم بخيراتها ﴿فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ أيها السحرة، ما يحل بكم من العذاب والنكال، وهذا وعيد وتهديد لهم، ومع أن موسى لم يلتق بالسحرة

(١) أصل كلمة (آمتم) بثلاث همزات (أأأمتم) الهمزة الأولى للاستفهام، والثانية همزة أفعل، والثالثة فاء الكلمة، فالهمزة الثالثة يجب قلبها ألفاً لجميع القراء، واتفق القراء على عدم الإدخال بين الهمزتين الباقيتين، وللقراء فيهما أربعة أوجه:

الأول: قرأ قالون والأزرق عن ورش والبيزي وأبو عمرو وابن ذكوان وأبو جعفر وهشام بخلف عنه، بتحقيق الهمزة الأولى وتسهيل الهمزة الثانية وألف بعدها.

الثاني: قرأ الأصبهاني عن ورش وحفص ورويس بإسقاط الهمزة الأولى، وتحقيق الهمزة الثانية وألف بعدها.

الثالث: قرأ قبيل بإبدال الهمزة الأولى واواً خالصة حالة وصل (آمتم) بما قبلها، وله في الهمزة الثانية التحقيق والتسهيل، وإذا ابتدأ بـ (آمتم) فإنه يقرأ بتسهيل الهمزة الثانية كالبيزي.

الرابع: قرأ شعبة وحمزة والكسائي وروح وخلف العاشر وهشام في وجهه الثاني بهمزتين محقتين وألف بعدهما.

ولم يتعرف عليهم، فإن فرعون اتهمهم بالتواطؤ معه؛ ليصرف الناس عن التأثير بهم، ويصرفهم عن اتباع موسى ﷺ بإدخال الشك في نفوسهم، ثم توعدهم فرعون قائلاً:

١٢٤- ﴿لَأَقْطَعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ مِّنْ خَلْفٍ ثُمَّ لَأُسَبِّحَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ﴾

ولم يتوعدهم فرعون بالسجن، أو بالطرد من البلاد، أو بمصادرة أموالهم ونحو ذلك، إنما توعدهم بالقتل، وأن يمثل بهم بعد قتلهم؛ فيقطع أيديهم اليمنى وأرجلهم اليسرى أو العكس، ثم يعلقهم جميعاً على جذوع النخل، ولن أفعل هذا بأحد دون أحد، بل كلكم سيذوق هذا العذاب.

إِيمَانُ السَّحَرَةِ بِاللَّهِ رَبِّاً وَبِمُوسَى نَبِيّاً

١٢٥- ﴿قَالُوا إِنَّا إِلَىٰ رَبِّنَا مُنْقَلِبُونَ﴾

وكان الإيمان الذي ألقاه الله تعالى في قلوب السحرة أقوى من هذا كله، فقد أعلنوا إيمانهم دون خوف ولا تردد، ولا مبالاة بعقوبته، فالله خير وأبقى، فاقض ما أنت قاض، وهل قطع فرعون أيديهم وأرجلهم من خلاف كما قال أم لا؟

قال الكلبي: إن فرعون قطع أيديهم وأرجلهم وصلبهم.

وقال غيره: إنه لم يقدر على ذلك؛ لقول الله تعالى عنه لموسى وهارون: ﴿فَلَا يَصِلُونَ إِلَيْكُمَا بِأَيِّدِنَا أُنْتَمَا وَمِنْ أَتْبَعِكُمَا الْعَالِيُونَ﴾ [القصص: ٣٥].

قلت: ولعل هذا هو الأرجح؛ لأنه لو حدث لاستفاض وانتشر، وما يُنسب إلى ابن عباس أنهم أمسوا شهداء بررة غير ثابت عنه.

قالوا: لا بأس ولا ضرر من الصلب والقتل، ولا مانع من العذاب والتنكيل والتمثيل، ولا حرج من الاستشهاد والموت في سبيل الله، وقالوا: إنا راجعون إلى الله، وإن عذابه أشد من عذابك، فلنصبر على عذابك ﴿إِنَّا نَطْمَعُ أَنْ يَغْفِرَ لَنَا رَبُّنَا خَطَايَنَا أَنْ كُنَّا أَوَّلَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الشعراء] لقد ثبتوا على إيمانهم، وقالوا لفرعون: ﴿لَنْ نُؤْثِرَكَ عَلَىٰ مَا جَاءَنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالَّذِي فَطَرَنَا﴾ نحن أهل العلم بالسحر، ولن نفضلك على ما رأيناه بأعيننا.

﴿فَاقْضِ مَا أَنْتَ قَاضٍ﴾ افعل ما تريد، حتى لو كان القضاء على إزهاق أرواحنا ﴿إِنَّمَا

نَقَضَىٰ هَذِهِ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ﴿٧٢﴾ إِنَّا ءَامَنَّا بِرَبِّنَا لِنَغْفِرَ لَنَا خَطَايَنَا وَمَا أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ السِّحْرِ وَاللَّهُ خَبِيرٌ
وَأَنفَىٰ ﴿٧٣﴾ إِنَّهُ مَن يَأْتِ رَبَّهُ مُجْرِمًا فَإِنَّ لَهُ جَهَنَّمَ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَىٰ ﴿٧٤﴾ وَمَن يَأْتِهِ مُؤْمِنًا قَدْ عَمِلَ
الصَّالِحَاتِ فَأُولَٰئِكَ لَهُمُ الدَّرَجَاتُ الْعُلَىٰ ﴿٧٥﴾ ﴿طه﴾

إنه إيمان لا يتزعزع ولا يخضع، ولا يخنع ولا يداهن ولا يوارى.

ويواصل السحرة تأكيد إيمانهم بالله، وعدم مبالاتهم بما يحدث لهم من فرعون وعقوبته لهم وانتقامه منهم، حيث قالوا:

١٢٦- ﴿وَمَا نَنفِقُ مِنَّا إِلَّا أَتْ ءَامَنَّا بِرَبِّنَا لَمَّا جَاءَنَا رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَتَوَفَّنَا مُسْلِمِينَ﴾

قال السحرة لفرعون: ليس هناك من سبب تعذبنا لأجله إلا إيماننا بالله ﷻ، وهو أعظم محاسنتنا، فلست تكره منا ولا تعيب علينا -يا فرعون- إلا إيماننا ببراهين ربنا وأدلتها الساطعة، التي ظهرت على يد موسى واضحة جلية تدل على نبوته، وليس في استطاعتك أنت ولا غيرك من البشر الإتيان بمثلها.

ثم ختموا مناقشتهم لفرعون بالانصراف عنه، والتوجه إلى الله تعالى أن يشبتهم على دينه ويتوفاهم مسلمين ممثلين لأمره ونهيه قائلين: أفض علينا يا رب صبراً عظيماً وثباتاً على الإيمان، وتوفنا منقادين لأمرك متبعين لرسولك، وفيها دليل على أن الإسلام هو دين الخلق أجمعين.

حَاشِيَةُ فِرْعَوْنَ يُؤَلِّبُونَهُ عَلَى مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ

١٢٧- ﴿وَقَالَ الْمَلَأُ مِن قَوْمِ فِرْعَوْنَ أَتَنْذَرُ مُوسَى وَقَوْمَهُ لِيُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَيَذَرَكَ وَءَالِهَتَكَ قَالَ سَنْقُتِلُ^(١) أَبْنَاءَهُمْ وَسَتَجِيءُ نِسَاءَهُمْ وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَاهِرُونَ ﴿١٢٧﴾﴾

قال الملأ، وهم حاشية فرعون ورجال دولته وقومه، تهيجاً له على الإيقاع بموسى ﷺ وهم يزعمون أنه على باطل، قالوا لفرعون في عناد وتأمر وتحريض وإصرار، وتأليب له ضد موسى بعد الهزيمة والخذلان: أتدع موسى وقومه من بني إسرائيل ليفسدوا الناس

(١) قرأ نافع وابن كثير وأبو جعفر بفتح النون وإسكان القاف وضم التاء مخففة من (سقتل) مضارع قتل يُقْتَل على الأصل، وقرأ الباقر بضم النون وفتح القاف وكسر التاء مشددة، مضارع قتل يُقْتَل للتكثير.

في أرض مصر؛ بتغيير دينهم بعبادة الله، وبتكاثر موسى وأتباعه، ويذكر فلا يطيعك، ويذر آلهتك فلا يطيعها؟

آلهة الفراعنة: وقد كان فرعون وقومه يعبدون أصنامًا من دون الله، فكانوا يعبدون آلهة شتى من الكواكب وغيرها، وأشهرها صنم: (فتاح)، وكان يُعبد في مدينة (منفيس)، ومنها (إزيريس) و(إزيس) و (هوروس) وهو ثالث مجموع من أب وأم وابن، ومنها (توت) وهو القمر، وكان عندهم رب الحكمة، ومنها (آمون) وكانوا يعبدون الشمس، وإلهها يسمى (رع)، وكانت لهم أصنام أخرى فرعية.

وورد عن ابن عباس أن فرعون كان إذا رأى بقرة حسناء يأمر قومه بعبادتها؛ ولذا فإن السامري صنع لهم عجلًا من الذهب.

وقيل: إن فرعون كان دهرًا ينكر وجود الخالق سبحانه، فاتخذ أصنامًا على صورة الكواكب وكان يعبدها ويأمر بعبادتها، ويقول لهم: أنا ربكم ورب هذه الأصنام؛ ولذا وصف نفسه بالأعلى في قوله: ﴿أَنَا رَبُّكُمْ الْأَعْلَى﴾^(١)،

وكان القبط^(٢) يعتقدون أن فرعون قد حلت فيه الإلهية، على نحو عقيدة الحلول والاتحاد؛ فكانوا يعبدونه على أنه المنفذ للدين.

﴿قَالَ﴾ فرعون: ﴿سَنَقْتُلُ أَبْنَاءَ هَؤُلَاءِ فَسَوَّيْنَاهُمْ نِسَاءَهُمْ﴾ أي: سنفعل بهم كما حدث من قبل، فقد فعل فرعون ذلك ببني إسرائيل عند ولادة موسى، ولم يقدر على مس موسى بأذى؛ لما أيده الله به من المعجزات، فتوجه إلى قومه وقال: سنقتل الذكور من بني إسرائيل، ونستبقي النساء للخدمة، وإنا فوقهم قائمون عليهم بالقهر والقوة.

(١) يراجع: «تفسير البغوي والخازن» و«التحرير والتنوير» وغيرها للآية.

(٢) لفظ (القبط) قديمًا، يراد به أهل مصر جميعًا، بخلاف ما يزعمه بعض الناس من أن الأقباط، هم المسيحيون فحسب، والمسيحيون يستغلون ذلك ليُضْفُوا على أنفسهم أنهم أصل مصر، لا سيما بعد مجيء الإسلام، وأنهم أصبحوا قلة لا تذكر إلى جوار المسلمين!

مُوسَى يُوصِي قَوْمَهُ بِالصَّبْرِ وَيُلَوِّحُ لَهُمْ بِالنَّصْرِ

١٢٨- ﴿قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ اسْتَعِينُوا بِاللَّهِ وَأَصْبِرُوا إِنَّ الْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ (١٢٨)

بلغ موسى تهديدُ فرعون ووعيده له ولقومه، فلم يحفل به، بل أوصى قومه بالصبر، ولَوِّحَ لهم بالنصر؛ وحينئذٍ لجأ موسى إلى ربه، وطلب من بني إسرائيل أن يصبروا على ما نالهم من فرعون من المكاره في أنفسهم وأبنائهم، ويعتمدوا على الله في جلب ما ينفعهم ودفع ما يضرهم، ويلزموا الصبر على ما يحل بهم، ويتنظروا فرج الله عز وجل، فهذه الأرض ليست ملكاً لفرعون وقومه حتى يتحكموا فيها، وإنما هي ملك لرب العالمين، يورثها مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ، وفق سنة الله في تداول الأيام بين الناس، وقد جرت سنة الله تعالى أن يجعل العاقبة الطيبة لمن يخشى الله ويخافه والمراد بالأرض في الآية، الدنيا كلها.

بَنُو إِسْرَائِيلَ يُسَيِّوُونَ الرَّدَّ، وَمُوسَى يَتَلَطَّفُ مَعَهُمْ

١٢٩- ﴿قَالُوا أَوَإِذَا مِنْ قَبْلِ أَنْ تَأْتِيَنَا وَمِنْ بَعْدِ مَا جِئْتَنَا قَالَ عَسَى رَبُّكُمْ أَنْ يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ﴾ (١٢٩)

ولكن هذا لم يُهدئ من روع القوم، بل كان ردهم يدل على سفاهتهم ﴿قَالُوا﴾ يا موسى، لقد وعدتنا بزوال ما نحن فيه من شدة ومشقة، وكانوا يظنون أن ما مكثوا فيه من عذاب فرعون سيزول عنهم فوراً، فلذا قالوا: لقد أصابنا الأذى من فرعون قبل أن تأتينا بالرسالة، فإن فرعون قتل الرجال واستبقى النساء، وأصابنا الأذى حالياً كما ترى من سوء أحوالنا واشتغالنا بالمهن الحقيرة، وهو يفعل ذلك بنا بعد أن جئتنا، فيستعبدنا ويستذلنا.

قال لهم موسى في صورة الرجاء لئلا يكذبوه: لعل الله أن يهلك فرعون وقومه ويستخلفكم في الأرض بعده، فيمكنكم منها ويجعل لكم التدبير فيها، فينظر كيف تعملون هل تشكرون أم تكفرون؟ وفي هذا تحريض لهم على طاعة الله؛ ليصلحوا في الأرض بعد استخلافهم فيها، وقد حقق الله رجاء موسى؛ فأغرق فرعون وجنوده ونجى بني إسرائيل من الغرق ومن استعباد فرعون لهم.

مِنْ مُعْجَزَاتِ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ

١٣٠- ﴿وَلَقَدْ أَخَذْنَا آلَ فِرْعَوْنَ بِالسِّنِينَ وَنَقْصٍ مِنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَذْكُرُونَ﴾ ﴿١٣٠﴾

ثم إن الله سبحانه أرسل على فرعون وملئه أنواعاً من العذاب بعدما تهددهم وتوعددهم بقتل الرجال واستبقاء النساء .

والمعنى : ولقد ابتلينا فرعون وقومه بسبع عقوبات جاء ذكرها في هذه الآية وما بعدها ؛ فقد ابتليناهم :

١- بالسنين والقحط والجذب والجوع .

٢- ونقص ثمارهم وغلاتهم ﴿وَنَقْصٍ مِنَ الثَّمَرَاتِ﴾ نتيجة الجفاف وقلة المياه .

﴿لَعَلَّهُمْ يَذْكُرُونَ﴾ فيرتدعون عن ضلالهم ويرجعون إلى ربهم .

وما حدث لآل فرعون من البلاء سنة من سنن الله في عباده أن يأخذهم بالبأساء والضراء لعلهم يضرعون .

ثم إن الله تعالى أجاب على قولهم لموسى عليه السلام ﴿أَوَدِينَا مِنْ قَبْلِ أَنْ تَأْتِيَنَا وَمِنْ بَعْدِ مَا جِئْنَا﴾ بأنهم قوم ينسبون الحسنة لأنفسهم، وينسبون السيئة لغيرهم :

١٣١- ﴿فَإِذَا جَاءَهُمُ الْحَسَنَةُ قَالُوا لَنَا هَذِهِ وَإِنْ تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَطَّيَّرُوا بِمُوسَى وَمَنْ مَعَهُ أَلَا

إِنَّمَا طَّيَّرَهُمْ عِنْدَ اللَّهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ ﴿١٣١﴾

أي : إن فرعون وقومه ينسبون الخير لأنفسهم وينسبون الشر لموسى، قال سبحانه : ﴿فَإِذَا جَاءَهُمُ الْحَسَنَةُ﴾ أي : إذا جاءهم الرزق الواسع بعد هذا الاختبار والابتلاء، قال فرعون وملؤه : لنا هذه ؛ أي : نحن مستحقون لهذا، نحن أهل خبرة، ونحن أهل لهذه النعمة ﴿وَإِنْ تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ﴾ جوع ومرض تشاءموا بموسى وقالوا هذا لموسى ومن معه، يقول تعالى : ﴿أَلَا إِنَّمَا طَّيَّرَهُمْ عِنْدَ اللَّهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ أي : أن ما يصيبهم من الجذب والقحط والجوع إنما هو بقضاء الله وقدره ؛ بسبب ذنوبهم وكفرهم، ولكن قوم فرعون لا يعلمون ذلك لانغماسهم في الجهل والضلال .

وبمثل هذا قال قوم ثمود لصالح عليه السلام : ﴿قَالُوا أَطِئْنَا بِكَ وَبِمَنْ مَعَكَ قَالَ طَّيَّرَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ بَلْ

أَنْتُمْ قَوْمٌ تُفْتَنُونَ ﴿١٣٢﴾ [النمل].

وهكذا قال أهل القرية عندما جاءها المرسلون: ﴿قَالُوا إِنَّا تَطَيَّرْنَا بِكُمْ لَئِنْ لَمْ تَنْتَهُوا لَرْجَمْنَاكُمْ وَلَمِسَّاكُمْ مَنَا عَذَابُ أَلِيمٌ﴾ [يس].

وقد بين تعالى في كل الأحوال أن ما يصيب القوم من بؤس وشؤم ليس من قبل الرسل، وإنما بسبب كفرهم ومعاصيهم، وقد نهى الإسلام عن التشاؤم، كما جاء في حديث عبد الله بن عمر رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «لا عدوى ولا طيرة، والشؤم في ثلاث: في المرأة، وفي الدار، وفي الدابة»^(١).

هذا: ولما عاقب الله آل فرعون بالقحط والجوع ونقص الثمرات؛ قالوا لموسى: إننا لن نتبع دعوتك، مهما أتيتنا بآية، فما أنت إلا ساحر، ونحن لن نصدقك في دعواك:

١٣٢ - ﴿وَقَالُوا مَهْمَا تَأْتِنَا بِهِ مِنْ آيَةٍ لِنَسْحَرَنَّ بِهَا فَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ﴾ ﴿١٣٢﴾

أي: قال قوم فرعون لموسى: لن نؤمن لك ولن نصدقك مهما أقمت لنا من حجة واضحة؛ لتصرفنا بها عما نحن فيه من دين فرعون، فقد تقرر عندنا أنك ساحر، وأن ما جئت به سحر، وقالوا: مهما جئتنا من آية تدل على صدقك وتأخذ بألبابنا لنترك آلهتنا ونتبعك ﴿فَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ﴾ وهذا نفي قاطع من بني إسرائيل بعدم الإيمان بموسى ﷺ، وسموها آية من باب السخرية مع اعتقادهم أنها آية، وإلا فكيف يسمونها آية ثم يقولون ﴿لِنَسْحَرَنَّ بِهَا؟!﴾

١٣٣ - ﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الطُّوفَانَ وَالْجَرَادَ وَالْقُمَّلَ وَالضَّفَادِعَ وَالْدَّمَ آيَاتٍ مُفَصَّلَاتٍ فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا مُجْرِمِينَ﴾

وهنا تتدخل القوة الإلهية؛ لعقوبتهم وتطاولهم على رسول الله ﷺ، حيث أرسل الله عليهم نتيجة هذا العناد والتكذيب والطغيان؛ أنواع العذاب المختلف، بالإضافة إلى ما سبق ذكره من الأخذ بالسنين ونقص الثمرات، فيتبع ذلك خمس عقوبات أخرى نذكرها تباعاً:

٣ - ﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الطُّوفَانَ﴾ أي: المطر الشديد الجارف، والسيل الشديد من السماء أو من فيضان النيل حتى عمّ وطم الأرض، وتراكم الماء فوقها، حتى كادوا أن يهلكوا، وأصبحوا لا

(١) «صحيح البخاري» برقم (٢٠٩٩، ٢٨٥٨، ٥٧٥٣، ٩٣٥٠) و«صحيح مسلم» برقم (٢٢٢٤، ٢٢٢٥).

يمكنهم الخروج من بيوتهم، وأغرق أشجارهم وزروعهم، وأضرَّ بهم ضرراً كثيراً.

٤- وأعقب ذلك الجراد بعد أسبوع، فأرسل الله عليهم الجراد حتى غطَّى ضوء الشمس؛ فأكل ما اخضرَّ من زرعهم وثمارهم ونباتهم.

جاء في الحديث عن عبد الله بن أبي أوفى رضي الله عنه قال: غزونا مع رسول الله ﷺ سبع غزوات نأكل الجراد^(١).

وفي حديث ابن عمر رضي الله عنهما عن النبي ﷺ: «أُحِلَّتْ لَنَا مِيتَانِ وَدَمَانِ، الْحَوْتَ وَالْجِرَادَ، وَالْكَبِدَ وَالطَّحَالَ»^(٢).

٥- وأرسل الله عليهم القمل وهو القمل المعروف، حتى أقضَّ مضاجعهم، وأذهب نومهم وقضى على نباتهم وحيواناتهم، وقيل: هو السوس الذي يأكل الحبوب ويأتي عليها، أو هو البعوض والذباب، وقيل: هو الدَّبَاءُ، أي صغار الجراد.

٦- ثم أعقب ذلك الضفادع، فملأت آنيتهم وأطعمتهم ومضاجعهم، وأقلقتهم، وأذنتهم إيذاءً شديداً.

عن عبد الرحمن بن عثمان التيمي أن طبيباً ذكر ضفدعاً في دواء عند رسول الله ﷺ؛ فنهى رسول الله ﷺ عن قتله^(٣).

وورد في التوراة أنها غطَّت أرض مصر؛ فملأت بيوتهم وأماكنهم وفراشهم ومجالسهم، وإذا تكلم الإنسان وجد الضفدعة على فمه حين يفتح فاه، وهكذا إذا أراد أحدهم أن ينام وجدها في نومه.

(١) «صحيح البخاري» برقم (٥٤٩٥) و«صحيح مسلم» برقم (١٩٥٢).

(٢) «مسند الشافعي» (١٧٣٤) و«مسند أحمد» (٩٧/٢) برقم (٥٧٢٣) حديث حسن، فيه عبد الرحمن بن زيد ابن أسلم وبقية رجاله ثقات رجال الصحيح (محققوه) و«سنن ابن ماجه» برقم (٣٢١٨)، وعبد بن حميد في المنتخب (٨٢٠) والدارقطني في السنن (٢٧١/٤) والبغوي في شرح السنة (٢٨٠٣).

(٣) «المسند» (١٥٧٥٧، ١٦٠٦٩) إسناده صحيح ورجاله ثقات (محققوه) وأبو داود (٣٨٧١، ٥٢٦٩) والنسائي (٤٣٦٦) و«صحيح سنن أبي داود» (٣٢٧٩). وابن أبي شيبه (٩٢/٨) والطيالسي (١١٨٣) وعبد بن حميد في المنتخب (٣١٣).

٧- وأرسل الله عليهم الدم، وهو الآية السابعة -بعد الجذب ونقص الثمرات في الآية ١٣٠ السابقة- فانقلب الماء إلى دم بالنسبة لفرعون وقومه، فلم يجدوا ماءً صالحاً للشرب، فكانوا إذا مَدُّوا أيديهم في ماء بحر أو نهر أو بئر أو غير ذلك وجدوه دمًا، وكان الدم يسيل من أنوفهم بصورة متدفقة^(١).

جاء في التوراة أن نهر النيل انقلب دمًا سبعة أيام، وهذا بالنسبة لفرعون وملئه، ولم ينقلب الماء دمًا بالنسبة لبني إسرائيل، فهذه آيات من آيات الله، لا يقدر عليها غيره، بعضها مفرق ومنفصل في الزمان عن بعض، ومع كل ذلك ترفع قوم فرعون واستكبروا عن الإيمان به، وكانوا قومًا مجرمين عاملين بما نهى الله تعالى عنه من المعاصي.

الْفَرَاعِنَةُ يُعَدُّونَ بِالْإِيمَانِ وَإِطْلَاقِ سَرَّاحِ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَيَنْكُثُونَ وَعْدَهُمْ

١٣٤- ﴿وَلَمَّا وَقَعَ عَلَيْهِمُ الرِّجْزُ قَالُوا يَمْوَسَىٰ آدَعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِنْدَكَ لَئِنْ كَشَفْتَ عَنَّا الرِّجْزَ لَنُؤْمِنَنَّ لَكَ وَلَنُرْسِلَنَّ مَعَكَ بَنِي إِسْرَءِيلَ﴾

وكل ما نزل على فرعون وقومه نوعٌ من أنواع العذاب، السابق ذكرها في الآيات السبع، أو أن الذي نزل عليهم وباء معين هو مرض الطاعون، فلما نزل بهم، استغاثوا وذهبوا إلى موسى يطلبون؛ منه أن يدعو ربه بما عهد عنده ويشفع لهم، قائلين له: أسعفنا يا موسى بالدعاء بما لك عند الله من عهد وكرامة ونبوة ورسالة، ﴿لَئِنْ كَشَفْتَ عَنَّا﴾ هذا النوع من العذاب ﴿لَنُؤْمِنَنَّ لَكَ﴾ وهذا وعد منهم بالإيمان به، والوعد الثاني ﴿وَلَنُرْسِلَنَّ مَعَكَ بَنِي إِسْرَءِيلَ﴾ وهو طلبك الذي طلبته، ولكنهم قوم من شأنهم نقض العهد وخلف الوعد، قال تعالى:

١٣٥- ﴿فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمْ الرِّجْزَ إِلَىٰ أَجَلٍ هُمْ بَلَّغُوهُ إِذَا هُمْ يَنْكُثُونَ﴾

قال سبحانه ﴿فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمْ الرِّجْزَ﴾ أي: كلما كشف الله عنهم نوعًا من أنواع العذاب بعد أن ظلوا فيه مدة معلومة قدر الله بقاءهم إليها ﴿إِلَىٰ أَجَلٍ هُمْ بَلَّغُوهُ﴾ فهو كشف مؤقت وليس دائمًا، نكثوا ونقضوا عهدهم ﴿إِذَا هُمْ يَنْكُثُونَ﴾. العهد الذي عاهدوا

(١) ينظر: «تفسير الطبري» (١٣/٦٣، ٥٧).

عليه موسى، فلاهُمْ آمنوا به ولا أرسلوا معه بني إسرائيل بل استمروا على كفرهم وتعذيب بني إسرائيل.

والمعنى: فلما رفع الله عنهم العذاب الذي أنزله عليهم إلى أجل معين نكثوا عهدهم؛ بمعنى أنهم عندما حل بهم الطوفان، راجعوا موسى فدعا ربه؛ فرفع عنهم عذاب الطوفان، ثم عادوا إلى ما كانوا فيه من الكفر والضلال، فأنزل الله بهم عذاب الجراد، فراجعوا موسى فدعا ربه فرفعه عنهم، فراجعوا إلى الكفر، فأرسل الله عليهم القمل وهكذا، فلم ينتفعوا بالإمهال ولا يرفع العذاب عنهم.

ومن المعجزات الدالة على صدق موسى ﷺ، أن هذا العذاب كان مختصاً بآل فرعون دون بني إسرائيل مع كونهم في موقع جغرافي واحد، فكيف كان آل فرعون في عذاب وبلاء وشدة، وبني إسرائيل في أمان وعافية مع اتحادهم في المساكن؟! إنه أمر معجز، والله تعالى لا يسأل عما يفعل.

عن عامر بن سعد بن أبي وقاص أنه سمعه يسأل أسامة بن زيد: ماذا سمعت من رسول الله ﷺ في الطاعون؟ فقال أسامة: قال رسول الله ﷺ: «الطاعون رجز أو عذاب أرسل على بني إسرائيل -أو على من كان قبلكم- فإذا سمعتم به بأرض، فلا تقدموا عليه، وإذا وقع بأرض وأنتم بها فلا تخرجوا فراراً منه»^(١).

هَلَاكُ فِرْعَوْنَ وَقَوْمِهِ:

١٣٦- ﴿فَأَنزَلْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ بِآيَتِنَا وَكَانُوا عَنْهَا غَافِلِينَ﴾

ولما كشف الله عنهم العذاب مرة بعد مرة، ولم يؤمنوا ولم يرجعوا عن كفرهم حتى بلغوا الأجل الذي أجله الله لهم، فكانت النتيجة الحتمية أن الله تعالى انتقم من فرعون وقومه بالغرق في الوقت المحدد لإهلاكهم؛ بسبب غفلتهم وتكذيبهم بالمعجزات التي جاء بها موسى من عند الله، وذلك أن الله تعالى أمر موسى ﷺ أن يسرى ببني إسرائيل ليلاً،

(١) «صحيح مسلم» برقم (٢٢١٨) و«صحيح البخاري» برقم (٣٤٧٣، ٦٩٧٤).

وأخبره أن فرعون سيثبّعهم هو وجنوده، ولما وصل موسى إلى البحر، أمره ربه أن يضربه بعصاه، فانقلب البحر وجفت مياهه، وعبره موسى وقومه، ولما أدركه فرعون وجنده، وكان في وسط البحر، أمر الله البحر أن ينطبق على فرعون وقومه، وتم إخراج فرعون جثة هامدة، يعتبر بها المعتبرون إلى يوم الدين.

الْتَمَكِينُ الْمُؤَقَّتُ لِبَنِي إِسْرَائِيلَ فِي الْأَرْضِ الْمُقَدَّسَةِ

١٣٧- ﴿وَأَوْزَنَّا الْقَوْمَ الَّذِينَ كَانُوا يُسْتَضَعُونَ مَشْرِقَ الْأَرْضِ وَمَغْرِبَهَا الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا وَتَمَّتْ كَلِمَتُ^(١) رَبِّكَ الْحُسْنَىٰ عَلَىٰ بَنِي إِسْرَءِيلَ^(٢) بِمَا صَبَرُوا وَدَمَّرْنَا مَا كَانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُ وَمَا كَانُوا يَعْرِشُونَ^(٣)﴾ (١٣٧)

والآية التي ختم بها هذا المقطع من قصة موسى مع فرعون وقومه تحقق وعد الله سبحانه لموسى ﷺ في قوله: ﴿إِنَّ الْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ حيث تم إغراق فرعون ومن معه ﴿فَأَنقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ﴾ وجاء تحقيقه بعد وقت من الزمان ﴿وَأَوْزَنَّا الْقَوْمَ الَّذِينَ كَانُوا يُسْتَضَعُونَ﴾ أي: يستضعفهم فرعون ويسخرهم في الخدمة ويسومهم سوء العذاب من بني إسرائيل في ﴿مَشْرِقَ الْأَرْضِ وَمَغْرِبَهَا﴾ أي: في فلسطين وبلاد الشام وهي الأرض ﴿الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا﴾ بإخراج الزروع والثمار وغير ذلك، فقد ورّثهم الله أرضاً غير الأرض التي كانوا يُستخدمون ويُستذلّون فيها، ويذكر بعض المفسرين أن المراد بالأرض: أرض مصر، ويرشح المعنى الأول وصف الله لها بالبركة ﴿الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا﴾ كما في سورة الإسراء ﴿الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ﴾.

أحاديث في فضل الشام: وقد وردت أحاديث كثيرة في فضل الشام:

١- منها ما جاء عن زيد بن ثابت رضي الله عنه قال: كنا حول رسول الله ﷺ نؤلف القرآن من الرقاع (أي: نصل بعضه ببعض) إذ قال: «طوبى للشام» قيل له: ولِمَ؟ قال: «إن ملائكة

(١) أجمع القراء على قراءة (كلمة ربك) بالافراد، والمشهور رسمها بالتاء في المصحف، ووقف عليها ابن كثير وأبو عمرو والكسائي ويعقوب بالهاء، والباقون بالتاء.

(٢) عدّ جملة (على بني إسرائيل) آية، المدني الأول والآخر والمكي وأسقطها غيرهم من العدد.

(٣) قرأ شعبة وابن عامر بضم الراء من (يعرشون)، والباقون بكسرها، وهما لغتان.

الرحمن باسطة أجنحتها عليها»^(١).

٢- وعن قُرّة عن النبي ﷺ قال: «إذا فسد أهل الشام فلا خير فيكم، لا تزال طائفة من أمتي منصورين على الناس، لا يضرهم من خذلهم، حتى تقوم الساعة»^(٢).

٣- وعن أبي أيوب الأنصاري رضي الله عنه قال: ليهاجرن الرعد والبرق والبركات إلى الشام»^(٣).

٤- وفي حديث أبي الدرداء رضي الله عنه أن النبي ﷺ: «ألا وإن الإيمان حين تقع الفتن بالشام»^(٤).

٥- وعن عبد الله بن عمر رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «ستخرج نار من حضرموت قبل يوم القيامة تحشر الناس» قلنا: يا رسول الله، فما تأمرنا؟ قال: «عليكم بالشام»^(٥).

قال تعالى: ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ الْحُسْنَىٰ عَلَىٰ بَنِي إِسْرَءِيلَ بِمَا صَبَرُوا﴾ بالتمكن لهم في الأرض؛ بسبب صبرهم على أذى فرعون وقومه والمراد بالكلمة، قول موسى عليه السلام لهم: ﴿أَسْتَعِينُوا بِاللَّهِ وَأَصْبِرُوا إِنَّ الْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [الأعراف]

قال تعالى: ﴿وَدَمَّرْنَا مَا كَانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُ﴾ من المباني والقصور والمزارع والبساتين.

قال تعالى: ﴿كَمْ تَرَكُوا مِنْ جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ﴿٢٥﴾ وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ ﴿٢٦﴾ وَنَعْمَةٍ كَانُوا فِيهَا فَنَكِهِنَ ﴿٢٧﴾ كَذَلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا قَوْمًا آخَرِينَ ﴿٢٨﴾ فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ وَمَا كَانُوا مُنْظَرِينَ ﴿٢٩﴾﴾ [الدخان]

(١) «المسند» (٢١٦٠٧) بإسناد حسن من أجل الغافقي، (محققه) وأخرجه الترمذي (٣٩٥٤) وابن أبي شبة (٣٢٥/٥) وابن حبان (١١٤)، (٧٣٠٤) والطبراني (٤٩٣٣، ٤٩٣٤) والحاكم (٢٢٩/٢) وصححه الألباني

في «صحيح سنن الترمذي» (٣٠٩٩) و«السلسلة الصحيحة» (٥٠٢). والمشكاة (٦٦٢٤)

(٢) الترمذي (٢١٩٢) وابن أبي شبة (١٩٠/١٢) وابن عساكر (٣٠٥/١) وصححه الألباني في صحيح «سنن ابن ماجه» (٦)، وهو عند ابن ماجه (٦) بدون فقرة الشام، وفي السلسلة الصحيحة (١٣٥/٣/١) وفضائل

الشام (٥) وصحيح الترمذي (١٧٨٢)

(٣) ابن أبي شبة (١٩٠/١٢).

(٤) «المسند» (٢١٧٣٣) والبزار (٣٣٣٢) كشف، والطبراني في «مسند الشاميين» (١١٩٨) وأبو نعيم (٩٨/٦) قال محققو «المسند»: إسناده صحيح ورجاله ثقات، رجال الصحيح، وأخرجه ابن عساكر في تاريخ دمشق (١) ورقه (٤٩).

(٥) أخرجه ابن عساكر (٨٣/١) وقال محققو «المسند» (٤٥٣٦): إسناده صحيح على شرط الشيخين، وأخرجه أبو يعلى (٥٥٥١) وابن حبان (٧٣٠٥) والبغوي في شرح السنة (٤٠٠٧) وانظر حديث حذيفة بن أسيد في صحيح مسلم (٢٩٠١)

وقال جل شأنه ﴿فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِبَةٌ بِمَا ظَلَمُوا﴾ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٥٦﴾ [النمل] وهذه الدروس المستفادة من هذه القصة يعتبر بها كل طاغية، وكل جبار، وكل أمة عتت عن أمر ربها إلى يوم الساعة.

ومن هذه الدروس أن استخلاف بني إسرائيل في أرض الشام كان قبل أن يكتب الله عليهم الذل والتشرد، وقبل انتهاء مدة رسالة موسى بمجيء عيسى فضلاً عن محمد صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين.

وقد انتهى هذا الاستخلاف بمجيء الإسلام وفتح عمر بن الخطاب لفلسطين فتحاً إسلامياً، فلا بقاء مع الإسلام لشريعة من الشرائع، ولا حُكْم على بقعة من بقاع الأرض إلا للإسلام بعد البلاغ والإنذار، وهذا فضلاً عن أن الله تعالى حرّمها عليهم حرمة أبدية عقوبة لهم على عصيان أمر نبيهم في قتال العمالقة.

والذين أورثهم الله مشارق الأرض ومغاربها هم بنو إسرائيل الذين ذكرهم الله في قوله تعالى: ﴿وَنُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضِعُوا فِي الْأَرْضِ﴾ [القصص: ٥]

وجاء ذكرهم في قوله: ﴿كَذَلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا قَوْمًا آخَرِينَ﴾ [الدخان] من بني إسرائيل

وصرح سبحانه بهؤلاء الآخرين في قوله: ﴿كَذَلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا بَنِي إِسْرَءِيلَ﴾ [الشعراء] قوما منهم.

أخرج آدم بن إياس بسنده الصحيح عن مجاهد قال: ﴿وَتَمَتَّ كَلِمَتُ رَبِّكَ الْحُسْنَى عَلَى بَنِي إِسْرَءِيلَ﴾ قال: ظهور قوم موسى على فرعون، وتمكين الله لهم في الأرض ما ورثهم منها، فالكلمة الحسنى التي تمت عليهم هي التمكين المؤقت لهم في أرض الشام، وقد كان ذلك قبل أن يتخاذلوا عن قتال الجبارين ويقولوا لنبيهم: ﴿فَاذْهَبْ أَنْتَ وَرَبُّكَ فَقَتِلَا إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ﴾ [المائدة: ٢٤] فلما فعلوا ذلك عاقبهم الله تعالى بآتيه في صحراء سيناء أربعين عاماً حتى ينقرض جيل التخاذل.

ثم حرم الله عليهم دخول أرض فلسطين تحريماً أبدياً، كما في قوله تعالى ﴿قَالَ فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ﴾ [المائدة: ٢٦] وهذا وقف لازم، ثم ذكرت الآية بعد ذلك أن مدة التيه أربعين سنة، وقد كتب الله عليهم الشتات في الأرض كلها، فإذا جاء وعد الدار الآخرة ﴿جَنَّتَا بِكُمْ لَفَيْفًا﴾ [الإسراء: ١٠٤] وبهذا يؤرخ لهم أخوهم يوسف عليه السلام في قوله ﴿وَجَاءَ بِكُمْ مِنَ الْبَدْوِ﴾ [يوسف: ١٠٠]

والبدو هم الرّحل الذين لا وطن لهم، وقيام الكيان الصهيوني في هذا العصر، مخالفة صريحة لما كتبه الله عليهم، وبهذا تقول طائفة عريضة من اليهود غير الصهاينة^(١).

الْجَانِبُ الْآخَرُ: قِصَّةُ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ مَعَ بَنِي إِسْرَائِيلَ

بَنُو إِسْرَائِيلَ يَحْتَوْنَ إِلَى عِبَادَةِ الْأَوْثَانِ بَعْدَ مُعْجَزَةِ الْعُبُورِ:

١٣٨ - ﴿وَجَنُوزْنَا بِبَنِي إِسْرَءِيلَ الْبَحْرَ فَأَتَوْا عَلَى قَوْمٍ يَعْكُفُونَ^(٢) عَلَى أَصْنَامٍ لَهُمْ قَالُوا يَمُوسَى اجْعَلْ لَنَا إِلَهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ﴾

أي ولما عبر موسى البحر ببني إسرائيل وأراهم الله آية فلق البحر، مرّوا وهم في طريقهم على قوم يعبدون أصنامًا، فطلبوا من موسى أن يجعل لهم أصنامًا، يعبدونها مثل هؤلاء، قال لهم موسى: ما أعظم جهلكم بخالقكم، حيث تسوونه بالأصنام، ولم تعتبروا بالآية التي لم تزل أرجلكم رطبة من آثارها!! وهي عبور البحر وفلقه.

هذا: والمهمة الأساس التي أرسل الله بها الرسل إلى أقوامهم أن يأمرهم أولاً بتوحيد الله ﷻ، وعبادته وحده جل شأنه، وأن يتركوا عبادة سائر الآلهة والطواغيت.

وإلى جوار هذه المهمة الأساس، توجد مهمات إضافية؛ كمحاربة تطفيف الكيل والميزان، ومحاربة السحر، واللواط، وغير ذلك من المهمات.

وقد كانت المهمة الإضافية لنبي الله موسى ﷺ أن يخلص بني إسرائيل من ظلم فرعون، واستعباده واضطهاده لهم، وأن يخرج بهم من مصر إلى الأرض المقدسة التي كتبها الله لهم مدة صلاحية رسالة موسى ﷺ.

وقد انتسخ ذلك بمجيء رسالة عيسى ﷺ، ثم بمجيء الرسالة العامة للناس أجمعين وإلى يوم القيامة.

وبعد أن فُتحت الأرض المقدسة فتحًا إسلاميًا صارت بلادًا إسلامية كغيرها من بلاد

(١) راجع توضيح ذلك في سورة المائدة [٢٠-٢٦] من هذا التفسير.

(٢) قرأ حمزة والكسائي وخلف بخلف عن إدريس بكسر كاف (يَعْكُفُونَ) وهي لغة أسد، والباقون بضمها، وهو الوجه الثاني لإدريس، وهي لغة بقية العرب.

المسلمين، لا يحق لليهودي ولا لغيره أن يحتل جزءًا منها، وكان موسى قد قام بعدة محاولات مع فرعون وقومه، استمرت نحو ثلاثة وعشرين عامًا؛ لتخليص بني إسرائيل من ظلم فرعون وملئه.

قصة نجاة موسى وقومه وهلاك فرعون وجنده:

ولما خرج موسى بقومه من مصر، ووصل بهم إلى البحر الأحمر عند خليج السويس (عيون موسى) أدركه فرعون بجنوده.

نظر قوم موسى فوجدوا البحر أمامهم والعدو خلفهم؛ فقالوا لموسى: ﴿إِنَّا لَمُدْرِكُونَ﴾ [الشعراء: ٦١] قال موسى ﷺ: ﴿إِنَّ مَعَ رَبِّي سَبَّحِينَ﴾ [الشعراء: ٦٢]

وأوحى الله سبحانه إلى موسى أن يضرب البحر بعصاه، وماذا تفعل العصا في البحر؟ ولكنها المعجزة التي أيد الله سبحانه بها موسى ﷺ.

ضرب موسى البحر بعصاه، فتجمد الماء وتراكم بعضه فوق بعض كالجبل الأشم، والطود العظيم، وصار البحر اثني عشر طريقًا يابسًا، الماء متجمد، والطريق يابس، يمشي فيه من يمشي، وهذه الطرق بعدد أسباط بني إسرائيل، واجتاز موسى ﷺ البحر ومعه بنو إسرائيل.

ولما وصلوا إلى الجانب الآخر ونجاه الله وقومه من الغرق، أراد موسى أن يضرب البحر بعصاه مرة أخرى حتى لا يلحقه فرعون، فقال الله تعالى له: ﴿وَأَتْرُكُ الْبَحْرَ رَهَوًّا﴾ أي: أتركه ساكنًا متجمدًا على هيئته وحالته ﴿إِنَّهُمْ جُنْدٌ مُّغْرَقُونَ﴾ [الدخان: ٢٤] وهذا أمر مراد لله سبحانه.

وأراد فرعون وجنوده أن يجتازوا البحر وراء موسى وبني إسرائيل، ولما كانوا في وسط البحر أوحى الله إلى موسى أن يضرب البحر بعصاه مرة ثانية، فضربه فانطبق البحر عليهم، وأغرق الله فرعون وجنوده، ونجى فرعون بيدنه؛ ليكون عبرة وعظة لكل طاغية متجبر يأتي بعده، كما قال رب العالمين: ﴿فَالْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلَقَكَ آيَةً﴾ [يونس: ٧٢] إلى الخلق أجمعين إلى يوم القيامة.

وكانت نجاة بني إسرائيل مع نبيهم موسى ﷺ في يوم عاشوراء، وصام موسى يوم

عاشوراء؛ شكرًا لله سبحانه الذي نجاه ونجى قومه من الغرق ومن ظلم فرعون، وأغرق الله فرعون ومن معه، كما قال تعالى: ﴿وَجَوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَءِيلَ الْبَحْرَ﴾ أي: البحر الأحمر.

وبمجرد أن اجتاز موسى وقومه البحر، وبعد أن رأوا هذه المعجزة التي يُسلم لها الكافر، ويلين لها القلب القاسي وبعد أكثر من عشرين عامًا على التوحيد الذي جاءهم به موسى، وبمجرد أن خرجوا من البحر وما زالت رماله الرطبة عالقة بنعالهم عاودتهم طبيعتهم الوثنية حين مرّوا على قوم يعبدون تماثيل على صورة البقر.

قال ابن عطية: والظاهر من مقالة بني إسرائيل لموسى: ﴿أَجْعَلْ لَنَا إِلَهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ﴾ أنهم استحسنوا ما رأوه من آلهة أولئك القوم، فأرادوا أن يكون ذلك في شرع موسى، وفي جملة ما يُتقرب به إلى الله، وإلا فيُنعَد أن يقولوا لموسى: اجعل لنا صنمًا نفرد به بالعبادة ونكفر بربك، فعرفهم موسى أن هذا جهل منهم، إذ سألوا أمرًا حرامًا فيه الإشراك بالعبادة، ومنه يتطرق إلى أفراد الأصنام بالعبادة والكفر بالله ﷻ^(١).

قيل: إنهم كانوا من الكنعانيين، ويُسمَّون عند متأخري المؤرخين بالفنيقيين، وكان لهم صنم يسمى (بعل) يعبدونه من دون الله، وهذا يدل على أن بني إسرائيل -وهم في مصر- تأثروا بالوثنية الفرعونية، وابتعدوا عن الحنيفية ملة إبراهيم ويعقوب، وهؤلاء الكنعانيون هم الذين أمر موسى بقتالهم ﴿قَاتِلُوا﴾ أي: قال بنو إسرائيل: ﴿يَمُوسَى اجْعَلْ لَنَا إِلَهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ﴾ اجعل لنا صنمًا نعبد كهؤلاء، إن الوثنية عالقة في نفوس القوم، حتى بعد أن نجاهم الله وأراهم هذه المعجزة مع رسولهم، فإنهم يطلبون منه عبادة الأوثان بمجرد أن رأوا ذلك ﴿قَالَ﴾ لهم موسى: ﴿إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ﴾ عظمة الله، ولا تعلمون أن العبادة لا تكون إلا لله وحده.

وهو نفس المعنى الذي تعجَّب منه النبي ﷺ حينما سأله بعض القوم أن يجعل لهم شجرة مماثلة؛ فبين أن ذلك فيه اتباع لسنن اليهود، وأن التقرب إلى الله عن طريق الشجرة وغيرها إشراك بالله تعالى، فيجب ترك ذلك.

(١) «تفسير ابن عطية» (٢/٤٤٨).

وفي رواية عند أحمد وغيره أن النبي ﷺ كان في طريقه إلى حنين، وأن الشجرة شجرة سدر، وأن النبي ﷺ كبر عندما سألوه ذلك، فهم - على هذا القول - قد أسلموا حديثاً في فتح مكة مع رسول الله ﷺ، وكان الإسلام بعد لم يثبت في قلوبهم، وذلك أنهم لما خرجوا مع النبي عليه الصلاة والسلام في غزوة حنين وجدوا المشركين لهم سدر (شجرة نبق خضراء عظيمة) ينوطون (يعلقون) بها أسلحتهم، فقالوا للنبي ﷺ: اجعل لنا شجرة مثل شجرتهم، نيط بها أسلحتنا كما يفعلون، وسنتنصر على عدونا (اجعل لنا ذات أنواط كما لهم ذات أنواط) فقال: «قلتم والذي نفسي بيده كما قال قوم موسى لموسى اجعل لنا إلهاً كما لهم آلهة»^(١).

وهذا طريق آخر لحديث الشجرة السابق:

عن أبي واقد الليثي أن رسول الله ﷺ لما خرج إلى حنين، مر بشجرة للمشركين يقال لها: ذات أنواط، يعلقون عليها أسلحتهم، فقالوا: يا رسول الله، اجعل لنا ذات أنواط كما لهم ذات أنواط، فقال ﷺ: «سبحان الله، هذا كما قال قوم موسى: ﴿أَجْعَلْ لَنَا إِلَهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ﴾ والذي نفسي بيده، لترْكَبَنَّ سنة من كان قبلكم سنة سُنَّة»^(٢).

وعن أبي سعيد رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «لتبعن سنن من كان قبلكم حذو القذة بالقذة حتى لو دخلوا جحر ضب لدخلتموه قالوا يا رسول الله، اليهود والنصارى؟ قال: فمن؟»^(٣).

قال رجل من اليهود لعلي بن أبي طالب رضوان الله تعالى عليه: إنكم اختلفتم مع نبيكم قبل أن يجف ماء غسله، فرد عليّ رضي الله عنه على اليهودي قائلاً له: وأنتم قلتم لموسى ﴿أَجْعَلْ لَنَا إِلَهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ﴾ قبل أن تجف أقدامكم من ماء البحر الذي اجتزتموه.

(١) ورد هذا من عدة طرق، ينظر: ابن جرير (٤٦٤/١٣) والترمذي برقم (٢١٨٠) وقال: حسن صحيح، وأحمد (٢١٨/٥) برقم (٢١٨٩٧) بنحوه عن أبي واقد الليثي، وإسناده صحيح على شرط الشيخين (محققوه) وهذا لفظه، وفيه زيادة على هذا، وأخرجه الطيالسي (١٣٤٦) والحميدي (٨٤٨) وأبو يعلى (١٤٤١) وابن حبان (٦٧٠٢) والطبراني في الكبير (٣٢٩٢).

(٢) «سنن الترمذي» برقم (٢١٨٠) وقال: حسن صحيح و«صحيح سنن الترمذي» برقم (١٧٧١) وهذا لفظه، والنسائي في التفسير برقم (٢٠٥) و«المسند» (٢١٨/٥) برقم (٢١٨٩٧) بإسناد صحيح على شرط الشيخين (محققوه) وابن حبان برقم (٦٧٠٢) و«السنن الكبرى» للنسائي برقم (١١١٨٥) وهو حديث صحيح، وأخرجه أيضاً ابن أبي شيبه (١٠١/١٥) والطبراني (٣٢٩٢) وابن أبي حاتم (٨٩٠٦) والطبري (١٠/٤١٠) والمشكاة (٥٣٦٩).

(٣) صحيح البخاري (٣٤٥٦) وصحيح مسلم بنحوه (٢٦٦٩).

ثم إن موسى ﷺ يبين لقومه أن عبدة الأصنام قوم هلكى، وأن عبادتهم باطلة فقال:

١٣٩- ﴿إِنَّ هَؤُلَاءِ مُتَّبِعُونَ مَا هُم فِيهِ وَظِلُّ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾

ثم يكشف موسى لقومه عن مغبة الشرك، وسوء عاقبة التقليد، وأن الانحراف عن الفطرة والتوحيد ومناهج الرسل هلاك وباطل، ينتظره ما ينتظر كل باطل من الهلاك والدمار في نهاية الأمر، فأعلمهم موسى ﷺ بفساد حال أولئك القوم؛ ليزول ما استحسَنوه من حالهم، فالعمل باطل وغايته باطلة.

قال البغوي: لم يكن ذلك شكًا من بني إسرائيل في وحدانية الله تعالى، وإنما معناه: اجعل لنا إلهًا نعظمه ونتقرب بتعظيمه إلى الله تعالى، ظنًا منهم أن ذلك لا يضر الديانة، وكان هذا لشدة جهلهم؛ فبين لهم موسى ﷺ أنه عمل باطل لا يعود عليهم بنفع ولا يدفع عنهم ضرر، وأن العبد يتوجه إلى ربه مباشرة دون التقرب إليه بشيء من خلقه، وهذا هو عين ما عابه القرآن على المشركين في قوله تعالى حكاية عنهم: ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى﴾ [الزمر: ٣].

﴿إِنَّ هَؤُلَاءِ﴾ الذين يعبدون الأوثان ﴿مُتَّبِعُونَ مَا هُم فِيهِ﴾ أي: إن شركهم وعبادتهم للأصنام عمل مدمر وباطل، وهم قوم سيهلكهم الله سبحانه؛ لأنهم يفعلون أفعالًا خاسرة وباطلة، فالأصنام لا تدفع عنهم العذاب إذا نزل بهم.

وكيف تتخذون - يا بني إسرائيل - إلهًا غير الله، وقد فضَّلَكم على غيركم من عبدة الأوثان في زمانكم، وأنتم في الأصل أهل كتاب تؤمنون بالله وبالتوراة التي نزلت على موسى:

١٤٠- ﴿قَالَ أَغَيْرَ اللَّهِ أَبْغِيكُمْ إِلَهًا وَهُوَ فَضَّلَكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾

قال موسى: أغير الله أطلب لكم معبودًا تعبدونه، وهو الإله الكامل في ذاته وصفاته وأفعاله، وهو خلقكم وفضلكم على عالمي زمانكم، بكثرة الأنبياء فيكم، وإهلاك عدوكم، وما خصكم الله به من الآيات، كالمن والسلوى وتظليل الغمام وخلق البحر،

وبالآيات الباهرات التي لم تحصل لغيركم؟ فينبغي عليكم أن تقابلوا ذلك بالشكر، وتُفَرِّدُوا الله تعالى بالعبادة، وهذا تصعيد من موسى وارتفاع في غَيْرَتِهِ على التوحيد .

ومعنى تفضيل الله لبني إسرائيل على غيرهم: أنهم كانوا أهل كتاب يدعون إلى وحدانية الله تعالى، وكان سائر الأمم فيها شرك ووثنية، فلا شك أنهم في زمانهم كانوا أفضل من غيرهم.

هذا: وتفضيل الله لبني إسرائيل على العالمين الذي تكرر في القرآن الكريم ليس خاصاً ببني إسرائيل وحدهم، وإنما مناط هذا التفضيل هو التوحيد، فكل أمة يرسل الله سبحانه فيهم رسولا ليعبدوه ويوحدوه، ويتركوا جميع أنواع الشرك، هذه الأمة الموحدة يفضلها الله سبحانه على سائر الأمم المشركة الوثنية.

وهذه القاعدة ماضية في كل زمان ومكان، فتفضيل الله لبني إسرائيل على العالمين هو تفضيل لهم على مشركي زمانهم من جميع العالمين الوثنيين، وهم قوم أنزل الله عليهم التوراة، وفيها التوحيد قبل أن يحرفوها، وأرسل فيهم موسى يدعوهم إلى توحيد الله سبحانه، فهم مؤمنون موحدون في زمانهم دون غيرهم، ولهذا فضلهم الله بهذه الرسالة وبهذه الدعوة على الوثنيين المشركين في زمانهم، كما فضل كل أمة موحدة على مشركي زمانها.

وهذا أمر يحدث أيضاً بالنسبة للنصارى قبل أن يقولوا: عيسى ابن الله أو يؤلهوه أو يجعلوه ثالث ثلاثة، حيث يفضلهم الله على العالمين المشركين في زمانهم، ويفضل الله سبحانه أمة محمد ﷺ بالتوحيد على سائر الأمم المشركة الوثنية.

فهذه القاعدة ليست خاصة ببني إسرائيل، إنما هي قاعدة لجميع الأمم مع جميع الرسل.

مِنْ نِعَمِ اللَّهِ عَلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ: نَجَاتُهُمْ مِنْ ظُلْمِ فِرْعَوْنَ

١٤١- ﴿وَإِذْ أَجَبْتَكُمْ^(١) مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُم سُوءَ الْعَذَابِ يُقْتُلُونَ^(٢) أَبْنَاءَكُمْ

(١) قرأ ابن عامر (أنجاكم) بألف بعد الجيم من غير ياء ولا نون، والفاعل ضمير يعود على الله تعالى، وقرأ الباقون (أنجيناكم) بياء ونون وألف بعدها على إسناد الفعل إلى الله تعالى.

(٢) قرأ نافع بفتح الياء وسكون القاف وضم التاء من (يقتلون) على الأصل، وقرأ الباقون بضم الياء وفتح القاف وكسر التاء مشددة؛ للمبالغة.

وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ فِي ذَلِكُمْ بَلَاءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ ﴿١٤١﴾

يقول الله سبحانه ممتنًا على بني إسرائيل ومعنفًا لهم: كيف تريدون عبادة الأوثان بعد أن نجاكم الله سبحانه من فرعون وكيده؟ ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ مِّنْ آلِ فِرْعَوْنَ﴾ أي من فرعون وآله ﴿يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ﴾ يوجهون إليكم من العذاب أسوأه، وجاء تفسير سوء العذاب في الآية بقوله تعالى ﴿يُقَتِّلُونَ أَبْنَاءَكُمْ﴾ الذكور من الأطفال ﴿وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ﴾ أي: يستبقون الإناث للخدمة والإهانة، فاذكروا يا بني إسرائيل نِعْمًا عليكم، إذ أنقذناكم من أسر فرعون وآله، وما كنتم فيه من الهوان والذلة؛ من تذبيح أبنائكم، واستبقاء نساءكم للخدمة والاعتداء على أعراضهن بعد ذلك، فهو المقصود من الإبقاء عليهن، وفي حملكم على أقبح العذاب وأسوئه، ثم أنجيناكم من الغرق، ومن كيد عدوكم اختبارًا من الله لكم، ونعمة عظيمة أنعمها عليكم.

إن بني إسرائيل والمصريين قد عاشوا قبل الإسلام في ظل الإرهاب الوحشي الفرعوني البشع، وفي ظل الوثنية الفرعونية، واستمرؤوا حياة الذل والسخرية والمطاردة، وطل عليهم الأمد في عهود الظلم الروماني، ولم ينقذهم من هذا الذل إلا الإسلام، ولم يتذوقوا طعم الحرية إلا حين أطلقهم الإسلام من عبودية العباد إلى عبودية رب العباد.

ومن مظاهر ذلك أن ابن عمرو بن العاص -فاتح مصر وحاكمها- لما ضرب ابن قبطي من أهل مصر سوطًا واحدًا -وهو ابن حاكم الدولة- غضب القبطي لسوط واحد يصيب ابنه، وسافر شهرًا على ظهر ناقته؛ ليشكوه هذا الأمر إلى خليفة المسلمين عمر بن الخطاب رضي الله عنه في مدينة رسول الله ﷺ -مع أنه كان يصبر على ما هو أكثر وأعظم من هذا السوط في ظل العهد الروماني- فنصره عمر رضي الله عنه، ووجه اللوم إلى فاتح مصر وحاكمها حيث قال: متى استعبدتم الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحرارًا؟! فما أجل هذه النعمة العظيمة التي حرر الإسلام بها العباد والبلاد.

هذا: وقد واعد موسى ربه مرتين: مرة لتزول التوراة عليه، ومرة لاعتذار قومه عن عبادة العجل:

المِيقَاتُ الْأَوَّلُ: نُزُولُ التَّوْرَةِ عَلَى مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ

١٤٢- ﴿وَوَاعَدْنَا^(١) مُوسَى ثَلَاثِينَ لَيْلَةً وَأَتَمَمْنَاهَا بِعَشْرِ فِتْنٍ مِيقَتُ رَبِّهِ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً وَقَالَ مُوسَى لِأَخِيهِ هَارُونَ اخْلُفْنِي فِي قَوْمِي وَأَصْلِحْ وَلَا تَتَّبِعْ سَبِيلَ الْمُفْسِدِينَ ﴿١٤٢﴾﴾

انتهت مرحلة تخليص بني إسرائيل من ذل فرعون وقهره بخروجهم من البحر، ناجين من الغرق، وبينما هم في طريقهم إلى الأرض المقدسة، لا بد لهم من التربة والإعداد للقيام بأعباء الرسالة.

وذلك أنه لما كان موسى بمصر قبل أن يُغرق الله فرعون وملأه، قال لقومه: إذا أهلك الله فرعون، ونجانا من كيده، فإن الله سبحانه سينزل عليكم كتاباً، هذا الكتاب فيه أمركم ونهيكم، وفيه بيان ما يجب أن تفعلوه، وما يجب أن تتركوه.

فلما نجى الله موسى، وأغرق فرعون وقومه سأل موسى ربه أن يُنزل عليه الكتاب الذي وعده به؛ فأمره الله ﷻ أن يتهياً لنزول التوراة عليه بالطهارة، والعبادة، والصلاة، والصيام، ونحو ذلك؛ استعداداً لنزول التوراة عليه، وقد أراد الله أن يتم نعمته على بني إسرائيل بإنزال كتاب فيه الأحكام الشرعية والعقائد المرضية، فقال:

﴿وَوَاعَدْنَا مُوسَى ثَلَاثِينَ لَيْلَةً﴾ أي: واعد الله موسى لمناجاة ربه ثلاثين ليلة، يتطهر ويصوم ويتعبد فيها، ويتهياً لنزول التوراة عليه، ولما قضى موسى مدة المناجاة، ثلاثين يوماً، زادت نفسه تعلقاً ورغبة في مناجاة ربه وعبادته، فزاده ربه عشر ليالٍ؛ وذلك لطرد السامة عنه في العبادة، وإعداده لتلقي التوراة، وهذه الأربعون ليلة: هي شهر ذي القعدة، وعشرة أيام من ذي الحجة^(٢) فتم ما وقَّته الله لموسى لتكليمه أربعين ليلة، كي يتشوق لإنزالها، ويكون لها وقع كبير لديهم.

يقول بعض المفسرين: إن موسى قد استاك في نهاية الثلاثين يوماً، وكانت الملائكة

(١) قرأ أبو عمرو وأبو جعفر ويعقوب (وواعدنا) بحذف الألف التي قبل العين، على أن الوعد من الله وحده، وقرأ الباقون بإثبات الألف (وواعدنا) من المواعدة؛ فالله تعالى وعد موسى الوحي، وموسى وعد ربه المجيء.

(٢) جاء هذا عن سليمان التيمي عن رجل حضرمي عند ابن أبي حاتم (٨٩٢١).

تشم منه رائحة كرائحة المسك، فلما تسوّك ذهبت عنه هذه الرائحة، فأمره الله أن يصوم عشرة أيام زيادة على الثلاثين^(١) وسواء أصحّت هذه الرواية أم لا، فإن الله سبحانه قد زاد موسى عشرة أيام ﴿فَتَمَّ مِيقَتُ رَبِّهِ أَزْبَعَتْ لَيْلَةً﴾ لحكمة أرادها.

ولما عزم موسى على الذهاب إلى جبل الطور، استخلف على بني إسرائيل أخاه هارون، وأوصاه بالإصلاح وعدم الإفساد من باب التذكير والتنبيه، وإلا فهارون ﴿نبي مرسل كريم عند الله تعالى.

ذهب موسى في الموعد الذي حدده له ربه لمناجاته، واستخلف في قومه أخاه هارون، نبياً ورسولاً، أرسله الله ليؤازر موسى ويعضد دعوته، وقال له: كن خليفتي من بعدي في قومي حتى أرجع، وأصلح نفسك وأصلح مَنْ حولك، وهذا معنى: ﴿وَأَصْلَحْ﴾ أي: احمل القوم على طاعة الله ﴿وَلَا تَتَّبِعْ سَبِيلَ الْمُفْسِدِينَ﴾ وهذا من باب التأكيد؛ لأن هارون لم يكن ممن يتبع سبيل المفسدين، والنصيحة تُوجه لكل حاكم، وهي النصيحة التي وجهها موسى لأخيه هارون.

وكانت فتنة بني إسرائيل بعبادة العجل الذي صنعه السامري في هذه الأيام العشر التي زادت على الموعد المضروب بين موسى وقومه، وأكثر المفسرين على أنها عشر ذي الحجة.

مُوسَى يَطْلُبُ رُؤْيَا رَبِّهِ

١٤٣- ﴿وَلَمَّا جَاءَ مُوسَى لِمِيقَاتِنَا وَكَلَّمَهُ رَبُّهُ قَالَ رَبِّ أَرِنِي^(٢) أَنْظُرْ إِلَيْكَ قَالَ لَنْ نَرِيهِ وَلَكِنْ^(٣) أَنْظُرْ إِلَى الْجَبَلِ فَإِنِ اسْتَقَرَّ مَكَانَهُ فَسَوْفَ تَرَاهُ فَلَمَّا تَجَلَّى رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ

(١) «تفسير الطبري» (٨٤/١٣) و«تفسير ابن عطية» (٤٤٩/٢) و«تفسير الكشاف» (١٥١/٢) وفيه نظر.

(٢) قرأ ابن كثير ويعقوب وأبو عمرو بخلف عنه بإسكان الراء من (أرني) وقرأ أبو عمرو في وجهه الثاني باختلاس كسرة الراء، وقرأ الباقر بالكسرة الكاملة.

(٣) قرأ أبو عمرو وعاصم وحزمة ويعقوب بكسر النون وصلًا، وهو الأصل في التخلص من التقاء الساكنين من (ولكن انظر) والباقر بضمها.

دَكَّا^(١) وَحَرَّ مُوسَى صَعِقًا فَلَمَّا أَفَاقَ قَالَ سُبْحَنَكَ بُتُّ إِلَيْكَ وَأَنَا^(٢) أَوَّلُ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٤٣﴾

ولما وصل موسى إلى الميقات بعد تمام أربعين ليلة، وكلمه ربه بلا واسطة، وكان هذا الكلام على هيئة يعلمها الله سبحانه، وبعد أن أوحى إليه بالأوامر والنواهي تشوقت نفس موسى وتلهفت على رؤية الله سبحانه، والنظر إليه؛ كي يجمع الله له بين الكلام والرؤية، فطلب رؤية الله سبحانه، وقال: ﴿رَبِّ ارْنِي أَنْظُرَ إِلَيْكَ﴾ ومكّني أن أنظر إلى ذاتك المقدسة.

وهذه الرؤية لله ﷻ أرادها الله سبحانه لعباده المؤمنين في الدار الآخرة، كما قال تعالى: ﴿وَجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ﴿٢٢﴾ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ﴿٢٣﴾﴾ [القيامة] وقال: ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا لِحُسْنِي وَزِيَادَةٌ﴾ [يونس: ٢٦] والحسنى: هي الجنة. والزيادة: هي النظر إلى وجه الله الكريم، وهذا بالنسبة للمؤمنين.

أما بالنسبة للكفار فقد قال تعالى: ﴿كَلَّا إِنَّهُمْ عَنْ رَبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ ﴿١٥﴾﴾ [المطففين] أي: لمحجوبون عن رؤية الله ﷻ يوم القيامة؛ فروية الله ﷻ تكون في الدار الآخرة، وهي جائزة عقلاً في الدنيا، ولذلك لما طلبها موسى ﷺ، أراد الله ﷻ أن يبين له أنه طلب أمراً عظيماً لا تقوى عليه الجبال، وهي أشد وأقوى من موسى، فقال سبحانه: ﴿لَنْ تَرِنِّي﴾ لن تقدر على رؤيتي في الدنيا، فإن الله تعالى قد خلق الناس في الدنيا بقدرات لا تؤهلهم إلى رؤية الله سبحانه، وجعل هذه القدرة خاصة بالدار الآخرة، وهي تفوق نعيم الجنة، ولذا صرف الله نظر موسى عن هذه الرؤية في الدنيا فقال: ﴿وَلَكِنْ أَنْظُرْ إِلَى الْجَبَلِ﴾ وهو أشد منك وأقوى ﴿فَإِنْ أَسْتَقَرَّ مَكَانُهُ﴾ حين أتجلى له ﴿فَسَوْفَ تَرِنِّي﴾ والجبل لم يستقر، بل دُكَّ الجبل، وأغشي على موسى، وبذلك انتفت رؤية الله تعالى في الدنيا.

(١) قرأ حمزة والكسائي وخلف العاشر بالهمزة المفتوحة بعد الألف وحذف التنوين للمنع من الصرف، أي: أرضاً مستوية، وهي في هذه الحالة من قبيل المد المتصل، فكل يمد حسب مذهبه، وقرأ الباقون بحذف الهمزة وعدم المد مع التنوين، على أنه مصدر واقع موقع المفعول به، أي مذكوكا.

(٢) قرأ نافع وأبو جعفر بإثبات ألف (أنا) وصلًا ووقفًا، ويكون من قبيل المد المنفصل، وكل على حسب مذهبه فيه، وقرأ الباقون بحذف الألف وصلًا وإثباتها وقفًا.

فقد علّق سبحانه رؤية موسى لربه على استقرار الجبل وثبوته حين يتجلّى له رب العزة جلّ في علاه ﴿فَلَمَّا تَجَلَّى رَبُّهُ لِلْجَبَلِ﴾ وهو أصم غليظ، ذكّ الجبل وتفتت، واستوى بالأرض ﴿جَعَلَهُ دَكًّا﴾ فانهال كالرمل ولم يثبت وزال تماسكه ﴿وَحَرَّ مُوسَى صَعْقًا﴾ مغشيًا عليه فأدرك أن الجبل إذا لم يثبت لرؤية الله تعالى، فموسى أولى أن لا يثبت، فاستغفر ربه لما صدر منه من سؤال ﴿فَلَمَّا أَفَاقَ﴾ من غشيته استغفر موسى ربه، ونزّهه عما لا يليق بجلاله وتاب إليه، لا عن معصية فعلها، وإنما تأدبًا مع الله سبحانه.

﴿قَالَ سُبْحَنَكَ﴾ تنزيهاً لك عما لا يليق بجلالك ﴿تُبْتُ إِلَيْكَ﴾ من طلبي رؤيتك في الحياة الدنيا، وتبت من جميع الذنوب ﴿وَأَنَا أَوَّلُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ بك من قومي في زماني. وهذا تجديد للإيمان بعد أن كمل له بمعرفة ما كان يجله.

فروية الله تعالى في الآخرة للمؤمنين أمر مقرر شرعاً بنص الكتاب والسنة، وهذه الرؤية جائزة عقلاً في الدنيا، فموسى عليه السلام لم يسأل ربه أمراً محالاً، وإنما سأل أمراً جائزاً.

وكما صعق موسى عليه السلام حين تجلّى ربه للجبل، فإن الناس جميعاً يُصعقون في عَرَصات القيامة، من هول ذلك اليوم، إلا مَنْ استثناهم الله تعالى في قوله: ﴿وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَعِقَ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَنْ شَاءَ اللَّهُ﴾ [الزمر: ٦٨]

وهذا الصعق معناه: أن يخر المرء مغشيًا عليه كما حدث لموسى عليه السلام حين طلب رؤية الله تعالى، ولذلك قال تعالى: ﴿فَلَمَّا أَفَاقَ﴾ من غشيته ﴿قَالَ سُبْحَنَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ﴾.

قال ابن عباس عليه السلام: ما تجلّى منه سبحانه للجبل إلا قدر الخنصر فصار ترابًا، وخرّ موسى مغشيًا عليه^(١). وفي حديث حماد بن سلمة عن ثابت عن أنس عليه السلام عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال: «فساخ الجبل ﴿وَحَرَّ مُوسَى صَعْقًا﴾»^(٢).

(١) «تفسير الطبري» (٩٧/١٣).

(٢) «سنن الترمذي» برقم (٣٠٧٤) وقال: هذا حديث حسن غريب صحيح، لا نعرفه إلا من حديث حماد بن سلمة، وابن خزيمة (٢٥٨/١) برقم (١٦٢، ١٦٦) و«المستدرک» (٣٢٠/٢) وصححه الحاكم ووافقه الذهبي، وصححه ابن كثير في تفسيره للآية، وأخرجه أيضًا ابن أبي حاتم (٨٩٤٠) وهو في «صحيح سنن الترمذي» (٢٤٥٨)، وظلال الجنة (٤٨٠) بتصحيح الألباني.

وكلام الله لموسى في الجبل أَحَدُ الأحوال الثلاثة التي يكلم الله بها أنبياءه، كما في قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَكْلِمَهُ اللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِنْ وَرَآيِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِ مَا يَشَاءُ﴾ [الشورى: ٥١]

وهو المراد في قوله تعالى: ﴿أَوْ مِنْ وَرَآيِ حِجَابٍ﴾ وهكذا كَلَّمَ الله رسوله محمداً ﷺ ليلة المعراج، ولعل الأحاديث القدسية من هذا القليل أيضاً.

أما القرآن الكريم فقد نزل بواسطة جبريل عليه السلام، وهو المراد بقوله تعالى: ﴿أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِ مَا يَشَاءُ﴾

والقسم الأول من الوحي هو: أن يُلقَى الله في رُوع الرسول ﷺ ما يشاء من الوحي، كما في الحديث عن ابن مسعود رضي الله عنه: «إن روح القدس نفث في روعي أنه لن تموت نفس حتى تستوفي رزقها وأجلها، فاتقوا الله وأجملوا في الطلب»^(١).

وهذا هو المعبر عنه في الآية بقوله تعالى: ﴿إِلَّا وَحْيًا﴾.

اصْطَفَاءُ اللَّهِ لِمُوسَى

١٤٤ - ﴿قَالَ يَمُوسَىٰ إِنِّي اصْطَفَيْتُكَ عَلَى النَّاسِ بِرِسَالَتِي﴾^(٢) وَبِكَلِمِي فَخُذْ مَا آتَيْتُكَ وَكُن مِنَ الشَّاكِرِينَ ﴿٣﴾

ولما منع الله تعالى موسى عليه السلام من رؤيته، مع تشوقه إليها، أعطاه خيراً كثيراً، فاختره للرسالة، واجتباها لمناجاته وكلامه، وفضله بخصائص ومناقب عظيمة:

﴿قَالَ﴾ سبحانه: ﴿يَمُوسَىٰ إِنِّي اصْطَفَيْتُكَ عَلَى النَّاسِ﴾ أي: اخترتك على أهل زمانك وأهلك ﴿بِرِسَالَتِي﴾ إلى خلقي الذين أرسلتك إليهم ﴿وَبِكَلِمِي﴾ إياك من غير واسطة، وهذه منزلة خص الله بها موسى الكليم وعرف بها في العالمين.

(١) أخرجه ابن حبان عن ابن مسعود، «الدر المنثور» (١/٤٦٠)، وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة برقم (٢٨٦٦) وهو في مسند الشهاب برقم (١١٥١) وأخرجه ابن أبي الدنيا، وصححه الحاكم عن ابن مسعود، ينظر فتح الباري (١/٢٠).

(٢) قرأ ابن كثير وأبو عمرو بفتح ياء الإضافة وصلأ من (إني اصطفتك)، والباقون بإسكانها.

(٣) قرأ نافع وابن كثير وأبو جعفر وروح بحذف الألف التي بعد اللام من (برسالتني) على التوحيد والمراد به: المصدر؛ أي: بإرسالني إياك، وقرأ الباقر بإثبات الألف (برسالاتني) على الجمع، والمراد: أسفار التوراة.

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: استبَّ رجلان: رجل من المسلمين، ورجل من اليهود، فقال المسلم: والذي اصطفى محمداً على العالمين، وقال اليهودي: والذي اصطفى موسى على العالمين، فغضب المسلم على اليهودي فلطمه، فأتى اليهودي رسول الله ﷺ فسأله فأخبره، فدعاه رسول الله ﷺ فاعترف بذلك، فقال رسول الله ﷺ: «لا تخيروني على موسى؛ فإن الناس يصعقون يوم القيامة، فأكون أول من يفيق، فأجد موسى ممسكاً بجانب العرش، فلا أدري أكان ممن صُعِقَ فأفاق قبلي، أم كان ممن استنأه الله ﷻ»^(١).

ومعنى لا تخيروني على موسى: لا تفضلوني على الأنبياء.

قال تعالى: ﴿فَخُذْ مَا آتَيْنَكَ﴾ أي: خذ ما أعطيتك من الأوامر والنواهي، وتمسك به، واعمل به كما هو في التوراة أو الألواح ﴿وَكُنْ مِنَ الشَّاكِرِينَ﴾ على ما أنعمت به عليك، فأنت أسوة وقدوة لأهل زمانك، وكأنه تعالى يقول: إن كنت قد منعتك الرؤية فقد أعطيتك من النعم العظام ما لم يؤت أحد من العالمين، فاغتنمها وثابر على شكرها.

وَعَدُ اللَّهِ لِلْيَهُودِ بِدُخُولِ الْأَرْضِ الْمُقَدَّسَةِ إِنْ تَمَسَّكُوا بِمَا فِي التَّوْرَةِ

١٤٥- ﴿وَكَتَبْنَا لَهُ فِي الْأَلْوَحِ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ مَوْعِظَةً وَتَفْصِيلاً لِكُلِّ شَيْءٍ فَخُذْهَا بِقُوَّةٍ وَأْمُرْ قَوْمَكَ يَأْخُذُوا بِأَحْسَنُهَا سَأُورِيكَ دَارَ الْفَلْسَفِينَ﴾

وكتبنا لموسى في التوراة من كل ما يحتاج إليه في دينه ودنياه من التشريع والأحكام، موعظة للاعتبار والزجر، والأوامر والنواهي، والحسن والقيح، وسائر التكاليف الشرعية من العقائد والغيبات، والأخبار والقصص وتفصيل الأحكام، والحلال والحرام.

وقد كتب الله لنبى إسرائيل في هذه الألواح ﴿مِنْ كُلِّ شَيْءٍ مَوْعِظَةً﴾ ترغب النفوس في أفعال الخير، وترهبهم من أفعال الشر ﴿وَتَفْصِيلاً لِكُلِّ شَيْءٍ﴾ من العقائد والأحكام الشرعية والأخلاق والآداب، وأمره أن يأخذها بحزم وصبر وجلد ﴿فَخُذْهَا بِقُوَّةٍ﴾ أي: خذ التوراة بجد واجتهاد وعزم صادق، وهذا حظ الرسول منها ألا يتوانى في تبليغها

(١) «المسند» (٢٦٤/٢) برقم (١١٢٨٦، ١١٣٦٥) بإسناد صحيح على شرط الشيخين، (محققوه) والبخاري برقم (٢٤١١، ٣٤٠٨، ٦٩١٧) ومسلم برقم (٢٣٧٣) و«سنن أبي داود» برقم (٤٦٦٨) عن أبي سعيد.

﴿وَأْمُرْ قَوْمَكَ يَأْخُذُوا بِأَحْسَنِهَا﴾ وهذا حظ عموم الأمة منها، أن يتمسكوا بها، ويعضوا عليها بالتواجد، ويعملوا بما فيها من التكليف الشرعية الواجبة والمستحبة، فهي الأحسن لهم والأصلح، وأن يأخذوا بأفضل ما فيها، بمعنى أنه إن كان هناك فريضة ونافلة فليأخذوا بأحسنها، أي: من الأوامر الواجبة والمستحبة فيأخذوها بجد وحزم وصبر وجلد فالمراد بالأحسن: الأشد والأحوط، والأشق على النفس، فالعزيمة أحسن من الرخصة، وهكذا ويترك المنهيات والمكروهات.

وكل من أشرك بالله تعالى، وخرج عن طاعته، فإن داره في الآخرة نار جهنم وبئس المصير ﴿سَأُورِيكَ دَارَ الْفَاسِقِينَ﴾ أي: سترون عاقبة من خالف أمري ممن أهلكهم الله وأبقى ديارهم بعدهم؛ يعتبر بها المعتبرون الموفقون للهداية والاعتاظ.

وسأدخلكم دار العمالقة الجابرة، وفي هذا وعد لموسى بدخول الأرض التي خرجوا منها، ولم يرجعوا إليها، وفي هذا تحذير من الله سبحانه من الطغيان ومن الضلال؛ حتى لا يكون مصيره ومصير أمته كقوم فرعون، وقوم ثمود، وغيرهم من الأمم الذين أهلكهم الله في الدنيا، ومأواهم النار يوم القيامة.

والألواح هي أصل التوراة الإجمالي، وأول ما نزل على موسى من وحي التشريع، فهي مشتملة على التوراة.

والألواح: جمع لوح؛ وهو قطعة مربعة من الخشب أو الصاج، والألواح التي أعطىها موسى كانت حجارة، وقد نُقِشت عليها الكتابة نقشاً من عند الله تعالى، من غير فعل إنسان كما في الإصحاح الثاني والثلاثين.

وقد كتب الله فيها لموسى أصول الشريعة والكلليات العامة التي أوحى الله بها إليه، وابتدأت شريعة موسى بالوصايا العشر:

أكرم أباك؛ لكي تطول أيامك على الأرض التي يعطيك الرب إلهك، لا تقتل، لا تزن، لا تسرق، لا تشهد على قريبك شهادة زور، لا تشته بيت قريبك، لا تشته امرأة قريبك ولا عبده ولا أمته، ولا ثوره ولا حماره، ولا شيئاً مما لقريبك.

وقد فُصِّلَت هذه الوصايا في سفر الخروج.

عُقُوبَةُ الْمُتَكَبِّرِينَ وَصِفَاتُهُمُ الْأَرْبَعَةُ

١٤٦- ﴿سَاصِرُفٌ عَنْ ءَايَتِي^(١) الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَإِنْ يَرَوْا كَلَّ ءَايَةٍ لَا يُؤْمِنُونَ بِهَا وَإِنْ يَرَوْا سَيِّلَ الرُّشْدِ^(٢) لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا وَإِنْ يَرَوْا سَبِيلَ الْغَىِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا عَنْهَا غَافِلِينَ ﴿١٤٦﴾

والذين لا يعتبرون بمصارع الغابرين، يصرفهم الله عن فهم آياته المقروءة والمنظورة، وهكذا: تأتي عاقبة المتكبرين على الله وعلى الناس، فيبين سبحانه أنه يصرف عن فهم آياته وتدبرها والعمل بما فيها وهم أهل الكبر والغطرسة، المتعالين على طاعة الله وعلى خلق الله؛ فهم لتكبرهم لا يتبعون نبياً، ولا يفقهون حجج الله وأدلة عظمتهم وشريعته.

﴿سَاصِرُفٌ عَنْ ءَايَتِي﴾ أي: سأمع عن النظر والتفكر في آلاء الله والاستدلال بها، المعرضين عن آيات الله؛ عقوبة لهم على تكبرهم وكفرهم، فلا يفهمون الحجج الدالة على قدرة الله وعظمتهم، وهم ﴿الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ﴾ فمن كان بهذه الصفة حرّمه الله خيراً كثيراً وخذله ولم يفقه من آيات الله ما ينتفع به، وقد تنقلب عليه الحقائق فيستحسن القبيح، وليس هناك كبر بحق إلا لله سبحانه، وكل متكبر يكون تكبره بغير حق؛ لأن الكبرياء صفة الله ﷻ، يُخْتَصُّ بها دون خلقه.

ومن شأن المتكبرين أنهم لإعراضهم ومحادثتهم لله ورسله إذا رأوا طريقاً فيه صلاح وهداية أو رشد أو خير، ينصرفون عنه، فهم لغفلتهم عن التفكر والنظر في أدلة الكون يتوجهون نحو طرق الضلال والكفر.

هذا: وللاية علاقة شديدة الاتصال بالآية التي قبلها، ذلكم أن بني إسرائيل كانوا يخافون ويهابون العمالقة الجبارين، ويخشون دخول الأرض المقدسة عليهم، ولما وعدهم الله بدخولها في نهاية الآية السابقة في قوله تعالى: ﴿سَأُورِيكُمْ دَارَ الْفَرِيقَيْنِ﴾ أخذوا يتساءلون: كيف تُرينا دارهم وتعدّنا إياها ونحن نخاف منهم؟!

(١) قرأ ابن عامر وحزمة بإسكان الياء من (آياتي الذين) وصلّاء، وفتحها بالباقون.

(٢) قرأ حمزة والكسائي وخلف العاشر بفتح الراء والشين من (الرُّشْدِ)، والباقون بضم الراء وسكون الشين، وهما لغتان في المصدر، كالبلخل والبلخل.

فكان الجواب: سأتولى دفعهم عنكم، فألقي في قلوبهم الرعب، وأشتت كلمتهم، وأفت في عضدهم، وأهين لكم أسباب النصر عليهم، هذا هو المعنى الأول لقوله تعالى: ﴿سَاصْرِفْ عَنْ عَائِنِي﴾ أي: سأدفع عن تعطيل آياتي وإبطالها بأن أنصركم على هؤلاء المتكبرين المتجبرين.

والمعنى الثاني: كان بنو إسرائيل يتساءلون قائلين: إنا إذا دخلنا أرض العدو فلعلهم يؤمنون ويهتدون، ويتبعون ديننا، فلا نحتاج إلى قتالهم. فأجيبوا بأن الله سيصرفهم عن اتباع آياته؛ لأنهم جُبلوا على الكبر في الأرض، والإعراض عن آيات الله^(١).

والآية عامة في اليهود وفي غيرهم من كل متكبر معرض عن آيات الله تعالى.

وفي هذا تعريض بكل كافر مكذب لآيات الله غير مصدق لخاتم المرسلين، بأن من زاغ قلبه عن الإيمان؛ فانصرف عن الحق، واستحب العمى على الهدى، فإنه لن ينتفع بالآيات الدالة على عظيم قدرة الله تعالى، ولن يؤمن ولو جاءت كل آية ﴿وَنُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ وَأَبْصَارَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَنَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ [الأنعام] ولذلك فهم إن رأوا طريق الحق والهدى وسبيل الرشدا لا يتبعوه، وإن رأوا طريق الغي والضلال اتخذوه سبيلاً لهم.

أربعة أوصاف للمتكبرين في الأرض:

ويتبين من هذا أن الله تعالى وصف الذين يصرفهم عن الهداية بأربعة أوصاف:

الوصف الأول: أنهم يتعالون في الأرض، ويترفعون على الناس، فيزدرون الناس وينتقصونهم، ويرفضون قبول الحق من الناس، فالكبر بطر الحق وغمط الناس.

الوصف الثاني: أنهم قوم معاندون، جاحدون للحق، رافضون لدلائل التوحيد والنبوة ﴿وَإِنْ يَرَوْا كُلاًّ ءَايَةٍ لَا يُؤْمِنُوا بِهَا﴾.

الوصف الثالث: أنهم قوم استمرؤوا الضلال والفساد، فصار طبعاً وخلقاً لهم، فإذا رأوا

(١) يُنظَر: «تفسير التحرير والتنوير» (٩/١٠٤).

طريق الرشـد واضـحاً جلياً لا يتخذونه طريقاً لهم ﴿وَإِنْ يَرَوْا سَبِيلَ الرُّشْدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا﴾ .
 الوصف الرابع: أنهم يتجاوبون مع الشر بقدر ما هم سـلبيون مع الخير، فإذا رأوا طريق الغي والضلال سلكوه واتخذوه منهجاً لهم .
 فمن اجتمعت له هذه الصفات الأربع، فقد ختم الله على سمعه وقلبه، وجعل على بصره غشاوة، فهم قوم مطبوعون على الضلال، ولم يُكـرَهُوا عليه إكـراهاً؛ ولذا فقد كـذَّبوا بآيات الله الدالة على توحيده واشتغلوا بأهوائهم .
 وقد بيّن الله سبحانه السبب في هذا الانحراف بأنهم ردّوا كلام الله وكذبوا بآياته وغفلوا عما يراد بها فلم يعملوا بما فيها .

الجزء من جنس العمل

١٤٧- ﴿وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَلِقَاءِ الْآخِرَةِ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾
 ثم بيّن سبحانه سنته في خلقه إلى يوم القيامة بأن من كذب بآيات الله ولقائه حبطت أعمالهم وبطل ثوابها، كمثـل الناقة يصيبها الحبوط، أي: تأكل شيئاً ساماً فتنتفخ وتموت، ويقال: حبطت الناقة حين يظن صاحبها أن هذا الانتفاخ شحماً أو لحماً، ولكنه زيف وانتفاخ زائل، إنه أثر السم .
 وهكذا عمل الكافر، مثل: صلة الرحم، والصدق، والإحسان، وحسن المعاملة، فهو يظن أنه على شيء، وهو لا يفعل شيئاً يأجره عليه رب العالمين، بل صارت أعماله هباءً متثورًا بسبب كفره وتكذيبه .
 والمعنى: إن الذين كذبوا بآيات الله وحججه ولقاء الآخرة، بطلت أعمالهم بسبب فقد الشرط، وهو الإيمان بالله والتصديق بيوم الحساب والجزاء، وهم سيجزون الخلود في النار يوم القيامة، بسبب كفرهم ومعاصيهم في الدنيا .
 ومن لا يؤمن باليوم الآخر لا يرجو ثواباً على عمله، وليس لها غاية تنتهي إليه .

عِبَادَةُ الْيَهُودِ لِلْعَجَلِ الذَّهَبِيِّ

١٤٨ - ﴿وَاتَّخَذَ قَوْمُ مُوسَىٰ مِنْ بَعْدِهِ مِنْ حُلِيِّهِمْ عِجَلًا جَسَدًا لَهُمُ خُورٌ أَلَمْ يَرَوْا أَنَّهُ لَا يَكْلَمُهُمْ وَلَا يَهْدِيهِمْ سَبِيلًا اتَّخَذُوهُ وَكَانُوا ظَالِمِينَ﴾ (٤٨)

والآيات التي سبقت تُبَيِّنُ صفحة من تاريخ اليهود في حُبهم لعبادة الأوثان، ومزاولة الشرك والكفر بالله سبحانه، وتُبَيِّنُ أيضًا أن بني إسرائيل لما اجتاز بهم موسى البحر، وأراهم الله الآية البَيِّنَةُ، فأغرق فرعون وملأه أمام أعينهم، بعد ذلك مباشرة رأوا قومًا يعبدون أصنامًا لهم على صورة البقر ﴿قَالُوا يَكُونُ أَجَعَل لَنَا إِلَهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ﴾ وذلك لأن بني إسرائيل قد تآقت نفوسهم لعبادة الأوثان بسبب مخالطتهم للفراعنة، فقد كانوا يعبدون البقر من دون الله، كما هو حال بعض الناس في الهند وغيرها إلى يومنا هذا، وكان قدماء المصريين إذا ماتت العجول المؤلَّهة يحنَّطونها، ويدفنونها في مقبرة خاصة، وفي مكان خاص، يقال له: (سقارة) بمصر.

وتُبَيِّنُ هذه الآيات حب اليهود للأوثان واتخاذهم العجل الذهبي إلهاً معبوداً من دون الله سبحانه.

قصة عجل اليهود: ذلكم: أن موسى ﷺ لما خرج وفارق قومه متوجهاً إلى جبل الطور لمناجاة ربه، حيث تنزل عليه التوراة، تأخر عن الموعد المضروب بينه وبين قومه عشرة أيام زادها في الصيام، وبينما كان موسى في حضرة ربه، كان بنو إسرائيل يرتكسون وينتكسون في عبادة عجل لا روح فيه.

وذلك أنه خلال هذه الأيام العشر، جاءهم رجل من بني إسرائيل يهودي ضالٌّ، خبيث لئيم، يقال له: موسى بن ظفر السامري، فقال لهم: إن موسى قد خرج، وإنه قد ضل الطريق، ولن يعود إليكم، فما عليكم إلا أن تبحثوا عن إله تتخذونه معبوداً لكم، وأشار عليهم أن يأخذوا معهم الحلي والذهب، وكانت نسوة بني إسرائيل قد استعرنه من نسوة القبط في مصر في مناسبة عيد لهن، ثم خرجن به من مصر، وتعدَّرن عليهن رده؛ لأن موسى سرى بهم ليلاً، وهذا الحلي من الكثرة بمكان، فاحتال موسى السامري في أخذ هذا الحلي، وقال: إنكم استعرتموه من القبط في مصر، وإنه لا يجوز لكم أن تستحلوه؛

لأنه استعارة لا تحل لكم، وحفر حفرة، وجمع الحلي، وألقاه في هذه الحفرة، وأضرمت فيها النيران.

وكان موسى السامري رجلاً صائغاً يصوغ الذهب، فصاغ من الذهب عجلاً بطريقة هندسية، جسداً بلا روح، يخرج الصوت منه إذا مر فيه الريح ﴿لَهُ خُورٌ﴾ أي: له صوت كصوت البقر.

وذكر بعض المفسرين أنه كان لحمًا ودمًا، وقال لهم: هذا إلهكم وإله موسى، ولكن موسى نسي إلهه وذهب في طلبه، كما جاء ذلك مفصلاً في سورة طه، ويشير إليه هنا قوله سبحانه: ﴿وَاتَّخَذَ قَوْمُ مُوسَى مِنْ بَعْدِهِ﴾ أي: بعد أن تركهم إلى جبل الطور؛ لتنزل عليه التوراة ﴿مِنْ حُجَّتِهِمْ عِجْلاً جَسَداً﴾ صاغه السامري وألقى عليه قبضة من أثر الرسول (جبريل).

وكلمة ﴿جَسَداً﴾ تفيد أنه لا روح فيه، ولكن ﴿لَهُ خُورٌ﴾ أي: صوتاً كصوت البقر، فعبدوه واتخذوه إلهًا، ومن أظلم ممن يعبد خلقاً من صنع البشر، لا يملك لنفسه ولا لغيره نفعا ولا ضرا.

ألم يعلموا أنه لا يخاطبهم ولا يرشدهم إلى خير؟! كيف يكون إلهًا، وهو لا يعقل، ولا يتكلم، ولا يدرك، ولا ينفع ولا يضر؟! ثم بين جلّ شأنه أنهم مع ذلك أقدموا على هذا الأمر الشنيع ﴿اتَّخَذُوهُ﴾ معبودًا لهم ﴿وَكَانُوا ظَالِمِينَ﴾ لأنفسهم واضعين الشيء في غير محله، إذ كيف يشبهه عليهم رب الأرض والسماء بعجل مصنوع ليس فيه من الصفات الذاتية ولا الفعلية ما يجعله إلهًا؟ قال تعالى:

١٤٩ - ﴿وَلَمَّا سَقَطَ فِي أَيْدِيهِمْ وَرَأَوْا أَنَّهُمْ قَدْ ضَلُّوا قَالُوا لَئِنْ لَمْ يَرْحَمْنَا رَبُّنَا وَيَغْفِرْ لَنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾

أي: ولما أعيتهم الحيل، وندموا على ما فعلوا بعد أن رجع موسى إليهم، ورأوا ما به من غضب ورأوا توبيخه لأخيه على عبادتهم العجل من دون الله، فلما تبين لهم خطأهم، واتضح لهم ما هم فيه من ضلال واشتدت حسرتهم على عبادتهم للعجل، أخذوا في الإقرار بالعبودية لله سبحانه، واستغفروا وندموا على ما فعلوا، فقال الذين لم يعبدوا

(١) قرأ حمزة والكسائي وخلف العاشر بقاء الخطاب في (ترحمنا وتغفر لنا) ونصب باء (ربنا) على النداء، وقرأ الباقون بياء الغيبة في الفعلين، ورفع باء (ربنا) على أنه فاعل.

العجل قبل أن تشتد قسوة قلوبهم، كما في قوله تعالى عنهم: ﴿فَهِىَ كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً﴾ [البقرة: ٧٤] ﴿قَالُوا لَئِنْ لَمْ يَرْحَمْنَا رَبُّنَا وَيَقْبَل تَوْبَتَنَا وَيَسْتَرْ ذُنُوبَنَا﴾ ﴿وَيَغْفِرَ لَنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ الهالكين الذين ذهبت أعمالهم، وهذا اعتراف منهم بذنبهم والتجاءهم إلى الله تعالى.

وهكذا: فقد رجع موسى من لقاء ربه، فوجد قومه يعبدون العجل، فغضب، وأخبرهم بضلالهم، فسقط في أيديهم من الهم والندم على فعلتهم، فتصلوا مما حدث منهم، وتضرعوا إلى الله تعالى أن يرحمهم ويغفر لهم ما صدر منهم من عبادتهم للعجل، وإلا فقد خسروا دنياهم وأخراهم.

مُوسَى يَغْضَبُ مِنْ عِبَادَةِ قَوْمِهِ لِلْعِجْلِ وَيَسْتَغْفِرُ رَبَّهُ

١٥٠ - ﴿وَلَمَّا رَجَعَ مُوسَى إِلَى قَوْمِهِ غَضْبَنَ أَسَفًا قَالَ بِسْمَا^(١) خَلَقْتُونِي مِنْ بَعْدِي^(٢) أَعَجَلْتُمْ أَمْرَ رَبِّكُمْ^(٣) وَأَلْقَى الْأَلْوَحَ وَآخَذَ بِرَأْسِ أَخِيهِ يَجُرُّهُ إِلَيْهِ قَالَ ابْنَ أُمِّ^(٣) إِنَّ الْقَوْمَ اسْتَضَعْفُونِي وَكَادُوا يَقْتُلُونَنِي فَلَا تُشْمِتْ بِيَ الْأَعْدَاءَ وَلَا تَجْعَلْنِي مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿١٥٠﴾﴾

لقد أعلم الله سبحانه موسى ﷺ قبل أن يعود إلى قومه بأنهم اتخذوا العجل معبودًا من دون الله، كما جاء ذلك في قوله سبحانه: ﴿قَالَ فَإِنَّا قَدْ فَتَنَّا قَوْمَكَ مِنْ بَعْدِكَ﴾ [طه: ٨٥] بعبادتهم للعجل ﴿وَأَصْلَهُمُ السَّامِرِيُّ﴾ ولكن موسى لم تهتز نفسه كما اهتزت حين رأى القوم وهم مجتمعون حول العجل يطربون ويرقصون له حبًا وإعجابًا به وعبادته من دون الله؛ فالمعينة والمشاركة حملته على شدة الغضب وجعلته يلقي الألواح التي في يده على الأرض حين رأى المنظر، وسمع الجلبة والضوضاء؛ فارتفع غضبه واشتد أسفه وحزنه، وقد ترتب على شدة انفعال موسى أمران:

أحدهما: طرحه للألواح على الأرض.

(١) أبداً همزة (بسماء) ياء، ورش وأبو عمرو بخلف عنه وأبو جعفر، وحزمة عند الوقف، ومثلها (برأس).

(٢) قرأ نافع وابن كثير وأبو عمرو وأبو جعفر بفتح ياء الإضافة من (بعدي أعجلتم) والباقون بإسكانها

(٣) قرأ ابن عامر وشعبة وحزمة والكسائي وخلف العاشر بكسر الميم من (ابن أم) والباقون بفتحها، وهما لغتان.

وثانيهما: جرّه لرأس أخيه.

ولما رجع موسى إلى قومه من مناجاة ربه سمع أصوات قوم لاهين، عاكفين على عبادة العجل فغضب وحزن، وكان الله تعالى قد أخبره أن قومه قد فُتِنوا بعبادة العجل، وأن السامري قد أضلهم، فقال لهم موسى: بئس خلافتكم لي بعد غيبي فأنتم قد عبدتم العجل، وهارون لم يُحسن سياسة الأمة.

وامتلاً قلبه غضباً وغيظاً عليهم، وقال لهم: بئس ما خلفتموني بعد ذهابي عنكم فإنها حالة تفضي إلى الهلاك الأبدي والشقاء سرمدي.

﴿فَرَجَعَ مُوسَى إِلَى قَوْمِهِ غَضْبَنَ أَسْفًا قَالَ يَتَقَوَّمُ أَلَمْ يَعِدْكُمْ رَبُّكُمْ وَعَدًّا حَسَنًا أَفُطَالَ عَلَيْكُمْ الْعَهْدُ أَمْ أَرَدْتُمْ أَنْ يَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبٌ مِّنْ رَبِّكُمْ فَأَخْلَفْتُم مَّوْعِدِي﴾ [طه: ٨٦]

وكان من أثر هذا الغضب أن ألقى موسى ألواح التوراة، غضباً على قومه الذين عبدوا العجل، وغضباً على أخيه هارون وقال ﴿أَعَجَلْتُمْ أَمْرَ رَبِّكُمْ﴾ بسبب هذه الأيام العشرة التي جعلتكم تتعجلون الموعد الذي بيني وبينكم، فلم تصبروا حتى أرجع، كأنكم تتعجلون عقاب الله لكم، أو تتعجلون ما وعدكم الله به من إنزال التوراة.

﴿وَأَلْقَى الْأَلْوَحَ﴾ رماها من الغضب، قيل: إنها كانت عشرة ألواح على أرجح الأقوال، فألقاها بشدة من يده، وأمسك موسى بشعر رأس أخيه هارون وأخذ يجره إليه، وقال له ﴿مَا مَنَعَكَ إِذْ رَأَيْتَهُمْ ضَلُّوا﴾ [طه: ٩٦] ﴿أَلَّا تَتَّبِعَنِ أَفَعَصَيْتَ أَمْرِي﴾ [طه: ٩٧]

وقال هارون لموسى مستعظفاً: يابن أُمي إن القوم استدلونني وصيرونني ضعيفاً، وقاربوا أن يقتلوني فلا تفعل بي ما يسرُّ الأعداء ولا تغضب عليّ، وتجعلني مع من خالف أمرك وعبد العجل.

وأقبل موسى نحو أخيه هارون الذي استخلفه عليهم وزوّده بالنصيحة قبل الذهاب لميقات ربه قائلاً له: ﴿أَخْلَقْنِي فِي قَوْمِي وَأَصْلَحَ وَلَا تَتَّبِعْ سَبِيلَ الْمُفْسِدِينَ﴾ أقبل نحوه، وأخذ يجره من لحيته ورأسه، ولكن هارون أجاب موسى قائلاً: ﴿يَبْنَؤُمْ﴾ يستجيش فيه عاطفة الأمومة، فهو ابن أبيه وأمه، ولكنه يأتي له من ناحية الرحم ﴿يَبْنَؤُمْ لَا تَأْخُذْ بِلِحَاقِي وَلَا يَرَأْسِي﴾ إني خَشِيتُ أَنْ تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِي إِسْرَءِيلَ [طه: ٩٤]. لقد أثرت الوحدة الوطنية

على الفرقة والفتنة الطائفية حتى ترى رأيك.

إن هارون كان قد نصحهم حين عبدوا العجل أن يطيعوه ويعبدوا الله وحده ﴿وَلَقَدْ قَالَ لَهُمْ هَارُونُ مِنْ قَبْلُ يَقَوْمُ إِنَّمَا فُتِنْتُمْ بِهِ وَإِنَّ رَبَّكُمُ الرَّحْمَنُ فَاتَّبِعُونِي وَأَطِيعُوا أَمْرِيَ ﴿٩٠﴾﴾ [طه] ولكن القوم أجابوا هارون قائلين: ﴿لَنْ نَبْرَحَ عَلَيْهِ﴾ أي: على عبادة العجل ﴿عَنكِفَيْنَ حَتَّىٰ يَرْجِعَ إِلَيْنَا مُوسَى﴾ [طه: ٩١].

قال موسى لهارون وهو يشد شعر رأسه ويجذبه من لحيته ﴿مَا مَنَعَكَ إِذْ رَأَيْتَهُمْ ضَلُّوا﴾ [طه: ٩٢] في عبادتهم للعجل من دون الله ﴿أَلَّا تَتَّبِعَنِ﴾ فترد شاردهم وضالهم إلى الهدى ﴿مَا مَنَعَكَ إِذْ رَأَيْتَهُمْ ضَلُّوا﴾ ﴿أَلَّا تَتَّبِعَنِ أَفَعَصَيْتَ أَمْرِيَ﴾ ﴿٩٣﴾ قَالَ يَبْنَؤُمْ لَا تَأْخُذْ بِرَأْسِي وَلَا بِرَأْسِي﴾ [طه: ٩٣، ٩٤] إني خشيت أن أفرق بينهم فكنت مع الذين وحدوا الله سبحانه، وظلوا على الحق متبعين لله جل شأنه، وتركتم الذين ضلوا وعبدوا العجل من دون الله؛ حتى لا أفرق بين القوم إلى أن تأتي إليهم يا موسى.

عن سعيد بن جبير عن ابن عباس ؓ قال: قال رسول الله ﷺ: «ليس الخبر كالمعاينة، إن الله ﷻ أخبر موسى بما صنع قومه في العجل، فلم يلق الألواح، فلما عاين ما صنعوا ألقى الألواح فانكسرت»^(١).

وأخرج الطبري بسند صحيح عن عكرمة عن ابن عباس أيضًا قال: لما رجع موسى إلى قومه وكان قريبًا منهم سمع أصواتهم، فقال: إني أسمع أصوات قوم لاهين، فلما عاينهم وقد عكفوا على العجل ألقى الألواح فكسرها، وأخذ برأس أخيه يجره إليه.

١٥١ - ﴿قَالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلِإِخِي وَأَدْخِلْنَا فِي رَحْمَتِكَ وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾ ﴿١٥١﴾

ولما اقتنع موسى ببراءة أخيه هارون، وأنه قد أدى ما أنيط به من الرسالة، وقام بالواجب

(١) «المسند» (٢٧١/١) برقم (٢٤٤٧) والبخاري (٢٠٠) كشف، وابن أبي حاتم (٨٩٩٨) وابن حبان برقم (٦٢١٣) الإحسان و«المستدرک» (٣٢١/٢، ٣٨٠/٢) وقال الحاكم: صحيح الإسناد ولم يخرجاه، ووافقه الذهبي، والطبراني في «الكبير» (١٢٤٥١) وفي «الأوسط» (٢٥) قال الهيثمي في «مجمع الزوائد» (١٥٣/١): رجاله رجال الصحيح، وصححه الألباني «مشكاة المصابيح» برقم (٥٧٣٨) وقال محققو «المسند»: حديث صحيح، رجاله ثقات.

الذي عليه وعرض نفسه للأذى؛ ليصرف قومه عن عبادة العجل ﴿قَالَ﴾ موسى لما تبين له عذر أخيه، وعلم أنه لم يفرط فيما وجب عليه في جنب الله، ولم يقصر في نصح القوم، وأنه بريء مما فعلوه، قال نادماً على ما صنعه بأخيه: ﴿رَبِّ اغْفِرْ لِي﴾ غصبي، واغفر ما كان بين أخي وبين بني إسرائيل، فرحمتك أوسع من كل راحم ﴿وَأَدْخَلْنَا فِي رَحْمَتِكَ﴾ التي وسعت كل شيء ﴿وَأَنْتَ أَزْكَمُ الرَّاحِمِينَ﴾ بعبادك من كل راحم.

عِقَابُ اللَّهِ لِمَنْ عَبَدَ الْعِجْلَ

١٥٢ - ﴿إِنَّ الَّذِينَ اتَّخَذُوا الْعِجْلَ سَيَنَالُهُمْ غَضَبٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَذَلَّةٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُفْتَرِينَ﴾

قال سبحانه مبيناً حال أهل العجل الذين عبدوه، ومبيناً أثر العقوبة التي ينالها اليهود الذين عبدوا العجل، وينالها كل من يشركون بالله سبحانه، ممن استمروا على شركهم إلى يوم القيامة: ﴿إِنَّ الَّذِينَ اتَّخَذُوا الْعِجْلَ﴾ إلهاً؛ أي: باشروا عبادته من دون الله ﴿سَيَنَالُهُمْ غَضَبٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَذَلَّةٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ كما أغضبوا ربهم واستهانوا بأمره، فهم يوم القيامة في مقت الله ولعنته وغضبه الشديد، أما في الدنيا فهم في ذلة وهوان ومسكنة بسبب كفرهم بربهم ﴿وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُفْتَرِينَ﴾ المختلفين في دين الله ما ليس منه.

وهكذا: كل من كان هذا شأنه من المفتريين المبتدعين في دين الله إلى يوم الساعة، فكل مبتدع ذليل، وله نصيب من غضب الله، وقد نال اليهود غضب الله بسبب عبادتهم للعجل، حيث أمرهم أن يقتل بعضهم بعضاً، ثم تاب عليهم بعد ذلك.

قال سفيان بن عيينة: ليس في الأرض صاحب بدعة إلا وهو يجد ذلة تغشاه، وهو في كتاب الله، قالوا: أين هي؟ قال: أما سمعتم قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ اتَّخَذُوا الْعِجْلَ﴾ قالوا: يا أبا محمد، هذه لأصحاب العجل خاصة، قال: كلا، اقرأ ما بعدها ﴿وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُفْتَرِينَ﴾ فهي لكل مفترٍ ومبتدع إلى يوم القيامة^(١).

وقيل: إن الضعف والذلة كلاهما في الدنيا كما هو منطوق الآية، وقد تحقق ذلك باعترافهم بعبادة العجل، وإسلام أنفسهم للقتل، فقتل بعضهم بعضاً توبة من ذنبهم كما

(١) أخرجه أبو الشيخ كما في «الدر المنثور» (٦/٥٩٦).

قال تعالى: ﴿فَأَقْضُوا أَنْفُسَكُمْ﴾ [البقرة: ٥٤] وتحققت هذه الدلة عليهم في الدنيا بأن حَرَمَهُم الله من الأرض المقدسة، وكتب عليهم الاغتراب، وأن يعيشوا بلا وطن.

وقيام كيان صهيوني مؤخرًا لهم فيه مخالفة صريحة لنصوص القرآن والتوراة، ويشهد بهذا اليهود غير الصهاينة في العالم.

وعلى مشهد من بني إسرائيل أحرق موسى العجل، وقال للسامري رأس الفتنة: ﴿وَأَنْظِرْ إِلَى إِلَهِكَ الَّذِي ظَلَمْتَ عَلَيْهِ عَاكِفًا لَّنُحَرِّقَنَّهُ ثُمَّ لَنَنْسِفَنَّهُ فِي الْيَمِّ نَسْفًا﴾ (٩٧) ﴿إِنَّمَا إِلَهُكُمُ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَسِعَ كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا﴾ (٩٨) [طه: ٩٧، ٩٨] وبهذا أثبت موسى لقومه أن المستحق للعبادة إنما هو الله رب العالمين.

ثم ذكر سبحانه حكمًا عامًا للتوبة يدخل فيه اليهود وغيرهم، فقال:

١٥٣ - ﴿وَالَّذِينَ عَمِلُوا السَّيِّئَاتِ ثُمَّ تَابُوا مِنْ بَعْدِهَا وَآمَنُوا إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ (١٥٣)

أي: إن باب الله مفتوح لكل من عصاه سبحانه، حتى من اتخذ العجل إلهاً من دون الله إذا هو تاب وأناب، وأقبل على ربه؛ فإن الله جلَّ شأنه يقبل توبته.

واليهودي والنصراني الذين يقول: عزيز ابن الله، أو عيسى ابن الله، أو أنه هو الإله، ثم يتوب ويرجع إلى الله سبحانه؛ فإن الله جلَّ شأنه يقبل توبته، ما لم يُعْرِغْ، والذي يقتل ويسرق ويزني، ثم يتوب إلى الله سبحانه قبل أن يغرغ وقبل أن تطلع عليه الشمس من مغربها، فإن الله سبحانه يقبل توبته.

﴿وَالَّذِينَ عَمِلُوا السَّيِّئَاتِ﴾ أي: جميع المعاصي من شرك وكبائر وصغائر، وهذا يشمل الذنوب الكبيرة والصغيرة، ويشمل الشرك والكفر إذا رجع بعد فعلهما إلى الإيمان والعمل الصالح ﴿ثُمَّ تَابُوا مِنْ بَعْدِهَا﴾ توبة نصوحًا، بأن ندموا على ما مضى وأقلعوا عن ذنوبهم وعزموا على ألا يعودوا ﴿وَأَمَنُوا﴾ بالله من قلوبهم، وعملوا صالحًا بجوارحهم ﴿إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا﴾ أي من بعد التوبة من السيئات والرجوع إلى الطاعات ﴿لَغَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ لكل تائب عائد إليه سبحانه، غير فاضح لأعماله السيئة، مجاهر بمعاصيه.

فالله تعالى يغفر السيئات ويمحوها ولو كانت مليء الأرض، ويرحم عباده التابعين ويوفقهم للخيرات.

وَصَفُ الْأَلْوَا حِ وَأَشْتَمَالُهَا عَلَى التَّوْرَةِ

١٥٤ - ﴿وَلَمَّا سَكَتَ عَنْ مُوسَى الْغَضَبُ أَخَذَ الْأَلْوَا حِ وَفِي نُسْخَتِهَا هُدًى وَرَحْمَةٌ لِلَّذِينَ هُمْ لِرَبِّهِمْ يَرْهَبُونَ﴾

ثم بيّن سبحانه أن موسى عليه السلام لما سكن غضبه ، وأخذ يناقش السامري ، ويناقش هارون ، أخذ الألواح بعدما ألقاها على الأرض ، فوجد فيها موعظة وهدى من الضلالة وبيانا للحق ، ورحمة للذين يخشون الله ويخافون عقابه ، وجدها تهدي لأحسن الأعمال والأخلاق والآداب ، كما قال جل شأنه : ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَا التَّوْرَةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ﴾ [المائدة: ٤٤]

والمراد: التوراة الحقيقية التي نزلت من عند الله تعالى على موسى عليه السلام ، قبل أن يتطرق إليها التحريف والتغيير والتبديل .

قال تعالى : ﴿وَلَمَّا سَكَتَ عَنْ مُوسَى الْغَضَبُ﴾ أسلوب بليغ لا ينسب الغضب إلى موسى ، بل يقرر أن الغضب هو الذي سكت وكفّ عن موسى ، وكأن الغضب له وعى وإدراك ، ثم إن موسى عليه السلام ﴿أَخَذَ الْأَلْوَا حِ﴾ التي نُسخَت من اللوح المحفوظ ، وكتبت في الألواح ، قيل : إنها كانت سبعة ألواح ، أو عشرة ، أو أكثر من ذلك ، وهل هذه الألواح كانت هي التوراة أو غيرها ؟

قال بعض المفسرين : إنها كانت مشتملة على التوراة ، فهي أول ما أوتيّه موسى من الوحي ، وهي أصل التوراة في الجملة .

﴿وَفِي نُسْخَتِهَا﴾ النسخ : هو نقل مثل المكتوب في لوح ، أو صحيفة أخرى ، ومعنى هذا أنه أخذ من الألواح نسخة ، وهذا ما يشير إليه الإصحاح الرابع والثلاثون من سفر الخروج . ثم قال الرب لموسى : انحت لك لوحين من حجر مثل الأولين ، فأكتب أنا على اللوحين الكلمات التي كانت على اللوحين الأولين اللذين كسرتَهُما . . .

وقد وصف الله هذه النسخة التي نزلت على موسى عليه السلام ، بأن فيها هدى ورحمة لمن يخافون ربهم ، ويخشون عقابه وفق ما في الأصل قبل التحريف .

ثم إن رصاص الألواح الأصلية وُضع في تابوت العهد كما قال تعالى : ﴿إِنَّ عَايَةَ مُلْكِهِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ التَّابُوتُ فِيهِ سَكِينَةٌ مِّنْ رَبِّكُمْ وَبَقِيَّةٌ مِّمَّا تَرَكَ آءَالُ مُوسَى وَآلُ

هَكَرُونَ تَحْمِلُهُ الْمَلَائِكَةُ ﴿البقرة: ٢٤٨﴾.

وقد أحرقت بعد ذلك في السبي البابلي ولم يبق لها أثر، ثم كتب الأخبار بدلاً عنها من حفظهم وضمنوها ما يخدم قضيتهم ويجمع شتاتهم.

هذا: وقد أخرج الطبري بسنده عن قتادة أن موسى ﷺ قال: رب، إني أجد في الألواح خير أمة أخرجت للناس، يأمرهم بالمعروف وينهون عن المنكر، فاجعلهم أمتي. قال: تلك أمة أحمد، قال: رب، إني أجد في الألواح أمة هي آخر الأمم في الخلق وأولهم في دخول الجنة، فاجعلهم أمتي. قال: تلك أمة أحمد.

قال: رب، إني أجد في الألواح أمة إذا هم أحدهم بحسنة ثم لم يعملها كُتبت له حسنة، فإن عملها كتبت له عشر حسنات، إلى سبعمائة ضعف، رب اجعلهم أمتي. قال: تلك أمة أحمد.

قال: رب، إني أجد في الألواح أمة إذا هم أحدهم بسيئة لم تُكتب عليه حتى يعملها، فإذا عملها كتبت عليه سيئة واحدة، فاجعلهم أمتي. قال: تلك أمة أحمد...^(١).

هذا: والهدى الذي في التوراة لا يتقاد له ويتلقاه بالقبول إلا الذين يرهبون ربهم ويخشون عقابه، أما الذين لا يخافون المقام بين يدي الله، فإنهم لا يزدادون إلا عتوا ونفورا، وتقوم عليهم حجة الله فيها.

الْمِيقَاتُ الثَّانِي بَيْنَ مُوسَى وَرَبِّهِ: الْاِعْتِدَارُ عَنْ عِبَادَةِ الْعِجْلِ

١٥٥ - ﴿وَأَخَارَ مُوسَى قَوْمَهُ سَبْعِينَ رَجُلًا لِّمِيقَاتِنَا فَلَمَّا أَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ قَالَ رَبِّ لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُم مِّن قَبْلُ وَإِنِّي أَتَلَوُّنَا بِمَا فَعَلَ السُّفَهَاءُ مِنَّا إِنْ هِيَ إِلَّا فِتْنَتُكَ تُضِلُّ بِهَا مَن تَشَاءُ وَتَهْدِي مَن تَشَاءُ أَنْتَ وَلِيُّنَا فَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا وَأَنْتَ خَيْرُ الْغَافِرِينَ ﴿١٥٥﴾﴾

عن علي بن أبي طلحة عن ابن عباس ؓ قال: كان الله أمر موسى أن يختار من قومه سبعين رجلاً، فبرز بهم ليدعوا ربهم، فكان فيما دعوا الله، أن قالوا: اللهم اعطنا ما لم تعطه أحداً قبلنا، ولا تعطه أحداً بعدنا، فكره الله ذلك من دعائهم، فأخذتهم الرجفة...

(١) يُنْظَرُ الأثر كاملاً في «تفسير الطبري» (١٣/١٢٤).

ثم إن الله تعالى جعل لموسى ميقاتين للمناجاة كما سبق تفصيله:

المیقات الأول: جاء ذكره في قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا جَاءَ مُوسَى لِمِيقَاتِنَا وَكَلَّمَهُ رَبُّهُ﴾ وذلك بعد مواعدة موسى ربه أربعين يومًا وليلة.

وتذكر التوراة^(١) أن الله تعالى أمر موسى أن يصعد طور سيناء، ومعه سبعون من شيوخ بني إسرائيل، ويكون شيوخ بني إسرائيل في مكان معين من الجبل، ويتقدم موسى حتى يدخل في السحاب؛ لسمع كلام الله، وأن الله لما تجلى للجبل ارتجف الجبل.

وذكر القرآن الكريم أن موسى خر صعبًا، ويتعين أن يكون السبعون قد أصابهم ما أصاب موسى؛ لأنهم كانوا في الجبل أيضًا.

أما الميقات الثاني: فقد كان بعد عبادة بني إسرائيل للعجل في غيبة موسى، وقد كان هذا الميقات الثاني للاعتذار عن عبادة العجل، وطلب العفو والمغفرة عمن فعل ذلك، وقد أخذ معه السبعين المختارين في المرة الأولى، فأخذتهم الرجفة؛ لسكوتهم على عبادة العجل، أو لأنهم طلبوا رؤية الله جهرة، فخشي موسى أن تكون هذه الرجفة أمانة غضب ومقدمة إهلاك، وأطلق لفظ السفهاء على من عبدوا العجل، فسَمَّى الشرك سفهًا؛ لأنه صادر عن نقص عقل ودين.

أراد موسى ﷺ أن يأخذ من بني إسرائيل الذين لم يعبدوا العجل سبعين رجلًا من خيارهم؛ ليذهب بهم إلى جبل الطور في سيناء، حيث واعده ربه سبحانه في زمان معين ومكان معين؛ كي يعتذروا إلى ربهم في هذه المرة عن عبادة بني إسرائيل للعجل، ويتوبوا إليه مما كان من سفهائهم، وهم يمثلون بني وفد إسرائيل إلى الله ﷻ، وقد وعدهم الله ميقاتًا يحضرون فيه، فلما حضروا في الموعد المحدد، تجرؤوا على ربهم جرأة كبيرة وأسأؤوا الأدب معه، حيث طلبوا من موسى رؤية الله جهرة، فأخذتهم الرجفة فَصَّعِقُوا وأهلكوا.

وهذا ما يشير إليه قوله تعالى: ﴿وَأَخَارَ مُوسَى قَوْمَهُ سَبْعِينَ رَجُلًا لِمِيقَاتِنَا﴾ تَمَّ انتقاؤهم بعناية، الأفضل منهم فالأفضل، فما كان من هؤلاء الصفوة المختارة من بني إسرائيل عند

(١) في الإصحاح الرابع والعشرين من سفر الخروج.

وصولهم ذلك المكان إلا أن قالوا لموسى: ﴿أَرَأَىٰ اللَّهُ جَهَنَّمَ﴾ [النساء: ١٥٣] وهم يعلمون أنه قد سبق لموسى في الميقات الأول أن طلب رؤية الله ﷻ بعد أن سمع كلامه، وأن الله تعالى بين له أنه طلب أمرًا لا تقوى عليه الجبال؛ لأن رؤية الله تعالى تكون في الآخرة وليست في الدنيا.

ولذا: فإن الله تعالى علّق رؤيته على استقرار الجبل، وهو أشد وأقوى ﴿فَإِنْ أَسْتَقَرَّ مَكَانَهُ فَسَوْفَ تَرَوْنِي﴾ والجبل لم يستقر، وموسى لم يقوَ على ذلك بل خرّ مغشيًا عليه، ومع ذلك فإن هؤلاء السبعين المختارين الذين أخذهم موسى للقاء ربه، قالوا له: ﴿كَانَ نُؤْمِنُ لَكَ حَتَّىٰ رَأَىٰ اللَّهُ جَهَنَّمَ﴾ [البقرة: ٥٥] عيانًا فإنك قد كلمته فأرنا إياه، ولذلك نزلت بهم الصاعقة وهم ينظرون إليها، فمات السبعون عن آخرهم، كما جاء في قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قُلْتُمْ يَمْوِسُ يَا آلَ كَافُّرٍ إِنَّكَ لَمِنَ الْكَاذِبِينَ﴾ [البقرة: ٥٥، ٥٦] أي: أماتهم الله موتًا حقيقيًا، ثم بعثهم بعد موتهم؛ ليكون ذلك دليلًا على أن الله سبحانه يحيي الناس بعد موتهم، وأن القادر على ذلك قادر على البعث بعد الموت يوم القيامة.

﴿فَلَمَّا أَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ قَالَ﴾ موسى وهو يتضرع إلى ربه: ماذا أقول لبني إسرائيل إذا عدت إليهم، وأخبرتهم أنك أهلكك خيارهم، وهم قد حضروا للاعتذار عن قومهم في عبادة العجل، ولو أنك أهلكتهم قبل ذلك وأنا معهم لكان أهون عليّ وأخف ﴿لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُم مِّن قَبْلُ وَإِنِّي﴾ أي: قبل مجيئهم إلى هذا المكان وأنا معهم.

﴿أَهْلَكْتُمْ إِنَّمَا أَهْلَكَكَ بِمَا فَعَلَ السُّفَهَاءُ مِنَّا﴾ وهم الذين اجترؤوا على الله سبحانه، وطلبوا رؤيته عيانًا، فسماهم سفهاء ضعاف العقول، ليس لهم عقول كاملة تردعهم عما قالوه، ﴿إِنْ هِيَ إِلَّا فِتْنَتُكَ﴾ هذا ابتلاؤك واختبارك، لمن طلب الرؤية، ولمن عبد العجل، تضل بهذه المحنة من تشاء إضلاله، وتهدي من تشاء، فالأمور بيدك، تفعل ما تريد، وأنت متولي أمورنا، أنت خير ولي، وخير ناصر، وخير من صفح عن جرم، وستر ذنب. ﴿أَنْتَ وَلِيُّنَا فَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا وَأَنْتَ خَيْرُ الْغَافِرِينَ﴾.

تَقْدِيمُ الْعَذَابِ عَلَى الرَّحْمَةِ، وَشُرُوطُ الرَّحْمَةِ الْخَاصَّةِ بِالْمُؤْمِنِينَ

١٥٦- ﴿وَكَتَبْنَا لَهُ فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ إِنَّا هُنَا إِلَيْكَ قَالِ عَذَابِي﴾^(١)
أَصِيبُ بِهِ مَنَ أَشَاءُ وَرَحِمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ فَسَاكُنْهَا لِلَّذِينَ يَنْقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالَّذِينَ هُمْ بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٥٦﴾

أجاب الله سؤال موسى وأحيا السبعين بعد موتهم وغفر لهم ذنوبهم، وكان يقول في دعائه لربه، بعد أن أَمَاتَ الله السبعين المختارين من قومه: ﴿وَكَتَبْنَا لَنَا﴾ يا رب ﴿فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةً﴾ من العافية والعلم والغنى والعفاف والعمل الصالح والمال والولد والطاعة لله والرسول ﴿وَفِي الْآخِرَةِ﴾ أي: وفي الآخرة حسنة، مما أعده الله لعباده الصالحين وهي الجنة، واجعلنا ممن كتبت لهم الصالحات من الأعمال في الدنيا والآخرة، إنا رجعنا تائبين إليك ﴿إِنَّا هُنَا إِلَيْكَ﴾ أي رجعنا إليك مقرين بتقصيرنا، منيين إليك في جميع أمورنا، فمعنى هُنا: تَبنا، ورجعنا إليك.

قيل: إن اليهود سُمُوا يهودًا، نسبة إلى قولهم هذا، والأولى أنهم سُمُوا يهودًا نسبة لأبيهم (يهودا) بالذال، وهو ابن يعقوب عليه السلام وأكبر أبنائه، ثم خُفِصَ النطق، فحذفت النقطة التي فوق الذال، فقليل: (يهود) وسواء أكان هذا أم ذاك، فإن الأمر يستوي.

قال سبحانه مجيبًا لموسى عليه السلام: ﴿عَذَابِي أَصِيبُ بِهِ مَنَ أَشَاءُ﴾ مِنْ خَلْقِي، ممن كان شقيًا متعرضًا لأسباب الشقاء، كما أصبت هؤلاء اليهود من قومك بالرجفة، وأنا قادر على تخصيص العذاب بمن عصى، وأنجِّي من لم يقع في العصيان.

والقرآن الكريم من شأنه أن يقدم المغفرة على العقاب، ويقدم الجنة على النار، ويقدم الرحمة على العذاب، ولكنه في هذا الموقف، جاء الرد المناسب لبني إسرائيل بتقديم العذاب على الرحمة ﴿عَذَابِي أَصِيبُ بِهِ مَنَ أَشَاءُ وَرَحِمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ﴾ أي: وسعت خَلَقَ الله كلهم، في العالم العلوي والسفلي البر والفاجر، المؤمن والكافر، رحمة عامة، فكل مخلوق وصلت إليه رحمة الله، وغمره فضله وإحسانه.

أما الرحمة الخاصة المقتضية لسعادة الدنيا والآخرة، فهي للمتقين، الذين وصفتهم الآية

(١) قرأ نافع وأبو جعفر بفتح ياء الإضافة وصلًا من (عذابي أصيب)، والباقون بإسكانها.

بأربع صفات، هي: التقوى، وإخراج الزكاة، والإيمان بآيات الله، واتباع النبي الأمي، وقد جاءت أحاديث كثيرة في الرحمة، منها:

١- جاء أعرابي إلى النبي ﷺ فأناخ راحلته، ثم عقلها، ثم صلى خلف رسول الله ﷺ فلما صلى رسول الله ﷺ أتى راحلته فأطلق عقالها، ثم ركبها، ثم نادى: اللهم ارحمني ومحمدًا، ولا تشرك في رحمتنا أحدًا، فقال رسول الله ﷺ: «أتقولون هذا أضل أم بعيره؟ ألم تسمعوا ما قال؟» قالوا: بلى، قال: «لقد حَظَرْتُ، رحمة الله واسعة، إن الله ﷻ خلق مئة رحمة، فأنزل رحمة واحدة يتعاطف بها الخلائق، جنُّها وأنسها وبهائمها، وآخر عنده تسعًا وتسعين رحمة، أتقولون هو أضل أم بعيره؟»^(١).

٢- وفي صحيح مسلم وغيره عن سلمان الفارسي رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «إن لله ﷻ مئة رحمة، فمنها رحمة يتراحم بها الخلق، وبها تعطف الوحوش على أولادها، وآخر تسعًا وتسعين إلى يوم القيامة»^(٢).

٣- وأخرج الإمام أحمد وغيره عن أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «لله تعالى مئة رحمة، عنده تسع وتسعون، وجعل عندكم واحدة تتراحمون بها، بين الجن والإنس وبين الخلق، فإذا كان يوم القيامة ضمها إليها»^(٣).

٤- وعن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «افتخرت الجنة والنار، فقالت النار: يا رب، يدْخُلني الجبابرة والمتكبرون والملوك والأشراف، وقالت الجنة: رب يدْخُلني الضعفاء والفقراء والمساكين، فيقول الله تبارك وتعالى للنار: أنت عذابي أصيب

(١) أخرجه أحمد في «المسند» (٤٣٩/٥) برقم (١٨٧٩٩) حديث ضعيف لا اضطرا به عن أبي عبد الله الجُشَمي، وهو مجهول الحال عن جندب بن عبد الله البجلي رضي الله عنه، وأبو عبد الله الجُشَمي شيخ لسعيد الجريري (محققوه)، وهو في «سنن أبي داود» برقم (٤٨٨٥) والطبراني في الكبير (١٦٦٧).

(٢) «صحيح مسلم» برقم (٢٧٥٣) و«المسند» (٣١٢/٤) برقم (٢٣٧٢٠)، إسناده صحيح على شرط الشيخين، وأخرجه البيهقي في شعب الإيمان (١٠٣٨) والطبراني في الكبير (٦١٢٦).

(٣) «المسند» (٥٥/٣) برقم (١١٥٣١) حديث صحيح وإسناده حسن من أجل عاصم بن بهدلة وبقيّة رجاله ثقات رجال الصحيح، (محققوه) و«سنن ابن ماجه» (٤٢٩٤)، بنحوه، وأخرجه أبو يعلى (١٠٩٨) وله شواهد كثيرة في الصحيحين وغيرهما، وانظر السلسلة الصحيحة (١٦٣٤).

بك من أشياء، وقال للجنة: أنت رحمتي وسعت كل شيء، ولكل واحدة منكما ملؤها، فيلقى في النار أهلها...» الحديث^(١).

٥- وعن سلمان رضي الله عنه قال: «خلق الله مئة رحمة، فجعل منها رحمة بين الخلائق؛ كل رحمة أعظم ما بين السماء والأرض، فيها تعطف الوالدة على ولدها، وبها يشرب الطير والوحش الماء، فإذا كان يوم القيامة قبضها الله من الخلائق، فجعلها والتسع والتسعين للمتقين، فذلك قوله: ﴿وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ فَسَاكُنْهَا لِلَّذِينَ يَنْقُونَ﴾»^(٢).

والمعنى: أن الرحمة التي سألها موسى له ولقومه، وعد الله بإعطائها لمن كان متصفاً بأنه: من المتقين، المؤتمنين للزكاة، ولمن كان من المؤمنين بآيات الله، وبدلائل صدق خاتم الأنبياء والمرسلين، ووجوب طاعته فيما أمر ونهى.

وهذه الرحمة تشمل من اتقى وآمن وآتى الزكاة من بني إسرائيل ومات قبل بعثة محمد صلى الله عليه وسلم.

وتشمل كل من يأتي في المستقبل بعد نزول هذه الآية، ممن آمن بخاتم النبيين، وتشمل أيضاً من يدخل في الإسلام من اليهود والنصارى إلى يوم القيامة، كما أنها تشمل الرسل والأنبياء الذين أخذ الله عليهم العهد والميثاق من الإيمان بمحمد صلى الله عليه وسلم.

ولكن هذه الرحمة ليست لكم - أيها اليهود - المخاطبون في الآية، وإنما كتبها الله سبحانه لمن تنطبق عليه الأوصاف المذكورة فيها، وهذه الأوصاف تُخرج اليهود، وتُخرج إبليس، وتُخرج النصارى، ولا تُدخل إلا من آمن بمحمد صلى الله عليه وسلم واتبع هداه.

وهذه الرحمة العامة في الدنيا للبرِّ والفاجر، أما الرحمة الخاصة فهي للذين اتقوا، بشروطها.

(١) «المسند» (١٣/٢، ٧٨) برقم (١١٠٩٩، ١١٧٤٠، ١١٧٥٤) وابن أبي عاصم في السنة برقم (٥٢٨) وأبو يعلى في مسنده برقم (١١٧٢، ١٣١٣) وابن خزيمة برقم (١١٩، ١٢١، ١٣٤) وابن حبان برقم (٧٤٥٤) وصححه الألباني في «ظلال الجنة» (٢٣٣/١) وله شواهد كثيرة في الصحيحين، قال محققو «المسند»: حديث صحيح وهذا إسناد حسن، عطاء بن السائب صدوق.

(٢) رجاله كلهم ثقات، وإسناده صحيح عن سلمان في «مصنف ابن أبي شيبة» برقم (١٦٥٣) والخطيب (٢٢٤) وأخرجه مسلم في التوبة (٢١٠٩/٤) مرفوعاً من طريق أبي معاوية عن داود بن أبي هند، عن أبي عثمان، وانظر حديث أبي هريرة (٢٧٥٢) عند مسلم.

قال ابن عطية: ورؤي أن الله ﷻ قال لموسى: قل لبني إسرائيل: أجعل لكم الأرض مسجداً وطهوراً، وأجعل السكينة معكم في بيوتكم، وأجعلكم تقرؤون التوراة عن ظهر قلب، فأخبرهم موسى بذلك، فقالوا: إنما نريد أن نصلي في الكنائس، وأن تكون السكينة كما كانت في التابوت، وألا نقرأ التوراة إلا نظراً، فقل لهم: فنكتبها للذين يتقون، يعني: أمة محمد ﷺ^(١) لمن جاء وصفهم في الآيات، مع أوصاف النبي الخاتم.

وهذا بمثابة الإنذار، أو البلاغ المبكر لهذه الرسالة الخاتمة على لسان موسى ﷺ، كما أثبتها القرآن الكريم، وقررها في إجابة الله تعالى لموسى ﷺ قبل مجيء محمد ﷺ بآلاف السنين، وهذا على أساس أن كل من على وجه الأرض، بعد بعثة محمد ﷺ لا يقبل الله منهم ديناً غير الإسلام، وأن الذين كتب الله لهم الرحمة هم أتباع هذا النبي.

﴿فَسَاكُنْهَا لِلَّذِينَ يَنْقُونَ﴾ الله فيوحدونه ولا يشركون به شيئاً، ويمثلون أمره ويخشون عقابه، فيؤدون فرائضه ويجتنبون نواهيه ﴿وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ﴾ يؤدونها لمستحقيها ﴿وَالَّذِينَ هُمْ بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ﴾ أي: يصدقون بدلائل التوحيد وبراهينه، ويزودون بالعمل الصالح، ويطيعون الله ورسوله.

سَبْعَةُ أَوصَافٍ لِحَاتَمِ الرُّسُلِ ﷺ

١٥٧- ﴿الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ^(٢) الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْنُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَةِ^(٣) وَإِنِجِلٍ يَأْمُرُهُم بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ^(٤) وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ فَاَلَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنْزِلَ مَعَهُ أُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿١٥٧﴾﴾

(١) «تفسير ابن عطية» (٤٦٢/٢).

(٢) قرأ نافع بالهمزة في (النبي) مع المد المتصل، والباقون بالياء المشددة.

(٣) أمال (التوراة) الأصهباني وأبو عمرو وابن ذكوان والكسائي وخلف، وأمالها بين بين، الأزرق، ولحمزة وجهان هما: التقليل والإمالة، ولقالون وجهان هما: التقليل والفتح.

(٤) قرأ ابن عامر (ويضع عنهم آصارهم) بهمزة مفتوحة ممدودة وفتح الصاد بعدها ألف على الجمع، وقرأ الباقون (إصْرَهُم) على الإفراد بكسر الهمزة من غير مد وإسكان الصاد وحذف الألف بعدها، على الإفراد، اسم جنس.

وهؤلاء الذين يخافون الله، ويجتنبون معاصيه، ﴿الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ﴾ الذي لا يقرأ ولا يكتب، نسبة إلى الأمة الأمية وهم العرب ولم يكن لهم قبل القرآن كتاب.

والنبي الأمي: هو محمد ﷺ وجاء وصفه بالأمي العربي لإخراج من عداه من رسل الله الكرام، والسياق في أحوال بني إسرائيل لبيان أن الإيمان بمحمد ﷺ شرط في دخولهم في الإسلام، وأن المؤمنين به المتبعين له هم أهل الرحمة المطلقة التي كتبها الله لهم ومحمد ﷺ هو ﴿الَّذِي يَحْدُوثُهُ﴾ موصوفاً في التوراة والإنجيل باسمه وصفته، بإعلام وبلاغ من الله تعالى، سابق على مجيء محمد ﷺ.

ومما جاء في صفة النبي ﷺ في التوراة:

١- ما أخرجه البخاري وغيره عن عطاء بن يسار قال: لقيت عبد الله بن عمرو بن العاص، فقلت له: أخبرني عن صفة رسول الله ﷺ، قال: أجل، والله إنه لموصوف في التوراة ببعض صفته في القرآن: يأبها النبي إنا أرسلناك شاهداً ومبشراً ونذيراً وحرزاً للأمين، أنت عبدي ورسولي، سميتك المتوكل، ليس بفظ ولا غليظ ولا صخاب في الأسواق، لا يدفع السيئة بالسيئة، ولكن يعفو ويغفر، ولن يقبضه الله حتى يقيم به الملة العوجاء، بأن يقولوا: لا إله إلا الله، ويفتح به أعيناً عمياً، وآذاناً صماً، وقلوباً غلفاً^(١).

وقد جاء ذكر الإنجيل على لسان موسى ﷺ من باب الإخبار عن ربه بما سيكون.

٢- وعن أبي صخر العقيلي قال: حدثني رجل من الأعراب، قال: جَلَبْتُ جُلُوبَةً إِلَى الْمَدِينَةِ فِي حَيَاةِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَلَمَّا فَرَعْتُ مِنْ بَيْعَتِي قُلْتُ: لَأَلْقِيَنَّ هَذَا الرَّجُلَ، فَلَأَسْمَعَنَّ مِنْهُ، قَالَ: فَتَلَقَّانِي بَيْنَ أَبِي بَكْرٍ وَعَمْرِو بْنِ الْعَمْرِ، فَتَبِعْتُهُمْ فِي أَقْفَائِهِمْ، حَتَّى أَتَوْا عَلَى رَجُلٍ مِنَ الْيَهُودِ نَاشِراً التَّوْرَةَ يَقْرَؤُهَا، يَعْزِي بِهَا نَفْسَهُ عَلَى ابْنِ لَهُ فِي الْمَوْتِ، كَأَحْسَنِ الْفَتَيَانِ وَأَجْمَلَهُ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «أُنْشِدْكَ بِالَّذِي أَنْزَلَ التَّوْرَةَ، هَلْ تَجِدُ فِي كِتَابِكَ ذَا صِفَتِي وَمَخْرَجِي؟» فَقَالَ بِرَأْسِهِ: هَكَذَا؛ أَي: لَا، فَقَالَ ابْنُهُ: إِنِّي، وَالَّذِي أَنْزَلَ التَّوْرَةَ، إِنَّا لَنَجِدُ

(١) البخاري في التفسير (٤٨٣٨) وفي البيوع برقم (٢١٢٥، ٤٨٣٨) والبيهقي في «الدلائل» (٣٧٤/١) و«تفسير الطبري» (١٦٤/١٣) وابن سعد (٣٦٢/١).

في كتابنا صفتك ومخرجك، وإني أشهد أن لا إله إلا الله، وأنت رسول الله، فقال ﷺ: «أقيموا اليهود عن أخيكم ثم ولي كفته، والصلاة عليه»^(١).

وجاءت البشرى ببعثة النبي ﷺ إلى الناس كافة في الأناجيل أيضًا كما جاءت في التوراة.

٣- ففي إنجيل متى في الإصحاح الرابع والعشرين: ويقوم أنبياء كذبة كثيرون، ويضلون كثيرين، ولكن الذي يصير إلى المنتهى -أي: يدوم شرعه إلى نهاية العالم- فهذا يخلص، ويُكرِّز -أي: يتنبأ- ببشارة الملكوت هذه في كل المسكونة، شهادة لجميع الأمم، ثم يأتي المنتهى. -أي: منتهى الدنيا.

٤- وفي إنجيل يوحنا في الإصحاح الرابع عشر: وأما المعزي الروح القدس الذي سيرسله الأب باسمي، فهو يعلمكم كل شيء، ويدّسركم بكل ما قلته لكم.

ومعنى باسمي: أي بكونه رسولاً مشرعاً للناس كافة.

أما صفات هذه الأمة، كما بين الله سبحانه في هذه الآيات، فهي أربع.

لأن التكاليف الشرعية منحصرة في الفعل والترك، وهذه الصفات هي:

١- التقوى. ٢- إخراج الزكاة.

٣- الإيمان بآيات الله. ٤- اتباع النبي الأمي.

ثم ذكر سبحانه صفات النبي الأمي في هذه الآيات، وأنها ثلاث:

أولاً: ﴿يَأْمُرُهُم بِالْمَعْرُوفِ﴾ أي: يأمرهم بالتوحيد والطاعة، وكل ما عُرف صلاحه ونفعه حسنه في الشرع، فيأمرهم بالصلاة، والزكاة والصوم، والحج، وصلة الأرحام، وبر الوالدين، والإحسان إلى الجار، والإصلاح بين الناس، والصدق، والعفاف، والبر، وحسن الخلق، والحلم والتواضع وما إلى ذلك.

(١) أبو صخر العقيلي هو عبد الله بن قدامة، جزم الشيخان بأن له صحبة، والحديث: أخرجه أحمد (٥/

٤١١) برقم (٢٣٤٩٢) وابن سعد (١/١٨٥) وقال ابن كثير: هذا حديث جيد قوي، له شاهد في الصحيح

عن أنس، وضعف إسناده محققو «المسند» قالوا: لجهالة أبي صخر العُقَيْلي، قال الهيثمي في مجمع

الزوائد (٨/٢٣٤) رواه أحمد، وأبو صخر لا أعرفه، وبقيّة رجاله رجال الصحيح.

﴿وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ﴾ أي: ينهاهم عن الشرك والمعصية، وكل ما عُرف قبحه في الشرع، وأنكرته العقول والفطر السليمة، فينهاهم عن الزنى والربا والسرقة والمسكرات، والظلم، والكذب، والفجور، والكبر، وسوء الخلق، وما إلى ذلك. وهذا الأمر والنهي أعظم دليل على أنه رسول الله.

ثانيًا: ﴿وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ﴾ من المطاعم، والمشارب، والمناكح، والأقوال والأفعال وغيرها، من كل ما لا ضر فيه، وجميع ما حُرِّم على اليهود؛ بسبب بغيتهم، كما في قوله تعالى: ﴿فَيُظَاهِرُ مِنَّا الَّذِينَ هَادُوا حَرَمًا عَلَيْهِمْ طَيِّبَاتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ﴾ [النساء: ١٦٠] وهذه الطيبات المحرمة على اليهود أحلها الله تعالى في شريعة محمد ﷺ.

﴿وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ﴾ من المطاعم والمشارب والملابس والمناكح، وسائر الأقوال والأفعال: كالدِّم، والميتة، ولحم الخنزير، وكل ما يستخبثه العقل والشرع؛ كالدخان، والقات، والمعسل، وسائر المسكرات، والمخدرات، فالمعروف والمنكر، والطيبات والخبائث، والإصر والأغلال، هي علامات ومتعلقات التشريع للنبي الأُمِّي، والخمر أم الخبائث.

أخرج النسائي وغيره بسنده إلى عثمان رضي الله عنه قال: «اجتنبوا الخمر؛ فإنها أم الخبائث، إنه كان رجل ممن خلا قبلكم تعبد، فعلقته امرأة غويّة، فأرسلت إليه جاريتها فقالت له: إنا ندعوك للشهادة، فانطلق مع جاريتها، فطفقت كلما دخل بابًا أغلقته دونه، حتى أفضى إلى امرأة وضئته، عندها غلام وباطية خمر، فقالت: إني والله ما دعوتك للشهادة، ولكن دعوتك لتقع عليّ، أو تشرب من هذه الخمرة كأسًا، أو تقتل هذا الغلام، قال: فاسقيني من هذا الخمر كأسًا، فسقته كأسًا، قال: زيدوني، فلم يرم حتى وقع عليها وقتل النفس؛ فاجتنبوا الخمر، فإنها والله لا يجتمع الإيمان وإدمان الخمر إلا ليوشك أن يُخرج أحدهما صاحبه»^(١).

ثالثًا: ﴿وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ﴾ أي: يضع عنهم القيود التي حددها الله سبحانه عقوبة لليهود، هذه القيود يرفعها الله تعالى عن أمة محمد ﷺ. والإصر والأغلال صفتان خاصتان باليهود في التكليف الشاقة بهم.

(١) «سنن النسائي» (٣١٥/٨) وابن حبان برقم (٥٣٤٨) مرفوعًا من طريق عمر بن سعيد عن الزهري وقال الدارقطني في العلل (٤١/٣): الموقوف هو الصواب، وقال الألباني في صحيح «سنن النسائي» برقم (٥٢٣٦): صحيح موقوف.

ومن صفات هذا الدين: أنه سهل سمح لا إصر فيه ولا إغلال ولا تكاليف شاقة، كما كان عند اليهود:

فالنجاسة عند اليهود مثلاً كانت لا تزول من الثوب أو الجلد إلا إذا قطع مكانها.

والذنب عندهم يُكتب على باب البيت، والغنائم تحرق، والقصاص كان حتمًا على القاتل عمدًا أو خطأ، والعمل محرم في يوم السبت، وهكذا فإن مثل هذه الأمور رفعها الله سبحانه عن أمة محمد عليه الصلاة والسلام، وأذهب عنهم ما كلف به اليهود من الأمور الشاقة، فيسّر الله على هذه الأمة، ولم يؤاخذهم على الخطأ والنسيان وما استكروها عليه، وما حدّثوا به أنفسهم، وعلمهم أن يقولوا: ﴿رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا إِنْ نَسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَا إَصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِنَا رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِ﴾ [البقرة: ٢٨٦].

وقال ﷺ فيما يرويه أبو هريرة ؓ: «إن الله تجاوز لأمتي ما حدّثت به أنفسها ما لم تقل أو تعمل»^(١).

وقال عليه الصلاة والسلام في حديث ابن عباس ؓ: «إن الله تعالى وَضَعَ عن أمتي الخطأ والنسيان وما استكروها عليه»^(٢).

وفي نهاية الآية يبين الله سبحانه أن الذين آمنوا بمحمد ﷺ وبالقرآن الذي نزل عليه هم الفائزون بخيري الدنيا والآخرة، وأن الذين لا يؤمنون بهذا النبي الأمي ولم يتبعوا النور الذي أنزل معه هم الخاسرون لدنياهم وأخراهم.

وقال تعالى: ﴿وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ﴾ [الحج: ٧٨]

﴿يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمْ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمْ الْعُسْرَ﴾ [البقرة: ١٨٥].

ثم بيّن الله سبحانه جزاء الذين يؤمنون بهذا النبي، ويتبعونه، ويعزرونه، ويوقرونه، وينصرونه، ويعملون بسترته في قوله: ﴿أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ الفائزون بما وعد الله به

(١) من حديث أبي هريرة في «صحيح البخاري» برقم (٢٥٢٨، ٥٢٦٩، ٦٦٦٤) و«صحيح مسلم» برقم (١٢٧).

(٢) من حديث ابن عباس في «سنن ابن ماجه» برقم (٢٠٤٥)، وصححه الألباني في صحيح ابن ماجه (١٦٦٤) وفي مشكاة المصابيح (٦٢٨٤) والروض النضير (٤٠٤) وإرواء الغليل (٨٢).

عباده المؤمنين، وهذه رسالة يبلغها الله لبني إسرائيل على لسان موسى ﷺ .

ويؤخذ من هذه الآية والتي قبلها أن الرحمة نوعان:

١- رحمة عامة: وسعت كل شيء في العالمين، مبدولة لكل مخلوق، وهي صفة قديمة أزلية لله ﷻ، يقوم بها أمر العالم، ولولاها لهلك كل كافر وعاص عقب كفره، وفسقه وفجوره، كما قال تعالى: ﴿وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِمَا كَسَبُوا مَا تَرَكُوا عَلَى ظَهْرِهِمَا مِنْ ذَنْبٍ﴾ [فاطر: ٤٥].

٢- رحمة خاصة: أوجبها الله تعالى على نفسه فضلاً منه وكرماً، وأثبتها بمشيئته تعالى لمن توافرت فيهم أربع صفات وهي:

أولاً: الذين يتقون كل ما يغضب الله تعالى من الشرك والكفر والمعاصي والتمرد على رسل الله تعالى.

ثانياً: الذين يخرجون الزكاة من أموالهم، وليس في قلوبهم شحّ بالمال، ولا فتنة بالدنيا.

ثالثاً: الذين يصدقون بآيات الله الدالة على وحدانيته تعالى وصدق رسله.

رابعاً: الذين يؤمنون بخاتم الرسل، وأنه رسول الله للعالمين، ولا نبي بعده، وأن الإيمان به واجب على أهل كل شريعة سابقة.

عَالِيَةُ الدَّعْوَةِ

١٥٨- ﴿قُلْ يَتَّيْنَهَا النَّاسُ إِلَيَّ رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ النَّبِيِّ الْأُمِّيِّ الَّذِي يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَكَلِمَاتِهِ وَاتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ (١٥٨)

ثم يأتي بلاغ آخر من الله تعالى في وقت مبكر برسالة من يحمل راية الدعوة إلى الناس كافة، وحتى يوم القيامة بعد رسالة عيسى ﷺ، التي لم تستغرق أكثر من ثلاث سنوات يحكم فيها بشريعة من سبق، وفيها إخبار لبنيه موسى ﷺ أن يأتي محمد ﷺ وفق وعد الله سبحانه لرسله في الميثاق الذي أخذه عليهم، ووفق علمه بالخبر اليقين. ﴿قُلْ يَتَّيْنَهَا النَّاسُ إِلَيَّ رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا﴾ العربي والعجمي، أهل الكتاب وغيرهم.

كأن الله سبحانه يأمر موسى أن يقول لبني إسرائيل: أنا نبي لكم مؤقت، محدود بزمان ومكان، وعيسى الذي يأتي من بعدي نبي مؤقت، تنسخ رسالته كذلك بمجيء النبي الخاتم.

ويصح أن تكون هذه الآية موجهة إلى النبي ﷺ -على ما يرى بعض المفسرين- من أن الله تعالى أمر نبيه محمداً ﷺ أن يقول للناس كلهم: إني رسول الله إليكم جميعاً، لا إلى بعضكم دون بعض، ولا إلى العرب دون غيرهم، ولا إلى أهل الجزيرة دون اليهود والنصارى والوثنيين واللادينيين وغيرهم، بل أنا رسول الله إلى الناس كافة.

قال أبو الدرداء: كان بين أبي بكر وعمر محاورة، فأغضب أبو بكر عمر، فانصرف عنه عمر مغضباً، فاتبعه أبو بكر فسأله أن يستغفر له فلم يفعل، حتى أغلق بابه في وجهه، فأقبل أبو بكر إلى رسول الله ﷺ وندم عمر على ما كان منه، فأقبل حتى سلّم وجلس إلى النبي ﷺ وقص الخبر، فغضب رسول الله ﷺ فقال: «هل أنتم تاركون لي صاحبي؟ إني قلت: يأبى الناس، إني رسول الله إليكم جميعاً، فقلت: كذبت، وقال أبو بكر: صدقت»^(١).

وهو سبحانه له ملك السموات والأرض وما فيهما وما بينهما، لا رب غيره ولا معبود سواه، وهو الذي يحيي ويميت، وقد جعل الموت معبراً يوصل إلى دار البقاء، ولا ينبغي أن تكون الألوهية والعبادة إلا لله جل ثناؤه، فهو القادر على إيجاد الخلق وفنائه وبعثه، يتصرف في هذا الكون بسلطانه وأحكامه الشرعية والدنيوية، ومنها أنه أرسل لكم رسولا يدعوكم إلى التوحيد ويحذركم من الشرك.

﴿فَتَأْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ الْنَّبِيِّ الْأُمِّيِّ﴾ الذي سبق الكلام عنه، وكان فيهم من يؤمن بالله، ومنهم من لا يؤمن بالله ولا يؤمن بالنبى الأمي، ولهذا جُمع الإيمان بالله والإيمان بالنبى الأمي في طلب واحد؛ ليكون هذا الطلب موجهاً إلى جميع الفرق.

وقد وصف الله هذا النبي بأنه يؤمن بالله ويؤمن بكلماته، وعيسى كلمة الله ألقاها إلى مريم وروح منه، قد خلقه الله بكلمة ﴿كُنْ﴾ على غير سبب معتاد، فكان نبياً ورسولاً، وكلمات الله أيضاً وهي وحيه وكتبه إلى الرسل كافة، ومحمد ﷺ يؤمن بكل هذا ﴿الَّذِي يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَكَلِمَاتِهِ﴾ ثم أمرهم باتباعه، ورتب عليها الهداية والفوز والفلاح.

(١) البخاري (٣٦٦١، ٤٦٤٠).

قلت: إن هذه الآية في سياق الحديث عن بني إسرائيل، وعن نبي الله موسى عليه السلام، فوُضِلَ المعنى بما قبله وما بعده أُولَى من قطعه، فلعلها مما أخبر الله به موسى وبني إسرائيل عن النبي الخاتم الذي سيأتي فيما بعد، وهذا هو ما تقرره الآية التي قبلها كذلك. والأدلة متضافرة على عموم بعثة النبي ﷺ إلى عموم الخلق:

- ١- كما قال تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾ (١٧) [الأنبياء]
 - ٢- وقال سبحانه: ﴿وَمَن يَكْفُرْ بِهِ مِّنَ الْأَحْزَابِ فَالْتَأَرْ مَوْعِدُهُ﴾ [هود: ١٧]
 - ٣- وقال جل شأنه: ﴿بَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا﴾ (١) [الفرقان]
 - ٤- وقال أيضًا: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا﴾ [سبا: ٢٨]
 - ٥- وقال سبحانه: ﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ (٨٥) [آل عمران]
 - ٦- وقال: ﴿وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَٰذَا الْقُرْآنُ لِأُنذِرَكُمْ بِهِ وَمَن بَلَغَ﴾ [الأنعام: ١٩].
- ومن الأحاديث في هذا المقام ما جاء:

- ١- عن أبي موسى عليه السلام أن رسول الله ﷺ قال: «والذي نفسي بيده، لا يسمع بي رجل من هذه الأمة، يهودي ولا نصراني، ثم يموت ولم يؤمن بالذي أرسلت به إلا كان من أصحاب النار»^(١).
- ٢- وفي لفظ له رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «من سمع بي من أمتي، و يهودي، أو نصراني فلم يؤمن بي، لم يدخل الجنة»^(٢) وفي لفظ «دخل النار»^(٣).

(١) «صحيح مسلم» (١٣٤/١) برقم (١٥٣) والنسائي في «السنن الكبرى» برقم (١١٢٤١) وأخرجه أحمد في «المسند» (٣٥٠/٢) عن أبي هريرة برقم (٨٢٠٣، ٨٦٠٩) بإسناد صحيح على شرط الشيخين، (محققوه) وهو عند البغوي (٥٦) وأبي عوانه (١٠٤/١).

(٢) أخرجه أحمد في «المسند» (٣٩٦/٤) برقم (١٩٥٣٦)، قال محققوه: صحيح لغيره، لانقطاع السند بين سعيد بن جبير، وأبي موسى الأشعري، وبقية رجاله ثقات رجال الشيخين، وأخرجه الطيالسي (٥٠٩) والبخاري في مسنده (١٦) زوائد، والنسائي في الكبرى (١١٢٤١) وابن حبان (٤٨٨٠).

(٣) عن أبي موسى أيضًا في «المسند» (١٩٥٦٢)، قال محققوه: حديث صحيح لغيره.

٣- وفي حديث جابر بن عبد الله أن رسول الله ﷺ قال: «أعطيت خمسًا لم يعطهن أحد قبلي، نصرت بالرعب مسيرة شهر، وجعلت لي الأرض مسجدًا وطهورًا، فأيما رجل من أمتي أدركته الصلاة فليصل، وأحلت لي الغنائم ولم تحل لأحد قبلي، وأعطيت الشفاعة، وكان النبي يبعث إلى قومه خاصة وبعثت إلى الناس عامة»^(١).

ومجيء هذه الآية في عموم رسالة محمد ﷺ للرد على العيسوية، وهم فرقة من اليهود يتبعون أبا عيسى الأصفهاني اليهودي، القائل بأن محمدًا رسول إلى العرب خاصة لا إلى بني إسرائيل؛ ولذا: لما قال النبي ﷺ لابن صياد اليهودي: «أشهد أنني رسول الله؟» قال ابن صياد: أشهد أنك رسول الأمين.

هذا: واليهود فريقان: فريق يزعم أن شريعة موسى لا تنسخ بغيرها، وفريق يزعم أنها لا تنسخ عن بني إسرائيل، ويجوز أن يبعث رسول لغير بني إسرائيل^(٢).

فأراد الله سبحانه أن يذكر اليهود الذين جحدوا نبوة محمد ﷺ وزعموا أنه لا رسول بعد موسى، أنه خالق هذا الكون من العدم، وكما أحياهم وأماتهم؛ فإنه سبحانه يحيي شريعة ويميت شريعة، فوجب عليكم الإيمان بهذا النبي الأمي الذي ختم الله به الأنبياء والمرسلين.

ثم ختم الله هذا السياق بأن حَصَرَ الفلاح في الآخرة لمن آمنوا، فصدقوا بالله، وأقروا بوحدانيته، وصدقوا برسوله محمد ﷺ النبي الأمي، الذي يؤمن بالله، وما أنزل إليه من ربه، وما أنزل على النبيين من قبله، اتبعوا هذا الرسول، والتزموا العمل بما أمركم به من طاعة الله، رجاء أن توفقوا إلى الطريق المستقيم.

وقد وصف الله تعالى رسوله محمدًا ﷺ في هاتين الآيتين بسبعة أوصاف:

الوصف الأول: أنه رسول الله إلى الناس كافة بشيرًا ونذيرًا.

الوصف الثاني: أنه نبي أوحى الله إليه بشريعة عامة تُصلح الزمان والمكان إلى يوم القيامة.

(١) «صحيح البخاري» برقم (٣٣٥، ٤٣٨، ٣١٢٢) و«صحيح مسلم» برقم (٥٢١) ونحوه في «المسند» عن أبي موسى (٤١٦/٤) برقم (٤٢٦٤) بإسناد صحيح على شرط الشيخين.

(٢) «تفسير التحرير والتنوير» (٩/١٤٠).

الوصف الثالث: أنه نبي أُمِّي، لم يقرأ ولم يكتب، ولم يجلس إلى معلم، ولا أخذ علمه عن أحد ﴿إِنَّ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ﴾ قال قتادة: هو نبيكم كان أُمِّيًّا لا يكتب^(١).

فالأُمِّي: هو الذي لا يكتب، عن ابن عمر رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إنا أمة أُمِّيَّة لا نكتب ولا نحسب، وإن الشهر كذا وكذا»، وضرب بيده ست مرات وقبض واحدة^(٢).

الوصف الرابع: أن اسمه ونعته مكتوب في التوراة والإنجيل؛ مما يوجب الإيمان به عند بعثته ﷺ، ولكنهم كفروا به حسدًا وبغيًا وعنادًا.

الوصف الخامس: أن هذا النبي الأُمِّي يأمر بالمعروف ومكارم الأخلاق ومحاسن الشيم، وينهى عن المنكر ومساوئ الأخلاق وأراذلها.

الوصف السادس: أن هذا النبي العربي يحل الطيبات التي حرمها الله على اليهود؛ كالشحوم ولحم كل ذي ظفر، ولحوم الإبل وألبانها، ويحرم عليهم الخبائث؛ كالربا وأكل أموال الناس بالباطل.

الوصف السابع: أنه يرفع عن الأمة كل ما يُثقل كاهلها من التشريع في العبادات والمعاملات والأخلاق والآداب وكل ما يشق عليها.

مِنْ عَظَمَةِ الْإِسْلَامِ؛ إِنْصَافُ غَيْرِ الْمُسْلِمِينَ

١٥٩- ﴿وَمِنْ قَوْمٍ مُّوسَىٰ أُمَّةٌ يَّهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ﴾

ولمَّا ذكر سبحانه جملة من معاييب اليهود التي تناقض الهداية وتنافي الكمال، ذكر في هذه الآية أن هذا الحكم لا يشمل الجميع، فإن منهم طائفة مستقيمة هادية مهديّة، وهم من دخل منهم في الإسلام، فقد بيّن ﷺ أن بني إسرائيل لم يكونوا كلهم ضالين، بل كان منهم طائفة يتبعون الحق ويعدلون به، وهذه الطائفة جماعة قليلة، يَهْدُونَ الناس في تعليمهم إياهم، وفتواهم لهم، ويعدلون في حكمهم بين الناس، قال تعالى ﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ

(١) ابن أبي حاتم (١٥٨١/٥).

(٢) البخاري (١٩١٣) ومسلم (١٠٨٠/١٥) وابن أبي شيبة (٨٥/٣) وأبو داود (٢٣١٩) والنسائي (٢١٣٩)،

(٢١٤٠) وفي «الكبرى» (٥٨٨٤).

أَمِئَّةٌ يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ ﴿٢٤﴾ [السجدة: ٢٤] وفي هذا منقبة لأمة موسى عليه السلام.

وجاز إطلاق لفظ ﴿أُمَّةٌ﴾ عليهم لإخلاصهم في دينهم، كما قال تعالى عن إبراهيم عليه السلام: ﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً﴾ [النحل: ١٢٠]

وبين جل شأنه أن من بين الأمم أمة ليس فيها هذا التقسيم، بل هي بأكملها تتبع الحق وتعبد به ﴿وَمَنْ خَلَقْنَا أُمَّةً يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ﴾ [الأعراف: ١٥٩] وهي أمة محمد ﷺ.

وهذه الآية تبين عظمة الإسلام في الحكم على غير المسلمين بما لهم وما عليهم من صفات وسيئات: ﴿وَمِنْ قَوْمِ مُوسَى أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ﴾ ﴿١٥٩﴾ أي: ومن بني إسرائيل من قوم موسى جماعة يستقيمون على الحق، ويهدون الناس به، ويعدلون به في الحكم في قضاياهم؛ فلا يجورون ولا يرتشون، على عتو بني إسرائيل وفسادهم بوجه عام.

١- كما قال تعالى: ﴿مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ أُمَّةٌ قَائِمَةٌ يَتْلُونَ آيَاتِ اللَّهِ ءَانَاءَ اللَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ﴾ [آل عمران: ١١٣].

٢- وقال سبحانه: ﴿وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَمَنْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِمْ خَشِيعِينَ لِلَّهِ لَا يَشْتَرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا﴾ [آل عمران: ١٩٩]

٣- وقال جل شأنه: ﴿الَّذِينَ ءَاتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِهِ هُمْ بِهِ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٢﴾ وَإِذَا يُنَالَى عَلَيْهِمْ قَالُوا ءَأَمَنَّا بِهِ إِنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّنَا﴾ [القصص]

٤- وقال أيضاً: ﴿إِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مِنْ قَبْلِهِ إِذَا يُنَالَى عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا﴾ [الإسراء: ١٠٧] فهي تنطبق على اليهود من بني إسرائيل في عهد موسى عليه السلام، وأنه قد كان منهم فرقة أو طائفة كما وصفهم رب العالمين، يهدون بالحق ويعدلون في الحكم بين الناس.

ولما جاءت رسالة عيسى عليه السلام، كان منهم من آمن به، واستقبل رسالة محمد ﷺ بالقبول والإيمان، وعرفه يقيناً، كما بشرت به التوراة والإنجيل من أنه النبي الخاتم، فآمن به واتبعه، وترك اليهودية التي نسخت قبل رسالة عيسى عليه السلام، كعبد الله بن سلام وغيره، أو ترك النصرانية ديانته، وآمن بمحمد ﷺ كبعض النصارى الذين أسلموا في كل زمان ومكان، سواء على يد رسول الله ﷺ أو بعده، فهؤلاء هم الذين تنطبق عليهم هذه

الآية الكريمة، فيجوز أن يراد بهم كل من آمن بمحمد ﷺ، من بني إسرائيل، بعد إيمانه بموسى في عهده وعيسى في عهده، وعلى هذا فالمراد بهذه الأمة في الآية: أناس كانوا على خير وصلاح في عهد موسى مخالفين لغيرهم من السفهاء، أو المراد بها: من آمن بمحمد ﷺ عند بعثته.

فالآية تخصيص لعموم قوله تعالى: ﴿وَأَتَّخَذَ قَوْمُ مُوسَى مِنْ بَعْدِهِ مِنْ حُلِيِّهِمْ عِجَلًا جَسَدًا لَهُمْ خُورًا﴾ لثلاثيهم أن قوم موسى كلهم عبدوا العجل.

وقوم موسى هم أتباع دينه قبل بعثة عيسى ﷺ وقبل بعثة محمد ﷺ.

فالمتمسك بدين موسى بعد بلوغه دعوة الإسلام، ليس من قوم موسى، بل هو من أمة الدعوة التي يطلب منها الدخول فيها.

وقد بينت هذه الآية أن كل أمة من الأمم لا تخلو من أهل الحق والعدل.

وتشير آيات القرآن إلى أن أهل الكتاب:

١- منهم من آمن بالنبى ﷺ عند بعثته، فأثنى الله عليهم قبل الإيمان بمحمد ﷺ وبعد الإيمان به في مثل قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ ءَايَيْنَهُمُ الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِهِ هُمْ بِهِ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٢﴾ وَإِذَا يُنَادِى عَلَيْهِمْ قَالُوا ءَامَنَّا بِهِ ءِنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّنَا إِنَّا كُنَّا مِنْ قَبْلِهِ مُسْلِمِينَ ﴿٥٣﴾﴾ [القصص]

﴿إِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مِنْ قَبْلِهِ إِذَا يُتْلَى عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا ﴿١٧﴾﴾ [الإسراء] وبين سبحانه وتعالى أنهم يؤتون أجرهم مرتين، فقال: ﴿أُولَئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُمْ مَرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُوا﴾ [القصص: ٥٤].

٢- ومنهم من كان مستقيماً على دعوة موسى أو دعوة عيسى، ولم يدرك النبى الذي يلي أمته، كما في هذه الآية التي نحن بصدها ممن أثنى عليهم ربهم.

٣- ومنهم من أدرك الإسلام ولم يؤمن به، وظل على ديانته المنسوخة.

والقرآن قد أنصف الجميع، وبيّن أحوالهم ولم يبخسهم شيئاً.

اللَّهُ تَعَالَى يَمَتُّ عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ بِنِعَمٍ أَرْبَعٍ

١٦٠- ﴿وَقَطَّعْنَهُمْ اثْنَتَى عَشْرَةَ أَسَاطِئاً أُمَمًا وَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى إِذِ اسْتَسْقَاهُ قَوْمُهُ أَنْ يَضْرِبَ بِعَصَاكَ الْحَجَرَ فَانْبَجَسَتْ مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَشْرَبَهُمْ وَظَلَّلْنَا

عَلَيْهِمْ^(١) أَلْنَمْنَا وَأَنْزَلْنَا عَلَيْهِمْ^(٢) الْمَنَّاتِ وَالسَّلَوى كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿١٦٠﴾

ثم بيّن سبحانه بعض النعم والمنن التي امتن الله بها على بني إسرائيل، كما هي مذكورة في الربع الثالث من سورة البقرة، وذكر منها هنا أربع:

١ - يبدؤها جلّ شأنه بأنه وزّع بني إسرائيل في الأرض، وجعلهم مشتين فيها فرقاً وأحزاباً، فهم مُفرّقون في أرجاء الأرض، عقوبة لهم على مخالفة نبيهم في عدم دخول الأرض المقدسة، وتعدّ هذه العقوبة نعمة، لأن الله تعالى لم يهلكهم عن آخرهم، فهو تقطيع محمود، وهذا يشير إلى عدم وجود الوطن الثابت، والمأوى المتكامل لليهود، وهذا معنى: ﴿وَقَطَّعْنَاهُمْ اثْنَتَيْ عَشْرَةَ أَسْبَاطًا أُمَمًا﴾ أي: قسّمنا بني إسرائيل من قوم موسى، وجعلناهم اثنتي عشرة قبيلة بعدد الأسباط، والأسباط: أولاد يعقوب ﷺ الاثنا عشر، كل ولد كان منه فرقة أو عشيرة كالقبيلة، وكل قبيلة معروفة من جهة نقيها.

والسبط من ولد إسحاق كالقبيلة من ولد إسماعيل، والسبط: وَلَدُ الْوَلَدِ، فهو الحفيد، وهذا التقسيم ليس فيه ذم لهم، بل هو من محاسن شريعتهم، وَمِنَّةٌ أَنْعَمَ اللهُ عَلَيْهِمْ بِهَا، وهذا التقسيم كان بعد اجتيازهم البحر الأحمر، وقبل انفجار العيون، ولم يقسموا إلى عشائر وهم في مصر.

وقد حدث هذا التقسيم في السنة الثانية بعد خروجهم من أرض مصر؛ حيث أمر الله تعالى موسى أن يخص بني إسرائيل، فجمعهم وجعلهم عشائر منتسبين إلى آبائهم، ووضع لهم رؤساء على كل عشيرة من العشائر الاثني عشر نقيّاً.

٢ - ثم يذكّر الله سبحانه النعمة الثانية على بني إسرائيل، وذلك أنهم حينما كانوا في صحراء سيناء، مع موسى وهارون عليهما السلام وهم يسيرون في الثّيه، فاشتدّ بهم العطش وكادوا أن يهلكوا، فطلبوا الماء، فسأل موسى ربه الماء ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ إِذِ اسْتَسْقَنُ قَوْمُهُ﴾ أي: طلبوا منه السقيا حين عطشوا في الثّيه ليشربوا وتشرب مواشيهم،

(١)، (٢) كسر الهاء والميم من (عليهم الغمام) و (عليهم المن) أبو عمرو، وضمهما معاً حمزة والكسائي ويعقوب وخلف، وكسر الهاء وضم الميم الباقيون.

حيث إن الماء يقل وجوده في الصحراء ، فأوحى الله إلى موسى إجابة لطلبهم: ﴿أَنْ أَضْرِبَ بِعَصَاكَ الْحَجَرَ﴾ وكان هارون عليه السلام يحمل معه حجراً مربعاً في أسفاره يتنقل معه، فضرب موسى هذا الحجر بعصاه، فانفجرت منه المياه بكثرة، وأخذ يتدفق منه اثنتا عشرة عيناً من الماء، بعدد الأسباط، وهذا معنى ﴿فَأَنْبَجَسَتْ مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا﴾ .

و(أل) في ﴿الْحَجَرِ﴾ يحتمل أن تكون للعهد، فيكون المراد: حجراً معروفاً معيناً، ويحتمل أن تكون للجنس، فيكون المراد: أي حجر من حجارة الأرض. والانبجاس: خروج الماء من مكان ضيق بقله، والانفجار: خروجه بكثرة، والماء ينبجس أولاً، ثم ينفجر ثانياً؛ حيث يبدأ ضعيفاً، ثم يتدفق.

﴿قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَشْرِبَهُمْ﴾ أي: علمت كل عشيرة أو قبيلة من القبائل الاثنتي عشرة أن لها عيناً في الحجر؛ حتى لا تدخل قبيلة على غيرها، ولا يتقاتلون على الماء، فعرف كل منهم عين الماء الخاصة به، فاطمأنوا واستراحوا من التعب والمزاحمة والمخاصمة، وهذا من تمام نعمة الله تعالى عليهم.

وهكذا أخرج الله لهم الماء أمام أعينهم من الحجر، وفجره الله لموسى عليه السلام.

٣ - ثم اشتد عليهم حر الشمس في صحراء سيناء، وطلبوا من موسى عليه السلام شيئاً يقيهم من حرارة الشمس، فأرسل الله عليهم سحابة تظلمهم ﴿وَوَلَّلْنَا عَلَيْهِمُ الْغَمَمَ﴾ هو السحاب يسير معهم أينما ساروا يقيهم، ويحفظهم من حر الشمس.

٤ - ثم فقدوا الطعام الذي في أيديهم وهم في التيه، فطلبوا من موسى عليه السلام طعاماً، فأرسل الله لهم أشهى الأطعمة: العسل والحمام ﴿وَأَنْزَلْنَا عَلَيْهِمُ الْمَنَّاءَ وَالسَّلْوَى﴾ .

وهكذا: جمع الله لهم بين الظلال والشراب والطعام الشهي من الحلوى واللحوم.

والمن: مادة تشبه الصمغ، طعمه كالعسل، أرسله الله سبحانه عليهم، وجعله ينبت كالطلّ فوق أوراق الشجر، ويقطفونه بأيديهم.

ثم أرسل الله عليهم السلوى: وهو طير يشبه الطير السمانى كالحمام، وكان يغطي وجه الأرض من كثرته، فكانوا يأكلون العسل، ويأكلون اللحم بفضل الله ﷻ عليهم، وقال الله لهم: ﴿كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ﴾ وهكذا كان أحدهم ينظر إلى الطير فإن كان سمياً

ذبحه، وإلا أرسله، فإذا سمن أتاه، فقالوا: هذا الطعام، فأين الشراب؟ فأمر الله موسى أن يضرب بعصاه الحجر فانفجرت منه اثنتا عشرة عينا، فشرب كل سبط من عين.

فقالوا: هذا الشراب فأين الظل، فظل الله عليهم الغمام.

فقالوا: هذا الظل، فأين اللباس؟ فكانت ثيابهم تطول معهم كما تطول الصبيان، ولا يتمزق لهم ثوب^(١).

فهل شكر بنو إسرائيل ربهم على ما حباهم به من هذه النعم؛ طعام وشراب، ولباس وظلال من غير جهد ولا تعب؟

وشأن الإنسان المتمرد الجاحد عندما يألف النعمة ويتعوّدها أن يملأها ويتطلع إلى غيرها، وهكذا كان بنو إسرائيل، فقد استبدلوا الأدنى بالأعلى، والمفضول بالأفضل، فقالوا لموسى: ﴿لَنْ نَصْبِرَ عَلَىٰ طَعَامٍ وَاحِدٍ﴾ وطلبوا أنواع الحبوب والبقول والخضار والفاكهة ﴿فَادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُخْرِجْ لَنَا مِمَّا تُثْمِتُ الْأَرْضُ مِنْ بَقْلِهَا وَقِثَّائِهَا وَفُومِهَا وَعَدَسِهَا وَبَصِلَهَا﴾ وعتقهم الله تعالى على طلبهم الأدنى، وتمردهم على الأعلى ﴿أَسْتَبْدِلُوكَ الَّذِي هُوَ أَدْنَىٰ بِالَّذِي هُوَ خَيْرٌ﴾ [البقرة: ٦١] وأجابه الله تعالى إلى مطلبهم بأنه متوفر في سائر الأمصار والأسواق.

ويسبب كفرهم بآيات الله، وقتلهم الأنبياء بغير حق، وعصيانهم وعدوانهم، ضرب الله عليهم الذلة والمسكنة، وباؤوا بغضب من الله.

وقد ختم الله هذه الآية بقوله: ﴿وَمَا ظَلَمُونَا﴾ حين لم يشكر بنو إسرائيل ربهم على نعمه عليهم، ولم يقوموا بما أوجبه الله عليهم ﴿وَلَكِنْ كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ حين فوّتوا عليها كل خير، وعرضوها للشر والنقمة، وقد كانت هذه الأحداث مدة إقامة بني إسرائيل في التيه.

والآية الستون من سورة البقرة نظير هذه الآية، ولكنها مدنية، وهذه الآية مكية.

أَرْبَعَةُ مَرَّاسِمَ لِدُخُولِ أَرْضِ الْجَبَّارِينَ

١٦١- ﴿وَإِذْ قِيلَ لَهُمْ اسْكُنُوا هَذِهِ الْقَرْيَةَ وَكُلُوا مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ وَقُولُوا حِطَّةٌ

(١) «تفسير ابن كثير» (٩٧/١).

وَادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا نَفِّرَ لَكُمْ^(١) خَطِيئَتِكُمْ^(٢) سَنَزِيدُ الْمُحْسِنِينَ ﴿١٦٢﴾

بعد فترة التَّيَّه مات موسى وهارون، ودخل بهم يوشع بن نون بيت المقدس، وأمرهم الله - سبحانه - أن يدخلوا بيت المقدس ساجدين شكرًا لله جلَّ شأنه، وهو إشعار بالتواضع في حالة النصر.

كما دخل النبي ﷺ مكة يوم الفتح ساجدًا على ظهر دابته شكرًا لله سبحانه، وبعد دخوله مكة اغتسل وصلى ثماني ركعات سماها بعض الفقهاء: صلاة الفتح، واستحب العلماء لمن فتح بلدًا أن يفعل ذلك، كما فعل سعد بن أبي وقاص لما دخل إيوان كسرى:

١- وهكذا أمر الله بني إسرائيل أن يدخلوا قرية بيت المقدس، ويسكنوها.

٢- ويأكلوا من ثمارها وحبوبها ونباتها أين شاؤوا، ومتى شاؤوا.

٣- ويسألوا الله تعالى المغفرة، ويقولوا حُطَّتْ عَنَّا ذُنُوبُنَا ونسأل الله أن يتوب علينا.

وهكذا أمرهم ربهم بالخضوع وسؤال المغفرة، ووعدهم الله على ذلك مغفرة الذنوب والثواب العاجل والآجل، وسيزيد الله المحسنين من خير الدنيا والآخرة.

٤- وحين دخولهم قرية أريحا وهي قرية الجبارين العمالقة أمروا أن يدخلوها ساجدين زاحفين على مقاعدهم مع رفع رؤوسهم، حتى يعلنوا عن توبة مَنْ عبدوا العجل من دون الله، ومن قولهم لموسى: ﴿أَرَأَيْتَ اللَّهُ جَهْرَةً﴾.

هذه أربعة أوامر ألّهيّة، أمر الله بها بني إسرائيل أن يفعلوها حين دخولهم بيت المقدس، ولكن اليهود لم يمثلوا لواحد من هذه الأربعة، بل خالفوا وغيّروا وبدّلوا، فعاقبهم الله على عصيانهم بالعذاب الأليم.

(١) قرأ نافع وابن عامر وأبو جعفر ويعقوب (تُغْفَرُ لَكُمْ) بقاء التانيث والبناء للمفعول، وقرأ الباقر بالنون والبناء للفاعل.

(٢) قرأ نافع وأبو جعفر ويعقوب (خَطِيئَاتُكُمْ) بالجمع ورفع التاء على أنها نائب فاعل، وقرأ ابن عامر (خَطِيئَتُكُمْ) بالافراد ورفع التاء على أنها نائب فاعل لتغفر أيضًا، وقرأ أبو عمرو (خطاياكم) جمع تكسير على أنها مفعول به لتغفر، وقرأ الباقر (خَطِيئَاتُكُمْ) بجمع السلامة ونصب التاء بالكسرة، مفعول به.

عن أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «قيل لربي إسرائيل: ادخلوا الباب سجداً وقولوا حطة، فبدلوا ودخلوا يزحفون على أستاههم، وقالوا: حبة في شَعْرَةٍ»^(١).

مُخَالَفَاتُ الْيَهُودِ لِأَوَامِرِ اللَّهِ عِنْدَ دُخُولِهِمُ الْأَرْضَ الْمُقَدَّسَةَ

١٦٢- ﴿فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ قَوْلًا غَيْرَ الَّذِي قِيلَ لَهُمْ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِجْزًا مِنْ السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَظْلِمُونَ﴾^(١٦٢)

فماذا كان من اليهود؟ كيف قابلوا هذه النعم؟ وبماذا أجابوا ربهم على أوامره الأربعة لهم؟ بين سبحانه أن القوم بدل أن يشكروا الله سبحانه، وبدل أن يدخلوا القرية ساجدين معلنين عن توبتهم كما أمروا، استخفوا بموسى فيما بينهم، وسخروا منه، ودخلوا القرية يزحفون على مقاعدهم وأدبارهم.

وبدل أن يقولوا: حطة، أي: حطَّ الله عنا ذنوبنا، ويسأله قبول التوبة والمغفرة، سخروا من ذلك وقالوا: حنطة أو حبة في شعرة على سبيل الاستهزاء.

فلما عصوا الله واستهانوا بأمره، فبدلوا قوله وما أمرهم بفعله، أرسل الله عليهم عذاباً شديداً، وما ظلمهم الله بعقابه لهم، ولكنهم ظلموا أنفسهم بالخروج عن طاعته.

اثنا عشر فرقاً بين آيتي البقرة ٥٨، ٥٩ والأعراف ١٦١ و ١٦٢:

وهذه الآيات التي هنا مكية، وهي في سورة (البقرة) مدنية، وبين السياقين اثنا عشر فرقاً:

١ - في سورة البقرة: ﴿وَإِذْ قُلْنَا﴾ بإسناد القول إلى الله تعالى؛ لأنه قُصِدَ به التوبيخ، وقال هنا: ﴿وَإِذْ قِيلَ﴾ بإسناده للمجهول؛ لظهور أن هذا القول لا يصدر إلا من الله تعالى.

٢ - وفي سورة البقرة: ﴿قُلْنَا ادْخُلُوا﴾ وهنا ﴿قِيلَ لَهُمْ اسْكُنُوا﴾ بزيادة ﴿لَهُمْ﴾.

زيادة المبنى تدل على زيادة المعنى.

(١) أخرجه البخاري، باب: وإذ قلنا ادخلوا هذه القرية برقم (٣٤٠٤، ٤٤٧٩، ٤٦٤١) ومسلم (٣٠١٥) و«المسند» (٨٢٣٠) إسناده صحيح على شرط الشيخين، وأخرجه الترمذي (٢٩٥٦) وابن حبان (٦٢٥١) والطبراني في تفسيره (٣٠٣/١).

٣ - في سورة البقرة: ﴿أَدْخُلُوا هَذِهِ الْقَرْيَةَ﴾ وقال هنا: ﴿أَسْكُنُوا هَذِهِ الْقَرْيَةَ﴾.

لأن الدخول يكون قبل السكنى، فكل ساكن لا بد له من الدخول أولاً، وتغيير أسلوب القصة في السورتين؛ لتجديد نشاط السامع.

٤ - ولذا فقد جاء بعدها ﴿وَكُلُوا﴾ بالواو؛ لأن السكنى حالة استمرار، فالأكل يكون متى شاء الساكن، أما في سورة البقرة فقال: ﴿فَكُلُوا﴾ بالفاء؛ لأن السفر والدخول يقتضي الأكل عقبه مباشرة. وآية سورة البقرة سقت في مقام الامتنان، وآية سورة الأعراف سقت في مقام أخذ العبرة.

٥ - وقال هناك: ﴿رَعَدًا﴾؛ لأن الحاجة بعد السفر والدخول إلى الطعام تكون أكثر، ولأن السياق في مقام الامتنان بإعطاء نعم أكثر، ولم يقل هناك ﴿رَعَدًا﴾؛ لأن السكنى والإقامة لا تكون محل حاجة شديدة للطعام، ولأن السياق في مقام الاعتبار.

٦ - وقال في سورة البقرة: ﴿خَطِيئَتِكُمْ﴾ وقال هنا: ﴿خَطِيئَتِكُمْ﴾ إشارة إلى أن قليل الذنوب أو كثيرها يغفره الله تعالى عند التوبة والتضرع إليه بالدعاء.

٧ - وفي سورة البقرة: زاد واوًا في ﴿وَسَزَيْدٌ﴾ عن سورة الأعراف؛ لأن زيادة الواو فيه وعُدَّ بالمغفرة، وزيادة المحسنين بالثواب، ولأن الواو لحكاية الأقوال، وحذفها استئناف، يقدر بعده الغفران والزيادة أيضًا.

٨ - وفي سورة البقرة: ﴿فَأَنزَلْنَا﴾ وقال هنا: ﴿فَأَرْسَلْنَا﴾؛ لأن الإرسال يُشعر بكثرة الإنزال، فكأنه بدأ بالإنزال ثم جعله كثيرًا.

٩ - وجاء في سورة البقرة: ﴿ظَلَمُوا﴾ وقال هنا: ﴿ظَلَمُوا مِنْهُمْ﴾ بزيادة منهم.

١٠ - وفي سورة البقرة: ﴿عَلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾؛ لأنها سقت في مقام التوبيخ، فناسب الترهيب بها، وقال هنا: ﴿عَلَيْهِمْ﴾ إشارة إلى أن الظلم لم يقع من الجميع.

١١ - أما وَصَفُهُمْ في سورة البقرة بالفسق، وَوَصَفُهُمْ هنا بالظلم فلحصول الأمرين منهم.

ولأن الفسق أعم من الظلم، خُتِمت به آية سورة البقرة تأكيدًا لوصفهم بالظلم، واستقلالًا لإعادة لفظ الظلم في قوله: ﴿فَأَنزَلْنَا عَلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ أما في سورة الأعراف

فقال: ﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ﴾ وليس فيها إعادة للفظ.

١٢ - أما ﴿وَادْخُلُوا أَبْطَابَ سُجْدًا وَفُتُولُوا حِطَّةً﴾ فعلى التقديم في البقرة، والتأخير هنا لمجرد التفنن في العبارة.

والمعنى: فغير الذين كفروا منهم ما أمرهم الله به من القول والفعل وقالوا كلامًا لا يليق بجلاله تعالى، فأرسل الله عذابًا عليهم من السماء، وأهلكهم بسبب ظلمهم وعصيانهم.

قِصَّةُ أَصْحَابِ السَّبْتِ

١٦٣ - ﴿وَسَأَلْتَهُمْ^(١) عَنِ الْقَرْيَةِ الَّتِي كَانَتْ حَاضِرَةَ الْبَحْرِ إِذْ يَعْدُونَ فِي السَّبْتِ إِذْ تَأْتِيهِمْ^(٢) حِيتَانُهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرَعًا وَيَوْمَ لَا يَسْئُتُونَ^(٣) لَا تَأْتِيهِمْ كَذَلِكَ نَبْلُوهُمْ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ﴾
ثم تذكر الآيات موقفًا آخر من مواقف المعاصي والتمرد لليهود، وهو موقف أصحاب السبت.

ذلكم: أن اليهود طلبوا من موسى ﷺ أن يجعل الله لهم يومًا يخصصونه للعبادة، ويستريحون فيه من العمل؛ كصيد السمك، ونحوه من أمور المعيشة، فجعل الله لهم يوم السبت، ونهوا عن العمل فيه وفق طلبهم، ثم ابتلاهم الله بقرية قريبة من ساحل البحر، وهي من قرى بيت المقدس، كانت تطفو وتظهر فيها الحيتان والأسماك بكثرة فوق سطح الماء يوم السبت ابتلاء لهم، فيحتالون في الصيد بحجز السمك في أحواض أو شبك لإمساكه يوم الأحد.

وقصة الصيد في يوم السبت يرويها أحبار اليهود، وهي غير موجودة في كتبهم، والأمر بسؤالهم فيه إشعار لليهود المعاصرين للنبي ﷺ، ومن أتى بعدهم بأن الله تعالى قد أطلع نبيه على ما كتموه وحذفوه من كتبهم.

وقيل: إن هذه القصة كانت في عهد داود ﷺ، أما العمل في يوم السبت فهو محرم من عهد موسى ﷺ.

(١) قرأ ابن كثير والكسائي وخلف العاشر بنقل حركة همزة (واسألهم) إلى السين قبلها مع حذف الهمزة في حالتها الوصل والوقف، ووافقهم حمزة عند الوقف عليها، والباقيون بعدم النقل.

(٢) أبدل همزة (تأتيهم) ألفا يعقوب، وحققها غيره.

قال تعالى: ﴿وَسَأَلَهُمْ عَنِ الْقَرْيَةِ﴾ وهي قرية العقبة على ساحل البحر الأحمر في حدود مصر، قرب سيناء، وتسمى قديماً (أيلة) وهي متصلة بخليج من البحر يسمى خليج العقبة وهي القرية ﴿الَّتِي كَانَتْ حَاضِرَةَ الْبَحْرِ﴾ اسأل - يا محمد - اليهود في عصرك وعصر دعوتك سؤال توبيخ وتقرير، عن خبر أهل القرية التي كانت بقرب البحر الأحمر، حين كان يعتدي أهلها على حرمان الله بالاحتياال على الصيد فيه، وقد أمرهم الله تعالى أن يعظموه في يوم السبت ولا يصطادوا فيه، فكانت الحيتان تأتي كثيرة في يوم السبت طافية على وجه البحر، وإذا ذهب يوم السبت تذهب الحيتان ولا يروُن منها شيئاً.

وقوله: ﴿إِذْ يَعْدُونَ فِي السَّبْتِ﴾ أي: يعتدون بالصيد فيه، مخالفين نهْي الله لهم، وكان الله قد أمرهم أن يعظموه ويحترموه، ولا يعملوا فيه عملاً، ولا يصيدوا فيه صيداً، فابتلاههم الله ﴿إِذْ تَأْتِيهِمْ حِيتَانُهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرْعاً﴾ أي: طافية يوم السبت فوق سطح الماء ﴿وَيَوْمَ لَا يَسْبِتُونَ﴾ أي: في غير يوم السبت حيث لا يحرم العمل في بقية الأسبوع ﴿لَا تَأْتِيهِمْ﴾ أي: لا تظهر الحيتان لهم، حيث تذهب في البحر فلا يرونها، فزَيَّن لهم الشيطان أن يتخذوا حياءً يسوقون إليها الحيتان في يوم الجمعة فتبقى فيها، ولا يمكنها الخروج منها لقلّة الماء فيها، ثم يأخذونها في يوم الأحد، احتيالاً عن صيدها يوم السبت.

﴿كَذَلِكَ بَلَّوْهُمْ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ﴾ أي: وكما وصفنا اليهود في هذا الاختبار والابتلاء بإظهار السمك طافياً على وجه الماء في اليوم المحرم عليهم صيده فيه، وإخفائه عنهم في اليوم المحلل لهم صيده فيه، كذلك نختبرهم بسبب فسقهم عن طاعة الله وخروجهم عنها، ولو لم يفسقوا لعافاهم الله، ولَمَّا عَرَّضَهُمُ لِلْبَلَاءِ، قال تعالى مبيناً مواقف سائر الفرق اليهودية من هذه القضية فقال:

١٦٤ - ﴿وَإِذْ قَالَتْ أُمَّةٌ مِّنْهُمْ لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا اللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا قَالُوا مَعَذَرَةٌ^١ إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَلَعَلَّهُمْ يَنْفِقُونَ﴾

فماذا كان موقف اليهود تجاه هذا الابتلاء؟ وماذا كان موقفهم من أوامر الله تعالى، وأوامر رسوله موسى لهم؟

(١) قرأ حفص بنصب تاء (معذرة) على أنها مفعول لأجله، وقرأ الباقون برفعها على أنها خبر لمبتدأ محذوف؛ أي: هذه معذرة.

١- لقد اعتدت منهم فرقة واحتالوا على النصوص، فلم يصطادوا في يوم السبت، وإنما كانوا يضعون للحيتان أحواضاً وحواجز تمنعها من الحركة حتى تبقىها في مكان معين، فيحفرون لها حفائر يوم الجمعة، فإذا جاء يوم الأحد اصطادوها، فتجاوزوا بذلك حدود الله عن تعمد وإصرار.

٢- ونهتُهم فرقة أخرى عن المنكر، وقالوا لهم: كيف تعتدون في السبت، وتخالفون أمر الله - سبحانه -، فنصحوهم عن تعديهم وفسقهم بالصيد يوم السبت؟

٣- وفرقة ثالثة سكتت سكوتاً سليماً، ويُسوا من إصلاح المعتدين في السبت، وقالوا للناهين عن المنكر منهم: ﴿لَمْ تَعْطُونَ قَوْمًا اللَّهُ مُهْلِكُهُمْ﴾ في الدنيا بمعصيتهم إياه ﴿أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا﴾ في الآخرة، كأنهم يقولون: لا فائدة فيمن تجرأ على ما حرم الله، فلم يقبل النصيحة، واستمر في عصيانه، إذ لا بد من عقابه.

قال الذين كانوا ينهون غيرهم عن المعصية: كي نُغذّر عند الله سبحانه؛ حيث نكون قد بلغنا وقمنا بواجب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ولعلمهم يخافون الله، وينتهون عما هم فيه، ويتوبون إليه، فهؤلاء قد عللوا نصحتهم لهم بأمرين:

أحدهما: الاعتذار إلى الله تعالى عن التقصير في واجب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

وثانيهما: الأمل في إصلاح المعتدين بالصيد في يوم السبت، وانتفاعهم بالموعظة؛ كي ينجوا من العقوبة.

وعلى هذا فإن صلحاء القوم كانوا فريقين:

١- فريقاً يئس من نجاح الموعظة، وتحقق الوعيد للمخالفين.

٢- وفريقاً لم ينقطع رجاؤهم من حصول أثر الموعظة مع تكرارها.

فأنكر الفريق الأول على الثاني استمرارهم في الموعظة، واعتذر الفريق الثاني عن الإقلاع عن الموعظة واستمروا فيها.

عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «لا تتركبوا ما ارتكب اليهود، فتستحلوا

محارم الله بأدنى الحيل»^(١). قال تعالى مبيّنًا عقوبة الطائفة المعتدية:

١٦٥ - ﴿فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ أَنْجَيْنَا الَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ السُّوءِ وَأَخَذْنَا الَّذِينَ ظَلَمُوا بِعَذَابٍ بَئِيسٍ^(٢) بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ ﴿١٦٥﴾

ثم فصل - سبحانه - ما عاقب به المعتدين في السبت من عذاب البؤس والشقاء والفقر في المعيشة: ﴿فَلَمَّا﴾ لم يعملوا بالنصيحة، ولم يمتنعوا عن المنكر، واستمروا في غيهم، ولم يستجيبوا للوعظ والإرشاد، وهي الطائفة المعتدية يوم السبت، نجينا الذين ينهونهم عند الصيد في يوم السبت من عذاب الله، وهي الفرقة التي كانت تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر، وأخذنا الذين ظلموا أنفسهم بالاعتداء على حرمان الله بعذاب شديد بسبب خروجهم عن طاعة الله تعالى.

وهذه سنة الله في خلقه، أن العقوبة إذا نزلت بقوم نجا منها الآمرون بالمعروف والناهون عن المنكر.

إذا فأهل القرية كانوا على ثلاث فرق:

- ١ - فرقة اعتدت في يوم السبت بالصيد، وأصابها الخطيئة قصداً واحتياطاً بنصب الشباك يوم الجمعة.
- ٢ - وفرقة نهت عن ذلك الفعل، وحذرت من عقاب الله، ولم ينقطع رجالهم في إصلاح القوم.
- ٣ - وفرقة أمسكت عن الصيد، وسكتت عن موعظة المعتدين، ولا موانع الناهين على موعظة قوم لا يتعظون ولا ينزجرون.

(١) قال ابن كثير: هذا إسناد جيد، فإن أحمد بن محمد بن مسلم ذكره الخطيب في تاريخه ووثقه، وبقية رجاله مشهورون ثقات، وهو في «تاريخ بغداد» (٩٨/٥) ويصحح الترمذي بمثل هذا الإسناد كثيراً.

(٢) قرأ نافع وأبو جعفر وهشام بخلف عنه بكسر الباء وبعدها ياء مدية من غير همز في (بئس) هكذا (بئس) على أنها صفة مشبهة، وقرأ ابن عامر بخلف عن هشام (بئس) بياء مكسورة وهمزة ساكنة من غير ياء، صفة مشبهة أيضاً، وقرأ شعبة في أحد وجهيه (بئس) بياء مفتوحة بعدها ياء ساكنة، بعدها همزة مفتوحة، صفة على وزن (فعل)، وقرأ الباقر ومعهما شعبة في وجهه الثاني (بئس) بياء مفتوحة بعد همزة مكسورة، بعدها ياء مدية، صفة على وزن (فعل).

أما أهل الفرقة التي قالت للناهين: ﴿لِمَ تَعْطُونَ قَوْمًا اللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا﴾ فالظاهر أنهم كانوا من الناجين، لأن الله تعالى خص الهلاك بالظالمين، ولم يأت وصف هذه الفرقة بالظلم في الآيات، ونصّت الآيات على نجاة الذين ينهون عن المنكر، وسكتت عن هؤلاء، فدل هذا على نجاتهم أيضًا، وقد أبدوا غضبهم وشدة كراهيتهم لفعل المعتدين، وذكروا أن الله تعالى سيعذبهم أشد العذاب، وهذا إنكار منهم عليهم:

روى عكرمة أن ابن عباس رضي الله عنهما قال: لا أدري ما فعلت الفرقة الساكتة؟ وجعل يبكي، قال عكرمة: جعلني الله فداك، ألا تراهم قد أنكروا وكرهوا ما هم عليه وقالوا: ﴿لِمَ تَعْطُونَ قَوْمًا اللَّهُ مُهْلِكُهُمْ﴾ وإن لم يقل الله: أنجيتنا، ولم يقل: أهلكتهم، قال: فأعجبه قولي، ورضي به، وأمر لي بيردين فكسانيهما، وقال: نجت الساكتة^(١).

وهذه الآية أشد آية في عقوبة ترك النهي عن المنكر، ومنها حرّم العلماء الحيل لإسقاط الواجبات، أو انتهاك المحرمات، أما إن كانت للتوصل إلى فعل الواجبات والتخلص من الحرام فهو تحايل محمود. قال تعالى:

١٦٦- ﴿فَلَمَّا عَوَّا عَنْ مَا نُهُوا عَنْهُ قُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ﴾

أي: ولما لم يقبلوا النصح، وتحايلوا على انتهاك حرّات الله، وتجاوزوا الحدود في التعدي يوم السبت، كانت النتيجة أن الله - سبحانه - مسح الفرقة المعتدية وجعلهم قردة وخنازير، كما جاء في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ الَّذِينَ اعْتَدَوْا مِنْكُمْ فِي السَّبْتِ فَقُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ﴾ [البقرة: ١٥٠] فمسخوا قردة وخنازير، وصاروا مبعدين من كل خير، وكلام القرآن صريح، لا يحتاج إلى تأويل.

قال المفسرون: إنهم بقوا قردة وخنازير ممسوخين مسحًا حقيقيًا ثلاثة أيام، ثم أهلكهم الله - سبحانه -، وكان الناهون عن المنكر قد أقاموا جدارًا حاجزًا بينهم وبين المعتدين، فلما أصبحوا ولم يروههم، طلّوا عليهم من فوق الجدار، فوجدوهم قد مسخوا، فكانوا يعرفون أقاربهم من الناهين عن المنكر وهم لا يعرفونهم؛ لأنهم صاروا قردة وخنازير وتغيرت أشكالهم.

(١) من تفسير للآية البغوي والخازن (٢٢٦/١).

وهذه صفحة من صفحات بعض اليهود قد طويت، وليس هناك عَقَب ولا نسل لمن مُسِخُوا قردة وخنازير؛ لأن الله تعالى قد أماتهم بعد بضعة أيام، ولم يُبقِ لهم أثراً.

اليَهُودُ شَعْبٌ بِلَا وَطَنٍ (حَقِيقَةُ دِينِيَّةٍ تَارِيخِيَّةٍ)

١٦٧- ﴿وَإِذْ تَأَذَّتْ رُكْبُكَ لِيَبْعَثَنَّ عَلَيْهِمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَمَةِ مَنْ يَسُوءُهُمْ سُوءَ الْعَذَابِ إِنَّ رَبَّكَ لَسَرِيعُ الْعِقَابِ وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ﴾

ثم تأتي صفحة أخرى من صفحات اليهود، يؤكد الله - سبحانه - فيها بالقسم أنه جلَّ شأنه يُعَلِّمُ إعلامًا صريحًا للناس جميعًا إلى يوم القيامة من يُهينهم ويُذِلُّهم ﴿وَإِذْ تَأَذَّتْ رُكْبُكَ﴾ أي: أعلم الخلق جميعًا، فأَمَرَ وَكَتَبَ، وأَكَّدَ وأقسم على أنه - جلَّ شأنه - ليعثن على اليهود من يذيقهم سوء العذاب والإذلال إلى يوم القيامة، وقد أعلمهم الله بذلك وتوعدهم به، والآية تشير إلى أن هذا الوعيد متجدد متكرر.

والمسلم لا ينظر إلى الوقت الذي يعيشه فحسب، ولا إلى الظرف المعاصر له فقط، وإنما ينظر إلى التاريخ ككل على أن العصر الذي نعيشه حقبة من الزمن وفترة منه، ولم تنتهِ الدنيا بانتهاء عصرنا هذا، أو وقتنا الذي نحياه، والمتأمل في التاريخ يجد صدق قول الله سبحانه: ﴿لِيَبْعَثَنَّ عَلَيْهِمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَمَةِ مَنْ يَسُوءُهُمْ سُوءَ الْعَذَابِ﴾ فيذلهم ويخزيهم وينكِّلُ بهم، وقد جاء تفصيل هذه الآية في قوله تعالى: ﴿وَفَضَيْنَا إِلَى بَنِي إِسْرَءِيلَ فِي الْكِتَابِ لُتُفْسِدُنَّ فِي الْأَرْضِ مَرَّتَيْنِ﴾ [الإسراء: ٤-٨] إلى آخر الآيات؛ حيث يقول الله تعالى فيها: ﴿وَإِنْ عُدْتُمْ عُدْنَا﴾ أي: وإن عدتم إلى الإفساد في الأرض، عدنا لنسلط عليكم من يسومونكم سوء العذاب، وهذا أمر مستمر متجدد إلى قيام الساعة، وقد سلط الله عليهم (بُخْتَنْصَر) فأبادهم، وأهلك الكثير منهم وقتلهم وشرَّدهم.

وقد ضرب الله عليهم الذلة أينما ثقفوا إلا بحبل من الله، وحبل من الناس:

وحبل الله: هو الدخول في الإسلام، فكل من يدخل منهم في الإسلام، فهو في مأمن من هذه الذلة والمسكنة، وهذا هو الحبل الأول.

والحبل الثاني: حين يدخلون في حمى دولة قوية، وهذا هو حبل الناس، بأن يدخلوا في عهد دولة قوية تحمي بيضتهم، وهذا لن يدوم، فقد أخبر الصادق المصدوق ﷺ:

«أن الساعة لن تقوم حتى يتقاتل اليهود والمسلمون إلى درجة أن اليهودي يختبئ وراء الحَجَر والشجر عدا شجر الغرقد، فهو من شجرهم، ويقول الشجر: يا مسلم، هذا يهودي ورأني فاقتله».

وَوَعَدُ الله - سبحانه - على لسان رسوله ﷺ لا يتخلف، وقد فعل الله ما توعدهم به في كتابه، فلا يزالون في ذل وإهانة ولا تقوم لهم راية، ولا يُنصر لهم عَلم، وهم في خذلان ورعب وقلق مستمر، وإن تفوّقوا في السلاح والعتاد.

أمثلة لما حل باليهود من البأس الشديد على مدى التاريخ

١- والأسباط الاثنا عشر لليهود، لم يبقَ منهم إلا سبط ونصف السبط، وأُيد منهم عشرة أسباط ونصف السبط في سبي البابليين الآشوريين لهم، ولذلك فإن عدد اليهود في وقتنا، هو هذا العدد الضئيل، الذي لا يتجاوز بضع ملايين في العالم، وذلك بسبب ما سلَّط الله عليهم من يسومهم سوء العذاب إلى يوم القيامة، ولو كانت الأسباط الاثنا عشر باقية، لكان عددهم الآن من الكثرة بحيث يفوق عدد النصارى والمسلمين.

٢- وبعد بُخْتَنَصَّر سلط الله عليهم النصارى (الروم)؛ فأذلّوهم وفرضوا عليهم الجزية يدفعونها عن يد وهم صاغرون.

٣- وبعد النصارى سلط الله عليهم محمداً ﷺ؛ فأخرجهم من الجزيرة وهم ﴿يُخْرَجُونَ بِيُوتِهِمْ بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدَى الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الحشر: ٢].

٤- وسلط الله عليهم في العصر الحديث (هتلر) فشرّد الكثير وقتل الكثير منهم، واستباح بيضتهم.

٥- وهكذا سنة الله فيهم، فهي لعنة أبدية، نافذة في عمومها، فبين الحين والآخر يبعث الله عليهم من يذيقهم سوء العذاب، وكلما انتعشوا وانتفشوا جاءتهم الضربة ممن يسلطهم الله عليهم.

ونحسب أن اجتماعهم وتكتلهم في مكان واحد في عصرنا، هو بداية النهاية إن شاء

الله رب العالمين ﴿إِنَّ رَبَّكَ لَسَرِيعُ الْعِقَابِ﴾ لمن استحقه؛ بسبب كفره ومعصيته، حتى إنه لِيُعَجِّلَ له العقوبة في الدنيا مع ما يدخره له في الآخرة.

﴿وَإِنَّهُمْ لَفُفُّورٌ﴾ ذنوب التائبين ﴿رَجِيمٌ﴾ بهم، يتقبل طاعاتهم ويشيهم عليها.

ومن الأمثلة لبعض ما حلَّ باليهود من أولي البأس الشديد على مدى التاريخ:

١ - أن انقسمت مملكة سليمان عليه السلام بعد موته سنة ٩٧٥ ق.م إلى مملكة الشمال في نابلس من عشرة أسباط، ومملكة الجنوب في بيت المقدس (أورشليم) من سبطي يهوذا وبنامين.

وفي سنة ٧٢١ ق.م انقض ملك آشور على مملكة الشمال، فقتل الآلاف منهم، وأسر البقية، وكانت نهاية مملكة الجنوب على يد (بختنصر) البابلي سنة ٥٨٦ ق.م.

٢ - وفي الفترة من ٥٣٦ - ٣٣٢ ق.م عادوا إلى فلسطين في ظل حكم الفرس، وفي سنة ٣٢٠ ق.م سار إليهم (بطليموس) خليفة الإسكندر المقدوني فهدم القدس، ودك أسوارها، وأسر منهم مئة ألف.

٣ - وفي سنة ٦٣ ق.م أغار الرومان على أورشليم فاحتلوها، واستمر احتلالهم حتى سنة ٦١٤م وخلال هذا الاحتلال تم تدمير أورشليم، وإحراق الهيكل، وقتل الآلاف منهم.

٤ - وفي سنة ٢٠ ق.م وقع اليهود تحت سيطرة السوريين؛ فأنزلوا بهم أشد العقوبات، وقتلوا منهم أربعين ألفاً في ثلاثة أيام، وباعوا عبيداً منهم، ولم يفلت منهم إلا من هرب إلى قمم الجبال.

٥ - ثم سلط الله عليهم نبيه محمداً عليه السلام فأجلى بني النضير وبني قينقاع عن المدينة، وقتل بني قريظة، وأهدر دم كبارهم، كعبد الله بن الأشرف، وسلام بن أبي الحقيق، وكان من آخر ما قال عليه السلام: «أخرجوا اليهود من جزيرة العرب، لا يبقى في جزيرة العرب دينان»^(١).

(١) يُنظر: «صحيح البخاري» باب إخراج اليهود (٣١٦٧) بمعناه و«صحيح مسلم» (١٧٦٥) بلفظ: «أخرجوا المشركين» (٣١٦٨) ويُنظر: «الموطأ» برقم (٥٧١) من رواية أبي مصعب و«المسند» بلفظ (أخرجوا يهود أهل الحجاز وأهل نجران) عن أبي عبيدة (١٦٩١، ١٦٩٤) بإسناد صحيح ورجال ثقات (محققوه).

٦ - وفي خلافة عمر رضي الله عنه تم إخراج اليهود من جزيرة العرب^(١).

٧ - ثم هم في آخر الزمان يكونون أنصاراً للدجال، فيقتلهم المسلمون مع عيسى عليه السلام.

هذا: وقد فتحت بيت المقدس فتحاً إسلامياً، ولم يعد لليهود ولا للنصارى ولا لغيرهم راية ترفع في أي بلد من بلاد المسلمين بعد مجيء الإسلام.

والمسلمون في شتى أرجاء الأرض آثمون عاصون لربهم طالما بقي في أرض فلسطين حكم وسلطة لغير المسلمين، والإسلام له أحكامه المعروفة في معاملة أهل الذمة.

أما ما حلّ باليهود على أيدي بعض الدول الأوروبية، فقد كان منها في العصور المتأخرة ما يلي:

١ - ففي بريطانيا في سنة ١٣٢٨م أصدر الملك إدوارد الأول أمراً بطرد اليهود من جميع البلاد البريطانية في غضون ثلاثة أشهر، ولكن الشعب البريطاني لم يصبر على وجودهم هذه المدة، فأخذوا يقتلونهم بالعشرات والمئات، وأحرقوا منهم في قلعة بورك أكثر من خمس مئة يهودي، مما اضطر الملك إلى طردهم قبل انقضاء الأشهر الثلاثة، وخلت منهم بريطانيا لمدة ثلاثة قرون، ثم عادوا إليها سنة ١٦٥٦م بعد أن قدّموا الأموال الطائلة لعودتهم في عهد كرومويل الطاغية.

٢ - وفي فرنسا: في عهد (لويس التاسع) أصدر أمراً بإلغاء ما لليهود على الفرنسيين من ديون، وأمر بإحراق كتبهم المقدسة، وخاصة التلمود.

وفي عهد (فيليب الجميل) طردوا من فرنسا نهائياً، ثم عادوا إليها بعد أن دفعوا له ثلثي الديون التي لهم في فرنسا.

٣ - وفي إيطاليا: أُطلق عليهم الشعب المكروه، وأعملوا فيهم القتل والتشريد، وأصدر البابوات مراسيم تُكفّر اليهود، وتُسفّه ديانتهم القائمة على التلمود، وأصدر البابا (جريجوري) أوامره بإحراقه، فأحرقت جميع نسخه.

وفي سنة ١٥٤٠م قتل الشعب الإيطالي الآلاف من اليهود.

٤ - وفي إسبانيا: في عهد الملك (فرديناند) وصلت موجة السخط على اليهود بسبب

(١) يُنظر: «بنو إسرائيل في الكتاب والسنة» للشيخ محمد سيد طنطاوي (٣٦٦/٢) وما بعدها.

استيلائهم على اقتصاد البلاد فيها، وإثارة نار الخلافات الدينية بين الطوائف، مما اضطر الملك وزوجته إلى طردهم من إسبانيا نهائياً.

وفي ٣١ مارس سنة ١٩٥٢، وبناء على تقرير محاكم التفتيش، قرر الملك نفي اليهود ذكوراً وإناثاً خارج حدود مملكته إلى الأبد في مدة أقصاها نصف شهر يوليو من نفس العام، على ألا يحاولوا العودة إلى البلاد في أي ظرف أو سبب.

٥- وفي روسيا: كان نصف يهود العالم تقريباً يعيش فيها خلال القرن التاسع عشر، وفي عامي ١٨٨١، ١٨٨٢م أوقع الروس باليهود أبرز المذابح؛ بسبب نشاطهم فيها بفتح حانات الخمر، والتعامل بالربا، وقتل الكثير من أبناء الشعب الروسي، واستمر نشاطهم حتى تم القضاء عليه بقيام الثورة الشيوعية سنة ١٩١٧م، وعندما نُشِرَ الكاتب الروسي نيلوس كتاب (بروتوكولات حكاهم صهيون) سنة ١٩٠٢م التي تفضح نوايا اليهود الإجرامية تجاه العالم، عمّت المذابح ضدهم في روسيا، وقتل منهم نحو عشرة آلاف.

٦- وفي ألمانيا: انتشر اليهود في القرن الثامن الميلادي، واستغلوا اقتصاد البلاد حتى صدر الأمر بطردهم من أنحاء ألمانيا فيما بين القرن الثاني عشر والرابع عشر، حتى يكاد لم يبق منهم أحدٌ بعد أن هاج الشعب الألماني ضدهم، واستعمل فيهم القتل والتشريد^(١). ومما يدل على جميع ما سبق من أن اليهود شعب بلا وطن قوله تعالى:

١٦٨ - ﴿وَقَطَعْنَاهُمْ فِي الْأَرْضِ أُمَمًا مِّنْهُمْ أَصْلَحُونَ وَمِنْهُمْ دُونَ ذَلِكَ وَبَلَوْنَاهُمْ بِالْحَسَنَاتِ وَالسَّيِّئَاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ (١٢٨)

بَيَّنَّ جُلَّ شَأْنِهِ فِي هَذِهِ الْآيَةِ أَنَّهُ فَرَّقَ الْيَهُودَ وَشَتَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ جَمَاعَاتٍ جَمَاعَاتٍ بَعْدَمَا كَانُوا مَجْتَمِعِينَ فَقَالَ: ﴿وَقَطَعْنَاهُمْ فِي الْأَرْضِ أُمَمًا﴾ وهذا تقطيع مذموم، أي: فرقناهم بعد اجتماعهم، حيث نقلهم ملك بابل إلى جبال آشور وأرض بابل في الأسر البابلي سنة ٧٢١ قبل الميلاد، وأسره (بختنصر) مملكة يهوذا، وشرّد يهود أورشليم سنة ٥٧٨ قبل الميلاد، ولما عادوا إليها أجلاهم عنها ملك الرومان في أوائل القرن الثاني للميلاد، ولم

(١) انظر فيما سبق: «اليهودية» للدكتور أحمد شلبي، و«خطر اليهود العالمية على الإسلام والمسيحية» لعبد الله التل، و«تاريخ الإسرائيليين» لشاهين مكاريوس.

يجتمع لهم شمل بعد ذلك .

كما قال تعالى: ﴿وَقُلْنَا مِنْ بَعْدِهِ﴾ أي: من بعد موسى ﴿لَبَنِي إِسْرَءِيلَ أَسْكُنُوا الْأَرْضَ﴾ [الإسراء: ١٠٤] و (أل) في الأرض للجنس؛ أي: اسكنوا الأرض كلها بلا مكان محدد ولا وطن ثابت، ولا مأوى، وكما أَرَّخَ لهم يوسف ﴿يُوسُفَ﴾ في قوله: ﴿وَقَدْ أَحْسَنَ بِي إِذْ أَخْرَجَنِي مِنَ السِّجْنِ وَجَاءَ بِكُم مِّنَ الْبَدْوِ﴾ [يوسف: ١٠٠] والبدو: هم الرُّحَّل الذين لا وطن لهم ثابت، وبهذا يقول اليهود غير الصهاينة، فهم يعتقدون كما يعتقد المسلمون أنه لا حق لليهود في فلسطين، وأنهم محتلون غاصبون لدولة الصهاينة الحالية على تراب فلسطين الحبيبة .

ثم قال تعالى: ﴿مِّنْهُمْ أَصْلَحُونَ﴾ القائمون بحقوق الله وحقوق العباد، وذلك في زمن رسولهم، وكذا من آمن منهم بعبسى في عهده، ومن آمن منهم بمحمد بعده ﴿وَمِنْهُمْ دُونَ ذَلِكَ﴾ المقصرون الظالمون لأنفسهم ﴿وَيَكُونُ لَهُمْ بِالْحَسَنَاتِ وَالسَّيِّئَاتِ﴾ بالعسر واليسر، بالخير والشر، بالنعم والنقم، واختبرناهم بالرخاء والسعة في العيش، واختبرناهم بالشدة، والمصائب والرزايا ﴿وَلَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ أي: رجاء أن يرجعوا إلى طاعة ربهم ويتوبوا عن معاصيه، ولكنهم لم يزالوا بين صالح وطالح ومقتصد، حتى زاد شرهم وفسادهم بمجيء الخلف بعدهم:

١٦٩- ﴿فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ وَرِثُوا الْكِتَابَ يَأْخُذُونَ عَرَضَ هَذَا الْأَدْنَىٰ وَيَقُولُونَ سَيُغْفَرُ لَنَا وَإِنْ يَأْتِهِمْ عَرَضٌ مِّثْلُ الَّذِي أَخَذُوا أَلَمْ يُؤْخَذْ عَلَيْهِمْ مِّمَّا يَكْتَسِبُونَ أَن لَّا يَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ وَدَرَسُوا مَا فِيهِ وَاللِّدَارُ الْآخِرَةُ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يَنْقُوتُونَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ (١)

ماذا كانت النتيجة بعد تشتت اليهود في جوانب الأرض: ﴿فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ﴾ أي: أنشأ الله من ذرية أولئك اليهود بعد زوال الأمة وتفرقها؛ خلفاً جاؤوا بعدهم، ويبدأ هذا الخلف من عودة اليهود بعد أسر (بختنصر) لهم في حدود سنة ٥٣٠ قبل الميلاد في عهد ملك الفرس (كورش) حين أذن لهم بالعودة لَمَّا فتح بلاد آشور، واستأنفوا مزاوله العمل بالتوراة وتعمير بيت المقدس بعد خرابه .

(١) قرأ نافع وابن عامر وحفص وأبو جعفر ويعقوب بناء الخطاب في (أفلا تعقلون) على الالتفات، وقرأ الباقون بياء الغيبة؛ لمناسبة سياق الآية.

وهذا الخلف لا ينحصر في جيل ولا قرن، فكان منهم كل يهودي يأتي بعد هؤلاء، ومنهم يهود هذا الزمان، والذين كانوا في عهد النبي ﷺ وكلهم ﴿وَرِثُوا الْكِتَابَ﴾ أي التوراة عن آبائهم وأسلافهم بعد أن حُرِّفَتْ وَبَدِّلَتْ وَغَيِّرَتْ، فقرؤوها وعَلِّمُوهَا وخالفوا حكمها فصاروا يتصرفون فيها بأهوائهم، ويُفْتِنُونَ بغير الحق، ويأخذون الرشوة على تغيير أحكام الله ﴿يَأْخُذُونَ عَرَضَ هَذَا الْأَدْنَى﴾ أي: يأكلون السحت والرشوة ويتاجرون بالدين، ويحابون في الحكم والفتوى، هذا هو الحكيم الخبير، يخبر سبحانه أن اليهود يأكلون المال من حله وحرامه، من الربا والرشوة، وكل ما يعرض لهم من متاع الدنيا من ذنيء المكاسب؛ لشدة حرصهم ونهمهم.

قال ابن زيد: كان يأتيهم الْمُحِقُّ برشوة، فيُخْرِجُون له كتاب الله، فيحكمون له به، فإذا جاء المُبْطِل، أخذوا منه الرشوة، وأخرجوا له كتابهم الذي كتبوه بأيديهم وحكموا له، ومع ذلك فهم يتمنون على الله الأمانى، ويقولون: ﴿سَيَغْفِرْ لَنَا﴾.

وهكذا: فكانوا يقرُّون على أنفسهم أنهم مذنبون، وأنهم ظلمة، ويقولون ﴿سَيَغْفِرْ لَنَا﴾ وليس في قولهم هذا طلب للمغفرة، وإنما هو أمانى، فهم يُمْنُونَ أنفسهم بالمغفرة!

عن شداد بن أوس ؓ أن رسول الله ﷺ قال: «الْكَيْسُ من دان نفسه وعمل لما بعد الموت، والعاجز من أتبع نفسه هواها وتمنى على الله»^(١).

وبيَّن النبي ﷺ أن حُكَّامَهُمْ وَقُضَاتِهِمْ يأخذون الرشوة، ويتمنون على الله المغفرة والأباطيل، وأن الله تعالى سيغفر لهم ذنوبهم، فإذا قيل لهم: لماذا تأكلون الربا والرشوة؟ فإنهم يقولون: ﴿سَيَغْفِرْ لَنَا﴾ ولو كان قولهم هذا حقًا لندموا على ما فعلوا، وعزموا على ألا يعودوا، ولكنهم كانوا إذا أتاهم عرض آخر، ورشوة أخرى أخذوها ﴿وَإِنْ يَأْتِيهِمْ عَرَضٌ مِثْلُهُ﴾ من أعراض الدنيا، ومن كل رشوة ومتاع زائل محرم، من أي طريق كان ﴿يَأْخُذُوهُ﴾

(١) رواه الترمذي (٢٤٥٩) وقال: هذا حديث حسن، وقال الحاكم في المستدرک: هذا حديث صحيح على شرط البخاري ولم يخرجاه، وسكت عليه الحافظ في الفتح (٣٤٢/٩) وضعفه الألباني في ضعيف الترغيب والترهيب برقم (١٩٥٩) والحديث في مسند أحمد (١٧١٢٣) وفيه أبو بكر بن أبي مريم ضعيف وباقي رجاله ثقات، (محققوه) وأخرجه ابن ماجه (٤٢٦٠) والبغوي في شرح السنة (٤١١٧) والطبراني في الكبير (٧١٤٣) والبيهقي في الشعب (١٠٥٤٦).

ويستحلوه مصرين على ذنوبهم وتناولهم الحرام، فاشترؤا بآيات الله ثمنًا قليلًا واستبدلوا الحلال بالحرام.

قال تعالى في الرد على زعمهم: ﴿أَلَمْ يُؤْخَذْ عَلَيْهِمْ مِيثَاقُ الْكِتَابِ﴾ أي: العهود الموثقة بإقامة التوراة والعمل بما فيها ﴿أَنْ لَا يَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ﴾ وألا يكذبوا عليه، وأن يبينوا ما فيه للناس، ولا يحتالوا، ولا يتأولوا، ولكنهم قالوا على الله غير الحق، اتباعًا لأهوائهم حُبًا للدنيا، وميلًا إلى مطامعهم قال تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُ﴾ [آل عمران: ١٨٧] ولكنهم كتموه وضيعوه بعدما علموه، وخالفوا عهد الله إليهم، واشترؤا بآيات الله ثمنًا قليلًا ﴿وَدَرَسُوا مَا فِيهِ﴾ أي: أنهم علموه وفهموه، وتركوا العمل بما فيه عن عمد وإصرار، وهذا أعظم للذنوب، وأشد للوم، وأشنع للعقوبة، وهو من نقص عقولهم وسفاهة رأيهم.

وما قصَّ الله علينا مثل هذه الآيات من أخبار بني إسرائيل، إلا لنعتبر بأحوالهم، ونبتعد عن الذنوب التي أخذهم الله بها، ونعلم أن ما عند الله من حسن الجزاء لأهل التقوى، الذين يتورعون عن أكل الحرام، ويحكمون بما أنزل الله، ويرغبون فيما عند الله ﴿وَالَّذَارُ الْآخِرَةُ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَ﴾ فيمتثلون أوامره، ويجتنبون نواهيه، ويحرمون ما حرم الله عليهم، ومنها أخذ الرشوة على الحكم بغير ما أنزل الله، وغير ذلك من المحرمات ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ أفلا يعقل الذين يأخذون دنيء المكاسب أن ما عند الله خير وأبقى للمتقين، فاعتبروا يا أولي الأبصار. أما العقلاء على وجه الحقيقة فهم الذين وصفهم الله بقوله:

١٧٠- ﴿وَالَّذِينَ يُمَسِّكُونَ^(١) بِالْكِتَابِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ إِنَّا لَا نَضِيعُ أَجْرَ الْمُصْلِحِينَ﴾

ثم بيَّن سبحانه أن الذين يتمسكون بالكتاب، علمًا وعملاً، فيعلمون ما فيه من الأحكام والأخبار، ويعملون بما فيه من العقائد والعبادات والأحكام، والأوامر والنواهي،

(١) قرأ شعبة بسكون الميم وتخفيف السين من (يمسكون) مضارع (أمسك) المتعدي، والمفعول محذوف، تقديره: دينهم أو أعمالهم، وقرأ الباقون بفتح الميم وتشديد السين، مضارع (مَسَّكَ) بمعنى تمسك، مثل تمسكت بالحبل.

ويحافظون على الصلاة بحدودها، ولا يضيعون أوقاتها، فإن مصيرهم إلى الجنة، وإلى النعيم المقيم، ولا يضيع الله أعمالهم الصالحة بل يثيبهم عليها.

وقد خص الله الصلاة بالذكر لفضلها وشرفها وكونها فرق الكفر من الإسلام، وهي ميزان الإيمان، وأول ما يحاسب عليه العبد، وإقامتها عنوان على إقامة سائر العبادات.

وفي هذا ثناء من الله تعالى على من يمسك بكتابه فأحل حلاله وحرم حرامه، واعتصم بحبله المتين ونوره المبين، ولم يتقوّل على الله بغير علم، فإن الله لا يضيع أجره وعمله؛ لأنه أصلح دينه ودنياه، والتمسك بالكتاب وإقامة الصلاة طرفا المنهج الرباني، ﴿إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ الْمُصْلِحِينَ﴾ في أقوالهم، مصلحين لأنفسهم ولغيره.

وفي الآية ما يدل على أن الله تعالى قد بعث رسله بالصلاح لا بالفساد وبالمنافع لا بالمضار، وأنهم بُعثوا بإصلاح الدارين، فكل من أصلح من البشر، فهو الأقرب إلى اتباعهم.

قَبُولُ الْيَهُودِ لِأَحْكَامِ التَّوْرَةِ تَحْتَ وَطْأَةِ التَّهْدِيدِ

١٧١- ﴿وَإِذْ نَفَقْنَا الْجَبَلَ فَوْقَهُمْ كَأَنَّهُ ظُلَّةٌ وَظَنُّوا أَنَّهُ وَاقِعٌ بِهِمْ خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ وَاذْكُرُوا مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ (١٧١)

لما أنزل الله - سبحانه - التوراة على موسى، وأمر بني إسرائيل أن يعملوا بما فيها من تكاليف، وشرائع، وأحكام؛ لم يقبلوا العمل بما في التوراة، ورأوا أن ما فيها شاقٌ عليهم، فامتنعوا من العمل بما فيها، فكان من الله - سبحانه - أن هددهم على لسان نبيهم موسى ﷺ، كي يلزمهم العمل بما فيها وأمر - جلّ شأنه - جبريل ﷺ أن يرفع جبل الطور فوق رؤوسهم كأنه سحابة أو مظلة يستظلون بها، هذا معنى: ﴿وَإِذْ نَفَقْنَا﴾ أي: رفعنا ﴿الْجَبَلَ فَوْقَهُمْ كَأَنَّهُ ظُلَّةٌ﴾ وهم تحته، فلما رأوه بأعينهم وغلب على ظنهم أنه واقع عليهم إن لم يقبلوا أحكام التوراة، أعلنوا امتثالهم لما فيها، وخروا سجداً لله تعالى، فسجدوا على خدّهم وحاجبهم الأيسر، وهم ينظرون إلى الجيل بالعين اليمنى، ولذلك فإن كل يهودي إلى يومنا هذا يسجد على حاجبه وخدّه الأيسر، ويقول: هذه السجدة التي رُفعت عنا العقوبة بسببها^(١).

(١) نقل عن الحسن البصري كما في «تفسير ابن كثير» و«ابن عطية» و«الكشاف» و«القرطبي» وغيرهم للآية.

حينئذ قال تعالى في وقت ارتفاع الجبل: ﴿خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ﴾ أي: بجد وعزم على تحمّل ما فيه من مشقة، واعملوا بما أنزلنا عليكم في التوراة باجتهاد وعزيمة، واذكروا ما فيها من العهود والمواثيق التي أخذناها عليكم؛ كي تتقوا ربكم فتنجوا من عذابه ﴿وَأَذْكُرُوا مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ فكان رفع جبل الطور عليهم معجزة لموسى ﷺ، أيده الله بها تخويفاً لهم، يروونه فوقهم وهم في سفحه؛ ليعقّب ذلك أخذ العهد عليهم بعزيمة العمل بالتوراة، وتصديقاً له فيما يبلغه عن ربه من أحكام.

قال قتادة: نزع الله الجبل من أصله، ثم جعله فوق رؤوسهم، فقال: لتأخذوا أمري أو لأرمينكم به^(١).

وهذا معنى: ﴿وَرَفَعْنَا فَوْقَهُمُ الطُّورَ بِمِثْقَلِهِمْ﴾ [النساء: ١٥٤] ومعنى: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمْ الطُّورَ خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ وَأَذْكُرُوا مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [البقرة: ١٢٩] ومعنى: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمْ الطُّورَ خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ وَأَسْمِعُوا﴾ [البقرة: ٩٣].

وَرَدَّ أَنَّ موسى ﷺ لما جاءهم بالتوراة قال عن الله تعالى: هذا كتاب الله، أقبّلونه بما فيه؛ فإن فيه بيان ما أحل لكم وما حرم عليكم، وما أمركم به وما نهاكم عنه؟ قالوا: انشر علينا ما فيها، فإن كانت فرائضها يسيرة، وحدودها خفيفة قبلناها، قال: اقبّلوها بما فيها، قالوا: لا، فراجعهم موسى ثلاثاً، فأوحى الله إلى الجبل فانقلع وارتفع فوق رؤوسهم، فقال لهم موسى: ألا ترون ما يقول ربي: لئن لم تقبلوا التوراة بما فيها لأرمينكم بهذا الجبل فلما رأوه فوق رؤوسهم خروا ساجدين، فسجد كل واحد منهم على خده وحاجبه الأيسر، وأخذ ينظر إلى الجبل بعينه اليمنى خوفاً من أن يسقط فوقهم^(٢).

قال ابن عباس ؓ: إني لأعلم لم تسجد اليهود على حرف؟ قال الله تعالى: ﴿وَإِذْ نَفَقْنَا لِبَلِّلٍ فَوْقَهُمْ﴾ قال: لتأخذن أمري أو لأرمينكم به، فسجدوا وهم ينظرون إليه، مخافة أن يسقط عليهم، فكانت سجدة رضيها الله تعالى، فاتخذوها سُنَّةً^(٣).

(١) أخرجه الطبري بسند حسن.

(٢) «تفسير ابن عطية» (٤٧٣/٢) وابن كثير (٤٤٩/٢) و«حاشية الجمل» (٣٠٦/٢).

(٣) ابن أبي حاتم (١٦١١/٥).

وعن عكرمة قال: أتى ابن عباس يهوديً ونصرانيً:

فقال لليهودي: ما دعاكم أن تسجدوا بجباهكم؟ فلم يجبه، فقال: سجدتم بجباهكم لقول الله تعالى: ﴿وَإِذْ نَقَّنا الْجَبَلَ﴾ فخررتم لجباهكم تنظرون إليه.

وقال للنصراني: سجدتم إلى الشرق لقول الله تعالى: ﴿أَنْتَبَذْتَ مِنْ أَهْلِها مَكائًا شَرْقِيًّا﴾^(١) [مريم: ١٦].

قال عطاء: والجبل الذي رُفِعَ على بني إسرائيل هو جبل الطور^(٢).

حكم الاهتزاز أثناء قراءة القرآن:

وقال أبو بكر بن عبد الله: لما نشر موسى الألواح، وفيها كتاب الله، لم يبق على وجه الأرض جبل ولا شجر ولا حجر إلا اهتز، فليس اليوم يهودي على وجه الأرض صغير ولا كبير تُقرأ عليه التوراة إلا اهتز ونغض لها رأسه.

وبعض بلاد المسلمين في الأندلس وغيرها يؤدّبون أبناءهم إذا قرؤوا القرآن وهم يهتزون ويتمايلون أثناء قراءة القرآن فيمنعونهم ويقولون: هذا تقليد لليهود^(٣).

لأن اليهود اهتزوا حين سمعوا التوراة، فعُلم إذاً أن مصدر هذه الهزة وهذا التمايل أثناء قراءة القرآن مأخوذ عن اليهود، وقد أُمِرنا ألا نتشبه بهم، ومصادق ذلك ما نراه من اليهود المتدينين وهم وقوف على حائط البراق -الذي يسمونه زوراً: حائط المبكى- وبأيديهم أوراق يقرؤون فيها ويتمايلون بشدة، وتتوسط رؤوسهم طاقة صغيرة ترمز إلى التدين اليهودي، ومن هنا فإنه ينبغي على المسلمين ألا يُعوّدوا أبناءهم على هذه الهزة وهم يقرؤون القرآن الكريم.

نهاية القصص في السورة:

والى هنا ينتهي الحديث عن قصص الأنبياء في سورة (الأعراف) وهم: نوح، وهود،

(١) أخرجه أبو الشيخ كما في «الدر» (٦/٦٤٦).

(٢) ابن أبي حاتم (٥/١٦١٠).

(٣) يُنظر عند تفسير هذه الآية: «البحر المحيط» والقرطبي و«الكشاف» وابن كثير وغيرهم.

وصالح، ولوط، وشعيب، وموسى عليه السلام، وقد عرضت السورة قبل دعوة هؤلاء الرسل، إلى قصة آدم وحواء، ونداءات بني آدم، وأحوال السعداء والأشقياء، وتعرضت خلال ذلك إلى قضية التوحيد الذي هو رأس مال الدعوة.

وبدءًا من الآية التالية تمضي السورة في الحديث أيضًا عن قضية التوحيد من زاوية أخرى، وهي زاوية الفطرة والاعتراف بالتوحيد في الكيان البشري نفسه، وأن هذا التوحيد ميثاق معقود بين فطرة البشر وخالق البشر، منذ كينونتهم الأولى، فلا عذر لهم في الانحراف عنه إلى الشرك، كما جاء ذلك في قصة الإسرائيلي الذي انحرف عن الفطرة، وانسلخ من الإيمان، وكما جاء في البشر الذين عطّلوا أجهزة الاستقبال فيهم، حتى هبطوا إلى مرتبة الأنعام، وصاروا وقودًا لجهنم.

مِيثَاقُ الْفِطْرَةِ وَالْاِخْتِجَاجُ بِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ

١٧٢- ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ^(١) وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى شَهِدْنَا أَنْ تَقُولُوا^(٢) يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ ﴿١٧٢﴾﴾

سورة (الأعراف) تغرس عقيدة التوحيد في نفوس البشر، وتُعَلِّمُهُمْ أَنْ يَعْبُدُوا اللَّهَ وحده، ولا يشركوا به شيئًا، من خلال قصص الأنبياء والمرسلين، ومن خلال دعوة الرسل إلى أممهم، والمصير الذي يلحق بالأمة المكذبة لرسولها، وفي نهاية هذا القصص يعود القرآن إلى العهد والميثاق الذي أخذه الله على بني آدم جميعًا وهم في أصلاب آبائهم بعد أن فرغ من الحديث عن بني إسرائيل، فهو ردٌّ للعجز على الصدر.

﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ﴾ أي أخرج من أصلابهم ذريتهم وجعلهم يتناسلون ويتوالدون قرنا بعد قرن ﴿وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ﴾ حين أخرجهم من أصلاب آبائهم وبطون أمهاتهم ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى شَهِدْنَا﴾ قررهم بأن الله تعالى هو ربهم وخالقهم ومالك أمرهم، بما أودع فيهم من فطرة التوحيد فأقروا بذلك.

(١) قرأ ابن كثير وعاصم وحزمة والكسائي وخلف العاشر (ذريتهم) بالافراد، والباقون بالجمع.

(٢) قرأ أبو عمرو بياء الغيب في (أن تقولوا) جريًا على نسق الآية، وقرأ الباقر بقاء الخطاب على الالتفات، ومثلا (أو تقولوا) في الآية التالية.

والآية ناطقة بأن ميثاق التوحيد مأخوذ على ذرية آدم وهم نُطْفٌ في أصلاب آبائهم، وأن الله تعالى استخرج أولاد آدم من أصلاب آبائهم، وقررهم بتوحيده تعالى، وأودع في فطرهم أنه ربهم وخالقهم ومليكهم، فأقروا له بذلك واعترفوا، وقد أنطقها الله تعالى ففهمت الخطاب ونطقت، واستشهدا فشهدت، وخاطبها فعقّلت الخطاب بقدرته جلّ شأنه، وأمرها فالتزمت بما أمرها به، وهي مطالبة بالعمل بمقتضى هذا العهد والميثاق، ومسؤولة عنه يوم القيامة، فكل أحد مفطور على التوحيد، ولكن هذه الفطرة قد تغيرت عند بعض الناس وتبدّلت بما يطرأ عليها من العقائد الفاسدة.

والمعنى: أن الله تعالى أخرج من آدم ذريته، وأخرج من ذرية آدم بعضهم من ظهور بعض، على نحو ما يتوالد الأبناء من الآباء، وميّز بين أهل الجنة وأهل النار، وقد أشهد الله بعضهم على بعض بأنهم مُقرّون بالتوحيد الذي فطرهم عليه، ويشهد لذلك قوله: ﴿مِنْ ظُهُورِهِمْ﴾ لأن بني آدم كلهم من ظهر آدم ومن ظهور ذريته.

قال ابن الأنباري: مذهب أهل الحديث وكبراء العلم في هذه الآية أن الله تعالى أخرج ذرية آدم من صلبه وأصلاب أولاده، وهم صور كالذر، وأخذ عليهم الميثاق، فاعترفوا بذلك وقبلوه بعد أن رغب الله فيهم عقولاً عرفوا بها ما عَرَضَ عليهم، كما جعل للجبال عقولاً حتى خوطبوا بقوله تعالى: ﴿يَنْجِبَالُ أَوْيِ مَعَهُ وَالطَّيْرُ﴾ [سبأ: ١٠] وكما جعل للبعير عقلاً حتى سجد للنبي ﷺ، وكذلك الشجر، والنجوم، والدواب، سمعت لأمره تعالى وانقادت له، كما سلّم الشجر والحجر عليه ﷺ، وحن له الجذع.

ووجه الجمع بين الآية والأحاديث أن الله تعالى أخرج ذرية آدم من ظهره على سبيل التوالد بعضهم من بعض، وكلهم بأجمعهم من ظهر آدم الذي هو أصلهم، فإذا أخرجهم الله من ظهر آدم، فقد أخرجهم من ظهور ذريته؛ لأن ذرية آدم كذرية بعضهم من بعض.

وفائدة أخذ الميثاق في القدم أن من مات صغيراً دخل الجنة بإقراره بالميثاق الأول، وهذا على مذهب من يقول: إن أطفال المشركين يدخلون الجنة إذا ماتوا صغاراً.

أخرج البخاري في صحيحه أن النبي ﷺ رأى إبراهيم الخليل في الجنة وحوله أولاد

الناس، فقالوا: يا رسول الله، وأولاد المشركين؟ قال: «وأولاد المشركين».^(١)

ومن ذلك قوله تعالى: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا﴾ [الإسراء: ١٥].

ومن بلغ وعقل ولم يؤمن بالله ورسوله ويعمل صالحا لم يُغْنِ عنه إقراره بالميثاق الأول شيئاً، حتى يقرره ويصدق به بالإيمان والعمل الصالح عندما يبلغ ويعقل.

هذا هو إقرار التوحيد والعقيدة، وهو العهد والميثاق الذي أخذه الله - سبحانه - على بني آدم جميعاً قبل وجودهم في الحياة، وهو مقتضى الفطرة التي فطر الله الناس عليها ﴿فَأَقْمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا﴾ [الروم: ٣٠].

فالعبد يُخلق موحدًا بفطرته وسجيته، ولكن العوامل الخارجية هي التي تؤثر فيه فتجعله ينحرف يميناً أو يسرة: «فأبواه يهودانه، أو ينصرانه، أو يمجسانه».

وهذا العهد والميثاق يُسأل عنه العبد في قبره بعد أن يموت، يُسأل عنه الكافر، فيقال له: لو أن لك ما في الأرض جميعاً أموالاً وذهباً؛ لتفتدي به من عذاب الله يوم القيامة، أكنت فاعلاً؟ فيقول: نعم، فيقال له: لقد طُلب منك في الدنيا ما هو أهون من ذلك، طُلب منك أن تعبد الله وحده ولا تشرك به شيئاً، فأبيت إلا أن تشرك به.

وبهذا العهد والميثاق انتهت سورة (الأعراف) من القصص القرآني الذي جاء فيها، وكلها تدعو إلى توحيد الله سبحانه.

وقد بدأت سورة (الأعراف) بالحديث عن آدم، ونادت ذريته من بعده، وعادت هنا للحديث عن ذرية آدم، وإذا ذكر آدم لزم من ذلك ذكر ذريته.

جملة من الأحاديث في معنى الآية:

وقد وردت آثار وأحاديث عن هذه الآية ذكرها ابن كثير وغيره، بعضها يذكر آدم، وبعضها يذكر ذريته، وبعضها مرفوع، وبعضها موقوف، وبعضها في سنده مقال، وسوف أذكر هنا ما صح منها مما وقف عليه:

١ - عن أنس بن مالك رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «يقال للرجل من أهل النار يوم القيامة: لو كان لك ما على الأرض من شيء أكنت مفتدياً به؟ قال: فيقول: نعم،

(١) من حديث طويل عن سمرة بن جندب في البخاري برقم (٧٠٤٧).

فيقول: أردت منك أهون من ذلك، قد أخذت عليك في ظهر آدم ألا تشرك بي شيئاً فأبيت إلا أن تشرك بي»^(١).

٢- وعن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «كل مولود يولد على الفطرة، فأبواه يهودانه وينصرانه ويمجسانه، كما تنتج البهيمة بهيمة جمعاء، هل تحسون فيها من جدعاء»^(٢).

٣- وعن عياض بن حمار رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «يقول الله: إني خلقت عبادي حنفاء، فجاءتهم الشياطين فاجتالتهم عن دينهم، وحرمت عليهم ما أحللت لهم»^(٣).

٤- وعن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «لما خلق الله آدم مسح ظهره، فسقط من ظهره كل نسمة هو خالقها من ذريته إلى يوم القيامة، وجعل بين عيني كل إنسان منهم وبيصاً من نور، ثم عرضهم على آدم فقال: أي رب، من هؤلاء؟ قال: هؤلاء ذريتك، فرأى رجلاً منهم فأعجبه وبيص ما بين عينيه، فقال: أي رب، من هذا؟ قال: هذا رجل من آخر الأمم من ذريتك يقال له: داود، قال: رب، وكم جعلت عمره؟ قال: ستين سنة، قال: أي رب، زده من عمري أربعين سنة، فلما انقضى عمر آدم، جاءه ملك الموت، قال: أولم يبق من عمري أربعون سنة؟ قال: أولم تعطها ابنك داود؟ وقال: فجحد آدم، فجحدت ذريته، ونسي آدم فُنُسِيَتْ ذريته، وخطي آدم فخطئت ذريته»^(٤).

(١) البخاري من حديث شعبة برقم (٣٣٣٤) ومسلم (٢١٦٠/٤) برقم (٢٨٠٥) وأخرجه أحمد في «المسند» (١٢٧/٣) برقم (١٢٢٨٩) وابن أبي عاصم في السنة (٩٩) وأبو نعيم في الحلية (٣١٥/٢) وابن عدي في الكامل (٢٣٩٣/٦).

(٢) «صحيح البخاري» برقم (١٣٨٥) ومسلم برقم (٢٦٥٨) وابن حبان (١٢٨) وأبو يعلى (٦٣٩٤) وأبو داود (٧٦/٥) برقم (٤٧١٤) وصحيح أبي داود (٣٩٤٥)، والترمذي (٤٤٧/٤) برقم (٢٢٣٧) وصحيح الترمذي (١٧٣٧) بلفظ (يولد على الملة) وأحمد في المسند (٢٣٣/٢) برقم (٧١٨١).

(٣) من حديث طويل في «صحيح مسلم» (٢١٩٧/٤) برقم (٢٨٦٥) ومسند أحمد (١٢٦/٤) برقم (١٧٤٨٤).

(٤) «سنن الترمذي» (٢٦٧/٥) برقم (٣٠٧٦) و«المستدرک» (٣٢٥/٢) وابن أبي حاتم (١٦١٤) وأبو الشيخ (١٠٢٧) وابن عساكر (٣٩٥/٧) وفيه هشام، صدوق له أوهام، قال الحافظ في «التقريب»: لكنه هنا عن زيد بن أسلم، وهو أثبت الناس كما قال الآجري عن أبي داود، فهو حديث صحيح، وقال الترمذي: حسن صحيح، وصححه الألباني في «صحيح سنن الترمذي» برقم (٢٤٥٩) وفي ظلال الجنة (٢٠٦) وتخريج الطحاوية (٢٢٠).

٥- وعن مسلم بن يسار الجهني، عن يعمر بن ربيعة، أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه سئل عن قوله سبحانه: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ﴾ قال: سئل عنها رسول الله ﷺ فقال: «إن الله تبارك وتعالى خلق آدم، ثم مسح على ظهره بيمينه، فاستخرج منه ذرية، فقال خلقت هؤلاء للجنة، وبعمل أهل الجنة يعملون، ثم مسح ظهره فاستخرج منه ذرية، فقال: خلقت هؤلاء للنار، وبعمل أهل النار يعملون» فقال رجل: يا رسول الله، فقيم العمل؟ فقال رسول الله ﷺ: «إن الله إذا خلق العبد للجنة، استعمله بعمل أهل الجنة، حتى يموت على عمل من أعمال أهل الجنة، فيدخله به الجنة، وإذا خلق العبد للنار، استعمله بعمل أهل النار، حتى يموت على عمل من أعمال أهل النار، فيدخله به النار»^(١).

٦- وعن سعيد بن جبيرة عن ابن عباس رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «إن الله جلَّ شأنه مسح بيمينه على ظهر آدم، وكان ذلك في مكان يقال له: (نَعْمَان) بعرفة، وأخرج جلَّ شأنه من ظهر آدم كل نسمة هو خالقها إلى يوم القيامة على صورة الذر، فنثرها بين يديه وخاطبها قائلاً: ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ شَهِدْنَا﴾»^(٢).

٧- وأخرج الطبري بسند حسن عن علي بن أبي طلحة عن ابن عباس رضي الله عنه قال: إن الله خلق آدم ﷺ، ثم أخرج ذريته من صلبه مثل الذر، فقال لهم: مَنْ رَبُّكُمْ؟ قالوا: الله ربنا، ثم أعادهم في صلبه؛ حتى يولد من أخذ ميثاقه، لا يزداد فيهم ولا ينقص منهم إلى

(١) أخرجه مالك في «الموطأ» (٨٩٩/٢) وأبو داود برقم (٤٧٠٣) والترمذي برقم (٣٠٧٥) وهو في «المسند» (٤٤/١) برقم (٣١١) وقد سقط من السند (يعمر بن ربيعة) فحكم بعضهم على الحديث بأنه ضعيف؛ لأن مسلم بن يسار لم يسمع من عمر، ولكن الطبري في تفسيره (٢٣٣/١٣) صرح باسمه في بعض طرقه (محققه) وهو في «سنن النسائي الكبرى» برقم (١١١٩٠) والحاكم (٢٧/١) وابن أبي حاتم (١٦١٢/٥) وابن جبان (٦١٦٦) والبيهقي في «الأسماء والصفات» (٧١٠) قال الألباني: صحيح إلا مسح الظهر «صحيح سنن أبي داود» (٣٩٣٦) وفي الطحاوية (٢٦٦) والمشكاة (٩٦) التحقيق الثاني، وفي ظلال الجنة (١٩٦).

(٢) وَرَدَ هذا عن ابن عباس عن سعيد بن جبيرة مرفوعاً وموقوفاً، وهو في «المسند» (٢٧٢/١) وتصحيح أحمد شاكر برقم (٢٤٥٥) قال الهيثمي في «مجمع الزوائد» (٢٨/٧): رجاله رجال الصحيح، ورواه النسائي في «السنن الكبرى» برقم (١١١٩١) وفي «السنن» برقم (٢١١) والحاكم وصححه وأقره الذهبي في «المستدرک» (٢٧/١) و«تفسير الطبري» (٢٢٢/١٣) برقم (١٥٣٣٨) قال محققو «المسند»: رجاله ثقات رجال الشيخين غير كلثوم بن جبر فمن رجال مسلم، ورجح ابن كثير وقفه على ابن عباس.

أن تقوم الساعة.

وقد علم الله في الأزل من سيئبت على ميثاق التوحيد فكتب له الجنة، وعلم من سينحرف عنه فكتب له النار، وأخبر - سبحانه - عنهم قبل أن يخلقوا، فعلمهم وعيّنهم.

٨- أخرج أحمد وغيره عن أبي نضرة أن رجلاً من أصحاب النبي ﷺ يقال له: أبو عبد الله، دخل عليه أصحابه يعودونه وهو يبكي، فقالوا له: ما يُبكيك؟ قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إن الله قبض يمينه قبضة، وأخرى باليد الأخرى، فقال: هذه لهذه، وهذه لهذه» ولا أبالي، فلا أدري في أي القبضتين أنا^(١).

والمقصود من هذه الآية: الاحتجاج على المشركين بما أودع الله فيهم من فطرة التوحيد بمعرفتهم لربهم معرفة فطرية لازمة لهم، لزوم الإقرار منهم والاعتراف الموجب لتوحيده بالعبادة، ومخالفة ذلك موجب للعقاب.

وفي الآية دليل على أن الإنسان لو خُلِّيَ ونفسه، وتجرد من العوامل المؤثرة كالأبوين والمجتمع لا اختار التوحيد ديناً له؛ لأن هذا مُستَقَرٌّ في عقله وفطرته.

فمعرفة الله تعالى ضرورة فطرية، يعترف بها المشركون، كما قال تعالى: ﴿وَلَيْن سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ﴾ [لقمان: ٢٥].

ولذا: فإن الخلق كلهم يلجؤون إليه وحده عند الشدة.

ففي الترمذي عن عمران بن الحصين ؓ أن النبي ﷺ قال لأبيه: «يا حصين كم إلهاً تعبد اليوم؟ قال: سبعة، ستة في الأرض وواحد في السماء، قال: «فأيهم تُعدُّ لرغبتك ورهبتك؟» قال: الذي في السماء^(٢).

ولهذا فإن الأبكم والمجنون حين يحلف ويدعو، لا يلجأ إلا إلى الله، ولا يلهج لسانه إلا باسم الله.

(١) «المسند» (١٧٥٩٣) و(١٧٥٩٤) قال محققوه: إسناده صحيح ورجاله ثقات، وأخرجه البزار (٢١٤٢) كشف.

(٢) «سنن الترمذي» وقال: حديث غريب برقم (٣٤٨٣) وقال صاحب التحفة: هذا الحديث من جوامع الكلم (٤٢٠/٩) وضعفه الألباني.

ويختتم الله - سبحانه - هذه الآية بقوله: ﴿أَنْ تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَمَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ﴾ أي: أن الله تعالى قد أخذ عليكم ميثاق التوحيد، وعدم الإشراك به وأنتم في أصلاب آبائكم، وأقررتم بذلك وقتها خشية أن تنكروا ذلك يوم القيامة، فلا تقرُّوا بشيء منه، وتزعموا أن حجة الله لم تقم عليكم، وأنكم لا علم لكم بها، بل كنتم عنها غافلين، وقد قامت عليكم الحجة بإرسال الرسل وإنزال الكتب؛ ليدذكروكم بهذا الميثاق الذي أخذه الله عليكم، بعد أن أخرجكم إلى الدنيا من أصلاب آبائكم، وبلغتكم رسل الله ذلك وعقلتم ما يقال لكم؛ وذلك لئلا يقول الكفار يوم القيامة: إنا كنا عن الإيمان بالله ربنا غافلين، فمن أنكر الميثاق، أو لم يعمل به، كان معاندًا ناقضًا للعهد والميثاق.

فالיום قد انقطعت حجتكم، وثبتت الحجة البالغة عليكم، وحتى لا تحتجون بحجة أخرى، فتعتدون بأنكم حذوتم حذو آبائكم ففعلتم مثلهم:

١٧٣ - ﴿أَوْ قُولُوا إِنَّمَا أَشْرَكَ آبَاؤُنَا مِنْ قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِنْ بَعْدِهِمْ أَفَهَلْ كُنَّا بِمَا فَعَلَ الْمُبْطِلُونَ﴾

أو لئلا تقولوا يوم الحساب والجزاء: إن آبائنا قد أشركوا قبلنا، ونقضوا العهد والميثاق، وكنا صغارًا من بعدهم فافتدينا بهم وقلدناهم، وكنا نظن أنهم على حق؛ لأن الرسل قد أرسلوا إليهم، والكتب قد نزلت عليهم قبلنا، أفتعذبن بما فعل غيرنا من الذين أبطلوا أعمالهم الصالحة بجعلهم مع الله شريكًا في العبادة، وقد كنا في غفلة عن هذا الميثاق، فلا ذنب لنا؟! والجواب أن الله تعالى قد أودع في فطركم ما يدلكم على باطل آبائكم، وأن الحق ما جاء به الرسل، ولكن الإعراض عن حجج الله وبياناته تجعل العبد يتصور الحق باطلاً والباطل حقًا. قال تعالى:

١٧٤ - ﴿وَكَذَلِكَ نَقُصُّ عَلَيْكَ الْآيَاتِ وَلَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾

وكما فصلنا الآيات ليتدبرها الناس ويستعملوا عقولهم، وبيَّنَّا فيها ما فعلناه بالأمم السابقة التي أشركت بالله تعالى وكذبت رسله، كذلك نقصُّ الآيات ونبينها لقومك - يا محمد - رجاء أن يرجعوا بفطرتهم وعقولهم عن شركهم، وينيبوا إلى ربهم، ويقبلوا على الإيمان والتوحيد، ويعرضوا عن باطلهم وكفرهم.

وقد يقال: إن العهد والميثاق المأخوذ على بني آدم وهم في عالم الذر، عهد قديم، لا يذكّره أحد، ولا يخطر له على بال، فكيف يحتج به؟.

وقد أجاب الله تعالى على هذه الشبهة بما في هذه الآية من أن الله تعالى أودع في فطرهم هذا التوحيد وعاهدهم عليه، فهو يجري فيهم مجرى الدم، وهو مركز في الطباع، ولكن هذه الفطرة حين تخرج للتطبيق العملي، قد تتعرض للمؤثرات الخارجية فتتحرف عن مسارها، أو تسلك طريقها المعتاد.

تَشْبِيهِ مَنْ عَرَفَ الْحَقَّ ثُمَّ عَدَلَ عَنْهُ بِالْكَلْبِ اللَّاهِثِ

١٧٥- ﴿وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِي ءَاتَيْنَاهُ ءَايَاتِنَا فَانْسَلَخَ مِنْهَا فَاتَّبَعَهُ الشَّيْطَانُ فَكَانَ مِنَ الْفَٰرِثِينَ﴾.

ثم يضرب الله ﷻ المثل لمن عُرض عليه الهدى فأبى أن يقبله وتركه، وهو مثل لكل من علم ولم يعمل بعلمه، من الأفراد والأمم والشعوب، وفي مقدمة ذلك بنو إسرائيل، حيث إن القصة الأخيرة في هذه السورة، كانت تتحدث عنهم، وهذا المثل ينطبق على كل فرد يكفر بعد إيمانه، وعلى كل أمة لا تعمل بما آتاها الله من علم، كما ينطبق بالضرورة على كل من كذب بآيات الله المنزلة على محمد ﷺ مع وضوح دلائلها، فهو كالعالم الذي حُرِم ثمرة الانتفاع بعلمه، وقد أمر النبي ﷺ أن يقرأ هذا المثل على أمته؛ ليعتبروا ويتعظوا حتى لا يكونوا كالشاة التي ينسلخ عنها جلدها.

والآية عامة في كل من أوتي علماً ولم يعمل بمقتضاه، بل كفر به ونبذه وراء ظهره.

سبب النزول:

وقد وردت روايات متعددة في أسباب نزول هذه الآية، صح منها روايتان:

إحدهما: أنها نزلت في بلعم بن باعوراء، ويقال: ابن أبر، بضم الباء.

وثانيهما: أنها نزلت في أمية بن أبي الصلت الثقفي، وهي تنطبق على أبي عامر الراهب ومن كان مثله.

١- جاء في الأثر عن عبد الله بن مسعود ؓ أن هذه الآية نزلت في بلعام بن باعوراء، فقد ذكّر علي بن أبي طلحة عن ابن عباس ؓ أن رجلاً من مدينة الجبارين يقال له:

بلعام، أو بلعم، وكان يعلم اسم الله الأعظم، فلما نزل بهم موسى ﷺ أتاه بنو عمه وقومه، وقالوا: إن موسى رجل حديد ومعه جنود كثيرة، وإنه إن يظهر علينا يهلكنا، فادع الله أن يرد عنا موسى ومن معه، قال: إني إن دعوت الله أن يرّد موسى ومن معه ذهبث دنيائي وآخرتي، فلم يزالوا به حتى دعا عليهم، فسلكه الله مما كان عليه، فذلك قوله: ﴿فَأَنْسَلَخَ مِنْهَا﴾^(١).

وقد ذكر المفسرون أن أهل هذه البلد كانوا كفارًا، وأن موسى قد غزاهم للدعوة، وأن ملكها طلب من بلعام أن يدعو على موسى فامتنع، فأراد صلبه فدعا ألا يدخل المدينة، فسأل موسى ربه أن ينزع منه اسمه الأعظم فنزعه منه^(٢).

وفي حديث حذيفة بن اليمان ؓ أن رسول الله ﷺ قال: «إن مما أتخوف عليكم رجل قرأ القرآن، حتى إذا رئيت بهجته عليه، وكان ردءًا للإسلام انسلخ منه، ونبذه وراء ظهره، وسعى على جاره بالسيف، ورماه بالشرك» قال: قلت: يا نبي الله، أيهما أولى بالشرك: المرمي أو الرامي؟ قال: «بل الرامي»^(٣).

٢- والقول الثاني أن الآية نزلت في أمية بن أبي الصلت الثقفي وكان رجلًا يطلب الحق، ولم يرق له الشرك، ولم يجد في اليهودية ولا في النصرانية طريق النجاة، ورفض

(١) يُنظَر: «زاد المسير» (٢٨٧/٣) والقرطبي و«الدر المنثور» (٦٧٣/٦) والخازن وابن كثير وغيرهم في تفسير الآية وقد صح أن نزول الآية في بلعم بن باعوراء عند الحاكم في «المستدرک» (٣٢٥/٢) وعند الطبري برقم (١٥٣٨٩) وعند النسائي في التفسير برقم (٢١٣) وعبد الرزاق في «التفسير» برقم (٢٤٣٢) وابن أبي حاتم برقم (١٣٤٣) والطبراني في «الكبير» برقم (٩٠٦٤) قال الهيثمي في «مجمع الزوائد» (٢٥/٧): رواه الطبراني ورجاله رجال الصحيح، كما صحح إسناده محقق ابن أبي حاتم (١٦١٧/٥) وقال محقق النسائي: صحيح موقوف.

(٢) يُنظَر: ابن الجوزي في «زاد المسير» (٢٨٨/٣) وتذكر التوراة في سفر العدد الإصحاح (٢٢-٢٤) أن بلعام كان من صالحى أهل مدين، وأنه لم يتغير عن صلاحه، وكان في وقت مرور موسى مع بني إسرائيل على أرض (موآب).

(٣) رواه البزار في مسنده برقم (١٧٥) وقال الهيثمي في «مجمع الزوائد» (١٨٨/١): إسناده حسن، وقال ابن كثير (٥٠٩/٢): هذا إسناده جيد، وفيه الصلت بن بهرام، من ثقات الكوفيين، ولم يُرم بشيء سوى الإرجاء، وثقه الإمام أحمد ويحيى بن معين وغيرهما.

عبادة الأصنام وحرمة الخمر، وتوحي الحنيفية دين إبراهيم، وكان يذكر في شعره الثواب والعقاب، ويذكر أخباراً من قصص التوراة، ويذكر اسم الله وأسماء الأنبياء، ولما مرض في موته قال: أنا أعلم أن الحنيفية حق ولكن الشك يداخلني في محمد.

وقال عنه النبي ﷺ: «كاد أمية بن أبي الصلت أن يسلم» وكان قد حصل له علم كثير من الشرائع السابقة، ولكنه لم ينتفع بعلمه، وكان قد خرج إلى البحرين (الإحساء) بالسعودية، وأقام هناك ثمانين سنوات، ولما رجع إلى مكة وجد النبي ﷺ قد بُعث، وكان يتمنى أن يكون رسولاً؛ لأنه كان يقرأ الكتب، فحسد النبي ﷺ وتردد في الدخول في الإسلام.

ثم خرج إلى الشام، ورجع فوصل إلى بدر بعد الموقعة بيوم أو نحوه، فقال: من قتل هؤلاء؟ ف قيل: محمد ﷺ فقال: لا حاجة لي بدين من قتل هؤلاء، فارتد ورجع، وقال: الآن حلت الخمر، وكان قد حرّمها على نفسه، ورثي من قتل من المشركين يوم بدر، وخرج إلى الطائف بلاد قومه، فمات كافراً^(١).

فمعنى ﴿ءَاتَيْنَاهُ ءَايَاتِنَا﴾ أنه ألهم كراهية الشرك، وحُبَّ إليه الحنيفية، فلما انفتح له طريق الحق وأشرق له نور الإسلام كابر وحسد محمداً ﷺ وأعرض عن الإسلام، ثم انسلك من جميع ما يُسرّ له، فارتد؛ وأحل الخمر، وصده الشيطان عن الهدى؛ فكان من الغاوين، ومات كافراً بمحمد ﷺ.

أخرج ابن أبي حاتم بسنده إلى نافع بن عاصم قال: سمعت عبد الله بن عمرو ؓ يقول في هذه الآية: ﴿وَأَتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِي ءَاتَيْنَاهُ ءَايَاتِنَا﴾ قال: هو أمية بن أبي الصلت الثقفي^(٢).

ومعنى الآية ينطبق على أبي عامر الراهب، فقد تنصّر في الجاهلية وترهب، ولبس المسوح، وزعم أنه على الحنيفية، فلما قدم النبي ﷺ المدينة دخل عليه، وقال له: ما الذي

(١) يُنظر فيما سبق «تفسير التحرير والتنوير» (١٧٤/٩) وابن عطية (٤٧٧/٢) والنسائي في «السنن الكبرى» (١١١٩٢) والطبري (٥٧٠/١٠) وابن أبي حاتم (١٦١٦/٥) وابن عساكر (٢٨٥/٩).

(٢) «تفسير ابن أبي حاتم» (١٣٤٤) و«سنن النسائي» برقم (٢١٢) و«تفسير الطبري» (٢٥٦/١٣) برقم (١٥٤٠) وما بعده و«تفسير ابن كثير» (٥٠٧/٢) ومن رواية شعبة، وهو صحيح كما قال الهيثمي في «مجمع الزوائد» (٢٥/٧) كما قوى إسناده ابن حجر في «فتح الباري» (١٥٤/٧) وقد روي بأسانيد كثيرة عند الطبري وزيد بن أسلم، وقال القرطبي: هو الأشهر.

جئت به؟ قال ﷺ: «جئت بالحنيفية دين إبراهيم»، قال: فإني عليها، فقال النبي ﷺ: «لست عليها، لقد أدخلت فيها ما ليس منها» فكفر وخرج إلى مكة يحرض المشركين على قتال النبي ﷺ إلى أن قاتل في يوم حنين، فلما انهزمت هوازن خرج إلى الشام، فمات هناك، قال سعيد بن المسيب: وفيه نزلت الآية^(١).

وهو الذي علّمه الله علم كتابه، فصار عالمًا كبيرًا وحبرًا تحريرًا، ولكنه ترك كتاب الله وراء ظهره، ونبذ مكارم الأخلاق، وخلعها كما يُخلع الثياب، فلما انسلخ منها تسلّط عليه الشيطان فأخرجه من حصنه الحصين، فصار في أسفل سافلين، بعد أن كان من الراشدين المرشدين.

والمعنى: اقصص - أيها الرسول - على أمتك خبر رجل من بني إسرائيل، أو من غيرهم أعطيناه حججنا وأدلتنا، فتعلّمها، ثم كفر بها، ونبذها وراء ظهره، فاستحوذ عليه الشيطان فجعله من الراسخين في الغواية بعد أن كان من المهتدين، فصار من الضالين الهالكين؛ بسبب مخالفته أمر ربه وطاعته الشيطان، فهو إن تحمّله على الحق والهدى لم يُحمَل عليه، وإن تركته لم يهتد لخير، كالكلب إن كان رابضًا لهث، وإن طُرد لهث. قال تعالى:

١٧٦- ﴿وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا وَلَكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الْأَرْضِ وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ إِنْ تَحَمَّلَ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَرَكَهٗ يَلْهَثْ ذَٰلِكَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَبُوا بِآيَاتِنَا فَاقْصُصِ الْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴿١٧٦﴾﴾

أي: ولو شاء الله أن يرفع قدر هذا الرجل ودرجاته إلى منازل الأبرار بما آتاه من الآيات والعلم لفعل، ولكنه لم يأخذ بأسباب ذلك، بل ركن إلى الدنيا، ومال إليها واتبع هواه، وآثر شهواته، وآثر دنياه على آخرته، وامتنع عن طاعة الله، وخالف أمره، فمثّل هذا الرجل مثّل الكلب حين يندلع لسانه من شدة العطش والحر، من التعب والإعياء، إن تطرده أو تتركه يُخرج لسانه في الحالين لاهثًا، فكذلك الذي انسلخ من آيات الله، يظل على كفره وضلاله، سواء اجتهدت في دعوته وهدايته، أو تركته وأهمّله.

قالوا: فعجل الله له العقوبة في الدنيا قبل الآخرة، وكان من عقوبته في الدنيا أن اندلع

(١) «تفسير التحرير والتنوير» (٩/ ١٧٥).

لسانه على فمه، فأصبحت هيئته كهية الكلب وهو يلهث في جميع أحواله، إذا أنت حملت عليه وطاردته يلهث، وإن تركته لم يزل يلهث.

وهكذا قال السدي وغيره: إن هذا الرجل عوقب في الدنيا بأنه يلهث كما يلهث الكلب، فشبه به صورة وهيئة^(١).

فكذلك شأن كل فرد وكل أمة تَصِلُ وتَخْرُجُ عن سبيل الله، وكذلك كل من لم يعمل بعلمه، فإن الله ﷻ يذيقه الذل والهوان في الدنيا، فضلاً عن عذابه يوم القيامة ﴿ذَلِكَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَبُوا بِآيَاتِنَا﴾ بعد أن ساقها الله إليهم، فلم ينقادوا لها بل كذبوا بها وردوها فهذا الوصف هو وصف القوم الذين كانوا ضالين قبل أن تأتيهم -يا رسولنا- بالهدى والرسالة، فاقصص لأمتك أخبار الأمم الماضية، فإن في إخبارك لهم بها أعظم معجزة، لعل قومك يتدبرون فيما جئتهم به فيؤمنوا بك، وفي ضرب الأمثال عبرة وعظة لمن تأمل فيها فإذا تدبر فيها عمل بما علم.

قال قتادة: هذا مثل ضربه الله لمن عرض عليه الهدى فلم يقبله. قال تعالى:

١٧٧ - ﴿سَاءَ مَثَلًا الْقَوْمُ الَّذِينَ كَذَبُوا بِآيَاتِنَا وَأَنْفُسُهُمْ كَانُوا يَظْلُمُونَ﴾ (١٧٧)

لقد قبح الله تعالى وذرهم وصف هؤلاء القوم الذين شُبِّهوا بالكلاب؛ لقد قبح وساء مَثَلُهُمْ فهم لا همَّ لهم سوى تحصيل الأكل والشهوة، وكذا أمثالهم ممن كذب بحجج الله وأدلته المرئية والمقروءة فجحدها، وأقبل على هواه، ولم يعمل بمقتضاها، وبسبب هذا كانوا ظالمين لأنفسهم ضالين عن طريق الحق، راسخين في الغواية؛ لأنهم كذبوا بآيات الله وأدلته، وعملوا بأنواع المعاصي فمن خرج عن حيز العلم، واتبع هواه، فهو شبيه بالكلب، وبئس المثل مثله، وهذا المثل قد يراد به شخص معين كما سبق بيانه في أسباب النزول، ويقاس عليه من كان مثله إلى يوم القيامة، وقد يراد به اسم جنس شامل لكل من آتاه الله آياته فانسلك منها.

ولذا: صح عن رسول الله ﷺ من حديث ابن عباس ؓ أنه قال: «ليس لنا مثلُ السُّوءِ،

(١) «تفسير ابن عطية» (٤٧٨/٢) وابن كثير (٥٠٩/٢).

العائد في هبته كالكلب يعود في قيئه»^(١).

وفي الآية بيان أن من لم يعمل بعلمه يردّه الله إلى أسفل سافلين، ويسلط عليه الشيطان فيكون سبباً لخدلانه والعياذ بالله.

وَقَوْعُ الْهُدَى وَالضَّلَالِ مِنَ النَّاسِ، وَفَقَ عِلْمُ اللَّهِ الْأَزَلِّيِّ

١٧٨ - ﴿مَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدَىٰ ۖ وَمَنْ يُضِلِّ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾

ومن يوفقه الله تعالى للإيمان والطاعة فهو الموفق، ومن يخذله الله بالحرمان من الهداية -وفق توجّهه وانحراف فطرته- فهو الخاسر الهالك، فالهداية والإضلال من الله وحده، وهو المنفرد بالهداية والإضلال، فمن يهده الله يوفقه للخيرات ويعصمه من المكروهات، لأنه أهل للهداية قد أثرها واختارها طريقاً له، ومن أثر طريق الضلال فقد خسر نفسه وأهله وماله، وهو الخسران الحقيقي، وهذه جملة من الأحاديث في معنى الآية:

١- في حديث ابن مسعود رضي الله عنه: «إن الحمد لله، نحمده ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له»^(٣).

٢- وفي حديث جابر رضي الله عنه قال: كان رسول الله ﷺ يقول في خطبته: يحمد الله ويشني عليه بما هو أهله ثم يقول: «من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، أصدق الحديث كتاب الله، وأحسن الهدي هدي محمد، وشر الأمور محدثاتها، وكل محدثة بدعة، وكل بدعة ضلالة، وكل ضلالة في النار» ثم يقول: «بعثت أنا والساعة كهاتين»^(٤).

(١) من حديث ابن عباس في «صحيح البخاري» برقم (٢٥٨٩، ٢٦٢٢، ٦٩٧٥) و«صحيح مسلم» برقم (١٦٢٢).

(٢) اتفق القراء على إثبات ياء (المهتدي) وصلاً ووقفاً؛ لثبوتها في رسم المصحف.

(٣) مطلع خطبة الحاجة، «المسند» (٣٩٢/١) برقم (٤١١٥) حديث صحيح، وفيه انقطاع بين ابن مسعود (أبي عبيدة) وأبيه، حيث لم يسمع منه ولكن أبا الأحوص تابعه، وبقية رجاله ثقات رجال الشيخين، وأخرجه أبو يعلى (٥٢٣٣) وعبد الرزاق (١٠٤٤٩)، وأبو داود (٦٥٩/١) برقم (١٠٩٧) والنسائي (١٠٤١٣) وابن ماجه (٦١٠/١) برقم (١٨٩٢) و«صحيح سنن ابن ماجه» (١٥٣٥) وقد صححها الألباني في رسالة خاصة، من طريق أبي الأحوص (عوف بن مالك) وأخرجه البيهقي في «الدلائل» (٥٢٥/١٢) عن عبد الرحمن بن عوف.

(٤) مسلم (٨٦٧) والنسائي (١٥٧٧) وابن ماجه (٤٥) بنحوه بنحوه والبيهقي في «الأسماء والصفات» (١٣٧) وهو في صحيح سنن النسائي (٤٨٧) وهذا لفظه وفي صحيح ابن ماجه (٤٥) دون (وكل ضلالة في النار) ولا في صحيح مسلم.

٣- وفي صحيح مسلم عن عائشة رضي الله عنها قالت: دُعِيَ رسول الله ﷺ إلى جنازة صبي من الأنصار، فقلت: يا رسول الله، طوبى لهذا، عصفور من عصافير الجنة، لم يعمل السوء ولم يدركه، فقال: «أو غير ذلك يا عائشة؟ إن الله خلق للجنة أهلاً، خلقهم لها وهم في أصلاب آبائهم، وخلق للنار أهلاً، خلقهم لها وهم في أصلاب آبائهم»^(١).

٤- وفي حديث عبد الله بن عمرو رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إن الله ﻻ يخلق خلقه في ظلمة، فألقى عليهم من نوره، فمن أصابه من ذلك النور اهتدى، ومن أخطأه ضل، فلذلك أقول: جف القلم على علم الله عز وجل»^(٢).

﴿مَنْ يَهْدِ اللَّهُ﴾ أي: مَنْ يُقَدِّرُ الله اهتداه ﴿فَهُوَ الْمُهْتَدَى وَمَنْ يُضِلَّ﴾ ممن حُرِّموا التوفيق بعد أن جاءتهم أدلة الهدى ﴿فَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾ لقد خسروا أنفسهم بخفة موازينهم؛ فألقوا بها في نار جهنم، أما المهتدون فقد ربحت تجارتهم وثقلت موازينهم، ففازوا بالنعيم المقيم.

لَمَّاذَا كَانَ الْكَافِرُ أَضَلَّ مِنَ الْحَيَوَانِ؟

١٧٩- ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ الْإِنسِ وَلَهُمْ قُلُوبٌ لَا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَمْ أَعِنُ لَا يَصِيرُونَ بِهَا وَلَهُمْ ءِذَانٌ لَا يَسْمَعُونَ بِهَا أُولَئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولَئِكَ هُمُ الْفَافِلُونَ﴾^(١٧٩)

ثم أخبر الله - سبحانه - أنه خلق لسكنى جهنم والاحتراق بها، كثيراً من خلقه الغاوين الضالين المتبعين للشيطان والهوى من أهل الكفر والشرك ونفاق العقيدة، وذلك أن الله ﻻ قبل أن يخلق الخلق عِلْمَ عِلْمًا أَرْلِيًّا أَنْ (زيدًا) من الناس عندما يكون عبداً مكلفاً، سيعمل بعمل أهل النار، فهو إذن بمقتضى علم الله تعالى عبد ضالٌّ، وسيكون من أهل النار، فأراد الله له ذلك وقَدَّرَه عليه، وكتبه في اللوح المحفوظ.

(١) «صحيح مسلم» برقم (٢٦٦٢).

(٢) «صحيح سنن الترمذي» برقم (٢١٣٠) وفي السنن (٢٦٤٢) و«المسند» (١٧٦/٢) برقم (٦٦٤٤) من حديث طويل بإسناد صحيح ورجال ثقات (محققة) وابن حبان برقم (٦١٦٩) و«المستدرک» (٣٠/١) والطيالسي (٢٤٠٥) والبيهقي في «الأسماء والصفات» (٢٢٩) وله طرق متعددة، وقد أخرجه ابن أبي عاصم في السنة (٢٤٤) والبخاري (٢١٤٥).

وَعَلِمَ الله - سبحانه - أن هذا الإنسان عندما يكون عبدًا مكلفًا، له عقل وإدراك، سيعمل بعمل أهل الجنة، فأراد له ذلك وكتبه أيضًا.

وإرادة الله تعالى لا تُجبر أحدًا على الهدى أو الضلال، وهناك فرق كبير بين الأمر والإرادة، وبين الضلال والإضلال فالله - سبحانه - لا يُضل أحدًا من أهل الهدى، ولا يزيغ قلب أحد مستقيم، إنما الذي يضل، هو الفاسق، كما قال تعالى: ﴿وَمَا يُضِلُّ بِهِ إِلَّا الْفَاسِقِينَ﴾ [البقرة: ٢٦] وهو الكافر، وهو الظالم؛ لأنه هو الذي اختار الضلال والكفر لنفسه، ولكن الله - سبحانه - نسب هذا الضلال إلى نفسه؛ لأنه - جلّ شأنه - علم ذلك قبل أن يخلق العبد، وكتبته الملائكة في الصحف وأم الكتاب، وَعَلِمَ الله تعالى لا يتخلف.

فالله - سبحانه - لا يضل إلا من اختار طريق الضلال بنفسه، ولا يهدي إلا من اختار طريق الهداية لنفسه، فسلك كل منهما الطريق الذي أراده، وفي هذا يقول سبحانه: ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا﴾ أي خلقنا وأنشأنا وأنشرنا في الكون ﴿لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ﴾ صارت البهائم أحسن حالًا منهم، أي: خلقنا للنار من يستحق عذاب النار، ومن يستحق أن يكون حطبًا لها؛ لأنهم اختاروا أن يعملوا بعمل أهل النار، ولما عَلِمَ الله منهم ذلك، كشف علمه للملائكة، فسجلت ذلك ودونته في اللوح المحفوظ، وَعَلِمَ الله لا يتخلف؛ فهم الذين حقت عليهم كلمة ربك الأزلية بالشقاوة.

ولو لم يكن الأمر كذلك لما كان هناك تكليف للعباد، ولما كان هناك داع للجنة والنار، وللحساب والجزاء، ولو لم يكلفنا الله - سبحانه - بالعبادات والحلال والحرام، لكننا كالبهائم أو الملائكة، صنف آخر غير الإنسان الذي خلقه الله، له عقل وشهوة وإرادة وإدراك، وأرسل له الرسل، وأنزل عليه الكتب، وأمره بالخير ونهاه عن الشر، وأعد له الجنة والنار.

ولكن أهل النار عطلوا أجهزة الاستقبال فيهم؛ فلم تنتفع بشيء من الخير والهدى، وعطلوا عقولهم وأفئدتهم وسمعهم وأبصارهم، فلم ينتفعوا بما جاءت به الرسل من الحق والهدى، فضلوا وأضلوا ﴿لَهُمْ قُلُوبٌ لَا يَفْقَهُونَ بِهَا﴾ أي: لا يصل إليها فقه ولا علم ولا دعوة، والقلوب التي لا تعقل، هي التي لا ترجو ثوابًا، ولا تخاف عقابًا.

والأعين التي لا تبصر، هي التي لا ترى بعين البصر أدلة الله الكونية، ولا ترى بعين

البصيرة آيات الله المقروءة والمكتوبة ﴿فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ﴾ [الحج: ٤٦]، فهم لا يتتبعون بما ترى، بل فقدوا منفعتها وفائدتها.

أما الأذن فهي لا تسمع آيات القرآن؛ لتتفكر وتتدبر فيها وتهتدي بهداها، فهم لا يسمعون سماعاً يصل معناه إلى قلوبهم ﴿وَلَوْ عَلِمَ اللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَأَسْمَعَهُمْ﴾ [الأنفال: ٢٣] وهم لذلك كالبهائم التي لا تفقه ما يقال لها، ولا تفهم ما تبصره، ولا تعقل الخير والشر ولا تميز بينهما، بل هم أضل وأساء حالاً من البهائم؛ لأنها تبصر منافعها ومضارها وتتبع راعيها، وهم بخلاف ذلك هم الغافلون عن الإيمان بالله وطاعته، ولأن الأنعام ليست مزودة إلا بالاستعداد الفطري، وضلالها لا يبلغ بها الوقوع في مهوى الشقاء.

أما الإنسان فهو مزود إلى جانب الفطرة بالقلب الواعي، والعقل المدرك، والعين المبصرة، والقدرة على اتباع الهدى أو الضلال، ولذلك كان أضل من الحيوان إذا كفر بالله تعالى.

وهذه الآية كقوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا لَهُمْ سَمْعًا وَأَبْصَرًا وَأَفْئِدَةً فَمَا أَغْنَى عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَلَا أَبْصَرُهُمْ وَلَا أَفْئِدَتُهُمْ مِنْ شَيْءٍ إِذْ كَانُوا يَجْحَدُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾ [الأحقاف: ٢٦].

وقد بين تعالى أن الكافرين لا يتتبعون بشيء من الجوارح التي خلقها الله لهم، وأنكر عليهم ذلك فقال تعالى في وصفهم: ﴿وَمَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا كَمَثَلِ الَّذِي يَتَّقُ بِمَا لَا يَسْمَعُ إِلَّا دُعَاءً وَنِدَاءً صُمُّ بُكْمٌ عُمْى فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾ (٧١) [البقرة].

وشأن المنافق شأن الكافر في عدم الانتفاع بأجهزة الاستقبال فيه، وعدم توظيفها فيما خلقت من أجله إنهم ﴿صُمُّ بُكْمٌ عُمْى فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ﴾ (٧٢) [البقرة].

لقد عطّلوا هذه الجوارح عن تحصيل المنافع ودفع المضار، ولم يستعملوها فيما خلقت له، وهؤلاء الذين أخبر الله عنهم أنهم وقود جهنم هم المطبوع على قلوبهم ممن استحبوا العمى على الهدى، كما قال تعالى: ﴿وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَى عَلَى الْهُدَى﴾ [فصلت: ١٧] لقد اختاروا طريق الضلال بعدما عرفوا طريق الحق.

وهؤلاء الكفار هم الذين قالوا للنبي ﷺ على سبيل التهكم: ﴿وَقَالُوا قُلُوبُنَا فِي أَكِنَّةٍ مِمَّا نَدْعُونَ إِلَيْهِ فِيْءِ أَذَانِنَا وَقُرْ وَمِنْ بَيْنِنَا وَبَيْنَكَ حِجَابٌ﴾ [فصلت: ٥]

فدلائل الحق قائمة في نفوسهم، ولكنهم ينصرفون عنها بدواعي الشهوة والغضب وغلبة الهوى والشيطان، مما أضعف عزمهم على مقاومة الشهوات.

واستوى في ذلك الجن والإنس معاً، وكانوا ممن قال الله فيهم: ﴿خَتَمَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَعَلَى سَمْعِهِمْ وَعَلَى أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَةٌ﴾ [البقرة: ٧].

وقد ختم الله الآية بقوله ﴿أُولَئِكَ كَالْأَنْعَامِ﴾ أي التي فقدت العقول، وهؤلاء قد عطلوا عقولهم فأثروا الدنيا على الدين ﴿بَلْ هُمْ أَضَلُّ﴾ من البهائم، لأنها مستعملة فيما خلقت له، والإنسان الكافر لم يستعمل نفسه في العبادة التي خلق من أجلها، والبهائم تدرك مضرتها من منفعتها، والكافر يضر نفسه بعبادته غير الله تعالى، فلذا كانوا أسوأ حالاً منهم، لأنهم غفلوا عن طاعة الله ورسوله، وقد خلق الله الأفئدة والأسماع والأبصار لتكون عوناً للعبد على عبادة الله عز وجل، فإذا لم يستعملوها في ذلك كانوا أهلاً لجحيم والعياذ بالله.

١- عن عبد الله بن عمرو ؓ أن رسول الله ﷺ قال: «إن الله قدّر مقادير الخلائق، قبل أن يخلق السموات والأرض بخمسين ألف سنة، وكان عرشه على الماء»^(١).

٢- وفي حديث عائشة السابق ؓ عن رسول الله ﷺ: «إن الله خلق الجنة، وخلق لها أهلاً، وهم في أصلاب آبائهم، وخلق النار، وخلق لها أهلاً، وهم في أصلاب آبائهم»^(٢).

٣- وفي حديث ابن مسعود ؓ عن رسول الله ﷺ: «ثم يبعث الله الملك، فيؤمر بأربع كلمات: بكتب رزقه، وأجله، وعمله، وشقي، أو سعيد»^(٣).

التَّوَسَّلْ بِأَسْمَاءِ اللَّهِ الْحُسْنَى

١٨٠ - ﴿وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ فَادْعُوهُ بِهَا وَذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ^(٤) فِي أَسْمَائِهِ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾

(١) «صحيح مسلم» (٢٠٤٤/٤) برقم (٢٦٥٣).

(٢) «صحيح مسلم» (٢٠٥٠/٤) برقم (٢٦٦٢).

(٣) البخاري (٤٤٠/١٣) برقم (٣٢٠٨، ٣٣٣٢، ٧٤٥٤) ومسلم (٢٠٣٦/٤) برقم (٢٦٤٣).

(٤) قرأ حمزة بفتح الياء والحاء من (يلحدون) مضارع (لحد) الثلاثي، وقرأ الباقون بضم الياء وكسر الحاء مضارع (ألحد) الرباعي، وهما بمعنى الميل.

تهجد النبي ﷺ ذات ليلة بمكة، فجعل يقول في سجوده: «يا رحمن، يا رحيم»، فقال المشركون: كان محمد يدعو إلهاً واحداً، فهو الآن يدعو إلهين اثنين: الله، والرحمن، ما نعرف إلا رحمن اليمامة، يعنون: مسيلمة^(١).

وقال رجل في صلاته: يا الله، يا رحمن، فقال أبو جهل: يزعمون أنهم يعبدون رباً واحداً، فما بال هذا يدعو اثنين؟ فأنزل الله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ فَادْعُوهُ بِهَا﴾^(٢).

ومقولة المشركين بالأمس يقولها النصارى، مشركوا اليوم، يقولون: إنكم تُثَلَّثون، فتدعون في البسملة ثلاثة آلهة: الله، الرحمن، الرحيم، على حدّ جهلهم في ﴿يَسْمِ اللَّهَ الْكَافِرُ الرَّحْمَنَ الرَّحِيمَ﴾^(٣) يقولون: وأنتم توحيدون، وتقولون: إله واحد، فهي مقولة قديمة قالها المشركون، ويقولها مشركو اليوم أيضاً.

دعاء العبادة ودعاء المسألة:

والله ﷻ يقول: ﴿قُلْ ادْعُوا اللَّهَ أَوْ ادْعُوا الرَّحْمَنَ أَيًّا مَا تَدْعُوا فَلَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ﴾ [الإسراء: ١١٠] ادعوه دعاء العبادة: بأن تعبد الله تعالى بمقتضى هذه الأسماء، فتتوب إليه لأنه تواب، وتذكره لأنه سميع، وتستغفره لأنه غفار، وهكذا.

وتدعوه دعاء المسألة، فتقدم بين يدي الدعاء شيئاً من أسمائه، كأن تقول: يا غفور اغفر لي، يا رحيم ارحمني، يا رزاق ارزقني، يا تواب تب عليّ وهكذا.

والعبد يبدأ دعاءه بحمد الله تعالى وتمجيده وتعظيمه، ويختتم دعاءه بشكره وحمده والثناء عليه، ويصلي ويسلم على نبيه أولاً وآخرًا.

١- الاسم والصفة: ومن هذه الأسماء ما هو علمٌ على الذات العليا باعتبار دلالتها، مثل: الله، الرحمن، الرحيم.

٢- ومنها ما هو صفة من صفات الله تعالى، باعتبار معانيها، مثل: الخالق، الرازق، العزيز، الحكيم، الغفور.

(١) أخرجه ابن جرير الطبري (١٨٢/١٥) عن مكحول، وهو مرسل.

(٢) «تفسير القرطبي» (٣٢٥/٧) وابن عطية (٥٨١/٢) وغيرهما.

٣- ومنها ما لا يطلق إلا على الله تعالى، مثل: الحي، الغني.

٤- ومنها ما لا يحسن الاتصاف به إلا في جنب الله تعالى مثل: المتكبر، الجبار.

قال الشيخ ابن سعدي في تفسير الآية:

وضابطه: أنه كل اسم دال على صفة كمال عظيمة، وبذلك كانت حسنى.

فإنها لو دلت على غير صفة، وكانت علماً محضاً، لم تكن حسنى، ولو دلت على صفة، ليست صفة كمال، بل كانت صفة نقص، أو صفة منقسمة بين المدح والقدح، لم تكن حسنى.

فكل اسم من أسمائه تعالى دال على الصفة التي اشتق منها مستغرق لجميع معناها.

وذلك نحو (العليم) الدال على أن له سبحانه علماً مُحيطاً عاماً لجميع الأشياء، لا يخرج عنه مثقال ذرة في السموات ولا في الأرض.

و (الرحيم) يدل على أن له رحمة عظيمة واسعة لكل شيء.

و(القدير) يدل على أن له قدرة عامة لا يعجزها شيء، ومن تمام كونها حسنى أنه لا يُدعى إلا بها، انتهى بتصرف.

ليس لأسماء الله عد ولا حصر:

ولما كانت أسماء الله تعالى لا تدخل تحت عد ولا حصر، ولم يرد نص صحيح يحصر عددها، لذلك فقد اجتهد السلف والخلف في استنباطها من الكتاب والسنة حتى يظفروا بما وعد الله به مِنْ أَنَّ مَنْ أَحْصَاهَا دخل الجنة.

والمراد بالإحصاء في الحديث: إحصاء عددها وألفاظها وفهم معانيها ومدلولاتها، ودعاء الله تعالى وسؤاله بها، والتوسل بها إلى الله عز وجل.

وفي الحديث عن عائشة رضي الله عنها في صحيح مسلم (٤٨٦) «لا أحصى ثناء عليك أنت كما أثنيت على نفسك».

والعلم بأسماء الله تعالى وصفاته، هو أشرف العلوم وأفضلها، لأنه يتعلق بأشرف معلوم هو الله تعالى، فهو أصل العلوم وأصل الإيمان.

وفي القرآن الكريم من أسماء الله تعالى وصفاته وأفعاله ما لا تكاد تخلو منه آية.

قال ابن تيمية: والقرآن فيه من ذُكر أسماء الله وصفاته وأفعاله؛ أكثر مما فيه من ذكر الأكل والشرب والنكاح في الجنة، والآيات المتضمنة لذكر أسماء الله وصفاته أعظم قدرًا من آيات المعاد.

وقال ابن القيم: إحصاء الأسماء الحسنى والعلم بها؛ أصل للعلم بكل معلوم، فإن المعلومات إما أن تكون خلقًا لله تعالى، أو أمرًا له، فهي إما عِلْم بما كَوَّنه الله تعالى، أو علم بما شرعه، ومصدر الخلق والأمر عن أسمائه الحسنى.

أسماء الله تعالى من قبيل المحكم:

وأسماء الله تعالى كلها من قبيل المحكم، وليست من المتشابه، لأن معانيها معروفة في لغة العرب وليست مجهولة، وإنما المجهول هو الكُنْه والكيفية فقط.

أسماء وأعلام وصفات:

وأسماء الله تعالى دالة على صفاته ومشتقة منها، فهي أسماء وأعلام باعتبار دلالتها على ذات الله تعالى، وهي صفات باعتبار معانيها، وبذلك كانت حسنى، أي بالغة في الحسن غايته، لأنها متضمنة لصفات كاملة لا نقص فيها بوجه من الوجوه، لا احتمالًا ولا تقديرًا، فالنقص مستحيل على الله تعالى ﴿وَلِلَّهِ الْمَثَلُ الْأَعْلَىٰ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [النحل: ٦٠].

الصفات أوسع من الأسماء:

وباب الصفات أوسع من باب الأسماء، لأن الوصف يتضمن ثلاثة أمور هي:

١- ثبوت ذلك الاسم لله تعالى.

٢- وهذا الاسم يتضمن ثبوت الصفة التي تضمنها لله عز وجل.

٣- ويتضمن ثبوت حكمها ومقتضاها.

فالسَّمِيع -مثلاً- يتضمن إثبات اسم السميع لله تعالى، ويثبت صفة السمع له سبحانه، ويثبت حكم ذلك، ومقتضاه من أن الله تعالى يسمع السر والنجوى.

وهكذا (الحي) يثبت هذا الاسم لله تعالى، ويثبت صفة الحياة له سبحانه. الخ.

وأفعال الله تعالى وأقواله لا نهاية لها، ومن ذلك أننا نصفه بالمجيء والنزول والاستواء والإتيان والأخذ والبطش، ولا نسميه بها.

أنواع الصفات:

١- ومن الصفات ما هو قائم بذات الله تعالى وملازم له لا ينفك عنه، ولا يتعلق بالمشيئة والإرادة والوجه واليدين والسمع والبصر والحياة والقدرة.

٢- ومنها صفات الأفعال التي تتعلق بمشيئة الله تعالى وإرادته، كالاستواء والمجيء والنزول لفعل القضاء.

٣- ومن الصفات ما لا يطلق إلا على الله تعالى، ومن ذلك: الرحمن، الخالق، الرزاق، الباري.

٤- ومنها ما يطلق على الخلق بصيغة التنكير كالرحيم والكريم والحكيم.

٥- ومن الصفات ما هو ثبوتي كالعلم والحياة والقدرة.

٦- ومنها ما هو سلبي نفاها الله تعالى عن نفسه، فثبت لله ما أثبتته لنفسه، ونفي عنه ما نفاه عن نفسه، وثبت له الضد، كما في قوله تعالى ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى الْحَيِّ الَّذِي لَا يَمُوتُ﴾ [الفرقان: ٥٨] فنفي الموت عنه سبحانه يتضمن كمال حياته.

كما أن نفي الظلم عن الله تعالى يتضمن كمال عدله، ونفي العجز عنه يتضمن كمال قدرته وعلمه.

وبذلك خُتِمت الآية بقوله تعالى ﴿وَمَا كَانُ اللَّهُ لِيُعْجِزَهُ مِنْ شَيْءٍ فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ إِنَّهُ كَانَ عَلِيمًا قَدِيرًا﴾ [فاطر: ٤٤]

فصفات السلب المحض لا تدخل في أوصافه تعالى إلا إذا كانت متضمنة للثبوت، كصفة (السلام) المتضمنة لبراءته تعالى من كل نقص.

وهكذا نؤمن بأسماء الله تعالى وصفاته الواردة إلينا عن طريق السماع فثبتها ونُقربها ونصدّقها دون تشبيه ولا تعطيل ولا تأويل.

صحة الحديث بدون عدّ الأسماء:

وجاء في الحديث عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «إن لله تعالى تسعة وتسعين اسماً من أحصاها دخل الجنة، وهو وترٌ يحب الوتر»^(١).

زاد الترمذي بعد قوله: «يحب الوتر، هو الله الذي لا إله إلا هو الرحمن الرحيم، الملك، القدوس، السلام، المؤمن، المهيمن، العزيز، الجبار، المتكبر، الخالق، البارئ، المصور، الغفار، القهار، الوهاب، الرزاق، الفتاح، العليم، القابض، الباسط، الخافض، الرافع، المعز، المذل، السميع، البصير، الحكيم، العدل، اللطيف، الخبير، الحليم، العظيم، الغفور، الشكور، العلي، الكبير، الحفيظ، المقيت، الحسيب، الجليل، الكريم، الرقيب، المجيب، الواسع، الحكيم، الودود، المجيد، الباعث، الشهيد، الحق، الوكيل، القوي، المتين، الولي، الحميد، المحصي، المبدئ، المعيد، المحيي، المميت، الحي، القيوم، الواجد، الماجد، الواحد، الأحد، الفرد، الصمد، القادر، المقتدر، المقدم، المؤخر، الأول، الآخر، الظاهر، الباطن، الوالي، المتعال، البر، التواب، المنتقم، العفو، الرؤوف، مالك الملك، ذو الجلال والإكرام، المقسط، الجامع، الغني، المغني، المانع، الضار، النافع، النور، الهادي، البديع، الباقي، الوارث، الرشيد، الصبور. فمن أحصى عددها وحفظها، وآمن بها وعظمها، ودعا الله بها، واعتبر بمعانيها دخل الجنة»^(٢).

-
- (١) البخاري (٢١٤/١١) برقم (٢٧٣٦، ٦٤١٠) و(٧٣٩٢) ومسلم (٢٠٦٢/٤) برقم (٢٦٧٧) و«المسند» (٧٥٠٢، ١٠٦٨٦) حديث صحيح ورجال ثقات، ومحمد بن إسحاق قد توبع والترمذي (٣٥٠٦) والنسائي في «السنن الكبرى» (٧٦٥٩) وابن حبان (٨٠٧) وابن ماجه (٣٨٦٠) والطبراني في «الأوسط» (٩٨١، ٤٩٠٠).
- (٢) «سنن الترمذي» (٥٣٠/٥) برقم (٣٥٠٧) وقال: هذا حديث غريب، والبيهقي في الأسماء ص ١٥، وابن حبان (٨٠٨) والطبراني في الدعاء (١١١) و«سنن ابن ماجه» برقم (٣٨٦١) قال البوصيري في «زوائد ابن ماجه»: طريق الترمذي أصح شيء في هذا الباب، وفي إسناده طريق ابن ماجه ضعف؛ لضعف عبد الملك بن محمد الصنعاني، وصححه الحاكم ووافقه الذهبي (١٦/١) قال الألباني: ضعيف بسرد الأسماء كما في «ضعيف سنن الترمذي» (٦٩٦) وقال في ضعيف ابن ماجه (٨٤٢): صحيح دون عدّ الأسماء، وفي المشكاة أيضاً (٢٢٨٨) التحقيق الثاني.

وهذه الزيادة المذكورة في هذا الأثر مدرجة من بعض الرواة ولا يصح رفعها للنبي ﷺ قال ابن تيمية: وقد اتفق أهل المعرفة بالحديث على أن هاتين الروایتين - أي رواية الترمذي والبيهقي^(١) - ليستا من كلام النبي ﷺ، وإنما كل منهما من كلام بعض السلف، فالوليد ذكرها عن بعض شيوخه الشاميين، كما في مجموع الفتاوى (٨/٩٦ و ٢٢/٤٨٢)

وكل ما وصف الله تعالى بها نفسه في كتابه، ووصفه بها رسوله ﷺ - أسماء توقيفية، لا يجوز العدول عنها إلى غيرها، فلا يقال: يا كامل، أو يا عالم... إلخ؛ لعدم ورود ذلك.

ومن يدعو بأسماء الله الحسنى عليه أن يستحضر عظمة الله تعالى في قلبه، وأن يُخلص له النية في الدعاء، ويراعي حسن الأدب فيه.

وقد وصف الله تعالى أسمائه بالحسنى في أربع آيات من القرآن الكريم:

١- قوله تعالى ﴿وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ فَادْعُوهُ بِهَا﴾ وهي الآية التي معنا من سورة الأعراف ١٨٠.

٢- وقوله سبحانه ﴿قُلْ ادْعُوا اللَّهَ أَوْ ادْعُوا الرَّحْمَنَ أَيًّا مَا تَدْعُوا فَلَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ﴾ [الإسراء: ١١٠]

٣- وقوله جل شأنه ﴿اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ﴾ [طه: ٨]

٤- وقوله عز وجل ﴿هُوَ اللَّهُ الْخَلِيقُ الْبَارِئُ الْمُصَوِّرُ لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ﴾ [الحشر: ٢٤]

والحسنى تأنيث الأحسن، كالكبرى والصغرى تأنيث الأكبر والأصغر.

وأسماء الله تعالى لا تنحصر في هذه التسعة والتسعين، وإنما هناك أسماء أخرى في كتاب الله تعالى، مثل: ﴿وَاللَّهُ خَيْرُ الْمُنْكَرِينَ﴾ [الأنفال: ٣٠] وفي سنة رسول الله ﷺ مثل دعاء النبي ﷺ: «يا حنان، يا منان» وهناك أسماء في علم الله تعالى لا نعلمها.

وجاء في الأثر: «ما أصاب أحدا قط هم ولا حزن، فقال: اللهم إني عبدك وابن عبدك وابن أمتك، ناصيتي بيدك، ماضٍ في حكمك، عدلٌ في قضاؤك، أسألك بكل اسم هو لك، سميت به نفسك، أو علمته أحداً من خلقك، أو أنزلته في كتابك، أو استأثرت به

(١) قلت: وأخرجه أيضاً: ابن حبان، وابن ماجه، والطبراني، والحاكم، كما سبق في تخريجه.

في علم الغيب عندك، أن تجعل القرآن ربيع قلبي، ونور صدري، وجلاء حزني، وذهاب همي، إلا أذهب الله همه وحزنه، وأبدله مكانه فرجا»^(١).

وهذا الأثر مع ما فيه من مقال، نص صريح في عدم حصر أسماء الله الحسنى، وكلها تدل على كمال الله تعالى وعظمته.

الإلحاد في أسماء الله: وكل اسم من أسماء الله تعالى حسن، وليس فيها حسن وأحسن، فاطلبوا بأسمائه ما تريدون، ولا تغيروها، ولا تُسمُّوا بها من لا يستحقها ولا تتغنَّوا بها، ولا تشخروا منها، ولا تهزؤوا بها، ولا تلحنوا فيها، ولا تُسمُّوا بها أصنامًا ولا شيئًا غير لائق بالذات العلية، ولا تكتبوها على شيء يُمتن؛ ذلكم قول الله تعالى: ﴿وَذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِهِ﴾، فإن لهم عقوبة وعذابًا على إلحادهم في أسمائه.

والإلحاد: هو الميل والانحراف والتغيير، والتأويل، أو التعطيل، أو التشبيه، والإلحاد في أسماء الله تعالى أيضًا: هو الزيادة، أو النقصان، أو التحريف.

ومن ذلك ما كان يفعله المشركون؛ من العدول بها إلى تسمية الأوثان والآلهة الباطلة حيث يصوغون من اسم الجلالة (الله) اسم اللات، ومن (العزى): العزى، ومن (المنان) مناة.

وهكذا فألفاظ: اللات، والعزى، ومناة، مأخوذة من أسماء صحيحة لله ﷻ، غيرها المشركون، وحرّفوها وبدّلوها، ومن يفعل شيئًا من ذلك، فسوف يجزى بعمله السيئ في الدنيا والآخرة لقاء ما عمل، وفي هذا وعيد بعذاب الله تعالى.

ومن الإلحاد في أسماء الله وصفاته ما يصفه به اليهود من قولهم: (إن الله فقير) وقولهم: (يد الله مغلولة) وزعمهم أن الله تعالى استراح من الخلق يوم السبت.

ومن الإلحاد: تعطيل الأسماء وجحد حقائقها، والقول بأنها مجرد أعلام لا تتضمن صفات ولا معاني، وهو قول الجهمية.

(١) من حديث عبد الله بن مسعود في «المسند» (٣٩٢/١) برقم (٣٧١٢) بإسناد ضعيف لجهالة أبي سلمة الجهني، وهو غير أبي موسى الجهني (محققه) وهو في صحيح ابن حبان برقم (٢٣٧٢) «موارد»، وابن أبي شيبه (٢٥٣/١٠) وأبي يعلى (٥٢٩٧) والبزار (٣١٢٢) زوائد والطبراني في الكبير (١٠٣٥٢) وفي الدعاء (١٠٣٥) والحاكم (٥٠٩/١).

ومن الإلحاد: تشبيه صفات الله تعالى بصفات المخلوقين، ونحو ذلك .

أسماء الله توقيفية:

ولا يجوز أن يشتق له تعالى أسماء من الأفعال التي وردت مقيدة في الكتاب والسنة، كما قيد سبحانه الانتقام بقوله ﴿إِنَّا مِنَ الْمُجْرِمِينَ مُنْقِمُونَ﴾ [السجدة] فلا يقال: المنتقم، ولا من ضلال الفاسقين في قوله ﴿وَمَا يُضِلُّ بِهِ إِلَّا الْفَاسِقِينَ﴾ [البقرة] فلا يقال: المضل، فهذه أفعال مخصوصة ومقيدة، لا يجوز اشتقاق الأسماء منها على وجه الإطلاق .

فأسماء الله تعالى غيبية توقيفية يجب الوقوف فيها على ما جاء في الكتاب والسنة، وليس فيها قياس ولا اجتهداد، فلا يقاس على (الغني) السخي، ولا على (القوي) الجلد، ولا على (القادر) المطيق، وهكذا .

مِنْ أَوْصَافِ أُمَّةٍ مُحَمَّدٍ ﷺ أَنَّهُمْ يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ

١٨١ - ﴿وَمَنْ﴾ ^(١) خَلَقْنَا أُمَّةً يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ ﴿١٨١﴾

قال قتادة: بلغنا أن رسول الله ﷺ كان حين يقرأ هذه الآية، ويقول: «هذه لكم» أي: هذا الوصف لأمة محمد ﷺ «وقد أعطي القوم» يعني: بني إسرائيل «مثلها». ﴿وَمِنْ قَوْمٍ مُّوسَىٰ أُمَّةٌ﴾ ^(٢) .

والمعنى: ومن جملة الذين خلقهم الله تعالى جماعة فاضلة كاملة في نفسها، مكملة لغيرها، تقوم بالحق قولاً وعملاً، وتدعو إليه وتهتدي به، وتقضي به بين الناس، وهم أئمة الهدى، يعلمون الحق ويعملون به، ويعلمونه لغيرهم، ويدعون إليه وإلى العمل به، وهم المنعم عليهم بالإيمان والعمل الصالح، والتواصي بالحق والتواصي بالصبر، وهم الطائفة المنصورة الظاهرة على الحق الذين لا يضرهم من خذلهم، ولا من خالفهم إلى يوم القيامة، وهذه الأمة القائمة، هم أهل الجنة الموصوفون بالاعتدال والتوسط .

فالمراد بالأمة في الآية: أمة محمد ﷺ كما في الحديث عن ثوبان ؓ أن رسول الله

(١) قرأ أبو جعفر بإخفاء النون عند الخاء من (وممن خلقنا)، والباقون بإظهارها .

(٢) الطبري (١٣/٢٨٦) وهو مرسل .

ﷺ قال: «لا تزال طائفة من أمتي ظاهرين على الحق، لا يضرهم من خذلهم ولا من خالفهم حتى يأتي أمر الله وهم على ذلك» وفي رواية: «وهم بالشام»^(١).

وهذه الطائفة ليست في زمن معين، ولا في مكان معين، بل هي إلى قيام الساعة، ويدخل فيها كل داع يدعو إلى الحق من أهل الإيمان والهداية والاستقامة، وهي أمة تعدل بين الناس إذا حكموا في الأموال والدماء والأعراض والحقوق وغير ذلك، وهؤلاء هم أئمة الهدى ومصابيح الدجى، مراتبهم متفاوتة كل بحسب حاله وعلو منزلته، وهم أمة محمد ﷺ في الجملة.

عُقُوبَةُ الْمُكَذِّبِينَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ

١٨٢، ١٨٣ - ﴿وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا سَنَسْتَدْرِجُهُمْ مِنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٨٣﴾ وَأُمْلِي لَهُمْ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ﴾

وإذا كان أهل الجنة يهدون بالحق، ولا يعدلون عنه إلى غيره، فإن أهل النار الذين كذبوا بآيات الله ولقائه، فجحدوها ولم يعملوا بها، ستفتح لهم أبواب الرزق ووجوه المعاش في الدنيا شيئاً فشيئاً؛ حتى يغتروا بما هم فيه، ويعتقدوا أنهم على شيء، ثم يعاقبهم الله تعالى على غرّة فيضرون أنفسهم من حيث لا يعلمون ولا يتوقعون، وهذه عقوبة من الله تعالى على التكذيب بحججه وآياته.

وفي الحديث عن أبي موسى رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «إن الله ليملي للظالم حتى إذا أخذه لم يفلته»^(٢).

كما قال تعالى: ﴿فَلَمَّا سَأَوْا مَا دُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّى إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً فَإِذَا هُمْ مُبْلِسُونَ ﴿١٨٤﴾ فَقَطَّعَ دَائِرَ الْقَوْمِ الَّذِينَ ظَلَمُوا وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٨٥﴾﴾ [الأنعام].

وهؤلاء الذين كذبوا بآيات الله يمهلهم الله تعالى، فيطيل لهم في الأجل، ويزيد لهم في النعم والأرزاق؛ فتنه واستدراجاً لهم؛ حتى يظنوا أنهم لا يعاقبون فيزدادوا إثماً وكفراً وطغياناً، وبذلك يزداد لهم العذاب ويتضاعف، وليس هذا تجنياً عليهم، ولا انتقاماً منهم، بل هو جزاء من جنس العمل؛ فإن الله تعالى قد قلب قلبهم وأفندتهم، فلم يجد فيها خيراً،

(١) «صحيح البخاري» برقم (٧١، ٣٦٤٠، ٧٤٦٠، ٣٦٤١) و«صحيح مسلم» برقم (١٩٢٠، ١٩٢١)

(٢) من حديث أبي موسى في البخاري برقم (٤٦٨٤) ومسلم برقم (٢٥٨٣).

ولم يجد فيها إلا الكيد والعناد والإصرار على الكفر، فعاملهم بالمثل، وكاد لهم عقوبة لمكرهم وكيدهم وحيلهم، وعقوبة الله تعالى لا تُدفع بحيلة ولا قوة. ﴿إِنَّ كَيْدِي مَيْنٌ﴾.

دَعْوَةُ الْإِسْلَامِ إِلَى إِعْمَالِ الْعَقْلِ وَالْفِكْرِ

١٨٤- ﴿أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا مَا بِصَاحِبِهِمْ مِنْ جِنَّةٍ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ مُبِينٌ﴾ (١٨٤)

والمكذبون بخاتم المرسلين يزعمون أن من يدعي من البشر أنه مرسل من عند الله مجنون، وقد قيل: إن النبي ﷺ صعد على الصفا يوماً، وأخذ يدعو قريشاً فخذاً فخذاً: «يا بني فلان، يا بني فلان» فحذّرهم بأس الله، ووقائع الدهر، فقال قائلهم: إن صاحبكم هذا لمجنون، بات يصوّت حتى أصبح، فأنزل الله تعالى توبيخاً لهم: ﴿أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا﴾^(١)، والقارئ يقف هنا، ثم يبدأ بنفي ما ذكره ﴿مَا بِصَاحِبِهِمْ مِنْ جِنَّةٍ﴾.

أي: أو لم يتفكر هؤلاء الذين كذبوا بآيات الله فيتدبروا بعقولهم، ويعلموا أنه ليس بمحمد من جنون؟ بل هو رسول الله حقاً وصدقاً، وما هو إلا نذير لكم من عقاب الله إن كفرتم ولم تؤمنوا، وهو لكم ناصح أمين، كما قال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَا أَعْظَمُكُمْ بَوْحِدَةً أَنْ تَقُومُوا لِلَّهِ مِثْلِي وَفُرْدِي ثُمَّ تَنفَكُّوا مَا بِصَاحِبِكُمْ مِنْ جِنَّةٍ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ لَكُمْ بَيْنَ يَدَيْ عَذَابٍ شَدِيدٍ﴾ (سبأ) والآية باعثة على التفكير في أمر محمد ﷺ حتى يظهر للناس نور الرسالة، وهدي النبوة، ووحدانية الخالق، فلينظروا في أخلاقه وهديه وصفاته، وينظروا فيما دعا إليه من عقيدة وعبادة وأخلاق وآداب، فلا يجدون فيه من الصفات إلا أكملها، ولا من الآداب إلا أتمها، وهو يدعو لكل خير وينهي عن كل شر، قال تعالى:

١٨٥- ﴿أَوَلَمْ يَنْظُرُوا فِي مَلَكُوتِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا خَلَقَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ وَأَنْ عَسَى أَنْ يَكُونَ قَدِ اقْتَرَبَ أَجَلُهُمْ فَإِذَا هُمْ فِي حُجَّتٍ أَعْيُنُهُمْ فِي حَدِيثٍ بَعْدَهُ يُؤْمِنُونَ﴾ (١٨٥)

وبعد أن حثّ سبحانه خلقه على النظر والتدبر، بيّن في هذه الآية المنظور فيه والمتفكر فيه؛ فإن الصنعة تدل على الصانع، فإذا دنا الأجل وماتوا قبل أن يتأملوا فقد فات أوان

(١) رُوي هذا عن قتادة بن دعامة بسند مرسل «تفسير الطبري» (٢٨٩/١٣) و«زاد المسير» والخازن والبغوي وابن عطية وابن كثير.

(٢) قرأ الأصبهاني عن ورش بإبدال همزة (فبأي) ياء وصلاً ووقفاً، ولحمزة وقفاً تحقيق الهمزة وإبدالها ياء.

الاستدراك، وحقت عليهم كلمة الله؛ إذ لا عمل بعد الموت، أو لم ينظر هؤلاء المكذبون بآيات الله في ملك الله العظيم، وسلطانه القاهر في هذا الكون ﴿وَمَا خَلَقَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ﴾ في هذه الكائنات كلها فيتعظوا ويعتبروا ويذكروا أنها دالة على وحدانية الله تعالى، وعلى علمه وقدرته، ونفوذ مشيئته، وكلها تدل على تفرده بالخلق والتدبير، وتوجب صرف العبادة له وحده.

وقد قسّم الله تعالى النظر في الآية إلى قسمين:

أحدهما: النظر في ملك الله تعالى كالسماوات والأرض، والليل والنهار، والشمس والقمر والنجوم، والجبال والشجر والدواب، والبحار والأنهار، وما إلى ذلك.

وثانيهما: النظر في مخلوقات الله تعالى، ودقائق أحوالها الدالة على عظيم قدرة الله تعالى، وأنه المتفرد بالخلق والتصرف والإيجاد والصنع.

وإذا نظر الخلق في ملكوت السماوات والأرض، وما خلق الله من شيء، علموا أن الله تعالى هو الخالق لهذا الكون ومالكة، وأيقنوا أنه الواحد الأحد، وفي هذا تصديق لما جاء به رسول الله ﷺ في القرآن العظيم.

وهناك نظر ثالث دعت إليه الآية، وهو النظر في توقع قرب الأجل، المشار إليه في قوله تعالى: ﴿وَأَنْ عَسَى أَنْ يَكُونَ قَدِ اقْتَرَبَ أَجَلُهُمْ﴾ فيهلكوا بسبب كفرهم، ويصيروا إلى عذاب الله ﴿فَإِنِّي حَدِيثٌ بَعْدُهُ يُؤْمِنُونَ﴾ فبأي تخويف وتحذير بعد تحذير القرآن يصدقون ويعملون؟ وهذا كقوله تعالى: ﴿فَإِنِّي حَدِيثٌ بَعْدَ اللَّهِ وَءَايَتُهُ يُؤْمِنُونَ﴾ [الجنّة: ٦].

لَا مَطْمَعَ لِأَحَدٍ فِي هِدَايَةِ مَنْ أَضَلَّ اللَّهُ

١٨٦ - ﴿مَنْ يُضِلِلِ اللَّهُ فَكَلاَ هَادِيَ لَهُ وَيَذَرُهُمْ^(١) فِي طُغْيَانِهِمْ^(٢) يَعْمَهُونَ

يختم الله - سبحانه - هذا المقطع من السورة ببيان أن من يضلّه الله عن طريق الرشاد

(١) قرأ نافع وابن كثير وابن عامر وأبو جعفر (ونذرهم) بالنون ورفع الراء على الاستئناف، وقرأ حمزة والكسائي وخلف العاشر بالباء على الغيب وجزم الراء عطفاً على محل (فلا هادي له) وقرأ أبو عمرو وعاصم ويعقوب بالباء ورفع الراء.

(٢) أمال (طغيانهم) دوري الكسائي وحده.

فلن يهديه أحد، ولا سبيل لهدايته، كما قال تعالى: ﴿وَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ فِتْنَتَهُ فَلَنْ تَمْلِكَ لَهُ مِنْ اللَّهِ شَيْئًا﴾ [المائدة: ٤١]

وقال سبحانه: ﴿وَمَا تُغْنِي الْآيَاتُ وَالنُّذُرُ عَنْ قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [يونس: ١٠١].

وقوله تعالى: ﴿وَيَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ أي: ويتركهم في كفرهم يتحIRON ويتخبطون فلا يخرجون منه ولا يصلون إلى حق، لأن ضلالهم أمر قدر الله تعالى دوامه، فلا مطمع لأحد في هدايتهم؛ لأن من اتصف بالتكذيب، وعدم التفكير في ملكوت الله تعالى، وفي شأن خاتم الرسل ﷺ، وفي توقع قرب انتهاء الأجل، كان من غير المهتدين، وهم أهل الضلال.

لَا يَعْلَمُ الْغَيْبُ إِلَّا اللَّهُ وَمِنْهُ قِيَامُ السَّاعَةِ

١٨٧ - ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ رَبِّي لَا يُجِيبُهَا لِوَفَّاءُ إِلَّا هُوَ تَنَزَّلَتْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ لَا تَأْتِيكُمُ إِلَّا بَغْثَةٌ يَسْأَلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِيٌّ عَنْهَا قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ اللَّهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ (١٨٧)

ولما ذكر - سبحانه - توقع اقتراب الأجل، ناسب ذلك الحديث عن قيام الساعة، وقد كان المشركون ينكرون البعث، ويتهمون بالنبي ﷺ حين يحدثهم عنه، كما في قوله تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا هَلْ نَذُكُّمُ عَلَى رَجُلٍ يَنْتَشِكُمُ إِذَا مِزْقَتُهُ كُلِّ مِزْقَةٍ إِنَّكُمْ لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ﴾ (٧) أَفَتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَمْ بِهِ جِنَّةٌ بَلِ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ فِي الْعَذَابِ وَالضَّلَالِ الْبَعِيدِ ﴿٨﴾ [سبأ]

وكانوا كثيراً ما يسألون النبي ﷺ عن يوم القيامة من باب التعجيز، كما في قوله تعالى: ﴿وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِن كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ (١٨) قُلْ لَكُمْ مِيعَادُ يَوْمٍ لَا تَسْتَعِجُونَ عَنْهُ سَاعَةً وَلَا تَسْتَقْدِمُونَ ﴿٣٠﴾ [سبأ].

والمكذبون بآيات الله السابق ذكرها، يسألون - على وجه الإنكار - متى تأتي الساعة؟ والقرآن يجيب الجميع: لا يعلم وقت قيامها إلا رب العالمين، فهي تأتي فجأة وبغثة، وقد خفي علمها على أهل السموات والأرض، وهذا معنى ﴿تَنَزَّلَتْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ أي: خفي علمها على الجميع وعز عليهم معرفة وقت مجيئها.

وقد ورد كثير من الأحاديث تُبَيِّنُ أن علم قيام الساعة عند رب العالمين:

١ - من ذلك ما جاء في حديث جبريل المعروف أنه سأل النبي ﷺ عن الساعة، فقال:

«ما المسؤول عنها بأعلم من السائل»^(١).

٢- وعن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «لا تقوم الساعة حتى تطلع الشمس من مغربها، فإذا طلعت فرأها الناس، آمنوا أجمعون، فذلك حين ﴿لَا يَفْعُ نَفْسًا إِيْتَهَا لَم تَكُنْ ءَامَنَتْ مِنْ قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِي إِيمَانِهَا خَيْرًا﴾»، ولتقوم الساعة، وقد نشر الرجلان ثوبهما بينهما فلا يتبايعانه ولا يطويانه، ولتقوم الساعة وقد انصرف الرجل بلبن لقحته فلا يطعمه، ولتقوم الساعة، وهو يليط حوضه فلا يسقي فيه، ولتقوم الساعة والرجل قد رفع اكلته إلى فيه فلا يطعمها»^(٢).

٣- وفي لفظ آخر عن أبي هريرة رضي الله عنه يبلغ به النبي ﷺ قال: «تقوم الساعة والرجل يحلب اللقحة، فما يصل الإناء إلى فيه حتى تقوم الساعة، والرجلان يتبايعان الثوب، فما يتبايعانه حتى تقوم، والرجل يلوط حوضه فما يصدر حتى تقوم»^(٣).

٤- قال قتادة: قالت قريش لمحمد ﷺ: إن بيننا وبينك قرابة، فأسر إلينا متى الساعة؟ فقال له الله ﷻ: ﴿يَسْأَلُونَكَ كَأَنَّكَ خَافِيٌ عَنْهَا﴾ أي: حريص على استقصائها والعلم بها، كما أن اليهود تحدوا النبي ﷺ قائلين: إن كنت نبياً فأخبرنا متى تقوم الساعة.

٥- وقد سأل أعرابي النبي ﷺ بصوت جهوري فقال: يا محمد، قال له رسول الله ﷺ: «هاء» -على نحو صوته- قال: يا محمد، متى الساعة؟ قال له رسول الله ﷺ: «ويحك! إن الساعة آتية، فما أعددت لها؟» قال: ما أعددت لها كبير صلاة ولا صيام، ولكنني أحب الله ورسوله، فقال له رسول الله ﷺ: «المرء مع من أحب» فما فرح المسلمون بشيء فرحهم بهذا الحديث^(٤).

(١) الحديث في البخاري برقم (٥٠، ٤٧٧٧) ومسلم (٣٧/١) برقم (٩) عن أبي هريرة.

(٢) «صحيح البخاري» برقم (٦٥٠٦) وانظر: (٨٥) و«صحيح مسلم» (١٥٧، ٢٩٥٤) مختصراً.

(٣) «صحيح مسلم» (٢٢٧٠/٤) برقم (٢٩٥٤) والبخاري (٦٥٠٦، ٧١٢١).

(٤) له طرق متعددة في الصحيحين وغيرهما عن جماعة من الصحابة، فيُنظر: «صحيح البخاري» برقم (٦١٦٩) عن ابن مسعود، و (٦١٧٠) عن أبي موسى ومسلم (٢٠٣٢/٤) برقم (٢٦٣٩) عن أنس رضي الله عنه و (٢٦٤٠) عن ابن مسعود، و (٢٦٤١) عن أبي موسى، و«سنن الترمذي» عن صفوان بن عسال برقم (٣٥٣٥).

٦- وفي حديث عائشة رضي الله عنها قالت: كانت الأعراب إذا قدموا على رسول الله ﷺ سألوه عن الساعة: متى الساعة؟ فنظر إلى أحدث إنسان منهم فقال: «إن يعيش هذا لم يدركه الهرم حتى قامت ساعتكم»^(١) أي: أن الموت يؤدي إلى البرزخ والدار الآخرة.

٧- وفي حديث أنس رضي الله عنه أن رجلاً سأل النبي ﷺ قال: متى الساعة؟ وعنده غلام من الأنصار يقال له: محمد، فقال رسول الله ﷺ: «إن يعيش هذا الغلام فعسى ألا يدركه الهرم حتى تقوم الساعة»^(٢).

والمعنى في هذا وأمثاله: أن الإنسان إذا مات قامت قيامته.

٨- وعن حذيفة رضي الله عنه قال: سئل رسول الله ﷺ عن الساعة فقال: «علمها عند ربي لا يجليها لوقتها إلا هو، ولكن أخبركم بمشاريطها وما يكون بين يديها، إن بين يديها فتنة وهرجاً» قالوا: يا رسول الله، الفتنة قد عرفناها، فالهرج ما هو؟ قال: بلسان الحبشة: «القتل»، قال: «ويُلقي بين الناس التناكر، فلا يكاد أحد أن يعرف أحداً»^(٣).

٩ - وصح عن رسول الله ﷺ من حديث أنس رضي الله عنه: أنه قال: «بُعِثْتُ أنا والساعة كهاتين، وقرن بين إصبعيه، السبابة والتي تليها»^(٤).

١٠ - وعن أبي الأحوص عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «لا تقوم الساعة إلا على شرار الناس»^(٥).

(١) «صحيح مسلم» برقم (٢٩٥٢) و«صحيح البخاري» برقم (٦٥١١).

(٢) «صحيح مسلم» برقم (٢٩٥٣).

(٣) «المسند» (٣٨٩/٥) قال الهيثمي في «مجمع الزوائد» (٣٠٩/٧): رجاله رجال الصحيح ورقمه في «المسند» (٢٣٣٠٦) قال محققوه: صحيح لغيره، وهذا إسناد رجاله ثقات، رجال الصحيح، لكن إياد بن لقيط لم يدرك حذيفة وله شواهد عن أبي موسى في الطبراني كما في «مجمع الزوائد» (٣٢٤/٧) وعن ابن مسعود بإسناد صحيح في «المسند» (٣٦٩٥) وعن أبي هريرة (٧١٨٦) كذلك، وانظر: البخاري (٧٠٦١) وابن ماجه (٤٠٥٢).

(٤) «صحيح البخاري» برقم (٦٥٠٤) و«صحيح مسلم» برقم (٢٩٥١) عن أنس والبخاري برقم (٤٩٣٦)، (٥٣٠١، ٦٥٠٣) ومسلم برقم (٢٩٥٠) عن سهل بن سعد.

(٥) «صحيح مسلم» برقم (٢٩٤٩).

وكثيراً ما كان الناس يسألون النبي ﷺ عن موعد قيام الساعة الذي يتوعد فيه المشركين بالعذاب، فيقولون على وجه التكذيب والاستبعاد: ﴿مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ [يس: ٤٨، والملك: ٢٥] والله ﷻ يوجه رسوله دائماً أن يجيبهم بأن علم قيامها إلى الله، ولا يعلم ذلك نبي مرسل، ولا ملك مقرب.

يسألك - أيها الرسول - هؤلاء المكذبون بالساعة : متى قيامها؟ ﴿قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ اللَّهِ﴾ قل لهم: يا محمد، علم قيامها عند الله، قال تعالى: ﴿يَسْتَعْجِلُ بِهَا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِهَا وَالَّذِينَ آمَنُوا مُشْفِقُونَ مِنْهَا وَيَعْلَمُونَ أَنَّهَا الْحَقُّ﴾ [الشورى: ١٨].

وقد بين - سبحانه - أن آخر أيام الدنيا هو أول قيام الساعة في قوله: ﴿إِن رَّيَكُمُنَّهَآ ۖ﴾ [النازعات] لا يعلم وقتها إلا الله، فانتها عمر الدنيا عند الله، ولا يعلمه أحد من الخلق؛ ﴿ثَقُلَتْ فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ﴾ أي: ثقل وقتها وخفي على جميع الخلق في العالم العلوي والسفلي، فلا يعلم وقت قيامها إلا الله، ولا تأتي الساعة إلا فجأة، ﴿لَا تَأْتِيكُمْ إِلَّا بَغْتَةً﴾ على غفلة من الناس، وحين تأتي تكون شاقة وثقيلة على أهل السموات والأرض، فتتشق السموات، وتنتثر النجوم، وتكور الشمس، وتسير الجبال، وتزلزل الأرض والجبال، وهذا من ثقلها على الناس؛ حيث إنها تهيجهم، فالرجل قد يذهب إلى السوق فلا يعود إلى بيته، والناس يختصمون في شؤون الحياة فلا تتم الأمور بينهم. ﴿يَسْأَلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِىٌّ عَنْهَا﴾ أي كأنك حريص ومهتم بمعرفة وقتها ﴿قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ اللَّهِ﴾ لا يعرفها نبي مرسل ولا ملك مقرب، وهي من الأمور التي أخفاها الله عن الخلق، فاقتدوا بنبيكم وكفوا عن السؤال عنها واعملوا لها فإن هذا هو الأهم.

قال قتادة: ذُكر لنا أن النبي ﷺ قال: «إن الساعة تهيج بالناس والرجل يُصلح حوضه، والرجل يسقي ماشيته، والرجل يقيم سلعته في السوق، والرجل يخفض ميزانه ويرفعه»^(١).

فالساعة ستقوم، وفي يد الإنسان اللقمة فلا يتلعبها ولا تصل إلى فيه، وتقوم الساعة

(١) حديث مرسل ذكره الطبري في تفسيره (٢٩٧/١٣) والثعلبي كما في تخريج أحاديث «الكشاف» للزليعي (٤٧٥/١)، وابن كثير (٢٧٢/٢).

والرجلان ينشران الثوب بينهما في البيع والشراء فلا يتم البيع بينهما ﴿مَا يَنْظُرُونَ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً تَأْخُذُهُمْ وَهُمْ يَخِصِّمُونَ﴾ [يس: ٤٩] وهم يختصمون يختلفون في الأسواق في البيع والشراء ونحوهما ﴿فَلَا يَسْتَطِيعُونَ نَوْصِيَّةً﴾ أي: أن من لم يكتب وصيته لا يجد أمامه وقتًا ليكتبها، ولا يتمكن من العودة إلى بيته ﴿وَلَا إِلَىٰ أَهْلِهِمْ يَرْجِعُونَ﴾ [يس: ٥٠] حيث تقوم الساعة وتدركه قبل أن يعود إلى أهله؛ وذلك لأن قيام الساعة من الأمور الغيبية التي استأثر الله بعلمه، فلم يُطْلَع عليه أحدًا من خلقه، وذلك لمصلحة العباد وإقامة العدل بينهم، وأكثر الناس لا يعلمون ما فيه نفعهم، ولذلك فهم يحرصون على ما لا ينبغي الحرص عليه، ويتركون السؤال عن الأهم ويسألون عما لا يهّم.

ومن حكمة الله - سبحانه - أنه أخفى عنا أشياء لمصلحة البشر؛ منها قيام الساعة، وانتهاء الأجل، وساعة الإجابة في يوم الجمعة، وليلة القدر في شهر رمضان، واسم الله الأعظم في القرآن، وغير ذلك مما لم يطلع عليه أحد من البشر، والرسول ﷺ بشر له خصائص البشر، ولا يبلغ عن الله إلا ما أوحى إليه به.

والإعداد لقيام الساعة هو الأهم بالنسبة للمخلوق؛ ولذا فإن النبي ﷺ لفت نظر الرجل الذي سأل عن موعد قيام الساعة إلى ما هو أهم، فقال له: «ماذا أعددت لها؟» هذا هو السؤال الذي ينبغي أن يهتم به السائل، هب أن الساعة تقوم الآن أو غداً، فماذا أعددت لها؟ فقال الرجل: ما أعددتُ لها كبير صلاة ولا صيام، بالنسبة للنوافل، فهو يؤدي الفرائض وبعض النوافل، قال: ولكنني أحب الله ورسوله، ومحبة الله ورسوله تعني: السير على منهج الله ورسوله، والامثال لأمر الله، والانتهاه عما نهى عنه، فبين عليه الصلاة والسلام أن المرء يحشر يوم القيامة مع من أحب.

وهذه نقطة هامة في حياة المسلم؛ أي: أن العبد إذا أحب الكافر، أو الظالم، أو الفاسق، أو الفاجر، أو المبتدع، فإنه يحشر معه، وإذا أحب الصالح المؤمن المهتدي فإنه يحشر معه. قال تعالى:

١٨٨ - ﴿قُلْ لَا أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعًا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ وَلَوْ كُنْتُ أَعْلَمُ الْغَيْبِ لَاسْتَكْرْتُ مِنْ

الْخَيْرِ وَمَا مَسْنِيَ السُّوءِ^(١) إِنْ أَنَا^(٢) إِلَّا نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿١٨٨﴾

قل - أيها الرسول - لمن يسألون عن الساعة : إني فقير إلى الله، لا أجلب لنفسي خيراً، ولا أدفع عنها ضرراً، ولا علم لي إلا ما علمني الله، ولو كنت أعلم شيئاً من الغيب لفعلت ما فيه مصلحتي ومنفعتي وتجنب ما فيه ضري ومساوتي .

ذكر البغوي بسنده عن ابن عباس رضي الله عنهما : أن أهل مكة قالوا للنبي ﷺ : يا محمد، ألا يخبرك ربك بالسعر الرخيص قبل أن يغلوا، فتشتريه فتربح فيه عند الغلاء، وبالأرض التي يريد أن تجذب، فترحل منها إلى التي قد أخصبت؛ فأنزل الله هذه الآية .

وفيهما بين - سبحانه - أن النبي ﷺ بشر، لا يملك نفعاً ولا ضرراً لنفسه ولا لغيره، إلا ما شاء الله له، ولو كان ﷺ يعلم الغيب لاستكثر لنفسه من الخير وما مسه السوء، ومهمة الرسول ﷺ هي البلاغ والإنذار لمن ينتفع بالذكرى ﴿قُلْ لَا أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعًا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ﴾ أي: أني لا أقدر على جلب خير لنفسي، ولا على دفع شر يحلُّ بها، ومن كان كذلك فهو حرئٌ ألا يعلم غيباً ولا يدّعيه، إلا ما أطلعه الله عليه من أمور الغيب ويسره له، فالأمر مفوض إليه سبحانه ﴿قُلْ لَا يَعْلَمُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ الْغَيْبَ إِلَّا اللَّهُ﴾ [النمل: ٦٥] وكذلك قال تعالى: ﴿وَلَوْ كُنْتُ أَعْلَمُ الْغَيْبَ لَأَسْتَكْرْتُ مِنَ الْخَيْرِ﴾ أي: لفعلت الأسباب التي أعلم أنها تكثر لي المصالح والمنافع، وقد كان عمل النبي ﷺ ديممة^(٣)، ينظر إلى الله تعالى في جميع أحواله، وهو سبحانه ﴿عَلِمَ الْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَى غَيْبِهِ أَحَدًا﴾ [آل عمران: ٢١] إِلَّا مَنْ أَرَادَ مِنْ رَّسُولٍ ﴿[الجن: ٢٦، ٢٧].

ومعرفتي للغيب على سبيل الفرض يجعلني أجتنب الشر وأتقيه قبل أن يقع، ولكن هذا لم يحدث .

(١) قرأ نافع وابن كثير وأبو عمرو وأبو جعفر ورويس بإبدال الهمزة الثانية واواً خالصة، وبتسهيلها بينَ بينَ، والباقيون بتحقيقها .

(٢) قرأ قالون بخلف عنه بإثبات ألف (أنا) وصلاً ووقفاً، والباقيون بحذفها وصلاً وإثباتها وقفاً، وهو الوجه الثاني لقالون .

(٣) يُنظر حديث عائشة رضي الله عنها في «صحيح مسلم» برقم (٢١٧، ٧٨٣) والبخاري (٦٤٦٦) و«المسند» (٢٤١٦٢، ٢٤٢٨٢) وأبو داود (١٣٧٠) وابن خزيمة (١٢٨١) وابن حبان (٣٢٢٢، ٣٦٤٧) وغيرهم .

وما أنا إلا رسول الله إليكم، أخوف من عقابه من عصاه، وأبشر بثوابه من آمن به؛ فصدقه وعمل بشرعه ﴿إِنَّ أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ﴾ لكل من يطلب منهم الإيمان، ويدعون إليه، فأبشر الطائعين وأنذر العاصين، قال تعالى: ﴿فَإِنَّمَا يَسَّرْنَاهُ بِلِسَانِكَ لِتُبَشِّرَ بِهِ الْمُتَّقِينَ وَتُنذِرَ بِهِ قَوْمًا لَّدُنَّا﴾ [مريم: ٩٧] وهذه البشرية ﴿لَقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ فالنبي ﷺ كسائر البشر، إلا أن الله تعالى اصطفاه لرسالته وخصه بالوحي وبعض الخصائص النبوية.

ولا يجوز التجاوز على حدود الله تعالى بإطراء نبيه ﷺ، أو رفعه فوق منزلته، بطلب المدد والنظرة منه ﷺ أو من أصحاب القبور، أو الاستعانة والاستغاثة به، وإقامة المولد له ﷺ أو لغيره من الصالحين بما يشتمل عليه من المنكرات؛ كاجتماع الرجال والنساء والتدخين وغيره، أو قراءة قصيدة البردة، وفيها من الغلو والإطراء ما فيها، وإذا بحثت عمن يتشجع في الدفاع عن مثل هؤلاء، ربما تجده ممن لا يحافظ على صلاة الجماعة، سيما صلاة الفجر، ويخالف النبي ﷺ في عدم متابعته في الكثير من سنته، ثم يتمسك بما لا أصل له في الإسلام، ولا يعود عليه بشيء، مع التهاون حتى في أركان الإسلام.

هذا: وعند عتبة الغيب، تقف الطاقة البشرية، ويقف العلم البشري، وتقف قدرة البشر، وتنفرد الذات الإلهية، بخصائص لا يشاركها فيها بشر، ولو كان هذا البشر محمداً ﷺ، فإنه ليس بيده شيء من الأمر، لا ينفع إلا فيما أرسله الله به من البشري والإنذار، وهذا النفع يفوق نفع الآباء والأمهات والإخوان والأخلاء، ففيه الحث على كل خير والتحذير من كل شر.

التَّحْذِيرُ مِنْ صُورِ الْإِشْرَاقِ بِاللَّهِ فِي ذُرِّيَّةِ بَنِي آدَمَ

١٨٩- ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا فَلَمَّا تَغَشَّاهَا حَمَلَتْ حَمْلًا خَفِيًّا فَمَرَّتْ بِهِ فَلَمَّا أَثْقَلَتْ دَعَا اللَّهَ رَبُّهُمَا لِيَأْتِيَنَا صَالِحًا لَنَكُونَ مِنَ الشَّاكِرِينَ﴾ [١٨٩] لقد كانت القصة الأولى في سورة (الأعراف)، هي قصة آدم وحواء وإبليس، وجاء الربع الأخير من السورة في بدايته؛ ليتحدث عن نسلهما.

ولما كان موضوع السورة يتناول جانب التوحيد في دعوة الرسل، فقد جاء الربع الأخير منها يحذر من الشرك بالله ﷻ، ويبين سَفَهَ عقول المشركين، ويفنّد مزاعمهم، ويوضح لهم من يُعبد، وما لا يُعبد من دون الله؛ من إنس أو جن، أو صنم أو وثن، ليس

بإمكانه أن ينفع أو يضر.

وفي عالمنا الفسيح، لا يزال يوجد في بعضه من يعبد الحجارة والتماثيل والبقر، وما إلى ذلك، وهذا هو الذي كان يحدث في الجاهلية، ويخاطب القرآن به جميع المشركين إلى يوم القيامة.

وكل مجتمع مسلم لا يعرف هذه الأوثان والأصنام، بحكم عدم وجودها فيه، ولكنها موجودة على وجه الأرض هنا وهناك في بعض الدول التي تنطبق عليها هذه الآيات، والقرآن الكريم لا يخص قومًا دون قوم، ولا مكانًا دون مكان، ولا زمانًا دون زمان، فهو دين كل زمان ومكان إلى قيام الساعة.

وكما بدأت سورة (الأعراف) في أول آية منها بعد حروف التهجي بالحديث عن القرآن الكريم في قوله تعالى: ﴿كَتَبَ أَنْزَلَ إِلَيْكَ فَلَا يَكُنْ فِي صَدْرِكَ حَرَجٌ مِّنْهُ﴾ كان ختام السورة أيضًا بالحديث عن القرآن ﴿وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنْصِتُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾.

ويبدأ هذا الربع بقوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ﴾ هي آدم ﷺ، أو المراد بهذه النفس: ذرية آدم، وهو جنس الإنسان إلى يوم القيامة، من الرجال والنساء المنتشرون في الأرض على كثرتهم وتفرقهم وهذا كقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا﴾ [النساء: ١]

وقوله: ﴿وَهُوَ الَّذِي أَنْشَأَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ فَمُسْتَقَرٌّ وَمُسْتَوْدَعٌ﴾ [الأنعام: ٩٨]

وقد خلق الله حواء من آدم؛ ليسكن إليها ويألفها ويطمئن بها، كما قال تعالى: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً﴾ [الروم: ٢١].

والمعنى: الله الذي خلقكم - أيها الناس - من نفس واحدة في طبيعة التكوين، وإن اختلفت وظيفتها بين ذكر وأنثى ﴿وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا﴾ هي حواء خلقها من آدم زوجة له، ليسكن إليها وينقاد كل منهما إلى الآخر بزمام الشهوة.

قال ابن عباس ومجاهد والسدي وقتادة: إن الله تعالى خلق آدم في الجنة وحده، ثم نام فانتزع الله أحد أضلاعه، فخلق منه حواء، خلقها الله من آدم زوجة له ليسكن إليها، وينقاد كل منهما إلى الآخر بزمام الشهوة.

ويعضده قول النبي ﷺ فيما يرويه أبو هريرة ؓ أن رسول الله ﷺ قال: «إن المرأة خلقت من ضلع، لن تستقيم لك على طريقة، فإن استمتعت بها استمتعت بها. وبها عوج، وإن ذهب تقيمها كسرتها، وكسرها طاقها»^(١).

أو المراد بالنفس الواحدة: زوج كل رجل من بني آدم.

﴿لَيْسَكُنْ لِلنِّسَاءِ﴾ الزوج فيأنس ويطمئن، وهذا الإيناس؛ كي لا يجف الرجل المرأة حتى ينساق إلى غشيانها، ولو جعل الله التناسل حاصلًا بغير دواعي الشهوة لكانت نفس الرجل غير حريصة على الاستكثار من النسل، فلا تنصرف إليه إلا بعد تردد وتأمل كما ينصرف الإنسان إلى شرب الدواء.

﴿فَلَمَّا تَفَشَّنَهَا﴾ أي: جامعها، قدّر الله تعالى أن يوجد النسل بينهما من هذا الجماع حملت به، والمراد بالضمير في ﴿تَفَشَّنَهَا﴾: جنس الزوجين وليس خصوص آدم وحواء ﴿حَمَلَتْ حَمَلًا خَفِيفًا﴾ هو ماء النطفة وبداية الحمل ﴿فَمَرَّتْ بِهِ﴾ أي: استمرت عليه دون تعب، وذلك في أشهر الحمل الأولى، وهي مرحلة النطفة والعلقة، حيث يخف الجنين، وتخف بطن الأم، فتتحرك وتقوم وتجلس ﴿فَلَمَّا أَثْقَلَتْ﴾ وهذه مرحلة الحمل الثانية، أي: فلما كبر وظهر بطنها، وتقدمت بها أشهر الحمل، وقرب وقت ولادتها، صار في قلبها وقلب أبيه الشفقة على الولد، وعلى خروجه حيًا صحيحًا سالمًا معافي، وعندئذ:

﴿دَعَا اللَّهَ رَبَّهُمَا﴾ أي: دعا الزوجان ربهما عند قرب مجيء المولود ﴿لَيْنَ آتَيْنَا﴾ ولدا ﴿صَالِحًا﴾ أي: بشرًا سويًا مثلنا، ومولودًا تائمًا صالحًا في خلقته، وصالحًا في فطرته، وصالحًا في عمله، وصالحًا في خلقه ﴿لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ﴾ لك على إنعامك.

وقد صدر ذلك الخطاب بتذكير الناس جميعًا بنعمة خلقهم من نفس آدم الذي تولدت منه البشرية ﴿جَعَلَ مِنْهُ الذَّكَرَ وَالْأُنثَى﴾ [القيامة] وحين تحمّل الأنثى بالجنين، فإن كل أبوين يدعوان الله تعالى أن يجعل هذا الجنين صالحًا سويًا ويتمنيان ذلك، وينذران لله تعالى بلسان الحال أو المقال: لئن رزقهما الله مولودًا صالحًا ليشكران الله تعالى عليه، ولكنّ المشركين من بني آدم لا يقابلون هذه النعمة بالشكر كما قالوا، بل يشركون بالله تعالى في هذا المولود بصورة أو أخرى.

(١) عن أبي هريرة في «صحيح مسلم» برقم (١٤٦٨) و«صحيح البخاري» برقم (٣٣٣١، ٥١٨٤).

وهذه الآية تخاطب المشركين من بني آدم الذين أخذ الله عليهم الميثاق بتوحيد الخالق سبحانه، ونبذ الإشراك به؛ لإقامة الحجة عليهم بفساد عقولهم في إشراكهم وإشراك آبائهم.

فقد قيل: إن هذه الآية نزلت في قُصَيِّ بن كلاب، تزوج امرأة من خزاعة، فلما آتاها الله أولاداً أربعة ذكور، سمى ثلاثة منهم: عبد مناف، وعبد العزى، وعبد الدار، وسمى الرابع (عبدًا) بدون إضافة، وهو الذي يُدعى بعبد قُصَيِّ، وهذا من صور الإشراك بالله تعالى، وعلى هذا فالخطاب في الآية ليس لآدم وحواء، بل لمن أشرك بالله من ذريته.

وصح عن الحسن البصري فيما يرويه الطبري بسنده أنه قال: كان هذا في بعض أهل الملل ولم يكن بآدم^(١).

وقال في الآية: غُني بها ذرية آدم، ومن أشرك منهم بَعْدَهُ^(٢). قال تعالى:

١٩٠ - ﴿فَلَمَّا ءَاتَتْهُمَا صَالِحًا جَعَلَا لَهُ شُرَكَاءَ^(٣) فِيمَا ءَاتَاهُمَا فَتَعَلَّى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿١٩٠﴾

﴿فَلَمَّا ءَاتَتْهُمَا﴾ مولودًا كاملاً صالحًا في خلقه وخلقته، ورزقهما الله الولد بشرًا سويًا، فبدل أن يشكروا الله سبحانه ويعبدوه ويوحده على ما أنعم به عليهم بإعطائهم المولود السوي الصالح في عقله وفطرته وخلقته وخلقهم ﴿جَعَلَا لَهُ شُرَكَاءَ فِيمَا ءَاتَاهُمَا﴾ أي: جعل الزوجين شركاء لله في هذا الولد، بأن سمياه عبدًا لغير الله، ولم يشكرا الله عليه بل نسبوه لغيره:

١- فهذا الشرك الذي في الآية وقع من ذرية آدم، ممن أشرك منهم بعده، كما قال الحسن. لا من آدم وحواء أنفسهما، بدليل أن الله تعالى قال في ختام الآية: ﴿فَتَعَلَّى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ ولم يقل (عما يشركان) فالمراد: ذرية آدم وحواء إلى يوم القيامة.

٢- وورد في الأثر بإسناد صحيح عن الحسن البصري أنه قال: المراد بذلك اليهود والنصارى، رزقهم الله الأولاد فهو دودهم ونصروهم^(٤).

(١)، (٢) «تفسير الطبري» (١٣/٣١٤).

(٣) قرأ نافع وشعبة وأبو جعفر (شُرَكَاءَ)، والباقون (شُرَكَاءَ).

(٤) «تفسير الطبري» (١٣/٥١٣).

واليهود والنصارى من ذرية آدم رزقهم الله الذرية، وكان من المفروض وَفَقًا للفترة، وللميثاق الذي أخذه الله على بني آدم، وعلى بني إسرائيل أن يعبدوه ويوحدوه ولا يشركوا به شيئًا، ولكنهم هَوَّدوهم ونَصَّروهم، وهذا هو الشرك.

٣- وقال ابن كيسان: هم الكفار، سَمُّوا أولادهم بعبد العزى، وعبد شمس، وعبد الدار، ونحو ذلك، وكان هذا قبل مبعث النبي ﷺ؛ حيث أشركوا بالله في مواليدهم، فبدل أن يسموهم عبد الله، وعبد الرحمن، سموا أبناءهم عبد العزى، وعبد شمس، وعبد الدار، وعبد مناف، وهذا إشراك بالله سبحانه.

قلت: ولا يزال هذا الشرك موجودًا في الناس إلى يومنا، حيث يسمون أبناءهم: عبد النبي، وعبد الرسول، وعبد الحسين، وعبد الرضى، وبعضهم ينذر مولوده للآلهة أو لخدمة المعبد أو لشيخ الطريقة، ونحو ذلك.

وجاء في بعض التفاسير أحاديث وآثار في معنى الآية غير صحيحة، وأغلب الظن أنها إسرائيلية، منها ما روي عن الترمذي والإمام أحمد وغيرهما أن حواء كان لا يعيش لها ولدًا، فطاف بها إبليس وقال: سَمِّيه عبد الحارث، فسمته فعاش^(١).

وهذا كلام لا يصح؛ لأن آدم كان نبيًا معصومًا من الشرك.

وقيل عن مجاهد: كان لا يعيش لآدم وامرأته ولد، فقال لهما الشيطان: إِذَا وُلِدَ لَكُمَا ولد، فسمياه عبد الحارث، وكان اسم الشيطان قبل ذلك الحارث ففعلا^(٢). والله أعلم بصحة هذا.

(١) يُنْظَرُ الحديث في «المسند» (١١/٥) برقم (٢٠١١٧) عن سمرة بن جندب، بإسناد ضعيف، لأن في رواية أبا حفص البصري عن قتادة ضعف، والحسن مشهور بالتدليس ولم يذكر سماعه من سمرة، وقد أعلَّه ابن كثير في تفسيره (٥٢٩/٣) بثلاث علل، هي:

أ - أن أبا حفص البصري مختلف فيه.

ب - وأن الحديث ليس مرفوعا كما نقله الطبري عن سمرة نفسه أنه قال: سَمَّى آدم ابنه: عبدالحارث

ج - وأن الحسن نفسه فسر الآية بغير هذا كما ذكر أعلاه، وقال الذهبي في «الميزان»: إنه من منكرات عمر بن إبراهيم، ورواه أيضًا الترمذي وقال: حسن غريب، وأخرجه الطبري في تفسيره (١٤٦/٩) والحاكم (٥٤٥/٢) والطبراني في الكبير (٦٨٩٥)، وضعَّفه ابن العربي في «أحكام القرآن»، والقرطبي في تفسيره، وغيرهم.

(٢) «زاد المسير» في تفسير الآية .

وورد غير ذلك من الآثار حول هذا المعنى تفيد أن المولود سيكون مشوهاً، أو يموت، أو يكون حيواناً، وقال ابن كثير: يظهر أنها من آثار أهل الكتاب.

وقد صح في الحديث عن أبي هريرة رضي الله عنه: «إذا حدثكم أهل الكتاب فلا تصدقوهم ولا تكذبوهم»^(١). وذكر أن ما وافق منها الدليل من الكتاب والسنة فهو صحيح، وما خالفهما فهو كذب، وما سكت عنه الشرع فهو المأذون في روايته:

كما في الحديث عن عبدالله بن عمرو رضي الله عنه: «حدّثوا عن بني إسرائيل ولا حرج»^(٢).

أي: فلا يصدق ولا يكذب؛ لقوله ﷺ: «فلا تصدقوهم ولا تكذبوهم».

والنفس الواحدة التي خلق الله منها البشر هي آدم، وجاءت آثار تفيد أن حواء خلقت من ضلع، منها ما جاء عن ابن عباس رضي الله عنه قال: «خلقت المرأة من الرجل، فجعلت نَهِمَتُها في الرجل، وخلق الرجل من الأرض، فجعل نَهِمته في الأرض، فاحبسوا نساءكم»^(٣) والنهمة: هي الحاجة.

وعن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «استوصوا بالنساء خيراً؛ فإن المرأة خلقت من ضلع، وإن أعوج شيء في الضلع أعلاه، فإن ذهبت تقيمه كسرته، وإن تركته لم يزل أعوج، فاستوصوا بالنساء خيراً»^(٤).

ولا يوجد في الحديث تصريح بأنه ضلع آدم، ولكنه أمر معلوم؛ حيث لم يكن موجوداً قبل حواء إلا آدم.

والآية تشهد لهذا بمقتضى مفهوم المخالفة؛ لقوله تعالى: ﴿وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا﴾ [النساء: ١].

(١) رواه البخاري عن أبي هريرة برقم (٤٤٨٥، ٧٣٦٢، ٧٥٤٢) والنسائي في «الكبرى» (١١٣٨٧) وأخرجه عبد الرزاق في «المصنف» برقم (١٠١٦٠، ٢٠٠٥٩) عن أبي نحلة الأنصاري، وكذا أحمد في «المسند» (١٧٢٢٥، ١٧٢٢٦) بإسناد حسن والبيهقي في «السنن» (١٠/٢) و«الشعب» (٥٢٠٦).

(٢) الحديث في البخاري عن عبد الله بن عمرو برقم (٣٤٦١).

(٣) ابن المنذر (١٣٠٤) وابن أبي حاتم (٤٧١٨) والبيهقي في «الشعب» (٧٧٩٨).

(٤) البخاري في بدء الخلق (١٦١/٤) برقم (٣٣٣١، ٥١٤٨، ٥١٨٦) ومسلم في الرضاع (١٧٨/٤) برقم (١٤٦٨) وأحمد في «المسند» (٨/٥).

وبعضهم يقول: إن (من) للجنس، أي خلق من جنس آدم حواء.

والمعنى الصحيح: أن الشرك وقع من ذرية آدم، ووقع من اليهود والنصارى، والنصارى وهم أكبر سكان العالم، ووقع من سائر الكفار والمشركين في أرجاء المعمورة، وقد بدأت الآيات بالكلام عن آدم وحواء، ثم انتقلت إلى الكلام عن الجنس، نظرا لوقوعه كثيرا في الذرية.

تَفْصِيْدُ مَزَاعِمِ الْمُشْرِكِينَ فِي آلِهَتِهِمُ الْمَرْعُومَةِ

أولا: الأوثان مخلوقة وليست خالقة قال تعالى:

١٩١- ﴿أَشْرِكُونَ مَا لَا يَخْلُقُ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ﴾ (١٩١)

ثم إن الله ﷻ يفند مزاعم المشركين، ويخاطبهم، ويسفّه عقولهم، وينكر عليهم شركهم بالله تعالى؛ إذ كيف تعبدون ما لا يخلق شيئا وهم يخلقون؟!

أليس الذي أوجد الذرية في بطون الأمهات، ثم أخرجهم خلقا سويا صحيحا فآتم عليهم النعمة، أفلا يستحق أن يُعبد وحده، فيُخلص له الدين، ولا يُشرك معه أحد في عبادته.

فهذا الذي يعبد من دون الله مخلوق مثلكم، سواء أكان إنسيا، أم جنيا، أم كوكبا، أم صنما، أم وثنا، فكيف يصلح أن يكون معبودا وهو لا يقدر على خلق شيء؟

﴿إِنَّ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَنْ يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَلَوْ اجْتَمَعُوا لَهُ وَإِنْ يَسْلُبْهُمُ الذُّبَابُ شَيْئًا لَا يَسْتَنْقِذُوهُ مِنْهُ﴾ [الحج: ٧٣]

﴿وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ مَا يَمْلِكُونَ مِنْ قِطْمِيرٍ﴾ (١٣) ﴿إِنْ تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا دُعَاءَكُمْ وَلَوْ سَمِعُوا مَا اسْتَجَابُوا لَكُمْ وَيَوْمَ الْقِيَمَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ وَلَا يُنَبِّتُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ﴾ (٢٤) [فاطر]

﴿أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ﴾ (٩٥) ﴿وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ﴾ (٩٦) [الصفات].

ثانيا: الأوثان لا تدفع الضر عن نفسها ولا عن غيرها: قال تعالى:

١٩٢- ﴿وَلَا يَسْتَطِيعُونَ لَهُمْ نَصْرًا وَلَا أَنْفُسُهُمْ يَنْصُرُونَ﴾ (١٩٢)

وكيف يشرك مع الله ما لا يستطيع أن ينصر نفسه، أو يدفع عنها الضر والأذى، فضلا

عن أن ينصُر مَنْ عبده، واتخذهُ إلهاً مع الله؟ إن هذا أظلم الظلم، وأسفه السفه، فمن لا ينصر نفسه، فأحرى به ألا يدفع شيئاً عن غيره؛ لأنه في غاية العجز والذلة، فالآلهة لا ينصرون مَنْ عبدهم إذا احتاج لِنَصْرِهِمْ، ولا ينصرون أنفسهم إن اعتدى عليهم أحد.

قصة عمرو بن الجموح: ومما يذكر في هذه الآية: قصة عمرو بن الجموح قبل أن يُسْلِمَ، فقد كان يعبد صنماً، وكان يغسِّله ويطيِّبه، فكان ابنه (معاذاً) ومعاذ بن جبل، يأتياه ليلاً ويلطِّخانه بالقاذورات والنجاسة، وينكِّسان رأسه، ثم يأتي عمرو بن الجموح في الصباح ليغسِّله مرة ثانية، ويطيِّبه، فهو إله الذي يعبد ويحترمه! ثم يضع السيف عنده، ويقول له: انتصر، انتصر لنفسك، دافع عن نفسك، فيأتي الصحابيَّان مرة ثانية، وثالثة، ورابعة، وينكسان رأسه، ويلطخانه بالنجاسة، وهكذا، وفي المرة الأخيرة جاء الصحابيَّان وربطاهما هذا الصنم مع كلب ميت، وألقياه في بئر، فجاء عمرو بن الجموح، ولمَّا لم يجد إلهه قد دفع الضر عن نفسه، أخذ ينشد بيتاً من الشعر يقول فيه:

تَاللَّهِ لَوْ كُنْتُ إِلَهاً مُسْتَدَنٌ لَمْ تَكْ وَالْكَلْبُ جَمِيعاً فِي قَرْنٍ

فهو يقول: إن هذا الصنم لا يصلح أن يكون إلهاً؛ لأنه قد سلَّحه ووضع عنده السيف، ومع ذلك فهو يلطخ بالأذى، ويُربط مع كلب ميت، ويلقى به في بئر، ولم يدفع شيئاً عن نفسه؛ فأسلم عمرو، وحسن إسلامه، وقُتِلَ يوم أحد شهيداً.

ثالثاً: الأوثان لا تسمع ولا تبصر ولا تعقل: قال تعالى:

١٩٣- ﴿وَإِنْ تَدْعُوهُمْ إِلَى الْهُدَى لَا يَتَّبِعُوكُمْ^(١) سَوَاءٌ عَلَيْكُمْ أَدَعَوْتُوهُمْ أَمْ أَسْتَدْعِيَهُمْ صَمِيمُونَ ﴿١٩٣﴾

والمشركون قد خَتَمَ الله على قلوبهم؛ لأنهم أهل فسق وأهل ضلال، لا تنفع فيهم دعوة ﴿سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [البقرة: ٦] فالإنذار وعدمه يستويان؛ لأنهم لا يقبلون هدى، ولا يتنفعون بموعظة.

ويصح أن يكون المعنى: وإن تدعوا أيها المشركون هذه الأصنام التي عبدتموها إلى الهدى

(١) قرأ نافع (لا يتبعوكم) بسكون التاء وفتح الباء، والباقون بتشديد التاء مع فتحها وكسر الباء.

لا تسمع دعاءكم ولا تتبعكم، يستوي دعاؤكم لها وسكوئكم عنها؛ لأنها لا تسمع ولا تبصر ولا تعقل، وليس لها حواس ولا إدراك، كما قال إبراهيم لأبيه: ﴿يَتَابَت لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِي عَنْكَ شَيْئًا﴾ [مريم: ٤٢] فهي أصنام لا تسمع دعاء من دعاها، فدعاؤكم لها وصمتكم عنها يستويان، والعاقل يحزم ببطلان إلهيتها وسفاهة من عبدها.

رابعاً: مَنْ يُعْبُدُونَ مِنْ أَرْبَابِ الْعُقُولِ، عِبَادُ اللَّهِ مِثْلَ غَيْرِهِمْ: قال تعالى:

١٩٤ - ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ عِبَادُ أُمْنَالِكُمْ فَادْعُوهُمْ فَلْيَسْجِبُوا لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾

لفظ ﴿عِبَادُ﴾ لا يطلق على الجمادات، وعليه فالآيات السابقة تتحدث عن الأصنام والأوثان، وهذه الآية تتحدث عن من يُعبد من دون الله، كالملائكة والجن والإنسان.

والمعنى: إن الذين يُعبدون من دون الله، سواء أكان عزيزاً، أو المسيح أو علياً، عند بعض الفرق الضالة، وكذا الجن والملائكة... إلخ، هم عباد لله، خلقهم الله لا فرق بينكم وبينهم، فكلكم عبيد لله، مملوكون له، خلقهم الله كما خلقكم، فهم مخلوقون ومربوبون لله سبحانه، ومملوكون له ﷻ، وهم مسخرون ومذللون لخدمتكم، ولا يملكون لكم نفعاً ولا ضرراً، فإن كنتم تزعمون أنها تستحق العبادة، فادعوهم في جلب نفع لكم، أو دفع ضرر عنكم فإن أجابوكم فهم آلهة، وإلا فأنتم كاذبون مفترون.

خامساً: هيئة الأصنام تدل على أنها لا تنفع ولا تضر: قال تعالى:

١٩٥ - ﴿أَلَمْ أَجْعَلْ يَمْسُورًا يَهَيَّأُ أَمْرَ لَهُمْ أَيُّدٍ يَبْطِشُونَ^(١) يَهَيَّأُ أَمْرَ لَهُمْ أَعْيُنٌ يُبْصِرُونَ يَهَيَّأُ أَمْرَ لَهُمْ ءَاذَانٌ يَسْمَعُونَ يَهَيَّأُ قُلُوبٌ^(٢) أَدْعُوا شُرَكَاءَكُمْ ثُمَّ كِيدُونِ^(٣) فَلَا تُنْظَرُونَ^(٤)﴾

(١) قرأ أبو جعفر بضم طاء من (يَبْطِشُونَ) مضارع بطش يبطش، كخرج يخرج، وقرأ الباقون بكسرهما مضارع بطش يبطش، كضرب يضرب.

(٢) قرأ عاصم وحمة ويعقوب بكسر اللام وصلًا من (قل ادعوا)، والباقيون بضمها.

(٣) قرأ أبو عمرو وأبو جعفر بإثبات ياء (كيدون) وصلًا وحذفها وقفًا، وقرأ يعقوب وهشام بخلف عنه بإثبات الياء وصلًا ووقفًا، وقرأ الباقون بحذفها في الحالين، وهو الوجه الثاني لهشام.

(٤) قرأ يعقوب بإثبات الياء وصلًا ووقفًا من (فلا تنظرون)، وقرأ الباقون بحذفها في الحالين، وللأزرق عن ورش ترفيق الراء وتفخيمها، والباقيون بالتفخيم.

ثم بيّن سبحانه أن الإنسان المشرك مميز عن الأصنام التي يعبدّها، بما أوجد الله فيه من حواس، وفاقد الشيء لا يعطيه، ومع أن بعض هذه الأصنام على صورة الآدميين، فهي صورة جامدة، لا مطمع لأحد في أن يكون لها حس أو إدراك فكيف تفضلونها على أنفسكم؟ وهذه الأوثان ليس لها عقول وأنتم لكم عقول، وفيكم حياة ولا حياة فيها، فهي لا تمشي، ولا تسمع، ولا تبصر، ولا تتحرك.

والسبب في تخصيص هذه الجوارح أن قدرة الإنسان تكون بحواسه الأربع: الرجل، واليد، والعين، والأذن، فهي التي يستعين بها في كل أموره، وهذه الأصنام ليس لها شيء من هذه الأعضاء، فهي عاجزة لا تضر ولا تنفع، فهل لهذه الآلهة أرجل تسعى بها معكم في حوائجكم؟ أم لها أيدي يدفعون بها عنكم وينصرونكم على من يريد بكم شرًا أو مكروهًا؟ أم لها أعين ينظرون بها فيخبرونكم بما لا ترونه؟ أم لها آذان يسمعون بها ما لم تسمعونه فيخبرونكم به؟

فإن كانت ألّهتكم ليس لها شيء من هذه الجوارح، فما وجه عبادتكم لها وهي خالية من آلات النفع والضرر، وما وجه عبادة البوذيين لتمثال بوذا، وما وجه عبادة بعض الهنود للبقرة، واليونان والهندوس وجنوب السودان لآلهتهم، إن هذه الأوثان والأصنام ليس لها هذه الأعضاء الحسية التي تميز الإنسان من الحيوان، فكيف تُعبد من دون الله؟

والله سبحانه يأمر رسوله أن يتحدى المشركين أن يضروه بأصنامهم فيوقعوا به السوء والمكروه؛ حتى يتبين لهم عجزها، فادعوا هذه الأصنام واعبدوها، ثم استنجدوا بهم ودبروا المكيدة لقتلي، ولا تمهلوني لحظة؛ فإني غير مبالٍ بكم، وقد كان المشركون يخوفون النبي ﷺ بالهتهم.

والغرض من هذه الآية بيان جهل المشركين وتسفيه عقولهم في عبادة جمادات لا تضر ولا تنفع، ولا تقى ولا تدرك، وأنهم لو استغاثوا بهم؛ كي يتخلصوا من صاحب الدعوة فإنهم لم ينفعوهم شيئًا.

اللَّهُ تَعَالَى هُوَ الَّذِي يَنْصُرُ أَوْلِيَائَهُ وَيَخْذُلُ أَعْدَاءَهُ

١٩٦- ﴿إِنَّ وَلِيََّ^(١) اللَّهُ الَّذِي نَزَّلَ الْكِتَابَ وَهُوَ يَتَوَلَّى الصَّالِحِينَ﴾

ثم بيّن جلّ شأنه أن المشركين إذا استعانوا بآلهم للتخلص من حامل لواء الدعوة، فإن ذلك لن يجدي شيئاً؛ لأن الله تعالى هو القادر على كل شيء، فهو الذي ينصر أولياءه ويخذل أعداءه، فالله هو الذي نزل عليّ هذا القرآن، فيه الهدى والنور، والشفاء للأبدان والأرواح ﴿اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ ءَامَنُوا يُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ﴾ [البقرة: ١٥٧] فيه الهدى والنور والشفاء للأبدان والأرواح.

والله ولي الذين آمنوا يخرجهم من الظلمات إلى النور وهو الذي ينصرني ويحفظني، وهو الذي يتولاني ويرعاني، وينفعني ويضرني، وهو الذي يتولى الصالحين من عباده، وينصرهم على من خذلهم؛ ﴿إِنَّ اللَّهَ يَدْفَعُ عَنِ الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ [الحج: ٣٨] لأنهم لا يعصون الله، ولا يعدلون به إلى غيره.

والتاريخ يسجل أمثلة حية من كيد المشركين لأولياء الله الصالحين الذين تربّوا في حجر رسول الله ﷺ وقد تولّاهم الله بنصره وتأييده؛ وهذه ثلاثة أمثلة من كيد أولياء الشيطان لأولياء الرحمن:

أ - هذا أكرم من أفلته الأرض بعد رسول الله ﷺ إنه أبو بكر الصديق ؓ، تناوله المشركون بالأذى الشديد، والضرب العنيف، فكان يقول: ربّ ما أحلمك! ربّ ما أحلمك! ربّ ما أحلمك! لقد كان واثقاً أن ربه لا يعجزه تدمير أعدائه، وكان واثقاً أن ربه لن يتخلى عنه، وكان يعرف أن وراء هذا الأذى الشديد حلم ربه سبحانه.

ب - وهذا عبد الله بن مسعود ؓ كان يُسمع المشركين القرآن وهو في جوار الكعبة، فكانوا يضربونه ويؤذونه حتى يتركوه يترنّح، لا تُصلّب له قامّة، وكان يقول: والله ما كانوا أهون عليّ

(١) قرأ السوسي في أحد وجهيه (ولي الله) بياء واحدة مشددة، مع الفتح والكسر فيها، وعلى الفتح يفخم لفظ الجلالة، وعلى الكسر يرقق، ويحذف الياء الأخرى، وقرأ الباقر بيايين: الأولى مشددة مكسورة، والثانية مخففة مفتوحة، وهو الوجه الثاني للسوسي.

منهم حينذاك، لقد كان يوقن أن من يُهنُّ أولياء الله، فهو أهون الناس على الله.

ج - وهذا عبد الله بن مظعون لم يسمح لنفسه أن يحتمي في جوار مشرك يكف عنه الأذى، وله إخوة في الله يعذبون، وكان يعلم أن جوار ربه أعز إليه من جوار العبد، لقد كان من قبل في جوار عتبة بن ربيعة المشرك، فلما ترك جواره، اجتمع المشركون على عتبة حتى فقد عينه، وكان عتبة بعد ذلك يدعو إلى العودة إلى جواره فيقول له: لقد كانت عينك في غنى عما أصابها.

فهذا وأمثاله يمثل نهاية التحدي من أولياء الله لأعداء الله، ويمثل نصر الله لأوليائه ودفاعه عنهم، فإنهم لما لم يتولوا أعداء الله تولاهم الله بعنايته ورعايته.

سادسًا: الأوثان لا تملك تفعةً ولا ضرًا لنفسها ولا لغيرها: قال تعالى:

١٩٧- ﴿وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ لَا يَسْتِطِيعُونَ نَصْرَكُمْ وَلَا أَنْفُسُهُمْ يَنْصُرُونَ﴾

تقدم نظير هذه الآية، والفرق بينهما أن الآية السابقة كانت على سبيل التقرير والتوبيخ، وهذه الآية تفرق بين من تجوز له العبادة، وهو الله رب العالمين الذي يتولى الصالحين بعنايته ورعايته، فيحفظهم وينصرهم، وبين من لا تجوز له العبادة من الأوثان والأصنام، وكل ما يُعبد من دون الله، من كل ما لا يعقل ولا يستجيب، ولا قدرة له على دفع الضر عن نفسه ولا عن غيره، فتبين أن الذين تدعونهم - أيها المشركون - لدفع ضر عنكم أو جلب نفع لكم، لا يمكنهم أن ينصروكم إن وقعتم في شدة أو كرب أو لقاء عدو، فضلًا عن أنهم لا يقدرّون على نصر أنفسهم.

سابعًا: من الأوثان ما هو على صورة حيوانات بلا حياة ولا حركة قال تعالى:

١٩٨- ﴿وَإِنْ تَدْعُوهُمْ إِلَى الْهُدَى لَا يَسْمَعُوا وَتَرَكْنَهُمْ يُظْهِرُونَ إِلَيْكَ وَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ﴾

ثم بين سبحانه أن الأصنام لا يتأتى منها اتباع ولا اعتداء ولا استجابة؛ فهي لا تنفع ولا تضر، ولا تنصر ولا تخذل، فإن دعوتهم إلى الهدى أو عبدتهم، فإنها لا تستجيب لكم؛ لأنها جمادات لا تعقل ولا تشعر، ولا تسمع ولا تبصر ﴿وَتَرَكْنَهُمْ يُظْهِرُونَ إِلَيْكَ وَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ﴾ فمنها التماثيل المصورة على صورة الإنسان، مثل: هبل، وذو

الكفين، وكعيب، كانوا على صورة رجل، ومثل سواع كان على صورة امرأة وهكذا، وفيها أعين مثل الإنسان، ولكن ليس فيها حياة، فلا ترى ولا تسمع ولا تبصر، فإذا رأيتهما تصوّرت أن فيها حياة. وبعد التأمل ترى أنها جمادات لا حياة فيها ولا حركة، وهذه الجمادات اتخذها المشركون آلهة مع الله!

وَجُوبُ الْأَخْذِ بِمَكَارِمِ الْأَخْلَاقِ

١٩٩- ﴿خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ﴾

هذه وصية من الله تعالى لجميع الأمة أن يأخذوا بمكارم الأخلاق، ويقبلوا القليل من أقوال الناس وأفعالهم ومعاشرتهم، فهي آية جامعة لحسن الخلق مع الناس وما ينبغي التعامل به معهم، والله ﷻ يعلمُ رسوله ﷺ كيف يتأدب بآداب الإسلام، ويتخلق بأخلاق الإسلام، وكيف يتعامل مع الناس؛ فيقول:

﴿خُذِ الْعَفْوَ﴾ أي خذ ما سمحت به نفوس الناس من الأعمال والأخلاق ولا تكلفهم ما لا تسمح به طبائعهم، فخذ ما سهل منهم، و عامل به الناس، واجعله وصفاً لك، واقبل اليسير من أخلاق الناس، واترك الغلظة عليهم ولا تكن جافياً قاسياً، والعفو هو اليسير من الفضل.

﴿وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ﴾ وهو المعروف، والصفح عن ذنب المذنب، ولا تؤاخذ به بذنبه، وخذ من الناس اليسير من أخلاقهم، ولا تتطلع إلى الكثير فاقبل أنت وأمتك الميسور من أخلاق الناس من غير تكلف ولا تجسس، واقبل اعتذارهم، ولا تستقص أحوالهم، ولا تطلب منهم ما فيه مشقة عليهم فينفروا منك، وأمرهم بالعرف، أي: بالأمر العادي من القول الحسن والفعل الجميل من كل ما حسنه الشرع.

﴿وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ﴾ اصفح عنهم، وقابل السيئة بالحسنة، ولا تنازع السفهاء، ولا تماري الجهلة الأغبياء، وترفع عن التعامل بالمثل، وتجاوز عن تقصير بعضهم، وغض الطرف عنه ولا تتكبر على ناقص عقل، ولا على صغير أو فقير، وعامل الناس بما تنشرح له صدورهم.

ولما نزلت هذه الآية سأل النبي ﷺ جبريل ﷺ عن معناها، فقال جبريل للنبي عليه

الصلاة والسلام: «إن الله أمرك أن تعطي من حرمك، وتصل من قطعك، وتعفو عمن ظلمك»^(١) لا تعامل الناس بالمثل.

فإذا أعطيت من أعطاك فهذا من باب المكافأة، ولكن أخلاق الإسلام تدعوك إلى أن تعطي من حرمك، وتتفضل عليه، وتكون أعلى وأكرم منه.

وإذا وصلت من وصلك، فهذه معادلة شحيحة؛ لأنها معاملة بالمثل، ولكن أخلاق الإسلام تطلب منك أن تصل من قطعك.

وإذا عفوت عمن عفا عنك، فهذه معاملة بالمعروف، وهو أمر طبيعي، ولكن أخلاق الإسلام تأمرك أن تعفو عمن ظلمك، وتحسن إلى من أساء إليك، هذا هو الإسلام.

روى البخاري وغيره عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: قدم عيينة بن حصن بن حذيفة، فنزل على ابن أخيه، الحر بن قيس، وكان من النفر الذين يُدنيهم عمر، وكان القراء أصحاب مجالس عمر ومشاورته كهولاً كانوا أو شباناً، فقال عيينة لابن أخيه: يا ابن أخي، لك وجه عند هذا الأمير، فاستأذن لي عليه، قال: سأستأذن لك عليه، قال ابن عباس: فاستأذن الحر لعيينة، فأذن له عمر، فلما دخل عليه قال: هي يا ابن الخطاب، فوالله ما تعطينا الجزل، ولا تحكم بيننا بالعدل، فغضب عمر حتى همَّ به، فقال له الحر: يا أمير المؤمنين، إن الله تعالى قال لنبيه ﷺ: ﴿خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ﴾ (١٩٩) وإن هذا من الجاهلين، فوالله ما جاوزها عمر حين تلاها عليه، وكان وقفاً عند كتاب الله^(٢).

وقد أمر الله نبيه أن يأخذ العفو من أخلاق الناس^(٣).

ففي حديث أبي أمامة الباهلي رضي الله عنه عن عقبة بن عامر رضي الله عنه قال: لقيت رسول الله ﷺ

(١) «الدر المنثور» (٦٢٨/٣) وقد أخرجه ابن أبي الدنيا (٢٥) والطبري (٦٤٣/١٠) وبنحوه عند ابن مردويه كما في تخريج «الكشاف» (٤٧٧/١) و«تفسير ابن كثير» (٢٥٩/٣) و«فتح الباري» (٢٥٩/١٣)، وانظر حديث عقبة بن عامر الآتي فهو بلفظه ومعناه.

(٢) البخاري برقم (٤٦٤٢) وابن أبي حاتم (١٦٣٩/٥) والبيهقي (٨٣١٤).

(٣) البخاري في التفسير (٤٦٤٢) والنسائي في التفسير (١٢١٥) وأخرجه ابن أبي حاتم (١٦٣٧/٥) والطبراني

(١٢١٦) والحاكم (١٢٤/١) وقال الهيثمي: رجاله ثقات، «مجمع الزوائد» (٢٥/٧) والبيهقي والطبراني

في «الأوسط» كما قال الهيثمي (٢٨/٧).

فابتدأته فأخذت بيده فقلت: يا رسول الله، أخبرني بفواضل الأعمال؟ فقال: «يا عتبة، صل من قطعك، وأعط من حرمك، وأعرض عن ظلمك»^(١).

قال بعض العلماء: الناس رجلان: إما رجلاً محسناً، فخذ ما عفا لك من إحسانه، ولا تكلفه فوق طاقته، ولا ما يُخرجُه، وإما رجلاً مسيئاً، فمُرْه بالمعروف، فإن تمادى على ضلاله، واستعصى عليك، واستمرَّ في جهله، فأعرض عنه، فلعل ذلك أن يردَّ كيده، قال تعالى: ﴿ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ السَّيِّئَةِ نَحْنُ أََعْلَمُ بِمَا يَصِفُونَ﴾ [٩٦] [المؤمنون]
وقال: ﴿وَلَا تَسْتَوِ الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ﴾ [٢٤] [فصلت].

وقد أثنى الله تعالى على رسوله ﷺ؛ لأنه لئن الجانب، لا يعاقب من أساء إليه، ولا يقابله بمثل صنيعه، قال تعالى: ﴿فِيمَا رَحِمَهُ مِنَ اللَّهِ لَئِنَّ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ﴾ [آل عمران: ١٥٩].

وهذه الآية على قصرها تشتمل على مكارم الأخلاق، وقد جاءت في هذه السورة بعد حديث طويل عن دلائل وحدانية الله تعالى، وإبطال الشرك والشركاء؛ لتبين للناس أن التحلي بمكارم الأخلاق يأتي نتيجة لإخلاص العبادة لله وحده.

وجاء ذلك في ثلاث كلمات تضمنت قواعد الشريعة في المأمورات والمنهيات:

فقد اشتملت كلمة ﴿خُذِ الْعَفْوَ﴾ على الأمر بصلة القاطع، والعفو عن المذنب، والرفق بالمؤمن.
واشتملت كلمة ﴿وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ﴾ على الأمر بصلة الأرحام، وتقوى الله في الحلال والحرام، وغض الأبصار، والاستعداد لدار القرار.
واشتملت كلمة ﴿وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ﴾ على الأمر بالكف عن سفه السفهاء والأغبياء، وأهل الظلم والجهل.

(١) «المسند» (١٤٨/٤) و«سنن الترمذي» برقم (٢٤٠٦) والبيهقي (٨٠٧٩) قال محققو «المسند» (١٧٣٣٤): حديث حسن، وهو حديث طويل، وفي إسناده ضعف، لضعف علي بن يزيد، وجاء أيضاً برقم (١٧٤٥٢) وفيه ابن لهيعة، وقد توبع، وبقي رجاله ثقات رجال الصحيح، وأخرجه الطبراني في الأوسط (٢٢٢) وفي الكبير ١٧/ (٨١٣) وابن ماجه (٢٢٤٦) والحاكم (٨/٢).

وفي هذه الآية تأديب لخلقه باحتمال مَنْ ظلمهم واعتدى عليهم، وليس بالإعراض عمن جهل حق الله الواجب عليه، ولا بالصفح عمن كفر بالله، وحَارَبَ المسلمين، واغتصب ديارهم ومقدساتهم.

التَّحْصُنُ بِاللَّهِ

أما ما ينبغي أن يعامل به العبد شياطين الإنس والجن فقد جاء في قوله تعالى:

٢٠٠- ﴿وَأَمَّا يَنْزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾

وهذه وصية من الله تعالى لعباده أن يلجؤوا إلى الله تعالى في دفع وسوسة الشيطان وهمزه ونفخه ونزغه.

والنزغ: حركة فيها فساد، تستعمل غالباً في فعل الشيطان، ومن فعل الشيطان أن يشير الإنسان إلى أخيه بسلاح، أو بحديدة، ونحوها.

قال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم: لما نزل قول الله تعالى: ﴿خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ﴾ قال النبي عليه الصلاة والسلام: «يا رب، كيف بالغضب؟»^(١) فأنزل الله هذه الآية.

قال تعالى: ﴿وَقُلْ لِعِبَادِي يَقُولُوا الَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ الشَّيْطَانَ يَنْزِعُ بَيْنَهُمْ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلْإِنْسَانِ عَدُوًّا مُبِينًا﴾ [الاسراء: ٥٢].

ومن صيغ الاستعاذة قوله ﷺ فيما يرويه جبير بن مطعم رضي الله عنه: «أعوذ بالله من الشيطان من نفخه ونفته وهمزه»^(٢) ونفته: الشعر، ونفخه: الكبر، وهمزه: الموتة.

والآية مرتبطة بما قبلها، وكأن الله تعالى يقول: إن ألقى إليك الشيطان ما يخالف الأخذ بالعفو، والأمر بالعرف، والإعراض عن الجاهلين، بأن سؤل لك المعاملة بالمثل،

(١) الطبري (٣٣٣/١٣) و«الدر المنثور» (١٥٤/٣) عن عبد الرحمن بن زيد بن أسلم.

(٢) من حديث جبير بن مطعم في «سنن أبي داود» برقم (٧٦٤) و«المسند» (٨٥/٤) برقم (١٦٧٣٩) وهو حديث حسن لغيره، وفيه إبهام الراوي عن نافع بن جبير (محققوه) والطبراني برقم (١٥٦٨) وابن خزيمة برقم (٤٦٨) وابن حبان برقم (١٧٧٩) «الإحسان» و«المستدرک» (٢٣٥/١) والترمذي برقم (٢٤٢) وحسنه الألباني في «إرواء الغليل» (٥١/٢) وفي صحيح «سنن ابن ماجه» (٦٥٨) عن ابن مسعود، وفي «المسند» أيضاً عن أبي أمامة (٢٢١٧٩) وهو حديث حسن لغيره وفيه إبهام الراوي عن أبي أمامة. (محققو المسند).

أو ترك الأمر بالمعروف غضبًا عليهم أو يأسًا مِنْ هُدَاهُمْ، فاستعذ بالله؛ ليدفع عنك هذا الحرج، ويشرح صدرك لمحبة ما أُمِرت به.

والعوذ: هو الالتجاء إلى الله تعالى بالدعاء؛ للعصمة من كيد الشيطان ومكره، ومع عصمة الرسول ﷺ من الذنوب فإنه كان يشكر الله تعالى، ويُظهر الحاجة إليه فيداوم على الاستغفار؛ لأن الشيطان لا ييأس من الوسوسة حتى إلى الأنبياء؛ طمعًا منه في صدور زلة منهم.

جاء في صحيح مسلم عن الأغر المزني رحمه الله - وكان له صحبة - أنه ﷺ قال: «إنه ليغان على قلبي فأستغفر الله في اليوم أكثر من سبعين مرة»^(١).

ونزغ الشيطان: وسوسته ونخسه في القلب، وتثييطه للإنسان عن الخير، وحثه على الشر، فإذا شعرت بشيء من ذلك، كأن عرض لك إشارة منه، أو وسوس إليك الشيطان، وأراد أن يجرك إلى معصية، أو يجعلك سيئًا في أخلاقك وفي معاملتك مع الناس؛ فارجع إلى الله سبحانه والجا إليه، فاستعذ به، فإنه يقيك ويحميك ويعصمك من الشيطان؛ لأنه سميع لكل قول، ومنه وسوسة الشيطان للإنسان، وهو سبحانه عليم بكل فعل، يعلم ما يريده الشيطان من الإنسان.

وليس للشيطان سبيل على الصالحين من عباد الله تعالى، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ﴾ [الإسراء: ٦٥] والأنبياء معصومون من نزغ الشيطان.

والخطاب في الآية يراد به الأمة، كما أن قوله تعالى خطابٌ للرسول ﷺ: ﴿لَئِنْ أَشْرَكَتَ لَيَحْطَبَنَّ عَلَيْكَ﴾ [الزمر: ٦٥] يراد به الأمة أيضًا، وكما قال تعالى: ﴿فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ﴾ [النحل: ٩٨].

ففي الحديث عن ابن مسعود رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «ما منكم من أحد إلا وقد وُكِّلَ به قرينه من الجن، وقرينه من الملائكة» قالوا: وإياك يا رسول الله؟ قال: «وإياي، ولكن الله أعانني عليه، فلا يأمرني إلا بحق»^(٢).

(١) «صحيح مسلم» برقم (٢٧٠٢).

(٢) «المسند» (٣٦٤٨) وهذا لفظه، قال محققوه: إسناده صحيح على شرط مسلم، ورجاله ثقات رجال الشيخين غير أبي الجعد فمن رجال مسلم، وهو في صحيح مسلم (٢٨١٤) وعند أبي يعلى (٥١٤٣) والدارمي (٣٠٦/٢) والطبراني في الكبير (١٠٥٢٢) وابن حبان (٦٤١٧)، وقد جاء هذا الحديث من طرق ورايات متعددة بألفاظ متقاربة.

وقد ورد: «فأسلم» بفتح الميم؛ أي: أسلم القرين وصار مؤمناً فلا يأمره إلا بخير، ورؤي: «فأسلم» بضم الميم، أي: أسلم من شره وفتنته، وفي الحديث تحذير من فتنة الشيطان وإغوائه وكيده ووسوسته.

قال أحد من السلف لتلميذه: ما تصنع بالشيطان إذا سؤل لك الخطايا؟ قال: أجاهده، وأعادها ثلاثاً وهو يقول: أجاهده، وشيخه يقول له: إن هذا يطول، ثم قال له: لو مررت بغنم فنبحك كلبها ومنعك من العبور ماذا تصنع؟ قال: أكابده ما رده جهدي، قال: هذا يطول عليك، ولكن استعن بصاحب الغنم يكفه عنك.

وفي الحديث أن رجلين تسابّا في حضرة النبي ﷺ فغضب أحدهم، حتى احمرّ وجهه وانتفخت أوداجه فقال ﷺ: «إني لأعلم كلمة لو قالها لذهب عنه ما يجد: أعوذ بالله من الشيطان الرجيم» فقل له، فقال الرجل: هل ترى بي من جنون؟^(١).

تَبَايُنُ حَالِ أَهْلِ التَّقْوَى وَأَهْلِ الضَّلَالِ تَجَاهِ نَزَغَاتِ الشَّيْطَانِ

٢٠١- ﴿إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَٰئِفٌ^(٢) مِّنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُمْ مُبْصِرُونَ

ثم بيّن سبحانه حال المتقين عند الإحساس بالذنب ونزغ الشيطان، فقال: ﴿إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا﴾ ربهم بترك المعاصي والإشراك به، العائدين بالله عند وسوسة الشيطان لهم، من عباد الله المتقين الصالحين، الذين أدوا فرائضه، واجتنبوا نواهيه ﴿إِذَا مَسَّهُمْ طَٰئِفٌ مِّنَ الشَّيْطَانِ﴾ أي: إذا مسهم غضب وزين الشيطان لهم ما لا ينبغي، بأن وسوس إليهم وأراد أن يجرهم إلى معصية، فالطائف: هو الشيء الذي يلم بالإنسان ويطوف به فيزين له العمل، عندئذ ﴿تَذَكَّرُوا﴾ أمر الله ونهيه، وعقابه وسخطه، وبحوثا من أي مدخل دخل عليهم كي يتجنبوه، وتذكروا ما وجب عليهم من طاعته تعالى والرجوع إليه ﴿فَإِذَا هُمْ

(١) البخاري برقم (٣٢٨٢، ٦٠٤٨، ٦١١٥) ومسلم (٢٠١٥/٤) برقم (٢٦١٠) وأبو داود (١٤٠/٥) برقم (٤٧٨١) من حديث سليمان بن صُرد، و«صحيح سنن أبي داود» (٣٩٩٩) و«صحيح سنن الترمذي» (٣٦٩٦).

(٢) قرأ ابن كثير وأبو عمر والكسائي ويعقوب (إذا مسهم طيف) على وزن (ضيف) مصدر من طاف يطيف، بحذف الألف بعد الطاء بعدها ياء ساكنة، والباقون (طائف) اسم فاعل، بألف بعد الطاء بعدها همزة مكسورة من غير ياء، من طاف يطوف.

مُبْصِرُونَ ﴿٢٠١﴾ حيث يرد الله إليهم صوابهم، ويقلعون عن المعصية، فيتنهون عن الخطأ، ويبصرون طريق الحق، وَيَعْصُونَ الشيطان، ويتجهون إلى الحق بعد أن تبين لهم طريقه، فاستغفروا الله واستدركوا ما فرط منهم بالتوبة النصوح والחסنات الكثيرة.

أخرج البخاري وغيره بسنده إلى عطاء بن رباح، قال: قال لي ابن عباس رضي الله عنهما: ألا أريك امرأة من أهل الجنة؟ قلت: بلى، قال: هذه المرأة السوداء أتت النبي ﷺ فقالت: إني أصرع وإني أتكشف، فادع الله لي، قال: «إِنْ شِئْتَ صَبِرْتَ وَلَكِ الْجَنَّةُ، وَإِنْ شِئْتَ دَعَوْتَ اللَّهَ أَنْ يَعَافِكَ» فقالت: أصبر، فقالت: إني أتكشف، فادع الله لي ألا أتكشف، فدعا لها^(١)، وهذه المرأة تكنى أم زُفر.

وذكر ابن عساكر في تاريخه أن شاباً كان يتعبد في المسجد، فأحبته امرأة، فدعته إلى نفسها، وما زالت به حتى كاد يدخل معها المنزل، فذكر هذه الآية ﴿إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا﴾ فخر مغشياً عليه، ثم أفاق فأعادها، فمات، فجاء عمر فعزى فيه أباه، وكان قد دُفِنَ ليلاً، فذهب فصلى على قبره بمن معه، ثم ناداه عمر، فقال: يا فتى ﴿وَلَمْ يَخَفْ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّاتٍ﴾ [الرحمن] فأجابه الفتى من داخل القبر: يا عمر، قد أعطانيهما ربي ﷻ في الجنة مرتين^(٢).

وقد أرشدت هذه الآية إلى أن الاستعاذة من سمات المتقين، وأن الإخلال بها من سمات الضالين، وأن المتقين سرعان ما يرجعون إلى الله تعالى ويستجيرون به إذا مسهم طيف من الشيطان، وأن مسه لهم لا يؤثر فيهم؛ وذلك لأن مس الشيطان يعلّق بصيرة الإنسان عن كل خير، والتقوى هي التي تفتح البصيرة، وتجعل الإنسان دائماً يتعظ، متذكراً لأمر الله تعالى ونهيه، فينتصر على وساوس الشيطان وهمزاته.

أما إخوان الشياطين وأولياؤهم فإنهم يقعون في الذنب بعد الآخر، لأن الشياطين قد طمعت فيهم لَمَّا قادتهم بسلاسة، قال تعالى:

٢٠٢- ﴿وَإِخْوَانُهُمْ يَمُدُّوهُمْ^(٣) فِي الْغَيِّ ثُمَّ لَا يُقْصِرُونَ﴾

(١) «صحيح البخاري» برقم (٥٦٥٢) و«صحيح مسلم» برقم (٢٥٧٦) و«المستدرک» (٢١٨/٤).

(٢) تاريخ دمشق لابن عساكر (٤١١/١٣) مخطوط و«مختصر تاريخ دمشق» لابن منظور (١٩٠/١٩).

(٣) قرأ نافع وأبو جعفر بضم الياء وكسر الميم من (يمدونهم) مضارع أمد، والباقون بفتح الياء وضم الميم مضارع مد.

وبعد أن وصف سبحانه حال المتقين مع الشياطين، يصف حال من لم يتقوا الله تعالى ولم يلجؤوا إلى حماه عند نزغات الشيطان؛ فإن إخوان الشياطين في الغي والضلال يختلفون عن الإخوان في الله، فالشياطين يمدون إخوانهم من الإنس بوسائل الفساد والهلاك، ولا يقصرون في إغوائهم، فلا يزالون يوقعونهم في الذنوب، فيجدونهم لا يقصرون في ارتكابها.

ومدُّ الشيطان لأتباعه في الغي هو التزيين والإغواء:

قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّا أَرْسَلْنَا الشَّيَاطِينَ عَلَى الْكَافِرِينَ تَؤْزُهُمْ أَزًّا﴾ [مريم] وقال سبحانه:

﴿يَمْعَشَرُ الْجِنُّ قَدِ اسْتَكْرَتْهُ مِنَ الْإِنْسِ﴾ [الأنعام: ١٢٨] أي: من إضلالهم وإغوائهم.

فأهل الضلال وإخوان الشياطين يقودون إخوانهم أهل الضلال من الإنس، وهم مستمرّون في إغوائهم وإفسادهم، فهم يمدونهم في الغي ﴿ثُمَّ لَا يُقْصِرُونَ﴾ أي: لا يتركون جهداً يبذلونه في سبيل إغوائهم وإضلالهم، ولا يدخرون وسعاً في مدّهم بالغي، كما أن شياطين الإنس لا يدخرون وسعاً في العمل بما يوحي به إليهم شياطين الجن، وهذا بخلاف المؤمن التقي، فإنه لا يستمر في طريق الشيطان، بل يكف عن الضلال، ويتزع ويتوب، ولا يسترسل في آثامه.

الْقُرْآنُ أَعْظَمُ مِنَ الْمُعْجَزَاتِ الْكَوْنِيَّةِ الَّتِي يَطْلُبُهَا الْمُكَذِّبُونَ

٢٠٣- ﴿وَإِذَا لَمْ تَأْتِهِمْ^(١) بِآيَةٍ قَالُوا لَوْلَا اجْتَبَيْتَهَا قُلْ إِنَّمَا أَتَيْتُ مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ مِنْ رَبِّي هَذَا بَصَآئِرٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾

ومن مقالات الجاهلين التي أمر النبي ﷺ أن يعرض عنها، طلبهم لخوارق العادات، أو نزول آية من القرآن فيها مدح لهم ولأصنامهم، وربما تأخر الوحي عن رسول الله ﷺ أحياناً، فكان المشركون يقولون له إذا تأخر الوحي:

ألسنت نبياً؟ هلاً اخترت، أو اخترت لنا آية، فأتنا بقرآن من عند نفسك، أو اثنتا بمعجزة خارقة، اثنتا بالآية الفلانية، أو المعجزة الفلانية، وهم يزعمون أن كل ما يأتي به

(١) أبذل همزة (تأتيهم) ألفاً رويس، والباقون بهمزة ساكنة.

النبي ﷺ هو من عند نفسه .

وكان المشركون يتعتون بسؤالهم لرسول الله ﷺ ويطلبون منه الخوارق؛ كناقصة صالح، وعصا موسى ﴿وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَنِهِمْ لَئِنْ جَاءَتْهُمْ آيَةٌ لَّيُؤْمِنُنَّ بِهَا قُلْ إِنَّمَا الْآيَاتُ عِنْدَ اللَّهِ﴾ [الأنعام: ١٠٩].
وكانوا لا يقنعون بمعجزة القرآن: ﴿قَالَ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا أَتَيْتَ بِشِرْءٍ غَيْرِ هَذَا أَوْ بَدِّلَهُ﴾ [يونس: ١٥] فكانوا يسألونه معجزة حسية مثل هذه المعجزات .

والله سبحانه يجيبهم ﴿وَإِذَا لَمْ تَأْتِهِم بِآيَةٍ﴾ إذا لم تأت - يارسولنا - هؤلاء المشركين بآية كونية، كالعصا واليد، أو لم تأتهم بآية من القرآن - وكل ذلك محتمل، فلفظ آية يشمل المعنيين معاً - فإذا لم يجيبهم إلى ما طلبوه، اتهموه ولم ينقادوا له، وزعموا أن بإمكانه أن يأتي بها؛ لأنها من عنده ﴿قَالُوا لَوْلَا آجَبْتَهُمْ﴾ يعني: هلا أتيت بها من عندك هلا اختلقتها وافتعلتها؟ ألسنت برسول؟

فأمره الله ﷻ أن يجيبهم بأن ما يأتي به الرسول يرجع الأمر فيه إلى الله ﷻ، فهو الذي يُنزل الوحي متى شاء، لا راداً لقضائه ولا معقب لحكمه، قال تعالى: ﴿إِنْ شَأْنٌ نُنَزِّلْ عَلَيْهِم مِّنَ السَّمَاءِ آيَةً فَظَلَّتْ أَعْنَاقُهُمْ لَهَا خَاضِعِينَ﴾ [الشعراء]

﴿قُلْ﴾ لهم أيها الرسول ﴿إِنَّمَا أَتَّبِعُ مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ مِنْ رَبِّي﴾ فأنا عبد مُتَّبِع، والله هو الذي ينزل علي الآيات:

قل - أيها الرسول - لهؤلاء المشركين: ما أنا إلا رسول، ما أنا إلا عبد يوحى إليه، والآيات التي تطلبونها إنما هي من عند الله، ولا أملكها، وأنا مأمور باتباع الوحي، أليس في هذا القرآن كفاية لكم؟

ثم أرشدهم - أيها الرسول - إلى أن هذا القرآن هو أعظم المعجزات، وأصدق الحجج، وأوضح الدلالات، وكان النبي ﷺ لا يطلب آية غير ما أوحى الله به إليه، كما صح في الحديث عن أبي هريرة ؓ: «ما من الأنبياء من نبي إلا قد أُعطي من الآيات ما مثله آمن عليه البشر، وإنما كان الذي أوتيت وحياً أوحاه الله إليّ، فأرجو أن أكون أكثرهم تابِعاً يوم القيامة»^(١).

(١) من حديث أبي هريرة في «صحيح مسلم» برقم (١٥٢) و«صحيح البخاري» برقم (٤٩٨١، ٧٢٧٤).

وكانَّ النبي ﷺ يقول: أنا أنتظر ما يوحى إليّ، ولا أستعجل نزول القرآن إذا تأخر.

ثم وصف الله هذا القرآن بأنه علامات يُهتدى بها، وأنوار تضيء القلوب، وحجة لا تبطل في جميع الأوقات ﴿هَذَا بَصَائِرُ مِنْ رَبِّكُمْ﴾ تكشف وتنير وترشد إلى الحق؛ ويُستبصر بها في جميع الأمور الدينية والدنيوية والمقاصد الإنسانية، فإن هذا القرآن فيه الهدى والنور، والحجج والبراهين، وتنوير العقول والقلوب ﴿قَدْ جَاءَكُمْ بَصَائِرُ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنْ أَبْصَرَ فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ عَمِيَ فَعَلَيْهَا﴾ [الأنعام: ١٠٤] فيه هدى من الضلالة ورحمة من العذاب للمؤمنين خاصة ﴿وَهْدَىٰ وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ فالمؤمن مهتد بالقرآن، متبع له، سعيد في دنياه وأخراه، ومن لم يؤمن به ضال شقي في الدنيا والآخرة.

هذه مراتب ثلاث هي: البصائر، والهدى، والرحمة، وكلها درجات للمؤمنين، وطرق متفاوتة لدخول الجنة، وهي ما يسميه بعض أهل العلم: عين اليقين، وعلم اليقين، وحق اليقين:

أ - أما عين اليقين وهي أعلى مراتب المؤمنين، فهي لمن بلغ الغاية في إخلاص التوحيد لله، فهو كالمشاهد الذي يعبد الله كأنه يراه، وهؤلاء هم السابقون، أهل البصائر.

ب - وأما علم اليقين فهم أهل النظر والاستدلال، يعبدون الله تعالى كأنه يراهم، وهم على هدى من الدليل والاستنارة، وهم أهل اليمين، وأهل الهدى.

ج - أما حق اليقين فهم أهل الرحمة من عامة المؤمنين المسلمين، المستسلمين بعقولهم وقلوبهم لله رب العالمين.

أما غير المؤمنين فالقرآن عليهم عمى عقوبة لهم من الله تعالى ﴿قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدًى وَشَفَاءٌ وَلِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِي آذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى﴾ [فصلت: ٤٤].

وَجُوبُ الْإِنْصَاتِ عِنْدَ اسْتِمَاعِ الْقُرْآنِ قَصْدًا

٢٠٤ - ﴿وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنْصِتُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ (٢٤)

جاء في أسباب نزول هذه الآية ما يلي:

(١) قرأ أبو جعفر بإبدال همزة (قرئ) ياء مفتوحة وصلًا وساكنة وقفًا، ومثله حمزة وهشام بخلف عنه في حالة الوقف، والباقون بهمزة مفتوحة وصلًا وساكنة وقفًا.

١- عن زيد بن أسلم، عن أبيه، عن أبي هريرة رضي الله عنه أنه قال: نزلت في رفع الأصوات وهم خلف رسول الله ﷺ في الصلاة^(١).

٢- وعن أبي هريرة وقتادة قالوا: كانوا - أي الناس - يتكلمون في صلاتهم بحوائجهم، ويصيحون عند آيات الرحمة وآيات العذاب في أول ما فرضت - يعني الصلاة - وكان الرجل يجيء يقول لصاحبه: كم صليتم وكم بقي؟ فيقول: كذا وكذا، فأمرُوا بالإنصات في الصلاة^(٢).

٣- وقال الزهري: نزلت في فتى من الأنصار، كان رسول الله ﷺ كلما قرأ شيئاً قرأه، فنزلت الآية^(٣).

٤- وقال ابن عباس رضي الله عنهما: إن رسول الله ﷺ قرأ في الصلاة المكتوبة، وقرأ أصحابه وراءه رافعين أصواتهم، فخلطوا عليه، فنزلت الآية^(٤).

٥- وعن سعيد بن المسيب قال: كان المشركون يأتون رسول الله ﷺ إذا صلى، فيقول بعضهم لبعض: لا تسمعوا لهذا القرآن والغوا فيه، فأنزل الله: ﴿وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنْصِتُوا﴾^(٥).

٦- وعن ابن مسعود رضي الله عنه: أن ناساً كانوا يقرءون مع الإمام، وآخرون كان يسلم بعضهم على بعض في الصلاة، فنزلت الآية^(٦).

هذه طائفة من أسباب النزول، كلها تشير إلى أن هذه الآية نزلت بصفة عامة في وجوب الاستماع والإنصات حال قراءة القرآن، وفي منع الكلام أثناء الصلاة على وجه الخصوص؛ حيث كان الكلام مباحاً في الصلاة في بدء فرضيتها، كما أن المشركين كانوا

(١) «زاد المسير» (٢٠٣/٣).

(٢) «زاد المسير» (٣١٢/٣) و«الدر المنثور» (١٥٥/٣) والطبري (٣٤٥/١٣) وانظر: ابن أبي شيبه (٤٧٨/٢) وابن أبي حاتم (١٦٤٥/٥) والبيهقي في «السنن» (١٥٥/٢).

(٣) «تفسير الطبري» (١١١/١٣) والقرطبي (٣٥٣/٧) والبيهقي (٢٨١) في كتاب القراءة في الصلاة.

(٤) «تفسير الطبري» (٣٤٤/١٣) والبيهقي في القراءة (٢٨٠).

(٥) «تفسير القرطبي» (٣٥٢/٧).

(٦) «تفسير الطبري» الموضع السابق.

يحرصون الناس على اللغو وعدم الإنصات إلى القرآن حين يُتلى ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَسْمَعُوا لِهَذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [فصلت: ٢٦]

والقول بأن الآية نزلت في وجوب الإنصات حال خطبة الجمعة لا يصح؛ لأن هذه الآية مكية، وقد فرضت صلاة الجمعة في المدينة.

إذن فقد كان المشركون الكبار، يرسلون غيرهم إذا قرأ الرسول ﷺ القرآن؛ ليشوشوا عليه، وكان بعض المسلمين يتكلمون أثناء الصلاة في بداية الدعوة؛ فأنزل الله سبحانه آية عامة تأمر بوجوب الإصغاء والسكوت التام عند تلاوة القرآن في الصلاة الجهرية، وفي القراءة الجهرية أيضاً خارج الصلاة، ووجوب تدبره وتفهم معانيه؛ رجاء رحمة الله تعالى.

﴿وَإِذَا قُرِئَ عَلَيْكُمْ الْقُرْآنُ﴾ في مجلس، أو من مدياع، أو في حفل، أو في الصلاة، أو في خطبة الجمعة، أيًا ما كان الأمر ﴿فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنْصِتُوا﴾ إذ ليس المطلوب مجرد استماع فحسب، إنما المطلوب الإنصات أيضاً، والإنصات أبلغ من الاستماع، وهو أقوى وأكبر أثراً في التدبر والتأمل.

والفرق بين الإنصات أو الاستماع، والسماع: أن السماع يكون بدون قصد الاستماع، فهو في الظاهر، يكون بترك التحدث وعدم الاشتغال عنه بأمرٍ ما.

أما الاستماع فيكون بحضور القلب وتدبر ما يستمع، فهو يستمع عن قصد، ومن فعل هذا نال خيراً كثيراً وعلمًا غزيراً، وإيماناً متجدداً، وهُدًى متزايداً، وبصيرة في دينه ودنياه. وقد دلت الآية على أن من لم يستمع ولم يُنصت أنه محروم الحظ من الرحمة، قد فاته خير كثير.

وفي حديث أبي موسى الأشعري ؓ، أن رسول الله ﷺ قال: «... إذا صليتم فأقيموا صفوفكم...، وإذا قرأ فأنصتوا...»^(١).

﴿لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ والله سبحانه علّق رحمته جلّ شأنه حال الاستماع للقرآن على الإنصات له والعمل بما فيه، وتدبر معانيه.

(١) «صحيح مسلم» برقم (٤٠٤).

وللعلماء في وجوب السكوت والاستماع أثناء قراءة القرآن أقوال أربعة:

الأول: أنه يجب الاستماع إلى القرآن على العموم في أي وقت، وفي أي موضع تُلي فيه القرآن جهراً، بقصد الاستماع من المستمع، أما إذا كان القرآن يُتلى جهراً، وهو لا يقصد الاستماع، كأن سمعه في الطريق أو في مكان عام فلا يلزم.

وفي الأثر: «من استمع إلى آية من كتاب الله كُتبت له حسنة مضاعفة، ومن تلاها كانت له نوراً يوم القيامة»^(١).

الثاني: أن المراد بذلك هو تحريم الكلام في الصلاة، فالمراد بالقرآن في الآية: القراءة في الصلاة، وقد كان المسلمون يتكلمون بحوائجهم في الصلاة، وكان بعضهم يسلم على بعض، فأمرُوا بالسكوت والاستماع.

الثالث: أن المراد بالإنصات في الآية: ترك الجهر بالقراءة خلف الإمام.

وقد ذكر ابن مسعود وأبو هريرة رضي الله عنهما أن المسلمين كانوا يقرؤون مع الإمام جهراً بأصواتهم في الصلاة، فنُهوا عن ذلك.

الرابع: أن المراد: هو السكوت والإصغاء في خطبة الجمعة.

قلت: ومع أن الآية مكية وصلاة الجمعة قد أقيمت بالمدينة إلا أن الآية تشمل ذلك بعد نزولها، والسنة توضح ذلك كما في الحديث عن أبي هريرة رضي الله عنه: «إذا قلت لصاحبك أنصت يوم الجمعة والإمام يخطب فقد لغوت»^(٢).

وأقول: إن الآية عامة، تشمل كل ما ذُكر من وجوب الاستماع للقرآن قصداً، وفي الصلاة وأثناء الخطبة، وقد بيّنت السنة أن الصلاة لا يجوز فيها الكلام، وكذا المأموم لا يقرأ شيئاً أثناء جهر الإمام بالفاتحة أو القراءة.

أما قراءة المأموم للفاتحة في ركعتي الجهر فالذي يرجحه جمهور أهل العلم: أن يقرأ

(١) تفرد به أحمد في «المسند» (٣٤١/٢) برقم (٨٤٩٤) والبيهقي في «الشعب» (١٩٨١) عن أبي هريرة، عن الحسن البصري، ولم يسمع من أبي هريرة؛ ولذا ضعفه محققو «المسند».

(٢) من حديث أبي هريرة في البخاري برقم (٩٣٤) ومسلم برقم (٨٥١).

المأموم الفاتحة في سكتات الإمام؛ خروجًا من الخلاف، وجمعًا بين الأدلة التي تأمر بوجوب الإنصات في هذه الآية.

ومثلها حديث أبي موسى رضي الله عنه: «إنما جعل الإمام ليؤتم به، فإذا كبر فكبروا وإذا قرأ فأنصتوا»^(١).

مع حديث عبادة بن الصامت: «لا صلاة لمن لم يقرأ بفاتحة الكتاب»^(٢).

وإن ابتدأ المأموم في قراءة الفاتحة، ثم شرع الإمام سريعًا في قراءة القرآن، فليكمل المأموم الفاتحة، فقراءتها لا تستغرق لحظات.

وَجُوبُ ذِكْرِ اللَّهِ تَعَالَى فِي كُلِّ حَالٍ وَفِي كُلِّ وَقْتٍ

٢٠٥- ﴿وَاذْكُرْ رَبَّكَ فِي نَفْسِكَ تَضَرُّعًا وَخِيفَةً وَدُونَ الْجَهْرِ مِنَ الْقَوْلِ بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ وَلَا تَكُنْ مِنَ الْغَافِلِينَ﴾

ثم وجه الله سبحانه رسوله ﷺ وأتمته من بعده إلى وجوب ذكره تعالى وتسييحه وتقديسه والثناء عليه بمحامده في جميع أجزاء الليل والنهار، فقال: ﴿وَاذْكُرْ رَبَّكَ فِي نَفْسِكَ﴾ والخطاب عام لسائر المكلفين، والذكر في النفس أبعد عن الرياء، وأقرب للإخلاص، والذكر يكون بالقلب وباللسان وبالجوارح ويكون بالجميع، ثم ذكر سبحانه ثلاث حالات للذكر:

أولها: ﴿تَضَرُّعًا﴾ أي: تذللًا وخشوعًا وتواضعًا واستكانة مع تكرار أنواع الذكر باللسان.

وثانيها: ﴿وَخِيفَةً﴾ أي: تخوفًا من عذاب الله سبحانه بحضور قلب واستشعار لعظمة الله سبحانه.

وثالثها: ﴿وَدُونَ الْجَهْرِ مِنَ الْقَوْلِ﴾ أي: إذا أردت أن ترفع صوتك فلا تنادي بصوت عالٍ، فأنت لا تدعو أصمًا، ولا غائبًا إنما تدعو سميعًا بصيرًا.

ولما سأل بعض الصحابة رسول الله ﷺ فقالوا: أقریب ربنا فتناجیه، أم بعيد فتناديه؟ أنزل الله تعالى: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ﴾ [البقرة: ١٨٦].

(١) «صحيح مسلم» برقم (٤٠٤، ٤١١، ٤١٢، ٤١٧) و«صحيح البخاري» برقم (٣٧٨، ٨٠٥، ١١١٤) و«المسند» (٨٨٨٩، ٩٤٣٨) وأبو داود (٦٠٤) وابن ماجه (٨٤٦) والنسائي (٩٢٠).

(٢) من حديث عبادة بن الصامت في «صحيح البخاري» برقم (٧٥٤) وانظر: (٦٨٠) و«صحيح مسلم» برقم (٤١٩).

ومما جاء في التوسط بالصوت في الدعاء ما جاء عن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه قال: كنا في سفر، فجعل الناس يجهرون بالتكبير، فقال عليه السلام: «أيها الناس، اربعوا على أنفسكم، إنكم لا تدعون أصمًا ولا غائبًا، إنكم تدعون سميعًا قريبًا وهو معكم»^(١).

واسأل ربك بصوت متوسط ليس فيه ارتفاع ولا انخفاض، في أول النهار وآخره، وهذا معنى: ﴿بِالْعُدُوِّ وَالْأَصَالِ﴾ حيث يأمرنا ربنا أن نذكره سبحانه صباحًا ومساءً، وفي جميع الأوقات، وأن نكثر من ذكره جلَّ شأنه على وجه الخصوص في هذين الوقتين: الغدو، والآصال.

وهذان الوقتان: أول النهار وآخره، فيهما تُرفع الأعمال إلى رب العالمين، كل يوم بعد صلاة الفجر وبعد صلاة العصر، والمراد أول النهار وآخره؛ لأن الآية مكية، فهي شاملة لكل أنواع الذكر.

﴿وَلَا تَكُنْ مِنَ الْغَافِلِينَ﴾ اللاهين عن ذكر ربك في سائر الأوقات، قال تعالى: ﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ الْغُرُوبِ﴾ (٣٩) وَمِنَ اللَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَأَدْبَرَ الشُّجُورِ ﴿١٠﴾ [ق]. فلا تكن ممن نسوا الله فحرموا أنفسهم خير الدنيا والآخرة، وأقبلوا على أسباب الشقاء والتعاسة.

وأقول: إن المراد من الآية الحث على ذكر الله تعالى بتلاوة القرآن وتسبيحه وتحميده وتهليله وتكبيره وما إلى ذلك في جميع الأوقات، وفي جميع الحالات والمواضع:

اذكره جهراً بصوت مرتفع بخشوع واستكانة، وهذا ما تعنيه كلمة ﴿نَضْرَعًا﴾.

واذكره سراً في نفسك خوفاً من الله تعالى، وهو المراد بقوله: ﴿وَخِيفَةً﴾.

واذكره بين الجهر والإسرار، وهذا هو معنى: ﴿وَدُونَ الْجَهْرِ مِنَ الْقَوْلِ﴾.

فاذكر الله في خلوتك كما تذكره في جلوتك.

وكلمة ﴿فِي نَفْسِكَ﴾ أول الآية، تنصب على الجميع، وتخطب الرسول ﷺ وأمته.

وجميع الكلام يخرج من النفس والصدر، أي: في نفسك وصدرك، والذكر يشمل القرآن وغيره.

(١) هذا اللفظ لمسلم ورقمه (٢٧٠٤) ورواه البخاري برقم: (٩٩٢، ٤٢٠٢).

ويؤخذ من الآية أن للذكر آداباً منها:

- ١- أن الذكر في النفس مع تحريك اللسان ومواطئته للقلب أقرب إلى الإجابة، وأبعد عن الرياء، وأقرب إلى حسن التفكير.
- ٢- أن يكون الذكر على سبيل التذلل والخضوع لله تعالى، والاعتراف بالتقصير، والشعور بالندم.
- ٣- أن يكون الباعث على الذكر خشية النفس، وخضوع القلب، خشية من الله تعالى وخوفاً منه، والطمع في جنته والبعد عن ناره.

التَّاسِي بِالْمَلَائِكَةِ فِي التَّسْبِيحِ وَالْعِبَادَةِ

وهذا صنف من المخلوقات، عبادتهم مستديمة، وتسبيحهم لا ينقطع، قال تعالى:

﴿إِنَّ الَّذِينَ عِنْدَ رَبِّكَ لَا يَسْكُرُونَ عَنْ عِبَادِهِ وَسَبِّحُونَهُ وَلَمْ يَسْجُدُوا﴾ (٢٠٦)

ثم يذكرنا رب العالمين في نهاية السورة أن نشبه بملائكته الكرام، الذين لا يغفلون عن ذكر الله ﷻ لحظة من اللحظات ﴿إِنَّ الَّذِينَ عِنْدَ رَبِّكَ﴾ وهم الملائكة الكرام، ومنهم حملة العرش والحفظة، كلهم منقادون لأوامر الله تعالى، غير متعالين ولا متكاسلين، فهم يسبحون الله في الليل والنهار، ويتزهونه عما لا يليق به، ويسجدون له وحده لا شريك له، على علو مرتبتهم وشرفهم وعصمتهم، وهم خاضعون لعظمته تعالى.

وأعمال العباد تنقسم إلى قسمين:

أعمال القلوب؛ وهي عقيدة التوحيد، وتنزيه الله تعالى عن كل نقص، وهذا ما يشير إليه قوله تعالى: ﴿وَسَبِّحُونَهُ﴾

وأعمال الجوارح، ومنها السجود المشار إليه في قوله سبحانه: ﴿وَلَمْ يَسْجُدُوا﴾ .

فينبغي على القارئ والمستمع أن يسجد عند هذه الآية وأمثالها؛ ليوافق الملائكة المقربين في عبادتهم، ومن الأحاديث في هذا ما جاء:

١- في الصحيحين عن عبد الله بن عمر رضي الله عنه أن النبي ﷺ كان يقرأ القرآن، فيقرأ سورة

فيها سجدة، فيسجد ونسجد معه، حتى ما يجد بعضنا موضعاً لمكان جبهته^(١).

٢- وفي صحيح مسلم وغيره، عن أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «إذا قرأ ابن آدم السجدة فسجد اعتزل الشيطان يبكي، يقول: يا ويلي، أمر ابن آدم بالسجود فسجد فله الجنة، وأمرت بالسجود فأبيت فلي النار»^(٢).

٣- وعن ثوبان رضي الله عنه مولى رسول الله ﷺ قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «عليك بكثرة السجود؛ فإنك لا تسجد لله سجدة إلا رفعك الله بها درجة وحط عنك بها خطيئة»^(٣).

٤- وعن عائشة رضي الله عنها قالت: كان رسول الله ﷺ يقول في سجود القرآن بالليل: «سجد وجهي للذي خلقه، وشق سمعه وبصره بحوله وقوته، فتبارك الله أحسن الخالقين»^(٤).

سجود التلاوة:

وهذه أول سجدة في القرآن، وفي القرآن الكريم خمسة عشر موضعاً للسجودات، منها ثلاث في المفصل في آخر سورة النجم، والانشقاق، والعلق، وفي الحج سجدتان [١٨]، [٧٧]، وفي آخر سورة الأعراف، وفي الرعد [١٥]، وفي النحل [٥٠]، والإسراء [١٠٩]، ومريم [٥٨] والفرقان [٦٠]، والنمل [٢٦]، والسجدة [١٥]، وفصلت [٣٨]، وص [٢٤].

واختلف في بعضها على النحو التالي:

المالكية والحنفية: لم يُعدَّ آخر سورة الحج.

ولم يعد المالكية آخر سورة النجم والانشقاق والعلق.

ولم يعد الحنابلة والشافعية سجدة سورة ص.

فعدد السجودات عند المالكية: إحدى عشرة سجدة، وعند البقية أربع عشرة سجدة^(٥).

(١) «صحيح مسلم» برقم (٥٧٥) و«صحيح البخاري» برقم (١٠٧٥، ١٠٧٦، ١٠٧٩) وأبو داود (١٤١٢) والبيهقي (٣١٢/٢)

(٢) «صحيح مسلم» برقم (١٣٣) وابن ماجه (١٠٥٢) والبيهقي في «السنن» (٣١٢/٢) وفي «الشعب» (١٤٨٧)

(٣) «صحيح مسلم» برقم (٤٨٨).

(٤) «المسند» (٢٤٠٢٢) دون (فتبارك الله .) قال محققوه: وهو حديث صحيح، وفيه رجل مبهم بين ابن مهران وأبي

العالية، وبقي رجاله ثقات رجال الشيخين، وابن أبي شيبه (٢٠/٢) وأبو داود (١٤١٤) والترمذي (٥٨٠، ٢٤٢٥)

والنسائي (١١٢٨) والدارقطني (٤٠٦/١) و«صحيح سنن أبي داود» (١٢٥٥)، بتصحیح الألباني له.

(٥) من بحث كامل في سجود التلاوة للمؤلف في كتاب «فن الترتيل وعلومه» (٤٠٧/١) وما بعدها.

وقيل في سبب نزول هذه الآية: إن كفار مكة قالوا: ﴿أَنسَجِدُ لِمَا تَأْمُرُنَا﴾ فنزلت الآية؛ لتخبر أن الملائكة وهم أكبر شأناً، لا يتكبرون عن عبادة الله تعالى.

جاء في الحديث: عن أبي ذر رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «أطت السماء وحق لها أن تئط، ما فيها موضع أربع أصابع إلا وملك واضع جبهته ساجداً لله»^(١).

وفي الحديث عن جابر بن سمرة رضي الله عنه أن النبي ﷺ: «ألا تصفون كما تصف الملائكة عند ربها، يتمون الصفوف الأول، ويتراصون في الصف»^(٢).

في فضل الذكر:

- أ - وذكر العبد لربه في نفسه فيه إشعار بقربه منه وفضله وإحسانه عليه، وهذا هو (مقام الرجاء).
- ب - فإذا تذكر العبد إنعام الله عليه، قَوِيَ في نفسه مقام الرجاء، ودعا ربه تضرعاً وخيفة، وهو (مقام الخوف).
- ج - فإذا قوي في قلب العبد داعي الخوف والرجاء قوي إيمانه، وكان بين الخوف والرجاء، فيتغلب عليه جانب الخوف وهو في حال الصحة والغنى، ويتغلب عليه جانب الرجاء إذا دنا أجله.
- عن أنس بن مالك رضي الله عنه أن النبي ﷺ دخل على شاب وهو في الموت، فقال: «كيف تجدك؟» قال: أرجو الله يا رسول الله، وأخاف ذنوبي، فقال عليه الصلاة والسلام: «لا يجتمعان في قلب عبد في مثل هذا الموطن إلا أعطاه الله ما يرجو وآمنه مما يخاف»^(٣)، والمراد بهذا الموطن: ساعة النزع الأخير.

تم تفسير (سورة الأعراف) والله الحمد والمئة

(١) من حديث أبي ذر في «صحيح سنن الترمذي» برقم (١٨٨٢) وقال الترمذي: حديث حسن غريب، ورواه أحمد برقم (٢١٥١٦) وهو حديث حسن لغيره وابن ماجه في صحيح سننه برقم (٤١٩٠) وحسنه الألباني، وهو عند البزار (٣٥٢٤).

(٢) من حديث جابر بن سمرة في «صحيح مسلم» برقم (٤٣٠).

(٣) «سنن ابن ماجه» برقم (٤٢٦١) و«سنن الترمذي» (٩٩٤) وقال: حديث حسن غريب وإسناده حسن كما قال الألباني في «صحيح سنن الترمذي» برقم (٧٨٥) وصحيح «سنن ابن ماجه» (٣٤٣٦)، وهو في السلسلة الصحيحة (١٠٥١) وفي مشكاة المصابيح (١٦١٢).

تَفْسِيرُ سُورَةِ الْأَنْفَالِ (٨)

مُقَدِّمَةُ السُّورَةِ

سورة الأنفال هي السورة الثامنة في ترتيب المصحف، والتاسعة والثمانون في ترتيب النزول، نزلت بعد سورة آل عمران وقبل سورة الأحزاب، وهي خمس وسبعون آية في العدد الكوفي^(١).

وعدد كلماتها: ألف وست مئة وإحدى وثلاثون كلمة.

وعدد حروفها: خمسة آلاف ومئتان وأربعة وتسعون حرفاً.

وسورة الأنفال سورة مدنية، نزلت في غزوة بدر الكبرى في شهر رمضان من العام الثاني للهجرة، بعد تسعة عشر شهراً من الهجرة، وبعد تحويل القبلة بشهرين، ابتداء نزولها قبل قسمة غنائم بدر، واستمر نزولها إلى الانصراف من بدر، وهي ثاني سورة ابتداء نزولها بالمدينة بعد نزول بعض سورة البقرة، وانتهى نزولها بعد نزول بعض آي سورة آل عمران.

وقد عُرفت هذه السورة باسم (سورة بدر)، وعُرفت أيضاً باسم (سورة الأنفال)، وغلبت هذه التسمية عليها بعدما كُتبت أسماء السور في المصاحف في عهد الحجاج.

ووضعها في هذا المكان من المصحف هي وسورة براءة أمرٌ توقيفي كسائر السور على الأرجح.

مَوْضُوعُ سُورَةِ الْأَنْفَالِ

نزلت سورة بدر؛ لتوجّه المؤمنين، وتبيّن لهم عوامل النصر على العدو في خوضهم للمعارك المستقبلية معه، وجاء ذلك في نداءات ستة موجهة للمؤمنين، هي بمثابة التريية والإعداد للمعارك:

١ - فحذّرت من الفرار عند لقاء العدو؛ فإن ذلك من كبائر الموبقات، وتوعّدت الفارّين

(١) وست وسبعون آية عند أهل مكة والمدينة والبصرة، وسبع وسبعون عند أهل الشام، والآيات المختلف في عددها ثلاث هي: (ثم يغلبون) [٣٦] عدها الشامي والبصري وتركها غيرهما، (كان مفعولاً) [٤٢] تركها الكوفي وعدها غيره، (وبالمؤمنين) [٦٢] تركها البصري وعدها غيره.

بأشد العذاب ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا لَقِيتُمْ الَّذِينَ كَفَرُوا زَحَفًا فَلَا تُولُوهُمْ الْآذِبَارَ ۝١٥﴾ .

٢- وأمرت بالسمع والطاعة، والبعد عن المعاصي والذنوب، فإن ذلك من أهم عوامل النصر على العدو ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَا تَوَلَّوْا عَنْهُ وَأَنْتُمْ تَسْمَعُونَ ۝٢٠﴾ .

٣ - وبيئت أن سرعة الاستجابة لأوامر الله ورسوله فيها عز الدنيا وسعادة الآخرة ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ ۝٢٤﴾ .

٤- كما بيئت أن الحرب خدعة؛ ولذا: فإن أسرار الخطط الحربية، وإفشاء سر المسلمين، وبيان توجهاتهم ونياتهم، وتحركاتهم للعدو، خيانة عظمى ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَخُونُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ وَتَخُونُوا أَمْنَتَكُمْ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ ۝٢٧﴾ .

٥- وحثت على تقوى الله تعالى في السر والعلن، وامتنال أمره واجتناب نهيه، وتحكيم شرعه، والخوف من لقائه، وبيئت أن ذلك من أكبر عوامل النصر على العدو، ومن أسباب السعادة في الدنيا والآخرة ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنْ تَفَقَّوْا اللَّهُ يَجْعَلْ لَكُمْ فُرْقَانًا وَيُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ۝٢٩﴾ .

٦- و يأتي النداء السادس في سورة الأنفال؛ ليحدد سبعة أسس هي مفاتيح النصر على الأعداء، وهي:

(أ) الثبات في مواجهة العدو وعدم الفرار من ساحة القتال ﴿إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَاثْبُتُوا ۝٤٥﴾ .

(ب) الإكثار من ذكر الله تعالى وطلب النصر منه، ﴿وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا ۝٤٥﴾ .

(ج) طاعة الله والرسول؛ لأن الاستواء في المعصية مع العدو تجعله يفوقنا بقوة السلاح، ويتنصر علينا ﴿وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ ۝٤٦﴾ .

(د) وحدة الصف ووحدة الكلمة بين الأمة الإسلامية في مواجهة العدو ﴿وَأَعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا ۝٤٦﴾ [آل عمران: ١٠٣] وهذا من لوازم عدم الفرقة.

(هـ) عدم الفرقة، وعدم الاختلاف والتنازع فيما بين المسلمين؛ فهو سبب الفشل، وذهاب القوة ﴿وَلَا تَنَزَعُوا فَنَفْسُلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ ۝٤٦﴾ .

(و) الصبر عند لقاء العدو، وتحمل المشاق، والمصابرة، والمرابطة ﴿وَأَصْبِرُوا ۝٤٦﴾ .

(ز) عدم الغرور بالنفس، وعدم الفرح والبطر والتكبر؛ فإن الغرور يحصد النصر على العدو، ويؤدي إلى الهزائم والنكسات ﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ خَرَجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بَطَرًا وَرِثَاءَ النَّاسِ﴾ [٤٧].

جاءت هذه التوجيهات السبعة في قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَاثْبُتُوا وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [٤٥] والآيات بعدها.

وكما تحدثت السورة عن المؤمنين تحدثت عن غير المسلمين الذين يكرهون الجهاد في سبيل الله، ويستهزئون بالإسلام وأهله، ويُمعنون في الجحود واللَّغَط عند تلاوة القرآن الكريم، ويسارعون إلى إنفاق أموالهم في وجوه الشر، وصد الناس عن دين الله، والتأمر على الإسلام وأهله. ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ لِيَصُدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ فَسَيَفْثُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ﴾ [الأنفال: ٣٦]

وقال تعالى: ﴿إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللَّهِ الَّذِينَ كَفَرُوا فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [٥٥].

وقد شبههم القرآن بالصم البكم الذين لا يعقلون ﴿وَلَوْ عَلِمَ اللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَّأَسْمَعَهُمْ﴾ فهم خونة؛ ينقضون عهدهم في كل مرة.

وقد أمر الإسلام بقتالهم، ومعاملتهم بالمِثْل في نبذ عهودهم، وإعداد العدة المستطاعة لهم؛ حتى يستسلموا ويطلبوا الصلح ﴿وَإِنْ جَنَحُوا لِلسَّلَامِ فَاجْتَنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ﴾ [٦١]. ﴿وَمَا تَخَافُ مِنْ قَوْمٍ خِيفَةٍ فَإِنْ يَدْرَأْكَ إِلَيْهِمْ عَلَى سَوَاءٍ﴾ [الأنفال: ٥٨]

سورة بدر:

وموضوع سورة الأنفال هو الجهاد؛ ولذا فإنها تبدأ بالحديث عن تقسيم غنائم المعركة من العدو، وتُفَصِّل ما أجملته في أولها بقوله تعالى: ﴿وَأَعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَإِنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ﴾ [٤١].

وتُثَنِّي بأوصاف المؤمنين المستحقين للنصر على العدو، وتذكر عوامل النصر في جميع المعارك، وتبيِّن أن المحادِّين لله والرسول ليسوا أهلاً للنصر، وتصف غزوة بدر بالتفصيل، وتبيِّن وجوب الإعداد للعدو في كل زمان ومكان، وتذكر حكم الأسرى، وحكم الولاء والبراء في الإسلام.

والجهاد ركن عظيم من أركان الإسلام، وهو ذروة سنام الإسلام (أعلى شيء فيه)، وهو الذي يحمي الحق ويدعمه، ويقيم العدل بين الناس في الأرض، وبالجهاد تنتشر

دعوة محمد ﷺ، وبالجهاد يُنصر الحق، ويُدفع عدوان العدو.

ويوم يتخلّى المسلمون عن الجهاد، وتُحذف هذه الكلمة المباركة من مناهج تعليم الأبناء تكون بطن الأرض خيراً لهم من ظهرها.

هذا: وقد كف الله المسلمين عن قتال المشركين في مكة، ثم أذن لهم بالقتال في المدينة، ثم فرّض عليهم القتال لمن قاتلهم، دون من لم يقاتلهم، ثم فرض عليهم قتال المشركين كافة كما يقاتلونهم كافة، فكان القتال ممنوعاً في بدء الدعوة، قبل قيام الدولة الإسلامية، ثم أذن الله لهم به دفعاً للظلم، ثم أمر به لمن بدأ بالقتال، ثم أمر به بصفة عامة؛ لنشر الدعوة، وإزالة العقبات من طريقها، وقبل غزوة بدر وبعد هجرة النبي ﷺ إلى المدينة وقعت مناوشات وسرايا بين المسلمين وغيرهم، لم يحضرها رسول الله ﷺ، وكانت هذه السرايا بمثابة جس النبض واستطلاع قوة العدو.

وسورة الأنفال تتحدث عن أول وأعظم معركة في الإسلام، ولذا: سماها بعض الصحابة سورة بدر، فقد نزلت في أعقاب أحداث غزوة بدر، وقد كان النصر الذي أعطاه الله ومنحه للمؤمنين في هذه الغزوة المباركة؛ مكافأةً من الله سبحانه على الأذى الذي لقيه المستضعفون في الأرض من ضعف المؤمنين طوال مدة تزيد على عشر سنوات؛ حيث اضطهدوا في مكة، وأخرجوا من ديارهم وأموالهم، فكانت مكافأة الله تعالى لهم بعد هذا الصبر الطويل أن أعطاهم هذا النصر العظيم، وكان هؤلاء الجند هم أدوات النصر، مصداقاً لقوله سبحانه: ﴿كَتَبَ اللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ [المجادلة]

وقوله جلّ شأنه: ﴿وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرِ وَأَنْتُمْ أَذِلَّةٌ﴾ [آل عمران: ١٢٣] قال تعالى:

﴿فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ قَتَلَهُمْ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَى﴾ [١٧]

وقال سبحانه: ﴿سَأَلْتِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ فَأَصْرَبُوا فَوْقَ الْأَعْنَاقِ وَأَصْرَبُوا مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ﴾ [١٢]

وقال جل شأنه: ﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَبَ لَكُمْ أَنِّي مُبْدِّدُكُمْ بِأَلْفٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُرْدِفِينَ﴾ [٩]

وقال عز وجل: ﴿وَاذْكُرُوا إِذْ أَنْتُمْ قَلِيلٌ مُسْتَضْعَفُونَ فِي الْأَرْضِ تَخَافُونَ أَنْ يَخَطَفَكُمْ النَّاسُ فَأَوَدَّكُمْ وَيَأْتِدْكُمْ بِنَصْرِهِ﴾ [٢٦].

ولتبيّن أيضاً الجهد البشري الذي قام به هؤلاء الرجال في الجهاد في سبيل الله، وتخاذل غيرهم ﴿يُجِدُّوْكَ فِي الْحَقِّ بَعْدَمَا بَيَّنَّ كَأَنَّمَا يُسَافُونَ إِلَى الْمَوْتِ وَهُمْ يَنْظُرُونَ﴾ (٦) وَإِذْ يَعِدُكُمُ اللَّهُ إِحْدَى الطَّائِفَتَيْنِ أَنَّهَا لَكُمْ ﴿٦، ٧﴾.

أسباب النزول

١ - عن محمد بن عبد الله الثقفي، عن سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه قال: لما كان يوم بدر قُتل أخي عمير، وقُتِلْتُ سعيد بن العاص، وأخذتُ سيفه، وكان يُسمَّى ذا الكتيبة، فأُتيت به النبي ﷺ، فقال: «أذهب فاطرحه في القبض» قال: فرجعتُ وبني ما لا يعلمه إلا الله من قُتل أخي، وأخذتُ سَلْبِي، فما جاوزتُ إلا يسيراً حتى نزلت سورة الأنفال، فقال لي رسول الله ﷺ: «أذهب فخذ سيفك»^(١).

والقبض بفتح الباء: ما جُمع من الغنيمة قبل أن تُقسَم.

والسلب: ما يأخذه المحارب ممن يقاتله.

٢ - وعن عكرمة، عن ابن عباس رضي الله عنه قال: لما كان يوم بدر، قال رسول الله ﷺ: «من فعل كذا وكذا، فله كذا وكذا، فذهب شباب الرجال، وجلس الشيوخ تحت الرايات، فلما كانت الغنيمة جاء الشباب يطلبون نفلهم، فقال الشيوخ: لا تستأثروا علينا، فإننا كنا تحت الرايات، ولو انهزمتم كنا لكم رداءً، فأنزل الله: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَنْفَالِ﴾ فقَسَمَهَا بينهما بالسواء»^(٢).

(١) «مسند أحمد» (٧٨/٣) برقم (١٥٥٦) و«تفسير الطبري» (١١٧/٩) وفيه انقطاع؛ لأن محمد بن عبد الله الثقفي لم يرَ سعداً، وقال الحافظ ابن حجر: الصواب أنه العاص بن سعيد بن العاص، وأخرجه ابن أبي شيبة (٣٧٠/١٢) وابن مردويه، وقال محققو «المسند»: حسن لغيره، رجاله ثقات رجال الشيخين، غير أن فيه انقطاعاً، وأخرجه سعيد بن منصور في سننه (٢٦٨٩) وأبو عبيد في الأموال (٧٥٦).

(٢) «سنن البيهقي» (٢٩١/٦) و«سنن النسائي الكبرى» (١١١٩٧) و«المستدرک» للحاكم (٣٢٦/٢) وصححه، و«سنن أبي داود» برقم (٢٧٣٧) و«تفسير الطبري» (٣٦٧/١٣) برقم (١٥٥٢، ١٥٦٥٠) بتصحيح أحمد شاكر وابن حبان في الإحسان برقم (٥٠٩٣) وصححه الألباني في «صحيح سنن أبي داود» برقم (٢٣٧٦، ٢٣٧٧) وابن المنذر في «الأوسط» (١٤٦/١١) والبيهقي في «الدلائل» (١٣٥/٣) وقوله: كذا وكذا، أي: أن من قتل قتيلاً فله سلبه، ومن أسر أسيراً فله كذا.

٣ - وعن عطاء بن رباح رضي الله عنه **﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَنْفَالِ﴾** قال: يسألونك فيما شذ من المشركين إلى المسلمين بغير قتال من دابة، أو عبد، أو أمة، أو متاع، فهو نفل للنبي ﷺ يصنع به ما يشاء^(١).
وهذا يعني أن المراد بالأنفال: الفياء، وهو ما أخذ من الكفار من غير قتال.

٤ - وأخرج الإمام أحمد وغيره بسنده عن عبادة بن الصامت رضي الله عنه قال: خرجنا مع النبي ﷺ فشهدتُ معه بدرًا فالتقى الناس، فهزم الله العدو، فانطلقت طائفة في آثارهم يهزمون ويقتلون، وأكبَّت طائفة على العسكر يخُونه ويجمعونه، وأحدثت طائفة برسول الله ﷺ لا يصيب العدو منه غرَّة، حتى إذا كان الليل، وفاء الناس بعضهم إلى بعض، قال الذين جمعوا الغنائم: نحن حويناها فليس لأحد فيها نصيب، وقال الذين خرجوا في طلب العدو: لستم بأحق بها منا، نحن نفينا عنها العدو وهزمناهم، وقال الذين أهدقوا برسول الله ﷺ: لستم بأحق بها منا، نحن أهدقنا برسول الله ﷺ، وخفنا أن يصيب العدو منه غرة، فاشتغلنا به؛ فنزلت **﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَنْفَالِ﴾** فقسمها رسول الله ﷺ بين المسلمين^(٢).

٥ - في صحيح مسلم وغيره أن سعدًا قال: نزلت في أربع آيات، وذكر منها أنه أصاب سيفًا فأتى به النبي ﷺ، وطلب منه أن يأخذه لنفسه - ثلاث مرات - والرسول ﷺ يقول له: «ضعه من حيث أخذته» فنزلت: **﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَنْفَالِ﴾**^(٣).

والآيات الثلاث الباقية في بر الوالدين، والوصية بالثلث، وتحريم الخمر.

٦ - وعن ابن عباس رضي الله عنه قال: لما كان يوم بدر، قال رسول الله ﷺ: «من قتل قتيلًا فله كذا وكذا، ومن أتى بأسير فله كذا وكذا» فجاء أبو اليسر بن عمرو الأنصاري بأسيرين، فقال: يا رسول الله، وعدتنا، فقام سعد بن عبادة فقال: يا رسول الله، إن أعطيت هؤلاء

(١) وهذا الأثر في «تفسير الطبري» (٣٦٥/١٣) بسند صحيح وعند ابن أبي شيبة (٤٢٦/١٢) والنحاس ص ٤٥٧.

(٢) «المسند» (٢٢٧٦٢) وقال محققوه: حسن لغيره، ورواه الترمذي برقم (١٥٦١) وقال: حديث حسن، وكذا ابن ماجه برقم (٢٨٥٢) وكلاهما من حديث سفيان الثوري، وقال الحاكم: صحيح على شرط مسلم، و«المستدرک» (١٣٦/٢) و«صحيح ابن حبان» في الموارد برقم (١٦٩٣) وسعيد بن منصور (٩٨٢) و«سنن الدارمي» (٢٤٨٢) وابن أبي شيبة (٤٥٦/١٤).

(٣) يُنظر: «صحيح مسلم» برقم (١٦٢٨، ١٧٤٨) والبخاري (٢٤) و«مسند الطيالسي» برقم (٢٠٥) والبيهقي في «الشعب» (٧٩٣٢).

لم يبقَ لأصحابك شيء، وإنه لم يمنعنا من هذا زهادة في الآخرة، ولا جبن عن العدو، وإنما قمنا هذا المقام محافظة عليك، نخاف أن يأتوك من ورائك فتشاجروا، ونزل القرآن ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَنْفَالِ﴾ ونزل ﴿وَأَعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُمْ﴾^(١).

وجاءت روايات أخرى في أسباب نزول الآية وما بعدها، وعلى كلِّ فإن جمهور العلماء على أن الآية نزلت في غنائم بدر لما اختلف الصحابة فيها، فقال بعضهم: نحن الذين حرزنا الغنائم، وقال آخرون: نحن الذين تتبعنا العدو فهزمناه وقتلناه، وقال غيرهم: نحن أحدقنا برسول الله حتى لا يمسه العدو، فاختصموا إلى النبي ﷺ، فأنزل الله الآية. وصح عن رسول الله ﷺ أنه كان يقرأ في صلاة المغرب بسورة الأنفال في الركعتين^(٢).



(١) رواه عبد الرزاق في «المصنف» برقم (٩٤٨٣) عن الثوري وابن عساكر (٢٥٠/٢٠) وانظر حديث ابن عباس السابق.

(٢) يُنظَر: حديث أبي أيوب عند الطبراني (٣٨٩٢) وحديث زيد بن ثابت عند الطبراني أيضاً (٤٨٢٤) كلاهما بسند صحيح كما قال الهيثمي فيهما «مجمع الزوائد» (١١٨/٢).

تَفْسِيرُ السُّورَةِ

إِصْلَاحُ ذَاتِ الْبَيْنِ فِي مَغَانِمِ بَدْرٍ

١- ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَنْفَالِ قُلِ الْأَنْفَالُ لِلَّهِ وَالرَّسُولِ فَأَتَقُوا اللَّهَ وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿١﴾﴾

بدأت سورة الأنفال بالسؤال عن حكم الغنائم المعبر عنها في الآية بالأنفال، وهي الغنائم التي جمعها المسلمون المنتصرون من الأعداء المنهزمين، والسؤال عنها له معنيان: إما أن يراد السؤال عن كيفية توزيعها على المجاهدين، وإما أن يكون السؤال بمعنى الإعطاء والطلب؛ أي: يطلبون من الرسول أن يعطيهم الأنفال، وحقيقة السؤال هو الطلب، فإذا عُدِّي بعن فهو لمعرفة الحكم فيها؛ وذلك لأن الذين قاتلوا مع النبي ﷺ يوم بدر، كانوا ثلاث فرق:

- ١- فرقة أقامت مع النبي ﷺ في العريش الذي صُنع له، وهم الشيوخ وكبار السن.
- ٢- وفرقة أحاطت بمعسكر العدو وما فيه من غنائم تحرسها.
- ٣- وفرقة قاتلت العدو وأسرتَه.

وكان النبي ﷺ قد قال في بداية المعركة: «من قتل قتيلاً، أو أسر أسيراً فله سلبه»، ولذلك فقد سارع الشباب إلى الجهاد، وبقي الشيوخ تحت الرايات، فلما انتهت المعركة، رأت كل فرقة أنها أولى بالغنائم، وتنازعوا واختلفوا في ذلك فنزلت الآية، كما قال عبادة بن الصامت: فينا أهل بدر نزلت ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَنْفَالِ﴾ حين اختلفنا في النفل وساءت فيه أخلاقنا، فنزعه الله من أيدينا، وجعله إلى رسول الله ﷺ فقسمه فينا على السواء^(١). فرضي المسلمون وسلّموا؛ فأصلح الله بينهم، ورد عليهم غنائمهم.

والنفل: هو ما يعطيه الحاكم لمن يراه من المجاهدين مكافأة له، زيادة على قسمته من الغنيمة، كأن يعطيه فرساً، أو سلاحاً، أو درعاً، أو رتبة، ونحو ذلك. ومعنى النفل في الأصل: الزيادة، وهو في الآية بمعنى: العطية والمنحة الزائدة على النصيب

(١) يُنْظَرُ الْحَدِيثُ فِي «الْمُسْنَدِ» (٣٢٢/٥) بِرَقْم (٢٢٧٥٣) وَهُوَ حَدِيثٌ حَسَنٌ لغيره (محققوه) وَأَخْرَجَهُ الْحَاكِمُ (١٣٦/٢) وَابْنُ أَبِي شَيْبَةَ (٢٦٢/٦) وَالتَّطَبُّرِيُّ فِي تَفْسِيرِهِ (١٧٢/٩).

من القسمة، ومن هنا قيل لصلاة التطوع: نافلة؛ لأنه زيادة عن الفرض، وقيل لولد الولد: نافلة؛ لأنه زيادة عن الولد، كما قال تعالى: ﴿وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ نَافِلَةً﴾ [الأنبياء: ٧٢].

ويطلق النفل على الغنيمة؛ باعتبار أنه زائد على الفرض الذي شرع له الجهاد وهو إعلاء كلمة الله، أو لأن الله تعالى خص به هذه الأمة، ومنحه إياها من غير وجوب.

والأنفال في الآية بمعنى: الغنائم، كما ورد عن جمع من الصحابة والتابعين: ^(١)

١- قالت عائشة رضي الله عنها: لَمَّا انصرف النبي ﷺ من بدر، وقدم المدينة أنزل الله عليه سورة الأنفال، فعاتبه في إحلال غنيمة بدر، وذلك أن رسول الله ﷺ قسمها بين أصحابه؛ لَمَّا كان بهم من الحاجة إليها، واختلافهم في النفل، فردّها الله على رسوله، فقسمها بينهم على السواء، فكان في ذلك تقوى الله وطاعته، وطاعة رسوله، وصلاح ذات البين ^(٢).

٢- وعن ابن عمر رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ بعث سرية قبل نجد، فغنموا إبلاً كثيراً، فصارت سُهْمَانُهُم اثني عشر بعيراً، ونَقْلُوا بعيراً بعيراً ^(٣).

٣- وقال ابن عباس رضي الله عنهما: الأنفال: المغنم كانت لرسول الله ﷺ خالصة، ليس لأحد منها شيء، فمن حبس إبرة أو سِلْكًا فهو غلول، فسألوا رسول الله ﷺ أن يعطيهم منها شيئاً فأنزل الله: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَنْفَالِ﴾ قل: الأنفال لي، جعلتها لرسولي، ليس لكم فيها شيء، ثم أنزل الله: ﴿وَأَعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَإِنَّ لِلَّهِ خُمُسُهُ﴾ [٤١] ثم قسم ذلك الخُمُس لرسول الله ﷺ ولذي القربى واليتامى والمساكين والمهاجرين في سبيل الله، وجعل أربعة أخماس الناس فيه سواء: للفرس سهمان، ولصاحبه سهم، وللراجل سهم ^(٤).

والمعنى: يسألك بعض أصحابك يا محمد عن غنائم بدر، كيف تُقسَم؟ ومن المستحق لها؟ قل لهم: الأنفال لله، يحكم فيها الرسول بحكم الله؛ لأنه هو الذي يقسمها وفق أمر الله تعالى، فالحكم فيها مختص بالله تعالى، والرسول يحكم فيها على ما تقتضيه حكمته تعالى وعليكم أن ترضوا بحكم الله وتسلموا الأمر له.

والذي يؤخذ في الحروب من العدو - من الأموال والمتاع - ثلاثة أشياء؛ هي: المغنم والنفل

(١) منهم ابن عباس ومجاهد وقتادة والضحاك وابن زيد وغيرهم.

(٢) أخرجه ابن مردويه كما في «الدر المنثور» (١٢/٧).

(٣) «الموطأ» (٢/٤٥٠) وابن أبي شيبة (٤٥٦/١٤) والبخاري (٣١٣٤، ٤٣٣٨) ومسلم (١٧٤٩).

(٤) يُنْظَر: «تفسير الطبري» (١٩/١١) وابن أبي حاتم (١٦٥٣/٥) والبيهقي (٢٩٣/٦).

والفيء، وهذا الأخير هو الذي قال الله فيه: ﴿وَمَا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ مِنْهُمْ فَمَا أَوْجَفْتُمْ عَلَيْهِ مِنْ خَيْلٍ وَلَا رِكَابٍ وَلَكِنَّ اللَّهَ يُسَلِّطُ رُسُلَهُ عَلَى مَنْ يَشَاءُ﴾ [الحشر: ٦] وكان ذلك في أموال بني النضير التي أخذت من العدو دون قتال، وكانت الغنائم قبل محمد ﷺ محرمة على الأنبياء، تنزل نار من السماء فتحرقها، وقد أحلها الله تعالى لرسوله محمدا ﷺ، وهي من خصائصه ﷺ، قال عليه الصلاة والسلام فيما يرويه جابر بن عبد الله ؓ: «أُعْطِيَ خَمْسًا لَمْ يَعْطَهُنَّ أَحَدٌ قَبْلِي» فذكر منها: «وأحلَّت لي الغنائم ولم تحل لأحد من قبلي»^(١).

وكان أصحاب النبي ﷺ قد خاضوا معركة بدر، فقاتل الشباب، ووقف الشيوخ تحت الرايات، وقاتل بعض من المهاجرين والأنصار، ولما أحرزوا هذه الغنائم تساءلوا فيما بينهم: لمن تكون هذه الغنائم؟ مَنْ يأخذها؟ ولمن تقسم؟ ومن يحكم فيها؟ أهى للمهاجرين أم للأنصار؟ أهى للشباب، أم للشيوخ، أم هي للجميع؟ فأنزل الله سبحانه يُصَدِّرُ هذه السورة بالحديث عن الغنائم ويبيِّن حكم الله فيها، وهذه الغنائم ثمرة من ثمرات الجهاد، والنصر ثمرة من ثمرات الإيمان، الذي تحلَّى به هؤلاء المؤمنون الصادقون، أما ثمرة الآخرة بالنسبة لأهل بدر، فقد بيَّنها النبي ﷺ في قوله وهو يخاطب بعض الصحابة: «وما يدريكم لعل الله يكون قد اطلع على أهل بدر فقال: اعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم»^(٢).

فلأهل بدر عند الله تعالى منزلة مميزة، ومكانة عظيمة في الدنيا والآخرة. وجاء اسم الجلالة في الآية الأولى ثلاث مرات؛ لزرع المهابة في قلوب العباد، كما ذكر الرسول ﷺ مرتين في الآية؛ لتعظيم شأنه ﷺ وإظهار شرفه، وبيان أن طاعته ﷺ طاعة لله تعالى ومخالفته مخالفة لأمر الله ﷻ.

﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَنْفَالِ﴾ كيف تقسم وعلى من تقسم؟ ﴿قُلِ الْأَنْفَالُ لِلَّهِ﴾ فهي ملكه ورزقه ﴿وَالرُّسُولُ﴾ أي: أن الحكم فيها يرجع إلى الرسول ﷺ، فهي لله من حيث هو مالها ورازقها، وهي للرسول من حيث هو مبين للحكم فيها فلا اعتراض لكم على حكم الله ورسوله.

وقد حَكَمَ فيها النبي ﷺ بما فصله الله سبحانه في الآية التي تأتي في وسط السورة ﴿وَأَعْلَمُوا أَنَّمَا

(١) رواه الشيخان عن جابر بن عبد الله، كما في «صحيح مسلم» برقم (٥٢١) و«صحيح البخاري» برقم (٣١٢٢، ٤٣٨، ٣٣٥)

(٢) من حديث علي ؓ في «صحيح مسلم» برقم (٢٤٩٤) و«صحيح البخاري» برقم (٣٠٠٧، ٣٩٨٣، ٤٢٧٤، ٤٨٧٤)

غَنِمْتُمْ مِّن شَيْءٍ ﴿١﴾ وهذه الآية تقضي بأن تقسم الغنائم خمسة أخماس: أربعة منها للغزاة، والخُمس الخامس لله والرسول، يصرفه الحاكم المسلم بعد وفاة النبي ﷺ في مصالح المسلمين، فنصيب الله ورسوله واحد يعود على المسلمين، وقد أعطى النبي ﷺ أربعة أخماس الغنيمة للمجاهدين في سبيل الله الذين اشتركوا في بدر، من شبان وشيوخ ومهاجرين وأنصار، والحديث عن الغنائم في بداية السورة هو من براعة الاستهلال.

ثم ذكر الله سبحانه في ختام الآية ثلاث علامات لا بد منها لإصلاح الجماعة المؤمنة؛ وهي:

١ - ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ﴾. امثلوا أمره واجتنبوا نهيه.

٢ - ﴿وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ﴾. اصلحوا ما بينكم من التشاحن والتقاطع والتدابير بالتواد والتحاب والتواصل حتى يزول ما بينكم من تخاصم وتنازع.

٣ - ﴿وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾. فإن إيمانكم يدعوكم إلى هذه الطاعة، ومن لم يطع الله ورسوله فليس بمؤمن، ومن نقصت طاعته لله والرسول، نقص إيمانه.

فتقوى الله سبحانه، وطاعة الرسول ﷺ، وإصلاح ذات البين، هذه الثلاثة لا بد منها لإصلاح الجماعة المسلمة.

وإصلاح المتخاصمين من الناس له منزلة كبيرة عند رب العالمين؛ لأن الخصام ويال على المتخاصمين، فالصلاة اليومية التي يصلها المسلم لا تُقبل ولا تُرفع إلى رب العالمين من متخاصمين متخاصمين حتى يصطلحا.

وذاث يوم ضحك النبي ﷺ حتى بدت نواجذه، فقال عمر: يا رسول الله، ما يضحكك؟ قال عليه الصلاة والسلام: «رجلان من أمتي جثيا بين يدي رب العزة عز وجل في علاه، قال أحدهما: يا رب، خذ لي مظمتي من هذا، قال الله ﷻ: أعطه مظلمته، قال الرجل: إن حسناتي قد نفدت، ولم يبق لي شيء من حسناتي حتى أعطيه، فقال صاحب المظلمة: فليتحمل عني من أوزاري» فبكى النبي ﷺ وقال: «هذا يوم عظيم، يحتاج فيه الناس إلى من يتحمل عنهم أوزارهم» ثم قال الله ﷻ لصاحب المظلمة: «ارفع رأسك، فرفع رأسه ونظر إلى السماء، فرأى مدائن وقصوراً وجنات، قال يا رب: لمن أعددت هذا؟» لأي نبي، لأي شهيد، لأي صديق؟ قال الله تعالى على لسان رسوله ﷺ: «هذا بعفوك عن أخيك».

قال: عفوت عن أخي، قال الله تعالى: «خُذْ بِيَدِ أَخِيكَ فَاَدْخُلَا الْجَنَّةَ»^(١).
 هذا هو الثمن، هذا هو الأجر والمثوبة عند رب العالمين، إذا عفوت عن أخيك
 وسامحته في المظلمة التي لك عنده، فإن هذا أجرك وجزاؤك عند رب العالمين.
 وقد ذُكر الأمر بإصلاح ذات البين بين الأمر بالتقوى والأمر بالطاعة؛ لإظهار كمال
 العناية بالإصلاح بين الناس، وبيان أنه داخل تحت طاعة الله والرسول.
 والمعنى: يسألك أصحابك يا محمد عن الغنائم يوم بدر، كيف تقسمها بينهم؟ قل لهم:
 إن أمرها إلى الله ورسوله، فالرسول يتولى قسمتها بأمر ربه، فاتقوا عقاب الله، ولا
 تقدموا على معصيته، واتركوا المنازعة فيها.
 وقد خُتِمت الآية بالأمر بطاعة الله والرسول، وعُلِّقت ذلك على الإيمان، وجعلته شرطاً
 لكمال إيمان العبد؛ تنشيطاً وحثاً له على امتثال الأوامر واجتناب النواهي، ولَمَّا كان
 الإيمان يزيد بالطاعة، وينقص بالمعصية، ومنه الإيمان الكامل والإيمان الناقص، ذكر الله
 سبحانه صفات أهل الإيمان الكامل في الآيات الثلاث التالية:

خَمْسَةُ أَوْصَافٍ لِأَهْلِ الْإِيمَانِ

٢- ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾

هذا الإيمان الذي نصر الله به أصحاب رسول الله ﷺ في غزوة بدر، والذي هو مقياس
 الأمة في النصر على عدوها، صُدِّرت به السورة في الحديث عن الحرب والجهاد، فهناك
 أمارات للمؤمن الحق، الذي يستأهل النصر من الله تعالى، ويستأهل أن يهزم الله عدوه.
 وهذا الإيمان يرتفع حتى يبلغ بالعبد درجة التقوى، ومن لوازمه طاعة الله والرسول،
 وإصلاح ذات البين.

وهذا الإيمان وصفه ربنا بخمس صفات: ثلاث من أعمال القلب، واثنين من أعمال الجوارح.

(١) هذا معنى حديث رواه أبو يعلى في «مسنده» عن سعيد بن أنس عن أنس رضي الله عنه، كما في «المطالب العالية»
 (٥١٥٩) و«تفسير ابن كثير» للآية، وأخرجه الحاكم في «المستدرک» (٥٧٦/٤) من طريق عبد الله بن بكر
 السهمي، وقال: صحيح الإسناد ولم يخرجاه، وتعبه الذهبي فقال: عباد بن شيبه الحبطي، عن سعيد،
 والأول ضعيف، وشيخه لا يعرف.

﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ﴾ حقًا المستغرقون لجميع شعب الإيمان، هم الذين يستحقون النصر على العدو، في كل زمان ومكان كأهل بدر الذين اتصفوا بهذه الصفات

الْوَصْفُ الْأَوَّلُ مِنْ أَوْصَافِ الْمُؤْمِنِينَ: ﴿الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ﴾

استشعروا عظمة الله تعالى، ففزعت قلوبهم، واضطربت أرواحهم؛ خوفًا من الله سبحانه، وحين يقرؤون الوعد والوعيد، والأمر والنهي ترتجف قلوبهم رهبة وخشية من الله سبحانه، فتركوا محارم الله خوفًا من عقاب الله، لقد منعتهم خشية الله تعالى من ارتكاب الذنوب، فهم ليسوا في غفلة ولا لهو، كمن يُذكر على مسامعهم الوعد والوعيد، والأمر والنهي، وكأن شيئًا لم يكن، كأنهم لم يسمعوا، أو سمعوا ولم يعقلوا، أو عقلوا ولم يعملوا.

فالمؤمنون الصادقون في إيمانهم تخضع قلوبهم، وترق وتوجل، وتتقاد لأمر الله تعالى، كما قال تعالى: ﴿الَّذِينَ ءَامَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ اللَّهِ أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ﴾ [الرعد].

واطمئنان القلب يكون باليقين، وشرح الصدور يكون بنور المعرفة والتوحيد، وهذا حال المؤمن بين الخوف والرجاء، فالمؤمن يخاف عقاب الله ويرجو ثوابه، وبهذا يحصل اطمئنان القلب، وقد جمع الله الأمرين معًا في قوله تعالى: ﴿اللَّهُ نَزَلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُتَشَابِهًا مَثَابًا يَفْشَعِرُ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ ذَلِكَ هُدَى اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَنْ يَشَاءُ﴾ [الزمر: ٢٣].

وذكر الله تعالى يكون بذكر اسمه، وذكر عقابه، وذكر رحمته وثوابه، وكل ذلك يحصل معه الوجل في قلوب المؤمنين، واستشعار عظمة الله تعالى، وشدة بأسه وسعة ثوابه، بما يبعث في نفس المؤمن الاستكثار من الخير، وترك ما لا يرضي الله تعالى.

وأهل الدرجة العالية في التقوى يخافون من عظمة الله تعالى وهيبته، أكثر من خوف العصاة من عقاب الله تعالى، فالخوف بهذا على نوعين، والخشية هي شدة الخوف.

والوجل المذكور في قوله تعالى: ﴿وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ هو حالة وجدانية تنتاب المؤمن، فيتنفض لها قلبه، وترتعش لها جوارحه، فيتمثل المؤمن عظمة الله تعالى، إلى جوار تقصيره، فيبعثه ذلك على العمل والطاعة.

وقد ذكرت أم الدرداء أن للوجل قشعريرة، فإذا وجد العبد ذلك من نفسه فليدع الله عند

ذلك؛ فإن الدعاء يستجاب عند ذلك^(١)، والمنافق لا يدخل في قلبه شيء من ذلك عند ذكر الله تعالى، ولا عند تلاوة القرآن، ولا عند أداء فرائضه، فالمنافق لا يصلي إذا غاب عن الناس، ولا يؤدي زكاة ماله، ولا يؤتمن على أموال الناس وأعراضهم ﴿وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَىٰ﴾ ٤٠ ﴿فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَىٰ﴾ ٤١ [النازعات].

قال ثابت البناني: إني لأعلم متى يستجاب لي، إذا اقشعر جلدي، ووجل قلبي، وفاضت عيناى؛ فذلك حين يستجاب لي^(٢).

الْوَصْفُ الثَّانِي: ﴿وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا﴾

أي: وإذا تليت آيات القرآن على المؤمنين زادتهم هدى على هداهم، وإيماناً على إيمانهم، بزيادة الطاعات وترك المحرمات فازداد يقينهم وقوى إيمانهم، قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ أَهْدَوْا زَادَهُمْ هُدًى وَءَاتَاهُمْ تَقْوَاهُمْ﴾ ٧٧ [محمد] إنهم ألقوا بأسماعهم إلى القرآن، وتدبروه، وعملوا بما فيه، فأحدث في قلوبهم رغبة فيما عند الله، واشتياقاً إلى دار كرامته، وإعراضاً عن الذنوب والمعاصي خوفاً من العقاب.

فالإيمان قول وعمل، يزيد بالطاعة وينقص بالمعصية، يزيد كلما قرئ عليهم آيات القرآن، فيجدد في إيمانهم شيئاً يزدادون به هدى وتقوى، وكلما جاءهم شيء من عند الله آمنوا به، فيزدادون بذلك إيماناً وتصديقاً؛ لأن زيادة الإيمان تكون بزيادة التصديق وكثرة العمل الصالح، فتزداد معرفتهم بالله تعالى، ويقوى يقينهم بكثرة الدلائل على وحدانية الله تعالى.

وكلما تجدد تكليف من الله تعالى صدقوا به، وقاموا بما كلفهم الله به من فعل الأوامر وترك النواهي، وهذا مبني على أساس أن الإيمان تصديق بالقلب، وإقرار باللسان، وعمل بالجوارح والأركان، وكل هذا يدخل في معنى الإيمان.

ولذا: جاء في الحديث عن أبي هريرة ؓ أن رسول الله ﷺ قال: «الإيمان بضع وسبعون، أو بضع وستون شعبة، فأفضلها قول لا إله إلا الله، وأدناها إمطة الأذى عن الطريق، والحياء شعبة من الإيمان»^(٣).

(١) ذكر ذلك الحكيم الترمذي (٣٧٩/١) والطبري (٢٩/١١) وغيرهما.

(٢) الحكيم الترمذي (٣٧٩/١).

(٣) مسلم برقم (٣٥) من حديث أبي هريرة.

ففيه بيان أن الإيمان فيه أعلى وفيه أدنى، من الناحية القولية والعملية.
قال عمير بن حبيب^(١): للإيمان زيادة ونقصان، قيل: فما زيادته؟ قال: إذا ذكرنا الله
وَوَحَّدْنَاهُ وَحَمِدْنَاهُ، فذلك زيادته، وإذا سهونا وغفلنا فذلك نقصانه.

وقال عمر بن عبد العزيز: إن للإيمان فرائض، وشرائع، وشرائط، وحدوداً، وسنناً،
فمن استكملها فقد استكمل الإيمان، ومن لم يستكملها لم يستكمل الإيمان.

قال تعالى: ﴿وَإِذَا مَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُمْ مَّن يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَذِهِ إِيْمَانًا فَلَمَّا أَزِيلَ
ءَاَمِنُوا فَزَادْتُمْ إِيْمَانًا وَهُمْ لَا يَسْتَبْشِرُونَ ۝ (١١٤) وَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَى
رِجْسِهِمْ وَمَاتُوا وَهُمْ كَافِرُونَ ۝ (١١٥)﴾ [التوبة].

وقال سبحانه: ﴿هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ السَّكِينَةَ فِي قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوا إِيْمَانًا مَّعَ إِيْمَانِهِمْ﴾ [الفتح: ٤]
وقال ﷻ: ﴿لِيَسْتَيْقِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَيَزِدَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا إِيمَانًا﴾ [المدثر: ٣١].

فالإيمان موجود في قلب المؤمن ابتداءً، فإذا تلي عليه القرآن زاده إيماناً؛ ولهذا قال
عبد الله بن عمر ﷺ: كنا نُؤْتَى الإيمان قبل أن نُؤْتَى القرآن.

قال أبو حيان: أخبر عنهم باسم الموصول في ثلاث مقامات عظيمة؛ وهي: مقام
الخوف، ومقام الزيادة في الإيمان، ومقام التوكل على الله^(٢).

الْوُصْفُ الثَّالِثُ: ﴿وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾

فلا يرجون غيره، ولا يرهبون سواه، ويستعينون به وحده، ويعتمدون على الله وحده
في جلب المصالح ودفع المضار، بعد الأخذ بالأسباب، فيفوضون أمرهم لله، ولا
يخشون غيره، ولا يدعون إلا إياه، ولا يلوذون إلا بجنابه، ولا يقصدون غيره، ويعتقدون
أنه لن تموت نفس حتى تستوفي رزقها وأجلها، وهم في الوقت نفسه لا يتواكلون، ولا
يتركون الأخذ بأسباب النصر، أو العلاج، أو الرزق، وما إلى ذلك.

والمؤمن إذا كان واثقاً بوعد الله ووعيده كان من المتوكلين عليه لا على غيره، وهذا
التوكل درجة عالية، ومرتبة شريفة، والاتكال على الله تعالى لا يمنع اتخاذ الأسباب،

(١) كان له صحبة.

(٢) «البحر المحيط» (٤/٤٥٧).

فيما يأمر الله به من اتخاذها، والأسباب والنتائج كلها من الله تعالى، ولا يلزم من فعل السبب تحقيق النتيجة المطلوبة، فما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن.

وهذه الصفات الثلاث للمؤمنين هي:

١ - ذكر الله تعالى.

٢ - وزيادة الإيمان عند الاستماع إلى القرآن أو تلاوته.

٣ - والتوكل على الله تعالى، من أعمال القلوب.

ثم أتبعها سبحانه بصفيتين من صفات الجوارح فقال تعالى:

﴿الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَهُمْ يُنْفِقُونَ ﴿٣﴾﴾

الوصف الرابع: ﴿الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ﴾.

أي يؤدون الصلوات الخمس، فرائضها ونوافلها، بأعمالها الظاهرة والباطنة، بخشوع وخضوع لله رب العالمين، وهذا الوصف من أعمال الجوارح.

وإقامة الصلاة المفروضة بالمداومة عليها، شُرعت في الأمن والخوف، والسلم والحرب، والصحة والمرض، والسفر والإقامة، وإقامتها يعني: المحافظة عليها تامة بأدائها في أوقاتها وتحقيق شروطها وأركانها وواجبتها وسننها ومستحباتها.

والإيمان: هو ما قر في القلب وصدّقه العمل، والصلاة دلالة عملية ظاهرة للعيان، تشهد بالوجود الفعلي للإيمان، وأداؤها الكامل يتحقق في وقفة العابد بحضرة المعبود سبحانه، بحضور قلب وخشوع جوارح.

الوصف الخامس: ﴿وَمِمَّا رَزَقْنَهُمْ يُنْفِقُونَ﴾

والنفقة تشمل: الزكاة، والصدقة، والنفقة الواجبة والمستحبة، والمال مال الله استخلفنا فيه، وجعله أمانة في أيدينا، ومال الإنسان هو ما قدّمه لنفسه في أخراه، ومال غيره ما تركه لورثته، وسوف يُسأل الإنسان عن مصدره ومورده، ولن تزول قدمه من عند ربه يوم القيامة، حتى يُقدّم كشفًا عن المصدر والمورد: فيم أنفقه؟ ومن أين جمعه؟

ومن شقاء الإنسان أن يشقى بجمع المال في دنياه، ويشقى به في قبره وفي أخراه.

والزكاة كالصلاة، كلاهما حق من حقوق الله تعالى، وكلمة النفقة أعم من الزكاة، فهي تشمل النفقة في الحج والجهاد ومصالح المسلمين، والنفقة على النفس، والنفقة على الوالدين إذا كانا محتاجين، والنفقة على الزوجة، وفي تربية الأبناء وتعليمهم... إلخ.

وفي الحديث عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «دينار أنفقت في سبيل الله، ودينار أنفقت في رقة، ودينار تصدقت به على مسكين، ودينار أنفقت على أهلك، أعظمها أجراً الذي أنفقت على أهلك»^(١).

والأهل: هم الزوجة والأبناء، وهذا المال لم يوجده الإنسان بنفسه، وإنما هو رزق ساقه الله إليه واستخلفه عليه كما قال تعالى: ﴿وَأَتَوْهُمْ مِّن مَّالِ اللَّهِ الَّذِي ءَاتَكُمْ﴾ [النور: ٣٣]

وقال سبحانه: ﴿وَأَنْفَقُوا مِمَّا جَعَلَكُمْ مُسْتَحْلِفِينَ فِيهِ﴾ [الحديد: ٧].

والمسلم حين ينفق مما رزقه الله، فهو ينفق بعضاً مما رزقه الله، وحين تُنفق الأموال في وجوه الطاعة في حياة الإنسان، فإن ما بقي منها يكون للورثة الصالحين.

كما جاء في الحديث عن سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «لأن تدع ورثتك أغنياء خير من أن تدعهم عالة يتكففون الناس»^(٢).

مَا أَعَدَّهُ اللَّهُ لِأَهْلِ الْإِيمَانِ الْحَقِّ

٤- ﴿أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَهُمْ دَرَجَاتٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾

أولئك الموصوفون بما ذكر الذين تحقق فيهم صفات الإيمان الصادق، فجمعوا بين الإسلام والإيمان، وبين الأعمال الظاهرة والباطنة، وجمعوا بين العلم والعمل، وبين أداء حقوق الله وحقوق العباد، لهم منزلة عظيمة عند ربهم، ومغفرة للذنوب، ورزق كريم عند خالقهم، قد أعدّه لهم في دار كرامته.

والآية تشير إلى المؤمنين الذين اتصفوا بهذه الصفات الخمس، وهي:

(١) من حديث أبي هريرة في «صحيح مسلم» برقم (٩٩٥).

(٢) من حديث طويل أخرجه البخاري (٨٧٤٢) ومسلم (١٦٢٨).

١- الخوف من الله . ٢- الإخلاص له . ٣- التوكل عليه .

٤- إقامة الصلاة . ٥- الإنفاق في وجوه الخير .

وهؤلاء هم المؤمنون حقًا -ظاهراً وباطناً- بما أنزل الله عليهم، قد جمعوا بين اعتقاد القلب وعمل الجوارح وذكر اللسان، ولهم عند الله منازل عالية، وعفو عن الذنوب، ورزق كريم هو الجنة، فإيمانهم حق لا شك فيه، وهم برآء من الشرك، يؤمنون بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر.

وهذه الأمور الخمسة -المذكورة هنا- يَعْلَمُهَا الإنسان من نفسه، فيمكنه أن يصف نفسه بالإيمان، أما كونه مؤمناً بالله حق الإيمان وأكمل وأصدق وأصوبه، فعِلْمُ ذلك عند الله تعالى .

سأل رجل الحسن البصري رحمته الله : أؤمن أنت؟ قال: إن كنت تسألني عن الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر، والجنة والنار، والبعث والحساب، فأنا مؤمن، وإن كنت تسألني عن قوله تعالى: ﴿أُولَئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا﴾ فلا أدري أنا منهم أم لا .

والإيمان الحق لا يتحقق إلا بحسن الخاتمة والموت عليه، ومفهوم المخالفة لهذه الآية أن المنافقين لا يدخل قلوبهم شيء من ذكر الله تعالى عند أداء فرائضه، ولا يؤمنون بشيء من آيات الله، ولا يتوكلون على الله، ولا يصلُّون إذا غابوا عن أعين الناس، ولا يؤدون زكاة أموالهم، ولا ينفقون منها شيئاً في وجوه الخير.

والإيمان الحق له علامات؛ فقد أخرج الطبراني بسنده إلى الحارث بن مالك الأنصاري أنه مرَّ برسول الله ﷺ فقال له: «كيف أصبحت يا حارثة؟» قال: أصبحت مؤمناً حقاً يا رسول الله، قال: «انظر ماذا تقول: فإن لكل شيء حقيقة، فما حقيقة إيمانك؟» فقال: عزفت نفسي عن الدنيا، فأسهرت ليلي، وأظمأت نهارى، وكأني أنظر إلى عرش ربي بارزاً، وكأني أنظر إلى أهل الجنة يتزاوون فيها، وكأني أنظر إلى أهل النار يتضاغون فيها، قال ﷺ: «يا حارثة، عرفت فالزم، ثلاثاً»^(١).

وقد أعد الله سبحانه لأهل الإيمان فضلاً عظيماً يشتمل في هذه الآية على نقاط ثلاث:

الأولى: ﴿لَهُمْ دَرَجَاتٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ﴾ أي: مراتب، بعضها فوق بعض، على قدر أعمالهم

(١) «المعجم الكبير» للطبراني (٣/٢٦٦) قال الهيثمي في «مجمع الزوائد» (١/٥٧): فيه ابن لهيعة وغيره .

وتفاوت أحوالهم؛ فمراتب الجنة متفاوتة.

جاء في الحديث عن أبي سعيد الخدري مرفوعاً: «إن أهل عليين ليراهم من هو أسفل منهم، كما ترون الكوكب الطالع في أفق من آفاق السماء» قالوا: يا رسول الله، تلك منازل الأنبياء، لا ينالها غيرهم، فقال: «بلى والذي نفسي بيده، رجال آمنوا بالله، وصدقوا المرسلين»^(١).

وفي الحديث عنه ﷺ: «إن أهل الجنة ليتراءون أهل الدرجات العلى، كما ترون الكوكب الغابر في أفق السماء، وإن أبا بكر وعمر منهم، وأنعمًا»^(٢).

الثانية: ﴿وَمَغْفِرَةٌ﴾ للذنوب وتجاوز عن السيئات، كما وصفهم ربنا في قوله: ﴿وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ﴾ [آل عمران: ١٣٥].

الثالثة: ﴿وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾ هو ما أعد الله لهم في الجنة من المنزلة العالية، والرزق الذي يأتيهم، دون كسب ولا كد ولا تعب ﴿يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُمْ بِرَحْمَةٍ مِنْهُ وَرِضْوَانٍ وَجَنَّاتٍ لَّهُمْ فِيهَا نَعِيمٌ مُّقِيمٌ ﴿٢١﴾ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿٢٢﴾﴾ [التوبة].

وفي هذا دليل على أن من لم يصل إلى درجة الإيمان الكامل - وإن دخل الجنة - فإنه لن ينال مثل ما ينالون من كرامة الله التامة.

أَحْدَاثُ غَزْوَةِ بَدْرِ الْكُبْرَى

هـ- ﴿كَمَا أَخْرَجَكَ رَبُّكَ مِنْ بَيْتِكَ بِالْحَقِّ وَإِنَّ فَرِيقًا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ لَكَاذِبُونَ﴾

أي: وكما وصف الله المؤمنين بما تستقيم به أحوالهم وتصلح أعمالهم، وكما وصف إيمانهم الحق، وجزاءهم الذي وعدهم به، كذلك أخرج الله رسوله للقاء المشركين يوم

(١) أخرجه البخاري برقم (٣٢٥٦، ٦٥٥٦) ومسلم (٢١٧٧/٤) برقم (٢٨٣١) من حديث أبي سعيد الخدري .

(٢) من حديث أبي سعيد الخدري بنحوه في «المسند» (٦١/٣) برقم (١١٢٠٦) و(١١٥٨٨) وأبي يعلى

(١٢٧٨) و«سنن أبي داود» برقم (٣٩٨٧) و«سنن الترمذي» برقم (٣٦٥٨) و«سنن ابن ماجه» برقم (٩٦)

وهو حديث صحيح لغيره، لضعف مجالده، وباقي رجال الإسناد ثقات. (محققو المسند)

بدر بالحق، فكره فريق منهم لقاء عدوهم، كأنما يساقون إلى الموت وهم ينظرون، وكثير من المؤمنين لم يكره لقاء العدو، وانقاد الجميع للجهاد، وثبتهم الله، وقيض لهم من الأسباب ما هيا لهم النصر المبين.

بعد هذه المقدمة تبدأ السورة بالحديث عن غزوة بدر، التي كان فيها هذه الأنفال، واختلفوا في تقسيمها؛ فانتزعها الله منهم، وجعل تقسيمها لرسول الله ﷺ.

وملخص غزوة بدر: أن المسلمين قد هاجروا من مكة إلى المدينة، وتركوا في مكة أرضهم وديارهم وأموالهم.

ولما علم المسلمون بأن تجارة لقريش قادمة من الشام برئاسة أبي سفيان، ومعه أربعون رجلاً من قريش، ولا بد أن هذه العير في غدوها ورواحها ستحمل أموال المسلمين التي خلفوها في مكة، ولذلك فإن النبي ﷺ أوعز إلى أصحابه أن يتعرضوا لهذه العير، لعلمهم يأخذون بعض ما أُجبروا على تركه في مكة، ومع أن أبا سفيان قد نجا بالهجرة والتجارة؛ حيث غيّر طريقه وسار بمحاذاة البحر، إلا أنه قد أرسل إلى أهل مكة واستنفرهم، فاستنفر أبو جهل الناس من فوق الكعبة، وجمعوا جموعهم، ولما قيل له: إن العير قد نجت، قال: والله لا نعود حتى ننحر الجزور، ونشرب الخمر، وتعزف القينات ببدر، فيسمع بنا العرب جميعاً.

ولما علم النبي ﷺ بذلك استشار أصحابه، فكره كبار السن أن يخرجوا إليهم وهم على غير استعداد لقتالهم، وكان من رأي الشباب أن يخرجوا لقتالهم، وأعلن المهاجرون والأنصار استعدادهم لخوض المعركة، وكان مما قالوه: والله لو استعرضت بنا هذا البحر فخضته لخضناه معك، فقال لهم النبي ﷺ: «سيروا على بركة الله وأبشروا؛ فإن الله قد وعدني إحدى الطائفتين، إما العير - القادمة من الشام - وإما النفير - القادم من مكة - والله لكأنني أنظر إلى مصارع القوم».

ودارت المعركة في بدر بين ثلاث مئة وثلاثة عشر من المسلمين، وتسع مئة وخمسين من المشركين، وأسفرت المعركة عن نصر غير مسبوق للمسلمين، وقتل فيها صناديد الكفر، فُقُتِل منهم سبعون، وأُسِر مثلهم.

عن أبي أيوب الأنصاري قال: قال لنا رسول الله ﷺ ونحن بالمدينة، وبلغه أن عير أبي سفيان أقبلت فقال: «ما ترون فيها لعل الله يغنمناها ويُسَلِّمنا؟!» فخرجنا فسيرنا يوماً أو يومين، فأمرنا رسول الله أن نتعاضد ففعلنا، فإذا نحن ثلاث مئة وثلاثة عشر، فقال: «ما ترون فيهم؟» فقلنا: يا رسول الله، ما لنا طاقة بقتال القوم، إنما خرجنا للغير، فقال المقداد: لا تقولوا كما قال قوم موسى: ﴿فَاذْهَبْ أَنْتَ وَرَبُّكَ فَقَتِلَا إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ﴾ [المائدة: ٢٤] فأنزل الله: ﴿كَمَا أَخْرَجَكَ رَبُّكَ مِنْ بَيْتِكَ بِالْحَقِّ وَإِنَّ فَرِيقًا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ لَكَايَهُونَ﴾ ﴿١﴾

أي: كارهون القتال، وخارجون له على كُرهٍ، كما كره بعضهم تقسيم الغنيمة قبل حكم النبي ﷺ قال تعالى: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهُ لَكُمْ﴾ [البقرة: ٢١٦] وهذا الكره للقتال، والكره لتقسيم الغنائم لفئة خاصة من المؤمنين، وليس لكلهم.

أخرج البخاري بسنده إلى طارق بن شهاب قال: سمعت ابن مسعود رضي الله عنه يقول: شهدت من المقداد بن الأسود مشهداً، لأن أكون صاحبه أحب إلي مما عدل به، أتى النبي ﷺ وهو يدعو على المشركين فقال المقداد: لا نقول كما قال قوم موسى لموسى: ﴿فَاذْهَبْ أَنْتَ وَرَبُّكَ فَقَتِلَا إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ﴾ [المائدة: ٢٤] ولكننا نقاتل عن يمينك وعن شمالك، وبين يديك ومن خلفك، فرأيت النبي ﷺ أشرق وجهه وسره^(٢)؛ يعني: قوله.

والدعاء من أكبر عوامل النصر كما علمنا النبي ﷺ؛ فقد صح في حديث ابن عباس رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ يوم بدر: «اللهم أنشدك عهدك ووعدك اللهم إن شئت لم تُعبد بعد اليوم» فأخذ أبو بكر بيده، فقال: حسبك يا رسول الله، فقد ألححت على ربك وهو في الدرع، فخرج وهو يقول: ﴿سَيَرُّمُ الْجَمْعُ وَيُولُونَ الدَّبْرَ﴾ ﴿٤٥﴾ [القمر: ٣].^(٣)

وهكذا كان النبي ﷺ يستغيث بربه، كما روى ابن إسحاق في سيرته أنه ﷺ قال: «اللهم هذه قريش قد أقبلت بخيلائها وفخرها تجادلك وتكذب رسولك، اللهم فنصرك

(١) من حديث طويل أخرجه ابن أبي حاتم (١٦٥٩/٥) والطبري مختصراً (٤٧/١١) وابن مردويه، و«أسباب النزول» للسيوطي (١٢٦) ورواه الطبراني في «المعجم الكبير» (١٧٤/٤) برقم (٤٠٥٦) والبيهقي في «الدلائل» (٣، ٧٣) قال الهيثمي في «مجمع الزوائد» (٧٤/٦): إسناده حسن.

(٢) «صحيح البخاري» برقم (٣٩٥٢) وانظر: رقم (٤٦٠٩).

(٣) صحيح البخاري (٤٨٧٧، ٤٨٧٥) وانظر (٢٩١٥).

الذي وعدتني»^(١).

والقرآن يقرر أن خروج النبي ﷺ للمعركة كان حقاً لا بد منه، وكان بوحي وأمر من الله تعالى، فقد أمره ربه بالخروج من المدينة للقاء غير قريش، وواجه فريق منهم المعركة كارهاً، كما أن فريقاً منهم كره تقسيم المغانم وتنازع فيها، وقد ردها الله تعالى إليه وإلى رسوله؛ ليمتنع التنازع وتخلص النفوس إليه، والذين كرهوا قسمة الغنائم بالسوية هم الشباب الذين قاتلوا أكثر من غيرهم، والذين كرهوا الخروج لقتال العدو بعد نجاة العير هم الشيوخ.

فالمعنى: وكما مضيت لقتال الأعداء وإن كره بعضهم ذلك، فامض لأمر ربك في تقسيم المغانم وإن كره بعضهم ذلك، فإنه الحق.

وسبب كراهية بعضهم للقتال، كان لقلّة عددهم وعدّتهم، وكثرة عدد الكفار وعدتهم.

كما أن سبب اختلافهم في تقسيم الغنائم أنها أول واقعة، ولم يكن لهم عهد سابق بتقسيمها.

وكان بعضهم يظن أن حيازة الغنائم، تدل على شدة القتال في سبيل الله والحرص عليه، فكان يجب أن يكون له هذا الشرف، وأكثر الصحابة على أن لرسول الله ﷺ أن يضعها حيث شاء، ولم يلتفتوا إليها، قال تعالى:

٦- ﴿يُجَادِلُونَكَ فِي الْحَقِّ بَعْدَمَا بَيَّنَّ كَأَنَّمَا يُسَاقُونَ إِلَى الْمَوْتِ وَهُمْ يَنْظُرُونَ﴾

ثم بيّن سبحانه ما حدث من الفريق الكاره للقتال، ومجادلتهم للنبي ﷺ في شأن القتال، بعد إعلام الرسول لهم، أن الله سينصرهم على عدوهم، وأنه قد وعد رسوله إما النصر على العدو، وإما الظفر بالغنيمة ﴿يُجَادِلُونَكَ فِي الْحَقِّ بَعْدَمَا بَيَّنَّ﴾ هذا شأن بعض الناس يرى الحق واضحاً أمامه، وهو مع ذلك يماري ويكابّر ويعاند ولا يعترف بالحق.

وقد وصف ربنا من يجادلون في الحق بعد وضوحه وبيانه، بمن يُجرّون إلى القتل وهم ينظرون، ويروّون الموت وهم يشاهدونه بأعينهم، ومع ذلك لا يعترفون به ولا يقرون، وهكذا شأن من كره الخروج مع النبي ﷺ في غزوة بدر.

فالله تعالى يقول لرسوله في هذا السياق: يجادلوك -يا محمد- فريق من المؤمنين في

(١) ينظر: فتح الباري (٢٨٩/٧) وهو عند ابن إسحاق وابن هشام في غزوة بدر.

شأن القتال، من بعد ما تبين لهم أن ذلك أمر واقع، وأيقنوا أن القتال حاصل لا محالة، فكرهوا ذلك، وقالوا: لو كنا نعلم أننا نلقى العدو فنستعد لقتاله؟ وإنما خرجنا لطلب العدو، فكان هذا جدالهم؛ حيث لم يبقَ لهم خيار إلا لقاء الطائفة الأخرى، بعد أن أفلتت العير من أيديهم.

قال البيضاوي: أي يكرهون القتال، كراهة من ينساق إلى الموت وهو يشاهد أسبابه؛ وذلك لقلة عددهم وعدم تأهبهم، وفيه إيماء إلى أن مجادلتهم إنما كانت لفرط فزعهم ورعّبهم^(١). أخرج الطبري بسند حسن عن علي بن أبي طلحة عن ابن عباس رضي الله عنه قال في الآية: أقبلت عير أهل مكة من الشام، فبلغ أهل المدينة ذلك، فخرجوا ومعهم رسول الله ﷺ يريدون العير، فبلغ ذلك أهل مكة، فسارعوا السير إليها؛ حتى لا يتغلب عليها النبي ﷺ وأصحابه، فسبقت العير رسول الله ﷺ، وكان الله وعدهم إحدى الطائفتين، فكان لقاءهم للعير أحب إليهم وأيسر شوكة وأسرع مغنماً، فلما سبقت العير وفات رسول الله ﷺ سار رسول الله ﷺ بالمسلمين يريد المشركين، فكره المسلمون مسيرهم لشوكة في المشركين.

وأخرج الترمذي عن ابن عباس رضي الله عنه قال: لما فرغ رسول الله ﷺ من بدر، قيل له: عليك بالعير ليس دونها شيء، فناداه العباس وهو في وثاقه: لا يصلح، فقال له النبي ﷺ (لم؟) قال لأن الله وعدك إحدى الطائفتين، وقد أعطاك ما وعدك^(٢).

ثم قال تعالى يصف المجادلين للرسول في الخروج للغزوة: ﴿كَأَنَّمَا يُسَاقُونَ إِلَى الْمَوْتِ وَهُمْ يَنْظُرُونَ﴾ إليه عياناً؛ لشدة كراهيتهم له، كمن يُجرُّ إلى القتل ويساق إلى الموت، وهو ينظر إليه ويعلم أنه آتية.

وفي الحديث أن النبي ﷺ قال في أهل بدر: «وما يدريك لعل الله قد اطلع على أهل بدر فقال: اعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم»^(٣).

(١) «تفسير البيضاوي» ص ٢٠٩.

(٢) «سنن الترمذي» برقم (٣٠٨٠) وقال: حسن صحيح، و«المسند» بتصحیح أحمد شاکر برقم (٢٨٧٣) و«المستدرک» (٣٢٧/٢) قال الحاكم: صحيح الإسناد ولم يخرجاه ووافقه الذهبي، وجود ابن كثير إسناده عند تفسيره للآية.

(٣) من حديث طويل عن علي رضي الله عنه في البخاري برقم (٣٠٠٧، ٣٩٨٣، ٤٢٧٤، ٤٨٧٤) ومسلم (١٩٤١/٤) برقم (٢٤٩٤).

ويرى بعضهم أن الآية ليست في أهل بدر:

قال ابن زيد: هذه الآية في المشركين الذين جادلوا الرسول في الحق وهو يدعوهم إلى الإسلام، قال: وليس هذا من صفة الآخرين (أهل بدر)، هذه صفة مبتدأة لأهل الكفر^(١). قلت: وهذا لا يتناسب مع منطوق الآية ﴿وَإِنَّ قَرِيبًا مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ لَكُفْرُهُمْ﴾.

الْعِيرُ أَوْ النَّفِيرُ

٧- ﴿وَإِذْ يَبْعِدُكُمُ اللَّهُ إِحْدَى الطَّائِفَتَيْنِ أَنَّهَا لَكُمْ وَتَوَدُّونَ أَنَّ عَيْرَ ذَاتِ الشُّوكَةِ تَكُونُ لَكُمْ وَيُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُحِقَّ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ وَيَقْطَعَ دَابِرَ الْكَافِرِينَ﴾ (٧)

لقد أمر الله ورسوله بالتصدي للمشركين في المعركة التي فرضت عليهم بغته، وكان النبي ﷺ مؤملاً في أن الله تعالى لن يرُدَّ المسلمين خائبين، وقد أراد الله لهذه الأمة أن تكون لها قوة وسلطان، بعد أن كانت ضعيفة مستضعفة في مكة، وأراد سبحانه أن يلحق المسلمين درساً في أن النصر ليس بالعدد ولا بالعدة فحسب، وإنما هو إلى جوار ذلك بمقدار اتصال قلوبهم بالله تعالى، وقد أراد الله تعالى أن يتم ذلك بتجربة عملية واقعية؛ لتوقن الأمة المسلمة بأنها تملك في كل زمان ومكان أن تغلب خصومها على قلة عددها وعدتها مع توافر صدق اليقين، وإخلاص العقيدة، واتصالها بالله تعالى، وتخلصها من الضعف الذاتي، مع إعداد القوة المعادلة لقوة العدو، وهذه الموازين والقيم دائمة ما دامت السموات والأرض، طالما بقيت جماعة مسلمة على وجه الأرض تجاهد عدواً من أعداء الله فيها.

ولذا: فإن الله تعالى يذكر هؤلاء الذين جادلوا النبي ﷺ حين أراد منهم الخروج لقتال المشركين يوم بدر، بأن الله قد وعدهم أن يظفروا بإحدى الطائفتين: العير وما تحمله من أرزاق، أو النفير؛ وهو قتال الأعداء والانتصار عليهم، وبين سبحانه أن بعض المسلمين يحبون الظفر بالغير دون قتال، والله تعالى يريد أن يعلي أمره بقتال العدو، ويهلك الكفار ويستأصلهم.

(١) الأثر في «تفسير الطبري» (١٣/٣٩٥) وسنده صحيح، وابن زيد هو عبد الرحمن بن زيد بن أسلم.

الرسول يستشير أصحابه:

عن ابن عباس رضي الله عنه، وغيره أن رسول الله ﷺ لما سمع بأبي سفيان مقبلاً من الشام في غير مُحَمَّلة بالمتاع، ندب المسلمين للخروج إليها وقال: «هذه غير قريش فيها أموالكم» فخفف بعضهم وثقل بعضهم، وكان أبو سفيان يتحسس الأخبار خوفاً على القافلة، فعلم أن الرسول ﷺ قد استنفر أصحابه، فاستأجر ضمضم بن عمرو الغفاري، وبعثه إلى مكة؛ ليخبرهم أن غيرهم في خطر؛ وعلم رسول الله بأن قريشاً قد خرجت من مكة لتمنعه من العير، فاستشار أصحابه، فقال أبو بكر وعمر: بلغنا أنهم كذا وكذا، ثم خطب رسول الله ﷺ في الناس وهم بالروحاء، فقال: «ماذا ترون؟» فقال المقداد بن عمرو: يا رسول الله، امض لما أمرك الله، فنحن معك، والله لا نقول لك كما قالت بنو إسرائيل لموسى: اذهب أنت وربك فقاتلا إنا هاهنا قاعدون، ولكن اذهب أنت وربك فقاتلا إنا معكما مقاتلون، فوالذي بعثك بالحق لئن سرت بنا إلى برك الغماد لجالدنا معك مَنْ دونه حتى تبلغه، فدعا له الرسول بخير.

وقال سعد بن معاذ: لعلك تكون قد خرجت لأمر، وأحدث الله إليك غيره، فانظر الذي أحدث الله إليك فامض له، فصلّ جبال من شئت، واقطع جبال من شئت، وعاد من شئت، وسالم من شئت، وخذ من أموالنا ما شئت، فوالله لو استعرضت بنا هذا البحر فخضته لخضناه معك، ما تخلف منا رجل واحد، وما نكره أن تلقى بنا عدونا غداً، إنا لصبر في الحرب، صدق في اللقاء، ولعل الله يريك ما تقر به عينك، فسر بنا على بركة الله، فسر رسول الله ﷺ بقول سعد، ونشّطه ذلك، ثم قال: «سيروا وأبشروا؛ فإن الله قد وعدني إحدى الطائفتين، والله لكأني أنظر إلى مصارع القوم»^(١).

إلى أرض المعركة:

قال ابن شهاب وموسى بن عقبة: فخرج رسول الله ﷺ في شهر رمضان على رأس

(١) يُنظر: «سيرة ابن هشام» (٦٠٦/١) وما بعدها، والطبري في «التفسير» (٣٦/١١) وما بعدها، وفي التاريخ (٤٢٧/٢) وانظر: ابن أبي شيبة في «المصنف» (٣٥٥/١١) عن محمد بن عمرو بن علقمة بن وقاص الليثي، عن أبيه عن جده.

ثمانية عشر شهرًا من مقدمه المدينة، ومعه المسلمون لا يريدون إلا العير، خرجوا على الإبل، يتعاقب كل ثلاثة منهم على بعير واحد، وكان زميلُ رسول الله ﷺ علي بن أبي طالب، ومرثد بن أبي مرثد الغنوي^(١).

ونزل المسلمون في مكان؛ بينهم وبين الماء أرض رملة تغوص فيها الأقدام، وبها شدة الحر، فأصاب المسلمين ضعف شديد، واعتراهم شيء من النعاس، فاحتلم بعضهم فوسوس لهم الشيطان: تزعمون أنكم أولياء الله وفيكم رسوله، وقد غلبكم المشركون على الماء، وكيف تُصلُّون وأنتم جُنُب؟ فأمطر الله عليهم مطرًا شديدًا، فشرب المسلمون وتطهَّروا، وتلبَّدت الأرض تحت أقدامهم، وأذهب الله عنهم رجز الشيطان، وأمدهم بالملائكة، وأخذ الرسول ﷺ يضرع إلى ربه بالدعاء، فقال له جبريل: خُذ قبضة من التراب فارم بها في وجوههم، فما من المشركين أحد إلا أصابه شيء من تلك القبضة^(٢).

في بداية الأمر؛ أي: قبل المعركة، بشر الله رسوله ﷺ بالنصر، وأعطاه النتيجة التي سوف تسفر عنها المعركة، قال الله سبحانه: ﴿وَإِذْ يَعِدُكُمُ اللَّهُ إِحْدَى الطَّائِفَتَيْنِ أَنَّهَا لَكُمْ﴾. إما أن تظفروا بقافلة التجارة، وإما أن تظفروا بالنصر على عدوكم، فأحبوا الأول (العير) لأنه لا قتال فيه، ولكن الله تعالى أحب لهم النفير، فقد أرادوا أمرًا وأراد لهم أمرًا آخر، أراد لهم أن يظفروا بالنصر والغنيمة، فالعير، والنفير هما الطائفتان:

الطائفة الأولى: أبو سفيان ومن معه، ومعهم التجارة فيها الأموال الآتية من الشام في طريقها إلى مكة، وهذه الأموال هي أموال المسلمين في الحقيقة؛ حيث خرجوا من مكة وتركوا أموالهم وديارهم، فاستولى عليها المشركون، ولذلك فإن النبي ﷺ حث المسلمين وحضَّهم على القتال، وقال: هذه أموالكم، في هذه التجارة، في طريقها من الشام إلى المدينة مع مشركي مكة، تعرَّضوا لها، لعل الله يمنحكم إياها ويعيدها لكم.

وكان أبو سفيان قد نجا بها، حيث غيَّر اتجاه رحلته، محاذيًا للبحر، ونجا بما معه من تجارة.

(١) من حديث طويل للبيهقي في «الدلائل» (١٠١/٣) وما بعدها.

(٢) يُنظر: ابن مردويه و«تفسير الطبري» (٤٥/١١) وما بعدها وابن المنذر عن ابن عباس.

والطائفة الأخرى: أبو جهل ومن معه، ممن قَدِمُوا من مكة لقتال المسلمين في بدر، بعدما أرسل أبو سفيان (ضمضم بن عمرو الغفاري) إلى مكة، يخبرهم بأن النبي ﷺ سيتعرض لهم، فجاءت قريش ليقاتلوا رسول الله ﷺ ومن معه من المسلمين، فوعدهم الله المسلمين أن يفوزوا بإحدى الحسنيين، إما أن يأخذوا الغنائم (التجارة) وإما أن يقتلوا المشركين.

وكان الأمر الثاني -وهو قتل المشركين- هو الذي تحقق لهم باستئصال رؤوس الكفر، ونصر الإسلام والمسلمين، رغم أنوف المجرمين، وكان بعضهم لا يؤدُّ قتال المشركين، قال تعالى: ﴿وَتَوَدُّونَ أَنَّ عَيْرَ ذَاتِ الشُّوْكَةِ تَكُونُ لَكُمْ﴾ والمراد: الغنيمة بدون قتال ﴿وَيُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُحِقَّ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ﴾ فيظهر دينه ﴿وَيَقْطَعَ دَابِرَ الْكَافِرِينَ﴾ بقتال المشركين، فهو الأمر الذي أرادته رب العالمين؛ لإحقاق الحق، وإبطال الباطل.

والمعنى: لقد أردتم الغنيمة، وأراد الله إظهار دينه، وحصد شوكة عدوكم، وإن كان ذلك يحرملكم الغنى العارض، وكنتم تظنون أنكم لا تستطيعون هزيمة عدوكم. قال تعالى:

٨- ﴿لِيُحِقَّ الْحَقَّ وَيُبْطِلَ الْبَاطِلَ وَلَوْ كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ﴾

ثم بيّن سبحانه الحكمة في اختيار ذات الشوكة لهم، ونصرتهم عليهم؛ وذلك ليثبت دين الإسلام، ويظهره على جميع الأديان، ويمحق ما عليه المشركون من باطل.

فيحق الحق بما يظهر من الشواهد والبراهين على صحته وصدقه، ويبطل الباطل بما يقيم من الأدلة والشواهد على بطلانه.

ولسنا بصدد سرد أحداث غزوة بدر، فهي معلومة في كتب السيرة، وإنما نمُرُّ على الآيات ونلقي مجمل الضوء عليها، وهي لا تترك شيئاً من أحداث الغزوة إلا استوعبته.

ومعنى الآية: ليعز الله الإسلام وأهله، فيثبتهم ويقوي إيمانهم، ويظهره للحلِّق أجمعين، وفي الوقت نفسه يبطل الشرك وأهله، فيذهب ولو كره المشركون ذلك، ويقمع رؤساء الباطل ويقهرهم ويذلهم.

والمراد بإحقاق الحق في الآية السابقة: تثبيت ما وعد الله به المسلمين من الظفر والنصر.

والمراد به في هذه الآية: تقوية هذا الدين في نفوسهم وإظهاره على جميع الشرائع ﴿بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ﴾ [الأنبياء: ١٨].

دَوْرُ الْمَلَائِكَةِ فِي غَزْوَةِ بَدْرٍ وَالْحِكْمَةُ مِنْهُ

٩- ﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ^(١) رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُمْ بِأَلْفٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُرْدِفِينَ^(٢)﴾

اذكروا - أيها المؤمنون - نعمة الله عليكم، حين استغثتم بربكم عند لقاء عدوكم، وطلبتم منه أن يعينم وينصركم، فأغاثكم بعدة أمور:

١- منها: نزول الملائكة عليكم متتابعة لتبشركم وتطمئنكم.

٢- ومنها: إنزال النعاس عليكم ليذهب ما في قلوبكم من الرعب.

٣- ومنها: نزول المطر ليثبت الرمال تحت أقدامكم، ويطهركم، ويثبت قلوبكم وأبدانكم.

٤- ومنها: أن الله أوحى للملائكة أنه معكم بالعون والنصر، حتى يثبتوكم فتجروا على لقاء العدو.

٥- ومنها: إلقاء الرعب في قلوب الكفار لينهزموا ويتم لكم النصر.

هذا: والاستغاثة: طلب الغوث والإعانة من الله تعالى على رفع الشدة والمشقة، ولما كان المسلمون في شدة، وهم في مواجهة عدوهم، طلبوا النصر من الله تعالى على عدوهم، وقد وعد الله تعالى بإغاثتهم وإجابة دعائهم في قوله: ﴿فَاسْتَجَابَ لَكُمْ﴾ لقد نظر النبي ﷺ إلى الأعداء، فوجد عددهم زهاء ألف (ثلاثة أضعاف المسلمين)، والمسلمون ثلاث مئة وثلاثة عشر، ووجد عددهم سبعين ضعفاً مما مع المسلمين، فماذا يفعل الرسول ﷺ والعدو يفوقه في العدد والعدة؟ لقد لجأ إلى الله سبحانه بالدعاء والتضرع.

وهكذا ينبغي للمسلمين أن يفعلوا ذلك في الشدة والرخاء، سيما عند لقاء العدو.

توجه النبي ﷺ إلى ربه ورفع يديه، وأخذ يضرع ويستغيث بالله ﷻ، ويجأ إليه بالدعاء

(١) أدغم أبو عمرو وهشام وحمزة والكسائي وخلف العاشر، الذال في التاء من (إذ تستغيثون)، وأظهرها الباقون.

(٢) قرأ نافع وأبو جعفر ويعقوب بفتح الدال من (مردفين) اسم مفعول؛ أي: مردفين بغيرهم، وقرأ الباقون بكسر الدال اسم فاعل؛ أي: مردفين مثلهم.

حتى سقط رداؤه ﷺ من كثرة دعائه، ويأتي أبو بكر ﷺ ليرفع رداء الرسول ﷺ ويثبتته فوق كتفيه، وهو يشفق عليه من كثرة الدعاء، ويطمئنه على نصر الله تعالى له، فلم يفرغ النبي ﷺ من دعائه حتى أطلعه رب العالمين على مصارع القوم، ماثلة أمامه في أرض بدر، أبو جهل سيكون هنا مصرعه، فلان سيقتل هنا.

وفي صحيح مسلم وغيره عن أنس بن مالك ﷺ أن عمر بن الخطاب ﷺ حدثه عن أهل بدر قال: إن رسول الله ﷺ كان يرينا مصارع أهل بدر بالأمس، يقول: «هذا مصرع فلان، غداً إن شاء الله، وهذا مصرع فلان، غداً إن شاء الله، غداً إن شاء الله، غداً إن شاء الله» قال عمر: فوالذي بعثه بالحق ما أخطؤوا الحدود التي حدها رسول الله ﷺ^(١).

وهكذا أطلعه الله تعالى على الأماكن التي سيقتل فيها صناديد القوم وحددها له، وأنزل تعالى: ﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَبَ لَكُمْ أَتَى مُيُذِقُكُمْ﴾ مُكَثِّرَكُمْ وَمُقَوِّكُمْ، والإمداد يكون في الخير ويكون في الشر، كما في قوله تعالى: ﴿قُلْ مَنْ كَانَ فِي الضَّلَالَةِ فَلْيَمْدُدْ لَهُ الرَّحْمَنُ مَدَدًا﴾ [مريم: ٧٥] وقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الْمَلَأَى مِنَ الْمَلَأَةِ مَزِيدًا﴾ أي: متابعين متلاحقين، وبعد استغاثة رسول الله ﷺ وأصحابه ﷺ، نظر النبي ﷺ ورأى كثرة العدو وكثرة عدتهم، فطمأنه الله تعالى بأن أمده بألف من الملائكة، خمس مئة مع جبريل مُجَنَّبَةً، وخمس مئة مع ميكائيل مجنبة^(٢).

وقاتل الملائكة مع رسول الله ﷺ واشتركوا معهم فعلاً في غزوة بدر، ولم يقاتلوا في غزوة سواها:

١- فعن ابن عباس ﷺ قال: بينما رجل من المسلمين يومئذ يشتد في أثر رجل من المشركين أمامه؛ إذ سمع ضربة بالسوط فوقه، وصوت الفارس يقول: أقدم (حَيِّزُوم) فنظر إلى المشرك أمامه، فخرّ مستلقياً، فنظر إليه، فإذا هو قد خُطِمَ أنفه، وشُقَّ وجهه كضربة

(١) «صحيح مسلم» (٢٨٧٤) و«المسند» (١٣٢٩٦، ١٣٧٠٣) و (١٨٢) عن عمر، بإسناد صحيح على شرط مسلم ورجاله ثقات رجال الشيخين غير حماد بن سلمة فمن رجال مسلم، (محققوه) وأخرجه أبو يعلى (٣٣٢٦) وابن حبان (٤٧٢٢) وأبو داود (٢٦٨١) والبيهقي في السنن (١٤٧/٩) وفي الدلائل (٤٦/٣).

(٢) كما رواه علي بن طلحة عن ابن عباس كما في «تفسير الطبري» وابن كثير وغيرهما للآية.

بالسيف، فاخضّر ذلك أجمع، فجاء الأنصاري، فحدث بذلك رسول الله ﷺ فقال: «صدقت، ذلك مدد من السماء الثالثة» فقتلوا يومئذ سبعين، وأسروا سبعين^(١) و (حيزوم) اسم الملك المشارك في المعركة.

٢- وعن عمر بن الخطاب ؓ قال: لما كان يوم بدر، نظر النبي ﷺ إلى المشركين وهم ألف، وأصحابه ثلاث مئة وتسعة عشر رجلاً، فاستقبل نبي الله ﷺ القبلة، ثم مَدَّ يده، فجعل يهتف بربه ويقول: «اللهم أنجز لي ما وعدتني، اللهم أنجز لي ما وعدتني، اللهم إن تهلك هذه العصابة من أهل الإسلام لا تعبد في الأرض»

فما زال يهتف بربه، ماداً يديه حتى سقط رداؤه عن منكبيه، فأتاه أبو بكر، فأخذ رداءه، فألقاه على منكبيه، ثم التزمه من ورائه، وقال: يا نبي الله، كفاك مناشدتك ربك، فإنه سينجز لك ما وعدك، فأنزل الله ﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَبَ لَكُمْ﴾ فأمد الله بالملائكة^(٢).

٣- وأخرج البخاري بسنده عن معاذ بن رفاع بن رافع الزُرقي، عن أبيه ؓ -وكان أبوه من أهل بدر- قال: جاء جبريل إلى النبي ﷺ فقال: ما تعدون أهل بدر فيكم؟ قال: «من أفضل المسلمين» -أو كلمة نحوها- قال: «وكذلك من شهد بدرًا من الملائكة»^(٣).

٤- وفي البخاري عن ابن عباس ؓ أن النبي ﷺ قال يوم بدر: «هذا جبريل أخذ برأس فرسه، عليه أداة الحرب»^(٤).

٥- وعن علي بن أبي طالب ؓ قال: نزل جبريل في ألف ملك على ميمنة النبي ﷺ وفيها أبو بكر، ونزل ميكائيل في ألف ملك في الميسرة وأنا فيها^(٥).

(١) أخرجه مسلم في صحيحه (٣/٣٨٣) برقم (١٧٦٣) من حديث طويل عن عمر ؓ عن سماك الحنفي (أبو زميل) وابن هشام في «السيرة» (١/٦٣٣).

(٢) وهذه رواية مسلم برقم (١٧٦٣) وهو في «المسند» (١/٣٠) برقم (٢٠٨، ٢٢١) إسناده حسن ورجاله رجال الصحيح وأبو داود برقم (٢٦٩٠) والترمذي برقم (٣١٨١) و«تفسير الطبري» (١٣/٤٠٩).

(٣) انفرد به البخاري برقم (٣٩٩٢، ٣٩٩٤).

(٤) «صحيح البخاري» برقم (٣٩٩٥).

(٥) «تفسير ابن عطية» (٢/٥٠٥) و«تفسير ابن كثير» (٤/٢٠) عن الطبري، قال ابن كثير: وهذا يقتضي -لو صح إسناده- أن الألف مردفة بمثلها، كما في قراءة فتح الدال.

٦- وعنه أيضًا ﷺ قال: قال لي رسول الله ﷺ ولأبي بكر يوم بدر: «مع أحدكما جبريل، ومع الآخر ميكائيل، وإسرافيل ملك عظيم، يشهد القتال، أو يكون في القتال» أو قال «يشهد الصف»^(١).

والملائكة في غير يوم بدر لم تقاتل، بل كانت مجرد مدد وعون، وقد وعد الله المسلمين يوم أخذ أن يمدهم بخمسة آلاف من الملائكة، وعلق ذلك على الصبر والتقوى ﴿بَلَىٰ إِن تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا وَيَأْتُوكُم مِّن فَوْرِهِمْ هَٰذَا يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُم بِخَمْسَةِ آلَافٍ مِّنَ الْمَلَائِكَةِ مُسَوِّمِينَ﴾ [آل عمران]. وقد حدث ما يخالف الصبر والتقوى حين خالف بعض الرماة أمر النبي ﷺ ونزلوا يتتبعون الغنائم، فكان الدرس والابتلاء.

أما في يوم بدر، فالأحاديث السابقة ناطقة بمشاركتهم في المعركة، بدليل الرجل المشرك الذي ضرب بالسوط فخطم أنفه وشق وجهه.

قلت: هذه الأحاديث فيها نص صحيح وصريح للرد على من أنكر قتال الملائكة في المعركة يوم بدر، وقال: إن الإمداد بهم كان لمجرد البشرى وتثبيت القلوب، وأنه لا يوجد فيها تصريح بقتالهم.

لقد كان الصحابي يمشي وراء المشرك يريد أن يقتله، فيجد أن رأسه قد سقطت أمامه قبل أن يمتد إليه سيفه، فاذكروا - أيها المسلمون - نعمة الله عليكم يوم بدر، إذ تطلبون النصر على عدوكم فاستجاب الله لدعائكم قائلا: بأني ممدكم بألف من السماء، من ملائكة الله، يتبع بعضهم بعضًا.

ونصّر المسلمين في بدر، له أبعاد تتجاوز الجزيرة العربية والأرض كلها، وتمتد عبر السماوات، وتتناول الملاء الأعلى، فهو نصر من تدبير الله تعالى. قال تعالى:

(١) «المختارة» للضيء المقدسي برقم (٦٣٣، ٦٣٦) وابن أبي شيبه (١٦/١٢) وأبو يعلى في «مسنده» برقم (٣٤٠) و«المستدرک» (٦٨/٣) والبراز في «البحر الزخار» (٣٣/٢) برقم (٧٢٩) وابن أبي عاصم (١٢١٧) صححه الحاكم ووافقه الذهبي، وصححه الهيثمي في «مجمع الزوائد» (٨٢/٦) عن أحمد والبراز، وصححه إسناده أحمد شاكر في «المسند» برقم (١٢٥٧) وقال محققوه: إسناده صحيح على شرط مسلم، ورجاله ثقات رجال الشيخين غير أبي صالح الحنفي، فمن رجال مسلم، وصححه محقق «مسند أبي يعلى» ومحقق «المختارة».

١٠- ﴿وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ وَلِتَطْمَئِنَّ بِهِ قُلُوبُكُمْ وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾

ثم بين سبحانه الحكمة من إمداد المجاهدين بالملائكة؛ إذ كان يكفي ملك واحد لحصد المشركين حصداً، ملك واحد يكفي لهذه المهمة، فلماذا الألف؟ ولماذا الإمداد بالملائكة أصلاً؟

يقول سبحانه: ﴿وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ﴾ أي: وما جعل الله هذا الإمداد بالملائكة ﴿إِلَّا بُشْرَىٰ وَلِتَطْمَئِنَّ بِهِ قُلُوبُكُمْ﴾ أي: أن إنزال هذا العدد من الملائكة للبشرى وتطمين القلوب وسكونها، فقد ذكر الله سبحانه عدد الملائكة وكثرهم؛ ليوافق عدد المشركين، ولكي يثبت الله المؤمنين فيطمئنوا، ويثقوا في أن حقيقة النصر من عند الله، ولذا قال تعالى: ﴿وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ﴾ فليس النصر بالملائكة أو غيرهم، إنما النصر من عند الله.

فخذوا جاهدين بأسباب النصر، ولا تعتمدوا على قوتكم وشدة بأسكم، ولا تغتروا بعددكم وعدتكم، واعلموا أن الله لا يقهره شيء، ولا يغلبه غالب، ولا ينازعه منازع، قال تعالى: ﴿وَلَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَانْتَصَرَ مِنْهُمْ﴾ أي: بدون حرب ولا قتال ﴿وَلَكِنْ لِّيَبْلُوَ بَعْضُكُمْ بِبَعْضٍ﴾ [محمد: ٤] فالأمر كله لله، وسعي المرء لا يغني عنه شيئاً ما لم يساعده القدر.

فمن حَكَمَ الجهاد ابتلاء المجاهدين واتخاذ شهداء منهم ﴿أَمَرٌ حَسْبُكُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ وَيَعْلَمَ الضَّالِّينَ﴾ [آل عمران: ١٦٦] ﴿وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَيَتَّخِذَ مِنْكُمْ شُهَدَاءَ﴾ [آل عمران: ١٤٠].

ونصر الله يستحقه من نصر دين الله، فأقام شرعه ومنهجه في أرضه، وأحسن الخلافة عنه فيها ﴿وَلِيَنْصُرَنَّ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ﴾ [الحج: ٤٠] ومن ينصر دين الله، هو المؤهل للخلافة عن الله في أرضه، والتمكين له فيها، واستبدال خوفه أمناً، وإخضاع أعناق الأعداء من الكفار والمشركين له ﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا﴾ [النور: ٥٥].

وهذه هي مقومات هذا التمكين في الأرض، يقول تعالى: ﴿الَّذِينَ إِنْ مَكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَءَاتَوْا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ وَلِلَّهِ عِقَابُ الْأُمُورِ﴾ [الحج: ٤١].

فالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، هو الفارق المميّز لدولة الإسلام عن غيرها، فالإعلام فيه إسلامي، والمنهج الذي تقوم عليه البلاد إسلامي، والتعليم إسلامي، والمظهر العام إسلامي، والحكم بين الناس إسلامي، والولاء والبراء يكون لله وحده.

وقد تقدم نظير هذه الآية في قوله تعالى: ﴿وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ لَكُمْ وَلَظْمَيْنَ لِقُلُوبِكُمْ بِهِ. وَمَا النُّصْرُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ﴾ [آل عمران] وفيها:

أولاً: زيادة ﴿لَكُمْ﴾ عن هذه الآية؛ نظراً لوجودها هنا في الآية التي قبلها ﴿فَاسْتَجَابَ لَكُمْ﴾ فكانها أغنت عنها، ولأن آية آل عمران سقت في سياق الامتنان، وهذه الآية سقت في سياق العتاب.

ثانياً: في سورة آل عمران أُخِّرَ لفظ ﴿بِهِ﴾ وقُدِّمَ هنا، والتقديم هنا لإفادة الاختصاص والاهتمام، والتأخير في آل عمران؛ لأن الوعد بنزول الملائكة في غزوة أُحُدٍ مجرد بشري واطمئنان.

ثالثاً: خُتِمَتِ الآية هنا بقوله تعالى: ﴿عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ وفي آل عمران بقوله: ﴿الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾؛ لأنها في آل عمران نعت، وهنا خبر مؤكد، فهي جملة مستأنفة.

والعزیز هو الذي لا يُقهر ولا يُغالب، والحكيم هو الذي يضع الأشياء في مواضعها، ويقدر الأمور بأسبابها.

دَوْرُ النَّعَاسِ وَالْمَطَرِ فِي النُّصْرِ عَلَى الْعَدُوِّ

١١- ﴿إِذْ يُغَشِّيكُمُ النَّعَاسُ^(١) أَمَنَةً مِّنْهُ وَيُنَزِّلُ^(٢) عَلَيْكُمْ مِّنَ السَّمَاءِ مَاءً لِّيُطَهِّرَكُم بِهِ وَيُذْهِبَ عَنْكُمْ رِجْزَ الشَّيْطَانِ وَلِيَرْبِطَ عَلَى قُلُوبِكُمْ وَيُثَبِّتَ بِهِ الْأَقْدَامَ﴾

(١) قرأ ابن كثير وأبو عمرو (يَغْشَاكُمْ) بفتح الياء وسكون الغين وفتح الشين وألف بعدها، مضارع غشى و (النعاس) بالرفع فاعل، وقرأ نافع وأبو جعفر (يُغَشِّيكُم) بضم الياء وسكون الغين، وكسر الشين وياء بعدها، مضارع أغشى، و (النعاس) بالنصب مفعول به، والفاعل ضمير يعود على الله تعالى، وقرأ الباقر بضم الياء وفتح الغين وكسر الشين مشددة، و (النعاس) بالنصب مفعول به أيضاً.

(٢) قرأ ابن كثير وأبو عمرو ويعقوب بتخفيف زاي (وينزل) مضارع أنزل، والباقر بتشديد الزاي، مضارع نزل.

ثم ذكر سبحانه منّة أخرى أنعم بها على المؤمنين استجابة لاستغاثتهم، قبل أن يلتحموا مع أعدائهم في القتال، وهي نعمة النعاس ونزول المطر، فالمدد الأول هو النعاس: وهو النوم الخفيف، بدون استغراق فيه، كهيئة المتمكن من مقعده، حين تغفل عيناه لحظات أو دقائق، وكثيرًا ما يحدث هذا للإنسان إذا كان متعب البدن، أو يمرُّ بحالة توتر، أو قلق أو ضيق، فإذا أخذته هذه السّنة من النوم، استيقظ إنسانًا آخر، ساكن النفس، مطمئن القلب، هادئ البال، قرير العين، وهذا التحول المفاجئ في نفسية الإنسان رحمة من الله تعالى بعباده، وسر عظيم في تحول النّفْسِيَّة وإلقاء السكينة فيها بما لا يعلم حقيقته إلا رب العالمين.

ولا يمكن لعلماء النفس على مرّ العصور علاج مثل هذه الأزمة، وتظهر أهمية هذه الحالة، حينما يكون الإنسان في ساحة القتال عند تربص العدو والتحام الصفوف ﴿إِذْ يُغَشِّكُمُ النُّعَاسَ أَمَنَةً مِّنْهُ﴾ فيذهب ما في القلب من الخوف والوجل.

يقول عبد الله بن مسعود رضي الله تعالى عنه: النعاس في القتال أَمَنَةٌ من الله، وفي الصلاة من الشيطان^(١).

وقال عليّ ؑ: ما كان فينا فارس يوم بدر غير المقداد، ولقد رأيتنا وما فينا إلا نائم، إلا رسول الله ﷺ يصلي تحت شجرة ويبكي حتى أصبح^(٢).

وقد استفاد المسلمون من هذا النعاس اليسير فائدتين:

إحدهما: أن الله تعالى قوّاهم بهذه الاستراحة في النعاس؛ لتجديد النشاط، والقدرة على القتال من الغد.

ثانيهما: أن الله تعالى أزال الرعب عنهم، وأمّنهم من خوفهم.

(١) وفيه أن أبا رزين الناقل له لم يسمع من ابن مسعود، ولكنه موافق لمنطوق الآية، وأخرجه الطبري من طريق عبد الرزاق عن سفيان الثوري بسند صحيح.

(٢) مسند أبي يعلى (٢٤٢/١) برقم (٢٨٠، ٣٠٥) وابن خزيمة (٨٩٩) وابن حبان (٢٢٥٧) ومسند أحمد (١٢٥/١) من طريق عبد الرحمن بن مهدي برقم (١٠٢٣، ١١٦١) قال محققوه: إسناده صحيح، ورجاله ثقات رجال الشيخين، غير حارثة بن مضرب، فمن رجال أصحاب السنن، وهو ثقة.

وقد وصف الله النعاس بأنه ﴿أَمَنَةٌ﴾ لأنهم لما ناموا ذهب عنهم الخوف، فالخائف إذا نام ذهب عنه الخوف، وإذا استيقظ وجد نشاطاً وقوة أعصاب والنعاس يزيل عن الإنسان فتور الأعصاب.

وقد علّمنا النبي ﷺ أن الإنسان إذا أتاه النعاس، فعليه أن يستريح ويُتمّ نومه.

ففي صحيح البخاري وغيره عن عائشة ؓ أن النبي ﷺ قال: «إذا نعس أحدكم وهو يصلي فليرقُد، حتى يذهب عنه النوم، فإن أحدكم إذا صلى وهو ناعس، لا يدري لعله يستغفر فيسبّ نفسه»^(١).

وفي حديث أنس ؓ أن النبي ﷺ قال: «إذا نعس أحدكم في الصلاة فليَنَمْ حتى يعلم ما يقرأ»^(٢). والفائدة في كون النعاس أمانة في القتال: أن الخائف على نفسه لا يأخذه النوم، فصار حصول النوم وقت الخوف الشديد دليلاً على الأمن وإزالة الخوف.

وقيل: إن المسلمين لما خافوا على أنفسهم لكثرة عدد المشركين وعدّتهم، وقلة عدد المسلمين وعدّتهم، ألقي الله عليهم النعاس حتى حصلت لهم الراحة، وزال عنهم الكلل والعطش، وتمكنوا من قتال العدو، وكان هذا النوم نعمة عليهم؛ لأنه كان خفيفاً بحيث لو قصدهم العدو لأدركوا قدمه، وتمكنوا من دفعه.

وحصول النعاس في وقت واحد لعدد يزيد على الثلاث مئة شخص أمر خارق للعادة، فهو في حكم المعجزة.

وقد تكرر هذا النعاس للمسلمين عند مواجهة العدو في يوم أُحُد، كما قال تعالى: ﴿ثُمَّ أُنْزِلَ عَلَيْكُمْ مِنْ بَعْدِ الْغَمِّ أَمَنَةٌ نَّاسًا يَغْشَىٰ طَائِفَةٌ مِّنْكُمْ وَطَائِفَةٌ قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنْفُسُهُمْ﴾ [النساء: ١٥٤].

قال أبو طلحة: كنت ممن أصابه النعاس يوم أُحُد، ولقد سقط السيف من يدي مراراً، يسقط وآخذه، ولقد نظرت إليهم يميّدون وهم تحت الحجب^(٣).

(١) «صحيح البخاري» برقم (٢١٢) و«صحيح مسلم» برقم (٧٨٦).

(٢) «صحيح البخاري» برقم (٢١٣).

(٣) «تفسير ابن كثير» (٢٢/٤).

وقد كان هذا النعاس سجية ونعمة تفضل الله بها على عباده في شدة البأس في أكثر من موطن؛ لتطمئن قلوبهم بنصر الله تعالى.

ولذا: فإن النبي ﷺ لما كان معه الصديق تحت العرش في يوم بدر، أخذته سنة من النوم، ثم استيقظ مبتسمًا، فقال ﷺ: «أبشر يا أبا بكر، هذا جبريل على ثنياه النقع»، ثم خرج من باب العرش وهو يتلو قول الله تعالى: ﴿سَيَهْرُمُ الْجَمْعُ وَيُولُونَ الدُّبُرَ ۖ﴾ [القمر]^(١) وهي آية مكية فُسِّرَت يوم بدر، وكان نزولها من قبيل الإخبار بالغيب.

والمدد الآخر المطر: وبعد هذا المدد الإلهي بإلقاء النعاس على أهل بدر؛ لتأمينهم من خوف عدوهم أن يغلبهم، يأتي المدد الآخر في قوله تعالى: ﴿وَيُنْزِلُ عَلَيْكُمْ مِّنَ السَّمَاءِ مَاءً يُطَهِّرُكُمْ بِهِ﴾ وكان ذلك قبل وصول المسلمين إلى الماء، فنزل المطر عليكم في هذا الوقت بالذات؛ ليطهركم الله به طهارة حسية وباطنية، ويذهب عنكم وساوس الشيطان، ويشد على قلوبكم بالصبر عند القتال، ويلبّد الأرض الرملية تحت أقدامكم بالمطر حتى تثبت أقدامكم في أرض المعركة ولا تنزلق.

قال مجاهد: أنزل الله المطر قبل النعاس، فأطفأ بالمطر الغبار، وتلبّدت به الأرض، وطابت نفوسهم، وثبتت به أقدامهم^(٢).

وروى ابن إسحاق عن عروة بن الزبير قال: بعث الله السماء، وكان الوادي دهبًا، فأصاب رسول الله ﷺ وأصحابه ما لبّد لهم الأرض، ولم يمنعهم من المسير، وأصاب قريشًا ما لم يقدروا على أن يرحلوا معه^(٣).

وبذلك نرى أن إنزال الماء على أهل بدر كان خيرًا على المؤمنين وشرًا على الكافرين؛ لأن المسلمين كانوا في مكان يصلحه المطر، وكان الأعداء في مكان لا يصلحه المطر، ويؤدي من فيه، كما يتضح ذلك من أثر عروة.

قال أهل السير: كان المسلمون حين اقتربوا من بدر قصدوا أن يسبقوا جيش المشركين

(١) ينظر: البخاري (٤٨٧٧، ٤٨٧٥) وفتح الباري (٣١٣/٧) وهو عند ابن إسحاق في السيرة.

(٢) الطبري (٦٦/١١) وابن أبي حاتم (١٦٦٥/٥).

(٣) «سيرة ابن هشام» (٦١٩/١).

إلى ماء بدر، وكان طريقهم رملاً لئلا تسوخ فيه الأرجل، فشق عليهم إسرار السير إلى الماء، وكانت أرض طريق المشركين ملبدة، فلما أنزل الله المطر، تلبّدت الأرض، فصار السير أمكن لهم، واستوحلت الأرض للمشركين، فصار السير فيها متعباً، فأمكن للمسلمين السبق إلى الماء من بدر؛ فزلوا عليه، وادّخروا ماء كثيراً من ماء المطر، وتطهروا وشربوا.

وقد ترتب على نزول هذا المطر أربع نعم ذكرتها الآية:

النعمة الأولى: جاءت في قوله تعالى: ﴿لِيُظْهِرَكُمْ فِيهِ﴾ أي: من الحدث الأصغر والأكبر؛ لأن المسلم يستقذر نفسه إذا كان جنباً فيضطرب قلبه، وتغتم نفسه، ويظل في خمول وكسل حتى يغتسل.

النعمة الثانية: جاءت في قوله تعالى: ﴿وَيُذْهِبَ عَنْكُمُ رِجْزَ الشَّيْطَانِ﴾ أي: يزيل عنكم وسوسته وتخوفه لكم بالطهارة الحسية، وإزالة الظمأ، والعطش، ويذهب عنكم أيضاً ما يليقه في نفوسكم من الظنون والأوهام بالطهارة المعنوية.

والرجز: هو القذارة والنجاسة الحسية، والرجز المعنوي: هو الحدث والجنابة، وفقد الماء يجعلهم في بقاء من هذا الرجز الحسي والمعنوي.

النعمة الثالثة: جاءت في قوله تعالى: ﴿وَلِيَرْبِطَ عَلَى قُلُوبِكُمْ﴾ أي: يقويها بالثقة في نصر الله، ويوطنها على الصبر والطمأنينة، ويزيدهم ثباتاً ورباطة جأش، ومجادة للأعداء، وهذه هي شجاعة الباطن.

النعمة الرابعة: جاءت في قوله تعالى: ﴿وَيُثَبِّتَ بِهِ الْأَقْدَامَ﴾ حتى لا تسوخ في الرمال، ويسهل المشي عليها، وينطفئ غبارها، ويجعلكم تتمكنون من السير في الرمال، وهذه شجاعة الظاهر.

وقد جاءت روايات عدّة، تفيد في مجموعها أن المسلمين نزلوا بدرًا، على كتيب من الرمل، تسوخ فيه الأقدام، وحوافر الدواب، وأصبح بعضهم محدثًا، وبعضهم جنبًا، وقد أصابهم العطش، فوسوس لهم الشيطان وقال: تزعمون أنكم على الحق، وفيكم نبي الله، وأنكم أولياؤه، وقد غلبكم المشركون على الماء، وأنتم تصلّون محدثين وجنّبًا، فكيف

ترجون أن تظهروا على عدوكم؟! فأنزل الله سبحانه ماء سال منه الوادي، فشرب منه المسلمون، واغتسلوا، وتوضؤوا، وسقوا الركاب، وملؤوا الأسقية، وأطفؤوا الغبار، ولبد المطر الأرض حتى تثبت عليها الأقدام، وزالت عنهم وسوسة الشيطان، وطابت أنفسهم، وعظمت النعمة من الله عليهم، وكانت دليلاً على حصول النصر والظفر^(١).

والظاهر أن المسلمين نزلوا أول ما نزلوا بدرًا على أول ماء وجدوه، وأن الحباب بن المنذر، أشار على النبي ﷺ بتغيير الموقع الذي نزل فيه إلى موقع أقرب إلى الماء الكثير، وأن النبي ﷺ نزل على مشورته^(٢).

ومعنى هذا أن المشركين لم يغلبوا المسلمين على الماء ولم يسبقوهم إليه، ولكن المسلمين هم الذين غلبوهم وسبقوهم.

تَثْبِيْتُ الْمُؤْمِنِينَ وَإِقَاءُ الرُّعْبِ فِي قُلُوبِ أَعْدَائِهِمْ

١٢- ﴿إِذْ يُوحَىٰ رُبُّكَ إِلَى الْمَلَائِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبَّتُوا الَّذِينَ ءَامَنُوا سَأَلَتْنِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ^(٣) فَأَضْرِبُوا فَوْقَ الْأَغْنَاقِ وَأَضْرِبُوا مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ ﴿١٢﴾﴾

ويحدثنا القرآن عن نعمة خفية في غزوة بدر لها أثر عظيم في نصر المسلمين، ولا يتسنى لنا الاطلاع عليها، أنعم الله عليهم بها استجابة لاستغاثتهم، وهي وحي الله تعالى إلى الملائكة التي تقاتل مع المسلمين في غزوة بدر ﴿أَنِّي مَعَكُمْ﴾، أعينكم وأنصركم، فَقَوُّوا عزائم المؤمنين، وثبتوهم بقتالكم المشركين معهم، وبشروهم بالنصر والظفر؛ فإني سألقي في قلوب الكفار الخوف والرعب الشديدين، والذلة والصغار.

وإلقاء الرعب في قلب العدو سلاح عظيم خفي، هو من أقوى عوامل النصر

(١) «لباب التأويل في معاني التنزيل» للبخازن (١٧٢/٢) وقد جاءت هذه المعاني في أحاديث وآثار وكتب السيرة، ومن أصحابها ما رواه ابن جرير عن علي ؓ بسند صحيح في تفسيره (٤٢٢/١٣) وما جاء عن عروة مرسلاً وعن ابن عباس وغيرهم.

(٢) القصة في «سيرة ابن هشام» (٦٢٠/١) ورواه الحاكم في «المستدرک»، والواقدي في المغازي (٥٤/١) وفي سنده من لا يُعرف، وذكره ابن كثير في «البداية» عن الكلبي، وهو كذاب، فهو ضعيف لا يصح.

(٣) قرأ ابن عامر والكسائي وأبو جعفر ويعقوب بضم العين من كلمة (الرُّعْب)، والباقون بإسكانها، وهما لغتان.

للمسلمين، على ما في عدوه من قوة وبأس وبطش شديد، مهما كانت قوته وعتاده وأعداده، وهو سلاح لا يملكه إلا رب العالمين، خَصَّ به محمدًا ﷺ من بين الرسل؛ حيث قال ﷺ من حديث جابر ؓ: «نُصِرْتُ بِالرَّعْبِ مَسِيرَةَ شَهْرٍ»^(١) فيكون بين النبي ﷺ وبين عدوه سفر شهر على الإبل، ويُلقَى الله الرعب في قلب عدوه مع بُعد هذه المسافة.

ثم أمر الله المؤمنين أو الملائكة أن يضربوا رؤوس الكفار، ويضربوا كل طرف ومفصل فيهم ﴿فَاضْرِبُوا فَوْقَ الْأَعْنَاقِ وَاضْرِبُوا مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ﴾ وما فوق الأعناق هي الرؤوس، أما البنان: فهي أطراف أصابع اليدين، وحُصِت بالذكر؛ لأن الإنسان يقاتل بها، ويُمسك بها السلاح، والرأس أشرف الأعضاء، وفي ضربها إتلاف للجسد، والبنان أضعف الأعضاء، وفي ضربها إبطال لصلاحية اليدين.

والمقاتل إذا ضُربتْ أصابعه تعطلت يداه وأمكن أسره وقتله، ويدخل في ذلك كل عضو في الجسد، وفيه تعطيل لحركة الإنسان عن العمل، والبنان تُشكّل أطراف الأيدي والأرجل، فتتعطل الرجل أيضًا عن المسير، قال تعالى: ﴿فَإِذَا لَقِيتُمْ الَّذِينَ كَفَرُوا فَضَرْبَ الرِّقَابِ حَتَّىٰ إِذَا أَتَخْتَمُوا فَضُدُّوا الرُّقَابَ﴾ [محمد: ٤].

مبارزة: ولما التقى المسلمون والمشركون في أرض المعركة، بارز حمزة بن عبد المطلب شية بن ربيعة، فقتله حمزة، وبارز علي بن أبي طالب الوليد بن عتبة، فقتله علي، وقام عبيدة إلى عتبة، فجرّح كل منهما الآخر، وكرَّ حمزة وعليٌّ على عتبة بن ربيعة سيد المشركين فقتله علي، فقام النبي ﷺ فقال: «اللهم ربنا أنزل عليّ الكتاب، وأمرتني بالقتال، ووعدتني النصر، ولا تخلف الميعاد» فأتاه جبريل فأنزل عليه: ﴿أَلَنْ يَكْفِيَكُمْ أَنْ يُبَدِّلَكُمْ رَبُّكُمْ بِثَلَاثَةِ آلَافٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُنَزَّلِينَ﴾ [آل عمران: ١٢٤] وأوحى الله إلى الملائكة: ﴿إِنِّي مَعَكُمْ فَتَيِّنُوا الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ فقتل أبو جهل في تسعة وستين رجلًا، وأسر عقبة بن أبي معيط فقتل صبرًا، فوقى ذلك سبعين، وأسر سبعون.

وهذه أمثلة من مشاركة الملائكة في معركة بدر:

أ- ما ورد عن أبي داود المازني -وكان ممن شهد بدرًا- قال: إني لأتبع رجلًا من

(١) جزء من حديث جابر في الصحيحين: البخاري (٣٣٥، ٤٣٨، ٣١٢٢) ومسلم (٥٢١).

المشركين لِأَضْرِبَهُ؛ إِذْ وَقَعَ رَأْسُهُ قَبْلَ أَنْ يَصِلَ إِلَيْهِ سِيفِي، فَعَرَفْتُ أَنَّهُ قَتَلَهُ غَيْرِي، وَمَعْلُومٌ أَنَّ الْإِنْسَانَ لَا يَرَى الْمَلَكَ.

ب- وعن سهل بن حنيف قال: لقد رأيتنا يوم بدر، وإن أحدنا ليُشير بسيفه إلى المشرك، فيقع رأسه عن جسده قبل أن يصل إليه السيف.

ج- والفضل ما شهد به الأعداء: فهذا أبو سفيان قبل إسلامه، يسأله أبو لهب، قال: يا ابن أخي، أخبرني كيف كانت أحوال الناس، قال: وايم الله ما لمتُ الناس، لقيت رجالاً بيضاً، على خيل بُلق بين السماء والأرض، والله لا يتلقاهم شيء، ولا يقوم لهم شيء، قال أبو رافع: تلك والله الملائكة، فرفع أبو لهب يده، فضرب وجهي ضربة شديدة فتاورته، فاحتملني فضرب بي الأرض، ثم برك على صدري، وكنت رجلاً ضعيفاً، فقامت إليه أم الفضل بعمود، فضربت ضربة فلقّت بها رأسه، فوالله ما عاش بعدها إلا سبع ليالٍ^(١).

د- وعن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه أن أبا جهل سأله يوم بدر: من أين كان ذلك الصوت الذي كنا نسمعه ولا نرى شخصاً؟ فقال: من الملائكة، فقال: أبو جهل: هم إذن غلبونا لا أنتم^(٢).

هـ - وقال ابن عباس رضي الله عنه: كانت سيمًا الملائكة يوم بدر عمائم بيضاء، ويوم أُحُد عمائم خضراء، ولم تقاتل الملائكة في يوم سوى بدر.

و- ومن ذلك قول أبي أسيد، مالك بن ربيعة، وكان قد شهد بدرًا: لو كنت معكم الآن بيدري ومعي بصري، لأريتكم الشعب -أي: الطريق في الجبل- الذي خرجت منه الملائكة، لا أشك ولا أماري^(٣).

ويبدو أن قتال الملائكة مع المؤمنين في غزوة بدر كان وفق سنن البشر، وليس بقوة الملائكة؛ لأن ملكاً واحداً يكفي لإهلاك أهل الأرض، كما فعل جبريل بقوم لوط.

ز- أخرج ابن إسحاق وابن المنذر، عن حبان بن واسع بن حبان، عن أشياخ من قومه أن رسول الله ﷺ عدّل صفوف أصحابه يوم بدر ورجع إلى العريش، فدخله ومعه أبو بكر، وقد

(١) «تفسير الخازن» (١٧٣/٢).

(٢) «معالم التنزيل» للبغوي (١٠/١).

(٣) «تفسير القرطبي» (١٩٢/٤).

خفى رسول الله خفقة وهو في العرش ثم انتبه، فقال: «أبشر يا أبا بكر، أذاك نصر الله، هذا جبريل أخذ بعنان فرسه يقوده، على ثناياه النقع»^(١).

ومسألة اشتراك الملائكة بالقتال في غزوة بدر استبعدها بعض أهل العلم، ورأوا أن مهمة الملائكة كانت منحصرة في تثبيت قلوب المؤمنين وتقوية عزائمهم، وأن آيات القرآن لم تصرح باشتراكهم الفعلي في المعركة، وقالوا: إن ما ورد في السنة من ذلك على ضعفه فهو غير صريح في قتال الملائكة مع المؤمنين يوم بدر.

قلت: لقد جاء اشتراك الملائكة في قتال يوم بدر في أحاديث ثابتة في الصحيحين وصريحة في المعنى، ذكرت بعضها في الآية التاسعة.

وهذه الآية تُفَصِّلُ عمل الملائكة يوم بدر، وما خاطبهم الله به استجابة لاستغاثة النبي ﷺ ﴿إِذْ سَتَعِثُّونَ رَبَّكُمْ فَأَسْتَجَابَ لَكُمْ﴾ والوحي إلى الملائكة يكون عن طريق إلقاء الأمر في نفوسهم من الله تعالى.

وتثبيت المؤمنين يكون بإلهامهم أنهم منصورون بإذن الله، وبإزالة الاضطراب الذي في نفوسهم.

وإلقاء الرعب في قلوب الكفار لم يكن بواسطة الملائكة؛ لأنهم المخاطبون في الآية، وكل ما يقع في العالم هو من تقدير الله تعالى على حسب إرادته، وفي عدم إسناد إلقاء الرعب إلى الملائكة إشارة إلى أنه رعب شديد قدّره الله تعالى على كيفية خارقة للعادة.

والمعنى: اذكر يا محمد وقت أن أوحى ربك إلى الملائكة الذين أمدّ الله بهم المسلمين يوم بدر، أنه سبحانه معهم بتأييده وعونه ونصره، فاملؤوا نفوسكم ثقة بالنصر، وصحّحوا نياتكم في الجهاد، وقد أعطيتكم - أيها المؤمنون - من وسائل النصر ما أعطيتكم، فهاجموا أعداء الله بقوة وغلظة، واضربوهم على أعناقهم ورؤوسهم، ومواضع الذبح فيهم، واضربوهم على كل أطرافهم حتى تُسَلُّوا حركاتهم، فيصبحوا عاجزين عن الدفاع عن أنفسهم. قال تعالى:

١٣- ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ شَاقُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَمَنْ يُشَاقِقِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَكَانَ اللَّهُ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴿١٣﴾﴾

والذي حدث للكفار يوم بدر؛ من ضرب الرؤوس، والأعناق والأطراف، والقتل

(١) «سيرة ابن هشام» (١/٦٢٦).

والأسر؛ كان بسبب أنهم حادّوا الله ورسوله، وكذّبوه وخالفوا أمره، وجانبوا دين الله، وضادّوه في أمره ونهيه.

وهذا شأن كل من يخالف الله ورسوله، فإنه يلقى مصيره بالهلاك والعذاب في الدنيا، وهو عقاب عاجل، ولهم في الآخرة عذاب آجل، أشدّ ألماً وأنكى عقوبة.

وفيه تحذير وتنبيه لخلق الله أجمعين؛ حتى لا يحل بهم ما حلّ بغيرهم؛ لأن هذا قاعدة، وسنة عامة، والآية تشير إلى أن الرعب دبّ في قلوب المشركين، فاختلّت صفوفهم تحت مطارق هزيمة لم تخطر لهم على بال؛ بسبب كفرهم وشركهم، وأن النصر قد تحقق للمسلمين الذين صدّقوا ما عاهدوا الله عليه، فأحبوا الموت على الحياة، وآثروا ما عند الله على حظوظ أنفسهم، وهذا لا يمنع أن الباطل قد يروج، ويتنصر أحياناً في ظروف معينة؛ لحكمة يعلمها علام الغيوب، كتمحيص عباده إذا استوّوا في معصية الله مع عدوهم، فإنه يتفوّق عليهم في هذه الحالة بقوة السلاح. قال تعالى:

١٤- ﴿ذَٰلِكُمْ فَذُوقُوهُ وَأَنَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَابَ النَّارِ﴾

ثم وجه الله خطابه إلى الذين شاقوا الله ورسوله، فتوعّدهم بسوء المصير، وأن هذا العذاب الذي عجله لهم في الدنيا -من القتل والأسر- هو المناسب لطغيانهم وعنادهم، وهو المناسب لكل من خالف أمر الله ورسوله، بالإضافة إلى العذاب الآجل في الآخرة، وهو أشدّ وأنكى.

وبهذا فإن هذه الآيات تُذكّر المؤمنين بأن من عوامل النصر على العدو ما يأتي:

أولاً: المقاتل في سبيل الله يفوز بإحدى الحسينين، إما النصر والغنيمة، وإما الشهادة والجنة، وقد وعد الله المؤمنين يوم بدر العير أو النفير، وقد وفّى بوعده تعالى فنصرهم على عدوهم.

ثانياً: الدعاء من عوامل النصر، وقد استغاث المسلمون بربهم يوم بدر؛ فأمدهم الله بالملائكة.

ثالثاً: إلقاء النعاس على المجاهدين قبل القتال، فيه أمان لهم، وراحة لأبدانهم.

رابعاً: نزول المطر على المجاهدين فيه طمأنينة لقلوبهم، وتثبيت لأقدامهم، وطهارة لظاهرهم وباطنهم.

خامسًا: غرس الثقة في النفس، بنصر الله تعالى، والاستهانة بالعدو.

سادسًا: إلقاء الرعب والفرع والجزع في قلب العدو، بحيث ينهزم أمام المسلمين، وتذهب معنوياته وتخور قواه.

سابعًا: إن ما يصيب العدو من هزيمة وخسران وقتل وأسر سببه مضادة الله ورسوله.

فاحذروا - أيها المسلمون - عقاب الله وسخطه، وأعدوا العدة للقاء عدوكم بالنصر على أنفسكم، والقرب من ربكم، ووَحْدَة كلمتكم، ومضارعتة في السلاح والعتاد، وهكذا أجاب الله دعوة نبيه والمؤمنين لما استغاثوه بما ذكره من الأسباب، فقَوَّى إيمانهم، وثَبَّت أقدامهم، وأزال عنهم وساوس الشيطان، وتحقق وعد الله تعالى لهم بالنصر ﴿قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا سَتْغْلُوبٌ وَتُعْصِرُونَ إِلَيْنَا جَهَنَّمَ وَيَسَّ السَّيْهُادُ ۖ قَدْ كَانَ لَكُمْ آيَةٌ فِي فَتْنَةِ الْتَقَاتِ فِئَةً تَقْتُلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَأُخْرَى كَافِرَةٌ يَرَوْنَهُمْ مِثْلَهُمْ رَأَى الْعَيْنِ وَاللَّهُ يُؤَيِّدُ بِنَصْرِهِ مَن يَشَاءُ إِنَّكَ فِي ذَلِكَ لَعِزَّةٌ لِأَوَّلِ الْآبَصِرِ﴾ [آل عمران].

سِتْ نِدَاءَاتٍ لِلْمُؤْمِنِينَ فِي السُّورَةِ؛ النِّدَاءُ الْأَوَّلُ: عَدَمُ التَّوَلَّى يَوْمَ الزَّحْفِ

١٥- ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا زَحَفًا فَلَا تُوَلُّوهُمْ الْأَدْبَارَ ۖ﴾

والإسلام في تعاليمه يمنع تركية النفس ﴿فَلَا تُرْكُوا أَنفُسَكُمْ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اتَّقَى﴾ [النجم: ٣٢] ويمنع مدح الآخرين، كبارًا كانوا في مناصبهم أو صغارًا، سواء أكان المدح في وجوههم أو في المجتمعات العامة، أو في وسائل الإعلام، ويأمر الإسلام بحثو التراب في وجوه المادحين؛ لأن ذلك من باب النفاق والتملق، ولا يجوز الإسلام للممدوح مهما كان شأنه أن يقبل مدح غيره له، وعليه أن يستنكر ذلك، وألا يحضر المجالس التي يُمدح فيها، ويمنع نشرها وإعلانها كلما أمكنه ذلك.

والمنتصرون من المسلمين في غزوة بدر نزل في شأنهم القرآن الكريم في أعقاب الغزوة، فكانت طبيعة هذا القرآن أنك لا تجد فيه شيئًا من المديح أو الثناء، أو تمجيد البطولات وتعدادها، أو الإشادة برجالها، أو استعراض عسكري بصحبة حفل سنوي، وخطب حماسية؛ لتذكير الأجيال والعالم أجمع بهذا النصر.

ونصر المسلمين في بدر حقيقة ثابتة، وليست نصراً مزيفاً ولا مبالغاً فيه، بل هي آيات بينات فيها شدة وصرامة، وفيها توجيهات إسلامية رفيعة، وفيها قمع للغرور، وقمع للزهو وللحديث عن النفس، وبيان ما يستفاد من دروسها لكافة المسلمين في سائر شؤون الحياة على غرار التوجيهات التي أعقبت نصر المسلمين في يوم بدر، فإن للغرور حصداً عاقبته وخيمة، ونتائجه أليمة.

وعليه: فإن الأجدر بالطالب الذي نجح بنسبة ٩٥٪ أن يبحث عن أسباب التقصير التي نتج عنها فقدته لـ ٥٪ من الدرجات.

والأجدر بالجيش المنتصر بنسبة ٩٠٪ أن يدرس الثغرات التي لم تحقق له كامل النصر، وهكذا. هذا: والمسلمون في غزوة بدر وفي غيرها من الغزوات لم يفروا من المعركة، أمام عدوهم مهما كان عدده، ومهما كانت عدته، ومع ذلك فإن الله سبحانه يوجه نداءات ست إلى المؤمنين المنتصرين في هذه السورة، ويخاطب بها أهل بدر والمسلمين إلى يوم القيامة.

وهذه النداءات الستة جاءت في هذه الآيات:

- ١ - ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا زَحَفًا فَلَا تُولُوهُمْ الْاَدْبَارَ ۝١٥﴾.
- ٢ - ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَا تَوَلَّوْا عَنْهُ وَأَنْتُمْ تَسْمَعُونَ ۝٢٠﴾.
- ٣ - ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ وَأَنَّهُ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ۝٢٤﴾.
- ٤ - ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَخُونُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ وَتَخُونُوا أَمْنَكُمْ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ ۝٢٧﴾.
- ٥ - ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنْ تَنْقُوا اللَّهَ يَجْعَلْ لَكُمْ فُرْقَانًا وَيُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ ۝٢٩﴾.
- ٦ - ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَاغْلُظْوا وَادْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ۝٤٥﴾ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ وَاصْبِرُوا إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ ۝٤٦﴾.

هذه التوجيهات موجهة إلى المنتصرين في غزوة بدر، بهذه الشدة وهذه الصرامة مع ما عليه أصحاب رسول الله ﷺ من قيم وفضائل، ولم يحدث شيء من التقصير بين صفوف المسلمين المنتصرين في بدر، وإنما هي درس إلى عباده المؤمنين إلى يوم القيامة يتسلحون به في مواجهة عدوهم، حيث يخاطب الله المؤمنين قائلاً: إذا تقابلتم مع الكفار وكنتم في ساحة المعركة عن قرب والتحام، فلا تولوهم ظهوركم ولا توجهاوا إليهم أديباركم منهزمين، بل اثبتوا واصبروا وصابروا، ولا تغرؤا سواء أكان جيشكم قليلاً أم كثيراً، فإن الله معكم وناصركم.

وقد حرم الله تعالى التولي يوم الزحف؛ لأن الإسلام في حروبه لا يعرف إلا أمرين: إما النصر على العدو، وإما أن يُستشهد العبد في سبيل الله ﴿وَمَنْ يُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيُقْتَلْ﴾ أي: يُستشهد ﴿أَوْ يَغْلِبْ﴾ أي: ينتصر ﴿فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ [النساء: ٧٤] ولا يعرف الإسلام الفرار ولا الهزيمة.

والتولي يوم الزحف من السبع الموبقات، أي: من الكبائر الذنوب التي ذكرها النبي ﷺ من حديث أبي هريرة ؓ في قوله: «اجتنبوا السبع الموبقات» قيل: يا رسول الله، وما هن؟ قال: «الشرك بالله، والسحر، وقتل النفس التي حرم الله إلا بالحق، وأكل الربا، وأكل مال اليتيم، والتولي يوم الزحف، وقذف المحصنات الغافلات المؤمنات»^(١).

وجواز الفرار أمام العدو، وضع القرآن له حدوداً قرب نهاية السورة، وذلك أنه إذا كان عدد العدو وعدته عشرة أضعاف المسلمين، فإن على المسلمين في هذه الحالة أيضاً أن يثبتوا وألاً يفروا وألاً ينهزموا أمام عدوهم، وهذا من باب الرخصة عند ارتفاع قوة الإيمان لدى المسلمين، والاستعداد التام بالعدة والعتاد، ذلكم قول الله تعالى: ﴿إِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ عَشْرُونَ صَبَرُوا عَلَى مِائَتَيْنِ وَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ مِائَةٌ يَغْلِبُوا أَلْفًا مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ [٦٥]

فإن كان هناك ضعف في العتاد والعدد، وضعف في تهية النفوس، فقد خفف الله عنكم، وأوجب عليكم من باب العزيمة والوجوب، ألا يفر المسلم أمام العدد إذا كان

(١) أخرجه البخاري برقم (٢٧٦٦، ٥٧٦٤، ٦٨٧٥) ومسلم (٩٦/١) برقم (٨٩) عن أبي هريرة ؓ.

عدد العدوَّ وَعُدَّتْهُ ضِعْفُ عدد المسلمين، وهذا قول الله تعالى: ﴿الَّذِينَ خَفَفَ اللَّهُ عَنْكُمْ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفًا فَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ مِائَةٌ صَابِرَةٌ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ وَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ أَلْفٌ يَغْلِبُوا أَلْفَيْنِ بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾ (١٦) على القول بعدم النسخ بين هذه الآية والتي قبلها، وقد قال به بعض أهل العلم: وإعمال الآية أَوْلَى من إهمالها وتعطيلها، ما دام هناك وجه للجمع بينهما كما بيَّنَّا وقال أكثر أهل العلم بأن الآية الثانية ناسخة للأولى.

فالتولي يوم الزحف مقيد بالآيات التي ذكرناها، وقد عفا الله عما حدث من بعضهم في يوم أُحُد، بعد أن عَنَفَهُمْ، كما قرره القرآن الكريم في مثل قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا مِنْكُمْ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ إِنَّمَا اسْتَزَلَّهُمُ الشَّيْطَانُ بِبَعْضِ مَا كَسَبُوا وَلَقَدْ عَفَا اللَّهُ عَنْهُمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ﴾ [آل عمران] والتقاء الجمعيين كان في يوم بدر.

وكما حدث في يوم حنين حين فروا عن النبي ﷺ كما قال تعالى: ﴿ثُمَّ وَلَّيْتُمْ مُدْبِرِينَ﴾ [التوبة: ٢٥]. قال تعالى:

١٦- ﴿وَمَنْ يُؤْلَمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرُهُ إِلَّا مُتَحَرِّفًا لِقِتَالٍ أَوْ مُتَحَيِّزًا إِلَى فِتْنَةٍ^(١) فَقَدْ بَاءَ بِغَضَبٍ مِنَ اللَّهِ وَمَآوَهُ^(٢) جَهَنَّمَ وَيُسَّ^(٣) الْمَصِيرُ﴾ (١٦)

استثنت هذه الآية من الفرار والتولي يوم الزحف حالتين:

الحالة الأولى: إذا أراد الجندي أن يوهم العدو أنه يفر أمامه؛ ويتظاهر بهذا كي يكيد له ويمكر به، فيختبئ هنا أو هناك، أو ينحرف من جهة إلى أخرى ليتمكن أكثر من قتال عدوه، أو ليخدعه ثم ينقض عليه من جديد، فهذا ليس من باب الفرار وإنما هو من باب التحرف للقتال.

الحالة الثانية: إذا ترك المقاتل جماعته المختصة باستخدام سلاح معين؛ كي يلتحق بسلاح آخر أو جماعة أخرى هي أحوج إليه؛ فإن هذا أيضًا ليس من باب الفرار، إنما هو من باب خِدَاع الحرب ومكايدها.

(١) أبدل أبو جعفر همزة (فتة) ياء خالصة، وحقق همزها الآخرون.

(٢) أبدل همزة (مأواه) ألفًا، أبو عمرو بخلف عنه، وأبو جعفر، وأثبتها غيره عدا حمزة عند الوقف.

(٣) أبدل همزة (ويس) ياء، ورش وأبو عمرو بخلف عنه، وأبو جعفر، وحققها غيرهم.

وهذان الأمران تشير إليهما هذه الآية، والفئة: هي الجماعة من الناس؛ لأن بعضهم يفيء، أي: يرجع إلى بعض، وفئة المؤمنين وقت نزول الآية هو: رسول الله ﷺ، ومن معه وبعد ذلك قائد الجيش أو الكتيبة أو الفرقة.

والآية عامة في كل مؤمن ولَّى ظهره عند زحف الكفار عليه؛ لأن الله تعالى يخاطب المؤمنين عمومًا، فلا يجوز الفرار عند زحف العدو على المؤمنين بحال، أما إذا كان المؤمنون على النصف من عدد العدو وعُدَّتْه، وما فوق ذلك إلى عشرة أضعاف فهو من باب الرخصة، وعلوَّ الهمة، وكمال الإيمان.

قال ابن عباس ؓ: إن فرَّ من رجلين فقد فرَّ، وإن فرَّ من ثلاثة فلم يفر، فيجب على سبيل الفرض جهاد العدو إذا كان ضعف المسلمين في قوتهم عددًا أو عدة.

والمعنى: ومن يولهم يومئذ ظهره وقت الزحف إلا منعطفًا لمكيدة، أو منحازًا إلى جماعة المسلمين حاضري الحرب حيث كانوا، والمتولي يوم الزحف في غير هاتين الحالتين يستحق الغضب من الله، ومقامه جهنم، وبئس المنقلب والمصير مصيره.

وعلى هذا: فإن تركَّ الجندي المسلم موقعه ليقا تل على جبهة أخرى، أو ليلحق بفريق آخر، أو ليدير آلة حربية أخرى يجيد إدارتها، أو ليوهم العدو بالفرار، ثم ينحاز إلى فئة أخرى، فإن هذا من باب التفنن في قتال العدو، وهو كَرُّ لا فرُّ، وهو الذي قال الله تعالى عنه: ﴿أَوْ مُتَحَيِّزًا إِلَىٰ فِتْنَةٍ﴾ ليعاونهم ويعاونوه، وكذا لو فرَّ إلى قائده الأدنى أو الأعلى، أو عرَّض له مرض أو جرح، وليس المراد ينحاز إلى جماعة مستريحين أو متخاذلين.

في حديث عبد الله بن عمر ؓ قال: كنت في سرية من سرايا رسول الله ﷺ فحاص الناس حيصة -وكن ت فيمن حاص- فقلنا: كيف نصنع وقد فررنا من الزحف وبؤنا بالغضب؟ ثم قلنا: لو دخلنا المدينة فبئنا، ثم قلنا: لو عرضنا أنفسنا على رسول الله ﷺ فإن كانت لنا توبة، وإلا ذهبنا، فأتيناه قبل صلاة الغد، فخرج، فقال: «من القوم؟» فقلنا: نحن الفرارون، فقال: «لا، بل أنتم العكارون

-أي: العطافون- أنا فتتكم، وأنا فئة المسلمين»، قال: فأتيناه حتى قبّلنا يده.^(١)

وليس هذا فرار، إنما هو انحياز إلى فتتهم بالمدينة.

والآية نزلت في أهل بدر، وهي عامة في كل من فرّ يوم الزحف، فهو من السبع الموبقات.

أخرج الطبري بسند حسن عن علي بن أبي طلحة عن ابن عباس قال: أكبر الكبائر الشرك بالله والفرار من الزحف.

ويؤخذ من الآية وجوب مصابرة العدو، والثبات في وجهه عند القتال، وتحريم الفرار منه.

والخطاب في الآية عام في جميع الحروب لكل المؤمنين في كل زمان ومكان؛ لأن سورة الأنفال نزلت بعد الفراغ من غزوة بدر لا قبل الدخول فيها، فهي عامة في كل من ولّى الدبر عن العدو منهزمًا، وهي تأخذ صفة العموم، وليست خاصة بيوم بدر، فحكمها عام شرعه الله للمسلمين بسبب هذه الغزوة.

وهذا معنى قول ابن عمر في رده على نافع: إنا قوم لا نثبت عند قتال عدونا ولا ندرى من الفئة: إمامنا، أو عسكرنا؟ فقال لي: الفئة رسول الله ﷺ فقلت: إن الله يقول: ﴿إِذَا لَيْسَ الدِّبْرُ عَنْ الْعَدُوِّ مِنْهَزِمًا، وَهِيَ تَأْخُذُ صِفَةَ الْعُمُومِ، وَلَيْسَتْ خَاصَّةً بِيَوْمِ بَدْرٍ، لَا قَبْلَهَا وَلَا بَعْدَهَا﴾^(٢)، وهو أيضا معنى قول أبي سعيد: إنها نزلت في أهل بدر^(٣).

فهذا الحكم نزل في غزوة بدر، ولم ينزل قبلها ولا بعدها.

وعلى هذا: فإن التقى الجيشان وجب على المؤمنين الثبات والصبر للقتال ولو كانوا

(١) «المسند» (٧٠/٢) برقم (٥٣٨٤، ٥٥٩١) قال محققوه: إسناده ضعيف، لضعف يزيد بن أبي زياد ولم تذكر بعض الروايات تقبيل يد النبي ﷺ، و الحديث في «سنن أبي داود» برقم (٢٦٤٧) و«سنن الترمذي» برقم (١٧١٦) و«سنن ابن ماجه» برقم (٣٧٠٤)، وابن سعد في الطبقات (٤/١٤٥).

(٢) إسناده حسن برقم (١٦٤) في «تفسير ابن أبي حاتم» و برقم (٢٢٠) في تفسير النسائي والبخاري معلقًا في «التاريخ الكبير» (٣/١٨٨).

(٣) صححه الألباني في «صحيح أبي داود» برقم (٢٤٠٦) وهو في تفسير النسائي برقم (٢٢٤، ٢٢٣) و«تفسير الطبري» برقم (١٥٧٩٨، ١٥٨٠١) وصححه الحاكم (٢/٣٢٧).

أقل من جيش المشركين، فلما أن ينتصروا عليهم، ولما أن يستشهدوا، وقبل لقاء العدو، على المسلمين أن ينظروا في كفاءة الجيشين، وهل يستطيعون الثبات في وجهه، أم لا؟ فإن رأوا إمكانية النصر عليهم متاحة، وأقدموا على قتالهم وجب عليهم الثبات وعدم الفرار،

وقد صح عن رسول الله ﷺ في حديث عبدالله بن أبي أوفى أنه قال في يوم الأحزاب: «يا أيها الناس، لا تتمنوا لقاء العدو، فإذا لقيتموهم فاصبروا، واعلموا أن الجنة تحت ظلال السيوف»^(١).

النَّصْرُ بِيَدِ اللَّهِ وَالْمُسْلِمُ أَدَاتُهُ

١٧- ﴿فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ قَتَلَهُمْ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَىٰ ۚ وَلِيُبْلِيَ الْمُؤْمِنِينَ مِنْهُ بَلَاءً حَسَنًا إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ (١٧)

في أعقاب غزوة بدر، لما انهزم المشركون وقتل المسلمون منهم سبعين، خاطب الله المؤمنين الذين تفاخروا بأنهم فعلوا كذا وكذا يوم بدر، فبين لهم فضله عليهم؛ ليشكروه ويزدادوا له طاعة، ويعلموا أن الله تعالى لا يحب تزكية النفس ومدحها، فلا يقول الإنسان: أنا فعلت، أنا فعلت.

ولما قال بعض المسلمين عقب الانتصار في غزو بدر: أنا قتلنا فلاناً، وأنا قتلنا فلاناً، أنزل الله سبحانه يبين أن يد الله هي المدبرة لكل شيء، وهي التي كانت تدير المعركة، فأنتم أيها المؤمنون لم تقتلوا المشركين يوم بدر، لم تقتلوهم بقوتكم، ولكن الله قتلهم بنصره لكم، وإمداده ومعونته إياكم، وإلقاء الرعب في قلوبهم.

ولكن الله رمى:

١- وفي يوم بدر نزل المشركون خلف كثيب من الرمال يُسمى بالعدوة القصوى،

(١) من حديث أبي النضر، عن عبد الله بن أبي أوفى في «صحيح مسلم» برقم (١٧٤٢) و«صحيح البخاري» برقم (٢٨١٨) و(٢٨٣٣، ٢٩٦٥).

(٢) قرأ ابن عامر وحمزة والكسائي وخلف العاشر بكسر نون (ولكن الله قتلهم) (ولكن الله رمى) على أنها مخففة من الثقيلة، مع رفع لفظ الجلالة بعدهما، على أنه مبتدأ، والفعل بعده خبر، وقرأ الباقون بتشديد النون فيهما على أنها عاملة، ونصب لفظ الجلالة على أنه اسم لكن، والفعل خبرها

فأرسل النبي عليه الصلاة والسلام يستفسر عن عدد المشركين، قالوا: إنهم كثير، قال: «كم عددهم؟» قالوا: لا نعرف، قال: «كم يذبحون في اليوم؟» قالوا: يذبحون عشراً من الإبل، ويوماً تسعاً، قال عليه الصلاة والسلام: «القوم بين التسع مئة والألف»، ثم قال عليه الصلاة والسلام: «مَنْ فِيهِمْ مِنْ أَشْرَافِ قُرَيْشٍ؟» قالوا: فلان وفلان، وعددوا أشراف قريش، فرفع النبي عليه الصلاة والسلام يديه إلى السماء، وأخذ يضرع إلى ربه ويقول: «اللهم هذه قريش قد أقبلت بخيلها وفخرها وخيلائها، تجادلك وتكذب رسولك، اللهم فنصرك الذي وعدتني» فأتاه جبريل بحفنة من تراب، قال له: «خذ قبضة من تراب، فارمهم بها»، فلما التقى الجمعان تناول النبي ﷺ كفاً من الحصباء عليه تراب، ورمى بها في وجوه القوم، وقال: «شاهت الوجوه»، فما بقي رجل منهم إلا وقد أصابه شيء من هذه الحفنة من التراب في عينيه وأنفه وفمه، فشغلوا بأنفسهم، ولحقهم المسلمون يقتلون ويأسرون.

وليس في وسع أحد أن يرمي كفاً من الحصى في وجوه جيش قوامه ألف شخص، فلا تبقى عين إلا وقد دخل فيها شيء من ذلك الحصى، ليست هذه قوة بشر مهما كان، ولكنه النبي عليه الصلاة والسلام رمى بيده هذه الحفنة من تراب، مؤيداً من الله تعالى: فهو سبحانه الرامي في الحقيقة، ذلكم قول الله تعالى: ﴿وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَى﴾ حيث أوصل الرمية التي رميتها إلى وجوه المشركين.

٢- وأخرج الطبري بسند حسن عن علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: رفع رسول الله ﷺ يده يوم بدر فقال: «يا رب، إن تهلك هذه العصابة فلن أعبد في الأرض أبداً» فقال له جبريل: خذ قبضة من التراب، فأخذ قبضة من التراب، فرمى بها في وجوههم فما من المشركين من أحد إلا أصاب عينه ومنخره وفمه تراب من تلك القبضة، فولوا مدبرين^(١).

٣- وعن حكيم بن حزام: لما كان يوم بدر سمعنا صوتاً وقع من السماء إلى الأرض، كأنه صوت حصاة وقعت في طست، ورمى رسول الله ﷺ تلك الحصاة، فانهزمنا، فذلك

(١) «تفسير الطبري» (٤٤٥/١٣) برقم (١٥٨٢٧) و«تفسير ابن أبي حاتم» بإسناد جيد يحتج به، وذلك في تفسير

سورة الأنفال برقم (١٧٤) وحسن الهيتمي إسناده إلى الطبراني في «مجمع الزوائد» (٧٤/٦).

قوله تعالى: ﴿وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكَ إِلَهٌ رَمَى﴾^(١).

٤- وعن ابن عباس رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال لعلي رضي الله عنه يوم بدر: «أعطني حصبًا من الأرض»، فناولته حصبًا عليه تراب، فرمى به في وجوه القوم، فلم يبقَ مشرك إلا دخل في عينيه من ذلك التراب شيء، ثم ردّهم المؤمنون يقتلون ويأسرون، وأنزل الله الآية^(٢).

قَتْلُ أَبِي بِنِ خَلْفٍ وَابْنِ أَبِي الْحَقِيقِ:

وقد نزلت هذه الآية في غزوة بدر، وشملت بعمومها ما حدث مثل ذلك في غير هذه الغزوة فيما رواه سعيد بن المسيب عن أبيه أن أبي بن خلف أقبل على النبي ﷺ يوم أُحُد يريد قتله، فاعترضه بعض الصحابة، فقال ﷺ: «خلوا سبيله» فطعنه النبي ﷺ بحرْبته، فسقط من على فرسه، وأتاه أصحابه وهو يخور خوار الثور، فقالوا له: ما أعجزك، إنما هو خدش؟ فذكر لهم قول النبي ﷺ: «بل أنا قاتله» فمات أبي إلى النار، فسحقًا لأصحاب السعير^(٣).

ومن ذلك ما رواه عبد الرحمن بن جبير من أن النبي ﷺ رمى ابن أبي الحقيق في حصن خيبر بقوس طويلة، فأقبل السهم يهوي عليه فقتله وهو على فراشه^(٤). والرامي في الحقيقة هو الله سبحانه.

والمعنى: إنكم - أيها المؤمنون - لم تقتلوا المشركين في بدر بقوتكم وشجاعتكم، ولكن الله هو الذي نصركم عليهم بحوله وقوته، فخذلهم وقذف في قلوبهم الرعب، وقوى قلوبكم وأمدكم بالملائكة، وأذهب عنكم الخوف والفرع، وهو الذي أوصل الحصباء إلى أعينهم حين رماها رسول الله ﷺ حتى بلغت ما بلغت، وليلي المؤمنين منه بلاء حسنًا

(١) «تفسير الطبري» (٤٤٣/١٣) و«المعجم الكبير» للطبراني (٢٠٣/٣) وحسن إسناده الهيثمي في «المجمع» (٨٤/٦).

(٢) «تفسير ابن كثير» (٣٠/٤) والأثر عند الطبراني في «الكبير» (١١٧٥٠) قال الهيثمي في «مجمع الزوائد» (٨٤/٦): رجاله رجال الصحيح.

(٣) قال الحاكم: حديث صحيح على شرط الشيخين ووافقه الذهبي «المستدرک» (٣٢٧/٢).

(٤) «تفسير الطبري» (٤٤٦/١٣) قال ابن كثير (٣١/٤): وإسناده جيد إلى عبد الرحمن بن جبير بن نفير، ورواه ابن أبي حاتم (١٦٧٣/٥).

فيوصلهم بالجهد إلى أعلى الدرجات، ويُعرفهم نعمته عليهم فيشكروه ﴿إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ﴾^(١) لأقوالكم ودعائكم، ويعلم ما أسررتم وما أعلنتم به ﴿عَلِيمٌ﴾ بالأجر والغنيمة، ويعلم ما فيه صلاحكم سعادتكم. قال تعالى:

١٨- ﴿ذَلِكُمْ وَأَنَّ اللَّهَ مُوهِنٌ﴾^(١) كَيْدِ الْكَافِرِينَ ﴿١٨﴾

أي: ذلكم الذي حدث من قتل المشركين ونصر المؤمنين حق، والغرض منه إضعاف وتوهين قوى أعداء الإسلام، وأن الله مُضْعَف كَيْدِ الْكَافِرِينَ، ومضعف تدبيرهم، حين يُلقِي الرعب في قلب العدو، وينصر المسلمين بأوهن وأدنى الأسباب، فلا مجال للخوف منهم، ولا للإرهاب منهم، فإنكم لن تُنْصَرُوا بكثرة العتاد، إنما الله قادر أن ينصركم بأوهن الأسباب وأضعفها، بعد أن تأخذوا الأسباب في تقوية الإيمان، وهذه بشرى أخرى للمؤمنين في كل زمان ومكان؛ فَأَمُرُ أَعْدَائِهِمْ فِي تَبَارٍ وَدِمَارٍ، والعاقبة للمتقين، والنصر للمؤمنين إن شاء الله.

تَهْدِيدُ الْمَكْذِبِينَ بِمُعَاوَدَةِ الْهَزِيمَةِ

١٩- ﴿إِنْ تَسْتَفِيحُوا فَقَدْ جَاءَكُمْ الْفَتْحُ وَإِنْ تَنْهَوْا فَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَإِنْ تَعُودُوا نَعُدُّ وَلَنْ تُغْنِيَ عَنْكُمْ فُتُوحُكُمْ﴾^(٢) شَيْئًا وَلَوْ كَثُرَتْ وَأَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٩﴾

يراد بالاستفتاح: طلب الحُكْم والفضل بين المسلمين وغيرهم، أو يراد به طلب النصر على العدو، وهذه الآية تخاطب المشركين وتُصَوِّرُ حالهم قبل معركة بدر، وذلك أنه لما أراد المشركون - وفيهم أبو جهل - أن يخرجوا لقتال النبي ﷺ وأصحابه تعلقوا بأستار الكعبة، وذكروا أنهم سَكَّانَ بَيْتِ اللَّهِ الْحَرَامِ، وأنهم يَسْقُون الْحَجِيجَ، ويقومون على

(١) قرأ ابن عامر وشعبة وحمزة والكسائي ويعقوب وخلف العاشر (موهن) بسكون الواو، وتخفيف الهاء وتنوين النون، على اسم فاعل من أوهن، مع نصب (كيد) مفعول به، وقرأ حفص بسكون الواو وتخفيف الهاء، على أنه اسم فاعل، مع حذف التنوين للإضافة، وخفض (كيد) على الإضافة وقرأ الباقون بفتح واو (موهن) وتشديد الهاء والتنوين، اسم فاعل، من وهن، ونصب (كيد) مفعول به.

(٢) أبدل أبو جعفر همزة (فتنكم) ياء وحمزة وفقاً وأثبت الهمزة الآخرون.

(٣) قرأ نافع وابن عامر وحفص وأبو جعفر بفتح همزة (وأن) على تقدير اللام؛ أي: ولأن، وقرأ الباقون بكسرها على الاستئناف.

حراسة بيته، وأنهم يكرمون الضيوف، ويصلون الأرحام، وأن محمدًا ﷺ فرّق الجماعة، وقطّع الرحم، وسفّه الآباء، ثم سألوا الله تعالى أن يحكم بينهم وبين النبي ﷺ فينصر المحق، ويهلك الظالم، فكان حكم الله فيهم أن أهلكهم ونصر نبيه، وكان أبو جهل يدعو في محافل قريش، ويقول: اللهم أقطعنا للرحم فأهلكه واجعله المغلوب، وكان المشركون يقولون: ربنا افتح بيننا وبين محمد.

أخرج النسائي وغيره بسند صحيح إلى عبد الله بن ثعلبة بن صُعَيْر قال: كان أبو جهل المستفتح يوم بدر، وإنه قال حين التقى القوم: اللهم أئنا كان أقطع للرحم، وأتى بما لا نعرف، فأحنه الغداة، وكان ذلك استفتاحه؛ فأنزل الله ﴿إِنْ تَسْتَفِئُوا فَقَدْ جَاءَكُمْ الْفَتْحُ﴾^(١). ومعنى (أحنه) أي أهلكه ولا توفقه للرشاد.

فهم إذن يطلبون من الله تعالى أن يقضي ويفصل بينهم وبين محمد ﷺ عدوهم، وأن يوقع بأسه وعقابه بالمعتدين الظالمين، هذا هو المعنى الأول للآية، ويأتي المعنى الثاني قريباً.

فحكم الله بينكم - أيها الكفار - وبين رسوله ﷺ، وإنجازه لكم ما طلبتم، أوقع بكم عقابه، ونكّل بكم؛ لتكونوا عبرة لغيركم.

وكان مما مُني به المشركون في هذه الغزوة قتل صناديدهم، وعلى رأسهم من طلب الاستفتاح، وهو أبو جهل.

وهذه الآية خطاب للمشركين كما يفيد السياق، والآية التي بعدها تخاطب المؤمنين.

مصرع أبي جهل:

في الصحيحين عن عبد الرحمن بن عوف ؓ قال: إني لواقف في الصف يوم بدر، فنظرتُ عن يميني وعن شمالي، فإذا أنا بغلامين من الأنصار حديثه أسنانهما، فتمنيت أن أكون بين أضلع منهما، فغمزني أحدهما فقال: أي عمّ، هل تعرف أبا جهل؟ قلت: نعم،

(١) تفسير النسائي (٥١٨/١) برقم (٢٢١) و«المسند» (٤٣١/٥) برقم (٢٣٦٦١) و«تفسير الطبري» (٩/٢٠٨) برقم (١٥٨٣٩) و«تفسير ابن أبي حاتم» برقم (١٨٣) وصححه الحاكم على شرط الشيخين ووافقه الذهبي (٣٢٨/٢) وهو في سيرة ابن هشام (٢٨٠/٢) وعبد الله بن ثعلبة له رؤية ولم يثبت سماعه للنبي ﷺ، وله شاهد حسن عند الطبري من طريق علي بن أبي طلحة عن ابن عباس.

فما حاجتك إليه يا بن أخي؟ قال: أُخبرتُ أنه يَسُبُّ رسول الله ﷺ فوالذي نفسي بيده: لئن رأيته، لا يفارق سوادي سواده حتى يموت الأعجل منا، فتعجبتُ لذلك، قال: وغمزني الآخر، فقال لي مثلها، فلم أنشب أن نظرت إلى أبي جهل يعول في الناس، فقلت: ألا تريان؟ هذا صاحبكما الذي تسألان عنه، قال: فابتدراه بسيفيهما فضرباه حتى قتلاه، ثم انصرفا إلى رسول الله ﷺ فأخبراه، فقال: أيكما قتله؟ فقال كل واحد منهما: أنا قتلتُه فقال: «هل مسحتما سيفكما؟»، فقالا: لا، فنظر رسول الله ﷺ إلى السيفين، فقال: «كلاكما قتله» وقضى رسول الله ﷺ بسلبه لهما، والرجلان هما: معاذ بن عمرو بن الجموح، ومعاذ بن عفراء^(١).

وكان أبو جهل قد بقي به رمق، فمرَّ به عبد الله بن مسعود، فوجده في آخر رمق فعرفه، قال: فوضعتُ رجلي على عنقه، فقلت: هل أخزأك الله يا عدوَّ الله؟ ثم سأله: لمن الدولة؟ قال ابن مسعود: لله ورسوله.

وورد أن أبا جهل قال لابن مسعود: لقد ارتقيت مرتقى صعباً يا رُوَيْعِي الغنم، قال ابن مسعود: ثم احتزرت رأسه، ثم جئت به إلى رسول الله ﷺ فقلت: يا رسول الله، هذا رأس عدو الله أبي جهل، فقال: «آله الذي لا إله غيره؟» فقلت: نعم، والذي لا إله غيره، ثم ألقىته بين يدي رسول الله، فحمد الله تعالى، لقد قُتِل أبو جهل، وكان يظن أنه على صواب في محاربة محمد وصحبه.

العدو قديماً وحديثاً يقاتلنا عن تدنٍ:

وهكذا عدونا يقاتل معتقداً أنه على صواب، واليهود اليوم يقاتلون أهل فلسطين، وهم يعتقدون أنهم أصحاب حق، كالمشركين في عهد النبي ﷺ.

فقد وقف أهل قريش ومن معهم صبيحة يوم بدر متعلقين بأستار الكعبة يقولون: اللهم إنك تعلم مَنْ مِنَّا أقطع للرحم، اللهم انصر أهدي الجُنْدَيْن، وأكرم الفتتين، وخير القبيلتين^(٢) يعني هم،

(١) «صحيح البخاري» برقم (٣١٤١، ٣٩٦٤، ٣٩٨٨) و«صحيح مسلم» برقم (١٧٥٢).

(٢) جاء هذا بإسناد صحيح عن ابن شهاب، عن عبد الله بن ثعلبة بن صُعَيْر، وعن عطية في «المسند» (٢٣٦٦١) حديث صحيح، وإسناده حسن من أجل ابن إسحاق وقد توبع، وابن أبي شيبة (٣٥٩/١٤) والنسائي في «السنن الكبرى» (١١٢٠١) والطبري (٩١/١١) والحاكم (٣٢٨/٢) والبيهقي في «الدلائل» (٧٤/٣).

أو محمد صلوات الله وسلامه عليه، فكان هذا استفتاحاً منهم بطلب النصر على محمد وصحبه، فجاءهم الفتح بالهزيمة قتلاً وأسراً، والمشركون بهذا الاستفتاح يعتقدون أنهم أهل للنصر وأنهم جديرون به، وهذا هو شأن العدو في القديم والحديث، وهو ينطبق على الصهيونية العالمية، وعلى اليهود الذين يتعلقون بحائط البراق، ويرفعون التوراة بأيديهم، ويطلبون النصر على المسلمين، معتقدين أنهم أصحاب حق في الأرض والدين.

﴿إِنْ قَسَتْغِيحُوا فَقَدْ جَاءَكُمْ الْفَتْحُ﴾ يراد بالفتح في الآية:

- ١- طلب الحكم والفصل والقضاء بينهم وبين محمد ﷺ كما سبق بيانه، وهو الأولي.
 - ٢- وقد يراد به: طلب النصر على العدو، أي: إن تطلبوا النصر على المسلمين فقد جاءكم الفتح، أي الهزيمة، وفيه تهكم وسخرية واستهزاء يجاريهم ربنا عليه على حد قولهم.
- فالمراد بالفتح على المعنى الثاني: هو النصر، ولكنه هنا بمعنى الهزيمة، من باب السخرية والتهكم والاستهزاء، كما قال تعالى عمن يستحق عذاب النار: ﴿ذُقْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ﴾ [الدخان] فهذا الذي يذوق ألواناً من العذاب في نار جهنم، هل هو في عزة وكرامة؟ لا والله، إنه في ذلة ومهانة، إذن فهي سخرية وإهانة وتوبيخ وتقرير له ولأمثاله.
- والمعنى: إن تطلبوا النصر على عدوكم فقد جاءكم الهزيمة.

﴿وَإِنْ تَنَاهَوْا﴾ أيها المشركون عن الكفر بالله، وعن عداوة محمد ﷺ وقتاله، وعن طلب الاستفتاح ﴿فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ في دينكم ودنياكم لأنه ربما أمهلكم ولم يعجل لكم العقوبة ﴿وَإِنْ تَعُودُوا﴾ إلى الحرب، وقاتل محمد ﷺ وأصحابه ﴿نَعَذِّبُ﴾ إلى هزيمتكم كما هُزمت يوم بدر ﴿وَلَنْ تُغْنِيَ عَنْكُمْ فِئَتُكُمْ شَيْئاً﴾ الفئة هي الجماعة، وهي لا تنفع ولو كثرت من أهل الشرك كما حدث لكم يوم بدر؛ أي أن أعوانكم وأنصاركم الذين تعتمدون عليهم في قتالكم لن ينفعوكم شيئاً، ومهما كثر عدد العدو وعدته فإنه لا ينبغي لأحد أن يرهب إلا الله ﷻ، طالما كان الإيمان قوياً، مع الأخذ بالأسباب والإقبال على الله سبحانه ﴿وَأَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ بتأييده ونصره، ومن كان الله معه فهو المنصور وإن كان ضعيفاً، وكانت هزيمة المسلمين يوم أحد عقوبة لهم؛ لمخالفة الرماة لأمر النبي ﷺ، وهكذا حين يخالف المسلمون تعاليم الإسلام ولا يأخذوا بأسباب النصر المادية والمعنوية فإن العدو يهزمهم.

هذا: وَلَمَّا أَخْبَرَ اللَّهُ تَعَالَى أَنَّهُ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ، أَمَرَهُمْ فِي الْآيَةِ التَّالِيَةِ أَنْ يَقُومُوا بِمَقْتَضَى هَذَا الْإِيمَانِ حَتَّى يَدْرُكُونَ بِهِ مَعِيَّتَهُ.

النِّدَاءُ الثَّانِي: طَاعَةُ اللَّهِ وَرَسُولِهِ

٢٠- ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَا^(١) تَوَلَّوْا عَنْهُ وَأَنْتُمْ تَسْمَعُونَ ﴿٢٠﴾

ثم يوجّه القرآن نداء آخر إلى أهل بدر، وإلى المنتصرين على عدوهم في كل زمان ومكان؛ فَيُبينُ لَهُمْ أَنَّ النَّصْرَ عَلَى الْعَدُوِّ يَتَرْتَّبُ عَلَى طَاعَةِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ، وَإِعْدَادِ الْعِدَّةِ الْمَكَاثِفَةِ لِقِتَالِ الْعَدُوِّ، فَإِنْ أَطَعْتُمُ اللَّهَ وَأَطَعْتُمْ رَسُولَهُ، وَلَمْ تَتَشَبَّهُوا بِالْكَفَّارِ، وَلَمْ تَوَالُوهُمْ، وَلَمْ تَكُونُوا مِثْلَهُمْ فِي عَدَمِ الْإِنْتِفَاعِ بِالْقُرْآنِ وَالسُّنَّةِ، فَإِنَّكُمْ حَيْثُذُ أَهْلٍ لِلنَّصْرِ عَلَى الْعَدُوِّ.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾ بِامْتِثَالِ الْأَوَامِرِ وَاجْتِنَابِ النَّوَاهِي فِي كُلِّ أَحْوَالِكُمْ وَلَا تَقْصُرُوا فِي طَاعَةِ اللَّهِ وَالرَّسُولِ، وَأَنْ تَبْذُلُوا النَّفْسَ وَالنَّفِيسَ لِلْجِهَادِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ، وَرَفْعِ رَايَةِ الْإِسْلَامِ، وَنَشْرِ الدَّعْوَةِ، وَرَدِّ الْعُدْوَانِ.

﴿وَلَا تَوَلَّوْا عَنْهُ وَأَنْتُمْ تَسْمَعُونَ﴾ وَلَا تَتْرَكُوا طَاعَةَ اللَّهِ وَالرَّسُولِ وَأَنْتُمْ تَسْمَعُونَ مَا يَتْلَى عَلَيْكُمْ فِي الْقُرْآنِ مِنَ الْحُجَجِ وَالْبَرَاهِينِ سَمَاعَ تَدْبِيرٍ وَاتِعَازٍ، فَإِنْ مِنْ لَمْ يَنْتَفِعْ بِمَا يَسْمَعُ بِمِثَابَةِ الَّذِي لَمْ يَسْمَعْ أَصْلًا. قَالَ تَعَالَى:

٢١- ﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ قَالُوا سَمِعْنَا وَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ﴿٢١﴾

أي: وَلَا تَكُونُوا - أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ - فِي مَخَالَفَةِ اللَّهِ وَالرَّسُولِ، كَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُنَافِقِينَ الَّذِينَ إِذَا سَمِعُوا كِتَابَ اللَّهِ يَتْلَى عَلَيْهِمْ لَا يَنْتَفِعُونَ وَلَا يَتَعَذَّبُونَ بِهِ، بَلْ يَقُولُونَ: سَمِعْنَا بَآذَانَنَا، وَهُمْ فِي الْحَقِيقَةِ لَا يَتَدَبَّرُونَ مَا سَمِعُوا، وَلَا يَفْكُرُونَ فِيهِ، فَهُمْ لَا يَنْتَفِعُونَ بِهِ، وَفِي هَذَا نَهْيٍ عَنِ التَّشَبُّهِ بِأَهْلِ الْكُفْرِ وَالضَّلَالِ وَالنِّفَاقِ، وَعَدَمِ الْاِكْتِفَاءِ بِمَجْرَدِ الدَّعْوَى الْجَوْفَاءِ الْخَالِيَةِ مِنَ الْحَقِيقَةِ، فَلَيْسَ الْإِيمَانُ بِالْتَّمَنَى وَلَا بِالْتَحَلَّى، وَلَكِنْ مَا وَقَرَّ فِي الْقَلْبِ وَصَدَقَهُ الْعَمَلُ.

(١) قرأ البزي بخلف عنه بتشديد التاء وصلًا مع المد المشيع، وقرأ الباقون بالتخفيف مع القصر.

وهذا الأمر بالطاعة رجوع إلى ما افتتحت به السورة في قوله تعالى: ﴿وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾ إن كُنتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿﴾ كما يرجع الخطيب إلى المقدمة، وذلك بعدما أراهم نتيجة امتثال الأوامر واجتناب النواهي.

وكانوا قد كرهوا الخروج للقاء العدو، وتبين لهم كيف أن الله تعالى نصر الحق وخذل الباطل لما انخلعوا من هواهم، وأطاعوا الله والرسول، وأنه هزم أعداءهم؛ لأنهم شاقوا الله والرسول.

ثم بين سبحانه صفة من لم تُقد فيهم الآيات والنذر، ممن تولى وأعرض عن طاعة الله والرسول فقال:

٢٢- ﴿إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللَّهِ الصُّمُّ الْبُكْمُ الَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ﴾

والإنسان له قلب يتدبر، وعقل يفكر، وعدم قيامهما بوظيفتهما أمر قبيح مستنكر؛ حيث يشارك الإنسان وهو دابة تمشي على الأرض، سائر الدواب من الأنعام وغيرها، في فقد الحواس كالسمع، والبصر، مثل البهائم تمامًا.

لقد أعطى الله الإنسان سمعًا وبصرًا وفؤادًا ليستعملها في طاعة الله، فاستعملها في معاصيه، وبدل أن يكون خير البرية، أبى إلا أن يكون شر البرية.

﴿إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللَّهِ﴾ أي: إن من شر ما يدب على وجه الأرض من خلق الله عند الله في حكمه وقضائه، من وصفهم الله تعالى بهذه الأوصاف الثلاثة: فهم ﴿الصُّمُّ﴾ الذين انسدت آذانهم عن سماع الحق، فلا يسمعون الهدى والخير، وهم ﴿الْبُكْمُ﴾ الذين خرسست ألسنتهم عن النطق به، فلا ينطقون ولا يقولون كلمة الحق، وقُدِّم الصم على البكم؛ لأن النطق بالحق فرع عن سماعه.

لقد نفى الله عنهم السمع النافع، والنطق المفيد، وقامت الحجة عليهم بما سمعوه وتكلموا به في غير الوظيفة المنوطة بهما وهي طاعة الله والرسول.

ثم وصفهم الله وصفًا ثالثًا فبين أنهم فاقدون للوعي والإدراك، وأنهم قد بلغوا الغاية في سوء الحال؛ لأنهم من ﴿الَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ﴾ أي: لا يفقهون عن الله أمره ونهيه، فهم لا يفهمونه ولا يقبلون عليه، والأصم الأبكم، ربما فهم بعض الأمور، أما هؤلاء فقد فقدوا جميع المشاعر والقوى، فلم ينتفعوا بالعقل ولا بالسمع ولا باللسان، ولم

النِّدَاءُ الثَّالِثُ: الْاسْتِجَابَةُ لِأَمْرِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ

٢٤- ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ وَأَنَّهُ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾ (١٤)

وبعد الأمر بطاعة الله وتقواه، تأتي مرتبة المؤمنين الكُمَّل بامثال ما أمر الله به، والاستجابة لدعوة الرسل صلوات الله وسلامه عليهم؛ فإن فيها حياة النفوس، وحياة القلوب والأرواح، سواء أكانت هذه الدعوة للإقبال على رسول الله ﷺ وهو حي، أم كانت دعوة لفعل أمر أو ترك نهي مما في كتاب الله وسنة رسوله بعد موته.

وفي هذا توجيه للمسلمين، وبيان أن النصر على العدو متوقف على الاستجابة لأوامر الله تعالى، وأوامر الرسول ﷺ، واجتناب النواهي، وتحليل ما أحل الله، وتحريم ما حرم الله، وإقامة حدود الله في أرضه، وموالاته المسلمين من بين العالمين، وإعداد العدة العسكرية لمواجهة العدو.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ﴾ بالطاعة والانقياد اختياراً منكم، ففي هذه الاستجابة إصلاح حياتكم في الدنيا والآخرة، وفي ذكر أحدهما مع الآخر تأكيد له، وظاهر الأمر للوجوب، ففي الاستجابة لدعوة الله والرسول السعادة الأبدية في الدنيا والآخرة ﴿إِذَا دَعَاكُمْ﴾ الله ورسوله ﴿لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾ ففي هذه الدعوة حياة الأرواح والأبدان، وفيها عبودية الله تعالى، ولزوم طاعته وطاعة رسوله، وهذا هو مقتضى الإيمان وملازمة الاستجابة.

والإسلام يدعوكم إلى توحيد الله، وإقامة شرعه ومنهجه وحكمه، والجهاد في سبيله، فانتهزوا الفرص حين ترق القلوب وتلين، وحينما تأتي مواسم الطاعات والخيرات، وساعات النفحات والبركات.

استغل هذه الأوقات - أيها المسلم - قبل أن يأتي الأجل، وتحول الموانع والحواجز ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ﴾ فهو المتصرف في جميع الأحوال والأشياء، فاحذروا أن تردوا أمر الله تعالى أول ما يأتيكم، فيحال بينكم وبينه إذا أردتموه بعد ذلك، وتختلف قلوبكم عليه، فإن الله تعالى يحول بين المرء وقلبه، وهو سبحانه يقلب القلوب

كيف شاء ويُقرِّفها أنى شاء .

وهذه جملة من الأحاديث في معنى الآية .

١- كان من دعاء النبي عليه الصلاة والسلام «اللهم ثبت قلبي على دينك»^(١) .

٢- ومن ذلك ما جاء أن عبد الله بن عمرو رضي الله عنه سمع رسول الله ﷺ يقول : «إن قلوب بني آدم كلها بين أصبعين من أصابع الرحمن ، كقلب واحد ، يصرفها كيف يشاء» ثم قال ﷺ : «اللهم مصرف القلوب ، إصرف قلوبنا إلى طاعتك»^(٢) .

فلا تحوّل عن معصية الله إلا بإذنه ، ولا قوة على طاعة الله إلا بإذنه .

٣- وفي حديث النبي ﷺ لأبي مسعود الأنصاري رضي الله عنه حين رآه يضرب عبداً له : «اعلم أبا مسعود ، أن الله أقدر عليك منك على هذا الغلام»^(٣) .

٤- ولما سمع عمر بن الخطاب رضي الله عنه غلاماً يقول : اللهم إنك تحول بين المرء وقلبه ، فحلّ بيني وبين الخطايا فلا أعمل بشيء منها ، فقال له عمر : رحمك الله ، ودعا له بخير^(٤) .

٥- وعن النّوّاس بن سميّان رضي الله عنه قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : «ما من قلب إلا وهو بين أصبعين من أصابع رب العالمين ، إذا شاء أن يقيمه أقامه ، وإذا شاء أن يزيغه أزاغه» .

٦- وكان ﷺ يقول : «يا مقلب القلوب ثبت قلوبنا على دينك» وقال : «والميزان بيد الرحمن يخفضه ويرفعه»^(٥) .

(١) من حديث أنس بن مالك في سنن ابن ماجه (٣٨٣) وصححه الألباني .

(٢) رواه مسلم (٢٠٤٥/٤) برقم (٢٦٥٤) وأحمد (١٦٨/٢) برقم (٦٥٦٩) قال محققوه : إسناده صحيح على شرط مسلم ورجاله ثقات و«سنن النسائي الكبرى» برقم (٧٨٦١) وابن أبي عاصم في السنة (٢٣١، ٢٢٢) وابن حبان (٩٠٢) .

(٣) «صحيح مسلم» برقم (١٦٥٩) .

(٤) رواه أحمد في كتاب «الزهد» ص ١١٤ .

(٥) «المسند» (١٨٢/٤) برقم (١٧٦٣٠) إسناده صحيح على شرط الشيخين (محققوه) وابن حبان (٩٤٣) وابن ماجه (٧٢/١) برقم (١٩٩) وهو حديث صحيح ، وهو في «سنن النسائي الكبرى» برقم (٧٦٩١) ، وابن أبي عاصم في السنة (٢١٩) وصححه الألباني في صحيح ابن ماجه (١٦٥) والسلسلة الصحيحة (٢٠٩١) وظلال الجنة (٢١٩، ٥٥٢) .

٧- وفي حديث عائشة رضي الله عنها قالت: دَعَوْتُ كان رسول الله ﷺ يكثر أن يدعو بها: «يا مقلب القلوب، ثبت قلبي على دينك» قالت: فقلت: يا رسول الله، إنك تكثر تدعو بهذا الدعاء، فقال: «إن قلب الآدمي بين أصبعين من أصابع الله، فإذا شاء أزاغهُ، وإذا شاء أقامهُ»^(١).

٨- زاد في رواية أم سلمة رضي الله عنها: «فنسأل الله ربنا ألا يزيغ قلوبنا بعد إذ هدانا، ونسأله أن يهب لنا من لدنه رحمة إنه هو الوهاب» قالت: قلت: يا رسول الله، ألا تعلمني دعوة أدعو بها لنفسي؟ قال: بلى، قل: «اللهم رب النبي محمد، اغفر لي ذنبي، وأذهب غيظ قلبي، وأجрни من مضلات الفتن ما أحييتني»^(٢).

٩- وفي صحيح البخاري عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: كثيراً ما كان النبي ﷺ يحلف: لا، ومقلب القلوب^(٣).

فالمسلم يغتنم حياته قبل موته، وشبابه قبل كبره، وغناه قبل فقره، وصحته قبل مرضه؛ استجابة لله والرسول، قبل أن يأتي وقت يحول الله سبحانه فيه بين المرء وقلبه، فيمسي مؤمناً ويصبح كافراً، والعكس صحيح، والله سبحانه قادر على أن يحول بين الإنسان وبين ما يشتهي قلبه، فهو جل شأنه الذي يستجاب له؛ إذ بيده ملكوت كل شيء، وجميع الخلق راجعون إليه، فيجازي كلاً بعمله ﴿وَأَنَّهُ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾ فقلوبكم بين يديه، وأنتم محشورون إليه، فلا مفر منه إلا إليه.

ومعنى الحيلولة بين المرء وقلبه أن الله تعالى أملك لقلوب عباده منهم، وأنه يحول بين العبد وبين ما يتمناه من شهوات الدنيا ومتاعها، وهو سبحانه يحول بين المؤمن وبين

(١) «المسند» (٩١/٦) برقم (٢٤٦٠٤) صحيح لغيره، لأن حسن البصري لم يسمع من عائشة، وبقيّة رجاله ثقات وهو في «سنن النسائي الكبرى» (٧٦٩٠) وعند ابن أبي عاصم (٢٢٤) والآجري ص ٣١٧ والطبراني في مسند الشاميين (٢٧٠١).

(٢) «المسند» (٣٠١/٦) برقم (٢٦٥٧٦) وأوله (اللهم مقلب القلوب) وبعضه صحيح بشواهد لضعف شهر بن حوشب وبقيّة رجاله ثقات (محققوه)، وأخرجه الطبراني في الكبير ٢٣ (٧٨٥) وعبد بن حميد في المنتخب (١٥٣٤). والترمذي برقم (٣٥٢٢) من طريق شهر بن حوشب، قال الترمذي: حديث حسن.

(٣) «صحيح البخاري» برقم (٧٣٩١، ٦٦٢٨، ٦٦١٧).

الكفر، وبين الكافر وبين الإيمان، فلا يستطيع العبد أن يؤمن أو يكفر إلا بإذنه تعالى، كما أن الموت يحول بين الإنسان وبين ما يريد أن يفعل في المستقبل ويؤمل، فبادروا إلى اغتنام الأوقات، وانتهاز الفرص، وأخلصوا قلوبكم لطاعة الله ورسوله قبل أن يفاجئكم الموت، فإنكم راجعون إليه سبحانه، فيحاسبكم على ما قدمتم من خير أو شر، ويجازي كل إنسان بما يستحق.

هذا: وإن أبا سعيد بن المعلّى الصحابي الجليل كان يصلي، فناداه النبي ﷺ، وظن الرجل أنه ما دام في الصلاة فلا يجوز له أن يقطع صلاته، وأن يجيب الرسول ﷺ، ولكن الله سبحانه يعلمنا أن طاعة الرسول وإجابته لا تقل شأنًا عن استمراره في الصلاة.

فعلى من شرف بهذا النداء في حضرته عليه الصلاة والسلام أن يقطع صلاته؛ استجابة لرسول الله ﷺ، ولكن أبا سعيد -على حد علمه- لما صلى أقبل على النبي ﷺ فقال له الرسول عليه الصلاة والسلام: «ما الذي منعك أن تجيبني حين دعوتك؟» قال: يا رسول الله، كنت أصلي، فقال النبي عليه الصلاة والسلام: «ألم تقرأ قول الله سبحانه: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾» ثم قال له النبي ﷺ: «لأعلمنك أعظم سورة في القرآن قبل أن أخرج»، فذهب رسول الله ﷺ ليخرج، فذكر له أبو سعيد ما قال له، فقال: «﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾» (٢) هي السبع المثاني والقرآن العظيم» (١).

وهذه الإجابة مختصة بالنبي ﷺ، فلا يجوز لأحد أن يقطع صلاته ليجيب أحداً من الخلق بعد رسول الله ﷺ.

الْعَوَاقِبُ الْوَحِيمَةُ لِلْسُّكُوتِ عَلَى الْمُنْكَرِ

٢٥- ﴿وَاتَّقُوا فِتْنَةً لَا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ خَاصَّةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ (٢٥)

حذر ﷺ جميع المؤمنين من التراخي في طاعة الله والرسول، وحذرهم من التراخي في تغيير المنكر، وألا يُقرّوا المنكر بين أظهرهم؛ فيعمهم الله بعقاب، كما حذرهم من

(١) يُنظر: لفظ الحديث في البخاري برقم (٤٦٤٧) وانظر (٤٤٤٧) وغيرهما عند تفسير سورة الفاتحة وآية سورة الحجر [٨٧]، من هذا الكتاب.

القيود عن الجهاد في سبيل الله، وحذّرهم من فتنة عامة إذا وقعت لا تخص الظالمين وحدهم، بل تصيب كل ظالم وبريء.

فقال تعالى: ﴿وَاتَّقُوا فِتْنَةً لَا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ خَاصَّةً﴾ احذروا -أيها المؤمنون- فتنة فيها ابتلاء واختبار ومحنة، لا تخص من يباشر الذنب وحده، ولا تقتصر على الظالم فحسب، بل تعم وتشمل أهل المعاصي والمساوي، وغيرهم من الصالحين الموجودين بين أظهرهم، القادرين على تغيير المنكر ولم يغيروه، بمقدار قدرتهم على تغييره: باليد أو اللسان أو القلب، بل أقروه وسكتوا عنه، فاتقاء الفتنة يكون بالنهي عن المنكر، وقمع أهل الشر والفساد، بحيث لا يُمكنون من الظلم والمعاصي ﴿وَأَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ لمن خالف أمره ونهيه، ومن الأحاديث في ذلك:

١- ما جاء عن حذيفة بن اليمان ؓ أن رسول الله ﷺ قال: «والذي نفسي بيده لتأمرن بالمعروف ولتنهون عن المنكر أو ليوشكن الله أن يبعث عليكم عقاباً من عنده ثم لتدعنه فلا يستجيب لكم»^(١).

٢- وعن عائشة ؓ تبلى عن النبي ﷺ: «إذا ظهر السوء في الأرض، أنزل الله بأهل الأرض بأسه» قالت: وفيهم أهل طاعة الله؟ قال: «نعم»، ثم يصيرون إلى رحمة الله»^(٢).

٣- وفي حديث ابن عمر مرفوعاً «إذا أراد الله تعالى بقوم عذاباً أصاب العذاب من كان فيهم، ثم بعثوا على أعمالهم»^(٣).

والمراد بمن كان فيهم: من ليس على عملهم، كما قال تعالى: ﴿وَاتَّقُوا فِتْنَةً لَا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ خَاصَّةً﴾ الأنفال: ٢٥.

(١) أخرجه أحمد (٣٨٨/٥) ورجاله كلهم ثقات، سوى عبد الله بن عبد الرحمن الأشهل، فإنه مقبول، ورقمه في «المسند»: (٢٣٣٠١، ٢٣٣٢٧) قال محققو «المسند»: حسن لغیره، وأخرجه الترمذي (٢١٦٩) والبيهقي في «الشعب» (٧٥٥٨) والبخاري (٤١٥٤) وغيرهم.

(٢) «المسند» (٤١/٦) برقم (٢٤١٣٣) وهو حديث ضعيف، لإبهاام المرأة التي روى عنها الحسن بن محمد بن الحنفية، ولاضطرابه، (محققوه) وأخرجه الحميدي (٢٦٤) والبيهقي في شعب الإيمان (٧٥٩٩).

(٣) أخرجه البخاري (٧١٠٨) ومسلم (٢٨٧٩) والمسند (٤٩٨٥) والبخاري (٤٢٠٤) وابن حبان (٧٣١٥).

٤- وفي الحديث عن النعمان بن بشير رضي الله عنه: «مثل القائم في حدود الله والواقع فيها كمثل قوم ركبوا سفينة، فأصاب بعضهم أسفلها، وأصاب بعضهم أعلاها، فكان الذين في أسفلها إذا استقوا الماء مروا على من فوقهم فأدوهم، فقالوا: لو خرقنا في نصيبنا خرقاً، فاستقينّا منه، ولم نؤذ من فوقنا، فإن تركوهم وأمرهم هلكوا جميعاً، وإن أخذوا على أيديهم نجوا جميعاً»^(١).

٥ - وفي الصحيحين عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «ستكون فتن، القاعد فيها خير من القائم، والقائم فيها خير من الماشي، والماشي خير من الساعي، من تشرف لها تستشرفه، ومن وجد ملجأً أو معاذاً فليعذ به»^(٢).

٦- وعن أم سلمة رضي الله عنها قالت: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إذا ظهرت المعاصي في أمتي، عمّهم الله ﻻ بعذاب من عنده»، فقلت: يا رسول الله، أما فيهم يومئذ أناس صالحون؟ قال: «بلى»، قالت: فكيف يصنع أولئك؟ قال: «يصيبهم ما أصاب الناس، ثم يصيرون إلى مغفرة من الله ورضوان»^(٣).

٧- وعن زينب بنت جحش رضي الله عنها أنها سألت رسول الله ﷺ: أنهلك وفينا الصالحون؟ قال: «نعم، إذا كثر الخبث»^(٤).

٨- أخرج الإمام أحمد وغيره بسند صحيح أنه قيل للزبير: يا أبا عبد الله، ما جاء بكم؟ ضيّعتم الخليفة حتى قُتل، ثم جئتم تطالبون بدمه، قال الزبير: إنا قرأنا على عهد رسول الله ﷺ وأبي بكر وعمر وعثمان رضي الله عنهم ﴿وَاتَّقُوا فِتْنَةً لَا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ خَاصَّةً﴾

(١) «صحيح البخاري» برقم (٢٤٩٣، ٢٦٨٦) والترمذي (٤٧٠/٤) برقم (٢١٧٣) و«المسند» (٢٦٩/٤) برقم (١٨٣٦١، ١٨٣٧٠، ١٨٣٧٢).

(٢) «صحيح مسلم» برقم (٢٨٨٦) و«صحيح البخاري» (٣٦٠١، ٧٠٨١، ٧٠٨٢).

(٣) «المسند» (٣٠٤/٦) برقم (٢٦٥٩٦) فيه لَيْثُ بْنُ سُلَيْمٍ وهو ضعيف، وبقية رجاله ثقات رجال الشيخين غير خلف بن خليفة وهو صدوق، قاله محققوه، وقال الهيثمي في «مجمع الزوائد» (٢٦٨/٧): رواه أحمد بإسنادين، رجال أحدهما رجال الصحيح، وله شواهد أخرى، منها ما صححه الحاكم ووافقه الذهبي في «المستدرک» (٥٢٣/٤) وصحح إسناده الألباني في «السلسلة الصحيحة» (٣٦٠).

(٤) «صحيح مسلم» برقم (٢٨٨٠) والبخاري برقم (٣٤٦، ٣٥٩٨، ٧٠٥٩، ٧١٣٥).

لم نكن نحسب أننا أهلها حتى وقعت منا حيث وقعت^(١).

أي: حتى طبقت علينا هذه الآية، فدخلنا في معناها الشامل.

والمراد بالفتنة في الآية: العذاب الدنيوي؛ كالأمرض، واضطراب الأحوال، ورفع الأمان، والهزائم، وتسلط الظلمة.

قال السُّدِّي: نزلت هذه الآية في أهل بدر خاصة، فأصابهم يوم الجمل فاقتلوا، وبهذا تأول الآية الزبير رضي الله عنه فقال: لقد قرأت هذه الآية زماناً، وما أرانا من أهلها، فإننا نحن المعنيون بها.

والآية عامة تشمل ما حدث في يوم بدر، وما حدث في يوم الجمل وصفين، وتشمل كل ما يحدث للمسلمين من محن وفتن في كل زمان ومكان، وهي تأمر بالبُعد عن المعاصي والمنكرات التي تفضي بهم إلى العذاب الدنيوي، والعقوبة لا تكون خاصة بمن وقع منهم المعاصي، بل تشمل الجميع، فالفتنة إذا عمت هلك الكل، ومع أنه لا تزر وازرة وزر أخرى، إلا أن الراضي بمنزلة الفاعل، والساكت عن الحق شيطان أخرس؛ ولذا انتظم معه في العقوبة، فالفتنة تكون عقاباً من الله تعالى في الدنيا؛ لأن المسلمين لم يكونوا على درجة واحدة في الاستجابة لله والرسول، وكان من نتائج ذلك أن دبَّ فيهم الاختلاف، واضطراب الأحوال، واختلال النظام، وصاروا شيعاً وأحزاباً.

أَهْلُ الاسْتِجَابَةِ هُمْ أَهْلُ النَّصْرِ فِي كُلِّ زَمَانٍ

٢٦- ﴿وَأَذْكُرُوا إِذْ أَنْتُمْ قَلِيلٌ مُسْتَضْعَفُونَ فِي الْأَرْضِ تَخَافُونَ أَنْ يَخَطَفَكُمْ النَّاسُ فَيَأْخُذَكُمْ بِبَصَرِهِمْ وَزَادَكُمْ مِنَ الطَّيْبَتِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾

لما أمر الله المؤمنين بطاعة الله وطاعة رسوله، وحذَّره من الفتنة، ومخالفة أمر الله ورسوله، ذكَّره بنعمة الله عليهم، حيث كانوا قلة مستضعفة في مكة، يخافون من الكفار أن يأخذوهم على غرة، فجعل لهم مأوى يأوون إليه - هو مدينة رسول الله ﷺ - وقواهم

(١) «المسند» بتصحيح أحمد شاكر برقم (١٤١٤) وإسناده جيد وقال الهيثمي (٢٧/٧): رواه أحمد بإسنادين، رجال أحدهما رجال الصحيح، وأخرجه الضياء المقدسي في «المختارة» برقم (٨٧٢) وقال محققه: إسناده حسن وأخرجه البزار (٩٧٦).

بنصره يوم بدر، وأعزهم بالإسلام، وأحل لهم الغنائم، فجعلها طعامًا حلالًا طيبًا، بعد أن كانت محرمة على مَنْ قبلهم من الأمم.

﴿وَأَذْكُرُوا إِذْ أَنتُمْ قَلِيلٌ مُسْتَضْعَفُونَ فِي الْأَرْضِ﴾ أي: قليلو العدد في أرض مكة، مهجورون تحت حكم غيركم، فأنعم عليكم بنعم كثيرة، منها هذه النعم الثلاث؛ وهي: الإيواء، والنصر، وكثرة الرزق ﴿فَتَأْوِيَكُمْ وَأَيْدِيكُمْ بِنَصْرِهِ وَرَزَقَكُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ﴾ وكل هذا لتشكروا نعمة الله عليكم على ما رزقكم وأنعم عليكم به ﴿لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ الله على منّته وفضله وإحسانه، بأن تعبدوه ولا تشركوا به شيئًا.

قال قتادة: كان هذا الحي من العرب أذل الناس ذلًّا، وأشقاء عيشًا، وأجوعه بطنًا، وأعرأه جلودًا، وأبينه ضلالًا، من عاش منهم عاش شقيًّا، ومن مات منهم رُدِّي في النار، حتى جاء الله بالإسلام، فمكَّن به في البلاد، ووسَّع به في الرزق، وجعلهم به ملوكًا على رقاب الناس، فبالإسلام أعطى الله ما رأيتم، فاشكروا لله نعمه، فإن ربكم منعم يحب الشكر، وأهل الشكر في مزيد من الله تعالى^(١).

وقال عمر رضي الله عنه: نحن قوم أعزنا الله بالإسلام، فمتى ابتغينا العزة بغير الإسلام أذلنا الله.

وفي الآية بيان أن الله جلَّ شأنه هو القادر على نصر المسلمين في كل زمان ومكان، وقادر على إخراجهم من الذل والمهانة التي يعيشون فيها، إذا تابوا ورجعوا إلى الله تعالى.

والمسلمون الأوائل، كمسلمي هذا اليوم، سواء بسواء، فاذكروا هذه النعمة - أيها المسلمون - في مشارق الأرض ومغاربها، وتمثلوها، وأطيعوا الله ورسوله، واستجيبوا لله ورسوله، يخرجكم مما أنتم فيه من الذل والمهانة، ويُلحق بكم ما لحق بإخوانكم المسلمين من النصر في غزوة بدر وغيرها.

ففي هذه الآية تذكير بنعمة الأمن والنصر والعزة والتمكين في الأرض بعد القلة والضعف والخوف، وفيها امتنان من الله تعالى على المؤمنين بنعمة توفير الرزق من الحلال الطيب.

(١) بتصرف من «تفسير الطبري» (١٣/٤٧٨).

وهذه المعاني تصدق على المسلمين في كل زمان ومكان، في العصور السابقة واللاحقة، وعندما ينحرف المسلمون عن دين ربهم، ويتفرقون ويختلفون، تكون الدروس والعبر.

ولهذا: فإن النبي ﷺ ينبه المسلمين إلى طريق عزهم ومجدهم، ويحذرهم من مغبة الخلاف والفرقة والبُعد عن منهج الله تعالى.

ففي حديث أبي هريرة ؓ أن النبي ﷺ قال: «بدأ الإسلام غريباً وسيعود غريباً فطوبى للغرباء»^(١).

وعن حذيفة بن اليمان ؓ قال: كان الناس يسألون رسول الله ﷺ عن الخير، وكنت أسأله عن الشر؛ مخافة أن يدركني، فقلت: يا رسول الله، إنا كنا في جاهلية وشر، فجاءنا الله بهذا الخير، فهل بعد هذا الخير من شر؟ قال: «نعم»، قلت: وهل بعد ذلك الشر من خير؟ قال: «نعم، وفيه دَخَنٌ» قلت: وما دَخَنُهُ؟ قال: «قوم يهدون بغير هُدًى، تعرف منهم وتُنكر»، قلت: فهل بعد ذلك الخير من شر؟ قال: «نعم. دعاة إلى أبواب جهنم، مَنْ أجابهم إليها قذفوه فيها»، قلت: يا رسول الله، صفهم لنا. فقال: «هم من جلدتنا ويتكلمون بألسنتنا»، قلت: فما تأمرني إن أدركني ذلك اليوم؟ قال: «تلزم جماعة المسلمين وإمامهم»، قلت: فإن لم يكن لهم إمام؟ قال: «فاعتزل تلك الفرق كلها، ولو أن تعضَّ بأصل شجرة حتى يدركك الموت وأنت على ذلك»^(٢).

النِّدَاءُ الرَّابِعُ: النَّهْيُ عَنْ خِيَانَةِ الْأَمَانَةِ

٢٧- ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَخُونُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ وَتَخُونُوا أَمْنَكُمْ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٢٧﴾﴾

هذا خطاب لجميع المؤمنين إلى يوم القيامة، ينهاهم فيه عن جميع الخيانات قليلاً وكثيرها، ويحذرهم من إظهار الطاعة وإبطان المعصية، كما يحذر من إظهار الامتثال لأمر الله ورسوله وإبطان الخيانة، فالإيمان والطاعة لله والرسول عهدان بين المؤمن وبين ربه، وكما حذر الإسلام من المعصية العلنية، حذر من المعصية الخفية، وكل معصية خفية تدخل في هذا النهي، وهكذا يأمر الله عباده المؤمنين أن يؤدوا ما اتَّمتَّهم الله عليه من

(١) «صحيح مسلم» برقم (١٤٥)

(٢) «صحيح البخاري» برقم (٣٦٠٦، ٧٠٨٤) و«صحيح مسلم» برقم (١٨٤٧).

أوامره، ونواهيه التي حملها الإنسان بعد أن أبى حملها السموات والأرض والجبال، فَمَنْ أَدَّى الْأَمَانَاتِ اسْتَحَقَّ الثَّوَابَ الْجَزِيلَ، ومن خانها استحق العقاب الوخيم:

ومن أسباب النزول:

أن رجلاً من المنافقين كتب إلى أبي سفيان يخبره بشيء من أخبار الرسول ﷺ.

١- عن جابر بن عبد الله رضي الله عنه أن رجلاً من المنافقين كتب إلى أبي سفيان: إن محمداً يريدكم، فخذوا حذرکم؛ فأنزل الله ﴿لَا تَخُونُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ﴾^(١).

٢- ومن ذلك أن قومًا كانوا ينقلون إلى المشركين ما يتعلق بالنبي ﷺ ويحدثونهم به.

٣- وقد كان بعض المسلمين يسمع الكلام الذي يقال سرًا من رسول الله ﷺ لأصحابه، سِيَمًا ما يتعلق بالغزو، فيرسله إلى المشركين.

قصة أبي لبابة:

٤- واشتهر بين المفسرين وأهل السير أن هذه الآية نزلت في أبي لبابة مبعوث النبي ﷺ إلى بني قُرَيْظَةَ، وهي حادثة وقعت بعد بدر بنحو ثلاث سنوات؛ حيث حاصر النبي ﷺ يهود بني قُرَيْظَةَ إحدى وعشرين ليلة، فلما اشتد عليهم الحصار، أرسلوا يطلبون من النبي عليه الصلاة والسلام أن يصالحهم كما صالح بني النضير من قبل، على أن يخرجوا من المدينة، فأبى النبي ﷺ إلا أن ينزلوا على حكم سعد بن معاذ، فأبوا ذلك، وطلبوا منه أن يرسل لهم أبا لبابة، فلما ذهب أبو لبابة إليهم، وكان حليفًا مناصرًا لهم، وله عندهم أولاد وأهل وأموال؛ فهو يصانعهم؛ لأنه يخاف منهم على أهله وعلى ماله وأولاده لديهم، فلما سأله: هل ينزلون على حكم سعد؟ أشار إلى حلقه؛ أي: إنهم إذا نزلوا على حكم سعد، فسيكون الحكم هو: الموت والذبح.

قال أبو لبابة: والله ما زالت قدماي في مكانهما حتى عرفتُ أنني خنت الله ورسوله، ثم انطلق على وجهه وقال: والله لا أطعمُ طعامًا، ولا أشرب شرابًا حتى أموت، أو يتوب الله عليّ، وأخذ على نفسه عهدًا بذلك، وربط نفسه بسارية من سواري المسجد،

(١) أخرجه ابن المنذر وأبو الشيخ كما قال السيوطي في الدر (٩٠/٧) وأخرجه الطبري (١١/١٢١).

فلما علم النبي ﷺ بذلك قال: «لو جاءني لاستغفرت له، أما وقد فعل ما فعل، فلا أُطْلِقْه حتى يتوب الله عليه»، فمكث سبعة أيام حتى خرَّ مغشيًا عليه، ثم تاب الله عليه.

فقال أبو لبابة: إن من تمام توبتي أن أهْجُر دار قومي التي أصبَتْ فيها الذنب، وأن أنخلع من مالي، فقال رسول الله ﷺ: «يجزيك الثلث أن تتصدَّق به»؛ فأنزل الله تعالى هذه الآية التي معنا.

ولما ذهبوا ليحلوا وثاقه أبي، وقال: حتى يحلَّني رسول الله ﷺ فجاء النبي عليه الصلاة والسلام وحلَّ وثاقه^(١).

وسواء صحت هذه الرواية أم لا، فإن الآية عامة.

قصة حاطب بن أبي بلتعة:

٥- ومن ذلك ما جاء في الصحيحين عن حاطب بن أبي بلتعة، أنه أرسل -قُيِّل فتح مكة- كتابًا إلى قريش يخبرهم فيه أن رسول الله عليه الصلاة والسلام قادم إلى فتح مكة، وكان لحاطب أيضًا أهل وأموال وأولاد بين المشركين يخاف عليهم، وتاب الله على حاطب من سقطته هذه.

ولما أراد عمر أن يضرب عنقه قال له الرسول عليه الصلاة والسلام: «وما يدريك يا عمر، لعل الله اطلع على أهل بدر فقال: اعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم»، وكان حاطب منهم^(٢).

خيانة الأمانة: والأمانات: الأسرار والعهود والودائع وغير ذلك مما يكون بين الإنسان وغيره، مما يجب أن يُصان ويُحفظ.

والأمانة: اسم لما يحفظه المرء عند غيره، ولها شأن عظيم في استقامة أحوال المسلمين، وفيها دليل النزاهة والاعتدال، وقد حذَّر الإسلام من إضاعتها والتهاون فيها.

(١) يُنظَر الطبري (٤٨١/١٣) وهو من مراسيل الزهري، و«المسند» عن الحسين بن السائب، وهو يروي عن أبيه المراسيل، وفي «تفسير القرطبي» (٣٩٤/٧) و«زاد المسير» (٣٤٣/٣) وأخرجه مختصراً سعيد بن منصور (٩٨٧) تفسير، وابن أبي حاتم (١٦٨٤/٥).

(٢) لفظ الحديث أخرجه البخاري برقم (٣٠٠٧، ٣٩٨٣) ومسلم (١٩٤١/٤) برقم (٢٤٩٤) عن علي .

وقرب قيام الساعة تُرَفَّع الأمانة، حيث ينام الرجل النومة، فتقبض الأمانة من قلبه، ويظل أثرها مثل الوكت، ثم ينام النومة فتقبض ويبقى أثرها، ولا يكاد أحد يؤدي الأمانة، فيقال: إن في بني فلان رجلاً أميناً، ويقال للرجل: ما أعقله وما أجلده! وليس في قلبه مثقال حبة من خردل من إيمان.

وخيانة الله: ترك فرائضه وأوامره التي كلف بها العباد، وانتهاك حرمة الله التي نهى عنها.

وخيانة الرسول: إهمال سننه التي جاء بها وأمرنا أن نتعبد بتعاليمها.

وأصل الخيانة: من الخون وهو النقص؛ لأن من خان شيئاً فقد نقصه، والخيانة ضد الأمانة وضد الوفاء، كما في الحديث عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «أَدُّ الأمانة لمن ائتمنك، ولا تخن من خانك»^(١).

أي: لا تخونوا الله بترك فرائضه، ولا تخونوا الرسول بترك سنته، ولا تخونوا الأمانات التي بينكم وبين الله بالتخلي عن التكاليف الشرعية، وترك ما وجب عليكم أو فعل ما نهيتكم عنه، ولا تفرطوا فيما ائتمنتم عليه من صحة الاعتقاد، وإقامة منهج الله تعالى في حياتكم، ولا تخونوا الودائع والأسرار التي بينكم وبين الناس، لا تخونوا هذه الأمانات وغيرها ﴿وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ أن ذلك أمانة يجب الوفاء بها.

والآية وإن صح سبب النزول فيها، فالعبرة بعموم اللفظ عند الجمهور.

ولمّا كان العبد ممتحنًا بأمواله وأولاده، فربما حمله ذلك على تقديم هوى النفس على أداء الأمانة، ولذلك أخبر الله تعالى في الآية التالية أن الأموال والأولاد فتنة يبتلى الله بهما عباده، وأنهما عارية مستردة، تُردُّ لمن استودعها حتى لا تُفتن النفس بهما.

(١) أخرجه أبو دواد (٣٥٣٥) و«صحيح سنن أبي داود» (٣٠١٩) والترمذي (١٢٨٧) وقال: حديث حسن غريب، وهو في «صحيح سنن الترمذي» برقم (١٠١٥) قال الألباني: حسن صحيح، وصححه أيضًا في مشكاة المصابيح (٢٩٣٤) والسلسلة الصحيحة (٤٢٣٠) والروض النضير (١٦).

فِتْنَةُ الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ

٢٨- ﴿وَأَعْلَمُوا أَنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ وَأَنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾

ولما كان حب الأموال والأولاد والاشتغال بهم من أهم دواعي الإقدام على الخيانة، نبّه سبحانه على ذلك، فقد يضعف الإنسان عن الوفاء بالأمانة، ويقعد عن القيام بتكاليفها؛ بسبب الخوف على الأولاد، أو البخل بالمال، وهذا من أعظم الفتن والابتلاءات، فيجب على المؤمن أن يتقي فتنة المال بكسبه من وجوه الحلال، وإنفاقه في وجوهه المشروعة، وإخراج زكاته والتصدق منه، وعليه أن يتقي فتنة الولد بحسن التربية على الدين والفضائل وتجنب المعاصي والردائل.

وقويّ الإيمان لا يشغله ماله وولده عن طاعة الله والرسول، وضعيف الإيمان يكون عبداً لأمواله مطيعاً لأولاده وزوجاته، وقد يحمله هذا الحب على اقتراف الذنوب والآثام؛ ولذا حذر الإسلام من الوقوع فيما لا يرضي الله ورسوله؛ بسبب الأموال والأولاد والزوجات.

﴿وَأَعْلَمُوا﴾ أيها المؤمنون ﴿أَنَّمَا أَمْوَالُكُمْ﴾ التي استخلفكم الله فيها ﴿وَأَوْلَادُكُمْ﴾ التي وهبكم الله إياهم ﴿فِتْنَةٌ﴾ ابتلاء من الله تعالى واختبار منه لعباده؛ ليعلم -علم ظهور- أيشكرون الله عليها، ويطيعونه فيها، أو يشتغلون بها عنه، أو يُقَدِّمون الحرص والخوف عليها على طاعة الله والرسول، كما فعل أبو لبابة، وكما فعل حاطب حين قال ما قاله؛ خوفاً عليهم.

فيجب على العاقل أن يحذر من المضار الدينية التي تترتب على حب المال والولد، فلا يكن قلبه مشغولاً ولا محجوباً عن الله بسببهم ﴿وَأَنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ أي: واعلموا أيضاً أن الله عنده خير وثواب كبير لمن اتقاه وأطاعه.

وفي هذا تنبيه على أن سعادة الآخرة أفضل من سعادة الدنيا بالمال والولد. قال تعالى: ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا نَلْهَكُمُ أَمْوَالَكُمْ وَلَا أَوْلَادَكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾ [المنافون]

وقال: ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنَّ مِنْ أَرْوَاجِكُمْ وَأَوْلَادِكُمْ عَدُوًّا لَكُمْ فَأَحْذَرُوهُمْ﴾ [التغابن: ١٤]

وقال جل في علاه: ﴿أَتَمَّا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَدُكُمْ فِتْنَةً﴾ [التغابن: ١٥].

وقد وجدنا تطبيقًا عمليًا من واقع الحياة لهذه الآيات، فوجدنا الابن - أحيانًا - هو العدو اللدود لأبيه، وقد يقدم على قتله، ووجدنا الأب - أحيانًا - عدو لابنه ووجدنا الزوجة التي تقتل زوجها، وتقطع جسده وتضعها في أكياس، وهكذا.

وقد أخبر الله سبحانه أن المال والولد لا يقربان العبد من ربه دون الإيمان بالله والعمل الصالح، فقال سبحانه: ﴿وَمَا أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَدُكُمْ بِالَّتِي تُقَرِّبُكُمْ عِندَنَا زُلْفَىٰ إِلَّا مَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا﴾ [سبأ: ٣٧].

وفي الحديث أن النبي ﷺ قال: «ثلاث من كن فيه وجد بهن حلاوة الإيمان، أن يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما...» الحديث^(١).

وبين ﷺ وجوب تقديم محبة الله ورسوله على محبة النفس والمال والولد فقال ﷺ من حديث أنس: «والذي نفسي بيده لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من ولده ووالده»^(٢).

وقد ختم الله الآية بأنه ينبغي على العبد أن يؤثر فضل الله العظيم على حظوظ الدنيا ومتاعها، فالعقل يقدم ما يبقى على ما يفنى، ويؤثر اللذة الباقية على اللذة الفانية.

النِّدَاءُ الْخَامِسُ لِلْمُؤْمِنِينَ: الْحَثُّ عَلَى تَقْوَى اللَّهِ تَعَالَى

٢٩- ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِن تَتَّقُوا اللَّهَ يَجْعَلْ لَكُمْ فُرْقَانًا وَيُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾

هذا نداء رباني يرسم المنهج، ويبين الزاد والعدة، التي تهدي إلى سبيل الخير والفلاح في الدنيا والآخرة، ويكشف الوسوس، ويزيل الشكوك والشبهات، وينهض بالقلوب، ويثبت الأقدام على طريق النصر على النفس، والنصر على العدو، فإن من اتقى الله تعالى

(١) جزء من حديث متفق عليه من حديث أنس بن مالك ؓ في البخاري برقم (١٦، ٢١، ٤١، ٤٩، ٦٠٤١) وفي مسلم برقم (٤٣).

(٢) حديث متفق عليه من حديث أنس أيضًا، وكلاهما في كتاب الإيمان من الصحيحين في البخاري (١٤)، (١٥) ومسلم (٤٤).

بفعل أوامره وترك نواهيه، وفَقَّه الله لمعرفة الحق من الباطل، ومعرفة الفَرْق بين الحجة والشبهة، ويجعل له من كل ضيق فرجًا، ومن كل همٍّ مخرجًا، وينصره على عدوه، ويرزقه من حيث لا يحتسب.

وقد جاء في هذه الآية الترغيب في تقوى الله تعالى بعد التحذير من معاصيه، والتنبيه على سوء عواقبها، فقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ صدَّقوا بالله معبودًا واحدًا، ومحمد نبيًّا ورسولًا، وعملوا بمقتضى هذا الإيمان ﴿إِنْ تَقُوتُوا اللَّهَ﴾ تطيعوه في السر والعلن، وتصونوا أنفسكم عن كل ما يبغض الله ورسوله فلکم عند الله أجر عظيم يتمثل في أربع جوائز:

أولها: ﴿يَجْعَلْ لَّكُمْ فُرْقَانًا﴾ الفرقان هو العلم والهدى الذي يفرق به صاحبه بين الهدى والضلال والحق والباطل، والحلال والحرام، والسعادة والشقاء.

أي يجعل لكم مخرجًا ونجاة في الحياة الدنيا، وهداية ونورًا تفرقون بهما بين الحق والباطل، ويجعل لكم نصرًا يعزُّ الله به المؤمنين ويخذل به الكافرين.

وثانيها: ﴿وَيُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ﴾ يمحو ويزيل عنكم ما سلف من ذنوبكم وخطاياكم باجتناّب الكبائر وكثرة النوافل والمحافظة على الفرائض.

وثالثها: ﴿وَيَغْفِرْ لَكُمْ﴾ يستر عليكم معاصيكم، فلا يؤاخذكم بها، ولا يفضحكم في الدنيا ولا في الآخرة، وهذا يشمل صغائر الذنوب وكبائرها، فقد يكون المراد بالسيئات كبائر الذنوب، وبالمغفرة صغائرها، أو العكس.

ورابعها: ﴿وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾ عليكم وعلى جميع خلقه، فيثيبكم الأجر العظيم والثواب الجزيل على تقوى الله تعالى، وإيثار رضي الله تعالى على هوى النفس.

ومن فضله سبحانه أنه يعفو عن السيئات ويغفر الزلات، وهذا وعد من الله للمؤمنين مشروط بالتقوى والطاعة.

ومثل هذه الآية قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَءَامِنُوا بِرَسُولِهِ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِنْ رَحْمَتِهِ وَيَجْعَلْ لَكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [الحديد]

فاللهم لا تحرمنا فضلك وإحسانك وعطاءك.

التَّائِمُرُ عَلَى قَتْلِ الرَّسُولِ ﷺ

٣٠- ﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَكْرِينَ﴾

ومن جملة تعداد نَعَم النصر التي أنعم الله بها على رسوله وعلى المؤمنين نصر الله تعالى لرسوله ليلة الهجرة، فبعد الحديث عن الأنفال وغزوة بدر، يأتي الحديث عن أعداء الإسلام الذين دبّروا المكائد له، وحاربوا الله ورسوله، فيستعرض القرآن ماضي المشركين وهم يتآمرون على قتل النبي ﷺ قبل غزوة بدر، ويستعرضه وهم يجمعون المال لحرب رسول الله ﷺ في الغزوة ذاتها، وصوّر القرآن ذلك في صورة الحدث الحاضر؛ لبيّن فضل الله تعالى في نصر عباده على ضعفهم وقتلهم، ثم يفتح الباب للتوبة في وجه العدو إن أعلن إسلامه واستسلامه.

وفي سورة الأنفال آيات تُشبه في أسلوبها وخصائصها القرآن الذي نزل في مكة على رسول الله ﷺ، ولذلك فإن بعض المفسرين يقولون: إن هذه الآيات من [٣٠-٣٥] آيات مكية، والصواب أنها مدنية، شأنها شأن السورة كلها، ولكن هذه الآيات تربط بين ماضي المؤمنين في مكة، وهم مع المشركين، وبين حاضريهم في المدينة، بعد أن أعزهم الله سبحانه بنصره في غزوة بدر.

فيمتثل الله سبحانه في هذه الآيات على المؤمنين المنتصرين في غزوة بدر؛ بأنه نصرهم وأعزهم وأمدهم بالقوة، بعد أن كانوا قلة أذلة مستضعفة، ويذكر سبحانه رسوله محمداً ﷺ ببعض نعمه عليه، حين تأمر القوم على قتله قبل الهجرة، وهو في مكة، ولكن نزول هذه الآيات بالمدينة كان تذكيراً وربطاً للحاضر بالماضي، فيذكر الله سبحانه في هذه الآية وقت أن اتّمر المشركون على النبي ﷺ في دار الندوة، بعد أن شاع أمره، وانتشرت دعوته؛ للنظر في: ماذا يفعلون للقضاء عليه وعلى دعوته؟

١- فمنهم من اقترح أن يحبسوه، ويربطوه في وثاق، ويبتغوه حتى يموت، كما قالوا: ﴿نَرْبِصُ بِهِ رَبَّ الْمُتُونِ﴾ [الطور: ٣٠] فيرد قائلهم: إن له أتباعاً وأنصاراً يأتون إليكم، ويقاتلونكم ويُنْكُون أسره، فلم يرتضوا هذا الحل؛ لكونه ليس علاجاً ناجعاً في نظرهم.

٢- ويقترح آخر أن يُنفوه من البلاد، ويَطْرُدوه بعيداً عن مكة، ثم لا يبالوا ماذا يفعل؟

ويستبعدون أيضاً هذا الاقتراح؛ لكونه ليس علاجاً ناجعاً في نظرهم، فيقولون: ألم تروا إلى حلاوة كلامه، وطلاوة لسانه، وأخذه للقلوب بما يُسمع من حديثه؛ أي: أن دعوته ستخرج من وراء الباب.

٣- فيجتمعون في النهاية على رأي إبليس الذي جاء متنكراً في صورة شيخ نجدي، على أن يقتلوا محمداً ﷺ ولا يقتله شخص واحد حتى لا يُدان فيه، وإنما يختارون من كل قبيلة فتى شاباً قوياً جلدًا صارماً، بيده سلاح بئار، والجميع يضربون محمداً ﷺ ضربة واحدة، فيتفرق دمه، ويضيع هدراً بين جميع القبائل، ولا تستطيع عشيرته أن تثار له ﷺ. وصاحب القول الأول هو: البخثري، وصاحب القول الثاني هو: هشام بن عمرو، وصاحب القول الثالث هو: أبو جهل.

نجاة النبي ﷺ من التآمر على قتله:

وكان أن نجاه الله ﷻ من كيدهم وتآمرهم على قتله، فلم ينم ﷺ في منامه هذه الليلة، وخرج من بين ظهرانيهم إلى الغار، ثم إلى المدينة^(١)

﴿وَمَكْرُوا وَمَكَرَ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَكِرِينَ﴾ [آل عمران: ٥٤].

ورد أن النبي ﷺ توضأ، ثم خرج إلى المسجد، فلما رآه طأطؤوا رؤوسهم فتناول رسول الله ﷺ قبضة من تراب فحصبهم بها، وقال: «شاهت الوجوه»، فما أصاب رجلاً منهم حصاة من حصياته إلا قُتل يوم بدر كافراً^(٢).

وقد نفّض كل منهم التراب عن رأسه وأعمى الله أبصارهم، حيث خرج ﷺ من بين أظهرهم بوحى من الله تعالى بعد أن أذن الله له في الخروج إلى المدينة، فخرج ﷺ من ليلته بعد أن طلب من عليٍّ ؓ أن يلتفت في بُرْده الحضرمي وينام في مكانه، فإنه لا يضره شيء؛ إذ ليس للقوم حاجة في عليٍّ ؓ.

(١) لفظ الحديث في «تفسير الطبري» (١٣/٤٩٤) وفي «سيرة ابن هشام» (١/٤٨٠) وهو عن عكرمة وعبد الله ابن أبي نجيع، وابن إسحاق.

(٢) من حديث حسن لغيره، رواه الحاكم (١/١٦٣) وصححه على شرط مسلم وابن حبان (٨/١٤٨) عن ابن عباس في «الموارد» برقم (١٦٩١) وانظر: «دلائل النبوة» للبيهقي (٢/٤٦٩).

وَحَرَسَ الْفَتَيَانِ الْمَكَانَ يَنْتَظِرُونَ خُرُوجَ النَّبِيِّ ﷺ لِيَقْتُلُوهُ، فَلَمَّا اسْتَبْطِئُوهُ جَاءَهُمْ آتٌ وَقَالَ: خَيْبَكُمْ اللَّهُ، لَقَدْ خَرَجَ مُحَمَّدٌ وَذَرَّ عَلَى رُؤُوسِكُمُ التَّرَابَ، وَفُوجِئُوا بِأَنَّ الْخَارِجَ عَلَيْهِمْ هُوَ عَلِيٌّ ؑ؛ فَضَاعَتِ آمَالُهُمْ، وَأَحْبَطَ اللَّهُ كَيْدَهُمْ، حَيْثُ أَخَذَ بِأَبْصَارِهِمْ؛ فَلَمْ يَرَوْا رَسُولَ اللَّهِ ﷺ حِينَ خَرَجَ مِنْ بَيْنِهِمْ وَهُوَ يَتْلُو سُورَةَ يَسَ إِلَى قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَجَعَلْنَا مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا فَأَغْشَيْنَاهُمْ فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ﴾ [يس].

ومنع الله رسوله منهم، وأذن له في الهجرة فهاجر، وأيده بالمهاجرين والأنصار:

قال ابن عباس ؓ: تشاورت قريش ليلة بمكة، فقال بعضهم: إذا أصبح فأتبته بالوثاق، وقال بعضهم: بل اقتلوه، وقال بعضهم: بل أخرجوه، فأطلع الله نبيه على ذلك، فبات عليٌّ ؑ على فراش رسول الله ﷺ، وخرج ﷺ حتى لحق بالغار، وبات المشركون يحرسون عليًّا يحسبونه النبي ﷺ، فلما أصبحوا ثاروا إليه، فلما رأوا عليًّا ردًّا لله مكرهم، فقالوا: أين صاحبك؟ قال: لا أدري، فافتقوا أثره، فلما بلغوا الجبل اختلط عليهم، فصعدوا في الجبل، فمرُّوا بالغار، فرأوا على بابه نسج العنكبوت، فقالوا: لو دخل ها هنا لم يكن نسج العنكبوت على بابه، فمكث فيه ثلاث ليالٍ^(١).

والمعنى: اذكر - أيها الرسول - وقت أن كنت في مكة قبل تغير الحال، وتبدل الموقف، حين كاد لك مشركو قومك وهم يتآمرون عليك ﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ﴾ يحبسوك ويربطوك فلا تقدر على الحركة ﴿أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ﴾ يلقوك بعيدًا وينفوك عن بلدك أو يقتلوك ﴿وَيَمْكُرُونَ﴾ يكيدون لك، ويحتالون، ويدبرون أمر قتلك ﴿وَيَمْكُرُ اللَّهُ﴾ حيث رد مكرهم عليهم؛ جزاء عملهم، وسمي الجزاء مكرًا من باب المقابلة بالمثل ﴿وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَكْرِينَ﴾ حيث أظهر أمر نبيه، ونجّاه من مكرهم بفعله وتدييره.

(١) حسن إسناده ابن كثير، قال: وهو أجود ما رُوي في قصة نسج العنكبوت على فم الغار، كما في «البداية والنهاية» (١٨١/٣) وحسن إسناده أيضًا ابن حجر في «الفتح» (٢٣٦/٧) وخرجها ابن سعد في «الطبقات» (٢٢٧/١) والبيهقي في «الدلائل» (٤٦٨/٢) والطبري في «التفسير» برقم (١٥٩٦٥) و«المسند» برقم (٣٢٥١) وهو في الطبعة الأخرى (٣٤٨/١) وقال الهيثمي في «المجمع» (٢٧/٧): فيه عثمان بن عمرو الجزري، وثقه ابن حبان وضعفه غيره، وبقيّة رجاله رجال الصحاح، و«تفسير القرطبي» (٣٩٦/٧) و«زاد المسير» (٣٤٦/٣) وهو في «مصنف عبد الرزاق» (٩٧٤٣) والطبراني (١٢١٥٥) وأبو نعيم في «الدلائل» (٥٤) والخطيب (١٩١/١٣) وقد ضعف إسناده محققو «المسند». لضعف عثمان الجزري.

مَوْقِفُ الْمُكَذِّبِينَ بِالْوَحْيِ وَالرَّسَالَةِ مِنَ الدَّعْوَةِ

٣١- ﴿وَإِذَا نُنَادِي عَلَيْهِمْ ءَايَتُنَا قَالُوا قَدْ سَمِعْنَا لَوْ نَشَاءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَذَا إِنْ هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ﴾

ما ذكر في الآية السابقة هو جانب من مكر المشركين برسول الدعوة صلوات الله وسلامه عليه، فماذا كان مكرهم تجاه القرآن؟ وكيف مكروا به؟ الله سبحانه يذكر رسوله، ويذكر المؤمنين بعد انتصارهم في بدر بموقف المشركين من القرآن، حين كانوا أذلة مستضعفين في مكة.

قيل: إن النضر بن الحارث كان معروفاً بالنبل والفهم، وإذا قال قولاً اتبعوه واقتفوا أثره، -وهو ممن حارب النبي ﷺ بعناد وتكبر وإصرار- كان يكذب القرآن ويصفه بأنه أكاذيب وحكايات وأساطير، وكان قد سافر إلى أرض فارس والحيرة في الجاهلية، واستمع منهم إلى أخبار ملوكهم مثل: رستم، وإسنديار، وإلى القصص والحكايات القديمة، وكان يمر بالعباد من اليهود والنصارى، فيراهم يقرؤون التوراة والإنجيل، ويتعبدون ويكفون.

ولما قدم إلى مكة، وجد دعوة النبي عليه الصلاة والسلام قد ظهرت، ورآه يصلي ويقرأ القرآن، فكان بعد أن يفرغ الرسول ﷺ من قراءة القرآن على القوم، يجلس مكانه ويقص عليهم من أخبار ملوك فارس وحكاياتهم، ويقول لهم: أليس هذا خيراً مما جاء به محمد ﷺ؟ ومع ذلك فأنا لا أدعي النبوة، ولا أدعي أن هذا قرآن من عند الله.

وقد قُتل النضر بن الحارث يوم بدر بعد أن وقع في الأسر بأمر النبي ﷺ؛ لِمَا كان يقوله في القرآن.

وكان المقداد بن عمرو قد أسره، فلما أمر النبي ﷺ بقتله قال: أسيري يا رسول الله، فقال ﷺ: «إنه كان يقول في كتاب الله ما قد علمتم»، ولما أعاد مقالته، قال ﷺ: «اللهم اغنِ المقداد من فضلك» فقال المقداد: هذا الذي أردت. وقُتل يوم بدر أيضاً عقبة بن أبي معيط، وطُعيمة بن عدي^(١).

(١) أخرجه الطبري (١٥٢/٩) وفيه انقطاع في السند، فهو مرسل، والمرسل ضعيف، وانظر: «تفسير ابن عطية» وابن كثير وغيرهما للآية.

قال سعيد بن جبير: قُتل النبي ﷺ يوم بدر صبراً: عقبة بن أبي معيط، وطُعَيْمَةُ بن عديّ، والنضر بن الحارث، وكان المقداد أَسَرَ النضر، فلما أُمر بقتله قال المقداد: يا رسول الله، أسيري، فقال ﷺ: «إِنَّه كَانَ يَقُولُ فِي كِتَابِ اللَّهِ مَا يَقُولُ» وفيه أنزلت هذه الآية^(١).

﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَاتُنَا﴾ أي: وإذا تتلى آيات القرآن على هؤلاء الكفار، وهي تدل على صدق محمد ﷺ ﴿قَالُوا﴾ جهلاً وعناداً منهم للحق: ﴿قَدْ سَمِعْنَا﴾ هذا من قبل، وسمعنا مثله من أخبار فارس، ولو نشاء لقلنا مثله، ولذلك تحدّاهم الله تعالى أن يأتوا بمثل القرآن فعجزوا، ثم تحداهم أن يأتوا بمثل عشر سور منه فعجزوا، ثم تحداهم أن يأتوا بمثل أقصر سورة منه فعجزوا.

يقول الله تعالى على لسان النضر: ﴿لَوْ نَشَاءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَذَا﴾ أي: القرآن، وما هذا القرآن الذي يتلوه علينا إلا أكاذيب الأولين ﴿إِنَّ هَذَا إِلَّا آسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ﴾ هذه أخبار وحكايات وخرافات قديمة، يأتاكم بها محمد ﷺ، وهذا مجرد دعوى، يكذبها الواقع، فالنضر يعلم أن محمداً ﷺ أُمِّي لا يكتب ولم يدرس أخبار السابقين، وإنما أنزل الله كتاباً لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد.

وقد تكرر قول المشركين عن القرآن: إنه أساطير الأولين في كثير من الآيات، منها قوله تعالى حكاية عنهم: ﴿وَقَالُوا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ اكْتَتَبَهَا فَهِيَ تُمْنَىٰ عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا﴾ [الفرقان] قال تعالى في الرد عليهم: ﴿قُلْ أَنزَلَهُ الَّذِي يَعْلَمُ السِّرَّ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ إِنَّكُمْ كَانُمْكُمْ عَفْوَراً رَّحِيماً﴾ [الفرقان].

وهذه المقولة حلقة من حلقات خداع الناس وإلهائهم عن القرآن، وصرف أنظارهم عنه، كما قال تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَسْمَعُوا لِهَذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَعْلَبُونَ﴾ [فصلت].

وأعداء الإسلام يكررون ذلك على مر العصور في صورة أو أخرى، ومن ذلك التشريعات البشرية التي استبدلوها بكتاب الله تعالى في التحاكم إليها في شؤون الحياة، وتلقّي القيم والمفاهيم والقوانين، من مصادر غريبة، أو من بني جلدتنا.

ومع ذلك فإن القرآن لم يزل يلوي أعناق أعدائه في الأرض كلها، فجعلوه مادة إذاعية

(١) الطبري (١١/١٤٣) وابن مردويه.

في أغلب محطات العالم المسموعة والمرئية، يذيعه اليهود والنصارى وعملاؤهم المستترون تحت أسماء المسلمين، وهو الذي قال عنه ألد أعدائه (الوليد بن المغيرة): إن له لحلاوة، وإن عليه لطلاوة، وإن أسفل له مغدق، وإن أعلاه لمثمر، وإنه ليعلو وما يعلى، وما هو بقول بشر.

ثم إن أبا جهل أو النضر بن الحارث وأضرابه إلى قيام الساعة لا يطلبون الهداية من الله تعالى إن كان ما جاء به محمد ﷺ حقًا وصدقًا، بل إنهم لفرط جهلهم وعنادهم يطلبون الهلاك ونزول العذاب بهم، وهذا من طمس البصيرة وفساد الفطرة.

الْكَافِرُ يُفَضِّلُ نُزُولَ الْعَذَابِ عَلَى الْهِدَايَةِ

٣٢- ﴿وَإِذْ قَالُوا اللَّهُمَّ إِنْ كَانَتْ هَذِهِ حَقًّا مِنْ عِنْدِكَ فَامْطِرْ عَلَيْنَا جَحَازَةً مِنَ السَّمَاءِ^(١) أَوْ آتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾

وهذا نوع آخر من مكر المشركين المكذبين بالقرآن والوحي الذي نزل على رسول الله ﷺ، فهم يصفون القرآن بأنه سحر، أو حكايات وخرافات، وبدلاً من أن يطلبوا الهداية من الله تعالى يطلبون منه أن يعجل لهم نزول العذاب إن كان ما يقوله محمد حقًا.

﴿وَإِذْ قَالُوا اللَّهُمَّ إِنْ كَانَتْ هَذِهِ حَقًّا﴾ الذي يدعو إليه محمد ﴿هُوَ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِكَ﴾ أي: إن كان ما جاء به محمد هو الحق فإننا نستعجل نزول العذاب، فضبّه علينا صبًّا، فنحن نستعجل العقوبة التي يتوعدنا بها محمد ﷺ كما عذبت الأمم السابقة، فهلك مثلهم؛ حتى لا نتظر نصر محمد ولا ظهوره علينا.

وطلبوا نوعًا خاصًا من العذاب؛ حيث قالوا: ﴿فَآمِطِرْ عَلَيْنَا جَحَازَةً مِنَ السَّمَاءِ﴾ ثم عمّموا فطلبوا أيّ عذاب حيث قالوا: ﴿أَوْ آتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ والمراد: عذاب في الدنيا؛ لأنهم لا يؤمنون بالآخرة.

قال أهل التفسير: نزلت هذه الآية في النضر بن الحارث، وهو الذي قال: إن كان ما

(١) قرأ نافع وابن كثير وأبو عمرو وأبو جعفر ورويس بإبدال الهمزة الثانية ياء متحركة من (السماء أو)، والباقيون بتحقيقها.

يقوله محمد حقًا ﴿فَأَمْطَرْنَا عَلَيْكَ حِجَابًا مِّنَ السَّمَاءِ أَوْ أَثْنَيْنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾^(١).

والصحيح أن الآية نزلت في أبي جهل كما في الصحيحين^(٢)

والإنسان حين يقع في حيرة، أو شك، أو ارتياب من أمر، عليه أن يقول: اللهم أرنا الحق حقًا وارزقنا اتباعه، وأرنا الباطل باطلًا وارزقنا اجتنابه، اللهم اهدنا إلى الحق، فإن كان هذا الأمر حقًا فوفقنا واهدنا إليه، ولكن عنت الكفار وعنادهم وكبرياءهم يحملهم على الاستمرار في الإلحاح، وتصعيد الخصام، وتفضيل نزول العذاب بهم على الاعتراف بالحقيقة ﴿وَسْتَغْلِبُونَكَ بِالْعَذَابِ وَلَوْلَا أَجَلٌ مُّسَمًّى لَّجَاءَهُمُ الْعَذَابُ﴾ [العنكبوت: ٥٣]

وكما قال قوم شعيب عليه السلام، له: ﴿فَأَسْقِطْ عَلَيْنَا كِسْفًا مِّنَ السَّمَاءِ إِن كُنتَ مِنَ الصّٰدِقِیْنَ﴾ [الشعراء].

قال معاوية لرجل من سبأ: ما أجهل قومك حين ملّكوا عليهم امرأة! فقال الرجل: أجهل من قومي قومك، فقد قالوا لرسول الله ﷺ حين دعاهم إلى الحق: ﴿إِنْ كَانَتْ هَذَا هُوَ الْحَقُّ مِنِّ عِنْدِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَابًا مِّنَ السَّمَاءِ﴾ ولم يقولوا: إن كان هذا هو الحق فاهدنا له^(٣).

وهكذا النفوس عندما تنغمس في الأحقاد، وتتمادى في الجحود، تأخذها العزة بالإثم، وترى الحق باطلاً والباطل حقًا.

لقد علم الله سبحانه أن الذين يقولون مثل هذا القول، سفهاء، أغبياء، جهلة، ظالمون لأنفسهم، ولو أن الله تعالى عاجلهم بالعقوبة لَمَا أَبْقَى مِنْهُمْ بَاقِيَةً، ولكنه سبحانه رفع عنهم عذاب الاستئصال، بسبب وجود النبي ﷺ بين أظهرهم وهو حي، ووجود قرآنه وسنته فيهم بعد موته، ومع أن المشركين كانوا يقولون هذه المقالة على رؤوس الأشهاد، إلا أن أنهم كانوا يدركون قُبْحَهَا، ويخافون من وقوعها، ولذا فإنهم كانوا يستغفرون الله تعالى وهذا ما تقرر به الآية التالية:

(١) «تفسير الطبري» (٩/١٥٢).

(٢) يُنْظَرُ: تفسير الآية التالية.

(٣) «تفسير الكشاف» (٢/٢١٦).

رَفْعُ عَذَابِ الْاِسْتِثْصَالِ عَنْ هَذِهِ الْأُمَّةِ

٣٣- ﴿وَمَا كَانَتْ أَلَلَةٌ لِّعَذَابِهِمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ وَمَا كَانَتْ أَلَلَةٌ لِّمُعَذِّبِهِمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾

ثم بيّن سبحانه أن سبب عدم نزول العذاب العاجل بالمكذّبين بالرسالة؛ هو أن الله تعالى رفع عذاب الاستئصال عن هذه الأمة لأمانين:

أحدهما: وجود النبي ﷺ بين ظهرانيهم؛ فإن وجوده ﷺ بينهم أمان لهم من نزول العذاب المدمر بهم، وقد فعلوا ما يوجب ذلك، فكذبوا محمدا وما جاء به من عند الله، وصدّوا النبي ﷺ وصحبه الكرام عن المسجد الحرام وهم أولى الناس به.

ثانيهما: أن توبتهم من الكفر؛ واستغفارهم من الذنوب كلما ألثّموا بها، أمان آخر يرفع الله عنهم بسببه عذاب الدنيا، واستغفار المؤمنين المستضعفين يدفع الله به العذاب الدنيوي عن الكافرين المقيمين بينهم، فهم القوم لا يشقى بهم جليسهم.

جاء عن ابن عباس رضي الله عنهما أن المشركين كانوا يطوفون بالبيت، ويقولون: لبيك اللهم لبيك، لبيك لا شريك لك لبيك، إلا شريكاً هو لك، تملكه وما ملك، ويقولون: غفرانك، غفرانك؛ فأنزل الله الآية، فقال ابن عباس: كان فيهم أمانان: النبي ﷺ والاستغفار، فذهب النبي ﷺ، وبقي الاستغفار^(١).

ويشبه هذا المعنى قول الله تعالى: ﴿وَلَوْ لَا رِجَالٌ مُّؤْمِنُونَ وَنِسَاءٌ مُّؤْمِنَاتٌ لَّارْتَدُّوا عَنْكُمْ أَنْ تَطَّوُّهُمْ فَتُضَيِّبَكُمْ مِنْهُمْ مَعَرَّةٌ بِغَيْرِ عِلْمٍ لِّيَدْخُلَ اللَّهُ فِي رَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ لَوْ تَزَيَّلُوا لَعَذَّبْنَا الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ [الفتح: ٢٥].

وفي الآية دعوة للمشركين بالدخول في الإسلام، والاستغفار من كفرهم وشركهم والرجوع عنه، فالطريق مفتوح أمامهم إذا تابوا واستغفروا.

(١) حديث حسن، رواه الطبراني (٥١١/١٣) و«تفسير الطبري» (٥١١/١٣) من طريق أبي حذيفة موسى بن مسعود، وابن أبي حاتم (١٦٩١/٥) والبيهقي في «السنن» (٤٥/٥) والحديث في «صحيح مسلم» (١١٨٥) دون قولهم: غفرانك إلى آخره، وأوله (كان المشركون يقولون: ..).

عن أنس رضي الله عنه أن أبا جهل قال: ﴿اللَّهُمَّ إِنْ كَانَتْ هَذِهِ هُوَ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ السَّمَاءِ أَوْ آتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ فنزلت: ﴿وَمَا كَانَتْ اللَّهُ يُعَذِّبُهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ وَمَا كَانَتْ اللَّهُ مُعَذِّبُهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾ ﴿٣٣﴾ فهذه الآية نزلت في أبي جهل، كما جاء في الصحيحين^(١).

وهو أصح من القول بأنها نزلت في النضر بن الحارث من حيث الرواية^(٢).

والمراد بهذا العذاب: عذاب الاستئصال والإبادة الجماعية، وهي العقوبة المقررة للأمم المكذبة بأنبيائها، ممن جاء ذكرهم في القرآن الكريم؛ كقوم هود، وقوم صالح، وقوم لوط، وقوم فرعون، وغيرهم:

﴿فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذُنُوبِهِ فَمِنْهُمْ مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُمْ مَّنْ أَخَذَتْهُ الصَّيْحَةُ وَمِنْهُمْ مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ الْأَرْضَ وَمِنْهُمْ مَّنْ أَغْرَقْنَا وَمَا كَانَتْ اللَّهُ لِيُظْلِمَهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ ﴿٤٠﴾ [العنكبوت].

وذلك لأن هذه الأمم لها وقت محدد، وأجل معين، وكل رسول رسالته محددة بزمان ومكان، أما رسالة محمد ﷺ فهي قائمة إلى يوم الساعة، ولذلك فإن هذه الأمة لا تُباد كما أُبِيدَت الأمم السابقة، بل تبقى بقاء الرسالة وبقاء القرآن إلى يوم القيامة، كما قال الله تعالى: ﴿وَمَا كَانَتْ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ﴾ والخطاب في الآية للنبي ﷺ، والضمير يعود على المكذبين بخاتم الرسل ﷺ، والمراد بالعذاب: عذاب الإبادة في الدنيا بالقضاء عليهم.

وعليه: فقد أعطى الله هذه الأمة أمانين من هذا العذاب:

الأمان الأول: وجود محمد ﷺ وهو حي في الناس بين ظهرائهم، ووجود رسالته وقرآنه بعد موته ﷺ إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها، فالرسالة قائمة، والقرآن موجود، والوحي كأنه يتنزل اليوم، فهو متجدد بأحوال الناس إلى يوم الساعة.

والأمان الثاني: هو الاستغفار، ما دام هناك فئات من المسلمين يستغفرون الله ﷻ؛

(١) أخرجه البخاري برقم (٤٣٧١، ٤٦٤٨) ومسلم (٢١٥٤/٤) برقم (٢٧٩٦) وابن أبي حاتم (١٦٩١/٥) والبيهقي (٧٥/٣).

(٢) قلت: ليس بينهما تعارض، فلا يمنع نزول الآية فيه أيضًا كما يقتضيه سياق الآيات.

فالاستغفار سبب لرفع العذاب، وسبب لنزول الأرزاق، ومنها نزول الأمطار:

١- أخرج الحاكم وغيره بسند صحيح عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: كان فيكم أمانان، مضى أحدهما وبقي الآخر، وقرأ الآية^(١).

٢- وفي المسند وغيره عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إن إبليس قال لربه: بعزتك وجلالك، لا أبرح أغوي بني آدم ما دامت الأرواح فيهم، فقال الله: فبعزتي وجلالي لا أبرح أغفر لهم ما استغفروني»^(٢).

٣- وعن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «أنزل الله عليّ أمانين لأمتي: ﴿وَمَا كَانَتْ أَلَهَ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ وَمَا كَانَتْ أَلَهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾ (٣٣) فإذا مضيت تركت فيهم الاستغفار إلى يوم القيامة»^(٣).

٤- وعن عبد الله بن بسر رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «طوبى لمن وجد في صحيفته استغفارًا كثيرًا»^(٤).

صَدُّ النَّاسِ عَنِ الْمَسَاجِدِ وَالْعِبَاثِ فِيهَا مُوجِبَانِ لِعَذَابِ اللَّهِ تَعَالَى

٣٤- ﴿وَمَا لَهُمْ آلَا يُعَذِّبُهُمُ اللَّهُ وَهُمْ يَصُدُّونَ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَمَا كَانُوا أَوْلِيَاءَهُ إِنْ أُولِئَاؤُهُ إِلَّا الْفٰتِنُونَ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ (٣٤)

(١) «المستدرک» (٥٤٢/١) قال الحاكم: هذا حديث صحيح على شرط مسلم، ولم يخرجاه، ووافقه الذهبي، وأخرجه البيهقي في «الشعب» (٦٥٤).

(٢) «المسند» (٢٩/٣، ٤١) برقم (١١٢٣٧، ١١٢٤٤) وأبو يعلى (١٣٩٩) والبغوي في شرح السنة (١٢٩٣) والبيهقي في «الأسماء والصفات» (٢٦٥) و«المستدرک» (٢٦١/٤) بتصحیح الحاكم وموافقة الذهبي، قال محققو «المسند»: حسن لغيره، وحسنه الألباني في «السلسلة الصحيحة» برقم (١٠٤).

(٣) رواه الترمذي برقم (٣٠٨٢) قال الترمذي: هذا حديث غريب، وفي إسناده إسماعيل بن مهاجر مُتَكَلِّم فيه، وقد أخرجه الطبراني في «الأوسط» (٣٣٤٦) والحاكم (٥٤٢/١) وابن عساكر (٤/١٧) والطبري (١٥٢/١١).

(٤) «صحيح سنن ابن ماجه» (٣٠٧٨) وابن ماجه (٣٨١٨) والنسائي في «السنن الكبرى» (١٠٢٨٩) والحكيم الترمذي (١٣٤/٢) عن الأغرّ المزني، وصححه الألباني أيضًا في مشكاة المصابيح (٢٣٦) والتعليق الرغيب على الترغيب والترهيب (٢٦٨/٢).

ولما نفى الله سبحانه وقوع عذاب الاستئصال عن هذه الأمة في الدنيا أثبت سبحانه أن هذا لا يعني عدم عذاب مشركي هذه الأمة الذين ماتوا على الكفر، فهم قد ظلموا أنفسهم بالشرك، فكيف لا يعذبهم الله في الآخرة، وهم مستحقون له؟!

﴿وَمَا لَهُمْ آلَا يُعَذِّبُهُمُ اللَّهُ﴾ أي شيء يمنعهم من عذاب الله وقد فعلوا ما يوجب ذلك، وكيف لا يستحقون عذاب الله، وهم يمنعون أولياء الله المؤمنين، من الطواف بالبيت والصلاة فيه؟

ثم نفى سبحانه ولاية الكفار على المسجد الحرام، وأثبتها للمتقين، وبين جلّ شأنه السبب في ذلك: وهو أن الكفار يمنعون الناس من الطواف ببيت الله الحرام؛ زعمًا منهم أنهم أصحاب الولاية عليه والنفوذ فيه، كما قال تعالى: ﴿وَهُمْ يَصُدُّونَ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَمَا كَانُوا أَوْلِيَاءَهُ﴾ أي قريش، فقد كانوا يقولون: نحن أولياء البيت، سدنته وخدامه، نمنع من نشاء، ونُدخل من نشاء، ولذلك فقد صدوا عنه رسول الله ﷺ عام الحديبية ومنعوه أن يصل إلى البيت الحرام.

فبيّن سبحانه في هذه الآية أنهم جديرون بعذاب الله الأخروي يوم القيامة، وهو سبحانه يعذبهم في الدنيا بالقتل أو السلب، ونحو ذلك مما هو دون الإبادة والاستئصال؛ لأنهم يرتكبون أشنع الجرائم بدعوى أنهم ولاة أمر البيت الحرام.

ثم بيّن سبحانه المستحقين لولاية المسجد الحرام فقال: ﴿إِنْ أَوْلِيَاؤُهُ إِلَّا الْمُنَفُّونَ﴾ من عباد الله الصالحين، الذين يمثلون أمره ويجتنبون نهيه، ويفردونه بالعبادة، ويخلصون له الدين، ويتبعون ما جاء به رسوله الأمين:

١- عن أبي هريرة ؓ أن رسول الله ﷺ قال: «إن أوليائي يوم القيامة المتقون، وإن كان نسب أقرب من نسب، فلا يأتيني الناس بالأعمال وتأتوني بالدنيا تحملونها على رقابكم، فتقولون: يا محمد، فأقول هكذا وهكذا: لا»^(١).

٢- وعن رفاعه بن رافع ؓ أن النبي ﷺ قال: «إن أوليائي منكم المتقون، فإن كنتم

(١) أخرجه البخاري في «الأدب المفرد» برقم (٨٩٧) وقد حسنه الألباني في «صحيح الأدب المفرد» (٦٨٨).

أولئك فذاك، وإلا فانظروا، لا يأتي الناس بالأعمال يوم القيامة، وتأتون بالأنفال، فيعرض عنكم»^(١).

٣- وعن معاذ بن جبل ؓ أن رسول الله ﷺ قال: «إن أولى الناس بي المتقون، من كانوا، وحيث كانوا»^(٢).

والبيت ليس ميراثاً يورث فتختص ولايته بهم ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ وقد ادعى الكفار لأنفسهم أمراً، غيرهم أولى به، وقد وصفهم الله بقوله: ﴿هُمْ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَالْهَدَىٰ مَعْكُوفًا أَنْ يَبْلُغَ مَحَلَّهُمْ﴾ [الفتح: ٢٥].

أخرج ابن جرير عن ابن أبيزى قال: كان النبي ﷺ بمكة فأنزل الله: ﴿وَمَا كَانَتْ أَلَلَهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ﴾ قال: فخرج النبي ﷺ إلى المدينة، فأنزل الله: ﴿وَمَا كَانَتْ أَلَلَهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾ قال: وكان أولئك البقية من المؤمنين الذين بقوا فيها يستغفرون -يعني: بمكة- فلما خرجوا أنزل الله: ﴿وَمَا لَهُمْ أَلَّا يُعَذِّبَهُمُ اللَّهُ وَهُمْ يَصُدُّونَ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ﴾ قال: فأذن الله في فتح مكة، فهو العذاب الذي وعدهم به.

وقد بين سبحانه أن غير المسلمين الذين يمنعون الناس عن الوصول إلى المسجد الحرام ليسوا أهل المسجد الحرام، وإنما أهله هم المتقون من عباد الله الصالحين إلى يوم القيامة، كما قال تعالى: ﴿مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ أَنْ يَعْمُرُوا مَسْجِدَ اللَّهِ شَاهِدِينَ عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ بِالْكَفْرِ﴾ [التوبة: ١٧]

والمعمرون لبيوت الله هم المؤمنون بالله ورسوله ﴿إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسْجِدَ اللَّهِ مَنْ ءَامَرَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَءَاتَى الزَّكَاةَ وَلَمْ يَحْشَ إِلَّا لِلَّهِ﴾ [التوبة: ١٨].

فغير المسلمين ليسوا أهلاً لولاية البيت الحرام في الماضي والحاضر والمستقبل، وليسوا أهلاً لأن يكونوا أولياء الله؛ بسبب كفرهم وجحودهم، وإنما المستحقون لذلك هم المتقون من عباد الله.

(١) «صحيح الأدب المفرد» (٥٥) والطبراني (٤٥٤٤، ٤٥٤٧) والحاكم (٧٣/٤).

(٢) أخرجه أحمد بإسناد صحيح (٢٢٠٥٢)، وأخرجه البزار في مسنده (٢٦٤٧) وابن حبان (٦٤٧) والطبراني في الكبير ٢٠ (٢٤١).

وكان المشركون في مكة يصدون الناس عن المسجد الحرام ويعلنون ذلك.

ومن ذلك ما جاء في البخاري أن سعد بن معاذ رضي الله عنه كان صديقاً لأمية بن خلف، ينزل كل منهما ضيفاً على الآخر، وكان سعد في المدينة وأمية في مكة، وبعد الهجرة نزل سعد على أمية يريد العمرة، فقال له: انظر لي ساعة خلوة، لعلّي أطوف بالبيت، فخرج في منتصف النهار، فلقيهما أبو جهل، فقال لسعد: أراك تطوف بالبيت آمناً، وقد أوتيت الضبابة، أما والله لولا أنك مع أبي صفوان -أمية- ما رجعت إلى أهلك سالماً... الحديث.

ثم إن البيت الحرام وبيوت الله بشكل عام، جعلها الله لإقامة دينه وإخلاص العبادة له، فليست مكاناً للهو ولا للعبث. قال تعالى:

٣٥- ﴿وَمَا كَانَ صَلَاتُهُمْ عِنْدَ الْبَيْتِ إِلَّا مُكَاءً وَتَصَدِيَةً^(١) فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ﴾

ومن جملة قبائح المشركين وصددهم عن البيت الحرام، أنهم كانوا يُشَوِّشُونَ على المصلين والطائفين والعاكفين، فقد كانوا يطوفون حول البيت عرايا، وكانوا يُشَبِّكُونَ بين أصابعهم، وَيُصَفِّرُونَ وَيُصَفِّقُونَ، وكانوا يتعمدون ذلك حين يصلي محمد صلى الله عليه وسلم، وحين يقرأ القرآن؛ ليخلطوا عليه الأمر، لِيَلْغُوا في هذا القرآن، ويصرفوا الناس عنه، فالمشركون ليس من شأنهم إعمار بيوت الله ﷻ مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ أَنْ يَعْمُرُوا مَسْجِدَ اللَّهِ شَاهِدِينَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ بِالْكُفْرِ [التوبة: ١٧].

وبيوت الله أفضل البقاع وأشرفها فلا يليق بها الصفير والتصفيق ونحو ذلك.

١- قال مجاهد: كان نفر من بني عبد الدار يعارضون النبي صلى الله عليه وسلم في الطواف، ويستهزئون به، ويدخلون أصابعهم في أفواههم ويصفرون، يخلطون عليه صلاته^(٢).

وبنو عبد الدار هم سدة الكعبة، وأهل عمارة المسجد الحرام، فلما فعلوا ذلك سُمِّيَ فعلهم صلاة من باب المشاكلة اللفظية؛ لأن المشركين لا تُعرف لهم صلاة، ولا يعد المكاء والتصدية كفراً إلا إذا كان من باب السخرية والاستهزاء بالنبي صلى الله عليه وسلم وبالدين.

(١) قرأ حمزة والكسائي ورويس وخلف بإشمام الصاد صوت الزاي (وتصدية)، وقرأ الباقر بالصاد الخالصة.

(٢) الطبري (١١/١٦٥) وابن أبي حاتم (٥/١٦٩٥).

- ٢- قال ابن عباس رضي الله عنه: كانت قريش يطوفون بالبيت وهم عراة يُصَفُّون ويُصَفَّقون^(١).
- ٣- وقال مقاتل: كان النبي إذا دخل المسجد قام رجلان عن يمينه يُصَفِّران، ورجلان عن يساره يُصَفَّقان؛ ليخلطوا عليه صلاته وهم من بني عبد الدار.
- وقال قتادة: المكاء: ضرب بالأيدي، والتصدية: الصياح.
- ٤- وقال سعيد بن جبیر: كانت قريش يعارضون النبي ﷺ في الطواف يستهزئون به، يُصَفِّرُون وَيُصَفَّقُون.
- قال ابن عمر رضي الله عنه: كانوا يطوفون بالبيت ويصَفَّقون - ووصف التصفيق بيده - ويصَفِّرُون - وَوَصَفَ صَفِيرَهُمْ - وَيَضَعُونَ خُدُودَهُمْ بِالْأَرْضِ^(٢).
- ﴿وَمَا كَانَ صَلَاتُهُمْ عِنْدَ الْبَيْتِ إِلَّا مُكَاءً وَتَصْدِيَةً﴾.
- المكاء: الصفير، وهو اسم لطائر يُسَمَّى مكاء، له صوت حسن.
- والتصدية: التصفيق، ولذلك يُمنع هذا الصفير والتصفيق في بيوت الله وعندها، فقد ذمَّ الله تعالى في هذه الآية، وهو وَصَفَ وَصَفَ الله به المشركين والمنافقين.
- فليس المشركون أولى ببيت الله من المؤمنين الذين هم في صلاتهم خاشعون والذين هم عن اللغو معرضون، فلا جرم أن الله أورثهم بيته ومكنهم منه ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نجسٌ فَلَا يَقْرَبُوا الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَذَا﴾ [التوبة: ٢٨].
- ثم بيَّن تعالى عقابهم فقال: ﴿فَذُوقُوا الْعَذَابَ﴾ في الدنيا والآخرة ﴿بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ﴾ أي: بسبب جحودكم وكفركم وأفعالكم.

والمعنى: إن صلاة المشركين عند البيت الحرام لم تكن إلا تصفيرًا وتصفيقًا، وهزجًا ومرجًا، لا وقار فيها، ولا استشعار لحزمة البيت، ولا خشوع لجلال الله تعالى، وكانوا يسيئون إلى النبي ﷺ وهو يقرأ القرآن، وهو يصلي، وهو يطوف بالبيت، وهو يؤدي شيئًا من شعائر الإسلام، وإذا سمعوا القرآن رفعوا أصواتهم بالصياح والغناء؛

(١) ابن أبي حاتم (١٦٩٦/٥) والضياء (١١٦).

(٢) راجع في هذا «تفسير ابن جرير» والشوكاني وابن كثير والبغوي والقرطبي وابن الجوزي للآية.

ليمنعوا الناس من سماعه. والصفير والتصفيق نوع من اللهو واللعب، يسميه القرآن صلاة، مشاركة في اللفظ.

بَذُلَ الْمَالُ لِحَرْبِ الْإِسْلَامِ خِزْيٌ فِي الدُّنْيَا وَعَذَابٌ فِي الْآخِرَةِ

٣٦- ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ لِيَصُدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ فَسَيُنْفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ وَالَّذِينَ كَفَرُوا إِلَىٰ جَهَنَّمَ يُحْشَرُونَ ﴿٣٦﴾﴾

في كل زمان ومكان يبذل أعداء الإسلام الأموال الكثيرة لمحاربة الإسلام وصرف الناس عنه وإخراج أهله منه، وتشكيك الناس فيه، وتشويهه في نظرهم.

وكما كان المشركون يصدون الناس عن الصلاة والطواف وقراءة القرآن باللغو والتشويش كانوا يصدونهم أيضًا ببذل الأموال، فقد كانوا ينفقون أموالهم، ويعطونها أمثالهم من المشركين؛ ليمنعوا الناس عن الإيمان بالله تعالى، ويحاربوا الإسلام وأهله.

ففي غزوة بدر كان أبو جهل ينحر على نفقته الخاصة عشرة من الإبل، وكان هناك اثنا عشر رجلاً من قريش يقال لهم: الْمُطْعِمُونَ؛ لأنهم يُطْعِمُونَ الكفار، كل واحد منهم يذبح عشرة من الجوزور في كل يوم، للذين يقاتلون محمداً ﷺ يوم بدر فينفقون أموالهم على الجيش مقابل محاربة المسلمين^(١).

ولما هُزِمَتْ قريش يوم بدر، ذهب وفد منهم إلى أبي سفيان ومن نجا معه بالعرير، يطلبون أموال التجارة التي نجت للاستعانة بها على قتال محمد ﷺ ففعلوا^(٢).

وفي غزوة أحد استأجر أبو سفيان ألفين من الأحباش لمقاتلة محمد ﷺ، وأنفق أربعين أوقية من ذهب في هذا الصدد^(٣).

وعلى مدى التاريخ: فإن الكفار ينفقون أموالهم لحرب الإسلام وأهله، مادياً ومعنوياً، عسكرياً واقتصادياً، ثقافياً وفكرياً، وغير ذلك، في صورة قنوات فضائية ووسائل إعلام

(١) «أسباب النزول» للواحيدي (١٩٨) والسيوطي (١٣١) و«تفسير ابن الجوزي» (٣٥٥/٩).

(٢) يُنْظَرُ: «تفسير الطبري» (٥٣٢/١٣) و«سيرة ابن هشام» (٦٠/٢).

(٣) «تفسير الطبري» (١٦٠/٩) وابن هشام (١٣٤/٢) وابن أبي حاتم (١٦٩٧/٥) عن سعيد بن جبير والحكم

مقروءة ومسموعة ومرئية، واتصال مباشر، وعبر وسائل الاتصالات المختلفة، وفيهم يقول الله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ﴾ في الشرور والعدوان ﴿لِيَصُدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ﴾ أي: ليحاربوا محمداً ودعوته، ويمنعوا الناس من الدخول في الإسلام ﴿فَسَيُنْفِقُونَهَا﴾، ثم يتحسرون عليها ويندمون؛ لأن أموالهم تذهب سُدى، ولا يظفرون بما يؤملون، من إطفاء نور الله والصد عن دينه، ومع هذا يهزمهم المسلمون، فلا تأتي نفقة هذه الأموال بفائدة، كما قال تعالى: ﴿سَيَهْرَمُ لَجْعٌ وَيُولُونَ الدُّبُرَ ۖ﴾ [القمر] وهذا إخبار بما سيكون في المستقبل.

﴿قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا سَتُغْلَبُونَ وَتُحْشَرُونَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ ۖ وَبِئْسَ الْإِهَادُ﴾ [آل عمران] ستغلبون في الدنيا، وتهزمون أمام المسلمين، وفي الآخرة تحشرون إلى جهنم وبئس المصير.

فما الفائدة من إنفاق أموالكم هذه؟ إنهم سيتحسرون عليها ويندمون ﴿ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً﴾ ثم تكون الدائرة عليهم ﴿ثُمَّ يُغْلَبُونَ﴾ هكذا يخبرنا الله ﷻ كما قال جل شأنه: ﴿كَتَبَ اللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي﴾ [المجادلة: ٢١] وعقابهم ينتظرهم في الدار الآخرة ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا إِلَىٰ جَهَنَّمَ يُحْشَرُونَ﴾ ويعذبون فيها، فمن عاش منهم رأى بعينه وسمع بأذنه، ومن قُتل منهم أو مات، فإلى جهنم وبئس المصير.

وفي هذا إنذار دائم لكل كافر يقاتل مسلماً إلى يوم القيامة، فإن له فيمن سبقه عبرة وعظة، فالآية عامة في كل من ينفق مالا لمحاربة الدعوة وصد الناس عنها.

﴿يُرِيدُونَ لِيُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَاللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ﴾ (٨) ﴿هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ﴾ (٩) [الصف].

وجهنم التي وعدا الله لمن ينفقون أموالهم في الصد عن سبيل الله هي دار الخبثاء، والله تعالى يريد أن يميز الخبيث من الطيب، ويكتب ذلك في صحف الملائكة، لتقوم الحجة على كل فريق منهم ويُجزى بعمله إن خيراً فخير وإن شراً فشر. قال تعالى:

٣٧- ﴿لِيَمِيزَ^(١) اللَّهُ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ وَيَجْعَلَ الْخَبِيثَ بَعْضُهُ عَلَىٰ بَعْضٍ فَيَرْكُمُهُ جَمِيعًا

(١) قرأ حمزة والكسائي ويعقوب وخلف العاشر بضم الياء الأولى وفتح الميم وكسر الياء الثانية مشددة (لِيَمِيزَ) مضارع ميم يميز، وقرأ الباقون بفتح الياء الأولى وكسر الميم وسكون الياء الثانية مخففة، مضارع ماز يميز.

فَيَجْعَلُهُ فِي جَهَنَّمَ أُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴿٣٧﴾

أي والكافر ينفق ماله ليؤلب الباطل على الحق، والمؤمن ينفق ماله؛ ليدفع به الباطل، ويُعلي به راية الإسلام، ويوم القيامة يميز الله بينهما؛ فيحشر الكافرون إلى جهنم، ويحشر المؤمنون إلى الجنة، وهذا معنى: ﴿لَيَمِيزَ اللَّهُ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ﴾ فيفرق بين الحق والباطل، والإيمان والكفر، والسعادة والشقاء، والجنة والنار، ويجعل المال الحرام والأشخاص الخبيثاء والأعمال الخبيثة، وحدة واحدة، بعضها فوق بعض، كومة واحدة، فيجعلها في جهنم، وهؤلاء هم الخاسرون، الذين خسروا دنياهم وأخراهم، واشتروا بأموالهم عقاب الله تعالى.

فما ينفقه الكافرون من أموال؛ للصد عن سبيل الله، هو من باب الخبيث، وما ينفقه المؤمنون من أموال؛ لإعلاء كلمة الله، هو من باب الطيب، ويوم القيامة يخذل الله الكافرين ويحشرهم إلى جهنم، ويؤيد المؤمنين فيفوزون برضوان الله تعالى، وإذا تمايز الخبيث من الطيب، جعل الخبيث متراكماً بعضه فوق بعض من كل قول سيئ، ومن كل فعل سيئ، ثم يُقذف به في جهنم، وهكذا يفصل الله بين أهل الإيمان وأهل الكفر، ويفصل بين الخبيث والطيب، والخير والشر، ويلقى أصحاب كل منهما جزاءه، إما في الجنة وإما في النار.

قَبُولُ التَّوْبَةِ مِنَ الْكَافِرِ

٣٨- ﴿قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ يَنْتَهُوا يُغْفَرْ لَهُمْ مَا قَدْ سَلَفَ وَإِنْ يَعُودُوا فَقَدْ مَضَتْ سُنتُ^(١) الْأُولَىٰ﴾ ﴿٣٨﴾

ثم أمر الله رسوله أن يعرض الإسلام على المشركين من باب الرحمة الواسعة، وفضل الله الكبير، يعرض عليهم التوبة، والدخول في الإسلام، والإعراض عما هم فيه من كفر أو شرك؛ فالفرصة أمامهم سانحة لينتھوا عما هم فيه من الكفر، ومحاربة الإسلام، وصد الناس عن دين الله، والطريق أمامهم مفتوح للتوبة والعودة عما هم فيه من الشرك

(١) وقف ابن كثير وأبو عمرو والكسائي ويعقوب على (سنة) بالهاء على لغة قريش، ووقف الباقون بالتاء على لغة طيء وأدغم التاء في السين من (مضت سنة) أبو عمرو وحزمة والكسائي وخلف العاشر وهشام بخلف عنه.

والجحود والعناد، وهذا من لطف الله تعالى ورحمته بعباده، حيث يدعو الكفار والمشركين منهم إلى طريق الرشاد والهدى، وينهاهم عما يهلكهم، فبحثهم على التوبة والرجوع إلى الله تعالى قبل ظهور علامات الساعة وقبل أن تصل أرواعهم إلى الحلقوم، فباب الله مفتوح لكل تائب حتى لو كان كافرا مشركا ﴿أَفَلَا يَتُوبُونَ إِلَى اللَّهِ وَيَسْتَغْفِرُونَهُ﴾ المائدة: [٧٤] فإن تابوا من شركهم وكفرهم غفر الله لهم كفرهم وشركهم به، غفر لهم قولهم: عيسى ابن الله، وعزير ابن الله، فما أحلمك يارب، وما أعظم عفوك!!.

جاء في الحديث عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «من أحسن في الإسلام لم يؤاخذ بما عمل في الجاهلية، ومن أساء في الإسلام أخذ بالأول والآخر»^(١).
فإن أسلم الكافر لم يلزمه قضاء العبادات الدينية والمالية.

فعن عمرو بن العاص رضي الله عنه قال: لما جعل الله الإسلام في قلبي، أتيت النبي ﷺ فقلت: ابسط يدك لأبايعك، فبسط يمينه، فقبضت يدي، قال: «ما لك؟» قلت: أردت أن أشتري، قال: «تشتري ماذا؟» قلت: أن تستغفر لي، قال: «أما علمت أن الإسلام يهدم ما كان قبله، وأن الهجرة تهدم ما كان قبلها، وأن الحج يهدم ما كان قبله»^(٢).

وهذا معنى ﴿قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ يَنْتَهُوا يُغْفَرْ لَهُمْ مَا قَدْ سَلَفَ﴾ أي: إن ينتهوا عن كفرهم وشركهم، فالإسلام يجب ما قبله، والتوبة تجب ما قبلها، وهذا من رحمة الله تعالى وفضله.

﴿وَإِنْ يَعُودُوا﴾ إلى قتال المسلمين، وصد الناس عن دين الله، أو إن يعودوا بعد التوبة والإيمان إلى ما كانوا فيه من الكفر والعداوة للمسلمين والاستمرار على ذلك، والإصرار على ما هم فيه من العناد، فها هم قد رأوا سنة الله في الأمم الماضية من هلاك أعدائه ونصر أوليائه، وسنة الله لا تتخلف، وفي هذا تهديد ووعد لكل من كان كذلك.

(١) أخرجه البخاري برقم (٦٩٢١) ومسلم (١١١/١) برقم (١٢٠) وابن ماجه (١٧/٢)، برقم (٤٢٤٢) وصححه الألباني في صحيح ابن ماجه (٣٤٢٠).

(٢) أخرجه أحمد (١٩٨/٤) برقم (١٧٨٢٧) وإسناده صحيح على شرط مسلم، وأخرجه مسلم في الإيمان (١١٢/١) برقم (١٢١)، ضمن حديث طويل، وابن خزيمة (٢٥١٥) وابن سعد (٢٥٨/٤) وأبو عوانة (٧٠/١).

وبعد أن خاطب الله تعالى الكفار في هذه الآية، يخاطب المؤمنين في الآية التالية كي يعلمهم كيف يتعاملون مع أعدائهم، فيأمر بقتالهم حتى يخلص الدين لله :

الْقِتَالُ لِمَنْعِ الْفِتْنَةِ فِي الدِّينِ

٣٩- ﴿وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ لِلَّهِ فَإِنَّ انْتِهَاءَ مَا يَحْكُمُونَ^(١) بَصِيرَةٌ ۚ﴾

ثم يأمر الله المؤمنين أن يقاتلوا الكفار؛ حتى لا تكون فتنة في الأرض بالشرك في دين الله، والصد عن سبيل الله، فلا يُعبد إلا الله وحده، وحتى يرتفع البلاء عن عباد الله، وتكون العبادة خالصة لله، وحتى لا يبقى مشرك على وجه الأرض، ولا يُفتن مؤمن عن دينه، وحتى تبطل الشرائع الأخرى، ولا يبقى إلا الإسلام وحده، فإن انزجر الكفار عن فتنة المؤمنين في دينهم، وعن الشرك بالله، وأصبحوا إخوة لكم في الدين الحق، فإن الله لا يخفى عليه ما يعملون من ترك الكفر والدخول في الإسلام؛ والله تعالى مجازيهم خيراً ومثيهم على إيمانهم.

فالمراد بالفتنة إذن: الشرك والكفر، بمعنى: قاتلوا الكفار إذا استمروا في كفرهم وعداوتهم لكم، وحالوا دون وصول دعوة الله إلى الناس، أو اضطهدوا المسلمين بألوان الأذى لإخراجهم من دينهم، قاتلوهم حتى يزول الشرك، وتُكفل حرية نشر الدعوة، وتأمينوا على دينكم، وتعيشوا أحراراً في مباشرة تعاليم دينكم، ولا يجروا أحد على فتنتكم في عقيدتكم وعبادتكم، ويكون الدين كله خالصاً لله، فلا يُعبد في الأرض غيره.

وهذه جملة من الآثار في معنى الآية:

١- كتب عبد الملك بن مروان إلى عروة يسأله عن الفتنة، وعن خروج رسول الله ﷺ من مكة، فأرسل يشرح إليه مراحل الدعوة التي مر بها رسول الله ﷺ وذكر له ما كان من فتنة من اتبع دين الله، قبل هجرة المسلمين الأولى والثانية إلى الحبشة التي بسببها كانت

(١) قرأ رويس بقاء الخطاب في (يعملون)؛ لمناسبة (فاعلموا)، وقرأ الباقر بقاء الغيب؛ لمناسبة (قل للذين كفروا).

الهجرتان، ثم ذكر عودتهم إلى مكة بعد أن تكاثر عدد المسلمين وازداد، ثم ذكر ما أصاب المسلمين من جُهد شديد، وفتنة في الدين، جعلت النبي ﷺ يأذن لهم في الهجرة إلى المدينة بعد كثرة الأنصار هناك، ثم قال: وهي الفتنة الأخيرة التي أنزل الله فيها الآية^(١).

٢- وعن نافع عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما، أن رجلاً سأله عن قوله تعالى: ﴿وَقَتْلُهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةً﴾ قال ابن عمر: قد فعلنا على عهد النبي ﷺ إذ كان الإسلام قليلاً، وكان الرجل يُفتن في دينه: إما أن يقتلوه، وإما أن يوثقوه؛ حتى كثر الإسلام فلم تكن فتنة^(٢).
فقد بين ابن عمر أن الفتنة في الدين: تكون بالقتل، أو الحبس، أو ألوان التعذيب التي تقع بالمسلم، حتى يخرج من دينه.

٣- وعن نافع عن ابن عمر، أنه أتاها رجلان في فتنة ابن الزبير فقالا: إن الناس قد صنعوا ما ترى، وأنت ابن عمر بن الخطاب، وأنت صاحب رسول الله ﷺ فما يمنعك أن تخرج؟ قال: يمنعني أن الله حرم عليّ دم أخي المسلم، قالوا: أولم يقل الله ﷻ ﴿وَقَتْلُهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةً﴾ قال: قد قاتلنا حتى لم تكن فتنة، وكان الدين كله لله، وأنتم تريدون أن تقاتلوا حتى تكون فتنة، ويكون الدين لغير الله^(٣).

٤- وقال أسامة بن زيد رضي الله عنه: لا أقاتل رجلاً يقول: لا إله إلا الله أبداً، قال: فقال سعد بن مالك: وأنا والله، لا أقاتل رجلاً يقول: لا إله إلا الله أبداً، فقال رجل: ألم يقل الله ﷻ ﴿وَقَتْلُهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةً وَيَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ لِلَّهِ﴾ فقالا: قد قاتلنا حتى لم تكن فتنة، وكان الدين كله لله^(٤).

٥- وفي البخاري عن سعيد بن جبير قال: خرج علينا ابن عمر، فقال رجل: كيف ترى في قتال الفتنة؟ فقال: وهل تدري ما الفتنة؟ كان محمد ﷺ يقاتل المشركين، وكان

(١) يُنظر النص الكامل في «تفسير ابن جرير» (١٣/٥٣٩ - ٥٤٢).

(٢) من حديث طويل أخرجه البخاري برقم (٤٦٥٠).

(٣) «تفسير ابن كثير» (٥٦/٤).

(٤) «تفسير ابن كثير» (٥٦/٤).

الدخول عليهم فتنة، وليس كقتالكم على المُلْك^(١).

٦- وفي حديث عمران بن حصين رضي الله عنه قال: شهدت رسول الله ﷺ وقد بعث جيشاً من المسلمين إلى المشركين، فلما لقوهم، قاتلوهم قتالاً شديداً، فمَنحوهم أكتافهم، فحمل رجل من لُحمتي على رجل من المسلمين بالرمح، فلما غشيه قال: أشهد أن لا إله إلا الله، إني مسلم، فطعنه فقتله، فأتى رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله، هلكت، قال: «وما الذي صنعت؟ مرة أو مرتين. فأخبره بالذي صنع، فقال له رسول الله ﷺ: «فهلأ شققتَ عن بطنه فعلمت ما في قلبه؟» قال: يا رسول الله، لو شققتُ بطنه لكنت أعلم ما في قلبه، قال: «فلا أنت قبلت ما تكلم به، ولا أنت تعلم ما في قلبه»^(٢).

٧- وعن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه قال: سئل رسول الله ﷺ عن الرجل يقاتل شجاعة، ويقاتل حمية، ويقاتل رياء، أيُّ ذلك في سبيل الله ﻻ؟ فقال: «من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا فهو في سبيل الله ﻻ»^(٣).

وهذا كقوله تعالى: ﴿وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ لِلَّهِ فَإِنْ آنَهَوْا فَلَا عُدْوَانَ إِلَّا عَلَى الظَّالِمِينَ﴾ [البقرة].

وقتل المشركين في بداية الدعوة، كان دفاعاً عن النفس، عما ينال ضعفاء المسلمين من أذى، فأمرُوا بقتالهم والتضييق عليهم حيث كانوا، كما قال تعالى: ﴿وَأَقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَفَضْتُمُوهُمْ وَأَخْرَجُوهُمْ مِّنْ حَيْثُ أَخْرَجْتُمُوهُمْ وَأَلْفَنْتُمْ أَشَدَّ مِمَّنْ أَلْقَيْتُمْ﴾ [البقرة: ١٩١] أي: أن فتنة الناس في دينهم بخروجهم من الإسلام، أو منعهم من الدخول فيه أعظم من القتل، وقد أوجب الإسلام قتال غير المسلمين إذا وقفوا في وجه الدعوة، وحالوا دون وصولها إلى الناس بطريقة من الطرق.

والمعنى: إذا استمر الكافرون في كفرهم وعداوتهم وقاتلوكم واعتدوا عليكم، فقاتلوهم بشدة وغلظة، وداوموا

(١) «صحيح البخاري» برقم (٤٦٥١).

(٢) حسنه الألباني في صحيح «سنن ابن ماجه» (٣٤٨/٢) برقم (٣١٧٥) وهو في «السنن» برقم (٣٩٣٠) وقال البوصيري: هذا إسناد حسن.

(٣) «صحيح البخاري» برقم (٢٨١٠) و«صحيح مسلم» برقم (١٩٠٤).

على قتالهم حتى يزول الشرك، وتعيشوا أحرارًا في مباشرة تعاليم دينكم دون أن يجروا أحد على فتنتكم في عقيدتكم أو عبادتكم، وتصير كلمة الله هي العليا، وكلمة الذين كفروا السفلى، فإن حدث مثل هذا في كل زمان ومكان وجب على المسلمين قتال الكافرين؛ ليخلص الدين لله.

فقتال غير المسلم لا يكون إلا لإعلاء كلمة الله؛ للدفاع عن المسلمين المستضعفين، والدفاع عن أرضهم ومقدساتهم، وتأمين حرية نشر الدعوة، فالمقصود من الجهاد في سبيل الله، دفع شرور غير المسلمين، وفسح الطريق أمام الدعوة، وإزالة المعوقات حتى تصل إلى أرجاء المعمورة.

وكل من نطق بالشهادة وأعلن إسلامه، لا يقاتل بحال، وإن كانت سريرته مخالفة لعلانيته.

ففي الصحيحين أن أسامة بن زيد رضي الله عنه لما علا رجلاً بالسيف فقتله بعدما قال: لا إله إلا الله، قال عليه الصلاة والسلام: «أقتلته بعد ما قال: لا إله إلا الله؟ وكيف تصنع بلا إله إلا الله يوم القيامة؟» قال: يا رسول الله، إنما قالها تعوذاً، قال: «هلاً شققت عن قلبه؟ وجعل يقول ويكرر عليه: «كيف تصنع بـ لا إله إلا الله يوم القيامة؟» قال أسامة: حتى تمنيت أني لم أكن أسلمت إلا ذلك اليوم^(١).

وقد صح عن رسول الله ﷺ أنه قال: «أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله، فإذا قالوها عصموا مني دماءهم وأموالهم إلا بحقها وحسابهم على الله ﷻ»^(٢).

فالإسلام يأخذ بالظاهر، وحساب الباطن على علام الغيوب، وليس لنا أن نبحت عما في صدور الناس، والمراد بالناس في الحديث هم غير المسلمين، فمن أسلم منهم ولو بلسانه، فقد عصم دمه وماله.

وأنا أشفق على من يتجسسون على عقائد بعض الناس، فيفترون فيهم الشرك والبدعة

(١) البخاري برقم (٤٢٦٩، ٦٨٧٢) ومسلم (٩٦/١) برقم (٩٦، ٩٧) وأبو داود (٣١/٣) وأحمد (٢٠٧/٥) برقم (٢١٧٤٥) بإسناد صحيح على شرط الشيخين، وأخرجه ابن حبان (٤٧٥١) والبزار في مسنده (٢٦١٢) والنسائي في الكبرى (٨٥٩٥) والطيالسي (٦٢٦).

(٢) «صحيح البخاري» برقم (٢٥) و«صحيح مسلم» برقم (٢٢) عن عبد الله بن عمرو عن جابر برقم (٢١).

لا لشيء بدا منهم، ولكن لانتمائهم لبلد معين ونحو ذلك، فيظلمون أنفسهم، ويقولون: نحن لا ندري عن عقيدته! ويعممون في الحكم على الناس بالكفر، أو الشرك، أو البدعة، فما دمت لا تدري، لا تظلم نفسك وتتأل عن الله! قال تعالى:

٤٠- ﴿وَإِنْ تَوَلَّوْا فَأَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَوْلَكُمْ يُعِمُّ الْمَوَلَىٰ وَنِعْمَ النَّصِيرُ﴾

فإن انتهى غير المسلمين عما هم عليه من الظلم، وعن عداوتكم فكفوا عن قتالهم، وإن أعرضوا عما دعوتهم إليه من الإيمان بالله ورسوله وترك قتالكم، وأبوا إلا الإصرار على الكفر والقتال، فأيقنوا أن الله معكم ناصرهم ومعينكم، ونعم المعين والناصر لأولياته على أعدائه، ومن كان الله مولاه وناصره فلا خوف عليه.

تَقْسِيمُ الْغَنَائِمِ

٤١- ﴿وَأَعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَإِنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسْكِينِ وَآبِ السَّبِيلِ إِنْ كُنْتُمْ ءَامِنْتُمْ بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا يَوْمَ الْفُرْقَانِ يَوْمَ التَّلَاقِ الْجَمْعَانِ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾

تأتي هذه الآية لتجيب بالتفصيل عن الغنائم والأنفال التي سأل عنها المسلمون رسول الله ﷺ في مطلع السورة، فبيّن سبحانه أن الغنائم، هي الأموال والمتاع الذي يؤخذ قهراً من الكفار المغلوبين المهزومين بعد أن حاربهم المسلمون، وانتصروا عليهم بقتال أو دون قتال.

وهذه الغنائم تختلف عن الفبيء؛ فالفبيء: ما يكون بدون قتال، يفبيء الله به على المسلمين دون حرب ولا قتال، يَحْصُلُونَ عليه بالمصالحة أو المهادنة مع العدو، أو بوفاة من لا وارث له.

يقول الله تعالى في الفبيء: ﴿وَمَا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ مِنْهُمْ فَمَا أَوْجَفْتُمْ عَلَيْهِ مِنْ خَيْلٍ وَلَا رِكَابٍ﴾ أي: أنه قد آل إليكم بدون حرب ولا قتال ﴿وَلَكِنَّ اللَّهَ يُسَلِّطُ رُسُلَهُ عَلَىٰ مَنْ يَشَاءُ﴾ [الحشر: ٦]. فهو يحصل دون حرب ولا قتال، ولا مشقة، أما الغنيمة فتكون بمقتضى حرب وقهر ينال العدو. والانتفاع بالغنائم من خصائص هذه الأمة، وقد كانت محرمة على الأمم قبلنا، تنزل نار من السماء فتحرقها.

جاء في الحديث عن جابر بن عبد الله رضي الله عنه: «وأحلت لي الغنائم، ولم تحل لأحد قبلي»^(١).
والأخذ من الغنائم قبل التقسيم غلول: ﴿وَمَنْ يَغْلُلْ يَأْتِ بِمَا عَلَّ يَوْمَ الْقِيَمَةِ﴾ [آل عمران: ١٦١].
وفي الحديث عن أبي قتادة: «من قتل قتيلاً له عليه بيعة فله سلبه»^(٢).

والسلب: ما خلفه المقتول من فرس وسلاح وملابس، ولا تؤول هذه الأشياء ونحوها إلى من قتله إلا بعد أن يأذن له في ذلك ولي أمر المسلمين، بعد إقامة البيعة والشهادة على أنه القاتل له، ولا يدخل هذا السلب في تخميس الغنيمة العامة على الأصح.

وقد بين الله سبحانه أن الغنائم تُقسَّم خمسة أخماس: أربعة أخماس منها للجنود المقاتلة، للراجل سهم، وللفراس سهمان: سهم لفرسه، وسهم له، وخُمُسٌ واحدٌ لخمسة أنواع ذكَّروهم الله تعالى في الآية، وهذا على أن سهم الله وسهم رسوله، سهم واحد، وجعلهما بعضهم سهمين، فتكون الأنواع ستة.

١- كان النبي ﷺ إذا بعث سرية فغنموا، خُمُس الغنيمة، فضرب ذلك الخُمُس في خَمْسَة، فجعل سهم الله وسهم الرسول واحداً^(٣).

٢- وقد سأل رجل رسول الله ﷺ ما تقول في الغنيمة؟ فقال: «لله خمسها، وأربعة أخماسها للجيش»^(٤).

٣- وتناول النبي ﷺ وبرة بين أنمَلَيْتِهِ من الغنائم فقال: «إن هذه من غنائمكم، وإنه ليس لي فيها إلا نصيبي معكم، إلا الخُمُس، والخُمُس مردود عليكم، فأدوا الخيط والمخيطة، وأكبر من ذلك وأصغر، ولا تَغْلُوا؛ فإن الغلول نار وعار على أصحابه في الدنيا والآخرة، وجاهدوا الناس في الله، القريب والبعيد، ولا تُبالوا في الله لومة لائم، وأقيموا حدود الله في الحضر والسفر، وجاهدوا في سبيل الله؛ فإن الجهاد باب من أبواب الجنة عظيم،

(١) من حديث جابر في «صحيح البخاري» برقم (٣٣٥، ٤٣٨، ٣١٢٢) و«صحيح مسلم» برقم (٥٢١).

(٢) من حديث طويل في «صحيح البخاري» برقم (٣١٤٢) و«صحيح مسلم» برقم (١٧٥١).

(٣) جاء هذا عن ابن عباس والحسن البصري وقتادة والشعبي وإبراهيم النخعي والحسن بن الحنفية وعطاء بن أبي رباح وعبد الله بن بريدة وغيرهم، كما في «تفسير ابن كثير» للآية.

(٤) البيهقي بسند صحيح (٣٢٤/٦) عن رجل من بلقين عن عبد الله بن شقيق.

ينجي الله به من الهم والغم»^(١).

٤- وعن أبي العالية: أن رسول الله ﷺ كان يقسم الغنيمة على خمسة: أربعة أخماس لمن شهدها، ثم يأخذ الخمس فيضرب بيده فيه، فيأخذ منه الذي قبض كفه، فيجعله للكعبة وهو سهم الله، ثم يقسم ما بقي على خمسة أسهم، فيكون سهمًا للرسول ﷺ وسهمًا لذوي القربى، وسهمًا لليتامى، وسهمًا للمساكين، وسهمًا لابن السبيل^(٢).

والمعنى: واعلموا أيها المؤمنون أن ما ظفرت به من عدوكم بالجهاد في سبيل الله يوم الفرقان يوم التقى الجمعان، فأربعة أخماسه للمقاتلين الذين حضروا المعركة، للفارس ثلاثة أسهم، سهمان لفرسه، وللراجل سهم، والخمس الباقي يقسم خمسة أجزاء، الأول لله والرسول، فسهم الله وسهم رسوله واحد.

٥- عن علي بن أبي طلحة عن ابن عباس ؓ قال: كانت الغنيمة تقسم على خمسة أخماس، فأربعة منها بين من قاتل عليها، وخمس واحد يقسم على أربعة، فربع لله والرسول ولذي القربى يعني قرابة النبي ﷺ فما كان لله والرسول فهو لقرابة رسول الله ﷺ، ولم يأخذ النبي من الخمس شيئاً، والربع الثاني لليتامى، والربع الثالث للمساكين، والربع الرابع لابن السبيل^(٣).

ومنهم من يرى أنه يقسم إلى ستة أقسام فجعل سهمًا لله مستقلاً وسهمًا للرسول ﷺ مستقلاً. ومنهم من يرى أنه لا يلزم تقسيمه إلى خمسة أقسام أو ستة، وإنما هو موكول إلى نظر الإمام واجتهاده.

ومنهم من يرى غير ذلك، ولكل فريق أدلته المبسوطة في كتب الفروع.

وذكرُ الله تعالى في مقدمة الآية من باب التبرك وبراعة الاستهلال، وحُسن الافتتاح.

(١) رواه أحمد عن عبادة بن الصامت (٣١٦/٥) برقم (٢٢٦٩٩، ٢٢٧٧٦) حديث حسن، وأخرجه ابن أبي عاصم في الأحاد والمثنائي (١٨٦٦) والبزار في مسنده (٢٧١٢) وابن ماجه (٢٨٥٠) والطبراني في الشاميين (١٥٠٢).

(٢) «تفسير الطبري» (٥٥٠/١٣) وابن أبي حاتم (١٧٠٣/٥) وابن أبي شيبه (٤٢٩/١٢).

(٣) «تفسير الطبري» (٥٥١/١٣).

ومما سبق يتبين أن أكثر العلماء يرون أن خُمُس الغنيمة يقسم إلى خمسة أقسام.

على أساس أن سهم الله وسهم رسوله واحد:

السهم الأول: هو سهم الله ورسوله يُنْفَق على المصالح العامة للمسلمين، وفي مقدمتها الكعبة، وبيوت الله في أرضه، وذلك بعد أن مات النبي ﷺ.

والسهم الثاني: يصرف إلى: أقارب النبي ﷺ وهم بنو هاشم وبنو المطلب ﴿وَلِذِي الْقُرْبَى﴾ وهم أقارب النبي ﷺ أغنياء وفقراء من بني هاشم، وبني المطلب إلى يوم القيامة، للذكر مثل حظ الأنثيين، وجعل الله لهم الخُمُس، مكان الصدقة فإنها لا تحل لهم.

سهم ذوي القربى لمن يصرف؟

١- عن قيس بن مسلم الجدلي قال: سألت الحسن بن محمد بن علي بن أبي طالب ابن الحنفية عن قول الله تعالى: ﴿وَأَعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَإِنَّ لِلَّهِ خُمُسُهُمْ﴾ فقال: هذا مفتاح كلام لله الدنيا والآخرة ﴿وَالرَّسُولَ وَلِذِي الْقُرْبَى﴾ فاختلفوا بعد وفاة رسول الله ﷺ في هذين السهمين.

قال قائل: سهم ذي القربى، لقراءة رسول الله ﷺ.

وقال قائل: سهم ذي القربى لقراءة الخليفة.

وقال قائل: سهم النبي للخليفة من بعده.

٢- واجتمع أصحاب رسول الله ﷺ على أن يجعلوا هذين السهمين في الخيل والعدة في سبيل الله تعالى، فكان كذلك في خلافة أبي بكر وعمر رضي الله عنهما ^(١).

٣- وكتب نجدة إلى ابن عباس رضي الله عنهما يسأله عن ذوي القربى الذين ذكرهم الله، فكتب إليه إِنَّا كُنَّا نَرَى أَنَّاهُمْ، فَأَبَى ذَلِكَ عَلَيْنَا قَوْمَنَا، وَقَالُوا: قَرِيشُ كُلُّهَا دَوُو قُرْبَى ^(٢).

وفي لفظ آخر عن جبير بن مطعم رضي الله عنه قال: قَسَمَ رسول الله ﷺ سهم ذي القربى على

(١) «مصنف عبد الرزاق» (٩٤٨٢) وابن أبي شيبه (٤٣١/١٢) والطبري (١٨٧/١١) وابن أبي حاتم (٥/١٧٠٢) والحاكم (١٢٨/٢).

(٢) مسلم (١٨١٢) وعبد الرزاق في «المصنف» (٩٤٥٥) وابن أبي شيبه (٤٧٢/١٢).

بني هاشم وبني المطلب، قال: فمشيتُ أنا وعثمان بن عفان حتى دخلنا عليه، فقلنا: يا رسول الله، هؤلاء إخوانك من بني هاشم لا ننكر فضلهم لمكانك الذي وضعك الله به منهم، أرايتَ إخواننا من بني المطلب، أعطيتهم دوننا، وإنما نحن وهم بمنزلة واحدة في النسب؟ فقال ﷺ: «إنهم لم يفارقونا في الجاهلية والإسلام»^(١).

صح عن جبير بن مُطعم أنه قال: أتيت أنا وعثمان بن عفان رسول الله ﷺ نكلمه فيما قسم من الخمس من بني هاشم وبني المطلب، فقلت: يا رسول الله، قسمتَ لإخواننا بني المطلب، ولم تعطنا شيئاً، وقربتنا وقربتهم واحدة، فقال: «إنما بنو المطلب وبنو هاشم شيء واحد»^(٢).

ونسب رسول الله ﷺ يرجع إلى هاشم، أما بنو المطلب فهم وبنو عبد شمس وبنو نوفل في رتبة واحدة من قرابة رسول الله ﷺ؛ لأن آباءهم هم أبناء عبد مناف، وإخوة لهاشم. وقرابة النبي ﷺ الذين حرم الله عليهم الصدقة هم: آل العباس وآل جعفر، وآل عقيل، وولد الحارث بن عبد المطلب، وأدخل بعضهم بني المطلب فيهم.

والسهم الثالث: ﴿وَالْيَتَامَى﴾ وهم أطفال المسلمين الذين مات آباؤهم قبل أن يبلغوا، وليس عندهم ميراث يكفي حاجاتهم، فيُصرف لهم خمس الخمس، رحمة بهم لعجزهم عن القيام بمصالحهم، وفقد من يقوم بها.

والرابع: ﴿وَالسَّكِينِ﴾ وهم أهل الحاجة والفاقة من المسلمين، وهم الفقراء شديداً والفقر، من صغار وكبار، ذكور وإناث.

والخامس: ﴿وَابْنِ السَّبِيلِ﴾ أي: المنقطعين في السفر عن أهلهم من النفقة، قبل أن يصل إلى بلده، قال تعالى: ﴿يَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنْفِقُونَ قُلْ مَا أَنْفَقْتُ مِنْ خَيْرٍ فَلِلَّهِ وَلِلَّذِينَ وَاللَّذِينَ وَالْيَتَامَى وَالسَّكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ﴾ [البقرة: ٢١٥].

وفي حديث عمرو بن عَبَسَةَ ؓ أن رسول الله ﷺ صلى بهم إلى بغير من المغنم، فلما

(١) البخاري (٣١٤٠) و«المسند» (١٦٧٤١) وابن أبي شيبة (٤٦٠/١٤) وأبو داود (٢٩٧٨) وابن ماجه (٢٨٨١) والنسائي (٤١٤٧).

(٢) رواه البخاري برقم (٣١٤٠) و«صحيح سنن أبي داود» (٢٥٨٠).

سَلِّمْ، أَخَذَ وَبَرَةً مِنْ ذَلِكَ الْبَعِيرِ ثُمَّ قَالَ: «وَلَا يَحِلُّ لِي مِنْ غَنَائِمِكُمْ مِثْلُ هَذِهِ إِلَّا الْخُمْسُ، وَالْخُمْسُ مَرْدُودٌ فِيكُمْ»^(١).

فأربعة أخماس الغنيمة يُقسَّم على أفراد الجيش المقاتل، والْخُمْسُ الباقي يُقسَّم خمسة أقسام: قسم لله والرسول، وهما سهم واحد، يصرف على بيوت الله وفي المصالح العامة، وسهم لمن بقي من قرابة النبي ﷺ والثلاثة الأسهم الباقية لليتامى والمساكين وابن السبيل.

وقال بعضهم: سهم النبي ﷺ يُصَرَّف على من ولي أمر المسلمين، وسهم قرابة النبي ﷺ يُصَرَّف إلى أقارب ولي أمر المسلمين.

هذا ترتيب للغنائم في وقت كان المقاتل فيه يُعِدُّ نفسه، ويتطوع، وليس له راتب من الدولة، ويشتري سلاحه بنفسه، ويأخذ زاده من ماله، ويترك لأبنائه النفقة من ماله الخاص.

ثم أصبح للجنود في وقتنا جيوش منظمة، تأخذ رواتب، ويشتري لها السلاح، وتُضمَّد الجراح، وتُصرف النفقات لأسرهم وأبنائهم، فتقسم الغنائم والأنفال في هذه الحالة يعود إلى بيت مال المسلمين، يصرفه ولي أمر المسلمين في الإنفاق على وجوه الخير، وفي شراء الأسلحة وتصنيعها ونحو ذلك مما يقاتل به العدو، ومما هو منصوص عليه في الآية.

وقد خضعت الغنائم في عهد عمر لتقسيمات يراها الحاكم المسلم مناسبة لأوضاع المسلمين، وكان من آخرها ما حدث في مصر والسودان وغيرها عند الفتح الإسلامي لهذه البلاد.

وتقسيم الغنائم من أصول الإيمان بالله واليوم الآخر؛ ﴿إِنْ كُنْتُمْ ءَامَنْتُمْ بِاللَّهِ﴾ وآمنتم بالآيات التي نزلت على رسول الله يوم بدر، وآمنتم بالمدد والنصر الذي أيدكم الله به، فانقادوا لأمر الله ورسوله، وسلّموا بهذه القسمة للغنائم التي أعطاكم الله إياها يوم أن فرق بين الحق والباطل، ويوم أن ﴿أَنْزَلْنَا عَلَى عَبْدِنَا يَوْمَ الْفُرْقَانِ﴾ آيات بينات في يوم بدر، وسُمِّي يوم الفرقان؛ لأن الله تعالى فرَّق فيه بين الحق والباطل، وبين عهد الصبر

(١) أبو داود برقم (٢٧٥٥) وصححه الألباني في صحيح أبي داود (٢٣٩٣) وأخرجه النسائي.

والمصابرة، وعهد القوة والجهاد، وبين عهد تحطيم سلطان الباطل وعلو سلطان الحق، وهو اليوم الذي تَجَمَّع فيه أهل الكفر وأهل الإيمان في موقعة بدر ﴿يَوْمَ اتَّخَذَ الْجَمْعَانِ﴾ وهما الجمع المؤمن والجمع المشرك.

قال ابن عباس رضي الله عنه: يوم الفرقان: يوم بدر؛ لأن الله فرَّق فيه بين الحق والباطل.

ويوم التقاء الجمعين كان يوم السابع عشر من شهر رمضان، وكان المشركون بقيادة عتبة بن ربيعة سيدهم، وأكبرهم سنًا، وكان عددهم بين التسع مئة والألف، والمسلمون ثلاث مئة وثلاثة عشر، وفرَّق الله بين الحق والباطل، ونصر الله المسلمين على قِلَّتِهِمْ وخذل الكافرين على كثرة عددهم وعدتهم، ونتج عن ذلك تقسيم الغنائم، وعُدَّ ذلك من أصول الإيمان.

جاء في حديث وفد عبد القيس أن النبي ﷺ قال: «وأمركم بأربع، وأنهاكم عن أربع، آمركم بالإيمان بالله، ثم قال: هل تدرُونَ ما الإيمان بالله؟ شهادة أن لا إله إلا الله، وأن محمدًا رسول الله، وإقام الصلاة، وإيتاء الزكاة، وأن تؤدوا الخُمُسَ من المغنم»^(١).

فجعل الإسلام أداء الخُمُس من جملة الإيمان ﴿وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ لا يعجزه شيء.

أَمَاكِنُ الْفَرِيقَيْنِ يَوْمَ بَدْرٍ

٤٢- ﴿إِذْ أَنتُمْ بِالْمُدَّةِ^(٢) الدُّنْيَا وَهُمْ بِالْعُدَّةِ^(٣) الْقُصْوَى وَالرَّكْبُ أَسْفَلَ مِنْكُمْ وَلَوْ تَوَاعَدْتُمْ لَأَخْتَلَفْتُمْ فِي الْمِيعَدِ وَلَكِنَّ لِيَقْضَى اللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا لِيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنْ بَيِّنَةٍ وَيَحْيَىٰ مَنْ حَيَّ^(٤) عَنْ بَيِّنَةٍ وَإِنَّ اللَّهَ لَسَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٤٢﴾﴾

ثم يعود السياق إلى يوم الفرقان يوم التقى الجمعان؛ ليعرض علينا صورًا من مشاهد

(١) من حديث وفد عبد القيس عن ابن عباس، أخرجه البخاري في «فتح الباري» (١/١٥٧) ورقمه في الصحيح: (٥٣) ومسلم (١/٤٦) برقم (١٧).

(٢) قرأ ابن كثير وأبو عمرو ويعقوب بكسر العين من (بالعدوة) في الموضعين، والباقون بالضم فيهما، وهما لغتان.

(٣) قرأ نافع والبخاري وشعبة وأبو جعفر ويعقوب وخلف العاشر وقبل بخلف عنه بفك الإدغام من (حيي) مع كسر الباء الأولى وفتح الثانية، وباقي القراء بياء مشددة مفتوحة وهو الوجه الثاني لقبيل، والقراءتان لغتان في كل ما كان آخره ياء مشددة من الفعل الماضي.

ومواقف الغزوة وأحداثها، وبيّن لنا الأماكن التي نزل فيها كل من الفريقين:

﴿إِذْ أَنْتُمْ بِالْعُدْوَةِ الدُّنْيَا وَهُمْ بِالْعُدْوَةِ الْقُصْوَى﴾ اذكروا أيها المسلمون هذا اليوم حين كنتم على جانب الوادي الأقرب إلى المدينة، وهو العدو الدنيا، وكان العدو يقابلكم بجانب الوادي الأبعد الأقرب إلى مكة، وهو العدو القصوى وبينكما ربوة فاصلة، وقد جمعكما واد واحد.

وكان أهل العدو القصوى أسعد حظاً، لقربهم من الماء، فأرسل الله المطر على أهل العدو الدنيا فسقاهم، ولبد الأرض تحت أقدامهم، وعطل أهل العدو القصوى عن الرحيل، فوصل المسلمون إلى بدر قبلهم.

وكانت التجارة التي نجا بها أبو سفيان في مكان أسفل من الجيشين إلى ساحل البحر الأحمر، وكان مع أبي سفيان سبعون راكباً، وكل من الفريقين لا يعرف موقع الآخر، وإنما جمعهما الله على جانبي الجبل المرتفع لأمر يريده.

وقد أناخ العدو رحله في أرض ثابتة قريبة من الماء، ونزلتم في أرض تسوخ فيها الأقدام من كثرة الرمال، وليس بها ماء، والركب أسفل منكم، أي: وركب أبي سفيان بالعر أسفل منكم أيها المسلمون على بعد ثلاثة أميال من بدر، ولم يكن بينكم اتفاق على اللقاء، ولو حاولتم ذلك لاختلقتم ﴿وَلَوْ تَوَاعَدْتُمْ﴾ أنتم وإياهم على اللقاء في الزمان والمكان ﴿لَاخْتَلَفْتُمْ فِي الْمِيعَدِ﴾ بالزيادة أو النقص أو اختيار مكان النزول لقلتم وكثرتهم، ولكن هذا قضاء الله وقدره، وأنتم أداة تحقيقه.

﴿وَلَكِنْ﴾ جمعكم الله على هذه الحال ﴿لِيَقْضَىٰ اللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا﴾ وهذا الأمر هو أن الله جمعكم في هذا المكان على غير ميعاد؛ لينصر الله أوليائه ويخذل أعداءه، ولو عرفتم قبل اللقاء كثرة عددهم، وقلة عددكم، ما لقيتموهم، وإنما خرجتم للظفر بالعر بعد أن قللهم الله في أعينكم، وخرجوا ليمنعوها منكم فجمع الله بينكم وبين عدوكم على غير ميعاد:

١- أخرج الطبري بسند صحيح عن مجاهد في قوله تعالى: ﴿وَالرَّكْبُ أَهْلٌ مِنْكُمْ﴾ قال: أبو سفيان وأصحابه مقبلون من الشام تُجَارًا لم يشعروا بأصحاب بدر، ولم يشعر محمد ﷺ بكفار قريش، ولا كفار قريش بمحمد وأصحابه، حتى التقى على ماء بدر من

يسقي لهم كلهم فاقتلوا، فغلبهم أصحاب محمد ﷺ فأسروهم^(١).

٢- وفي حديث كعب بن مالك ؓ قال: إنما خرج رسول الله ﷺ والمسلمون يريدون غير قريش، حتى جمع الله بينهم وبين عدوهم على غير ميعاد^(٢).

٣- وعن عمير بن إسحاق قال: أقبل أبو سفيان في الركب من الشام، وخرج أبو جهل ليمنعه من رسول الله ﷺ وأصحابه، فالتقوا ببدر لا يشعر هؤلاء بهؤلاء، حتى التقت السقاة، ونهّد الناس بعضهم لبعض^(٣).

إصرار أبي جهل على القتال: ومع أن عير أبي سفيان قد نجت، وأشار من فيها بالمضي إلى مكة، إلا أن أبا جهل أصرّ على القتال فقال: والله لا نرجع حتى نأتي بدرًا، فنقيم بها ثلاثًا: نطعم الطعام، وننحر الجزور، ونسقي الخمر، وتعزف علينا القيان، وتسمع بنا العرب، فلا يزالون يهابونا بعدها أبدًا، وكانت بدر سوقًا من أسواق العرب.

فقال الأخنس بن شريق: يا معشر بني زهرة، إن الله قد نجّى أموالكم، ونجّى صاحبكم فارجعوا، فأطاعوه، فرجعت بنو زهرة، فلم يشهدوها ولا بنو عدي^(٤).

التعرف على عدد الفريقين: ولما اقترب النبي ﷺ من مكان بدر، أرسل علي بن أبي طالب، وسعد بن أبي وقاص، والزيبر بن العوام في نفر من أصحابه يتعرّفون على عدد المشركين، فأصابوا سقاة لقريش (غلامين) فأتوا بهما إلى رسول الله ﷺ فسألهما النبي ﷺ عن عدد القوم، فقالا: لا نعرف، قال: «كم ينحرون كل يوم؟» قالا: يومًا تسعًا، ويومًا عشرًا، فقال ﷺ: «القوم ما بين التسع مئة إلى الألف»، ثم سألهما عمن فيهم من أشراف قريش، فذكرا له كبار القوم، فقال: «هذه مكة قد ألقت إليكم أفلاذ كبدها»^(٥).

حكمة اللقاء بينهما: ثم بيّن سبحانه السبب في أن الله تعالى جمع بين الفريقين على غير

(١) «تفسير الطبري» (٢٠٤/١١).

(٢) «صحيح البخاري» برقم (٣٩٥١) وانظر: رقم (٢٧٦٩) و«صحيح مسلم» برقم (٧١٦).

(٣) «تفسير الطبري» (٥٦٧/٣).

(٤) «سيرة ابن هشام» (٦١٧/١).

(٥) يُنظَر: «سيرة ابن هشام» (٣٢٨/٢).

موعد؛ حتى يفرق بين أهل الكفر وأهل الإيمان، فيهلك الكفار بعد قيام حجة ثابتة عليهم لا شبهة فيها، فيموت من قُتل منهم عن بينة رآها، وعبرة عاينها؛ ليقطع عليهم أذارهم في الآخرة، ويعيش من عاش منهم عن حجة قامت لله عليه، فيتحمّل تبعّة استمراره في الكفر، وبالكفر تموت القلوب، وبالإيمان تحيا وتسعد، قال تعالى: ﴿أَوْ مَنْ كَانَ مَيِّتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَنْ مَثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِنْهَا﴾ [الأنعام: ١٢٢] وهو مثل مضروب للمؤمن والكافر، ذلكم قوله تعالى: ﴿لِيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنْ بَيِّنَةٍ﴾ أي: عن كُفر وحجة وبصيرة، فهم أهل لذلك ﴿وَيَحْيَى مَنْ حَيَّ عَنْ بَيِّنَةٍ﴾ وهم مَنْ حَيَّ من أبناء المسلمين بالإيمان ﴿وَإِنَّ اللَّهَ لَسَمِيعٌ﴾ لأقوال الفريقين، لا يخفى عليه أي شيء ﴿عَلِيمٌ﴾ بنياتهم وجميع أحوالهم ما ظهر منها وما خفى، وما غاب وما شوهد.

رُؤْيَا الرُّسُولِ الْمَنَامِيَّةِ قَبْلَ الْغَزْوَةِ

٤٣- ﴿إِذْ يُرِيكُهُمُ اللَّهُ فِي مَنَامِكَ قَلِيلًا وَلَوْ أَرَنَاهُمْ كَثِيرًا لَفَشَلْتُمْ وَلَتَنَزَعْتُمْ فِي الْأَمْرِ وَلَكِنَّ اللَّهَ سَلَّمَ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾ (٤٣)

نزلت هذه الآية في رؤيا رآها رسول الله ﷺ منامًا؛ حيث رأى فيها عدد الكفار قليلاً، فأخبر بذلك أصحابه، فقويت نفوسهم، وعزموا على اللقاء^(١).

قال مجاهد: أرى الله النبي ﷺ كفار قريش في منامه قليلاً، فأخبر بذلك أصحابه فقالوا: رؤيا النبي حق، القوم قليل، فصار ذلك سبباً لجرأتهم وقوة قلوبهم، وقد امتن الله على رسوله والمؤمنين بهذه الرؤيا، حيث كانت من أسباب النصر، فقد زال الخوف من نفوسهم، وأقدموا على لقاء عدوهم^(٢).

فهذه الآية تتحدث عن رؤيا منامية للنبي ﷺ حيث يمضي السياق؛ ليكشف تدبير الله تعالى في المعركة، بأن يُري رسوله في منامه عدد الكافرين قليلاً، لا قوة لهم ولا وزن، فيخبر الرسول ﷺ أصحابه برؤياه، فيفرحوا ويستبشروا ويتشجعوا على لقاء العدو،

(١) قاله مجاهد وأخرجه عبد الرزاق (٢٥٩١١) والطبري (٢٠٩) وابن أبي حاتم (١٧٠٩/٥).

(٢) «تفسير الفخر الرازي» (١٦٩/٥) والأثر أخرجه عبد الرزاق (٢٥٩/١) والطبري (٢٠٩) وابن أبي حاتم (١٧٠٩/٥).

لعلمهم أن رؤيا الأنبياء حق ﴿وَإِذْ يُرِيكُهُمُ اللَّهُ فِي مَنَامِكَ قَلِيلًا﴾ فكان هذا تشيئاً لهم، وتقوية على حرب عدوهم.

ورؤيا الأنبياء حق وصدق، فهي لا تخطئ، وقد كان النبي ﷺ لا يرى رؤيا إلا جاءت مثل فلق الصبح، كما رأى ﷺ ليلة غزوة أحد بقرة تُذبح، فكان تأويل ذلك: استشهاد حمزة وبعض أصحاب النبي ﷺ، كما رأى ﷺ أن في سيفه ثلماً فكان تأويله ما حدث لهم من الهزيمة يوم أُحد.

وقد يمسك النبي ﷺ عن تعبير الرؤيا لحكمة، فلو أن النبي ﷺ أخبر أصحابه أنهم منتصرون لآمَنوا بذلك إيماناً يمنعهم من الأخذ بالأسباب، ولو لم يخبرهم بالرؤيا لتهيئوا المشركين وخافوا من لقاءهم، قال تعالى: ﴿وَلَوْ أَرَدْنَاكَ أَكْثَرًا﴾ وأخبر أصحابه بذلك ﴿لَفَشَلْتُمْ وَلَتَنَزَعْتُمْ فِي الْأُمُورِ﴾ فمنكم من يرى الإقدام على قتالهم ومنكم لا يرى ذلك، أي: ولو أراك الله إياهم على عددهم الحقيقي لجبتم وفشلتم وتنازعتم وترددتم في لقاءهم ﴿وَلَكِنَّ اللَّهَ سَلَّمَ﴾ فلفظ بكم من الفشل والتنازع ونجاكم من عاقبة ذلك ﴿إِنَّهُ عَلَيْهِ يَدَاتِ الصُّدُورِ﴾ إنه عليم بخفايا القلوب وطبائع النفوس، يعلم ما فيها من الثبات والجزع والصدق والكذب.

تَقْلِيلُ كَلَا الضَّرِيقَيْنِ فِي عَيْنِ الْآخِرِ أَثْنَاءِ الْمَعْرَكَةِ

٤٤- ﴿وَإِذْ يُرِيكُمُوهُمْ إِذِ اتَّفَقْتُمْ فِي آعْيُنِكُمْ قَلِيلًا وَيُقَلِّلُكُمْ فِي آعْيُنِهِمْ لِيَقْضَى اللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ﴾ (٤٤)

وهذه الآية تتحدث عن الرؤيا في اليقظة، وهي تقليل عدد المؤمنين في نظر أعدائهم وتقليل عدد الكفار في نظر المؤمنين، وذلك في ساحة المعركة حين التقى الجيشان، وكان هذا تأكيداً للرؤيا المنامية، التي رآها النبي ﷺ وذلك أنه لما كانت المعركة، والتقى الجمعان وجهاً لوجه، تأكد في اليقظة ما رآه النبي ﷺ في منامه، فقلل الله عدد الكفار في أعين المسلمين؛ ليجترئوا عليهم، وزاد على ذلك بأن قلل عدد المسلمين في أعين

(١) قرأ ابن عامر وحمزة والكسائي ويعقوب وخلف العاشر بفتح التاء وكسر الجيم من (تَرْجَع) على البناء للفاعل، وقرأ الباكون بضم التاء وفتح الجيم على البناء للمفعول.

الكفار؛ لتركوا الاستعداد لحربهم، فقلل الله كلاً من الفريقين في عين الآخر، وكان هذا من بشائر النصر، وهو معنى: ﴿وَإِذْ يُرِيكُمُوهُمْ إِذِ الْتَقَيْتُمْ فِيَ أَعْيُنِكُمْ قَيْلًا﴾ أي أن الله تعالى أرى عدد المشركين في أعين المؤمنين قليلاً.

قال ابن مسعود: نظرت إلى المشركين يوم بدر فقلت إلى من بجواري: إنهم سبعون، قال: أراهم مئة، فأسرنا رجلاً منهم، فقلنا: كم كنتم؟ قال: كنا ألفاً^(١).

﴿وَقَلَّلَكُمْ﴾ أيها المسلمون ﴿فِي أَعْيُنِهِمْ﴾ أي: في أعين الكفار؛ ليغري كلاً من الفريقين بلقاء الآخر، وقد فعل ما فعل من تقليل كل فريق في عين الآخر ﴿لِيَقْضَىَ اللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا﴾ وهو نصر المؤمنين وخذلان الكافرين، وقتل قادتهم ورؤساء الضلال منهم، ليتحقق وعد الله بالنصر والغلبة للمؤمنين، ولتكون كلمة الله هي العليا، وكلمة الذين كفروا السفلى ﴿وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ﴾ ومصائر الخلق أجمعين إلى الله، فيجازي كلاً بعمله، ويحكم بين الخلائق بحكمه العادل.

أي: ولما وقعت المعركة بالفعل، ودارت رحى الحرب، وأمد الله المؤمنين بألف من الملائكة مردفين، رأى المشركون المسلمين ضعف عددهم، ورأى المسلمون المشركين أقل من عددهم، فازداد المسلمون جرأة على المشركين، وازداد المشركون هيبة ورهبة من المسلمين ذلك قول الله تعالى: ﴿قَدْ كَانَ لَكُمْ آيَةٌ فِي فِتْنِ الْتَقَاتِ فِتْنَةُ تُقَاتِلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَأُخْرَى كَافِرٌ يَرَوْنَهُمْ مِثْلَهُمْ رَأَى الْغَيْنِ وَاللَّهُ يُؤَيِّدُ بِنَصْرِهِ مَن يَشَاءُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّأُولِي الْأَبْصَارِ﴾ [آل عمران] يعني: أن المشركين ينظرون إلى المسلمين فيرونهم في أعينهم ضعف عدد المشركين ﴿وَاللَّهُ يُؤَيِّدُ بِنَصْرِهِ مَن يَشَاءُ﴾ وكان ذلك من أسباب النصر وآياته التي يمد الله بها أوليائه ويخذل أعداءه، وبهذا جمع العلماء بين الآيتين.

والأمر المفعول الذي انتهت به الآية السابقة، هو نصر المؤمنين على الكافرين بالقهر والغلبة، والأمر المفعول الذي ختم الله به هذه الآية، هو تقليل عدد الكافرين في أعين المؤمنين، وتقليل عدد المؤمنين في أعين الكافرين، وذلك للحكمة التي قضاها.

(١) ابن أبي شيبه (٣٧٤/١٤) والطبري (٢٥١/٥) وابن أبي حاتم (١٧١٠/٥).

النِّدَاءُ السَّادِسُ: إِلَى الْمُؤْمِنِينَ عَقِبَ انْتِصَارِهِمْ فِي غَزْوَةِ بَدْرٍ

٤٥- ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً^(١) فَاقْبَلُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٤٥﴾﴾

هذا النداء موجه إلى المؤمنين إلى يوم الساعة، وهو يشمل على ستة أمور، هي عوامل النصر على العدو، وهي تعني: أن الكثرة العددية، والعدة المادية لا يعينان بالضرورة تحقيق النصر، ولا تقرير مصير المعركة، وعلى المؤمنين أن يتمسكوا بهدي القرآن الكريم، وسنة رسول الله ﷺ في الأخذ بأسباب النصر المادية، والاتصال القوي بصاحب العون والتدبير، وتجنب أسباب الهزيمة ماديًا ومعنويًا.

عَوَامِلُ النَّصْرِ

الْعَامِلُ الْأَوَّلُ: الثَّبَاتُ فِي مُوَاجَهَةِ الْعَدُوِّ

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَاقْبَلُوا﴾

ابتدأت هذه النداءات بلفظ الإيمان، المتضمن امتثال الأوامر واجتناب النواهي، كما قال تعالى: ﴿إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ الْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَنْ يَقُولُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا﴾ [النور: ٥١]
وهذا هو العامل الأول من عوامل النصر على العدو، وهو الثبات في مواجهة العدو عند لقاءه، وعدم الفرار من المعركة، أو عدم التولي يوم الزحف.

وقد تبين لنا فيما سبق أن التولي يوم الزحف من أكبر الذنوب ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا لَقِيتُمْ الَّذِينَ كَفَرُوا زَحَفُوا زَحَفًا فَلَا تُولُوهُمْ الْأَذْبَارَ﴾ ﴿١٥﴾

وهو من السبع الموبقات التي جاء ذكرها في حديث المصطفى ﷺ: «اجتنبوا السبع الموبقات» وذكر منها «التولي يوم الزحف»

والله جلَّ شأنه قد توعد مَنْ يفر يوم الزحف من ساحة المعركة بأن مأواه جهنم، وغضب الله عليه، وبئس المصير، مستثنيًا ﴿إِلَّا مُتَحَرِّفًا لِقُنَالٍ أَوْ مُتَحَرِّزًا إِلَى فِتَّةٍ﴾ .

(١) قرأ أبو جعفر بإبدال الهمزة ياء وصلًا ووقفًا ومثله حمزة في ثلاث كلمات وهي (فية، الفيتان، رياء الناس) والباقون بتحقيق الهمزة.

والرسول ﷺ وهو قدوتنا ومثلنا في حربه وسلمه قد ثبت، ولم يفر في جميع معاركه؛ لا في بدر، ولا في أحد، ولا في الأحزاب، ولا في حنين، ولا في غيرها.

فقد ثبت عليه الصلاة والسلام في يوم أحد ومعه تسعة فقط من أصحابه، وكان قد أشيع أن النبي ﷺ قد قُتل، لما وقع في الحفرة التي أعدها له المشركون، وأصيب عليه الصلاة والسلام فيها بشج وجهه وكسر ربايعته، وشيء من الأذى وسيل الدماء، ومع ذلك فقد وقف ﷺ ثابتاً صامداً وحوله تسعة من أصحابه، وهو ينادي المسلمين، ويقول: «إِلَيَّ أَيُّهَا النَّاسُ».

وفي غزوة حنين التي يقول الله تعالى للمسلمين فيها: ﴿وَضَافَتْ عَلَيْكُمْ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَيْتُمْ مُدِيرِينَ﴾ [التوبة: ٢٥] ثبت ﷺ ومعه عشرة من بين اثني عشر ألف مقاتل، ووقف عليه الصلاة والسلام ثابتاً صامداً في مكانه، وهو ينادي المسلمين قائلاً لهم: «أنا النبي لا كذب أنا ابن عبد المطلب»^(١).

وهكذا ثبت عليه الصلاة والسلام في جميع مواقعه وحروبه، ومن بعده الخلفاء الراشدون، والصالحون من الأمة، على مدى الأزمنة وفي جميع الأمكنة.

فيا أيها الذين صدّقوا بالله، واتبعوا رسوله: إذا لقيتم جماعة من الكفار، قد استعدوا لقتالكم، فاثبتوا في مواجعتهم، ولا تنهزموا أمامهم، فقد أمر الله بالثبات عند قتال الأعداء، والصبر على مبارزتهم، وعدم النكول عن قتالهم، أو العجب أمامهم.

ثبت في الصحيحين وغيرهما عن عبد الله بن أبي أوفى ؓ عن رسول الله ﷺ أنه انتظر في بعض أيامه التي لقي فيها العدو، حتى إذا مالت الشمس قام فيهم، فقال: «يا أيها الناس، لا تتمنوا لقاء العدو، واسألوا الله العافية، فإذا لقيتموهم فاصبروا واعلموا أن الجنة تحت ظلال السيوف» ثم قال: «اللهم منزل الكتاب، ومجري السحاب، وهازم الأحزاب اهزمهم وانصرنا عليهم»^(٢).

(١) من حديث طويل للبراء في «صحيح مسلم» برقم (١٧٧٦) و«صحيح البخاري» برقم (٤٣١٦)، (٤٣١٧).

(٢) في البخاري (٢٩٣٣، ٢٩٦٦) ومسلم (١٣٦٢/٣) برقم (١٧٤٢) و«فتح الباري» (١٤٠/٦) وعبدالرزاق في «المصنف» (٩٥١٨) وابن أبي شيبة (٤٦١/١٢).

والثبات في مواجهة العدو، هو بداية الطريق إلى النصر، فَعَدُّوا الله يُعَانِي كَمَا نَعَانِي، ويَأْلَم كَمَا نَأْلَم، ولكنه لا يرجو من الله ما نرجو، فلا مدد له من الله يَثْبُت قدمه وقلبه، ولو ثبت بعض الوقت فسرعان ما ينهار وينهزم؛ لأن المؤمن واثق من إحدى الحسينين، إما النصر على العدو، وإما الشهادة في سبيل الله، بينما العدو لا أمل ولا رجاء له وراء هذه الحياة، ولا حياة له سواها في زعمه ﴿فَلْيُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يَشْرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا بِالْآخِرَةِ وَمَن يُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلْ أَوْ يَغْلِبْ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ [النساء: ٧٤].

العَامِلُ الثَّانِي: الْإِكْثَارُ مِنْ ذِكْرِ اللَّهِ تَعَالَى

فإن من عوامل النصر على الأعداء، الإكثار من ذكر الله تعالى عند لقاء العدو ﴿وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ أي استعينوا على قتال أعدائكم بالإكثار من ذكر الله تعالى، فيه طمأنينة القلب وسكينة النفس واستدرار النصر.

والذكر في ساحة القتال يكون سرًّا بصوت خفي، قال قيس بن عباد: كان أصحاب رسول الله ﷺ يستحبون خفض الصوت عند ثلاث: عند قراءة القرآن، وعند الجنائز، والقتال^(١).

فيا أيها المسلمون: اذكروا الله كثيرا داعين مبتهلين لإنزال النصر عليكم والظفر بعدوكم؛ لكي تفوزوا وتفلحوا، واذكروا الله تعالى مطلوب من المسلم في سلمه وفي حربه، وهو يواجه العدو وهو لا يواجهه، ولكنه في مواجهة العدو أوقع.

فالمسلم حين يقاتل عدو الله سبحانه يكون مضطرب القلب والفؤاد، خائفا قلقا، وتثبت قلبه يكون بذكر الله ﷻ ﴿أَلَا يَذْكُرُ اللَّهُ تَطْمِئِنُّ الْقُلُوبُ﴾ [الرعد: ٢٨].

والمؤمن يذكر الله سبحانه بقلبه، فيثبت قلبه ويطمئن.

ويذكر الله ﷻ بلسانه، فيتغلب على شيطانه الذي يوسوس له، أو يُضعف من عزيمته في مواقف القتال، فهو يذكر الله سبحانه في جميع أحواله.

وهكذا كان عليه الصلاة والسلام يقف في جميع المعارك، مستغيثا بربه، لاجئا إليه،

(١) ابن أبي شيبة (٢٧٤/٣) وعن الحسن (٥٣٠/١٠) وأخرجه أبوداود (٢٦٥٦) وهو صحيح موقوف على قيس بن عباد، كما في «صحيح سنن أبي داود» (٢٣١٤) والحاكم (١١٦/٢) عند القتال فقط.

متصلاً به جلّ شأنه .

ويعلمنا عليه الصلاة والسلام أن نكون كذلك، فتتصل بربنا حين لقائنا بعدونا، ونضرع إليه سبحانه أن ينصرنا عليه، وندعوه بقلوبنا، ونلهج إليه بالاستئنا .

كما وقف عليه الصلاة والسلام في غزوة بدر حين لقي المشركين فانتظر حتى مالت الشمس ثم قال: «لا تتمنوا لقاء العدو واسألوا الله العافية، فإذا لقيتموهم فاثبتوا، واذكروا الله، فإن أجلبوا وصبخوا وصاحوا فعليكم بالصمت»^(١) .

وقال عليه الصلاة والسلام وهو يدعو ربه: «اللهم يا منزل الكتاب ومجري السحاب، وهازم الأحزاب، اهزمهم وانصرنا عليهم»^(٢) .

وأخذ عليه الصلاة والسلام يدعو ربه، حتى سقط رداؤه وهو في دعائه يلهث بذكر الله سبحانه، ويقول: «اللهم إن هذه قریش قد أتت بفخرها وخيلها وخيلائها تجادلک وتکذب رسولک، اللهم فنصرک الذي وعدتني» فأجاب الله دعاءه، وأمدّه بالملائكة .

وذکّر الله تعالى عند لقاء العدو فيه توجيه دائم للمؤمن بالإكثار من الذكر بالقلب واللسان، والاستمرار على ذلك في جميع الأحوال، فقد وصف الله تعالى عباده المؤمنين بقوله: ﴿الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ﴾ [آل عمران: ١٩١] .

وقد سجّل القرآن دعاء عدد من القلة المؤمنة الذين نصرهم الله تعالى على أعدائهم:

أ- من ذلك قوله تعالى في شأن السحرة الذين آمنوا بالله وواجهوا طغيان فرعون، دعوا ربهم قائلين: ﴿رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَتَوَفَّنَا مُسْلِمِينَ﴾ [الأعراف: ١٢٦] .

ب- وكذلك دعا حواريو عيسى في مواجهة الكفرة: ﴿رَبَّنَا ءَامَنَّا بِمَا أُنزِلَتْ وَاتَّبَعْنَا الرَّسُولَ فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ﴾ [آل عمران: ٥٢] .

ج - وهكذا شأن عباد الله الصالحين مع رسل الله في كل زمان ﴿وَمَا كَانَ قَوْلُهُمْ إِلَّا أَن قَالُوا

(١) البخاري (٧٢٣٧) ومسلم (١٧٤١، ١٧٤٢) و«مصنف عبد الرزاق» عن عبد الله بن عمرو (٢٥٠/٥) برقم (٩٥١٨) والبيهقي في «السنن الكبرى» (١٥٣/٩) من طريق ابن وهب، و«مصنف ابن أبي شيبة» (٤٦٣/١٢) من طريق عبد بن سليمان، وكلاهما عن عبد الرحمن بن زياد .

(٢) البخاري برقم (٢٩٣٣، ٢٩٦٥، ٢٩٦٦) ومسلم (١٣٦٢/٣) برقم (١٧٤٢) .

رَبَّنَا أَغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِي أَمْرِنَا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ ﴿٤٧﴾ [آل عمران].

د- وكذا أصحاب طالوت الذين قاتلوا جالوت وجنوده، قالوا هذا الدعاء الذي سجله القرآن الكريم: ﴿وَلَمَّا بَرَزُوا لِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ قَالُوا رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ ﴿٢٥٠﴾﴾.

فماذا كانت النتيجة؟ ﴿فَهَزَمُوهُمْ بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ [البقرة: ٢٥٠، ٢٥١].

وذكرُ الله تعالى بقلب خالص عند لقاء العدو اتصال بالقوة التي لا تغلب، وتقدير لألوهية الله في أرضه، وثقة بالله في نصر أوليائه.

وشدة البأس من مواطن إجابة الدعاء كما في حديث سهل بن سعد ؓ أن رسول الله ﷺ قال: «ثنتان لا تُردان: الدعاء عند النداء، وعند البأس حين يلحم بعضهم بعضاً»^(١).

وفي الحديث: «اطلبوا إجابة الدعاء عند القتال، وإقامة الصلاة، ونزول الغيث»^(٢).

وقد رتب الله سبحانه الفوز والفلاح والنصر على العدو على الصبر والثبات والإكثار من ذكر الله تعالى فقال: ﴿لَعَلَّكُمْ تَفْلَحُونَ﴾.

العَامِلُ الثَّالِثُ: طَاعَةُ اللَّهِ وَالرَّسُولِ

٤٦- ﴿وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾

طاعة الله ورسوله هي العامل الأول والأخير في جميع الأحوال، وهي مطلوبة من المسلم كل طرفة عين، وهو يواجه العدو، وهو لا يواجه العدو، ولكنه حين يواجه عدوه تكون الطاعة أوجب.

فالتزموا أيها المؤمنون طاعة الله والرسول في جميع أحوالكم بقلوب نقية، ونفوس صافية، ولا تستووا مع عدوكم في المعاصي فيغلبكم بقوة السلاح.

(١) صححه الألباني في «صحيح سنن أبي داود» (٢٢١٥) وهو في أبي داود (٢٥٤٠) والحاكم (١٩٨) ويُنظر: «السلسلة الصحيحة» (١٤٦٩).

(٢) «تفسير ابن عطية» (٥٣٦/٢) والحديث بتحسين الألباني في السلسلة الصحيحة (١٤٦٩) ج ٣ ص ٤٥٣.

هذا عمر بن الخطاب رضوان الله تعالى عليه، وهو يوجّه الوصايا والنصائح إلى المسلمين الذين ذهبوا لقتال الفرس، يقول لهم: والله ما أخشى عليكم عدوكم بقدر ما أخشى عليكم تسلل المعاصي إليكم؛ فإنكم إذا استويتم مع عدوكم في المعصية، تغلب عليكم عدوكم بقوة السلاح، أي: إذا استويتنا مع عدونا في المعاصي والذنوب فإنه يغلبنا بقوة السلاح.

وهذه الطاعة لله والرسول تكون بفعل الأوامر وترك النواهي في الأقوال والأفعال، في السر والعلن.

أطيعوا ولاية الأمور، وقادة الجنود في غير معصية الله سبحانه، واتبعوا أحكام القتال المشروعة، ولا تخالفوا أمراء الجيوش، ولا تخرجوا عليهم ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِيَ الْأَمْرِ مِنْكُمْ فَإِنْ تَنَزَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا﴾ [النساء: ٥٩] فعند التنازع والاختلاف ترجعون إلى كتاب الله وإلى سنة رسول الله ﷺ وتُحكّمون شرع الله بينكم.

الْعَامِلُ الرَّابِعُ: وَحْدَةُ الصَّفِّ الْإِسْلَامِيِّ

﴿وَلَا^(١) تَنَزَعُوا فَنَفَّشُوا وَتَذَهَبَ رِيحُكُمْ﴾

أي: أن التنازع والفرقة سبب للفشل وذهاب القوة، والفشل: انحطاط القوة وعدم مغالبة العدو.

فاستمروا على ذكر الله وطاعته عند لقاء العدو، ولا تنازعوا تنازعًا يوجب تشتت القلوب وتفرقها، ولا تختلفوا ولا تختصموا، فإن ذلك يؤدي بكم إلى الفشل والضعف، وظهور عدوكم عليكم، وتفرق قوتكم، ورفع ما وعدكم الله به من النصر على عدوكم.

وعدم التنازع يقتضي: التفاهم والتشاور، وعدم الاستبداد بالرأي.

فالوحدة والاعتصام بحبل الله تعالى، وجمع كلمة المسلمين، ودفاعهم تحت لواء واحد، بُغْيَةٌ نشر الإسلام والدفاع عنه وعن أبنائه ومقدساته، هو سبيل النصر بعد طاعة الله والرسول ﴿وَأَعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا﴾ [آل عمران: ١٠٣].

(١) قرأ البزي بخلف عنه بتشديد التاء وصلًا مع المد المشبع لالتقاء الساكنين من (ولا تنازعوا)، والباقون بالتخفيف مع القصر، وهو الوجه الثاني للبزي.

هذا رجل بدوي حين أشرف على الموت، جمع أبناءه حوله وأراد أن يلقيهم درسًا في الوحدة وعدم التفرق والتشتت، فأمسك بحزمة من حطب وأعطاهما لكل واحد منهم، وطلب منه أن يكسرها، فما استطاع أحد منهم أن يكسرها وهي مجتمعة، ولم يقوَ أحدهم على ذلك، ثم أخذها عودًا عودًا وفرّقها، وأعطى الحزمة لأصغرهم سنًا، فكسرها ثم قال لأبنائه: هكذا ما دمت مجتمعين فالعدو لا ينال منكم شيئًا، وإذا تفرقتم وتنازعتم واختلفتم يكون الضعف والهزيمة، كما قال تعالى: ﴿حَتَّىٰ إِذَا فَشِلْتُمْ وَتَنَزَّعْتُمْ فِي الْأُمْرِ وَعَصَيْتُمْ مِّنْ بَعْدِ مَا أَرْسَلْنَاكُمْ مَّا تُحِبُّونَ﴾ [آل عمران: ١٥٢] وكان التنازع والعصيان سبب الهزيمة يوم أُحُد.

وهكذا شأن الأمة الإسلامية إذا اجتمعت على كلمة الله، وعلى الجهاد في سبيل الله، فإنه ليس بإمكان قوة في الأرض أن تغلبها.

وهذه الوحدة كانت محققة في الصدر الأول من الإسلام، أي: في الثلاثين عامًا التي أعقبت رسول الله ﷺ حيث كان المسلمون دولة واحدة في الأرض جميعًا، ففتحت البلاد، وحررت العباد، ونشرت الدعوة، فالحاكم واحد، والتوجيه واحد، ليس هناك اختلاف ولا تفرق، بل راية واحدة، وكلمة واحدة.

ويمكن أن يحصل مثل هذا في عصرنا، وليس بالضرورة أن تكون الدول الإسلامية كلها دولة واحدة، لاتساع رقعة الإسلام وكثرة أعداد المسلمين وتباعد ديارهم، على خلاف ما كانوا عليه في الصدر الأول، وإذا استحال هذا الأمر، فلا أقل من أن يكون هناك جيش إسلامي موحد يتحرر المسجد الأقصى على يديه بإذن الله تعالى، وعلى يديه بإذن الله ينتصر المسلمون لإخوانهم الضعفاء في مشارق الأرض ومغاربها.

لقد فتح المسلمون البلاد شرقًا وغربًا في الأعوام التي تلت رسول الله ﷺ فظهر دينه على سائر الأديان، وامتدت الممالك الإسلامية في مشارق الأرض ومغاربها، ودان لهم الفرس والروم والترك والحبشة والبربر والصقالبة وغيرها؛ لأن القيادة كانت واحدة، والتوجيه كان واحدًا، وكان هناك اعتصام وتمسك بحبل الله ﷻ.

ومنذ أن تفرقت الأمة الإسلامية، من الحكم العثماني إلى عصرنا، وقد عمل اليهود على هذا التفرق لصالحهم، وها هم يَجْتُونُ الثمرة، فقد تفرق المسلمون إلى دويلات،

وجماعات، ومن داخل الدويلات: أحزاب وفرق، فحصل الضعف والعجز، وهذا هو الذي يؤدي بالمسلمين إلى التهلكة، وهو ما يريده عدوهم.

فالمسلمون جميعًا يشكلون أكثر من ربع العالم، ولو أنهم ذهبوا بدون سلاح على أقدامهم إلى المسجد الأقصى ما استطاع العالم أن يقف في وجوههم أو أن يبيدهم جميعًا، وعدم القيام بمثل هذا سببه اختلاف الصف، وعدم الوحدة، وهذا معنى: ﴿وَلَا تَنَزَعُوا فَنَفْسُلُوا﴾ فالفرقة والتنازع سبب الفشل.

والله سبحانه يربط النتائج بالمقدمات، والأسباب بالمسيبات، والفشل مُرتَّب على التنازع. في يوم أُحُد لما اختلف بعض المسلمين، وعصوا رسول الله ﷺ فيما يتعلق بالغنائم وجمعها، وخالف الرماة أمر الرسول عليه الصلاة والسلام، كانت الهزيمة التي مُني بها المسلمون بعد الانتصار في غزوة بدر، فقد ذهبت ريحهم وتبددت طاقاتهم، وهذا معنى: ﴿وَنَذَهَبَ رِيحُكُمْ﴾ أي: تذهب قوتكم بسبب الخلاف والفرقة فتضعفوا.

الْعَامِلُ الْخَامِسُ: الصَّبْرُ فِي سَاحَةِ الْقِتَالِ

﴿وَأَصْبِرُوا إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾

فلا ثبات في مواجهة العدو إلا بالصبر، فهو صفة لا بد منها لخوض المعركة، فصبر الجندي في ساحة المعركة: صبر على طاعة الله، وصبر على أقدار الله، وصبر على تحمل المكاره، وصبر على ترك محارم الله، وصبر على الجهاد في سبيل الله ﴿يَتَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [آل عمران] والله سبحانه في معية الصابرين ﴿إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾ يمدهم بعونه ونصره ومده وتأييده، ولا يخذلهم، وهذا ضمان للصابرين بالفوز.

في غزوة بدر وقف النبي عليه الصلاة والسلام قائلاً لأصحابه: «والذي نفسي بيده لا يقاتلهم اليوم رجل فيقتل صابراً محتسباً مقبلاً غير مدبر إلا أدخله الله الجنة»^(١) فيسمع

(١) ينظر: التمهيد لابن عبد البر (٩٩/٢٢) وذكره ابن إسحاق في الغزوة، وانظر حديث أبي قتادة في صحيح مسلم (١٨٨٥) كتاب الإمامة.

الصحابة هذه البشرى من رسول الله ﷺ، وكان عُمَيْرُ بن الحمام يمسك بيده عددًا من التمرات يأكلها، وبقيت بقية، فيقول: والله لئن عشت حتى أكل هذه التمرات إنها لحياة طويلة. ويُلقي بالتمرّات من يده، ويقاتل العدو، فيسقط شهيدًا في ساحة القتال، صابرًا محتسبًا مقبلًا غير مدبر، فالإسلام لا يعرف الهزيمة، ولا يعرف إلا النصر أو الشهادة ﴿فَلْيُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يَشْرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا بِالْآخِرَةِ وَمَن يُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيُقْتَلْ أَوْ يَغْلِبْ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ [النساء].

العَامِلُ السَّادِسُ (الْأَخِيرُ): الْإِخْلَاصُ

٤٧- ﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ خَرَجُوا مِن دِيَارِهِم بِطَرًا وَرِثَاءَ النَّاسِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ وَاللَّهُ يَمَّا يَعْمَلُونَ مُخِيطٌ﴾ [٤٧]

والإخلاص شرط في الجهاد الإسلامي: بأن يكون القتال في سبيل الله، ليس عصبية ولا قبلية، ولا حمية، ولا شجاعة، ولا انتصارًا لحكم ما، ولا جريًا وراء مطامع الدنيا وحطامها، ولا رياء وذكرًا بين الناس، ولا طلبًا لعلو مرتبة، إنما يكون القتال في سبيل الله، بُغية إعلاء كلمة الله، ونشر دينه وردّ عدو الله، وهذا ما تشير إليه هذه الآية.

وقد كان خروج المشركين يوم بدر بطرًا ورياء الناس وصدًا عن سبيل الله، هذا شأن المشركين يوم بدر، حيث تحققت فيهم هذه الصفات الثلاث: فقد نجا أبو سفيان بالغير، وأبلغ قريشًا أنه لا حاجة للقتال، فقد نجونا بالغير والقافلة، ولكن أبا جهل وحزبه أصروا على القتال، وقدموا من مكة ومعهم المغنيات والخمور، والطبول والمعازف والدفوف والنساء، وقالوا: والله لا نرجع حتى نصل بدرًا، فنقيم فيها ثلاثة أيام، ننحر الجزور، ونشرب الخمور، وتعزف القيان، حتى يسمع بنا العرب فيها بونا أبدًا.

ولذلك فإن النبي ﷺ دعا ربه قائلاً: «اللهم إن قريشًا قد أقبلت بفخرها وخيلائها تجادلك وتكذب رسولك اللهم فاخنها الغداة» أي: اهزمها، فحذرنا الله تعالى أن نكون مثلهم في البطر والأشر والفخر والكبرياء؛ حتى لا يكون مصيرنا مثل ما أصابهم من الذل والانكسار والهزيمة.

أي: فلا تكونوا مثل المشركين الذين خرجوا من بلدكم كبرياء ورياء؛ ليمنعوا الناس

من الدخول في دين الله، والمراد بالذين خرجوا من ديارهم بطراً: هم قريش، حين خرجوا من مكة بالقيان والمغنيات والمعازف لملاقاة العير والحفاظ عليها.

فلما وصلوا الجُحفة، بعث (خفاف الكناني) بهدايا إلى صديقه أبي جهل مع ابن له، فلما أتاه قال: إن أبي يُنعمك صباحاً، ويقول لك: إن شئت أن أمدّك بالرجال أمدّتك، وإن شئت أن أزحف إليك بمن معي من قرابتي فعلت، فقال أبو جهل: قل لأبيك: جزاك الله والرحم خيراً، إن كنا نقاتل الله كما يزعم محمد، فوالله ما لنا بالله طاقة، وإن كنا إنما نقاتل الناس، فوالله إن بنا على الناس لِقُوَّة، والله ما نرجع عن قتال محمد حتى نَرِدَ بدرًا، فنشرب فيها الخمر، ونعزف فيها القيان؛ فإن بدرًا موسم من مواسم العرب، وسوقًا من أسواقهم، وحتى تسمع العرب بمخرجنا، فتهابنا أبد الدهر.

قال المفسرون: فَوَرَدُوا بدرًا، وشربوا كؤوس المنايا مكان الخمر، وناحت عليهم النوائح مكان القيان^(١).

فكونوا - أيها المؤمنون - ثابتين عند لقاء الأعداء، مكثرين من ذكر الله وطاعته، وكونوا صابرين في كل المواطن، واحذروا أن تشبهوا بكل أشير بَطِر، مغرور متغطرس، صاّد للناس عن دين الله.

والله تعالى محيط بشؤون خلقه، لا يغيب عنه شيء، ولا يفوته شيء، ولا تعجزه قوة، وقد أخبركم بمقاصدهم، وحذركم أن تشبهوا بهم، فليكن قصدكم من خروجكم وجه الله تعالى وإعلاء كلمته، وهو سبحانه يجازي كلًّا بعمله، والنفاق هو إظهار الإيمان وإبطان الكفر، أما الرياء فهو: إظهار الطاعة وإبطان المعصية.

الْغُرُورُ وَضَعْفُ الْإِيمَانِ مِنْ عَوَامِلِ الْهَزِيمَةِ

٤٨- ﴿وَإِذْ^(٢) زَيْنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَلَهُمْ وَقَالَ لَا غَالِبَ لَكُمْ الْيَوْمَ مِنَ النَّاسِ^(٣) وَإِنِّي

(١) «تفسير الفخر الرازي» (١٧٢/٥).

(٢) أدغم الذال في الزاي من (وإذ زين) أبو عمرو وهشام وخلاّد والكسائي، وقرأ بقية القراء بالإظهار.

(٣) قرأ الدوري عن أبي عمرو بالفتح والإمالة في لفظ (الناس)، والباقون بالفتح.

جَارٌ لَّكُمْ فَلَمَّا تَرَأَتْهُ الْفُتَاتَانِ نَكَصَ عَلَى عَقَبَيْهِ وَقَالَ إِنِّي بَرِيءٌ^(١) مِّنْكُمْ إِنِّي أَرَىٰ مَا لَا تَرَوْنَ إِنِّي^(٢) أَخَافُ اللَّهَ وَاللَّهُ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴿٤٨﴾

تشير هذه الآية إلى تمتة وصف حال المشركين حين خرجوا لقتال المسلمين، فتذكر سبباً من أسباب نصر المسلمين وخذلان المشركين، وهو إغواء الشيطان لهم بالنصر، ثم تبرؤهم لما انتصر المسلمون عليهم.

فاذكروا - أيها المؤمنون - حين حسن الشيطان للمشركين ما جاؤوا له، وما هموا به من قتال النبي ﷺ وأصحابه، وقال لهم: لن يغلبكم أحد اليوم، وإني ناصركم، فلما تقابل الفريقان: المشركون ومعهم الشيطان، والمسلمون ومعهم الملائكة، رجع الشيطان مدبراً وتبرأ من المشركين وقال: إني أرى ما لا ترون من الملائكة، إني أخاف الله، فخذلهم وتبرأ منهم.

والشيطان يزئ إلى أعداء الله ما هم فيه من عمل سيئ، فيحببهم فيه ويمنيهم ويغريهم، بأنهم سوف يتصرون على المسلمين، حتى تطمئن نفوسهم ويقدموا على لقاء عدوهم، ثم يتبرأ منهم.

وقد جاء في الأثر: إن الشيطان ما رؤي في يوم هو أصغر ولا أحقر ولا أذحر ولا أغيظ منه في يوم عرفة، إلا ما رؤي يوم بدر، من تنزل الملائكة والنصر للمسلمين^(٣).

الشيطان في صورة سراقه ينصح المشركين

وقد جاءت آثار^(٤) تفيد أن الشيطان قد تمثل لقريش في صورة سراقه بن مالك، سيد

(١) قرأ أبو جعفر بإبدال الهمزة ياء، وإدغام الياء في الياء التي قبلها وصلاً ووقفاً من (بري)، ولحمزة عند الوقف الإدغام مع السكون المحض والرؤم والإشمام.

(٢) قرأ نافع وابن كثير وأبو عمرو وأبو جعفر بفتح ياء الإضافة وصلاً من كلمتي (إني أرى) و (إني أخاف)، والباقون بإسكانها.

(٣) وهو خبر مرسل عن طلحة بن عبد الله بن كرز، أخرجه مالك في «الموطأ» (٤٢٢/١) وفيه عبد الملك بن عبد العزيز بن الماجشون وهو ضعيف، وانظر كلام ابن عبد البر عنه في: التمهيد (١١٥/١).

(٤) عن ابن عباس وقتادة وعروة بن الزبير والحسن ومحمد بن كعب القرظي، والسدي والضحاك والحسن البصري وغيرهم.

بني مدلج من قبيلة كنانة، وقال لقريش: أنا جاركم، وناصح لكم، فلا تخافوا فإني مجيركم من بني كنانة، وكان بين قريش وبين قبيلة كنانة حروب وعداوة، فقال لهم: إني مجيركم من كنانة، فكان هذا من أسباب عزم قريش على الخروج للقتال، ولما أوردتهم الموارد نكص على عقبيه وتبرأ منهم:

ومن ذلك ما أخرجه الطبري بسند حسن إلى ابن عباس رضي الله عنه: أنه لما انهزم المشركون يوم بدر، حين رمى رسول الله ﷺ بقبضة من التراب في وجوه الكفار، أقبل جبريل عليه السلام إلى إبليس، فلما رآه إبليس وكانت يده في يد رجل من المشركين انتزع يده، ثم ولّى مدبراً، فقال له الرجل: يا سراقا، تزعم أنك لنا جار؟ فقال: ﴿إِنِّي أَرَى مَا لَا تَرَوْنَ﴾ ثم ذهب حين رأى الملائكة ^(١).

وقد أسلم سراقا يوم فتح مكة، وكان الشيطان قد وسوس إلى سراقا أن يأتي في جيش من قومه لنصرة المشركين، فألقى الله في روع سراقا من الخوف ما جعله يتراجع وينخذل هو ومن معه.

وفي رواية محمد بن إسحاق عن الكلبي عن أبي صالح: أن إبليس خرج مع قريش في صورة سراقا بن مالك بن جُعشم، فلما حضر القتال، ورأى الملائكة نكص على عقبيه، وقال: ﴿إِنِّي بَرِيءٌ مِّنْكُمْ﴾ فتشبث به الحارث بن هشام أخي أبي جهل، ففخر في وجهه، ودفعه في صدره، فخر صعقاً، فقيل له: ويلك يا سراقا، على هذه الحال تخذلنا وتبرأ منا؟! فقال: ﴿إِنِّي أَرَى مَا لَا تَرَوْنَ﴾ وكان النبي ﷺ قد أغفى ساعة، بشره الله فيها بإمداده له بالملائكة، وخذلان الشيطان وأعدائه.

وكان الشيطان قد جاء في صورة سراقا يوم بدر في جند من الشياطين معه.

ولما نزلت الملائكة ورآها إبليس، أوحى الله إليهم: ﴿إِنِّي مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ فكان الملك يأتي إلى أحدهم في صورة رجل يعرفه، ويقول له: أبشر، فإنهم ليسوا بشيء والله معكم، فلما رآهم إبليس وهو في صورة سراقا فرّ هارباً، فأقبل أبو جهل

(١) يُنظَر: «تفسير الطبري» للآية و«تفسير ابن عطية» (٥٣٩/٢) وانظر: «المغازي» للواقدي (٧٠/١) و«المعجم الكبير» للطبراني (٤٢/٥) وابن أبي حاتم (١٧١٥/٥) والبيهقي (٧٨/٣).

على أصحابه يحضهم ويقول لهم: لا يهولنكم خذلان سراقة لكم، فإنه كان على موعد مع محمد وأصحابه، ثم قال: واللات والعزى، لا نرجع حتى نقرن محمدًا وأصحابه في الجبال، فلا تقتلوهم وخذوهم أخذًا^(١).

وهكذا زَيَّنَ الشيطان للمشركين أعمالهم في ملاقات المسلمين ﴿وَقَالَ﴾ لهم لن يغلبكم أحد ﴿لَا غَالِبَ لَكُمْ الْيَوْمَ مِنَ النَّاسِ﴾ وسوف تنتصرون على المسلمين ﴿وَإِنِّي جَارٌ لَّكُمْ﴾ معينكم ضد عدوكم، ومجير لكم إن أطمعتموني وخرجتم لقتالهم ﴿فَلَمَّا تَرَأَتِ الْفِئَتَانِ﴾ أي: التقى الجمعان: المسلمون ومعهم الملائكة، والكفار ومعهم الشيطان ﴿نَكَصَ عَلَى عَقَبَيْهِ﴾ أي: رجع الشيطان وفر هاربًا، وكان قد وضع يده في يد الحارث بن هشام، وهو في صورة سراقة، فسلَّ يده منها وانصرف مدبرًا، فسأله: لماذا؟ أفرارًا من المعركة؟ فلم يُردَّ عليه، ووقعت المعركة وانتصر المسلمون عليهم، وعندئذ قال الشيطان: ﴿إِنِّي بَرِيءٌ مِّنْكُمْ﴾ وقد رجعت عما ضَمِنْتُهُ لكم من الأمان والنصر ﴿إِنِّي أَرَى مَا لَا تَرَوْنَ﴾ من الملائكة، وهي تنزل بنصر الله على المؤمنين، ولا قبل لأحد بقتال الملائكة.

وحين رأى الشيطان جبريل والملائكة فرَّ هاربًا، وقال: ﴿إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ﴾ أي: أخاف عقوبته ﴿وَاللَّهُ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ لمن عصاه، ولم يتب توبة نصوحًا وهو كاذب فيما قال، ولما بلغ هذا الخبر سراقة، قال: والله ما علمتُ بخبركم، ولا رأيتمكم إلا حين جاءني خبر هزيمتكم.

قال الحسن: رأى إبليس جبريل يقود فرسه بين يدي النبي ﷺ وهو معتجِرٌ بِرُدة، وفي يده اللجام^(٢).

وهكذا ألقى الشيطان في نفوس المشركين أنهم سيُنصرون على المسلمين، وخيَّلَ لهم أنهم لن يُغلبوا لكثرة عددهم وعدتهم، وأوهمهم أنه مجير لهم وحافظهم من السوء، وأن النصر سيكون لهم عند لقاءهم بعدوهم.

وهذه الآثار وغيرها يُستأنس بها في حمل الآية على ظاهرها، وأن الشيطان قد زَيَّنَ للمشركين لقاءهم بالمسلمين في صورة حسية وأنه تمثل لهم في صورة إنسان، وقال لهم

(١) يُنْظَرُ «تفسير الطبري» و«تفسير ابن كثير» للآية.

(٢) «تفسير ابن عطية» (٢/٥٣٩).

ما ذكرته الآية^(١).

فالحاصل أن الشيطان قد غرَّهم وخدعهم حتى أوردتهم المهالك، ثم تبرأ منهم، وهذا شأن الشيطان مع الإنسان، كما قال تعالى: ﴿كَثَّلَ الشَّيْطَانُ إِذْ قَالَ لِلْإِنْسَانِ اكْفُرْ فَلَمَّا كَفَرَ قَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِنْكَ﴾ [الحشر: ١٦].

وكما قال سبحانه: ﴿يَعِدُّهُمْ وَيُمَنِّيهِمْ وَمَا يَعِدُّهُمْ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُورًا﴾ [النساء: ١٢٠].

وكما حكى الله تعالى قول الشيطان في خطبته البتراء: ﴿إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ وَوَعَدْتُكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ وَمَا كَانَ لِي عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ إِلَّا أَنْ دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي فَلَا تُلْهُمُونِي وَلَوْ مَوْأَى أَنْفُسِكُمْ﴾ [إبراهيم: ٢٢].

ونحن نؤمن بما نطق به القرآن، من أن الشيطان قد زَيَّن للمشركين أعمالهم، ولكننا لا نعلم الكيفية التي زين لهم بها؛ لأن الشيطان من الأمور الغيبية.

والذي عليه جمهور المفسرين أن الشيطان قد تمثل في هذه الموقعة بصورة سراقه بن مالك، وأن هذا التزيين كان حسيًّا في صورة إنسان، كما نطقت بذلك الآثار التي أشرنا إليها.

قلت: ولهذه الآثار شاهد آخر، هو تمثُّل الشيطان في صورة شيخ نجدي ليلة التأمُر على قتل النبي ﷺ في دار الندوة في حادث الهجرة النبوية.

ومن المعلوم شرعًا أن الملائكة تتمثل في صورة رجال، وأن الجن والشياطين يتمثلون في صورة مخلوقات عدة، والله أعلم.

وبعد ذكر موقف الشيطان يأتي ذكر موقف المنافقين ومرضى القلوب من المسلمين في غزوة بدر، فيقول تعالى:

٤٩- ﴿إِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ^(٢) غَرَّ هَؤُلَاءِ دِينُهُمْ وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَإِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [٤٩]

(١) وقد استبعد بعض المفسرين أن الشيطان قد تمثل لهم في صورة إنسان، وقالوا: إن تزيين الشيطان كان وسوسة، ومنهم أصحاب المدرسة العقلية كصاحب «تفسير المنار».

(٢) أخفى التنوين في الغين مع الغنة أبو جعفر من كلمة (مرض غير) حال الوصل، وقرأ الباكون بالإظهار.

وبعد أن ذكر سبحانه العدو الرئيس للمسلمين وهم المشركون، ذكر في هذه الآية صنفين من أعداء الإسلام، وهما: المنافقون، الذين لم يتمكن الإيمان من قلوبهم، والذين في قلوبهم مرض.

وذلك أنه بينما كان الشيطان يخدع المشركين الذين خرجوا من ديارهم بطراً ورتاء الناس؛ ليشجعهم على الخروج، ثم يتركهم إلى مصيرهم البائس، كان المنافقون يظنون الظنون بالمؤمنين الذين يواجهون جحافل المشركين، وهم قليلو العدد، ضعيفو العدد وقد كشف الله سترهم وفضح حالهم في هذه الآية.

فاذكروا - أيها المؤمنون - حين يقول أهل الشك والنفاق، ومرضى القلوب، وهم قوم من أهل المدينة، وبعض من أسلم حديثاً من أهل مكة، ولم يدخل الإيمان في قلبه، وكان ذلك لما اقترب المسلمون والمشركون بعضهم من بعض يوم بدر، وقلل الله المسلمين في أعين المشركين، وقلل المشركين في أعين المسلمين، فقال المشركون وهم يشيرون إلى المسلمين: غرّ هؤلاء المسلمين دينهم وأدخلوا أنفسهم فيما لا طاقة لهم به، فأوردتهم الموارد حيث أقدموا على قتال قوم يفوقونهم في العدد والعدة.

أخرج ابن أبي حاتم بسند حسن من طريق علي بن أبي طلحة عن ابن عباس رضي الله عنه قال: لما دنا القوم بعضهم من بعض، قلل الله المسلمين في أعين المشركين، وقلل المشركين في أعين المسلمين، فقال المشركون: غرّ هؤلاء دينهم، أي أن الدين الذي هم عليه أوردتهم المهالك، وإنما قالوا ذلك من قتلهم في أعينهم، وظنوا أنهم سيهزمونهم لا يشكون في ذلك.

فالأية تشير إلى أن قوماً من المنافقين خرجوا مع المسلمين إلى بدر مثل قيس بن الوليد بن المغيرة وأبو القيس بن الفاكه، والحارث بن زمة، وعلي بن أمية بن خلف، والعاص بن أمية، وعتبة بن ربيعة، فلما رأوا قلة عدد المسلمين قالوا هذه المقالة^(١).

أما الذين في قلوبهم مرض، أي شك وشبهة، فهم ضعفاء الإيمان ممن أسلم حديثاً.

(١) «تفسير ابن عطية» (٥٣٩/٢) و«تفسير ابن كثير» (٧٦/٤) عن الشعبي ومجاهد عند ابن إسحاق وابن أبي حاتم (١٧١٦/٥).

وهذان الصنفان اللذان تحدثت عنهما الآية، هم جماعة من المنافقين من أهل المدينة، وجماعة ممن أسلم حديثاً من أهل مكة ولم يهاجر، ولم يشهد بدرًا مع المسلمين، فسُموا منافقين وفي قلوبهم مرض؛ لأنهم قالوا فيمن شهد بدرًا من المسلمين: إنهم قوم اغتروا بإسلامهم فأوقعوا الضر بأنفسهم، وهم يتوهمون النفع لهم، ومعلوم أن ذلك كان قبل أن تظهر نتيجة المعركة، ولهؤلاء المنافقين نظائر كثيرة في عصرنا، وفي كل زمان ومكان، ممن تبدو البغضاء من أفواههم وما تخفي صدورهم أكبر.

ثم بيّن سبحانه أن الله قد خيب ظنونهم وأن هؤلاء المشركين لم يدركوا أن من يعتمد على الله ويثق بوعده، فإن الله لن يخذله؛ لأنه سبحانه عزيز لا يعجزه شيء، حكيم في صنعه وتدبيره، وقد توكل المسلمون على الله فأعزهم ونصرهم على عدوهم.

وَصَفُ حَالِ الْكَافِرِ عِنْدَ خُرُوجِ الرُّوحِ

٥٠ - ﴿وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ يَتَوَفَّى^(١) الَّذِينَ كَفَرُوا الْمَلَائِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَارَهُمْ وَذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ﴾

هذه الآية تتضمن التعجب مما حل بالكفار يوم بدر وقد أشد بهم القلق وعظم الكرب عند قبض أرواحهم، وهو وصف عام يتناول جميع الكفار إلى يوم القيامة؛ ليعلم المؤمنون ويرتدع الكافرون، ويعتبروا بما حدث لغيرهم فيؤمنوا، ويقلعوا عما هم فيه من الكفر. يقول سبحانه مبيّنًا حال الكفار حين تقبض الملائكة أرواحهم عند الموت سيما في يوم بدر حين قتلهم المسلمون، إنك لو عاينت ذلك وشاهدته - أيها الرسول - لرأيت أمرًا عظيمًا، ومنظرًا فظيعةً تقشعر منه الأبدان، ورأيت عذابًا شديدًا ينالهم عند قبض أرواحهم، والملائكة يضربون وجوههم وأدبارهم، وقد يكون المراد: ضرب جميع الجسد من الأمام والخلف، كما قال تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَىٰ إِذِ الظَّالِمُونَ فِي غَمَرَاتِ الْمَوْتِ وَالْمَلَائِكَةُ بَاسِطُوا أَيْدِيَهُمْ أَخْرِجُوا أَنفُسَكُمُ الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ بِمَا كُنْتُمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ وَكُنْتُمْ عَنْ آيَاتِهِ تَسْتَكْبِرُونَ﴾ [الأنعام: ٩٣].

(١) قرأ ابن عامر بناء التأنيث في (إذ تتوفى)، والباقون بالياء على التذكير، وجاز تأنيث الفعل وتذكيره؛ لكون الفاعل مؤنثًا تأنيثًا مجازيًا.

فالملائكة تُبَسِّطُ أيديهم إلى الكافرين بالضرب عند الموت، وتُخْرِجُ أرواحهم من أجسادهم قهراً، ويبشرونهم بعذاب الله وغضبه، ويقولون لهم: أخرجوا أنفسكم، ونفوسهم ممتنعة مستعصية على الخروج لما ترى أمامها من سوء المصير:

كما جاء في حديث أبي هريرة رضي الله عنه أن ملك الموت يأتي للكافر عند الاحتضار للموت في صورة منكرة، فيقول: اخرجي أيتها النفس الخبيثة، إلى سَمُومٍ وحميم، وظل من يحموم، فيخرجونها من جسده كما يخرج السَّفُود من الصوف المبلول^(١).

فتتزع ملائكة العذاب أرواح الكفار انتزاعاً، وهم يضربون وجوههم حال إقبالهم، ويضربون أذبارهم حال فرارهم، جزاء وفاقاً؛ لبطرهم وكبرياتهم، وجزاء موافقاً لما قدموه في الدنيا وما عملوه، تقول لهم الملائكة: ﴿وَذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ﴾ ذوقوا العذاب الشديد المحرق كما قال تعالى: ﴿فَكَيْفَ إِذَا تَوَفَّتْهُمُ الْمَلَائِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَارَهُمْ﴾ [محمد].

وفي وصف عذابهم يوم لقاء الله يقول تعالى: ﴿فَالَّذِينَ كَفَرُوا قُطِعَتْ لَهُمْ ثِيَابٌ مِّن نَّارٍ يُصَبُّ مِن فَوْقِ رُءُوسِهِمُ الْحَمِيمُ﴾ ١٦ يُصْهَرُ بِهِ مَا فِي بُطُونِهِمْ وَالْجُلُودُ ١٧ وَلَهُمْ مَقْمِعٌ مِّنْ حَدِيدٍ ١٨ كُلَّمَا أَرَادُوا أَن يَخْرُجُوا مِنْهَا مِنْ غَمٍّ أُعِيدُوا فِيهَا وَذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ ١٩ [الحج] قوله سبحانه:

وقال تعالى: ﴿قُلْ تَمَتَّعُوا فَإِنَّ مَصِيرَكُمْ إِلَى النَّارِ﴾ [إبراهيم: ٣٠].

وقال: ﴿وَتَرَى الْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ مُّقَرَّنِينَ فِي الْأَصْفَادِ ٢٠ سَرَابِيلُهُمْ مِّن قَطَرَانٍ ٢١ وَجُوهُهُمُ النَّارُ ٢٢﴾ [إبراهيم: ٤٩ و ٥٠].

٥١- ﴿ذَلِكَ بِمَا قَدَّمْتُمْ أَيْدِيكُمْ وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ﴾ ١٨٦

أي وهذا العذاب الذي أصاب الكفار يوم بدر عند خروج أرواحهم، ويصيب كل كافر إنما هو بسبب أعمالهم السيئة، وما كسبته أيديهم من الكفر والمعاصي ﴿ذَلِكَ بِمَا قَدَّمْتُمْ أَيْدِيكُمْ﴾ فالله سبحانه لا يعذب أحداً إلا بجرم اقترفه، ولا يظلم مثقال ذرة، بل هو الحكم العدل ﴿وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ﴾ فلا ظلم ولا جور، وإنما هو بما قدمت أيديهم من المعاصي، مع أنهم في ملكه وتحت قدرته، يتصرف فيهم كيف يشاء.

(١) يُنْظَرُ الحديث بطوله في: «المسند» (٢٨٧/٤) برقم (٨٧٦٩، ٢٥٠٩٠) وإسناده صحيح على شرط الشيخين، (محققوه) وأخرجه ابن ماجه (٤٢٦٢، ٤٢٦٨) والنسائي في الكبرى (١١٤٤٢) وبنحوه مختصراً في صحيح مسلم (٢٨٧٢).

وهو سبحانه القائل في الحديث القدسي من حديث أبي ذر رضي الله عنه: «يا عبادي: إني حرمت الظلم على نفسي وجعلته بينكم محرماً فلا تظالموا، يا عبادي: إنما هي أعمالكم أحصيها لكم ثم أوفيكم إياها، فمن وجد خيراً فليحمد الله، ومن وجد غير ذلك فلا يلومنَّ إلا نفسه»^(١).

هذا: وهلاك المكذبين بذنوبهم سنة جارية في الأولين والآخرين، ومنهم آل فرعون، ومن تقدّمهم من الأمم كما جاء ذكره في الآية التالية:

سُنَّةُ اللَّهِ فِي عِقَابِ الْكَافِرِينَ لَا تَتَغَيَّرُ

٥٢- ﴿كَذَّابٍ ءَالِ فِرْعَوْنَ ۖ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴿٥٢﴾﴾

وسنة الله في عباده لا تتخلف، والقاعدة مضطردة لا تتبدل، وإن اعترتها بعض الدروس والعبر على مدى التاريخ الطويل في بعض أحقابها، فإن هذا لا يغير من المصير المحتوم لأعداء الله الذي جرت به سنة الله في الكون، كما حدث للأمم السابقة.

﴿كَذَّابٍ ءَالِ فِرْعَوْنَ﴾ أي: أن شأن الكفار في أمة محمد صلى الله عليه وسلم، وعادتهم كعادة الكفار في الأمم السابقة قبلهم، فهم مثل: قوم ثمود، وقوم لوط، وقوم شعيب، وقوم نوح، وفرعون وقومه، فما أصاب الكفار في يوم بدر من القتل والأسر، هو عقاب الله للطغاة في كل زمان ومكان، عندما يكذبون رسل الله ويجحدون آياته.

وكذا كل من يوجد على وجه الأرض، ولم يؤمن برسالة محمد صلى الله عليه وسلم فهو جدير بعقاب الله تعالى إن عاجلاً أو آجلاً، كما لحق بالأمم السابقة، وخص فرعون بالذكر؛ لأنه كان أشد الطغاة طغياناً، وآله: هم أعوانه وبطانته الذين زينوا له سوء، وحرصوه على البطش بموسى عليه السلام ﴿وَقَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِ فِرْعَوْنَ أَنْذَرُ مُوسَى وَقَوْمَهُ لِيُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَيَذَرَكَ وَالْهَتَكَ﴾ [الأعراف: ١٢٧].

وقد وصف الله قوم فرعون بتفاهة العقل، وهوان الشخصية ﴿فَاسْتَخَفَّ قَوْمَهُ فَطَاعُوهُ﴾ [الزخرف: ٥٤] وقد عاقب الله فرعون وغيره بما يستحق ﴿فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذُنْبِهِ فَمِنْهُمْ مَنْ أَرْسَلْنَا

(١) مسلم (١٩٩٤/٤) برقم (٢٥٧٧).

عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُمْ مَّنْ أَخَذَتْهُ الصَّيْحَةُ وَمِنْهُمْ مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ الْأَرْضَ وَمِنْهُمْ مَّنْ أَغْرَقْنَا وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُظْلِمَهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٥٢﴾ [العنكبوت] وما أصابهم كان بسبب ذنوبهم، والله تعالى قوي لا يقهر، شديد العقاب لمن عصاه ولم يتب.

وهو سبحانه يعطينا العبرة، ويبيِّن لنا أن ما لحق بهم من جزاء عادل، بسبب ما قدمته أيديهم، فاحذروا أن تكونوا مثلهم.

وأنتم -أيها المخاطبون بهذه الآيات- مثل غيركم من الأمم السابقة التي كذبت وكفرت بآيات الله سبحانه.

ومثل هذه الآية قوله تعالى: ﴿كَذَّابٌ ءَالِ فِرْعَوْنَ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَآخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ وَاللَّهُ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴿١١﴾﴾ [آل عمران]

والفرق بين الآيتين من ثلاثة وجوه:

الأول: ﴿كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ﴾ هنا، وفي آل عمران ﴿كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا﴾.

الثاني: ﴿إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ هنا، وفي آل عمران ﴿وَاللَّهُ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾.

الثالث: زيادة لفظ ﴿قَوِيٌّ﴾ هنا عن موضع آل عمران.

وقد بدأت هذه الآية بالكفر؛ لأنه الأفظع، وكان قوم فرعون مشاركين له في الكفر، أما هناك فقد بدأت الآية بتكذيب الآيات الدالة على صدق الرسول ﷺ من المكذبين لخاتم الرسل، وقوم فرعون شاركوهم في هذا التكذيب.

أما التأكيد هنا بحرف ﴿إِنَّ﴾ فلأن المقصود هو التعريض بالمشركين، وهم ينكرون قوة الله عليهم، وأنه شديد العقاب، فلزم التأكيد هنا، أما في آل عمران فالمقصود مجرد الإخبار بأن الله شديد العقاب إذا عاقب، فلم يحتاج إلى تأكيد.

وزيد لفظ ﴿قَوِيٌّ﴾ هنا للمبالغة في تهديد المشركين المقصودين بالإنذار وهذا المعنى ليس مطلوباً في موضع آل عمران.

النِّعْمُ تَتَحَوَّلُ إِلَى نِقَمٍ بِسَبَبِ كَثْرَةِ الذُّنُوبِ

٥٣- ﴿ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَى قَوْمٍ حَتَّى يُفْزِرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ وَأَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾

أي وهذا العذاب الذي أنزله الله بالألم المكدبة، وترتب عليه إزالة ما هم فيه من نعم، إنما هو بسبب ذنوبهم وتغيير أحوالهم،

وهكذا: يخبر سبحانه أنه إذا أنعم على قوم نعمة فإنه لا يغير هذه النعمة بل يُقيها ويزيدهم منها إن ازدادوا لها شكرا حتى يتغير حال أهلها من الأحسن إلى الأسوأ، ومن الطاعة إلى المعصية، فإذا كفروا وعصوا ربهم، انتقم الله منهم، وعاقبهم عليها، فسلبهم إياها، وبغيرها عليهم كما غيروا ما بأنفسهم، وهذه سنة الله في خلقه، فإنه سبحانه لا يسلب قوما نعمة أعطاها لهم؛ كالأمن، والرخاء، والعافية، وغير ذلك إلا بسبب تردّيهم، وانقلاب أوضاعهم، وتغيير أحوالهم من الطيب إلى الأسوأ، فإذا هم رجّعوا إلى ربهم أمدّهم الله بعون منه، ونصرٍ مِنْ عنده، والمتأمل في أحوال الأمم يجد صدق ذلك.

فبنو إسرائيل مثلاً كانوا في ﴿حَتَّتِ وَعْيُونُ ٢٥﴾ وَزُرُوعٍ وَمَقَارٍ كَرِيمٍ ﴿٢٦﴾ وَنِعْمَةٍ كَانُوا فِيهَا فَنَكَيْنَ ﴿٢٧﴾ [الدخان] فلما كفروا بالله، ولم يصدقوا رسول الله، سلّبهم الله هذه النعم، وأورثها قوماً آخرين، وعلى هذا فقوم موسى المشار إليهم في الآية كانوا في نعمة، فحوّلها الله إلى نقمة، لما كفروا بموسى ﷺ.

وأهل مكة الذين ﴿أَطْعَمَهُمْ مِنْ جُوعٍ وَأَمَّنَهُمْ مِنْ خَوْفٍ﴾ [قريش: ٤] بعد أن كانوا في أمن وطمأنينة، يأتيتهم رزقهم رغداً من كل مكان، ولما قابلوا هذه النعم بالجحود وعدم الشكر، فغيّروا ما بأنفسهم، وكذبوا رسول الله محمداً ﷺ سلّب الله منهم هذه النعم، وعاقبهم على تكذيبهم فأذاقهم ﴿لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ﴾ [النحل: ١١٢].

قال السُّدِّي: أنعم الله على أهل مكة بمحمد ﷺ فكفروا به، فحوّل الله هذه النعمة إلى الأنصار، والمراد: إقامته ﷺ بينهم، وإلا فالرسالة عامة.

وبنو إسرائيل كلما علّوا وطغّوا وبغّوا سلط الله عليهم عبداً له أولي بأس شديد؛ ليسوؤوا وجوههم، ويزيقوهم ألوان العذاب.

وحين يغيّر المسلمون حالهم إلى أحسن، فيشتد اتصالهم بالله تعالى، ويخلصون الولاء

له وحده، ويقىمون شرعه في أرضه، ويعتصمون بحبل الله جميعاً، فإن الله تعالى سينصرهم على الصهاينة والصليبيين وسائر الملل والنحل.

ومثل هذه الآية قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ وَإِذَا أَرَادَ اللَّهُ بِقَوْمٍ سُوءًا فَلَا مَرَدَّ لَهُ وَمَا لَهُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَالٍ﴾ [الرعد: ١١]

وهكذا كل من بدل نعمة الله كفراً ﴿يُضَاعَفْ﴾ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ بَدَلُوا نِعْمَتَ اللَّهِ كُفْرًا وَأَحَلُّوا قَوْمَهُمْ دَارَ الْبَوَارِ ﴿يَا﴾ جَهَنَّمَ يَصَلُّونَهَا وَيُسَكِّتُونَ الْقُرْآنَ ﴿يَا﴾ [إبراهيم].

وقد بين الله سبحانه أن ما حلّ بالأمم المكذبة لرسول الله من العذاب إنما كان بسبب تغير أحوالهم إلى ما هو أسوأ، وأن الله تعالى عادل في حكمه، لا يعاقب إلا بذنب، كما قال تعالى: ﴿وَمَا أَصَابَكُمْ مِنْ مُصِيبَةٍ فِيمَا كُنْتُمْ آيْدِكُمْ﴾ [الشورى: ٣٠]

وقال سبحانه: ﴿وَمَا أَصَابَكُمْ مِنْ سَيْتَةٍ فَمِنْ نَفْسِكُمْ﴾ [النساء: ٧٩]

وقال جل شأنه: ﴿ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُمْ بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ [الروم].

والآية عامة في كل قوم أنعم الله عليهم بنعمة فتسببوا لأنفسهم في زوال هذه النعمة كما قال تعالى: ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَرْنٍ بَطِرَتْ مَعِيشَتُهُمْ فَبَلَغْتَ لَنَا مَسْجِدَهُمْ لَمْ تَكُنْ مِنْ بَعْدِهِمْ إِلَّا قَلِيلًا وَكُنَّا نَحْنُ الْوَارِثِينَ﴾ [القصص: ٥٨]

وقال ﴿فَكَانَ مِنْ قَرْنٍ أَهْلَكَ نَارَهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ فِيهَا خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا وَبِئْسَ مُعْتَمِلَةٌ وَفَصْرٍ مَشِيدٍ﴾ [الحج: ١٩]

وقال ﴿وَكَانَ مِنْ قَرْنٍ أَمْلَيْتُ لَهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ ثُمَّ أَخَذْتُهَا وَإِلَى الْمَصِيرِ﴾ [الحج: ١٩]

وقال ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ الْقُرَى بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ﴾ [هود: ١٧]

فإذا أراد الله إصلاح قوم أرسل إليهم من يهديهم فإذا اهدوا، استمرت عليهم النعم، وإذا كفروا وبطروا النعمة غير الله ما بهم من النعم إلى النقم، وهكذا إذا تركوا العبادة والشكر وبدلوا بالفسق والكفر ﴿وَمَا ظَلَمَهُمُ اللَّهُ وَلَكِنْ أَنْفُسُهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ١١٧].

فإن استمر نزول النعم بهم مع كفرهم ومعاصيهم، فهذا استدراج وإمهال من الله تعالى، وهو من باب: «الدنيا سجن المؤمن وجنة الكافر» والله تعالى سميع لأقوال خلقه، عليم بمن يستحق العقاب منهم، سواء منهم من أسر القول ومن جهر به، فلا يخفى عليه شيء، يعلم ما تنطوي عليه الضمائر، وما تخفيه السراء، ويجازي كلا بعمله.

سُنَّةُ اللَّهِ فِي عِقَابِ الْمُكَذِّبِينَ لَا تَتَخَلَّفُ

٥٤- ﴿كَذَابِ آلِ فِرْعَوْنَ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَذَبُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ فَأَهْلَكْنَاهُمْ بِذُنُوبِهِمْ وَأَغْرَقْنَا آلَ فِرْعَوْنَ وَكُلُّ كَانُوا ظَالِمِينَ﴾ ﴿٥٤﴾

وكما أن من سُنن الله في خلقه، أن يعاقب الذين كفروا بآيات الله وجحدوها، كما في الآية [٥٢] فإن من سنته أيضًا أن يعاقب الذين كذبوا بآيات الله، ولم يؤمنوا بها.

﴿كَذَابِ آلِ فِرْعَوْنَ﴾ أي: مَثَلُ الكفار من أمة محمد ﷺ مَثَلُ آلِ فرعون الذين كذبوا نبي الله موسى ﷺ ﴿وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ﴾ كقوم نوح، وقوم هود، والذين كذبوا رسلهم من الأمم السابقة ﴿كَذَبُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ﴾ التي جاءت لهداية البشر وسعادتهم، فكانت النتيجة أن الله تعالى أهلكهم بسبب ما ارتكبه من ذنوب ﴿فَأَهْلَكْنَاهُمْ بِذُنُوبِهِمْ﴾ أي: أهلكهم الله بسبب ما اقترفوه من كفر ومعاصي ﴿وَأَغْرَقْنَا آلَ فِرْعَوْنَ﴾ وهم أهل الكفر والبطر والطغيان، بسبب تكذيبهم لنبي الله موسى ﷺ.

وكما أغرق الله فرعون وآله بسبب طغيانه وجبروته يهلك سبحانه كل طاغية، وكل أمة خرجت عن منهج الله ﴿وَكُلُّ﴾ من الأقوام المذكورين وَمَنْ على شاكلتهم في الكفر والضلال ﴿كَانُوا ظَالِمِينَ﴾ أي: أن كلاً منهم فعل ما لم يكن له فعله، من جحود آيات الله وتكذيب رسله، وإشراكهم مع الله غيره في عبادته، فما ظلمهم الله حين عاقبهم بذنوبهم، وما أخذهم بغير جرم اقترفوه، ولكن ظلموا أنفسهم بمخالفتهم أمر الله ونهيه، فاحذروا - أيها المخاطبون - أن تشابهوهم في الظلم والطغيان حتى لا يحل بكم من عقاب الله مثل ما حل بهم.

وهذه الآية فيها ضَرْبُ المثل بفرعون وقومه، وكذلك الآية التي سبقتها، ولكن هذه الآية زادت عليها بأنها تُفَصِّلُ وتبيِّن العذاب الذي لحق بفرعون وهو الغرق الذي أجملته الآية السابقة، كما أن هذه الآية تبيِّن عقوبة من كَذَّبَ بآيات ربهم، زيادة على كفران النعم وجحود الحق كما في الآيتين قبلها.

فكل من الآيات الثلاث - الآيتين هنا وآية آل عمران ﴿كَذَابِ آلِ فِرْعَوْنَ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَذَبُوا بِآيَاتِنَا فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ وَاللَّهُ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ ﴿١١﴾ [آل عمران] كل منها يؤدي معنى

مستقلًا ، وليس بينها تكرار ، كما أن آية ﴿كَذَابَ آلِ فِرْعَوْنَ﴾ السابقة ، كانت في شأن مَنْ هلك بعد أن كفر ، وهذا دأبهم ، وهذه الآية في شأن من لم تُغَيَّر نعمتهم حتى يغيروا ما بأنفسهم ، وهذا دأبهم .

مُحْتَوَيَاتُ الْمَقْطَعِ الْآخِرِ مِنَ السُّورَةِ

ويأتي المقطع الأخير من السورة ليتضمن كثيرًا من قواعد التعامل مع العدو في السلم والحرب ، والتنظيم الداخلي للمجتمع المسلم وعلاقاته الخارجية ، واحترام الإسلام للعهود والمواثيق ، ورابطة العقيدة بين جميع أفراد المجتمع الإسلامي .

ومجمل هذه القواعد في هذه النقاط :

- أ - الذين ينقضون العهود والمواثيق ، هم شرٌّ من يدبُّ على وجه الأرض ، فيجب على المسلمين تأديبهم ، ومعاملتهم بالمثل ، بنبد عهودهم ، وإضمار الشرِّ لهم .
- ب - يلزم المسلمون استكمال القوة ، وإعداد العدة الممكنة لإرهاب العدو ودحره في كل زمان ومكان .
- ج - إذا طلب العدو الصلح مع المسلمين ، فلا مانع من ذلك ، أما المسلم فلا يهون ويطلب السلم ابتداءً .
- د - على المسلمين مواجهة عدوهم ، ولو كانوا يفوقونهم في العدد والعدة عشرة أضعاف ، ويلزمهم الثبات وعدم الفرار إذا كان العدو ضعف المسلمين في قوتهم وعددهم .
- هـ - أسرُ العدو ، لا يكون إلا بعد تدمير قوته والإكثار من قتل جنوده .
- و - كانت الغنائم محرمة على الأمم السابقة ، وقد أحلها الله لهذه الأمة ، بما فيها فدية الأسرى .
- ز - إذا فقد المسلمون شيئًا من أنفسهم وأموالهم ، فإن الله تعالى سيعوضهم خيرًا مما أخذ منهم .
- ح - جَمَاعُ الْأَخَوَّةِ في الإسلام هو العقيدة ، وليس الجنس ولا الوطن ولا اللغة .

النَّاقِضُونَ لِلْعَهْدِ شَرُّ الدَّوَابِّ

٥٥ - ﴿إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللَّهِ الَّذِينَ كَفَرُوا فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾

وبعد أن شرح الله سبحانه أحوال الكافرين الذين أهلكهم، شرع في بيان أحوال كفار آخرين بينهم وبين المؤمنين عهود ومواثيق، وذلك أنه لما قدم النبي ﷺ إلى المدينة كان الكفار معه على ثلاثة أقسام:

١- أهل صلح وهدة. ٢- وأهل حرب. ٣- وأهل ذمة.

وكان ممن صالحهم طوائف اليهود الثلاث: بنو قينقاع، وبنو النضير، وبنو قُرَيْظَةَ.

ولما نزلت سورة براءة أمره الله أن يجاهد الكفار بالسيف، ويجاهد المنافقين باللسان والحجة، وأن يقاتل من ينقض عهده ولم يستقم عليه.

وكان هؤلاء اليهود ممن نقضوا عهودهم مع رسول الله ﷺ وهذا شأنهم في كل زمان ومكان، لا عهد لهم ولا ذمة، وكذلك بعض الأعراب الذين حول المدينة، وهكذا المنافقون على مدى التاريخ.

والقرآن يبين أن الذين ينقضون عهودهم، ولا يطمئن أحد إلى عهدهم ووعدهم، هم شر الدواب عند الله؛ لأنهم تجردوا من خاصية الإنسان، وانطلقوا من كل قيد، ففسدت فطرتهم، وأصبحوا شرًا من البهيمة؛ لأنها مقيدة بضوابط فطرتها، فهم شر الدواب عند الله.

وفي هذا تفضيل للدواب الذميمة؛ كالخنزير، والكلب العقور، على الكافر الذي علم الله أنه لن يؤمن، وقد وصفه الله بشر الدواب؛ لأن دعوة الإسلام أظهر من دعوة الشرائع السابقة، ومعجزة الرسول أسطع، ولهذا كان من يجحدها أشبه بمن لا عقل له، وكان شرُّ ما يدب على وجه الأرض هم الكفار المصرون على كفرهم، فهم لا يصدّقون رسل الله، ولا يقرّون بوحدانيته، ولا يتبعون شرعه، وهؤلاء قد كفروا قبل الإسلام واستمروا على كفرهم بعد سماع دعوة الإسلام، فلا يرجى منهم إيمان.

شَرَارُ الْخَلْقِ عِنْدَ اللَّهِ

٥٦- ﴿الَّذِينَ عَاهَدْتَ مِنْهُمْ ثُمَّ يَنْقُضُونَ عَهْدَهُمْ فِي كُلِّ مَرَّةٍ وَهُمْ لَا يَتَّقُونَ﴾ (٥٦)

وصفت هذه الآية الذين ينقضون عهودهم ومواثيقهم، فبيّنت أنهم يهود بني قُرَيْظَةَ، وكعب بن الأشرف ومن معه، وأنهم كلما عاهدوا عهدًا نقضوه، وكلما أكدوا عهودهم

بالإيمان الموثقة نكثوها، فهم لا يؤمنون ولا يتقون، ولا يخافون الله في شيء.

وقد وصفهم الله تعالى بأربعة أوصاف هي: الكفر، ونقض العهود، والخيانة، وعدم التقوى، وعدم الخوف من عقاب الله سبحانه.

وتنفيذ الآية أن الغدر يتكرر منهم، فهم لا يثبتون على عهد، وهم شر من الحمير، لأن الخير معدوم منهم، والشر متوقع منهم، وكانت بنو قُرَيْظَةَ قد عاهدوا النبي ﷺ على ألا يحاربوه ولا يُعينوا عليه عدوًّا.

فلما اجتمعت الأحزاب على النبي ﷺ غلب على ظنهم أن النبي ﷺ مغلوب ومستأصل، فغدروا، ووالوا قريشًا وأمدوهم بالسلاح والدروع، فلما انتهت هذه الحالة أمر الله نبيه بالخروج إليهم، فحكَّم فيهم سعد بن معاذ، فحكم فيهم بالقتل، وقال له النبي ﷺ: «لقد حكمت فيهم بحكم الله يا سعد»، فضرب أعناقهم بعد أن حاصرهم وكانوا أكثر من ثمان مئة، وسبى ذريتهم.

وهكذا أمر الله تعالى بالإغلاظ على العدو كلما كان في ذلك مصلحة إرهاب للغادرين، وصدًّا لأمثالهم عن نكث العهود، وفي ذلك رحمة بهم لئلا يحدث لهم ما حدث لغيرهم، ويتأكد ذلك بالنسبة إلى شرار الخلق، وهم اليهود الذين دخلوا معك -يا محمد- في معاهداتٍ على ألا يحاربوك، ولا يظاهروا عليك أحدًا، ثم ينقضون عهدهم ويمالئون الكفار، ويؤلبونهم عليك، المرة تلو المرة، فهم لا يخشون الله، ولا يخافون عقابه، فقد جمعوا بين الكفر ونقض العهود، فصاروا شر الدواب، وهؤلاء اليهود أعانوا مشركي مكة بالسلاح على قتال الرسول ﷺ بعد العهد الأول، وتحزبوا ضده يوم الخندق بعد العهد الثاني فنقضوا كلاً منهما.

وُجُوبُ التَّكْيِيلِ بِنَاقِضِي الْعَهْدِ

٥٧ - ﴿فَإِنَّمَا تَنَفَّقْتُمْ فِي الْحَرْبِ فَشَرَدَ بِهِمْ مَنْ خَلَفَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَذْكُرُونَ﴾ ﴿٥٧﴾

ثم بيَّن سبحانه ما يجب على المؤمنين نحو الناقضين للعهود والمواثيق دون أن ينظروا في عواقب الأمور، فإذا ظفرت -أيها الرسول- ويا أيها المسلم بمن ينقض عهده، وواجهته في معركة من المعارك، فأنزل به من العذاب الشديد ما يُدخل الرعب في قلوب الناكثين للعهد، بما

يُشْتَبِه على الموائيق؛ حتى لا يجترئوا على نقضها كما فعل هؤلاء وهم لا عهد لهم ولا ميثاق، ﴿فَإِمَّا تَقَفَّهْمُ فِي الْحَرِّ﴾ أي: تجدهم في ساحة القتال ﴿فَشَرَّدَ بِهِمْ مَن خَلَفَهُمْ﴾ نكّل بهم من بعدهم، وعظّم بهم من سواهم من الناس، وأغلظ عقوبتهم، وأكثر فيهم من القتل؛ حتى يرتدع غيرهم، ويصبروا لهم عبرة ﴿لَعَلَّهُمْ يَذْكُرُونَ﴾ أي: يتعظون بما شاهدوا فيكونوا عبرة لغيرهم، فلا يجروا أحد كائنًا من كان بعد ذلك على التفكير من قريب أو بعيد في نكث العهود ونقض الموائيق؛ حتى يأمن المجتمع، وتستقر أوضاعه.

وقيدت الآية هذه العقوبة بأنها تخص الكافر المحارب، وأن من أعطى عهدا من غير المسلمين لا يجوز خيانتته وعقوبته.

المُبَادَرَةُ بِأَخْذِ الْعَدُوِّ عَلَى غِرَّةٍ

٥٨- ﴿وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِنْ قَوْمٍ خِيَانَةً فَانْذِرْ إِلَيْهِمْ عَلَى سَوَاءٍ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْخَائِنِينَ﴾ (٥٨)

وبعد أن بين سبحانه حكم المُصِرِّين على كفرهم، الناقضين لعهودهم، بين حكم من يُخشى منهم الخيانة وتكرار نقض العهود، فوجّه الله نبيه إلى ما يصنعه في المستقبل مع من يخاف منه غدراً وخيانة، وذلك بعد ما حدث تكرار لغدر بني قُرَيْظَةَ، فأمر الله نبيه وقواد المسلمين من بعده بأن يعاملوا من يتحسسون منهم الخيانة بالمثل والحذر، عند ظهور الأدلة والقرائن، فإن التزموا بعهودهم وإلا حاربوهم كما قال تعالى: ﴿فَمَا اسْتَقَمُّوا لَكُمْ فَاسْتَقِيمُوا لَهُمْ﴾ [التوبة: ٧].

ومعنى ﴿فَانْذِرْ إِلَيْهِمْ عَلَى سَوَاءٍ﴾ أي أخبرهم أنه لا عهد بينك وبينهم، حتى يستوي علمك وعلمهم بذلك، ولا يحل لك الغدر بهم قبل أن تخبرهم، وهذا عند ظهور بواد الخيانة منهم، فإذا لم يوجد ما يدل على خيانتهم فلا يجوز نبذ العهد إليهم، بل يجب الوفاء به إلى مدته.

روى أبو الشيخ عن ابن شهاب قال: دخل جبريل على رسول الله ﷺ فقال: «قد وضعت السلاح، وما زلت في طلب القوم؟ فاخرج، فإن الله قد أذن لك في بني قُرَيْظَةَ،

وَأَنْزَلَ فِيهِمْ ﴿وَأَمَّا تَخَافَتْ مِنْ قَوْمٍ خِيَانَةً﴾^(١).

وكان رسول الله قد عاهد يهود بني قُرَيْظَةَ ألا يحاربوه، ولا يعاونوا عليه المشركين، فنقضوا العهد، وأعانوا عليه كفار مكة بالسلاح يوم بدر، ثم قالوا: نسينا وأخطأنا، فعاهدهم مرة أخرى، فنقضوا العهد وتحالفوا مع الكفار يوم الخندق^(٢).

وهذا يقتضي أن لا نقاتل من كان بيننا وبينهم عهد وميثاق؛ لئلا يكون ذلك غدراً وخيانة، فإن وجدت منه خيانة محققة، فإنه يقابل بالمثل، ولا يلزم نبذ العهد إليه، لأن الخيانة قد عُلِمَتْ وتحققت، فلا يُوفى له عهده ونبذ العهد معناه الإخبار بنقضه.

والآية عامة في الحذر من كل من يتكرر منه نقض العهد، والوفاء لكل من يفي بعهده ووعد، قال تعالى: ﴿وَإِنْ تَكُونُوا آمِنْتُمْهُمْ مِنْ بَعْدِ عَهْدِهِمْ وَطَعَنْتُمْ فِي دِينِكُمْ فَقَتِلُوا أَيْمَةَ الْكُفْرِ إِنَّهُمْ لَا أَيْمَنَ لَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَنْتَهُوْنَ﴾^(٣) [التوبة].

وقد رتب الله نبذ العهد على خوف الخيانة دون وقوعها؛ لأن شؤون المعاملات السياسية والحربية تجري على حسب الظنون، ولا يُنتظر تحقق وقوع الأمر المظنون؛ لأن التريث في هذه الأمور يعرض الأمة للخطر، والتورط فيما لا يُحمد عقباه، ولا تُدار سياسة الأمة بما يُدار به القضاء في الحقوق؛ لأن مصالح الأمة إذا فاتت تمكن منها عدوها، فلذلك علّق الله سبحانه نبذ العهد على توقع الخيانة.

ومن أمثال العرب: خذ اللص قبل أن يأخذك. إذا علمت أنه لص^(٣).

وعلى ذلك فإن من يُتوقع منه الخيانة ونقض العهود، وعدم احترام الموائيق، وظهرت بوادر ذلك عليهم، فانبذ عهدهم القائم واطرحه جهراً وعلانية، وصارحهم بأنك نقضت يدك من عهودهم، وليس بينك وبينهم أمان؛ حتى يستوي الطرفان في العلم بأنه لا عهد بينهم بعد اليوم، فلا تستمر على عهدهم فتكون معاهداً لمن لا يحبهم الله ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ

(١) «أسباب النزول» للسيوطي (١٣٣) و«زاد المسير» (٣/٣٧١).

(٢) «تفسير الفخر الرازي» (١٥/١٦٢).

(٣) يُنظَر: «تفسير التحرير والتنوير» (١٠/٥٢).

الْخَائِنِينَ ﴿٥٨﴾ بل عاملهم بالمثل واطرح عهودهم، بعد علمك من القرائن والأدلة بإضمار الخيانة لك؛ حتى تكون أنت وهم في العلم بنقض العهد سواء.

فالإسلام يعلم أبناءه صيانة العهود وحفظ المواثيق، وألا يبيت أحدهم نية الغدر بالآخرين، والله تعالى لا يحب الخائنين لعهودهم، الناقضين لها حتى ولو كان مع الكفار.

كان بين معاوية وبين الروم عهد إلى مدة، فأراد معاوية أن يسير إليهم، حتى إذا انقضت المدة التي بينه وبينهم غزاهم، فإذا شيخ على دابة يقول: الله أكبر، الله أكبر، وفاء لا غدر، إن رسول الله ﷺ قال: «من كان بينه وبين قوم عهد فلا يحلنَّ عقدة ولا يشدها حتى ينقضي أمدها، أو ينبذ إليهم على سواء، قال: فبلغ ذلك معاوية، فرجع، فإذا الشيخ عمرو بن عَبَّسَةَ ؓ^(١).

قال أهل العلم في حكم الآية:

أ - إن الحاكم المسلم إذا ظهر له نقض عهد العدو ظهوراً مستفيضاً مقطوعاً به فلا حاجة له في نبذ العهد، بل يفعل بهم كما فعل رسول الله ﷺ بأهل مكة، لما نقضوا العهد بقتل خزاعة الذين كانوا في ذمة رسول الله ﷺ حيث فاجأهم النبي ﷺ بجيشه على بُعد أربعة فراسخ من مكة، بمر الظهران.

ب - أما إذا ظهرت آثار نقض العهد بأمارات غير مستفيضة وغير مقطوع بها، فعليه أن ينبذ عهدهم ويُعْلِمَهُم بالحرب، كما حدث من بني قُرَيْظَةَ لما تعاونوا مع مشركي مكة على قتال النبي ﷺ بعد عهدهم معه، فخاف من غدرهم به وبأصحابه^(٢).

(١) يُنْظَرُ: «المسند» (١١١/٤) برقم (١٧٠١٥)، (١٩٤٣٦) وأبو داود الطيالسي (١٥٧) برقم (١١٥٥) وأبو داود (١٩٠/٣) برقم (٢٧٥٩) والترمذي برقم (١٥٨٠) وقال: حسن صحيح، وهو في «تحفة الأحوذى» (٢٠٣/٥) والنسائي في «الكبرى» (٢٢٣/٥) برقم (٨٧٣٢) وابن حبان (١٨٢/٧) و«سنن النسائي» برقم (٨٧٣٢) وصحح الألباني إسناده في «صحيح سنن الترمذي» برقم (١٢٨٥) وقال محققو «المسند»: حديث صحيح بشأده.

(٢) يُنْظَرُ: «تفسير البغوي» للآية و«الخازن» وغيرهما.

نَصْرُ الْعَدُوِّ سَحَابَةٌ صَيْفٌ

٥٩- ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ^(١) الَّذِينَ كَفَرُوا سَبَقُوا إِنَّهُمْ^(٢) لَا يُعْجِزُونَ

يَعُدُّ الله المسلمين بالنصر، ويهون عليهم أمر عدوهم، فيبين سبحانه أن غدر الكفار وخيانتهم لن يمنحهم فرصة التفوق والسبق، فلن يترك الله المؤمنين وحدهم، والكفار أضعف من أن يُعْجِزُوا الله سبحانه، فإن الله لهم بالمرصاد، والله الحكمة البالغة في إهمالهم وعدم معاجلتهم بالعقوبة، فلا يظن ظانٌ أنهم سبقوا الله فنجوا من عقابه، ولا يظن ظانٌ أنهم سبقوه سبحانه بخيانتهم للمسلمين، بل هم في قبضة الله تعالى، وتحت قهره وتصرفه، ولن يفلتوا من عذابه، كما قال تعالى: ﴿أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ أَنْ يَسْبِقُونَا سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾ [العنكبوت]

وقال سبحانه: ﴿لَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ﴾ [النور: ٥٧]

وقال جلّ شأنه: ﴿لَا يَغْنَصُكَ تَقَلُّبُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي الْبِلَادِ﴾ [١٩٦] مَتَّعٌ قَلِيلٌ [آل عمران].
كما أن سبقهم في السلاح والعتاد لا يعني نصرهم في النهاية.
قيل: إن الآية نزلت فيمن أقلت من كفار قريش يوم بدر.

والمعنى: لا تظنّ أن الكافرين بربهم، المكذبين بآياته، أنهم ناجون من عذاب الله، بل هم في قبضته وتحت قهره وقدرته فلا يعجزوه، وهو قادر على إهلاكهم وتعذيبهم في كل وقت، وإن نجاتهم من القتل أو الأسر في الدنيا، لن تنفعهم من العذاب المهين في الآخرة، وهذا على قراءة الياء ﴿يَحْسَبَنَّ﴾.

(١) قرأ ابن عامر وحفص وحمزة وأبو جعفر وإدريس بخلف عنه بياء الغيب في (ولا يحسبن) و (الذين كفروا) فاعل، والمفعول الأول محذوف تقديره أنفسهم، و (سبقوا) في محل نصب مفعول ثانٍ، وقرأ الباقر بناء الخطاب، والمخاطب هو النبي (دل عليه) (الذين عاهدت منهم) و (الذين كفروا) مفعول أول، و (سبقوا) مفعول ثانٍ، وهو الوجه الثاني لإدريس وقرأ ابن عامر وعاصم وحمزة وأبو جعفر بفتح السين، والباقر بكسرها، وهما لغتان.

(٢) قرأ ابن عامر بفتح الهمزة من (أنهم لا يعجزون) على إسقاط لام العلة، وقرأ الباقر بكسرها على الاستئناف.

أما على قراءة التاء، فالمعنى: ولا تحسبن أيها الرسول أن الكفار قد سبقونا بخيانتهم لك، أو أفلتوا من عقابنا، وصاروا في مأمن منا فنحن لا يعجزنا شيء.

والمقصود من الآية: قطع أطماع الكافرين من النجاة، وتقنيطهم من الخلاص، فكأنه سبحانه يقول لهم: إن من لم يصبه عذاب الدنيا فسوف يصيبه عذاب الآخرة، لا مفر لهم من ذلك، ما داموا قد استحبوا الكفر على الإيمان، أما المؤمنون فهم في تأييد الله ونصره في الدنيا ولهم حسن العاقبة في الآخرة.

وهذه الآية تشمل كل ما حدث من خيانة بني قُرَيْظَةَ، ومن عبد الله بن أبيّ بن سلول وغيرهم، وهي عامة في جميع المناوئين للإسلام، المتربصين به إلى يوم القيامة.

وَجُوبُ إِعْدَادِ الْعُدَّةِ الْمَكَافِئَةِ لِقِتَالِ الْعَدُوِّ

٦٠- ﴿وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهَبُونَ^(١) بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَآخَرِينَ مِنْ دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ^(٢) وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ شَيْءٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تَظْلَمُونَ^(٣)﴾

أمر سبحانه في هذه الآية بإعداد وسائل القوة التي ينتصر بها المسلمون على عدوهم، فبعد أن هوّن الله تعالى من شأن الكافرين، أمر عباده المؤمنين أن يُعِدُّوا العدة لأسباب النصر، بجميع أنواع الأسلحة والآلات البرية والبحرية والجوية، وتقوية الحصون والمعقل، وتأمين الحدود، وكل ما يمكنكم من عتاد وعدة، بما يناسب أسلحة العصر الذي تعيشونه من طائرات، ودبابات ورشاشات وصواريخ، وترسانة نووية، وأجهزة إنذار مبكر واستطلاع، وغير ذلك من متطلبات العصر؛ كي تُواجهوا عدوكم وتُرعبوه، وتَحْمُوا جناب التوحيد، وتنشروا دعوة الله في أرضه، وتقاوموا أي عدوان عليكم، وتَصُدُّوا كل قوة تعتدي عليكم، وتبدلوا أقصى ما في طاقاتكم من قوة؛ لتكونوا مرهوبين في الأرض، وتُخيفوا من لا تظهر لكم عداوتهم في الوقت الحاضر.

(١) قرأ رويس بتشديد الهاء من (ترهبون) مضارع رَهَبَ المضعف، وقرأ الباقر بتخفيفها، مضارع أَرَهَبَ.

(٢) قرأ الأزرق عن ورش بتغليظ اللام الثانية وترقيقها من (لا تظلمون)، والباقر بترقيقها.

من معاني القوة في مواجهة العدو:

وقد كانت القوة في صدر الإسلام تتمثل في الرمي ورباط الخيل:

ولذا: فَسُرَّتْ القوة في الحديث بأنها الرمي:

١- «ألا إن القوة الرمي، ألا إن القوة الرمي»^(١).

٢- وفي حديث سلمة بن الأكوع رضي الله عنه قال: خرج رسول الله ﷺ على قوم يتناضلون في السوق -أي: يتسابقون بالرمي- فقال: «ارموا يا بني إسماعيل فإن أباكم كان رامياً، ارموا وأنا مع بني فلان» لأحد الفريقين، فأمسكوا بأيديهم، فقال: «ارموا» قالوا: يا رسول الله كيف نرمي وأنت مع بني فلان؟ قال: «ارموا وأنا معكم كلكم»^(٢).

٣- وفي حديث عمرو بن عَبَسَةَ رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «من رمى العدو بسهم فبلغ سَهْمُهُ العدو أو أصاب أو أخطأ، فيُعْدِلُ رَقَبَةً»^(٣).

٤- وعن عمرو بن عَبَسَةَ قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «من شاب شية في سبيل الله كانت له نوراً يوم القيامة، ومن رمى بسهم في سبيل الله كان له عِدْلُ رَقَبَةٍ»^(٤).

٥- وفي الحديث عن عقبة بن عامر رضي الله عنه: «إن الله ﷻ لَيَدْخُلُ بالسهم الواحد ثلاثة نفر الجنة: صانعه يحتسب في عمله الخير، والرامي به، ومنبله»^(٥).

(١) من حديث عقبة بن عامر، أخرجه أحمد (١٥٦/٤) برقم (١٧٤٣٢) إسناده صحيح، رجاله ثقات رجال الصحيح، (محققوه) ومسلم (١٥٢٢/٣) برقم (١٩١٨) وفيه الجملة الأخيرة ثلاثاً، وهو في «سنن أبي داود» برقم (٢٥١٤) و«سنن ابن ماجه» (٢٨/١٣) برقم (٢٨١٣) وفي «سنن الترمذي» برقم (٣٠٨٣) والطبري (٢٤٥/١١) وابن أبي حاتم (١٧٢٢/٥) وأبو يعلى (١٧٤٣) وابن حبان (٤٧٠٩).

(٢) البخاري (٢٨٩٩، ٣٣٧٣، ٣٥٠٧) و«المسند» (١٦٥٢٨) قال محققوه: إسناده صحيح على شرط الشيخين، وابن حبان (٣٢٦٤).

(٣) صحيح «سنن ابن ماجه» (٢٢٦٨) والحاكم (٩٦/٢)، وابن ماجه (٢٨١٢) والتعليق الرغيب (١٧٧٢).

(٤) أخرجه عبد الرزاق في «المصنف» (١٥٤، ٩٥٤٤) وقال محققو «المسند» (٢٤٢/٢٨): برقم (١٧٠٢٢، ١٧٠٢٠) وهو حديث صحيح بنحوه، وأخرجه أبو داود (٣٩٦٦) والنسائي في الكبرى (٤٣٥٣) وابن ماجه (٢٨١٢) والحاكم (٩٦/٢) والطبراني في الأوسط (٣١٨٩).

(٥) أخرجه أبو داود عن عقبة بن عامر برقم (٢٥١٣) وابن ماجه (٢٨١١) والحاكم (٩٥/٢) والبيهقي في «الشعب» (٤٣٠١) وقد ضَعَّفَ الألباني إسناده في ضعيف «سنن أبي داود» (٥٤٠) وفيه زيادة.

٦- وعن عطاء بن أبي رباح أن جابر بن عبد الله، وجابر بن عمير الأنصاري رضي الله عنه كانا يرتيمان فمَلَّ أحدهما فجلس، فقال الآخر: كَسَلْتُ؟ سمعت رسول الله ﷺ يقول: «كل شيء ليس من ذكر الله فهو لهو وسهو إلا أربع خصال: مشي الرجل بين الفرضين، وتأديب فرسه، وملاعبته أهله، وتعليم السباحة»^(١).

٧- وعن أبي الدرداء رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «اللهو في ثلاث: تأديبك فرسك، ورميك بقوسك، وملاعبتك أهلك»^(٢). وهذا من اللهو المباح الذي حث عليه الإسلام.

وكل لهو باطل، وليس من اللهو: تأديب الرجل فرسه، وملاعبته أهله، ورميه بقوسه، وتفسير القوة بالرمي: هو على سبيل المثال؛ لأن الرمي كان في ذلك الوقت أقوى ما يُتقَوَّى به في ساحة القتال، وهو لا ينفي اعتبار غيره من أنواع القوة، كما قال ﷺ: «الحج عرفة»^(٣) فهو لا ينفي سائر أعمال الحج.

ولفظ: ﴿عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ﴾ يشمل كل عدو للإسلام وأهله في كل زمان ومكان.

وسئل رسول الله ﷺ عن الحُمُر فقال: «ما أنزل الله عليَّ فيها شيئاً إلا هذه الآية الجامعة الفذة» ﴿مَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ﴾ (٧) وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ (٨) [الزلزلة].^(٤)

رباط الخيل:

وقد وردت أحاديث كثيرة في الخيل ورباطها في سبيل الله لجهاد العدو، من ذلك:

(١) النسائي في الكبرى (٨٩٣٨-٨٩٤٠) والبخاري في «الكشف» (١٧٠٤) والطبراني في «الكبير» (١٧٨٥) وفي «الأوسط» (٨١٤٧) والبيهقي (١٥/١٠) و«السلسلة الصحيحة» (٣١٥).

(٢) «صحيح الجامع» (٥٣٧٤).

(٣) من حديث عبد الرحمن بن يَمْرُ الديلي في «سنن الدارقطني» برقم (٢٥١٦، ٢٥١٧) وأبي داود (١٩٤٩) وابن ماجه (٣٠١٥) والترمذي (٨٨٩) والنسائي (٢٥٦/٥) وأحمد (٣٠٩، ٣٣٥)، وهو في صحيح سنن ابن ماجه (٢٤٤١) وصحيح سنن أبي داود (١٧٠٣) وصححه الألباني أيضاً في إرواء الغليل (١٠٦٤) ومشكاة المصابيح (٢٧١٤).

(٤) البخاري برقم (٢٣٧١، ٣٦٤٦، ٤٦٥٩) ومسلم برقم (٩٨٧) واللفظ له عن أبي هريرة، و«الموطأ» (٢/٤١٤) من طرق متعددة.

١- ما رواه عروة بن أبي الجعد البارقى أن رسول الله ﷺ قال: «الخيَل معقود في نواصيها الخير إلى يوم القيامة الأجر والمغنم»^(١).

٢- وفي الحديث عن أبي هريرة ؓ أنها: لرجل أجر، ولرجل ستر، وعلى رجل وزر، فهي أجر لمن ربطها في سبيل الله، وهي ستر لرجل ربطها تعقفاً ولم ينس حق الله فيها، وهي وزر على رجل ربطها فخراً ورياء^(٢).

٣- وفي حديث أبي هريرة أيضاً «ومن احتبس فرساً في سبيل الله، فإن شِبعه ورِيه ورَوَّه وبَوَّله في ميزانه يوم القيامة حسنات»^(٣).

ولفظ ﴿قُوَّةٌ﴾ في الآية عام في القوة المعنوية والمادية، والعقلية والبدنية والاقتصادية والعسكرية، وكل قوة تجدد وتحديث في كل عصر ومصر، ومنها رباط الخيل لإرهاب العدو، وكل من تسوّل له نفسه قتال المسلمين.

وخُصَّت الخيل بالذكر؛ لأنها كانت الأصل في الحروب سابقاً، وهي التي عُقد في نواصيها الخير، وفي ذلك تشريف لها وتعظيم لشأنها، ويقاس عليها أعظم القوى في الوقت المعاصر، وفي كل عصر ومصر إلى قيام الساعة.

فأعدوا لقتال عدوكم ما تستطيعون إعداده من وسائل القوة على اختلاف أصنافها وألوانها؛ لاتقاء بأس العدو وهجومه، وللدفاع عن الدين والوطن والمقدسات، ولإزالة العقبات من طريق نشر الدعوة، وللدفاع عن المسلمين المستضعفين في أرجاء المعمورة، ولتحرير ما هو محتلاً من بلاد المسلمين، كما قال تعالى: ﴿وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقْتُلُونَكُم وَلَا تَقْسِدُوا إِيَّاكَ اللَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ﴾ [البقرة]

(١) في «صحيح البخاري» برقم (٢٨٥٠، ٢٨٥٢) و«فتح الباري» (٦٦/٦) بزيادة على هذا في «المعجم الكبير» للطبراني (٩٨/٦) وهو في مسلم (١٨٧٣) والترمذي (١٦٩٤) والنسائي (٣٥٧٦) وفي «الكبرى» (٤٤١٦) وابن ماجه (٢٧٨٦).

(٢) يُنظر الحديث في: «الموطأ» (٤١٤/٢) عن أبي هريرة والبخاري (٢٣٧١، ٧٣٥٦) ومسلم (٩٨٧) والبيهقي في «الشعب» (٤٣٠٤).

(٣) من حديث أبي هريرة في البخاري برقم (٢٨٥٣) والنسائي (٣٥٨٤) وفي «الكبرى» (٤٤٢٣) والحاكم (٩٢/٢) والبيهقي (١٦/١٠).

وقال سبحانه: ﴿وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ لِلَّهِ فَإِنْ آنَهَوْا فَلَا عُدْوَانَ إِلَّا عَلَى الظَّالِمِينَ﴾ [البقرة: ١٩٣] وذلك لأن القتال في الإسلام يكون لرد العدوان ولحماية الدعوة من التناول عليها من كل عدو للمسلمين واضح العداوة، وأخذ الأهبة والحيطة لحالات المباغتة والمفاجأة من كل من يتربص بنا، كما أشار إليهم ربنا في قوله: ﴿وَأَخْرَجَ مِنْ دُونِهِمْ لَا يَعْلَمُونَهُمُ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ﴾.

الجهاد بالمال:

والجهاد في سبيل الله يكون بالنفس والمال واللسان، كما جاء في الحديث عن أنس رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «جاهدوا المشركين بأموالكم وأنفسكم وألستكم»^(١). وإعداد العدة لحرب العدو، يحتاج إلى الجهاد بالمال.

ولذا: فقد ختمت الآية بالحث على الجهاد بالمال، والجهاد بالمال جاء في القرآن مقارناً للجهاد بالنفس في كثير من الآيات، منها قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ ءَامَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ أَكْظَمُ دَرَجَةً عِنْدَ اللَّهِ﴾ [التوبة: ٢٠].

وقوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِآتٍ لَهُمُ الْجَنَّةُ﴾ [التوبة: ١١١].

والذين يبذلون أموالهم للدفاع عن الإسلام وأهله يُخْلِفه الله عليهم في الدنيا، ويدّخر لهم ثوابه في الآخرة أضعافاً مضاعفة، ولا ينقصون شيئاً من أجورهم.

ومثلهم: ﴿كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنْبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلٍ فِي كُلِّ سُنْبُلَةٍ مِائَةُ حَبَّةٍ وَاللَّهُ يُضَاعِفُ لِمَنْ يَشَاءُ﴾ [البقرة: ٢٦١] والإنفاق في سبيل الله يعني: الجهاد والغزو بالدرجة الأولى، وهو عام بعد ذلك في جميع وجوه الخير والبر.

(١) «المسند» (١٢٢٤٦، ١٢٥٥٥، ١٣٦٣٨) قال محققوه: إسناده صحيح على شرط مسلم، ورجاله ثقات، وأخرجه أبو داود (٢٥٠٤) والنسائي في الكبرى (٣٠٩٦، ٣١٩٢) والحاكم (٨١/٢) و«صحيح سنن أبي داود» (٢١٨٦). والضياء في المختار (١٩٠٥) والدارمي (٢٤٣١) وصححه الحاكم ووافقه الذهبي.

إِجَابَةُ الْعَدُوِّ إِلَى طَلَبِ السَّلَامِ وَإِنْ كَانَ يُضْمِرُ شَرًّا

٦١- ﴿وَإِنْ جَنَحُوا لِلسَّلَامِ^(١) فَاجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾

لَمَّا أَمَرَ الله المؤمنين بإعداد العدة، ومحاربة العدو إذا هو نقض العهد، وظهرت عليه أمارات الخيانة، وأمرهم أن يقاتلوه، ردًّا للعدوان، وتطهيرًا للأرض من الظلم والطغيان، وضمائنًا لحرية الدعوة، ونشرًا للإسلام، وصيانة للعزة والكرامة.

فإن مال العدو المقاتل إلى السلم، وسأل الصلح وترك القتال، وكان هناك مصلحة ظاهرة للمسلمين في هذا الصلح، فإنه يجوز للحاكم المسلم أن يصالح الكفار، وأن يهادنهم مدة معينة، يكون فيها مصلحة راجحة للمسلمين، سيما إن كان هو الباديء بالعدوان.

ومن المصلحة في ذلك: أن يتم استعدادكم وجمع قواكم، واستحضار آلات الحرب المكافئة لملاقات العدو في أية لحظة، ومن المصلحة ترغيب الناس في الإسلام بحسن التعامل، وعدم الرغبة في القتال.

فمعنى: ﴿وَإِنْ جَنَحُوا لِلسَّلَامِ فَاجْنَحْ لَهَا﴾ أي: إن مال العدو إلى الصلح، ورغب في مسالمتكم، فميلوا إلى ذلك.

وفوض أمرك إلى الله -أيها الحاكم المسلم- وثق بعونه ونصره ﴿إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ﴾ لأقوالكم ﴿الْعَلِيمُ﴾ بأحوالكم ونياتكم.

وكان النبي ﷺ قد عقد صلحًا مع اليهود والمشركين أول مقدمه المدينة، وعقد صلح الحديبية مع مشركي قريش على وضع الحرب بينهما عشر سنوات، سنة ست للهجرة.

أصناف الناس بالنسبة للإسلام: ولما نزلت سورة براءة سنة ثمان من الهجرة، تضمنت أن الناس بالنسبة إلى الإسلام أصناف ثلاثة:

- أ- مسلمون تحكمهم شريعة الله، يسعى بذمتهم أدناهم، وهم يد على من سواهم.
- ب- محاربون، يُحاربون ردًّا للعدوان، وضمائنًا لحرية العقيدة، وحماية للأوطان والمقدسات.

(١) قرأ شعبة بكسر السين من لفظ (السلم)، والباقون بفتحها، وهما لغتان.

ج - أهل ذمة، إذا استقاموا على عهدهم، فلهم ما للمسلمين وعليهم ما عليهم من حقوق وواجبات، بما في ذلك من المشاركة في حماية الأوطان ودفع ما يفرضه الحاكم على المواطنين من أموال وغيرها.

الجزية: ومعلوم أن الجزية لم تفرض إلا بعد السنة الثامنة من الهجرة، بمقتضى قوله تعالى: ﴿فَقَاتِلُوا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا يَوْمِ الْآخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حَتَّى يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَنْ يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ﴾ [التوبة: ٢٩].

وهذه الجزية فرضها الإسلام على أهل الكتاب المقيمين في بلاد المسلمين، مقابل الانتفاع بالمرافق العامة، وانتفاعهم بالأمن والدفاع عن الوطن، دون مشاركتهم في ذلك، فإذا انخرطوا في الجيش، وساهموا في الحفاظ على الأمن، ودفعوا ما عليهم من ضرائب للدولة، فلا جزية عليهم والحالة هذه.

وقد كان النبي ﷺ إذا بعث بعثاً أمره أن يعرض الإسلام على القوم، فإن أجابوه، وإلا دفعوا الجزية، فإن أبوا فليقاتلهم.

عن بريدة قال: كان رسول الله ﷺ إذا بعث أميراً على سرية أو جيش أوصاه في خاصة نفسه بتقوى الله وبمن معه من المسلمين خيراً، وقال: «اغزوا باسم الله في سبيل الله، قاتلوا من كفر بالله، إذا لقيت عدوك من المشركين فادعهم إلى إحدى ثلاث خصال، فأيتهن أجابوك إليها، فاقبل منهم، وكف عنهم، ثم ادعهم إلى التحول من دارهم إلى دار الإسلام، فإن أبوا فاعلمهم أنهم كأعراب المسلمين يجري عليهم حكم الله الذي يجري على المؤمنين، وليس لهم في الفبي والغنيمة نصيب إلا أن يجاهدوا مع المسلمين، فإن أبوا فادعهم إلى إعطاء الجزية، فإن أبوا فاستعن بالله وقاتلهم»^(١).

(١) يُنظر الحديث في: «صحيح مسلم» (١٧٣١) و«المسند» (٢٢٩٧٨) بإسناد صحيح على شرط مسلم، واللفظ له مع تصرف يسير، وقد ورد هذا الحديث بطرق شتى مطوّلاً ومختصراً، انظر: أبا داود (٢٦١٢) والترمذي في «العلل الكبير» (٦٩٣/٢) وابن عبد البر في «التمهيد» (٢١٧/٢) والبعوي (٢٦٦٨) وابن ماجه (٢٨٥٨) والنسائي في «الكبرى» (٨٧٦٥) وابن أبي شيبة (٤٢٤/٩) وغيرهم.

فرق بين طلب الصلح وبين الموافقة عليه :

وليس في هذه الآية نسخ ولا منافاة، ولا تخصيص لغيرها، فهي آية عامة في كل عدو للإسلام وأهله، وهي تقرر مبدأ عامًا هو إيجابتهم إلى الهدنة والمصالحة، إن هم طلبوا ذلك، وكان فيه مصلحة راجحة للمسلمين.

ولا يجوز للمسلمين أن يطلبوا الصلح مع العدو، إذا كانوا في مركز قوة؛ لأن فيه وهناً وضعفًا لهم أمام عدوهم، وقد نهى الله تعالى عن ذلك كما جاء في قوله: ﴿فَلَا تَهِنُوا وَتَدْعُوا إِلَى السَّلَاحِ وَأَنْتُمْ الْأَعْلَوْنَ وَاللَّهُ مَعَكُمْ وَلَنْ يَهْزِمَكُمْ أَعْمَلُكُمْ﴾ [محمد].

وفي قوله تعالى: ﴿وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنْتُمْ الْأَعْلَوْنَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ [آل عمران].

فهناك فرق بين إجابة العدو إلى السلم، وبين طلبه منه، فإن كانت قوة العدو عشرة أضعاف قوة المسلمين عددًا وعدة، جاز لهم مهادنة العدو؛ حتى يستعيد المسلمون قوتهم ويتأهبوا للقاء العدو.

عن علي بن أبي طالب عليه السلام أن رسول الله ﷺ قال: «إنه سيكون بعدي اختلاف، فإن استطعت أن تكون السِّلْمَ فافعل»^(١).

وهذه الآية عامة في كل من ناصب الإسلام العداء، من أي ملة أو نحلة، فتجوز إيجابتهم إلى السلم والهدنة، في وقت معين لظرف معين، ولا يقتضي استمرار الهدنة معهم إذا كانوا معتدين مغتصبين لأرضنا، بل الهدنة تكون إلى أن يشتد عود المسلمين وتقوى شوكتهم، أو يذهب الجيل المتخاذل ويأتي جيل آخر، ويعيش الناس أحرارًا في دينهم وأوطانهم.

والحاكم المسلم هو المخوّل بالنظر إلى ما فيه صلاح الإسلام وأهله من سلم أو حرب.

فإن أراد أعداء الإسلام المهادنة وكانوا أقوياء لا نستطيع منازلتهم، فلا مانع من ذلك.

وقد أمر سبحانه بالتوكل عليه عند الأمر بالجنوح إلى السلم؛ ليكون المسلم مفوضًا أمره

(١) زوائد «المسند» (٩٠/١) قال الهيثمي في «مجمع الزوائد» (٢٣٤/٧): رجاله ثقات وهو في «المسند» برقم (٦٩٥) إسناده ضعيف، لأن فيه فضيل بن سليمان وإياس بن عمرو متكلم فيهما. (محققه).

إلى الله، معتمداً عليه في جميع شؤونهم؛ ولتكن مدة السلم مدة تقوية واستعداد، حتى يكفيه الله شر العدو إذا نقض العهد.

وقد ذكّر الله سبحانه في نهاية الآية بأنه سميع لكلامهم في العهد، عليم بما في ضمائرهم، فهو يعاملهم بما يعلم منهم.

والتوكل على الله يكون مع بذل الجهد في الأخذ بأسباب النصر والقوة.

ولا يخفى أن الجنوح إلى السلم يكون في حالة تحقيق مصلحة المسلمين، فإذا كان المسلمون في قوة وعزة ومنعة فلا يلزم إجابة العدو إليه.

وقد صالح النبي ﷺ أهل خيبر، وصالح أكيدر دومة، وصالح أهل نجران، وهادن قريشاً لعشرة أعوام حتى نقضوا العهد، ووادع الضمري.

ولا بأس أن يتدبّر المسلمون بطلب الصلح إذا كان في هذا جلب منفعة لهم، أو دفع مضرة عنهم، يدل على ذلك أن النبي ﷺ هم بمصالحة عُيَيْنَةَ بن حصين ومَن معه، على أن يعطيهم نصف ثمار المدينة، ثم عدل النبي ﷺ عن ذلك بعد أن قال سعد بن عبادة وسعد بن معاذ في جماعة الأنصار: لا نعطيهم إلا السيف.

فقبول الهدنة أو المبادرة بها يكون عند اقتضاء حال المسلمين، وحاجتهم إلى تجديد أمورهم، وترشيد قوتهم، ولا يخشى المسلمون من الصلح إلا في حالة ما إذا كان الكافر يقصد خداعهم، وانتهاز الفرصة فيهم، وفي هذه الحالة أخبر الله سبحانه بأنه حسبهم وكافهم خداعهم، وأن ضرر ذلك سيعود عليهم، قال تعالى:

٦٢- ﴿وَإِنْ يُرِيدُوا أَنْ يَخْدَعُوكَ فَإِنَّ حَسْبَكَ اللَّهُ هُوَ الَّذِي أَيْدَكَ بِنُصْرِهِ وَالْمُؤْمِنِينَ﴾

أعلم الله رسوله بأن العدو قد يطلب الصلح ليخدع المسلمين، ثم يأخذهم على غرة، فإذا أظهر العدو ميله إلى السلم ورغبته فيه، فعلى المسلمين أن يحذروا، ويمضوا في طريق الصلح أيضاً أخذاً بالظاهر؛ لأن مبادئ الإسلام تقتضي ذلك، فإن كان يضمّر لنا خيانة وخداعاً، فإن الله تعالى قد تكفل لمن وفى بعهده أن يقيه شر الخائنين، فهو كافيه وناصره، كما نصر المسلمين وهم ضعفاء في مواطن كثيرة فإن ظهرت لنا قرائن الخيانة أعلمناهم بالحرب عليهم عملاً بالآية ﴿وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِنْ قَوْمٍ خِيَانَةً فَانِذِرْ إِلَيْهِمْ عَلَى سَوَاءٍ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْخَائِبِينَ﴾ [الأنفال: ٥٨].

وهكذا آمن الله المسلمين من خداع أعدائهم الذين يُبَيِّتُون الغدر بالمسلمين من وراء الجنوح للسلم، فإن كان هؤلاء الذين جنحوا للسلم، يريدون المكر بك، وأخذك على غرة وخيانة، فإن الله كافيك مكرهم ﴿وَإِنْ يُرِيدُوا أَنْ يَخْدَعُوكَ فَإِنَّ حَسْبَكَ اللَّهُ﴾ أي كافيك ما يؤذيكَ ويؤذي المؤمنين.

﴿هُوَ الَّذِي أَيْدَكَ﴾ أي: أمدك ﴿بِنَصْرِهِ﴾ وأعانك وقوّاك بالأسباب الباطنة غير المعلومة ﴿وَبِالْمُؤْمِنِينَ﴾ أي: وأيدك أيضاً بالأسباب الظاهرة المعلومة وهي تأييد المؤمنين لك من مهاجرين وأنصار، والخطاب في الآيات للنبي ﷺ وقت التنزيل، وهو لجميع قادة المسلمين بعده إلى قيام الساعة. قال تعالى:

٦٣- ﴿وَأَلْفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مَّا أَلْفَتْ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ أَلْفَ بَيْنَهُمْ إِنَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ (١٣)

وهو سبحانه الذي جمع بين قلوب عباده بعد التفرق ﴿وَأَلْفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ﴾ بعد الحمية والعصية، والقبلية والضغينة، والعداوة التي استمرت بين الأوس والخزرج في حروب بُعثت مئة وعشرين سنة، لا يكاد يأتلف منهم قلبان، فلما بُعث ﷺ وهاجر إلى المدينة انقلبت تلك الحال، فتحول البغض إلى حب، والتخاصم إلى مودة، والتفرق إلى اتحاد، فاجتمعوا واثتلفوا، وازدادت قوتهم بسبب اجتماعهم، وصاروا كالنفس الواحدة بعد أن كانوا متنازعين متفرقين، فوحدهم الله، وحبب إليهم الإيمان وزينه في قلوبهم وكره إليهم الكفر والفسوق والعصيان، وجعلهم من الراشدين فاثتلفت قلوبهم، وأبدلت تلك العداوة بالمحبة والمودة والألفة، وكانت عداوتهم قد بلغت مبلغاً بحيث ﴿لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا﴾ من الأموال والمتاع ﴿مَّا أَلْفَتْ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ﴾ بعد تلك التفرقة الشديدة، ولم يكن هذا يسعى أحد ولا بقوة أحد، إنما هو بقدرته الله تعالى ﴿وَلَكِنَّ اللَّهَ أَلْفَ بَيْنَهُمْ﴾ بفضلِهِ ورحمته، فجمع بين قلوبهم، ووحد كلمتهم، وأزال ما بينهم من ضغائن وأحقاد بقدرته تعالى، معجزة لرسول الله ﷺ.

قال القرطبي: وكان تأليف القلوب مع العصية الشديدة في العرب، من آيات النبي ﷺ ومعجزاته؛ لأن أحدهم كان يُلَطَّم اللطمة فيقاتل عليها، وكانوا أشد خلق الله حميةً،

فألف الله بينهم بالإيمان حتى قاتل الرجل أباه وأخاه بسبب الدين^(١).

أحاديث في معنى الآية:

١- وفي الحديث عن عبد الله بن زيد بن عاصم أن النبي ﷺ قال: «يا معشر الأنصار ألم أجدكم ضلّالاً فهداكم الله بي، وكنتم متفرقين فألفكم الله بي، وعالة فأغناكم الله بي»^(٢).

وفي هذا دليل على أن الألفة والمحبة تحصل بسبب الإيمان واتباع الرسول ﷺ، ولهذا قال ابن مسعود: نزلت هذه الآية في المتحابين في الله إذا تراءى المتحابان فتصافحا وتضاحكا تحاثت خطاياهما^(٣).

٢- وفي حديث أبي هريرة ؓ أن النبي ﷺ قال: «المؤمن مألّف، ولا خير فيمن لا يألف ولا يؤلف»^(٤).

٣- وعن سلمان الفارسي ؓ أن رسول الله ﷺ قال: «إن المسلم إذا لقي أخاه المسلم فأخذ بيده تحاثت عنهما ذنوبهما كما يتحات الورق عن الشجرة اليابسة في يوم ريح عاصف، وإلا غفر لهما ذنوبهما ولو كانت مثل زبد البحر»^(٥).

﴿إِنَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ وبِعِزَّتِهِ يَقْهَرُ من يخدعونك، وبِحُكْمَتِهِ يَنْصُرُ من يتبعونك.

وبهذه الوحدة يذكّر الله عباده بهذه النعمة العظيمة فيقول: ﴿وَأَذْكُرُوا لِلَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا وَكُنْتُمْ عَلَى شَفَا حُفْرَةٍ مِنَ النَّارِ فَأَنْقَذَكُمْ مِنْهَا﴾ [آل عمران: ١٠٣].

(١) «تفسير القرطبي» (٥٣/٨).

(٢) البخاري برقم (٤٣٣٠) انظر: كتاب المغازي ومسلم (١٠٨/٣) برقم (١٠٦١) كتاب الزكاة من حديث عبد الله بن زيد بن عاصم.

(٣) «تفسير ابن عطية» (٥٤٨/٢) أخرج النسائي إلى (في الله) في «السنن الكبرى» برقم (١١٢١٠) وصححه الحاكم في «المستدرک» (٣٢٩/٢) وورد شطره الثاني عن مجاهد في «تفسير الطبري» (٤٦/١٤).

(٤) «المسند» (٩١٩٨) والطبراني في الأوسط بإسناد حسن (٥٧٨٣) والحاكم (٢٣/١) والبيهقي في السنن (٢٣٦/١٠) وفي الشعب (٨١١٩) والبخاري (٣٥٩١) كشف الأستار.

(٥) «المعجم الكبير» للطبراني (٢٥٦/٦) قال الهيثمي في «مجمع الزوائد» (٣٧/٨): رجاله رجال الصحيح غير سالم بن غيلان، وهو ثقة.

ثم وعد الله عباده المؤمنين المتبعين لرسوله بالكفاية والنصر على الأعداء فقال :

٦٤- ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ هَاسَبَكَ اللَّهُ وَمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾

وتمضي الآيات فتثبت قلوب المؤمنين، وتبين أن الله تعالى كافيهم وناصرهم على عدوهم، وتبين أن القلة منهم تغلب الكثرة بإذن الله ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ هَاسَبَكَ اللَّهُ﴾ أي: إن الله كافيك وكافي الذين معك من المؤمنين شر أعدائكم، وناصرك ومؤيدك على أعدائك وإن كثر عددهم وقلّ عددكم، والواو من ﴿وَمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ بمعنى: مع، أي: أن الله يكفيك ويكفي من اتبعك، فلا يحتاجون إلى أحد غير الله، ومن كان الله حسبه وكافيه فليس بحاجة إلى نصرة أحد، لا من المؤمنين، ولا من غيرهم.

وقد نزلت هذه الآية بالبيداء قبل القتال في غزوة بدر، وكان عدد المسلمين الذين نصرهم الله في هذه الغزوة ثلث عدد الكفار، وكانت القوة وقتها بكثرة العدد، فقد قوى الله رسوله، ونصره في بدء الدعوة، ونصره حين أسلم معه ثلاثة وثلاثون رجلاً، وست نسوة، ثم أسلم عمر رضي الله عن الجميع، وكفاه الله شر مشركي مكة، وفي هذا المعنى أنزل الله هذه الآية^(١).

وفي رواية أخرى أنه لما أسلم تسعة وثلاثون رجلاً وامرأة، ثم أسلم عمر فصاروا أربعين، فنزلت الآية^(٢).

وهكذا ينصر الله المؤمنين في كل زمان ومكان، إن نصروا دين الله، وحققوا شرط الإيمان، والإخلاص في العقيدة، واتباع سيد المرسلين ﷺ، وأعدوا العدة المكافئة لعدة عدوهم.

مَتَى يَثْبُتُ الْمُؤْمِنُ أَمَامَ الْعَدُوِّ؟

٦٥- ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ هَاسَبَكَ اللَّهُ عَلَى الْقِتَالِ إِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ عَشْرُونَ صَبَرُوا بِأَنْتَيْنِ

(١) جاء هذا عن سعيد بن جبير عند ابن أبي حاتم (١٧٢٨/٥).

(٢) جاء هذا عن ابن عباس عند الطبراني (١٢٤٧٠) وأبو الشيخ وابن مردويه.

وَأِنْ يَكُنْ (١) مِنْكُمْ مِائَةٌ (٢) يَغْلِبُوا أَلْفًا مِّنَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَفْقَهُونَ ﴿٦٥﴾

هذا أمر بتحريض المؤمنين وحثهم على الجهاد في سبيل الله، لتقوى عزائمهم وتنشط هممهم، بعد الأمر بإعداد العدة وتهيئة النفوس للجهاد، فقال تعالى: ﴿يَتَأْتِيهَا النَّبِيُّ حَرَضُ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى الْقِتَالِ﴾ أي حُثُّهُمْ عَلَى قِتَالِ عَدُوِّهِمْ، فَرَغَّبَهُمْ فِيهِ، وَزَيَّنَّهُ لَهُمْ، وَزَهَّدَهُمْ فِي الدُّنْيَا، وَادَّكَرَ لَهُمْ فَضَائِلَ الشَّجَاعَةِ وَالصَّبْرِ، وَمُضَارَ الْجَبِينِ وَالتَّخَاذُلِ، وَمَا يَتَرْتَبُ عَلَى ذَلِكَ مِنْ خَيْرِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ:

كما قال ﷺ لأصحابه يوم بدر حين صفَّهم للقتال: «قوموا إلى جنة عرضها السموات والأرض» فقال عمير بن الحمام: عرضها السموات والأرض؟ قال: «نعم» قال عمير: بخ بخ، فقال ﷺ: «ما يحملك على قولك: بخ بخ» قال: رجاء أن أكون من أهلها، قال ﷺ: «فإنك من أهلها» فتقدم الرجل، فكسر جفن سيفه، وأخرج تمرات فجعل يأكل منهن، ثم ألقى بقيتتهن من يده، وقال: لئن أنا حييت حتى آكلهن، إنها لحياة طويلة، ثم تقدم فقاتل حتى قتل ﷺ (٣).

والخطاب موجه لكل قائد مسلم بأن يُحرِّض جنوده على مواجهة العدو ومناجزته، والتحريض هو: المبالغة في الحث والطلب ﴿إِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ عَشْرُونَ صَبْرُونَ﴾ على شدائد الحرب ﴿يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ﴾ من أعدائهم، - الواحد من المسلمين مقابل عشرة من الكفار - فقاتلوا أعداءكم - أيها المؤمنون - بشجاعة وإقدام، وصبر واحتساب، وإن قل عددكم وعدتكم، وكثر عددهم وعدتهم، فإن قوة الإيمان، وطلب الشهادة تصنع العجائب، وفي هذا بشرى بنصر أهل الإيمان القوي، المتصلين بربهم جلَّ وعلا، وإن زاد عدوُّهم عليهم في عدده وعدته عشرة أضعاف.

وقد قيَّد القرآن هذا النصر بالصبر والثبات والاحتساب فقال: ﴿عَشْرُونَ صَبْرُونَ﴾.

(١) قرأ أبو عمرو وعاصم وحزمة والكسائي ويعقوب وخلف العاشر بياء التذكير في (يكن)، والباقون بياء التانيث؛ لأن تانيث (مائة) مجازي، وللفضل بينهما شبهة الجملة، أما (يكن) التي قبلها فليس فيها إلا التذكير.

(٢) أبدل أبو جعفر الهمزة من (مائة) و (مائتين) ياء خالصة وصلًا ووقفًا، وكذا حمزة عند الوقف، والباقون بتحقيق الهمزة.

(٣) يُنْظَرُ: «صحيح مسلم» (٣/ ١٥١١) برقم (١٩٠١) من حديث أنس .

﴿وَأَنَّهُ صَابِرَةٌ﴾ ووصف الكفار ﴿يَأْتُهُمْ قَوْمٌ لَا يَفْقَهُونَ﴾ أي: بسبب أن أعداءكم لا يقاتلون لطلب ثواب من الله وخوف من عقابه، بل يقاتلون من أجل العلو في الأرض والفساد فيها، وأنتم تقاتلون لإعلاء كلمة الله، وحصول الفوز العظيم عند الله .

ومقابلة العشرين بالمتين، والمئة بالألف؛ لزيادة الاطمئنان، وبيان أن النصر للقلة المؤمنة الصابرة، لا يختلف ولا يتغير مع قلة العدد وكثرته، وفي الآية وعد كريم من الله تعالى بغلبة كل جماعة من المؤمنين على عشرة أمثالهم .

ثم أنزل الله تعالى يخفف عن المؤمنين هذه المعادلة، فقال:

٦٦- ﴿الَّذِينَ (١) خَفَّفَ اللَّهُ عَنْكُمْ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفًا (٢) فَإِنْ يَكُنْ (٣) مِنْكُمْ مِائَةٌ صَابِرَةٌ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ وَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ أَلْفٌ يَغْلِبُوا أَلْفَيْنِ بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ ﴿١١﴾﴾

ونسبة واحد إلى عشرة هي الأصل في ميزان القوى بين المؤمنين والكافرين، وفي أضعف حالات المسلمين الصابرين فإن هذه النسبة تكون: واحدًا إلى اثنين، فالواحد لا يفر أمام العشرة في حالة القوة، ولا يفر الواحد أمام الاثنين بحال .

فالحالة الأولى: بمثابة العزيمة . **والحالة الثانية:** بمثابة الرخصة .

وإعمال الآية أولى من إهمالها، أو القول بالنسخ،
وذهب بعض المفسرين إلى أن ثبوت الواحد للعشرة إنما كان على جهة ندب المؤمنين إليه، ثم حطَّ ذلك عنهم حين ثقل عليهم، إلى ثبوت الواحد للاثنين^(٤) .

(١) قرأ ورش وابن وردان بخلف عنه بنقل حركة همزة (الآن) إلى اللام قبلها مع حذف الهمزة، والباقون بعدم النقل ومعهم ابن وردان في الوجه الثاني، وقرأ الأزرق عن ورش بالقصر والتوسط والطول في مد البدل .

(٢) قرأ أبو جعفر بضم الضاد وفتح العين والفاء بعدها ألف، وبعد الألف همزة مفتوحة من غير تنوين في لفظ (ضعفاء) جمع ضعيف، وقرأ عاصم وحمة وخلف العاشر بفتح الضاد وسكون العين والتنوين (ضَعْفًا)، وقرأ الباقر مثل هذه القراءة إلا أنهم ضموا الضاد (ضُعْفًا) وهما مصدران بمعنى واحد، وقيل: الفتح في العقل والرأي، والضم في البدن .

(٣) قرأ عاصم وحمة والكسائي وخلف بالتذكير في (فإن يكن)، والباقون بالتأنيث، وليس في (يكن) التي بعدها إلا التذكير .

(٤) «تفسير ابن عطية» (٢/ ٥٥٠) .

وفي البخاري عن ابن عباس رضي الله عنه قال: لما نزلت ﴿إِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ عِشْرُونَ صَابِرُونَ يَغْلِبُوا مِائَتِينَ﴾ كُتِبَ عليهم ألا يفر واحد من عشرة، ولا عشرون من مئتين، ثم نزلت ﴿أَلَنْ خَفَّفَ اللَّهُ عَنْكُمْ﴾ فُكْتُبَ ألا يفر مئة من مئتين^(١) فلفظ (عنكم) يدل على أنه كان عزيمة لا ندباً.

وإذا كان الله مع الصابرين بعونه ونصره وتأيدته وقوته، فاحرصوا أن تكونوا منهم أيها المسلمون، لتنالوا السعادة في الدنيا والآخرة؛ لأن من كان الله معه لا يُغلب.

وفي الآية ترغيب في الثبات، وتبشير بالنصر، بشرط الصبر والثبات عند اللقاء.

وليس في ذكر المئة مقابل المئتين، ما يُغني عن ذكر الألف مقابل الألفين، إذ ليس بينهما تكرار؛ لأن المئة قد لا تغلب المئتين، ولا الألف يغلب الألفين، ويقال مثل ذلك في الآية قبلها.

وهكذا: فقد أمر الله المؤمنين - في أول الأمر - أن الواحد في ساحة القتال لا يجوز له أن يفر أمام العشرة من غير المسلمين، ثم خفف عنهم ذلك بأنه لا يجوز فرار الواحد من المسلمين أمام الاثنين من غيرهم، فإن زادوا على المثلين في العدد والعدة جاز لهم الفرار، وقد جاء الأمر بلفظ الخبر في الآية: تقوية لقلوب المؤمنين، وبشرى لهم بأنهم سيغلبون الكافرين، وفي تقييد العدد بالصبر، حث لهم على الشجاعة والصبر.

عَتَابُ اللَّهِ لِلْمُؤْمِنِينَ فِي شَأْنِ أُسَارَى بَدْرٍ

٦٧- ﴿مَا كَانَتْ لِنَبِيِّ أَنْ يَكُونَ^(٢) لَهُ أُسْرَى^(٣) حَتَّى يُمُخِّضَ فِي الْأَرْضِ تُرِيدُونَ عَرَصَ الدُّنْيَا وَاللَّهُ يُرِيدُ الْآخِرَةَ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٦٧﴾﴾

هذه الآية تتضمن عتاباً من الله ﷻ إلى أصحاب النبي ﷺ على رأيهم في شأن أسارى

(١) يُنظَر: «صحيح البخاري» برقم (٤٦٥٢، ٤٦٥٣) والنحاس في ناسخه ص (٤٧٠) والبيهقي في «السنن» (٧٦/٩).

(٢) قرأ أبو عمرو وأبو جعفر ويعقوب بناء التأنيث في (أن يكون) مراعاة لمعنى جماعة الأسرى، وقرأ الباقر بياء التذكير، مراعاة لمفرد الأسرى، وهو أسير.

(٣) قرأ أبو جعفر (له أسرى) بضم الهمزة وفتح السين وألف بعدها (أسارى)، والباقر بفتح الهمزة وإسكان السين من غير ألف (أسرى) وهما جمع أسير.

بدر، حيث أسر المسلمون سبعين من المشركين، وأبقوهم في الأسر لأجل الفداء، وكان رأى عمر رضي الله عنه قتلهم واستئصالهم، وذلك أن الإسلام يهدف إلى قوة المسلمين وإضعاف شوكة أعدائه بأي سبيل من السبل، وكان رأى أبي بكر رضي الله عنه أخذ الفدية منهم مقابل فك أسرهم.

قصة أساري بدر: وفي غزوة بدر لَمَّا قُتِلَ سبعون من المشركين، وأسر سبعون منهم جيء بهؤلاء الأسرى إلى النبي ﷺ فجمع صلوات الله وسلامه عليه كبار أصحابه: أبا بكر، وعمر، وعليًا، وعبد الله بن رواحة، وسعد بن معاذ، وأخذ يستشيرهم في شأن هؤلاء الأسرى ماذا يفعل بهم؟ حيث لم ينزل في شأنهم حتى هذه اللحظة حُكْم من الله سبحانه.

١- فأشار أبو بكر رضي الله عنه على النبي ﷺ قائلاً: يا رسول الله، هؤلاء بنو العم والعشيرة والإخوان، استبقهم؛ لعل الله يتوب عليهم، وخُذْ منهم الفدية نتقوى بها على الكفار، وعسى الله أن يهديهم للإسلام، فيكونوا لك عضداً، وقد مال النبي ﷺ إلى هذا الرأي.

٢- وقال عمر: يا رسول الله، هؤلاء صناديد الكفار وأئمتهم كذبوك، وكفروا بك، وأخرجوك من ديارك وقاتلوك، فالرأي عندي أن تُمَكِّنِي من فلان -قريب له- وتمكن عليًا من (عقيل) فيقتله، وأن تمكن (حمزة) من (العباس) فيقتله حتى يعلم الله أن ليس في قلوبنا هودة للمشركين، وكان العباس عم النبي ﷺ ضمن الأسرى.

٣- وقال عبد الله بن رواحة: انظر وادياً كثير الحطب، فأضرمه ناراً ثم ألقهم فيه. فقال ﷺ: «إِنَّ اللَّهَ لَيَلَيِّنُ قُلُوبَ رِجَالٍ حَتَّى تَكُونَ أَلْيَنُ مِنَ اللَّبَنِ، وَيَشَدُّ قُلُوبَ رِجَالٍ حَتَّى تَكُونَ أَشَدَّ مِنَ الْحِجَارَةِ، ثُمَّ قَالَ ﷺ: مِثْلُكَ يَا أَبَا بَكْرٍ، كَمِثْلِ إِبْرَاهِيمَ عليه السلام حِينَ قَالَ: ﴿رَبِّ إِنِّهِنَّ أَضَلَّلْنَ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ فَمَنْ يَبْعِنِي فَإِنَّهُ مِنِّيْ وَمَنْ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [٣٦] [إبراهيم] وكمثل عيسى عليه السلام حِينَ قَالَ عَنْ قَوْمِهِ: ﴿إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [١٣١] [المائدة].

ومثلك يا عمر، كمثل نوح حين قال: ﴿رَبِّ لَا تَذَرْنِي عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا﴾ [٦٦] إِنَّكَ إِنْ تَذَرَهُمْ يُضِلُّوْا عِبَادَكَ وَلَا يَلْدُوْا إِلَّا فَاِجْرًا كَفَّارًا﴾ [نوح]

وكمثل موسى حين قال: ﴿رَبَّنَا إِنَّكَ آتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلَأَهُ زِينَةً وَأَمْوَالًا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا رَبَّنَا لِيُضِلُّوْا عَنْ سَبِيلِكَ رَبَّنَا اطْمِسْ عَلَى أَمْوَالِهِمْ وَاشْدُدْ عَلَى قُلُوْبِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُوْا حَتَّى يَرَوْا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ﴾ [يونس: ٨٨].

وأخذ النبي ﷺ برأي أبي بكر، فقبل منهم الفداء.

فلما كان من الغد، جاء عمر، فوجد النبي ﷺ وأبا بكر يبيكان، قال: ما يبكيك يا رسول الله، لعلي أبكي معكما إذا عرفتُ السبب، أو أتباكى كبكائكما إن لم أجد بكاء، فقال النبي ﷺ: «أبكي للذي عرض عليَّ أصحابك من الفداء، وقد كان عذابهم أقرب إليَّ من هذه الشجرة»، وأشار إلى شجرة قريبة منه، فأنزل الله سبحانه هذه الآية من سورة الأنفال يذكُر فيها رأي عمر ومن معه، ويترك رأي أبي بكر الذي مال إليه النبي ﷺ.

وبينَّ الله ﷻ أن المسلمين في هذه المرحلة، ما دام عددهم قليلاً وعدد الكفار أكثر، فإن الواجب عليهم إضعاف شوكة المشركين بالإكثار من قتلهم؛ حتى يقوى المسلمون، وتقوى دعوتهم إلى الله ﷻ^(١).

إذ ربما أضمّر المشركون بعد رجوعهم إلى مكة أن يتأهبوا لقتال المسلمين فيما بعد، أو يعودوا لقتالهم من موضع قريب، فينقلب انتصار المسلمين إلى هزيمة، كما حدث يوم أُحُد، ولأجل هذا أنزل الله التخيير في شأن الأسرى.

قال ابن العربي: روى عبيدة السلماني عن علي عليه السلام، أن جبريل أتى النبي ﷺ يوم بدر فخيرَه بين أن يُقرب الأسارى فيضرب أعناقهم، أو يقبل منهم الفداء، ويُقتل منكم في العام المقبل بعدتّهم، فقالوا: يا رسول الله، نأخذ الفداء، فنقوى على عدونا، ويُقتل منا في العام المقبل بعدتّهم، ففعلوا^(٢).

(١) يُنظر نص الحديث عن ابن مسعود رضي الله عنه في «المسند» (٣٨٣/١) برقم (٣٦٣٢) قال محققوه: وفي إسناده ابن عبد الله بن مسعود لم يسمع من أبيه، وبقيّة رجاله ثقات رجال الشيخين، وأبي داود برقم (٢٦٩٠) والترمذي (١٣٤/٢) برقم (١٧١٤، ٣٠٨٤) وحسنه والطبري (٦٣/١٤) وأخرجه الطبراني في الكبير (١٠٢٥٧) و«المستدرک» (٣٢٩/٢) وصححه الحاكم ووافقه الذهبي، وأخرجه أيضاً ابن أبي شيبة (٤١٧/١٢). ولبعظه شاهد من حديث عمر في صحيح مسلم (١٧٦٣).

(٢) صححه الحاكم على شرط الشيخين، يُنظر: «المستدرک» (١٤٠/٢) والبيهقي في «الدلائل» (١٣٩/٣) ورواه الطبري في تفسيره مرسلاً (٦٧/١٤) وانظر: «تفسير التحرير والتنوير» (٧٢/١٠) و«تفسير ابن كثير» (٨٩/٤) من طريق سفيان الثوري عن ابن سيرين.

والكلام في الآية موجه للذين أشاروا بالفداء، وليس موجهاً إلى النبي ﷺ؛ لأنه لم يفعل إلا ما أمر به من مشاورة أصحابه لقوله تعالى: ﴿وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ﴾ [آل عمران: ١٥٩] يدل عليه قوله تعالى: ﴿تُرِيدُونَ عَرَضَ الدُّنْيَا﴾ فإن الذين أرادوا عرض الدنيا هم الذين أشاروا بالفداء.

وقد أنكر الله على رسوله أن يُمَنَّ على الأسرى بإطلاق سراحهم؛ لأن هذا ينافي الغاية، وهي ﴿حَتَّى يُخْرِجَ فِي الْأَرْضِ﴾ فتعيَّن أن يكون المقصود قتل الأسرى نظراً لضعف المؤمنين وقوة المشركين.

والإثخان معناه: حتى يتمكن سلطانه وأمره في الأرض، ويكثر من جراح العدو، وتكون له الغلبة عليه، وحَصْدُ شوكته وقوته كما قال تعالى: ﴿أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ﴾ [الفتح: ٢٩] وهو مسلك سياسي عارض، يخالف ما بُني عليه الإسلام من التيسير والرفق.

والآية تعتب على المسلمين أنهم آثروا الفداء على القتل، والإثخان في الأرض، فقد كان الأولى بهم أن يبالغوا في قتل أعدائهم، ولا يقبلوا منهم فداء؛ حتى يُذْلَوْهم ويُعْزِزوهم عن معاودة الكرة.

وقد استقر الحكم في الأسرى عند جمهور العلماء: على أن الحاكم مخير بين ثلاثة أشياء:

١- القتل، كما حدث لبني قُرَيْظَةَ.

٢- أو الفدية بالمال، كما حدث لأسرى بدر، أو الفدية بأسرى المسلمين، كما حدث للجارية وابنتها اللتين كانتا في سبي سلمة بن الأكوع، حيث ردهما، وأخذ في مقابلتهما من المسلمين الذين كانوا في أسر المشركين.

٣- وإن شاء الحاكم استرقَّ الأسرى وأبقاهم عنده.

﴿مَا كَانَتْ لِنَبِيِّ أَنْ يَكُونَ لَهُ أُسْرَى﴾ هذا نفى بمعنى النهي، معناه: ما ينبغي، ولا يستقيم، ولا يصح لنبي أن يحبس الأسرى من الكفرة، ويستبقيهم عنده ﴿حَتَّى يُخْرِجَ فِي الْأَرْضِ﴾ أي: يكثر من جراح الأعداء، ويغلبهم ويقهرهم؛ ليُدْخِلَ الرعب في قلوبهم ويوطِّدَ دعائم الدين؛ حتى يقوى جانب الإسلام، ويضعف جانب المشركين.

قال سبحانه لجمهور من شارك في غزوة بدر من المسلمين: ﴿تُرِيدُونَ عَرَضَ الدُّنْيَا﴾

بأخذ الفداء الذي يفتدي به المشركون أنفسهم وهو عَرَض زائل، وقد فُرض على كل أسير أن يدفع أربعين أوقية، والأوقية: أربعون درهماً، يدفعها فداء فكه من الأسر.

وفيه عتاب على أخذ الفداء لحرص بعض المسلمين على المال، كقول المقداد حين أمر الرسول بقتل عقبة بن أبي معيط: أسيري يا رسول الله، وقول مصعب بن عمير للذي يأسر أخاه: شُدَّ يدك عليه، فإن له أُمًّا مُوسرة، إلى غير ذلك. وبكاء الرسول وأبي بكر كان على الميل لهذا الرأي.

وكان سعد بن معاذ في نفر من أصحابه يحرسون عريش رسول الله الذي كان فيه يوم غزوة بدر، فرأى ﷺ في وجهه الكراهية لما يصنع الناس، فقال ﷺ: «والله لكأنك يا سعد تكره ما يصنع القوم؟» فقال: أجل والله يا رسول الله، كانت هذه أول وقعة أوقعها الله بأهل الشرك، فكان الإثخان في القتل أحب إليّ من استبقاء الرجال^(١).

وكان هذا رأي عمر أيضاً، كما سبق ولكن انتصار النبي ﷺ في الغزوة جعله يُغلب جانب استبقاء الرجال على قتلهم قبل أن يخيره الله فيهم.

وقد بين سبحانه لأصحاب هذا الرأي أنهم يحبون منافع الدنيا، والله تعالى يحب لهم ثواب الآخرة ﴿وَاللَّهُ يُرِيدُ الْآخِرَةَ﴾ أي: والله يريد إظهار دينه، الذي يدرك به ثواب الآخرة ﴿وَاللَّهُ عَزِيزٌ﴾ لا يُقهر ﴿حَكِيمٌ﴾ في صنعه وتدبيره.

وكان النبي ﷺ قد مال إلى رأي أبي بكر؛ لأنه لم يوح إليه في أمر الأسرى بشيء، ووكل إلى اجتهاده، فاستشار أصحابه، وكان ﷺ إذا خيّر بين أمرين اختار أيسرهما ما لم يكن فيه إثم.

وكان من ثمرة اجتهاده ﷺ في الأخذ بأيسر الأمرين: أن أسلم سهيل بن بيضاء، وكان ابن مسعود يقول عنه للنبي ﷺ: إنه يذكر الإسلام، فسكت رسول الله ﷺ، قال ابن مسعود: فما رأيُني في يوم أخوف أن تقع عليّ حجارة من السماء مني في ذلك اليوم، حتى قال ﷺ: «إلا سهيل بن بيضاء» فأنزل الله الآية، وأسلم بعده العباس، وغيره.

هذا: ولما كانت غزوة بدر هي المعركة الأولى، وكان المسلمون لم يزالوا قلة أمام

(١) من رواية ابن إسحاق، في «الروض الأنف» للسهيلي (١٠٦/٥).

المشركين، وكان الله تعالى يريد أن يثبت في قلوب المسلمين ما قاله عمر: حتى يعلم الله أن ليس في قلوبنا هودة للمشركين، فإنه لما كثّر المسلمون، واشتد سلطانهم نزلت آية تُخَيِّر المسلمين بين المنّ على الأسرى وإطلاق سراحهم، وبين أخذ الفداء منهم وهي قوله تعالى: ﴿فَإِذَا لَقِيتُمْ الَّذِينَ كَفَرُوا فَضَرْبَ الرِّقَابِ حَتَّىٰ إِذَا أَنتَحَمْتُمُوهُمْ فَشُدُّوا الْوَثَاقَ فَإِمَّا مَنًّا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَاءً حَتَّىٰ تَضَعَ الْحَرْبُ أَوْزَارَهَا﴾ [محمد: ٤] ^(١). قال تعالى:

٦٨- ﴿لَوْلَا كِتَابٌ مِّنَ اللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمَا أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾

وفي تحليل فداء أسرى بدر وإلحاقه بالغنائم: ما أخرجه ابن أبي حاتم وغيره بسنده عن خيثمة قال: كان سعد جالساً ذات يوم، وعنده نفر من أصحابه، إذ ذكر رجلاً، فقالوا منه، فقال: مهلاً عن أصحاب رسول الله، فإننا أذنبنا مع رسول الله ذنباً فأنزل الله ﷻ ﴿لَوْلَا كِتَابٌ مِّنَ اللَّهِ سَبَقَ﴾ فكان نرى أنها رحمة من الله سبقت ^(٢).

وأخرج الترمذي وغيره عن أبي هريرة ؓ أن النبي ﷺ قال: «لَمْ تَحِلَّ الْغَنَائِمُ لِأَحَدٍ، سُودِ الرُّؤُوسِ مِنْ قَبْلِكُمْ كَانَتْ تَنْزِلُ نَارٌ مِنَ السَّمَاءِ فَتَأْكُلُهَا» قال سليمان بن الأعمش: فمن يقول هذا إلا أبو هريرة الآن، فلما كان يوم بدر، وقعوا في الغنائم قبل أن تحلّ لهم، فأنزل الله تعالى ﴿لَوْلَا كِتَابٌ مِّنَ اللَّهِ سَبَقَ﴾ ^(٣).

وفي الصحيحين وغيرهما عن جابر بن عبد الله ؓ أن النبي ﷺ قال: «أُعْطِيَ خَمْسًا لَمْ يُعْطَ أَحَدٌ قَبْلِي: نُصِرْتُ بِالرَّعْبِ مَسِيرَةَ شَهْرٍ، وَجُعِلَتْ لِي الْأَرْضُ مَسْجِدًا وَطَهْرًا، فَأَيُّمَا رَجُلٍ مِنْ أُمَّتِي أَدْرَكْتَهُ الصَّلَاةَ فَلْيُصَلِّ، وَأُحِلَّتْ لِي الْغَنَائِمُ وَلَمْ تَحِلَّ لِأَحَدٍ قَبْلِي،

(١) يُنْظَرُ: «زاد المسير»، والفخر الرازي والبغوي والخازن وغيرهم في تفسير الآية وقد أخرج الطبري هذا المعنى بسند حسن عن علي بن أبي طلحة عن ابن عباس.

(٢) «تفسير ابن أبي حاتم» لسورة الأنفال (١٧٣٤/٥) حديث برقم (٦٦٠) وابن عساكر (٣٥٨/٢٠) وانظر: «المطالب العالية المسندة» ق. (١٦٦)/أ وصححه الحاكم على شرط الشيخين ووافقه الذهبي (٣٢٩/٢) من طريق عبد الله بن عمر مطولاً، وإسناده حسن.

(٣) قال أبو عيسى: هذا حديث حسن صحيح غريب من حديث الأعمش، «سنن الترمذي» برقم (٣٠٨٥) وصححه الألباني في «صحيح سنن الترمذي» برقم (٢٤٦٣) وفي «السلسلة الصحيحة» برقم (٢١٥٥) وصححه أحمد شاكر في «تفسير الطبري» برقم (١٦٣٠١، ١٦٣٠٢) وأخرجه ابن حبان في صحيحه: الإحسان برقم (٤٨٠٦).

وَأُعْطِيتِ الشَّفَاعَةَ، وكان النبي يبعث إلى قومه خاصة، وُبُعِثَتْ إلى الناس عامة^(١).

قال ابن عباس: كانت الغنائم محرمة على الأنبياء والأمم قبل الإسلام، فإذا أصابوا مغنماً جعلوه للقربان، فكانت النار تنزل من السماء فتأكله، فلما كان يوم بدر، أسرع المؤمنون في أخذ الغنائم والفداء، فأُنزل الله تعالى هذه الآية، أي:

١- لولا حكم من الله سبق إثباته في اللوح المحفوظ أنه لا يعاقب أحداً على خطئه في اجتهاده.

٢- ولولا كتاب من الله سبق به القضاء والقدر بإباحة الغنيمة وفداء الأسرى لهذه الأمة.

٣- ولولا أن الله تعالى قضى ألا يعذب أحداً بذنب إلا بعد النهي عنه.

٤- ولولا حكم من الله سبق ألا يعذب أحداً ممن شهد بدرًا بذنب.

٥- ولولا كتاب من الله سبق به القضاء والقدر أن الله تعالى قد رفع عذاب الاستئصال عن هذه الأمة.

والجواب عن هذه الخمس:

أي: لَنَالَكُم عَذَابَ عَظِيمٍ، بسبب أخذكم الغنيمة والفداء قبل أن ينزل فيهما تشريع.

والآية تشمل هذه المعاني الخمسة.

وكان الله تعالى قد أحل الغنائم لهذه الأمة قبل غزوة بدر، في السَّرِيَّةِ التي قُتِلَ فيها عمرو بن الحضرمي، وقد مَنَّ الله على المسلمين في هذه الآية بإلحاق فدية الكفار بالمغانم التي سبق تحليلها، وهي أول غزوة كبرى يحدث فيها تحليل الغنائم، ولذا: كان التعويل عليها.

وقد صح عن رسول الله ﷺ أنه قال: «وَأُحِلَّتْ لِي الْغَنَائِمُ وَلَمْ تَحُلْ لِأَحَدٍ قَبْلِي» وهي من خصائص هذه الأمة ولم تحل لأحد قبلنا.

ولمن حضر غزوة بدر من الصحابة منزلة خاصة، فهم الذين قال فيهم رسول الله ﷺ

(١) «صحيح البخاري» برقم (٣٣٥) و«صحيح مسلم» برقم (٥٢١) وعن أبي هريرة في صحيح النسائي (١٢٥٧) وإرواء الغليل (٢٨٥) وللحديث طرق أخرى.

وهو يخاطب عمر رضي الله عنه : «وما يدريك لعل الله تعالى اطلع على أهل بدر وقال: اعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم».

فالله تعالى لن يعذب أهل بدر على ذنب اقترفوه، ولا يعذب منهم مجتهداً أخطأ في اجتهاده.

وقال محمد بن إسحاق: لم يكن من المؤمنين أحد ممن حضر بدرًا، إلا وأحبَّ الغنائم، إلا عمر بن الخطاب، فإنه أشار بقتل الأسرى، وسعد بن معاذ، فإنه قال: يا رسول الله، كان الإثخان في القتل أحبَّ إليَّ من استبقاء الرجال، فقال ﷺ: «لو نزل عذاب من السماء ما نجا غير عمر وسعد بن معاذ» وكان سعد قد كره الفداء من الأسرى^(١).

وفي الأثر «لو نزل عذاب يوم بدر، ما نجا منه إلا عمر»

والعذاب المتوعد به في الآية، هو عذاب الدنيا وهو غير مسبوق بغضب الله؛ لأن عذاب الآخرة يكون على مخالفة أمر الله، ومغانم بدر لم يسبق فيها نهى من الله تعالى. قال تعالى:

٦٩- ﴿فَكُلُوا مِمَّا غَنِمْتُمْ حَلَالًا طَيِّبًا وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾

ولما نزلت آية حكم الأسرى كفَّ المسلمون أيديهم عن الفداء، وامتنعوا من قبوله حتى أنزل الله هذه الآية، وفيها أن الله تعالى أباح لرسوله وأباح لأمته أكل الغنائم وأخذ الفدية من الأسرى بعد أن كانت محرمة على الأمم السابقة.

﴿فَكُلُوا مِمَّا غَنِمْتُمْ حَلَالًا طَيِّبًا﴾ هذا جُلُّ بعد تحريم، حيث كانت الغنائم محرمة قبل ذلك على الأمم قبلنا، ونصَّ على إباحة المال الذي أخذ من الكفار وإلحاقه بالمغانم ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ﴾ في جميع أموركم في المستقبل والحاضر، وحافظوا على أحكام دينه وتشريعاته ﴿إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ﴾ لعباده إذا تابوا وأنابوا إليه ﴿رَحِيمٌ﴾ بهم، حيث أباح لهم الغنائم وجعلها حلالاً طيباً.

وقد غفر الله لكم ما أقدمتم عليه من ذنب، ورحمكم، وكان العباس وبعض أهل مكة جاؤوا إلى النبي ﷺ حين بُعث، وقالوا له: نريد أن ندخل في الإسلام، ونشهد أن لا إله

(١) «الروض الأنف» في شرح «سيرة ابن هشام» (١٠٦/٥) و«تفسير الطبري» (٤٨/١٠).

إلا الله، وأنت رسول الله، ولكننا نخاف من هؤلاء القوم الذين لم يهاجروا، وبقوا في مكة حين هاجر المسلمون إلى المدينة، وهم الذين قال الله تعالى في الذين قتلوا منهم يوم بدر: ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّيْنَاهُمُ الْغَالِيْنَ أَنفُسِهِمْ قَالُوا فِيمَ كُنْتُمْ قَالُوا كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي الْأَرْضِ قَالُوا أَلَمْ تَكُنْ أَرْضَ اللَّهِ وَسِعَةً فَهَاجِرُوا فِيهَا قَالُوا لَيْكَ مَاؤُهُمْ جَهَنَّمُ وَسَاءَتْ مَصِيرًا ﴿٩٧﴾﴾ [النساء].

ومعنى الآية: لقد عفوت عنكم - أيها المؤمنون - ما وقعتم فيه من تفضيلكم أخذ الفداء من الأسرى على قتلهم، وأبحث لكم الانتفاع بالغنائم، فكلوا مما غنمتم من أعدائكم حالاً طيباً لا شبهة في أكله ولا ضرر، واتقوا الله في كل أحوالكم واحشوه وراقبوه؛ فإن الله غفور لمن فرط منكم، وهو واسع الرحمة والمغفرة لمن اتقاه ورجع إليه.

مَنْ يَفْقِدْ مَالَهُ بِسَبَبِ مِحْنَةٍ إِسْلَامِيَّةٍ يُعَوِّضْهُ اللَّهُ خَيْرًا مِنْهُ

٧٠- ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لِمَنْ فِي أَيْدِيكُمْ مِنَ الْأَسْرَى^(١) إِنْ يَعْلَمِ اللَّهُ فِي قُلُوبِكُمْ خَيْرًا يُؤْتِكُمْ خَيْرًا مِمَّا أَخَذَ مِنْكُمْ وَيَغْفِرَ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٧٠﴾﴾

نزلت هذه الآية في شأن بعض الأسرى الذين ظهر منهم رغبة في الإسلام قبل غزوة بدر، ومنهم العباس، وعقيل، والحارث، ونوفل، وغيرهم، لترغيبهم في الإسلام في المستقبل. وكان بعضهم قد ادعى أنه أسلم قبل ذلك فلم يسقطوا عنه الفداء، فأنزل الله هذه الآية جبراً لخاطرهم، ومن كان على مثل حالهم، وهي عامة في كل من يفقد ماله بسبب دخوله في الإسلام.

قصة العباس عليه السلام: قال العباس: في نزلت هذه الآية حين أخبر رسول الله ﷺ بإسلامي فسألته أن يحاسبني بالعشرين أوقية التي أخذت مني يوم بدر، فأبى رسول الله ﷺ فأعطاني الله بالعشرين أوقية عشرين عبداً كلهم تاجر يضرب بمالي مع ما أرجو من مغفرة الله ورحمته^(٢).

(١) قرأ أبو عمرو وأبو جعفر (من الأسرى) بضم الهمزة وفتح السين وألف بعدها (الأسارى)، وقرأ الباقر بفتح الهمزة وإسكان السين من غير ألف (الأسرى) وهما جمع أسير.

(٢) أخرجه إسحاق بن راهويه في مسنده كما في «المطالب العالية» (٣٩٩٣) وأخرجه الطبري (٢٨٤/١) وابن أبي حاتم (١٧٣٧/٥) والطبراني (٨١٠٧).

ولما قال العباس عليه السلام: «إني كنت مسلماً يا رسول الله، قال: «الله أعلم بإسلامك، فإن تكن كما تقول فالله يجزيك، فأفد نفسك وابني أخوك: نوفل بن الحارث، وعقيل بن أبي طالب، وحليفك عتبة بن عمرو. قال العباس: ما ذاك عندي يا رسول الله، قال: فأين المال الذي دفنت أنت وأم الفضل، فقلت لها: إن أصبت فهذا المال لبني: الفضل، وعبد الله، وقثم؟» فقال: والله يا رسول الله إني أشهد أنك رسول الله، إن هذا لشيء ما علمه أحد غيري وغيرها، فأحسب لي يا رسول الله ما أصبتم مني، عشرين أوقية من مال، كانت معي، فقال عليه السلام: «أفعل» ففدى العباس نفسه وابني أخويه وحليفه، فنزلت الآية، فقال العباس: فأعطاني مكان العشرين أوقية في الإسلام عشرين عبداً، كلهم في يده مال يضرب به، مع ما أرجو من مغفرة الله تعالى^(١).

والآية وإن كانت قد نزلت في العباس فهي عامة في كل من ينطبق عليه المعنى.

وكان العباس بن عبد المطلب -عم النبي عليه السلام- ضمن أسرى بدر، وكان أحد عشر رجلاً تكفلوا بإطعام جيش المشركين الذي خرج من مكة لحرب النبي عليه السلام، وكان العباس قد أخذ معه عشرين أوقية من ذهب؛ ليُطعم بها المشركين عند مجيء نوبته، فكانت نوبته يوم الغزوة نفسها، حيث اقتتل الفريقان، ولم يُطعم شيئاً، فلما وقع في الأسر، أخذ منه المال، فكلم النبي عليه السلام أن يحسب هذه العشرين أوقية من فدائه، فأبى رسول الله عليه السلام وقال: «أمّا شيء خرجت به لتستعين به علينا فلا أتركه لك» وكلفه فداء ابني أخويه: عقيل، ونوفل. فقال العباس: يا محمد، تتركني أتكفف ما بقيت؟ فقال رسول الله عليه السلام: «فأين الذهب الذي دفنته أم الفضل وقت خروجك من مكة، وقلت لها: إني لا أدري ما يصيبني في وجهي هذا، فإن حدث لي حدث، فهو لك، ولعبد الله، وعبيد الله، والفضل، وقثم» يعني أبناءه، فقال العباس: وما يدريك يا بن أخي؟ قال: «أخبرني به ربي» قال العباس: أشهد أنك صادق، وأشهد أن لا إله إلا الله، وأنت عبده ورسوله، لم يطّلع على

(١) صححه الحاكم على شرط مسلم ووافقه الذهبي (٢٣/٣) والبيهقي (٣٢٢/٦) وأصل الحديث في «سنن أبي داود» برقم (٢٦٩٢) وحسنه الألباني في «صحيح أبي داود» برقم (٢٣٤١) وأخرجه الطبري بسنده الحسن إلى علي بن أبي طلحة عن ابن عباس، وله شاهد في «المعجم الكبير» للطبراني برقم (١١٣٩٨) وفي تفسير ابن أبي حاتم برقم (٦٨٣).

ما قلته أحد إلا الله، وأمر العباس ابني أخويه: عقيل بن أبي طالب، ونوفل بن الحارث، فأسلما، فذلك قوله تعالى: ﴿يَتَأَيَّأُ الْيَتَّى قُلُ لِّمَن فِي أَيَّدِيكُم مِّنَ الْأَسْرَى﴾ أي: الذين أسرّتهم يوم بدر، ومنهم العباس.

ولما بعث العلاء بن الحضرمي إلى رسول الله ﷺ بمال من البحرين ثمانين ألفاً، لم يأت رسول الله ﷺ مال أكثر منه، فثبث على حصير في المسجد، وجاء الناس، فجعل رسول الله ﷺ يعطيهم، وما كان يومئذ عدد ولا وزن، فجاء العباس، فقال: يا رسول الله، إني أعطيت فدائي وفداء عقيل يوم بدر، أعطني من هذا المال، فقال: «خذ» فحثاً في خميصته، ثم ذهب ينصرف فلم يستطع، فرفع رأسه وقال: يا رسول الله ارفع عليّ، فتبسم رسول الله ﷺ وقال له: «أعد من المال طائفة، وقم بما تطيق» ففعل وأخذ يقول وهو منطلق: أمّا إحدى اللتين وعدنا الله، فقد أنجزنا، وما ندري ما يصنع في الأخرى، وقرأ الآية، ثم قال: فهذا خير مما أخذ مني، ولا أدري ما يُصنع في المغفرة^(١).

قل لهم: لا تأسؤا على الفداء الذي أخذ منكم ﴿إِن يَعْلَمَ اللَّهُ فِي قُلُوبِكُمْ خَيْرًا﴾ أي: إيماناً وتصديقاً ﴿يُؤْتِكُمْ خَيْرًا مِّمَّا أَخَذَ مِنْكُمْ﴾ أي: يعطكم أفضل من الفداء والمال الذي أخذ منكم، ويشرح صدوركم للإسلام ﴿وَيَغْفِرَ لَكُمْ﴾ ذنوبكم التي سلفت قبل أن تُسلموا ﴿وَاللَّهُ غَفُورٌ﴾ لمن آمن وتاب من كفره ومعاصيه ﴿رَحِيمٌ﴾ بأهل طاعته.

قال العباس: فأبدلني الله عشرين عبداً، يتاجر أدناهم في عشرين ألف درهم، وأعطاني زمزم، وما أحب أن لي بها جميع أموال أهل مكة، وأنا أنتظر المغفرة من ربي.

ومن الذين أسروا يوم بدر، المستضعفون الذين تركوا الهجرة خوفاً من المشركين فهم يرجون رحمته سبحانه.

ولما قال العباس: إني كنت مسلماً، قال عليه الصلاة والسلام: «الله أعلم بحقيقة إسلامك» ولكن الذي يظهر لنا أنك خرجت ضدنا مع المشركين الذين قالوا: لا يبقى أحد منا في مكة، ولا يخرج إلى بدر، ومن لم يخرج سنهدم بيته ونستحل أمواله، فخرج هؤلاء

(١) ابن سعد (١٥/٤) وصححه الحاكم على شرط مسلم ووافقه الذهبي (٣/٣٢٩) وانظر: «صحيح البخاري» برقم (٤٢١، ٣٠٤٩، ٣١٦٥) عن أنس.

-ومنهم العباس- مكرهين للقتال مع المشركين ضد المسلمين، ولم يكن في قلوبهم نية الخروج، ولذلك أنزل الله سبحانه في شأن العباس: ﴿إِنْ يَعْلَمِ اللَّهُ فِي قُلُوبِكُمْ خَيْرًا يُؤْتِكُمْ خَيْرًا مِمَّا أَخَذَ مِنْكُمْ وَيَغْفِرَ لَكُمْ﴾ أي: إن كنت صادقًا في أنك كنت مسلمًا، فإن الله سيعوضك خيرًا في الدنيا والآخرة، وقد كان.

وفي هذا جاء الأثر عن ابن عباس مرفوعًا: «إني قد عرفت أن أناسًا من بني هاشم وغيرهم قد خرجوا كُرْهًا لا حاجة لهم في قتالنا، فمن لقي منهم أحدًا فلا يقتله»^(١).

إطلاق أبي العاص من الأسر:

وعن عائشة ؓ قالت: لما بعث أهل مكة في فداء أسراهم، بعثت زينب بنت رسول الله ﷺ في فداء أبي العاص، وبعثت فيه بقلادة كانت خديجة أدخلتها بها على أبي العاص حين بنى عليها، فلما رآها رسول الله ﷺ رَقَّ رَقَّةً شديدة، وقال: «إن أردتم أن تطلقوها أسيرها وتردوها عليها الذي لها فافعلوا» قالوا: نعم يا رسول الله.

تَكَرَّرُ غَدْرِ الْعَدُوِّ

٧١- ﴿وَإِنْ يُرِيدُوا خِيَانَتَكَ فَقَدْ خَانُوا اللَّهَ مِنْ قَبْلُ فَأَمْكَنَ مِنْهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾^(٦)

في هذه الآية تحذير من خيانة النبي ﷺ في كل زمان ومكان وبيان أنه تعالى قادر على من يخون رسوله، وأنه تحت قبضته وتصرفه، ثم إن كان هؤلاء الذين أطلق النبي ﷺ سراحهم من الأسر، يُضْمَرُونَ الغدر برسول الله ﷺ مرة أخرى، فلا تيأس منهم يا محمد؛ لأنهم قد خانوا الله من قبل، فحاربوك ونصرك الله عليهم،

وفي هذا تطمين للمسلمين بأن يمكنهم الله من عدوهم مرة أخرى إن عادوا إلى خيانتهم، وأنهم لن يضروهم بحول الله، ما داموا في معية الله تعالى ناصرين دينه.

وفي الآية خطاب للنبي ﷺ لبيان أنه إن كان هؤلاء الأسرى يظهرهم الإسلام نفاقًا، فقد خانوا الله قبل يوم بدر، حين خرجوا مع المشركين، وحين كفروا بالله، فأمكنك الله من رقابهم، وصاروا أسرى تحت يدك ﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ﴾ بما تنطوي عليه الصدور

(١) ابن سعد عن ابن إسحاق (٤/١٠)، وتفسير ابن كثير (٢/٣٢٧).

﴿حَكِيمٌ﴾ في تدبير شؤون عباده، يضع الأشياء في مواضعها، ومن علمه وحكمته أن شرع لكم هذه الأحكام، وتكفل بكفائتكم شر عدوكم إن أراد خيانتكم.

أَنْوَاعُ النَّاسِ وَقَتِ التَّنْزِيلِ، أَوَّلًا: الْمُهَاجِرُونَ وَالْأَنْصَارُ

٧٢- ﴿إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَنَّهُدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ ءَاوُوا وَنَصَرُوا أُولَئِكَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ﴾

هذه الآية وما بعدها تبيّن منازل المهاجرين والأنصار، ومنازل المؤمنين الذين لم يهاجروا والكفار، والمهاجرين بعد الحديبية، وقُدّمت الآيات المهاجرين ثم الأنصار، ثم الذين لم يهاجروا، ثم الكفار، ثم المهاجرين مؤخرًا، فهؤلاء أربعة أنواع، وثلاث مراتب للذين أسلموا، فيها علاقة المسلمين ببعضهم، وعلاقتهم بغيرهم، والأحكام المنظّمة لهذه العلاقات.

وذلك أنه قد نشأ عن قول العباس بن عبد المطلب حين أُسر يوم بدر أنه مسلم، وأن المشركين أكرهوه على الخروج إلى بدر، وأن بعض المسلمين قد عطفوا عليه وعلى أمثاله، وظنوا أنهم أولياء لهم.

فأخبر الله المسلمين بحكم التعامل مع من آمن واستمر على البقاء بدار الشرك، وبيّن منزلة المهاجرين قبل صلح الحديبية وبعده من المؤمنين الذين لم يهاجروا، وذكر ولاية الكفار لبعضهم.

فبيّن ﷺ أن الموالاة والمحبة والنصرة بين المسلمين سبب رئيس في نصرته المسلمين على عدوهم، وبيّن جلّ شأنه حكم من يوالي المسلم ومن يوالي الكافر؛ ليعلم المؤمن من يوالي ومن يعادي، حتى يكون ذلك سببًا قويًّا في نصرتهم على المشركين.

وقد قسّم الله سبحانه الناس وقت تنزيل الآيات حتى يوم القيامة إلى أربعة أقسام:

منهم قسمان في الآية الأولى، وهم المهاجرون والأنصار والذين لم يهاجروا.

والقسم الثالث وهم الكفار في الآية الثالثة.

والقسم الرابع وهم أهل الهجرة بعد صلح الحديبية في الآية الأخيرة.

المُهَاجِرُونَ وَالْأَنْصَارُ:

وهم المؤمنون المهاجرون المجاهدون بالمال والنفس لإعلاء كلمة الله وإقامة دينه، وقد وصفهم الله تعالى بثلاثة أوصاف: الإيمان، والهجرة والجهاد بالنفس والمال: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ وهم المهاجرون الأولون الذين تركوا أوطانهم وديارهم في مكة، ولحقوا بالمدينة لنصرة الإسلام وأهله.

وفي الآية تقديم الجهاد بالمال على الجهاد بالنفس، كما في كثير من آيات القرآن لأهمية الجهاد بالمال في التسليح الحربي وإعداد العدة دفاعاً عن النفس وإعلاء لكلمة الله، ووصفهم ربنا بالإيمان الصادق، والخروج من أوطانهم وأموالهم وتقديم أنفسهم رخيصة في سبيل الله.

أما الأنصار، فهم المسلمون من أهل المدينة، الذين آووا إخوانهم المهاجرين في منازلهم وواسوهم، وَنَصَرُوا الله ورسوله بالقتال معه ﴿وَالَّذِينَ آوَوْا وَنَصَرُوا أُولَئِكَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ﴾ كل منهما أحق بالآخر؛ لأن الأنصار فتحوا بيوتهم لإخوانهم المهاجرين، ولم يكن في صدورهم حقد ولا حسد، وقاسموهم أموالهم وديارهم، بل وأرادوا أن يقاسموهم نساءهم بالحكم الشرعي والزواج المشروع، وقد آخى الإسلام بين كل اثنين منهما، وأخذوا يتوارثون إرثاً مقدماً على القرابة، حتى تُسَخَّ بِآيات الموارث، والله تعالى هو العليم الخبير، عالم الغيب والشهادة، وهو الذي يقول لنا ذلك.

وقد وصف الله تعالى الأنصار بوصفين:

أحدهما: الإيواء لإخوانهم المهاجرين، وهو يتضمن معنى التأمين من الخوف، فكانت المدينة مأوى وملجأ للمهاجرين، وكان أهلها مثلاً للكرم والإيثار.

وثانيهما: النصرة لإخوانهم المهاجرين؛ لأن أهل المدينة قد نصروا الرسول ﷺ، ونصروا المهاجرين بكل ما يملكون من وسائل التأييد والمؤازرة، فقد قاتلوا مَنْ قاتلوهم، وعادوا مَنْ عادوهم.

والمراد بالولاية في الآية: الولاية العامة وهي تناول التناصر والتعاون والتوارث. والموصوفون بالإيواء والنصرة يتولى بعضهم بعضاً، ويحب بعضهم بعضاً.

وقد ابتدأت الآية ببيان الفريقين من المهاجرين والأنصار؛ لأن أحكامهم في الولاية والنصرة واحدة؛ لأنهم بمنزلة فريق واحد، فالمهاجرون امتازوا بالسبق إلى الإسلام، وتكبدوا مفارقة الوطن، والأنصار امتازوا بإيواء المهاجرين وإيثارهم على أنفسهم، وتبرأ الفريقان من الشرك وأهله، واشتركا في الإيمان والجهاد، واختص المهاجرون بالهجرة، واختص الأنصار بالإيواء والنصرة.

وقد أثنى الله تعالى على المهاجرين والأنصار في مثل قوله سبحانه: ﴿وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُمْ بِإِحْسَانٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ [التوبة: ١٠٠].

وقوله: ﴿لَقَدْ تَابَ اللَّهُ عَلَى النَّبِيِّ وَالْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ الْعُسْرَةِ﴾ [التوبة: ١١٧].

وقوله: ﴿لِلْفُقَرَاءِ الْمُهَاجِرِينَ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا وَيَنْصُرُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ﴾ (٨) ﴿وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِنْ قَبْلِهِمْ يُحِثُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ﴾ [الحشر: ٨، ٩].

ثم أثنى سبحانه على من جاء بعدهم من التابعين لهم بإحسان.

وهذه الموالاة بين الفريقين هي موالاة ومودة وتوارث؛ فالنبي ﷺ آخى بين المهاجرين والأنصار، وبين الأوس والخزرج بعد قيام الدولة الإسلامية في المدينة، وبين عليه الصلاة والسلام أن الرابطة الوحيدة للمجتمع المسلم هي رابطة العقيدة، والأخوة في الدين، وأن رابطة الدم، لا عبرة بها، ورابطة الوطن والأرض والجنسية، لا عبرة بها، ورابطة اللغة والاقتصاد والتاريخ، لا عبرة بها، ورابطة القومية والبعثية والحزبية والعلمانية، وما يشبه هذا، لا عبرة بكل ذلك، فالإنسان والحيوان يشتركان في هذه الروابط، في البلد الواحد، واللغة الواحدة، والمكان الواحد، والجنسية الواحدة، والقومية الواحدة، يشترك في ذلك الإنسان والحيوان، أما الرابطة الوحيدة بين المسلمين فهي رابطة الإيمان والعقيدة.

وفي هذه الآية عقد موالاة ومحبة، عقدها الله تعالى بين المهاجرين الذين تركوا أوطانهم وجاهدوا في سبيل الله، وبين الأنصار الذين آووا رسول الله وأصحابه، وأعانوهم بأموالهم وأنفسهم وديارهم، فهؤلاء بعضهم أولياء بعض لكمال إيمانهم وتمام الاتصال بينهم.

وعلى هذا: فقد ظل المسلمون قرونًا متوالية هم القوة الوحيدة في الأرض، حين كانوا يدًا واحدة، يوالي المسلم أخاه المسلم على اختلاف الجنسية واللغة واللون والأرض والوطن، ليس هناك رابطة إلا هذه الرابطة.

فلما تفرق المسلمون، وصاروا دويلات عديدة، تُميّز كل دولة راية وعلم، يُميّزها من الأخرى، وخُدودًا تفصل بينهم، أصبحوا لا حول لهم ولا قوة.

ولا سبيل إلى النصر على العدو إلا بالعودة لدين الله سبحانه، والعودة إلى التآخي بين المسلمين جميعًا، وترك موالاة غير المسلمين، وعدم اتخاذهم بطانة من دون المسلمين، والأخذ بأسباب النصر المادية والمعنوية.

ثَانِيًا: مَنْ لَمْ يُهَاجِرْ مِنَ الْمُسْلِمِينَ

﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يُهَاجِرُوا مَا لَكُمْ مِنْ وَلايَتِهِمْ^(١) مِنْ شَيْءٍ حَتَّى يُهَاجَرُوا وَإِنْ اسْتَفْضَرْتُمْ فِي الدِّينِ فَعَلَيْكُمْ النَّصْرُ إِلَّا عَلَى قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ مِيثَاقٌ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾

وهم الذين آمنوا ولم يهاجروا من دار الكفر، فلستم أيها المؤمنون مكلفين بحمايتهم ونصرتهم، وعليكم أن تبرؤوا من ولايتهم، وتقاطعوا عنهم حتى يهاجروا، وليس بينكم وبينهم حكم التوارث، لانهم قطعوا ولايتكم بانفصالهم عنكم في وقت شدة الحاجة إليهم، فلمَّا لم يهاجروا لم يكن لهم من ولاية المؤمنين شيء ﴿وَإِنْ اسْتَفْضَرْتُمْ فِي الدِّينِ فَعَلَيْكُمْ النَّصْرُ﴾ أي: وإن وقع عليهم ظلم من الكفار، وطلبوا نصرتكم، فاستجبوا لهم، ما لم يترتب على هذه الاستجابة نقض عهد أو ميثاق بينكم وبين غيركم من أهل الشرائع الأخرى، وهذا معنى ﴿إِلَّا عَلَى قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ مِيثَاقٌ﴾ فهؤلاء المسلمون المستضعفون الذين لم يهاجروا خوفًا من المشركين، هم قوم عصاة وليسوا كفارًا، وهم أقل رتبة من

(١) قرأ حمزة بكسر الواو من (ولايتهم) والباقون بفتحها، وهما لغتان بمعنى واحد، وقيل: الفتح من النصرة والنسب، والكسر من الإمارة.

المهاجرين، ومع أنهم مسلمون إلا أن مقاطعتهم مطلوبة، حتى يكون ذلك باعثاً لهم على الهجرة، وهم الذين أسلموا وظلوا مستضعفين في مكة تحت سلطان الكفر.

وحكمهم يشبه حكم الأقليات الإسلامية المضطهدة في العالم، ممن يعيشون في ديار غير المسلمين ولا يمكنهم إظهار دينهم، وقد فضلوا البقاء في ديارهم كي يتمتعوا فيها بحرية العقيدة، فهؤلاء يعاقبون من الله تعالى لأنهم رضوا بالبقاء تحت الحكم الكافر.

﴿إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّيْنَاهُمُ الْمَلَائِكَةُ ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ قَالُوا فِيمَ كُنْتُمْ قَالُوا كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي الْأَرْضِ قَالُوا أَلَمْ تَكُنْ أَرْضَ اللَّهِ وَسِعَةً فَهَاجِرُوا فِيهَا قَالُوا لَيْتَ مَا وَدَّعْتُمْ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا ﴿٤٧﴾ إِلَّا الْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ لَا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَلَا يَهْتَدُونَ سَبِيلًا ﴿٤٨﴾ قَالُوا لَيْتَ عَسَى اللَّهُ أَنْ يَغْفُو عَنْهُمْ وَكَانَ اللَّهُ عَفُوًّا غَفُورًا ﴿٤٩﴾﴾ [النساء]

وليس لهؤلاء حق الموالاة والمحبة، وليس لهم في المغانم نصيب إلا ما حضروا فيه القتال، إنما لهم حق واحد هو نصرهم والدفاع عنهم، وهذا الحق الواحد مقتضاه:

أنهم إذا فُتِنوا في دينهم، وطلبوا النصرة من أجل عقيدتهم، فإنه يجب على المسلمين أن ينصروا إخوانهم في العقيدة، ضد أعدائهم الذين يفتنونهم عن دينهم ﴿وَإِنْ أَسْتَضْرُّوكُمْ فِي الدِّينِ فَعَلَيْكُمْ النَّصْرُ﴾.

ما لم يكن هذا النصر لهم على دولة غير مسلمة لها عهد وميثاق؛ فالإسلام لا يحب نقض العهود والمواثيق ما دام الطرف الآخر مستقيماً وثابتاً على عهده وميثاقه.

وهذا معنى الاستثناء في الآية: ﴿إِلَّا عَلَى قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ مِيثَاقٌ﴾ وهو معنى قوله تعالى: ﴿فَمَا اسْتَقِمْوْا لَكُمْ فَاسْتَقِمْوْا لَهُمْ﴾ [التوبة: ٧].

وعن هذا القسم الثالث يقول تعالى: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يُهَاجِرُوا مَا لَكُمْ مِنْ وَدَعَةٍ مِنْ شَيْءٍ﴾ فليس بينكما تواد ولا محبة ولا توارث ﴿حَتَّىٰ يُهَاجِرُوا﴾ كغيرهم، فهم درجة أدنى ممن هاجر أولاً ﴿وَإِنْ أَسْتَضْرُّوكُمْ فِي الدِّينِ﴾ لقتال من قاتلهم من أجل دينهم ﴿فَعَلَيْكُمْ النَّصْرُ﴾ أي: وإن طلبوا النصرة في الدين والعقيدة فعليكم النصر وجوباً إلزامياً ومن ذلك القتال معهم ﴿إِلَّا عَلَى قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ مِيثَاقٌ﴾ فلا تنصروهم عليهم احتراماً لما بينكما من عهد

وميثاق. ﴿وَاللَّهُ يَمَّا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ يعلم ما أنتم عليه من الأحوال، فيشرع لكم من الأحكام ما فيه صلاحكم وسعادتكم.

ثَالِثًا: مُوَالَاةُ الْكُفَّارِ لِبَعْضِهِمْ:

٧٣- ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِعَهْدِهِمْ أُولَئِكَ بَعْضٌ إِلَّا تَفْعَلُوهُ تَكُنْ فِتْنَةٌ فِي الْأَرْضِ وَفَسَادٌ كَبِيرٌ﴾ (٧٣)

وبمناسبة ذكر الموالاة بين المهاجرين والأنصار، نتحدث الآيات عن ولاية الكفار بعضهم لبعض، في التعاون والنصرة والتوارث.

وفي أسباب النزول أن رجلاً قال: نورث أرحامنا المشركين؟ فنزلت الآية^(١).

فبيّن سبحانه أن الكفار ينصر بعضهم بعضاً، ويوالي بعضهم بعضاً، فلا يواليهم إلا كافر، وإن لم تكونوا مثلهم ينصر بعضهم بعضاً ويوالي بعضهم بعضاً - أيها المؤمنون - وتقدمون صلة الإسلام على صلة القرابة ﴿إِلَّا تَفْعَلُوهُ﴾ أي لا توالوا المؤمنين وتعادوا الكافرين، فإن واليتم الكافرين وعاديتم المؤمنين ﴿تَكُنْ فِتْنَةٌ فِي الْأَرْضِ وَفَسَادٌ كَبِيرٌ﴾ أي: إذا أنتم تركتم إخوانكم في الدين والعقيدة، وواليتم غير المسلمين، فإن هذا يسبب الفتنة عن دين الله، ويسبب الفساد العريض بالصد عن سبيل الله، وتقوية دعائم الكفر، وتقويت كثير من مقاصد الشرع كالجهاد والهجرة، ويختلط الحق بالباطل، والإيمان بالكفر.

وفي الآية تحذير شديد للمؤمنين من عدم التناصر والتواصل فيما بينهم؛ لأنهم إذا لم يصيروا يداً واحدة على أعدائهم، أصبحوا لُقْمَةً سائغة لغيرهم.

والفتنة تكون بإضعاف المسلمين وتقوية الكافرين، وتكون أيضاً بفتنة العقيدة، فيلبس الأمر، ويختلط المؤمن بالكافر، ويقع بين الناس فساد عريض؛ حيث يضعف شأنكم، وتذهب ريحكم، ويتناول عليكم أعداؤكم، وتعجزون عن الدفاع عن دينكم ووطنكم وعرضكم.

فالاحتلال لا يكون احتلال أرض فحسب، وإنما يشمل تغيير المعتقدات، والغزو الفكري، وهو يغيّر أحوال الناس، ويحوّل عقولهم وعقائدهم، وفي هذا قطع للموالاة بين

(١) أخرجه الطبري وأبو الشيخ عن الشَّيْخِ عَنْ أَبِي مَالِكٍ، كما في «تفسير الطبري» (١٠/٣٩).

المؤمنين والكفار، وفي الحديث عن أسامة بن زيد رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ وقال: «لا يرث المسلم الكافر ولا الكافر المسلم»^(١).

وفي لفظ له: «لا يتوارث أهل ملتين، ولا يرث مسلم كافراً ولا كافر مسلماً»، ثم قرأ: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ﴾^(٢).

ومن الفساد في الأرض أن لا يزوج العبد ابنته إلى صاحب الخلق والدين، كما في الحديث عن أبي حاتم المزني: «إذا جاءكم من ترضون دينه وخلقه فأنكحوه، إلا تفعلوا تكن فتنة في الأرض وفساد عريض» قالوا: يا رسول الله، وإن كان فيه - أي إن كان صاحب مال وجاه؟ - قال: إذا أتاكم من ترضون دينه وخلقه فأنكحوه» ثلاث مرات^(٣).

ولفظ أبي هريرة: «إذا خطب إليكم من ترضون دينه وخلقه فزوجوه، إلا تفعلوا تكن فتنة في الأرض وفساد عريض»^(٤).

الثَّنَاءُ عَلَى الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ وَثَوَابُهُمْ عِنْدَ اللَّهِ

٧٤- ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ آوَوْا وَنَصَرُوا أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾^(٥)

أثنى الله سبحانه على القسمين الأولين دون القسم الثالث فضلاً عن الرابع، فبين جل شأنه أن المؤمنين الذين تركوا ديارهم، وجاهدوا لإعلاء كلمة الله، والذين نصرُوا

(١) أخرجه البخاري عن أسامة بن زيد، «فتح الباري» (٥١/١٢) ورقمه في البخاري (٦٧٦٤) ومسلم (٣/١٢٣٣) وبرقم (١٦١٤).

(٢) قال الحاكم: صحيح الإسناد ولم يخرجاه، «المستدرک» (٢/٢٤٠) وأصله في الحديث السابق.

(٣) رواه أبو داود في المراسيل عن أبي حاتم المزني برقم (٢٢٤) والترمذي في «السنن» برقم (١٠٨٥) قال أبو عيسى: هذا حديث حسن غريب، وأبو حاتم المزني له صحة، ولا نعرف له عن النبي ﷺ غير هذا الحديث، وأخرجه عبد الرزاق في «المصنف» (١٠٣٢٥).

(٤) «سنن الترمذي» (١٠٨٤)، قال أبو عيسى، حديث أبي هريرة، قد خولف عبد الحميد بن سليمان في هذا الحديث، فرواه الليث بن سعد عن ابنه عجلان، عن أبي هريرة عن النبي مرسلًا، قال أبو عيسى: وحديث الليث أشبه، ولم يعد حديث عبدالرحمن محفوظًا.

إخوانهم المهاجرين وواسوهم بالمال وأيدوهم، هم أهل الإيمان حقًا وصدقًا لأنهم قاموا بالهجرة والنصرة والجهاد والموالاتة ﴿لَهُمْ مَغْفِرَةٌ﴾ لذنوبهم ومحو لسيئاتهم ﴿وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾ واسع في جنات النعيم، وهو رزق دائم مستمر لا ينقطع ولا ينقضي، وقد حصل لهم من الثواب العاجل ما تقربه أعينهم.

وهذه الآية تُثني على المهاجرين والأنصار، فتمدحهم وتبين ثوابهم عند الله تعالى، وتشهد لهم بصدق الإيمان وحسن الجزاء، فقد مدحتهم بثلاثة أمور: صدق الإيمان، ومغفرة كاملة للذنوب، دفعًا لعقابهم في الآخرة، والرزق الدائم، والثواب الجزيل وجلب الخير لهم. أما الآية التي قبلها فهي لبيان وجوب ولاية المؤمنين بعضهم لبعض.

رَابِعًا: أَهْلُ الْهَجْرَةِ الثَّانِيَةِ

٧٥- ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا مِنْ بَعْدِ وَهَجَرُوا وَجَاهَدُوا مَعَكُمْ فَأُولَٰئِكَ مِنْكُمْ وَأُولُوا الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿٧٥﴾﴾

وهم الذين هاجروا بعد صلح الحديبية وقبل فتح مكة، فلا هجرة بعد الفتح ولكن جهاد ونية، والهجرة من بلاد الكفر إلى دار الإسلام قائمة إلى قيام الساعة، والأسبقية للمهاجرين الأولين، ثم الذين أتوا بعدهم ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا مِنْ بَعْدِ﴾ أي: بعد نزول آيات غزوة بدر، أو بعد صلح الحديبية، فالحق الله تعالى المهاجرين المتأخرين في كل زمان ومكان من ديار الكفر، بالمهاجرين السابقين قبلهم، وهذا معنى: ﴿وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا مَعَكُمْ﴾ في سبيل الله ﴿فَأُولَٰئِكَ مِنْكُمْ﴾ أنتم منهم، وهم منكم، وهم أهل الفضل الأول، ومن بعدهم مُلحق بهم، وحكمهم حكم المؤمنين السابقين في الأجر والمثوبة، لهم مالكم وعليهم ما عليكم.

وكان من مقتضى الموالاتة الإيمانية في أول الهجرة إلى المدينة، أن آخى النبي ﷺ بين المهاجرين والأنصار أخوة خاصة، يترتب عليها التوارث فيما بينهم، وهذا غير الأخوة الإيمانية العامة.

ثم نسخ الله سبحانه التوارث الذي كان حاصلًا لغير الأقارب بين المهاجرين والأنصار، نسخته بآيات الموارث بقوله تعالى: ﴿وَأُولُوا الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ﴾ [الأحزاب: ٦] من

عامة المسلمين في الميراث ﴿فِي كِتَابِ اللَّهِ﴾ أي: في قرآنه وحكمه الذي بيّنه في سورة الأحزاب في قوله تعالى: ﴿وَأُولُوا الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُهَاجِرِينَ﴾ [الأحزاب: ٦] فهي مقيدة بما جاء فيها من أحكام، فلا يرثه إلا أقاربه من العصبات وأصحاب الفروض، فإن لم يوجد فأقرب الأقارب من ذوي الأرحام.

قال ابن عباس: كانوا يتوارثون بالهجرة والإخاء حتى نزلت هذه الآية.

وأولو الأرحام: هم الذين يجمعهم رحم واحدة في الغالب، وفي الفرائض: هم الذين لا يرثون بفرض ولا تعصيب، والولاية بينهم ولاية نسب، وبين المؤمنين ولاية إيمان، ولكل منهما حقوق في الإسلام.

وعن ابن عباس ؓ قال: آخى رسول الله ﷺ بين أصحابه، وورث بعضهم من بعض، حتى نزلت هذه الآية ﴿وَأُولُوا الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ﴾ فتركوا ذلك وتوارثوا بالنسب^(١).

والآية تفيد أن ولاية ذوي الأرحام تشمل الصلة والنصرة وحسن الصحبة من باب أولى، وفيها رد صريح على عدم تقديم ذوي الأرحام من الرحم المحرم كالخال والخالة، على أبناء الأعمام في الميراث ﴿إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ لا تخفى عليه خافية في الأرض ولا في السماء، ويعلم ما يصلح عباده من توريث بعضهم من بعض في القرابة والنسب، دون التوارث بالحلف الذي كان في أول الإسلام:

في أسباب النزول:

١- أخرج ابن جرير عن الزبير قال: كان الرجل يعاقد الرجل: ترثني وأرثك، فنزلت ﴿وَأُولُوا الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ﴾^(٢).

٢- وأخرج ابن سعد من طريق هشام بن عروة عن أبيه ؓ قال: آخى رسول الله ﷺ بين الزبير بن العوام، وبين كعب بن مالك، قال الزبير: لقد رأيت كعباً أصابته الجراح بأحد، فقلت: لو مات فانقطع عن الدنيا وأهلها لورثته فنزلت الآية ﴿وَأُولُوا الْأَرْحَامِ﴾ فصارت

(١) أخرجه أبو داود الطيالسي (٢٦٧٦) والطبراني (١١٧٤٨) وقال الهيثمي في «مجمع الزوائد» (٣١/٧) ورجاله رجال الصحيح.

(٢) «أسباب النزول» للسيوطي (١٣٥) و«تفسير الطبري» (٤١/١٠) و«زاد المسير» (٣٨٧/٣) و«تفسير القرطبي» (٩١/٨).

المواريث بعد للأرحام والقربات، وانقطعت تلك المواريث في المؤاخاة^(١).

٣- وفي لفظ: قال الزبير بن العوام ؓ: فينا نزلت هذه الآية ﴿وَأُولُوا الْأَرْحَامِ﴾ قال: كان رسول الله ﷺ قد آخى بين رجل من المهاجرين ورجل من الأنصار، فلم نشك أننا نتوارث لو هلك كعب وليس له من يرثه، فظننت أنني أرثه، ولو هلك كعب كذلك يرثني، حتى نزلت ﴿وَأُولُوا الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ﴾^(٢).

٤- وعن أبي أمامة الباهلي ؓ قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول في خطبته عام حجة الوداع: «إن الله قد أعطى لكل ذي حق حقه، فلا وصية لوارث، الولد للفراش، وللعاهر الحجر، وحسابهم على الله...»^(٣).

وقبل نسخ هذا التوارث، كان المهاجري إذا مات ولم يكن له وارث من المهاجرين ورثه أخوه الأنصاري.

وكان هذا الإرث مقدماً على صلة القرابة حتى نسخ بآيات الموارث، وكان المسلم الذي لم يهاجر ليس بينه وبين قريبه المهاجر ولاية ولا توارث، واستمر الأمر كذلك إلى فتح مكة، ثم توارثوا بعده على أساس الرحم والنسب.

هذا: وقد جاء التذكير بالأرحام في الآية إشارة إلى أن ولاية الأرحام قائمة، وأنها أرجح من ولاية المؤمنين لبعضهم، ومن ولاية المؤمنين للذين لم يهاجروا، ثم تداركوا أمرهم وهاجروا.

والرحم في الأصل: مقر الولد في بطن أمه، وأولو الأرحام، هم أهل القرابة الناشئة عن الأمومة، وصلة الرحم تشمل أقارب العصب والنسب.

(١) «أسباب النزول» للسيوطي (١٣٥) و«تفسير الطبري» (٤١/١٠) و«زاد المسير» (٣/٣٨٧) و«تفسير القرطبي» (٨/٩١).

(٢) قال الحاكم: هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه ووافقه الذهبي «المستدرک» (٤/٣٤٤).

(٣) صححه الألباني في «صحيح سنن الترمذي» برقم (١٧٢١) وقال الترمذي: حديث حسن (٦٧٠) وله شاهد بعده في الترمذي برقم (٢١٢١) وهو في «المسند» (٥/٢٦٧) برقم (٢٢٢٩٤)، بإسناد حسن، والطبراني في الكبير (٧٦٢١) وأبو داود (٢٨٧٠) وابن ماجه (٢٠٠٧).

وقد جاء في حديث أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «إن الله تعالى لمّا خلق الرحم، أخذت بقائمة من قوائم العرش وقالت: هذا مقام العائذ بك من القطيعة، فقال تعالى: أما ترضين أن أصل من وصلك، وأقطع من قطعك، قالت: بلى، قال: فذاك لك»^(١).

ولم تكن ولاية الدين والأخوة في الله معروفة في الجاهلية، وقد بيّن الإسلام أن رابطة العقيدة أقوى من أواصر الجسد والنسب.

واختلف العلماء: هل تشمل ولاية الأرحام، ولاية الميراث، أم لا؟ فقال مالك بن أنس والشافعي وبعض الصحابة: ولاية الأرحام، ولاية نصره وصحبة ومؤازرة، وليست ولاية موارث.

وقال آخرون: إنها تشمل ولاية الميراث، وأن الأرحام مقدّمون على أبناء الأعمام وهو قول أبي حنيفة وفقهاء الكوفة، فهي مقيدة لآيات الموارث^(٢).

من أحكام التجويد: إذا وصل القارئ آخر الأنفال بأول براءة فله ثلاثة أوجه:

الأول: وصل آخر الأنفال بأول براءة مع الإتيان بالغنة حال قلب التنوين من ﴿عَلِيمٌ﴾ ميمًا لوقوع حرف الباء من ﴿بِرَّاءَةٌ﴾ بعده، وذلك دون بسملة.

والوجه الثاني: السكت على ميم ﴿عَلِيمٌ﴾ الساكنة للوقف، بدون تنفس والبدء ببراءة دون بسملة كذلك.

والوجه الثالث: الوقف على آخر الأنفال مع التنفس، والبدء بأول براءة.

فإذا ابتدأ القارئ بأول ﴿بِرَّاءَةٌ﴾ دون وصلها بآخر الأنفال فليس له إلا الاستعاذة في أول السورة دون بسملة.

وإن ابتدأ التلاوة في أثناء سورة التوبة فله أن يستعيد وييسمل، أو يستعيد فقط.

تم تفسير (سورة الأنفال) والله الحمد والمنة

(١) «صحيح البخاري» برقم (٤٨٣٠، ٥٩٨٧، ٧٥٠٢) و«صحيح مسلم» برقم (٢٥٥٤).

(٢) يُنظَر: «تفسير التحرير والتنوير» (٩٢/٦٠).

الآية	فهرس الم	وحدات	الصفحة
	سورة الأعراف، مقدمة السورة - أسلوب التذكير والتخويف		٥
١	التفسير - الحروف الهجائية في أوائل السور		١١
٣، ٢	خطاب للنبي ﷺ وخطاب للبشر		١٢
٥، ٤	الإشارة إلى مصير الأمم المكذبة لرسل الله		١٥
٧، ٦	سؤال الرسل والمرسل إليهم يوم القيامة		١٨
٩، ٨	الربح والخسارة في يوم القيامة - أحاديث عن الميزان ومنها حديث البطاقة		٢٠
	حقيقة الميزان - الأعمال هي التي توزن:		٢٣
١٠	قصة الوجود البشري		٢٥
١٥-١١	آدم وإبليس		٢٦
١٨-١٦	إبليس يقعد لابن آدم بكل طريق		٣١
٢٥-١٩	آدم وحواء يأكلان من الشجرة		٣٦
٢٦	أزيع نذارات إلى بني آدم - النداء الأول: وجوب ستر العورة		٤٢
٣٠-٢٧	النداء الثاني: في التحذير من كيد الشيطان ومكره		٤٦
٣١	النداء الثالث: التزيين للعبادة والطواف والتمتع بالحلال دون إسراف - أحاديث في المعنى		٥٥
٣٢	الإكثار على من حرم الطيبات		٦٠
٣٤، ٣٣	تحريم الفواحش والشرك والقول على الله بغير علم		٦٢
٣٦، ٣٥	النداء الرابع: أخذ العهد على بني آدم بتضديتي الرسل		٦٦
٣٧	المشركون والمكذبون بإيات الله يأخذون حظهم في الدنيا - حال الكفار عند قبض الأرواح		٦٧
٣٩، ٣٨	الكفار يتلاومون وهم يدخلون النار - محاولاتهم للخروج من النار		٧٠
٤١، ٤٠	استحالة دخول الجنة لمن مات على الكفر		٧٧
٤٣، ٤٢	دخول المؤمنين الجنة وترغ ما في صدورهم من صغائر - أحاديث وآثار		٨٠
٤٥، ٤٤	ثلاثة حوارات في أرض المعسر والمنسر - الحوار الأول: أهل الجنة يحاورون أهل النار		٨٨
٤٩-٤٦	الحوار الثاني: حوار أهل الأعراف - من هم أهل الأعراف؟		٩١
٥٠	الحوار الثالث: أهل النار يحاورون أهل الجنة		١٠٠
٥١	من أوصاف أهل النار		١٠٢
٥٣، ٥٢	عدم عذاب الكفار في دخول النار		١٠٣
٥٧-٥٤	أدلة التوحيد ومقتضاه		١٠٥
٥٨	مثل المؤمنين والكافرين		١١٥
٥٩	سنة من قصص المرسلين في السورة: أولاً: قصة نوح ﷺ مع قومه		١١٧
	ثبذة تاريخية عن رسالة نوح ﷺ - أول رسول: - أطول رسالة - ثمرة دعوة نوح الطويلة		١١٨
	الطوفان وسفينة النجاة: - أولاد نوح: نجات أهل السفينة يوم عاشوراء		١٢٣
٦٢-٦٠	شرح الآيات - نوح يصف نفسه بأربع صفات		١٢٧

الآية	فهرس الموضع	الصفحة
٦٤، ٦٣	تَعَجَّبُ جَمِيعُ الْأُمَمِ مِنْ بَشَرِيَّةِ جَمِيعِ الرُّسُلِ	١٢٨
٦٥	ثَانِيًا: قِصَّةُ هُودٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ مَعَ قَوْمِهِ - نُبَذَ تَارِيخِيَّةً عَنْ هُودٍ وَعَادٍ	١٣٠
٧٢-٦٦	الْحِوَارُ بَيْنَ هُودٍ وَقَوْمِهِ - هُودٌ يَنْذِرُ قَوْمَهُ الْهَلَاكَ: هَلَاكَ قَوْمِ هُودٍ وَنَجَاتِهِ:	١٣٦
٧٣	ثَالِثًا: قِصَّةُ صَالِحٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ مَعَ قَوْمِهِ - نُبَذَ عَنْ نَبِيِّ اللَّهِ صَالِحٍ وَقَوْمِهِ - عَادًا الْأُولَى وَعَادًا الْآخَرَى	١٤٠
٧٦-٧٤	صَالِحٌ يَدْعُو قَوْمَهُ إِلَى عِبَادَةِ اللَّهِ فَيُطْلَبُونَ مِنْهُ مَعْجَزَةً تَصَدِّقُهُ:	١٤٢
٧٧	صَالِحٌ يُذَكِّرُ قَوْمَهُ بِنِعَمِ اللَّهِ عَلَيْهِمْ - الْحِوَارُ بَيْنَ الْمُسْتَكْبِرِينَ وَالضَّعِيفَاءِ:	١٤٤
٧٨	عَقَرُ النَّاقَةِ وَنَزُولُ الْعَذَابِ بِقَوْمِ ثَمُودَ - حَدِيثُ الْبَثْرِ وَالنَّاقَةِ - عَقَرُ النَّاقَةِ:	١٤٦
٧٩	نَزُولُ الْعَذَابِ بِقَوْمِ ثَمُودَ:	١٤٨
٨٠-٨٤	صَالِحٌ يِعَاتِبُ قَوْمَهُ عَلَى عَدَمِ إِيْمَانِهِمْ	١٥١
٨٥-٩٣	رَابِعًا: قِصَّةُ لُوطٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ مَعَ قَوْمِهِ - الْمَلَائِكَةُ الْمُوَكَّلُونَ بِنَزُولِ الْعَذَابِ بِقَوْمِ لُوطٍ يَنْزِلُونَ أَوَّلًا عَلَى إِبْرَاهِيمَ	١٥٣
٩٣-٨٥	هَلَاكَ قَوْمِ لُوطَ - عَقُوبَةُ الْوَلُوطِ - الْمَطَالِبَةُ بِتَقْنِينِ الشَّدُودِ الْجِنْسِيِّ:	١٥٨
٩٤-١٠٢	خَامِسًا: قِصَّةُ شُعَيْبٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ مَعَ قَوْمٍ مَذَّيْنٍ - نُبَذَ عَنْ نَبِيِّ اللَّهِ شُعَيْبٍ: - قَوْمٌ مَدِينٌ قَبْلَ الرِّسَالَةِ - دَعَا شُعَيْبٌ لِقَوْمِهِ	١٦٦
١٠١، ١٠٢	مَعَالِمُ دَعَا شُعَيْبٍ وَأَصُولُهَا: - حِوَارُ بَيْنِ شُعَيْبٍ وَقَوْمِهِ - هَلَاكَ قَوْمِ مَدِينٍ	١٦٩
١٠٣	قَوْمٌ مَدِينٌ وَأَصْحَابُ الْآيَةِ: - التَّعْقِيبُ عَلَى هَلَاكِ الْأُمَمِ الْمَكْذِبَةِ	١٧٦
١٠٤-١٠٢	التَّعْقِيبُ عَلَى قِصَصِ الْمُرْسَلِينَ:	١٧٩
١٠٤، ١٠٥	الاعْتِبَارُ بِهَلَاكِ الْأُمَمِ الْمَكْذِبَةِ	١٨٥
١٠٦	سادسًا: الْقِصَّةُ الْآخِرَةُ فِي سُورَةِ الْأَعْرَافِ هِيَ قِصَّةُ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ وَلَهَا جَانِبَانِ:	١٨٧
١٠٧	الْجَانِبُ الْأَوَّلُ: قِصَّةُ مُوسَى مَعَ فِرْعَوْنَ وَالسَّحَرَةِ - وَفِيهِ ثَلَاثُ مُوَاجِهَاتٍ:	١٨٩
١٠٨، ١٠٩	الْمُؤَاجَهَةُ الْأُولَى بَيْنَ مُوسَى وَفِرْعَوْنَ - دَعَا فِرْعَوْنَ لَهَا هَدْفَانِ، هُمَا: دَعَاهُ إِلَى التَّوْحِيدِ، وَتَخْلِيصِ بَنِي إِسْرَائِيلَ مِنْهُ:	١٨٩
١٠٩-١١٢	فِرْعَوْنُ يَطْلُبُ الْبَيِّنَةَ مِنْ مُوسَى عَلَى رِسَالَتِهِ وَاللَّهُ يُؤَيِّدُهَا:	١٩٠
١١٠-١١٢	الْمُؤَاجَهَةُ الثَّانِيَّةُ بَيْنَ فِرْعَوْنَ وَمَلِيَّتِهِ لِمُنَاطَرَةِ مُوسَى:	١٩٢
١١٣-١١٤	السَّحَرَةُ يَطْلُبُونَ الْأَجْرَ عَلَى لِقَاءِ مُوسَى:	١٩٤
١١٥، ١١٦	الْمُؤَاجَهَةُ الثَّالِثَةُ بَيْنَ مُوسَى وَالسَّحَرَةِ	١٩٦
١١٧، ١٢٢	اسْتِسْلَامُ السَّحَرَةِ	١٩٧
١٢٣، ١٢٤	فِرْعَوْنُ يَتَوَعَّدُ السَّحَرَةَ	١٩٩
١٢٥، ١٢٦	إِيْمَانُ السَّحَرَةِ بِاللَّهِ رَبِّمَا وَمُوسَى نَبِيًّا	٢٠٠
١٢٧	حَاشِيَةُ فِرْعَوْنَ يُؤَلِّبُونَهُ عَلَى مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ	٢٠١
١٢٨	مُوسَى يُوصِي قَوْمَهُ بِالصَّبْرِ وَيُلَوِّحُ لَهُمْ بِالنَّصْرِ	٢٠٣
١٢٩	بَنُو إِسْرَائِيلَ يَسْتِثْنُونَ الرَّدَّ وَمُوسَى يُلَطِّفُ بِهِمْ	٢٠٣
١٣٠-١٣٣	مِنْ مُعْجَزَاتِ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ	٢٠٤
١٣٤، ١٣٥	الْفِرَاعَةُ يَعِدُونَ مُوسَى بِالْإِيْمَانِ وَيُطْلِقُ سَرَّاحَ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَيَنْكُثُونَ وَعَدَهُمْ	٢٠٧
١٣٦	هَلَاكَ فِرْعَوْنُ وَقَوْمِهِ:	٢٠٨

الآية	فهرس الم و وعات	الصفحة
١٣٧	التَّكْوِينُ الْمُؤَقَّتُ لِبَنِي إِسْرَائِيلَ فِي الْأَرْضِ الْمُقَدَّسَةِ - أحاديث في فضل الشام:	٢٠٩
١٣٨-١٤٠	الْجَانِبُ الْآخَرُ: قِصَّةُ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ مَعَ بَنِي إِسْرَائِيلَ - بُنُو إِسْرَائِيلَ يَحْتَنُونَ إِلَى عِبَادَةِ الْأَوْثَانِ بَعْدَ مُعْجَزَةِ الْعُبُورِ قصة نجاة موسى وقومه وهلاك فرعون وجنده:	٢١٢ ٢١٣
١٤١	من نعم الله على بني إسرائيل: نجاتهم من ظلم فرعون	٢١٧
١٤٢	الْمِيقَاتُ الْأَوَّلُ: نُزُولُ التَّوْرَةِ عَلَى مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ	٢١٩
١٤٣	مُوسَى يَطْلُبُ رُؤْيَا رَبِّهِ	٢٢٠
١٤٤	اضْطِفَاءُ اللَّهِ لِمُوسَى	٢٢٣
١٤٥	وَعْدُ اللَّهِ لِبَنِي إِسْرَائِيلَ بِدُخُولِ الْأَرْضِ الْمُقَدَّسَةِ إِنْ هُمْ عَمِلُوا بِمَا فِي التَّوْرَةِ	٢٢٤
١٤٦	عُقُوبَةُ الْمُتَكَبِّرِينَ وَصَفَاتُهُمُ الْأَرْبَعَةُ	٢٢٦
١٤٧-١٤٩	الْجَزَاءُ مِنْ جِنْسِ الْعَمَلِ - عِبَادَةُ الْيَهُودِ لِلْعَجَلِ الدَّهْمِيِّ - قصة عجل اليهود	٢٢٨
١٥٠، ١٥١	مُوسَى يَغْضَبُ مِنْ عِبَادَةِ قَوْمِهِ لِلْعَجَلِ وَيَسْتَغْفِرُ رَبَّهُ	٢٣١
١٥٢، ١٥٣	عقاب الله لمن عبد العجل	٢٣٤
١٥٤	وَصَفُ الْأَلْوَابِ وَأَشْتِمَالُهَا عَلَى التَّوْرَةِ	٢٣٦
١٥٥	الْمِيقَاتُ الثَّانِي بَيْنَ مُوسَى وَرَبِّهِ: الْإِعْتِذَارُ عَنْ عِبَادَةِ الْعَجَلِ	٢٣٧
١٥٦	تَقْدِيمُ الْعَذَابِ عَلَى الرَّحْمَةِ وَشُرُوطُ الرَّحْمَةِ الْخَاصَّةِ بِالْمُؤْمِنِينَ - أحاديث في الرحمة	٢٤٠
١٥٧	سَبْعَةُ أَوْصَافٍ لِيَحَاتَمِ الرُّسُلِ عَلَيْهِ السَّلَامُ	٢٤٣
١٥٨	عَالَمِيَّةُ الدَّعْوَةِ - أحاديث في المعنى	٢٤٨
١٥٩	مِنْ عَظَمَةِ الْإِسْلَامِ إِنْصَافُ غَيْرِ الْمُسْلِمِينَ	٢٥٢
١٦٠	اللَّهُ تَعَالَى يَمْتَنُّ عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ بِنِعَمِ أَرْبَعٍ	٢٥٤
١٦١	مَرَاسِمُ دُخُولِ أَرْضِ الْجَبَارِينَ أَرْبَعَةٌ	٢٥٧
١٦٢	مُخَالَفَاتُ الْيَهُودِ لِأَوَامِرِ اللَّهِ عِنْدَ دُخُولِهِمُ الْأَرْضَ الْمُقَدَّسَةَ - فروق ما بين آيتي البقرة والأعراف	٢٥٩
١٦٣-١٦٦	قِصَّةُ أَصْحَابِ السَّبْتِ	٢٦١
١٦٧-١٧٠	الْيَهُودُ شَعْبٌ بِلَا وَطَنِ (حَقِيقَةُ دِينِيَّةٍ تَارِيخِيَّةٍ)	٢٦٦
١٧١	أمثلة لما حل باليهود من البأس الشديد على مدى التاريخ ومنهم الأوروبيون	٢٦٧
١٧٢-١٧٤	قَبُولُ الْيَهُودِ لِأَحْكَامِ التَّوْرَةِ تَحْتَ وَطْأَةِ التَّهْدِيدِ - الاهتزاز أثناء التلاوة - نهاية القصص	٢٧٤
١٧٣-١٧٤	مِثَاقُ الْفِطْرَةِ وَالْإِحْتِجَاجُ بِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ - جملة من الأحاديث في معنى الآية	٢٧٧
١٧٥-١٧٧	تَنْشِيطُ مَنْ عَرَفَ الْحَقَّ ثُمَّ عَدَلَ عَنْهُ بِالْكَفْلِ اللَّاهِتِ - سبب النزول:	٢٨٤
١٧٨	وُقُوعُ الْهَدْيِ وَالضَّلَالِ مِنَ النَّاسِ وَفَقَّ عِلْمُ اللَّهِ الْأَزَلِيِّ	٢٨٩
١٧٩	لِمَاذَا كَانَ الْكَافِرُ أَضَلَّ مِنَ الْحَيَّوانِ؟	٢٩٠
١٨٠	التَّوَسُّلُ بِأَسْمَاءِ اللَّهِ الْحُسْنَى - دعاء العبادة ودعاء المسألة - ليس لأسماء الله حصر - أسماء وأعلام وصفات - الصفات أعم من الأسماء - أنواع الصفات - الإلحاد في أسماء الله	٢٩٣
١٨١	مِنْ أَوْصَافِ أُمَّةٍ مُحَمَّدٍ ﷺ أَنَّهُمْ يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَيَبْعِدُونَ	٣٠١

الآية	فهرس الم	وحت	الصفحة
١٨٣، ١٨٢	عُوبَةُ الْمُكَذِّبِينَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ		٣٠٢
١٨٥، ١٨٤	دَعْوَةُ الْإِسْلَامِ إِلَى إِعْمَالِ الْعَقْلِ وَالْفِكْرِ		٣٠٣
١٨٦	لَا مَطْمَعَ لِأَحَدٍ فِي هِدَايَةِ مَنْ أَضَلَّ اللَّهُ		٣٠٤
١٨٨، ١٨٧	لَا يَعْلَمُ الْغَيْبَ إِلَّا اللَّهُ وَمِنْهُ قِيَامُ السَّاعَةِ - أحاديث في المعنى		٣٠٥
١٩٠، ١٨٩	التَّخْذِيرُ مِنْ صُورِ الْإِشْرَاكِ بِاللَّهِ فِي ذُرِّيَّةِ بَنِي آدَمَ		٣٠٩
١٩١	تَقْنِيدُ مَزَاجِ الْمُشْرِكِينَ فِي آلِهَتِهِمُ الْمُزْعُومَةِ - أولا: الأوثان مخلوقة وليست خالقة:		٣١٥
١٩٣، ١٩٢	ثانيا: الأوثان لا تدفع الضر عن نفسها ولا عن غيرها: قصة عمر بو الجموح		٣١٧
٣١٨	ثالثا: الأوثان لا تسمع ولا تبصر ولا تعقل:		٣١٨
١٩٤	رابعا: مَنْ يُعْبُدُونَ مِنْ أَرْبابِ الْعُقُولِ عِبَادَ اللَّهِ مِثْلَ غَيْرِهِمْ:		٣١٩
١٩٥	خامسا: هيئة الأصنام تدل على أنها لا تنفع ولا تضر:		٣١٩
١٩٦	اللَّهُ تَعَالَى هُوَ الَّذِي يَنْصُرُ أَوْلِيَاءَهُ وَيَخْذُلُ أَعْدَاءَهُ		٣٢١
١٩٧	سادسا: الأوثان لا تملك قفعا ولا ضرا لنفسها ولا لغيرها:		٣٢٢
١٩٨	سابعا: من الأوثان ما هو على صورة حيوانات بلا حياة ولا حركة		٣٢٢
١٩٩	وَجُوبُ الْأَخْذِ بِمَكَارِمِ الْأَخْلَاقِ		٣٢٣
٢٠٠	التَّحْصُنُ بِاللَّهِ		٣٢٦
٢٠٢، ٢٠١	تَبَايُنُ حَالِ أَهْلِ التَّقْوَى وَأَهْلِ الضَّلَالِ نَجَاةَ نَزْعَاتِ الشَّيْطَانِ		٣٢٨
٢٠٣	الْقُرْآنُ أَعْظَمُ مِنَ الْمُعْجَزَاتِ الْكَوْنِيَّةِ الَّتِي يَظْلِمُهَا الْمُكَذِّبُونَ		٣٣٠
٢٠٤	وَجُوبُ الْإِنْصَاتِ عِنْدَ اسْتِمَاعِ الْقُرْآنِ قَسْداً		٣٣٢
٢٠٥	وَجُوبُ ذِكْرِ اللَّهِ تَعَالَى فِي كُلِّ حَالٍ وَفِي كُلِّ وَقْتٍ		٣٣٦
٢٠٦	النَّاسِي بِالْمَلَائِكَةِ فِي التَّسْبِيحِ وَالْعِبَادَةِ - سجود التلاوة - في فضل الذكر		٣٣٨
٣٤١	تَفْسِيرُ سُورَةِ الْأَنْفَالِ - مَقْدَمَةُ السُّورَةِ - مَوْضُوعُ سُورَةِ الْأَنْفَالِ - أسباب النزول		٣٤١
١	التفسير: إِصْلَاحُ ذَاتِ الْبَيْنِ فِي مَعَانِمِ بَذْرِ		٣٤٦
٢	الْوُصْفُ الْأَوَّلُ خَمْسَةُ أَوْصَافٍ لِأَهْلِ الْإِيمَانِ: ﴿إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ﴾		٣٥٢
٣٥٤	الْوُصْفُ الثَّانِي: ﴿وَإِذَا تَلَيَّتْ عَلَيْهِمْ ءَايَتُهُمْ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا﴾		٣٥٤
٣	الْوُصْفُ الرَّابِعُ: ﴿الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ﴾ الوصف الخامس: ﴿وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُقْفُونَ﴾		٣٥٦
٤	مَا أَعَدَّ اللَّهُ لِأَهْلِ الْإِيمَانِ الْحَقَّ		٣٥٧
٦٠٥	أَخَذَاتُ غَزْوَةِ بَذْرِ الْكُبْرَى		٣٥٩
٨٠٧	الْبَعِيرُ أَوْ التَّنْفِيرُ - الرسول يستشير أصحابه - إلى أرض المعركة		٣٦٤
١٠٠، ٩	دَوْرُ الْمَلَائِكَةِ فِي غَزْوَةِ بَذْرِ الْحَكْمَةِ مِنْهُ		٣٦٨
١١	دَوْرُ النَّعَاسِ وَالْمَطَرِ فِي النَّصْرِ عَلَى الْعَدُوِّ		٣٧٣
١٤-١٢	تَثْبِيثُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْفَاءِ الرَّغْبِ فِي قُلُوبِ أَعْدَائِهِمْ		٣٧٨
١٦٠، ١٥	ست نداءات للمؤمنين في السورة - النداء الأول: عَدَمُ التَّوَلَّى يَوْمَ الرَّحْيفِ		٣٨٣

الآية	فهرس المـ ووجـ وعات	الصفحة
٥٦	شِرَارُ الْخَلْقِ عِنْدَ اللَّهِ	٤٧١
٥٧	وُجُوبُ التَّكْيِيلِ بِنَاقِضِي الْعَهْدِ	٤٧٢
٥٨	الْمُبَادَرَةُ بِأَخْذِ الْعَدُوِّ عَلَى غِرَّةٍ	٤٧٣
٥٩	نَصْرُ الْعَدُوِّ سَحَابَةٌ صَنِيفٌ	٤٧٦
٦٠	وُجُوبُ إِعْذَادِ الْعَدُوِّ الْمُكَافِئَةِ لِقِتَالِ الْعَدُوِّ - من معاني القوة - رباط الخيل	٤٧٧
٦٤-٦١	إِجَابَةُ الْعَدُوِّ إِلَى طَلَبِ السَّلَامِ وَإِنْ كَانَ يُضْمِرُ شَرًّا - أصناف الناس - الجزية	٤٨٢
	فرق بين طلب الصلح وبين الموافقة عليه - أحاديث في معنى الآية:	٤٨٤
٦٦، ٦٥	مَتَى يَثْبُتُ الْمُؤْمِنُ أَمَامَ الْعَدُوِّ؟	٤٨٨
٦٩-٦٧	عِتَابُ اللَّهِ لِلْمُؤْمِنِينَ فِي شَأْنِ أَسَارَى بَدْرٍ - قصة أساري بدر	٤٩١
٧٠	مَنْ يَقْقِدُ مَالَهُ بِسَبَبِ مُحَنٍّ إِسْلَامِيٍّ يَعُوْضُهُ اللَّهُ خَيْرًا مِنْهُ - قصة العباس - إطلاق أبي العاص من الأسر	٤٩٩
٧١	تَكَرَّرُ غَدْرُ الْعَدُوِّ	٥٠٢
٧٢	أنواع الناس وقت التنزِيل، أولاً: المهاجرون والأنصار - ثانياً: مَنْ لَمْ يُهَاجِرْ مِنَ الْمُسْلِمِينَ	٥٠٣
٧٣	ثالثاً: موالة الكُفَّارِ لبعضهم:	٥٠٨
٧٤	الثَّنَاءُ عَلَى الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ وَتَوَابُهُمْ عِنْدَ اللَّهِ -	٥٠٩
٧٥	رابعاً: أَهْلُ الْهِجْرَةِ الثَّانِيَةِ - في أسباب النزول: من أحكام التجويد	٥١٠
	فهرس الموضوعات	٥١٤



فَأَحْبَبُ النَّفْسِ

تأليف :

أَحْمَدُ بْنُ أَحْمَدَ مُحَمَّدَ عَبْدَ اللَّهِ الطَّوِيلِ

عُضْوُ اللَّجْنَةِ الْعِلْمِيَّةِ لِمُرَاجَعَةِ مُصْحَفِ الْمَدِينَةِ النَّبَوِيَّةِ
وَلَجْنَةِ الْإِشْرَافِ عَلَى التَّسْجِيلَاتِ الْقُرْآنِيَّةِ
بِمُجْمَعِ الْمَلِكِ فَهْدٍ لَطَبَاعَةِ الْمُصْحَفِ الشَّرِيفِ

قَدَّمَ لَهُ : مَعَالِي الدُّكْتُورُ / عَبْدُ اللَّهِ بْنُ عَبْدِ الْمُحْسِنِ الشُّرْكِي
وَالْأَسْتَاذُ الدُّكْتُورُ / صَالِحُ بْنُ غَانِمِ السَّدْلَانِ
وَنُحْبَةٌ مِنَ الْعُلَمَاءِ الْمُتَخَصِّصِينَ

المجلد السادس: التوبة ويونس وهود

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

تَفْسِيرُ سُورَةِ التَّوْبَةِ (٩)

مُقَدِّمَةُ السُّورَةِ

سورة التوبة هي السورة التاسعة في ترتيب المصحف، والثالثة عشرة بعد المئة في ترتيب النزول، وعدد آياتها مئة وتسع وعشرون آية عند أهل الكوفة، ومئة وثلاثون آية عند غيرهم. وهي ألفان وأربع مئة وسبع وتسعون كلمة، وعشرة آلاف وثمان مئة وسبعة وثمانون حرفاً.

أَسْمَاءُ السُّورَةِ

وسورة التوبة لها أكثر من ستة عشر اسماً، أشهرها:

١- التوبة. ٢- وبراءة

وقد جاء هذان الاسمان في حديث زيد بن ثابت رضي الله عنه في جمع القرآن، قال: فتتبع القرآن حتى وجدت آخر سورة التوبة مع أبي خزيمة الأنصاري رضي الله عنه ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنْفُسِكُمْ﴾ حتى خاتمة سورة براءة^(١).

وفي صحيح البخاري عن البراء بن عازب رضي الله عنه قال: آخر سورة نزلت كاملة سورة براءة^(٢). ولعل المقصود آخر سورة طويلة، وإلا فقد نزل بعدها سورة النصر في منى في حجة الوداع. وهذه تسمية للسورة بأول كلمة منها (براءة).

١- وسميت سورة التوبة؛ لأن الله تعالى أنزل فيها التوبة للذين تخلّفوا عن غزوة تبوك، وأنزل فيها توبة المؤمنين الصادقين، وفيها أيضاً دعوة للمشركين للتوبة كما في أولها (فإن تابوا...).

٢- وسميت سورة براءة؛ لأن فيها البراءة من المشركين إلى يوم القيامة.

٣- وتسمى أيضاً السورة الفاضحة؛ لأنها فضحت أحوال المنافقين، وكشفت أسرارهم.

(١) «صحيح البخاري»، باب جمع القرآن برقم (٤٩٨٦).

(٢) «صحيح البخاري» برقم (٤٣٤٦) وانظر: رقم (٤٦٥٤) و«صحيح مسلم» برقم (١٦١٨).

كما في البخاري وغيره عن سعيد بن جبير قال: قلت لابن عباس رضي الله عنهما: سورة التوبة، قال: التوبة هي الفاضحة، ما زالت تنزل: ومنهم، ومنهم، حتى ظنوا أنها لم تُبقِ أحداً منهم إلا ذُكروا فيها^(١).

٤- وتسمى المخزية. أي التي أخزت المنافقين وأذلَّتْهم.

٥- والمنكَّلة، لأنها نكَّلتْ بالمنافقين.

٦- والمُبْعَثرة؛ لأنها كشفت من أسرار الناس.

٧- والمثيرة، لأنها أثارت ما انطوت عليه سرائر المنافقين.

٨- والمشدَّدة، أي التي شددت على المنافقين الخارجين عن طاعة الله والرسول.

٩- والمدممة، أي المدمرة التي تعم المنافقين بعقاب.

١٠- والحافرة؛ لأنها تحفر عما في القلوب.

١١- والمدمِّرة، التي أُنذرت المنافقين بالهلاك.

١٢- والمنقَّرة، أي التي نَقَرَتْ وأخرجت ما في صدور أهل النفاق.

١٣- والمقشَّشة، أي: التي تُبرئ من الشرك والنفاق كإبراء المريض من علته.

١٤- والباحثة عن النفاق وأهله.

١٥- والمشرَّدة. ١٦- وسورة العذاب.

عن حذيفة رضي الله عنه قال: يسمونها سورة التوبة وهي سورة العذاب، والله ما تركت واحداً إلا نالت منه^(٢).

وهي سورة مدنية باتفاق، واستثنى بعضهم ﴿مَا كَانِ لِلنَّاسِ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا أَنْ يَسْتَغْفِرُوا﴾

(١) «صحيح البخاري» برقم (٤٨٨٢) و«صحيح مسلم» برقم (٣٠٣١).

(٢) الطبراني في «الأوسط» برقم (١٣٥٢) وفي «الكبير» (١٣٣٠) وابن أبي شيبة (٥٥٤/١٠) و«المستدرک» (٣٣٠/٢) وصححه الحاكم ووافقه الذهبي قال الهيثمي في «مجمع الزوائد» (١٨/٧): ورجاله ثقات وأبو عبيدة برقم (٤٤٦) وإسناده حسن.

لِلْمُشْرِكِينَ ﴿١١٣﴾ فإنها نزلت لما وعد النبي ﷺ أبا طالب بالاستغفار له وهو في مرض الموت، كما سيأتي عند تفسير الآية.

عن عطية الهمداني قال: كتب عمر بن الخطاب ؓ: تعلّموا سورة براءة، وعلمّوا نساءكم سورة النور^(١).

ترك البسملة في أولها: وسورة براءة هي السورة الوحيدة في القرآن الكريم التي لا توجد البسملة في أولها، والقول الصحيح في ذلك: أن جبريل لم ينزل بالبسملة في صدر سورة براءة، فلم توجد فيها البسملة في المصحف لذلك، دون غيرها من السور، وموافقة رسم المصحف شرط في صحة القراءة، والأصل في ذلك التوقيف، وفي هذا دليل قاطع على وجوب قراءة البسملة في أول كل سورة عدا سورة براءة، سرًّا في الصلاة السرية، والقراءة السرية، وجهراً في الصلاة الجهرية، والقراءة الجهرية، على تفصيل فقهي في ذلك بالنسبة للصلاة، سبق ذكره في سورة الفاتحة.

ومما يُذكر في عدم ذكر البسملة في أول براءة:

١- أن من عادة العرب أنهم كانوا إذا كتبوا نقضاً للعهد حذفوا منه البسملة، ولمّا أرسل النبي ﷺ علي بن أبي طالب ؓ؛ ليقراً على المشركين نقض عهودهم لم يقرأ البسملة في أول براءة، جرياً على عادة العرب أنهم كانوا لا يذكرون البسملة في الوثيقة التي تُنقض فيها العهود.

عن عَـسَـس بن سلامة قال: قلت لعثمان: يا أمير المؤمنين، ما بال الأنفال وبراءة ليس بينهما: (بسم الله الرحمن الرحيم)؟ قال: كانت تنزل السورة، فلا تزال تكتب حتى تنزل: (بسم الله الرحمن الرحيم)، فإذا جاءت: (بسم الله الرحمن الرحيم) كُتبت سورة أخرى، فنزلت الأنفال، ولم تكتب (بسم الله الرحمن الرحيم)^(٢).

(١) أبو عبيدة في «فضائل القرآن» ص ١٢٩ وما بعدها وسعيد بن منصور في «التفسير» (١٠٠٣) والبيهقي في «الشعب» (٢٤٣٧، ٢٤٥٢)

(٢) أخرجه الدارقطني في الأفراد، يُنظر: «علل الدارقطني» (٤٣/٣) مختصراً على أوله، وانظر: «الدر المشور» (٢٢٤/٧).

٢- وأيضًا: فإن المشركين في السنة السادسة من الهجرة عند كتابة صلح الحديبية مع رسول الله ﷺ لما أراد أن يكتب في بداية شروط الصلح: (بسم الله الرحمن الرحيم) قالوا: لا، نحن لا نعرف (الرحمن الرحيم)، ولكن اكتب: (باسمك اللهم)، فردّوا البسملة، ولم تُكتب في شروط صلح الحديبية، فلما نقض الله هذا الصلح كما جاء في مطلع سورة براءة لم يرَدْ عليهم البسملة التي ردّوها، فالله سبحانه لم يذكرها لهم في نقض العهد؛ لأنهم لم يقبلوها حين كتبت شروط صلح الحديبية.

٣- وقال علي بن أبي طالب لابن عباس ؓ: (بسم الله الرحمن الرحيم) أمانٌ وبشارة، و(براءة) نزلت بالسيف ونبذ العهد، فلذلك لم تبدأ بالأمان^(١).

٤- قال القرطبي: والصحيح أن التسمية لم تكتب؛ لأن جبريل ؑ ما نزل بها في هذه السورة^(٢). قلت: هذا هو الصواب.

- وقال الفخر الرازي: الصحيح أنه ﷺ أمر بوضع هذه السورة بعد سورة الأنفال وحيا، وأن حذف ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾ من أولها وحيا^(٣).

- وقال الجمل: لا مدخل لرأي أحد في الإثبات والترك، وإنما المتبع في ذلك هو الوحي والتوقيف^(٤).

فالقاريء يبدأ سورة التوبة بالاستعاذة ولا يسمل، وله أن يسمل بعد الاستعاذة في أثنائها، وإذا وصل آخر الأنفال بأول براءة فله أن يأتي بوجه من ثلاثة وجوه هي: وصل

(١) «تفسير ابن عطية» (٣/٣) وقد أخرجه أبو الشيخ وابن مردويه عن ابن عباس كما في «الدر» (٧/٢٢٧).

(٢) «تفسير القرطبي» (٦١/٨) ويذكر المفسرون في ذلك حديثًا يُنسب إلى النسائي والترمذي عن يزيد الفارسي، وهو مجهول الحال، وفيه ما ينسب إلى عثمان ؓ أنه قال: إن النبي ﷺ قُبض ولم يبين موضع سورة التوبة من الأنفال، فقرنها عثمان بها، ولم تكتب البسملة في أولها. وهذا حديث لا يصح، قال عنه السيوطي في تدريب الراوي: عليه أمارات الوضع، وكلٌّ من الأنفال والتوبة سورة مستقلة، وبينهما زمن في النزول يقدر بسبع سنوات.

(٣) «تفسير الفخر الرازي» (٢١٦/١٥).

(٤) حاشية الجمل على «الجلالين» (٢٦١/٢).

السورتين ببعضهما هكذا ﴿إِنَّ اللَّهَ يَكُلُّ شَيْءًا عَلَيْهِ ۖ بَرَاءَةٌ مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ...﴾ أو يقف مع التنفس على آخر الأنفال ثم يبدأ (براءة...) أو يسكت على آخر الأنفال سكة خفيفة بدون تنفس ثم يبدأ (براءة...) فهذه ثلاثة أوجه.

والأنفال والتوبة سورتان وإن لم تذكر البسملة في أول التوبة، وبينهما في النزول نحو سبع سنين، فقد نزلت سور الأنفال في السنة الثانية للهجرة، ونزلت سورة التوبة في السنة التاسعة للهجرة.

مناسبة سورة التوبة لما قبلها

وجاء ترتيب سورة التوبة بعد سورة الأنفال؛ لما بينهما من تناسب وتشابه في المعنى:

١- فقد أجملت سورة الأنفال عهود المشركين ونقضها، فهم الذين ينقضون عهدهم في كل مرة، وهم لا يتقون، وسورة التوبة فصلت هذه العهود، ووضحت نقضها.

٢- وذكرت سورة الأنفال نقض العهد عند الخوف من خيانة الأعداء، ﴿وَأَمَّا تَخَافُ مِنْ قَوْمٍ خِيَانَةٍ فَأَبْذِلْ إِلَيْهِمْ عَلَى سَوَاءٍ﴾ [الأنفال: ٥٨] وبيّنت هذه السورة قتال المشركين وأهل الكتاب لخيانتهم.

٣- وذكرت سورة الأنفال صدّ المشركين للناس عن المسجد الحرام، وبيّنت هذه السورة أن المشركين ليس لهم أن يعمرّوا مساجد الله، وإنما يعمرّه المؤمنون بالله ورسوله.

٤- وذكرت سورة الأنفال وجوب إعداد العدة لقتال العدو، ونعت هذه السورة على المنافقين أنهم لو أرادوا الخروج لأعدّوا له عدّة.

٥- وقد ذكرت سورة الأنفال صفات المؤمنين في أولها، وذكرت صفات الكافرين بعد ذلك، وبيّنت حكم الولاية بينهم، وصرحت هذه السورة بوجوب البراءة من الكفار بالكُلية.

٦- وكما تحدثت سورة الأنفال عن غزوة بدر تحدثت هذه السورة عن غزوة تبوك، وهكذا، كما ما بيّن السورتين من تشابه، وصور تاريخية.

وقت نزولها: وسورة براءة لم ينزل بعدها سورة كاملة إلا سورة النصر: ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ﴾ وكان نزولها بعد سورة الفتح، وفيها نعي لرسول الله ﷺ بقرب

وفاته، كما فهم ذلك الصديق رضوان الله تعالى عليه فبكى، وذكر أن الله جلّ شأنه نعى رسوله للأمة، وبيّن أن الله تعالى أكمل له الدين، وأتم عليه النعمة، وتم له النصر، وفتح مكة، ودخل الناس في دين الله أفواجا، فلم يبق إلا الاستغفار والتسبيح.

وقد سمع أعرابي سورة براءة فقال: أظنّ هذه من آخر ما أنزل الله على رسوله، فقيل له: لم تقول ذلك؟ فقال: أرى أشياء تُنقض وعهودًا تُنبذ.

وسورة التوبة نزل بعضها قبل غزوة تبوك، ونزل بعضها بعد الغزوة وفي أثنائها، وغزوة تبوك كانت في السنة التاسعة من الهجرة، وهي آخر غزوات النبي ﷺ، وكانت هذه الغزوة في شهر رجب، في شدة الحر، حين طابت الثمار، وفي أبعد سفر من المدينة وقتها، وهذا التاريخ من العام التاسع كان قبل وفاة النبي عليه الصلاة والسلام بخمسة عشر شهرا، وبعد اثنين وعشرين عاما من نزول الوحي على رسول الله ﷺ.

محتويات السورة: وكان نزول هذه السورة على النحو التالي:

- ١- من الآية الأولى إلى الآية الثامنة والعشرين في العلاقة بين المسلمين والمشرّكين.
- ٢- ومن الآية التاسعة والعشرين إلى الآية السابعة والثلاثين في العلاقة بين المسلمين وأهل الكتاب.
- ٣- ومن الآية الثامنة والثلاثين إلى الآية الخامسة والأربعين في المتناقلين عن غزوة تبوك وفضح شأنهم.
- ٤- ومن الآية الثامنة والأربعين إلى الآية السادسة والستين في فضح المنافقين وذلك في أكثر من نصف السورة في أماكن متفرقة.
- ٥- ومن الآية السابعة والستين إلى نهايتها صنّفت الناس إلى: مهاجرين، وأنصار، وأعراب، ومنافقين، ومتخلفين، ومخلصين.

أبو بكر أمير على الحج عام نزول السورة:

فقد كانت غزوة تبوك في شهر رجب، ونزلت أول سورة براءة في آخر السنة التاسعة، أي: قبيل موسم الحج، في آخر شهر ذي القعدة من السنة التاسعة من الهجرة، بعد أن

خرج أبو بكر رضي الله عنه من المدينة متوجّهاً إلى مكة أميراً على الحج .

لماذا لم يحج الرسول ﷺ قبل العام العاشر؟

وكان النبي عليه الصلاة والسلام لم يؤدّ فريضة الحج إلى العام التاسع من الهجرة على أصح الأقوال، وعزم عليه الصلاة والسلام أن يحج قبل وفاته، ولكنه تذكّر أن هناك سببين يمنعان من الحج في العام التاسع من الهجرة:

السبب الأول: هو التقديم والتأخير الذي حصل في الأشهر، وهو ما يسمى بالنسيء ﴿إِنَّمَا النَّسِيءُ زِيَادَةٌ فِي الْكُفْرِ﴾ [٣٧] وقد كان المشركون إذا أرادوا أن يستحلوا القتال في الأشهر الحرم أخروا فيها وقدموا، فترتب على ذلك أن يأتي شهر المحرم مكان شهر صفر، ويأتي شهر ذي القعدة مكان شهر ذي الحجة، أي: في غير مواعده، فكان الحج في العام التاسع، في شهر ذي القعدة، ولذا خرج أبو بكر رضي الله عنه أميراً على الحج في هذا العام، وكانت وقفة عرفة في غير التاسع من ذي الحجة، وكان يوم النحر في غير العاشر من ذي الحجة، بل كان في شهر ذي القعدة.

ولذلك فإن النبي عليه الصلاة والسلام لمّا حج في العام التالي -أي: في السنة العاشرة- خطب في الناس في حجة الوداع، وقال: «ألا إن الزمان قد استدار كهيئته يوم خلق الله السموات والأرض» ومعنى: استدار كهيئته، أي: جاءت وقفة عرفة يوم التاسع، وجاء يوم النحر في مواعده يوم العاشر من ذي الحجة.

هذا هو السبب الأول الذي لم يجعل الرسول عليه الصلاة والسلام يخرج بنفسه للحج في العام التاسع.

والسبب الآخر: أن القرآن ظل يتنزّل على رسول الله ﷺ، ويعامل أعداء الإسلام معاملة هيّنة، يسالم مَنْ سألهم، ويدعوهم إلى الله بالحكمة والموعظة الحسنة، ومع أن الأصنام كانت قد حُطّمت من جوف الكعبة عام الفتح إلا أنه بقي من أعمال المشركين مخالفات، منها:

١- أنهم يخالطون المسلمين في الحرم.

٢- وأنهم يشركون في التلبية، فيقولون: إلا شريكاً هو لك، تملكه وما ملك.

٣- ومنهم من يطوف بالبيت وهو عارٍ، ليس عليه شيء من الملابس.

٤- وكان بين النبي ﷺ وبين المشركين عهد لم يزل قائماً.

وكان ﷺ قد صالح قريشاً عام الحديبية على وضع الحرب عشر سنين فنقضوها.

ثم فتح الرسول ﷺ مكة في العام الثامن، وكان المشركون يطوفون بالبيت عرايا، ولذلك فإن النبي عليه الصلاة والسلام أرسل أبا بكر في العام التاسع من الهجرة أميراً للحج؛ ليظهر البيت من أعمال المشركين وليقيم للناس مناسك الحج، وبعث معه أربعين آية يقرأها على الناس في الحج، ثم أردفه بعلي بن أبي طالب؛ ليقرأ على الناس من أول السورة إلى نهاية الآية الأربعين قوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾.

نزول صدر سورة براءة لنقض عهد المشركين

ولما ذهب أبو بكر رضي الله عنه ووصل إلى ذي الحليفة أنزل الله سبحانه على رسوله ﷺ صدر سورة براءة، وفيها البراءة من المشركين.

والأمر بأن لا يدخل البيت الحرام بعد هذا العام مشرك ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلَا يَقْرَبُوا الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَذَا﴾ [٢٨]

﴿مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ أَنْ يَعْمُرُوا مَسْجِدَ اللَّهِ شَاهِدِينَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ بِالْكَفْرِ﴾ [١٧]

وألا يطوف بالبيت عريان.

وسورة براءة لم تنزل بالسيف كما يقال، وإنما ظل الإسلام طوال اثنين وعشرين عاماً ينزل بمثل هذه الآيات:

١- ﴿وَإِنْ كَذَّبُوكَ فَقُلْ لِي عَمَلِي وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ أَنْتُمْ بَرِيءُونَ مِمَّا أَعْمَلُ وَأَنَا بَرِيءٌ مِمَّا تَعْمَلُونَ﴾ [يونس].

٢- وقوله: ﴿قُلْ لَا تُسْأَلُونَ عَمَّا أَجْرَمْنَا وَلَا نُسْأَلُ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ [سبأ]

٣- وقوله: ﴿لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ﴾ [الكافرون].

٤- وقوله: ﴿وَقُلِ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيُكْفُرْ﴾ [الكهف: ٢٩].

٥- وقوله: ﴿فَدَجَاءَكُمْ بِصَافِرٍ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنْ أَبْصَرَ فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ عَمِيَ فَعَلَيْهَا وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ

يَحْفِظُ ﴿١٨٤﴾ [الأنعام].

٦- وقوله: ﴿إِنَّمَا هُوَ إِلَهُ وَاحِدٌ وَإِنِّى بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ﴾ [الأنعام: ١٩]

٧- وقوله: ﴿قُلْ يَتَّخِذُ النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمْ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنِ اهْتَدَى فَإِنَّمَا يَهْتَدِى لِنَفْسِهِ وَمَنْ ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِوَكِيلٍ﴾ [يونس].

بمثل هذه الآيات ظل الوحي يتنزل على رسول الله ﷺ وكانت هذه هي السياسة المتبعة في معاملة أعداء الإسلام، ولكنهم رفضوا أن تشق الدعوة طريقها، فاشتبكوا مع الإسلام في قتال انتهى بهزيمتهم، ولكنهم لم يعترفوا بالواقع ولم يتراجعوا عن العدوان، وظلوا يستأنفون الغدر بالإسلام والفتك بأهله، فكان لا بد من تأديب العاصين وإلزامهم حدود الأدب، فصدرت البراءة من الله ورسوله ضد هذه القوى الظالمة، فالإسلام لم يتعسف معهم.

الْمَقَاصِدُ الْإِجْمَالِيَّةُ لِسُورَةِ التَّوْبَةِ

أَوَّلًا: نَقْضُ عُهُودِ مَنْ نَقَضُوا الْعَهْدَ

عرضت السورة إلى عهود المشركين فوضعت لها حداً، وقطعت الولاية بينهم وبين المسلمين، ووضعت الأساس لقبول بعض أهل الكتاب في جزيرة العرب، وذلك في مثل قوله تعالى ﴿فَقَاتِلُوا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا يَوْمِ الْآخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حَتَّى يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَنْ يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ﴾ [الآية: ٢٩] فجعلت الآية دفع الجزية مشروطاً بذلك.

وألغت السورة العهود والمواثيق التي كانت بين الرسول ﷺ وبين اليهود، فليس من الحكمة أن يحتفظ الإسلام بعهود قوم نكثوها مرات ومرات؛ ومن ذلك عهد المشركين الذي أبرموه عام الحديبية مع رسول الله ﷺ ولم يلتزموا بما فيه.

وفي أثناء تأديب المعتدين يظهر أقوام لا يريدون قتالاً، ولا يفكرون فيه، فيأمر الإسلام بتأمينهم وطمانتهم وإعادتهم سالمين إلى أرضهم ﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّى يَسْمَعَ كَلِمَ اللَّهِ ثُمَّ ابْلِغْهُ مَا مَنَعَهُ﴾ [التوبة: ٦] وسماع كلام الله يتحقق بكل وسيلة من وسائل الدعوة والإسلام.

لقد أعطى الإسلام المشركين مهلة قدرها أربعة أشهر؛ ليرجعوا عن خطيئتهم، وأفهمهم أن ذلك ليس عن ضعف، فلا تنخدعوا بقوتكم المزعومة؛ فإن الغدر له عواقب وخيمة، فكيف تُحفظ عهودهم، وهم لا يرقبون في مؤمن إلا ولا ذمة؟! ولذا لزم تأديبهم ﴿فَقَاتِلُوا أَيمَةَ الْكُفْرِ إِنَّهُمْ لَأَئِمَنَ لَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَنْتَهُونَ﴾ [١٢]، وهم قوم نكثوا أيمانهم وهموا بإخراج الرسول، وبدؤوا بالغدر والخيانة، وأسأؤوا للمسلمين مدة طويلة، تقترب من ربع قرن، وألحقوا بهم إهانات وجراحات، وملؤوا صدورهم غيظًا وحنقًا عليهم.

لقد عاملهم الإسلام خلال اثنتين وعشرين سنة بأرحم ما يعامل به البشر، وإزاء خيانتهم ونقضهم للعهود لم يكن بدًّا من إعلان البراءة منهم، ونبد عهودهم، وإمهالهم مدة ينتهي فيها وقت الأمان، مع بيان الأسباب التي دعت إلى البراءة منهم ووجوب قتالهم، ومن ثمَّ حرّضت المؤمنين على قتالهم، وبيّنت أنهم لا يحق لهم عمارة بيوت الله، ولا دخول حرم الله الآمن.

ووجهت السورة إلى ترك محبتهم، وبيّنت أن من يقدم محبة الدنيا بما فيها ومن فيها على الجهاد في سبيل الله؛ فإن عاقبته وخيمة في الدنيا والآخرة.

وقد نعت السورة على المتكاسلين عن الجهاد وحذّرتهم من سوء العاقبة: ﴿إِلَّا نَنْفِرُوا يُعَذِّبَكُمُ عَذَابًا أَلِيمًا وَيَسْتَبَدِّلَ قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّهُ شَيْئًا وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ (٢٩) التوبة.

ثَانِيًا: مُعَامَلَةُ أَهْلِ الْكِتَابِ:

وبعد الهجرة إلى المدينة خاض المسلمون مع أعدائهم نحو ثلاثين غزوة وسريّة، فكم بلغت خسائر الأعداء في هذه المعارك؟ إنها لا تبلغ عُشر معشار مذبحه قانا، أو صبرا وشاتيلا، أو البوسنة والهرسك، أو العراق، أو فلسطين، أو أفغانستان، أو الجمهوريات الإسلامية تحت الحكم الشيوعي، أو ... أو ... لم يُقتل من الأعداء في معارك الإسلام أكثر من متّي قتل، فإذا أضفنا إليهم يهود بني قريظة فإنهم لم يبلغوا الألف في تاريخ الغزوات، والسرايا النبوية.

والفتوحات العُمريّة في مصر والشام والعراق كانت في مواجهة احتلال دولتي الفرس والروم لهذه البلاد لتحرير شعوبها من الذل والاستغلال، حتى قضى الإسلام على نفوذ

هاتين الدولتين في تلك البلاد وغيرها .

وكان الرومان قد أوصدوا باب الدعوة في شمال الجزيرة .

والإسلام لا يعترض طريق الآخرين الذين لم يعترضوا طريقه، ولا طريق الذين سالموكم ولم يقاتلوكم ﴿فَإِنْ أَعْرَضُوا عَنْكُمْ فَلَمْ يَقْنَلُواكُمْ وَالْفَوْزُ إِلَيْكُمْ أَسْلَمَ فَمَا جَعَلَ اللَّهُ لَكُمُ عَلَيْهِمْ سَبِيلًا﴾ [النساء: ٩٠] .

والجزية لم تُفرض على مُحايد ترك قتال المسلمين، ولم تُفرض على من انخرط في الجيوش التي تحمي الوطن، وشاركت في أمن البلاد والدفاع عنها، وإن كان مختلفاً في عقيدته، وإنما فرضت الجزية عليهم مقابل حمايتهم والدفاع عنهم وانتفاعهم بالأمن والأمان في بلاد المسلمين، وعدم مشاركتهم للمسلمين في الدفاع عن الوطن، فإن فعلوا ذلك فلا جزية عليهم .

ومحمد ﷺ قد بُعث هادياً، ولم يُبعث جابياً، ولذا فقد نَضَبَت موارد الخزانة من طريق الجزية لكثرة من دخلوا في دين الله من مصر وخراسان وأقطار أخرى، ولم يبقَ للجزية وجود، كما هو الحال في شأن الأرقاء .

وكما انتهت الوثنية في الجزيرة فقد خرج اليهود من آخر معاقلهم في خير سنة سبع من الهجرة، وجاء وفود النصارى إلى المدينة يستمعون إلى الوحي الجديد، فأسلم بعضهم وانشرح صدره، ومنهم من لم يُسلم، حتى طلب النبي ﷺ منهم المباهلة فأبوا ودفعوا الجزية .

ومع أن الإسلام كان الصوت الوحيد الذي بشر بنصر الروم على الفرس مرة أخرى بعد هزيمتهم، وأنه أمر المستضعفين بالهجرة إلى الحبشة، فقد كان الإسلام واضحاً كل الوضوح في إنكار التثليث، ورفض ألوهية عيسى أو بنوته، واعتبر عيسى وأمه وجبريل من عباد الله الصالحين، مع التأكيد على نبوة عيسى ﷺ .

وكان مما نزل من ذلك في سورة براءة ﴿اتَّخَذُوا أَحْبَابَهُمْ وَرُفَقَهُمْ أَوْلِيَاءَ مِّن دُونِ اللَّهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَمَا أُمُورُهُمْ إِلَّا لِيُعْبَدُوا إِلَٰهًا وَاحِدًا لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ سُبْحَنَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ ﴿٦٦﴾ .

ثَالِثًا: الْكَشْفُ عَنْ نَوَايَا الْمُنَافِقِينَ:

فقد فضحت السورة المنافقين وأخزتهم، وأظهرت ما تنطوي عليه نفوسهم، وبيّنت مسالكهم الخبيثة، وصفاتهم الذميمة في مجالات كثيرة، منها:

١- الفرار من مواطن الجِدِّ والجِهَاد، والتعلُّل بالأعذار الكاذبة، والتستر بالأيمان الفاجرة، كقوله تعالى عنهم: ﴿وَسَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَوِ اسْتَطَعْنَا لَخَرَجْنَا مَعَكُمْ﴾ [٤٢]

وقوله: ﴿وَمِنْهُمْ مَّنْ يَكْفُلُ أَشَدَّنَ لِي وَلَا نَفْعِي﴾ [٤٩]

وقوله: ﴿وَقَالُوا لَا تَنْفِرُوا فِي الْحَرِّ﴾ [٨١].

٢- إشاعة الفتنة بين صفوف المجاهدين متى وُجدوا، وأينما حلُّوا ﴿لَوْ خَرَجُوا فِيكُمْ مَا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا وَلَا أُضْعِفُوا خِلَالَكُمْ يَبْغُونَكُمُ الْفِتْنَةَ وَفِيكُمْ سَمْعُونُ لَهُمْ﴾ [٤٧].

٣- محبة السوء للمسلمين، وكراهية الخير لهم ﴿إِنْ تُصِيبَكَ حَسَنَةٌ تَسُوهُمْ﴾ [٥].

٤- التظاهر بالإسلام تقيّة وجُبْنًا عن التصريح بالكفر ﴿وَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ إِنَّهُمْ لَمِنْكُمْ وَمَا هُمْ بِمِنْكُمْ﴾ [٥٦].

٥- طعنهم في جناب النبي ﷺ عند قسمة الأموال، وتوزيع الصدقات لإشاعة التهم الباطلة ﴿فَإِنْ أُعْطُوا مِنْهَا رَضُوا وَإِنْ لَمْ يُعْطُوا مِنْهَا إِذَا هُمْ يَسْخَطُونَ﴾ [٥٨].

٦- وصفهم للرسول ﷺ بأنه يستمع إلى كل ما يقال له دون تثبُّت ﴿وَمِنْهُمْ الَّذِينَ يُؤْذُونَ النَّبِيَّ وَيَقُولُونَ هُوَ أُذُنٌ﴾ [٦١].

٧- استهزاؤهم بالإسلام وأهله، واعتذارهم بأنهم لم يكونوا جادين ﴿وَلَكِنْ سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ﴾ [٦٥].

٨- سخريتهم من فقراء المسلمين الذين يتصدّقون بما لديهم من القليل ﴿وَالَّذِينَ لَا يَجِدُونَ إِلَّا جُهْدَهُمْ فَيَسْخَرُونَ مِنْهُمْ﴾ [٧٩].

٩- نقضهم للعهد، وبخلهم بالمال، قال تعالى: ﴿وَمِنْهُمْ مَّنْ عَاهَدَ اللَّهُ لَئِنْ آتَيْنَا مِنْ فَضْلِهِ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ الصَّالِحِينَ ﴿٧٥﴾ فَلَمَّا آتَيْنَاهُمْ مِنْ فَضْلِهِ بَخِلُوا بِهِ﴾ [٧٥، ٧٦]

وقال سبحانه: ﴿قُلْ أَنْفِقُوا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا لَنْ يُتَقَبَلَ مِنْكُمْ﴾ [٥٣].

١٠- خداع المسلمين للإضرار بهم، والتفريق بينهم في إقامة مسجد الضرار وغيره. ﴿وَالَّذِينَ أَخَذُوا مَسْجِدًا ضِرَارًا وَكُفْرًا وَتَفْرِيقًا بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ وَإِرْصَادًا لِمَنْ حَارَبَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ مِنْ قَبْلُ﴾ [الآية: ١٠٧]

وهكذا رسمت السورة المنهج الذي يسير عليه المسلمون مع غيرهم في الداخل والخارج، إلى جوار الحديث عن الزكاة ومصارفها، وقصة الثلاثة الذين خُلِفُوا، والكلام عن الأشهر الحرم، والتأخير والتقديم فيها، ووجوب طلب العلم.

ثم تحدثت السورة قُرب نهايتها عن المؤمنين الصادقين الذين باعوا أنفسهم لله بجنة عرضها السموات والأرض، وأمرتهم ألا يستغفروا للمشركين، وأن يكابدوا الشدائد في جهاد الأعداء، وحكمت على المتخلفين عن الغزو في سبيل الله، فمنهم المنافقون، ومنهم الذين خلطوا عملاً صالحاً وآخر سيئاً، ومنهم المرجون لأمر الله.

وختمت السورة بالثناء على رسول الله ﷺ فوصفته بالرافة والرحمة ﴿فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَهُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ﴾.



تَفْسِيرُ السُّورَةِ

أَحْكَامُ الْبَرَاءَةِ مِنَ الْمُشْرِكِينَ

١- ﴿(١) بَرَاءَةٌ (٢) مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ (٣) مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾

بدأت السورة كما تبدأ صيغ العقود والعهود بما يناسب مقتضى الحال في الصكوك والمواثيق، ويؤتى بأدل كلمة على الغرض، ويقال: هذا ما عهد به فلان، أو هذا عقد محرر بين فلان وفلان، أو باع فلان إلى فلان، أو وكل فلان فلاناً، وهكذا، كما يقال: أما بعد؛ ولذا حذفت البسملة كما تحذف الديباجة من أول الكلام، وهذا تشريع لمصلحة الأمة، فلا يكون إلا من الله تعالى على لسان رسوله ﷺ، أي: هذه براءة صادرة من الله تعالى؛ لأنه الأمر بها، وصادرة من رسوله ﷺ لأنه المباشر لها.

وهذا إعلان بالتخلي عن العهود التي كانت بين المسلمين والمشركين؛ بسبب نقض بعضهم لعهودهم وإصرارهم على باطلهم، فقد قطع الله ما بين رسوله وبين المشركين من صلوات، فلا تعاهد ولا سلم ولا أمان، حيث لا بد قبل وفاة النبي ﷺ أن يضع الإسلام حداً لشرك المشركين، ولا بد أن يتبرأ الله ورسوله من أعمال المشركين، سيئاً وأنهم نقضوا عهودهم مع رسول الله ﷺ، كما نقض اليهود عهودهم مع النبي عليه الصلاة والسلام، فنزلت هذه الآيات للبراءة من المشركين؛ لنقض عهودهم، ولوضع حدٍّ لهذا الشرك الذي يتخلل حتى الطواف بالبيت، وحتى السجود لله سبحانه.

وقد كان العرب ينبذون العهد لإعلان التحلل من التبعات المترتبة عليه، ويرُدُّون الجوار إذا شأوا، لإنهاء الالتزام بتبعاته، كما فعل ابن الدُّعْنَةَ في ردِّ جوار أبي بكر ﷺ على قريش، وكما فعل عثمان بن مظعون ﷺ في ردِّ جوار الوليد بن المغيرة عليه قائلًا: رضيت

(١) أجمع القراء العشرة على عدم البسملة في أول السورة سواء ابتدأ بها القارئ أو وصلها بآخر الأنفال، وله حال وصل السورتين: القطع أو السكت أو الوصل.

(٢) لحزمة في (براءة) وفقاً لتسهيل الهمزة مع المد والقصر.

(٣) أدغمت الدال في التاء؛ لخروجهما من مخرج واحد وسكون الأول منهما، فيبينهما تجانس صغير.

بجوار ربي، ولا أريد أن أستجير بغيره. قال تعالى: ﴿وَأِمَّا تَخَافَنَّ مِنْ قَوْمٍ خِيَانَةً فَأَنْذِرْ إِلَيْهِمْ عَلَى سَوَاءٍ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْخَائِنِينَ﴾ [الأنفال: ٥٨] أي: لا تخنهم لظنك أنهم يخونونك، فإذا ظننته فافسخ عهدهم معهم.

وقد كان بين النبي ﷺ وبين أهل مكة ومن معهم عهد ألا يصدّوا أحداً عن البيت، وألا يخيفوا أحداً في الشهر الحرام، ومن أحب أن يدخل في عهد محمد ﷺ أو عهد قريش دخل فيه، وأن تضع الحرب أوزارها إلى أجل معين، قيل: عشر سنين، وقيل: أربع سنين، وقيل: سنتان، وبعض العهود عند نزول هذه الآية كان قد انقضى أجله، وبعضه لم ينته أجله، وعلى هذا فإن صلح الحديبية -عند نزول هذه الآية- يكون قد انقضى على بعض الأقوال، ولم ينته على بعضها.

ومعلوم أن صلح الحديبية كان في شهر ذي القعدة سنة ست من الهجرة، ولما وقعت غزوة تبوك في السنة التاسعة أرجف المنافقون أن المسلمين قد غلبوا، فنقض كثير من المشركين العهد، وفيهم بعض خُزاعة، وبنو مُدَلج، وبنو خُزَيْمة، فأعلن الله هذه البراءة للمسلمين؛ ليأخذوا حذرهم، وجُعِلَت هذه البراءة شأناً من شؤون الله ورسوله؛ لأن عهود النبي ﷺ كانت لمصلحة المسلمين.

وقد جمع الله تعالى جميع القبائل التي كان لها عهد مع المسلمين حين نزول هذه السورة في قوله: ﴿إِلَى الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾.

وأشارت سورة النساء إلى بعض عهود المنافقين في قوله تعالى: ﴿إِلَّا الَّذِينَ يَصِلُونَ إِلَى قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ مِيثَاقٌ﴾ [النساء: ٩٠]، كما أشارت سورة الأنفال إلى بعضها في قوله تعالى: ﴿وَإِنْ اسْتَنْصَرُوكُمْ فِي الدِّينِ فَعَلَيْكُمْ النَّصْرُ إِلَّا عَلَى قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ مِيثَاقٌ﴾ [الأنفال: ٧٢].

ومعنى الآية: هذه براءة من الله ومن رسوله إلى جميع المشركين الذين لهم عهد مطلق، أو عهد مقدر بأقل من أربعة أشهر، أن لهم أربعة أشهر يأمنون فيها على أنفسهم من المؤمنين، وبعد الأربعة أشهر لا عهد لهم ولا ميثاق، أما من كان له عهد يزيد على أربعة أشهر، فإن عهده، يتم إلى مدته، ما لم يتوقع منه خيانة أو يبدأ في نقض عهده.

نزلت هذه الآيات، من أول سورة التوبة فأرسل بها النبي ﷺ أبا بكر رضي الله عنه؛ ليقرأها على

الناس في الحج، فلما بلغ ذا الحُلَيْفَةِ قال ﷺ: «لا ينبغي لأحد أن يبلغ هذا إلا رجل من أهلي، فدعا عليًّا فأعطاه إياها»^(١).

ولماذا خُصَّ عليٌّ ﷺ بتبليغ أحكام البراءة؟

الجواب على ذلك: أنه كان من عادة العرب أنهم إذا أبرموا عهدًا، أو صلحًا، أو اتفاقًا، أو نقضوا عهدًا، لا بد أن يتولى ذلك الرئيس كبير القوم، أو شيخ القبيلة، فإن لم يوجد فأقرب الناس إليه عصبه.

وعليٌّ ﷺ هو ابن عم النبي عليه الصلاة والسلام، وأقرب الناس إليه؛ ولذا أرسله الرسول ﷺ دون غيره جريًا على عادة العرب المتبعة عندهم، ولو أن النبي عليه الصلاة والسلام أرسل عثمان، أو عمر، أو غيرهما، لما استجاب المشركون لهذا النفر، ولما اعتبروه ناقضًا للعهد؛ لأنه لم يجز على عادتهم، حيث لم يتولاه أحدٌ عَصْبَةِ النبي ﷺ، وهذا معنى قول الرسول ﷺ: «لا يبلغ عني إلا رجل مني» أي: مِنْ عَصَبَتِهِ، وأقاربه؛ حتى لا يحتج العرب، ولا يرفضوا ما أرسل به.

ذهب عليٌّ بعد أبي بكر ﷺ، وأدركه في ذي الحُلَيْفَةِ، سمع أبو بكر صوت الناقة العضاء أو القصواء، ناقة رسول الله ﷺ، وبمجرد أن سمع صوت الناقة وقف حيث هو، وقال: هذه ناقة رسول الله ﷺ ثم التفت فوجد عليًّا عليها، فأقبل نحوه يسأله: أمير أنت، أم مأمور؟ هل جئت لتخلفني، أم جئت لمهمة؟ قال: بل مأمور، فسارا متوجهين إلى مكة، كان أبو بكر هو أمير الحج، وهو الذي يؤم الناس في الصلاة، وعليٌّ مأموم يصلي خلفه، تبيينًا على إمامة أبي بكر واستخلافه، فأبو بكر هو الذي يخطب في الناس، وهو الذي خطب فيهم يوم التروية، وعلمهم مناسك الحج، وعليٌّ مستمع مع بقية القوم.

وفي يوم النحر طلب أبو بكر من عليٍّ أن يقرأ على الناس ما أرسله به النبي عليه الصلاة والسلام من صدر سورة براءة، ومقتضاه:

١- أن الذين ليس لهم عهد من المشركين .

٢- أو لذين أبرموا عهدًا مطلقًا مع النبي ﷺ ليس له وقت محدد ، ولكنهم ظاهروا علي

(١) يُنْظَر: حديث أنس في سنن الترمذي (٣٠٩٠) وقد حَسَّنَ إسناده الألباني في «صحيح سنن الترمذي» (٢٤٦٧)، وله شواهد كثيرة.

رسول الله ﷺ فأعانوا على قتاله .

٣- أو نقضوا عهدهم قبل انقضاء مدته، فإن أمد هذا العهد أربعة أشهر .
ومن كان له عهد إلى وقت معين فأمدّه إلى أجله بالغاً ما بلغ لقوله تعالى ﴿فَأْتِمُوا إِلَيْهِمْ
عَهْدَهُمْ إِلَىٰ مُدَّتِهِمْ﴾^(١)، والله سبحانه هو الذي يأمر رسوله ويأمر المؤمنين أن ينقضوا هذا
العهد، وأن يبرؤوا إلى الله منه .

وهذه البراءة من غير المسلمين بمعنى التبرؤ من الشرك والكفر، قائمة إلى يوم
الساعة، فالسورة تضع حدًا للتعامل مع المشركين الوثنيين في أرجاء الأرض .
وتضع حدًا للتعامل مع أهل الكتاب من اليهود والنصارى بما يتفق مع مصلحة المسلمين
قوة وضعفا إلى يوم القيامة .

وكان المشركون لما خرج النبي ﷺ إلى غزوة تبوك، بلغهم أن الرسول قد غلب،
فنقضوا عهدهم معه، والمشركون الذين تبرأ الله منهم هم الذين عُرفوا بنقض العهود .
ثم أُنذرت السورة أصحاب العهود أنهم إن استمروا على شركهم فإنهم لن يُعجزوا الله
شيئاً، وسيخذلهم الله ويخزيهم :

إِمَهَالُ الْمُشْرِكِينَ فِي جَزِيرَةِ الْعَرَبِ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ

٢- ﴿فَسِيحُوا فِي الْأَرْضِ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِي اللَّهِ وَأَنَّ اللَّهَ مُخْزِي الْكَافِرِينَ﴾

والآية الثانية تحدد وقت هذه المهلة و أنها أربعة أشهر، فبيّن سبحانه أنها تبدأ من
اليوم الذي أذن فيه رسول الله ﷺ بهذه البراءة، وكان ذلك في يوم النحر، فهي
عشرون يوماً من ذي الحجة، وشهر المحرم، وصفر، وربيع أول، وعشرة من شهر ربيع
الآخر ﴿فَسِيحُوا فِي﴾ أي: مكان من ﴿الْأَرْضِ﴾ دون خوف، وذلك مدة ﴿أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ﴾
والاقتصار على هذه الأشهر الأربعة، نظراً لقوة المسلمين على أعدائهم في هذا الوقت،
بخلاف الوقت الذي كان فيه صلح الحديبية فقد كانوا أضعف، وهي مدة كافية في العادة
لتكوين الرأي، وتحقيق ما يترتب عليه من السياحة في الأرض وغيرها، وكان بداية
الأشهر الأربعة يوم النحر ونهايتها العاشر من شهر ربيع الآخر سنة عشر من الهجرة، وهو

(١) ينظر: تفسير الطبري ٦٢/١٠ والبداية والنهاية لابن كثير ٣٤/٥.

أمر بإباحة، أي: سيروا آمنين أيها المشركون هذه المدة لا يقع بكم منا مكروه.

وهذا معنى: سيحوا في الأرض، أي: سيروا وتَنَقَّلُوا بِحُرِّيَّةٍ، وتشاورُوا فيما بينكم؛ لتقرُّروا ما تريدون لمدة أربعة أشهر، تذهبون فيها حيث شئتم آمنين غير خائفين من القتل والقتال:

١- وهذا بالنسبة لمن ليس له عهد. ٢- أو لمن له عهد مطلق غير مقيد.

٣- أو لمن له عهد أقل من أربعة أشهر، فيكمل له أربعة أشهر.

٤- أما من له عهد محدد يزيد على أربعة أشهر، فقد أمر الله له بالوفاء إلى انتهاء مدة عهده.

﴿وَأَعْلَمُوا أَنكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِي اللَّهِ﴾ أي: أن هذه المهلة ليست عن ضعف من المسلمين، وإنما هي عن عزة وقوة، إنكم لن تُعجزوا الله، ولن تُفْلِتُوا من العقوبة، ولن تهربوا في الدنيا ولا في الآخرة من عذاب الله سبحانه، وأنه مذل الكافرين، ومورثهم العار في الدنيا والنار في الآخرة ﴿وَأَنَّ اللَّهَ مُخْزِي الْكَافِرِينَ﴾.

وهذه الآية عامة في جميع الكفار المعاهدين، وأنهم يُمهَلُونَ أربعة أشهر حتى يُسَلِّمُوا أو يُسَالِمُوا.

وهذه البراءة من المشركين لم تكن سرًّا في الظلام، ولكنها كانت معلنة واضحة تمام الوضوح في أكبر تجمع إسلامي، وفي أعظم يوم هو يوم النحر، يوم الحج الأكبر.

ويؤخذ من الآية أنه يلزم إعلام العدو عند إرادة نقض العهد معه؛ حتى يتمكن من إيصال الخبر إلى أطراف بلاده، وتدبير أمره، وتكوين رأيه، ولا يكفي مجرد الإعلام، بل يُعطى مهلة يدبر فيها حاله.

إِعْلَانُ الْبَرَاءَةِ مِنَ الشَّرْكِ وَأَهْلِهِ

٣- ﴿وَأَذِّنْ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى النَّاسِ يَوْمَ الْحَجِّ الْأَكْبَرِ أَنَّ اللَّهَ بَرِيءٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ وَرَسُولُهُ فَإِنْ تُبْتُمْ فَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ فَأَعْلَمُوا أَنكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِي اللَّهِ وَبَشِّرِ الَّذِينَ كَفَرُوا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ (٣)

هذا أمر من الله تعالى إلى رسوله ﷺ، أن يؤذن مؤذن في الناس، مسلمهم وكافرهم يوم النحر، أن الله بريء ورسوله كذلك بريء من المشركين، فليس لهم عند الله عهد ولا

ميثاق، ويقال لهم: لا تقربوا المسجد الحرام بعد عامكم هذا، وكان ذلك سنة تسع من الهجرة، وقد حج بالناس أبو بكر رضي الله عنه، وأذن في الناس بالبراءة عليّ رضي الله عنه:

أخرج الترمذي بسند صحيح عن ابن عباس رضي الله عنه قال: بعث النبي صلى الله عليه وآله أبا بكر، وأمره أن ينادي بهؤلاء الكلمات، ثم أتبعه عليًا، فبينما أبو بكر في بعض الطريق إذ سمع رُغاء ناقة رسول الله صلى الله عليه وآله القصواء، فخرج أبو بكر فرعًا، فظن أنه رسول الله صلى الله عليه وآله فإذا هو عليّ، فدفع إليه كتاب رسول الله صلى الله عليه وآله وأمر عليًا أن ينادي بهؤلاء الكلمات فانطلقا فحجًا، فقام عليّ أيام التشريق، فنادى: ذمة الله ورسوله بريئة من كل مشرك، فسيحوا في الأرض أربعة أشهر، ولا يُحجَّن بعد العام مشرك، ولا يطوفنَّ بالبيت عريان، ولا يدخل الجنة إلا مؤمن، وكان عليّ ينادي، فإذا عيَّ عليّ قام أبو بكر فنادى بها^(١).

ثم بيَّن سبحانه الموعد الذي تعلن فيه هذه البراءة من المشركين؛ حتى لا يكون لهم عذر بعد هذا الإعلان، وقد اختار الله أن يكون هذا الموعد في اليوم الذي يضم أكبر حشد من الناس؛ حتى يذاع الخبر في أنحاء البلاد، وهذا إعلام من الله ورسوله إلى الناس في هذا المؤتمر، وهذا التجمع العظيم، يوم الحج الأكبر، في يوم النحر أن الله بريء من المشركين، ورسوله بريء منهم كذلك.

الحَجُّ الْأَكْبَرُ وَالْأَصْغَرُ

ويوم النحر يسمى: الحج الأكبر، والعمرة تسمى: الحج الأصغر كما قال ابن القيم، وكما في الحديث عن نافع عن ابن عمر رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وآله وقف يوم النحر بين الجمرات في الحجة التي حج فيها، فقال النبي صلى الله عليه وآله «أيُّ يوم هذا؟» قالوا: يوم النحر، قال: «فأي بلد هذا؟» قالوا: هذا بلد الله الحرام، قال: «فأي شهر هذا؟» قالوا: شهر الله الحرام، قال: «هذا يوم الحج الأكبر، ودمائكم وأموالكم وأعراضكم عليكم كحرمة هذا

(١) قال أبو عيسى: هذا حديث حسن غريب من هذا الوجه، «سنن الترمذي» (٢٧٤/٥) برقم (٣٠٨٩)، (٣٠٩٠) وصححه إسناده الألباني في «صحيح سنن الترمذي» برقم (٢٤٦٨) وأخرجه النسائي (٢٤٧/٥) والدارمي (٦٦/٢) وله شاهد صحيح أخرجه الضياء في «المختارة» برقم (٤٦١) وصححه الحاكم ووافقه الذهبي (٥٢/٣) وابن أبي حاتم (١٧٤٥/٦) والبيهقي في «الدلائل» (٢٩٦/٥)، وانظر حديث أبي هريرة في المسند (٧٩٧٧) بإسناد حسن ورجال ثقات.

البلد، في هذا الشهر، في هذا اليوم»، ثم قال: «هل بلغْتُ؟» قالوا: نعم، فطفق النبي ﷺ يقول: «اللهم اشهد»، ثم ودَّع الناس، فقالوا: هذه حجة الوداع^(١).

ولا عدول عن تسمية يوم النحر بأنه يوم الحج الأكبر كما جاء في هذا الحديث الصحيح: عن عليٍّ عليه السلام قال: سألت رسول الله ﷺ عن يوم الحج الأكبر؟ فقال: «يوم النحر»^(٢). وقال عليٌّ عليه السلام: يوم الحج الأكبر يوم النحر^(٣).

فعن أبي هريرة عليه السلام قال: بعثني أبو بكر فيمن يؤذَن يوم النحر بمنى: ألا يحج بعد العام مشرك، ولا يطوف بالبيت عريان، فنبذ أبو بكر إلى الناس في ذلك العام، فلم يحج عام حجة الوداع الذي حج فيه رسول الله ﷺ مشرك، وأنزل الله ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ﴾^(٤).

والحج الأصغر هو العمرة، بدليل رواية الطبراني في مسند الشاميين فهي موضحة لهذه الرواية. ويوم عرفة يؤدَّى فيه ركن الحج الأعظم، ويوم النحر هو اليوم الذي تؤدى فيه معظم مناسك الحج. وسمي يوم الحج الأكبر أيضًا؛ لنبذ عهود المشركين فيه، فأعز الله فيه الإسلام وأذل الشرك وأهله.

والعام الذي حج فيه أبو بكر وكان أميرًا على الناس لم يكن البيت فيه قد حرُم على المشركين، سماه الله يوم الحج الأكبر لأن الحج الأكبر يكون فيه^(٥).

(١) في البخاري (١٧٤٢) و«سنن ابن ماجه» برقم (٣٠٥٨) وفي صحيح «سنن ابن ماجه» برقم (٢٤٨٢) وهو في «سنن أبي داود» (١٩٥/٢) برقم (١٩٤٥) وصححه الحاكم ووافقه الذهبي (٣٣١/٢) وهو في «صحيح سنن أبي داود» (١٧١٤) وصحيح سنن الترمذي (٢٤٦٤) وابن أبي حاتم (١٧٤٨/٦).

(٢) صححه الألباني في «صحيح سنن الترمذي» (٢٤٦٥) وهو في الترمذي (٣٢٩٦) وابن أبي حاتم (١٧٤٧/٦).

(٣) صححه الألباني في صحيح الترمذي (٢٤٦٦) وهو في الترمذي (٣٢٩٧) وهو موقوف على عليٍّ.

(٤) أخرجه البخاري (٣١٧٧) ومسلم (١٣٤٧) وأبو داود (١٩٤٦) والنسائي (٢٩٥٧).

(٥) وقيل: إن العام الذي حج فيه أبو بكر بالناس يسمى الحج الأصغر، والعام الذي حج فيه رسول الله ﷺ بالناس يسمى الحج الأكبر، وبعد هذين العامين فإنه يقال للعمرة: حج أصغر، وللحج: حج أكبر.

وقد أذن عليٌّ ﷺ في الناس بتلك الآية يوم عرفة إثر خطبة أبي بكر ﷺ، ثم رأى أنه لم يُسمع الناس جميعاً، فتنبَّعهم بالأذان يوم النحر، وبعث معه أبو بكر من يُعيِّنه بالأذان كأبي هريرة وغيره، وتتبعوا أسواق العرب، كسوق ذي المجاز وغيره، ومن هنا قال بعضهم: إن الأذان كان يوم عرفة، وقال آخرون: كان يوم النحر^(١).

بنود البراءة

والتأذين في الناس كان بأربعة أشياء:

- ١- ألا يحج بعد العام مشرك.
 - ٢- وألا يدخل الجنة إلا نفس مؤمنة.
 - ٣- وألا يطوف بالبيت عريان.
 - ٤- ومن كان له عهد عند رسول الله فهو إلى مدته، فإن كان عهداً مطلقاً فمدته أربعة أشهر.
- وكان رسول الله ﷺ قد أمر عليّاً أن يقرأ على الناس أربعين آية من صدر سورة براءة، وقيل: ثمان وعشرين آية، وقيل: غير ذلك، فلما خطب أبو بكر بعرفة قال: قم يا عليّ، فأدّ رسالة رسول الله ففعل، وكان المشركون إذا سمعوا عليّاً يقولون: سترون بعد الأربعة أشهر، فإنه لا عهد بيننا وبين ابن أخيك إلا الطعن والشر.
- قال ابن إسحاق: لما نزلت (براءة) وكان النبي ﷺ قد بعث أبا بكر ﷺ؛ ليقم للناس الحج، قيل له: يا رسول الله، لو بعثت بها إلى أبي بكر؟ فقال: «لا يؤدي عني إلا رجل من أهل بيتي»^(٢) ثم دعا عليّ بن أبي طالب فقال له: «اخرج بصدر سورة براءة، وأذن في الناس يوم النحر إذا اجتمعوا بمنى: إنه لا يدخل الجنة كافر، ولا يحج بعد العام مشرك، ولا يطوف بالبيت عريان، ومن كان له عهد عند رسول الله ﷺ عهد فهو إلى مدته».
- وفي هذه الرواية أن عليّاً خرج على ناقة رسول الله ﷺ العضباء^(٣).

(١) بتصرف من «تفسير ابن عطية» (٥/٣) والطبري (١٠٥/١٤) و«المسند» (٧٩/١) عن علي، والترمذي برقم (٣٠٩٢).
 (٢) حسنه الألباني بهذا اللفظ في فقه السيرة، وأخرجه الطبراني في المعجم الكبير (٩٨/١٢) عن ابن عباس.
 (٣) «سيرة ابن هشام» (١٩٠/٤) ط. الحلبي (١٣٥٥هـ).

وفي حديث الترمذي وغيره أنها القصواء.

روى البخاري وغيره عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: بعثني أبو بكر رضي الله عنه في تلك الحجة في المؤذنين الذين بعثهم يوم النحر، يؤذنون بمنى: «ألا يحج بعد العام مشرك، ولا يطوف بالبيت عريان»، قال حميد بن عبد الرحمن: ثم أردف النبي ﷺ بعلي بن أبي طالب، فأمره أن يؤذن ببراءة، قال أبو هريرة: فأذن معنا علي يوم النحر في أهل منى براءة، وأن لا يحج بعد العام مشرك، ولا يطوف بالبيت عريان^(١).

زاد في رواية: ومن كان له عهد عند رسول الله فهو إلى مدته، ومن لم يكن له عهد فأجله أربعة أشهر^(٢) وفي رواية: أن لا يدخل الجنة إلا نفس مؤمنة^(٣).

فإن تبتم أيها المشركون عن شرككم، ورجعتم عن كفركم، ودخلتم في الإسلام فهو خير لكم. وإن أعرضتم عن الدخول في الإسلام فلن تفلتوا من عذاب الله تعالى.

وإن خرجتم وطهرتم أرض الجزيرة من شرككم فلكم ذلك، وإن بقيتم كما أنتم ولم تتركوا المسلمين يدعون الناس إلى دين الله سبحانه، فإن الإسلام سيحدد مصيركم كما في الآيات التالية.

وَأَنْذِرِ الْمُعْرِضِينَ عَنِ الْحَقِّ - أيها الرسول - بعذاب الله المؤلم.

موقف الإسلام من غير المسلمين

وقد كان الكفار بعد نزول آية السيف في هذه السورة على ثلاثة أقسام:

١ - أهل صلح وهدنة. ٢ - وأهل حرب. ٣ - وأهل ذمة

فأمر النبي ﷺ أن يتم لأهل العهد مدتهم ما استقاموا عليه، فإن خاف منهم خيانة نقض

(١) «فتح الباري» (١٦٨/٨) وهو في الصحيح برقم (٤٦٥٧، ٣٦٩٢، ٤٦٥٥، ٤٦٥٦) ومسلم (١٣٤٧) وأبو داود (١٩٤٦) والنسائي (٢٣٤/٥) والبيهقي في «الدلائل» (٢٩٥/٥) وقد سبق ذكره وتخريجه.

(٢) الطبري (١٠٧/١٤) و«صحيح سنن الترمذي» (٦٩١، ٢٤٦٩) و«المسنَد» (٥٩٤) حديث صحيح، رجاله ثقات والحاكم (٥٢/٣)، والحميدي (٤٨) والدارمي (١٩١٩) وأبو يعلى (٤٥٢).

(٣) الترمذي في التفسير (٣٠٩٢) وقال حديث حسن، وصححه الحاكم (٥٢/٣) وسعيد بن منصور (١٠٠٥) تفسير، وصححه الألباني في صحيح الترمذي (٦٩١) والإرواء (١١٠١).

عهدهم، وأمر أن يقاتل من نقض عهده، ولما نزلت سورة براءة بيّنت حكم هذه الأقسام:

١- فأمر الله نبيه أن يقاتل أعداءه من أهل الكتاب حتى يدخلوا في الإسلام، أو يدفعوا الجزية، وتسقط الجزية عمن يدافع عن أمن البلاد، ويشارك في حماية أمنها وأمانها وسلامة حدودها وحفظ ثغورها كما هو شأن المسلمين.

٢- وأن يجاهد الكفار باللسان والسنان، ويجاهد المنافقين بالحجة والبرهان.

٣- وأن يبرأ من عهود الكفار، ويجعل عهودهم ثلاثة أقسام:

أ- يقاتل من نقض عهده ولم يستقم عليه.

ب- وأن يتم العهد إلى مدته لمن له عهد مؤقت لم ينقضه.

ج- ومن لم يكن له عهد، أو له عهد مطلق، يؤجل إلى أربعة أشهر.

وقد دخل أهل العهد في الإسلام، وبقي المؤمن المسالم، والكافر المحارب، وأمر الله نبيه بقبول علانية المنافقين وترك سرائرهم إلى الله^(١).

وقد خُتِمت هذه الآية ببيان أن هؤلاء المحاربين لله ورسوله، إن عرضوا عن الإسلام، وأبوا إلا الاستمرار في الغي والضلال، فليعلموا أنهم لن يُعجزوا الله تعالى، ولن يفوتوه هرباً من عذابه، وهذا إنذار لهم مصحوبٌ بالوعيد بعذاب مؤلم موجه يحل بهم يوم لقاء الله، وقد جعل هذا بشرى لهم على سبيل التهكم والاستهزاء، وليبان أن إمهالهم، وإطلاق سراحهم، وسياحتهم في الأرض لن يغني عنهم من الله شيئاً، فليفعلوا ما شاؤوا، فإن الله معاقبهم وهم في قبضته وتحت قهره وسلطانه.

ومما يتعلق بالآية أن أعرابياً سمع رجلاً يقرأ (أن الله بريء من المشركين ورسوله) بجرّ (رسوله)، فقال الأعرابي منكراً عليه: إن كان الله بريئاً من رسوله فأنا منه بريء، فلبّبه الرجل إلى عمر، فحكى الأعرابي قراءته، فأمر عمر ألا يُقرئ الناس إلا عالم باللغة، وأمر أبا الأسود الدؤلي فوضع النحو^(٢).

(١) يُنظر: بحث الجهاد في «زاد المعاد» لابن القيم.

(٢) يُنظر: «تفسير القرطبي» (٢٤/١) وقد أخرجه أبو بكر محمد بن القاسم الأنباري في كتاب الوقف والابتداء، ويُنظر: تاريخ ابن عساكر، عن ابن أبي مليكة (١٩١/٢٥).

وورد أن أبا الأسود الدؤلي سمع ذلك فرفع الأمر إلى عليٍّ، فكان ذلك سبباً في وضع علم النحو، وتشكيل المصحف^(١).

الإِسْلَامُ يَفِي بِالْعَهْدِ لِمَنْ وَفَى بِهِ

٤- ﴿إِلَّا الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ثُمَّ لَمْ يَنْقُصُوكُمْ شَيْئًا وَلَمْ يُظَاهِرُوا عَلَيْكُمْ أَحَدًا فَأَتِمُوا إِلَيْهِمْ^(٢) عَهْدَكُمْ إِلَىٰ مَدَّتِهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ ﴿٤﴾﴾

وتبيّن الآية الرابعة أن الإسلام يفي بالعهد لمن وفّى به، وهذا استثناء بمعنى الاستدراك، أي: لكن من وفّى من المشركين ولم ينقض عهده واستمر عليه ولم يظاهر عليكم أحداً، أو ينقص منكم شيئاً من بنود العهد، فأتّموا إليهم عهدهم إلى مدتهم.

فهناك من طوائف المشركين من لم ينقض عهده مع رسول الله ﷺ، مثل: بني بكر، وبني ضمرة، وحيٍّ من كنانة، وقد أمر الله رسوله أن يوفّي إليهم عهدهم ماداموا قد وفّوا واستقاموا.

فاستثنى من مهلة الأربعة أشهر: أن من كان له عهد مع رسول الله ﷺ من غير المسلمين فعهدّه إلى مدته، بشرط ألا ينقض عهده، ولا يُعين على المسلمين أحداً من المشركين ﴿إِلَّا الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ وهم مشركو قريش الذين عاهدهم النبي ﷺ زمن الحديبية، وكان قد بقي من مدتهم أربعة أشهر بعد يوم النحر، فأمر الله نبيه أن يوفّي لهم عهدهم إلى مدتهم، ومن لا عهد له، مدته إلى انسلاخ المحرم، وقد أمره ربه بقتالهم حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله، وأن محمداً رسول الله، وألا يقبل منهم إلا ذلك.

قال قتادة: كان عهدٌ بين رسول الله ﷺ وبين قريش أربعة أشهر بعد يوم النحر، كانت تلك بقية مدتهم، ومن لا عهد له إلى انسلاخ المحرم، فأمر الله نبيه إذا مضى هذا الأجل أن يقاتلهم في الحلّ والحرم وعند البيت، حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله^(٣).

وكان من القبائل من وفّى بعهد كبنّي ضمرة وبني حيان.

(١) أخرجه بنحوه ابن الأنباري عن عباد المهلبيّ، كما في «الدر» (٧/ ٢٤١).

(٢) ضم الهاء من (إليهم) حمزة ويعقوب، وكسرها الباقون.

(٣) أخرجه ابن المنذر والطبري بسند حسن عن قتادة.

وكان منهم من أخلّ به ونقضه؛ كبنى بكر.

ومنهم من ظاهر وأعان المشركين على المسلمين؛ كاليهود، وغيرهم.

وهذا معنى: ﴿ثُمَّ لَمْ يَنْقُصُوكُمْ شَيْئًا﴾ أي: من بنود المعاهدة ﴿وَلَمْ يُظَاهِرُوا عَلَيْكُمْ أَحَدًا﴾ أي: لم يعينوا عليكم أحداً من كفار قريش، أو من اليهود أو غيرهم ﴿فَاتَّبَعُوا إِلَهُمَّ عَهْدَهُمْ إِلَىٰ مُدَّتِهِمْ﴾ أي: وفوا إليهم العهد كاملاً إلى انقضاء مدته، لأن الإسلام يأمر بالوفاء وينهى عن الخيانة، ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ﴾ لربهم الموفين للعهود غير الناكثين لها.

وفي الآية بيان أن إتمام العهد من التقوى.

قال ابن عباس رضي الله عنه: كان قد بقي لحيي من كنانة من عهدهم تسعة أشهر فاتم رضي الله عنه عهدهم إليهم.

وصح عن عبد الله بن عمرو رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «من قتل نفساً مهادداً لم يرح رائحة الجنة، وإن ريحها ليوجد من مسيرة أربعين عاماً»^(١).

آيَةُ السَّيْفِ

٥- ﴿فَإِذَا أَسْلَخَ الْأَشْهُرُ الْحُرُمَ فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ وَخُذُوهُمْ وَأَحْصُرُوهُمْ وَأَقْعُدُوا لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ فَإِنْ تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوْا الزَّكَاةَ فَخَلُّوا سَبِيلَهُمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾

ذكرت هذه الآية المعاملة التي يجب أن يعامل بها المشركون بعد انتهاء المدة، وهي الأشهر الأربعة، التي حرم الله فيها قتال المشركين المعاهدين.

أي: إذا مضت المدة التي حُرِّم فيها قتالهم، وأمتنم فيها المشركين، المنصوص عليها في قوله تعالى: ﴿فَيَسِيحُوا فِي الْأَرْضِ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ﴾، وانتهى تمام المدة لمن له مدة معينة أكثر من أربعة أشهر فقد برئت منهم الذمة.

وقيل لها: حُرْم؛ لأن الله تعالى حَرَّمَ فيها دماء المشركين على المؤمنين، أو التعرض لهم بسوء وهي مدة المهلة بين الفريقين التي تنتهي في العاشر من ربيع الآخر على أصح القولين.

(١) «صحيح البخاري» برقم (٣١٦٦، ٦٩١٤)

والقول الآخر: أنها الأشهر الحُرْمُ المعروفة، فتكون المدة خمسين يومًا فقط، فإذا انتهت هذه المدة ﴿فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ﴾ أي: أعلنوا عليهم الحرب حيث كانوا، فاقتلوهم في الحل والحرم، وفي الأشهر الحرم، وهذا حكم عام، مخصوص بقوله تعالى: ﴿وَلَا تُقْبِلُوهُمْ عِنْدَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ حَتَّى يُفْتَلَوْكُمْ فِيهِ فَإِنْ قَتَلْتُمْ فَأَقْتُلُوهُمْ﴾ [البقرة: ١٩١] ﴿وَمَنْ دُونَهُمْ﴾ أسرى ﴿وَأَخْضِرُوهُمْ﴾ احبسوهم في معقلهم، وفي أي مكان كانوا فيه حتى يسلّموا أو يستسلموا ﴿وَأَقْعُدُوا لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ﴾ أي: ترصدوا لهم في طرقهم واحبسوهم، وسدّوا عليهم المنافذ والطرق، وضيقوا عليهم، ولا تتركوهم يتوسعون في أرض الله التي جعلها معبدًا لعباده، فهؤلاء ليسوا أهلاً لسكنائها، لأنهم أعداء الله محاربون لدينه، وذلك باستثناء من أمروا بالوفاء لهم إلى مدّتهم.

وكان قتادة يقول: خلّوا سبيل مَنْ أَمَرَكَ اللهُ أَنْ تُخَلِّوا سَبِيلَهُ، فإنما الناس ثلاثة رهط: مسلم عليه الزكاة، ومشارك عليه الجزية، وصاحب حرب، يأمن بتجارته في المسلمين إذا أعطى عشور ماله.

وهذه التوجيهات من العليم الخبير إلى المسلمين كيف يعاملون المشركين في الجزيرة وفي غيرها عند القدرة عليهم والتمكن منهم حتى يتوبوا إلى الله ﴿فَإِنْ تَابُوا﴾ أي: رجعوا عن كفرهم، ودخلوا في الإسلام، والتزموا شرائعه ﴿وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ﴾ أدوها بشروطها وأركانها ﴿وَأَتَوْا الزَّكَاةَ﴾ أخرجوها لمستحقيها ﴿فَخَلَّوْا سَبِيلَهُمْ﴾ واتركوهم، فقد أصبحوا إخوانكم في الدين، لكم ما لهم وعليكم ما عليهم، وليكونوا مثلكم، فالله يغفر لمن تاب وأناب ويرحمه، والإسلام يفتح ذراعيه للتائبين.

وقد استدل أبو بكر على قتال مانعي الزكاة بهذه الآية، وبقوله ﷺ فيما يرويه ابن عمر رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال: «أمرت أن أقاتل الناس حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله، وأن محمدًا رسول الله، ويقيموا الصلاة، ويؤتوا الزكاة، فإذا فعلوا ذلك عصموا مني دماءهم وأموالهم إلا بحق الإسلام وحسابهم على الله»^(١).

وفي تفسير ابن أبي حاتم عن عليّ رضي الله عنه أن النبي ﷺ بعث بأربعة أسياف:

(١) البخاري عن ابن عمر برقم (٢٥) «فتح الباري» (٩٥/١) ومسلم (٥٣/١) برقم (٢٢).

١- سيف على المشركين من العرب ﴿فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ﴾.

٢- وسيف على أهل الكتاب ﴿فَقَاتِلُوا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حَتَّى يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَنْ يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ﴾.

٣- وسيف على المنافقين ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ﴾ [٧٣].

٤- وسيف على الباغين ﴿وَإِنْ طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلَحُوا بَيْنَهُمَا فَإِنْ بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الْأُخْرَىٰ فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي حَتَّىٰ تَفِيءَ إِلَىٰ أَمْرِ اللَّهِ﴾ [الحجرات: ٩].

وقيل: إن آية السيف ﴿فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ﴾ منسوخة بقوله تعالى: ﴿فَإِنَّمَا مَنَّا بَعْدُ وَإِنَّمَا فِدَاءُ﴾ [محمد: ٤].

ثم ختم الله الآية بقوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ واسع الرحمة والمغفرة لمن تاب إليه وأناب، وهذه الآية جمعت الوسائل الكفيلة بالقضاء على العدو في كل عصر ومصر، وهي أربع: القتل، والأسر، والمحاصرة، والمراقبة.

إِجَارَةُ الْمُشْرِكِ

٦- ﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ^(١) حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلِمَ اللَّهِ ثُمَّ اتَّبِعْهُ^(٢) مَأْمِنُهُ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَعْلَمُونَ﴾.

في هذه الآية أمر بأن المصلحة إذا اقتضت تقريب غير المسلم، فإن الإسلام يجيز ذلك بل يوجبه إذا طلب منك أن تُجبره وتمنع عنه الضرر، فقد يكون كفره عن جهل منه أو عن تقليد، فإذا سمع كلام الله أثر فيه، فإن أسلم فالحمد لله، وإلا فأوصله إلى المكان الذي يأمن فيه على نفسه.

عن سعيد بن جبير قال: جاء رجل من المشركين إلى علي بن أبي طالب فقال: إن أراد الرجل منا أن يأتي إلى محمد ﷺ بعد انقضاء هذا الأجل لسماع كلام الله أو لحاجة؟

(١)، (٢) وصل ابن كثير هاء (فأجره) و (أبلغه) وقصرهما بقية القراء.

فقال له عليٌّ: إن تعالى يقول: ﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّى يَسْمَعَ كَلِمَ اللَّهِ ثُمَّ ابْلِغْهُ مَأْمَنَهُ﴾^(١).

ومعنى: ﴿اسْتَجَارَكَ﴾ طلب حمايتك؛ فالمستجير يجب تأمينه ﴿فَأَجِرْهُ﴾ اجعله في حمايتك وجوارك ﴿حَتَّى يَسْمَعَ كَلِمَ اللَّهِ﴾ أي: يستمع إلى القرآن، ويتدبر ويفهم معناه، فإن أسلم فالحمد لله، وإن لم يُسلم فأبلغه مأمنه، ولا يجبر على الدخول في الإسلام، وإنما أوصله وأمنه حتى يصل إلى المكان الذي يأمن فيه على نفسه.

فإن أذاك إنسان غير مسلم فأمنه، واعرض عليه دعوة الإسلام، ثم رده من حيث جاء وهو آمن؛ فالإسلام لا يهدف إلى النيل من الكافرين، وإنما يهدف إلى إقناعهم وهدايتهم؛ حتى يعرفوا الحق ويتبعوه، ويتركوا ما هم عليه من الضلال والغدرواخيانة، ولا يحدث هذا إلا بالاستماع إلى القرآن والسنة ودعوة الإسلام.

فالمعنى: وإن طلب أحد من المشركين الذين استبيحت دماؤهم وأموالهم بعد انسلاخ الأشهر الحرم، طلب الدخول في جوارك -يا محمد- ورغب في الأمان، فأجبه إلى طلبه؛ حتى يسمع القرآن الكريم، ويطلع على هدايته، فيعرف ما أعده الله له من الثواب إن كان قد آمن، وما أعده له من العقاب إن كان قد أصرَّ على كفره، ثم أعده من حيث أتى آمنًا؛ وذلك لإقامة الحجة عليه، وهذا بسبب أن الكفار قوم جاهلون بحقائق الإسلام، فربما اختاره إذا زال الجهل عنه، وهو تخصيص لعموم قوله تعالى: ﴿فَأَقْضُوا لِلْمُشْرِكِينَ﴾ أي: إلا مشركًا استجارك، ودخل في حماك سفيرًا عن قومه، أو دخل في حماك لمعرفة شرائع الإسلام؛ لكيلا يزعم المشركون أنهم لم يتمكنوا من لقاء النبي ﷺ فيتخذوه عذرًا للاستمرار على الشرك إذا غزاهم المسلمون.

والمستجار هو المستأمن، وطالب الجوار عند النبي ﷺ لا يخلو من عرض الإسلام عليه، سواء قديمًا لذلك أم لغيره، ولذا كان سماعه للقرآن غاية لإقامته المؤقتة عند النبي ﷺ أو عند غيره من المسلمين بعد موته.

وسماع القرآن والتعرف على مبادئ الإسلام وحقائقه ومحاسنه، أصبح أمرًا ميسورًا

(١) «تفسير الكشاف» (٢/٤٢٨).

ومبدولاً في وسائل الإعلام المختلفة، بكثير من لغات العالم، فالحجة قائمة على كل من بلغته الدعوة، وهو في حكم المستجير الذي عنته الآية.

ومعنى ﴿أَبْلَغُهُ مَأْمَنُهُ﴾ اتركه حتى يبلغ مكانه الآمن، ولا تؤاخذ من استجاروا بك في مدة استجارتهم بما سبق من أذاهم؛ لأنهم قوم لا يعلمون ما يحتوي عليه القرآن من الإرشاد والهدى.

الرسول والسفراء لا يقتلون: وكان رسول الله ﷺ يعطي الأمان لمن جاء في سفارة، أو قدم إليه مسترشداً، كما جاء يوم الحديبية جماعة من رسل قريش فأمنهم النبي ﷺ وأمن رُسل مسيلمة الكذاب، أما تأمين رسل قريش في يوم الحديبية، فقد أمن النبي ﷺ عروة ابن مسعود، ومكرز بن حفص، وشهيل بن عمرو، وغيرهم، كما أمن رسول مسيلمة الكذاب، مع أن النبي ﷺ قال له: «أتشهد أن مسيلمة رسول الله؟ قال: نعم، فقال ﷺ لولا أن الرسول لا تقتل لضربت عنقك»^(١).

ولما كان ابن مسعود أميراً على الكوفة أرسل إلى رسول مسيلمة، وكان يقال له: ابن النواحة، فقال له ابن مسعود: إنك الآن لست في رسالة، وأمر به فُضربت عنقه، وكان قد برز في زمان ابن مسعود يشهد لمسيلمة بالرسالة.

وكذلك أمن ﷺ كل من جاء من دار الحرب إلى دار الإسلام في أداء رسالة، أو تجارة، أو طلب صلح، أو مهادنة، أو حمل جزية، ونحو ذلك، فإنه يُعطى أماناً حتى يرجع إلى وطنه بعد استئذان الحاكم المسلم.

وقد حذر الإسلام أتباعه من الغدر، وأوجب عليهم حماية المستأمن كما جاء في الحديث عن عمرو بن الحمق قال: سمعت رسول الله ﷺ قال: «من أمن رجلاً على نفسه فقتله، أُعطى لواء الغدر يوم القيامة»^(٢).

(١) «المسند» (٤٨٧/٣) برقم (١٥٩٨٩) حديث صحيح بطرقه وشاهده وأبو داود (٢٧٦١) مختصراً، والحاكم

(١٤٢/٢) والطحاوي في شرح المشكل (٢٨٦٣).

(٢) مسند أحمد (٢١٩٤٦)، بإسناد صحيح وأخرجه الطحاوي في شرح مشكل الآثار (٢٠١) وابن ماجه

(٢٦٨٨) والبخاري في مسنده (٢٣٠٦) والنسائي في الكبرى (٨٧٣٩).

وعنه أيضًا «أيما مؤمن آمن مؤمنًا على دمه فقتله فأنا من القاتل بري»^(١)

الْحِكْمَةُ فِي الْبَرَاءَةِ مِنَ الْمُشْرِكِينَ

٧- ﴿كَيْفَ يَكُونُ لِلْمُشْرِكِينَ عَهْدٌ عِنْدَ اللَّهِ وَعِنْدَ رَسُولِهِ إِلَّا الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ عِنْدَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ فَمَا اسْتَقِيمُوا لَكُمْ فَاسْتَقِيمُوا لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ﴾ (٧)

ثم بيّن سبحانه الحكمة في البراءة من المشركين، وإنظارهم أربعة أشهر، وقد بدأت الآية بالاستفهام الإنكاري، واستبعاد أن يكون للمشركين عهد يُعتدُّ به عند الله ورسوله، فهم لم يؤمنوا، ولم يسلم الرسول والمؤمنون من أذاهم، ولم ينتهوا عن محاربة الحق ونصر الباطل، ولم يكفوا عن الفساد في الأرض، أفلا يستحق هؤلاء أن يتبرأ منهم الله ورسوله، وألا يكون لهم عهد ولا ميثاق؟.

وهكذا: فقد استمر صلح المسلمين مع المشركين من شهر ذي القعدة سنة ست للهجرة إلى أن نقضت قريش عهدها بإعانة بني بكر على خزاعة فقتلوهم في الحرم، وكان ذلك سبباً لفتح مكة، وقد ذكر الله سبحانه الأسباب الموجبة لنقض عهود المشركين . فلا ينبغي أن يكون للمشركين عهد عند الله وعند رسوله، فهم ليسوا أهلاً لحفظ العهود، لكن من عاهدتم من المشركين عند الحرم ولم ينقضوا عهدهم كقبائل بني بكر، فكونوا أوفياء لهم، فمن استقام لكم على عهده فاستقيموا له على الوفاء . وهو معنى ﴿إِلَّا الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ عِنْدَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ﴾ أي: في صلح الحديبية وما بعده، وهذا استثناء ذكر مرتين: مرة في الآية الرابعة، وهو استثناء من عموم البراءة، ومرة هنا بمناسبة استنكار مبدأ المعاهدة مع المشركين، وذكر في المرة الأولى شرط استقامتهم في الماضي، وفي المرة الثانية شرط استقامتهم في المستقبل .

وكان بنو ضمرة، وبنو خزيمة قد دخلوا في عهد قريش يوم الحديبية، ولم يستقيموا على عهدهم، فأعانوا بني بكر على خزاعة، فضرب لهم الرسول أربعة أشهر بعد الفتح،

(١) مسند أحمد (٢١٩٤٧) بإسناد حسن من أجل السُّدِّي وباقي رجال الإسناد ثقات، وأخرجه البخاري في التاريخ الكبير (٣/٣٢٢) والبزار في مسنده (٢٣٠٨) والطيالسي (١٢٨٥) وابن حبان (٥٩٨٢) والطحاوي في المشكل (٢٠٣).

أسلموا بعدها ﴿فَمَا اسْتَقْتُمُوا لَكُمْ﴾ أي: فإن استقاموا لكم، وحفظوا عهودكم ﴿فَاسْتَقِيمُوا لَهُمْ﴾ واحفظوا عهودهم ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ﴾ لربهم، الحافظين للعهود والمواثيق.

العَهْدُ مِنْ غَيْرِ الْمُسْلِمِ لَا يَكُونُ إِلَّا عَنْ عَجْزٍ وَضَعْفٍ

٨- ﴿كَيْفَ وَإِنْ يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ لَا يَرْقُبُوا فِيكُمْ إِلَّا وَلَا ذِمَّةٌ يُرْضُونَكُمْ بِأَفْوَاهِهِمْ وَتَأْبَى قُلُوبُهُمْ وَأَكْثَرُهُمْ فَسِيقُونَ﴾ ﴿٨﴾

أي كيف يكون للمشركين عند الله عهد وميثاق والحال أنهم إن كانوا أقوى منكم لا يرحمكم ولا يراعوا فيكم عهدا ولا قرابة بل يسومونكم سوء العذاب، فلا تغتروا بما يعاملوكم به وقت الخوف منكم، فإنهم أعداء وليس عندهم دين ولا مروءة.

وهكذا يبين سبحانه أن غير المسلمين لا يعاهدونكم إلا في حالة عجزهم وضعفهم، فإن ظهروا عليكم فعلوا بكم الأفاعيل، وهذا شأن المشركين أن يلتزموا بالعهد ما دامت الغلبة لغيرهم، فإذا شعروا بالقوة لم يراعوا لغيرهم عهدًا ولا قرابة، فكيف يُصان لهم عهد، وهم إن يتمكنوا منكم ويظفروا بكم لا يراعوا فيكم لا يمينًا ولا قرابة ولا رَحِمًا ولا عهدًا ولا ذمة؟

﴿لَا يَرْقُبُوا فِيكُمْ إِلَّا وَلَا ذِمَّةٌ﴾ الإل: هو اليمين والحلف والقرابة، وقيل: الإل: بمعنى الله، أي: لا يرقبون الله.

والذمة: العهد، فلا يغرنكم منهم ما يعاملونكم به وقت الخوف منكم؛ فإنهم يقولون لكم كلامًا بالستهم؛ لترضوا عنهم، ولكن قلوبهم غير ذلك ﴿يُرْضُونَكُمْ بِأَفْوَاهِهِمْ﴾ بالكلام الجميل المعسول، إن كان لكم الغلبة عليهم أظهروا بالستهم من القول خلاف ما يضمرونه لكم في نفوسهم من العداوة والبغضاء ﴿وَتَأْبَى قُلُوبُهُمْ﴾ تمتنع من الإذعان والقبول والتصديق ﴿وَأَكْثَرُهُمْ فَسِيقُونَ﴾ متمردون على الإسلام، ناقضون للعهد، عداوتهم بالغة، خارجون عن طاعة الله. قال تعالى:

٩- ﴿أَشْرَوْا بِعَاثِنَةِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا فَفَضَّدُوا عَنْ سَبِيلِهِ إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ ﴿٩﴾

أي أن هؤلاء القوم قد اختاروا حظوظ الدنيا على الإيمان بالله ورسوله، فصددوا أنفسهم

وصدوا غيرهم عن طريق الهدى والنور.

ورد أن أبا سفيان جمع حلفاءه على طعام، ودعاهم إلى نقض عهدهم مع الرسول ﷺ فأجابوه، وقد وصف الله المشركين بما وصف به أهل الكتاب في أوائل سورة البقرة، بأنهم اشتروا الدنيا بالآخرة، فهم قد نقضوا العهد الذي كان بينهم وبين الرسول ﷺ بسبب أكلة أطعمهم إياها أبو سفيان، فاستبدلوا بالقرآن والإيمان عرضاً قليلاً من متاع الدنيا هو هذه الأكلة، وكانوا بهذا سبيًا في منع الراغبين في الإسلام عن الدخول فيه، وقد قَبَّحَ الله فعلهم، وذم صنيعهم.

ولم يصف الله المشركين بهذا الوصف في آية أخرى نزلت بعدها؛ لأنهم دخلوا بعد ذلك في دين الله أفواجًا عام الوفود وما بعده، وكان هذا آخر عهدهم بالشرك.

والآية عامة في كل مشرك أعرض عن الإسلام لسبب أو لآخر، أو منع غيره من الدخول فيه، كهؤلاء القوم الذين اشتروا الكفر بالإيمان، وكل من كان على شاكلتهم، ممن اشتروا بآيات الله عرضًا من أعراض الدنيا فضلوا عن طريق الهدى، وصدوا غيرهم فضلوا وأضلوا، وهؤلاء من شأنهم أنهم لا يحفظون الحقوق الإنسانية العامة أو الخاصة. قال تعالى يصف حال المشركين في كل زمان ومكان:

١٠- ﴿لَا يَرْفُقُونَ فِي مُؤْمِنٍ إِلَّا وَلَا ذِمَّةً وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُعْتَدُونَ﴾

إن هؤلاء المشركين حرب على الإسلام وأهله، فشأنهم العدوان والظلم، وهم لا يقيمون وزنًا لقراءة مؤمن ولا عهده، فلا تُبقوا عليهم، كما أنهم لا يبقون عليكم إذا ظفروا بكم.

وهذه الآية أعم من الآية السابقة التي قيدت عدوان المشركين بغلبتهم للمسلمين، أما هذه فبينت أن عداوتهم لكل مؤمن قائمة، متى وجدوا الفرصة سانحة للغدر به والنيل منه.

والآية تقرر حقيقة واقعة، فهذا شأن المشركين مع رسل الله جميعًا: نوح، وهود، وصالح، وإبراهيم، وشعيب، وموسى، وعيسى، ومحمد صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين.

ومن أمثلة ما بعد ذلك ما فعله التتار بالمسلمين سبيًا بمسلمي بغداد سنة ٦٥٦ هـ حيث قتلوا منهم ثمان مئة ألف أو أكثر^(١).

(١) يُنظر: «البداية والنهاية» لابن كثير.

وما فعله الوثنيون الهنود مع مسلمي باكستان أشنع مما فعله التتار، وما فعلته الشيوعية في روسيا والصين ويوغوسلافيا وغيرها من إبادة ملايين المسلمين .
فضلاً عما يحدث حالياً في فلسطين، والعراق، وأفغانستان، وغيرها .

بِمَاذَا تَتَحَقَّقُ أُخُوَّةُ الدِّينِ؟

١١ - ﴿فَإِنْ تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَإِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ وَتُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾
ثم ذكر الله سبحانه لغير المسلمين خيارين:

الخيار الأول: أن يتوبوا ويدخلوا في الإسلام، وبهذا يكونوا إخوة للمسلمين إذا هم فتحوا عقولهم للحق، واستجابوا لله والرسول، فإن أقلعوا عن الشرك، ووجدوا الله، وأقاموا شرائعه، وأولها إقامة الصلاة، وإيتاء الزكاة، فهم إخوانكم في الإسلام، لهم ما لكم، وعليهم ما عليكم .

واكتفى سبحانه بذكر الصلاة والزكاة عن بقية العبادات؛ لأنهما أساس العبادات البدنية والمالية، واعتمد أبو بكر ذلك فقاتل مانعي الزكاة بمقتضى هذه الآية وأمثالها .

فالتوبة من الشرك يترتب عليها الأخوة في الدين، أما التوبة بعد الأمر بقتالهم والترصد لهم فيكون بإخلاء سبيلهم، وعدم التعرض لهم بسوء، كما في الآية الخامسة، وتوبتهم في الآيتين توجب أمنهم وأخوتهم:

١- عن أنس رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «من فارق الدنيا على الإخلاص لله وحده، وعبادته، لا شريك له، وإقام الصلاة، وإيتاء الزكاة، مات والله عنه راضٍ» قال أنس: وهو دين الله الذي جاءت به الرسل، وبلغوه عن ربهم، وتصديق ذلك في كتاب الله في آخر ما نزل، يقول الله: ﴿فَإِنْ تَابُوا﴾ قال: خلع الأوثان وعبادتها، وقال في آية أخرى: ﴿فَإِنْ تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ﴾ (١).

(١) «سنن ابن ماجه» برقم (٧٠) وصححه الحاكم ووافقه الذهبي (٣٣١/٢) وصححه الضياء المقدسي في «المختارة» برقم (٢١٢٢، ٢١٢٣) وحسنه محققه من طريق أبي جعفر الرازي، وهو في «تفسير الطبري» (١٣٥/١٤) بتصرف في كلام أنس .

٢- وفي الصحيحين عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: لما تُوفِّي رسول الله ﷺ واستُخلف أبو بكر، وكفر من كفر من العرب، قال عمر بن الخطاب لأبي بكر: كيف تقاتل الناس؟ وقد قال رسول الله ﷺ: «أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله، فمن قال: لا إله إلا الله، فقد عصم مني ماله ونفسه إلا بحقه وحسابه على الله ﷻ» فقال أبو بكر: والله لأقاتلن من فرق بين الصلاة والزكاة؛ فإن الزكاة حق المال، والله لو منعوني عناقا كانوا يؤدونها -وفي رواية: عقالا- كانوا يؤدونه إلى رسول الله ﷺ لقاتلتهم على منعها، فقال عمر: فوالله ما هو إلا أن الله شرح صدر أبي بكر للقتال، فعرفت أنه الحق^(١).

٣- وعن أنس رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «من صلى صلاتنا، واستقبل قبلتنا، وأكل ذبيحتنا، ذلك المسلم الذي له ذمة الله ورسوله فلا تخفروا الله في ذمته»^(٢).

قال تعالى: ﴿وَنُفِصِلُ الْآيَاتِ﴾ نبيها ونوضحها ﴿لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ ويتفكرون بها، فالغرض هو هدايتهم والانتهاء عما هم فيه من الشرك والكفر، وردّ عدوانهم، وحماية الدعوة من شرورهم.

الْخِيَارُ الْآخِرُ: نَقْضُ الْعَهْدِ وَالطَّعْنُ فِي الدِّينِ

١٢- ﴿وَإِنْ نَكَثُوا أَيْمَانَهُمْ مِنْ بَعْدِ عَهْدِهِمْ وَطَعَنُوا فِي دِينِكُمْ فَقَاتِلُوا أَيْمَةً^(٣) الْكُفْرِ إِنَّهُمْ لَا أَيْمَنَ^(٤) لَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَنْتَهُوْنَ﴾

وكما أمر الله المسلمين أن يوفوا لمن وفى لهم، ويستقيموا لمن استقام لهم، أمرهم هنا أن يقاتلوا من نقض عهودهم وسخروا من دينهم، من قادة الكفر والطغيان، في كل زمان ومكان، فهم خائنون لا عهد لهم ولا ذمة، لعلهم ينتهون عن الطعن في دينكم، وربما يدخلون فيه:

(١) «صحيح البخاري» برقمي (٦٩٢٤، ٦٩٢٥) و«صحيح مسلم» برقم (٢٠) ويُظَنَّرُ: (١٣٩٩، ١٤٠٠).

(٢) «صحيح البخاري» برقم (٣٩١) ويُظَنَّرُ: الحديثين (٣٩٢، ٣٩٣).

(٣) قرأ نافع وابن كثير وأبو عمرو ورويس بتسهيل الهمزة الثانية بَيَّنَّ، وبإبدالها ياء خالصة مع عدم الإدخال، وقرأ هشام بالتحقيق مع الإدخال وعدمه، وقرأ الباقر بالتحقيق مع عدم الإدخال.

(٤) قرأ ابن عامر بكسر الهمزة من (لا أيمان) على أنها مصدر آمن، وقرأ الباقر بفتحها على أنها جمع يمين.

١- قال ابن عباس رضي الله عنه: نزلت هذه الآية في أبي سفيان بن حرب، والحارث بن هشام، وسهيل بن عمرو، وعكرمة بن أبي جهل، وسائر رؤساء قريش الذين نقضوا العهد، وهم الذين همُّوا بإخراج الرسول ﷺ ^(١).

٢- وأخرج عبد الرزاق بسند حسن عن قتادة أن أئمة الكفر هم: أبو سفيان بن حرب، وأمّية بن خلف، وعتبة بن ربيعة، وأبو جهل عمرو بن هشام، وسهيل بن عمرو، وهم الذين نكثوا عهد الله، وهمُّوا بإخراج الرسول من مكة ^(٢).

٣- وفي حديث حذيفة رضي الله عنه: أنه لم يبق من أصحاب هذه الآية إلا ثلاثة، ولا من المنافقين إلا أربعة، أحدهم شيخ كبير لو شرب الماء البارد لما وجد برّده ^(٣).

٤- قال ابن حجر في معنى الآية: إن قتالهم لم يقع، لعدم وقوع الشرط؛ لأن لفظ الآية ﴿وَأَن تَكُونُوا أَتَمَنَّهُمْ﴾ فلما لم يقع منهم نكث ولا طعن لم يُقاتلوا ^(٤).

فالخيار الآخر للمشرّكين: ألا يتوبوا من شركهم، ولا يدخلوا في الإسلام، فإن أصروا على عداوتهم، ونقضوا عهودهم معكم، وعابوا دينكم وانتقصوه فقاتلوهم ﴿وَأَن تَكُونُوا أَتَمَنَّهُمْ﴾ نقضوا عهودهم الموثقة ﴿مَنْ بَعْدَ عَهْدِهِمْ﴾ الذي التزموا به ﴿وَطَعَنُوا فِي دِينِكُمْ﴾ فعابوا الإسلام بالقدح والذم، وظلّوا كما هم ناقضين للعهد، وحالوا دون وصول الدعوة إلى غيرهم ﴿فَقَتِلُوا أَيْمَةَ الْكُفْرِ﴾ الذين نكثوا أيمانهم من بعد عهدهم، سيّما الرؤساء، والصناديد، والكبراء منهم ﴿إِنَّهُمْ لَا أَيْمَنَ لَهُمْ﴾ ولا عهود يوفون بها ﴿لَعَلَّهُمْ يَنْتَهُوْا﴾ عن الشرك ويسلمون، ويكفون عن الإجرام، ويتنهون عن الطعن في الدين.

مُوجِبَاتُ قِتَالِ الْمُشْرِكِينَ

١٣- ﴿أَلَا تَقْتُلُونَ قَوْمًا نَّكَثُوا أَيْمَنَهُمْ وَهَمُّوا بِإِخْرَاجِ الرَّسُولِ وَهُمْ بَدَّوْكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ أَتَخْشَوْنَهُمْ قَالَ أَوْ أَتَخْشَوْنَ أَن يُخْشَوْهُ إِنَّكُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ﴾

(١) «تفسير الطبري» (٦٢/١٠) و«زاد المسير» (٤٠٤/٣).

(٢) عبد الرزاق (٢٦٨/١) والطبري (٢٦٤/١١) وابن أبي حاتم (١٧٦١/٦).

(٣) يُنْظَرُ: البخاري (٤٦٥٨) وابن أبي شيبة (١٠٨/١٥).

(٤) «فتح الباري» (٣٢٣/٨).

في هذه الآية يقرر الله تعالى أفعال الكفرة، ويحذر من التراخي في قتالهم، وعدم الهوادة في ذلك، بعد أن أثبت لهم ثماني صفات ومنها:

- ١- نقضهم للعهود. ٢- ومحاولة الظفر بكم. ٣- وفسقهم.
 - ٤- والمتاجرة بالدين. ٥- وأنهم أهل غدر وخيانة. ٦- أنهم لا ذمة لهم ولا عهد ولا أيمان.
- وبعد أن استثنى سبحانه منهم مَنْ وَفَّى بعهده، ولم يتأمر علينا أمر بقتلهم وأسرههم وحصارهم وبين الأسباب الثلاثة الموجبة لقتالهم:

السبب الأول: أنهم نقضوا عهدهم مع رسول الله ﷺ بعد عامين اثنين من إبرام الاتفاق، في أول فرصة سنحت لهم، وكانت مدة العهد عشر سنوات، وكان ذلك في صلح الحديبية بمساعدة بني بكر عليكم، فنكثوا أيمانهم، ونقضوا العهود، وهذه خطيئة كبرى في حد ذاتها، وهذا معنى: ﴿أَلَا تَقْلُبُونَ قَوْمًا نَكَثُوا أَيْمَانَهُمْ﴾.

السبب الثاني: ﴿وَهَكُومًا بِإِخْرَاجِ الرَّسُولِ﴾ من المدينة، أما إخراج الرسول ﷺ من مكة والعدول عنه إلى قتله فقد جاء ذكره في قوله تعالى: ﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ﴾ [الأنفال: ٣٠]

وقوله: ﴿يُخْرِجُونَ الرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْ أَنْ تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ رَبِّكُمْ﴾ [المتحة: ١]

وقوله: ﴿وَإِنْ كَادُوا لَيَسْتَفِزُّوكَ مِنَ الْأَرْضِ لِيُخْرِجُوكَ مِنْهَا﴾ [الإسراء: ٧٦].

وقوله: ﴿وَكَايْنٍ مِّنْ قَرِيَةٍ هِيَ أَشَدُّ قُوَّةً مِّنْ قَرِيَّتِكَ الَّتِي أَخْرَجْنَاكَ﴾ [محمد: ١٣].

وقوله: ﴿إِلَّا نَنْصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثَالِثَ أَثْنَيْنِ﴾ [التوبة: ٤٠].

فهذه الآيات صرحت بأن الكفار قاموا بإخراج النبي ﷺ بالفعل، وهذا بالنسبة لما حدث في مكة.

أما هذه الآية التي معنا فإنها تقول: إن الكفار كذلك هموا بإخراج الرسول، وقد حيل بينهم وبين ما يشتهون، فقد أضمرنا ذلك في أنفسهم، وأرادوا نفي النبي ﷺ عن المدينة فنبه الله المسلمين إلى ذلك.

والهم مرتبة تسبق العزم، وذلك لأن مراتب القصد خمس: الهاجس والخاطر وحديث النفس، والهم والعزم، والآخر هو المعول عليه في الثواب والعقاب.

وقد همّوا بإخراجه ﷺ من المدينة حين غزوة أحد، وحين غزوة الأحزاب، فكفاه الله ما همّوا به^(١).

ولعل الآية تشير إلى ما حدث في مكة وما حدث في المدينة معاً، وقد حدث هذا أيضاً ممن نكثوا أيمانهم سنة ثمان يوم فتح مكة حين همّوا بنصرة أهل مكة والغدر بالنبي ﷺ وأصحابه، ولكن الله صرفهم عن ذلك وفضح دخائلهم، وأمر نبيه بقتالهم ونبذ عهودهم سنة تسع، والمقصود بذلك تهديدهم على ما أضمره في أنفسهم، وأنه لا تسامح معهم بعد أن همّوا بغزو المدينة وإخراج النبي ﷺ منها.

السبب الثالث: ﴿وَهُمْ بَدَّءُوكُمْ أُولَئِكَ مِرَّةً﴾ بدؤوكم بالقتال في بدر، وقتلوا حلفاءكم، كخزاعة الذين غدر بهم بنو بكر بمساعدة قريش، وبدؤوكم قبل ذلك بإخراج الرسول من مكة، وبدؤوكم أيضاً حين همّوا بإخراجه من المدينة.

وكل سبب من هذه الثلاثة كافٍ لقتالهم، فلا ترددوا في ذلك، ولا تخافوهم ﴿أَتَخْشَوْنَهُمْ﴾ بل خافوا الله وحده، ولا تخافوا على أنفسكم من قتالهم، فالله مؤيدكم وناصركم عليهم، وهذا زيادة ومبالغة في الحث على قتالهم، فإن كنتم مصدقين بوعد الله ووعيده فلا تخشوا إلا الله، بعد أن ثبت لكم ثمانى صفات ذكرتها السورة إلى هذه الآية، وهي:

أ - نقضهم الدائم للعهود ﴿كَيْفَ يَكُونُ لِلْمُشْرِكِينَ عَهْدٌ﴾ [٧].

ب - محاولة الظفر بكم في أي زمان ومكان ﴿كَيْفَ وَإِنْ يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ﴾ [٨].

ج - إظهار ما لا يبطنون إرضاء لكم ﴿يُرْضَوْنَكُمْ بِأَفْوَاهِهِمْ وَتَأْبَى قُلُوبُهُمْ﴾ [٨].

د - خروجهم على طاعة الله ورسوله ﴿وَأَكْثَرُهُمْ فَسِقُونَ﴾ [٨].

هـ - بيعهم الآخرة بالدنيا ﴿أَشْتَرَوْا بِعَايَتِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا﴾ [٩].

و - لا ذمة لهم ولا عهد ﴿لَا يَرْقُبُونَ فِي مُؤْمِنٍ إِلَّا وَلَا ذِمَّةً﴾ [١٠].

(١) يرى هذا ابن عاشور في تفسيره للآية، وأن الهم بإخراج النبي ﷺ من مكة أمر قد مضى وانتهى.

ن - هم أهل عدوان وغدر وخيانة ﴿وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُعْتَدُونَ﴾ [١٠].

ي - ﴿إِنَّهُمْ لَا أَيْمَنَ لَهُمْ﴾ [١٢] فهم ينكثونها، ولا يوفونها .

فكانت جملة ﴿أَلَا لَقِينَلُوكَ قَوْمًا نَّكَثُوا أَيْمَنَهُمْ﴾ تحذيرًا من التراخي في مبادرتهم بالقتال، إلى جوار الأسباب الثلاثة التي ذكرتها هذه الآية.

سِتُّ فَوَائِدَ لِقِتَالِ نَاكِثِي الْعَهْدِ، الطَّاعِنِينَ فِي الْإِسْلَامِ

١٤، ١٥ - ﴿قَتَلُوهُمْ يَعْذِبُهُمُ اللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِهِمْ﴾^(١) وَيَنْصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُّؤْمِنِينَ^(٢) وَيُذْهِبَ غَيْظَ قُلُوبِهِمْ وَيَتُوبُ اللَّهُ عَلَىٰ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿١٥﴾

ثم أمر سبحانه بقتال المشركين، وأوجب ذلك على المسلمين، وأمرهم به أمرًا صريحًا قاطعًا، ورتب على قتالهم ستة أنواع من الفوائد فيها بيان لحكمة قتالهم ومشروعية جهادهم:

الفائدة الأولى: تعذيب المشركين بأيدي المسلمين بالقتل، والأسر، وأخذ غنائمهم، وهذه إهانة للمشركين وكرامة للمسلمين، ﴿قَتَلُوهُمْ يَعْذِبُهُمُ اللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ﴾.

الفائدة الثانية: خزي المشركين وذلهم، بنصركم عليهم، وهو أمر يستلزم عزة المسلمين ﴿وَيُخْزِهِمْ﴾ بالأسر، والقتل، والحصار.

الفائدة الثالثة: نصر المسلمين، وهذا وعد من الله تعالى وبشارة منه سبحانه، وهو كرامة لهم يستلزم هزيمة المشركين وهي إهانة لهم ﴿وَيَنْصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ﴾ فيمنحكم الظفر والغلبة عليهم.

الفائدة الرابعة: شفاء صدور المؤمنين، وزوال كربها وغمها لأن المشركين محاربون لله والرسول، ساعون في إطفاء نور الله، ويكون ذلك بالنصر على المشركين، وهو يستلزم الحرج في صدر العدو ﴿وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُّؤْمِنِينَ﴾ بإعلاء كلمة الله، ونصر دينه، وخزي الكافرين.

الفائدة الخامسة: إذهاب غيظ قلوب المؤمنين بقتل الكفار، فإن في قلوب المؤمنين من الحق والغضب ما يحملهم على قتل وقتال المشركين، وهو يستلزم غيظ قلوب الأعداء على المؤمنين ﴿وَيُذْهِبَ غَيْظَ قُلُوبِهِمْ﴾ ومن محبة الله للمؤمنين شفاء صدورهم وذهاب غيظهم.

(١) ضم رويس الهاء من (ويخزهم) وكسرها غيره.

الفائدة السادسة: إن جهاد الكفار توبة لكم أيها المسلمون، وكمال لإيمانكم ﴿وَيَتُوبُ اللَّهُ عَلَى مَنْ يَشَاءُ﴾ وقد أنجز الله وعده بإظهار دينه، وإعلاء كلمته.

وفي جهاد الكفار حث لهم على التوبة، فقد يوفقهم الله للدخول في الإسلام، ويكره لهم الكفر والفسوق والعصيان.

من أجل ذلك كله فإن الله سبحانه يوجب علينا قتال المشركين.

فيا معشر المؤمنين قاتلوا أعداء الله يعذبهم ﷻ بأيديكم، ويدلّهم بالهزيمة والخزي، وينصرّكم عليهم، ويعلّ كلمته، ويشفّ بهزيمتهم صدوركم، التي طالما لحق بها الحزن والغم من كيد المشركين، ويذهب عن قلوب المؤمنين الغيظ، ومن تاب من هؤلاء المعاندين فإن الله يتوب على من يشاء، والله عليم بصدق توبة التائب، حكيم في تدبيره وصنعه، ووضع تشريعاته لعباده^(١).

وهو سبحانه الحاكم العادل، لا يظلم مثقال ذرة، بل يحاسب الخلق ويجازيهم على أقوالهم وأعمالهم في الدنيا والآخرة.

فانتصار المؤمنين قد يردّ بعض المشركين إلى الإيمان، ويفتح بصيرتهم على الهدى، وهذا القتال والنصر يسفر عن نتائج جيدة، كما أسفر عن إسلام أبي سفيان، وعكرمة، وسهيل بن عمرو، فقد تاب الله عليهم بعد كفر، فأسلموا يوم الفتح وبعده.

لَا تَجُوزُ الْبَطَانَةُ مِنْ غَيْرِ الْمُسْلِمِينَ

١٦- ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تُتْرَكُوا وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ وَلَمْ يَتَّخِذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَا رَسُولِهِ وَلَا الْمُؤْمِنِينَ وَلِجَنَّةٍ وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾

وهذا الجهاد اختبار وابتلاء للذين يتخذون الكافرين أولياء من دون المؤمنين يجعلونهم وليجة، أي: بطانة وموضع سر، كالمسؤول الذي يتخذ له صديقاً أو ولياً في العمل؛ من غير المسلمين كالسكرتير، والخبير،

(١) «التفسير الميسر» للآية، نخبة من العلماء.

والمستشار، ونحو ذلك؛ كي يحفظ أسرار المسلمين وأحوالهم، ويطلع عليها، وذلك على المستوى العام أو الخاص، والخطاب للمسلمين جميعاً على اختلاف مراتبهم.

والابتلاء سُنَّة من سنن الله تعالى، فلا تظنوا - أيها المؤمنون - في كل زمان ومكان أن يترككم الله دون أن تؤمروا بقتال العدو، وتختبروا في جهادكم، ليظهر الله المخلصين في جهاد العدو، وهم الذين لم يتخذوا بطانة من الكافرين يوادونهم، في ظل علاقات متميزة دون المؤمنين.

والله تعالى خير بجميع أعمالكم ومجازيكم عليها، وهذا كقوله تعالى: ﴿أَحْسِبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا ءَامَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ ۚ وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ ۚ﴾ [العنكبوت].

وقوله: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تُدْخَلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ وَيَعْلَمَ الْقَادِرِينَ ۚ﴾ [آل عمران].

كيف تظنون أن تتركوا دون امتحان ولا ابتلاء، حتى يُظهر الله الصادق منكم في دينه من الكاذب، ويظهر الطيب من الخبيث، كما في قوله تعالى: ﴿مَا كَانَ اللَّهُ لِيَذَرَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَىٰ مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ حَتَّىٰ يَمِيزَ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ﴾ [آل عمران: ١٧٩].

والآية تنهى المؤمنين عن موالة غير المسلمين، والإفشاء إليهم بأسرار المسلمين، والاعتماد عليهم دون المؤمنين؛ لأن الوليعة من الولوج، وهو مَنْ يختصه الإنسان بدخيلة أمره وأسرارها من دون الناس، والوليعة أيضاً: الرجل يكون في القوم وليس منهم، والله خير بكل ما تعملونه لا يخفى عليه شيء.

غَيْرُ الْمُسْلِمِينَ لَا يَغْمُرُونَ بُيُوتَ اللَّهِ

١٧- ﴿مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ أَنْ يَعْمُرُوا مَسْجِدَ اللَّهِ شَاهِدِينَ عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ بِالْكُفْرِ أُولَٰئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي النَّارِ هُمْ خَالِدُونَ ۖ﴾ (٧)

(١) قرأ ابن كثير وأبو عمرو ويعقوب (مسجد الله) بالتوحيد، على أن المراد به: المسجد الحرام، وقرأ الباقر (مساجد الله) بالجمع، على أن المراد: جميع المساجد ويدخل فيها المسجد الحرام؛ لأنه قبلة المساجد، وأجمعوا على قراءة (إنما يعمر مساجد الله) بالجمع.

أي لا يصح ولا يجوز لغير المسلمين أن يعمرُوا مساجد الله بالصلاة وأنواع الطاعات، والحال أنهم شاهدون ومقرون على أنفسهم بالكفر، بشهادة حالهم وفطرهم، وعلم كثير منهم أنهم على باطل، فكيف يزعمون أنهم عمّار بيوت الله، وأصل قبول الأعمال وهو الإيمان غير موجود فيهم، أما بالنسبة للعمارة الحسية فإن في المسلمين الكفاية في كل ما يتعلق بالمساجد وليس هناك من ضرورة تتطلب دخولهم فيها.

وعماره بيوت الله تُطلق على معنيين:

المعنى الأول: بناؤها وتشبيدها وترميمها، وفرشها ونظافتها والقيام على شؤونها، وهذا جانب هام في الإسلام، وقد قال عليه الصلاة والسلام كما في حديث ابن عباس رضي الله عنهما: «من بنى مسجدًا ولو كمفحص قطاة لبيضها، بنى الله له بيتًا في الجنة»^(١) ومفحص قطاة، أي: كبيت عصفور صغير.

وفي حديث عمر بن الخطاب رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «من بنى لله مسجدًا يذكر فيه اسم الله تعالى بنى الله له بيتًا في الجنة»^(٢)

وبين النبي ﷺ أن الله سبحانه يشيب العبد على القذاة يخرجها من المسجد، وكرم النبي ﷺ امرأة سوداء كانت تنظف المسجد، وتقوم على خدمته، فماتت دون أن يعلم بوفاتها، فقال لأصحابه: «هلاً آذنتموني حين تُوفيت»، فذهب عليه الصلاة والسلام وصلى عليها تكريماً لها بعد موتها^(٣).

وفي حديث أنس بن مالك رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «إن هذه المساجد لا تصلح لشيء

(١) من حديث ابن عباس عند أبي شيبة (٣١٠/١) و«المسند» (٢١٥٧) والطيالسي (٢٦١٧) وابن حبان (٦١) والبخاري (٤٠٢) قال محققو «المسند»: صحيح لغيره، وهذا إسناد ضعيف لضعف جابر الجعفي، وجاء عن جابر بن عبد الله عند ابن ماجه (٧٣٨) وصححه ابن خزيمة (١٢٩٢).

(٢) «المسند» (١٢٦) وابن ماجه (٧٥٨، ٧٣٥) وابن أبي شيبة (٣١٠/١) قال محققو «المسند»: حديث صحيح، وأخرجه البخاري (٣٠٤) وابن حبان (١٦٠٨) وأبو يعلى (٢٥٣).

(٣) سنن ابن ماجه (٤٨٩/١) برقم (١٥٢٩) قال الألباني في صحيح ابن ماجه: حسن صحيح (١٢٤٠) وهو عن عامر بن ربيعة رضي الله عنه عن أبيه، وصححه أيضًا في إرواء الغليل (١٨٥/٣).

من هذا البول والقذر، إنما هي لذكر الله ﷻ، والصلاة، وقراءة القرآن»^(١).

والكافر يُمنع من كل ذلك، ولو أوصى ببناء مسجد لم تُقبل وصيته، ولا يجوز للكافر دخول المسجد إلا بإذن المسلم، لمصلحة راجحة، بدليل أن النبي ﷺ شدد (ثمامة بن أثال) إلى سارية من سواري المسجد وهو كافر^(٢).

والمعنى الآخر لعمارة بيوت الله سبحانه: دخول المساجد للتعبد فيها بالصلاة، والاعتكاف، وحلق الذكر، وتلاوة القرآن، والقيام على شؤون المسلمين، ونحو ذلك، وهذا المعنى: هو المطلوب الأول للمساجد، ومن أجله كان الغرض الأساس من قيام بيوت الله.

والمسلم إذا رآه الناس يتردد على بيوت الله في صباحه ومساءه خمس مرات في اليوم، فهذه شهادة له بالإيمان، وإذا لم يُرَ المسلم يدخل المسجد ويخرج منه فالله أعلم بحقيقة حاله، وهو في ظاهر الأمر من غير المسلمين بالنسبة للناس.

وقد كان المشركون في الجاهلية يتولّون عمارة المسجد الحرام، ويتولّون القيام على شؤونهم، مثل: سقاية الحجيج، وخدمة البيت، والحراسة، والنظافة، وغير ذلك.

ولما أسر بعض المشركين في غزوة بدر غيرهم بعض المسلمين بالشرك.

ومن ذلك ما قاله العباس لعليّ رضي الله عن الجميع حينما غيرَ بشرَكة الذي كان في جاهليته، فقال له: تذكرون مساوئنا وتتركون محاسننا، قال له: وهل لكم من محاسن؟ قال: نعم، نحن أفضل منكم، نحن نعمر المسجد الحرام، ونحجّب الكعبة، ونسقي الحجيج، ونفكّ العاني، يعني: الأسير، فنزلت هذه الآية^(٣) ليبيّن جلّ شأنه أن هذا الأمر قد انتهى، وأن القيام على شؤون المسجد الحرام بنظافته وخدمته وتولية أمره من قبل المشركين قد انتهى أجله.

ولا يجوز لغير المسلم بعد نزول سورة براءة ﴿إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلَا يَقْرَبُوا الْمَسْجِدَ

(١) «صحيح البخاري» برقم (٢١٩، ٢٢١، ٦٠٢٥) و«صحيح مسلم» برقم (٢٨٥).

(٢) حاشية الجمل على «الجلالين» (٣٧٠/٢) بتصرف.

(٣) «تفسير الطبري» (٦٢/١٠) و«زاد المسير» (٤٠٤/٣) وحاشية الجمل على «الجلالين» (١٧٠/٢).

الْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَذَا ﴿٢٨﴾ التوبة: ٢٨] أن يدخل المسجد الحرام، ولا غيره من بيوت الله، فضلاً عن أن يقوم على خدمة الكعبة، وسقاية الحجيج وغير ذلك، قال سبحانه: ﴿مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ أَنْ يَعْمُرُوا مَسْجِدَ اللَّهِ﴾ أي: لا ينبغي، ولا يصح لهم ذلك في المستقبل، بغض النظر عما سبق قبل ذلك من عمارتهم لها.

والمراد في الآية: جميع المساجد، ويدخل فيها المسجد الحرام؛ دخولاً أولياً، لأنه قبله هذه المساجد، ولا يستقيم لغير المسلمين أن يجمعوا بين أمرين متنافيين هما: عمارة المساجد، والكفر بالله ورسوله.

وفي الآية رد على كبار المشركين الذين افتخروا بخدمة المسجد الحرام والقيام على شؤونه، فوجب على المسلمين منعه؛ لأنهم ﴿شَاهِدِينَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ بِالْكَفْرِ﴾ أي: باعترافهم، وتكذيبهم بالقرآن ونبي الإسلام، فهم يشهدون على أنفسهم قولاً وعملاً أنهم كفار، فإذا سألت اليهودي عن دينه؟ سيقول: إنه يهودي، وإذا سألت النصراني عن دينه؟ سيقول: إنه نصراني، وإذا سألت الوثني عن دينه؟ سيقول: إنه مشرك، وإذا سألت الصابئ عن دينه؟ سيقول: إنه صابئ، وهكذا، كل منهم يشهد على نفسه بملته^(١).

فالمراد بعمارة المساجد: ما يشمل إقامة العبادة فيها، وبناءها، ونظافتها، وصيانتها، واحترامها، وخدمتها.

ومنع غير المسلمين من عمارة المساجد مرتبط بالبراءة منهم، وهم غير مؤهلين لذلك مع شهادتهم على أنفسهم بالكفر، فإن هذا موجب لحرمانهم من عمارتهم لبيوت الله.

وقد كان المشركون يشهدون على أنفسهم بالكفر في الطواف، وفي التلبية بالشرك، فكانوا يقولون في التلبية: لبيك لا شريك لك، إلا شريكاً هو لك، تملكه وما ملك، فكانوا يشركون بالله سبحانه في تليبتهم، وكانوا يسجدون للأصنام، ويتقربون بها، ويعبدونها من دون الله، فهذه شهادة منهم -بالقول وبالفعل- على أنفسهم بالكفر، والشرك والكفر هنا بمعنى واحد، وإلا فإن الكفر أعم من الشرك، فكل مشرك كافر، وليس كل كافر مشركاً.

(١) أخرج الطبري هذا المعنى بسند حسن عن السدي في تفسير الآية.

والسبب في هذا أن أعمال الكافر والمشرِك من البر والخير، مُحَبَّطَةٌ لَا أُجْرَ لَهُ عَلَيْهَا؛ لأن الأصل غير موجود، وهو الإيمان بالله وبالرسول، وبالحساب وبالجزاء على الأعمال ﴿أُولَئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ﴾ فالعمل الصالح دون إيمان لا قيمة له، ولا وزن له، فإذا لم تصح العقيدة، لم تصح العبادة؛ لأن العبادة ترجمة للعقيدة.

وفي الآية توجيه للمؤمنين أن يمنعوا غير المسلمين من دخول المسجد الحرام، ومن دخول غيره من المساجد، فليس من شأنهم إعمار بيوت الله، وهم يعلنون كفرهم. ومصيرهم في الآخرة هو الخلود في النار ﴿وَفِي النَّارِ هُمْ خَالِدُونَ﴾ وذلك لأنهم أقروا على أنفسهم بالكفر، وتكذيب القرآن، وإنكار نبوة محمد ﷺ وكل ذلك كفر، ولذلك حبطت أعمالهم في الدنيا والآخرة.

خَمْسَةُ أَوْصَافٍ لِعُمَارِ بُيُوتِ اللَّهِ

١٨- ﴿إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَاجِدَ اللَّهِ مَنِ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَلَمْ يَحْشَ إِلَّا لِلَّهِ فَعَسَىٰ أُولَئِكَ أَنْ يَكُونُوا مِنَ الْمُهْتَدِينَ﴾

بَيَّنَّ سبحانه مَنْ هُمْ أَهْلُ عِمَارَةِ بُيُوتِ اللَّهِ والاعتناء بها، ومن يحق لهم أن يعمروا بيوت الله العمارة الحسية، من البناء والتشييد وغير ذلك، وَمَنْ يَعْمُرُونَهُ بِالْعِمَارَةِ الْمَعْنَوِيَّةِ بالصلاة فيه وبالعبادة والطاعة، فذكر سبحانه في هذه الآية خمسة أوصاف ينبغي توافرها فيمن يعمرون مساجد الله:

الوصف الأول لِعُمَارِ الْمَسَاجِدِ: الإيمان بالله تعالى، والتوجه إليه وحده بالعبادة، ويدخل فيه الإيمان برسول الله محمد ﷺ؛ فالكافر ليس له أن يعمر مساجد الله تعالى.

الوصف الثاني: الإيمان باليوم الآخر وما فيه من بعث وحشر ونشر، وحساب وثواب وعقاب وجنة ونار.

الوصف الثالث: إقامة الصلاة وأداؤها في أوقاتها، وهي من لوازم عمارة المساجد، وأخص أعمالها.

الوصف الرابع: إيتاء الزكاة، فلا يشتغل بعمارة المساجد إلا من كان مؤدياً للزكاة؛ لأن

الزكاة ركن من أركان الإسلام، وواجب عيني على كل مسلم بشروطها، وعمارة المساجد العمارة الحسية - كالبنا والنفظة - واجب كفائي.

الوصف الخامس: الإخلاص في العبادة بأن تخلو من الشرك والرياء، وأن تكون موافقة لهذي رسول الله ﷺ مع خشية الله تعالى وحده.

هذه أوصاف خمسة إذا تحققت في عبد تحققت له الهداية، فإن (عسى) من جانب الله سبحانه تفيد الوجوب تفضلاً من الله سبحانه ﴿فَعَسَىٰ أُولَٰئِكَ﴾ المتصفون بالأوصاف السابقة ﴿أَن يَكُونُوا مِنَّا الْمُتَّهَدِينَ﴾ إنهم المهتدون حقاً، وهم المفلحون، المستحقون لدخول الجنة.

ومن الأحاديث الواردة في عمارة المساجد بينائها والطاعة فيها ما جاء:

١- في الصحيحين عن أبي هريرة ؓ أن النبي ﷺ قال: «من غدا إلى المسجد أو راح أعد الله له في الجنة نزلاً كلما غدا أو راح»^(١).

٢- وفي الصحيحين عن عثمان بن عفان ؓ قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «من بنى لله مسجداً يبتغي به وجه الله تعالى بنى الله له مثله في الجنة»^(٢).

٣- وعن أبي الدرداء أنه كتب إلى سلمان: يا أخي، ليكن المسجد بيتك؛ فإنني سمعت رسول الله ﷺ يقول: «المسجد بيت كل تقى، وقد ضمن الله لمن كانت المساجد بيوتهم، بالروح والراحة والجواز على الصراط إلى رضوان الرب»^(٣).

٤- وعن سلمان الفارسي ؓ أن رسول الله ﷺ قال: «من توضأ في بيته فأحسن الوضوء، ثم أتى المسجد فهو زائر لله، وحق على المزور أن يكرم الزائر»^(٤).

(١) «صحيح البخاري» برقم (٦٦٢) و«صحيح مسلم» برقم (٦٦٩) وابن أبي شيبة (٣١٧/١٣).

(٢) «صحيح البخاري» برقم (٤٥٠) و«صحيح مسلم» برقم (٥٣٣).

(٣) «السلسلة الصحيحة» (٧١٦) و«صحيح الترغيب والترهيب» (٣٣٠) وابن أبي شيبة (٣١٧/٣) والبخاري (٢٥٤٦) والطبراني (٦١٤٣) والبيهقي (٢٩٥٠) وهو حديث حسن.

(٤) «السلسلة الصحيحة» (١١٦٩) وهو عند الطبراني في «الكبير» (٦١٣٩، ٦١٤٥) وقال الهيثمي: أحد إسناده رجاله رجال الصحيح، «مجمع الزوائد» (٣١/٢).

٥- وعن أنس بن مالك رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «بُشِّرَ المشائين في ظلم الليالي إلى المساجد بالنور التام يوم القيامة»^(١).

وفي تفسير ابن عباس للآية: من وحّد الله، وآمن باليوم الآخر، وأقر بما أنزل الله، وأقام الصلوات الخمس، ولم يعبد إلا الله، فأولئك هم المفلحون، كقوله تعالى لنبيه: ﴿عَسَىٰ أَن يَيعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا﴾ [الإسراء: ٧٩] أي: سيبعثك مقامًا محمودًا وهي الشفاعة، فكل (عسى) في القرآن واجبة^(٢).

وبمجموع هذه الصفات يخرج من آمن بالله واليوم الآخر، ولكنه لا يقيم الصلاة ولا يؤتي الزكاة، والإيمان بالله يستلزم الإيمان بمحمد ﷺ.

أَعْظَمُ النَّاسِ دَرَجَةً عِنْدَ اللَّهِ

١٩- ﴿أَجْعَلُمُ سِقَايَةَ^(٣) الْحَاجِّ وَعِمَارَةَ^(٤) الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ كَمَنَ ءَامَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَجَاهِدَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ لَا يَسْتَوُونَ عِنْدَ اللَّهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾

اختلف بعض المسلمين وبعض المشركين في تفضيل عمارة المسجد الحرام بالبناء والنظافة وسقاية الحجيج، على الإيمان بالله والجهاد في سبيل الله، فاخبر سبحانه أن الإيمان والجهاد أفضل من سقاية الحاج وعمارة المسجد الحرام، لأن الإيمان أصل الدين وبه تقبل الأعمال، وبالجهاد يُحفظ الدين وتوسع رفعة.

وكان بعض المسلمين قد اختلف مع بعض في هذا التفضيل، كما جاء في صحيح مسلم عن النعمان بن بشير رضي الله عنه أن ثلاثة من المسلمين اختلفوا، وارتفعت أصواتهم عند منبر رسول الله ﷺ في يوم الجمعة، كل منهم يذكر أفضل عمل يؤديه بعد الإسلام.

قال أحدهم: ما أبالي ألا أعمل عملاً بعد الإسلام إلا أن أُعمر المسجد الحرام.

وقال آخر: الجهاد في سبيل الله أفضل مما قلت، فزجرهم عمر رضي الله، وقال: لا

(١) «صحيح سنن ابن ماجه» (٦٣٣) والبيهقي في «السنن» (٦٣١٣) وفي «الشعب» (٢٩٠٢).

(٢) أخرجه الطبري بإسناد حسن عن علي بن أبي طلحة (٩٤/١٠).

(٣) قرأ ابن وردان بخلف عنه (سُقَاةُ الْحَجِّ وَعَمَرَةُ)، وقرأ الباقر (سقاية الحاج وعمارة) ومعهم ابن وردان في الوجه الآخر.

ترفعوا أصواتكم عند منبر رسول الله ﷺ وهو يوم الجمعة، ولكن إذا صليْتُ الجمعة دخلْتُ فاستفتيته فيما اختلفتم فيه، فأُنزل الله الآية ﴿أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ الْحَاجِّ وَعِمَارَةَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ كَمَنْ ءَامَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَجَاهَدَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ لَا يَسْتَوُونَ عِنْدَ اللَّهِ﴾^(١).

أما بالنسبة لاختلاف بعض المسلمين مع بعض المشركين في هذا الشأن، فقد قال العباس لما أُسر يوم بدر: لئن كنتم سبقتونا بالهجرة والجهاد، فقد كنا نعمر المسجد الحرام، ونسقي الحاج، ونفك العاني، فأخبر الله تعالى أن عمارتهم للمسجد الحرام وقيامهم على السقاية لا ينفعهم مع الشرك بالله تعالى، وأن الإيمان والجهاد مع النية خير مما هم عليه^(٢).

وجاء عن محمد بن كعب القرظي: افتخر طلحة بن أبي شيبة بأن مفاتيح الكعبة بيده، وافتخر العباس بأنه صاحب السقاية، وقال عليّ: ما أدري ما تقولون؟ لقد صليْتُ إلى القبلة ستة أشهر قبل الناس، وأنا صاحب الجهاد، فأُنزل الله الآية^(٣) ولا مانع من تعدد أسباب النزول على آية واحدة.

وسقاية الحجيج كانت في بني هاشم، وكان العباس يتولاها.

قال الحسن: لما نزلت هذه الآية قال العباس: ما أراني إلا أترك السقاية، فقال النبي ﷺ: «أقيموا عليها فإنها خير لكم»^(٤).

والمراد بالسقاية: ما كانت قريش تسقيه للحجاج من الزبيب المنبوذ في الماء، وكان العباس يتولى إدارة هذا العمل في الجاهلية والإسلام.

ويراد بالسقاية أيضاً: إعطاء الناس الماء، وسقايتهم من ماء زمزم.

(١) يُنظر: النص في «صحيح مسلم» (٢٦/١٣) برقم (١٨٧٩) والطبري (١٦٩/١٤) وابن أبي حاتم (١٧٦٧/٦) وابن حبان (٤٥٩١) والطبراني في «الأوسط» (٤٢٣) والسيوطي في «الدر المنثور» (٢١٨/٣) و«تفسير عبد الرزاق» (٢٤٣/١) و«تفسير الألوسي» (٦٠/١٠) وورد أسباب أخرى للنزول حول هذا المعنى.

(٢) فيما رواه علي بن أبي طلحة عن ابن عباس، «تفسير الطبري» (٣٧٨/١١) وابن أبي حاتم (٦/١٧٦٨).

(٣) «تفسير الطبري» (١٧١/١٤) وقد أخرجه أبو الشيخ كما في «الدر» (٢٧٢/٧).

(٤) «تفسير ابن عطية» (١٦/٣).

وكان العباس وعثمان بن طلحة قد أرادا ترك الهجرة للقيام بسقاية الحاج وحجاجة البيت، زعمًا منهما أن ذلك أفضل من الهجرة والجهاد.

المراد بعمارة البيت الحرام: ومن عمارة المسجد الحرام: حفظه من وقوع الظلم فيه، أو أن يقال فيه كلام غير مناسب، وكان هذا الأمر أيضًا موكولًا إلى العباس .

وقد يراد بعمارة المسجد الحرام: السدانة، وخدمة البيت خاصة، وكانت في بني عبد الدار، وكان يتولاها: عثمان بن طلحة، وشيبة بن عثمان، وهما اللذان دفع إليهما النبي ﷺ مفتاح الكعبة ثاني يوم الفتح، بعد أن طلبه العباس وعلي، وقال ﷺ لعثمان وشيبة: «يوم وفاء وبر، خذوها خالدة تالدة لا ينازعكموها إلا ظالم»^(١).

وكان المشركون يرون أن عمارة بيت الله، وسقاية الحجيج خير ممن آمن وجاهد، ويفتخرون على الناس بذلك ويستكبرون عليهم، فقال تعالى لأهل الحرم من المشركين: ﴿قَدْ كَانَتْ آيَاتِي تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فَكُنْتُمْ عَلَىٰ أَعْقَابِكُمْ تُنْكِرُونَ ﴿١١﴾ مُسْتَكْبِرِينَ بِهِ سِمِرًا تَهْجُرُونَ ﴿١٢﴾﴾ [المؤمنون] فعاب القرآن عليهم وذمهم؛ لأنهم كانوا يسمرون ويهجون القرآن، وفضل الله الإيمان والجهاد على العمارة والسقاية، فليس لهما نفع مع الشرك.

فضل ماء زمزم:

وقد وردت أحاديث كثيرة في فضل ماء زمزم وبركته وشرف سقاية الناس، منها:

١- في البخاري وغيره عن ابن عباس ؓ أن رسول الله ﷺ جاء إلى السقاية فاستسقى، فقال العباس: يا فضل، اذهب إلى أمك فأت رسول الله ﷺ بشراب من عندها، فقال: «اسقني» قال: يا رسول الله، إنهم يجعلون أيديهم فيه، قال: «اسقني»، فشرب منه، ثم أتى زمزم وهم يسقون ويعملون فيها، فقال: «اعملوا، فإنكم على عمل صالح» ثم قال: «لولا أن تغلبوا لنزلتُ حتى أضع الجبل على هذه» وأشار إلى عاتقه ﷺ^(٢).

٢- وفي صحيح مسلم وغيره عن بكر بن عبد الله المزني قال: كنت جالسًا مع ابن عباس عند الكعبة، فأتاه أعرابي فقال: ما لي أرى بني عمكم يسقون العسل واللبن وأنتم

(١) «تفسير ابن عطية» (١٦/٣)، والحديث في فتح الباري (١٩/٨) وشرح النووي (٨٣/٩) على مسلم.

(٢) «صحيح البخاري» برقم (١٦٣٥) والحاكم (٤٧٥/١) والبيهقي (١٤٧/٥).

تسقون النبيذ؟ أَمِنْ حَاجَةٍ بِكُمْ، أَمْ مِنْ بُخْلٍ؟ فقال ابن عباس: الحمد لله، ما بنا من حاجة ولا بخل، إنما قدم رسول الله على راحلته وخلفه أسامة فاستسقى، فأتيناه بإناء من نبيذ فشرب، وسقى فضله أسامة، ثم قال: «أخستم أو أجملتم، كذا فاصنعوا» فلا نريد تغيير ما أمر به رسول الله ﷺ^(١).

والنبيذ: هو تمر ينقع في الماء صباحًا ويشرب مساءً، أو ينقع مساءً ويشرب صباحًا، وهذا حلال، فإن غلى وحمض وتخمر فهو حرام.

٣- وفي حديث جابر رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «ماء زمزم لما شرب له»^(٢).

٤- وعن ابن عباس رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال: «خير ماء على وجه الأرض ماء زمزم، فيه طعام من الطعم، وشفاء من السقم»^(٣).

٥- قال أبو ذر رضي الله عنه: قدمت مكة، فقال لي رسول الله ﷺ: «متى كنت ها هنا؟» قلت: أربع عشرة، وفي لفظ: ثلاثين، بين يوم وليلة، قال: «من كان يطعمك؟» قلت: ما كان لي طعام ولا شراب إلا ماء زمزم، فلم أشعر بجوع، وزال سمن بطني، فقال ﷺ: «إنها مباركة، إنها طعام طعم» زاد الطيالسي: «وشفاء سقم»^(٤).

وكان ابن عباس رضي الله عنهما إذا شرب من زمزم قال: «اللهم إني أسالك علما نافعا، ورزقا واسعا، وشفاء من كل داء»^(٥).

(١) «صحيح مسلم» برقم (١٣١٦) و«المسند» (٢٢٠٧، ٢٦٥٥) حديث صحيح، وأخرجه الطيالسي (٢٦٩١) والطبراني (١٢٩٣٤).

(٢) «المسند» (١٤٨٤٩، ١٤٩٩٦) قال محققون: حديث محتمل للتحسين، وأخرجه ابن أبي شيبة (٩٥/٨) وصححه الألباني في صحيح «سنن ابن ماجه» (٢٤٨٤) و«الإرواء» (١١٢٣) وهو في الطبراني (٨٤٩، ٣٨١٥، ٩٠٢٧) والبيهقي في الشعب (٤١٢٨).

(٣) «السلسلة الصحيحة» (١٠٥٦) وهو عند الطبراني (١١١٦٧) مطولاً، قال الهيثمي: رجاله ثقات وصححه ابن حبان، «مجمع الزوائد» (٢٨٦/٣).

(٤) ذكرت بعضه بالمعنى، يُنظر: «مسند الطيالسي» (٤٥٩) وابن أبي شيبة (٣١٥/١٤) وانظر: «المسند» (٢١٥٢٥) ومسلم (٢٤٧٣) والبخاري (٣٩٤٨).

(٥) أخرجه عبد الرزاق (٩١١٢) عن سفيان الثوري، والدارقطني (٢٨٨/٢) والحاكم (٤٧٣/١).

وقد كانت سقاية الحاج، وعمارة المسجد الحرام من أعظم مناصب قريش في الجاهلية، فكانت السقاية لبني هاشم، وجاء الإسلام وهي للعباس.

وكانت عمارة المسجد الحرام لبني عبد الدار، وجاء الإسلام وهي لعثمان بن طلحة، وتسمى السدانة والحجابة.

مناصب أبطلها الإسلام: وكانت لقريش مناصب أخرى ثمانية أبطلها الإسلام وهي:

أ- **الديات:** أي: دية عوض دم القتل خطأ أو عمدًا إذا تم الصلح عليه، وكذا الحملات، وهي الغرامة التي يحملها قوم عن قوم، وكانت لبني تيم، وجاء الإسلام وهي في يد أبي بكر الصديق .

ب- **السفارة:** وهي السعي بالصلح بين الناس، والقائم بها يسمى سفيرًا، وكانت لبني عدي، وجاء الإسلام وهي في يد عمر .

ج- **الراية:** وهي راية جيش قريش، وكانت لبني أمية، وجاء الإسلام وهي في يد أبي سفيان.

د- **الرفادة:** وهي أموال تخرجها قريش في موسم الحج، يشترون بها الجزر والطعام والزبيب، وكانت لبني نوفل، وجاء الإسلام وهي بيد الحارث بن عامر.

هـ- **المشورة:** وهي ولاية دار الندوة، وكانت لبني أسد بن عبد العزى، وجاء الإسلام وهي بيد زيد بن زُمعة.

و- **الأعنة:** أو القبة، وهي قبة يضربونها ويجمعون إليها عند تجهيز الجيش، وكانت لبني مخزوم أبناء عم قُصي، وجاء الإسلام وهي بيد خالد بن الوليد .

ز- **الحكومة وأموال الآلهة:** وربما تكون الأموال التي تُجمع من جزاء الصيد، وكانت لبني سهم، وجاء الإسلام وهي في يد الحارث بن قيس.

ح- **الأيثار:** وهي الأزمات التي كانوا يستقسمون بها، وكانت لبني جُمع أبناء عم قُصي، وجاء الإسلام وهي في يد صفوان بن أمية.

فهذه ثمانية مناصب، أو مآثر، كانت لقريش، أبطلها الإسلام وأبقى السقاية والسدانة؛ لقول النبي ﷺ في حجة الوداع: «ألا إن كل مأثرة من مآثر الجاهلية تحت قدمي هاتين إلا

ما كان من سقاية الحاج وسدانة البيت فإني أمضيهما لأهلهما على ما كانتا»^(١).

وكان بيد قُصَيٍّ خمسة من هذه المناصب: الحجابة، والسقاية، والرفادة، والندوة، واللواء، فلما كبر قُصَيٌّ جعلها لابنه عبد الدار، وبعد موت قُصَيٍّ انفرد عبد الدار بالحجابة واللواء والندوة، وعبد مناف بالسقاية والرفادة^(٢).

والآية التي نحن بصددتها تخاطب قومًا مؤمنين قعد بعضهم عن الهجرة والجهاد، بحجة أن السقاية والعمارة تُجزئ عنهما، وهي تنفي التسوية بينهما، وثبُّن أن الهجرة والجهاد أفضل، مع التسليم بأن الجميع من أعمال البر، ولم يدَّعِ أحد من الفريقين التسوية بين العاملين، دون الإيمان بالله واليوم الآخر.

فكلا الفريقين مؤمن بالله واليوم الآخر، وذُكر السقاية والعمارة في الآية من باب أن هذه الأعمال كلها ملازمة لهذا الإيمان.

فلا يجوز للمؤمن أن يشتغل بالسقاية والعمارة عن الجهاد في سبيل الله، فلا يستوي من يسقي الحجيج، ويعمر المسجد الحرام وهو مؤمن، لا يستوي بالمؤمن المجاهد بنفسه وماله في سبيل الله.

ذلكم أن الجهاد في سبيل الله هو ذروة سنام الإسلام، وهو الدرجة العالية في الإسلام، فلا يصح التخلف عنه بسبب عمارة المسجد الحرام أو سقاية الحجيج، وكان العباس قد أسلم يوم الفتح.

وفي الحديث عن عبدالله بن عمر رضي الله عنهما: «ولا تَرَكَوا الجهاد إلا سَلَطَ اللهُ عليهم ذُلًّا لا ينزعه عنهم حتى يرجعوا إلى دينه»^(٣).

أي: حتى يرجعوا إلى الجهاد، ففيه عزتهم، وفيه تحقيق ذاتهم وكيانهم.

(١) من حديث ابن عمر في «المسند» (٤٥٨٣)، فيه ابن جُعدان ضعيف، وبقي رجاله ثقات، وأخرجه ابن ماجه (٢٦٢٨) وأبو يعلى (٥٦٧٥) والنسائي في الكبرى (٧٠٠٢) وغيرهم.

(٢) يُنظر: «تفسير التحرير والتنوير» لابن عاشور (١٤٤/٦).

(٣) من حديث ابن عمر، يأتي تخريجه في الآية (٢٤).

ولما نفى الله المساواة بين الفريقين بين سبحانه أن الكافرين ظلموا أنفسهم بعدم الإيمان بالله ورسوله، وظلموا المسجد الحرام بجعله متعبداً للأوثان، وأثبت للمؤمنين الهداية ونفاها عن غير المسلمين، وهذا معنى: ﴿وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ أي: لا يقبل الله من غير المسلمين أعمالهم، ولا يوفقهم لأعمال الخير، ولا يستوي الجهاد مع غيره من الأعمال بعد الإيمان بالله.

والمعنى: أ جعلتم -أيها القوم- ما تقومون به من سقي الحجيج، وسدانة البيت وعمارته، كإيمان من آمن بالله واليوم الآخر، وجاهد في سبيل الله؟ لا تتساوى حال المؤمن وحال الكافر عند الله؛ لأن الله لا يقبل عملاً بغير الإيمان، والله سبحانه لا يوفق لأعمال الخير القوم الظالمين لأنفسهم بالكفر.

ثَلَاثُ جَوَائِزَ لِمَنْ اتَّصَفَ بِأَوْصَافٍ ثَلَاثَةٍ

٢٠- ﴿الَّذِينَ ءَامَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ أَعْظَمُ دَرَجَةً عِنْدَ اللَّهِ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ﴾

ثم بين سبحانه فضل المؤمنين المهاجرين المجاهدين في سبيل الله بأموالهم وأنفسهم فقال: ﴿الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ حق الإيمان ﴿وَهَاجَرُوا﴾ تركوا دار الكفر قاصدين دار الإسلام ﴿وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ﴾ أي: بذلوا أنفسهم وأموالهم؛ لإعلاء كلمة الله ونصرة دينه ﴿أَعْظَمُ دَرَجَةً عِنْدَ اللَّهِ﴾ ممن لم يتصف بهذه الصفات ﴿وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ﴾ برضوان الله، فقد طهروا أنفسهم من دنس الشرك بالإيمان، وطهروا أبدانهم بالهجرة من الأوطان، وبذلوا أنفسهم وأموالهم للجهاد في سبيل الرحمن، وكانوا عند الله أرفع قدراً من سقاية الحاج، وعمارة المسجد الحرام.

وقد وصفت الآية هؤلاء المؤمنين بثلاثة أوصاف هي: إيمان، وهجرة، وجهاد، والجهاد لا بد أن يكون في سبيل الله، لا في سبيل شيء آخر؛ كالشجاعة، أو العصبية، أو القومية، وهؤلاء الموصوفون بما ذكر أعظم درجة عند الله من سقاية الحجيج، ومن عمارة المسجد الحرام، والجهاد مع الإيمان أفضل أعمال البر، وذروة سنام الإسلام. قال تعالى:

٢١- ﴿يُبَشِّرُهُمْ﴾^(١) رَبُّهُمْ بِرَحْمَةٍ مِّنْهُ وَرِضْوَانٍ^(٢) وَجَنَّتْ لَّهُمْ فِيهَا نَعِيمٌ مُّقِيمٌ ﴿٢١﴾

وقد أعد الله لمن اتصف بالأوصاف الثلاثة أشياء مقابل الأوصاف الثلاثة التي اتصفوا بها، وهي: الرحمة مقابل الإيمان، والرضوان مقابل الهجرة وترك الأوطان، والجنات مقابل الجهاد بالنفس والمال ﴿يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُمْ﴾ على لسان نبيهم في الدنيا، وعلى لسان الملائكة عند الموت ﴿بِرَحْمَةٍ مِّنْهُ﴾ واسعة عظيمة يزيل بها عنهم كل شر، ويوصل إليهم كل خير ﴿وَرِضْوَانٌ﴾ كبير من الله تعالى لا يسخط بعده، وهو أكبر نعيم أهل الجنة وأعظمه، فيحل عليهم رضوانه فلا يسخط عليهم أبداً. ﴿وَجَنَّتْ﴾ عالية، قطوفها دانية ﴿لَّهُمْ فِيهَا نَعِيمٌ مُّقِيمٌ﴾ والنعيم: ما تتلذذ به النفس لذة حسية ﴿إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ﴾ [الانفطار]

والمقيم: هو الدائم المستمر. ورضوان الله سبحانه أعظم شيء يناله العبد في الدنيا والآخرة، وقد أعد الله للمجاهدين في سبيله مئة درجة، ما بين كل درجتين كما بين السماء والأرض، ولو اجتمع الخلق كلهم في درجة واحدة منها لوسعتهم:

١- جاء في الحديث عن أبي سعيد: «أن الله ﷻ بعدما يدخل أهل الجنة الجنة يقول لهم: يا أهل الجنة، هل رضيتم؟ فيقولون: كيف لا نرضى وقد باعدتنا عن نارك، وأدخلتنا الجنة؟! فيقول سبحانه: لكم عندي أفضل من ذلك، فيقولون: وما أفضل من ذلك؟ فيقول جل شأنه: أحلُّ عليكم رضواني فلا أسخط عليكم أبداً»^(٣).

ولذلك جاء في الآية الأخرى: ﴿وَعَدَ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَمَسْكَنٌ طَيِّبٌ فِي جَنَّاتٍ عِدْنٍ وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللَّهِ أَكْبَرُ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ [التوبة] فرضوان الله تعالى أكبر من دخول الجنة، وهو أعظم ما يفوز به العبد يوم لقاء الله.

(١) قرأ حمزة بفتح الياء وإسكان الباء وضم الشين من (يبشرهم) مضارع أبشر، وقرأ الباقون بضم الياء وفتح الياء وكسر الشين وتشديدها مضارع بشر.

(٢) قرأ شعبة بضم الراء من (ورضوان) والباقيون بكسرها وهما لغتان.

(٣) «تفسير الألوسي» (٦/٦٢) والحديث في «المسند» (١١٨٣٥) إسناده صحيح ورجاله ثقات، والبخاري (٦٥٤٩، ٧٥١٨) ومسلم (٢٨٢٩) والترمذي (٢٥٥٥) والنسائي في «الكبرى» (٧٧٤٩) والبيهقي في «الأسماء والصفات» (١٠٥٤).

٢- في صحيح مسلم عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: «من يدخل الجنة ينعم، لا يبأس، لا تبلى ثيابه، ولا يفنى شبابه»^(١).

٣- وأخرج الطبري بسند صحيح رجاله ثقات عن جابر بن عبد الله ؓ أن رسول الله ﷺ قال: «إذا دخل أهل الجنة الجنة قال الله سبحانه: أعطاكم أفضل من هذا؟ فيقولون: ربنا، أي شيء أفضل من هذا؟ قال: رضواني».

وقد بدأت الآية بالرحمة؛ لأنها أعم النعم، وثنت بالرضوان؛ لأنه نهاية الإحسان، وثلت بالجنان؛ لأنها جائزة الرحمن لأهل الإيمان، ونعيم أهل الجنة دائم لا يزول. قال تعالى:

٢٢- ﴿خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾

وهذه البشري تحقق لهم الخلود والنعيم الأبدي في الجنة، فهم ماكثون في تلك الجنات بلا نهاية لنعيمهم، وهم لا ينتقلون عنها ولا يبعثون عنها حولا، جزاء ما قدّموه من العمل الصالح في حياتهم باتباع شرع الله تعالى ﴿إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ فخرائمه لا تنفد، ونعمه لا تنتهي.

مَحَبَّةُ اللَّهِ وَرَسُولِهِ قَبْلَ حُبِّ الْمَالِ وَالْعَشِيرَةِ

٢٣- ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَتَّخِذُوا ءِآبَاءَكُمْ وَإِخْوَانَكُمْ أَوْلِيَاءَ^(٢) إِنِ اسْتَحَبُّوا الْكُفْرَ عَلَى الْإِيمَانِ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ فَوَلَّيْتُكُمْ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾

يا أهل الإيمان: لا تتخذوا أقرب الناس إليكم أولياء تحبونهم وتناصرونهم إن كانوا ممن اختار الكفر على الإيمان، ومن يفعل ذلك يكون من الظالمين لنفسه المستحق للعقوبة.

وهكذا: حذر الله سبحانه المؤمنين كافة من موالاته أقرب الناس إليهم إن كانوا كفارًا.

قال ابن مسعود ؓ: إذا سمعت الله تعالى يقول: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ فأرעה سمعك؛ فإنها خير تؤمر به أو شر تُنهى عنه).

(١) «صحيح مسلم» (٢٨٣٦).

(٢) قرأ نافع وابن كثير وأبو عمرو وأبو جعفر ورويس بتشديد الهمزة الثانية من (أولياء إن) بَيْنَ بَيْنَ، والباقيون بتحقيقها.

والبراءة من المشركين جاءت في سورة التوبة، وقد ترتب عليها أشياء، منها:

١- منع المشركين من عمارة المسجد الحرام.

٢- والقيام على شؤون الكعبة.

٣- ومنعهم من الدخول في منطقة الحرم.

٤- ومن الطواف عرايا حول البيت.

٥- وترتب عليها كذلك وجوب التفرقة بين الابن المسلم والأب الكافر، والأخ المؤمن وأخوه الكافر، وهكذا الزوج والزوجة، والأهل والعشيرة.

فقد كان يشق على بعض الناس أن يقطع أرحامه؛ لأنه مؤمن وأخوه كافر، فجاء الإسلام يبين أن هذه العقيدة لا تقبل شريكاً في قلب المؤمن؛ فالإيمان يفرق بين الأخ وأخيه، إذا كان أحدهما مؤمناً والآخر مشركاً، وهكذا بين الزوج وزوجه، وبين الأب وابنه.

ولا يمنع الإسلام من الصلة والبر بين الأرحام، ولا يمنع محبة ما أحل الله من أموال وتجارة ورزق، على ألا يسيطر هذا على عقيدة المسلم ولا على إيمانه، ولا يكون هذا الحب أكبر من العقيدة والمتابعة.

فليس المطلوب أن ينسلخ المرء من أهله وولده وعشيرته وماله، بل المطلوب ألا تسيطر عليه هذه الحظوظ الدنيوية، وألا يكون مستعبداً لها، فلو وُضعت في كفة، وُضع الإيمان والجهاد في كفة لرجحت كفة الإيمان والجهاد.

جاء في أسباب النزول: أن النبي ﷺ لما أمر الناس بالهجرة إلى المدينة، جعل الرجل يقول لأبيه وأخيه وامراته: إنا قد أمّرنا بالهجرة، فمنهم من يُسرّع إلى ذلك ويعجبه، ومنهم من يتعلق به زوجته وعياله وولده فيقولون: ناشدناك الله ألا تدعنا إلى غير شيء فنضيّع، فيجلس معهم ويدع الهجرة، فنزلت هذه الآية^(١).

وعلى هذا المعنى تُحمل عداوة الزوجات والأبناء في قوله تعالى: ﴿يَتَأْتِيهَا الذِّبَرُ ۚ آمَنُوا إِنَّ مِنْ أَرْوَاجِكُمْ وَأَوْلَادِكُمْ عَدُوًّا لَكُمْ فَاحْذَرُوهُمْ﴾ [التغابن: ١٤].

(١) «زاد المسير» (٣/٤١١).

وَتُحْمَلْ أَيْضًا فِتْنَةُ الْمَالِ وَالْوَلَدِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿أَتَمَّا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ﴾ [التغابن: ١٥].

وقد علل الله سبحانه النهي عن موالاة الكفار بقوله: ﴿إِنْ أَسْتَحَبُّوا الْكُفْرَ عَلَى الْإِيمَانِ﴾ أي: إن اختاروا الكفر وأصروا عليه، كما قال تعالى: ﴿وَمَنْ يَتَوَلَّهمْ مِنْكُمْ فَإِنَّهٗ مِنْهُمْ﴾ [المائدة: ٥١] أي: هو مشرك مثلهم؛ لأن من رضي بالشرك فهو مشرك.

والمعنى: يا معشر المصدقين بالله والمتبعين لرسوله، لا تتخذوا أقرباءكم من الآباء والأخوة وغيرهم أولياء، تحبونهم وتوادونهم، وتُفَشِّشون إليهم بأسرار المسلمين، وتُقرَّبونهم منكم، وتستشيرونهم في أموركم، إذا كانوا كفارًا معادين للإسلام، ومن يتخذهم أولياء ويترك أخوة العقيدة، فقد عصى الله ورسوله، وظلم نفسه بمخالفة أمر الله والمقام بينهم، فلا تتخذوهم أولياء إن استمروا على كفرهم، فإن هذا يتنافى مع الإيمان الحق، وفيه تجاوز لحدود الله ومعالم دينه.

من أسباب النزول

١ - قال مقاتل: نزلت هذه الآية في تسعة ارتدوا عن الإسلام ورجعوا إلى مكة، فنهى الله المؤمنين عن موالاتهم.

٢ - ولما أمر الله سبحانه بالتبرؤ من المشركين قالوا: كيف يمكن أن يقاطع الرجل أباه وأخاه وابنه؟ فأنزل الله الآية.

٣ - وقال أبو سليمان الدمشقي: لما أمر النبي ﷺ بنصرة خزاعة على قريش، قال أبو بكر ﷺ: يا رسول الله نعاونهم على قومنا؟ فنزلت الآية.

والوصف بالإيمان يمنع مودة الكفار ولو كانوا أقرب الناس، كما في قوله تعالى: ﴿لَا يَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ﴾ [المجادلة: ٢٢].

ثم ذكر سبحانه السبب الموجب لعدم اتخاذ الكفار أولياء، ولو كانوا أقرب الناس، فبيّن أن اتخاذهم أولياء يكون سببًا في تقديم طاعتهم على طاعة الله ورسوله، ومحبتهم على محبة الله ورسوله، ويجب على المؤمن أن يقدم محبة الله ورسوله على كل شيء:

الإِيمَانُ وَالْجِهَادُ يُقَدِّمَانِ فِي حَيَاةِ الْمُؤْمِنِ عَلَى مَتَاعِ الدُّنْيَا

٢٤- ﴿قُلْ إِنْ كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ^(١) وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُمْ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ ﴿٢٤﴾﴾

ثم حذر الإسلام من التآلف بين المؤمنين والكافرين؛ فيصدّه ذلك عن الغزو والإنفاق في سبيل الله، لذا وجب على المسلم أن يقدم محبة الجهاد في سبيل الله وطاعة الله ورسوله على هوى النفس وقرناء السوء، وعلامة ذلك -مثلاً- أنه إذا كان يغطّ في نوم عميق في ليالي الشتاء، مستدفئاً بفراشة، ثم سمع أذان الفجر، فإن قدّم شهوته على القيام للصلاة فهو غير محب لله والرسول، والعكس صحيح، وإذا عرض للإنسان أمر فيه هوى نفسه، فقدم ما يهواه على ما يحبه الله ورسوله، فهو تارك لما يجب عليه.

ولما نزلت هذه الآية قال بعض الصحابة: يا رسول الله، إن نحن اعتزلنا مَنْ خالفنا في الدين قطعنا آباءنا وعشيرتنا، وذهبت تجارتنا، وخربت ديارنا.

وكان قوم قد تخلّفوا عن الهجرة مع عيالهم بمكة، فلما قدّم علي بن أبي طالب مكة من المدينة قال لهم: ألا تهاجرون؟ فقالوا: نقيم مع إخواننا وعشائرننا ومساكننا فأنزل الله تعالى يبيّن أن المؤمن إذا فضّل أقرب الناس إليه، وأحب شيء لديه؛ كالمال، والتجارة، والقصور، أو المساكن الفاخرة، إذا فضّل ذلك على حب الله ورسوله والجهاد في سبيله فعليه أن يترقب عقاب الله له، والله تعالى لا يوفّق الخارجين عن طاعته.

وخصّ الجهاد بالذكر من بين ما يحبه الله ورسوله؛ تنويهاً بعلوّ شأنه، ولأن فيه المخاطرة بالنفس وإنفاق المال.

وهل هناك أقرب من الأب والابن؟ ومع ذلك لا تتخذة حميماً، ولا تتخذة وليّاً، ولا

(١) قرأ شعبة (عشيراتكم) بألف بعد الراء على الجمع؛ لأن لكل منهم عشيرة، وقرأ الباقر (عشيرتكم) بغير ألف على الأفراد، أي: عشيرة كل منكم.

تُناصره إن كان كافرًا، وتترك أخاك المؤمن، فالنصرة في الحروب، والموالاة في الله لا تكون للمشرك أبدًا، ولو كان أقرب الناس إليك.

قيل: إن هذه الآية نزلت في الذين تخلفوا بمكة ولم يهاجروا^(١).

وقد عدّدت الآية ثمانية أشياء، تُشكّل متاع الدنيا ونعيمها، بحيث لا يطغى شيء مما ذكر فيها على حب الله ورسوله والجهاد في سبيله، وإلا فالعاقبة وخيمة، والمصير مؤلم، ففيها تهديد ووعد.

وفي الحديث عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «والذي نفسي بيده لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من والده وولده والناس أجمعين»^(٢).

وفي صحيح البخاري وغيره عن عبد الله بن هشام قال: كنا مع النبي ﷺ وهو آخذ بيد عمر بن الخطاب، فقال له عمر: يا رسول الله لأنت أحب إليّ من كل شيء إلا من نفسي، فقال النبي ﷺ: «لا، والذي نفسي بيده، حتى أكون أحب إليك من نفسك» فقال له عمر: فإنه الآن، والله لأنت أحب إليّ من نفسي، فقال النبي ﷺ: «الآن يا عمر»^(٣).

وهذا عن الشق الأول من الآية، وهو محبة الله ورسوله.

أما عن الشق الآخر وهو محبة الجهاد في سبيل الله، فيكفي فيه هذا الحديث الذي رواه نافع عن ابن عمر رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إذا تبايعتم بالعينة، وأخذتم أذناب البقر، ورضيتم بالزرع، وتركتم الجهاد، سلط الله عليكم ذلًا، لا ينزعه حتى ترجعوا إلى دينكم»^(٤).

فمن كان أقرب الناس إليه، أحب له من الله ورسوله، ومن الجهاد في سبيله، فعليه أن ينتظر عقوبة تحلّ به إن عاجلاً أو آجلاً، والله تعالى لا يهدي الخارجين عن طاعته إلى

(١) «أسباب النزول» للواحدي (٢٠٦).

(٢) «صحيح البخاري» برقم (١٤) عن أبي هريرة و«صحيح مسلم» برقم (٤٤).

(٣) «صحيح البخاري» برقم (٣٦٩٤) و(٦٦٣٢) و«المسند» (١٨٠٤٧) والحاكم (٤٥٦/٣).

(٤) «سنن أبي داود» برقم (٣٤٦٢) و«المسند» برقم (٤٨٢٥) قال محققه: إسناده صحيح، وصححه الألباني

في صحيح الجامع برقم (١٦) و«السلسلة الصحيحة» برقم (١١) و«صحيح سنن أبي داود» برقم (٢٩٥٦).

طريق السعادة، وفي هذا وعيد لمن فضّل محبة أهله، أو ولده، أو ماله، أو وطنه على الهجرة والجهاد في سبيل الله.

وقد أخذ العلماء من هاتين الآيتين:

أولاً: تحريم موالاة الكافرين مهما بلغت قرابتهم، واعتبار هذه الموالاة من الكبائر، ووصف فاعلها بالظلم ﴿وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ فَاُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾.

ثانياً: يجب على المسلم أن يكون قويّ الإيمان، ممثلاً أوامر الله تعالى، ومجتنباً نواهيه، مقدّماً مراد الله تعالى على مراد النفس وهواها، ولا يتم إيمان العبد إلا إذا كانت محبة الله تعالى مقدمة على كل محبوب.

ثالثاً: إذا تعارضت مصلحة الدنيا مع مصالح الدين وجب ترجيح جانب الدين على الدنيا، ووجب التجرد من حظوظ الدنيا لأجل حظ الدين.

غَزْوَةُ حُنَيْنٍ وَنَتِيجَةُ الْاِغْتِرَارِ بِكَثْرَةِ الْعَدَدِ وَالْعُدَّةِ

٢٥- ﴿لَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنْكُمْ شَيْئًا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمْ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُمْ مُدْبِرِينَ﴾ (٢٥)

يمن الله على عباده المؤمنين بنصره لهم في مواطن كثيرة التقوا فيها مع عدوهم، حتى في يوم حنين، حين اشتدت بكم الأزمة -أيها المؤمنون-، وضافت عليكم الأرض على سعتها بسبب هزيمة العدو لكم، ولكن النبي ﷺ ثبت وتوجّه ببغلته نحو المشركين وهو يقول: «أنا النبي لا كذب أنا ابن عبدالمطلب، إلّٰي عباد الله» وأمر العباس أن ينادي في المسلمين: يا أصحاب السمرة، يا أهل سورة البقرة، فقواكم الله ورفع من معنوياتكم حتى هزمت المشركين وغنمتم أموالهم.

أخرج البيهقي في الدلائل عن الربيع بن أنس أن رجلاً قال يوم حُنين: لن نُغلب من قلة! وكانوا اثني عشر ألفاً، فشق ذلك على رسول الله ﷺ فأنزل الله الآية^(١).

وهذه أول آية في سورة براءة يبيّن الله تعالى فيها فضله على المؤمنين وإحسانه إليهم

(١) «أسباب النزول» للسيوطي (١٣٧) والبيهقي في «الدلائل» (١٢٣/٥).

بنصره لهم على عدوهم، وفوزهم بغنائم كثيرة، وتلقينهم درسًا في عدم الاغترار بقوتهم وعددهم، وفي الآية شواهد من نصر الله تعالى للمسلمين على عدوهم في مواطن كثيرة بعد أن أمرهم سبحانه بقتال المشركين ونبد عهودهم.

وفي غزوة حُنينِ عبرة بحصول النصر عند امتثال أمر الله سبحانه، وحصول الهزيمة عند إيثار حظوظ الدنيا من المال، والزوجات، والآباء، والأبناء، والعشيرة، وفي حصول الضدَّين من الهزيمة والنصر عبرة دقيقة لمن آثر الدنيا على الآخرة، حيث كان الإعجاب بالكثرة سببًا للهزيمة، وكان الإقبال على داعي الجهاد بعد ذلك سببًا للنصر، فقد بيَّن الله ﷺ أن المؤمن إذا غفل عن الله سبحانه ولو للحظة، وركن إلى قُوَّته، ولم يركن إلى الله ﷻ بكُلِّيته، ولم يعتمد عليه سبحانه بعد الأخذ بالأسباب؛ فإن في هذا تكُون الهزائم.

ولذلك يضرب الله سبحانه مثلاً من واقع المسلمين بما حدث لهم يوم حُنين، حيث كان فتح مكة في السنة الثامنة من الهجرة في شهر رمضان، ووقعت غزوة حُنين في الشهر الذي يليه، بسبب أن قبيلة هوازن وثقيف ومَنْ جاورَهُما من أهل الطائف والقبائل المجاورة لمكة عزَّ عليهم أن يدخل رسول الله ﷺ مكة فاتحًا، وأن يتجمع لديه هذا العدد الكبير من الجيش، فجمعوا جموعهم لحرب النبي ﷺ والقضاء على الإسلام، وكان هذا في شهر شوال، أي: بعد وقت يقل عن شهر من فتح مكة.

فلما علم النبي ﷺ بذلك خرج إليهم في عدد من الجيش، ليس له مثل في غزواته كلها، في عشرة آلاف من الذين فتحوا مكة من المهاجرين والأنصار، ومعهم ألفان من الطلقاء الذين أسلموا حديثًا في فتح مكة، ولم يمضِ على إسلامهم شهر واحد، فكان عدد المسلمين اثني عشر ألفًا، ولم يسبق لهذا العدد نظير في غزوة من الغزوات.

جاء في الأثر: أنه كان مع النبي ﷺ أربعة آلاف من الأنصار، وألف من جُهيته، وألف من مُزينة، وألف من أسلم، وألف من غفار، وألف من أشجع، وألف من المهاجرين وغيرهم، فكان معه عشرة آلاف، وخرج باثني عشر ألفًا^(١).

وكان عدد المشركين أربعة آلاف، أي: ثلث عدد المسلمين، والقوة في هذا الوقت

(١) أخرجه أبو الشيخ عن محمد بن عبد الله بن عُبيد الله بن عمير الليثي كما في «الدر المنثور» (٧/٣٠٠).

تُقاس بالعدد، فالحرب باليد والسيف.

١- في الصحيحين وغيرهما عن البراء بن عازب رضي الله عنه أن رجلاً قال له: يا أبا عمار، أفررتُم عن رسول الله ﷺ يوم حُنين؟ فقال: لكن رسول الله ﷺ لم يفر، إن هوازن كانوا قوماً رُماة، فلما لقيناهم وحملنا عليهم انهزموا، فأقبل الناس على الغنائم، فاستقبلونا بالسهام، فانهزم الناس، فلقد رأيت رسول الله ﷺ وأبو سفيان بن الحارث آخذًا بلجام بغلة رسول الله ﷺ البيضاء وهو يقول:

«أَنَا النَّبِيُّ لَا كَذِبَ أَنَا ابْنُ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ»^(١)

٢- وعن أنس بن مالك رضي الله عنه أن هوازن جاءت يوم حُنين بالنساء والصبيان، والإبل والغنم، فجعلوها صفوفًا، وكَثُرْنَ على رسول الله ﷺ، فلما التقوا ولَّى المسلمون مدبرين، كما قال الله ﻋَﻠَﻴْهِ، فقال رسول الله ﷺ: «يا عباد الله، أنا عبد الله ورسوله، فهزم الله المشركين ولم يضربوا بسيف ولم يطعنوا برمح...»^(٢).

٣- وفي صحيح مسلم وغيره أن العباس وأبا سفيان بن الحارث كانا ملازمين للنبي ﷺ يوم حُنين، وكان ﷺ على بغلته البيضاء التي أهداها له (فروة بن نفاثة الجذامي) فلما اقتتل المسلمون والكفار، ولَّى المسلمون مدبرين، فأخذ رسول الله ﷺ يوجِّه بغلته نحو الكفار، وأخذ العباس يكفِّها؛ حتى لا تسرع، فأمره النبي ﷺ أن ينادي أصحاب السَّمرَة -أي: أهل الشجرة، أصحاب بيعة الرضوان- قال العباس: فوالله لكأنَّ عطفَهم حين سمعوا صوتي عطْفَةُ البقرة على أولادها، فقالوا: لبيك لبيك، فاقتلوا مع الكفار، فنظر النبي ﷺ إلى قتالهم وهو يقول: «حمي الوطيس» ثم أخذ حصيات فرمى بهن وجوه الكفار، ثم قال: «انهزموا ورب محمد»^(٣).

(١) «صحيح البخاري» برقم (٢٨٦٤، ٢٩٣٠) و«صحيح مسلم» برقم (١٧٧٦) وابن أبي شيبة (٥٢١/١٤) وابن سعد (٥١/٤).

(٢) «المسند» (٣/١٩٠، ٣/٢٧٩) ورقمه (١٢٩٧٧) قال محققوه: إسناده صحيح وصححه الحاكم على شرط مسلم ووافقه الذهبي، «المستدرک» (٢/١٣٠) وأصله في «صحيح البخاري» برقم (٤٣٣٣) و (٤٣٣٧) و«صحيح مسلم» برقم (١٠٥٩) وهو في «دلائل البيهقي» (٥/١٥٠) وابن أبي شيبة (٥٢٢/١٤).

(٣) يُنظَرُ الحديث في: «صحيح مسلم» برقم (١٧٧٥) و«المسند» (٣/٢٩٦) وعبد الرزاق (٩٧٤١) وابن سعد (١٨/٤) والنسائي في «السنن الكبرى» (٨٦٤٧) وابن أبي حاتم (١٧٧٣/٦) والحاكم (٣/٣٢٧).

وكان المشركون قد نصبوا كمينًا في وادي حُثَيْنِ الذي يقع بين مكة والطائف قرب ذي المجاز، فما أن هبط إليه المسلمون حتى انقضَّ عليهم الأعداء يرشقونهم بالنبال من شعاب الوادي وأنحائه، وأصلتوا عليهم سيوفهم، وحملوا عليهم حملة رجل واحد كما أمرهم مَلِكُهُمْ، فولَّى المسلمون هاربين، وهُزِمُوا في بدء المعركة.

وكان رجل من الأنصار يقال له: سلمة بن سلاله، قال حين خرج المسلمون وهم في الطريق إلى حُثَيْنِ: لن نغلب اليوم من قلة، وهذا غرور بالكثرة وركون إلى القوة، فكان من نتائج ذلك، هذا الدرس القاسي؛ ليظهر للمسلمين عجزهم لولا فضل الله عليهم.

ثم إن النبي ﷺ لما رأى الهزيمة قد لحقت بالمسلمين، ثبت في مكانه وهو راكب على بغلته البيضاء يسوقها نحو الأعداء، ومعه العباس آخذًا بركابها الأيمن، وأبو سفيان بن الحارث بن عبد المطلب آخذ بركابها الأيسر، وأخذ ﷺ ينادي: «أنا النبي لا كذب، أنا ابن عبد المطلب، إلَيَّ عباد الله»^(١).

وثبت نحو: مئة مع رسول الله ﷺ وقيل: ثمانون، منهم: أبو بكر، وعليٌّ، والعباس، والفضل، وأسامة، وأخذ العباس ينادي بصوت جهوري: يا عباد الله، يا أصحاب الشجرة، يا أهل بيعة الرضوان، يا أصحاب سورة البقرة، هَلُمُّوا إلى رسول الله ﷺ وثبتت هذه القلَّة في مواجهة المشركين، وأنزل الله جلَّ شأنه ملائكته؛ لتقوية معنويات المؤمنين، ورفع أرواحهم.

وقيل: إن العباس ناول النبي ﷺ قبضة من تراب رمى بها في وجوه القوم وهو يقول: «اللهم أنجز لي ما وعدتني» فما بقي أحد منهم إلا أصابته في عينه، وهُزِمَ المشركون بعد انتصار، ونصر الله المسلمين، وتبعوهم يأسرون ويغنمون^(٢).

توزيع الغنائم: لقد حشد المشركون في هذه المعركة النساء والذرية، والأغنام والإبل، وكل متاعهم، فأخذ المسلمون يقتلون ويأسرون من الصبية والنساء أعدادًا كبيرة، وساقوا

(١) من حديث البراء بن عازب في البخاري (٢٩٣٠، ٤٩٣٠) ومسلم (١٧٨٦) والمسند (١٨٤٦٨) والنسائي في الكبرى (٨١٢٩).

(٢) ينظر: صحيح مسلم (١٧٧٥) عن العباس بن عبدالمطلب وانظر (١٧٧٧) عن إياس بن سلمة عن أبيه.

من الإبل اثني عشر ألفاً، وساقوا من الأغنام ما لا يحصى، وأخذ عليه الصلاة والسلام يوزع هذه الغنائم، ويعطي المؤلفه قلوبهم كل واحد منهم مئة من الإبل، وأعطى رئيس هوازن (مالك بن عوف) الذي خضع للإسلام، ودخل فيه حديثاً أعطاه كثيراً من الغنائم، وأعطى كبار القوم الذين دخلوا في الإسلام بعد غزوة حُنين، ولم يعط الأنصار من هذه الغزوة شيئاً، فلما شعر النبي ﷺ بما في نفوسهم خطب فيهم، وكان مما قال: «يا معشر الأنصار.. أترضون أن يذهب الناس بالشاة والبعير، وتذهبون بالنبي إلى رحالكم، لولا الهجرة لكنت امرأ من الأنصار، ولو سلك الناس وادياً أو شِعْباً لسلكْتُ وادي الأنصار وشِعْبِها، الأنصار شعار، والناس دثار»^(١).

وفي ذلك يقول الله سبحانه: ﴿لَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ﴾ قبل حُنين: في بدر، والأحزاب، وبني النضير، وبني قينقاع، عندما أخذتم بالأسباب، وتوكلتم على الله ﴿وَنَصَرَكُمُ يَوْمَ حُنَيْنٍ﴾ بعد الهزيمة التي منيتم بها ﴿إِذْ أَغْجَبْتَكُمْ كَثْرَتُكُمْ﴾ أي: كانت هزيمتكم بسبب اغتراركم بالكثرة ﴿فَلَمْ تُغْنِ عَنْكُمْ شَيْئاً﴾ فلم تدفع عنكم الكثرة شيئاً، وقُلتُم: لن نُغلب اليوم من قلة، فلم تنفعكم كثرتكم، وقد خُص يوم غزوة حُنين بالذكر، لما فيها من العبرة بحصول النصر عند امتثال أمر الله تعالى، وحصول الهزيمة حين اغتروا بالعدد والعدة ﴿وَضَافَتْ عَلَيْكُمُ الْأَرْضُ﴾ على سعتها ورحابتها ﴿يَمًا رَحْبَةً﴾ حيث ظهر عليكم العدو فلم تجدوا ملجأ في أرض الله الواسعة، ففررتهم منهزمين ﴿ثُمَّ وَلَّيْتُمْ مُدْبِرِينَ﴾ فارّين منهزمين.

أَرْبَعُ مِائَةِ امْتَنَ اللَّهُ بِهَا عَلَى أَهْلِ حُنَيْنٍ

٢٦- ﴿ثُمَّ أَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَنْزَلَ جُودًا لَمْ تَرَوْهَا وَعَذَّبَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَذَلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ﴾^(١٦)

وفي غزوة حُنين امتن الله على المؤمنين بأربع من:

المنة الأولى: نزول السكينة عليهم:

(١) من حديث متفق عليه عن عبد الله بن زيد بن عاصم، في البخاري برقم (٤٣٣٠، ٧٢٤٥) وفي مسلم برقم (١٠٦١).

حيث أنزل سبحانه الطمأنينة التي تثبت القلوب، وتهدي الانفعالات الثائرة، وقت القلائل والشدائد، وهذه منة من الله تعالى، ثبت بها رسوله والمؤمنين يوم حُنين؛ ليعاودوا قتال العدو بعد الهزيمة، وهذا هو المراد بالسكينة في الآية.

والمنة الثانية: نزول الملائكة عليهم:

والمراد إنزال جنود من الملائكة؛ لرفع معنويات المسلمين، وإرهاب العدو، ودخره ﴿وَأَنْزَلَ جُنُودًا لَمْ تَرَوْهَا﴾ وهم جماعة من الملائكة، موكلون بهزيمة المشركين، وتشجيع المؤمنين، وتبشيرهم بالنصر، ولم تروهم بأبصاركم، ولم تقاتل الملائكة إلا في يوم غزوة بدر.

ومن الآثار الواردة في ذلك ما رواه ابن جرير قال: حدثنا القاسم قال: حدثني الحسن بن عرفة، قال: حدثني المعتمر بن سليمان، عن عوف، هو ابن أبي جميلة الأعرابي، قال: سمعت عبد الرحمن مولى ابن بُرْثُن: حدثني رجل كان مع المشركين يوم حُنين، قال: لما التقينا نحن وأصحاب رسول الله ﷺ يوم حُنين لم يَقُومُوا لَنَا حَلَبَ شَاةٍ، قال: فلما كشفناهم جعلنا نسوقهم في آثارهم حتى انتهينا إلى صاحب البغلة البيضاء، فإذا هو رسول الله ﷺ قال: فتلقانا عنده رجال بيض، حسان الوجوه، فقالوا لنا: شأهت الوجوه، ارجعوا، قال: فانهزمنا، وركبوا أكتافنا، فكانت إياها^(١).

وهذه آخر غزوة للمسلمين إلى هذا التاريخ، بينها وبين أول غزوة، وهي غزوة بدر سبع سنين.

والمنة الثالثة: تعذيب الكفار وإذلالهم:

﴿وَعَذَّبَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ بأن سلطكم عليهم؛ لتقتلوهم، وتأسروهم، وتأخذوا غنائمهم ﴿وَذَلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ﴾ تلك عقوبة الله للصّادّين عن دينه، المكذّبين لرسوله.

المنة الرابعة: دخول هوازن في الإسلام:

٢٧- ﴿ثُمَّ يَتُوبُ اللَّهُ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ عَلَى مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾

(١) الطبري (١٨٦/١٤) وقد أخرجه مُسَدَّد في «مسنده» كما في «المطالب العالمة» (٤٧٩٩) والبيهقي في «الدلائل» (١٤٣/٥) وابن عسّكر (١٧٣/٣٤).

وبعد نحو عشرين يوماً من موقعة حُتَيْنِ، تاب الله على هوازن، فرجعوا عن كفرهم ولحقوا بالنبي ﷺ عند الجعرانة، قُرب مكة، وأسلموا، فمنَّ عليهم النبي ﷺ، وأطلق سبيلهم، البالغ ستة آلاف أسير، ما بين صبي وامرأة، ورد عليهم نساءهم وأولادهم، فباب الله مفتوح دائماً لمن يخطئ ثم يتوب، حتى من يتوب من كفره وشركه، وهو مفتوح لكل من يتوب، ولذا جاءت الآية بالفعل المضارع الذي يفيد الاستمرار ﴿قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ يَنْتَهُوا يُغْفَرْ لَهُمْ مَا قَدْ سَلَفَ﴾ [الأنفال: ٣٨] وحض الله المشركين على التوبة في قوله: ﴿أَفَلَا يَتُوبُونَ إِلَى اللَّهِ وَيَسْتَغْفِرُونَ﴾ [المائدة: ٧٤].

مَنْعُ غَيْرِ الْمُسْلِمِينَ مِنْ دُخُولِ الْحَرَمِ

٢٨- ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلَا يَقْرَبُوا الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَذَا وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً فَسَوْفَ يُغْنِيكُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ إِنْ شَاءَ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾
يا أهل الإيمان، لا تجعلوا المشركين يدخلون المسجد الحرام بعد هذا العام - التاسع من الهجرة - فهم نجس في عقائدهم، وإن خفتهم من الفقر بسبب انقطاع التجارة والتعامل بينكم، فسيكفيكم الله حاجتكم، ويفتح لكم أبواب الخير، فإن فضله كبير، وعلمه واسع، وحكمته بالغة، يضع الأمور في نصابها.

وهكذا: تأتي الآية التي كانت شرطاً من الشروط الأربعة التي لحق بها عليّ أبا بكر في حجته عام تسع من الهجرة ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ﴾ نجاسة معنوية، وليست نجاسة حسية، فهم رجس وأخباث، وأبدان المشركين طاهرة، وقد كان المسلمون يعاشرون المشركين ويخالطونهم، ولم يأمرهم النبي ﷺ بغسل شيء من أبدانهم، بل توضأ ﷺ من آنية مشركة، وأكل من طعام اليهود، وأطعم وفداً من الكفار، ولم يأمر بغسل الأواني التي أكلوا وشربوا فيها، وكانوا يصيبون أواني المشركين في الغزوات، ويستمتعون بها فلا يعيب عليهم^(١).

وقد أباح الله لنا نكاح الكتائب، ولم يأمرنا بالاغتسال منهن.

وصفة النجاسة ملازمة لهم بسبب شركهم بالله تعالى، فهم نجس في عقيدتهم

(١) جاء ذلك في حديث أخرجه أحمد وأبو داود عن ابن مسعود.

وطهارتهم، لا في ذواتهم وأبدانهم، وقد يكون المشرك جسده نظيفاً وطيباً لا يُستقذر.

وقد أوجب الإسلام على المشرك الغُسل إذا أسلم لكفره وجنابته، وحرّم عليهم دخول الحَرَم ﴿فَلَا يَقْرُبُوا الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ﴾ هذا نهى للمسلمين أن لا يقرب المشركون المسجد الحرام، وهذا النهي يشمل عبدة الأصنام، واليهود والنصارى؛ لكفرهم بمحمد ﷺ، وقد سماهم القرآن كفاراً، وسماهم مشركين في كثير من الآيات.

وكتب عمر بن عبد العزيز إلى عماله يقول له: امنعوا اليهود، والنصارى من دخول مساجد المسلمين، وأتبع نهيه قول الله تعالى: ﴿إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ﴾.

وَبِلَادُ الْإِسْلَامِ بِالنَّسْبَةِ لِلْكَفَّارِ عَلَى ثَلَاثَةِ أَقْسَامٍ

أولاً: حدود الحَرَم المكي: فلا يجوز لكافر أن يدخل حدود الحرم المكي بحال، ذمياً كان أو مستأمنًا، فلو جاء سفير من الكفار والحاكم المسلم داخل حدود الحرم، فلا يؤذن له بالدخول عليه، بل على الحاكم أن يخرج إليه، ولا يجوز لأحد أفراد المسلمين حين يقدّم إلى مكة حاجاً أو معتمراً أن يصحب معه سائقاً أو خادماً غير مسلم، كما لا يجوز لمن هم داخل حدود الحرم أن يستقدموا عمالاً أو مستشارين أو خدماً غير مسلمين.

وحمل أبو حنيفة الآية على منعهم من الحج والعمرة، ولا يمتنعون عنده من دخول المسجد الحرام، ولا من دخول سائر المساجد.

ثانياً: جزيرة العرب: يجوز للكافر دخولها والمرور العابر بها، ولا يسمح له بالإقامة فيها أكثر من ثلاثة أيام، مدة السفر، لما رواه مسلم عن ابن عمر ؓ أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: «لأُخرجنَّ اليهود والنصارى من جزيرة العرب، حتى لا أدع إلا مسلماً»^(١).

وفي رواية لغير مسلم عن ابن عباس ؓ أن النبي ﷺ أوصى بذلك فقال: «أخرجوا المشركين من جزيرة العرب»^(٢).

فلم يتفرغ لذلك أبو بكر، وأجلاهم عمر، وأعطى لكل تاجر يقدّم عليها ثلاثة أيام.

(١) «صحيح مسلم» برقم (١٧٦٧).

(٢) من حديث ابن عباس في البخاري (١١٤، ٤٤٣١) ومسلم (١٦٣٧) وعند ابن أبي شيبة (٣٤٤/١٢).

وأخرج مالك في الموطأ بسند مرسل: «لا يجتمع دينان في جزيرة العرب»^(١).

ثالثاً: سائر بلاد الإسلام: فيجوز للكافر أن يقيم فيها بعهد وأمان وذمة، ولكن لا يدخل أي مسجد فيها بسبب صيانة، أو عمارة، ونحو ذلك إلا إذا لم يوجد المسلم، ويدخله بإذن مسلم. ويراد بالمسجد الحرام: كله على الأرجح، وهذا حكم مستمر إلى يوم الساعة وذلك ﴿بَعْدَ عَامِهِمْ هَذَا﴾ أي: بعد نهاية العام التاسع الذي كان فيه أبو بكر أميراً على الحج إلى نهاية ذي الحجة، ولما منع الله المشركين من دخول مكة، وكان ذلك لتسع سنين مضت من الهجرة، وحج النبي ﷺ من العام المقبل حجة الوداع، ولم يحج قبلها ولا بعدها، وقد حزن بعض المسلمين لانقطاع المشركين عن ورود مكة في القوافل التجارية التي تأتي وتذهب في رحلة الشتاء والصيف، وقالوا: من أين يعيش المسلمون إذا انقطعت صلة المشركين بمكة؟! وإذا انقطعت الصلة التجارية تأثر الاقتصاد.

١- أخرج ابن أبي حاتم وغيره عن ابن عباس ؓ قال: كان المشركون يجيئون إلى البيت، ويجيئون معهم بالطعام يتجرون فيه، فلما نهوا عن أن يأتوا البيت، قال المسلمون: من أين لنا بالطعام؟ فأنزل الله الآية، وكثر خيرهم لما ذهب المشركون عنهم^(٢).

٢- وأخرج ابن جرير وأبو الشيخ عن سعيد بن جبير قال: لما نزلت ﴿إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ﴾ شق ذلك على المسلمين، وقالوا: من يأتينا بالطعام والمتاع؟ فأنزل الله ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً﴾^(٣).

٣- وأخرج الطبري بسند حسن عن علي بن أبي طلحة عن ابن عباس ؓ قال: لما نفى الله المشركين عن المسجد الحرام، ألقى الشيطان في قلوب المؤمنين الحزن، قال: من أين تأكلون، وقد نفى المشركون وانقطعت عنهم العير؟! فأنزل الله ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً﴾ فأمرهم بقتال أهل الكتاب، وأغناهم من فضله^(٤).

(١) «الموطأ» من رواية أبي صهيب عن ابن شهاب برقم (١٨٦٢) وجاء نحوه عن عمر بن عبد العزيز في «مصنف عبد الرزاق» (٩٩٨٧).

(٢) ابن أبي حاتم (١٧٧٧/٦) وسعيد بن منصور في «التفسير» (١٠١١) عن عكرمة.

(٣) «زاد المسير» (٤١٧/٣) و«تفسير القرطبي» (١٠٦/٨) والطبري (٤٠١/١١).

(٤) وأخرجه أيضاً ابن مردويه كما في «الدر» (٣٠٧/٧).

وهذا كما يقول بعض الناس: إن الخمر، والسياحة، والملاهي من مصادر الدخل، ويوظفها في التسليح العسكري، والنفقة على الجنود لحرب الأعداء، وهو لا يدري أنه دَخَلَ مَحَرَّم، يأتي على الأخضر واليابس!!

يقول سبحانه: ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً﴾ أي: إن خفتم الفقر لانقطاع تجارتهم عنكم، فسوف يعوضكم الله ويكفيكم من فضله، فتبدل أسباب بأسباب، وتغلق أبواب وتفتح أبواب، وهو المتكفل بالأرزاق، ولن تموت نفس حتى تستوفي رزقها وأجلها، وهذا معنى: ﴿فَسَوْفَ يُعْطِيكُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ إِنْ شَاءَ﴾.

وقد علق الله الإغناء على المشيئة، لأن الثراء ليس من لوازم الإيمان، ولا يدل على محبة الله، لأن الله يعطي الدنيا لمن يحب ومن لا يحب، ولا يعطي الدين إلا لمن أحب. فهلاً وجدتم تحقيقاً لوعده الله سبحانه؟ لقد أغنى الله أهل مكة وما حولها، ففجّر لها الأرض بالبترول والمناجم والمعادن تحقيقاً لوعده سبحانه، وأغنى الجزيرة كلها إكراماً لها، دون كد أو تعب ﴿إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ﴾ بحالكم، وما يصلحكم ﴿حَكِيمٌ﴾ في تدبير شئونكم.

ولمّا منع الله المشركين من دخول الحرم لم يترككم في فقر وذل، بل أغناكم بوسائل أخرى، عَلِمَهَا وأحكم تدبيرها، وأرشدكم إلى الأخذ بالأسباب.

وفي الحديث عن عمر بن الخطاب ؓ أن رسول الله ﷺ قال: «لو توكلتم على الله حق توكله لرزقكم كما يرزق الطير، تغدو خماصاً وتعود بطاناً»^(١).

أي: تذهب صباحاً وهي جائعة، ثم تعود مساء وهي ممتلئة البطون.

وفي الحديث بيان أن هذه الطيور تأخذ بالأسباب في تحصيل قوتها فهي تذهب وتعود بحثاً عن رزقها.

(١) «المسند» (٢٠٥، ٣٠٧، ٣٧٣) بإسناد قوي ورجاله ثقات رجال الشيخين، غير عبدالله بن هبيرة فمن رجال مسلم، وابن ماجه (٤١٦٤) والترمذي (٢٣٤٤) وابن حبان (٧٣٠) و«سنن النسائي الكبرى» (١١٨٠٥) وأبو يعلى (٢٤٧) وعبد بن حميد (١٠) وقال الحاكم: (٣١٨/٤) هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه، وسكت عنه الذهبي في تلخيص المستدرک.

مُجْمَلُ مَا فِي الْآيَاتِ السَّابِقَةِ مِنْ أَحْكَامٍ

هذا: وقد تعرضت السورة في الآيات الثماني والعشرين من أولها إلى هنا لما يأتي:

- (أ) براءة الله ورسوله من عهود المشركين الذين مردوا على نقض المواثيق.
 (ب) إعطاؤهم مهلة أربعة أشهر يدبرون فيها أمرهم، ولا يتعرض لهم المسلمون بسوء.
 (ت) وجوب إعلان البراءة من المشركين في وسائل الإعلام المختلفة ما لم يترتب عليها ضرر محقق.

(ث) أمر المؤمنين بإتمام مدة العهد لمن حافظ عليه من المشركين.

(ج) بعد انقضاء الأشهر الأربعة، يجب على المسلمين التضييق على المشركين في كل مكان حتى يتوبوا من كفرهم، ويدخلوا في حظيرة الإسلام.

(ح) إذا نزل غير المسلم في جوار المسلم وحماه، فعليه أن يجيره ويعرض عليه الإسلام ويوصله آمناً إلى بلاده.

(خ) بيان الأسباب التي تدعو إلى قتال المشركين والبراءة منهم، ولماذا شرع الجهاد؟

(د) المشركون ليسوا أهلاً لعمارة المساجد بالبناء، والصناعة، والنظافة، والعبادة، ونحوها.

(ذ) وجوب تقديم محبة الله ورسوله على النفس، والأهل، والعشيرة، والمال، والولد.

(ر) ذكرت السورة بنعم الله على المسلمين بنصرهم وهزيمتهم في حُتَيْنِ.

(ز) النهي من تمكين المشركين دخول منطقة الحرم^(١).

ثم تأتي سبع آيات تتعلق بأهل الكتاب من اليهود والنصارى.

مَتَى يُقَاتِلُ أَهْلُ الْكِتَابِ؟

٢٩- ﴿قَاتِلُوا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَلَا

يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حَتَّى يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَنْ يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ ﴿٢٩﴾

(١) يُنْظَرُ فِي هَذِهِ الْفَقَرَاتِ الثَّمَانِي: «التفسير الوسيط» للشيخ محمد سيد طنطاوي (٢٤٨/٦).

وبعد الحديث عن المشركين الوثنيين، يأتي الحديث عن أهل الكتاب، وذلك أن الله سبحانه أمر رسوله ﷺ أن يقاتل المشركين حتى يُسلموا، ولا يقبل منهم غير ذلك، وقد تحقق هذا لرسول الله ﷺ فخلت الجزيرة العربية -، من الشرك، والوثنية.

وبما أن وسائل تبليغ الدعوة إلى العالم، قد اتسع، عن طريق: الإعلام، والطباعة، والاتصال، والتنقل، وشبكة المعلومات، والفضائيات، وغير ذلك من وسائل يمكن من خلالها تبليغ الدعوة؛ للقضاء على الشرك والوثنية في العالم، فإن القيام بذلك أمر واجب على الدعاة والعلماء والحكام في بلاد العالم.

ثم تناولت سورة التوبة بعد ذلك ما يتعلق باليهود والنصارى من أهل الكتاب الذين كفروا بمحمد ﷺ، ولم يبق لهم إيمان صحيح؛ إذ لو كان لهم إيمان صحيح لقادهم إلى الإيمان بمحمد ﷺ، فكيف يتعامل معهم المسلمون دعاة وحكامًا على ضوء التعليمات التي جاءت قبل وفاة النبي عليه الصلاة والسلام بخمسة عشر شهرًا في هذه السورة؟

لقد أمر النبي ﷺ أن يقاتل اليهود والنصارى في الجزيرة العربية، حتى يدفعوا الجزية، إذا لم يقبلوا الدخول في الإسلام، فإن امتنعوا من دفع الجزية، ووقفوا في وجه الدعوة؛ يمنعون وصولها إلى الناس، أو قاتلوا وحاربوا، قُتلوا وحوربوا.

وإذا لم يقفوا في وجه الدعوة الإسلامية ولم يحولوا دون وصولها إلى الناس، ولم يقاتلوا المسلمين، ولم يقبلوا أن يدخلوا في الإسلام، فالإسلام لا يجبرهم على الدخول فيه.

فإذا أقاموا على كفرهم، مسالمين غير محاربين، وغير متعرضين للدعوة أن تسود وتنتشر، فإن الإسلام يفرض عليهم الجزية، وقد جعل الله هذه الجزية عوضًا عن التجارة التي افتقدها المسلمون بسبب منع غير المسلمين من دخول الحرم، ولم تكن تؤخذ منهم قبل ذلك، وتؤخذ منهم مقاتل تمثعهم بالأمن والمرافق العامة في بلاد المسلمين، والمسلمون يدفعون الزكاة، وكان أول من أعطى الجزية أهل نجران، وتسقط هذه الجزية عمن اشترك في حفظ أمن البلاد، ودفع ما عليه من حقوق المواطنة كالمسلمين.

ما يجب على النصارى في بلاد المسلمين:

جاء في رواية عبد الرحمن بن غنم الأشعري قال: كتبتُ لعمر بن الخطاب رضي الله عنه حين صالح نصارى من أهل الشام، فكان مما التزموا به للمسلمين أن قالوا:

١- لا نُحدِث في مدينتنا، ولا فيما حولنا ديرًا، ولا كنيسة، ولا صومعة، ولا نُجدد ما خرب منها.

٢- ولا نمنع أحدًا من ذوي قرابتنا الدخول في الإسلام إن أرادوه.

٣- وأن نوفر المسلمين ونقوم لهم من مجالسنا.

٤- ولا نتشبه بهم في شيء من ملابسهم.

٥- ولا نبيع الخمر.

٦- وأن نجزّ مقادير رؤوسنا: نحلق نواصينا.

٧- وألا نظهر الصليب على كنائسنا، ولا في شيء من طرق المسلمين ولا أسواقهم.

٨- ولا نضرب نواقيسنا في كنائسنا إلا ضربًا خفيفًا.

٩- ولا نرفع أصواتنا بالقراءة في كنائسنا.

١٠- ولا نرفع أصواتنا مع موتانا.

١١- ولا نظهر النيران في شيء من طرق المسلمين ولا أسواقهم.

ولا نجاورهم بموتانا.

١٢- وألا نخرج شعانين ولا باعوثًا.

١٣- ولا نطلع عليهم في منازلهم: لا نظهر أدياننا، ولا نرفع بيوتنا عليهم. زاد عليها عمر:

١٤- ولا نضرب أحدًا من المسلمين.

شرطنا لكم ذلك على أنفسنا وأهل ملتنا، وقبيلنا عليه الأمان، فإن نحن خالفنا في شيء مما شرطناه لكم فلا ذمة لنا، وقد حل لكم منا ما يحل من أهل المعاندة والشقاق^(١).

وقد شرع الإسلام طريقة للتعامل مع أهل الكتاب في ديار المسلمين، من ذلك ما جاء

(١) «المحلى» لابن حزم (٣٤٦/٧).

في صحيح مسلم عن أبي هريرة أن النبي ﷺ قال: «لا تبدؤوا اليهود والنصارى بالسلام، وإذا لقيتم أحدهم في طريق فاضطروه إلى أضيقه»^(١).

الجزية: وأول جزية أصابها الإسلام كانت من يهود بني قريظة، وبني النضير، وهو أول ذل أصابهم بأيدي المسلمين.

وتؤخذ الجزية من أهل الكتاب (اليهود والنصارى) ولا تؤخذ من عبدة الأوثان، وتؤخذ على الأديان، لا على الأنساب، فأهل الكتاب يخيرون بين الإسلام، أو القتال، أو الجزية، أما الوثنيون فيخيرون بين الإسلام، أو القتال.

وفي صحيح البخاري أن عمر بن الخطاب لم يأخذ الجزية من المجوس حتى شهد عبد الرحمن بن عوف أن رسول الله ﷺ أخذها من مجوس هجر^(٢).

وفي الحديث عنه عن عبد الرحمن بن عوف: سُنُّوا بهم سُنَّةَ أهل الكتاب^(٣).

وهذه الجزية لم يبتكرها الإسلام، وإنما كانت موجودة قبل الإسلام، كان يُعمل بها في الدولة الرومانية والدولة الفارسية وغيرهما، ضريبة تؤخذ على الرؤوس، لا على الأموال.

قال الشيخ محمد عبده: الإسلام كان يكتفي من الفتح بإدخال الأرض المفتوحة تحت سلطانه، ثم يترك الناس وما كانوا عليه من دين، ثم يكلّفهم بجزية يدفعونها؛ لتكون عوناً على صيانتهم، والمحافظة على أمنهم في ديارهم، وهم -في عقائدهم ومعابدهم وعاداتهم بعد ذلك- أحرار، لا يُضايقون في عمل، ولا يضامون في معاملة. وخلفاء الإسلام كانوا يُوصون قوادهم باحترام العباد الذين انقطعوا عن العامة في الصوامع والأديرة للعبادة، كما كانوا يوصون باحترام دماء النساء والأطفال، وكل من لم يُعِنْ على القتال.

وقد جاءت السُّنة بالنهي عن إيذاء أهل الذمة، وبتقرير ما لهم من الحقوق على المسلمين،

(١) مسلم (١٧٠٧/٤) برقم (٢١٦٧).

(٢) يُنظَر: «صحيح البخاري» برقم (٣١٥٦).

(٣) مالك (٢٧٨/١) والشافعي (٢٦٠/٢) «شفاء العي» وأبو عبيد في الأموال (٨٨) وابن أبي شيبة (١٢/٣٤٣) وفيه محمد بن علي أبو جعفر لم يدرك عمر، يُنظَر: «الإرواء» (٨٩/٨٨) وقال ابن كثير (٣٧/٣): لم يثبت بهذا اللفظ.

كما في حديث سلمان رضي الله عنه: «لهم ما لنا وعليهم ما علينا»^(١).

وحديث: «من آذى ذميًّا فليس منّا».

وفي الحديث: «من ظلم من أمتي معاهدًا، أو كلّفه فوق طاقته، فأنا حجيجُه»^(٢).

وبما أن المسلم يدفع الزكاة تعبداً لله سبحانه، وتطهيراً لأمواله، وغناء للفقير، فإن غير المسلم يتمتع في بلاد المسلمين بالأمن والأمان، ويتمتع بالحماية والدفاع عنه من قبل المسلمين، ولذلك فإنه يجب عليه أن يدفع مبلغاً من المال، مقابل الدفاع عنه، ومقابل حمايته ونصرتِه، ومقابل أنه يتمتع بالمرافق العامة في الدولة التي يتمتع بها المسلمون.

ولذلك فإن الجزية لا تؤخذ إلا من الشاب الذي يستطيع القتال، ولا تؤخذ من المرأة ولا من الصّبيّة، ولا من المرضى، ولا من العجزة، إنما تؤخذ من القادرين على القتال، وليس لها علاقة بأهل الكتاب من النصارى واليهود المستأمنين، وأصحاب العقود، والمعاهدين، ممن قدموا إلى بلاد المسلمين للعمل، أو لأداء مهمة، وإنما ينطبق على اليهود والنصارى في الأرض التي فتحها الإسلام فتحاً إسلامياً، مع بقائهم على يهوديتهم، أو على نصرانيتهم دون أن يحاربوا المسلمين، أو يتعرضوا لدعوتهم، فإن عليهم أن يدفعوا الجزية في هذه الحالة.

فإذا انخرط الشباب غير المسلم مع المسلمين في الجيش، واشتركوا في الدفاع عن الوطن، واشتركوا في حماية البلاد، وتحقيق الأمن والأمان لجميع المواطنين، فإن الجزية لا تؤخذ منهم في هذه الحالة، كما حدث ذلك في عهد الخليفة الراشد عمر رضوان الله تعالى عليه.

وتؤخذ هذه الجزية من الشباب الكتابي في بلاد الإسلام إذا كانوا لا يشاركون في الدفاع عن أمن البلاد وحماية الوطن للإشعار بأنهم مقيمون في غير أرضهم، وخاضعون

(١) من حديث سلمان في «المسند» (٢٣٧٢٦، ٢٣٧٣٤) وهو ضعيف الإسناد؛ لأن أبا البختري - سعيد بن

فيروز - لم يدرك سلمان، كما أخرجه سعيد بن منصور في سننه (٢٤٧٠) والترمذي (١٥٤٨)، وقال: حديث

سلمان حديث حسن لا نعرفه إلا من حديث عطاء بن السائب، وأخرجه ابن أبي شيبه (٢٣٧/١٢).

(٢) من كتاب «الإسلام والنصرانية» للشيخ محمد عبده.

لأحكام الإسلام في بلاد المسلمين، وأنهم غير محاربين لهم، وهي إشعار لهم بالذلة والصغار في بلاد المسلمين.

أوصاف من تجب عليهم الجزية أربعة: وقد وصف الله سبحانه اليهود والنصارى الذين أوجب الإسلام قتالهم حتى يدفعوا الجزية، بأوصاف أربعة في هذه الآية:

الوصف الأول: نفى الإيمان الكامل عنهم:

إنهم لا يؤمنون بالله إيمانًا صحيحًا كاملاً وإن زعموا أنهم مؤمنون؛ إذ لو كانوا مؤمنين لآمنوا بمحمد ﷺ خاتم الرسل، ومع كفرهم به ﷺ فالنصارى يعتقدون بالحلول، ويقولون: إن عيسى ابن الله، ويسجدون لصورة مريم، والحواريين، ويحيى بن زكريا، والسجود لا يكون إلا لله تعالى وهم أيضًا يشترون منازل الجنة من الرهبان.

واليهود يعتقدون بالتشبيه والتجسيد، وقد أثبتوا لله الجارحة، وقالوا: ﴿يَدُ اللَّهِ مَغْلُولَةٌ﴾ ونسبوا له الولد، فقالوا: ﴿عُزَيْرُ ابْنُ اللَّهِ﴾ فهم لا يوحدون الله، ويقولون: إن النار تمسهم أياما معدودة، ولذلك فهم غير مؤمنين، وهذا معنى ﴿فَتَنِلُوا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ﴾.

ومن كذب رسولاً من رسل الله فهو غير مؤمن، وقد كذب النصارى محمداً ﷺ، واليهود كذبوا كثيراً من الأنبياء، ومنهم عيسى ومحمد صلوات الله على الجميع.

الوصف الثاني: إنكار البعث والثواب والعقاب بالأبدان:

إنهم لا يؤمنون باليوم الآخر؛ لأنهم يقولون: إن النعيم والعذاب الأخروي غير حسي، وأنه نعيم أو عذاب للأرواح، وليس للأبدان، وأن البعث للأرواح دون الأجساد، وأن المؤمنين في نعيم الجنة لا يأكلون، ولا يشربون، ولا ينكحون، فهذا قول غير المؤمن باليوم الآخر وما فيه من نعيم وعذاب حسي.

قال تعالى عنهم: ﴿إِنَّ هِيَ إِلَّا مَوْتَتُنَا الْأُولَىٰ وَمَا نَحْنُ بِمُنْشَرِينَ﴾ [الدخان: ٣٥] وهذا معنى ﴿وَلَا يَأْتِيهِمُ الْآخِرُ﴾ أي لا يؤمنون بالله ولا يؤمنون باليوم الآخر.

الوصف الثالث: اتباع الأحزاب والرهبان في التحليل والتحريم:

إنهم لا يحرمون ما حرم الله ورسوله في القرآن والسنة، إنما يحرمون ما شرعه لهم

الأحبار والرهبان والقساوسة، ويتبعونهم في الحلال والحرام، فلا يحرمون ما حرمه شرعهم، ومن ذلك استحلالهم للخمر، والخنزير، وأكل أموال الناس بالباطل، وهو محرم أصلاً في ديانتهم، وهذا معنى ﴿وَلَا يُحْرَمُونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ﴾.

الوصف الرابع: أن شريعتهم منسوخة:

إنهم لا يدينون دين الحق؛ لأن دين الحق هو الإسلام ﴿وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ﴾ [آل عمران: ٨٥] وهو الدين الذي نسخ الله به الرسائل السابقة، وهم لا يعتقدون صحة الإسلام، ولا يزالون متمسكين بدين، قد انتهى وقته وحُرف وبُذل، ولو أنهم دانوا دين الحق لاتبعوا الإسلام؛ لأن كتابهم يأمرهم باتباعه، وهو النبي الذي أخذ الله الميثاق على النبيين جميعاً أن يؤمنوا به ﴿وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَآءَاتِبْتُكُمْ مِنْ كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنْصُرُنَّهُ﴾ [آل عمران: ٨١] ولكنهم دانوا بما حرفوه وغيروه.

وإلى هذا المعنى تشير الآية: ﴿وَلَا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ﴾

فقاتلوا - أيها المسلمون - الكفار الذين لا يؤمنون بالله، ولا يؤمنون بالبعث والجزاء، ولا يجتنبون ما نهى الله ورسوله عنه، ولا يلتزمون أحكام شريعة الإسلام، من اليهود والنصارى حتى يدفعوا الجزية التي تفرضونها عليهم، فيعطونها بأيديهم وهم خاضعون أذلاء، ولا يرسلونها مع رسول؛ لأن في ذلك إذلاًّ لهم، ويدفعونها فوراً ولا يؤخرونها عن وقتها.

قال مجاهد: وعند نزول هذه الآية أخذ رسول الله ﷺ في غزو الروم، ومشى نحو تبوك.

وذلك بعد أن تم فتح مكة والطائف، وقدمت الناس عام الوفود يعلنون إسلامهم من هنا وهناك، وامتد الإسلام إلى تخوم بلاد الشام، وعندئذ فإن دولة الروم أخذت تستعد لحرب المسلمين بواسطة ملوك غسان.

ففي صحيح البخاري عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال: كان لي صاحب من الأنصار إذا غبت أتانني بالخبر، وإذا غاب كنت أنا آتية بالخبر، ونحن نتخوف ملكاً من ملوك غسان، ذكر لنا أنه يريد أن يسير إلينا، وأنهم يُنعلون الخيل لغزونا، فإذا صاحبي الأنصاري يدق الباب، فقال: افتح، افتح، فقلت: أجا الغساني؟ قال: بل أشد من ذلك، اعتزل رسول

الله ﷺ نساءه... إلى آخر الحديث^(١).

فلا جرم بعد أن آمن المسلمون بأس المشركين، وأصبحوا في مأمن منهم أن يأخذوا الأهبة؛ ليؤمنوا بأس أهل الكتاب، وقد كفى الله المسلمين بأسهم وأورثهم أرضهم، فلم يقع معهم قتال، ثم ثنى الرسول ﷺ بغزوة تبوك على مشارف الشام^(٢).

مُوجِبَاتُ الشَّرْكِ عِنْدَ أَهْلِ الْكِتَابِ

٣٠- ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ عُزَيْرٌ^(٣) ابْنُ اللَّهِ وَقَالَتِ النَّصَارَى الْمَسِيحُ ابْنُ اللَّهِ ذَلِكَ قَوْلُهُمْ بِأَفْوَاهِهِمْ يُضَاهِئُونَ^(٤) قَوْلَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَبْلُ فَتَلَاهُمُ اللَّهُ أَنْ يَوْمَ كُونَ^(٥)﴾

الموجب الأول: قولهم: عزيز ابن الله والمسيح ابن الله:

بعد هذه الأوصاف قرر القرآن الكريم موجبات الكفر المستدعية لقتالهم في الدنيا، ولعذابهم في الآخرة، قال تعالى: ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ عُزَيْرٌ ابْنُ اللَّهِ﴾ لقد أشرك اليهود بالله عندما قالوا: إن عزيزاً ابن الله، وهو قول اختلقوه من عند أنفسهم، فهو كفر وشرك بالله تعالى، والذي قال هذه المقالة من اليهود أربعة أشخاص من أحبارهم وهم: سلام بن مشكم، ونعمان بن أوفى، وشاس بن قيس، ومالك بن الصيف، ورؤي أنه لم يقلها إلا فنحاص، وقال النقاش: لم يبق يهودي يقولها، بل انقرضوا^(٦).

وسبب قول بعض اليهود: عزيز ابن الله، أن الله تعالى لما سلط ملوك بابل على اليهود فقتلهم ومزقوهم كل ممزق، وقتلوا حملة التوراة، وجدوا عزيزاً بعد ذلك حافظاً لها أو

(١) ينظر البخاري (٤٩١٣) من حديث طويل ومسلم (١٤٧٩) من حديث طويل أيضاً و«المسند» (٢٢٢) بنحوه وغيرهم.

(٢) يُنظَر: «تفسير التحرير والتنوير» (١١/١٦٢).

(٣) قرأ عاصم والكسائي ويعقوب بتونين (عزيز) وكسره، على الأصل في التخلص من التقاء الساكنين، ولا يجوز ضمه للكسائي على مذهبه؛ لأن ضمة (ابن) إعراب، فهي غير لازمة، وهو متصرف لكونه ثلاثياً ساكن الوسط، وقرأ الباقر بضم الراء وحذف التنوين لالتقاء الساكنين تشبيهاً للنون بحرف المد.

(٤) قرأ عاصم (يضاهئون) بكسر الهاء وهمزة مضمومة بعدها، وقرأ الباقر (يضاهون) بحذف الهمزة وضم الهاء، وهما لغتان.

(٥) أبدل ورش وأبو جعفر وأبو عمرو بخلف عنه، همزة (يؤفكون) وأوًا، ومعهم حمزة عند الوقف.

(٦) القول الأول منسوب إلى ابن عباس، انظر: «تفسير ابن عطية» (٣/٢٣).

لأكثرها، فأملأها عليهم، فقالوا عنه: إنه ابن الله.

أخرج ابن أبي حاتم وغيره عن ابن عباس رضي الله عنه قال: أتى رسول الله ﷺ بسلام بن مشكم، ونعمان بن أوفى، ومحمد بن دحية، وشاس بن قيس، ومالك بن الصيف، فقالوا: كيف نبتعك وقد تركت قبلتنا، وأنت لا تزعم أن عزيزاً ابن الله؟ فأنزل الله الآية^(١).

عزيز، حبرٌ يهوديٌّ كان في الأسر البابلي

وعزير رجل صالح من بني إسرائيل، أو هو أحد أنبياء بني إسرائيل، والأصح أنه كاهن يهودي سكن بابل سنة ٤٥٧ قبل الميلاد، وجمع أسفار التوراة، وأدخل الحروف الكلدانية عوضاً عن العبرانية القديمة، وألف أسفار: الأيام، وعزرا، ونحميا، ونشر الشريعة اليهودية، فهو من كبار أحبار اليهود الذين كانوا في الأسر البابلي، واسمه في العبرانية عزرا بن سرايا من سبط اللاويين، وقد تفضل عليه كورش ملك فارس فأطلقه من الأسر، وأطلق معه من كانوا في بابل من الأسرى اليهود، وأذن لهم بالرجوع إلى أورشليم، وبناء هيكلهم فيه، وكان ذلك سنة ٤٥١ قبل الميلاد، فكان عزير زعيم التوراة، وأعاد نشر التوراة من حفظه، فعظموه وغالوا في محبته إلى درجة أن ادّعى بعضهم أنه ابن الله.

وهو الذي جاء ذكره في قوله تعالى: ﴿فَأَمَّا تِلْكَ الْأُمَّةُ أَلَسْتَ بِمُؤْمِنٍ﴾ [البقرة: ٢٥٩] على الأرجح، وكانت التوراة قد أُحرقت ولم يبق لها أثر هي والتابوت الذي كانت فيه، وخُرب بيت المقدس بسبب غزو بختنصر له سنة ٥٨٦ ق. م، وقتل من قرأ التوراة، وكان عزير صغيراً فلم يقتله لصغر سنه، ولما مات بختنصر، وبعث الله عزيراً بعد مئة عام، جدّد لهم التوراة، وأملأها عليهم فكتبوها من حفظه، وقالوا: ما حفظها، وما أملأها علينا إلا لأنه ابن الله، فنسبوه إلى الله سبحانه^(٢).

(١) ابن أبي حاتم (١٧٨١/٦) و«أسباب النزول» للسيوطي (١٣٨) وفي هذه الرواية زيادة محمد بن دحية عن الأربعة السابق ذكرهم وقد أخرجه الطبري بسند حسن عن ابن عباس (١١٠/١٠) وهو في «سيرة ابن هشام» (٥٧٠/١).

(٢) «تفسير التحرير والتنوير» (١٦٨/١١) ويُنظر: ابن جرير (٧٨/١) وابن إسحاق (٢١١/٢) وابن أبي شيبة وابن المنذر وابن أبي حاتم (١٧٨١/٦) وأبو الشيخ وابن مردويه و«تفسير البيضاوي» ص (٢٢٢).

تنصّر بولس لتضليل النصارى:

قوله تعالى: ﴿وَقَالَتِ الْتَصَدَّى الْمَسِيحُ ابْنُ اللَّهِ﴾ أما قول النصارى المسيح ابن الله، فهو أيضًا شرك بالله تعالى اختلقوه من عند أنفسهم، وهو مجرد دعوى كاذبة باللسان ليس عليها دليل ولا برهان، والسبب في هذا أن النصارى كانوا على التوحيد الخالص الذي جاء به عيسى عليه السلام، كانوا كذلك مدة واحد وثمانين عامًا بعد رفع عيسى عليه السلام، ثم حدثت حروب بين اليهود والنصارى.

وكان من بين اليهود رجل يقال له: بولس. هذا الرجل قتل أعدادًا كبيرة من النصارى، ثم قال: لئن كان النصارى على حق وعيسى على حق، فسوف يدخلون الجنة ويدخل نحن النار، ولذلك فإنه يجب علينا أن نضلّل النصارى حتى يدخلوا النار مثلنا، فأخذ الرجل على عاتقه وضمّ الحيل لإضلال النصارى فتنصّر، أي: دخل في النصرانية؛ ليكيد لها وحُبس عامًا في بيته حتى حفظ الإنجيل، وادّعى التوبة والندم على ما فات منه، ثم أخذ ثلاثة من النصارى يقال لهم: نسطور، ويعقوب، وملكان.

فأفهم نسطور، ووضع في اعتقاده أن الإله مكون من ثلاثة هم: عيسى، وأمه، والله، أو جبريل: الأب، والابن، وروح القدس.

وأفهم يعقوب أن عيسى ليس بشراً، وإنما هو ابن الله.

وأفهم ملكان أن الله قد حلّ في عيسى، وأنه هو الله.

فكانت هذه الفرق، أو المذاهب الثلاثة: اليعقوبية، والنسطورية، والملكانية، وهي في المصطلح الحديث: الأرثوذكس، والكاثوليك، والبروتستانت، وكل منهم ذهب إلى مكان من العالم هنا وهناك، وصار لهم أتباع وجماعات يؤمنون بدعوتهم ويعترفون بها، وانبثق من هذه الفرق الثلاث أحزاب كثيرة متناحرة في كل فرقة منهم.

وعندما تقرؤون ما يتعلق بعيسى عليه السلام في سورة مريم، وفي سورة الزخرف، وغيرهما تجدون في نهاية الآيات ﴿فَاخْتَلَفَ الْأَحْزَابُ مِنْ بَيْنِهِمْ﴾ هذه هي الأحزاب، وهي الفرق الثلاث الرئيسة التي سميت بأسماء معروفة في وقتنا، وهذا هو أصل الاختلاف عند النصارى، وأصل تأليه المسيح، وادعاء أنه ابن الله، وأصل القول بأن الإله مكون من ثلاثة.

قال سبحانه: ﴿ذَلِكَ قَوْلُهُمْ بِأَفْوَاهِهِمْ﴾ فهي دعوة ليس عليها دليل، وهم بذلك شابهوا قول المشركين الوثنيين من قبل: إن الملائكة بنات الله ﴿يُضَاهَوْنَ قَوْلَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَبْلُ﴾ ضاهت النصارى قول اليهود قبلهم، فقالت النصارى: المسيح ابن الله، كما قالت اليهود في عزيز: ابن الله، كما شابهوا المشركين في قولهم: الملائكة بنات الله، وكذلك الوثنيين من الإغريق والرومان والفراعنة وغيرهم ممن كفر بالله تعالى في الشرق والغرب ﴿فَنَلَّاهُمُ اللَّهَ أَفَّ يَوْفَكُونَ﴾ أي: قاتل الله المشركين جميعًا، كيف يعدلون عن الحق إلى الباطل؟ ولعنهم وطردهم وأبعدهم من رحمته، وهذا دعاء عليهم بالهلاك؛ إذ كيف يصرون على الباطل، ويجعلون لله ولدًا؟

الْمُوجِبُ الثَّانِي لِكُفْرِ أَهْلِ الْكِتَابِ:

طَاعَةُ الْحُكَّامِ وَالْعُلَمَاءِ فِي مُخَالَفَةِ الشَّرِيعَةِ

٣١- ﴿اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا إِلَهًا وَاحِدًا لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ سُبْحَنَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٣١﴾﴾

ثم ذكر سبحانه سببًا آخر لكفر أهل الكتاب، وهو أنهم يتبعون في تشريع الحلال والحرام غير أوامر الله سبحانه مما جاء في التوراة والإنجيل، ويتبعون ما يشرعه لهم علماء اليهود الأحرار، وعُباد النصارى وعلمائهم الرهبان، والقساوسة فاتخذوا العلماء والعباد أربابًا، يشرعون لهم الأحكام، فيلتزمون بها، ويتركون شرائع الله، وهذا معنى اتخاذهم أربابًا، فهم لا يعبدونهم، ولكنهم يتلقون الحلال والحرام منهم، وهو أمر لا يُتَلَقَّى إِلَّا مِنْ اللَّهِ سبحانه، فكانوا إذا أحلوا لهم شيئًا استحلوه، وإذا حرموا عليهم شيئًا حرموه.

كما قال عدي بن حاتم لرسول الله ﷺ حين قدم عليه وفي عنقه صليب من ذهب فقال: «يا عدي اطرح هذا الصليب من عنقك»، قال: فسمعته يقرأ ﴿اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ﴾ قلت: يا رسول الله إنا لسنا نعبدهم فقال ﷺ: «بلى، إنهم حرّموا عليهم الحلال، وأحلوا لهم الحرام فاتبعوهم، فذلك عبادتهم إياهم».

وفي لفظ: فقال: «أما إنهم لم يكونوا يعبدونهم، ولكنهم كانوا إذا أحلوا لهم شيئًا

استحلوه، وإذا حرّموا عليهم شيئاً حرّموه»^(١).

فبين عليه الصلاة والسلام أن عبادة الأحرار والرهبان، هي: طاعتهم لهم في تحليل الحرام، وتحريم الحلال، حرّموا عليهم ما أحل الله فاتبعوهم، وشرّعوا لهم عكس ذلك فاتبعوهم، واتخذوا المسيح إلهاً فعبدوه ﴿وَمَا أُمْرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا إِلَهًا وَاحِدًا﴾ فهو الذي يحلل ويحرم، ويشرّع ويثبت، وقد أمرهم الله جميعاً بالتوحيد وعبادة إله واحد ﴿سُبْحَنَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ أي: تنزهه وتقدهس عما يفتريه أهل الشرك والضلال.

وفي صحيح البخاري وغيره عن عدي بن حاتم قال: بينا أنا عند النبي ﷺ إذ أتاه رجل فشكا إليه الفاقة، ثم أتاه آخر فشكا إليه قطع السبيل، فقال: «يا عدي، هل رأيت الحيرة؟» قلت: لم أرها، وقد أنبت عنها.

قال: (فإن طالت بك حياة لترين الظعينة ترتحل من الحيرة حتى تطوف بالكعبة لا تخاف أحداً إلا الله) قلت فيما بيني وبين نفسي: فأين دَعَار طيء الذين قد سَعَرُوا البلاد؟ «ولئن طالت بك حياة لتفتحن كنوز كسرى» قلت: كسرى بن هُرمز؟ قال: «كسرى بن هرمز»، «ولئن طالت بك حياة لترين الرجل يُخرج ملء كفه من ذهب، أو فضة يطلب من يقبله منه فلا يجد أحداً يقبله منه، وليلقين الله أحدكم يوم يلقاه ليس بينه وبينه ترجمان يترجم له، فيقولن: ألم أبعث إليك رسولاً فيبلغك؟ فيقول: بلى، فيقول: ألم أعطك مالاً وأفضل عليك؟ فيقول: بلى، فينظر عن يمينه فلا يرى إلا جهنم، وينظر عن يساره فلا يرى إلا جهنم».

قال عدي: سمعت النبي ﷺ يقول: «اتقوا النار ولو بشق تمر، فمن لم يجد شق تمر فبكلمة طيبة».

قال عدي: فرأيت الظعينة ترتحل من الحيرة حتى تطوف بالكعبة لا تخاف إلا الله، وكنت فيمن افتتح كنوز كسرى بن هُرمز، ولئن طالت بكم حياة، لتروُنَّ ما قال النبي أبو

(١) حديث حسن كما في «صحيح سنن الترمذي» (٢٤٧١) والطبراني (٢١٨) والبيهقي في «السنن» (١٠/١١٦) وابن أبي حاتم (١٧٨٤/٦). وهو في «سنن الترمذي» برقم (٣٠٩٥) والطبري (٢١٠/١٤) وانظر: تفسير ابن عطية (٢٨/٣) وابن كثير (١٣٥/٣).

القاسم ﷺ: «يُخرج ملء كفه»^(١).

وكان عدي بن حاتم الطائي لما سمع دعوة النبي ﷺ فرَّ إلى الشام؛ لأنه قد تنصَّر في الجاهلية، ف وقعت أخته في الأسر هي وجماعة من قومها في إحدى الغزوات، فأطلقها النبي ﷺ فذهبت إلى أخيها ورغبت في الإسلام والقدوم على رسول الله ﷺ فقدم عدي إلى المدينة -وكان رئيس قومه- وأبوه حاتم الطائي المشهور بالكرم فتحدثت الناس بذلك، فدخل على الرسول ﷺ وفي عنقه صليب من ذهب، وقيل: من فضة، وكان النبي ﷺ يقرأ هذه الآية ﴿اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ﴾^(٢).

والآية تسوي في الوصف بالشرك بين اليهود الذين قبلوا التشريع من أحبارهم وأطاعوه واتبعوه، وبين النصاري الذين قالوا بالوهمية عيسى وقدَّموا إليه الشعائر في العبادة.

ظُهُورُ الْإِسْلَامِ عَلَى جَمِيعِ الشَّرَائِعِ

٣٢- ﴿يُرِيدُونَ أَنْ يُطْفِئُوا^(٣) نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَيَأْبَى اللَّهُ إِلَّا أَنْ يُنِيرَ نُورُهُ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ﴾

ثم إن اليهود والنصارى يريدون أن يطفئوا نور الله الذي جاء به محمد ﷺ، ويطفئوا نور الإسلام وهديه، ويقضوا عليه، والنور هو الدلائل على صدق محمد ﷺ؛ كالمعجزات الخارقة، والقرآن العظيم، ويجب التبرؤ من كل معبود سوى الله تعالى، ومثلهم في ذلك كمثل من يريد أن يطفى الشمس أو القمر بنفخة من فيه، ولا سبيل إلى ذلك، فهم يحاولون طمس هذا الدين والقضاء عليه بإلقاء الشبهات والتشكيك فيه.

ونور الله، دينه الذي أرسل به الرسل وأنزل به الكتب، وسماه نورا لأنه يستضاء به ظلمات الجهل، ولا يمكن لجميع الخلق أن يطفئوا هذا النور. قال تعالى:

(١) «صحيح البخاري» برقم (٣٥٩٥).

(٢) يُنْظَر: الحديث في «المسند» برقم (١٨٢٦٩، ١٨٢٦٠) بإسناد حسن، وأخرجه ابن حبان (١٦٧٩) والبيهقي في الدلائل (٣٤٢/٥). والترمذي والطبري من طرق عدة.

(٣) قرأ أبو جعفر عند الوقف عليها بحذف الهمزة وضم الفاء من (يُطْفِئُوا) هكذا (يُطْفِئُوا) والباقون بإثبات الهمزة وكسر الفاء، ولحمزة عند الوقف ثلاثة أوجه: (١)- حذف وضم الفاء. (٢)- تسهيل الهمزة بَيِّنَ بَيِّنَ. (٣)- إبدال الهمزة ياء خالصة.

٣٣- ﴿هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ﴾

لقد أرسل الله نبيه بالهدى التام، والنور الكامل، والبرهان الساطع، والحجج القاطعة، فكيف يطفئ الكفار نور الله، والهدى هو العلم النافع، ودين الحق هو العمل الصالح، وقد بعث الله محمداً ببيان الحق من الباطل في العقائد والعبادات والأخلاق والآداب والأحكام والأخبار وما إلى ذلك، وقد وعد سبحانه بإظهار دينه على جميع الشرائع وإعلاء كلمته؟! ووعد الله قائم إلى يوم الساعة، وقد جاء محمد ﷺ بالقرآن الكريم هادياً للناس، وفيه العلم النافع والأخبار الصادقة، وجاء بدين الإسلام، وفيه من الأعمال الصالحة ما ينفع العبد في الدنيا والآخرة، وهو خاتم الشرائع، ولا يقبل الله من أحد دين سواه.

وفي الحديث عن ثوبان ؓ أن رسول الله ﷺ قال: «إن الله زوى لي مشارق الأرض ومغاربها، وسيلغ ملك أمتي ما زوى لي منها»^(١).

وعن تميم الداري قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «ليبلغن هذا الأمر ما بلغ الليل والنهار، ولا يترك الله بيت مدبر ولا وبر إلا أدخله الله هذا الدين، بعزٌ عزيز، أو بذل ذليل عزاً يُعز الله به الإسلام وذلاً يُذل الله به الكفر»^(٢).

وسيطهر الله هذا الدين على سائر الديانات، فلا يُعبد الله إلا به.

قال أبو هريرة والضحاك: هذا عند نزول عيسى عليه السلام، فلا يبقى أهل دين إلا دخلوا في الإسلام، وهذا المعنى يشهد له حديث تميم السابق.

وفي صحيح مسلم وغيره عن عائشة ؓ قالت: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «لا يذهب

(١) «صحيح مسلم» (٢٢١٥/٤) برقم (١٩٢٠) و(٢٨٨٩) من حديث ثوبان ؓ. وفي المسند (٢٢٣٩٥، ٢٢٤٤٥) بإسناد صحيح على شرط مسلم، وهو حديث طويل ومختصر، وممن أخرجه أبو داود (٤٢٥٢) والترمذي (٢١٧٦) والطيالسي (٩٩١) والبخاري (٤٠١٥).

(٢) رواه أحمد، «المسند» (١٠٣/٤) برقم (١٦٩٥٧) بإسناد صحيح على شرط مسلم ورجال ثقات قال الهيثمي في «مجمع الزوائد» (١٤/٦): رجال أحمد رجال الصحيح وانظر: حديث المقداد بن الأسود في «المسند» (٤/٦) وصحيح ابن حبان في الموارد برقم (١٦٣١) و«المستدرک» (٤٣٠/٤) صححه الحاكم على شرط الشيخين ووافقه الذهبي، وصححه الألباني في «السلسلة الصحيحة» برقم (٣) وهو في الطبراني برقم (١٢٨٠).

الليل والنهار حتى تُعبد اللات والعزى»، فقلت: يا رسول الله، إن كنت لا أظن حين أنزل الله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ﴾ أن ذلك تام، قال: «إنه سيكون من ذلك ما شاء الله ﷻ، ثم يبعث الله ريحاً طيبة، فيتوفى كل من كان في قلبه مثقال حبة من خردل من إيمان، فيبقى من لا خير فيه فيرجعون إلى دين آبائهم»^(١).

وظهور الإسلام على سائر الشرائع يكون أشد حسرة على المشركين والكافرين من سائر الخلق، ولذا خُتِمت الآية بهما.

زَكَاةُ الْأَمْوَالِ وَالذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ

٣٤- ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ كَثِيرًا مِنَ الْأَحْبَارِ وَالرُّهْبَانِ لِيَأْكُلُوا أَمْوَالَ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ يَكْتَرُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلَا يَفْقَهُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾

الموجب الثالث لكفر أهل الكتاب: أكلهم أموال الناس بالباطل:

ذكر القرآن موجباً آخر من موجبات كفر اليهود والنصارى، والقرآن يتحرى الدقة في الحكم على الناس، ولا يقول بالتعميم، فهو هنا يقول: ﴿كَثِيرًا﴾ وفي آية أخرى يقول: ﴿وَأَنَّ أَكْثَرَكُمْ فَاسِقُونَ﴾ [المائدة: ٥٩] وفي آية ثالثة يقول: ﴿فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [النساء: ١٥٥] وهذا إنصاف للقلة التي تتصف بما ذُكر في الآية، فالتعميم لا يصح في الغالب، والمراد بهم في الآية: أحبار اليهود ورهبان النصارى، أي: أن كثيراً من علماء أهل الكتاب وعبادهم ليأكلوا أموال الناس بغير حق، كالرشوة وغيرها، كما قال تعالى: ﴿لَوْلَا يَنْهَاهُمُ الرَّبِّيُّونَ وَالْأَحْبَارُ عَنْ قَوْلِهِمُ الْإِنَّمَا أَكْلُهُمُ السُّحْتُ﴾ [المائدة: ٦٣]

والآية تحذرننا من التشبه بهم في أقوالهم وأفعالهم، حتى لا نأكل أموال الناس بالباطل، ولا نصد أحداً عن سبيل الله، ولا نمنع زكاة أموالنا.

قال ابن المبارك: الناس عالة على العلماء، وعلى العباد، وعلى أرباب الأموال، فإذا

(١) «صحيح مسلم» برقم (٢٩٠٧) والحاكم (٤٤٦/٤).

فسدت أحوال هؤلاء فسدت أحوال الناس، وقد اشتملت هذه الآية على ثلاثة من جرائمهم وهي:

١- أكل أموال الناس بالباطل. ٢- الصد عن سبيل الله. ٣- كنز الأموال.

أولاً: أكل الأموال بالباطل: وهذا يتمثل عند اليهود والنصارى في صور كثيرة، منها:

١- ما شاع في القرون الوسطى من إعطاء صكوك الغفران، يذهب المذنب إلى الكاهن أو القس ويعطيه مبلغاً من المال، ويعترف بذنبه وخطئه كله له، كأنه هو الذي يملك المغفرة، فيعطيه صكاً للغفران.

٢- ومنها: أنهم كانوا يكتبون بأيديهم كُتُباً يحرفونها ويبدّلونها، ويقولون: هي من عند الله، ويأخذون عليها ثمناً قليلاً.

٣- ومن ذلك تغيير أوصاف النبي ﷺ وكُتْمها مخافة أنهم لو آمنوا به لذهبت عنهم هذه المكاسب والمآكل.

٤- وهم أساتذة العالم في أكل الربا، وفي أخذ الرشوة، وفي إصدار الفتاوى للحكام مقابل أخذ الأموال.

والقرآن يعبر عن أخذ الأموال بالأكل؛ لأن المقصود الأعظم من أخذ الأموال هو الأكل، وقد نهانا الله عن ذلك في مثل قوله تعالى: ﴿وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ﴾ [البقرة: ١٨٨] وهذا يشمل جميع الوجوه المحرمة.

ثانياً: ﴿وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ﴾ وهذا هو الموجب الرابع من موجبات كفرهم.

أي: يمنعون الناس من الدخول في الإسلام، والاستجابة لدعوة محمد ﷺ وهذا الصد قائم وموجود في كل زمان ومكان، فقد كان الرهبان والأساقفة والباباوات يجمعون مئات الملايين في الحروب الصليبية للاستشراق والتنصير، صدّاً عن سبيل الله.

والآن: الإذاعات التنصيرية التي تُبثُّ على مسامع العالم، تصد الناس عن سبيل الله، والقنوات التنصيرية تبث سمومها، صدّاً عن سبيل الله، ووسائل التنصير المختلفة كثيرة في أجهزة الإعلام وشبكة المعلومات، ودور التعليم والجامعات وعن طريق المراسلات وغير ذلك، كل ذلك من أساليب النصارى في الصد عن سبيل الله.

ثالثاً: كنز المال والبخل به: وبعد أن ذكر سبحانه حرص أهل الكتاب على المال ذكر بخلهم الشديد به .

وبقية الآية يشترك فيها المسلمون مع غيرهم من اليهود والنصارى، فيما يتعلق بعدم إخراج الزكاة، وإن كان السياق في وصف أهل الكتاب.

قال السُّدِّي: أما الأحرار فمن اليهود، وأما الرهبان فمن النصارى، وأما سبيل الله فمحمد ﷺ.

وقال معاوية بن أبي سفيان: وصفهم الله -أي: أهل الكتاب - بالحرص الشديد على أخذ أموال الناس، ثم وصفهم بالبخل الشديد، وهو جمع المال، ومنع إخراج الحقوق الواجبة منه.

وقال أبو ذر: نزلت في أهل الكتاب، وفي المسلمين^(١).

في صحيح البخاري عن زيد بن وهب قال: مررت على أبي ذر بالربذة، فقلت: ما أنزلك بهذه الأرض؟ قال: كنا بالشام فقرأت: ﴿وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ﴾ فقال معاوية: ما هذه فينا، ما هذه إلا في أهل الكتاب، قال: قلت: إنها لفينا وفيهم^(٢).

وعن الأحنف بن قيس قال: جاء أبو ذر ؓ فقال: «بشِّر الكانزين بكَيِّ من قبل ظهورهم يخرج من جنوبهم، وكَيِّ من جباههم يخرج من أفقائهم، فقلت: ماذا؟ قال: ما قلت إلا ما سمعت من نبيهم ﷺ»^(٣).

وكان أبو ذر يحرم ادخار ما زاد على نفقة العيال، ويفتي بذلك، فنهاه معاوية فلم ينته، فاشتكاها إلى الخليفة عثمان ؓ فاستقدمه وبعثه إلى الربذة، وظل بها حتى مات.

وكان معاوية قد اختبره فبعث إليه بألف دينار، ففرقها من يومه، فأرسل إليه معاوية يطلبها منه، ويقول له: إن رسوله قد أخطأ، فقال: ويحك، إنها خرجت، ولكن إذا جاءني مالي حاسبناك^(٤).

(١) يُنْظَر: «فتح الباري» (١٣٧/٨).

(٢) «صحيح البخاري» برقم (١٤٠٦، ٤٦٦٠) وابن سعد (٢٢٦/٤) وابن أبي شيبة (٢١٢/٣) وابن أبي حاتم (١٧٨٩/٦).

(٣) «صحيح مسلم» (٩٩٢).

(٤) يُنْظَر: «تفسير ابن كثير» (١٤٢/٣).

وقد حمل أبو ذر الآية على العموم، وحرم كنز المال على إطلاقه، وهذا زيادة جرحٍ منه ﷺ. وفي صحيح البخاري أن النبي ﷺ قال لأبي ذر: «ما يسرني أن عندي مثل أحد ذهباً يمر عليه ثلاثة وعندي منه شيء، إلا ديناراً أرصده لديني»^(١). وعدم المسرة لا تعني التحريم. ويُجلى موقف أبي ذر من هذا الأمر حديث شداد بن أوس قال: كان أبو ذر يسمع من رسول الله ﷺ الأمر فيه الشدة، ثم يخرج إلى باديته، ثم يرخص فيه رسول الله ﷺ بعد ذلك، فيحفظ من رسول الله ﷺ في ذلك الأمر بالرخصة، فلا يسمعها أبو ذر، فيأخذ أبو ذر بالأمر الأول الذي سمع قبل ذلك^(٢).

وقد دلت الأحاديث على أن حق الله في مال العبد هو الزكاة، وما يتطوع به بعد ذلك من تلقاء نفسه من الصدقات، وأن المرء ليس عليه حرج إن هو لم يخرج إلا الزكاة.

١- كما في حديث طلحة بن عبيد الله في البخاري، وغيره قال: جاء رجل إلى رسول الله ﷺ من أهل نجد ثائر الرأس، يُسمع دويّ صوته ولا يفقه ما يقول، حتى دنا، فإذا هو يسأل عن الإسلام، فقال رسول الله ﷺ: «خمس صلوات في اليوم والليلة» فقال: هل عليّ غيرها؟ قال: «لا، إلا أن تطوع» قال رسول الله ﷺ: «وصيام رمضان» قال: هل عليّ غيره؟ قال: «لا، إلا أن تطوع» قال: وذكر له رسول الله ﷺ الزكاة، قال: هل عليّ غيرها؟ قال: «لا، إلا أن تطوع» قال: فأدبر الرجل وهو يقول: والله لا أزيد على ذلك ولا أنقص، فقال رسول الله ﷺ: «أفلح إن صدق»^(٣).

٢- ولما زار النبي ﷺ سعد بن أبي وقاص وهو مريض قال: «يا رسول الله أأوصي بمالي كله؟ قال: لا، قال سعد: فالشطر؟ قال: لا، قال سعد: فالثُلث، فقال ﷺ: فالثُلث، والثُلث كثير، إنك إن تدع ورثتك أغنياء خير من أن تدعهم عالة يتكففون الناس...»^(٤).

(١) «صحيح البخاري» برقم (٦٤٤٤).

(٢) «المسند» (١٧١٣٧) نحوه، وفيه ابن موسى - حسن الأشيب - متابع، وباقي رجال الإسناد ثقات، وأخرجه الطبراني (٧١٦٦) واللفظ له، قال محققو «المسند»: حديث حسن.

(٣) «صحيح البخاري» برقم (٤٦، ٢٦٧٨) و«صحيح مسلم» برقم (١١).

(٤) «صحيح البخاري» برقم (٢٧٤٢، ٥٣٥٤، ٦٧٣٣) و«صحيح مسلم» برقم (١٦٢٨).

فدل هذا على أن الوصية لا تزيد على الثلث، وأن اقتناء المال بعد ذلك للورثة غير محرم، ومن الصحابة من مات وعنده أموال كثيرة كعثمان بن عفان، وعبد الرحمن بن عوف، وغيرهما، وهذا يدل على أن ذم الكثر الوارد في الآية مقيد بمنع إخراج الزكاة منه، فالكانزون هم الذين لا يؤدون زكاة أموالهم، وكل ما أدَّى زكاته فليس بكثر.

٣- وعن شداد بن أوس رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إذا كنز الناس الذهب والفضة، فاكنزوا هذه الكلمات: اللهم إني أسألك الثبات في الأمر، والعزيمة على الرشد، وأسألك شكر نعمتك، وأسألك حسن عبادتك، وأسألك قلباً سليماً، وأسألك لساناً صادقاً، وأسألك من خير ما تعلم، وأعوذ بك من شر ما تعلم، وأستغفرك لما تعلم، إنك علام الغيوب»^(١) فهذه كلمات خير للعبد من كنوز الدنيا.

وكنز الذهب والفضة يعني: عدم إخراج زكاته، وفيه وعيد شديد على جمع المال، ومنع الحقوق الواجبة فيه.

يقول ابن عمر رضي الله عنه: أيما مال أديت منه الزكاة فليس بكثر ولو كان مدفوناً مهما بلغ مقدار هذا المال، فإذا لم تخرج منه الزكاة فهو كنز، وإن كان تحت سبع أراضين، وفوق سطح الأرض، ومن أحب شيئاً وقدمه على طاعة الله عُدَّ به.

وفي الموطأ أن ابن عمر رضي الله عنه أنه سُئِلَ عن الكثر فقال: هو المال الذي لا تؤدي منه الزكاة، فما أديت منه فليس بكثر^(٢).

قال عبد الله بن عمر: وهذا قبل أن تنزل الزكاة، فلما نزلت جعلها الله طهرة للأموال^(٣).

وقال عمر بن عبد العزيز، وعراك بن مالك: نسخها قوله تعالى: ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً﴾^(٤) [التوبة: ١٠٣].

(١) «المسند» (١٢٣/٤) برقم (١٧١١٤). حديث حسن بطرقه، ورواه ابن أبي شيبة (٢٧١/١٠) وأبو نعيم في الحلية (٢٦٦/١) وابن حبان (٩٣٥) والطبراني (٧١٥٧) والحاكم (٥٠٨/١) وقال صحيح على شرط مسلم ووافقه الذهبي.

(٢) «الموطأ» برقم (٦٧٨) كتاب الزكاة، باب ما جاء في الكثر.

(٣) «صحيح البخاري» برقم (١٤٠٤، ٤٦٦١) وأحمد في «الزهد» ص (١٩٥) وابن ماجه (٧٨٧) والبيهقي في «السنن» (٨٢/٤).

(٤) «تفسير ابن كثير» (١٤٣/٣).

وقد جعل الله الزكاة طهرة للأموال، فالمقياس هو إخراج الزكاة، ولا يضيرك شيء بعد ذلك، إلا أن يتصدق العبد وينفق منه في وجوه الخير والبر، ففي المال حق آخر سوى الزكاة، ليس على سبيل الفرض، وإنما يرجع إلى المتصدق وإلى مسارحته في الخيرات وخير ما يكتزله المرء ما جاء في الحديث عن عمر وثوبان رضي الله عنهما أن النبي ﷺ كان في بعض أسفاره فقال بعض الصحابة: لو علمنا أي المال خير فنتخذه؟ فقال ﷺ: «أفضله لسان ذاكر، وقلب شاكر، وزوجة تعين المؤمن على دينه»^(١).

وعن علي رضي الله عنه: أن رجلاً من أهل الصُّفَّة مات فوجدوا في برده ديناراً، فقال ﷺ: «كَيْتَ» ثم مات آخر فوجدوا فيه دينارين فقال ﷺ: «كَيْتَانِ»^(٢).

ثم توَعَّد الله سبحانه مانعي الزكاة بقوله: ﴿فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ وهم هؤلاء الذين لا يخرجون الزكاة.

ووجه مناسبة هذه الآية لهذه السورة، أن السورة نزلت في غزوة تبوك في وقت العسرة، وكانت الحاجة إلى المال كثيرة، كما جاء في الآية ﴿لَا أَحَدٌ مَّا أَهْلُكُمْ عَلَيْهِ﴾ [التوبة: ٩٢].

ولذا فقد حض رسول الله ﷺ على النفقة، فأنفق عثمان ألف دينار ذهباً على جيش تبوك، وأنفق غيره الكثير، وقد عنت الآية الذين انكمشوا عن النفقة في سبيل الله يوم الخروج للغزوة.

عُقُوبَةُ مَانِعِي الزَّكَاةِ

٣٥- ﴿يَوْمَ يُحْمَىٰ ^(٣) عَلَيْهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكْوَىٰ ^(٣) بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ وَظُهُورُهُمْ هَذَا مَا كَنَزْتُمْ لِأَنفُسِكُمْ فَذُوقُوا مَا كُنْتُمْ تَكْنِزُونَ ﴿٣٥﴾﴾

(١) الحديث في «المسند» (٢٨٢/٥) و(٣٦٦/٥) ورقمه (٢٣١٠١) حسن لغيره وإسناد رجاله ثقات و«سنن الترمذي» (٣٠٩٤) و«سنن ابن ماجه» برقم (١٨٥٦) و«صحيح سنن الترمذي» (٢٤٧٠).

(٢) «المسند» بأرقام: (٢٢١٧٤، ٢٢١٨٠، ٢٢٢٢١) حديث صحيح وإسناد حسن وهو عن أبي أمامة: سُدِّي بن عجلان، وأخرجه الطبري في التفسير (٢٢٢/١٤) وابن أبي شيبة (٣٧٢/٣) والطبراني في الكبير (٨٠١١).

(٣) أمال حمزة والكسائي وخلف ذوات الباء من (يحمى) و (فتكوى) وقللها ورش.

ثم ما هذا العذاب الأليم الذي بشر الله به ما نعى الزكاة؟ فسرته هذه الآية ﴿يَوْمَ يُحْمَى عَلَيْهَا﴾ أي: على كل دينار ودرهم ﴿فِي نَارِ جَهَنَّمَ﴾ أي: يُحْمَى على هذه الأموال في نار جهنم فيوقد عليها حتى تبيض من شدة الحرارة ﴿فَتَكْوَى بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُوبُهُمْ وَظُهُورُهُمْ﴾ وقد خُصت هذه الأعضاء بالذكر؛ لأن الغني إذا أتاه الفقير ليسأله تبدو منه آثار الكراهية، فيتقطب وجهه ويتجعد جبينه، فإن كرّر السائل سؤاله، أعطاه جنبه، فإن ألح ولأه ظهره، فتكوى منهم هذه المواضع الثلاثة، ويقال لهم يوم القيامة: ﴿هَذَا مَا كَنَزْتُمْ لِأَنْفُسِكُمْ فَذُوقُوا مَا كُنْتُمْ تَكْنِزُونَ﴾ أي: ذوقوا جزاء ما كنزتم في الدنيا من الأموال، ومنعتم منه حق الله، فإذا كان يوم القيامة فإن قطع الذهب والفضة توضع في النار، فإذا اشتدت حرارتها أُحْرِقَتْ بها جباه أصحابها وجنوبهم وظهورهم:

١- وفي الحديث الصحيح عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «من كان عنده مال لم يؤد زكاته، مُثِّلَ له يوم القيامة شجاع أقرع، له زبيتان يطوقه، ثم يأخذ بلهزمتيه - يعني: شذقيه - ثم يقول: أنا كنزك، أنا مالك»^(١) ثم تلا: ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَبْخُلُونَ بِمَا ءَاتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ هُوَ خَيْرًا لَّهُمْ بَلْ هُوَ سَرٌّ لَّهُمْ سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخُلُوا بِهِ يَوْمَ الْقِيَمَةِ وَلِلَّهِ مِيرَاثُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ [آل عمران: ١٨٠] والحديث مفسر للآية.

٢- وفي حديث آخر عن أبي هريرة أيضاً أن رسول الله ﷺ قال: «ما من رجل لا يؤدي زكاة ماله، إلا جُعل له يوم القيامة صفائح من نار، فيكوى بها جنبه وجبينه وظهره، في يوم كان مقداره خمسين ألف سنة، حتى يُقضى بين العباد، فيرى سبيله إما إلى الجنة وإما إلى النار»^(٢).

٣- وعن ثوبان مولى رسول الله ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: «من فارق الروح الجسد وهو بريء من ثلاث؛ دخل الجنة: الكبر والغلول، والدّين».

وعند الترمذي وابن ماجه (والكنز) بدلاً من (الكبر)^(٣).

٤- وفي الصحيحين وغيرهما عن الأحنف بن قيس قال: قدمت المدينة، فبينما أنا في

(١) البخاري برقم (١٤٠٣، ٢٣٧١، ٤٦٥٩) ومسلم (٩٨٧).

(٢) «صحيح مسلم» (٦٨٢/٢) برقم (٩٨٧) والبخاري (١٤٠٢) وأبو داود (١٦٥٨) وابن أبي حاتم (١٧٩٠/٦).

(٣) «المسند» (٢٢٤٢٧) إسناده صحيح على شرط مسلم و«صحيح سنن الترمذي» (١٢٧٨) والترمذي (١٥٧٣).

وصحيح وابن ماجه (٢٤١٢) وابن حبان (١٩٨).

حَلَقَةً فِيهَا مَلَأٌ مِنْ قَرِيشٍ، إِذْ جَاءَ رَجُلٌ أَخَشَنَ الثِّيَابَ، خَشَنَ الْجَسَدَ، خَشَنَ الْوَجْهَ، فَقَامَ عَلَيْهِمْ فَقَالَ: بَشِّرِ الْكَانِزِينَ بِرَضْفٍ يُحْمَى عَلَيْهِ فِي نَارِ جَهَنَّمَ، فَيُوضَعُ عَلَى حِلْمَةِ ثَدْيِ أَحَدِهِمْ، حَتَّى يَخْرُجَ مِنْ نُغْضِ كَتِفِهِ، وَيُوضَعُ عَلَى نُغْضِ كَتِفِهِ حَتَّى يَخْرُجَ مِنْ حِلْمَةِ ثَدْيِهِ يَتَزَلْزَلُ، قَالَ: فَوَضَعَ الْقَوْمُ رُؤُوسَهُمْ، فَمَا رَأَيْتُ أَحَدًا مِنْهُمْ رَجَعَ إِلَيْهِ شَيْئًا، قَالَ: فَأَدْبَرَ، وَأَتْبَعْتُهُ حَتَّى جَلَسَ إِلَى سَارِيَةٍ، فَقُلْتُ: مَا رَأَيْتُ هَؤُلَاءَ إِلَّا كَرِهُوا مَا قُلْتُ لَهُمْ، قَالَ: إِنْ هَؤُلَاءَ لَا يَعْقِلُونَ شَيْئًا، قُلْتُ: مَنْ هَذَا؟ قَالَ: أَبُو ذَرٍّ، قَالَ: فَقُمْتُ إِلَيْهِ، فَقُلْتُ: مَا شَيْءٌ سَمِعْتُكَ تَقُولُ، فَقَالَ: مَا قُلْتُ إِلَّا شَيْئًا سَمِعْتُهُ مِنْ نَبِيِّهِ ﷺ هَذَا لَفْظُ الْبَخَارِيِّ^(١).

حُلِيِّ الْمَرْأَةِ: وَمِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ زَكَاةُ حُلِيِّ النِّسَاءِ، وَجُمْهُورُ أَهْلِ الْعِلْمِ عَلَى أَنَّ الْحُلِيَّ الْمُسْتَعْمَلَ لَزِينَةِ الْمَرْأَةِ الَّذِي لَيْسَ لِلتَّجَارَةِ، وَهُوَ فِي حُدُودِ الْمَسْتَوَى الْاجْتِمَاعِيِّ لِلْمَرْأَةِ لَا زَكَاةَ فِيهِ، وَأَنَّ الْأَحَادِيثَ الَّتِي وَرَدَتْ بِوُجُوبِ الزَّكَاةِ فِيهِ، قِيلَتْ فِي وَقْتٍ كَانَ الذَّهَبُ فِيهِ مُحَرَّمًا عَلَى النِّسَاءِ، وَنُسِخَتْ هَذِهِ الْأَحَادِيثُ بِالْأَحَادِيثِ الْآخَرِ الَّتِي لَا تَوْجِبُ الزَّكَاةَ فِي حُلِيِّ الْمَرْأَةِ، وَفِي بَعْضِهَا ضَعْفٌ لَا يَعْتَدُّ بِهِ.

عَقُوبَةُ مَنَعَ الزَّكَاةَ مِنْ بَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ: وَفِي مَنَعَ الزَّكَاةَ مِنْ بَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ بَيْنَ النَّبِيِّ ﷺ أَنْ الْإِبِلَ تَطَأُ مَنَعَ الزَّكَاةَ مِنْهَا، يَوْمَ الْقِيَامَةِ، بِأَخْفَافِهَا، وَتَعْضُهُ بِأَفْوَاهِهَا، كُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ أَوْلَاهَا رُدَّ عَلَيْهِ أَخْرَاجُهَا فِي يَوْمٍ كَانَ مَقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ حَتَّى يُقْضَى بَيْنَ الْعِبَادِ فَيُرَى سَبِيلُهُ إِمَّا إِلَى الْجَنَّةِ وَإِمَّا إِلَى النَّارِ، وَهَكَذَا الْبَقَرُ وَالْغَنَمُ تَنْطَحُهُ بِقُرُونِهَا وَتَطْرُوهُ بِأَظْلَافِهَا.

أَمَّا الْخَيْلُ فَتَكُونُ لِصَاحِبِهَا سِتْرًا، إِذَا رُبَطَتْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَأُخْرِجَ حَقُّ اللَّهِ مِنْهَا، وَتَكُونُ عَلَيْهِ وَزْرًا إِذَا كَانَتْ لِلرِّيَاءِ وَالْفَخْرِ، وَتَكُونُ لَهُ أَجْرًا إِذَا أَعْدَهَا لِلْجِهَادِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَنَحْوِهِ^(٢).

وَالْآيَةُ لَا تَخْصُ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ، وَإِنَّمَا تَعْنِي جَمِيعَ الْأَمْوَالِ وَالزَّرْعَ وَالثَّمَارَ وَالْمَتَاعَ وَعُرُوضَ التَّجَارَةِ وَالْأَنْعَامَ، وَكُلُّ مَا فِيهِ زَكَاةٌ، وَخَصَّ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ بِالذِّكْرِ؛ لِأَنَّهُمَا أَصْلُ الْأَمْوَالِ.

وَالْكَنْزُ يَعْنِي: عَدَمَ إِخْرَاجِ الزَّكَاةِ مِنْهُ، وَلَا يَعْنِي حِفْظَ الْمَالِ وَادْخَارَهُ.

(١) يُنْظَرُ: «صَحِيحُ الْبَخَارِيِّ» (١٤٠٧) و«صَحِيحُ مُسْلِمٍ» بِرَقْمِ (٩٩٢).

(٢) يُنْظَرُ الْحَدِيثُ بِطَوْلِهِ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ فِي: «صَحِيحُ مُسْلِمٍ» (٦٨٠/٢) (٩٨٧) كِتَابُ الزَّكَاةِ وَكَذَا «صَحِيحُ الْبَخَارِيِّ» بِرَقْمِ (١٤٠٣)، وَ (٤٦٥٩).

وفي الآية تحذير من التشبه باليهود في كثر المال، وعدم إخراج حق الله منه، كما في حديث أبي سعيد الخدري أن النبي ﷺ قال: «التَّبَعُنْ سَنَنَ مِنْ قَبْلِكُمْ شَبْرًا بِشَبْرٍ وَذِرَاعًا بِذِرَاعٍ، حَتَّى لَوْ سَلَكَوا جَحْرَ ضَبٍ لَسَلَكْتُمُوهُ» قلنا: يا رسول الله، اليهود والنصارى؟ قال: «فَمَنْ؟»^(١).

وهكذا: ذكر الله تعالى في هاتين الآيتين انحراف الإنسان في ماله بأحد أمرين:

١- فهو إما أن ينفقه في الباطل الذي لا نفع فيه، بل يناله الشر والضرر، كإنفاقه في الشهوات والمعاصي والصد عن سبيل الله.

٢- وإما أن يمسكه فلا يُخرج حق الله منه، وكلاهما شر منهبي عنه.

الْأَشْهُرُ الْحُرْمُ وَالنَّسِيءُ فِيهَا

٣٦- ﴿إِنَّ عِدَّةَ الشُّهُورِ عِنْدَ اللَّهِ اثْنَا عَشَرَ^(٢) شَهْرًا فِي كِتَابِ اللَّهِ يَوْمَ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ مِنْهَا أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ ذَلِكََ الدِّينُ الْقَيِّمُ^(٣) فَلَا تَظْلِمُوا فِيهِنَّ^(٤) أَنْفُسَكُمْ وَقَتْلُوا الْمُشْرِكِينَ كَافَّةً كَمَا يُقْتُلُونَكُمْ كَافَّةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ ﴿٣٦﴾

هذه الآية تتضمن ما كانت تفعله العرب من تحريم أشهر الحل، وتحليل الأشهر الحرم، وقد كان العرب في الجاهلية لا عيش لأكثرهم إلا من الغارات والحروب، وفي العام التاسع من الهجرة كان شهر رجب الذي فيه النفرة إلى غزوة تبوك يوافق جمادى الآخرة، ولم يكن شهر رجب في موعده الحقيقي، وكان شهر ذي الحجة في ذي القعدة، وهذا بسبب تلاعب أهل الجاهلية في الشهور وتأخيرها أو تقديمها عن موعدها؛ كي يستحلوا القتال في الأشهر الحرم.

(١) «سنن الترمذي» (٢٠٦/٤) باب ما ذكر عن بني إسرائيل، وأصله في البخاري برقم (٣٤٥٠، ٧٣٢٠) ومسلم برقم (٢٦٦٩).

(٢) قرأ أبو جعفر بإسكان العين ومد الألف مدًّا مشبعًا؛ لالتقاء الساكنين من (اثنا عشر) وقرأ الباقون بفتح العين مع القصر، وهما لغتان.

(٣) قوله تعالى (ذلك الدين القيم) عدّها الحمصى آية وليست آية عند بقية علماء العدد.

(٤) قرأ يعقوب بضم الهاء من (فيهن)، والباقون بالكسر، ووقف عليها بهاء السكت بخلف عنه.

والله ﷻ قدَّر في الأزل أن عدد شهور السنة لا يزيد ولا ينقص، فهي دورة ثابتة لمعيار الزمن، فطر الله عليها هذا الكون، بحيث لا يقدم الوقت ولا يؤخر.

السنة القمرية: والمراد في الآية: السنة القمرية التي يدور عليها الفلك، ويدور عليها الأمور الشرعية من الصيام، والحج، والأعياد، وأشهر العدة بالنسبة للمرأة، وأيام الحيض والنفاس... إلخ، وهي اثنا عشر شهرًا، وأيامها ثلاث مئة وخمسة وخمسون يومًا، وهي مبنية على سير القمر.

السنة الشمسية: أما السنة الشمسية فهي عبارة عن دورة الشمس في الفلك دورة تامة، وأيامها ثلاث مئة وخمسة وستون يومًا وربع اليوم، فتتقُص السنة الهلالية عن السنة الشمسية عشرة أيام، ولم تُعرَف السنة الشمسية إلا بعد ظهور علم الفلك والميقات، فانتفع الناس بضبط الفصول الأربعة، وبسبب هذا الفرق تدور السنة القمرية فيقع الصوم والحج تارة في الصيف، وتارة في الشتاء، وهذا النظام حاصل من مجموع الأجرام السماوية والأرضية، ويترتب عليه شهور السنة، ولذلك فإن الله سبحانه قال: ﴿إِنَّ عِدَّةَ الشُّهُورِ عِنْدَ اللَّهِ اثْنَا عَشَرَ شَهْرًا﴾ لا زيادة فيها، وليست ثلاثة عشر شهرًا كما كان يفعله بعض العرب من بني فُقيُم، حيث كانوا يؤخرون حرمة المحرم إلى صفر، ويجعلون من شهر المحرم شهرين: شهرًا حلالًا، وشهرًا حرامًا، فتكون السنة ثلاثة عشر شهرًا، وهذا مخالف لما ﴿فِي كِتَابِ اللَّهِ﴾ الذي كتب فيه جميع أحوال الخلق، وهو اللوح المحفوظ.

التاريخ الهجري: ولما وُضع التاريخ الهجري جُعل موافقًا لبدء سنة العرب الهلالية من أول شهر المحرم، بتقديم شهرين واثني عشر يومًا؛ عن يوم الهجرة، حيث كان دخول النبي ﷺ المدينة في الثاني عشر من شهر ربيع الأول، وهذا الأمر حكَّم به الله، وقضاه من بدء الخليقة: ﴿يَوْمَ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ مِنْهَا أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ﴾ أي: من هذه الأشهر الاثني عشر، أربعة أشهر حُرُم هي: رجب، وذو القعدة، وذو الحجة، والمحرم يعظم فيه تحريم القتال وظلم النفس وظلم الآخرين.

وفي الصحيحين وغيرهما عن أبي بكرة ؓ أن النبي ﷺ قال: «ألا إن الزمان قد استدار كهيئته يوم خلق الله السموات والأرض، السنة اثنا عشر شهرًا منها أربعة حرم، ثلاثة

متواليات: ذو القعدة وذو الحجة والمحرم، ورجب مضر الذي بين جمادى وشعبان»^(١).

أسماء الشهور الاثنا عشر وعلة التسمية:

١- المحرم: وسمي كذلك؛ لكونه شهرًا قد حُرِّم فيه القتال، وكانت العرب تُحِلُّه عامًا وتحَرِّمه عامًا، فأكد الإسلام تحريمه.

٢- صفر: يقال: صَفَر المكان، يعني: خلا، وكانت بيوت العرب تخلو منهم في هذا الشهر؛ لخروجهم للقتال.

٣، ٤- ربيع الأول، والآخر: سُميا كذلك؛ لأنهم كانوا يقيمون فيه في بيوتهم، فالارتباع: هو الإقامة في عمارة الرَّبْع، أي: العشيرة، أو القبيلة.

٥، ٦- جمادى الأولى، والآخر: سُميا بذلك؛ لجمود الماء فيه من البرد.

٧- رجب: من الترجيب وهو التعظيم، وقد أضافه النبي ﷺ إلى قبيلة مُضَر؛ لبيان صحة قولهم: إنه الشهر الذي بين جمادى وشعبان، وليس كما تقول قبيلة ربيعة: إن رجب هو الذي بين شعبان ورمضان، وكان بنو ربيعة بن نزار يحرمون شهر رمضان ويسمونهم رجبًا، وكانت قبيلة مُضَر تحرم رجبًا نفسه، ولذا قال ﷺ: «ورجب مُضَر الذي بين جمادى وشعبان» تحديدًا له، وإخراجًا لما كانت عليه ربيعة.

٨- شعبان: سمي كذلك؛ لتشعب القبائل وتفرقها في البلاد للغارة على الآخرين.

٩- رمضان: من شدة الرمضاء وهو الحر؛ أو لأنه يرمض الذنوب، ويقللها.

١٠- شوال: من شالت الإبل بأذنانها لِلطَّرَاق.

١١- ذو القعدة: بفتح القاف وكسرها؛ سمي كذلك لُفُعودهم فيه عن الترحال والقتال.

١٢- ذو الحجة: بكسر الحاء وفتحها؛ لأداء مناسك الحج ووقوعه فيه، وقد جعل آخر

(١) من حديث طويل رواه أحمد في «المسند» (٢٠٣٨٦) حديث صحيح، وإسناد رجاله ثقات رجال الشيخين، وهذا لفظه، والبخاري، «فتح الباري» (١٧٥/٨) ورقمه في البخاري (٣١٩٧، ٤٦٦٢، ٧٤٤٧) وغيره، ومسلم (١٣٠٥/٣) برقم (١٦٧٩) بنحوه، وأبو داود (١٩٤٨) وابن أبي حاتم (١٧٩١/٦) والبيهقي في «الشعب» (٣٨٠٥) وغيرهم.

العام؛ كي يُختم بفريضة الحج.

أيام الأسبوع وقد كانت العرب تسمي الأيام قبل هذه التسمية المعروفة بما يلي:

الأحد: أول. الإثنين: أهون. الثلاثاء: جبار. الأربعاء: دبار
الخميس: مؤنس. الجمعة: العروبة. السبت: شيار

والمقصود من الآية: ضبط الأشهر، وإبطال ما أدخله المشركون فيها من النسيء، الذي أفسدها وأفضى إلى اختلاطها، وأزال حرمة ما لهُ حرمة منها، وأكسب حرمةً لما لا حرمة له منها. قال تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسُ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُورًا وَقَدَرُ مَنَازِلَ لِيَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ مَا خَلَقَ اللَّهُ ذَلِكَ إِلَّا بِالْحَقِّ﴾ [يونس: ٥].

وبعد ظهور علم الفلك والمواقيت، انتفع الناس بسير الشمس في دورتها بضبط الفصول الأربعة. وكان الحساب الشمسي معروفاً عند المصريين والكلدانيين، وجاءت التوراة بتعيين الأوقات القمرية للأشهر، والشمسية للأعياد.

قال قتادة: إن الله اصطفى من الملائكة رسلاً، ومن الناس رسلاً، واصطفى من الكلام ذكراً، ومن الشهور رمضان والأشهر الحرم، واصطفى من الأيام يوم الجمعة، ومن الليالي ليلة القدر، فعظموا ما عظم الله^(١).

وهذه الأشهر الحرم، منها: شهر رجب في وسط العام، وقد كان أهل الجاهلية يعتمرون في شهر رجب، ويزورون البيت.

وقصدُ العمرة في شهر رجب تقليد جاهلي لم يُقرّه الإسلام، وفي شهر ذي القعدة، وذي الحجة، يأتي الناس إلى الحج ويعودون.

وحرمة هذه الأشهر من لدن إبراهيم عليه السلام، فهو أول من حرّمها؛ كي يأمن الحاج والمعتمر على نفسه في ذهابه وإيابه، وهذا هو الشرع المستقيم الذي لا عوج فيه ولا التواء، وهو الدين القويم الثابت الحكيم، الذي لا تغيير فيه ولا تبديل ﴿ذَلِكَ الَّذِي أَلْقَيْنَا﴾ وليس ما شرعه أهل الجاهلية لأنفسهم وهذا التحريم يشمل أمرين:

(١) «تفسير ابن عطية» (٣/٣١) وابن كثير (٤/١٤٧).

أ - يشمل تحريم القتال في الشهر الحرام، فكان أحدهم لو لقي قاتل أبيه، أو ابنه، أو أخيه في هذه الأشهر الأربعة، لا يهيج، ولا يتعرض له ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الشَّهْرِ الْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ﴾ [البقرة: ٢١٧] أي: ذنب كبير، وجاء في تحريم مكة: «إن هذا البلد حرمه الله يوم خلق السموات والأرض فهو حرام بحرمة الله إلى يوم القيامة»^(١).
وقد كانت الحروب تقوم بين العرب لأتفه الأسباب.

ب - ويشمل كذلك تحريم ارتكاب المعاصي فيها بشكل عام؛ فإن الظلم في الأشهر الحرم أعظم خطيئة ووزراً من الظلم فيما سواها، وإن كان الظلم على كل حال عظيماً، ولكن الله يعظم من أمره ما شاء ﴿فَلَا تَظْلِمُوا فِيهِنَّ أَنْفُسَكُمْ﴾ يعني: بارتكاب المعاصي، وفي مقدمتها القتال وإرهاب الناس.

وارتكاب المعاصي محرم في كل وقت من العام، ولكنه في الأشهر الحرم، والبلد الحرام أشد إثماً وأعظم جرماً، قال تعالى: ﴿وَمَنْ يُرِدْ فِيهِ بِالْحَكَاكِ يُلْطَمِ نُدْقُهُ مِنْ عَذَابِ اللَّهِ﴾ [الحج: ٢٥].

ويشمل أيضاً الإكثار من الطاعات، في جميع السنة، ولكنه في الأشهر الحرم، والمسجد الحرام، أجره أعظم، وثوابه أجزل، ولا يزال هذا معمولاً به من لدن إبراهيم عليه السلام، وقد عظم ذلك العرب، وورثوه عن آبائهم إلى أن جاء محمد ﷺ وأقره القرآن.

والضمير من ﴿فِيهِ﴾ يعود على الأشهر الحرم في قول أكثر المفسرين، وقيل يعودته على جميع الأشهر؛ لأن المقصود منع الإنسان من المعاصي والفساد مطلقاً.

وقد خص الله بعض الأوقات بالتعظيم والاحترام؛ ليمتنع الإنسان فيها من القبائح والمنكرات، ثم يعود ذلك في بقية الأوقات؛ فتكون الأوقات الشريفة سبباً في ترك الظلم وسائر المعاصي في بقية الشهور، وهذه هي الحكمة من تخصيص بعض الأزمنة وبعض الأماكن بمزيد من الفضل والنفحات.

ثم حذر سبحانه من القتال في الشهر الحرام، وبين تعالى أن هذا لا يقتضي

(١) من حديث ابن عباس في صحيح البخاري (١٥٨٧، ١٨٣٤) وصحيح مسلم (١٣٥٣).

النهي عن قتال المشركين في الشهر الحرام إذا هم بدؤوا بقتال المسلمين فيه؛ فيكون المعنى: فإن بدؤوكم بالقتال فيه فقاتلوهم فيه، قال سبحانه: ﴿وَقَاتِلُوا الْمُشْرِكِينَ كَافَّةً كَمَا يُقَاتِلُونَكُمْ كَافَّةً﴾ أي: تعاونوا، وتناصروا، واجتمعوا على قتال المشركين أعداءكم، ولا تتخاذلوا، ولا تجبئوا عن مقاتلتهم، كما أنهم يقاتلونكم بالتحالف مع غيرهم، فقاتلوا جميع المشركين كما يقاتلون جميع المؤمنين، ولا تقاتلوهم في الشهر الحرام إلا إذا قاتلوكم فيه ﴿الشَّهْرُ الْحَرَامُ بِالشَّهْرِ الْحَرَامِ وَالْحُرُمَتُ قِصَاصٌ﴾ [البقرة: ١٩٤] وقال جل شأنه: ﴿وَلَا تُقَاتِلُوهُمْ عِنْدَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ حَتَّى يُقَاتِلُوكُمْ فِيهِ فَإِنْ قَتَلُوكُمْ فَاقْتُلُوهُمْ كَذَلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ﴾ [البقرة: ١٩١]

وقال جل شأنه ﴿فَإِذَا أَسْلَخَ الْأَشْهُرُ الْحُرُمَ فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ﴾ [التوبة: ٥].

فتحريم القتال في الشهر الحرام يُنسخ بإباحة الجهاد في جميع الأوقات، سيَّما بعد انقراض المشركين من بلاد العرب بعد سنة الوفود، ومن أهل العلم من قال: إن القتال في الأشهر الحرم لم يُنسخ، عملاً بالنصوص العامة.

﴿وَأَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ﴾ بالعون والنصر والتأييد، وفي هذا بشارة وضمن لأهل التقوى، ومن كان الله معه فلن يغلبه شيء. قال تعالى:

٣٧- ﴿إِنَّمَا الَّذِينَ^(١) زِيَادَةٌ فِي الْكُفْرِ يُضَلُّ^(٢) بِهِ الَّذِينَ كَفَرُوا يُحِلُّونَهُ عَامًا وَيُحَرِّمُونَهُ عَامًا لِيُوَاطِّئُوا^(٣) عِدَّةَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ فَيَحِلُّوا مَا حَرَّمَ اللَّهُ زَيْنَ لَهُمْ سُوءٍ^(٤) أَعْمَلِهِمْ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ^(٥)﴾

كان أهل الجاهلية إذا وجدوا أنفسهم بحاجة إلى القتال في شهر من الأشهر الحرم،

(١) قرأ الأزرق وأبو جعفر بإبدال الهمزة ياء، وإدغامها في الياء التي قبلها من لفظ (النسيء) فيصير النطق بياء مشددة، والباقون بالهمز، فتكون من قبيل المد المتصل.

(٢) قرأ حفص وحزمة والكسائي وخلف العاشر بضم الياء وفتح الضاد من (يُضَلُّ) مضارع أضل، و (الذين كفروا) نائب فاعل، وقرأ الباقر بضم الياء وكسر الضاد، والفاعل ضمير يعود على لفظ الجلالة، و (الذين كفروا) مفعول.

(٣) قرأ أبو جعفر (لِيُوَاطِّئُوا)، والباقر (لِيُوَاطِّئُوا).

(٤) قرأ نافع وابن كثير وأبو عمرو وأبو جعفر ورويس بإبدال الهمزة واوا من (سوء أعمالهم)، والباقر بتحقيقها.

أَخْرُوا حُرْمَةَ هَذَا الشَّهْرِ إِلَى الشَّهْرِ الَّذِي يَلِيهِ أَوْ قَدِّمُوهُ، لِيَحْفَظُوا عَلَى عَدَدِ أَشْهُرِ السَّنَةِ، فَيَحِلُّوا بِهَذَا الصَّنِيعِ مَا حَرَّمَ اللَّهُ، وَيَزِدَادُوا كَفْرًا إِلَى كَفْرِهِمْ، فَهُمْ يَشْرَعُونَ لَأَنْفُسِهِمْ مَا لَمْ يَأْذَنْ بِهِ اللَّهُ، وَيَجْعَلُونَ الْحَرَامَ حَلَالًا وَالْحَلَالَ حَرَامًا، فَيَحْتَالُونَ عَلَى اللَّهِ وَيَخْدَعُونَ عِبَادَ اللَّهِ، وَيَحْسِنُونَ الْقَبِيحَ فِي أَعْيُنِ النَّاسِ، وَهَكَذَا زَيْنَ الشَّيْطَانِ لَهُمْ سُوءُ أَعْمَالِهِمْ، فَضَلُّوا وَأَضَلُّوا.

أَخْرَجَ ابْنُ جُرَيْرٍ عَنْ أَبِي مَالِكٍ قَالَ: كَانُوا يَجْعَلُونَ السَّنَةَ ثَلَاثَةَ عَشَرَ شَهْرًا، فَيَحِلُّونَ الْمَحْرَمَ صَفْرًا، فَيَسْتَحِلُّونَ فِيهِ الْمَحْرَمَاتِ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ ﴿إِنَّمَا السُّبُّ زِيَادَةٌ فِي الْكُفْرِ﴾^(١).

وَأَخْرَجَ الطَّبْرِيُّ بِسَنَدٍ حَسَنٍ عَنْ عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَلْحَةَ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ ؓ قَالَ: النَّسِيءُ: هُوَ أَنْ جُنَادَةَ بْنَ عَوْفٍ بْنِ أُمِيَّةَ الْكِنَانِيِّ، كَانَ يُوَافِي الْمَوْسِمَ كُلَّ عَامٍ، وَكَانَ يَكْنَى أَبَا ثَمَامَةَ فَيُنَادِي: أَلَا إِنَّ أَبَا ثَمَامَةَ لَا يَجَابُ وَلَا يَعَابُ، أَلَا وَإِنْ صَفْرًا الْعَامَ الْأَوَّلَ، الْعَامَ حَلَالٍ. فَيَحِلُّهُ النَّاسُ، فَيَحْرِمُ صَفْرًا عَامًا، وَيَحْرِمُ الْمَحْرَمَ عَامًا.

وَقَالَ مُجَاهِدٌ: كَانَ رَجُلٌ مِنْ بَنِي كِنَانَةَ يَأْتِي كُلَّ عَامٍ إِلَى الْمَوْسِمِ عَلَى حِمَارٍ لَهُ، فَيَقُولُ: أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي لَا أُعَابُ وَلَا أُجَابُ، وَلَا مَرَدًّا لِمَا أَقُولُ، إِنَّا قَدْ حَرَّمْنَا الْمَحْرَمَ، وَأَخْرَأْنَا صَفْرًا، ثُمَّ يَجِيءُ الْعَامَ الْمُقْبِلُ، وَيَقُولُ: إِنَّا قَدْ حَرَّمْنَا صَفْرًا، وَأَخْرَأْنَا الْمَحْرَمَ، فَذَلِكَ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿لِيُؤْطِقُوا عِدَّةَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ﴾^(٢).

فَالنَّسِيءُ: هُوَ تَأْخِيرُ حُرْمَةِ شَهْرٍ إِلَى آخِرٍ، وَهُوَ زِيَادَةٌ فِي الْكُفْرِ؛ لِأَنَّهُ تَحْرِيمُ مَا أَحَلَّهُ اللَّهُ، وَتَحْلِيلُ مَا حَرَّمَهُ اللَّهُ كَفَرًا آخَرَ يُضَافُ إِلَى كَفْرِهِمْ؛ لِأَنَّهُ جَمَعَ بَيْنَ الْكُفْرِ فِي الْعَقِيدَةِ، وَالْكَفْرِ فِي التَّشْرِيعِ.

وَقَدْ جَاءَ لَفْظُ النَّسِيءِ بِمَعْنَى: التَّأْخِيرُ فِي حَدِيثِ أَنَسٍ ؓ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: «مَنْ أَحَبَّ أَنْ يُبْسَطَ لَهُ فِي رِزْقِهِ وَيُنْسَأَ لَهُ فِي أَثَرِهِ فَلْيَصِلْ رَحِمَهُ»^(٣).

(١) «تفسير الطبري» (٩٣/١٠) و«أسباب النزول» للسيوطي (١٣٩).

(٢) «تفسير الطبري» (١٣٤/١٠) وابن أبي حاتم (١٧٩٣/٦) وجاء هذا عن ابن عباس والضحاك وابن عمر وقتادة والسدي وغيرهم.

(٣) «صحيح مسلم» برقم (٢٥٥٧) و«صحيح البخاري» برقم (٥٩٨٦، ٢٠٦٧).

وَيُنْسَأُ لَهُ فِي أَثَرِهِ، أَي: يُوَخَّرُ اللَّهُ فِي عَمَرِهِ، وَيُطِيلُهُ كَمَا جَاءَ نَفْيُ النِّسْيَاءِ الَّذِي كَانَ مَعْتَادًا فِي الْجَاهِلِيَّةِ بِالنِّسْبَةِ لَشَهْرِ صَفَرٍ، كَمَا فِي حَدِيثِ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «لَا عُدْوَى، وَلَا صَفَرٌ، وَلَا هَامَةٌ»^(١) أَي: لَا صَفَرٌ يُنْسَأُ وَيُوَخَّرُ، عَنْ مَوْضِعِهِ مِنَ الشُّهُورِ.

وَقَدْ كَانَ النَّاسُ فِي الْجَاهِلِيَّةِ يَغَيِّرُونَ فِي الْأَشْهُرِ الْحَرَمِ، فَإِذَا أَرَادُوا أَنْ يِقَاتِلُوا فِي شَهْرِ الْمَحْرَمِ نَقَلُوا حَرَمَتَهُ إِلَى الشَّهْرِ الَّذِي يَلِيهِ، أَوِ الَّذِي قَبْلَهُ، فَيَزِيلُونَ بِذَلِكَ الْفَضِيلَةَ الَّتِي خَصَّ اللَّهُ بِهَا الْأَشْهُرَ الْحَرَمِ.

وَلِذَا فَقَدْ كَانَتْ قَبِيلَةُ مُضَرَ تَجْعَلُ شَهْرَ رَجَبٍ بَيْنَ شَعْبَانَ وَجَمَادَى الْآخِرَةِ، أَي: فِي مَوْعِدِهِ الصَّحِيحِ.

وَكَانَتْ قَبِيلَةُ رِبِيعَةَ تَجْعَلُهُ مَكَانَ شَهْرِ رَمَضَانَ؛ وَذَلِكَ لِقَصْدِ اسْتِحْلَالِ الْقِتَالِ فِيهِ.

وَالنَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ صَحَّحَ ذَلِكَ فِي خُطْبَةِ حِجَّةِ الْوَدَاعِ، فَقَالَ: «وَرَجَبٌ مُضَرٌ الَّذِي بَيْنَ شَعْبَانَ وَجَمَادَى» فَهَذَا هُوَ رَجَبُ الصَّحِيحِ، وَلَيْسَ هُوَ رَجَبُ قَبِيلَةِ رِبِيعَةَ الَّذِي هُوَ شَهْرُ رَمَضَانَ.

قِيلَ: إِنْ أَوَّلَ مَنْ نَسَّأَ النِّسْيَاءَ مِنْ بَنِي كِنَانَةَ رَجُلٌ يَلْقَبُ بِ (الْقَلَمَّسِ) وَاسْمُهُ: حَذِيفَةُ بْنُ مُدْرِكَةَ بْنِ عَبْدِ فُقَيْمٍ.

قَالَ ابْنُ حَزْمٍ: وَكُلٌّ مِنْ صَارَتْ إِلَيْهِ مَرْتَبَةُ النِّسْيَاءِ كَانَ يُسَمَّى الْقَلَمَّسَ.

وَقَالَ الْقُرْطُبِيُّ: كَانَ الَّذِي يَلِي النِّسْيَاءَ يَظْفَرُ بِالرَّئَاسَةِ.

وَكَانَ الْقَلَمَّسُ يَقِفُ عِنْدَ جَمْرَةِ الْعَقَبَةِ، وَيَقْدُمُ وَيُوَخَّرُ فِي الشُّهُورِ، وَجَنَادَةُ بْنُ عَوْفٍ هُوَ آخِرُ مَنْ أَنْسَأَ؛ لِأَنَّهُ أَدْرَكَ الْإِسْلَامَ.

وَقِيلَ: إِنْ أَوَّلَ مَنْ فَعَلَ ذَلِكَ هُوَ عَمْرُو بْنُ لَحِيٍّ، وَوَرَّثَهُ أَبْنَاءُهُ وَأَحْفَادُهُ، وَكَانَ يَخْطُبُ فِي النَّاسِ، وَيَقُولُ لَهُمْ: لَا مَرَدًّا لِمَا قُضِيَ، أَنَا الَّذِي لَا أُعَابُ وَلَا أُجَابُ - أَي: لَا يُعِينُنِي أَحَدٌ، وَلَا يَجِيبُنِي أَحَدٌ - فَيَقُولُونَ لَهُ: لَبِيكَ، ثُمَّ يُنْسِئُهُمْ شَهْرًا، قَائِلًا: لَقَدْ حَرَمْتُ صَفْرًا، وَأُخَّرْتُ الْمَحْرَمَ، فَالنِّسْيَاءُ يُطْلَقُ عَلَى الشَّهْرِ الْحَرَامِ الَّذِي أُخِّرْتُ حَرَمَتُهُ، وَجُعِلَتْ لَشَهْرِ آخِرِ.

أَمَّا أَسْبَابُ هَذَا النِّسْيَاءِ: فَقَدْ كَانَ الْعَرَبُ أَصْحَابَ حُرُوبٍ وَغَارَاتٍ يَخْصُلُونَ مِنْ خِلَالِهَا

(١) «صحيح البخاري» برقم (٥٧١٧، ٥٧٧٠، ٥٧٧٣) و«صحيح مسلم» برقم (٢٢٢٠).

على غنائم من أعدائهم، ويكاد الهلاك يصيبهم لو تركوا القتال فيها، ولهذا قَدَّمُوا وأَخْرُوا في الأشهر الحرم، وَفُقْ أهوائهم وقد كان يشق عليهم ترك القتال ثلاثة أشهر متوالية، ويكرهون تأخير حروبهم إلى الأشهر الحلال، فيؤخرون حرمة الشهر إلى الذي يليه، وهذا الصنيع ﴿زِيَادَةٌ فِي الْكُفْرِ﴾ فهم كفار بطبيعة الحال، وهذا يزيدهم كفرًا على كفرهم؛ لأنه من أعمال الكفر.

وكان بعضهم ينسب هذا النسيء إلى الآلهة، وكان ابتداء العمل بالنسيء سنة عشرين وميتين قبل الهجرة^(١).

ومحل الذم في النسيء هو ما يحصل من تغيير في أوقات الحج المعينة من الله تعالى، ومن تغيير حرمة بعض الأشهر في سنين كثيرة، وكانوا يفعلون ذلك؛ ليوافقوا ما حرم الله من الأشهر الأربعة من حيث العدد، لا من حيث الحكم، فليست الأشهر التي حرموها على أنفسهم هي التي نص الله على تحريمها، وفيه جرأة على دين الله تعالى، قال سبحانه: ﴿فَيُحْلُوا مَا حَرَّمَ اللَّهُ﴾ بتغييرهم الأشهر المحرمة، وقد زين الشيطان لهم أعمالهم القبيحة؛ لأن حرمة الزمان والمكان توقيفية، تُتَلَقَّى من الوحي الإلهي، وقد أوحى الله تعالى إلى رسوله ﷺ أن وقفه عرفة تكون يوم التاسع من ذي الحجة، ويوم الحج الأكبر يوافق يوم العاشر منه.

والله تعالى لا يوفق الكافرين للحق والصواب.

وإلى هنا تنتهي سبع وثلاثون آية من السورة تَحَدَّدَ فيها العلاقات بين المسلمين وغيرهم في الداخل والخارج.

بَدْءُ الْحَدِيثِ عَنِ الْمَنَافِقِينَ: عُقُوبَةُ التَّخَلُّفِ عَنِ النَّفِيرِ الْعَامِّ

٣٨- ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمْ أَنفِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَتَأْخُذْتُمْ إِلَى الْأَرْضِ أَرْضَيْتُمْ بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا مِنَ الْآخِرَةِ فَمَا مَتَّعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ﴾ (٣٨)

(١) «التحرير والتنوير» (١١/١٩١).

(٢) قرأ هشام والكسائي ورويس بإشمام كسر القاف من (قيل) للضم، وقرأ الباقون بالكسرة الخالصة.

وهذه الآية وما بعدها نزلت عتاباً لمن تخلف عن غزوة تبوك؛ إذ تخلف عنها قبائل، ورجال من المؤمنين والمنافقين، والعتاب في هذه الآية للقبائل وللمؤمنين الذين كانوا بالمدينة، وفيها حض وتحريض على الجهاد في سبيل الله بطريقة العتاب على التباطؤ في إجابة داعي النفير، وتسمى هذه الغزوة: غزوة العُسرة، والحديث عنها في السورة يبدأ من هذه الآية.

غزوة تبوك: وتبوك: اسم لمكان معروف بجنوب الشام وشمال المدينة، وهي آخر الغزوات، ولم يجد فيها النبي ﷺ جموعاً للروم، فأقام بضع عشرة ليلة، ثم عاد إلى المدينة.

وكانت في شهر رجب من السنة التاسعة من الهجرة بعد عودته ﷺ من الطائف، فخرج إليهم في عشرين ألفاً بين راکب وراجل، ولم يلق الرسول ﷺ فيها حرباً ولا قتالاً، وإنما كان قد بلغه أن هرقل ملك الروم قد أعدَّ عُدَّتَه مكونة من مئة ألف، ومئة ألف أخرى من القبائل المتاخمة؛ لحرب النبي ﷺ، والقضاء على الإسلام وأهله، وكان الوقت وقت حر وعُسرة، وجذب وشدة، حين طابت الظلال وحان وقت إدراك ثمار المدينة، فأمر النبي عليه الصلاة والسلام أصحابه أن يتأهبوا للخروج إلى غزو الروم.

وكان من عادة الرسول عليه الصلاة والسلام إذا أراد أن يخرج إلى غزوة لا يصرِّح بها، وإنما يورِّي ويوهم مكاناً غير المكان المقصود، أما هذه الغزوة فقد صرَّح بها النبي ﷺ؛ لكي يتأهب القوم ويستعدوا، وذلك لبعد المسافة التي تبلغ نحو سبع مئة كيلو متر تقريباً، ولشدة القيظ وقتئذ.

قال الطبري وغيره: نزلت هذه الآية في الحث على غزوة تبوك، وذلك أن رسول الله ﷺ لما رجع من الطائف وغزوة حُنين، أمر بالجهاد لغزو الروم، وذلك في زمان عُسرة من البأس، وجذب من البلاد وشدة الحر، حين أحرقت النخل، وطابت الثمار، فعظَّم على الناس غزو الروم، وأحبُّوا الظلال والمقام في المساكن والمال، وشق عليهم الخروج إلى القتال، فلما علم الله تناقل الناس أنزل هذه الآية^(١).

وحضَّ النبي عليه الصلاة والسلام أصحابه على الإنفاق في سبيل الله لتجهيز الجيش؛ لأن تجهيز الجيش لم يكن من قبل الدولة، وإنما كان الأشخاص هم الذين يتبرعون

(١) «تفسير الطبري» (٩٤/١٠) و«أسباب النزول» للواحدي (٢٠٧) وابن أبي حاتم (١٧٩٦/٦).

ويعدون أنفسهم، وينفقون أموالهم لتجهيز الغزو في سبيل الله.

جاء أبو بكر رضي الله عنه وأرضاه بأمواله كلها ووضعها بين يدي النبي عليه الصلاة والسلام فسأله الرسول ﷺ: «ماذا تركت لأولادك يا أبا بكر؟» قال: تركت لهم الله ورسوله، ولي عند الله المزيد، أي: لي من الأجر والفضل الشيء الكثير؛ فهو يبتغي بذلك وجه الله سبحانه.

وجاء عمر رضوان الله تعالى عليه بنصف ماله، فسأله النبي ﷺ: «ماذا تركت لأولادك يا عمر؟» قال: تركت لهم نصف مالي، ولله عندي مزيد، فهو يرى أنه مقصر، وأنه مدين لله ﷻ بما هو أكثر من نصف ماله.

وجَهَّزَ عثمان ثلث الجيش، فأعطى المئات من الإبل، والآلاف من الدراهم والدنانير، وأخذ يضع في حجر النبي عليه الصلاة والسلام بالأموال، حتى قال ﷺ: «ما ضرَّ عثمان ما عمل بعد اليوم»^(١) وأخبر عليه الصلاة والسلام: أن الله تعالى يحب عثمان رضي الله عنه وأرضاه، وكذا رسوله ﷺ.

وإلى جوار ذلك فقد ثاقل قوم وترددوا عن الجهاد في سبيل الله، والخروج لغزوة تبوك، والقرآن الكريم في سورة التوبة يفضحهم ويبين أحوالهم.

ويبدأ الحديث عنها بآيتين فيهما وعيد شديد، وترهيب وتخويف وإنذار لكل من يتثاقل أو يتخلف عن الجهاد في سبيل الله، وفيهما وعيد لمن يحذف هذه الكلمة من قواميس أبنائهم، ومن مناهج تعليمهم وعدم تعويدهم وتدريبهم على الجهاد في سبيل الله منذ نعومة أظافرهم، وبيان أن ذلك يؤدي إلى الذلة والهوان في الدنيا والآخرة وإلى عذاب الله سبحانه.

والمسلمون في هذه الحالة يكونون أهلاً؛ لأن بيد الله بهم قومًا غيرهم، يؤدون واجب الله عليهم، يحبهم ربنا ويحبونه، ويقومون بواجب الجهاد في سبيل الله، ولو لم ينزل في القرآن الكريم عن الجهاد إلا هاتين الآيتين لكفنا المسلم.

﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا مَا لَكُمْ﴾ هذا تأنيب، وتوبيخ، وتقريع على ترك الجهاد في سبيل الله، وعتاب لمن يتخلف عنه، وقد ناداهم ربهم بصفة الإيمان؛ لتحريك قلوبهم وتوجيه

(١) قال الألباني: حديث حسن، كما في صحيح الترمذي (٢٩٢٠) ومشكاة المصابيح (٦٠٦٤) وصححه الحاكم برقم (٤٥٥٣) وهو في الترمذي (٣٩٦٧).

عقولهم إلى طاعة الله .

ومعنى ﴿إِذَا قِيلَ لَكُمْ أَنْفِرُوا﴾ أي: اخرجوا للجهاد في سبيل الله تباطأتم و تكاسلتم وكرهتم الخروج له، وفي الحديث عن ابن عباس ؓ: «وإذا استنفرتم فانفروا»^(١).

ولو لم يكن الجهاد واجباً لما عاتبهم الله تعالى، والعتاب يكون على أمر منكراً، وهو هنا: القعود عن قتال الأعداء، وسبيل الله هو الجهاد؛ لأنه الطريق الموصول إلى رضاه سبحانه.

ومعنى ﴿أَنفَلْتُمْ إِلَى الْأَرْضِ﴾ أي: تخلّفتُم، وتباطأتم، وتكاسلتم، وترددتم، وركنتم إلى الدنيا، والاستسلام للخوف لإعدام الوجود الإنساني، فإذا لزمتم مساكنكم، وآثرتم حظوظكم الدنيوية على النعيم الأخروي، فما تستمتعون به في الدنيا، ما هو إلا نعيم زائل، وقليل فإن، أما نعيم الآخرة فهو كثير دائم، فما التمتع بلذائذ الدنيا في جنب الآخرة إلا شيء قليل مستحقر لا قيمة له، بالاضافة إلى أن عمر الإنسان قصير جداً بالقياس إلى الحياة الدائمة في الآخرة.

وفي الحديث عن المستورد أخي بني فهر: «ما الدنيا في الآخرة إلا كما يجعل أحدكم إصبه هذه في اليمِّ، فليُنظر بم يرجع؟» وأشار إلى السبابة^(٢).

وفي صحيح مسلم عن جابر بن عبد الله ؓ: «أن رسول الله ﷺ مرَّ بالسوق داخلًا من بعض العالية، والناس كنفته، فمرَّ بِجَدِّي أَسْكُ مَيْتٌ، فتناوله، فأخذ بأذنه، ثم قال: «أيكم يحب أن هذا له بدرهم؟» فقالوا: ما نحب أنه لنا بشيء، وما نصنع به؟ قال: «أتحبون أنه لكم»، قالوا: والله لو كان حيًّا كان عبيًّا فيه؛ لأنه أَسْكُ، فكيف وهو ميت؟ فقال: «فوالله للدنيا أهون على الله من هذا عليكم»^(٣).

وهذا معنى ﴿وَمَا الْحَيَوةُ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا مَتَعٌ﴾.

(١) من حديث ابن عباس في «صحيح البخاري» برقم (١٣٤٩، ٢٨٢٥) و«صحيح مسلم» (١٣٥٣).

(٢) أخرجه أحمد (٢٢٨/٤) برقم (١٨٠٠٨، ١٨٠١٢) إسناده صحيح على شرط مسلم، ورجاله ثقات رجال الشيخين غير المستورد فمن رجال مسلم، ومسلم (٢١٩٣/٤) برقم (٢٨٥٨) والحاكم (٣١٩/٤) من حديث المستورد أخي بني فهر، وقد أخرجه أيضًا ابن أبي شيبة (٢١٨/١٣) والترمذي (٢٣٢٣) وابن ماجه (٤١٠٨) وغيرهم.

(٣) «صحيح مسلم» برقم (٢٩٥٧).

عن أبي حازم قال: لما حضرت عبد العزيز بن مروان الوفاة، قال: ائتوني بكفني، فنظر إليه وهو يُحتَضَر، ثم ولَّى ظهره وبكى وهو يقول: ما أُخْلَفَ من الدنيا إلا هذا؟! أف لك من دار، إن كان كثير لكليل، وإن كان قليل لكصير، وإن كنا منك لفي غرور^(١).

أي: فهل رضىتم براحة الدنيا ومتاعها عن الدفاع عن دينكم وعقيدتكم؟ إن كان أمركم كذلك فقد أخطأتم الصواب؛ لأن متاع الدنيا قليل.

وحب الدنيا وكراهية الموت، وتفضيلها على الجهاد في سبيل الله، هو سبب المذلة والهوان، صرح بذلك المصطفى ﷺ في الحديث المشهور عن ثوبان ؓ: «يوشك أن تداعى عليكم الأمم كما تداعى الأكلة إلى قصعتها» قالوا: أمن قلة نحن يومئذ يا رسول الله؟ قال: «بل أنتم يومئذ كثير، ولكنكم غثاء كغثاء السيل، ولينزعن الله من قلوب عدوكم المهابة منكم، وليقذفن في قلوبكم الوهن» قالوا: وما الوهن يا رسول الله؟ قال: «حب الدنيا وكراهية الموت»^(٢).

فإذا أحبوا الدنيا على الجهاد في سبيل الله، وكرهوا الشهادة في سبيله، فإن هذا هو الهوان، وهذه هي المذلة في الدنيا والآخرة.

وفي الحديث عن أبي هريرة ؓ: «من مات ولم يغز، ولم يحدث نفسه بغزو مات على شعبة من شعب النفاق»^(٣).

«ومن سأل الله الشهادة بصدق بلغه منازل الشهداء وإن مات على فراشه»^(٤).

مَا تَرَكَ قَوْمُ الْجِهَادِ إِلَّا ذُلُّوا

٣٩- ﴿إِلَّا نَنْفِرُوا بُعْذَابِكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾^(٥) وَيَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّوهُ شَيْئًا وَاللَّهُ

(١) كما في «تفسير ابن كثير» (١٥٤/٤) وابن أبي حاتم (١٧٩٧/٦).

(٢) من حديث ثوبان في «المسند» (٢٢٣٩٧) قال محققوه: إسناده حسن، وأخرجه أبو داود (٤٢٩٧) والطبراني في «الكبير» (١٤٥٢) والبخاري (٤٢٢٤) والبيهقي في «الشعب» (١٠٣٧٢).

(٣) من حديث أبي هريرة في «صحيح مسلم» برقم (١٩١٠).

(٤) من حديث سهل بن أبي أمامة بن سهل بن حنيف عن أبيه عن جده في «صحيح مسلم» برقم (١٩٠٩).

(٥) عَذَابًا أَلِيمًا (الدمشقي وحده وتركها الباقر).

عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٣٩﴾

هذا وعيد من الله تعالى لمن لا يخرج للجهاد في سبيل الله عند الحاجة إليه، وعيد بالعذاب المؤلم واستبدالهم بقوم آخرين يطيعون الله ورسوله، ولن تضروا الله شيئا، وإنما ضرر ذلك يعود عليكم، والله تعالى لا يعجزه شيء.

أخرج ابن أبي حاتم عن نجدة بن نفع قال: سألت ابن عباس رضي الله عنه عن هذه الآية فقال: استنفر رسول الله ﷺ أحياء من العرب فتأقلاوا عنه، فأنزل الله ﴿إِلَّا تَنْفِرُوا يُعَذِّبْكُمْ﴾ فأمسك عنهم المطر، فكان عذابهم^(١).

وأخرج الطبري عن قتادة بسند حسن، قال: استنفر الله المؤمنين في لهبان الحر، في غزوة تبوك قبل الشام، على ما يعلم الله من الجهد.

وفي هذه الآية تهديد لهم إن لم ينفروا للجهاد في سبيل الله فقال: ﴿إِلَّا تَنْفِرُوا﴾ أي: إلا تخرجوا مجاهدين حيثما طلب منكم الجهاد، في أي زمان ومكان، ينزل الله بكم عقوبته ﴿يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ في الدنيا والآخرة، فهو عذاب عام يشمل عذاب الدارين، ويدخل تحته جميع أنواع العذاب.

ثم أعطى الله رسوله وعدًا بأن يبدلهم بقوم آخرين؛ لا يقعدون عن الجهاد إذا اقتضى الأمر ذلك فقال: ﴿وَيَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ﴾ يكونون أطوع منكم وأكثر استجابة، يطيعون الله ورسوله، ويستنفرون إذا استنفروا؛ لأنكم في هذه الحالة لا تستحقون الحياة، ولستم أهلاً لها، فتكونون جديرين بأن يستبدل الله بكم قوماً خيراً منكم وأطوع؛ لإعزاز دين الله، وإعلاء كلمته كما قال تعالى: ﴿وَلَنْ تَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوا أَمْثَلَكُمْ﴾ [محمد: ٣٨].

وقال تعالى في عتاب قوم: ﴿مَا كَانَ لِأَهْلِ الْمَدِينَةِ وَمَنْ حَوْلَهُمْ مِنَ الْأَعْرَابِ أَنْ يَتَخَلَّفُوا عَنْ رَسُولِ اللَّهِ وَلَا يَرْغَبُوا بِأَنفُسِهِمْ عَنْ نَفْسِهِ﴾ [التوبة: ١٢٠].

(١) «أسباب النزول» للسيوطي (١٣٩) و«زاد المسير» (٤٣٨/٣) وينحوه في «سنن أبي داود» برقم (٢٥٠٦) وفي سنده مجهول هو نجدة بن نفع، والحديث عند الحاكم (١١٨/٢) والبيهقي في «السنن» (٤٨/٩) والطبري (٤٦١/١١) وغيرهم.

والله تعالى لا تنفعه طاعة ولا تضره معصية، وهذا معنى ﴿وَلَا تَضُرُّهُ شَيْئًا﴾؛ لأن الله غني عن العالمين، بل تضررون أنفسكم بالتخلف عن الجهاد ﴿وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ وهو قادر على أن ينصر دينه ويعلي كلمته من غير حرب، ولا قتال ﴿وَلَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَأَنْصَرَكُمْ مِنْهُمْ وَلَكِنْ لِيَبْلُوَا بَعْضَكُمْ بِبَعْضٍ﴾ [محمد: ٤] وهذا الوعيد يقتضي وجوب الخروج للجهاد على كل فرد، ولا يُغني بعضهم عن بعض، إذا كان فرض عين.

الهجرة النبوية

٤٠- ﴿إِلَّا تَضُرُّهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ^(١) إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَحْزَنْ إِنَّا نَجِدُ اللَّهَ مُعْتَصِمًا فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفْلَى^(٢) وَكَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا^(٣) وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾

يُبين الله سبحانه أنه متكفل بنصر الرسول ﷺ وناصره من أعدائه كما نصره في الغار، وينصر عباده المؤمنين الصادقين، فإن أنتم أيها المتناقلون خرجتم مع رسول الله ﷺ نصره الله بكم، وإن تخاذلتُم وتكاسلتُم وتقاعستُم، ولم تخرجوا معه نصره الله دونكم، والدليل على ذلك من الواقع في هذه الآية ﴿إِلَّا تَضُرُّهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ﴾ هذا خطاب للمتناقلين عن الخروج مع النبي ﷺ في غزوة تبوك، أي: إلا تنصروه فهو غني عن نصرتكم له بنصر الله إياه، كما نصره يوم حُنين، وكما نصره ليلة الهجرة، وكما نصره في يوم بدر.

فيا معشر أصحاب رسول الله: إلا تنفروا معه إذا استُفترتم، وإلا تنصروه إذا طلب منكم النصرة والنفرة، فاعلموا أن الله قد نصره عند قلة الأولياء وكثرة الأعداء، فكيف به اليوم؟ وإن لكم فيما حُذث ليلة الهجرة عبرة وعظة:

(١) قرأ أبو عمرو والدوري والكسائي بإمالة ألف (في الغار) وبالفتح وإمالة ابن ذكوان وقللها الأزرق عن ورش، والباقون بالفتح.

(٢) أمال حمزة والكسائي وخلف العاشر ألف (السفلى، و العليا) وبالفتح والتقليل الأزرق وقللها أبو عمرو، وفتحهما الباقر.

(٣) قرأ يعقوب بنصب التاء من (وكلمة الله) عطفاً على (الذين كفروا)، وقرأ الباقر بالرفع على الابتداء، ولا خلاف في نصب (كلمة الدين).

لقد اجتمع المشركون حول بيت رسول الله ﷺ شاهرين سيوفهم يريدون قتله، وأخرجه الله من بين ظهرانيهم، ووصل إلى الغار، ومعه شخص واحد هو أبو بكر ﷺ، لقد نصره الله بهذا الرجل الواحد، ووصل المشركون إلى الغار، ووقفوا عليه بعد أن تتبعوا أثره، ثم أنزل الله السكينة والطمأنينة على رسوله، وهذه السكينة نزلت على رسول الله وحده، ولذلك فإن أبا بكر قد جزع وهو في الغار، وقد أيد الله رسوله بجنود لم يرها أحد من البشر وهم الملائكة، فقد حمت النبي ﷺ في الغار، وصرفت أنظار المشركين عن أن ينظروا تحت أقدامهم؛ حتى لا يروا النبي ﷺ وصاحبه في الغار.

كما أيد الله رسوله بالملائكة يوم بدر، والأحزاب، وحُنين، وألقى الله الرعب في قلوب الكفار حتى رجعوا وهُزموا، وفي هذا يقول أبو بكر ﷺ: واللّه لو نظر أحدهم تحت قدميه لأبصرنا، وقال ﷺ: «يا أبا بكر ما بالك باثنين الله ثالثهما؟ لا تحزن إن الله معنا».

لقد نصره الله دونكم، وهو ثاني اثنين: هو، وأبو بكر الصديق، وكان الكفار قد ألجؤوهما إلى نقب عظيم في جبل ثور، على بُعد خمسة أميال من مكة ﴿إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ﴾ أبي بكر لما رأى منه الخوف عليه ﷺ ﴿لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا﴾ بنصره، وتأيده ﴿فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا﴾ وأنجاه الله من عدوه، وأذل أعداءه.

عن البراء قال: بينما رجل من أصحاب النبي ﷺ يقرأ، وفرس له مربوط في الدار، فجعل ينفر، فخرج الرجل، فنظر فلم ير شيئاً، وجعل ينفر، فلما أصبح ذكر ذلك للنبي ﷺ فقال: «تلك السكينة تنزل بالقرآن»^(١).

وجعل كلمة الشرك والكفر السفلى، وكلمة التوحيد هي العليا بإعلاء شأن الإسلام، فهو العزيز في ملكه، الحكيم في تدبير شؤون خلقه.

فكلمة الله: دينه الذي ارتضاه لعباده، وأساسه كلمة التوحيد، أما كلمة الكفار: فهي الشرك والمشركون، وقد وعد الله رسوله والمؤمنين بالنصر في الدنيا والآخرة.

قال الشعبي: عاتب الله أهل الأرض جميعاً في هذه الآية غير أبي بكر.

(١) «صحيح البخاري» برقم (٣٦١٤، ٤٨٣٩) و«صحيح مسلم» برقم (٧٩٥).

وعن أنس رضي الله عنه أن أبا بكر حدثه قال: قلت للنبي ﷺ ونحن في الغار: لو أن أحدهم نظر إلى قدميه لأبصرنا تحت قدميه، قال: فقال: «يا أبا بكر ما ظنك باثنين الله ثالثهما؟»^(١).

وعن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه قال: سئل رسول الله ﷺ عن الرجل يقاتل شجاعة، ويقاتل حمية، ويقاتل رياء، أي ذلك في سبيل الله؟ فقال ﷺ: «من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا فهو في سبيل الله»^(٢).

الرسول يستبقي أبا بكر للهجرة معه:

وفي صحيح البخاري عن عائشة رضي الله عنها أن النبي ﷺ لم يكن يمر عليه يوم إلا ويأتي أبا بكر بكرة وعشية، فلما ابتلي المسلمون خرج أبو بكر مهاجراً نحو أرض الحبشة، فلما بلغ برك الغماد لقيه ابن الدغنة، فقال له: إن مثلك لا يخرج ولا يُخرج، فأنا لك جار، ارجع واعبد ربك، وطاف على أشراف قريش يخبرهم أنه أجار أبا بكر فأنفذت قريش وأمنوا أبا بكر، وقالوا لابن الدغنة: مَرُّ أبا بكر فليعبد ربه في داره، ولا يرفع صوته بصلاته ولا بقراءته.

ثم إن أبا بكر بنى مسجداً في داره، وأخذ الناس يُعجبون به وينظرون إليه، فغضبت قريش واحتجّت لدى ابن الدغنة، فذكر ذلك لأبي بكر، فقال له: إني أردُّ إليك جوارك، وأرضى بجوار الله، ثم أمر النبي بالهجرة إلى المدينة، ورجع الناس من الحبشة إلى المدينة، ولما أراد أبو بكر الهجرة إليها قال له النبي ﷺ: «على رسلك، فإني أرجو أن يؤذن لي» فجهّز أبو بكر راحلتين لمدة أربعة أشهر.

قالت عائشة: وبينما نحن في نحر الظهيرة إذ بقائل يقول: هذا رسول الله متقنّاً في ساعة لم يكن يأتينا فيها، فقال أبو بكر: فداه أبي وأمي، والله ما جاء به في هذه الساعة إلا أمر، فاستأذن، فأذن له، ثم قال: «إني قد أذن لي في الخروج» فقال أبو بكر: الصحبة يا رسول الله، وأبى النبي ﷺ إلا أن يدفع ثمن الراحلة التي أعدها له أبو بكر، وجُهِزَ

(١) رقمه في البخاري (٣٦٥٣، ٣٩٢٢، ٤٦٦٣) ومسلم (١٨٥٤/٤) برقم (٢٣٨١) كتاب فضائل الصحابة برقم (٢٣٨١) والترمذي (٣٠٩٦) و«المسند» برقم (١١) بإسناد صحيح على شرط الشيخين، وابن حبان (٦٢٧٨) وابن أبي شيبه (٧/١٢)، وأبو يعلى (٦٦).

(٢) رقمه في البخاري (١٢٣، ٢٨١٠، ٧٤٥٨) ومسلم (١٥١٢/٣) برقم (١٩٠٤) وأبو داود (٢٥١٧) والترمذي (١٦٤٦) والنسائي (٣١٣٦).

لهما الراحلتان، قالت عائشة: وصنعنا لهما سُفرة في جراب، فقطعتُ أسماء قطعة من نطاقها فربطتُ به على فم الجراب، فسُميت ذات النطاقين، وتوجهتا إلى غار ثور، ومكثتا فيه ثلاث ليالٍ، يأتيهما أثناءها عبد الله بن أبي بكر بأخبار قريش وقت السحر ويصبح بين قومه، ويبيت عندهما عامر بن فُهَيْرَة بغنمه ليُشربا، فيأتي بعد العشاء ويذهب وقت الغلس، أما عبد الله بن أريقط، فقد كان دليلهما إلى المدينة، حيث دفعا إليه بالراحلتين؛ ليأتيهما في غار ثور بعد ثلاث ليالٍ يصحبهما إلى المدينة من الطريق الجنوبي عكس الذهاب إليها، وكان هذا الدليل كافراً! (١).

قال سراقه بن مالك: خرجتُ أطلب النبي ﷺ وأبا بكر، حتى إذا دنوتُ منهم عثرتُ فرسي، فقممتُ فركبتُ، حتى إذا سمعتُ قراءة رسول الله ﷺ وهو لا يلتفت، وأبو بكر يُكثر التلُفُت، ساختُ يدا فرسي في الأرض حتى بلغنا الركبتين، فخررتُ عنها، ثم زجرتها فنهضتُ، فلم تكد تُخرج يديها، فلما استوت قائمة إذا لأثر يديها عُثان -أي: دخان يخرج من تحت يديها من غير نار- ساطعٌ في السماء مثل الدخان، فناديتهما بالأمان فوقفا لي، ووقع في نفسي حين لقيتُ ما لقيتُ من الحبس عنهما أنه سيظهر رسول الله ﷺ (٢).

أبو بكر يُقدي رسول الله بنفسه في الغار: ولما ذكر أبو بكر عند عمر بعد موت أبي بكر، في خلافة عمر ؓ، فقال: وددتُ لو أن عملي كله -أي: عمله الصالح في حياته كلها- مثلُ ليلة واحدة من ليالي أبي بكر، ويومًا واحدًا من أيامه قال: أمّا الليلة، فليلة أن سار مع النبي ﷺ إلى الغار، كان أبو بكر يمشي تارة خلف رسول الله، ويمشي تارة أمامه، وتارة عن يمينه، وتارة عن شماله، قال النبي عليه الصلاة والسلام: «ما لك يا أبا بكر؟» قال: يا رسول الله، أذكر الطلب فأمشي خلفك، وأذكر الرصد فأمشي أمامك، وأذكر أنهم قد يأتونك من اليمين أو اليسار، فأمشي على يمينك أو على يسارك.

فلما وصلا إلى الغار، قال أبو بكر للنبي ﷺ والله: لا تدخله حتى أدخل قبلك، فإن كان فيه شيء أصابني دونك، فدخله ؓ فكنته، فوجد في جانبه ثقبًا، فشق ثوبه ووضع في هذا الثقب، ثم وجد ثقبين آخرين فألقمهما رجلاه، وطلب من النبي عليه الصلاة

(١) يُنظر الحديث في: «صحيح البخاري» برقم (٣٩٠٥).

(٢) «صحيح البخاري» (٣٩٠٦).

والسلام أن ينزل، وقال له: إن هلكْتُ أنا يا رسول الله، إنما أنا رجل، وإن هلكْتُ أنت هلكَت الأمة.

واستراح الرسول ﷺ في الغار، ووضع رأسه في حجر أبي بكر ونام، فلُدِغ أبو بكر من الجُحرَيْن في رجله، ولم يتحرك أبو بكر ﷺ مخافة أن يستيقظ النبي عليه الصلاة والسلام، ولكن دموعه غلبته من شدة الألم، فسقطت على وجه الرسول ﷺ فاستيقظ عليه الصلاة والسلام، فقال: «ما لك يا أبا بكر؟» قال: لُدِغْتُ يا رسول الله، فذاك أبي وأمي، ففعل عليه النبي ﷺ فذهب ما يجده أبو بكر من ألم.

ولذا يقول عمر ﷺ: وددتُ لو أن عملي كله يساوي ليلة من ليالي أبي بكر، أو يومًا من أيامه.

أما اليوم، فإنه لما مات النبي ﷺ، وارتدَّ من ارتد من العرب، ومنع الزكاة مَنْ منع، وأراد أبو بكر أن يقاتلهم، قال عمر: يا خليفة رسول الله، تألف الناس، وارزُق بهم، فقال أبو بكر: أجبار في الجاهلية، خوَّار في الإسلام؟ لقد انقطع الوحي، وتم الدين، أينقص الدين وأنا حي؟ والله لو منعوني عناقًا -أو عقلاً كما في رواية أخرى- كانوا يؤدونه لرسول الله ﷺ لقاتلتهم عليه.

يغبط عمر أبا بكر ﷺ على هذا الموقف، ويقول: وددت لو أن عملي كله يساوي مثل هذا اليوم من أيام أبي بكر^(١).

يقول الحسن بن الفضل: من قال: إن أبا بكر لم يكن صاحب رسول الله ﷺ فهو كافر؛ لأنه أنكر نص القرآن.

موقف آخر لأبي بكر في الغار: والله سبحانه وجَّه اللوم للخلق كلهم، ما عدا أبا بكر ﷺ، فهو وحده الذي كان معه في الغار.

في الصحيحين أن أبا بكر ﷺ اشترى رجلًا من (عازب) فسأله عن ليلة الهجرة، قال: سِرْنا ليلتنا كلها حتى وقت الظهيرة، ورُفِعَتْ لنا صخرة طويلة لها ظل، فنزلنا عندها،

(١) يُنْظَر: البيهقي في «الدلائل» (٤٧٦/٢) وابن عساكر (٨٠/٣٠) عن ضَبَّة بن مَخْصَن العنزي وأخرج بعضه ابن مردويه عن أنس بن مالك، وعن جُنْدُب بن سفيان وأبو نعيم في «الدلائل» وابن المنذر وأبو الشيخ وابن أبي شيبه (٣٣٤/١٤) وانظر: «الدر المنثور» (٣٧٣/٧).

وسَوَّيْتُ مَكَانًا يَنَامُ النَّبِيُّ ﷺ فِي ظِلِّهَا، ثُمَّ بَسَطْتُ عَلَيْهِ فُرُوزَةً، ثُمَّ قُلْتُ: نَمْ يَا رَسُولَ اللَّهِ، وَأَنَا أَنْفُضُ لَكَ مَا حَوْلَكَ.

وَإِذَا بَرَاعِي غَنَمٌ مُقْبِلٌ بَغْنَمِهِ إِلَى الصَّخْرَةِ، فَقُلْتُ لَهُ: لِمَنْ أَنْتَ يَا غَلَامُ؟ فَقَالَ: لِرَجُلٍ مِنْ أَهْلِ الْمَدِينَةِ، فَقُلْتُ: أَفِي غَنَمِكَ لَبَنٌ؟ قَالَ: نَعَمْ، قُلْتُ: أَفَتَحْلُبُ لِي؟ قَالَ: نَعَمْ، فَأَخَذَ شَاةً، فَقُلْتُ لَهُ: انْفُضِ الضَّرْعَ مِنَ الشَّعْرِ وَالتَّرَابِ وَالْقَذَى، وَأَخَذَ (الْبَرَاءَ) يَحْلُبُ مِنْ شَاةٍ أُخْرَى، فَحْلَبَ لِي فِي قَعْبٍ مَعَهُ، قَالَ أَبُو بَكْرٍ: وَمَعِيَ إِدَاوَةٌ أُرْتَوِي فِيهَا لِلنَّبِيِّ ﷺ؛ لِيَشْرَبَ مِنْهَا وَيَتَوَضَّأَ.

قَالَ: فَاتَيْتُ النَّبِيَّ ﷺ وَكَرِهْتُ أَنْ أَوْقِظَهُ مِنْ نَوْمِهِ، فَوَافَقْتُهُ اسْتِيقَظَ، فَصَبَبْتُ عَلَى اللَّبَنِ مِنَ الْمَاءِ حَتَّى يَرُدَّ أَصْفَلُهُ، فَقُلْتُ يَا رَسُولَ اللَّهِ: اشْرَبْ مِنْ هَذَا اللَّبَنِ، قَالَ: فَشَرِبَ حَتَّى رَضِيتُ، ثُمَّ قَالَ: «أَلَمْ يَأْنِ الرَّحِيلُ؟» قُلْتُ: بَلَى، قَالَ: فَارْتَحَلْنَا بَعْدَمَا زَالَتِ الشَّمْسُ.

وَاتَّبَعْنَا سَرَاقَةَ بَنِي مَالِكٍ وَنَحْنُ فِي جِلْدٍ مِنَ الْأَرْضِ، فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ أُوتِينَا، فَقَالَ ﷺ: ﴿لَا تَحْزَنْ إِيَّاكَ اللَّهُ مَعَنَا﴾ فَدَعَا عَلَيْهِ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فَارْتَطَمْتُ فَرَسَهُ إِلَى بَطْنِهَا، فَقَالَ: إِنِّي قَدْ عَلِمْتُ أَنَّكُمْ قَدْ دَعَوْتُمَا عَلِيَّ، فَادْعُوَا لِي، فَالَلَّهُ لَكُمْ أَنْ أَرُدَّ عَنْكُمَا الْطَلَبَ، فَدَعَا لَهُ النَّبِيُّ ﷺ فَفَجَا، فَجَعَلَ، فَجَعَلَ لَا يَلْقَى أَحَدًا إِلَّا قَالَ: قَدْ كُفَيْتُمْ مَا هَاهُنَا، فَلَا يَلْقَى أَحَدًا إِلَّا رَدَّهُ، قَالَ: وَوَفَّى لَنَا^(١).

الْأَمْرُ بِالنَّفِيرِ الْعَامِّ

٤١- ﴿أَنْفِرُوا خِفَافًا وَثِقَالًا وَجَاهِدُوا بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ذَلِكَ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ ﴿٤١﴾

ثُمَّ يَأْتِي بَعْدَ ذَلِكَ الْأَمْرُ بِالنَّفِيرِ الْعَامِّ لَغَزْوَةِ تَبُوكَ، وَالتَّهْيِجِ لَهُمْ عَلَى النَّفِيرِ، وَهَذَا أَمْرٌ مِنَ اللَّهِ تَعَالَى لِجَمِيعِ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ وَجَّهَ اللَّهُ إِلَيْهِمُ اللُّومَ فِي قَوْلِهِ: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمْ أَنْفِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَتَأْخُذْتُمْ إِلَى الْأَرْضِ﴾ فَأَمَرَهُمْ أَنْ يَهْبُتُوا لِلْقِتَالِ عِنْدَ دَعْوَةِ الْقَائِدِ الْعَامِّ إِلَيْهِ، مَهْمَا كَانَ حَالُهُمْ، أَنْ أُخْرِجُوا لِلْجِهَادِ شَبَابًا

(١) يُنْظَرُ الْحَدِيثُ فِي: «صَحِيحُ الْبُخَارِيِّ» بِرَقْم (٢٤٣٩، ٣٦١٥) وَهَذَا لَفْظُهُ (٣٦٥٢، ٣٩١٧)، وَ«صَحِيحُ مُسْلِمٍ» بِرَقْم (٢٠٠٩)

وشيوخًا، فقراء وأغنياء، مشاة وركبًا، أصحابًا ومرضى، في العسر واليسر، والمشط والمكره، والحر والبرد، اخرجوا لقتال العدو على أي حال كنتم، وجاهدوا بالنفس والمال، ولا تتلمسوا الأعذار، بل ابذلوا الجهد واستفرغوا الطاقة، فإن الجهاد خير لكم من القعود، لأن فيه رضي الله تعالى، والفوز بالنعيم المقيم، والنصر على العدو.

ولم يستثن الله تعالى من الجهاد إلا ما ذكرته الآية ﴿لَيْسَ عَلَى الضَّعَفَاءِ وَلَا عَلَى الْمَرْضَى وَلَا عَلَى الَّذِينَ لَا يَحْدُونَ مَا يُفْقُونَ حَرْجٌ إِذَا نَصَحُوا لِلَّهِ وَرَسُولِهِ﴾ [التوبة: ٩١].

جاء ابن أم مكتوم رضي الله عنه فقال للنبي ﷺ: أَعَلَيَّْ أَنْ أَنْفِرَ؟ فقال له: «نعم»، حتى نزلت ﴿لَيْسَ عَلَى الْأَعْمَى حَرْجٌ وَلَا عَلَى الْأَعْرَجِ حَرْجٌ وَلَا عَلَى الْمَرِيضِ حَرْجٌ﴾^(١) [الفتح: ١٧].

هؤلاء المذكورون في الآية، هم الذين يُؤذَن لهم في التخلف عن الجهاد، وما عدا ذلك فهم مأمورون بالخروج للقتال.

والقتال يكون فرض عين على كل فرد مسلم بالمال، والنفس، واللسان، إذا احتل العدو جزءًا من أجزاء وطن المسلمين، فإذا لم يستطع أبناء هذا الوطن ردَّ العدو ودَّخْرَه، فالجهاد يكون فرض عين على من يلي هذه الدولة، فإن لم يكف ذلك، فالدولة التي تليها، وهكذا، فإن لم يكف ذلك فالمسلمون أجمع.

والجهاد في حالة السلم لنشر الدعوة وعدم التعرض لها يكون فرض كفاية ﴿وَمَا كَانُوا الْمُؤْمِنُونَ لِيَنْفِرُوا كَافَّةً﴾ [التوبة: ١٢٢]. حيث تخرج طائفة من المسلمين لنشر الدعوة، وتبقى طائفة لطلب العلم.

أما في حالة الحرب وتسلب العدو، باحتلاله جزءًا من بلاد المسلمين أو مقدساتهم، أو بعرقلة نشر الدعوة، فالجهاد فرض عين.

ومن الآثار الواردة في هذه الآية، ما جاء:

١- عن سفيان بن عيينة، عن ابن جدعان، عن أنس رضي الله عنه، قال: قرأ أبو طلحة رضي الله عنه ﴿أَنْفِرُوا خِفَافًا وَثِقَالًا﴾ فقال: ما أسمع الله عذرًا أحدًا، فخرج مجاهدًا إلى الشام حتى مات^(٢).

(١) «تفسير ابن عطية» (٣/ ٣٧).

(٢) «تفسير الطبري» (٩٧/ ١٠) وفي سنده ابن جدعان وهو ضعيف.

٢- وفي رواية: قرأ هذه الآية أبوطلحة، فقال لبيته وهو رجل كبير: جهّزوني، أرى أن الله قد استغفرني فقال: ﴿خَفَافًا وَثِقَالًا﴾ أي: شابًا وشيوخًا قالوا: يرحمك الله، لقد غزوت مع رسول الله حتى مات، وغزوت مع أبي بكر حتى مات، وغزوت مع عمر حتى مات، فنحن نغزو عنك، فأبى، وقال: إن الله قد استغفرنا جميعًا، فلا أرى لي من عذر، جهّزوني فجهّزوه وركب البحر مسافرًا للغزو، ثم مات قبل الوصول إلى أرض المعركة، ولم يجدوا له جزيرة يدفونه فيها إلا بعد سبعة أيام فدفنوه فيها^(١).

ولم تتغير رائحة جثته بعد موته بسبعة أيام؛ لأنه كان صادقًا مع الله ومع رسوله في العزم على الجهاد في سبيل الله.

٣- وهذا رجل من أهل دمشق حين قرأ هذه الآية خرج للجهاد، وكان شعره حاجبه قد تدلى على عينيه من كبر سنه، فأقبل عليه صفوان بن عمرو والي حمص، قال: يا عمّ، لقد أعذر الله إليك، قال: فرفع حاجبه فقال: يابن أخي، إن الله استغفرنا للجهاد شابًا وشيوخًا، خفافًا وثقالًا، ألا إنه من يحبه الله يتليه، ثم يعيده الله فيبيقه، وإنما يتلي الله من عباده من شكر وصبر وذكر، ولم يعبد إلا الله ﷻ^(٢).

٤- وجاء في الحديث عن أبي هريرة ؓ أن رسول الله ﷺ قال: «تكفل الله لمن جاهد في سبيله، لا يخرج من بيته إلا جهاد في سبيله وتصديق كلمته، بأن يدخله الجنة أو يرجعه إلى مسكنه الذي خرج منه مع ما نال من أجر، أو غنيمة»^(٣).

ولهذا قال الله تعالى: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهُ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٢١٦].

٥- قال السدي: قوله: ﴿انْفِرُوا خِفَافًا وَثِقَالًا﴾ يقول: غنيًا وفقيرًا، وقويًا وضعيفًا،

(١) يُنظر: ابن أبي حاتم (١٨٠٢/٦) وأخرجه ابن حبان في الإحسان (١٥٢/١٦) «٧١٨٤» وصححه الحاكم على شرط مسلم، وسكت عنه الذهبي، «المستدرک» (٣٥٣/٣) وعزاه الهيثمي في «مجمع الزوائد» (٩/ ٣١٢) إلى أبي يعلى (٣٤١٣) والطبراني وقال: رجاله رجال الصحيح، وهو عند ابن سعد (٥٠٧/٣) وعبد الله بن أحمد ص (٢٥٠).

(٢) الطبري (٢٦٤/١٤).

(٣) «صحيح مسلم» برقم (١٨٧٦) و«صحيح البخاري» برقم (٣١٢٣).

فجاءه رجل يومئذ زعموا أنه المقداد، وكان عظيمًا سمينًا فشكا إليه، وسأله أن يأذن له فأبى، فنزلت يومئذ هذه الآية، فلما نزلت اشتد ذلك على الناس فأنزل الله ﴿لَيْسَ عَلَى الضَّعْفَاءِ وَلَا عَلَى الْمَرْضَى وَلَا عَلَى الَّذِينَ لَا يَحْدُونَ مَا يُنْفِقُونَ حَرَجٌ إِذَا نَصَحُوا لِلَّهِ وَرَسُولِهِ﴾^(١) [التوبة: ٩١].

٦- وقال مجاهد: إن أبا أيوب الأنصاري شهد بدرًا والمشاهد كلها مع رسول الله ﷺ ولم يتخلف عن غزوة غزاها المسلمون بعده، فسئل عن ذلك، فقال: سمعت الله ﷻ يقول: ﴿أَنْفِرُوا خِفَافًا وَثِقَالًا﴾ ولا أجذني إلا خفيفًا أو ثقیلاً^(٢).

٧- وقال الزهري: خرج سعيد بن المسيب، وكانت قد ذهبت إحدى عينيه، فقيل له: إنك عليل، صاحب ضرٍّ، فقال: استنفر الله الخفيف والثقيل، فإن لم يُمكنني الحرب كثرت السواد، أو حفظت المتاع^(٣).

٨- وروى ابن جرير عن أبي راشد الحُبْراني قال: وافيت المقداد بن الأسود، فارس رسول الله ﷺ جالسًا على تابوت من تابوت الصيارفة بحمص، وقد فضل عنها من عظمه، أي: أنه كبير الحجم، ضعيف، كبير السن يريد الغزو، فقلت له: قد أعذر الله إليك، فقال: أتت علينا سورة البحوث، أي: التوبة ﴿أَنْفِرُوا خِفَافًا وَثِقَالًا﴾^(٣).

وبمثل هذا الجِد، وهذه الروح، انطلق المسلمون يفتحون بلاد الله، وينشرون دين الله؛ لإخراج الناس من عبادة العباد إلى عبادة الواحد القهار، فدان لهم العباد والبلاد.

وفي الآية وصف لأكمل ما يكون الجهاد وأنفعه، وقد أدرك المؤمنون هذا المعنى فامتثلوا أمر ربهم ونفروا خفافًا وثقالًا دون تباطؤ ولا تقاعس.

ويختم الله الآية بقوله: ﴿ذَلِكُمْ﴾ أي: الخروج للجهاد، وبذل المال في سبيل الله ﴿حَيْرٌ لَّكُمْ﴾ من التثاقل، والإمساك، والتخلف عن الجهاد، فهو خير في الدنيا بوراثه

(١) «تفسير ابن كثير» (١٥٧/٤) و«زاد المسير» (٤٤٢/٣) و«الدر المنثور» (٢٤٦/٣) وهو عند ابن أبي حاتم (١٨٠٣/٦).

(٢) من «تفسير البغوي والخازن» والقرطبي للآية.

(٣) «تفسير الطبري» (٢٦٨/١٤).

الأرض، وغلبة العدو، وخير في الآخرة بالثواب العظيم، ورضوان الله ﴿إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ فضل الجهاد، وثوابه عند الله، فافعلوا ذلك، واستجيبوا لله والرسول.

والأمر بنفير الجميع في الآية، محمول على تعيين الجهاد على كل فرد بعينه حين يدخل العدو جزءاً من أجزاء وطن المسلمين، فيجب القتال على أهل البلد جميعاً رجالاً ونساء، شباباً وشيوخاً، وفيما عدا هذه الحالة فالجهاد فرض كفاية.

فهذه الآيات الأربع اشتملت على أقوى الأساليب التي ترغب في الجهاد، وترهب من النكوص عنه، وتبعث على طاعة الله ورسوله.

فَضْحُ أَعْذَارِ الْمُنَافِقِينَ

٤٢- ﴿لَوْ كَانَ عَرَضًا قَرِيبًا وَسَفَرًا قَاصِدًا لَاتَّبَعُوكَ وَلَكِنْ بَعَدَتْ عَلَيْهِمُ^(١) الشُّقَّةُ وَسَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَوِ اسْتَطَعْنَا لَخَرَجْنَا مَعَكُمْ يُهْلِكُونَ أَنْفُسَهُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾

ثم أخذت السورة في بيان قبائح المنافقين وكشف ضمائرهم، وأعذارهم الواهية، وتوبيخ المتخلفين منهم عن رسول الله في غزوة تبوك، وفي الآية تغيير الأسلوب من الخطاب إلى الغيبة، وهو من أساليب البلاغة؛ لجذب انتباه السامع.

والمعنى: لو كان خروج هؤلاء المنافقين إلى غنمة سهلة قريبة، أو متاع من متاع الدنيا لخرجوا معك، ولكن لما دُعوا إلى قتال الروم في أطراف الشام في وقت الحر، وكان ذلك لوجه الله وإعلاء كلمته، تخلفوا وتخاذلوا.

والسفر القاصد هو السفر القريب السهل، فلو كان فيما تدعوهم إليه مغنم قريب، حاضر التناول، وسفر سهل قريب المسافة، لاتبعوك ووافقوك ﴿وَلَكِنْ بَعَدَتْ عَلَيْهِمُ الشُّقَّةُ﴾ وهي المسافة التي لا تُقطع إلا بعد تكبُّد المشقة والتعب، فهم قد خافوا من طول المسافة في السفر وشدة الزمان، واستعظموا قتال الروم.

وقريب من هذا المعنى ما جاء في شأن المتخلفين عن صلاة العشاء من حديث أبي

(١) قرأ أبو عمرو بكسر الهاء والميم من (عليهم الشقة) وضمهما حمزة والكسائي وخلف ويعقوب، وكسر الهاء وضم الميم الباقيون، والكل يسكن الميم عند الوقف عليها ويكسرون الهاء، عدا حمزة ويعقوب، فبضمهما.

هريرة رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «لو يعلم أحدهم أنه يجد عَرْقًا سمينًا، أو مِرْمَاتَيْنِ حَسْتَيْنِ لشَهِدَ العِشاءَ»^(١).

والمرماتين: العظم الذي يحمل اللحم، أي: لو يعلم المتخلف عن صلاة العشاء في جماعة، أنه سيجد عند حضوره لها شيئًا من اللحم لحضرها.

ثم أخبر الله رسوله بما سيحدث منهم عند عودة النبي ﷺ من الغزوة، فيعتذرون إليه ويحلفون كذبًا أن العذر منعهم من الخروج مع النبي ﷺ وهو أمر غيبي يُطْلَعُ الله نبيه عليه سلفًا ﴿وَسَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَوِ اسْتَطَعْنَا لَخَرَجْنَا مَعَكُمْ﴾ أي: لو وجدنا وسائل للجهاد متوفرة، من زاد وعُدّة وقوة بدن، لخرجنا إلى الغزوة معكم، وهكذا يخبر الله رسوله بما سوف يحدث منهم، من أنهم سوف يعتذرون إليك -أيها الرسول- عند رجوعك إليهم؛ لتخلفهم عن الخروج معك، وأنهم سوف يحلفون على أنهم لم يستطيعوا الخروج معك.

ثم أخبر سبحانه أنهم كاذبون في دعواهم، وأنهم يهلكون أنفسهم بالكذب والنفاق ﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾ فيما يبدون لك من أعذار، وقد كانوا يستطيعون الخروج، ولكنهم لم يخرجوا كسلًا وتثاقلاً.

ويؤخذ من هذا أن اليمين الفاجرة تؤدي إلى الخسران والهلاك، كما جاء في الأثر: اليمين الغموس تدع الديار بلاقع.

وهذا العتاب للمنافقين المتخلفين عن غزوة تبوك، الذين أبدؤا أعذارًا كاذبة، فعفا عنهم النبي ﷺ وقد عاتبه الله على هذه المسارعة في قبول عذرهم:

عِتَابُ الرَّسُولِ ﷺ فِي إِذْنِهِ لِلْمُتَخَلِّفِينَ

٤٣- ﴿عَفَا اللَّهُ عَنْكَ لِمَ أَذْنَتْ لَهُمْ حَتَّى يَبَيِّنَ لَكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَتَعْلَمَ الْكَاذِبِينَ﴾

(١) صحيح البخاري برقم (٦٤٤) وصحيح مسلم (٦٥١) وصحيح الجامع الصغير برقم (٧٠٧٢) عن أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) وقف البزي ويعقوب بهاء السكت وعدمها على (لم)، والباقون بسكون الميم عند الوقف عليها.

استأذن فريق من المنافقين النبي ﷺ في التخلف عن غزوة تبوك يبلغ عددهم تسعة وثلاثين رجلاً، واعتذروا بمعاذير واهية، حيث طلب بعضهم الإذن في عدم الخروج خلوداً للراحة، وقال بعضهم: ائذن لي ولا تفتني، ومنهم: عبد الله بن أبي بن سلول، والجد بن قيس، ورفاعة بن التابوت، فأذن لهم الرسول ﷺ حملاً لهم على ظاهرهم من الصدق، فعاتبه الله تعالى في هذه الآية على إذنه لهم؛ لأنه لو لم يأذن لهم لَقَعْدُوا أَيضاً، فيكون هذا دليلاً له على نفاقهم كما قال تعالى: ﴿وَلَوْ نَشَاءُ لَأَرَيْنَاكَهُمْ فَلَعَرَفْتَهُمْ بِسَمِهِمْ وَلَعَرَفْنَهُمْ فِي لَحْنِ الْقَوْلِ﴾ [محمد: ٣٠].

ويطمئنه ربه قبل العتب عليه بالعفو والصفح إكراماً له ﷺ، ثم يأتي العفو بصيغة الاستفهام إشارة إلى أنه ﷺ ما أذن لهم إلا بسبب ظاهرهم من الصلاح، وأن العلة الحقيقية قد خفيت عليه، وكان الأولى به أن يتبين حالهم.

وهذا الإذن خلاف الأولى وقد عاتبه ربه عليه، فقال: ﴿عَفَا اللَّهُ عَنْكَ﴾ يا محمد ما وقع منك من ترك الأولى والأكمل، وهو إذكاء للمنافقين في القعود عن الجهاد.

ويأتي هذا العتب في صورة الاستفهام: ﴿لِمَ أَذْنَتْ لَهُمْ﴾ لأي سبب أذنت لهؤلاء بالتخلف عن الغزوة؟ ولو قدّم الله تعالى، لِمَ أَذْنَتْ لَهُمْ؟ على العفو، لكان في هذا خوف للنبي ﷺ من العقوبة، ولكنه سبحانه قدّم العفو لتطمين النبي ﷺ على عدم المؤاخظة.

ثم بيّن سبحانه سبب هذا العتاب، فقد كانوا مصرين على القعود ولو لم يؤذن لهم، فقال تعالى: ﴿حَتَّى يَبَيِّنَ لَكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَتَعْلَمَ الْكَاذِبِينَ﴾ أي: حتى يظهر لك الذين صدقوا في اعتذارهم، وتعلم الكاذبين في ذلك.

والمراد بالعفو: عدم المؤاخظة على ترك الأولى والأفضل، وافتتح به الكلام، كما يقال: أصلحك الله وأعزك ورحمك، كان منك كذا وكذا. قال بعض العلماء: هل سمعتم بعتاب أحسن من هذا؟ لقد خاطبه سبحانه بالعفو قبل أن يذكر المعفو عنه.

وإذن النبي ﷺ لهم، كان اجتهداً منه فيما لا نصّ فيه من الوحي، وهو جائز الوقوع من الأنبياء؛ لأن عصمتهم خاصة بتبليغ الوحي وبيانه والعمل به، فيستحيل على الرسول -أي رسول- أن يكذب أو يخطئ فيما يبلغه عن ربه، أو يخالفه بالعمل.

وهذه الآية نزلت في قوم من المنافقين استأذنوا الرسول ﷺ في التخلف عن الجهاد دون عذر مقبول، وكان نزولها مع السورة في العام التاسع من الهجرة، ونزل قبلها في العام الرابع في شأن غزوة الأحزاب قوله تعالى: ﴿فَإِذَا اسْتَأْذَنُوكَ لِبَعْضِ شَأْنِهِمْ فَأُذِنَ لِمَنْ شِئْتَ مِنْهُمْ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ اللَّهُ﴾ [النور: ٦٢]. وهذا في شأن بعض المؤمنين الذين استأذنوا الرسول ﷺ في بعض شؤون بيوتهم في بعض الأوقات، فأذن لهم النبي ﷺ بعد أمر الله تعالى له، فبين الآيتين اختلاف في المعنى، وفي سورة الأنفال عتاب من الله تعالى لرسوله ﷺ في شأن أسارى بدر سبق بيانه.

الْمُؤْمِنُ لَا يَتَخَلَّفُ عَنِ الْجِهَادِ

٤٤ - ﴿لَا يَسْتَفْذِلُكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ أَنْ يُجَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالْمُتَّقِينَ﴾
أخبر سبحانه أن المؤمن لا يتخلف عن الجهاد في سبيل الله بنفسه وماله، لأن رغبته فيما عند من أجر ومثوبة تحثه على الجهاد.

وفي هذا تعبير لمن يستأذن في القعود عن الجهاد بغير عذر، وقد عذر الله المؤمنين الصادقين في قوله: ﴿فَإِذَا اسْتَأْذَنُوكَ لِبَعْضِ شَأْنِهِمْ فَأُذِنَ لِمَنْ شِئْتَ مِنْهُمْ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ اللَّهُ﴾ [النور: ٦٢].

حيث تبين السورة القاعدة التي تميز المؤمن من المنافق في الجهاد، فالمؤمن لا يعتذر ولا يستأذن في التخلف عن الجهاد؛ لأنه يعلم ما عند الله من الأجر العظيم للمجاهدين في سبيله، والمؤمنون الذين تخلفوا وكانوا على نية اللحاق بالجيش ليسوا منافقين؛ إذ ليس من شأن المؤمن بالله ورسوله التخلف عن الجهاد في سبيل الله، والمتقون الذين يخافون الله، ويسارعون إلى طاعته، ويؤدون فرائضه، ويجتنبون نواهيه، يسارعون إلى الجهاد بقلوب مشتاقة، ونفوس تتمنى الشهادة في سبيل الله، فخير الناس رجل ممسك بعنان فرسه كلما سمع صيحة للجهاد سارع إليها.

ثَلَاثَةُ أَوْصَافٍ لِلْمُنَافِقِينَ الْمُتَخَلِّفِينَ عَنِ الْجِهَادِ

٤٥ - ﴿إِنَّمَا يَسْتَأْذِنُكَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَاتَّابَتْ قُلُوبُهُمْ فَهُمْ فِي رَيْبِهِمْ يَتَرَدَّدُونَ﴾

والمنافق هو الذي يخلق الأعذار والأسباب للتخلف عن الجهاد، وقد جاء هذا بأسلوب الحَضَر والقَصْر، أي: وإنما يطلب الإذن في القعود عن الجهاد، غير المؤمنين بالله إيماناً كاملاً، وغير المصدقين بيوم الجزاء وما فيه من ثواب وعقاب، تصديقاً جازماً، ولم يعملوا صالحاً، وشكَّت قلوبهم في صحة ما جئت به - أيها الرسول - من الإسلام وشرائعه، فهم في شكهم يترددون ويتحIRON، يقدمون رجلاً ويؤخرون أخرى، فليسوا مع الكافرين ولا مع المؤمنين.

ويؤخذ من الآية: أن المرء لا ينبغي له أن يستأذن أخاه في أن يُسدي إليه معروفًا، ولا يستأذن الضيف في أن يقدم له طعامًا أو شرابًا، فإن الاستئذان علامة التكلف والكُره وعدم الرغبة، فمن قال لك: أأأكل؟ أو هل آتيك بعصير أو قهوة؟ فقل له: لا؛ لأنه لو أراد أن يكرمك لما استأذنتك، ولا ينبغي الاستئذان في أداء الواجبات والفضائل؛ كإكرام الضيف، وإغاثة الملهوف، وسدِّ حاجة المحتاجين والفقراء، وقد مدح الله تعالى خليل الرحمن لما جاءه الضيوف فمال إلى أهله مباشرة دون استئذانهم، وما لبث أن جاءهم بعجل سمين مشوي.

وقد وصف الله المنافقين في هذه الآية بثلاثة أوصاف:

أولاً: وصفهم بعدم الإيمان الكامل بالله، وهذا يتضمن كفرهم به سبحانه ﴿إِنَّمَا يَسْتَأْذِنُكَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ﴾ أي ليس لهم إيمان تام ولا يقين صادق، ولذلك قلت رغبته في الخير، وجَبُّوا عن القتال، واحتاجوا إلى الاستئذان.

ثانياً: وصفهم بعدم الإيمان باليوم الآخر؛ لأنهم لو آمنوا باليوم الآخر وما أعده الله للمجاهدين والشهداء من عظيم الأجر لَمَّا تخلفوا عن الجهاد في سبيل الله.

ثالثاً: وصفهم بأن قلوبهم -وهي محل المعرفة والإيمان- في شك وتردد، فهم في تذبذب وحيرة واضطراب، لا إلى هؤلاء ولا إلى هؤلاء. هذا هو شأن المنافقين.

أما المؤمنون فهم يسارعون إلى طاعة الله وجهاد عدوهم من غير استئذان، فإذا عرض لأحدهم عذر استأذن في التخلف، ورسول الله ﷺ مخير في الإذن لهم بمقتضى قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ ءَامَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَإِذَا كَانُوا مَعَهُ عَلَىٰ أَمْرٍ جَامِعٍ لَّمْ يَذْهَبُوا حَتَّىٰ يَسْتَأْذِنُوهُ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَأْذِنُونَكَ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ فَإِذَا أَسْتَأْذَنُوكَ لِبَعْضِ شَأْنِهِمْ فَأَذَنَ لِمَن شِئْتَ مِنْهُمْ وَاسْتَغْفِرَ لَهُمُ اللَّهُ إِنَّكَ اللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١١٢﴾﴾ [النور: ٦٢]. والشاهد من الآية ﴿فَأَذَنَ لِمَن شِئْتَ مِنْهُمْ﴾.

أما المنافقون فقد كانوا يستأذنون في التخلف عن الجهاد من غير عذر، ففضح الله حالهم ونفى عنهم الإيمان الذي أظهره خوفاً على مصالحهم، وأبطنوا الكفر حفاظاً على دينهم الفاسد.

مَفَاسِدُ وُجُودِ الْمُنَافِقِينَ فِي صُفُوفِ الْمُجَاهِدِينَ

٤٦- ﴿وَلَوْ أَرَادُوا الْخُرُوجَ لَأَعَدُّوا لَهُ عُدَّةً وَلَكِنَّ كَرِهَ اللَّهُ لِعُنَاتِهِمْ فَبَبَطَتْهُمْ وَقِيلَ لَهُمْ أَفْعَدُّوا مَعَ الْكَافِرِينَ﴾

ثم استدل سبحانه على عدم إرادتهم للخروج، فكذبهم في زعمهم أنهم قد استعدوا له، فقد ظهر منهم من القرائن ما يدل على أنهم لم يقصدوا الخروج للجهاد بالكلية، وأن ما قدموه من أعذار ليست صحيحة، فإن العذر يكون بعد بذل العبد ما في وسعة من أسباب ثم يمنعه مانع شرعي، فهذا هو الذي يعذر.

لقد علّم الله سبحانه أن خروج المنافقين للغزو مع رسول الله ﷺ سوف يكون فيه اضطراب وضرر، وفساد على المسلمين، فببّطهم الله سبحانه وصرفهم عنه، فحبسهم وحال بينهم وبين الخروج للجهاد؛ لما في ذلك من المفسدة العظيمة.

وقد أخبر الله تعالى عن هذه المفسدة: بأنها بثُّ الجُبْنِ والفَسَلِ بين صفوف المؤمنين، بتحويل الأمر، وبُعد السفر، وكثرة العدو وقوته، والإيقاع بين المؤمنين بالنميمة والبغضاء والفتنة، والعمل على تفريق جماعة المؤمنين وإلقاء العداوة بينهم.

يقول سبحانه مقيماً الحجة على المنافقين: ﴿وَلَوْ أَرَادُوا الْخُرُوجَ﴾ وكان لهم نية في الغزو ﴿لَأَعَدُّوا لَهُ عُدَّةً﴾ أي: لو أراد المنافقون الخروج معك -يا محمد- إلى الجهاد،

لتأهبوا له بالزاد والراحلة والسلاح، والتهيؤ للغزو، واستعدوا له بجميع الوسائل، ولكن كره سبحانه أن يخرجوا معكم، فتثقل عليهم الخروج مع ما أمرهم به شرعاً، ولم يبتعث فيهم الهمة، فثبّطهم وزهّدهم في الخروج وكسلهم عنه، وقيل لهم: اقعدوا مع القاعدين من النساء والمرضى والعجزة والصبيان، وإذا كان الله قد حبسهم عن الخروج للغزوة، فإن عتاب الله لنيبه في الإذن لهم بالتخلف؛ نظراً؛ لأنه أسرع في الإذن لهم قبل أن يوحى إليه في شأنهم.

ثَلَاثُ مَفَاسِدَ فِي خُرُوجِ الْمُنَافِقِينَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ فِي الْجِهَادِ

٤٧- ﴿لَوْ خَرَجُوا فِيكُمْ مَا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا وَلَا أُضْعِفُوا خَلْقَكُمْ يَبْغُونَكُمْ الْفِتْنَةَ وَفِيكُمْ سَمْعُونُ لَهُمُ وَاللَّهُ عَلَيْهِمُ بِالظَّالِمِينَ﴾ (٤٧)

لما خرج رسول الله للغزوة، ضرب عسكره على ثنية الوداع، وضرب عبد الله بن أبي عسكره على ذي حدة، أسفل من ثنية الوداع، فلما سار رسول الله ﷺ تخلف عنه عبد الله بن أبي بن خلف من المنافقين، فأنزل الله تعالى يُعْزِي نَبِيَّهٖ ﴿لَوْ خَرَجُوا فِيكُمْ مَا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا﴾ (١).

ثم إن خروج المنافقين مع المؤمنين لم يكن فيه مصلحة، بل كان فيه مفسدة، وهذه المفسدة مكونة من ثلاث نقاط بيّنها الله تعالى في هذه الآية، وقد كان عتاب الله لنيبه في الإذن لهم؛ لأنه كان قبل أن يوحى إليه في أمرهم بالقيود؛ لأن الكثرة العددية في الجيوش لا تؤتي ثمارها ما لم تجمعها العقيدة والهدف والاتجاه.

ولو أن المنافقين خرجوا مع المؤمنين للجهاد، لنشروا الاضطراب والفساد وألوان الشرور والبغضاء بين صفوفهم، وبثوا بينهم الفتن والدسائس، وتفرق الكلمة وتمزيق الصف.

(١) «أسباب النزول» للواحدي (٢٠٨) والسيوطي (١٤٠).

يقول سبحانه: ﴿لَوْ خَرَجُوا فِيكُمْ مَا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا﴾ اضطراباً في الرأي، وفساداً في العمل، وضعفاً في القتال ﴿وَلَا وَضَعُوا خِلَالَكُمْ﴾ وذلك بتشيطكم عن الجهاد في سبيل الله، بهويل الأمر لكم، وأنكم لا طاقة لكم بهم وتفريق جماعتكم والسعي بالفساد بينكم، وأيضاً فإنهم ﴿يَبْغُونَكُمْ أَلْفَنَةً﴾ بالإشاعات الكاذبة، والأقوال الخبيثة، فيوقعون الخلاف بينكم، ويوهنون عزائمكم.

﴿وَفِيكُمْ﴾ أيها المؤمنون؛ ضعفاء العقول ﴿سَمَّعُونَ﴾ أي: جواسيس وعيون فيستجيبون لدعوتهم ويغترثون بهم وينصتون ﴿لَهُمْ﴾ حيث يبلغونهم أخباركم ويستحسنون أفعالهم، ويسارعون في طاعتهم، ومنكم من يحبونهم ويستمعون لأقوالهم؛ لأنهم أصحاب شرف ومكانة، فيقبلون قولهم، ويستمعون لنصيحتهم، وهكذا، فإن بعض المؤمنين لهم أقارب ورؤساء من المنافقين، يتأثرون بأقوالهم وأحوالهم، فلهذا الحكمة حيث ثبطهم ومنعهم من الخروج مع عباده المؤمنين ﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ﴾ وعيد وتهديد للمنافقين الظالمين.

وقد أخبر الله تعالى عن أحوالهم، وبيّن أن هذا هو شأن المنافقين في آيات كثيرة، منها قوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّا كَتَبْنَا عَلَيْهِمْ أَنْ اقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ أَوْ أَخْرِجُوا مِنْ دِينِكُمْ مَا فَعَلُوهُ إِلَّا قَلِيلٌ مِّنْهُمْ﴾ [النساء: ٦٦].

وقد أوضحت الآية أن هناك ثلاث مفاصد، كانت ستترتب على خروج المنافقين مع المؤمنين إلى تبوك لو خرجوا معهم وهي:

- أ- وجود الاضطراب والفوضى بين صفوف المجاهدين.
 - ب- الإسراع بينهم بالوشايات، والنمائم، والإشاعات الكاذبة.
 - ج- الحرص على تفريق كلمتهم، وتشكيكهم في عقيدتهم.
- وهذه المفاصد الثلاث ما وُجدت في جيش إلا أدت إلى انهزامه وفشله^(١).

(١) يُنظر: «التفسير الوسيط» للشيخ سيد طنطاوي في هذه المفاصد الثلاث (٦/ ٣١٠).

ومن هنا كان تثييط الله للمنافقين نعمة كبرى على المؤمنين؛ نظرًا لما حدث منهم من قبل في يوم أحد وغيره، فقد سبق لهم نظائر في الشر.

٤٨ - ﴿لَقَدْ ابْتَغَوُا الْفِتْنَةَ مِنْ قَبْلُ وَقَلَبُوا لَكَ الْأُمُورَ حَتَّى جَاءَ الْحَقُّ وَظَهَرَ أَمْرُ اللَّهِ وَهُمْ كَارِهُونَ﴾

ثم بين سبحانه أنه أبطل سعي المنافقين في محاولاتهم السابقة بعد قدوم النبي ﷺ إلى المدينة... لقد ابتغى المنافقون فتنة المؤمنين وصدّهم عن دين الله، وتخذيل الناس قبل غزوة تبوك، وكشف أمرهم كما فعل عبد الله ابن أبي بن سلول رئيس المنافقين حين رجع بثلاث الجيش في غزوة أحد، وما كان منهم في يوم الأحزاب، ﴿وَقَلَبُوا لَكَ الْأُمُورَ﴾ فأعملوا فكرهم وأداروه ظهرًا لبطن، وصرفوا الأمور على جميع وجوها للقضاء عليك وعلى دعوتك، ودبروا لك المكائد والحيل حتى جاء النصر من عند الله، فأعز الله جنده، ونصر عبده، وأعلى كلمته، ودخل الناس في دين الله أفواجًا ﴿وَهُمْ كَارِهُونَ﴾ له، فظهر الدين رغمًا عنهم.

مِثَالٌ مِنْ أَعْذَارِ الْمُتَخَلِّفِينَ عَنْ غَزْوَةِ تَبُوكَ

٤٩ - ﴿وَمِنْهُمْ مَن يَكُولُ أُذُنَ لِي^(١) وَلَا لَنِيَّيْ أَلَا فِي الْفِتْنَةِ سَقَطُوا وَإِنَّ جَهَنَّمَ

لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ﴾

هذه الآية تعود على المنافقين الذين طلبوا الإذن من الرسول ﷺ وهم لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر، من الذين صرّحوا بأن خروجهم للغزو يفتنهم؛ لمحبة أموالهم وأهلهم، وقد فضح الله أمرهم بأنهم منافقون، وفي نهاية الآية بين تعالى أنهم وقعوا في الفتنة المفضية إلى الكفر، والكافر يستحق جهنم.

وقد ذكر القرآن نماذج من هؤلاء المنافقين المتخلفين عن غزوة تبوك وأعذارهم المخزية، ومنهم: الجد بن قيس من بني سلمة، ومن رؤساء المنافقين، قال له النبي ﷺ:

(١) قرأ ورش وأبو جعفر وأبو عمرو بإبدال الهمزة واوًا ساكنة وصلًا، من (يقول ائذن لي)، والباقون بإثبات الهمزة ساكنة بعد همزة الوصل الساقطة وصلًا، أما عند الابتداء بلفظ (ائذن لي) في مقام التعليم أو الاختبار، فكل القراء يبدلون الهمزة الساكنة ياء، من جنس حركة همزة الوصل قبلها، فهي مكسورة؛ لأن ثالث الفعل مفتوح.

«يا أبا وهب، هل لك في جلاذ بني الأصفر» يعني: في قتال الروم، قال: يا رسول الله: لقد عرف قومي أنني رجل مغرم بحب النساء، ولا أتمالك نفسي إذا رأيتهن، وإنني أخشى إن رأيت بنات بني الأصفر -أي: بنات الروم والشام- ألا أصبر عنهن، ائذن لي في القعود ولا تفتني بهن^(١).

قال ابن عباس: اعتلّ الجد بن قيس، ولم تكن له علة إلا النفاق، فأعرض عنه رسول الله ﷺ وقال: «قد أذنْتُ لك»، فأنزل الله ﷻ فيه: ﴿وَمِنْهُمْ مَّن يَكْفُلُ أَثَدَّنَ لِي وَلَا تَفْتَنِي﴾.

أي: ومن هؤلاء المنافقين من يطلب الإذن في القعود عن الجهاد، ويقول: لا تُوقعني في الابتلاء، من فتنة الأموال والنساء، فلا تفتني بالخروج معك؛ حيث لا أصبر على رؤية النساء الجميلات.

وتصدّق الآية أيضاً على كل من يستأذن من المنافقين في التخلف عن الجهاد في سبيل الله في كل زمان ومكان، ولم يكن له عذر سوى أنه مفتون بمحبة ماله وأهله، وقد فضح الله أمرهم وكشف سترهم يوم تبوك، وبيّن أنهم منافقون، قال تعالى مبيّناً عقوبتهم: ﴿أَلَا فِي الْفِتْنَةِ سَقَطُوا﴾ أي: لأن كان هذا المنافق يخشى من فتنة النساء، فما وقع فيه من الفتنة في دينه كان أعظم؛ لأن الكفر بالله ورسوله، والتمرد على قبول التكاليف الشرعية أكبر مما خاف منه الجد بن قيس وأمثاله، لقد سقط هؤلاء في فتنة النفاق الكبير، وهي التخلف عن رسول الله ﷺ؛ حيث سقطوا في الفتنة الحقيقية، لأن التخلف مفسدة عظيمة وفتنة كبرى محققة، وهو معصية الله والرسول.

أما الخروج للغزوة فإن المفسدة التي يذكرها (الجد) متوهمة ومفتعلة، والقصد منها عدم الخروج لا غير، وإن جهنم لتحيط بهم وبأمثالهم يوم القيامة؛ لأنها تجمعهم فيها، فلا يفلت منهم أحد.

(١) الطبري (٢٨٧/١٤). والحديث في السلسلة الصحيحة برقم (٢٩٨٨).

الكَشْفُ عَنْ نَوَايَا الْمُنَافِقِينَ

٥٠- ﴿إِنْ تُصِيبَكَ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ^(١) وَإِنْ تُصِيبَكَ مُصِيبَةٌ يَقُولُوا قَدْ أَخَذْنَا أَمْرًا مِنْ قَبْلُ وَيَتَوَلَّوْا وَهُمْ فَرِحُونَ ﴿٥٠﴾﴾

ثم كشف الله سبحانه عن نوايا المنافقين الذين قال فيهم: ﴿إِنَّمَا يَسْتَفْزِنُكَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾ فقال: ﴿إِنْ تُصِيبَكَ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ﴾ أي: إن يحصل لك - يا محمد - أمر يسرك؛ كالنصر والظفر والغنيمة، والصحة، والغنى فإن ذلك يُحزن المنافقين ويسوؤهم ﴿وَإِنْ تُصِيبَكَ مُصِيبَةٌ﴾ كهزيمة، أو نكبة أو شدة، أو مكروه، يفرحوا بها، وهذا من علامة النفاق، وهم مع هذا ﴿يَقُولُوا قَدْ أَخَذْنَا أَمْرًا مِنْ قَبْلُ﴾ أي: يقولوا: نحن أصحاب رأي وتدير، وقد احتطنا لأنفسنا بالتخلف عن الخروج معك للغزو قبل وقوع هذه المصيبة ﴿وَيَتَوَلَّوْا وَهُمْ فَرِحُونَ﴾ أي: ينصرفوا عنك وهم مسرورون بما أصابك من سوء.

أخرج ابن أبي حاتم عن جابر بن عبد الله رضي الله عنه قال: جعل المنافقون الذين تخلفوا بالمدينة يخبرون عن النبي صلى الله عليه وسلم أخبار السوء، يقولون: إن محمداً وأصحابه قد جهدوا في سفرهم وهلكوا، فبلغهم تكذيب حديثهم وعافية النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه، فساءهم ذلك، فأنزل الله هذه الآية^(٢).

قال تعالى: ﴿وَإِنْ تَصِيرُوا تَتَّقُوا لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئاً﴾ [آل عمران: ١٢٠].

الإِيمَانُ بِالْقَضَاءِ وَالْقَدَرِ

٥١- ﴿قُلْ لَنْ يُصِيبَنَا إِلَّا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَنَا هُوَ مَوْلَانَا وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ ﴿٥١﴾﴾

قل - يا محمد - لهؤلاء المتخاذلين الذين خلت قلوبهم من الإيمان بالقضاء والقدر، لن يصيبنا إلا ما قدره الله علينا، وكتبه في اللوح المحفوظ؛ لأن القلم قد جف بما كان وما يكون

(١) قرأ الأصهباني عن ورش وأبو جعفر بإبدال همزة (تسؤهم) واواً في الوصل والوقف، ومعهما حمزة عند الوقف فقط، والباقيون بسكون الهمزة.

(٢) «أسباب النزول» للسيوطي (١٤٠) والواحدي (٢٠٩) وانظر: «تفسير الطبري» (١٠/١٠٥).

إلى يوم القيامة، من خيرٍ أو شرٍ، فلا يقدر أحد أن يجلب سعادة لنفسه، أو يدفع عنها تعاسة ﴿هُوَ مَوْلَانَا﴾ ناصرنا وحافظنا ومتولي أمورنا الدينية والدنيوية، وعليه وحده يعتمد المؤمنون به، مع سعيهم وأخذهم بالأسباب.

١- في حديث عمران بن حصين رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «يدخل الجنة من أمتي سبعون ألفاً بغير حساب، قالوا: من هم يا رسول الله؟ قال: هم الذين لا يسترّقون، ولا يتطيرون، ولا يكتوون، وعلى ربهم يتوكلون» زاد في رواية: فقام عكاشة، فقال: ادع الله أن يجعلني منهم، فقال ﷺ: «أنت منهم» قال: فقام رجل فقال: يا نبي الله، ادع الله أن يجعلني منهم، قال: «سبقك بها عكاشة»^(١).

قيل: إن هذا الرجل كان منافقاً، وقيل: إن النبي ﷺ عرف منه أنه لا يصلح لهذه الدرجة من التوكل^(٢).

والآية تنص على أن ما يصيب الإنسان من خير وشر، أو شدة ورخاء، أو خوف ورجاء، إلا وهو مقدر أزلاً، ومكتوب في اللوح المحفوظ.

٢- ومن ذلك حديث أبي الدرداء رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «لكل شيء حقيقة، وما بلغ عبد حقيقة الإيمان حتى يعلم أن ما أصابه لم يكن ليخطئه وما أخطأه لم يكن ليصيبه»^(٣).

٣- وفي الترمذي وغيره عن ابن عباس رضي الله عنه قال: كنت خلف رسول الله ﷺ يوماً فقال: «يا غلام إني أعلمك كلمات: احفظ الله يحفظ، احفظ الله تجده تجاهك، إذا سألت فاسأل الله، وإذا استعنت فاستعن بالله، واعلم أن الأمة لو اجتمعت على أن ينفعوك بشيء لم ينفعوك إلا بشيء قد كتبه الله لك، ولو اجتمعوا على أن يضروك بشيء لم يضروك إلا بشيء قد كتبه الله عليك، رُفعت الأقلام وجفت الصحف»^(٤).

(١) «صحيح مسلم» برقم (٢١٨، ٢٢٠) مطولاً، و«صحيح البخاري» برقم (٦٤٧٢).

(٢) «تفسير ابن عطية» (٤٣/٣).

(٣) «المسند» (٤٤١/٦) برقم (٢٧٤٩٠) صحيح لغيره وعزاه الهيثمي لأحمد والطبراني وقال: رجاله ثقات، «مجمع الزائد» (١٩٧/٧) وصححه الألباني في «ظلال الجنة» وابن أبي عاصم في «السنة».

(٤) «سنن الترمذي» برقم (٢٥١٦) وقال: حديث حسن صحيح، وصححه أحمد شاكر في «المسند» برقم (٢٦٦٩) وصححه الألباني في «صحيح سنن الترمذي» برقم (٢٠٤٣).

فالمسلمون لا يكثرثون بالمصائب ولا يحزنون لها، لأنهم يعلمون أن ما أصابهم إنما هو بتقدير الله تعالى، وهو لمصلحة المسلمين في الدنيا أو الآخرة، والمؤمن يرضى بقضاء الله وقدره، ويثق بأن الله تعالى يقدر له الخير والنفع.

الْمُؤْمِنُ يَفُوزُ بِإِحْدَى الْحُسْنَيْنِ: النَّصْرِ أَوْ الشَّهَادَةِ

٥٢- ﴿قُلْ هَلْ تَرَبَّصُونَ بِنَا إِلَّا إِحْدَى الْحُسَيْنَيْنِ وَنَحْنُ نَتَرَبَّصُ بِكُمْ أَنْ يُصِيبَكُمْ اللَّهُ بِعَذَابٍ مِّنْ عِندِهِ أَوْ بِأَيْدِينَا فَتَرَبَّصُوا إِنَّا مَعَكُمْ مُتَرَبِّصُونَ﴾ (٥٢)

ثم بيّن ﷺ ما أجملته الآية السابقة، فأمر رسوله ﷺ أن يبين للمتناقلين عن القتال الذين يتربصون بكم الدوائر، أنكم لا تربصون بنا إلا أمرًا فيه غاية نفعنا، وذلك أن المؤمن المجاهد إما أن يفوز بالنصر أو الشهادة، وكلاهما حسن، فماذا تنتظرونه منا أيها المنافقون؟! إنه لا يخلو من أحد أمرين، كل منهما عاقبته حسنى بالنسبة لنا، وليس كما تزعمون من أن قتلنا في الغزو أمر سيئ تفرحون به، فالمسلم منا وهو في ساحة القتال، إما أن يغلب عدوه فيفوز بالنصر والغنيمة، وإما أن يقتله عدوه في سبيل الله فتحصل له المغفرة، والغاية القصوى من الجهاد، وهو الشهادة ﴿وَمَنْ يُقْتَلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيُقتَلْ أَوْ يَغْلِبْ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ [النساء: ٧٤].

ويدل على ذلك ما جاء في الصحيحين من حديث أبي هريرة ؓ: «تضمن الله لمن خرج في سبيله، لا يخرجه إلا جهاد في سبيلي، وإيمانًا بي، وتصديقًا برسلي، فهو ضامن عليّ أن أدخله الجنة، أو أرجعه إلى مسكنه الذي خرج منه بما نال من أجر أو غنيمة»^(٢) إنها الحسنى على كل حال.

ولكن ماذا يتربص المؤمنون بالمنافقين؟ ﴿وَنَحْنُ نَتَرَبَّصُ بِكُمْ﴾ أي: ننتظر أن يصيبكم الله بعقوبة من عنده، فيهلككم كما أهلك الأمم المكذبة قبلكم، أو تُصابون بالجوع والخوف، وهي عقوبة عاجلة في الدنيا، أو يصيبكم الله بعذاب كائن بأيدي المؤمنين، فيقتلونكم

(١) قرأ البري بخلف عنه بتشديد التاء وصلًا، مع إظهار اللام من (هل تربصون)، والباقون بالتخفيف وأدغم حمزة والكسائي وهشام بخلفه اللام في التاء.

(٢) من حديث طويل عن أبي هريرة في «صحيح مسلم» برقم (١٨٧٦) و«صحيح البخاري» برقم (٣٦، ٥٥٣٣).

ويأسرونكم، أو يظهرون عليكم ويقهرونكم، فتربصوا بنا العواقب، ونحن نتربص ما يحل بكم، فننظر ما الله فاعل بنا وبكم.

الكَافِرُ لَا يُقْبَلُ مِنْهُ عَمَلٌ صَالِحٌ

٥٣- ﴿قُلْ أَنْفِقُوا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا^(١) لَنْ يُقْبَلَ مِنْكُمْ إِنْكُمْ كُنْتُمْ قَوْمًا فَاسِقِينَ ﴿٥٣﴾﴾

ورد أن الجد بن قيس، لما استأذن في القعود عن الخروج لغزوة تبوك، قال للنبي ﷺ: ائذن لي وأنا أعينك بمالي، فأنزل الله تعالى ﴿قُلْ أَنْفِقُوا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا لَنْ يُقْبَلَ مِنْكُمْ﴾^(٢).
أي: قل -يا محمد- لهؤلاء المنافقين: أنفقوا أموالكم كيف شئتم، وعلى أي حال، طائعين من تلقاء أنفسكم، متبرعين بها، أو مُكرهين على الإنفاق، بإلزام رسول الله لكم، فلن يقبل الله منكم نفقاتكم على كل حال؛ لأن ما تبدلونه من النفقة ليست خالصة لله تعالى.
والآية عامة في كل من أنفق ماله رياءً وسمعة.

ثم علل سبحانه سبب منع القبول بقوله: ﴿إِنْكُمْ كُنْتُمْ قَوْمًا فَاسِقِينَ﴾ أي: لأنكم قوم خارجون عن دين الله وطاعته.

وفي الآية دليل على أن الكافر لا تقبل منه أعمال الخير والبر؛ كصلة الرحم، وإغاثة الملهوف، فلا يثاب عليها، ولا ينتفع بها في الآخرة، ولكنه يأخذ أجرها في الدنيا سعة في الرزق ونحوه:

١ - في صحيح مسلم عن عائشة ؓ قالت: قلت: يا رسول الله، ابنُ جُذعان كان في الجاهلية يصل الرحم، ويُطعم المسكين، فهل ذلك نافعه؟ قال: «لا ينفعه؛ إنه لم يقل يومًا: رب اغفر لي خطيئتي يوم الدين»^(٣).

قال تعالى: ﴿وَقَدْ مَنَّاَ إِلَى مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَنْثُورًا ﴿٢٣﴾﴾ [الفرقان: ٢٣]. غير أن الكافر لا يُحرم جزاء عمله الصالح في الدنيا.

(١) قرأ حمزة والكسائي وخلف العاشر بضم الكاف من (كرها)، والباقون بفتحها وهما لغتان.

(٢) «أسباب النزول» للسيوطي (١٤١) و«زاد المسير» (٤٥١/٢).

(٣) «صحيح مسلم» برقم (٢١٤).

٢ - كما في الحديث عن أنس رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الله لا يظلم مؤمناً حسنة، يُعطى بها في الدنيا، ويُجزى بها في الآخرة، وأما الكافر فيُطعم بحسنات ما عمل بها لله في الدنيا، حتى إذا أفضى إلى الآخرة لم تكن له حسنة يُجزى بها»^(١).

٣- وعن أنس أيضاً أنه حَدَّث عن رسول الله ﷺ: «إن الكافر إذا عمل حسنة أُطعم بها طُعمة في الدنيا، وأما المؤمن فإن الله يدخر له حسناته في الآخرة، ويعقبه رزقاً في الدنيا على طاعته»^(٢). ذلك لأن الكافر عُجِّلَتْ له حسناته في الدنيا، فهي سجن المؤمن وجنة الكافر.

ثَلَاثَةُ أَسْبَابٍ لِعَدَمِ قَبُولِ نَفَقَةِ الْكَافِرِ

٥٤- ﴿وَمَا مَنَعَهُمْ أَنْ تُقْبَلَ (٣) مِنْهُمْ نَفَقَتُهُمْ إِلَّا أَنْهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَلَا يَأْتُونَ الصَّلَاةَ إِلَّا وَهُمْ كُسَالَى وَلَا يُنْفِقُونَ إِلَّا وَهُمْ كَذِرُونَ﴾

ثم ذكر ﷺ ثلاثة أسباب لعدم قبول نفقة الكافر، وفيها دليل على كفر المنافقين الذين نزلت فيهم الآية، وهذه الأسباب الثلاثة هي:

أ- الكفر بالله تعالى، وتكذيبهم لرسول الله ﷺ، وإيمان بالله شرط في قبول العمل الصالح.

ب- التثاقل في الإتيان بالصلاة، والكسل عنها، وهي أفضل أعمال البدن.

ج- إنفاقهم للأموال عن كُره، واعتبارهم أن ذلك مَغْرَم لا مَغْنَم.

والكفر وحده كافٍ في عدم القبول، وذكر السببين الآخرين لأن الكفر يستلزمهما، فهم لا يرجون ثواباً ولا يخافون عقاباً، وفي هذا إشارة إلى تمكن الكفر منهم.

(١) حاشية الجمل على «الجلالين» (٢/٢٨٩) والحديث في «صحيح مسلم» برقم (٢٨٠٨).

(٢) «صحيح مسلم» برقم (٢٨٠٨).

(٣) قرأ حمزة والكسائي وخلف العاشر بياء التذكير في (أن تقبل منهم)؛ لأن الفاعل مؤنث غير حقيقي، وقرأ الباقون (تقبل) بياء التأنيث؛ لأن الفاعل مؤنث.

أي: وما منعهم الله قبول نفقاتهم إلا لأجل كفرهم، وعدم نفقتهم إلا على كراهية، فلا يقصدون وجه الله، ولا محبة المؤمنين، وفي هذا غاية الذم لمن فعل مثل فعلهم.

وقريب من هذه الآية قوله تعالى: ﴿إِنَّ الْمُنَافِقِينَ يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَهُوَ خَدِيعُهُمْ وَإِذَا قَامُوا إِلَى الصَّلَاةِ قَامُوا كُسَالًا يُرَاءُونَ النَّاسَ وَلَا يَذْكُرُونَ اللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا ۝٤٢﴾ مُدَبِّدِينَ بَيْنَ ذَلِكَ لَا إِلَى هَؤُلَاءِ وَلَا إِلَى هَؤُلَاءِ وَمَنْ يُضِلِلِ اللَّهُ فَلَنْ يَجِدَ لَهُ سَبِيلًا ۝٤٣﴾ [النساء]. والله تعالى طيب لا يقبل إلا طيبًا.

٥٥ - ﴿فَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ بِهَا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنْفُسُهُمْ وَهُمْ كَافِرُونَ ۝٥٥﴾

وبعد أن بين سبحانه قُبْح أفعال المنافقين، وما ينتظرهم من العذاب في الآخرة، بين سبحانه أن ما ينالهم من المنافع في الدنيا من المال والولد، هو في حقيقته سبب لعذابهم وإيلامهم، فقال تعالى: ﴿فَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ﴾.

والمعنى: لا تعجبوا أيها المؤمنون بما عند المنافقين والكفار من الأولاد والأموال، فلا تتطلّعوا إليها، ولا تستحسنوها، فإن كثرة المال والولد، قد تكون استدراجًا للعبد، فيُعْجَبَ بماله وولده، فيطرُ ويكفر بنعمة الله عليه، ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ بِهَا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ وذلك بسبب ما في نفوسهم من الشح والحرص على المال، فهم في عناء وشقاء وكبد في جمعه وتنميته وبعد ذلك يأتي الخوف عليه من النقصان والضياع، فبدل أن يكون المال سبب راحة ونعيم، يكون سبب شقاء وعذاب، وهذا شأن كل شحيح بخيل.

ولهذا: نهانا الله تعالى عن التطلع إلى ما عند الآخرين من متاع، قال تعالى: ﴿وَلَا تَمَدَّنْ عَيْنَيْكَ إِلَى مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْهُمْ زَهْرَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ وَرِزْقَ رَبِّكَ خَيْرٌ وَابْقَى ۝١٣١﴾ [طه]. وقد بين الله تعالى في هذه الآية أن المال والمتاع فتنة للعبد في الدنيا وابتلاء له.

وفي آية أخرى بين سبحانه أن الأموال والأولاد قد لا يكون فيهما خير للعبد، بل يكون

فيهما استدراج وامتحان، قال تعالى: ﴿أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُم بِهِ مِن مَّالٍ وَبَيْنٌ ﴿٥٥﴾ سَارِعٌ لَهُمْ فِي الْخَيْرَاتِ بَلْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٥٦﴾﴾ [المؤمنون].

وقال جلَّ شأنه: ﴿وَمَا أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ بِالَّتِي تُقَرِّبُكُمْ عِندَنَا زُلْفَىٰ إِلَّا مَن ءَامَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَأُولَٰئِكَ لَهُمْ جَزَاءُ الْوَعْدِ بِمَا عَمِلُوا وَهُمْ فِي الْغُرُفَاتِ ءَامِنُونَ ﴿٣٧﴾﴾ [سبا]. فلا تظنوا أن المنافقين قد نالوا شيئاً من الحظ العاجل، بل إن ذلك سبب لعذابهم في الآخرة.

وفي الآية كشف لسر من أسرار نفوس المنافقين، وبيان أنها جُبلت على الشح والبخل والحرص على الأموال، والافتتان بتوفيرها والخوف من ضياعها، وبسبب ذلك فهم في عناء وشقاء من جرّاء أموالهم.

بيان تعذيب المنافقين بأموالهم وأولادهم في الدنيا من وجوه:

أولاً: أن المؤمن يعلم أنه خُلِقَ للآخرة، فيُفْتَر حبه للدنيا، وأما المنافق فلا يؤمن بثواب الآخرة، فيشتد حبه للدنيا، وتعظم رغبته في شهواتها، فيتعذب في الدنيا، وتكثر آلامه عندما تفوته، ويشتد حرصه عليها عندما تكون بين يديه.

ثانياً: أن الإسلام يأمر المنافقين بإنفاق الأموال في وجوه الخير، وهم يعتقدون أن ذلك مضیعة للمال من غير فائدة، وأنهم يتعذبون بتعريض أولادهم للقتل إذا خرجوا للجهاد.

ثالثاً: أن بذل المال والولد أمر شاق على نفوسهم.

رابعاً: أنهم في قلق وخوف من ظهور أمرهم وافتضاح شأنهم، فيتعرضون بسبب ذلك للقتال من المؤمنين.

خامساً: أن ذكر الأولاد في الآية كالتكملة؛ لبيان عدم انتفاعهم بكل ما يتفجع به الناس، فهو استطراد في السياق.

وقد كان لكثير من المنافقين أولاد صلحاء أتقياء، لا يرتضون طريق آبائهم فيخالفونهم ويقدحون فيهم، مثل عبد الله بن عبد الله بن أبيّ، وحنظلة بن أبي عامر، وما أقسى وأشق هذا العذاب النفسي في مخالفة الأبناء للآباء، وربما قُتل الولد في الغزو فيتألم

الأب، ولا يثاب عليه^(١).

إن الأموال والأولاد قد تكونان نعمة، يسبغها الله على عبد من عباده! وقد تكونان نقمة يصيب الله بها عبداً من عباده! وقد ذيل الله الآية بقوله: ﴿وَتَرْهَقَ أَنْفُسُهُمْ وَهُمْ كَافِرُونَ﴾ أي: تخرج أرواحهم خروجاَ مزعجاً، فيه كرب وشدة، فيموتون على كفرهم بالله ورسوله.

الْمُنَافِقُ يَخْلِفُ كَذِبًا خَوْفًا وَتَقِيَّةً مِنَ الْمُؤْمِنِينَ

٥٦- ﴿وَيَخْلِفُونَ بِاللَّهِ إِيْهُمْ لَيْنَكُمْ وَمَا هُمْ بِمُنْكَرٍ وَلِكِنَّهُمْ قَوْمٌ يَفْرُقُونَ﴾ ﴿٥٦﴾

وهذه الآية تخاطب المؤمنين، وتوضح أوصاف المنافقين الذين يُظهرون الإسلام، ويبطنون الكفر، ويكتنون العداوة للإسلام وأهله.

لقد كان المنافقون في صدر الإسلام يحلفون لرسول الله ﷺ أنهم مؤمنون، ويدشّون أنفسهم في صفوف المسلمين، لا عن إيمان واعتقاد، ولكن عن خوف وتقيّة ﴿وَيَخْلِفُونَ بِاللَّهِ إِيْهُمْ لَيْنَكُمْ﴾ في الدين والملة مؤمنون مثلكم، يحلفون على ذلك كذباً.

والله ﷻ يكذبهم في قولهم فيقول: ﴿وَمَا هُمْ بِمُنْكَرٍ﴾ لكفر قلوبهم، وهذا كقول الله تعالى لنوح عليه السلام عن ولده: ﴿يَنْتُحِ إِيْهُمْ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ﴾ [هود: ٤٦]. فهم ليسوا مسلمين في الواقع، ولكنهم يظهرون الإسلام ويبطنون الكفر، كما قال سبحانه عنهم: ﴿وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ ءَامَنُوا قَالُوا ءَامَنُوا وَإِذَا خَلَوْا إِلَىٰ شَيَاطِينِهِمْ قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِءُونَ﴾ [البقرة: ١٩٠]. ﴿إِذَا جَاءَكَ الْمُنَافِقُونَ قَالُوا نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللَّهِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَكَاذِبُونَ﴾ [١] أَخَذُوا إِيْمَتَهُمْ جُنَّةً فَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٢﴾ [المنافقون].

إنهم يفعلون ذلك خوفاً على أنفسهم، وعلى أموالهم، ومناصبهم، فهم جنباء يحلفون كذباً وزوراً، ولا يستطيعون مصارحتكم بالعداوة، ولا يجرؤون على مجابهتكم، مخافة أن

(١) يُنْظَرُ: الفخر الرازي والبغوي والخازن عند تفسير الآية.

تتعقبوهم، وتقتلوهم كما تقتلون المشركين والكافرين، وهذا معنى ﴿وَلَكِنَّهُمْ قَوْمٌ يَفْرُقُونَ﴾ أي: يخافون منكم، فهم يظهرون الإسلام تقيّة لأنفسهم، فلا تغتروا بأيمانهم الكاذبة.

جِبْنُ الْمُنَافِقِينَ

٥٧- ﴿لَوْ يَحْذَرُونَ مَلْجَأًا أَوْ مَغْرَبًا أَوْ مُدْخَلًا^(١) لَوَلُّوا إِلَيْهِ وَهُمْ يَجْمَحُونَ

يرسم القرآن الكريم مشهداً حسيّاً يصور فيه جبن المنافقين، وخوفهم من الخروج لغزوة تبوك بأنهم من شدة خوفهم:

١- ﴿لَوْ يَحْذَرُونَ مَلْجَأًا﴾ أي: حصناً في رأس جبل عالٍ، أو قلعة يجتمعون فيها، ويلجؤون إليها عند ما تنزل بهم الشدايد.

٢- ﴿أَوْ مَغْرَبًا﴾ أي: كهفاً أو مغارة داخل جبل يستترون فيها في مكان منخفض.

٣- ﴿أَوْ مُدْخَلًا﴾ أي: مكاناً يدخلون فيه بمشقة، كالنفق والسرّادب؛ كي يهربوا فيه ويتحصنون به، ولو وجدوا شيئاً من ذلك لأسرعوا إلى أحد هذه الملاجئ الثلاثة، وهي شر الأمكنة وأضيقها؛ وذلك كي يجتمعوا أو يختبئوا فيها للنجاة من المؤمنين، خوفاً من القتال؛ لشدة بغضهم إياكم، وهم يتوجهون إلى هذه الملاجئ مسرعين، وهذا معنى: ﴿وَهُمْ يَجْمَحُونَ﴾ أي: يسرعون نحوه إسراعاً ويهرعون إليه.

حِرْصُ الْمُنَافِقِ عَلَى الْمَالِ

٥٨- ﴿وَمِنْهُمْ مَنْ يَلْمِزُكَ^(٢) فِي الصَّدَقَاتِ فَإِنْ أُعْطُوا مِنْهَا رَضُوا وَإِنْ لَمْ يُعْطُوا مِنْهَا إِذَا هُمْ يَسْتَخْطُونَ

وهذا نوع آخر من فضائح المنافقين، وهو قذحهم في عدالة النبي ﷺ، وأنهم يعيبون المؤمنين في تقسيم الصدقات بقصد الأخذ منها، وتبيين الآية أنهم من حرصهم على المال يودّون أن تُوزَّع الصدقات عليهم دون غيرهم، فيطعنون في تقسيمها؛ كي يقتصروا توزيعها عليهم. والنبي ﷺ كان يعطي الصدقات ويقسم الغنائم بما يخدم الدعوة وينشر الإسلام.

(١) قرأ يعقوب بفتح الميم وإسكان الدال مخففة من (مدخلا)، وقرأ الباقر بضم الميم وفتح الدال مشددة، وكلاهما: اسم مكان، والأصل (مدتخلا) فأدغمت التاء دالاً، وأدغمت الدال في الدال.

(٢) قرأ يعقوب بضم الميم من (يلمزك)، والباقر بكسرها، وهما لغتان في المضارع.

وكان عليه الصلاة والسلام لا يأخذ لنفسه شيئاً يختص به، فكان يتألف قلوب قوم، ويجزل إليهم العطاء، مثل: صفوان بن أمية، كبير القوم، وكان كافرًا، وقد أعطاه النبي عليه الصلاة والسلام من غنائم حُنَيْنٍ بالمئة من الإبل، يقول صفوان: أعطاني رسول الله ﷺ وهو أبغض الناس إليّ، ولا زال يعطيني حتى إنه لأحب الناس إليّ.

وذلك لأن بعض النفوس لا يصلحها إلا المال، ولذلك فإن النبي ﷺ كان يعالج النفوس على نحو ما يرى من أحوال الناس ورغباتهم، بما يخدم الدعوة إلى الله ﷻ.

يقول ﷺ فيما يرويه سعد بن أبي وقاص ﷺ: «إني لأعطي الرجل، وغيره أحب إليّ منه، خشية أن يكبه الله في النار»^(١).

أي: يعطيه ﷺ وفقًا به، وتأليفًا لقلبه، وترغيبًا له في الإسلام، وخوفًا عليه حتى لا يكبه الله تعالى في النار، لقد استغل المنافقون هذه المسألة:

١- فقال أحدهم، ويسمى (ذو الخويصرة التميمي) وهو أصل الخوارج، قال لرسول الله ﷺ وهو يقسم المغانم: اعدل يا رسول الله، فما هذا بعدل، قال عليه الصلاة والسلام: «ويلك، فمن يعدل إذا لم أعدل؟ لقد خبتُ وخسرت إن لم أكن أعدل»^(٢).

وكان هذا في قسمة ذهبٍ جاء من اليمن سنة تسع للهجرة، ولعل هذا قد تكرر من ذي الخويصرة في يوم حُنَيْنٍ، وفي تقسيم ما جاء من اليمن، وهو من الأعراب المنافقين، والمعنى موافق للآية التي نحن بصدددها.

(١) البخاري (٢٧) ومسلم (١٥٠)، وانظر: حديث عمرو بن تغلب في «المسند» (٢٠٦٧٢، ٢٠٦٧٣) بإسناد صحيح على شرط البخاري (محققه) وهو في البخاري (٣١٤٥، ٩٢٣)، وحديث سعد بن أبي وقاص في «المسند» أيضًا (١٥٢٢) بإسناد صحيح على شرط الشيخين (محققه) وأخرجه عن عمرو بن تغلب أبو داود (٤٦٨٥) والحميدي (٦٩) والبزار (١٠٨٧) وابن حبان (١٦٣).

(٢) إسناده صحيح من طريق الزهري عن أبي سلمة بن عبد الرحمن عن أبي سعيد الخدري، يُنظر: البخاري (٤٥٥/٦) برقم (٣٦١٠، ٦٩٣٣) ومسلم (١٦٥/٧) برقم (١٠٦٤) والنسائي في «السنن الكبرى» (١١٢٢٠) والطبري (٥٠٧/١١) وابن حاتم (١٨١٥/٦)، وانظر قول ذي الخويصرة في حديث عبدالله بن عمرو في المسند (٧٠٣٨) وهو حديث صحيح بإسناد حسن، كما أفاده محققه.

٢- وقال آخر للنبي ﷺ: إن هذه قسمة ما أريد بها وجه الله، فقال ﷺ: «رحمة الله على موسى لقد أوزي أكثر من هذا فصبر»^(١).

٣- وقال ثالث: وهو رجل أعرابي جاء من البادية: إن كان الله أمرك أن تعدل، فما عدلت، فقال ﷺ: «ويلك، ومن يعدل بعدي إذا لم أعدل...»^(٢).

٤- ورؤي أن أبا الجَوَّاز -من المنافقين- طعن في أن أعطى النبي ﷺ من أموال الصدقات بعض رعاة الغنم، إعانة لهم وتأليفاً لقلوبهم، فقال: ما هذا بالعدل، فقال ﷺ: «ويحك، من يعدل إذا أنا لم أعدل؟»^(٣).

وفي هذا المعنى نزل قول الله سبحانه: ﴿وَمِنْهُمْ مَّن يَلْمِزُكَ أَي: يذمك﴾ ﴿فِي﴾ تقسيم ﴿الصَّدَقَاتِ﴾ أي: ومن المنافقين من يطعن فيك ويعيب عليك -يا محمد- في تقسيم الصدقات والغنائم ﴿فَإِنْ أُعْطُوا مِنْهَا﴾ أي: إن نالهم منها نصيب بالمقدار الذي يريدون ﴿رَضُوا﴾ ففنعوا وسكتوا ﴿وَأِنْ لَّمْ يُعْطُوا مِنْهَا﴾ أي: لم يصبهم منها حظ على النحو الذي يطلبون ﴿إِذَا هُمْ يَسْتَخْطُونَ﴾ يعيرون عليك، ويطعنون في قسمتك، فهم يريدون ألا تقسم الغنائم إلا على فقرائهم.

الْقَنَاعَةُ لَهَا أَرْبَعُ مَرَاتِبَ

٥٩- ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ رَضُوا مَا آتَاهُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ سَيُؤْتِينَا^(٤) اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَرَسُولُهُ إِنَّا إِلَى اللَّهِ رَاغِبُونَ﴾

ثم وضح سبحانه المسلك الذي يليق بأصحاب العقيدة السليمة، بعد أن عاب الله تعالى على المنافقين سخطهم على توزيع الغنائم والصدقات، فأشار ﷺ إلى أنه لو أن هؤلاء الذين يعيرونك -يا محمد- في قسمة الصدقات، رضوا بما قسم الله ورسوله لهم وقنعوا به، وسألوا الله أن يغنيهم من فضله عن صدقات الناس، وأن يوسع عليهم أرزاقهم،

(١) البخاري (٣١٥٠) ومسلم (١٠٦٢).

(٢) ينظر سنن ابن ماجه برقم (١٧٢) وصححه الألباني في صحيح ابن ماجه (١٤٢) وفي ظلال الجنة (٩٤٣).

(٣) ابن أبي حاتم (١٨١٧/٦) وصححه الألباني في ظلال الجنة برقم (٩٣٤).

(٤) أبدل همزة (سيؤتينا) واوًا، ورش والسوسي وأبو جعفر، وحمزة عند الوقف.

وقالوا: حسبنا الله وكافينا، لو أنهم فعلوا ذلك وقالوا هذا، لكان خيراً لهم وأجدي، وقد ذكر الله تعالى في الآية أربع مراتب لما ينبغي أن يكون عليه العبد الصالح:

أولها: الرضا والقناعة، وعدم الاعتراض على قسمة الرسول ﷺ .

ثانيها: أن يظهر أثر الرضا على لسانه بقوله: ﴿حَسْبُنَا اللَّهُ﴾ أي: إن كان غيرنا قد أخذ المال فنحن قد رضينا بحكم الله ورسوله .

ثالثها: أنه لا أقل من أن يسأل العبد ربه الغنى إذا لم يكن من أهل الدرجة السابقة فيقول: ﴿سَيُوتِينَا اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَرَسُولُهُ﴾ .

رابعها: أن يقول: ﴿إِنَّا إِلَى اللَّهِ رَاغِبُونَ﴾ فلا نطلب أموالاً على إيماننا بالله ورسوله، إنما نطلب سعادة الآخرة^(١) .

وقد بينت الآية أن طلب الدنيا -بنهم وشراهة- من صفات المنافقين، وطلبها برضى وقناعة من صفات المؤمنين .

مَصَارِفُ الزَّكَاةِ ثَمَانِيَّةٌ

٦٠ - ﴿إِنَّمَا الصَّدَقَتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسْكِينِ وَالْعَمِلِينَ عَلَيْهَا وَالْمُؤَلَّفَةِ^(٢) فُلُوقِهِمْ وَفِي الرِّقَابِ وَالْغَرَمِينَ وَفِي سَبِيلِ اللَّهِ وَأَبْنِ السَّبِيلِ فَرِيضَةً مِّنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾

هذه آية لحصر الأصناف المستحقة للزكاة: فقد بين ﷺ أن الصدقات لا يستحقها الذين لمزوا النبي ﷺ وعابوه في تقسيمها، وحصر -جل شأنه- استحقاقها على ثمانية أصناف من الناس، ولم يأخذ النبي لنفسه منها شيئاً، فلم يلمزونه ﷺ ويعيرون عليه؟ وقد بين عليه الصلاة والسلام أن الله تعالى لم يرض بحكم نبي ولا غيره في تقسيم الصدقات، حتى حكم فيها بنفسه فجزأها ثمانية أصناف^(٣) .

(١) يُنظَر: «تفسير الفخر الرازي» (٤/٤٥٦) .

(٢) قرأ ورش وأبو جعفر بإبدال الهمزة واوًا، وصلاً ووقفاً في (والمؤلفة) ومعهما حمزة عند الوقف .

(٣) جاء هذا في حديث زياد بن الحارث الصدائي في «سنن أبي داود» برقم (١٦٣٠) والطبراني (٥٢٥٨) والدارقطني (١٣٧/٢) وهو حديث ضعيف كما في «سنن أبي داود» (٣٥٧) .

ولا يلزم استيعاب هذه الأصناف، بل يجوز الدفع إلى واحد منهم، والمراد بالصدقات في الآية: الزكاة المفروضة، ويؤيده قوله تعالى: ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا﴾ [التوبة: ١٠٣] والزكاة لا تحل لغني، ولا لقوي قادر على الكسب.

كما في حديث عبد الله بن عمرو رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «لا تحل الصدقة لغني ولا لذي مِرَّةٍ سويٍّ»^(١).

ولما سأله ﷺ رجلان يوماً، قلبَ فيهما النظر، فرفعه وخفضه، ثم قال عليه الصلاة والسلام: «إن شئتما أعطيتكما، ولا حظ فيها لغني ولا لقوي مكتسب»^(٢).

كما أن الزكاة لا تُعطى لمن يلزم الإنسان نفقته؛ كالأب، والابن، والزوجة، ولا تُعطى لبني هاشم ولا لمواليهم، ولا تُعطى لغير المسلم، كما قال النبي ﷺ لمعاذ رضي الله عنه: «أعلمهم أن عليهم صدقة تؤخذ من أغنيائهم فتردُّ على فقرائهم».

فهؤلاء أصناف ستة لا تعطى لهم الزكاة، هم:

١- الغني. ٢- والقوي. ٣- ومن يلزم نفقته. ٤- وبنو هاشم. ٥- والوارث. ٦- وغير المسلم.

وقد أنزل الله سبحانه هذه الآية؛ لبيان أصناف المستحقين للزكاة وهم ثمانية: ﴿إِنَّمَا الصَّدَقَتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسْكِينِ﴾ وتقديم الفقير على المسكين، والمسكين على غيره، تقسيم ملحوظ ومقصود، فالفقير يقدّم على المسكين؛ لأنه أشد حاجة منه. قال تعالى في وصف الفقراء المستحقين للزكاة: ﴿لِلْفُقَرَاءِ الَّذِينَ أُحْصِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ لَا يَسْتَطِيعُونَ ضَرْبًا فِي الْأَرْضِ يَحْسَبُهُ الْجَاهِلُ أَغْنِيَاءَ مِنَ التَّعَفُّفِ تَعْرِفُهُمْ بِسِيمَاهُمْ لَا يَسْأَلُونَ النَّاسَ إِلْحَاقًا﴾ [البقرة: ٢٧٣] والبدء بذكر الفقير في الآية يدل على أنه أسوأ حالاً من

(١) «سنن أبي داود» برقم (١٦٣٤) والترمذي برقم (٦٥٢) و«صحيح سنن الترمذي» برقم (٥٢٧) و«صحيح الجامع الصغير» برقم (٧١٢٨) وصححه أحمد شاكر في «المسند» برقم (٢٠٣٦) و«المستدرک» (٤٠٧/١) وابن أبي شيبه (٢٠٧/٣) وفي «المسند» من طريق آخر برقم (٢٣١٨٣). عن رجل من بني هلال بإسناد صحيح ومثله (١٦٥٩٤).

(٢) «سنن أبي داود» برقم (١٦٣٣) والنسائي (٩٩/٥) برقم (٢٥٩٧) و«المسند» (٢٢٤/٤) برقم (١٧٩٧٢، ٢٣٠٦٣) بإسناد صحيح على شرط الشيخين، وصححه الألباني في «إرواء الغليل» برقم (٨٧٦) وقال ابن كثير: إسناده جيد قوي، وهو عند ابن أبي شيبه (٢٠٧/٣) وصححه الألباني أيضاً في صحيح «سنن النسائي» (٢٤٣٥).

المسكين؛ لأن الآية قَدِّمَت الأهم على المهم، كما هو الظاهر، ولأن لفظ الفقير في اللغة مأخوذ ممن نُزِعَتْ فقرُهُ من فقرات ظهره، فلا يمكنه السعي والتكسب.

وقد وصف الله تعالى من كانت له سفينة من سفن البحر بالمسكنة فقال: ﴿أَمَّا السَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسْكِينٍ يَعْمَلُونَ فِي الْبَحْرِ﴾ [الكهف: ٧٩] وهذا متروك للعُرف بين الناس، وقد يكون المسكين صاحب حاجة شديدة، كالذي التصقت يده بالتراب من شدة الفاقة كما قال تعالى: ﴿أَوْ مِسْكِينًا ذَا مَرَئٍ﴾ ﴿١١﴾ [البلد]

ويشترط في الفقير والمسكين المستحقين للزكاة خمسة شروط:

- ١- ألا يكونا قوين، قادرين على الكسب والعمل.
 - ٢- ولا متكاسلين ولا متقاعسين.
 - ٣- وألا يكونا من سلالة من بني هاشم.
 - ٤- ولا ممن يلزم الغني نفقتهم.
 - ٥- وأن يكونا مسلمين؛ لأن الزكاة لا تدفع لغير المسلم بخلاف الصدقة.
- والأصناف الثمانية هم:

أولاً: ﴿الْفُقَرَاءُ﴾ والفقير: هو المحتاج الذي لا يملك شيئاً، ولا يجد حاجاته الضرورية من مأكّل، ومشرب، وملبس، ومسكن لأدنى معيشة، وأدنى مستوى اجتماعي حسب البلد التي يسكنها، والفقير أشد حاجة من المسكين لأن الله تعالى بدأ به، ولا يبدأ إلا بالأهم فالأهم، وقد فسر الفقير بأنه الذي لا يجد شيئاً أو يجد دون نصف كفايته.

فإن كان هذا الفقير يسكن في مكان متواضع يملك دفع أجرته، وكان يمتلك بعض الأجهزة الكهربائية، أو أجهزة الترفيه الإعلامية، أو كان فقره ناشئاً عن السفه، وسوء التدبير والتصرف، كمن يتفق ماله على الكماليات والمظاهر، أو على التدخين ونحوه، أو كان مُؤَثَّرًا للراحة والسؤال مع قدرته على العمل، فكل هؤلاء ليسوا من الفقراء، ولا تعطى لهم الزكاة.

ثانيًا: ﴿وَالْمَسْكِينِ﴾

والمسكين: هو الذي يملك بعض المال، فيجد نصف حاجته فأكثر، ولكنه لا يجد ما يكفي حاجاته الضرورية التي تقيم حياته وحياة من يعول، بأدنى معيشة وأدنى مستوى اجتماعي، ولا يكون هذا ناشئًا من سفه وسوء تصرف، فيُعطي من الزكاة ما تزول به مسكنته.

جاء في البخاري عن أبي سعيد رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «... وإن هذا المال خضرة حلوة، فنعم صاحب المال هو، ما أعطى منه المسكين واليتيم وابن السبيل...»^(١).

قيل لأعرابي: أفقر أنت؟ قال: إني والله مسكين. فدل هذا على الفرق بينهما.

وقال قتادة: الفقير: الذي به زمانة -أي: مرض مزمن- والمسكين المحتاج الذي ليست به زمانة^(٢).

وقد بين العلماء حدَّ الغني الذي يُمنع من أخذ الصدقة، فقالوا: الغني هو الذي يكون عنده ما يكفيه وعياله سنة.

عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «ليس المسكين، بهذا الطَّوَّاف الذي يطوف على الناس، فتردُّه اللقمة واللقمتان، والتمرة والتمرتان»، قالوا: فمن المسكين يا رسول الله؟ قال: «الذي لا يجد غنى يُغنيه، ولا يُفطن له فيَصَّدَّق عليه، ولا يسأل الناس شيئًا»^(٣) والمسكنة: هي المذلة بسبب الفقر.

والحديث يفيد أن المسكين أحسن حالًا من الفقير؛ لأنه يجد ما لا يكفيه، أما الفقير فهو مُعْدِم لا يجد شيئًا، وهذا ما يفيد تقديم الفقير على المسكين في الآية.

وأُيِّ صنف من الأصناف الثمانية يُعطى الزكاة فإنها تجزئ، ولا بأس أن يجعلها في صنف واحد، أو في صنفين أو ثلاثة كما قال حذيفة^(٤) وابن عباس^(٥) وأبو العالية^(٦).

(١) من حديث طويل في «صحيح البخاري» برقم (١٤٦٥) وهذا لفظه و«صحيح مسلم» برقم (١٠٥٢).

(٢) أخرجه عبد الرزاق (٢٧٨/١) وابن أبي حاتم (١٨١٩/٦) والنحاس ص (٥٠٧).

(٣) «فتح الباري» (٣/٣٩٩) ورقمه في البخاري (١٤٧٩) ومسلم (٧١٩/٢) برقم (١٠٣٩).

(٤) كما عند ابن أبي شيبة (٣/١٨٢) وابن جرير (١١/٥٣١).

(٥) كما عند ابن أبي حاتم (٦/١٨١٧).

(٦) عند ابن أبي شيبة (٣/١٨٢).

ثالثًا: ﴿وَالْعَمَلِينَ عَلَيْهَا﴾ وهم الذين يجمعون الزكاة، وليسوا من موظفي الدولة، وهم الجُباة، والسُّعاة، والرعاة والمحاسبون، والكتّبة، وأمناء المخازن، وكل من كلفهم الحاكم المسلم بجمع الزكاة، فهم يستحقون الزكاة، يأخذون منها بقدر أجورهم، سواء أكانوا فقراء أم أغنياء، أما إذا كانوا من الذين يجمعون الزكاة ويتقاضون راتبًا من الدولة على عملهم هذا، فهم موظفون يأخذون أجرًا مقابل عملهم، فلا يُعطون من الزكاة.

عن رافع بن خديج رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «العامل على الصدقة بالحق، كالغازي في سبيل الله حتى يرجع إلى بيته»^(١).

والعاملون على جمع الصدقات لا يجوز أن يكونوا من آل محمد ﷺ؛ لما ثبت عن عبد المطلب بن ربيعة بن الحارث، أنه انطلق هو والفضل بن العباس، يسألان النبي ﷺ؛ ليستعملهما على الصدقة، فقال: «إن الصدقة لا تنبغي لآل محمد، إنما هي أوساخ الناس»^(٢) أي: تطهير لأموالهم ولأنفسهم.

ولا يجوز لعامل الصدقة أيًا كان، أن يقبل هدية لنفسه، أو يصانع من يجمع منهم الزكاة، وإن أخذ شيئًا رده إلى بيت المال، لحديث ابن اللثية لما قال له النبي ﷺ وكان يجمع الصدقة ولما رجع قال: هذا لكم وهذا أهدي إليّ، فقال ﷺ: «هلاً جلس أحدكم في بيت أبيه وأمه، فينظر أبهدي له أم لا؟!»^(٣). وكل عامل يعطى بمقدار عمله.

رابعًا: ﴿وَالْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ﴾ وهم أربعة أصناف: صنفان من المسلمين، وصنفان من الكفار: الصنف الأول: قوم من الكفار، يتألف الإسلام قلوبهم، ويطمع في إسلامهم؛ لما يظهر من حالهم من الميل إلى الإسلام، وذلك مثل: صفوان بن أمية الذي قال: أعطاني النبي ﷺ

(١) «سنن أبي داود» برقم (٢٩٣٦) والترمذي برقم (٦٤٥) وابن ماجه برقم (١٨٠٩) و«المسند» (١٤٣/٤) برقم (١٥٨٢٦، ١٧٢٨٥) بإسناد حسن، وابن خزيمة برقم (٢٣٣٤) و«المستدرک» (٤٠٦/١) وصححه الألباني في «صحيح الترمذي» برقم (٥٢٣) و«صحيح سنن أبي داود» (٢٥٤٥) وهو في سنن أبي داود (٢٩٣٦) وعند ابن أبي شيبة (٢١٦/٣).

(٢) «صحيح مسلم» (٧٥٢/٢) برقم (١٠٧٢).

(٣) حديث ابن اللثية في الصحيحين كما في «اللؤلؤ والمرجان» لمحمد فؤاد عبد الباقي برقم (١٢٠٢).

يوم حُتِّينَ وإنه لأبغض الناس إليَّ، فما زال يعطيني حتى إنه لأحب الناس إليَّ^(١).

وفي صحيح البخاري وغيره عن أنس ؓ أن النبي ﷺ قال: «إني أُعطي قريشًا أتألفهم؛ لأنهم حديثو عهد بجاهلية»^(٢).

وفي صحيح البخاري وغيره عن أبي سعيد ؓ قال: بُعث إلى النبي ﷺ بشيء فقسمه بين أربعة، وقال: «أتألفهم»، فقال رجل: ما عدلت، فقال ﷺ: «يخرج من ضئضي هذا قوم يمرقون من الدين»^(٣).

ومثل العباس بن مرداس السُّلمي، الذي أعطاه النبي ﷺ تأليفاً لقلبه، وتشبيهاً لإيمانه.

ومثل هذه الحالة كبار الكفار في شتى أرجاء المعمورة، حيث يمكن كف شرهم عن المسلمين، سبيماً الأقليات الإسلامية في بلاد الكفر، بإعطائهم من أسهم الزكاة على المستوى الدولي، ومما يخرج من كنوز الأرض كالبتروول وغيره.

الصف الثاني: قوم من الكفار يتألفهم الإسلام لدفع أذاهم عن المسلمين، ونفعهم لهم مثل: عامر بن الطفيل. ومثلهم من يؤذون الأقليات من المسلمين في العالم، والجميع يعطى من الزكاة والصدقة والفىء لدفع أذاهم عن مسلمي بلادهم.

الصف الثالث: قوم حديثوا عهد بالإسلام، كمن يدخلون في الإسلام حديثاً في كل وقت، هنا وهناك، فهؤلاء يُعطَوْنَ من الزكاة؛ تقوية لإيمانهم، وترغيباً لغيرهم.

ومن أمثلة هؤلاء في وقت النبي ﷺ: الأقرع بن حابس، وعيينة بن حصن، والزُّبُرْقَان، الذين أعطاهم النبي ﷺ؛ ليدخل معهم غيرهم في الإسلام.

وفي الصحيحين عن أبي سعيد أن علياً بعث إلى النبي ﷺ بذهبية في ثُربتها من اليمن، فقسمها بين أربعة نفر: الأقرع بن حابس، وعيينة بن حصن، وعلقمة بن علاثة، وزيد

(١) مسلم (١٨٠٦/٤) برقم (٢٣١٣) والترمذي في «تحفة الأحوذى» (٣/٣٣٤) وهو في «السنن» برقم (٦٦٦) ورواه أحمد (٤٦٥/٦).

(٢) «صحيح البخاري» برقم (٣١٤٦) و«صحيح مسلم» برقم (١٠٥٩).

(٣) «صحيح البخاري» برقم (٤٦٦٧) و«صحيح مسلم» برقم (١٠٦٤).

الخير... وقال: «أتألفهم»^(١).

وقال ﷺ فيما يرويه سعد بن أبي وقاص ﷺ: «إني لأعطي الرجل، وغيره أحب إليّ منه خشية أن يكبه الله في النار»^(٢).

الصف الرابع: قوم ضعاف الإيمان، فيعطيه الإسلام من الزكاة؛ تأليفاً لقلوبهم، وتثبيتاً لإيمانهم؛ كالعباس بن مرداس، ونظرائه وهم كثر في أيامنا.

والخلاصة: أن هذا السهم يراد به تأليف قلوب بعض الناس، الذين تعالج نفوسهم من هذا الباب؛ لحبهم المال، ولأنه نقطة الضعف فيهم، فيعطيه الإسلام منه:

- ١- طمعاً في إسلامهم، ورجاء هدايتهم. ٢- أو دفعاً لشركهم.
 - ٣- أو أملاً في نفعهم وهدايتهم. ٤- أو لأنهم قادة يتأسى بهم غيرهم.
- وقد بلغ عدد الذين تألفهم النبي ﷺ تسعة وثلاثين رجلاً.
- قال يحيى بن كثير: المؤلف قلوبهم:
- من بني هاشم: أبو سفيان بن الحارث بن عبد المطلب.
- ومن بني أمية: أبو سفيان بن حرب.
- ومن بني مخزوم: الحارث بن هشام، والحارث بن يربوع.
- ومن بني أسد: حكيم بن حزام.
- ومن بني عامر: سهيل بن عمرو، وحويطب بن عبد العزى.
- ومن بني جُمح: صفوان بن أمية.
- ومن بني سهم: عدي بن قيس.
- ومن ثقيف: العلاء بن جارية، أو حارثة.
- ومن بني نزار: عيينة بن حصن.

(١) «فتح الباري» (٤٣٣/٦) برقم (٣٣٤٤) ومسلم (٧٤١/٢) برقم (١٠٦٤) وابن أبي حاتم (١٨٢٢/٦).

(٢) «فتح الباري» (٣٩٩/٣) وقد سبق تخريجه في الآية (٥٩).

ومن بني تميم: الأقرع بن حابس.

ومن بني نصر: مالك بن عوف.

ومن بني سليم: العباس بن مرداس.

أعطى النبي ﷺ كل رجل منهم مئة ناقة، إلا عبد الرحمن بن يربوع، وحويطب بن عبد العزى، فإنه أعطى كل واحد منهما خمسين^(١).

ولعل من هذا الصنف ما ورد أن عمر بن الخطاب مرَّ برجل من أهل الكتاب مطروح على باب، من شدة العمل في طلب الرزق، فقال: استكثوني وأخذوا مني الجزية حتى كُفَّ بصري، فليس أحد يعود عليّ بشيء، فقال عمر: ما أنصفناك إذن، ثم قال: هذا من الذين قال الله: ﴿إِنَّمَا أَصْدَقْتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسْكِينِ﴾ ثم أمر له برزق يُجرى عليه^(٢).

وغير المسلمين لا يعطون شيئاً من الزكاة ولا من الكفارات إلا ما كان من باب تأليف القلوب طمعاً في إسلامهم، أو ردّاً لعدوانهم.

قال الحسن: المؤلف قلوبهم: الذين يدخلون في الإسلام إلى يوم القيامة^(٣).

فهو يُعطى وإن كان موسراً.

فالمؤلف قلبه: هو السيد المطاع في قومه، ممن يُرجى إسلامه، أو يُخشى شره، أو يُرجى بعطيته قوة إيمانه، أو إسلام نظيره، أو جبايتها ممن لا يعطيها، فيعطى ما يحصل به التأليف والمصلحة.

خامساً: ﴿وَفِي الرِّقَابِ﴾ وهم المكاتبون الذين اشتروا أنفسهم من ساداتهم، ويسعون في تحصيل المال الذي يدفعونه لمن يملكونهم، لفك رقابهم من الرق، فيعانون على ذلك من الزكاة، ويدخل في ذلك عتق الرقاب استقلالاً، وفك الرقبة المسلمة التي بأيدي الكفار. وقد جاء الإسلام فوجد الرق منتشراً، فعمل جاهداً على جعل الناس أحراراً.

(١) أخرجه عبد الرزاق (١/ ٢٨١) وابن أبي حاتم (٦/ ١٨٢٢).

(٢) ابن أبي حاتم.

(٣) ابن أبي حاتم (٦/ ١٨٢٣).

ومن وسائل تحرير الأرقاء:

١- اتفاق العبد مع سيده على أقساط مالية يدفعها إليه الرقيق فيعتقه بعد أن يدفع إلى سيده ما كاتبه عليه.

٢- شراء الأرقاء وعتقهم.

٣- فداء أسرى المسلمين.

٤- عتق الرقاب في كفارة القتل الخطأ والظهار والحنث في اليمين.

٥- عتق الرقيق حُسْبة لله تعالى، وابتغاء وجهه.

فالإسلام يرغب في عتق الرقاب، ومساعدة الأرقاء بكل وجه.

ففي الحديث عن أبي هريرة أن النبي ﷺ قال: «ثلاثة حق على الله عونهم: الغازي في سبيل الله، والمكاتب الذي يريد الأداء، والناكح الذي يريد العفاف»^(١).

ويعتق الله مَنْ حرَّره بكل عضو عضواً من النار.

ولا يَجْزِي ولد والده إلا أن يجده مملوكاً فيعتقه.

واقترحام الْعَقْبَةِ يوم القيامة، بالنجاة من النار تكون بفك الرقاب ﴿فَلَا أَقْنَحَمَ الْعَقْبَةَ﴾ (١١) وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْعَقْبَةُ ﴿١٢﴾ فَكُ رَقَبَةً ﴿١٣﴾ [البلد].

وجاء رجل إلى النبي ﷺ فقال: دُلّني على عمل يقربني من الجنة، ويباعدني من النار؟ قال: «أعتق النسيئة، وفك الرقبة»، فقال: يا رسول الله، أو ليس واحداً؟ قال: «لا، عتق النسيئة: أن تنفرد بعتقها، وفك الرقبة: أن تعين في ثمنها»^(٢).

(١) من حديث أبي هريرة في «المسند» (٢٥١/٢) برقم (٩٦٣١) بإسناد قوي، والترمذي برقم (١٦٥٥) والنسائي (٦١/٦) وابن ماجه (٢٥١٨) قال الترمذي: حديث حسن، وحسنه الألباني في صحيح ابن ماجه (٢٠٤١) وفي المشكاة (٣٠٨٩) وفي غاية المرام (٢١٠).

(٢) أحمد (٢٢٩/٤) برقم (١٨٦٤٧) عن البراء بن عازب بنحوه بإسناد صحيح ورجال ثقات، وأخرجه الدار قطني في السنن (١٣٥/٢) والطيالسي (٧٣٩) والبخاري في الأدب المفرد (٦٩) وابن حبان (٣٧٤) وغيرهم.

والأرقاء موجودون إلى يومنا هذا في بعض بلاد العالم .

ودفع الزكاة لهذا الصنف ليس بتمليكهم قيمة الزكاة، وإعطائها لهم، وإنما تُعطى لمن يعتق الرقيق، أو يفك الأسير، أو يأخذ قسط المكاتبه، ولذا عبّر الله تعالى عنها في الآية بـ (في) الظرفية، هي والثلاثة بعدها.

أما الأربعة التي قبل ذلك، فعبر الله تعالى عنها باللام التي تفيد الملك، في قوله تعالى: ﴿لِلْفُقَرَاءِ﴾ وكذا الثلاثة بعدها.

فالزكاة تُملك للأشخاص الأربعة، وهم: (الفقراء، والمساكين، والعاملين عليها، والمؤلفة قلوبهم) وتُدفع بالنسبة للأربعة المتبقية في المصالح وليست للأشخاص وهم: (في الرقاب، والغارمين، وفي سبيل الله، وابن السبيل).

سادساً: ﴿وَالْقَرْمِينَ﴾ : وهم من لزمته الديون -في غير معصية الله- ولا يجدون المال الذي يدفعونه لدائنيهم، فيعطون من الزكاة ما يعينهم على سداد ديونهم التي وجبت عليهم لغير سفه، ولا تبذير، ولا إنفاق فيما يمكن الاستغناء عنه.

والغارمون على نوعين:

أحدهما: الغارمون لإصلاح ذات البين، كأن يبذل الغارم ما له لأحد المتخاصمين أولهما معاً، لإزالة الشر والفتنة بينهما.

وثانيهما: من غرم لنفسه فأصابه تلف أو حريق ثم أعسر، فإنه يطع ما يوفى دينه من الزكاة.

فالذي يستدين لبناء قصر أو فيلا، أو لشراء سيارة فخمة، أو لإقامة حفل زفاف في قصر منيف، أو يستدين للنفقة على البيت بمظاهر الترف والترفيه، كل هذا ونحوه من باب السفه الذي لا يُشجّع عليه الإنسان، ولا يسدّد عنه ديونه منها فيما أرى، فقد كان الأولى به أن يتصرف في حدود إمكانياته الواقعية، وألا يتطلع إلى غيره، ولا ينفق ما ليس في يده، ومن باب أولى من استدان للمصيف، أو لقضاء إجازة خارج البلاد أو داخلها، ونحو ذلك، فهذه صور من استدان الإنسان لحساب نفسه.

أما الاستدانة لحساب غيره، كمن يتحمل غُرمًا للإصلاح بين الناس، أو ضَمَنَ دينًا لأحد فلزمه هذا الدين، ولم يستطع سداذه، أو غَرِمَ زراعته، أو تجارته، أو بيته، بسبب

تلف، أو حريق، أو آفة، ونحو ذلك، أو كان عاصيًا واستدان، فتأب الله عليه، فهو لاء ونحوهم يعطون من الزكاة:

١- والأصل في هذا حديث قبيصة بن مخارق قال: تَحَمَّلْتُ حَمَّالَةً، فَأَتَيْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ أَسْأَلُهُ فِيهَا، فَقَالَ: «أَقِمْ حَتَّى تَأْتِنَا الصَّدَقَةُ، فَنَأْمُرَ لَكَ بِهَا، قَالَ: ثُمَّ قَالَ: يَا قَبِيصَةُ، إِنَّ الْمَسْأَلَةَ لَا تَحِلُّ إِلَّا لِأَحَدٍ ثَلَاثَةً:

رجل تَحْمِلُ حَمَّالَةً، فَحَلَّتْ لَهُ الْمَسْأَلَةُ حَتَّى يَصِيبَهَا، ثُمَّ يَمْسُكُ.

ورجل أصابته جائحة اجتاحت ماله، فَحَلَّتْ لَهُ الْمَسْأَلَةُ، حَتَّى يَصِيبَ قِوَامًا مِنْ عَيْشٍ أَوْ قَالَ: سَدَادًا مِنْ عَيْشٍ.

ورجل أصابته فاقة حتى يقوم ثلاثة من ذَوِي الْحَاجَةِ، مِنْ قَرَابَةِ قَوْمِهِ، فَيَقُولُونَ: لَقَدْ أَصَابَتْ فَلَانًا فَاقَةً، فَحَلَّتْ لَهُ الْمَسْأَلَةُ حَتَّى يَصِيبَ قِوَامًا مِنْ عَيْشٍ - أَوْ قَالَ: سَدَادًا مِنْ عَيْشٍ - فَمَا سِوَاهُنِ مِنَ الْمَسْأَلَةِ يَا قَبِيصَةُ سَحْتًا يَأْكُلُهَا صَاحِبُهَا سَحْتًا»^(١).

٢- وعن أبي سعيد رضي الله عنه قال: أَصِيبَ رَجُلٌ فِي عَهْدِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فِي ثَمَارِ ابْتِاعِهَا، فَكَثُرَ دِينُهُ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: تَصَدَّقُوا عَلَيْهِ، فَتَصَدَّقَ النَّاسُ، فَلَمْ يَبْلُغْ ذَلِكَ وَفَاءَ دِينِهِ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ لِعُرْمَائِهِ: «خُذُوا مَا وَجَدْتُمْ فَلَيْسَ لَكُمْ إِلَّا ذَلِكَ»^(٢).

وهذه قسمة الغرماء عند عدم الوفاء بكمال الدين.

٣- «وَمَنْ أَخَذَ أَمْوَالَ النَّاسِ يَرِيدُ أَدَاءَهَا أَدَّى اللَّهُ عَنْهُ، وَمَنْ أَخَذَهَا يَرِيدُ إِتْلَافَهَا أَتْلَفَهُ اللَّهُ»^(٣).

٤- وفي حديث عبد الرحمن بن أبي بكر أن رسول الله ﷺ قال: «يَدْعُو اللَّهُ بِصَاحِبِ الدِّينِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ حَتَّى يَوْقِفَ بَيْنَ يَدَيْهِ، فَيَقَالُ: يَا بَنَ آدَمَ، فِيمَ أَخَذْتَ هَذَا الدِّينَ؟ وَفِيمَ ضَيَّعْتَ حَقُوقَ النَّاسِ؟ فَيَقُولُ: يَا رَبِّ، إِنَّكَ تَعْلَمُ أَنِّي أَخَذْتَهُ، فَلَمْ أَكُلْ وَلَمْ أَشْرَبْ وَلَمْ أَلْبَسْ وَلَمْ أَضَيِّعْ، وَلَكِنْ أَتَى عَلَى يَدَيَّ إِمَّا حَرَقَ، وَإِمَّا سَرَقَ، وَإِمَّا وَضِيعَةً، فَيَقُولُ اللَّهُ عَزَّ

(١) «صحيح مسلم» برقم (١٠٤٤).

(٢) «صحيح مسلم» برقم (١٥٥٦).

(٣) من حديث أبي هريرة في صحيح البخاري برقم (٢٣٨٧).

وجل: صدق عبدي، أنا أحق من قضى عنك اليوم، فيدعو الله بشيء فيضعه في كفة ميزانه، فترجع حسناته على سيئاته، فيدخل الجنة بفضل الله ورحمته»^(١).

وقد وجه الله سبحانه إلى إنظار المعسر حتى يُيسر الله عليه أو يتصدق عليه فقال تعالى: ﴿وَإِنْ كَانَتْ ذُو عُسْرَةٍ فَنَظِرَةٌ إِلَىٰ مَيْسَرَةٍ وَأَنْ تَصَدَّقُوا خَيْرٌ لَّكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة].

والتصدق على المعسر لا يَغني إسقاط الدين عنه، واحتساب ذلك من الزكاة؛ لأن الزكاة تمليك، وليست إسقاطاً، كما أنه لا يؤدي من الزكاة دين ميت، ولا تسديد كفارة من الكفارات، أو نذر من النذور، ولا يُعطى من الزكاة مَنْ يريد الحج؛ لأنه لا يشرع إلا للمستطيع، ولأن الغارم هو من عليه دين يُسجن فيه.

والزكاة ضريبة تكافل اجتماعي بين القادرين والعاجزين، تنظمها الدولة وتولي جَمْعها وتوزيعها على مستحقيها، ولا يُترك ذلك للأفراد، سواء الذين يجمعونها أو الذين تجب عليهم.

سابعاً: ﴿وَفِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾:

وسبيل الله عند جمهور أهل العلم: هو الجهاد؛ فيعطى الغزاة المتطوعون ما يعينهم عن الغزو لأنه أكثر ما جاء في القرآن، فيُدفع هذا السهم في شراء الأسلحة، وتجهيز الغزاة، وحفظ الثغور، والتصنيع الحربي، وحفر الخنادق، ومن يأتون بأخبار العدو، وإعداد العدة لقتاله: من طائرات، وصواريخ، وقذائف، ومدافع، ودبابات، وما إلى ذلك.

ويرى بعض أهل العلم أن ﴿سَبِيلِ اللَّهِ﴾ باب واسع يشمل جميع وجوه الخير والبر من بناء المساجد، والمدارس، والمستشفيات، وتعبيد الطرق، وبناء الجسور والحصون، وعلى طلبة العلم، ونحو ذلك.

وإعادة لفظ (في) عند ذكر ﴿وَفِي سَبِيلِ اللَّهِ وَأَنْتِ السَّبِيلُ﴾ فيه فضل وترجيح لِمَصْرِفِي

(١) «المسند» (١٩٧/١) برقم (١٧٠٨) وإسناده ضعيف، لضعف صدقة بن موسى، فيه، وأخرجه البزار (١٣٣٢) كشف الأستار، وأبو نعيم في الحلية (١٤١/٤) وأبو داود الطيالسي (١٣٢٦).

سبيل الله وابن السبيل، على ﴿الرَّقَابِ وَالْغَرَمِينَ﴾.

ثامناً: ﴿وَابْنَ السَّبِيلِ﴾

وهو المنقطع في سفره، الغريب عن وطنه، وإن كان غنياً في بلده، ولكنه في سفر مباح، ولم يجد ما يوصله إلى وطنه، أو يقيم حياته، فيُعطى من الزكاة بقدر ما يكفيه ويسد حاجته، وكذا من أنشأ سفرًا مباحًا من بلده، وليس معه شيء، فهو من أبناء السبيل:

فعن أبي سعيد رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «لا تحل الصدقة لغني إلا لخمسة: العامل عليها، أو رجل اشتراها بماله، أو غارم، أو غاز في سبيل الله، أو مسكين تُصَدَّق عليه منها، فأهدى منها لغني»^(١).

وهذه الزكاة ﴿فَرِيضَةً مِّنَ اللَّهِ﴾ أي: أن هذه القسمة فريضة فرضها الله تعالى وقدرها، وهو أعلم بمصالح عباده، حكيم في شرعه وتديره.

وليس في وسع أحد إلغاء مصرف من هذه المصارف الثمانية، ومصرف المؤلفة قلوبهم ما أعظم الحاجة إليه في كل عصر ومصر، وهو قائم إلى يوم الساعة (والله عليم) بشؤون خلقه (حكيم) في تدبير أمورهم.

ومما يتعلق بهذه الآية ما رواه موسى بن يزيد الكندي قال: كان ابن مسعود يُقرئ رجلاً، فقراً (إنما الصدقات للفقراء والمساكين) مرسله -أي: لم يمدّها- فقال ابن مسعود: ما هكذا أقرأنيها النبي ﷺ فقال: وكيف أقرأكها؟ قال: أقرأنيها ﴿إِنَّمَا الصَّدَقَتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسْكِينِ﴾ فمدّها^(٢) وهذا نص في وجوب المد المتصل.

(١) أبو داود (٢٨٨/٢) برقم (١٦٣٥، ٣٦٣٦) و«صحيح سنن أبي داود» (١٤٤١) وابن ماجه (٥٩٠/١) برقم (١٨٤١) و«صحيح «سنن ابن ماجه» (١٨٤١) وابن أبي شيبة (٢١٠/٣) و«مصنف عبد الرزاق» برقم (٧١٥١) و«المسند» (٥٦/٣) برقم (١١٣٥٨، ١١٢٦٨) وابن خزيمة في صحيحه برقم (٢٣٧٤) و«المستدرک» (٤٠٧/١) وصححه الحاكم ووافقه الذهبي، وصححه الألباني أيضاً في «إرواء الغليل» برقم (٨٧٠) وصححه جماعة في «تلخيص الجبير» (١١١/٣).

(٢) أخرجه سعيد بن منصور في «التفسير» برقم (١٠٢٣) والطبراني في «الكبير» (٨٦٧٧).

إِذَاءُ الْمُنَافِقِينَ لِلرَّسُولِ ﷺ وَعُقُوبَتُهُمْ

٦١- ﴿وَمِنْهُمْ الَّذِينَ يُؤْذُونَ^(١) النَّبِيَّ وَيَقُولُونَ هُوَ أُذُنٌ^(٢) قُلْ أُذُنٌ خَيْرٌ لَّكُمْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ وَرَحْمَةٌ^(٣) لِلَّذِينَ ءَامَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ رَسُولَ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ^(٤)﴾

ومن أصناف المنافقين من يؤذي رسول الله ﷺ، فيقول: جئنا نعتذر إليه فيقبل منا لأنه أذن، فهو لا يميز بين صادق وكاذب.

ومن أنواع الإيذاء الذي نزلت فيه هذه الآية: أن قومًا من المنافقين كانوا يقولون عن رسول الله ﷺ: إنه أذن، أي: سماع لكل قول، يصدق كل ما يسمع دون تمييز بين المقبول والمردود.

ومنهم: الجلّاس بن سويد قبل توبته، وعبيد بن هلال، وعتاب بن قشير، ووديعة بن ثابت، ونبئل بن الحارث الذي قال فيه النبي ﷺ: «من أحب أن ينظر إلى الشيطان فلينظر إلى نبئل».

ومن ذلك ما قاله الجلّاس، ووديعة، وغيرهما: إن كان ما يقوله محمد حقًا فنحن شر من الحمير، فسمع الكلام غلام من الأنصار هو عامر بن قيس، فغضب، وأخبر النبي ﷺ فحلفوا أن عامرًا كاذب، وحلف عامر أنهم كذبوا، وقال: اللهم لا تفرّق بيننا حتى تبين الصادق من الكاذب، فنزلت هذه الآية، ونزلت أيضًا الآية التي بعدها ﴿يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ لِيُرْضَوْكُمْ^(٤)﴾.

قال محمد بن إسحاق بن يسار وغيره: نزلت هذه الآية في رجل من المنافقين يقال له: نبئل بن الحارث، وكان رجلًا أذلم، أحمر العينين، أسفع الخدين، مشوّه الخلقة، وهو الذي قال فيه النبي ﷺ: «من أراد أن ينظر إلى الشيطان، فلينظر إلى نبئل بن الحارث» وكان يُنمُّ حديث النبي ﷺ إلى المنافقين، فقيل له: لا تفعل، فقال: إنما محمد أذن، من حدّثه

(١) قرأ ورش وأبو جعفر وأبو عمرو بخلف عنه، بإبدال الهمزة واوًا في حالي الوصل والوقف، ومعهم حمزة عند الوقف فقط، وذلك في هذه الكلمات الثلاث (يؤذون، يؤمن، للمؤمنين).

(٢) قرأ نافع بإسكان الذال من (أذن) في الموضعين، والباقون بضمها، وهما لغتان.

(٣) قرأ حمزة بخفض التاء من (ورحمة للذين) عطفًا على (خير)، وقرأ الباقون بالرفع عطفًا على (أذن) أو خير لمبتدأ محذوف، أي: وهو رحمة.

(٤) نقل ذلك عن السدي في «الدر المنثور» (٢٥٣/٣) وهو عند ابن أبي حاتم (١٨٢٦/٦).

شيئاً صدّقه، نقول ما شئنا، ثم نأتيه فنحلف له فيصدقنا، فأنزل الله تعالى الآية^(١).

والله سبحانه يرد عليهم فيصف رسوله ﷺ بأربعة أوصاف:

الوصف الأول: أنه ﷺ أذنٌ خير وليس أذنٌ شر: ﴿قُلْ أَذُنٌ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ أي: قل -يا محمد- لهؤلاء المنافقين: إن محمداً أذنٌ، يستمع لكل خير، ويعمل به، ولا يعمل بالشر إذا سمعه، فهو لا يواجهكم بنفاقكم، ولا يعمل بخداعكم، ولا يقبل قول المنافقين.

والإسلام ينهى عن سماع الكذب والزور والباطل، والغيبة والنميمة، والفحش والسب، وغير ذلك.

ولما جاء رجل يقول للنبي ﷺ شيئاً عن رجل آخر قال له: «لا يبلغني أحد عن أحد شيئاً فأنا أحب أن أخرج إليكم وأنا سليم الصدر»^(٢).

فكان ﷺ ينهى أن يُذكر أحد بسوء في حضرته، وهو ﷺ لا يهتك الأستار، ولا ينقّب عن الأحوال، ويسمع ما يبلغه عنكم ولا يؤاخذكم به، ويسمع أعداؤكم ويقبلها منكم، ويعامل الناس بما أمر به من العفو، والصلح، والأمر بالمعروف، والإعراض عن الجاهلين، ولا يؤاخذ أحداً إلا ببيّنة.

ثم بيّن سبحانه ما يسمعه الرسول ﷺ وهو مأمور بتبليغه، فالرسول ﷺ يستمع إلى الوحي ويبلغكم إياه، وفي ذلك كل ما فيه صلاحكم، وخيركم، وسعادتكم.

الوصف الثاني: أنه ﷺ لا يرائي ولا يخادع، فهو ﷺ ﴿يُؤْمِنُ بِاللَّهِ﴾ إيماناً حقاً لا يشوبه رياء ولا خداع.

الوصف الثالث: أن الرسول ﷺ مأمور أن يصدق المؤمنين، فهم محل الثقة، لا سيما إذا حلفوا وأقسموا، فإن من مبادئ الإسلام: أن من حلف له بالله فليصدق، فشان

(١) يُنظر الطبري (٣٢٥/١٤) و«أسباب النزول» للواحدي (١٣٤) و«الدر المنثور» (٢٥٣/٣) وابن أبي حاتم بإسناد حسن و«سيرة ابن هشام» (٥٢٤/٢) و«الإصابة» (٥٣/٦).

(٢) ينظر سنن الترمذي عن ابن مسعود برقم (٣٨٩٦) قال أبو عيسى: هذا حديث غريب، وضعفه الألباني وانظر رياض الصالحين برقم (١٥٤٧) ص ٥٢٩ وهو في مسند أحمد (٣٧٥٩) من حديث طويل بإسناد ضعيف، وفي سنن أبي داود (٤٨٦٠) والبخاري في شرح السنة (٣٥٧١) والبيهقي في السنن (١٦٦/٨).

الرسول ﷺ أن يصدق المؤمنين ولا يكذبهم، وهذا معنى: ﴿وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾.

ومن صفات المؤمن أن يأخذ بالظاهر، ويصدق المؤمنين فيما يخبرونه به، والله سبحانه يتولى السرائر، فإذا حلف لك المؤمن بالله فعليك أن تصدق، وإن كان كاذبًا في حقيقته فالله سبحانه يحاسبه.

الوصف الرابع: أن الله تعالى أرسل رسوله ﷺ رحمة للمؤمنين، وهذا معنى: ﴿وَرَحْمَةً لِلَّذِينَ ءَامَنُوا مِنْكُمْ﴾ أي: ورسول الله ﷺ رحمة لمن آمن به واتبع هداياه ولفظ ﴿مِنْكُمْ﴾؛ ليخرج المنافقين الذين يزعمون أنهم مؤمنون، والإيمان يقابله الكفر ثم قال سبحانه: ﴿وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ رَسُولَ اللَّهِ﴾ محمدًا ﷺ بأي نوع من أنواع الأذى ﴿لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ مؤلم وموجع وهذه هي النهاية، وفيه إنذار بعذاب الآخرة وعذاب الدنيا.

الْمُنَافِقُ يُؤْثِرُ رِضَى النَّاسِ عَلَى رِضَى اللَّهِ تَعَالَى

٦٢- ﴿يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ لِيُرْضَوْكُمْ وَاللَّهُ وَرَسُولُهُ أَحَقُّ أَنْ يُرْضَوْهُ إِنْ كَانُوا مُؤْمِنِينَ﴾

ثم حذر الله المؤمنين ألا يغتروا بأيمان المنافقين ويصدقوهم، وذلك أنه لما رجع النبي ﷺ من غزوة تبوك، جاءه بعض المنافقين الذين تخلّفوا عن الغزوة يعتذرون إليه ويحلفون له كذبًا، حتى يتبرؤوا مما صدر منهم، فغايتهم أن ترضوا عنهم، وقد أعلم الله سبحانه أن أيمانهم كاذبة كما في قوله تعالى: ﴿وَسَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَوْ أَسْتَطَعْنَا لَخَرَجْنَا مَعَكُمْ يُهْلِكُونَ أَنْفُسَهُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾ [التوبة: ٤٢]

فخاطب الله المؤمنين كي يبين لهم شأن المنافقين الذين يذكرونهم بالسوء، ثم يأتون إليهم معتردين فقال: ﴿يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ لِيُرْضَوْكُمْ﴾ أي: يحلف المنافقون لكم بالأيمان الكاذبة، أنهم ما قالوا شيئًا فيه انتقاص للرسول ﷺ ويقدمون الأعذار الملفقة؛ ليرضوا بها المؤمنين، حتى يطمئنوا لهم ويقبلوا معاذيرهم ﴿وَاللَّهُ وَرَسُولُهُ أَحَقُّ أَنْ يُرْضَوْهُ﴾ بالإيمان والطاعة والمتابعة والتوبة والإخلاص، فهو العليم بما ظهر وما بطن من الأمور، وفي هذا توبيخ لهم؛ لإيثارهم رضى الناس على رضى الله ورسوله.

وكان الظاهر أن يقول: (أن يرضوهما) وقد عدل عنه السياق؛ لبيان أن إرضاء رسول

الله ﷻ هو عين إرضاء الله تعالى، وهذا من بلاغة القرآن ولو تُنِّي الضمير لما أفاد هذا المعنى، وقيل: كان الكفار يكرهون أن يُجَمَعَ الله مع رسوله في ضمير واحد، فجاءت الآية على خلاف ما يريدون.

والمعنى: والله أحق أن يرضوه ورسوله كذلك.

ثم بيّن سبحانه أن الإيمان الحق لا يتم إلا بالانقياد التام لله ورسوله، ولذلك كان هذا الشرط: ﴿إِنْ كَانُوا مُؤْمِنِينَ﴾ أي: إن كان هؤلاء المنافقين مؤمنون حقًا، وإلا كانوا كاذبين في دعواهم الإيمان بالله ورسوله، ووعدوه ووعدته، فالله ورسوله أحق بالرضى.

سُوءُ مَصِيرِ الْمُنَافِقِ

٦٣- ﴿الَّذِينَ يَعْلَمُونَ أَنَّهُمْ مِنْ مُحَادِدِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ فَأَنْتَ لَهُمْ نَارُ جَهَنَّمَ خَالِدًا فِيهَا ذَلِكَ الْخِزْيُ الْعَظِيمُ﴾ (١٣)

ثم توعد الله المنافقين بسوء المصير؛ لمخالفتهم أمر الله ورسوله، وجاء هذا بأسلوب الاستفهام المفيد للتوبيخ والتأنيب، وإقامة الحجة عليهم، وتهويل الأمر وتعظيمه؛ حيث خاطب الله المنافقين بهذه الآية: إن من يخالف الله ورسوله، فيكون في جانب، والله ورسوله في جانب، ومن يشاقق الله ورسوله ويحاربه، ومن يؤذي رسول الله ويسبه، ومن يعادي الله ورسوله، فإن مصيره نار جهنم، يصلها يوم القيامة خالداً مخلداً فيها، وهذا المصير فيه الهوان والذل والصغار، فإن كان المنافقون لا يعلمون ذلك -على سبيل القرض- فأعلمهم -يا رسول الله- بسوء مصيرهم هذا، وهو الذل العظيم، والشقاء الكبير، يتضاءل أمامه كل خزي وذل في الدنيا، فقد فاتهم النعيم المقيم ووقعوا في عذاب الجحيم وبئس المصير.

الْقُرْآنُ يَكْشِفُ سِتْرَ الْمُنَافِقِينَ

٦٤- ﴿يَحْذَرُ الْمُنَافِقُونَ أَنْ تُنْزَلَ عَلَيْهِمْ (١) سُورَةٌ تُنَبِّئُهُمْ (٢) بِمَا فِي قُلُوبِهِمْ قُلِ اسْتَهْزَؤُا (٤) إِنَّ اللَّهَ مُخْرِجٌ مِمَّا تَحْذَرُونَ﴾

ثم أخبر سبحانه عن حال المنافقين، وحذرهم من إظهار معتقدهم إلى حيِّز الوجود، فقد كان المنافقون يخشون أن يفضحهم القرآن، ويهتك أسرارهم، فكانوا يتحدثون بما يطعن في النبي ﷺ وفي صحبه، ويخافون أن ينزل القرآن يكشف ما في صدورهم، ولذلك فإن سورة التوبة تسمى (الفاضحة)، و (المبعثرة)؛ لأنها فضحت المنافقين وكشفت أسرارهم، وكان أحدهم يقول: وددت لو أني جلدت مئة جلدة، ولا ينزل فينا شيء يفضحنا^(٥) ويبيِّن أسرارنا.

وورد أن جماعة من المنافقين وقفوا للنبي ﷺ في ليلة مظلمة عند مرجعه من تبوك؛ ليفتكوا به، فأخبره جبريل، ونزل قول الله تعالى: ﴿يَحْذَرُ الْمُنَافِقُونَ أَنْ تُنْزَلَ عَلَيْهِمْ سُورَةٌ﴾^(٦) مشتملة عما تكنه صدورهم من أحقاد وأضغان فتذيع أسرارهم، و ﴿تُنَبِّئُهُمْ بِمَا فِي قُلُوبِهِمْ﴾ أي يخافون أن تنزل في شأنهم سورة تخبرهم بما يضمرونه في قلوبهم من الكفر، وتظهر مكنون نفوسهم من العداوة والحسد، فهم يستهزئون بالإسلام، ويخافون أن يفضحهم الله بالوحي، وقد ذكر القرآن أوصاف المنافقين ولم يذكر أسماءهم، لأن الله ستر يحب الستر، ولأن الوصف يشملهم ويشمل نظائرهم، فهو أعم.

(١) قرأ ابن كثير وأبو عمرو ويعقوب بتخفيف الزاي وإسكان النون من (تنزل) مضارع أنزل، وقرأ الباقون بتشديد الزاي وفتح النون مضارع نزل.

(٢) قرأ حمزة ويعقوب بضم الهاء من (عليهم) والباقون بكسرها.

(٣) وقف حمزة على (تنبئهم) بتسهيل الهمزة بينَ يَيْنَ، وبإبدالها ياء خالصة.

(٤) قرأ أبو جعفر بحذف الهمزة وضم الزاي وصلًا ووقفًا من (استهزؤا)، والباقون بإثبات الهمزة وكسر الزاي، ومثلها (تستهزؤون) في الآية التالية.

(٥) يُنْظَرُ: «أسباب النزول» للواحدي (١٤٣).

(٦) «زاد المسير» لابن الجوزي (٣/ ٤٦٣).

قال ابن عباس رضي الله عنه: أنزل الله ذكر سبعين رجلاً من المنافقين بأسمائهم وأسماء آبائهم، ثم نسخ هذه الأسماء رحمة منه بالمؤمنين؛ حتى لا يعير بعضهم بعضاً؛ لأن أولادهم كانوا مؤمنين.

وفي صحيح مسلم عن حذيفة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «في أصحابي اثنا عشر منافقاً، فيهم ثمانية لا يدخلون الجنة، ولا يجدون ريحها حتى يلج الجمل في سم الخياط، ثمانية منهم تكفيهم الدبيلة، وأربعة لم أحفظ ما قال شعبة فيهم» وقال غندر: أراه قال «في أمتي اثنا عشر منافقاً...»^(١).

والدبيلة: سراج من النار يظهر في أكتافهم حتى ينجم من صدورهم.

وجاء التصريح بأسماء هؤلاء المنافقين في قول النبي ﷺ لحذيفة: إن الله قد أخبرني بأسمائهم وأسماء آبائهم، وسأخبرك بهم -إن شاء الله- عند وجه الصبح، فلما أصبح سماهم له وهم:

- ١- عبد الله بن أبيي.
- ٢- وسعد بن أبي السرح.
- ٣- وأبو خاطر أو أبو حاصر الأعرابي.
- ٤- وعامر.
- ٥- وأبو عامر الفاسق.
- ٦- والجلاس بن سويد بن الصامت.
- ٧- ومجمع بن حارثة.
- ٨- ومُليح التيمي، أو السهمي.
- ٩- وحصين بن نمير.
- ١٠- وطعمة بن أبيرق.
- ١١- وعبد الله بن عُينة أو عتية.
- ١٢- ومرة بن ربيع.

فهم اثنا عشر رجلاً حاربوا الله ورسوله وأرادوا قتله، فأطلع الله نبيه على ذلك^(٢).

وهذه الآية شبيهة بقوله تعالى: ﴿أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ أَنْ لَنْ يُخْرِجَ اللَّهُ أَضْغَنَهُمْ﴾ [٢٩] وَلَوْ نَشَاءُ لَأَرَيْنَاكَهُمْ فَفَعَلْنَاهُمْ بِسِمَتِهِمْ وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِي لَحْنِ الْقَوْلِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ أَعْمَالَكُمْ ﴿٣٠﴾ [محمد] وقوله: ﴿وَإِذَا جَاءُوكَ حَيَّكَ بِمَا لَمْ يُحَيِّكَ بِهِ اللَّهُ وَيَقُولُونَ فِي أَنْفُسِهِمْ لَوْلَا يُعَذِّبُنَا اللَّهُ بِمَا نَقُولُ

(١) «صحيح مسلم» (٢٧٧٩)، عن قتادة عن أبي نضرة عن قيس قال: قلت لعمار، وذكر الحديث من أوله (أرايتم صنعكم هذا) وشعبة، هو شعبة بن الحجاج أحد رجال الإسناد.

(٢) يُنظر البيهقي في «الدلائل» (٢٥٧/٥-٢٥٩) وابن إسحاق في السيرة و«زاد المعاد» (٥٤٨/٣) وما بعدها.

حَسْبُهُمْ جَهَنَّمُ يَصَلَوْنَهَا فَيَنَسُّ الْمَصِيرَ ﴿٨﴾ [المجادلة: ٨].

يقول سبحانه مهديًا ومتوعداً لهم: ﴿قُلِ اسْتَزِرُوا﴾ امضوا في طريقكم؛ واستمروا على ما أنتم عليه من الاستهزاء والسخرية، وهذا على سبيل التهديد والتبكيث ﴿إِنَّ اللَّهَ مُخْرِجٌ مَّا تَحْذَرُونَ﴾ أي: فالله مخرج حقيقة ما تحذرون، وهو سبحانه يفضح أحوالكم، ويكشفها للنبي ﷺ .

وهذا كقوله تعالى: ﴿اعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ﴾ [فصلت: ٤٠] فهو تهديد في صورة الأمر.

وقد كان المنافقون مترددين بين الإيمان والكفر، ولهذا كانوا خائفين أن يفضح الله أمرهم، ومنهم من كان يعرف أن النبي ﷺ صادقاً في دعوى النبوة والرسالة، ولكنهم كفروا به حسداً وعناداً.

لُحُومُ الْعُلَمَاءِ مَسْمُومَةٌ، فَمَا بِالْكُفْرِ بِالْحُومِ النَّبِيِّ وَصَحْبِهِ؟

٦٥- ﴿وَلَيْن سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ قُلْ أَبِاللَّهِ وَآيَاتِهِ وَرَسُولِهِ كُنْتُمْ تَسْتَهْزِئُونَ﴾

جاءت روايات في سبب نزول هذه الآية منها:

أ- ما جاء عن زيد بن أسلم: أن رجلاً من المنافقين، قال لعوف بن مالك في غزوة تبوك: ما أرى قراءنا هؤلاء -يعني: الصحابة- إلا أرغبنا بطوناً، وأكذبنا ألسنة، وأجبنا عند اللقاء! فقال له عوف: كذبت، ولكنك منافق، لأخبرن رسول الله ﷺ فذهب عوف إلى رسول الله ﷺ ليخبره وقد ركب ناقته، فوجد القرآن قد سبقه.

قال زيد: قال عبد الله بن عمر ؓ: فنظرت إليه -أي: إلى هذا المنافق- متعلّقاً بحَقَبِ ناقة رسول الله ﷺ تنكبه الحجارة، وهو يقول: إنما كنا نخوض ونلعب، فيقول له الرسول: ﴿أَبِاللَّهِ وَآيَاتِهِ وَرَسُولِهِ كُنْتُمْ تَسْتَهْزِئُونَ﴾^(١).

وحقَب الناقة: الحبل الذي يشدّ به الرجل في بطن العير.

(١) «تفسير ابن جرير» (٣٣٣/١٤) برقم (١٦٩١١، ١٦٩١٢) وتفسير ابن أبي حاتم برقم (١٣٠٧) وصحح إسناده محمود شاكر في حاشية الطبري، وله شاهد من حديث كعب بن مالك في «تفسير ابن أبي حاتم» (١٣٠٦) بإسناد حسن.

ب - وقال قتادة: بينما رسول الله ﷺ يسير في غزوته إلى تبوك، وبين يديه ناس من المنافقين فقالوا: يرجو هذا الرجل أن يفتح قصور الشام وحصونها!! هيهات هيهات! فأطلع الله نبيه على ذلك، فقال نبي الله ﷺ: «احبسوا عليَّ الركب» فأتاهم فقال لهم: «قلتم كذا وكذا؟»، فقالوا: يا نبي الله، إنما كنا نخوض ونلعب، فأنزل الله تعالى فيهم ما تسمعون^(١).

ج - وعن ابن عباس رضي الله عنهما أن ثلاثة من المنافقين كانوا يسرون بين يدي رسول الله ﷺ مرجعه من تبوك، فأخذ رجلان منهم يستهزئون برسول الله ﷺ، والثالث يضحك ولا يتكلم، فنزل جبريل وأخبر النبي ﷺ، فقال لعمار بن ياسر: «أذهب فسلهم عما يضحكون، وقل لهم: أحرقكم الله»، فعلموا أنه قد نزل فيهم قرآن، فأقبلوا يعتذرون إلى النبي ﷺ قال الثالث: والله ما تكلمت بشيء، وإنما ضحكْتُ من قولهم تعجبًا، فأنزل الله ﴿لَا تَعْتَذِرُوا قَدْ كَفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ﴾^(٢).

د - وعن ابن إسحاق: أن جماعة من المنافقين كانوا يسرون مع النبي ﷺ فقال بعضهم: أتحسبون أن جَلَاد بني الأصفر -يعني: الروم- كقتال العرب بعضهم بعضًا؟ والله لكأننا بكم غداً مُقَرَّنِينَ في الجبال، إرجافاً وترهيباً للمؤمنين، فخشي أحدهم وهو (مُخَشَّنٌ^(٣) بن حُمَيْرٍ الأشجعي) أن ينزل فيهم قرآن، فقال الرسول ﷺ لعمار بن ياسر: «أدرك القوم فقد احترقوا، وأخبرهم بما قالوا»، ونزلت الآية.

فلما أعلمهم النبي ﷺ بنزول الآية فيهم، قال ودیعة بن ثابت: يا رسول الله، إنما كنا نخوض ونلعب، أما (مُخَشَّنٌ) فقد تاب وعفا الله عنه، قيل: إنه كان مسلماً إلا أنه سمع كلام المنافقين فضحك لهم، ولم ينكر عليهم، وهو الذي قال الله فيه: ﴿إِنْ نَعَفَ عَنْ طَآئِفَةٍ مِّنْكُمْ﴾ وَتَسَمَّى بعد ذلك (عبد الرحمن) وسأل الله أن يُقتل شهيداً ولا يُعلم مكانه، فقتل يوم اليمامة، ولم يوجد له أثر، أما الذين عُذِّبُوا فيهم: ودیعة، وجدُّ بن قيس، وهم من قال الله فيهم: ﴿نُعَذِّبُ طَآئِفَةً بِأَنَّهُمْ كَانُوا مُجْرِمِينَ﴾^(٤).

(١) ابن أبي حاتم (١٨٣٠/٦). والقرطبي (١٩٦/٨) عند تفسير الآية.

(٢) يُنْظَرُ «تفسير ابن كثير» والجوزي والبعوي والخازن وغيرهم للآية و«الدر المنثور» (٤٢٨/٧). والحديث بتصحيح الألباني في فقه السيرة ص ٤٠٠ - ٤٠٥.

(٣) ويقال له: (مُخَشِّي).

(٤) يُنْظَرُ: «السيرة النبوية» لابن هشام (٥٢٤/٢) وابن أبي حاتم (١٨٣١/٦).

هـ - وقال ابن عمر: رأيت عبد الله بن أبي يُسر، قدَّام النبي ﷺ والحجارة تنكته وهو يقول: يا رسول الله ﴿إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ﴾ والنبي ﷺ يقول: ﴿أَبَايَهُ وَآيَاتِهِ وَرَسُولِهِ كُنْتُمْ تَسْتَهْزِئُونَ﴾^(١).

و - وفي رواية محمد بن كعب القرظي وغيره: أن هذا المنافق جاء إلى رسول الله ﷺ وقد ارتحل وركب ناقته، وإن رجله لتُسفان الحجارة، وما يلتفت إليه رسول الله ﷺ وهو متعلق بنسعة رسول الله ﷺ^(٢).

ومعنى الآية: ولئن سألت يا محمد هؤلاء المنافقين عن سبب القدح في حقك وحق أصحابك ليقولنَّ لك على سبيل الاعتذار: إنما كنا نتكلم بكلام على سبيل المزاح والمُداعبة لا على سبيل الجد، ولا قصد لنا فيه ﴿قُلْ﴾ لهم - يا محمد - على سبيل التوبيخ قطعاً لمعاذيرهم وتبكيّاً على جهلهم: ﴿أَبَايَهُ وَآيَاتِهِ وَرَسُولِهِ كُنْتُمْ تَسْتَهْزِئُونَ﴾ أما وجدتم مادة أخرى للمزاح واللعب سوى الاستهزاء بالله وآياته ورسوله الذين جاؤوا لهدايتكم، وإخراجكم من الظلمات إلى النور، وهذا الاستهزاء كفر مخرج من الملة، لأن الإسلام يقوم على تعظيم الله تعالى وتعظيم دينه وشرعه ورسوله . قال تعالى:

٦٦ - ﴿لَا تَعْذِرُوا قَدْ كَفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ إِنَّ نَعْفَ^(٣) عَنْ طَائِفَةٍ مِّنْكُمْ تُعَذِّبُ^(٣) طَائِفَةٌ^(٣) بِأَنَّهُمْ كَانُوا جُرْمِينَ

وبعد أن كشف الله سترهم، بيّن عدم جدوى اعتذارهم؛ لأنهم قد تلبَّسوا بما هو أشنع وأبشع مما اعتذروا عنه، وهو الكفر بعد إظهار الإيمان، فقال تعالى: ﴿لَا تَعْذِرُوا﴾ أيها المنافقون بالباطل فلا جدوى من اعتذاركم بعد ظهور مكنون صدوركم وخداعكم واستخفافكم؛ لأن الاستهزاء بالدين من باب الكفر. ﴿قَدْ كَفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ﴾ أي: قد

(١) «أسباب النزول» للواحدي (٢١١) والسيوطي (١٤٢).

(٢) «تفسير ابن كثير» (١٧١/٤).

(٣) قرأ عاصم (نَعْفُ) بفتح النون وضم الفاء، و (تُعَذِّبُ) بضم النون وكسر الذاًل مشددة، و (طَائِفَةٌ) بالنصب، وقرأ الباقر (يُعْفُ) بياء مضمومة وفتح الفاء، و (تُعَذِّبُ) بياء مضمومة، وذاًل مشددة مفتوحة، و (طَائِفَةٌ) بالرفع، وقرأ عاصم على البناء للفاعل، والفاعل ضمير يعود على الله تعالى، وقرأ الباقر على البناء للمفعول، ونائب الفاعل (عن طائفة) هكذا (إن يُعْفَ عن طائفة منكم تُعَذِّبُ طائفة).

أظهرتم الكفر بعد أن أظهرتم الإيمان الكاذب، ونحن الآن نعاملكم معاملة الكفار، بعد أن كنا نعاملكم معاملة المؤمنين ﴿إِنْ نَعَفُ عَنْ طَآئِفَةٍ مِّنْكُمْ﴾ فمن أسلم وتاب من نفاقه ورجع إلى الله تعالى مثل: (مَخَشِيَّ بن حُمَيْر) الذي قال: اللهم إني لا أزال أسمع آية تُقرأ أنا أُعْنَى بها، تقشعر منها الجلود، وتجيب منها القلوب، اللهم اجعل وفاتي قَتْلًا في سبيلك؛ حتى لا يقول أحد: أنا غَسَلْتُ، أنا كَفَّنتُ، أنا دَفَنْتُ، فأصيب يوم اليمامة، ولم يعرف أحد أين كان مصرعه!

ثم ذكر تعالى صنفًا آخر من المنافقين فقال عنهم: ﴿نُعَذِّبُ طَآئِفَةً﴾ ممن أصر على النفاق ولم يتب، مثل: (جدُّ بن قيس)؛ وذلك بسبب إجرامهم وجُرأتهم على الله تعالى، وعلى رسوله ﷺ بهذه المقالة الفاجرة ﴿بِأَنَّهُمْ﴾ أي: بسبب أنهم ﴿كَانُوا مُجْرِمِينَ﴾. والآية عامة في كل منافق يُظْهِرُ الإسلام ويبطن الكفر إلى يوم القيامة، وهي بصيغة الشرط المستقبلية المتجددة.

مُقَابَلَاتُ بَيْنَ أَهْلِ الْإِيمَانِ وَأَهْلِ النِّفَاقِ

٦٧- ﴿الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ بَعْضُهُم مِّنْ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمُنْكَرِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمَعْرُوفِ وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ نَسُوا اللَّهَ فَنَسِيَهُمْ إِنَّكَ الْمُنْفِقِينَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ (٦٧)

ثم يقابل الله ﷻ بين المنافقين والمؤمنين الآتي ذكرهم في الآيتين: الحادية والسبعين، والثانية والسبعين فيذكر ستة أوصاف يتميز بها المؤمنون على المنافقين، والمقصود من هذا بيان أن إناثهم كذكورهم في جميع الأعمال، وبيانها فيما يأتي:

أولاً: المؤمنون والمؤمنات بعضهم أولياء بعض، والمنافقون والمنافقات بعضهم من بعض، فليسوا بمؤمنين، وهم كاذبون في قولهم: ﴿إِنَّهُمْ لِمِنكُمْ﴾.

ثانياً: المؤمنون والمؤمنات يأمرُونَ بالمعروف والخير، وينهون عن المنكر والكفر والشرك، والمنافقون والمنافقات يأمرُونَ بالمنكر والمعاصي، وينهون عن المعروف والإيمان والطاعة.

ثالثاً: المؤمنون والمؤمنات يبذلون أموالهم في وجوه الخير والبر، والمنافقون والمنافقات يقبضون أيديهم، فلا ينفقون شيئاً في سبيل الله، ويضئون ويشعون بمالهم

حين يُدْعَوْنَ إلى النفقة في الجهاد وغيره.

رابعاً: المؤمنون والمؤمنات يقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة، والمنافقون والمنافقات نسوا ذكر الله، فلم يذكروه ولم يؤدوا فرائضه، ولم يوحدوه، فنسيهم الله وتركهم في نار جهنم.

خامساً: المؤمنون والمؤمنات يطيعون الله ورسوله، والمنافقون والمنافقات عاصون لله ورسوله.

سادساً: المؤمنون والمؤمنات سيرحهم الله ويدخلهم جنته فيَنَعَمُونَ فيها أبداً، والمنافقون والمنافقات يتركهم الله في العذاب جزاءً وفقاً لأعمالهم فيعذبون فيها أبداً.

هذا: وطبيعة التفاق واحدة في كل زمان ومكان، والآية التي معنا تذكر خمسة أوصاف للمنافقين:

أ- هم صنف واحد، في إعلانهم الإيمان وإخفائهم الكفر، متشابهون في التفاق والبعد عن الإيمان، كتشابه أجزاء الشيء الواحد، كأنهم نفس واحدة ذكوراً وإناثاً في أعمالهم الخبيثة، كما يقول الإنسان لغيره: أنا منك، وأنت مني، فأحوالنا واحدة، وطبيعتنا واحدة، لا نختلف في شيء، وهذا معنى ﴿بَعْضُهُمْ مِّنْ بَعْضٍ﴾.

ب- ثم إن بعضهم يأمر بعضاً بالكفر بالله وتكذيب الرسول، وينهون عن الإيمان والطاعة وتصديق الرسول، فيأمرهم بما تستكره الشرائع، وتستقبحه العقول، وينهون عن كل ما يدعو إليه الدين والفطرة السليمة، وهذا معنى ﴿يَأْمُرُونَ بِالْمُنْكَرِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمَعْرُوفِ﴾.

ج- والمنافقون يقبضون أيديهم شحاً وبخلاً، ويمسكونها عن النفقة في سبيل الله، وعن كل خير في صالح الدعوة الإسلامية، وهذا معنى ﴿وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ﴾.

د- والمنافقون ﴿سُوءُوا اللَّهَ﴾ فلم يذكروه وتركوا أمره ونهيه ﴿فَنَسِيَهُمُ﴾ الله من رحمته وثوابه، ولم يوفقهم للخير، أي: أنهم لما نسوا ذكر الله وتركوا عبادته، تركهم الله من توفيقه وهدايته، كما قال تعالى: ﴿وَقِيلَ الْيَوْمَ نَنْسِفُكُمْ كَمَا نَسِيتُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا وَمَأْوَاكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُم مِّنْ تَصْرِيحٍ﴾ [الباقية]

والمقصود من النسيان ما يلازمه في المعنى، وهو الترك والإهمال.

هـ- وهؤلاء المنافقون هم الخارجون عن الإيمان بالله ورسوله، الكاملون في الفسق، المنسلخون من الإيمان ﴿إِنَّ الْمُنَافِقِينَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ فهذه خمسة أوصاف لهم.

والمعنى: (المنافقون والمنافقات صنف واحد في إعلانهم الإيمان واستبطنهم الكفر، يأمرهم بالكفر بالله ومعصية رسوله، وينهون عن الإيمان والطاعة، ويمسكون بأيديهم عن النفقة في سبيل الله، نسوا الله فلا يذكرونه، فنسيهم من رحمته، فلم يوفقهم إلى خير، إن المنافقين هم الخارجون عن الإيمان بالله ورسوله^(١)).

مَصِيرُ أَهْلِ الْكُفْرِ وَالنِّفَاقِ

٦٨- ﴿وَعَدَ اللَّهُ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْكُفَّارَ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا هِيَ حَسْبُهُمْ وَلَعْنَهُمْ اللَّهُ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّقِيمٌ﴾ ﴿٦٨﴾

ثم ما هو العذاب الذي ينتظر أهل النفاق الأكبر؟ إنه عذاب الكفار المجاهرين بكفرهم ﴿وَعَدَ اللَّهُ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْكُفَّارَ﴾ بأن مصيرهم إلى نار جهنم ماكثين فيها أبداً، عقاباً لهم على كفرهم بالله، فهم في منزلة واحدة، بل إن منافقي العقيدة أشد وأعظم ﴿إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرَكِ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ وَلَنْ يَجِدَ لَهُمْ نَصِيراً﴾ ﴿٦٥﴾ [النساء] فمصيرهم ﴿نَارَ جَهَنَّمَ﴾ خالدين فيها يقيمون فيها بصفة دائمة كما قال تعالى: ﴿لَا يُقْضَىٰ عَلَيْهِمْ فِيمَوتُوا وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ مِنْ عَذَابِهَا﴾ [فاطر: ٣٦] وقال سبحانه ﴿ثُمَّ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَىٰ﴾ ﴿٦٢﴾ [الأعلى] وقال جل شأنه: ﴿كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُمْ بَدَّلْنَاهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا الْعَذَابَ﴾ [النساء: ٥٦] وقال عز وجل: ﴿وَنَادَوْا بِمَلَائِكَةٍ لِّيَقْضِيَ عَلَيْنَا رَبُّكَ قَالَ إِنَّكُمْ مَرْكُوتٌ﴾ ﴿٧٧﴾ [الزخرف].

وهذه النار ﴿هِيَ حَسْبُهُمْ﴾ كافيتهم في إهانتهم وإذلالهم، عقاباً لهم على كفرهم بالله، ونفاقهم في عقيدتهم ﴿وَلَعْنَهُمُ اللَّهُ﴾ طردهم من رحمته، وأبعدهم عن بابه، وألحقهم بالشياطين ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّقِيمٌ﴾ أي: عذاب دائم لا يتقطع، بخلاف العذاب المعجل لهم في الدنيا، من خوف الاطلاع على سرائرهم وكشف فضائحهم، والخزي والمذلة بين الناس.

والعذاب المقيم: إن أريد به عذاب جهنم، فهو تأكيد لقوله تعالى: ﴿خَالِدِينَ فِيهَا هِيَ حَسْبُهُمْ﴾ حتى لا يُتَوَهَّم أن المراد بالخلود طول المدة فحسب، وإن أريد بها عذاب آخر، تعيّن أن يكون هو عذاب الدنيا الذي أشرنا إليه، والأول أرجح؛ لأن عذاب الدنيا غير دائم.

(١) من «التفسير الميسر» نخبة من العلماء ص (١٩٧).

اَسْتَوَاءُ اللّٰحِقِيْنَ بِالسَّابِقِيْنَ فِيْ سُوْءِ الْمَصِيْرِ

٦٩- ﴿كَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ كَانُوا أَشَدَّ مِنْكُمْ قُوَّةً وَآكَثَرَ أَمْوَالًا وَأَوْلَدًا فَاسْتَمْتَعُوا بِخَلْقِهِمْ فَاسْتَمْتَعْتُمْ بِخَلْقِكُمْ كَمَا اسْتَمْتَعَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ بِخَلْقِهِمْ وَخُضْتُمْ كَالَّذِي خَاضُوا أُولَٰئِكَ حَطَّتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾ (٦٩)

هذا تحذير لأهل النفاق أن يصيبهم من العذاب مثل أصاب الأمم المكذبة لرسول الله قبلهم، فقد بين ﷺ أن طبيعة المنافقين وأهل الانحراف والضلال ليست جديدة، بل لها نظائر وأمثال يحفل التاريخ البشري بكثير منها، وقد لقي اللّاحقون ما لقيه السابقون من سوء المصير.

والقرآن هنا ينتقل من أسلوب الغائب إلى أسلوب المخاطب جذبًا للانتباه، ولفتًا للأنظار، فيشبه أفعال المنافقين بأفعال الكافرين الذين سبقوهم في عُدُولِهِمْ عن طاعة الله واتباع أمره، قال تعالى: ﴿كَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ﴾ أي: أن أفعالكم -معشر المنافقين- من الاستهزاء بالإسلام والكفر بالله، وقبض الأيدي عن فعل الخير والطاعة، كأفعال الأمم السابقة من الكفار قبلكم فقد ﴿كَانُوا أَشَدَّ مِنْكُمْ قُوَّةً﴾ في أبدانهم، وأقدر منكم على الأعمال الشاقة الصعبة، وكانوا أعز منكم جانبًا، وأكثر عددًا وأكمل عدة، فعصّوا ربهم فأهلكهم الله، فأنتم أخرى بالإهلاك منهم لمعاصيكم وضعفكم، وكانوا أكثر أموالًا، أي: كانوا أقدر على تحصيل الأموال، وطرق أسبابها من الزراعة والتجارة والصناعة، والرعي والصيد، واستخراج كنوز الأرض وما إلى ذلك.

وكانوا أيضًا أكثر أولادًا، من كثرة الأزواج والإماء، والمراضع، والسلامة من المجاعات، وكثرة النسل ﴿فَاسْتَمْتَعُوا بِخَلْقِهِمْ﴾ أي: اطمأنوا إلى الدنيا، وتمتعوا بما فيها من الملذات والحظوظ، وأخذوا نصيبهم منها وافرًا، ولم يشكروا الله على إحسانه ﴿فَاسْتَمْتَعْتُمْ بِخَلْقِكُمْ﴾ أي: وأنتم -أيها المنافقون- استمتعتم بنصيبيكم من الشهوات الفانية، وامتألت أيديكم بالنعم، فاستعملتموها في معصية الله، وكنتم جاحدين لها، غير قائمين بحقها عليكم، بل استمتعتم بنعم الله على معاصيه كما فعل أسلافكم ﴿كَمَا اسْتَمْتَعَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ بِخَلْقِهِمْ﴾ أي: أن استمتعتمكم بالشهوات والملذات، كان مثل استمتاع الذين سبقوكم بحظوظ الدنيا، حيث عجلت لكم طياتكم في حياتكم الدنيا فاستعملوها

فيما يغضب الله سبحانه .

وهكذا ذمَّ الله الأولين على تمتُّعهم ورضاهم بحظوظ الدنيا دون الآخرة .

وهكذا شبهَ حال المنافقين المخاطبين في الآية بحال مَنْ سبقهم، وأكد، فليس في الآية تكرار، وإنما فيها تأكيد لتقبيح أفعالهم وأفعال نظرائهم من السابقين .

ثم بيَّن تعالى رذيلة أخرى من رذائل اللاحقين المماثلة لرذائل السابقين، فقال سبحانه : ﴿وَحُضِّنُمْ﴾ في الباطل والزور، وجادلتُم بالباطل لِتُدْحِضُوا به الحق، وكنتم ﴿كَالَّذِي خَاضُوا﴾ والمراد بـ (الذي خاضوا) الفريق أو الجمع؛ لأن عائد الصلة ضمير جمع، ويجوز أن يكون المراد (الذين) فحذفت النون للتخفيف . والخوض لا يكون إلا في الباطل وخلط الحق به، ومما خاض فيه المنافقون: استهزاؤهم بالإسلام وأهله الذي جاء ذكره في قوله تعالى: ﴿وَلَكِنْ سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ﴾ أي: إنكم أيها المنافقون سلكتم مسلك مَنْ سبقكم في الكذب على الله واتباع الباطل، والاستخفاف بعقاب الله عز وجل .

﴿وَأُولَئِكَ﴾ الموصوفون بهذه الأخلاق من الكافرين والمنافقين ممن وصفهم الله بالشدة وكثرة الأموال والاستمتاع بملذات الدنيا ونعيمها ﴿حَبِطَتْ أَعْمَلُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ﴾ أي: ذهبت حسناتهم، وبطلت أعمالهم الصالحة التي عملوها من وجوه الخير والبر في الدنيا، فلا تنفعهم في الآخرة ﴿وَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾؛ لأنهم باعوا نعيم الآخرة بحظوظ الدنيا .

أما مَنْ هم هؤلاء الذين شبهَ الله بهم المنافقين من الأمم السابقة؟ فعن عكرمة عن ابن عباس قال: ما أشبه الليلة بالبارحة! ﴿كَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ﴾ هؤلاء بنو إسرائيل، شبهنا بهم، لا أعلم إلا أنه قال: «والذي نفسي بيده لتبعنهم حتى لو دخل الرجل منهم جُحْر ضب لدخلتموه»^(١) .

وفي حديث أبي هريرة ؓ أن النبي ﷺ قال: «لا تقوم الساعة حتى تأخذ أمتي بأخذ القرون قبلها، شبراً بشبر، وذراعاً بذراع»، فقيل: يا رسول، كفارس والروم؟ فقال: «ومن

(١) «تفسير ابن كثير» (٤/١٧٣) .

الناس إلا أولئك؟»^(١).

وفي الصحيحين عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «لتبعن سنن الذين من قبلكم، شبرًا بشبر، وذراعًا بذراع، حتى لو دخلوا جحر ضب لاتبعتهم، قلنا يا رسول الله: اليهود والنصارى؟ قال: «فمن؟»^(٢).

وعلى هذا فالمراد من الآية: مخاطبة العصاة من أمة محمد ﷺ، ونهيهم عن التشبه بمن سبقوهم من اليهود والنصارى، أو فارس والروم^(٣).

وسياق الآية يقتضي أن يكون الخطاب في الآية موجهاً إلى المنافقين المذكورين في الآية السابقة، وأن مثلهم مثل من سبقهم من أهل الكفر والضلال، فاحذروا أن يحل بكم ما حل بغيركم.

ومن الأمم التي نهت الآية عن التشبه بهم في الزمن البعيد (قوم عاد) فقد وصفهم الله تعالى بأنهم استكبروا في الأرض بغير الحق وقالوا: من أشد منا قوة؟ وأنهم بنوا في كل مرتفع من الأرض آية في الفن المعماري فكان عاقبة الله لهم: أن أرسل عليهم ريحاً صرصراً عاتية ﴿تُدْمِرُ كُلَّ شَيْءٍ بِأَمْرِ رَبِّهَا فَأَصْبَحُوا لَا يُرَى إِلَّا مَسَكِنُهُمْ﴾ [الأحقاف: ٢٥].

والتاريخ يعيد نفسه في صورة بعض الدول التي تقول: من أشد منا قوة؟ وقد عتت وأفسدت في الأرض عتواً كبيراً، والله تعالى يملئ للظالم ولكنه جل شأنه لا يهمله ﴿إِنْ أَخَذَهُ آلِمْ شَدِيدٌ﴾ [هود: ١٠٢].

أما المؤمنون فإنهم استعانوا بنعيم الدنيا على طاعة الله، فأجزل لهم المثوبة في جنات النعيم. قال تعالى:

٧٠- ﴿الَّذِينَ يَأْتِيهِمْ^(٤) نَبَأُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ قَوْمٌ نُوحٍ وَعَادٌ وَثَمُودٌ^(٥) وَقَوْمٌ إِبْرَاهِيمَ

(١) «صحيح البخاري» برقم (٧٣١٩).

(٢) «صحيح مسلم» برقم (٢٦٦٩) و«صحيح البخاري» برقم (٣٤٥٦، ٧٣٢٠).

(٣) وبهذا قال الطبري في تفسيره (٣٤١/١٤) وابن كثير في تفسيره (١٧١/٤) وغيرهما.

(٤) ضم الهاء من (يأتهم) رويس، وكسرها غيره.

(٥) عدّ لفظ (وتمود) آية، المدني الأول والأخير والمكي، وتركه من العدد غيرهم.

وَأَصْحَابِ مَدْيَنَ وَالْمُؤْتَفِكَاتِ^(١) أَنَّهُمْ رُسُلُهُمْ^(٢) يَلْبِغُونَ فَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٧٠﴾

وبعد أن نهى القرآن الكريم المنافقين أن يتشبهوا بالذين قبلهم في الزمن القريب إليهم من الأمم السابقة قبل الرسالة الخاتمة، رجع إلى أسلوب الغيبة؛ ليقرر أن على هؤلاء المنافقين ومن شاكلهم، أن يتعظوا ويعتبروا بالأمم الغابرة في الزمن البعيد؛ ليكون لهم فيهم عبرة ﴿أَلَمْ يَأْتِهِمْ نَبَأُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ أي: ألم يصل إلى أسماع هؤلاء المنافقين والكفار خبر من مضى قبلهم من الأمم التي خالفت أمر الله وكذبت رسله، والمعني هم الذين قالوا: إنما كنا نخوض ونلعب.

وقد ذكرت الآية ستة منهم، وخص القرآن هؤلاء الستة بالذكر؛ لأن آثارهم باقية، ومواطنهم قريبة ممن خاطبهم الله بهذه الآيات وهي: في الشام، والعراق، واليمن، والأردن، والأحقاف، ومدائن صالح، وهم يمرون عليها في أسفارهم مصبحين وبالليل، وهم:

- أ- قوم نوح الذين كذبوا رسولهم، فأغرقهم الله بالطوفان، إلا من آمن به من قومه.
- ب- وقوم عاد الذين كذبوا رسولهم هودًا فأهلكهم الله بريح عقيم صرصر عاتية.
- ج- وقوم ثمود الذين كذبوا رسولهم صالحًا، فأخذتهم الصيحة فأصبحوا في ديارهم جاثمين.
- د- وقوم إبراهيم الذين سلب الله عنهم نعمه وأهلك طاغيتهم المتجبر، الذي حاج إبراهيم في ربه.

هـ- وأصحاب مدين قوم شعيب وكذا أصحاب الأيكة، الذين أخذتهم الصيحة، والذين عذبوا بيوم الظلة، فأصبحوا في ديارهم جاثمين.

و- والمؤتفكات أصحاب قرى قوم لوط (سدوم) التي قلبها الله، وجعل عاليها سافلها، وأمطرهم بحجارة من سجيل، وسُمُّوا بالمؤتفكات؛ لأنهم صرفوا الحق إلى الكذب.

هؤلاء الأقوام وغيرهم ﴿أَنَّهُمْ رُسُلُهُمْ يَلْبِغُونَ﴾ والحجج الواضحات بالوحي المنزل،

(١) أبدال ورش وأبو جعفر وقالون وأبو عمرو بخلف عنهما، همزة (والمؤتفكات) وأوًا خالصة وصلًا ووقفًا ومعهم حمزة عند الوقف.

(٢) قرأ أبو عمرو بإسكان السين من (رسلهم)، والباقون بضمها.

فكذبوهم، فعاقبهم الله تعالى بأن أنزل بهم عذابه وانتقامه؛ لسوء أعمالهم.

وهذه سُنَّةُ الله في خلقه ﴿فَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ بكفرهم وجحودهم، وتكذيبهم لرسول الله، ومخالفتهم للحق الذي جاءهم من ربهم، فلم يهلكهم الله ظلمًا وإنما أهلكهم بإجرامهم قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ جَاءَكَ مِنْ نَبِيِّ الْأَنْعَامِ: [٣٤].

ويؤخذ من الآيتين أن الغرور بالقوة، والانغماس في الشهوات، والافتتان بالأموال والأولاد، يؤدي إلى الهلاك والخسران والتعرض لسخط الله تعالى.

وَلَايَةُ الْمُؤْمِنِينَ لِبَعْضِهِمْ وَصِفَاتُهُمْ

٧١- ﴿وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَيُطِيعُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾

وبعد أن ذكر الله تعالى صفات المنافقين الذميمة، وما أعد لهم من العذاب، وضرب لهم مثلاً قريباً ومثلاً بعيداً من الأمم التي سبقتهم، وما لحق بهم من عقوبة؛ بسبب تكذيبهم لرسول الله.

أعقب ذلك بذكر أوصاف المؤمنين الحسنة المحمودة، وما أعد لهم من النعيم المقيم.

فقال سبحانه: ﴿وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ﴾ لهم خصائص ومزايا لا يشتركون فيها مع غيرهم، وقد وصفهم الله بضد ما وصف به المنافقين، ومن هذه الصفات:

أ - أن ﴿بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ﴾ فهم إخوة في الدين، ذكوراً وإناثاً، يوالون بعضاً في المحبة والموالة والانتماء والنصرة، تجمعهم العقيدة الواحدة، فهم يتناصرون ويتعاضدون ويتراحمون فيما بينهم، وهم أشبه بالجسد الواحد، إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى، وهم كالبنیان المرصوص يشد بعضه بعضاً، والمنافقون لا ولاية بينهم، ولا شفاعة لهم.

ب - وأنهم ﴿يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ﴾

والمعروف: اسم جامع لكل ما حسنه الشرع من العقائد، والأعمال الصالحة والأخلاق الفاضلة.

والمُنْكَر: كل ما خالف المعروف وناقضه من العقائد الباطلة، والأعمال الخبيثة، والأخلاق الذميمة.

أي: يأمر بعضهم بعضاً، ويأمرون غيرهم بكل خير، وفي مقدمة الخير: الإيمان بالله والرسول وعبادة الله وحده، والتَّهْيِي عن كل شر، وفي مقدمته: عبادة الأوثان، والشرك بالله، وكبائر الذنوب، وكل ما ذكر في القرآن هو من باب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وقد نيطت خيرية هذه الأمة بهذا الركن العظيم في الإسلام.

ج - ﴿وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ﴾ يحافظون عليها ويؤدونها بشروطها وأركانها وواجباتها، في أوقاتها الخمسة بخشوع وخضوع.

د - ﴿وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ﴾ يؤدون الزكاة المفروضة لمستحقيها، ويتصدقون بفضول أموالهم دون منٍّ، ولا أذى، ولا شح، ولا بخل.

هـ - ﴿وَيُطِيعُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾ في كل ما أمروا به أو نُهوا عنه، ويدخل في ذلك جميع المندوبات والمستحبات.

﴿أُولَئِكَ﴾ الذين ذكر الله أوصافهم من الذكور والإناث ﴿سَيَرْحَمُهُمُ اللَّهُ﴾ هذا وعد من الله تعالى بأنه جلَّ شأنه ينقذهم من عذابه ويدخلهم جنته، وهذا هو الفوز العظيم ﴿فَمَنْ زُحِجَ عَنِ الْكَارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ﴾ [آل عمران: ١٨٥] ﴿إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ قَوِي قَاهِرٌ، لَا يَغْلِبُهُ أَمْرٌ وَلَا يَعْجِزُهُ شَيْءٌ﴾ ﴿حَكِيمٌ﴾ في تدبير شؤون خلقه، ومن ذلك ما وصف به المؤمنين والمنافقين، ومن ذلك ما يعزُّ به أهل طاعته، ويذل به أهل معصيته.

ثم ذكر سبحانه ما أعدّه للمؤمنين من ثواب:

مَا أَعَدَّهُ اللَّهُ لِلْمُؤْمِنِينَ فِي الْآخِرَةِ

٧٢- ﴿وَعَدَ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَمَسْكِنٌ طَيِّبٌ فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ وَرِضْوَانٌ^(١) مِنْ اللَّهِ أَكْبَرُ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿٧٢﴾﴾

ثم إن الله تعالى أعد لهذا الصنف من الناس في دار كرامته ثلاثة ألوان من النعيم هي:

أ- جنات تجري من تحتها الأنهار.

ب- ومساكن طيبة في جنات عدن.

(١) قرأ شعبة بضم الراء من (ورضوان)، والباقون بكسرها، وهما لغتان.

ج- ورضوان من الله أكبر.

وهكذا وعد الله المؤمنين والمؤمنات من الذكور والإناث حدائق وبساتين تجري من تحت قصورها ودورها وأشجارها: الأنهار العذبة المروية للبساتين، بما فيها من الثمرات والخيرات والبركات، ولهم فيها ما تشتهي الأنفس وتلذ الأعين وهم فيها خالدون؛ ففي الجنة ما لا عين رأت ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر.

وللسابقين المقربين عند الله منازل حسنة في جنات هي أعلى درجات، وأكثر نعيمًا من جنات أهل اليمين، فهي جنات في الجنة، وقد جاء في وصف الجنات أحاديث كثيرة منها:

١- ما ورد عن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «جنتان من فضة، آتيتهما وما فيهما، وجنتان من ذهب، آتيتهما وما فيهما، وما بين القوم وبين أن ينظروا إلى ربهم، إلا رداء الكبرياء، على وجهه في جنة عدن»^(١).

وعُذْن بمعنى: إقامة، أي: جنات ثابتة مستقرة، وقيل: إن عدن: عَلم على مكان مخصوص في الجنة.

٢- وعن أبي هريرة رضي الله عنه: أن رسول الله ﷺ قال: «من آمن بالله ورسوله، وأقام الصلاة، وصام رمضان، فإن حقًا على الله أن يدخله الجنة، هاجر في سبيل الله، أو حُبس في أرضه التي وُلد فيها»، قالوا: يا رسول الله، أفلا نُخبر الناس؟ قال: «إن في الجنة مئة درجة، أعدها الله للمجاهدين في سبيله، بين كل درجتين كما بين السماء والأرض، فإذا سألتهم الله فاسألوه الفردوس، فإنه أعلى الجنة، وأوسط الجنة، ومنه تفجر أنهار الجنة، وفوقه عرش الرحمن»^(٢).

٣- وعن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «إذا صليتم عليّ فسلوا الله لي الوسيلة»، قيل: يا رسول الله، وما الوسيلة؟ قال: «أعلى درجة في الجنة، لا ينالها إلا رجل واحد، وأرجو أن أكون أنا هو»^(٣).

(١) البخاري برقم (٤٨٧٨) وفي «فتح الباري» (٨/ ٤٩١) مسلم (١/ ١٦٣) برقم (١٨٠).

(٢) البخاري برقم (٧٤٢٣) وفي «فتح الباري» (٦/ ١٤).

(٣) رواه أحمد في «المسند» (٢/ ٢٥٦) برقم (٧٥٩٨) بإسناد ضعيف، لضعف ليث وكعب، وأخرجه الترمذي (٣٦١٢).

٤- وعن عبدالله بن عمرو رضي الله عنه أنه سمع النبي ﷺ يقول: «إذا سمعتم المؤذن فقولوا مثل ما يقول ثم صلُّوا عليّ فإنه من صلّى عليّ صلاة، صلّى الله عليه بها عشرا، ثم سلّوا الله لي الوسيلة، فإنها منزلة في الجنة، لا تنبغي لعبد من عباد الله، وأرجو أن أكون أنا هو، فمن سأل لي الوسيلة حلّت له الشفاعة»^(١)

٥- وعن أسامة بن زيد رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «ألا هل من مشمّر إلى الجنة؟ فإن الجنة لا خطرَ لها، هي ورب الكعبة نور يتلأأ، وريحانة تهتز، وقصر مشيد، ونهر مطرد، وثمرة نضيجة، وزوجة حسناء جميلة، وحُلّ كثيرة، ومقام به في أبد في دار سليمة، وفاكهة وخضرة، وخيرة ونعمة في مَحَلّة عالية بهية»، قالوا: نعم يا رسول الله، نحن المشمرون لها، قال: «قولوا: إن شاء الله»، فقال القوم: إن شاء الله^(٢).

٦- وعن سهل بن سعد رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «إن أهل الجنة ليتراوون الغرف في الجنة كما تراوون الكوكب في السماء»^(٣).

٧- وعن أبي مالك الأشعري رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «إن في الجنة غرفة يُرى ظاهرها من باطنها، وباطنها من ظاهرها، أعدها الله لمن أطعم الطعام، وألان الكلام، وصلّى والناس نيام»^(٤).

٨- وعن أبي بكر بن عبد الله بن قيس عن أبيه أن رسول الله ﷺ قال: «إن في الجنة خيمة من لؤلؤة مُجَوَّفة، عرضها ستون ميلاً، في زاوية منها أهلٌ ما يَرَوْنَ الآخرين، يطوف

(١) صحيح مسلم (٣٨٤) ومسنّد أحمد (٦٥٦٨) بإسناد صحيح على شرط مسلم، ورجاله ثقات، (محقّقه) وأخرجه الترمذّي (٣٦١٤) وابن خزيمة (٤١٨) وابن حبان (١٦٩٢) وأبو داود (٥٢٣).

(٢) أخرجه ابن ماجه (١٤٤٨/٢) برقم (٤٣٣٢) قال البوصيري في «الزوائد» (٣/٣٢٥) وفي «مصابح الزجاجة» (١٥٥١) هذا إسناد فيه مقال، وقد ضعّفه الألباني في ضعيف «سنن ابن ماجه» (٩٤٦) و«السلسلة الضعيفة» (٣٣٥٨).

(٣) «صحيح البخاري» برقم (٦٥٥٥) و«صحيح مسلم» برقم (٢٨٣١).

(٤) «المسنّد» (٣٤٣/٥) وبرقم (٢٢٩٠٥) بإسناد حسن، (محقّقه) وأخرجه عبدالرزاق في المصنّف (٢٠٨٨٣) وابن حبان في الإحسان برقم (٥٠٩) قال الهيثمي في «مجمع الزوائد» (١٠/٤٢٠): رجاله رجال الصحيح غير عبد الله بن معانق، ووثقه ابن حبان، وأخرجه الحاكم (١/٣٢١، ٨٠٨) وصحّحه بموافقة الذهبي، وحسنه الطبراني في «الكبير»، وصحّحه الألباني في «صحيح الترغيب والترهيب» برقم (٦١٣).

عليهم المؤمن فلا يرى بعضهم بعضاً»^(١).

وفوق هذا النعيم، وأعظم منه: رضوان الله تعالى، قال سبحانه: ﴿وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللَّهِ أَكْبَرُ﴾ فإن نعيمهم لا يتم إلا برؤية ربهم، وحلول رضوانه عليهم، وهذا إشارة إلى منازل المقربين في الجنة، ولهم عند الله ما هو أعظم من الجنات ومن المساكن الطيبة، وهو فضل الله ورضوانه.

٩- كما في الصحيحين عن أبي سعيد الخدري أن رسول الله ﷺ قال: «إن الله تبارك وتعالى يقول لأهل الجنة، يا أهل الجنة، فيقولون: لبيك ربنا وسعديك، والخير كله في يديك، فيقول: هل رضيتم؟ فيقولون: وما لنا لا نرضى يا ربنا، وقد أعطيتنا ما لم تعط أحداً من خلقك؟ فيقول: ألا أعطيكم أفضل من ذلك؟ فيقولون: وأي شيء أفضل من ذلك؟ فيقول: أحل عليكم رضواني فلا أسخط بعده عليكم أبداً»^(٢).

وما وعد الله به المؤمنين والمؤمنات في جنات ثابتة مستقرة، ومساكن طيبة، ورضى الله عليهم، هو الفوز الذي لا يدانيه فوز، ولا يساميه شرف ﴿ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾.

فقد حصلوا على كل مطلوب، وزال عنهم كل محذور، وفازوا بجنة الخلود.

هذا هو النعيم الذي وعد الله به المؤمنين والمؤمنات في الدار الآخرة، هو الفلاح العظيم ﴿يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُمْ بِرَحْمَةٍ مِّنْهُ وَرِضْوَانٍ وَجَّاتٍ لَهُمْ فِيهَا نَعِيمٌ مُّقِيمٌ﴾ ﴿٧٣﴾ خَلِيدٌ فِيهَا أَبَدًا إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿٧٤﴾ [التوبة].

جَهَادُ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ

٧٣- ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَنِيسَ الْمَصِيرِ﴾

ثم تأتي بعد ذلك الآية الثالثة والسبعون من سورة التوبة، وهي آية ذكرت بنصها ولفظها مرة أخرى في سورة التحريم، وفيها يأمر الله سبحانه نبيه أن يقاتل المشركين الكافرين

(١) «صحيح البخاري» برقم (٣٢٤٣، ٤٨٧٩) و«صحيح مسلم» برقم (٢٨٣٨).

(٢) البخاري برقم (٦٥٤٩) و«فتح الباري» (٤٢٣/١١) ومسلم (٢١٧٦/٤) برقم (٢٨٢٩).

(٣) قرأ نافع بالهمز في (النبي) فيكون من قبيل المد المتصل، والباقون بياء مشددة.

المحاربين لنا، يقاتلهم بالسيف، ويتعقب المقاتلين منهم بالقتل؛ لنصرة دين الله، ونشر الدعوة، وإعلاء كلمة الله، أما أهل الذمة والمعاهدين والمستأمنين، فإن جهادهم يكون بالحجة والبرهان، وذكر محاسن الإسلام، ومساوئ الشرك والكفر.

وهكذا يأمر الله تعالى نبيه أن يجاهد المنافقين بالكلمة وبالحجة وبالبرهان، وهذا لون من العذاب الدنيوي الذي أعده الله للمنافقين، فضلاً عن العذاب الأخروي الذي توعدّهم الله به في الآية السابقة بأن لهم نار جهنم خالدين فيها، هي حسبهم ولعنهم الله.

وقد سبق هذه الآية في النزول آية أخرى في سورة الأحزاب تنذرهم بالقتال إن لم ينتهوا عن أساليبهم الماكرة الغادرة بالمسلمين في قوله تعالى: ﴿لَئِنْ لَمْ يَنْتَهِ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ وَالْمُرْجِفُونَ فِي الْمَدِينَةِ لَنُغْرِيَنَّكَ بِهِمْ ثُمَّ لَا يُجَاوِرُونَكَ فِيهَا إِلَّا قَلِيلًا ۖ مَلْعُونِينَ أَيْنَمَا ثَقِفُوا أَخْدُوا وَقَتِلُوا قَتْلًا ۖ﴾ [الأحزاب].

وبعد أن أنذرهم الله تعالى بآية سورة الأحزاب ولم يرتدعوا، ومضى عليهم مدة من الوقت، كشف الله فيه دخيلتهم، بما تكرر منهم من بواد الكفر والكيد للمسلمين، بعد ذلك أنجز الله وعده، فأمر رسوله بجهاد المنافقين باللسان في هذه الآية؛ لأن قتالهم بالسيف متعذر؛ فهم مسلمون في الظاهر، وكفرهم غير واضح.

وكان النبي ﷺ يُعرّف المنافقين بأعيانهم لحذيفة بن اليمان، وكان ﷺ يعرفهم ويسترهم؛ لأنه مأمور ألا يقاتل من أظهر إسلامه.

وكان ﷺ يخشى أن يقال: إن محمداً يقتل أصحابه؛ وهذا هو الذي حمل المفسرين على القول بأن المراد بقتال المنافقين في الآية: هو جهاد اللسان، فإن لم يستطع فبقلمه، وليلقهُ بوجه مكفهر^(١).

وكانت هذه الآية سبباً في إقلاع كثير منهم عن النفاق وإخلاص الإيمان، كالجلاس بن سويد وغيره.

فالجهاد المأمور به في الآية، مختلف، بالنسبة للكفار عن المنافقين، فجهاد المنافق

(١) جاء ذلك عن ابن مسعود عند ابن أبي الدنيا في كتاب الأمر بالمعروف (١٠٩) وابن أبي حاتم (٦/ ١٨٤١) والبيهقي في «الشعب» (٩٣٧٠).

باللسان والتعنيف والوجه العبوس ونحو ذلك، وجهاد الكافر المعين عن كفره والمحارب لنا بوسائل القتال المختلفة.

وقد ظل النبي ﷺ فترة طويلة بعد هجرته إلى المدينة يُلاين المنافقين، ويغضُّ الطرف عن ذائلهم، ويصفح عن مُسيئهم، إلا أن المعاملة الحسنة زادتهم رجسًا إلى رجسهم، فكانت هذه الآية من أواخر ما نزل على رسول الله ﷺ؛ لإحلال الشدة والحزم، محل اللين والرفق.

جاء عن علي عليه السلام أن الله تعالى بعث رسوله ﷺ بأربعة أسياف:

- أ- سيف للمشركين ﴿فَإِذَا أَسْلَخَ الْأَشْهُرَ الْحُرُمَ فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ﴾ [التوبة: ٥].
- ب- وسيف للكفار من أهل الكتاب ﴿فَقَاتِلُوا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ﴾ [التوبة: ٢٩].
- ج- وسيف للمنافقين ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ﴾ [التوبة: ٧٣، والتحريم: ٩].
- د- وسيف للبغاة ﴿فَإِنْ بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الْأُخْرَىٰ فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي حَتَّىٰ تَفِيءَ إِلَىٰ أَمْرِ اللَّهِ﴾ [الحجرات: ٩]^(١).

فأمر الرسول ﷺ بقتال المنافقين في هذه الآية بما يراه مناسبًا لردعهم وزجرهم.

يجاهدتهم: بعدم الصلاة عليهم إذا ماتوا، ويجاهدتهم بأن لا يأخذهم معه إلى غزوة أخرى بعد غزوة تبوك؛ بسبب ما أخلفوا الله ما وعدوه، وبما كذبوا به على رسول الله ﷺ، وهذا لا يمنع من جهادهم بالسيف إذا حاربونا أو صرحوا بأنهم يبتغون الكفر، ويصدون عن سبيل الله، كما قاتل أبو بكر عليه السلام مانعي الزكاة، وهو نوع من الردة.

وظاهر الآية فيه أمر للنبي ﷺ بقتال من أظهر الكفر واستمر عليه، أما من أطلع الله نبيه على كفره، ولكنه أنكر كفره وأقسم على ذلك وقال: إني مسلم؛ فإنه ﷺ مأمور أن يأخذه بظاهر الأمر، ولا يبحث عن سره ومكنون صدره، هذا في الدنيا، وأما في الآخرة فمأواهم جهنم وبئس المصير.

(١) سبق ذكره في الآية الخامسة.

وفي مقابل المنافقين أمر الله رسوله أن يكون لئن الجانب مع المؤمنين، كما قال تعالى: ﴿وَأَخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ (٧٥) [الشعراء].

فشأن المؤمن أن يتصف بالرحمة على المؤمنين والشدة على الكافرين، فالمؤمنون ﴿أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ﴾ [الفتح: ٢٩].

الْمُنَافِقُونَ يَطْعَنُونَ فِي الْإِسْلَامِ وَيَخْلِفُونَ مَا قَالُوا

٧٤- ﴿يَخْلِفُونَ بِاللَّهِ مَا قَالُوا وَلَقَدْ قَالُوا كَلِمَةَ الْكُفْرِ وَكَفَرُوا بَعْدَ إِسْلَامِهِمْ وَهَتُوا بِمَا لَمْ يَنَالُوا وَمَا نَعَمُوا إِلَّا أَنْ أَغْنَاهُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ مِنْ فَضْلِهِ فَإِنْ يَتُوبُوا يَكْ خَيْرًا لَهُمْ وَإِنْ يَسْتَوَلَوْا يُعَذِّبُهُمُ اللَّهُ عَذَابًا أَلِيمًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمَا لَهُمْ فِي الْأَرْضِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾ (٧٤)

تذكر هذه الآية نوعاً من المنافقين كانوا يتحدثون عن رسول الله ﷺ بما يقدر في الإسلام، ويطعن في رسول الله ﷺ ويقولون كلاماً يخرجهم من الإسلام:

١- قال الضحاك: خرج المنافقون مع رسول الله ﷺ إلى تبوك، وكانوا إذا خلا بعضهم ببعض، سبوا رسول الله ﷺ وأصحابه، وطعنوا في الدين، فنقل حذيفة ما قالوا إلى رسول الله ﷺ، فقال ﷺ: «يا أهل النفاق، ما هذا الذي بلغني عنكم؟» فحلفوا: ما قالوا شيئاً من ذلك، فأنزل الله تعالى هذه الآية! تكذيباً لهم^(١).

٢- ومن ذلك أن الجلاس بن سويد بن الصامت أقبل من قباء هو وابن امرأته مصعب^(٢).

وقال: والله إن كان الذي يقوله محمد حقاً، وفينا أشراف القوم، إننا لأشرف من الحمير، أي: أنه يكذب ما جاء به الرسول ﷺ، فقال له ربيبه: إنه لحق، وإنك لشر من حمارك، ولأخبر رسول الله ﷺ قال مصعب: فخشيت أن ينزل في القرآن، أو تصيبي قارعة، فأخبرت رسول الله ﷺ، فأرسل النبي ﷺ إلى الجلاس، فحلف بالله ما قال، فنزلت الآية، فزعموا أنه تاب وحسنت توبته^(٣).

(١) الحديث في صحيح مسلم (١٣٨٤) وانظر «أسباب النزول» للواحدي (٢١٢) والسيوطي (١٤٣) و«الدر المشور» (٢٥٨/٣).

(٢) هذا قول عروة، وقال ابن إسحاق اسمه عمير بن سعد.

(٣) «تفسير ابن جرير» (٣٦٢/١٤) والألوسي (١٣٨/١٠) وابن عطية (٦٠/٣) و«سيرة ابن هشام» (٥١٩/١) و«المسند» (٤٥٣/٥) وابن أبي حاتم (١٨٤٣/٦) عن ابن عباس.

٣- ومن ذلك ما قاله عبد الله بن أبي بن سلول حين اقتتل غلام من الأنصار مع غلام من جُهينة على الماء، فغلب الجُهني الأنصاري، فقال ابن سلول مخاطبًا الأنصار: ألا تنصرون أحاكم، يعني: الأنصارِي، والله ما مثلنا ومثل محمد إلا كما قال القائل: سَمَنَ كلبك يأكلك، ثم قال: والله لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل، فأرسل له النبي ﷺ فجعل يحلف بالله: ما قال، ونزلت الآية^(١).

وكان عبد الله بن أبي بن سلول، كبير المنافقين بالمدينة، يُنطَمُّ له الخرز؛ كي يُتَوَجَّحَ لأن يكون مَلِكًا عليها، قبل مُقَدِّم النبي ﷺ إليها مهاجرًا.

وكان له ولد اسمه أيضًا عبد الله، كان اسمه الحجاب فلما جاء إلى النبي ﷺ، وسأله عن اسمه؟ قال: الحجاب، فقال: «الحجاب، اسم للشيطان»^(٢).

وسماه عبد الله، فهو عبد الله بن عبد الله بن أبي بن سلول، كان من خيرة الصحابة، فلما علم مقالة أبيه في رسول الله ﷺ جاء إلى النبي ﷺ وقال: والله يا رسول الله، إنك لتعلم أنني من أبرّ الناس بأبي، ولكني سمعتُ مقالة أبي عنك، وأخشى أن يقتله رجل غيري، فأمشي بين الناس، فلا تطاوعني نفسي حين أرى قاتل أبي يمشي بين الناس فأقتله، فتكون النتيجة: أن أقتل مسلمًا بكافر، فأدخل النار، فإن كنت تريد رأس أبي يا رسول الله فأمرني بذلك، فكان من النبي ﷺ أن أمره بالعفو والصفح عن أبيه.

هذا: وكان بعض المنافقين إذا خلّوا ببعضهم سبّوا رسول الله ﷺ وأصحابه، وطعنوا في الدين، فنقل ذلك حذيفة إلى رسول الله ﷺ فحلفوا؛ ما قالوا شيئًا، وهكذا لما سُئِلَ الجَلَّاس، أو سئل عبد الله بن سلول عن قوله؟ فإنه يكذب ويحلف بالله: ما قال، فأنزل الله تعالى قوله: ﴿يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ مَا قَالُوا﴾ أي ما قالوا شيئًا يُسيء إلى الرسول ﷺ وإلى المسلمين.

قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ قَالُوا كَلِمَةَ الْكُفْرِ﴾ التي تخرجهم من الإسلام، كسبهم لرسول الله ﷺ وطعنهم في الدين، كقول الجلاس: لئن كان محمد صادقًا لنحن شر من الحمير، وقول ابن سلول: ﴿لَئِنْ رَجَعْنَا إِلَى الْمَدِينَةِ لِيُخْرِجَنَّ الْأَعَزُّ مِنْهَا الْأَذَلَّ﴾ وقولهم: ﴿هُوَ أَذَنٌ﴾

(١) «تفسير ابن جرير» (٣٦٤/١٤) عن قتادة وابن أبي حاتم (١٨٤٣/٦).

(٢) ينظر السلسلة الضعيفة برقم (٣٥١) بلفظ (الحجاب شيطان).

وهذه أقوال مخرجة من الملة، وهذا معنى: ﴿وَكَفَرُوا بَعْدَ إِسْلَامِهِمْ﴾ أي: بعد أن كانوا منافقين مظهرين للإسلام، كفروا علانية كفراً صريحاً.

وكل كلمة فيها تكذيب للنبي ﷺ تُسَمَّى كُفْرًا، ثم قال تعالى: ﴿وَهُمُومًا يَمَّا لَمْ يَنَالُوا﴾ أي: أنهم حاولوا الإضرار برسول الله ﷺ وهذه الجملة من الآية لها قصة:

خمس عشرة منافقاً يريدون اغتيال النبي ﷺ ذلكم: أن خمسة عشر رجلاً من المنافقين اعترضوا النبي ﷺ في عودته من غزوة تبوك، وتآمروا على اغتياله ﷺ والفتك به، بأن يزاحموا الناقة التي يركب عليها النبي ﷺ، وهي في مكان مرتفع ويرصدوا له عند عقبة بالطريق تحتها وادٍ، فإذا اعتلاها دفعوه عن راحلته في الوادي، وكانوا على رواحلهم ملثمين، أو يزاحموها حتى تنفر، ويضطر رسول الله ﷺ إلى السقوط من فوقها، فتدوسه الأقدام ويموت - قبّحهم الله - فأعلم الله رسوله بذلك، وكان يقود الناقة حذيفة، ويسوقها عمّار، فقال ﷺ: «هل عرفتم القوم؟»، قالوا: لا يا رسول الله، وقد كانوا ملثمين، ولكننا عرفنا الركاب، فقال: «هؤلاء المنافقون إلى يوم القيامة»^(١).

أمين سر الرسول ﷺ: فلما أخبر الله رسوله بأن المنافقين يريدون أن يزاحموا ناقته، ويُسقطوه من فوقها، أقبل عمّار يضرب وجوه رواحلهم، أي: صَرَفَ نياقهم عن مزاحمة النبي ﷺ، وصرخ فيهم حذيفة، فولّوا مدبرين^(٢).

وكان حذيفة موضع سر النبي ﷺ وقد أسرَّ له بأسماء المنافقين، وعرفه إياهم واحداً واحداً، وقال له «يا حذيفة: إني أُمِرْتُ أَنْ لَا أَصْلِي عَلَى فُلَانٍ وَفُلَانٍ وَفُلَانٍ»، فكان هذا سرّاً عند حذيفة، لم يطلّع عليه أحد من الصحابة.

وبعد موت النبي عليه الصلاة والسلام، كان عمر رضوان الله عليه يقتفي أثر حذيفة، ويمشي خلفه، فإذا كانت هناك جنازة يراد الصلاة عليها، فإن صلى عليها حذيفة صلّى عليها عمر، وإن لم يصلّ عليها حذيفة لم يصلّ عليها عمر، وعرف أنه من المنافقين الذين ذكرهم النبي ﷺ لحذيفة.

(١) يُنْظَرُ: البيهقي في «الدلائل» (٢٥٦/٥) والحديث في المعجم الأوسط للطبراني (١٠٢/٨) برقم (٨١٠٠).

(٢) تُنْظَرُ القصة في «دلائل النبوة» (٢٦٠/٥) وفي «المسند» عن أبي الطفيل (٤٥٣/٥) و«أسباب النزول» للواحدي (٢١٥) و«تفسير ابن كثير» (١٨٠/٤).

ورد أن حذيفة رضي الله عنه قال يومًا: بقي من المنافقين كذا وكذا، فقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه:
أشُدتك الله، أنا منهم؟ فقال: لا، والله^(١).

هذا عمر، على عظيم قدره ورفيع منزلته، يخشى على نفسه من النفاق.

وعن عمار بن ياسر قال: أخبرني حذيفة عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: «في أصحابي اثنا عشر منافقًا، لا يدخلون الجنة ولا يجدون ريحها، حتى يلج الجمل في سم الخياط، ثمانية منهم تكفيكم الدُّبيلة»^(٢)، وهي سراج من نار يظهر بين أكتافهم حتى ينجم في صدورهم.

وفي ذلك يقول الله سبحانه: ﴿وَهُمْ أَيْمَانُ يَذَلُّونَ﴾ أي: هموا بشيء لم يُحصّله، وهو الفتك برسول الله صلى الله عليه وسلم ﴿وَمَا تَقْضُوا﴾ أي: ما وجدوا شيئًا يعيونه ويتقدونه على النبي صلى الله عليه وسلم ﴿إِلَّا أَنْ أَغْنَاهُمْ اللَّهُ وَرَسُولُهُ مِنْ فَضْلِهِ﴾ بعد أن كانوا فقراء معوزين، فكيف يستهينون بمن كان سببًا لإخراجهم من الظلمات إلى النور، وسببًا في ثرائهم بعد فقرهم، وما حقه عليهم إلا أن يعظموه ويؤمنوا به ويجلّوه.

فالمنافقون كانوا فقراء قبل مُقدم النبي صلى الله عليه وسلم إلى المدينة، ففضل الله عليهم، وفتح على نبيه صلى الله عليه وسلم أبواب الخير والبركة، وأسباب الرزق بكثرة عمل المهاجرين، ووفرة الغنائم من الغزوات، وبانتفاء الضغائن والثرات بعد أن كانوا أعداء متحاربين، وبالأمّن الذي منحه الله إياهم، وهذا كقول النبي صلى الله عليه وسلم: «وكنتم عالة فأغناكم الله بي» وبدل أن يشكروا الله ورسوله، بدّلوا نعمة الله كفرًا، وأحلّوا أنفسهم وقومهم دار البوار.

ومع ذلك فقد فتح الله لهم باب التوبة ﴿فَإِنْ يَتُوبُوا يَكُ خَيْرًا لَهُمْ﴾ أي: إن يرجع هؤلاء الكفار إلى الإيمان والتوبة، فهو أفضل لهم، ويمكنهم أن يتداركوا أمرهم، ﴿وَلِنْ يَتُوبُوا﴾ أي إن يعرضوا ويستمروا على حالهم، ففي هذه الحالة ﴿يُعَذِّبُهُمُ اللَّهُ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ موجعًا ﴿فِي الدُّنْيَا﴾ على أيدي المؤمنين وبما ينالهم فيها من الهم والغم والحزن ﴿وَالْآخِرَةِ﴾ في نار جهنم ﴿وَمَا لَهُمْ فِي الْأَرْضِ مِنْ وَلِيٍّ﴾ مُنْقِذ ينقذهم ويتولى أمرهم ﴿وَلَا نَصِيرٌ﴾ يدفع عنهم سوء العذاب.

(١) «تفسير ابن عطية» (٦٦/٣).

(٢) «صحيح مسلم» برقم (٢٧٧٩) و انظر تخريجه في الآية (٦٤).

وَمِنْهُمْ مَنْ عَاهَدَ اللَّهَ

٧٥- ﴿وَمِنْهُمْ مَنْ عَاهَدَ اللَّهَ لَئِنْ آتَيْنَا مِنْ فَضْلِهِ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ الصَّالِحِينَ﴾ ﴿٧٥﴾

تذكر السورة نوعاً آخر من المنافقين، وهم قوم يعاهدون الله سبحانه على أنه إن أغناهم الله وأعطاهم مالاً، فسوف يؤدّون الزكاة المفروضة، ويتصدقون بفضول أموالهم، ويعطون كل ذي حق حقه، ولكنهم يخلفون ما وعدوا به.

ويذكر المفسرون عند هذه الآية قصة وردت بسند ضعيف جداً، أن المراد في الآية، هو ثعلبة بن حاطب رضي الله عنه، والصحيح أنه ليس هو؛ لأن ثعلبة بن حاطب من أهل بدر الذين لا ينطبق عليهم وصف النفاق في الآيات ﴿فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقًا فِي قُلُوبِهِمْ إِلَى يَوْمِ يَلْقَوْنَهُ﴾ [التوبة: ٧٧] فإن هذا يقتضي أنه مات على الكفر، وأنه كان يدفع زكاته رياءً وتقيّةً، والصحيح أن ثعلبة بن حاطب استشهد في أحد، أي: قبل غزوة تبوك بنحو سبع سنوات، ويبدو أن المراد في الآية رجلاً آخر من المنافقين يقال له: ثعلبة؛ لأن النبي ﷺ قال: «وما يدريك لعل الله يكون قد اطلع على أهل بدر، فقال: اعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم»^(١).

وثبت أنه ﷺ قال: «لا يدخل النار أحد شهد بدرًا والحديبية»^(٢).

فكيف يعقبه الله نفاقاً في قلبه إلى أن يلقي ربه؟^(٣).

وقال الضحاك إنهم: نبتل بن الحارث، وجد بن قيس، وثعلبة، ومُعَتَّب بن قُشَيْر، هم الذين نزلت فيهم الآيات، وثعلبة المذكور غير ثعلبة بن حاطب.

وقال الحسن ومجاهد: إنها نزلت في ثعلبة ومُعَتَّب بن قُشَيْر^(٤).

(١) جزء من حديث علي في البخاري (٣٠٠٧) وانظر كتاب الأدب، باب رقم (٧٤) من صحيح البخاري، والحديث في صحيح مسلم أيضاً (٢٤٩٤).

(٢) من حديث أم مُبَشَّر امرأة زيد بن حارثة في المسند (٢٧٠٤٢) وهو حديث صحيح أخرجه ابن أبي عاصم في السنة (٨٦١) وابن حبان (٨٠٠) والطبراني في الكبير ٢٥ (٢٦٦).

(٣) قال الألباني: هذا حديث منكر على شهرته - أي قصة ثعلبة بن حاطب - «السلسلة الضعيفة» (١١٢/٤).

(٤) يُنظر: ابن الجوزي في «زاد المسير» (٤٧٤/٣).

وثعلبة هذا أو معتب جاء إلى النبي ﷺ يقول: يا رسول الله، ادع الله أن يرزقني مالا، والمال وقتئذ، يقدّر بكثرة الماشية في الإبل والبقر والغنم، هذا هو المال عند العرب قديما.

قال النبي ﷺ: «قليل تؤدي شكره خير من كثير لا تطيقه»، قال ثعلبة مرة ثانية: يا رسول الله، ادع الله أن يرزقني مالا، قال ﷺ: «ألا ترضى أن تكون مثل رسول الله؟ لقد راودتني الجبال أن تصير ذهباً فأبيت»، فقال وهو يلح، ويعاود للمرة الثالثة: يا رسول الله، والله لئن أعطاني الله مالا، لأعطين كل ذي حق حقه، فقال ﷺ: «اللهم ارزق ثعلبة مالا»، فاتخذ غنما، وازدادت هذه الأغنام حتى ضاقت بها أرض المدينة.

وكان ثعلبة يقال له: حمامة المسجد، يصلي الأوقات الخمس مع الجماعة لا يتخلف، فنزل وادياً بعيداً يتسع لأغنامه خارج المدينة، وأخذ يتخلف عن بعض الصلوات، فيصلي الظهر والعصر فقط، ويتخلف عن بقية الأوقات، وازدادت أمواله، فتخلف عن الصلوات الخمس ما عدا الجمعة، وكثرت أمواله فتخلف عن الجمعة والجماعة.

ولما أنزل الله قوله تعالى: ﴿حُذِّ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةٌ تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا﴾ [التوبة: ١٠٣] أمر النبي ﷺ بجمع الزكاة من الأغنياء وإعطائها للفقراء، فكتب عليه الصلاة والسلام كتاباً إلى ثعلبة، وإلى رجل آخر من بني سليم؛ لتحصيل الزكاة منهما، وأرسل ﷺ كتابه مع رجلين من الصحابة يجمعان الزكاة من الناس، ووصل كتاب رسول الله ﷺ إلى ثعلبة، فأمسكه وأخذ يقلب النظر فيه، ثم قال: انطلقا فاجمعا الصدقة من الناس، ثم مرّاً عليّ في العودة حتى أرى رأيي، فلما رجعا أخذ يقلب في خطاب رسول الله ﷺ ثم قال لهما: ما هذه الزكاة إلا جزية، ما هي إلا أخت الجزية، انطلقا، وامتنع من دفع الزكاة، ورجعا إلى المدينة.

أما الرجل الآخر، الذي هو من بني سليم، فنظر إلى خيار أسنان إبله فعزلها للصدقة، ثم استقبلهم بها، فلما رأوها قالوا له: ما يجب عليك هذا، وما نريد أن نأخذ هذا منك، فقال: بل خذوها، فإن نفسي بها طيبة، فأخذها منه، وحين رآهما النبي ﷺ قال: قبل أن يكلمهما: «يا ويح ثعلبة، يا ويح ثعلبة»، ودعا للرجل السلمي، وفيه وفي أمثاله إلى يوم القيامة نزلت هذه الآيات ﴿وَمِنْهُمْ مَنْ عَاهَدَ اللَّهَ﴾ والآيات الثلاث بعدها.

ولما نزلت هذه الآيات، وحملها رجل من أقارب ثعلبة إليه، جاء إلى النبي ﷺ بزكاة ماله، فقال عليه الصلاة والسلام: «إن الله قد منعني أن أقبل منك»، فأخذ يحثو التراب

على رأسه، وهو يتوسل إلى رسول الله ﷺ أن يقبل منه زكاته، فيردها عليه النبي ﷺ، وظل هكذا حتى مات رسول الله ﷺ وانتقل إلى الرفيق الأعلى، فجاء الرجل بزكاته إلى أبي بكر ﷺ، ولم يقبلها منه مدة خلافته، وجاء بها بعد موته إلى عمر ﷺ، فردها عليه، وقال: كيف أقبل شيئاً رده رسول الله ﷺ ورده أبو بكر؟ ثم جاء إلى عثمان ﷺ فردها أيضاً، ومات ثعلبة أو مُعْتَب في خلافة عثمان^(١).

والضمير في الآيات في ﴿لَصَدَقَ وَلَنُكُونَنَّ مِنَ الصَّالِحِينَ﴾ وما بعدها، يوحي بأن المراد بالآية كل منافق يصدق عليه هذا الوصف في كل زمان ومكان، وأن الآيات نزلت في شأن أكثر من واحد على عهد رسول الله ﷺ.

قال المفسرون: إن هذه الآية نزلت في المنافقين؛ فهي تحكي صورة حقيقية واقعية لبعض المنافقين المعاصرين للنبي ﷺ ممن عاهدوا الله، فنقضوا عهودهم، وقابلوا ما أعطاهم الله إياه من نعم بالبخل والجحود، وهي تنطبق على كل من يخلف وعده، ويمنع حق الله من ماله، ويجحد نعم الله عليه في كل زمان ومكان، ممن يلجؤون إلى الله في حال العسر والفقر، أو الشدة والضر، فيعاهدون الله تعالى على الشكر والطاعة، فإذا كشف الله ضرهم، وأغناهم من فضله، نكصوا على أعقابهم، ويكفرون بأنعم الله عليهم، ويأكلون حقوق العباد.

ومن الجائز أن يكون إطلاق لفظ النفاق في الآية على بعض الصحابة، كإطلاقه على المسلم المرتكب لبعض المعاصي، كما قال حنظلة بن الربيع للنبي ﷺ: «نافق حنظلة»، ويكون معنى ﴿إِلَى يَوْمٍ يَلْقَوْنَهُ﴾ أي: يلقون ربهم في يوم الحشر والحساب، فيحاسبهم على ما حدث منهم.

(١) يُنْظَر: الطبري (٣٧١/١٤) والطبراني (٢٠/٧٨٧٣) والفخر الرازي (١٤٢/١٦) والمحلي (٢٠٨/١١) وابن كثير (١٨٣/٤) وابن أبي حاتم (١٨٤٧/٦) وأبو نعيم في «معركة الصحابة» (١٣٧٥) والبيهقي في «الدلائل» (٢٨٩/٥) وابن عساكر (٩/١٢) و«مجمع الزوائد» (٣١١٧) قال الهيثمي: رواه الطبراني، وفيه علي بن يزيد الألثاني وهو متروك، فإسناده ضعيف جداً قلت: وفي رواه: معان بن رفاع، والقاسم بن عبد الرحمن، وهما من الضعفاء وضعّفه الألباني وغيره، وقد ضعفها ابن حزم والقرطبي والعراقي وابن حجر وغيرهم.

ونحو هذا المعنى ما ورد أن عاملاً كتب إلى عمر بن عبد العزيز أن فلاناً يمنع الزكاة، فكتب إليه أن دعه واجعل عقوبته ألا يؤدي الزكاة مع المسلمين^(١).

ويؤخذ من هذا أن الحاكم المسلم له أن يمتنع عن قبول الزكاة من بعض المسلمين، إذا رأى المصلحة في ذلك؛ كي يعتبر الآخرون بالإهانة التي حدثت لغيرهم.

والمعنى: إن من فقراء المنافقين مَنْ يقطع العهد على نفسه، لئن أعطانا الله المال لَنُخْرِجَنَّ منه الصدقة، ولنعملَنَّ في ذلك المال ما يعملُه الصالحون في أموالهم، من إخراج الزكاة وصلة الأرحام، والإنفاق في سبيل الله، وجميع وجوه الخير والبر. قال تعالى:

٧٦- ﴿فَلَمَّا أَتَاهُمْ مِنْ فَضْلِهِ بَخُلُوا بِهِ وَتَوَلَّوْا وَهُمْ مُّعْرِضُونَ ﴿٧٦﴾﴾

أي فلما أعطاهم الله المال وأغناهم من فضله، لم يعملوا شيئاً من أعمال البر، ومنعوا حق الله منه، ونقضوا ما عاهدوا الله عليه، فلم يتفقوا شيئاً مما رزقهم الله في وجوهه المشروعة، ولم يعترفوا بحقوق الله ولا حقوق الناس، وأعرضوا عن الإسلام وهديه، وهذا بيان لموقف المنافقين من عطاء الله وكرمه. قال تعالى:

٧٧- ﴿فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقًا فِي قُلُوبِهِمْ إِلَى يَوْمِ يَلْقَوْنَهُ بِمَا أَخْلَفُوا اللَّهَ مَا وَعَدُوهُ وَبِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ ﴿٧٧﴾﴾

أي: فكان جزاء صنيعهم هذا، وعاقبة أمرهم أن زادهم الله نفاقاً على نفاقهم، فحرمهم التوبة إلى يوم القيامة، بحيث لا يستطيعون التخلص من هذا النفاق إلى يوم يلقون ربهم، فيحاسبهم على نفاقهم، عقوبة لهم على خُلف وعدهم الذي قطعوه على أنفسهم، وجزاء لهم على كذبهم ونفاقهم.

ففي الحديث عن أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «آية المنافق ثلاث: إذا حدث كذب، وإذا وعد أخلف، وإذا ائتمن خان»^(٢).

(١) ذكر هذا ابن عطية في تفسيره (٦٢/٣).

(٢) من حديث أبي هريرة في «صحيح البخاري» برقم (٣٣)، ٢٦٨٢، ٦٠٩٥ و«صحيح مسلم» برقم (٥٩) والترمذي (٢٦٣١) والنسائي (٥٠٣٦) وفي «الكبرى» (١١١٢٧).

وعن عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «أربع من كن فيه كان منافقًا خالصًا، ومن كانت فيه خصلة منهن كانت فيه خصلة من نفاق حتى يدعها: إذا حدّث كذب، وإذا عاهد غدر، وإذا وعد أخلف، وإذا خاصم فجر»^(١).

فليحذر المؤمن من النفاق ومن خلف الوعد ونقض العهد كي لا يعاقب بعقاب أهل النفاق. قال تعالى:

٧٨- ﴿أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُمْ وَأَنَّ اللَّهَ عَلَّمَهُ الْغُيُوبَ﴾^(٢)

ألم يعلم هؤلاء المنافقين أن الله تعالى يعلم حقيقة أمرهم مما يخفونه في أنفسهم، وما يتحدثون به في مجالسهم من الكيد، والمكر بالمسلمين، بعضهم مع بعض، وأن الله تعالى لا يخفى عليه شيء منها من كل ما غاب عن الأسماع والأبصار والحواس، ويعلم جميع أحوالهم، وسوف يجازيهم عليها، إنهم يعلمون ذلك علم اليقين، ولكن استيلاء الهوى والشیطان عليهم جعلهم لا ينتفعون بعلمهم، والاستفهام للتوبيخ والتقريع.

طَعْنُ الْمُنَافِقِينَ فِي صَغَارِ الْمُتَصَدِّقِينَ وَكِبَارِهِمْ

٧٩- ﴿الَّذِينَ يَلْمُزُونَ^(٣) الْمُطَّوِّعِينَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ فِي الصَّدَقَاتِ وَالَّذِينَ لَا يَحْدُونَ إِلَّا جُهْدَهُمْ فَيَسْخَرُونَ مِنْهُمْ سَخِرَ اللَّهُ مِنْهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾^(٤)

ثم تذكر الآيات نوعًا آخر من أنواع المنافقين ممن يتحدثون عن المؤمنين، ويعيبونهم ويطعنون فيهم على كل حال، فلا يتركوا أمرا من الأمور إلا تكلموا فيه بالطعن. ولما حث النبي ﷺ على الصدقة بذل المسلمون أموالهم، كل على حسب حاله، منهم الكثير ومنهم القليل، فقالوا عن الكثير: إنه يرائي، وقالوا عن القليل: إن الله غني عن صدقته.

ومن ذلك أن النبي ﷺ لما دعا إلى جمع المال إلى غزوة تبوك، جاء عبد الرحمن بن عوف بأربعة آلاف درهم، فأعطاها للنبي ﷺ وقال: يا رسول الله، جئتك بأربعة آلاف،

(١) «صحيح البخاري» برقم (٣٤) وانظر: «صحيح مسلم» برقم (٥٨).

(٢) قرأ شعبة وحزمة بكسر الغين من (الغيب) والباقون بضمها، وهما لغتان.

(٣) قرأ يعقوب بضم الميم من (يلمّزك)، والباقون بكسرها، وهما لغتان في المضارع.

فاجعلها في سبيل الله، وأمسكت أربعة آلاف لعيالي، فقال النبي ﷺ: «بارك الله لك فيما أعطيت وفيما أمسكت»^(١).

فبارك الله له، وكان من أغنى الصحابة، حتى بلغ ثمن ماله لامرأته يوم أن مات: مئة وستون ألف درهم، وتصدق عمر بنصف ماله، وتصدق أبو بكر بكل ما يملك.

وجاء عاصم العجلاني بمئة وُسُق من تمر، وجاء أبو عقيل بصاع من تمر، وقال للنبي ﷺ: إنه عمل بالأمس وأخذ أجره صاعين، فترك أحدهما لعياله، وجاء بالآخر، فأفرغه في الصدقات، فتصاحك المنافقون، وجاء رجل آخر بنصف صاع، وهو جهد المقل، فقد كان الرجل يعمل نهاره كله، وأجرته نصف صاع من تمر أو من حب، فيأتي بأجرة هذا اليوم إلى النبي ﷺ فلمزهم المنافقون وعابوهم، ولم يسلم الكثير ولا المقل من سُخْرِيَتِهِمْ، فقالوا: ما أعطى عبد الرحمن وعاصم إلا رياء، وإن الله لغني عن صاع أبي عقيل، ولكنه أحب أن يُذكر، لِيُعْطَى من الصدقات، فلم يعجبهم الذي تصدق كثيراً ولا الذي تصدق قليلاً، بالإضافة إلى بخلهم، ولم يسلم أحد من أذاهم، فهم يعيبون هذا، ويعيبون هذا، فأنزل الله فيهم:

﴿الَّذِينَ يَلْمُزُونَ^(٢)﴾ أَي: يعيبون، ويتهمون ﴿الْمُطَّوِّعِينَ﴾ أَي: الذين يتطوعون بدفع الصدقة ﴿مِنَ الْمُؤْمِنِينَ فِي الصَّدَقَاتِ﴾ فقالوا عن المتصدق بالكثير: إنه يرائي، وقالوا عن المتصدق بالقليل: إن الله غني عن صدقته، ويلمزون أيضاً من يتصدقون قدر طاقتهم ﴿وَالَّذِينَ لَا يَجِدُونَ إِلَّا جُهْدَهُمْ﴾ كهؤلاء الفقراء الذين يتصدقون بالشيء القليل الذي يجدونه، فيؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة، قال سبحانه: ﴿فَيَسْخَرُونَ مِنْهُمْ﴾ يستهزئون بهم، ويعيرونهم بالقليل الذي يتصدقون به فعاقبهم على صنيعهم بأن ﴿سَخَّرَ اللَّهُ مِنْهُمْ﴾ وجازاهم على استهزائهم بهم ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ وفي هذا وعيد لهم بالعذاب يوم القيامة. ومما ورد في أسباب النزول أن عبد الله بن مسعود ؓ قال: لَمَّا أُمِرْنَا بالصدقة، كنا

(١) مصنف عبدالرزاق برقم (٢١) عن عبدالرحمن بن عوف، والحديث في ظلال الجنة برقم (١٣٠١) وفي فتح الباري (٣٣٢/٨) وانظر تخريجه في آية (مثل الذين ينفقون أموالهم...) من سورة البقرة.

(٢) يُنْظَرُ: الطبري (٣٨٣/١٤) والواحدي (٢١٦) وابن كثير (١٨٦/٤) ويُنْظَرُ: البزار في «الكشف» (٢٢١٦) والطبري (٥٩٢/١١) وابن أبي حاتم (١٨٥١/٦).

نتحامل، فجاء أبو عقيل بنصف صاع، وجاء إنسان بأكثر منه، فقال المنافقون: إن الله لغني عن صدقة هذا، وما فعل هذا الآخر إلا رياء، فنزلت الآية^(١).

وأخرج الطبري بسند حسن عن علي بن أبي طلحة عن ابن عباس رضي الله عنه قال: جاء عبد الرحمن بن عوف بأربعين أوقية من ذهب إلى النبي ﷺ، وجاءه رجل من الأنصار بصاع من طعام، فقال بعض المنافقين: والله ما جاء عبد الرحمن بما جاء به إلا رياء، وقالوا: إن كان الله ورسوله لغنيين عن هذا الصاع^(٢).

وفي حديث أبي هريرة رضي الله عنه أنه قال: يا رسول الله، أي الصدقة أفضل؟ قال: «جهد المقل، وابدأ بمن تعول»^(٣).

وقد جمع المنافقون في قولهم هذا بين عدة محاذير:

منها: أنهم تتبعوا أحوال المؤمنين وحرصوا على أن يجدوا مقالاً في كل منهم.

ومنها: طعنهم في المؤمنين ولمزهم.

ومنها: تثبيط المؤمنين وتنقيصهم وحكمهم على من أنفق كثيراً بالرياء وذم من أنفق قليلاً.

قال تعالى ﴿فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ ۖ وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ﴾ [الزلزلة].

اسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ

٨٠- ﴿اسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ إِنْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴾ (٨٠)

عن ابن عباس رضي الله عنه أن الله تعالى لما أنزل الآيات السابقة في المنافقين قال فريق منهم:

(١) «صحيح البخاري» برقم (١٤١٥، ٤٦٦٨) و«صحيح مسلم» برقم (١٠١٨) وابن أبي حاتم (١٨٥٠/٦) وأبو نعيم في «المعرفة» (٢٢٨٣).

(٢) «تفسير الطبري» (٣٨٢/١٤) وابن أبي حاتم (١٨٥٠/٦) وابن مردويه كما في تخريج الكشاف للزيلعي (٨٩/٢).

(٣) «صحيح سنن أبي داود» (١٤٧١) وأبي داود (١٦٧٧) والحاكم (٤١٤/١) وابن حبان (٣٣٤٦) وابن خزيمة (٢٤٤) والحاكم (٤١٤/١) والمسند (٨٧٠٢) بإسناد صحيح.

استغفر لنا يا رسول الله، فوعدهم النبي ﷺ بأن يستغفر للذين سألوه^(١).

وقال الحسن: كان المنافقون يأتون رسول الله ﷺ فيعتذرون إليه، ويقولون: ﴿إِنْ أَرَدْنَا إِلَّا الْحُسْنَىٰ﴾^(٢).

وهذا الأسلوب ﴿أَسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ﴾ يقتضي معنيين:

الأول: أن يكون الأمر في ﴿أَسْتَغْفِرْ﴾ بمعنى الشرط، أي: إن استغفرت أو لم تستغفر لهم لن يغفر الله لهم، فقد علم الله منهم أنهم لن يتوبوا كما قال تعالى: ﴿قُلْ أَنْفِقُوا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا لَّنْ يُتَقَبَلَ مِنْكُمْ﴾ [التوبة: ٥٣].

الثاني: أن تكون الآية على سبيل التخيير، أي: إن شئت فاستغفر، وإن شئت لا تستغفر، ثم أعلمه الله تعالى بأنه لن يغفر لهم وإن استغفر.

ويؤيد هذا المعنى أن عمر رضي الله عنه سمع النبي ﷺ يستغفر للمنافقين بعد نزول هذه الآية، فقال: أتستغفر لهم يا رسول الله، وقد أعلمك الله أنه لن يغفر لهم؟ فقال ﷺ: «يا عمر إن الله خيرني فاخترت، ولو علمتُ أنني إن زدت على السبعين يُغفر لهم، لزدت»^(٣).

فجعل النبي ﷺ مغفرة الله لهم في حال زيادته على السبعين لاجدوى منها فقلوبهم مقفلة. هذا: وكان النبي ﷺ يستغفر لمن أخطأ من المنافقين، عسى الله أن يغفر لهم ويتوب عليهم وقد جاء المنافقون إلى النبي ﷺ يعتذرون إليه، ويطلبون منه أن يستغفر لهم الله بعدما افتضح شأنهم، وعُرفوا بذواتهم وأشخاصهم، وهذا بخلاف المنافقين الذين قالوا كلمة الكفر، وكفروا بعد إسلامهم، وهموا بقتل النبي ﷺ قد قرّر الله تعالى مصيرهم، فلا رجعة فيه، وأنزل سبحانه يبيّن أن الاستغفار لهم لا يجدي ولا ينفع،

(١) «التحرير والتنوير» (٢٧٦/١١).

(٢) «التحرير والتنوير» (٢٧٦/١١).

(٣) «تفسير ابن عطية» (٦٤/٣) والحديث في «المسند» (٩٥) قال محققوه: إسناده حسن ورجاله ثقات رجال الشيخين غير ابن إسحاق وهو حسن الحديث وقد صرح هنا بالتحديث، وأخرجه البخاري (١٣٦٦)، (٤٦٧١) والترمذي (٣٠٩٧) وعبد بن حميد (١٩) والبخاري (١٩٣) وابن حبان (٣١٧٦) والنسائي في الكبرى (١١٢٢٥).

مهما استغفر لهم النبي ﷺ، وكان قد وعدهم بالاستغفار لما قالوا له: ﴿إِنْ أَرَدْنَا إِلَّا الْحُسْنَىٰ﴾. ولفظ السبعين يُذكر للمبالغة والكثرة، على عادة العرب في استكثار لفظ السبعين، ولأن أحاده سبعة وهو عدد شريف، يطلق على السموات والأرض، والأيام، والبحار، والنجوم السيارة، فكل منها سبعة.

وفي هذا دلالة على كثرة العدد يراد به التَّيَسُّس من طمع المغفرة لهم، أي: مهما كثر استغفارك لهم وتكرر، فلن يغفر الله لهم، كما قال تعالى: ﴿ذَرُّهَا سَبْعُونَ ذَرًّا﴾ [الحاقة: ٣٢] فليس المراد حقيقة العدد، وإنما هو جارٍ مجرى المثل.

ثم بين سبحانه السبب المانع لمغفر الله لهم وهو أنهم اختاروا الكفر على الإيمان، وكان كفرهم واضحاً صريحاً ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾ والكافر لا ينفعه الاستغفار ولا العمل مادام كافراً، والذين خرجوا عن الطاعة والإيمان، واختاروا الكفر والطغيان، لا يوقفهم الله للهداية ﴿وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴾، لأنهم اختاروا الفسق وصفاً لهم، يأتيهم الحق واضحاً فيردونه، فيعاقبهم الله بأن يختم على اختيارهم.

وعن الأصم أن عبد الله بن أبي بن سلول لما ظهر نفاقه، وتنكر له الناس، لقيه رجل من قومه فقال له: ارجع إلى رسول الله يستغفر لك، فقال: ما أبالي استغفر لي، أم لم يستغفر لي، ونزل قول الله تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا يَسْتَغْفِرْ لَكُمْ رَسُولُ اللَّهِ لَوَأَ رَأَوْهُمُ وَرَأَيْتَهُمْ يُصَدُّونَ وَهُمْ مُسْتَكْبِرُونَ﴾ [المنافقون].

وفي الحديث عن ابن عباس عن عمر رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «لو أعلم أنني إن زدت على السبعين يُغفر له لزدت عليها»^(١). وهذا بالنسبة لعبد الله ابن أبي بن سلول.

ويؤيد هذا المعنى ويوضحه ما جاء في قوله تعالى: ﴿سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَسْتَغْفَرْتَ لَهُمْ أَمْ لَمْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ لَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴾ [المنافقون] والصلاة على الجنازة استغفار.

ولذا فإن عبد الله بن عبد الله بن أبي، طلب من النبي ﷺ أن يصلي على أبيه حين حضرته الوفاة:

(١) جاء هذا المعنى عن الشعبي وعروة ومجاهد وابن جبير وقتادة، يُنظر: «تفسير التحرير والتنوير» (١١/ ٢٧٧) والحديث في البخاري (١٣٦٦، ٤٦٧١).

في صحيح البخاري وغيره أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال: لما مات عبد الله بن أبي بن سلول، دُعي رسول الله ﷺ ليصلي عليه، فلما قام رسول الله ﷺ ليصلي عليه، وثبَّت إليه، فقلت يا رسول الله، أتصلي على ابن أبي، وقد قال يوم كذا: كذا وكذا، قال: أَعَدَّدَ عليه قوله، فبَسَّم رسول الله ﷺ، وقال: «أَخْرَ عَنِّي يا عمر»، فلما أَكْثَرْتُ عليه قال: «إِنِّي خَيْرٌ فَاخْتَرْتُ، لو أَعْلَم أَنِّي إِن زِدْتُ عَلَى السَّبْعِينَ يُغْفَرُ لَهُ، لَزِدْتُ عَلَيْهَا»، قال: فصلى عليه رسول الله ﷺ، ثم انصرف، فلم يمكث إلا يسيرًا حتى نزلت الآيتان من سورة براءة ﴿وَلَا تُصَلِّ عَلَى أَحَدٍ مِّنْهُم مَّا تَأْتِيكَ بِهِ سُلُوكٌ﴾ إلى ﴿وَهُمْ فَاسِقُونَ﴾ قال: فعجبتُ بعدُ من جُرأتِي على رسول الله ﷺ، والله ورسوله أعلم فما صلى رسول الله ﷺ على منافق بعد حتى قبضه الله ﷻ ^(١).

أما ما ورد من أن النبي ﷺ قال: «وسأزيده على السبعين» ^(٢) فهو وهم من الراوي، وكذا ما مثله؛ لأنه ينافي رواية عمر، وهو صاحب القصة، ولا تستقيم هذه الجملة مع قوله ﷺ: «لو أعلم أَنِّي إِن زِدْتُ عَلَى السَّبْعِينَ، يُغْفَرُ لَهُ، لَزِدْتُ عَلَيْهَا» ولعل قول النبي ﷺ: إنه سيزيد على السبعين كان قبل نزول قوله تعالى: ﴿سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَسْتَغْفَرْتَ لَهُمْ أَمْ لَمْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ لَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ﴾ [المنافقون: ٦] كما قال ابن عباس رضي الله عنه: إن هذه الآية ناسخة لقوله تعالى: ﴿أَسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ﴾ ^(٣).

وهذه ثلاثة أنواع من المتخلفين عن الجهاد في غزوة تبوك، يُطْلِعُ الله رسوله على ما سيكون منهم بعد عودته إليهم، ومنهم من جاء إليه معتذرا قبل خروجه للغزوة:

ثَلَاثَةُ أَنْوَاعٍ مِنَ الْمُتَخَلِّفِينَ يَوْمَ تَبُوكَ النُّوعُ الْأَوَّلُ: قَوْمٌ كَرِهُوا الْجِهَادَ وَأَثَرُوا الرَّاحَةَ

٨١- ﴿فَرِحَ الْمُخَلَّفُونَ بِمَقْعَدِهِمْ خَلْفَ رَسُولِ اللَّهِ وَكَرِهُوا أَنْ يُجَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ

(١) «صحيح البخاري» برقم (١٣٦٦) وبرقم (٤٦٧١) و«المسند» (٩٥) والترمذي (٣٠٩٧) والنسائي (١٩٦٥) وفي «الكبرى» (١١٢٢٥) وابن حبان (٣١٧٦) وغيرهم.

(٢) جاء ذلك في البخاري برقم (٤٦٧٠) و (٤٦٧٢) و«صحيح مسلم» برقم (٢٤٠٠).

(٣) أخرج ذلك النحاس في ناسخه ص (٥٢٣).

اللَّهُ وَقَالُوا لَا تَنْفِرُوا فِي الْحَرِّ قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّا لَوْ كَانُوا يَفْقَهُونَ ﴿٨١﴾

والمؤمن إذا تخلف عن الغزو مع رسول الله ﷺ يحزن ويأسف، ويتمنى أن لو خرج مجاهدا معه بنفسه وماله، ولكن المنافق يفرح بتخلفه ولا يبالي، كما تقرره هذه الآية، بل ويشبط غيره ويحذره من مواجهة الحر والشدائد، ويفر بنفسه عن هذه المواجهة، ولو أنه أدرك أن نار جهنم أشد حرا لآثر ما يبقى على ما يفنى.

أخرج الطبري بسنده إلى ابن عباس ؓ قال: أمر رسول الله ﷺ الناس أن ينبعثوا معه، وذلك في الصيف، فقال رجل: يا رسول الله، الحر شديد، ولا نستطيع الخروج، فلا نفر في الحر، فأنزل الله ﴿قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّا﴾ وهكذا قال رجل من بني سلمة، وقال رجل آخر من المنافقين: لا تنفروا في الحر فتزلت الآية^(١).

ولما استغفر النبي ﷺ للمنافقين الذين تخلفوا عن الخروج معه لجهاد العدو في غزوة تبوك، قَوِيَ فرحهم بتخلفهم عن رسول الله ﷺ، وظنوا أنهم قد استغفروه حتى قَضَوْا مَأْرَبَهُمْ باستغفار رسول الله ﷺ لهم، فازداد فرحهم بإذن رسول الله لهم حين تخلفوا عنه، وذلك أنهم آثروا الراحة والجلوس بسبب ضعف إيمانهم، وسقوط همتهم، وسوء نيتهم، فآثروا الدنيا وشهواتها، وكرهوا الخروج للجهاد بالنفس والمال، وقال بعضهم لبعض: اقعدوا معنا في المدينة مع الأهل والمال والولد، ولا تَخْرُجُوا في شدة الحر، وكان الخروج إليها في القيط، مع بُعْد السفر.

ذلكم قول الله تعالى: ﴿فَرِحَ الْمُخَلَّفُونَ بِمَقْعَدِهِمْ خَلَفَ رَسُولُ اللَّهِ﴾ أي: فرح الذين تخلفوا عن رسول الله في غزوة تبوك بقعودهم عن الخروج معه، فكرهوا الخروج في الحر وآثروا الراحة، وخافوا على أنفسهم وعلى أموالهم؛ وذلك نظراً لما في قلوبهم من الكفر والتناق، وبذلك جمعوا بين الكفر والفرح بالقعود، وكراهية الجهاد، فإذا كانوا يخافون من نار الدنيا وهي جزء من سبعين جزءاً من نار جهنم، فأولى لهم أن يخافوا من نار الآخرة ويجزعوا منها، وهي مصير من خالف رسول الله ﷺ؛ فإن حر الدنيا يزول ولا يبقى، وحر الآخرة دائم لا يفتر.

(١) «أسباب النزول» للسيوطي (١٤٥) و«تفسير الطبري» (١٠/١٣٩).

عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «أوقد على النار ألف سنة حتى احمرت، ثم أوقد عليها ألف سنة حتى ابيضت، ثم أوقد عليها ألف سنة حتى اسودت، فهي سوداء كالليل المظلم»^(١).

وعن النعمان بن بشير رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «إن أهون أهل النار عذاباً يوم القيامة من له نعلان وشراكان من نار جهنم، يغلي منهما دماغه، كما يغلي المرجل، لا يرى أن أحداً من أهل النار أشد عذاباً منه، وإنه أهونهم عذاباً»^(٢).

قال تعالى: ﴿كَلَّا إِنَّهَا لَأَطَىٰ ﴿٥٥﴾ نَزَاعَةٌ لِّلشَّوَىٰ ﴿٥٦﴾﴾ [المعارج]

وقال سبحانه: ﴿فَالَّذِينَ كَفَرُوا قُطِعَتْ لَهُمْ شِيَابٌ مِّن نَّارٍ يُصَبُّ مِن فَوْقِ رُءُوسِهِمُ الْحَمِيمُ ﴿١٩﴾ يُصْهِرُ بِهِ مَا فِي بُطُونِهِمْ وَالْجُلُودُ ﴿٢٠﴾ وَلَهُمْ مَقْنِعٌ مِّن حديدٍ ﴿٢١﴾ كُلَّمَا أَرَادُوا أَن يَخْرُجُوا مِنْهَا مِنْ غَمٍّ أُعِيدُوا فِيهَا وَذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ ﴿٢٢﴾﴾ [الحج]

وقال جلَّ شأنه: ﴿كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُمْ بَدَّلْنَاهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا الْعَذَابَ﴾ [النساء: ٥٦]

وقال أيضاً: ﴿وَإِن يَسْتَغِيثُوا يُغَاثُوا بِمَاءٍ كَالْمُهْلِ يَشْوِي الْوُجُوهَ﴾ [الكهف: ٢٩]

وقال ﷻ: ﴿وَسُقُوا مَاءً حَمِيمًا فَقَطَّعَ أَمْعَاءَهُمْ﴾ [محمد: ١٥]

ونار الدنيا ليست شيئاً يذكر بالنسبة لنار الآخرة:

عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «ناركم جزء من سبعين جزءاً من نار جهنم»، قيل: يا رسول الله، إن كانت لكافية، قال: «فُضِّلَتْ عليهن بتسعة وستين جزءاً كلهن مثل حرها»^(٣).

عُقُوبَةُ الْمُتَخَلِّفِينَ عَنِ الْجِهَادِ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ

٨٢- ﴿فَلْيَضْحَكُوا قَلِيلًا وَلْيَبْكُوا كَثِيرًا جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿٨٢﴾﴾

ثم توَّعدهم الله تعالى بسوء المصير يوم القيامة، أي: فليضحك هؤلاء المنافقون الذين

(١) الترمذي برقم (٢٥٩١) و«سنن ابن ماجه» (٤٣٢٠) قال الترمذي: حديث أبي هريرة موقوف، أصح، ولا أعلم أحداً رفعه غير يحيى ابن أبي بكير عن شريك.

(٢) البخاري برقم (٦٥٦٢) و«فتح الباري» (٤٢٥/١١) ومسلم (١٩٦/١) برقم (٢١٣) والحاكم (٥٨٠/٤).

(٣) «صحيح البخاري» برقم (٣٢٦٥) و«صحيح مسلم» برقم (٢٨٤٣) و«الموطأ» (٩٩٤/٢).

آثروا الراحة في ساعة العسرة، وتخلفوا عن الركب أول مرة فليضحكوا قليلاً في حياتهم الدنيا الفانية، وليبكوا كثيراً في نار جهنم، جزاء بما كانوا يكسبون في الدنيا من النفاق والكفر؛ فإنهم إن فرحوا طوال أعمارهم فهو فرح قليل بالنسبة لحزنهم وبكائهم في الآخرة، ففي الحديث عن عائشة رضي الله عنها أن رسول الله ﷺ قال: «لو تعلمون ما أعلم لبكيتم كثيراً ولضحكتكم قليلاً»^(١).

والضحك كناية عن الفرح، والبكاء كناية عن الحزن، بمعنى أن فرحهم زائل وبكاءهم دائم، جزاء كفرهم ونفاقهم وعدم انقيادهم لأوامر ربهم.

والضحك يعني: التمتع بالدنيا والفرح بلذاتها، والاستغراق في اللهو واللعب. قال تعالى:

٨٣- ﴿فَإِنْ رَجَعَكَ اللَّهُ إِلَى طَائِفَةٍ مِّنْهُمْ فَاسْتَدْنُوكَ لِلْخُرُوجِ فَقُلْ لَّنْ نَّخْرُجُوا مَعِيَ أَبَدًا وَلَكِن نُّقَاتِلُوكَ مَعِيَ (٣) عَدُوًّا إِنَّكُمْ رَضِيتُمْ بِالْقُعُودِ أَوَّلَ مَرَّةٍ فَاقْعُدُوا مَعَ الْخَالِفِينَ (٨٣)﴾

هذه الآية لبيان عقوبة المتخلفين عن غزوة تبوك في الدنيا، وذلك بعدم الإذن لهم في الخروج مع نبيه ﷺ، للقتال معه مرة أخرى؛ لأن شؤم المخالفة يؤدي إلى فوات الخير الكثير، فقد أمر الله رسوله إن أرجعه سالمًا من غزوة تبوك، وجاء هؤلاء المنافقون المتخلفون يطلبون منه أن يخرجوا معه إلى غزوة أخرى، فإنه لا يجوز له ﷺ أن يأخذ منهم أحدًا.

والمقصود بهذا: الطائفة التي تخلفت بغير عذر، أو بعذر غير مقبول؛ لأن الله تعالى قال:

﴿إِلَى طَائِفَةٍ مِّنْهُمْ﴾ ولم يقل: إليهم؛ لأن بعض الذين تخلفوا لم يكن منافقًا، وبعضهم كان له عذر مقبول، كالذين تولّوا وأعينهم تفيض من الدمع حزناً ألا يجدوا ما ينفقون.

فإن استأذنوك للخروج معك إلى غزوة أخرى بعد غزوة تبوك ﴿فَقُلْ لَّنْ نَّخْرُجُوا مَعِيَ أَبَدًا﴾ في غزوة من الغزوات، ما دمتُ على قيد الحياة؛ حتى لا يكون لكم شرف القتال معي، كما

(١) من حديث عائشة في «صحيح البخاري» برقم (١٠٤٤، ٦٦٣١) و«صحيح مسلم» مطولاً برقم (٩٠١) وعن أبي هريرة في البخاري (٦٤٨٥) والترمذي (٢١٣) وجاء أيضاً عن أنس وأبي ذر وغيرهما.

(٢) قرأ نافع وابن كثير وأبو عمرو وابن عامر وحفص وأبو جعفر، بفتح ياء الإضافة من (معي أبداً)، والباقون بإسكانها.

(٣) قرأ حفص بفتح ياء الإضافة من (معي عدوا) والباقون بإسكانها.

قال تعالى في غزوة الحديبية: ﴿سَيَقُولُ الْمُخَلَّفُونَ إِذَا انْطَلَقْتُمْ إِلَى مَغَانِمَ لِتَأْخُذُوهَا ذَرُونَا نَتَّبِعَكُمْ يُرِيدُونَ أَنْ يَسِيدُوا كَلِمَ اللَّهِ قُلْ لَنْ تَتَّبِعُونَا كَذَلِكُمْ قَالَ اللَّهُ مِنْ قَبْلُ﴾ [الفتح: ١٥].

وأيضاً فإنكم لن تشاركوني في قتال أي عدو: ﴿وَلَنْ تُقَاتِلُوا مَعِيَ عَدُوًّا﴾ من الأعداء الذين أمرت بقتالهم، والسبب ﴿إِنَّكُمْ رَضِيتُمْ بِالْقُعُودِ﴾ وفرحتم به ﴿أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ حين تخلفتم عن غزوة تبوك ﴿فَأَقْعُدُوا مَعَ الْخَائِفِينَ﴾ أي: اقعدوا مع النساء والصبية والمرضى والعجزة، واقعدوا مع من تخلف عن الجهاد مع رسول الله، كما قال تعالى: ﴿لَوْ خَرَجُوا فِيكُمْ مَا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا﴾ [التوبة: ٤٧] ولو قاتلوا معكم لم يكن قتالهم لإعلاء كلمة الله، وكل قتال خلا من هذه الغاية فليس في سبيل الله، والخالف هو الذي يتخلف عن الرجال في الغزو مع النساء والصبيان.

وفي الآية توبيخ له لأنه تناقل وتخلف عن الغزو، فلا يؤفق له بعد ذلك.

لَا تَجُوزُ الصَّلَاةُ عَلَى مُنَافِقِي الْعَقِيدَةِ

٨٤- ﴿وَلَا تَصَلِّ عَلَى أَحَدٍ مِنْهُمْ مَاتَ أَبَدًا وَلَا تَقُمْ عَلَى قَبْرِهِ إِنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَمَاتُوا وَهُمْ فَسِقُونَ﴾

هذه الآية تمنع الصلاة على من مات على الكفر والنفاق في العقيدة، ومنهم: عبد الله بن أبيّ بن سلول؛ لأن صلاته ﷺ رحمة، وهم ليسوا أهلاً للرحمة، ولما حضرت الوفاة عبد الله بن أبيّ، سيد الخزرج ورأس المنافقين، جاء ابنه عبد الله إلى النبي ﷺ - وكان من خيرة الصحابة - يطلب قميص الرسول ﷺ؛ ليكفن فيه أباه؛ ليكون رحمة عليه وبركة.

العلة في صلاة النبي ﷺ على ابن أبيّ وتكفينه في قميصه

وكان لابن أبيّ عند النبي ﷺ جميل، وهذا الجميل يتمثل في أنه لما أسر العباس بن عبد المطلب، عم النبي ﷺ في غزوة بدر، جيء به أسيراً وليس عليه ثياب، وكان العباس طويلاً ضخماً، وكان ابن أبيّ طويلاً ضخماً، ولم يجدوا ثياباً على تفصيل جسده إلا ثياب ابن أبيّ، فنزع ابن أبيّ قميصه وألبسه العباس.

والنبي ﷺ يريد أن يردّ هذا الجميل إلى ابن أبيّ، ويكافئه عليه.

وأيضاً فإن النبي ﷺ يريد أن يُطَيَّب خاطر ابنه عبد الله الصحابي الجليل .

وإلى جوار ذلك فقد كان عليه الصلاة والسلام يطمع في الاستغفار للمنافقين الذين لم يموتوا على الكفر، رجاء أن يتوب الله عليهم ويهديهم سواء السبيل، فأعطى النبي ﷺ قميصه وفيه رائحة عرقه إلى ابن أبي المنافق .

ثم لما حضرت الصلاة عليه جاء ابنه يقول: يا رسول الله، أريدك أن تصلي على أبي، فإن لم تُصلِّ عليه فسوف نُعَيَّر به ما حِينَا، وذهب ﷺ تطيباً لخاطر ولده ليصلي على أبيه، فلما وقف عليه قال عمر: يا رسول الله، أتصلي على عدو الله الذي قال كذا، وفعل كذا؟ فتبسم رسول الله ﷺ، وقال: «أخز عني يا عمر، فلما أكثر عليه قال ﷺ: إني خُيِّرْتُ فاخترت، ولو أعلم أنني إن زدت على السبعين يُغفر له لزدتُ عليها»، وصلى عليه النبي ﷺ، وقام على قبره حتى فرغ منه كما جاء ذلك في الصحيح^(١).

وهناك رواية أخرى مرجوحة، تبين أنه ﷺ لم يصلِّ عليه^(٢).

والصحيح أنه صلى عليه، ثم نُهي عن ذلك .

وفي الصحيحين وغيرهما عن جابر ؓ أن النبي ﷺ أمر به بعدما أدخل حُفْرته فأخرج، فوضعه على ركبتيه، ونفث فيه من ريقه، وألبسه قميصه^(٣).

والظاهر أن هذا كان قبل الصلاة عليه كما في حديث عمر، وابن عمر السابقين .

جاء في الأثر أن النبي عليه الصلاة والسلام قال بعد أن صلى على عبد الله بن أبي وكفَّنه في قميصه: «وما يغني عنه قميصي وصلاتي من الله، والله إني أرجو أن يُسلم به ألف رجل من قومه» .

(١) انظر: القصة وفيها أن النبي ﷺ أعطاه قميصه، وأنه صلى عليه، كما في البخاري (١٢٦٩، ٤٦٧٢) ومسلم (٢٤٠٠) عن ابن عمر ؓ .

(٢) جاء في حديث ضعيف عن أنس أن النبي ﷺ أراد أن يصلي عليه فأخذ جبريل بثوبه فقال: «ولا تصل على أحد منهم مات أبداً» قال محقق أبي يعلى (٤١١٢): إسناده ضعيف، كما جاء ذلك في «تفسير الطبري» (٦١٢/١١) .

(٣) «صحيح البخاري» برقم (١٢٧٠، ١٣٥٠، ٣٠٠٨، ٥٧٩٥) و«صحيح مسلم» برقم (٢٧٧٣) و«سنن النسائي» (٣٧/٤) و«السنن الكبرى» برقم (٩٦٦٥) و«المسند» (٣٧١/٣) .

فذكر ﷺ العلة في أنه أعطى ابنه القميص، والعلة في أنه صلى عليه، وبين أن ذلك رجاء أن يُسلم بهذا السبب ألف رجل من قومه، وقد تحقق ذلك، فأسلم ألف رجل من الخزرج لما رأوا تبرُّك عبد الله بن أبيٍّ واستشفاءه بقميص رسول الله ﷺ حين وفاته، وبذلك تحقق هدف النبي ﷺ، وتحقق الغرض الذي صلى من أجله على ابن أبيٍّ.

نَهَى النبي ﷺ عن الصلاة على منافق

هذا: وكان النبي ﷺ يصلي على المنافقين في بادئ الأمر، فلم يمكث إلا يسيراً بعد الصلاة على ابن أبيٍّ حتى أنزل الله عليه آيتين من سورة براءة، تمنعه من أن يصلي بعد ذلك على أي منافق، ولا يقوم على قبره، ولا يدعو الله له.

قال عمر: فعجبتُ بعدُ من جرأتي على رسول الله ﷺ، فما صلى بعد ذلك على منافق، ولا قام على قبره حتى قبضه الله^(١).

وهكذا أمر الله رسوله أن يبرأ من المنافقين، وألا يصلي على أحد منهم إذا مات، ولا يقوم على قبره؛ ليدعو له أو يستغفر له، عند الدفن أو بعده، أو يزوره، وهو حكم عام في كل من عُرف نفاقه، قال تعالى: ﴿وَلَا تَقُمْ عَلَى قَبْرِهِ﴾ بعد الدفن لتدعو له، فإن صلاة النبي ﷺ ووقوفه على قبر أحدهم شفاعة له، وهم قوم لا تنفع فيهم الشفاعة.

ثم بيّن ﷺ السبب في ذلك فقال: ﴿إِنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾ ومن مات كافراً لا تنفعه شفاعة الشافعين، وهؤلاء استمروا على كفرهم وفسقهم حتى الموت، فهم خارجون من الإسلام متمردون في العصيان ﴿وَمَاتُوا وَهُمْ فَاسِقُونَ﴾ فقد وصفهم الله بالفسق بعد أن وصفهم بالكفر، والفسق يَدْخُلُ في الكفر، ولكن الفاسق يكون خبيث النفس، كثير المكر والخداع، وإضمار سوء لغيره، والكافر قد لا يضر سوءاً لغيره، فلذا وصفهم بالكفر والفسق معاً.

ويؤخذ من هذا أن الصلاة على جنازة الكافر لا تجوز، وكذا الوقوف على قبره والدعاء له، وأن هذا يُشَرِّع للمسلم فحسب، وصلاة النبي ﷺ على ابن أبيٍّ كانت قبل النهي عن

(١) يُنْظَرُ القصة في: البخاري برقم (١٣٦٦، ٤٦٧١) ومسلم (١٧/١٢١) برقم (٢٧٧٤، ٤٦٧١)

و«المسند» (١٦/١) و«تحفة الأحوذى» (٨/٤٩٥) والطبري (١٤/٤٠٦).

ذلك، والنهي عن الصلاة عليه غير النهي عن الاستغفار له، ويسمى الاستغفار في اللغة صلاة أي: دعاء؛ فالصلاة هي الدعاء.

وكان النبي ﷺ قد أعلم حذيفة ﷺ بأسماء المنافقين، ولذا فإن الصحابة كانوا إذا رأوا حذيفة تأخر عن الصلاة على ميت، تأخروا عنه.

وكان عمر ﷺ على جلالة قدره يستحلف حذيفة ويسأله إن كان قد عُذَّ منهم!! حرصاً منه على قوة الإيمان وثبات اليقين، وخوفاً من الشك والنفاق، رضي الله عنك يا عمر وأرضاك، وجعل الجنة مأواك، والنار مثوى لأعداك.

وفي الآية عبرة وعظة كي ينزجر أهل الكفر عن كفرهم، وينزجر أهل النفاق عن نفاقهم.

ومن هذي الإسلام: أن الميت المؤمن إذا مات، لا ينصرف عنه أهله سريعاً، سيمًا أحب الناس وأقربهم إليه، فيقف على القبر قليلاً، ويدعو للميت، ويستغفر له، ويقول لمن حوله: «استغفروا لأخيكم وسلّوا الله له الثبیت فإنه الآن يسأل»، كما صح ذلك عن عثمان بن عفان ﷺ، وهكذا كان يفعل النبي ﷺ إذا فرع من دفن الميت^(١).

وفي حديث أبي هريرة ﷺ: «أن من شهد الجنازة حتى يصلى عليها فله قيراط، ومن شهدا حتى تدفن، فله قيراطان»، قيل: وما القيراطان؟ قال: «أصغرهما مثل أحد»^(٢). قال تعالى:

٨٥- ﴿وَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَأَوْلَادُهُمْ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُعَذِّبَهُمْ بِهَا فِي الدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنْفُسُهُمْ وَهُمْ كَافِرُونَ﴾

﴿وَلَا تُعْجِبْكَ﴾ أيها الرسول، وأيها المخاطب، أموال المنافقين وأولادهم، ولا تغتر بها، ولا تستحسنها، إنما يريد الله أن يعذبهم بأموالهم وأولادهم في الدنيا بمكابدة الشدائد، وبموت بعض أبنائهم على الكفر بالله ورسوله.

فالابن حين يخالف أباه في العقيدة والدين، يكون في هذا عذاب له وأي عذاب؟! .

وكذلك الشأن في ماله حين يشقى في جمعه، ثم ييخل به ويحزن عند فقد هلاكه ففي هذا عذاب له وأي عذاب؟! .

(١) يُنظر «سنن أبي داود» برقم (٣٢٢١) وصححه الألباني في صحيح أبي داود (٢٧٥٨).

(٢) «صحيح البخاري» برقم (١٣٢٥) و«صحيح مسلم» برقم (٩٤٥).

فلا تغتر بما أعطاهم الله في الدنيا من أموال، فهم يتعبون في تحصيلها، ويخافون من زوالها ولا يهتؤون بها، بل يعانون الشدائد من أجلها، وتلهيهم عن طاعة الله، حتى ينتقلوا من الدنيا، ولا تغتر بأولادهم فقد يكونوا سببا في شقائهم .

وأرواح المنافقين تخرج من أبدانهم وهم مصرون على الكفر ﴿وَتَرْهَقَ أَنْفُسُهُمْ وَهُمْ كَافِرُونَ﴾ فقد سلبهم حب الدنيا كل شيء، فماتوا وقلوبهم بها متعلقة وأفندتهم عليها متحرقة .

وقد تقدم نظير هذه الآية في السورة في الآية الخامسة والخمسين، وهذا من باب تأكيد المعنى وتقريره؛ للإشعار بأن المعنيين في الآيتين، لا يُغفل عنهما ولا يُنسيان، ولأن أشد الأشياء جذباً للقلوب، هو الاشتغال بالأموال والأولاد، وما كان كذلك يجب المبالغة في التحذير منه مرة بعد مرة .

وقد يكون المنافقون المخاطبون في الآية الأولى قوماً آخرين غير المخاطبين في الآية الثانية .

وهذه الآية خالفت الآية السابقة في أربعة أشياء:

أحدها: أن العطف هناك بالفاء التي هي للتفريع؛ لأن المعنى مفرعاً عما قبله؛ حيث وصفهم الله تعالى بأنهم كارهون للإلتحاق؛ لشدة محبة الأموال والأولاد، وهنا لا يوجد تفريع، ولا تعلق لها بما قبلها فَحَسَّنَ العطف بالواو .

ثانيها: أن هذه الآية عطف فيها لفظ الأولاد، بدون إعادة (لا) التي في الآية السابقة؛ لأنها هناك لزيادة التأكيد بالإعجاب بالأموال والأولاد، وأسقطها هنا للدلالة على أنه لا تفاوت بين الأمرين، والمقام هناك ذم، وهنا مقام تحقير .

ثالثها: في الآية السابقة ﴿أَنْ يُعَذِّبَهُمْ﴾ وهنا (لِيُعَذِّبَهُمْ) على تقدير ﴿أَنْ﴾ بعد اللام التي للتعليل؛ تنبيهاً على أن التعليل في أحكام الله تعالى محالٌ .

رابعها: أسقط الله تعالى في هذه الآية، لفظ (الحياة)؛ لأن المقام هنا في ذكر أحوال المنافقين بعد الموت، بخلاف الآية السابقة فهي في ذكر حالهم في الدنيا، وللتنبيه أيضاً على أن الحياة الدنيا بلغت من الخسة أنها لا تستحق الذكر^(١) .

(١) يُنْظَرُ: «تفسير التحرير والتنوير» (١١/٢٨٦).

النُّوعُ الثَّانِي مِنَ الْمُتَخَلِّفِينَ: أَهْلُ الثَّرَاءِ وَالْقُدْرَةِ الْبَدَنِيَّةِ

٨٦- ﴿وَإِذَا أُنْزِلَتْ سُورَةٌ أَنْ ءَامِنُوا بِاللَّهِ وَجَاهِدُوا مَعَ رَسُولِهِ اسْتَأْذَنَكَ أَُولُوا الطَّلَوِّ مِنْهُمْ وَقَالُوا ذَرْنَا نَكُنْ مَعَ الْقَاعِدِينَ ﴿٨٦﴾﴾

أخذت السورة في تقسيم المتخلفين عن الجهاد، من المنافقين والمؤمنين، وبيان أعدائهم ومراتبها في القبول، فذمّت أولاً القاعدين عن الجهاد كالنساء، وبيّنت في هذه الآية أن من شأن المنافقين الاستئذان والتخلف عنه، فهم مستمرّون في تناقلهم عن الطاعات، وأن نزول السور والآيات لا تؤثر فيهم، فقال تعالى: ﴿وَإِذَا أُنْزِلَتْ سُورَةٌ﴾ والمراد بها سورة براءة، وهي طائفة معينة من آيات القرآن، ولكون هذه الآية تبيّن غرضاً جديداً من أغراض السورة، سميت سورة، أي: إذا أنزلت آية على محمد ﷺ جليلة الشأن تأمر بالإيمان بالله والإخلاص له، والجهاد في سبيل الله لنصرة الحق وإعزاز الدين كما في قوله تعالى: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمْ افْعَلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَتَأْتَلْتُمْ إِلَى الْأَرْضِ﴾ [التوبة: ٣٨] أي: تكاسلتم، وتخاذلتم.

وقدّم الإيمان على الجهاد؛ لأن الجهاد بغير إيمان لا يفيد أصلاً.

وفي الآية أمر بالدوام على الإيمان والجهاد، كلّما تطلّب الأمر جهاد الدفع أو الطلب.

فإذا جاء الأمر بالجهاد تخلف عنه أولو الطلّ، ﴿اسْتَأْذَنَكَ أَُولُوا الطَّلَوِّ مِنْهُمْ﴾ وهم أهل الثراء والقدرة البدنية، من المنافقين، وطلبوا أن يقعدوا عن الجهاد مع القاعدين العاجزين عن الخروج للجهاد، ﴿وَقَالُوا ذَرْنَا نَكُنْ مَعَ الْقَاعِدِينَ﴾ لقد أمدهم الله بالأموال والأولاد فلم يشكروه ولم يقوموا بما أوجبه عليهم من بذل النفس والمال في سبيله، بل أبوا إلا التكامل والاستئذان في القعود، كما قال تعالى: ﴿وَيَقُولُ الَّذِينَ ءَامَنُوا لَوْلَا نُزِّلَتْ سُورَةٌ فَإِذَا أُنْزِلَتْ سُورَةٌ مُحْكَمَةٌ وَذُكِرَ فِيهَا الْقِتَالُ رَأَيْتَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ نَظَرَ الْمَغْشَى عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ﴾ [محمد: ٢٠] وذلك لخورهم وجبنهم، فإذا وقعت الحرب كانوا أجبن الناس ﴿فَإِذَا جَاءَ الْخَوْفُ رَأَيْتَهُمْ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ كَالَّذِي يُغْشَى عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ فَإِذَا ذَهَبَ الْخَوْفُ سَلَقُوكُمْ بِالسِّنَةِ حِدَادٍ﴾ [الأحزاب: ١٩]. قال تعالى:

٨٧- ﴿رَضُوا بِأَنْ يَكُونُوا مَعَ الْخَوَالِفِ وَطُبِعَ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ ﴿٨٧﴾﴾

لقد رضي المنافقون لأنفسهم بالعار، وهو أن يقعدوا في بيوتهم مع النساء والصبيان والعجزة من أهل الأعدار، ولا يرضى بذلك إلا من هانت كرامته، وسقطت مروءته، وألف الذلة والصغار ﴿رَضُوا بِأَنْ يَكُونُوا مَعَ الْخَوَالِفِ﴾ جمع خالفة، وهي المرأة المتخلفة عن أعمال الرجال لضعفها، أو هي المرأة التي تخلفت في البيت بعد سفر زوجها.

أي: كيف رضوا لأنفسهم بالبقاء مع النساء، المتخلفات عن الجهاد؟ ولو كان عندهم عقل وفهم، لدلّهم على ما فيه خيرهم وصلاحهم، ولكنهم رَضُوا لأنفسهم هذه الحال التي تحطّهم عن منازل الرجال.

وقد ترتب على رسوخهم في النفاق وإصرارهم على الفسوق والعصيان، أن ختم الله على قلوبهم؛ فهي لا تميّز بين الحق والباطل، ولا بين أسباب السعادة وأسباب الشقاء ﴿وَطَبَعَ عَلَى قُلُوبِهِمْ﴾ ختم عليها فأصبحت لا تقبل هدى ﴿فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ﴾ ولو كانوا يفقهون ما فيه صلاحهم وسعادتهم، لأدركوا ما في الجهاد من عزة وكرامة، وما في التخلف عنه من ذلة ومهانة.

وقد بيّن الله تعالى أن المؤمن الحق، ليس من شأنه أن يستأذن عن شرف الجهاد في سبيل الله، وأن الاستئذان والتخلف عن الجهاد من صفات غير المؤمنين بالله واليوم الآخر كما سبق، كما بيّن جلّ شأنه أن العقوبة والمؤاخذه على الذين يتركون ساحات القتال مع القدرة عليه، فهؤلاء رضوا لأنفسهم الدنيّة في دينهم، وكانوا ممن طبع الله على قلوبهم ﴿إِنَّمَا السَّبِيلُ عَلَى الَّذِينَ يَسْتَأْذِنُوكَ وَهُمْ أَغْنِيَاءُ رَضُوا بِأَنْ يَكُونُوا مَعَ الْخَوَالِفِ وَطَبَعَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ﴾ [التوبة: ٩٣].

عن سعد بن أبي وقاص أن عليّ بن أبي طالب ؓ خرج مع النبي ﷺ حتى جاء ثنية الوداع يريد تبوك، وعليّ يبكي ويقول: تُخَلِّفُنِي مع الخوالم؟ فقال رسول الله ﷺ: «ألا ترضى أن تكون مني بمنزلة هارون من موسى إلا النبوة»^(١).

(١) «المسند» (١٤٦٣) إسناده صحيح على شرط البخاري، (محققوه) وأصله في البخاري (٤٤١٦) ومسلم (٢٤٠٤) دون ذكر ثنية الوداع، وأخرجه ابن أبي عاصم (١٣٤٠) والنسائي في خصائص عليّ (٥٥).

مَدْحُ الْمُجَاهِدِينَ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ

٨٨- ﴿لَيْكِنَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَهُ جَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ وَأُولَئِكَ لَهُمُ الْخَيْرَاتُ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾

وبعد أن ذمَّ الله سبحانه المنافقين المتخلفين عن الجهاد، مدح جلَّ شأنه المؤمنين المجاهدين بأنفسهم وأموالهم، وبيَّن أنهم من طراز آخر يختلف عن المنافقين، فلئن تخلف هؤلاء عن الجهاد، فقد بادر إليه الرسول ﷺ وأصحابه .

أي: إذا كان حال المنافقين هو الجبن والتخاذل، فإن حال المؤمنين هو الشجاعة والإقدام والثبات، في غير تناقل ولا تكاسل بل في فرح واستبشار، وهذا كقوله تعالى: ﴿قُلْ ءَامِنُوا بِهِ أَوْ لَا تُؤْمِنُوا إِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مِنْ قَبْلِهِ إِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ يَجِرُونَ لِأَذْقَانِ سُجْدًا﴾ [الإسراء: ١٠٧]، وقوله سبحانه: ﴿فَإِنْ يَكْفُرْ بِهَا هَؤُلَاءِ فَقَدْ وَكَلْنَا بِهَا قَوْمًا لَّيْسُوا بِهَا بِكَافِرِينَ﴾ [الأنعام: ٨٩] وقال تعالى ﴿وَأُولَئِكَ لَهُمُ الْخَيْرَاتُ﴾ أي: النصر والغنيمة، والعزة والكرامة في الدنيا، والجنة ونعيمها في الآخرة ﴿وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ الفائزون بالدرجات العلا، والنعيم المقيم، الظافرون بأعلى المطالب وأكمل الرغائب.

فجهاد المؤمنين بالمال والنفس مقابل استئذان أولو الطُّول من أهل السَّعة والقوة.

وقوله تعالى: ﴿وَأُولَئِكَ لَهُمُ الْخَيْرَاتُ﴾ مقابل ﴿وُطِّعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ﴾.

ونظير ذلك ما وعد الله به المؤمنين والمنافقين في الآيات السابقة.

قال تعالى يصف نعيم المؤمنين المجاهدين:

٨٩- ﴿أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾

وقد أعد الله للمؤمنين المجاهدين في سبيله يوم القيامة جنات تجري من تحت أشجارها الأنهار، ماكثين فيها أبداً، وذلك هو الفلاح العظيم، فتباً لمن لم يرغب فيما رغبوا فيه، وخسر دنياه وأخراه.

النُّوعُ الثَّالِثُ مِنَ الْمُتَخَلِّفِينَ : فَرِيقَانِ مِنَ الْأَعْرَابِ، أَحَدُهُمَا يَطْلُبُ الْأُذْنَ، وَالْآخَرُ لَمْ يَعْتَذِرْ

٩٠- ﴿وَجَاءَ الْمُعَذِّرُونَ^(١) مِنَ الْأَعْرَابِ لِيُذَنِّ لَهُمْ وَقَعَدَ الَّذِينَ كَذَبُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ سَيُصِيبُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾

هذه الآية تذكر شأن فريقين من الأعراب قبل خروج النبي ﷺ إلى غزوة تبوك:

أحدهما: قوم جاؤوا معتذرين، يستأذنون النبي ﷺ ويشكّون ضعفهم وعدم قدرتهم على الخروج إلى تبوك، وهم أحياء من الأعراب الذين هم حول المدينة.

وهذا الفريق في مقابلة الفريق الآخر الذي قعد في بيته، فلم يجئ ولم يعتذر، وهم الذين كذبوا الله ورسوله في دعوى الإيمان، وهم الراسخون في النفاق، من الأعراب سكان البادية.

وعلى هذا فإن الآية تُبَيِّنُ حال الأعراب من سكان البادية، بعد أن يَبَيِّنُ حال أهل الحضر من سكان المدينة.

والمعنى: ومن المتخلفين عن النبي ﷺ في غزوة تبوك: قوم من الأعراب الذين يسكنون البوادي حول المدينة، كقبيلة أسد، وغطفان، وقوم عامر بن الطفيل وغيرهم.

جاء هؤلاء الأعراب يعتذرون للنبي ﷺ عن الخروج معه، ويقولون له: لو خرجنا معك فإن القبائل المعادية المجاورة لنا ستغير علينا، ويأخذون أهاليها ومواشيها، فقال لهم النبي ﷺ: «سيفنيي الله عنكم»، وهؤلاء هم رهط عامر بن الطفيل، ويبدو أنهم كانوا صادقين في عذرهم.

والى هذا يشير قوله تعالى: ﴿وَجَاءَ الْمُعَذِّرُونَ﴾ أي: المعتذرون، فأدغمت التاء في الذال لقرب مخرجهما، وهم المقصرون الذين تهاونوا في الخروج، ولم يبالغوا في أعتذارهم، جاؤوا ليُعَذِّرَهم النبي ﷺ، ومن عادته أن يعذّر من له عذر، وهم ﴿مِنَ الْأَعْرَابِ﴾ المقيمين حول المدينة، جاؤوا ﴿لِيُذَنِّ لَهُمْ﴾ في التخلف عن النفير العام، وهم نفر من

(١) قرأ يعقوب بسكون العين وكسر الذال مخففة من (المُعَذِّرُونَ) اسم فاعل من أعتذر، وقرأ الباقر بفتح العين وتشديد الذال، اسم فاعل من عذّر مضعفاً، بمعنى: تكلف العذر، أو من اعتذر، فأدغمت التاء في الذال.

غَفَار، من الذين جاؤوا بأعذار مقبولة: كقلة الحال، وكثرة العيال، وعدم القدرة على الخروج للغزو، جاؤوا ليأذن لهم الرسول ﷺ في التخلف عن الجهاد.

وثانيهما: فريق آخر من الأعراب، قعدوا في بيوتهم من غير أن يعتذروا، وهم الذين كذبوا الله ورسوله في دعوى الإيمان، وهؤلاء أُنذِرهم الله سوء العاقبة في الدنيا والآخرة، بسبب جُرأتهم على الله ورسوله ﴿سَيُصِيبُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ﴾ وهم الذين أصروا على الكفر والنفاق، واستمروا عليه حتى ماتوا سيصيبهم ﴿عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ في الدنيا بالقتل والأسر والهزيمة والخزي والوبال، وفي الآخرة بعذاب النار، أما الذين يتوبون ولا يَكْفُرُونَ فباب الله مفتوح لهم.

وهكذا: تمضي الآيات في بيان حال المتخلفين عن رسول الله ﷺ في غزوة تبوك، ممن يقعدون عن الجهاد ويتقاعسون عنه، ويشبّطون الهمم، ويفرّقون وُحدة المسلمين إلى يوم الساعة، ومن أعظم ذلك جهاد اليهود في احتلالهم أرض فلسطين، وتحرير المسجد الأقصى من براثنهم.

ولما ذكر سبحانه غير المعذورين في التخلف عن الجهاد أتبعه بذكر المعذورين:

الْمَعْذُورُونَ فِي التَّخَلُّفِ عَنِ الْجِهَادِ أَرْبَعَةُ أَصْنَافٍ

٩١- ﴿لَيْسَ عَلَى الضَّعَفَاءِ وَلَا عَلَى الْمَرْضَى وَلَا عَلَى الَّذِينَ لَا يَحْدُوثُ مَا يَنْفُوتُ حَرَجٌ إِذَا نَصَحُوا لِلَّهِ وَرَسُولِهِ مَا عَلَى الْمُحْسِنِينَ مِنْ سَبِيلٍ وَاللَّهُ عَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ (٩١)

هذه الآية في رفع الحرج عن أصحاب الأعذار البدنية المزمنة في التخلف عن الجهاد:

يقول زيد بن ثابت ؓ: كنت أكتب لرسول الله ﷺ سورة براءة، فإني لواضع القلم على أذني، إذا أمرنا بالقتال، فجعل رسول الله ﷺ ينظر ما ينزل عليه، إذ جاءه رجل أعمى، فقال: كيف بي يا رسول الله، وأنا أعمى؟ فنزلت الآية ﴿لَيْسَ عَلَى الضَّعَفَاءِ﴾ (١).

وبعد أن ذكر الله سبحانه الذين اعتذروا عن الجهاد مع رسول الله ﷺ والذين لم

(١) رواه الدارقطني في الأفراد وقال: غريب من حديث أبي فروة، كما في الأطراف ق (١٣٤) وأخرجه أيضاً ابن أبي حاتم (١٨٦١/٦) وابن مردويه.

يعتذروا، بَيَّنَ هنا أصحاب الأعدار الحقيقية الصحيحة، وأخبر أنه سبحانه قد أسقط فريضة الجهاد عمن لديه أعدار لا تنفك عنهم، وهم أربعة أصناف من الناس:

الصَّنْفُ الْأَوَّلُ: الضعفاء، وهم العاجزون بأبدانهم وأبصارهم عن القتال وتحمل مشاق السفر؛ كالشيوخ، والصبيان، والنساء، ممن لا قدرة لهم على الخروج للجهاد.

الصَّنْفُ الثَّانِي: المرضى بأمراض مزمنة: كالأعمى، والأعرج، والفالج أو من يمرض بمرض بدني يحول بينه وبين الجهاد والسفر.

الصَّنْفُ الثَّالِثُ: الذين لا يجدون ما ينفقون، وهم الفقراء الذين لا يجدون الراحلة ومؤنة السفر والسلاح، العاجزون عن نفقة الجهاد في عصر التنزيل، قيل في المراد بهذا الصنف في عصر التنزيل: هم بنو مقرن، وهم ستة أو سبعة إخوة، وليس في الصحابة إخوة بهذا العدد غيرهم^(١).

وشرط هؤلاء أن ينصحوا لله والرسول، بأن يكون صادقين في إيمانهم وعزمهم على أنهم لو استطاعوا الخروج للجهاد لفعّلوا، أما إذا كانت الدولة تمون الجندي، فتعطيه السلاح وتنفق عليه، فلا حاجة لهذا الصنف من الناس.

ليس على هؤلاء الأصناف الثلاثة ﴿حَرْجٌ﴾ أي: ليس عليهم إثم في التخلف عن الجهاد. والآية ترفع الحرج عنهم في القعود عن الغزو، ولكنها لا تحرّمه عليهم إذا خرجوا مجاهدين لأداء مهمة تناسب أحوالهم؛ كالطبيب، والممرض، وطاهي الطعام، وناصب الخيام، ومن يؤمهم في الصلاة، ومن يعظهم ويرفع معنوياتهم، فهي طاعة مقبولة.

ثم بَيَّنَ سبحانه ما يجب على هذه الأصناف حال قعودهم عن الجهاد، فاشتراط عليهم النصيحة لله والرسول في قوله تعالى: ﴿إِذَا نَصَحُوا لِلَّهِ وَرَسُولِهِ﴾ بمعنى: أنهم إذا أقاموا في البلد، فعليهم أن يحترزوا عن إفشاء الأراجيف، وإثارة الفتن، ويقوموا بتوصيل الخير إلى أهل المجاهدين الذين خرجوا للغزو، ويخلفوهم في أعمالهم ومصالح بيوتهم، ويخلصوا للإيمان والعمل لله، ومتابعة الرسول ﷺ فهذه الأمور تجري مجرى النصيحة لله والرسول^(٢).

(١) «تفسير ابن عطية» (٧٠/٣).

(٢) يُنظَر: الفخر الرازي وحاشية الجمل على «الجلالين» والألوسي وغيرهم في تفسير الآية.

وعليهم أن يعقدوا العزم على الخروج للجهاد إذا قدروا عليه وزال عنهم المانع.

وفي الحديث عن تميم الداري رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «الدين النصيحة»، قلنا: لمن؟ قال: «لله ولكتابه ولرسوله ولأئمة المسلمين وعامتهم»^(١).

وفي حديث جرير بن عبد الله رضي الله عنه قال: بايعت النبي ﷺ على إقام الصلاة وإيتاء الزكاة والنصيحة لكل مسلم.^(٢)

وليس على من أحسن فقدّم اعتذاراً مشروغاً، ونصح لله ورسوله مؤاخذه ولا معاقبة، ولا سبيل إلى إيقاع المحسن في الحرج، وهذا معنى ﴿مَا عَلَى الْمُحْسِنِينَ مِنْ سَبِيلٍ﴾ أي أن العبد إذا أحسن فيما يقدر عليه، من حقوق الله وحقوق العباد، فليس عليه تبعة ولا يوجّه له لوم، ومن أحسن إلى غيره ثم ترتب على إحسانه نقص أو تلف فإنه لا يضمنه، لأنه محسن، بخلاف المفرط فإنه يضمن والله واسع المغفرة، وواسع الرحمة، وقد وصفهم الله بالمحسنين؛ لأنهم نصحوا لله ورسوله، ورفع الله عنهم العقوبة والتعنيف واللوم.

الصنف الرابع: قَوْمٌ عَاجِزُونَ مَادِّيًّا بَاذِلُونَ لِأَنْفُسِهِمْ:

٩٢- ﴿وَلَا عَلَى الَّذِينَ إِذَا مَا أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ قُلْتَ لَا أَجِدُ مَا أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ تَوَلَّوْا وَأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ حَرْحَرًا أَلَّا يَجِدُوا مَا يُنْفِقُونَ﴾^(٩٢)

هؤلاء قوم جاؤوا إلى النبي ﷺ يطلبون منه أن يأخذهم معه إلى الغزو، وليس لديهم نفقة الجهاد، فاعتذر لهم النبي ﷺ بأنه لا يجد لهم زادًا ولا راحلة ولا سلاحًا، وهؤلاء لا حرج عليهم في عدم الخروج للجهاد، لأنهم نَوَّوا واقترن بنيتهم السعي الجازم، فلم يجدوا نفقة الخروج، فهم بمنزلة الفاعل التام.

أي: وكذلك لا إثم ولا ذنب على الفقراء الذين جاؤوك يطلبون منك أن تعينهم بالزاد والراحلة والسلاح؛ ليجاهدوا معك، قلت لهم: لا أجِدُ ما أحملكم عليه من النفقة، والعتاد، والدواب، فانصرفوا من عندك وقد فاضت أعينهم دمعًا، أسفًا على ما فاتهم من

(١) من حديث تميم الداري في «صحيح مسلم» (٧٤/١) برقم (٥٥) وأبي داود (٤٩٤٤) والنسائي (٤٢٠٨).

(٢) البخاري (٥٧، ٢٧١٥) ومسلم (٥٦) والترمذي (٦٩٥٢).

شرف الجهاد بسبب حرمانهم من ثواب الجهاد وفضله لعدم القدرة عليه ﴿أَلَّا يَجِدُوا مَا يُنْفِقُونَ﴾ والله ﷻ لا يكلف نفساً إلا وسعها .

قال ابن إسحاق: ثم إن رجالاً من المسلمين أتوا رسول الله ﷺ وهم البكَّاءون، وهم سبعة نفر من الأنصار وغيرهم، فاستحملوا رسول الله ﷺ وكانوا أهل حاجة فقال: ﴿لَا أَحِذُ مَا أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ﴾^(١).

والبكَّاءون السبعة هم: معقل بن يسار، وصخر بن خنيس، وعبد الله بن كعب الأنصاري، وسالم بن عمير، وثعلبة بن غنمة، وعبد الله بن مُعَقَّل أتوا رسول الله ﷺ فقالوا: يا نبي الله، إن الله ﷻ قد ندبنا للخروج معك، فاحملنا على الخفاف المرفوعة والتعال المخصوفة، نغزو معك، فقال: ﴿لَا أَحِذُ مَا أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ﴾^(٢).

هذا هو المشهور في أسمائهم، ولُقِّبُوا بالبكَّاءين؛ لأنهم بكَّوا لما لم يجدوا عند رسول الله ما يحملهم عليه، حُزناً على حرمانهم من الجهاد.

قال ابن عباس ؓ: أمر رسول الله ﷺ الناس أن ينبعثوا معه غازين، فجاءت عصابة من أصحابه، فيهم عبد الله بن مغفل المُرَنِّي فقالوا: يا رسول الله، احملنا، فقال: «والله ما أجد ما أحملكم عليه» فتولَّوا ولهم بكاء، وعز عليهم أن يجلسوا عن الجهاد، ولا يجدون نفقة ولا محملاً، فأنزل الله عذرهم ﴿وَلَا عَلَى الَّذِينَ إِذَا مَا أَتَوْكَ﴾^(٣).

وقيل: إن الآية نزلت في أبي موسى الأشعري ورهط من الأشعرين، أتوا رسول الله في غزوة تبوك يستحملونه فلم يجد لهم حمولة^(٤).

ومتى وُجدت النية الصادقة حصل ثواب الجهاد متى كان المانع عذراً شرعياً:

جاء في البخاري وغيره من حديث أنس ؓ أن رسول الله ﷺ قال: «لقد تركتم بالمدينة

(١) «سيرة ابن هشام» (٥١٨/٢).

(٢) «تفسير الطبري» (١٤٦/١٠) و«سيرة ابن هشام» (٥١٨/٢).

(٣) الطبري (٦٢٤/١١).

(٤) يُنْظَرُ الحديث في «صحيح البخاري» برقم (٣١٣٣، ٤٣٨٥، ٤٤١٥) و«صحيح مسلم» (١٢٦٩/٣) برقم (١٦٤٩).

أقوامًا ما قطعتم واديًا، ولا سرتهم سيرًا، ولا أنفقتم نفقة إلا وهم معكم»، قالوا: وهم بالمدينة؟ قال: «نعم، حبسهم العذر»^(١).

وأخرج الإمام أحمد وغيره عن جابر رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «لقد خَلَفْتُمُ بِالْمَدِينَةِ رَجَالًا، مَا قَطَعْتُمْ وَادِيًا وَلَا سَلَكْتُمْ طَرِيقًا، إِلَّا شَارَكُوكُمْ فِي الْأَجْرِ، حَبَسَهُمُ الْمَرَضُ»^(٢).

ومصدق ذلك قوله تعالى: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ لَا يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ وَلَا نَصَبٌ وَلَا مَخْمَصَةٌ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَطْغُونَ مَوْطِنًا يَعْصِمُ الْكُفَّارَ وَلَا يَتَأَلَوْنَ مِنْ عَدُوٍّ نِيْلًا إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ بِهِ عَمَلٌ صَالِحٌ إِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ ﴿٩٣﴾ وَلَا يُنْفِقُونَ نَفَقَةً صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً وَلَا يَقْطَعُونَ وَادِيًا إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ لِيَجْزِيَهُمُ اللَّهُ أَحْسَنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٩٤﴾﴾ [التوبة].

وهذا عمرو بن الجموح - وكان رجلاً أعرجاً - خرج في مقدمة الجيش في غزوة أحد، فقال له النبي ﷺ: «إن الله قد عذرك»، فقال: والله لأطأن بعرجتي هذه أرض الجنة.

وكان من الصحابة من يخرج للغزو وهو يتهادى بين رجلين معتمداً عليهما من شدة ضعفه.

وهذا عبد الله بن أم مكتوم - الأعمى - يخرج إلى غزوة أحد، ويطلب أن يحمل اللواء.

وبهذه العزائم القوية، والنفوس التقية، ارتفعت راية الإسلام، وعزّت كلمة الحق.

حَضَرَ التَّبَعَةَ عَلَى الْأَغْنِيَاءِ وَالْأَقْوِيَاءِ

٩٣- ﴿إِنَّمَا السَّبِيلُ عَلَى الَّذِينَ يَسْتَأْذِنُوكَ وَهُمْ أَغْنِيَاءُ رَضُوا بِأَنْ يَكُونُوا مَعَ الْخَوَالِفِ وَطَبَعَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٩٤﴾﴾

﴿إِنَّمَا﴾ الإثم والحرَج، والعقاب، والمؤاخِذَة، وتوجيه اللوم والعتاب، على الذين يطلبون الإذن في التخلف عن الجهاد ﴿وَهُمْ أَغْنِيَاءُ﴾ قادرون على الخروج معك، لا عذر لهم، ولكنهم قعدوا، وارتضوا لأنفسهم أن يجلسوا مع النسوة، والأطفال، والمرضى ﴿رَضُوا بِأَنْ يَكُونُوا مَعَ الْخَوَالِفِ﴾ وأن يكونوا ممن ختم الله على قلوبهم بالنفاق فلا يدخلها إيمان

(١) «صحيح البخاري» برقم (٢٨٣٩) و«صحيح مسلم» برقم (١٩١١) و«المسند» (١٢٠٠٩) و«مصحف عبد الرزاق» (٩٥٤٧) وابن أبي شيبة (٥٤٦/١٤).

(٢) «صحيح مسلم» برقم (١٩١١) و«المسند» (٣٠٠/٣) برقم (١٤٢٠٨) و«سنن ابن ماجه» برقم (٢٧٦٥).

﴿وَطَبَعَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ سوء عاقبة تخلفهم وتركهم الجهاد معك، ونظير ذلك قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا السَّبِيلُ عَلَى الَّذِينَ يَظْلِمُونَ النَّاسَ وَيَبْغُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ﴾ [الشورى: ٤٢].

فهذا حصر لمن لا يعذر في التخلف عن الجهاد.

ثم كشف الله سبحانه لرسوله ﷺ عما سيحدث من بعض المنافقين بعد عودته من غزوة تبوك، وأنهم سيأتون إليه معتذرين عن تخلفهم، وأن منهم من يحلف كذبا على صدق قوله.

وفي الآيات التالية بيان ذلك:

إِخْبَارُ اللَّهِ تَعَالَى سَلَفًا عَنْ أَعْذَارِ الْمُنَافِقِينَ:

أولا: أَعْذَارُ لَا دَاعِي لَهَا فَقَدْ كَشَفَ اللَّهُ أَحْوَالَ أَهْلِهَا:

٩٤- ﴿يَعْتَذِرُونَ إِلَيْكُمْ إِذَا رَجَعْتُمْ إِلَيْهِمْ قُلْ لَا تَعْتَذِرُوا لَنْ تُؤْمِنَ لَكُمْ قَدْ نَبَأَ اللَّهُ مِنْ أَنْبَارِكُمْ وَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَى عِلْمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنْشِئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ (٩٤)

هذا إخبار من الله تعالى بما سيقوله المنافقون للرسول والمؤمنين عند عودته إلى المدينة من تبوك.

ولقد حصرت الآية السابقة التبعة والمسؤولية على الذين يطلبون الإذن في التخلف عن الجهاد، وجاء حصرهم في الأغنياء الأقوياء.

وفي هذه الآية وما بعدها بيان لما سيكون من أمر المنافقين الذين قعدوا عن الجهاد بغير عذر حين يرجع النبي ﷺ إلى المدينة من غزوة تبوك، وكانوا أكثر من ثمانين رجلاً، وقد أمر النبي أصحابه أن لا يكلمهم أحد حتى يحكم الله فيهم.

فأخبر الله رسوله أنه حين يرجع من تبوك، فإن هؤلاء المتخلفين سيأتون إليه، يقدمون أَعْذَارَهُمْ بِحَقٍّ أَوْ بَاطِلٍ ﴿يَعْتَذِرُونَ إِلَيْكُمْ﴾ أي: يعتذر المتخلفون عن جهاد المشركين بالأكاذيب، قائلين: إنَّ قُعودنا في المدينة وعدم الخروج معكم كانت له مبرراته القوية فلا تؤاخذونا.

وضمير الجمع في ﴿إِلَيْكُمْ﴾ يفيد أنهم كانوا يُقَدِّمون أَعْذَارَهُمْ إلى الرسول ﷺ وإلى المؤمنين حين رجعوا من تبوك.

قل لهم -يا محمد- مبطلًا لمعاذيرهم: لن نصدقكم فيما تقولون؛ فقد كشف الله أحوالكم وبين لنا ما أنتم عليه من نفاق وفسوق وعصيان ﴿قَدْ بَيَّنَّا اللَّهُ مِنْ أَخْبَارِكُمْ﴾ وأطلعنا على حقيقة الأمر، وأنكم لو خرجتم إلى الجهاد معنا لم تزيدونا إلا فسادًا وفوضى وفتنة ﴿لَوْ خَرَجُوا فِيكُمْ مَا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا وَلَأَوْضَعُوا خِلَالَكُمْ يَبْغُونَكُمُ الْفِتْنَةَ﴾ [التوبة: ٤٧] وتحقق لدينا كذبكم فيما اعتذرتم به، وما مضى من أخباركم، فلنسنا في حاجة إلى كلامكم.

والعمل هو ميزان الصدق والكذب، أما مجرد الأقوال فإنها لا تدل على شيء، ومرد العباد إلى عالم الغيب والشهادة الذي لا تخفي عليه خافية في الأرض ولا في السماء، فيجازى العباد بعدله وفضله على ما قدمت أيديهم من أن يظلمهم مثقال ذرة.

فإن خشيتكم العقوبة فاعملوا الخير للمستقبل ﴿وَسِرِّيَ اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ﴾ أي: سيظهر ذلك للناس، وهذا ترغيب في العمل الصالح، وترهيب من الاستمرار على حالهم، فتوبوا من نفاقكم ولا تقيموا عليه، هذا في الدنيا، أما في الآخرة فإن مرجعكم إلى الله ﴿ثُمَّ تَرْدُونَ﴾ أي: ترجعون في الآخرة بعد موتكم إلى الذي لا تخفى عليه بواطن الأمور وظواهرها، وحاضرها وغائبها ﴿فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ في الدنيا ويجازيكم عليها في الآخرة.

ثَانِيًا: الْأَمْرُ بِتَرْكِ الثَّمَانِينَ مِنَ الْمُنَافِقِينَ اخْتِقَارًا لَهُمْ:

٩٥- ﴿سَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ إِذَا انْقَلَبْتُمْ إِلَيْهِمْ لَنُحَرِّضَنَّهُمْ فَأَعْرِضُوا عَنْهُمْ إِنَّمَا رِجْسٌ وَمَا لَهُمْ جَهَنَّمَ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ (٩٥)

وهذا إخبار آخر، عما سيكون من بعض المنافقين عندما يعود إليهم النبي ﷺ والمؤمنون، وكان المنافقون يتوقعون أنهم لن يعودوا من غزوة الروم، فأخبر سبحانه أنهم سيؤكدون أعذارهم الكاذبة بالآيمان الفاجرة، فكان منهم من يحلف بالله تعالى على صدق قوله؛ ليصفح عنهم النبي ﷺ، أو ليعرض عنهم فلا يؤنبهم، ولا يوبخهم، ولا يعاقبهم.

﴿فَأَعْرِضُوا عَنْهُمْ﴾ لا تؤاخذوهم، ولا تعاقبوهم، واتركوهم احتقارًا لهم، ثم دعوهم وما اختاروه من النفاق

﴿إِنَّهُمْ رَجَسٌ﴾؛ لأن بواطنهم خبيثة نجسة وأعمالهم قبيحة، وعقيدتهم غير صحيحة ومصيرهم الذي يأوون إليه في الآخرة نار جهنم ﴿جَزَاءُ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ من الآثام والخطايا في الدنيا.

فلما قدم النبي ﷺ المدينة قال: «لا تجالسوهم، ولا تكلموهم فامثلوا».

قيل: إن هذه الآية من أول ما نزل في شأن المنافقين في غزوة تبوك، وذلك أن بعض المنافقين اعتذروا إلى النبي ﷺ، واستأذنه في القعود قبل مسيره، فأذن لهم فخرجوا من عنده، وقال أحدهم: والله ما هو إلا شحمة لأول آكل، فلما نزل فيهم القرآن، انصرف رجل من القوم، فقال في مجلس المنافقين: والله لقد نزل على محمد ﷺ فيكم قرآن، فقالوا: وما ذاك؟ فقال: لا أحفظ، إلا أنني سمعت وصفكم فيه بالرجس، فقال لهم مخشي: والله لوددت أن أجلد مئة جلدة ولا أكون معكم، فخرج حتى لحق برسول الله ﷺ فقال له: «ما جاء بك؟» قال: وجّه رسول الله ﷺ تسفّعهُ الريح وأنا في الكن^(٣).

قال ابن عباس ؓ: نزلت في الجذّ بن قيس، ومعتب بن قشير، وأصحابهما، وكانوا ثمانين رجلاً من المنافقين.

وقال مقاتل: نزلت في عبد الله بن أبيّ؛ حلف للنبي ﷺ بالله الذي لا إله إلا هو، أنه لا يتخلف عنه بعدها، وطلب من النبي ﷺ أن يرضى عنه فأنزل الله هذه الآية والتي بعدها^(١).

أخرج البخاري وغيره عن كعب بن مالك حين تخلف عن تبوك قال: والله ما أنعم الله عليّ من نعمة بعد إذ هداني، أعظم من صدقي رسول الله ﷺ ألا أكون كذبتّه، فأهلك كما هلك الذين كذبوا حين أنزل الوحي ﴿سَيَحْلِفُونَ بِاللّهِ لَكُمْ﴾ إلى قوله: ﴿الْفٰتِسِقِينَ﴾^(٢).

وأسند الطبري عن كعب بن مالك أنه قال: لما قدم رسول الله ﷺ من تبوك جلس للناس، فجاء المخلفون يعتذرون إليه، ويحلفون وكانوا بضعة وثمانين رجلاً، فقبل منهم

(١) يُنظر: «تفسير البغوي والخازن» و«زاد المسير» للآية.

(٢) «صحيح البخاري» برقم (٤٦٧٣) وانظر: (٢٧٥٧) و«صحيح مسلم» ضمن حديث توبة كعب برقم (٢٧٦٩).

(٣) «تفسير ابن عطية» (٧٢/٣).

علايتهم وبإيعهم واستغفر لهم، ووكّل سرائرهم إلى الله^(١). قال تعالى:

٩٦- ﴿يَخْلِفُونَ لَكُمْ لِتَرْضَوْا عَنْهُمْ فَإِنْ تَرْضَوْا عَنْهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَرْضَىٰ عَنِ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ﴾

أي: إن رضي المسلمون عن المنافقين وتركوا لومهم، فإن الله تعالى لا يرضى عن المنافقين، وفيه تحذير للمسلمين من الرضى عن المنافقين؛ لأن ما لا يرضى الله، لا ينبغي لمسلم أن يرضى عنه، فإن تابوا ورجعوا إلى الله، فباب التوبة مفتوح، وإن داموا على فسقهم ﴿فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَرْضَىٰ عَنِ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ﴾.

أَعْرَابُ الْبَادِيَةِ عَلَى ثَلَاثَةِ أَصْنَافٍ

٩٧- ﴿الْأَعْرَابُ أَشَدُّ كُفْرًا وَنِفَاقًا وَأَجْدَرُ أَلَّا يَعْلَمُوا حُدُودَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ ۗ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾

هذه الآية والآيتان بعدها في المنافقين من سكان البوادي، مثل: أعراب أسد، وغطفان، وبني مقرن، وقد صنّف الله الأعراب في هذه الآيات الثلاث إلى ثلاثة أصناف: صنف أشد الناس كفرًا ونفاقًا، وصنف يُداري المسلمين ويتربص بهم الدوائر، وصنف مؤمنون صادقون.

وقد جاءت هذه الأصناف الثلاثة في الآيات الثلاث على التوالي، وقد قصدت الآية الأولى في عصر التنزيل: أسد، وغطفان، وقصدت الآية الثانية كل من يعطي الصدقة كُرْهًا، وقصدت الآية الثالثة بني مقرن من مزينة.

والأعراب هم: سكان البادية والصحراء، فمن استوطن القرى والمدن العربية فهو عربي، ومن سكن البادية فهو أعرابي، والعربي إذا قيل له: يا أعرابي غضب، والعرب أفضل من الأعراب.

وفي هذه الآيات تصنيف للأعراب، وكانوا قبائل حول المدينة، وشأنهم شأن أهل الحضر: فيهم المؤمن، وفيهم المنافق والكافر، ولكن كفرهم ونفاقهم أشد من كفر أهل الحضر ونفاقهم؛ لعدم مخالفتهم أهل العقول المستقيمة، وبُعدهم عن تهذيب النفوس والأخلاق الحميدة.

(١) «تفسير ابن عطية» (٣/ ٧٢).

والسبب في ذلك أنهم أبعد من العلم، وأبعد من الوحي، وأبعد من التطبيق العملي للإسلام، وأبعد من مجالسة أصحاب النبي عليه الصلاة والسلام، وقد ذم القرآن من يستحق الذم، وهم المنافقون والكفار، ومدح من يستحق المدح، وهم المؤمنون، وألحق كل فريق منهم بنظيره من أهل الحضرة.

الصَّنْفُ الْأَوَّلُ: أَغْلَظُ الْأَعْرَابِ

﴿الْأَعْرَابُ أَشَدُّ كُفْرًا وَنِفَاقًا﴾ يعني: أشد من كُفّر أهل الحضرة، ونفاقهم أشد منهم لبعدهم عن مجالس العلم وسماع القرآن والسنن والمواعظ، ولبعدهم عن الساسة والمؤدبين، وهم أخرى وأحق ألا يعلموا حدود الدين، وما أنزل الله من الشرائع والأحكام على رسوله، والأوامر والنواهي، وذلك أن أهل الحضرة كانوا يجالسون النبي ﷺ، والعلم يتفشى فيهم ويتشتر، فهم ألين، وأهل البادية أقسى وأغلظ، وأشد جفاء؛ لبعدهم عن العلم، وعن مجالسة الصحابة، وأهل الفضل والذكر، فهم بعيدون عن معرفة الأحكام الشرعية والأخلاق الفاضلة.

ولذا: فإن عثمان قال لأبي ذر لما سكن الربذة: تعهّد المدينة؛ كي لا يرتدّ أعرابي، ولهذا فإن النبي ﷺ حينما رآه أحد الأعراب يُقبّل حفيدًا له، قال الرجل: أتقبلون صبيانكم، والله إن لي عشرة من الأولاد ما قبلت منهم واحدًا، فقال عليه الصلاة والسلام: «وماذا أملك لك إن كان الله قد نزع من قلبك الرحمة؟!»^(١).

فهم أحق ﴿وَأَجْدَرُ أَلَّا يَعْلَمُوا حُدُودَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ﴾ من الأوامر والنواهي والمواعظ والزواجر بخلاف أهل الحضرة فإنهم أقرب لأن يعلموا حدود ما أنزل الله على رسوله، وفيهم من لطافة الانقياد ما ليس في أهل البادية ﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ﴾ بهؤلاء جميعًا ﴿حَكِيمٌ﴾ في تدبيره لأمر عباده.

وهذه المذمة في الأعراب؛ لطبيعة ظروفهم وبيئتهم التي يعيشونها، وليست لأمر في ذواتهم.

١- ومن ذلك أن النبي ﷺ لما أهدى له أعرابي هدية، رد عليه أضعافها حتى رضي وقال:

(١) الحديث في «صحيح مسلم» برقم (٢٣١٧) و«صحيح البخاري» برقم (٥٩٩٨).

«لقد هممتُ ألا أقبل هدية إلا من: قرشيٍّ، أو ثقفِيٍّ، أو أنصاريٍّ، أو دُوسِيٍّ»^(١).

أي: من أهل مكة، والطائف، والمدينة، واليمن، فهم أهل مدن وألطف أخلاقاً من الأعراب.

٢- قال إبراهيم النخعي: كان زيد بن صُوحان يحدث، فقال أعرابي: إن حديثك ليعجبني، وإن يدك لترييني، فقال: أما تراها الشمال؟ فقال الأعرابي: والله ما أدري اليمين يقطعون أم الشمال؟ قال زيد: صدق الله ﴿الْأَعْرَابُ أَشَدُّ كُفْرًا وَنِفَاقًا﴾^(٢).

٣- قال ابن سيرين: إذا تلا أحدكم هذه الآية فليتلُ الآية الأخرى، ولا يسكت ﴿وَمِنَ الْأَعْرَابِ مَنْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾.

٤- وفي الحديث عن ابن عباس ؓ «من سكن البادية جفا، ومن اتبع الصيد غفل، ومن أتى السلطان افتن»^(٣).

٥- ومنهم ذو الخويصرة الذي قال للنبي ﷺ وهو يقسم الغنائم: اعدل، فقال له النبي ﷺ: «ويحك فمن يعدل إذا لم أعدل»^(٤).

ومن أخلاق الأعراب الحميدة: الشجاعة، والجلادة، والكرم، والصراحة، وإباء الضيم، والخشونة...، ولأن الأعراب أهل غلظة وجفاء لم يبعث الله منهم رسولاً، وإنما كان الرسل من أهل القرى، أي: الحضر والمدن ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُوْحِي إِلَيْهِمْ مِنْ أَهْلِ الْقُرَى﴾ [يوسف: ١٠٩].

(١) من حديث أبي هريرة في «سنن النسائي» (٢٧٩/٦) وصحيح «سنن النسائي» (٣٥١٩) وفي «الكبرى» (٦٥٥٨) و«السلسلة الصحيحة» (١٦٨٤) و«المشكاة» (٣٠٢٢).

(٢) أخرجه ابن سعد (١٢٣/٦) وابن أبي حاتم (١٨٦٦/٦).

(٣) رواه الترمذي عن ابن عباس في الفتن برقم (٢٢٥٦) وقال: هذا حديث حسن صحيح غريب، وأحمد (١/٣٥٧) برقم (٣٣٦٢) إسناده صحيح على شرط الشيخين، ومثله (٢٢٤٧) وأبو داود برقم (٢٨٦٠) والنسائي في «السنن» (١٩٥/٧) برقم (٤٣٢٠) و«صحيح سنن أبي داود» (٢٤٨٦)، بتصحيح الألباني.

(٤) انظر حديث أبي سعيد في البخاري (٣٣٤٤) ومسلم (١٠٦٤) وحديث جابر في مسلم (١٠٦٣) ومن حديث عبد الله بن عمرو في المسند (٧٠٣٨) بنحوه.

الصَّنْفُ الثَّانِي مِنَ الْأَعْرَابِ: قَوْمٌ مُنَافِقُونَ

٩٨- ﴿وَمِنَ الْأَعْرَابِ مَن يَتَّخِذُ مَا يُنْفِقُ مَغْرَمًا وَيَتَرَبَّصُّ بِكُمُ الدَّوَائِرَ عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ السَّوْءِ^(١) وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾

أي: ومنهم من يحتسب ما ينفقه في سبيل الله من الزكاة والصدقة والنفقة، مغرمًا وخسارة، لا يرجو له ثوابًا، ولا يدفع عن نفسه به عقابًا، إنما يُنفق خوفًا أو رياءً تظاهرًا بالإسلام، أو مداراةً للمسلمين والسلطات، وليس مساعدةً للمجاهدين، ولا رغبةً في نُصرة الإسلام وأهله، فهو يعتبر أن النفقة والزكاة والصدقة خسارة وغرامة لعدم إيمانه بالثواب والعقاب.

والمغرم: ما يدفع قهرًا أو ظلمًا أو تقيّةً أو خوفًا، وهو يتربص الدوائر للمسلمين، وينتظر أن تحل بهم مصيبة ﴿وَيَتَرَبَّصُّ بِكُمُ الدَّوَائِرَ﴾ فهم ينتظرون ضعفكم وهزيمتكم، وينتظرون وفاة نبيكم ﴿عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ السَّوْءِ﴾ دعاء عليهم، وتحقير لهم ﴿وَاللَّهُ سَمِيعٌ﴾ لما يقولون ﴿عَلِيمٌ﴾ بنياتهم الفاسدة، وليس الأعراب كلهم مذمومون، فمنهم المؤمن صادق الإيمان.

الصَّنْفُ الثَّالِثُ: أَعْرَابٌ مُّؤْمِنُونَ

٩٩- ﴿وَمِنَ الْأَعْرَابِ مَن يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَيَتَّخِذُ مَا يُنْفِقُ قُرْبًا^(٢) عِنْدَ

اللَّهِ وَصَلَوَاتِ الرَّسُولِ أَلَّا إِنَّا قُرْبَةٌ لَهُمْ سَيُدْخِلُهُمُ اللَّهُ فِي رَحْمَتِهِ إِنَّ اللَّهَ عَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾

وهم القسم الممدوح من الأعراب، يقرّ بوحدانية الله، ويؤمن بالبعث بعد الموت، وقد وفّاهم الله حقهم من الثناء عليهم، فهم يؤمنون بالله واليوم الآخر، ويؤمنون بالثواب والعقاب، وحين يُقدّمون النفقة أو الصدقة، يقدّمونها تقربًا إلى الله سبحانه يقصدون بها وجهه ورضاه ومحبه في جهاد غير المسلمين، ويجعلون من هذه الصدقة وسيلة وطمعًا في أن يدعو لهم النبي عليه الصلاة والسلام.

وقد كان من عادة الرسول عليه الصلاة والسلام إذا جاءه أحد بصدقة أو مال، يدعو له بالخير والبركة، كما دعا لآل أبي أوفى حينما تقدموا بصدقاتهم فقال ﷺ: «اللهم صلّ

(١) قرأ ابن كثير وأبو عمرو (السوء) بضم السين، مد متصل، وقرأ الباقون بفتح السين وسكون الواو، مدين.

(٢) قرأ ورش بضم راء (قربة) والباقيون بسكونها وهما لغتان.

على آل أبي أوفى^(١).

وذلك لأن في دعاء النبي ﷺ طمأنينة وسكناً لهم، فكانوا ينتظرون دعوته.

وهكذا ينبغي على المسلم الذي يأخذ الصدقة لنفسه، أو ليعطيها لغيره أن يدعو للمتصدق.

وينبغي على من يجمع الصدقات، أو الزكاة أن يتأسى برسول الله ﷺ في ذلك فمعنى صلوات الرسول ﷺ دعاؤه لهم كما أمره ربه في قوله: ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلَاتَكَ سَكَنٌ لَهُمْ﴾ [التوبة: ١٠٣]

والصلاة من الله رحمة، ومن الملائكة استغفار، ومن الآدميين تضرع ودعاء.

يقول سبحانه: ﴿أَلَا إِنَّهَا قُرْبَةٌ لَهُمْ﴾ أي: أن ما تصدقوا به مقبول عند الله تعالى، على وجه التأكيد والتحقيق، وهي قربة لهم تقربهم عند الله سبحانه، وقد وعد جلّ شأنه أنه سيدخلهم في رحمته وهذه بشرى لهم ﴿سَيَدْخِلُهُمُ اللَّهُ فِي رَحْمَتِهِ﴾ أي: في جملة عباد الصالحين، ويدخلهم أيضاً في مغفرته ورضوانه ﴿إِنَّ اللَّهَ عَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ كثير المغفرة واسع الرحمة لأهل طاعته، يغفر السيئات العظيمة لمن تاب وأناب، ويعم عبادته برحمته التي وسعت كل شيء، وبهذا يتبين، أن الأعراب كأهل الحضر، منهم الممدوح ومنهم المذموم، ويتبين أن الكفر والنفاق يزيد وينقص بحسب الأحوال.

السَّابِقُونَ الْأَوَّلُونَ أَرْبَعَةُ أَصْنَافٍ

١٠٠- ﴿وَالسَّابِقُونَ الْأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ^(٢) وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُمْ بِإِحْسَانٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي^(٣) تَحْتَهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾

(١) الحديث في «صحيح البخاري» برقم (١٤٩٧، ٦٣٣٢) و«صحيح مسلم» برقم (١٠٧٨).

(٢) قرأ يعقوب بضم الراء من (والأنصار والذين اتبعوهم) على أنها مبتدأ، خبره (ﷺ)، وقرأ الباقر بالخفض عطفًا على المهاجرين.

(٣) قرأ ابن كثير بزيادة (من) قبل (تحتها) مع كسر التاء فيها، وذلك من (جنات تجري تحتها) موافقة لرسم المصحف المكي، وقرأ الباقر بحذف (من) وفتح التاء، موافقة لبقية المصاحف.

وبعد تصنيف الأعراب إلى ثلاثة أصناف، يأتي تصنيف المجتمع كله إلى:

- ١- أربع طبقات إيمانية. ٢- ثم المنافقين. ٣- فالعصاة. ٤- فمن تاب الله عليهم.
- وهكذا قسمت السورة الناس في الآية المئة منها إلى أربعة أصناف: والصنف الأول منها يمثل عصر الصحابة من المهاجرين والأنصار، وعصر التابعين لهم بإحسان إلى يوم الدين.

الصَّنْفُ الْأَوَّلُ بِأَنْوَاعِهِ الثَّلَاثَةِ:

١- هم أصحاب رسول الله ﷺ من المهاجرين، الذين تركوا ديارهم وأموالهم؛ استجابة لله ورسوله، وهجروا قومهم وعشيرتهم، يبتغون فضلاً من الله ورضواناً، وهم الذين سبقوا إلى الإسلام، وسارعوا إلى الدخول فيه أولاً، أمثال: خديجة، وأبي بكر، وعلي بن أبي طالب، وزيد بن ثابت، ومن أسلم على يدي أبي بكر، مثل: عثمان بن عفان، والزبير بن العوام، وعبد الرحمن بن عوف، وسعد بن أبي وقاص، وطلحة بن عبيد الله، فهؤلاء الثمانية هم أول من سبق إلى الإسلام، ثم تبعهم بقية الناس، وفي مقدمة الصحابة من السابقين الأولين: الخلفاء الراشدون بترتيبهم: أبو بكر، وعمر، وعثمان، وعلي، ثم الستة، بقية العشرة المبشرين بالجنة، ثم أهل غزوة بدر، ثم مَنْ صَلَّى إلى القبلتين، ثم أهل بيعة الرضوان.

٢- ثم الأنصار أهل بيعة العقبة الأولى الستة، وأهل البيعة الثانية الاثنا عشر، وأهل البيعة الثالثة: السبعون من الرجال، والنسوة الثلاث، الذين بايعوا الرسول ﷺ قبل أن تكون للإسلام دولة، وهم الذين آووا إخوانهم المهاجرين وناصروهم، وقاسموهم أموالهم، فهم يحبون من هاجر إليهم ولا يجدون في صدورهم حاجة مما أوتوا ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة.

ثم الذين أسلموا على يد مصعب بن عمير الذي أرسله النبي ﷺ قبل الهجرة، يعلم الناس القرآن في المدينة، من المهاجرين والأنصار، وقد أسلم على يديه خلق كثير.

فالسابقون من المهاجرين هم الذين سبقوا بالإيمان قبل أن يهاجر النبي ﷺ إلى المدينة.

والسابقون من الأنصار هم الذين سبقوا قومهم بالإيمان، وهم أهل العقبة الأولى والثانية.

عن البراء بن عازب رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «الأنصار لا يحبهم إلا مؤمن، ولا يبغضهم إلا منافق، فمن أحبهم أحبه الله، ومن أبغضهم أبغضه الله»^(١).

وعن أنس أن رسول الله ﷺ قال: «آية الإيمان حب الأنصار، وآية النفاق بغض الأنصار»^(٢).

وقال سعيد بن المسيب: المهاجرون الأولون: الذين صلّوا إلى القبلتين^(٣).

قال حميد بن زياد: قلت لمحمد بن كعب القرظي: ألا تخبرني عن الصحابة، فيما كان بينهم من الفتن؟ فقال: إن الله قد غفر لهم جميعاً، مُحسنهم ومُسيئهم، وأوجب لهم الجنة، قلت له: أين ذلك في كتاب الله؟ قال: تقرأه في هذه الآية ﴿وَالسَّيِّئُونَ الْأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ﴾ قال حميد: كأنني لم أقرأ هذه الآية قط^(٤).

وعن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «قريش، والأنصار، وجهينة، ومزينة، وأسلم، وغفار، موالي رسول الله، لا مولى لهم غيره»^(٥).

٣- وآخر القرن الأول قرن الصحابة انتهى سنة ١٢٠ هـ بموت آخر صحابي، وهو أنس رضي الله عنه، والآية تنطبق على كل من تبعهم بإحسان، فقد وضع الله تعالى شرطاً للتابعين الذين يكونون في الجنة مع أصحاب رسول الله، وهو أن يتبعوهم في الحسنة لا في السيئة.

وآخر قرن التابعين كان في تمام المئة الثانية من الهجرة، أي: بعد ثمانين عاماً من انتهاء قرن الصحابة وهم الذين تبعوا المهاجرين والأنصار في الإيمان، ممن آمن بعد فتح مكة، وممن آمن من المنافقين بعد مدة، وهم من قال الله فيهم: ﴿وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُمْ بِإِحْسَانٍ﴾ والإحسان هو العمل الصالح، وهو الإحسان في الاعتقاد والأعمال والأقوال لمرضاة الله تعالى، هؤلاء جميعاً ﴿رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ﴾ رضي الله عن أعمالهم، ورضي عنهم

(١) «صحيح البخاري» برقم (٣٧٨٣) و«صحيح مسلم» برقم (٧٥) والترمذي (٣٩٠٠) والنسائي في «الكبرى» (٨٣٣٤) وابن ماجه (١٦٣) وابن أبي شيبة (١٥٧/١٢).

(٢) «صحيح البخاري» برقم (١٧)، (٣٧٨٤) و«صحيح مسلم» برقم (٧٤) و«المسند» (١٢٣١٦، ١٢٣٦٩، ١٣٦٠٧).

(٣) أسنده الطبري، ورجاله ثقات وسنده صحيح.

(٤) «تفسير الألوسي» (٧/١١).

(٥) البخاري (٣٥٠٤، ٣٥١٢) ومسلم (٢٥٢٠) وابن أبي شيبة (١٦٢/١٢).

لطاعتهم لله ورسوله، ورضوا عنه بما أعطاهم من الأجر والمثوبة، من الصحابة ومن التابعين الذين ساروا على نهجهم، واقتدوا بهديهم.

وهؤلاء الأخيار من السابقين الأولين أعد الله لهم في دار كرامته حقائق وبساتين تجري من تحت أشجارها وقصورها الأنهار، وفيها ما تشتهي النفس وتلد الأعين وهم فيها خالدون، يطوف عليهم فيها ولدان مخلدون كأنهم لؤلؤ مكنون.

وأصحاب رسول الله ﷺ هم خير القرون، وإن وُجد في بعضهم بعض المخالفات الشرعية، فلا يجوز الخوض في ذلك، ويحرم سبهم والتنقيص من شأنهم، ويترك أمرهم إلى الله.

في الصحيحين عن عمران بن حصين رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «خيركم قرني، ثم الذين يلونهم، ثم الذين يلونهم»، قال عمران: فلا أدري أذكر النبي بعد قرنه قرنين أو ثلاثة^(١).

وهذا تعديل للصحابة وثناء عليهم، ولهذا فإن توقيهم من أصول الإيمان؛ فالصحابة لهم منزلة خاصة لا يرقى إليها أحد بعد الأنبياء والمرسلين، ولو أن أحدهم ارتكب ذنباً صغيراً أو كبيراً، فليس في وسع أحد أن يتجرأ عليهم بالخوض في شأنهم، أو يمسهم بسوء من القول، ويا ويل من أبغضهم أو سبهم، لا سيماً سيد الصحابة أبو بكر، والفاروق عمر.

ففي الصحيحين عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «لا تسبوا أحداً من أصحابي فإن أحدكم لو أنفق مثل أحد ذهباً ما بلغ مدّ أحدهم ولا نصيفه»^(٢).

وهم على هذا الترتيب المعروف لدى أهل السنة والجماعة.

وهذا هو الصنف الأول، وهم السابقون من المهاجرين والأنصار والذين اتبعوهم بإحسان، وهذا هو الذي أعده الله لهم في الآخرة، بطوائفهم الثلاث، كما قال تعالى: ﴿وَأَخْرَجَ مِنْهُمْ لِمَا يَلْحَقُوا بِهِمْ﴾ [الجمعة: ٣] وقال: ﴿وَالَّذِينَ جَاءُوا مِنْ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ﴾ [الحشر: ١٠] وقال: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا مِنْ بَعْدُ وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا مَعَكُمْ فَأُولَئِكَ مِنْكُمْ﴾ [الأنفال: ٧٥] وكما قال ﷺ: «اللهم ارحم الأنصار، وأبناء

(١) «صحيح البخاري» برقم (٢٦٥١) و«صحيح مسلم» برقم (٢٥٣٥).

(٢) «صحيح مسلم» برقم (٢٥٤١) و«صحيح البخاري» برقم (٣٦٧٣).

الأنصار، وأبناء أبناء الأنصار»^(١).

الصَّنْفُ الثَّانِي: مُنَافِقُو الْحَضَرِ وَالْبَادِيَةِ

١٠١- ﴿وَمِمَّنْ حَوْلَكُم مِّنَ الْأَعْرَابِ مُنَافِقُونَ وَمِنْ أَهْلِ الْمَدِينَةِ مَرَدُوا عَلَى النِّفَاقِ لَا تَعْلَمُهُمْ نَحْنُ نَعْلَمُهُمْ سَنُعَذِّبُهُمْ مَّرَّتَيْنِ ثُمَّ يُرَدُّونَ إِلَىٰ عَذَابٍ عَظِيمٍ﴾ (١٠١)

وممن ذكرتهم السورة: منافقون من قبائل البادية المجاورة للمدينة، مثل قبائل: لحيان، وعُصَيَّة، وجهينة، وأسلم، وأشجع، وغفار، وبعضهم كان منافقاً فاحترسوا منهم واحذروهم.

﴿وَمِمَّنْ حَوْلَكُم مِّنَ الْأَعْرَابِ مُنَافِقُونَ وَمِنْ أَهْلِ الْمَدِينَةِ﴾ الذين يسكنون معكم، كبعض الأوس والخزرج منافقون، وهم قوم مردوا على النفاق، وتمكن النفاق من قلوبهم فاعتادوه، فلا تغتروا بكل من يُظْهِرُ لكم المودة منهم، واحذروهم، وذلك مثل: ابن سلول، والجللاس، وأبو عامر الراهب.

وأصل الكلام: وممن حولكم من الأعراب ومن أهل المدينة منافقون مردوا على النفاق، ففيه تقديم وتأخير.

وهؤلاء المنافقون يخفى على الرسول أمرهم، ولذا: فإن الله تعالى يقول لرسوله ﷺ: ﴿لَا تَعْلَمُهُمْ نَحْنُ نَعْلَمُهُمْ﴾ وقد أعلم الله رسوله بخمسة عشر منافقاً بأسمائهم وأعيانهم، ومنعه من الصلاة عليهم، وعلم الرسول ﷺ أسماءهم إلى حذيفة أمين سر النبي ﷺ فقد قال له: «يا حذيفة، إني مُسَرٌّ إليك سرّاً فلا تذكره لأحد، إني نُهيت أن أصلي على فلان وفلان»^(٢)، لرهط ذوي عدد من المنافقين.

ولذا: فإن عمر رضي الله عنه كان يأتيه، ويقول له: أسألك بالله، هل عدّني رسول الله من المنافقين؟!

(١) من حديث أبي سعيد الخدري في مسند أحمد (١١١/٣٠) من حديث طويل إسناده حسن من أجل محمد بن إسحاق، وقد صرح بالتحديث هنا، وبقية رجاله ثقات رجال الصحيح، وأخرجه ابن أبي شيبة (١٢/١٥٦) وأبو يعلى (١٠٩٢) والبيهقي في الدلائل (١٧٦/٥) وصححه الألباني في فقه السيرة.

(٢) ينظر فتح الباري (٣٣٧/٨) والبيهقي (٦٦٢١) وقال: هذا مرسل، وقد روى موصولاً من وجه آخر عن الزهري في قصة حذيفة بن اليمان (٢٠٠/٨) قال الواقدي: أنبأنا معمر عن الزهري قال: قال حذيفة: قال لي رسول الله ﷺ «إني مُسَرٌّ إليك» الخ.

وتدل الآية على أن هناك منافقين آخرين لا يعلمهم الرسول ﷺ ولكنهم ذوو أوصاف وعلامات يعرفهم بها، كفلّات اللسان، وأمارات النفاق، كما قال تعالى: ﴿وَلَوْ نَشَاءُ لَأَرَيْنَاكُمْ فَلَعَرَفْتُمُوهُمْ بِسِيمَاهُمْ وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِي لَحْنِ الْقَوْلِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ أَعْمَالَكُمْ﴾ [محمد]. فالمنافق يُعرف بما يُتوسم فيه من علامات في كلامه، وتصرفاته، وحركاته، وسكناته.

روى الإمام أحمد عن جبير بن مطعم رضي الله عنه قال: قلت: يا رسول الله، إنهم يزعمون أنه ليس لنا أجر بمكة، فقال: «لتأتينكم أجوركم ولو كنتم في جحر ثعلب» وأصغى إليّ رسول الله ﷺ برأسه فقال: «إن في أصحابي منافقين»^(١).

ومعناه: أنه قد يبوح بعض المنافقين والمرجفين بما لا صحة له من الكلام، ومن مثّلهم صَدَرَ هذا الكلام الذي سمعه جبير بن مطعم^(٢).

وروى ابن عساكر عن أبي الدرداء رضي الله عنه أن رجلاً يقال له: حرمة أتى النبي ﷺ، فقال: إيمان ها هنا، وأشار بيده إلى لسانه، والنفاق ها هنا، وأشار بيده إلى قلبه، فقال رسول الله ﷺ: «اللهم اجعل له لساناً ذاكراً، وقلباً شاكراً، وارزقه حبي، وحب من يحبني، وصير أمره إلى خير» فقال الرجل: يا رسول الله، إنه كان لي أصحاب من المنافقين، وكنت رأساً فيهم، أفلا آتيت بهم؟ فقال ﷺ: «ومن أئانا استغفرنا له، ومن أصرّ فالله أولى به، ولا تخرقنّ على أحد سترًا»^(٣).

وأخرج عبد الرزاق وابن المنذر وغيرهما عن قتادة أنه قال: ما بال أقوام يتكلفون علم الناس يقولون: فلان في الجنة، وفلان في النار، فإذا سألت أحدهم عن نفسه قال: لا أدري، لعمرى، لأنّك بنفسك أعلم منك بأعمال الناس، ولقد تكلفت شيئاً ما تكلفه الأنبياء قبلك، فقد قال نوح ﷺ: ﴿وَمَا عَلَيَّ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [الشعراء: ١١٢]

وقال شعيب رضي الله عنه: ﴿وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِحَفِيظٍ﴾ [هود: ٨٦] وقال الله تعالى لنبيه محمد

(١) «المسند» (٨٣/٤) برقم (١٦٧٦٤، ١٦٧٨١)، إسناده ضعيف لإبهام الراوي عن جبير بن مطعم وبقيّة رجاله ثقات رجال الصحيح.

(٢) «تفسير ابن كثير» (٢٠٤/٤) و«تفسير ابن عطية» (٧٦/٣) و«تفسير الألوسي» (١١/١١).

(٣) «مختصر تاريخ دمشق» لابن منظور (٧٦/٢٩)، والحديث في مسند الشهاب برقم (٩٣٤) عن أم الدرداء، قلت: وفي سنده مقال.

﴿لَا تَعْلَمُهُمْ نَحْنُ نَعْلَمُهُمْ سَنَعَذِّبُهُمْ مَرَّتَيْنِ﴾^(١) قبل العذاب الأخروي، مرة في الدنيا بفضيحتهم وهتك أسرارهم، ومرة في الآخرة بعذاب النار وبئس القرار.

وجاء في الأثر: أن ستة من المنافقين المعاصرين للنبي ﷺ يموتون بالذبيلة، وهي نار تظهر في أكتافهم حتى تخرج من صدورهم، وستة آخرين يموتون موتاً.

قال قتادة: وهذا من عذاب الدنيا، ومرة بعذاب القبر، وضرب وجوههم وأدبارهم عند خروج الروح.

أما المرة الثالثة ففي قوله تعالى: ﴿ثُمَّ يُرْدُّوكَ إِلَىٰ عَذَابٍ عَظِيمٍ﴾ هو عذاب النار يوم القيامة. ففي الآية ثلاثة أنواع من العذاب، اثنان في الدنيا قبل أن يُردُّوا إلى عذاب عظيم، ولن يفلت من هذا العذاب من لم يعلم النبي ﷺ نفاقه.

الصَّنْفُ الثَّالِثُ: عُصَاةُ الْمُسْلِمِينَ

١٠٢- ﴿وَأَخْرُونَ أَعْرَفُوا بِذُنُوبِهِمْ خَلَطُوا عَمَلًا صَالِحًا وَآخَرَ سَيِّئًا عَسَىٰ اللَّهُ أَن يَتُوبَ عَلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ هؤلاء قوم مسلمون خلطوا عملاً صالحاً وآخر سيئاً، وهم قوم تخلفوا عن غزوة تبوك، لا لنفاقهم بل لكسلهم، ثم ندموا على ما فعلوا أو تابوا، وكانوا قد خرجوا في الغزوات السابقة، فخلطوا بين جهادهم السابق وتخلفهم في تبوك، وهم قوم من أهل المدينة، وهو ينطبق على عامة المسلمين.

﴿وَأَخْرُونَ﴾ ممن بالمدينة ومن حولها وسائر البلاد الإسلامية ﴿أَعْرَفُوا بِذُنُوبِهِمْ﴾ أقروا بها وندموا عليها، وشرعوا في التوبة والتطهر من الأدراخ؛ لأنهم تخلفوا عن الجهاد في غزوة تبوك، ثم أنبأ أنفسهم، وقالوا: أنكون في الظلال والنساء، ورسول الله ﷺ وأصحابه في الجهاد واللأواء؟ فاعترفوا فيما بينهم وبين ربهم من تقصير، وهم مع هذا مسلمون لهم أعمال صالحة، فندموا وتابوا، و ﴿خَلَطُوا عَمَلًا صَالِحًا وَآخَرَ سَيِّئًا﴾ ولا يكون العمل صالحاً إلا إذا كان العبد مخلصاً في توحيدة الله عز وجل، متبعاً لسنة نبيه ﷺ، وهؤلاء قد خلطوا بالأعمال الصالحة، الأعمال السيئة، فارتكبوا بعض المحرمات،

(١) «مصنف عبد الرزاق» (٢/ ٢٨٥).

وقصّروا في بعض الواجبات، مع الاعتراف بذلك، والرجاء في أن يغفر الله لهم، ومن هؤلاء أبو لبابة، ومعه نحو عشرة من أصحاب النبي ﷺ ممن تخلّفوا عن غزوة تبوك، فذهبوا إلى المسجد وربطوا أنفسهم في الأعمدة توبة منهم، وقالوا: لن يفك وثاقنا أحد، حتى يأتي إلينا رسول الله ﷺ ويفكّننا بيده، فلما رجع النبي ﷺ ورآهم، قال: وأنا لا أطلقهم حتى أؤمر بإطلاقهم، واستمروا مربوطين في أعمدة المسجد حتى تاب الله عليهم، وأنزل توبتهم في هذه الآية ﴿عَسَى اللَّهُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ﴾.

و﴿عَسَى﴾ في القرآن للوجوب، لأنها في جانب الله تعالى، وليست للترجي، فعسى الله أن يوفقهم للتوبة، ويقبل منهم توبتهم، وقد تاب الله عليهم، وقيل توبتهم، وكذلك يقبل الله توبة كل من خلط عملاً صالحاً وعملاً سيئاً، وهؤلاء آمنوا وجاهدوا وعملوا صالحاً قبل ذلك، والعمل السيئ الذي فعلوه أنهم تخلّفوا عن هذه الغزوة؛ لضعف همّتهم وليس نفاقاً، ثم ندموا واعترفوا بذنبهم وتابوا ﴿إِنَّ اللَّهَ عَفُورٌ﴾ لعباده ﴿رَحِيمٌ﴾ بمن تاب منهم.

أخرج ابن أبي حاتم بسند حسن عن ابن عباس ؓ قال: كان عشرة رهط تخلّفوا عن النبي ﷺ في غزوة تبوك، فلما حضر رجوع رسول الله ﷺ أوثق سبعة منهم أنفسهم بسواري المسجد، فكان يمر رسول الله ﷺ إذا رجع من المسجد عليهم، فلما رآهم قال: «من هؤلاء الموثقون أنفسهم بالسواري؟» قالوا: هذا أبو لبابة وأصحاب له، تخلّفوا عنك يا رسول الله، أوثقوا أنفسهم، وحلفوا أنهم لا يُطلقهم أحد، حتى يُطلقهم النبي ﷺ ويعذرهم، فقال النبي ﷺ: «وأنا أقسم بالله لا أطلقهم ولا أعذرهم، حتى يكون الله هو الذي يُطلقهم ويعذرهم، رغبوا عني وتخلّفوا عن الغزو مع المسلمين»، فلما بلغهم ذلك قالوا: نحن والله لا نُطلق أنفسنا حتى يكون الله هو الذي يُطلقنا، فأنزل الله هذه الآية، فلما نزلت أرسل إليهم النبي ﷺ فأطلقهم وعذرهم، فجاءوا بأموالهم وقالوا: يا رسول الله، هذه أموالنا فتصدق بها عنا واستغفر لنا، قال: «ما أمّرت أن آخذ أموالكم» فأنزل الله ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً﴾ فأخذ منهم الصدقة واستغفر لهم، وكان ثلاثة منهم لم يؤثّقوا أنفسهم بالسواري فأرجئوا سنة -أي: مدة من الزمان قليلة كانت أو كثيرة- لا يذرون يعذبون، أو يُتاب عليهم فأنزل الله ﴿لَقَدْ تَابَ اللَّهُ عَلَى النَّبِيِّ وَالْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ﴾ وأنزل

﴿وَعَلَى الثَّلَاثَةِ الَّذِينَ خُلِفُوا﴾^(١).

وكان من هؤلاء العشرة الذين تخلفوا عن غزوة تبوك: الجذُّ بن قيس، وكردم، وأوس بن ثعلبة، ووديعه بن حزام، وأبو قيس، ومرداس، وأبو لبابة في عشرة نفر ربطوا أنفسهم في سواري المسجد النبوي أياماً حتى نزلت هذه الآية في توبة الله عليهم، فربط هؤلاء السبعة أنفسهم، وبقي ثلاثة منهم لم يربطوا أنفسهم^(٢).

ولأبي لبابة الأنصاري قصة أخرى في ربط نفسه بسارية المسجد كانت في شأن بني قريظة، حين أرسل إليهم وكلموه في النزول على حكم الله ورسوله، فأشار إلى حلقة، أي: أن الحكم سيكون الذبح، ثم ندم وتاب وربط نفسه في أحد أعمدة المسجد، وأقسم ألا يطعم ولا يشرب حتى يعفو الله عنه أو يموت، فمكث كذلك حتى عفا الله عنه، وأمر رسول الله ﷺ بحلّه.

وقد جاء عن مجاهد: أن هذه الآية نزلت في هذا الصدد^(٣).

وهي عامة في كل مسلم أذنب، ثم رجع إلى الله تعالى، وأقر بذنبه فإن الله يتوب عليه.

وفي معنى الآية ما جاء عن سمرة بن جندب ؓ قال: قال رسول الله ﷺ لنا: «أتاني الليلة أتبان فابتعثاني، فانتبهنا إلى مدينة مبنية بلبن ذهب، ولبن فضة، فتلقنا رجالاً شطراً من خلقتهم كأحسن ما أنت راء، وشطراً كأقبح ما أنت راء، قالوا لهم: اذهبوا فقعوا في ذلك النهر، فوقعوا فيه، ثم رجعوا إلينا قد ذهب ذلك السوء عنهم، فصاروا في أحسن صورة، قالوا لي: هذه جنة عدن، وهذا منزلك، قالوا: أما القوم الذين كانوا شطراً منهم حسن، وشطراً منهم قبيح، فإنهم خلطوا عملاً صالحاً وآخر سيئاً، تجاوز الله عنهم»^(٤).

قال مُطَرِّف: إني لأستلقي من الليل على فراشي، وأتدبر القرآن، فأعرض أعمالي على

(١) يُنْظَر: ابن أبي حاتم (١٨٧٢/٦) وما بعدها والطبري (٦٥١/١١) وما بعدها والبيهقي في «الدلائل» (٥/

٢٧١) وابن مردويه وابن المنذر و«تفسير القرطبي» (٢٤٢/٨).

(٢) «تفسير التحرير والتنوير» (٢١/١١) و«تفسير ابن عطية» (٧٧/٣) وابن أبي حاتم (١٨٧٣/٦) عن قتادة.

(٣) ابن أبي حاتم (١٨٧٣/٦) والبيهقي في «دلائل النبوة» (٢٧١/٥) كما أخرجه ابن أبي شيبة وابن المنذر.

(٤) رقمه في البخاري (٤٦٧٤) ومسلم (٢٢٧٥) مختصراً و«فتح الباري» (١٩٣/٨).

أعمال أهل الجنة، فإذا أعمالهم شديدة: ﴿كَانُوا قَلِيلًا مِّنَ آلِيلٍ مَا يَجْعُونَ ۝﴾ [الذاريات] ﴿وَالَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَمًا ۝﴾ [الفرقان] ﴿أَمَّنْ هُوَ قَنِيتٌ ءَانَاءَ آلِيلٍ سَاجِدًا وَقَائِمًا﴾ [الزمر: ٩] فلا أراني منهم.

فأعرض نفسي على هذه الآية ﴿مَا سَلَكَكُمْ فِي سَقَرٍ ۝﴾ إلى قوله: ﴿وَكَاذِبٌ يَّوْمَ آلَيْنِ ۝﴾ [المدثر] فأرى القوم مكذبين، فلا أراني منهم. فأمرُ بهذه الآية ﴿وَأَخْرُجُوا عَتْرُقَاؤُهُمْ بِذُنُوبِهِمْ خَلَطُوا عَمَلًا صَالِحًا وَآخَرَ سَيِّئًا﴾ فأرجو أن أكون أنا وأنتم يا إخوتاه منهم^(١).

فهذا تصوير بديع للمسلم العاصي، وفيه حث له على العودة إلى الله تعالى، والرجوع عن ذنبه. ثم أمر الله رسوله ومن يقوم مقامه أن يطهر المؤمنين ويتمم إيمانهم بأخذ الصدقة من أموالهم:

الصَّدَقَةُ تُطَهِّرُ النَّفْسَ وَتُنَمِّي الْمَالَ

١٠٣- ﴿خُذْ مِّنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ ۝﴾ بِهَا وَصَلِ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلَاتَكَ سَكَنٌ ۝﴾ لَهُمْ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ۝﴾

ولما كان من شروط التوبة أن يتدارك العبد ما فاتته مما يمكن تداركه.

فإن التخلف عن غزوة تبوك قد اشتمل على مخالفتين:

المخالفة الأولى: عدم الاشتراك في الجهاد.

والمخالفة الأخرى: عدم إنفاق المال في الجهاد.

وفي هذه الآية تدارك للمخالفة الثانية بنفع المسلمين ببعض أموال المتخلفين لجبر توبتهم، لا سيما أن السفر إلى غزوة تبوك استفاد المال المُعَدُّ لنوائب المسلمين، هذا هو وجه المناسبة بين هذه الآية والتي قبلها^(٤).

(١) ابن أبي شيبة (٥٤٨/١٣) وابن أبي الدنيا (٤٥) والطبري (٦٥٨/١١) والبيهقي (٧١٦٥).

(٢) قرأ يعقوب بضم الهاء من (وتزكئهم) والباقون بكسرها.

(٣) قرأ حفص وحمزة والكسائي وخلف العاشر (صلاتك) بالتوحيد ونصب التاء، والمراد بها الجنس، وقرأ الباقر (صلواتك) بالجمع وكسر التاء.

(٤) يُنْظَرُ: «تفسير التحرير والتنوير» (٢٢/١١).

والمراد: أن هذه الصدقة كفارة لذنوبهم، وجالبة للثواب العظيم الذي أعده الله لهم.

عن ابن عباس رضي الله عنه قال: لما أطلق رسول الله ﷺ أبا لبابة وأصحابه، جاؤوا بأموالهم إلى رسول الله ﷺ فقالوا: يا رسول الله، هذه أموالنا فتصدق بها عنا، واستغفر لنا، فقال ﷺ: «ما أمرت أن آخذ من أموالكم صدقة» فأنزل الله تعالى ﴿حَذِّ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا﴾^(١). أي تنميتهم وتزويد في أخلاقهم الحسنة، وأعمالهم الصالحة وتزويد في رصيد ثوابهم الدنيوي والأخروي.

أي: خذ - يا محمد - من أموال التائبين الذين خلطوا عملاً صالحاً وآخر سيئاً، صدقة تطهرهم من دنس ذنوبهم، وترفعهم عن منازل المنافقين إلى منازل المخلصين. ومن فوائد الصدقة أنها تطهر النفوس من رذائل الشح والبخل والطمع، وترزقي القلوب من الأخلاق الذميمة، وتنمي المال وتباركه.

ثم أمر الله رسوله أن يدعو للمتصدقين فقال: ﴿وَصَلِّ عَلَيْهِمْ﴾ أي: ادع لهم بالمغفرة لذنوبهم والرحمة وقبول التوبة، واستغفر لهم الله.

ثم علل سبحانه أمره بالصلاة عليهم فقال: ﴿إِنَّ صَلَاتَكَ سَكَنٌ لَهُمْ﴾ أي: إن دعائك واستغفارك لهم فيه سكون لأنفسهم ورحمة وطمأنينة لهم؛ واستبشار لهم، فإن من يدعو له النبي ﷺ تطيب نفسه، ويقوى رجاءه ﴿وَاللَّهُ سَمِيعٌ﴾ لأقوالهم، وسميع لدعائك ﴿عَلِيمٌ﴾ بأحوالهم ونياتهم، وسوف يجازي كل عامل بعمله، وكان النبي ﷺ إذا دعا لرجل أصابته وأصابته ولده، وولد ولده^(٢).

وفي الآية إرشاد لتدارك ما فاتهم من نفع المسلمين بالمال، والصلاة من الله رحمة، ومن المؤمنين تضرع ودعاء ومن الملائكة استغفار.

وبعد نزول هذه الآية أخذ النبي ﷺ يدعو لمن أتاه بصدقته.

(١) «تفسير ابن جرير» (١٤/ ١٢٠).

(٢) جاء ذلك في حديث عن ابن حذيفة عن أبيه في «المسند» (٥/ ٣٨٥) برقم (٢٣٢٧٧) وعن حذيفة (٥/ ٤٠٠) برقم (٢٣٣٩٤) وإسنادهما ضعيف، لأن أبا بكر بن عمرو الثقفي مجهول الحال، (محققوه) وهو في مصنف ابن أبي شيبة (١٠/ ٣٩٦).

والأمر بالدعاء للمتصدق من باب الندب والاستحباب؛ لقول النبي ﷺ لمعاذ: «أعلمهم أن عليهم صدقة تؤخذ من أغنيائهم فترد على فقرائهم»^(١) ولم يأمره بالدعاء لهم. وصيغتها أن يقال: اللهم صل على آل فلان، والصلاة على غير الأنبياء جائزة. ففي الحديث أن امرأة قالت: يا رسول الله، صلّ عليّ وعلى زوجي، فقال: «صلّى الله عليك وعلى زوجك»^(٢).

ولما جاء عبد الله بن أبي أوفى بصدقته قال ﷺ: «اللهم صلّ على آل أبي أوفى»^(٣). وقد أمرنا بالصلاة على آل النبي ﷺ، وأزواجه، وذريته في التشهد، وغيره.

ولأن الصدقة تطهر المال وتركي النفس، فقد جاء أبو لبابة ومَن معه بأموالهم؛ ليعطوها لرسول الله ﷺ قائلين له: هذه هي الأموال هي التي خَلَفْتَنَا عنك، وهي السبب الذي منعنا من الجهاد والخروج معك، خذها وتصدق بها يا رسول الله، فقال عليه الصلاة والسلام: «إني لم أؤمر بذلك»، فأنزل الله تعالى عليه يأمره ألا يأخذ أموالهم كلها، وإنما يأخذ منها الزكاة فقط، وما تطيب به أنفسهم من الصدقة؛ كي تزيد من حسناتهم، فأخذ النبي ﷺ ثلث أموالهم، مراعاة لقوله تعالى: ﴿مِنْ أَمْوَالِهِمْ﴾ لأن ﴿مِنْ﴾ للتبعية.

وهذا الأمر لكل حاكم مسلم يؤليه الله تعالى على المسلمين، فعليه أن يجمع الزكاة من جميع المسلمين، ويأخذها قسراً ممن منعها، ويوزعها على فقراء المسلمين.

في الصحيحين عن أبي هريرة ؓ قال: لما تُؤْفِي رسول الله ﷺ واستُخلف أبو بكر بعده، وكفر من كفر من العرب، قال عمر لأبي بكر: كيف تقاتل الناس؟! وقد قال رسول

(١) ينظر مسند الشافعي (٣٧٨/١) وتلخيص الحبير بلفظ (وأنبئهم) (١١٣/٣) والحاكم بلفظ (فأخبرهم) برقم (١١١) عن ابن عباس وقال: رواه مسلم.

(٢) من حديث جابر بن عبد الله في «سنن أبي داود» برقم (١٥٣٣) و«سنن النسائي الكبرى» برقم (١٠٢٥٦) وابن أبي شيبه (٥١٩/٢) والترمذي في «الشمائل» (٩٣، ٩٤) و«المسند» (٣٠٣/٣) والنسائي في عمل اليوم والليلة برقم (٤٢٣) وحسنه ابن حجر في «فتح الباري» (٣٩٨/٧) وصححه الألباني في «فضل الصلاة» برقم (٧٧).

(٣) «صحيح مسلم» برقم (١٠٧٨) و«صحيح البخاري» برقم (١٤٩٧) وابن أبي شيبه (٥١٩/٢) وأبو داود (١٥٩١) والنسائي (٢٤٥٨) وابن ماجه (١٧٩٦).

الله ﷻ: «أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا: لا إله إلا الله، فمن قال: لا إله إلا الله، عصم مني ماله ونفسه إلا بحقه، وحسابه على الله» فقال: والله لأقاتلن من فرق بين الصلاة والزكاة؛ فإن الزكاة حق المال، والله لو منعوني عقلاً كانوا يؤدونه إلى رسول الله ﷺ لقاتلتهم على منعه، فقال عمر: فوالله ما هو إلا أن رأيتُ الله قد شرح صدر أبي بكر للقتال فعرفت أنه الحق^(١).

والآية عامة في وجوب أخذ الزكاة من الأغنياء وردها على الفقراء، طهارة للمال وتركه للنفس، وكثير من المفسرين فسّر الصدقة في الآية بالزكاة المفروضة، ومن المعلوم أن الزكاة كانت مفروضة قبل نزول هذه الآية بنحو ست سنوات، ومجيء أبي لبابة وصحبه من المتخلفين عن الغزوة بالصدقة، تطهيراً لنفوسهم وقبولاً لتوبتهم، يرشح أن المراد بها عموم الصدقة.

١٠٤ - ﴿أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ هُوَ يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ وَيَأْخُذُ الصَّدَقَاتِ وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾

ثم بشر الله التائبين الذين اعترفوا بذنوبهم، وقدموا أموالهم للصدقة عن صدق وإيمان وإخلاص، بأنه سبحانه قد قبل توبتهم وصدقاتهم، وأتابهم عليها، وهكذا يقبل الله التوبة من سائر خلقه، من كل تائب إلى الله تعالى.

ففي الآية بشرى للتائبين، وحث وترغيب لغيرهم أن يتوبوا إلى الله تعالى، ويخرجوا زكاة أموالهم، فإن الله تعالى يقبل توبتهم ويقبل صدقاتهم، فيباركها وينميها لهم ويثيبهم عليها مع صدق النية، والله تعالى هو التواب لعباده إذا رجعوا إلى طاعته، الرحيم بهم إذا تابوا إليه.

وقبول التوبة ليس إلى رسول الله ﷺ، وإنما هو إلى الله وحده، وكذا قبول الصدقة وتنميتها والثواب عليها يكون من الله وحده.

عن أبي هريرة ؓ أن رسول الله ﷺ قال: «إن الله يقبل الصدقة ويأخذها يمينه فيريها لأحدكم كما يري أحدكم مظهره، حتى إن اللقمة لتكون مثل أحد» ثم قرأ الآية^(٢).

(١) «صحيح البخاري» برقم (١٣٩٩، ١٤٥٦، ٧٢٨٤، ٧٢٨٥) و«صحيح مسلم» برقم (٢٠) من حديث ابن عمر بنحوه.

(٢) الطبري (١٤/٤٦١) وعبد الرزاق في التفسير (١/٢٨٧) وفي «المصنف» (٢٠٠٥٠).

قال تعالى: ﴿يَمْحُ اللَّهُ الرِّبَا وَيُرِي الصَّدَقَاتِ﴾ [البقرة: ٢٧٦].

وقال سبحانه: ﴿وَمَا آتَيْتُمْ مِنْ ذِكْوَةٍ تُرِيدُونَ وَجْهَ اللَّهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُضْعِفُونَ﴾ [الروم: ٣٩].

وعن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: «إن الصدقة تقع في يد الله ﷻ قبل أن تقع في يد السائل» ثم قرأ الآية^(١).

وفي الصحيحين وغيرهما عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «ما تصدق أحد بصدقة من طيب - ولا يقبل الله إلا الطيب - إلا أخذها الرحمن بيمينه، وإن كانت تمرة، فتربوا في كف الرحمن، حتى تكون أعظم من الجبل، كما يربي أحدكم فلوله أو فصيله» وهذا لفظ مسلم^(٢).

الْأَمْرُ بِحُسْنِ الْعَمَلِ

١٠٥ - ﴿وَقُلْ أَعْمَلُوا فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ وَسَتُرَدُّونَ إِلَىٰ عِلِّيِّ الْعَلِيِّ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ (١٠٥)

ثم أمر سبحانه بالتزود من العمل الصالح، وحذر من الوقوع في المعصية، فقد أمرهم سبحانه بالعمل عقب الإعلان عن قبول توبتهم؛ لأنهم لما قبلت توبتهم كان حقاً عليهم أن يُبْرِهِنُوا عَلَىٰ صِدْقِهَا بِكَثْرَةِ الْعَمَلِ الصَّالِحِ، والمبادرة إليه في المستقبل، بأن يعمر المرء أوقاته بالחסنات والرغبة فيما عند الله تعالى.

وعلاوة صدق التوبة أن تكون أحواله بعد التوبة أفضل منها مما قبل التوبة.

﴿وَقُلْ﴾ - أيها الرسول - لهؤلاء التائبين، ولغيرهم ﴿أَعْمَلُوا﴾ ما ترون من الأعمال، واحذروا من الوقوع في المساوي، وتزودوا بالعمل الصالح ﴿فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ﴾ ولا يخفى

(١) الطبري (٤٦٠/١٤) وابن عطية (٧٩/٣) والأثر عند عبد الرزاق (٢٨٧/١) وابن أبي حاتم (٦/١٨٧٧) والطبراني (٨٥٧١) قال الهيثمي: فيه عبد الله بن قتادة المحاربي، لم يضعفه أحد وبقيته رجاله ثقات، «مجمع الزوائد» (١١١/٣).

(٢) «صحيح مسلم» برقم (١٠١٤) و«صحيح البخاري» برقم (٧٤٣٠، ١٤١٠) وابن أبي حاتم (١٨٧٧/٦).

عليه شيء منه، ويجازيكم عليه بالخير خيرًا وبالسوء سوءًا، وفيه تحذير من ارتكاب المعاصي، وحثٌ على فعل الطاعات، فאלله تعالى مُطَّلَعٌ بعلمه على جميع الكائنات، فاعبد الله - أيها العبد - كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه سبحانه يراك.

وجاء عطف ﴿وَرَسُولُهُ﴾ على اسم الجلالة؛ لأنه ﷺ هو المبلغ عن الله تعالى، وطاعته ﷺ طاعة لله تعالى ﴿مَنْ يُطِيعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ﴾ [النساء: ٨٠].

وجاء عطف ﴿وَالْمُؤْمِنُونَ﴾؛ لأنهم شهداء الله في أرضه، والطائع ينضم إلى زمرة الطائعين، فيشهدون له بالإيمان، والعاصي ينضم إلى نظرائه.

﴿وَسَرُدُونَ﴾ أيها المؤمنون ﴿إِلَىٰ عِلِّيِّ الْعَلِيِّ وَالشَّهَدَةِ﴾ الذي يعلم ما غاب عن العباد، فلا يرونه ولا يعلمونه، ويعلم ما شاهدوه وما علموه.

أي: إنكم أيها الناس سترجعون بعد موتكم إلى عالم السر والنجوى، فهو سبحانه يعلم سركم وجهركم ﴿فَيُنَبِّئُكُمْ﴾ أي: يخبركم، ويجازيكم ﴿بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ في الدنيا من خير أو شر.

وفي هذا تهديد ووعد لمن يستمر على الباطل والطغيان؛ حيث يظهر الله عمله في الدنيا، ويعاقبه عليه في الآخرة، وهذا أمر كائن لا محالة.

قال تعالى: ﴿يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ لَا تَخْفَىٰ مِنْكُمْ خَافِيَةٌ﴾ [الحاقة]

وقال سبحانه: ﴿يَوْمَ تَبْلَى السَّرَائِرُ﴾ [الطارق].

وقال جل شأنه: ﴿وَحُصِّلَ مَا فِي الصُّدُورِ﴾ [العاديات].

وعن عائشة ؓ: إذا أعجبك حُسن عمل امرئ مسلم، فقل: ﴿اعْمَلُوا فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ﴾^(١).

وعن أنس ؓ أن رسول الله ﷺ قال: «لا عليكم أن تعجبوا بأحد حتى تنظروا به يُختم له؟ فإن العامل يعمل زمانًا من عمره - أو بُرْهة من دهره - بعمل صالح، لو مات عليه لدخل الجنة، ثم يتحول فيعمل عملاً سيئًا.

وإن العبد ليعمل البرهة من دهره بعمل سيئ، لو مات عليه دخل النار، ثم يتحول فيعمل

(١) «فتح الباري» (١٣/٥١٢) والبخاري ك (٩٧) ب (٤٦) قبل حديث (٧٥٣١).

عملاً صالحاً.

وإذا أراد الله بعبده خيراً استعمله قبل موته ، قالوا: يا رسول الله، وكيف يستعمله؟ قال: يوفقه لعمل صالح ثم يقبضه عليه»^(١).

الصَّنْفُ الرَّابِعُ: طَائِفَةٌ تَوَقَّضَتْ حَتَّى يَحْكُمَ اللَّهُ فِيهَا

١٠٦- ﴿وَأَخْرُوتَ مُرْجُونَ^(٢) لِأَمْرِ اللَّهِ إِمَّا يُعَذِّبُهُمْ وَإِمَّا يَتُوبُ عَلَيْهِمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ

هذا هو القسم الثالث والأخير من المتخلفين عن غزوة تبوك -من غير المنافقين والمعتذرين والنائبين- لأن الآيات السابقة ذكرت ثلاث طوائف من توبة المتخلفين عن غزوة تبوك:

فالطائفة الأولى: هم الذين مردوا على النفاق.

والطائفة الثانية: هم الذين سارعوا إلى الاعتذار والاعتراف بالذنب.

والطائفة الثالثة: هم الذين أوقف الله أمرهم حتى يحكم فيهم بقبول التوبة من عدمه.

وهم ثلاثة: كعب بن مالك، ومرارة بن الربيع، وهلال بن أمية، تخلفوا عن رسول الله ﷺ ولم يعتذروا، ولم يكن تخلفهم نفاقاً ولا كراهية للجهاد، ولكنهم شغلوا حين خروج الجيش، وظنوا أنهم سيلحقون به، وانقضت الأيام، وأيسوا من اللحاق به، وسأل النبي ﷺ عنهم وهو في تبوك، فلما رجع أتوه وصدقوه، فلم يكلمهم، ونهى المسلمين عن كلامهم ومخالطتهم، وأمرهم باعتزال نسائهم، فامثلوا ما أمرهم به النبي ﷺ وظلوا خمسين يوماً، ينتظرون حكم الله فيهم، وكانوا من أهل بدر.

والسورة لم تبين حكمهم عند هذه الآية التي نحن بصددھا ﴿وَأَخْرُوتَ مُرْجُونَ لِأَمْرِ اللَّهِ

(١) رواه أحمد قال الهيثمي في «مجمع الزوائد» (٢١١/٧): ورجاله رجال الصحيح، ورقمه في «المسند» (١٢٢١٤) إسناده صحيح على شرط الشيخين، (محققوه) وأخرجه عبد بن حميد (١٣٩٣) وأبو يعلى (٣٨٤٠) والضياء في المختارة (١٩٨٠) وابن أبي عاصم في السنة (٣٩٣).

(٢) قرأ ابن كثير، وأبو عمرو، وأبو عمر وابن عامر، وشعبة، ويعقوب (مرجئون) بهزمة مضمومة ممدودة بعد الجيم، وقرأ الباقر (مرجون) بواو ساكنة بعد الجيم من غيرهم، وهما لغتان بمعنى مؤخرون عن التوبة.

مع أنها نزلت فيهم^(١) ولكنها نزلت قبل التوبة عليهم، ولعل الحكمة في ذلك أن يُبقي المسلمون على خصومتهم، وعلى معاملتهم معاملة معينة، كما أمرهم النبي ﷺ حتى يتعذبوا ويتأدبوا إلى أن ينزل الله تعالى التوبة عليهم في الآية التي بعد ذلك ﴿وَعَلَى الْفَلَنَةِ الَّذِينَ خَلَفُوا﴾ [التوبة: ١١٨] حيث ذكروا هنا، وذكرت توبتهم هناك.

ومعنى الآية: ومن هؤلاء المتخلفين عنكم -أيها المؤمنون- في غزة تبوك آخرون مؤخرون وموقوف أمرهم حتى يقضي الله فيهم ما هو قاضٍ، فهم إما أن يعذبهم الله، وإما أن يعفو عنهم، وقد أبهم الله أمرهم، ولم يصرِّح بهم؛ لإثارة الخوف في قلوبهم وقت التنزيل؛ ليبادروا إلى التوبة، ويُخلصوا فيها، والله تعالى عليم بمن يستحق العقوبة أو العفو، حكيم في كل أقواله وأفعاله، يضع الأشياء في مواضعها، فإن اقتضت حكمته أن يغفر لهم ويتوب عليهم، غفر لهم وتاب عليهم، وإن اقتضت حكمته أن يخذلهم، ولا يوفقهم للتوبة، فعل ذلك.

مَسْجِدُ الضَّرَارِ

١٠٧ - ﴿وَالَّذِينَ^(٢) اتَّخَذُوا مَسْجِدًا ضِرَارًا وَكُفْرًا وَتَفْرِيقًا بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ وَإِزْوَاجًا لِمَنْ حَارَبَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ مِنْ قَبْلُ وَلَيَحْلِفُنَّ إِنْ أَرَدْنَا إِلَّا الْحُسْنَىٰ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾^(٣)

ولما هاجر النبي ﷺ إلى المدينة نزل أولاً في منطقة قُباء، من ضواحي المدينة، وأقام فيها ﷺ أربعة أيام، قبل أن يصل إلى المدينة نفسها، وكان ذلك من الإثنين إلى الخميس، وأسس في هذه الأيام الأربع، مسجد قُباء، الذي قال فيه النبي ﷺ: «من خرج حتى يأتي مسجد قُباء فيصلِّي فيه، كان له كعدلِ عمرة»^(٣).

(١) كما في الطبري (١٠/١١) والقرطبي (٢٤٢/٨) وابن كثير (٢١٠/٤) والألوسي (١٧/١١) وغيرهم.
(٢) قرأ نافع وابن عامر وأبو جعفر بحذف الواو قبل (الذين) من (والذين اتخذوا) موافقة لرسم مصحف المدينة والشام، و (الذين) مبتدأ وخبره (لا تقم فيه أبدا) وقرأ الباقون بإثبات الواو، موافقة لرسم مصحف مكة والبصرة والكوفة، والواو للاستئناف، و (الذين) مبتدأ، وخبره (لا تقم) أو (لا يزال)... إلخ.
(٣) بنحوه من حديث أسيد بن ظهير الأنصاري أخرجه النسائي (٦٩٨) والترمذي برقم (٣٢٤) و«صحيح سنن الترمذي» (٢٦٧) وابن أبي شيبة (٢٧٣/٢) وابن ماجه برقم (١٤١١) قال الترمذي: حديث حسن صحيح.

وفي الحديث عن ابن عمر رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ كان يأتي مسجد قباء راكباً وماشياً^(١).
وفي لفظ: «كان رسول الله ﷺ يأتي مسجد قباء كل سبت ماشياً وراكباً»^(٢).

وفي الحديث أن رسول الله لما بناه وأسس أول قدومه ونزوله على بني عمرو بن عوف، كان جبريل هو الذي عيّن له القبلة.

ومسجد قباء كان ملتقى لوحدة المسلمين في بدء وصول النبي عليه الصلاة والسلام إلى المدينة.

أبو عامر الراهب: وكان هناك رجل من الخزرج يقال له: أبو عامر الراهب، من أهل المدينة، فلما هاجر إليها النبي ﷺ كفر به وذهب إلى المشركين يستعين بهم على قتال النبي ﷺ، فلما لم يجد مطلوبه عندهم ذهب إلى قيصر الروم لينصره، فهلك في الطريق، وكان أبو عامر كبيراً في القوم، عابداً في الجاهلية، واسمه عبد عمرو، ويُلقَّب بالراهب، وأمه من الروم وكان قد تنصّر في الجاهلية، وقرأ علم أهل الكتاب، وسمّاه النبي ﷺ فيما بعد أبو عامر الفاسق، وأبو عامر هذا هو والد حنظلة، غسيل الملائكة، الصحابي الجليل، وهو الذي حفر حُفراً بين الصفوف في غزوة أحد؛ كي يقع فيها النبي ﷺ ووقع الرسول عليه الصلاة والسلام في إحدى هذه الحُفَر فشجَّ رأسه الشريف، وجرح وجهه، وكُسرت رباعيته.

كان أبو عامر من المنافقين، ثم جاهر بالعداوة، وحزَّب الأحزاب التي حاصرت المدينة في غزوة الخندق، فلما هزمهم الله تعالى أقام في مكة، ولما فُتحت مكة هرب إلى الطائف.

ولما فُتحت الطائف خرج إلى الشام يستنصر بقيصر، وهو من بني غنم بن عوف بالمدينة، وكان فيها حين وصل إليها الرسول ﷺ فدعاه إلى الإسلام، فأبى وامتنع، وذهب إلى المشركين في مكة يستعين بهم على قتال النبي ﷺ، وقال للرسول ﷺ: ما وجدتُ قوماً يقاتلونك إلا قاتلتُك معهم، فقاتل النبي عليه الصلاة والسلام وتصدّى له في

(١) ابن أبي شيبة (٢١١/١٢) والحاكم (٤٨٧/١) والنسائي في «السنن الكبرى» (٧٧٩) والبخاري (١١٩٤) ومسلم (٥١٥، ١٣٩٩) و«المسند» (٤٨٤٦) وابن حبان (١٦١٨).

(٢) «فتح الباري» (٨٢/٣) ورقمه في البخاري (١١٩٣) ومسلم (٣٩٩).

أحد، بعد أن تحالف مع المشركين، وقاتله في حُتَيْنٍ، وفي غير ذلك من المواقع، ولما ناظره الرسول عليه الصلاة والسلام؛ ليقيم الحجة عليه قال أبو عامر: ماذا جئت به؟ قال ﷺ: «جئت بالحنيفية السمحة، دين إبراهيم»^(١) قال: فنحن عليها، فقال ﷺ: «إنك لست عليها» قال أبو عامر: ولكنك أدخلت في الحنيفية ما ليس منها، فقال ﷺ: «ما فعلت، ولكن جئت بها بيضاء نقية» فقال أبو عامر: أمات الله الكاذب منا، وحيداً غريباً طريداً شريداً فقال عليه الصلاة والسلام: «آمين» آمن على قول أبي عامر.

مسجد الضرار: وبعد أن استعان أبو عامر بالمشركين في مكة لقتال الرسول ﷺ ذهب إلى هرقل ملك الروم؛ ليأتي بجيش من عنده، يستعين بهم على قتال النبي عليه الصلاة والسلام، وقال لقومه: ابنوا لنا مكاناً يكون مَعْقِلاً نقدم عليه نحن وقومنا، ويكون مرصداً لنا، نقاتل من خلاله محمداً، ونمزق وحدة المسلمين، ونقوي كلمة الكفر، ويكون مركزاً لنا إذا رجعنا من الشام، وهذه الأهداف معلومة، ولكنها غير معلنة، فبنى اثنا عشر رجلاً منهم مسجداً قريباً من مسجد قباء، وكان يصلي فيه إماماً مُجَمَّع بن جارية، وكان شاباً يقرأ القرآن، ولم يكن يدري ما أرادوا ببنائه.

وقد سمَّاه الإسلام مسجد الضرار؛ لأنهم قصدوا بهذا المسجد تفريق جمع المسلمين في مسجد قباء، وتقوية كلمة الكفر، ولكي يكون مركزاً لأبي عامر إذا رجع من الشام، فظاهره الإسلام، وباطنه سَحَقُ الإسلام، والرسول ﷺ يأخذ بظواهر الأمور، وهم يُظهرون الإسلام، ويريدون أن يُضْفُوا على هذا المسجد الشرعية، فطلبوا من النبي عليه الصلاة والسلام أن يأتيهم في مسجدهم هذا ليصلي فيه، قالوا: إننا ابتئنا مسجداً لذي العلة والحاجة، والمريض والكبير، في الليلة الشاتية والمطيرة، ونريد أن تبارك هذا المسجد، وتصلي فيه، فوعدهم النبي عليه الصلاة والسلام أن يأتي لهم ويصلي فيه بعد عودته من تبوك، وكان يتجهز وقتئذ للخروج لغزوة تبوك.

ولما رجع عليه الصلاة والسلام من الغزوة، وقبل أن يصل المدينة بمسافة قريبة، مسيرة يوم أو نحوه، أراد عليه الصلاة والسلام أن يُؤَفِّي بما وعده به، وأن يذهب إلى أهل هذا المسجد؛ ليباركه ويصلي فيه، حتى يأتي إليه الناس ويصلُّوا فيه، فأرسل الله سبحانه

(١) ينظر السلسلة الصحيحة برقم (٢٩٢٤).

جبريل عليه السلام يخبر النبي ﷺ بنوايا القوم، وحقيقة الأمر، وأن هذا ليس مسجدًا، وإنما قصد به المضاربة ورفع راية الكفر، وتمزيق وحدة المسلمين، وأنزل الله سبحانه: ﴿وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مَسْجِدًا ضِرَارًا وَكُفْرًا وَتَفْرِيقًا بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾؛ كي يصلي فيه بعضهم، ويترك الصلاة في مسجد قباء ﴿وَارْصَادًا﴾ فهذه أربعة أغراض خبيثة وهي: مضارة المؤمنين، وتقوية الكفر، وتفريق كلمة المسلمين، وجعله معقلًا لالتقاء المحاربين، وإرصادًا: يعني انتظارًا وإعدادًا وتهيئة لمقدم من حارب الله ورسوله، وهو أبو عامر الفاسق؛ ليصلي فيه إذا رجع؛ كي يظهر على رسول الله ﷺ، ويكون هذا المسجد مكانًا لكيد المسلمين، وهو ﴿لِمَنْ حَارَبَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ مِنْ قَبْلُ﴾ أي: أن عداوة أبي عامر للإسلام حاصلة من قبل بناء مسجد قباء ﴿وَلِيَحْلِفُنَّ إِنْ أَرَدْنَا إِلَّا الْحُسْنَ﴾ أي: أردنا أن نساعد الكبير والمريض، وصاحب العلة والحاجة، وفي الليلة المطيرة والشتية، وما قصدنا إلا خيرًا، ورفقًا بالناس، وتوسعة على الضعفاء العاجزين عن السير إلى مسجد قباء ﴿وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾ فيما قصدوا ونوؤا، وحلفوا عليه، وإنما بنوه ضرارًا لمسجد قباء، وكفرًا بالله، وتفريقًا بين المؤمنين.

ومن هذا يعلم أن جماعة من المنافقين بالغوا في الإجماع وبنوا مسجدًا، لا لأجل العبادة والطاعة لله تعالى، وإنما اتخذوه من أجل الإضرار بالمؤمنين وإيقاع الأذى بهم، وهم طائفة من بني غنم بن عوف، وبني سالم بن عوف، من أهل العوالي بالمدينة، وكانوا اثني عشر رجلًا ذكر أسماءهم الطبري وابن عطية وابن كثير وغيرهم في تفسير الآية وهم:

- ١- خدام أو جذام بن خالد. ٢- وثعلبة بن حاطب. ٣- وهزال بن أمية.
- ٤- ومعتب بن قشير. ٥- وأبو حبيبة بن الأزعر. ٦- وعباد بن حنيفة.
- ٧- وجارية بن عامر. ٨، ٩- وابناه مجمع، وزيد. ١٠- ونبتل بن الحارث.
- ١١- ويحذج بن عثمان. ١٢- ووديع بن ثابت^(١).

قال لهم أبو عامر الراهب: ابنوا مسجدكم، واستمدوا بما استطعتم من قوة وسلاح؛ فأني ذاهب إلى قيصر ملك الروم، فأت بجد من الروم، فأخرج محمدًا وأصحابه، فلما

(١) ابن أبي حاتم (١٨٧٩/٦).

فرغوا من مسجدهم أتوا النبي ﷺ فقالوا: قد فرغنا من بناء مسجدنا، ونحب أن تصلي فيه وتدعوا بالبركة، فأنزل الله ﴿لَا تَقْعُ فِيهِ أَبَدًا﴾^(١).

فأرسل النبي ﷺ إلى مالك بن الدُخْشُم، وعاصم بن عدي، وقال: انطلقا إلى هذا المسجد الظالم أهله فاهدماه وحرّقاه، فخرجا مسرعين حتى أتيا بني سالم بن عوف، وأخذ مالك سعفاً من النخل فأشعل فيه ناراً، ثم خرجا يشندان، فحرّقاه وهدماه، وتفرق أهله عنه، ونزل فيه القرآن^(٢).

وكان ذلك لما قدم النبي ﷺ من غزوة تبوك دعا بقميصه ليلبسه حتى يأتي مسجد القوم، فنزل القرآن، وأعلم الله نبيه بما هموا به، وورد أن النبي ﷺ أرسل أربعة من قومه هم: مالك بن الدُخْشُم، ومَعْن بن عَدِي، وعامر بن يشكر، ووحشي قاتل حمزة، وأمرهم بهدم هذا المسجد وإحراقه وإضرار النار فيه.

وقيل: إن النبي ﷺ أرسل لهدم المسجد: عَمَّار بن ياسر، ووحشياً، وكان وحشي مولى عند المُطعم بن عدي، فذهبوا وأضرموه فيه النيران وهدموه وأحرقوه، وصار مكاناً للقمامة والجيف بأمر رسول الله ﷺ وتحقق تأمين النبي ﷺ على دعوة أبي عامر، فمات غريباً طريداً وحيداً شريداً، حيث مات في الشام قبل أن يصل إلى المدينة.

وقد اشتملت هذه الآية ﴿وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مَسْجِدًا﴾ على ستة أمور:

الأول: أن هذا المسجد أنشأه بعض المنافقين؛ لإيقاع الضرر بالإسلام وأهله، فهم قد اتخذوه ﴿ضِرَارًا﴾ ولهذا سُمِّيَ مسجد الضرار، أي: اتخذوه للإضرار بالمؤمنين، وإيقاع الأذى بهم.

الثاني: أن بناء هذا المسجد زاد في كفرهم الذي يضمرونه، والغِلُّ الذي يخفونه، فهو نُصرة لما في نفوسهم من كُفر، ولذا كان الوصف الثاني ﴿وَكُفْرًا﴾.

الثالث: أن الغرض الأساس من بناء هذا المسجد، هو التفريق بين جماعة المؤمنين، وصرْفهم عن مسجد قُباء، حسداً منهم لنعمة التآخي والمحبة، وهذا معنى ﴿وَنَقَرِبًا بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾.

(١) الطبري (١١/٦٧٥) وابن أبي حاتم (١٨٧٨) والبيهقي في «الدلائل» (٥/٢٦٢).

(٢) يُنظَر: «سيرة ابن هشام» (٢/٥٢٩) وابن مردويه.

الرابع: أن هذا المسجد أُعِدَّ لاستقبال أبي عامر الراهب، الذي حارب الله ورسوله مع الأحزاب ومع هوازن وثقيف، حين يقدم من الخارج، ليكون مستقرًا له، ومركزًا لمحاربة الدعوة ونصرة الكفر والنفاق، وهذا معنى ﴿وَارْصَادًا لِمَنْ حَارَبَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ مِنْ قَبْلُ﴾.

الخامس: أن هؤلاء المنافقين قد أقسموا على أنهم لم يريدوا من بناء هذا المسجد إلا الخير والإحسان، والمقصد الحسن، من التوسعة على المصلين، والرفق بالعجزة والمساكين ﴿وَلِيَحْلِفُنَّ إِنْ أَرَدْنَا إِلَّا الْحُسْنَى﴾.

السادس: أن الله تعالى يشهد أنهم كاذبون في أيمانهم الفاجرة، وأنهم لم يريدوا إلا مضارة الإسلام وأهله ﴿وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾ وفي هذا مذمة لهم وتحقيرا. قال تعالى:

الْمَسْجِدُ الَّذِي أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَى:

١٠٨ - ﴿لَا نَقُفُّ فِيهِ أَبَدًا لِمَسْجِدٍ أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَى مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَنْ تَقُومَ فِيهِ فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَنْ يَتَطَهَّرُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُطَهَّرِينَ﴾

ثم منع الله تعالى رسوله ﷺ من الذهاب لمسجد الضرار ﴿لَا نَقُفُّ فِيهِ أَبَدًا﴾ لا تأت إليه -يا محمد- ولا تصل فيه أبداً، ولا تفعل مثل هذا -أيها المسلم- في كل زمان ومكان.

عن علي بن أبي طلحة عن ابن عباس ؓ قال في الآية: هم أناس من الأنصار بنوا مسجداً، فقال لهم أبو عامر: ابنوا مسجداً، واستعدوا بما استطعتم من قوة ومن سلاح؛ فإني ذاهب إلى قيصر ملك الروم فأت بجنود من الروم، وأخرج محمداً وأصحابه، فلما فرغوا من مسجدهم أتوا النبي ﷺ فقالوا: قد فرغنا من بناء مسجدنا، فنحب أن تصلي فيه، وتدعو لنا بالبركة، فأنزل الله ﷻ ﴿لَا نَقُفُّ فِيهِ أَبَدًا﴾ إلى قوله: ﴿الظَّالِمِينَ﴾^(١).

والنهي عن القيام في مسجد الضرار يستلزم عدم الصلاة فيه، بل كان النبي ﷺ بعد نزول هذه الآية، لا يمر بالطريق التي فيها مسجد الضرار.

وقد أثنى سبحانه على مسجد قباء فهو أولى أن يقوم للصلاة فيه، ففي هذا المسجد رجال يحبون أن يتطهروا بالماء من النجاسات والأقذار، كما يتطهرون بالتورع والاستغفار

(١) الطبري (١٤/٤٧٠).

من الذنوب والمعاصي.

ومسجد قباء: هو الموصوف بأنه مسجد أسس على التقوى من أول يوم، كما هو واضح في سياق الآية التالية، وهو أحق أن يقوم فيه النبي ﷺ ويصلي لربه فيه، وكما ثبت في الصحيح أن النبي ﷺ بين أن الرجال الذين يحبون أن يتطهروا هم بنو عمرو بن عوف، أصحاب مسجد قباء، وكان النبي ﷺ يزور مسجد قباء كل يوم سبت ويصلي فيه.

فمسجد قباء هو المسجد الموصوف في الآية بأنه أسس على التقوى، وهذا لا يمنع أن يطلق هذا الوصف على غيره من المساجد.

وقد صحت أحاديث أثنت على مسجد النبي عليه الصلاة والسلام في المدينة، منها:

١- حديث أبي هريرة ؓ أن النبي ﷺ قال: «صلاة في مسجدي هذا خير من ألف صلاة فيما سواه إلا المسجد الحرام»^(١).

٢- وفي الصحيحين عن عبد الله بن زيد ؓ أن النبي ﷺ قال: «ما بين بيتي ومنبري روضة من رياض الجنة»^(٢).

وهذه أحاديث تبين أيضًا أنه مسجد أسس على التقوى:

١- وفي صحيح مسلم عن أبي سعيد الخدري ؓ قال: دخلت على رسول الله ﷺ في بيت بعض نسائه، فقلت: يا رسول الله، أي المسجدين الذي أسس على التقوى؟ فأخذ كفًا من حصباء فضرب به الأرض، ثم قال: «هو مسجدكم هذا» لمسجد المدينة^(٣).

(١) «صحيح البخاري» برقم (١١٩٠) و«صحيح مسلم» برقم (١٣٩٤) والنسائي في «السنن الكبرى» (٧٧٥) و«المسند» (٧٤١٥) وابن حبان (١٦٢١).

(٢) «صحيح مسلم» برقم (١٣٩٠، ١٣٩١) و«صحيح البخاري» برقم (١١٩٥، ١١٩٦) و«سنن النسائي الكبرى» (٧٧٦) و«المسند» (١٦٤٣٣).

(٣) يُنظر الحديث في «صحيح مسلم» برقم (١٣٩٨) وفي: «المسند» برقم (١١٠٤٦، ١١٨٤٦) عن أبي سعيد، قال محققوه: حديث صحيح، وعن سهل بن سعد برقم (٢٢٨٠٥، ٢٢٨٣٨) حديث صحيح، وابن أبي شبة (٣٧٢/٢) وقال الهيثمي في «المجمع»: (٣٤/٧) رجاله رجال الصحيح عن سهل بن سعد، وفي الطبراني (٤٨٢٨) و(٤٨٥٤) عن زيد بن ثابت، وابن حبان (١٦٠٦).

٢- وعن أبي بن كعب رضي الله عنه قال: سألت النبي ﷺ عن المسجد الذي أسس على التقوى؟ فقال: «هو مسجدي هذا»^(١).

فإذا كان مسجد قباء موصوف بهذا، فإن مسجد النبي عليه الصلاة والسلام في المدينة من باب أولى أن يوصف بأنه مسجد أسس على التقوى من أول يوم، فهو أحق وأجدر بهذا الوصف.

ووجه الجمع: أن المراد بقوله تعالى: ﴿لَمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَى مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ﴾ أي: المسجد الذي هذه صفته، وليس مسجداً واحداً معيناً، والوصف ينحصر في المسجد النبوي ومسجد قباء، فمسجد قباء أُسِّس على التقوى من أول يوم، والمسجد النبوي أُسِّس على التقوى من أول يوم كذلك، فأيهما صلى فيه رسول الله ﷺ وقت بناء مسجد الضرار فهو أحق وأجدر أن يقوم فيه^(٢).

فكلا المسجدين أسس على التقوى، جمعاً بين الآية والأحاديث.

وقد وصف الله سبحانه أهل مسجد قباء بأنهم قوم يحبون أن يتطهروا ﴿فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَنْ يَتَطَهَّرُوا﴾ وكان أهل قباء حريصين على التطهر من الذنوب والأوساخ والأحداث، ولهذا كانوا من السابقين للإسلام ﴿وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُطَهِّرِينَ﴾ حسياً ومعنوياً.

ولما نزل هذا الوصف لأهل قباء، أرسل عليه الصلاة والسلام يسأل كبارهم، لماذا أثنى عليكم ربكم ووصفكم بهذا الوصف؟

فذكروا أنهم كلما قضى الإنسان منهم حاجته وتغوط فإنه يستجمر أولاً بحجارة ثلاثاً، ثم يستنجي بالماء.

وقالوا: كان لنا جيران من اليهود فكانوا يغسلون أدبارهم من الغائط فغسلنا كما غسلوا^(٣).

(١) ابن أبي شيبة (٣٧٣/٢) والمعجم الكبير (٦٧/١١) وقال محققو «المسند» (٢١١٠٦، ٢١١٠٧) حديث صحيح وأخرجه الضياء في «المختارة» (١١٣٣) والخطيب (٧٩١٤).

(٢) يُنْظَرُ: «التحرير والتنوير» (٣٢/١١).

(٣) يُنْظَرُ النص في: صحيح ابن خزيمة (٤٥/١) برقم (٨٣) وليس فيه قصة الاستجمار و«المسند» (٤٢٢/٣) برقم (١٥٤٨٥) والطبراني في الكبير (٣٤٨) قال الهيثمي في «مجمع الزوائد» (٢١٢/١): فيه شرحيل بن سعد، ضعفه مالك وابن معين وأبو زرعة، ووثقه ابن حبان، وقال محققو «المسند»: حسن لغيره، وصححه الحاكم (١٥٥/١) ووافقه الذهبي.

وهذه الطهارة كانت عزيزة في ذاك الوقت، فالبيوت والمساجد ليست فيها حمامات، ولا تتوفر فيها المياه كوقتنا، وكانت الناس تقضي حاجتها في الخلاء، وكان الاستجمار هو الأكثر غالبًا، وأهل قباء كانوا يستجمرون أولًا، ثم يستنجون بالماء ثانيًا.

وذكر أيضًا أنهم كانوا إذا أصابتهم الجنابة لا يبيتون بها، فكانوا يتطهرون منها قبل النوم.

صح عن رسول الله ﷺ أنه قال: «يا معشر الأنصار، إن الله قد أثنى عليكم في الطهور، فما طهوركم؟» قالوا: نتوضأ للصلاة ونغتسل من الجنابة، ونستنجي بالماء، قال: «فهو ذاك، فعليكموه»^(١).

وأخرج الحاكم عن مجاهد عن ابن عباس ؓ قال: لما نزلت هذه الآية بعث رسول الله ﷺ إلى عويم بن ساعدة الأنصاري فقال: «ما هذا الطهور الذي أثنى الله عليكم به؟ فقالوا: يا نبي الله، ما خرج منا رجل ولا امرأة من الغائط إلا غسل دبره - أو قال مقعدته - فقال النبي ﷺ: «ففي هذا»^(٢).

وجاء هذا المعنى من طرق أخرى، وفيها أن عويم بن ساعدة هو أول من غسل مقعدته بالماء^(٣).

وطهارة أهل قباء تشمل طهارة الظاهر من الأحداث والنجاسات بالماء، وطهارة الباطن من الكفر والنفاق والمعاصي.

ثم فاضل - سبحانه - بين المساجد بحسب مقاصد أهلها وموافقتها لمرضاته فقال:

(١) أخرجه ابن ماجه عن أبي أيوب الأنصاري، وجابر بن عبد الله، وأنس بن مالك في «السنن» برقم (٣٥٥) وصححه الحاكم ووافقه الذهبي في «المستدرک» (١٥٥/١) وأخرجه الدارقطني في «السنن» (١/٦٢) والضياء في «المختارة» برقم (٢٢٣١) وله شاهد في «مجمع الزوائد» (٢١٢/١) وانظر: «المسند» (٦/٦) وهو في صحيح «سنن ابن ماجه» (٢٨٥) وابن عساكر (٢٢٩/٣٨). وصحيح أبي داود (٣٤) وفي مشكاة المصابيح (٣٦٩) والروض النضير (٧٥٦) بتصحيح الألباني.

(٢) «المستدرک» (١٨٧/١) وصححه الحاكم بموافقة الذهبي على شرط مسلم وأخرجه الطبراني في «الكبير» برقم (١١٠٦٥) وحسنه الهيثمي في «المجمع» (٢١٢/١) وهو في «تفسير الطبري» (٤٨٧/١٤). وضعفه محققو المسند في شرح الحديث (١٥٤٨).

(٣) أخرجه ابن سعد عن جابر بن عبد الله (٤٥٩/٣).

١٠٩ - ﴿أَفَمَنْ أَسَّسَ^(١) بُنْيَانَهُ عَلَىٰ تَقْوَىٰ مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٍ^(٢) خَيْرٌ أَمْ مَنْ أَسَّسَ^(١) بُنْيَانَهُ عَلَىٰ شَفَا جُرْفٍ^(٣) هَارٍ فَانْهَارَ بِهِ فِي نَارِ جَهَنَّمَ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴿١٠٩﴾

وقصة مسجد الضرار، تنطبق على كل قوم اتخذوا من الإسلام شعارًا، وهدفهم الباطني مضارة الإسلام وأهله، وكل قوم رفعوا راية الإسلام، وهم يهدفون من وراء ذلك النيل من الإسلام، أو القضاء عليه وعلى أهله في كل زمان ومكان، إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها، ونحن نرى ذلك فيمن يندس بين صفوف المسلمين؛ لينفث فيهم سمومه، أو يستطلع أخبارهم.

ومسجد الضرار كان كالبناء على شفير جهنم، فهو بأهله فيها، أي: لا يستوي من أسس بنيانه على تقوى الله وطاعته ومرضاته، ومن أسس بنيانه على طرف حفرة متداعية للسقوط، فبنى مسجدًا لمضارة الإسلام وأهله، فأدى بهم إلى السقوط في نار جهنم ﴿فَإِنْهَارَ بِهِ فِي نَارِ جَهَنَّمَ﴾ والله لا يهدي المتجاوزين لحدوده.

وعلى هذا: فلا يستوي من أسس بنيانه على الحق، بمن أسس بنيانه على الباطل.

فالحق: قواعده متماسكة قوية ومحكمة، وهو بناء ثابت، ومصيره إلى دوام وسعادة لأهله.

والباطل: قواعده ضعيفة متصدعة متهاكة، وهو بناء مضمحل، ومصيره إلى زوال وشقاء.

والشفا: حرف البئر وحرف الحفرة.

والجرف: جانب الوادي، وجانب الهوة الذي تنحرف منه السيول.

والجرف الهار: هو المتصدع المتساقط، كما ينهار الباطل ويتساقط في نار جهنم.

عن جابر بن عبد الله رضي الله عنه قال: رأيت الدخان من مسجد الضرار حين انهار^(٤).

(١) قرأ نافع وابن عامر بضم الهمزة، وكسر السين، من (أُسَّس) في الموضعين على البناء للمفعول، و (بنيانه) بالرفع فيهما، على أنه نائب فاعل، وقرأ الباقر بفتح الهمزة والسين من (أُسَّس) فيهما، على البناء للفاعل، والفاعل ضمير يعود على (من) و (بنيانه) بالنصب فيهما على أنه مفعول به.

(٢) قرأ شعبة بضم راء (رُضْوَانٍ)، والباقر بكسرها، وهما لغتان.

(٣) قرأ ابن ذكوان وشعبة وحزمة وخلف العاشر وهشام بخلفه بسكون الراء من (جُرْفٍ)، والباقر بضمها، وهما لغتان.

(٤) صححه الحاكم في «المستدرک» (٥٩٦/٤) وصححه محمود شاكر في تعليقه على الطبري.

ولم يستمر مسجد الضرار إلا ثلاثة أيام، ثم بناؤه يوم الجمعة، وانهار يوم الاثنين. قال تعالى:

١١٠ - ﴿لَا يَزَالُ بُنِنُهُمُ الَّذِي بَنَوْا رِيبَةً فِي قُلُوبِهِمْ إِلَّا^(١) أَنْ تَقَطَّعَ^(٢) قُلُوبُهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾

ولا يزال بناء مسجد الضرار شكًا ونفاقًا ماکثًا في قلوب المنافقين بعد هدمه وإزالته، وهذا معنى: ﴿لَا يَزَالُ بُنِنُهُمُ الَّذِي بَنَوْا رِيبَةً فِي قُلُوبِهِمْ﴾ أي: بعد أن زال البناء، لا تزال دعوة أبي عامر قائمة في قلوب أتباعه تملؤها شكًا ونفاقًا وكفرًا ﴿رِيبَةً فِي قُلُوبِهِمْ﴾ فالريبة ملازمة لهم ما داموا أحياء ﴿إِلَّا أَنْ تَقَطَّعَ قُلُوبُهُمْ﴾ أي: إلى أن تنقطع قلوبهم بموتهم، أو قتلهم، أو بئسهم وتوبتهم، وخوفهم غاية الخوف، وكذا كل من كان على شاكلتهم إلى يوم القيامة.

وفي قراءة (يعقوب): (إلى أن تقطع قلوبهم) بلام الجر وليست إلا الاستثنائية، وهي توضح هذا المعنى.

وعلى قراءة الجمهور بالاستثناء يكون المعنى: لا يزال البناء في قلوب المنافقين موضع ريبة وقلق، إلا في وقت واحد، هو وقت موتهم وهلاكهم، فبعد الموت تنكشف الحقائق ويعرف المصير، وعند ذلك يندمون غاية الندم ويخافون غاية الخوف ﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ﴾ بما عليه المنافقون من الشك وما قصدوه ببنائهم ﴿حَكِيمٌ﴾ في تدبير أمور خلقه.

ويؤخذ من الآيات: أنه يجب هدم المسجد الذي يقصد به مضارة الإسلام وأهله، وأن العمل الفاضل تغيره النية السيئة، وأن كل ما يجمع بين المسلمين طاعة، وما يفرقهم معصية، وأنه لا يصلي في أماكن المعصية، وأن المعصية تؤثر في الأماكن، كما أن الطاعة تؤثر فيها، ويستفاد أيضًا أن كل عمل فيه مضارة للمسلمين، أو فيه معصية لله، أو تفريق بين المؤمنين، أو معاونة لمن حارب الله ورسوله، فإنه عمل محرم وممنوع شرعًا،

(١) قرأ يعقوب (إلا أن) بتخفيف اللام، على أنها حرف جر (إلى أن)، وقرأ الباقون (إلا أن) بتشديد اللام، على أنها حرف استثناء، والمستثنى منه محذوف، أي: لا يزال بنائهم ريبة في كل وقت من الأوقات إلا وقت تقطع قلوبهم، بحيث لا يبقى لها قابلية الإدراك.

(٢) قرأ نافع وابن كثير وأبو عمر وشعبة والكسائي وخلف العاشر، بضم التاء من (تَقَطَّعَ) على البناء للمفعول، مضارع قَطَعَ بالتشديد، و (قلوبهم) نائب فاعل. وقرأ الباقون بفتح التاء، على البناء للفاعل، مضارع تَقَطَّعَ حذف منه إحدى التاءين، و (قلوبهم) نائب فاعل.

والعكس صحيح، وأن العبد المصير على المعصية لا يزال مبعداً من الله حتى يتقطع قلبه ندمًا وحسرة، كما يستفاد أن العمل المبني على الإخلاص والمتابعة هو العمل المؤسس على التقوى، والعمل المبني على الضلال وسوء القصد، هو العمل المؤسس على شفا جرف هار، والأول يوصل إلى جنات نعيم، والآخر يوصل إلى نار جهنم وبئس المصير^(١).

البَيْعُ الرَّابِعُ

١١١- ﴿إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنْ لَهُمُ الْجَنَّةُ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ^(٢) وَعَدًّا عَلَيْهِ حَقًّا فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ وَالْقُرْآنِ وَمَنْ أَوْفَ بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ فَاسْتَبْشِرُوا بِبَيْعِكُمُ الَّذِي بَايَعْتُمْ بِهِ وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿١١١﴾﴾

بدأ الحديث عن المنافقين من قوله تعالى: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا مَالُكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمْ أَنْفِرُوا﴾ وبعد أن ذكرت السورة مختلف أحوالهم، في التخلف عن الجهاد وما أعقبه من ذكر مسجد الضرار، تحدثت هذه الآيات عن حقيقة الجهاد وفضله، فوصف الله عباده المؤمنين المجاهدين، الذين لا يتشاقلون عن الدعوة إلى الجهاد لرفع راية الإسلام، بأنهم قوم باعوا أنفسهم وأموالهم إلى الله تعالى في صفقة رابحة لا يبقى للمؤمن بعدها شيء من نفسه وماله، وهذه الصفقة: المؤمن فيها هو البائع، والله تعالى هو المشتري.

يبيع المؤمن صاحب الصفات المتميزة، نفسه، إلى ربه، وهو خالقها، ويبيع له ماله الذي رزقه إياه، بجنة عرضها السموات والأرض، فالله تعالى قد خلقه ورزقه المال، والله سبحانه هو الذي يشتريها منه فضلاً وكرماً، والثمن هو الجنة وما فيها من النعيم المقيم لمن يُقْتَل أعداء الله، أو يُقْتَل على أيدي أعداء الله.

فما أعظم صفقة؛ المشتري فيها هو الله، والثمن فيه هو الجنة، والسلعة هي النفس والمال.

وهذا العقد مسجل في أكبر الكتب السماوية، في التوراة والإنجيل والزبور والقرآن ﴿وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ قِيلًا﴾ [النساء: ١٢٢] ﴿وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ حَدِيثًا﴾ [النساء: ٨٧].

(١) ينظر: تفسير ابن سعدي للآية.

(٢) قرأ حمزة والكسائي وخلف العاشر (يُقْتَلُونَ وَيُقَاتِلُونَ) ببناء الأول للمفعول، وبناء الثاني للفاعل، وقرأ الباكون ببناء الأول للفاعل وبناء الثاني للمفعول.

فلا أحد أوفى بعهده من الله، والذي كتب العقد وشهد عليه رسول الله ﷺ، فهو وعد مثبت في الكتب السماوية، فأظهروا السرور - أيها المؤمنون - بهذا البيع، فيه الفلاح العظيم لأنه يتضمن السعادة الأبدية والنعيم المقيم.

وهذه الآية نزلت في بيعة العقبة الكبرى، المشتعلة على سبعين رجلاً، وثلاث نسوة، وكان أصغرهم سنًا عقبة بن عمرو، وفيها قال عبد الله بن رواحة لرسول الله ﷺ ليلة العقبة: اشترط لربك ولنفسك ما شئت، فقال: «أشترط لربي أن تعبدوه ولا تشركوا به شيئاً، وأشترط لنفسي أن تمنعوني مما تمنعون منه أنفسكم وأموالكم» قالوا: فما لنا إذا فعلنا ذلك؟ قال: «الجنة» قالوا: ربح البيع، لا نقيلاً، ولا نستقيلاً، فنزلت ﴿إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنْكُمُ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ﴾^(١)

والآية عامة في كل من جاهد في سبيل الله من أمة محمد ﷺ إلى يوم القيامة، فقد وهب الله عباده أنفسهم وأموالهم، ثم أمرهم ببذلها في ذاته، ووعدهم الجنة. وقد اشترى الله من عباده أنفسهم ألا يستعملوها إلا في طاعته، وأموالهم ألا ينفقوها إلا في سبيله، وفي ذلك ترغيب في الجهاد والشهادة بأبلغ وجه.

والمجاهد في سبيل الله يبيع نفسه لله، وله الجنة سواء قُتل أو قُتل، ولهذا جاء في الحديث عن أبي هريرة أن النبي ﷺ قال: «تضمن الله لمن خرج في سبيله، لا يخرجه إلا جهاداً في سبيلي، وإيماناً بي، وتصديقاً برسلي، فهو عليّ ضامن أن أدخله الجنة، أو أرجعه إلى مسكنه الذي خرج منه نائلاً ما نال من أجر أو غنيمة»^(٢).

وذلك لأن المؤمن إذا قاتل في سبيل الله حتى يُقتل، أو أنفق ماله في سبيل الله، عوّضه الله الجنة في الآخرة، جزاءً بما فعل في الدنيا، فجعل ذلك استبدالاً واشتراءً؛ لأن الله هو الخالق للنفس، الرازق للأموال.

قال الحسن: أنفُسًا هو خالقها، وأموالًا هو رازقها، ثم يكافئنا عليها متى بذلناها بالجنة.

(١) يُنظر: ابن سعد (٣/٣٠٩) والطبري (١٤/٤٩٩) و«زاد المسير» (٣/٥٠٤).

(٢) «فتح الباري» (٦/٢٥٤) ورقمه في البخاري (٣٦، ٣١٢٣، ٥٥٣٣، ٧٢٢٦) ومسلم (٣/١٤٩٦) برقم (١٨٧٦)، وهذا لفظه.

ومرّ أعرابي برسول الله ﷺ وهو يقرأ هذه الآية، فقال: بيع والله مُرْبِح، لا نقيله، ولا نستقيله، فخرج إلى الغزوة واستشهد.

وقال جعفر الصادق: ليس لأبدانكم ثمن إلا الجنة، فلا تبيعوها إلا بها.

أي: لا تبيعوها بأدنى منها، والأمر بالجهاد موجود في جميع الشرائع، ومكتوب على جميع أهل الملل.

قال عمر بن الخطاب: إن الله بايعك، وجعل الصفقتين لك.

وقال الحسن: إن الله أعطاك الدنيا فاشترِ الجنة ببعضها.

وقال قتادة: ثامنهم وأعلى الثمن، وقال بعضهم: ناهيك عن بيع البائع فيه المؤمن، والمشتري فيه رب العزة، والثمن فيه الجنة، والصك فيه الكتب السماوية، والواسطة فيه محمد ﷺ.

وليس هناك ترغيب في الجهاد أحسن ولا أبلغ من هذه الآية، فهي تُبرز صورة عقد بين العبد المجاهد وبين رب العزة جلّ وعلا، وثمنه ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر، سواءً أكان العبد قاتلاً للعدو أو مقتولاً لإعلاء كلمة الله ونصرة دينه، وسجّله ربنا في الكتب السماوية، وجعله وعدًا حقًا.

ومن الأحكام التي تؤخذ من قراءة حمزة والكسائي وخلف العاشر ببناء الفعل الأول للمفعول من قوله تعالى: ﴿فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ﴾ أنه يجب على المؤمن أن يكون حريصًا على الاستشهاد في سبيل الله؛ للوصول إلى جنة عرضها السموات والأرض.

وتبيّن الآية على القراءتين أن من المؤمنين من يُقْتَل ومنهم من يُقتل، ومنهم من يُقتل ويقتل معًا.

وهذه القراءة المتواترة في الآية تفيد أن من المسلمين من يُقتل أولاً، فإذا قُتل قتل، كيف يكون هذا؟، يُقتل أولاً، فإذا قُتل قتل غيره؟ تحتاج إلى تأمل وتطبيق معاصر!!

وهذه الحالة من الجهاد، لا تكون إلا إذا لم يكن للمسلمين طريق إلى جهاد عدوهم إلا بمثل هذا، وذلك حينما يكون العدو قويًا والمسلمون ضعفاء، وفي تاريخ المسلمين الأوائل نظائر لهذه الحالة، وهي خاصة بالكفار المحاربين، أما التفجير والخطف ونحوهما في

قوم ليس بيننا وبينهم حرب قائمة وإن كانوا كفارا، فهو من الإفساد في الأرض.

ثم ذكر سبحانه صفات المؤمنين الذين أعد الله لهم هذه البشارة:

تَسْعَةُ أَوْصَافٍ لِأَهْلِ الْجَنَّةِ

١١٢- ﴿التَّائِبُونَ الْعَمَدُونَ الْحَمْدُونَ السَّابِقُونَ السَّاجِدُونَ الْآمِرُونَ بِالْعَمَلِ الصَّالِحِ وَالْكَاثِرُونَ عَلَى الْمُعْصِيَةِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾

وقد وصف الله تعالى أهل الجنة هؤلاء بتسع صفات، وهي صفات أهل الإيمان الكامل، فهم:

١- ﴿التَّائِبُونَ﴾ عن المعاصي وعن كل ما نهى عنه الشريعة، المفارقون للذنوب، المبتعدون عنها، وهم الذين ماتوا على التوبة، تابوا إلى الله من الشرك ومن الكفر، ومن النفاق، ومن كبائر الذنوب وصغارها، وهم الراجعون عما يكرهه الله تعالى، إلى ما يحبه ويرضاه، المفارقون للمعاصي، المتهمون عنها، المستوفون لشروط التوبة، الملازمون لها في جميع الأوقات ولم ينافقوا في الإسلام.

٢- وهم ﴿الْعَمَدُونَ﴾ المطيعون لله الذين أخلصوا له في عبادته، وشَمَرُوا عن ساعد الجد في طاعته تعالى، ليلهم ونهارهم، يؤدون الواجبات والمستحبات، ويستمرون على فعل الطاعات وترك المنهيات والمكروهات.

٣- وهم ﴿الْحَمْدُونَ﴾ المعترفون بنعم الله عليهم، الشاكرون له، الذين يحمدون الله تعالى على كل ما ابتلاهم به من خير أو شر، فهم يحمدونه على السراء والضراء، وفي كل حال من الأحوال، في العسر واليسر، والمنشط والمكره، والخير والشر، ويشنون على الله تعالى، ويذكرونه أثناء الليل والنهار.

عن عائشة رضي الله عنها قالت: كان رسول الله ﷺ إذا أتاه الأمر يسره قال: «الحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات»، وإذا أتاه الأمر يكرهه قال: «الحمد لله على كل حال»^(١).

(١) أخرجه البيهقي في «الشعب» (٤٣٧٥) وصححه الألباني في «السلسلة الصحيحة» (٢٦٥).

٤- وهم ﴿السَّائِحُونَ﴾ أي: الصائمون للفرائض والنوافل.

قال ابن مسعود: السائحون هم الصائمون^(١).

والسائحون هم المتنقلون في الأسفار؛ لطلب العلم، والجهاد، والحج، والعمرة، ونصرة إخوانهم المسلمين، وسائر القرب، والسائحون أيضاً هم: الجائلون بفكرهم في قدرة الله تعالى وملكوته، المتفكرون في خلق السموات والأرض، القائلون: ﴿رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَطْلًا سُبْحَنَكَ﴾ [آل عمران: ١٩١].

وتفسير السياحة بالسفر والتنقل في القربات وطلب العلم أنسب؛ لمناسبة الجهاد.

والأمر بالسير في الأرض للنظر والتدبر والاعتبار، جاء فيه آيات كثيرة منها قوله تعالى: ﴿قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ﴾ [العنكبوت: ٢٠]

والإسلام يحث على السير في مثل قوله تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا﴾ [الحج: ٤٦]

وفي الحديث: «إن سياحة أمتي الجهاد في سبيل الله»^(٢).

فهذه ثلاثة أنواع من السياحة: سياحة بالصيام، وسياحة في طلب العلم والقربات؛ ومنها الجهاد، وسياحة القلب في معرفة الله تعالى ومحبه.

٥- وهم ﴿الرَّاكِعُونَ﴾ أي: الراكعون لله تعالى في صلواتهم المفروضة والمسنونة، بخضوع وخشوع لله ﷻ، والركوع والسجود يعبران عن الصلاة، وهي ركن الإسلام الركين، والمراد أنهم يكثر من الصلاة المشتملة على الركوع والسجود.

٦- وهم ﴿السَّاجِدُونَ﴾ أي: الساجدون لله تعالى في صلواتهم، والمراد: أنهم يجمعون بين الركوع والسجود في صلاتهم، وهو عبارة عن كثرة الصلاة، التي هي طابع مميز لهم من بين الناس.

(١) أخرجه الطبري بسند حسن (١٢/١٢) وعن أبي هريرة وابن عباس موقوفاً بسند صحيح. يُنظر: «تفسير الطبري» (٥٠٣/١٤).

(٢) أبو داود في الجهاد (٢٤٨٦) وصححه الحاكم ووافقه الذهبي (٧٣/٢) وابن أبي حاتم (١٦٦٨) وحسنه الألباني في «صحيح أبي داود» برقم (٢١٧٢) والطبراني (٧٧٦، ٢٧٠٨) وابن أبي حاتم (١٨٨٩/٦).

٧- وهم ﴿الْأَمْرُونَ بِالْمَعْرُوفِ﴾ الذين يأمرون الناس بكل ما أمر الله به ورسوله، ويدعون الناس إلى الهدى والرشاد، وإلى كل ما حسنه الشرع ورغب فيه.

٨- وهم ﴿وَالنَّاهُونَ عَنِ الْمُنْكَرِ﴾ أي: الذين ينهون غيرهم عن كل ما نهى الله تعالى عنه ورسوله، من كل ما ياباه الشرع والعقل السليم، والأمر بالمعروف طلب فعل، والنهي عن المنكر طلب ترك، وهما متلازمان متباينان.

قال جمع من العلماء: إن الواو من ﴿وَالنَّاهُونَ عَنِ الْمُنْكَرِ﴾ واو الثمانية، إيذاناً بأن السبعة التي مضت عدد تام، فهي بدون واو، وما بعدها مستأنف، ونظيرها واو ﴿وَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا﴾ [الزمر: ٧٣] لأن أبواب النار سبعة، وأبواب الجنة ثمانية، ومثلها ﴿وَيَقُولُونَ سَبْعَةٌ وَثَامِنُهُمْ كَلْبُهُمْ﴾^(١) [الكهف: ٢٢].

٩- وهم ﴿وَالْحَافِظُونَ لِحُدُودِ اللَّهِ﴾ أي: المحافظون على شرائعه وأحكامه وآدابه، المتصفون بكل الصفات الحميدة، فهم ممثلون لكل ما أمر الله به، متتهون عن كل ما نهى الله عنه، الذين يؤدّون فرائض الله، ويحفظون حدوده، فيقفون عندها ولا يعتدونها، فيمثلون أمر الله، ويجتنبون نهيه، ويقومون على طاعته، ويتعلمون حدود ما أنزل الله على رسوله، وهذه صفة جامعة للعمل بالتكاليف الشرعية.

أخرج الطبري بسند حسن عن علي بن أبي طلحة عن ابن عباس ؓ قال: الحافظون لحدود الله، هم القائمون على طاعة الله، وهو شرط اشترطه على أهل الجهاد، إذا وفوا الله بشرطه، وفّى لهم بشرطهم.

والحدود تُطلق على الوصايا والأوامر، وتشمل: العبادات، والمعاملات، والأخلاق، والحقوق، والواجبات.

وحقيقة الحفاظ توحى ببقاء الشيء في مكانه.

قال ابن عباس ؓ: لما نزلت الآية التي قبلها، قال رجل: يا رسول الله، وإن سرق، وإن زنى، وإن شرب الخمر، فنزلت هذه الآية^(٢).

(١) يُنْظَرُ «تفسير التحرير والتنوير» (٤٢/١١).

(٢) «زاد المسير» (٥٠٥/٣).

وهذه الأوصاف التسعة: الستة الأولى منها تتعلق بمعاملة الخالق سبحانه، والسابع والثامن يتعلقان بمعاملة المخلوق، والتاسع يشملهما.

وهؤلاء المتصفون بهذه الصفات، الموفون بما عاهدوا الله عليه، يبشرهم ربهم بجنّته ورضوانه ﴿وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ فإن ثواب المتصفين بما ذكر، لا يحيط به الوصف، ولا تحده العبارة، وهذه البشارة تشمل ثواب الدنيا والآخرة بحسب إيمان المؤمن وعمله الصالح.

لَا يَجُوزُ الْإِسْتِغْفَارُ لِغَيْرِ الْمُسْلِمِ

١١٣- ﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَنْ يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوا أُولَىٰ قُرْبَىٰ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ﴾

وبعد أن وصف الله عباده المؤمنين أهل الصفقة الرابعة بهذه الصفات التسع، قطع سبحانه العلاقة بينهم وبين من ماتوا على الشرك والكفر، ولو كانوا أولي قربي في الدم والنسب؛ لاختلاف التوجه واختلاف المصير، فأهل الصّفقة هم أصحاب الجنة، وأهل الكفر هم أصحاب الجحيم، ولا لقاء بين الدنيا والآخرة، فتجب البراءة من أمواتهم كما وجبت من أحيائهم.

وقد بيّن جلّ شأنه، أن الذي يموت مشركاً كافراً لا يجوز للمسلم أن يترحم عليه، أو يدعو له، أو يستغفر الله له، أما الأحياء من غير المسلمين فيجوز الدعاء لهم بالهداية، أما بعد الموت فقد انقطع الرجاء في هدايتهم، فلا معنى للاستغفار لهم، فطلب الرحمة والمغفرة، والدعاء للميت تخص المسلم، ولا يجوز ذلك لمن مات على الكفر والشرك، لأن الدعاء لهم غير مفيد، فقد حقت عليهم كلمة العذاب، ووجب عليهم الخلود في النار، ولم تنفع فيهم شفاعة الشافعين، ولا استغفار المستغفرين، والمؤمنون يوافقون ربهم في رضاه وغضبه، فيوالون من ولاه الله، ويعادون من عاداه الله، والاستغفار لمن يتبين أنه من أصحاب الجحيم مناقض ومناف لهذا المصير.

وفي هذا نسخ للتخيير الوارد في قوله تعالى: ﴿أَسْتَغْفِرُ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرُ لَهُمْ﴾ [التوبة: ٨٠] ومع أن أبا طالب وآمنة أم النبي ﷺ قد ماتا قبل نزول هذه الآية بوقت طويل إلا أن نهْي النبي ﷺ عن الاستغفار لهما كان في وقت لاحق.

أبو طالب مات على غير الإسلام:

عن سعيد بن المسيب عن أبيه قال: لَمَّا حضرت أبا طالب الوفاة، دخل عليه النبي ﷺ وعنده أبو جهل وعبد الله بن أبي أمية فقال: «أي عم، قل لا إله إلا الله، أحاجُّ لك بها عند الله»، فقال أبو جهل وعبد الله بن أبي أمية: يا أبا طالب، أترغب عن ملة عبد المطلب؟ فقال النبي ﷺ: «لأستغفرنَّ لك ما لم أُنه عنك»، فنزلت هذه الآية.

وفي لفظ مسلم: فلم يزل رسول الله ﷺ يعرضها عليه ويعيد له تلك المقالة، حتى قال أبو طالب، آخر ما كلمهم، هو على ملة عبد المطلب، وأبى أن يقول: لا إله إلا الله، فقال: «أما والله لأستغفرنَّ لك ما لم أُنه عنك...»^(١).

لقد همَّ الرجل أن ينطق بكلمة التوحيد، لولا أن جلساء السوء قالوا له: أترك ملة عبد المطلب؟ أترك دين آبائك وأجدادك؟

فما كان منه إلا أن قال: إنه على دين عبد المطلب، بسبب جلساء السوء ﴿وَيَوْمَ يَعَضُّ الظَّالِمُ عَلَى يَدَيْهِ يَقُولُ يَلَيِّنُنِي أَخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَيْلًا﴾ (٢٧) ﴿يَوَلَّيْنِي لَنِي لَأُخَذَ فَلَانًا خَلِيلًا﴾ (٢٨) لَقَدْ أَضَلَّنِي عَنِ الذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَاءَنِي وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِلْإِنْسَانِ خَذُولًا ﴿٢٩﴾ [الفرقان]

وفي أبي طالب أنزل الله الآية المكية ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ﴾ [القصص: ٥٦].

ولما نزلت آية سورة القصص، قال عليه الصلاة والسلام: «سأستغفر له» لأن أبا طالب صاحب يد طولى في نشر الدعوة، وفي حماية ابن أخيه، وظل عليه الصلاة والسلام يستغفر له من نزول الآية المكية في سورة القصص، حتى نزلت هذه الآية، بعد موت أبي طالب ببضع سنوات؛ وذلك لأن أبا طالب قد مات في مكة قبل الهجرة بثلاث سنين.

وآية سورة التوبة هذه من آخر ما نزل بالمدينة، وهي تنهى النبي عليه الصلاة والسلام أن يستغفر لمشرك ولو كان أقرب الناس إليه، وتنهى بعض المؤمنين الذين كانوا يستغفرون لأقاربهم من المشركين قبل نزول هذه الآية، فلما نزلت أمسكوا عن الاستغفار لهم:

(١) البخاري برقم (١٣٦٠، ٤٦٧٥، ٦٦٨١) وفي «فتح الباري» (١٩٢/٨) ومسلم (٥٤/١) برقم (٢٤) والنسائي (٢٠٣٤) والطبري (٢٠/١٢) وأحمد (٥٣٣/٥) برقم (٢٣٦٧٤).

أحاديث في معنى الآية:

١- عن عليٍّ عليه السلام قال: سمعت رجلاً يستغفر لأبويه وهما مشركان، فقلت له: أتستغفر لأبويك وهما مشركان؟ فقال: أو ليس استغفر إبراهيم لأبيه وهو مشرك، فذكرت ذلك للنبي ﷺ فنزلت الآية إلى قوله (تبرأ منه) لما مات^(١).

٢- وعن عليٍّ عليه السلام قال: أخبرني رسول الله ﷺ بموت أبي طالب فبكى، وقال: «أذهب فغسله وكفنه وواراه، غفر الله له ورحمه» وجعل رسول الله ﷺ يستغفر له أياماً، ولا يخرج من بيته حتى نزل عليه جبريل بهذه الآية^(٢).

وفي لفظ (أذهب فواره) فقال علي: إنه مات مشركاً، فقال النبي ﷺ «أذهب فواره» فلما واريته رجعت للنبي ﷺ فقال لي: «اغسل»^(٣).

٣- وأخرج الطبري بسند حسن عن علي بن أبي طلحة عن ابن عباس عليه السلام أنهم كانوا يستغفرون للمشركين حتى نزلت هذه الآية، فلما نزلت أمسكوا عن الاستغفار لأمواتهم، ولم ينههم أن يستغفروا للأحياء حتى يموتوا، ثم أنزل الله ﴿مَا كَانِ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا أَنْ يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوا أُولَىٰ قُرْبَىٰ﴾.

أبو طالب أهون أهل النار عذاباً:

٤- وفي الصحيحين عن أبي سعيد الخدري عليه السلام أن رسول الله ﷺ ذكر عنده عمه أبو طالب، فقال: «لعله تنفعه شفاعتي يوم القيامة، فيجعل في ضحضاح من نار، يبلغ كعبه، يغلي منه أم دماغه»^(٤).

(١) «سنن الترمذي» برقم (٣١٠١) وقال: حديث حسن، وأبو يعلى (٦١٩) والبخاري (٨٩٣) وحسنه الألباني في «صحيح سنن الترمذي» برقم (٢٤٧٧) وهو في «المسند» (٩٩/١) وبصحيح أحمد شاكر برقم (٧٧١) و (١٠٨٥) وحسن إسناده محققو المسند، وصححه الحاكم ووافقه الذهبي، و«المستدرک» (٣٣٥/٢) وابن أبي حاتم في «التفسير» برقم (١٧٠٠) والنسائي (٢٠٣٥) والطبري (١٣٣) وطرقهم متعددة.

(٢) ابن سعد (١٢٣/١) وابن عساکر (٣٣٦/٦٦).

(٣) مسند أحمد عن عليٍّ برقم (٧٥٩) قال محققوه: وإسناده ضعيف، وأخرجه الطبري (١٢٠) وابن أبي شيبة (٣٤٧/٣) وعبد الرزاق (٩٩٣٦).

(٤) «صحيح مسلم» برقم (٢١٠) و«صحيح البخاري» برقم (٣٨٥) و (٦٥٦٤).

وفي رواية: «يغلي دماغه من حرارة نعليه»^(١).

٥- وفي الصحيحين عن العباس بن عبد المطلب عم رسول الله ﷺ قال: قلت: يا رسول الله، ما أغنيت عن عمك؛ فإنه كان يحوطك ويغضب لك؟! قال: «هو في ضحضاح من نار، ولولا أنا، لكان في الدرك الأسفل من النار»^(٢).

٦- وفي رواية للعباس أيضًا قال: قلت: يا رسول الله، إن أبا طالب كان يحوطك وينصرك، فهل نفعه ذلك؟ قال: «نعم، وجدته في غمرات من النار فأخرجته إلى ضحضاح»^(٣).

٧- وفي صحيح مسلم عن ابن عباس ؓ: «أهون أهل النار عذابًا أبو طالب وهو متعل بنعلين يغلي منهما دماغه»^(٤).

فهذه الأحاديث تدل على أن أبا طالب مات على غير الإسلام، وأن آخر كلامه من الدنيا أنه على دين عبد المطلب^(٥) وأنه يعذب في النار، ولا يصح قول من قال: إن الله قد أحيا أبا طالب في قبره فآمن.

أَبَوَا النَّبِيِّ ﷺ مِنْ أَهْلِ الْفِتْرَةِ: وكما منع الله استغفار النبي ﷺ لعمه، فقد منعه كذلك من الاستغفار لأبويه، وكان ذلك في وقت متأخر أيضًا.

ففي صحيح مسلم عن أنس ؓ أن رجلاً قال: يا رسول الله: أين أبي؟ قال: «في النار» فلما قفا، دعاه فقال: «إن أبي وأباك في النار»^(٦).

وهذا محمول على تطيب خاطر الرجل، أو على احتمال معنى آخر، ونحو ذلك؛ لأنهما من أهل الفترة.

أما بالنسبة لأمه ﷺ فقد ورد أن النبي عليه الصلاة والسلام مرَّ بقبر أمه فجلس عندها

(١) «صحيح مسلم» برقم (٢١١).

(٢) «صحيح البخاري» برقم (٣٨٨٣) و«صحيح مسلم» برقم (٢٠٩).

(٣) «صحيح مسلم» برقم (٢٠٩).

(٤) من حديث ابن عباس في «صحيح مسلم» برقم (٢١٢).

(٥) كما في «صحيح البخاري» برقم (٤٦٧٥).

(٦) «صحيح مسلم» برقم (٢٠٣).

واستغفر الله لها، فبكت عيناه رحمة بها^(١).

وأُم النبي عليه الصلاة والسلام ماتت في الفترة، أي: قبل بعثة الرسول ﷺ فهي غير مطالبة بالإيمان بالرسول ﷺ؛ لأنها لم تكن حية عند مبعثه ﷺ وهي ممن تصدق عليهم هذه الآية ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولًا﴾ [إسراء: ١٥] ولعل الدعاء لأهل الفترة لا يجوز؛ لأنهم غير موحددين.

وأهل الفترة قبل بعثة النبي عليه الصلاة والسلام عموماً ينطبق عليهم هذا الحكم الذي في الآية:

١- عن أبي هريرة ؓ قال: زار النبي ﷺ قبر أمه، فبكى وأبكى من حوله، فقال: «استأذنت ربي في أن أستغفر لها فلم يؤذن لي، واستأذنته في أن أزور قبرها فأذن لي، فزوروا القبور فإنها تذكركم الموت»^(٢).

٢- وقال أبو هريرة وبريدة لما قدم النبي ﷺ مكة أتى قبر أمه آمنة، فوقف حتى حميت الشمس، رجاء أن يؤذن له فيستغفر لها فنزلت الآية.

٣- وعن بُريدة ؓ عن رسول الله ﷺ أنه مرَّ بقبر أمه آمنة، فتوضأ وصلى ركعتين، ثم بكى، فبكى الناس لبكائه، ثم انصرف إليهم، فقالوا: ما الذي أبكاك؟ قال: «مررت بقبر أمي فصليت ركعتين، ثم استأذنت ربي أن أستغفر لها، فَتُهِيت، فبكيت، ثم عدتُ فصليت ركعتين، واستأذنت ربي أن أستغفر لها، فزُجرت زجراً، فعلا بكائي» ثم دعا براحله فركبها، فما سار إلا هنيهة، حتى قامت الناقة -أي: وقفت- لثقل الوحي، فنزلت ﴿مَا كَانِ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا﴾ والآية التي بعدها^(٣).

٤- ولفظ الحاكم: أن النبي ﷺ زار قبر أمه في ألف مُقَنَّع، فما رُئي باكيًا أكثر من ذلك اليوم، وإسناده صحيح على شرط مسلم.

(١) كما في «المسند» (٣٥٥/٥) عن ابن بريدة عن أبيه ويأتي ذكره في الحديث الثالث.

(٢) «صحيح مسلم» برقم (٩٧٦).

(٣) الطبري (٥١٢/١٤) وأحمد في «المسند» بنحوه (٣٥٩/٥) برقم (٢٣٠٠٣) بإسناد صحيح على شرط الشيخين و قال محققو «المسند»: (٢٣٠١٧، ٢٣٠٣٨) حديث صحيح، وأخرجه مسلم (٦٧١/٢) برقم (٩٧٧) والنسائي (٢٣٤/٧) وابن حبان (٥٣٩٠) والسيوطي في «الدر المنثور» (٢٨٤/٣) عن ابن مردويه.

٥- وروى الطبري بسنده عن قتادة قال: ذُكر لنا أن رجلاً من أصحاب رسول الله ﷺ قالوا: يا نبي الله، إن من آبائنا من كان يُحسِن الجوار، ويصل الأرحام، ويفكُّ العاني، ويوفِّي بالذمم، أفلا نستغفر لهم؟ فقال ﷺ: «بلى، والله لأستغفرن لأبي كما استغفر إبراهيم لأبيه»، فأنزل الله هذه الآية، وعذر إبراهيم في الآية التي بعدها^(١).

ومعنى الآية: ما كان ينبغي لك يا محمد ﷺ والذين آمنوا أن يدعوا بالمغفرة للمشركين، ولو كانوا ذوي قرابة لهم، من بعدما ماتوا على شركهم، وتبين لهم أنهم أصحاب الجحيم؛ لموتهم على الشرك.

والله تعالى لا يغفر للمشركين كما قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ﴾ [النساء: ٤٨، ١١٨].

وكما قال: ﴿إِنَّكُمْ مَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَهُ النَّارُ﴾ [المائدة: ٧٢]. قال تعالى:

١١٤- ﴿وَمَا كَانَتْ أَسْتَغْفَارُ إِبْرَاهِيمَ^(٢) لِأَبِيهِ إِلَّا عَنْ مَوْعِدَةٍ وَعَدَهَا إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَأَوَّاهٌ حَلِيمٌ﴾

وكان إبراهيم خليل الرحمن، قد دعا أباه إلى التوحيد، وكان إبراهيم قد قوي طمعه في إيمان أبيه، فحمله هذا على الاستغفار له حتى نُهي عنه، وذلك حين قال آزر لإبراهيم: ﴿وَاهْجُرْنِي مِلَّتًا﴾ [مريم: ٤٦] فظن إبراهيم أنه متردد في عبادة الأصنام، وأن هذا بمثابة

(١) الطبري (٢٤/١٢).

(٢) قرأ ابن عامر بخلف عن ابن ذكوان (ابراهيم) في الموضعين، بفتح الهاء وألف بعدها، وقرأ الباقر بكسر الهاء وياء بعدها، وهو الوجه الثاني لابن ذكوان.

الوعد منه بالإيمان، فاعتبره بمنزلة المؤلفة قلوبهم، ووعد بالاستغفار له، لعله يرفض عبادة الأصنام، ثم تبين له بعد موته أنه كان على الشرك، أو تبين له عن طريق الوحي أنه عدو لله، فتبرأ منه^(١).

وكان ذلك لما لم يسمع آزر الدعوة، ولم يستجب لابنه، فوَّعه إبراهيم في نهاية الأمر أنه سيستغفر الله له، قائلًا: ﴿سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّي إِنَّهُ كَانَ فِي حَفِيًّا﴾ [مريم: ٤٧] فنهى الله تعالى في هذه الآية عن الاستغفار للمشركين الذين ماتوا على الشرك والكفر، مهما بلغت درجة القرابة منهم، بعد ما تبين لهم أنهم من أهل النار، وهذا التبيين يكون بموتهم على الشرك والكفر وانقطاع التوبة عنهم، ويكون ذلك عن طريق الوحي بالنسبة للرسول.

ثم بين سبحانه أن العلة والسبب في استغفار إبراهيم لأبيه، هو الوعد الذي وعده إياه، كما قال تعالى: ﴿إِلَّا عَنْ مَوْعِدَةٍ وَعَدَهَا إِيَّاهُ﴾ وهذه الموعدة هي قوله: ﴿سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّي إِنَّهُ كَانَ فِي حَفِيًّا﴾ [مريم: ٤٧] وقد وعده بالاستغفار رجاء أن يسلم، أي: أن استغفار إبراهيم لأبيه كان بسبب هذا الوعد، فلما تبين له أن أباه عدو لله، أي: أنه سيموت كافرًا، ولن يُجدي فيه الوعظ والتذكير، تركه وترك الاستغفار له، وتبرأ منه بعد أن أعلمه الله بذلك، فلا حجة لأحد في استغفار إبراهيم لأبيه؛ لأن ذلك كان من باب الوفاء بالوعد، وكان إبراهيم يطمع في إيمان أبيه، فكان يتألفه بهذا القول.

وكان إبراهيم كثير التضرع إلى الله تعالى، كثير التأوه، فيه رقة وشفقة، كثير الرجعة إلى الله سبحانه، كثير الصفح عما يصدر من قومه من زلات.

وهذه الآية تنمة للآية التي قبلها باعتبار قوله تعالى: ﴿وَلَوْ كَانُوا أُولَىٰ قُرْبَىٰ﴾ فأبو طالب عم النبي ﷺ كما أن آزر والد إبراهيم، وما لا يتبغي لنا لا يتبغي لغيره من الرسل.

وقد ورد أن إبراهيم يتبرأ من أبيه أيضًا يوم القيامة حين يلقاه، وعلى وجهه الغبرة والفترة، فيقول: يا إبراهيم إني كنت قد عصيتك، وإني اليوم لا أعصيك، فيقول: أي رب، إنك وعدتني ألا تخزيني يوم يبعثون؟ فأني أخزي أخزي من أبي الأبعد؟ فيقال: إني حرمت الجنة على الكافرين، ثم يقال: انظر إلى ما وراءك، فإذا هو بذبح متلخخ فيؤخذ

(١) يُنظر: «تفسير التحرير والتنوير» (٤٥/١١) و«تفسير ابن عطية» (٩١/٣).

بقوائمه، ويلقى في النار^(١).

قال علي بن أبي طالب: لما أنزل الله تعالى خبراً عن إبراهيم، وأنه قال لأبيه: ﴿سَلِّمْ عَلَيْكَ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّي﴾ [مريم: ٤٧] سمعتُ رجلاً يستغفر لوالديه، وهما مشركان، فقلت: أتستغفر لأبيك وهما مشركان، فقال: أولم يستغفر إبراهيم لأبيه؟ قال: فأتيت النبي ﷺ فذكرت ذلك له، فأنزل الله ﷻ: ﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ﴾ إلى قوله: ﴿إِلَّا قَوْلَ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ﴾ [المتحنة: ٤] يعني: أن إبراهيم ليس بقدوة في هذا الاستغفار؛ لأنه إنما استغفر لأبيه وهو مشرك، لمكان الموعد الذي وعده أن يسلم، فعليكم أن تتبعوا ملة إبراهيم في كل شيء ﴿إِلَّا قَوْلَ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ﴾. فعلى هذا تكون الهاء في ﴿إِيَّاهُ﴾ راجعة إلى إبراهيم، وأن الوعد كان من أبيه أن يسلم، فوعده إبراهيم بالاستغفار له رجاء إسلامه.

لَا عُقُوبَةَ بِغَيْرِ نَصٍّ

١١٥- ﴿وَمَا كَانَتْ أَلَلَةٌ لِّضَلِّ قَوْمًا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَهُمْ حَتَّىٰ يَبَيِّنَ لَهُم مَّا يَتَّقُونَ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ (١١٥)

والذين استغفروا لأقربائهم المشركين قبل نزول الآية السابقة ندموا وخشوا أن يصيبهم شيء بسبب استغفارهم للمشركين، فبيّن الله سبحانه أنه لا عقوبة بغير نص، ولا جريمة قبل بيان الحكم.

والمعنى: أن الله عذرهم؛ لأنه لا يؤاخذ قوماً فيكتبهم ضاللاً، إلا بعد أن يبين لهم أن ما فعلوه معصية، ومن ثمّ فهو سبحانه لا يؤاخذ المستغفرين للمشركين قبل ورود النهي عن ذلك ﴿وَمَا كَانَتْ أَلَلَةٌ لِّضَلِّ قَوْمًا﴾ أي: يعاقبهم ويؤاخذهم بسبب ضلالهم وبعدهم عن الحق ﴿بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَهُمْ﴾ للإسلام، أي: بعد أن مضى عليهم بالهداية والتوفيق، ﴿حَتَّىٰ يَبَيِّنَ لَهُم مَّا يَتَّقُونَ﴾ الله به، وما يحتاجون إليه من أصول الدين وفروعه.

ومن هداه الله للإسلام يدخل في دائرة الضلال حين يقدم على ما نهى الله عنه، أو

(١) يُنْظَرُ الْحَدِيثُ فِي الْبَخَارِيِّ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ بِرَقْم (٣٣٥٠، ٤٧٦٨، ٤٧٦٩) وَالتَّطَبُّعِي (١٤/٥٢١).

يترك ما أمر الله به .

أي: أن الله تعالى لا يؤاخذ عباده الذين هداهم للإسلام، إلا بعد بيان ما يجب عليهم فعله أو تركه، وقبل ذلك فلا عقوبة ولا مؤاخذة، وما كان الله ليؤاخذكم على ما فعلتم قبل أن ينزل النهي عنه، ويبيّن الله لكم طريق الهداية والتقوى، فمن تركه عوقب، ومن فعله أثيب، وإذا من الله على قوم بالهداية، وأمرهم بسلوك الطريق المستقيم، فإنه تعالى يتمم عليهم إحسانه ببيان جميع ما يحتاجونه، ولا يتركهم ضالين جاهلين بأمور دينهم، وفي هذا دليل على كمال رحمته بعباده .

وإذا بين الله لعباده ما يتقون به فلم يقبلوا، عاقبهم بالإضلال، جزاء لهم على ردهم الحق .

قال الضحاك: وما كان الله ليعذب قومًا حتى يبين لهم ما يأتون ويدرون .

﴿إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ فقد أعلمكم ما لم تكونوا تعلمون، وبيّن لكم ما به تنتفعون، وأقام الحجة عليكم بالبلاغ . قال تعالى:

١١٦- ﴿إِنَّ اللَّهَ لَمَلِكُ الْمَلَكِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ يُحْيِي وَيُمِيتُ وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾

ولمّا قطع الله العلاقة الإيمانية بين المسلمين وغيرهم، وأوجب عليهم التبرّء من عقيدتهم، وعدم الاستغفار لهم، بيّن ﷻ أنه مالك كل موجود، ومتولي أمره، فلا ولاية لهم ولا ناصر، إلا من الله تعالى .

ولذا: فقد ختم الله هذه الآيات ببيان أنه سبحانه المالك لكل شيء، لا شريك له في خلقه، ولا في تدبير شؤونهم ﴿إِنَّ اللَّهَ لَمَلِكُ الْمَلَكِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ وما فيهما وما بينهما، لا شريك له في الخلق، والتدبير، والعبادة، والتشريع ﴿يُحْيِي﴾ من يشاء ﴿وَيُمِيتُ﴾ من يشاء، لا رادّ لقضائه، ولا معقب لحكمه، وليس لكم غير الله من يتولى أموركم، ولا ينصركم على عدوكم .

وفي هذا تحريض وحث لعباده على قتال الكفار والمنافقين، وأن يثقوا بنصر الله لهم ولا يرهبوا أعداءهم .

تُوبَةُ اللَّهِ عَمَّنْ تَخَلَّفَ عَنِ الْغَزْوِ يَوْمَ تَبُوكَ

١١٧- ﴿لَقَدْ تَابَ اللَّهُ عَلَى النَّبِيِّ وَالْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ الْعُسْرَةِ^(١) مِنْ بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ^(٢) قُلُوبَ فَرِيقٍ مِنْهُمْ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ إِنَّهُ بِهِمْ رَءُوفٌ^(٣) رَحِيمٌ﴾

ثم بيّن سبحانه فضله على عباده بتوبته عليهم من الهفوات والزلات التي حدثت من بعضهم حال الاستعداد لغزوة تبوك، فقال تعالى: ﴿لَقَدْ تَابَ اللَّهُ عَلَى النَّبِيِّ﴾.

والتوبة من الله: رجوع بالعبد من حالة إلى ما هو أرفع منها، أي: أن الله تعالى وفق نبيه محمداً ﷺ وأصحابه إلى الإنابة إليه وطاعته.

والتوبة في الأصل: هي التجاوز والصفح، وذكرُ النبي ﷺ في أول الأمر من باب افتتاح الكلام والتبرك، وقد غفر الله لنيبه ما تقدم من ذنبه وما تأخر، ومع ذلك فإن الله تعالى يقول له: ﴿وَأَسْتَغْفِرُ لَذُنُوبِكَ وَالْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ﴾ [محمد: ١٩].

ويجوز أن تكون هذه التوبة عائدة إلى قوله تعالى: في بداية الحديث عن المنافقين، ﴿عَفَا اللَّهُ عَنْكَ لِمَ أَذْنَتْ لَهُمْ﴾ [التوبة: ٤٣] أي: تاب الله على نبيه من إذنه لهم في التخلّف، وهذا من باب ترك الأولى والأفضل في الإذن لهم.

والتوبة تطلق أحياناً، ويراد بها: أن الله تعالى قد عفا عن العبد، وأراد منه اليسير من العمل، سواءً أكان هناك ذنب أم لا، كما قال تعالى: ﴿عَلِمَ أَنْ لَنْ تُحْصَوْهُ فَتَابَ عَلَيْكُمْ﴾ [المزمل: ٢٠] وليس هناك ذنب ولا توبة.

أما توبة الله على المهاجرين والأنصار، فلأجل ما وقع من بعضهم من الميل إلى الزاحاة، وعدم الخروج للجهاد، فقد تاب الله عليهم من التباطؤ والتشاغل عن القتال، فهي توبة من التقصير إلى الطاعة.

(١) قرأ جعفر بضم السين من (العُسرة)، والباقون بإسكانها، وهما لغتان.

(٢) قرأ حفص وحمزة (يزيغ) بياء التذكير، واسم كاد ضمير الشأن وجملة (يزيغ قلوب) خبر كان، وقرأ الباقر بقاء التأنيث، وجاز تأنيث الفعل وتذكيره؛ لأن الفاعل مؤنث غير حقيقي.

(٣) قرأ أبو عمرو، وشعبة وحمزة والكسائي ويعقوب وخلف العاشر، بقصر الهمزة من (رءوف) على وزن (فعل) والباقون بمدّها، على وزن (فعلول).

وهذه التوبة من الذين تبعوه في غزوة تبوك عن طوعية واختيار، وإخلاص لله ورسوله؛ طاعة في الغزو ونصرة في الدين، وكانوا ثلاثين ألفًا بين راكب وماشٍ، وكان الوقت عسيرًا في ضيق اليد وشدة القيظ، ولذا: سمي جيش العسرة، وساعة العسرة.

تاب الله عليهم جميعًا وعفا عنهم، وَعَلِمَ صدق توبتهم، فشرَّفهم بقبولها وأدامها عليهم، ورغَّبهم في تجديدها والاستمرار عليها، من بعدما كاد يميل قلوب بعضهم عن الحق، فيميلون إلى الدَّعة والسكون، بسبب الشدة والمشقة التي نالت بعضهم، لكن الله ثَبَّتَهُمْ وَقَوَّاهُمْ، فصبروا واحتسبوا، وندموا على ما خطر بقلوب بعضهم فتاب عليهم.

ولما كانت الآية مشتملة على فريقين من الناس: فريق تبع النبي ﷺ طوعية ورغبة فيما عند الله من ثوبة، وفريق تبعه بعدما كادت قلوبهم تزيع عن الحق،

وزيغ القلب: انحرافه عن الصراط المستقيم، فإن كان الانحراف في أصل الدين كان كُفْرًا، وإن كان انحراف في الشرائع والفروع، فهو بحسب تلك الشريعة إن كان مبتدعًا أو مقصرًا. وهؤلاء قوم أخلدوا إلى الراحة، ولكن الله ثَبَّتَهُمْ وَقَوَّاهُمْ، فتاب عليهم.

لذا: كرر سبحانه لفظ التوبة في الآية؛ ليفيد أنه تعالى تاب على الفريق الأول توبة مطلقة، وتاب على الفريق الآخر بعدما كاد يميل إلى التخلف عن الجهاد.

﴿إِنَّمَا بِهِمْ رِئُوسٌ رَّجِيمٌ﴾ ومن رحمته تعالى بهم أن منَّ عليهم بالتوبة، وقَبِلَهَا منهم، وثَبَّتَهُمْ عليها، وهو سبحانه رفيق بعباده لا يكلفهم ما لا يطيقون.

سبب النزول: وقد صحت الأحاديث بأسباب النزول لهذه الآية، وأنها تتعلق بتوبة الله تعالى على من تخلف عن الغزو يوم تبوك:

١- أخرج البخاري وغيره في آخر حديث كعب بن مالك: ... إن من توبتي أن أنخلع من مالي صدقة إلى الله ورسوله، فقال النبي ﷺ: «أمسك بعض مالك فهو خير لك»^(١).

٢- وقال في سياق آخر: ... فوالله ما أعلم أحدًا أبلاه الله في صدق الحديث أحسن

(١) «صحيح البخاري» برقم (٤٦٧٦) وفي حديث طويل عند مسلم برقم (٢٧٦٩).

مما أبلاني، ما تعمدتُ -منذ ذكرتُ ذلك لرسول الله ﷺ إلى يومي هذا- كذبًا، وأنزل الله ﷻ على رسوله ﷺ: ﴿لَقَدْ تَابَ اللَّهُ عَلَى النَّبِيِّ﴾ إلى ﴿وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ﴾^(١).

٣- وقال أيضًا: لم أتخلف عن النبي ﷺ في غزوة إلا بدرًا، حتى كانت غزوة تبوك، وهي آخر غزوة غزاها، وأذن بالناس بالرحيل، فذكر الحديث بطوله، وفيه: فأنزل الله توبتنا ﴿لَقَدْ تَابَ اللَّهُ﴾ إلى قوله: ﴿وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾ قال: وفيها نزلت ﴿اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ﴾^(٢).

قال عمر بن الخطاب ؓ: خرجنا مع رسول الله ﷺ إلى تبوك في قيظ شديد، فنزلنا منزلًا أصابنا فيه عطش، حتى ظنننا أن رقابنا ستقطع، حتى إنَّ كان الرجل ليذهب يلتمس الماء، فلا يرجع حتى نظن أن رقبته ستقطع، حتى إنَّ الرجل لينحر بعيه فيعصر فرثه فيشربه، ويجعل ما بقي على كبده، فقال أبو بكر الصديق: يا رسول الله، إن الله ﷻ قد عودك في الدعاء خيرًا، فادع لنا، فقال: «أتحب ذلك؟» قال: نعم، فرفع يديه، فلم يرجعهما حتى سألت السماء فأهطلت ثم سكنت، فملؤوا ما معهم، ثم ذهبنا ننظر فلم نجدها جاوزت العسكر^(٣).

وقد كانت غزوة تبوك في وقت شدة وجذب، وحر شديد، وعُسْر ومشقة، عُسر في الظَّهْر، أي: في وسائل النقل، فكان العشرة من الرجال يتناوبون الركوب على بعير واحد، يركب كل واحد منهم ساعة، ويمشي بقية المدة، وعُسْر في الطعام والزاد؛ لقد تزوَّد الصحابة رضوان الله تعالى عليهم أجمعين، ببعض الشعير المتغير، والتمر الذي لا يخلو من السوس، وكان الرجلان يقتسمان التمرة الواحدة بينهما، وربما مصَّ العدد من الرجال التمرة الواحدة، يمصُّ كل واحد منهم مصَّة، ويشرب فوقها الماء، حتى يأتوا على النواة.

(١) «صحيح البخاري» برقم (٤٦٧٨).

(٢) «صحيح البخاري» برقم (٤٦٧٧).

(٣) الطبري (٥٣٩/١٤) والبيهقي في «الدلائل» (٢٣١/٥) وخرجه الهيثمي في «مجمع الزوائد» (١٩٤/٦) وقال: رواه البزار والطبراني في «الأوسط» ورجال البزار ثقات ورواه ابن خزيمة وابن حبان في الإحسان برقم (١٣٨٣) وفي الموارد برقم (١٧٠٧) والحاكم وصححه (١٥٩/١) ووافقه الذهبي، والضياء المقدسي في «المختارة» برقم (١٦٨) و«كشف الأستار» للبزار (١٨٤١) قال محقق ابن حبان: إسناده صحيح.

وكان في وقت غزوة تبوك عُسر في الماء؛ فكانوا ينحرون البعير ليعصروا فَرثَه (الكرشة) وَيُثْلُوا ريقهم بما يَخْرُج منها.

أمثلة من التبرع لغزوة تبوك: ونظرًا لأن الجندي كان يجهز نفسه بالسلاح والطعام وغيرهما، ولم تكن الدولة تتولى ذلك، فقد دعا النبي ﷺ أصحابه إلى النفقة في سبيل الله للخروج لهذه الغزوة البعيدة نوعًا ما عن المدينة:

١- فجاء أبو بكر بماله كله، فقال له النبي عليه الصلاة والسلام: «ماذا خَلَّفْتَ لأولادك؟» قال: خَلَفْتُ لهم الله ورسوله، ولي عند الله مزيد.

٢- وجاء عمر بنصف ماله، فقال له النبي ﷺ: «ماذا خَلَّفْتَ لأولادك يا عمر؟» قال: خَلَفْتُ لهم نصف مالي، والله عندي مزيد.

٣- وتصدق عبد الرحمن بن عوف بأربعة آلاف درهم، وقال: ما لي إلا ثمانية آلاف، جئتكم بنصفها وأمسكت نصفها، فقال ﷺ: «بارك الله لك فيما أمسكت وفيما أعطيت».

٤- وجهَّز عثمان ثلاث مئة من الإبل بأقتابها وأحلاسها وقال: عليّ مئة أخرى بأحلاسها وأقتابها، وأخذ يضع أموالاً في حجر النبي عليه الصلاة والسلام حتى قال ﷺ:

«اللهم ارض عن عثمان فإنني عنه راض، ما ضرَّ عثمان ما فعل بعد اليوم»^(١).

٥- وجاء بعضهم بما يملك كصاع من تمر ونحوه.

وكان بعض الصحابة يريد الخروج مع النبي ﷺ، ولكنه لم يجد السلاح، ولم يجد الطعام، أو المتاع الذي يتزوَّد به، ومن هؤلاء البكَّاءون السبعة.

ذهب أحدهم إلى المسجد وهو (علبة بن زيد) وأخذ يصلي متهجِّدًا من الليل، ثم ظل يبكي بعد الصلاة، ويقول:

اللهم إنك رَغَبْتَنا في الجهاد، وأمرتْنا بالقتال في سبيلك، ولكني لا أجد السلاح الذي أحمله، ولا أجد الطعام الذي أتزوَّد به.

(١) سبق تخريج كل هذا في سورة البقرة عند الآية (٢٦١) وفي هذه السورة أيضًا عند الآية (٧٩).

اللهم إنك تعلم أنني ذهبت إلى رسولك ليحملني معه، فلم يجد ما يحملني عليه.
 اللهم إني قد تصدقت على كل مسلم لي عنده مظلمة، أو حق في مال، أو جسد، أو
 عَرَض، تصدقتُ عليه بهذه المظلمة، وتنازلت له بحقي عنده.
 لم يجد الرجل ما يفعله من الخير، لِقَصْرِ في ذات يده، إلا أن يتنازل عن حقوقه التي
 عند الناس له.

فلما أصبح وهو بين الناس قال عليه الصلاة والسلام: «أين المتصدق هذه الليلة؟ فلما
 لم يَـقـم أحد، قال: أين المتصدق؟ فليقم، فقام الرجل، وذكر قصته، فقال عليه الصلاة
 والسلام: لقد قُبِلَتْ صدقتُك، وكُتِبَتْ في الزكاة المقبولة».

وبعض الصحابة كان قد تأخر بعض الشيء في الخروج مع رسول الله ﷺ بسبب إعداد
 نفسه للسفر ونحو ذلك، ولما ذُكِرُوا للنبي عليه الصلاة والسلام قال: إن يكن فيهم خيرًا
 فسيلحقهم الله بكم، وإن يكن غير ذلك فقد أراحكم الله منهم.

أبو ذر وأبو خيثمة يلحقان برسول الله ﷺ:

وكان ممن تأخر عن الخروج للغزو أبو ذر، فقد أبطأ به بغيره، فلما لم يجد بغيره صالحًا
 للسفر به، أخذ متاعه وحمله على ظهره، ولحق بالنبي ﷺ ماشيًا يتبع أثره، وبينما هو في
 الطريق، نزل الرسول ﷺ منزلاً يستريح فيه بعض الوقت، فنظر أحد القوم، فوجد رجلًا
 قد حمل متاعه على ظهره، يمشي على الطريق وحده، فقال: يا رسول الله، هذا رجل
 يمشي في الطريق، فقال عليه الصلاة والسلام: «كن أبا ذر» أي: اللهم اجعله أبا ذر، أو
 أن هذا هو أبو ذر، وكانت رؤيته لم تتضح بعد، فلما اقترب منهم وتأملوه وجدوه أبا ذر،
 فقال عليه الصلاة والسلام: «يرحم الله أبا ذر، يمشي وحده، ويموت وحده، ويُبِيعُ وحده».

وهذا صحابي آخر، لقبه أبو خيثمة، رجل من الأنصار، كان له حديقة، فيها عريشان،
 وعنده امرأتان، لكل امرأة منهما عريش، ولم يكن قد خرج مع النبي عليه الصلاة
 والسلام، فلما ذهب إلى حديقته، وقام على باب العريش، وجد المرأتين كلتيهما قد
 أعدتا له الطعام والشراب، ورشّتا له المكان، وأعدّتا له الظل والماء البارد، والمكان
 المهيأ، وتجمّلتا لاستقباله، فنظر إلى امرأتيه وما صنعتا له، ثم قال: أبو خيثمة في ظل

بارد، وماء بارد، وطعام مهياً، وامرأة حسناء، ورسول الله في الشمس والريح والحرب! ما هذا بالنصف، والله لا أدخل عريش واحدة منكما حتى ألحق برسول الله ﷺ فهيئاً لي زاداً، ففعلتاً، ثم ركب بغيره وارتحل، ولحق بالنبى عليه الصلاة والسلام حتى أدركه بتبوك، فلما دنا منه قال الناس: هذا راكب على الطريق مُقبل، فقال رسول الله ﷺ: «كن أبا خيثمة» أي: اللهم اجعله أبا خيثمة، فلما اقترب وتأملوه، قالوا: هو والله أبو خيثمة، ثم أناخ راحلته وسلم على النبي ﷺ وأخبره الخبر، فدعا له بخير^(١).

والذين تخلفوا عن الخروج مع النبي ﷺ كانوا أصنافاً: منهم المنافقون الذين تخلفوا شكاً ونفاقاً وارتياباً وهم الذين قال عنهم القرآن: ﴿سَيَخْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ إِذَا انْقَلَبْتُمْ إِلَيْهِمْ لِيُغَرِّبُوا عَنْهُمْ فَأَعْرِضُوا عَنْهُمْ إِنَّهُمْ رَجِسٌ وَمَؤْنُهُمْ جَهَنَّمُ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿٩٥﴾ يَخْلِفُونَ لَكُمْ لِتَرْضَوْا عَنْهُمْ فَإِنْ تَرْضَوْا عَنْهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَرْضَىٰ عَنِ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ﴾ [التوبة].

وهناك نوع آخر خلطوا عملاً صالحاً وآخر سيئاً، تخلفوا ليس من باب الشك والنفاق، وإنما من باب إثارة الراحة في وقت شدة الحر، وكان منهم أبو لبابة وعشرة من الصحابة ممن شهدوا بدرًا، ولهم سوابق فاضلة في الإسلام، ولما جاء النبي ﷺ اعتذروا إليه، وتابوا إلى الله وقبل الله توبتهم، وهم الذين قال الله فيهم: ﴿وَأَخْرُونَ اعْتَرَفُوا بِذُنُوبِهِمْ خَلَطُوا عَمَلًا صَالِحًا وَآخَرَ سَيِّئًا عَسَىٰ اللَّهُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿١٢٢﴾﴾ [التوبة].

الثَلَاثَةُ الَّذِينَ خَلَفُوا

١١٨- ﴿وَعَلَى الثَّلَاثَةِ الَّذِينَ خَلَفُوا حَتَّىٰ إِذَا صَافَتْ عَلَيْهِمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَصَافَتْ عَلَيْهِمْ أَنْفُسُهُمْ وَظَنُّوا أَنْ لَا مَلْجَأَ مِنَ اللَّهِ إِلَّا إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾
وهناك ثلاثة من الصحابة لهم حالة خاصة من بين الذين تخلفوا عن غزوة تبوك، فهم غير الذين قال الله فيهم: ﴿فَرِحَ الْمُخَلَّفُونَ بِمَقْعَدِهِمْ خَلْفَ رَسُولِ اللَّهِ﴾ [التوبة: ٨١] وغير الذين قال فيهم: ﴿وَجَاءَ الْمُعَذِّرُونَ مِنَ الْأَعْرَابِ لِيُؤْذَنَ لَهُمْ﴾ [التوبة: ٩٠]

(١) تُنَظَرُ القِصَّةُ فِي البُخَارِيِّ (٢٩٥٠): «المسند» (٢٧١٧٥) و«مُصَنَّفُ عَبْدِ الرَّزَاقِ» (١٦٣٩٥، ٩٧٤٤) وَالتِّرْمِذِيِّ (٣١٠٢) وَابْنِ مَاجَةَ (١٣٩٣) وَابْنِ حِبَانَ (٣٣٧٠) وَأَبِي دَاوُدَ (٢٦٣٧) وَالنَّسَائِيَّ فِي «الكبرى» (٥٦١٩) وَ«تفسير الطبري» (١٧٤٤٩) وَغَيْرِهِمْ مِنْ طَرُقٍ مُتَعَدَّةٍ.

وهؤلاء هم الذين قال الله فيهم: ﴿وَأَخْرَجُوا مُرَجَّوْنَ لَأَمْرِ اللَّهِ﴾ [التوبة: ١٠٦]

وهؤلاء الثلاثة لم يقض الله فيهم، ولم يعذّرهم رسول الله ﷺ ولم يُقنّطهم من التوبة، كما حدث للمنافقين، فمعنى تخليفهم: إرجاء أمرهم في قبول عذرهم.

فقد كانوا في حالة يُسر وقوة حين خرج النبي عليه الصلاة والسلام إلى تبوك، ولم يتخلفوا عن رسول الله ﷺ في غزوة غزاها بعد غزوة بدر إلا في غزوة تبوك، ولم يكن لهم عذر في التخلف، ولم يستأذنوا؛ لأنه لم يكن في نيتهم التخلف عن الغزو.

ولذا: فقد أعدّ كل منهم راحلتين للسفر، ولكنهم تأخروا في تجهيز أنفسهم حتى خرج رسول الله ﷺ ويئسوا من اللحاق به فبقوا في المدينة، حتى رجع الرسول ﷺ من تبوك، وكان إذا قدم من سفر بدأ بالمسجد فركع ركعتين، ثم جلس للناس فطفقوا يعتذرون إليه ويحلفون، فيقبل منهم علانيتهم ويستغفر لهم.

ولم يُرد هؤلاء الثلاثة أن يكذبوا، وأبوا إلا الصدق، وآثروا عدم الاعتذار خوفاً من الكذب.

فلما جلس عليه الصلاة والسلام في المسجد بعد العودة من الغزوة، وأقبل عليه نحو ثلاثة وثمانين رجلاً ممن جاؤوا يذكرون أذارهم للنبي عليه الصلاة والسلام.

وهؤلاء الثلاثة هم: كعب بن مالك، ومُرارة بن الربيع، وهلال بن أمية.

قال كعب: فلما رأي رسول الله ﷺ تبسّم تبسّم المغضب، ثم قال: «ما خلّفك يا كعب، ألم تكن قد اشتريتَ ظهرك؟» قال: والله يا رسول الله، لم يكن هناك أحد أقوى مني ولا أيسر حين تخلفت، وأنا رجل أُعطيت فصاحة وبلاغة في القول، ولكنني أخشى أن أحدثك بحديث كذب، ترضى به عني ويسخط الله عليّ، فأثرت العُقبى.

قال عليه الصلاة والسلام: «أمّا هذا فقد صدق، فقم حتى يقضي الله فيك».

وسأل: «إن كان له نظراء؟»، فذكروا له رجلين صالحين ممن شهدا بدرًا: مُرارة، وهلال.

وأمر النبي عليه الصلاة والسلام بمقاطعة هؤلاء الثلاثة فلا يكلمهم أحد، قال كعب: فكنّا نطوف بالأسواق، ونصلي في المساجد، ونُلقي السلام على الناس، فلا يرد علينا أحد.

وبينما هو كذلك؛ إذ جاءه خطاب من ملك غسان، يقول له: بلغنا أن صاحبك، أي:

محمداً عليه الصلاة والسلام قد جفاك، فالحقُّ بنا نُواسك، ولا تقم في ديار لك فيها هوان ومذلة، قال: فقلت وهذا من البلاء الذي ابتلاني به ربي، فوجَّهْتُ وجهي نحو التنور، وألقيت بالكتاب في النار وأحرقته، وضاعت عليهم الأرض بما رحبت على سعتها، وضاعت عليهم أنفسهم.

يقول كعب: كنت أسلم على رسول الله ﷺ بعد الصلاة، فأقول في نفسي: هل حرَّك شفّتيه برد السلام، أم لا، وأسارقه النظر فلا يلتفت إليّ.

يقول كعب: وتنكَّرت لي الأرض، فما هي بالأرض التي نعرف، وتنكَّرت الناس لنا فاجتبنونا، كأنهم لا يعرفوننا.

قال: فلما طال ذلك الهجر، مشيتُ حتى إني تسوّرتُ حائط أبي قتادة، وهو ابن عمه، وأحبُّ الناس إليه، قال: فنزلت عليه، فسلمت، والله ما ردَّ عليّ السلام، فقلت له: يا أبا قتادة، أناشدك الله، هل تعلم أنني أحب الله ورسوله؟ قال: فسكت فناشدته الثانية والثالثة، فقال: الله ورسوله أعلم، قال: ففاضت عينا، وخرجت من عنده.

فلما مضى أربعون ليلة من الخمسين، أرسل عليه الصلاة والسلام يأمر هؤلاء الثلاثة باعتزال زوجاتهم، قال كعب: أطلقها وأفارقها، قال عليه الصلاة والسلام: لا تفعل، ولكن لا تقربها، فقلت لامرأتي: الحقي بأهلك حتى يقضي الله في هذا الأمر.

فجاءت امرأة هلال إلى النبي ﷺ وقالت: إنه شيخ كبير، ليس له خادم فهل أخدمه؟ قال ﷺ: ولكن لا يقربنك، قالت: والله ما به من حركة إلى شيء.

قال كعب: ولم يكن همِّي إلا أن أموت، وأنا على هذه الحالة في منزلة المنافق، فلا يصلي عليّ رسول الله ﷺ كما لم يصل على المنافقين، أو أن يموت رسول الله ﷺ قبل أن يتوب الله عليّ.

وكانت توبة هؤلاء الثلاثة، قد أرجأها الله تعالى خمسين يوماً عن غيرهم ممن تخلفوا ﴿وَأَخْرُوتُ مَرْجُونَ لَأَمْرٍ اللَّهُ إِمَّا يَعْدِبُهُمْ وَإِمَّا يَتُوبُ عَلَيْهِمْ﴾ [التوبة: ١٠٦].

قال كعب: بينما أنا بعد صلاة صبح يوم خمسين، وإذ بي أسمع صوتاً يصيح من فوق جبل سلع: يا كعب، أبشر فقد تاب الله عليك، وهذا الصوت كان أسرع من الفرس الذي

ركبه أحدهم؛ ليشهره بقبول توبته.

قال: فخررت ساجدًا، شكرًا لله سبحانه الذي قبل توبتي، فلما وصل إليَّ صاحب الصوت نزعْتُ ثوبيَّ وأعطيتُهما له ببشارته لي أن الله قد تاب عليَّ، قال: والله لا أملك غيرهما، واستعرت ثوبين ولبستهما، وجئت رسول الله ﷺ فلما رآني تهلل وجهه من الفرح، وهو يقول: «يا كعب، أبشر بخير يوم مرَّ عليك منذ ولدتك أمك».

قال كعب: يا رسول الله، لقد نجاني الله بالصدق، ولئن عشت ما بقيت، لا أحدث حديثًا إلا وهو صدق، ثم قال يا رسول الله: إن من توبتي أن أنخلع من مالي صدقة لله، فقال: «أمسك عليك بعض مالك فهو خير لك»^(١).

قال كعب: والله ما أنعم الله عليَّ من نعمة قط بعد أن هداني الله للإسلام، أعظمُ في نفسي من صدق رسول الله ﷺ ألا أكون كذبتُه فأهلك كما هلك الذين كذبوا.

ومعنى الآية: وكذلك تاب الله على الثلاثة الذين خُلّفوا من الأنصار، وهم: كعب بن مالك، وهلال بن أمية، ومُرارة بن الربيع، تخلفوا عن رسول الله ﷺ وحزنوا حزنًا شديدًا، حتى إذا ضاقت عليهم الأرض بسبب ما هم فيه من الغم والندم، على سعتها ورحابتها، وضائق عليهم أنفسهم لما أصابهم من النكد والهم، وأيقنوا ألا ملجأ ولا منجى منه إلا إليه ﴿ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوا﴾ حيث وفقهم إلى الطاعة والرجوع إلى ما يرضي الله ورسوله ﴿إِنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ﴾ على عباده ﴿الرَّحِيمُ﴾ بهم. قال تعالى.

١١٩ - ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ﴾

ونظرًا لأن قصة الثلاثة الذين خُلّفوا اشتملت على الصدق، بعد ذُكر من كذب واختلق المعاذير، وذُكر من خرج مجاهدًا، ولم يتخلف، فقد أمر الله المؤمنين جميعًا بالصدق في القول والعمل، ففيه النجاة من النار، والفوز بالجنة.

فيا من أقررتم وصدّقتُم بالله ربًّا، واقتديتم برسوله، راقبوا الله واحذروه في كل ما

(١) تُنظر قصة الثلاثة الذين خلفوا في: في البخاري مختصرًا (٢٧٥٧، ٢٩٥٠، ٣٠٨٨) ومسلم (٢١٢١/٤)

برقم (٧١٦، ٢٧٦٩) ومسند أحمد (٤٥٦/٣) برقم (٢٧١٧٥) و«فتح الباري» (١٩٣/٨) والطبري (٥٤٤/٤).

تفعلون وما تتركون، وكونوا صادقين في أيمانكم وعهودكم، وأقوالكم وأفعالكم وكل شأن من شؤونكم؛ فإن الصدق يهدي إلى البر، والبر يهدي إلى الجنة، وإياكم والكذب؛ فإنه يهدي إلى الفجور، والفجور يهدي إلى النار، قال تعالى ﴿هَذَا يَوْمُ يَنْفَعُ الصَّادِقِينَ صِدْقُهُمْ﴾ [المائدة: ١١٩]. وقد خُتِمت الآيات بهذه الآية؛ لأن أحداث الغزوة:

- ١- تشتمل على ذُكر قوم اتقوا الله وصدقوا في إيمانهم، وجهادهم، فرضي الله عنهم.
- ٢- وتشتمل على ذُكر قوم كذبوا في تخلفهم، واختلقوا الأعذار، وحلفوا كذباً فغضب الله عليهم.
- ٣- وتشتمل على ذُكر قوم تخلفوا عن الجهاد وصدقوا في الاعتراف بعدم العذر، فتاب الله عليهم وكانوا في عداد الصادقين.

عن عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنه قال: قلنا: يا نبي الله، مَنْ خير الناس؟ قال: «ذو القلب المخموم، واللسان الصادق»، قلنا: قد عرفنا اللسان الصادق، فما القلب المخموم؟ قال: «التقيُّ النقيُّ الذي لا إثم فيه، ولا بغي ولا غل ولا حسد» قلنا: يا رسول الله، فمَنْ على أثره؟ قال: «الذي يشأ -أي: يبغض- الدنيا ويحب الآخرة» قلنا: ما نعرف هذا فينا إلا رافع، مولى رسول الله ﷺ فمَنْ على أثره؟ قال: «مؤمن في حُسْن خُلُق» قلنا: أما هذه ففينا^(١).

لِلْقَاعِدِ أَجْرُ الْمُجَاهِدِ لَوْ شَارَكَهُ فِي النِّيَّةِ

١٢٠- ﴿مَا كَانَ لِأَهْلِ الْمَدِينَةِ وَمَنْ حَوْلَهُمْ مِنَ الْأَعْرَابِ أَنْ يَتَخَلَّفُوا عَنْ رَسُولِ اللَّهِ وَلَا يَرْغَبُوا بِأَنْفُسِهِمْ عَنْ نَفْسِهِ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ لَا يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ وَلَا نَصَبٌ وَلَا مَخَصَةٌ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَطْئُونَ^(٢) مَوْطِئًا^(٣) يَغِيظُ الْكُفَّارَ وَلَا يَنَالُونَ مِنْ عَدُوِّ نَيْلًا إِلَّا كَيْبَ لَهُمْ بِهِ عَمَلٌ صَالِحٌ إِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ

(١) صحيح «سنن ابن ماجه» (٣٣٩٧) والحكيم الترمذي (١٨/٢) والبيهقي (٦٦٠٤).

(٢) قرأ أبو جعفر (ولايطون) بحذف الهمزة وضم الطاء، وقرأ الباقر بفتح الطاء وإثبات الهمزة، ولحمزة عند الوقف عليها وجهان: الأول: كأبي جعفر، والثاني: تسهيل الهمزة بَيْنَ بَيْنَ.

(٣) قرأ أبو جعفر بخلف عنه بإبدال الهمزة ياء من (موطئا) ومثله حمزة عند الوقف، وباقي القراء بإثبات الهمزة وصلًا ووقفًا، ومعهم أبو جعفر في وجهه الآخر.

هذه الآية فيها معاتبه للمؤمنين من أهل المدينة، وقبائل العرب المجاورين لها على تخلفهم عن رسول الله ﷺ في غزوة تبوك، وينطبق هذا على جهاد الدفع والطلب، فلا يصح ولا ينبغي لأحد أن يتخلف عن القتال مع قائد المسلمين، ويجب عليه أن يكره له ما يكرهه لنفسه، بل يجب عليهم أن يفدونه بأنفسهم وأموالهم، وقد بين الله سبحانه أن الجهاد في سبيل الله في النفير العام يكون فرض عين، حين يخرج الرسول عليه الصلاة والسلام في حياته بنفسه.

وحين يخرج الحاكم المسلم بعد وفاة الرسول ﷺ للقتال، ويستنفر الناس جميعاً للجهاد؛ بسبب عدوان وقع على بلد من بلاد المسلمين، ففي هذه الحالة لا يجوز التخلف عن الجهاد، ويجب إجابة داعي الجهاد بالنفس والمال، بالنسبة لمن تتوافر فيه الشروط وفق تنظيمات الدول العسكرية، وذلك بعد أن أصبح هناك وزارات للدفاع تشمل قوات جوية وبرية وبحرية، فلم يعد الجهاد فردياً بعد أن ازداد الناس، واتسعت الرقعة الإسلامية، وكثر أعداد المسلمين.

ولا ينبغي التخلف عن جهاد العدو، سواء أكان القتال لدفع العدو وردعه، أم كان لنشر الدعوة، ومنع الوقوف في وجهها ووصولها للناس، أو منع صدهم عنها، وهذا النفير يشمل القريب والبعيد من المسلمين في البلد المعتدى عليها، فلا ينبغي أن يتخلف منهم أحد ﴿مَا كَانَ لِأَهْلِ الْمَدِينَةِ وَمَنْ حَوْلَهُ مِنَ الْأَعْرَابِ﴾ من سكان البادية والقبائل المجاورة لا ينبغي لهم ﴿أَنْ يَتَخَلَّفُوا عَنْ رَسُولِ اللَّهِ﴾ ويبقوا في دُورهم وأهليهم ﴿وَلَا يَرْغَبُوا بِأَنْفُسِهِمْ عَنْ نَفْسِهِ﴾ أي: ألا يؤثروا أنفسهم بالراحة، ويفضّلوها على رسول الله ﷺ، فالنبي أولى بالمؤمنين من أنفسهم، بل عليهم أن يفدوه بالمُهَج والأرواح ولا يُفْتَنُوا بأنفسهم، ويؤثروها على قائد المعركة الذي جاد بنفسه وماله في سبيل الله.

ثم ذكر سبحانه الثواب الحامل للمجاهدين على الخروج للجهاد فقال: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ لَا يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ﴾ عطش ﴿وَلَا نَصَبٌ﴾ تعب ومشقة ﴿وَلَا مَخْمَصَةٌ﴾ مجاعة تجعل البطون خامصة، أي: ضامرة ﴿فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ لجهاد أعدائه، وإعلاء كلمة الحق ﴿وَلَا يَطْعُونَ مَوْطِئًا يَغِيظُ الْكُفَّارَ﴾ أي: يتزلون منزلاً يُرْهب العدو، ويؤذيه، ويغيظه، ويزعجه سواء بأرجلهم أم على الدبابات، أو الطائرات، وغيرها ﴿وَلَا يَتَأَلَوْنَ مِنْ عَدُوٍّ نِيلاً﴾ يصيبون منه قتلى، أو

أسرى، أو متاعاً ﴿إِلَّا كُتِبَ لَهُم بِهِ عَمَلٌ صَالِحٌ﴾ لأن هذه الآثار ناشئة عن أعمالهم.

وهكذا أمر الله المسلمين أن يصبروا على البأساء والضراء، وأن يكابدوا الأهوال والشدائد في جهاد العدو برغبة وجدّ ونشاط واعتباط، ولهم بكل ذلك أجر ومثوبة أعدها الله لهم؛ حتى لا يحرموا من فضل الجهاد، ومن الثواب والأجر عليه، فما من ظمأ يصيبهم، أو تعب، أو مشقة تلحقهم، أو مجاعة تحصل لهم، أو أرض ينزلونها بأنفسهم وعُدَّتْهم، من أرض العدو، فيُعْضِبُونَهُ وَيَذْلُونَهُ، أو نفقة ينفقونها في سبيل الله، قلَّت أو كَثُرَتْ، أو وادٍ يقطعونه في السير إلى العدو، أو غير ذلك، إلا كتب الله لهم بكل عمل من الأعمال السابقة عملاً صالحاً ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ﴾ بل يشيهم، ويجازيهم عليه:

أحاديث في معنى الآية:

١- ولذلك: فإن النبي ﷺ يقول في حديث أبي هريرة ؓ: «لولا أن أشق على أمتي ما قعدت خلاف سرية تغزو في سبيل الله أبداً»^(١).

أي: لولا أن يكون في هذا مشقة على الأمة لشاركت في كل سرية، وخرجت مع كل جماعة تقاتل في سبيل الله.

٢- في صحيح البخاري وغيره عن أبي هريرة ؓ أن رسول الله ﷺ قال: «والذي نفسي بيده، لولا أن رجالاً من المؤمنين لا تطيب أنفسهم أن يتخلفوا عني، ولا أجد ما أحملهم عليه، ما تخلفت عن سرية تغزو في سبيل الله، والذي نفسي بيده، لوددت أن أقتل في سبيل الله، ثم أحيأ ثم أقتل، ثم أحيأ، ثم أقتل، ثم أحيأ، ثم أقتل»^(٢).

٣- وعن جابر ؓ قال: كنا مع النبي ﷺ في غزاة فقال: «إن بالمدينة لرجالاً ما سرتهم مسيراً، ولا قطعتم وادياً، إلا كانوا معكم، حبسهم المرض»^(٣).

(١) جزء من حديث أبي هريرة في «صحيح البخاري» (٣٦، ٢٧٨٧، ٥٥٣٣) وفي «صحيح مسلم» جزء من حديث (١٨٧٦) وفيه اللفظ المذكور.

(٢) «صحيح البخاري» برقم (٢٧٩٧) وهذا لفظه و«صحيح مسلم» برقم (١٨٧٦) مطولاً.

(٣) «صحيح مسلم» برقم (١٩١١).

٤- وعن سهل بن أبي أمامة بن سهل بن حنيف عن أبيه عن جده أن النبي ﷺ قال: «من سأل الله الشهادة بصدق، بَلَغَهُ الله منازل الشهداء، وإن مات على فراشه»^(١).

٥- وعن أنس بن مالك ؓ أن رسول الله ﷺ قال: «من طلب الشهادة صادقاً أعطيتها ولو لم تصبه»^(٢). قال تعالى:

١٢١- ﴿وَلَا يُنْفِقُونَ نَفَقَةً صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً وَلَا يَقْطَعُونَ وَادِيًا إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ لِيَجْزِيَهُمُ اللَّهُ أَحْسَنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾^(٣)

أي: ولا يتصدق المتصدقون بصدقة صغيرة؛ كالتمرة، ونحوها، ولا نفقة كبيرة كما فعل عثمان بن عفان، وعبد الرحمن بن عوف، وغيرهما، ممن تصدَّق بالكثير ﴿وَلَا يُنْفِقُونَ نَفَقَةً﴾ في سبيل الله، وابتغاء وجهه ﴿صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً﴾ تمرّة فما فوقها، مهما قلّت هذه النفقة أو كثرت، ففي الحديث: «اتقوا النار ولو بشق تمرّة»^(٣).

﴿وَلَا يَقْطَعُونَ وَادِيًا﴾ من الأودية، أو طريقاً من الطرق في ذهابهم إلى العدو.

والوادي: ما كان بين جبلين سواء أكان فيه ماء أم لا، فلا يجتازون للجهاد في سيرهم أرضاً ذهاباً وإياباً، ولا يعبرون بحرًا من البحار، أو يرتفعون فوق قمة جبل، أو يختبئون في نفق أو مغارة ﴿إِلَّا كُتِبَ لَهُم﴾ أي: كتب الله لهم أجر آثارهم وخطواتهم في غدوهم ورواحهم ﴿لِيَجْزِيَهُمُ اللَّهُ أَحْسَنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ أي: يُعْطَوْنَ أفضل الأجر وأعظم المثوبة على أعمالهم الصالحة؛ إذا أخلصوا لله فيها، واحتسبوا لما يصيبهم في سبيل الله، ونصحوا لله والرسول.

أحاديث في معنى الآية:

١- كما في الحديث عن سهل بن سعد الساعدي أن رسول الله ﷺ قال: «رباط يوم في سبيل الله خير من الدنيا وما عليها، وموضع سوط أحدكم من الجنة خير من الدنيا وما

(١) «صحيح مسلم» برقم (١٩٠٩).

(٢) «صحيح مسلم» برقم (١٩٠٨).

(٣) جزء من حديث عدي بن حاتم في «صحيح مسلم» برقم (١٠١٦) و«صحيح البخاري» برقم (٦٥٣٩، ٦٥٤٠).

عليها، والروحة يروحها العبد في سبيل الله أو الغدوة خير من الدنيا وما عليها»^(١).

٢- وفي الصحيحين عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «تضمّن الله لمن خرج في سبيله، لا يخرجه إلا جهاد في سبيلي، وإيماناً بي، وتصديقاً برسلي، فهو عليّ ضامن أن أدخله الجنة، أو أرجعه إلى مسكنه الذي خرج منه، نائلاً ما نال من أجر أو غنيمة، والذي نفس محمد بيده، ما من كَلِمٍ يُكَلِّمُ في سبيل الله، إلا جاء يوم القيامة كهيئته يوم كَلِّم، لونه دم، وريحه مسك، والذي نفس محمد بيده، لولا أن أشق على المسلمين ما قعدت خلاف سرية تغزو في سبيل الله أبداً، ولكن لا أجد سعة فأحملهم، ولا يجدون سعة، ويشق عليهم أن يتخلفوا عني، والذي نفس محمد بيده: لوددت أن أغزو في سبيل الله فأقتل، ثم أغزو فأقتل، ثم أغزو فأقتل»^(٢).

٣- وفي البخاري عن عبد الرحمن بن جبير أن رسول الله ﷺ قال: «ما اغبرّت قدما عبد في سبيل الله فتمسه النار»^(٣).

٤- وفي الحديث عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «من مات ولم يغز، ولم يحدث نفسه بغزو، مات على شعبة من نفاق»^(٤).

النَّفِيرُ الْخَاصُّ

١٢٢- ﴿وَمَا كَانَتِ الْمُؤْمِنُونَ لِیَنْفِرُوا كَافَّةً فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَائِفَةٌ لِّیَتَفَقَّهُوا فِي الدِّینِ وَلِیُنذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَیْهِمْ لَعَلَّهُمْ یَحْذَرُونَ﴾ (١٢٢)

أي لا ينبغي أن يخرج المؤمنون جميعاً لقتال عدوهم، فهلاً خرج من كل بلد طائفة تحصل بها الكفاية وتبقى طائفة أخرى ليتفقهوا في الدين، ويتعلموا العلم الشرعي، ليُعلموا قومهم أسرار الشريعة إذا رجعوا إليهم من الغزو، لعلمهم يحذرون عدوهم ويخافون وقائع الدهور.

(١) «صحيح البخاري» برقم (٢٨٩٢) و«صحيح مسلم» برقم (١٨٨١).

(٢) «صحيح مسلم» برقم (١٨٧٦) و«صحيح البخاري» برقم (٢٧٨٧، ٥٥٣٣).

(٣) «صحيح البخاري» برقم (٢٨١١) وبنحوه برقم (٩٠٧).

(٤) من حديث أبي هريرة في «صحيح مسلم» برقم (١٩١٠).

(٥) لا خلاف بين القراء في تفخيم راء (فرقة)؛ لوقوع حرف الاستعلاء بعدها مفتوحاً.

قال قتادة في هذه الآية: هذا إذا بعث رسول الله ﷺ الجيوش، أمرهم الله ألا يغزوا جميعاً مع نبيه، وتقيم طائفة مع رسول الله ﷺ تتفقه في الدين، وتنطلق طائفة تدعو قومها، وتحذرهم وقائع الله فيمن خلا قبلهم^(١).

سبب النزول:

١- وجاء في سبب نزول هذه الآية أن النبي ﷺ لما بالغ في الكشف عن عيوب المنافقين، وفصحهم في التخلف عن غزوة تبوك، قال المسلمون: والله لا نتخلف عن رسول الله ﷺ، ولا عن سرية بعثها، فلما قدم ﷺ المدينة من تبوك وبعث السرايا أراد المسلمون أن ينفروا جميعاً للغزو، وأن يتركوا النبي ﷺ وحده، فنزلت هذه الآية^(٢).

٢- وذلك أن أهل البادية لما سمعوا قول الله تعالى في الآية السابقة: ﴿مَا كَانَ لِأَهْلِ الْمَدِينَةِ وَمَنْ حَوْلَهُمْ مِنَ الْأَعْرَابِ أَنْ يَتَخَلَّفُوا عَنْ رَسُولِ اللَّهِ﴾ تحولوا جميعاً إلى المدينة مخافة أن يكونوا مذنبين في التخلف عنه، وقال بعضهم: هلك أهل البوادي، فكانت هذه الآية؛ لإقامة العذر لهم^(٣).

٣- وقال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس ؓ: ما كان المؤمنون لينفروا جميعاً، ويتركوا النبي وحده، فإذا رجعت السرايا وقد نزل بعدهم قرآن، تعلّمه القاعدون من النبي ﷺ قالوا: إن الله قد أنزل على نبيكم قرآنًا وقد علّمناه، فتمكث السرايا يتعلمون ما أنزل الله على نبيهم بعدهم، ويبعث سرايا أخرى؛ ليتعلموا ما أنزل الله على نبيهم، وليعلموا السرايا إذا رجعت إليهم.

وهذه الآية من النفي الخاص في حالة إرسال السرايا؛ لدفع العدوان، أو نشر الدعوة، وهو يمثل حالات الجهاد التي هي فرض كفاية على الأمة في كل زمان ومكان؛ لرد العدوان اليسير الذي لا يتطلب النفي العام مثل: إزالة العوائق اليسيرة التي تكون في مواجهة الدعوة، أو مساعدة الأقليات المسلمة في دفع العدوان عنهم وشدّ أزرهم.

(١) «تفسير ابن كثير» (٢٣٦/٤).

(٢) حاشية الجمل على «الجلالين» (٣٢٩/٢) والواحدي (٢٢٢) والسيوطي (١٥٢) و«زاد المسير» (٥١٦/٣).

(٣) يُنظر: «تفسير ابن عطية» (٩٦/٣).

ففي مثل هذه الحالات يخرج أعداد من المجاهدين لقتال العدو، وتبقى أعداد أخرى لرعاية شؤون البلاد ومصالح العباد، وللتفقه في الدين وطلب العلم.

ولما فضحت الآيات السابقة المنافقين الذين تخلفوا عن رسول الله في غزوة تبوك، عزم المؤمنون على عدم التخلف عن داعي الجهاد بعد ذلك في أية غزوة أو سرية، فكان النبي عليه الصلاة والسلام إذا أرسل سرية خرج المسلمون جميعًا للجهاد، من أهل المدينة وأهل البوادي وتراحموا في المدينة؛ ليكونوا رهن إشارة النبي ﷺ للخروج، خوفًا مما حدث في غزوة تبوك، فتكون النتيجة أنهم يَخْرُجُونَ للجهاد، وينقطعون جميعًا عن التفقه في الدين، فأنزل الله سبحانه ﴿وَمَا كَانُوا الْمُؤْمِنُونَ لِيَنْفِرُوا كَافَّةً﴾ أي: وما ينبغي للمؤمنين أن يخرجوا جميعًا لقتال عدوهم دون أن يبقى منهم أحد، كما أنه لا ينبغي لهم أن يقعدوا جميعًا عن القتال، حتى يجمع المسلمون بين مصلحة الدفاع عن الدين بالحجة والبرهان ومصلحة الدفاع عنه بالسيف والسنان.

فهلّا خرج للجهاد من كل فرقة منهم جماعة تحصل بهم الكفاية ويؤدون المهمة، وتبقى طائفة أخرى تتفقه في الدين؟

والفرقة أكثر عددًا من الطائفة؛ وذلك لكي تتفقه الجماعة الباقية في الدين والعلم بما أنزل الله على رسوله ﷺ فإذا رجعت الطائفة التي خرجت للجهاد، فإنها تتعلم وتتفقه من الجماعة القاعدة، فيعلمونهم ويخوفونهم عذاب الله، ويبشرونهم جنته، حتى يمثلوا أمره ويجتنبوا نهيه.

فعلى المسلمين في كل زمان ومكان أن ينقسموا إلى قسمين: قسم يخرج للجهاد، وقسم يبقى لطلب العلم، وحفظ الأمن الداخلي، ورعاية شؤون العباد.

وعلى هذا فضمير ﴿لِيَنْفَقَهُوا﴾ يعود على ﴿الْمُؤْمِنُونَ﴾ في أول الآية، فالطائفة التي لم تنفر للجهاد هي التي تتفقه في الدين.

وكلمة ﴿نَفَرَ﴾ تشمل النفر للجهاد، وتشمل النفر لطلب العلم والتفقه في الدين.

وعلى هذا فيصح أن يكون الضمير في كلمة ﴿لِيَنْفَقَهُوا﴾ عائداً على ﴿طَائِفَةٍ﴾ فيكون المراد أيضًا: أن الطائفة التي لم تخرج للجهاد هي التي تتفقه في الدين، فالمؤدّي واحد.

ولسنا مع القول بأن الطائفة التي خرجت للغزو هي التي تتفقه في الدين كما قال بعضهم^(١).
وفي الحديث عن معاوية أن رسول الله ﷺ قال: «من يُرد الله به خيراً يفقهه في الدين»^(٢).

و«خيار الناس في الجاهلية خيارهم في الإسلام إذا فقهوا».

و«طلب العلم فريضة على كل مسلم».

و«من سلك طريقاً يلتمس فيه علماً سهل الله له به طريقاً إلى الجنة».

و«من خرج في طلب العلم فهو في سبيل الله حتى يرجع».

ويؤخذ من الآية وجوب طلب العلم والتفقه في الدين، وتعليم الناس إياه، ويؤخذ أيضاً أن الجهاد فرض كفاية في الأحوال العادية، وأن تركه فرض متعين على طائفة تكفي لتحصيل المقصد الشرعي منه لتعلم العلم وتعليمه.

الشَّدَّةُ فِي قِتَالِ الْعَدُوِّ لَا تَغْنِي الْهَمَجِيَّةُ

١٢٣- ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قَاتِلُوا الَّذِينَ يَلُونَكُمْ مِنَ الْكُفَّارِ وَلْيَجِدُوا فِيكُمْ غِلْظَةً وَعَلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ﴾

هذه الآية موجّهة للمؤمنين توجب عليهم حمل لواء الإسلام، ونشر الدعوة في أصقاع العالم، بعد -وفاة الرسول ﷺ- بالحكمة، والموعظة الحسنة، وجدال المعاندين بالحسنى، فإن حالوا بيننا وبين الدعوة وجب أخذهم بالشدة والغلظة، ولا يُكره الإسلام أحداً على الدخول فيه، ولكنه يأمر بدفع الصائل ورد العدوان، ومقاتلة من يصد عن سبيل الله، ويحول دون وصول الدعوة إلى الناس، ومن توجيهات الإسلام ألاّ نتمنى لقاء العدو، وأن نسأل الله العفو والسلامة، فإن كان ولا بدّ من لقائه فلنصبر ولنحتسب، فالجنة تحت ظلال السيوف، كما في حديث أبي هريرة ؓ أن رسول الله ﷺ قال: «لا تتمنوا لقاء العدو، فإذا لقيتموهم فاصبروا»^(٣).

(١) وهو الأستاذ سيد قطب رحمه الله في كتابه «في ظلال القرآن» عند تفسير الآية.

(٢) من حديث معاوية بن أبي سفيان في «صحيح مسلم» برقم (١٠٣٧) والبخاري برقم (٣١١٦).

(٣) «صحيح مسلم» برقم (١٧٤١) و«صحيح البخاري» برقم (٣٠٢٦) معلقاً.

وعن عبد الله بن أبي أوفى رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ كان في بعض أيامه التي لقي فيها العدو ينتظر، حتى إذا مالت الشمس، قام فيهم فقال: «يا أيها الناس، لا تتمنوا لقاء العدو، واسألوا الله العافية، فإذا لقيتموهم فاصبروا، واعلموا أن الجنة تحت ظلال السيوف»، ثم قام النبي ﷺ وقال: «اللهم منزل الكتاب، ومُجْرِي السحاب، وهازم الأحزاب، اهزمهم وانصرنا عليهم»^(١).

الفتوحات الإسلامية: وفي هذا الإطار يأمر الإسلام بقتال الكفار والمشركين المجاورين لنا، الأقرب فالأقرب من الأعداء المحاربين الذين يحولون دون وصول دعوة الإسلام إلى الناس كافة، وذلك بأن تفتح البلاد فتحًا إسلاميًا، الأقرب منها فالذي يليه ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَآمَنُوا فَنَذِلُوهَا كَالَّذِينَ كَفَرُوا﴾ من أعداء الله الذين لم يدخلوا في الإسلام، ولم يتركوا غيرهم للدخول فيه، ولهذا بدأ الرسول ﷺ بقتال المشركين في جزيرة العرب، وبعد أن دخل سائر أحياء العرب في دين الإسلام، وفتحت مكة، والمدينة، والطائف، واليمن، واليمامة، وهجر، وخيبر، وحضرموت، وغيرها من الجزيرة، توجه الرسول ﷺ لغزو الروم في تبوك، فهم الذين يُلُون الجزيرة، وكان ذلك سنة تسع للهجرة.

وفي السنة العاشرة انشغل ﷺ بحجة الوداع، ثم وافته المنية بعد حجة الوداع بواحد وثمانين يومًا.

وبعد حروب الردة جهَّز أبو بكر الجيوش الإسلامية لحرب الروم والفرس، وتم الأمر على يد عمر بن الخطاب فأرغم أنف كسرى وقيصر، واستولى على الممالك شرقًا وغربًا. وهكذا كان عثمان بن عفان وعلي بن أبي طالب رضي الله عن الجميع، فكانوا كلما علت كلمة الله وظهر دينه في بلد انتقلوا إلى ما بعدها، واستمر الأمر كذلك في القرون الثلاثة الأولى.

وهكذا قاتل الرسول قومه المشركين أولًا، ثم انتقل منهم إلى سائر العرب، ثم قاتل أهل الكتاب، وهم بنو قريظة، وبنو النضير، وخيبر، وفدك، ثم غزا الإسلام الروم في

(١) «صحيح مسلم» برقم (١٧٤٢) واللفظ له وانظر: «صحيح البخاري» برقم (٢٨١٨) وغيره والنسائي في «السنن الكبرى» (٨٥٨٠) و«المسند» (٩١٩٦).

الشام التي فُتحت في عهد الصحابة، ثم العراق، وفارس، ومصر، وأفريقيا، والأندلس، وسائر الأمصار.

ثم وقعت الفتن والأهواء وصار الحكم مُلكًا عضودًا، فانتقصت بلاد الإسلام، ونسأل الله أن يجمع شمل المسلمين، ويجمع كلمتهم، ويوفقهم لطاعته، والعمل بكتابه وسنة نبيه ﷺ؛ حتى يعود للإسلام مجده وترتفع رايته.

وقد أمرنا الله سبحانه ونحن نقاتل أعداء الإسلام أن نكون أشداء عليهم، كما قال تعالى: ﴿وَلِيَجِدُوا فِيكُمْ غِلْظَةً﴾ أي: وليجد الكفار منكم - أيها المؤمنون - شدة وغلظة في قتالكم لهم، ونظير هذه الآية قوله تعالى: ﴿يَتَأْتِيَ آلَ النَّبِيِّ جَهْدُ الْكُفَّارِ وَالْمُنَافِقِينَ وَأَغْلَظَ عَلَيْهِمْ﴾ [التحريم: ٩] وذلك بهدف تأمين نشر الدعوة فلا شدة ولا غلظة على المسالم منهم الذي لم يتعرض لنا ولا إلى دعوتنا، فهو في أمن وأمان، وهكذا وصف ربنا أصحاب محمد ﷺ في قوله: ﴿أَشْدَاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ﴾ [الفتح: ٢٩] والشدة: هي الشجاعة والقوة.

أدب الإسلام في الحروب: وليست هذه الغلظة مجردة من كل قيد وأدب.

١- فأداب الإسلام في الحروب تتمثل في وصية النبي ﷺ، عن بريدة الأسلمي ؓ قال: كان رسول الله ﷺ إذا أمر الأمير على جيش أو سرية أوصاه في خاصته بتقوى الله تعالى ومن معه من المسلمين خيرًا، ثم قال:

«اغزوا باسم الله في سبيل الله، قاتلوا من كفر بالله، اغزوا ولا تَغْلُوا ولا تَغْدِرُوا ولا تَمَثِّلُوا ولا تَقْتُلُوا وليدًا، وإذا لقيتَ عدوك من المشركين فادعهم إلى ثلاث خلال، فإن أجابوك فاقبل منهم وكف عنهم، ثم ادعهم إلى الإسلام، فإن أجابوك فاقبل منهم وكف عنهم، ثم ادعهم إلى التحول من دارهم إلى دار المهاجرين، وأخبرهم أنهم إن فعلوا ذلك فلهم ما للمهاجرين وعليهم ما على المهاجرين، فإن أبوا أن يتحولوا منها، فأخبرهم أنهم يكونون كأعراب المسلمين، يجري عليهم حكم الله الذي يجري على المؤمنين، ولا يكون لهم من الغنيمة والفىء شيء، إلا أن يجاهدوا مع المسلمين، فإن أبوا فسلهم الجزية، فإن هم أجابوك فاقبل منهم وكف عنهم، فإن هم أبوا فاستعن بالله عليهم وقاتلهم.

وإذا حاصرت أهل حصن، فأرادوك أن تجعل لهم ذمة الله وذمة نبيه، فلا تجعل لهم ذمة الله ولا ذمة نبيه، ولكن اجعل لهم ذمتك وذمة أصحابك، فإنكم إن تخفروا ذممكم وذمم أصحابكم، أهون من أن تخفروا ذمة الله وذمة رسوله.

وإذا حاصرت أهل حصن فأرادوك أن تُنزلهم على حكم الله، فلا تُنزلهم على حكم الله، ولكن أنزلهم على حكمك، فإنك لا تدري أتصيب حكم الله أم لا؟^(١).

٢- وعن ابن عمر رضي الله عنه قال: وجدت امرأة مقتولة في بعض مغازي رسول الله ﷺ فهي رسول الله ﷺ عن قتل النساء والصبيان^(٢).

٣- وأرسل النبي ﷺ معاذ بن جبل إلى اليمن معلماً فكانت وصيته له: «إنك تأتي قومًا من أهل كتاب، فادعهم إلى شهادة أن لا إله إلا الله وأني رسول الله، فإن هم أطاعوك لذلك، فأعلمهم أن الله تعالى افترض عليهم خمس صلوات في كل يوم وليلة، فإن هم أطاعوك لذلك، فأعلمهم أن الله افترض عليهم صدقة تؤخذ من أغنيائهم فترد على فقرائهم، فإن هم أطاعوك لذلك، فأياك وكرائم أموالهم، واتق دعوة المظلوم؛ فإنه ليس بينها وبين الله حجاب»^(٣).

٤- وعن العرياض بن سارية قال: نزلنا مع رسول الله قلعة خيبر فكان مما قال: «وإن الله لم يُحل لكم دخول بيوت أهل الكتاب إلا بإذن، ولا ضرب نسائهم، ولا أكل ثمارهم، إذا أعطوا الذي عليهم».

٥- ورفِع إليه ﷺ صبيٌّ قد قُتل بين الصفوف، بعد إحدى المواقع، فحزن حزناً شديداً، فقال بعضهم: ما يُحزنك يا رسول الله، وهم صبية للمشركين، فغضب ﷺ وقال ما معناه: (إن هؤلاء على الفطرة، أو لستم أبناء المشركين! فأياكم وقتل الأولاد، إياكم وقتل الأولاد) وهكذا سار الخلفاء من بعده.

(١) «صحيح مسلم» برقم (١٧٣١، ٣) وأخرجه أبو داود برقم (٢٦١٢) والترمذي برقم (١٤٠٨) وفي «العلل الكبير» (٢٦٣/٢) والنسائي في «الكبرى» (٨٦٨٠، ٨٥٨٦) وابن أبي شيبة (٤٢٤/٩) والبخاري (٢٦٦٨) وعبد الرزاق في «المصنف» (٩٤٢٨) و«المسند» (٢٢٩٧٨، ٢٣٠٣٠) والطبراني في «الأوسط» (١٤٥٣) والصغير (٣٤٠).

(٢) أخرجه الشيخان، مسلم برقم (١٧٤٤) والبخاري برقم (٣٠١٤، ٣٠١٥).

(٣) «صحيح مسلم» برقم (١٩) و«صحيح البخاري» برقم (١٣٩٥، ١٤٩٦، ٢٤٤٨).

٦- روى مالك عن أبي بكر الصديق رضي الله عنه قال: ستجدون قومًا زعموا أنهم حبسوا أنفسهم لله، فدعوهما وما حبسوا أنفسهم له، ولا تقتلن امرأة ولا صبيًا ولا كبيرًا هرمًا.

٧- وقال زيد بن وهب: أتاننا كتاب عمر رضي الله عنه وفيه: لا تغلوا، ولا تغدروا، ولا تقتلوا وليدًا، واتقوا الله في الفلاحين.

٨- ومن وصاياه رضي الله عنه: ولا تقتلوا هرمًا ولا امرأة ولا وليدًا، وتوقوا قتلهم إذا التقى الزحفان، وعند شئ الغارات.

فالغلظة المرادة في الآية هي الشجاعة والقوة والخشونة، وليست الوحشية والهمجية، ولا يقاتل الإسلام إلا من يقاتل أبناءه، أما النساء والصبيان والشيخ وعُباد الصوامع والمزارعين والعجزة وغير المحاربين، فلا يُقاتلون، ولذا ختم الله الآية بقوله: ﴿وَأَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ﴾ فما مناسبة التقوى في آية تأمر بقتل الكفار والشدة عليهم؟ إنها لبيان أنهم إن اتقوا الله فامثلوا أمره، واجتنبوا نهيه، فإن الله تعالى يكون معهم بعونه ونصره وتأييده، فلازموا تقوى الله، يُعنكم وينصركم على عدوكم.

وفي الآيات التالية صورتين فيهما بيان موقف المنافقين من استجابتهم للقرآن الكريم وعدمه:

الصُّورَةُ الْأُولَى: الْمُؤْمِنُونَ يَزْدَادُونَ إِيمَانًا وَالْمُنَافِقُونَ يَزْدَادُونَ نِفَاقًا

١٢٤- ﴿وَإِذَا مَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُمْ مَّن يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَذِهِ إِيمَانًا فَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا فَزَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ﴾ (١٢٤)

في هذه الآية، بيان حال المنافقين والمؤمنين عند تلقيهم للقرآن الكريم من حيث الإيمان به والعمل بما فيه، وهكذا، فقد عادت السورة إلى بيان أحوال المنافقين، وما بينهما من الآيات السابقة اعتراض، فُتِبَّ هذه الآية كيف يستقبل المنافقون ما نزل على رسول الله ﷺ وتُبيَّن أنهم يتظاهرون بالإيمان، وأنهم كاذبون في دعواهم أنهم مؤمنون، فالواقع أنهم يشكون ويرتابون في آيات الله، ولا يؤمنون بما جاء فيها من تكاليف، ويسخرون منها ويستهنئون بها، والضمير في ﴿فَمِنْهُمْ﴾ يعود على المنافقين السابق ذكرهم في قوله تعالى: ﴿وَإِذَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ أَنْ ءَامِنُوا بِاللَّهِ وَجَاهِدُوا مَعَ رَسُولِهِ اسْتَعْذَنَكَ أَُولَئِكَ الطَّوْلِ مِنْهُمْ وَقَالُوا ذَرْنَا نَكُنْ مَعَ الْفَاعِلِينَ﴾ (٨٦) [التوبة] كما يعود الضمير على أقرب مذكور في الآية

السابقة ﴿قَدْ نَلَأُوا الَّذِينَ يَلُوتُكُمْ مِنَ الْكَفَّارِ﴾ أي: إذا نزلت سورة من سور القرآن على رسول الله ﷺ فإن المنافقين يقول بعضهم لبعض على وجه الاستهزاء والسخرية والإنكار: أي واحد منكم زادته هذه السورة إيماناً وتصديقاً و يقيناً، والجواب: أن المنافقين يزدادون نفاقاً والمؤمنون يزدادون إيماناً.

والمعنى: وإذا أنزلت سورة مّا من سور القرآن، أي: أي سورة منه، فيها الأمر والنهي والخبر والحث على الجهاد، فمنهم من يستفهم عن حصل له الإيمان والهداية بهذه الآية من الطائفتين:

والجواب: أنها تزيد المؤمنين إيماناً إلى إيمانهم، فهم يعلمونها ويعملون بها، ويتدبرونها، ويقرون بما جاء فيها، ويفرحون بما أعطاهم الله من الإيمان واليقين، ويبشر بعضهم بعضاً بما من الله عليهم من آياته والتوفيق لفهمها والعمل بها.

وفي الآية دليل على أن الإيمان يزيد بكثرة الأعمال الصالحة وينقص بقلتها، والكفر كذلك يزيد وينقص، فزيادة الإيمان تكون بالإكثار من صالح الأعمال، ونقصه يكون بنقص هذه الأعمال، ومن الكفر ما هو أكبر، ومنه ما هو أصغر، وكذلك الشأن في الشرك، والنفاق، والفسق، والظلم.

فالطرف الأعلى هو الجانب الأكبر، والطرف الأدنى هو الأصغر، فهذه زيادة ونقصان، فالصدق يزداد قوة بالعمل.

فإذا نزلت سورة زادت المؤمن إيماناً، وحملته على العمل بما فيها من أدلة، وأوامر، ونواهٍ ليست في غيرها، وأزالت ما في نفسه من شبه وشكوك، وبهذا ترتقي عقيدة المؤمن، فلا يساوره معارضة ولا شبهة، والإيمان الصحيح كالجسد الصحيح، والإيمان الناقص كالجسد المريض، ومن الأدلة على زيادة الإيمان ونقصانه:

١- قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى وَءَاتَاهُمْ تَقْوَاهُمْ ۖ﴾ [محمد].

٢- وقوله سبحانه: ﴿لِيَزَادُوا إِيمَانًا مَعَ إِيْمَانِهِمْ﴾ [الفتح: ٤].

٣- وقوله ﴿وَزِدْنَاهُمْ هُدًى﴾ [الكهف: ١٣].

٤- وقوله: ﴿وَيَزِيدُ اللَّهُ الَّذِينَ اهْتَدَوْا هُدًى﴾ [مريم: ٧٦].

٥- وقوله: ﴿وَزَادَ الَّذِينَ ءَامَنُوا إِيمَانًا﴾ [المدثر: ٣١]

٦- وقوله: ﴿وَنَزَلَ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلَّا خَسَارًا﴾ [٨٢] [الإسراء].

٧- وقوله جلّ شأنه: ﴿قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا هُدًى وَشِفَاءٌ وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِي ءَاذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى﴾ [فصلت: ٤٤].

٨- وقوله أيضًا: ﴿وَمَا زَادَهُمْ إِلَّا إِيمَانًا وَتَسْلِيمًا﴾ [الأحزاب: ٢٢]

٩- وقوله: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ [٢] [الأنفال].

وقال معاذ بن جبل ؓ للأسود بن هلال: اجلس بنا نؤمن ساعة^(١).

أي: نتذاكر القرآن وأمور الدين.

وقال ابن عمر ؓ: لا يبلغ العبد حقيقة التقوى حتى يدع ما حاك في الصدر^(٢). قال تعالى:

١٢٥- ﴿وَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَىٰ رِجْسِهِمْ وَمَانُوا وَهُمْ كَافِرُونَ﴾

وأما أهل النفاق في العقيدة، ممن في قلوبهم شك وارتياب، فإن نزول سورة من القرآن تزيدهم شكًا ونفاقًا فوق ما هم فيه من نفاق وكفر ﴿وَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ﴾ أي: شرك، وشك، ونفاق ﴿فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَىٰ رِجْسِهِمْ﴾ أي: زادتهم كفرًا مع كفرهم، ومرضًا إلى مرضهم، وشكًا إلى شكهم، وسمي الكفر رجسًا؛ لأنه أقبح الأعمال، وسمي النفاق مرضًا؛ لأنه فساد في القلب يحتاج إلى علاج، كالمرض في البدن يحتاج إلى علاج، وأخبر الله سبحانه أن النفاق سيلازمهم حتى الموت فيموتون على الكفر والنفاق، وهذا أسوأ خاتمة، فمؤثهم على الكفر متسبب على زيادة السورة في كفرهم، وهو زيادة في مصيبتهم، قال تعالى: ﴿وَيَجْعَلُ الرَّجْسَ عَلَى الَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ﴾ [يونس: ١٠٠] وهذا يدل على تمكن الرجس ورسوخه في نفوسهم.

(١)، (٢) رواه البخاري في أول كتاب الإيمان، بعد حديث برقم (٧) وقبل الحديث (٨).

الْفِتْنُ تُلَاحِقُ الظَّالِمَةَ وَلَكِنَّهُمْ لَا يَتَّعِظُونَ

١٢٦ - ﴿أَوَلَا يَرَوْنَ^(١) أَنَّهُمْ يُفْتَنُونَ فِي كُلِّ عَامٍ مَّرَّةً أَوْ مَرَّتَيْنِ ثُمَّ لَا يَتُوبُونَ وَلَا هُمْ يَذْكُرُونَ﴾

في هذه الآية تنبيه لأهل الغفلة والفساد، أن يعتبروا بحوادث الدهر.

وقبل أن تأتي الصورة الثانية لموقف المنافقين من تلقّي الوحي واستجابتهم له، يجيء هذا السؤال مستكراً حال المنافقين: أَوَلَا يَرَى هَؤُلَاءِ الْمُنَافِقُونَ وَأَمْثَالَهُمْ مِنَ الْمُخَالِفِينَ لأوامر الله ورسوله، أنهم مبتلون وممتحنون بالانقلابات والثورات، والأمراض والمصائب، والمضار، وبالنكبات والهزائم، والقحط والجوع، وإظهار ما يبطنون، وامتحان بعض الحكام والظلمة بالخروج عليهم، فهم يفتنون في كل عام مرة أو مرتين، بل في كل أسبوع، وفي كل شهر، وكل يوم، فالفتنة تعني اختلال نُظُم حياتهم واضطرابها، وتعني أن يكشف الله أسرارهم، ويفشي عقائدهم، ثم لا يرجعون إلى الله تعالى عما هم فيه من الفساد والنفاق، ولا يعتبرون، ولا يستفيدون ويتعظون مما يرون ويشاهدون، وفي هذا تنبيه للمرء أن يتفقد إيمانه ويتعاهده، فيجده وينميه ويصلح من شأنه ويحسن من أحواله.

روى البخاري عن الزبير بن عدي قال: أتينا أنس بن مالك فشكونا إليه ما يلقون من الْحَجَّاجِ، فقال: «اصبروا، فإنه لا يأتي عليكم زمان إلا والذي بعده أشر منه حتى تلقوا ربكم» سمعته من نبيكم ﷺ^(٢).

وفي الآية توبيخ لهم على قسوة قلوبهم، وانطماس بصيرتهم، وغفلتهم عما يدعو إلى الاعتبار والاتعاظ، ومع ذلك فهم يصرون على مسالكهم الخبيثة وأعمالهم القبيحة، فلا يتفجعون ولا يرتدعون، ولو رزقوا التوفيق لأفاقوا من غفلتهم، وعلموا أن ما يحل بهم في كل عام، أو أدنى من ذلك، أو أكثر ما هو إلا بسبب ظلمهم وتجبرئهم على حدود الله وشرعه.

(١) قرأ حمزة ويعقوب (أولا يرون) بناء الخطاب، والمخاطب هم المؤمنون على وجه التعجب، وقرأ الباقر بياء الغيبة لمناسبة (وأما الذين في قلوبهم مرض).

(٢) «صحيح البخاري» برقم (٧٠٦٨).

الصُّورَةُ الثَّانِيَةُ: مَوْقِفُ الْمُنَافِقِينَ مِنْ تَلَقِّي الْوَحْيِ

١٢٧- ﴿وَإِذَا مَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ نَّظَرَ بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ هَلْ يَرَيْنَكُمْ مِنْ أَحَدٍ ثُمَّ انْصَرَفُوا صَرَفَ اللَّهِ قُلُوبَهُمْ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَفْقَهُونَ﴾ (١٢٧)

ثم تأتي الصورة الثانية لموقف المنافقين من تلقي الوحي، فترسم مشهداً متحركاً دقيقاً للمنافقين حين ينزل القرآن، فمن صفات المنافق أنه يُعرض عن آيات الله إذا ثلثت عليه فينفر منها، ويتوجه لغيرها، ولا يصبر على الاستماع لها والعمل بما فيها.

وهذا شأن المنافقين المعاصرين لنزول الوحي، فقد كانوا يتغامزون بالعيون إنكاراً لنزول القرآن، سخرية وغيظاً منه؛ لأنه يذكّر عيوبهم وأفعالهم، وكانوا ينصرفون عن مجلس رسول الله ﷺ إلى منازلهم، ويتسللون منه خفية، الواحد تلو الآخر، خوفاً من نزول سورة تخبرهم عما يضمرونه في نفوسهم كما قال تعالى: ﴿يَحْذَرُ الْمُنَافِقُونَ أَنْ تُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ سُورَةٌ تُنَبِّئُهُمْ بِمَا فِي قُلُوبِهِمْ﴾ [التوبة: ٦٤] فتكشف أسرارهم وتفضح مكرهم.

﴿وَإِذَا مَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ نَّظَرَ بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ﴾ في ريبة ومكر، ثم يقول بعضهم لبعض: ﴿هَلْ يَرَيْنَكُمْ مِنْ أَحَدٍ﴾ من المسلمين إذا قمتم من هذا المجلس، قبل أن يتلو الرسول هذه السورة، أو الآيات التي تفضحكم وتكشف عن أسراركم ﴿ثُمَّ انْصَرَفُوا﴾ متسللين في حذر؛ حتى لا يراهم أحد من المسلمين، فإن لم يرههم أحد قاموا وانصرفوا من مجلس رسول الله ﷺ مخافة الفضيحة، فيهربون من الحق إلى الباطل، وهذا هو سبب كفرهم: ﴿فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاعَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ﴾ [الصف: ٥] ﴿وَمَا يُضِلُّ بِهِ إِلَّا الْفَاسِقِينَ﴾ [البقرة: ٢٦].

فقد كانوا لا يعتقدون أن الله تعالى يخبر نبيه ﷺ بأحوالهم ويراهم في تقلباتهم.

قال الله سبحانه: ﴿صَرَفَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَفْقَهُونَ﴾ أي: لا يفهمون عن الله خطابه؛ لإيثارهم الغي على الرشد، والضلال على الهدى، أي: أن الله تعالى صرف قلوبهم عن الإيمان؛ بسبب أنهم لا يفقهون ولا يتدبرون ولا ينتفعون، وهذا حالهم في الدنيا، لا يقبلون على الحق، وينفرون منه، كما قال تعالى: ﴿فَمَا لَهُمْ عَنِ التَّذْكَرَةِ مُعْرِضِينَ﴾ (٤٩) ﴿كَانَ لَهُمْ حُمرٌ مُسْتَنْفِرَةٌ﴾ (٥٠) ﴿فَرَّتْ مِنْ قَسْوَرَةٍ﴾ (٥١) [المدثر].

وقال: ﴿فَالَّذِينَ كَفَرُوا قِبَلَكَ مُهْطِعِينَ﴾ (٣٦) ﴿عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ عِزِينَ﴾ (٣٧) [المعارج].

والمقصود من هذه الآية بيان شدة نفور بعض الناس من الجهاد وأحكام الإسلام، كما قال تعالى ﴿يَقُولُ الَّذِينَ ءَامَنُوا لَوْلَا نُزِّلَتْ سُورَةٌ فَإِذَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ مُحْكَمَةٌ وَذُكِرَ فِيهَا الْقِتَالُ رَأَيْتَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ نَظَرَ الْمَغْشَىٰ عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ﴾ [محمد: ٢٠]. وقال: فَإِذَا جَاءَ الْحَوْفُ رَأَيْتَهُمْ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ كَالَّذِي يُغْشَىٰ عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ﴾ [الأحزاب: ١٩].

نَبِيُّ الْمَرْحَمَةِ وَنَبِيُّ الْمَلْحَمَةِ يُوصَفُ بِأَرْبَعَةِ أَوْصَافٍ

١٢٨- ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ^(١) رَّحِيمٌ﴾

هذه الآية وما بعدها لبيان منه الله تعالى وفضله على البشر، وليبيان أن السورة التي بدأت بإعلان الحرب على المشركين والبراءة منهم، ونقض عهودهم إلى يوم القيامة، وأمرت بقتال أهل الكتاب، وفضحت المنافقين، وأمرت المؤمنين بالجهاد، هذه السورة، خُتِمت بآية فيها وصف النبي ﷺ بالرفقة والرحمة، وهما وصفان لرسول الله ﷺ تعقيماً للشدة بالرفق، وللغلظة بالرحمة، ولتذكّرهم بأن الله تعالى منّ عليهم ببعثة هذا النبي الخاتم، وأنه حريص على هدايتهم، وليبين الله سبحانه أن هذا النبي، هو نبي الرحمة وهو نبي الملحمة، لا يقاتل حُبًّا في القتال، وإنما يقاتل كُرْهًا للتسلُّط والعدوان، ولمنع الحق أن لا ينتشر، فإذا اضطر رسول الإسلام إلى ذلك حَمَلَ السيف.

﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ﴾ أيها الناس في مشارق الأرض ومغاربها ﴿رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ﴾ تعرفون نسبه وصدقه وأمانته وعفافه وهو رسول إلى البشرية كافة:

﴿قُلْ يَأَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا﴾ [الأعراف: ١٥٨]

وهو رسول الرحمة والهدى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾ [الأنبياء]

«وكان النبي يبعث إلى قومه خاصة، وبعث إلى الناس عامة»^(٢).

كما قال تعالى: ﴿لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ﴾ [آل عمران: ١٦٤].

(١) قرأ أبو عمرو وشعبة وحزمة والكسائي ويعقوب وخلف البزار، بقصر الهمزة من (رءوف) على (فعل) والباقون بمدّها على وزن (فعلول).

(٢) من حديث جابر بن عبد الله في البخاري برقم (٣٣٥) و«صحيح مسلم» برقم (٥٢١).

وقال جعفر بن أبي طالب للنجاشي، وقال المغيرة بن شعبة لرسول كسرى: إن الله بعث فينا رسولاً منا نعرف نسبه وصفته ومدخله ومخرجه وأمانته.

والخطاب في ﴿جَاءَكُمْ﴾ يعود على العرب الذين شرفهم الله بأن يكون الرسول منهم، وبلغتهم، ومن بلادهم، وهو من أفضلهم شرفاً ونسباً، أي: أن نبي الله من جنسكم عربي قرشي، يبلغكم رسالة ربه، فلا يحسده غير العرب على ما أعطاه الله من النبوة والكرامة، والواجب عليكم أن تؤمنوا به وتطيعوه أيها الناس جميعاً.

عن واثلة بن الأسقع رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الله اصطفى من ولد إبراهيم إسماعيل، واصطفى من ولد إسماعيل بني كنانة، واصطفى من بني كنانة قريشاً، واصطفى من قريش بني هاشم، واصطفاني من بني هاشم»^(١).

وجاء في حديث مرسل صحيح الإسناد: «خرجت من نكاح، ولم أخرج من سفاح»^(٢).

وفي البخاري عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «بعثت من خير قرون بني آدم، قرناً فقرناً، حتى كنت من القرن الذي كنت منه»^(٣).

والعرب هم الذين اختارهم الله سبحانه أن يكون النبي الخاتم منهم، و﴿اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ﴾ [الأنعام: ١٢٤].

ومكة المكرمة هي المكان الذي اختاره الله تعالى لهذه الرسالة.

ولو أن النبي ﷺ كان من بلد آخر، أو من قوم آخرين، كأن كان من أوروبا مثلاً، أو

(١) أخرجه مسلم بنحوه في الفضائل برقم (٢٢٧٦) ورواه أحمد (١٠٧/٤) برقم (١٦٩٨٧) قال محققوه: حديث صحيح، دون قوله «اصطفى من ولد إبراهيم إسماعيل» وقد جاء هذا في الحديث رقم (١٦٩٨٦) بإسناد صحيح على شرط مسلم ورجال ثقات وأوله «إن الله اصطفى كنانة من بني إسماعيل». الحديث، والترمذي في المناقب (٣٦٠٥) وقال: حديث حسن صحيح، وابن سعد (٢٠/١) والبيهقي في «الدلائل» (١٧٥/١).

(٢) من حديث جعفر بن محمد عن أبيه أخرجه عبد الرزاق في «المصنف» (١٣٢٧٣) والطبري (٩٧/١٢) وابن أبي حاتم (١٩١٧/٦) والبيهقي (١٩٠/٧) وقال الألباني في «الإرواء» (٣٣١/٦): هذا مرسل صحيح الإسناد، وقد جاء هذا الحديث بزيادة عليه عن ابن عباس وعائشة وعلي بطرق متعددة.

(٣) «صحيح البخاري» برقم (٣٥٥٧).

استراليا، أو غيرهما، لورد السؤال نفسه: لماذا كان الرسول الخاتم من هذا المكان دون غيره؟ فاختيار الزمان والمكان واللغة والقوم، لحكمة يعلمها الله سبحانه ويريدها، ولا يرد الاعتراض عليها من أحد من البشر، فهو سوء أدب مع الله ﷻ.

ثم وصف الله رسوله بأربعة أوصاف:

الوصف الأول: أنه ﷺ ﴿عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ﴾ يشق عليه ما يشق عليكم فهو ﷺ لا يريد قتالاً ويريد سلاماً، ويعز عليه مشقتكم، وما تلقونه من المكروه والعنت، وقد تضمنت الآية ما ينكره المنافقون، وهو كونه رسول الله ﷺ.

الوصف الثاني: أنه ﷺ ﴿حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ﴾ أي: حريص على إيمانكم وهدايتكم وعزتكم وسعادتكم وإصلاح شأنكم، ووصول الخير إليكم، والحرص: شدة الرغبة في الشيء والتفاني في حصوله، وحصول الأسي عند عدم تحقيقه.

وقد وصف الله رسوله بالمبالغة في الحرص على هداية الناس في قوله: ﴿فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسْرَتٍ﴾ [فاطر: ٨] وقوله: ﴿لَعَلَّكَ بَدِيعٌ قَدَسَكَ إِلَّا يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ﴾ [الشعراء].

ولهذا كان حقه ﷺ مقدماً على سائر حقوق الخلق، ووجب على الأمة الإيمان به وتعظيمه وتعزيه وتوقيره.

ومما جاء في بيان شدة حرصه ﷺ على أمته؛ ما جاء:

١- في الحديث عن ابن مسعود وأبي هريرة ؓ أن النبي ﷺ قال: «وإني آخذ بِحُجَزِكُمْ أَنْ تَهَافُتُوا فِي النَّارِ كَتَهَافَتِ الْفَرَاشُ أَوْ الذَّبَابُ»^(١).

٢- وفي حديث أبي هريرة ؓ أن رسول الله ﷺ قال: «إنما مثلي ومثل أمتي، كمثل رجل استوقد ناراً، فجعلت الدواب والفراش يقعن فيها، فأنا آخذ بِحُجَزِكُمْ وَأَنْتُمْ تَقَحَّمُونَ فِيهِ»^(٢).

٣- وعنه ؓ أن رسول الله ﷺ قال: «إن الدين يسر، ولن يشاد الدين أحد إلا غلبه،

(١) من حديث عبد الله بن مسعود في مسند أحمد (١/ ٣٩٠). وحديث أبي هريرة (٧٣٢١) وهو في البخاري (٣٤٢٦) ومسلم (٢٢٨٤) والترمذي (٢٨٧٤).

(٢) «صحيح مسلم» برقم (٢٢٨٤) و«صحيح البخاري» برقم (٦٤٨٣).

فسدّدوا وقاربوا، وأبشروا، واستعينوا بالغُدوة والروحة وشيء من الدلّجة»^(١).

الوصف الثالث والرابع: أنه ﷺ كثير الرأفة والرحمة بكم فلا يدفعكم إلى المهالك، ولا يحملكم على الذنوب والخطايا ﴿وَالْمُؤْمِنِينَ رُؤُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ وهاتان صفتان من صفات الله تعالى، هما الرأفة والرحمة، فالله سبحانه رؤوف رحيم بالخلق جميعاً: الكافر والظالم والفاسق والمؤمن، فالكل خلقه، والكل في ملكه.

والرسول ﷺ رؤوف رحيم بالمؤمنين، رحمة خاصة، وقد أمره ربه أن يكون لئّن الجانب للمؤمنين، فقال تعالى: ﴿وَخَفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الشعراء].

وفي الصحيحين عن جبير بن مطعم أن رسول الله ﷺ قال: «لي خمسة أسماء: أنا محمد، وأنا أحمد، وأنا الماحي، الذي يمحو الله به الكفر، وأنا الحاشر، الذي يُحشر الناس على قدمي، وأنا العاقب»^(٢) والعاقب الذي لا نبي بعده، وقد سماه الله رؤوفاً رحيماً.

الدَّاعِي إِلَى اللَّهِ لَا يَيَأْسُ مِنْ إِعْرَاضِ النَّاسِ عَنْهُ

١٢٩- ﴿فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَهُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ﴾

ثم خاطب الله رسوله، وكل من يحمل لواء الدعوة بعده، بأنه لا ييأس من إعراض المعرضين، فما عليه إلا أن يبذل السبب، والله كافيه وناصره ومؤيده في الدنيا والآخرة، فإن تولوا وأعرضوا عن قبول الحق والعمل به وأعرضوا عن الإيمان بك -يا محمد- وناصروك العداء ﴿فَقُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ﴾ الله تعالى يكفيني جميع ما أهمني وما أغمني، ولا معبود بحق إلا هو، وهو الذي يتولى أمري، وينصرني على عدوي، وهو كافيني شر إعراضكم وعنادكم ﴿عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ﴾ أي: عليه وحده اعتمدت، وفوضت أمري إليه، ووثقتُ بنصره لي ﴿وَهُوَ﴾ سبحانه ﴿رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ﴾ وخص العرش بالذكر؛ لأنه أعظم المخلوقات، ومن جميع الخلائق، فالسموات والأرض، وما فيهما، وما بينهما

(١) «صحيح البخاري» برقم (٣٩).

(٢) البخاري (٣٥٣٢، ٤٨٩٦) ومسلم (٢٣٥٤) والترمذي (٢٨٤٠) و«شمائل الترمذي» (٣٦٦) و«سنن النسائي الكبرى» (١١٥٢٦).

(٣) سَكَنَ الهاء من (وَهُوَ) قالون وأبو عمرو والكسائي وأبو جعفر، وضمها الباقون.

تحت العرش، فهو سقف المخلوقات.

ويشبه هذه الآية قوله تعالى: ﴿قَدْ جَاءَكُمْ مِنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُبِينٌ﴾ [المائدة: ١٥] وقوله سبحانه: ﴿قَدْ جَاءَكُمْ بُرْهَانٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ نُورًا مُبِينًا﴾ [النساء: ١٧٤].

عن ابن عباس رضي الله عنه قال: كان رسول الله ﷺ يقول عند الكرب: «لا إله إلا الله العظيم الحليم، لا إله إلا الله رب العرش العظيم، لا إله إلا الله، رب السموات ورب الأرضين، ورب العرش الكريم»^(١).

وعن عبد الله بن جعفر قال: علمني عليّ كلمات، علمهنّ رسول الله ﷺ إياه، يقولهنّ عند الكرب والشيء يصيبه: «لا إله إلا الله الحليم الكريم، سبحان الله، وتبارك الله، رب العرش العظيم، والحمد لله رب العالمين»^(٢).

هذا: ولما كان زيد بن ثابت رضي الله عنه يجمع القرآن في عهد أبي بكر الصديق، وكان يعتمد على ما هو محفوظ في صدور الصحابة وهو منهم، فيشهد اثنان على الأقل على نص الآية، ويعتمد أيضًا على ما هو مكتوب في العُصْب واللِّخَاف والرِّقَاع وغيرها، فالقرآن كله كان مدوّنًا ومكتوبًا في هذه الأشياء؛ حيث لمّا يكن الورق موجودًا بعدد، وكان القرآن محفوظًا في صدور المئات من الصحابة، وفق العرضة الأخيرة للقرآن بين جبريل والرسول عليهما السلام.

فلما وصل زيد إلى هاتين الآيتين الأخيرتين من سورة التوبة وجدتهما مكتوبتين، ثم بحث عمن يحفظهما غيره فلم يجدهما إلا مع أبي خزيمة الأنصاري، فضم حفظ أبي خزيمة إلى حفظه، إلى جوار أنهما مكتوبتان في وسائل الكتابة المتاحة آنذاك، فوضعهما في مكانهما من السورة، وهذا من شدة الحرص في جمع القرآن الكريم، وقد ذُكرت هذه القصة في صحيح البخاري.

(١) البخاري (٦٣٤٦) ومسلم (٢٧٣٠) والترمذي (٣٤٣٥) و«السنن الكبرى» للنسائي (١٠٤٨٩) وابن ماجه (٣٨٨٣) والبيهقي في «الأسماء والصفات» (٨٣٥).

(٢) النسائي في «السنن الكبرى» (١٠٤٦٥) وفي عمل اليوم والليلة (٦٤٦) والحاكم (٥٠٨/١) والبيهقي (٨٧) قال محقق «الأسماء والصفات»: حديث صحيح، وهو في المسند (١٧٦٢) وإسناده حسن، و(٧٠١) حديث صحيح، وإسناده حسن، (محققوه) وانظر (٧٢٦).

عن زيد بن ثابت رضي الله عنه قال: ... فتتبع القرآن أجمعه من العُصب والرقاع واللِّخاف وصدور الرجال، فوجدت آخر سورة التوبة ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ﴾ إلى آخرها مع أبي خزيمة، فألحقها في سورتها، وكانت الصحف عند أبي بكر في حياته حتى توفاه الله ﷻ، ثم عند عمر في حياته، حتى توفاه الله، ثم عند حفصة بنت عمر^(١).

قلت: وأبو خزيمة الأنصاري، غير خزيمة بن ثابت الأنصاري الذي وجد زيد بن ثابت عنده: ﴿مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ﴾ [الأحزاب: ٢٣] بعد أن التمسها ولم يجدها^(٢). والله أعلم، وصلى الله على نبينا محمد وعلى آله وصحبه.

تم تفسير (سورة التوبة) والله الحمد والمنة



(١) «صحيح البخاري» برقم (٤٦٧٩، ٤٩٨٦، ٧١٩١، ٧٤٢٥) و«المسند» (٤٤/٢١٦، ٥٧، ٧٦) والترمذي

(٣١٠٣) والنسائي في «الكبرى» (٨٢، ٨٨، ٧٩٩٥) والطبراني (٤٩٠١، ٤٩٠٤).

(٢) والشك الذي في الحديث بين خزيمة وأبي خزيمة لعله من الرواة، وليس من زيد بن ثابت كاتب الوحي.

تَفْسِيرُ سُورَةِ يُونُسَ (١٠)

مُقَدِّمَةُ السُّورَةِ

سورة يونس هي السورة العاشرة في ترتيب المصحف، والحادية والخمسون في ترتيب النزول، نزلت بعد سورة الإسراء، وقبل سورة هود، سنة إحدى عشرة من البعثة غالباً، وهي مئة وعشر آيات عند أهل الشام، ومئة وتسع آيات عند بقية علماء العدَدِ، وهي ألف وثمان مئة واثنان وثلاثون كلمة، وتسعة وتسعون حرفاً.

وقد انفردت هذه السورة بأن قوم يونس لما آمنوا قبل نزول العذاب بهم؛ عفا الله عنهم، ورفع عنهم العذاب.

وسُمِّيت سورة يونس لهذه الخصوصية، وإلا فقد ذُكِرَ يونس ﷺ في آيات أخرى، في سور: النساء والصفات وغيرها، وجاء ذكره هنا في آية واحدة من السورة.

وسورة يونس والسورتان بعدها (هود ويوسف) من السور التي نزلت على رسول الله ﷺ بمكة المكرمة، فهي تُخاطب مشركي مكة وقتها، وتُخاطب الكفار والمشركين إلى يوم الساعة، وأحسب أن القول بمدنيّة بعض آياتها ناشئٌ عن ظن أن ما في القرآن من مجادلة أهل الكتاب لم يُنزل إلا بالمدينة، وهو قولٌ ليس على إطلاقه، وفي هذه السور الثلاث قَصَصٌ من القرآن الكريم، وفيها المهمة الأساس التي يتعرض لها القرآن الذي نزل في مكة، وهو يعالج ثلاث قضايا:

الأولى: قضية الإيمان بالوحي المنزّل من السماء، وأن هذا القرآن من عند الله سبحانه، أنزله على رسوله محمدٍ ﷺ، وهذه هي قضية الوحي والرسالة.

والثانية: قضية تصحيح العقيدة، فقد كان المشركون يعترفون بوجود الله سبحانه، وأنه الخالق الرازق، ولكنهم يعبدون أصناماً يزعمون أنها تشفع لهم عند الله سبحانه، وأنها تقربهم من الله ﷻ، فالقرآن المكِّي يُصَحِّحُ العقيدة، ويقيم الأدلة والبراهين العقلية والنقلية على أن الله سبحانه خالقُ هذا الكون بما فيه ومن فيه، وهو وحده جل شأنه الذي تُصرف إليه العبادة دون سواه.

والثالثة: قضية الإيمان بالبعث بعد الموت، والحساب والجزاء على الأعمال من جنة أو نار.
 هذه القضايا الثلاث، هي المحور الأساس الذي تدور حوله السور المكية، أو القرآن المكي.
 وسورة يونس ستة أثمان، أو ستة أرباع، يقال: ربع الحزب، أو ثمن الجزء؛ في
 الربعين الأخيرين منها طَرَف من قصة يونس عليه السلام.

وسُميت السورة باسمه؛ لذكره فيها، والأربعة أرباع الأولى من السورة تتناول القضايا
 الثلاث التي تحدثت عنها، وهي السورة المكية الثالثة في ترتيب المصحف، وقبلها سورتا
 الأنعام والأعراف مكيّتان، وما عدا ذلك ممّا سبق فهي سور مدنية.

قضايا السورة: وبعد بدء سورة يونس ببعض حروف الهجاء، أشارت إلى القرآن الكريم
 في أوّل آية منها، وأتبعَت ذلك بإثبات رسالة محمد ﷺ، ومن ثمّ إلى توحيد الله سبحانه،
 وانفراده بالخلق، ثم بإثبات البعث والحشر والجزاء، وهذه الثلاثة هي أصول الشرك،
 ومقاصد السور المكية.

وقد تخلل ذلك قيام الدلائل على كلّ منها، والتذكير بما حلّ بالقرون المشركة بالله
 تعالى، المكذبة لرسول الله صلوات الله عليهم أجمعين، والاعتبار بآثار القدرة الإلهية في
 البر والبحر، مع ضرب المثل بالحياة الدنيا، واختلاف أحوال الناس في الآخرة، وإثبات
 أن القرآن مُنزّل من عند الله سبحانه، وإنذار المشركين، وتبشير المؤمنين، والاعتبار بما
 حَدَث للأمم السابقة؛ من قوم نوح، وموسى، وهارون... إلخ.

وبعد ذكر مصارع الظالمين يُلفَت القرآن نظر أمة محمد ﷺ إلى الاستفادة بما حدث لمن قبلهم
﴿وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَمَّا ظَلَمُوا وَجَاءَهُمْ رَسُولُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ وَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا كَذَلِكَ نَجْزِي
 الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ ﴿١٢﴾ ثُمَّ جَعَلْنَاكُمْ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ مِنْ بَعْدِهِمْ لِنَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ ﴿١٣﴾﴾ [يونس].

وتدعو السورة الناس جميعاً إلى الإقبال على الله تعالى، والدخول في مظلة خاتم
 الرسل ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمْ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَشِفَاءٌ لِمَا فِي الصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ
 ﴿٥٧﴾ قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ ﴿٥٨﴾﴾ [يونس].

وهاتان الآيتان من السورة توضحان أن هداية الإنسان تعود عليه، وضلاله يعود عليه
﴿فَمَنْ أَهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَنْ ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهِ﴾ [الآية: ١٠٨].

وعلى الرسول ﷺ وكل داعية إلى الله تعالى أن يصبر على جهود الدعوة، ويتحمل الأذى في سبيل الله، فإن مصيره إلى خير، وفصل القضاء في صالحه ﴿وَأَصْبِرْ حَتَّى يَحْكُمَ اللَّهُ وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ﴾ [الآية: ١٠٩].

وقد رفض بعض الناس هداية القرآن كما في قوله تعالى من السورة: ﴿وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ ءَايَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالَ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا أَتَنْتِ بِفَرَةٍ غَيْرِ هَذَا أَوْ بَدَّلَهُ أَفَلَا يَكُونُ لِي أَنْ أُبَدِّلَهُ﴾ [الآية: ١٥]

أي: قل يا محمد، كلاماً آخر تمدح فيه آلهتنا، وتقر في أحوالنا وتقاليدنا.

والجواب: ﴿قُلْ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أُبَدِّلَهُ مِنْ تِلْقَائِي نَفْسِي﴾ [الآية: ١٥].

ويبين لهم الرسول ﷺ أنه قد مكث فيهم أربعين سنة دون أن يتلوا عليهم وحياً، أو يصحح لهم ديناً ﴿فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِنْ قَبْلِهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ [الآية: ١٦].

ويرد القرآن عليهم في قوله تعالى: ﴿بَلْ كَذَّبُوا بِمَا لَمْ يُحِيطُوا بِعَلَمِهِ﴾ [الآية: ٣٩]

وفصل القرآن تكذيبهم هذا في قوله: ﴿وَمِنْهُمْ مَنْ يُؤْمِنُ بِهِ وَمِنْهُمْ مَنْ لَا يُؤْمِنُ بِهِ وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِالْمُفْسِدِينَ﴾ (٤٠) وَإِنْ كَذَّبُوكَ فَقُلْ لِي عَمَلِي وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ أَنتُمْ بَرِيءُونَ مِمَّا أَعْمَلُ وَأَنَا بَرِيءٌ مِمَّا تَعْمَلُونَ (٤١) وَمِنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ أَفَأَنْتَ تَسْمِعُ الْأَعْمَى لَوْ كَانُوا لَا يَعْقِلُونَ (٤٢) وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْظُرُ إِلَيْكَ أَفَأَنْتَ تَهْدِي الْأَعْمَى لَوْ كَانُوا لَا يَبْصُرُونَ (٤٣) [يونس].

لقد كابر أهل مكة وقاوموا الإسلام مقاومة شديدة من أول ظهوره، وقادوا المعركة ضده نحو عشرين سنة، ثم دخلوا فيه بعد ذلك، وأخلصوا له أشد الإخلاص، وحملوا لواءه، وحموا كعبته.

والسبب في ذلك أن القرآن نزل عليهم يُحرِّك عقولهم، ويشغل فكرهم، ويدفعهم بقوة نحو ربهم.

ومن العجيب أن العلمانيين والملاحدة والماديين، لم ينتفعوا بما انتفع به عبدة الأوثان والأصنام؛ ذلك أن الناس في أوربا وأمريكا وأمثالهم هنا وهناك حيث تمتد الحضارة المادية المعاصرة، لا يهتمون بالله تعالى ولا ببلقائه، إنهم يعملون للحياة المادية فحسب ﴿يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِّنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ الْآخِرَةِ هُمْ غَفْلُونَ﴾ (٧) [الروم].

لم يكلف هؤلاء أنفسهم النظر في مثل قوله تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ﴾ [الآية: ٣]

ولا في مثل قوله تعالى: ﴿قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أَمَّنْ يَمْلِكُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَرَ وَمَنْ يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَمَنْ يُدِيرُ الْأَمْرَ فَسَيَقُولُونَ اللَّهُ فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾ [الآية: ٣١].

إِنَّ الْمَزَارِعَ يَضَعُ حَبَّةً فِي الْأَرْضِ؛ فَتُخْرِجُ أَلْفَ حَبَّةٍ، فَمَنْ يَنْبُتُ مِنَ الطِّينِ كَرِيمِ الطَّعْمِ وَالرَّائِحَةِ مِثْلَ قَصَبِ السُّكَّرِ، وَأَصْنَافِ الْفَاكِهَةِ، وَأَلْوَانِ الْحَبُوبِ وَالْخَضِرَاوَاتِ؟ وَمَنْ يَحُولُ ذَلِكَ إِلَى أَزْهَارٍ وَوُرُودٍ تَفُوحُ مِنْهَا رَائِحَةُ الْعُطُورِ؟ ﴿فَذَلِكُمْ اللَّهُ رَبُّكُمُ الْحَقُّ فَمَاذَا بَعَدَ الْحَقِّ إِلَّا الضَّلَالُ﴾ [الآية: ٣٢].

إِنَّ الْإِنْسَانَ تَمَرُّ بِهِ أَيَّامٌ وَسَاعَاتٌ عَصِيبَةٌ، يَعْصِرُ فِيهَا أَلَمًا وَعَجْزًا وَحُزْنًا؛ فَيَهْرَعُ طَالِبًا النُّجْدَةَ مِنَ الْكُرُوبِ؛ فَإِذَا انْكَشَفَ هَمُّهُ وَغَمُّهُ؛ فَتَرَتْ حَرَارَتَهُ وَنَسِيَ مَنْ كَانَ يَدْعُوهُ ﴿فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ غُضُّهُ مَرًّا كَانَ لَمْ يَدْعُنَا إِلَى ضَرٍّ مُّسْمًى﴾ [الآية: ١٢].
﴿فَلَمَّا أَتَيْنَاهُمْ إِذَا هُمْ يَبْغُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ﴾ [الآية: ٢٣].

هذا هو الإسلام، يربط العبد بربه، ويبعده عن الشرك، ويعلق رغبته ورهبته بالله، ويجعله يتعامل مع الناس على هذا الأساس، وإلى هذا دعا نوح، وهود، ويونس، وموسى، وهارون أقوامهم.



تَفْسِيرُ السُّورَةِ

فَوَاتِحُ السُّورِ الْهَجَائِيَّةِ

١- ﴿الرَّ (١) تِلْكَ ءَايَاتُ الْكِتَابِ الْحَكِيمِ﴾

وتبدأ سورة يونس بما بدأت به سورة البقرة، وآل عمران، والأعراف، بحروف الهجاء. ﴿الرَّ﴾ تبدأ السورة بهذه الحروف الثلاثة؛ وهي: الألف واللام والراء، والسور المفتحة بحروف الهجاء تسع وعشرون سورة، بدأت بحرف واحد إلى خمسة أحرف؛ وهي خمسة أقسام:

أولاً: ما بُدِئَ منها بحرف واحد، وعددها ثلاث سور؛ هي: سورة ص ووق ون.

ثانياً: ما بُدِئَ منها بحرفين اثنين، وعددها تسع سور؛ هي: طه، وطس (النمل) و(يس)، وحم في سور ست؛ هي: غافر، وفُصِّلَتْ، والزُّخْرُف، والدُّخَان، والجبائية، والأخفاف.

ثالثاً: ما بُدِئَ منها بثلاثة أحرف، وعددها ثلاث عشرة سورة؛ هي: (الم) في ست سور؛ هي: البقرة وآل عمران والعنكبوت والروم ولقمان والسجدة.

والر (في خمس سور؛ هي: يونس وهود ويوسف وإبراهيم والحجر.

و(طسم) في سورتين هما: الشعراء والقصاص.

رابعاً: ما بدئ منها بأربعة أحرف، في سورتين اثنتين هما: الأعراف (المص)، والرعد (الم).

خامساً: ما بدئ منها بخمسة أحرف، وهما سورتان: مريم (كهيعص)، والشورى (حم عسق).

وهي من المتشابه الذي لا يعلمه إلا الله، وقيل: إنها إشارة إلى أن هذا القرآن مُعْجَزٌ في أسلوبه، ومعانيه، وبيانه، ونظمه، وأحكامه، فهو الذي عَجَزَ أَرْبَابُ الْفَصَاحَةِ والبلاغة عن الإتيان بمثل أقصر سورة منه، كسورة الكوثر، مع أنه مُكَوَّنٌ من هذه الحروف من الألف واللام والراء ونحوها، وهذا التحدي قائمٌ إلى يوم الساعة.

(١) سكت أبو جعفر على (ألف) (لام) (راء) سكتة خفيفة من غير تنفس بمقدار يسير قدر النفس.

وهذا إلى جوار أن الحروف الْمُقَطَّعَة في أوائل السور؛ لجذب انتباه المُكذِّبِينَ بالقرآن، إلى الاستماع إليه والتأمل فيه؛ فيلجئهم هذا إلى الإصغاء والتدبر؛ حتى يعلموا معانيه؛ فَيَجْرُؤُهم إلى الدخول في الإسلام، سِيَّما وأن هذه الحروف لم يَأْلَفَهَا العربُ في كلامهم.

ولذلك فإن أغلب السور المفتحة بحروف الهجاء، يَعْقُبُهَا غالبًا ذِكْرٌ للقرآن صراحة، أو ضمناً مثل: ﴿تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْحَكِيمِ﴾ [لقمان: ٢] ﴿ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ﴾ [البقرة: ٢] ﴿تَنْزِيلُ الْكِتَابِ لَا رَيْبَ فِيهِ﴾ [السجدة: ٢] ﴿كِتَابٌ أَحْكَمْتُ آيَاتُهُ﴾ [هود: ١] ﴿تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ﴾ [يوسف: ١] وهكذا.

فالآية التي تلي حروف الهجاء في فواتح السور تخص الحديث عن القرآن عدا سور: مريم، والعنكبوت، والروم، والقلم؛ أي: أن هذا القرآن مُكوَّن من هذه الحروف، وهي آيات كتاب مُحْكَم في نَظْمِهِ، وأسلوبه، وبلاغته، وبيانه، ووَعْدِهِ، ووَعِيدِهِ، وحلاله وحرامه، أَحْكَمُهُ الله وبيَّنه لعباده؛ ليتدبروه ويعملوا بما فيه، والإشارة في الآية إلى القرآن كَلِّهِ، أو إلى ما نَزَلَ منه قبل هذه السورة، فهو قرآن مُحْكَمٌ، لا يدخله شك، ولا يعتريه كذب ولا تناقض ولا اختلاف.

وهو قرآن مشتملٌ على الحِكْمَةِ والأحكام والأوامر والنواهي الشرعية، ومشتمل على قواعد الحكم بين الناس بالحق والعدل، ومشتمل على هداية الناس وموعظتهم ﴿ذَلِكَ هُدًى اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ﴾ [الأنعام: ٨٨] وآيات هذا الكتاب الحكيم من جنس الحروف التي افتُتحت بها السورة، وقد اشتملت على براهين التوحيد وإبطال الشرك.

الْقَضِيَّةُ الْأُولَى مِنْ قَضَايَا الْقُرْآنِ الْمَكِّيِّ: وَجُوبُ الْإِيمَانِ بِالْوَحْيِ وَالرِّسَالَةِ

٢- ﴿أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَا إِلَى رَجُلٍ مِنْهُمْ أَنْ أَنْذِرِ النَّاسَ وَبَشِّرِ الَّذِينَ ءَامَنُوا أَنَّ لَهُمْ قَدَمٌ صِدْقٍ عِنْدَ رَبِّهِمْ قَالَ الْكَافِرُونَ إِنَّ هَذَا لَسِحْرٌ ^(١) مُبِينٌ 

(١) قرأ ابن كثير وعاصم وحمة والكسائي وخلف (لساحر) بفتح السين وألف بعدها ثم حاء مكسورة، وقرأ الباكون (لسحر) بكسر السين وسكون الحاء وعدم وجود ألف بينهما، والأول اسم فاعل والثاني مصدر.

ثم تناولت السورة أول القضايا الثلاث التي يتناولها القرآن المكي؛ فبدأت بالحديث عن الوحي والرسالة، وذكرت عجب الناس أن نزل الوحي على رجل منهم، هو محمد ﷺ، وهو عين ما قاله أهل القرون السابقة لرسول الله جميعاً.

كما قال تعالى على لسانهم: ﴿قَالُوا إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا تُرِيدُونَ أَنْ تَصُدُّونَا عَمَّا كَانَتْ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا﴾ [إبراهيم: ١٠]

فأجابتهم الرسل: ﴿إِنْ نَحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَمُنُّ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ﴾ [إبراهيم: ١١]

وكما قال تعالى: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُ كَانَتْ تَأْتِيهِمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَقَالُوا أَبَشَرٌ يَهْدُونَنَا﴾ [التغابن: ٦] وهكذا قالوا للنوح، وهود، وصالح، وغيرهم صلوات الله عليهم أجمعين.

ويرد الله عليهم: ﴿أَوْ عَجِبْتُمْ أَنْ جَاءَكُمْ ذِكْرٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَلَى رَجُلٍ مِنْكُمْ﴾ [الأعراف: ٦٣، ٦٩]

وقال تعالى يحكي قول كفار قريش للنبي ﷺ: ﴿وَعَجِبُوا أَنْ جَاءَهُمْ مُنْذِرٌ مِنْهُمْ وَقَالَ الْكَافِرُونَ هَذَا سِحْرٌ كَذَّابٌ ﴿٤﴾ أَجْعَلُ الْآلِهَةَ إِلَهًا وَاحِدًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ ﴿٥﴾﴾ [ص]

وقال تعالى: ﴿بَلْ عَجِبُوا أَنْ جَاءَهُمْ مُنْذِرٌ مِنْهُمْ فَقَالَ الْكَافِرُونَ هَذَا شَيْءٌ عَجِيبٌ ﴿٢﴾﴾ [ق]. وغير ذلك من الآيات.

وعن ابن عباس ؓ لما بعث الله تعالى محمداً رسولاً؛ أنكرت العرب ذلك، أو من أنكر منهم، فقالوا: الله أعظم من أن يكون رسوله بشراً مثل محمد.

قال: فأنزل الله تعالى: ﴿أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَا إِلَى رَجُلٍ مِنْهُمْ﴾^(١).

قال سبحانه مشيراً إلى أن الرسل على مدى التاريخ كلهم رجال من البشر: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُوْحِي إِلَيْهِمْ﴾ [النحل: ٤٣] والاستفهام للإنكار والتوبيخ.

والتعجب: حالة تعتري الإنسان عند رؤية شيء على خلاف العادة.

(١) «تفسير القرطبي» (٣٠٦/٨) والطبري (٥٨/١١) و«زاد المسير» (٥/٤) و«الدر المنثور» (٣/٣٩٩) و«تفسير ابن كثير» (٢٤٥/٤) وابن أبي حاتم (١٩٢٢/٦).

وقد ردَّ الله سبحانه على المكذِّبين بالوحي المنزَّل على رُسل الله جميعاً، أنهم كيف يَعَجَبُونَ من أن الله تعالى يُوحى إلى رجل منهم؟! ولا يعجبُونَ من أنه تعالى خَلَقَ هذا الكون بما فيه؛ فقد كانت الآيات بعد ذلك في السورة متضمنةً مشاهدَ عظيمة من هذا الكون، كخَلْقِ السموات والأرض ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ﴾ [يونس: ٣] والشمس والقمر، والليل والنهار ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسُ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُورًا﴾ [يونس: ٥] ومشاهد القيامة وما بعدها من نعيم مقيم، أو عذاب لا نهاية له ﴿إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا وَعَدَّ اللَّهُ حَقًّا﴾ [يونس: ٤].

وتتضمن أيضاً أحوال البشر عندما يتعرضون للخير والشر، والسراء والضراء ﴿وَلَوْ يُعِجِّلُ اللَّهُ لِلنَّاسِ الشَّرَّ اسْتِعْجَالَهُمْ بِالْخَيْرِ لَفُضِيَ إِلَيْهِمْ أَجْلُهُمْ﴾ [يونس: ١١] وتُبَيِّن مصارع الغابرين الذين كذَّبوا رسل الله في كلِّ زمان ومكان ﴿وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَمَّا ظَلَمُوا﴾ [يونس: ١٣].

وإذا كان الناس قديماً يستبعدون الاتصال بين البشر وخالقهم عن طريق جبريل ﷺ؛ فإن الاكتشافات العلمية الحديثة من غزو الفضاء، والقنوات الفضائية، والهاتف والفاكس، والتلكس والحاسوب، والرَّائي، والموجات الصوتية، والأثير، وشبكة الاتصالات والمعلومات، وما إلى ذلك ممَّا يؤكد إمكانية نزول الوحي ويقرره.

وقد عجب المشركون قديماً من أمرين:

١- عجبوا أن يكون المرسل إلى الناس من البشر؛ فقالوا: لماذا لم يكن الرسول ملكاً؟ لو أراد الله أن يرسل إلينا رسولاً لأرسل ملكاً.

٢- وعجبوا أن يكون الرسول هو بالذات يتيماً أبي طالب محمد ﷺ.

وكفار اليوم ومشركوهم في العالم يعجبون أيضاً أن تكون الرسالة العامة الخاتمة من العرب، وتتمثل في رسول الله محمد ﷺ، ويقولون: إنه رسول إلى العرب خاصة، فالعجب القديم حادث وموجود اليوم وغداً.

والله ﷻ يبيِّن أن الرسول الذي يرسله تعالى إلى البشر، لا بُدَّ أن يكون بشراً منهم، وبلسانهم ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ﴾ [إبراهيم: ٤].

فلو كان الرسول من عالم آخر؛ بأن كان ملكًا، أو جنيًا؛ لفأت المقصود من الرسالة، ولما أمكن أن يصل الوحي إلى القوم، فلا يمكن للإنسان أن يقوى على رؤية الملك، ولا يمكن للملك أن يعايش الإنسان؛ فهذا مخلوق، وذاك مخلوق آخر، له طبيعته المختلفة.

ولذلك لما طلب المشركون أن يكون الرسول ملكًا قال سبحانه في الرد عليهم: ﴿وَلَوْ جَعَلْنَاهُ مَلَكًا لَجَعَلْنَاهُ رَجُلًا﴾ أي: لجعلنا هذا الملك الذي ينزل عليهم في صورة الرجل، كما كان الوحي ينزل على رسول الله ﷺ في صورة الرجل ﴿وَلَلْبَسْنَا عَلَيْهِمْ مَا يَلِيشُونَ﴾ [الأنعام: ٩] فالنتيجة واحدة ﴿قُلْ لَوْ كُنْتُ فِي الْأَرْضِ مَلَكًا لَمَلِكًا يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِمْ مِنَ السَّمَاءِ مَلَكًا رَسُولًا﴾ [الإسراء: ٩٥].

ولو أن الله تعالى لبي طلبهم وجعله ملكًا؛ لكان في هذا نهايتهم ﴿وَلَوْ أَنزَلْنَا مَلَكًا لَقُنِيَ الْأَمْرُ ثُمَّ لَا يُنْظَرُونَ﴾ [الأنعام: ٨] وذلك أنه حين يطلب القوم من رسولهم أن يأتي لهم بآية، ويؤيده الله تعالى بما طلبوا، ثم لا يؤمنون به؛ فإنه سبحانه يهلكهم عن آخرهم، كما حصل لقوم صالح، وقوم هود، وغيرهم.

أي: لكان في هذا هلاكهم وإبادتهم إبادة جماعية، كما حدث للأمم قبلهم، ولكن الله تعالى أراد لهذه الأمة البقاء ﴿وَمَا كُنَّا لِنُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ وَمَا كُنَّا اللَّهُ مُعَذِّبُهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾ [الأنفال: ٣٣].

فقد أراد الله لهذه الرسالة أن تنسخ ما قبلها، وأن تكون باقية إلى يوم الساعة.

ثم لماذا يعجبون أن تكون الرسالة في محمد اليتيم؟ ﴿اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ﴾ [الأنعام: ١٢٤]

الله أعلم بخصائص الرسول، وبمن هو أهل للرسالة ﴿اللَّهُ يَصْطَفِي مِنَ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا وَمِنَ النَّاسِ﴾ [الحج: ٧٥]

قال المشركون: لماذا لم ينزل القرآن على عظيم مكة، أو عظيم الطائف، الوليد بن المغيرة.

أو مسعود بن عمرو الثقفي؟ ﴿وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَى رَجُلٍ مِنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ﴾ [الزخرف: ٦١].

والقرية في القرآن: هي المدينة العظيمة، والعاصمة، ويقابلها البادية.

قال سبحانه في الرد عليهم: ﴿أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ﴾ هذا تفضيل الله ﷻ، وهذه إرادة

الله ومقتضى علمه ﴿نَحْنُ قَسَمًا بَيْنَهُمْ مَعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضًا سُخْرِيًّا﴾ [الزخرف: ٣٢].

وفي هذه السورة حديث عن القرآن والوحي والرسالة، في ثلاثة مواضع أخرى يأتي كل منها في موضعه.

الناس تجاه الوحي المنزل، فريقان: مؤمن وكافر:

وبعد ذكر هذا العجب، ذكر سبحانه خلاصة مهمة الوحي؛ وهي إنذار الناس بعاقبة المخالفين لرسول الله، وتبشير المؤمنين منهم بعقبي الطاعة، ويكون ذلك بامثال الأوامر واجتناب النواهي، وقد جاء الإنذار في قوله تعالى: ﴿أَنْ أُنْذِرَ النَّاسَ﴾ والمراد بهم الكفار وهم الفريق الأول؛ لأن المؤمنين ذكروا بعدهم؛ أي: أعلمهم وخوفهم عاقبة كفرهم، إن لم يؤمنوا بهذا القرآن، ويعملوا بما فيه.

وجاء الشق الآخر لمهمة الوحي في قوله تعالى: ﴿وَبَشِّرِ الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ أي: بشر المؤمنين بالله ورسله بالطمأنينة، والثبات، والاستقرار، بشرهم ﴿أَنَّ لَهُمْ قَدَمَ صَدَقٍ عِنْدَ رَبِّهِمْ﴾ أي: أجراً حسناً، ومنزلةً عاليةً عند رب العالمين؛ بسبب ما قدموه في الدنيا من الإيمان وصالح الأعمال، التي استحقوا عليها الثواب الجزيل، والأجر العظيم.

فقدم الصدق: هو العمل الذي قدموه لأنفسهم في الدنيا، كما قال تعالى: ﴿وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا وَءَاتَاهُمْ﴾ [يس: ١٢] وما أعدّه الله على العمل الصالح من الأجر الحسن، والمنزلة الكريمة في الآخرة.

ومهمة الوحي تنحصر في الإنذار والتبشير كما سبق، وقد جاء ذكرهما في هذه الآية، ونظيرها قوله تعالى: ﴿لِيُنْذِرَ بَأْسًا شَدِيدًا مِّنْ لَّدُنْهُ وَيُبَشِّرَ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا حَسَنًا﴾ [الكهف: ٢] وقوله: ﴿إِنِّي لَكُم مِّنْ نَّذِيرٌ وَيَبَشِّرٌ﴾ [هود: ٢] ومع وضوح صدق الرسول ﷺ وإعجاز القرآن؛ فقد قال المشركون: إن محمداً ساحرٌ ظاهر السحر، ودعوته باطلة، وهذا من سفههم وعنادهم، فإنهم تعجبوا من أمر لا يُتعجب منه، وإنما يُتعجب من جهلهم وعدم معرفتهم بما يصلحهم.

والمعنى: فلما جاء محمد ﷺ بوحي الله تعالى، وتلاه عليهم ﴿قَالَ الْكَافِرُونَ إِنَّكَ هَذَا

لَسِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿١٠٩﴾ أي: قالوا عن النبي ﷺ: إنه ساحر؛ نظرًا لِمَا جاء به من المعجزات التي لم يألفوها، وقالوا عن القرآن: إنه سحر؛ لاشتماله على أخبار البعث والنشور، وقد كانوا يُنكرونها، وهكذا قال قوم موسى له: ﴿إِنَّ هَذَا لَسِحْرٌ عَلِيمٌ﴾ [الأعراف: ١٠٩] وكذلك قال قوم عيسى له حين جاءهم بالبينات فقالوا: ﴿إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾ [المائدة: ١١٠].

ومعنى الآية: أَبْلَغَ الجهل وسوء التفكير ببعض الناس أن أوحى الله تعالى إلى رجلٍ من البشر؛ كي يُبَلِّغَهُم دين الله تعالى، وشرعه، ومنهجه إلى خلقه؛ فيشرهم وينذرهم، فهل هذا أمر عجيب يدعو إلى الدهشة والاستهزاء على أساس أن النبوة لا تكون في البشر؟

والواقع أن الذي يدعو إلى العجب حقًا هو ما يعجبون منه؛ لأن حِكْمَةَ الله تعالى تقتضي أن يكون الرسل من البشر؛ لأنَّ كل جنسٍ يَأْلَفُ جنسه، وينفر من غيره، ومع وضوح الأدلة في ذلك؛ فإن القائلين بهذا لم يزدادوا إلا جُحودًا وعنادًا ﴿فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَكِنَّ الظَّالِمِينَ بِآيَاتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ﴾ [الأنعام: ٣٣].

القَضِيَّةُ الثَّانِيَّةُ: تَصْحِيحُ عَقِيدَةِ الْمُشْرِكِينَ

٣- ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ يُدِيرُ الْأَمْرَ مَا مِنْ شَيْءٍ إِلَّا مِنْ بَعْدِ إِذْنِهِ ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿١﴾﴾

ثم خاطب الله تعالى المشركين الذين يُنكرون أن يكون الرسول بشرًا، فيقول لهم: كيف تُنكرون ذلك وأنتم تقرون بالربوبية، وتقرون بوجود الله سبحانه؟ كما قال تعالى: ﴿وَلَيْن سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ﴾ [الزخرف: ٨٧]

وقال: ﴿قُلْ مَنْ رَبُّ السَّمَوَاتِ السَّبْعِ وَرَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ ﴿٨٦﴾ سَيَقُولُونَ اللَّهُ﴾ [المؤمنون: ٨٦، ٨٧]

فأنتم تقرون بأن لهذا الكون ربًّا، وتعترفون بأنَّ الله تعالى هو المتفرد بالخلق، وتدبير الأمر، ولكنكم تتوجهون بالعبادة إلى آلهة أخرى، وتزعمون أنها تقربكم من الله، وتشفع لكم عنده، وتقولون: ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَىٰ﴾ [الزمر: ٣].

(١) قرأ حفص وحزمة والكسائي وخلف العاشر بتخفيف الذال (تذكرون) على حذف إحدى التاءين؛ لأن الأصل (تذكرون)، والباقيون بتشديدها على إدغام التاء في الذال.

وهذه هي القضية الثانية من قضايا السور المكية؛ وهي تصحيح عقيدة المشركين بإقامة الأدلة على توحيد الخالق سبحانه؛ كي يتوجهوا بعبادتهم إلى الله وحده، ويُفردوه بالعبادة، فلا يكفي اعتقاد أن الله هو الخالق الرازق المحيي المميت، بل لا بُدَّ من إفراده تعالى بالعبادة، واعتقاد أنه وحده النافع الضار مُصَرِّفُ الكون، وأنه أقرب إلى العبد من حبل الوريد، وأنه سبحانه يُجِيب كُلَّ مَنْ توجَّه إليه بالدعاء بلا واسطة، مَهْمَا كان العبد مِنْ أهل الشقاء، فلا أشقى من إبليس، وهو يعترف بأن له ربًّا، وقد أجاب الله سؤاله حين سأله النظرة ﴿قَالَ رَبِّ فَأَنْظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾ (٣٦) قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ الْمُنْظَرِينَ ﴿٣٧﴾ إِلَى يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ ﴿٣٨﴾ [الحجر ٣٦-٣٨، وص: ٧٩-٨١].

ولَمَّا ذَكَرَ الله سبحانه تعجُّب الكفار مِنْ أَنْ يكون الرسول بشرًا، واتهموه بالسحر؛ أزال الله سبحانه هذا العجب بأمرين:

أحدهما: إثبات أن لهذا الكون إلهاً قاهرًا قادرًا، نافذ الحكم بالأمر والنهي، وذلك في هذه الآية التي نحن بصدها.

وثانيهما: إثبات القيامة، والبعث، والحشر، والنشر، والحساب، والجزاء على الأعمال، وذلك في الآية التالية ﴿إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا﴾ وهي تتناول القضية الثالثة من قضايا القرآن المكي وهو الإيمان باليوم الآخر.

عن سعد بن إسحاق بن كعب بن عجرة قال: حين نَزَلَتْ ﴿إِنَّا رَبُّكُمْ اللَّهُ﴾ لَقِيَهُمْ رُكْبٌ عَظِيمٌ مِنَ الْعَرَبِ، فَقَالُوا لَهُمْ: مَنْ أَنْتُمْ؟ قَالُوا: مِنَ الْجَنِّ، خَرَجْنَا مِنَ الْمَدِينَةِ، أَخْرَجْتَنَا هَذِهِ الْآيَةُ^(١).

﴿إِنَّا رَبُّكُمْ﴾ أيها الناس ومالك أمركم، وزب العالم أجمع الذي يَجْلِبُ لكم المنافع، ويدفع عنكم المضار، والذي يجب أَنْ تُفردوه بالعبادة هو ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ﴾ وما فيهما وما بينهما ﴿فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ﴾ من أيام الدنيا أو غيرها، أي: هو الذي أوجد هذا الكون الهائل، بسمائه وأرضه، وشمسه وقمره، وليله ونهاره، وأوجد ما في السموات والأرض من مخلوقات، وما فيهما من الأقوات والأرزاق؛ فهو سبحانه

(١) «تفسير ابن كثير» (٢٤٦/٤).

الخالق والمنشئ، والمبدع لهذا الكون بما فيه ومن فيه .

الأيام الستة: وقد تم هذا الخلق في ستة أيام، وهو سبحانه قادر على هذا الخلق بكلمة ﴿كُنْ﴾ أي: في لمحة بصر، ولكنه جل شأنه يُعَلِّمنا الرفق والثبوت والتأني في الأمور.

قال سعيد بن جبير: كان الله قادرًا على أن يخلق السموات والأرض في لمحة ولحظة، ولكنه سبحانه خلقهن في ستة أيام؛ لكي يُعَلِّم عباده الثبوت والتأني في الأمور.

وفي ذلك من الحكمة الإلهية ما لا يعلمه إلا الله، ومن الحكمة أنه سبحانه خلقها بالحق وخلقها للحق، حتى يُعَرِّف الله تعالى باسمائه وصفاته وأفعاله فيوجهون العبادة له وحده.

والأهم من ذلك أن الله تعالى جعل لكل شيء حدًا محدودًا ووقتًا معلومًا، بحيث لا يدخل هذا الشيء في الوجود إلا في الوقت الذي أَرَادَهُ الله، وهذا أبلغ في القدرة؛ حتى تستعظمه الملائكة شيئًا فشيئًا؛ لأنَّ خَلَقَ الكائنات دفعة واحدة في لحظة واحدة يُوحِي بأنها خُلِقَتْ صُدفَة أو على سبيل الاتفاق؛ فخلقها على هذا الشكل أقوى في الدلالة على قدرة الله تعالى.

والأيام الستة غيبٌ من الغيوب لا يعلم مقدارها إلا الله؛ إذ إنَّ دورة الفلك لم تكن قد وُجِدت بعد، فليس هناك شمس ولا قمر، ولا ليل ولا نهار، ولا سماء ولا أرض، ثم هل هذه الأيام بمقدار أيام الدنيا أم هي بمقدار أيام الآخرة؟ ﴿وَإِنَّ يَوْمًا عِنْدَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ﴾ [الحج: ٤٧] الله أعلم، ولم يَرِدْ دليلٌ من كتاب أو سنة يبيِّن مقدار هذا اليوم.

والأقرب أن الله تعالى خاطبنا بما نعلم؛ أي: تكون هذه الأيام بمقدار أيام الدنيا، كما قال تعالى: ﴿وَلَهُمْ رِزْقُهُمْ فِيهَا بُكْرَةً وَعَشِيًّا﴾ [مريم: ٦٢] أي: صباحًا ومساءً بمقدار ما نعرف في الدنيا؛ لأنَّ الجنة لا ليل فيها ولا نهار، وفي آية أخرى قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ﴾ [ق: ٣٨].

قال ابن جرير الطبري: خَلَقَ الله السموات والأرض في ستة أيام، وذلك يوم الأحد والاثنين والثلاثاء والأربعاء والخميس والجمعة.

وقال أهل الأخبار والسير: إنَّ الله تعالى خَلَقَ التُّربة التي هي الأرض بلا دَحْوٍ ولا بَسْطِ يوم الأحد والاثنين، ثم استوى إلى السماء؛ فسواهن سبع سموات في يومين، هما: الثلاثاء

والأربعاء، ثم دَحَا الأرض، وبسطها، وطحها، وأخرج ماءها، ومرعاها، وخلق دوابها، ووحشها وجميع ما فيها في يومين هما: الخميس والجمعة، وخلق آدم يوم الجمعة، وأسكنه الجنة هو وزوجته حواء، ثم أهبطهما إلى الأرض في آخر ساعة من يوم الجمعة.

العرش والاستواء عليه: وبعد تمام خلق الكائنات كان الاستواء على العرش بعد أن كان على الماء، كما قال تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ﴾ [هود: ٧] وهذا معنى: ﴿ثُمَّ أَسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ﴾.

والعرش في اللغة: هو سَرِيرُ الْمُلِكِ وَسُمِّيَ عَرْشًا؛ لارتفاعه، وهو أعظم المخلوقات. وعرش الرحمن لا يَعْلَمُهُ أَحَدٌ مِنَ الْبَشَرِ عَلَى الْحَقِيقَةِ إِلَّا بِالْإِسْمِ، فهو غَيْبٌ مِنَ الْغُيُوبِ، وهو من المتشابه الذي يعلم حقيقته ربُّ العالمين، والمتقدمون من السلف لا يتكلمون فيه، ولا يفسرونه، ومن أقوالهم في ذلك أنه لما دخل رجلٌ على الإمام مالك وسأله عن العرش: أطرق رأسه وأخذته رعدة، ثم قال: الاستواء غير مجهول، والكَيْفُ غير معقول، والإيمان به واجب، والسؤال عنه بدعة، وما أراك إلا مبتدعًا، وأمرًا بإخراجه.

وقال ابن عُيَيْنَةَ: كلُّ ما وصف الله به نفسه في كتابه؛ فتفسيره تلاوته، والسكوت عنه. وقال البغوي: أهل السنة يقولون: الاستواء على العرش صفةُ الله بِلا كَيْفٍ يجب الإيمان به، ويكلِّ علمه إلى الله؛ فاقروها كما جاءت بلا كَيْفٍ، وَيُقَوِّضُ عِلْمَهَا إِلَى اللَّهِ تَعَالَى. وأجاب بعضهم على مَنْ سألَه عن كيفية الاستواء فقال: أنت لا تدري كيف تأكل وكيف تتبول، تريد أَنْ تَعْرِفَ كَيْفَ الاستواء، وكَيْفَ النزول. وعن أم سَلَمَةَ ؓ أنها قالت: الكَيْفُ غير معقول، والاستواء غير مجهول، والإيمان به واجب، والسؤال عنه بدعة.

وقال محمد بن الحسن: اتفق الفقهاء جميعًا على الإيمان بالصفات من غير تفسير ولا تشبيه. وذلك لأنَّ العقل مخلوق، وكلُّ ما هو مخلوق محدود لا يمكنه الإحاطة بالخالق سبحانه؛ فالآلة التي صمَّمها المهندس لا يُمكنُها أن تحيط بصفة هذا المهندس الذي أبدعها، ولله المثل الأعلى.

ولذا، فإن المسلم يؤمن بصفات الله تعالى كما جاءت في كتابه، أو في سُنَّة نبيه ﷺ من غير تأويل، ولا تحريف، ولا تشبيه، ولا تعطيل، ويضع إلى جوار كل صفة من صفاته قوله تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ [الشورى: ١١] فقوله تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾ نفي للتشبيه، وقوله: ﴿وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ إثبات لصفتي السمع والبصر، وهكذا.

وقد ذُكِرَ العرش في إحدى وعشرين آية من القرآن، وذُكِرَ الاستواء على العرش في سبع آيات.

ثم قال تعالى: ﴿يَذَرُ الْأُمُتَ﴾ أي: أمر الخلائق في العالم العلوي والسفلي من الإحياء والإماتة والأرزاق والنفع والضرر، وإجابة الداعي، ومداولة الأيام بين الناس على ما تقتضيه الحكمة والمصلحة، وهذه التدابير نازلة وصاعدة، وجميع الخلق خاضعون لعظمته وسلطانه في كل صغيرة وكبيرة ﴿لَا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ﴾ [سبأ: ٣] ولا يَشْغَلُهُ شَأْنٌ عَنْ شَأْنٍ ﴿وَمَا تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٌ فِي ظُلْمَةٍ إِلَّا يَكْتُبُ فِيهَا﴾ [الأنعام: ٥٩] فلا يضاده في قضائه أحد، وكلُّ ما يحدث في العالم العلوي والسفلي بإرادة الله تعالى وتديره وقضائه وحِكمته.

وقوله تعالى: ﴿مَا مِنْ شَيْءٍ إِلَّا مِنْ بَعْدِ إِذْنِهِ﴾ أي: لا يملك أحدٌ مَهْمًا كانت درجته أن يشفع لأحدٍ يوم القيامة، إلا بعد أن يأذن الله تعالى للشافع في الشفاعة، ويرضى عن المشفوع له، كما قال تعالى: ﴿وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنْ أَرَادَ﴾ [الأنبياء: ٢٨].

﴿وَكَمْ مِنْ مَلَكٍ فِي السَّمَوَاتِ لَا تُغْنِي شَفَعَتُهُمْ شَيْئًا إِلَّا مِنْ بَعْدِ أَنْ يَأْذَنَ اللَّهُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَرْضَى﴾ [النجم] فهذه الآية جمعت بين الإذن للشافع في الشفاعة، والرضى عن المشفوع له، وفيها ردٌّ على كل من يعتقد أن الأولياء أو الأنبياء يرفعون الدعاء إلى الله تعالى، أو يقربونهم منه سبحانه، قال تعالى: ﴿وَلَا تَنْفَعُ الشَّفَعَةُ عِنْدَهُ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُ﴾ [سبأ: ٢٣].

والأصنام التي يعبدها، أو يتقرب بها المشركون في القديم والحديث، حجارة صماء لا تعقل، ومثلها الحيوانات، والكواكب، وعبادتها ضَرْبٌ مِنَ الْخَبْلِ والتقليد الأعمى.

﴿ذَلِكُمْ اللَّهُ رَبُّكُمُ﴾ المتصِفُ بهذه الصفات ﴿فَاعْبُدُوهُ﴾ أخلصوا له وحده العبادة؛ فهو خالقكم، ومالك أمركم، والمنعمُ عليكم بجميع النعم.

ثم ختم الله الآية بالحث على التذكّر دون التفكير؛ لأن ما تقرره الآية من وجوب التوجه بالعبادة إلى الله وحده، ومعرفة صفاته سبحانه -أمر ظاهر لا يحتاج إلى عمق تفكير، ولا بحث ولا تأمل ﴿أَفَلَا نَذْكُرُونَ﴾ (١٥٥) فتعظون وتعتبرون بهذه الآيات، والْحُجْجِ، وتعلمون أنه المتفرد بالخلق فتعبدونه، وهو المعبود المحمود، ذو الجلال والإكرام.

القضية الثالثة: قضية المعاد والحساب والجزاء

٤- ﴿إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا وَعَدَ اللَّهُ حَقًّا إِنَّهُ﴾ (١) يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ لِيَجْزِيَ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ بِالْقِسْطِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ شَرَابٌ مِّنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ ﴿١٥٦﴾

ثم بيّن سبحانه أن مرجع جميع العباد إلى ربهم، وأنه سيُجازي كلّ بما يستحق، وأن الحكمة في ذلك إظهار عدل الله تعالى من حيث عدم التسوية بين المحسن والمسيء، وبعد أن أمر سبحانه بعبادته وحده، بيّن جلّ شأنه أنه لم يُكَلِّف عباده بعبادته ثم يتركهم هملاً، وإنما لا بُدّ من رجوع الخلق جميعاً إلى الله تعالى يوم القيامة؛ ليُجزِيَ كلّاً منهم بما عمل، وهذه هي قضية الإيمان باليوم الآخر التي اهتم بها القرآن الكريم كثيراً في الفترة المكيّة؛ ليُرَسِّخ في قلوب الناس ما يحملهم على الإيمان بالله تعالى، والعمل للقاءه في يوم المعاد، وقد جاءت هذه الآية لتقرر الحكم الجزائي، وهو مجازاة الله عباده على الأعمال، بعد أن ذكر سبحانه الحكم القدري، وهو التدبير العام لأمر الخلائق في قوله ﴿يَذَرُ الْأُمُورَ﴾ وبعد أن ذكر الحكم الشرعي المتضمن لعبادة الله وحده في قوله ﴿ذَلِكَ كُمْ اللَّهُ فَاعْبُدُوهُ﴾.

وهذه الآية تعليل لما قبلها؛ لأن القوم كانوا يُنْكِرُونَ البعث والنشور والقيام لرب العالمين ﴿وَقَالُوا إِن هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ﴾ [الأنعام] فأشار سبحانه إلى الحشر والحساب في قوله تعالى: ﴿إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا﴾ أي: إلى ربكم معادكم يوم القيامة جميعاً بعد البعث والنشور ﴿وَعَدَ اللَّهُ حَقًّا﴾ فهي عودة مؤكّدة لا شك، ولا جدال فيها.

(١) قرأ أبو جعفر (أنه يبدأ الخلق) بفتح همزة (إنه) على حذف لام الجر، أو على أن (أن) وما دخلت عليه معمول لقوله تعالى: (وعد الله) أي: وعده بإعادة الخلق بعد بدنه، وقرأ الباقون بكسرها على الاستئناف، ويقف حمزة وهشام بخلفه على (يبدأ) بإبدال الهمزة حرف مد، أو تسهيلها بالروم، أو بإبدالها واواً على الرسم، وعليه السكون المحض والرسم والإشمام.

ثم استدل سبحانه على إمكان وقوع البعث ببَدْءِ خَلْقِ النَّاسِ مِنَ الْعَدَمِ ﴿إِنَّهُ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ﴾ فكما أوجدكم من العدم في المرة الأولى، فهو قادر من باب أولى على عودتكم إلى الحياة بعد الموت مرة أخرى كالهَيْئَةِ الْأُولَى ﴿وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَتْ عَلَيْهِ﴾ [الروم: ٢٧]، والذي يرى ابتداء الخلق ثم ينكر إعادته، فاقد للعقل، منكر لأحد المثلين، مع إثبات ما هو أولى منه.

وبعد البعث يكون الثواب والعقاب؛ لأنَّ الله تعالى لم يَخْلُقْنَا عَبَثًا، ولا يتساوى في هذه الحياة الطائع والعاصي، والمؤمن والكافر، فالعلة والسبب من إعادة الخلق بعد الموت ﴿لِيَجْزِيَ الَّذِينَ أَسْتَوُوا يَمَا عَمِلُوا وَيَجْزِيَ الَّذِينَ أَحْسَنُوا بِالْحَسَنِ﴾ [النجم: ٣١] وقال تعالى هنا: ﴿لِيَجْزِيَ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ بِالْقِسْطِ﴾ أي: يجزي المؤمنين على ما قدَّموه في الدنيا من الإيمان والعمل الصالح الجزاء العادل، كما قال تعالى: ﴿ادْخُلُوا الْجَنَّةَ يَمَّا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾.

وقد جعل الله دخول الجنة مسببًا على العمل الصالح، وهو محضُ فَضْلٍ من الله تعالى، فيؤفِّيهم أجورهم، ولا ينقصها لهم كما أقسطوا وعدلوا مع الله تعالى، ولم يظلموا أنفسهم بالشرك قال تعالى: ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدُهُم مِّن فَضْلِهِ وَأَمَّا الَّذِينَ اسْتَنكَفُوا وَاسْتَكْبَرُوا فَيُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَلَا يَجِدُونَ لَهُم مِّن دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا﴾ [النساء: ٧٢].

وقال سبحانه: ﴿مَنْ يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَ بِهِ وَلَا يَجِدْ لَهُ مِن دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا﴾ [النساء: ٧٢] وَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ مِن ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَٰئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ نَقِيرًا﴾ [النساء: ٧٤].

وتأني أقسط بمعنى عدل، والمُقْسِطُ: هو العادل، أَمَّا قَسَطَ فمعناها جَارَ وظَلَمَ وتَعَدَّى، والقاسط: هو الجائر الظالم، قال تعالى: ﴿وَأَمَّا الْقَاسِطُونَ فَكَانُوا لِجَهَنَّمَ حَطَبًا﴾ [الجن: ١٥].

أما الجاحدون لوحداية الله تعالى، ورسالة رُسُلِهِ، الذين ظلموا أنفسهم بالشرك؛ فطعامهم الزُّقُوم والضَّرِيع والغَسَلِينِ ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ شَرَابٌ مِّنْ حَمِيمٍ﴾ وهو يغص في حُلُوقِهِمْ؛ فلا يستطيعون بلعُهُ، فإذا استغاثوا، وطلبوا ماءً؛ أُغِيثُوا بماءٍ كالمُهْل يَشْوِي الوجوه إذا اقتربوا منه، ويُقَطَّعُ الأمعاء إذا نَزَلَ في بطونهم، فهو ﴿يَتَجَرَّعُهُ وَلَا يَكَادُ

يُسِغُهُ ﴿١٧﴾ [إبراهيم: ١٧].

وشراب الحميم: هو ماءٌ متناهي الحرارة ﴿يُصَبُّ مِنْ فَوْقِ رُءُوسِهِمُ الْحَمِيمُ ﴿١٦﴾ يُصْهِرُ بِهِ مَا فِي بُطُونِهِمْ وَالْجُلُودُ ﴿١٧﴾﴾ [الحج]

قال تعالى: ﴿وَسُقُوا مَاءً حَمِيمًا فَقَطَّعَ أَمْعَاءَهُمْ﴾ [محمد: ١٥] وقال سبحانه: ﴿لَا يَذُوقُونَ فِيهَا بَرْدًا وَلَا شَرَابًا ﴿١٤﴾ إِلَّا حَمِيمًا وَغَسَاقًا ﴿١٥﴾﴾ [النبا]

وهم يتجرعونه؛ بسبب كفرهم، وجحودهم، وضلالهم ﴿يَمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ﴾ [الأنعام: ٧٠] ﴿فَلْيَذُوقُوهُ حَمِيمٌ وَغَسَاقٌ ﴿٥٧﴾ وَآخِرُ مِنْ شَكْلِهِ أَزْوَاجٌ ﴿٥٨﴾﴾ [ص].

وإذا اقترب الكافر من هذا الماء الحار تساقطت فروة رأسه ﴿وَلَنْ يَسْتَغِيثُوا يُغَاثُوا بِمَاءٍ كَالْمُهْلِ يَشَوِي الْوُجُوهَ﴾ [الكهف: ٢٩]

ويقال لأهل جهنم: ﴿هَذِهِ جَهَنَّمُ الَّتِي يُكَذِّبُ بِهَا الْمُجْرِمُونَ ﴿٤٣﴾ يَطُوفُونَ فِيهَا وَبَيْنَ حَمِيمٍ ءَانٍ ﴿٤٤﴾﴾ [الرحمن] وقال تعالى في عقوبتهم: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ أُبْسِلُوا بِمَا كَسَبُوا لَهُمْ شَرَابٌ مِنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌ يَمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ﴾ [الأنعام: ٧٠].

مِنْ أَدَلَّةِ التَّوْحِيدِ: الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ

٥- ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسُ ضِيَاءً^(١) وَالْقَمَرَ نُورًا وَقَدَرَهُ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ مَا خَلَقَ اللَّهُ ذَلِكَ إِلَّا بِالْحَقِّ يُفَصِّلُ^(٢) الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٥﴾﴾

هذه أربع أدلة عقلية على وحدانية الخالق سبحانه، وهي تشتمل على أصناف المخلوقات كلها، وهي الشمس والقمر والسماوات والأرض وما فيهما وما بينهما، وهذه المخلوقات تدل على كمال قدرة الله تعالى، وعلمه وحياته وقيومته، وكمال حكمته، وحُسن خَلْقِهِ وسعة عِلْمِهِ، وتدل على رحمته بعباده وإحسانه إليهم، وكل هذا يدل على وحدة المعبود الذي تصرف له الرغبة والرغبة وخالص الدعاء، وفي هذا حث على التفكير

(١) قرأ قبل بقلب همزة (ضياء) ياء، على أن أصلها (ضياي) فقدمت الهمزة على الياء، ف وقعت الياء طرفاً بعد ألف زائدة، فقلبت همزة، والباقون بالياء جمع ضوء، أو مصدر ضاء ضياء.

(٢) قرأ ابن كثير وأبو عمرو وحفص ويعقوب (يفصل) بياء الغيب، وقرأ الباقر بنون العظمة.

في مخلوقات الله، حتى يزداد الإيمان، وتفتح البصيرة، وتقوى القريحة، وفي إهمال ذلك تهاون بأمر الله، وإغلاق لزيادة الإيمان، وجمود للذهن والقريحة^(١).

أي وهذا لَوْنٌ آخَرُ مِنْ مظاهر القدرة الإلهية في الخَلْقِ والكون؛ تنبيهًا على أَنَّ هذا الكون مِنْ صُنْعِ الله سبحانه ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسُ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُورًا﴾ والضياء: هو النور الساطع، والشعاع الفائض من الشمس، وهو أقوى وأشد وأكمل من نور القمر؛ لأنهما إذا تساويا لا يُعَرَفُ الليل مِنْ النهار، والضياء مختص بالشمس، والنور مختص بالقمر، قال تعالى: ﴿وَجَعَلَ الْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا وَجَعَلَ الشَّمْسُ سِرَاجًا﴾ [نوح] وقال جل شأنه: ﴿اللَّهُ نُورُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ [النور: ٣٥]

والله سبحانه هو الذي أوجد الشمس والقمر، وجعلهما نِيرَيْنِ، وهما من أعظم الآيات الدالة على توحيد الله سبحانه، ولكننا نألفهما ونراهما في كُلِّ يوم.

وهذا التعود لرؤية المخلوقات لا يجعل بعض الناس يلتفت إلى عظيم خَلْقِ الله تعالى وقدرته فيهما، وقد أَمَرَنَا الله جل شأنه بالتَفَكُّرِ في آثار صُنْعِهِ فقال: ﴿قُلْ أَنْظَرُوا مَاذَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ [يونس: ١٠١]

وقال: ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَالنَّهَارَ مُبْصِرًا﴾ [يونس: ٦٧]

وبالشمس تُعرف الأيام، وبالقمر تُعرف الشهور والأعوام.

وجعل الله للقمر منازل؛ أي: مواقع لا يتجاوزها في السير، ولا ينقص عنها، وبها تُعرف الأَهْلَةُ والسَّنَةُ القمرية، ومنازل القمر مقسومة على اثني عشر بُرْجًا هي: الحمل، والثور، والجوزاء، والسرطان، والأسد، والسنبلة، والميزان، والعقرب، والقوس، والجدي، والدلو، والحوت، ولكلِّ برج منها مَنَزَلَانِ وثُلُث ينزل القمر كل ليلة منها مَنَزَلًا إلى انقضاء ثمانٍ وعشرين ليلة، ثم يستتر ليلتين إِنْ كَانَ الشهر ثمانية وعشرين يومًا، وليلة واحدة إِنْ كَانَ الشهر ثلاثين يومًا.

ويبدو القمر هلالًا صغيرًا في أَوَّلِهِ، ثم يتزايد نوره وحجمه شيئًا فشيئًا حتى يكتمل، ويصيرَ بَدْرًا في منتصف الشهر، ثم ينقص شيئًا فشيئًا حتى يرجع إلى حالته الأولى كبداية

(١) ينظر: تفسير ابن سعدي للآية.

الشهر ﴿وَالْقَمَرَ قَدَرْتَهُ مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيرِ﴾ (٣٩) لَا الشَّمْسُ يَنْبَغِي لَهَا أَنْ تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلَا آتِلٌ سَابِقَ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴿٤٠﴾ [يس].

﴿نَبَارَكُ الَّذِي جَعَلَ فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا وَجَعَلَ فِيهَا سِرَاجًا وَقَمَرًا مُنِيرًا﴾ (٤١) [الفرقان].

وقد علّمنا الله تعالى منازل الشمس والقمر؛ لِحِكْمَةٍ عَظِيمَةٍ، وَغَايَةٍ كَبِيرَةٍ ذَكَرَهَا رَبُّنَا فِي قَوْلِهِ: ﴿وَلِتَعْلَمُوا عَدَدَ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ﴾ [الإسراء: ١٢] فَتَعْلَمُوا فصولَ السَّنةِ، وَعَدَدَ الشُّهُورِ وَالْأَيَّامِ وَالسَّاعَاتِ، وَزِيَادَتِهَا وَنَقْصَانَهَا، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَهِلَّةِ قُلْ هِيَ مَوَاقِيتُ لِلنَّاسِ وَالْحَجِّ﴾ [البقرة: ١٨٩] وَقَالَ سُبْحَانَهُ: ﴿فَالِقُ الْإِصْبَاحِ وَجَعَلَ آتِلٌ سَكَنًا وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ حُسْبَانًا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ﴾ (٤٦) [الأنعام].

وقد جعل الله هُداةً فِي الْكُفْرِ، كَالنُّورِ فِي الظُّلَامِ، فَيَهْتَدِي بِهِ قَوْمٌ وَيُضِلُّ آخَرُونَ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ ءَامَنُوا يُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَوْلِيَائُهُمُ الظُّلُمَاتُ يُخْرِجُهُم مِّنَ النُّورِ إِلَى الظُّلُمَاتِ أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ (١٥٧) [البقرة: ٢٥٧] وَقَدْ شَبَّهَ اللَّهُ هُدَاهُ بِالنُّورِ، وَلَمْ يَشَبَّهْ بِالضِّيَاءِ مَعَ أَنَّهُ أَشَدُّ مِنَ النُّورِ؛ لِأَنَّ الضِّيَاءَ لَا يَبْقَىٰ مَعَهُ ظُلْمَةٌ، بِخِلَافِ النُّورِ؛ فَإِنْ بَعْضُ الظُّلَامِ يَبْقَىٰ مَعَهُ، وَلَوْ كَانَ نُورُ اللَّهِ تَعَالَىٰ كضياءِ الشَّمْسِ؛ لَوَجِبَ أَنْ لَا يَضِلَّ أَحَدٌ مِّنَ الْخَلْقِ.

وَمَا خَلَقَ اللَّهُ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ إِلَّا لِحِكْمَةٍ عَظِيمَةٍ، وَدَلَالَةٍ بَارِزَةٍ عَلَىٰ كَمَالِ قُدْرَةِ اللَّهِ تَعَالَىٰ، وَعَظِيمِ عِلْمِهِ ﴿مَا خَلَقَ اللَّهُ ذَلِكَ إِلَّا بِالْحَقِّ﴾ أَي: لَمْ يَخْلُقْهُمَا لِهَوَا، وَلَا عِبْثًا؛ إِنَّمَا خَلَقَهُمَا لِلدَّلَالَةِ عَلَىٰ وَحْدَانِيَّتِهِ سُبْحَانَهُ، وَلِتَقُومَ الْحُجُجُ وَالْأَدَلَّةُ عَلَىٰ قَوْمٍ يَعْلَمُونَ الْحِكْمَةَ فِي إِبداعِ الْخَلْقِ، فَهُوَ سُبْحَانَهُ ﴿يُقِصِّلُ الْأَيَّاتِ﴾ وَيُوضَحُهَا وَيُبَيِّنُهَا ﴿لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ فَيَنْفَعُونَ بِهَا، وَيَسْتَدِلُّونَ بِهَا عَلَىٰ قُدْرَةِ اللَّهِ تَعَالَىٰ:

قال سُبْحَانَهُ ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ﴾ (١٥٥) [المؤمنون]

وقال تَعَالَىٰ: ﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَطْلًا﴾ [ص: ٢٧].

وقال جَلَّ شَأْنُهُ: ﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَعِيبًا﴾ [الدخان]

وقد يغفل الإنسان عن هذه الحكمة؛ لَغْفَلَتِهِ عَنْ كَثِيرٍ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ فِي الْكَوْنِ، وَعَدَمِ التَّفَكُّرِ فِيهَا ﴿وَكَايْنٍ مِّنْ ءَايَةٍ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ﴾ (١٥٥) [يوسف].

وَمِنْ أَدِلَّةِ التَّوْحِيدِ: خَلْقُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ

٦- ﴿إِنَّ فِي اخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَمَا خَلَقَ اللَّهُ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَّقُونَ﴾
ثُمَّ ذَكَرَ سبحانه دليلاً أَعَمَّ وأشَمَلَ على انفراد الله تعالى بالخلق والتقدير، وَمِنْ ثُمَّ
وجوب إفراده تعالى بالعبادة دون سواه، وهو استدلال بأحوال الضوء، والظلمة، وتعاقب
الليل والنهار، وبكل مخلوق في العالم العلوي والسفلي على مختلف العصور.

﴿إِنَّ فِي اخْتِلَافِ﴾ أي: تعاقب الليل والنهار ﴿وَمَا خَلَقَ اللَّهُ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ من
عجائب الخلق، من ملك وإنس وجان وحيوان وشجر ونبات وجبال وأنهار وغير ذلك،
وما فيهما من إبداع، وإحكام، ونظام ﴿لَآيَاتٍ﴾ لأدلة واضحة ﴿لِّقَوْمٍ يَتَّقُونَ﴾ أي:
يخشون الله تعالى، ويخافون عقابه، وغضبه، وسخطه، وخصَّ المتقين بالذكر؛ لأن في
الآية تعريضاً بالمشركون الذين لم يهتدوا، وفيها بيان أن أهل التقوى هم الذين ينتفعون
ويعتبرون، كما قال تعالى: ﴿هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ﴾ وغيرهم لا ينتفع، ولا يعتبر، كما قال
تعالى: ﴿وَلَا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلَّا خَسَارًا﴾ [الإسراء: ٨٢].

ويشبه هذه الآية قوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ
لِّأُولِي الْأَلْبَابِ﴾ [آل عمران] وقوله: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ
وَأَفْئَكِ اللَّيْلِ فِي الْبَحْرِ بَيِّنَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ [البقرة: ١٦٤].

وقد حُتِمَتِ الآية التي هنا بقوله تعالى: ﴿لِّقَوْمٍ يَتَّقُونَ﴾ وَحُتِمَتِ الآية المماثلة التي
في البقرة بقوله تعالى: ﴿لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ وَحُتِمَتِ الآية التي في آل عمران بقوله تعالى:
﴿لِّأُولِي الْأَلْبَابِ﴾ وذلك لأن السياق هنا في خطاب المشركون فيه تعريضٌ لهم بعدم الهداية،
وعدم التقوى، وعدم الانتفاع بآيات الله في الكون، أما آيتا البقرة وآل عمران فهما في سياق
شامل يجمع الناس جميعاً، وهذا يشمل أصحاب العقول، وطالبي العلم والمعرفة.

عُقُوبَةُ مَنْ يَكْفُرُ بِالْآخِرَةِ وَثَوَابُ مَنْ يُؤْمِنُ بِهَا

٧- ﴿إِنَّ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا وَرَضُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاطْمَأَنَّنُوا^(١) بِهَا وَالَّذِينَ هُمْ عَنْ ءَايَاتِنَا غَافِلُونَ﴾

(١) قرأ الأصهباني عن ورش بتسهيل همزة (اطمأنوا) وصلاً ووقفاً، ومثله حمزة عند الوقف.

ثُمَّ شَرَعَ سُبْحَانَهُ فِي شَرْحِ أَحْوَالِ مَنْ يَكْفُرُ بِالْآخِرَةِ، وَمَنْ يُؤْمِنُ بِهَا، فَبَدَأَتْ هَذِهِ الْآيَةُ بِالْوَعِيدِ لِمَنْ لَمْ يُؤْمِنْ بِالْبَعْثِ، وَلَمْ يَفْكُرْ فِي الْحَيَاةِ الْآخِرَةِ، وَلَمْ يَنْظُرْ فِي الْأَدَلَّةِ الْكُونِيَّةِ الدَّالَّةِ عَلَى وَحْدَانِيَةِ الْخَالِقِ سُبْحَانَهُ، الْمَوْجِبَةِ لِتَوْحِيدِ اللَّهِ تَعَالَى، وَالَّتِي يَنْتَفِعُ بِهَا الْمُؤْمِنُونَ الْمُتَّقُونَ، أَمَّا غَيْرُ الْمُتَّقِينَ فَهُمْ لَا يَنْتَفِعُونَ بِهَا؛ مَعَ أَنَّ الْقُرْآنَ نَزَلَ لِهَدَايَةِ الْبَشَرِ جَمِيعًا، كَمَا قَالَ تَعَالَى ﴿هُدًى لِّلْكَاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِّنَ الْهُدَىٰ وَالْفُرْقَانِ﴾ [البقرة: ١٨٥] وَذَلِكَ لِأَنَّهُمْ سَادَرُوا فِي غِيْهِمْ، لَا يُؤْمِنُونَ بِلِقَاءِ اللَّهِ، وَغَفَلُوا عَنْ آيَاتِهِ، فَلَمْ يَتَدَبَّرُوا مَا فِيهَا، وَقَدْ تَمَرُّ عَلَيْهِمْ، وَقُلُوبُهُمْ لَا يَتَحَرَّكُ.

﴿إِنَّ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا﴾ مِمَّنْ لَا يَطْمَعُونَ فِي لِقَاءِ اللَّهِ وَلَا يُؤْمِلُونَ فِي الْعَرْضِ عَلَيْهِ، وَهُمْ الْأَشْقِيَاءُ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِلِقَاءِ اللَّهِ، وَبِجَنَّتِهِ، وَنَارِهِ؛ لِأَنَّهُمْ مَكْذُبُونَ بِالْبَعْثِ وَالنَّشُورِ؛ فَلَا يَتَوَقَّعُونَهُ، وَلَا يَرْجُونَ رَحْمَتَهُ، وَلَا يَطْمَعُونَ فِي ثَوَابِهِ، وَلَا يُحْسِنُونَ الظَّنَّ بِلِقَائِهِ، وَرَضُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا، وَاطْمَأْنَتُوا إِلَيْهَا أَنْفُسُهُمْ، وَقَدْ وَصَفَهُمُ اللَّهُ تَعَالَى بِأَرْبَعَةِ أَوْصَافٍ ذَمِيمَةٍ:

الوصف الأول: أَنَّهُمْ لَا يَطْمَعُونَ فِي ثَوَابِ اللَّهِ تَعَالَى، وَلَا يَخَافُونَ عِقَابَهُ؛ لِأَنَّهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْبَعْثِ، وَمَا يَتْلُوهُ مِنَ الْحِسَابِ وَالْجَزَاءِ عَلَى الْأَعْمَالِ بِالْجَنَّةِ أَوْ النَّارِ؛ فَهُمْ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَ اللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ عِقَابَهُ.

الوصف الثاني: ﴿وَرَضُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ بَدَلًا عَنِ الْآخِرَةِ، فَهَمُّهُمْ مُحْصُورٌ فِي الدُّنْيَا، وَشَهَوَاتِهَا، وَجَعَلُوهَا عَوْضًا عَنِ الْآخِرَةِ، وَهِيَ غَرَضُهُمُ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ، فَالدُّنْيَا نَعِيمُ الظَّالِمِينَ. قَالَ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ: الدُّنْيَا جَيْفَةٌ، فَمَنْ أَرَادَهَا فَلْيَصْبِرْ عَلَى مُخَالَطَةِ الْكِلَابِ^(١).

الوصف الثالث: ﴿وَاطْمَأْنَأُوا بِهَا﴾ أَي: رَكَنُوا إِلَى الدُّنْيَا؛ وَجَعَلُوهَا غَايَتَهُمْ، فَسَكَنَتْ نُفُوسُهُمْ لَهَا، وَصَرَفُوا هِمَّتَهُمْ فِي تَحْصِيلِهَا، وَلَمْ يَعْمَلُوا لِمَا يَنْفَعُهُمْ فِي الْآخِرَةِ، فَأَهْلُ السَّعَادَةِ يَطْمَئِنُّونَ بِذِكْرِ اللَّهِ، وَأَهْلُ الشَّقَاءِ مَاتَتْ قُلُوبُهُمْ؛ فَلَا تَطْمَئِنُّ إِلَّا لِلذَّائِدِ الدُّنْيَا وَشَهَوَاتِهَا، وَكَأَنَّهُمْ خَلَقُوا لَهَا، وَلَيْسَ لِلْآخِرَةِ وَجُودٌ فِي حِسَابَاتِهِمْ.

الوصف الرابع: ﴿وَالَّذِينَ هُمْ عَنْ ءَايَاتِنَا غَافِلُونَ﴾ إِنَّهُمْ سَاهُونَ وَمَعْرُضُونَ عَنْ آيَاتِ اللَّهِ

(١) أَخْرَجَهُ أَبُو الشَّيْخِ كَمَا فِي «الدَّر الْمَثُور» (٧/ ٦٣٣).

الكونية والشرعية، التي تُوقِظُ القلب، وتهدي العقل، وتُحَفِّزُ إلى التفكير والتدبر، فهم لا يتنفعون بالآيات القرآنية ولا بالآيات الحسية الأفقية.

فهؤلاء الأشقياء استحبوا الضلالة على الهدى، واستبدلوا الذي هو أدنى بالذي هو خير، وكانوا من أهل الدنيا الذين يفرحون لها، ويحزنون لها، ويسخطون لها، ويرضون لها، وكانوا من عبيد الدينار، والدرهم، والهوى، والشيطان، قال تعالى:

٨- ﴿أُولَٰئِكَ مَا لَهُمْ^(١) النَّارُ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿٨﴾﴾

أي: وهؤلاء المتصفون بهذه الصفات الأربع مَقْرَّهَمُ نار جَهَنَّمَ في الآخرة؛ جزاء بما اكتسبوا في دنياهم من الآثام والخطايا، وغفلوا عن صفحة الكون المرئية؛ فاكسبوا ما جعل مصيرهم النار، وخسروا دنياهم وأخراهم.

وبعد أن ذكر الله تعالى عقاب العصاة، أعقبه بذكر ثواب المطيعين فقال:

٩- ﴿إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ يَهْدِيهِمْ^(٢) رَبُّهُمْ بِإِيمَانِهِمْ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمُ^(٣) أَنْهَارٌ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ ﴿٩﴾﴾

وبعد ذِكْرِ أوصاف الكفار الذميمة يأتي ذِكْرُ أوصاف المؤمنين الحميدة ﴿إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ أي جمعوا بين الإيمان والقيام بموجبه ومقتضاه من الأعمال الصالحة، المشتملة على أعمال القلوب، وأعمال الجوارح، على وجه الإخلاص والمتابعة، وهكذا، يربط القرآن دائماً بين الإيمان والعمل الصالح، فالتصديق الجازم بالله ورسوله يلزمه العمل الصالح الذي يَزِيدُ الإيمان وَيُثَمِّمُهُ، وهؤلاء المؤمنون ﴿يَهْدِيهِمْ رَبُّهُمْ بِإِيمَانِهِمْ﴾ فيكون إيمانهم لهم نوراً يمشون به على الصراط، ويجعل ثواب إيمانهم وأعمالهم الصالحة جنات نعيم، ويسددهم بسبب استقامتهم على الطريق السديد، فيثيبهم

(١) قرأ الأصهباني وأبو جعفر وأبو عمرو بخلف عنه، بإبدال همزة (مأواهم) ألفاً وصلًا ووقفًا، ومثله حمزة عند الوقف.

(٢) قرأ يعقوب بضم الهاء من (يهديهم)، والباقون بكسرهما.

(٣) قرأ أبو عمرو ويعقوب بكسر الهاء والميم وصلًا من (تحتهم الأنهار)، وقرأ حمزة والكسائي وخلف بضمهما وصلًا، والباقون بكسر الهاء وضم الميم وصلًا، وجميع القراء يكسرون الهاء ويسكنون الميم وقفًا.

أعظم الثواب على الإيمان والعمل الصالح، ويهديهم إلى طريق الجنة بنور إيمانهم، ويرشدتهم إليه، فبسبب الإيمان الذي معهم، يمنحهم الله الهداية، فيعلمهم ما ينفعهم، ويهديهم للنظر في آياته، ويهديهم في الدنيا إلى صراط مستقيم، ويهديهم في الآخرة إلى الصراط الموصل إلى جنات النعيم.

قال مجاهد: يهديهم ربهم على الصراط إلى الجنة، ويجعل لهم نورًا يمشون به.

وعن قتادة قال: حدثنا الحسن قال: أبلغنا أَنَّ رسول الله ﷺ قال: «إِنَّ الْمُؤْمِنَ إِذَا خَرَجَ مِنْ قَبْرِهُ صُورَ لَهُ عَمَلُهُ فِي صُورَةٍ حَسَنَةٍ وَرِيحٌ طَيِّبَةٌ، فيقول له: ما أنت؟ فوالله إني لأراك عَيْنُ امْرِئٍ صَدِّقٍ، فيقول له: أنا عملك، فيكون له نورًا وقائدًا إلى الجنة، وأمَّا الكافر فإذا خَرَجَ مِنْ قَبْرِهِ صُورَ لَهُ عَمَلُهُ فِي صُورَةٍ سَيِّئَةٍ، وَرِيحٌ مُتَنَتَةٌ؛ فيقول له: ما أنت؟ فوالله إني لأراك عَيْنُ امْرِئٍ سَوْءٍ، فيقول له: أنا عملك؛ فينطلق به حتى يدخله النار»^(١).

وحين يمرُّ المؤمن يوم القيامة على الصراط، فإن الله تعالى يُعْطِي الْمُؤْمِنِينَ نُورًا يَسْعَى بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِمْ؛ فيمشون في هذا النور حتى يوصلهم إلى جنات نعيم؛ بسبب حُسْنِ اعتقادهم وأعمالهم الصالحة في الدنيا ﴿يَوْمَ تَرَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ يَسْعَى نُورُهُمْ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِمْ﴾ [الحديد: ١٢].

والمنافقون يقتبسون من نور المؤمنين، ويمشون وراءهم، ثم تصيبهم ظلمة شديدة على الصراط؛ فيقولون للمؤمنين: ﴿أَنْظُرُونَا نَقْتِسِسَ مِنْ نُورِكُمْ﴾ فيقال لهم: ﴿ارْجِعُوا وَرَاءَكُمْ فَالْتَمِسُوا نُورًا﴾ ثم يضرب ﴿يَنْهَى سُرُّهُ لَمْ يَأْبُ بَاطِنُهُ فِيهِ الرَّحْمَةُ وَظَلَهُ مِنْ فَيْكِهِ الْعَذَابُ﴾ [الحديد: ١٣].

ثم ذَكَرَ سبحانه نعيم أهل الجنة فقال: ﴿تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ﴾ وبعد وصول المؤمنين إلى الجنة؛ فإنهم ينعمون فيها بحدايق وبساتين، تجري تحت قصورها وأشجارها الأنهار الجارية على الدوام، والماء الذي لا يتغير، وهذه الأنهار تجري بأمهم، وهم ينظرون إليها مِنْ فَوْقِ أَسْرَتِهِمْ فِي قُصُورِهِمْ، وهذه الجنات هي دار الجزاء

(١) ابن جرير (٦٣/١١) وأخرجه أيضًا ابن المنذر وابن أبي حاتم (١٩٢٩/٦) وهو أثر مرسل وفيه عمرو بن قيس الملائي، ولا يصح من قبل إسناده، قاله ابن العربي في سراج المريدين (تفسير القرطبي ١١/١٥١)، وينحوه عن ابن جرير.

والثواب، كما أن الدنيا دارُ العمل والابتلاء، وقد أضاف الله تعالى الجنات إلى النعيم، لأنها تشتمل على نعيم الروح بفرح القلب، ورؤيا الرحمن، والسعادة برضاه، وتشتمل على نعيم البدن بما تشتهيه الأنفس من أنواع المأكَل والمشارب والمناجح. . قال تعالى:

١٠- ﴿دَعَوْنَهُمْ فِيهَا سُبْحَنَكَ اللَّهُمَّ وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَامٌ ۖ وَآخِرُ دَعْوَاهُمْ أَنِ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾

أي أن أول عبادة المؤمنين في الجنة هو تسبيح الله تعالى وتنزيهه عن كل نقص، وآخرها حمد الله تعالى، فذكر الله تعالى هو الذي بقي لهم في الدار الآخرة يتلذذون به وتفرح به أرواحهم ويجري على ألسنتهم تلقائياً.

وليس في الجنة عبادة، ولا تكاليف شرعية، فالمؤمنون في الجنة لا يُكَلَّفُونَ شيء من الطاعات، والطاعة منهم لله ﷻ -وهم في الدار الآخرة- شيءٌ طيبعي؛ أي: فطري وتلقائي لا يتكلفونها، بل يُلْهِمُونَهَا إِلْهَامًا، ولا يكلفهم هذا شيئاً، فهي تجري منهم مجرى النَّفْسِ الذي يخرج من الإنسان؛ فيخرج منهم التسبيح، والتحميد، والتهليل، والتكبير، وسائر الطاعات اللفظية، كما يخرج منهم النَّفْسُ؛ وذلك لأنه بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ، وتكْمُلُ اللذة.

من نعيم أهل الجنة: وَيَبَيِّنُ ﷻ أَنَّ أَهْلَ الْجَنَّةِ فِي الْجَنَّةِ، يأكلون ويشربون ويتلذذون وينعمون، وهم لا يبولون، ولا يتغوطون، ولا يمتخطون؛ فلا تخرج منهم فضلات، ولا قاذورات، أو نجاسات، ورائحة الرَّشْحِ والعرق الذي يخرج منهم رائحة المسك.

جاء في الحديث عن جابر ﷺ قال: سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: «إن أهل الجنة يأكلون فيها ويشربون، ولا يتفلون، ولا يبولون، ولا يتغوطون، ولا يمتخطون» قالوا: فما بال الطعام؟ قال: «جُشاء، ورَشْح كرش المسك، يُلْهِمُونَ التسبيح والتحميد كما تُلْهِمُونَ النَّفْسَ»^(١).

أي: أَنَّ الطعام الذي يأكلونه لا يخرج فضلات، بل يخرج جُشاء وعرقاً.

وفي حديث أبي هريرة ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: «أول زمرة تلج الجنة، صورهم على صورة القمر ليلة البدر، لا يبصقون فيها، ولا يمتخطون فيها، ولا يتغوطون فيها، آتيتهم

(١) رواه مسلم (٢١٨١/٤) برقم (٢٨٣٥) من حديث جابر .

وَأَمْشَاطُهُمْ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفُضَّةِ، وَمَجَارِمُهُمْ مِنَ الْأَلْوَةِ، وَرَشْحُهُمْ الْمَسْكُ، وَلِكُلِّ وَاحِدٍ مِنْهُمْ زَوْجَتَانِ، يُرَى مُخُّ سَاقِهِمَا مِنْ وَرَاءِ اللَّحْمِ مِنَ الْحُسْنِ، لَا اخْتِلَافَ بَيْنَهُمْ وَلَا تَبَاغُضَ، قُلُوبُهُمْ قَلْبٌ وَاحِدٌ، يُسَبِّحُونَ اللَّهَ بِكُرَّةٍ وَعَشِيًّا^(١).

وإذا أراد أهل الجنة طعامًا، أو شرابًا، أو أرادوا استدعاء الخدم فإنهم يسبحون الله تعالى، وهذا التسبيح علامة، أو إشارة يَبَيِّنُ أهل الجنة والخدم؛ فيأتون لهم بما يشتهون فوق مواعدهم عندما يسمعون تَسْبِيحَهُمْ، ذَلِكَ قول الله تعالى: ﴿دَعَوْهُمْ فِيهَا سُبْحَنَكَ اللَّهُمَّ﴾ أي: أَنَّ دُعَاءَهُمْ فِي الْجَنَّةِ هَذِهِ الْعِبَارَةُ ﴿سُبْحَنَكَ اللَّهُمَّ﴾ هذا هو قولهم وكلامهم كلما أرادوا شيئًا، وهو دعاؤهم الذي يفهمه الخدم لطلب شيء، فإذا قالوه أتاهم ما يشتهون، فإذا جاءهم الملك بما يشتهون سَلَّمَ عليهم؛ فيردون عليه، وهذا معنى ﴿يَحْيِيهِمْ فِيهَا سَلَامٌ﴾ فإذا أكلوا قدر طاقتهم قالوا: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾.

قال علي بن أبي طالب: هذه كلمات رضيها الله تعالى لنفسه؛ وهذا يعني أن عبادة المؤمنين في الجنة، ودعائهم حين يطلبون الخدم هو هذا التسبيح، فلا يرى أمامه إلا الشيء الذي طلبه من كل ما لذ وطاب.

ولفظ ﴿اللَّهُمَّ﴾ نداء لله تعالى، كأنه يقول: يا الله، وهذا التسبيح يُسَمَّى دعاء بالمعنى اللغوي. والسلام: هو التحية المتبادلة بين أهل الجنة فيما بينهم، وبينهم وبين الملائكة، وهو تحية الله لهم في الجنة، قال تعالى: ﴿وَيَحْيِيهِمْ فِيهَا سَلَامٌ﴾ كما قال تعالى: ﴿وَالْمَلَائِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِمْ مِنْ كُلِّ بَابٍ (٧٣) سَلَامٌ عَلَيْكُمْ بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ (٧٤)﴾ [الرعد]

وقال سبحانه: ﴿لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا تَأْثِيمًا (٧٥) إِلَّا قِيلًا سَلَامًا سَلَامًا (٧٦)﴾ [الواقعة].

وتحية الله تعالى لأهل الجنة أيضًا هي السلام ﴿سَلَامٌ قَوْلًا مِنْ رَبِّ رَحِيمٍ (٥٨)﴾ [يس].

فإذا فَرَّغَ أهل الجنة مِنْ طعامهم، وشرابهم، ونعيمهم؛ فإنهم يُلْهِمُونَ الحمد إلهامًا، كما يُلْهِمُونَ التقديس والتسبيح أيضًا، وهذا قول الله تعالى: ﴿وَعَاخِرُ دَعْوَاهُمْ أَن يَقُولُوا: ﴿إِنَّ الْحَمْدَ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾﴾.

قال الزجاج: أَعْلَمَ اللَّهُ أَنَّ أَهْلَ الْجَنَّةِ يَتَدَبَّعُونَ بِتَعْظِيمِ اللَّهِ وَتَنْزِيهِهِ، وَيَحْتَمُونَ بِشُكْرِهِ

(١) «صحيح مسلم» برقم (٢٨٣٤) و«صحيح البخاري» برقم (٣٢٤٥) وانظر (٣٢٤٦، ٣٢٥١، ٣٣٢٧).

والثناء عليه، فهم يفتتحون كلامهم بالتسبيح، ويختتمونه بالتحميد.

وقد دلَّ على فضل التسبيح والتحميد قول النبي ﷺ: «كلمتان خفيفتان على اللسان، ثقيلتان في الميزان، حبيبتان إلى الرحمن: سبحان الله وبحمده، سبحان الله العظيم»^(١).

وروى النسائي وغيره عن سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «دعوة ذي النون إذ دعا بها في بطن الحوت ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ [الأنبياء: ٨٧] فإنه لن يدعو بها مسلمٌ في شيء إلا استجيب له»^(٢).

وهذا يوضح أن المراد من التسبيح هو الدعاء.

وفي هذا دلالة على أن الله تعالى هو المعبود أبداً، وهو المحمود أبداً، والحمد يكون في البدء، وفي الختام، والاستمرار.

فقد حمد الله تعالى نفسه عند ابتداء تنزيله في قوله تعالى: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَى عَبْدِهِ الْكِتَابَ وَلَمْ يَجْعَلْ لَّهُ عِوَجًا﴾ [الكهف].

وحمد نفسه عند ابتداء خلقه، فقال تعالى: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ﴾ [الأنعام: ١].

وحمد نفسه بصفة مستمرة في قوله تعالى: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَمْ يَلَمْ يَمَّا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَلَهُ الْحَمْدُ فِي الْآخِرَةِ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ﴾ [سبأ].

وحمد نفسه عند ابتداء كلامه في قوله تعالى: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [الفاتحة].

وحمد نفسه في الختام فقال: ﴿وَأَخِرُ دَعْوَاهُمْ أَنْ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾.

(١) رواه مسلم عن أبي هريرة برقم (٢٦٩٤) و«صحيح البخاري» برقم (٦٤٠٦، ٦٦٨٢، ٧٥٦٣).

(٢) «المسند» (١٤٦٢) من حديث طويل، إسناده حسن، (محققوه) والترمذي (٣٥٠٥) والنسائي في «الكبرى» (١٠٤١٧) و«صحيح سنن الترمذي» (٢٧٨٥) و«المستدرک» (٥٠٥/١) والبيزار (١١٦٣)، وأبو يعلى (٢٧٢).

مِنْ طَبَائِعِ الْبَشَرِ الْمَذْمُومَةِ: اسْتِعْجَالُ وَقُوعِ الشَّرِّ

١١- ﴿وَلَوْ يُعَجِّلُ اللَّهُ لِلنَّاسِ الشَّرَّ اسْتِعْجَالَهُمْ بِالْخَيْرِ لَقُضِيَ إِلَيْهِمْ أَجْلُهُمْ﴾^(١) فَذَرُّ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا فِي طُغْيَانِهِمْ^(٢) يَعْمَهُوتُ ﴿١١﴾

والآيات من هنا إلى نهاية الآية رقم [٢٣] تتحدث عن طبائع المشركين وقبائحهم، ويُستعمل فيها لفظ (الناس) عموماً.

وفي هذه الآية بين الله تعالى شؤون البشر وغرائزهم، فيما يعرض لهم في الحياة من خير وشر ونفع وضرر، فمن لطف الله وإحسانه أنه لو عجل الشر بالإنسان إذا هو أتى بأسبابه؛ كما يعجل له الخير إذا أتى بأسبابه، لَقُضَتْ عليهم العقوبة، وأتت على آجالهم، ولكن الله يهملهم ولا يهملهم، فلو أخذ الله الناس بما كسبوا ما ترك على ظهرها من دابة ولكن يؤخرهم إلى أجل مسمى.

قال قتادة في معنى الآية: هو دعاء الرجل على نفسه، وولده، وماله إذا غضب بما يكره أن يستجاب له^(٣).

أي: أنه تعالى لو أجاب الناس حين يدعون على أنفسهم، أو أولادهم، أو أهلهم بالمكره، وهم في حالة غضب، كما يجيبهم إلى الخير - لكان في هذا هلاكهم؛ بسبب استعجالهم للأمر قبل أوانها.

وفي هذا تعريضٌ بِمَنْ يُكْرَهُونَ البعث، وتعريضٌ بالمشركين الذين يستعجلون نزول العذاب بهم. ولفظ الناس في حد ذاته يعم المسلم والكافر، والتعجيل: تقديم الشيء قبل وقته، والاستعجال: طلب العجلة.

والإنسان من طبعه العجلة في الأمور، كما قال تعالى: ﴿خُلِقَ الْإِنْسَانُ مِنْ عَجَلٍ سَأُورِيكُمْ آيَاتِي فَلَا تَسْتَعْجِلُونِ﴾ ﴿٣٧﴾ [الأنبياء].

(١) قرأ ابن عامر ويعقوب على البناء للفاعل (لَقُضِيَ إِلَيْهِمْ أَجْلُهُمْ) والفاعل ضمير يعود على الله تعالى (وأجلهم) مفعول به، وقرأ الباقر (لَقُضِيَ إِلَيْهِمْ أَجْلُهُمْ) على البناء للمفعول و (أجلهم) نائب فاعل.

(٢) أمال (طغيانهم) دوري الكسائي وحده.

(٣) أخرجه الطبري بسند حسن، وبه قال مجاهد (١٢/ ١٣٠) وابن أبي حاتم (٦/ ١٩٣٢).

ومن جهل الإنسان أن يظن أن تصرفات الله تعالى كتصرفات البشر؛ فيندفع إلى الانتقام عند الغضب اندفاعاً سريعاً، وقد يظن أن الرسل مبعوثون للمجيء بالمعجزات، والتنكيل بالمعارضين.

والإنسان غالباً يطلب العَجَلَةَ في الأمور؛ فيستعجل نزول الشر كما يستعجل نزول الخير، ويستعجل الضر كما يستعجل النفع، وقد يستعجل الموت، كما يستعجل الحياة أو يستعجل نزول العذاب به، كما يستعجل نزول الرحمة، ولو أن الله تعالى أجاب الناس في طلب الشر؛ لكان فيه هلاكهم وضررهم، يحدث كل هذا من الكفار، وقد يحدث من بعض المسلمين.

ومثال ما يحدث من الكفار قول النضر بن الحارث أو غيره، وهو يستعجل نزول العذاب بالكفار: **إِنْ كُنْتُ - يَا مُحَمَّدُ - صَادِقًا فِي دَعَاكَ فَعَجِّلْ لَنَا بِنَزُولِ الْعَذَابِ ﴿١٠٨﴾ وَإِذْ قَالُوا اللَّهُمَّ إِنْ كَانَتْ هَذِهِ حَقًّا مِنْ عِنْدِكَ فَامْطُرْ عَلَيْنَا جِجَارَةً مِّنَ السَّمَاءِ أَوْ اقْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣٦﴾ [الأنفال]** ولو أن الله تعالى عَجَّلَ للكافرين ما يطلبون من العذاب كما يُعَجِّلُ لهم خير الدنيا من المال والمتاع والولد؛ لكان في هذا هلاكهم، وانقضاء آجالهم، وهذا ما تشير إليه الآية التي معنا **﴿لَقَضَىٰ إِلَيْنَا أَجَلَهُمْ﴾**.

وفي هذا المعنى نزلت آيات كثيرة؛ منها قوله تعالى: **﴿وَسْتَغْلِبُونَكَ بِالْعَذَابِ وَلَوْلَا أَجَلٌ مُّسَمًّى لَّجَاءَهُمُ الْعَذَابُ وَلِيَأْتِيَنَّهُمْ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٥٣﴾ [العنكبوت]**

وقوله جل شأنه: **﴿وَلَكِنْ أَخْرَأْنَا عَنْهُمْ الْعَذَابَ إِلَّا أُمَّةً مَّعْدُودَةً لَّيَقُولُنَّ مَا يَحْبِسُهُ ﴿٨﴾ [هود]** وقوله: **﴿يَسْتَغْلِبُونَكَ بِالْعَذَابِ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ ﴿٥٤﴾ [العنكبوت]**

وقوله جل ثناؤه: **﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿٥٨﴾ [الملك]**.

وربما استعجل المؤمنون نزول العذاب بالمشركين، واستبطؤوا مجيء النصر لهم كما قالوا للنبي ﷺ: ألا تستنصر لنا؟ ألا تدعو لنا؟ وربما تعَجَّبَ بعض المسلمين مِنْ أَنَّ الله تعالى يَرْزُقُ المشركين وهم يَكْفُرُونَ به؛ فجاءت هذه الآية وما بعدها بقوارع التهديد للمشركين، وجاءت بما يزيل شبهات المؤمنين، وَيُطَمِّئُنْ نفوسهم؛ بِأَنَّ الكفار هم الذين لا يرجون لقاء الله، وهم أنفسهم الذين ختم الله بهم هذه الآية **﴿فَنَذِرُ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا فِي طُغْيَانِهِمْ يَقْمَهُونَ ﴿١٠٩﴾ [يونس]** أي: فترك الذين لا يخافون عقابنا، ولا يوقنون بالبعث والنشور ولا يعملون ما ينجيهم من عذاب الله في عتوهم وتمردهم يترددون حائرين، لا يهتدون إلى سبيل.

والطغيان: هو الغلو في الأمر، وتجاوز الحد، ومع هذا فقد يفيض الله عليهم بالنعم؛ لتلزمهم الحجة.

والآية تشير إلى حِلْمِ الله تعالى ولُطْفِهِ بعباده، وأنه لا يستجيب لهم حين يتفجّر الغضب من العبد المسلم؛ فيدعو بالشر على نفسه، أو على أهله، أو ولده، أو ماله، فلا يُوقِعُ بهم ما طلبوا؛ لأنّه سبحانه يعلم أنّ عدم قُضْدِ الشر موجودٌ فيهم، وهذا الدعاء الذي صدر منهم حدث بسبب هذه الغضبة العارضة، وليس عن صِدْقِ نِيَّةٍ؛ ولهذا فهو سبحانه لا يستجيب لهم رحمةً بهم.

وهذا كقول الإنسان لولده إذا غضب عليه: اللهم لا تُبارِك فيه، اللهم العنّه، ونحو هذا، وقد جاء النهي عن ذلك في الحديث عن جابر بن عبد الله رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «لا تدعوا على أنفسكم، ولا تدعوا على أولادكم، ولا تدعوا على أموالكم، لا توافقوا من الله ساعة فيها إجابة فيستجيب لكم»^(١).

وهذا كقول الله تعالى: ﴿وَيَدْعُ الْإِنْسَانُ بِالشَّرِّ دُعَاءَهُ بِالْخَيْرِ وَكَانَ الْإِنْسَانُ عَجُولًا﴾ [إسراء]. وإذا دعا الإنسان على غيره لسبب أو لآخر؛ فإنه ينبغي عليه أن يُكفّر عن ذنبه بكثرة الدعاء له والثناء عليه.

عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «اللهم إنما محمد بشر، يغضب كما يغضب البشر، وإني قد اتخذتُ عندك عهدًا لن تُخْلِفَنِيهِ، فأَيُّما مؤمن أَدَيْتُهُ، أو سَبَيْتُهُ، أو جَلَدْتُهُ، فاجعلها له كفارة، وقربة، وتقربه بها إليك يوم القيامة»^(٢).

وَمَهْمَا غضب الإنسان، واضطربت أعصابه، فإنه لا ينبغي له أن يدعو على نفسه، أو على غيره بالشر، على أنّ اللعنة تُغلق دونها أبواب السماء، وتعود على قائلها إن لم يكن الملعون مستحقًا لها، ومن لُطْفِ الله تعالى بعباده أنه لا يُعَجِّلُ لهم إجابة الدعاء بالشر، كما يعجل لهم إجابة الدعاء بالخير، ولو أن الله تعالى عَجَّلَ نزول الشر بِمَنْ يستحقه؛ لَبَطَلَ النظام الذي قام عليه العالم.

(١) من حديث طويل في «صحيح مسلم» (٣٠٠٩) بنحوه في «سنن أبي داود» برقم (١٥٣٢) ورواه البزار في «مسنده».

(٢) «صحيح مسلم» برقم (٢٦٠١).

التَّنَاقُضُ الَّذِي يَعْتَرِي الْإِنْسَانَ عِنْدَ إِصَابَةِ الضَّرِّ

١٢- ﴿وَإِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ الضُّرُّ دَعَانَا لِجَنبِهِ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَائِمًا فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُ مَرَّ كَأَن لَّمْ يَدْعُنَا إِلَى ضُرِّ مَسَّهُ كَذَلِكَ زُيِّنَ لِلْمُسْرِفِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٢﴾﴾

ثُمَّ يَعْزِضُ اللَّهُ سُبْحَانَهُ صُورَةَ بَشَرِيَّةٍ أُخْرَى لِلْإِنْسَانِ، يَكْشِفُ فِيهَا الْقُرْآنُ عَنِ التَّنَاقُضِ الَّذِي يَعْتَرِي الْإِنْسَانَ عِنْدَمَا يَصِيبُهُ الضَّرُّ فِي النَّفْسِ، أَوْ الْمَالِ، أَوْ الْأَحْبَةِ، وَاخْتِلَافِ حَالِهِ بَعْدَ أَنْ يَكْشِفَ اللَّهُ عَنْهُ ضُرَّهُ، وَهِيَ صُورَةٌ مِنْ صُورِ اسْتِعْجَالِ الْإِنْسَانِ الَّذِي ذَكَرَ فِي الْآيَةِ السَّابِقَةِ.

﴿وَإِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ الضُّرُّ﴾ أَي: الشَّدَّةُ؛ كَالْفَقْرِ، أَوْ الْمَرَضِ، أَوْ الْهَزِيمَةِ، أَوْ الْخَوْفِ ﴿دَعَانَا لِجَنبِهِ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَائِمًا﴾ أَي: اسْتَغَاثَ وَتَضَرَّعَ وَأَلْحَى عَلَى اللَّهِ تَعَالَى وَاجْتَهَدَ فِي دَعَائِهِ، فِي جَمِيعِ أَحْوَالِهِ وَأَوْقَاتِهِ، وَسَأَلَهُ أَنْ يَكْشِفَ عَنْهُ الضَّرَّ.

وَقَدْ ذَكَرْتَ الْآيَةَ ثَلَاثَةَ أَحْوَالٍ لَا يَنْفَكُ عَنْهَا الْإِنْسَانُ، وَهِيَ كَوْنُهُ عَلَى جَنْبٍ؛ أَي: مُضْطَجِعًا، أَوْ قَاعِدًا، أَوْ قَائِمًا، فَهُوَ يَسْأَلُ اللَّهَ سُبْحَانَهُ فِي هَذِهِ الْأَحْوَالِ الثَّلَاثَةِ أَنْ يَكْشِفَ عَنْهُ ضُرَّهُ، وَقَدْ يَصِيبُهُ الضَّرُّ وَهُوَ فِي أَحَدِ هَذِهِ الْأَحْوَالِ الثَّلَاثَةِ؛ فَيَسْأَلُ اللَّهَ رَفَعَهُ عَنْهُ فِي أَيِّ حَالَةٍ كَانَ عَلَيْهَا حِينَ مَسَّهُ الضَّرُّ، وَلَا يَتْرِكُ الْإِبْتِهَالَ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى حَتَّى يَكْشِفَ اللَّهُ عَنْهُ ضُرَّهُ، وَبَعْدَ ذَلِكَ يَنْسَى مَا كَانَ فِيهِ مِنْ شِدَّةٍ وَبُؤْسٍ، وَفِي هَذَا دَمٌّ لِمَنْ كَانَ كَذَلِكَ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَإِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ فَوَدَّ دُعَاءَ عَرِيضٍ﴾ [فصلت: ٥١] وَقَالَ سُبْحَانَهُ: ﴿وَإِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ ضُرُّ رَبِّهِ مِيبَاتًا إِلَىٰ تَمِّمٍ إِذَا خَوَّلَهُ نِعْمَةً مِّنْهُ نَسَىٰ مَا كَانَ يَدْعُوهُ إِلَىٰهِ مِن قَبْلُ﴾ [الزمر: ٨].

فَإِذَا فَرَّجَ اللَّهُ عَنْهُ كُرْبَتَهُ، وَزَالَتْ شِدَّتُهُ، اسْتَمَرَّ عَلَى طَرِيقَتِهِ الْأُولَى الَّتِي كَانَ عَلَيْهَا قَبْلَ أَنْ يَصِيبَهُ الضَّرُّ، وَنَسِيَ مَا كَانَ فِيهِ مِنَ الشَّدَّةِ وَالْبَلَاءِ، وَتَرَكَ الشُّكْرَ لِرَبِّهِ الَّذِي فَرَّجَ عَنْهُ مَا كَانَ فِيهِ، وَهَذَا مَعْنَى ﴿فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُ مَرَّ﴾ أَي: اسْتَمَرَّ عَلَى حَالِهِ الْأَوَّلِ ﴿كَأَن لَّمْ يَدْعُنَا إِلَىٰ ضُرِّ مَسَّهُ﴾، وَظَلَّ مُعْرِضًا عَنْ رَبِّهِ، كَأَنَّهُ لَمْ يَمْسَهُ ضَرْ وَلَمْ يُكْشَفْ عَنْهُ سَوْءٌ.

وَهَكَذَا زَيَّنَ الشَّيْطَانُ لِلَّذِينَ أَسْرَفُوا فِي الْكُذْبِ عَلَى اللَّهِ تَعَالَى، وَعَلَى أَنْبِيَائِهِ، وَرَسُولِهِ، مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ مِنَ الْمَعَاصِي وَالشُّرُكِ؛ فَاسْتَمَرُّوا عَلَى الْجُحُودِ وَالْعِنَادِ بَعْدَمَا كَشَفَ اللَّهُ عَنْهُمْ مِنَ الضَّرِّ مَا كَانَ بِهِمْ ﴿كَذَلِكَ زُيِّنَ لِلْمُسْرِفِينَ﴾ الْمُتَجَاوِزِينَ الْحَدَّ فِي الضَّلَالِ ﴿مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ مِنْ مُتَابَعَةِ الشَّهَوَاتِ وَالْإِعْرَاضِ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ؛ وَذَلِكَ لِأَنَّ الْإِنْسَانَ قَلِيلُ الصَّبْرِ عِنْدَ

نزول البلاء، قليلُ الشكر عند حصول النعماء والرخاء، فإذا مسَّه الضرُّ أُقْبِلَ على الدعاء، فإذا كشف الله عنه ضره أعرض عن الشكر والدعاء، ورجع إلى حاله، وهذا حالُ الغافل الذي زَيَّن له الشيطان عمله الفاسد، فإذا فرج الله عنه كربته رجع إلى غفلته، وقسوة قلبه، ونَسِيَ ذِكْرَ رَبِّهِ، كما نَسِيَ ما كان فيه مِنْ كَرْبٍ، وشِدَّةٍ.

أما حال المؤمن الحق، فإنه يصبر على البلاء، ويشكر على النعماء، فهو يرضى بقضاء الله، ويشكره في كلِّ حالٍ، معتقداً أَنَّ الله تعالى حكيمٌ في جميع أحواله، وله مُطْلَقُ التصرف في خَلْقِهِ يفعل كيف يشاء، ولا يُسأل عما يفعل، ويعتقد أَنَّ ما أخطأه لم يكن ليصيبه، وما أصابه لم يكن ليخطئه.

وهكذا استثنى الله عباده الصالحين الذين رزقهم الله الهداية والتوفيق والسداد، مِمَّنْ يسألون ربهم في الشدَّة والرخاء، فهم ليسوا مِمَّنْ تشير إليهم الآية في قوله تعالى: ﴿وَلَكِنْ أَذَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنَّا رَحْمَةً ثُمَّ نَزَعْنَاهَا مِنْهُ إِنَّهُ لَيَكُونُ مِنَّا كَافِرٌ ۖ﴾ (٩) وَلَكِنْ أَذَقْنَاهُ نِعْمَةً بَعْدَ ضَرْأٍ مِّنْهُ لِيَقُولَنَّ ذَهَبَ السَّيِّئَاتُ عَنِّي إِنَّهُ لَفَرِحٌ فَخُورٌ ﴿١٠﴾ [هود]

ثُمَّ استثنى سبحانه عباده الصالحين فقال: ﴿إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ [هود: ١١].

وهذا يشبه قوله: ﴿إِنَّ الْإِنْسَانَ خُلِقَ هَلُوعًا ۖ﴾ (١٦) إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعًا ﴿٢٥﴾ وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعًا ﴿٢٦﴾ إِلَّا الْمُصَلِّينَ ﴿٢٢﴾ [المعارج].

وفي الحديث عن صُهَيْب ؓ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قال: «عَجَبًا لِأَمْرِ الْمُؤْمِنِ، إِنَّ أَمْرَهُ كُلَّهُ خَيْرٌ، وَلَيْسَ ذَاكَ لِأَحَدٍ إِلَّا لِلْمُؤْمِنِ، إِنْ أَصَابَتْهُ سَرَاءٌ شَكَرَ؛ فَكَانَ خَيْرًا لَهُ، وَإِنْ أَصَابَتْهُ ضَرَاءٌ صَبَرَ؛ فَكَانَ خَيْرًا لَهُ»^(١).

وفي الآية ذِمٌّ لِمَنْ يدعو الله في الشدَّة، وَيُنْسَاهُ عند الرخاء، وفي الحديث عن ابن عباس ؓ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قال: «تَعَرَّفْ عَلَى اللَّهِ فِي الرِّخَاءِ يَعْرِفَكَ فِي الشَّدَةِ»^(٢).

(١) «صحيح مسلم» برقم (٢٩٩٩) من حديث صهيب الرومي ؓ.

(٢) هذه الفقرة من حديث «يا غلام ألا أعلمك كلمات» من رواية عبد بن حميد في مسنده بإسناد ضعيف عن عطاء عن ابن عباس، وكذلك عزاه ابن الصلاح في (الأحاديث الكلية) إلى عبد بن حميد وغيره (أفاده ابن رجب في جامع العلوم والحكم، الحديث التاسع عشر) وليست هذه الفقرة في حديث الترمذي (٢٥١٦) وأحمد (٢٦٦٩) وغيرهما، فهو حديث حسن صحيح، الإسناد فيه مختلف والمعنى واحد.

مِنْ سُنَنِ اللَّهِ تَعَالَى فِي خَلْقِهِ أَنْ يُهْلِكَ الظَّالِمِينَ

١٣- ﴿وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَمَّا ظَلَمُوا وَجَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ^(١) وَالَّذِينَ هُمْ عَنْ آيَاتِنَا غَافِلُونَ أُولَئِكَ مَاؤُهُمُ النَّارُ ﴿١٣﴾﴾

وكما أهلك الله الظالمين من الأمم السابقة، يهلك مَنْ كان مثلهم مِنْ هذه الأمة، وهكذا بين الله تعالى نهاية المسرفين المكذِّبين لرسول الله، الذين لا يرجون لقاء الله فقال تعالى:

﴿وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَمَّا ظَلَمُوا﴾ أي: أن الله تعالى أهلك الأمم التي كانت قبلكم لَمَّا أشركوا بالله وكذبوا رسله، وتمادوا في الغي والضلال، والشرك بالله هو أعظم الظلم ﴿إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ [لقمان: ١٣].

وأهلكناهم لَمَّا كذبوا رسل الله، مع أنهم جاؤهم بالأدلة الواضحة الدالة على صِدْقِهِمْ في دعواهم للرسالة ﴿وَجَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ﴾ أي: أَنَّ الله تعالى أرسل إليهم رسلاً، وأَيَّدَهُمْ بالمعجزات والحُجج القوية التي يتميز بها الصادق من الكاذب، ولكنهم مع ذلك كذبوا رسلَ الله، ولم ينقادوا لهم، فأحل الله بهم عقابه الذي لا يرد عن القوم المجرمين، وهذه سنة الله في جميع الأمم.

وقد سبق في عِلْمِ الله تعالى أنهم لن يؤمنوا مَهْمَا جاءتهم رسلهم بالآيات البينات، وهذا معنى ﴿وَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا﴾ وهذا إخبارٌ من الله تعالى عن قسوة قلوبهم وَشِدَّةَ كفرهم، وعدم رجاء إيمانهم؛ أي: أن هذه الأمم التي أهلكها الله تعالى، لم تكن لتؤمن بالله ورسله لو أبقاهم الله دون استتصال ولم يهلكهم، فهم مُصِرُّون على كفرهم وتكذيبهم.

ثُمَّ إِنَّ عُقُوبَةَ المجرمين تَعُمُّ السابقين واللاحقين، وبمثل هذا الجزاء نجزي كُلَّ مَنْ أجرم وتجاوز حدود الله، و﴿مَا﴾ مصدرية وليست نافية.

وقد بينت الآية ثلاثة أسباب موجبة لإهلاك الأمم؛ وهي:

أولاً: ظَلَمَ النَّفْسِ بالشرك بالله تعالى، وظلم الآخرين.

(١) قرأ أبو عمرو بإسكان السين من (رسلهم)، والباقون بضمها، وهما لغتان.

ثانيًا: عدم الإيمان بخاتم الرسل ﷺ.

ثالثًا: عدم الإيمان بالله تعالى، قال سبحانه: ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرَى حَتَّى يَبْعَثَ فِي أُمِّهَا رَسُولًا يَتْلُوا عَلَيْهِمْ ءَايَاتِنَا وَمَا كُنَّا مُهْلِكِي الْقُرَى إِلَّا وَأَهْلُهَا ظَالِمُونَ﴾ (٥٩) [القصص]. قال تعالى.

١٤- ﴿ثُمَّ جَعَلْنَاكُمْ خَلَائِفَ فِي الْأَرْضِ مِنْ بَعْدِهِمْ لِنَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ﴾ (١٤)

ثُمَّ أَخْبَرَ سبحانه أنه جعلنا خُلَفَاءَ فِي الْأَرْضِ لِمَنْ سَبَقْنَا؛ لِنَنْظُرَ كَيْفَ نَعْمَلُ، فأروا الله -أيها المؤمنون- حُسْنَ أَعْمَالِكُمْ فِي السِّرِّ وَالْعَلَنِ، وهذا معنى ﴿ثُمَّ جَعَلْنَاكُمْ﴾ أيها الناس المخاطبون ﴿خَلَائِفَ فِي الْأَرْضِ مِنْ بَعْدِهِمْ﴾ أي: جعلناكم خُلَفَاءَ فِي الْأَرْضِ لِلْأُمَمِ الَّتِي أَهْلَكَتِ ﴿لِنَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ﴾ أي: لِنَنْظُرَ عَمَلَكُمْ فِي عَالَمِ الْوُجُودِ مِنْ خَيْرٍ أَوْ شَرٍّ؛ فَنَجَازِيَكُمْ عَلَى مَا تَعْمَلُونَ فِي السِّرِّ وَالْعَلَنِ، فَإِنْ اعْتَبَرْتُمْ وَاتَّعَظْتُمْ بِمَنْ قَبْلَكُمْ نَجُوتُمْ مِنْ عَذَابِ اللَّهِ، وَإِنْ فَعَلْتُمْ كَفَعَلِ الظَّالِمِينَ قَبْلَكُمْ، أَحَلَّ بِكُمْ مَا حَلَّ بِهِمْ، وَقَدْ أَعْذَرْتُ مِنْ أَنْذَرِ.

ومعنى ننظر: نَعْلَمُ عِلْمَ الْيَقِينِ مقتضى ما سبق به القلم، أنهم سعداء أم أشقياء، فيظهر ذلك للناس وللملائكة؛ لتقوم به الحجة عليهم.

عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «إِنَّ الدُّنْيَا حُلُوةٌ خَضِرَةٌ، وَإِنَّ اللَّهَ مُسْتَخْلِفُكُمْ فِيهَا، فَيَنْظُرُ كَيْفَ تَعْمَلُونَ، فَاتَّقُوا الدُّنْيَا، وَاتَّقُوا اللَّهَ، فَإِنَّ أَوَّلَ فِتْنَةٍ بَنَى إِسْرَائِيلَ كَانَتْ فِي النِّسَاءِ»^(١).

وقال تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلَائِفَ فِي الْأَرْضِ وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِيَبْلُوَكُمْ فِي مَا ءَاتَاكُمْ﴾ [الأنعام: ١٦٥].

وجاء في الخبر أن عوف بن مالك رأى في المنام: كأن جبلاً نزل من السماء، فأخذ رسول الله ﷺ، ثُمَّ أَخَذَ أَبَا بَكْرٍ، فَذَهَبَ عَوْفٌ يَقْصُصُهَا عَلَى أَبِي بَكْرٍ؛ فَهَرَهُ عُمَرُ -رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ الْجَمِيعَ- فَلَمَّا اسْتُخْلِفَ عُمَرُ، قَالَ: يَا عَوْفُ، رَأَيْكَ! قَالَ: وَهَلْ لَكَ فِي رُؤْيَايَ مِنْ حَاجَةٍ؟ أَوَلَمْ تَنْتَهَرْنِي؟ قَالَ: وَيْحَكَ، إِنِّي كَرِهْتُ أَنْ تَنْعَى لَخَلِيفَةِ رَسُولِ اللَّهِ نَفْسَهُ،

فقصَّ عليه الرؤيا، وفيها أن أبا بكر زاد على عُمَرَ بثلاثة أذرع في المنبر، قال عمر: أمّا إحداهن: فإنه كان خليفته، وأمّا الثانية: فإنه كان لا يخاف في الله لومة لائم، وأمّا الثالثة: فإنه شهيد، قال: يقول الله تعالى: ﴿ثُمَّ جَعَلْنَاكَم خَلَائِفَ فِي الْأَرْضِ مِنْ بَعْدِهِمْ لِنَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ﴾ ﴿١٥﴾ فقد استُخِلْتُ يابن أم عمر، فانظر كيف تعمل؟^(١).

قال قتادة: ذكر لنا أن عمر بن الخطاب قرأ هذه الآية فقال: صَدَقَ رَبُّنَا، ما جعلنا خلائف في الأرض إلا لينظر إلى أعمالنا، فأروا الله خير أعمالكم بالليل والنهار، والسر والعلانية^(٢).

المَوْضِعُ الثَّانِي مِنْ حَدِيثِ السُّورَةِ عَنِ الْوَحْيِ وَالرَّسَالَةِ

١٥- ﴿وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالَ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا أَتَنْتَ^(٣) بِفِرْعَوْنَ^(٤) عِزًّا هَذَا أَوْ بَدَّلَهُ أَتَى مَا يَكُونُ^(٥) لِي^(٦) أَنْ أَبَدِّلَهُ مِنْ تِلْقَائِي^(٧) نَفْسِي^(٨) إِنَّ^(٩) أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ^(١٠) إِنِّي^(١١) أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ ﴿١٥﴾

أي أن القرآن إذا تلى على المكذبين به أعرضوا عنه وطلبوا قرآنًا غيره يوافق أهواءهم، وهذا أمر لا يليق بالرسول ﷺ ولا ينبغي له، إذ هو مبلغ عن ربه وليس له من الأمر شيء، ومن يفعل مثل ذلك متوعد بالعذاب العظيم ﴿وَلَوْ نَقُولُ عَلَيْنَا بَعْضُ الْأَقَاوِيلِ﴾ ﴿١٤﴾ لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ ﴿١٥﴾ ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ ﴿١٦﴾ [الحاقة].

(١) ينظر: الطبري (٣٩/١٥).

(٢) الطبري (١٣٤/١٢) وابن أبي حاتم (١٩٣٤/٦).

(٣) قرأ ورش وأبو جعفر وأبو عمرو بخلف عنه بإبدال همزة (ائت) ياء حالة وصل الكلمة بما بعدها، وفي حالة البدء بـ (ائت) فكل القراء يبدأ بهمزة مكسورة بعدها ياء مدية.

(٤) قرأ ابن كثير بنقل حركة همزة (بقرآن) ومثله حمزة عند الوقف، وليس فيها سوى القصر للأزرق عن ورش؛ لأنها ليست من باب البذل.

(٥) قرأ نافع وابن كثير وأبو عمرو وأبو جعفر بفتح ياء الإضافة من (لي أن، إني أخاف)، والباقون بالإسكان.

(٦) قرأ نافع وأبو عمرو وأبو جعفر بفتح ياء الإضافة من (نفسى إن)، والباقون بإسكانها.

(٧) وقف يعقوب بهاء السكت بخلف عنه على (إلي) لبيان حركة الموقوف عليه، والباقون بسكون الياء مشددة عند الوقف عليها، ومعهم يعقوب في وجهه الآخر، وجميع القراء بياء مفتوحة مشددة عند الوصل.

هذا: وقد ذكرتُ فيما سبق أن هذه السورة تحدّثت عن الوحي والرسالة في أربعة مواضع منها، وهذا هو الموضع الثاني من مواضع السورة الأربعة عن الوحي والرسالة.

أسباب النزول:

١- وممّا ورد في أسباب النزول ما جاء عن مقاتل: أَنَّ جماعة من قريش، قالوا للنبي ﷺ: إِنْ كُنْتَ تَرِيدُ أَنْ نُؤْمِنَ لَكَ فَأْتِ بِقُرْآنٍ لَيْسَ فِيهِ تَرْكُ عِبَادَةِ اللّاتِ وَالْعُزَّى، وَلَيْسَ فِيهِ مَا يَعْيبُهَا، وَإِنْ لَمْ يُنْزَلِ اللَّهُ عَلَيْكَ ذَلِكَ، فَقُلْ أَنْتَ هَذَا مِنْ نَفْسِكَ، أَوْ بَدِّلْهُ، فَاجْعَلْ مَكَانَ آيَةِ عَذَابِ آيَةِ رَحْمَةٍ، وَمَكَانَ حَرَامٍ حَلَالًا، وَمَكَانَ حَلَالٍ حَرَامًا^(١).

٢- وَذَكَرَ مجاهد أن مَنْ قالوا هذه المقالة خمسة نفر؛ هم: عبد الله بن أبي أمية، والوليد بن المغيرة، ومكرز بن حفص، وعمرو بن عبد الله بن أبي قيس، والعاص بن عامر، قالوا للنبي ﷺ: ائْتِ بِقُرْآنٍ لَيْسَ فِيهِ تَرْكُ عِبَادَةِ اللّاتِ وَالْعُزَّى؛ فَأَنْزَلَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ﴾^(٢).

أي: إِذَا تُلِيَتْ آيَاتُ الْقُرْآنِ عَلَى هَؤُلَاءِ الْمَشْرِكِينَ الْمُكْذِبِينَ، مَعَ مَا فِيهِ مِنَ الْأَدْلَةِ الْوَاضِحَةِ الدَّالَّةِ عَلَى وَحْدَانِيَةِ اللَّهِ تَعَالَى، وَعَلَى صِدْقِ نُبُوتِكَ ﴿قَالَ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا﴾ عَلَى وَجْهِ الْعِنَادِ وَالْحَسَدِ، مِنَ الَّذِينَ لَا يَخَافُونَ عَذَابَ اللَّهِ، وَلَا يَطْمَعُونَ فِي ثَوَابِهِ؛ لِأَنَّهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْبَعْثِ بَعْدَ الْمَوْتِ.

قالوا لمحمد ﷺ: ائْتِ بِقُرْآنٍ غَيْرِ هَذَا، لَيْسَ فِيهِ سَبٌّ لِّآلِهَتِنَا، وَلَا عَيْبٌ لِّهَا، فَخَالَفَ هَذَا الْقُرْآنَ وَأَعْرَضَ عَنْهُ، وَائْتِ بِغَيْرِهِ، فِيهِ مَدْحٌ لِّآلِهَتِنَا وَثَنَاءٌ عَلَيْهَا، وَفِيهِ قِصَصُ الْقُرُسِ وَمَلَا حِمَّهُمْ، وَإِنْ لَمْ يَكُنْ فِيهِ اسْتَطَاعَتُكَ تَغْيِيرَهُ مِنَ الْجَهَةِ الَّتِي نَزَلَ عَلَيْكَ مِنْهَا، فَبَدِّلْهُ أَنْتَ، فَإِنَّ تَبْدِيلَهُ فِي اسْتَطَاعَتِكَ، بَدِّلْ آيَاتِ الذَّمِّ بِآيَاتِ الْمَدْحِ، وَآيَاتِ الْوَعِيدِ بِآيَاتِ الْوَعْدِ، وَآيَاتِ الْبَعْثِ وَالنَّشُورِ بِغَيْرِهَا، وَبَدِّلْ الْعَذَابَ بِالرَّحْمَةِ، وَالْحَرَامَ بِالْحَلَالِ، وَهَكَذَا.

ثُمَّ لَقِيَ اللَّهَ رَسُولُهُ الْجَوَابَ مَكُونًا مِنْ فِرْقَتَيْنِ:

الأولى: جاءت في هذه الآية. والثانية: جاءت في الآية التالية.

(١) ينظر: «تفسير الألوسي» (٨٣/١١) وابن عطية (١١٠/٣) والبغوي في تفسير الآية.

(٢) «أسباب النزول» للواحدي (٢٢٤) وانظر «تفسير الطبري» (٦٧/١١).

الْجَوَابُ الْأَوَّلُ لِمَنْ يَطْلُبُونَ قُرْآنًا آخَرَ:

جاء في قوله تعالى: ﴿قُلْ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أُبْدِلَهُ مِنْ تِلْقَائِي نَفْسِي﴾.

أي قل لهم -أيها الرسول- هذا التبديل الذي تريدونه ليس إليّ، فليس في إمكاني تبديله، وما ينبغي لي أن أفعل شيئاً من تلقاء نفسي، ويُفهم من قوله: ﴿مِنْ تِلْقَائِي نَفْسِي﴾ أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى يُبَدِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا شَاءَ فَيَنْسَخُهُ عَنِ الْمَكْلُفِينَ بِمَا يَشَاءُ، كما قال تعالى: ﴿مَا نَنْسَخْ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِنْهَا أَوْ مِثْلَهَا﴾ [البقرة: ١٠٦]

وقال: ﴿وَإِذَا بَدَلْنَا آيَةً مَكَانَ آيَةٍ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُزَكِّى قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ مُفْتَرٍ﴾ [النحل: ١٠١] على أن المراد بالآية، الآية القرآنية، وقد يراد بها الآية الحسية والمعجزة الظاهرة.

وقال تعالى: ﴿سَفَرْتُكَ فَلَا تَنْسَى﴾ ﴿١﴾ إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ﴾ [الأعلى].

فالنبي ﷺ لا يَمْلِكُ تَغْيِيرًا وَلَا تَبْدِيلًا، إِنَّمَا هُوَ مُبَلِّغٌ عَنِ رَبِّهِ مَا يُوحِيهِ إِلَيْهِ بِوَاسِطَةِ جِبْرِيلَ ﷺ.

﴿إِنْ أَتَيْتُ إِلَّا مَا يُوحَى إِلَيَّ﴾ أي: وما أخبركم به من الأوامر والنواهي، والحلال والحرام، وذم الأصنام وغير ذلك، كله من عند الله، أتبع فيه الوحي، وأنا عبد مأمور.

﴿إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ إني أخشى إن خالفت أمر الله - فغَيَّرْتُ أَوْ بَدَّلْتُ شَيْئًا مِنْ كَلَامِهِ أَوْ أَحْكَامِهِ - أَنْ أَكُونَ بِذَلِكَ عَاصِيًا لِلَّهِ تَعَالَى؛ فَيُعَذِّبَنِي يَوْمَ لِقَائِهِ.

وكلام المشركين هذا من باب الكَيْدِ لِلنَّبِيِّ ﷺ، يريدون به أحد أمور خمسة:

الأول: أَنَّ الْمَكْذِبِينَ يَتَوَهَّمُونَ أَنَّ الْقُرْآنَ وَضَعَهُ النَّبِيُّ ﷺ مِنْ عِنْدِ نَفْسِهِ، فَطَمَعُوا أَنْ يَأْتِيَ لَهُمْ بِقُرْآنٍ يُوَافِقُ أَهْوَاءَهُمْ لَيْسَ فِيهِ مَا يَكْرَهُونَ.

الثاني: أَنَّ هَذَا مِنْ بَابِ السَّخَرِيَّةِ وَالِاسْتَهْزَاءِ، كَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ: إِنْ غَيَّرْتَ هَذَا الْقُرْآنَ أَوْ بَدَّلْتَهُ؛ أَمَّا بَكَ وَصَدُقْنَاكَ، يَقُولُونَ هَذَا مِنْ بَابِ التَّهْكُمِ بِهِ ﷺ.

الثالث: اخْتِبَارُ صِدْقِ النَّبِيِّ ﷺ مِنْ كَذِبِهِ، كَأَنَّهُمْ أَرَادُوا بِذَلِكَ اخْتِبَارَ النَّبِيِّ ﷺ بِأَنَّهُ لَوْ فَعَلَ ذَلِكَ يَكُونُ كَاذِبًا، وَيَكُونُ هَذَا الْقُرْآنَ لَيْسَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ، عَلَى حَدِّ زَعْمِهِمْ.

الرابع: أَنَّهُمْ أَرَادُوا مِنَ النَّبِيِّ ﷺ أَنْ يَتَجَرَّأَ عَلَى اللَّهِ تَعَالَى؛ كَيْ يَنَالَ عِقَابَهُ؛ فَيَرْيَحُهُمْ مِنْهُ.

الخامس: أنهم قصدوا أن يتبين لهم الحق بالآيات التي طلبوها - كما زعموا - وقد كذبوا في ذلك لأن الله تعالى قد أيد رسوله بما يؤمن على مثله البشر.

الْجَوَابُ الثَّانِي: لِمَنْ يَطْلُبُونَ قُرْآنًا آخَرَ:

١٦- ﴿قُلْ لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا تَلَوْتُمْ عَلَيْكُمْ وَلَا^(١) أَذْرَبَكُمْ بِهِ فَقَدْ لَبِثْتُ^(٢) فِيكُمْ عُمُرًا مِنْ قَبْلِهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٦﴾﴾

ثُمَّ لَقِّنَ الله رسوله جوابًا آخر، يتضمن الدليل على أَنَّ محمدًا مُرْسَلٌ مِنْ عند الله، وأنه لم يَخْتَلِقِ القرآن، وفيه إبطالٌ لدعواهم، وإثباتٌ لِصِدْقِ النبي ﷺ.

أي: لو شاء الله أن لا آتيكم بهذا القرآن لَمَا أُرْسَلَنِي به ربي، ولَبَقِيتُ على الحالة التي كُنْتُ عليها أول عمري، وهذا يتضمن دليلًا مطويًا تقديره: لو شاء الله ما تلوته عليكم لكني تلوته، وتلاوته عليكم دليلُ الرسالة؛ لِأَنَّ تلاوته تتضمن إعجازًا علميًا؛ حيث إنَّ الذي جاء به أُمِّي ليس من أهل العِلْمِ والحِكْمَةِ، فهو معجزة دالة على صِدْقِي، وما دمت لست أَعْلَمُ به منكم، فاعلموا أَنَّهُ الحقُّ مِنْ عند الله، فقد مكثتُ فيكم زمناً طويلاً مِنْ قبل أَن يُوحَى إِلَيَّ به، ومن قبل أن أتلوه عليكم، فلم آتِ بكلمة وَأزْعُمُ أنها من عند الله، أفلا تستعملون عقولكم بالتدبر والتفكير، فتعلمون أَنِّي لم أَتَقَوْلُهُ مدة عمري، ولم يصدر مني ما يدل على ذلك، فكيف أَتَقَوْلُهُ بعد ذلك وقد لبثت فيكم عمراً طويلاً تعرفون منه حقيقة حالي بأنِّي أُمِّي لا أقرأ ولا أكتب.

وَمِثْلُ هذه الآية قوله تعالى: ﴿وَمَا كُنْتَ تَسْلُوا مِنْ قَبْلِهِ مِنْ كِتَابٍ وَلَا تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ إِذًا لِآرْتَابِ الْمُبْطِلُونَ ﴿١٧﴾﴾ [العنكبوت]

وقوله: ﴿وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِنْ أَمْرِنَا مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ وَلَكِنْ جَعَلْنَاهُ نُورًا نَهْدِي بِهِ مَنْ شَاءَ مِنْ عِبَادِنَا﴾ [الشورى: ٥٢].

- (١) قرأ ابن كثير بخلف عن البزي بحذف الألف التي بعد اللام من (ولا أدراكم) على أن اللام لام ابتداء قُصِدَ بها التوكيد؛ أي: لو شاء الله ما تلوته عليكم ولأعلمكم به على لسان غيري، وقرأ الباقون بإثبات الألف على أن (لا) نافية مؤكدة؛ أي: لو شاء الله ما قرأته عليكم ولا أعلمكم به على لسان غيري.
- (٢) أدغم التاء في التاء من (لبثت) أبو عمرو وابن عامر وحزمة والكسائي وأبو جعفر.

وَوَجْهَ الاحتجاج أَنَّ أهل مكة شاهدوا النبي ﷺ قبل مَبْعَثِهِ، وعلموا أحواله، وأنه كان أُمِّيًّا، لم يُطالع كتابًا، ولا تَعَلَّمَ من أحدٍ طُولَ حياته قبل النبوة مدة أربعين سنة، ثُمَّ جاءهم بهذا الكتاب المشتمل على نفائس العلوم، وأخبار الأمم الماضية، والأحكام، والآداب، ومكارم الأخلاق، والفصاحة والبلاغة التي أعجزت الفصحاء.

وقد تضمنت هذه الآية ثلاثة أدلة على كَوْنِ القرآن ليس من عند محمد ﷺ:

أولها: أَنَّهُ أُمِّيٌّ ﴿لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا تَلَوْتُهُ عَلَيْكُمْ﴾.

ثانيها: أن هذا القرآن معجزٌ ﴿وَلَا أَدْرِيكُمْ يَوْمَ﴾.

ثالثها: أَنَّهُ من عند الله: ﴿فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِّن قَبْلِهِ﴾.

ثُمَّ بَكَتْهُمْ على عدم إدراكهم لهذه الأمور؛ فقال: ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾.

١- في الصحيح عن ابن عباس ؓ قال: أُنزِلَ على رسول الله ﷺ وهو ابن أربعين سنة، فَمَكَثَ ثلاث عشرة سنة يُوحى إليه، ثُمَّ أُمِرَ بالهجرة؛ فهاجر إلى المدينة، فمَكَثَ بها عشر سنين، ثُمَّ تُوْفِيَ ﷺ^(١).

٢- وفي صحيح مسلم وغيره، عن أنس ؓ قال: «قُبِضَ رسول الله ﷺ وهو ابن ثلاث وستين، وأبو بكر وهو ابن ثلاث وستين، وعمر وهو ابن ثلاث وستين»^(٢).

٣- وفي الصحيحين عن ربيعة بن أبي عبد الرحمن قال: سمعتُ أنس بن مالك ؓ يَصِفُ رسولَ الله ﷺ يقول: «كَانَ رُبْعَةً مِنَ الْقَوْمِ، لَيْسَ بِالطَّوِيلِ، وَلَا بِالْقَصِيرِ، أَزْهَرُ اللَّوْنِ، لَيْسَ بِأَبْيَضَ أَمْهَقَ، وَلَا آدَمَ، لَيْسَ بِجَعْدٍ قَطَطَ، وَلَا سَبِطٍ رَجُلٍ أُنْزِلَ عَلَيْهِ وَهُوَ ابْنُ أَرْبَعِينَ، فَلَبِثَ بِمَكَّةَ عَشْرَ سِنِينَ يُنْزَلُ عَلَيْهِ، وَبِالْمَدِينَةِ عَشْرَ سِنِينَ، وَقُبِضَ وَلَيْسَ فِي رَأْسِهِ وَلَحِيَّتِهِ عَشْرُونَ شَعْرَةً بِيضَاءَ»^(٣).

(١) البخاري (٣٩٠٢) والترمذي (٣٦٢١) وابن أبي شيبة (٥٣/١٣).

(٢) «صحيح مسلم» برقم (٢٣٤٨) والترمذي (٣٦٥٣) وفي «الشمائل» (٣٧٩) و«المسند» (١٦٨٧٣) و«سنن النسائي الكبرى» (٧٠٧٨).

(٣) «صحيح البخاري» برقم (٣٥٤٧، ٣٥٤٨، ٥٩٠٠) و«صحيح مسلم» برقم (٢٣٤٧).

ومع ذلك فَإِنَّ قَرِيضًا لم تهم النبي ﷺ بالكذب، وكانوا يُسْمُونَهُ قبل الرسالة بالصادق الأمين.
ولهذا لَمَّا سأل هِرَقْلُ أبا سفيان: هل كنتم تتهمونه بالكذب قبل أن يقول ما قال؟ قال أبو سفيان: لا، قال هِرَقْلُ: لم يكن لِيَدْعَ الكذب على الناس، ثُمَّ يذهب فيكذب على الله.
فإذا علمتم أن محدا صادق، وأنه قد أتاكم بالحق الذي ليس بعده إلا الضلال، فما عليكم إلا أن تؤمنوا وتقادوا له، فإن أبيتم إلا التكذيب والعناد فلا شك أنكم ظالمون:

أَشَدُّ النَّاسِ ظُلْمًا مَنْ يَفْتَرِي الْكَذِبَ عَلَى اللَّهِ وَيَعْبُدُ غَيْرَهُ

١٧- ﴿مَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الْمَجْرِمُونَ﴾

ولأن النبي ﷺ لم يفتر على الله الكذب حين قال: إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ، والمشركون قد افتروا على الله الكذب، حين نسبوا إليه سبحانه الشريك والولد، ولا يوجد في الدنيا أحد أشد ظلماً مِمَّنْ يفترى على الله الكذب، سواء بنسبة الشريك والولد إلى الله تعالى، أو لَأَنَّهُ أَنْكَرَ أَنَّ هَذَا الْقُرْآنَ ليس مِنْ عِنْدِ اللَّهِ، أو لَأَنَّهُ كَذَّبَ بِآيَاتِ اللَّهِ فَلَمْ يُؤْمِنْ بِهَا، ولم يعمل بمقتضاها، ولو كان محمد مُتَقَوِّلاً على الله لكان أظلم الناس، ولكنه جاء بآيات الله، فكذب بها المبطلون، فتعين أنهم الظالمون.

﴿مَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا﴾ هذا استفهام بمعنى النفي، المقصود منه نفي الكذب عن رسول الله ﷺ في أنه اختلق القرآن، أو كذب بما جاءت به الرُّسُلُ، وهذا معنى ﴿أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ﴾ فالْمُفْتَرِي على الله الكذب والمُكَذِّبُ بِآيَاتِهِ كلاهما أَظْلَمُ الناس، والكاذب والمُكَذِّبُ سواء في الكُفْرِ، فكلاهما جحد القرآن، وَأَنْكَرَ دلائل التوحيد، وكَذَّبَ رُسُلَ اللَّهِ، وكلاهما مُجْرِمٌ ﴿إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الْمَجْرِمُونَ﴾ فالْفَلَاح عُقْبَى الْمُؤْمِنِينَ، والمجرمون لهم عذابٌ أليمٌ.

وَمِمَّنْ افترى على الله الكذب: مُسَيْلِمَةُ الْكَذَّابِ، وَسَجَّاحُ، وَالْأَسْوَدُ الْعَنَسِيُّ، والقادياني، والباب، وغيرهم مِمَّنْ ادعى النبوة كذباً.

وَمِمَّنْ افترى على الله الكذب، النضر بن الحارث في قوله: إذا كان يوم القيامة شفعت لي اللات والعزى^(١).

وممن افترى على الله الكذب: من قال عزير ابن الله والمسيح ابن الله، ومن كذب بالقرآن ورسول الإسلام.

وَمِمَّا جاء في ذلك أَنَّ عمرو بن العاص كان صديقًا لمُسيَلمة الكذاب، فَقَدِمَ عليه، وكان صديقًا له في الجاهلية قَبْلَ أَنْ يُسْلِمَ، فقال مسيلمة لعمرو: ماذا أنزل على صاحبكم (يعني: محمدًا ﷺ) في هذه المدة؟ فقال: لقد سمعتُ أصحابه يقرؤون سورة وجيزة بليغة، قال: وما هي؟ قال: ﴿وَالْعَصْرِ ۝١ إِنَّ الْإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ ۝٢﴾ ففكر مسيلمة ساعة ثُمَّ قال: وأنا قد أنزل عليَّ مثلها، فقال: وما هو؟ قال: يا وبر، يا وبر، إِنَّمَا أنت إيراد وصدر، وسائرُك حقر نقر، كيف ترى يا عمرو؟ فقال له عمرو: والله إنك لتعلم أنني أعلم أنك تكذب^(٢).

فإذا كان هذا حال المُشْرِك (عمرو بن العاص)، لم يشبهه عليه صِدْقُ محمدٍ ﷺ وكذب مسيلمة، فكيف بأولي الأبصار، وأصحاب العقول السليمة؟!

ولهذا قال تعالى: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ افترى على الله كذبًا أو قال أوحى إليّ ولم يُوحِ إِلَيْهِ شَيْءٌ وَمَنْ قَالَ سَأُنْزِلُ مِثْلَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ﴾ [الأنعام: ٩٣]

وقال أيضًا: ﴿أَفَمَنْ كَانَ عَلَىٰ يَتْرَافٍ مِّن رَّبِّهِ وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِّنْهُ وَمِنْ قَبْلِهِ كَتَبَ مُوسَىٰ إِمَامًا وَرَحْمَةً أُولَٰئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَمَنْ يَكْفُرْ بِهِ مِنَ الْأَحْزَابِ فَالنَّارُ مَوْعِدُهُ فَلَا تَكُ فِي رَيْبٍ مِّنْهُ إِنَّهُ الْحَقُّ مِن رَّبِّكَ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [هود]

وفي هذا ردُّ على الذين لا يرجون لقاء الله، وحُكْمٌ عليهم بعدم الفلاح. قال تعالى:

١٨ - ﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنْفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَٰؤُلَاءِ شَفَعَتُنَا عِنْدَ اللَّهِ قُلْ

(١) ابن أبي حاتم (١٩٣٥/٦).

(٢) «البداية والنهاية» (٣٢٦/٦).

أَتُنْبِئُوكَ^(١) اللَّهُ يَمَا لَا يَعْلَمُ فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ سُبْحَنَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ^(٢) ﴿١٨﴾
والحديث موصولٌ عن المشركين بالله تعالى المكذبين لرُسُلِهِ، مِمَّنْ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَ
الله، ويطلبون قرآنًا آخر، وقد بَلَغَ مِنْ جَهْلِهِمْ وَسَفَهِهِمْ أَنَّهُمْ يَعْبُدُونَ غَيْرَ اللَّهِ تَعَالَى، وَلَا
يتوجهون إليه مباشرة بالعبادة، ويتوسلون إليه بما لَا يملك نفعًا وَلَا ضَرًّا، والمشركون في
كل زمانٍ ومكانٍ يقولون: إِنَّا لَا نَعْبُدُ الْأَوْثَانَ، وَلَكِنَّا نَدْعُوهُمْ؛ لِيَشْفَعُوا لَنَا عِنْدَ اللَّهِ ﴿مَا
نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى﴾ [الزمر: ٣] فيزعمون أنها تَشْفَعُ لَهُمْ عِنْدَ اللَّهِ فِي الْآخِرَةِ.

١- قال الحسن: يزعمون أنها تَشْفَعُ لَهُمْ فِي الدُّنْيَا بِإِصْلَاحِ مَعَاشِهِمْ؛ لِأَنَّهُمْ لَا
يعتقدون بِالْبَعْثِ بَعْدَ الْمَوْتِ، فَإِذَا ذُكِرَتِ الْقِيَامَةُ عَلَى أَلْسِنَتِهِمْ؛ فَإِنَّهُ يَكُونُ مِنْ بَابِ التَّهَكُّمِ
والسخرية، وليس على سبيل الإيمان بها.

٢- وهكذا قال النضر بن الحارث: إِذَا كَانَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ شَفَعَتْ لِي اللَّاتُ وَالْعُزَّى.

٣- وقال العاص بن وائل -وهو مشرك- إلى خباب بن الأرت، وكان قد صَنَعَ لَهُ
سِيفًا، وَجَاءَ يَطْلُبُ أَجْرَهُ، فَقَالَ لَهُ: إِذَا كَانَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ الَّذِي يُخْبِرُ بِهِ صَاحِبُكَ (أي:
محمد ﷺ) فَسَيَكُونُ لِي مَالٌ، فَأَقْضِيكَ مِنْهُ.

وكان سَدَنَةُ الْأَصْنَامِ يَخْوَفُونَ عُبَادَهَا أَنْ تُلْحَقَ بِهِمْ ضَرًّا هُمْ وَصَبِيَانَهُمْ، كَمَا قَالَتْ امْرَأَةٌ
طِفِيلُ بْنُ عَمْرِو الدُّوسِيِّ، حِينَ أَخْبَرَهَا زَوْجُهَا أَنَّهُ قَدْ أَسْلَمَ، وَدَعَاها إِلَى أَنْ تُسْلِمَ،
فَقَالَتْ: أَمَّا تَخْشَى عَلَى الصَّبِيَّةِ مِنْ ذِي الشَّرِّ؟ وَهُوَ صَنْمٌ كَانَ يُعْبَدُ بَيْنَ مَكَّةَ وَالطَّائِفِ،
يَقَالُ لَهُ: ذُو الْكَفَيْنِ.

ولذا: قَدَّمَتِ الْآيَةُ الضَّرَرَ عَلَى النِّفْعِ؛ لِئَنفِي مَا كَانُوا يَعْتَقِدُونَهُ، مِنْ أَنَّ هَذِهِ الْمَعْبُودَاتُ
تَضُرُّهُمْ، وَمِثْلُهُمْ مَنْ يَخَافُ مِنَ الْجِنِّ، أَوْ مِنْ بَعْضِ الْبَشَرِ، وَنَحْوِ ذَلِكَ.

(١) قرأ أبو جعفر بحذف همزة (أتنبتون) الثانية وضم الباء قبلها، وصلًا ووقفًا، ولحمزة عند الوقف عليها
ثلاثة أوجه هي:

(أ) تسهيلها بين بين. (ب) إبدالها ياء خالصة. (ج) حذفها كقراءة أبي جعفر.

(٢) قرأ حمزة والكسائي وخلف العاشر بقاء الخطاب في (تشركون) لمناسبة (أتنبتون)، والباقيون بياء الغيبة
على الالتفات.

غلاة التصوّف:

قلت: وبعض أهل الطرق الصوفية يفهمون أنهم ليسوا أهلاً لقبول الدعاء منهم؛ لِمَا فيهم من ذنوب، ويطلبون من مُريديهم ومشايخهم ما يريدون، زعمًا منهم أنهم أقرب منهم إلى الله، وأن الله تعالى يجب دعاءهم، وهذا هو عَيْنُ ما يفهمه مشركو الجاهلية الأولى.

وبالإضافة إلى ذلك فهم يقولون: نحن لا نستطيع أخذ الأحكام الشرعية من الكتاب والسنة مباشرة، فلا بُدَّ لنا من شيخ (صوفي) لتعلّم منه، ونقتفي أثره، ونُعاهده على ترك المعاصي والدعاء والعبادة تعظيمًا للمعبود، وهي لا تليق إلا بمن ينفع ويضر، ويحيي ويميت، ولا يملك ذلك إلا الله سبحانه، وهؤلاء المشركون يعبدون أشخاصًا أو أصنامًا لا تضرهم شيئًا ولا تنفعهم، لا في الدنيا ولا في الآخرة، ويتوهم المشركون أن هذه الأصنام تشفع لهم عند الله ﴿يَدْعُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَمَا لَا يَنْفَعُهُمْ ذَلِكَ هُوَ الضَّلَالُ الْبَعِيدُ﴾ [الحج: ١٢].

﴿قُلْ﴾ لهم يا محمد، على وجه التّهكم والنفي ﴿أَتُنْبِئُوكَ اللَّهُ﴾ أُنخبِرُونَه بشيء لا يعلمه من أمر هذه الأصنام في هذا الكون؟!!

ثم نَرَه تعالى نفسه فقال: ﴿سُبْحَنَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ معه مما لا ينفع ولا يضر.

ولو كان هناك أحد يشفع عنده لَعَلِمَه ﴿وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ الْجِنَّ وَخَلَقَهُمْ وَخَرَقُوا لَهُ بَنِينَ وَبَنَاتٍ بِغَيْرِ عِلْمٍ سُبْحَنَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُصِفُونَ﴾ [الأنعام: ١٣٨]. ﴿ذَلِكَ يَأْتِ اللَّهُ هُوَ الْحَقُّ وَأَتَى مَا يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ هُوَ الْبَاطِلُ وَأَتَى اللَّهُ هُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ﴾ [الحج: ٦٢]

الشُّرْكُ طَائِرٌ عَلَى التَّوْحِيدِ

١٩- ﴿وَمَا كَانَ النَّاسُ إِلَّا أُمَّةً وَاحِدَةً فَاخْتَلَفُوا وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ لَفُتِحَ بَيْنَهُمْ فِيمَا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ [١٩]

ثم أَخْبَرَ سبحانه أنه فَطَرَ الناس جميعًا على التَّوْحِيدِ، وأنَّ الشُّرْكَ قد طَرَأَ على بعضهم، وبعد أن ذَمَّ سبحانه مَنْ يعبد غير الله تعالى، مَدَحَ جل شأنه ما كان عليه الناس جميعًا من التَّوْحِيدِ بمقتضى الفِطْرَةِ البشرية، والميثاق المأخوذ عليهم في عالم الذر، قبل أن تظهر

عبادة الأوثان، ويتفرقوا إلى مؤمن وكافر، وهي المدة من لَدُنْ آدم إلى نوح عليهما السلام، وكانت هذه المدة نحو ألف عام، كما قال ابن عباس رضي الله عنهما: كان بين آدم ونوح عشرة قرون كلهم على شريعة من الحق فاختلفوا فبعث الله النبيين ^(١).

وأخرج ابن عساکر عن وهب قال: كان بين نوح وآدم عشرة آباء، وكان بين إبراهيم ونوح عشرة آباء ^(٢).

قال السُّدي: كان الناس أهل دين واحد على دين آدم فكفروا، فلَوْلَا أن ربك أَجَلَهُمْ إلى يوم القيامة لَفَضَى بينهم ^(٣).

وهذا معنى الآية ﴿وَمَا كَانَ النَّاسُ إِلَّا أُمَّةً وَاحِدَةً﴾ والمراد بالناس الجنس البشري كله، والمراد بالأمة الواحدة إخوة العقيدة والإسلام والتوحيد الخالص.

والمعنى: كان الناس جميعًا من لَدُنْ آدم إلى نوح، على دين واحد، هو الإسلام بمعناه العام؛ أي: على التوحيد الخالص، والعقيدة الصحيحة، فالمراد بالأمة الواحدة وحدة الدين، وسلامة الاعتقاد من الضلال والشرك، والاتفاق على الفطرة ﴿فَأَخْتَلَفُوا﴾ أي: أنهم اختلفوا بعد ذلك، فكفّر بعضهم وأشرك بالله، وثبت بعضهم على الحق، فبعث الله النبيين مبشرين ومنذرين وأنزل معهم الكتاب بالحق ليحكم بين الناس فيما اختلفوا فيه.

ولعل هذا ما يشير إليه قوله سبحانه: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾ ٤ ثُمَّ رَدَدْنَاهُ أَسْفَلَ سَافِلِينَ ٥ [التين].

وكان أول عبادة الأصنام في جزيرة العرب على يد (عمرو بن لُحي) الذي غير دين الله وبدّلَه بِجَلْبِهِ الأصنام لهم، وقد أخبر النبي ﷺ أَنَّهُ يَجُرُّ قُضْبُهُ فِي النَّارِ، وبهذا تغيّرت الفطرة التي فطر الله الناس عليها؛ فكفّر بعضهم بسبب التأثير الخارجي، وفساد الفطرة.

ولَذا: فإن المشركين صوَّروا إبراهيم وإسماعيل وهما يَسْتَقْسِمَانِ بِالْأَزْلَامِ فِي الْكَعْبَةِ،

(١) «البداية والنهاية» (١٠١/١) وانظر أبا يعلى (٢٦٠٦) والبخاري (٢١٩٠) «كشف الأستار» والطبراني (١١٨٣٠) وقال الهيثمي: رجال أبي يعلى رجال الصحيح «مجمع الزوائد» (٣١٨/٦).

(٢) ابن عساکر من طريق إسحاق بن بشر (٢٤١/٦٢).

(٣) ابن أبي حاتم (١٩٣٧/٦).

فقال النبي ﷺ يوم الفتح: «كذبوا، والله ما استقسم بها قط» وقرأ: ﴿وَمَا كَانَ إِبْرَاهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَكِنْ كَانَ حَنِيفًا مُسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ [آل عمران].

وإبراهيم عليه السلام هو القائل كما حكى الله تعالى عنه: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ إِنَّنِي بَرَاءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ ﴿١٦﴾ إِلَّا الَّذِي فَطَرَنِي فَإِنَّهُ سَيَهْدِينِ ﴿١٧﴾ وَجَعَلَهَا كَلِمَةً بَاقِيَةً فِي عَقِبِهِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٢٨﴾﴾ [الزخرف]

وقد خلق الله الجنة والنار لهذا التفرق والاختلاف، وأشار إلى ذلك في قوله تعالى: ﴿وَمَتَّ كَلِمَةُ رَبِّكَ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾ [هود: ١١٩].

وهذه هي الكلمة التي سبق بها علمُ الله تعالى، وقد أمهل الله البشر إلى يوم الفصل والقضاء؛ لِيُنَالَ كُلُّ مِنْهُمْ جزاءه ﴿وَلَوْ لَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ﴾ أي: بإمهال العصاة إلى يوم الحساب والجزاء، وتأخير القضاء بين الطائع والعاصي، والمؤمن والكافر ﴿لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ فِيمَا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾، فينجي المؤمنين ويهلك الكافرين.

وقد اقتضت حكمته تعالى ألا يؤاخذ أحداً إلا بذنب، وبعد إقامة الحجة عليه، فلم يُعَجَّلِ الله لهم العقوبة في الدنيا، بل أَجَّلَهَا إلى يوم القيامة؛ رحمةً منه بعباده، ويومها يهلك الله أهل الباطل، ويُنجي أهل الحق ﴿ثُمَّ نُنَجِّي الَّذِينَ اتَّقَوْا وَنَذَرُ الظَّالِمِينَ فِيهَا جِثًا﴾ [مريم].

وهذه الآية تشير إلى وحدة العقيدة مع الذين غيروا دين الله، وروّجوا لشركهم وباطلهم، فالحق هو الذي يجمع بين البشر، بخلاف الخطأ والضلال فهو يفرقهم، ولما دخل الشرك عقول بعض الناس قادهم ذلك إلى الاختلاف والتفرق ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ ﴿١٧٨﴾ إِلَّا مَنْ رَحِمَ رَبُّكَ وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ﴾ [هود].

وقد سبق مثل هذه الآية في قوله تعالى: ﴿كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ﴾ [البقرة: ٢١٣] في سياق مُجَادَلَةِ أهل الكتاب الوارد ذكرهم في قوله تعالى: ﴿سَلِّ بَنِي إِسْرَءِيلَ كَمَا ءَاتَيْنَاهُمْ مِنْ ءَايَةٍ بَيِّنَةٍ﴾ [البقرة: ٢١١]

وأهل الكتاب لا ينكرون أن الناس كانوا أمة واحدة، والآية هناك تشير إلى الوحدة الشرعية التي تجمعها الحنيفية الفطرية؛ ولذا عبّرت الآية عن التفرق الذي طرأ على البشر بِأَنَّ الله بعث النبيين مبشرين ومنذرين، والاختلاف المشار إليه هناك هو الاختلاف بين

أتباع الشرائع من اليهود والنصارى والمسلمين؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَا اخْتَلَفَ فِيهِ إِلَّا الَّذِينَ أُوتُوهُ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمْ الْبَيِّنَاتُ﴾ أما الاختلاف المشار إليه هنا فهو اختلاف العقيدة.

تَلْبِيَةُ طَلَبِ الْمُعْجَزَاتِ لَيْسَ لَهُ جَدْوَى فِي حُصُولِ الْإِيمَانِ

٢٠- ﴿يَقُولُونَ لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ فَقُلْ إِنَّمَا الْغَيْبُ لِلَّهِ فَانْتَظِرُوا إِنِّي مَعَكُمْ مِنَ الْمُنْتَظِرِينَ﴾

وبعد هذه الآية المعارضة يعود السياق إلى أقوال المشركين، بعد أن ذكر أفعالهم من عبادتهم ما لا يضر ولا ينفع، وذكر قبل ذلك قولهم للنبي ﷺ: ائت بقرآن غير هذا أو بدله، فقال تعالى عن المكذبين لرسول الله ﷺ: ﴿يَقُولُونَ لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ﴾ أي: يقول هؤلاء الكفرة المعاندون: هلاً أنزل على محمد ﷺ علامة دالة على صدقه، من الآيات الكونية الحسية؛ كنافذة صالح، وعصا موسى، وهذا كما قال تعالى عنهم: ﴿لَوْلَا أَوْفَىٰ مِثْلَ مَا أَوْفَىٰ مُوسَىٰ﴾ قال تعالى في الرد عليهم: ﴿أَوَلَمْ يَكْفُرُوا بِمَا أَوْفَىٰ مُوسَىٰ مِنْ قَبْلُ﴾ [القصص: ٤٨] وهم بهذا يريدون أن يستفزوا النبي ﷺ بتكذيبهم إياه، لِيَغْضَبَ وَيُسَارِعَ فِي مُجَارَاةِ عِنَادِهِمْ، فَيَكْفُوهَا عَنْهُ، أَوْ يُفْجِمُوهُ أَوْ يُعْجِزُوهُ.

وقد أمر الله رسوله أن يجيبهم على اقتراحهم بجواب فيه تهديد ووعد ﴿فَقُلْ إِنَّمَا الْغَيْبُ لِلَّهِ﴾ فلا يعلم الغيب أحدٌ إلا الله، فإن شاء فعل، وإن شاء لم يفعل؛ لأن الذي تطلبونه من الأمور الغيبية لا يقدر عليها إلا الله ﴿فَانْتَظِرُوا﴾ أيها القوم، قضاء الله بيننا وبينكم، بتعجيل العقوبة للمبطل مئاً، ونصرة صاحب الحق ﴿إِنِّي مَعَكُمْ مِنَ الْمُنْتَظِرِينَ﴾ ذلك، فكل منا ينتظر بصاحبه ما هو له أهل، فانظروا لمن تكون العاقبة، وفي هذا تهديد لهم، بأنهم لا يترقبون إلا شراً، كما قال تعالى: ﴿وَقَالُوا لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ وَلَوْ أَنزَلْنَا مَلَكًا لَفُضِيَ الْأَمْرُ ثُمَّ لَا يُنْظَرُونَ﴾ [٨] [الأنعام].

وكان المشركون قد طلبوا من النبي ﷺ آيات كونية كثيرة؛ من ذلك: طلبهم أن ينزل عليه ملكٌ من السماء يؤيده، أو يحول لهم النبي ﷺ جبل الصفا ذبهاً، أو يزيح عنهم جبال مكة، ويجعل مكانها بساتين وأنهاراً ﴿وَقَالُوا مَا هَذَا الرَّسُولُ يَأْكُلُ الطَّعَامَ وَيَمْشِي فِي الْأَسْوَاقِ لَوْلَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونُ مَعَهُ نَذِيرًا﴾ [٧] أَوْ يُنْفَخَ إِلَيْهِ كَنْزٌ أَوْ تَكُونُ لَهُ جَنَّةٌ يَأْكُلُ مِنْهَا﴾ [الفرقان].

يقول سبحانه في الرد عليهم: ﴿بَارَكَ الَّذِي إِنْ شَاءَ جَعَلَ لَكَ خَيْرًا مِنْ ذَلِكَ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَيَجْعَلُ لَكَ قُصُورًا﴾ ﴿١٠﴾ [الفرقان].

فليس عدم تلبية هذه المطالب، هي السبب في عدم إيمانهم، إنما السبب أنهم مكذبون بالحساب والثواب والعقاب ﴿بَلْ كَذَّبُوا بِالسَّاعَةِ وَأَعْتَدْنَا لِمَنْ كَذَبَ بِالسَّاعَةِ سَعِيرًا﴾ ﴿١١﴾ [الفرقان].

والله تعالى قادرٌ على أن يؤيد رسوله بما يطلبون، ولكنه سبحانه يعلم أنهم لن يؤمنوا مهما أوتوا من الآيات ﴿وَمَا مَنَعَنَا أَنْ نُرْسِلَ بِالْآيَاتِ إِلَّا أَنْ كَذَّبَ بِهَا الْأَوَّلُونَ﴾ [الإسراء: ٥٩].

وقد قطع الله بعدم إيمانهم في قوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ ﴿٩٦﴾ وَلَوْ جَاءَتْهُمْ كُلُّ آيَةٍ حَتَّى يَرَوْا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ﴾ ﴿٩٧﴾ [يونس].

وقوله: ﴿وَلَوْ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ كِتَابًا فِي قِرْطَاسٍ فَلَمَسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ لَقَالُوا الَّذِي كَفَرُوا إِنَّ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ﴾ ﴿٧﴾ [الأنعام].

وقوله: ﴿وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَابًا مِنْ السَّمَاءِ فَظَلُّوا فِيهِ يَعْرُجُونَ﴾ ﴿٧﴾ لَقَالُوا إِنَّمَا سُكَّرَتْ أَبْصَارُنَا بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَسْحُورُونَ﴾ ﴿١٥﴾ [الحجر].

وقوله تعالى فيهم: ﴿وَنُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ وَأَبْصَرَهُمْ كَمَا لَوْ يُؤْمِنُوا بِهِمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَنَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ ﴿١١﴾ وَلَوْ أَنَّا نَزَّلْنَا إِلَيْهِمُ الْمَلَكُوكَ وَكَلَّمَهُمُ الْمَوْتُ وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَيْءٍ قُبُلًا مَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ﴾ [الأنعام].

وقد اقتضت سنة الله تعالى أن يُعاجِلَ بالعقوبة في الدنيا مَنْ أَجَابَ الله طلبهم للآيات الكونية، واستمروا في تكذيب رسوله ﷺ، فيبيدهم ويستأصلهم، وقد رفع الله هذا النوع من العذاب عن هذه الأمة؛ لأن رسالتها خاتمة الرسالات، فهي باقية إلى قيام الساعة.

ولذا: خير الله رسوله في أمته بين الإمهال أو العذاب، فينتظروا حُكْمَ الله فيهم، مع أنهم قد شاهدوا معجزاتٍ أرضية كثيرة؛ كانشقاق القمر نصفين، والإسراء والمعراج، وحنين الجذع، وتسليم الحجر، وشكوى البعير له ﷺ؛ فلم يُفْهِمُوا هذا ولم يتأثروا به، فدلَّ هذا على أن طلبهم للمعجزات إنما هو من باب التعتُّت والعناد.

كما في طلبهم من النبي ﷺ تفجير الأرض ينابيع، وتفجير الأنهار وسط حدائق وبساتين، وإسقاط السماء عليهم قطعاً، وأن يأتي الرسول لهم برب العالمين والملائكة في

مقابلتهم حتى يروهم عياناً، أو يكون له قصرٌ من ذهب، أو يصعد إلى السماء فيأتي لهم من هناك بكتاب يقرؤونه، يُثبت لهم أنه صعد إلى السماء وأتى لهم منها بهذا الكتاب، وهذه المقترحات في آيات سورة الإسراء [٩٠-٩٣].

مُقَابِلَةُ النِّعَمِ بِالْجُحُودِ

٢١- ﴿وَإِذَا أَذَقْنَا النَّاسَ رَحْمَةً مِن بَعْدِ ضَرَّاءَ مَسَّتْهُمْ إِذَا لَهُم مَّكْرٌ فِي عَايَانِنَا قُلِ اللَّهُ أَسْرَعُ مَكْرًا إِنَّ رُسُلَنَا^(١) يَكْتُبُونَ مَا تَمْكُرُونَ^(٢)﴾

هذه الآية في بيان أن الكافر لا يؤدي شكر الله تعالى عند زوال المكروه عنه، ولا يرتدع عن معاصيه، والحديث موصول عن المشركين المكذبين، من قوله تعالى: ﴿وَلَوْ يُعِجِّلُ اللَّهُ لِلنَّاسِ الشَّرَّ﴾ والآيات تعطف خصلة بعد خصلة من طبائعهم وقبائحهم.

والآية هنا تبين أن الكافر إذا أصابه يُسرٌّ وأمنٌ ورخاءٌ، أو صحةٌ وسعادةٌ، بعد عُسرٍ وشدةٍ وخوفٍ، أو مرضٍ وبلاءٍ، لا يقابل هذه النعمة بالشكر والحمد، وإنما يُقابلها بالكذب والاستهزاء والسخرية ﴿وَإِذَا أَذَقْنَا النَّاسَ رَحْمَةً﴾ صحة، أو نصراً، أو أمناً أو ثراءً ونحو ذلك ﴿مِّن بَعْدِ ضَرَّاءَ﴾ فقر أو مرض، أو هزيمة ونحوها ﴿مَسَّتْهُمْ﴾ لا يقولون هذا رزق الله ويحمدونه عليه، وإنما يقابلونه بالجحود، وينسبونه لغير الله، فهم يمكرون في مقام الشكر ﴿إِذَا لَهُم مَّكْرٌ فِي عَايَانِنَا﴾.

أي يسعون بالباطل ليبطلوا به الحق، وسمى الله تعالى إنكارهم مكرًا؛ لأنهم كانوا كثيرًا ما يتجمعون سرًّا؛ ليتشاوروا في المؤامرات التي يُعْرِقُلُون بها سير الدعوة، والشبهات التي يوجِّهونها إلى النبي ﷺ.

ذَكَرَ الماوردي أنه لما دعا النبي ﷺ على أهل مكة بالجذب؛ أصابهم القحط سبع سنين، ثم أتاه أبو سفيان، فقال: ادعُ لنا بالخصب، فإن أخصبنا صدقناك؛ فدعا لهم، فسُقوا ولم يؤمنوا.

والمراد أنهم لما وسَّع الله عليهم في الأرزاق، وأدرَّ عليهم النعم بالمطر وصلاح

(١) قرأ أبو عمرو بإسكان السين من (رسلنا)، والباقون بضمها، وهما لغتان.

(٢) قرأ روح عن يعقوب بياء الغيب في (يمكرون) لمناسبة (مستهم)، وقرأ الباقر بقاء الخطاب على الالتفات.

الثمار، بعد أن مَسَّتْهم الضراء بالجذب وضيق العيش، فما شكروا نِعْمَةَ الله عليهم، ولا نسبوها إلى الله تعالى، بل أضافوها إلى أصنامهم التي لا تنفع ولا تضر، وطعنوا في آيات الله، واحتالوا في دفعها بكل حيلة، وفي هذا نسبة الفضل إلى غير الله تعالى.

ويشبه هذه الآية قوله تعالى: ﴿وَإِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ الضُّرُّ دَعَانَا لِجَنبَيْهِ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَائِمًا فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُ مَرَّ كَأَن لَّمْ يَدْعُنَا إِلَى ضُرِّ مَسَّهُ﴾ [يونس: ١٢] وتزيد عنها الآية التي معنا عقوبة مكرهم، قال تعالى متوعداً هذا النوع من الناس: ﴿وَذَرْنِي وَالْمُكَذِّبِينَ أُولِيَ النَّعْمَةِ وَمَهَلْهُمْ فَلِيلًا ﴿١١﴾﴾ [المزمل].

في الصحيح أن رسول الله ﷺ صلى بهم الصبح على إثر سماء -مطر- أصابهم من الليل، ثم قال: «هل تدرون ماذا قال ربكم الليلة؟» قالوا: الله ورسوله أعلم، قال: «أصبح من عبادي مؤمن بي وكافر، فأما من قال: مُطِرْنَا بفضل الله ورحمته، فذلك مؤمن بي، كافر بالكواكب، وأما من قال: مُطِرْنَا بِنُوءٍ كذا وكذا، فذلك كافر بي مؤمن بالكواكب»^(١).

وهذا الحديث يشير إلى أنه يراد بالناس في هذه الآية المنافقون، وهم الذين يُظهرون الإسلام ويبطنون الكفر ﴿قُلِ اللَّهُ أَسْرَعُ مَكْرًا﴾ لا يَخْفَى عليه شيء من مكرهم، والملائكة يسجلون أقوالكم وأفعالكم، ولا يحق المَكْرُ السيئ إلا بأهله، والله تعالى يمهلكم ويستدرجكم، وسوف يعاقبكم ويحاسبكم على مكرهم، وعقوبة الله لكم أسرع من مكرهم بآيات الله.

وسُمِّي استدراج الله بهم وعقوبته لهم مَكْرًا، من باب المشاكلة اللفظية، وهو إنذار لهم بالعذاب والعقوبة.

ومعنى الآية: وإذا مَنَحْنَا الناس الصحة والسعادة والغنى، بعدما أصابهم الضر في أنفسهم أو فِيمَنْ يحبون، لم يكن منهم مُبَادرة إلى الطاعة والشكر، وإنما بادروا إلى الطعن والتشكيك في قدرتنا، والاستهزاء بآياتنا، والتهوين من شأنها، والجحود والعناد، فَأَخْبِرُهُمْ - أيها الرسول - أن الله تعالى مُجَازِيهِمْ ومُعَاقِبُهُمْ على أقوالهم وأفعالهم، وملائكته الله الكرام يسجلون عليهم ذلك؛ لإقامة الحُجَّة عليهم وإلزامهم بها، ومن ثم يعاقبهم على ما قدمت أيديهم.

(١) «صحيح البخاري» برقم (٨٤٦، ١٠٣٨) و«صحيح مسلم» برقم (٧١).

الْمُسْلِمُ يَعْرِفُ رَبَّهُ فِي الشَّدَّةِ وَالرَّخَاءِ

٢٢- ﴿هُوَ الَّذِي يُسِرُّكُمْ^(١) فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ حَتَّى إِذَا كُنْتُمْ فِي الْفُلِكِ وَجَرِينَ بَحْرٍ طَبِئَ وَفَرِحُوا بِهَا جَاءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَاءَهُمُ الْمَوْجُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ^(٢) لَئِنْ أَجَبْنَاهُمْ مِنْ هَٰذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ^(٣)﴾

هذه الآية تُذكر العباد بِنِعْمَةِ الله عليهم في حالة خاصة عند شدة الخوف، حيث يحفظهم الله ويرعاهم، وهم سائرون في أمواج البحر، بعد ذُكر أحوال الناس عند إصابة اليسر بعد العسر، والسرء بعد الضراء.

ولمَّا كان المكر بتكذيب آيات الله تعالى ودفعها يشتمل على البغي والاعتداء في الأرض المذكور في آخر الآية التالية.

وبعد النِّعْمَةِ العامة المذكورة في الآية السابقة ساق الله تعالى في هذه الآية، نِعْمَةً أُخْرَى يُنْعِمُ الله بها على خَلْقِهِ في مشهد حيٍّ تراه العيون، وتهتز له القلوب، وتجعل المشاعر تتجه إلى الله وحده بالدعاء، فقال تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي يُسِرُّكُمْ فِي الْبَرِّ﴾ على ظهور الدواب، وفي السيارات والمراكب ﴿وَالْبَحْرِ﴾ في السفن ونحوها، ويسيركم بقدرته في الجو والفضاء، كما قال تعالى: ﴿وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [النحل: ٩] فتنتقلون من مكان إلى مكان، من أقصى البلاد إلى أقصاها، في تقلبات المعاش والسياسة وغير ذلك من متطلبات الحياة.

ثمَّ ينتقل سياق الآية من ضمير الخطاب ﴿حَتَّى إِذَا كُنْتُمْ فِي الْفُلِكِ﴾ إلى ضمير الغيبة؛ ليفضي به إلى ما يخص الكفار المكذبين فأنتم تركبون السفن والمراكب البحرية ﴿وَجَرِينَ بَحْرٍ طَبِئَ﴾ أي: جرت السفن بكم في البحر بريح مناسبة لسيرها، موافقة لاتجاهها نحو المكان الذي تقصدونه في أسفاركم ليس فيها خوف ولا مشقة ولا إزعاج ﴿وَفَرِحُوا بِهَا﴾ أي: فرح ركاب السفينة بالريح الطيبة وكانوا في سرورٍ بالغٍ، وبينما هم

(١) قرأ ابن عامر وأبو جعفر (يُسْرُكُمْ) بدل (يسيركم) أي: يفرقكم من النشر ضد الطي، وقرأ الباقر (يسيركم) أي: يمكنكم من السير ويحملكم عليه، من التسيير.

(٢) عدّ (له الدين) الشامي وحده، وتركه الآخرون.

(٣) ترك عد (من الشاكرين) الشامي وحده وعدّه الآخرون.

كذلك إذ ﴿جَاءَتْهَا﴾ في مرة من المرات ﴿رِيحٌ عَاصِفٌ﴾ شديدة السرعة والتقلب والهبوب في اتجاه معاكس لسيورها .

﴿وَجَاءَهُمُ الْمَوْجُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ﴾ أي: وجاء ركبان السفينة موجٌ مرتفع أحاط بهم من جميع الجهات ﴿وَعَلَّتْهُمْ أَثَمُهُمْ أَحِيطَ بِهِمْ﴾ أي: أيقنوا أن الهلاك قد أحاط وأحرق بهم من كل جانب، كما يحيط العدو بعدوه؛ وأيقنوا أنه لا ينجيهم من هذه الشدائد إلا الله، حيثُ ﴿دَعَوْا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾ أي: توجهوا إلى الله وأخلصوا له الدعاء والابتهال تاركين ما كانوا يعبدونه من دون الله تعالى قائلين: ﴿لَئِنْ أَنجَيْتَنَا مِنْ هَذِهِ﴾ الشدة التي نحن فيها، وهذا الضر الذي أحرق بنا ﴿لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ﴾ لك على نِعَمِكَ .

وقد أگدوا شكرهم لله تعالى بتأكيدات ثلاثة: اللام الموطئة للقسم، ونون التوكيد، وكونهم في عداد الشاكرين؛ وذلك لأنهم يعلمون في قرارة أنفسهم أنه لا ينجيهم إلا الله .

ولذا: فهم يلجؤون إليه تعالى في الشدة، وَيَسْتَوْنَ ما يزعمونه من الآلهة، وهذا يشبه حال الذين يعتقدون في الأموات من عباد الله الصالحين أو غيرهم، فيسألونهم جلب نفع أو دفع ضرر، ومثله قول الله تعالى: ﴿وَإِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فِي الْبَحْرِ ضَلَّ مَنْ تَدْعُونَ إِلَّا إِلَٰهًا فَلَمَّا فَلَاحَ الْبَرْقُ إِلَى الْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ وَكَانَ الْإِنْسَانُ كَفُورًا﴾ [الإسراء: ٦٧] وهذا من أعظم الأدلة على وحدانية الله تعالى وكمال قدرته .

وفي الآية دليلٌ على أن الخلقُ جُبلُوا على الرجوع إلى الله تعالى في الشدائد، وأنه سبحانه يُجِيبُ المضطر إذا دعاه - وإن كان كافراً - لرجوعه إلى رب العالمين، وتعلقه به؛ ولأنه لا يَأْمَنُ جانب الله تعالى أن يخسف به الأرض، أو يرسل عليه الرِّيحَ العاتية؛ فيغرقه في عرض البحر، ولا يجد مَنْ يمنعه من ذلك ﴿أَفَأَمِنْتُمْ أَنْ يَخْسِفَ بِكُمْ جَانِبَ الْبَرِّ أَوْ يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا ثُمَّ لَا تَجِدُوا لَكُمْ وَكِيلًا﴾ [٦٨] أَمْ أَمِنْتُمْ أَنْ يُعِيدَكُمْ فِيهِ تَارَةً أُخْرَى فَيُرْسِلَ عَلَيْكُمْ قَاصِفًا مِنَ الرِّيحِ فَيَغْرِقَكُمْ بِمَا كَفَرْتُمْ ثُمَّ لَا تَجِدُوا لَكُمْ عَلَيْهَا يَبْعًا﴾ [٦٩] [الإسراء: ٦٩] .

التعرف على الله في الشدة:

وفي رواية ابن سعد عن أبي مُليكة أن عكرمة لَمَّا ركب السفينة وأخذتهم الريح، جعلوا

يَدْعُونَ اللَّهَ تَعَالَى، قال عكرمة: هذا ما يدعوننا إليه محمدٌ، فارجعوا بنا؛ فرجع وأسلم^(١).

وقال رجل لجعفر الصادق: اذكر لي دليلاً على إثبات الصانع؟ فقال له: أخبرني عن حِرْفَتِكَ؟ فقال: أنا رجل أُنْتَجِر في البحر، فقال له صِفْ لي كيفية حالِك؟ قال: رَكِبْتُ البحر؛ فانكسرت السفينة، وبقيت على لوح واحدٍ من ألواحها، وجاءت الرياح العاصفة، فقال جعفر: هل وجدت في قلبك تضرعاً ودعاءً؟ قال: نَعَمْ، فقال جعفر: إلهك هو الذي تضرَّعت إليه في ذلك الوقت^(٢).

وَحَدَّثَ أَنَّ رَجُلًا إِنجِلِيزِيًّا قَرَأَ تَرْجُمَةَ هَذِهِ الْآيَةِ ﴿هُوَ الَّذِي يُسَيِّرُكُمُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ﴾ فَرَأَعَتْهُ بِلَاغَةٌ وَصَفَهَا لَطُغِيَانُ الْبَحْرِ، وَكَانَ يَعْمَلُ قَائِدًا لِاحْدَى السَّفِينِ، فَسَأَلَ بَعْضَ الْمُسْلِمِينَ: أَعَلَّامُونَ أَنَّ نَبِيَّكُمْ قَدْ سَافَرَ إِلَى الْبَحَارِ؟ فَقَالُوا لَهُ: لَا؛ فَاسْلَمَ الرَّجُلُ؛ لِأَنَّهُ اعْتَقَدَ أَنَّ الْقُرْآنَ لَيْسَ مِنْ كَلَامِ الْبَشَرِ، وَإِنَّمَا هُوَ كَلَامُ اللَّهِ تَعَالَى^(٣).

ويؤخذ من الآية أن المؤمن يلجأ إلى الله تعالى في الرخاء والشدة معاً، ولا يتشبه بالمشركين الذين يدعون له في الشدة، وينسونه في الرخاء.

وفي الحديث عن ابن عباس رضي الله عنه: «تَعَرَّفَ عَلَى اللَّهِ فِي الرِّخَاءِ يَعْرِفُكَ فِي الشَّدَةِ»^(٤).

ويؤخذ منها أيضاً أَنَّ النَّاسَ قَدْ جُبِلُوا عَلَى الرَّجُوعِ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى فِي الشَّدَائِدِ وَالْمَحَنِ، فَإِذَا نَجَّاهُ اللَّهُ مِنَ الضِّيقِ وَكَشَفَ عَنْهُ مَا فِيهِ مِنْ كَرْبٍ رَجَعَ إِلَى كُفْرِهِ وَعَصْيَانِهِ، وَتَمَادَى فِي الشَّرِّ وَالطُّغْيَانِ، وَهَذَا ضَرْبٌ مِنَ الْجُحُودِ وَالضَّلَالِ.

الْبَغْيُ الْمَحْمُودُ وَالْبَغْيُ الْمَذْمُومُ

٢٣- ﴿فَلَمَّا أَفْجَاهُمْ إِذَا هُمْ يَبْغُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ بَأَيْهَا النَّاسُ إِنَّمَا بُعِثْتُكُمْ عَلَىٰ أَنْفُسِكُمْ مَتَّعَ^(٥) الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُكُمْ فَنُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٢٣﴾﴾

(١) «تفسير الألوسي» (٩٧/١١) و«الدر المنثور» (٦٤٣/٧).

(٢) الفخر الرازي (٢٧/١٧).

(٣) «تفسير المنار» (٣٤٤/١١).

(٤) ينظر تخريجه عند الآية (١٣).

(٥) قرأ حفص بنصب (متاع) على أنه مصدر مؤكد لعامله؛ أي: تمتعون متاع، وقرأ الباقر بالرفع على أنه خبر لمبتدأ محذوف؛ أي: ذلك هو متاع.

هذه الآية لزجر البغي وذم البغاة والمفسدين في الأرض بالشرك والكفر، وأن الإنسان الباغي من شأنه أنه يُعاود الوقوع في المعاصي بعد أن ينجيه الله ممّا كان فيه، ومن ذلك حالة الخطر مع تلاطم الأمواج في البحار، فبعد أن تهدأ العاصفة، وتنخفض الأمواج، وتسكن النفوس، وتصل السفن إلى شاطئ الأمان، تكون النتيجة؟ معاودة البغي والفساد في الأرض، وذلك أنه لما أنجى الله تعالى هؤلاء الذين أحاطت بهم الشدائد من كل جانب، بفضلِهِ ورحمته، إذا هم يُعودون إلى الإفساد في الأرض بالمعاصي مرة أخرى، ويرتكبون البغي الفاضح الذي لا يخفى قبحه على أحد.

ويُرَادُ بِالْبَغْيِ هنا: العودة إلى الشرك والكفر، وهو أعظم اعتداء على حق الخالق سبحانه؛ إذ ليس المراد بالبغي الظلم والفساد، بدليل قوله تعالى: ﴿وَجَعَلَ لِلَّهِ أَتَدَاً لِّبُضْلٍ عَنْ سَبِيلِهِ﴾ [الزمر: ٨].

قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّمَا بَغْيُكُمْ عَلَى أَنْفُسِكُمْ﴾ خِطَابٌ للمشرّكين الذي يَبْعُونَ في الأرض بغير الحقِّ بِأَنَّ وبال بغيهم راجعٌ على أنفسهم، فهم وحدهم الذين يتحملون سوء عاقبته في الدنيا والآخرة.

وأصل البغي مجاوزة الحد، وهو على ضربين:

الضرب الأول: بَغْيٌ محمودٌ، ولا يكون إلا بحق، كتجاوز المفضول إلى الفاضل، وهو مجاوزة العدل إلى الإحسان، ومجاوزة الفرض إلى التطوع، ومجاوزة كظم الغيظ إلى الإحسان، ومنه استيلاء المسلمين على أرض الكفرة، وفتح البلاد فتحاً إسلامياً، وكذا مَنْ استردَّ حقاً مغصوباً منه، كما قال تعالى: ﴿وَلَمَنْ أَنْتَصَرَ بَعْدَ ظُلْمِهِ فَأُولَئِكَ مَا عَلَيْهِمْ مِنْ سَبِيلٍ﴾ ﴿٤١﴾ إِنَّمَا السَّبِيلُ عَلَى الَّذِينَ يَظْلِمُونَ النَّاسَ وَيَبْعُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ [الشورى: ٤١، ٤٢].

والبَغْيُ المحمود هو ما يكون بحق.

والضرب الثاني: بَغْيٌ مذموم، ولا يكون إلا بغير حق، وهو مجاوزة الحق إلى الباطل، وظلم الناس والاعتداء عليهم، وقطع الطريق، والخروج على الحاكم المسلم، وأعظمه الشرك بالله تعالى والكفر به، كما جاء صريحاً في قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا بَجَحْتُمْ إِلَى آلِبرِ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ﴾ [العنكبوت: ٦٥] وقوله: ﴿فَلَمَّا بَجَحْتُمْ إِلَى آلِبرِ فَمِنْهُمْ مُقْنَصِدٌ﴾ [القمان: ٣١] وشبهه

قوله تعالى: ﴿ثُمَّ إِذَا كُشِفَ الضُّرُّ عَنْكُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْكُمْ بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ﴾ [النحل].

وليس إهمال الله تعالى للمكذبين بآياته رضى منه سبحانه بأفعالهم، ولا عجزاً عن عقابهم، بل إنه جل شأنه مؤاخذهم ومُعاقبتهم في يوم يشتد فيه الحساب.

والبغي لا يصلح زاداً للآخرة، بل زاداً للدنيا فقط، كما قال رب العالمين: ﴿مَتَّعَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا﴾ أي: أَنَّ هذا البغي تتمتعون به متاعاً قليلاً زائلاً لا بقاء له في الحياة الدنيا، كما قال تعالى: ﴿وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَّعَ إِلَىٰ حِينٍ﴾ [الأعراف: ٢٤]

ونهاية المصير إلى الله سبحانه ﴿ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُكُمْ﴾ مصيركم ومردُّكم يوم القيامة إلى الله ﴿فَنُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ نخبركم بجميع أعمالكم، ونحاسبكم ونجازيكم عليها، فمن وَجَدَ خيراً فليحمد الله، ومن وجد غير ذلك فلا يَلُومَنَّ إلا نفسه، وفي هذا تهديد لهم وبيان لعقوبتهم في الآخرة.

أحاديث في معنى الآية:

- ١- جاء في الحديث عن أبي بكرة رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «ما من ذنب أجدر أن يعجل الله عقوبته في الدنيا مع ما يدخر الله لصاحبه في الآخرة من البغي وقطيعة الرحم»^(١).
- ٢- وفي حديث أبي بكر رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «لا تبغ ولا تكن باغياً، فإن الله تعالى يقول: ﴿إِنَّمَا بُغْيِكُمْ عَلَىٰ أَنْفُسِكُمْ﴾»^(٢).
- ٣- وفي حديث عياض بن حمار رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «إن الله أوحى إليَّ أن تواضعوا حتى لا يبغى أحدٌ على أحدٍ، ولا يفخر أحدٌ على أحدٍ»^(٣).
- ٤- وأخرج أبو نعيم في الحلية، والخطيب، والديلمي، وغيرهم عن أنس رضي الله عنه أن رسول

(١) من حديث أبي بكرة، رواه أبو داود في «السنن» برقم (٤٩٠٢) والبيهقي في «الشعب» (٦٦٧٠) وابن ماجه في «السنن» برقم (٤٢١١) والترمذي برقم (٢٥١١) وقال: هذا حديث حسن صحيح، وصححه الألباني في «السلسلة الصحيحة» (٩١٨)، والحديث في المسند برقم (٢٠٣٩٨) بإسناد صحيح، وأخرجه البخاري في الأدب المفرد (٩٧، ٢٩) والطبراني (٨٨٠) وابن حبان (٤٥٥).

(٢) «المستدرک» (٣٣٨/٢) قال الحاكم: هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه ووافقه الذهبي.

(٣) ينظر: «صحيح مسلم» (٢٨٦٥) والبيهقي في «الشعب» (٦٦٧٢) وأبو داود (٤٨٩٥).

الله ﷺ قال: «ثلاث هُنَّ رواجع على أهلها: المكر، والنكث، والبغي، ثم تلا: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّمَا بَعَيْتُكُمْ عَلَىٰ أَنْفُسِكُمْ﴾ وقوله: ﴿فَمَنْ نَّكَثَ فَإِنَّمَا يَنكُثُ عَلَىٰ نَفْسِهِ﴾ [الفتح: ١٠] وقوله: ﴿وَلَا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِ﴾^(١) [فاطر: ٤٣].

من لم يؤمِّهمُ النبي ﷺ يوم الفتح:

وعن سعد بن أبي وقاص قال: لَمَّا كان يوم الفتح أَمَّنَ رسول الله الناس إلا أربعة نفر وامرأتين وقال: «اقتلوهم وإن وجدتموهم متعلقين بأستار الكعبة، عكرمة بن أبي جهل، وعبد الله بن خطَل، ومقيس بن ضبابة، وعبد الله بن سعد بن أبي السرح».

فأَمَّا (عبد الله بن خطَل) فأَدْرَكَ وهو متعلقٌ بأستار الكعبة، فاستبق إليه سعيد بن حُرَيْث، وعمار بن ياسر، فسبق سعيد عمارًا فقتله، وأما (مقيس) فأدركه الناس في السوق فقتلوه.

وَفَرَّ (عكرمة بن أبي جهل)، فركب البحر، فأصابتهُم ريحٌ عاصفٌ، فقال أصحاب السفينة لرؤسائهم: أخلصوا، فإن آلَهم لا تُعني عنكم شيئًا، فقال عكرمة: والله لئن لم ينجني في البحر إلا الإخلاص، لا ينجيني في البرِّ غيرُه، اللهم إن لك عهدًا إن أنت عافيتني ممَّا أنا فيه أن آتي محمدًا حتى أضع يدي في يده فلا جدنَّه عَفُوًّا كريمًا، قال: فجاء؛ فأسلم.

وأَمَّا (عبد الله بن سعد بن أبي السرح) فإنه اختبأ عند عثمان، فَلَمَّا دعا رسول الله ﷺ للبيعة جاء به حتى أوقفه على النبي ﷺ فقال: يا رسول الله، بايع عبد الله، فرفع رأسه فنظر إليه ثلاثًا وأبى قبول بيعته، فبايعه بعد ثلاث، ثم أَقْبَلَ على أصحابه فقال: «أما كان فيكم رجلٌ رشيدٌ يقوم إلى هذا حيث رأيته كففت يدي عن بيعته فيقتله؟» قالوا: وما يدرينا يا رسول الله، ما في نفسك، هَلَّا أومأت إلينا بعينك؟ قال: «إنه لا ينبغي للنبي أن يكون له خائنة أعين»^(٢).

(١) وأخرجه ابن مردويه عن عبد الله بن نُفَيْل الكتاني كما في الإصابة (٢٥٣/٤).

(٢) رواه أبو داود (٢٦٨٣، ٤٣٥٩) مختصرًا والنسائي (٤٠٧٨) وابن أبي شيبه (٤٩١/١٤) و«صحيح سنن أبي داود» (٣٦٦٤) وصحيح سنن النسائي (٣٧٩١) والسلسلة الصحيحة (١٧٢٣) وصحيح الجامع (٢٤٢٦).

مَثَلُ الدُّنْيَا فِي سُرْعَةِ زَوَالِهَا

٢٤- ﴿إِنَّمَا مَثَلُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أُنزِلَتْهُ مِنَ السَّمَاءِ فَأَخْلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ النَّاسُ وَالْأَنْعَامُ حَتَّى إِذَا أَخَذَتِ الْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَازَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَا أَنَّهُمْ قَدِرُوا عَلَىهَا أُنْزِلْنَا لَهَا لِيلاً أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَاهَا حَصِيدًا كَأَن لَّمْ تَغْنَبْ بِالْأَمْسِ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢٤﴾﴾

هذه الآية تُضْرِبُ مثلاً من أحسن الأمثلة لزوال الدنيا بعد زيتها وبهجتها بالنبات في دُبُولِهِ بعد خُسْرَتِهِ، وهذا تحذيرٌ من الاغترار بالدنيا، فهي مَعْرُضَةٌ للزوال كالموت يأتي للإنسان، وَلَمَّا ذَكَرَ سبحانه أن متاع الدنيا قليلٌ زائلٌ في قوله تعالى: ﴿مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ ضرب مثلاً للتمتع بالدنيا بهيئة الزرع في نُضْرَتِهِ، ثم يصير هشيماً محطماً.

فشبهَ حال الدنيا في سرعة انقضائها وزوال نعيمها بعد بهجتها وزيادة حُسْنِهَا بحال نبات الأرض حين يكون حصيداً فانيًا، وهكذا فإن الدنيا تزهر لصاحبها بعض الوقت، فإذا استكمل هذا الزهد، بدأ يضمحل ويزول عن صاحبه، حتى يصبح صفر اليدين، ممتليء القلب بالهم والحزن والحسرة.

والناس في التَّمَتُّعِ بلذائذ الدنيا تختلف هِمَمُهُمْ؛ فمنهم مَنْ يطلب معالي الأمور؛ فيجعل الدنيا مزرعةً للآخرة، وَيَرْغَبُ فيما عند الله، وهذا تشبيه لحال المؤمن الذي يعمل للآخرة.

ومن الناس مَنْ يطلب سفاسيفَ الأمور، فَمَتَاعُ الدنيا هو غايته ونهاية أمره، وليس له في الآخرة من نصيب، وهذا تشبيه لحال الكفار، فهو يأكل في هذه الدنيا كما تأكل الأنعام، كما قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا يَتَمَتَّعُونَ وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ الْأَنْعَامُ وَالنَّارُ مَثْوًى لَّهُمْ﴾ [محمد: ١٢] وهذا هو نصيب الكافر من الدنيا.

﴿إِنَّمَا مَثَلُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ وما تتفاخرون به فيها من زينة وجاه ومتاع وأموال ونساء وأولاد، مَثَلُهَا في سرعة زَوَالِهَا بعد إقبال كَمَثَلِ ماءٍ ﴿أُنزِلَتْهُ مِنَ السَّمَاءِ﴾ إلى الأرض ﴿فَأَخْلَطَ﴾ بهذا الماء ﴿نَبَاتُ الْأَرْضِ﴾ من كل صنف وزوج بهيج، فأنبت النبات، فأخرجت منه قوت الإنسان؛ كالقمح والذرة والأرز والشعير، وقوت الحيوان كالعشب والكلاء ﴿مِمَّا يَأْكُلُ النَّاسُ وَالْأَنْعَامُ﴾ من الحبوب والثمار والبرسيم والكلاء والعشب ونحوه.

والمؤمن يستعين بما يأكله على طاعة الله، وتحصيل كسبه ومعاشه لأولاده وجهاده في سبيل الله، أما الكافر فليس له غاية إيمانية، فهو يأكل كما تأكل الأنعام.

فالأرض تُخرج ما يأكله الناس من الزروع والثمار، وما تأكله الدواب من الحشيش والنبات صغيراً، حتى إذا اخضرَّ الزرع وأنبع وازدهر، واكتملت أوراقه وثماره؛ ذَبَلَتْ وتهشَّم، وكان الهلاك والفناء.

وهذا معنى: ﴿حَتَّىٰ إِذَا أَخَذَتِ الْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَازَّيَّنَتْ﴾ أي تزخرفت في منظرها واكتست في زيتها، فبلغت كمال النضج والتمام، وتكاثرت الأصناف، وبلغت أقصى ما ينتفع به الإنسان من خيراتها، فانهمك في تناولها، واستغرق في لذائذها، ونسي أن مصيره الفناء.

﴿وَلَا يَذْكُرُ أَهْلُهَا أَنَّهُمْ قَدَرُوا عَلَيْهِ﴾ أي: أيقن أهل هذا الزرع أنهم قادرون على حصاده وقطوفه وجذ ثماره، وحصل منهم طمع بأن هذا الزرع والثمر سيدوم ويستمر، وبينما هم على هذه الحال إذ:

﴿أَتْنَهَا أَمْرُنَا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا﴾ أي: جاءها أمرُ الله وقضاؤه بهلاك ما عليها من الزروع والثمار والنبات، إمَّا لَيْلًا وإمَّا نَهَارًا ﴿فَجَعَلْنَاهَا حَصِيدًا كَأَن لَّمْ تَغْرُبْ بِالْأَمْسِ﴾ أي: جعلنا هذه النباتات بمختلف أنواعها محصودة مقطوعة لا شيء فيها، كأن لَمْ تكن هذه الزروع ولا الثمار ولا الأشجار قائمة على وجه الأرض قبل ذلك الوقت.

وهذا شأن المغتر بدنياء المفتون بها، الذي زين له الشيطان سوء عمله فرآه حسناً، وما كان ربك ليهلكها وأهلها مصلحون، وبمثل هذا الزوال يأتي الفناء على ما تتباهون به - أيها الناس - من دنياكم؛ فيُفنيها الله تعالى ويهلكها.

وكأن القرآن يشبه الدنيا بعروس تجمَّلت وتزيَّنت، وَلَبِسَتْ أحسن ثياب، حتى إذا كان لها ما أرادت؛ جاءها الموت فجأة! وهكذا حال الدنيا.

وكما بيَّنَّا لكم -أيها الناس- مثل هذه الدنيا وعرفناكم بحقيقتها، نبين حُجَجنا وأدلتنا لقوم يتفكرون في آيات الله، ويتدبرون ما ينفعهم في الدنيا والآخرة.

وذلك لأن النبات في أول خروجه من الأرض يكون ضعيفاً، فإذا سُقي بالماء قَوِيَ

ونَما، فإذا بلغ غاية نُضجه وفرح به صاحبه جاءته ريح شديدة، أو آفة أَتَتْ عليه، فجعلته حصيداً كأنه لَمْ يكن، وهكذا حال المتمسك بالدنيا إذا نال بغيته منها أتاه الموت فجأة، فسلبه ما هو فيه من نِعْمَةٍ ولذّة.

وهذا مثلٌ يُضرب أيضاً لِمَنْ يُنكر البعثَ بعد الموت، فالله تعالى قادرٌ على إعادة النبات بعد التَّلَفِ، كما أنه قادرٌ على إعادة الأموات أحياء في الآخرة، فيثيب الطائع ويعذب العاصي.

جاء في الحديث عن أنس رضي الله عنه: «يُوتى يوم القيامة بأنعم أهل الدنيا من أهل النار يوم القيامة، فيُغمَس في النار غمسة، ثم يقال له: يا ابن آدم: هل رأيت خيراً قط؟ هل مرَّ بك نعيم قط؟ فيقول: لا، ويُؤتى بأشد الناس بُؤساً في الدنيا من أهل الجنة، فيُغمَس في النِّعيم غمسة، ثم يقال له: هل رأيت بُؤساً قط؟ فيقول: لا والله ما مرَّ بي بُؤس قط، ولا رأيت شدة قط»^(١).

وهذه الآية كقوله تعالى: ﴿وَأَضْرِبْ لَهُمْ مَثَلًا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أُنزِلَتْهُ مِنَ السَّمَاءِ فَلَخَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ الرِّيحُ وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ مُّقْنَدًا ﴾ [الكهف] ومثلها في سورة الزمر [١٦] وسورة الحديد [١٧] وكلها تُضرب المَثَلُ للحياة الدنيا، بالماء الذي يُنبِت الزرع، ثم يبلغ غاية نُضجه، ثم يذبل ويزول كأن شيئاً لَمْ يكن، وهكذا عُمرُ الإنسان، وهكذا هذه الحياة، وهذا هو تزيين الشيطان لمتاع الدنيا، أما تزيين الله تعالى لها فهو يدعو عباده إلى دار السلام.

وفي هذه الآية إنذارٌ وتهديدٌ لِمَنْ بغى في الأرض وتجبَّر فيها، وَرَكَنَ إلى الدنيا وأَعْرَضَ عن الآخرة، كما قال تعالى: ﴿حَتَّىٰ إِذَا فُوحًا بِمَا أُوْتُوا أَخَذْنَهُمْ بَغْتَةً فَإِذَا هُمْ مُبْلِسُونَ﴾ [الأنعام: ٤٤].

(١) ينظر: «سنن ابن ماجه» برقم (٤٣٢١) وصحيح «سنن ابن ماجه» (٣٤٨٨) و«السلسلة الصحيحة» (١١٦٧)، والمسند (١٣١١٢) إسناده صحيح على شرط مسلم، ورجاله ثقات رجال الشيخين غير حماد بن سلمة فمن رجال مسلم وهذا لفظه، وأخرجه مسلم (٢٨٠٧) والبخاري (٤٤٠٤) وعبد بن حميد (١٣١٣).

دَارُ السَّلَامِ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا، وَجَهَنَّمُ لِلَّذِينَ أَسَؤُوا

٢٥- ﴿وَاللَّهُ يَدْعُوا إِلَى دَارٍ^(١) السَّلَامِ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ^(٢) إِلَى صِرَاطٍ^(٣) مُسْتَقِيمٍ ﴿٢٥﴾

وبعد أن ذَكَرَ الله تعالى سرعة زوال الدنيا ونعيمها، وقصر عُمرِ الإنسان فيها، دعا إلى الدار الخالدة التي لا تَفْنَى فقال: ﴿وَاللَّهُ يَدْعُوا إِلَى دَارِ السَّلَامِ﴾ أي: والله يدعوكم - أيها الناس - إلى جناته التي أعدها لأوليائه.

والسلام: اسمٌ من أسماء الله الحسنى، وهو اسم لَجَنَّتِهِ التي أعدها للمُتَّقِينَ، وهو تحية المؤمنين في الدنيا والآخرة.

وسميت الجَنَّةُ دار السلام؛ لأنَّ مَنْ دَخَلَهَا سَلِمَ من جميع الآفات والنقائص؛ كالموت، والمرض، والمصائب، والغم، والتكد، والتعب، وما إلى ذلك.

وسُمِّيت كذلك؛ لأن الله تعالى يُسَلِّمُ في الجنة على المؤمنين، وكذلك الملائكة تحيِّتهم فيها سلامً، وفيها ما لا عين رَأَتْ، ولا أُذُنٌ سَمِعَتْ، ولا خَطَرَ على قَلْبٍ بشر، وهي دار أهل الصلاح والاستقامة.

والله تعالى يُوفِّقُ مَنْ يَشَاءُ مِنْ خَلْقِهِ لِإِصَابَةِ الطَّرِيقِ الْقَوِيمِ الموصِّل إلى الجنة وهو دين الإسلام.

والهداية المذكورة في قوله تعالى: ﴿وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ﴾ مَقِيَّدةٌ بالمشيئة، وهذا يشتمل على فريقين من الناس: فريق مَهْدِي، وفريق غير مَهْدِي، والمراد بالهداية في هذه الآية خَلْقُ الاهتداء في قلب العبد بقريئة الدعوة إلى الجنة فيها، قال تعالى: ﴿فَرِيقًا هَدَى وَفَرِيقًا حَقَّ عَلَيْهِمُ الضَّلَالَةُ﴾ [الأعراف: ٣٠].

(١) أمال الألف من (دار) أبو عمرو ودوري والكسائي وابن ذكوان بخلف عنه، وقلله ورش.

(٢) قرأ نافع وابن كثير وأبو عمرو وأبو جعفر ورويس بتسهيل الهمزة الثانية بين يين، وبإبدالها واوًا خالصة (من يشاء إلى)، والباقون بتحقيقها.

(٣) قرأ رويس عن يعقوب، وقبل بخلف عنه، وخلف عن حمزة بإشمام الصاد صوت الزاي من (صراط)، والباقون بالصاد الخالصة، وهو الوجه الثاني لقبيل.

وعدد الجنات ثمان هي:

- ١- دار السلام. ٢- دار الجلال. ٣- جنة عدن. ٤- جنة المأوى.
 - ٥- جنة الخلد. ٦- جنة الفردوس. ٧- جنة النعيم. ٨- جنة الرضوان.
- وقد ورد في دعوة الله تعالى عباده إلى دار السلام أحاديث؛ منها.

١- ما جاء في صحيح البخاري وغيره عن جابر رضي الله عنه قال: جاءت ملائكة إلى النبي ﷺ وهو نائم، فقال بعضهم: إنه نائم، وقال بعضهم: إن العين نائمة، والقلب يقظان، فقالوا: إن لصاحبكم هذا مثلاً فاضربوا له مثلاً، فقالوا: مثله كمثلي رجل بنى داراً، وجعل فيها مأدبة، وبعث داعياً، فَمَنْ أجاب الداعي دخل الدار وأكل من المأدبة، وَمَنْ لم يُجب الداعي لم يدخل الدار، ولم يأكل من المأدبة، فقالوا: أوْلُوها له يفقهها، فقال بعضهم: إنه نائم، وقال بعضهم: إن العين نائمة والقلب يقظان، فقالوا: الدار الجنة، والداعي محمدٌ ﷺ، فَمَنْ أطاع محمدًا فقد أطاع الله، ومن عصى محمدًا فقد عصى الله^(١).

٢- وفي رواية لجابر أيضاً قال: خرج علينا رسول الله ﷺ يوماً، فقال: «إني رأيت في المنام كأن جبريل عند رأسي، وميكائيل عند رجلي، يقول أحدهما لصاحبه: اضرب له مثلاً، فقال: اسمع سمعت أذنك، واعقل عقل قلبك، إِنَّمَا مثلك ومثْلُ أمتك مثلُ ملك اتخذ داراً، ثُمَّ بنى فيها بيتاً، ثم جعل فيها مأدبة، ثم بعث رسولاً يدعو الناس إلى طعامه، فَمِنْهُمْ مَنْ أجاب الرسول، ومنهم مَنْ تركه، فالله هو الملك، والدار الإسلام، والبيت الجنة، وأنت يا محمد الرسول، مَنْ أجابك دخل الإسلام، وَمَنْ دخل الإسلام دخل الجنة، وَمَنْ دخل الجنة أكل منها»^(٢).

(١) ينظر: البخاري في صحيحه معلقاً برقم (٧٢٨١) وقال: تابعه قتيبة، عن ليث، عن خالد، عن سعيد بن أبي هلال، عن جابر، خرج علينا النبي ﷺ، وانظر كتاب المناقب باب (٢٤) ورواه الترمذي برقم (٢٨٦٠) وقال: هذا حديث مرسل من طريق قتيبة عن الليث؛ لأن سعيد بن هلال لم يسمع من جابر، وفي الباب عن ابن مسعود، وقد روي من غير هذا الوجه بإسناد أصح من هذا.

(٢) أخرجه ابن جرير (٧٣/٧) وصححه الحاكم (٣٣٨/٢) ووافقه الذهبي، وأخرجه البيهقي في «الدلائل» (٣٧٠/١).

٣- وعن النّوّاس بن سمعان مرفوعاً: «ضرب الله مثلاً مستقيماً، وعلى جنبتي الصراط سوران، فيهما أبواب مفتحة، وعلى الأبواب ستور مرخاة، وعلى باب الصراط داع يقول: أيها الناس، ادخلوا الصراط جميعاً ولا تنفرجوا، وداع يدعو من جوف الصراط، فإذا أراد الإنسان أن يفتح شيئاً من تلك الأبواب قال: وَيَحْكُ لا تفتحْه، فإنك إن تفتحْه تَلْجُه، فالصراط الإسلام، والسوران حدود الله، والأبواب المفتحة محارم الله، وذلك الداعي على رأس الصراط كتاب الله، والداعي من فوق الصراط وَاَعْظُ الله في قلب كل مسلم»^(١).

٤- وعن أبي الدرداء ؓ أن رسول الله ﷺ قال: «ما طَلَعَتْ شمس قط إلا بُعث بِجَنَّتَيْهَا مَلَكَانِ يناديان، يُسَمِعَانِ أَهْلَ الْأَرْضِ إِلَّا الثَّقَلَيْنِ: يَا أَيُّهَا النَّاسُ، هَلُمُّوا إِلَى رَبِّكُمْ، فَإِنْ مَا قُلَّ وَكَفَى خَيْرٌ مِّمَّا كَثُرَ وَالْهَى وَلَا آبَتْ شَمْسُ قَطٍ إِلَّا بَعَثَ بِجَنَّتَيْهَا مَلَكَانِ يناديان بِسَمْعَانَ أَهْلَ الْأَرْضِ إِلَّا الثَّقَلَيْنِ: اللَّهُمَّ اعْطِ مَنْفَقًا خَلْفًا وَاعْطِ مَمْسَكًا تَلْفًا»^(٢).

وَمَنْ لَمْ يَجِبْ دَاعِي اللَّهِ، فَقَدْ أَبَى أَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ، واستمر في كفره وضلاله.

٥- عن أبي هريرة ؓ أن رسول الله ﷺ قال: «كُلُّ أُمَّتِي يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَنْ أَبَى» قالوا: يا رسول الله، وَمَنْ يَأْبَى؟ قال: «مَنْ أَطَاعَنِي دَخَلَ الْجَنَّةَ، وَمَنْ عَصَانِي فَقَدْ أَبَى»^(٣).

ولما دعا جل شأنه إلى دار السلام كأن النفوس تشوّقت إلى الأعمال الموصلة إليها، فأخبر سبحانه عن ذلك في الآية التالية بما لها من شدة تعلّق بما قبلها:

(١) أخرجه أحمد في «المسند» (١٨٢/٤) برقم (١٧٦٣٤) قال محققوه: حديث صحيح بإسناد حسن من أجل الحسن بن سوار، وباقي رجال الإسناد ثقات رجال الصحيح، وأخرجه الطبري في التفسير (١٨٧) والطحاوي في شرح مشيكل الآثار (٢/٢٤) وابن أبي عاصم في السنة (١٩) ورواه الترمذي برقم (٢٨٦٠) والنسائي، وابن أبي حاتم عن علي بن حجر، وهو إسناد حسن صحيح، والسيوطي في «الدر المنثور» (١٥/١).

(٢) «المسند» (١٩٧/٥) برقم (٢١٧٢١) بإسناد حسن من أجل خليفه العصري وباقي رجال الإسناد ثقات رجال الشيخين، (محققوه) والبيهقي في «الشعب» (٣٤١٢) والزهدي (١٩) والطبائسي برقم (٩٧٩) وابن حبان، الإحسان برقم (٣٢٢٩) و«المستدرک» (٤٤٤/٢) والبغوي في «شرح السنة» برقم (٤٠٤٥) و«السلسلة الصحيحة» للألباني برقم (٤٤٣) والطبري برقم (١٧٦٠٨) وابن أبي حاتم برقم (٢٠٠٩) وصححه إسناده الحاكم (٤٤٤/٢) بموافقة الذهبي، وكذا الألباني، وانظر الهيثمي في «المجمع» (١٢٢/٣) وأحمد شاكر في «المسند».

(٣) «صحيح البخاري» برقم (٧٢٨٠).

الْحُسْنَى وَالزِّيَادَةُ

٢٦- ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ وَلَا يَرْهَقُ وُجُوهَهُمْ قَتَرٌ وَلَا ذِلَّةٌ أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾

ثم بيّن سبحانه جزاء المهتدين وغير المهتدين؛ ليكشف لهم عن عذله وفضله، فذكر في هذه الآية أن الذين هداهم الله إلى صراط مستقيم هم الذين أحسنوا في عبادة الخالق، وأحسنوا إلى عباد الله في دنياهم، فقدّموا لأنفسهم الأعمال الصالحة، وأحسنوا في الاعتقاد والإيمان، وأحسنوا العمل الصالح، وأحسنوا معرفة الصراط والسير على طريقه، فأحسنوا في طاعتهم لله، وأحسنوا في تعاملهم مع خلق الله في أقوالهم وأفعالهم، ونصيحتهم، وأمرهم بالمعروف ونهيهم عن المنكر، وبذل أموالهم في وجوه البر والإحسان.

وهؤلاء المهتدون، أصحاب الإيمان والعمل الحسن، أعد الله لهم الحسنَى في الدار الآخرة، وهي دار السلام والنعيم ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ﴾.

وهذا كقوله تعالى: ﴿فَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ﴾ [الأنعام: ١٢٥].

وقال في الآية بعدها: ﴿وَهَذَا صِرَاطٌ رَبِّكَ مُسْتَقِيمًا﴾ [الأنعام: ١٢٦].

ثم بيّن جزاءهم في الآية التي بعدها بما يتفق مع هذه الآية فقال تعالى: ﴿﴿ هُمْ دَارُ السَّلَامِ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَهُوَ وَلِيُّهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾﴾﴾ [الأنعام]

فهم ناجون من هول الموقف يوم القيامة، ومن كُربات يوم الحشر، مُنعمون في الجنة.

أما الزيادة فهي النظر إلى وجهه الكريم، وليست داخلية في نوع الحسنَى، بل تعني رفع أقدارهم في الجنة، وفي مقدمة ذلك أن يحلّ عليهم رضوان الله تعالى، فلا يسخط عليهم أبداً، ويشير إليه قوله تعالى: ﴿وَمَسْكَنٌ طَيِّبٌ فِي جَنَّةٍ عَذْبٍ وَّرِضْوَانٍ مِّنَ اللَّهِ أَكْبَرُ﴾ [التوبة: ٧٢]. وفي هذا حصول لأعلى ما يتمناه المؤمن.

كما أن الزيادة تعني أن الله تعالى يُضاعف لهم ثواب أعمالهم، الحسنة بعشر أمثالها، إلى سبع مئة ضعف، والله يُضاعف أكثر من ذلك لِمَنْ يشاء، إلى جوار ما أعدّه الله لهم في الجنات من القصور العالية، والحُور العين، ومَغفرة الذنوب.

ومع أن الله تعالى أعدّ للمهتدين إلى الصراط المستقيم، المحسنين في عملهم، هذا

النعيم، فإن الزيادة المذكورة في الآية أفضل ما يُعطَوْهُ في الآخرة، وهي النظر إلى وجه الله الكريم.

وتفسير الزيادة بالنظر إلى وجه الله الكريم هو التفسير الذي لا ينبغي العدول عنه إلى غيره؛ لأنه مأثور عن جَمْعٍ من الصحابة، منهم: أبو بكر وعلي وابن مسعود وأبو موسى، وحذيفة، وعبادة بن الصامت، وقد دلَّ عليه الأدلة الصحيحة؛ منها:

١- ما جاء عن صهيب رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ تلا هذه الآية ثم قال: «إذا دخل أهل الجنة الجنة، وأهل النار النار، نادى مناد: يا أهل الجنة، إنَّ لكم عند الله موعدًا، يريد أن يُنجزكموه فيقولون: ما هو؟ ألم يُثَقَّلْ موازيننا؟ ألم يُبَيِّضْ وجوهنا ويدخلنا الجنة ويزحزحنا عن النار؟ قال: فيكشف لهم الحجاب فينظرون إليه، فوالله ما أعطاهم الله شيئًا أحبَّ إليهم من النظر إليه، ولا أقرَّ لأعينهم»^(١)، وهذا أصرح ما ورد في تفسير الآية.

٢- وعن أبي موسى رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ قال: «إن الله يبعث يوم القيامة منادياً ينادي بصوت يسمعه أولهم وآخرهم: إنَّ الله وَعَدَكُمْ الحُسْنَى وزيادة، فالحسنى الجنة، والزيادة النظر إلى وجه الرحمن»^(٢).

وسأل أبي بن كعب رضي الله عنه رسول الله ﷺ عن قوله تعالى: ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَى﴾ فقال: «الحسنى الجنة، والزيادة النظر إلى وجه الله ﷻ»^(٣).

وقد قال تعالى في حقهم: ﴿فَوَقَّهْمُ اللَّهُ شَرَ ذَلِكَ الْيَوْمِ وَلَقَّهْمُ نَصْرَهُ وَسُرُورًا﴾ [الإنسان].

وقد وصف الله تعالى وجوه أهل الجنة في قوله: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ مُّسْفِرَةٌ﴾ ٣٨ ضاحكة

(١) ينظر: «صحيح مسلم»، كتاب الإيمان برقم (١٨١) و(٢٩٨) والطيالسي (١٤١١) وابن ماجه في المقدمة (١٨٧) ورواه أحمد في «المسند» (٣٣٣/٤) و(١٥/٦) برقم (١٨٩٣٥) إسناده صحيح على شرط مسلم، ورجاله ثقات رجال الشيخين غير حماد بن سلمة، فمن رجال مسلم (محققوه)، وأخرجه ابن حبان (٧٤٤١) والبيهقي في «الأسماء والصفات» (٦٦٥) والنسائي في «السنن الكبرى» برقم (١١٢٣٤) والترمذي برقم (٢٥٥٢) في صفة الجنة ونعيمها و(٣١٠٥) وابن أبي حاتم في «التفسير» برقم (٢٠٣٤) وابن خزيمة برقم (٢٥٨).

(٢) ابن جرير (٧٤/١١) وابن أبي حاتم (١٩٤٥/٦) وابن مردويه والدارقطني.

(٣) «تفسير الطبري» (٦٩/١٥) وابن أبي حاتم (١٩٤٤/٦) وغيرهما، وإسناده ضعيف.

مُشْتَبِرَةٌ ﴿٣٩﴾ [عبس] وهو تفسير لقوله تعالى: ﴿وَلَا يَرْهَقُ وُجُوهَهُمْ قَتَرٌ وَلَا ذِلَّةٌ﴾.

أي لا ينالهم مكروه بوجه من الوجوه، لأن المكروه إذا وقع بالإنسان ظهر ذلك في وجهه وتغير لونه وتكدر.

وَالْقَتَرُ: لَوْنٌ يَعْشَى جِلْدَةَ الْوَجْهِ مِنْ شِدَّةِ الْبُؤْسِ وَالشَّقَاءِ وَالْخَوْفِ، وَيَكُونُ ذَلِكَ مِنْ آثَارِ التَّهَيُّجِ وَرَجْفَةِ الْفُؤَادِ.

وَالذِّلَّةُ: هِيَ الْهَوَانُ وَالانْكِسَارُ الَّذِي يَبْدُو عَلَى وَجْهِ الذَّلِيلِ الْمَهَانَ.

وأهل الجنة لا يعلو وجوههم شيء مما يغطي وجوه الكفار، بل هم في فرح وسرور، وسعادة غامرة، ونضرة باهرة ﴿أُولَئِكَ﴾ المتصفون بهذه الصفات ﴿أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ ما كانوا فيها أبداً لا يخرجون منها، ولا يحولون ولا يزولون ولا يتغيرون.

عُقُوبَةُ الْأَشْقِيَاءِ:

٢٧- ﴿وَالَّذِينَ كَسَبُوا السَّيِّئَاتِ جَزَاءُ سَيِّئَةٍ بِمِثْلِهَا وَزَهَفُهُمْ ذِلَّةٌ مِمَّا هُم مِّنَ اللَّهِ مِن عَاصِرٍ كَانَمَا أَكْثَبَتْ وَجُوهُهُمْ قِطْعًا^(١) مِّنَ اللَّيْلِ مُظْلِمًا أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ^(٢) هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٣٧﴾﴾

وهم الأشقياء غير المهتدين، الذين اكتسبوا السيئات واقترفوا الموبقات، فهم المرتكبون للخطايا والسيئات، وأعظم السيئات الشرك بالله تعالى، وجحود وحدانيته سبحانه، فجزاؤهم سيئة مماثلة يُجزون بها يوم لقاء الله على كفرهم وتكذيبهم.

﴿وَالَّذِينَ كَسَبُوا السَّيِّئَاتِ﴾ أي: عملوا المعاصي والذنوب المسخطة لله تعالى - من أهل الكفر والشرك الأكبر - لهم في الآخرة عقوبة مناسبة مثل ما فعلوه في الدنيا، كما قال تعالى: ﴿وَجَزَاؤُهُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةً مِّثْلُهَا﴾ [الشورى: ٤٠].

وفي الآية بيان لفضل الله تعالى؛ مِنْ أَنَّ الْحَسَنَةَ تُضَاعَفُ لِأَهْلِهَا الْحَسَنَةُ بَعْدَ أَمْثَالِهَا إِلَى سَبْعِ مِائَةٍ ضِعْفٍ إِلَى أَضْعَافٍ كَثِيرَةٍ.

(١) قرأ ابن كثير والكسائي ويعقوب بإسكان الطاء من (قطعا) والمراد: ظلمة آخر الليل، أو سواد الليل الحالل، والباقون بفتح الطاء جمع قطعة.

(٢) أمال ألف (النار) أبو عمرو ودوري والكسائي وابن ذكوان بخلفه، وقلله ورش.

أما السيئة فَإِنَّ الجزاء عليها بمثلها؛ عدلاً من الله سبحانه، وهم يعذبون في نار جهنم، وتعلو وجوههم ذلة ومهانة وانكسار؛ لعقاب الله إياهم، وليس هناك ما يدفع عذاب الله تعالى عنهم ويعصمهم منه، فلا يوجد آنذاك وُسطاء ولا شُفعاء ولا وُجهاء، فَحُكِّمُ الله نَافِذٌ لا مَحَالَةَ، فكم بين الفريقين من الفرق والتفاوت البعيد.

واقصر سبحانه على الذلة دون القتر؛ لأنه سيجيء ما هو أشد منه ﴿كَأَنَّمَا أَغْشِيَتْ وَجُوهُهُمْ قِطْعًا مِّنَ اللَّيْلِ مُظْلِمًا﴾ أي: كأنما أُلْبِسَتْ وجوههم سوادًا من الليل المظلم، وهؤلاء الموصوفون بما ذكر أصحاب النار ﴿لَا يَفْضَحْنَ عَلَيْهِمْ فَيْمُوتُوا وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ مِّنْ عَذَابِهَا﴾ [فاطر: ٣٦].

وهم ماكثون فيها أبدًا ﴿يُرِيدُونَ أَن يُخْرِجُوا مِنَ النَّارِ وَمَا هُمْ بِخَارِجِينَ مِنْهَا وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّقِيمٌ﴾ [المائدة: ٣٧] ﴿وَمَا هُمْ بِخَارِجِينَ مِنَ النَّارِ﴾ [البقرة: ١٦٧].

وهكذا وصف الله وجوه الكفرة في كتابه فقال: ﴿وَوُجُوهُهُمْ عَلَيْهَا عَذَابٌ غَرِيظٌ﴾ [٤١] ﴿أُولَٰئِكَ هُمُ الْكَافِرُ الْفَجَرُ﴾ [٤٢] [عبس].

ووصف ما يعلوها مِنَ الذُّلِّ والانكسار ﴿وَتَرْنَهُمْ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا خَشِيعِينَ مِنَ الْذَّلِ يَنْظُرُونَ مِنْ طَرْفٍ خَفِيٍّ﴾ [الشورى: ٤٥].

كما وصف الله سبحانه الظالمين بقوله: ﴿إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الْأَبْصَارُ﴾ [٤٦] مُهْطِعِينَ مُقْنِي رُءُوسِهِمْ لَا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ وَأَفْئَدَتُهُمْ هَوَاءٌ﴾ [٤٧] [إبراهيم].

وأخبر تعالى عن بياض وجوه المؤمنين وسواد وجوه الكافرين في قوله: ﴿يَوْمَ تَبْيَضُّ وَجُوهُهُمْ وَسَوَدُّ وَجُوهُ الَّذِينَ آسَوْدَتْ وَجُوهُهُمْ أَكْفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ﴾ [١٠٦] وَأَمَّا الَّذِينَ أَبْيَضَتْ وَجُوهُهُمْ فَمِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ [١٠٧] [آل عمران].

مِنْ مَشَاهِدِ يَوْمِ الْحَشْرِ

٢٨- ﴿وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ^(١) جَمِيعًا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا مَكَانَكُمْ أَنتُمْ وَشُرَكَاءُكُمْ فَزَلَّلْنَا بَيْنَهُمْ وَقَالَ

(١) لا خلاف بين القراء في قراءة (نحشرهم) بالنون، وقد توهم ابن عطية في تفسيره (١١٦/٣) فنقل فيها الخلاف بين القراء، والصحيح أن الخلاف في الموضع الثاني من السورة في الآية [٤٥].

شُرَكَائِهِمْ مَا كُنْتُمْ إِنَّا نَا تَعْبُدُونَ ﴿٢٨﴾

ويوم القيامة يَحْشُرُ الله الخَلْقَ جميعاً للحساب والجزاء، الذين أحسنوا والذين اكتسبوا السيئات، ممن سبق ذِكْرُهُمْ، وهم المهتدون وغير المهتدين، فيفتضح شأنُ المشركين على مَسْمَعٍ وَمَرَأَى من المؤمنين، حيث بدأت الآية بِذِكْرِ حَشْرِ الفريقين، ثُمَّ أَفردت المشركين بالذكر في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا مَكَانَكُمْ أَنْتُمْ وَشُرَكَائِكُمْ﴾ أي الزموا مكانكم كي يتم التحاكم والفصل بينكم وبينهم، وذكرت الآية قِصَّتَهُمْ يوم الحشر العَصِيب، كما قال تعالى: ﴿وَحَشَرْنَاهُمْ فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَدًا﴾ [الكهف: ٤٧].

واذكر - أيها الرسول - يوم نحشر الخَلْقَ جميعاً للحساب والجزاء، مِنْ كل جانب، وَمِنْ كل ناحية، إلى موضع واحد، هو أرض الحشر والنشر، كل أمة تُحْشَرُ مع رسولها، فيكون السؤال والجواب، والوعيد والتهديد للمشركين حيث يُقال لهم: الزموا مكانكم، واثبتوا فيه، وقفوا حيث أنتم، ومعكم ما كنتم تعبدونهم مِنْ دُونِ الله، ولا تَبْرَحُوا مَكَانَكُمْ حتى تُسْأَلُوا وَتَنْظُرُوا ما يُفْعَلُ بِكُمْ، قال تعالى: ﴿وَقَفُّوهُمْ إِنْهُمْ سَأَلُونَ﴾ [الصافات] وقال: ﴿فَلَنَسْأَلَنَّ الَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْأَلَنَّ الْمُرْسَلِينَ﴾ [الأعراف].

الكل يُسْأَلُ، العابد والمعبود، الرُّسُلُ والمُرْسَلُ إليهم، وَيُمَيِّزُ يوم القيامة بين أهل الجنة وأهل النار، قال تعالى: ﴿فَوَيْلٌ لَنَا بَيْنَهُمْ﴾ أي: مَيِّزْنَا بين العابد والمعبود، وفرقنا بينهم بالبعد البدني والقلبي، وحصلت العداوة الشديدة بينهم، فانقلب محبة الدنيا بَعْضًا وعداوة، كما قال تعالى: ﴿الْأَخِلَاءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا الْمُتَّقِينَ﴾ [الزخرف].

وتمييز المؤمن من الكافر يترتب عليه تعذيب الكافر ونجاة المؤمن ﴿لَوْ تَزَيَّلُوا لَعَذَّبْنَا الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ [الفتح: ٢٥] أي: لو تميز الكافرون عن المؤمنين، لعذبنا الكافرين منهم بعذاب مؤلم، ومعنى زَيَّلْنَا أيضًا: فَرَّقْنَا بين الكفار والأصنام، وانقطع ما كان بينهم من التواصل في الدنيا، كما قال تعالى: ﴿وَأَمْتَرُوا الْيَوْمَ أَنَّهُا الْمُجْرِمُونَ﴾ [يس]. أي: انفردوا عن غيركم، وافترقوا عنهم قال تعالى ﴿وَيَوْمَ نَقُومُ السَّاعَةَ يَوْمَئِذٍ يَفْرَقُونَ﴾ [الروم] وهو يوم ﴿لَا مَرَدَ لَهُمْ مِنْ اللَّهِ يَوْمَئِذٍ يَصَّدَّعُونَ﴾ [الروم: ٤٣].

وحينئذٍ لا يتكلم الكفار، وإنما تتكلم الأصنام فتتبرأ ممن عبدوهم ﴿وَقَالَ شُرَكَائِهِمْ مَا كُنْتُمْ إِنَّا نَا تَعْبُدُونَ﴾ تنفي الأوثان، وكلُّ ما عُبد من دُونِ الله أن يكون الكفار قد عبدوهم في

الدنيا، ويتبرؤون منهم ومن عبادتهم، وينزهون الله تعالى عن كل شريك أو ند.

وهكذا الأصنام التي لا تعقل ولا تنطق، يُنطقها الله يوم القيامة؛ لتتبرأ ممن عبدوهم وتقول لهم: ما كنا نسمع ولا نبصر، ولا نتكلم ولا نعقل، ولا نعلم بعبادتكم لنا، فَيَتَبَرَّأُ الشركاء من الذين أشركوهم مع الله في عبادته، سواء أكانوا أصنامًا، أو ملائكة، أو جنًا أو أنبياء، أو أولياء، أو كواكب، يقولون لهم: لن نرضى بعبادتكم ولا نُقرُّها، وقد كنا في غَفْلَةٍ عنها، ولا عِلْمَ لنا بها، فما أمرناكم بها، ولا دعوناكم لها، وإنما عبدتم من دعاكم لها وهو الشيطان، كما قال تعالى: ﴿أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَبْنَىءَ آدَمَ أَن لَّا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ٢٦﴾ وَأَنِ اعْبُدُونِي هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ ﴿[يس]

وهذا كقول الله تعالى: ﴿كَلَّا سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا ٨٢﴾ [مريم].

وقوله: ﴿إِذْ تَبَرَّأَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا﴾ [البقرة: ١٦٦]

وقوله: ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُوا مِن دُونِ اللَّهِ مَن لَّا يَسْتَجِيبُ لَهُ إِلَى يَوْمِ الْقِيَمَةِ وَهُمْ عَنِ دُعَائِهِمْ غَافِلُونَ ٥﴾ وَإِذَا حُشِرَ النَّاسُ كَانُوا لَهُمْ أَعْدَاءً وَكَانُوا بِعِبَادَتِهِمْ كَافِرِينَ ﴿٦﴾ [الأحقاف].

وَيُفَسِّرُ الآية التي نحن بصددتها قوله تعالى: ﴿أَهْوَلَاءَ إِنَّا كُرْ كَانُوا يَعْبُدُونَ ٥﴾ قَالُوا سُبْحَانَكَ أَنْتَ وَلِيِّنَا مِن دُونِهِمْ بَلْ كَانُوا يَعْبُدُونَ آلِجَنِّ أَكْثَرُهُمْ بِهِمْ مُؤْمِنُونَ ﴿٦﴾ [سبا].

وهكذا كلُّ مَنْ مات على الكفر، حين يَرَى الأغلال والسلاسل والحميم يوم القيامة، يصف نفسه بأنه لو كان يعقل أو يسمع وهو في دار الدنيا ما استحق نارَ جهنم في هذا اليوم العصيب ﴿وَقَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ ١٠﴾ فَأَعْرِفُوا بِذُنُوبِهِمْ فَسَحَقًا لِأَصْحَابِ السَّعِيرِ ﴿١١﴾ [الملك].

قال مجاهد: يأتي على الناس يوم القيامة ساعة فيها لين، يرى أهل الشُّركِ أهل التوحيد يُغفر لهم فيقولون: ﴿وَاللَّهُ رَبَّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾ قال الله تعالى: ﴿أَنْظُرْ كَيْفَ كَذَبُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ ٢٤﴾ [الأنعام]

ثم يكون من بعد ذلك ساعة فيها شِدَّة، تُنْضَبُ لهم الآلهة التي كانوا يعبدونها من دون الله، فيقول: أهؤلاء الذين كنتم تعبدون من دون الله؟ فيقولون: نعم، هؤلاء الذين كنا نعبد، فتقول لهم الآلهة: والله ما كنا نسمع، ولا نبصر، ولا نعقل، ولا نعلم أنكم كنتم تعبدوننا، فيقولون: بلى، والله إياكم كنا نعبد، فتقول الآلهة: ﴿فَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا يَبْنَىءَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ إِن كُنَّا

عَنْ عِبَادَتِكُمْ لَعَفِيلِينَ ﴿٢٩﴾^(١).

وحينئذ يتحسر المشركون حسرة لا يمكن وصفها، ويتبين أنهم كانوا كاذبين مفترين على الله تعالى.

وفي حَسْرِ الناس يوم القيامة واستدعاء الأوثان وَعَبَدَتِهَا ما جاء عن جابر بن عبد الله رضي الله عنه في المُسْنَدِ وصحيح مسلم: وهو يُسأل عن الورود، قال: «فتدعى الأمم بأوثانها وما كانت تعبد من دون الله، الأول فالأول، ثم يتجلى لهم رب العِزَّة والجلال، فيُعطي كل منافق أو مؤمن نوراً، ثم يتبعونه، وعلى جسر جَهَنَّمَ كلاليب تخطف من شاء الله منهم، ثم يُطفأ نورُ المنافقين، ثم ينجو المؤمنون؛ فتنجو أول زمرة، وجوههم كالقمر ليلة البدر، سبعون ألفاً لا يُحاسبون، ثم الذين يلونهم كأضواء نجم في السماء، ثم من بعدهم، ثم تحلُّ الشفاعة، حتى يخرج من النار مَنْ قال: لا إله إلا الله، وكان في قلبه من الخير ما يَزِنُ شَعِيرَةً، فيُجعلون بِفَنَاءِ الجنة...»^(٢). قال تعالى:

٢٩ - ﴿كَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا يَنْنَا وَيُنْكُمُ إِنْ كُنَّا عَنْ عِبَادَتِكُمْ لَعَفِيلِينَ ﴿٢٩﴾﴾

وهذه الآية إخبارٌ من الله تعالى عن قول المعبودين لِمَنْ عبدوهم، وهم في ساحة الحشر والنشر أنهم لم يشعروا بهم، ولم يرضوا عن عبادتهم، فيشهدون الله تعالى أنهم كانوا في غفلة عن عبادتهم لا يعرفون شيئاً عنها، وذلك بعدما يقول المشركون للأوثان: والله إياكم كنا نعبد، فتقول الأوثان جواباً لقولهم: قد علم الله - فهو حسبنا وكفى به شهيداً - أننا ما علمنا بعبادتكم لنا، وما كنا نشعر بذلك، فنحن جماذ لا نسمع ولا نعقل.

وهذا تأكيدٌ لتبرئتهم منهم، وأنهم لم يكونوا على دراية بما يقولون وما يفعلون، وفيه تبيكيتٌ للمشركين الذين عبدوهم مع الله تعالى، أو عبدوهم من دونه، حيث تبرؤوا منهم في وقت هم في أشد الحاجة إلى مَنْ ينفعهم ويشد أزهرهم. قال تعالى:

(١) ابن أبي حاتم (١٩٤٨/٦).

(٢) ينظر حديث جابر لما سئل عن الورود في «صحيح مسلم» برقم (١٩١) و«المسند» (٢٤٥/٣).

٣٠- ﴿هَٰذَاكَ تَبَلَّوْا^(١) كُلُّ نَفْسٍ مَّا أَسْلَفَتْ وَرُدُّوْا إِلَى اللَّهِ مَوْلَاهُمُ الْحَقِّ وَصَلَّ عَنْهُمْ مَّا كَانُوا يَفْتَرَوْنَ﴾

ويُختم السياق في آيات الحشر والنشر ببيان أن الله تعالى قد أرسل للخلق رسلاً، يأمرونهم بعبادة الله تعالى، وترك عبادة الطواغيت، في كل أمة من الأمم، وبيّنون لهم أن لا معبود بحق إلا الله، وهؤلاء المشركون فِرَقٌ وطوائف وأنواع، يعبدون آلهة شتى.

ويوم القيامة تتبع كل نفس ما قدمته في الدنيا من عمل؛ فيسوقها إلى الجنة أو النار ﴿هَٰذَاكَ تَبَلَّوْا﴾ أي: تتبع ﴿كُلُّ نَفْسٍ مَّا أَسْلَفَتْ﴾ بعد التعرف والتفقد، فكل نفس تتفقد أعمالها وأحوالها التي سلفت، فتعابنها، ثم تحاسب وتُجازى عليها، بعد أن تقرأ في صحيفتها ما قدمته من خير أو شر وتعلم ما فيه، وما ابتليت به في الدنيا من خير أو شر، فيُشر أمامها وتطالعه، ثم يسوقها عملها إلى الثواب أو العقاب، بالنعيم أو العذاب.

وفي موقف الحساب يُردُّ الجميع إلى الله تعالى الحكم العدل، فقد تحقق يوم الحشر الذي كانوا ينكرونه، وبعد الحساب يدخل أهل الجنة الجنة، وأهل النار النار، وقد غاب وذهب عن المشركين ما كانوا يعبدونهم من دون الله افتراءً عليه، فلا يجدون لهم أثراً في ساحة العرض؛ وعندئذ تبدد أحلامهم وآمالهم في شفاعتهم لهم عند الله، فالله هو مالِكهم ومتولي أمورهم، والأمور كلها ترجع إليه سبحانه، وهذا كقوله تعالى: ﴿يَوْمَ تَبْلَى السَّرَائِرُ ۝٩﴾ [الطارق] وقوله: ﴿يَبْئُتُ الْإِنْسَانُ يَوْمَ ذَٰنِهِ بِمَا قَدَّمَ وَأَخَّرَ ۝١٣﴾ [القيامة].

وقوله: ﴿وَنُخْرِجُ لَكَ يَوْمَ الْقِيَمَةِ كِتَابًا يَلْقَاهُ مَنشُورًا ۝١٣﴾ اقرأ كتابك كفى بنفسك اليوم عليك حسيباً ﴿١٤﴾ [الإسراء]

وقوله: ﴿وَيَقُولُونَ يَوَدِّلُنَا مَالِ هَٰذَا الْكِتَابِ لَا يَغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا﴾ [الكهف].

سِتَّةٌ مِنْ دَلَائِلِ تَوْحِيدِ الْخَالِقِ سُبْحَانَهُ

٣١- ﴿قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أَمَّنْ يَمْلِكُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَرَ وَمَنْ يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ

(١) (تَبَلَّوْا) بالتاء، حمزة والكسائي وخلف من التلاوة؛ أي: تقرأ كل نفس ما عملته، (تَبَلَّوْا) بالياء الباقون من البلاء؛ أي: تُختبر.

الْمَيِّتِ^(١) وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَمَنْ يُدِيرِ الْأَمْرَ فَسَيَقُولُونَ اللَّهُ فَقُلْ أَفَلَا تَنْقَوْنَ

لَمَّا كَانَ سِيَاقُ الْآيَاتِ فِي إِبْطَالِ الشَّرِكِ وَإِثْبَاتِ التَّوْحِيدِ، أَقَامَ ﷻ فِي هَذِهِ الْآيَاتِ السَّتْ جُمْلَةً مِنَ الْأَدْلَةِ وَالْبَرَاهِينِ عَلَى أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى هُوَ الْمُسْتَحَقُّ لِلْعِبَادَةِ دُونَ سِوَاهُ، وَفِيهَا تَوْبِيخٌ وَاحْتِجَاجٌ لِمَنْ يَعْبُدُ غَيْرَ اللَّهِ تَعَالَى، وَفِيهَا تَقْرِيرٌ بِوَحْدَانِيَةِ الْخَالِقِ سُبْحَانَهُ؛ إِذْ لَيْسَ بَعْدَ الْحَقِّ إِلَّا الضَّلَالُ، وَهَذِهِ الْآيَاتُ بِمَنْزِلَةِ الْبَرَاهِينِ لِقَوْلِهِ تَعَالَى فِي الْآيَةِ السَّابِقَةِ: ﴿مَوْلَاهُمْ الْحَقُّ﴾ فَبَيَّنَ سُبْحَانَهُ فِي هَذِهِ الْآيَاتِ بَرَاهِينَ هَذَا الْاسْتِحْقَاقِ.

وَجَمَلَتِهَا تَتِمُّلُ فِي عِدَدٍ مِنْ نِعَمِ اللَّهِ تَعَالَى عَلَى خَلْقِهِ، فَهُوَ الَّذِي وَهَبَهُمُ الرِّزْقَ، وَأَعْطَاهُمُ الْحَوَاسَ وَرَزَقَهُمُ التَّنَاسُلَ، وَدَبَّرَ نِظَامَ الْعَالَمِ؛ فَأَنْشَأَهُ مِنَ الْعَدَمِ، وَأَرْشَدَ الْخَلْقَ عَنْ طَرِيقِ الرِّسْلِ وَالْكِتَابِ إِلَى سَبِيلِ الْهَدَايَةِ، وَلَا يَقْدِرُ عَلَى ذَلِكَ إِلَّا اللَّهُ، فَوَجِبَ صَرْفُ الْعِبَادَةِ إِلَيْهِ وَحْدَهُ دُونَ سِوَاهُ.

وَالنَّاسُ مِلَلٌ وَنَحْلٌ وَفِرْقٌ وَطَوَائِفُ وَشَرَائِعُ مُتَعَدَّةٌ، مِنْهُمْ مَنْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ، وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْفِي وَجُودَ الْخَالِقِ سُبْحَانَهُ، وَلَا يُؤْمِنُ بِالْبَعْثِ وَالنَّشُورِ؛ كَالدَّهْرِيَّةِ الَّذِينَ يَقُولُونَ: ﴿إِنَّ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ﴾ [الْمُؤْمِنُونَ] وَالشُّيُوعِيِّينَ، وَالْمَلَاحِدَةَ، وَالْعِلْمَانِيَّينَ.

وَفِي عَالَمِ الْيَوْمِ مَنْ يَعْبُدُونَ الْبَقَرَ، وَالْأَصْنَامَ وَالشَّيْطَانَ، وَالْمُشْرِكُونَ فِي قَدِيمِ الزَّمَانِ وَحْدَيْهِ يَقْرَءُونَ وَيَعْتَرِفُونَ بِوُجُودِ الْخَالِقِ لِهَذَا الْكُونِ، الرَّازِقِ لَهُمْ، الَّذِي يَحْيِيهِمْ وَيَمِيتُهُمْ.

فَإِذَا سَأَلْتَهُمْ: مَنْ أَطْعَمَ هَذِهِ الْبَطُونَ الْجَائِعَةَ؟ وَمَنْ أَرَوَى هَذِهِ النُّفُوسَ الظَّامَّةَ؟ فَسَيَقُولُونَ: اللَّهُ، وَهَذَا اعْتِرَافٌ مِنْهُمْ بِوُجُودِ اللَّهِ تَعَالَى، وَهُوَ مُقْتَضَى الْفِطْرَةِ الْكَامِنَةِ فِي كَيَانِهِمْ، إِذَنْ فَلِمَاذَا تَعْبُدُونَ غَيْرَ اللَّهِ وَتَعْتَقِدُونَ فِيهِ نَفْعًا أَوْ ضَرًّا؟

إِنْ الْإِقْرَارُ بِأَدْلَةِ وَجُودِ اللَّهِ تَعَالَى يَسْتَلْزِمُ التَّوَجُّهَ لَهُ بِالْعِبَادَةِ دُونَ سِوَاهُ، وَهَذَا هُوَ

(١) قَرَأْ نَافِعٌ وَحَفْصٌ وَحَمْزَةُ وَالْكَسَائِيُّ وَأَبُو جَعْفَرٍ وَيَعْقُوبُ وَخَلْفُ الْعَاشِرِ بِتَشْدِيدِ الْيَاءِ مِنْ (الْمَيِّتِ)، وَالْبَاقُونَ بِتَخْفِيفِهَا، وَذَلِكَ فِي الْمَوْضِعِينَ مَعًا.

المقصد من إقامة هذه البراهين في هذه الآيات الست:

الدليل الأول: أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى هُوَ الْخَالِقُ الرَّازِقُ

﴿قُلْ﴾ لمن أشركوا بالله ما لم ينزل به سلطاناً مُحتجاً عليهم بما أقروا به من توحيد الربوبية على ما أنكروه من توحيد الإلهية ﴿مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنْ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ﴾؟ بإنزال الأرزاق وتيسير أسبابها وتنوع أشكالها، فالرزق من السماء يكون بالمطر وتقدير الأرزاق، ويكون من الأرض بإخراج النبات والشجر والزروع والثمار لكم ولأنعامكم، وباستخراج كنوزها ومعادنها.

قال تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ ذُلُولًا فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِنْ رِزْقِهِ﴾ [الملك: ١٥]

وقال سبحانه: ﴿أَمَنْ هَذَا الَّذِي يَرْزُقُكُمْ إِنْ أَمْسَكَ رِزْقَكُمْ﴾ [الملك: ٢١]

وقال جل شأنه: ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَصْبَحَ مَاؤُكُمْ غَوْرًا فَمَنْ يَأْتِيكُمْ بِمَاءٍ مَعِينٍ﴾ [الملك: ٣٠].

فالله تعالى هو الذي يُنزل الماء، وهو الذي يشق الأرض عن الحب، ويتعهده المزارع بالرعاية حتى يؤتي أكله ﴿فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ إِلَى طَعَامِهِ﴾ ٢٥ أَنَا صَبَّأُ الْمَاءَ صَبًّا ٢٥ ثُمَّ شَقَقْنَا الْأَرْضَ شَقًّا ٢٦ فَأَبْنَا فِيهَا حَبًّا ٢٧ وَعَبْنَا وَقَضًا ٢٨ وَزَيَّنَّا وَجْهًا ٢٩ وَحَدَّيْنِ عُلَا ٣٠ وَفَكَهَّ وَأَبَّا ٣١ مَنَّا لَكُمُ ٣٢ وَلَا نَعْمِيكُمْ ٣٣ [عبس]

قال تعالى: ﴿أَفَرَأَيْتُمْ مَا تَحْرُثُونَ﴾ ٣٢ ءَأَنْتُمْ تَزْرَعُونَهُ أَمْ نَحْنُ الزَّارِعُونَ ٣٣ [الواقعة] ﴿أَفَرَأَيْتُمْ﴾ ٣٤ الْمَاءَ الَّذِي تَشْرَبُونَ ٣٥ ءَأَنْتُمْ أَنْزَلْتُمُوهُ مِنَ الْمُزْنِ أَمْ نَحْنُ الْمُنْزِلُونَ ٣٦ [الواقعة]

وقال سبحانه: ﴿وَأَنْزَلَ لَكُمْ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنْبَتْنَا بِهِ حَدَائِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ مَا كَانَ لَكُمْ أَنْ تُنبِتُوا شَجَرَهَا ؕ أَلَيْسَ اللَّهُ بِعَلِيمٍ﴾ [النمل: ٦٠].

فالماء يحيي به الله الأرض بعد موتها، ومن الأرض يخرج الله النبات، وبالماء يحيي الله الطير والأسماك والحيوان، وفي سطح الأرض أرزاق، وفي جوفها أرزاق، ومن أشعة الشمس أرزاق، ومن ضوء القمر أرزاق، ورزق الله لنا في السموات والأرض أوسع من ذلك بكثير.

الدليل الثاني: خَلَقُ السَّمْعِ وَالْبَصَرِ

﴿أَمَنْ يَمْلِكُ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ﴾؟ مَنْ يملك لكم - أيها الناس - ما تتمتعون به أنتم وغيركم

من حواس السمع والأبصار؟ وَمَنْ خَلَقَهَا لَكُمْ ومنحكم إياها؟ والملك يعني: الإيجاد والخلق والتملك، وخصهما بالذكر تنبيهاً على شرفهما ونفعهما.

والسمع مصدر يدل على جنس السمع، والأبصار اسم جمع واحد بصر، وقد أُفرد السمع؛ لأنه جنس يفيد العموم، أما الأبصار فقد جُمعت؛ لأن البصر لا يفيد العموم، وليدفع به ما يُتوهم من احتمال بصر مخصوص معهود، فكان الجمع أدل على قصد العموم. وقد خُص بالذكر هاتان الحاستان؛ لأن لهما أعظم الأثر في حياة الإنسان، ولأنهما اشتملتا في تركيبهما على ما يُبهر العقول، ويَشهد بعجيب قدرة الله تعالى، وعظيم صنعه، وأطباء هاتين الحاستين أعرفُ الناس بهذا.

والله تعالى هو الذي وهبكم هذه القوة السامعة والقوة الباصرة، ولو شاء لسلبكم إياها ﴿قُلْ هُوَ الَّذِي أَنْشَأَكُمْ وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَرَ وَالْأَفْئِدَةَ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ﴾ [الملك] قال تعالى ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَخَذَ اللَّهُ سَمْعَكُمْ وَأَبْصَرَكُمْ وَخَنَمَ عَلَى قُلُوبِكُمْ مَن إِلَهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيَكُمْ بِهِ﴾ [الأنعام: ٤٦].

إن تركيب العين وعناصرها وأعصابها، وكيفية إدراكها للمرئيات، وصحتها ومرضها، وأداءها لوظيفتها، لأمْرٌ خارق، لم يزل المتخصصون من البشر يكتشفون الجديد منه في دقائق صنع الله فيها.

وكذا جهاز السمع من تركيب الأذن وأجزائها، وطريقة إدراكها للذبذبات، إنه لعالمٌ وحده، يدير الرؤوس، عندما يقاس بأدق الأجهزة التي يعدها الإنسان من روائع العلم في العصر الحديث.

الدَّلِيلُ الثَّالِثُ: إِخْرَاجُ الْحَيِّ مِنَ الْمَيِّتِ

﴿وَمَنْ يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ﴾؟ بإخراج أنواع الأشجار والنبات من الحبوب والنوى، وإخراج المؤمن من الكافر، وإخراج الحي من الميت يكون بتوالد أطفال الحيوان من النطف ومن البيض.

فالنطفة أو البيضة لا حياة فيها بالمعنى المفهوم للعامة، كما يفهمه الأطباء، حيث

تتطور النطفة إلى الشكل القابل للحياة، ثم تكون فيها الحياة، فالإنسان كائن حي يخرج من النطفة وبالعكس.

وأيضًا إخراج الطير من البيضة وبالعكس، وكذا إخراج النبات من الأرض الميتة. فالذي يملك الموت والحياة في الكون كله هو الله سبحانه؛ فيُخرج الأحياء والأموات بعضها من بعض، فيما تعرفون من المخلوقات وفيما لا تعرفون.

والعرب يُعدُّون المخلوق الساكن هو الميت، والمخلوق المتحرك أو النامي هو الحي، فيما يشاهدونه بأعينهم، فخرج النَّبْت من الحبة، والحبة من النَّبْت، وخروج الفرخ من البيضة، والبيضة من الفرخ... إلخ، هو مظهر الحياة والموت عندهم، وهو أمر عجيب للرائي، بصرف النظر عما يكمن في هذه الكائنات من الحياة أو استعدادها للنمو.

ويكفي أن يتأمل الإنسان كيف تخرج النَّبْت من الحبة، أو النخلة من النواة، وكيف يخرج الإنسان من النطفة والبويضة، والفرخ من البيضة.

وعلى الإنسان أن يتأمل كيف تكمن السنبلة في الحبة، وكيف تُكوِّن الجذور والساق والأوراق، وكيف يكمن فيها الطَّعْم والنكهة واللون والرائحة، والفرق بين البلح والتمر والرطب والبسر، وأيضًا كيف يكمن العظم واللحم والزَّعْب والريش واللون والصوت في البيضة.

وكيف تكمن ملامح الإنسان وسماته، وصوته ونظرات عينه، ولفئات جيده، وأعصابه وأوتاره وعظامه في البويضة.

إن في ذلك العجب العجاب، لا تفسير له إلا قدرة الله تعالى وتديره، ولا يزال الأطباء المختصون يكتشفون أسرار الموت والحياة بما يزيد السؤال اتساعًا.

ولا يزال الأطباء مختلفين: متى يُعتبر الإنسان ميتًا؟ هل إذا توقف قلبه أو مات دماغه؟ ولا يعرف الأطباء كيف يتحول الطعام الذي يموت بالطهي والنار إلى دم حي في الجسم الحي، وكيف يتحول هذا الدم إلى فضلات ميتة بالاحتراق.

إن الموت والحياة أعجوبةٌ مثيرة غامضة، لا جواب عليها إلا أن يكون هناك إلهٌ يَهَبُ

الحياة ويقبضها وقتما يشاء^(١).

ونظير هذه الجملة من الآية قوله تعالى: ﴿وَتُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَتُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ﴾ [آل عمران: ٢٧] وغيرها.

الدليل الرابع: تدبيرُ أمورِ الخلائق

﴿وَمَنْ يُدَبِّرُ الْأَمْرَ﴾؟ مَنْ يدبر أمر السماء والأرض وما فيهما وما بينهما؟ وَمَنْ يدبر - أيها الناس - أمركم وأمر الخليقة جميعاً؟ مَنْ بيده ملكوت كل شيء وهو يجير ولا يجار عليه؟، إنك إن سألتهم عن ذلك فسيقولون الله، لأنهم يعترفون بذلك وأنه لا شريك له في مخلوقاته.

إنه المتصرف في شؤون خلقه، لا رادَّ لقضائه، ولا مُعَقَّبَ لحكمه، ولا يسأل عما يفعل ﴿يَسْأَلُهُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ كُلُّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ﴾ [الرحمن]

فالمُلك كله بعالميه العلوي والسفلي، وما فيهما من ملائكة وإنس وجن، فقراء إلى الله تعالى، كلهم عبيد له خاضعون لجلاله، فهو الذي يدبر أمر الإحياء والإماتة، والصحة والمرض، والغنى والفقر، ويولج الليل في النهار، والنهار في الليل، ويُسيِّر أفلاكه ونجومه وشموسه وقمره.

وهذا التدبير تعميمٌ بعد تخصيص، فقد خَصَّ الله تعالى بالذكر: الرزق، وحاستي السمع والبصر، والموت والحياة، ثم عمم في نهاية الآية بما يشمل تدبير الأمور كلها.

ثم أخبر ﷺ أن المشركين سيعترفون بأن الرازق الخالق مدبر الأمر هو الله سبحانه ﴿فَسَيَقُولُونَ لِلَّهِ﴾ لا محيد لهم عن هذه الإجابة؛ لأنهم لم يكونوا يعتقدون غير ذلك، ولكنهم مع اعترافهم هذا، كانوا يتخذون الأصنام للزلفى عند الله تعالى.

وقد ذكر الله تعالى ذلك في آيات كثيرة؛ منها قوله تعالى: ﴿قُلْ مَنْ رَبُّ السَّمَوَاتِ السَّبْعِ وَرَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ﴾ (٨١) سَيَقُولُونَ لِلَّهِ والآيات قبلها وبعدها من سورة المؤمنون [٨٤-٨٩] وفي سورة الزمر [٣٨] والعنكبوت [١-٦] ولقمان [٢٥] وغيرها.

وما دام الأمر كذلك، فقد قامت عليكم الحجة ووجب عليكم أن تخلصوا لله العبادة

(١) ينظر: «في ظلال القرآن» سيد قطب في تفسير الآية لهذا الدليل.

وتتركوا ما أنتم عليه من عبادة الأوثان، أفلا تخافون عقاب الله إن عبدتم غيره؟ ﴿فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾ الله، فتجنبوا الشرك بأنواعه، وتوحدوا الواحد القهار. قال تعالى:

٣٢- ﴿فَذَلِكُمْ اللَّهُ رَبُّكُمُ الْحَقُّ فَمَاذَا بَعَدَ الْحَقِّ إِلَّا الضَّلَالُ فَأَنَّى تُصْرَفُونَ﴾

هذه الآية موجبة لألوهية الله تعالى وعبادته؛ نتيجة لما سبق من البراهين الأربعة، فقد أشار ﷺ إلى أن الله ربكم، القادر على الخلق والرزق والإحياء والإماتة، هو الحق الذي لا ريب فيه، المستحق للعبادة دون سواه، وليس ما تعبدونه -أيها المشركون- من دون الله ﴿فَذَلِكُمْ اللَّهُ رَبُّكُمُ الْحَقُّ﴾ والحق واحد لا يتعدد، ومن تجاوزه فقد وقع في الباطل وضل الطريق ﴿فَمَاذَا بَعَدَ الْحَقِّ إِلَّا الضَّلَالُ﴾؟ فإذا ثبت بالبراهين الواضحة والدلائل القطعية أن الله هو الحق؛ وَجِبَ أن يكون ما سواه باطلاً وضلالاً؛ إذ لا واسطة بينهما، فهو - سبحانه - المنفرد بالخلق والتدبير، ولا يأتي بالحسنات إلا هو، ولا يدفع السيئات إلا هو، فكيف تصرفون عن عبادته إلى عبادة من لا يملك لنفسه نفعاً ولا ضراً، ولا موتاً ولا حياة ولا نشوراً؟!!

والحقُّ اسم من أسماء الله تعالى، كما ثبت عن عائشة ؓ أن النبي ﷺ كان إذا قام إلى الصلاة من جَوْفِ الليل قال: «اللهم لك الحمد، أنت نور السموات والأرض، ولك الحمد، أنت قيوم السموات والأرض، ولك الحمد، أنت رب السموات والأرض ومن فيهن، أنت الحق، ووعدك الحق، وقولك الحق، ولقاؤك حق، والجنة حق، والنار حق، والساعة حق، اللهم لك أسلمت، وبك آمنت، وعليك توكلت، وإليك أنبت، وبك خاصمت، وإليك حاكمت، فاغفر لي ما قدمت وما أخرت، وما أسررت وما أعلنت، أنت إلهي، لا إله إلا أنت»^(١).

والحقُّ هو خالق الكون، ووجوده تعالى لم يُسبق بعدم، ولا يلحقه عدم، وما عداه مسبوق بالعدم ويلحقه العدم ﴿فَأَنَّى تُصْرَفُونَ﴾؟ كيف تُصرفون وتتحولون عن عبادة الحق - موجد النعم - إلى الضلال والشرك مع إقراركم واعترافكم بأنه سبحانه خالقكم ورازقكم ومدبر أمركم؟

(١) «صحيح مسلم» عن ابن عباس برقم (٧٦٩) و«صحيح البخاري» برقم (١١٢٠، ٦٣١٧) وغيرهما.

فكل ما سوى الله باطل، فكيف يعترف المشركون بالمقدمات، وينكرون النتائج اللازمة؟ وكيف يستمرون على كفرهم بعد هذه البراهين والأدلة الساطعة؟ والهدى والضلال نقيضان لا يجتمعان.

والكلام عن الله سبحانه يختلف عن الكلام في مسائل الفروع المتعلقة بالحلال والحرام ونحوها، فقد جعل الله تعالى لكل أمة شريعة ومنهاجًا. قال تعالى:

٣٣- ﴿كَذَلِكَ حَقَّتْ كَلِمَتُ^(١) رَبِّكَ عَلَى الَّذِينَ فَسَقُوا أَنَّهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٣﴾

وهذه الآية إخبارٌ من الله تعالى عَمَّنْ عَلِمَ الله في الأزل أنه كافر لا يتحول عن كفره، فكما حقت عبادة الله على خلقه، حقت كلمة الكفر على مَنْ كفر، وكما كفر المشركون واستمروا على كفرهم، وجبت كلمة الله وحكمه وقضاؤه على الذين خرجوا عن طاعة ربهم إلى معصيته، وعن توحيده إلى الإشراك به، إنهم حالًا ومستقبلًا لا يؤمنون، فهم لا يصدّقون بوحدانية الله تعالى، ولا يقرون بنبوّة محمد ﷺ، ولا يعملون بهديه ﴿كَذَلِكَ حَقَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ﴾ أي: وجب قضاؤه ﴿عَلَى الَّذِينَ فَسَقُوا﴾ بسبب توجيه العبادة لغير الله تعالى، وبسبب عدم إيمانهم بالله تعالى، والفسق: هو الخروج عن دعوة الرسل.

وهذا كقوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٩٦﴾﴾ [يونس] وقوله: ﴿وَلَكِنْ حَقَّتْ كَلِمَةُ الْعَذَابِ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾ [الزمر: ٧١]

فهم إن يروا سبيل الرشd لا يتخذوه سبيلًا، وإن يروا سبيل الغي يتخذوه سبيلًا.

وفي الآية إشارة إلى قضاء الله تعالى في اللوح المحفوظ وعلمه الأزلي عن خلقه، وعلم الله غيبٌ، فهم لا يؤمنون، بعدما أراهم الله من الآيات البينات والبراهين الواضحات، ما فيه عبرة لأولى الأبواب، وموعظة للمتقين، وهدى للعالمين.

وهو سبحانه يعلم ما سيكون عليه كل إنسان من إيمان وكفر، أو طاعة وعصيان، حينما يكون

(١) قرأ ابن كثير وأبو عمرو وعاصم وحمة والكسائي ويعقوب وخلف العاشر، بحذف الألف التي بعد الميم من (كلمات) على الأفراد، وقرأ الباقون بإثبات الألف على الجمع، وهي مرسومة في المصحف بالثاء المفتوحة، ووقف عليها ابن كثير وأبو عمرو والكسائي ويعقوب بالهاء، ووقف باقي القراء بالثاء، وأمالها الكسائي عند الوقف، ويراد بقراءة الأفراد فيها معنى الجمع.

بالعاقلاً، يعلم سبحانه هل هذا العبد من أهل السعادة أم من أهل الشقاء؟ ولا دخل لهذا العلم الإلهي في اختيار الإنسان طريق الهدى أو الضلال، لذا حقت كلمة العذاب؛ بسبب اختيارهم طريق الضلال، كما قال تعالى: ﴿وَمَا يُضِلُّ بِهِ إِلَّا الْفَاسِقِينَ﴾ [البقرة: ٢٦].

الدليل الخامس: البعث بعد الموت:

٣٤- ﴿قُلْ هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ مَنْ يَدْعُوا الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ قُلِ اللَّهُ يَسْبَدُّ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ فَأَنْتُمْ تُفَكُّونَ﴾

ومن أدلة توحيد الخالق سبحانه البعث بعد الموت ﴿قُلْ﴾ يا محمد مبيناً عجز آلهة المشركين وعدم اتصافها بما يجعلها آلهة ﴿هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ مَنْ يَدْعُوا الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ﴾؟ وهذا استفهام بمعنى النفي والتقرير، أي ما منهم أحد يبدأ الخلق ثم يعيده، فبعد أن أقام سبحانه الدليل على انفراد الله تعالى بالرزق والتدبير في الآية السابقة؛ لبيان استحقيقه تعالى للعبادة دون سواه، بعد ذلك بين سبحانه أن آلهتهم ومعبوداتهم مسلوبة من صفات الكمال المتصف بها رب العالمين، فهو وحده الذي يبدأ الخلق ثم ينشئه خلقاً آخر.

وجاء هذا الدليل على سبيل السؤال والاستفهام، والمشركون والملحدون مقرّون ببدء الخلق، ولكنهم لا يسلّمون بإعادته، ولا يؤمنون أيضاً بالبعث والنشور، والحساب والجزاء، وقد وجه الله تعالى لهم سؤالاً يرتكز على أمر مسلّم عندهم.

والمعنى: قل لهم - يا أيها النبي، ويا أيها الداعي إلى توحيد الله - هل ممن تشركونهم مع الله في عبادته من يبدأ خلق أي شيء من غير أصل، ثم يُفنيه بعد إنشائه، ثم يعيده كهيئته قبل أن يفنيه؟

ولمّا كان الجواب واضحاً جلياً - لا ينكره إلا معاند مكابر - تولى الله سبحانه الجواب على السؤال ﴿قُلْ﴾ لهم يا رسولنا ﴿اللَّهُ يَسْبَدُّ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ﴾ من غير مشارك ولا معاون لقد أمر الله نبيه أن ينوب عن المشركين في هذا الجواب، حتى لا يتركهم إلى المكابرة والجحود، وحتى يعلمهم النطق بكلمة الحق؛ فيقول ﷺ نيابة عنهم: الله وحده هو الذي يُنشئ الخلق، ثم يفنيه، ثم يعيده، وليس في قدرتهم ادعاء أنهم يقدرّون على ذلك ﴿فَأَنْتُمْ تُفَكُّونَ﴾؟ كيف تنصرفون عن طريق الحق إلى الباطل؟ وهو عبادة غير الله تعالى، ممن لا يخلق شيئاً وهم يخلقون.

(١) أمال (فاني) حمزة والكسائي وخلف، وقللها دوري البصري وورش بخلفه.

وقد ألقم الله المشركين حَجَرًا في هذه الآيات؛ فبينَ تعالى أن مَنْ تعبدونهم من دون الله لا قدرة لهم على فعل شيء، وأن الله وحده هو الذي يحيي الموتى، وأنه يهدي مَنْ يشاء ويضل مَنْ يشاء ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ ثُمَّ رَزَقَكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ مَنْ يَفْعَلُ مِنْ ذَلِكَ شَيْئًا سُبْحَنَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [الروم]

﴿وَاتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ ءَالِهَةً لَا يَخْلُقُونَ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ وَلَا يَمْلِكُونَ أَنْفُسَهُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا وَلَا يَمْلِكُونَ مَوْتًا وَلَا حَيَاةً وَلَا نُشُورًا﴾ [الفرقان].

وفي هذه الآية تنبيه على قدرة الله تعالى الموجبة لوحدانيته سبحانه، وفيها إبطال لكل ما يُعبد من دون الله، وقد جاء ذلك في صورة استفهام يدل على التوبيخ والتفريع بمعنى: هل من الأوثان مَنْ ينشئ الخلق من العدم ثم يميت، ثم يعيده ويحييه؟ فإذا كانوا لا يقدرُونَ على شيء من ذلك وَجَبَ التسليم بأن الله تعالى هو الذي يبدأ الخلق ثم يعيده، وَمَنْ ثُمَّ وَجِبَ صرف العبادة له دون سواه.

الدَّلِيلُ السَّادِسُ: اللَّهُ وَحْدَهُ هُوَ الَّذِي يَهْدِي لِلْحَقِّ

٣٥- ﴿قُلْ هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ مَنْ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ قُلْ اللَّهُ يَهْدِي لِلْحَقِّ أَفَمَنْ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ أَحَقُّ أَنْ يُتَّبَعَ أَمْ لَا يَهْدِي^(١) إِلَّا أَنْ يُهْدَىٰ فَمَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ﴾ [٣٥]

(١) في كلمة (لا يهدي) سبع قراءات:

الأولى: قرأ حمزة والكسائي وخلف العاشر بفتح الياء وإسكان الهاء وتخفيف الدال.

الثانية: قرأ شعبة بكسر الياء والهاء وتشديد الدال.

الثالثة: قرأ حفص ويعقوب بفتح الياء وكسر الهاء وتشديد الدال.

الرابعة: قرأ ابن وردان عن أبي جعفر بفتح الياء وإسكان الهاء وتشديد الدال.

الخامسة: قرأ ورش وابن كثير وابن عامر بفتح الياء والهاء وتشديد الدال.

السادسة: قرأ قالون وابن جمار بفتح الياء وتشديد الدال، ولهما في الهاء الإسكان واختلاس الفتحة.

السابعة: قرأ أبو عمرو بفتح الياء وتشديد الدال، وله في الهاء الفتحة والاختلاس.

ووجه كسر الهاء التخلص من التقاء الساكنين؛ لأن أصلها (يهتدي) فلما سكنت التاء لأجل الإدغام، والهاء قبلها ساكنة، كُسرت الهاء للتخلص من التقاء الساكنين، وَمَنْ فتحها نقل فتحة التاء إليها، ووجه مَنْ كسر الياء أنه أُتْبِعَ حركة الياء للهاء.

والله ﷻ يمتن على عباده - أولاً - بنعمة الخلق والإيجاد.

ويمتن عليهم - ثانيًا - بنعمة الهداية ونشر الحق.

ومعلوم أن نعمة الهداية أعظم المنن؛ لأن فيها صلاح الفرد والمجتمع، وسلامة الأفراد من اعتداء القوي على الضعيف، وسلوك طريق الحق والرشاد.

ولذا: فإن القرآن الكريم يتبع الاستدلال ببدء الخلق وإعادته -الذي هو في الآية السابقة- بالاستدلال بهداية الخلق في هذه الآية التي معنا؛ لأن الإنسان مركب من جسد وروح، فيستدل بإيجاد الجسد أولاً، ثم يستدل بما فيه صلاح الأرواح وتهذيبها.

وكما أن مَنْ يُعبد من دون الله لا يبدأ الخلق ولا يُعيد، فهو عاجز أيضًا عن إرشادهم إلى الكمال النفساني بنشر الحق وهداية الخلق.

ولهذا فإن إبراهيم ﷺ قال: ﴿الَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ﴾ [الشعراء] فبدأ بالخلق وثنى بالهداية.

وهكذا قال موسى: ﴿رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى﴾ [طه: ٥٠]

وقال تعالى: ﴿الَّذِي خَلَقَ فَسَوَّى ۖ وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَى﴾ [الأعلى: ٢، ٣].

وفي هذه الآية قال تعالى: ﴿قُلْ هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ مَنْ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ﴾ قل للمشركين -أيها الرسول- على سبيل التهكم: هل من هذه الآلهة التي تعبدونها من دون الله مَنْ يستطيع أن يهدي غيره هداية بيان وإرشاد، أو هداية إلهام وتوفيق، إلى طريق الحق وسبيل الرشاد؟ وبأسلوب آخر: هل ممَّن تعبدونهم -أيها المشركون- مَنْ يرشد إلى طريق الحق المستقيم؟ وهل بمقدوره أن ينزل كتابًا، أو يرسل رسولًا، أو يُشرع شريعة، أو يضع نظامًا دقيقًا لهذا الكون، أو يحث العقول على التدبر والتأمل في ملكوت الله، أو يوقظ القلوب الغافلة، ويحرك المدارك المعطلة؛ فيهدي الحيارى والضلال، ويُقَلِّب القلوب من الغي إلى الرشاد؟ هل من هذه الآلهة من يُرشد ضالًّا أو يهدي حائرًا أو يدل على طريق الحق والاستقامة؟

ولمَّا كان لا يملك هذا إلا الله، فقد أمر رسوله أن يجيبهم ﴿قُلْ اللَّهُ يَهْدِي لِلْحَقِّ﴾ بالأدلة والبراهين، وبالإلهام والتوفيق، والإعانة على سلوك أقوم الطرق، قل لهم: الله وحده هو القادر على هداية الضال، وبيان الحق، والمراد بالحق: الاعتقاد الصحيح والعمل الصالح الخالص لله سبحانه، الموافق لهدي النبي ﷺ.

وغير هذه الإجابة ضُرب من اللجاج والكبرياء؛ لأن الله وحده هو الذي يهدي الضال إلى الحق، ويسدده ويوفقه.

ثم تنشأ قضية أخرى جوابها معلوم ومقرر ﴿أَفَن يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ أَحَقُّ أَنْ يُتَّبَعَ؟﴾ أي: أفمن يرشد إلى الهدى أحق بالاتباع، أم هذه الأصنام التي لا تهدي نفسها ولا تهدي غيرها؟

والجواب على هذا السؤال: أن الذي يهدي الناس إلى الحق أولى بالاتباع ممن هو غير مهتد في نفسه، إلا أن يهديه غيره، وهذا معنى قوله تعالى: ﴿أَتَنْتَبِهَ؟﴾ أي لا يهتدي ﴿إِلَّا أَنْ يُهْدَى﴾ لعدم علمه وضلاله أي: أيهما أحق أن يُتَّبَعَ؟ هل من يهدي الناس للحق أم من لا يهدي نفسه، ولا يهدي غيره؟ نظرًا لضلالة وعدم علمه، ويتمثل هذا في كل ما يُعبد من دون الله؛ كالحجارة والأشجار والكواكب.

وكذا البشر كعيسى وعزير ومحمد ﷺ، فكلهم بشر يحتاجون إلى هداية الله لهم، حتى وإن كان البشر نبيًا أو رسولًا قد بُعث هاديًا للناس، فهو لا يهدي غيره إلا بهداية الله له.

ومعلوم أن الأوثان لا تهدي ولا تهتدي إلا أن تُهْدَى.

وإذا قال قائل: إن الأصنام جماد، فكيف تهدي أو تُهْدَى؟ فالجواب كما ذكره العلماء:

١- أن هدايتها بمعنى أنها لا تَنْتَقِل من مكان إلى مكان، إلا إذا نقلها غيرها؛ فهي بهذا عاجزة عن الحركة والانتقال.

٢- أو أنها نُزِلَت منزلة من يسمع ويعقل.

٣- أو أن المراد بذلك رؤساء الضلال والكفر، فإنهم لا يَقْدِرُونَ على هُذْي أنفسهم، فضلًا عن غيرهم، إلا إذا هداهم الله إلى الحق، فهذه ثلاثة أجوبة.

وقد قال إبراهيم لأبيه فيما يتعلق بالأصنام: ﴿يَتَّبِعُ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِي عَنْكَ شَيْئًا﴾ [مريم: ٤٢] وقال لقومه: ﴿أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ﴾ (٩٥) وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ (٩٦) [الصافات] وغير ذلك من الآيات.

ثم يأتي هذا الاستفهام الثاني على وجه التعجب والإنكار:

﴿مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ؟﴾ ما بالكم كيف سَوَّيْتُمْ بين الله وخالقه؟ وهذا حكم باطل، هل

ذهبت عقولكم حتى تُسوُّوا بين الخالق والمخلوق، وتَحيدون عن الحق إلى الباطل؟ وفي هذا قَصْرٌ للهداية على الله تعالى دون غيره؛ لأنه هو الذي يُصلِّح النفوس، ويصلِّح نظام البشر، فاتباعه واجب عقلاً وشرعاً. قال تعالى.

٣٦- ﴿وَمَا يَتَّبِعْ أَكْثَرُهُمْ إِلَّا ظَنًّا إِنَّ الظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ ﴿٣٦﴾﴾

هذه الآية لبيان أن أهل الضلال لا يتبعون في دينهم دليلاً ولا برهاناً، إذ ليس لله تعالى شريك أصلاً، لا عقلاً ولا نقلاً، وإنما هي تقليد وأهواء، فقد بينَ ﷻ أن المشركين لا يستندون في عبادتهم للأوثان إلى دليل واضح، ولا إلى حقائق مدروسة، وإنما يتبعون ظنوناً كاذبة، وأوهاماً لا أساس لها في عبادتهم غير الله تعالى، وفي زعمهم أن آلهتهم تقربهم إلى الله، وهذا معنى: ﴿وَمَا يَتَّبِعْ أَكْثَرُهُمْ إِلَّا ظَنًّا﴾ ولفظ ﴿أَكْثَرُهُمْ﴾ يفيد أن من المشركين من ارتقت مدارك أفهامهم فوق الاعتقاد بأن للأصنام تصرفاً، ولكنهم أظهروا عبادتها اتباعاً للهوى، وتقليداً لغيرهم، وحفظاً للسيادة بين قومهم؛ لأنهم خاصة القوم، وأهل الأحلام منهم، وفي هذا إيقاظٌ لجمهورهم من غفلتهم.

والمعنى: وما يَتَّبِعْ هؤلاء المشركون في جعلهم الأصنام آلهة، واعتقادهم بأنها تقربهم إلى الله تعالى إلا تخَرُّصاً وظناً ﴿إِنَّ الظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا﴾ أي: إن العلم المشوب بشك لا يغني شيئاً في إثبات الحق المطلوب، ولا يغني من اليقين شيئاً؛ لأنه لا يقوم مقامه، ولأنه لا يستند إلى دليل من كتاب أو سنة، فاتباعكم للظن ليس إلا تخريف أو كذب وافتراء.

والمراد بالحق في الآية: العلم اليقيني والاعتقاد الصحيح المطابق للواقع، وهذا ينطبق على أصول الاعتقاد والتشريع، ويشمل كل الواجبات والمحظورات القطعية، أما ما دون العلم اليقيني مما لا يفيد إلا الظن فلا يُؤخذ به في الاعتقاد، وإنما هو متروك للاجتهاد من قِبَل أهل العلم وأولي الأمر والساسة، مع التقيد بالشورى وتحري العدل^(١).

معاني الظن:

١- أما الظن فهو العلم المستند إلى دليل راجح، مع احتمال الخطأ احتمالاً ضعيفاً،

(١) ينظر: «تفسير المنار» (١١/٣٦٤).

والظن بهذا المعنى: هو مناط التكليف بفروع الشريعة.

٢- وقد يُطلق الظن على الاعتقاد الجازم الذي لا يشوبه شك، كما في قوله تعالى عن الخاشعين في صلاتهم: ﴿الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُمْ مُلْقَوْنَ رَبَّهُمْ﴾ [البقرة: ٤٦].

٣- ويطلق الظن على الاعتقاد المشوب بشك، كما في قوله تعالى حكاية عن قوم هود: ﴿وَإِنَّا لَنُظُنُّكَ مِنَ الْكَاذِبِينَ﴾ [الأعراف: ٦٦] وفي قوله تعالى حكاية عن المنافقين: ﴿وَنُظُنُّوْا أَن لَّا مَلْجَأَ مِنَ اللَّهِ إِلَّا إِلَيْهِ﴾ [التوبة: ١١٨].

٤- ويطلق الظن على الاعتقاد الخاطئ، كما في قوله تعالى: ﴿إِنَّكَ بَعْضُ الظَّالِمِينَ﴾ [الحجرات: ١٢] وفي الحديث: «ياكم والظن؛ فإن الظن أكذب الحديث»^(١)؛ وهكذا يختلف معنى الظن وفق مقامات الكلام وسياقه ومدلوله^(٢).

ولأن حقيقة الظن لا يعلمها إلا الله، فقد ختم الله الآية بقوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ﴾ أي: عليم بما يفعله المشركون من الكفر والتكذيب واتباعهم الظن، فليس لديهم دليل ولا برهان، وإنما هم يتخيلون ويتوهمون، وفي هذا توبيخ لهم على انقيادهم للأوهام والظنون، وفيه تهديد ووعد لهم بأن الله تعالى سيحاسبهم ويجازيهم على ذلك أشد الجزاء.

ويؤخذ من هذا أن العلم اليقيني يُوجِبُ الاعتقاد، وأن العلم الظني متروكٌ للاجتهاد، ومن العلم اليقيني العلم بأركان الإسلام والإيمان، والواجبات القطعية، ومنها العلم بالمحظورات القطعية.

المَوْضِعُ الثَّالِثُ: مِنْ حَدِيثِ السُّورَةِ عَنِ الْوَحْيِ وَالرَّسَالَةِ

٣٧- ﴿وَمَا كَانَ هَذَا الْقُرْآنُ^(٣) أَنْ يُفْتَرَى مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَكِنْ تَصْدِيقٌ^(٤) الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلٌ

(١) من حديث أبي هريرة في «صحيح مسلم» برقم (٢٥٦٣) و«صحيح البخاري» برقم (٥١٤٣)، ٦٠٦٤، ٦٠٦٦.

(٢) ينظر: «تفسير التحرير والتنوير» (١١/١٦٥).

(٣) قرأ ابن كثير بنقل حركة حمزة (القرآن) إلى ما قبلها وصلًا ووقفًا، ومثله حمزة عند الوقف عليها.

(٤) قرأ حمزة والكسائي وخلف العاشر ورويس بخلف عنه بإشمام الصاد صوت الزاي من (تصديق)، والباقون بالصاد الخالصة.

الْكِتَابِ لَا رَيْبَ^(١) فِيهِ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٣٧﴾

هذه الآية تنفي أن يكون القرآن من عند محمد ﷺ، وتبطل تعجب المشركين من الوحي، وتثبت أنهم اتبعوا الظن في شؤون الإلهية وشؤون النبوة، وهذا هو الموضع الثالث في سورة يونس من الحديث عن الوحي والرسالة أحد عناصر القرآن المكي، وقد سبق ذكرُ الموضعين الأولين في قوله تعالى: ﴿أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا﴾ وقوله: ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَاتُنَا﴾.

وفي هذه الآية ردُّ على مَنْ طلب من النبي ﷺ أن يأتي بقرآن غير هذا، أو يبدله بما يوافق أهواءهم.

وفيها بيان أنهم لم ينظروا في هذا الوحي ويتأملوه؛ ليعلموا أنه من عند الله.

وفيها وصف لهم بالجهالة وسفاهة الرأي، ووصف للقرآن بالإعجاز والفصاحة والبلاغة.

وفيها ينفي الله سبحانه أن يكون هذا القرآن مختلفًا من قِبَل أحد من البشر، فهو غير قابل أصلاً لهذا الافتراء، وليس في إمكان أحد أن يأتي بمثله ﴿وَمَا كَانَ هَذَا الْقُرْآنُ أَنْ يُفْتَرَىٰ مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ أي: ليس من شأن هذا القرآن المعجز في هديه وأسلوبه ومعانيه أن يخترعه أو يخلقه أحد من الإنس أو الجن؛ إذ لا يتهيأ لأحد أن يأتي به من عند غير الله، وليس في مقدور أحد من الخلق أن يخلقه؛ لأن كلام الله تعالى لا يشبه كلام المخلوقين، وما يقوله المشركون في هذا الصدد هو من أوهامهم وظنهم، وإن الظن لا يغني من الحق شيئاً، فهو كتاب لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد، وهو كتاب لواجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيراً، فكيف يمكن لأحد من الخلق أن يأتي بمثله أو بما يقاربه، ولو افترضنا أن أحدا تقول على رب العالمين، لعاجله الله بالعقوبة.

وهذا القرآن له شواهد سابقة، نزلت على رُسل الله، فهو ليس بدِّعاً في بابه، ولكن الله تعالى أنزل هذا القرآن مصدقاً للكتب التي أنزلها على أنبيائه من قبل، فهو يصدق التوراة التي نزلت على موسى، والإنجيل الذي نزل على عيسى، والزبور الذي نزل على داود،

(١) قرأ حمزة بخلف عنه بمد لام (لا ريب) أربع حركات، والباقون بمدّها مدّاً طبعياً.

والصحف التي نزلت على شيث وإدريس وإبراهيم وغيرهم؛ لأن دين الله واحد ﴿إِنَّ الَّذِينَ عِنْدَ اللَّهِ لَإِيسَاءُ﴾ [آل عمران: ١٩].

وقد حَوَى القرآن ما في هذه الكتب، وزاد عليها الكثير من الأخبار والتشريع وغير ذلك، مع كونه ﷺ أمياً لا يقرأ ولا يكتب.

وفي هذا القرآن تفصيل لِمَا شرعه الله تعالى لأمة محمد ﷺ؛ من الحرام والحلال والفرائض والأحكام والأخلاق والآداب، فيه خبر مَن قبلنا، ونبأ ما بعدنا، وفصل ما بيننا، ولا شك في أن هذا القرآن وحي من رب العالمين، وأنه ليس مفترى على الله، ولا يقدر عليه أحد من البشر، بل هو الحق اليقين، تنزيل من رب العالمين. قال تعالى:

٣٨- ﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِثْلِهِ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾

وبعد أن وصف الله تعالى القرآن بما يقتضي بُعده عن الافتراء، أعقب ذلك بالاستفهام عن دعوى المشركين، أن هذا القرآن مفترى من دون الله ﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ﴾ بل يقولون: إن محمداً هو الذي أتى بهذا القرآن من عند نفسه، وليس من عند الله؟ مع أنهم يعلمون أنه بشر مثلهم، وأنه أُمِّي لا يقرأ ولا يكتب.

ثم أمر الله رسوله أن يجيبهم عن دعوى الافتراء، وأن يقطع الاستدلال عليهم، بأن هذا القرآن معجز من عند الله، فتحداهم وطلب منهم أن يفتروا مثله، ولو بسورة واحدة، تُماثل القرآن في نَظْمِهِ وَهَدْيِهِ وَفَصَاحَتِهِ وَبِلَاغَتِهِ؛ كسورة الكوثر أو الإخلاص.

وفي سورة البقرة قال تعالى: ﴿فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِثْلِهِ﴾ [البقرة: ٢٣] بزيادة لفظ ﴿مِنْ﴾ أي: من إنسان مثل محمد يساويه في عدم القراءة والكتابة، أو من مثل هذا القرآن. وهنا قال: ﴿فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِثْلِهِ﴾ بدون ﴿مِنْ﴾ أي يشبه هذا القرآن المعجز في حد ذاته، وهذا تنزُّل في التحدي من المطابقة التامة للقرآن، إلى ما يشبهه ويمثله.

وجاءت (سورة) منكرة في قوله: ﴿بِسُورَةٍ﴾ أي: ليأتوا بأي سورة، قصيرة أو سهلة أو يسيرة عليهم، واستعينوا على ذلك بَمَنْ شِئْتُمْ من الفصحاء والبلغاء والشعراء، بما يشملكم ويشمل آلهتكم، وما تشاؤون من الإنس والجن؛ لَنُضَرِّتْكُمْ ومساعدتكم ﴿وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ في دعواكم أن هذا القرآن مفترى، فأنتم سواء في اللغة.

وفي سورة البقرة قال تعالى: ﴿وَادْعُوا شُهَدَاءَكُمْ﴾ [البقرة: ٢٣] والمعنى واحد.

وهذه الآية تُمثِّلُ المرحلة الثالثة من مراحل تحدي القرآن للمشركين المكذبين أن يأتوا بمثل أقصر سورة من القرآن.

وقد نفى القرآن ذلك وأخبر أنهم لا يستطيعون ذلك أبداً ﴿فَإِنْ لَّمْ تَفْعَلُوا وَلَكِنْ تَفْعَلُوا فَأْزَنُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ﴾ [البقرة: ٢٤] وهي آية مدنية.

مَرَاكِجُ التَّحْدِي بِالْقُرْآنِ أَرْبَعَةٌ:

أما المرحلة الأولى: فَقَدْ تحدَّاهم القرآن أن يأتوا بمثله كله، وأخبر الله سبحانه أنهم لا يقدرُونَ على ذلك، ولا سبيل لهم إليه ولو استعانوا بالثقلين جميعاً ﴿قُلْ لَّيِّنْ أَجْمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَتْ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيراً﴾ [الإسراء: ٨٨].

والمرحلة الثانية: جاءت في سورة هود؛ حيث تقاصر معهم القرآن فتحدَّاهم أن يأتوا بمثل عشر سور مثله مفتريات، كما زعموا افتراء محمد ﷺ -وحاشاه- ﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَيْنَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوَرٍ مِثْلِهِ مُفْتَرِيَاتٍ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ [هود: ١٣].

فالتَّحْدِي الأول والثاني كان بمكة.

المرحلة الثالثة: تحدى القرآن المكذبين به أن يأتوا بمثل أقصر سورة منه كما جاء في هذه السورة ﴿فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِثْلِهِ﴾ [يونس: ٣٨] وكان ذلك في مكة أيضاً، وقد تحداهم القرآن أن يستعينوا بمن يشاؤوا من أرباب الفصاحة والبلاغة إن كانوا صادقين في دعواهم أن القرآن ليس من عند الله.

والتَّحْدِي الرابع: كان في المدينة، كما جاء في سورة البقرة ﴿وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِمَّا نَزَّلْنَا عَلَى عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ [البقرة: ٢٣] وقد نفى القرآن إمكانية ذلك في الآية التي تليها مما يدل على أن التحدي قائم ومستمر.

وقد أجاب الله تعالى بأن هذا ليس في استطاعتهم، وعليهم أن يعتقدوا أن هذا القرآن نزل من عند الله ﴿فَإِلَّا يَسْتَجِيبُوا لَكُمْ فَاعْلَمُوا أَنَّمَا أُنْزِلَ بِعِلْمِ اللَّهِ وَأَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَهَلْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾ [هود: ١٤].

وتحدى الله المكذبين أن يأتوا بمثل ألفاظ سورة من القرآن، أو بمثل معاني عشر سور منه، تحداهم أن يأتوا بمثل ألفاظه أو معانيه، وهما طرفا الإعجاز، وليس في إمكان السابقين ولا اللاحقين أن يأتوا بمثل هذا أو ذاك.

أما إعجاز المعنى فمنه الإخبار بما سيحدث في المستقبل، كقوله تعالى: ﴿وَهُمْ مِّنْ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ﴾ [الروم: ٣] وقوله: ﴿لَتَدْخُلَنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ إِن شَاءَ اللَّهُ﴾ [الفتح: ٢٧] وكذا أحوال الآخرة، وما فيها من بعث وحشر وحساب وجنة ونار.

وإعجاز الألفاظ والنظم مثل: ﴿مُدَّاهِمَتَانِ﴾ [الرحمن] ومثل: ﴿ثُمَّ نَظَرَ﴾ [المدثر].

وقد تحداهم القرآن أن يأتوا بمثل ألفاظه ومعانيه معاً، وكانت الفصاحة والبلاغة من سجايا العرب في أشعارهم ونثرهم ومعلقاتهم، ولكن الله تعالى جاءهم بما لا قبل لهم به؛ في حلاوته وجزالته وطلاوته وبراعته وإفادته، بما لا يستطيع أن يأتي بمثله بشرٌ، ومحمدٌ الذي أتى بهذا القرآن هو بشر مثلهم، فإذا عجزوا أن يأتوا بمثل أقصر سورة منه، فلا شك أنهم كذبة في دعواهم أن هذا القرآن افتراه محمدٌ وابتدعه ﴿كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ إِنْ يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبًا﴾.

وهذا التحدي قائمٌ إلى يوم القيامة بالنسبة للبشر جميعاً، وبالنسبة للجن أيضاً.

وقد صح عن رسول الله ﷺ من حديث أبي هريرة ؓ أنه قال: «ما من نبي إلا قد أُعطي من الآيات ما مثله آمن عليه البشر، وإنما كان الذي أوتيته وحياً أوحاه الله إليّ، فأرجو أن أكون أكثرهم تابِعاً»^(١).

وكان القرآن معجزة النبي ﷺ؛ لأن رسالته ممتدة إلى يوم الساعة، لِمَنْ عاصر النبي ﷺ، وكل من يأتي بعده، وهي من نوع ما نبغ فيه العرب من الفصاحة والبلاغة.

أما الأنبياء الآخرون، فلمَّا كانت رسالتهم محدودة بزمان ومكان، كانت معجزاتهم أرضية كُونية، بحيث يراها القوم فقط، ولا تصلح لِمَنْ بعدهم كما كانت معجزة موسى من

(١) رواه البخاري في صحيحه برقم (٤٩٨١، ٧٢٧٤) ومسلم في صحيحه برقم (١٥٢) من حديث أبي هريرة وهذا لفظه.

نوع السحر الذي نَبَغ فيه قومه، وكانت معجزة عيسى من نوع الطب الذي نَبَغ فيه قومه.
ثم بيّن سبحانه أن الذي حملهم على التكذيب بالقرآن، أنهم لم يحيطوا به علمًا، ولم يدركوا ما لم يقع تأويله بعدُ من الأخبار وأمور الغيب، ويظهر لهم صدق ما أخبر به من البعث والنشور والحساب والجزاء. قال تعالى:

٣٩- ﴿بَلْ كَذَّبُوا بِمَا لَمْ يُحِيطُوا بِعِلْمِهِ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ^(١) تَأْوِيلُهُ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عِقَابُ أَظْلَمِهِمْ﴾

هذه الآية فيها وعيدٌ للمكذّبين بالقرآن، وبيان أنهم كذبوا به دون أن يعرفوا ما فيه من علوم الغيب، ومن حُسن النظم، وقبل أن يأتيتهم تفسير ذلك وبيانه فقد بادروا بالتكذيب قبل التأمل فيه من باب المكابرة والعناد، ومن الإحاطة بعلمه ما أخبر الله به من هلاك المكذّبين لرسول الله، غير المصدقين بآياته وبراهينه.

والحديث موصول عن تكذيب المشركين بالقرآن؛ فقد بيّن ﷺ أنهم سارعوا إلى تكذيب القرآن أول سماعه، دون النظر في أدلة صحته، وقبل أن يفقهوه ويتدبروه، ويعلموا ما فيه، وقبل أن يقفوا على تأويله ومعانيه؛ وذلك بسبب نفورهم عما يخالف دينهم، وإصرارهم على عدم مفارقة دين آبائهم، مع أن القرآن أضوأ من الشمس في ظهور صحته ﴿بَلْ كَذَّبُوا بِمَا لَمْ يُحِيطُوا بِعِلْمِهِ﴾ والإحاطة بعلمه تعني إتقانه والإلمام به أشد إلمام.

وهذا الأسلوب في نظم الآية للمبالغة، كأنه جعل العلم معلومًا، وقد عدل القرآن الكريم عن قول: بل كذبوا بما لم يحيط علمهم به؛ لأنه لما نفى العلم عنهم صاروا كأنهم لم يحيطوا بعلمه، وكان عليهم أن يحيطوا بعلمه عن طريق زيادة النظر والتأمل الدقيق في صدق أدلته.

ومن العلم الذي في القرآن معرفة البعث والحساب والجنة والنار، وأخبار الأمم الماضية. لقد كذبوا بهذا القرآن قبل أن يعلموا ما فيه ﴿وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُ﴾ أي: ولم يأتهم بعدُ تأويل ما فيه من الأخبار والأمور الغيبية، فالقرآن معجزٌ في نظمه، ومعجزٌ فيما يحتويه من

(١) قرأ رويس عن يعقوب بضم الهاء من (يأتهم)، وقرأ ورش وأبو جعفر وأبو عمرو بخلف عنه بإبدال الهمزة ألفًا، وكذلك حمزة عند الوقف.

الغيبات، وهم قد بادروا إلى تكذيبه قبل أن يأتيهم بيان ذلك، وهذا أشنع ما يكون في التكذيب، فالمراد بتأويله: حقيقة ما يؤول إليه الأمر يوم القيامة، ويظهر لهم فيه صحة ما أنذروا به من البعث والحساب والجزاء، كما في قوله تعالى: ﴿هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا تَأْوِيلَهُ يَوْمَ يَأْتِي تَأْوِيلُهُ يَقُولُ الَّذِينَ نَسُوهُ مِنْ قَبْلُ قَدْ جَاءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِالْحَقِّ﴾ [الأعراف: ٥٣].

وفي هذا بيان أن القرآن سيأتي فيه بيان ما أُجْمِلَ فيما بعد.

وكما كذب المشركون بهذا القرآن، كذب مَنْ قبلهم من الأمم، رسل الله، وكذبوا وعَدَّ الله ووعيده ﴿كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَانظُرْ﴾ يا أيها النبي ويا أيها المخاطب ﴿كَيْفَ كَانَتْ عَقِيبَةُ الظَّالِمِينَ﴾ فقد أهلك الله بعضهم بالخسف، وبعضهم بالغرق، وغير ذلك، قال تعالى: ﴿فَكَلَّا أَخَذْنَا بِذُنُوبِهِ فَمِنْهُمْ مَنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُمْ مَنْ أَخَذَتْهُ الصَّيْحَةُ وَمِنْهُمْ مَنْ خَسَفْنَا بِهِ الْأَرْضَ وَمِنْهُمْ مَنْ أَغْرَقْنَا وَمَا كَانِ اللَّهُ لِيُظْلِمَهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ [العنكبوت].

فاحذروا - أيها المخاطبون - أن تكونوا مثلهم، ونظير هذه الآية قوله تعالى: ﴿قَالَ أَكَذَّبْتُمْ بِتَائِيَّتِي وَلَمْ تُحِيطُوا بِهَا عِلْمًا﴾ [النمل: ٨٤].

أَصْنَافُ الْمُكَذِّبِينَ بِآيَاتِ اللَّهِ

٤٠- ﴿وَمِنْهُمْ مَنْ يُؤْمِنُ بِهِ وَمِنْهُمْ مَنْ لَا يُؤْمِنُ بِهِ وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِالْمُفْسِدِينَ﴾

ثم عَقَّبَ ﷻ على مَنْ كَذَّبَ بآيات الله من غير بصيرة ولا تأمل وعدم إحاطة بما فيه، بأن مِنْ قومك - يا محمد - الذين بُعِثَ فيهم مَنْ يُصَدِّق بهذا القرآن حالًا ومآلًا، ومنهم مَنْ ختم الله على قلبه فلا يصدق به حتى يموت على ذلك ويبعث عليه ﴿وَمِنْهُمْ مَنْ يُؤْمِنُ بِهِ﴾ وقد يكتُم إيمانه خوفًا أو عنادًا ومكابرة ﴿وَمِنْهُمْ مَنْ لَا يُؤْمِنُ بِهِ﴾ والسبب في عدم إيمان مَنْ لَمْ يُؤْمِنْ هو الجهل والغرور والكبرياء وتقليد الآباء والأجداد؛ فهو الذي أفسد حالهم.

﴿وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِالْمُفْسِدِينَ﴾ الذين لا يؤمنون بآيات الله؛ فقد أفسدوا في الأرض بالشرك والظلم والفجور، وأفسدوا عقائد الناس وأخلاقهم وأموالهم، وفي هذا تهديد ووعيد لهم بالحساب والجزاء يوم القيامة. قال تعالى:

٤١ - ﴿وَإِنْ كَذَّبُوكَ فَقُلْ لِي عَمَلٍ وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ أَنْتُمْ بَرِيئُونَ^(١) مِمَّا أَعْمَلُ وَأَنَا بِرِيءٌ مِمَّا تَعْمَلُونَ﴾

ثم يوجه الله رسوله إلى المستقبل، فيخبره أنه إذا استمر هؤلاء وأمثالهم على تكذيبك - يا محمد - وأصروا على ذلك بعدما قارغتهم بالحجة، فاعلم أن الحُجَج لا تَنْجَعُ فيهم، وأَعْلِنُ براءتك منهم كما تبرؤوا منك، وفي هذا زيادة تصديق وتثبيت للنبي ﷺ على ما هو عليه.

﴿وَإِنْ كَذَّبُوكَ﴾ في المستقبل - أيها الرسول - واستمروا على ذلك ﴿فَقُلْ﴾ لهم: ﴿لِي عَمَلٍ وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ﴾ لي ديني ولكم دينكم، فلي ثواب الطاعة، ولكم عقوبة الشرك، وكل منا مسؤول عن عمله أمام الله، كما قال ﴿مَنْ عَمِلْ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ. وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا﴾ [فصلت: ٤٦]

وهكذا أمر الله رسوله أن يظهر البراءة من عمل الكفار القبيح وينكرها ويتعد عنها ﴿أَنْتُمْ بَرِيئُونَ مِمَّا أَعْمَلُ﴾ فلا تؤخذون بعَمَلِي، ولا تُسألون عنه ﴿وَأَنَا بِرِيءٌ مِمَّا تَعْمَلُونَ﴾ فلا أُوأخذ بعَمَلِكُم بعد نصحتكم وتحذيركم مغبته وعاقبته، ولا تؤاخذون بعمل فكل منا يجني ثمرة فعله من الثواب والعقاب.

وهذا كقوله تعالى: ﴿لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ^(٢) وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ^(٣)﴾ [الكافرون] وقوله: ﴿فَإِنْ عَصَوْكَ فَقُلْ إِنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تَعْمَلُونَ^(٤)﴾ [الشعراء] وقول إبراهيم عليه السلام لقومه: ﴿إِنَّا بَرَاءٌ لَكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلْعَاذُ وَالْبَعْضَاءُ أَبَدًا حَتَّى تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَحْدَهُ﴾ [المتحنة: ٤]

وهذه الآية قبل الأمر بقتال المشركين، فقد أمر النبي ﷺ بعد ذلك أن يقاتل مَنْ قاتله، أو وقف في وجه الدعوة يمنع وصولها للناس. قال تعالى:

٤٢ - ﴿وَمِنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ أَفَأَنْتَ تُسْمِعُ الصُّمَّ وَلَوْ كَانُوا لَا يَعْقِلُونَ^(٥)﴾

هذه الآية فيها تصوير للجهل المطبق، والغباء المستحکم، لِمَنْ لَمْ يُوْمِنْ بِخَاتَمِ الرِّسْلِ ﷺ، وقد سبق تقسيم المشركين في عبادتهم للأصنام بأن منهم مَنْ يتبع الظن، ومنهم مَنْ يوقن بأنها لا شيء يعبد، ولا ينفع ولا يضر، وسبق تقسيم المشركين أيضًا إلى أن منهم مَنْ يصدّق بالقرآن في نفسه، ويكذبه عنادًا وكبرياء، ومنهم مَنْ لا يصدق به.

(١) وقف حمزة على (بريئون) بإبدال الهمزة ياء وإدغامها في الياء قبلها.

وفي هذه الآية تقسيمهم بالنسبة للتلقي عن رسول الله ﷺ؛

- ١- فمنهم مَنْ يحضر مجلس النبي ﷺ ويستمع إلى ما يُوحى إليه، وقت قراءته للقرآن ويتوخى العثرات والشبهات للتكذيب والجدال بالباطل، وهو لا ينتفع بما يسمع، فكأنه لا يسمع.
- ٢- ومنهم مَنْ لا يحضر مجلسه، ولكنه ينظر إليه متوسماً دلائل النبوة فيه، كما يأتي في الآية التالية ﴿وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْظُرُ إِلَيْكَ﴾

٣- ومن الكفار مَنْ يسمعون كلامك الحق، وأنت تقرأ عليهم القرآن والأحاديث، وترشدهم إلى ما ينفعهم، وتنهاهم عما يضرهم، ولكنهم لجحودهم وبُغضهم وحسدهم لك لا يسمعون سماع تدبر وتعقل، وإنما يسمعون للتكذيب واللجاج واللغو فيه، ولذلك فهم لا يهتدون ولا ينتفعون بما يسمعون؛ لوجود الحائل بينهم وبين التأثير بما يسمعون وهذا المعنى ﴿وَمِنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ﴾ .

قال تعالى ﴿أَفَأَنْتَ تُسْمِعُ الصُّمَّ وَلَوْ كَانُوا لَا يَعْقِلُونَ﴾ هذا استفهام بمعنى النفي والتقرير، فالأصم لا يسمع ولو كان صوتك جهوراً، أي هل في مقدورك - يا رسول الله - وبأيهما الداعي إلى الله - أن تُسمع الأصم الذي لا يسمع؟ وهل بإمكانك أن تُسمع الحق لمن صَمَّ أذنه عنه، وأغلق بابه دونه؟ سَيِّمًا إذا انضمَّ إلى ذلك كونه لا يعقل، فكَذلك هؤلاء لا تقدر على هدايتهم، إلا مَنْ شاء الله أن يوفقه لذلك، مِمَّن علم الله أنه يستجيب للهداية؛ لأنهم يسمعون ولا يعقلون، فحواسهم مضموسة لا تتصل بعقولهم، ولكن الحجة قامت عليهم بوصول الدعوة إليهم، وهم الذين أعرضوا عنه لفساد عقولهم وأسماعهم وأبصارهم، وهي الطرق الموصلة إلى العلم ومعرفة حقائق الأمور. قال تعالى:

٤٣- ﴿وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْظُرُ إِلَيْكَ أَفَأَنْتَ تَهْدِي الْعُمْى وَلَوْ كَانُوا لَا يُبْصِرُونَ﴾ (٤٣)

ومن هؤلاء المكذبين مَنْ ينظر إليك، يتوسم فيك النبوة الضادقة، ويتفرس فيك دلائلها، ولكنه أعمى البصيرة، فلا يُبصر ما آتاك الله من نور الإيمان، ولا يُبصر شيئاً من الهدى الذي جئت به، فهو لجحوده وكفره وعناده مضموس البصيرة ﴿وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْظُرُ إِلَيْكَ﴾ ليعاين أمارات النبوة، ولكنه لا يهتدي إليها، فكما أنك لا تهدي العمى ولو كانوا لا يبصرون، فكذلك لا تهدي هؤلاء فهو لذلك كالأعمى، فوجهك ليس بوجه كذاب، ولكنه لا يصدقك جحوداً وعناداً.

فهل تقدر - أيها الرسول وأيها الداعي إلى الله - أن تخلق للأعمى بصراً ينظر به؟ فإن كنت لا تستطيع ذلك، فإنك أيضاً لا تقدر على هداية أعمى البصيرة، فإن ذلك إلى الله وحده؛ وذلك لأن حواسهم معطلة عن أداء وظيفتها لا ينتفعون بها، فكأنها غير موجودة.

وقد جاء في الآية قبلها ﴿يَسْتَعْمُونَ﴾ بضمير الجمع، وفي هذه الآية ﴿يَنْظُرُ﴾ بضمير المفرد، إما لأن الإسماع يكون من جميع الجهات، أما النظر فيكون من الجهة الأولى؛ وإما لأن الاسم الموصول وهو ﴿مَنْ﴾ يستوي فيه أن يكون الفعل بعده جمعاً أو مفرداً.

وقد ضمت الآية السابقة إلى جوار الصمم عدم العقل، وضمت هذه الآية إلى جوار عمى البصر، عمى البصيرة، فهم يسمعون ولا يعقلون، وينظرون ولا يهتدون، والغرض من الاستفهام التعجب من حالهم.

والمؤمنون ينظرون إلى النبي ﷺ نظرة وقار وإجلال، والكفار ينظرون إليه نظرة احتقار واستهزاء، قال تعالى: ﴿وَإِذَا رَأَوْكَ إِذَا يَنْخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوا أَهَذَا الَّذِي بَعَثَ اللَّهُ رَسُولًا﴾ [الفرقان].

وفي الآية تسليّة للنبي ﷺ؛ لبيان أنه كما لا يقدر أن يخلق للأعمى بصراً ينظر به، فهو لا يقدر كذلك أن يوفقهم للإيمان.

ظَلَمُ النَّفْسِ بِالْكَفْرِ وَالتَّكْذِيبِ

٤٤ - ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ النَّاسَ شَيْئًا وَلَكِنَّ النَّاسَ أَنْفُسُهُمْ يَظْلِمُونَ﴾

هذه الآية لبيان أن الله تعالى قد فتح بهذا القرآن أعيناً عمياً، وآذاناً صماً، وقلوباً غلفاً، فمن أعرض عنه ولم يهتد به فقد ظلم نفسه، ولذلك عرّض سبحانه بمن لا ينتفعون بما يسمعون، ولا يعتبرون بما ينظرون.

ثم عرّض سبحانه بوعيدهم في هذه الآية لبيان ما سينالهم من العذاب، جزاء تكذيبهم ما نزل على رسول الله ﷺ، فبين تعالى أنهم قد استحقوا عقاب الله لهم؛ لأنهم ظلّموا أنفسهم بالكفر والتكذيب، والله تعالى لا يظلم الناس شيئاً، فيزيد في سيئاتهم، أو ينقص

(١) قرأ حمزة والكسائي وخلف العاشر بكسر النون مخففة من (ولكن) ورفع (الناس) بعدها على الابتداء، و(يظلمون) خبر، وقرأ الباقون بتشديد النون مفتوحة، ونصب (الناس) اسم (لكن) و(يظلمون) خبرها.

من حسناتهم، أو يعذبهم من غير ذنب اقترفوه ﴿وَلَكِنَّ الْنَّاسَ أَنْفُسُهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ بالكفر والمعاصي ومخالفة أوامر الله تعالى ونواهيه، وهو الحكم العدل العليم الخبير.

وفي حديث أبي ذرٍّ رضي الله عنه عن النبي ﷺ فيما يرويه عن ربه قال: «يا عبادي، إني حرمت الظلم على نفسي وجعلته بينكم محرماً فلا تظالموا، يا عبادي، كلكم ضال إلا من هديته، فاستهدوني أهدكم، يا عبادي، كلكم جائع إلا من أطعمته، فاستطعموني أطعمكم، يا عبادي، كلكم عارٍ إلا من كسوته، فاستكسوني أكسكم، يا عبادي، إنكم تخطئون بالليل والنهار، وأنا أغفر الذنوب جميعاً، فاستغفروني أغفر لكم، يا عبادي، إنكم لن تبلغوا ضري فتضروني، ولن تبلغوا نفعي فتنفعوني، يا عبادي، لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم كانوا على أتقى قلب رجل واحد منكم، ما زاد ذلك في ملكي شيئاً، يا عبادي، لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم كانوا على أفجر قلب رجل واحد منكم، ما نقص ذلك من ملكي شيئاً، يا عبادي، لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم قاموا في صعيد واحد فسألوني، فأعطيت كل إنسان مسألته، ما نقص ذلك مما عندي إلا كما ينقص المخيط إذا أدخل البحر، يا عبادي، إنما هي أعمالكم أحصيها لكم، ثم أوفىكم إياها، فمن وجد خيراً فليحمد الله، ومن وجد غير ذلك فلا يلومنَّ إلا نفسه»^(١).

المشهد الرابع ليوم القيامة في السورة

٤٥ - ﴿وَيَوْمَ يُحْشَرُهُمْ﴾^(٢) كَانَ لَوْ يَلْبِثُوا إِلَّا سَاعَةً مِّنَ النَّهَارِ يَتَعَارَفُونَ بَيْنَهُمْ قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِلِقَاءِ اللَّهِ وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ ﴿٤٥﴾

في هذه الآية وعيد الخزي والذل والعذاب يوم القيامة لمن كذب الله ورسوله، وبهذا يأتي المشهد الرابع من مشاهد القيامة في الآيات الإحدى عشرة التالية، والمشاهد الثلاثة السابقة كانت في الآية الرابعة والسابعة، ومن الآية الخامسة والعشرين إلى الآية الثلاثين وفي هذه الآية يقول تعالى: ﴿وَيَوْمَ يُحْشَرُهُمْ﴾ أي: اذكر - أيها الرسول وأيها المخاطب - يوم يحشر الله الناس، ومنهم الكفار المكذبون بك وبرسالتك، حين يخرجون من قبورهم

(١) رواه مسلم في صحيحه برقم (٢٥٧٧).

(٢) قرأ حفص (يحشرهم) بالياء، والفاعل ضمير يعود على لفظ الجلالة قبلها. والباقون بنون العظمة.

إلى عَرَصَاتِ الْقِيَامَةِ فِي يَوْمِ الْبَعْثِ وَالْحِسَابِ، كَانَهُمْ لَمْ يَمَكُثُوا فِي الدُّنْيَا إِلَّا وَقْتًا سِيرًا، وَكَأَنَّهُ مَا مَرَّ عَلَيْهِمْ نَعِيمٌ وَلَا بُؤْسٌ، وَهُمْ يَتَعَارَفُونَ فِيمَا بَيْنَهُمْ كَحَالِهِمْ فِي الدُّنْيَا، وَفِي هَذَا الْيَوْمِ يَرْبِحُ الْمُتَقُونَ وَيَخْسِرُ الْمُبْطِلُونَ.

وَأَصْلُ الْحَشْرِ: إِخْرَاجُ الْجَمَاعَةِ وَإِزْعَاجُهُمْ مِنْ مَكَانِهِمْ، وَالْمُرَادُ هُنَا: جَمْعُهُمْ فِي سَاحَةِ الْعَرْضِ وَالْحِسَابِ لِلثَّوَابِ وَالْعِقَابِ، وَحِينَئِذٍ يَشْتَدُّ كَرْبُهُمْ، وَيَنْسَوْنَ مَلَذَّاتِهِمْ وَشَهَوَاتِهِمْ الَّتِي اسْتَمْتَعُوا بِهَا فِي الدُّنْيَا كَأَنَّهَا لِحَفَظَاتٌ يَسِيرَةٌ مَرَّتْ مِنْ حَيَاتِهِمْ، وَهَذَا مَعْنَى: ﴿كَأَنَّ لَوْ يَلْبِثُونَ﴾ أَي: كَأَنَّهُمْ قَبْلَ ذَلِكَ لَمْ يَقِيمُوا فِي دُنْيَاهُمْ أَوْ فِي الْبَرْزَخِ ﴿إِلَّا سَاعَةً مِّنَ النَّهَارِ﴾ أَي: قَدْرَ سَاعَةٍ، وَالسَّاعَةُ: هِيَ الْمَقْدَارُ الْقَلِيلُ مِنَ الزَّمَنِ، الَّذِي لَا يَتَسَعُّ إِلَّا لِكَيْ يَعْرِفَ النَّاسُ بَعْضُهُمْ بَعْضًا، كَأَنَّهُمْ فِي هَذِهِ السَّنَوَاتِ الطَّوِيلَةِ الَّتِي قَضَاهَا الْمَكْذِبُونَ فِي الدُّنْيَا يَتَمَتَّعُونَ بِلَهْوِهَا وَلَعِبِهَا وَيَسْتَبْعِدُونَ الْبَعْثَ وَالْحِسَابَ.

وَقَدْ زَالَتْ ذَاكِرَتُهُمْ فِي يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَكَأَنَّهُمْ لَمْ يَفْعَلُوا شَيْئًا فِي الدُّنْيَا سِوَى التَّعَارُفِ فِيهَا، وَهَذَا مَعْنَى: ﴿يَتَعَارَفُونَ بَيْنَهُمْ﴾ ثُمَّ تَنْقَطِعُ تِلْكَ الْمَعْرِفَةُ لَشِدَّةِ الْأَهْوَالِ، وَكُلُّ مَا كَانَ لَغِيرِ اللَّهِ مِنْ عِلَاقَاتٍ وَصَلَاتٍ انْقَطَعَ، وَتَنْقُضِي هَذِهِ السَّاعَةُ إِمَّا إِلَى جَنَّةٍ أَوْ نَارٍ.

وَكَأَنَّ الْكَافِرَ لَمَّا لَمْ يَنْتَفِعْ بِعَمَلِهِ فِي الدُّنْيَا، كَانَ وَجُودُهُ فِيهَا كَعَدَمِهِ، أَوْ لِأَنَّ إِقَامَتَهُ فِي الدُّنْيَا بِجَوَارِ إِقَامَتِهِ فِي الْآخِرَةِ قَلِيلٌ جَدًّا.

وَقَدْ اسْتَشْعَرُوا هَذَا مِنْ طُولِ مَكْثِهِمْ فِي عَرَصَاتِ الْقِيَامَةِ، وَرَوَّيْتُهُمْ لِأَهْوَالِهَا كَمَا جَاءَ فِي بَعْضِ الْأَثَارِ، أَنَّ الْإِنْسَانَ يَقَابِلُ مَنْ يُحِبُّهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، وَلَا يَسْتَطِيعُ أَنْ يَكَلِّمَهُ؛ لِهَيْبَةِ الْمَوْقِفِ. وَمَوَاقِفُ الْقِيَامَةِ مُخْتَلِفَةٌ، وَأَحْوَالُهَا مُتَعَدِّدَةٌ، وَفِي يَوْمِ الْقِيَامَةِ يَعْرِفُ الْآبَاءُ عَلَى الْأَبْنَاءِ، وَالْأَزْوَاجُ عَلَى الزَّوْجَاتِ، وَالْأَقَارِبُ عَلَى أَقَارِبِهِمْ، كَمَا كَانُوا فِي الدُّنْيَا، وَلَكِنْ كُلًّا مِنْهُمْ مُشْغُولٌ بِنَفْسِهِ، فَلَا يَسْأَلُ بَعْضُهُمْ بَعْضًا شَيْئًا.

قَالَ تَعَالَى: ﴿فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ فَلَا أَنْسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَسْتَأْذِنُونَ﴾ [المؤمنون].

وَقَالَ: ﴿وَلَا يَسْأَلُ حِمِيمٌ حَمِيمًا﴾ يَصْرُوهُمْ يَوْمُ الْمُجْرِمِ لَوْ يَفْتَدِي مِنْ عَذَابِ يَوْمِئِذٍ بَيْنِهِ [١١]

وَصَحْبَتَهُ وَأَخِيهِ ﴿١٢﴾ وَفَصَّلَتِ أَلْفَى تَوْبَةٍ ﴿١٣﴾ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ يُنْجِيهِ ﴿١٤﴾ [المعارج].

وقال سبحانه: ﴿يَوْمَ يَفِرُّ الْفَرُّ مِنْ أَخِيهِ ﴿٢٤﴾ وَأُمِّهِ وَأَبِيهِ ﴿٢٥﴾ وَصَحْبَتِهِ وَبَنِيهِ ﴿٢٦﴾ لِكُلِّ أَمْرٍ مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ ﴿٢٧﴾﴾ [عبس].

وفي ظل هذا المشهد تبدو خسارة الكافر فادحة لا تعدلها خسارة ﴿قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِلِقَاءِ اللَّهِ﴾ لأنهم باعوا الإيمان بالكفر، وباعوا آخرتهم الباقية بدينهم الفانية، وآثروا الفاني على الباقي، لقد خسروا أنفسهم وأهلهم يوم القيامة؛ لأنهم لم يستعدوا للقاء الله، وهذا هو أعظم خسران، ولقاء الله تعالى يكون في يوم الحساب والجزاء الكائن في يوم القيامة، وهو الذي أنكروه في الدنيا وجحدوا ثوابه وعقابه، ولم يكونوا موفقين لإصابة الرشد فيما فعلوه، وهذا الخسران يشمل الدنيا والآخرة، كما صرّحت به الآيات الأخرى؛ كقوله تعالى: ﴿خَسِرَ الَّذِينَ دُنِيَ وَالْآخِرَةَ﴾ [الحج: ١١].

ولا ينجو الإنسان من هذا الخسران إلا بأربعة أمور نصّت عليها سورة العصر وهي:

(أ) الإيمان. (ب) العمل الصالح. (ج) التواصي بالحق. (د) والتواصي بالصبر.

واستشعار قصر الحياة الدنيا في أذهان الناس يوم القيامة بعد الخروج من الأحداث دلّت عليه آيات كثيرة.

وأهل الموقف يختلفون في تقدير الزمن الذي لبثوه في الدنيا على حسب اختلاف أحوالهم ونسبة أهوال الموقف لكل منهم، ولكن هذا الاختلاف يدور كله في دائرة ضيقة، كلها تنبئ عن قصر المدة التي لبثوها في الدنيا فأكثرها عشرة أيام، وأقلها ساعة.

فالمجرمون يقولون يوم القيامة لبعضهم: ﴿إِنْ لِّئْتُمْ إِلَّا عَشْرًا﴾ [طه: ١٠٣]

وأمثلهم طريقة يقول: ﴿إِنْ لِّئْتُمْ إِلَّا يَوْمًا﴾ [طه: ١٠٤].

وفي موقف آخر: ﴿يُقَسِّرُ الْمُجْرِمُونَ مَا لَبِثُوا غَيْرَ سَاعَةٍ﴾ [الروم: ٥٥]

وفي آية أخرى: ﴿كَانَتْ يَوْمَ يَرْوُفًا لِّرَبِّهِمْ إِلَّا عِشَّةَ أَوْ ضُلَّهَا﴾ [النازعات]

وفي موضع آخر: ﴿قُلْ كَمْ لَبِثْتُمْ فِي الْأَرْضِ عَدَدَ سِنِينَ ﴿١١٣﴾ قَالُوا لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ فَسْئَلُ الْعَادِينَ ﴿١١٤﴾﴾ [المؤمنون]. وهكذا.

حُلُولُ الْعَذَابِ بِالْكَفَّارِ إِنْ عَاجِلًا أَوْ آجِلًا

٤٦- ﴿وَأِمَّا زُرِّيكَ بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ أَوْ نَتُوبُكَ فَإِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ اللَّهُ شَهِدٌ عَلَى مَا يَفْعَلُونَ ﴿٤٦﴾﴾

وفي هذه الآية تأكيد لخسران المكذبين بآيات الله، ووقوع العذاب بهم في الدنيا والآخرة، وذلك أنه لما توعد الله الكفار بعذابه في الآيات السابقة، وأن يحل بهم ما حل بالأمم الماضية؛ لعدم إيمانهم وحرص النبي ﷺ على هدايتهم.

بَيَّنَّ ﷺ هنا أن حال عقوبة الكفار يتردد بين حالتين:

حالة التعجيل لهم بالعذاب في الدنيا، وحالة تأخير العذاب إلى الآخرة.

أما الحالة الأولى: فيشير إليها قوله تعالى: ﴿وَأِمَّا زُرِّيكَ﴾ أيها الرسول وأيها الداعي إلى الله ﴿بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ﴾ أي: نريك ببصرك عذابهم في حياتك الدنيا فنطلعك على بعض ما نعدهم به من العقاب، ونتقم منهم في الدنيا؛ لتقر عينك، فإن حدث هذا، فسوف تراه بعينك، وإلى هذا المعنى أشارت الآية السابقة: ﴿وَلَوْ يُعَجِّلُ اللَّهُ لِلنَّاسِ الشَّرَّ اسْتِعْجَالَهُمْ بِالْخَيْرِ لَفُضِيَ إِلَيْهِمْ أَجَلُهُمْ﴾ [يونس: ١١].

وفي عذاب الدنيا -هذا- قال تعالى: ﴿وَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا عَذَابًا دُونَ ذَلِكَ﴾ [الطور: ٤٧] أي: قبل العذاب الأخروي، وقال سبحانه: ﴿وَلَنُذِيقَنَّهُمْ مِنَ الْعَذَابِ الْأَدْنَى دُونَ الْعَذَابِ الْأَكْبَرِ﴾ [السجدة: ٢١].

والعذاب الأدنى يكون في الدنيا أو في القبر؛ جزاء تكذيبهم وأذاهم لرسول الله ﷺ، وقد أنجز الله وعده، فسلب عليهم القحط والمجاعة، حتى كانوا لشدة جوعهم يرون كأن دخانًا بين الأرض والسماء، وهزمهم الله في غزوة بدر والأحزاب والفتح، وكل ذلك حدث في حياة النبي ﷺ، ويحدث مثل ذلك للكفار في كل زمان ومكان، هذا هو الشق الأول من الآية المتضمن نزول العذاب بغير المسلمين في حياة النبي ﷺ.

والحالة الثانية: يشير إليها قوله تعالى: ﴿أَوْ نَتُوبُكَ﴾ أي: قبل وقوع العذاب بهم في الدنيا وحينئذ يكون عذابهم في الآخرة ﴿فَإِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ﴾ أي: إن المرجع إلى الله وحده، سواء وقع بهم العذاب في حياتك أو بعد وفاتك، فهم لن يفلتوا من العقاب في كلا الحالتين.

فإن توفيناك - أيها الرسول - قبل نزول العذاب بهم في الدنيا، أو انقضت آجالهم قبل ذلك، فإن مرجعهم إلينا، وسوف نجازيهم بما يستحقون، والذي حدث لهم في الدنيا، في حياة النبي ﷺ - لا يرفع عنهم عذاب الله في الآخرة؛ وعلى هذا فعقاب الله تعالى لهم على ما فعلوه من سيئات، وما ارتكبوه من موبقات أمرٌ لازم في الدارين، فلا تحزن - أيها الرسول وأيها الداعي إلى الله - ولا تستعجل عذابهم، فإنه نازل بهم لا محالة.

ثم بين تعالى أن مرجعهم إلى الله، وعرض بمجازاتهم وعقوبتهم فقال: ﴿ثُمَّ اللَّهُ شَهِيدٌ عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ﴾ أي: أن الله تعالى شهيدٌ على جميع أفعالهم بعدك، لا يخفى عليه شيء منها، وسوف يعاقبهم عليها، فليس حتمًا على الله أن يريك عاقبتهم، وما ينزل بهم من عقاب في الدنيا، فقد ينقضي أجلك قبل نهايتهم، فالأمر كله لله.

ونظير هذه الآية قوله تعالى: ﴿وَإِن مَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الَّذِي نَعْدُهُمْ أَوْ نتُوفِينَاكَ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ وَعَلَيْنَا الْحِسَابُ﴾ [الرعد]

وقوله: ﴿فَكَيْفَ نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الَّذِي نَعْدُهُمْ أَوْ نتُوفِينَاكَ فَإِنَّمَا يُرْجَعُونَ﴾ [غافر: ٧٧].

قَضَاءُ اللَّهِ بَيْنَ الْأُمَمِ وَالرُّسُلِ

٤٧- ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولٌ فَإِذَا جَاءَ رَسُولُهُمْ قُضِيَ بَيْنَهُمْ بِالْقِسْطِ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ (٤٧)

ثم إن هذا العذاب ليس أمرًا خاصًا بمحمد ﷺ وأمته، وإنما هو قانون عام، يشمل كل أمة ورسولها، وقد جعل الله لكل أمة رسولًا، ومجيء الرسول للأمة هو منتهى الإمهال للأمة السابقة التي كذبت رسولها، واستحققت بذلك عقاب الله.

﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ﴾ خلت قبلكم - أيها الناس - من الأمم ذات الشرائع ﴿رَسُولٌ﴾ أرسلته إليهم لهدايتهم، كما أرسلت إليكم محمدًا ﷺ.

يدعو هذا الرسول أمته إلى طاعة الله وتوحيده، فمنهم من يصدقه ومنهم يكذبه، فيقضي الله بينهم في الدار الآخرة بنجاة المؤمنين وعقوبة المكذبين، وقد يخلو قوم من مجيء رسول إليهم فترة من الوقت؛ فيرفع الله عنهم التكليف في هذه المدة، كما قال تعالى: ﴿لِنُنْذِرَ قَوْمًا مَّا أَتَتْهُمْ مِنْ نَذِيرٍ مِنْ قَبْلِكَ﴾ [القصص: ٤٦].

والمقصود من بعثة الرسول إلى الأمة هو قوله تعالى: ﴿فَإِذَا جَاءَ رَسُولُهُمْ﴾ في الدنيا وبلغهم ما أرسل به إليهم، فصدقه قوم وكذبه آخرون ﴿فُضِيَ بَيْنَهُمْ بِالْقِسْطِ﴾ أي: حَكَمَ الله بينهم بالعدل، فينجي الرسول ومن آمن معه، ويُعَذِّبُ المكذِّبين به عندما يأتي يوم القيامة؛ ليشهد على أمته أنه قد بلغهم رسالة ربه.

وهذا إخبار من الله تعالى يشبه قوله سبحانه: ﴿كُلَّمَا أَلِيقَ فِيهَا فَوْجٌ سَأَلْتُمْ خَزَنَتَهَا أَلَا يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ﴾ ﴿٨﴾ قَالُوا بَلَى قَدْ جَاءَنَا نَذِيرٌ ﴿٩﴾ [الملك: ٨، ٩]

ومجيء الرسول إلى القوم يجعل بعضهم حتماً من أهل العذاب أو من أهل المغفرة؛ لأن عذاب المكذِّبين وإثابة المطيعين، يتوقف على بعثة الرسل، وهذا هو القضاء بالعدل في الآخرة بين الأمة ورسولها، كلٌ بحسب عمله، فمن أطاعه دخل الجنة، ومن عصاه دخل النار.

وعلى هذا: فقد يكون هذا القضاء أو الحكم بينهم في الدنيا، كما حدث للأمم التي استأصلها الله بالعذاب، لما خالفوا رسولهم وكذبوه؛ كقوم نوح وعاد وثمود ولوط وشعيب، وقد رفع الله عن هذه الأمة عذاب الاستتصال والهلاك المدمر، وقد يكون العذاب في الآخرة إذا جمع الله الأمم يوم القيامة للفصل والحساب.

والآية فيها إعلامٌ من الله تعالى بأن تكذيب الرسل هو الذي يجرُّ على الأمم حلول الوعيد بالعقاب.

وكل أمة تُعرض على الله تعالى يوم القيامة في حضرة رسولها؛ ليشهد عليها، ومعها كتاب أعمالها من خيرٍ أو شرٍّ ﴿يَوْمَ نَدْعُوا كُلَّ أُنَاسٍ بِإِمْئَاتِهِمْ﴾ [الإسراء: ٧١].

يُدْعَوْنَ وَمَعَهُمُ الْحَفِظَةُ مِنَ الْمَلَائِكَةِ ﴿وَحَاطَّتْ كُلُّ نَفْسٍ مَعَهَا سَائِقٌ وَشَهِيدٌ﴾ ﴿٧١﴾ [ق].

وكل أمة تأتي بعد أمة كما قال تعالى: ﴿وَأَشْرَقَتِ الْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا وَوُضِعَ الْكِتَابُ وَجِئَتْ بِالشَّاتِرِينَ وَالشَّهَادَةِ وَفُضِيَ بَيْنَهُمْ بِالْحَقِّ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ ﴿٧٢﴾ وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَا يَفْعَلُونَ ﴿٧٣﴾ [الزمر].

وأمة محمد ﷺ آخر الأمم في الخلق، وأول الأمم في البعث والقضاء يوم القيامة.

في الحديث عن أبي هريرة ؓ أن رسول الله ﷺ قال: «نحن الآخرون من أهل الدنيا،

والأولون يوم القيامة، المقضي لهم قبل الخلائق»^(١).

﴿وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ شيئاً من جزاء أعمالهم، فلا يزداد في سيئاتهم، ولا يُنقص من حسناتهم، وإنما يُجازي الله كلاً على قدر عمله، ولا يعذبهم بغير ذنب، ولا يؤاخذهم بغير حجة ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرَى حَتَّى يَبْعَثَ فِي أُمِّهَا رَسُولًا يَتْلُوا عَلَيْهِمْ ءَايَاتِنَا﴾ [الفصص: ٥٩] ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولًا﴾ [الإسراء: ١٥]

وقد حازت هذه الأمة قَصَبَ السَّبْق؛ لشرف رسول الله ﷺ.

الْمُكَذِّبُونَ بِالْبَعْثِ يَسْتَعْجِلُونَ نَزُولَ الْعَذَابِ وَالْقُرْآنُ يُجِيبُهُمْ

٤٨ - ﴿وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ (٤٨)

والكفار في الدنيا كانوا حينما يحذّرهم النبي ﷺ من عذاب يوم القيامة يتهاكّمون من هذا الذي يعدّهم به محمدٌ ﷺ، ولا يصدقون قوله، ويريدون أن يروا بأعينهم هذا العذاب ويحدد لهم وقته، فهم ينكرون وقوعه ويستبعدونه ويقولون للنبي ﷺ: متى هذا الذي تعدنا به إن كنت صادقاً فيما تقول؟ متى هذا الموعود به وهو يوم القيامة، أو متى نزول العذاب بهم في الدنيا؟ ﴿إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ أي: أنت ومن تبعك من المؤمنين.

وقد جاء استعجالهم للعذاب في آيات كثيرة؛ منها قوله تعالى:

﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَلَنْ يُخْلَفَ اللَّهُ وَعَدَهُ﴾ [الحج: ٤٧]

وقوله: ﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَلَوْلَا أَجَلٌ مُّسَمًّى لَجَاءَهُمُ الْعَذَابُ وَلَيَأْتِيَنَّهُمْ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ [العنكبوت: ٥٢]

فما يعدّهم به النبي ﷺ من مجيء يوم القيامة بما فيه العذاب الأخروي، وما يلحق بهم من العقاب والتكيل في الدنيا آتٍ لا محالة.

والمؤمنون يصدقون ذلك ويخافون منه، والذين ينكرون قيام الساعة هم الذين يشكّون فيه ويتعجلون وقوعه ﴿يَسْتَعْجِلُ بِهَا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِهَا وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مُسْفِقُونَ مِنْهَا وَيَعْلَمُونَ

(١) أخرجه البخاري عن أبي هريرة برقم (٨٧٦) وانظر (٢٣٨) هو نهاية حديث حذيفة ؓ في «صحيح مسلم» برقم (٨٥٥) واللفظ له عن أبي هريرة ؓ.

أَنهَآ الْحَقُّ أَلَا إِنَّ الَّذِينَ يُمَارُونَ فِي السَّاعَةِ لَفِي ضَلَالٍ بَعِيدٍ ﴿٤٩﴾ [الشورى]

فَيَوْمَ الْقِيَامَةِ آتٍ عَلَى وَجْهِ التَّأَكِيدِ، وَوُقُوعِ الْعَذَابِ بِالْمَكْذِبِينَ حَاصِلٌ لَا مُحَالَةَ، وَلَكِنْ تَحْدِيدُ الْوَقْتِ لَا يَعْلَمُهُ إِلَّا اللَّهُ، وَالرَّسُولُ ﷺ لَا يَبْلُغُ لِلأُمَّةِ إِلَّا مَا أُمِرَ بِتَبْلِيغِهِ مِمَّا أُطْلِعَهُ اللَّهُ عَلَيْهِ، وَلَيْسَ فِي اسْتَطَاعَتِهِ أَنْ يَعْلَمَ شَيْئًا مِمَّا اسْتَأْثَرَ اللَّهُ بِهِ، وَمِنْهُ قِيَامُ السَّاعَةِ وَمَا فِيهَا مِنَ النِّعَمِ وَالْعَذَابِ.

إِجَابَةُ مُسْتَعْجِلِي الْعَذَابِ

٤٩- ﴿قُلْ لَا أَمْلِكُ لِنَفْسِي ضَرًّا وَلَا نَفْعًا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ لِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ إِذَا جَاءَ (١) أَجَلُهُمْ فَلَا يَسْتَحْزِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ﴾ ﴿٤٩﴾

ثم أرشد الله رسوله أن يجيب الكفار المكذبين للبعث والنشور بجوابين:

الجواب الأول: علم قيام الساعة عند الله تعالى:

أي: إن علم قيام الساعة، وإنزال العذاب بالكفار، عند الله تعالى لا يقدر عليه إلا هو سبحانه، وأنا لا أستطيع أن أدفع عن نفسي ضرًّا ولا أجلب لها نفعًا، إلا ما شاء الله أن يدفع عني من ضر أو يجلب لي من نفع، فأنا عبدُ الله ورسوله، لا أقدر على شيء من ذلك، ولا أقول إلا ما علَّمني ربي، وإذا كنت عاجزًا عن دفع الضر عن نفسي فكيف أدفعه عنكم؟

وتقديم الضر على النفع هنا وفي سورة المائدة: ﴿قُلْ أَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا﴾ [المائدة: ٧٦] أوقع؛ لأن المشركين استبطؤوا ما فيه مضرتهم.

وأما في سورة الأعراف: ﴿قُلْ لَا أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعًا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ﴾ [الأعراف: ١٨٨] فقد قدم النفع على الضر؛ لأن الكلام مسوق لبيان الحقيقة في حد ذاتها، وأن الرسول ﷺ لا

(١) قرأ قالون والبيزي وأبو عمرو بإسقاط الهمزة الأولى مع المد والقصر في (إذا جاء أجلهم)، وقرأ الأصهباني عن ورش وأبي جعفر بتسهيل الهمزة الثانية بين بين، وللأزرق تسهيل الهمزة الثانية وإبدالها حرف مدًّا، ولقبيل تسهيل الهمزة الثانية وإبدالها حرف مد مع القصر، وله أيضًا إسقاط الهمزة الأولى مع المد والقصر، ولرويس إسقاط الأولى مع المد والقصر، وتسهيل الثانية بين بين، والباقون بتحقيق الهمزتين، وكل ذلك من لهجات العرب.

يملك شيئاً من التصرف في هذا الكون، وفي الآيتين جمع بين الأمرين معاً.

أما تحديد وقت قيام الساعة، أو تحديد نزول العذاب بالمشركون، فتعيينه عند الله تعالى بحسب مشيئته، فلكل قوم وقت معين لانقضاء أجلهم ومدتهم ﴿لِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ﴾.

فإذا جاء وقت انقضاء آجالهم وفناء أعمارهم، فإنهم لا يُمهلون ساعة تتأخر فيها أعمارهم، ولا تتقدم آجالهم ساعة عن وقتها المعلوم.

والساعة: هي الزمن اليسير، فأنتم أمة من الأمم، ولكم أجل لحلول العذاب بكم؛ فترقبوا حلوله بكم، فإن سنة الله لا تبدل ﴿وَلَنْ يُؤَخِّرَ اللَّهُ نَفْسًا إِذَا جَاءَ أَجَلُهَا﴾ [المنافقون: ١١].

والأجل قد ينتهي في الدنيا بعذاب الاستئصال لمن كذب رسل الله، وقد يكون انتهاء الأجل بالهزيمة والضياع والتخلف عن ركب الحياة.

الْجَوَابُ الثَّانِي: اسْتِعْجَالُ قِيَامِ السَّاعَةِ لَيْسَ مِنْ مَصْلَحَةِ الْمُكَذِّبِينَ

٥٠ - ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ^(١) إِنْ أَنْتُمْ عَذَابُهُ بَيْنَنَا أَوْ نَهَارًا مَادَا يَسْتَعْجِلُ مِنْهُ الْمُجْرِمُونَ﴾

أي فائدة تحصل لكم إذا عاجلكم الله بالعقوبة كما تطلبون؟ فقد يحدث الإيمان منكم إن أمهلكم الله بعض الوقت؛ فيكون في هذا صلاحكم وسعادتكم.

أخبروني - أيها المكذبون - إن داهمكم عذاب الله في ظلمة الليل، فأخذكم على غرة وأنتم نائمون؟ أو أتاكم وأنتم في سهو وغفلة، مشغولون بأعمالكم في وضح النهار؟ ماذا تكون النتيجة؟

ثم وبّخهم الله تعالى؛ فتعجب منهم، وأنكر عليهم استعجال نزول العذاب بهم في قوله تعالى: ﴿مَادَا يَسْتَعْجِلُ مِنْهُ الْمُجْرِمُونَ﴾ وفي ذلك وضع الظاهر وهو ﴿الْمُجْرِمُونَ﴾ موضع المضمّر عوضاً عن ماذا يستعجلون منه؟ للتنبيه على خطئهم في استعجال العذاب؛ وليسجل عليهم الإجرام.

(١) قرأ الأصهباني وقالون وأبو جعفر بتسهيل همزة (أرأيتم) الثانية بين بين، ولالأزرق تسهيلها بين بين وإبدالها حرف مد مع الإشباع، وقرأ الكسائي بحذف الهمزة الثانية، والباقون بتحقيقها، إلا حمزة عند الوقف فله التسهيل، وكلها لهجات عربية.

والمعنى: أي مصلحة لكم في استعجال الهلاك؟ وشأن أمثالكم أن يطلبوا تأخير العذاب لا تقديمه، وهذا يدل على جهلكم وحمقكم.

فقل - أيها النبي -: يا أيها الكفرة المستعجلون عذاب الله، أخبروني إن جاءكم عذاب الله ليلاً فطرق أبوابكم وقت المبيت، أو جاءكم هذا العذاب نهاراً وأنتم في شؤون معاشكم.

وجواب الشرط محذوف، والتقدير: إن أتاكم عذابه في أحد هذين الوقتين فأهلككم وأتى عليكم، فلماذا تستعجلون شيئاً هذه نتائجه؟

ونظير ذلك قوله تعالى: ﴿قُلْ أَرَأَيْتَكُمْ إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُ اللَّهِ بَغْتَةً أَوْ جَهْرَةً هَلْ يُهْلِكُ إِلَّا الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ (١٧). قال تعالى:

٥١- ﴿أَنْتُمْ إِذَا مَا وَقَعَ ءَامَنُمْ بِهِ ۚ ءَاَلْتَنَ^(١) وَقَدْ كُنْتُمْ بِهِ تَسْتَعْجِلُونَ﴾ (٥١)

في هذه الآية بيان أن الكفار - وهم في الدنيا - يطلبون نزول العذاب بهم، فإذا عاينوه يوم القيامة آمنوا، والقرآن الكريم يصور العذاب كأنه قد وقع بالكفار فعلاً، وأنهم آمنوا عندما رأوا العذاب بأعينهم، وكأن الله تعالى يُبَيِّنُهم في مشهد حاضر يرؤونه الآن.

فيقول: ﴿أَنْتُمْ إِذَا مَا وَقَعَ ءَامَنُمْ بِهِ ۚ﴾ أي: أبعد ما وقع عذاب الله بكم - أيها المشركون - صدقتم وآمنتم وقت لا ينفعكم فيه التصديق؟

قال تعالى: ﴿ءَاَلْتَنَ﴾ تؤمنون في هذه الحالة، بأن العذاب حقيقة، بعد وقوعه بكم، وقد كنتم قبل ذلك تستهزئون به، وتستبعدون وقوعه، وإذا وقع العذاب بهم لا ينفع نفساً إيمانها لم تكن آمنت من قبل أو كسبت في إيمانها خيراً، وهذا زيادة في آلامهم وحسرتهم وتوبيخهم وتأنيبهم وبيان خطئهم.

وقد أخبر ﷺ أن العذاب إذا نزل بالمجرمين طلبوا العودة إلى الدنيا؛ لتدارك ما فاتهم وقالوا: ﴿رَبَّنَا أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَارْجِعْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا إِنَّا مُوقِنُونَ﴾ [السجدة: ١٢].

وبين سبحانه أن هذا الإيمان لا ينفعهم، فقد فات وقته ﴿فَلَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا قَالُوا ءَامَنَّا بِاللَّهِ وَحَدُّهُ

(١) لجميع القراء في (الآن) وجهان: المد ست حركات، أو تسهيل همزة (آن) بين بين، وهو لا يأتي على قصر المد المنفصل لحنص.

وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِ مُشْرِكِينَ ﴿٨٤﴾ فَلَمْ يَكْ يَنْفَعُهُمْ إِيْمَانُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بَاسًا ﴿٨٥﴾ [غافر: ٨٤، ٨٥].

وهذا الإيمان كييمان فرعون حينما رأى الغرق ﴿٨٤﴾ حَتَّى إِذَا أَدْرَكَهُ الْغَرَقُ قَالَ ءَامَنْتُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا الَّذِي ءَامَنْتُ بِهِ بَنُو إِسْرَءِيلَ وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴿٩٠﴾ ءَاكُنْ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلَ وَكُنْتَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ ﴿٩١﴾ [يونس]. ويوم القيامة يتجرعون مرارة العذاب:

٥٢- ﴿ثُمَّ قِيلَ ﴿١﴾ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا ذُوقُوا عَذَابَ الْخُلْدِ هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا بِمَا كُنْتُمْ تَكْسِبُونَ ﴿٥٢﴾﴾

ولما بين سبحانه عذاب الدنيا الذي قد يباغت الكفار في ساعة من ليل أو نهار، بين عذاب الخلد المعد لهم في الآخرة، وهو أشد وأعظم ﴿ثُمَّ قِيلَ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ أنفسهم بالشرك والكفر ﴿ذُوقُوا عَذَابَ الْخُلْدِ﴾ أي: تجرعوا مرارة عذاب الله الدائم بكم أبداً، ويقال لهم تقريراً وتوبيخاً: ﴿هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا بِمَا كُنْتُمْ تَكْسِبُونَ﴾؟ هل تعاقبون إلا بما كنتم تعملون في حياتكم من معاصي الله؟

فهذا هو الجزاء المناسب لمن كفر بالله وكذب بوحيه الذي أنزله على رسله، وهذا كقوله تعالى: ﴿يَوْمَ يُدْعَوْنَ إِلَى نَارِ جَهَنَّمَ دَعَا ﴿١٣﴾ هَذِهِ النَّارُ الَّتِي كُنْتُمْ بِهَا تُكَذِّبُونَ ﴿١٤﴾ أَفَسِحْرٌ هَذَا أَمْ أَنْتُمْ لَا تُبْصِرُونَ ﴿١٥﴾ أَصْلَوْهَا فَاصْبِرُوا أَوْ لَا تَصْبِرُوا سَوَاءٌ عَلَيْكُمْ إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٦﴾﴾ [الطور].

آيَاتُ الْقَسَمِ عَلَى قِيَامِ السَّاعَةِ

٥٣- ﴿وَيَسْتَنبِئُونَكَ ﴿٣﴾ أَحَقُّ هُوَ ﴿٤﴾ قُلْ إِي وَرَبِّي ﴿٥﴾ إِنَّهُ لَحَقٌّ وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ ﴿٥٣﴾﴾

والمشركون مرة يستبطنون قيام الساعة ونزول العذاب بهم على وجه الاستخفاف

(١) قرأ هشام والكسائي ورويس بإشمام كسرة القاف من (قيل) صوت الضم، والباقون بالكسرة الخالصة، وهما لغتان.

(٢) أدغم اللام في التاء من (هل تجزون) هشام وحزمة والكسائي، وأظهرها الباكون.

(٣) قرأ أبو جعفر بحذف همزة (ويستنبتونك) وضم الباء قبلها، ويقف عليها حمزة كأبي جعفر وبالتسهيل بين بين، ويأبدلها ياء خالصة.

(٤) وقف يعقوب على (هو) بهاء السكت.

(٥) فتح الياء من (وربي إنه) وصلًا نافع وأبو عمرو وأبو جعفر، وسكنها الباكون، والباقون يسكنونها وقفًا.

والإنكار، ومرة يُقبلون على النبي ﷺ في صورة المستفهم الذي يطلب صحة الخبر كما في هذه الآية؛ فيسألونه ﷺ: أهذا العذاب الدائم في الدار الآخرة حق، ووقوعه ثابت؟

﴿وَيَسْتَنُفُّوكَ﴾ أي: يسألون ويستوضحون عما وعدتهم به من العذاب على وجه التعنت والاستبعاد لا على وجه التبين والاسترشاد ﴿أَحَقُّ هُوَ﴾؟ أصحح حشر العباد وبعثهم بعد الموت ليوم المعاد وجزاء العباد بأعمالهم، إن خيرا فخير، وإن شرا فشر؟

أهو واقع بهم على سبيل الحقيقة؟ أم أنك تهددهم وترهبهم وتخوفهم؟

﴿قُلْ﴾ لهم - يا رسولنا - مقسما على صحة وقوعه: ﴿إِي وَرَبِّي إِنَّهُ لَحَقٌّ﴾ نَعَمْ والذي بعثني بالحق إنه لواقع بكم، فلن تُفلتوا ولن تفروا من عذابه، فأنتم في قبضته تعالى وتحت تصرفه، وسوف يبعثكم من قبوركم؛ فيحاسبكم ويجازيكم بأعمالكم.

وقد أمر الله نبيه أن يؤكد قسمة على أن البعث حق، بحرف الجواب وهو ﴿إِي﴾ والجملة الاسمية، وإنَّ، ولام الابتداء، والقسم، فهذه خمس مؤكدات لقيام الساعة.

وقد أجابهم القرآن على طريقة الأسلوب الحكيم، بحمل كلامهم على غير المراد؛ تنبيها على أنه كان الأولي بهم أن يسألوا عن طريق الهدى والاسترشاد.

ثم أجابهم الله تعالى على ما أضمره في أنفسهم من التكذيب بقوله: ﴿وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ﴾ أي: لستم بمفلتين من عذاب الله، وكما بدأ خلقكم ولم تكونوا شيئا، كذلك يعيدكم مرة أخرى ليجازيكم بأعمالكم، فأنتم تحت قهره وسلطانه، وفي هذا تعجيز لهم من الخلاص.

كما قال تعالى: ﴿إِنَّ مَا تُوعَدُونَ لَآتٍ وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ﴾ [الأنعام]

وقوله: ﴿إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ [يس].

وهذه الآية ﴿وَيَسْتَنُفُّوكَ﴾ ليس لها نظير في القرآن إلا آيتين اثنتين، وفي الآيات الثلاث يأمر الله رسوله أن يقسم به جل وعلا على تكذيب من أنكر المعاد.

والآية الثانية قوله تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَأْتِنَا السَّاعَةُ قُلْ بَلَى وَرَبِّي لَتَأْتِيَنَكُمُ﴾ [سبأ: ٣].

والثالثة قوله جل شأنه: ﴿زَعَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنْ لَنْ يُعَذِّبَهُمُ اللَّهُ وَرَبِّي لَتُبْعَثُنَّ ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ بِمَا عَمِلْتُمْ وَذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ﴾ [التغابن].

وفي الآيات الثلاث يُقَسِّمُ الله تبارك وتعالى على أن الساعة آتية لا ريب فيها، وأن الله يبعث مَنْ فِي الْقُبُورِ.

أَمْوَالُ الدُّنْيَا لَا تَدْفَعُ عَذَابَ اللَّهِ عَنِ الْكَافِرِ

٥٤- ﴿وَلَوْ أَنَّ لِكُلِّ نَفْسٍ ظَلَمَتْ مَا فِي الْأَرْضِ لَافْتَدَتْ بِهِ وَأَسْرُوا النَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا الْعَذَابَ وَفُضِيَ بَيْنَهُمْ بِالْقِسْطِ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ (٥٤)

أي: أن عذاب الخلد المَقْسَم على وقوعه يوم القيامة، عذاب لا تتحمله أية نفس، على تفاوت الأنفس في احتمال الآلام.

ولذلك: فإن المكذبين بالبعث، حين يكونون في ساحة العرض والحساب، ويرون مقدمات العذاب، فإن الواحد منهم يودُّ لو كان يمتلك جميع ما في الأرض من ذهب ومال ومتاع -على سبيل الفرض- لدفعه مقابل أن يُفدي نفسه من عذاب الله لفعل.

ذلكم قول الله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّ لِكُلِّ نَفْسٍ﴾ كافرة ﴿ظَلَمَتْ﴾ نفسها بالشرك والكفر في الدنيا، لو أن لها كل ما في الدنيا من خزائن وأموال، وأمكنها أن تجعل ذلك فداء لها مِنَ الْعَذَابِ الْآخِرِيِّ؛ لبذله للنجاة من عذاب الله إن قُبِلَ منها ذلك، ولكنه لا يُقبل منهم ولو كان مضاعفاً، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ أَنَّهُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُ مَعَهُ لَيَفْتَدُوا بِهِ مِنْ عَذَابِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَا تُقْبَلُ مِنْهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ (٣٦) يُرِيدُونَ أَنْ يَخْرُجُوا مِنَ النَّارِ وَمَا هُمْ بِخَارِجِينَ مِنْهَا وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّقِيمٌ﴾ (٣٧) [المائدة].

وقال: ﴿وَالَّذِينَ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُمْ لَوْ أَنَّهُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُ مَعَهُ لَافْتَدُوا بِهِ﴾ [الرعد: ١٨].

ويود الكافر كذلك لو فدى نفسه بأهله وولده وعشيرته ﴿يُودُ الْمُجْرِمُ لَوْ يَفْتَدِي مِنْ عَذَابِ يَوْمِهِمْ بِهِ﴾ (١١) وَصَلَاتِهِ وَآخِيهِ (١٢) وَفَصِيلَتِهِ الَّتِي تُؤْوِيهِ (١٣) وَمَنْ فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ يُنْجِيهِ (١٤) كَلَّا إِنَّمَا لَطَىٰ (١٥) نَزَاعَةُ لِلسَّوَى (١٦) تَدْعُوا مَنْ أَدْبَرَ وَتَوَلَّى (١٧) وَجَمَعَ فَأَوْعَى (١٨) [المعارج].

وتنتقل الآية من التقدير والفرض إلى الوقوع الفعلي، كأن العذاب أمر مضى وانقضى.

فنصف الآية الأول على سبيل الفرض، والنصف الآخر كأنه واقع مشاهد، فبيِّن

سبحانه في النصف الثاني من الآية أن المكذبين بالبعث والجزاء سيُسْـَٔرون الندامة في أنفسهم، ويجهشون لرؤية العذاب، ثم يتجلّدون، فلا يظهر منهم صراخ ولا عويل، ولا قول ولا فعل من شدة الهول، وقد أخفى الذين ظلموا حسرتهم في قلوبهم حين أبصروا عذاب الله تعالى واقعا بهم جميعا.

وحكم الله بين جميع خلقه بالعدل، ولا يظلم سبحانه أحدا في الحكم إن كان له أو عليه، فلا يشدد في عذاب الظالم، ولا يتهاون في حق المظلوم، والله تعالى لا يعاقب أحدا بغير ذنب، ولا تزروا وزارة وزر أخرى.

التَّعْقِيبُ عَلَى آيَاتِ الْحَشْرِ

٥٥- ﴿أَلَا إِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ۖ أَلَا إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٥٥﴾﴾

وفي ختام آيات اليوم الآخر، يأتي التعقيب المؤكّد للحشر والحساب، ردّا على المكذّبين به، فقد كانوا يظنون أن ما وعدهم به محمد ﷺ هو من باب التهديد والترهيب، فأكد سبحانه أن البعث حق، وأن الحساب والجزاء حق، مفتتحا ذلك بأن الله تعالى هو المتوحد والمتفرد بملك السموات والأرض وما فيهما وما بينهما، وهو سبحانه المتصرف في الناس، وفي أحوالهم في الدنيا والآخرة، تصرفا لا يشاركه فيه غيره.

وأحوال الناس: منها ما هو في الدنيا، ومنها ما هو في علم الغيب، ومن ذلك الإحياء والإماتة، والبعث والحساب، والجزاء والجنة والنار، فكل ما في السموات والأرض ملك لله وحده، لا شيء من ذلك لأحد سواه، يتصرف فيهما وفق إرادته ومشئته، ولا يُسْـَٔلُ عما يفعل ﴿[الأنبياء: ٢٣] وما سبق كان تمهيدا لقوله تعالى: ﴿أَلَا إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ﴾ هذا هو المقصود من الآية بعد الافتتاح.

والمعنى: ألا إن لقاء الله تعالى وعذابه للمشرّكين كائن لا محالة، كما أن إثابة الطائعين حق لا شك فيه ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ فهم لجهلهم وكفرهم يشكون فيه؛ فلا يعملون للقاء الله تعالى. ﴿وَإِذَا قِيلَ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَالسَّاعَةُ لَا رَيْبَ فِيهَا قُلْ مَا نَدْرِي مَا السَّاعَةُ ۖ إِن نَّظُنُّ إِلَّا ظَنًّا وَمَا نَحْنُ بِمُتَّبِعِينَ﴾ [الجاثية: ٣٢] قال تعالى:

٥٦- ﴿هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾^(١) ﴿٥٦﴾

وبعد أن بين سبحانه عظيم ملكوته، بين عظيم قدرته فقال: ﴿هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ﴾ لا يتعدَّر عليه إحياء الناس بعد موتهم، كما لا يعجزه إماتتهم إذا أراد ذلك ﴿وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ بعد موتكم للحساب والجزاء؛ فيجازي الذين أسأؤوا بما عملوا، ويجازي الذين أحسنوا بالحسنى، فهو القادر على ذلك، العليم بما تمزق واحترق وتقطع من الأجساد في سائر الأقطار والبحار والقفار، فيعيدها إليه ويرجعها كما كانت في الدنيا.

المَوْضِعُ الرَّابِعُ مِنْ حَدِيثِ السُّورَةِ عَنِ الْوَحْيِ وَالرِّسَالَةِ

مَقَاصِدُ الْقُرْآنِ:

٥٧- ﴿يَأْتِيَا النَّاسَ قَدْ جَاءَ تَكْمٌ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَشِفَاءٌ لِمَا فِي الصُّدُورِ﴾^(٢) وَهَدًى وَرَحْمَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ

هذه الآية هي الموضع الرابع في هذه السورة عن الوحي والرسالة، وقد جاء وصف القرآن الكريم فيها بأربعة أوصاف، تُعرِّفُ بشأنه وهديه، وتبين أنه من عند الله، وأن محمداً ﷺ صادقٌ فيما جاءهم به من عاقبة تكذيب الأمم لرسل الله، وأنه يحمل مشعل الهداية للناس أجمعين.

وهذه الآية تحمل مقاصد القرآن الأربعة وأغراضه:

المقصد الأول: جاء في قوله تعالى: ﴿مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ﴾ أي: أن القرآن الكريم فيه الموعظة التي تذكركم الآخرة، وتخوِّفكم عقاب الله ووعده ووعيده، وتحذركم مما يوجب سخط الله تعالى ويفضي إلى عقابه، وفيها التزام الحق واجتناب الباطل، بما اشتمل عليه من العظات والآيات؛ لإصلاح أخلاقكم وأعمالكم، فهو كتاب جامع لكل ما تحتاجون إليه من مواعظ حسنة، ترق لها القلوب، وتخشع لها النفوس، وهذه المواعظ ليست من مخلوق عاجز، لا يحيط بما يُصلح أحوال البشر، إنما هي من ربكم خالقكم ومربيكم.

(١) قرأ يعقوب بفتح التاء وكسر الجيم من (ترجعون) مبنياً للفاعل، والباقون بضم التاء وفتح الجيم مبنياً للمفعول.

(٢) أدغم الدال في الجيم أبو عمرو وهشام وحمزة والكسائي وخلف، وأظهرها الباقون.

(٣) انفرد الشامي بعد (لما في الصدور) آية، وأسقطها غيره من العدد.

والوعظ: هو التذكير بالخير وأعمال البر، والتذكير بعواقب الأمور، والتحذير مما يضر، والزجر عن المعاصي.

والواعظ كالطبيب، يعظ بما يرقق القلوب، ويصلح النفوس عن طريق الترغيب والترهيب، والوعد والوعيد؛ فينهاهم عما فيه ضررهم بالحكمة والموعظة الحسنة.

والذي يتنفع بذلك هم المؤمنون المستعدون بفطرتهم لقبول ما جاء به نبي الهدى، وإن كان الخطاب موجهاً لجميع الناس، أما المشركون فإنهم يحرمون أنفسهم من الانتفاع بموعظة القرآن وشفائه.

والمقصد الثاني: جاء في قوله تعالى: ﴿وَشَفَاءٌ لِّمَا فِي الصُّدُورِ﴾ أي: أن هذا القرآن شفاء وعلاج لما في الصدور من الشبه والشكوك والرجس والدنس والشهوات والشبهات.

وفي القرآن شفاء الأبدان من الأمراض والأسقام، وشفاء الأرواح والقلوب من الشك والخرافة، والزيف والباطل، والقلق والشك، والشقاق والنفاق، والجهل وسائر الأمراض.

ومن أمراض القلوب: الحسد والبغضاء والعداوة والنفاق والرياء ونحو ذلك.

وأمرض القلب: هي الأخلاق الذميمة، والعقائد الفاسدة، والجهل المهلك، وهي أشد خطراً وأضر على القلب من أمراض البدن.

والقرآن يزيل هذه الأمراض القلبية بالوعظ والتذكير، والزجر والتخويف، والترغيب والترهيب، والتحذير، وخص الصدر بالذكر؛ لأنه موضع القلب وغلافه، وهو أعز موضع في بدن الإنسان.

والقرآن يزيل هذه الأمراض بالوعد والوعيد، والبشرى والإنذار، والأدلة والبراهين، فيقدم العبد مراد الله تعالى على مراد النفس، ويزيل الشكوك والشبه القاذحة في النفس حتى يصل القلب إلى أعلى درجات اليقين، وإذا صح القلب من مرضه تبعته الجوارح، فإنها تصلح بصلاحه وتفسد بفساده.

وقد جاء ذكر الوعظ في قوله تعالى: ﴿فَاعْرِضْ عَنْهُمْ وَعَظُهُمْ وَقُلْ لَهُمْ فِي أَنْفُسِهِمْ قَوْلًا بَلِيغًا﴾ [النساء: ٦٣].

وقوله تعالى في وصف التوراة: ﴿مَوْعِظَةً وَتَفْصِيلًا لِّكُلِّ شَيْءٍ﴾ [المائدة: ١٤٥].

ورد في الأثر عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه أن رجلاً اشتكى صدره إلى النبي ﷺ فقال: «اقرأ القرآن يقول الله تعالى: ﴿وَشَفَاءٌ لِّمَا فِي الصُّدُورِ﴾»^(١).

ولعل النبي ﷺ عَلِمَ أن به مرضاً قليلاً؛ فنصح به بذلك.

وعن واثلة بن الأسقع رضي الله عنه أن رجلاً شكى للنبي ﷺ وجع حلقه، فقال: «عليك بالقرآن والعسل، فالقرآن شفاء لما في الصدور، والعسل شفاء من كل داء»^(٢).

وفي قراءة القرآن راحة وسَكِينَةٌ وطمأنينة.

والأمراض الجسدية تنشأ من الأمراض النفسية، وعلاج النفس يُذهب أمراض الحس من الشكوك التي تعترى المرتابين بالعقيدة الصحيحة.

وكما أن الطبيب ينصح المريض، ويذكر له سبب المرض، ويصف له العلاج، وكيفية استعماله، وكيف يداوم على استمرار شفاؤه.

فكذلك الداعي إلى الله، يعظ مريض الهوى والشيطان، ويصف له طريق النجاة من المعاصي والفكاك منها، وكيف يتخلص من أمراضه، وكيف يداوم على إيمانه، ولا يعود إلى ما كان فيه؛ فيزجره بالقرآن، ويبطل له العقائد الضالة، ويبين له ما هو فيه من بدع أو مخالفات، ويعلمه أمور دينه وآدابه، والقواعد التي تحفظ عليه إيمانه، وهي تتمثل في أداء الفرائض، وترك المحرمات، وتوقّي الشبهات، والإكثار من النوافل، وتكرار النصّح والإرشاد، كما تفعل أجهزة الإعلام حين تريد زرع معلومة ما في أذهان رعايا الأمة.

والمقصد الثالث: جاء في قوله تعالى: ﴿وَهُدًى﴾ أي: أن القرآن الكريم فيه الهداية والإرشاد، هداية الناس من الضلالة، وإرشادهم إلى ما فيه صلاحهم وسعادتهم في الدنيا والآخرة، وفيه بيان الخير من الشر والحق من الباطل.

فالهدى هو العِلْمُ بالحق والعمل به، فإذا علم ولم يعمل، فذلك هو الضلال المبين.

ولذلك فإن القرآن الكريم لم ينزل كهيئة التوراة وغيرها من الكتب المنزلّة أسفاراً، كل

(١) أخرجه ابن مردويه وابن المنذر كما في «الدر المنثور» (٧/٦٦٥).

(٢) أخرجه البيهقي في «الشعب» (٢٣٤٤).

سيفر يتناول جانباً؛ كسفر التكوين، وسفر التثنية، وسفر الخروج، من أسفار التوراة، وإنما القرآن الكريم يتخول الناس بالموعظة لهدايتهم فيكرر، أو يذكر بعضاً من القصة في سورة، ويذكر طرفاً آخر منها في سورة أخرى، ويكرر اللفظ والحكم، ويأتي بالموضوع نفسه في أسلوب آخر مفصلاً أو مجملاً؛ ليتوخى هداية الناس بمختلف الطرق التي توصلهم إلى الله ﷻ.

وهذه الهداية ينتفع بها المؤمنون، كما قال سبحانه: ﴿قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدًى وَشِفَاءً وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِي آذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى﴾ [فصلت: ٤٤] فهم لا ينتفعون بما يسمعون، كما لا ينتفعون بما يبصرون، فقلوبهم مقفلة، مطبوع عليها بكثرة الذنوب، لا ينتفعون بشيء ﴿وَنَزَّلْنَا مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلَّا خَسَارًا﴾ [الإسراء: ٨٢].

فالمؤمنون هم الذين يؤثر فيهم القرآن؛ فيشفيهم من الأمراض والعلل، وسائر أمراض القلوب، وأمراض الأبدان، فالقرآن الكريم هدى للمؤمنين، كما قال تعالى: ﴿هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ﴾ [البقرة: ٢] وقال: ﴿سَيَذَكَّرُ مَن يَخْشَى﴾ ⑩ وَيُنَجِّبُهَا الْأَشَقَى ⑪ [الأعلى].

وقال: ﴿وَلَا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلَّا خَسَارًا﴾ [الإسراء: ٨٢].

أي: ولا يزيد القرآن الظالمين إلا هلاكاً وخسارة، فهم لا ينتفعون بشيء منه.

والهداية مترتبة على الشفاء، والشفاء مترتب على الموعظة ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرًا لِّمَن كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ﴾ ⑫ [ق].

وهذه الأوصاف الثلاثة ثابتة للقرآن في حد ذاته، فهو موصوف بأنه موعظة للناس، وأنه شفاء لما في الصدور، وأنه كتاب هداية للبشر، يستوي في ذلك مَنْ عَمِلَ بهذه الأوصاف وَمَنْ أَعْرَضَ عنها.

المقصد الرابع: جاء في قوله تعالى: ﴿وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ أي: أن القرآن الكريم رحمة للمؤمنين، يرحمهم الله تعالى بما جاء فيه من التشريع والتوجيهات الربانية التي تضمنت سعادة الناس في الدنيا والآخرة، أما كون القرآن (رحمة)، فهذه الصفة خاصة بِمَنْ يعمل بها؛ ولهذا جاءت مقيدة بمن ينتفع بها وهم المؤمنون، وهي رحمة في الدنيا والآخرة، وقد وصف الله تعالى سعادة المؤمن في دنياه وأخراه في قوله: ﴿أَرْجِي إِلَىٰ رَبِّكَ رَاضِيَةً مُّرْضِيَةً﴾

﴿٢٨﴾ فَأَدْخِلْ فِي عَبْدِي ﴿٢٩﴾ وَأَدْخِلْ جَنِّي ﴿٣٠﴾ [الفجر].

وهذه الرحمة مترتبة على الهداية، وهي ما يحصل من الخير والإحسان والثواب العاجل والآجل لمن اهتدى بالقرآن، فالهدى أجل الوسائل، والرحمة أكمل المقاصد، فإذا حصلت الهداية وحلت الرحمة حصلت السعادة في الدنيا والآخرة.

فالقرآن موعظة في ذاته أما كونه هدى ورحمة، فإن هذا يكون بالنسبة لمن حصل له حقيقتها، فيتجاوب ويتأثر، أما مَنْ لم تحصل له آثارهما فإنه يجني ثمار إصراره وعناده؛ ولذا فإن الآية قيدت هذين الوصفين بالمؤمنين.

وقريب من هذه الآية قوله تعالى: ﴿يَأْتِيهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَهُمْ بُرْهَانٌ مِنْ رَبِّكَ وَأُنزِلْنَا إِلَيْكُمْ نُورًا مُبِينًا﴾ ﴿١٧٢﴾ فَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا بِاللَّهِ وَاعْتَصَمُوا بِهِ فَسَيُدْخِلُهُمْ فِي رَحْمَةٍ مِنْهُ وَفَضْلٍ وَيَهْدِيهِمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمًا ﴿١٧٥﴾ [النساء].

فَضْلُ اللَّهِ وَرَحْمَتُهُ خَيْرٌ مِنَ الدُّنْيَا وَمَا فِيهَا

٥٨- ﴿قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا﴾^(١) هُوَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ^(٢) ﴿٥٨﴾

فضل الله هو القرآن، تفضل به على عباده، وهو أعظم نعمة ومنة، ورحمته هي الإسلام والإيمان وعبادة الله تعالى التي توجب معرفته ومحبته.

هذه الرحمة، وهذا الهدى، هو فضل الله سبحانه على عباده، ولا ينبغي لهم أن يفرحوا بشيء فرحهم بالإسلام، وفرحهم بالقرآن، وفرحهم بما شرّعه الله تعالى لهم من الحلال والحرام، لا يفرحون بِحُطَامِ الدنيا ومتاعها، ولا بالمنصب والجاه، ولا بالمال والرئاسة، كَفَرَجَهُمْ بأن أعطاهم الله القرآن، وهداهم إلى الإسلام، ووفقهم لطريق الخير والرشاد، هذا هو الشيء الجدير بالفرح والسرور.

إن حضارة الأمم والشعوب لا تقاس بما معها من مادة ولا أموال، وإنما تقاس

(١) قرأ رويس بناء الخطاب في (فلتفرحوا) لمناسبة (قد جاءكم)، وقرأ الباقر بياء الغيب؛ لمناسبة (وهدى ورحمة للمؤمنين).

(٢) قرأ ابن عامر وأبو جعفر ورويس بناء الخطاب في (تجمعون)، والباقر بياء الغيب.

بأخلاقها ودينها وتقواها، وقربها من الله ﷻ، وهذا خيرٌ للناس مما يجمعون من حطام الدنيا ومتاعها.

في عهد عمر رضي الله عنه جاء خراج العراق، فسمع عمر خادمه يصف هذه الأموال التي جاءت من العراق بأنها فضل الله ورحمته، فغضب عمر رضي الله عنه، وقال له: كَذَبْتَ، ليس هذا ما تقصده الآية - فهي لا تعني المتاع الزائل، ولا تعني ما في الدنيا من شهوات - وقرأ عليه الآية: ﴿قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ﴾ (٥٨) (١).

والفرح: لَذَّةٌ وسرورٌ في القلب، تحصل بإدراك الشيء المحبوب والمشتهى، والفرح إذا جاء مقيداً بالخير فهو فرح محمود أمر الله به كما في هذه الآية، وإذا جاء مقيداً بالشر، أو جاء غير مقيد بشيء فهو فرح مذموم، كما في قوله تعالى في وصف الكافر: ﴿إِنَّهُ لَفَرِحٌ فَخُورٌ﴾ [هود: ١٠] وكما في نهى أهل العلم لقارون عن الفرح: ﴿لَا تَفْرَحْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ﴾ [القصاص: ٧٦].

وكما قال تعالى ﴿فَلَمَّا جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَرِحُوا بِمَا عِنْدَهُمْ مِنَ الْعِلْمِ﴾ [غافر: ٨٣]. أخرج الحاكم بسند صحيح عن أبي بن كعب رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «أُنزِلَتْ عَلَيَّ سورة وأمرت أن أفركنكها» قال: قلت: أَسُمِّيتُ لك؟ قال: «نعم» قيل لأبي: أفرحت بذلك يا أبا المنذر؟ قال: وما يمنعني، والله تبارك وتعالى يقول: ﴿قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا﴾ (٢).

وفي لفظ آخر أن رسول الله ﷺ قال لأبي: «إن الله أمرني أن أقرأ عليك القرآن» فقلت: أَسْمَانِي لك؟ قال: «نعم» قيل لأبي: أفرحت بذلك؟ قال: وما يمنعني والله يقول: ﴿قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ﴾ (٣).

(١) «الدر المنثور» (٣٦٨/٤) عن الطبراني وابن أبي حاتم (١٩٦٠/٦).

(٢) «المستدرک» (٣٠٤/٣) قال الحاكم: حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه ووافقه الذهبي وأخرجه أبو داود عن سفيان في «السنن» برقم (٣٩٨٠) وقال الألباني في «صحيح سنن أبي داود» برقم (٣٣٦٧). حسن صحيح.

(٣) أبو عبيد في الفضائل ص ٢١٥ وسعيد بن منصور في «التفسير» (١٠٦٢) وابن أبي شيبة (٥٦٤/١٠) و«المسند» (٢١١٣٦، ٢١١٣٧) وابن أبي حاتم (١٩٥٩/٦) وأبو نعيم في الحلية (٢٥١/١) والبيهقي في «الشعب» (٢٣٥٦) قال محققو «المسند»: حديث صحيح وإسناده حسن.

قال ابن عباس والضحاك والحسن وقتادة: فضل الله هو الإسلام، ورحمته القرآن^(١). وعن أبي سعيد الخدري وأنس رضي الله عنهما: فضل الله القرآن، ورحمته أن جعلكم من أهله^(٢)؛ أي: أن هداكم إلى أتباعه والعمل بما فيه.

وهذا الفضل منه ما هو دنيوي، ويكون بكمال النفس وصحة الاعتقاد واطمئنان القلب، ومنه ما هو أخروي، ويكون بالسعادة الأبدية فيها، وبذلك فليفرح المؤمنون بفضل الله ورحمته.

والفرح فيه تنشيط للنفس وتقوية للرغبة في الازدياد من العلم والإيمان، ولذا أمر الله به في الآية. وكان الرعيل الأول ينظرون إلى المال والثراء على أنه خادم للحياة، وأن القيم المادية لا تمثل قيمة الإنسان، وإنما تمثل قيمه وحضارته ومقياسه في دينه وعقيدته وأخلاقه.

والمراد بقوله تعالى: ﴿حَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ﴾ أي خير من متاع الدنيا وملذاتها، خير من المال والمكاسب والمتاع والنعيم الزائل والحطام الفاني، فجامع المال يفرح بجمعه.

قال تعالى: ﴿الَّذِي جَمَعَ مَالًا وَعَدَّدَهُ﴾ [الهمزة]

وقال تعالى في وصف النار: ﴿تَدْعُوا مَنْ أَدْبَرَ وَتَوَلَّى وَجَمَعَ فَأَوْعَى﴾ [المعارج]. أي: جمع المال وكتّره ووعاه.

وقصّر المعنى على جمع المال مناسب لحال المسلمين والمشرّكين وقت نزول الآية، ويناسب كل زمان ومكان يغلب فيه حب المال؛ ولذا جاء التعبير بلفظ المضارع ﴿يَجْمَعُونَ﴾ المقتضي للتجدد والتكرار.

وقد وصف الله تعالى المشركين بأنهم أصحاب ثروة في آيات كثيرة؛ منها قوله تعالى: ﴿وَدَرَنِي وَالْكَذِبِينَ أُولِيَ النَّعْمَةِ وَمَهَلْهُمْ قَلِيلًا﴾ [المزمل].

وقال في وصف الكافر: ﴿أَنْ كَانَ ذَا مَالٍ وَبَنِينَ﴾ [القلم]

وقال: ﴿لَا يَعْرَنَكَ قَلْبُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي الْبَلَدِ﴾ [١٦٦] مَتَعٌ قَلِيلٌ ثُمَّ مَاؤُهُمْ جَهَنَّمَ وَيَسَسَ

(١) الطبري (١٩٦/١٢) وابن أبي حاتم (١٩٥٩/٦) والبيهقي (٢٥٩٧).

(٢) سعيد بن منصور في «التفسير» (١٠٦٤) وابن أبي شيبة (٥٠١/١٠) والطبري (١٩٤/١٢) وابن أبي حاتم (١٩٥٨/٦) والبيهقي في «الشعب» (٢٥٩٨).

الْمُهَادُ ﴿١٩٧﴾ [آل عمران].

وكان المشركون والمكذبون يحتقرون ضعفاء المسلمين وفقراءهم في كل أمة، كما قال قوم نوح له: ﴿وَمَا زَيْنَاكَ أَتْبَعَكَ إِلَّا الَّذِينَ هُمْ أَرَادُوا أَنْ كَفُرُوا﴾ [هود: ٢٧] وقال الله تعالى لنبيه محمد ﷺ: ﴿وَلَا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ﴾ [الأنعام: ٥٢].

التَّشْرِيعُ حَقٌّ لِلَّهِ وَحْدَهُ

٥٩- ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ لَكُمْ مِنْ رِزْقٍ فَجَعَلْتُمْ مِنْهُ حَرَامًا وَحَلَالًا قُلْ^(١) ۚ اللَّهُ أَدْبَرَ لَكُمْ أَمْرًا عَلَى اللَّهِ تَفَتُّوْا﴾ ﴿٥٩﴾

هذه الآية لبيان أن التشريع في الحلال والحرام حق لله وحده، ولا يجوز لفرد ولا لأمة أن تعتدي على حق الله تعالى، كما أنكر سبحانه على من يفعل ذلك في قوله: ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ ۖ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ﴾ [الأعراف: ٣٢]

وتوعد جل شأنه من يفعل ذلك في الآية التالية بالعقاب والنكال، فقال:

﴿وَمَا ظَنُّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ﴾ أي: أن عقاب الله لهم شديد.

ثم إن المشركين كفروا بنعمة الله عليهم؛ فجعلوا الأموال التي جمعوها من رزق الله لهم، بعضها حلالاً وبعضها حراماً بزعمهم، فحرموا على أنفسهم الطيبات التي أحلها الله لهم، وكان أهل الشرك يحلون من الحرث والأنعام ما شاؤوا، ويحرمون ما شاؤوا، وهم بهذا قد افتروا على الله الكذب، ولزمهم ما ألصقوه بالنبي ﷺ من أنه افترى هذا القرآن واختلقه من تلقاء نفسه، وارتكبوا مثل الحالة التي أنكروها، وهذا الاستدلال يسمى في علم الجدل بالقلب^(٢).

والله ﷻ يقرر ذلك في قوله: ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ لَكُمْ مِنْ رِزْقٍ فَجَعَلْتُمْ مِنْهُ حَرَامًا وَحَلَالًا﴾ وقد عبّر الله عن إعطاء الرزق بالإنزال؛ لأن معظم أموالهم كانت من الثمار والحبوب والأعشاب، وكلها من آثار المطر النازل من السحاب بتكوين الله تعالى، كما أن حياة الإنسان

(١) لجميع القراء وجهان في (آله أذن لكم)؛ الأول: المد المشبع ست حركات، والوجه الآخر: التسهيل بين بين، وهذا الأخير لا يأتي على قصر المد المنفصل لحفص.

(٢) «التحرير والتنوير» (١١/٢٠٧).

والحيوان تتوقف على الطعام والعشب، وهما من آثار المطر، كما قال تعالى: ﴿فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ إِلَى طَعَامِهِ﴾ (٢٤) أَنَا صَبَبْنَا الْمَاءَ صَبًّا (٢٥) ثُمَّ شَقَقْنَا الْأَرْضَ شَقًّا (٢٦) فَأَبْنَا فِيهَا حَبًّا (٢٧) وَعَبْنَا وَغَبًّا (٢٨) وَزَيَّنَّاهَا فَنَمَلًا (٢٩) وَحَدَائِقَ غُلًّا (٣٠) وَفَكَهْهَ وَأَبَّا (٣١) مَنَّاعًا لَكُمْ وَلَا تُفْلِكُمْ (٣٢) [عبس].

وقد أسند الله تعالى رزق العبد إلى السماء في قوله تعالى: ﴿وَفِي أَنْفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾ (٢١) وَفِي السَّمَاءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ (٢٢) فَرَبِّ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ لَحَقُّ مِثَلِ مَا أَنْتُمْ نَاطِقُونَ (٢٣) [الذاريات]
كما عبّر سبحانه بالإنزال عن الإعطاء والرزق والمنح في قوله تعالى: ﴿وَأَنْزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ﴾ [الحديد: ٢٥] وقوله: ﴿وَأَنْزَلْ لَكُمْ مِنَ الْأَنْعَامِ نَمِينَةً أَرْوَجُ﴾ [الزمر: ٦].

ولما حرّم المشركون على أنفسهم ما أحله الله من البحيرة والسائبة والوصيلة والحام، أنكر الله عليهم ذلك في هذه الآية وغيرها.

أتى رجل إلى النبي ﷺ وكان رثّ الهيئة، فسأله النبي ﷺ: «هل لك من مال؟» قال: نعم، فقال له: «مِنْ أَيِّ الْمَالِ؟» قال: من كل المال، من الإبل والرقيق والخيول والغنم، فقال: «إِذَا آتَاكَ اللَّهُ مَالًا فَلْيُرْ أَثَرَهُ عَلَيْكَ» زاد في رواية: فغَدَوْتُ إِلَيْهِ فِي حُلَّةٍ حَمْرَاءٍ^(١).

ثم قرره في شق أذن البحيرة وغيرها وأنكرها عليه؛ لأن في ذلك تحريم لما أحل الله.

وفي هذا بيان أن الوحي المنزل من السماء هو الذي يشرّع للناس الحلال والحرام، ويبين لهم الخير من الشر، والهدى من الضلال، ولو لم يكن هذا التشريع الذي جاء في القرآن لتخبّط الناس وضلوا، فإذا شرعوا لأنفسهم شقوا بتشريعهم، فقد يُحرّمون الحلال، ويحلّلون الحرام، على ضوء ما يحدث في المجتمعات التي لا تحكّم بشرع الله سبحانه، والتي لم تتخذ ما شرعه الله لهم دستوراً وقانوناً يحتكمون إليه، كما حدث في الجاهلية الأولى حيث كان الناس يحرمون على أنفسهم ما أحل الله؛ فيحرمون بعض ما يخرج من الأرض من زرع ونبات على أنفسهم ويجعلونه للآلهة.

(١) ينظر نص الحديث في مسند أحمد (٤٧٣/٣) من حديث أبي الأحوص عن أبيه برقم (١٧٢٣١، ١٧٢٢٩) قال محققوه: إسناده صحيح على شرط مسلم، ورجاله ثقات رجال الشيخين، غير أبي الأحوص فمن رجال مسلم، وأخرجه الترمذي (٢٠٠٦) وصححه الألباني في صحيح الترمذي، وقال الترمذي: هذا حديث حسن صحيح، وأخرجه البيهقي في الشعب (٦١٩٧) وابن حبان (٣٤١٠) والطبراني في الكبير ١٩ (٦٠٦).

ويجعلون بعض الحيوانات التي يحل لهم أكلها محرمة عليهم ويخصونها بالآلهة، ويمنعون ركوبها واستعمالها وذبحها، كما في قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا هَذِهِ أُنْعَمَ أَنْعَدُّ وَحَرَّتْ جَنَّتُ﴾ [الأنعام: ١٣٨] أي: محجورة للآلهة على ضوء ما جاء في قوله تعالى: ﴿وَجَعَلُوا لِلَّهِ مَعًا ذَرًّا مِّنَ الْكَرْبِ وَالْأَنْعَمِ نَصِيبًا فَقَالُوا هَذَا لِلَّهِ بِرَعْمِهِمْ وَهَذَا لِشُرَكَائِنَا﴾ [الأنعام: ١٣٦].

كما أنهم أحلوا الميتة، وحرّموا على أنفسهم أن يطوفوا بالثياب التي يلبسونها، وقالوا: لأننا قد اقتصرنّا فيها المعصية، فلا يحل لنا أن نلبسها في الطواف، وهكذا حرّموا على أنفسهم ما أحل الله.

ولذلك يقول ربُّ العِزة جل في علاه، مبيّنًا فضله ورحمته بتحليل ما حرّمه على أنفسهم، ورفع الأغلال التي قيدوا بها أنفسهم: ﴿قُلْ﴾ - يا أيها الرسول - لهؤلاء الجاحدين للوحي، منكراً عليهم ما ابتدعوه في دين الله ﴿أَرَأَيْتُمْ﴾ أخبروني عما ﴿أَنْزَلَ اللَّهُ لَكُمْ مِّن رِّزْقٍ﴾ من حيوان ونبات وثياب وحرث، وهذا استفهام على سبيل التوبيخ والزجر.

﴿فَجَعَلْتُمْ مِّنْهُ﴾ أي: بعضه ﴿حَرَامًا﴾ على أنفسكم ﴿وَحَلَّلَّا﴾ أي: وجعلتم بعضه حلالاً بأهوائكم وبغير هدى من وحي ﴿قُلْ ءَاللهُ أَذِنَ لَكُمْ﴾ في هذا التحليل والتحريم؟ بل أنتم كاذبون على الله في ادعائكم.

وكفى بهذه الآية زاجراً بليغاً عن التجاوز في أحكام الله تعالى ﴿أَمْ عَلَى اللَّهِ تَفْتُونَ﴾ الكذب والبهتان في الحلال والحرام. قال تعالى:

٦٠ - ﴿وَمَا ظَنُّ الَّذِينَ يَفْتُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ يَوْمَ الْقِيَمَةِ إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ﴾^(١)
وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَشْكُرُونَ ﴿٦٠﴾

أي أيحسب الذين يحللون لأنفسهم ما حرم الله، ويحرّمون ما أحل الله، ويفترون على الله الكذب، أن الله لا يؤاخذهم ولا يجازيهم على سوء عملهم؟ فما ظنهم يوم لقاء ربهم؟ ماذا يفعل بهم ربهم؟ هل يتركهم ويصفح عنهم أم يجازيهم ويعاقبهم؟ قال تعالى ﴿وَيَوْمَ الْقِيَمَةِ تَرَى الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَى اللَّهِ وَوُجُوهُهُمْ مُّسْوَدَّةٌ﴾ [الزمر: ٦٠]

(١) أمال ألف (الناس) دوري أبي عمرو وحده، وفتحها باقي القراء.

وفي هذا توبيخ وتقريع لهم؛ لأنهم لا يشكرون تفضله عليهم، وقد تفضل عليهم بالرزق والموعظة والإرشاد، ولم يعاجلهم بالعقوبة في الدنيا فقابلوا ذلك بالكفر دون الشكر، وقابله المؤمنون بالفرح والسرور والشكر، فانتفعوا به في الدنيا والآخرة.

وقد بين سبحانه أن كثيرا من الناس لا يقوم بواجب شكر النعم، فهم إما لا يقوموا بشكرها أصلا، وإما أن يستعينوا بها على معاصي الله، وإما أن يحرموا منها ما أحل الله، وقليل منهم الشاكر الذي يعترف بنعمة الله تعالى ويؤدي شكره فيها.

ويؤخذ من هذه الآية أن الأصل في الأطعمة هو الحل، إلا ما ورد الشرع بتحريمه، لأن الله تعالى أنكر على من حرم الرزق الذي أنزله الله لعباده وأحله لهم.

إِحَاطَةُ عِلْمِ اللَّهِ تَعَالَى بِكُلِّ شَيْءٍ

٦١ - ﴿وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ^(١) وَمَا تَتْلُوا مِنْهُ مِنْ قُرْآنٍ وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ وَمَا يَعْزُبُ^(٢) عَنْ رَبِّكَ مِنْ مِثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ وَلَا أَصْغَرَ مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْبَرَ^(٣) إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ ﴿٦١﴾

هذه الآية تبين إحاطة علم الله تعالى بكل شيء، فهو سبحانه يعلم أحوال الخلق، ويعلم حركاتهم وسكناتهم، ويعلم حركات الدواب والأشجار والأسماك والطيور والأفلاك والنبات وغير ذلك، والله ﷻ يقول لرسوله: لا تحزن من كذب وضلال الفسقة المجرمين، الذين يكذبونك ولا يؤمنون بما أنزل عليك، فأنت في حمايتنا ورعايتنا، ونحن نراك في قلبك، وفي جميع حركاتك وسكناتك، ونرى أفراد أمتك وأصحابك على وجه الخصوص، ونراك في أحوالك الخاصة والعامة، ونراك وأنت تدعو إلى الله على بصيرة، وأنت تتلو القرآن على أمتك، نراك في جميع أحوالك.

(١) قرأ الأصبهاني عن ورش وأبو جعفر وأبو عمرو بخلف عنه بإبدال همزة (شأن) ألفًا، وكذا حمزة عند الوقف، وحققها ساكنة الآخرون.

(٢) قرأ الكسائي بكسر الزاي من (يعزب)، والباقون بضمها.

(٣) قرأ حمزة ويعقوب وخلف العاشر برفع الراء من (ولا أصغر ولا أكبر) عطفًا على محل (مثقال) و(من) مزيدة، وقرأ الباقيون بفتحهما، عطفًا على لفظ (مثقال) أو (ذرة) فهما مجروران بالفتحة لمتنهما من الصرف.

﴿وَمَا تَكُونُ﴾ أيها الرسول ويا أيها المخاطبون ﴿فِي شَأْنٍ﴾ أي: أمر من الأمور الدينية والدينية في الأحوال العامة؛ كأعمال الخير والبر وتدبير شؤون المسلمين، أو في شأن من شؤون الدنيا وأحوالك الخاصة، أو في شأن من شؤون الدعوة وغيرها، ويُسمى القرآن الكريم ما يتعلق بالرسول شأنًا.

والشأن: هو الأمر الهام الخطير، والقرآن أعظم شؤون النبي ﷺ وفيه دعوة الناس وهدايتهم.

وُحِصَ القرآن بالذكر؛ لشرفه وعلو مرتبته، فقال تعالى: ﴿وَمَا نَتْلُوا مِنْهُ مِنْ قُرْآنٍ﴾.

أي: وما تقرأ من آيات الله تعالى المسطورة.

ويسمى القرآن ما يتعلق بالأمة عملاً، وهو أدنى من الشأن فيقول: ﴿وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ﴾ وهذا خطاب للنبي ﷺ وأُمَّته؛ لأن القوم يتبعون رئيسهم، والعمل بالنسبة للرسول ﷺ هو تبليغ الدعوة، وما يتعلق بها، وما يعملُه أحد من هذه الأمة يُسمى عملاً سواء أكان خيراً أم شراً.

قال تعالى ﴿إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا﴾ أي: رقباء على أعمالكم الظاهرة والباطنة، مٌطلعين عليكم، مشاهدين لكم، نراكم ونطلع على كل صغيرة وكبيرة؛ أي: حين تدخلون وتخوضون في هذا العمل، وتستمرون عليه، ولا يغيب ولا يبعد عن ربك مثل وزن الذرة من الجزئيات والكماليات، مهما صغر أو كبر، في العالم العلوي أو السفلي، كالنملة أو الهبأة، ومنها ما يتطاير في شعاع الشمس، فلا يغيب عن علمه تعالى ما هو أصغر من الذرة مما لا يرى.

ومن المخلوقات ما لا يرى بالعين ولا بالمِجهر، كما قال تعالى: ﴿فَلَا أَقِمْ بِمَا تُبْصِرُونَ﴾ (٣٨) ﴿وَمَا لَا تُبْصِرُونَ﴾ (٣٩) [الحاقة] ومن الأشياء التي قد تقعون فيها مما لا تبصرونها، ولا ترونها، وقد عَلِمَهَا الله سبحانه ويحيط بها جميعاً، فيُحصيها عليكم ويجازيكم بها، وكلها واضحة عند الله سبحانه، أحاط بها علمه، وجرى بها قلمه، والكتاب المبين: هو اللوح المحفوظ.

ومن مراتب القضاء والقدر: علم الله المحيط بجميع الأشياء، وكتابته المحيطة: بجميع الحوادث، كقوله تعالى ﴿أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِنَّ ذَلِكَ فِي كِتَابٍ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ﴾ [الحج: ٧٠].

وقد ابتدأت الآية بذكر شؤون النبي ﷺ الخاصة كقيام الليل .

وثنت بما هو من شؤونه ﷺ بالنسبة إلى الناس عامة، وهو تلاوة القرآن عليهم .

وثلثت بما هو من شؤون الأمة في ﴿وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ﴾ وهو شامل للنبي ﷺ معهم،

وهو تعميم بعد تخصيص .

ونظير هذه الآية قوله تعالى: ﴿عَلِمَ الْغَيْبُ لَا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ وَلَا أَصْغَرُ مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْبَرُ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ﴾ [سبأ: ٣] .

وفي إحاطته سبحانه بكل صغيرة وكبيرة نظائر كثيرة من الآيات، منها قوله تعالى: ﴿عِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَا تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٌ فِي ظُلُمَاتِ الْأَرْضِ وَلَا رَطْبٌ وَلَا يَابِسٌ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ﴾ [الأنعام: ٥٩] .

فأخبر سبحانه أنه يعلم حركة الأشجار، ونمو الحبة في جوف الأرض، وحركة السمك تحت الماء، كما أنه سبحانه يعلم تحرك الدواب وهي تسرح في جحورها، وحركة الطيور وهي تحلق في جو السماء ﴿وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا كُلٌّ فِي كِتَابٍ مُبِينٍ﴾ [هود: ٦١] .

ويعلم سبحانه سكنات وحركات عبادته في غدوهم ورواحهم، وقيامهم وقعودهم، وركوعهم وسجودهم ﴿الَّذِي يَرَبُّكَ حِينَ تَقُومُ﴾ [٦٨] ﴿وَتَقُوبُكَ فِي السَّجْدِ﴾ [٦٩] [الشعراء: ٢٢] .

وهو سبحانه مطلع علينا، ويرانا في جميع أحوالنا، ولما سأل جبريل رسول الله ﷺ عن الإحسان قال: «أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك»^(١) .

فراقبوا الله في أعمالكم وأدوها على وجه النصيحة، فإنه مطلع عليكم عالم بظواهركم وبواطنكم .

أُولِيَاءُ اللَّهِ تَعَالَى

٦٢- ﴿أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ﴾^(٢) ﴿عَلَيْهِمْ﴾^(٣) ﴿وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [٦٢]

(١) من حديث عمر بن الخطاب الطويل في «صحيح مسلم» برقم (٨١) وغيره .

(٢) قرأ يعقوب بفتح الفاء وعدم التنوين في (لا خوف)، والباقون بالضم والتنوين .

(٣) قرأ حمزة ويعقوب بضم الهاء من (عليهم)، والباقون بكسرها، ووصل الميم بحرف مد ابن كثير وقالون بخلفه .

لما وصف الله سبحانه عباده المؤمنين بأنه يشاهدهم في كل حال، سيّما حين يشرعون في الأعمال الصالحة بقوة واهتمام وجدّ ونشاط؛ طلباً لمرضاة الله تعالى، ومصابرةً لأذى المشركين، وذلك في قوله سبحانه: ﴿وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ﴾ شرع بعد ذلك يُعرّف بعباد الله هؤلاء، فهم أولياؤه الصالحون، ويبيّن كرامتهم عند الله، وما أعدّ لهم من عاجل الثواب في الدنيا وآجله في الآخرة.

وأفضل الخلق رُسُلُ الله، ثم أنبياءه، ومحمد ﷺ أفضل الخلق، والصحابة بعد الأنبياء، ثم القرون الثلاثة التي ذكرت في الحديث، ثم المؤمنون المتقون، فافتتح الله الكلام بأداة التنبيه ﴿آلَا﴾ إشارة إلى أهمية ما بعدها؛ كي يجذب انتباه السامع.

والولي: هو القريب من الله تعالى غاية القُرب، يؤدي الفرائض، ويكثر من النوافل، ويستغرق في الطاعة، ويجتنب المحرمات، ويتوقّى الشبهات، وحيثما يكون العبد يكون الله تعالى قريباً منه ﴿اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ ءَامَنُوا يُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ﴾ [البقرة: ٢٥٧].

في الحديث القدسي: «إذا تقرب العبد مني شبراً تقربت منه ذراعاً، وإذا تقرب مني ذراعاً تقربت منه باعاً، وإذا تقرب مني باعاً أتيتُهُ هرولة»^(١).

وفي حديث أبي هريرة ؓ قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الله تعالى قال: مَنْ عادى لي ولياً فقد آذنته بالحرب، وما تقرب إليّ عبدي بشيء أحب إليّ ممّا افترضته عليه، ولا يزال عبدي يتقرب إليّ بالنوافل حتى أحبه، فإذا أحبته كنتُ سمعه الذي يسمع به، وبصره الذي يبصر به، ويده التي يبطش بها، ورجله التي يمشي بها، ولئن سألني لأعطينه، ولئن استعاذني لأعيذنه»^(٢).

والولاية ضد العداوة، وأصلها المحبة والقرب، وأصل العداوة، البغض والبُعد. والولي ليس معصوماً من الخطأ، فقد يقع منه بعض اللطم، وتشبهه عليه بعض الأمور. والولي: هو الذي تولّى ربّه بالطاعة والعبادة والمحبة والقرب منه، وتولاه الله ﷻ

(١) من حديث أبي هريرة في المسند (١٠٦١٩) بإسناد صحيح على شرط الشيخين، وذكره الحافظ في الفتح في شرح الحديث رقم (٧٠٧٩) وأخرجه مسلم والترمذي وصححه الألباني.

(٢) البخاري (٦٥٠٢) كتاب الرقاق، باب التواضع.

بمحبتة وكرامته وعونه، وهذه الولاية تُبعد أهلها عن الخوف والفرح والحزن في الدنيا والآخرة، وهؤلاء الأولياء لا يخافون إذا خاف الناس، ولا يحزنون إذا حزن الناس، لا يخافون من المستقبل؛ فهم في مأمن منه، ولا يخافون من الموت؛ فهم يحبون لقاء الله، ولا يخافون من القبر؛ فهم في مأمن من فتنته، وهم في مأمن من عذاب الآخرة كذلك، وهم لا يخافون أيضًا من زوال الدنيا ولا يهتمون بها.

والخوف: حالة نفسية، تجعل الإنسان مضطرب المشاعر لما يتوقعه من مكروه.

والحزن: اكتئاب نفسي وانكسار يحدث للإنسان عند حصول المكروه.

وهؤلاء الصالحون قد عملوا لما يُسعدهم في الدنيا والآخرة، فلا يخافون من المستقبل، ولا يحزنون عمّا فاتهم في الدنيا من مال ومتاع وما إلى ذلك، فإذا آمنوا من الخوف والحزن، ثبت لهم الأمن والسعادة وتحقق لهم الخير الكثير.

وكيف يخاف أولياء الله أو يحزنون والله معهم في كل شأن وفي كل عمل، وكل حركة أو سكون، فهم على اتصال بالله تعالى لأنهم أولياؤه.

أحاديث في معنى الآية:

١- عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «إن من عباد الله عبادًا يغبطهم الأنبياء والشهداء» قيل: مَنْ هم يا رسول الله؟ لعلنا نحبه، قال: «هم قوم تحابوا في الله من غير أموال ولا أنساب، وجوههم نور، على منابر من نور، لا يخافون إذا خاف الناس، ولا يحزنون إذا حزن الناس» ثم قرأ الآية^(١).

٢- وعن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «إن من عباد الله ناسًا يغبطهم الأنبياء والشهداء» قيل: مَنْ هم يا رسول الله؟ قال: «قوم تحابوا في الله من غير أموال ولا أنساب، لا يفزعون إذا فزع الناس، ولا يحزنون إذا حزنوا» ثم تلا رسول الله ﷺ:

(١) النسائي في «السنن الكبرى» برقم (١١٢٣٦) وابن حبان برقم (٢٥٠٨) والطبري (٢٠/١٥) وأبو داود برقم (٣٥٢٧) وغيرهم وصححه الحاكم بموافقة الذهبي في «المستدرک» (٤/١٧٠) عن ابن عمر بنحوه، وصححه الشيخ محمود شاكر في حاشية الطبري، وصححه أيضًا محقق ابن حبان، وله شاهد صحيح عن أبي مالك الأشعري عند أحمد برقم (٢٢٨٩٤، ٢٢٩٠٦) وحسنه المنذري في الترغيب (٤/٢١) والهيتمي في «مجمع الزوائد» (١٠/٢٧٦).

﴿أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لَا خَوْفَ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾^(١).

٣- وعن أبي مسلم قال: لقيت معاذ بن جبل بحمص، فقلت: والله إني لأحبك لله، قال: أبشر، فإني سمعت رسول الله ﷺ يقول: «المتحابون في الله في ظل العرش، يوم لا ظل إلا ظله، يغبطهم بمكانهم النبيون والشهداء» ثم خرجت فلقيت عبادة بن الصامت، فحدثني بالذي قال معاذ، فقال عبادة: سمعت رسول الله ﷺ يروي عن ربه ﷻ أنه قال: «حَقَّتْ محبتي للمتحابين فيَّ، وحَقَّتْ محبتي للمتناصبين فيَّ، وحقت محبتي للمتزاوئين فيَّ، وحَقَّتْ محبتي للمتباذلين فيَّ، على منابر من نور، يغبطهم النبيون والصديقون»^(٢).

الإيمانُ والتَّقْوَى شَرْطَا الْوَلَايَةِ

٦٣- ﴿الَّذِينَ ءَامَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ﴾^(٣)

هذه الآية لبيان صفة الأولياء، وأن مَنْ آمَنَ بالله واتَّقاه فهو داخل في ولاية الله، وهم قوم تحابوا في الله، واجتمعوا في ذاته، لم تجمعهم قرابة ولا مال ولا مصلحة.

وقد عَرَّفَ الله الأولياء بأنهم ﴿الَّذِينَ ءَامَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ﴾^(٣) آمنوا بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر وبالقضاء خيره وشره، وصدَّقوا إيمانهم بامثال الأوامر واجتناب النواهي، فكل مَنْ كان مؤمناً تقياً كان لله ولياً، هذا هو التعريف للولي في هذه العبارة الوجيزة، وهو يشتمل على أمرين اثنين: الإيمان والتقوى.

والإيمان: ما وَقَرَّ في القلب وَصَدَّقَهُ العمل، فالولي الذي لا تُصَدِّقُ أفعاله أقواله، كاذب في ادعاء الولاية، والذي لا يمثل أمر الله تعالى ولا يجتنب نهيه؛ لا يَصْدُقُ عليه تعريف الولاية.

وفي حديث ابن عباس ؓ أن رجلاً قال: يا رسول الله، مَنْ أولياء الله؟ قال: «الذين

(١) «صحيح سنن أبي داود» برقم (٣٠١٢) وفي أبي داود (٣٥٢٧) والتعليق الرغيب (٤/٤٧)، والبيهقي في «الشعب» (٨٩٩٨) والطبري (٢١١/١٢) وابن أبي حاتم (١٩٦٣/٦).

(٢) عبد الله بن أحمد، «المسند» (٢٢٧٨٢) قال محققوه: إسناده صحيح ورجاله ثقات، ورواه ابن أبي شيبة (١٣/١٤٥)، وابن حبان (٥٧٧) وعن معاذ بن جبل في المسند (٢٢٠٦٤) بإسناد صحيح.

إِذَا رَأَوْا ذُكْرَ اللَّهِ^(١).

والتقوى: هي امتثال أوامر الله تعالى واجتناب نواهيه، بأن تجعل بينك وبين عذاب الله وقاية، وأن يستوي الظاهر عند العبد والباطن، فلا يكون مُشْعُوذًا، ولا دَجَّالًا، ولا مستعينًا بالشياطين أو الجن، وليس من أهل الطواف حول الأضرحة، ولا مِمَّنْ ينذر لعباد الله، ولا ممن يذبح لغير الله، ولا ممن لا يتفق مظهره مع الإسلام؛ كأن يخالط النساء ويختلي بهن، أو يدّعي الكرامات، أو يعمل السحر والتائم والأحجية، أو نحو ذلك، فإن هذا كله من ولاية الشيطان، أما أولياء الله سبحانه، فهم الذين يحبون الله ويحبهم الله، فيمثلون أمره ويجتنبون نهيه.

والولاية لا تورث عن الآباء والأجداد، فابن نوح كان كافرًا، وابن آدم كان قاتلًا، وليست الولاية حرفة ولا مهنة يرتزق منها بعض الناس، والولي لا يحب ثناء الناس ولا مدحهم؛ لأن الإسلام أمرنا أن نحثو التراب في وجوه المداحين.

والولي يكون في الظاهر ممثلاً لأوامر الله سبحانه، إذا سمع النداء كان أول من يعمر بيت الله في الصفوف الأولى، بل في روضة المسجد، محافظاً على الفرائض، مكثراً من النوافل، مجتنباً لما فيه من الشبهات والريبة، ولا يضع نفسه في موضع التهم، بحيث يتحدث الناس عنه ويسئون فيه الظن.

بُشْرَى الْأَوْلِيَاءِ فِي الدَّارَيْنِ

٦٤- ﴿لَهُمُ الْبُشْرَىٰ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ لَا يَبْدِلُ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ ذَٰلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾

هؤلاء الأولياء يقول الله عنهم: ﴿لَهُمُ الْبُشْرَىٰ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ﴾.

أما بشرى الآخرة فهي الجنة قولاً واحداً، وهي الفضل الكبير الذي أعده الله للمتقين يوم لقائه، قال تعالى: ﴿وَيُنِيرُ الْمُؤْمِنِينَ يَٰٓأَنَّ لَهُم مِّنَ اللَّهِ فَضْلًا كَبِيرًا﴾ [الأحزاب].

(١) رواه البزار في «كشف الأستار» برقم (٣٦٢٦) مرفوعاً، ورواه الطبري في تفسيره (١١٩/١٥) عن سعيد بن جبير، مرسلاً، وهو عند الحكيم الترمذي (٣٩/٢) وابن المبارك (٢١٨) وابن أبي حاتم (١٩٦٤/٦) قال الهيثمي في «مجمع الزوائد» (٧٨/١٠): رواه البزار عن شيخه علي بن حرب الرازي ولم أعرفه، وبقية رجاله وثقوا، وأخرجه أحمد عن أسماء بنت يزيد (٢٧٥٩٩) وهو حديث حسن بشواهده.

وأول بشرى الآخرة تكون عند قبض أرواحهم، كما قال تعالى ﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَمُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ﴾ (٣٠) نَحْنُ أَوْلِيَائُكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ ﴿[فصلت].

وفي القبر ما يبشر به من رضوان الله تعالى والنعيم المقيم، وتمام البشرى في الدار الآخرة بدخول جنات النعيم والنجاة من العذاب الأليم.

أما بشرى الدنيا فهي ثناء الناس ومحبتهم، والرؤيا الصالحة يراها العبد أو تُرى له، والوعد من الله تعالى بالنصر على الأعداء

وولي الله لا يُرائي، ولا يحب ثناء الناس، ولا يقصد ذلك، ولكنه يتغني بعمله وجه الله تعالى، ولا يقبل هذا الثناء إذا كان في حضرته.

ومن البشرى لأولياء الله إجابة الدعاء وقبوله، ولا مانع أن تطلب من أخيك المسلم أن يدعو لك بظهر الغيب أي مسلم كان.

ومما ترسب في أذهان بعض العامة أن يذهب بعض الناس إلى أحد الأولياء الصالحين من الأموات أو الأحياء، يعتقد أنه أقرب إلى الله تعالى وأطهر نفساً عنده سبحانه، ودعوته مستجابة، فهو يتوسل به ويتخذ واسطة تقربه إلى الله تعالى، وهذا هو عينُ الشُّرك الذي كان يفعله أهل الجاهلية.

وَفَرَّقَ بَيِّنَ أَنْ تطلب من أخيك الدعاء بظهر الغيب، وبين أن تتخذ واسطة بينك وبين الله، أو تتوسل به إلى الله تعالى أو تستشفع به عنده.

ومن البشرى في الدنيا لعباد الله الصالحين، ظهور الكرامات لأولياء الله، والكرامات ظهرت لعدد من الصحابة ومن بعدهم:

١- فهذا عُمر رضي الله عنه وهو يخطب على منبر رسول الله ﷺ في المدينة يوجّه قائد الجيش، وكان اسمه (سارية) وبينهما مسافة بعيدة، وأخذ يناديه بصوته العادي المجرد، يقول له: يا سارية الجبل؛ أي: الزم الجبل يا سارية، فسمع سارية صوت عُمر من فوق المنبر بالمدينة، وهذه كرامة أعطاها الله تعالى لعُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ رضي الله عنه.

٢- وهذا عبادة بن الصامت رضي الله عنه كانت الملائكة تسلم عليه، وأبو الدرداء وسلمان

الفارسي كان الطعام يسبح في الإناء الذي يأكلان فيه .

٣- وهذه أم جريج العابد، دعث عليه أن لا يميته الله حتى يُريه وجوه المومسات فتحققت فيه دعوة أمه .

٤- وفي الصحيحين أن طفلاً رضيعاً رأت أمه وهي تحمله رجلاً فارساً على فرسه، فقالت: اللهم اجعل ولدي مثل هذا الفارس، جاء في الحديث أن هذا الرضيع التفت إلى الرجل الفارس ونطق قائلاً: اللهم لا تجعلني مثله .

هذه نماذج من الكرامات التي يعطيها الله تعالى لأوليائه، ولكنها لا تنفع الآخرين، لا تنفعك أنت أيها العبد بشيء، بحيث تقترب إليه وتستشفع به كوسيلة تقربك من الله ﷻ .

ومن البشرى في الدنيا لأولياء الله، أن ملائكة الرحمة تأتيهم عند الاحتضار للموت وتبشرهم بالجنة، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَمُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ﴾ يعني: عند الموت ﴿أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ﴾ [فصلت: ٣٠] .

والآية التي بعدها تنطق ببشرى أولياء الله في الآخرة، فتبين أنها الجنة التي وعدهم الله إياها، والملائكة تقول لهم: ﴿نَحْنُ أَوْلِيَائُكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ وَلَكُمْ فِيهَا مَا نَشْتَهِي أَنْفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدْعُونَ﴾ ﴿٣١﴾ نَزَّلَا مِنْ عَقُورٍ رَجِيمٍ ﴿٣٢﴾ [فصلت] .

وأولياء الله لا يَفْرَعُونَ إذا فزع الناس يوم القيامة، وتتلقاهم الملائكة بالبشرى، فضلاً عن أنهم ناجون من النار، وهو الفوز العظيم قال تعالى: ﴿فَمَنْ ذُحِرَ عَنِ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ﴾ [آل عمران: ١٨٥]

وقال سبحانه: ﴿إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُمْ مِنَّا الْحُسْنَىٰ أُولَٰئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ ﴿١٦١﴾ لَا يَسْمَعُونَ حَسِيسَةً وَهُمْ فِي مَا اشْتَهَتْ أَنْفُسُهُمْ خَالِدُونَ ﴿١٦٢﴾ لَا يَحْزَنُهُمُ الْفَزَعُ الْأَكْبَرُ وَتَتَلَقَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ هَذَا يَوْمُكُمْ الَّذِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ ﴿١٦٣﴾﴾ [الأنبياء] .

وإلى جوار ذلك بشراهم بالجنة، فإن الله تعالى يجعل لهم نوراً يوم القيامة على الصراط، يضيء لهم الطريق أمامهم وخلفهم ﴿يَوْمَ تَرَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ يَسْعَىٰ نُورُهُم بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِمْ بُشْرَانُكُمْ الْيَوْمَ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ ﴿١٢٢﴾ [الحديد] .

والبشرى المعجلة والمؤجلة دليل على رضى الله تعالى عن العبد، ودليل محبة العبد

لربه، وتحبيبه إلى خلق الله في الأرض والسماء.

قيل: إن العبد إذا اشتغل برضى الله تعالى استتار قلبه، وامتلأ نوراً؛ فيظهر عليه آثار الخشوع والخضوع؛ فيحبه الناس، ويثنون عليه بمحبة الله له، ورضوانه عليه، فيقولون: النور يبدو في وجهه، وعلى وجهه نور يعلوه، وهكذا.

ولذا: فإن الملائكة تبشره في الدنيا عند خروج الروح، وتبشره بعد ذلك بالجنة حين يعرجون بروحه إلى السماء ﴿يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُمْ بِرَحْمَةٍ مِّنْهُ وَرِضْوَانٍ وَجَنَّاتٍ لَّهُمْ فِيهَا نَعِيمٌ مُّقِيمٌ﴾ (٢١) خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿التوبة﴾.

في حديث البراء بن عازب أن العبد المؤمن تنزل عليه عند خروج الروح ملائكة بيض الوجوه، معهم كفن وحنوط من الجنة، فيجلسون بعيداً عنه، ويأتي ملك الموت، فيجلس عند رأسه ويقول: أيتها النفس الطيبة اخرجي إلى مغفرة من الله ورضوان؛ فتخرج روحه كما تسيل قطرة الماء من فم السقاء فتأخذها الملائكة؛ فتجعلها في ذلك الكفن وذلك الحنوط، فيصعدون بها إلى السماء، ولها رائحة كالمسك، فتفتح لها أبواب السموات، كل سماء بعد الأخرى حتى السماء السابعة، فيقول الله ﷻ: اكتبوا كتاب عبدي في عليين وأعيدوه إلى الأرض، فمنها خلقتُه، وفيها أعيدُه ومنها أخرجُه، فتعاد روحه في جسده، ويأتيه ملكان؛ فيجلسانه ويسألانه من ربك؟ وما دينك؟ وما نبيك؟ فيجيبهم، فينادي مناد من السماء أن افتحوا له باباً إلى الجنة، قال: فيأتيه من ريحها وطيبها، فيفسح له في قبره مدَّ البصر، وتبشره الملائكة بالذي يسره وما وعد الله به^(١).

وَوَعَدُ اللَّهِ تَعَالَى لِأَوْلِيَائِهِ بِالْجَنَّةِ لَا يُدَّلُّ وَلَا يُغَيَّرُ وَلَا يُخْلَفُ، فوعده حق وصدق: ﴿لَا بُدَّ لَكَ إِكْرَامَتِ اللَّهِ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾. لأنه اشتمل على الفوز بالجنة والنجاة من النار.

أحاديث في معنى الآية:

١- في صحيح مسلم وغيره عن محمد بن سيرين عن أبي هريرة ؓ عن النبي ﷺ قال:

(١) ينظر الحديث بطوله في «المسند» (٢٨٧/٤) برقم (١٨٥٣٤) إسناده صحيح، رجاله رجال الصحيح، وعند أبي داود برقم (٤٧٥٣) و«المستدرک» (٣٧/١) وصححه الحاكم بموافقة الذهبي، وصححه الألباني في «صحيح الجامع الصغير» برقم (١٦٧٢)، وأخرجه ابن أبي شيبة ٣/٣١٠ والطبري في التفسير (٢٠٧٦٤).

«إذا اقترب الزمان لم تكذب رؤيا المسلم تكذب، وأصدقكم رؤيا أصدقكم حديثاً، ورؤيا المسلم جزء من خمسة وأربعين جزءاً من النبوة، والرؤيا ثلاثة: فرؤيا صالحة بشرى من الله، ورؤيا تحزين من الشيطان، ورؤيا مما يحدث المرء نفسه، فإن رأى أحدكم ما يكره، فليقم فليصل، ولا يحدث بها الناس» قال: «وأحب القيد وأكره الغل، والقيد ثبات في الدين» فلا أدري هو في الحديث أم قاله ابن سيرين^(١).

٢- ولفظ البخاري: «ورؤيا المؤمن جزء من ستة وأربعين جزءاً من النبوة».

٣- وعن عبادة بن الصامت رضي الله عنه قال: سألت رسول الله ﷺ عن قول الله سبحانه: ﴿لَهُمُ الْبُشْرَىٰ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ﴾ قال: «هي الرؤيا الصالحة، يراها المسلم أو تُرى له»^(٢).

فالبشرى في الدنيا فسّرت بالرؤيا الصالحة، وهي بشرى المسلم في الحياة الدنيا، أما بشره في الآخرة فهي الجنة^(٣).

وهي جزء من ستة وأربعين جزءاً من النبوة، كما في صحيح البخاري وغيره عن أبي هريرة رضي الله عنه: «رؤيا المؤمن جزء من ستة وأربعين جزءاً من النبوة»^(٤).

ومعنى ذلك: أن الرؤيا قد يكون فيها إخبارٌ للعبد الصالح بشيء مما سيحدث في المستقبل، أو بشيء حدث في مكان بعيد عنه، ففي هذا قدرٌ من النبوة؛ لأنه من باب الإخبار بالغيب من الله تعالى لعبده.

(١) ينظر: «صحيح مسلم» برقم (٢٢٦٣) واللفظ له، و«صحيح البخاري» برقم (٧٠١٧) و«المسند» (٤٤٥/٦) والطبري (١٢٩/١٥).

(٢) «سنن ابن ماجه» برقم (٣٨٩٨) وصححه الحاكم بموافقة الذهبي، «المستدرک» (٣/٣٤٠) وأخرجه أحمد في «المسند» (٣١٥/٥) برقم (٢٢٦٨٧، ٢٢٧٤٠) صحيح لغيره، وهذا إسناده رجاله ثقات رجال الشيخين، لكن أبا سلمة لم يسمع من عباده (محققوه) وهو في «سنن الترمذي» (٥٣٤/٤) و«السلسلة الصحيحة» للألباني برقم (١٧٨٦) و«صحيح ابن ماجه» (٣٣٨/٢) و«صحيح الترمذي» (١٨٥٥) ومسند الطيالسي (٥٨٤).

(٣) «تفسير الطبري» (١٢٨/١٥) عن أبي الدرداء و«سنن الترمذي» برقم (٣١٠٦) بسند منقطع عن عطاء، وهو لم يسمع من أبي الدرداء.

(٤) «صحيح البخاري» برقم (٦٩٨٨، ٧٠١٧) و«تفسير الطبري» (١٣٩/١٥) و«صحيح مسلم» (٢٢٦٣).

٤- وعن عطاء بن يسار عن رجل من أهل مصر قال: سألت أبا الدرداء عن قول الله تعالى: ﴿لَهُمُ الْبُشْرَىٰ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ﴾ فقال: ما سألتني عنها أحد منذ سألت رسول الله ﷺ فقال: «ما سألتني عنها أحد غيرك منذ أنزلت؛ هي الرؤيا الصالحة، يراها المسلم أو تُرى له، فهي بشراه في الحياة الدنيا، وبشراه في الآخرة الجنة»^(١).

٥- وعن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه أنه سمع النبي ﷺ قال: «إذا رأى أحدكم الرؤيا يحبها فإنما هي من الله، فليحمد الله عليها وليحدث بها، وإذا رأى غيرَه مما يكره، فإنما هي من الشيطان، فليستعذ بالله من شرها، ولا يذكرها لأحد فإنها لا تضره»^(٢).

٦- وفي حديث أبي قتادة أن رسول الله ﷺ قال: «الرؤيا من الله والحلم من الشيطان، فإذا رأى أحدكم شيئاً يكرهه فلينفث عن يساره ثلاث مرات، ثم ليستعذ بالله من شرها فإنها لا تضره»^(٣).

٧- وعن أبي رزين عن النبي ﷺ قال: «رؤيا المؤمن جزء من ستة وأربعين جزءاً من النبوة، وهي على رجل طائر ما لم يُحدث بها، فإذا حدث بها وقعت»^(٤).

وإذا رأى المسلم رؤيا صالحة، وانشرح لها صدره؛ فإنه يحمد الله عليها ويذكرها لمن يحب، فإن رأى حُلماً يفزع منه فهو من الشيطان، ويُشرع له أن يستعذ بالله عندما يستيقظ من النوم، ويتقل عن يساره ثلاثاً، ولا يذكرها لأحد، حتى لا يتحقق هذا الحلم بإذن الله^(٥).

(١) «صحيح سنن الترمذي» (٢٤٨٢) و«المسند» (٢٧٥٢٠) قال محققوه: صحيح لغيره لإبهام الراوي عن أبي الدرداء، وبقيّة رجاله ثقات رجال الشيخين، وأخرجه البيهقي في شعب الإيمان (٤٧٥١، ٤٧٥٢) وابن أبي شيبه (٥١/١٢) وغيرهم.

(٢) البخاري (٦٩٨٥، ٧٠٤٥) والترمذي (٣٤٣٥) والنسائي في «الكبرى» (١٠٧٢٩).

(٣) البخاري (٧٠٠٥) ومسلم (٢٢٦١) والترمذي (٢٢٧٧) والنسائي في «الكبرى» (٧٦٢٧) وابن ماجه (٣٩٠٩) و«الموطأ» (٩٥٧/٢).

(٤) صحيح «سنن ابن ماجه» (٣١٦٢) وأبو داود مختصراً (٥٠٢٠) والترمذي مطولاً (٢٢٧٩، ٢٢٧٨) و«المسند» (١٦١٨٢) حسن لغيره (محققوه)، وابن أبي شيبه (٥٠/١١) وابن حبان (٦٠٥٠).

(٥) جاء ذلك عن عبد الله بن عمرو في «المسند» (٢١٩/٢) وانظر «تفسير الطبري» (١٣٩/١٥) عن أبي الدرداء، والحديث في صحيح مسلم (٢٢٦١) عن أبي قتادة عن أبي سلمة.

وقد بدأت الرؤيا الصالحة لرسول الله ﷺ قبل أن ينزل عليه جبريل بستة أشهر، وهي من مراتب الوحي، فكان ﷺ لا يرى رؤيا إلا جاءت مثل فلق الصبح.

٨- وفي حديث أبي هريرة ؓ قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «لم يبق من النبوة إلا المبشرات» قالوا: وما المبشرات؟ قال: «الرؤيا الصالحة»^(١).

٩- وعن أنس ؓ أن رسول الله ﷺ قال: «إن الرسالة والنبوة قد انقطعت فلا رسول بعدي ولا نبي، ولكن المبشرات» قالوا: يا رسول الله، وما المبشرات؟ قال: «رؤيا المسلم، وهي جزء من أجزاء النبوة»^(٢).

ومن البشرى لأولياء الله ثناء الناس عليهم، فهي من عاجل ثواب المؤمن في الدنيا.

١٠- وعن أبي ذر ؓ قال: قيل لرسول الله ﷺ: الرجل يعمل من الخير ويحمده الناس عليه، قال ﷺ: «تلك عاجل بشرى المؤمن»^(٣). قال تعالى:

٦٥- ﴿وَلَا يَحْزُنكَ^(٤) قَوْلُهُمْ إِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿٦٥﴾﴾

ولَمَّا بَيَّنَّ ﷺ أن أولياء الله ﴿لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ وكان الرسول ﷺ أول أولياء الله، ولعله يحزن من إيذاء المشركين له بالقول أو الفعل، لذا، خفف الله عن رسوله، وبيّن له أن العزة والمنعة لله ورسوله، فلا يحزنك قول المكذبين فيك من القدح في شخصك وفي رسالتك، فإن أقوالهم لا تُعزُّهم ولا تُضرُّك شيئاً، قال تعالى ﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعِزَّةَ فَلِلَّهِ الْعِزَّةُ جَمِيعًا إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ﴾ [فاطر: ١٠]

لذا: فقد نهى الله رسوله عن التأثر بأقوالهم وأفعالهم، وأخبره أن قوتهم وغلبتهم محدودة

(١) «صحيح البخاري» برقم (٦٩٩٠) و«صحيح مسلم» عن ابن عباس برقم (٤٧٩) وانظر حديث ابن ماجه برقم (٣٨٩٦) عن أم كرز الكعبية، قال البوصيري في «الزوائد» (٢١٢/٣): هذا إسناد صحيح، رجاله ثقات، و«تفسير الطبري» (١٣٣/٥١) و«المسند» عن أنس (١٣٨٢٤) وعن عامر بن واثلة برقم (٢٣٧٩٥) وجاء من طرق أخرى متعددة.

(٢) «صحيح سنن الترمذي» (١٨٥٣) والترمذي (٢٢٧٢) وابن أبي شيبة (٥٣/١١٠).

(٣) رواه مسلم (٢٦٤٢) وهذا لفظه، وأحمد في «المسند» (١٥٦/٥) برقم (١٣٨٢٤) بإسناد صحيح على شرط مسلم ورجال ثقات رجال الشيخين غير المختار بن فلفل فمن رجال مسلم، (محققه).

(٤) قرأ نافع بضم الياء وكسر الزاي من (ولا يحزنك) مضارع أحزن، والباقون بفتح الياء وضم الزاي مضارع حزن.

زائلة، وطمأنه ربه ببيان أن العزَّ الدائم والعاقبة الحسنى لله ولرسوله وللمؤمنين ﴿كَتَبَ اللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي﴾ [المجادلة: ٢١] ﴿وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [المنافقون: ٨].

وهذا يشير إلى قول المشركين وهم يعجبون من نزول الوحي على رسول الله ﷺ؛ فيستهزئون به ويسخرون منه، ويصفونه ﷺ بأنه ساحر، والله سبحانه يقول لرسوله: ﴿وَلَا يَحْزُنكَ قَوْلُهُمْ﴾ أي: لا تحزن - يا أيها الرسول ويا أيها الداعي إلى الله - ولا تأسن من افتراءهم عليك، ولا من إشراكهم بالله تعالى، واستعن بالله عليهم.

وإذا قرأت هذه الآية - أخي المسلم - تجد فيها وقفاً واجباً، يجب أن تقف عنده في تلاوتك؛ لأنك إذا وصلتها بما بعدها تغير المعنى، أو أوهم خلاف المعنى المراد، فتقف على قوله تعالى: ﴿وَلَا يَحْزُنكَ قَوْلُهُمْ﴾ وتبدأ ﴿إِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعاً﴾ لأنك إذا وصلتها يكون ﴿إِنَّ الْعِزَّةَ﴾ من كلام المشركين، وليس الأمر كذلك، فهو من كلام الله سبحانه؛ ولذا وضع العلماء عليها وعلى أمثالها في القرآن حرف الميم هكذا (م) إشارة إلى لزوم الوقف عليها.

أي: فلا تحزن - يا أيها الرسول - من تكذيبهم وتهديدهم؛ لأنك في رعاية الله، والله يحميك ويتولاك، وهو الغالب، وهو الناصر، وهو صاحب القهر والغلبة والقدرة، يُعز من يشاء ويذل من يشاء، فإذا تعزز المشركون بكثرة أموالهم وأولادهم وعبيدهم، فإن ذلك كله داخل في ملك الله سبحانه، وهو قادر على أن يسلبهم إياه، وعزة المؤمنين تكون بإعزاز الله لهم ونصرهم على أعدائهم، و﴿هُوَ السَّمِيعُ﴾ لأقوالكم وأقوالهم قد أحاط سمعه بجميع الأصوات فلا يخفى عليه شيء منها ﴿الْعَلِيمُ﴾ بأحوالكم جميعاً، وعلمه سبحانه قد أحاط بكل شيء، لا تخفى عليه خافية في الأرض ولا في السماء.

مُقَارَعَةُ أَهْلِ الشُّرْكِ بِالْحُجَّةِ وَالْبُرْهَانِ

٦٦- ﴿أَلَا إِنَّ لِلَّهِ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ وَمَا يَتَّبِعُ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ شُرَكَاءَ إِنْ يَسْتَعِثُّوْنَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ ﴿٦٦﴾﴾

هذه الآية والآيات الأربع بعدها لقطع رجاء المشركين من كل احتمال ينصر الشرك وأهله، وإقامة الأدلة التي تقطع دابره.

وذلك أن الله تعالى يتصرف في ملكه كيف يشاء، ويحيط بكل صغيرة وكبيرة فيه، وكل ما فيه من خلقه وعبيده، والكل مملوك له سبحانه، ومن كان عبداً مملوكاً لا يصلح أن يكون إلهاً ولا شريكاً ولا نداً لله تعالى، فكل ما في هذا الكون من إنس وجن، عُصاة وثقات، وكذا الملائكة وجميع الكائنات، كلها داخلية في سلطان الله وملكه، يتصرف فيهم بما يشاء.

وهذا معنى: ﴿أَلَا إِنَّ لِلَّهِ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ﴾ خلقاً وملكاً وعبيداً من العقلاء ومن غير العقلاء، بدليل الآية السابقة حيث قال تعالى: ﴿أَلَا إِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ فإن ﴿مَنْ﴾ للعاقل و﴿مَا﴾ لغير العاقل غالباً، وأغلب المخلوقات من القسم الذي لا يعقل، ولذلك فإن ﴿مَا﴾ كثيراً ما تُطلق في القرآن على جميع المخلوقات من باب التغليب، وما يعبد المشركون يكون غالباً من الجمادات التي لا تعقل، وعبادتها أمر قائم، وموجود في بعض بلاد العالم؛ كما كان موجوداً في مكة عصر التنزيل.

والقرآن الكريم رسالة الله تعالى إلى العالم أجمع، ويوجد قطاع كبير من البشر يعبد المسيح، أو يجعله ابناً لله تعالى، ومن الناس من كان يعبد الملائكة، ومن يملك الموجودات العاقلة في السموات والأرض، فهو من باب أولى يملك الموجودات غير العاقلة.

وما دامت جميع المخلوقات ملكاً لله تعالى، فإن عبادة المشركون للأوثان من باب الخطأ الفاحش، والظن الفاسد، والوهم الكاذب، فهي مما يدخل في جميع المخلوقات، التي تُعبد من دون الله، فإن ما يتبعونه في عبادتهم لهم، ما هو إلا شرك وظن ووهم، ليس له حقيقة ولا أساس، فهم ليسوا على شيء؛ ﴿وَمَا يَتَّبِعُ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ شُرَكَاءَ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ﴾ لأنهم يعبدون جمادات لا تعقل، وهي لا تشفع لهم، ولا تقرّبهم من الله تعالى كما يزعمون، واستشفاعهم بها، ظن ووهم منهم لا حقيقة له، وهي مجرد أسماء اخترعوها من عند أنفسهم، لا تنفعهم ولا تضرهم، ولا تغني عنهم من الحق شيئاً ﴿إِنْ هِيَ إِلَّا أَسْمَاءٌ سَمِيَتْهُمَا أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَمَا تَهْوَى الْأَنْفُسُ وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مِنْ رَبِّهِمْ الْهُدَى﴾ [النجم] وما هم في عبادتهم للأوثان إلا يكذبون ويقلّدون غيرهم، ويتخبطون فيما ينسبونه إلى الله تعالى. قال سبحانه:

٦٧ - ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ الْيَلَّ لَسْكُنُوا فِيهِ وَالنَّهَارَ مُبْصِراً إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُسْمِعُونَ﴾

هذه الآية لبيان أفعال الله تعالى الدالة على عظمته وقدرته ووحدانيته، واستحقاقه للعبادة دون سواه، فقد استدل سبحانه على فساد ظن المشركين بما يشاهدونه من نظام خَلَقَ الله تعالى لليل والنهار، وهم يَرَوْنَ ذلك في كل يوم من العمر مرتين، ولكنهم قد أَلْعَوْا هذا الدليل وصاروا في غفلة عنه، وما عليهم إذا أرادوا أن يستدلوا على وحدانية الخالق سبحانه إلا أن ينظروا في دلائل القدرة الإلهية، إنهم يتقلبون فيها صباح مساء، ولكنهم يَغْفُلُونَ عنها ولا يفكرون فيها، لقد قَسَمَ الله الوقت إلى نصفين:

١- نصفٌ مظلمٌ؛ كي تكون فيه السَّكينة والهدوء، والراحة من تعب الأعمال في النهار، وسُبُل الكدح في الدنيا.

والذين يُغَيِّرُونَ آية الله في الكون؛ فيسهرون الليل لغير ضرورة وينامون النهار، إنهم يعكسون الآية، ويحتاجون إلى إصلاح، وإلى تغيير نظام حياتهم وَفَق منهج الله تعالى.

٢- والنصف الآخر من الوقت مضيءٌ مبصر، وهو النهار يضيء للناس وَقْتَهُمْ؛ كي يذهبوا إلى أعمالهم، وَيَسْعَوْا إلى أرزاقهم، وَيُحْصِلُوا فيه العِلْم، وهذه سُنَّة الله في الكون، فإذا غَيَّرَهَا بعض الناس وهو غير مضطر إلى ذلك فهو فاسد في طبعه، يسهر على الفضائيات ويضيع صلاة الفجر ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ﴾ أي: جعله ظرفاً للسكون والراحة ﴿وَالنَّهَارَ مُبْصِرًا﴾ وجعله ظرفاً للحركة والتصرف.

وهذا النظام الذي ينشأ عنه الليل والنهار، مشتمل على دقائق كثيرة من العلم والحكمة والقدرة وإتقان الصنع، فيها دلائل عظيمة على وحدانية الله تعالى ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ﴾. عن الله سمع فهم وقبول، لا سمع تعنت وعناد، فيستدلون بها على أنه الواحد المعبود والإله الحق، لا رب غيره ولا معبود سواه.

ومن هذه الآيات: خَلَقَ الشمس، وَخَلَقَ الأرض، وَخَلَقَ النور في الشمس، والظلمة في الليل، ووصول شعاع الشمس إلى الأرض فيُنِيرُها، ودوران الأرض كل يوم، بحيث يكون نصف كُرَّتْهَا مواجهًا للشعاع، ونصفها الآخر محجوبًا عن الشعاع، وَخَلَقَ الإنسان وجعل نظام مزاجه العصبي متأثرًا بالشعاع نشاطًا، وبالظلمة فتورًا، وَخَلَقَ حاسة البصر

وجعلها على القوة والضعف مدفوعة إلى استعمال قواه بقصد وغير قصد، ويخلف ذلك سكون وفثور يتطلب الراحة^(١).

أَقْبَحُ الرِّذَائِلِ هُوَ الشِّرْكُ

٦٨- ﴿قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا سُبْحَنَهُ هُوَ الْغَنِيُّ لَهُ مَا فِي السَّمٰوٰتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ إِنَّ عِنْدَكُمْ مِنْ سُلْطٰنٍ بِهٰذَا أَتَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٦٨﴾﴾

هذه الآية لبيان أقبح الرذائل التي يعتقدونها المشركون، فقد ذكر سبحانه قول الذين يَدْعُونَ من دون الله شركاء، وهم عُبَاد الأوثان من أهل مكة في عصر التنزيل، وكانوا قد زعموا أن الملائكة بنات الله من نساء الجن، كما قال تعالى: ﴿وَجَعَلُوا بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْجَنَّةِ نَسَبًا وَلَقَدْ عَلِمَتِ الْجِنَّةُ إِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ ﴿٦٨﴾﴾ [الصافات].

والقرآن الكريم يحكي قولهم من أن الله تعالى صاهر الجن؛ فأنجب منهم الملائكة، ولذلك فإن قومًا من العرب عبدوا الجن، كما قال تعالى: ﴿وَيَوْمَ يُحْشَرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلٰئِكَةِ أَهْتُولَاءِ بِإِئَاْمُرٍ كَانُوا يَعْبُدُونَ ﴿٦٩﴾﴾ قَالُوا سُبْحٰنَكَ أَنْتَ وَلِسْنَا مِنْ دُونِهِمْ بَلْ كَانُوا يَعْبُدُونَ الْجِنَّ أَكْثَرُهُمْ بِهِمْ مُؤْمِنُونَ ﴿٧٠﴾﴾ [سبأ].

وقال سبحانه: ﴿يَدْعِي السَّمٰوٰتِ وَالْأَرْضُ أَنِّي يَكُونُ لَهُ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُنْ لَهُ صَاحِبَةً وَخَلَقَ كُلُّ شَيْءٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿٧١﴾﴾ [الأنعام]

واتخاذ الولد إما أن يكون عن اندفاع طبيعي؛ لقضاء الشهوة، وإما أن يكون عن رغبة في الإنجاب، وكلاهما نقص يعتري البشر، والله سبحانه غني عن كل ذلك، فكل ما في الكون ملكه، وكله مسخر بأمره لما خلق له.

والآية تنطبق على قول النصارى: ﴿الْمَسِيحُ ابْنُ اللَّهِ﴾ وقول اليهود: ﴿عِزَّى ابْنُ اللَّهِ﴾ والآية مكّية، وهي بصدد إبطال زيغ عقائد الوثنيين وأهل الكتاب، والمعنى يشملهم جميعًا فيما قالوه من افتراء على الله تعالى:

﴿قَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمٰنُ وَلَدًا ﴿٨٨﴾ لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئًا إِذَا ﴿٨٩﴾﴾ تَكَاذُ السَّمٰوٰتِ يَنْفَطَرْنَ مِنْهُ وَتَشَقُّ

(١) الشيخ الطاهر بن عاشور «التحرير والتنوير» (٢٢٨/١١).

الْأَرْضُ وَنَحَرُ الْجِبَالِ هَذَا ﴿٩٠﴾ أَنْ دَعَوْا لِلرَّحْمَنِ وَلَدًا ﴿٩١﴾ وَمَا يَنْبَغِي لِلرَّحْمَنِ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَدًا ﴿٩٢﴾ إِنْ كُلُّ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا آتَى الرَّحْمَنِ عَبْدًا ﴿٩٣﴾ ﴿[مريم].

﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا سُبْحَنَهُ بَلْ عِبَادٌ مُكْرَمُونَ ﴿٩٦﴾ لَا يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ وَهُمْ بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ ﴿٩٧﴾ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنْ ارْتَضَى وَهُمْ مِنْ خَشْيَتِهِ مُشْفِقُونَ ﴿٩٨﴾ وَمَنْ يَقُلْ مِنْهُمْ إِنِّي إِلَهٌ مِنْ دُونِهِ فَذَلِكَ نَجْزِيهِ جَهَنَّمَ كَذَلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ ﴿٩٩﴾﴾ [الأنبياء].

ولما قال المشركون: الملائكة بنات الله، وقالت اليهود: عزيز ابن الله، وقالت النصارى: المسيح ابن الله، فقد أشارت هذه الآية إلى مجموع أقوالهم وأقوال غيرهم في قوله تعالى: ﴿قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا﴾ والله سبحانه يعلمنا كيف ننزهه فنقول: ﴿سُبْحَنَهُ﴾ ثم أجاب جل شأنه عن هذه الفرية بثلاثة أجوبة في هذه الآية:

الجواب الأول: أنه جلَّ شأنه غني عن اتخاذ الولد، وهو ﷻ يملك هذا الكون بما فيه ومن فيه، ولو أراد سبحانه أن يتخذ ولداً لاصطفى مما يخلق ما يشاء، سبحانه هو الواحد القهار، فحاشاه أن يتخذ ولداً؛ لأنه الغني عن اتخاذ الولد، والغني عن كل ما سواه، وكل شيء فقير إليه سبحانه ﴿يَتَأَيَّمُ النَّاسُ أَنْتُمْ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ ﴿٥٠﴾﴾ [فاطر].

واتخاذ الولد نقيض الغنى المطلق عن كل احتياج، فالولد يكون حفظاً لبقاء النسل في الحياة، ويكون امتداداً لأبيه وتعويضاً عنه إذا مات، وهو يساعد أباه ويتولَّى عنايته ورعايته إذا تقدَّم في السن، والله ﷻ غني عن كل ذلك ﴿هُوَ الْغَنِيُّ﴾ هذا هو الجواب الأول، ومعناه: أنه سبحانه لا حاجة له إلى الولد، ولا حاجة له إلى العون والنصر، ولا حاجة له إلى المال والمتاع، فهو الغني بكل معاني الغنى، والعلاقة بينه وبين الخلائق جميعاً علاقة الخالق بالمخلوق.

والجواب الثاني: يتمثل في قوله تعالى: ﴿لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾ وهي كلمة جامعة لا يخرج عنها موجود من أهل السموات والأرض، فالجميع مخلوق ومملوك لله تبارك وتعالى، فكيف يكون له ولد مما خلق، والمِلْكِيَّة تنافي أن يكون له ولد، فهو مالك لكل ما في الكون، فكيف يكون له ولد؟

الجواب الثالث: هو لإبطال قولهم: اتخذ الله ولدًا؛ حيث يطالبهم سبحانه بالبرهان على زعمهم هذا فيقول: ﴿إِنْ عِنْدَكُمْ مِنْ سُلْطَنِ بِهَذَا﴾ هل عندكم من برهان ودليل على أن الله تعالى قد اتخذ ولدًا؟ إنه لا حجة لكم البتة فيما تقولون: ﴿أَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾؟ جهلاً منكم من غير حجة ولا برهان، وفي هذا توبيخ وتقريع لهم.

و﴿أَنْ﴾ في ﴿إِنْ عِنْدَكُمْ﴾ نافية بمعنى (ما) و﴿مِنْ﴾ بعدها مؤكدة للنفي، ومفيدة للعموم؛ أي: ما عندكم دليل ولا شبهة دليل على ما زعمتموه من أن لله ولدًا، وإنما قلت ذلك لانطماس بصيرتكم واستحواذ الشيطان عليكم، وهو من باب الجهل والضلال، والتقليد الأعمى للكذب والبهتان الذي ورثتموه عن آبائكم وأجدادكم فلا حجة لكم تصاحب مقولتكم بأن الله تعالى قد اتخذ ولدًا، بل هو تقوُّلٌ على الله بغير علم. قال تعالى:

٦٩- ﴿قُلْ إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ﴾

ثم حذر سبحانه على لسان رسوله ﷺ الذين يفترون على الله الكذب باتخاذ الولد وإضافة الشريك له سبحانه، فبين أنهم لا يفلحون في الدنيا ولا في الآخرة، ولا ينالون مطلبهم، وهذا إنذار لهم بسوء العاقبة إذا استمروا على شركهم، فهم لا ينالون مطلبهم، وإنما يتمتعون في كفرهم وتكذيبهم شيئاً قليلاً في الدنيا ثم يعودون إلى الله تعالى فيذيقهم العذاب الشديد على كفرهم. قال تعالى:

٧٠- ﴿مَتَّعٌ فِي الدُّنْيَا ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ نُذِيقُهُمُ الْعَذَابَ الشَّدِيدَ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ﴾

توعد الله سبحانه الذين ينسبون الشريك والولد إليه، بأنهم لا يفلحون في الدنيا ولا في الآخرة، وأن متاعهم في الدنيا قليل، ثم يضطرهم ربهم إلى عذاب غليظ، إن افتراءهم هذا قد يفيدهم شيئاً في دنياهم، فهو استدراجٌ لهم وظل زائل، فهم يُمتَّعون في الدنيا متاعاً قليلاً مدة حياتهم، ثم إلى الله مرجعهم فيحاسبهم حساباً عسيراً على أقوالهم وأفعالهم القبيحة، ثم يعقَّب هذا الحساب العذاب الشديد؛ بسبب كفرهم وجحودهم نعمة الله عليهم، وافتراءهم الكذب على الله تعالى.

ثَلَاثَ قِصَصٍ فِي أَوَاخِرِ سُورَةِ يُونُسَ عَلَيْهِ السَّلَامُ

أَوَّلًا: قِصَّةُ نُوحٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ

٧١- ﴿وَآتَلُّ عَلَيْهِمْ نَبَأَ نُوحٍ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ يَفْقَهُمْ إِنْ كَانَ كَبُرَ عَلَيْكُمْ مَقَامِي وَتَذِكْرِي بِمَا يَنْتِ اللَّهُ فَعَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْتُ فَأَجْمِعُوا^(١) أَمْرَكُمْ وَشُرَكَاءَكُمْ^(٢) ثُمَّ لَا يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً ثُمَّ اقْضُوا إِلَيَّ وَلَا تُنظِرُونِ^(٣)﴾
وبعد مقارعة المشركين بالحجج القاطعة والبراهين الساطعة عرَّضَ ﷺ ببيان عاقبة كل مَنْ أشرك بالله تعالى، مثل عاقبة قوم نوح، فهم لم يفلتوا من عذاب الله في الدنيا، ولن يفلتوا منه في الآخرة.

وقد مرَّ بنا الإشارة إلى أن الله ﷻ قد أرسل لكل أمة من الأمم رسولاً، هادياً ومبشراً لهم، ومُعَلِّماً إياهم طريق الخير والرشاد من طريق الضلال والغواية ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولٌ﴾ فإذا جاء رسولهم فكذبوه؛ فإما أن يعاقبهم الله في الدنيا ويبيدهم، كما حدث لقوم نوح وهود وصالح ولوط وشعيب وغيرهم، وإما أن يؤخر عذابهم إلى الآخرة؛ فيقضي بينهم بالعدل والحق وهم لا يظلمون.

وأشارت السورة قبل ذلك إلى مصارع الأمم التي كذَّبت رسلها ﴿وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَمَّا ظَلَمُوا﴾ [يونس: ١٣] وجاءتهم رسلهم بالمعجزات الدالة على صدقهم، وجاءتهم بالشرائع من عند الله سبحانه، ولمَّا لم يؤمنوا برسلهم عَذَّبهم الله تعالى وأهلكهم في هذه الدنيا.

وهذه الآية وما بعدها تذكِّر لنا قصة ثلاثة من رسل الله الذين أرسلوا إلى أقوامهم، فتقص لنا الحلقة الأخيرة أو المقطع الأخير من القصة لرسل الله الثلاثة، وهو الجزء الذي يتعلق بتكذيب القوم ومصير الأمم التي كذَّبت رسول الله يونس، ورسول الله موسى، ورسول الله نوح ﷺ.

(١) قرأ رويس بخلف عنه بوصل الهمزة وفتح الميم من (فأجمعوا) على أنه فعل أمر من (جمع)، وقرأ الباقر بقطع الهمزة مع فتحها وكسر الميم، على أنه فعل أمر من (أجمع).

(٢) قرأ يعقوب برفع الهمزة من (وشركاءكم) عطفاً على الضمير المتصل في (فأجمعوا) أو على أنه مبتدأ خبره محذوف، وقرأ الباقر بالنصب عطفاً على (أمركم) عطف نسق.

(٣) قرأ يعقوب بإثبات الباء من (ولا تنظرون) وصلاً ووقفًا، والباقر بحذفها في الحالين.

وهذه القصص الثلاث ، جاءت الإشارة فيها إلى طرف من قصة نوح في ثلاث آيات متواليات ، من قوله تعالى : ﴿وَأَنذَرْتَهُمْ نَبَأَ نُوحٍ إِذْ قَالُوا لَوْ يَكُونُ لَهُ إِذْكُرْ - يا محمد - لقومك خبر أول الرسل نوح ﷺ حين دعا قومه إلى توحيد الله تعالى بعد أن فشا فيهم عبادة الأوثان من دون الله ؛ فكذبوه وعاندوه وأذوه أشد الإيذاء .

فقال لهم : ﴿يَقَوْمُ إِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكُمْ مَقَامِي وَتَذِكْرِي بِعَائِنَةِ اللَّهِ﴾ أي : إن كان قد شق وعظم على نفوسكم دعوتي لكم ووعظي وتذكيري إياكم ، وطال مكثي وإقامتي بينكم مدة طويلة ، بلغت تسعة قرون ونصفًا ، وكنتم تستضعفون حالي ولا تبالون بدعوتي لكم إلى الله ، فإني لا أبالى بكم ؛ لتوكلي عليه .

فقد فوضت أمري إلى الله ، واعتمدت عليه ، ﴿فَعَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْتُ﴾ في دفع كل شر يُراد بي ، وأنا ماضٍ في طريق دعوتي إليكم ، ﴿فَأَجْمِعُوا أَمْرَكُمْ وَشُرَكَاءَكُمْ﴾ أي : وما عليكم إلا أن تتعاونوا وتجتمعوا أنتم ونصراؤكم من الشركاء والآلهة التي تعبدونها من دون الله ، وتتخذوا قرارًا نهائيًا يتعلق بي ، إما بقتلي ، وإما برجمي ، وإما بغير ذلك ﴿ثُمَّ لَا يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً﴾ أي مشتبهًا خفيًا ، بل يجب أن يكون الأمر واضحًا ظاهرًا مكشوفًا وليس سرًا ، ثم نفذوا هذا الأمر ولا تؤخروني ساعة واحدة .

فلفظ ﴿غُمَّةً﴾ إما أن يكون بمعنى الخفاء والاستتار والالتباس ؛ أي : لا تترددوا في قتلي أو رجمي ، ولا تتقاعسوا عن الجهر بذلك ، بل نفذوا ما تريدون ، واستعينوا على ذلك بمن تريدون ، وإما أن يكون معنى ﴿غُمَّةً﴾ من الغم والكرب ؛ أي : اتخذوا قرارًا بشأني على وجه السرعة حتى لا يكن بقائي بينكم سببًا في تنغيص حياتكم ؛ بسبب دعوتي لكم إلى الله ، فسارعوا إلى هلاكي ؛ حتى لا تكونوا في غم وكرب مستمر .

وهكذا : فإن نوحًا ﷺ صارحهم بأنه ماضٍ في طريق دعوتهم إلى الله ، وتذكيرهم بدلائل وحدانيته تعالى ، ووجوب إخلاص العبادة له .

وقد بين لهم نوح أنه غير مُبال بكيدهم له ، ولا بما يتخذونه من قرارات تجاه طرده أو قتله ، وطالبهم أن ينفذوها دون تريث ولا انتظار . ﴿ثُمَّ أَفْضُوا إِلَيَّ وَلَا تُنْظِرُون﴾ وهذا برهان قاطع على صحة رسالته وصدق ما جاء به ، فقد بادر قومه بتسفيه آرائهم وعيب آلهتهم وهم أهل

القدرة والسطوة، فلم يقدروا على شيء مما توعدوه به، فعُلم أنه الصادق وهم الكاذبون. ولم يلجأ نوح عليه السلام إلى هذا التحدي السافر الصريح؛ إلا بسبب قوة يقينه بالله تعالى، واعتماده عليه، وتفويض أمره إليه سبحانه.

وقد أخبر الله تعالى عن نوح عليه السلام أنه قد بلغ الغاية في التوكل على الله، وأنه كان واثقاً بنصر الله إياه، غير خائف من مكرهم وكيدهم، وقد قال لهم ما قال على وجه التعجيز لهم، كما قال تعالى على لسانه: ﴿إِنِّي أَشْهَدُ اللَّهَ وَأَشْهَدُوا أَنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ٥٤﴾ مِنْ دُونِهِ فَكِدُونِي جَمِيعًا ثُمَّ لَا تُنْظِرُونَ ﴿٥٥﴾ [هود].

ولمَّا كان قوم نوح هم أول الأمم هلاكاً، وأعظمهم كفرًا وجحودًا، ضربهم الله أول مثل لأمة محمد عليه السلام في هذه السورة وغيرها؛ ليكون لهم عبرة بمن سبق قبلهم، فقد توعد الله المشركين في الآية السابقة بقوله: ﴿مَتَّعٌ فِي الدُّنْيَا ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ نَذِيقُهُمُ الْعَذَابَ الشَّدِيدَ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ ٧١﴾.

وهكذا قوم نوح متَّعهم الله زمناً طويلاً، ثم لم يُفلتوا من عذاب الله في الدنيا، فعَلَى هذه الأمة أن تتأسى بالصالحين من عباد الله؛ حتى يفوزوا بحُسن العاقبة في الدنيا والآخرة، وكذلك كان الشأن وكان المصير نفسه في قصة موسى وقصة يونس عليهما السلام في هذه السورة؛ ليعتبر بهم أمة محمد عليه السلام؛ حتى لا يصيبهم ما أصاب الأمم قبلهم. قال تعالى:

٧٢- ﴿فَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ فَمَا سَأَلْتُكُمْ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجَرْتُ^(١) إِلَّا عَلَى اللَّهِ وَأَمَرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾

ثم أخبر سبحانه أن الرسل ليست لهم مصلحة دنيوية في دعوة الناس إلى الله تعالى، وإنما هم رُسل الله إلى خلقه يبلغونهم دعوته، وأجرهم على الله تعالى.

ولما كان قوم نوح قد أعرضوا عنه فعلاً، واستمر إعراضهم عن دعوته زمناً طويلاً، عبَّر عليه السلام بالفعل المضارع الذي يفيد التجدد والاستمرار في قوله تعالى: ﴿فَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ فَمَا سَأَلْتُكُمْ مِنْ أَجْرٍ﴾ والقصد من ذلك قطع أعذارهم، وإلزامهم بالنتيجة الحتمية، من أن إعراضهم عن اتباعه، لم يكن فيه أي احتمال لاتهام نوح عليه السلام أن يطلب بدعوته هذه أية فائدة أو نفع لنفسه، فقد

(١) قرأ نافع وأبو عمرو وابن عامر وحفص وأبو جعفر بفتح ياء الإضافة من (أجري إلا)، والباقون بإسكانها.

براً نفسه من ذلك .

وإلى هذا يشير قوله تعالى على لسانه: ﴿إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى اللَّهِ﴾ أي: فإن أعرضتم عن دعوتي، وقبول نصحي، فأنا لم أسألكم أجراً على تبليغي الدعوة إليكم من مال ونحوه، وإنما أطلب الأجر من الله وحده، فهو الذي يُثبني ويجزيني، ولن أترشح عن عقيدتي، فقد أمرني ربي أن أكون من المسلمين الموحدين لله، المخلصين له، وأنا ممثّل أمر ربي، مستسلم له .

الإسلام دعوة الرسل جميعاً:

وهذه الجملة: ﴿وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ قالها نوح عليه السلام، وقالها غيره من رسل الله أجمعين . ومن غير الرسل قالها حوارثو عيسى عليه السلام، وقالها بلقيس، فهي دعوة الله إلى خلقه جميعاً، وهي كلمة الله تعالى إلى الأمم جميعاً إلى يوم الساعة .

قالها إبراهيم عليه السلام في قوله تعالى: ﴿إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمْ قَالَ أَسْلَمْتُ لِربِّ الْعَالَمِينَ﴾ [البقرة] ﴿وَوَصَّي بِهَا إِبْرَاهِيمَ بَنِيهِ وَيَعْقُوبَ بَنِيَّ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى لَكُمُ الدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُمْ مُسْلِمُونَ﴾ [البقرة] . وقالها إسماعيل: ﴿رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ﴾ [البقرة: ١٢٨] .

وقالها يعقوب وبنوه: ﴿وَوَحِّنْ لَهُم مِّنْ مَّسْلَمُونَ﴾ [البقرة: ١٣٦] .

وقالها يوسف: ﴿تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ﴾ [يوسف: ١٠١] .

وقالها موسى: ﴿وَقَالَ مُوسَى يَقَوْمِ إِن كُنتُمْ ءَامَنُومٌ بِاللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوا إِن كُنتُمْ مُسْلِمِينَ﴾ [يونس] . وقالها السحرة: ﴿رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَتَوَفَّنَا مُسْلِمِينَ﴾ [الأعراف: ١٢٦] .

وهي ديانة كل نبي في بني إسرائيل: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَا التَّوْرَةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ يَحْكُمُ بِهَا النَّبِيُّونَ الَّذِينَ أَسْلَمُوا لِلَّذِينَ هَادُوا وَالرَّسُولُونَ وَالْأَخْبَارُ﴾ [المائدة: ٤٤] .

وقالها سليمان: ﴿إِلَّا تَعْلَمُوا عَلَى وَاتُوبِ مُسْلِمِينَ﴾ [النمل] .

وقالها عيسى والحواريون: ﴿قَالُوا ءَامَنَّا وَأَشْهَدُ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾ [المائدة: ١١١] .

وقالها بلقيس: ﴿رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَانَ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [النمل: ٤٤] .

وقالها خاتم الرسل في سورة الأنعام: ﴿وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ﴾ [الأنعام: ١٦٣].

وفي سورة الأنعام أيضاً: ﴿قُلْ إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَسْلَمَ﴾ [الأنعام: ١٤].

وفيها أيضاً: ﴿وَأُمِرْنَا لِئُسَلِّمَ لِرَبِّ الْمَلَكِينَ﴾ [الأنعام: ٧١].

وفي سورة النمل: ﴿وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ [النمل: ٩١].

وفي سورة الزمر: ﴿وَأُمِرْتُ لِأَنْ أَكُونَ أَوَّلَ الْمُسْلِمِينَ﴾ [الزمر: ١٧].

ومن ذلك قوله تعالى: ﴿فَإِنْ حَاجَّكَ فَقُلْ أَسَلَّمْتُ وَجْهِي لِلَّهِ وَمَنِ اتَّبَعَنِ وَقُلْ لِلَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَالْأُمِّيَّةَ أَاسَلَّمْتُمْ فَإِنْ أَسَلَّمُوا فَقَدْ أَهْتَكَدُوا وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاءُ وَاللَّهُ بِصِيرٍ بِالْعِبَادِ﴾ [آل عمران: ٢٠].

وهكذا سَمَّى الله التوحيد والدين الحق على لسان جميع الرسل في مختلف العصور إسلاماً؛ لأنهم متفقون في الأصول والعقائد، فكل منهم دعا قومه إلى توحيد الله وعبادته، وهو معنى قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِيكَ عِنْدَ اللَّهِ أَلَا اسَلَّمْتُ﴾ [آل عمران: ١٩].

وهذا هو الإسلام بمعناه العام، وقد اختصت أمة محمد ﷺ بهذه التسمية، كما أخبرنا الله سبحانه في قوله عن خليل الرحمن: ﴿هُوَ سَمَنُكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِنْ قَبْلُ وَفِي هَذَا﴾ [الحج: ٧٨] والسبب في ذلك أن كمال الدين الخالص الذي أراده الله من خلقه إلى قيام الساعة قد تم في الرسالة الأخيرة، بعد أن مرَّت الرسالات بأطوار النمو والتكامل على أيدي الرسل قبله؛ ولهذا جاء في الحديث عن أبي هريرة ؓ أن رسول الله ﷺ قال: «نحن معاشر الأنبياء أولاد علّات، ديننا واحد، وإن تعددت شرائعنا»^(١).

والعلّات: هم الإخوة من أب واحد، وأمّاتهم شتى، فتوحيد الله تعالى يُسَمَّى الإسلام عند جميع الرسل، أمّا مناهج الأمم وتعدد الشرائع في الفروع بما يوافق مراحل الأمم وقدرتها على التكليف الشرعية فهو الشريعة والمنهج، كما قال تعالى: ﴿لِكُلِّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجاً﴾ [المائدة: ٤٨]. قال تعالى:

٧٣- ﴿فَكَذَّبُوهُ فَجَعَلْنَاهُ وَمَنْ مَعَهُ فِي الْفُلْكِ وَجَعَلْنَاهُمْ خَلِيفَ وَأَعْرَفْنَا الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُتَكَبِّرِينَ﴾ (٧٣)

(١) ينظر البخاري (٢٣٦٥) ومسلم (٢٣٦٥) وأبو داود (٤٦٧٥) عن أبي هريرة وألفاظه متقاربة.

ثم أخبر سبحانه عن تكذيب قوم نوح له، وتوعد المكذبين بمحمد ﷺ سوء المصير، كما كانت العاقبة والنهاية لقوم نوح حين كذبوا دعوته، لقد أمره ربه أن يصنع السفينة على نحو ما فصلت سورة هود، وأن يركبها هو ومن آمن معه، وأرسل الله عليهم الطوفان؛ فأغرق القوم، ونجى الله نوحًا ومن آمن معه.

وكانت هذه القلة التي نجت مع نوح ثمانين رجلًا وامرأة، على أرجح ما قيل في هذا العدد، هم ثمرة دعوة استمرت ألف سنة إلا خمسين عامًا؛ أي: بمعدل فرد واحد في كل مئة وعشرين عامًا تقريبًا.

والذين نجوا من الغرق، هم الذين استخلفهم الله من قوم نوح ﷺ، ومنهم ومن ذريتهم كان الناس بعدهم، بعضهم يخلف بعضا، إلى أن تكاثروا في هذا العدد الذي وصلنا إليه على مستوى البشرية، إلى نهاية هذه الدنيا، فهم من ذرية نوح، الأب الثاني للبشرية عليه وعلى نبينا أفضل الصلاة وأزكى التسليم.

﴿فَكَذَّبُوهُ﴾ أي: كذب نوح قومه فيما أخبرهم به عن الله ﴿فَنَجَّيْنَاهُ وَمَنْ مَعَهُ فِي الْفُلِّ﴾ هو ومن آمن معه في السفينة ﴿فَلَمَّا أَجْمَلَ فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَنْ سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ وَمَنْ آمَنَ وَمَا آمَنَ مَعَهُ إِلَّا قَلِيلٌ﴾ [هود: ٤٠].

﴿فَفَتَحْنَا أَبْوَابَ السَّمَاءِ بِمَاءٍ مُثَمَرٍ﴾ ١١ ﴿وَفَجَّرْنَا الْأَرْضَ عُيُونًا فَالْتَقَى الْمَاءُ عَلَى أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ﴾ ١٢ ﴿وَحَمَلْنَاهُ عَلَى ذَاتِ أَلْوَاحٍ وَدُسْرٍ﴾ ١٣ ﴿تَجْرِي بِأَعْيُنِنَا﴾ [القمر]

﴿وَجَعَلْنَاهُمْ خَلْقًا﴾ أي: جعلنا الناجين من الغرق يخلفون المكذبين الهالكين منهم، هذه هي عاقبة من آمن بنوح.

فماذا كانت عاقبة المكذبين؟ لقد بينها الله تعالى في قوله: ﴿وَأَغْرَقْنَا الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا﴾. بعد ذلك البيان وقيام الحجة عليهم.

فتأمل - أيها المكذب - بآيات الله ورسله، ماذا كانت عاقبة من أنذرهم الرسل؛ فلم يؤمنوا، ﴿فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكْذِبِينَ﴾ وهو الهلال المخزي واللعنة المتتابعة، إن سنة الله في عباده لا تتخلف، وقد سنَّ الله حسن العاقبة للمؤمنين، وسوء العاقبة للمكذبين؛ فأهلك الله الأمم المكذبة للرسل بدءًا من أمة نوح ﷺ، كما قال تعالى: ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنَ الْقُرُونِ مِنْ بَعْدِ نُوحٍ﴾ [إسراء: ١٧].

أما قبله؛ فقد كان الناس على التوحيد، من لدن آدم إلى أن ظهرت عبادة الأصنام في عهد نوح؛ فأرسله الله إليهم، وإلى هذا يشير قوله تعالى: ﴿كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً﴾ [البقرة: ٢١٣] أي: على دين واحد هو الإسلام، وإخلاص التوحيد لله فاختلفوا، وكان منهم مؤمن وكافر، من لدن نوح إلى يومنا هذا.

فاحذروا - أيها المكذبون في كل زمان ومكان - أن يحل بكم ما حل بقوم نوح من الغرق والخزي والنكال.

ونظرًا لأن نوح ﷺ هو أول رسول أرسل إلى من يعبدون الأصنام، فإن المؤمنين يقولون له يوم القيامة: «أنت أول رسول بعثه الله إلى أهل الأرض» كما جاء في حديث الشفاعة العظمى يوم القيامة.

قال ابن عباس: كان بين آدم ونوح عشرة قرون كلهم على الإسلام.

الرُّسُلُ بَعْدَ نُوحٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ

٧٤- ﴿ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ بَعْدِهِ رُسُلًا إِلَى قَوْمِهِمْ فَجَاءَهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا بِمَا كَذَّبُوا بِهِ مِنْ قَبْلُ كَذَلِكَ نَطِيعُ عَلَى قُلُوبِ الْمُعْتَدِينَ﴾ (٧٤)

وبعد الفراغ من طرف من قصة نوح ﷺ، في الآيات الثلاث السابقة، تحمل هذه الآية الإشارة إلى عدد من رسل الله تعالى فيما بين نوح وموسى؛ كهود وصالح وإبراهيم ولوط وشُعيب صلوات الله عليهم وعلى غيرهم من رسل الله، ممن ذكرهم أو لم يذكرهم القرآن، وأشارت إليهم هذه الآية إشارة إجمالية في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ بَعْدِهِ﴾ أي: من بعد نوح ﴿رُسُلًا﴾ إلى أقوامهم؛ ليخرجوهم من ظلمات الكفر إلى نور الإيمان، ﴿فَجَاءَهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ﴾ أي: أيدهم الله بالمعجزات الواضحات وهؤلاء الرسل يطويهم السياق إجمالاً؛ لأن المقام مقام عبرة وعظة ولكن هؤلاء الأقوام لم يؤمنوا، ﴿فَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا بِمَا كَذَّبُوا بِهِ مِنْ قَبْلُ﴾ أي: فعاقبهم الله بأن طبع على قلوبهم فلم يدخلها إيمان بعد ما كانوا متمكنين منه، وما ظلمهم الله ولكنهم ظلموا أنفسهم.

وقد فصلت قصص بعض هؤلاء الرسل في سور أخرى، وصرحت بهم آية سورة الحج: ﴿وَإِنْ يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَثَمُودٌ﴾ (٢٤) وقوم إيزهيم وقوم لوط ﴿٢٣﴾

وَأَصْحَابِ مَذْيَبٍ ﴿٤٢-٤٤﴾ مع وجود رسل آخرين لا نعلمهم ممن لم يذكرهم القرآن، وأشار إليهم في قوله: ﴿وَرُسُلًا لَّمْ نَقْضُصْهُمْ عَلَيْكَ﴾ [النساء: ١٦٤].

وقد جاء هؤلاء الرسل أقوامهم بالمعجزات الدالة على صدق دعوتهم، وجاؤوهم بالشرائع من عند الله، فَمَا آمَنُوا، واستمروا على عنادهم، وكذبوا بما لم يؤمنوا به من قبل، وهذه الضمائر الثلاثة في (كانوا ويؤمنوا وكذبوا) تعود على أقوام الرسل الذين جاؤوا بعد نوح على الأرجح، يقول سبحانه: ﴿كَذَلِكَ نَطِيعُ عَلَى قُلُوبِ الْمُعْتَدِينَ﴾ وهذه سنة الله في خلقه تقضي بهلاك المتجاوزين حدود الله تعالى.

إن الذي يُعرض عن الهداية وَيَغْلِقُ قلبه عنها فلا يقبل هدى، يكون هو الذي تسبب لِنَفْسِهِ في هذا الإغلاق وعدم قبول الهداية، ثم يُكْتَبُ ذلك في قضاء الله وقدره الأزلي.

وهؤلاء الأقوام اللاحقون، كانوا على مناج قوم نوح في التكذيب من الذين تجاوزوا حدود الله، وخالفوا رسله، وكما ختم الله على قلوب هؤلاء يختم على قلب كل من لم يؤمن بالله ورسله.

ثَانِيَا: قِصَّةُ مُوسَى وَهَارُونَ مَعَ فِرْعَوْنَ وَالسَّحَرَةِ

٧٥- ﴿ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ بَعْدِهِم مُّوسَى وَهَارُونَ إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ بِآيَاتِنَا فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا مُّجْرِمِينَ﴾

ثم خص الله بالذكر رسالة موسى وهارون عليهما السلام؛ لأنها أعظم رسالة بعد نوح وإبراهيم عليهما السلام، فلم تقتصر رسالتهما على جانب العقيدة وتهذيب النفوس وإبطال ما عَظُمَ من المفاسد، إنما تجاوزت ذلك إلى تكوين أمة، وتحريرها من استعباد أمة أخرى؛ فوضع الله لها نظام سياسة وحضارة ودفاع، وأعطاهما كتابًا يشتمل على قواعد التشريع التي لم تسبق في تاريخ الأمم قبلها، وجعل موسى وهارون كليهما مبعوثين لهذه الأمة، موسى بالأصالة، وهارون مُعِينًا له وناصرًا.

فكانت أول رسالة تخاطب أمة في مواجهة الفراعنة واستعبادهم، وكان الفراعنة طغاة جابرة، يعتبرون أنفسهم آلهة للقبط، وقد وضعوا لهم شرائع جائرة، يستعبدون بمقتضاها بني إسرائيل ويذلونهم، فإذا سألوهم حقهم، استأصلوهم وقتلوهم ومثلوا بهم، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضِعُّ مِنْهُمِ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ يُدِيحُ

أَبْنَاءَهُمْ وَسَتَحِيءُ نِسَاءَهُمْ إِنَّكَ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ ﴿٤٤﴾ [القصاص].

وكان فرعون على حذرٍ شديدٍ من موسى، فشاء الله سبحانه أن ينشأ موسى في بيت عدوه، على فراشه ومائدته بمنزلة الولد تمامًا، وقد رزقه الله النبوة والرسالة، وأمره أن يدعوه إلى عبادة الله وحده، ويخلص بني إسرائيل من ظلمه واستعباده.

فسأل موسى ربه أن يعينه على أداء هذه المهمة بأخيه هارون، فأرسله الله نبيًا ورسولًا؛ كرامة لأخيه واستجابة لدعوته، وأيد الله موسى بالمعجزات التي يؤمن بها كل كفور، ولكن فرعون وقومه لم يزالوا مصرين على كفرهم وعنادهم حتى أحلَّ الله بهم بأسه وأغرقهم أجمعين؛ ليكونوا عبرة لِمَن بعدهم.

ونجَّى الله موسى وخلص بني إسرائيل على يديه من استعباد فرعون وجبروته، لكنهم لم يشكروا فضل الله عليهم؛ فخذلوا موسى في قتال الجبارين؛ فعاقبهم الله تعالى بأن كتب عليهم الضياع والتشرُّد في أصقاع الأرض، إلى أن يأتي وعد الله قُرب قيام الساعة، ويأتي بهم لفيًا إلى أرض المحشر والمنشر.

وَمَن خَالَفَ مِنْهُمْ تَعَالِيمَ اللَّهِ تَعَالَى؛ فَأَقَامَ لِنَفْسِهِ وَطَنًا مَزْعُومًا فِي فَلَسْطِينَ بِمَسَانِدَةِ الصَّلِيبَةِ الْعَالِمِيَّةِ، فَإِنَّ هَذِهِ الْحَفَنَةَ مِنَ الصَّهَابَةِ لَنْ تَنَعَمَ أَبَدًا بِعَيْشٍ وَاسْتِقْرَارٍ فِي هَذَا الْوَطَنِ الْمَزْعُومِ؛ لِأَنَّ قِيَامَهُ مُضَادٌّ لِلَّهِ فِي أَمْرِهِ وَنَهْيِهِ، حَيْثُ حَرَّمَ عَلَيْهِمُ الْأَرْضَ الْمُقَدَّسَةَ حَرَمًا أَبَدِيًّا عَقُوبَةً لَهُمْ لَمَّا قَالُوا لَنَبِيِّهِمْ: ﴿إِنَّا لَنْ نَدْخُلَهَا أَبَدًا مَا دَامُوا فِيهَا فَادْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَتَلَا إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ﴾ [المائدة: ٢٤].

وهذا طرف من قصة موسى ﷺ جاء في هذه السورة ﴿ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ﴾ أي: من بعد هؤلاء الرسل الكرام، الذين جاءوا لأقوامهم بالمعجزات والآيات البينات، بعثنا ﴿مُوسَى وَهَارُونَ﴾ إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ بِآيَاتِنَا الدالة على وحدانيتنا وأيدناه بالآيات التسع وأكثر، جاء ذكر ثمانٍ منها في سورة الأعراف، منها هذه الخمس: ﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الطُّوفَانَ وَالْجَرَادَ وَالْقُمَّلَ وَالضَّفَادِعَ وَالْدَّمَ﴾ [الأعراف: ١٣٣] والسنين ونقص الثمرات وقلق البحر ونق الجبل والعصا واليد ﴿فَأَلْقَى عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ﴾ ﴿وَنَزَعَ يَدَهُ فَإِذَا هِيَ بِيضَاءٌ لِلنَّظَرِ﴾ [الشعراء] والطمس على الأموال والربط على القلوب.

وكلها آيات بينات أرسل بها موسى ﴿إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ﴾ وهم كبار قومه ﴿فَاسْتَكْبَرُوا﴾ عن قبول الحق واجترأوا على ردها وتكذيبها ﴿وَكَانُوا قَوْمًا مُّجْرِمِينَ﴾ جاحدين لآيات الله، وهم الذين قال الله عنهم: ﴿وَحَدِّدُوا بِهَا وَاسْتَفِنَّا أَنفُسَهُمْ ظُلُمًا وَعُظُمًا﴾ [النمل: ١٤]. قال تعالى:

٧٦- ﴿فَلَمَّا جَاءَهُمُ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِنَا قَالُوا إِنَّ هَذَا لِسِحْرٌ مِّثْنُ ٧٦﴾

﴿فَلَمَّا جَاءَهُمُ﴾ موسى وجاءهم ﴿الْحَقُّ﴾ الواضح ﴿مِنْ عِنْدِنَا﴾ فَوَصَّلَ إِلَيْهِمْ دون تعب ولا جَهْدٍ، لم يتقبلوه بل وصفوه بالسحر، و﴿قَالُوا﴾ أي: قال فرعون وأشراف القوم: ﴿إِنَّ هَذَا لِسِحْرٌ مِّثْنُ﴾ وهذه العبارة تقولها كل أمة لكل رسول حين تكذبه، قالها مشركو مكة للنبي ﷺ، وقالها فرعون لموسى وهارون.

والمعنى: فلَمَّا أتى فرعون وقومه الحق الذي جاء به موسى، قالوا: إن الذي جاء به موسى من الآيات إنما هو سحر ظاهر.

٧٧- ﴿قَالَ مُوسَىٰ ١﴾ أَتَقُولُونَ لِلْحَقِّ لَمَّا جَاءَكُمْ ٢ أَسِحْرٌ هَذَا وَلَا يُفْلِحُ السَّاحِرُونَ ٣﴾

﴿قَالَ مُوسَىٰ﴾ على وجه التعجب والتوبيخ والإنكار ﴿أَتَقُولُونَ لِلْحَقِّ لَمَّا جَاءَكُمْ﴾ إنه سحر؟! فَتَسْمُونَ دعوة الله سحرًا، وتسمون هذه الآيات المعجزات التي هي من عند الله سحرًا، انظروا وَصَفَ ما جاءكم به موسى وما اشتمل عليه من الآيات البينات، تجدونه الحق ﴿أَسِحْرٌ هَذَا﴾ الذي جئتكم به؟ إنه ليس بسحر، وأنتم ترون حقيقته بأعينكم، وأنا أعلم أن الساحر لا يفلح ﴿وَلَا يُفْلِحُ السَّاحِرُونَ﴾ ولا يفوزون في الدنيا ولا في الآخرة.

وقوله تعالى حكاية عن موسى ﷺ: ﴿أَسِحْرٌ هَذَا﴾؟ مقول لقول محذوف يدل عليه ما قبله، وهو ما يجب عليهم أن ينفوه، أي: أتصفون هذا الحق بأنه سحر؟ وفي هذا تعريضٌ بجهلهم وفساد قولهم، وفيه إنكار من موسى ﷺ لوصفهم الآيات بأنها سحر؛ بمعنى: أتقولون هذا القول للحق لما جاءكم إنه سحر؟، وبعد أن نفى موسى عن آيات الله أن تكون سحرًا، بين لهم فساد السحر وسوء عاقبته تحقيرًا لهم، فذكر لهم أن الساحر لا يفلح، وقريب من هذه الآية قوله تعالى: ﴿قُلْ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّن قَبْلِي بِالْبَيِّنَاتِ وَإِلَىٰ قُلُوبِكُمْ﴾ [آل عمران: ١٨٣]. قال تعالى:

(١) أمال ألف (موسى) حمزة والكسائي وخلف، وقللها أبو عمرو وورش بخلف عنه.

٧٨- ﴿قَالُوا أَجِئْنَا لِنُلْفِنَّا عَمَّا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا وَتَكُونَ لَكُمُ^(١) الْكِبَرِيَّةُ فِي الْأَرْضِ وَمَا نَحْنُ لَكُمُ بِمُؤْمِنِينَ﴾

ثم كشف القرآن الكريم عن الدوافع التي جعلت فرعون وملأه يصفون الحق الذي جاء به موسى بأنه سحر، فقالوا لموسى بعد أن جاءهم بالحق المبين: أَجِئْنَا لتصرفنا عن الدين الذي ورثناه عن آبائنا من عبادة غير الله، وتدعونا لعبادة الله وحده، وتكون لك ولأخيك هارون العظمة والسلطان في أرض مصر؟

وما نحن بمصدقين لك ولا لأخيك هارون فيما جئتما به من دُعواكما الرسالة وطلبكما أن نعبد الله وحده؛ لأن تصديقنا لكما يجعلنا نتخلى عن ديننا الذي وجدنا عليه آبائنا، وينزع عنا ملكنا، ويجعلنا نعيش تحت سلطانه وقهره، وهكذا قال قوم نوح عن نبيهم: ﴿مَا هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُرِيدُ أَنْ يَفْضَلَ عَلَيْكُمْ﴾ [المؤمنون: ٢٤] فهم يخافون من تحطيم معتقداتهم الموروثة، ويخافون على سلطانهم في الأرض.

وهذا هو السبب الذي يدفع الطغاة في كل زمان ومكان إلى مقاومة دعوات الإصلاح؛ فيتهمونها بالأوهام والخرافات والأكاذيب، فلمَّا انقطعت حُجة فرعون وأشراف قومه، ولم يجدوا إجابة حقيقية تمنعهم من الإيمان بموسى ﷺ، أنكروا عليه أن يَصْرِفَهُمْ عَمَّا وَرِثُوهُ عن آبائهم من عبادة الأوثان، وتقليد السابقين.

وعلى هذا النحو قال المترفون المكذبون لكل رسول في كل أمة ﴿وَكَذَلِكَ مَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ فِي قَرْنٍ مِنْ نَذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ آثَرِهِمْ مُّقْتَدُونَ﴾ [الزخرف: ٢٣] وكذلك قال قوم إبراهيم له: ﴿قَالُوا وَجَدْنَا آبَاءَنَا لَهَا عَزِيدٌ﴾ ﴿٥٣﴾ قَالَ لَقَدْ كُنْتُمْ أَنتُمْ وَآبَاؤُكُمْ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ﴿٥٤﴾ [الأنبياء]

ومن ذلك قوله تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا﴾ [لقمان: ٢١].

فالحُجة الأولى في رفضهم دعوة موسى: هي الحفاظ على تقاليدهم وعقائدهم الموروثة، وقد جاء ذكرها في قوله تعالى: ﴿قَالُوا أَجِئْنَا لِنُلْفِنَّا﴾ أي: لتصرفنا ﴿عَمَّا وَجَدْنَا

(١) قرأ شعبة بخلف عنه بياء التذكير في (وتكون لكم)؛ لأن اسم كان مؤنث مجازي، وقرأ الباقون بباء التأنيث، وهو الوجه الثاني لشعبة.

عَلَيْهِ ءَابَاءُنَا ﴿٧٨﴾ من عبادة الأصنام.

أما الحُجَّة الثانية: فإنهم يخافون على ذهاب السلطة، وذهاب الهيمنة على الجانب السياسي والاقتصادي؛ فتذهب الزعامة من فرعون إلى موسى وهارون.

وإلى هذا المعنى يشير قوله تعالى حكاية عنهم: ﴿وَتَكُونُ لَكُمْ أَلْكَبْرِيَاءَ فِي الْأَرْضِ﴾ والمراد بالأرض: هي الأرض المعهودة المعروفة للطرفين وهي أرض مصر، والمراد بالكبرياء: السلطة والزعامة والقوة التي تدعم الرئاسة، فهم يزعمون أن موسى وهارون يحاولان نفع أنفسهما بالاستحواذ على سيادة مصر بالحيلة وطلب الرئاسة، وسمي هذا كبرياء؛ لأنه أكبر ما يطلب من الدنيا.

وقد كان الخطاب في أول الآية لموسى وحده؛ لأنه الذي باشر الدعوة إليهم وحده، ولم يكن هارون حاضراً، فلمَّا ضمه إليه جاء الخطاب بضمير التثنية؛ ظناً منهم أن هارون جاء مع موسى؛ لينال من سيادة أخيه حظاً لنفسه.

ثم أكدوا إنكارهم وعدم اعترافهم برسالة موسى وهارون فقالوا: ﴿وَمَا نَحْنُ لَكُمْ بِمُؤْمِنِينَ﴾ تكبرا وعناداً، لسنا مُقرِّين بأنكما رسولان أرسلتما إلينا؛ لنعبد الله وحده.

وكثيراً ما يذكر القرآن قصة موسى مع فرعون؛ لأنها من أعجب القصص، حيث رُبي موسى بمنزلة الولد على فراش فرعون ومأدبته، وشب وترعرع، ثم دبر الله له سبيّاً أخرج به من بين أظهرهم، ورزقه الله النبوة والرسالة والتكليم، وبعثه إلى فرعون مع عظمة ملكه وسلطانه؛ ليدعوه إلى عبادة الله وحده، وأزره بأخيه هارون؛ فاستكبر فرعون وتجرأ على الله تعالى؛ فادعى الربوبية والألوهية، واستعبد بني إسرائيل وأهل مصر.

وقد حفظ الله موسى وهارون وأحاطهما برعايته، وأظهر شأن موسى وأبطل كيد السحرة، واستمر فرعون وملؤه في الجحود والعناد حتى قطع الله دابره هو وملاه ﴿فَأَخَذْنَاهُ وَخُودَهُ فَنَبَذْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ﴾ [القصص: ٤٠] ﴿وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفْلَىٰ وَكَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا﴾ [التوبة: ٤٠].

فِرْعَوْنُ يُعَارِضُ الْحَقَّ الَّذِي جَاءَ بِهِ مُوسَى:

٧٩- ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ^(١) أَتَأْتُونِي بِكُلِّ سِحْرٍ^(٢) عَلِيمٍ^(٣)﴾

وكان الله سبحانه قد آتد موسى بالمعجزات الدالة على صِدْق رسالته؛ ومنها العصا، فأراد فرعون أن يعارض معجزة موسى بأنواع من التليس؛ ليظهر للناس أن ما أتى به موسى سحر، فأمر بجمع السحرة المهرة من جميع البلاد؛ ليطلوا ما جاء به موسى، وقال فرعون لخدمه وحاشيته: جيئوني بكل ساحر متقن للسحر.

وقد ذكرت قصة السحرة أيضًا في سور: الأعراف وطه والشعراء، وفيها أن السحر قد انقلب على الساحر، حيث آمن السحرة بموسى، وقد جاء بهم فرعون ليعارضوه ﴿فَأَلْفَى السَّحَرَةُ سِحْرَ مُوسَى﴾ ﴿٤٦﴾ قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٤٧﴾ رَبِّ مُوسَى وَهَارُونَ ﴿٤٨﴾ [الشعراء]. قال تعالى:

٨٠- ﴿فَلَمَّا جَاءَ^(٣) السَّحَرَةُ قَالَ لَهُمُ مُوسَى أَلْقُوا مَا أَنْتُمْ مُلْقُونَ﴾ ﴿٨١﴾

طلب فرعون من خاصة قومه أن يجمعوا له كل ساحر من أفراد مملكته؛ فامثل القوم أمر فرعون وأسرعوا في إحضار السحرة، وجيء بهم في ضحا يوم الزينة في اجتماع القوم، وعندئذ طلب موسى من السحرة أن يلقوا ما بأيديهم من الحبال والعصي على الأرض، وأن يبدؤوا بإلقاء سحرهم؛ إظهارًا لقوة حُجَّتِه، وعدم اكترائه بمبلغ سحرهم، وتهيئة للحاضرين أن يَعْلَمُوا أن الله مبطل سحرهم على يد رسوله موسى.

وفي موضع آخر أنهم خيروا موسى بين أن يتدئ هو بالسحر، أو يتدئوا هم به، وأن موسى اختار أن يكونوا هم البادئين ﴿قَالُوا يَمُوسَى إِمَّا أَنْ تُلْقَى وَإِمَّا أَنْ نَكُونَ نَحْنُ الْمُلْقِينَ﴾ ﴿١١٥﴾ قَالَ أَلْقُوا [الأعراف]

وفي سورة طه: ﴿قَالُوا يَمُوسَى إِمَّا أَنْ تُلْقَى وَإِمَّا أَنْ نَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَلْقَى﴾ ﴿١١٥﴾ قَالَ بَلْ أَلْقُوا [الآية].

(١) قرأ ورش والسوسي وأبو جعفر بإبدال همزة (اتنوني) واوًا مديةً حال وصلهم بما قبلها (فرعون)، والباقون بالتحقيق.

(٢) قرأ حمزة والكسائي وخلف العاشر (بكل سحرًا) على وزن فعَّال للمبالغة، وقرأ الباقيون (بكل ساحر) على وزن فاعل.

(٣) أمال ألف (جاء) ابن ذكوان وهشام بخلف عنه وحمزة وخلف، وفتحها الباقيون.

وهكذا فإن فرعون وملأه اتهموا موسى فيما جاء به من عند الله فوصفوه بالسكر حين ﴿قَالُوا إِنَّ هَذَا لَسِحْرٌ مُبِينٌ﴾ [يونس: ٧٦] ثم أرادوا أن يُثبتوا أنهم قادرون على الإتيان بمثل ما عند موسى؛ فجمعوا له السحرة لإبطال سحره - على حد زعمهم - ﴿فَلَمَّا أَلْقَوْا سَحَرُوا أَعْيُنَ النَّاسِ وَاسْتَرْهَبُوهُمْ وَجَاءُوا بِسِحْرِ عَظِيمٍ﴾ [الأعراف: ١١٦].

ولما ألقوا سحرهم توجس موسى خوفاً من سحرهم كما قال تعالى: ﴿فَأَوْجَسَ فِي نَفْسِهِ خِيفَةً مُّوسَى﴾ ﴿١٧﴾ قلنا لا تخف إنك أنت الأعلى ﴿١٨﴾ وألق ما في يمينك لنقف ما صنعوا إنما صنعوا كيدَ سحرٍ ولا يفلح الساحر حيث أتى ﴿١٩﴾ [طه].

ولا يخفى أن الأمر بإلقاء السحر معصية، وأن المقصود هنا هو إبطال سحرهم، وإبطال شبهة الملحد، هذا فضلاً عن أنهم كفار، والكفار غير مخاطبين بفروع الشريعة.

عِلَاجُ الْمَسْحُورِ

٨١ - ﴿فَلَمَّا أَلْقَوْا قَالَ مُوسَى مَا جِئْتُمْ بِهِ﴾ ^(١) السِّحْرُ إِنَّ اللَّهَ سَيُبْطِلُهُ إِنَّ اللَّهَ لَا يُصْلِحُ عَمَلَ الْمُفْسِدِينَ ﴿١٧﴾

فلما ألقوا حبالهم وعصيتهم؛ قال لهم موسى على وجه السخرية مما صنعوه: إن الذي جئتم به، وألقيتموه على الأرض، وأظهرتموه لنا، هو السحر بعينه، وليس الذي جئت به أنا، وهذا ردٌ على التهمة التي وُجِّهت إليه، وبيان أن ما جاؤوا به هو تمويه وتخيل ولفظ للأنظار، وموسى عليه السلام واثق من ربه، مطمئن إلى أنه سيظهر دعوته ويبطل كيدهم.

ولذا: فإنه سبحانه قال: ﴿إِنَّ اللَّهَ سَيُبْطِلُهُ﴾ أي: سيمحق ما جئتم به ويزيل أثره من النفوس؛ لأنه كذب، كالدِّم الذي كان على قميص يوسف عليه السلام، ليس له حقيقة، وسوف يفضح الله عملهم إنه لا يصلح عمل من سعى في الأرض بالفساد، من الذين يضللون الناس بأكاذيبهم، فلا يجدون طريقاً لإصلاح أنفسهم.

﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُصْلِحُ عَمَلَ الْمُفْسِدِينَ﴾ لأنهم يريدون نصر الباطل على الحق، وهذا من أعظم الفساد.

(١) قرأ أبو عمرو وأبو جعفر (به السحر) بزيادة همزة الاستفهام قبل همزة الوصل، مثل (الذكرين) فيكون فيها لهما وجهان: المد بمقدار ما يمدُّ المد المنفصل عندهما فتكون هكذا (به السحر) بمعنى: أي شيء أتيت به؟ أهو السحر؟ والباقيون كحفص.

٨٢- ﴿وَيُحِقُّ اللَّهُ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ﴾ (٨٢)

وقد جرت سنة الله تعالى أنه لا يصلح عمل من أفسد في الأرض بالكفر والمعاصي، بل يحق سبحانه الباطل ويذهب، ويثبت الله الحق الذي جاء به من عنده؛ ليرفعه ويعليه على الباطل الذي جاؤوا به، وكل ذلك بأمر الله تعالى وكلماته ﴿وَلَوْ كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ﴾ أهل المعاصي من آل فرعون، فلما تبين للسحرة الحق فروا سجدا لله، فتوعدهم فرعون بالصلب وتقطيع الأيدي والأرجل، فلم يبالوا بقوله، وثبتوا على إيمانهم.

أخرج ابن أبي حاتم بسنده عن أبي جعفر الرازي عن ابن أبي سليم قال: بلغني أن هذه الآيات شفاء من السحر بإذن الله تعالى، تُقرأ في إناء فيه ماء، ثم يصب على رأس المسحور، الآية الأولى من سورة يونس: ﴿فَلَمَّا أَتَوْا قَالُوا مُوسَىٰ مَا جِئْتُهُ بِهَ السِّحْرِ إِنَّ اللَّهَ سَيَبْطِلُهُ إِنَّ اللَّهَ لَا يُصْلِحُ عَمَلَ الْمُفْسِدِينَ﴾ (٨١) ﴿وَيُحِقُّ اللَّهُ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ﴾ (٨٢) والآية الأخرى في سورة الأعراف، وهي قوله تعالى: ﴿فَوَقَعَ الْحَقُّ وَبَطَلَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ (٨٣) ﴿فَعُلِبُوا هُنَالِكَ وَانْقَلَبُوا صَغِيرِينَ﴾ (٨٤) ﴿وَأَلْقَى السَّحَرَةُ سَجْدِينَ﴾ (٨٥) ﴿قَالُوا ءَامَنَّا بِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ (٨٦) ﴿رَبِّ مُوسَىٰ وَهَارُونَ﴾ (٨٧) [الأعراف]

وقوله تعالى من سورة طه: ﴿إِنَّمَا صَنَعُوا كَيْدَ سِحْرٍ وَلَا يُفْلِحُ السَّاحِرُ حَيْثُ أَتَى﴾ [طه: ٦٩] هذه المواضع الثلاث من قرأها في ماء ثم صبت على رأس المسحور فإنه يبرأ من السحر بإذن الله سبحانه^(١).

ويطوي السياق بقية قصة السحرة وغيرها؛ لأن الغرض هنا هو العبرة بنهاية فرعون وقومه، ويقرر الله سبحانه أن فرعون وملأه لم يؤمن منهم أحد بل استمروا في طغيانهم وبيغهم.

ثَمَرَةُ دَعْوَةِ مُوسَىٰ فِي بَنِي إِسْرَائِيلَ وَآلِ فِرْعَوْنَ

٨٣- ﴿فَمَّا ءَامَنَ لِمُوسَىٰ إِلَّا ذُرِّيَّتُهُ مِنْ قَوْمِهِ عَلَىٰ خَوْفٍ مِنْ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِمْ أَن يَفْتِنَهُمْ وَإِنَّ فِرْعَوْنَ لَعَالٍ فِي الْأَرْضِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الْمُفْسِدِينَ﴾ (٨٣)

(١) ابن أبي حاتم (١٩٧٤/٦).

ومع مجيء موسى بالمعجزات، وبآيات والحجج الدالة على رسالته، ما آمن به إلا ذرية من قومه؛ أي: فتية وناشئة عددهم قليل من بني إسرائيل، وهم قوم موسى الذين كانوا معه في مصر، بخلاف غيرهم ممن هم خارج مصر، فلم تبلغهم الدعوة، أو لم يؤمر بالتبليغ إليهم، وكان هذا الإيمان على حذر وخوف من فتنة فرعون وبطشه أن يفتنهم عن دينهم، أو يعذبوهم.

وقد جرت العادة أن الناشئة من الفتية والشباب يكونون أقرب لقبول الحق من الشيوخ الكبار ممن تربى على الضلال والعقائد الفاسدة.

ولم يؤمن بموسى من قوم فرعون إلا امرأة فرعون، وماشطة ابنته، وخازن فرعون وامراته، ومؤمن آل فرعون، هؤلاء الخمسة وشباب آخرون من قوم فرعون، آمنوا بموسى.

وآمن بموسى أيضًا إلى جوار عامة قومه، ذرية من بني إسرائيل، وسموا ذرية؛ لأنهم كما قيل إن آباءهم من قبط مصر، وأمهااتهم من بني إسرائيل، فكان الرجل يتبع أمه وأخواله، كما قال الفراء، قيل: كانوا سبعين بيتًا من قوم فرعون.

والضمير في ﴿قَوْمَهُ﴾ يعود على بني موسى؛ لأنه أقرب مذكور؛ ولأن فرعون ذكر في الآية بالاسم الصريح.

والضمير في ﴿وَمَلَأْنَاهُمْ﴾ يرجع إلى آل فرعون؛ لأنهم كانوا يمنعون ذريتهم من الإيمان بموسى، وفرعون هو الذي كان يأمر بالتعذيب، وكان الملاء من قومه يأترون بأمره وينتهون بنهيهِ؛ فلحق هذا الإيذاء بكل من آمن بموسى من بني إسرائيل وغيرهم.

والى هذا يشير قوله تعالى على لسان بني إسرائيل: ﴿قَالُوا أَوْزَيْنَا مِنْ قَبْلِ أَنْ تَأْتِيَنَا وَهِنُ بَعْدَ مَا جِئْتَنَا قَالَ عَسَى رَبُّكُمْ أَنْ يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ﴾ [الأعراف: ١٦٩].

ولا يوجد دليل على أن بني إسرائيل جميعًا قد آمنوا بموسى، بل إن منهم من آمن به، ومنهم من كفر؛ كقارون والسامري وغيرهما.

والمعنى: فما آمن لموسى في دعوته إلى وحدانية الله تعالى إلا عدد قليل من شباب قومه الذين كانوا يعيشون في مصر، وهم خائفون من فرعون وملئه أن يفتنهم بالعذاب،

أما آبائهم وأصحاب الجاه منهم فقد انحازوا إلى فرعون؛ طمعاً في عطائه، وخوفاً من بطشه أن يفتنهم في دينهم؛ فيعذبهم ويحملهم على ترك اتباع موسى ﷺ.

ثم وصف الله فرعون بأنه طاغية متجبر فقال: ﴿وَإِنَّ فِرْعَوْنَ لَعَالٍ﴾ أي: مستكبر ﴿فِي الْأَرْضِ﴾ كان عبداً فادعى الربوبية والألوهية ﴿وَإِنَّهُ لَمِنَ الْمُسْرِفِينَ﴾ المتجاوزين لحدود الله بالكفر والفساد، وكان كثير القتل والتعذيب لبني إسرائيل، فكان يستعبدهم وبذلهم ويشردهم ويقطع أيديهم وأرجلهم من خلاف.

وكان محمد ﷺ حريصاً أشد الحرص على هداية قومه، وفي هذه الآية وأمثالها تسليّة ومواساة للنبي ﷺ على ما يلقاه من قريش، وعلى عدم إيمان بعضهم.

مُوسَى يَحُثُّ قَوْمَهُ عَلَى الثَّبَاتِ وَالطَّمَأْنِينَةِ

٨٤- ﴿وَقَالَ مُوسَى يَقَوْمِ إِن كُنتُمْ ءَامَنُتُمْ بِاللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوا إِن كُنتُمْ مُسْلِمِينَ﴾ ﴿٨٤﴾

قال موسى لقومه من بني إسرائيل الذين آمنوا به؛ ليثبتهم ويطمئن قلوبهم، وقد رأى الخوف يعلو وجوههم وهم في حضرة فرعون: إن كنتم آمتم بالله حق الإيمان؛ فعليه اعتمدوا في نصركم ودفع الضر عنكم، فإن التوكل على الله كافٍ لمن توكل عليه، ولا تصانعوا فرعون، ولا تظهروا له الولاء، فالتوكل على الله ملازمٌ للإيمان والإسلام.

فيا قوم، إن كان إيمانكم إيمان مستسلم مخْلِص لله، لا تشوبه شائبة؛ فثقوا في قدرة الله ووعدته، وسلّموا لأمره، إن كنتم متقادين له بالطاعة، والإسلام عمل جسماني، والإيمان عمل قلبي، وهما متلازمان في الاعتداد بهما في اتباع الدين، فلا يعلم تصديق القلب إلا بالقول والطاعة، والتوكل من كمال الإيمان.

وقد أراد موسى بذلك إلهاب حماسهم، وإثارة صدق إيمانهم، حيث تخوَّفوا من فرعون أن يفتنهم، كما قال تعالى: ﴿أَلَيْسَ اللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ﴾ [الزمر: ٣٦] ﴿وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ﴾ [الطلاق: ٣] ﴿قُلْ هُوَ الرَّحْمَنُ ءَامَنًا بِهِ وَعَلَيْهِ تَوَكَّلْنَا﴾ [الملك: ٢٩]. قوله تعالى:

٨٥، ٨٦- ﴿فَقَالُوا عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنَا رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ ﴿٨٥﴾ وَنَحْنَا بِرَحْمَتِكَ مِنَ الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾

وامثل بنو إسرائيل قول موسى ﴿فَقَالُوا﴾ مجيبين له: ﴿عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنَا﴾ اعتمدنا عليه،

وفوضنا أمرنا إليه وحده، ثم دعوا ربهم بدعاءين:

فقالوا **أولاً: ﴿رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾** من المعتدين واليهود وغيرهم، فلا تسلطهم علينا فيغلبونا ويقولون: لوكانوا على حق ما غلبوا.

ومعنى كون المسلمين فتنة للظالمين أنه إذا نصر الله غير المسلمين على المسلمين، فإن غير المسلمين يظنون أنفسهم على حق وصواب، وأن المسلمين على باطل، ويقولون: لو كانوا على حق ما غلبناهم وما انتصرنا عليهم، فيكون في هذا فتنة للظالمين، ويزدادون طغياناً وكفرًا، ويُفتن بذلك بقية الكفرة؛ فيظنون أنهم على حق، فلا تجعلنا يا ربنا سبب فتنة لهم، فإنهم إن غلبونا نكون فتنة لهم، فيظنوا أنهم على صواب.

ويجوز أن يكون المعنى: لا تسلطهم علينا وتمكنهم مِنَّا؛ فيفتنونا ويضلُّونا عن الحق وعن دينك، وفي هذا دليل على اهتمامهم بأمر دينهم أكبر من اهتمامهم بسلامة أنفسهم.

ثم أضافوا دعاء آخر، فقالوا: ونلتمس منك يا ربنا أن تنقذنا بفضلك وجودك منهم، وأن تباعد بيننا وبينهم كما باعدت بين المشرق والمغرب، وتخلصنا من سوء جوارهم، وألا تُنزل بنا بلاء بأيديهم ولا بأيدي غيرهم، كما نجيت بني إسرائيل من استعباد فرعون وملئه. ﴿وَنَجِّنَا بِرَحْمَتِكَ مِنَ الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾ لنسلم من شرهم، ولنتمكن من إقامة ديننا وإظهاره دون معارضة.

الإِعْدَادُ الْمُبَكِّرُ لَخُرُوجِ بَنِي إِسْرَائِيلَ مِنْ مِصْرَ

٨٧- ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ وَأَخِيهِ أَنْ تَبَوَّءَا لِقَوْمِكَ مِمَّا يَمْصُرُ بَيْوتًا^(١) وَاجْعَلُوا يَبُوتَكُمْ قِبْلَةً وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ﴾

هذه الآية مقدّمة لخروج بني إسرائيل من مصر، حيث أمر الله موسى وهارون أن يفصلا بين بني إسرائيل وأهل مصر، وأن يستعينوا على شدة بلائهم بكثرة الصلاة، وإذا خافوا أن يظهروا صلاتهم من فرعون وقومه؛ فليصلوا في بيوتهم تجاه القبلة، ويجعلوا بيوتهم مكاناً للصلاة فيها لعجزهم عن إقامة في الكنائس والبيع.

(١) قرأ قالون وابن كثير وابن عامر وشعبة وحزمة والكسائي وخلف العاشر بكسر الباء من (بيوتا، بيوتكم) والباقون بضمها، وهما لغتان.

وقد ذكر المفسرون أن فرعون قد أخاف بني إسرائيل، وهدم الأماكن التي اتخذوها للصلاة، فأوحى الله لموسى وهارون أن يقيما لهم بيوتاً أخرى يصلون فيها في مواجهة القبلة.

ولمّا أراد الله أن ينصر موسى ومَن معه من بني إسرائيل على فرعون وقومه، أوحى إلى موسى وهارون أن يطلبَا من بني إسرائيل أن يكون لهم حيٌّ خاص في البادية، وسَكَنٌ مميّز يمنعه من الاختلاط بقوم فرعون، وذلك على سبيل الفرز والتنظيم والاستعداد للرحيل من مصر، حتى يميزوا عن الفراعنة، ويكونوا في حي واحد وبيوت واحدة، منزلين عن قوم فرعون.

وهذا معنى: ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ وَأَخِيهِ﴾ هارون باعتبار أنهما يديران أمور الأمة فكان الوحي لهما معاً ﴿أَن تَبَوَّءَا لِقَوْمِكُمَا بِمِصْرَ بُيُوتًا﴾ أي: اتخذا لقومكما بمصر بيوتاً ومساكن من العشب والخيام والأخصاص؛ تهيئة للارتحال من مصر، وهي غير بيوتهم المختلطة بأهل مصر، وأن يجعلوا هذه البيوت التي يتخذونها مساكن لهم، يقابل بعضها بعضاً، حتى يعرفوا الداخل والخارج، إن كان منهم أو من غيرهم.

وقد كانت (طية الأقصر) عاصمة الفراعنة في مصر، والتي كانوا يسكنونها قرب (منفيس) مدينة فرعون في جنوب مصر.

وهكذا أرشدهم موسى أن يزكّوا أنفسهم من الذنوب، ويطهروا بيوتهم من أمور الجاهلية، ويستبشروا بنصر الله؛ فطلب منهم موسى الإكثار من الصلاة للاستعانة بها على ما هم فيه من محنة؛ فخافوا من فرعون وقومه إذا رأوهم يُصلُّون أن يعذبوهم، ولا يستطيعوا الخروج إلى الصلاة في أماكن العبادة؛ فأمرهم الله ﷻ أن يصلوا في بيوتهم التي أمروا ببنائها مؤخراً، وأن يجعلوها مساجد لهم ويتخذوها قبلة لهم في الصلاة.

وكان اتجاهها في مقابلة القبلة التي تصح الصلاة إليها في شريعتهم، وهي الكعبة على الملة الحنيفية قبل أن تنسخ إلى استقبال صخرة بيت المقدس، والغرض من ذلك أن تدخلها الشمس في جميع فصول السنة غالب أوقات النهار، وفي ذلك منافع كثيرة.

قال ابن عباس ؓ: كانت الكعبة قبلة موسى.

وقال الحسن: كانت الكعبة قبلة الأنبياء.

وقبله أهل مصر كقبلة أهل المدينة إلى الجنوب، ما بين المشرق والمغرب، وهي قبلة

إبراهيم عليه السلام، وكان النسخ للقبلة بعد ذلك.

ثم أمر الله موسى أن يبشر أتباعه بالنصر والغلبة على عدوهم فقال: ﴿وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ المطيعين لله بالنصر المؤزر في الدنيا، والثواب الجزيل في الآخرة.

ولما رأى موسى القسوة والإعراض من فرعون وملئه دعا عليهم، وأمن هارون على دعائه:

مُوسَى يَدْعُو عَلَى فِرْعَوْنَ وَقَوْمِهِ بَعْدَ أَنْ يَيْئَسَ مِنْهُمْ

٨٨- ﴿وَقَالَ مُوسَى رَبَّنَا إِنَّكَ آتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلَأْتَ زِينَةً وَأَمْوَالًا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا رَبَّنَا لِيُضِلُّوا^(١) عَنْ سَبِيلِكَ رَبَّنَا اطْمِسْ عَلَى أَمْوَالِهِمْ وَاشْدُدْ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُوا حَتَّى يَرَوُا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ﴾

أعلم الله سبحانه موسى عليه السلام بوحى منه أن فرعون لا فائدة منه ولا في ذريته، فقد أبى قبول الحق واستمر على ضلاله وكفره، وفقد موسى الأمل في إصلاح فرعون وملئه، وظهر أن شأنهم شأن قوم نوح، لا يلدون إلا فاجراً كفاراً، فأذن الله له في الدعاء عليهم، وقد مهّد موسى لدعائه عليهم تمهيداً يدل على أن ما طلبه موسى من الله سبحانه بسلب النعمة عن فرعون وملئه، وحلول العذاب بهم، ليس من باب الانتقام لنفسه، إنما هو لمصلحة الدين، وهذا هو سبب الدعاء.

﴿وَقَالَ مُوسَى رَبَّنَا إِنَّكَ آتَيْتَ﴾ أعطيت ﴿فِرْعَوْنَ وَمَلَأْتَهُ﴾ أشراف قومه ﴿زِينَةً﴾ يتزينون بها من أنواع الحلّي والثياب، والبيوت المزخرفة، والمراكب الفاخرة، والخدم، وأعطيتهم الكثير، من متاع الدنيا ومظاهر الرفاهية والتنعّم ﴿وَأَمْوَالًا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ أي: أعطيتهم أموالاً كثيرة وجاهاً ومناصبَ وزينة كالحلي؛ فلم يشكروا هذه النعم، وإنما استعانوا بها على إضلال الناس، فكانت هذه الأموال وهذه الزينة سبباً للفتن، وكان من عاقبة أمرهم أنهم لم يحفظوا هذه النعمة، ولم يقوموا بواجب الشكر عليها، وإنما ضلوا عن سبيلك وأضلوا غيرهم.

فاللام للعاقبة والصورورة في قوله تعالى: ﴿رَبَّنَا لِيُضِلُّوا عَنْ سَبِيلِكَ﴾ حيث قدّم موسى

(١) قرأ عاصم وحمزة والكسائي وخلف العاشر بضم الياء من (ليضلوا) مضارع أضل، والمفعول محذوف تقديره: غيرهم، وقرأ الباقر بفتح الياء مضارع ضل، يقال: ضل نفسه، وأضل غيره.

هذا السبب؛ توطئة للدعاء عليهم، وليس من باب الخبر.

ثم قال: ﴿رَبَّنَا أَطِيسْ عَلَى أَمْوَالِهِمْ﴾ أي أتلغها بالهلاك أو بجعلها حجارة حتى لا يتفجعوا بها. والطمس: هو الإهلاك والإتلاف ومحو الأثر، وهذا الطمس من آيات الله التسع. جاء عن ابن عباس ؓ أن أموالهم من دراهم ودنانير، صارت حجارة منقوشة كهيتها قبل الطمس.

ثم قال موسى: ﴿وَأَشَدُّ عَلَى قُلُوبِهِمْ﴾ فلا تنشرح للإيمان، والشَّدُّ: هو الربط والطبع على الشيء؛ أي: اجعل قلوبهم قاسية، واطبع عليها؛ فلا تقبل الهدى ولا الإيمان، وهذا وَفَّق طيعتهم التي أفسدوها، وَفَّق علم الله تعالى عنهم.

وقد أعلم الله موسى بذلك قبل أن يدعو عليهم؛ فبيّن أنهم لن يؤمنوا حتى يروا الغرق بأعينهم. والإيمان عند معاينة العذاب لا ينفع ولا يُخرج العبد من الكفر، وهذا معنى: ﴿فَلَا يُؤْمِنُوا حَتَّى يَرَوْا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ﴾ أي: الشديد الموجه.

وقد استجاب الله دعوة موسى، فحال بين فرعون وبين الإيمان حتى أدركه الغرق، فلم ينفعه إيمانه.

قيل: إن الله تعالى أغرق فرعون بعد دعوة موسى عليه بأربعين سنة^(١).

والمراد: أنهم لا يؤمنون إلا وقت أن يكون الإيمان لا ينفع، كإيمان الكافر في وقت الغرغرة، أو الإيمان وقت خروج الروح.

وكان موسى يدعو وهارون يؤمن على دعائه، فكأنهما اشتركا في الدعاء، وكان بين دعاء موسى على فرعون وإجابة هذا الدعاء أربعون عامًا، قاله ابن جريج.

هذا: وقد أعطى الله فرعون المال والملك والجاه؛ فتنةً وابتلاءً واستدرأجًا، حتى إذا ازداد عتوًا وطغيانًا أخذه أخذ عزيز مقتدر.

ونظير هذا قوله تعالى: ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ مِلَّ لَهُمْ حَيْرٌ لِّأَنفُسِهِمْ إِنَّمَا نُمَلِّ لَهُمْ

(١) «تفسير الطبري» (١١/١٦١) وابن عطية (٣/١٣٩).

لِيَزْدَادُوا إِثْمًا ﴿١٧٨﴾ [آل عمران: ١٧٨] وقد قابل فرعون نعم الله عليه بالجحود، واستعملها في الفساد والأذى؛ فكانت النتيجة أن الله تعالى أهلكها وأزالها ومسحها حجارة وهي بين يديه.

وقد كان موسى حريصاً على هداية بني إسرائيل، وحريصاً على هداية فرعون وقومه، ولعله رأى أن من وسائل الهداية التضييق عليهم بزوال النعم، فإذا اشتد بهم الكرب عجلوا بالتوبة، كما هو عادة النفوس الغافلة في مثل قوله تعالى: ﴿وَإِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ ضُرٌّ دَعَا رَبَّهُ مُنِيبًا إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَا خَوَّلَهُ نِعْمَةً مِّنْهُ نَسِيَ مَا كَانَ يَدْعُو إِلَيْهِ مِن قَبْلُ﴾ [الزمر: ٨]

ولكن فرعون لم يفعل، وظل على كفره حتى أدركه الغرق، وأجاب الله فيه دعوة موسى ﷺ.

٨٩- ﴿قَالَ قَدْ أُجِيبَ دَعْوَتُكُمَا فَاسْتَقِيمَا وَلَا تَتَّبِعَانِ^(١) سَبِيلَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ ﴿٨٩﴾

قال سبحانه: ﴿قَدْ أُجِيبَ دَعْوَتُكُمَا﴾ أي: يا موسى وهارون، في فرعون وملئه وأموالهم، فسلبت منه ومن قومه النعم، وتوالت عليه النقم، كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَخَذْنَا آلَ فِرْعَوْنَ بِالسِّنِينَ وَنَقْصٍ مِّنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَذْكُرُونَ﴾ [الأعراف: ١٣٠]

وقال سبحانه: ﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الطُّوفَانَ وَالْجَرَادَ وَالْقُمَّلَ وَالضَّفَادِعَ وَالْدَّمَ ءَايَاتٍ مُّفَصَّلَاتٍ﴾ [الأعراف: ١٣٣].

ثم قال الله لهما: ﴿فَاسْتَقِيمَا﴾ على الحق، واستمرا على دعوة فرعون وقومه، إلى عبادة الله وتوحيده، وامضيا لأمري إلى أن يأتيهم العذاب ﴿وَلَا تَتَّبِعَانِ سَبِيلَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ أي: ولا تسلكا طريق الذين يجهلون وعدي ووعيدي، ممن يسلكون طريق الشيطان والغواية، فأمر الله موسى أن يسرى ببني إسرائيل ليلاً وأخبره أن فرعون وملأه سيلحقون بهم ويتبعونهم:

خُرُوجُ بَنِي إِسْرَائِيلَ مِنْ مِصْرَ وَغَرَقُ فِرْعَوْنَ

٩٠- ﴿وَجَازَيْنَا بَنِي إِسْرَءِيلَ^(٢) الْبَحْرَ فَاتَّبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ وَجَنُودُهُ بَغْيًا وَعَدُوًّا حَتَّى إِذَا

(١) قرأ ابن ذكوان وهشام بخلف عنه بتخفيف النون مكسورة من (ولا تتبعان) على أن لا نافية ومعناه النهي، أو على أنها نون التوكيد الخفيفة، وقرأ الباقر بتشديد النون مكسورة أيضاً، وهو الوجه الثاني لهشام.

(٢) قرأ أبو جعفر بتسهيل همزة (إسرائيل) الثانية مع المد والقصر، ومثله حمزة عند الوقف، وقرأ الأزرق عن ورش بثلاثة أوجه المد في البدل.

أَدْرَكَهُ الْعَرْقُ قَالَ ءَامَنْتُ أَنَّهُ^(١) لَا إِلَهَ إِلَّا الَّذِي ءَامَنْتُ بِهِ بَنُو إِسْرَءِيلَ وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴿٩٠﴾

هذه الآية تبين كيفية إغراق فرعون وجنوده؛ وذلك أنه بعد أن أمر الله بني إسرائيل أن يتخذوا لأنفسهم بيوتاً مؤقتة في مكان موحد لهم؛ تهيئة للسفر ومجازاة البحر، تأتي الآيات الأربع الأولى في الربع الأخير من سورة يونس؛ لتتناول الحلقة الأخيرة من حياة فرعون، وبيان مصيره الذي آل إليه، وتتناول أيضاً مصير بني إسرائيل بعد نجاتهم من فرعون، مع موسى ﷺ، فقد أرسل الله سبحانه موسى لمهمتين أساسيتين:

المهمة الأولى: الدعوة إلى توحيد الله سبحانه وعبادته.

والمهمة الثانية: إخراج بني إسرائيل من مصر، وتخليصهم من ذل فرعون واستعباده وقهره وظلمه.

وتبدأ قصّة الخروج لما دعا موسى على فرعون، بعد أن أعلمه الله تعالى أنه قد سبق في علمه الأزلي أن فرعون وملاه لن يؤمنوا حتى يروا العذاب الأليم، وأمن هارون على دعاء موسى، فقد كان هذا مقدّمة لخبر خروج موسى ومن معه من أرض مصر، بعد أن تم إقامة مساكن لهم في البادية وتكتّلهم فيها؛ تهيئة لخروجهم.

ويأتي تنفيذ هذا الدعاء؛ كرامة لموسى ﷺ، فأوحى الله إليه مستجيباً دعوته أن يخرج بني إسرائيل ليلاً من مصر، متجهاً إلى البحر الأحمر عند خليج السويس؛ فخرج موسى ببني إسرائيل على حين غفلة من فرعون وملئه.

وكان تعداد بني إسرائيل (أي: يعقوب وذريته وأحفاده) عندما التقوا بيوسف ﷺ في مصر اثنين وسبعين فرداً، وكان تعدادهم حين خرجوا مع موسى من مصر ست مئة وعشرين ألفاً.

وصل بهم موسى ﷺ إلى ساحل البحر الأحمر، شمال خليج السويس، حيث كان العبور في (عيون موسى) أو (البحيرات المرة) وعند مطلع الشمس نظر بنو إسرائيل؛ فوجدوا فرعون قد أدركهم ولحق بهم هو وجنوده، وحيثُ قال بنو إسرائيل لموسى: ﴿إِنَّا لَمَذْكُورُونَ﴾ [الشعراء: ٦١] فالعدو وراءنا والبحر أمامنا، وقد وصل موسى إلى طريق مسدود

(١) قرأ حمزة والكسائي وخلف العاشر بكسر همزة (إنه) من (آمنت أنه) على الاستئناف، وقرأ الباقون بالفتح على أنها في محل نصب، مفعولاً به لآمنت، أو على إسقاط حرف الجر.

محفوظ بالمخاطر، قال موسى ﷺ: ولكني أمرت أن أسير من هنا ﴿إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ﴾ [الشعراء: ٦٢].

فأوحى الله تعالى إلى موسى ﴿أَنْ أَضْرِبَ بِعَصَاكَ الْبَحْرَ﴾ وماذا عسى أن تفعل العصا في البحر؟ ولكنها المعجزة، معجزة موسى ﷺ في آية العصا، ضَرَبَ موسى البحر بعصاه؛ فانفلق البحر اثني عشر طريقاً ﴿وَلَقَدْ أَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِي فَاضْرِبْ لَهُمْ طَرِيقًا فِي الْبَحْرِ يَبَسًا﴾ [طه: ٧٧].

وقد ذكرت هذه الآيات بالتفصيل في سورة الأعراف، وفي سورة الشعراء، وفي سورة الدخان، وفي سورة طه، بإيجاز في بعضها، وتفصيل في بعضها الآخر.

وهذه الطرق الاثنا عشر بعدد أسباط بني إسرائيل، كل سبط أو عشيرة تمرُّ من طريق منها، بعد أن تجمَّد الماء، وتراكم بعضه فوق بعض كالجبل الأشم ﴿كُلُّ فِرْقٍ كَالطَّوْدِ الْعَظِيمِ﴾ [الشعراء: ٦٣] وجفت الطرق الاثنا عشر من الماء، وعَبَرَ موسى وبني إسرائيل البحر، ذلكم قول الله تعالى: ﴿وَجَوَّزْنَا بِبَنِي إِسْرَءِيلَ الْبَحْرَ﴾ الآية.

ولما خرج موسى بقومه إلى الجهة الثانية توجَّه نحو البحر، وأراد أن يضربه مرة أخرى بعصاه حتى لا يلحق به فرعون؛ فقال الله تعالى له: ﴿وَأَتْرِكْ الْبَحْرَ رَهَوًّا﴾ أتركه ساكنًا كما هو، بما فيه من الطرق اليابسة والجفاف الذي في أرضه ﴿إِنَّهُمْ جُنْدٌ مُّغْرَقُونَ﴾ [الدخان: ٢٤].

وكان فرعون لَمَّا بلغه خبر خروج بني إسرائيل من مصر، جمع جيشًا هائلًا يبلغ مئة ألف، حشداهم من جميع المدائن ولحق بهم، ﴿فَأَرْسَلَ فِرْعَوْنُ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ﴾ يقولون ﴿إِنَّ هَؤُلَاءِ﴾ أي موسى وقومه ﴿لَشِرْذِمَةٌ قَلِيلُونَ﴾ ﴿وَأَنَّهُمْ لَنَا لَآغِطُونَ﴾ ﴿وَإِنَّا لَجَمِيعٌ خَدِرُونَ﴾ [الشعراء] فجمع فرعون جنوده قاصيهم ودانيهم، فأتبعهم فرعون بجنوده بغيًا وعدوًا حتى وصلوا إلى ساحل البحر الأحمر، فَلَمَّا رَأَى فرعون موسى وَمَنْ مَعَهُ قد قطعوا البحر وعبروه، ومسلكهم في البحر باقٍ على حاله، نزل وراءهم يتقصَّى آثارهم، يريد الإحاطة بهم، وَمَنْعَهُمْ من السفر؛ من أجل إكراههم على البقاء في مصر؛ لتسخيرهم في الأعمال الشاقة وإذلالهم، فهو لم يلحق بهم للدفاع المشروع، أو طلبًا للهداية والإيمان، وإنما لحق بهم ظلمًا وعدوانًا ﴿فَأَتَّبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُ بَغْيًا وَعَدُوًّا﴾.

والبغي: هو طلب الاستعلاء بغير حق، والعدو: هو الظلم والعدوان.

قالوا: إن جبريل كان على فرس (أنثى) وأن فرعون كان على حصان (ذكر) وأن الحصان قد تحرّش بالفرس، فلَمَّا نزل جبريل البحر وهو على الفرس، رآه الحصان؛ فلاحق به وحمّحم نحوه، ونزل فرعون وجنوده البحر، فلما اكتملوا عن آخرهم وكانوا بداخله؛ أطبق الله عليهم البحر وأغرقوا جميعاً ولم ينجُ منهم أحدٌ، وأخذت أمواج البحر ترتفع وتنخفض، وتراكت الأمواج فوق فرعون، وغشّته سكرات الموت، فلما وصل الماء إلى حلقه وأدركه الغرق؛ تاب توبة المضطر، لما رأى العذاب بعينه، وآمن حيث لا ينفعه الإيمان ﴿حَتَّىٰ إِذَا أَذْرَكَهُ الْغَرَقُ قَالَ ءَامَنْتُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا الَّذِي ءَامَنْتُ بِهِ بَنُو إِسْرَءِيلَ﴾.

وليس في هذه العبارة تأكيد لإيمان فرعون، وإنما هي تحمّل عنصر ادعاء الألوهية والكبرياء الذي كان يلزم فرعون، فهو لم يقل: آمنت بالله، ولم يقل: آمنت أنه لا إله إلا الله، فليس هناك اعتراف صريح مباشر، وإنما عنصر الكبرياء متأصل فيه، وعنصر الشك ثابت فيه، فهو يقول: ﴿ءَامَنْتُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا الَّذِي ءَامَنْتُ بِهِ بَنُو إِسْرَءِيلَ﴾.

ثم قال فرعون قولة المضطر، الذي يريد أن يدفع الضر عن نفسه، ولا يقصد الإقرار بوحدانية الله تعالى، فقال: ﴿وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ الموحدين المستسلمين بالانقياد والطاعة، ولم يقل: أسلمت مباشرة، وهذا كقوله تعالى: ﴿فَلَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا قَالُوا ءَامَنَّا بِاللَّهِ وَحَدُّهُ وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِ مُشْرِكِينَ﴾ ﴿٨٤﴾ فَلَمْ يَكْ يَنْفَعَهُمْ إِيْمَنُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا﴾ [غافر: ٨٤، ٨٥].

وفرعون لم يكن كافراً فحسب، ولكنه نازع الله ﷻ في ربوبيته وألوهيته، فادعى الربوبية وادعى الألوهية ﴿فَقَالَ أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَى﴾ [النازعات]

وقال: ﴿مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَهِ غَيْرِي﴾ [القصص: ٣٨]

وذكر فرعون لقومه مقومات الإله فقال: ﴿أَلَيْسَ لِي مُلْكٌ مِّصْرَ وَهَذِهِ الْأَنْهَارُ تَجْرِي مِن تَحْتِي﴾ [الزخرف: ٥١] فإن كانت هذه هي مقومات الإله، فهذا هو موجوده لدي، وإذن فرعون مختوم ومطبوع على قلبه، قيل: إن فرعون كان دهرتاً من الذين يقولون: ﴿مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلَّا الدَّهْرُ﴾ [الجاثية: ٢٤]

والدهرية: لا يؤمنون بوجود إله خالق لهذا الكون، ولا يؤمنون باليوم الآخر.

وقيل: إن فرعون سُئل: أرايت لو أن عبداً نشأ في مال سيده ونعمته؛ فكفر نعمته وجحد

حقه، ثم ادعى السيادة عليه، فماذا يكون عقابه؟ فكتب بخط يده، يقول أبو العباس الوليد بن مصعب: جزاء العبد الخارج على سيده، الكافر نعماءه أن يغرق في البحر.

وهكذا: حددت بعض التفاسير، أن اسمه الوليد بن مصعب، وكُنيتُه أبو العباس، وهكذا حكم على نفسه أن عقوبته الغرق.

فلما أدركه الغرق، جاءه جبريل بهذه الوثيقة التي فيها خط يده بالحكم على نفسه بالغرق؛ فناولها إياها فعرفها.

ولذا: جاء عن سعيد بن جبير عن ابن عباس موقوفاً عليه، ويرفعه بعضهم إلى النبي ﷺ أن جبريل ﷺ كان يأخذ من قاع البحر (أي: من الطين) ويدسه في فم فرعون؛ جزاءً لكفره.

أخرج الترمذي وغيره بسنده عن ابن عباس ؓ أن النبي ﷺ قال: «لما أغرق الله فرعون قال: ﴿ءَامَنْتُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا الَّذِي ءَامَنْتُ بِهِ بَنُو إِسْرَءِيلَ﴾ فقال جبريل: يا محمد، فلو رأيتني وأنا آخذ من حال البحر وأدسه في فيه مخافة أن تدركه الرحمة»^(١).

ولفظ أحمد «إن جبريل كان يدس في فم فرعون الطين مخافة أن يقول: لا إله إلا الله»^(٢).

وفي جامع الترمذي: أخبر شعبة، قال: أخبرني عدي بن ثابت، وعطاء بن السائب، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس ؓ، ذكر أحدهما عن النبي ﷺ «أنه ذكر أن جبيل جعل يدس في في فرعون الطين، خشية أن يقول: لا إله إلا الله، فيرحمه الله، أو خشية أن يرحمه»^(٣).

وعن ابن عباس ؓ مرفوعاً: «لما قال فرعون لا إله إلا الله، جعل جبريل يحشو في فيه

(١) ينظر «سنن الترمذي» برقم (٣١٠٨) وقال: حسن غريب صحيح، والحاكم في «المستدرک» (٣٤٠/٢) وقال: هذا حديث صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه ووافقه الذهبي، وهو في المسند (٢٨٢٠) بإسناد ضعيف كما قال محققوه، لأن فيه ابن جدعان، والأصح وقفه، وأخرجه البيهقي في «الشعب» (٩٣٩٣) وهو في «تفسير الطبري» (١٩٠/١٥) وصححه الألباني في «صحيح سنن الترمذي» (٦١/٣٠) برقم (٢٤٨٣) وأخرجه الطيالسي (٢٧٤٠) وابن حبان (٦٢١٥).

(٢) صححه أحمد شاکر في تحقيق «المسند» برقم (٢١٤٤) وقال محققوه: صحيح موقوفاً على ابن عباس، رجاله ثقات رجال الشيخين غير عطاء بن السائب، متابع، عدي بن ثابت، فقد روى له أصحاب السنن، وهو صدوق، وشعبة روى عنه قبل الاختلاط، وأخرجه ابن حبان (٦٢١٥) والطيالسي (٢٦١٨).

(٣) صحح إسناده الألباني في صحيح سنن الترمذي (٢٤٨٤).

الطين والتراب»^(١).

ولأن هذا الدّس من جنس الختم والطبع على قلبه، والحيلولة بينه وبين الإيمان؛ لأن الله تعالى قد علم مصيره، وعلم أنه لن يؤمن إلا وقت الاضطراب، فكان جبريل يفعل ذلك جزاء له على كفره السابق، وأنه ممّن حقت عليهم كلمة العذاب، وأن إيمانه لا ينفعه عند معاينة الموت، وفعل جبريل بدس الطين في فم فرعون تنفيذًا لقضاء الله وقدره.

والله تعالى يضل من يشاء ممن اختاروا الضلال طريقًا لأنفسهم، ويهدي من يشاء ممن سلك طريق الرشاد، وهو سبحانه يفعل ما يشاء، ويحكم ما يريد، ولا يُسأل عما يفعل وهم يُسألون. قال تعالى مبيّنًا أن الإيمان وقت الغرّة لا ينفع:

٩١- ﴿ءَاَلْتَنَ وَقدَّ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنْتَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ﴾ ﴿٩١﴾

ولما نطق فرعون بكلمة التوحيد قال تعالى: ﴿ءَاَلْتَنَ﴾ تؤمن؟ في وقت الاضطراب، والاحتضار حيث لا ينفع الإيمان ﴿وَقدَّ عَصَيْتَ قَبْلُ﴾ فادعيت الألوهية والربوبية وأضللت قومك وبارزت الله بالمعاصي والكفر والتكذيب ﴿وَاضَلَّ فِرْعَوْنُ قَوْمَهُ وَمَا هَدَى﴾ [طه] ﴿وَكُنْتَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ﴾ الصادين عن سبيل الله، فلا ينفعك هذا الإيمان الذي شاهدت دلائله، وإنما الذي ينفع هو الإيمان بالغيب.

جُثَّةُ فِرْعَوْنَ فِي الْمُتَحَفِ الْمِصْرِيِّ

٩٢- ﴿قَالِیَوْمَ نُنَجِّیْكَ^(٢) بِیَدِیْكَ لِتَكُونَ لِمَنْ^(٣) خَلَقَ ءَايَةً وَإِنَّ كَثِیرًا مِّنَ النَّاسِ عَنْ ءَايَتِنَا لَغَافِلُونَ﴾

لم یصدّق الناس أن فرعون قد مات، فكانوا یعتقدون أنه فوق البشر، وأنه لا یموت؛ ولذلك فإن الله سبحانه أمر البحر أن یلقی بجُثّة فرعون على الشاطئ؛ حتى یراه بنو

(١) الطبري (١٦٣/١١) عن عطاء بن السائب، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس عن النبي ﷺ، وأخرجه من طرق عدة، وانظر (٣١٥٤، ٢٢٠٣) في المسند، وهو صحيح موقوف على ابن عباس.

(٢) قرأ يعقوب بإسكان النون الثانية وتخفيف الجيم من (تنجيك) مضارع (أنجي)، والباقون بفتح النون الثانية وتشديد الجيم مضارع نجا.

(٣) قرأ أبو جعفر بإخفاء النون عند الخاء في (لمن خلفك)، والباقون بالإظهار.

إسرائيل وأهل مصر، وكل مَنْ كَذَّبَ بهلاكه يروونه جسداً بدون روح على ساحل البحر.^(١)
ولَمَّا أَلْقَتْ الأمواج جثة فرعون على البحر الأحمر من الجهة الغربية، عَثَرَ عليه الذين
خرجوا يتقَصُّون آثاره مِمَّنْ بقي في مصر، لَمَّا استبطؤوا رجوعه ورجوع جيشه.
وكان البحر لا يلفظ غريقاً حتى يأكله السمك، ومن بعد قصة فرعون أصبح البحر لا
يقبل غريقاً إلى يوم القيامة.

ألقي الله جثة فرعون على شاطئ البحر؛ ليتحقق مِنْ موته مَنْ شك في ذلك من الناس.
فالיום نجعلك بَنَجْوَةً؛ وهي المكان المرتفع من الأرض؛ لتكون آية وعبرة لكل من يأتي
بعدك إلى يوم القيامة، وفي هذا إشارة إلى أن جسد فرعون سيبقى محفوظاً؛ ليكون عبرة
قائمة لبني إسرائيل وغيرهم، ولكل طاغية جبار، وكل حاكم ومسؤول استغل العباد،
فاستبدَّ بهم واستعبدهم، وهذا معنى: ﴿فَالْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِدَنِّكَ﴾ دون روحك؛ لتكون لِمَنْ
يأتي بعدك إلى يوم الساعة علامة وعبرة وعظة؛ حتى تزول الشبهة عند مَنْ ظن أن فرعون
لا يموت، أو أن فيه شيئاً من خصائص الربوبية.

قال قتادة: لما أغرق الله فرعون لم تصدق طائفة من الناس بذلك، فأخرجه الله؛
ليكون عظة وآية^(٢).

كان موت فرعون مفاجئاً ولم يكن قد أعد لنفسه قبراً كقبور الفراعنة التي يُدفنون فيها، وهي
بيوت الأهرامات، حيث كانوا يضعون عندهم الطعام واللباس، وتاج المُلك، وأنفس
الأشياء؛ تموئها على الناس، أنهم ينتقلون إلى دار الخلود، ولا يموتون، وكانوا يبنون
الأهرامات ويُدْفَنون فيها، زعمًا منهم أن الفراعنة حين يموتون يُنقلون إلى دار الخلود.

ويذكر التاريخ أنه في مطلع القرن التاسع عشر الميلادي عثر على جثة فرعون الذي كان

(١) ولفرعون نظائر في العصر الحديث، فهي هو (شارون) رئيس وزراء الكيان الصهيوني الأسبق، جثة بدون روح منذ
سنوات، حتى تاريخ كتابة هذه السطور، رجب ١٤٣١ هـ هو عبرة لمن يعتبر، فاقد الوعي والإدراك، مكبلاً
بالأجهزة الطبية، يلقي في الدنيا عقوبة مَنْ قتلهم وعذبهم وألقى بهم في السجون من أبناء فلسطين وغيرهم، وما
ربك بظلام للعبيد، وصدقت عليه وعلى أمثاله الآية ﴿فَالْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِدَنِّكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلَقَ آيَةً﴾.

(٢) عبد الرزاق (٢٩٧/١) وابن أبي حاتم (١٩٨٤/٦).

معاصراً لموسى ﷺ، عُثر عليه في مدينة الأقصر في صعيد مصر، وتعرفوا عليه وعلى أوصافه المعروفة، فقد كان أحمر قصيراً كالثور، وهو مفتاح بن رمسيس الثاني، من ملوك الأسرة التاسعة عشرة الفرعونية، وكان ذلك في حدود ١٤٩١ قبل الميلاد، ثم أُتي به إلى المتحف المصري بالقاهرة، ولا يزال موجوداً فيها، ولعل هذا تحقيقاً لقول الله سبحانه: ﴿لَتَكُونَنَّ لِمَنْ خَلَقَكَ آيَةً﴾ من الطغاة والجبابرة؛ حتى لا يطغوا مثل طغيانك.

ثم دعا الله سبحانه الناس جميعاً إلى التأمل والتدبر والاعتبار بدلائل وحدانية الله تعالى وقدرته، فقال: ﴿وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ عَنْ آيَاتِنَا لَغَفِلُونَ﴾ أي: لا يتفكرون ولا يعتبرون في حججنا وآياتنا، والذين لم ينتفعوا بآيات الله، يكون ذلك لعلة فيهم وليس لنقص في آيات الله تعالى، أما من له عقل وقلب حاضر، فإنه يعتبر ويتعظ ويستدل بها على صدق رسول الله ﷺ فيما أخبر به.

وقد جاء ذُكر غرق فرعون في الإصحاح الرابع عشر من سفر الخروج بالتوراة، ولم يتعرض النصارى لصيغة موته.

وقد كان هلاك فرعون وقومه يوم عاشوراء، كما جاء في صحيح البخاري عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: قدم النبي ﷺ المدينة، واليهود تصوم عاشوراء، فقالوا: هذا يوم ظهر فيه موسى على فرعون، فقال النبي ﷺ لأصحابه: «أنتم أحق بموسى منهم فصوموه»^(١).

هذا: ولما عَبَّرَ موسى ببني إسرائيل البحر، وأطلعهم الله على هذه المعجزة الباهرة أمام أعينهم، رأوا قومًا يعبدون أصنامًا، ويعكفون على عبادتها، على هيئة العجل الذي عبده: ﴿قَالُوا يَمُوسَى اجْعَلْ لَّنَا إِلَهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ﴾ [الأعراف: ١٣٨].

إن رواسب الوثنية متمكنة من نفوس بني إسرائيل، حتى هؤلاء الذين أطلعهم الله على عظيم آياته، وهم الصفوة المختارة من هذا الشعب، ولا يزالون في حضرة نبي الله موسى ﷺ ﴿قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ يَّجَاهِلُونَ﴾ [١٣٨] إِنَّ هَؤُلَاءِ مُتَّبِعُونَ مَا هُم فِيهِ وَنَظِلُّ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٣٩﴾ [الأعراف].

تَحْرِيمُ الْأَرْضِ الْمُقَدَّسَةِ عَلَى الْيَهُودِ أَمْرٌ ثَابِتٌ فِي الشَّرَائِعِ الثَّلَاثِ

سار موسى ببني إسرائيل متوجهًا نحو بيت المقدس، بعد أن خرج من مصر وعبر البحر، ثم دعاهم إلى الجهاد، وقاتل العمالقة، من الجبارين الذين غزوا أرضهم؛ لإخراجهم من فلسطين، فما كان منهم إلا أن جَبَنُوا وتخاذلوا، وقالوا ما سجله القرآن عليهم، حيث قالوا لموسى: ﴿فَاذْهَبْ أَنْتَ وَرَبُّكَ فَقَتِلَا إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ﴾ [المائدة: ٢٤] ولما تقاعسوا ونكلوا عن القتال، كان هذا إضافة إلى آثارهم السيئة، وقتلهم الأنبياء بغير حق، وفسقهم؛ فضرب الله عليهم الذلة والمسكنة، وكتب الله عليهم أمرين:

الأمر الأول: أن يتيهوا في صحراء سيناء أربعين عامًا ﴿أَرْبَعِينَ سَنَةً يَتِيهُونَ فِي الْأَرْضِ﴾ [المائدة: ٢٦] هذه الأربعون سنة هي مدة التيه.

والأمر الآخر: أن تُحرَّم عليهم أرض فلسطين كلها تحريمًا مؤبدًا ﴿قَالَ فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ﴾ [المائدة: ٢٦] وأنت تقرأ القرآن، قف على جملة ﴿فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ﴾ ثم ابدأ ﴿أَرْبَعِينَ سَنَةً يَتِيهُونَ فِي الْأَرْضِ﴾؛ لأن هذه المدة هي مدة التيه، أما تحريم دخول الأرض المقدسة عليهم فهو تحريم أبدي، فقف على ﴿فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ﴾ وقف بيان يوضح المعنى، وعلامة وقف التعانق في الآية اجتهد من واضعي علامات الوقف في المصحف، وتغير هذه العلامات تبعًا لما تراه اللجنة.

وقد كتب الله على اليهود أن يتشردوا في الأرض كلها، وأن لا يكون لهم وطن معين يعيشون فيه، كما أخبر بذلك أخوهم يوسف عليه السلام حين قال لهم لما اجتمعوا به في مصر: ﴿وَقَدْ أَحْسَنَ بِي إِذْ أَخْرَجْتَنِي مِنَ السِّجْنِ وَجَاءَ بِكُمْ مِنَ الْبَدْوِ﴾ [يوسف: ١٠٠] والبدو: هم الرُّحَّل الذين لا وطن لهم، وَيَحْلُونَ في أي مكان بصفة مؤقتة.

وفي سنة خمسة وثمانين بعد التسع مئة والألف من الميلاد، نُشرت وثيقة يهودية في إحدى ولايات أمريكا تخاطب اليهود المؤمنين بالتوراة، وتنص على أن التوراة واليهودية قد حرَّما أرض فلسطين على اليهود، وكتب الله عليهم أن يكونوا مطرُودين مشرَّدين في البلاد؛ عقوبة لهم على تخاذلهم عن قتال الجبارين حتى يأتي المسيح الذي ينتظره اليهود.

والمسيح المنتظر عند اليهود: هو المسيح الدجال، الأعور، الكذاب، وهو يهودي، يظهر قرب قيام الساعة؛ فيجمعهم من شتى بقاع الأرض، ويأتي بهم دون أن يتكلفوا

عناء، ولا جَهْدًا، ولا قتالًا.

في عام (١٤٢١هـ) عُقد مؤتمر عالمي في طوكيو، فيه خمس مئة عالم من كبار علماء العالم في الشرائع المختلفة، تحت اسم: ندوة المؤتمر العالمي للسلام والأديان، ونوقش فيه ما جاء في هذه الوثيقة، وناقشهم علماء المسلمين، وانقطعت الحُجة لليهود والحاضرين، وكان منهم عشرة من النواب الإسرائيليين، وثمانية من الحاخامات في الكنيسة الإسرائيلية، وأقاموا عليهم الحُجة، بأن اليهودية والتوراة لا تعترف لبني إسرائيل بموطن قبل ظهور المسيح.

ولعل هذا ما يشير إليه قول الله سبحانه: ﴿وَقُلْنَا مَنْ بَعْدِهِ﴾ أي: من بعد موسى ﴿لَبِئْسَ إِسْرَءِيلَ اسْكُنُوا الْأَرْضَ﴾ أي: الأرض كلها؛ لأن (أل) للاستغراق، أو الجنس؛ أي: اسكنوا في أي مكان منها، مشردين مشتتين فيها جميعًا، وليست أرضًا معينة، بدليل قوله تعالى: ﴿فَإِذَا جَاءَ وَعَدُ الْآخِرَةِ جِئْنَا بِكُمْ لَفِيفًا﴾ [الإسراء: ١٠٤].

وهذا من أمارات الساعة؛ أي: عند ظهور علامات الساعة الكبرى، حيث يخرج الدجال ويؤتى بهم مجتمعين، ويجمعهم الله في مكان واحد؛ كي يقاتلهم المسلمون، ويُنطق الله الحجر فيقول: يا مسلم، هذا يهودي ورائي فتعال فاقتله، وعلى هذا فإن تجمع عدد كبير من اليهود في فلسطين في الوقت الحاضر، بداية النهاية لهم إن شاء الله، كما قال تعالى: ﴿وَقَطَّعْنَاهُمْ فِي الْأَرْضِ أُمَمًا﴾ [الأعراف: ١٦٨].

عُرُوبَةُ فِلَسْطِينَ وَنَائِقِيَّا:

إن أرض فلسطين أرض عربية منذ قدم التاريخ، وقد عُرف تاريخيًا أن العرب هم أول من سكن فلسطين منذ ستة آلاف عام؛ أي: قبل أن يأتي إبراهيم من جنوب العراق، ويهاجر إلى فلسطين، ويعبرُ نهر الفرات هو ومن معه، ولذلك يقال: لهم (عبرانيين)؛ لأنهم عبروا نهر الفرات.

فالعرب الذين كانوا في فلسطين كان اسمهم قديمًا (اليُويِسِّيُون)، وهذا اسم قبيلة من قبائل العرب، ثم سكنها بعدهم الكنعانيون من قبائل العرب أيضًا، وكان ذلك في الألف الثالثة قبل الميلاد، وكانت تسمى أرض كنعان.

وقبل المسيح بمئات السنين (أي: في عهد الغزو الروماني) سَكَنَهَا قبائل فلسطين.

وقد سماها أحد أباطرة الآشور بلسطين، واندمج أهل بلسطين مع الكنعانيين الموجودين فيها، وعُزِّب الاسم؛ فصار فلسطين، وكان هذا قبل ستة آلاف عام، حيث سكنها العرب خلال هذه المدة، وحكَّموها نحو أربعة آلاف سنة ونصف، وقد حكمها اليهود نحو أربع مئة سنة على فترات متقطعة، وأطول مدة متواصلة لحكمهم فيها كانت سبعين عامًا في عهد داود وسليمان عليهما السلام، والمدة الباقية كانت للغزاة من الآشوريين والبابليين والرومانيين واليونانيين الذين غزو هذه البلاد.

وقد فتحت فلسطين لَمَّا دخلها بنو إسرائيل بعد موسى عليه السلام على يد نبي الله يوشع، فبعدما مات موسى وهارون في التيه؛ دخل بهم يوشع الأرض المقدسة، ثم أخذها منهم بختنصر أحد ملوك بابل في العراق، ثم عادت إليهم، ثم أخذها منهم ملوك اليونان، وظلت في أيديهم بعض الوقت حتى جاء عيسى عليه السلام.

وبعد ثلاث مئة سنة من مجيء عيسى، دخل قسطنطين أحد ملوك اليونان في النصرانية؛ فبنى الكنائس والمعابد، وبنى القسطنطينية، وبيت لحم، وانتشرت النصرانية على يديه، وبُذِلَتْ وَغُيِّرَتْ.

وصارت فلسطين في أيدي النصارى حتى فتحها عمر بن الخطاب فتحًا إسلاميًا، ولم يكن بها يهودي عندما فتحها عمر، بل كانوا كلهم نصارى، ولما كتب عمر لهم العهد والأمان، كتب لهم أن لا يدخلها يهودي، ولا يقيم معهم يهودي، وبقي الأمر على ذلك من الفتح الإسلامي إلى أن أخذ اليهود الصهاينة يفكرون في إيجاد وطن لهم يجمعهم من شتات الأرض؛ فاقترحوا عليهم بعض الأماكن في العالم؛ لغزوها والإقامة فيها، واستقر الرأي مؤخرًا على اختيار فلسطين؛ أرض الميعاد، لأهمية موقعها الجغرافي، وصدر وعد بلفور ١٩١٧م الداعي إلى إقامة وطن قومي لليهود في فلسطين.

وتم الإعلان عن قيام هذا الكيان اليهودي على ٧٨% من أرض فلسطين ١٩٤٨م وجاءت حرب ١٩٦٧م؛ فاستولوا على بقية فلسطين، وبدأت الحفريات والأنفاق تحت وحول المسجد الأقصى؛ لبناء هيكل سليمان المزعوم، رغم عدم وجود أية آثار له في هذا المكان.

وأطلقوا على حائط البراق الذي ربط فيه جبريل براق النبي ﷺ ليلة المعراج حائط المبكى، ودنّست أقدامهم المسجد الأقصى، وأصبح كبار السن فحسب من المسلمين هم الذين يؤدون الصلاة فيه، تحت وطأة السلاح والمدافع وسنابك الخيل!!
وكان اسم أورسليم معروفاً عند اليوبيسيون، ثم صارت أورشليم؛ أي: مدينة السلام.

ولما فتحها المسلمون كان اسمها إيليا، وهو اسم معبد وثني، ثم عُرفت بعد الفتح الإسلامي ببيت المقدس .
والدساتير أو القوانين الدولية تفيد أن أي أرض أو أي ملك يكون لمن يملكه مؤخرًا، فهو الذي يملك الصك الأخير، وعلى من يسكنون هذه الأرض أن يدينوا بالشرعية الأخيرة الناسخة لما قبلها .

فهي كلمة الله الأخيرة في الأرض، والذي يملك الأرض مؤخرًا هو الإسلام، وشرعية محمد ﷺ هي الشرعية الأخيرة إلى يوم الساعة، فهي التي تملك جميع البلاد التي فتحها الإسلام فتحًا إسلاميًا، ومنها فلسطين والمسجد الأقصى، وجميع الرسل سلّموا الراية في بيت المقدس إلى خاتم المرسلين بصلاتهم خلف الرسول محمد ﷺ .
وإذا تمسك اليهود بأن يعقوب (إسرائيل) قد أقام فيها فترات متقطعة من الوقت، فإن جدّه إبراهيم عليه السلام قد هاجر من العراق إلى فلسطين، وإذا قسّمنا التركة بين أبناء إبراهيم، فهل يرثها بعضهم دون بعض؟ فإبراهيم جد العرب، وجد بني إسرائيل، وإسحاق والد يعقوب بن إبراهيم، وأخوه إسماعيل بن إبراهيم .

فإذا قُسّمت التركة بغض النظر عن الفتح الإسلامي، وعن الرسالة الأخيرة، فهل تكون أرض بيت المقدس لجنس دون جنس، أو لابن دون الآخر؟ هذه قسمة عقلية، والصحيح أنه لا يوجد في يومنا هذا شرعية مقبولة غير الإسلام، ولا سلطان لأحد، ولا لأيّ شرعية أخرى على أرض الإسلام، ففلسطين أرض عربية تاريخًا وديانةً وفتحًا^(١) .

حَالُ الْيَهُودِ قَبْلَ بَعْثَةِ النَّبِيِّ ﷺ وَبَعْدَهَا

٩٣- ﴿وَلَقَدْ بَوَّأْنَا بَنِي إِسْرَءِيلَ مَبْوَأَ صِدْقٍ وَرَزَقْنَاهُمْ مِّنَ الطَّيِّبَاتِ فَمَا اخْتَلَفُوا حَتَّى جَاءَهُمُ الْعِلْمُ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿٩٣﴾﴾

وبعد أن ذكرت الآيات السابقة كُفِّرَ فرعون ومصيره الأليم؛ بسبب إفساده في الأرض وتكذيبه لنبي الله موسى، أتبع ذلك بيان حال الذين صدقوا بموسى ﷺ وأتبعوه؛ ليظهر الفرق بين مصير مَنْ آمَنَ ومصير من كفر؛ وليكون هذا ترغيباً للكفار في الإيمان، وبشارة للمؤمنين بالجنة، فقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ بَوَّأْنَا بَنِي إِسْرَءِيلَ مَبْوَأَ صِدْقٍ﴾ أي: أنزلناهم وأسكنناهم بعد هلاك أعدائهم منزلاً صالحاً طيباً، والمراد بهم: الذين اجتازوا البحر الأحمر مع موسى ﷺ، وأنجاهم الله تعالى من الغرق.

والآية تبين أن الله تعالى قد أنزل بني إسرائيل منزلاً حسناً مرضياً مباركاً، رُزِقوا فيه المَنِّ والسلوى، وفُجِّرَتْ فيه عيون المياه، وظلَّلهم الله بالغمام من حرِّ الشمس، وغير ذلك مما حدث لهم في مدة التيه، أربعين سنة في صحراء سيناء، ثم أعطاهم الله ما طلبوا من الأكل من زروع الأرض وثمارها في الأرض المباركة بفلسطين وما حولها ﴿وَرَزَقْنَاهُمْ مِّنَ الطَّيِّبَاتِ﴾.

وبهذا يمتن الله عليهم بعودتهم إلى الأرض المقدسة في قوله: ﴿وَأَوْرَثْنَا الْقَوْمَ الَّذِينَ كَانُوا يُسْتَضَعُونَ مَشْرِقَ الْأَرْضِ وَمَكْرِبَهَا أَلَيْسَ بَلَرَكْنَا فِيهَا وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ الْحُسْنَىٰ عَلَىٰ بَنِي إِسْرَءِيلَ يَمَّا صَبَرُوا وَدَمَرْنَا مَا كَانُوا يَصْنَعُونَ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُ وَمَا كَانُوا يَعْرِشُونَ ﴿١٢٧﴾﴾ [الأعراف].

وكان هذا الإكرام قبل أن يضرب الله عليهم الذل والمسكنة، بعد أن عاثوا في الأرض فساداً، وقتلوا أنبياء الله، وقتلوا الذين يأمرون بالقسط من الناس، وقبل أن يضرب الله عليهم التفرق والتشتت؛ بسبب تقاعسهم عن قتال العمالقة.

فالمعنى: إن الذين خرجوا من البحر أنزلهم الله منزلاً محموداً صالحاً، هو الأرض المقدسة وهذا المنزل المبارك وَصَفَهُ الله بالصدق، على عادة العرب، أن الشيء إذا كان صالحاً، لَا بُدَّ أن يمدحوه، ويضيفوه إلى الصدق.

ويرى بعض المفسرين أن الله تعالى أنزل بني إسرائيل وأسكنهم في مساكن آل فرعون وأورثهم أرضهم وديارهم ورزقهم من الطيبات، ولعل المعنى الأول هو الأولى، لأن هذه

الآية جاءت بعد اجتياز بني إسرائيل البحر وخروجهم من مصر.

أي: ولما خرج اليهود من مصر، أورثهم الله مثل ما كان تحت أيدي فرعون وقومه، من الزروع والثمار والخيرات، كما قال تعالى: ﴿فَأَخْرَجْنَاهُمْ مِنْ جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ۖ وَكُنُوزٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ ۝٥٨ كَذَلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا بَنِي إِسْرَءِيلَ ۝٥٩﴾ [الشعراء].

وفي سورة الدخان: ﴿كَمْ تَرَكُوا مِنْ جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ۝٢٥ وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ ۝٢٦ وَنَعْمَ كَانُوا فِيهَا فَكَهِينَ ۝٢٧ كَذَلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا قَوْمًا آخَرِينَ ۝٢٨﴾ [الدخان].

والقوم الآخرون الذين ورثوا الأرض تفسره الآية السابقة، وهم بنو إسرائيل الذين أخرجهم الله من مصر مع نبيهم موسى، واجتاز بهم وأنزلهم أرضا مباركة ورزقهم من الخيرات البحر الأحمر متوجهاً إلى الأرض المقدسة، وفي نفس الوقت أهلك الله فرعون وقومه بالغرق في البحر.

ولما أخرج الله بني إسرائيل من مصر أعطاهم من الجنات والعيون والكنوز وأورثهم من الخيرات مثل ما كان لغيرهم في مصر، وهم فرعون وقومه.

ومعلوم من التاريخ على وجه القطع أن بني إسرائيل لمّا فارقوا مصر في عهد موسى ﷺ لم يرجعوا إليها أبداً، ومعلوم أيضاً أن بني إسرائيل قد خرجوا من مصر مع موسى عن بكرة أبيهم، ولم يبقَ منهم بقيةٌ فيها، حتى يرثوا ديار فرعون وقومه ومساكنهم بأعيانها، فلا بُدَّ من حَمْلِ آية الشعراء وآية الدخان على هذا المعنى.

وقد ظل بنو إسرائيل يشكرون النعمة ويتبعون وصايا الأنبياء، إلى أن جاء عيسى ﷺ؛ فكفروا به، ثم جاء محمد ﷺ؛ فكفروا به أيضاً.

وعلى هذا، فإن الذين بوأهم الله ميوأ صدق اختلفوا بعد بعثة محمد ﷺ، وقد كانوا يؤمنون به قبل بعثته، وهذا معنى: ﴿فَمَا اخْتَلَفُوا حَتَّى جَاءَهُمُ الْعِلْمُ﴾.

أو أنهم اختلفوا بعد محيى التوراة فمنهم من آمن بصفة محمد فيها ومنهم من كفر. وهنا ينتقل القرآن الكريم من بني إسرائيل الذين عبروا البحر مع موسى إلى بني إسرائيل الموجودين في عصر النبي ﷺ.

قال ابن عباس ؓ: هم اليهود الذين كانوا في زمن النبي محمد ﷺ حيث كانوا قبل مبعثه مقرّين بنبي يأتي، فلما جاءهم العلم -وهو القرآن- اختلفوا في تصديق محمد ﷺ.

قال ابن عباس: هم قريظة وبنو النضير وبنو قينقاع.

وهذا توبيخ لهم على جحودهم ونكرانهم، فقد كانوا قبل مبعث النبي ﷺ متفقين على أن يكونوا أول من سيؤمن به حين يأتي ﴿فَلَمَّا جَاءَهُمْ مَا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ فَلَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾ [البقرة: ٨٩].

ونظير هذه الآية قوله تعالى: ﴿وَمَا اخْتَلَفَ الَّذِينَ أُوْتُوا الْكِتَابَ إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ﴾ [آل عمران: ١٩].

وقوله: ﴿وَمَا تَفَرَّقَ الَّذِينَ أُوْتُوا الْكِتَابَ إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَةُ﴾ [البينة].

والْبَيِّنَةُ: هي محمد ﷺ، واختلافهم أو تفرقهم هو بعد بعثته ﷺ؛ بأن كان منهم مؤمن به؛ كعبد الله بن سلام وغيره، ومنهم كافر به بغياً وحسداً، وكانوا قبل مبعثه ﷺ مقرين به، مجمعين عليه، كما وصفته التوراة، وهذا العلم الذي جاءهم به كان أمراً معلوماً لديهم عِلْمَ اليقين، فقد كان اليهود يُنْعَتُونَهُ ﷺ للمشركين الوثنيين، ويفتخرون عليهم بقرب مجيئه، فلما بُعِثَ ﷺ اختلفوا فيه؛ فأمن به قلة منهم، وكَفَرَ به أغلبهم.

وإذا كان يوم القيامة فإن الله تعالى سيفصل بين الجميع، ويبين لهم حقيقة نبوة محمد ﷺ في الدنيا، ويجازي الكافر بكفره؛ فيدخله النار، ويجازي المؤمن بإيمانه؛ فيدخله الجنة ﴿إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ فيه من أمر الدين.

والآيات الدالة على ثبوت وصف النبي ﷺ لدى أهل الكتاب كثيرة، منها قوله تعالى: ﴿الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ﴾ [الأعراف: ١٥٧] وكذا نصوص التوراة والإنجيل.

وقد اختلف اليهود والنصارى في هذا وغيره على أكثر من سبعين فرقة، بأسهم بينهم شديد.

سُؤَالُ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَنِ الْوَحْيِ كَسُؤَالِ النَّائِبِ الْعَامِّ لِلْمُتَّهَمِينَ

٩٤- ﴿فَإِنْ كُنْتَ فِي شكٍّ مِمَّا أَنزَلْنَا إِلَيْكَ فَسَلِ^(١) الَّذِينَ يَقْرَأُونَ الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكَ لَقَدْ جَاءَكَ

(١) قرأ ابن كثير والكسائي وخلف العاشر بنقل حركة همزة (فاسأل) إلى الساكن قبلها ومثله حمزة عند الوقف، والباقون بعدم النقل.

الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ ﴿٩٤﴾

ليس المراد من هذه الآية، حقيقة سؤال أهل الكتاب عن صدق ما جاء به محمد ﷺ، وإنما المراد تأكيد ما بعد السؤال، وهو القطع بصحة ما جاء به النبي ﷺ، ولهذا المعنى نظائر متعددة في القرآن، منها قوله تعالى لنبيه ﷺ: ﴿وَسَلِّ مَنْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رُسُلِنَا أَجَعَلْنَا مِنْ دُونِ الرَّحْمَنِ إِلَهَةً يُعْبَدُونَ﴾ ﴿٤٥﴾ [الزخرف] إذ ليس المراد أن يسأل النبي ﷺ من مات قبله من الرسل عن وحدانية الله تعالى، وإنما المراد تأكيد ما بعد السؤال، وهو إثبات الوحداية لله تعالى، وهذا هو المعنى الذي لا معدل عنه للآية .

فإن ما ذكره القرآن الكريم في هذه السورة عن نبي الله نوح، ونبيه موسى عليهما السلام، مذكور في كتب الأولين عند أهل الكتاب في التوراة وغيرها، فهم يشهدون به .

والله تعالى يقول لرسوله: ((فإن كنت في شك من أن بني إسرائيل لم يختلِفوا في نبوتك قبل أن تبعث رسولا ﴿فَسَلِّ الَّذِينَ يَقْرَءُونَ الْكِتَابَ﴾ أي: التوراة من قبلك فقد جاءك الحق اليقين من ربك بأنك رسول الله، وأن اليهود والنصارى يعلمون صحة ذلك في كتبهم، فلا تكن في شك من ذلك أبدا))^(١) والمراد بالسؤال: التقرير والإشهاد على ما جاء به القرآن، وقد أنزل الله القرآن على رسوله، وجاء صدقه في التوراة والإنجيل، وفيهما علامات صدق نبوة محمد ﷺ .

والمعنى: اسأل أهل الكتاب المنصفين، والعلماء الراسخين، فإنهم سيقررون لك بصدق ما أخبرت به، وموافقة لما معهم، والمقصود بأهل الكتاب في الآية: الذين دخلوا في الإسلام منهم، ممن لا يكتُمون الشهادة، ولا يكتُمون صفة محمد ﷺ في التوراة، وشهادتهم مبنية على العدالة والصدق، والشهادة إذا أضيفت إلى طائفة من الناس فإنها تعني الشهود العدول الصادقين منهم، ولا عبرة بغيرهم، ومن هؤلاء الصادقين عبد الله بن سلام وأصحابه، ممن أسلم في وقت النبي ﷺ، وفمنهم من أسلم في عهد الخلفاء مثل كعب الأحبار وغيره، وشهادة هؤلاء مبنية على ما جاء في التوراة مما يوافق القرآن ويصدق، وقد أسلم من أهل الكتاب كثير في مصر والشام والعراق وغيرها، ممن يوصفون بالعدالة

(١) تفسير المدينة المنورة ٥٧٥/١ بتصرف.

والصدق، فهم الذين إذا سئلوا أجابوا جوابًا صحيحًا، وقد أمر النبي ﷺ أن يستشهد بهم، وجعل شهادتهم حجة لما جاء به، وبرهانًا على صدقه وأعلن ذلك على رؤوس الأشهاد، أما غيرهم ممن ينكر رسالة النبي ﷺ أو يؤمن بدعوة محرّفة قد دخلها الشرك والتحريف، فكيف يُسألون؟ وهل يُتصوّر أن يُسأل المثلث عن التوحيد؟ أو يُسأل المجسّد عن التنزيه؟ أو يُسأل منكر البعث والنشور عن الثواب والعقاب؟ اللهم إلا أن يكون هذا السؤال كسؤال النائب العام للمتهمين، أو سؤال المتنبّئ للشاك المرتاب.

وعقيدة الإسلام لا يُثار حولها تساؤل، ولا شك ولا ارتياب، فهي الحق من عند الله، لا يلحقها النقص البشري كما يزعم الجاهلون.

وكثيرًا ما يُوجّه الخطاب للنبي ﷺ في القرآن ويراد به الأمة، كما في قوله تعالى: ﴿فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ﴾ [محمد: ١٩]

وفائدة توجيه الخطاب للنبي ﷺ أنه إذا كان رسول الله ﷺ عليه أن يحذر من هذا الشك، فغيره من سائر الناس من باب أولى.

والمراد: أن كل من يشك في هذا القرآن أو يعارضه فعليه أن يسأل مَنْ أنزل الله عليهم كتبًا فيها أوصاف النبي ﷺ، ممن آمن بمحمد ﷺ.

والمقصود: إقامة الحجة على المشركين بشهادة أهل الكتاب من اليهود والنصارى؛ قطعًا لعذرهم، فهو مكتوب لديهم، وهذا الارتياب مستبعد بالنسبة للنبي ﷺ.

ولذا: فقد قال قتادة بن دعامه: بلغنا أن النبي ﷺ قال: «لا أشك ولا أسأل»^(١).

وقال ابن عباس ؓ: لم يشك رسول الله ﷺ ولم يسأل^(٢).

فالمراد بهذا الشك أحد أمور ثلاثة:

(١) حديث مرسل، أخرجه ابن جرير (١١٦/١١) وعبد الرزاق في تفسيره (٢٠٢/١٥)، وتفسير ابن كثير (٢/

٣٣) وكذا قال ابن عباس وسعيد بن جبیر.

(٢) ابن أبي حاتم (١٩٨٦/٦) والضياء المقدسي في «المختارة» (٩١).

أولها: شك اليهود المعاصرين للنبي ﷺ في نبوته.

وثانيها: التعريض بالمشركين وهم يشكون في رسالته ﷺ كما قال تعالى: ﴿لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ﴾ [الزمر: ٦٥].

وثالثها: أن يكون المراد به التهيج والإلهاب لكل من تساوره نفسه بالشك في رسالته ﷺ؛ لقطع أطماع المشركين في ذلك، كما قال تعالى: ﴿فَلَا تَكُونَنَّ ظَهِيرًا لِلْكَافِرِينَ﴾ [القصص: ٨٦].

فالخطاب للرسول ﷺ وأريد به الأمة، كما قال تعالى: ﴿قُلْ يَتَّيِبُهَا النَّاسُ إِنْ كُنْتُمْ فِي شَكٍّ مِنْ دِينِي فَلَا أَعْبُدُ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَكِنْ أَعْبُدُ اللَّهَ الَّذِي يَتَوَفَّنَكُمْ﴾ [يونس: ١٠٤].

ويوجه الخطاب إلى النبي ﷺ؛ لأنه رمز الأمة، والمراد بالذين يقرؤون الكتاب: هم المحققون الموثوق بأخبارهم من الذين لم يحرفوا ولم يبدلوا، كالذين دخلوا في الإسلام منهم.

والإسلام لا يرتاب فيه أحد، فقد جاء بالتوحيد الخالص والعبادة الحقة، والذين الذي لا لبس فيه ولا غموض ﴿لَقَدْ جَاءَكَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ﴾ الذي لا شك فيه بوجه من الوجوه، بأنك رسول الله، وأن ما جئت به حق، وأن اليهود والنصارى يعلمون صحة ذلك ﴿فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُتَكِبِينَ﴾ أي: لا تكونن - أيها المسلم - من الشاكين في صحة ذلك وحقيقته. ﴿كَتَبْنَا أَنْزِلَ إِلَيْكَ فَلَا يَكُنْ فِي صَدْرِكَ حَرَجٌ مِنْهُ﴾ [الأعراف: ٢]

وشبيه بهذه الآية قوله تعالى لعيسى ﷺ: ﴿وَأَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمَّيَ إِلَهَيْنِ مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ [المائدة: ١١٦] فعيسى ﷺ لم يقل ذلك يقيناً.

فإن كنتم شاكين في صدق ما أنزلنا على محمد مما أصاب المكذبين قبلكم؛ فاسألوا من أسلم من أهل الكتاب يخبروكم بأن ذلك صدق، لقد جاءكم الحق من رب محمد ﷺ فلا تكونوا شاكين فيه.

والمعنى على نسق الآية بصيغة المفرد: فإن كنت في قوم أهل شك مما أنزلنا إليك، فأشهد أهل الكتاب الصادقين، الذين لا يكتمون العلم، ولا يتحرجون من إعلان الشهادة، فإنهم سيخبرونك بمثل ما أخبرتهم به، بأنك رسول الله، والمقصود بذلك التعريض بالمشركين، وإقامة الحجة على أهل الكتاب، وهذا كقوله تعالى: ﴿فَلَا

تَكُ فِي مِرْيَةٍ مِّمَّا يَعْْبُدُ هَتُولَاءُ ﴿٩٥﴾ [هود: ١٠٩]. قال تعالى:

٩٥- ﴿وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الَّذِينَ كَذَبُوا يَتَّيَنَتِ اللَّهُ فَتَكُونُ مِنَ الْخَسِرِينَ ﴿٩٥﴾﴾

ولا تكذبوا - أيها الناس - بآيات الله؛ فتكونوا خاسرين هالكين، وفي هذا إيماء وتعريض بأن الشاك المكذب برسول الله ﷺ وما أنزل عليه لعموم الإنس والجن، قد خسر دنياه وأخراه، وفيه توبيخ لمن أصر على الكفر وجحد الحق.

وفي الآية إحياء بأن من لم يستيقن بشيء من أحكام الشرع، فعليه أن يسأل أهل الذكر؛ حتى لا يبقى الشك لدى المؤمن ويحل اليقين محله.

وقد نهى الله تعالى في هاتين الآيتين عن الشك في القرآن والامتراء فيه والتكذيب به، ورتب على ذلك الخسران حصول العقاب في الدنيا والآخرة، وفي النهي عن الشيء أمر بضده، وهذا يستلزم اليقين التام، وطمأنينة القلب، والإقبال على القرآن علماً وعملاً.

أَهْلُ الشَّقَاءِ لَا مَطْمَعَ فِي إِيْمَانِهِمْ

٩٦، ٩٧- ﴿إِنَّ الَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ^(١) رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٩٦﴾ وَلَوْ جَاءَتْهُمْ كُلُّ آيَةٍ حَتَّى يَرَوْا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ ﴿٩٧﴾﴾

هذه الآية فيها تحذير وإعلام بسوء مصير الشاكين في صدق النبي ﷺ، وهم قوم لا تجدي فيهم الحجة؛ لأنهم أهل مكابرة، غير طالبين للحق، وعقولهم غير قابلة لحقائق الإيمان، وقد علم الله في الأزل أنهم لا يؤمنون؛ فحققت عليهم - وعلى أمثالهم من أهل الكفر والضلال - كلمة الله بعدم الإيمان، ووجب لهم سخط الله تعالى، وصاروا من أهل جهنم - والعياذ بالله - ﴿إِنَّ الَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ﴾ بطردهم من رحمته وعذابه لهم في الآخرة ﴿لَا يُؤْمِنُونَ﴾ بحجج الله وبراهينه، فهم لا يقرؤون بوحدانيته

(١) (كَلِمَةُ رَبِّكَ) ابن كثير وأبو عمرو وعاصم وحزمة والكسائي ويعقوب وخلف العاشر قرءوا بالإفراد، والمراد بها الجنس، والباقون بالجمع (كَلِمَاتُ رَبِّكَ)؛ لأن كلمات الله تعالى متنوعة أمراً ونهيّاً إلخ، وهذه الكلمة مرسومة في المصحف ببناء المفتوحة، فمن قرأها بالجمع وقف عليها بالثناء، ومن قرأها بالإفراد، منهم من وقف عليها بالثناء وهم: عاصم وحزمة وخلف العاشر، ومنهم من وقف بالهاء وهم: ابن كثير وأبو عمرو والكسائي ويعقوب، وأمالها عند الوقف عليها الكسائي.

تعالى، ولا يعملون بشرعه، وهم ولا بد صائرون إلى ما قضاه الله وقدره عليهم وفق ما علمه منهم في الأزل أنهم أهل ضلال وشقاء، فهم الذين ظلموا أنفسهم بردهم الحق، فعاقبهم الله بأنهم لا يؤمنون حتى يروا العذاب الأليم الذي وعدهم الله به، وعندئذ يعلمون علم اليقين أن ما جئتهم به حق، ولكن ذلك لا ينفع، فقد مضى وقت العمل وجاء وقت الحساب والجزاء!!.

والسبب في هذا أنهم لم يأخذوا بأسباب الهدى، وعطلوا حواسهم ومداركهم؛ فلم يتفكروا بها، فكانت نهايتهم الضلال، وفي هذا نهى عن الشك والافتراء في شأن الحق بأبلغ أسلوب وأقوى بيان.

وهذه الآية في شأن من لم تجد فيهم المواعظ والحجج من أهل المكابرة والجحود، فإن أهل الضلال مهما استمعوا من مواعظ وحكم، ومهما رأوا من معجزات أو آيات بينات، فإنهم لن يهتدوا؛ لأن كل من لم يفتح بصره لا يرى النور، وهؤلاء قلّدوا غيرهم، وأهملوا عقولهم، فلو أنهم اتعظوا بكل موعظة، ورأوا كل عبرة فإنهم لن يؤمنوا.

﴿وَلَوْ جَاءَتْهُمْ كُلُّ آيَةٍ﴾ من جميع المعجزات والدلائل والعظات والحجج الدالة على وحدانية الله تعالى، وعلى صدق محمد ﷺ في رسالته؛ لعموم الخلق، فإنهم لن يؤمنوا إلا في الوقت الذي لا ينفعهم فيه إيمان، كما حدث من فرعون وأمثاله عند معاينة العذاب، وفي هذا حث على المبادرة إلى الإيمان، وفرار من سخط الله تعالى حتى لا يكونوا ممن قال الله فيهم: ﴿فَلَمْ يَكُنْ يَنْفَعُهُمْ إِيمَانُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بَاسًا﴾ [غافر: ٨٥] فهم لن يؤمنوا حتى يروا العذاب الأليم.

والمعنى: أن غير المؤمنين بالله ورسوله حين يرون العذاب نازلاً بهم، فإنهم يؤمنون في هذه الحالة، وهذا حين لا ينفعهم الإيمان؛ لأن العذاب إذا نزل بهم، فهو ابتداء عذابهم وجزائهم على كفرهم، وليس هناك عفو بعد الشروع في الجزاء.

ثَالِثًا: رَفْعُ الْعَذَابِ عَنْ قَوْمِ يُونُسَ بَعْدَ رُؤْيِيهِ عَيْنًا

٩٨- ﴿فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ ءَامَنَتْ فَنَفَعَهَا إِيمَانُهَا إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ لَمَّا ءَامَنُوا كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ الْخَرْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَنَعَّمْنَا بِهِمْ إِلَىٰ حِينٍ﴾

هذه الآية في قرية مستثناة من القرى التي حق عليها العذاب؛ لأنها كذبت رسل الله، فرفعه الله عنها بعد معاينته، لأن الله تعالى قد عَلِمَ أن إيمانهم سيستمر ويشتون عليه.

والقرآن الكريم وهو يتحدث عن غير المؤمنين الذين حققت عليهم كلمة العذاب، يخاطب الناس إلى يوم القيامة، ويحذرهم مغبة عدم الإيمان بالله ورسوله.

وحين يتحدث القرآن عن قرية قوم يونس في موقفهم من نبيهم ﷺ، فهو يومئذ إلى أهل كل قرية أن يعاملهم الله تعالى معاملة قوم يونس في رفع عذابه عنهم في الدنيا، إذا علم الله منهم صدق النية والتوبة.

وهكذا كان حال أهل مكة، لما قَدِمَ عليهم النبي ﷺ يوم فتح مكة، وأرعب قلوبهم بالنيران التي أشعلت فوق قمم الجبال المحيطة بمكة، وحين رأوا عدد الجيش عشرة آلاف، ورأوا عدته فوق طاقتهم، وأن عذاب الاستئصال سيحل بهم، عندئذ عجلوا بالإيمان قبل الفتح، وعلى رأسهم سيد أهل مكة، قائد جيش المشركين في غزوة بدر أبو سفيان بن حرب، وبادروا إلى الإيمان بمجرد دخول جيش الفتح مكة، قبل أن يقعوا في قبضة الأسر؛ فعفا عنهم النبي ﷺ وقال: «اذهبوا فأنتم الطلقاء»^(١)؛ وذلك لأن رسل الله لا يريدون قتالاً، ولا عدواناً، فإذا حصل الإيمان فهذا هو المقصود، وكفى الله المؤمنين القتال.

دعوة يونس لأهل نينوى:

وهكذا كان قوم يونس، فإن نينوى من أرض الموصل بالعراق، كانت عاصمة للدولة الآشورية قبل ثمانية قرون من ميلاد المسيح ﷺ، وهي إحدى مدن بلاد آشور في العراق، وتقع على الضفة اليسرى من نهر دجلة، بناها الملك آشور سنة ٢٢٢٩ قبل الميلاد، وكانت مصطافاً لملوك آشور.

وأهل نينوى خليط من الآشوريين واليهود، الذين كانوا في أسر ملوك بابل بعد بختنصر.

وكانت بعثة يونس إليهم في أول القرن الثامن قبل ميلاد المسيح ﷺ، وكانوا أهل كفر وشرك، يعبدون صنماً يقال له: عشتار، وكانوا أهل غنى وثروة، أبطرتهم النعمة؛ فأفسدوا وعصوا وبسطوا سلطانهم على معظم بلاد آسيا.

(١) قال الألباني في كتابه (دفاع عن الحديث النبوي) (٣٢/١) قلت: هذا الحديث على شهرته ليس له إسناد ثابت، وهو عند ابن هشام معضل، وضعفه الحافظ العراقي.

أرسل الله تعالى إليهم نبيهم يونس عليه السلام؛ فدعاهم إلى توحيد الله تعالى، وإلى ترك ما هم فيه من ضلال وفساد، واستمر يدعوهم تسعة أعوام كاملة، فلمَّا لم يستجيبوا له توعدَّهم بخسف مدينتهم، قال لهم: إن عذاب الله سبحانه سينزل بكم صباحًا بعد ثلاثة أيام، والقوم لم يُجربوا كذبًا على يونس عليه السلام؛ فقال بعضهم لبعض: إذا جاءت هذه الليلة التي توعدُّنا بنزول العذاب فيها، وبقي يونس بيننا، فلم يخرج من القرية، وبات معنا، فمعنى هذا أنه تهديد ووعد، وليس هناك عذاب حقيقي نازل بهم، أما إذا خرج يونس من بيننا، ولم يبت معنا هذه الليلة، فمعنى هذا أنه صادق، وأن العذاب سينزل بنا.

خروج يونس غضبًا من قومه:

فلما كان جوف الليل، خرج يونس عليه السلام من بين أظهرهم غاضبًا منهم؛ لعدم استجابتهم لدعوة الله سبحانه، وسار حتى وصل إلى شاطئ البحر، فوجد سفينة؛ فاستأذنتهم أن يركب معهم فأركبوه، وكان يونس حِمْلًا زائدًا على السفينة، فلما ركب معهم؛ هاج البحر واضطرب وارتفعت الأمواج، فقال ركاب السفينة: إن بيننا عبدًا مذبذبًا، أو شخصًا هاربًا من قومه فاقترعوا.

يونس في بطن الحوت: فخرج السهم على يونس عليه السلام، ولما همَّ أن يُلقَى بنفسه في البحر، قالوا له: انتظر حتى نعيد القرعة مرة ثانية وثالثة؛ فخرج السهم عليه ثلاث مرات؛ فألقى بنفسه في البحر؛ فإذا حوت فاغرٌ فاه قد التقمه في جوف البحر؛ فأوحى الله تعالى إليه: يا حوت، إنا لم نجعل يونس لك غذاء ولا طعامًا، فلا تُهشِّم عظمه، ولا تمس لحمه بأذى، وإنما جعلناك له حِرْزًا ومسجدًا ومتعبدًا، يسبح الله في جوفك.

ولما وجد يونس نفسه في بطن الحوت، وهو في ظلمة الليل، وظلمة البحر، وظلمة جوف الحوت؛ أخذ يَضْرَعُ إلى ربه، ويستغيث به، ويلجأ إليه، ويدعوه بهذا الدعاء:

﴿لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ [الأنبياء: ٨٧]

والله تعالى بيّن أن المؤمن إذا لجأ إلى ربه، وهو في مثل هذه الحالة من الشدة والكرب التي كان فيها يونس (ذو النون) فإن الله تعالى يُغيث لهفته، ويفرج كربته، ويجب دعاءه، قال جل شأنه: ﴿فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْغَمِّ وَكَذَلِكَ نُنْجِي الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الأنبياء].

أي: كما أنجينا يونس من هذه الظلمات ننجي جميع المؤمنين.

أوحى الله إلى الحوت أن يُلقي بيونس على ساحل البحر، قيل: وكان ذلك بعد ثلاثة أيام لبلياليها، وقيل: بعد أربعين يومًا، قال تعالى: ﴿فَبَدَّلْنَاهُ بِالْعَرَاءِ وَهُوَ سَقِيمٌ﴾ [الصافات] أي: مريض وهزيل مما أصابه في بطن الحوت، وأنبت الله عليه شجرة من يقطين وهي شجرة القرع؛ لأن ورقها عريض يستتر بها وتظله، ويأكل منها.

وكان الله سبحانه قد أرسل يونس إلى أهل نينوى، وبلغ تعدادهم مئة وعشرين ألفًا، قال تعالى: ﴿وَأَرْسَلْنَاهُ إِلَى مِائَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ﴾ [الصافات] حيث يصل العدد إلى مئة وعشرين ألفًا، هذا ما كان من شأن يونس.

عذاب قوم يونس لم ينزل بهم:

أما القوم فإنهم لما أصبحوا وجدوا العذاب فوق رؤوسهم؛ فالدخان كثيف، والجو منذر بسوء العاقبة، حيث رأوا بأعينهم الغيم الأسود قد غطى أسطح منازلهم، واقترب منهم^(١)؛ فأخذوا يبحثون عن يونس عليه السلام، فلم يجدوه، وعند ذلك تابوا واستكانوا ورجعوا إلى الله سبحانه؛ فجمعوا نساءهم وأطفالهم ودوابهم، ولبسوا أخشن الثياب، وبدا عليهم التواضع، وخرجوا إلى الصحراء في صعيد واحد، وأخذوا يَضْرَعُونَ إلى الله سبحانه بالدعاء والتوبة، ويقولون: آمنا بما جاء به يونس، ورَدُّوا المظالم إلى أهلها؛ فكانت النتيجة أن كشف الله عنهم هذا العذاب، ولم يَنْزِلْ بهم بعد قُرْبِهِ منهم.

وقوم يونس بادروا إلى الإيمان بعد أن فارقهم يونس؛ تَوْقَعًا لنزول العذاب، قبل أن ينزل بهم.

قيل: إن يونس عليه السلام تَوَعَّدَهُمْ بحلول العذاب بهم بعد أربعين يومًا؛ فرأوا أمارات العذاب بعد خمسة وثلاثين يومًا في صورة غيم أسود، فلما رأوا ذلك اهتدوا وآمنوا إيمانًا خالصًا؛ فأمسك الله عنهم العذاب.

(١) وما ورد بشأن الغيم الأسود، ونزول العذاب بقوم يونس فوق رؤوسهم، لم يرد في آية من كتاب الله، ولا في حديث صحيح، وجاء ذكره عن بعض الصحابة كعبد الله بن مسعود، وابن عباس، وسعيد بن جبير، وغيرهم، وقد أخرجه عنهم ابن مردويه، وابن المنذر، وابن جرير، وأحمد في الزهد، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ.

ولعل الحكمة في نجاة قوم يونس أن الله تعالى علم أن تكذيبهم بيونس لم يكن ناشئاً عن تصميم على الكفر، واستخفافاً بعظمة الله تعالى، ولكنه كان في تصديق يونس ﷺ، ولما تركهم غضباً منهم، قدّر الله إيمانهم، ليعلم يونس أن كمال الإيمان في الصبر والتسليم لله تعالى.

عن قتادة: أن يونس أنذر قومه بالعذاب، ثم خرج من بين أظهرهم، فلما فقدوا نبينهم، وظنوا أن العذاب قد دنا منهم، قذف الله في قلوبهم التوبة، ولبسوا المُسُوح، وفرقوا بين كل بهيمة وولدها، ثم عَجُّوا إلى الله أربعين ليلة، فلما عرف الله الصدق من قلوبهم، والتوبة والندامة على ما مضى منهم؛ كشف الله عنهم العذاب بعد أن تدلّى عليهم، ولم يكن بينهم وبين العذاب إلا ميل^(١).

ورجع يونس إليهم واستمر فيهم يدعوهم إلى توحيد الله وعبادته حتى انتهت آجالهم. ذلكم قول الله تعالى: ﴿فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ ءَامَنَتْ﴾ القرية: تطلق في القرآن على المدينة العظيمة، يقابلها الصحراء والبادية؛ ولذلك فمكة أم القرى.

أي: فهلاً كان أهل قرية من القرى التي أرسل الله إليها الرسل من الأمم السابقة آمنت بكاملها إيماناً يعتد به قبل حلول العذاب بهم، ولم يؤخروه كما أخره فرعون؛ فنفعها إيمانها، إلا قوم يونس فقد كشف الله عنهم العذاب ولم ينزله بهم بعد أن اقترب منهم. وهذه صيغة تقرير وتوبيخ على تفويت الإيمان؛ أي: هلاً رجعوا إلى صوابهم ورُشدِهم، فآمنوا وصدقوا.

وفي هذا إشارة إلى أنه لم توجد قرية آمنت كلها بنبيها المرسل إليها من سائر القرى، سوى قوم يونس.

وما مِنْ رَسُولٍ إِلَّا كَذَّبَ قَوْمَهُ أَوْ أَكْثَرَهُمْ، كما قال تعالى: ﴿يَحْزَنُهُ عَلَى الْعِبَادِ مَا يَأْتِيهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾ [يس]

وقال سبحانه: ﴿كَذَلِكَ مَا أَتَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا قَالُوا سَاحِرٌ أَوْ مُجُنٌّ ﴿٥٢﴾ أَتَوَاصَوْا بِهِ بَلْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ﴾ [الذاريات]

(١) «تفسير الطبري» (١١/١٧١) بسند حسن وابن أبي حاتم (١٩٨٨/٦).

وقال جل شأنه: ﴿وَكَذَلِكَ مَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ فِي قَرْيَةٍ مِنْ نَذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ آثَرِهِمْ مُّقْتَدُونَ﴾ [الزخرف].

وقد صحَّ في الحديث عن ابن عباس أن النبي ﷺ قال: «عُرِضَتْ عَلَيَّ الْأُمَمُ، فَجَعَلَ يَمُرُّ النَّبِيَّ وَمَعَهُ الرَّجُلُ، وَالنَّبِيُّ مَعَهُ الرَّجُلَانِ، وَالنَّبِيُّ مَعَهُ الرَّهْطُ، وَالنَّبِيُّ لَيْسَ مَعَهُ أَحَدٌ»^(١).

ثم ذكر النبي ﷺ كثرة أتباع موسى ﷺ، ثم ذكر كثرة أتباع أمته كثرة سدَّت الخافقين: الشرقي والغربي.

وقد حذَّر النبي ﷺ من الانتقاص من شأن يونس ﷺ فقال: «لَا يَنْبَغِي لِعَبْدٍ أَنْ يَقُولَ: أَنَا خَيْرٌ مِنْ يُونُسَ بْنِ مَتَّى»^(٢).

وقد كانت الفائدة عامة على جميع أهل نينوى؛ فانتفعوا جميعاً بتوبتهم، كما قال تعالى: ﴿فَنَفَعَهَا إِيْمَانُهَا﴾ أي: أنه لا يوجد قرية بأكملها انتفعت بتوبتها وبإيمانها بعد أن أيقنوا أن العذاب نازل بهم ﴿إِلَّا قَوْمٌ يُوَسُّوْنَ لِمَا ءَامَنُوا كَشَفْنَا عَنْهُمْ ءَازَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ بعد أن اقترب منهم، وتركهم في الدنيا يستمتعون إلى وقت إنهاء آجالهم.

ونظير هذا الاستثناء قوله تعالى: ﴿فَلَوْلَا كَانَ مِنَ الْقُرُونِ مِنْ قَبْلِكُمْ أُولُوا بَقِيَّةٍ يَنْهَوْنَ عَنِ الْفَسَادِ فِي الْأَرْضِ إِلَّا قَلِيلًا مِمَّنْ أَنْجَيْنَا مِنْهُمْ﴾ [هود: ١١٦]

ومعنى: ﴿وَمَنْعَهُمْ إِلَىٰ حِينٍ﴾ أي: إلى انقضاء آجالهم.

قال علي بن أبي طالب: إن الحذر لا يرد القدر، وإن الدعاء يرد القدر، وذلك في كتاب الله ﴿إِلَّا قَوْمٌ يُوَسُّوْنَ لِمَا ءَامَنُوا كَشَفْنَا عَنْهُمْ ءَازَابَ الْخِزْيِ﴾^(٣).

ولعل السبب في هذه الخصوصية لقوم يونس ﷺ: أن الله تعالى عَلِمَ صدق توبتهم، وإخلاص نيتهم، وأنها ليست كتوبة فرعون؛ لأن توبته كانت بعد مباشرة العذاب له عند حشجة الروح.

(١) من حديث عبد الله بن عباس، البخاري برقم (٥٧٥٢) ومسلم برقم (٢٢٠).

(٢) من حديث أبي هريرة في البخاري برقم (٣٤١٦) ومسلم برقم (٢٣٧٦، ٢٣٧٣).

(٣) ابن أبي حاتم (١٩٨٧/٦).

أما توبة قوم يونس فقد كانت توبة نصوحًا، وكانت عند رؤية العذاب وقبل مباشرته لهم، كالمريض الذي يخاف الموت؛ فقبلها الله تعالى منهم، وكشف عنهم العذاب قبل نزوله، وكان ذلك في يوم جمعة، يوم عاشوراء، وهل كشف الله عنهم العذاب الأخرى أيضًا؟ الله أعلم، وإطلاق وصف الإيمان عليهم يقتضي ذلك.

الْإِنْسَانُ حُرٌّ مُّخْتَارٌ مَّا مُورٍ بِالنَّظَرِ وَالْأَعْتَابِ

٩٩- ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَآمَنَ مَن فِي الْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا أَفَأَنْتَ^(١) تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّى يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ﴾

يقول سبحانه معقبًا على إيمان قوم يونس: ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَآمَنَ مَن فِي الْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا﴾ لو شاء الله سبحانه لجعل الناس كلهم مُسْتَعِدِّينَ بفطرتهم للإيمان فقط، ولكن حكمة الله ﷻ اقتضت أن يخلق الإنسان نوعًا آخر من الخلق، متميزًا عن الملائكة وعن البهائم، فقد خلقه الله وفيه استعداد وقابلية للخير والشر، وللإيمان والكفر.

فإن هو اختار طريق الإيمان، فإن ذلك يكون بحريته وباختياره وإرادته، ويستحق عليه نعيم الجنة.

وإن هو اختار طريق الكفر والضلال، فإن ذلك يكون أيضًا بإرادته وحرته واختياره، ويستحق عليه عذاب النار، ولو شاء الله لجعلهم كلهم مؤمنين كالملائكة؛ فيكون هذا تكرارًا لنوع من الخلق.

والمعنى: ولو شاء ربك لأجبر الناس جميعًا، وقهرهم على الإيمان بك وتصديقك أيها الرسول؛ ولجعل مداركهم متساوية، منساقة إلى الخير وحده؛ فيكونون سواء في قبول الهدى والنظر الصحيح، بحيث لا يكون لهم إرادة ولا اختيار، ولكنه سبحانه لم يشأ ذلك، فلن يؤمن بك -يا محمد- إلا مَنْ سبقت له السعادة في الأزل.

قال تعالى: ﴿أَفَأَنْتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّى يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ﴾؟ إنه ﴿مَنْ يُضِلِّ اللَّهُ فَكَأَنَّهُ هَادٍ لَّهُ﴾ [الأعراف: ١٨٦] ولا يمكن لأحد أن يشرح قلب أحد للإيمان إلا إذا أراد الله ذلك.

قال تعالى: ﴿وَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ فِتْنَتَهُ فَلَنُتَمَلِّكَ لَهُ مِنْ اللَّهِ شَيْعًا﴾ [المائدة: ٤١]

(١) قرأ الأصهباني عن ورش بتسهيل الهمزة الثانية من (أفأنت) ومثله حمزة عند الوقف.

وقال سبحانه: ﴿إِنْ تَحَرَّصَ عَلَى هُدَاهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ يُضِلُّ﴾ [النحل: ٣٧].
وفي الآية تسلية وترويح عن قلب صاحب الدعوة ﷺ.

لقد كان النبي ﷺ حريصاً أشد الحرص على هداية الناس أجمعين؛ فأعلمه الله تعالى أنه ليس في استطاعته ذلك، إنما هم يؤمنون بحريتهم واختيارهم، فليس هذا إليه؛ لأن خلق الهداية في قلب العبد يرجع إلى الله وحده:

١- إنه سبحانه: ﴿يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ فَلَا نَذْهَبُ نَفْسَكَ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً﴾ [فاطر: ٨]

٢- وقوله تعالى: ﴿لَيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ﴾ [البقرة: ٢٧٢]

٣- وهذا كقوله تعالى: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ﴾ [الفصل: ٥٦]

٤- وقوله سبحانه: ﴿فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنْتَ مُذَكِّرٌ﴾ [الغاشية: ٢١].

٥- وقوله جل شأنه: ﴿وَقُلِ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيُكْفُرْ﴾ [الكهف: ٢٩]

٦- وقوله عز وجل: ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً﴾ على دين واحد.

٧- قال تعالى: ﴿وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ﴾ ١٨٨ ﴿إِلَّا مَنْ رَحِمَ رَبُّكَ وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ﴾ [هود].

أي: ليكون منهم المؤمن ومنهم الكافر، فللجنة أهل، وللنار أهل.

والله أعلم بتوجه عباده وميولهم إلى الخير أو الشر، فقدّر ذلك وأراده، فلا تأسف يا محمد على كُفْرٍ مَنْ لم يؤمن بك، وادع إلى سبيل ربك، ولا تحزن على من لم يؤمن، فإن لله تعالى حكمة فيما يفعله قال تعالى: ﴿لَعَلَّكَ بَنِيعٌ نَفْسَكَ أَلَّا يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ﴾ [الشعراء].

وقال سبحانه: ﴿وَلَوْ شِئْنَا لَآتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدًى﴾ [السجدة: ١٣].

وقال جل شأنه: ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى الْهُدَى﴾ [الأنعام: ٣٥].

١٠٠- ﴿وَمَا كَانَتْ لِنَفْسٍ أَنْ تُؤْمِنَ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَيَجْعَلُ^(١) الرِّحْسَ عَلَى الَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ﴾

والله تعالى هو الفعال لما يريد، يهدي من يشاء ويضل من يشاء، بعلمه وعدله وحكمته

(١) قرأ شعبة بنون العظمة في (ونجعل) لمناسبة (كشفنا)، وقرأ الباقون بياء الغيب لمناسبة (بإذن الله).

﴿وَمَا كَانَتْ لِنَفْسٍ أَنْ تُؤْمِنَ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ كل نفس آمنت أو كفرت فيأذن الله القدرى الشرعى؛ أي: بعلمه وإرادته ومشيتته وتوقيفه، فلا يقع في ملك الله إلا ما يريد، ولا يمكن لنفس أن تؤمن على غير علم من الله سبحانه، فالله خالقها ومنشئها ومبدعها ويعلم اختيارها ويعلم ما تصنع.

ثم نفى الله سبحانه العقل والإدراك عن مَنْ اختار الطريق المقابل للإيمان وهو الرجس والكفر، فالذين آمنوا يزدادون إيماناً إلى إيمانهم، وغير المؤمنين يزدادون رجساً إلى رجسهم ﴿وَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَى رِجْسِهِمْ وَمَاتُوا وَهُمْ كَافِرُونَ﴾ [التوبة]. وهذا معنى: ﴿وَيَجْعَلُ الرِّجْسَ﴾ أي: الهلاك والكفر والضلال والعذاب ﴿عَلَى الَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ﴾ ولم يسلخوا طريق الهداية، وهم الذين عطلوا عقولهم وحواسهم ومداركهم، فلم يستعملوها في الخير، ولم يفقهوا عن الله أمره ونهيه.

دَعْوَةُ الْقُرْآنِ إِلَى النَّظَرِ فِي الْكَوْنِ

١٠١ - ﴿قُلِ^(١) أَنْظُرُوا مَاذَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا تُغْنِي الْآيَاتُ وَالنُّذُرُ عَنْ قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا لِمَ

وبعد أن قسّم الله تعالى الناس إلى مؤمن وكافر؛ دعاهم إلى النظر في دلائل التوحيد؛ لتحصيل أسباب الإيمان والهداية، فلماذا لا يعقلون ولا يتدبرون ولا يتأملون في هذا الكون؟

﴿قُلِ أَنْظُرُوا مَاذَا فِي السَّمَوَاتِ﴾ نظر فكر واعتبار وتأمل في هذا الكون وما فيه من شمس وأقمار وكواكب ونجوم وأفلاك وسحاب وأمطار... إلخ، وانظروا ماذا في الأرض من زروع وثمار وأنهار وبحار وجبال وسهول ووديان وأشجار وحيوانات ودواب، وعُمران وخراب، كلها مسخرة بأمر الله، دالة على قدرة الله سبحانه، لا ربَّ غيره ولا معبود سواه.

تأملوا ما في هذا الكون من الكائنات والمخلوقات، فإن هذا النظر وهذا الاعتبار يأخذ بأيديكم إلى الإيمان والتوحيد الصحيح، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَآخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِأُولِي الْأَلْبَابِ﴾ [آل عمران]

وقال: ﴿وَالْفُلْكَ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنْفَعُ النَّاسَ﴾ [البقرة: ١٦٤]

(١) قرأ عاصم وحزمة ويعقوب بكسر اللام وصلًا من (قل انظروا)، والباقون بضمها.

وقال: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى الْطَّيْرِ فَوْقَهُمْ صَفَّاتٍ وَيَقْبِضْنَ مَا يُمَسِّكُهُنَّ إِلَّا الرَّحْمَنُ﴾ [الملك: ١٩].

فعلى العبد أن ينظر ببصره إلى ما هو أقرب إليه وأيسر، وينظر بعقله وقلبه في الآفاق، ولكن هذا النظر وهذا الفكر لا يجدي ولا ينفع من لم يأخذ بأسباب الهداية وطريق النجاة ﴿وَمَا تُغْنِي الْآيَاتُ﴾ الكونية والقرآنية ﴿وَالنَّذْرُ﴾ وهم رسل الله ﴿عَنْ قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ فهم لا ينتفعون لعنادهم وإعراضهم عن دلائل التوحيد ونور الإيمان.

وفي هذا توبيخ لأهل الغفلة والجحود ﴿سَرَّيْهِمْ أَإِنْتَنَا فِي الْآفَاقِ﴾ وفي أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق ﴿[فصلت: ٥٣].

تَهْدِيدُ الْكُفَّارِ بِمَا يَنْخَلُعُ لَهُ الْقَلْبُ

١٠٢- ﴿فَهَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا مِثْلَ أَيَّامِ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِهِمْ قُلْ فَانظُرُوا إِنِّي مَعَكُمْ مِنَ الْمُنْتَظِرِينَ﴾

هذه الآية تتضمن تهديداً للكافرين تنخلع له القلوب، فإذا كانت إثابة الله للمؤمنين وعقوبته لغير المؤمنين بالله تعالى وبصاحب الدعوة الأخيرة للناس أجمعين، إذا كان ذلك هو مقتضى عدل الله تعالى وحكمته، فماذا ينتظر غير المؤمنين بالله؟ وماذا ينتظر غير المصدقين برسالة محمد ﷺ أو القائلين إنه مرسل إلى العرب خاصة؟

إنهم لا ينتظرون إلا وقوع العذاب بهم، ويتضح هذا المعنى من الآية، بأنه بعد أن نفت الآية السابقة الانتفاع بالآيات والنذر بالنسبة لمن أصر على الكفر، خاطب الله رسوله كي يسأل الكفار: ماذا ينتظرون؟

فكان الجواب: إنهم لا ينتظرون إلا أن يحل بهم مثل ما حلَّ بمن قبلهم من العذاب والهلاك، هل ينتظرون إلا أن ينزل بهم عذاب الله، ويحل بهم من العقوبة والجزاء ما نزل بأمثالهم ممن سبقهم، كقوم نوح وعاد وثمود؟ ﴿فَهَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا مِثْلَ أَيَّامِ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِهِمْ﴾؟ من الهلاك والعقاب، وما حدث في هذه الأيام من الوقائع والأحداث الجسام، كما قال تعالى: ﴿وَذَكِّرْهُمْ بِأَيَّامِ اللَّهِ﴾ [إبراهيم: ٥] أي: وما وقع فيها من خير أو شر، فإنهم صنعوا كصنيعهم، وسنة الله جارية في الأولين والآخرين.

﴿قُلْ﴾ لهم يا محمد ﴿فَانظُرُوا﴾ عقاب الله لكم، وبلغهم ذلك ﴿إِنِّي مَعَكُمْ مِّنَ

الْمُنْتَظِرِينَ ﴿١﴾ هلاككم ودماركم، وهذا وعيدٌ لهم يتضمن النصر عليهم، فكل منهما ينتظر، ولكن النتيجة مختلفة، فستعلمون لمن تكون له العاقبة الحسنة، والنجاة في الدنيا والآخرة لا تكون إلا للرسول ومن آمن بهم واتبعهم:

وَعْدُ اللَّهِ تَعَالَى بِنَجَاةِ الْمُؤْمِنِينَ وَعَذَابِ الْكَافِرِينَ

١٠٣ - ﴿ثُمَّ نُنَجِّي^(١) رُسُلَنَا^(٢) وَالَّذِينَ ءَامَنُوا كَذَلِكَ حَقًّا عَلَيْنَا نُنَجِّي^(٣) الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٠٣﴾﴾

ثم بين سبحانه أن سته لا تتخلف، وهي تقضي بعذاب المكذبين ونجاة المؤمنين، فإذا وقعت العقوبة والهلاك بالمكذبين؛ فإن الله تعالى ينجي رسله وينجي المؤمنين، وقد عجل الله تعالى ببشارة رسله، وبشارة عباده المؤمنين في الدنيا؛ للحض على الإيمان والاهتداء بهدي المرسلين ومن تبعهم بإحسان من المؤمنين.

وبمثل ما تكفل الله به من إنجاء رسله الذين أخرجوا الناس من الظلمات إلى النور، كذلك ينجي الله المؤمنين الذين صدّقوا هؤلاء الرسل واهتدوا بهديهم فضلاً منه وكرماً، ﴿كَذَلِكَ حَقًّا عَلَيْنَا﴾ أوجبناه على أنفسنا ﴿نُنَجِّي الْمُؤْمِنِينَ﴾ وبحسب ما مع العبد من الإيمان، يحصل له النجاة من المكاره. وهذا من دفع الله عن المؤمنين ﴿إِنَّ اللَّهَ يَدْفَعُ عَنِ الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ الحج: ٣٨ كما قال تعالى: ﴿كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ﴾ [الأنعام: ٥٤] وكما جاء في الصحيحين عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «إن الله كتب كتاباً قبل أن يخلق الخلق: إن رحمتي سبقت غضبي، فهو مكتوب عنده فوق العرش»^(٤).

(١) قرأ يعقوب بإسكان النون الثانية وتخفيف الجيم من (ننجي) مضارع أنجي، والباقون بفتح النون وتشديد الجيم مضارع نجا.

(٢) قرأ أبو عمرو بإسكان السين من (رسلنا)، والباقون بضمها، وهما لغتان.

(٣) قرأ حفص والكسائي ويعقوب، بتخفيف النون من (ننج) مضارع أنجي، والباقون بتشديدها، مضارع نجي، وإذا وقف يعقوب عليها وقف بالياء (ننجي) كما في المصحف البصري ويقف غيره بإسكان الجيم تبعاً لرسم المصحف.

(٤) البخاري (٧٥٥٤، ٣١٩٤) ومسلم (٢٧٥١) والمسند (٩١٥٩) حديث صحيح و (٧٥٠٠، ٨١٢٧).

الرَّسُولُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَبْرَأُ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى مِنْ عِبَادَةِ غَيْرِهِ

١٠٤ - ﴿قُلْ يَأَيُّهَا النَّاسُ إِن كُنتُمْ فِي شَكٍّ مِنْ دِينِي فَلَا أَعْبُدُ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَكِنْ أَعْبُدُ اللَّهَ الَّذِي يَتَوَفَّنَكُمْ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ ﴿١٠٤﴾

وهذه الآية خطابٌ للناس جميعاً إلى يوم القيامة، يدخل تحتها كل من شك في الدين الذي جاء به محمد ﷺ بعد الأمر بإعمال الفكر والنظر؛ للاستدلال على وحدانية الخالق، وصدق خاتم الرسل ﷺ.

والآيات الأخيرة من سورة يونس تحمل الخطوط الرئيسة والعريضة في السورة كلها؛ فهي تبين أن الله تعالى يرسل الرسل؛ لإثبات التوحيد وإبطال الشرك، فتأمره ﷺ أن يقول للناس إلى يوم القيامة: ﴿قُلْ يَأَيُّهَا النَّاسُ إِن كُنتُمْ فِي شَكٍّ مِنْ دِينِي﴾ أي: مما أنا عليه من الحق والهدى، فأنا لست في شك منه، بل لدي العلم اليقيني أنه الحق، وأن ما أنتم عليه من عبادة غير الله تعالى هو الباطل، فهذا اليقين لا يجعلني أتحوّل عن عبادة الله سبحانه إلى عبادتكم، ولا إلى مجارة أهوائكم، وسأظل ثابتاً على توحيد الله، ولن أعبد الذين تعبدونهم من دون الله، كالأصنام وغيرها، وأنا على يقين من فساد عقيدتكم ومعبوداتكم، فإنها لا تضر ولا تنفع، والنفع والضرر بيد الله وحده، وهي لا تخلق ولا ترزق، ولا تدبر شيئاً من الأمور، بل هي مخلوقه مسخرة.

ثم صرح النبي ﷺ بمن يعبد، وخص من أوصافه سبحانه أنه يتوفى الناس؛ تذكيراً لهم بالموت، فقال: ﴿وَلَكِنْ أَعْبُدُ اللَّهَ الَّذِي يَتَوَفَّنَكُمْ﴾ وبيده آجالكم وأرزاقكم، ولم يدع أحد من المشركين أنه يحيي ويميت، فالموت والحياة والثواب والعقاب من خصائص الله وحده، وهو الذي خلقكم ثم رزقكم ثم يميتكم ثم يحييكم للحساب والجزاء.

وقد عبّر الله تعالى في هذه الآية عن الأصنام باسم الموصول ﴿الَّذِينَ﴾ وهو لجمع العقلاء؛ مجارة للمشركين فيما يعتقدونه عنها، من العقل والتدبير.

وقد بدأت الآية بذكر العبادة، وهي من أعمال الجوارح، وخُتمت بذكر الإيمان، وهو من أعمال القلوب؛ للجمع بينهما، وبكليهما أمر الله رسوله وعباده المؤمنين. قال تعالى:

١٠٥- ﴿وَأَنْ أَقْرَبَ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ (١٠٥)

ثم أمر الله نبيه بالاستقامة على الدين، والثبات عليه، وعدم التحول عنه بحال من الأحوال، وإخلاص الأعمال الظاهرة والباطنة له سبحانه، وإقامة جميع شرائع الدين مقبلاً بها على الله معرضاً عن الشرك وأهله، فبيّن ﷺ أنه مأمور بذلك في قوله: وأمرت أن أقيم وجهي وأن أخلص التوحيد لله، وأن أتبرأ من جميع أنواع الشرك، وأن أكون على ملة إبراهيم، وهذا معنى: ﴿وَأَنْ أَقْرَبَ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا﴾ وإقامة الوجه للدين معناها: توجه النفس بالكلية إلى عبادة الله تعالى والإعراض عمن سواه.

فالمراد: أخلص العقيدة لله سبحانه، ومَحْضُ وجهك له، ولا تجعل لغيره شريكاً في توجُّهك، فاستقم على الدين واثبت عليه، وتوجّه بكلّيتك إلى عبادة الله وحده، وأعرض عما سواه، ولا تلتفت عنه يميناً ولا شمالاً؛ فإن الالتفات يُبطل المقابلة.

﴿وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ وهذا تأكيد لإخلاص العبادة لله، وأنه لا ينبغي لغير المسلم أن يشك في الإسلام، ولكن ينبغي له أن يشك في عبادة ما لا ينفع ولا يضر. قال تعالى:

١٠٦- ﴿وَلَا تَدْعُ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَ فَإِنْ فَعَلْتَ فَإِنَّكَ إِذَا مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ (١٠٦)

وقد أمرني ربي سبحانه أن لا أدعو معه غيره في قوله: ﴿وَلَا تَدْعُ مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ في أي وقت من الأوقات ﴿مَا لَا يَنْفَعُكَ﴾ إذا دعوته ﴿وَلَا يَضُرُّكَ﴾ إذا تركت دعاءه؛ من الشركاء والشفعاء والأوثان والأصنام؛ فإنها لا تنفع ولا تضر، وهذا وصف لكل مخلوق أنه لا ينفع ولا يضر، والعاقل لا يدعو ما لا فائدة من دعائه.

﴿فَإِنْ فَعَلْتَ﴾ ما نهيتك عنه، وعبدت غير الله، ودعوت ما لا ينفعك ولا يضر، فأنت غير معذور، وأنت بذلك تكون قد ظلمت نفسك بالشرك والكفر، ودعوت غير الله، وأنت إذاً من الظالمين لنفسك ولغيرك.

والظلم: هو وضع الشيء في غير موضعه، قال تعالى: ﴿إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ [لقمان: ١٣]

وإذا كان الرسول ﷺ لو دعا غير الله تعالى لكان من الظالمين، فكيف بغيره؟

الْحَوْلُ وَالطُّولُ بِيَدِ اللَّهِ وَحْدَهُ

١٠٧- ﴿وَإِنْ يَمَسُّكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ وَإِنْ يُرِيدْكَ بِيُضْرٍ فَلَا رَادَّ لِفَضْلِهِ يُصِيبُ بِهِ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَهُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ (١٧)

هذه الآية لبيان أن الحول والطول بيد الله وحده، وذلك أنه لما ذكر ﷻ أن الأوثان لا تملك نفعاً ولا ضرراً، بين جل شأنه أنه وحده هو النافع الضار، المعطي المانع، القادر على كل شيء، فليس في استطاعة مخلوق أن يصرف الضرر عن نزل به، وليس في استطاعته كذلك أن يمنع خيراً أرادته الله تعالى لأحد من خلقه.

أي: إن يصيبك الله بشدة أو بلاء أو كرب؛ فلا قدرة لأحد على كشف هذا الضرر إلا الله، وإن أرادك برخاء ونعمة؛ فليس بمقدور أحد أن يمنعه عنك، لأن الخلق لو اجتمعوا على أن ينفعوك بشيء لم ينفعوك إلا بما كتبه الله لك، ولو اجتمعوا على أن يضروك بشيء لم يضروك إلا بشيء قد كتبه الله عليك.

والمسُّ أعم من اللمس، وحقيقة المس: وضع اليد على الجسم لاختبار ملمسه.

والضرر: اسم للألم والحزن، وما يفضي إليهما، وهو اسم جامع لكل ما يكرهه الإنسان في ماله أو بدنه أو ولده.

والخير: اسم لكل ما فيه منفعة أو مصلحة حاضرة أو مستقبلية.

ونظير هذه الآية قوله تعالى: ﴿وَإِنْ يَمَسُّكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ وَإِنْ يَمَسُّكَ بِخَيْرٍ فَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ (٧) [الأنعام].

وقد عبر هنا في جانب الخير بالإرادة، وعبر هناك بالمس؛ لأن آية سورة الأنعام في سياق بيان قدرة الله تعالى وتنزيهه عن المعارض والمُعاند.

والتعبير بالإرادة للمبالغة في سلب المقدرة عن من يريد معارضة مراد الله تعالى كائناً من كان، فلا يستطيع المخلوق التعرض لله تعالى في خيره، ولو بمجرد الإرادة قبل حصول الفعل، ودفع الخير أسهل من رفعه.

يوضح هذا المعنى قوله تعالى: ﴿قُلْ أَفَرَأَيْتُمْ مَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ أَرَادَنِيَ اللَّهُ بِضُرٍّ هَلْ

هُنَّ كَشَفْتُ ضُرُّهُ أَوْ أَرَادَنِي بِرَحْمَةٍ هَلْ هُنَّ مُمَسِّكَتٌ رَحْمَتَهُ قُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ الْمُتَوَكِّلُونَ ﴿٣٨﴾ [الزمر: ٣٨].

عن عامر بن عبد قيس قال: ثلاث آيات في كتاب الله، اكتفيت بهن عن جميع الخلائق:

أولهن: ﴿وَإِنْ يَمْسَسْكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ﴾ [الأنعام: ١٧].

والثانية: ﴿مَا يَفْتَحُ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِنْ رَحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا﴾ [فاطر: ٢].

والثالثة: ﴿وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا﴾ [هود: ٦].

وفي معنى هذه الآية أيضًا قوله تعالى: ﴿مَا يَفْتَحُ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِنْ رَحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا وَمَا يُمَسِّكُ فَلَا مُمْسِكَ لَهُ مِنْ بَعْدِهِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [فاطر: ٦].

ثم امتن الله على عباده بما يجلبه لهم من خير، وما يدفعه عنهم من ضرر، وحشهم على التعرض لمرضاته؛ فقال تعالى: ﴿يُصِيبُ بِهِ﴾ أي: بالسراء والضراء ﴿مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَهُوَ الْغَفُورُ﴾ لذنوب من تاب ﴿الْزَّيِّمُ﴾ بمن آمن به وأطاعه وأتاب.

ولولا غفران الله تعالى لما كانوا أهلًا لإصابة الخير؛ لأنهم مع تفاوتهم في الكمال، لا يخلو حالهم من التقصير، كما أشار ﷺ إلى ذلك في قوله ﷺ: «إِنَّهُ لِيَغَانُ عَلَى قَلْبِي، وَإِنِّي لَأَسْتَغْفِرُ اللَّهَ فِي الْيَوْمِ مِثَّةَ مَرَّةٍ»^(١).

ولولا تجاوز الله سبحانه عن كثير من سيئات خلقه لمسههم الضر الشديد في الدنيا والآخرة، ولكنه لا يؤاخذهم إلا بما لا يرضى عنه بحال، وهو الكفر، كما قال تعالى: ﴿إِنْ تَكْفُرُوا فَإِنَّ اللَّهَ عَنِّي عَنْكُمْ وَلَا يَرْضَى لِعِبَادِهِ الْكُفْرَ وَإِنْ تَشْكُرُوا يَرْضَهُ لَكُمْ﴾ [الزمر: ٧].

وإذا علم العبد بالدليل القاطع أن الله تعالى هو المنفرد بالنعم وكشف النقم، وإعطاء الحسنات وكشف السيئات، وأن أحدا من الخلق لا يستطيع ذلك، جزم بأن الله هو الحق وأن ما يدعون من دونه هو الباطل.

كَلِمَةُ الْفَضْلِ لِجَمِيعِ الْخَلْقِ

١٠٨- ﴿قُلْ يَتَايَأُ النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمْ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنِ اهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَنْ ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِوَكِيلٍ﴾

ثم تأتي في نهاية السورة آيتان: آية فيها الإعلان الأخير والكلمة الفاصلة، الموجهة للخلق أجمعين إلى يوم القيامة، وآية أخرى موجهة إلى رسول الله ﷺ.

الآية الأولى: فيها الإنذار الأخير في السورة، والكلمة الفاصلة فيها، والإعلان النهائي للخلق أجمعين؛ وهو أن يختار كل امرئ لنفسه ما يشاء، إما الهدى وإما الضلال، فهذه كلمة جامعة، وموادعة قاطعة، وهي جديرة بالتلقي عن الله تعالى وتبليغ مراده تعالى إلى خلقه.

﴿قُلْ يَتَايَأُ النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمْ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ﴾ على لسان نبيكم أودعه الله هذا القرآن، وأودعه الشرع الذي أوحاه إلى رسوله ﷺ، وأنتم بالخيار أمام هذا الحق، ولكم حرية الاختيار، فمن اختار الهدى والرشاد؛ فإن ثمرة هُده تعود عليه، ومن اختار طريق الضلال وأصرَّ عليه وسلك طريقه؛ فضرره راجع إليه.

والخطاب في صدر الآية لجميع الناس، المؤمن والكافر، ولكن الكافر هو المقصود، وذكر المهتدين معهم تشريعاً لهم، وقد حُصر الأمر في الهداية والضلال؛ قطعاً للطريق على من كانوا يقترحون الآيات على النبي ﷺ، كما في قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا لَنْ نُؤْمِنَكَ حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الْأَرْضِ يَنُوءًا﴾ [الإسراء].

وبعضهم كان يعاند النبي ﷺ بالبقاء على الكفر، فكان الحصر والقصر في الآية لبيان أن الطريقين - وهما الهدى والضلال - لا ثالث لهما، والنبي ﷺ مبلغ عن ربه، وليس مأموراً بغير التبليغ والنصح، ولا مصلحة له في اهتدائكم أو ضلالكم، والحاصل من الهدى أو الضلال عائد عليكم، والأمر بأيديكم، فاختاروا لأنفسكم ما تريدون، الجنة أو النار.

مُطَابَقَةُ خَتَامِ السُّورَةِ لِبَدَايَتِهَا

١٠٩- ﴿وَاتَّبَعَ مَا يُوحَىٰ إِلَيْكَ وَأَصْبَرَ حَتَّىٰ يَحْكُمَ اللَّهُ وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ﴾

ثم تأتي الآية الأخيرة من السورة، وهي موجهة إلى النبي ﷺ مطابقة لأول آية فيها،

وهي تأمر النبي ﷺ باتِّباع ما يُوحى إليه من ربه، وتتكلّم هذه الآية عن الوحي الذي تحدّث عنه في أول آية، فالختام كالبدء.

﴿وَاتَّبِعْ مَا يُوحَىٰ إِلَيْكَ﴾ من ربك في جميع شؤونك وأحوالك ﴿وَأَصْبِرْ﴾ على عناد المكذّبين وعلى كل من خالفك، واصبر على تبليغ الدعوة، وعلى تحمل الأذى، والأمر بالصبر يُشعر بأن صاحب الدعوة معتدى عليه دائماً، فاستمر على ذلك ﴿حَتَّىٰ يَخُصِّمَ اللَّهُ﴾ ويقضي بينك وبين أعدائك ﴿وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ﴾ وحكمه يشتمل على العدل التام.

وفي هذا إشارة إلى أن الله تعالى ناصر رسوله وعباده المؤمنين على المكذّبين المعاندين، وأنه سبحانه مظهر هذا الدين على جميع الأديان، ومُعلِّ كَلِمَتِهِ، وإن كره الكافرون والمشركون.

وقد بيّن الله سبحانه ما حكم به من نصر دينه وإظهاره على كل دين، وجاء ذلك في آيات كثيرة؛ منها قوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ﴾ [الصف: ٩، التوبة: ٣٣] وقوله تعالى: ﴿وَكُنِّي بِاللَّهِ شَهِيدًا﴾ [الفتح: ٢٨].

ومن ذلك قوله تعالى: ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ ۖ وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجًا ۖ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ ۚ إِنَّكَ كَانَ تَوَّابًا﴾ [النصر] وقوله سبحانه: ﴿أَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَأْتِي الْأَرْضَ نَنْقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا ۚ وَاللَّهُ يَحْكُمُ لَا مُعَقَّبَ لِحُكْمِهِ ۚ وَهُوَ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾ [الرعد].

تم تفسير (سورة يونس) والله الحمد والمنة.



تَفْسِيرُ سُورَةِ هُودٍ (١١)

مُقَدِّمَةُ السُّورَةِ

سورة هود هي السورة الحادية عشرة في ترتيب المصحف، والثانية والخمسون في ترتيب النزول، نزلت بعد سورة يونس وقبل سورة يوسف، وهي في المصحف الكوفي مئة وثلاث وعشرون آية^(١)، وهي ألف وست مئة كلمة، وتسعة آلاف وخمسة مئة وسبعة وستون حرفاً.

وسميت سورة هود؛ لتكرار لفظ هود فيها خمس مرات.

وهي سورة مكية، واستثنى ابن عطية ثلاث آيات ﴿فَلَعَلَّكَ تَارِكٌ بَعْضُ مَا يُوحَىٰ إِيَّاكَ﴾ [١٢] و﴿أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ يَتْنٍ مِّن رَّيْبٍ﴾ [١٧] فقد نزلت في عبد الله بن سلام، و﴿وَأَقْرِ الصَّلَاةَ﴾ [١١٤] نزلت في أبي البسر^(٢).

والصحيح أن السورة كلها مكية، نزلت بعد رحلة الإسراء والمعراج تسلياً للنبي ﷺ في هذه الفترة الحرجة من تاريخ الدعوة التي لقي فيها النبي ﷺ ألواناً من الأذى والاضطهاد.

وذلك أنه بعد بدء الدعوة الإسلامية في مكة المكرمة بأكثر من عشرة سنوات، ماتت أم المؤمنين خديجة رضي الله تعالى عنها، ومات أبو طالب عم النبي ﷺ، وكان لهما منزلة في نفوس المشركين، يُمنع بسببها الأذى عن رسول الله ﷺ، وُسِّمي هذا العام بعام الحزن، وامتدت أيدي المشركين بالأذى للنبي ﷺ بعد موتهما، وتعرَّت الدعوة، حتى نثر بعضهم التراب على رأسه الشريفة، ودخل بيته والتراب على رأسه، فقامت إليه إحدى بناته وأخذت تنفضه عنه وهي تبكي، فيقول لها: «لَا تَبْكِي فَإِنَّ اللَّهَ مَانِعُ أَبَاكَ»^(٣).

وكان ذلك قبل أن يفتح الله على رسوله بيعة العقبة الأولى والثانية، وقبل أن تبدأ ملامح

(١) ومئة وإحدى وعشرون آية في العدد المكي والبصري والمدني الأخير، ومئة واثنان وعشرون آية في المدني الأول والشامي.

(٢) «تفسير ابن عطية» (٣/١٤٨).

(٣) ذكره ابن إسحاق في «السيرة» عن عروة بن الزبير. قال الألباني: أخرجه ابن إسحاق بسنده الصحيح عن عروة بن الزبير، وهو حديث مرسل (دفاع عن الحديث النبوي ص ٢٠).

الهجرة، فكانت رحلة الإسراء والمعراج في هذا الوقت ترويحًا وتسليّةً للرسول الكريم.

وقبل ذلك أرسل الله تعالى له عالمًا آخر، هو عالم الجن، يؤمن به، عوضًا عن الذين كذبوه من الإنس، وأنزل الله تعالى في هذه الفترة سورة الفرقان وسورة الإسراء، وسورة يونس، وأنزل بعدها سورة هود.

ونقل ابن عطية أن سورة هود نزلت قبل سورة يونس؛ لأن التحدي في سورة هود وقع بعشر سور، وفي سورة هود وقع بسورة واحدة.

وفي السورة تفصيلٌ لسبع من قصص الأنبياء والمرسلين؛ وهم: نوح وهود وصالح وإبراهيم ولوط وشعيب وموسى، عليهم جميعًا أفضل الصلاة وأتم السلام، وفي هذه القصص بيان صبر الأنبياء على أذى أقوامهم، وفيها العبرة والعظة بهلاك الأمم التي كذبت رسلها.

ففي كل قصة يذكر الله تعالى ما حدث فيها من العناد والتكذيب لرسول الله، ويبين سبحانه مصير الأمة المكذبة.

وفي نهاية القصة يعقب الله تعالى عليها لرسوله ﷺ أن يصبر ويتحمل، فهذا حال من سبقوك من الرسل، صبروا وأوذوا، فليكن لك فيهم عبرة وحكمة، تثبت فؤادك، وتقوي عزيمتك. وفي الربع الأول من سورة هود مقدمة لما فيها من القصص القرآني، تبين الأساس الأول الذي من أجله أرسل الله تعالى الرسل جميعًا؛ وهو توحيد الله تعالى وإفراده بالعبادة. وفي الربع الأخير من السورة يعقب سبحانه على كل ما جاء فيها من قصص.

ثم يُقسّم الله تعالى الناس إلى صنفين: أهل شقاء، وأهل سعادة، ويبين مصير كل منهم في الدار الآخرة.

وتتكون السورة من ثلاثة عناصر رئيسة:

العنصر الأول: يتضمن جانب العقيدة والعبادة، وهو يشغل حيزًا محدودًا في مقدمة السورة وفي نهايتها، وفي بداية كل قصة فيها.

العنصر الثاني: العرض التاريخي لسبعة من رسل الله وأنبيائه مع أقوامهم، وهو يشغل معظم السورة.

العنصر الثالث: التعقيب على كل قصة منها، وهو يشغل حيزًا محدودًا من السورة.

وقد ابتدأت السورة بالإشارة إلى أن علاج قضايا البشر، وحلّ مشكلاتهم لا يكمن في الحضارة العمرانية، والصناعية، والتجارية، ولا في سباق التسلح بأنواعه مجردة عن الإيمان، فإن الحضارات المادية سرعان ما تهوي وتسقط، ما لم تأخذ بما جاء في مطلع هذه السورة ﴿أَلَا تَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ﴾ [٢] ﴿وَأِنْ أَسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ﴾ [٣].

فإن في العبادة والتوبة: المتاع الحسن، والوصول إلى أفضل المنازل ﴿وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ كَبِيرٍ﴾ [٣] وفي هذا ترغيب للناس في الطاعة، وتحذير لهم عن المعصية؛ ولذا فإن كل رسول من الرسل الذين جاء ذكرهم في السورة قال لقومه أوّل ما قال: ﴿اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنِّ إِلَهٍ غَيْرُهُ﴾ [٥، ٦١، ٨٤].

وفي ثنايا السورة بعد المقدّمة وقبل الخاتمة يأتي قصص الأنبياء والمرسلين، بدءًا بقصة نوح أبي البشر الثاني، ثم بقصة هود التي سميت السورة باسمه، ثم تلتها قصة صالح، ثم قصة لوط، ثم قصة شعيب، ثم قصة موسى عليه السلام.

وإلى هذا القصص يشير قوله تعالى في نهاية السورة: ﴿وَكَلَّا نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الرُّسُلِ مَا نَثَبْتُ بِهِ فُؤَادَكَ﴾ [١٢].

وفي التعقيب على قصة نوح يقول سبحانه: ﴿تِلْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهَا إِلَيْكَ مَا كُنْتَ تَعْلَمُهَا أَنْتَ وَلَا قَوْمُكَ مِنْ قَبْلِ هَذَا فَاصْبِرْ إِنَّ الْعَقِيبَةَ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [٤٩].

وفي التعقيب على قصة هود يقول سبحانه: ﴿وَتِلْكَ عَادٌ جَحَدُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَعَصَوْا رُسُلَهُ﴾ [٥٩].

وفي التعقيب على قصة صالح يقول سبحانه: ﴿وَأَخَذَ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةَ فَأَصْبَحُوا فِي دِئَرِهِمْ جَثِيمًا﴾ [٦٧، ٦٨].

وفي التعقيب على قصة لوط يقول سبحانه: ﴿فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَلَىهَا سَافِلَهَا﴾ [٨٢].

وفي التعقيب على قصة شعيب يقول سبحانه: ﴿وَأَخَذَتِ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةَ فَأَصْبَحُوا فِي دِئَرِهِمْ جَثِيمًا لَا كَانَ لَمْ يَفْنَوْا فِيهَا﴾ [٩٤، ٩٥].

وفي التعقيب على هذا القصص كله يقول جل ذكره: ﴿ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْفُرَى نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْهَا قَائِمٌ وَحَصِيدٌ﴾ [١٠٠، ١٠١].

وبعد ذلك تتناول السورة جانباً هاماً من الحديث عن يوم القيامة، فهو يوم مجموع له الناس، وهو يوم مشهود، وله موعد محدود، وهو يوم لا تسمع فيه إلا همساً ﴿وَعَنَتِ الْوُجُوهُ لِلْحَيِّ الْقَيُّومِ﴾ [طه: ١١١].

والناس فيه إما سعداء مخلّدون في الجنة، وإما أشقياء مخلّدون في النار، ومن أسباب السعادة: الاستقامة، وعدم السير في ركاب الظلمة، والمحافظة على أداء الصلاة في أوقاتها، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

وسورة هود تستعرض مسيرة الدعوة الإسلامية في التاريخ البشري كلّ، من لدن نوح إلى محمد صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين، وتبين أنها قامت على التوحيد الخالص، وإفراد الله تعالى بالعبادة، إلى جوار مهام السور المكية من غرس الإيمان بالوحي والرسالة في قلوب الناس، وكذا الإيمان باليوم الآخر، وما فيه من بعث وحشر ونشر وحساب، وجزاء على الأعمال، من جنة أو نار.

وعناصر القرآن المكي تبدو واضحة في السورة؛ فعنصر الوحي والرسالة يوجد في مثل هذه الآيات ﴿كَتَبْنَا أَحْكَمَ آيَاتِنَا﴾ [١] ﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَيْنَاهُ﴾ [١٣].

وقال سبحانه تعالى: ﴿فَالْتَمِمْ يَسْتَجِيبُوا لَكُمْ فَأَعْلَمُوا أَنَّمَا أُنْزِلَ بِعِلْمِ اللَّهِ﴾ [١٤].

وعنصر الإيمان باليوم الآخر جاء في مثل قوله تعالى: ﴿إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ﴾ [٤].

وقوله: ﴿وَمَنْ يَكْفُرْ بِهِ مِنْ الْأَحْزَابِ فَأَلْتَأَرَّ مَوْعِدُهُ﴾ [١٧].

وقوله: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ إِلَّا النَّارُ﴾ [١٦] وهذا في الربع الأول من السورة.

أما قبل نهاية السورة ففي قوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّمَنْ خَافَ عَذَابَ الْآخِرَةِ﴾ [١٠٣] ﴿يَوْمَ يَأْتِ لَا تَكَلِّمُ نَفْسٌ إِلَّا بِإِذْنِهِ فَمِنْهُمْ شَقِيٌّ وَسَعِيدٌ﴾ [١٥].

﴿وَلَا تَرْكَبُوا إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا فَتَمَسَّكُمُ النَّارُ﴾ [١١٣] ﴿وَالِلَّهِ يَرْجِعُ الْأَمْرُ كُلُّهُ﴾ [١٢٣].

أما عنصر التوحيد وإخلاص العقيدة فقد جاء في مثل قوله تعالى: ﴿يَعْلَمُ مَا يُسْرُونَ وَمَا يُعْلِنُونَ﴾ [٥] ﴿وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ﴾ [٧].

﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً﴾ [١١٨].

١- وقد ورد في سورة هود آثار؛ منها قول أبي جحيفة للنبي ﷺ: نراك قد شبت؟ قال: «شيبني هود وأخواتها»^(١).

٢- وعن أبي بكر الصديق رضي الله عنه قال: قلت يا رسول الله، لقد أسرع إليك الشيب، فقال: «شيبني هود، والواقعة، والمرسلات، وعم يتساءلون، وإذا الشمس كورت»^(٢).

٣- وعن عقبة بن عامر رضي الله عنه أن رجلاً قال للنبي ﷺ: قد شبت؟ قال: «شيبني هود وأخواتها»^(٣).

ولعل ذلك بسبب ما في السورة من ذكر أحوال القيامة ومصارع الظلمة والمكذبين.

وقد تطرق المفسرون إلى بيان السبب الذي شيب النبي ﷺ في سورة هود؛ فقال بعضهم: الأمر له بالاستقامة الوارد في السورة في قوله تعالى: ﴿فَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ﴾ [١١٢]

وقال بعضهم: الذي شيبه ﷺ هو ما فيها من مصارع الظالمين وإهلاكهم.

يقول الشيخ محمد الغزالي رحمه الله: ولعل ما فيها من عودة الضمائر إلى رسول الله ﷺ، وكثرة الخطاب والتوجيه للرسول ﷺ - هو الذي شيبه، فإنك قد تجد في الآية الواحدة أكثر من ضمير، ففي قوله تعالى: ﴿فَلَعَلَّكَ تَارِكٌ بَعْضَ مَا يُوحَىٰ إِلَيْكَ وَضَائِقٌ بِهِ صَدْرُكَ أَنْ يَقُولُوا لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْهِ كُتُبٌ أَوْ جَاءَ مَعَهُ مَلَكٌ إِنَّمَا أَنْتَ نَذِيرٌ﴾ [١٢]^(٤) ثلاثة ضمائر متصلة، وضمير منفصل.

فهذه أربعة ضمائر في آية واحدة، وهكذا يتكرر الضمير عشرات المرات في السورة حتى آخر آية منها ﴿وَلِلَّهِ غَيْبُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ الْأَمْرُ كُلُّهُ فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ [١٣] وهو قول له وجاهته.

فالله تعالى يوجه رسوله في هذه السورة كثيراً، ويعلمه ويؤدبه ويقول له: اصبر وتحمل كما فعل غيرك من الرسل.

(١) أبو يعلى عن أبي جحيفة (٨٨٠) وإسناده ضعيف؛ حيث إن علي بن صالح متأخر السماع من أبي إسحاق السبيعي، ورواه الطبراني (٣١٨) وابن عساكر (١٧٣/٤) والحكيم الترمذي، وله شواهد كثيرة من طرق متعددة تقويه.

(٢) أخرجه الطبراني في «الكبير» (١٠٠٩١) وفي «الأوسط» (٧٩٠) وقال الهيثمي: رجاله رجال الصحيح، ينظر: «مجمع الزوائد» للهيتمي (٤٠/٧) وهو في «سنن الترمذي» برقم (٣٢٩٧) وصححه الحاكم (٣٤٧/٢) على شرط البخاري ووافقه الذهبي، وهو عند ابن عساكر (١٧٢/٤) والدارقطني في «العلل» (١٩٣/١) والبيهقي في «الشعب» (٧٧٦)، وصححه الألباني عن ابن عباس في صحيح الترمذي (٢٦٢٧) وفي السلسلة (٩٥٥).

(٣) الطبراني (٧٩٠) قال الهيثمي في «مجمع الزوائد» (٣٧/٧): رجاله رجال الصحيح.

(٤) نحو تفسير موضوعي لسور القرآن الكريم، سورة هود.

تَفْسِيرُ السُّورَةِ

الْمُرَادُ بِحُرُوفِ الْهَجَاءِ فِي فَوَاتِحِ بَعْضِ السُّورِ

١- ﴿الرَّ (١) كَتَبْتُ أَهَكَّتْ ءِإِنَّهُمْ ثُمَّ فَصَّلْتُ مِنْ لَدُنَّ حَكِيمٍ خَيْرٍ (٢)﴾

بدأت سورة هود بحروف الهجاء الثلاثة: الألف واللام والراء، وهذه الحروف جاءت جزءاً من آية في بعض السور، وجاءت آية منفصلة في بعضها الآخر، وجميع السور التي بدأت بحروف الهجاء مكية، ما عدا سورتي البقرة وآل عمران.

وهذه الحروف الهجائية مما استأثر الله تعالى بعلمه، والمفسرون اجتهدوا في بيان معناها، ولعل من فوائدها: أنها نزلت للتحدي والإعجاز، ومن فوائدها: أن المشركين كان يحث بعضهم بعضاً أن يُلَغَوْا في مجلس رسول الله ﷺ حتى لا يهتدوا بهذا القرآن، ولا يستمعوا إليه، ولا يفقهوا معناه، فجاءت هذه الحروف لجذب انتباههم وشحذ أذهانهم كي يفكروا فيها فيعتبروا ويتعظوا.

وفي هذه الحروف: (الر، المر، ص، حم، المص، كهيعص... إلخ) لفت الانتباه إلى كلام جديد غريب، لم يسمعه من قبل ولم يعرفوه، حتى يسترعي انتباههم، فإذا سمعوه عرفوا ما فيه، وآمنوا به.

وهذا الكتاب المكوّن من هذه الحروف ﴿كَتَبْتُ أَهَكَّتْ ءِإِنَّهُمْ﴾ أي: نُظِّمْتُ وَرُتِّبَتْ آيَاتُهُ وسوره، فهو إبداع ليس فيه نقص ولا خلل، وهو كتاب متقن محكم، لم يُنسخ كما نُسخَت التوراة والإنجيل والזبور، فهو كتاب محكم باقٍ إلى يوم القيامة، أخباره صابغة، وأوامره عادلة، وآياته متقنة، وألفاظه فصيحة، ومعانيه سامية.

﴿ثُمَّ فَصَّلْتُ﴾ هذه الآيات، فوُضِّحت، ومُيِّزَتْ وبُيِّنَتْ أعلى بيان، ونزلت مفرقة ببيان

(١) قرأ أبو جعفر بالسكت سكتة خفيفة بدون تنفس على كل حرف من حروف الهجاء الثلاثة: الألف، واللام، والراء، والباقون بعدم السكت، وأمال الراء أبو عمرو وشعبة وابن عامر وحزمة والكسائي وخلف العاشر، وقللها الأزرق عن ورش.

(٢) قرأ أبو جعفر بإخفاء التنوين عند الخاء في (حكيم خير) والباقون بالإظهار.

الحلال والحرام، والعقيدة والتشريع، والأخلاق، والآداب، وإصلاح المجتمع والأسرة، وقد أحكمها وفصلها الحكيم في أقواله وأفعاله، الخبير بعواقب الأمور وكيفيات الأحوال، وهو سبحانه حكيم في تكليف عباده وتشريعه لهم، لا يأمر ولا ينهى إلا بما تقتضيه حكمته، وهو سبحانه خبير بشؤونهم وما يصلح أحوالهم، عالم بمواقع الأمور.

قال قتادة في معنى الآية: أحكمها الله من الباطل، ثم فصلها بعلمه، فبين حلاله وحرامه، وطاعته ومعصيته، فخذوا بطاعة الله ومعرفة حقه، فإن الله منعم يحب الشاكرين، وأهل الشكر في مزيد من الله، وذلك قضاؤه الذي قضى به^(١).

إِفْرَادُ اللَّهِ بِالْعِبَادَةِ هُوَ أَصْلُ الدِّينِ

٢- ﴿أَلَا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ إِنَّنِي لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ﴾

ومضمون هذا الكتاب وجميع الكتب السابقة التي جاءت بها الرسل من عند الله هي ﴿مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ﴾ ومقتضاها ﴿أَلَا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ﴾ وكأن السياق يقول: أوحى الله إلي في هذا الكتاب أن لا تعبدوا إلا الله، هذه هي مهمة الرسل جميعاً، فكل رسول قال لقومه: ﴿اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَهِ غَيْرُهُ﴾ وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ فَمِنْهُمْ مَّنْ هَدَى اللَّهُ وَمِنْهُمْ مَّنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلَالَةُ﴾ [النحل: ٣٦] وقال سبحانه: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِيَ إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ﴾ [الأنبياء] فاتركوا عبادة الأوثان وأنواع الشرك، واعبدوا الله وحده.

فجملته ﴿أَلَا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ﴾ مفسرة لما أحكم من الآيات؛ لأن النهي عن عبادة غير الله، والأمر بعبادة الله، هو أصل الدين، الذي يتفرع عنه جميع التفاصيل.

وفي هذه الآية، والتي بعدها، الدلالة الواضحة على أن الحكمة العظمى التي أنزل القرآن من أجلها هي عبادة الله وحده، وعدم الإشراك به.

ثم حدد الله تعالى مهمة رسوله ﷺ بما جاء في تنمة الآية ﴿إِنِّي لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ﴾ لمن تجرأ على الله بارتكاب المعاصي فيعاقبه في الدنيا والآخرة ﴿وَبَشِيرٌ﴾ لمن أطاعه بثواب

(١) الطبري (٣١٠/١٢) وابن أبي حاتم (١٩٩٥/٦).

الدنيا والآخرة والندارة تكون في المكروه، والبشارة تكون في المحبوب، ويراد بها الثواب والعقاب، حيث يشير ﷺ من أطاعه بدخول الجنة، ويُنذر من عصاه بدخول النار. ولما أمر النبي ﷺ أن يَجْهَرُ بالدعوة صَعِدَ على الصفا، فدعا بطون قريش الأقرب فالأقرب، فلما اجتمعوا قال لهم: «يا معشر قريش، أرايتم لو أخبرتكم أن خيلاً تخرج بسفع هذا الجبل، أستم مصدقي؟» فقالوا: ما جربنا عليك كذباً، قال: «فإني نذير لكم بين يدي عذاب شديد»^(١).

والبشرى والإنذار جماع عمل الرسول ﷺ، وجماع أصول الرسالة.

الإِيمَانُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فِيهِ سَعَادَةُ الدَّارَيْنِ

٣، ٤ - ﴿وَأَن أَسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُمِيعَكُمْ مَتَلًا حَسَنًا إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى وَتُؤْتَ كُلَّ ذِي فَضْلٍ فَضْلَهُ وَإِن تَوَلَّوْا فَإِنِّي^(٢) أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ كَبِيرٍ ﴿٣﴾ إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ وأوّل ما دعا إليه الرسول الكريم، بعد توحيد الله تعالى، هو الاستغفار والتوبة فقال: ﴿وَأَن أَسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ﴾ من الشرك، وعبادة الأوثان، بالدخول في الإسلام، والندم على ما فات، وهذه جملة أخرى مفسّرة لما أحكم من الآيات.

والاستغفار: طلب المغفرة؛ أي: ستر الذنوب، والتوبة والرجوع إلى طاعة الله ﷻ، وتوحيده، ﴿ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ﴾ فيما تستقبلون من أعماركم بالإنابة والرجوع إليه من شرككم وكفركم، ومن سائر الذنوب والمعاصي.

ثم ذكر الجزاء المترتب على ذلك في الدنيا وهو الحياة الطبيعية، والمتاع الحسن فقال: ﴿يُمِيعَكُمْ مَتَلًا حَسَنًا﴾ أي: يمنحكم الرزق الحسن، والأمن والرخاء في الدنيا، كقوله تعالى: ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أَنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهٗ حَيَوةً طَيِّبَةً﴾ [النحل: ٩٧]

إلى جوار فرح المؤمن برجائه فيما عند الله تعالى من حسن الثواب، والمراد بالأجل

(١) من حديث ابن عباس في البخاري برقم (١٣٩٤، ٤٩٧١) ومسلم (٢٠٨).

(٢) قرأ البري بخلف عنه بتشديد التاء وصلًا من (وإن تولوا) مع البقاء على الإخفاء في النون، والباقون بعدم التشديد مع الإخفاء في النون أيضًا.

(٣) قرأ نافع وابن كثير وأبو عمرو وأبو جعفر بفتح ياء الإضافة من (فإني أخاف)، والباقون بإسكانها.

المسمى في الآية: الموت.

وترتيب الرزق الحسن، ورغد العيش، والعافية في الدنيا، على التوبة والاستغفار، جاء في أكثر من آية في كتاب الله؛ منها قوله تعالى على لسان هود: ﴿وَيَقَوْمِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَى قُوَّتِكُمْ﴾ [هود: ٥٢]

وقوله تعالى على لسان نوح عليه السلام: ﴿فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا ﴿١٠﴾ يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا لَا يُعَذِّبَكُمْ بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَلْ لَكُمْ جَنَّتٍ وَيَجْعَلْ لَكُمْ أَنْهَارًا ﴿١٢﴾﴾ [نوح].

ولذا فإن النبي ﷺ كان يقول: «يا أيها الناس، توبوا إلى الله، فإني أتوب إليه في اليوم مئة مرة»^(١).

إن النفس البشرية تحب رغد العيش، والأجر الذي وعده الله تعالى للتائبين المستغفرين هو مستوى معيشة أفضل، والله تعالى يطمئن عباده إلى أنه سوف يريحهم، ويصلح بالهم، إذا هم آمنوا وأسلموا وجوههم له، وهذا الوعد الذي قاله هود ونوح إلى قومهما، فيه رغد العيش، وزيادة النعيم، وكثرة البنين، والله تعالى ينعم على خلقه بألوان النعم المختلفة، ويحب منهم أن يشكروه، وأهل الشكر في مزيد من نعم الله تعالى.

أما في الآخرة، فيثيب سبحانه المحسن على إحسانه، ويجزيه الجزاء الأوفى؛ لأنه احتسب أجره عند الله تعالى، وهذا معنى: ﴿وَيُؤْتِ كُلَّ ذِي فَضْلٍ فَضْلَهُ﴾ أي: يؤت كل ذي فضل في الإسلام فضل الدرجات في الآخرة، والفضل الأول هو العمل الصالح، والفضل الثاني هو الثواب الأخروي، فكل ما احتسب به العبد وجه الله تعالى من ماله أو عمله فهو من الفضل الذي يثيب عليه رب العالمين.

في الصحيح أن رسول الله ﷺ قال لسعد رضي الله عنه: «وإنك لن تنفق نفقة تبتغي بها وجه الله تعالى إلا أُجِرت، حتى ما تجعل في في امرأتك»^(٢).

فالمعنى: أن الله تعالى يعطي كل صاحب عمل صالح أجره في الدنيا، وثوابه في الآخرة.

ويبين عبد الله بن مسعود رضي الله عنه هذا المعنى فيقول: مَنْ عمل سيئة كُتبت عليه سيئة، وَمَنْ

(١) من حديث الأغر المزني عن ابن عمر في «صحيح مسلم» (٢٧٠٢).

(٢) «صحيح البخاري» برقم (٦٣٧٣) وانظر المعنى في «صحيح مسلم» برقم (١٦٢٨).

عمل حسنة كتبت له عشرًا، فإن عوقب بالسيئة، التي كان قد عملها في الدنيا، بقيت له عشر حسنات، وإن لم يعاقب بها في الدنيا أخذ من الحسنات العشر واحدة وبقيت له تسع حسنات، ثم يقول: هلك من غلب آحاده أعشاره^(١).

انظروا هذا الفضل: الحسنات عشرات، والسيئات آحاد.

ثم حذر سبحانه من الإعراض عن طاعته، فقال: ﴿وَإِنْ تَوَلَّوْا﴾ عن فضل الله وعن الحق الذي جئتكم به ﴿فَإِنَّ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ كَبِيرٍ﴾ يوم لقاء رب العالمين، حيث يجمع الله الأولين والآخرين فيحاسبهم ويجازيهم على أقوالهم وأفعالهم.

وفي هذا تهديدٌ ووعدٌ لكل من أعرض عن دعوة الله، وكذب رسول الله، وأنكر البعث والنشور، فإن العذاب يناله لا محالة يوم الرجوع إلى الله تعالى في الدار الآخرة.

وهو سبحانه القادر على عقابكم جزائكم، فهو القادر الذي لا يُعْجِزُهُ شيء، وهو الذي يجبر ولا يجار عليه، فأنتم راجعون إلى الله تعالى، وهو مجازيكم على أعمالكم بما تستحقون من جزاء، ولا يحول بينه وبين نفوذ إرادته حائل، وما دام الأمر كذلك فأخلصوا له العبادة واستغفروه ثم توبوا إليه؛ لتظفروا بالسعادة العاجلة والآجلة.

أَحْوَالُ الْعِبَادِ مَكْشُوفَةٌ لِعَالَمِ السِّرِّ وَالنَّجْوَى

٥- ﴿أَلَا إِنَّهُمْ يَمُنُّونَ بِدُورِهِمْ لَيْسْتَخْفُوا مِنْهُ أَلَا جِنَّ يَسْتَغْشُونَ ثِيَابَهُمْ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ إِنَّهُمْ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾

ثم بين ﷺ كيف تلقى القوم دعوة النبي ﷺ؛ فمنهم من كان يُثني صدره ويغطى رأسه، ويغطي وجهه إذا مرَّ به رسول الله ﷺ حتى لا يراه النبي ﷺ، وحتى لا يستمع إلى القرآن، ولا يتفجع به أو يسمع دعوته^(٢).

وبعضهم كان يغطي رأسه ووجهه، ويضع أصابعه في أذنيه كقوم نوح، كما جاء في قوله

(١) «تفسير الطبري» (١٥/٢٣١).

(٢) جاء هذا عن عبد الله بن شداد بن الهاد كما رواه سعيد بن منصور (١٠٧٨) في «التفسير»، والطبري

(٣١٦/١٢) وابن أبي حاتم (١٩٩٩/٦).

تعالى على لسان نوح عليه السلام: ﴿وَإِنِّي كُنْتُ مَدْعُوهُمْ لَتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوا أَصْبَعُكُمْ فِي مَذَانِهِمْ وَأَسْتَغْفِرُوا لِيَابَهُمْ وَأَصْرُوا وَاسْتَكَرُوا اسْتِكْبَارًا﴾ [نوح] وبعض المنافقين، كالأخنس بن شريق، كان يظهر محبة للرسول ﷺ ويحلف على ذلك، ويكن في صدره بغضا وكرها له ﷺ.

وجاء في صحيح البخاري وغيره عن ابن عباس رضي الله عنه أنه سأل رسول الله ﷺ عن هذه الآية فقال: «أناس كانوا يستحيون أن يتخللوا فيفضوا إلى السماء، وأن يجامعوا نساءهم فيفضوا إلى السماء فنزل ذلك فيهم»^(١).

أي: أن بعض الناس كان إذا أراد أن يجامع أهله، أو يقضي حاجته في العراء، يستحي من ظهور عورته، فكان ينحني بنفسه وظهره على صدره ورأسه؛ كي يستر عورته؛ فأنزل الله تعالى: ﴿أَلَا إِنَّهُمْ يَنْتُونْ صُدُورَهُمْ لِيَسْتَخْفُوا مِنْهُ﴾.

وسواء أراد المرء أن يختفي عن الرسول ﷺ حتى لا يسمع كلامه، أو أراد أن يستر عورته من الله تعالى، فإن رب العالمين يراه في كل حال، حتى وهو مخبوء ومتلفف في ملبسه؛ ولذا يقول الله سبحانه: ﴿أَلَا حِينَ يَسْتَغْشُونَ ثِيَابَهُمْ﴾ أي: يتغطون بثيابهم فهو سبحانه لا يخفى عليه شيء، والسر عنده كالعلانية، فهو عالم بما تنطوي عليه الضمائر وما يعلن وما يُسر.

﴿يَعْلَمُ مَا يُرْسُونَ وَمَا يُغْلِبُونَ﴾ أي: يعلم، سبحانه السر والنجوى، ويرى المرء حين يغطي بثوبه أو يظهر باديًا للناس، فالله، ﷻ، يراه في كل حركاته وسكناته ﴿إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾ قال تعالى: ﴿وَإِنْ يَجْهَر بِالْقَوْلِ فَإِنَّهُ يَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفَى﴾ [طه]

وقال سبحانه: ﴿وَأَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي أَنْفُسِكُمْ فَاحْذَرُوهُ﴾ [البقرة: ٢٣٥].

وقال عز وجل: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ وَنَعَلَهُ مَا تَوَسَّسُ بِهِ نَفْسُهُ﴾ [ق: ١٦]

وقال جل شأنه: ﴿أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لَا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُمْ بَلَى﴾ [الزخرف: ٨٠].

قال ابن عطية: قيل: إن هذه الآية نزلت في الكفار الذين كانوا إذا لقيهم رسول الله ﷺ تطامنوا، وثنوا صدورهم كالمستتر، وردوا إليه ظهورهم، وغشوا وجوههم بثيابهم، وتباعدوا

(١) «صحيح البخاري» برقم (٤٦٨١-٤٦٨٣) والطبري (١٢/ ٣٢٠).

منه كراهة للقاءه، وهم يظنون أن ذلك يخفى عليه وعلى الله ﷻ؛ فنزلت الآية في ذلك^(١).

وكان بعض المشركين إذا دخل بيته أرخى الستر عليه، واستغشى بثوبه، وحتى ظهره وقال: هل يعلم الله ما في قلبي؟ وذلك من جهلهم بعظمة الله تعالى^(٢).

قال ابن عباس ﷺ: كانوا لا يأتون النساء ولا الغائط إلا وقد تغشوا بشياهم؛ كراهة أن يُفُضُوا بفرجهم إلى السماء^(٣).

وفي البخاري وغيره عن ابن مسعود ﷺ: اجتمع عند البيت قرشيان وثقفي، كثيرة شحم بطونهم، قليلة فقه قلوبهم، فقال أحدهم: أترون أن الله يسمع ما نقول؟ وقال الآخر: يسمع إن جهرنا ولا يسمع إن أخفينا، وقال الآخر: إن كان يسمع إذا جهرنا فإنه يسمع إذا أخفينا؛ فأنزل الله: ﴿وَمَا كُنْتُمْ تَسْتَوُونَ أَنْ يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلَا أَبْصَرُكُمْ وَلَا جُلُودُكُمْ وَلَكِنْ ظَنَنْتُمْ أَنَّ اللَّهَ لَا يَعْلَمُ كَثِيرًا مِمَّا تَعْمَلُونَ ۚ وَذَلِكَ ظَنُّكُمُ الَّذِي ظَنَنْتُمْ بِرَبِّكُمْ أَرَدْتُمْ فَأَصْبَحْتُمْ مِنَ الْخَاسِرِينَ ۚ﴾^(٤) [فصلت].

ألا يعلم هؤلاء المشركون والملحدون والعلمانيون والشيوعيون وأضرابهم أن الله تعالى يعلم ما يضمرونه في صدورهم؛ وأنه لا يخفى على الله تعالى منها شيء؟

ألا يعلمون حين يغطون أجسادهم بشياهم، أن الله تعالى يراهم، ولا يخفى عليه سرهم وعلايتهم؟ إنه عليم بما تكنه صدورهم من النيات والضمائر والسرائر، والأفكار والوساوس، فكيف تخفي عليه حالكم، إذا أثبتتم صدوركم لتستخفوا منه.

ويحتمل أن يكون معنى الآية: أن المكذبين للرسول ﷺ يثنون صدورهم حين يروونه حتى لا يراهم فيسمعهم دعوته ويعظهم بما ينفعهم.

(١) «تفسير ابن عطية» (٣/١٥٠).

(٢) «تفسير التحرير والتنوير» (١١/٣٢١).

(٣) الطبري (١٢/٣٢٠).

(٤) «صحيح البخاري» (٤٨١٦، ٧٥٢١) و«صحيح مسلم» (٢٧٧٥).

الرِّزْقُ مَكْفُولٌ وَمَضْمُونٌ

٦- ﴿وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا كُلٌّ فِي كِتَابٍ مُبِينٍ﴾

ومن علمه سبحانه بخلقه أنه يرزق الدواب التي لا حيلة لها في الكسب وتحصيل المعاش، ويعلم حركة كل دابة ذات روح تدب على وجه الأرض، ويعلم أحوالها، سواء أكانت إنساناً، أو طائراً، أو حشرة، أو هامة، أو حيواناً، أو سمكاً صغيراً، أو كبيراً، ذكراً أو أنثى، وكل ما في البر، أو البحر، أو الجو، عاقلاً أو غير عاقل، فإن الله تعالى يرزق كل هؤلاء الرزق الذي يحييها في الدنيا.

﴿وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا﴾ طعامها وغذاؤها ومعاشها، فقد تكفل سبحانه برزقها، ولم يهملها، إحساناً وتفضلاً منه سبحانه، وهو جل شأنه يعلم مستقرها حيث تأوي إلى وكُرها بالليل أو النهار، ويعلم مستودعها حين تموت وتُدفن، ويعلم أيضاً مستقرها في الأصلاب، ومستودعها في الأرحام قبل بروزها إلى الأرض.

والمستقر أيضاً هو المكان الذي تقيم فيه، والمستودع هو المكان الذي تنتقل إليه.

﴿كُلٌّ فِي كِتَابٍ مُبِينٍ﴾ وكل من الأقدار، والأرزاق، والأعمار أحصاه رب العالمين في اللوح المحفوظ المشتمل على ما وقع وما سيقع من الأحداث في الكون كله. وعالم الحيوان والنبات فوق الحصر، ولا يحصيه إلا خالقه، وهو مسجلٌ عنده في اللوح المحفوظ والكتاب المكنون.

وفي الحديث عن ابن مسعود رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «إذا كان أجلُ أحدكم بأرضٍ أُوثِّبَتْ إليها حاجة، حتى إذا بلغ أقصى أثره^(١) منها قبضه الله سبحانه، فتقول الأرض يوم القيامة: هذا ما استودعني ربي»^(٢).

(١) (أقصى أثره) أي غاية ما قُدِّر له من الأثر.

(٢) انظر الحديث عن ابن مسعود عند ابن ماجه برقم (٤٢٦٣) و«صحيح سنن ابن ماجه» (٣٤٣٨) والطبراني (١٠٤٠٣) قال البوصيري في «الزوائد»: إسناده صحيح ورجاله ثقات، وأخرجه الحاكم (٣٦٧/١) والبيهقي في «الشعب» (٩٨٨٩) و«السلسلة الصحيحة» (١٢٢٢) والحكيم الترمذي (٢٦٦/١).

ورَزَقُ الله للدواب وغيرها لا ينافي الأخذ بالأسباب والسعي في تحصيل وسائل العيش بكافة الوسائل المشروعة للحصول على ما يغنيهم ويسد حاجاتهم، فلتطمئن القلوب إلى تحصيل أرزاقها، فقد تكفل الله بها، ولن تموت نفس حتى تستوفى رزقها وأجلها، ولكن لا بد من الأخذ بالأسباب:

وفي الحديث عن عمر رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «لو أنكم توكلون على الله حق توكله لرزقكم كما يرزق الطير تغدو خماصًا وتروح بطانًا»^(١).

قال تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ ذَلُولًا فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِن رِّزْقِهِ وَإِلَيْهِ النُّشُورُ﴾ [الملك].

ويشبه هذه الآية قوله تعالى: ﴿وَمَا مِن دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّا أُمَمٌ أَمْثَالُكُمْ مَا فَرَقْنَاهَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ ثُمَّ إِلَى رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ﴾ [الأنعام].

وقوله: ﴿وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَا تَسْقُطُ مِنَ وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِي ظُلْمَتِ الْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ﴾ [الأنعام].

وقوله جل شأنه: ﴿وَكَايُنَ مِن دَابَّةٍ لَّا نَحْمِلُ رِزْقَهَا اللَّهُ يَرْزُقُهَا وَإِيَّاكُمْ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ [العنكبوت].

وقوله: ﴿وَاللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَابَّةٍ مِن مَّاءٍ فَمِنْهُمْ مَّن يَمْشِي عَلَى بَطْنِهِ وَمِنْهُمْ مَّن يَمْشِي عَلَى رِجْلَيْنِ وَمِنْهُمْ مَّن يَمْشِي عَلَى أَرْبَعٍ يَخْلُقُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [النور].

إن خَلَقَ حشرة في هذا العالم أمرٌ مدهش، وأعظم منه إبقاؤها وإمدادها بالحياة، إن خلق جنين واحد شيء كبير، وأكبر منه إمداده بالغذاء؛ لينمو حتى يبلغ أشده، فسبحان الخلاق العليم، وسبحان الرازق للجنين وهو في بطن أمه.

(١) «المسند» (٢٠٥، ٣٠٧، ٣٧٣) قال محققوه: إسناده قوي، ورجاله ثقات رجال الشيخين، غير ابن هبيرة، فمن رجال مسلم، وأخرجه عبد بن حميد (١٠) وأبو يعلى (٢٤٧) وابن حبان (٧٣٠) والحاكم (٣١٨/٤)، والترمذي (٢٣٤٤) وقال: هذا حديث حسن صحيح، وهو في «صحيح سنن ابن ماجه» (٣٣٥٩).

فِي خَلْقِ هَذَا الْكَوْنِ دَلَائِلُ الْبَعْثِ وَالنُّشُورِ

٧- ﴿وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ لِيَبْلُوكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا وَلَئِنْ قُلْتُمْ إِنَّكُمْ مَبْعُوثُونَ مِنْ بَعْدِ الْمَوْتِ لَيَقُولَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ ﴿٧﴾﴾

ثم عَرَّفَ الله ﷻ خَلْقَهُ بنفسه، وأنه خالق هذا الكون، وأكبر مظاهر هذا الخلق تعلق قدرته تعالى في خلق السموات والأرض ﴿وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ﴾ أولها يوم الأحد وآخرها يوم الجمعة، ﴿وَ﴾ حين خلق الله السموات والأرض ﴿كَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ﴾ فوق السماء السابعة، وبعد أن خلق السموات والأرض استوى على العرش، يدبر الأمور ويصرفها كيف يشاء ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ الْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ﴾ [الطلاق: ١٢]

وقد صرحت هذه الآية بأن خَلَقَ السموات والأرض لحكمة ابتلاء الخلق، فقد خلقكم ربكم أيها الناس ﴿لِيَبْلُوكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ والعمل الحسن، هو ما كان خالصاً لله تعالى، لا يشوبه شرك، وكان موافقاً لهذه النبي ﷺ ليس فيه بدعة في الدين.

والله تعالى لم يخلق السموات والأرض وما بينهما عبثاً ولا باطلاً، فقد نزه سبحانه نفسه عن ذلك، وصرح بأن مَنْ ظن ذلك فهو من الذين كفروا المتوعدون بالنار، فقال جل ذكره: ﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَطْلاً ذَلِكَ ظَنُّ الَّذِينَ كَفَرُوا فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنَ النَّارِ ﴿٧﴾﴾ [ص] وقال تعالى: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ ﴿١٦﴾﴾ [المؤمنون].

وبيّن، جل شأنه، الغرض من خَلْقِ الجن والإنس في قوله: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾﴾ [الذاريات].

ونظير آية خلق السموات والأرض قوله تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ﴾ [الأعراف: ٥٤].

أحاديث في معنى الآية:

١- وفي البخاري وغيره عن عمران بن حصين رضي الله عنه قال: دخلتُ على النبي ﷺ وعقلتُ ناقتي بالباب، فأتاه ناس من بني تميم، فقال: «اقبلوا البشرى يا بني تميم»، قالوا: قد بشرتنا فأعطنا (مرتين)، ثم دخل عليه ناس من أهل اليمن، فقال: «اقبلوا البشرى يا أهل اليمن، إن لم يقبلها بنو تميم» قالوا: قد قبلنا يا رسول الله، قالوا: جئنا نسألك عن أول هذا الأمر، قال: «كان الله ولم يكن شيء غيره، وكان عرشه على الماء، وكتب في الذكر كل شيء، وخلق السموات والأرض» فنادى مناد: ذهبنا ناقتك يا بن الحصين، فانطلقت، فإذا هي تقطع دونها السراب، فوالله لو ددْتُ أني كنت تركتها^(١).

٢- وفي لفظ آخر عن بريدة رضي الله عنه قال: دخل قوم على رسول الله ﷺ فقالوا: جئنا نسلم على رسول الله ﷺ وننتفقه في الدين، ونسأله عن بدء هذا الأمر، فقال: «كان الله ولا شيء غيره، وكان عرشه على الماء، وكتب في الذكر كل شيء، ثم خلق سبع سموات» ثم أتاني آت فقال: هذه ناقتك قد ذهبَتْ، فخرجتُ والسراب ينقطع دونها فوددْتُ أني كنت تركتها^(٢).

٣- وفي صحيح مسلم وغيره، عن عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «كتب الله مقادير الخلائق قبل أن يخلق السموات والأرض بخمسين ألف سنة» قال: «وعرشه على الماء»^(٣).

٤- وفي الحديث القدسي عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «يد الله ملأى، لا يغيضها نفقة، سحَاء الليل والنهار» وقال: «أرايتم ما أنفق منذ خلق السماء والأرض، فإنه لم يَغْضُ ما في يده، وكان عرشه على الماء، وبيده الميزان يَخْفِضُ وَيَرْفَعُ»^(٤).

(١) «صحيح البخاري» برقم (٣١٩١، ٧٤١٨) و«المسند» (١٩٨٧٦) إسناده صحيح على شرط الشيخين (محققوه) والترمذي (٣٩٥١) مختصراً، وابن حبان (٦١٤٠) والنسائي في «الكبرى» (١١٢٤٠) والبيهقي في «الأسماء والصفات» (٨٠٠، ٤٨٩) مطولاً.

(٢) الطبري (٣٢٢/١٢) والحاكم (٣٤١/٢) وابن حبان عن عمران بن حصين، وقال محقق ابن حبان: إسناده صحيح على شرط الصحيح، ويشهد له الحديث السابق.

(٣) «صحيح مسلم» برقم (٢٦٥٣) والترمذي (٢١٥٦) والبيهقي (٧٩٨).

(٤) «صحيح البخاري» برقم (٤٦٨٤) وانظر (٥٣٥٢، ٧٤١١) و«صحيح مسلم» برقم (٩٩٣).

قال كعب الأحبار: بدأ الله خلق السموات والأرض يوم الأحد . . . وفرغ منها يوم الجمعة، وخلق آدم في آخر ساعة منه^(١).

العرش والاستواء:

هذا: وإن خلق الإنسان يتضاءل أمام خلق الأرض التي يعيش فوقها، وإنَّ ما بين المشارق والمغارب آمادًا بعيدة، والله سبحانه يستوي عنده قرب المكان وبُعدُه، وطول الزمان وقصره، وهو مع خلقه فوق عرشه بسمعه وبصره وقِيُومِيَّتِه، وإذا كان الإنسان يجهل ما تحت قدميه، فهل تطمح أفكاره إلى معرفة العرش والاستواء؟! إن الذي يجهل كيف يأكل وكيف يبول، لا يصلح له أن يتناول لمعرفة العرش والاستواء والنزول!!

وهكذا أخبر ﷺ عن بدء الخلق وكيف كان، كان الله ولم يكن شيء قبله، وكان عرشه على الماء، وكتب في اللوح المحفوظ كل ما كان وما يكون، ثم خلق السموات والأرض.

ويدل الحديث على أن الماء والعرش خُلِقَا قبل السموات والأرض، وأن العرش مخلوق فوق السموات، وأنه محيط بالماء أو يحويه.

ولعل الماء هو الدخان أو البخار الذي جاء ذكره في سورة فصلت في قوله تعالى: ﴿سُبْحَانَكَ أَسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ﴾ [فصلت: ١١] أي: ثم استوى على الماء وهو دخان، والتطور العلمي يفيد بأن الدخان عبارة عن ذرات، وتفسير ابن عباس للآية: أن الماء كان على متن الريح، وكان العرش فوق الماء، وذلك قبل خلق السموات والأرض.

والعرش في اللغة: هو سرير الملك، كما قال تعالى عن بلقيس: ﴿وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ﴾ [النمل: ٢٣] وسمي عرشًا لارتفاعه، وعرش الرحمن سبحانه -كما بينت النصوص الصحيحة- ذو قوائم تحمله الملائكة ﴿وَيَجْلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمَنِيَّةٌ﴾ [الحاقة: ١٧] والعرش محيط بالسموات والأرض وما فيهما.

ولا تسأل عن حقيقة العرش وذاته، ولا تسأل عن استواء الله سبحانه على العرش، فذلك من الأمور الغيبية، نؤمن بها كما جاءت في كتاب الله تعالى، من غير تشبيه ولا

(١) «تفسير الطبري» (١٥٢/٣).

تعطيل ولا تأويل ولا تحريف، ونؤمن بأن الله ﷻ فوق العرش، كما قال تعالى: ﴿ثُمَّ أَسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ﴾ [الأعراف: ٥٤] ولم يزل العرش باقياً على الماء، فقد كان فوق الماء ولم يزل كذلك، ثم خلق الله السموات والأرض.

خَلَقَ الْأَرْضَ قَبْلَ السَّمَوَاتِ، وَدَخَى الْأَرْضَ بَعْدَ ذَلِكَ:

جاء في سورة فصلت أن الله تعالى خلق الأرض في يومين، وخلق السموات في يومين، وقدر أقوات الأرض وأرزاقها في أربعة أيام ﴿٩﴾ قُلْ أَيُّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُمْ أَندَادًا ذَلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴿٩﴾ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ مِنْ فَوْقِهَا وَبَرَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاءً لِلْسَّائِلِينَ ﴿١٠﴾ ثُمَّ أَسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ ﴿١١﴾ فَفَضَّلَهُنَّ سَبْعَ سَمَوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ وَأَوْحَىٰ فِي كُلِّ سَمَاءٍ أَمْرَهَا وَزَيَّنَّا السَّمَاءَ الْأَدْنَىٰ بِمَصَابِيحَ وَحِفْظًا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ ﴿١٢﴾ [فصلت].

وَخَلَقَ الْأَرْضَ كَانَ قَبْلَ خَلْقِ السَّمَاءِ، وَدَخَى الْأَرْضَ كَانَ بَعْدَ خَلْقِ السَّمَاءِ، كما جاء في سورة النازعات: ﴿وَالْأَرْضَ بَعْدَ ذَلِكَ دَخَلَهَا﴾ ﴿٢٠﴾ أَخْرَجَ مِنْهَا مَاءَهَا وَمَرْعَاهَا ﴿٢١﴾.

الأيام الستة:

وهذه الأيام، هل هي بمقدار أيام الدنيا؟ كما أفادت الروايات أنها بدأت بالأحد وختمت بالجمعة، أم هي من أيام الله يوم لقائه؟ كما قال تعالى: ﴿وَأَنْتَ يَوْمًا عِنْدَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ﴾؟ [الحج: ٤٧] الله أعلم، حيث إنه لم يكن هناك ليل أو نهار، ولا شمس ولا قمر قبل خلق الأيام، فلعل المراد بالأيام الستة أنها باعتبار ما سيكون من أيام الدنيا.

والله سبحانه قادر على أن يخلق الكون كله في لحظة واحدة، ولكنه سبحانه يعلمنا الثاني والتثبت في الأمور^(١).

ثم خلق الله الإنسان، وجعله قابلاً للاختيار والحرية، يختار طريق الهدى أو الضلال، وكان خلق السموات والأرض؛ لنفع الإنسان، والله تعالى يختبر الإنسان في الأوامر والنواهي، ثم يجازيه عليها في الآخرة ﴿الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ [الملك: ٢] ولم يقل سبحانه أكثر عملاً، وكلمة (أحسن) تعني: الإخلاص والصواب.

(١) ينظر تفسير آيات سورة فصلت ٩-١٢ وآية سورة الأعراف (٥٤) والنازعات ٢٧-٣٣.

والعمل الخالص الصواب: هو الذي يكون خاليًا من الشرك والرياء، وموافقًا لهدي الرسول ﷺ.

وَخَلَقُ الْإِنْسَانِ أَدْنَىٰ وَأَقْلَ مِنْ خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ، كما قال تعالى: ﴿لَخَلْقُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ (٥٧) [غافر].

ومع أن الله تعالى قد خلق السموات والأرض وما فيهما وما بينهما، إلا أن أصحاب العقول القاصرة ينكرون ما هو أدنى من ذلك، وهو إعادة خلق الناس للحساب والجزاء، ولولا هذه الإعادة لكان خلق الناس عبثًا، والعبث مستحيل على الله تعالى، كما قال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَعِبٍ﴾ (٢٨) [الدخان].

ولو أنك حدثت منكري البعث عن الغاية من هذا الابتلاء بالطاعة والعبادة، ولماذا يكون العمل في الدنيا والثواب والعقاب في الآخرة؟ لأنكروا البعث والنشور والحساب والجزاء، ووصفوا هذا الكلام بالسحر والسذاجة، مع أنه ﷻ هو الذي خلقهم من العدم، ومن العجيب أن يرى الإنسان العالم العلوي والعالم السفلي بعينه، ويعلم أنه من المستحيل أن يوجد من غير خالق، ثم ينكر البعث والنشور، قال تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَتْ عَلَيْهِ﴾ [الروم: ٢٧]

وقال: ﴿مَا خَلَقَكُمْ وَلَا بَعَثَكُمْ إِلَّا كَفَافٍ وَحِدَةً﴾ [القمان: ٢٨].

وما أكثر من لا يعملون لليوم الآخر حسابًا في عصرنا هذا.

عِقَابُ اللَّهِ تَعَالَى لِلْأَفْرَادِ وَالْأُمَمِ لَا يَمْنَعُهُ مَانِعٌ

٨- ﴿وَلَيْنَ أَخْرَجْنَاهُمُ الْعَذَابَ إِلَىٰ أُمَّةٍ مَّعْدُودَةٍ لَّيَقُولُنَّ مَا يَحْبِسُهُ ۖ أَلَا يَوْمَ يَأْتِيهِمْ ۚ لَيْسَ مَصْرُوفًا عَنْهُمْ وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾ (٨) [الحج]

يخبر الله سبحانه أنه لو أخرج إنزال العذاب عن مستحقه إلى وقت معين، لقالوا من جهلهم: ﴿مَا يَحْبِسُهُ ۖ﴾ ما الذي يمنع نزوله؟ قال تعالى: ﴿أَلَا يَوْمَ يَأْتِيهِمْ لَيْسَ مَصْرُوفًا عَنْهُمْ﴾.

(١) قرأ يعقوب بضم الهاء من (يأتيهم)، والباقون بكسرها، وقرأ ورش وأبو جعفر وأبو عمرو بخلف عنه بإبدال الهمزة ألفًا في الحالين وصلًا ووقفًا، وكذا حمزة عند الوقف.

(٢) قرأ أبو جعفر بحذف الهمزة وضم الزاي من (يستَهزئون) وصلًا ووقفًا، ولحمزة عند الوقف ثلاثة أوجه: أحدها: مثل أبي جعفر. وثانيها: تسهيل الهمزة بينها وبين الواو. وثالثها: إبدال الهمزة ياء خالصة.

أخرج ابن أبي حاتم عن قتادة قال: لما نزل ﴿أَقْرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ﴾ [الأنبياء: ١] قال ناس: إن الساعة قد اقتربت، فتناهوا، فتناهى القوم قليلاً، ثم عادوا إلى أعمال السوء؛ فأنزل الله هذه الآية^(١).

ولعل المراد بالعذاب المذكور في الآية: عذاب الاستئصال الذي استعجل المكذبون نزوله في الدنيا؛ استبعاداً لوقوعه، واستهزاء به، أما عذاب الآخرة فقد كانوا منكبين له أصلاً، كما يفهم ذلك من الآية السابقة ﴿وَلَيْنَ قُلْتِ إِنَّكُمْ مَبْعُوثُونَ مِنْ بَعْدِ الْمَوْتِ لَيَقُولَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ﴾.

وقد بين سبحانه أن العذاب الذي استعجلوه، واستخفوا به، يوم ينزل بهم، لا يصرفه عنهم صارف، ولا يدفعه عنهم دافع، بل سيحيط بهم من كل جانب ﴿وَرِءَا الْمُجْرِمُونَ النَّارَ فَظَنُّوا أَنَّهُمْ مُوَاقِعُوهَا وَلَمْ يَجِدُوا عَنْهَا مَصْرِفًا﴾ [الكهف].

إن الذين ينكرون البعث والحساب يستعجلون نزول العذاب الموعود به، جهلاً منهم واستخفافاً به؛ لأنهم يجهلون سنة الله في خلقه، ولا يدركون أن الله ﷻ قد أهلك الأمم التي قبل محمد ﷺ، حين جاءتهم الرسل بالمعجزات المادية بناءً على طلبهم ولم يؤمنوا؛ وذلك لأن رسالة الرسل السابقة محدودة بزمان محدد، ويقوم معينين، وهذه المعجزة المادية يراها المعاصرون للرسول بعد طلبهم لها، فإن لم يصدقوا بها، ويؤمنوا برسولهم، أهلكهم الله تعالى، كما حدث لقوم نوح وهود وصالح.

وقد اقتضت حكمة الله تعالى أن لا يهلك هذه الأمة الخاتمة ويستأصلها؛ لأن رسالة محمد ﷺ عامة وباقية إلى يوم القيامة؛ ولهذا فإن معجزة محمد ﷺ ليست معجزة مؤقتة، يراها جيل دون جيل، بل هي قائمة وباقية في أيديهم إلى قيام الساعة.

ولذا: فلا ينبغي استعجال نزول العذاب بهذه الأمة، ولا ينبغي التعجب من تأخره، كما قال تعالى: ﴿وَلَيْنَ أَخْرَجْنَا عَنْهُمْ الْعَذَابَ﴾ الذي يأتي عليهم ويبيدهم ﴿إِلَّا أُمَّةٌ مَعْدُودَةٌ﴾ أي: إلى أجل معين هو يوم القيامة أو إلى زمن قليل ﴿لَيَقُولَنَّ﴾ تكذيباً واستهزاء ﴿مَا يَحْسِبُهُ﴾ ما

(١) «أسباب النزول» للسيوطي (١٥٤) والألوسي (١٤/١٢) وأخرج الطبري عن ابن جريج مثله (٥/١٢) وأخرجه ابن المنذر وابن أبي حاتم.

الذي يمنع نزول العذاب؟ قال تعالى مجيباً لهم: ﴿أَلَا يَوْمَ يَأْتِيهِمْ لَيْسَ مَصْرُوفًا عَنْهُمْ﴾ إنه عذاب دائم في يوم يَلْقَوْنَ فيه جزاء استهزائهم، وهو عذاب متجدد، لا ينقطع ولا يندفع عنهم.

المراد بلفظ (أمة):

هذا: ولفظ (الأمة) يستعمل في القرآن على معان متعددة:

- ١- فقد يراد به الأجل والأمد المعلوم، كما في قوله تعالى: ﴿وَأَذْكُرْ بَعْدَ أُمَّةٍ﴾ [يوسف: ٤٥].
 - ٢- وقد يراد به الإمام الذي يُقتدى به، كما في قوله تعالى: ﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً﴾ [النحل: ١٢٠].
 - ٣- وقد يراد به الملة والدين، كما في قوله تعالى إخباراً عن المشركين: ﴿إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَى أُمَّةٍ﴾ [الزخرف: ٢٣].
 - ٤- وقد يراد به الجماعة من الناس، كما قال تعالى: ﴿وَلَمَّا وَرَدَ مَاءَ مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةٌ مِّنَ النَّاسِ﴾ [القصص: ٢٣] وقوله: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا﴾ [النحل: ٣٦].
 - ٥- وقد يراد به الفرقة والطائفة، كما في قوله تعالى: ﴿وَمِن قَوْمِ مُوسَى أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ﴾ [الأعراف: ١٥٩] وقوله: ﴿مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ أُمَّةٌ قَائِمَةٌ﴾ [آل عمران: ١١٣].
 - ٦- ويراد بالأمة: القوم الذين بُعث فيهم رسول الله ﷺ مؤمنهم وكافرهم، فالأمة المؤمنة هي التي قال الله فيها: ﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾ [آل عمران: ١١٠] وهي الأمة التي أجابت دعوة نبيها محمد ﷺ، وتُسمى أمة الإجابة، وفيها يقول ﷺ: «يا رب، أمتي أمتي».
- أما عموم الأمة بما يشمل غير المسلمين، ففيهم يقول ﷺ: فيما يرويه أبوهريرة ؓ «والذي نفسي بيده، لا يسمع بي أحدٌ من هذه الأمة، يهودي ولا نصراني، ثم يموت ولم يؤمن بالذي أرسلت به؛ إلا كان من أصحاب النار»^(١).

وهذه الأمة تسمى أمة الدعوة؛ أي: الأمة المدعوة للدخول في الإسلام؛ لوجودها في زمن دعوته ﷺ الممتد منذ بعثته إلى قيام الساعة، باعتبار أن هذه الرسالة عامة لجميع الخلق، وناسخة لما قبلها من الرسالات.

(١) من حديث أبي هريرة في «صحيح مسلم» برقم (١٥٣).

حَالُ الْإِنْسَانِ عِنْدَمَا يُصَابُ بِالنِّعْمَةِ أَوْ النِّقْمَةِ

٩- ﴿وَلَيْنَ أَذَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنَّا رَحْمَةً ثُمَّ نَزَعْنَاهَا مِنْهُ إِنَّهُ لَكَفُورٌ ۝﴾

هذه الآية تقرر حالة الإنسان إذا أصابته النعمة بعد النعمة، حيث أخبر سبحانه عن طبيعة الإنسان -في الغالب- وجهله بالنواميس الإلهية، فبين تعالى أن الإنسان يجزع ويسخط حينما تُسلب منه النعمة، إلا مَنْ عصم الله، فتبين أن جنس الإنسان مجبول على الضعف والعجز والهلع، إن أصابته النعمة كالصحة والغنى والأمن جحد ومنع، وإن أصابته ضراء كالمرض والفقر والخوف كان من اليائسين القانطين، فهو عبدٌ للحظته الحاضرة، وساعته العاجلة، يستنجد بربه إن أصابه الضر، ولا يكاد يستقبل الفرج والنجدة حتى ينسى ما كان، ويجحد يد الرحمن، قال تعالى: ﴿وَإِنَّا إِذَا أَذَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنَّا رَحْمَةً فَجَحَّ بِهَا وَإِنْ نُصِيبُهُمْ سَيْئَةً بِمَا قَدَّمْتَ إِلَيْهِمْ فَيَآنِسَ الْإِنْسَانُ فَإِنَّ الْإِنْسَانَ كَفُورٌ﴾ [الشورى: ٤٨].

والآية تذم مَنْ يقنط عند الشدائد، ويبطر عند النعم قال تعالى: ﴿لَا يَسْتَمُ الْإِنْسَانُ مِنْ دُعَاءِ الْخَيْرِ وَإِنْ مَسَّهُ الشَّرُّ فَيَئُوسٌ قَنُوطٌ ۝﴾ [فصلت]

وقال سبحانه: ﴿وَإِذَا أَنْعَمْنَا عَلَى الْإِنْسَانِ أَعْرَضَ وَنَسَا بِجَانِبِهِ وَإِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ فَذُو دُعَاءٍ عَرِيضٍ ۝﴾ [فصلت].

وهذه الحالة يتصف بها الإنسان عموماً، ولكنها متأصلة في الكافر، وعارضة في المؤمن؛ لأن الله تعالى استثنى المؤمنين من هذا العموم في مثل قوله تعالى: ﴿وَالْعَصْرِ ۝١ إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنُورٌ ۝٢ إِلَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ۝﴾ [العصر].

وقوله: ﴿إِنَّ الْإِنْسَانَ خُلِقَ هَلُوعًا ۝١٩ إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعًا ۝٢٠ وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعًا ۝٢١ إِلَّا الْمُصَلِّينَ ۝٢٢﴾ [المعارج].

وقوله: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ۝٤ ثُمَّ رَدَدْنَاهُ أَسْفَلَ سَافِلِينَ ۝٥ إِلَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ۝﴾ [التين: ٤-٦].

وقد جاء هذا الوصف مقروناً بإنكار البعث في قوله تعالى: ﴿وَلَيْنَ أَذَقْتُهُ رَحْمَةً مِنَّا مِنْ بَعْدِ ضَرَاءٍ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ هَذَا لِي وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً ۝﴾ [فصلت: ٥٠]. قال تعالى:

١٠- ﴿وَلَمَّا أَذَقْنَاهُ^(١) نِعْمَاءَ بَعْدَ ضَرَاءٍ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ ذَهَبَ السَّيِّئَاتُ عَنِّي^(٢) إِنَّهُ لَفَرِحٌ فَخُورٌ﴾

وهذه الآية تصف حال الإنسان عندما يصاب بالنعمة بعد النعمة، كالصحة بعد المرض، والغنى بعد الفقر، والأمن بعد الخوف، فإنه سرعان ما يصاب بالغرور والكبر متحدثاً بأن الأضرار والمصائب التي لحقته قد ولَّت إلى غير رجعة، ويظن أن الخير سيدوم عليه، وينسى حاله بالأمس، وما كان فيه من ضيق وشدة، مع الفخر والتعالي على الناس، والفرح والأشهر، وذلك إن أصابته رحمة بعد نقمة، أو بعد ضرر مسه، فإنه يقول: ذهب الضرر عني، فيفرح فرح أشد وبطر، والعكس صحيح، إن أذاقه الله ضرراً بعد نعمة، فإنه ييأس من رحمة الله تعالى ويفزع، وهذا في الغالب شأن الإنسان الكافر، وهو لا ينطبق على المؤمن الصابر المحتسب، فالمؤمن لا يفزع ولا يهلك ولا ييأس، إنما يرجو رحمة الله ويخشى عذابه، ويصبر على ما أصابه.

كما في الحديث عن أبي سعيد وأبي هريرة رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال: «ما يصيب المسلم من نصب، ولا وصب، ولا هم، ولا حزن، ولا أذى، ولا غم، حتى الشوكة يشاكها، إلا كفر الله بها من خطاياها»^(٣).

ويُبينُ النبي ﷺ أن المؤمن محظوظ في جميع أحواله، فيقول ﷺ في حديث صهيب رضي الله عنه: «عجباً لأمر المؤمن، إن أمره كله خير - وليس ذلك لأحد إلا للمؤمن - إن أصابته سراء شكر، فكان خيراً له، وإن أصابته ضراء صبر، فكان خيراً له»^(٤).

وهذه هي طبيعة الإنسان من حيث هو، إلا من وفقه الله ممن صبر واحتسب إذا مسه الضر، وشكر وحمد إذا مسه الخير، قال تعالى:

١١- ﴿إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَٰئِكَ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ﴾

في هذه الآية استثناء من عامة الناس، للذين صبروا على ما أصابهم من الضراء إيماناً

(١) قرأ ابن كثير بصلة هاء الضمير بحرف مد من (أذقناه، مسته)، والباقون بعدم الصلة.

(٢) قرأ نافع وأبو عمرو وأبو جعفر بفتح ياء الإضافة من (عني إنه)، والباقون بإسكانها.

(٣) «صحيح البخاري» من حديث أبي سعيد وأبي هريرة برقم (٥٦٤١، ٥٦٤٢) وهذا لفظه و«صحيح مسلم» برقم (٢٥٧٣).

(٤) وهو عن أبي يحيى صهيب بن سنان، في «صحيح مسلم» برقم (٢٩٩٩).

واحتساباً وطلباً للأجر من الله تعالى، فهم يكثرون من الأعمال الصالحة، ويشكرون الله على نعمه، وهؤلاء لهم مغفرة لذنوبهم، وستر لعيوبهم، ولهم عند الله أجر كبير في الدار الآخرة؛ ثواباً لهم على صبرهم واحتسابهم وقوة إيمانهم.

تَحْرِيكُ هِمَّةِ الدَّاعِيَةِ وَالْهَابِ حِمَاسِهِ

١٢- ﴿فَلَمَّا تَرَكَ بَعْضَ مَا يُوحَىٰ إِلَيْكَ وَضَاقَ بِهِ صَدْرُكَ أَن يَقُولُوا لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْهِ كُتُبٌ أَوْ جَاءَ مَعَهُ مَلَكٌ إِنَّمَا أَنْتَ نَذِيرٌ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ﴾

في هذه الآية توجيه للدعاة إلى الله، ألا يضيق صدرهم بما يجدوه من أذى في سبيل الدعوة إلى الله، وأن يستمروا في دعوتهم، فمهمتهم هي البلاغ والإنذار، والتأنيج على الله تعالى:

وهذه الآية تُلقِي الضوء على الفترة الحرجة من تاريخ الدعوة الإسلامية، وهي الفترة التي أعقبت موت أبي طالب وخديجة عليهما السلام، حيث تكاثرت إيذاء المشركين للنبي ﷺ وصحبه الكرام، وتكاثرت مُساوَمَتُهُمْ له ﷺ؛ لِيُثْنَوْهَ عنها بوسيلة أو بأخرى.

ومن ذلك ما رواه ابن عباس رضي الله عنهما أن رؤساء مكة، قالوا: يا محمد، اجعل لنا جبال مكة ذهباً إن كنت رسولاً، وقال آخرون: ائتنا بالملائكة يشهدون بنبوتك، فقال: «لا أقدر على ذلك»؛ فنزلت الآية^(١).

وقال غيرهم: يا محمد، لو تركت سبَّ آلِهتنا، وتسفيه آبائنا، لجالسناك واتبعناك^(٢).

فأراد الله، سبحانه، أن يُوقِفَ نبيه على أقوال المكذبين الجاحدين لرسالته؛ لإبطالها، بما يفيد سبَّ آلِهتهم، وتسفيه عقولهم، وما ورثوه عن آبائهم وأجدادهم.

وفي هذه الآية تحريضٌ للنبي ﷺ على المضْيِّ والاستمرار في تبليغ الدعوة، وإثارة دواعي ذلك في نفسه ﷺ؛ بأن يسير في طريقه غير مبالٍ بما يَصُدُّرُ عنهم من مضايقات، فإن الله تعالى سيجازيهم بما يتناسب مع جحودهم وكفرهم.

ويُقصد بالاستفهام الذي في أول الآية تحريك همة النبي ﷺ، وإلهاب حماسه؛ لدفع

(١) «تفسير الفخر الرازي» (١٧/١٩٢).

(٢) «تفسير ابن عطية» (٣/١٥٤).

الفطور عنه، والتحذير من التأثر بعنادهم وتكذيبهم، وهذا يتضمن بالضرورة تئيس المكذبين من أن يترك النبي ﷺ شيئاً مما يريدونه.

وفي الآية أيضاً تحذير للنبي ﷺ أن يضيق صدره لأقوالهم وأفعالهم وطلبهم الآيات الخارقة.

وليس في الآية ما يفيد أن النبي ﷺ قد مال إليهم، وأراد أن يتساهل معهم؛ فزجره الله عن ذلك، وإنما تفيد الآية أن الله تعالى يُطلع السامعين ويخبرهم بمضمون خطابه للنبي ﷺ، كما قال تعالى: ﴿لَعَلَّكَ بَنِيعٌ نَّفْسَكَ أَلَّا يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ﴾ (٢) [الشعراء].

لقد كان المشركون يقولون للنبي ﷺ: ﴿أَنْتَ بِقُرْآنٍ غَيْرِ هَذَا أَوْ بَدِّلْهُ﴾ [يونس: ١٥] يريدون قرآناً يوافق أهواءهم، وكانوا يقترحون عليه آيات ويقولون: ﴿لَوْلَا أَنْزَلَ عَلَيْهِ كُتُبٌ﴾ أو تكون بطحاء مكة له ذهباً، أو ينزل عليه ملكٌ يبلغ معه الدعوة إلى الله ﷻ.

وفي هذه الآية يقول سبحانه لرسوله ﷺ مخففاً عنه ومسلِّياً له؛ لئلا يضيق صدره أو يثنيه ذلك عن دعوته: ﴿فَلَعَلَّكَ تَارِكٌ بَعْضُ مَا يُوحَىٰ إِيَّاكَ﴾ من قرآن فيه استهزاء بالهتهم، وتسفيه لعقولهم التي استساعت أن تشرك مع الله غيره في عبادته ﴿وَضَائِقُ بِهِ صَدْرُكَ﴾ بسبب إيدائهم وتكذيبهم لك، كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ﴾ (٧) [الحجر].

والمعنى: هل أنت تارك بعض ما يُوحى إليك من القرآن الذي أنزل عليك؟ حيث لم تجبهم إلى ما طلبوا، ولعل صدرك لا يضيق من تبليغ الدعوة لأجل أن يقولوا: هلاً أنزل عليه مال كثير يجعله في رغد من العيش، أو جاء معه ملك يصدقه، فأنت مبتلى إن آمنوا أو كفروا، ومهمتك البلاغ والإنذار.

﴿إِنَّمَا أَنْتَ نَذِيرٌ﴾ فلا تحزن عليهم، ولا تبالِ بهم، ﴿وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ﴾ فهو الحافظ لك، الشهيد على كفرهم، الموكل بك وبهم، وهو القائم على شؤون العباد يحفظ عليهم أعمالهم.

حَاجَةُ الْبَشَرِ إِلَى كِتَابٍ يُعَرِّفُهُمْ مِنْ أَيْنَ جَاءُوا وَإِلَى أَيْنَ يَصِيرُونَ

١٣- ﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوْرٍ مِثْلِهِ مُفْتَرِيَاتٍ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ (١٣)

هذا الكتاب لا بُدَّ أن يكون كتابًا معجزًا إلى النخاع، لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، وهذه مقولة أخرى من مقالات المشركين، وليست هذه المقولة مقصورة على وقت النبي ﷺ، بل إن بعض الناس في كل زمان ومكان يردّد ما ردّده المشركون قديمًا، والقرآن يعينهم جميعًا إلى قيام الساعة ﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَيْنَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوَرٍ مِثْلِهِ مُفْتَرِينَ﴾.

يقول الكفار والملحدون: إن محمدًا أتى بهذا القرآن من عند نفسه؛ أي: افتراه واختلقه.

قل لهم يا محمد: إن كنت قد افتريته فأتوا بمثله في الفصاحة والبلاغة والإعجاز، وبيان حال الأمم وأمور الغيب.

أو اتوا بعشر سور مثله إن عجزتم عن الإتيان بمثله كله، وهذا التحدي مقرون بالافتراء، للتوسعة عليهم في القدر الذي تقوم به الحجة.

أو اتوا بمثل أقصر سورة من القرآن إن عجزتم عن العشر، كما جاء في سورتي البقرة [٢٣] ويونس [٣٨] دون قيد الافتراء؛ لأن المطلوب فيهما المماثلة التامة في نظمه، ومعانيه وهذيه، ووعده ووعيده، أما في هذه السورة، فالمطلوب الإتيان بمثله في النظم فقط من باب التوسعة عليهم.

والسبب في هذا: أن التحدي الذي في سورة البقرة بسبب الشك والارتياب في القرآن، ولا يزيل الريب إلا المماثلة التامة، أما في هذه السورة فالسبب هو قولهم: ﴿افْتَرَيْنَاهُ﴾ فطلب منهم مثل ما قالوا، فإن ادّعيتم أنني استعنتُ بغيري، فاستعينوا بما شئتم من الجن والإنس وغيرهم من المخلوقات ﴿وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾.

والتحدي قائم إلى قيام الساعة، وكما قال تعالى في سورة البقرة:

﴿فَإِنْ لَّمْ تَفْعَلُوا وَلَكِنْ تَفْعَلُوا فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ﴾ [البقرة: ٢٤]

فقد نفى ﷺ أن يأتي أحد بمثل هذا القرآن في الحاضر والمستقبل، ولو تظاهر على ذلك الإنس والجن معًا ﴿قُلْ لَنْ أَجْتَمَعَ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا﴾ [الإسراء: ٨٨].

والافتراء: هو الكذب عن عمد، ولا شبهة لصاحبه فيه، كما قال تعالى:

﴿وَلَكِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يَقْتُرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ﴾ [المائدة: ١٠٣].

وقال: ﴿إِنَّمَا يَفْتَرِي الْكَذِبَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْكَاذِبُونَ﴾ [النحل].

وهكذا وصف الله الذين يفترون عليه الكذب في الآية الأولى بالكُفْر، ووصفهم في الآية الثانية بعدم الإيمان.

وجاء التحدي بالإتيان بسورة واحدة في سورة يونس في قوله تعالى: ﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَيْنَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّثْلِهِ﴾ [يونس: ٣٨] وجاء التحدي في سورة هود بعشر سور.

وسورة يونس نزلت قبل سورة هود، وكلتاها سورتان مكيّتان، وكان من المفروض عقلاً أن يكون التحدي بسورة واحدة قبل التحدي بعشر سور، وقد جاء الأمر عكس ذلك.

وهذا كما يقول الشيخ محمد الغزالي رحمه الله: زيادة في قهر النفوس، وإشعاراً بالعجز، فإن الذي يهزم أمام ضربة واحدة، يغرق وينهار إذا قيل له: أمامك عشر ضربات^(١).

وقد جاء التحدي بالإتيان بمثل القرآن كله في سورة مكية هي سورة الطور في قوله تعالى: ﴿أَمْ يَقُولُونَ نَقُولُ لَمْ يَلَأْ يَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّثْلِهِ ۚ فَلْيَأْتُوا بِحَدِيثٍ مِّثْلِهِ ۚ إِنْ كَانُوا صَادِقِينَ﴾ [الطور].

وجاء التحدي بسورة واحدة في سورة مدنية هي سورة البقرة: ﴿وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّثْلِهِ ۚ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ [البقرة].

ولعل التحدي للمكذّبين كان بالإتيان بأي شيء من القرآن قلّ أو كثر، وأن هذا التحدي كان في الفترة المكية أكثر، وفي الفترة المدنية من عصر الرسالة كان أقل، فقد جاء في الفترة المكية في سور: يونس وهود والإسراء والطور، وفي الفترة المدنية في سورة البقرة فحسب، والتحدي قائم إلى قيام الساعة. قال تعالى:

١٤- ﴿فَالَمْ يَسْتَجِيبُوا لَكُمْ فَأَعْلَمُوا أَنَّمَا أُنْزِلَ بِعِلْمِ اللَّهِ وَأَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَهَلْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾

أي: إن لم يستجب لكم الذين دَعَوْتَهُم للمعاونة، وعجزوا عن ذلك، فأنتم أعجز منهم؛ لأنكم لم تطلبوا العون منهم إلا بعد عجزكم أن تأتوا بسورة مثله، أو بسورة من مثله ﴿فَأَعْلَمُوا أَنَّمَا أُنْزِلَ بِعِلْمِ اللَّهِ﴾ أي: أنه منزل من عند الله بواسطة جبريل ﷺ على محمد ﷺ كما نزل الوحي على الرسل السابقين، وأتوا أيضاً بمثل هذا القصص القرآني وأخبار

(١) «نحو تفسير موضوعي لسور القرآن الكريم» (١٧٥).

الأولين والآخرين، واعلموا أن لا إله يستحق العبادة إلا الله، فلا رب غيره ولا معبود سواه، وأنه وحده القادر على إنزاله، وليس في مقدور أحد أن يأتي بمثل أقصر سورة منه. وبعد أن علمتم ذلك ﴿فَهَلْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾؟ تاركون ما أنتم فيه من الكفر والضلال، متقادون لأمر الله سبحانه، وهذا أمر لهم بالدخول في الإسلام بعد قيام الحجة عليهم، وذهاب العذر المانع من إسلامهم؛ إذ لا يستقيم لكم أن تشكوا في هذا الدين، ولا تشكوا في أن هذا القرآن من عند الله.

وقد عُلم من هذا أن الداعي إلى الله لا يصده عن دعوته اعتراض المعترضين، ولا قدح القادحين، لا سيما إذا كان هذا القدح لا مستند له، بل يقبل على الله، ويكتفي بإقامة الدليل السالم من المعارضة.

ثَوَابُ الْعَمَلِ لِلْآخِرَةِ وَعُقُوبَةُ الْعَمَلِ لِلدُّنْيَا

١٥- ﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ^(١) أَعْمَالَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ﴾

والناس في هذه الحياة صنفان:

الصنف الأول: هو المؤمن الذي يعمل للآخرة، فيرغب فيما عند الله تعالى، ويتزود لدار الخلود، ولا ينسى نصيبه من الدنيا، ويعمل في حدود الشرع، بما يعود عليه وعلى مَنْ يعول، وعلى مجتمعه وإخوانه المسلمين بالخير والنفع والفائدة، وهذا الصنف ممن عمل للآخرة، وسعى لها سعيها وهو مؤمن، فأولئك كان سعيهم مشكوراً، وهو ممن قال: ﴿رَبَّنَا ءَاتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ﴾.

وقال الله عنهم: ﴿أُولَئِكَ لَهُمْ نَصِيبٌ مِمَّا كَسَبُوا﴾ [البقرة: ٢٠١، ٢٠٢].

وهو ممن قال الله فيهم: ﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الْآخِرَةِ نَزِدْ لَهُ فِي حَرْثِهِ﴾ [الشورى: ٢٠].

الصنف الآخر: هو الذي يعمل للدنيا وحدها، يسعى ويكدح ويجتهد من أجل إشباع رغباته وشهواته والذُّكر بين الناس، فتكون الدنيا أكبر همه ومبلغ علمه، سواء أكان ذلك في جمع المال أو في نيل الشهادة، أو في البحث العلمي، أو في النساء أو الذرية، أو

(١) قرأ حمزة ويعقوب بضم الهاء من (إليهم)، والباقون بكسرها.

في مختلف ميادين الحياة.

أما الآخرة فليست هدفاً له، فهو لا يؤمن بها ولا يعمل لها، ورغبته فيما عند الله تكاد تكون معدومة، ويخلو عمله من أي قصد يُراد به وجه الله تعالى، فهو يدرس من أجل الحصول على أعلى الشهادات التي تدرُّ عليه أكبر عائد مادي، ويسعى من أجل الحصول على أعلى منصب أو جاه، أو أكبر عائد مادي، وهمه في ذلك هو أن يسعى لتحقيق شهواته وملذاته، وإشباع رغباته البهيمية، وكأنما خُلِقَ من أجل هذا.

هذا النوع الأخير من الناس يعطيه الله تعالى حظه ونصيبه كاملاً في الدنيا، فهي جنته وفيها متاعه، وهو محروم من الأجر والثوبة، ومن كل نعيم أعده الله لعباده الصالحين في دار البقاء والخلود؛ لأنه لم يعمل للآخرة، ولم يرغب فيما عند الله تعالى.

وهذا النوع من الناس متوافر في الحياة، في مختلف أرجاء المعمورة، في كل زمان ومكان، على مستوى الأفراد والشعوب والأمم.

ومنهم من يتقدم في علوم الحياة، ويحقق أعلى مستوى اقتصادي أو سياسي أو اجتماعي أو حضاري، ولكنهم أجهل ما يكون بالنسبة لعلوم الآخرة والعمل لها، وهم ممن قال الله تعالى فيهم: ﴿يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِّنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ الْآخِرَةِ هُمْ غَفْلُونَ﴾ [الروم].

ولا يعجب المسلم حين يرى هذا الصنف من الناس يتقلب في متاع الدنيا ونعيمها، أو يأخذ حظاً كبيراً من المال والجاه، أو السطوة والسيطرة على غيره من البشر، بما أُوتي من علم دنيوي، أو من مال أو سيادة سياسية أو عسكرية أو غيرها؛ لأن هذا هو مقتضى سنة الله تعالى في هذا الكون، فهو محروم من نعيم الآخرة، وجزاؤه جهنم وبئس المصير.

ويتضح الفرق بين الصنفين في هاتين الآيتين: ﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الْآخِرَةِ نَزِدْ لَهُ فِي حَرْثِهِ وَمَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِن نَّصِيبٍ﴾ [الشورى].

وقوله: ﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعَاجِلَةَ عَجَلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَاءُ لِمَنْ نُرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُ جَهَنَّمَ يَصْلَاهَا مَذْمُومًا مَّدْحُورًا﴾ [٨] وَمَنْ أَرَادَ الْآخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَٰئِكَ كَانَ سَعْيُهُمْ مَّشْكُورًا ﴿٩﴾ [الإسراء].

وفي الحديث عن زيد بن ثابت ؓ أن رسول الله ﷺ قال: «مَنْ كَانَتِ الْآخِرَةُ نِيَّةً جَعَلَ

الله غناه في قلبه، وجمع له شمله، وأتته الدنيا وهي راغمة، ومن كانت الدنيا نيته فرق الله عليه شمله، وجعل الله فقره بين عينيه، ولم يأت من الدنيا إلا ما قُدِّرَ له»^(١).

قال قتادة: مَنْ كانت الدنيا همَّه وطلبته ونيته؛ جازاه الله بحسناته في الدنيا، ثم يفضي إلى الآخرة وليس له حسنة يُعطى بها جزاء، وأما المؤمن فيجازى بحسناته في الدنيا ويثاب عليها في الآخرة^(٢).

فطالب الدنيا لا يشبع أبدًا، وإن أوتي أموال قارون، وهو في قلق دائم وخوف مستمر على كساد تجارته، أو ضياع أمواله، فأمره مشتت وباله غير هادئ، وهو دائم الفكر في مصادر الأموال ومواردها وتنميتها، ولعل هذا ما تشير إليه الآية الكريمة التي معنا.

أي: مَنْ كان يريد، بقوله وعمله، الحياة الدنيا وزينتها ومُتعتها، نؤدِّ إليهم ثمرات أعمالهم التي عملوها في الدنيا وافية غير منقوصة، ولا نبخسهم شيئًا من جهودهم، بل نجازيهم عليها في الدنيا، وهذا من مظاهر عدل الله تعالى مع عباده.

فهذا صنف من الناس يعمل للدنيا وحدها، وليس للآخرة عنده من نصيب، فهو عبدٌ لدنياء، وهذا ما يسميه النبي ﷺ في الحديث المشهور عن أبي هريرة ؓ عبد الدينار وعبد الدرهم، فيقول ﷺ: «تعس عبد الدينار، تعس عبد الدرهم، تعس عبد الخميصة، تعس عبد الخميعة، إن أعطي رضي وإن لم يُعطِ سخط، تعس وانتكس، وإذا شيك فلا انتقش»^(٣).

والمقصود بقوله ﷺ: «تعس عبد الدينار، تعس عبد الدرهم» أي: الذي يسعى من أجل المال والجاه والمتاع والشهوة، فهذا همه في هذه الحياة.

وقوله: «تعس عبد الخميصة، تعس عبد الخميعة» هذا يشبه عبد المظاهر: عبد السيارة، عبد المنزل، عبد القيلا، عبد الثياب، عبد البدلة، عبد الشهوة، عبد الأثاث، هذه بعض أنواع

(١) من حديث زيد بن ثابت في «سنن الدارمي» برقم (٢٣٣) و«صحيح ابن حبان» في الإحسان (٤٥٤/٢) من طريق أبي داود الطيالسي عن شعبة، قال محققه: إسناده صحيح، وهو في «سنن الترمذي» برقم (٢٤٦٥) عن أنس، وفي البزار والطبراني، وعند ابن ماجه عن زيد بن ثابت، (٤١٠٥) وصحيح ابن ماجه (٣١٣) وصححه الألباني في صحيح الترمذي (٢٠٠٥) والسلسلة الصحيحة (٩٥٠) وصحيح ابن ماجه (٣١٣).

(٢) «تفسير ابن كثير» (٣١١/٤).

(٣) الحديث عن أبي هريرة في البخاري برقم (٢٨٨٦، ٢٨٨٧).

المتاع والمظاهر، والتقاليد الاجتماعية، التي يشير إليها قول النبي ﷺ في هذا الحديث.

والخميسة: هي الثياب المزركشة.

والخميلة: هي الشَّمْلَة تكون فوق الرأس وحول العنق.

وهذا الصنف من الناس: «إِنْ أُعْطِيَ رَضِيَ وَإِنْ لَمْ يُعْطَ سَخَطَ» يرضى عند وجود المادة، ويسخط عند عدمها، وكأن قيمة الإنسان عنده فيما يلبس، وفيما يركب، وفيما يسكن، إنه يسعى للمظهر وتقليد المجتمع.

«تعس وانتكس» دعاءٌ عليه بأنه كلما تقدّم تعثر «وَإِذَا شَيْكَ فَلَا انْتَقَشَ» دعاءٌ عليه بالوبال والثبور والشقاء في هذه الحياة؛ أي: إذا أصابته شوكة فلا أخرجها بالمنقاش.

وهذا الصنف من الناس يقول الله تعالى عنه: ﴿تُوفِ إِلَيْهِمْ أَعْمَالَهُمْ فِيهَا﴾ أي: نعطهم في الدنيا ما يشاؤون ﴿وَهُمْ فِيهَا لَا يَبْخُسُونَ﴾ أي: لا يجازون على كفرهم بسلب بعض النعم عنهم، بل يُتركون وشأنهم، استدراجاً لهم وإمهالاً، فحظهم من النعمة ما يحصل لهم منها، ولا ينقصون شيئاً من متاع الدنيا وزخرفها؛ لأن الدنيا جتتهم، ومتاعهم فيها قليل، ويبقى عليهم أوزار نياتهم السيئة، يجنون ثمارها في الآخرة. قال تعالى:

١٦- ﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ إِلَّا النَّارُ وَحِطَّ مَا صَنَعُوا فِيهَا وَبَطُلَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾

أي: إن الذين يعملون للدنيا فحسب، ويرأون الناس بأعمالهم، ولا يطلبون ما عند الله من الأجر والمثوبة ﴿لَيْسَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ إِلَّا النَّارُ﴾ فهي جزاؤهم ومصيرهم يوم لقاء الله، بعد أن استوفوا ثوابهم في الدنيا ﴿وَحِطَّ مَا صَنَعُوا فِيهَا﴾ أي: بطل ما عملوه في الدنيا من أعمال إنسانية، فيها نفع وخير للبشرية، أو لبعض الشعوب، أو الأمم، أو الأفراد، وهذا العمل لا أجر عليه ولا مثوبة في الدار الآخرة؛ لأن الأصل -وهو الإيمان بالله واليوم الآخر، والإيمان بالرسول الخاتم- غير موجود، فلا يترتب عليه ثواب في الآخرة، وهذا معنى: ﴿وَبَطُلَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ أي: أن عمله النافع الذي قدّمه في الدنيا يصير في الآخرة هباءً منثورًا كسراب بقية، لا يفيد صاحبه شيئاً، إما لأنه لا يؤمن بالله، أو لأنه لم يُرِدْ به وجهه الكريم.

وفي هذا تنبيه للمؤمنين ألا يغتروا بظاهر أحوال الناس لا سيما أهل الكفر، كما قال تعالى: ﴿لَا يَغُرُّكَ تَقَلُّبُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي الْبِلَادِ ﴿١٦٦﴾ مَتَّعٌ قَلِيلٌ ثُمَّ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمِهَادُ ﴿١٦٧﴾﴾ [آل عمران].

وهذا الحصر الذي في الآية يفيد استحقاقهم للنار وخلودهم فيها، وهو يفيد أن هذا العمل لا يضدر إلا عن الكافر؛ لأن المؤمن لا يخلو من خير الآخرة وطلب ما عند الله تعالى.

وظاهر هاتين الآيتين أنهما في الكافر الذي لا يريد بعمله إلا الدنيا فقط؛ لأنه لا يعتقد باليوم الآخر، ولا بما يكون فيه من ثواب وعقاب، فهو لاء لا يحصل لهم في الآخرة إلا النار الموقدة، ويدخل في دائرة الكفر كل من لم يؤمن بخاتم الرسل ﷺ.

وتشمل الآية أيضًا المرائين الذين لا يقصدون بأعمالهم وجه الله تعالى، وإنما يراؤون الناس.

وبهذا قال معاوية حين حدثه سيافه (شفي بن مانع الأصمعي) بحديث أبي هريرة ؓ مرفوعًا: «أول من تُسعر بهم النار يوم القيامة ثلاثة: المتصدق رياء، والمجاهد رياء، وقارئ القرآن رياء» فلما حدث شفي معاوية بهذا الحديث بكى، وقال: صدق الله ورسوله، وتلا هاتين الآيتين^(١).

أما عصاة المؤمنين الذين يؤثرون الحياة الدنيا ويفضلونها على الآخرة، فلهم مقصد آخر هو أن الله تعالى يجزيهم في الآخرة جزاء حسنًا، فهو لاء يستحقون شيئًا من عذاب النار بتفضيلهم الدنيا على الآخرة، وتقديم مرادهم على مراد الله تعالى، ولكن الله تعالى يتغمدهم برحمته؛ لأن الأصل -وهو الإيمان- متوفر فيهم، وملحظ الرياء فيهم غير خالص.

شَهَادَةُ الْكُتُبِ السَّابِقَةِ عَلَى رِسَالَةِ مُحَمَّدٍ ﷺ

١٧ - ﴿أَفَمَنْ كَانَ عَلَىٰ يَتْنَةٍ مِّن رَّبِّهِ وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِّنْهُ وَمِنْ قَبْلِهِ كِتَابُ مُوسَىٰ إِمَامًا وَرَحْمَةً أُولَٰئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَمَنْ يَكْفُرْ بِهِ مِّنَ الْأَحْزَابِ فَلَنَارُ مَوْعِدُهُ فَلَا تَكُ فِي مِرْيَةٍ مِّنْهُ إِنَّهُ الْحَقُّ مِن رَّبِّكَ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٧﴾﴾

(١) قصة معاوية هذه في «تفسير ابن عطية» (١٥٦/٣) وانظر الحديث في «صحيح مسلم» (١٩٠٥) و«صحيح سنن الترمذي» (١٩٤٢) والبيهقي في «الشعب» (٦٨٠٥).

وبعد أن بيّن سبحانه أن طلاب الآخرة لا يستون مع طلاب الدنيا، فالراغب فيما عند الله لا يستوي مع الراغب في حطام الدنيا، وإذا كانت الآية السابقة قد ذكّرت حُكْمَ المكذبين الذين يعملون للدنيا، ولا يرجون من الله ثوابًا، فإن هذه الآية ذكّرت حكم المقابلين لهم، وهم المؤمنون بالقرآن، الذي جاء به محمد ﷺ، المتفعون ببراهينه وحُججه، وإذا كان المكذبون قد كفروا به، فإن المسلمين قد آمنوا به، ولا يستوي من آمن بمن كفر.

﴿أَفَمَنْ حَقَّ عَلَيْهِ كَلِمَةُ الْعَذَابِ أَفَأَنْتَ تُنْقِذُ مَنْ فِي النَّارِ ﴿١٩﴾ لَكِنَّ الَّذِينَ أَنْفَقُوا رِبَّهُمْ لَهُمْ عُرْفٌ مِّنْ قَوْمٍ عَرَفُ مَبِينَةً يَخْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾ [الزمر: ١٩، ٢٠]

﴿أَفَمَنْ كَانَ مُؤْمِنًا كَمَنْ كَانَ فَاسِقًا لَا يَسْتَوُونَ ﴿٢٠﴾﴾ [السجدة].

هذا: والمراد بالبينة في الآية: القرآن والوحي المنزل من عند الله، والمراد بالشاهد هو السنة.

فهي وحي يتلو القرآن ويتبعه ﴿شَاهِدٌ مِنْهُ﴾ وكتاب موسى هو التوراة.

وقيل في الشاهد أقوال أخرى، فقليل: هو الفطرة وميثاق التوحيد الذي أخذه الله على بني آدم وهم في عالم الذر، وقيل هو العقل الصحيح، ولعل ما بدأث به هو الأنسب، وقال بالثاني الألوسي.

وعلى كل ففي الآية شهود ثلاثة على صدق محمد ﷺ هي: القرآن والسنة والتوراة.

والبينة: هي القرآن؛ أي: أفمن أيده الله بهذا القرآن دليلاً على صدقه، كمن زين له الشيطان سوء عمله فكفر به؟ قال تعالى: ﴿أَفَمَنْ كَانَ عَلَى يَتْنٍ مِّن رَّبِّهِ كَمَنْ زَيْنَ لَهُ سُوءَ عَمَلِهِ وَاتَّبَعُوهُ أَهْوَاءَهُمْ﴾ [محمد]

ثم إن التوراة كتاب موسى دليل على صدق محمد ﷺ، فهي أيضًا آية بينة له لكونها بشرت به.

ومن شأن اليهود والنصارى وغيرهم أن يؤمنوا بالرسالة الخاتمة، فإن كفروا بها فسوف يقيض الله لها قومًا آخرين يؤمنون بها ﴿فَإِنْ يَكْفُرْ بِهَا هَؤُلَاءَ فَقَدْ وَكَلْنَا بِهَا قَوْمًا لَّيْسُوا بِهَا بِكَافِرِينَ﴾ [الأنعام: ٨٩].

وقريب من هذا المعنى قوله تعالى: ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كَانَ مِنَ عِنْدِ اللَّهِ وَكَفَرْتُمْ بِهِ وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنْ

بَنَىٰ إِبْرَاهِيمَ عَلَىٰ مِثْلِهِ فَقَامَنَ وَأَسْتَكْبَرْتُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴿١٧﴾ [الأحقاف].

والبينة هي التي تبين الحق وتوضحه، والرسول قد جاؤوا أقوامهم بالبينات من ربهم، وكل رسول منهم كان يحتاج على قومه بأنه على بينة من ربه، أيده الله بالمعجزات والدلائل الدالة على صدق رسالته، كما جاء ذلك في قصصهم بهذه السورة وغيرها.

والمعنى: أفمن كان على حجة واضحة من عند ربه، تهديه إلى الحق والصواب في كل أقواله وأفعاله -وهو محمد ﷺ وكل من آمن به واتبعه- كمن استحوز عليه الشيطان؛ فجعله لا يريد إلا الحياة الدنيا؟ لا يستويان.

وهكذا نجد في هذه السورة أن نوحًا وصالحًا وشعيبًا ﷺ كل منهم قال لقومه: ﴿يَقُولُوا أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُ عَلَىٰ يَنِينَةٍ مِّن رَّبِّي﴾ [هود: ٢٨، ٦٣، ٨٨].

فهذه البينة هي التي ذكرتها السورة بإجمال في هذه الآية، ثم جاءت مفصلة في قصة كل منهم صلوات الله عليهم أجمعين، وبينه محمد ﷺ هي القرآن.

أما الشاهد الذي هو من القرآن المذكور في قوله تعالى: ﴿شَاهِدٌ مِّنْهُ﴾ فهو على رأي بعضهم: هو شاهد نابع من القرآن ذاته ﴿مِّنْهُ﴾ وليس من خارجه، وهو إعجاز القرآن، وما فيه من الغيبات، وأخبار الأولين والآخرين، وهو وصف ثابت له لا ينفك عنه^(١).

وعلى هذا القول: فإن البينة التي جاء بها محمد ﷺ من ربه هي القرآن، والضمير في ﴿وَيَتْلُوهُ﴾ يعود على القرآن؛ أي: يتبعه وينطق بصدقه، والضمير في ﴿مِّنْهُ﴾ يعود على القرآن أيضًا ﴿أَفَمَنْ كَانَ عَلَىٰ يَنِينَةٍ مِّن رَّبِّهِ﴾ أي: على نور ساطع وبرهان واضح من الله تعالى كمن كفر بالله وكذب رسله وأنبياءه.

والذي على بينة من ربه هو الرسول ﷺ والمؤمنون معه، فهم على حجة وبرهان ووحى مُنَزَّلٍ من عند الله تعالى على رسول الله ﷺ هو القرآن، ويتبع هذا الرسول شاهد من الله يصدقه ويشهد بصحة دعوته بالبرهان والحجة، وهو إعجاز هذا القرآن الذي نزل به جبريل على محمد ﷺ، أو هو السنة النبوية، أو هو الفطرة الصحيحة والعقل السليم.

(١) ينظر في معنى الشاهد: «تفسير الألوسي» (٢٥/١٢).

فألاية إخبارٍ عن المؤمنين الذين هم على الفطرة والاعتراف بكلمة التوحيد، كما في حديث أبي هريرة ؓ أن رسول الله ﷺ قال: «كل مولود يُولد على الفطرة، فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه، كمثل البهيمة تنتج البهيمة، هل ترى فيها جدعاء»^(١).

وفي صحيح مسلم عن عياض بن حمار ؓ أن رسول الله ﷺ قال: «يقول الله تعالى: إني خلقت عبادي حنفاء كلهم، وإنهم أتتهم الشياطين فاجتالهم عن دينهم، وحرمت عليهم ما أحللت لهم، وأمرتهم أن يشركوا بي ما لم أنزل به سلطاناً»^(٢).

وهذه الفطرة جاء بها القرآن في آية الميثاق الذي أخذه الله على بني آدم وهم في صلب أبيهم آدم.

ثم إن هذا الدين الخاتم يشهد بصحته وصدقه أيضاً ما أوحاه الله إلى الأنبياء السابقين من الشرائع المتعددة التي خُتِمت بشريعة محمد ﷺ، كشريعة موسى عليه السلام في التوراة وهذه الشرائع من الله تعالى، والفطرة تصدقها وتؤمن بها.

فرسالة محمد ﷺ مُؤَيَّدَةٌ بالبرهان الإلهي الحاسم المتمثل في هذا القرآن العظيم، ومن قبل هذا البرهان شهادة النبوات السابقة، فلا يوجد أرسخ قدمًا من هذه الرسالة الخاتمة، وكل من يكفر بها كائنًا من كان يدخل النار.

فالبيئة: هي الوحي المنزل على رسول الله ﷺ بما يحمله من إعجاز ودلائل وبيانات بصِدْقِ النبي ﷺ إلى قيام الساعة.

والشاهد: هو السنة النبوية رديف الوحي المبينة لما في القرآن والمفصلة لمجمله، هذا هو الأرجح، وقيل: هو شاهد الفطرة التي أودعها الله في الإنسان، وأخذ عليه الميثاق بها والإقرار بالتوحيد قبل أن يوجد في هذه الحياة، وهذا الشاهد يتضمنه هذا القرآن المعجز: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى شَهِدْنَا﴾ [الأعراف: ١٧٢].

(١) «صحيح البخاري» برقم (١٣٥٨، ١٣٨٥) و«صحيح مسلم» برقم (٢٦٥٨) وهو في «المسند» (٣٩٦/٤)

بأرقام: (٧١٨١، ٧٧١٢، ٧٧٩٥) و«مجمع الزوائد» (٢٦١/٨) و«تفسير الطبري» (٢٨١/١٥).

(٢) من حديث طويل في «صحيح مسلم» برقم (٢٨٦٥).

وإلى جوار هذه الفطرة: العقل الصحيح الذي يهدي صاحبه إلى طريق الخير والرشاد، والعقل هو مناط التكليف، والثواب والعقاب.

وهناك شاهد آخر نزل قبل القرآن: هو التوراة التي نزلت على موسى ﷺ، وفيها صدق ما جاء به محمد ﷺ، وإلى هذا الشاهد يشير قوله تعالى: ﴿وَمِنْ قَبْلِهِ﴾ أي: من قبل القرآن ﴿كَتَبَ مُوسَى﴾ أي: التوراة ﴿إِمَامًا﴾ تقتدي به أمته ﴿وَرَحْمَةً﴾ لهم من الله تعالى. ومن آمن بالتوراة حق الإيمان، وكان ممن أدرك رسالة محمد ﷺ وآمن به وصدقه، كما بشرت به التوراة، أولئك الموصوفون بما سبق هم الذين يؤمنون بالرسول ﷺ وبالإسلام وبالقرآن، وهذا معنى ﴿أُولَئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ﴾.

ومن يكفر بالقرآن ورسول الإسلام، من سائر الملل والنحل، وجميع أهل الشرائع السابقة من جميع الأحزاب إلى قيام الساعة ﴿فَأَلْتَأَمُّ مَوْعِدُهُ﴾. كما قال تعالى: ﴿قُلْ يَتَّبِعُوا النَّاسَ فِي رَسُولِ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا﴾ [الأعراف: ١٥٨]. وقال سبحانه: ﴿وَأَوْحَىٰ إِلَيْ هَٰذَا الْقُرْآنُ لِأُنذِرَكُمْ بِهِ وَمَنْ بَلَغَ﴾ [الأنعام: ١١٩]. وقال أيضًا: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا﴾ [سبا: ٢٨].

وفي صحيح مسلم وغيره عن أبي هريرة ؓ أن النبي ﷺ قال: «والذي نفس محمد بيده لا يسمع بي أحد من هذه الأمة، يهودي ولا نصراني، ثم لا يؤمن بالذي أرسلت به إلا كان من أصحاب النار»^(١).

أي: لا يسمع بي يهودي ولا نصراني ولا غيرهم من سائر الملل إلى قيام الساعة، ثم لا يؤمن بخاتم النبيين، ولا بالكتاب الذي نزل عليه، إلا أدخله الله النار، فجميع البشر على اختلاف دياناتهم السماوية والأرضية، من لدن بعثة محمد ﷺ إلى يوم القيامة، هم أمة الدعوة، وهم مكلفون بوجوب الدخول في الإسلام، والإيمان بخاتم الرسل والنبيين، ومن خرج عن ذلك دخل النار.

أخرج الحاكم بسند صحيح عن سعيد بن جبير عن ابن عباس ؓ أن رسول الله ﷺ

(١) «صحيح مسلم» برقم (١٥٣)، ومسنند أحمد (٨٢٠٣، ٨٦٠٩) بإسناد صحيح على شرط الشيخين كما قال محققوه، وأخرجه البغوي (٥٦) وأبو عوانة (١٠٤/١).

قال: «ما من أحد يسمع بي من هذه الأمة، ولا يهودي ولا نصراني، ولا يؤمن بي إلا دخل النار» قال ابن عباس: فجعلت أقول: أين تصديقها في كتاب الله؟ حتى وجدت هذه الآية ﴿وَمَنْ يَكْفُرْ بِهِ مِنَ الْأَحْزَابِ فَالنَّارُ مَوْعِدُهُ﴾^(١).

فلا تك -أخي المسلم- في مرية مما أوحاه الله تعالى إلى رسوله ﷺ، وليس المراد تحذير النبي ﷺ من الشك في القرآن، ولكن هذا المعنى، كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ فَلَا تَكُنْ فِي مِرْيَةٍ مِّنْ لِّقَائِهِ﴾ [السجدة: ٢٣] فالمراد هو التعريض بالذين أنكروا الوحي المنزل ﴿إِنَّهُ الْحَقُّ مِن رَّبِّكَ﴾

فالقرآن: هو الكتاب الخاتم المهيمن على ما سبقه من الكتب، وهو المحفوظ بحفظ الله له ﴿لَا يَأْتِيهِ الْبُطْلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾ [فصلت].

وفي هذا نهي عن الشك في هذا القرآن العظيم من جميع البشر، وقد جاء هذا النهي في آيات كثيرة؛ منها قوله تعالى: ﴿ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ﴾ [البقرة: ٢]

وقوله: ﴿تَنزِيلُ الْكِتَابِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [السجدة].

ثم بين سبحانه في الآيات التالية، أن أكثر الناس لا يصدقون أنه من عند الله.

جَزَاءُ الْأَشْقِيَاءِ وَالسُّعْدَاءِ وَمِثْلُهُمَا

١٨- ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أُولَٰئِكَ يُعْرَضُونَ عَلَىٰ رَبِّهِمْ وَيَقُولُ الْأَشْهَادُ هَٰؤُلَاءِ الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَىٰ رَبِّهِمْ أَلَا لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ﴾

الصف الآخر من الناس في مقابل المؤمنين بالله ورسوله؛ هم المكذبون الذين ظلموا أنفسهم بالكفر والشرك؛ فخسروا أنفسهم وأهليهم ودنياهم وأخراهم، وقد كان للكفار عادات وعقائد أبطلها الإسلام: فمنهم من كان يريد الحياة الدنيا وزينتها، ومنهم من كان ينكر نبوة محمد ﷺ ويقدم في معجزاته؛ فأبطل الله ذلك بقوله: ﴿أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ يَتْنٍ مِّن رَّبِّهِ﴾.

(١) «المستدرک» على شرط الشيخين بموافقة الذهبي (٣٤٢/٢) وسعيد بن منصور (١٠٨٤) وهو حديث

صحيح لغيره لمجيئه في الحديث السابق، قال محقق سعيد بن منصور: سند رجاله ثقات، وفيه انقطاع

بين سعيد بن جبیر وأبي موسى.

ومنهم من كان يزعم أن الأصنام تشفع له عند الله؛ فأبطل الله هذا الصنف الأخير في قوله: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ﴾ أي: لا أحد أظلم ولا أطغى ممن اختلق الكذب على الله تعالى فكذب بالوحي، أو كذب بالقرآن، أو كذب برسول الله، فلم يؤمن به، أو ادّعى النبوة، أو نسب الشريك والولد إلى الله سبحانه، أو عبد غيره جل شأنه، أو اتخذ شفعاء من دون الله، أو وصف الله تعالى بما لا يليق بجلاله، أو غير ذلك من أنواع الكذب على الله تعالى.

وكان هذا الصنف أشد الناس ظلمًا؛ لأن هذا الكذب ليس كذبًا على أحد من خلق الله، إنه كذب على الله!!

وهؤلاء الكذبة الظلمة يُعرضون يوم القيامة في جملة الخلق على الله تعالى بذواتهم، أو تعرض أعمالهم على رب العالمين يوم الحشر والجزاء؛ للتشهير بهم وخزيهم وفضيحتهم، وإلا فإن كل إنسان معروض على الله يوم القيامة.

ويقول الأشهاد من الملائكة والحفظة الذين كانوا يسجلون عليهم أعمالهم، وكذا الأشهاد من الرسل والأنبياء، والأشهاد من الناس الذين يشهدون عليهم بأنهم قد افتروا على الله الكذب، حيث يفضحهم الله على رؤوس الخلائق يوم القيامة، يقول الأشهاد: هؤلاء الذين كذبوا على ربهم، لقد حقت عليهم اللعنة دائمًا، واستوجبوا عذاب الله تعالى.

وهكذا: الظالم والكافر والفاسق الذين عنتهم الآية، يُفضحون على رؤوس الأشهاد يوم القيامة، ويقول الأشهاد من الملائكة والرسل والناس والخلق جميعًا: ﴿أَلَا لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ﴾، وهي لعنة دائمة لا تنقطع، وهؤلاء الظالمون هم:

١٩- ﴿الَّذِينَ يَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ كَفَرُونَ﴾

ثم وصف ربنا هؤلاء الظالمين لأنفسهم بالكفر والشرك والمعاصي، فصدوا بأنفسهم عن سبيل الله، وصدوا الناس عن دين الله وشرعه، بأنهم قد ضلوا في أنفسهم، وأضلوا غيرهم؛ فمنعوا الناس من الوصول إلى الإسلام، وصدوهم عنه؛ وحرموا أنفسهم من الطريق القويم، وذلك لأنهم يريدون طريق الإسلام معوجًا غير مستقيم، فهم يفعلون الحرام ويستحلّونه، وينفرون الناس من الإسلام، ويثقون عليه الشبه التي تصرف الناس عن دين الله، وهم إلى جوار ذلك كافرون بالله واليوم الآخر ﴿وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ كَفَرُونَ﴾. قال تعالى:

٢٠- ﴿أُولَٰئِكَ لَمْ يَكُونُوا مُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ وَمَا كَانَ لَهُمْ مِن دُونِ اللَّهِ مِنْ أَوْلِيَآءَ يُضَاعَفُ ^(١) لَهُمُ الْعَذَابُ مَا كَانُوا يَسْتَطِيعُونَ السَّمْعَ وَمَا كَانُوا يُبْصِرُونَ ﴿٢٠﴾

ثم توعدهم الله سبحانه بالعذاب المضاعف يوم لقائه، وأنهم لم يكونوا معجزين الله في الأرض؛ أي: أن هؤلاء الكذبة الظالمين للناس ولأنفسهم لم يخرجوا من قدرتنا وسلطاننا وقهرنا، بل هم في قبضتنا وتحت قدرتنا، ولن يفلتوا أو يهربوا منا، ﴿أُولَٰئِكَ لَمْ يَكُونُوا مُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ﴾، ونحن قادرون على الانتقام منهم في الدنيا والآخرة، ولكن الله يؤخرهم ليوم تشخص فيه الأبصار.

وليس لهم ناصر ينصرهم غير الله ﴿وَمَا كَانَ لَهُمْ مِن دُونِ اللَّهِ مِنْ أَوْلِيَآءَ﴾ فليس هناك من يدفع عنهم العذاب، أو ينصرهم من دون الله، والآلهة التي عبدوها من دون الله ليست أولياء لهم على الحقيقة، ولا يملكون لهم ولا لأنفسهم شيئاً، بل يُضَاعَفُ لهم العذاب يوم القيامة ضعفين؛ لأنهم ضلوا في أنفسهم وأضلوا غيرهم، كما قال تعالى: ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ زِدْنَاهُمْ عَذَابًا فَوْقَ الْعَذَابِ بِمَا كَانُوا يُفْسِدُونَ ﴿٢٠﴾﴾ [النحل] أي يضاعف لهم العذاب؛ لأنهم يكرهون كلمة الحق، ويكرهون الصالحين من عباد الله، ولا يطيقون الجلوس معهم، ولا يطيقون صحبتهم، وبيوت الله كريهةً إلى نفوسهم، وكذا سماع القرآن، وسماع العلم، والذكر، فهم لا يطيقونه، لأن قلوبهم مقفلة، وأبصارهم عليها غشاوة.

﴿مَا كَانُوا يَسْتَطِيعُونَ السَّمْعَ﴾ لقد ختم الله على قلوبهم وعلى سمعهم، فهم لا ينتفعون بشيء، وهم لبغضهم للنبي ﷺ لا يستطيعون حمل أنفسهم على الاستماع إلى قرآنه أو النظر إليه.

فإن الطفيل بن عمرو قد حشا أذنيه بالكُرْسُفِ، وكذا من أنابتهم قريش في صلح الحديبية؛ لئلا يسمعوا ما نُقِلَ إليهم من كلام الرسول ﷺ كأن في آذانهم وقراً، وهو عليهم عَمَى، كما تقول: فلان ثقیل الدم؛ أي: لا تريد أن تراه.

وهكذا بعض الناس يُعْرِضُ عن الحق، ويعرض عن قبول الهدى، وعن سماع العلم وقراءته، لأن قلبه مغلق، وعلى بصره غشاوة، إنهم لا ينتفعون بالوسائل والحواس التي خلقها

(١) قرأ ابن كثير وابن عامر وأبو جعفر ويعقوب بحذف الألف وتشديد العين (يضَعَفُ)، والباقون (يضاعف) بإثبات الألف وتخفيف العين.

الله لهم، بل عطّلوها واستعملوها في غير ما خلقت له، ولم يُبصروا طريق الحق والهدى.

وقُدِّم السمع على البصر في هذه الآية؛ لأن حاسة السمع أشرف من حاسة البصر، فبالسمع تعرّف الأطفال دِلالات الأسماء، والسمع يكفي في معرفة المعقولات دون البصر.

وقد كان الكفار في الدنيا صمًا عن سماع الحق، عميًا عن اتباعه ﴿فَمَا أَغْنَىٰ عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَلَا أَبْصَرُهُمْ وَلَا أَفْئِدَتُهُمْ مِنْ شَيْءٍ إِذْ كَانُوا يَجْحَدُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾ [الأحقاف: ٢٦] ﴿وَقَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ﴾ [الملك: ١٥]

﴿وَلَوْ عَلِمَ اللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَأَسْمَعَهُمْ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوْا وَهُمْ مُّعْرِضُونَ﴾ [الأنفال: ٢٣].

وهؤلاء قد حيل بينهم وبين طاعة الله تعالى في الدنيا والآخرة:

أما في الدنيا فلقلوله تعالى: ﴿مَا كَانُوا يَسْتَطِيعُونَ السَّمْعَ﴾ أي: في الدنيا فهم لا يتفهمون بما يسمعون.

قال تعالى ﴿فَمَا لَهُمْ عَنِ التَّذِكْرِ مُّعْرِضِينَ﴾ [٤٩] كَانَهُمْ حُمْرٌ مُّسْتَنْفِرَةٌ ﴿٥٠﴾ فَزَتْ مِنْ قَسْوَرَةٍ [المدثر: ٤٩].

وهذا يعني عدم تلبيتهم وعدم إجابتهم للطاعة وهم في الدنيا.

أما في الآخرة فلقلوله تعالى: ﴿يَوْمَ يُكْشَفُ عَنْ سَاقٍ وَيُدْعَوْنَ إِلَى السُّجُودِ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ﴾ [٤٢] خَشِيعَةً أَبْصَرُهُمْ تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ .

هذا في الآخرة ﴿وَقَدْ كَانُوا﴾ وهم في الدنيا ﴿يُدْعَوْنَ إِلَى السُّجُودِ وَهُمْ سَلِيمُونَ﴾ [القلم: ٤٢، ٤٣].

ولهذا شبه الله الكافر بالأعمى والأصم، وشبه المؤمن بالسميع والبصير، وبين تعالى أنهما لا يستويان، فالكافر لم يسمع الحق وعمي عنه فلم يبصره، والمؤمن سمع الحق وانتفع به، وأبصره فوعاه وحفظه.

وقد توعد الله بالويل وشدة العذاب مَنْ يُعرض عن آياته فلم يستجب لها، ولم يعمل بمقتضاها فقال تعالى: ﴿وَيْلٌ لِّكُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ﴾ [٧] يَسْمَعُ ءَايَاتِ اللَّهِ تُنْزِلُ عَلَيْهِ ثُمَّ يُصِرُّ مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا فَبَشِيرُهُ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٨﴾ وَإِذَا عَلِمَ مِنْ ءَايَاتِنَا شَيْئًا أَخَذَهَا هُزُوًا أُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿٩﴾ [الجاثية: ٧-٩].

وقد كان بعضهم يحرص على عدم الاستماع للقرآن، وعلى التشويش واللغو فيه عند سماعه، كما قال تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَسْمَعُوا لِهَٰذَا الْقُرْآنِ وَالْقَوَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [فصلت: ٦٦] قال تعالى:

٢١- ﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴿٢١﴾﴾

وأي خسران هذا!! إنهم خسروا دنياهم وأخراهم، ولا خسران أعظم من خسران النفس، وغاب عنهم يوم لقاء الله ما كانوا يفترونه على الله تعالى من اتخاذ الشريك والولد، ولم تُجدِ عنهم آلهتهم التي عبدوها من دون الله من شيء، بل ضرُّوهم أشد الضرر:

كما قال تعالى: ﴿وَإِذَا حُشِرَ النَّاسُ كَانُوا لَهُمْ أَعْدَاءً وَكَانُوا بِعِبَادَتِهِمْ كَافِرِينَ ﴿٦١﴾﴾ [الأحقاف].

وقال سبحانه: ﴿وَاتَّخَذُوا مِن دُونِ اللَّهِ آلِهَةً لِّيَكُونُوا لَهُمْ عِزًّا ﴿٨١﴾ كَلَّا سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا ﴿٨٢﴾﴾ [مريم]

وقال أيضًا: ﴿فَلَوْلَا نَصْرُهُمُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِن دُونِ اللَّهِ قُرْبَانًا آلِهَةً بَلَّ صَلَوَاتُ عَنْهُمْ وَذَلَّكَ إِفْكَهُمُ وَمَا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴿١٧٨﴾﴾ [الأحقاف]

وقال عز وجل: ﴿ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ وَلَيَعَنُ بَعْضُكُم بَعْضًا وَمَأْوَهُمُ النَّارُ وَمَا لَكُم مِّن تَلْوِينٍ ﴿٢٥﴾﴾ [العنكبوت: ٢٥] ويوم القيامة يتبرأ العابد من المعبود، والمعبود من العابد. قال تعالى:

٢٢- ﴿لَا جَرَمَ لَهُمْ^(١) أَنَّهُمْ فِي الْآخِرَةِ هُمُ الْأَخْسَرُونَ ﴿٢٢﴾﴾

حقًا وصدقًا إنهم الذين خسروا أنفسهم وأهلبيهم، فهم يُعذبون في نار جهنم لا يفترون عذابها طرفة عين، وهم في جهنم آيسون من رحمة الله، لقد خسروا نعيم الجنة بحميم النار، واستبدلوا بالرحيق المختوم سموًا وحميمًا وظلًا من يحموم، واستبدلوا بالهور العين وما تشتهيه الأنفس، من كل ما لذ وطاب، الزقوم والغسلين، واستبدلوا بقُرْبِ الرحمن غضب الديان، فلا جرم أنهم الأخسرون ﴿قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُم بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا ﴿١٣٢﴾ الَّذِينَ ضَلَّ سَعِيَّهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا ﴿١٣٤﴾﴾ [الكهف].

ولما ذكر سبحانه حال الأشقياء أتبعه بذكر حال السعداء ومالهم عند الله من نعيم:

٢٣- ﴿إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَأَخْبَتُوا إِلَىٰ رَبِّهِمْ أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٢٣﴾﴾

ثم بيّن سبحانه مصير المؤمنين السعداء في مقابل التعساء الأشقياء، فالذين رجعوا إلى

(١) قرأ حمزة بخلف عنه بمد (لا) من (لا جرم) أربع حركات، والباقيون بالقصر.

ربهم؛ فآمنوا به وتزودوا بالعمل الصالح، وأنابوا إليه بالخشوع والخضوع والانقياد ﴿أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ﴾ ولهم فيها ما تشتهيهم الأنفس وتلذ الأعين، وهم فيها خالدون في نعيم لا يحول ولا يزول.

وبين النبي ﷺ فيما يرويه عبد الله بن عمر ؓ عن يوم القيامة: «إن الله تعالى يدني المؤمن فيضع عليه كتفه، فيستره من الناس، ويقرره بذنوبه، ويقول له: أتعرف ذنب كذا؟ أتعرف ذنب كذا؟ حتى إذا قرره بذنوبه ورأى في نفسه أنه قد هلك قال: فإني قد سترتها عليك في الدنيا، وإني أغفرها لك اليوم، ثم يُعطى كتاب حسناته بيمينه، وأما الكفار والمنافقون فيقول الأشهاد ﴿هَؤُلَاءِ الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَى رَبِّهِمْ أَلَا لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ﴾»^(١).

وهذا هو الحساب اليسير المذكور في قوله تعالى: ﴿فَأَمَّا مَنْ أُوْكِرَ كِتَابُهُ بِيَمِينِهِ﴾ ﴿٧﴾ فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا ﴿٨﴾ وَيَنْقَلِبُ إِلَى أَهْلِهِ مَسْرُورًا ﴿٩﴾ [الانشقاق: ٧-٩]

وهذا هو الحساب اليسير، ومن نُوقش الحساب عذب، نسأل الله السلامة والعافية.

٢٤- ﴿مَثَلُ الْفَرِيقَيْنِ كَالْأَعْمَى وَالْأَصْمَى وَالْبَصِيرِ وَالسَّمِيعِ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾^(٢)

ثم ضرب الله تعالى المثل المحسوس للفرقتين: الكافر والمؤمن، السعيد والشقي، فالكافر لا ينتفع بالنور والهدى، ومثل الذي لا يرى ولا يسمع، فهو أعمى وأصم، والمؤمن ينتفع بالهدى والنور، ومثل السميع البصير، الذي يسمع وينتفع بهذه الحواس، هل يستويان مثلاً؟ هل يستوي الأعمى والبصير؟ وهل يستوي الأصم والسميع؟

﴿أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ ﴿١٥٥﴾ فتعظون وترغبون فيما عند الله، وتعتبرون بهذه الأمثال المضروبة في القرآن وأنه ﴿لَا يَسْتَوِي أَصْحَابُ النَّارِ وَأَصْحَابُ الْجَنَّةِ﴾ [الحشر: ٢٠] ﴿وَمَا يَسْتَوِي الْأَعْمَى وَالْبَصِيرُ﴾ ﴿١٦﴾ وَلَا الظُّلُمَاتُ وَلَا النُّورُ ﴿١٧﴾ وَلَا الظِّلُّ وَلَا الْحَرُورُ ﴿١٨﴾ [فاطر].

هذا: وقد ذكرت هذه الآيات الخمس أربعة عشر وصفاً للكفار:

(١) أخرجه أحمد عن ابن عمر (٧٤/٢) برقم (١١٢٨٣) و«صحيح البخاري» برقم (٢٤٤١)، (٤٦٨٥) و«صحيح مسلم» برقم (٢٧٦٨) والنسائي في «السنن الكبرى» (١١٢٤٢) وابن ماجه (١٨٣) والبيهقي في «الأسماء والصفات» (٤٧٢) وابن أبي شيبة (١٨٩/١٣).

(٢) قرأ حفص وحزمة والكسائي وخلف العاشر بتخفيف الذال من (تذكرون)، والباقون بتشديدها.

أولها: افتراء الكذب على الله، وآخرها: الخسران في الآخرة.

وهذه الأوصاف هي:

- ١- افتراء الكذب على الله.
- ٢- التشهير بهم في عَرَصات يوم القيامة.
- ٣- طردهم من رحمة الله تعالى.
- ٤- وصفهم بالظلم.
- ٥- صدهم الناس عن دين الله.
- ٦- معرفتهم للإسلام لا بد أن تكون معوجّة.
- ٧- الكفر باليوم الآخر.
- ٨- عدم فرارهم من عذاب الله تعالى.
- ٩- عدم وجود الناصر لهم.
- ١٠- عدم انتفاعهم بنعمة السمع.
- ١١- عدم انتفاعهم بنعمة البصر.
- ١٢- خسرانهم لأنفسهم.
- ١٣- فقدهم لمن عبدوهم في ساحة الحشر يوم القيامة.
- ١٤- استحقاقهم للنار يوم القيامة.

كما بيّنت الآية السادسة حال المؤمنين وبشرتهم بالخلود في الجنة، ثم ضربت مثلاً للفريقين، وشبهت حاله بما يناسبه من صفات، وفي ذلك هداية لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد.

تَمْهِيدٌ لِقِصَصِ السُّورَةِ

وتمضي سورة هود بعد الربع الأول منها، وعلى مدى ثلاثة أرباع السورة، مع مشوار العقيدة، ودعوة الرسل إلى أمهم، فتذكر سبعة من قصص المرسلين، تبدأ بنبي الله نوح، ثم هود، ثم صالح، ثم إبراهيم، ثم لوط، ثم شعيب، ثم موسى، عليهم جميعاً وعلى نبينا أفضل الصلاة وأتم التسليم.

ويُمثّل تلك المدرسة الإلهية، المعلمون، وهم الأنبياء والرسل، والتلاميذ، وهم الأمم، الذين يدرسون ويتعلمون على أيدي أنبيائهم، وكل رسول منهم أرسل إلى قومه، أما الرسالة العامة الخاتمة فلم تكن إلا إلى محمد ﷺ.

وقد ذكرت القصة في القرآن تثبيتاً لقلب النبي ﷺ، وشحذاً لهمته، وتسليّة له ﷺ.

يقول تعالى: ﴿وَكَلَّا نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ﴾ [هود: ١٢٠].

وفي قصص القرآن العبرة والعظة التي يُستفاد منها بأحوال مَنْ سبق من الأمم التي كذبت رسلها، ويدخل في هذه الأمم اليهود والنصارى وغيرهم.

وهذا القصص من عند الله وليس حديثاً يفترى ﴿لَقَدْ كَانَتْ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُولِي الْأَلْبَابِ﴾ [يوسف: ١١١] ﴿تِلْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهَا إِلَيْكَ﴾ [هود: ٤٩].

والقصة في القرآن يستفيد منها الدعاة إلى الله تعالى، والآمرون بالمعروف والناهون عن المنكر إلى قيام الساعة؛ كي يصبروا ويتحملوا الأذى من أقوامهم، ويدفعهم ذلك إلى تحمل الشدائد في سبيل الدعوة إلى الله تعالى، ومن هنا فإن القصة في القرآن تُعرض بين الحين والآخر بأساليب متعددة، مفصلة مرة ومجملة مرة، جزء منها هنا وجزء منها هناك.

الْقِصَّةُ الْأُولَى: قِصَّةُ نُوحٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ

نبذة عن نوح عليه السلام الجد الأعلى لنوح عليه السلام هو إدريس عليه السلام، وينتهي نسبه إلى شيث بن آدم، وبين آدم ونوح -كما جاء في صحيح البخاري عن ابن عباس عليه السلام- عشرة قرون، وقد ذُكر نوح في القرآن ثلاثاً وأربعين مرة، وفُصِّلَت قصته في خمس سور؛ هي: الأعراف، وهود، والمؤمنون، والشعراء، والقمر، بالإضافة إلى سورة خاصة تحمل اسمه هي سورة نوح، التي تبين دعوته ورسالته إلى قومه.

ونوح عليه السلام هو شيخ المرسلين؛ لأنه قضى أطول مدة في الرسالة، قطع القرآن بأنها ألف سنة إلا خمسين عاماً، وهذا ليس عُمر نوح عليه السلام، ولكنها مدة الرسالة، وقد عاش نوح قبل النبوة أربعين أو خمسين أو ستين عاماً كما ذكر المؤرخون، وعاش بعد الطوفان ثلاث مئة وخمسين عاماً، ويعتبر عُمر نوح على الأرجح ١٣٥٠ عاماً.

ونوح أول رسول كما جاء ذلك في حديث الشفاعة العظمى، في صحيح مسلم وغيره عن أنس: «ولكن اتوا نوحاً أول رسول بعثه الله» فالناس يوم القيامة يفرعون إلى آدم أبي البشر، يطلبون منه أن يقضي الله بينهم، بعد أن تصبَّوا عرقاً، فيرسلهم آدم إلى نوح، ويحيلهم نوح على إبراهيم وهكذا، حتى يشفع فيهم محمد ﷺ.

والذين نجوا في السفينة مع نوح بعد الطوفان هم أصل الخليقة، ولذلك سُمي نوح بأبي

البشر الثاني، وهو أول مَنْ أرسله الله تعالى بالتخويف والإنذار إلى أول أمة عَبَدَت الأصنام، وكان قبله آدم، ثم شيث بن آدم، ثم إدريس، وقد ذُكر إدريس في القرآن ضمن عدد المرسلين، فهو جد نوح الأعلى، وقوم نوح هم أول مَنْ ردوا دعوة الرسل، وَمَنْ رَدَّ دعوة رسول فقد رَدَّ دعوة الرسل جميعًا.

وقد كان الناس من لدن آدم إلى نوح على التوحيد، وهو الإسلام الذي جاء به الرسل جميعًا ﴿إِنَّ إِلَٰهَ الْأَلْبَانِ عِنْدَ اللَّهِ إِلَّا سَلَمٌ﴾ [آل عمران: ١٩] فالرسالات التي قبل نوح كانت للهداية والدعوة إلى الله تعالى دون محاربة الشرك، فقد دعا إدريس قومًا موحدين، ثم ظهر الشرك في قوم نوح بسبب التماثيل، ولذلك حاربها الإسلام؛ لأنها تفضي إلى الشرك.

وصح عن ابن عباس ؓ أن أسماء الأصنام التي عبدها قوم نوح هي: (ود، وسواع، ويغوث، ويعوق، ونسر) وهذه الأسماء كانت لرجال صالحين ماتوا، ثم غالى الناس في حُبهم، فنصبوا لهم صورًا وتماثيل تُذكّرهم بهم، حتى يعبدوا الله تعالى كعبادتهم، ثم تغير الناس وتغيرت الأجيال، ونُسي التاريخ والعلم، فعبد الناس هذه الأصنام من دون الله، وكان ذلك من أسباب الغلو في محبة الصالحين.

إذن: فقد كان الناس أمة واحدة على دين واحد هو الإسلام، فاختلّفوا من عهد نوح، فكان منهم مَنْ آمن ومنهم مَنْ كفر، فبعث الله النبيين مبشرين ومنذرين؛ لمحاربة الأصنام وتوحيد الواحد الديان.

وكان أولهم نوح، دعا قومه ليلاً ونهارًا، سرًا وجهارًا، فلم يزداهم دعاؤه لهم إلا فرارًا. وسورة هود فيها أطول وأكثر الآيات التي تتحدث عن نوح عليه السلام، وفيها صُنِع السفينة، وفيها موقفه من ابنه الكافر، وهذه النقاط لم تأت مفصلة في موضع آخر من القرآن الكريم.

نُوحٌ عَلَيْهِ السَّلَامُ يَدْعُو قَوْمَهُ إِلَى التَّوْحِيدِ

٢٥- ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾ (٧٥)

أي: ولقد أرسلنا رسولنا نوحًا أول المرسلين يدعو قومه إلى توحيد الله وينهاهم عن

(١) قرأ ابن كثير وأبو عمرو والكسائي وأبو جعفر ويعقوب وخلف العاشر بفتح الهمزة (أنى لكم) على تقدير حرف الجر، وقرأ الباقون بكسرها على إضمار القول.

الشرك، فقال لهم: إني أخوفكم من عذاب الله إن عبدتم غيره، وظللتكم على ما أنتم عليه، وهذه هي المهمة التي جاءت الرسل من أجلها، فكل رسول قال لقومه هذه العبارة: ﴿اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ﴾ قال نوح لأقربائه وعشيرته: إني نذير لكم من عذاب الله، مبين لكم ما أرسلت به إليكم من أمر الله ونهيه.

٢٦- ﴿أَنْ لَا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ إِنَِّّي^(١) أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمِ الْإِسْرِ﴾

أي: أرسلنا نوحًا إلى قومه محذرًا وموضحًا لهم أنَّ من موجبات عذابه تعالى أن يعبدوا غيره، فإن هذه العبادة ستؤدي إلى وقوع العذاب المؤلم بكم، فأنا آمركم بالإخلاص وأن تتوجهوا بعبادتكم إلى الله وحده، وأن تخلصوا له الطاعة والعبادة، وما حملني على ذلك إلا خوفاً عليكم، وشفقتي بكم، فأنا منكم وأنتم مني بمقتضى صلة القرابة والنسب.

اتِّهَامُ قَوْمِ نُوحٍ لَهُ بِأَرْبَعِ تُهُمٍ

٢٧- ﴿فَقَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ مَا نَرْنَكَ إِلَّا بَشَرًا مِثْلَنَا وَمَا نَرْنَكَ إِلَّا الَّذِي^(٢) هُمْ أَرَادُوا بِادِّئِ^(٣) الرَّأْيِ^(٤) وَمَا نَرِي^(٥) لَكَمْ عَلَيْنَا مِنْ فَضْلٍ بَلْ نَظُنُّكُمْ كَاذِبِينَ﴾

فكان جواب الأشراف والأغنياء والأقوياء والسادة من قوم نوح يتكون من أربع تهم:

التهمة الأولى: قولهم: ﴿مَا نَرْنَكَ إِلَّا بَشَرًا مِثْلَنَا﴾ فأنت لست بملك، ولكنك بشر، فكيف أوحى إليك من دوننا؟ فلا فضل لك علينا، وهؤلاء السادة لهم قصد وهدف، فهم يخشون على مناصبهم ومكانتهم عند القوم، وأما ضعاف القوم وفقراؤهم، فلم يصرفهم شيء عن إجابة الدعوة.

والضعفاء: هم أتباع الرسل في كل زمان ومكان، ومن ذلك أنه لما سأل هرقل أبا سفيان عن صفات الرسول ﷺ فكان مما قال: هل اتبعه أشراف الناس أم ضعفاؤهم؟ قال أبو سفيان: الضعفاء، فقال هرقل: الضعفاء هم أتباع الرسل.

(١) قرأ نافع وابن كثير وأبو عمرو وأبو جعفر بفتح ياء الإضافة من (إني أخاف)، والباقون بإسكانها.

(٢) قرأ أبو عمرو (بادئ) بهمزة مفتوحة بعد الدال، وقرأ الباقيون بغير همز.

(٣) أبدل همزة (الرأي) الأصبهاني وأبو جعفر وأبو عمرو بخلفه.

(٤) (أمال (نراك) في الموضعين و(نرى) حمزة والكسائي وخلف، وابن ذكوان بخلف عنه، وقلها ورش.

وهكذا كبار قوم نوح يقولون له: أنت بشر مثلنا تأكل مما نأكل، وتشرب مما نشرب، وتتزوج مثلنا، ولست من أهل الثراء، فكيف تكون نبياً؟ وفي هذا تعريض منهم بأنهم أحق بالنبوة منه، وأن الله تعالى لو أراد أن يجعلها في أحد من البشر لجعلها فيهم.

وقد جاء هذا الاعتراض في سورة المؤمنون، في قوله تعالى: ﴿وَقَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِهِ الَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَالْآخِرَةِ وَأَتَرَفْتُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا مَا هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يَأْكُلُ مِمَّا تَأْكُلُونَ مِنْهُ وَيَشْرَبُ مِمَّا تَشْرَبُونَ ٣٣﴾ وَلَئِنْ أَطَعْتُمْ بَشَرًا مِثْلَكُمْ إِنَّكُمْ إِذَا لَخَسِرُونَ ﴿٣٤﴾.

وهكذا عمد قوم نوح إلى تكذيبه حيث اتهموه بالضلال، كما في سورة الأعراف ﴿قَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِهِ إِنَّا لَنَرْنِكَ فِي صَلَالٍ مُبِينٍ ١٦﴾.

التهمة الثانية: قولهم: ﴿وَمَا زَنَّاكَ أَتَّبَعَكَ إِلَّا الَّذِينَ هُمْ أَرَادُوا أَنْ كَفُرُوا ١٧﴾ أي: من الفقراء والضعفاء والعمال والصناع وأصحاب المهن، وهؤلاء أحقرنا حالاً، وأهوننا أمراً، فلا نعتدُّ بهم، وليسوا قدوة لنا، وكلمة ﴿بَادِيَ الرَّأْيِ﴾ لأول وهلة؛ أي: اتبعوك من غير تعقل ولا تدبر، فليسوا على بصيرة من أمرهم.

وفي الأثر: ما دعوت أحداً إلى الإسلام إلا كانت له كبوة غير أبي بكر، فإنه لم يتلعث^(١) أي: لم يفكر ولم يتردد، بل رأى برهاناً ساطعاً فبادر إليه.

وقد وضحت سورة الشعراء أن الذي منعهم من اتباع نوح هم أسافل القوم وأراذلهم ﴿قَالُوا أَتُؤْمِنُ لَكَ وَاتَّبَعَكَ الْأَرْذَلُونَ ١٨﴾ [آية].

وقد طلب الملاء من قوم نوح أن يطرد هؤلاء الضعفاء عن مجلسه حتى يؤمنوا به؛ فقال لهم: ﴿وَمَا أَنَا بِطَارِدِ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّهُمْ مُُلْتَفِتُونَ رَبِّهِمْ وَلَكِنِّي أَرَاكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ ٢٩﴾ [هود: ٢٩] وقال لهم: ﴿إِنْ حِسَابُهُمْ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّي لَوْ تَشْعُرُونَ ٣٠﴾ وَمَا أَنَا بِطَارِدِ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٨﴾ [الشعراء] وقال: ﴿مَنْ يَضُرَّنِي مِنَ اللَّهِ إِنْ طَرَفْتُهُمْ ٣١﴾ [هود: ٣٠].

وهم، باعتراضهم هذا، يستدلون على أن نوحاً لا ميزة له على سادتهم الذين يلودون بهم، وهم أشرف القوم وأقوياءهم، فقد أرادوا إقامة الحجة عليه من وجهين:

أحدهما: أن المتبعين له أراذل القوم والرعا، وهم ليسوا قدوة ولا أسوة حتى يتأسوا بهم.

(١) ابن كثير في «البداية والنهاية» (٢٧/٣) عن ابن إسحاق، حيث قال: حدثني محمد بن عبد الرحمن بن عبد الله بن الحصين التيمي أن رسول الله ﷺ قال: الخ وسكت عليه ابن كثير.

وثانيهما: أنهم لم يتبعوه عن فكر وروية، ولم يُمعنوا النظر في صحة ما جاء به، وإنما بادروا إلى اتباعه دون تروٍّ ولا تعقُّل.

وهذا شأن المترفين، أشراف القوم، مع كل رسول ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرِيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ﴾ [سبأ].

وحسبك أن صناديد قريش هم الذين ناصبوا النبي ﷺ العداء.

التهمة الثالثة: قولهم: ﴿وَمَا نَرَىٰ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍ﴾ أي: ليس لكم، ميزة تميزكم عنا، من جاه أو مال أو سلطان أو شرف، يؤهلكم للنبوة واستحقاق المتابعة منا، والزعامة على الناس في أمر الدين.

ثم ألقوا في وجهه التهمة الرابعة والأخيرة قائلين: ﴿بَلْ نُنَظِّكُم كَذِبِينَ﴾ فيما تدَّعون أنكم على حق، وهذه التهم الأربع قالتها كل أمة كذبت رسولها.

نُوحٌ يُجِيبُ عَلَى التُّهَمِ الْأَرْبَعِ بِأَجْوِبَةٍ ثَلَاثِ

الْجَوَابُ الْأَوَّلُ: أَنَّهُ نَبِيٌّ مُّرْسَلٌ مِّنْ عِنْدِ اللَّهِ

٢٨- ﴿قَالَ يَقَوْمِ أَرَأَيْتُمْ^(١) إِن كُنتُمْ عَلَىٰ يَنِينٍ مِّن رَّبِّي وَءَانِئِي رَحْمَةً مِّنْ عِنْدِي فَعِمِّيْتَ^(٢) عَلَيْكُمْ أَنْزِلْ يُكْمِلُهَا وَأَنْتُمْ لَهَا كَرِهُونَ﴾ (٢٨)

فماذا أجاب نوح ﷺ قومه عندما اتهموه بهذه التهم الأربع؟ لم يشتمهم كما شتموه، ولم يطعنهم كما طعنوه، وإنما أجابهم في سماحة خُلُق النبي، وسماحة خُلُق الرسول، في أدب جم، قال لهم: ﴿يَقَوْمِ﴾ ماذا أفعل إن كان بيني وبين الله اتصال عن طريق الوحي؟ فأنا على حجة وبرهان فيما جئتكم به من ربي، تبين أنني على حق، وقد خصني بهذه النبوة وهذه الرسالة، وآتاني منه هدى ونورا، وقد أناط الله بي هذه المهمة، ولكنها خفيت

(١) قرأ الأصهباني عن ورش وقالون وأبو جعفر بتسهيل الهمزة الثانية من (أرأيتم)، وللأزرق عن ورش وجهان؛ الأول: التسهيل، والثاني: إبدال الهمزة ألفاً مع المد المشع، وقرأ الكسائي بحذف الهمزة، والباقون بالتحقيق إلا حمزة وفقاً فله التسهيل بين بين.

(٢) قرأ حفص وحمزة والكسائي وخلف العاشر (فعميت) بضم العين وتشديد الميم؛ أي: عماها الله عليكم، وقرأ الباقر بفتح العين وتخفيف الميم مبيئاً للفاعل؛ أي: خفيت عليكم.

عليكم؛ بسبب جهلكم وغروركم ولم تهتدوا بهديها، فمهمتي هي البلاغ، ولا أملك أن ألزمكم وأجبركم على الهدى وقبوله قهراً، فهل يصح أن نلزمكم إياها بالإكراه وأنتم جاحدون بها؟ إننا لا نفعل ذلك، ولكن نكل أمركم إلى الله حتى يقضي في أمركم ما يشاء. قال قتادة: أما والله لو استطاع نبي الله لألزمها قومه، ولكنه لم يستطع ذلك ولم يملكه^(١).

والاستفهام للإنكار؛ أي: لا نلزمكم بالهداية؛ لأنه لا إكراه في الدين، وفي هذا إخبار لهم بأن الله ميزه عليهم بالنبوة والرسالة، ولكنه لا يستطيع قسره على الإيمان به، لأن الإيمان لا بُدَّ أن يكون عن اقتناع واختيار، لا عن إكراه وإجبار.

الْجَوَابُ الثَّانِي: أَنَّهُ لَا يَسْأَلُهُمْ أَجْرًا عَلَى تَبْلِيغِ الدَّعْوَةِ

٢٩- ﴿وَيَقُولُوا لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مَالًا إِنْ أَجَرْتُ^(٢) إِلَّا عَلَى اللَّهِ وَمَا أَنَا بِطَارِدِ الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنَّهُمْ مُلْتَفِتُونَ رَبِّهِمْ وَلَكِنِّي^(٣) أَرَاكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ ﴿٢٩﴾﴾

ثم إن الخلق يستوون أمامي، الضعيف والقوي، ولا أخص أهل الثراء والغنى بشيء، وأنا لا أسألكم على هذه الدعوة مالا، ولكن أجري وثوابي على الله، ولا أطلب منكم إلا أن توحّدوا الله وتخلصوا له العبادة.

الْجَوَابُ الثَّالِثُ: أَنَّهُ لَنْ يُبْعَدَ الضَّعَفَاءُ عَنْ مَجْلِسِهِ

ولما طلبوا من نوح ﷺ أن يبعد الضعفاء عن مجلسه، كما فعل أمثالهم مع الرسول محمد ﷺ أجابهم نوح: بأنني لا أطرد الذين آمنوا من مجلسي، فإنهم صائرون إلى الله، وفائزون بقربه، وكان يُجزل لهم العطاء ويُقربهم منه، ويقول: ﴿وَمَا أَنَا بِطَارِدِ الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ وكيف أحول بيني وبينهم، وميزان الناس عند الله إيمان وتقوى، ومرد الناس إلى الله يوم القيامة؟ وأنتم قوم جهلاء، تأمروني بطرد أولياء الله وإبعادهم عني.

وقد نهى الله نبيه محمداً ﷺ عن ذلك في قوله: ﴿وَلَا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْعَدْوَةِ

(١) أخرجه الطبري بسند حسن في تفسير الآية.

(٢) قرأ نافع وأبو عمرو وابن عامر وحفص وأبو جعفر بفتح الياء من (أجري إلا) وصلاً، والباقون بإسكانها.

(٣) قرأ نافع والبيزي وأبو عمرو وأبو جعفر بفتح ياء الإضافة من (ولكني أراكم)، والباقون بإسكانها.

وَالْعِشْيَ يُرِيدُونَ ﴿٥٢﴾ [الأنعام: ٥٢] وأمره أن يصبر نفسه معهم فقال: ﴿وَأَصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ﴾ [الكهف: ٢٨].

قال مجاهد: قال قوم نوح له: إن أحببت أن نتبعك فاطردهم، وإلا فلن نرضى أن نكون نحن وهم في الأمر سواء.

ولكن من ينجي نوحًا من عقاب الله إن طرد الضعفاء عن مجلسه؟

٣٠- ﴿وَيَقُولُ مَنْ يُصْرِي مِنَ اللَّهِ إِنْ طَرَدْتُهُمْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ (٢٠)

ثم وجه نوح إلى قومه نداء ثالثًا لعلهم يرجعون إلى رشدهم، فقال لهم: ويا أهلي وعشيرتي، من يمنعني ويحميني من عذاب الله وعقابه لي، إن طردت هؤلاء الفقراء عن مجلسي، وهم أكرم الناس عند الله، فكيف أطردهم؟ أفلا تتدبرون الأمور، فتعلموا ما هو الأنفع والأصلح لكم، وتعلموا أن لهم ربًا ينصرهم إن طردتهم، ويحاسب من طردهم عن مجلس تلقى الوحي؟

وقد بين النبي ﷺ في قصة النفر الثلاثة الذين حضروا مجلسه ﷺ أن الناس ثلاثة أحوال عند حضور مجالس العلم؛ حيث إن أحدهم وجد فُرجة في الحلقة فجلس فيها، والثاني لم يجد فُرجة في المجلس فجلس خلف الحلقة، والثالث أعرض عن الحلقة، فهذه ثلاثة أحوال لمن يحضرون مجالس العلم.

وقد أخبر النبي ﷺ عن هذه الأحوال الثلاثة فقال: «أما الأول: فأوى إلى الله، فأواه الله، وأما الثاني: فاستحيا، فاستحيا الله منه، وأما الثالث: فأعرض، فأعرض الله عنه» (٢).

وهؤلاء الضعفاء مقبلون على مجلس العلم فكيف يطردهم نوح عن مجلسه؟ ومن ينجيه من عقاب الله إن أهانهم أو آذاهم؟ والله لا يحب إهانة أوليائه.

(١) قرأ حفص وحزمة والكسائي وخلف العاشر بتخفيف الذال من (تذكرون)، والباقون بتشديدها.

(٢) من حديث أبي واقد الليثي في البخاري برقم (٦٦) وفي مسلم (٢١٧٦) وهو في جامع الترمذي برقم (٢٧٢٤) وقال: حسن صحيح.

نُوحٌ يُفْنِدُ أَرْبَعَ شُبُهَاتٍ لِقَوْمِهِ

٣١- ﴿وَلَا أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي خَزَائِنُ اللَّهِ وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبَ وَلَا أَقُولُ إِنِّي مَلَكٌ وَلَا أَقُولُ لِلَّذِينَ تَزْدَرِي أَعْيُنُكُمْ لَنْ يُؤْتِيَهُمُ اللَّهُ خَيْرًا اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا فِي أَنْفُسِهِمْ إِنِّي^(١) إِذَا لَمِنَ الظَّالِمِينَ ﴿٣١﴾﴾

أخذ نوح عليه السلام يفند شبهات قومه، ويدحض مفترياتهم، ويُعرفهم بحقيقة أمره، فأجابهم على نفي النبوة عنه، وأنه ليس له فضل عليهم، بأنه بشر مثلهم، ولكن الله يُمُنُّ على مَنْ يشاء من عباده بالنبوة والرسالة، والله أعلم حيث يجعل رسالته.

١- فقد وهبه الله النبوة، وهو لا يملك التصرف في خزائن الله، حتى يملك خزائن الأرزاق، فيكون من أهل الثراء، ولا يدعوكم لتبعوه حتى يعطيكم من هذه الخزائن.

٢- وهو لا يدّعي معرفة شيء من أمور الغيب التي اختص الله بها، ولا يطلب منكم أن تتبعوه لمعرفته بعلم الغيب، ولا يزعم أن له صلة بالله غير صلة النبوة، ترفعه فوق البشرية، بل هو بشر مثلهم يأكل ويشرب ويمشي في الأسواق، ولكن الله تعالى اختصه بالنبوة.

٣- وهو ليس ملكًا من الملائكة.

٤- وهو لا ينتقص أحدًا أو يزدريه لفقره أو ضعفه، فربّ أشعث أغبر ذى طمرين لو أقسم على الله لأبره.

يقول نوح عليه السلام: فأنا لا أحتقر ضعفاء المؤمنين، ولا أقول: لن يؤتيهم الله ثوابًا على أعمالهم، فالله وحده أعلم بما في صدورهم وقلوبهم، ولئن فعلتُ شيئًا من ذلك لأكونن من الظالمين لنفسي ولغيري، ومهمتي أن أدعوكم إلى عبادة الله وحده، ولا أفرق بين شريف ووضيع، ولا أطلب منكم أجرًا على تبليغ الدعوة، فمَنْ استجاب لي فقد أفلح ونجا، ومن أعرض عني فقد خاب وخسر.

وهكذا بيّن لهم نوح شخصيته ورسالته بلا زيف ولا تضليل، وهم يعتقدون أن الرسول ينبغي أن يكون من الملائكة، ومن كبار الأثرياء، أو يعلم الغيب، وأجابهم نوح عليه السلام بأنني لا أملك خزائن الأرض، ولست من أهل الثراء، ولا أعلم الغيب، ولا ما خفي عنكم؛ لأن ذلك من خصائص الله، إنما أنا بشر، أيدني الله بالوحي وأرسلني إليكم، فاتبعوني واثقوا الله لعلكم ترحمون.

(١) قرأ نافع وأبو عمرو وأبو جعفر بفتح ياء الإضافة من (إني إذا)، والباقون بإسكانها.

حَوَارِ بَيْنَ نُوحٍ وَقَوْمِهِ

٣٢- ﴿قَالُوا يَنْتُحٍ قَدْ جَدَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ جِدَالَنَا فَأَيْنَا بِمَا تَعْدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصّٰدِقِينَ﴾

قال القوم لنوح: لقد أكثرت علينا الكلام، وجادلنا بالحجة والمخاصمة؛ فأكثر جدلنا حتى سئمنا ذلك ومللنا، ثم عدلوا عن جهلهم إلى استعجال نزول العذاب بهم قائلين: فأتنا بهذا العذاب الذي تعدنا به إن كنت من الصادقين في دعواك.

٣٣- ﴿قَالَ إِنَّمَا يَأْتِيكُمْ بِهِ اللَّهُ إِنْ شَاءَ وَمَا أَنَا بِمُعْجِزٍ﴾

قال نوح: هذا العذاب ليس من عندي، وإنما يملكه رب العالمين، ويأتي به في الوقت الذي يريده ﷻ، وأنتم في ملك الله وتحت قدرته وسلطانه، ولستم بفارين أو هاربين من عذاب الله، وسينزل بكم هذا العذاب عندما تقتضيه مشيئته سبحانه.

٣٤- ﴿وَلَا يَنْفَعُكُمُ نُصْحِي^(١) إِنْ أَرَدْتُ أَنْ أَنْصَحَ لَكُمْ إِنْ كَانَ اللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يُغْوِيَكُمْ هُوَ رَبُّكُمْ

وإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ^(٢)﴾

ثم بين نوح ﷺ أن جداله لقومه إنما هو لنفعهم وصلاحهم، ولكن حماقتهم تجعلهم يكرهون ما فيه نفع لهم، ومهمته أن يبذل لهم النصيحة إلى نهاية الأمر، والعلم عند الله تعالى إن كانوا سيتنفعون بها ويقبلعون عما هم فيه من ضلال وشرك أم لا.

أي: ولا ينفعكم نصحي واجتهادي في دعوتكم للإيمان، إن كان الله يريد أن يضللكم ويهلككم، فهو سبحانه مالك أمركم، وإليه ترجعون في الآخرة للحساب والجزاء، فيعطي كل ذي حق حقه، وتؤفى كل نفس بما كسبت.

قال قوم نوح: إن نوحًا افترى على الله الكذب، واختلق هذه الدعوى من عند نفسه، وهذه المقولة قالها كل قوم لنبئهم!! قال تعالى:

(١) قرأ نافع وأبو عمرو وأبو جعفر بفتح باء الإضافة من (نصحي إن)، والباقون بإسكانها.

(٢) قرأ يعقوب بفتح التاء وكسر الجيم من (ترجعون) على البناء للفاعل، والباقون بضم التاء وفتح الجيم على البناء للمفعول.

٣٥- ﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَيْنَاهُ قُلْ إِنِ افْتَرَيْتُهُ فَعَلَىٰ إِجْرَامِي وَأَنَا بَرِيءٌ^(١) مِمَّا يُجْعَلُونَ ﴿٣٥﴾

وقد أمر الله تعالى نوحًا أن يردّ عليهم بالمنطق البليغ، فيقول لهم: إن كنتم صادقين في أنني اختلقته، وجئت به من عند نفسي، فعليّ وحدي إثم ذلك، وعقاب هذا الجرم يقع عليّ دون سواي، فلا تزر وازرة وزر أخرى، وإن كنتم صادقًا فيما أبلغكم عن ربي، فأنتم الآثمون الكاذبون، وعليكم يقع عقاب ذلك التكذيب، فأنتم المجرمون الآثمون، وأنا بريء من كفركم وتكذيبكم وإجرامكم، وهذا كقوله تعالى:

﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَيْنَاهُ قُلْ إِنِ افْتَرَيْتُهُ فَلَا تَمْلِكُونَ لِي مِنَ اللَّهِ شَيْئًا هُوَ أَعْلَمُ بِمَا تُفِيضُونَ فِيهِ كَفَىٰ بِهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَهُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴿٨﴾﴾ [الأحقاف].

ويُستبعد أن يكون المراد بهذه الآية محمد ﷺ لأن هذا يقطع السياق، ولا يوجد ما يبرره.

نُوحٌ يَتَلَقَّى وَحْيَ رَبِّهِ بِهَلَاكِ قَوْمِهِ وَصُنْعِ سَفِينَةِ النِّجَاةِ

٣٦- ﴿وَأَوْحَىٰ إِلَىٰ نُوحٍ أَنَّهُ لَنْ يُؤْمِنَ مِنْ قَوْمِكَ إِلَّا مَنْ قَدْ ءَامَنَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ ﴿٣٦﴾

لم يدعُ نوح على قومه حتى نزلت هذه الآية، وانقطع رجاؤه في إيمانهم، فدعا عليهم بعد أن أعلمه الله تعالى أنه لم يبقَ في أصلاب الرجال ولا أرحام النساء مؤمن، وذلك بعد أن دعا نوح قومه ليلاً ونهاراً، وسراً وجهاراً، وكلما دعاهم إلى الله تعالى جعلوا أصابعهم في آذانهم، ووضعوا ثيابهم على رؤوسهم، واتهموه بالسفه والضلال والكذب والجنون ﴿فَكَذَّبُوا عَبْدَنَا وَقَالُوا مَجْنُونٌ وَازْدُجِرْ﴾ [القمر: ١٠].

واتهموه بكثرة الجدل والحوار ﴿قَالُوا يَنْتُحُ قَدْ جَدَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ جِدْلَانَا﴾ وكانوا يضعونه في حصير ويُلْقُونَهُ فِي الطَّرِيقِ انتظاراً لموته، فكان يأتيهم في اليوم التالي ويدعوهم إلى الله تعالى ويقول: اللهم اغفر لقومي فإنهم لا يعلمون، ويدعو الله سبحانه أن يُخرج من أصلابهم مَنْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ سبحانه.

وظل نوح يدعو قومه طيلة تسع مئة وخمسين عاماً، ولم يؤمن معه إلا عدد وُصِفَهم القرآن بالقلة ﴿وَمَا ءَامَنَ مَعَهُ إِلَّا قَلِيلٌ﴾.

(١) قرأ أبو جعفر بإبدال همزة (بريء) ياء، مع إدغام الياء التي قبلها فيها وصلًا ووقفًا، ومثله حمزة عند الوقف.

والمفسرون والمؤرخون يحددون هذه القلة، دون استناد إلى خبر صحيح، ولعل الأرجح أنهم كانوا اثنين وسبعين رجلاً وامرأة من غير أهله، وبنيه الثلاثة ونساءهم، وزوجته؛ أي: تسعة وسبعين^(١)، وأبناؤه الثلاثة هم: سام أبو العرب، وحام أبو الحبش ومن على شاكلتهم، ويافث أبو الترك ومن على شاكلتهم، وزوجة نوح هذه ليست أم ولده الكافر.

وقد أوحى الله تعالى إلى نوح لما حَقَّ على قومه العذاب -وهو سبحانه يعلم ما كان وما يكون- يعلم أنه لن يؤمن من قومه إلا مَنْ قد آمن من قبل، فالدعوة لا فائدة لها بعد ذلك، وحتى أبناء قومه الذين يخرجون من أصلابهم لا جدوى فيهم، فقد كان الرجل عندما يبلغ ابنه، يأخذه إلى نوح، ويقول له: احذر هذا المجنون!!

لذا: أذن الله لنوح بالدعاء عليهم ﴿وَقَالَ نُوحٌ رَبِّ لَا تَذَرْنِي عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا﴾ (٢٦) إِنَّكَ إِنْ تَذَرَهُمْ يُضِلُّوا عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوا إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا ﴿٧﴾ [نوح]

وقال طالباً من ربه النصرة: ﴿فَدَعَا رَبَّهُ أَنِّي مَغْلُوبٌ فَأَنْتَصِرْ﴾ (٢٧) [القمر]

وعندئذ أعلم الله نوحاً أنه سيهلكهم، فلا تحزن يا نوح على ما كانوا يفعلون. ﴿فَفَتَحْنَا أَبْوَابَ السَّمَاءِ بِمَاءٍ مُنْهَمِرٍ﴾ الآيات من سورة القمر [القمر: ١١-١٧].

نُوحٌ يَصْنَعُ السَّفِينَةَ

٣٧- ﴿وَأَصْنَعِ الْفُلَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحِّينَا وَلَا تَخْطِبْنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُمْ مُغْرَقُونَ﴾ (٢٧)

أمر الله ﷻ نوحاً أن يصنع سفينة النجاة، قال نوح: إنني لا أعرف هذه الصنعة، فلست بنجار، فقال له جبريل: اصنع الفلك بتوفيق الله، وعلى عين الله، وتعليم منه سبحانه، فأخذ يُقَطِّعُ الخشب، ويدقُّ المسامير، ويصنع السفينة بحفظ الله ورعايته، وأمره ربه ألا يطلب منه إمهال هؤلاء الظلمة، لكفرهم وعنادهم، فإنهم مغرقون بالطوفان فلا تشفع فيهم؛ لأن هلاكهم حاصل لا محالة، لقد تقرر المصير، وانتهى الإنذار، وانتهى الجدل، فقد آن للدولة الوثنية أن تزول، وحقَّ عليها كلمة الله ﷻ. امثل نوح أمر ربه وشرع في صنع السفينة:

(١) «تفسير الألوسي» (١٢/٥٠).

٣٨، ٣٩ ﴿وَيَصْنَعُ الْفُلَ وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلَأٌ مِنْ قَوْمِهِ سَخِرُوا مِنْهُ قَالَ إِنْ تَسْخَرُوا مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنْكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ ﴿٣٨﴾ فَسَوْفَ نَعْلَمُوتُ مَنْ يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُقِيمٌ﴾

أخذ نوح عليه السلام يصنع السفينة، وكلما مرَّ عليه نفر من كبار قومه غير المؤمنين سخروا منه، وكانوا يقولون له: يا نوح كنت بالأمس نبياً، وأنت اليوم نجار، ويسألونه لم تصنع هذه السفينة على اليابس؟ فقال لهم: أمشي بها على الماء، فيقولون له: أين الماء؟ ويسخرون منه، فيقول لهم: إن تسخروا منا اليوم لجهلكم بصدق وعِدِّ الله تعالى، فإننا نسخر منكم غداً عند الغرق كما تسخرون منا، فإن الهلاك عاقبة المكذبين المستهزئين برسَل الله، فإن سخرتم منا لصنع السفينة، فإننا نسخر منكم للغرق في الدنيا والخزي في الآخرة، وإن حكمتم علينا بالجهل، فما أنتم عليه من الكفر والتعرض لسخط الله أُولَى بالسخرية.

ثم هدد نوح قومه وتوعدهم عذاب الله تعالى، وأنهم سوف يعلمون إذا جاء أمر الله من الذي يأتيه في الدنيا عذاب يذله ويهينه، وينزل به في الآخرة عذاب دائم لا ينقطع.

عَلَامَةُ هَلَاكِ الْمُكَذِّبِينَ وَنَجَاةُ الْمُؤْمِنِينَ

٤٠- ﴿حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَمْرُنَا وَفَارَ التَّنُّورُ قُلْنَا احْمِلْ فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ وَمَنْ ءَامَنَ وَمَا ءَامَنَ مَعَهُ إِلَّا قَلِيلٌ ﴿٤٠﴾﴾

صنع نوح السفينة، وهناك كلام كثير فيما يتعلق بوصف السفينة؛ منها إسرائيليّات، مذكورة في التوراة وغيرها، ونحن نؤمن أن التوراة الحالية محرفة وغير صحيحة.

وأشهر ما قيل في صنع السفينة -وهو لا يستند إلى خبر صحيح- أنها صُنعت من خشب الساج، وطلّاه نوح بالقار من الداخل والخارج، وطولها سبع مئة ذراع، وعرضها خمسون ذراعاً، وارتفاعها ثمانون ذراعاً، وتتكون من ثلاثة طوابق: الأسفل فيه الوحوش، والأوسط فيه الأنعام والدواب، والطابق الأعلى فيه الإنسان^(١).

(١) قرأ حفص بالتثنية في (من كل) وهو عوض عن المضاف إليه؛ أي: من كل ذكر وأنثى (زوجين) مفعول (احمل)، وقرأ الباقر بترك التثنية على إضافة (كل) إلى (زوجين) و(اثنتين) مفعول (احمل) و(من كل زوجين) في محل نصب حال من المفعول.

(٢) انظر: «تفسير الطبري» (٣١١/١٥).

وأوحى الله إلى نوح أن هناك علامة إذا ظهرت فإن عليه أن يركب السفينة هو ومن آمن معه، والعلامة هي فوران التنور؛ أي: خروج الماء من أحد التناير، ويُعرف التنور بالفرن، وهو موقد النار، ولما جاء أمر الله بالعذاب ونَبَعَ الماء بقوة من التنور، فتح الله أبواب السماء بماء منهمر، ينزل منها كأفواه القرب، لم تشهد الأرض من قبل مثله، وكان الماء يخرج من الأرض بكميات كبيرة غزيرة، فالتقى الماء من أعلى ومن أسفل على أمرٍ قد قُدر، قال تعالى: ﴿فَفَتَحْنَا أَبْوَابَ السَّمَاءِ بِمَاءٍ مُنْهَرٍ ۝١١ وَفَجَرْنَا الْأَرْضَ عُيُونًا فَالْتَقَى الْمَاءُ عَلَى أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ ۝١٢﴾ [القمر] وحملنا نوحًا ومن معه على سفينة ذات ألواح ومسامير ﴿وَحَمَلْنَاهُ عَلَى ذَاتِ الْوُجْهِ وَدُسِّرَ ۝١٣﴾ [القمر].

ويُذكر أن هذا التنور كان في مسجد الكوفة، وأنه قد فار من جانبه الأيمن^(١).

وأوحى الله إلى نوح أن يأخذ معه من كل صنف من المخلوقات زوجين، ذكرًا وأنثى، ويأخذ معه أهل بيته.

وأهل الرجل: زوجه وأبنائه وقربته، وقد يطلق الأهل على الزوجة خاصة.

واحمل معك -يا نوح- أيضًا من آمن بك من المؤمنين، إلا من سبق عليه القول ممن لم يؤمن بالله كابنه وزوجته، وكانت تسمى (واعلة) أم الابن الكافر، وخيانتها كانت في الرسالة بعدم إيمانها، أما زوجة لوط، فكانت تدل القوم على الرجال الذين جاؤوا إلى لوط، ولم تَحْنُ زوجة نبيٍّ من الأنبياء زوجها في عرضه وفراشه.

مَشْهَدُ التَّغْيَةِ عِنْدَمَا حَلَّتِ اللَّحْظَةُ الْمُرْتَقِبَةُ

٤١ - ﴿وَقَالَ ارْكَبُوا فِيهَا بِسْمِ اللَّهِ مَجْرِبَهَا ۝٢ وَمُرْسَاهَا ۝٣ إِنَّ رَبِّي لَغَفُورٌ رَحِيمٌ ۝٤﴾

(١) جاء هذا من عدة طرق، ينظر: «تفسير سعيد بن منصور» (١٠٨٧) والطبري (٤٠١/١٢) وابن أبي حاتم (٢٠٢٩/٦).

(٢) قرأ حفص وحزمة والكسائي وخلف العاشر بفتح الميم من (مجرها) مع إمالة الألف التي بعد الراء مصدر (جرى) الثلاثي، ولم يُمل حفص في القرآن غيرها، والباقون بضمها مصدر (أجرى)، وقرأ الأزرق بالتقليل فقط، وأمالها أبو عمرو وابن ذكوان بخلف عنه، والباقون بدون إمالة.

(٣) وأمال (مرساها) حمزة والكسائي وخلف، وللأزرق الفتح والتقليل.

وقال نوح لمن آمن به: اركبوا في السفينة، باسم الله يكون جريئها على وجه الماء، وباسم الله يكون منتهى سيرها ورُسُوها، باسم الله حين تسير وحين تقف، ولهذا تُستحب التسمية في ابتداء الأمور، ومنها الركوب في السيارة، وفي السفينة وعلى الدابة، والطائرة، فكان نوح إذا أراد أن يمشي بالسفينة يقول: باسم الله، وإذا أراد أن يقف يقول: باسم الله، وجاء في سورة الزخرف أننا عندما نركب الدابة أو السيارة، أو الطائرة، أو غير ذلك، نقول: ﴿سُبْحَنَ الَّذِي سَخَّرَ لَنَا هَذَا وَمَا كُنَّا لَهُ مُقْرِنِينَ﴾ (١٢) وَإِنَّا إِلَىٰ رَبِّنَا لَمُنْقَلِبُونَ ﴿١٤﴾ [آية].

وامتثل نوح أمر ربه، وقال لمن ركبوا معه من المؤمنين: سلموا أمركم لمشئة الله، وقولوا عند ركوبكم السفينة: باسم الله يكون جريئها في هذا الطوفان العظيم، وباسم الله يكون إرساؤها في المكان الذي يريده رب العالمين، إن ربي لعظيم المغفرة لمن تاب إليه وأناب، رحيم بعباده فلا يعذبهم بعد التوبة.

ونظير هذه الآية قوله تعالى: ﴿فَإِذَا اسْتَوَيْتَ أَنْتَ وَمَنْ مَعَكَ عَلَى الْفَلَكَ فَقُلْ أَلَمُحْدُ لِلَّهِ الَّذِي بَجَّئْنَا مِنْ أَفْئِدَةٍ ظَالِمِينَ﴾ (١٨) وَقُلْ رَبِّ أُنْزِلْنِي مُنْزَلًا مُبَارَكًا وَأَنْتَ خَيْرُ الْمُنْزِلِينَ ﴿٢٩﴾ [المؤمنون].

مَشْهُدُ الطُّوفَانِ الرَّهِيبِ

٤٢- ﴿وَهِيَ^(١) تَجْرِي بِهِمْ فِي مَوْجٍ كَالْجِبَالِ وَنَادَىٰ نُوحٌ ابْنَهُ وَكَانَ فِي مَعْزِلٍ يَبْنَئِي^(٢) أَرْكَبَ^(٣) مَعَنَا وَلَا تَكُنْ مَعَ الْكَافِرِينَ﴾ (٢١)

إن الهول يستولي علينا ونحن نقرأ هذه الآيات بعد آلاف السنين، وكأننا نشاهد الحدث ماثلاً أمام أعيننا، ونشاهد السفينة وهي تسير بقوم نوح في موج يعلو ويرتفع، حتى يكون كالجبال في علوها.

قال الصاوي: رُوي أن الله تعالى أرسل المطر أربعين يوماً وليلة، وخرج الماء من الأرض

(١) قرأ قالون وأبو عمرو والكسائي وأبو جعفر بإسكان الهاء من (وهي)، والباقون بكسرها.

(٢) قرأ عاصم بفتح الياء من (يا بني)، والباقون بكسرها، وهما لغتان.

(٣) أدغم أبو عمرو والكسائي ويعقوب الباء في الميم من (اركب معنا)، وقرأه بالإظهار والإدغام قالون وابن عامر وعاصم وخلاّد، وعلم من هذا أن لحفص فيها وجهين، والباقون بالإظهار.

ينابيع كما قال تعالى: ﴿فَفَتَحْنَا أَبْوَابَ السَّمَاءِ بِمَاءٍ مُنْهَمِرٍ ﴿١١﴾ وَفَجَرْنَا الْأَرْضَ عُيُونًا فَالْتَقَى الْمَاءُ عَلَى أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ ﴿١٢﴾﴾ [القمر] وارتفع الماء على أعلى جبل أربعين ذراعًا حتى أغرق كل شيء^(١).

وهكذا شبه الله سبحانه أمواج هذا الطوفان بالجبال، ووصف السفينة وهي تجري في هذا الطوفان العظيم بقوله: ﴿إِنَّا لَمَّا طَغَا الْمَاءُ حَمَلْنَاكِ فِي الْجَارِيَةِ ﴿١١﴾﴾ [الحاقة: ١١].

يقول الله ﷻ في تصوير بليغ للسفينة: ﴿وَهِيَ تَجْرِي بِهِمْ فِي مَوْجٍ كَالْجِبَالِ ﴿١١﴾﴾.

والله حافظها وحافظ من فيها.

جاء في الأثر: أن امرأة حملت طفلها في وقت الطوفان، فصعدت به إلى الجبل حتى وصل الماء إلى ثلثه، فارتقت إلى مكان أعلى، وكلما وصلها الماء ارتفعت إلى أعلى، حتى وصلت إلى قمة الجبل، فلما بلغ الماء رقبتها رفعته بيدها، حتى عمها الماء، هي وطفلها، وجاء في الأثر: لو رحم الله أحدًا من قوم نوح لرحم أم الصبي^(٢).

غَرَقَ كَنْعَانَ بْنِ نُوحٍ كان ابن نوح الرابع اسمه (يام) أو (كنعان) منافقًا، يُظهر الإسلام لأبيه ويبطن الكفر، وهو غير كنعان بن حام جد الكنعانيين، وهو من زوجة ثانية لنوح، كان اسمها (واعلة) وقد أصابها الغرق، وهي المذكورة في آخر سورة التحريم.

وقد أهملت التوراة الموجودة حاليًا قصة غرق هذا الابن، [طلب نوح من ابنه أن يركب معه سفينة النجاة، حيث كان في معزل عن أبيه، متخلفًا عنه؛ لكونه لم يؤمن به، وبقية القوم كانوا مستقرين في جوف السفينة، نادى نوح ابنه بمقتضى عاطفة الأبوة؛ لكي يركب معه السفينة ولا يبقى مع الكافرين، وكان ابنه قد عزل نفسه عن المؤمنين فقال له: يا بني اركب معنا في السفينة، ولا تكن مع الكافرين بالله فتغرق، وفي هذا دعوة له للتخلي عن الكفر والتحلي بالإيمان.

ولكن الابن رد دعوة أبيه وكذبه في قوله: لن ينجو من الغرق إلا من ركب معه في السفينة:

(١) «حاشية الصاوي على الجلالين» (٢/٢١٦).

(٢) جاء هذا الخبر في «المستدرک» (٢/٣٤٢) و«تفسير الطبري» (١٥/٣١٠) وابن أبي حاتم (٦/٢٠٢٧) وابن عساکر (٦٢/٢٥٣) وقد تكلم الذهبي في إسناده.

٤٣ - ﴿قَالَ سَآوَيْتَ إِلَىٰ جَبَلٍ يَعْصِمُنِي مِنَ الْمَاءِ قَالَ لَا عَاصِمَ الْيَوْمَ مِن أَمْرِ اللَّهِ إِلَّا مَنْ رَحِمَ وَحَالَ بَيْنَهُمَا الْمَوْجُ فَكَانَ مِنَ الْمُغْرَقِينَ﴾ ﴿٤٣﴾

إن نصيحة الأب الحزين لم تجد أذنًا واعية من هذا الابن العاق المغرور، فرد على أبيه قائلاً: سألجأ إلى جبل شاهق أتحصن به من وصول الماء إليّ، فيمنعني من الغرق، سأوي إلى جبل يعصمني، ويحفظني، من الماء، وهو جبل مرتفع في المنطقة، قال نوح لابنه في الرد الأخير: لا معصوم من عذاب الله إلا من رحم الله، فأمن واركب معنا في السفينة، فأبى الابن، وحال بين نوح وابنه الموج المرتفع فكان ابنه من المغرقين.

ولما أغرقهم الله تعالى ونجّا نوحًا عليه السلام جفت الأرض، ونضب الماء، ودعا بالهلاك واللعنة على القوم الظالمين:

تَجْفِيفُ مَنَابِعِ الطُّوفَانِ وَسَفِينَةُ النُّجَاةِ

٤٤ - ﴿وَقِيلَ^(١) يَكْأَرْضُ ابْنُكَ وَكَسَمَاءُ^(٢) أَقْلِي وَغِيضَ^(١) الْمَاءِ وَفُضِيَ الْأَمْرُ وَأَسْتَوَتْ عَلَى الْجُودِيِّ وَقِيلَ بُعْدًا لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ ﴿٤٤﴾

وبعد أن أدى الطوفان وظيفته، جاء الأمر الإلهي إلى الأرض والسماء، فقال ﷻ للأرض بعد هلاك قوم نوح: يا أرض، ابلي ماءك واشربيه، فبلعت ماءها، ويا سماء، كفي وأمسكي عن المطر، فأقلعت عن إرسال الماء، وغيض الماء النازل من السماء؛ فانتقص ونضب وذهب خطر الغرق، وفُضي الأمر، وتم إنجاز ما أمر الله به من هلاك قوم نوح، ورست السفينة على جبل الجودي بين العراق وأرمينيا، واسمه الآن جبل (أَرَارَاط) وكان جانب هذا الجبل يمكن استقرار السفينة عليه عند نزول الركاب منها؛ لأنها تخفت بعد نزولهم أو نزول معظمهم، فإذا مالت امتدت إلى جانب الجبل، قيل: إنها أقلعت في العاشر من شهر رجب، وإنها رست على جبل الجودي يوم عاشوراء^(٣).

(١) قرأ هشام والكسائي ورويس بإشمام الكسرة حركة الضم في حرفي القاف والغين من (وقيل، وغيض)، وباقي القراء بالكسرة الخالصة، وهما لغتان.

(٢) قرأ نافع وأبو جعفر وابن كثير وأبو عمرو ورويس بإبدال الهمزة الثانية من (ويا سماء أقلعي) واوًا خالصة، والباقون بتحقيقها، وأجمعوا على تحقيق الأولى.

(٣) جاء هذا في حديث أبي هريرة في «مسند أحمد» (٢/٣٥٩).

وقيل: بعدًا وهلاكًا للقوم الظالمين، الذين تجاوزوا حدود الله ولم يؤمنوا، فهذا بيانٌ لسوء عاقبتهم ونهاية مصيرهم.

وهل عمّ الماء جميع الأرض؛ أي: هل شمل البشرية كلها؟ اختلف المؤرخون في ذلك، وهل وُجد من كان يسجل التاريخ في هذا الوقت من الزمن؟ وكم كان عدد البشرية في هذا الوقت؟

وظاهر القرآن يفيد أن الماء عم جميع الأرض المأهولة بالسكان حتى وصل الماء إلى أعلى الجبال، وقد دلت الآثار على وجود طمّي في أعلى الجبال بين دجلة والفرات.

هذا: وإن الرسالة العامة لأهل الأرض جميعًا هي رسالة محمد ﷺ وكل رسول قبله أرسله الله إلى قومه خاصة، ومنهم نوح ﷺ، فكيف دعا نوح على الكفار من أهل الأرض قاطبة؟ وكيف أن الغرق قد عمّ المنطقة المأهولة بالسكان من أهل الأرض؟ وكيف استحقوا العقوبة؟

والجواب على ذلك: أن نوحًا ﷺ هو أول رسول أرسله الله إلى عبدة الأوثان وسائر الكفار في الأرض كلها؛ ليلغهم وجوب التوحيد ويصبر وتحمل المشاق في سبيل ذلك، وقد كانت المنطقة السكانية محدودة في العراق وما حولها.

وقد بعثه الله إلى قومه خاصة بالتبليغ والدعاء والتنبيه، والدعوة الخاصة تقتضي القتال والشدة عند وجود المقتضي لهما، أما من جهة بذل النصيحة وقبول من آمن دون قتال ولا شدة، فهذا يعمّ الناس جميعًا، وبما أن نوحًا قد مكث يدعو قومه ألف سنة إلا خمسين عامًا، فغير ممكن أن رسالته لا تبلغ القريب والبعيد؛ ولذا كان دعاء نوح على الكافرين من أهل الأرض جميعًا، وكان هلاكهم جميعًا بالغرق^(١).

نُوحٌ يُنَاجِي رَبَّهُ فِي شَأْنِ ابْنِهِ الْكَافِرِ

٤٥ - ﴿وَنَادَى نُوحٌ رَبَّهُ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ابْنِي مِنْ أَهْلِي وَإِنَّ وَعْدَكَ الْحَقُّ وَأَنْتَ الْحَكِيمُ﴾

هذا النداء توجه به نوح إلى ربه بعد غرق ابنه الكافر، وبعد استواء السفينة على

* (١) ينظر: «تفسير ابن عطية» (٣/ ١٦٨).

الجودي، وكان سببه شفقة نوح على ابنه، فقد أراد أن ينفعه في الآخرة بعد أن يش من نجاته في الدنيا، وكان الله سبحانه قد أعلم نوحًا أنه لا نجاة إلا لمن ركب السفينة، وقد أبى ابنه أن يركبها ويلبي دعوة أبيه، وعندئذ تحقق له غرقه، فسأل نوح ربه المغفرة لولده، وألا يعامله معاملة غيره في الآخرة، وهو يطمع أن يعفو الله عنه؛ لأجل قرابته منه.

ولعل نوحًا ظن أن وعد الله له بنجاة أهله أمر عام، يشمل من آمن ومن لم يؤمن، فدعا ربه أن ينجي ابنه وفوض الأمر إليه، وهذا بمنزلة الشفاعة له بداعي الشفقة والرحمة بابنه.

ولم يكن نوح منهيًا عن سؤال المغفرة للكافر، فكان حاله كحال أبي طالب قال له النبي ﷺ: «لأستغفرن لك ما لم أنه عن ذلك»، وكان هذا قبل أن ينزل قوله تعالى: ﴿مَا كَانِ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا أَنْ يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوا أُولَىٰ قُرْبَىٰ مِنْ بَعْدِ مَا بَيَّنَّ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ﴾ [التوبة].

وقد اقتصر نوح في دعائه لربه على جمل ثلاث؛ تعريضًا بالمطلوب، وتأديبًا مع ربه؛ وهي:

١- ﴿إِنَّ ابْنِي مِنْ أَهْلِي﴾. ٢- ﴿وَإِنَّ وَعْدَكَ الْحَقُّ﴾. ٣- ﴿وَأَنْتَ أَهْكُمُ الْحَكِيمِينَ﴾.

قال نوح مستعطفًا ربه: إن ابني كنعان قطعة مني، وقد وعدتني أن تُنجيني وأهلي من الغرق والهلاك، فأسألك أن ترحمه برحمتك، وإن وعدك لعبادك هو الوعد الحق الذي لا يُخلف، وأنا أطمع في عفوك عن ابني، وفي رحمتك به، وأنت أحكم الحاكمين وأعدلهم.

قَرَابَةُ الْإِيمَانِ أَقْوَى مِنْ قَرَابَةِ النَّسَبِ

٤٦- ﴿قَالَ يَنْتُحِ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ^(١) غَيْرٌ صَالِحٌ فَلَا تَسْأَلْنِي^(٢) مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ^(٣)﴾ إِنَّي^(٤) أَعْظُكَ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ ﴿٤٦﴾

أجاب الله سبحانه نوحًا بأن قرابة الإيمان أقوى من قرابة النسب، فقال له: يا نوح إن ابنك الذي هلك ليس من أهلك الذين وعدتك بنجاتهم؛ لأنه لا علاقة بين مسلم وكافر، فالرابطة بينكما قد انقطعت بسبب كفره، فليس المراد نفي أن يكون ولده من صلبه، وإنما المراد نفي كونه على دينه وعقيدته، إنه صاحب عمل غير صالح، أو إنه عَمِلَ عملاً غير صالح؛ وهو الكفر والعصيان كما في القراءة الأخرى.

(١) قرأ الكسائي ويعقوب (إنه عمل) بكسر الميم وفتح اللام على أنه فعل ماضٍ، و(غير) بالنصب مفعولاً به، أو صفة لمصدر محذوف؛ أي: عَمِلَ عملاً غير صالح، والجملة خبر (إن)، والباقيون بفتح الميم ورفع اللام منونة من (عمل) خبر (إن) و(غير) بالرفع صفة، على معنى: إنه ذو عمل، أو جعل ذاته ذات العمل مبالغة في الذم على حد قولهم: رجل عدل.

(٢) في (فلا تسألن) سبع قراءات:

أ- بكسر النون مشددة مع حذف الياء في الحالين وفتح اللام، هكذا (تسألن) لقالون والأصبهاني عن ورش وابن ذكوان.

ب- بكسر النون مشددة وإثبات الياء وصلًا لا وقفًا مع فتح اللام، هكذا (تسألني) وصلًا، وهكذا (تسألن) وقفًا للأزرق عن ورش وأبي جعفر.

ج - بفتح النون مشددة وحذف الياء في الحالين مع فتح اللام، وهكذا (تسألن) لابن كثير.

د- بكسر النون مخففة وإثبات الياء وصلًا لا وقفًا مع إسكان اللام، هكذا (تسألني) وصلًا، و (تسألن) وقفًا لأبي عمرو.

هـ- بكسر النون مخففة وإثبات الياء مع إسكان اللام، هكذا (تسألني) ليعقوب في الوصل والوقف.

و- بفتح اللام وتشديد النون مع فتحها وكسرها، هكذا (تسألن) و(تسألن) لهشام عن ابن عامر.

ز- بكسر النون مخففة وحذف الياء في الحالين، مع إسكان اللام، هكذا (تسألن) وصلًا ووقفًا.

والنون المشددة المفتوحة هي نون التوكيد الثقيلة، والنون المشددة المكسورة هي نون التوكيد الخفيفة، أدغمت في نون الوقاية، والنون المكسورة المخففة هي نون الوقاية، وحذف الياء لغة هذيل، وإثباتها لغة الحجازيين.

(٣) قرأ نافع وابن كثير وأبو عمرو وأبو جعفر بفتح ياء الإضافة من (إنني أعظك) و(إنني أعوذ بك) في الآية التالية، والباقيون بإسكانهما، وهما لغتان.

وإني أنهارك أن تسألني أمراً لا علم لك به، أو تلمس مني ملتصماً لا تعلم وجه الصواب فيه، وإني أعظك لئلا تكون من الجاهلين بسؤالك إياي ما لا تعلمه، وهكذا نهى الله نوحاً أن يراجعه بعد ذلك في أحد، قال له رب العالمين: ﴿إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ﴾ الذين آمنوا معك، فالرابط بين الناس هو الإيمان والعقيدة، وإن رابطة الدم والعشيرة والوطن والجنس واللون كلها روابط لا تُغني من الله شيئاً ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَسُوا لَا تَتَّخِذُوا ءَابَاءَكُمْ وَإِخْوَانَكُمْ أَوْلِيَاءَ إِنِ اسْتَحَبُّوا الْكُفْرَ عَلَى الْإِيمَانِ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ فَوَلَّيَكَ هُمْ أَظْلِمُونَ﴾ [التوبة].

ومن الأمثلة على ذلك: نوح مع ابنه وزوجته، ولوط مع زوجته، وفرعون مع زوجته، وإبراهيم وأبوه، وإبراهيم وذريته فقد قال تعالى: ﴿إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا قَالَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي﴾ يكونون أئمة، قال سبحانه: ﴿لَا يَتَأَلَّ عَهْدِي الظَّالِمِينَ﴾ [البقرة: ١٢٤].

ندم نوح ندامة شديدة على ما صدر منه، وسأل ربه الرحمة والمغفرة:

٤٧- ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَشْكَكَ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ وَإِلَّا تَغْفِرْ لِي وَتَرْحَمْنِي أَكُنْ مِنَ الْخَسِرِينَ﴾
أجاب نوح ربه بما يفيد التنضّل مما سأل، فاستعاذ بالله تعالى أن يسأله ما ليس له به علم، فقال معتذراً عما صدر منه ملتصماً الصفح والعتو من ربه: رب إني أستجير بك، وأعتصم بكتابك، وأحتمي بحماك أن أسألك أمراً لا يليق بي سؤاله، ثم سأل نوح ربه المغفرة والرضوان فقال: وإلا تغفر لي زلّتي، وتنداركني برحمتك الواسعة، أكن من الذين حجبوا أنفسهم عن حظوظها الدنيوية والأخروية.

ومن هذا يتبين أن نوحاً لم يكن على علم بأنه لا يجوز له أن يسأل الله تعالى نجاة ابنه، ثم تبين له ذلك بعد أن أعلمه الله تعالى.

نَجَاةُ نُوحٍ وَالْمُؤْمِنِينَ مَعَهُ

٤٨- ﴿قِيلَ يٰنُوحُ اهْبِطْ بِسَلَامٍ مِنَّا وَبَرَكَاتٍ عَلَيْكَ وَعَلَىٰ أُمَمٍ مِّمَّنْ مَعَكَ وَأُمُّهُمْ سَمِعَتْهُمْ نُمْ يَمْسُكُهُمْ مِنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [٤٨]

ثم بشر الله نوحاً بقبول إنابته إلى الله، ونجاته من الغرق هو ومن آمن معه؛ بأن يهبط

من السفينة إلى الأرض مصحوبًا بالاطمئنان والسلامة، والبركات والخيرات العظيمة، له ولذريته ومن كان معه في السفينة، وسلام من الله عليه وعليهم، ويدخل في هذا كلُّ مؤمن إلى يوم القيامة، ولولا عناية الله تعالى به وبمن معه لما نجت السفينة.

وهناك جماعات وأمم أخرى -من أهل الشقاء- نمتعهم في الدنيا متاعًا حسنًا، وهم الكفرة المجرمون، إلى أن تنتهي أعمارهم، ثم ينالهم في الآخرة عذاب موجع؛ جزاء كفرهم وتكذيبهم.

وفي هذا إشارة إلى أنه سيكون من ذرية نوح مؤمنون وكافرون، أهل سعادة وأهل شقاء، ومثل ذلك كل من نجّاهم الله تعالى معه، وكل من أهلكهم في كل أمة من الأمم؛ قوم عاد وقوم ثمود وقوم لوط وقوم شعيب وغيرهم.

تَغْيِيبُ عَلَى قِصَّةِ نُوحٍ

قال الله تعالى لنوح بعد ما قص عليه هذه القصة التي لا يعلمها إلا من من الله عليه بالرسالة:

٤٩- ﴿تِلْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهَا إِلَيْكَ مَا كُنْتَ تَعْلَمُهَا أَنْتَ وَلَا قَوْمُكَ مِنْ قَبْلِ هَذَا فَاصْبِرْ إِنَّ الْعَاقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٤٩﴾﴾

ويأتي التعقيب الأخير على قصة نوح عليه السلام وقومه، بأنها من أخبار الغيب بالنسبة إلى العرب كلهم، فهم لا يعلمون إلا ما كان في الزمن الغابر، من وجود نبي اسمه نوح أصاب قومه الطوفان، وما عدا ذلك فهو غيب بالنسبة إلى جميع الأمم، فهم لا يعلمون قصة ابنه الرابع، ولا ما دار بين نوح وبين ربه من حوار، ولا ما دار بينه وبين قومه من جدال، ولا ما كان من سخريتهم منه وهو يصنع السفينة.

فهذه القصة وأشباهاها من أخبار الغيب التي لم تشهد لها أيها الرسول، ولا تعلمها أنت، ولا قومك بهذا البيان الواضح، وقد أوحيناها إليك بواسطة جبريل عليه السلام.

فاصبر على تكذيب قومك وإيذائهم لك كما صبر الأنبياء قبلك، وتحمل المشاق في سبيل الدعوة، فإن العاقبة المحمودة في الدنيا والآخرة لمن اتقى الله وخشي لقاءه.

وقد كان محمد ﷺ أميًا، فمن الذي أعلمه بهذا البيان والتفاصيل لهذا التاريخ القديم؟

إن هذا أكبر دليل على صدق ما جاء به محمد ﷺ، فخذ العبرة من القصة، فإن الله تعالى قد أهلك بالطوفان أول قوم أشركوا بالله، ونوح ﷺ من أولي العزم من الرسل، ولك فيه أسوة حسنة.

الْقِصَّةُ الثَّانِيَّةُ: قِصَّةُ هُودٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ

٥٠- ﴿وَالْإِنِّ عَادَ أَخَاهُمْ هُودًا قَالَ يَنْفَوْرُ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ^(١) إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا مُفْتَرُونَ﴾

نبي الله هود ﷺ هو الذي سميت السورة باسمه، وهو أول نبي تكلم بالعربية، وهو أحد أنبياء أربعة بُعثوا في العرب من قبائل العرب، وهم: هود وصالح وشعيب ومحمد عليهم جميعاً أفضل الصلاة وأتم السلام، والمصدر الوحيد للحديث عن هؤلاء الرسل الأربعة هو القرآن الكريم؛ حيث لم تتعرض الكتب الحالية التي بين أيدي أهل الكتاب، من اليهود والنصارى، إلى ذكر هؤلاء الرسل، إلا ما جاءت به البشرية من رسالة محمد ﷺ؛ لأنهم جميعاً من قبائل العرب، وأرسل ثلاثة منهم إلى العرب، أما محمد ﷺ فرسالته عامة إلى الإنس والجن، وإلى أن يرث الله الأرض ومن عليها.

وهود ﷺ ذكر في القرآن سبع مرات، وذكرت قصته بالتفصيل في سورة الأعراف والشعراء والأحقاف، وقد أرسله الله ﷻ إلى قوم عاد، وهي قبيلة من قبائل العرب البائدة التي أهلكت، وقوم عاد ينتسبون إلى جدهم الأكبر (إرم) وإرم هو ابن سام بن نوح عليه الصلاة والسلام.

وكانوا يسكنون الأحقاف، وهي جبال رملية تقع في الربع الخالي جنوب شبه الجزيرة العربية، وليس بها اليوم أنيس ولا جليس.

وقوم عاد هم (عاداً الأولى) الذي قال الله عنهم في سورة الفجر: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ ﴿٦﴾ إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ ﴿٧﴾ الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلَادِ ﴿٨﴾﴾ [الفجر].

وسميت المدينة التي شيدوها باسم جدهم إرم.

(١) قرأ الكسائي وأبو جعفر بخفض الراء وكسر الهاء من (غيره) على أنها نعت أو بدل من (إله) لفظاً، وقرأ الباقون برفع الراء وضم الهاء على أنها نعت أو بدل من (إله) محلاً؛ لأن (من) زائدة و (إله) مبتدأ.

أما (عاد) الآخرة فهم قوم ثمود، الذين جاؤوا من بعد قوم هود، ونبیهم صالح عليه السلام، وبين (عاداً الأولى) و(عاداً الآخرة) نحو مئة عام، والقرآن يشير إليهما في قوله تعالى: ﴿وَأَنَّهُ أَهْلَكَ عَادًا الْأُولَىٰ (٥٠) وَثَمُودًا مَّا أَتَىٰ (٥١)﴾ [النجم].

وقوم عاد كانوا أشداء في قوتهم وأجسامهم، تنزل الأرض تحت أقدامهم، أعطاهم الله نعمًا كثيرة، فهم أهل زروع وبساتين، يشيّدون المصانع والقصور لمجرد العبث والفخر، وعن قوتهم وبطشهم وتكبرهم يقول الله تعالى: ﴿فَأَمَّا عَادُ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَقَالُوا مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا الَّذِي خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً﴾ [فصلت: ١٥].

وقوم عاد هم أول من عبدوا الأصنام بعد أن طوى الطوفان قوم نوح الذين أشركوا بالله تعالى، ومحا آثارهم من الحياة، واستبعدوا من رحمة الله، وكانوا من الذين قال الله فيهم: ﴿وَأُمَمٌ سَتَمِعُ لَهُمْ ثُمَّ يَمَسُّهُمْ مِنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [هود: ٤٨].

ولعل السبب في عبادة قوم عاد للأصنام، أنهم غالوا في محبة الذين نجوا في السفينة مع نوح عليه السلام، فكان هذا هو الطريق إلى عبادة الأصنام بعد عهد نوح عليه السلام، وقد اصطفى الله من قوم عاد هودًا عليه السلام؛ ليذكّرهم بالأمم السابقة، وما حلّ بهم من العذاب، وضرب لهم المثل بقوم نوح، ويبيّن لهم أن الله تعالى قد استخلفهم في الأرض بعدهم، وذكرهم بنعمة الله عليهم، وأن الله تعالى قد أعطاهم بسطة وقوة في الجسم، وأعطاهم من نعم الله أموالاً وبنين.

ثَلَاثَةُ نِدَاءَاتٍ مِنْ هُودٍ إِلَى قَوْمِهِ

النِّدَاءُ الْأَوَّلُ: يَا مَرْهُمُ فِيهِ بِعِبَادَةِ اللَّهِ وَخُدُّهُ

ثم لفت هود أنظار قومه إلى أن عبادة الأصنام لا تنفع ولا تضر، فلا تعبدوها يا قوم، ولكن اعبدوا الله الواحد القهار، وعبادة الله تعالى تقتضي توحيده سبحانه، وعدم الإشرak به.

وتقتضي بالضرورة التوجه بالعبادة إلى الله وحده؛ من صلاة وزكاة وصيام وعمره وحج ودعاء ونذر وذبح واستعانة واستغاثة وما إلى ذلك، وتقتضي تحكيم شرع الله فيما شجر بين الناس، وإقامة منهجه تعالى في جميع شؤون الحياة؛ من تعليم وإعلام وسياسة

واققتصاد وعلاقات داخلية وخارجية وغير ذلك، وتقتضي إخراج الناس من عبادة البشر إلى عبادة الله الواحد الديان، وهذا معنى: ﴿اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ﴾ فإن عبدتم غير الله فأنتم قوم مفترون.

ومعنى الآية: وكما أرسلنا نوحًا إلى قومه ليأمرهم بعبادة الله وحده، أرسلنا إلى قبيلة عاد أخاهم في النسب هودًا عليه السلام، نبيًا ورسولًا، يأمرهم بعبادة الله الخالق الرازق، المحيي المميت؛ إذ ليس لكم معبود يستحق العبادة سواه، فأخلصوا له الطاعة ولا تشركوا معه أحدًا في عبادته، فأنتم في عبادتكم غير الله متعمدون الكذب والافتراء، وهذا هو النداء الأول من هود لقومه.

النداء الثاني: أَنَّهُ لَا يَطْلُبُ مِنْهُمْ أَجْرًا

٥١- ﴿يَقُولُ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِنْ أَجَرْتُ^(١) إِلَّا عَلَى الَّذِي فَطَرَنِي^(٢)﴾ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٥١﴾

يقول هود عليه السلام: ﴿يَقُولُ﴾ يا أهلي وعشيرتي، ﴿لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا﴾ أنا لا أطلب منكم على النصيح والبلاغ جزاء ولا ثوابًا، لقد أراد هود أن يزيل ما في نفوسهم من أنه ربما يبتغي منهم الأجر الذي يجعله موسرًا فيهم، فبادرهم بقوله: يا قوم لا أسألكم على تبليغ الدعوة أجرًا، أي لا أطلب منكم غرامة مالية على دعوتي إليكم، حتى تُثقل كاهلكم وتكون عبئًا عليكم، فليس هناك مانع من استجابتكم لي وانقيادكم لأمر الله تبارك وتعالى.

فالدعوة إلى الله لا تصلح إلا إذا كانت خالصة لوجهه الكريم، وأنا لا أسأل الأجر إلا من الله، ﴿إِنْ أَجَرْتُ إِلَّا عَلَى الَّذِي فَطَرَنِي﴾ ولعل القوم قد اتهموه بذلك، فقال لهم كما قال نوح لقومه: ﴿لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مَالًا إِنْ أَجَرْتُ إِلَّا عَلَى اللَّهِ﴾ [هود: ٢٩]

﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ فلا تميزون بين الحق والباطل، وتجهلون ما هو واضح من الأمور أن أجز الناصح المخلص على رب العالمين، رازق الخلق أجمعين، فما أدعوكم إليه موجب لقبوله.

(١) قرأ نافع وأبو عمرو وابن عامر وحفص وأبو جعفر بفتح ياء الإضافة من (أجري إلا) وصلًا، والباقيون بإسكانها.

(٢) قرأ نافع والبزي وأبو جعفر بفتح الياء من (فطرني أفلا) وصلًا، والباقيون بإسكانها.

النِّدَاءُ الثَّالِثُ: يَطْلُبُ مِنْهُمْ فِيهِ الْاسْتِغْفَارَ وَالنُّوبَةَ

٥٢- ﴿وَنَقُورِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا وَيَزِدَّكُمْ قُوَّةً إِلَى قُوَّتِكُمْ وَلَا تَتَوَلَّوْا مُجْرِمِينَ ﴿٥٢﴾﴾

يقول هود: يا قوم، اطلبوا مغفرة الله بالإيمان به، لقد وجههم هود ﷺ أن يستغفروا الله من الكفر والشرك، وأن يتوبوا إليه من عبادة الأوثان، ويتوجهوا له وحده بالعبادة، ومن نتائج ذلك أنه سبحانه ينزل عليكم الأمطار - وكانوا في حاجة ماسة إليها؛ لأنهم أهل نخيل وزروع - ويرزقكم من الخيرات، ويزدكم قوة إلى قوتكم، فقد كانوا من أقوى الناس، ولذا قالوا: ﴿مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً﴾ فوعدهم الله تعالى إن آمنوا أن يزيدهم قوة إلى قوتهم.

فيا قوم، اعبدوا الله واستغفروه وتوبوا إليه، واطلبوا ذلك بالإيمان، والإقلاع عن الشرك، ثم استقيموا على دين الله، فإنكم إن فعلتم ذلك زادكم الله عزاً إلى عزكم، وقوة إلى قوتكم، ووهبكم الأموال الطائلة، والأرزاق المتتابعة؛ فتكثر خيراتكم، وتزداد ذريعتكم، وتتابع النعم عليكم.

قال الشعبي: خرج عمر بن الخطاب يستسقي فلم يزد على الاستغفار حتى رجع، فقليل له: ما رأيك استسقيت؟ قال: لقد طلبت المطر بمجاديح السماء التي يستنزل بها المطر، ثم قرأ الآية وقرأ ﴿فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا ﴿٥٢﴾ يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا﴾ [نوح: ١٠، ١١].

رُوي أن المطر حُبس عنهم ثلاث سنين - وكانوا أهل زروع وبساتين وعمارات - فوعدهم الله على لسان هود ﷺ كثرة الأمطار والأرزاق ومضاعفة القوة بالتناسل، إن هم استغفروا ربهم من الشرك، ورجعوا إليه بالطاعة والعبادة، ولم يصروا على شركهم ويعرضوا عن دعوته.

تَطَاوُلُ قَوْمِ عَادٍ عَلَى هُودٍ وَسُخْرِيَّتُهُمْ مِنْهُ

٥٣- ﴿قَالُوا يَا هُودُ مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِي آلِهَتِنَا عَنْ قَوْلِكَ وَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ ﴿٥٣﴾﴾

لقد تودّد هود إلى قومه بالنداءات الثلاثة السابقة، وناشدهم بأصرة القرابة التي تجمعهم

به، واستشار مشاعرهم، فرغبهم في الاستجابة إليه، وحذّرهم من الإعراض عن دعوته، فإن فيها الطمأنينة والسعادة في الدارين، وإن الرائد لا يكذب أهله.

فما كان من قوم هود إلا أن أعرضوا عنه وعن دعوته، وقابلوها بالتطاول عليه والسخرية منه، وقالوا له: ما جئتنا بمعجزة ولا بحجة واضحة تقنعنا بأنك رسول الله، وأنت على حق فيما تدعو إليه، حتى نطمئن إلى صحة ما تقول، وترضى نفوسنا عما تطلب منا.

ولفرط عنادهم وشدة عَمَاهُم عن الحق، أصروا على استمرارهم على عبادة الأوثان، وعدم تصديق هود في دعوته، فقالوا: ﴿وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِي آلِهَتِنَا عَنْ قَوْلِكَ﴾ أي: من أجل قولك، وفي هذا تقنيط من إيمانهم وإصرار على كفرهم، وكانوا قد قالوا قبل ذلك:

يا هود، ليس معك آية تؤيد أنك مرسل من عند الله.

وهكذا سائر الأمم كانوا يقترحون على أنبيائهم أن يكون معهم آيات تؤيد أنهم رسل من عند الله، فسألوا محمداً ﷺ أن يُنزل عليهم ملكاً، أو يُفجر لهم الأرض ينبوعاً، أو يُلقي إليه كنزاً، أو تكون له جنة يأكل منها.

ودعوة التوحيد لا تحتاج إلى بينة، ولا تحتاج إلى برهان أو آية مما طلبوا، وقد أخبر النبي ﷺ أنه ما من نبي بعث إلا آتاه الله من الآيات -المعجزات- ما آمن على مثله البشر، وإن الذي أوتيهِ وحياً -قرآناً- وهو يرجو أن يكون أكثر الرسل تابعا.

وبدل أن يؤمن قوم هود به اتهموه بالسفه والجنون:

٥٤، ٥٥- ﴿إِنْ تَقُولُ إِلَّا اعْتَرَاكَ^(١) بَعْضُ آلِهَتِنَا بِسُوٍّ قَالَ إِنِّي^(٢) أَشْهَدُ اللَّهَ وَأَشْهَدُوا أَنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ^(٣)﴾ مِنْ دُونِهِ فَكِدُونِي جَمِيعًا ثُمَّ لَا تُنْظَرُونَ^(٤) ﴿٥٥﴾

ثم نسبوا هوداً إلى الخبل، وأنه صار يهذي ويتخبط؛ لأن آلهتهم قد أضرتهم، فقالوا له: ﴿إِنَّا لَنَرَاكَ فِي سَفَاهَةٍ وَإِنَّا لَنَظُنُّكَ مِنَ الْكَاذِبِينَ﴾ [الأعراف: ٦٦] وقالوا له: إن بعض

(١) أمال (اعتراك) حمزة والكسائي وخلف وأبو عمرو وابن ذكوان بخلف عنه، وقللها ورش.

(٢) قرأ نافع وأبو جعفر بفتح ياء الإضافة من (إني أشهد الله)، والباقون بإسكانها.

(٣) عدّ المصحف الكوفي والحمصي (مما تشركون) آية، وأسقطها غيرهما من العدد.

(٤) أثبت يعقوب ياء (ثم لا تنظرون) وصلاً ووقفاً وحذفها غيره.

آلهتنا التي شتمتها ونهيتنا عنها ستمسك بسوء، وإن بك سفهاً وجنوناً، فما يحملك على ذم آلهتنا إلا أنه قد أصابك منها سوء.

قال لهم هود بعد أن استمع إلى ردهم القبيح متبرئاً من شركهم، ومتحدّياً طغيانهم، ومعمداً على الله وحده في التصدي لهم، والاستمرار في دعوتهم، فمنه النصر وعليه الاعتماد، قال لهم هود، وهو واثق غاية الوثوق أنه لا يصيبه منهم ولا من آلهتهم أذى: إن لم تستجيبوا إلى دعوتي فأني أشهد الله على ما أقول، واشهدوا أنتم عليّ أنني بريء من هذه الآلهة التي تعبدونها من دون الله، وإنني مضّر على دعوتي لكم وإن اجتمعتم على قتلي، فأجمعوا أمركم، وانظروا في شأني، واحتملوا في هلاكي، واجتهدوا أنتم ومن زعمتموهم آلهة في إلحاق الضرر بي، ولا تمهلوني طرفة عين.

وبهذا فإن هوداً حقّر آلهتهم، وتبرّأ من شركهم، واستخفّ بهم، وتحداهم بأنه لن يكف عن الجهر بدعوته، ولن يتراجع عن احتقار باطلهم، وأطلق يدهم في تدبير المكاييد له، مع أنه رجل واحد، بين جمٍّ غفير من عتاة عاد الغلاظ الشداد، وهم متعطشون إلى إراقة دمه، وما ذلك إلا لأن هوداً واثق كل الوثوق أنه لا يصيبه منهم ولا من آلهتهم أذى، واثق بنصر الله تعالى وتأييده له؛ ولذا فإنه يتحداهم بثقة واطمئنان؛ لأنه واثق من عجزهم عن كيد، وبمثل ما قال قوم هود لنبيهم قال قوم نوح له: ﴿إِنَّا لَنَرَاكَ فِي سَفَاهَةٍ وَإِنَّا لَنُظُنُّكَ مِنَ الْكَاذِبِينَ﴾ [يونس: ٧١].

هُودٌ يَرْفَعُ دَرَجَةَ التَّحْدِي غَيْرَ مُبَالٍ بِهِمْ

٥٦ - ﴿إِنِّي نَوَّكَتُ عَلَى اللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُمْ مَا مِنْ دَابَّةٍ إِلَّا هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا إِنَّ رَبِّي عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾

قال لهم هود: وهو يرفع درجة التحدي غير مبال بجبروتهم وطغيانهم، وقسوة قلوبهم، وغير مبال بآلهتهم التي زعموا أنها تضره، مع كونها جماد لا تعقل! قال في ثقة عالية وشجاعة نادرة: إِنَّ تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ -الذي هو ربي وربكم- مع ضعفي وانفرادي، وقوتكم وكثرتكم، تمنعني منكم، وتحجز بيني وبينكم، فيحول ذلك دون أن تمسوني بسوء، فقد لجأت إلى الله، واعتصمت بجناحه، ولذت بحماه، وهو مالك أمري وأمركم، وهو رب

(١) قرأ رويس وقنبل بخلف عنه بالسین في (صراط)، والباقون بالصاد، ومعهم قبل في الوجه الثاني.

كل شيء ومليكه، والمتصرف فيه كيف يشاء وفق علمه وحكمته.

ثم وصف هود عليه السلام قدرة الله تعالى وعظيم ملكه بقوله: ﴿مَا مِنْ دَابَّةٍ إِلَّا هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا﴾ ليس من شيء يدب على هذه الأرض إلا والله مالكة، وهو في قبضته وتحت قهره وسلطانه، فكيف أخشى دواباً مثلكم، مع توكلي على الله ربي وربكم ﴿وَمَنْ يَعْصِمْ بِاللَّهِ فَقَدْ هُدِيَ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ [آل عمران: ١٠١] ومن يتوكل على ربه، ويلجأ إلى خالقه يبدل الله خوفه أمناً، وضعفه قوة، وزله عزاً ﴿وَاللَّهُ الْعَزِيزُ الرَّسُولُ﴾ [المنافقون: ٨].
والأخذ بالناصية تعني: إحكام قبضة القوي القاهر المالك لمن يأخذ بزمام أمره.

ثم وصف هود عليه السلام ربه بوصف آخر: فبين أن أفعاله جل شأنه في غاية الإحكام، فهو سبحانه عدل في قضائه وشرعه وأمره، يجازي المحسن بإحسانه، والمسيء بإساءته، وما دام هذا هدي الله وسنته في خلقه، فلن يسلطكم عليّ؛ لأنه لا يسلط أهل الباطل على أهل الحق، ولا يظلم أحداً شيئاً، ولا يضيع عنده من اعتصم به ﴿وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ﴾ إِنَّ اللَّهَ بَلِغُ أَمْرِهِ ﴿[الطلاق: ٣].

هُودٌ يُحَذِّرُ قَوْمَهُ مِنْ سُوءِ الْعَاقِبَةِ

٥٧- ﴿إِنْ تَوَلَّوْا^(١) فَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ مَا أُرْسِلْتُ بِهِ إِلَيْكُمْ وَيَسْتَخْلِفُ رَبِّي قَوْمًا^(٢) غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّوهُ شَيْئًا إِنْ رَبِّي عَلَى كُلِّ شَيْءٍ حَفِيزٌ ﴿٥٧﴾﴾

ختم هود عليه السلام رده على قومه بتحذيره لهم من سوء عاقبة إصرارهم على الكفر والعناد، فبين لهم أنه ليس عليه همّ منهم إن أعرضوا عنه بعد أن قام بما أوجبه الله عليه، فأبلغهم رسالة ربه ودعاهم إلى توحيد الله وإخلاص العبادة له، فقد برئت ساحته بالتبليغ، والذنب يقع عليهم بالإعراض عن الإيمان، فما على الرسول إلا البلاغ.

ثم توعدهم هود عليه السلام بالهلاك، وإحلال قوم آخرين مكانهم يخلفونهم في ديارهم وأموالهم، ويخلصون لله التوحيد والطاعة والعبادة؛ وذلك بسبب إصراركم على الكفر وعدم إيمانكم.

(١) شدد البري التاء من (فإن تولوا) وصلاً، وخففها غيره.

(٢) أخفى التنوين في الغين من (قوماً غيركم) أبو جعفر، وورق راء (غيركم) ورش.

وبذهابكم وهلاككم لا تضرون الله شيئاً، فملكه لن ينقص، ونظامه لن يختل، والضرر سيعود عليكم، فأنتم الذين تضرون أنفسكم بتعريضها للهلاك في الدنيا وللعذاب الدائم في الآخرة، والله تعالى لا تضره معصية العاصين، ولا تنفعه طاعة المطيعين ﴿مَنْ عَمِلْ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا﴾ [فصلت: ٤٦]

ثم أخبر هود قومه بأن ربه حفيظ على كل شيء عالم به، وهو الذي يحفظه من أن تمتد إليه أيديهم أو يمسوه بسوء، ويحفظه من شرهم ومكرهم، فأعمالهم لا تخفى عليه، وهو الرقيب والمهيمن، والقائم على كل نفس بما كسبت.

وفي هذا تنبيه وتذكير لهم بأنه سبحانه لا يغفل عن مؤاخذتهم وعقوبتهم، وأنه يحفظ دينه وأوليائه من الأذى والضياع.

الْعُقَابُ الْحَاسِمُ لِلْعَمَالِقَةِ الْمُغْرُورِينَ

٥٨ - ﴿وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَحْنُ هُودًا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَنَجِّنَهُمْ مِنْ عَذَابٍ ^(١) غَلِيظٍ﴾

ولما جاء أمر الله بهلاك قوم عاد، ونزول العذاب بهم، وهو ما نزل بهم من الريح العقيم التي تحملهم وتضرب الأرض بهم بشدة وعنف، فإذا رؤوسهم تطيح وأبدانهم تبقى ﴿كَأَنَّهُمْ أَصْنَاءُ نُحُلٍ مُتَفَعِّرٍ﴾ [القمر: ٢٠].

وهي ريح عاصفة ﴿مَا نُذِرُ مِنْ شَيْءٍ أَنتَ عَلَيْهِ إِلَّا جَعَلْتَهُ كَالرَّيْمِ﴾ [الذاريات: ٤٢]

أما هود والمؤمنون معه، فقد كان لهم شأن آخر، لقد خلصهم الله من العذاب الشديد، والريح المدمرة التي كانت تهدم مساكن المكذبين، وتدخل في أنوفهم فتخرج من أذبارهم، وتضرعهم على وجوههم، وكان هود قد دعا ربه طالباً منه النصرة ﴿قَالَ رَبِّ انصُرْنِي بِمَا كَذَّبُونَ﴾ [المؤمنون] أجاب الله دعاءه فقال له: ﴿عَمَّا قَلِيلٍ لَيُصْبِحُنَّ نَادِمِينَ﴾ [المؤمنون: ٤٠].

وكان قوم هود قد استعجلوا نزول الهلاك بهم فقالوا: ائتنا بالعذاب إن كنت من الصادقين في دعواك، وأن العذاب نازل بنا إن كذبتك، وكانوا ينتظرون المطر لما أصابهم من القحط الشديد، فإذا سحب كثيف يظلهم، فاستبشروا وتوقعوا أنه يحمل لهم الأرزاق

(١) قرأ أبو جعفر بإخفاء التنوين عند الغين من (عذاب غليظ)، والباقون بالإظهار.

والأمطار ﴿فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضًا مُّسْتَقْبِلَ أَوْدِيَّتِهِمْ قَالُوا هَذَا عَارِضٌ مُّمْطِرُنَا﴾ .

قال ﴿٢٤﴾: ﴿بَلْ هُوَ مَا اسْتَعْجَلْتُمْ بِهِ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [الأحقاف: ٢٤] هي ريح عاتية، تحمل لكم العذاب الشديد، وهي ﴿تُدَمِّرُ كُلَّ شَيْءٍ بِأَمْرِ رَبِّهَا﴾ فكانت هذه الريح تدخل في أفواههم، وتخرج من أدبارهم، وتقتلع المنازل والأمتعة والدواب، ولما أغلقوا أبوابهم، أخذت الريح تدخل عليهم بيوتهم وأكواخهم، وتدمر كل شيء ﴿فَأَصْبَحُوا لَا يُرَى إِلَّا مَسَكِنُهُمْ﴾ [الأحقاف: ٢٥] وفي قراءة (فأصبحوا لا ترى إلا مساكنهم) فأرسل الله عليهم ريحاً صرصراً عاتية في أيام نحسات متتابعات؛ ليزيقهم عذاب الخزي في الحياة الدنيا، قال تعالى: ﴿وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُوا بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ ﴿٦١﴾ سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَفَنِيَةً يَتَارِحُوسُونَ ﴿٦٢﴾ فَلَقَوْمٌ فِيهَا صَرَغِي كَانَتْهُمْ أَعْجَازُ مُخْلِ حَاوِيَةٍ ﴿٦٣﴾ فَهَلْ تَرَى لَهُمْ مِنْ بَاقِيَةٍ ﴿٦٤﴾﴾ [الحاقة].

لقد انفرد قوم عاد بالقوة والجبروت في الأرض ﴿فَأَمَّا عَادٌ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَقَالُوا مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً﴾ [فصلت: ١٥]

لقد نسيت قبيلة عاد ربها، واغترت بسلطانها وقوتها، فكانت نهايتها وخيمة.

هذه عاد الأمس، ونحن نعيش عصرها اليوم ممثلة في القوة المنفردة بالبطش والسلطان والجبروت في الأرض، وهم ليسوا أعز على الله ممن سبقهم.

﴿أَكْفَارُكُمْ خَيْرٌ مِنْ أُولَئِكَ أَمْ لَهُمْ بَرَاءَةٌ فِي الزُّبُرِ﴾ [القمر]

﴿وَكَذَلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرْآنَ وَهُوَ ظَلِيمٌ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ﴾ [هود].

«إن الله ليملي للظالم حتى إذا أخذه لم يفلته»^(١).

إن الريح التي أهلكت قوم عاد جند من جند الرحمن قد يسلطها الله على عاد اليوم - كما سلطها على عاد الأمس - أهلكتهم وأبادتهم.

لقد أوقع الله بقوم عاد ما أوقع من العذاب، بسبب كفرهم وعنادهم وتكذيبهم لنبيهم:

٥٩- ﴿وَتِلْكَ عَادٌ جَحَدُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَعَصَوْا رُسُلَهُ وَاتَّبَعُوا أَمْرَ كُلِّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ ﴿٥٩﴾﴾

(١) يأتي تخريجه في الآية (١٠٢).

(٢) قرأ بالإمالة في (جبار) أبو عمرو ودوري والكسائي وابن ذكوان بخلف عنه وقله ورش.

تلك قصة قبيلة عاد مع نبيهم هود، وتلك آثار المكذبين برسل الله، لا ترى لهم من باقية، فسيحوا في الأرض وانظروا ماذا حلّ بمن كفر بالله، وكذب رسل الله، وأنكر آياته الدالة على وحدانيته تعالى، في الأنفس والآفاق وهذه الإشارة بـ(تلك) للبعيد؛ تحقيراً لهم، وتهويناً من شأنهم، بعد أن ذهبوا، وبُعِدوا عن الأنظار والأفكار، وقد كانوا يقولون: من أشد منا قوة؟ فانظروا إلى قبورهم وآثارهم.

ثم بيّن سبحانه سبب استحقاقهم للعذاب، لقد استحقوا هذا العذاب الغليظ؛ بسبب جحودهم لحجج الله وبراهينه التي جاءهم بها هود من عند ربه، فعصوا رسل الله، وأطاعوا أمر كل مستكبر على الله، لا يقبل الحق، ولا يذعن له، والذي حملهم على هذا الإنكار هو الظلم والاستكبار، أما قلوبهم فهي مستيقنة من وحدانية الله تعالى بموجب الفطرة التي فطر الله الناس عليها، كما قال تعالى: ﴿وَحَدَّوْا بِهَا وَاسْتَيْقَنْتَهَا أَنْفُسُهُمْ ظُلُمًا وَعُلُوًّا﴾ [النمل: ١٤]

وقال سبحانه: ﴿وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلَّا الظَّالِمُونَ﴾ [العنكبوت: ٤٩]

وقال جل شأنه: ﴿وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلَّا الْكَافِرُونَ﴾ [العنكبوت: ٤٧]

وقال ﷻ: ﴿وَلَكِنَّ الظَّالِمِينَ بِآيَاتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ﴾ [الأنعام: ٣٣].

لقد جحد قوم عاد آيات ربهم، وهم يعلمون أنها حق من عند الله، وكان هذا سبب عذابهم.

لقد وصف الله قوم عاد في هذه الآية بثلاث صفات في غاية الشناعة والقبح:

الأولى: أنهم يجحدون آيات الله.

الثانية: أنهم يعصون رسل الله.

الثالثة: أنهم يتبعون رؤساءهم الطغاة.

حُكْمُ اللَّهِ فِي قَوْمِ عَادٍ

٦٠- ﴿وَأَنْبِئُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيَمَةِ أَلَا إِنَّ عَادًا كَفَرُوا رَبَّهُمْ أَلَا بَعْدًا لِعَادٍ قَوْمِ هُودٍ﴾

ثم ختم الله هذه القصة ببيان حكم الله في قوم عاد، وهو أن اللعنة تلحقهم وتحلّ بهم في الدنيا والآخرة؛ بسبب إصرارهم على الكفر حتى حلّ بهم العذاب، والكافر الذي

وافى ربه على الكفر يحلُّ به سخط الله تعالى وغضبه، فهو مطرود ومبعد من رحمة الله تعالى في الدنيا والآخرة، لقد أبعدهم الله عن كل خير وقربهم من كل شر.

والسبب أن عادًا كفروا ربهم، وجحدوا نعمه، وكذبوا رسله، فاستحقوا مقت الله وغضبه، وهي علل موجبة لاستئصالهم، ألا فانتبهوا، لقد أبعد الله قوم عاد من رحمته، وأهلكهم عن بكرة أبيهم؛ بسبب شركهم وكفرهم، فلا تكونوا مثلهم ﴿أَلَا بُعْدًا﴾ وهلاكًا ﴿لِقَادِرِ قَوْمِ هُودٍ﴾ هذا دعاء عليهم باللعنة والهلاك والطرْد من رحمة الله تعالى، نسأل الله تعالى العفو والعافية في الدنيا والآخرة.

الْقِصَّةُ الثَّالِثَةُ: قِصَّةُ صَالِحٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ

٦١- ﴿وَإِلَى ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا قَالَ يَقَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِن إِلَهٍ غَيْرُهُ^(١) هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ الْأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا فَاسْتَغْفِرُوا^(٢) ثُمَّ تَوَبُّوا إِلَىَّ إِنِّي رَبِّي قَرِيبٌ مُّجِيبٌ ﴿٦١﴾﴾

في سورة هود عليه السلام قصة نبي الله صالح عليه السلام، وصالح أرسله الله تعالى إلى قومه ثمود، وثمود قبيلة من القبائل العربية التي أبادها الله تعالى وأهلكها؛ لأنها كفرت بالله، وكذبت برسول الله صالح عليه السلام، إلا من آمن منهم فقد نجاهم الله تعالى.

وقد ذكرت قصته في سور الأعراف والشعراء والنمل والقمر وغيرها.

وقوم ثمود ينتسبون إلى جدهم الخامس ثمود بن عامر، ويصل نسبهم إلى سام بن نوح، وسيدنا صالح واحد من قوم ثمود، أرسله الله تعالى إليهم، وهم من بقية العمالة الذين جاؤوا بعد قوم عاد الذين أرسل الله لهم هودًا، وكانت رسالة نوح قبل ذلك بنحو خمس مئة عام، وسميت القبيلة باسم جدهم الأكبر، ولقلة الماء فيها؛ لأن الثمد هو الماء القليل.

وقوم ثمود يسكنون الحِجْر ﴿وَلَقَدْ كَذَّبَ أَصْحَابُ الْحِجْرِ الْمُرْسِلِينَ ﴿٨٠﴾﴾ [الحجر].

والحِجْر: هو وادي القرى، في أطراف المملكة العربية السعودية، فيما بين الحجاز والشام بشرق الأردن، في مكان يسمى الآن حجر الناقة، ويشتهر بمدائن صالح.

(١) قرأ الكسائي وأبو جعفر بخفض الراء وكسر الهاء من (غيره)، والباقون برفع الراء وضم الهاء.

(٢) قرأ ابن كثير بصلة هاء الضمير من (فاستغفروه) والباقون بالحذف، وللأزرق في الراء التريق والتفخيم.

وكان قوم ثمود قد عبدوا الأصنام من دون الله، ومن أصنامهم التي عبدوها (ود وشمس ومناة) وهم خلفاء لقوم عاد في الحضارة والعمران والقوة والبأس، وكان بعضهم قد انتقل من الربع الخالي إلى شمال الحجاز، حيث كانت ديار ثمود بعد ذلك ﴿وَأَذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِنْ بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ وَزَادَكُمْ فِي الْخَلْقِ بَصْطَةً﴾ [الأعراف: ٦٩] إذ كان قوم ثمود من العمالقة.

وكانوا ينحتون في الجبال قصورًا شاهقة ﴿وَأَذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِنْ بَعْدِ عَادٍ وَبَوَّأَكُمْ فِي الْأَرْضِ تَنْحُدُونَ مِنْ سَهُولِهَا قُصُورًا وَتَنْحِتُونَ الْجِبَالَ بُيُوتًا﴾ [الأعراف: ٧٤] وكانت أعمار أحدهم أكثر من ثلاث مئة عام، فأقاموا القصور المشيدة، وكانت لهم مزارع وبساتين، كما جاء وصفهم في قوله تعالى: ﴿فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ﴿٧٧﴾ وَزُرُوعٍ وَنَخْلٍ طَلْعُهَا هَضِيمٌ ﴿٧٨﴾ وَتَنْحِتُونَ مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا فَرَهِينَ ﴿٧٩﴾﴾ [الشعراء].

ولكنهم لم يشكروا نعمة الله عليهم، وعبدوا الأوثان من دون الله، فأرسل الله لهم واحدًا منهم اصطفاه وميزه، هو أذكاهم! عقلاً، ومن أغنيائهم وأقويائهم، فأخذ يذكرهم بنعمة الله عليهم، ودعاهم إلى الله فقال لهم: ﴿اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ﴾ وَحَدُّوا الله، وتوجهوا إليه، وحده، في عبادتكم، وحكموه فيما شجر بينكم، ولا تَخضعوا إلا له سبحانه، فهو الذي خلق أباكم آدم من تراب الأرض، وخلق ذريته من نطفة، وجعلكم عمار الأرض وسكانها.

وقد ذكّرهم نبي الله صالحاً - أولاً - بنشأتهم الأولى، ثم ذكّرهم - ثانيًا - بأن جعلهم عُمرًا للأرض، يشقون فيها الأنهار، وينشئون فيها البساتين، وينون فيها القصور، ويتنفعون بما فيها من خيرات ومعادن وجبال وبحار، فقد أنعم الله عليهم بالنعم الظاهرة والباطنة، ومكنهم في الأرض، ينون ويغرسون ويزرعون ويحرثون، ويتنفعون بما فيها.

وكلمة (استعمر) كلمة حسنة؛ أي: عمّر الأرض، ولا يجوز أن يقال على العدو: إنه مستعمر، بل يقال: إنه محتل.

فالمستعمر: هو الذي يعمر الأرض بعد خرابها، وهي صفة حسنة بالنسبة للعدو المحتل الغاصب.

ثم قال صالح لقومه تعقيلاً على هذه النعم: واستغفروا الله من الشرك، وتوجهوا إليه وحده بالعبادة، إن ربي قريب، لمن توجه إليه، واسأله أن يغفر لكم ذنوبكم، وارجعوا إليه بالتوبة النصوح وأخلصوا له العبادة، إنه سميع مجيب دعاء من عبده ووحدّه، فأقبلوا

على ربكم ولا تقنطوا من رحمة الله، فإنه سبحانه يجيب دعاء من سأل سؤالاً لتلبية سؤاله، ويقبل دعاء من سأل تَعَبُّدًا ويثبته عليه.

وهو سبحانه قريب من جميع خلقه بعلمه قال تعالى: ﴿وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ جَلِّ الْوَرِيدِ﴾ [ق: ١٦].

وقريب ممن عبده وسأله إجابة دعائه، كما قال تعالى ﴿وَأَسْجُدْ وَاقْتَرِبْ﴾ [العلق: ١٩]

وقال ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ﴾ [البقرة: ١٨٦]

ولهذه المعاني قرن سبحانه ﴿قَرِيبٌ﴾ بـ ﴿أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ﴾.

وهذا القرب، منه ما هو عام من جميع الخلق، ومنه ما هو خاص بعباده الصالحين.

والنداء الموجه لقوم صالح موجه إلى البشر جميعاً، فكلهم قد أنشأهم الله من الأرض، وكلّهم أن يعمرّوها، كما كلّفهم بعبادته سبحانه.

ومن المؤسف أن بعض الناس لا يُحسن تعمير الأرض، ويعيش عالة على غيره، وهو محسوب على الإسلام.

ومن المؤسف أيضاً أن يستخرج غير المسلمين كنوز الأرض ويغزون الفضاء، مع أن صلتهم بالله لا تُذكر.

لقد دبت الحياة في صحراء سيناء لما كانت بأيدي اليهود في الفترة من ١٩٦٧-١٩٧٣ م، ولما عادت إلى أهلها المسلمين عاد إليها الخراب، وهي تعادل ثلث مساحة مصر، وفي مصر من الأيدي العاطلة، والشباب الذي لا يجد المسكن، ما يعدُّ بالملايين!!

ومساحة الأرض الزراعية في السودان وحدها تكفي العالم الإسلامي أجمع!!

ومن العار على المسلمين ألا يأخذوا بهدي إسلامهم، وأن يعتمدوا على غيرهم حتى في رغيّف الخبز، فضلاً عن السلاح الذي يذودون به عن أوطانهم ومقدساتهم، ويحفظون به كرامتهم وأعراضهم!!

مَوْقِفُ قَوْمٍ صَالِحٍ مِنْ نَبِيِّهِمْ

٦٢- ﴿قَالُوا يَصْلِحْ قَدْ كُنْتَ فِينَا مَرْجُوًّا قَبْلَ هَذَا أَتَنْهَنَّا أَنْ نَعْبُدَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا وَإِنَّا لَفِي شَكِّ

مِمَّا نَدْعُونَ إِلَيْهِ مُرِيبٍ﴾ (٦٢)

كان موقف قوم صالح من دعوته لهم إلى توحيد الله تعالى أنهم قالوا له: قد كنت قبل دعوتك هذه مرجوًّا فينا؛ أي: سيدًّا مطاعًا، وكان أمرُك سهلاً، وكنا نعتقد أنك صاحب عقل راجح، وفكر سديد، وكنا نرجو أن تكون رئيسًا علينا، وقد خاب أملنا فيك، وإننا في شك من دعوتك، فقد انقطع رجاؤنا فيك، وأصبحت مختل التفكير، حين نهيتنا عن عبادة الآلهة التي كان يعبدونها آبائنا الأولون، ونحن لن نترك عبادتها، ولن نستجيب لدعوتك، لقد اختلف ظنهم فيه لما أتاهم بما لا يوافق أهواءهم الفاسدة.

لقد اعترف قوم ثمود بأن صالحًا كان راجح العقل، كثير الخير، قبل أن يقوم فيهم بالدعوة، ويبين ما هم عليه من أخطاء، ولكنهم بعد أن قام فيهم بالدعوة، اتهموه، وشكوا في أمره، وناصبوه العداء، وقلبوا له ظهر المجن، وهكذا كانت قريش، وهي تطلق على محمد ﷺ الصادق الأمين، ثم تألبوا عليه بعد أن دعاهم إلى الله تعالى، فوصفوه بالسحر وبالشعر والكهانة.

صَالِحٌ يُقِيمُ الْبَيِّنَةَ عَلَى صِحَّةِ دَعْوَتِهِ لِلرَّسَالَةِ

٦٣- ﴿قَالَ يَتَقَوْمِ آرَءَيْتُمْ إِنْ كُنْتُ عَلَى بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي وَعَآئِنِي مِّنْهُ رَحْمَةً فَمَنْ يَصْرِفُنِي مِّنْ اللَّهِ إِنْ عَصَيْتُمْ فَمَا تَزِيدُونَنِي غَيْرَ تَخْسِيرٍ﴾ ﴿٦٣﴾

قال لهم صالح: ماذا أفعل يا قوم، إذا كان الله قد فضّلني وميّزني عليكم، فأنزل عليّ الوحي الإلهي وكلفني بالرسالة، وأيدني بالمعجزة، وآتاني النبوة، وخصني بها دونكم؟ فمَن الذي يدفع عني عذاب الله يوم القيامة إذا لم أبلغ دعوته؟ فما تزيدونني غير تضليل، وهلاك، وإبعاد عن الخير إن عصيت ربي، وكتمت ما أمرني بتبليغه.

مُعْجَزَةُ صَالِحٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ

٦٤- ﴿وَيَتَقَوْمِ هَٰذِهِ نَاقَةُ اللَّهِ لَكُمْ آيَةٌ فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِي أََرْضِ اللَّهِ وَلَا تَمْسُوهَا بِسُوءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ قَرِيبٌ﴾ ﴿٦٤﴾

آمن لصالح من قومه الضعفاء، أما المستكبرون فكان شأنهم شأن المستكبرين في كل

زمان ومكان، كفروا بما جاء به صالح، وكان الذين آمنوا به ألفاً ومئتين؛ والذين أهلكتوا من قومه يقاربون خمسة آلاف، على ما ذكره المؤرخون.

قال المستكبرون للمستضعفين: ﴿اتَّقِلُّوْا أَنْتَ صَاحِبًا مُّرْسَلٌ مِّن رَّبِّهِ﴾.

قال المؤمنون: ﴿إِنَّا بِمَا أُرْسِلَ بِهِ مُؤْمِنُونَ﴾.

أما الذين استكبروا فقالوا: ﴿إِنَّا بِالَّذِي ءَامَنْتُمْ بِهِ كَفِرُونَ﴾ [الأعراف: ٧٥، ٧٦].

واتهموه بالسحر فقالوا: ﴿إِنَّمَا أَنْتَ مِنَ الْمُسَحَّرِينَ﴾ [الشعراء: ١٥٣].

واتهموه أيضاً بالكذب فقالوا: ﴿أَلَمْ يَلْقَ الْذِّكْرُ عَلَيْهِ مِنْ بَيْنِنَا بَلْ هُوَ كَذَّابٌ أَشِرٌّ﴾ [القمر].

وقالوا له: كيف يخلصك الله بالنبوة، وأنت واحد منا، وبشر مثلنا؟ فإن كنت صادقاً فأتنا بمعجزة تدل على صدقك، وطلبوا منه معجزة معينة، وهي أن يخرج لهم ناقة عُشراء، من صخرة صماء، فكان من الله سبحانه أن أجابهم لما طلبوه؛ ليقيم الحجة عليهم، ولتكون عبرة لغيرهم؛ لأن البشر هم البشر، شأنهم الجدال، فأخرج الله لهم من الصخرة الصماء ناقة عُشراء، وما لبثت هذه الناقة إلا أن وضعت رضيعاً كانت تحمله في بطنها، وكانت معجزة عجيبة من الله ﷻ إلى قوم صالح.

وكان القوم يشربون من بئر معينة، والماء قليل، وكان صالح قد طلب من القوم أن يشربوا من هذه البئر يوماً، وتشرب منه الناقة اليوم الآخر، فكانت تشرب البئر كله في يوم، والقوم يشربونه في يوم، كما قال تعالى:

﴿وَنَبِّئُهُمْ أَنَّ الْمَاءَ قِسْمَةٌ بَيْنَهُمْ كُلُّ شِرْبٍ مُحْضَرٌّ﴾ [القمر] وقال أيضاً: ﴿قَالَ هَذِهِ نَاقَةُ لِهَآ شَرِبْتُ وَلَكُم شَرِبُ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ﴾ [١٥٥] وَلَا تَمْسُوهَا بِسُوءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ [الشعراء: ١٥٦]

واليوم الذي تشرب فيه الناقة الماء كانت تدر عليهم من الحليب بمقدار الماء الذي تشربه، وقال الله تعالى لهم: ﴿هَذِهِ نَاقَةُ اللَّهِ لَكُمْ ءَايَةٌ فَذُرُّوهَا تَأْكُلْ فِي أَرْضِ اللَّهِ وَلَا تَمْسُوهَا بِسُوءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [الأعراف: ٧٣].

إن هذه الناقة آية الله أضافها سبحانه لنفسه تشريفاً لها، فذرّوها أيها القوم تأكل في أرض الله من المرعى العام، الذي ترعى فيه أغنام الناس ولا يملكه أحد، ولا تمسوها بسوء، وهذه الناقة لا تُركب، ولا تُعذب، ولا تُذبح، فإنكم إن فعلتم ذلك يأخذكم الله

بعذاب أليم من عنده .

ولعل هذه الناقة كانت تختلف عن بقية الأنعام، لعلها كانت تخوفهم وتخوف أنعامهم وإبلهم .

١- في الصحيحين عن عبد الله بن عمر رضي الله عنه أن الناس نزلوا مع رسول الله ﷺ على الحجر أرض ثمود، فاستقوا من آبارها، وعجنوا به العجين، فأمرهم رسول الله ﷺ أن يهرقوا ما استقوا، ويعلفوا الإبل العجين، وأمرهم أن يستقوا من البئر التي كانت تردّها الناقة^(١) .

٢- وعن عبد الله بن عمر أيضًا أن رسول الله ﷺ قال لأصحابه عندما وصلوا إلى الحجر: «لا تدخلوا على هؤلاء القوم المعذبين، إلا أن تكونوا باكين، فإن لم تكونوا باكين فلا تدخلوا عليهم، أن يصيبكم مثل ما أصابهم»^(٢) .

٣- وفي لفظ آخر عنه ﷺ قال: مررنا مع رسول الله ﷺ على الحجر، فقال لنا رسول الله ﷺ: «لا تدخلوا مساكن الذين ظلموا أنفسهم إلا أن تكونوا باكين، حذرًا أن يصيبكم مثل ما أصابهم، ثم زجر فأسرع حتى خلفها»^(٣) .

ومعنى الآية: ويا قوم هذه ناقة الله، جعلها لي معجزة دالة على صدقي فيما أبلغكم عن ربي، وهي حجة واضحة وعلامة بارزة على أني رسول الله، فاتركوها تأكل في أرض الله، فليس عليكم رزقها، ولا تمسوها بأذى، فهي ناقة مخصوصة ليست كغيرها من النوق التي تُركب وتُنحر، فإنكم إن فعلتم شيئًا من ذلك يأخذكم من الله عذاب قريب .

عَقَرُ النَّاقَةِ وَهَلَاكُ قَوْمِ ثَمُودَ

٦٥- ﴿فَعَقَرُوهَا فَقَالَ تَمَتَّعُوا فِي دَارِكُمْ^(٤) ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ ذَٰلِكَ وَعَدُّ غَيْرُ مَكْذُوبٍ ﴿١٥﴾﴾

أراد قوم ثمود أن يقضوا على معجزة صالح ودعوته؛ فتآمروا على قتل الناقة، واحتالوا على ذلك باستخدام النساء وإغرائهم، فكانت امرأة يقال لها: (صدوق بنت المحيا) أغرت

(١) «صحيح مسلم» برقم (٢٩٨١) و«صحيح البخاري» برقم (٣٣٧٨، ٣٣٧٩) .

(٢) «صحيح مسلم» برقم (٢٩٨٠) و«صحيح البخاري» برقم (٤٣٣، ٤٤٢٠، ٤٧٠٢) .

(٣) «صحيح مسلم» برقم (٢٩٨٠) و«صحيح البخاري» برقم (٣٣٨٠، ٣٣٨١، ٤٤١٩) .

(٤) أمال (داركم) أبو عمرو ودوري والكسائي وابن ذكوان بخلف عنه، وقلله ورش .

رجلاً يقال له: (مصدع) إن هو قتل الناقة أن تكون له - يتزوجها - بدون مقابل، وامرأة أخرى عجوز يقال لها: (عنيزة) كانت لها ابنة جميلة فاتنة، عرضتها على (قُدار بن سالف) إن هو عقر الناقة أن يتزوجها بدون مقابل، ومهرها عَقر الناقة، فاجتمع تسعة رهط يفسدون في الأرض ولا يصلحون، وعزموا على قتل الناقة، فبينما كانت الناقة تشرب من البئر أصابها (مصدع) بسهم في ساقها، وتبعه (قُدار بن سالف) ففرضها بسيفه في ساقها ونحرها، وأجهز القوم عليها.

ثم دبروا مؤامرة لقتل صالح وأهله، وَلَمَّا عَلِمَ صَالِحٌ بِمَا يَدُورُ فِي نَادِي الْقَوْمِ وَمَجْلِسِهِمْ: ﴿قَالَ يَنْقُورُ لِمَ تَسْتَعْجِلُونَ بِالسَّيِّئَةِ قَبْلَ الْحَسَنَةِ﴾ وقال لهم: ﴿لَوْلَا تَسْتَغْفِرُونَ اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ [النمل: ٤٦] قالوا تشاء منا منك ومن دعوتك، قال: إنما شؤمكم من أنفسكم، وما يصيبكم من الخير أو الشر فمن الله وحده، والشر الذي يأتيكم يكون بسبب كفركم ومعاصيكم^(١).

والمعنى: فكذبوا صالحًا وعقروا الناقة فقال لهم: استمتعوا بحياتكم في بلدكم ثلاثة أيام، فإن العذاب نازل بكم بعدها، وهذا وعد من الله غير مكذوب لا بُدُّ من وقوعه. قال تعالى:

الْهَيْئَةُ الْأَلِيمَةُ

٦٦- ﴿فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا صَالِحًا وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَمِنْ خِزْيٍ (٢) يَوْمَئِذٍ (٣) إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَلْقَى الْقُرْآنَ بِالْعَزِيمِ﴾

وكان الملأ المستكبرون من قوم صالح قد رموه بالسحر، واستعجلوا نزول العذاب بهم، فأعلم الله نبيه صالحًا، عليه وعلى نبينا الصلاة والسلام، أن العذاب نازل بهم بعد ثلاثة أيام، فقال لهم: ﴿تَمَنَّوْا فِي دَارِكُمْ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ﴾.

ويذكر المفسرون: أن قوم صالح عقروا الناقة يوم الأربعاء، فلما كان يوم الخميس

(١) اقرأ الآيات من سورة النمل [٣٥-٤٥].

(٢) قرأ أبو جعفر بإخفاء النون عند الخاء من (ومن خزي) مع الغنة، والباقون بالإظهار.

(٣) قرأ نافع والكسائي وأبو جعفر بفتح الميم من (يومئذ) على أنها حركة بناء، والباقون بكسرها إجراء لليوم مجرى الأسماء فأعرب.

أصبحت وجوههم مصفرة، وفي يوم الجمعة أصبحت وجوههم محمرة، وفي يوم السبت اسودت وجوههم، وهم ينتظرون النهاية الأليمة، ثم كان يوم الأحد، وبعد إشراق الشمس صاح بهم جبريل عليه السلام صيحة فإذا الأرض ترتجف تحت أرجلهم، وإذا بصاعقة من السماء نزلت بهم كي تُميتهم، فإذا هم خامدون ميتون، قال تعالى: ﴿فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةً بِمَا ظَلَمُوا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ [النمل: ٥٦] أي: ما حلَّ في بيوتهم الخربة؛ وهي مدائن صالح، لتكون عبرة للناس إلى يوم قيام الساعة.

وهذا العذاب الذي نزل بهم وصفه القرآن تارة بالرجفة ﴿فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ﴾ [الأعراف: ٧٨].

وتارة بالصيحة ﴿وَأَخَذَ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةَ﴾ [هود: ٦٧].

وتارة بالصاعقة ﴿فَأَخَذَتْهُمُ صَاعِقَةٌ أَلْغَابٍ أَلْهُونُ﴾ [فصلت: ١٧].

وتارة بالطاغية ﴿فَأَمَّا ثَمُودُ فَأَهْلِكُوا بِطَاغِيَةِ﴾ [الحاقة: ٥٨].

بهذه التعبيرات الأربعة جاء ذِكرُ عذاب قوم ثمود في القرآن، حيث صاح بهم جبريل، فزلزلت الأرض تحت أقدامهم، وجاءتهم الصاعقة من فوقهم، وكان هذا العذاب طاغياً؛ أي: مهلكاً مدمراً، فأتى عليهم جميعاً، قيل: إلا رجلاً كان في الحرم، فمنعه الحرم من ذلك، ثم هلك بعد خروجه منه، وفي سنن أبي داود أن ذلك الرجل كنيته أبو رغال^(١)، ﴿فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا﴾ بعذاب القوم ﴿بَنَجْنَا صَالِحًا﴾ فرحل إلى الشام ﴿وَبَنَجْنَا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ﴾ [فصلت: ٨٨].

والمعنى: فلما جاء أمرنا بإنزال العذاب بهم، في الوقت المحدد، نجينا صالحاً! ومن آمن به برحمة منا وفضل، ونجيناهم من هول ذلك اليوم وخزيه، إن ربك هو القوي الذي لا يعجزه شيء، العزيز الذي لا يُغلب، ومن قوته وعزته أنه أهلك الأمم الطاغية، ونجى الرسل وأتباعهم. قال تعالى:

٦٧- ﴿وَأَخَذَ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةَ فَأَصْبَحُوا فِي دِيرِهِمْ جثثين﴾ [١٧]

أي ومن الأمم الطاغية قوم ثمود، الذين ظلموا أنفسهم بالكفر والشرك، وكذبوا رسول

(١) «تفسير ابن عطية» (٣/ ١٨٧)، وانظر القصة في سورة الأعراف.

الله صالحًا، ونحروا الناقة التي نُهوا عن نحرها، فأخذتهم الصيحة القوية فأصبحوا في ديارهم موتى ساقطين على وجوههم لا يتحركون، فهم صرعى وهلكى.

٦٨- ﴿كَانَ لَّمْ يَنْفَعُوا فِيهَا أَلاَّ إِنَّ نَمُودًا^(١) كَفَرُوا رَبَّهُمْ أَلاَّ بُعْدًا لِّثَمُودَ^(٢)﴾

كان هؤلاء القوم الظالمين لأنفسهم، في سرعة زوالهم وفنائهم، لم يقيموا في ديارهم عمراً طويلاً، وهم في رخاء من عيشهم، ألا إن هؤلاء الظلمة من قوم ثمود جحدوا نعم ربهم، وكفروا بآياته وحُججه، ألا بُعْدًا وسُحْقًا وهلاكًا لقبيلة ثمود، وطردًا لهم من رحمة الله؛ بسبب ما ارتكبوه من منكرات وموبقات، فما أشقاهم، وما أذلهم!!

الْقِصَّةُ الرَّابِعَةُ: قِصَّةُ إِبْرَاهِيمَ مَعَ الْمَلَائِكَةِ

٦٩- ﴿وَلَقَدْ جَاءَتْ رُسُلُنَا^(٣) إِبْرَاهِيمَ بِالبُّشْرَى قَالُوا سَلَامًا قَالَ سَلَامٌ^(٤) فَمَا لَبِثَ أَنْ جَاءَ بِعِجْلٍ حَنِيذٍ﴾

هذه القصة ذكرت في القرآن الكريم مع قصة لوط في مواضع عدة؛ منها سورة هود والحجر والعنكبوت والذاريات، وذكرت منفردة في مواضع أخرى من القرآن ليس فيها لوط، والملائكة الذين نزلوا على إبراهيم عليه السلام كانوا: جبريل وميكائيل وإسرافيل، قيل: إن جبريل كان لإهلاك قوم لوط، وميكائيل كان لبشرى إبراهيم بإسحاق، وإسرافيل كان لنجاة لوط ومن معه^(٥).

نقل القرطبي بسنده عن ابن عباس عليه السلام: لما أنزل الله الملائكة لعذاب قوم لوط، مروا بإبراهيم فظنهم أضيافاً، وهم جبريل وميكائيل وإسرافيل، قيل: ومعهم ملك الموت، وقيل: كان عددهم أكثر من ذلك؛ تسعة عن الضحاك، وأحد عشر عن السدي، وقيل غير

(١) قرأ حفص وحمة ويعقوب بعدم التنوين في (ثمود) على المنع من الصرف، ونونها الباقون، ومن لم ينون وقف على الدال بالسكون ومن نون وقف بالألف.

(٢) قرأ الكسائي بكسر الدال مع التنوين من (لثمود) مصروقاً على إرادة الحي، والباقون بالفتح من غير تنوين، ممنوعاً من الصرف للعلمية والتأنيث.

(٣) قرأ أبو عمرو بإسكان السين من (رسلنا)، والباقون بإسكانها.

(٤) قرأ حمزة والكسائي (قال سلم) بكسر السين وسكون اللام من غير ألف بعدها، وقرأ الآخرون (قال سلام) بفتح السين واللام وإثبات ألف بعدها، وهما لغتان مثل: حرم وحرام.

(٥) «تفسير ابن عطية» (٣/١٨٧).

ذلك، وهؤلاء الملائكة نزلوا على إبراهيم لمهمتين:

المهمة الأولى: أن يبشروه بهلاك قوم لوط، الذين كانوا يأتون الذكران من العالمين، وهذه هي المهمة الرسمية التي جاؤوا من أجلها، وهي هلاك قوم لوط.

المهمة الثانية: هي بشرى إبراهيم، بعد أن صار شيخاً كبيراً، يبلغ حوالي مئة وعشرين عاماً، وزوجته سارة تبلغ نحو مئة عام، يبشرونهما بولدٍ لهما بعد هذه السن؛ وهو إسحاق، ومن بعد إسحاق يعقوب؛ أي: أن إبراهيم وسارة سيُدركان حفيدهما (يعقوب) الذي هو إسرائيل، والغرض من هذه القصة هو الموعظة والاعتبار بمصير قوم لوط؛ ولذا قُدمت قصة إبراهيم عليها، وللتنويه بمقام إبراهيم عند ربه.

وإبراهيم هو عم لوط عليهما السلام، هاجرا معاً من العراق إلى فلسطين، ثم هاجرا بسبب قلة المال إلى مصر، وعادا منها بأموال وفيرة، ونزل إبراهيم بمدينة الخليل، ونزل لوط قريباً منه في شرق الأردن، بمنطقة سدوم وعامورة؛ لكي يتسع المكان لمواسي كل منهما، فما من نبي إلا ورعى الغنم.

نزلت الملائكة على إبراهيم، فحيوه بالسلام، ورد عليهم، ولكنهم كانوا غير معروفين له ﴿إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ فَقَالُوا سَلَامًا قَالَ سَلَامٌ قَوْمٌ مُنْكَرُونَ﴾ [الذاريات: ١٥]. والآية تشير إلى أن التحية بالسلام كانت معروفة في ملة إبراهيم عليه السلام، ويؤخذ من الآية أن السلام يكون قبل الكلام، وأن رد السلام يكون بأبلغ من إلقائه.

ولقد أتوه في صورة شبَّانٍ حَسَّانٍ، ونظرًا لأن إبراهيم عليه السلام كان رجلاً مضيافاً - فرما سافر المسافات الطويلة ليلتمس ضيفاً يأكل معه - فقد مال على أهله بسرعة؛ لِيُعِدُّوا لهم الطعام ﴿فَرَاغَ﴾ أي: مال ﴿إِلَىٰ أَهْلِهِ فَجَاءَ بِعَبْلٍ سَمِينٍ﴾ [الذاريات: ٢٦] وعلى عادة العرب وعادة أصحاب المواسي أن يذبحوا لضيوفهم، وقد كانت أموال إبراهيم من البقر، وسرعان ما جهَّز لضيوفه عجلًا سمينًا مشويًا وقدمه لهم، وعرض عليهم أن يأكلوا؛ ونظرًا لأنهم ملائكة لا يأكلون ولا يشربون، لم تمتد أيديهم إلى الطعام؛ ولذا استنكر إبراهيم ذلك فقال: ﴿أَلَا تَأْكُلُونَ﴾.

ومعنى الآية: ولقد جاءت رسلنا من الملائكة إلى إبراهيم عليه السلام، وهم في طريقهم إلى

لوط عليه السلام، يبشرون إبراهيم وزوجته بإسحاق، ويبشرونهما أيضًا أنهما سيطول عُمراهما حتى يريا حفيدهما يعقوب بن إسحاق.

فلما دخلت الملائكة على إبراهيم حَيَّوْهُ بالسَّلام، تحية المؤمنين في الدنيا والآخرة، فرد إبراهيم عليه السلام بأكمل تحية وأتمها، كما قال تعالى: ﴿وَإِذَا حُيِّتُمْ بِحِجَّةٍ فَحِوًّا بِأَحْسَنَ مِنْهَا أَوْ رُدُّوهَا﴾ [النساء: ٨٦].

وجاء لفظ القرآن في التعبير عن رد إبراهيم بأوجز لفظ في العربية ﴿قَالَ سَلَامٌ﴾ فذهب إبراهيم سريعًا، وأعد لهم واجب الضيافة دون تباطؤ ولا تأخر، وقَدَّم لهم عَجَلًا سمينًا مشويًا ليأكلوا منه.

٧٠- ﴿فَلَمَّا رَأَوْا أَيْدِيَهُمْ لَا تَصِلُ إِلَيْهِ نَكِرَهُمْ وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً قَالُوا لَا تَخَفْ إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَى قَوْمٍ لُوطٍ﴾

أي: فلما رأى إبراهيم الملائكة لا يأكلون أنكر ذلك، وأوجس؛ أي: أظهر في نفسه خيفة منهم؛ لأن العادة جرت أن الذي يمتنع عن الطعام الذي أُعد من أجله يكون مُضْمِرًا شرًّا في نفسه، أو أنه يَبْغِضُ هذا الشخص.

قال قتادة: كانوا إذا نزل بهم ضيف فلم يأكل من طعامهم ظنوا أنه لم يأت بخير، وأنه يُحَدِّث نفسه بشر^(٢).

وفي سورة الحجر تصريح بالخوف منهم حيث قال: ﴿إِنَّا مِنْكُمْ وَجِلُونَ﴾ [الحجر: ٥٢].

ولما رأت الملائكة خوف إبراهيم عليه السلام منهم قالوا له: لا تخف، إنا رسل الله وملائكته، جئنا لإهلاك قوم لوط.

قيل: إن إبراهيم عليه السلام لَمَّا قَدَّمَ لهم الطعام قالوا: لا نأكل طعامًا إلا بحقه، قال لهم: إن له حقًا، قالوا: فما هو؟ قال: أن تُسموا الله تعالى في أوله، وتُحمدوه في آخره، قالوا: فنظير جبريل إلى ميكائيل وقال: حُوقَ لهذا أن يتخذ الله خليلًا^(٣).

فالتسمية في أول الطعام، وحمد الله في آخره كان معروفًا في ملة إبراهيم خليل الرحمن.

(١) أمال ابن ذكوان وشعبة وحمزة والكسائي وخلف الراء والهمزة من (رأى) وقللها ورش، وأمال أبو عمرو الهمزة فقط.

(٢) عبد الرزاق (١/ ٥٠).

(٣) «تفسير ابن كثير» (٤/ ٣٣٣) وابن أبي حاتم (٦/ ٢٠٥٤).

الْمَلَائِكَةُ تَبَشِّرُ سَارَةَ بِإِسْحَاقَ وَهِيَ تَعْجَبُ لِأَنَّ الْأَمْرَ عَلَى خِلَافِ الْعَادَةِ

٧١- ﴿وَأَمْرَاتُ قَائِمَةٌ فَضَحِكَتْ فَبَشَّرَتْهَا بِإِسْحَاقَ وَمِنْ وَرَاءِ^(١) إِسْحَاقَ يَعْقُوبُ^(٢)﴾ (٧١)

كانت امرأة إبراهيم -سارة بنت هاران بن ناحور، وهي ابنة عمه- قائمة خلف ستار، تقوم على خدمة الضيوف، فلما سمعت هذا الحوار ضحكت؛ والمراد: الضحك المعروف؛ أي: ضحكت فرحاً وسروراً لهلاك قوم لوط، أو ضحكت لزوال الخوف والفرج عن إبراهيم، أو تعجباً مما سمعت، وهذا هو الأولى في معنى الآية، حملاً لها على ظاهرها. وقيل: إن ضحكت بمعنى حاضت؛ أي: نزل عليها الدم وهي بنت ثمان وتسعين سنة^(٣)، وكانت عقيماً، فلما حاضت في هذا الوقت بشرتها الملائكة بإسحاق، وسيعيش إسحاق حتى يولد له يعقوب حفيداً لإبراهيم.

عن ضمرة بن جندب أن سارة لما بشرها الرسل بإسحاق، قال: بينما هي تمشي وتحدثهم أنست بالحيضة فحاضت قبل أن تحمل بإسحاق، فكان من قولها للرسل حين بشروها: قد كنت شابة، وكان إبراهيم شاباً فلم أحمل، فحين كبرت وكبر، أألد؟ والضحك في لغة العرب معروف، وليس هناك ما يدعو إلى صرف اللفظ عن ظاهره، ولا يلزم لحمل سارة أن تحيض في هذه اللحظة، فالأولى أن سارة ضحكت من بشارة الملائكة لإبراهيم بغلام، وأن ضحكها كان ضحك تعجب واستبعاد لبلوغها سن اليأس. جاء في العهد القديم أن الملائكة قالوا لإبراهيم: أين سارة امرأتك؟ فقال: ها هي في الخيمة، فقالوا: يكون لسارة امرأتك ابن، وكانت سارة سامعة في باب الخيمة فضحكت سارة في باطنها قائلة: أفيالحقيقة ألد، وأنا قد شخت؟ فقال الرب: لماذا ضحكت سارة؟ فأنكرت قائلة: لم أضحك؛ لأنها خافت، قال: لا، بل ضحكت^(٤).

ولم تضحك سارة إلا بعد أن بشرتها الملائكة بإسحاق، فلما تعجبت من ذلك بشروها

(١) قرأ قالون والبيزي بتسهيل الهمزة الأولى من (ومن وراء إسحاق) مع المد والقصر، وأسقطها أبو عمرو ورويس مع القصر والمد، وسهل الثانية ورش وقنبل وأبو جعفر ورويس، ولورش وقنبل وجه آخر هو إبدال الثانية ياء مع إشباع المد للالتقاء الساكنين، وحققها الآخرون.

(٢) قرأ ابن عامر وحفص وحمزة بنصب (يعقوب) مفعول لفعل محذوف؛ أي: وهبنا له يعقوب من وراء إسحاق، وقرأ الباقر بالرفع، مبتدأ مؤخر خبره الظرف الذي قبله.

(٣) ابن أبي حاتم (٢٠٥٥/٦) عن ابن عباس.

(٤) الإصحاح الثامن عشر من سفر التكوين نقلاً عن «تفسير ابن عاشور» (١٢/١١٩).

بابن الابن زيادة في البشرى، والتعجب من ذلك غير مستغرب؛ لأن من شأن كبار السن ألا يولد لهم في العادة، فضلاً عن أن يدركوا أحفادهم.

إسماعيل أكبر من إسحاق: وهذه الآية تدل على أن الذبيح هو إسماعيل، وأنه أسنُّ من إسحاق، وذلك أن سارة كانت شابة جميلة وقت أن أهدى ملك مصر هاجر إلى سارة، وأهدتها سارة إلى إبراهيم، فاتخذها أمًّا لولده إسماعيل، ولما غارت سارة منها خرج بها وبابنها إسماعيل من الشام على البراق، وتركهما في مكة، وعاد إلى الشام، ثم كانت البشارة بعد ذلك بإسحاق، وكانت سارة عجوزًا.

وإسماعيل أكبر من إسحاق بثلاثة عشر عامًا، فكيف يؤمر إبراهيم بذبح إسحاق حينئذٍ؟ على أن الامتثال للذبح كان في منى، ونبع الماء كان في زمزم بالمسجد الحرام، ولم يرد في أثر أن إسحاق دخل الحجاز، وكيف يؤمر إبراهيم بذبح إسحاق قبل أن يولد له يعقوب المبشَّر به في الآية؟

ويؤيد كون الذبيح هو إسماعيل ما جاء في الأثر: «أنا ابن الذبيحين»^(١) الذبيح الأول هو عبد الله والده ﷺ الذي فداه عبد المطلب بمئة من الإبل، وكان قد نذر أن يذبح أحد أبنائه، فخرج السهم عليه، والذبيح الآخر هو إسماعيل، ويؤيده أن القرآن الكريم لما فرغ من قصة ذبح إسماعيل في سورة الصافات قال: ﴿وَبَشِّرْنَاهُ بِإِسْحَاقَ نَبِيًّا مِّنَ الصَّالِحِينَ﴾ [الصافات: ١١٢] فكانت البشارة به بعد قصة ذبح إسماعيل، ودل هذا على أن الذبيح هو إسماعيل، وليس إسحاق كما يدَّعي اليهود.

٧٢- ﴿قَالَتْ يَوٰلَيْكَ ۖ (٢) ءَالِدٌ (٣) وَأَنَاْ عَجُوزٌ وَهَٰذَا بَعْلِي شَيْخًا ۚ إِنَّ هَٰذَا لَشَيْءٌ عَجِيبٌ ﴿٧٢﴾﴾

فعجبت سارة لهذا الخبر واندحشت، وصرَّحت بتعجبها الذي كتمته بالضحك

(١) قال الألباني في السلسلة الضعيفة برقم (٣٣١) لا أصل له، وقال الحافظ في الفتح (٣٧/١٢) وأظن ابن القيم في الهذلي، في الاستدلال لتقويته.

(٢) وقف رويس على (يا ويلتي) بهاء السكت مع المد المشيع بخلف عنه؛ زيادة في التحسر والتوجع.

(٣) قرأ قالون وأبو عمرو وأبو جعفر بتسهيل الهمزة الثانية من (ألد) مع إدخال ألف للفصل بينهما، وقرأ ابن كثير ورويس بتسهيل الثانية أيضًا من غير إدخال، ولورش التسهيل والإبدال، ولهشام التحقيق والتسهيل مع الإدخال، والباقون بالتحقيق من غير إدخال، ولا خلاف في تحقيق الأولى.

وصكّت وجهها كما قال تعالى: ﴿فَأَقْبَلَ كَ أَمْرَاتُ فِي صَرَفٍ فَصَكَّتْ وَجْهَهَا وَقَالَتْ عَجُوزٌ عَقِيمٌ﴾ (٢٩) [الذاريات] - على عادة المرأة حين تدهش وتُفاجأ بأمر هام- وقالت سارة متعجبة لَمَّا بُشِرَتْ بِإِسْحَاقَ: يا ويلتي، كيف يكون لي ولد وأنا امرأة مسنة، وهذا زوجي إبراهيم شيخ هرم كبير، فكيف يأتينا الولد؟! إن هذا الأمر لشيء غريب لم تجر به العادة، إن إنجاب الولد من مثلي ومثل زوجي مع كبر السن لشيء عجيب.

٧٣- ﴿قَالُوا أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ رَحِمْتُ (١) اللَّهُ وَبَرَكَتُهُ عَلَيْكُمْ أَهْلَ الْبَيْتِ إِنَّكُمْ حَمِيدٌ مَجِيدٌ﴾

قالت الملائكة: يا سارة، أتعجبين من أمر الله وقضائه، هذا فضل الله خصّكم به أهل بيت النبوة، إنه حميد في أفعاله، مجيد في صفاته، والمجد: عظمة الصفات وسعتها، فله سبحانه صفات الكمال، وله من كل صفة كمال أتمها وأكملها.

وفي الآية إنكار على سارة لاستبعادها البشارة وتعجبها من أن يرزقها الله الولد في هذا السن؛ لأنه سبحانه يقول للشيء كن فيكون، وهو سبحانه قادر على كل شيء، لا يعجزه شيء.

ونظير هذه الآية في سورة الذاريات ٢٩: ﴿فَأَقْبَلَ كَ أَمْرَاتُ فِي صَرَفٍ فَصَكَّتْ وَجْهَهَا وَقَالَتْ عَجُوزٌ عَقِيمٌ﴾.

وقوله تعالى: ﴿رَحِمْتُ اللَّهُ وَبَرَكَتُهُ عَلَيْكُمْ أَهْلَ الْبَيْتِ﴾ حكاية لما قالته الملائكة زيادة في سرور سارة وإدخال الطمأنينة إلى قلبها؛ أي: رحمة الله الواسعة وخيراته وبركاته على آل بيت إبراهيم، فهم أهل البيت في هذه الآية.

قالوا: أتعجبين من ذلك يا سارة؟ فإن الله قد صنع بكم ما هو أعظم من ذلك، إن الله تعالى قد جعل رحمته وبركاته عليكم أهل البيت، إنه حميد مجيد (٢).

(١) رسم (رحمة) بالتاء المفتوحة في المصحف، ووقف عليه ابن كثير وأبو عمرو والكسائي ويعقوب بالهاء، وهي لغة قريش، ووقف غيرهم بالتاء، وهي لغة طيء، وأمالها الكسائي عند الوقف.

(٢) ابن أبي حاتم (٢٠٥٥/٦).

وفي وصفه تعالى بأنه حميد مجيد ما جاء في صحيح مسلم عن أبي مسعود الأنصاري قال: أتانا رسول الله ﷺ ونحن في مجلس سعد بن عباد، فقال له بشير بن سعد: أمرنا الله تعالى أن نصلي عليك يا رسول الله، فكيف نصلي عليك؟ فسكت رسول الله ﷺ حتى تمنينا أنه لم يسأله، ثم قال رسول الله ﷺ قولوا: «اللهم صل على محمد وعلى آل محمد، كما صليت على آل إبراهيم، وبارك على محمد وعلى آل محمد، كما باركت على آل إبراهيم، في العالمين إنك حميد مجيد»^(١).

وفي حديث أبي حميد الساعدي أنهم قالوا: يا رسول الله، كيف نصلي عليك؟ قال: «قولوا: اللهم صل على محمد وعلى أزواجه وذريته، كما صليت على آل إبراهيم، وبارك على محمد وعلى أزواجه وذريته، كما باركت على آل إبراهيم، إنك حميد مجيد»^(٢).

أَلْ بَيْتِ النَّبُوَّةِ: أما أهل بيت نبوة محمد ﷺ فقد قال الله تعالى فيهم: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ﴾ [الأحزاب: ٣٣] وجاء تحديدهم فيما رواه ابن عباس رضي الله عنهما قال: أهل بيته الذين حرموا الصدقة من بعده؛ أي: أهل بيته في النسب الذين قال النبي ﷺ لهم: «إن الصدقة لا تحل لي ولا لأهل بيتي، إنما هي أوساخ الناس»^(٣).

والآية من سورة الأحزاب تشير إلى أن زوجات النبي ﷺ من أهل بيته، كما أشارت هذه الآية إلى أن أهل بيت إبراهيم عليه السلام هي زوجته.

ويشير حديث الكساء إلى أن أهل بيت النبوة هم الذين ضمهم النبي ﷺ في كساءه، وهم فاطمة وعلي والحسن والحسين، ولما تساءلت أم سلمة إن كانت منهم دعا لها النبي ﷺ وأخبر أنها إلى خير، ولعل النبي ﷺ لم يأذن لها في الدخول في الكساء، لوجود رجل أجنبي عنها هو علي عليه السلام.

ويمكن القول بأن هناك أخص أهل البيت، وهم أهل الكساء، ثم هناك ما يشملهم

(١) «صحيح مسلم» برقم (٤٠٥) وأخرجه البخاري عن كعب بن عجرة برقم (٣٣٧٠، ٤٧٩٧) وليس فيه (في العالمين) كما في مسلم أيضًا برقم (٤٠٦) وفي البخاري زيادة (إبراهيم) قبل (وعلى آل إبراهيم) في الصلاة وفي البركة، وفي بعض ألفاظ الحديث زيادة (اللهم) قبل (بارك).

(٢) «صحيح مسلم» برقم (٤٠٧) و«صحيح البخاري» (٣٣٦٩، ٦٣٦٠).

(٣) من حديث طويل في «صحيح مسلم» برقم (١٠٧٢). وفي المسند عن عبدالمطلب بن ربيعة برقم (١٧٥١٩) بإسناد صحيح، رجاله ثقات وأخرجه ابن حبان (٤٥٢٦) والبيهقي في السنن (٣١/٧).

ويشمل زوجات النبي ﷺ وهن من نزلت فيهن الآية، ثم بني هاشم، وبني المطلب، وهذا يشمل جميع من حرموا الصدقة، وقيل غير ذلك^(١). قال تعالى:

٧٤- ﴿فَلَمَّا ذَهَبَ عَنْ إِبْرَاهِيمَ الرَّوْعُ وَجَاءَتْهُ الْبُشْرَىٰ ۖ يُجَادِلُنَا فِي قَوْمِ لُوطٍ ۖ﴾ (٧٤)

ذهب الفرع عن إبراهيم بهذه البشري، واطمأن بولد سيولد له اسمه إسحاق، فلما ذهب عنه الخوف، واطمأن قلبه إلى ضيوفه، وعلم أنهم ليسوا بشرًا، أخذ يحاور الملائكة في شأن قوم لوط، ويحاول تأجيل نزول العذاب بهم، لعله يكون سببًا في توبتهم ورجوعهم إلى الله تعالى. وَرَدَّ أَنَّ إِبْرَاهِيمَ ﷺ قَالَ لِلْمَلَائِكَةِ: لو أن في هذه القرية أربعين رجلًا مؤمنًا أتهلكونها؟ قالوا: لا، فأخذ يقلل من العدد، وهم يقولون: لا، حتى وصل إلى رجل واحد، ثم قال: إن فيها لوطًا، وهو رجل واحد، وقد ذكر القرآن أن في هذه القرية بيتًا واحدًا من المسلمين، هو بيت لوط وأهله، وذلك في قوله تعالى: ﴿فَأَخْرَجْنَا مَن كَانَ فِيهَا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ۖ﴾ (٣٥) ﴿فَمَا وَجَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ (٣٦) [الذاريات] وفي قوله تعالى ﴿قَالَ إِنَّ فِيهَا لُوطًا قَالُوا نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَن فِيهَا لَنَنْجِيَنَّهُ وَأَهْلَهُ إِلَّا أَمْرَاتُهُ كَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ﴾ [العنكبوت: ٣٢] والإسلام والإيمان هنا بمعنى واحد؛ لأنهما اجتماعا في مقام واحد.

ويراد بالمجادلة في الآية: المحاورة، وقد نسب الله سبحانه الجدل إلى نفسه، مع أنه كان مع الملائكة؛ لأن نزولهم لإهلاك قوم لوط كان بأمر الله تعالى، وإبراهيم يحاور الملائكة في تنفيذ أمر الله تعالى.

وهذه المجادلة التي تمت بين إبراهيم والملائكة، جاء تفسيرها في قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا جَاءَتْ رُسُلُنَا إِبْرَاهِيمَ بِالْبُشْرَىٰ قَالُوا إِنَّا مُهْلِكُوا أَهْلَ هَذِهِ الْقَرْيَةِ﴾ أي: القرية التي يسكنها قوم لوط ﴿إِنَّ أَهْلَهَا كَانَوْا ظَالِمِينَ﴾ (٣٦) ﴿قَالَ إِنَّ فِيهَا لُوطًا قَالُوا نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَن فِيهَا لَنَنْجِيَنَّهُ وَأَهْلَهُ إِلَّا أَمْرَاتُهُ كَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ﴾ (٣٢) [العنكبوت].

وفي قوله تعالى: ﴿قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا الْمُرْسَلُونَ﴾ (٥٧) ﴿قَالُوا إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَى قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ﴾ (٥٨) ﴿لِنُرْسِلَ عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن طِينٍ﴾ (٣٣) ﴿مُسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَ لِلْمُسْرِفِينَ﴾ (٢٤) [الذاريات].

(١) انظر تفصيل ذلك في تفسير آية الأحزاب ٣٣.

(٢) قرأ بالإمالة في (البشري) حمزة والكسائي وخلف وأبو عمرو، وقللها ورش.

(٣) عدّ (في قوم لوط) آية، البصري والحمصي، وتركها من العدد غيرهما.

وَصَفُ اللَّهُ لِإِبْرَاهِيمَ بِثَلَاثَةِ أَوْصَافٍ

٧٥- ﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّهٌ مُنِيبٌ ﴿٧٥﴾﴾

وكانت هذه المراجعة من إبراهيم للملائكة في تأخير هلاك قوم لوط؛ لأن إبراهيم عليه السلام قد وصفه ربنا في هذه الآية بثلاثة أوصاف هي: الحلم، والإنابة، وكثرة الرجوع إلى الله تعالى.

١- فهو (حليم) كثير الحلم، ذو خلق حسن، وسعة صدر، صبور على الأذى، صفوح عن الإساءة يقابلها بالإحسان ﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَأَوَّهٌ حَلِيمٌ﴾ [التوبة: ١١٤] غير عجول في الانتقام من المسيء، ومن حلمه أنه لا يحب تعجيل العقوبة بقوم لوط.

٢- وهو (أواه) يكثر التأوه من خشية الله تعالى، ويكثر من التوجع الحزين، كما يكثر من التضرع والدعاء في جميع الأوقات، وذلك من رأفته ورقة قلبه، وإذا وجد عذاباً أصاب أحداً من الناس يتألم له.

٣- وهو (منيب) سريع الاستغفار والتوبة، كثير الرجوع إلى الله تعالى، مقبل عليه، معرض عن سواه، ومن ذلك أنه أخذ يجادل عمّن وجب هلاكهم. قال الله تعالى:

٧٦- ﴿يَا إِبْرَاهِيمُ أَعْرِضْ عَنْ هَذَا إِنَّهُ قَدْ جَاءَ أَمْرٌ رَبِّكَ وَإِنَّهُمْ آتِيهِمْ عَذَابٌ غَيْرُ مَرْدُودٍ ﴿٧٦﴾﴾

أمر الله تعالى إبراهيم أن يعرض عن الجدال في شأن قوم لوط، فإن وعد الله حق، وقد أوجبه سبحانه على هؤلاء القوم، وإنهم آتيهم عذاب لا رجعة فيه، ولا مرد له من الله.

والمعنى: قالت رسل الله من الملائكة: يا إبراهيم، أعرض عن الجدال في شأن قوم لوط، والتماس الرحمة لهم، فقد نفذ القضاء بعذابهم، وحقت عليهم كلمة الله، وحان الوقت الذي قُدر فيه هلاكهم، وإن عذاب الله نازل بهم لا محالة، غير مصروف عنهم ولا مدفوع.

الْقِصَّةُ الْخَامِسَةُ: قِصَّةُ لُوطٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ

٧٧- ﴿وَلَمَّا جَاءَتْ رُسُلُنَا^(١) لُوطًا سِئًا^(٢) يَمِيمٌ وَصَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا وَقَالَ هَذَا يَوْمٌ عَصِيبٌ ﴿٧٧﴾﴾

(١) أسكن السين من (رسلنا) أبو عمرو، وضمها غيره.

(٢) قرأ نافع وابن عامر والكسائي وأبو جعفر ورويس بإشمام كسرة السين للضم، والباقون بالكسرة الخالصة، وهما لغتان.

لوط عليه السلام هو ابن هاران، وهو ابن أخي إبراهيم عليه السلام، وكان قد آمن مع عمه إبراهيم وهاجر معه إلى الشام، فبعثه الله نبيًا ورسولًا إلى أهل سدوم وما حولها، يدعوهم إلى عبادة الله تعالى وتوحيده، ويأمرهم بالمعروف، وينهاهم عما يرتكبونه من فاحشة اللواط التي لم يسبقهم إليها أحد من العالمين، ولم يألفها بنو آدم جميعًا.

وقد ذكرت قصة لوط بأساليب متعددة في القرآن الكريم؛ منها سور: الأعراف والحجر والشعراء والنمل والعنكبوت والصفات والذاريات والقمر.

وذكرت قصة لوط هنا في سياق نزول الملائكة على إبراهيم، وهم في طريقهم إلى إهلاك قوم لوط؛ إذ لم يكن من المناسب أن تنزل الملائكة رأسًا على نبي الله لوط دون أن يمرّوا أولاً بأبي الأنبياء إبراهيم، وهو عم لوط، وهما متجاوران، فلما بشروا إبراهيم بالمولود، ذهبت الملائكة من عنده متجهة إلى لوط.

وبين بلد إبراهيم في الخليل، وقرية لوط ثمانية أميال، وأخذت الملائكة تسأل وهي في الطريق، عن نبي الله لوط عليه السلام، فوجدوا ابنته عند قرية سدوم تأخذ الماء من نهر سدوم، فسألوها أن تدلهم على من يضيفهم، فلما رأت حسن هيتهم خافت عليهم من القوم، فقالت لهم: مكانكم، وذهبت إلى أبيها فأخبرته؛ فخرج إليهم، فقالوا له: نريد أن تضيفنا الليلة، فحذرهم قائلاً: أشهد بالله أن أهل هذه القرية شر قوم في الأرض.

وكان الله تعالى قد أمر الملائكة ألا يعذبوهم حتى يشهد عليهم لوط أربع شهادات، ولما شهد عليهم لوط أول مرة، نظر جبريل إلى أصحابه وقال: هذه واحدة، وتردد الكلام بينهم حتى شهد لوط على قومه أربع شهادات، ثم دخل بهم المدينة^(١).

وكان لوط لما رآهم ضاقت نفسه بهم؛ خوفاً من أن يتعدى عليهم القوم، وقال لوط: ﴿هَذَا يَوْمٌ عَصِيبٌ﴾ هذا يوم شديد البلاء، وعظيم الحرج، لأنه علم أن قومه لا يتركونهم لأنهم شباب حسان جُرد مُرد.

وفي رواية أخرى -عن قتادة- أن الملائكة لما وصلوا قرية لوط، وجدوه يعمل في

(١) ينظر: «تفسير ابن عطية» (١٩٣/٣) و«تفسير ابن كثير» (٣٣٦/٤) عن السدي، وكان للوط ابنتان هما (زنتا وزعورا) صحت بهما الرواية كما في الفخر الرازي (٣٢/٨).

حرث له، فسألوه أن يضيفهم، فاستحيا منهم، وخاف عليهم من القوم، وانطلق أمامهم، وقال لهم وهو في أثناء الطريق: واللّه ما أعلم على وجه الأرض أخبث من أهل هذه القرية، ومشى قليلاً ثم عاد إليهم، وكرر ذلك أربع مرات، قال قتادة: وكانوا قد أمروا ألا يهلكوهم حتى يشهد عليهم نبيهم أربع مرات^(١).

وقد بين سبحانه أنهم قوم متجاوزون الحلال إلى الحرام، كما في قوله تعالى منكرًا عليهم فعلتهم الشنيعة: ﴿أَتَأْتُونَ الذِّكْرَانَ مِنَ الْعَالَمِينَ ﴿١١٥﴾ وَتَذَرُونَ مَا خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ عَادُونَ ﴿١١٦﴾﴾ [الشعراء].

وتشير الآية إلى أنه لما جاءت الملائكة نبي الله لوطاً ساءه مجيئهم واغتم لذلك؛ لأنه لم يعلم أنهم ملائكة الله، وكان يظن أنهم بشر، فخاف عليهم من قومه، وقال: هذا يوم بلاء وشدة، وخرج كبير.

حَوَارِ بَيْنَ لُوطٍ وَقَوْمِهِ فِي شَأْنِ الْمَلَائِكَةِ

٧٨- ﴿وَجَاءَهُ قَوْمُهُ يُهْرَعُونَ إِلَيْهِ وَمِنْ قَبْلُ كَانُوا يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ قَالَ يَنْفَوْرُ هَؤُلَاءِ بَنَاتِي هُنَّ^(٢) أَطْهَرُ لَكُمْ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَلَا تَخْزُونِ^(٣) فِي ضَيْفِي^(٤) أَلَيْسَ مِنْكُمْ رَجُلٌ رَشِيدٌ ﴿٧٨﴾﴾

وبعد أن علم قوم لوط بوجود الضيوف عند نبيهم، جاؤوا إليه مسرعين الخطأ يدفع بعضهم بعضاً إلى بيته من شدة الفرح، وكانوا يأتون الرجال شهوة من دون النساء، وكانت امرأة لوط قد خرجت إلى قومها، وأخبرتهم عن وجود شباب حسان عند لوط، فجاؤوا مسرعين إليه بدافع الشهوة البهيمية؛ لأنهم كانوا يأتون الرجال دون النساء، ويأتون في ناديهم المنكر من الفاحشة، ويرمون عابري السبيل بالحصى، فأبهم أصابه الحصى قال الرامي: أنا أولى به، ويفعلون غير ذلك من سبى الأخلاق وقبيح الصفات.

(١) «تفسير ابن كثير» (٣٣٦/٤).

(٢) وقف يعقوب على (هن) بهاء السكت بخلف عنه؛ وذلك لبيان حركة الموقوف عليه.

(٣) قرأ أبو عمرو وأبو جعفر بإثبات الياء وحذفها وفقاً من (ولا تخزون)، وقرأ يعقوب بإثباتها وصلاً ووقفاً، والباقون بحذفها في الحالين.

(٤) قرأ نافع وأبو عمرو وأبو جعفر بفتح ياء الإضافة من (ضيفي أليس)، والباقون بإسكانها.

قال لهم لوط: هؤلاء بنات القوم؛ لأن النبي أب لقومه، وزوجاته أمهاتهم.

قال مجاهد: لم يكن بناته، ولكن كن من أمته، وكل نبي أبو أمته^(١).

كما قال تعالى: ﴿الَّتِي أُولَىٰ بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنْفُسِهِمْ وَأَزْوَاجُهُمْ أُمَّهَاتُهُمْ﴾ [الأحزاب: ٦].

ولو أن لوطاً أراد ابنته على وجه الحقيقة في قوله ﴿هَؤُلَاءِ بَنَاتِي﴾ لكان ذلك بناء على أنه يعلم أنه ليس في وسع القوم أن يتعرضوا لهما بأذى أو مكروه.

قال لهم لوط: اقضوا شهوتكم فيما شرع الله ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ وَلَا تَخْزُونِ فِي ضَيْفِي﴾ فاحشوا الله واحذروا عقابه، ولا تفضحوني بالاعتداء على ضيوف، أليس فيكم رجل عاقل رشيد ينهى من أراد فعل الفاحشة، فيحول بينهم وبين وقوعها؟ وهكذا وعظهم لوط وأرشدهم إلى ما هو أنفع لهم، ثم نهاهم أن يفضحوه في ضيفه، وعرض عليهم النساء وترك الرجال؛ فلم يلتفتوا إليه وتمادوا فيما هم فيه من فعل الفاحشة.

٧٩- ﴿قَالُوا لَقَدْ عَلِمْتَ مَا لَنَا فِي بَنَاتِكَ مِنْ حَقٍّ وَإِنَّكَ لَنَعْلَمُ مَا رِيدُ﴾

قال قوم لوط له: يا لوط، إنك تعلم أنه ليس لنا رغبة في البنات، وإنما نريد الرجال، فاشتد قلق لوط خوفاً على ضيوفه:

٨٠- ﴿قَالَ لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةٌ أَوْ آوَىٰ إِلَيَّ رُكْنٌ شَدِيدٌ﴾

قال لهم لوط: لو أن لي قوة وأعواناً أَدفع بها شرَّكم، أو لو أن لي عشيرة وأنصاراً يدافعون عني لبطشتُ بكم وحلَّت بينكم وبين ما تريدون؛ لأن لوطاً كان غريباً عنهم، قَدِم إليهم مع عمه إبراهيم من العراق، ولذلك فقد هددوه بالطرد، حين قالوا له ﴿لَيْنَ لَرْتَنَّهُ يَلُوطٌ لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمُخْرَجِينَ﴾ [الشعراء: ١٦٧].

في حديث أبي هريرة ؓ أن النبي ﷺ قال: «يغفر الله للوط، إنه كان يأوي إلى ركن شديد»^(٢).

وفي لفظ آخر عن أبي هريرة أيضاً: «رحم الله لوطاً كان يأوي إلى ركن شديد، وما

(١) الطبري (٥٠٢/١٢) وابن أبي حاتم (٢٠٦٢/٦).

(٢) أخرجه البخاري برقم (٣٣٧٥) ومسلم بأطول منه برقم (١٥١) وكذا البخاري برقم (٣٣٧٢) وسعيد بن منصور (١٠٩٧).

بعث الله نبياً بعده إلا في ثروة من قومه»^(١).

فالله رب العالمين هو الذي يتولى الصالحين، والركن الشديد هو العشيرة، ولم يكن للوط عشيرة بينهم حيث كان مهاجرًا من أرض العراق.

وهنا يأتي دور الملائكة ليُفصِّحوا عن هويتهم:

نَهَايَةُ قَوْمِ لُوطٍ

٨١- ﴿قَالُوا يَلُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَنْ يَصِلُوا إِلَيْكَ فَأَسْرِ^(٢) بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِنَ اللَّيْلِ وَلَا يَلْفُتْ مِنْكُمْ أَحَدٌ إِلَّا أَمْرًا^(٣) إِنَّهُ مُصِيبُهَا مَا أَصَابَهُمْ إِنَّ مَوْعِدَهُمُ الصُّبْحُ أَلَيْسَ الصُّبْحُ بِقَرِيبٍ ﴿٨١﴾﴾

وحينئذ قالت الملائكة مخبرة عن نفسها ومطمئنة لوط ﷺ: نحن ملائكة الله، أرسلنا الله لإهلاك قومك فلا تحزن، فهم لن يصلوا إلينا، فاخرج من هذه القرية أنت وأهل بيتك حين يبقى من الليل بقية، ولا يلتفت منكم أحد وراءه؛ لئلا يرى العذاب فيصيبه ما أصابهم، ولا تأخذ معك امرأتك التي كفرت بك، فقد خانتك بالكفر والنفاق، فإنه سيصيبها ما أصاب القوم من الهلاك، وهذا المعنى على قراءة الرفع.

أما على قراءة النصب في لفظ ﴿أَمْرًا^(٣)﴾ فإن المعنى: لكن امرأتك تخرج معك فتلتفت فيصيبها ما أصابهم.

قال قتادة: إنها كانت مع لوط حين خرج من القرية، فلما سمعت العذاب التفتت وقالت: واقوماء، فأصابها حَجَرٌ فأهلكها^(٤).

(١) أخرجه الطبري (٤١٩/١٥) والترمذي برقم (٣١١٦) وقال: حديث حسن وأخرجه الحاكم (٥٦١/٢) وقال: صحيح على شرط مسلم.

(٢) قرأ نافع وابن كثير وأبو جعفر بهزمة وصل في (فأسر) تسقط في الدرج؛ فيكون النطق بسين ساكنة بعد الفاء، وهو فعل أمر من (سرى)، والباقون بهزمة قطع مفتوحة بعد الفاء تثبت وصلًا ووقفًا فعل أمر من (أسرى) وأسرى لأول الليل، وسرى لآخر الليل، وسار مختص بالنهار.

(٣) قرأ ابن كثير وأبو عمرو برفع التاء من (إلا امرأتك) على أنها مرفوعة بالابتداء والجملة بعدها خبر، والباقون بالنصب على الاستثناء من (أهلك).

(٤) «تفسير الفخر الرازي» (٣٦/١٨).

إن موعد هلاك المجرمين يبدأ من طلوع الفجر، وينتهي مع طلوع الشمس.

ورد أن لوطاً سأل الملائكة عن موعد هلاكهم، فقالوا: موعدهم الصبح، فقال: أريد موعداً أسرع من هذا فقالوا له: ﴿الْيَسَّ الصُّبْحُ بِقَرِيبٍ﴾؟^(١).

قال محمد بن كعب القرظي: كانت قرى قوم لوط خمس قريات: سدوم - وهي العظمى - وصعبة وصعوة وعثرة ودوما، احتملها جبريل بجناحه، ثم صعد بها، حتى إن أهل السماء الدنيا ليسمعون نابحة كلابها، وأصوات دجاجها، ثم كفأها على وجهها، ثم أتبعها الله بالحجارة، فأهلكها الله وما حولها من المؤتفكات^(٢).

قال تعالى: ﴿وَالْمُؤَنَّفَكَةُ أَمْوَى ﴿٥٣﴾ فَفَشَّهَا مَا عَشَى ﴿٥٤﴾﴾ [النجم]

وفي نجاة لوط وآله يقول تعالى: ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ حَاصِبًا إِلَّا ءَالَ لُوطٍ نَّجَّيْنَاهُمْ بِسَحَرٍ ﴿٢٤﴾ نِعْمَةً مِنَّا عِندَنَا كَذَلِكَ نَجْزِي مَنْ شَكَرَ ﴿٢٥﴾﴾ [القمر].

واندفع القوم إلى باب لوط يريدون الدخول، فخرج عليهم جبريل عليه السلام بصورته الحقيقية، فضربهم بجناحه؛ فأعمى الله أبصارهم، وطمس أعينهم، قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ زَوَدُوهُ عَنْ ضَيْفِهِ فَطَمَسْنَا أَعْيُنَهُمْ﴾ [القمر: ٣٧] أي: راوده قومه عن ضيوفه الملائكة فأعماهم الله، قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ صَبَّحَهُمْ بُكْرَةً عَذَابٌ مُسْتَقِرٌّ ﴿٣٨﴾﴾ [القمر] أي: لقد نزل بهم عذاب دائم؛ فاستأصلهم الله وقطع دابرهم صُبح اليوم التالي، فقد سأل لوط ربه أن ينصره عليهم في قوله تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ انصُرْنِي عَلَى الْقَوْمِ الْمُفْسِدِينَ ﴿٢٠﴾﴾ [العنكبوت].

وكان ذلك بعد طلبهم واستعجالهم نزول العذاب، كما قال تعالى عنهم: ﴿قَالُوا أَتَيْنَا بِعَذَابِ اللَّهِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ [العنكبوت: ٢٩].

ولما حان وقت هلاكهم قال له رب العالمين: اخرج أنت يا لوط، وأهلك من القرية إلا امرأتك، فإن مصيرها مثل مصير القوم لكفرها بك، وتعاونها في نشر الرذيلة، ثم قال لوط لأهل بيته: لا تلتفتوا وراءكم حين تنزل الحجارة على القوم، بخلاف زوجته فإنها ستلتفت وراءها، فيصيبها من الحجارة ما أصابهم.

(١) ينظر: «تفسير الألوسي» (١٠١/١٢).

(٢) «تفسير ابن كثير» (٣٤١/٤).

٨٢، ٨٣- ﴿فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَلَىٰهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ^(١) مَّنصُودٍ^(٢) ﴿٨٢﴾ مُسَوِّمَةً عِندَ رَبِّكَ وَمَا هِيَ مِنَ الظَّالِمِينَ بِبَعِيدٍ ﴿٨٣﴾﴾

فلما جاء وقت نزول العذاب بهم، وهو من وقت مطلع الفجر، كما قال تعالى: ﴿فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ مُصْبِحِينَ ﴿٨٢﴾﴾ [الحجر] ويستمر إلى وقت الإشراق، كما قال تعالى: ﴿فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ مُشْرِقِينَ ﴿٨٣﴾﴾ فَجَعَلْنَا عَلَىٰهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ ﴿٨٤﴾﴾ [الحجر: ٧٣، ٧٤] وذلك بأن اقتلع جبريل القرى الخمس، ورفعها على جناحه إلى السماء، حتى شمع صياح الديكة ونباح الكلاب، وقلبها رأسًا على عقب^(٣)، وأعقب ذلك أن أمطر الله عليها حجارة طينية محمًا عليها، قوية شديدة متتابعة، مسومة ومعلمة، على كل منها اسم صاحبها، وهي (من سجيل) أي من حجارة النار الشديدة الحرارة (منصود)، متتابعة، تتبع من شد وخرج من القرية.

قال تعالى: ﴿لَنُرْسِلَ عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن طِينٍ ﴿٨٣﴾ مُسَوِّمَةً عِندَ رَبِّكَ لِلْمُسْرِفِينَ ﴿٨٤﴾﴾ [الذاريات].

وقد أمر الله نبيه لوطًا أن يسري بأهله في جزء من الليل، وفي سورة القمر بين سبحانه أن الوقت الذي أمروا أن يخرجوا فيه من القرية هو وقت السحر، كما قال تعالى: ﴿إِلَّا ءَالَ لُوطٍ يُخَيِّتُهُمْ لِبَاسِحَرِ﴾ [القمر: ٣٤] وأمره ربه أن يتبع أدبارهم حتى لا يتخلف منهم أحد فيصيبه العذاب، كما في قوله تعالى: ﴿فَاسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِّنَ اللَّيْلِ وَاتَّبِعْ أَدْبَارَهُمْ وَلَا يَلْقَافُ مِنْكَ أَحَدٌ﴾ [الحجر: ٦٥].

وحدد الله سبحانه موعد هلاك قوم لوط في قوله: ﴿وَفَضَيْنَا إِلَيْهِ ذَلِكَ الْأَمَرَ أَنَّ دَابِرَ هَؤُلَاءِ مَقْطُوعٌ مُّصْبِحِينَ ﴿٨٣﴾﴾ [الحجر].

فعاقب الله قوم لوط أولًا بأن أعماهم الله، ثم قلبت القرية، وأتبعوا بالحجارة ترجمهم، وهي حجارة مسومة معلمة، ولما سمعت امرأة لوط الصوت الشديد قالت: واقوماه، فأدركها حجر فقتلها؛ ومعنى منصود: أي حجارة مصفوفة متراسة يتبع بعضها

(١)، (٢) عَدَّ المصحف المكي والمدني الأخير (من سجيل) آية وأسقطا من العدد (منصود) الذي بعده، وبقية علماء العدد على العكس حيث أثبتوا (منصود) آية، ولم يعدوا (من سجيل) آية.

(٣) ينظر: «تفسير الطبري» (٤٢٩/١٥).

بعضاً، وهي من سجليل؛ أي: مطبوخة بالنار، لا تشاكل حجارة الدنيا.

وهذه الحجارة كانت تدرك هؤلاء الظالمين حيث هم، حتى من هو خارج القرية فتهلكهم، وهذا المكان الذي أهلك الله فيه قوم لوط يقع في شرق الأردن، مكان البحر الميت، الذي لا يُنتفع بمائه، فهو بحر أجاج، ومياهه لا تغذي الحيوان ولا النبات ولا غيرهما، والأرض التي حوله أرض قاحلة لا تنبت شيئاً، فهو بحر ميت بمعنى الكلمة، وتسمى هذه البحيرة بحيرة لوط، وهي عبرة وعظة على مدى التاريخ، كما قال تعالى: ﴿وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِمْ مُصْبِحِينَ ﴿١٣٧﴾ وَبِالْأَيْلِ﴾ [الصفات] وهي آية ناطقة إلى يوم القيامة بهلاك المخالفين المحاربين لرسول الله، قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَتَوْا عَلَى الْفَرِيقَةِ الَّتِي أُمِطِرَتْ مَطَرُ السَّوءِ أَفَكُم يَكُونُوا يَكْفُرُونَهَا بَلْ كَانُوا لَا يَرْجُونَ نُشُورًا ﴿١٣٨﴾﴾ [الفرقان].

وبحيرة لوط ليست بعيدة عن ديار الظالمين، وما أصاب أهلها يصيب غيرهم ممن يكذبون خاتم الرسل، فقد أخبر النبي ﷺ أنه سيكون في هذه الأمة خسف ومسح وقذف بالحجارة، فاعتبروا أيها الناس بما حدث لقوم لوط، واتعظوا بهم في كل زمان ومكان، يا من تفعلون هذه الفاحشة، تحت مسمى الحرية الشخصية، أو تحت تأثير الشهوة الحيوانية، بقضائها في غير موضعها المشروع.

واليهود وراء انتشار هذه الفاحشة، للقضاء على نسل غيرهم من المسلمين والنصارى، وهم يعقدون المؤتمرات تحت شعارات متعددة لهذا الغرض ونحوه، ومن بني جلدتنا من تنطلي عليه هذه الشعارات باسم التقدم والحضارة والمساواة وحقوق المرأة والحرية الشخصية.

وقد بين القضاء أن عقوبة من يرتكب جريمة اللواط:

١- أن يُقتل بالسيف، أو بالرجم حتى الموت، سواء أكان محصناً أم غير محصن، لحديث ابن عباس رضي الله عنه: «من وجدتموه يعمل عمل قوم لوط فاقتلوا الفاعل والمفعول به»^(١).

٢- أو يقتل بالتحريق، وقد كان علي رضي الله عنه أشد الصحابة في تطبيق هذه العقوبة، فقد أمر

(١) من حديث ابن عباس في «سنن أبي داود» برقم (٤٤٦٢) و«سنن الترمذي» برقم (١٤٥٦) و«سنن ابن ماجه» برقم (٢٥٦١)، وصححه الألباني في صحيح ابن ماجه (٢٠٧٥) وفي إرواء الغليل (٢٣٥٠) ومشكاة المصابيح (٣٥٧٥).

برجم شخص، وأمر بإحراق آخر، كما جاء في بعض الآثار.

قال علي عليه السلام: إن هذا الذنب لم ترتكبه إلا أمة واحدة، وقد أمطرها الله بحجارة من سجيل.

٣- وأبو حنيفة يرى الأخذ بعقوبة قوم لوط في القرآن، بأن يُرمى اللائط من مكان شاهق، ويُتبع بالحجارة، كما فعل بقوم لوط.

وقد لعن النبي ﷺ من يعمل عمل قوم لوط، فهو انتكاسة بالإنسان إلى ما هو أقبح من الحيوان، وتعطيل للتناسل، واعتداء على حرمة الله، وتجاوز لحدود ما شرع الله.

الْقِصَّةُ السَّادِسَةُ: قِصَّةُ شُعَيْبٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ

٨٤- ﴿وَإِلَى مَدْيَنَ أَخَاهُ شُعَيْبًا قَالَ يَتَقَوَّمُ عِبْدُوا اللَّهِ مَا لَكُمْ مِّنْ إِلَهِ غَيْرُهُ﴾ (١) وَلَا تَفْضُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ إِنِّي (٢) أَرَأَيْكُمْ بِخَيْرٍ وَإِنِّي (٣) أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ مُحِيطٍ ﴿

نبذة عن نبي الله شعيب: شعيب هو ابن ميكل بن يشجر بن مدين بن إبراهيم عليه السلام، وشعيب عليه السلام أحد أنبياء العرب الأربعة، الذين أرسلوا إلى العرب في جزيرة العرب؛ وهم: هود وصالح وشعيب ومحمد صلوات الله عليهم أجمعين، وكانت رسالة شعيب بعد رسالة لوط وقبل رسالة موسى عليهم السلام؛ أي: قبل الميلاد بنحو ألف وخمسة مئة عام، وجدُّ شعيب هو مدين بن إبراهيم خليل الرحمن، ومدين ليس بنبي ولا رسول، وشعيب ابن بنت لوط عليهما السلام، فلو طجد شعيب لأمه.

وسميت قبيلة مدين باسم جدّهم مدين، فقليل: قبيلة مدين، أو قوم مدين، وسمي المكان الذي يسكنون فيه بأرض مدين، وهي تقع في أرض معان جنوب فلسطين على أطراف الشام، وكان أهل مدين يعبدون الأيكة من دون الله.

والأيكة: هي الشجر الملتف بعضه فوق بعض، وهذا على القول فإن أصحاب الأيكة هم قوم مدين، وأن دعوة شعيب عليه السلام كانت واحدة، وجريمة القوم وهي تطفيف الميزان

(١) كسر الراء من (غيره) الكسائي وأبو جعفر، ورفعها الباقر.

(٢) قرأ نافع والبرقي وأبو عمرو وأبو جعفر بفتح ياء الإضافة من (إني أراكم)، والباقر بإسكانها.

(٣) فتح الباء من (إني أخاف) نافع وابن كثير وأبو عمرو وأبو جعفر، وسكنها الباقر.

كانت واحدة أيضاً .

وشعيب كان أخاً لمن آمن من قوم مدين، فهو أخ لهم في النسب، وأخ لهم في العقيدة، جاء في سورة الأعراف وهود ﴿وَالْإِلَى مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا﴾ [هود: ٨٤].

وعلى القول الآخر فإن شعيباً ليس أخاً لأصحاب الأيكة، الذين كانوا يعبدون الأوثان والأصنام؛ ولذا جاء في سورة الشعراء قوله تعالى: ﴿كَذَّبَ أَصْحَابُ لَيْكَةِ الْمُرْسَلِينَ﴾ [١٧٦] إِذْ قَالَ لَهُمْ شُعَيْبٌ أَلَا نُنْفِقُ ﴿١٧٧﴾ [الشعراء] فهو أخ للمؤمنين من قومه أهل مدين، وليس أخاً لعبدة الأيكة.

وهكذا يرى بعض أهل العلم أن شعيباً أرسل إلى أمتين: أهل مدين الذين أهلكوا بالصيحة، وكان أخاً لهم في النسب، وأهل الأيكة الذين أهلكوا بعذاب يوم الظلة، ولم يكن أخاً لهم في النسب؛ أي أنه بُعث مرتين، ولعل هذا هو الصواب، لا سيما وأن العذاب مختلف^(١).

ذكر شعيب عليه السلام في القرآن إحدى عشرة مرة، وجاءت قصته في سورة الأعراف تُركّز على الناحية السياسية لقومه، وجاءت القصة في سورة هود والشعراء تركز على الناحية الاجتماعية لهؤلاء القوم، ودُكرت في سورة العنكبوت مركّزة على جانب العقيدة، لا سيما الإيمان بالله واليوم الآخر، وقد جمع قوم شعيب في حياتهم بين الفساد السياسي والفساد الاقتصادي.

ففي سورة الأعراف كانت الحرب المعلنة على قوم مدين في الفساد السياسي أبرز، وقد طلب الله تعالى منهم أن يصبروا على الرأي الآخر، وأن ينظروا في أدلته، ولا يتوعدّوا أصحابه، قال تعالى: ﴿وَلَا تَقْعُدُوا بِكُلِّ صِرَاطٍ تُوعِدُونَ وَتَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ مَنْ ءَامَرَ بِهِ وَتَبْغُونَهَا عِوَجًا وَاذْكُرُوا إِذْ كُنْتُمْ قَلِيلًا فَكَثَرَكُمْ وَأَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ﴾ [٨٦] [الأعراف].

وفي سورة الأعراف انقسم الناس على دعوة شعيب قسمين: منهم من اقتنع بها ودخل فيها، ومنهم من رفضها وخاصم أصحابها ﴿وَإِنْ كَانَ طَائِفَةٌ مِنْكُمْ ءَامَنُوا بِالَّذِي أُرْسِلَتْ بِهِ وَطَائِفَةٌ لَمْ يُؤْمِنُوا فَاصْبِرُوا حَتَّى يَحْكُمَ اللَّهُ بَيْنَنَا وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ﴾ [٨٧] [الأعراف].

(١) ينظر قصة شعيب في سورة الأعراف والشعراء.

ولكن قبيلة مدين فضّلت الاستبداد الأعمى والفتنة البغيضة ﴿قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِنْ قَوْمِهِ لَنُخْرِجَنَّكَ يَشْعَبُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَكَ مِنْ قَرْيَةٍ أَوْ نَعُودَنَّ فِي مَلَأْنَا﴾ [الأعراف: ٨٨].

أما في هذه السورة فإن التنديد بالعوج الاقتصادي أبرز، فكان التركيز على جانب الكيل والميزان أكثر، وكان الخطاب إلى قوم شعيب موجّهاً إلى محاربة الغش في المعاملات الاقتصادية بعد محاربة الإشراف بالله تعالى.

وبالجملة فقد كان قوم مدين وأصحاب الأيكة يعبدون الأصنام من دون الله، وكانوا يطففون الكيل والميزان، وكانوا بحكم موقعهم الجغرافي يتعرضون للمارة القادمين من شمال الجزيرة وجنوبها، فيتعرضون لهم بالأذى، ويفرضون عليهم الضرائب، فأرسل الله لهم شعيباً؛ لكي ينهأهم عن ذلك، إلى جوار الأساس الأول للدعوة، وهو توحيد الله سبحانه.

عناصر دعوة شعيب: وقد ركّزت دعوة شعيب على خمسة أمور:

أولاً: توحيد الله تعالى وعدم الإشراف معه غيره، وإخلاص العقيدة له سبحانه، والإيمان باليوم الآخر، وإصلاح الاعتقاد من إصلاح العقل والفكر.

ثانياً: إخلاص العبادة لله وحده وإفراده بها.

ثالثاً: النهي عن نقص المكيال والميزان، حيث قال لهم شعيب: يا قوم، إني أراكم بخير ورزق كبير، فلماذا تفعلون ذلك؟ وهي مَظْلَمَةٌ كانت متفشية فيهم، مع أنهم كانوا في غنى عن ذلك بما آتاهم الله من نعمة وثروة.

رابعاً: النهي عن بخس الناس أشياءهم بما يشمل المكيال والميزان وغيرهما.

خامساً: عدم الإفساد في الأرض؛ أي: لا تستمروا يا أهل مدين في الإفساد بين الناس، بالتعرض للقوافل التجارية، وتأخذون الضرائب والعشور من التجار وغيرهم، ولا تقعدوا على جوانب الطرق تتوعدون المارة ممن آمن بشعيب وتفتنونهم عن دينهم.

ومعنى الآية: وأرسلنا إلى أهل مدين أخاهم في النسب شعيباً عليه السلام، يدعوهم إلى عبادة الله وحده، فهو الذي خلقهم ورزقهم، وهو الذي يحييهم ويميتهم.

وبعد أن أمرهم شعيب بتوحيد الله تعالى نهاهم عن نقص الكيل والميزان، إذا باعوا

لغيرهم، كما نهاهم أن يأخذوا أكثر من حقهم، إذا اشتروا من غيرهم، فلا يعطوا الآخر أقل من حقه عند البيع، ولا يأخذوا منه أكثر عند الشراء.

ثم بين لهم السبب الذي دعاه إلى هذه النصيحة، فقال في كلمة جامعة: إني أراكم في رغد من العيش، وبسطة من الرزق، وإني أخاف عليكم -بسبب إنقاص الكيل والميزان وبسبب تماديكم في مخالفة أمر الله ونهيه- عذاب يوم شامل، يحيط بكم من كل جانب، ولا يفلت منه أحد.

حِوَارُ بَيْنَ شُعَيْبٍ وَقَوْمِهِ فِيهِ سِتَّةُ نِدَاءَاتٍ لَهُمْ

٨٥- ﴿وَيَنْفَعُوا أَوْفُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ وَلَا تَبْخُسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تَعْنُوا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾ (٨٥)

وبعد أن نهى شعيب قومه عن تطفيف الكيل والميزان أمرهم بإتمامهما، والوفاء بهما، وإعطاء الناس حقوقهم وافية كاملة، فيا قوم أوفوا عند معاملتكم أدوات كيلكم وأدوات وزنكم، والتزموا العدل والقسط في تعاملكم الاقتصادي مع الناس أخذًا وعطاءً وغير ذلك من عموم الأشياء، ولفظ ﴿تَبْخُسُوا﴾ في الآية ليعم العيب والغش والنقص في كل شيء يباع ويشترى.

والفرق بين هذه الآية والتي قبلها أن الآية الأولى نهى والآية الثانية أمر، والآية الأولى تأتي من الناحية السلبية، والآية الثانية تأتي من الناحية الإيجابية.

ففي الآية السابقة ﴿وَلَا تَنْقُصُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ﴾ وهي نهى عن النقص.

وفي هذه الآية ﴿أَوْفُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ﴾ وهذا أمر بالوفاء، وفي نهاية الآية تحذير من المعاصي، ونهْي عن الفساد في الأرض، واستعمال نعم الله في غير ما خلقت له.

فمعنى ﴿وَلَا تَعْنُوا﴾ أي: لا تسعوا في الأرض بالفساد وتقابلوا نعمه بالمعاصي، والاستمرار في المعاصي يفسد العقائد والشرائع والدين والدنيا، ويهلك الحرث والنسل.

ونداء شعيب لقومه في هذه الآية هو النداء الثاني، والنداء الأول جاء في الآية السابقة.

ويستمر شعيب في نصحه لقومه فيقول لهم:

٨٦- ﴿بَقِيَّتُ^(١) اللَّهِ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ مُؤْمِنِينَ^(٢) وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِحَفِيظٍ ﴿٨٦﴾

قال لهم شعيب واعظاً وناصحاً ومرشداً إلى الرزق الحلال: إن ما تبقى لكم بعد وفاء الكيل والميزان من الرزق الحلال خير لكم مما تأخذونه بالتطفيف ونحوه من الكسب الحرام، فإن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر، فامثلوا أمره واجتنبوا نهيه، وتحروا الحلال والحرام، وصدقوا وعد الله ووعيده، ولا يُقبل عمل بدون إيمان، ومهمتي هي الإبلاغ والإنذار، ولست مُكرِّهاً لكم على الإيمان، ولا مكلفاً بمراقبتكم، أحصي عليكم أعمالكم، ولست حافظاً لكم من عذاب الله تعالى، وهنا يرد قوم مدين على نصيحة نبيهم:

٨٧- ﴿قَالُوا يَسْعَيْبُ أَصْلُكَ^(٣) تَأْمُرُكَ أَنْ نَتْرَكَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا أَوْ أَنْ نَفْعَلَ فِي أَمْوَالِنَا مَا نَشَاءُ إِنَّكَ لَأَنْتَ الْحَلِيمُ الرَّشِيدُ ﴿٨٧﴾

قالوا على سبيل التهكم والاستهزاء: أهذه الصلاة التي تداوم عليها يا شعيب، وتزعم أن ربك كلفك بها، تأمرك أن نترك عبادة الأوثان التي وجدنا عليها آبائنا، وتأمرك أن نترك ما تعودناه من التصرف في أموالنا بالزيادة والنقص ووجوه الكسب المختلفة؟ قالوا ذلك إنكاراً عليه وسخرية منه، إذ كيف يقول ذلك وهو صاحب الحلم والوقار والسجيا الحميدة، ويقصدون عكس هذه الصفات وأنه من أهل السفه والغواية.

وكان شعيب كثير الصلاة، وكانت الصلاة أخص أعماله المخالفة لعاداتهم، فخصوها بالذكر، ليقولوا له: إذا كنت تصلي لله، فما بالك تنهانا أن نترك ما عليه آبائنا من عبادة الآلهة.

وكان شعيب كثير التعبد والحلم، راجح العقل، ولكنهم سخروا منه، ولم يدركوا العلاقة بين التجارة والاقتصاد، كأناس من قومنا قالوا: إن العبادة شيء، والسياسة شيء آخر؛ أي: لا سياسة في الدين ولا دين في السياسة، والصحيح أن السياسة من الدين،

(١) وقف ابن كثير وأبو عمرو والكسائي ويعقوب بالهاء على (بقية)، ووقف الباقون بالتاء، وأمالها الكسائي، وهي مرسومة في المصحف بالتاء المفتوحة.

(٢) قوله تعالى (إن كنتم مؤمنين) هذه المكي والمدني الأول والأخير والحمص، وتركه غيرهم.

(٣) قرأ حفص وحمزة والكسائي وخلف بالإنفراد في (أصلائك) مع رفع التاء اسم جنس، والباقيون بالجمع مع رفع التاء أيضاً.

والفصل بينهما جهل فاضح، والاقتصاد عبادة، والتجارة الصادقة عبادة، فإننا نتعبد إلى الله تعالى بالصلاة، ونتعبد إليه بترك الربا، وبالزكاة، وبعدم أكل أموال الناس بالباطل.

وليس في الإسلام ما يسمى بالعبادات والمعاملات، فكلها عبادات، والتقسيم الذي جاء في كتب الفقه يُفرق بين المعاملات والعبادات هو من باب التأليف والاصطلاح وتقسيم الكتب.

وقوم شعيب كانوا يفرقون بين العبادة والتجارة، ويرون أنه لا جامع بينهما، قالوا: يا شعيب، أصلاتك (أي: هذه العبادة) تأمرك أن تترك ما يعبد آباؤنا من الآلهة المختلفة، وتأمرك ألا نتصرف في أموالنا كيفما نشاء ﴿إِنَّكَ لَأَنْتَ الْحَلِيمُ الرَّشِيدُ﴾ قالوا ذلك باستهزاء. وهنا يرد عليهم شعيب بأن الله تعالى قد أرسله إليهم:

٨٨- ﴿قَالَ يَفْقَهُمْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُ عَلَى يَمِينٍ مِنْ رَبِّي وَرَزَقَنِي مِنْهُ رِزْقًا حَسَنًا وَمَا أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَىٰ مَا أَنْهَكُم عَنْهُ إِنْ أُرِيدُ إِلَّا الْإِصْلَاحَ مَا اسْتَطَعْتُ وَمَا تَوْفِيقِي إِلَّا (١) بِاللَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ﴾

ثم ذكر شعيب قومه بأنه لا يأمرهم إلا بما يأمر به نفسه، ولا ينهاهم إلا عما ينهى نفسه عنه، فقد تغاضى شعيب عن سفاهة قومه، وأدرك أن فيهم جهلاً وقصوراً، فقال لهم بأسلوب مهذب حكيم وبصيرة مستنيرة: يا قوم، رأيتم إن كنت على طريق واضح من ربي فيما آمركم به وأنهاكم عنه، من إخلاص العبادة لله، وعدم الإفساد في التعامل الاقتصادي مع الناس، وقد رزقني الله رزقاً حلالاً طيباً، ولا أريد أن أرتكب أمراً نهيتكم عنه، أيصح لي أن لا آمركم بترك عبادة الأوثان، ولا بترك التطفيف في الكيل والميزان؟ وجواب الكلام محذوف، دل عليه المعنى.

ثم بين شعيب ﷺ أنه لا يريد بدعوته لهم إلا إصلاحهم قدر طاقته واستطاعته، وطلب التوفيق والسداد من الله تعالى في محاولة إصلاحهم، فعليه الاعتماد والتكلان، وإليه المرجع والمآب، وإليه الإنابة في أداء ما أمره الله به من العبادات والتقرب إليه بسائر أفعال الخير، وبالتوكل والإنابة، تستقيم أحوال العبد، كما قال تعالى ﴿فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ

(١) قرأ نافع وأبو عمرو وابن عامر وأبو جعفر بفتح ياء الإضافة من (وما توفيقِي إلا)، والباقيون بإسكانها، وهما لغتان.

عَلَيْهِ ﴿هود: ١٢٣﴾.

فكان جواب شعيب مكوناً من ثلاث نقاط؛ حيث قال لهم:

أولاً: أخبروني ماذا أفعل إذا كنت على حُجَّة من الله، أكرمني فيها بالنبوة، ورزقني مالا أبتعد به عن الحرام؟

ثانياً: لا أنهاكم عن عبادة الأوثان وأنا أعبدُها، ولا أنهاكم عن تطفيف الكيل والميزان وأنا أفعله، ولا أصرفكم عن شيء وآتيه، ولست منازعا لكم فيما تملكون، ولا ساعياً في نزع سلطانكم، وما أريد النهي عن شيء لمجرد المخالفة.

ثالثاً: ما أريد إلا إصلاح أموركم وأحوالكم قدر استطاعتي، والتوفيق من الله وأفوض أمري إلى الله في توعدكم لي بإخراحي من بينكم، وكان أعظم ذنوب قوم شعيب بعد الشرك بالله تعالى تطفيف المكيال والميزان، وبخس الناس أشياءهم، مع ذنوب كثيرة كانوا يأتونها، فبدأ شعيب يدعوهم إلى عبادة الله تعالى أولاً، وكف الظلم وترك سائر الذنوب ثانياً.

وَرَدَّ عَنْ قَتَادَةَ بَسْنَدَهُ إِلَى مَسْعُودٍ ؓ قَالَتْ لَهُ: أَتَنْهَى عَنِ الْوَاصِلَةِ؟ قَالَ: نَعَمْ، فَقَالَتِ الْمَرْأَةُ: فَلَعَلَّهُ فِي بَعْضِ نَسَائِكَ؟ فَقَالَ: مَا حَفِظْتُ إِذَا وَصِيَّةَ الْعَبْدِ الصَّالِحِ ﴿وَمَا أُرِيدُ أَنْ أَمْلِكَكُمْ إِلَّا مَا أَنَهَلَكُمْ عَنْهُ﴾^(١).

ويستمر شعيب في حوار قومه فيخوفهم عذاب الله إن لم يؤمنوا به:

٨٩- ﴿وَيَنْفَقُوا لَا يَتَخَفَتُمْ شِقَاقِي﴾^(٢) أَنْ يُصِيبَكُمْ مِثْلُ مَا أَصَابَ قَوْمَ نُوحٍ أَوْ قَوْمَ هُودٍ أَوْ قَوْمَ صَالِحٍ وَمَا قَوْمُ لُوطٍ مِنْكُمْ بِبَعِيدٍ ﴿٨٩﴾

ثم ذكَّره شعيب بمصارع من سبقهم من الظالمين، وحذَّره أن يسلكوا مسلكهم، فقال لهم ناصحاً ومعلماً ومشفقاً عليهم: يا أهلي وعشيرتي، لا تجرُّكم عداوتكم ومخالفتكم لي على أن تتمادوا في الضلال والكفر؛ فيكون هذا سبباً في إصابتكم بمثل ما

(١) «تفسير ابن كثير» (٣٤٥/٤) وابن أبي حاتم (٢٠٧٤/٦).

(٢) قرأ نافع وابن كثير وأبو عمرو وأبو جعفر بفتح ياء الإضافة من (شِقَاقِي إن)، والباقون بإسكانها.

أُصِيبَ بِهِ مَنْ قَبْلَكُمْ مِنْ عَذَابِ الْاسْتِصْصَالِ، وَلَا يَحْمِلُنْكُمْ بِغَضَبِكُمْ لِي عَلَى الْإِصْرَارِ عَلَى مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ مِنْ عَدَمِ الْإِيمَانِ بِاللَّهِ تَعَالَى، وَمِنْ الْإِفْسَادِ فِي الْأَرْضِ وَافْتِرَاءِ الْكُذْبِ عَلَيَّ، وَالتَّمَادِي فِي عَدَمِ الْاسْتِمَاعِ لِدَعْوَتِي لَكُمْ، فَإِنْ مَصِيرَكُمْ فِي هَذِهِ الْحَالَةِ هِيَ إِبْصَابُكُمْ بِمَا أَصَابَ الْقَوْمَ مِنْ قَبْلَكُمْ؛ كَقَوْمِ نُوحٍ، وَقَوْمِ هُودٍ، وَقَوْمِ صَالِحٍ مِنَ النِّقْمَةِ وَالْعَذَابِ، وَقَوْمِ لُوطٍ وَدِيَارِهِمْ لَيْسَتْ بَعِيدَةً عَنْكُمْ، فِدِيَارِهِمُ الْبَحْرُ الْمَيِّتُ بِالْأَرْدَنِ، وَمَنَازِلُ مَدِينٍ عِنْدَ الْعُقْبَةِ مَجَاوِرَةٌ لِمَعَانَ، وَالْمَسَافَةُ بَيْنَهُمَا قَلِيلَةٌ، وَالزَّمَانُ بَيْنَكُمَا لَيْسَ بِبَعِيدٍ، أَفَلَا تَتَعَطَّوْنَ وَتَعْتَبِرُونَ؟ وَبَعْدَ أَنْ دَعَا شَعِيبُ قَوْمَهُ إِلَى الْإِعْتِبَارِ بِمَنْ سَبَقَهُمْ، حَثَّهُمْ عَلَى الْإِسْتِغْفَارِ وَالتَّوْبَةِ وَالرَّجُوعِ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى فَقَالَ:

٩٠- ﴿وَاسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّي رَحِيمٌ وَدُودٌ﴾

ثم فتح لهم شعيب باب الأمل، وطلب منهم الإقلاع عما هم فيه من شرك وفساد في الأرض، فقال لهم: واستغفروا ربكم واطلبوا عفوه ومغفرته من الشرك، وما سلف من الذنوب، وتوبوا إليه من المعاملات الخارجة عن حدود منهج الله، ومما تستقبلونه من سيئ الأعمال واستمروا على ذلك، فرحمة الله واسعة، يتوَدَّدُ إِلَى عِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ فيحبهم ويحبونه والله سبحانه يقبل توبة من أناب إليه، ومن تقرب إلى الله شبرًا تقرب إليه ذراعًا، ومن تقرب إليه ذراعًا تقرب منه باعًا، ومن أتاه بمشي أقبل عليه هزولة.

تضجّر قوم شعيب من نصائحه ومواعظه، فعتّفوه وأسأؤوا إليه في الرد:

٩١- ﴿قَالُوا يَسْعَيْبُ مَا نَفَقَهُ كَثِيرًا مِمَّا نَقُولُ وَإِنَّا لَنَرُكَ فِينَا ضَعِيفًا وَلَوْلَا رَهْطُكَ لَرَجَمْنَاكَ وَمَا أَنْتَ عَلَيْنَا بِعَزِيزٍ﴾

قالوا: يا شعيب، ما نفقه كثيرًا مما تقول، ولا ندرك صحته، وهذا كقول المشركين لمحمد ﷺ: ﴿قُلُونَا فِي أَكْثَرِ مِمَّا نَدْعُونَ إِلَيْهِ فِي عَادَاتِنَا وَقُرْ﴾ [فصلت: ٥]

وقولهم: ﴿قُلُونَا غُلْفٌ﴾ [البقرة: ٨٨] وهم يعنون مخالفة ما يقوله لما يألون، ويتعجبون من ذلك، كما قال غيرهم: ﴿أَجْعَلِ الْأَلِهَةَ إِلَهًا وَاحِدًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ﴾ [ص: ٥].

وليس المراد عدم فهم كلامه، فقد كان شعيب فصيحًا خطيبًا، وكان يسمى خطيب الأنبياء؛ لأنه كان بليغًا حسن الحوار والخطابة، يُحَسِّنُ إِقَامَةَ الْحُجَّةِ عَلَيْهِمْ، وَمَعَ هَذَا فَقَدْ

كانوا يقولون له: إننا لا نفهم هذه الأمور الغيبية التي تذكرها لنا، من عذاب وجنة ونار وغير ذلك، ونحن نراك فينا ضعيفاً وحيداً غير ذي قوة ولا منعة.

ولم يكن شعيب أعمى فاقد البصر، كما يزعم بعضهم في تفسير الضعف بالعمى، ولا يوجد في الأنبياء أعمى، وكان رهطه من أهل ملتهم، فقالوا له: ولولا عشيرتك وقبيلتك لقتلناك ورجمناك بالحجارة، ولست علينا بعزيز ولا كريم حتى يمتنع علينا قتلُك أو رجمُك، لقد هابوا العشيرة ولم يهابوا ربهم، وفي هذا تحذير منهم لشعيب من الاستمرار في دعوته ومخالفة دينهم.

وهكذا فإن أهل مدين جعلوا كلام شعيب -خطيب الأنبياء- المشتمل على فنون الحكم والمواعظ، وأنواع العلوم والمعارف، جعلوه من قبيل التخليط والهديان الذي لا يدرك فحواه، ولا يفهم معناه^(١).

وهذه الآية اشتملت على أربع جمل ردَّ بها أهل مدين على نبيهم شعيب؛ وهي:

أولاً: أنهم جعلوا كلامه من قبيل ما لا يفهم معناه.

ثانياً: أنهم وصفوه بالضعف، وأنه لا يملك القدرة على مقاومتهم إن أرادوا طرده أو قتله.

ثالثاً: أنهم يتركون قتله أو رجمه مجاملةً لعشيرته، فهي التي جعلتهم يُقُون عليه.

رابعاً: أن شعيباً ليس محبوباً لديهم، ولا كريماً عليهم، بل هو ضعيف مكروه عندهم.

ردَّ عليهم شعيب بما يقيم عليهم الحجة ويرقق قلوبهم:

٩٢ - ﴿قَالَ يَنْفَوِرَ أَرْهَطِي^(٢) أَعَزُّ عَلَيْكُمْ مِنَ اللَّهِ وَاتَّخَذْتُمُوهُ وَرَاءَكُمْ ظَهْرِيًّا إِنَّ رَبِّي بِمَا

تَعْمَلُونَ مُحِيطٌ ﴿٩٢﴾﴾

ثم رفع شعيب من لهجة الخطاب، فوبخهم وثار عليهم عندما رأهم يتجاوزون حدودهم ويتجرؤون على رسوله الموحى إليه من الله، فقال لهم: أتركوني لأجل أهلي وعشيرتي، ولا تتركوني إعظاماً لجناب الله تعالى؟ فهل عشيرتي أعز عندكم من الله وأكرم؟ وهو

(١) ينظر: «تفسير الألوسي» (١٢/١٢٣).

(٢) قرأ نافع وابن كثير وأبو عمرو وابن ذكوان وأبو جعفر وهشام بخلف عنه بفتح ياء الإضافة من (أرهطي أعز)، والباقيون بإسكانها.

الذي خلقكم ورزقكم ودبر أمركم، ومع ذلك فقد جعلتم أوامره ونواهيه - على لسان نبيه الذي أرسله إليكم - وراء ظهوركم، ولم تقيموا لها وزناً، مع أنه سبحانه محيط بأحوالكم، ولا يخفى عليه من أعمالكم مثقال ذرة، وسيجازيكم عليها.

وهكذا قال لهم شعيب: يا قوم، أرهطي أعز عليكم من الله؟ أتركوني لأجل العشيرة، ولا تتركوني لأجل الله سبحانه؟ فإنني نبي الله ورسوله، وهذه دعوة الله إليكم، وأنتم تفضلون القوم على رب العزة، ومن يهن رسول الله فقد أهان الله ﴿وَمَنْ يُهِنِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ مُكْرِمٍ﴾ [الحج: ١٨] ﴿إِنَّكَ رَقِيٍّ يَمَّا تَعْمَلُونَ مُحِيطٌ﴾ لا يخفى عليه مثقال ذرة في الأرض ولا في السماء، فهو وحده العليم بأحوالكم، وسوف يحاسبكم عليها بما تستحقون.

بعد هذا الحوار الطويل، أعيت شعيب الحيل، وعجز عنهم، فواعدهم انتظار العاقبة فقال:

٩٣- ﴿وَيَقْوِرْ أَعْمَلُوا عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ^(١) إِنِّي عَمِلٌ سَوْفَ تَعْلَمُونَ مَنْ يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَمَنْ هُوَ كَذِبٌ وَأَرْتَقِبُوا إِنِّي مَعَكُمْ رَقِيبٌ﴾

ثم تحدى شعيب قومه فقال: يا قوم، اعملوا كل ما في إمكانكم عمله معي، وابذلوا ما شئتم في تهديدي ووعيدي، واثبتوا على ما أنتم عليه، واستمروا في كفركم، وكان قد آمن منهم فريق، وكفر أشراف القوم وأغنياؤهم، وهددوه بالطرد هو ومن آمن معه من قريتهم أو الانخراط في ملتهم، حينئذ قال لهم شعيب: استمروا على ما أنتم عليه من عبادة الأوثان وتطيف الكيل والميزان، فإنني مستمر وماضي في دعوتكم إلى الخير والإيمان بالله، وسوف تعلمون من يأتية عذاب الله وخزيه في الدنيا والآخرة، وانتظروا ذلك، إني معكم مترقب ومنتظر، وهذا تهديد شديد لهم.

واستمر القوم في تكذيب شعيب، فكانوا أهلاً لنزول العذاب بهم، ثم أتتهم أهل مدين نبيهم شعيباً بأنه من المسحورين، كما أتتهم كل قوم رسولهم، واتهموه أيضاً بالكذب، واستنكروا عليه أن يكون رسولاً من البشر، كما استنكر كل قوم على رسولهم، فقالوا له: ﴿وَمَا أَنْتَ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا وَإِنْ نَظُنُّكَ لَمِنَ الْكَاذِبِينَ﴾ [الشعراء] ثم طلبوا منه أن ينزل بهم

(١) قرأ شعبة بألف بعد النون من (مكانتكم) على الجمع؛ ليطابق المضاف إليه وهو ضمير الجماعة، والباقون بغير ألف على الأفراد؛ لإرادة الجنس.

عذاب الله، وأن يسقط عليهم كسفًا من السماء إن كان صادقًا في دعوته.

عِقَابُ اللَّهِ لِمَنْ كَذَبَ شُعَيْبًا

٩٤، ٩٥ - ﴿وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا شُعَيْبًا وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَأَخَذَتِ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةَ فَأَصْبَحُوا فِي دِيارِهِمْ جَنِّيمٍ ﴿٩٤﴾ كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا فِيهَا أَلَا بُعْدًا لِّمَدَّيْنٍ كَمَا بَعْدَتْ ثُمُودُ ﴿٩٥﴾﴾
ولم يطل ترقب شعيب وانتظاره لما يحلُّ بالقوم، بل جاء عقاب الله سريعًا حاسمًا:
ولما أراد الله سبحانه أن ينزل بهم العذاب أنجى رسوله شعيبًا والمؤمنين معه، تصحبهم
رحمة الله تعالى

وقد عبر القرآن عن هذا العذاب في سورة الأعراف وهود والشعراء بتعبيرات مختلفة،
وهي الرجفة والصاعقة والصيحة، وقد بين تعالى في هذه السورة أن الصيحة أخذتهم
فأصبحوا في ديارهم باركين على ركبهم وهم موتى لا يتحركون.

وذكرت الآية هنا أن قوم شعيب أتتهم الصيحة، وفي سورة الأعراف أخذتهم الرجفة
﴿فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَنِّيمٍ ﴿٧٨﴾﴾ [الأعراف]

وفي سورة الشعراء ﴿فَأَخَذَهُمْ عَذَابٌ يَوْمِ الظُّلَّةِ إِنَّهُ كَانَ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ [الشعراء: ١٨٩]
وهم أمة واحدة، اجتمع عليهم في يوم عذابهم هذه النقم كلها بالنسبة لأصحاب الأيكة.
وإنما ذكر في كل سياق ما يناسبه، فكان ذكر الرجفة في (الأعراف) مناسبًا لقولهم:
﴿لَنُخْرِجَنَّكَ يَشُعَيْبُ﴾ [الأعراف: ٨٨]

وكان ذكر الصيحة في هذه السورة مناسبًا لتناولهم على نبيهم وسوء الأدب معه.

وكان ذكر عذاب يوم الظلة في (الشعراء) مناسبًا لنوعية العذاب الذي طلبوه في قولهم:
وهم قوم آخرون يسكنون في قرية مجاورة لمدين.

﴿فَأَسْقِطْ عَلَيْنَا كِسْفًا مِّنَ السَّمَاءِ إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ [الشعراء]

وأنجى الله الذين آمنوا مع شعيب.

وفي قصة قوم ثمود وقوم لوط ﴿فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا﴾ بالفاء؛ لأن عذابهما كان محدداً بموعد معين، هو ثلاثة أيام لقوم ثمود، وموعدهم الصبح لقوم لوط.

أما قصة عاد ومدين فإن عذابهما لم يكن له موعد محدد، ولذا جاء الوعيد مجملاً في ﴿وَسَنَخْلِفُ رَّبِّي قَوْمًا غَيْرَكُمْ﴾ وفي ﴿وَارْتَقِبُوا إِنِّي مَعَكُمْ رَقِيبٌ﴾ ولذا جاء العطف بالواو فيهما ﴿وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا﴾ وفي ذلك عبرة وعظة لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد.

وحين تم هلاك قوم مدين انتهت آثارهم، وانمحي وجودهم من الحياة، كأنهم لم يقيموا في ديارهم التي كانوا فيها وقتاً من الأوقات، وكأنهم لم ينعموا بنعمة العيش لحظة من اللحظات.

ثم عاد الله تعالى فقال: ﴿أَلَا بُعْدًا﴾ أي: هلاكاً مصحوباً بالخزي واللعنة لأهل مدين كما هلكت ثمود قبلها، فقد اشتركت القبيلتان في الهلاك والطرده من رحمة الله.

وهكذا طُوِّيت صفحة من صفحات الظالمين، وهم قوم مدين وأصحاب الأيكة، كما طويت قبلهم صفحات قوم نوح وهود وصالح ولوط عليهم السلام.

هذا: ويؤخذ من هذه القصة:

١- أن الكفار يخاطبون بأصول الشريعة وفروعها، فقد دعا شعيب قومه إلى توحيد الله وتطهير الكيل والميزان، ورتب الوعيد عليهما.

٢- ويستفاد منها أن نقص الكيل والميزان من كبائر الذنوب.

٣- وأن الجزاء من جنس العمل، فمن يريد الزيادة في ماله من طريق حرام عوقب بنقيض ذلك.

٤- وعلى العبد أن يقنع بما رزقه الله بعد بذل السبب ﴿يَقَيِّتُ اللَّهُ خَيْرَ لَّكُمْ﴾.

٥- ويستفاد أيضاً أن الصلاة مفروضة في الشرائع السابقة، وأنها تنهى عن الفحشاء والمنكر.

٦- وليس للعبد أن يفعل في ماله ما يشاء، وإنما يقيم حق الله فيه، بأداء زكاته، ويمتنع

من المكاسب المحرمة.

- ٧- ولا بد للداعية أن يكون قدوة لغيره، فلا تخالف أقواله أفعاله.
- ٨- ووظيفة الدعاة هي البلاغ والإصلاح، ومن قام بذلك لا يُلام ولا يُذم.
- ٩- لا بد للعبد أن يستعين بالله تعالى ويعتمد عليه ويسأله التوفيق في جميع أموره، ولا يعتمد على نفسه طرفة عين.
- ١٠- ولا بد للأفراد والأمم والشعوب أن يعتبروا بعقوبات المخالفين لأوامر الله تعالى ونواهيه.
- ١١- والتائب من الذنب كمن لا ذنب له.
- ١٢- والله تعالى يدفع عن المؤمنين بأسباب كثيرة يعرفونها أو تخفى عنهم، كما دفع عن شعيب عليه السلام رجم قومه له بسبب رهطه^(١).

الْقِصَّةُ السَّابِعَةُ: طَرَفٌ مِنْ قِصَّةِ مُوسَى عليه السلام

٩٦، ٩٧- ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُّبِينٍ ﴿٩٦﴾ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ فَاتَّبَعُوا أَمْرَ فِرْعَوْنَ وَمَا أَمْرُ فِرْعَوْنَ بِرَشِيدٍ ﴿٩٧﴾﴾

موسى عليه السلام هو ابن عمران، من نسل لاوى بن يعقوب عليه السلام، ويرى بعض المؤرخين أنه ولد في القرن الثالث عشر قبل الميلاد، وأن بعثته كانت في عهد منفتح بن رمسيس الثاني.

وقد ذكرت قصة موسى بعد ذكر قصة شعيب؛ لشدة الصلة بين النبيين، فقد بُعث موسى في حياة شعيب وتزوج ابنته كما قيل.

وفي سورة هود عليه السلام طرف يسير من قصة موسى عليه السلام، جاء ذكرها في أربع آيات قصار، وهذه الآيات الأربع تُبين مصير فرعون في الدار الآخرة بنار جهنم، تصحبه اللعنة في الدارين، كما تُبين مصير فرعون في دار الدنيا بالغرق؛ لكي تكون هذه النهاية عبرة لمن يأتي بعده.

وهذه الآيات أو المعجزات المشار إليها في الآية جاء ذكر عددها إجمالاً في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَىٰ تِسْعَ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ﴾ [الإسراء: ١٠١].

(١) استفتت في هذه النقاط الأخيرة من تفسير الشيخ عبدالرحمن السعدي.

وجاء تفصيلها في سورة الأعراف^(١)، وهي معجزاته الحسية: العصا واليد، وهما أبرز معجزاته، وأن الله تعالى قد أرسل على قومه: الطوفان والجراد والقمل والضفادع والدم، وأخذهم بالسنين ونقص من الثمرات، فهذه تسع آيات بينات، وقد أيد الله موسى ﷺ بالتوراة، حجة بالغة في محاوراة فرعون وقومه.

والمعنى: ولقد أرسلنا نبينا موسى إلى فرعون وملئه بمعجزاتنا الدالة على صدقه، وآياتنا الدالة على وحدانيتنا، والدالة على كذب كل من ادعى الربوبية من دون الله سبحانه، ومن هذه الآيات: العصا واليد والتوراة، وأرسلناه بشرائع وأحكام وتكاليف إلهية إلى بني إسرائيل، وإلى فرعون وملئه، وهذه الشرائع والأحكام هي السلطان المبين والحجة الظاهرة.

وقد أمر فرعون قومه وأتباعه من الكبراء والضعفاء أن يكذبوا تلك الرسالة، فيتبعوه ويكفروا بموسى، فخالقوا موسى وأطاعوا فرعون، وليس أمر فرعون بسديد ولا رشيد، وإنما هو جهل وضلال وكفر وعناد، فهو لا يأمر إلا بما هو ضرر محض، وشر مستطير.

وخصَّ المَلَأَ بالذكر في الآية؛ لأنهم الذين كانوا ينفذون أوامره ويعاونونه على فسادهم، **والمَلَأَ:** هم الأشراف.

وضعفاء الشعب: هم الذين يتبعون الرسل، وقد أرسل الله موسى إلى فرعون، وإلى المَلَأَ من قومه، وإلى بقية الشعب، قال تعالى: ﴿فَاتَّبَعُوا أَمْرَ فِرْعَوْنَ﴾ أي: فأعرضوا عن موسى وكذبوه، وترسموا خطأ فرعون، وهم الذين كانوا ينفذون أوامره فيما يتعلق بقتل الأبناء الذكور من بني إسرائيل، وينفذونها أيضا فيما يتعلق بعدم الإيمان بما جاء به موسى ﷺ.

وكما كان فرعون إماماً لأهل الضلال في الدنيا، فإنه يكون إمامهم في الآخرة، يتقدمهم إلى النار:

٩٨ - ﴿يَقْدُمُ قَوْمَهُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ فَأَوْرَدَهُمُ النَّارَ وَبِئْسَ الْوَرْدُ الْمَوْرُودُ﴾

ثم بين سبحانه سوء مصير فرعون، وسوء مصير أتباعه، من أن فرعون كما كان قائداً وإماماً لقومه في الدنيا يدعوهم إلى الكفر والضلال، فإنه يكون قائداً وإماماً لهم يتقدمهم إلى النار

(١) في الآيات [١٠٧، ١٠٨، ١٣٠، ١٣٣].

في الآخرة، فكما تقدمهم بالكفر في الدنيا يتقدمهم إلى جهنم يوم القيامة، وهذا معنى: ﴿فَأَوْرَدَهُمُ النَّارَ﴾ كما يورد الراعي قطع الغنم إلى الماء من العطش.

ثم ذم الله المدخل الذي يدخلونه في النار، فقال سبحانه: ﴿وَيَبْسُ الْوَرْدُ الْمَوْرُودُ﴾ والمراد بالورد في الآية: الدخول في النار، وليس الإشراف عليها ورؤيتها، ولا المرور عليها، وقد جاء هذا الورد بصيغة الماضي ﴿فَأَوْرَدَهُمُ﴾ لتحقيق دخول فرعون وآله النار.

وقد بين سبحانه أن قوم فرعون سيدخلون النار بمجرد موتهم، كما قال تعالى: ﴿وَحَاقَ بِآلِ فِرْعَوْنَ سُوءُ الْعَذَابِ ٤٥﴾ النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا ﴿هذا في البرزخ، وهو العذاب الأصغر في القبر، أما العذاب الأكبر يوم القيامة فيقول الله تعالى فيه: ﴿فَعَصَى فِرْعَوْنُ الرَّسُولَ فَأَخَذْنَاهُ أَخْذًا وَبِيلًا ١١﴾ فَكَيْفَ تَنْقُوتَ إِنْ كَفَرْتُمْ يَوْمًا يَجْعَلُ الْوِلْدَانَ شِيبًا ١٧﴾ [المزمل]

ويقول سبحانه: ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ﴾ [غافر: ٤٥، ٤٦]

وقال تعالى عن فرعون: ﴿فَقَالَ أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَى ١٤﴾ فَأَخَذَهُ اللَّهُ نَكَالَ الْآخِرَةِ وَالْأُولَى ١٥﴾ [النازعات]. وفرعون وملؤه ملعونون في الدنيا والآخرة؛ قال تعالى:

٩٩- ﴿وَأَتَّبِعُوا فِي هَذِهِ لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيَمَةِ يَبْسُ الرِّفْدُ الْمَرْفُودُ ٩٩﴾

ثم لعن الله فرعون وآله في الدارين، فقد أتبعهم الله بعذاب آخر فوق العذاب الذي عجله لهم في الدنيا بالغرق في البحر، أتبعهم بعده لعنة أخرى بالعذاب يوم القيامة في نار جهنم، وبس ما ترادف لهم واجتمع عليهم من عذاب الله ولعنته لهم في الدنيا والآخرة، فلم يبعث الله نبيًا بعد فرعون إلا لعن على لسانه، ويوم القيامة يزيد لعنة أخرى في النار، وبسست الفضيحة التي لحقتهم في الدارين.

والرفد: هو العطاء، وسميت اللعنة رَفْدًا من باب التهكم؛ أي: بس العطاء المضاعف لهم في الدنيا والآخرة، وبس العطاء المعطى من فرعون لأتباعه الذين كانوا من خلفه كقطع الغنم الذي يسير خلف قائده بدون فكر ولا تدبر، وبهذا يتبين أن فرعون وقومه قد طردوا وأبعدوا من رحمة الله في الدنيا والآخرة، فهم ملعونون في الدارين، وبسست هذه اللعنة لهم في الدنيا والآخرة، يتبع أحدها الآخر.

وفي سورة القصص نظير لهذه الآيات، يقول ﷺ عن فرعون وجنوده: ﴿وَجَعَلْنَاهُمْ آيَةً يَكْذُوبُونَ إِلَى الْكَارِ وَيَوْمَ الْفَيْكَةِ لَا يُنْصَرُونَ ٤١﴾ وَأَتَّبَعْنَاهُمْ فِي هَذِهِ الدُّنْيَا لَعْنَةً وَيَوْمَ الْفَيْكَةِ هُمْ مِنَ الْمَقْبُوحِينَ ٤٢﴾ [القصص]

فهم كانوا أئمة يدعون الناس إلى الضلال في الدنيا، فكان عاقبتهم يوم القيامة أنهم لا يفلتون من عذاب الله تعالى.

ويوم القيامة يتبرأ الضعفاء الذين يتبعون الرؤساء ممن قلدوهم واتبعوهم، ومنهم أتباع فرعون كما قال تعالى: ﴿يَوْمَ ثَقُلَتْ وُجُوهُهُمْ فِي النَّارِ يَقُولُونَ يَلَيْتَنَّا أَطَعْنَا اللَّهَ وَأَطَعْنَا الرَّسُولَ ١٦٦﴾ وَقَالُوا رَبَّنَا إِنَّا أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكِبَرَاءَنَا فَأَضَلُّنَا السَّبِيلَ ١٦٧﴾ رَبَّنَا ءَاتِهِمْ ضِعْفَيْنِ مِنَ الْعَذَابِ وَالْعَنَتُمْ لَنَا كَبِيرًا ١٦٨﴾ [الأحزاب].

وهكذا ساقّت سورة هود سبعاً من قصص الأنبياء والمرسلين حسب ترتيبهم التاريخي والزماني، وأبرزت السورة وحدة العقيدة في جميع الشرائع، كما أبرزت وجوب التوجه بالعبادة إلى الله وحده.

ويتبين من هذه القصص أن رسل الله في كل زمان ومكان يتبعهم الأخيار، ويحاربهم الأشرار، وأن العاقبة الحسنة لأتباع الرسل، وسوء العاقبة لمن خالف الرسل؛ فأعرض عنهم وكفر بالحق الذي جاؤوا به، وأن محمداً ﷺ هو خاتم النبيين، وأن الله تعالى لا يقبل من أحد ديناً سواه، وأن غير المسلمين في أرجاء الدنيا مدعوون إلى اعتناق الإسلام منذ البعثة المحمدية.

التَّعْقِيبُ عَلَى قِصَصِ السُّورَةِ

١٠٠- ﴿ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْفُرَى نَقُصُّهُ عَلَيْكَ مِنْهَا قَائِمٌ وَحَصِيدٌ ١١٠﴾

ثم يأتي التعقيب على ما في سورة هود من قصص الأنبياء مكوّناً من شقين:

أحدهما: يتعلق بعذاب الدنيا؛ لبيان العبرة والفائدة من القصص القرآني عن طريق الوحي الصادق، وهذا القصص من أخبار القرى التي أُبِيدت وأهلك الله أهلها؛ لأنها كذبت رسلها، قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ جَاءَكَ مِنْ نَبِيِّئِ الْمُرْسَلِينَ﴾ [الأنعام: ٢٤].

والقرية في القرآن هي العاصمة والحاضرة، وهي تقابل البادية؛ لأن مكة أم القرى، ومن هذه القرى ما بقي له آثار قائمة؛ كمداين صالح، وبقايا عاد، وتمثال فرعون وهيكله، وآثار قوم يونس بنينوى في العراق، وإنطاكية قرية المرسلين الثلاثة، وقوم تبع في صنعاء، وقوم مدين في معان، ومنها ما أُبِيدَ تمامًا، ولم يبقَ له أثر كقوم لوط، وقوم هود، وقوم نوح ﴿فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذُنُوبِهِ فَمِنْهُمْ مَن أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُمْ مَن أَخَذَتْهُ الصَّيْحَةُ وَمِنْهُمْ مَن خَسَفْنَا بِهِ الْأَرْضَ وَمِنْهُمْ مَن أَغْرَقْنَا وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُظْلِمَهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ [العنكبوت].

وفي هذه الجملة من الآية التي معنا تشبيه بليغ، حيث شبهت القرى التي بقي آثارها بالزرع القائم على ساقه، وشبهت ما اندثر منها ومُحِيَ أثره بالزرع المحصود. قال تعالى:

١٠١ - ﴿وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِنْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ فَمَا أَغْنَتْ عَنْهُمْ آلِهَتُهُمُ الَّتِي يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ لَّمَّا جَاءَ أَمْرُ رَبِّكَ وَمَا زَادُوهُمْ غَيْرَ تَتْنِيبٍ﴾ (١٠١)

ثم بين سبحانه أن ما أصاب أهل هذه القرى من الهلاك إنما هو بسبب سوء أعمالهم وظلمهم لأنفسهم، فهم الذين جرّوا على أنفسهم العذاب، لقد ظلموا أنفسهم بالكفر والشرك، وعبادة الآلهة من دون الله، فلم يكن إهلاكنا لهم بغير حق، ولكنهم أشركوا بالله، وأفسدوا في الأرض، وحين جاء أمر الله بالإبادة لم تحلّ هذه الآلهة بينهم وبين العذاب، وما زادتهم آلهتهم غير هلاك وخسران، بل إنها لم تنفع نفسها، فقد هلكت معهم كما هلكوا، وكانوا وهم في الدنيا يعتمدون عليها في دفع الضر عنهم كما يفعل عباد القبور.

١٠٢ - ﴿وكَذَلِكَ أَخَذَ رَبُّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَىٰ وَهِيَ ظَالِمَةٌ إِنَّ أَخَذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ﴾ (١٠٢)

ثم بين سبحانه سنته في عقاب الظالمين في كل زمان ومكان، وبمثل هذا الدمار يأخذ ربك كل قرية، ويشدد أخذ ربك إذا ساد الظلم في الأمة، وسيطر عليها الظالمون، وفي الآية من إنذار الظالم ما لا يخفى.

وفي الصحيحين عن أبي موسى رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «إن الله ليملي للظالم حتى

إذا أخذه لم يفله» ثم قرأ الآية^(١).

والمعنى: وكما أخذ ربك أهل القرى الظالمة بالعذاب؛ لمخالفتهم أمر الله، وتكذيبهم رسله، يعاقب غيرهم من أهل كل عصر ومصر، ممن ظلموا أنفسهم بالكفر والتكذيب بخاتم المرسلين، وتجاوز حدود الله، وارتكاب معاصيه، إن عذابه تعالى شديد موجع.

١٠٣ - ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّمَن خَافَ عَذَابَ الْآخِرَةِ ذَلِكَ يَوْمٌ مَّجْمُوعٌ لُّهُ النَّاسُ وَذَلِكَ يَوْمٌ مَّشْهُودٌ﴾

أما الشق الثاني من هذا التعقيب على قصص الرسل وهلاك الأمم المكذبة، فهو يتعلق بعذاب الدار الآخرة، حيث بين تعالى أن الأخذ الشديد في الدنيا علامة على شدة الأخذ يوم لقاء رب العالمين، وعذاب الدنيا علامة دالة على عذاب الآخرة؛ لأن القرى الظالمة قد توعدا الله بعذاب الدنيا وعذاب الآخرة.

وهو يوم مشهود، تُجمع له الخلائق أجمعون، الأولون والآخرين، من الملائكة والإنس والجن والدواب والطيور والوحوش؛ للحساب والثواب والعقاب، وفوق ذلك كله يشهده رب العالمين، وهو آت لا ريب فيه، ولا يتخلف عنه أحد ﴿وَحَشَرْتَهُمْ فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَدًا﴾ [الكهف: ٤٧]

وهو يوم تشهد الملائكة والرسل والأنبياء، ويكثر شاهده من جميع الخلق. قال تعالى:

١٠٤ - ﴿وَمَا نُؤَخِّرُهُ^(٢) إِلَّا لِأَجَلٍ مُّعَدُّودٍ ﴿١٠٤﴾﴾

أي: وما نؤخر يوم القيامة إلا إلى زمن معين سبق به القضاء، وهو يوم لا يتقدم ولا يتأخر، وهذا الوقت المحدد المعين إلى حين يتكامل عمر الدنيا بما فيها ﴿إِذَا جَاءَ أَجْلُهُمْ فَلَا يَسْتَعْجِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ﴾ [يونس: ٤٩] ﴿قُلْ لَّكُمْ مِيعَادُ يَوْمٍ لَا تَسْتَعْجِرُونَ عَنْهُ سَاعَةً وَلَا تَسْتَقْدِمُونَ﴾ [سبأ]. ثم يُقْلُونَ إلى الدار الآخرة للحساب والجزاء بعد أن طلب منهم القيام بالأحكام الشرعية في الدنيا.

(١) «صحيح البخاري» برقم (٤٦٨٦) و«صحيح مسلم» برقم (٢٥٨٣) والترمذي (٣١١٠) والنسائي في «الكبرى» (١١٢٤٥) وابن ماجه (٤٠١٨) والبيهقي في «الأسماء والصفات» (٦٥) وغيرهم.

(٢) قرأ ورش وأبو جعفر بإبدال همزة (وما نؤخره) واواً ومعهما حمزة عند الوقف، وللأزرق في الرء الترفيق والتفخيم.

وفي قصص القرآن وأخبار الأمم والرسل عبرة وعظة لمن خاف عذاب الله وعقابه في الدار الآخرة.

وفي إهلاك الكافرين ونصرة الأنبياء وإنجاء المؤمنين دلالة على صدق وعد الله تعالى بالدار الآخرة التي يحاسب فيها العباد ويُجزون بأعمالهم ﴿إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهُدُ﴾ [٥١] [غافر].

وفي إهلاك الظالمين ونصر أنبياء الله ورسله والتمكين لهم في الأرض يقول تعالى: ﴿فَأَوْحَىٰ إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ لَنُهْلِكَنَّ الظَّالِمِينَ﴾ [١٣] وَلَنَسْكَنَنَّكَمُ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِهِمْ ذَلِكَ لِمَنْ خَافَ مَقَامِي وَخَافَ وَعِيدِ [١٤] [إبراهيم].

والذي ينكر الدار الآخرة وما فيها من ثواب وعقاب، لا يعتبر بما أصاب الظالمين من عذاب في الدنيا، ولا بما ينتظرهم من عذاب الآخرة، أما مَنْ يخاف عذاب الآخرة، فعندما يرى ما حلَّ بالمجرمين في الدنيا من عقاب، يزداد إيماناً على إيمانه، ويعلم بأن الله تعالى قادر على أن يعذبهم في الآخرة عذاباً هو أشد وأبقى.

أَهْلُ الشَّقَاءِ وَأَهْلُ السَّعَادَةِ وَجَزَاءُ كُلِّ مِنْهُمْ

١٠٥ - ﴿يَوْمَ يَأْتِ^(١) لَا تَكَلَّمُ^(٢) نَفْسٌ إِلَّا بِإِذْنِهِ فَمِنْهُمْ سُفِيَ^(٣) وَسَعِيدٌ﴾ [١٥]

ثم ذكر سبحانه جانباً من أهوال هذا اليوم وأحوال الناس فيه، وذلك أنه يوم يأتي هذا اليوم لا يتكلم أحد فيه إلا بإذن الله تعالى، حيث يسود الصمت الرهيب، والرهبة البالغة، كما قال تعالى: ﴿وَخَشَعَتِ الْأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَنِ فَلَا تَسْمَعُ إِلَّا هَمْسًا﴾ [طه: ١٠٨]

وقال أيضاً: ﴿يَوْمَ يَقُومُ الرُّوحُ وَالْمَلَائِكَةُ صَفًّا لَا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ وَقَالَ صَوَابًا﴾ [النبا: ٢٨]

فآلية بينت أن الكلام يوم القيامة لا يكون إلا بإذن من الله تعالى، ورضاه عن هذا الكلام، حتى الأنبياء والملائكة الكرام لا يشفعون إلا بإذنه.

(١) قرأ ورش وأبو جعفر وأبو عمرو بخلف عنه بإبدال همزة (يوم يأت) ومعهم حمزة في الوقف، وقرأ نافع وأبو عمرو والكسائي وأبو جعفر بإثبات الياء وصلًا من (يأت) وابن كثير ويعقوب بإثباتها وصلًا ووقفًا، والباقون بالحذف.

(٢) قرأ البري بخلف عنه بتشديد التاء وصلًا من (لا تكلم) مع المد المشبع، والباقون بالتخفيف مع القصر.

ويوم القيامة يوم طويل، والأحوال فيه مختلفة، وقد أثبت القرآن أنه يوم تجادل فيه كل نفس عن نفسها ﴿يَوْمَ تَأْتِي كُلُّ نَفْسٍ تُجَادِلُ عَنْ نَفْسِهَا وَتُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ [النحل]

ومن الكلام الذي أثبت القرآن يوم القيامة، حين يشهد الكفرة والمشركون كذباً على أنفسهم ويقولون: ﴿وَاللَّهِ رَبَّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾ [الأنعام: ٢٣] يقول تعالى في الرد عليهم: ﴿أَنْظِرْ كَيْفَ كَذَبُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَّا كَانُوا يَقْتِرُونَ﴾ [الأنعام]

وكيف يكذبون وهم بين يدي العزيز الكريم، وهو الذي يعلم سرهم ونجواهم، ويعلم ما يخفون وما يعلنون؟

ومن ذلك ما جاء في الصحيحين في حديث الشفاعة: «ولا يتكلم يومئذ إلا الرسل، ودعوى الرسل يومئذ: اللهم سلم سلم»^(١).

فدل هذا على أن يوم القيامة يوم طويل وأحواله مختلفة، فهو يوم يحدث فيه الصمت الرهيب، ويحدث فيه المحاجة، والجدال، والنقاش، والشفاعة، والحوار، والسؤال، وعدم السؤال، والتخاصم، وكل ذلك بإذن الله تعالى؛ ولذا قالت الآية ﴿إِلَّا بِإِذْنِهِ﴾.

والناس في هذا اليوم فريقان:

الأشقياء المخلدون في جهنم، المعذبون بكفرهم بالله، وتكذيبهم لرسول الله - والعياذ بالله -

والسعداء المخلدون في الجنة، المنعمون بإيمانهم وتقواهم - نسأل الله من فضله -.

عن عمر بن الخطاب ؓ قال: لما نزلت هذه الآية ﴿فَمِنْهُمْ شَقِيٌّ وَسَعِيدٌ﴾ سألت رسول الله ﷺ فقلت: يا نبي الله، ففيم نعمل؟ على شيء قد فرغ منه، أو على شيء لم يفرغ منه؟ قال: «بل على شيء قد فرغ منه، وجرت به الأقلام يا عمر، ولكن كل ميسر لما خلق له»^(٢) وعن أهل الشقاء يقول سبحانه:

(١) من حديث طويل في «صحيح البخاري» برقم (٨٠٦) و«صحيح مسلم» برقم (١٨٢).

(٢) قال الترمذي: هذا حديث حسن غريب لا نعرفه إلا من حديث عبد الله بن عمر «سنن الترمذي» برقم

(٣١١١) وصححه الألباني في «صحيح سنن الترمذي» برقم (٢٤٨٦) وفي ظلال الجنة (١٦١) وأخرجه

أبو يعلى (٥٤٦٣، ٥٥٧١) والطبري (٥٧٧/١٢) وابن أبي حاتم (٢٠٨٤/٦).

١٠٦- ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ شَقُوا فِي النَّارِ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ﴾ ﴿١٠٦﴾

ثم فصل سبحانه أحوال الأشقياء والسعداء في قوله: ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ شَقُوا فِي النَّارِ﴾ منغمسون في عذابها وشدة عقابها، ﴿لَا يُقْضَىٰ عَلَيْهِمْ فِيمِوتُوا وَلَا يَخَفُفُ عَنْهُمْ مِنْ عَذَابِهَا﴾ [فاطر: ٣٦] وهم يقولون: ﴿رَبَّنَا أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ﴾ [فاطر: ٣٧]

إن الشقي مخلد في النار ﴿ثُمَّ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَىٰ﴾ ﴿١٠٧﴾ [الأعلى]

والعذاب متجدد ﴿كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُمْ بَدَّلْنَاهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا الْعَذَابَ﴾ [النساء: ٥٦]

وأهل النار ﴿لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ﴾ كأنين المكروب في خروج النفس منه ورده إلى صدره بصعوبة وعناء، دلالة على شدة الكرب والهم والغم.

والزفير: هو إخراج النفس بدفع وشدة، بسبب ضغط التنفس، وهو أشنع الأصوات وأقبحها.

والشهيق: هو جذب الهواء إلى الصدر بقوة؛ لشدة الحاجة إلى التنفس.

والمعنى: فأما الذين شقوا في الدنيا لفساد عقيدتهم، وسوء أعمالهم، فالنار مستقرهم في الآخرة، لهم فيها من شدة العذاب ضيق الأنفاس، وأشنع الأصوات وأقبحها، مما يجعلهم يفضلون الموت على ما هم فيه من شدة الكرب وعظيم المعاناة، وأهل النار يخلدون فيها أبداً ولا يخرجون منها، ما دامت السماء سماء، والأرض أرضاً، فهم مستقرون في جهنم، لا ينقطع عذابهم ولا ينتهي، إلا ما شاء ربك من إخراج عصاة الموحدين من النار بعد مكثهم فيها بمقدار ما يستحقون على ذنوبهم التي ارتكبوها في الدنيا، أو بمقتضى شفاعة الشافعين لهم.

قال ابن عباس في أهل الشقاء: هم قوم من أهل الكبائر من أهل هذه القبلة، يعذبهم الله بالنار ما شاء بذنوبهم، ثم يأذن في الشفاعة لهم، فيشفع لهم المؤمنون؛ فيُخْرِجُهُم من النار فيُدْخِلُهُم الجنة، فسامهم أشقياء حين عذبهم في النار، وقد شاء الله أن يؤذن لهم بالشفاعة فيُخْرِجُون من النار ويدخلون الجنة^(١).

والله سبحانه فعال لما يريد، لا راد لقضائه ولا معقب لحكمه.

(١) ينظر هذا المعنى عند ابن أبي حاتم (٢٠٨٥/٦).

فأهل النار على مراتب؛ منهم الذين ماتوا على الكفر والشرك، فهؤلاء مخلدون في النار، ومنهم عصاة المؤمنين ممن يعذبون بمقدار معاصيهم ثم يُعفى عنهم، ويقال لهم: الْجَهَنَّمِيُّونَ في الجنة، كما جاء في الأحاديث في الآية التالية بعد. قال تعالى عن مصير أهل النار:

١٠٧- ﴿خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ﴾

أي أن أهل النار يخلدون فيها أبداً إلا المدة التي شاء الله أن لا يكونوا فيها، وذلك قبل دخولها، فالاستثناء راجع إلى ما قبل دخولها، فهم يخلدون فيها جميع الأزمنة إلا ما كان قبل دخولها، وكل شيء يحدث في هذا الكون معلق بمشيئة الله تعالى، فذكرُ المشيئة لبيان أن كل شيء بمشيئة الله تعالى، ومن ذلك الخلود في الجنة أو النار، ولو أراد الله غير ذلك لفعل.

قال الضحاك: إلا ما استثنى من أهل القبلة. وعن أهل السعادة يقول جل شأنه:

١٠٨- ﴿وَأَمَّا الَّذِينَ سُعِدُوا^(١) ففِي الْجَنَّةِ خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ عَطَاءٌ غَيْرٌ مَّجْدُورٍ﴾

وأما الذين رزقهم الله السعادة، فيدخلون الجنة، ويخلدون فيها أبداً، وهم دائمون فيها دوام سموات الجنة، ودوام أرض الجنة؛ أي: دائماً وأبداً، إلا من شاء الله تأخيره عن دخولها بعض الوقت من عصاة الموحدين، فإنهم يقعون في النار فترة من الزمن، ثم يخرجون منها إلى الجنة بمشيئة الله تعالى ورحمته، وعطاء أهل السعادة في الجنة عطاء دائم غير مقطوع ولا ممنوع.

فالاستثناء في الآية خاص بالمدة التي تلي الحساب، وقبل الخلود في الجنة أو النار، حيث يعذب من لم يتب من عصاة المؤمنين في النار، حتى يعفو الله عنه بفضله دون شفاعة، أو بشفاعة الشافعين.

(١) قرأ حفص وحزمة والكسائي وخلف العاشر بضم السين من (سعدوا) على البناء للمفعول، والباقون بفتحها على البناء للفاعل.

أحاديث في معنى الآيتين:

١- جاء في البخاري عن أنس رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «لَيُصِيبَنَّ أَقْوَامًا سَفْعٌ مِنَ النَّارِ، بِذُنُوبٍ أَصَابُوهَا عَقُوبَةٌ، ثُمَّ يَدْخُلُهَا اللَّهُ الْجَنَّةَ بِفَضْلِ رَحْمَتِهِ، يُقَالُ لَهُمْ: الْجَهَنَّمِيُّونَ»^(١).

٢- وفي لفظ آخر عن أنس أيضًا أن النبي ﷺ قال: «يُخْرِجُ قَوْمٌ مِنَ النَّارِ بَعْدَ مَا مَسَّهُمْ مِنْهَا سَفْعٌ، فَيَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ، فَيَسْمِيهِمْ أَهْلَ الْجَنَّةِ الْجَهَنَّمِيِّينَ»^(٢).

٣- وفي الصحيحين أيضًا عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «يَدْخُلُ أَهْلُ الْجَنَّةِ الْجَنَّةَ، وَأَهْلُ النَّارِ النَّارَ، ثُمَّ يَقُولُ اللَّهُ تَعَالَى: أَخْرِجُوا مِنَ النَّارِ مَنْ كَانَ فِي قَلْبِهِ مِثْقَالُ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ مِنْ إِيْمَانٍ، فَيُخْرِجُونَ مِنْهَا قَدْ اسْوَدُّوا، فَيُلْقَوْنَ فِي نَهْرِ الْحَيَاةِ، فَيَنْبُتُونَ كَمَا تَنْبُتُ الْحَبَّةُ مِنْ جَانِبِ السَّيْلِ، أَلَمْ تَرَ أَنَّهَا تَخْرُجُ صَفْرَاءَ مُلْتَوِيَةً»^(٣).

٤- وفي حديث جابر رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «إِنَّ اللَّهَ يَخْرِجُ قَوْمًا مِنَ النَّارِ بِالشَّفَاعَةِ»^(٤).

وفي حديث جابر أيضًا: «إِنْ قَوْمًا يَخْرُجُونَ مِنَ النَّارِ يَحْتَرِقُونَ فِيهَا، إِلَّا دَارَاتِ وَجُوهُهُمْ، حَتَّى يَدْخُلُوا الْجَنَّةَ»^(٥).

المراد بالاستثناء: ثم إن الاستثناء الوارد في قوله تعالى: ﴿إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ﴾ بالنسبة لأهل الجنة يعني أن دوام نعيمهم فيها ليس أمرًا واجبًا بذاته، بل هو موكول إلى الله تعالى، فخلود أهل الجنة فيها بمشيئة الله، كما أن خلود أهل النار فيها بمشيئة الله تعالى:

قال تعالى عن أهل النار: ﴿النَّارُ مَثْوًى لَكُمْ فَاصْبِرُوا فِيهَا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ﴾ [الأنعام: ١٢٨] وهذا الاستثناء في الآيات له معنيان:

المعنى الأول: أنه استثناء ندب إليه الشرع في كل كلام، على نحو قوله تعالى: ﴿لَتَدْخُلَنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ ءَامِنِينَ﴾ [الفتح: ٢٧] فهو إرشاد من الله لعباده بوجوب

(١) «صحيح البخاري» برقم (٧٤٥٠) وانظر (٦٥٥٩).

(٢) «صحيح البخاري» برقم (٦٥٥٩)، (٧٤٥٠).

(٣) «صحيح البخاري» برقم (٢٢) وانظر (٤٥٨١، ٤٩١٩، ٧٤٣٨) و«صحيح مسلم» برقم (١٨٤) مطولاً.

(٤) ينظر «صحيح مسلم» برقم (١٩١) و«صحيح البخاري» برقم (٦٥٥٨).

(٥) «صحيح مسلم» برقم (١٩١).

تفويض الأمر إليه في كل شيء، وإعلامهم أن كل شيء خاضع لإرادته تعالى ومشيئته، فهو سبحانه فاعل مختار ﴿إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ﴾ كما قال تعالى على لسان شعيب: ﴿وَمَا يَكُونُ لَنَا أَنْ نَعُودَ فِيهَا إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّنَا﴾ [الأعراف: ٨٩] فشعيب يثق أنه لن يعود إلى ملة الكفر، ولكنه يفوض الأمر إلى الله تأديباً معه سبحانه، هذا هو المعنى الأول الذي نميل إليه.

أما المعنى الآخر: فهو أنه استثناء من طول المدة؛ أي: من الخلود في الجنة، واستثناء من الخلود في النار.

والاستثناء من الخلود في الجنة يكون له ثلاث حالات:

الحالة الأولى: أن المراد به الذين ماتوا على التوحيد من أمة محمد ﷺ، ولكنهم عصاة ارتكبوا ذنباً كبيراً في دنياهم غير الشرك، فيخرجون من النار بدون شفاعاة بفضل الله تعالى.

الحالة الثانية: الموحدون الذين يخرجون من النار بشفاعة الأنبياء أو الشهداء أو غيرهم، فهم يدخلون النار ويعذبون فيها بقدر ذنوبهم، ثم يخرجون منها ويدخلون الجنة، وهؤلاء قد فاتهم من الخلود في الجنة بعض الوقت الذي قضوه في النار، فلا يصدق عليهم الخلود في الجنة، ولا الخلود في النار.

الحالة الثالثة: أن الاستثناء من الخلود في الجنة يكون بسبب مدة البرزخ، والحشر والحساب، فهم ليسوا في الجنة وليسوا في النار.

وإجماع الأمة بعد نصوص الكتاب والسنة منعقد على أن من دخل الجنة لا يخرج منها أبداً، قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ فِي نَارِ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا أُولَئِكَ هُمْ شَرُّ الْبَرِيَّةِ﴾ [البينة] وقال: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَظَلَمُوا لَمْ يَكُنِ اللَّهُ لِيَغْفِرْ لَهُمْ وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ طَرِيقًا ﴿١٧٨﴾ إِلَّا طَرِيقَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا﴾ [النساء: ١٦٨، ١٦٩].

وعن أهل الجنة يقول تعالى: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا﴾ [النساء: ٥٧]

ويقول أيضاً: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَئِكَ هُمْ خَيْرُ الْبَرِيَّةِ ﴿٧﴾ جَزَاؤُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ جَنَّاتٌ عَدْنٍ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا﴾ [البينة: ٧، ٨].

وفي حديث أبي سعيد الخدري وأبي هريرة رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال: «ينادي مناد: إن لكم أن تصحوا فلا تسقموا أبدًا، وإن لكم أن تحيوا فلا تموتوا أبدًا، وإن لكم أن تشبوا فلا تهرموا أبدًا، وإن لكم أن تنعموا فلا تبأسوا أبدًا، فذلك قوله ﷻ: ﴿وَتُودُوا أَنْ تُلَكُّمُ الْجَنَّةَ أَوْ رِيضُوهَا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾»^(١).

وعذاب أهل النار لأهلها، جزاء موافق لأعمالهم، ونعيم أهل الجنة عطاء ومنحة وفضل من رب العالمين لأهل الإيمان؛ إذ ليس هناك ما يُلْزَم الله تعالى، فهو سبحانه لا يُسأل عما يفعل وهم يسألون، وعطاء رب العالمين غير مجذوذ ولا مقطوع.

وكما أن أهل الجنة في الجنة يلهمون التسبيح والتهليل كالنفس، فأهل النار في النار لهم فيها زفير وشهيق، فهم حين يتنفسون يتنفسون من فيح جهنم، والعياذ بالله.
مَعْنَى دَوَامِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ:

ومعنى ﴿مَا دَامَتِ السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ﴾ أي: مدة دوامهما، ودوامهما مؤبد، فهو خلود على وجه التأيد. والعرب يقولون: لا آتيك ما دامت السموات والأرض، ولا آتيك ما اختلف الليل والنهار، يريدون بذلك على الدوام والتأيد.

ولعل المراد بالسموات والأرض: المبدلة المعدة للدار الآخرة، وهي التي لم يسفك فيها دم حرام، ولم يرتكب فيها خطيئة ﴿يَوْمَ تُبَدَّلُ الْأَرْضُ غَيْرَ الْأَرْضِ وَالسَّمَوَاتُ وَبَرَزُوا لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ﴾ [إبراهيم].

في صحيح البخاري وغيره عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «يؤتى بالموت كهية كبش أملح، فينادي مناد: يا أهل الجنة، فيشربون وينظرون، فيقول: هل تعرفون هذا؟ فيقولون: نعم، هذا الموت، وكلهم قد رآه، ثم ينادي: يا أهل النار، فيشربون وينظرون، فيقول: هل تعرفون هذا؟ فيقولون: نعم، هذا الموت، وكلهم قد رآه، فيذبح، ثم يقول: يا أهل الجنة خلود فلا موت، ويا أهل النار خلود فلا موت» ثم قرأ: ﴿وَأَنذَرَهُمْ يَوْمَ الْحَسْرَةِ إِذْ قُضِيَ الْأَمْرُ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ﴾ وهؤلاء في غفلة أهل الدنيا وهم لا يؤمنون^(٢).

(١) «صحيح مسلم» برقم (٢٨٣٧).

(٢) «صحيح البخاري» برقم (٤٧٣٠) و«صحيح مسلم» برقم (٢٨٤٩).

أَعْظَمُ الْأَشْقِيَاءِ: عِبَادُ الْأَصْنَامِ

١٠٩- ﴿فَلَا تَكُ فِي مِرْيَةٍ مِّمَّا يَعْبُدُ هَؤُلَاءُ مَا يَعْبُدُونَ إِلَّا كَمَا يَعْبُدُ آبَاؤُهُمْ مِن قَبْلُ وَإِنَّا لَمُوفُونَ نَضِيبُ لَهُمْ عَذَابَ مَنْقُوصٍ ﴿١٠٩﴾﴾

بعد هذا التعقيب على القصص القرآني، وبيان المصير الدنيوي والأخروي لمن كذب بالله ورسله، يأتي هذا الخطاب الموجه إلى النبي ﷺ وإلى أمته، فيبين الله سبحانه أن الكفار والمشركين ما يعبدون إلا كما يعبد آباؤهم من قبل، فهم يقلدون الآباء والأجداد في عبادة الأوثان والأصنام، فلا يتسرب إلى نفسك الشك - أيها المسلم - في ضلالهم وفساد عبادتهم، وأنهم على باطل .

﴿وَإِنَّا لَمُوفُونَ نَضِيبُ لَهُمْ عَذَابَ مَنْقُوصٍ﴾ من الرزق ومتاع الدنيا، كما قَدَّرناه وقسمناه لهم من غير نقص فيه ولا زيادة،

ويصح أن يكون المعنى: وإنا لموفوهم نصيبهم من العذاب في نار جهنم كاملاً غير منقوص، وهذه الآية لبيان ضلال عبدة الأوثان قديماً وحديثاً .

وجاء خطاب الآية إلى النبي ﷺ من باب فصاحة القول في النهي عن أنواع الشرك الذي يقع فيه بعض أفراد الأمة، وبيان سوء مصيرهم، وأنهم ممن قال الله فيهم:

﴿فَأَمَّا الَّذِينَ شَقُوا فِي النَّارِ﴾ وأنهم يخلدون فيها دائماً وأبداً، حيث إنه لم يحصل شك من النبي ﷺ، ولا من صالحي أمته، في فساد عبادة المشركين في كل زمان ومكان، فليس المراد في الآية نفي الشك في عبادتهم، فإن هذا لا يعتري أي مؤمن، وإنما المراد نفي الشك في أن يتركهم الله دون عذاب في الدنيا، ولا عقاب في الآخرة .

فلا تكن -أيها المسلم- في شك من أن الله تعالى سيعذب طوائف المشركين كلها، سواء من يعبد الأوثان، أو من يعبد الجن، أو من يجعل عزيزاً ابناً لله ، ومن يجعل المسيح ابناً لله ، أو أنه ثالث ثلاثة، أو كان يعبد البقر أو الكواكب ونحو ذلك .

ولا تكن -أيها المسلم- في شك من بطلان عبادتهم، فهم يقلدون أسلافهم في كل عصر

ومصر، وما توعدناهم به من العذاب سيلقونه تآمراً وفيّاً في يوم يشتد فيه الحساب والجزاء.

رَفَعُ عَذَابِ الْاِسْتِصْصَالِ عَنِ الْاُمَمِ الْكِتَابِيَّةِ

١١٠ - ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ فَاخْتَلَفَ فِيهِ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ لَفُضِيَ بَيْنَهُمْ وَإِنَّهُمْ لَفِي شَكٍّ مِنْهُ مُرِيبٍ﴾ ﴿١١٠﴾

أي أن الله تعالى أنزل التوراة على موسى عليه السلام ليعمل بها اليهود، ولكنهم اختلفوا فيها اختلافاً يضر بعقائدهم، ولولا أن الله تعالى أخر عذابهم إلى الدار الآخرة، لأنزل بهم عقوبته في الدنيا، وإن اليهود في شك وريب من التوراة، فلا يستغرب شكهم وعدم إيمانهم بالقرآن من باب أولى.

وهكذا: يثبت الله تعالى نبيه ويُسرِّي عنه بأنه لا يحزن إذا وجد في أمته من يعبد غير الله تعالى، فإن أهل الكتاب قبله - سيما اليهود - قد اختلفوا على نبيهم، واختلفوا في كتابه، وهم أهل ملة واحدة، اختلفوا في التوراة؛ بإقرار بعضها، وإبطال بعضها، وإظهار بعضها، وإخفاء بعضها، أَخَفَوْا حُكْمَ الرِّجْمِ، وَأَخَفَوْا صِفَةَ مُحَمَّدٍ ﷺ، وَأَوَّلُوا بَعْضَ التَّوْرَةِ عَلَى هَوَاهُمْ، وزادوا فيها ونقصوا ﴿فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ يَكْتُمُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَذَا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ﴾ [البقرة: ٧٩].

فلا تحزن -أيها الرسول- من اختلاف قومك، بأن كان منهم المشرك والوثني والملحد والشيوعي والعلماني، فاختلف الناس في الحق كان موجوداً قبل بعثتك، وكما اختلف قومك في شأن القرآن، فقال بعضهم: إنه أساطير الأولين، أو إنه نزل للعرب وحدهم، أو إن الإسلام دين إرهاب وسفك دماء، اختلف قوم موسى على نبيهم، فمنهم من آمن به ومنهم من كفر، ومنهم من آمن بالتوراة، ومنهم من حَرَفَ وبَدَّلَ.

وهكذا: فقبلك - يا رسولنا - رسل كثيرون، أرسلهم الله إلى أقوامهم، فمنهم من آمن، ومنهم من كفر، وأكثر الأنبياء قصصاً في القرآن هو موسى عليه السلام، فقد أنزل الله عليه التوراة، فصدق بها بعضهم، وكذبها بعضهم ﴿وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ﴾ كلمة الله: هي

إرادته الأزلية وستته في خلقه؛ أي: لولا ما سبق من حكم الله بتأخير العذاب عنهم إلى يوم القيامة لأهلك المشركين ونصر المؤمنين ﴿وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ لَكَانَ لِزَامًا وَأَجَلٌ مُسَمًّى﴾ [طه].

أي: ولولا حكم الله بعدم تعجيل العذاب لهم في الدنيا لاستأصلهم فيها وقطع دابرهم، ولكن الله تعالى يؤجل عذاب الأمم التي أنزلت عليها كتب سماوية مثل التوراة والإنجيل والقرآن إلى يوم القيامة.

فالله سبحانه قد رفع عذاب الاستئصال عن الأمم التي كانت معجزة رسولها كتاب.

أما أصحاب المعجزات الحسية ممن لم ينزل على نبيهم كتابٌ كناية صالح، فكان عذابهم عذاب استئصال؛ لأنهم طلبوا المعجزة، ولما جاءتهم لم يؤمنوا برسولهم، وإن قوم موسى لفي شك مريب من كتابه.

وكتاب التوراة كان صالحاً إلى مجيء الإنجيل، والإنجيل قد انتهت صلاحيته بمجيء الكتاب الخاتم، وهو القرآن، كتاب الأمة الأخيرة من الخلق جميعاً إلى قيام الساعة. قال تعالى:

١١١ - ﴿وَإِنْ كَلَّا لَمَّا^(١) لِيُوقِنْتَهُمْ رَبُّكَ أَعْمَلَهُمْ إِنَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾

(١) (وإن كلا لما) القراءات في (وإن) و (لما) على أربع مراتب :

الأولى: قرأ نافع وابن كثير بتخفيف النون من (إن) والميم من (لما) هكذا (وإن كُلاً لَمَّا) على إعمال (إن) المخففة، واللام في (لَمَّا) هي المزلحقة، دخلت على خبر (إن) و(ما) موصولة، أو نكرة موصوفة، ولام (ليوقنهم) لام القسم، وجملة القسم مع جوابه صلة الموصول، أو صفة لما، والموصول أو الموصوف خبر (إن).

الثانية: قرأ أبو عمرو والكسائي ويعقوب وخلف العاشر بتشديد نون (وإن) وتخفيف لام (لما) هكذا (وإن كُلاً لَمَّا) فإن المشددة عاملة، ولام (لما) هي المزلحقة دخلت على خبر (إن) ولام (ليوقنهم) واقعة في جواب قسم محذوف؛ أي: وإن كلا للذين والله ليوقنهم أعمالهم.

الثالثة: قرأ ابن عامر وحفص وحزمة وأبو جعفر بتشديد النون والميم هكذا (وإن كُلاً لَمَّا) فإن المشددة عاملة، أما (لما) فقيل: أصلها (لن ما) على أن من الجارة دخلت على ما الموصولة أو الموصوفة، ثم أدغمت النون في الميم، فصار في اللفظ ثلاثة ميمات، فخففت الكلمة بحذف الميم الأولى.

الرابعة: قرأ شعبة بتخفيف النون وتشديد الميم هكذا (وإن كُلاً لَمَّا) على أن (إن) نافية، و(لما) بمعنى إلا، منصوبة بفعل يفسره (ليوقنهم).

وهذه الآية لبيان الوعيد الشديد الذي ينتظر جميع مَنْ سبق ذكرهم من أهل القرى، ومن المشركين، ومن المختلفين في التوراة من أتباع موسى ﷺ، وأن كلاً من هؤلاء سيلقى جزاءه، ولن يفلت منهم أحد من عدل الله تعالى، وكل عبد يوفى له ما كُتب من الرزق والأجل، فليترك كل منهم ما حرم الله، وليفعل ما أحله الله، ويوم القيامة يحاسب على ما قدمت يداه.

وهكذا يبين الله سبحانه أن جميع الخلائق وجميع الأمم سيجمعهم الله تعالى يوم القيامة، ويجازيهم على أعمالهم صغیرها وكبیرها، وهو سبحانه علیم خیر بأحوالهم وما تخفي صدورهم، لا يخفي عليه المصدق منهم والمكذب.

وفي الآية سبعة تأكيدات على نزول العذاب بالظالمين حتى لا يشك فيه أحد، ولا يشك في بطلان ما هم عليه من شرك ووثنية، كما لا يشك في أن القيامة حق، والحساب حق، والثواب والعقاب حق.

وَجُوبُ التَّمَسُّكِ بِأُصُولِ الدِّينِ وَفُرُوعِهِ، وَفِيهِ خَمْسَةُ تَوْجِيهَاتٍ

١١٢ - ﴿فَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَمَنْ تَابَ مَعَكَ وَلَا تَطْغَوْا إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾

ولما أخبر سبحانه عن اختلاف اليهود في كتابهم وعدم استقامتهم، أمر نبيه ﷺ والمؤمنون معه أن يستقيموا على العقيدة الصحيحة والشرعية السمحة، ويدوموا على ذلك ولا يزيغوا عنها قيد أنملة، ولا يتجاوزوا حدود الاستقامة، فهو سبحانه لا يخفي عليه شيء من أعمالكم، وسوف يحاسبكم ويجازيكم على ما قدمت أيديكم.

أي وما دام اليهود قد اختلفوا على نبيهم وكتابه، وما دام النصارى على باطل في شركهم، وكذا كل من يعبد غير الله، أو لا يعترف بوجود الله تعالى، ما دام الأمر كذلك فاثبت أيها الرسول -والمؤمنون معك- على ما أنت عليه، وتمسك بأصول الشريعة وفروعها ولا تنحرف عنها قيد أنملة، فإنما أهلك من كان قبلكم كثرة سؤالهم واختلافهم على أنبيائهم، فداوم على العمل بكمال الشريعة أنت ومن تاب معك، وهم المؤمنون الذين تابوا من الشرك وتمسكوا بأهداب الشريعة.

وما دامت سنة الله ماضية في خلقه بتعذيب العاصي وإثابة المطيع، فاستمر يا محمد

على الاستقامة على دين الله، والعمل به، والدعوة إليه، كما أمرك ربك أنت ومن آمن معك من أمتك.

وهذا توجيه للنبي ﷺ ولأمة الإجابة، في أعقاب ما جاء في سورة هود من القصص القرآني، وفيها أمر له ﷺ بالاستقامة لله تعالى على منهجه وصراطه المستقيم.

الاستقامة وعدم الطغيان: والاستقامة كلمة جامعة؛ تعني: فعل الطاعات واجتناب المحرمات، والاعتدال والتوسط في جميع الأمور، والثبات على منهج الله تعالى. والرسول، عليه الصلاة والسلام، مستقيم على منهج الله، وإنما أمره ربه في هذه الآية بالثبات والدوام والاستمرار على منهج الله تعالى، وهو خطاب موجه للأمة جميعاً، فعلى كل من تاب منهم من الشرك ودخل في دين الإسلام أن يستقيم على منهج الله وطاعته، حتى لا يحدث له مثل ما حدث للأمم التي خرجت عن هدي الله تعالى، ولهذا جاء في الأثر: شيتني هود وأخواتها.

قال ابن عباس رضي الله عنه: ما نزل على رسول الله آية هي أشد ولا أشق من هذه الآية عليه، ولذلك قال لأصحابه حين قالوا له: لقد أسرع إليك الشيب: «شيتني هود وأخواتها»^(١).

وسئل عما شيبه في هود قال: قوله: ﴿فَأَسْتَقِمَّ كَمَا أَمَرْتُ﴾ فالسبب في هذا الشيب هو قول الله تعالى له: ﴿فَأَسْتَقِمَّ كَمَا أَمَرْتُ﴾ وشيبه أيضاً ذكر مصارع المكذبين من الأمم في السورة.

أخرج مسلم عن سفيان بن عبد الله الثقفي قال: قلت: يا رسول الله، قل لي في الإسلام قولاً لا أسأل عنه أحداً غيرك، قال: «قل: آمنت بالله ثم استقم»^(٢).

ثم تأتي بعد ذلك توجيهات أربع تتعلق بالاستقامة بعد الأمر بها:

التوجيه الأول: قوله تعالى: ﴿وَلَا تَغْلُوا﴾ فالاستقامة تعني عدم الغلو في الدين؛ لأن الإسلام دين وسط، لا غلو فيه ولا مبالغة ولا مجاوزة للحد.

ولذلك نهى الله تعالى الأمة عن الطغيان، وعدم الانتقال من التوسط إلى الشدة، وعدم تجاوز الحد، والجراة على مخالفة أمر الله، بعد أن أمرها بالاستقامة، كما قال تعالى:

(١) ينظر ثلاث روايات للحديث في الصفحة الخامسة من مقدمة السورة.

(٢) «صحيح مسلم» برقم (٣٨).

﴿كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَلَا تَطْغَوْا فِيهِ فَيَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبِي وَمَنْ يَحِلَّ عَلَيْهِ غَضَبِي فَقَدْ هَوَىٰ﴾ ﴿٨١﴾ [طه].

وهكذا: نهى الله المسلمين عن الاختلاف في أحكام كتابه، كما نهى بني إسرائيل عن ذلك.

وكلمة الطغيان كلمة جامعة لأصول المفساد، وقد جمعت الآية بين جلب المصالح ودرء المفساد، ولعل في ذلك إشارة إلى الأمم السابقة التي أشركت بالله كقوم نوح عليه السلام، فقد وقع الشرك فيهم بسبب طغيانهم وغلوهم في عبادة الصالحين، ولذلك أمر الله تعالى هذه الأمة بعدم الغلو في محبة الصالحين، حتى لا يقعوا في الشرك الذي وقع فيه الأمم السابقة ﴿إِنَّمَا يَمَّا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ عالم بأعمالكم، لا يخفى عليه شيء منها، وسيجازيكم بها.

في البخاري وغيره عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه أن الرسول ﷺ قال: «إن الدين يسر، ولن يشاد الدين أحد إلا غلبه، فسددوا وقاربوا وأبشروا، واستعينوا بالغدوة والروحة، وشيء من الدلجة»^(١).

والتيسير: هو ترك التشدد، والمقاربة: التوسط والاعتدال، والدلجة: السير بالليل، ومعناها: الحث على العمل الصالح أطراف الليل والنهار، وقليل منه بالليل.

ومن الغلو في الدين، ترك التوسط، والأخذ بالأشد بدعوى الحيطة وسد الذرائع.

النَّهْيُ عَنْ مُخَالَطَةِ الظُّلْمَةِ وَعَنِ الاسْتِعَانَةِ بِهِمْ وَالرِّضَى بِأَفْعَالِهِمْ

١١٣ - ﴿وَلَا تَرْكَبُوا إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا فَتَمَسَّكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُم مِّنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ أَوْلِيَاءَ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ﴾

التوجيه الثاني: إن من دواعي الاستقامة والاعتدال والتوسط في دين الله تعالى عدم الركون إلى الظلمة من عامة الناس، ومن أصحاب القوة والسلطة والطغاة في الأرض، وعدم الرضى بظلمهم، والميل لهم، ومشاركتهم في ظلمهم، وعدم منافقتهم وإقرار ظلمهم، أو إظهار الودّ لهم، ومحبتهم وموالاتهم ومداهنتهم.

وقد حذرنا الله من ذلك بعد الأمر بالاستقامة، لأن الركون إليهم خروج عن حد الاستقامة.

والركون: هو الميل الخفيف، فضلاً عن المحبة للطغاة من الولاة والحكام

(١) «صحيح البخاري» برقم (٣٩) وانظر (٥٦٧٣، ٦٤٦٣، ٧٢٣٥) و«صحيح مسلم» برقم (٢٨١٦).

وغيرهم؛ فإن هذا الميل يسبب المشاركة لهم في العذاب المتوعد به .

وجزاء هذا الركون جاء في قوله تعالى: ﴿فَتَمَسَّكُمُ النَّارُ﴾ أي: لثلا تصيبكم نار جهنم، وهو جزاء موافق للعمل، فالمس الخفيف يقابل الركون الخفيف، ولكن اللفحة الواحدة من نار جهنم تُنسي نعيم الدنيا وما فيها .

قال تعالى في مَنْ مَسَّهُ شَيْءٌ مِنْ لَهَبِ النَّارِ:

﴿وَلَيْنَ مَسَّتْهُمْ نَفْحَةٌ مِنْ عَذَابِ رَبِّكَ لَيَقُولُنَّ يَنْوِيلُنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ﴾ [الأنبياء].

ولما سمع أحد الظالمين هذه الآية ﴿وَلَا تَرْكَبُوا إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا فَتَمَسَّكُمُ النَّارُ﴾ .

خر مغشيًا عليه، فلما سئل قال: هذا شأن من يركن إلى الظالمين، فكيف بالظالم؟

فاحذروا الميل إلى كل ظالم، وموافقته على ظلمه أو السكوت عليه .

وجاء في الأثر: من ركن إلى ظالم فقد أحب أن يعصى الله في أرضه .

فإن مستكم النار بسبب ذلك الركون، فليس لكم ما يمنعكم من عذاب الله يوم لقائه، وليس هناك مَنْ يدفع عنكم هذا العذاب .

والمحبة القلبية لغير المسلمين، أو محبة الإقامة معهم، والسكن بينهم في ديارهم، هو من باب الميل إليهم وتفضيلهم على بني جلدتهم، والتقرب إليهم دون المسلمين، ويكون هذا لعله في النفس، وبُعد عن طريق الحق .

وهذه الآية أصل في سد الذرائع المحققة أو المظنونة، وهي دالة على هجر أهل الكفر والبدع والمعاصي وعدم صحبتهم؛ لأن الصحبة لا تكون إلا عن مودة ومحبة .

فإن كانت المخالطة لدفع منكر، أو للاستعانة بهم على إحقاق حق أو رفع ضرر، أو جلب خير، فلا حرج في ذلك؛ لأنه من باب الضرورة، أما إن كان لمؤانستهم، وإقرار أفعالهم والرضى بها، فإن ذلك لا يجوز، وليس لكم مَنْ يدفع عنكم عذاب الله حيثئذ، ولا من يتولى أمركم غيره سبحانه .

الزَادُ الْآخِرِيُّ وَتَكْفِيرُ الذُّنُوبِ

١١٤- ﴿وَأَقِمِ الصَّلَاةَ طَرَفِي النَّهَارِ وَزُلْفًا^(١) مِّنَ اللَّيْلِ إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ أَلْسِفَاتِ ذَلِكَ ذِكْرِي^(٢)﴾ لِلذِّكْرِ ﴿١١٤﴾

التوجيه الثالث: ﴿وَأَقِمِ الصَّلَاةَ﴾ أي: يأمر الله تعالى بإقامة الصلاة المفروضة، فهي تعين على الاستقامة، وكذا عدم الركون إلى الظلمة، والآية خطاب إلى جميع الأمة تأمرهم بأهم الواجبات في الإسلام وهو الصلاة.

والاستقامة على منهج الله تعالى تحتاج إلى الزاد الذي يوصل العبد إلى مرضاة الله تعالى؛ ليكون على اتصال مستمر في صباحه ومساءه برب العالمين.

وهذا الزاد هو الذي يبقى للمؤمن حين يفنى كل زاد، وأعظم الزاد أداء الصلاة في أوقاتها، كاملة مستوفاة، فهي أول ما يعين العبد على الاستقامة.

والذي يُغلق آذانه عن سماع الأذان، وعن سماع كلمة الحق، وسماع القرآن، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، يتعد كثيرًا عن الاستقامة، ولذلك فإن التوجيه الذي جاء بعد الأمر بالاستقامة مباشرة هو الأمر بالصلاة.

ولعل ليلة الإسراء والمعراج، التي فرضت فيها الصلاة، كانت بعد نزول سورة هود وسورة الإسراء، فإن الصلاة فرضت أولاً في مكة، وكانت تُؤدَّى مرتين:

مرة في الطرف الأول، قبل طلوع الشمس، ركعتان، والمرة الثانية في الطرف الثاني للنهار، ركعتان قبل غروبها، إلى جوار قيام الليل في أثائه، وهذا ما تشير إليه الآية من إقامة الصلاة، طرفي النهار وزلفًا من الليل، وهو القول الأول فيها.

القول الثاني في طرفي النهار: أن الطرف الأول من النهار هو صلاة الفجر والظهر، والطرف الآخر هو صلاة العصر والمغرب ﴿وَزُلْفًا مِّنَ اللَّيْلِ﴾ صلاة العشاء، وقد نسخ قيام الليل على سبيل الوجوب، وبقي على سبيل النافلة.

(١) قرأ أبو جعفر بضم اللام من (وزلفًا) إتيانًا لضم الزاي جمع زُلْفَة، والباقون بالفتح.

(٢) أمال (ذكرى) حمزة والكسائي وخلف وأبو عمرو، وابن ذكوان بخلف عنه، وقللها ورش.

وفي الأثر: (زلفتا الليل: المغرب والعشاء)^(١).

القول الثالث: أن طرف النهار الأول هو الصبح، والطرف الآخر هو الظهر والعصر، كما قال مجاهد وغيره. فهذه ثلاثة أقوال في طرفي النهار:

أولها: قبل طلوع الشمس وقبل الغروب.

وثانيها: صلاة الفجر والظهر، وصلاة المغرب والعشاء.

والطرف الثاني: هو صلاة الظهر والعصر.

وثالثها: أن الطرف الأول: صلاة الصبح.

وقبل أن تفرض الصلاة خمسًا، في ليلة المعراج كان قيام الليل مفروضًا على النبي ﷺ وعلى الأمة، ثم نسخ ذلك بالصلوات الخمس.

والمقصود أن تكون الصلاة أول أعمال العبد وآخرها، وأن تكون صلاة العشاء هي ختام الحركة والسعي، وبداية السكون والراحة، ولا يسهر العبد بعدها إلا لحاجة ضرورية، أما السهر على الفضائيات ووسائل اللهو، فإن هذا مخالف لهدي الإسلام، وتوقيت الاستيقاظ من النوم ينبغي أن يكون للصلاة، وليس لأداء الأعمال الأخرى.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ﴾ أي: إن فعل الخيرات يكفر السيئات.

والحسنات: فعل الخيرات والطاعات، والصلاة أعظم الحسنات، فهي داخلة فيها دخولًا أوليًا، فتطلق الحسنات على الصلوات الخمس، وعلى ما يلحق بها من صلاة التطوع، فهي تقرب إلى الله وتوجب الثواب، وتذهب السيئات وتمحوها كما تطلق على أعمال الخير والبر.

والمراد بالسيئات: صغائر الذنوب؛ لأن الكبائر لا يكفرها إلا التوبة الصادقة، قال تعالى:

﴿إِنْ تَجْتَنِبُوا كَبَائِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَنُدْخِلَكُمْ مُدْخَلَ كَرِيمٍ﴾ [النساء]

وقال سبحانه: ﴿الَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبِيرَ الْإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ إِلَّا اللَّمَمُ إِنَّ رَبَّكَ وَاسِعُ الْمَغْفِرَةِ﴾ [النجم: ٣٢].

(١) «تفسير الطبري» (٥٠٨/١٥).

أحاديث في معنى الآية:

١- وكما قال النبي ﷺ في حديث ابن مسعود ؓ: «إن الله لا يمحو السيئ بالسيئ، ولكن يمحو السيئ بالحسن، إن الخبيث لا يمحو الخبيث»^(١).

٢- والصلاة إلى الصلاة كفارة لما بينهما كما جاء في الحديث عن أبي هريرة ؓ: «الصلوات الخمس، والجمعة إلى الجمعة، ورمضان إلى رمضان، مكفرات ما بينهن ما اجتنب الكبائر»^(٢).

٣- وفي الصحيحين أن أبا هريرة ؓ سمع النبي ﷺ يقول: «أرأيتم لو أن نهراً بباب أحدكم يغتسل منه كل يوم خمس مرات، هل يبقى من درنه شيء» قالوا: لا، قال: «فذلك مثل الصلوات الخمس يمحو الله بهن الخطايا»^(٣).

٤- وفي المسند وغيره عن سلمان الفارسي ؓ أنه كان تحت شجرة، فأخذ منها غصناً يابساً فنهزه حتى تحات ورثه، قال: هكذا فعل رسول الله ﷺ وأنا معه تحت شجرة، ثم قال: «إن المسلم إذا توضأ فأحسن الوضوء، ثم صلى الصلوات الخمس، تحات خطايه، كما يتحات هذا الورق، ثم قرأ الآية ﴿وَأَقِمِ الصَّلَاةَ﴾»^(٤).

٥- وعن عقبة بن عامر ؓ أن رسول الله ﷺ قال: «إن مثل الذي يعمل السيئات ثم يعمل الحسنات، كمثل رجل كانت عليه درع ضيقة قد خنقته، ثم عمل حسنة فانفكت حلقة، ثم عمل حسنة فانفكت حلقة، ثم عمل حسنة أخرى، فانفكت حلقة أخرى، حتى

(١) أخرجه أحمد عن ابن مسعود في حديث طويل، «المسند» (٣٨٧/١) ورقمه (٣٦٧٢) وإسناده ضعيف، والصحيح موقوف، (محققوه) وأخرجه أبو نعيم في الحلية (١٦٦/٤) والبخاري (٣٥٦٢) زوائد، والبخاري في التاريخ الكبير (٣١٣/٤) والبيهقي في الشعب (٥٥٢٤) والبيهقي (٢٠٣٠).

(٢) أخرجه مسلم عن أبي هريرة برقم (٢٣٣).

(٣) «صحيح مسلم» برقم (٦٦٧) وهذا لفظه و«صحيح البخاري» برقم (٥٢٨).

(٤) ينظر الحديث في «المسند» (٤٣٧/٥) برقم (٢٣٧٠٧) قال محققوه: حسن لغيره، وهو في «مصنف ابن أبي شيبة» (٧/١) وعند الدارمي (٧١٩) والطبراني في «الكبير» (٦١٥١) ورواه عبد الرزاق (١٤٤) موقوفاً على سلمان من طريق سعيد بن جبير.

يخرج من الأرض»^(١).

٦- وفي حديث عثمان ؓ أن النبي ﷺ قال عن الصلوات الخمس: «وهن الحسنات يُذهبن السيئات» قالوا: هذه الحسنات، فما الباقيات يا عثمان؟ قال: هن لا إله إلا الله، وسبحان الله، والحمد لله، والله أكبر، ولا حول ولا قوة إلا بالله^(٢).

٧- وقد جاء في الحديث عن عثمان ؓ أن النبي ﷺ قال: «من توضأ نحو وضوئي هذا، ثم صلى ركعتين لا يُحدِّث فيهما نفسه غُفر له ما تقدم من ذنبه»^(٣).

٨- وفي الحديث عن أبي ذر ؓ أن النبي ﷺ قال: «اتق الله حيثما كنت، وأتبع السيئة الحسنة تمحها، وخالق الناس بخلق حسن»^(٤).

وفيما تقدم من الاستقامة والتوجيه عظة وعبرة للمؤمنين.

في أسباب النزول: وفي سبب نزول الآية وردت ألفاظ متعددة تتعلق بقصة الرجل الذي أصاب قبلة من امرأة، ثم أسرع إلى رسول الله ﷺ معترفاً ومقرراً بذنبه، يسأله عن كفارة ذلك، وهو يستشعر عظمة مَنْ عصاه، ولم يستصغر الذنب الذي وقع فيه، ولعل ذلك لم يتكرر منه، وهو لم يجاهر بالمعصية ولم يستمر عليها:

(١) حسنه الألباني في «صحيح الجامع» برقم (٢١٨٨) وهو في «المسند» (١٤٥/٤) برقم (١٧٣٠٧) بإسناد حسن، وعزاه الهيثمي إلى الطبراني وقال: رجاله رجال الصحيح «مجمع الزوائد» (٢٠١/١٠)، وهو في الطبراني الكبير ١٧ (٧٨٣) وأخرجه ابن المبارك في الزهد (١٧٠).

(٢) أخرجه أحمد في «المسند» (٣٨٢/١) برقم (٥١٣) وصححه محمود شاكر إسناده في حاشية الطبري، وحسنه محققو «المسند» بإشراف د/التركي، وقال الهيثمي في «مجمع الزوائد» (٢٩٧/١): رجاله رجال الصحيح غير الحارث مولى عثمان، وهو ثقة، وصححه السيوطي في «الدر المنثور» (٤/٣٥٣)، وأخرجه البزار (٤٠٥) والطبري (١٣٢/١٢).

(٣) أخرجه الشيخان عن عثمان ؓ في البخاري برقم (١٥٩) من حديث طويل كما في مسلم برقم (٢٢٦).

(٤) أخرجه أحمد عن أبي ذر «المسند» (١٥٣/٥) برقم (٢١٣٥٤) قال محققوه: حسن لغیره، ورجال إسناده ثقات، وجاء عن معاذ برقم (٢٣٠٥٩) وأخرجه الطبراني في «الكبير» (٢٩٧) و«الأوسط» (٣٧٩١) و«الصغير» (٥٣٠)، وأخرجه الدارمي (٢٧٩١) والترمذي (١٩٨٧) والحاكم (٥٤/١) والبيهقي في شعب (٨٠٢٦) وأبو نعيم في الحلية (٣٧٨/٤).

١- فعن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: جاء رجل إلى النبي ﷺ فقال: يا رسول الله، إني عالجت امرأة في أقصى المدينة، وإني أصبت منها ما دون أن أمسها، فأنا هذا، فاقض فيّ ما شئت، فقال له عمر: لقد سترك الله، لو سترت نفسك، قال: فلم يردّ النبي ﷺ شيئاً، فقام الرجل فانطلق، فأتبعه النبي ﷺ رجلاً فدعاه، وتلا عليه الآية ﴿وَأَقِمِ الصَّلَاةَ﴾ فقال رجل من القوم: يا نبي الله، هذا له خاصة؟ قال: «بل للناس كافة»^(١).

٢- وفي لفظ آخر عند ابن جرير عن موسى بن طلحة، أن أبا اليسر كعب بن عمرو الأنصاري قال: أتتني امرأة تبتاع مني بدراهم تمرًا، فقلت: إن في البيت تمرًا أطيب وأجود من هذا، فدخلت فأهويتُ إليها فقبلتها، فأتيت عمر فسألته، فقال: اتق الله، واستر على نفسك، ولا تُخبرنَّ أحدًا، قال: فلم أصبر حتى أتيت رسول الله ﷺ فأخبرته، فقال: «أَخْلَفْتَ رجلاً غازیًا في سبيل الله في أهله بمثل هذا؟» قال أبو اليسر: حتى ظننتُ أنني من أهل النار، وتمنيت أنني لم أكن أسلمت ساعتئذ، فأطرق رسول الله ساعة، فنزل جبريل، فقال: «أين أبو اليسر؟» فجئتُ، فقرأ عليّ الآية ﴿وَأَقِمِ الصَّلَاةَ﴾ فقال إنسان: أله خاصة، أم للناس عامة؟ قال: «للناس عامة»^(٢).

٣- وعند الطبري أيضًا عن علقمة والأسود عن ابن مسعود رضي الله عنه أن رجلاً جاء إلى النبي ﷺ فقال: إني وجدت امرأة في بستان، ففعلت بها كل شيء، غير أنني لم أجامعها، فقبلتها ولزمتها، ولم أفعل غير ذلك، فافعل بي ما شئت، فلم يقل رسول الله ﷺ شيئاً، فذهب الرجل، فقال عمر: لقد ستر الله عليه لو ستر نفسه، فأتبعه رسول الله بصّره، ثم قال: «رُدُّوه عليّ» فقرأ عليه الآية فقال معاذ بن جبل -وفي رواية عمر- يا رسول الله، أله وحده، أم للناس كافة؟ فقال: «بل للناس كافة»^(٣).

(١) «صحيح مسلم» برقم (٢٧٦٣) وهذا لفظه، و«سنن أبي داود» (٤٤٦٨) والترمذي (٣١١٢) و«سنن النسائي الكبرى» (٧٣٢٣) و«المسند» (٤٤٥/١) برقم (٤٢٥٠، ٤٢٩٠).

(٢) «تفسير الطبري» (٥٢٣/١٥) وهو حديث حسن كما في «صحيح سنن الترمذي» (٢٤٨٩) والبخاري (٢٣٠٠).

(٣) «تفسير الطبري» (٥١٥/١٥) والحديث في مسلم (٢٧٦٣) و«المسند» (٤٢٩٠، ٤٢٩١) بنحوه، حديث صحيح وإسناده حسن من أجل سماك بن حرب وبقية رجاله ثقات رجال الشيخين، كما قال محققوه، وأبو داود (٤٤٦٨) والترمذي (٣١١٢) ومصنف عبدالرزاق (١٣٨٢٩).

٤- وفي الصحيحين وغيرهما عن أبي عثمان عن ابن مسعود رضي الله عنه أن رجلاً أصاب من امرأة قبله، فأتى رسول الله ﷺ فذكر ذلك له، فأنزل الله الآية، قال الرجل: ألي هذه؟ قال: «لمن عمل بها من أمتي»^(١).

٥- وفي حديث آخر يتعلق بمن أصاب ذنباً، ولم تذكر فيه الآية؛ وفيه أن رجلاً قال للنبي ﷺ: أقم في حدّ الله - مرة أو مرتين - فأعرض عنه الرسول ﷺ ثم أقيمت الصلاة، فلما فرغ النبي ﷺ من الصلاة قال: «أين الرجل القائل: أقم في حدّ الله؟» قال: أنا ذا، قال ﷺ: «أتممت وضوءك وصليت معنا؟» قال: نعم، قال: «فإنك من خطيئتك كيوم ولدتك أمك فلا تعد»^(٢).

ومجموع الروايات تفيد أن هذه الآية نزلت في رجل من الأنصار هو أبو اليسر بن عمرو، وقيل: اسمه عباد، خلا بامرأة فقبلها، وتلذذ بها، فيما دون الجماع، ثم ذهب إلى عمر فذكر ذلك له، فقال: قد ستر الله عليك، فاستر نفسك، ولكن الرجل ظل قلقاً، فأتى أبا بكر وسأله، فقال له مثل مقالة عمر، فظل قلقاً أسفاً على ما حدث منه، يخشى عقاب الله تعالى، حتى أتى رسول الله ﷺ فصلّى معه، ثم أخبره، وقال: أقض في ما شئت، فقال ﷺ: «لعلها زوجة غار في سبيل الله» قال: نعم، فوبخه النبي ﷺ وقال له: لا أدري، فنزلت الآية، فدعاه النبي ﷺ وتلاها عليه، فقال معاذ بن جبل، أو عمر بن الخطاب: يا رسول الله، هل هي خاصة؟ قال: «بل للناس عامة».

وورد أن الآية كانت قد نزلت قبل ذلك واستعملها النبي ﷺ مع هذا الرجل، وهذه شبهة من قال إن هذه الآية مدنية.

(١) «صحيح البخاري» برقم (٤٦٨٧) وهذا لفظه وانظر برقم (٥٢٦) و«صحيح مسلم» برقم (٢٧٦٣) و«المسند» (٣٦٥٣) والترمذي (٣١١٤) والنسائي في «الكبرى» (١١٢٤٧) وابن ماجه (١٣٩٨، ٤٢٥٤) وابن حبان (١٧٢٩).

(٢) رواه ابن جرير عن أبي أمامة، وللحديث طرق متعددة بألفاظ مختلفة، وهو في «صحيح مسلم» برقم (٢٧٦٥) عن أنس وعن أبي أمامة برقم (٢٧٦٥) و«تفسير الطبري» (٥٢١/١٥) وفي «المسند» (٢٢١٦٣، ٢٢٢٨٦) قال محققوه: حديث صحيح، إسناده حسن من أجل عكرمة العجلي فهو صدوق حسن الحديث وقد توبع، وباقي رجاله ثقات رجال الصحيح، وأخرجه أبو داود (٤٣٨١) والنسائي في «السنن الكبرى» (٧٣١٣) وابن خزيمة (٣١١) والطبراني (٧٦٧٥).

في فضل الصلاة:

١- وحكم الآية عام في كل من أصاب ذنباً ثم تاب وأناب، فعن سلمان ؓ أن رسول الله ﷺ أخذ غصناً يابساً من شجرة، فهزّه حتى تحاثّ ورقه، ثم قال: «إن المسلم إذا توضأ فأحسن الوضوء، ثم صلى الصلوات الخمس تحاثت خطاياه كما يتحات هذا الورق» ثم تلا الآية^(١).

٢- وعن عثمان بن عفان ؓ أنه قال: لولا آية ما حدّثكُموه، سمعت النبي ﷺ يقول: «لا يتوضأ رجل يحسن وضوءه، ويصلي الصلاة، إلا غفر له ما بينه وبين الصلاة حتى يصليها» قال عروة: والآية ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنزَلْنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالْهُدَىٰ﴾^(٢) [البقرة: ١٥٩].

٣- وعن ابن عمر ؓ أن النبي ﷺ قال: «إن العبد إذا قام يصلي جمعت ذنوبه على رقبته، فإذا ركع تفرقت»^(٣).

هذا: ولعل الأمر بالاستقامة، وعدم الركون إلى الظلمة، والأمر بإقامة الصلاة، وبيان أن الحسنات يذهبن السيئات، لعل ذلك كله ﴿ذَكَرَ لِلذَّكْرَيْنِ﴾ تدعوهم إلى امتثال أوامر الله تعالى واجتناب نواهيه، وجلب الخير ودفع الشر، وكل هذا يحتاج إلى صبر ومجاهدة:

الصَّبْرُ مِنْ صِفَاتِ الْمُحْسِنِينَ

١١٥- ﴿وَأَصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ﴾^(١٥)

التوجيه الرابع: ﴿وَأَصْبِرْ﴾.

اصبر - أيها الرسول - أنت ومن آمن معك، احبس نفسك على طاعة الله وعن معصيته، وألزمها ذلك واستمر ولا تعجز، فإن الله لا يضيع أجر المحسنين الصابرين، بل يتقبل منهم أحسن الذي عملوا، ويجزيهم أجرهم بأحسن ما كانوا يعملون، اصبر على

(١) «المستد» (٢٣٧٠٧، ٢٣٧١٦) وهو حديث حسن لغيره كما قال محققوه، وهو عند الطيالسي (٦٨٧) والطبراني في «الكبير» (٦١٥١، ٦١٥٢) وفي «الصغير» (١٣٦/٢).

(٢) البخاري (١٦٠) وانظر (١٥٩) ومسلم (٢٢٧) و«الموطأ» (٣٠/١) وابن حبان (١٠٤١).

(٣) الطبراني في «الكبير» (٧٢١٤) وصححه الألباني في «السلسلة الصحيحة» (١٣٩٨).

الشدائد والمكاره فإن الصبر على أذى القوم، وعلى تبليغ الدعوة، والصبر على أداء الصلاة، وعلى دواعي الاستقامة والثبات عليها، والصبر على كيد المكذبين... كل ذلك من باب الإحسان، والله تعالى يحب المحسنين، وثوابهم جزيل، وأجرهم عظيم.

عَدِمُ النَّهْيِ عَنِ الْمُنْكَرِ سَبَبٌ لِهَلَاكِ الْأُمَمِ

١١٦- ﴿فَلَوْلَا كَانَ مِنَ الْقُرُونِ مِنْ قَبْلِكُمْ أُولُوا بَقِيَّةٍ^(١) يَنْهَوْنَ عَنِ الْفَسَادِ فِي الْأَرْضِ إِلَّا قَلِيلًا مِمَّنْ أَنْجَيْنَا مِنْهُمْ وَاتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا مَا أُتْرِفُوا فِيهِ وَكَانُوا مُجْرِمِينَ ﴿١١٦﴾﴾

بعد أن ذكر الله سبحانه هلاك الأمم المكذبة لرسول الله، وبيّن أن أكثرهم منحرفون، ذكر سبحانه أنه لولا وجود بقايا من أهل الخير في القرون الماضية يدعون إلى الهدى وينهون عن الفساد في الأرض، تقوم بهم الحجة، ولولا وجود قلة من عباد الله نجّوا من عذابه باتباع المرسلين والقيام بهذا الواجب، لأهلكهم الله، ولكن الظالمين اتبعوا شهواتهم ونزواتهم، وقاتل بعضهم على الرياسة والسلطان والثراء لينعموا بالمال والجاه، وكانوا مجرمين بفسادهم وفجورهم فحق عليهم عقاب الله، وفي هذا حث للأمة أن يكون فيهم بقايا مصلحون، يدعون إلى الهدى ويصبرون على الأذى

وهذه الآية بمثابة التفجع والتأسف على الأمم التي لم تهتد بهدي رُسُلِها؛ كقوم نوح وعاد وثمود فحصدتهم عقاب الله، إلا مَنْ آمَنَ منهم، وفي هذا تحذير لأمة محمد ﷺ ألا يكونوا مثلهم، فيصيبهم ما أصابهم.

وهذا تعقيب آخر على مصارع الظالمين؛ وهو أن سبب ما لحق بهذه الأمم من العذاب، أنه لم يوجد فيهم من ينهاهم عن الكفر والفساد، ويأمرهم بالمعروف واتباع الرسل، ويصد الظالمين عن ظلمهم.

ويشير ذلك إلى أن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ركن عظيم من أركان الإسلام، ما تركته أمة إلا أهلكها الله، فهلاً وُجد في هذه الأمم التي أهلكها الله بعذاب الاستئصال بقايا من أهل الخير والفضل والصلاح، والعلم بالشرعية، ينهون عن الكفر والمنكر، ويأمرون بالمعروف والخير؟

(١) قرأ ابن جمار بكسر الباء وإسكان القاف وتخفيف الياء من (بَقِيَّةٍ) هكذا (بَقِيَّةٌ) والبقية: المرة، والباقون بفتح الباء وكسر القاف وفتح الياء مشددة مصدر بقي يبقى بَقِيَّةً.

والجواب يأتي في هذا الاستثناء ﴿إِلَّا قَلِيلًا﴾ أي: لقد وجد منهم قلة قليلة، وهم أتباع الرسل الذين نجاههم الله من عذابه في كل أمة من الأمم، فقد نجى الله نوحًا والذين آمنوا معه، ونجى الله هودًا والذين آمنوا معه، ونجى الله صالحًا والذين آمنوا معه، وهكذا أهلك الله الظالمين في كل أمة، ونجى المؤمنين الآمرين بالمعروف والناهين عن المنكر.

والآية تشير إلى أن المؤمنين من شأنهم أن ينهوا عن الفساد في الأرض، فقد أوجب الله عليهم ذلك في قوله: ﴿وَلَتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [آل عمران]

وهم ليسوا مثل أصحاب القرون السابقة الذين قل فيهم الدعاة والمصلحون، والناس إذا رأوا المنكر ولم يغيروه يوشك أن يعمهم الله بعقاب من عنده، فعدم النهي عن الكفر والمعاصي والمنكرات سبب هلاك الأمم والشعوب؛ ولذا وبخ الله أهل القرون السابقة على ذلك.

وأشار سبحانه إلى أن من شأن الظالمين التاركين للنهي عن الفساد في الأرض، الاستمرار في طريق الفسق والفجور والشهوات والمعاصي، دون الالتفات إلى الخير والعمل الصالح، فهم يتبعون ما أترفوا فيه، وَيَظْلُمُونَ مُصْرِّينَ على كفرهم وظلمهم، وهذا من شأن عامة الناس في هذه القرون؛ ولذا حق عليهم العذاب.

رَحْمَةُ اللَّهِ بِعِبَادِهِ تَقْتَضِي عَدَمَ ظُلْمِهِمْ

١١٧- ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ الْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ﴾ (١١٧)

وليس من شأن الله تعالى أن يهلك أمة -أو شعبًا- وأهلها مصلحون في الأرض، قائمون بشرائع الله، مجتنبون للفساد فيها؛ لأن ذلك ينافي عدل الله تعالى ورحمته بعباده، فما كان الله ليهلكهم إلا إذا ظلموا أنفسهم بالكفر أو الشرك والمعاصي، وظلموا غيرهم بالتعدي على حقوقهم كما قال تعالى: ﴿كَتَبَ عَلَىٰ نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ﴾ [الأنعام: ١٢]

وقال: ﴿وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا﴾ [الكهف: ٤٩] ولكن يهلكهم بسبب ظلمهم وفسقهم

﴿وَمَا كُنَّا مُهْلِكِي الْقُرَىٰ إِلَّا وَأَهْلُهَا ظَالِمُونَ﴾ [القصص: ٥٩].

فالله ﷻ لا يهلك أمة صالحة، ولكنه يهلك الأمة الظالمة.

والمراد: هلاك الإبادة والاستئصال؛ بسبب الكفر والفساد، وما ربك بظلام للعبيد.
ولا يهلك الله أمة رجعت عن ظلمها فأصلحت عملها وأقبلت على ربها.

كُلُّ مُيَسَّرٌ بِنَا خُلِقَ لَهُ

١١٨، ١١٩ - ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً ۚ وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ^(١)﴾ ﴿إِلَّا مَن رَّجِمَ رَبُّكَ وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ ۖ وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لَأَمْلَأَنَّ^(٢) جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾ ﴿١١٩﴾

لما أخبر الله سبحانه عن إهلاك الأمم الظالمة، وبيّن أنهم لو كانوا مصلحين لما أهلكهم الله تعالى، ولمّا كان ذلك يُوهم أن هؤلاء المفسدين في الأرض خارجون عن قبضة القدرة الإلهية، أعقب ذلك بما يرفع هذا التوهم، ويبين أنه سبحانه قادر على أن يجعلهم أمة واحدة، متفقة على الحق غير مختلفة عليه.

أي: ولو شاء الله سبحانه لجعل الخلق كلهم على دين واحد، هو الإيمان، حتى لا يقع منهم الكفر، لو شاء لفعل ذلك، ولو أراد سبحانه أن يُلهم البشر الإيمان إلهامًا، فيجعله غريزة وفطرة فيهم، ليس لهم فيه اختيار، كما يلهم النمل والنحل، وكما يلهم الملائكة، لو شاء ربك ذلك لفعل.

كما قال تعالى: ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً﴾ على دين واحد هو الإسلام

وقال سبحانه: ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَأَمَنَّ مَن فِي الْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا﴾ [يونس: ٩٩]

وقال جل شأنه: ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى الْهُدَى﴾ [الأنعام: ٣٥].

ولكن الله سبحانه أراد أن يجعل لهذا النوع من الخلق عقولاً وحرية واختياراً، ويرسل لهم الرسل، وينزل عليهم الكتب، ويبين لهم الحق والباطل، فمن سلك طريق الهدى فقد نجا، ومن سلك طريق الضلال كان من أهل النار، وقد فطرهم سبحانه على التوحيد، وجعل فيهم الاستعداد والقابلية لغيره.

وأهل الحق متفقون على طريق واحد هو التوحيد والإيمان، وأهل الباطل مختلفون فرقاً

(١) (ولا يزالون مختلفين) عده آية، المصحف الشامي والبصري والكوفي، وتركه غيرهم من العدد.

(٢) قرأ الأصهباني بتسهيل الهمزة الثانية من (لأملأن) وصلًا ووقفًا، ولحمزة وقفًا تسهيل الهمزة الأولى.

وأحزابًا وشيعًا، وقد خلق الله تعالى الناس ليعبدوه وحده، ويكونوا أهل ملة واحدة، ولكنهم اختلفوا فكان منهم المؤمن ومنهم الكافر، فريق في الجنة وفريق في السعير، ولذلك حقت عليهم كلمة ربك.

وهكذا: فقد جعل الله عقول البشر قابلة بمقتضى الفكر والنظر لأن تسلك طريق الضلال أو طريق الهدى، فجعلها صالحة لقبول الحق بحسب فطرتها، إذا سلمت من عوارض التأثير والتقليد والجهل والضلال، ومع ذلك فإن الله تعالى قد أرشدهم ونصحهم، عن طريق الرسل ودعاة الخير، فكان من الناس مهتدٍ وكثير منهم فاسقون.

وقد اقتضت حكمة الله ذلك؛ ليكون الإنسان خَلْقًا مختلفًا عن الملائكة المجبورين على الطاعة، وعن الحيوان الذي لا عقل له، فإذا تَمَّ ابتلاء الإنسان في هذه الحياة بالعبادة التي خُلق من أجلها، كما قال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات: ٥٦] ثم انتقل من هذا العالم الفاني إلى الحياة الأبدية، جَنَى كل إنسان ثمرة عمله فيها، إن خيرًا فخير، وإن شرًا فشر، فكان للجنة أهلها وللنار أهلها.

فالناس لا يزالون مختلفين في الشرائع والآراء والملل ﴿إِلَّا مَنْ رَجِمَ رَبُّكَ﴾ قال الحسن وعطاء ومجاهد وغيرهم: المرحومون المستثنون، هم المؤمنون، ليس عندهم اختلاف^(١).

فهم الذين رحمهم الله من الناس بأن هداهم للإيمان ووفقهم إليه، فللرحمة خُلق المرحومون، وقد خلق الله قومًا للسعادة وقومًا للشقاوة، فكل ميسر لما خلق له، والاختلاف في الدين الحق علامة الشقاء، وعليه يكون العقاب.

اختلف رجلان عند طاوس، فاختصما عنده وأكثرأ، فقال لهما: اختلفتما وأكثرتما، قال أحدهما: لذلك خُلفنا، قال طاوس: كذبت، فقال: أليس الله يقول: ﴿وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ﴾ [١٨] إِلَّا مَنْ رَجِمَ رَبُّكَ وَلَئِكَ خَلَقَهُمْ قال طاوس: لم يخلقهم ليختلفوا، ولكن خلقهم للجماعة والرحمة.

خلقهم ليتحدوا ولا يختلفوا، وتمت كلمة ربك في قضائه وقدره، على من لم يهتد بهدي الرسول ﷺ، وهذه الكلمة هي: ﴿لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾.

(١) «تفسير ابن عطية» (٢/٢١٥).

وَمَنْ رَحِمَهُمُ اللَّهُ هُمْ أَهْلُ التَّوْحِيدِ وَالْإِيمَانِ، الَّذِينَ قَامُوا بِالْوُضُوءِ الَّتِي خُلِقُوا مِنْ أَجْلِهَا؛ وَهِيَ الْعِبَادَةُ، فَأَهْلُ الضَّلَالِ لَهُمُ النَّارُ، وَأَهْلُ الْإِيمَانِ لَهُمُ الْجَنَّةُ.

ولما كان الحق لا يقبل التعدد والاختلاف، استثنى سبحانه مَنْ ثَبَتُوا عَلَى الْحَقِّ وَلَمْ يَخَالِفُوهُ فِي قَوْلِهِ: ﴿إِلَّا مَنْ رَجِمَ رَبُّكَ﴾ أي: فعصمهم من الاختلاف المذموم بهدايتهم إلى الصراط المستقيم والدين الحق.

واسم الإشارة في ﴿وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ﴾ يعود على أقرب مذكور وهو الرحمة؛ فيكون المعنى: ﴿إِلَّا مَنْ رَجِمَ رَبُّكَ﴾ ولرحمته خلق الناس.

قال قتادة: أهل رحمة الله أهل الجماعة، وإن تفرقت ديارهم وأبدانهم، وأهل معصيته أهل فُرْقَةٍ، وإن اختلفت ديارهم وأبدانهم؛ ولذلك خلقهم للرحمة والعبادة، ولم يخلقهم للاختلاف^(١).

ويصح أن يعود الضمير على مجموع الاختلاف والرحمة؛ فيكون المعنى: أنه سبحانه خلق أهل الرحمة للرحمة، وأهل الاختلاف للاختلاف؛ ليكون فريق في الجنة وفريق في السعير.

وقد أعقب هذا قوله تعالى: ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ﴾ أي: نفذ قضاؤه وحق أمره وثبت حكمه على من عصى الله تعالى من الإنس والجن أن يملأ بهم جهنم.

وهذا الوعيد لا يشمل المؤمنين المهتدين؛ لأن من المعلوم أن الوعيد يخص العصاة والمذنبين من أتباع إبليس، كما قال تعالى: ﴿لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنْكَ وَمِمَّنْ تَتَّبَعُ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [الأعراف: ١٨ وص: ٨٥] والقرآن يفسر بعضه بعضاً.

وبعد أن ختم الله النبوات والرسالات بنبوة محمد ﷺ انحصر هذا الأمر في الرسالة الخاتمة، فكان من تبع محمداً ﷺ هو الناجي، ومن كذبه ولم يؤمن به من الناس أجمعين هو الهالك، ومن لم يصدق بهذا النبي الأمي العربي يَصْدُقُ عليه وصف الكبر، ورفض قبول الحق شطر الكبر.

فعن أبي هريرة ؓ عن النبي ﷺ قال: «تَحَاجَّتِ النَّارُ وَالْجَنَّةُ، فَقَالَتِ النَّارُ: أُوثِرْتُ

(١) ابن أبي حاتم (٦/٢٠٩٤).

بالمتكبرين والمتجبرين، وقالت الجنة: فما لي لا يدخلني إلا ضعفاء الناس وسَقَطُهُمْ وَعَجَزُهُمْ، فقال الله للجنة: أنت رحمتي أرحم بك من أشياء من عبادي، وقال للنار: أنت عذابي، أعذب بك من أشياء من عبادي، ولكل واحدة منكم ملؤها، فأما النار فلا تمتلئ، فيضع قدمه عليها، فتقول قَطُّ قَطُّ، فهناك تمتلئ، ويُرْوَى بعضها إلى بعض^(١).

وَوَضَعَ القدم من الله تعالى على النار من الأمور الغيبية التي صحت الرواية بها، فنؤمن بها كما أثبتنا سبحانه لنفسه، مثل: الوجه واليد والاستواء والنزول، ونضيف إليها قوله تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ [الشورى: ١١].

وفي الآية ﴿لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾ والحديث المذكور تحقيق لوعده الله تعالى من أنه سيملا جهنم من الجنة والناس أجمعين الذين اتبعوا إبليس ولم يهتدوا بالإيمان.

الْهَدَفُ مِنْ قِصَصِ الرُّسُلِ

١٢٠ - ﴿وَكَلَّا نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ وَجَاءَكَ فِي هَذِهِ الْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ (١١٠)

ثم بين الله سبحانه الهدف من القصص القرآني، فقد نزلت هذه السورة في وقت أودى فيه الرسول ﷺ قبل بيعة العقبة، وقبل الأمر بالجهاد، فكان نزولها لتسليّة الرسول ﷺ وشحذ همته؛ ليقنّدي به أهل الدعوة من بعده، ولكي يتبين كيف أنجى الله المؤمنين وأهلك الكافرين، وكيف احتمل الأنبياء صنوف الأذى والتكذيب.

وقد جاء في هذه السورة، من أنباء الرسل والأمم من الحق الذي أصاب الظالمين، ما فيه عبرة وعظة؛ لزيادة يقين النبي ﷺ بما وعده الله به من النصر على أعدائه؛ فيقوي صبره، ويثبت فؤاده، ويزداد علماً بأن الصراع بين الحق والباطل شأن قديم فلا يحزن على من خالفه، وقد اشتملت هذه السورة على الحق اليقيني الذي لا مرية فيه من قصص المرسلين، واشتملت على الموعظة بما تحمله من الترغيب والترهيب، كما اشتملت على الذكرى التي تنفع المؤمنين، فهذه ثلاث من الدرر: الحق والموعظة والذكرى، اشتملت عليها السورة.

(١) «صحيح مسلم» برقم (٢٨٤٦) وهذا لفظه، وأخرجه البخاري برقم (٧٤٤٩).

عَدَمُ الْمُبَالَاةِ بِالْعُقَبَاتِ فِي طَرِيقِ الدَّعْوَةِ

١٢١، ١٢٢ - ﴿وَقُلْ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ أَعْمَلُوا عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ^(١) إِنَّا عَمِلُونَا^(٢)﴾ وَأَنْظِرُوا إِنَّا مُنْظِرُونَ﴿

أما من ليس من أهل الإيمان، ممن لا تُجدي فيهم الذكرى ولا الموعظة، فقد أمر الله نبيه أن يمضي في طريق الدعوة دون مبالاة بالمكذبين ممن لا يؤمنون ولا يتفعون بالموعظة، وأمره أن يقول لهم: اعملوا على مكانتكم، وامضوا في طريقكم، وضعوا العقبات في طريق الدعوة، ودبروا المكائد لي ولأصحابي، فإني مستمر على السير في طريق الحق الذي هداني الله إليه دون التفات إلى كيدكم ومكركم، فإننا منتظرون عاقبة أمركم، وفي هذا تهديد ووعد للمكذبين المعاندين من كل من لم يؤمن بخاتم المرسلين ﷺ، وقاوم دعوة الإسلام، ولم يستجب لها.

وقل لهم: انتظروا ماذا سيحل بكم من عقاب الله تعالى، فإني ماضٍ في طريق دعوتي، ومتوكل على ربي، ومنتظر ثوابه لي.

الآيَةُ الْجَامِعَةُ لِمَوْضُوعِ السُّورَةِ

١٢٣ - ﴿وَلِلَّهِ غَيْبُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ^(٣) الْأَمْرُ كُلُّهُ فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ^(٤)﴾

ثم ختم الله السورة بهذه الآية الجامعة، وفيها بيان أن الله وحده يعلم كل ما غاب عن حواس البشر في السموات والأرض، فهو يعلم المصير والمرجع والمآب، ويعلم ما كان وما يكون من القول والفعل، وإليه يرجع الأمر كله من إحياء وإماتة، وهداية وإضلال، وصحة ومرض، وفقر وغنى، ونصر وهزيمة.

وما دام الأمر كذلك فاعبدوه وتوكلوا عليه، فإن التدبير والنصر والخذلان بيد الله تعالى،

(١) قرأ شعبة (مكاناتكم) بالجمع، والباقون (مكانتكم) بالإنفراد.

(٢) قوله تعالى (إنا عاملون) عده آية الشامي والبصري والكوفي والمدني الأول ولم يعده آية بقية علماء العدد.

(٣) قرأ نافع وحفص بالبناء للمفعول في (يرجع)، والباقون بالبناء للفاعل.

(٤) قرأ نافع وابن عامر وحفص وأبو جعفر ويعقوب بالتاء في (يعملون) على الخطاب، والباقون بالياء على الغيبة.

وكما جاء الأمر بالعبادة في أول السورة، ختمت بالأمر بها، والعبادة هي محور دعوة كل رسول لقومه، فهي الهدف الذي ترمي إليه السورة.

والأمر بالعبادة، قبل أن تُشرع الفرائض التعبدية، من صلاة وصيام وزكاة وحج؛ يعني الخضوع والانقياد لله وحده، ويعني اتباع الحلال والحرام.

وكما فسرهما النبي ﷺ في حديث عدي بن حاتم عن اليهود والنصارى من قوله تعالى: ﴿اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ [التوبة: ٣١] بأنها اتَّباعهم فيما أحلوا لهم، أو حرموا عليهم، قال: «فتلك عبادتهم» فالعبادة تعني الحلال والحرام، وتعني أركان الإسلام والإيمان جميعاً، وتعني التحاكم إلى شرع الله وتعني الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وتعني ما هو أعم وأشمل من ذلك.

والله تعالى غير غافل عن أعمالكم من الخير والشر، فهو سبحانه بصير ومطلع عليها لا يعزب عنه مثقال ذرة منها، وسيجازي الذين أساءوا بما عملوا ويجزي الذين أحسنوا بالحسنى.

تم تفسير (سورة هود) والله الحمد والمنة



الآية	فهرس المـ وـ وعات	الصفحة
	تفسير سورة التوبة - مَدْمَةُ السُّورَةِ - أَسْمَاءُ السُّورَةِ - ترك البسمة في أولها	٥
	مناسبة سورة التوبة لما قبلها - وقت نزولها - محتويات السورة	٩
	أبو بكر أمير على الحج عام نزول السورة - لماذا لم يحج الرسول ﷺ قبل العام العاشر؟	١٠
	نزول صدر سورة براءة لنقض عهد المشركين	١٢
	الْمَقَاصِدُ الْإِجْمَالِيَّةُ لِسُورَةِ التَّوْبَةِ - أَوَّلًا: نَقْضُ عُهُودٍ مَنِ تَقَضُّوا الْعَهْدَ	١٣
	ثَانِيًا: مُعَامَلَةُ أَهْلِ الْكِتَابِ - ثَالِثًا: الْكُشْفُ عَنْ نَوَايَا الْمُتَافِقِينَ	١٤
١	تفسير السورة - أَحْكَامُ الْبِرَاءَةِ مِنَ الْمُشْرِكِينَ - لماذا حُصَّ علي بتبليغ أحكامها	١٨
٢	إِمْهَالُ الْمُشْرِكِينَ فِي جَزِيرَةِ الْعَرَبِ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ	٢١
٣	إِغْلَانُ الْبِرَاءَةِ مِنَ الشِّرْكِ وَأَهْلِهِ - الْحَجُّ الْأَكْبَرُ وَالْأَصْغَرُ - بنود البراءة	٢٢
	موقف الإسلام من غير المسلمين	٢٦
٤	الْإِسْلَامُ يَبْقَى بِالْعَهْدِ لِمَنْ وَفَّى	٢٨
٥	آيَةُ السَّيْفِ	٢٩
٦	إِجَارَةُ الْمُشْرِكِ - الرسل والسفراء لا يقتلون	٣١
٧	الحكمة في البراءة من المشركين	٣٤
١٠-٨	الْعَهْدُ مِنْ غَيْرِ الْمُسْلِمِ لَا يَكُونُ إِلَّا عَنْ عَجْزٍ وَضَعْفٍ	٣٥
١٢، ١١	بِمَاذَا تَتَحَقَّقُ أَخُوَّةُ الدِّينِ - لغير المسلمين خياران	٣٧
١٣	موجبات قتال المشركين	٣٩
١٥، ١٤	سِتُّ قَوَائِدَ لِقِتَالِ نَاكثِي الْعَهْدِ الطَّاعِنِينَ فِي الْإِسْلَامِ	٤٢
١٦	لَا تَجُوزُ الْبِطَانَةُ مِنْ غَيْرِ الْمُسْلِمِينَ	٤٣
١٧	غَيْرُ الْمُسْلِمِينَ لَا يَغْمُرُونَ بَيُوتَ اللَّهِ	٤٤
١٨	خَمْسَةُ أَوْصَافٍ لِمُعَارِي بَيُوتِ اللَّهِ	٤٨
١٩	أَعْظَمُ النَّاسِ دَرَجَةً عِنْدَ اللَّهِ	٥٠
	المراد بعمارة البيت الحرام: - فضل ماء زمزم - مناصب أبطالها الإسلام:	٥٢
٢٢-٢٠	ثَلَاثُ جَوَائِزٍ لِمَنْ اتَّصَفَ بِأَوْصَافٍ ثَلَاثٍ	٥٦
٢٣	مَحَبَّةُ اللَّهِ وَرَسُولِهِ قَبْلَ حُبِّ الْمَالِ وَالْمَشِيرَةِ - من أسباب النزول	٥٨
٢٤	الْإِيمَانُ وَالْجِهَادُ يُقَدِّمَانِ فِي حَيَاةِ الْمُؤْمِنِ عَلَى مَتَاعِ الدُّنْيَا - أحاديث في المعنى	٦١
٢٥	عَزْوَةُ حَتِّينَ وَنَتِيجَةُ الْغَيْرَارِ بِكَثْرَةِ الْعَدَدِ وَالْعُدَّةِ - توزيع الغنائم	٦٣
٢٦	أَرْبَعٌ مِمَّنْ آمَنَ اللَّهُ بِهَا عَلَى أَهْلِ حَتِّينَ - المنة الأولى: نزول السكينة عليهم	٦٧
	المنة الثانية - نزول الملائكة عليهم - المنة الثالثة: تعذيب الكفار وإذلالهم	٦٨
٢٧	الْمِنَّةُ الرَّابِعَةُ: دخول هوازن في الإسلام:	٦٨
٢٨	مَنْعُ غَيْرِ الْمُسْلِمِينَ مِنْ دُخُولِ الْحَرَمِ	٦٩
	بِلَادُ الْإِسْلَامِ بِالنِّسْبَةِ لِلْكَفَّارِ عَلَى ثَلَاثَةِ أَقْسَامٍ - أولًا: حدود الحرم المكي:	٧٠

الآية	فهرس المـ ووجـ وعات	الصفحة
٢٩	ثانيًا: جزيرة العرب: - ثالثًا: سائر بلاد الإسلام - مُجْمَلُ مَا فِي الْآيَاتِ السَّابِقَةِ مِنْ أَحْكَامٍ متى يُقَاتَلُ أَهْلُ الْكِتَابِ؟ - ما يجب على النصارى في بلاد المسلمين	٧٠ ٧٣
٣٠	أوصاف من تجب عليهم الجزية أربعة: - الوصف الأول: نفى الإيمان الكامل عنهم: الوصف الثاني: إنكار البعث والثواب والعقاب بالأبدان: الوصف الثالث: اتباع الأحبار والرهبان في التحليل والتحريم: - الرابع: أن شريعتهم منسوخة: مُوجِبَاتُ الشُّرْكِ عِنْدَ أَهْلِ الْكِتَابِ	٧٨ ٧٩ ٧٩ ٨٠
٣١	الموجب الأول: قولهم: عزيز ابن الله والمسيح ابن الله: عزيز، حبرٌ يهوديٌّ كان في الأسر البابلي تنصّر بولس لتضليل النصارى:	٨١ ٨٢
٣٢، ٣٣	الموجب الثاني لكفر أهل الكتاب: طاعةُ الحُكَّامِ وَالْعُلَمَاءِ فِي مُحَالَفَةِ الشَّرِيعَةِ	٨٣
٣٤	ظُهُورُ الْإِسْلَامِ عَلَى جَمِيعِ الشَّرَائِعِ زَكَاةُ الْأَمْوَالِ وَالذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ - الموجب الثالث لكفر أهل الكتاب: أكلهم أموال الناس بالباطل: أولًا: أكل الأموال بالباطل:	٨٥ ٨٧ ٨٨
٣٥	ثانيًا: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ﴾ وهذا هو الموجب الرابع من موجبات كفرهم. - ثالثًا: كثر المال والبخل به. عُقُوبَةُ مَا يَنْبَغِي الزَّكَاةُ - أحاديث في المعنى	٨٩ ٩٢
٣٦، ٣٧	حُلِيِّ الْمَرْأَةِ - عقوبة منع الزكاة من بهيمة الأنعام الْأَشْهُرُ الْحُرُمُ وَالتَّيْسِيُّ فِيهَا - السنة القمرية - السنة الشمسية - التاريخ الهجري - أيام الأسبوع ..	٩٤ ٩٥
٣٨	بَدْءُ الْحَدِيثِ عَنِ الْمُنَافِقِينَ: عُقُوبَةُ التَّخَلُّفِ عَنِ النَّفِيرِ الْعَامِّ - غزوة تبوك:	١٠٣
٣٩	ما ترك قوم الجهاد إلا ذُلُّوا	١٠٧
٤٠	الهِجْرَةُ النَّبَوِيَّةُ - الرسول يستقي أبا بكر للهجرة معه	١٠٩
٤١	أبو بكر يُقَدِّي رسول الله بنفسه في الغار - موقف آخر لأبي بكر في الغار	١١١
٤٢	الْأَمْرُ بِالنَّفِيرِ الْعَامِّ	١١٤
٤٣	فَضْحُ أَغْذَارِ الْمُنَافِقِينَ	١١٨
٤٤	عِتَابُ الرَّسُولِ فِي إِذْنِهِ لِلْمُتَخَلِّفِينَ	١١٩
٤٥	الْمُؤْمِنُ لَا يَتَخَلَّفُ عَنِ الْجِهَادِ	١٢١
٤٦	ثَلَاثَةُ أَوْصَافٍ لِلْمُنَافِقِينَ الْمُتَخَلِّفِينَ عَنِ الْجِهَادِ	١٢٢
٤٧، ٤٨	مَقَايِدُ وَجُودِ الْمُنَافِقِينَ فِي صُفُوفِ الْمُجَاهِدِينَ	١٢٣
٤٩	ثَلَاثُ مَقَايِدَ فِي خُرُوجِ الْمُنَافِقِينَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ فِي الْجِهَادِ	١٢٤
٥٠، ٥١	مِثَالٌ مِنْ أَغْذَارِ الْمُنَافِقِينَ عَنْ غَزْوَةِ تَبُوكَ	١٢٦
٥٢	الْكَشْفُ عَنْ نَوَايَا الْمُنَافِقِينَ - الْإِيمَانُ بِالْقَضَاءِ وَالْقَدَرِ	١٢٨
٥٣	الْمُؤْمِنُ يَقُوزُ بِإِحْدَى الْحُسْنَيْنِ: النَّصْرِ أَوْ الشَّهَادَةِ	١٣٠
٥٤، ٥٥	الْكَافِرُ لَا يَقْبَلُ مِنْهُ عَمَلٌ صَالِحٌ	١٣١
	ثَلَاثَةُ أَسْبَابٍ لِعَدَمِ قَبُولِ نَفَقَةِ الْكَافِرِ - بيان تعذيب المنافقين بأموالهم وأولادهم في الدنيا من وجوه	١٣٢

الآية	فهرس المـوعـات	الصفحة
٩٧	أَعْرَابُ الْبَادِيَةِ عَلَى ثَلَاثَةِ أَصْنَافٍ - الصَّنْفُ الْأَوَّلُ: أَغْلَظُ الْأَعْرَابِ	٢٠٩
٩٩، ٩٨	الصَّنْفُ الثَّانِي مِنَ الْأَعْرَابِ: قَوْمٌ مُتَافِقُونَ - الصَّنْفُ الثَّالِثُ: أَعْرَابٌ مُؤْمِنُونَ	٢١٢
١٠٠	السَّابِقُونَ الْأَوَّلُونَ أَرْبَعَةُ أَصْنَافٍ - الصَّنْفُ الْأَوَّلُ: بِأَنْوَاعِهِ الثَّلَاثَةِ	٢١٣
١٠١	الصَّنْفُ الثَّانِي: مُتَافِقُو الْحَضَرِ وَالْبَادِيَةِ	٢١٧
١٠٢	الصَّنْفُ الثَّالِثُ: عُصَاةُ الْمُسْلِمِينَ	٢١٩
١٠٤، ١٠٣	الصدقة تطهر النفس وتُتَمَّى المال	٢٢٢
١٠٥	الأمر بحسن العمل	٢٢٦
١٠٦	الصَّنْفُ الرَّابِعُ: طَائِفَةٌ تَوَقَّفَتْ حَتَّى يَحْكُمَ اللَّهُ فِيهَا	٢٢٨
١٠٧	مَسْجِدُ الضَّرَارِ - أَبُو عَامِرٍ الرَّاهِبِ - اثْنَا عَشَرَ رَجُلًا بَنُوا الْمَسْجِدَ	٢٢٩
١١٠، ١٠٨	المسجد الذي أسس على التقوى:	٢٣٤
١١١	التَّبِيعُ الرَّابِعُ	٢٤٠
١١٢	تِسْعَةُ أَوْصَافٍ لِأَهْلِ الْجَنَّةِ	٢٤٣
١١٤، ١١٣	لَا يَجُوزُ الْإِسْتِغْفَارُ لِغَيْرِ الْمُسْلِمِ - أَبُو طَالِبٍ مَاتَ عَلَى غَيْرِ الْإِسْلَامِ	٢٤٦
	أَحَادِيثُ فِي مَعْنَى الْآيَةِ: - أَبُو طَالِبٍ أَهْلُونَ أَهْلُ النَّارِ عَذَابًا - أَبَوَا النَّبِيِّ ﷺ مِنْ أَهْلِ الْفِتْرَةِ	٢٤٨
١١٦، ١١٥	لَا عُقُوبَةَ بِغَيْرِ نَصٍّ	٢٥٣
١١٧	تَوْبَةُ اللَّهِ عَمَّنْ تَخَلَّفَ عَنِ الْعَزْرِ يَوْمَ تَبُوكَ - أَمْثَلُهُ مِنَ التَّبَرُّعِ لِعَزْوَةِ تَبُوكَ	٢٥٥
١١٩، ١١٨	الثَّلَاثَةُ الَّذِينَ خَلَفُوا	٢٦٠
١٢١، ١٢٠	لِلْقَاعِدِ أَجْرُ الْمُجَاهِدِ لَوْ شَارَكَهُ فِي النَّبِيِّ - أَحَادِيثُ فِي مَعْنَى الْآيَةِ	٢٦٤
١٢٢	التَّغْيِيرُ الْخَاصُّ - سَبَبُ النَّزُولِ	٢٦٨
١٢٣	الشَّدَّةُ فِي قِتَالِ الْعَدُوِّ لَا تَغْنِي الْهَمَجِيَّةُ - الْفَتْوحَاتُ الْإِسْلَامِيَّةُ - أَدَبُ الْإِسْلَامِ فِي الْحُرُوبِ	٢٧١
١٢٥، ١٢٤	الْمُؤْمِنُونَ يَزْدَادُونَ إِيمَانًا وَالْمُتَافِقُونَ يَزْدَادُونَ نِفَاقًا	٢٧٥
١٢٦	الْفِتْنُ ثَلَاثُ أَجْزَاءٍ الظَّلَمَةُ وَلِكُلِّهِمْ لَا يَتَّعِظُونَ	٢٧٨
١٢٧	مَوْقِفُ الْمُنَافِقِينَ مِنْ تَلَقِّي الْوَحْيِ	٢٧٩
١٢٨	نَبِيُّ الرَّحْمَةِ وَنَبِيُّ الْمَلَحَمَةِ يُوصَفُ بِأَرْبَعَةِ أَوْصَافٍ	٢٨٠
١٢٩	الدَّاعِي إِلَى اللَّهِ لَا يَتَأَسُّ مِنْ إِغْرَاضِ النَّاسِ عَنْهُ	٢٨٣
	تَفْسِيرُ سُورَةِ يُوسُفَ مَقْدَمَةُ السُّورَةِ - قَضَايَا السُّورَةِ	٢٨٦
١	التَّفْسِيرُ - قَوَائِمُ السُّورِ الْهِجَايَةِ	٢٩٠
٢	الْقَضِيَّةُ الْأُولَى مِنْ قَضَايَا الْقُرْآنِ الْمَكِّيِّ: وَجُوبُ الْإِيمَانِ بِالْوَحْيِ وَالرَّسَالَةِ	٢٩١
	عَجَبُ الْمُشْرِكِينَ قَدِيمًا مِنْ أَمْرَيْنِ - النَّاسُ تَجَاءُ الْوَحْيَ الْمَزْمَلُ فَرِيقَانِ: مُؤْمِنٌ وَكَافِرٌ:	٢٩٣
٣	الْقَضِيَّةُ الثَّانِيَّةُ: تَضَحِيحُ عَقِيدَةِ الْمُشْرِكِينَ - الْأَيَّامُ السَّتَّةُ - الْعَرْشُ وَالْإِسْتِوَاءُ عَلَيْهِ	٢٩٦
٤	الْقَضِيَّةُ الثَّالِثَةُ: قَضِيَّةُ الْمَعَادِ وَالْحِسَابِ وَالْجَزَاءِ	٣٠١
٥	مِنْ أَدَلَّةِ التَّوْحِيدِ: الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ	٣٠٣

الآية	فهرس المـ وـ وعات	الصفحة
٦	وَمِنْ أَوَّلِهِ التَّوْحِيدُ: خَلَقَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ	٣٠٦
١٠-٧	عُقُوبَةُ مَنْ يَكْفُرُ بِالْآخِرَةِ وَثَوَابُ مَنْ يُؤْمِنُ بِهَا - من نعيم أهل الجنة	٣٠٦
١١	مِنْ طَبَائِعِ الْبَشَرِ الْمَذْمُومَةِ: اسْتِعْجَالُ وَقُوعِ الشَّرِّ	٣١٣
١٢	التَّنَاقُضُ الَّذِي يَغْتَرِي الْإِنْسَانَ عِنْدَ إِصَابَةِ الضَّرِّ - أحاديث في المعنى	٣١٦
١٤، ١٣	مِنْ سُنَنِ اللَّهِ تَعَالَى فِي خَلْقِهِ أَنْ يُهْلِكَ الطَّالِبِينَ	٣١٨
١٥	الْمَوْضِعُ الثَّانِي مِنْ حَدِيثِ السُّورَةِ عَنِ الْوَحْيِ وَالرَّسَالَةِ - أسباب النزول:	٣٢٠
١٦	الْجَوَابُ الْأَوَّلُ لِمَنْ يَطْلُبُونَ قِرَاءَتًا آخَرَ - الْجَوَابُ الثَّانِي: لِمَنْ يَطْلُبُونَ قِرَاءَتًا آخَرَ:	٣٢٢
١٨، ١٧	أَشَدُّ النَّاسِ ظُلْمًا مَنْ يَقْتَرِي الْكَذِبَ عَلَى اللَّهِ وَيَعْبُدُ غَيْرَهُ - غلاة التصوف	٣٢٥
١٩	الشُّرْكُ طَائِفٌ عَلَى التَّوْحِيدِ	٣٢٨
٢٠	تَلْيِيقُ طَلِبِ الْمُعْجَزَاتِ لَيْسَ لَهُ جَذْوَى فِي حُصُولِ الْإِيمَانِ	٣٣١
٢١	مُقَابَلَةُ النَّعَمِ بِالْجُحُودِ	٣٣٣
٢٢	الْمُسْلِمُ يَعْرِفُ رَبَّهُ فِي الشَّدَّةِ وَالرَّخَاءِ - التعرف على الله في الشدة	٣٣٥
٢٣	الْبَغْيُ الْمُنْحَمُودُ وَالْبَغْيُ الْمَذْمُومُ - أحاديث في معنى الآية	٣٣٦
٢٣٩	مَنْ لَمْ يُؤْمِنْهُمْ النَّبِيُّ ﷺ يَوْمَ الْفَتْحِ:	٣٣٩
٢٤	مَثَلُ الدُّنْيَا فِي سُرْعَةِ زَوَالِهَا	٣٤٣
٢٥	دَارُ السَّلَامِ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا، وَجَهَنَّمُ لِلَّذِينَ أَسَاءُوا - عدد الجنات - أحاديث	٣٤٤
٢٦	الحسنى والزيادة - أحاديث	٣٤٧
٢٧	عقوبة الأشقياء:	٣٤٩
٣٠-٢٨	مِنْ مَشَاهِدِ يَوْمِ الْحُشْرِ	٣٥٠
٣٣-٣١	بَيِّنَةٌ مِنْ دَلَائِلِ تَوْحِيدِ الْخَالِقِ سُبْحَانَهُ - الدَّلِيلُ الْأَوَّلُ: أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى هُوَ الْخَالِقُ الرَّازِقُ	٣٥٤
٣٥٦	الثَّانِي: خَلَقَ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ - الثَّالِثُ: إِخْرَاجُ الْحَيِّ مِنَ الْمَيِّتِ - الرَّابِعُ: تَذْيِيرُ أُمُورِ الْخَلَائِقِ	٣٥٦
٣٤	الدَّلِيلُ الْخَامِسُ: الْبَعْثُ بَعْدَ الْمَوْتِ:	٣٦٢
٣٦، ٣٥	الدَّلِيلُ السَّادِسُ: اللَّهُ وَحْدَهُ هُوَ الَّذِي يَهْدِي لِلْحَقِّ - معاني الظن	٣٦٣
٣٩، ٣٧	الْمَوْضِعُ الثَّالِثُ: مِنْ حَدِيثِ السُّورَةِ عَنِ الْوَحْيِ وَالرَّسَالَةِ - مَرَاجِلُ التَّحْدِي بِالْقُرْآنِ أَرْبَعَةٌ	٣٦٧
٤٣-٤٠	أَصْنَافُ الْمُكَذِّبِينَ بِآيَاتِ اللَّهِ	٣٧٣
٤٤	ظُلْمُ النَّفْسِ بِالْكُفْرِ وَالتَّكْذِيبِ	٣٧٦
٤٥	الْمَشْهُدُ الرَّابِعُ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ فِي السُّورَةِ	٣٧٧
٤٦	حُلُولُ الْعَذَابِ بِالْكَفَّارِ إِنْ عَاجَلَا أَوْ آجَلَا	٣٨٠
٤٧	قَضَاءُ اللَّهِ بَيْنَ الْأَمَمِ وَالرُّسُلِ	٣٨١
٤٨	الْمُكَذِّبُونَ بِالْبَيْتِ يَسْتَعِجِلُونَ نُزُولَ الْعَذَابِ وَالْقُرْآنُ يُجِيبُهُمْ	٣٨٣
٤٩	إِجَابَةُ مُسْتَعْجِلِي الْعَذَابِ - الْجَوَابُ الْأَوَّلُ: عِلْمُ قِيَامِ السَّاعَةِ عِنْدَ اللَّهِ	٣٨٤
٥٢-٥٠	الْجَوَابُ الثَّانِي: اسْتِعْجَالُ قِيَامِ السَّاعَةِ لَيْسَ مِنْ مَصْلَحَةِ الْمُكَذِّبِينَ	٣٨٥

الآية	فهرس المـ وـ وعات	الصفحة
١٠٦-١٠٣	وَعَذَّ اللَّهُ تَعَالَى بِنَجَاةِ الْمُؤْمِنِينَ وَعَذَابِ الْكَافِرِينَ - الرَّسُولُ ﷺ يَبْرَأُ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى مِنْ عِبَادَةِ غَيْرِهِ ...	٤٧٠
١٠٧	الْحَوْلُ وَالْقَوْلُ يَدُ اللَّهِ وَخَدَهُ	٤٧٣
١٠٨	كَلِمَةُ الْفَضْلِ لِجَمِيعِ الْخَلْقِ	٤٧٥
١٠٩	مُطَابَقَةُ خِتَامِ السُّورَةِ لِبِدَائِهَا	٤٧٥
٤٧٧	تَفْسِيرُ سُورَةِ هُودٍ - مقدمة السورة - عناصرها ثلاث	٤٧٧
١	التفسير - المراءى بخُروفِ الهجاء في قَوَائِحِ بعضِ السُّورِ	٤٨٢
٢	إِفْرَادُ اللَّهِ بِالْعِبَادَةِ هُوَ أَصْلُ الدِّينِ	٤٨٣
٤، ٣	الْإِيمَانُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فِيهِ سَعَادَةُ الدَّارَيْنِ	٤٨٤
٥	أَحْوَالُ الْعِبَادِ مَكْشُوفَةٌ لِعَالَمِ السِّرِّ وَالتَّجْوَى	٤٨٦
٦	الرزق مكفول ومضمون	٤٨٩
٧	فِي خَلْقِ هَذَا الْكَوْنِ دَلَالُ الْبُحْثِ وَالتَّشْوِيرِ - أحاديث في معنى الآية - العرش والاستواء	٤٩١
٨	عِقَابُ اللَّهِ تَعَالَى لِلْأَفْرَادِ وَالْأُمَمِ لَا يَمْتَنِعُ مَا نَعِيَ - المراد بلفظ (أمة)	٤٩٤
١١-٩	حَالُ الْإِنْسَانِ عِنْدَمَا يُصَابُ بِالنِّعَمَةِ أَوْ النِّقْمَةِ	٤٩٨
١٢	تحريك همة الداعية وإلهاب حماسه	٥٠٠
١٤، ١٣	حَاجَةُ الْبَشَرِ إِلَى كِتَابٍ يُعَرِّفُهُمْ مِنْ أَيْنَ جَاءُوا وَإِلَى أَيْنَ يَصِيرُونَ	٥٠١
١٦، ١٥	ثَوَابُ الْعَمَلِ لِلْآخِرَةِ وَعُقُوبَةُ الْعَمَلِ لِلدُّنْيَا - أحاديث في المعنى	٥٠٤
١٧	شَهَادَةُ الْكُتُبِ السَّابِقَةِ عَلَى رَسُولِ مُحَمَّدٍ ﷺ - البينة والشاهد	٥٠٨
٢٤-١٨	جَزَاءُ الْأَشْيَاءِ وَالسَّعَادَةِ وَمَثَلُهُمَا - أربعة عشر وصفا للكفار - تَمْهِيدٌ لِقِصَصِ السُّورَةِ	٥١٣
٢٦، ٢٥	الْقِصَّةُ الْأُولَى: قِصَّةُ نُوْحٍ ﷺ - نبذة عن نبي الله نوح - دعوته إلى التوحيد	٥٢٠
٢٧	أَتَاهُمْ قَوْمُ نُوحٍ لَهُ يَارِزِعُ نَهْمٌ	٥٢٢
٢٨	نُوحٌ يُجِيبُ عَلَى التَّهْمِ الْأَرْبَعِ بِأَجوبة ثلاث - الْجَوَابُ الْأَوَّلُ: أَنَّهُ نَبِيٌّ مُرْسَلٌ مِنَ عِنْدِ اللَّهِ	٥٢٤
٣٠، ٢٩	الْجَوَابُ الثَّانِي: أَنَّهُ لَا يَسْأَلُهُمْ أَجْرًا عَلَى تَلْيِيقِ الدَّعْوَةِ - الْجَوَابُ الثَّالِثُ: أَنَّهُ لَنْ يُبْعِدَ الضُّعْفَاءُ عَنْ مَجْلِيسِهِ	٥٢٥
٣١	نُوحٌ يُقِنُّ أَرْبَعَ شُبُهَاتٍ لِقَوْمِهِ	٥٢٧
٣٥-٣٣	جَوَارِ تَيْنِ نُوحٍ وَقَوْمِهِ	٥٢٨
٣٦	نُوحٌ يَتَلَقَّى وَحْيَ رَبِّهِ بِهَلَاكِ قَوْمِهِ وَصنع سَفِينَةِ النِّجَاةِ	٥٢٩
٣٩-٣٧	نُوحٌ يَصْنَعُ السَّفِينَةَ	٥٣٠
٤٠	علامة هلاك المكذبين ونجاة المؤمنين	٥٣١
٤١	مَشْهَدُ التَّعَبُّتِ عِنْدَمَا حَلَّتِ اللَّحْظَةُ الْمُرْتَبِعَةُ	٥٣٢
٤٣، ٤٢	مَشْهَدُ الطُّوفَانِ الرَّهيبِ - عَرَقُ كَنْعَانَ بْنِ نُوحٍ	٥٣٣
٤٤	تَخْفِيفُ مَنَابِعِ الطُّوفَانِ وَسَفِينَةُ النِّجَاةِ	٥٣٥
٤٥	نُوحٌ يَنَاجِي رَبَّهُ فِي شَأْنِ ابْنِهِ الْكَافِرِ	٥٣٦

الآية	فهرس المـ وـ وعات	الصفحة
٤٧، ٤٦	قراءة الإيمان أقوى من قرابة النسب	٥٣٨
٤٨	نَجَاءُ نُوحٍ وَالْمُؤْمِنِينَ مَعَهُ	٥٣٩
٤٩	تَغْقِيبُ عَلَى قِصَّةِ نُوحٍ	٥٤٠
٥٠	الْقِصَّةُ الثَّانِيَةُ: قِصَّةُ هُودٍ ﷺ	٥٤١
٥١	ثَلَاثَةُ نِدَاءَاتٍ مِنْ هُودٍ إِلَى قَوْمِهِ - النِّدَاءُ الْأَوَّلُ: يَأْمُرُهُمْ فِيهِ بِعِبَادَةِ اللَّهِ وَحْدَهُ	٥٤٢
٥١	النِّدَاءُ الثَّانِي: أَنَّهُ لَا يَطْلُبُ مِنْهُمْ أَجْرًا	٥٤٣
٥٥-٥٢	النِّدَاءُ الثَّالِثُ: يَطْلُبُ مِنْهُمْ فِيهِ الْإِسْتِغْفَارَ وَالتَّوْبَةَ - تَطَاوُلُ قَوْمٍ عَادٍ عَلَى هُودٍ وَسُخْرِيَتُهُمْ مِنْهُ	٥٤٤
٥٦	هُودٌ يَرْفَعُ دَرَجَةَ التَّحَدِّيِّ غَيْرُ مُبَالٍ بِهِمْ	٥٤٦
٥٧	هُودٌ يُحَذِّرُ قَوْمَهُ مِنْ سُوءِ الْعَاقِبَةِ	٥٤٧
٦٠-٥٨	الْعِقَابُ الْحَاسِمُ لِلْمَعَاطِلَةِ الْمُفْرُورِينَ - حُكْمُ اللَّهِ فِي قَوْمِ عَادٍ	٥٤٨
٦١	الْقِصَّةُ الثَّالِثَةُ: قِصَّةُ صَالِحٍ ﷺ	٥٥١
٦٣، ٦٢	مَوْقِفُ قَوْمِ صَالِحٍ مِنْ نَبِيِّهِمْ - صَالِحٌ يُقِيمُ النِّبْيَةَ عَلَى صِحَّةِ دَعْوَتِهِ لِلرَّسَالَةِ	٥٥٣
٦٤	مُعْجَزَةُ صَالِحٍ	٥٥٤
٦٨-٦٥	عَقْرُ النَّاقَةِ وَهَلَاكُ قَوْمِ ثَمُودَ - النِّهَايَةُ الْأَلِيْمَةُ	٥٥٦
٧٠، ٦٩	الْقِصَّةُ الرَّابِعَةُ: قِصَّةُ إِبْرَاهِيمَ مَعَ الْمَلَائِكَةِ	٥٥٩
٧٤-٧١	الْمَلَائِكَةُ تُبَشِّرُ سَارَةَ بِإِسْحَاقَ وَهِيَ تَعْجَبُ لِأَنَّ الْأَمْرَ عَلَى خِلَافِ الْعَادَةِ	٥٦٢
٧٦، ٧٥	إِسْمَاعِيلُ أَكْبَرُ مِنْ إِسْحَاقَ - آلُ بَيْتِ التَّوْبَةِ	٥٦٣
٧٧	وَضَفَّ اللَّهُ لِإِبْرَاهِيمَ بِثَلَاثَةِ أَوْصَافٍ	٥٦٧
٨٠-٧٨	الْقِصَّةُ الْخَامِسَةُ: قِصَّةُ لُوطٍ ﷺ	٥٦٧
٨٣-٨١	جَوَارُ بَيْنَ لُوطٍ وَقَوْمِهِ فِي شَأْنِ الْمَلَائِكَةِ	٥٦٩
٨٤	نَهَايَةُ قَوْمِ لُوطٍ	٥٧١
٩٣-٨٥	الْقِصَّةُ السَّادِسَةُ: قِصَّةُ شُعَيْبٍ ﷺ - نَبْذَةُ عَنْ نَبِيِّ اللَّهِ شُعَيْبٍ - عَنَاصِرُ دَعْوَتِهِ	٥٧٥
٩٥، ٩٤	جَوَارُ بَيْنَ شُعَيْبٍ وَقَوْمِهِ فِي سِتَّةِ نِدَاءَاتٍ لَهُمْ	٥٧٨
٩٩-٩٦	عِقَابُ اللَّهِ لِمَنْ كَذَّبَ شُعَيْبًا	٥٨٥
١٠٤-١٠٠	الْقِصَّةُ السَّابِعَةُ: طَرَفٌ مِنْ قِصَّةِ مُوسَى ﷺ	٥٨٧
١٠٨-١٠٥	التَّغْقِيبُ عَلَى قِصَصِ السُّورَةِ	٥٩٠
١٠٩	أَهْلُ الشَّقَاءِ وَأَهْلُ السَّعَادَةِ وَجَزَاءُ كُلِّ مِنْهُمْ - أَحَادِيثُ فِي مَعْنَى الْآيَتَيْنِ	٥٩٣
١١١-١١٠	المراد بالاستثناء - مَعْنَى دَوَامِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ	٥٩٧
١١٢	أَعْظَمُ الْأَشْقِيَاءِ عِبَادُ الْأَصْنَامِ	٦٠٠
١١٣	لَيْسَ أَهْلُ الْكِتَابِ أَحْسَنَ حَالًا مِنَ الْوُثَنِيِّينَ	٦٠١
	وَجُوبُ التَّمَسُّكِ بِأُصُولِ الدِّينِ وَفُرُوعِهِ، وَفِيهِ خَمْسَةُ تَوْجِيهَاتٍ - الاستقامة وعدم الطغيان:	٦٠٣
	الْتِهَامٌ عَنْ مُحَاوَلَةِ الظُّلْمَةِ وَعَنْ الْإِسْتِعَانَةِ بِهِمْ وَالرَّضَا بِأَفْعَالِهِمْ	٦٠٥

الآية	فهرس الم	وجات	الصفحة
١١٤	الرَّادُّ الْأَخْرَوِيُّ وَكَفِيرُ الذُّنُوبِ - أحاديث في معنى الآية		٦٠٧
	في أسباب النزول - المراد بطرفي النهار - في فضل الصلاة :		٦١٠
١١٦، ١١٥	الصَّبْرُ مِنْ صِفَاتِ الْمُحْسِنِينَ - عَدَمُ النَّهْيِ عَنِ الْمُنْكَرِ سَبَبٌ لِهَلَاكِ الْأُمَمِ		٦١٣
١١٩-١١٧	رَحْمَةُ اللَّهِ بِعِبَادِهِ تَقْتَضِي عَدَمَ ظُلْمِهِمْ - كُلُّ مُيَسَّرٍ لِمَا خُلِقَ لَهُ		٦١٥
١٢٠	الْهَدَفُ مِنْ قِصَصِ الرُّسُلِ		٦١٩
١٢٢، ١٢١	عَدَمُ الْمُبَالَاةِ بِالْعَقَبَاتِ فِي طَرِيقِ الدَّعْوَةِ		٦٢٠
١٢٣	الْآيَةُ الْجَامِعَةُ لِمَوْضُوعِ السُّورَةِ		٦٢٠
	فهرس الموضوعات		٦٢٢



فاحِشَةُ النَّفْسِ

تأليف :

أحمد بن أحمد محمد عبد الله الطويل

عُضُو الدَّجَنَةِ الْعِلْمِيَّةِ لِمُرَاجَعَةِ مُصْحَفِ الْمَدِينَةِ النَّبَوِيَّةِ
وَلَجَنَةِ الْإِشْرَافِ عَلَى التَّسْجِيلَاتِ الْقُرْآنِيَّةِ
بِمُجْمَعِ الْمَلِكِ فَهْدٍ لَطَبَاعَةِ الْمُصْحَفِ الشَّرِيفِ

قَدَّمَ لَهُ : مَعَالِي الدُّكْتُور / عَبْدُ اللَّهِ بْنُ عَبْدِ الْمُحْسِنِ الشُّرْكِي
وَالْأَسْتَاذُ الدُّكْتُور / صَالِحُ بْنُ غَانِمِ السَّدْلَانِ
وَنُحْبَةً مِنَ الْعُلَمَاءِ الْمُتَخَصِّصِينَ

المجلد السابع

يوسف والرعد وإبراهيم والحجر والنحل

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

تَفْسِيرُ سُورَةِ يُوسُفَ (١٢)

مُقَدِّمَةُ السُّورَةِ

سورة يوسف عليه السلام هي السورة الثانية عشرة في ترتيب المصحف، والثالثة والخمسون في ترتيب النزول، نزلت بعد سورة هود وقبل سورة الحجر، وهي مئة وإحدى عشرة آية باتفاق، وألف وتسع مئة وست وتسعون كلمة، وسبعة آلاف ومئة وستة وسبعون حرفاً، وهي سورة مكية، اشتملت على قصة يوسف كاملة، ولم تتكرر في القرآن.

ويوسف هو ابن يعقوب بن إسحاق من زوجه (راحيل)، وهو أحد الأسباط الاثني عشر الذين تشعبت منهم قبائل بني إسرائيل.

أسماء الأسباط: والأسباط: هم روبيل، وشمعون، ولاوى، ويهوذا، ويساكر، وزبولون (وهؤلاء أهمهم ليثة)، ويوسف، وبنامين (أمهما راحيل)، ودان ونفتالي (أمهما بلهة)، وجاد وأشير (أمهما زلفة)^(١).

يوسف عليه السلام: وكان يوسف أحب أبناء يعقوب إليه، وكان هذا سبب غيرة إخوته منه، وتديبرهم المكائد له، ومنها إلقاءه في الجُب، ثم التقطه أناس من العرب الإسماعيليين وهم في طريقهم إلى مصر، وباعوه رقيقاً في سوق العاصمة المصرية للوجه البحري، وكان ذلك في زمن الهكسوس، في حدود سنة تسع وعشرين وسبع مئة وألف قبل الميلاد، فاشتراه رئيس شرطة فرعون (أي: رئيس المدينة) الملقب بالعزيز.

وبسبب رؤيا رآها الملك وعبرها يوسف، قرّبه المَلِكُ إليه، وزوّجه (أسنات) بنت أحد الكهنة، وعمره يومئذ ثلاثون عاماً، وولّاه على جميع أرض مصر، وفي فترة حكمه جلب أباه وأقاربه من بادية الشام إلى مصر، وكان ذلك سبب إقامة بني إسرائيل في مصر، إلى أن خرجوا منها نهائياً مع نبيهم موسى عليه السلام.

وتوفي يوسف عليه السلام بمصر في حدود سنة خمس وثلاثين وست مئة وألف قبل الميلاد، وكان قد أوصى قبل موته، أنهم إذا خرجوا من مصر يأخذون جسده معهم، وكانوا قد

(١) «تفسير التحرير والتنوير» (١/٧٣٢).

حَنَطُوهُ عَلَى الطَّرِيقَةِ الْمِصْرِيَّةِ، وَوَضَعُوهُ فِي تَابُوتٍ، وَلَمَّا خَرَجَ بَنُو إِسْرَائِيلَ مِنْ مِصْرَ حَمَلُوهُ مَعَهُمْ، وَدَفَنُوهُ فِي (شَكِيم) فِي مَدَةِ يَوْشَعَ بْنِ نُونٍ.

وُصِفَتْ قِصَّةُ يَوْسُفَ ﷺ فِي الْقُرْآنِ بِأَنَّهَا أَحْسَنُ الْقِصَصِ؛ لِمَا فِيهَا مِنَ الْعِبَرِ وَالْحِكَمِ وَالْفَوَائِدِ.

قَالَ خَالِدُ بْنُ مَعْدَانَ: سُورَةُ يَوْسُفَ وَسُورَةُ مَرْيَمَ يَتَفَكَّهُ بِهِمَا أَهْلُ الْجَنَّةِ فِي الْجَنَّةِ.

وَقَالَ عَطَاءٌ: لَا يَسْمَعُ سُورَةَ يَوْسُفَ مُحْزُونٌ إِلَّا اسْتِرَاحَ إِلَيْهَا^(١).

وَهِيَ الْقِصَّةُ الْوَحِيدَةُ الَّتِي ذُكِرَتْ مُتَكَامِلَةً فِي سُورَةٍ وَاحِدَةٍ.

نَزُولُ السُّورَةِ: وَقَدْ نَزَلَتْ سُورَةُ يَوْسُفَ فِي عَامِ الْحُزَنِ الَّذِي مَاتَ فِيهِ أَبُو طَالِبٍ عَمُّ النَّبِيِّ ﷺ، وَمَاتَتْ فِيهِ زَوْجَتُهُ خَدِيجَةُ ﷺ، وَاشْتَدَّ كَرْبُ النَّبِيِّ وَوَحْشَتُهُ، وَاشْتَدَّ إِذْدَاءُ الْمُشْرِكِينَ لَهُ فِي الْفَتْرَةِ قَبْلَ بَيْعَةِ الْعُقْبَةِ الْأُولَى وَالثَّانِيَةِ.

وَقَدْ نَزَلَ قَبْلَ سُورَةِ يَوْسُفَ سُورَةُ هُودَ وَيُونُسَ بِمَا فِيهِمَا مِنَ الْقِصَصِ الْقُرْآنِيِّ؛ تَسْلِيَةً لِقَلْبِ الرَّسُولِ ﷺ، وَبَيَانًا لِلْعِبَرَةِ وَالْعِظَةِ مِنْ هَذَا الْقِصَصِ، فَضْلًا عَمَّا فِيهِ مِنَ الْحَثِّ عَلَى الصَّبْرِ، كَمَا صَبَرَ مَنْ سَبَقَهُ مِنَ الرُّسُلِ.

ابْتِلَاءَاتُ يَوْسُفَ: وَقَدْ ابْتُلِيَ يَوْسُفَ ﷺ بَعْدَ ابْتِلَاءَاتٍ؛ مِنْهَا: كَيْدُ إِخْوَتِهِ لَهُ، وَإِلْقَاؤُهُ فِي الْجُبِّ، وَبَيْعُهُ رَقِيقًا، وَهُوَ نَبِيٌّ مُرْسَلٌ، وَأَبُوهُ نَبِيٌّ مُرْسَلٌ، وَجَدَهُ نَبِيٌّ مُرْسَلٌ، وَجَدَهُ الْأَعْلَى خَلِيلُ اللَّهِ إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِمْ جَمِيعًا الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، فَقَدْ قَالَ عَنْهُ النَّبِيُّ ﷺ كَمَا جَاءَ فِي حَدِيثِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍ ﷺ: «الْكَرِيمُ ابْنُ الْكَرِيمِ ابْنُ الْكَرِيمِ ابْنُ الْكَرِيمِ يَوْسُفُ بْنُ يَعْقُوبَ بْنِ إِسْحَاقَ بْنِ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلِ اللَّهِ»^(٢).

لَقَدْ بَاعَ يَوْسُفَ سَلِيلُ الْأَنْبِيَاءِ عَبْدًا رَقِيقًا، وَالَّذِينَ بَاعُوهُ كَانُوا زَاهِدِينَ فِيهِ، كَأَنَّهُ حَمْلٌ ثَقِيلٌ، وَانْتَقَلَ ابْنُ الْأَنْبِيَاءِ إِلَى قَصْرِ الْمَلِكِ؛ لِيَعْمَلَ فِيهِ خَادِمًا، وَيُوَاجِهَ أَنْوَاعًا مِنَ الْابْتِلَاءَاتِ.

(١) «حَاشِيَةُ الصَّاوِي عَلَى الْجَلَالِينَ» (٢/٢٣٣).

(٢) أَخْرَجَهُ الْبُخَارِيُّ فِي كِتَابِ الْمَنَاقِبِ، بَابٍ مِنْ انْتَسَبَ إِلَى آبَائِهِ فِي الْإِسْلَامِ وَالْجَاهِلِيَّةِ، وَفِي كِتَابِ التَّفْسِيرِ بِرَقْمٍ (٤٦٨٨) وَرَاجَعَ (٣٣٨٢، ٣٣٩٠) وَهُوَ فِي «الْمُسْنَدِ» (٥٧١٢) بِإِسْنَادٍ صَحِيحٍ عَلَى شَرْطِ الْبُخَارِيِّ وَرِجَالُ ثِقَاتٍ (مُحَقَّقُوهُ) وَ«صَحِيحُ سَنَنِ التِّرْمِذِيِّ» (٢٤٩٠) وَالْحَاكِمُ (٣٤٦/٢)، وَالْبَغَوِيُّ فِي شَرْحِ السَّنَةِ (٣٥٤٧).

وقد ابتلي يوسف -أيضاً- بالفتنة والشهوة من امرأة العزيز، وابتلي بالسجن، وابتلي بالسلطان، والرخاء بعد الشدة، وتولى وزارة الخزانة في مصر، وابتلي بملاقاته لإخوته.

والله تعالى يقص للنبي ﷺ ذلك ويقول له: هذا نبي الله يوسف، قد حدث له ما حدث، فاصبر وتأسَّ به.

ويوسف الصديق هو أصغر أبناء يعقوب عليهما السلام، وقد أنجب يعقوب اثني عشر ولداً، هم الأسباط، وأصول عشائر بني إسرائيل، منهم ستة أولاد من زوجته الأولى، ابنة خاله (ليا بنت ليان)، وبعد أن تُوفيت تزوج يعقوب بأختها (راحيل) وأنجب منها بنيامين ويوسف، وهو أصغر الأبناء، والأربعة الباقون أبناء جاريثين له، اسمهما (زلفة وبلهة).

نبوة يوسف عليه السلام: ذكر يوسف ﷺ في السورة التي سميت باسمه أربعاً وعشرين مرة، وذكر مرة واحدة في سورة الأنعام في الآية [٨٤] ومرة أخرى في سورة غافر في الآية [٣٤] وهو أحد الأسباط، وليس من أبناء يعقوب -على الصحيح- نبي مرسل إلا يوسف ﷺ، والبقية من أبنائه لم يكونوا أنبياء؛ لأن النبوة لا يستقيم معها التآمر على القتل، وهؤلاء الإخوة تأمروا على قتل يوسف وإلقائه في الجب، وهذه الأفعال تتنافى مع عصمة النبوة، وليس هناك من دليل قطعي على أن أبناء يعقوب كانوا أنبياء، إلا ما يُستدل به من قوله تعالى في سورة البقرة: ﴿قُولُوا ءَامَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ إِذْ هُمْ لَا يُشْعُرُونَ وَلَا تَعْلَمُ أَلَمُومًا﴾ [البقرة: ١٣٦] ومثلها في [آل عمران: ٨٤] فيستدل بعضهم بهذه الآية على أن الأسباط من الأنبياء، ويوسف من الأسباط، والصحيح أن الآية لا تعني الأبناء الاثني عشر، ولكن تعني الأنبياء من بني إسرائيل، وكانوا كثرة، فالمراد بالأسباط (شعوب بني إسرائيل)، وفيهم أنبياء كثيرون.

لقد حظي يوسف بميراث النبوة عن أبيه وأجداده دون إخوته، وهو أصغرهم، وقد ساق الله إليه هذه البشري في رؤيا رآها وهو صغير، وخشي عليه أبوه من إخوته الذين حقدوا عليه وطاردوه؛ حتى ألقوه في بئر بين الموت والنجاة، وقد أعلمه الله تعالى أن هؤلاء الإخوة المتآمرين عليه سيقفون بين يديه يوماً؛ ليوبخهم على ما صنعوا ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ لَتُنَبِّئَنَّهُمْ بِأَمْرِهِمْ هَذَا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ [١٥] وقد تحقق ذلك بعد أربعين عاماً، يوم أن دخلوا عليه -وهو على خزائن مصر- يطلبون منه الصدقة، ويقولون له: ﴿مَسْنَا وَأَهْلْنَا الضَّرُّ﴾ [٨٨]

فعرّفهم وهم له منكرون، لقد خرج يوسف من قعر الجب إلى سُدَّة الحُكْم وتدبير شؤون الدولة، فما أعجب أقدار الله!!

موضوعات سورة يوسف:

وبعد افتتاح سورة يوسف بجانب من خصائص القرآن الكريم، تناولت الموضوعات التالية:

- ١- تحدثت عن مكر إخوة يوسف به، وحسدهم له، وتآمرهم على إيذائه، وإلقائه في الجب، ومن ثم انتشاله منه وبيعه بخمسة دراهم معدودة.
- ٢- تحدثت السورة عن كيد امرأة العزيز له، وشيوع الخبر بين نسوة المدينة، ودخوله السجن بعد أن استجار بربه، وأحب دخول السجن عن فتنة النساء.
- ٣- اشتهر يوسف بتعبير الرؤى في السجن، ودعا الناس إلى الواحد القهار، وأخلص العبادة لله، وكانت رؤيا الملك سبباً في إخراجه من السجن، وظهور براءته، وتعيينه أميناً على خزائن مصر.
- ٤- تحدثت السورة عن لقاءات يوسف الأربع بإخوانه، وجَمْع شمله بأخيه الشقيق وأبويه في أرض مصر.
- ٥- التعقيب على السورة بما تحمله من عبر وعظات وآداب وهِدَايَاتٍ.

حوار السورة يدور حول ثماني شخصيات:

أبطال القصة:

- والحوار الذي في السورة يدور بين ثماني شخصيات، كل منهم له دوره في القصة:
- ١- يوسف عليه السلام: وهو بطل القصة، وصاحب الدور الرئيس الذي تدور عليه أحداث السورة.
 - ٢- يعقوب عليه السلام: يمثل عنصر الحب الأبوي لولده، الملهوف عليه، المطمئن على الوصول إليه.
 - ٣- إخوة يوسف: يمثلون عنصر الغيرة والحسد، والتآمر والمكر والخداع، ومواجهة آثار الجريمة.
 - ٤- امرأة العزيز: تمثل عنصر النزوة، والشهوة، واندفاع الغريزة، وتسُلُّط الشيطان، ثم الندم والتوبة.
 - ٥- عزيز مصر: يمثل مواجهة جريمة الشرف داخل مجتمعه، حيث تضعف نخوته

ويتغلب عليه الرياء وستر الظواهر.

٦ - شخصية الملك: وهو يلقي بظلاله على يوسف، فيخرجه من السجن ويعينه وزيراً للمالية؛ لإصلاح الوضع الاقتصادي في البلاد وما جاورها.

٧- النسوة: وهن يمثلن عنصر الطبقة الراقية في المجتمع، ويستنكرن على امرأة العزيز سلوكها، ثم يقعن في الافتتان به، ويعذرنها فيه.

٨ - شاهد يوسف: وهو الذي كشف عن الحقيقة التي دارت في دهاeliz القصر، ولم يطلع عليها إلا رب العالمين.

إن قصة يوسف عليه السلام ليست خيالاً، ولا رواية مصطنعة، وليست تاريخاً خطئه أفلام البشر، إنها قطعة من تاريخ الأحياء، تفيض بالحقائق لمن يُحسن الاستفادة والاعتبار، وليس لخاتم المرسلين عليه السلام دخل فيما أوحى الله إليه به ﴿ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ أَجْمَعُوا أَمْرَهُمْ وَهُمْ يَمْكُرُونَ﴾.

يوسف في بيت العزيز: لقد أحب عزيز مصر يوسف؛ لشمائله النبيلة، ودماثة خلقه، وحفظ بيته، وصيانة محارمه، وأحبته امرأة العزيز؛ لروعة جماله، وحسن مظهره ومخبره؛ فطمعت فيه، وراودته عن نفسه، ولكن إيمان يوسف ومواثيق الشرف التي ورثها عن آبائه، وحُرمة رب البيت الذي أكرمه، انتصرت على المراودة الخاطئة، فأخذ يفر منها وهي تشد قميصه؛ حتى بلغت المعركة نهايتها.

وقد اعترفت امرأة العزيز بذلك وصرحت به في قولها: ﴿وَلَقَدْ رَاودْنَاهُ عَنْ نَفْسِهِ فَاسْتَعَصَّمَ﴾ [٣٢] ومع ذلك فقد كادت له حتى أدخلته السجن، وجاءته الرسالة وهو فيه فيقول:

﴿إِنِّي تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ﴾ [٣٧] وَأَتَّبَعْتُ مِلَّةَ آبَائِي ابْرَهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ مَا كَانُوا لَنَا أَنْ نُشْرِكَ بِاللَّهِ مِنْ شَيْءٍ ذَلِكَ﴾ [٣٨، ٣٧]

﴿يَصْدِجِي السِّجْنَ ءَازِبَابٌ مُتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ اللَّهِ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ﴾.

وكان تأويل الرؤيا هو الطريق لإبراز يوسف عليه السلام من بين المساجين.

يوسف يعبر الرؤيا: وفي سورة يوسف ثلاث رؤى:

١- رؤيا يوسف. ٢- رؤيا السجن. ٣- رؤيا الملك.

الرؤيا الأولى: هي التي قصها على أبيه في أول السورة؛ من سجود الشمس والقمر والأحد عشر كوكبًا، وأحداث السورة كلها تفسير لهذه الرؤيا.

وقد خُتِمت هذه الأحداث بهذا المشهد المعبر عنها ﴿فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَى يُوسُفَ ءَاوَىٰ إِلَيْهِ أَبَوَيْهِ وَقَالَ ادْخُلُوا مِصْرَ إِن شَاءَ اللَّهُ ءَامِنِينَ ﴿٩٩﴾ وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى الْعَرْشِ وَخَرُّوا لَهُ سُجَّدًا وَقَالَ يَأْتِيَنَّ هَذَا تَأْوِيلُ رُؤْيَايَ مِن قَبْلُ قَدْ جَعَلْنَا رُبِّي حَقًّا ﴿١٠٠﴾﴾ [٩٩، ١٠٠].

الرؤيا الثانية: وهي التي قصها عليه رفيقه في السجن، حيث رأى أحدهما أنه يعصر خمرًا، ورأى الآخر أنه يحمل فوق رأسه خبزًا تأكل الطير منه.

وقد فسر يوسف هذه الرؤيا بأن مصير الرفيقتين متناقض، فالأول سينجو ويخرج من السجن، أما الآخر فيُقتل ويُصلب حتى تأكل الطير من رأسه.

الرؤيا الثالثة: هي التي رآها الملك؛ فأفزعته وعجز الناس عن تأويلها.

وفسرها يوسف الصديق بأن السبع بقرات السمان هي سبع سنوات يكثر فيها الخير ويعُمُّ، والسبع بقرات العجاف هي سبع سنوات كلها قحط وجوع، تجاوز أرض النيل حتى بلغ أرض الشام وغيرها، ثم يأتي بعد ذلك عام يزول فيه الهم والغم ويكون خصبًا كثير الخير والنعم.

ووضع لهم يوسف خطة اقتصادية: أن يزرعوا سبع سنوات متواصلة، ويتركوا الحب في سنبله حفاظًا عليه من السوس إلا ما يلزم للضروري من الطعام، فإذا جاءت السبع سنوات العجاف أكلوا مما خزنوه في السنوات الخصبة كثيرة الخير.

وكان هذا سببًا في ظهور براءة يوسف مما دبرته له امرأة العزيز، حيث قالت: ﴿الَّذِينَ حَصَّصَ الْحَقُّ أَنَا رَاوِدْتُهُ عَنْ نَفْسِهِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ﴾ [٥١] كما كان سببًا في اختياره وزيرًا للمالية ﴿وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ يَتَّبِعُونَ مِنْهَا حَيْثُ يَشَاءُ﴾ [٥٦].

رحلات إخوة يوسف الأربع إلى مصر:

١- وبسبب المجاعة التي وصلت إلى الشام وتجاوزتها؛ قَدِمَ إخوة يوسف عليه أربع مرات:

لقد كان إخوة يوسف من بين القادمين عليه في السنوات العجاف؛ فأكرمهم وأحسن وفادتهم في المرة الأولى دون أن يُعرّفهم بنفسه، وطلب منهم أن يأتوا معهم في المرة القادمة بأخ لهم من أبيهم وإلا فلا كيل لهم عنده، وقد أشار إلى الرحلة الأولى قوله تعالى: ﴿وَجَاءَ إِخْوَةُ يُوسُفَ فَدَخَلُوا عَلَيْهِ فَعَرَفَهُمْ وَهُمْ لَهُ مُنْكَرُونَ﴾ [آية: ٥٨].

٢- وجاءوا إليه في المرة الثانية؛ فاستقبل أخاه الشقيق استقبالا خاصا، حيث آواه وقربه إليه، وعرفه بنفسه، ثم احتال في حجزه عنده؛ حتى يفرض عليهم العودة إلى أبيهم بدونه، بعد أن احتجزه بسبب مكيال الملك الذي خبّاه في متاع أخيه.

وأشار إلى دخولهم مصر في هذه المرة قوله تعالى ﴿وَلَمَّا دَخَلُوا مِنْ حَيْثُ أَمَرَهُمْ آبُوهُمْ مَا كَانَتْ تُغْنِي عَنْهُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا حَاجَةً فِي نَفْسِ يَعْقُوبَ قَضَاهَا﴾ [آية: ٦٨].
أما لقاءهم بيوسف للمرة الثانية فقد جاء في قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا دَخَلُوا عَلَى يُوسُفَ ءَاوَىٰ إِلَيْهِ أَخَاهُ قَالَ إِنِّي أَنَا أَخُوكَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [آية: ٦٩].

٣- وقدم إخوة يوسف عليه بمصر في المرة الثالثة بقلوب منكسرة ذليلة، وفي هذه المرة أطمأ يوسف اللثام عن شخصيته بعدما لمس من إخوته الضعف والهوان، فقال لهم في نبرة هزت قلوبهم ومشاعرهم: ﴿هَلْ عَلِمْتُمْ مَا فَعَلْتُمْ بِيُوسُفَ وَأَخِيهِ إِذْ أَنْتُمْ جَاهِلُونَ﴾ [آية: ٨٩، ٩٠].

وقد جاء هذا اللقاء في قوله تعالى ﴿فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَيْهِ قَالُوا يَا أَيُّهَا الْعَزِيزُ مَسْنَا وَأَهْلْنَا الضَّرَّ وَجِئْنَا بِبِضْعَةٍ مُزْجَلَةٍ فَآوَىٰ لَنَا الْكَيْلَ وَنَصَدَّقَ عَلَيْنَا إِنَّ اللَّهَ يَجْزِي الْمُتَصَدِّقِينَ﴾ [آية: ٨٨].

وعاد الركب إلى الشام ومعهم قميص يوسف، وما أن تحرك الإخوة بالقميص من أرض مصر حتى سمع الذين حول يعقوب وهو يقول: ﴿إِنِّي لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ لَوْلَا أَنْ تُفَنِّدُونِ﴾ [٩٤] أي: لولا أن تكذبوني وتنسبوني إلى الحماقة.

٤- وجاء إخوة يوسف إليه في المرة الرابعة ومعهم أبوه وأمه، وكان في هذا تأويل رؤياه وهو صغير، قال تعالى ﴿فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَى يُوسُفَ ءَاوَىٰ إِلَيْهِ أَبُوهُ وَقَالَ ادْخُلُوا مِصْرَ إِن شَاءَ اللَّهُ ءَامِنِينَ﴾ [آية: ٩٩].

إذن فقد قام إخوة يوسف بأربع رحلات من بادية الشام (العربات من أرض فلسطين)

إلى مصر للقاء أخيهم يوسف عليه السلام، وكان معهم أبوهم في المرة الأخيرة، وعاش معه أربعاً وعشرين سنة، ثم مات ودُفن في الشام لوصيته، وعاش يوسف مئة وعشرين عاماً، وفُسرت رؤياه في أربعين عاماً.

وكان النبي ﷺ يعلم أصحابه هذه السورة في بدء إسلامهم، كما أخرج الحاكم بسنده أن رفاعه بن رافع الزُرقي ومعاذ بن عفراء قدما مكة قبل بيعة العقبة الأولى؛ فأتيا النبي ﷺ، وطلبا منه أن يعرض عليهما الإسلام؛ فسألهما مَنْ خَلَقهما، وَمَنْ صَنَعَ الأصنام التي يعبدونها؟ وبيّن لهما أن الخالق أحق بالعبادة من المخلوق، وأنهم قد عملوا الأصنام بأيديهم، فهي أحق أن لا تُعبد، ثم قال لهم: «وأنا أدعو إلى عبادة الله، وشهادة أن لا إله إلا الله وأني رسول الله، وصلة الرحم، وترك العدوان، وبُغض الناس».

فقالا: لو كان الذي تدعونا إليه باطلاً؛ لكان من معالي الأمور ومحاسن الأخلاق، ثم إنهما أتيا الكعبة فطافا وضربا الأقداح سبعا.

قال رفاعه: فَصِحْتُ أشهد أن لا إله إلا الله، وأن محمداً رسول الله؛ فاجتمع الناس عليّ وقالوا: مجنون، رجل صبا، قلت: بل رجل مؤمن، ثم جئت أعلى مكة، فلما رأيي معاذ قال: لقد جاء رفاعه بوجه ما ذهب بمثله، فجئت وآمنت، وعلمنا رسول الله ﷺ سورة يوسف وسورة العلق، ثم رجعنا إلى المدينة^(١).

سبب النزول:

قيل: إن اليهود قالوا لمشركي مكة: سلوا محمداً عن أمر يعقوب وقصة يوسف؛ فنزلت السورة^(٢).

وعن سعد بن أبي وقاص أن أهل مكة قالوا للنبي ﷺ: لو حدثنا - وكان القرآن قد تلي عليهم - فأنزل الله تعالى: ﴿اللَّهُ نَزَلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُتَشَابِهًا مَثَانِي نَقَشَرُ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ﴾ [الزمر: ٢٣].

وقالوا له: لو قصصت علينا؛ فأنزل الله تعالى: ﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَذَا الْقُرْآنَ وَإِنْ كُنْتَ مِنْ قَبْلِهِ لَمَنِ الْغَفِيلِ﴾ ﴿٢﴾.

(١) الحديث في «المستدرک» (٤/١٤٩).

(٢) رواه الضحاك عن ابن عباس «زاد المسير» (٤/١٧٧).

أي: عن طريق الوحي المنزل وكنت قبله لا تعرف شيئاً عن هذه القصة وغيرها.
ثم قالوا: يا رسول الله، لو ذكّرنا؛ فأنزل الله عز وجل: ﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ﴾^(١) [الحديد: ١٦].

وورد أن اليهود سألوا النبي الكريم -عن طريق مشركي مكة- سألوه عن قصة نبي ذهب ابنه من الشام إلى مصر ولحقه أبنائه، وكيف أنه أخذ ييكي حتى عمي؛ فأنزل الله ﷻ هذه السورة^(٢).



(١) ينظر: البزار (١١٥٢) وأبو يعلى (٧٤٠) وابن حبان (٦٢٠٩) والحاكم (٣٤٥/٢) و«المطالب العالية» (٤٠١٣) والطبري (٨/١٣) وهو حديث حسن.

(٢) ينظر: «تفسير الخازن» والبعوي.

تَفْسِيرُ السُّورَةِ

الْقُرْآنُ لِسَانُ عَرَبِيٍّ مُبِينٌ

١- ﴿الرَّ (١) تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ ﴿١﴾﴾

ابتدأت السورة بحروف الهجاء الثلاثة: الألف واللام والراء، ثم بيّن ﷺ أن هذا القرآن المعجز في ألفاظه وبلاغته ومعانيه، مكوّن من مثل هذه الحروف التي تعرفونها، فإن كنتم في شك من كونه مُنزلاً من عند الله فهاتوا مثله، وادعوا مَنْ شئتم مِنَ الْخَلْقِ؛ لإعانتكم.

وهي حروف تُنبه الغافلين إلى الاستماع لهذا القرآن والانتفاع بما جاء فيه، وأنه كتاب مبين واضح في ألفاظه ومعانيه، ومُفَصَّل لما فيه من الهدى والحلال والحرام وحججه وبراهينه.

تلك الآيات التي أنزلت عليك يا محمد في هذه السورة، هي آيات الكتاب المعجز في بيانه الساطع، الذي لا تشبهه حقائقه ولا تلتبس دقائقه.

ووصف الكتاب هنا بأنه مبين، كما وُصف في أول سورة يونس بأنه حكيم؛ لأن قصة يوسف لم تكن معروفة للعرب قبل نزول هذه السورة لا إجمالاً ولا تفصيلاً، وقد بيّنها القرآن وفصّلها في سورة يوسف، وكان نزولها معجزة قبل أن يلتقي النبي ﷺ باليهود في المدينة، فقد أعلم الله بها نبيّه، وهي من علوم تاريخ الأديان القديم، ولا علم له بها قبل نزول هذه السورة.

أما الْقَصَصُ الذي ذكر في سورة يونس، فقد كان معروفاً للعرب إجمالاً، فكان وصف القرآن هنا بأنه مبين ووصفه في سورة يونس بأنه حكيم يناسب ما جاء في كل منهما من القصص القرآني.

ولأن سورة هود اشتملت على عدد أكبر من قصص الأنبياء، ومنه ما كان معلوماً لدى العرب، ومنه ما كان مجهولاً، فقد وُصفت آيات السورة بالإحكام والتفصيل معاً، فهي

(١) سكت أبو جعفر على حروف الهجاء الثلاثة سكتة يسيرة بدون تنفس، والباقون بدون سكت، وأمال الراء فيها أبو عمرو وابن عامر وشعبة وحمزة والكسائي وخلف العاشر، وقللها الأزرق، وفتحها الباقر، وكلها لغات عند العرب.

آيات أحكمت ثم فصلت من لدن حكيم خبير. قال تعالى:

٢- ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ^(١) قُرْآنًا^(٢) عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ^(٣)﴾

والعربية: هي اللغة المختارة للنبي الخاتم، وإن وُجد في القرآن ألفاظ غير عربية فقد عربها القرآن.

وفي الحديث عن جابر رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «والذي نفسي بيده لو أن موسى كان حيًّا ما وسعه إلا أن يتبعني»^(٣).

فلا حاجة مع القرآن إلى شيء من كتب أهل الكتاب؛ لأنه مشتمل عليها، محفوظ من التحريف والتبديل.

والعربية هي الأساس، ولغات غير العرب يؤخذ منها بقدر الحاجة.

قيل: لما كانت قصة يوسف في التوراة باللغة العبرانية، سأل الرسول ﷺ ربه أن تذكر هذه القصة بالعربية في القرآن؛ فأنزل الله عليه سورة يوسف^(٤).

وأنزل القرآن بلسان عربي مبين، على نبي عربي، وجعلت ألفاظه قوالب لمعانيه، وجعل مشتملاً على ما فيه سعادتك في الدنيا والآخرة ﴿وَلَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ معانيه، وتفهمون ألفاظه، وتتفهمون بهداياته، وتعرفون حدوده وأصوله وفروعه وأوامره ونواهيه، وتدركون أنه ليس من كلام البشر، فإذا عقلتم ذلك نتج عنه عمل الجوارح والانقياد له.

وتجويد القرآن -كالإظهار والإدغام وتحقيق الهمز وتسهيلها- هو من اللسان العربي المبين، ولو نزل القرآن بلغة أخرى لقل: لماذا هذه اللغة دون غيرها؟ والسؤال يدور.

(١) وصل ابن كثير هاء الضمير من (أنزلناه) بحرف مد، والباقون بالقصر.

(٢) نقل ابن كثير حركة همزة (قرآنا) إلى الساكن قبلها، وكذا حمزة عند الوقف، والباقون بعدم النقل.

(٣) أخرجه أحمد عن جابر بن عبد الله «المسند» (٣/٣٧٨) برقم (١٥١٥٦)، بإسناد ضعيف لضعف مجالد (محققه) وأخرجه ابن أبي شيبة (٩/٤٧) وابن أبي عاصم في السنة (٥٠) والبزار (١٢٤) كشف والبيهقي في الشعب (١٧٧) والبخاري في شرح السنة (١٢٦).

(٤) «تفسير الخازن» و«زاد المسير» للآية.

أَحْسَنُ الْقَصَصِ

٣- ﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَذَا الْقُرْآنَ وَإِنْ كُنْتَ مِنْ قَبْلِهِ لَمَنِ الْغَفْلِينَ﴾

نحن نحدثك يا محمد، ونروي لك أخبار الأمم السابقة، بأصدق كلام، وأحسن بيان؛ بإيحائنا إليك هذا القرآن الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، وهو قصص حسن بما اشتمل عليه من فصاحة الألفاظ إلى حد الإعجاز، وحُسن البيان، وبلاغة التأثير، وما حَوَى من الحِكم والعجائب، ووسائل التربية، وتهذيب الخُلُق، ومغبة الحسد، وعاقبة الصبر.

وقصص الناس فيه ترويح عن النفس، وإبعاد لها عن الملل، بما ترتاح له النفوس، ولا يخلو من الخيال أو الباطل أو المبالغة ونحو ذلك، ولكن قصص القرآن أحسن القصص؛ لأنه حقائق وعبر وعظات وهدايات، فهو أحسن من قصص الناس؛ لأنه وارد من حكيم خبير، وقبل نزول القرآن به كان محمدٌ ﷺ خالي الذهن، لا يعرف عنه شيئاً، وهذا معنى ﴿وَإِنْ كُنْتَ مِنْ قَبْلِهِ لَمَنِ الْغَفْلِينَ﴾ أي: قبل نزوله عليك ﴿لَمَنِ الْغَفْلِينَ﴾ فلم تفرح سمعك، قبل ذلك، ولم تخطر لك على بال، ولم تعرفها إلا عن طريق الوحي الإلهي ﴿لَقَدْ كَانَتْ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُولِي الْأَلْبَابِ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَى وَلَكِنْ تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ [يوسف].

وقصة يوسف ليست رواية ولا أدباً ولا خيالاً، بما فيها من شخصيات، كل منها يقوم بدوره، ولكنها قرآن منزل، وكلام رب العالمين، وحقيقة ثابتة وعلم يقيني.

ولما مدح القرآن ما اشتمل عليه من القصص، شرع في قصة يوسف ﷺ:

رُؤْيَا يُوسُفَ عَلَيْهِ السَّلَامُ

٤- ﴿إِذْ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ (١) إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ (٢) عَشَرَ كَوْكَبًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ﴾

هذه الرؤيا مقدمة لأحداث السورة كلها، وقد رأى يوسف عليه السلام أن إخوانه الأحد عشر، وهم الكواكب، والشمس وهي أمه، والقمر وهو أبوه، رآهم يوسف خاضعين له إكرامًا وتعظيمًا، حيث ستتقل به الأحوال حتى يصل إلى سُدة الحكم في مصر، ويقدمون عليه من الشام أربع مرات طلبًا للقوت والميرة.

أخرج الطبري بسنده إلى جابر رضي الله عنه أن رجلاً اسمه بستانة اليهودي، جاء إلى النبي ﷺ فقال: يا محمد، أخبرني عن الكواكب التي رآها يوسف أنها ساجدة له، ما أسماؤها؟ فلم يجبه بشيء، ونزل عليه جبريل؛ فأخبره بأسمائها؛ فبعث إليه النبي ﷺ وقال له: «هل أنت مؤمن إن أخبرتك بأسمائها؟» قال: نعم؛ فذكرها له النبي ﷺ؛ فقال اليهودي: إي والله، إنها لأسمائها (٣).

وتبدأ القصة بالرؤيا التي رآها يوسف الصديق، وهذه الرؤيا ليست رؤيا عادية، فهي رؤيا صبي صغير، تسوق له البشري بوراثة النبوة عن أبيه وأجداده، وهي رؤيا صالحة تشير إلى مستقبل هذا الصبي، وأنه سيكون له شأنٌ عند الله تعالى، فهي وحي من الله تعالى وجزء من النبوة، وكان سنُّه آنذاك اثنتي عشرة سنة.

الرؤيا والحلم: وقد بيّن النبي ﷺ الفرق بين الرؤيا والحلم، فذكر أن الرؤيا من الله تعالى، والحلم من الشيطان.

والرؤيا: هي التي ينشرح لها الصدر، وهي جزء من ستة وأربعين جزءًا من النبوة.

أما الحلم: فإنه من الشيطان، وهو الذي يفرع منه الإنسان وينزعج.

(١) قرأ ابن عامر وأبو جعفر بفتح التاء من (يا أبت) والباقون بكسرهما، ووقف عليها بالهاء ابن كثير وابن عامر وأبو جعفر ويعقوب، ووقف عليها الباقون بالتاء.

(٢) قرأ أبو جعفر بإسكان العين من (أحد عشر) إشعارًا بأنهما اسم واحد، والباقون بالفتح، وهما لغتان.

(٣) ينظر: «تفسير الطبري» (٥٥٥/١٥) و«تفسير ابن عطية» (٢٣٠/٣). قال ابن كثير في البداية والنهاية (١/١٩٩): هذا من حديث الحكم بن ظهير، وقد ضعفه الأئمة عن الشدي.

وقد عَلَّمَنَا النبي ﷺ أن الحلم الذي يَنْزَعُجُ منه الإنسان، عليه أن يتحول من جنبه إلى الجنب الآخر، ويستعِذ بالله تعالى ويتفل عن يساره ثلاثاً، ولا يذكر هذا الحلم لأحد؛ حتى لا يضره بمشيئة الله تعالى، أما الرؤيا الصالحة التي ينشرح لها صدره فإنه يذكرها لمن يحب.

أحاديث في الرؤيا والحلم:

١- قال أبو قتادة : سمعت رسول الله ﷺ يقول: «الرؤيا من الله، والحلم من الشيطان، فإذا حلم أحدكم حلمًا يكرهه؛ فلينفث عن يساره ثلاثاً، وليتعوذ بالله من شرها، فإنها لا تضره»^(١).

وفي لفظ مماثل أن النبي ﷺ قال: «الرؤيا من الله والحلم من الشيطان، فإذا حلم أحدكم فليتعوذ منه وليبصق عن شماله فإنها لا تضره»^(٢).

٢- وفي حديث أبي قتادة أيضاً أن رسول الله ﷺ قال: «الرؤيا الصالحة من الله، فإذا رأى أحدكم ما يحب فلا يحدث بها إلا من يحب، وإن رأى ما يكره فليتفل عن يساره ثلاثاً، وليتعوذ بالله من شر الشيطان وشرها، ولا يحدث بها أحداً فإنها لن تضره»^(٣).

٣- وفي حديث جابر رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «إذا رأى أحدكم الرؤيا يكرهها فليصق عن يساره ثلاثاً، وليستعذ بالله من الشيطان ثلاثاً، وليتحوّل عن جنبه الذي كان عليه»^(٤).

وفي حديث أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «إن رؤيا المؤمن جزء من ستة وأربعين جزءاً من النبوة»^(٥).

٥- وفي حديث عائشة رضي الله عنها: أول ما بدئ به من الوحي الرؤيا الصالحة، فكان لا يرى رؤيا إلا جاءت مثل فلق الصبح»^(٦).

وهذه السورة بأكملها تدور حول رؤيا يوسف، وتُفَصِّل أحداثها على مدى أربعين عاماً،

(١) «صحيح مسلم» برقم (٢٢٦١) و«صحيح البخاري» (٣٢٩٢، ٥٧٤٧).

(٢) «صحيح البخاري» برقم (٦٩٨٦، ٣٢٩٢) و«صحيح مسلم» (٢٢٦١).

(٣) «صحيح مسلم» برقم (٢٢٦١).

(٤) «صحيح مسلم» برقم (٢٢٦٢).

(٥) «صحيح مسلم» برقم (٢٢٦٣) و«صحيح البخاري» برقم (٦٩٨٨، ٧٠١٧).

(٦) «صحيح البخاري» برقم (٣، ٢٣٩٢، ٤٩٥٣) و«صحيح مسلم» (١٦٠).

والمقصود بالكواكب هم إخوة يوسف الأحد عشر، والشمس أمه على قول، وقيل: إنها خالته التي تزوجها أبوه بعد موت أمه؛ لأن الشمس مؤنثة، والقمر أبوه؛ لأنه مذكر، وسجودهم له سجود تحية واحترام وتقدير.

وهذه الرؤيا قد تحققت في عشرات السنين؛ حيث جمع الله شمله بأبيه وأمه وإخوته، وخرجوا له سجدًا، وقال: يا أبت هذا تأويل رؤياي، قد تحققت حدثًا حدثًا، وكان عُمرُ يوسف حين رآها نحو اثني عشر عامًا، وقد فهم يعقوب عليه السلام من هذه الرؤيا أنه سيكون لابنه شأن عظيم:

نماذج من الرؤي:

١- ورؤيا الأنبياء وحي، فقد رأى إبراهيم في منامه أن يذبح ابنه الوحيد إسماعيل، فامتثل إبراهيم وإسماعيل أمر الله تعالى عن طريق الرؤيا المنامية.

٢- وفي البخاري عن أبي موسى رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «رأيت في المنام أن أهاجر من مكة إلى أرض بها نخل، ورأيت فيها بقرةً تذبح، ورأيت والله خير»^(١).

فكانت غزوة أحد وما حدث فيها تفسيرٌ لهذه الرؤيا.

٣- وفي حديث المنام الطويل الذي رآه النبي ﷺ أتاه فيه آتيان؛ فأيقظاه وذهبا به يُطلعانه على أصناف من أمته في صور متعددة من العقاب الذي يلحق بهم، وغير ذلك من رؤى النبي ﷺ، وفي البخاري أكثر من أربعين رؤية، ومن رأى النبي ﷺ في منامه فكأنما رآه حقًا؛ فإن الشيطان لا يتمثل به.

٤- وقد قام عبد المطلب بحفر بئر زمزم بناء على رؤيا رآها، وفيها وصف وتحديد لمكانها.

٥- وقد رأى عبد الله بن سلام أنه في روضة، وأن فيها عمودًا، وأن فيه عروة، وأنه أخذ بتلك العروة؛ فارتقى إلى أعلى العمود، فعبرها له النبي ﷺ بأن العروة الوثقى هي الإيمان، والروضة هي الجنة.

ولم يبقَ من النبوات إلا المبشرات؛ وهي الرؤيا الصالحة يراها الرجل أو ترى له.

(١) ينظر حديث طويل في «صحيح البخاري» (٣٦٢٢، ٣٩٨٧، ٤٠٨١، ٧٠٣٥، ٧٠٤١) و«صحيح مسلم» (٢٢٧٢٢).

وتأويل الرؤيا يختلف حسب أحوال الناس، فَمَنْ رأى أنه يشرب خمراً مثلاً وكان من طلاب العلم فهو زيادة له في العلم، فإن كان من عامة الناس كان ذلك علامة على أنه من أهل الغواية والضلال، وهكذا.

ومعنى الآية: اذكر -يا محمد- لقومك قول يوسف لأبيه: إني رأيت في المنام هذه الرؤيا العجيبة؛ وهي أن الكواكب الأحد عشر، والشمس والقمر -وهما أعظم الكواكب- ساجدون له.

الأحلام وتَغْيِيرُهَا: وقد تكون الأحلام انعكاسات لما يشغل قلب الإنسان من أحداث، وقد يتغلب الشيطان على الإنسان؛ فيرى في منامه ما يزعجه، كأن يرى مَنْ يَخْنُقُهُ مثلاً، أو يقطع رأسه أو يدفعه في بئر ونحو ذلك.

وغالبًا ما يرى الإنسان في منامه ما تحدّثه به نفسه، أو تتمناه في اليقظة، أو يرى ما يغلب على مزاجه، وما يقع له في المستقبل غالبًا^(١)، وقد تكون الرؤيا ناشئة عن:

- ١- غلبة الدم؛ نتيجة كثرة الغذاء.
- ٢- أو غلبة الصفراء؛ نتيجة الأغذية اليابسة.
- ٣- أو غلبة البلغم الناشئ من الأغذية الباردة الرطبة.
- ٤- أو غلبة السوداء؛ نتيجة الإكثار من أكل العدس والبادنجان والدخن ونحو ذلك من الأغذية السوداء^(٢).

ويُفسَّر اللبْن بالفطرة، والنار بالفتنة، والنجوم بالعلماء، والدم بالماء، والزرع والحرث بالعمل للآخرة، وطول الثياب أو قصره بالزيادة أو النقص في الدين.

وأنواع السلاح بالقوة والنصر، والرائحة الطيبة بالثناء الحسن، والميزان بالعدل، والجراد بالجنود، والحية بالعدو، والثعلب بالرجل الماكر، والكلب بالصديق أو العدو الضعيف، والذئب بالرجل الفاجر، والأسد بالرجل القاهر، والفأرة بالمرأة الفاجرة.

(١) ينظر: «فتح الباري شرح صحيح البخاري» (٢٨٤/١٢).

(٢) ينظر: «تفسير الشيخ الطنطاوي جوهري» للآية.

والبيض يعبر عنه بالنساء، واللحم الطريُّ يفسَّر بالغيب، والمفاتيح بالكنوز، والسفينة بالنجاة، واللباس بالنساء، وحلول الملك في مكان مَّا، حلول مصيبة فيه، والغراب يفسر بالرجل الفاسق، والضلع بالمرأة، وطول اليد زيادة في صنائع المعروف، وجمع الحطب نميمة، والمرض نفاق، ورَمي الناس بالحجارة أو السهام ذكُّهم بسوء، والبكاء يفسَّر بالفرج، ويفسر الفرح والضحك والرقص بالحزن والهم والغم، ومَن يدخل قبرًا يُسجن، وطول الشَّعر سعادة وزيادة مال، وحَلَقَه عكس ذلك وهكذا^(١).

ويفسر الخشب المشند إلى شيء، بالمنافقين، والغيث بالرحمة والعلم، ومن رأى اليهود أو النصارى فهذا إشارة إلى الابتداع في الدين، والقط العبد أو الخادم، والكبش، الرجل الذي يتَّبَعُه الناس.

وكل ما كان وعاءً للماء فهو دالٌّ على الإناث، وكل ما كان وعاءً للمال فهو دالٌّ على القلب، والسقوط من علٍّ إلى أسفل سيئ في المنام، والعكس حسن.

والطلاق في المنام، يدل على الأخذ برأي قاطع في أمر من الأمور.

وما ينكسر من الأوعية، هو شيء لا ينجبر ولا يُرجى صلاحه، وكذلك ما يُحرق.

والشيء الذي يُسرق أو يُخطف، هو شيء يضيع ولا يُعثر عليه، إلا إذا عُرف سارقه فيرجى عودته.

والزيادة في أعضاء الجسم أو في الشعر دلالة على الخير.

والعُرْي فضيحة، والخروج من الأبواب الضيقة، يدل على الفرج والنجاة والسلامة، والسفر تغَيُّر في الأحوال.

وموت الحيِّ يدل على رجوعه إلى الله تعالى، وقد يدل على ارتكابه مخالفة في الدين.

وتوديع المريض أهله يدل على موته، والموتى في دار الحق، وكل ما يَرُدُّ على لسانهم حق وصدق، وأحوالهم الحسنة أو السيئة تدل على وضعهم حقًا في قبورهم، والنَّعاس أمن، والطفل الرضيع عدوًّا، والنخلة، تدل على الإسلام والكلمة الطيبة، وظهور عورة

(١) ينظر: «تعبير الرؤيا» لابن سيرين و«مقدمة ابن خلدون» و«إعلام الموقعين» لابن القيم.

الإنسان، ذنب يرتكبه، وغرقه في الماء فتنة في دينه ودينه، وتعلقه بجبل، تمسكه بالإسلام، والحجارة يعبر عنها بالقسوة، والمريض الذي يخرج من بيته دون أن يتكلم يموت، والسّمك معروف العدد نساء، وما ليس معروفًا عدده مال وغنيمة، وهكذا.

رُؤْيَا يُوسُفَ عَلَيْهِ السَّلَامُ تَبَشِّرُ بِمُسْتَقْبَلِهِ وَتُشِيرُ إِلَى أَحْدَاثِ الْقِصَّةِ

٥- ﴿قَالَ بَنِيَّ^(١) لَا تَقْصُصْ رُءْيَاكَ^(٢) عَلَىٰ إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُوا لَكَ كَيْدًا إِنَّ الشَّيْطَانَ لِلْإِنْسَانِ عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾

فَهُمْ يَعْقُوبُ مِنْ رُؤْيَا يُوسُفَ أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى سِيرَفَ مِنْ شَأْنِهِ، وَيُصْطَفِيهِ لِلنَّبُوَّةِ، وَبِنَالِ شَرَفِ الدَّارَيْنِ، فَخَافَ عَلَيْهِ مِنْ حَسَدِ إِخْوَتِهِ، وَنَهَاهُ أَنْ يَقْصُصَ رُؤْيَاهُ عَلَيْهِمْ.

أسباب زيادة محبة يعقوب ليوسف عن إخوته:

وكان يعقوب يميز يوسف عن إخوته بالمحبة؛ لأسباب ثلاثة:

الأول: أن يوسف هو الابن الذي أُعطي خصائص النبوة والرسالة، ولهذا فقد ألقى الله تلك المحبة في قلب يعقوب ليوسف دون إخوته.

الثاني: أن الأب عادة يحنُّ ويعطف أكثر على الابن الأصغر.

الثالث: أن الأب يحب من أبنائه من يكون أكثر طاعة له، وقد كان يوسف كذلك.

فهذه أسباب ثلاثة مشروعة لزيادة محبة يوسف ﷺ عن إخوته، وهي إلهام ووحى من الله تعالى؛ لوجود خصائص معينة في يوسف دون إخوته.

ولهذا حذر يعقوب ابنه يوسف من أن يروى تلك الرؤيا لإخوته؛ حتى لا يحسدوه ويحتالوا في المكر به والكيد له.

والشيطان يوغر الصدور، ويملأ القلوب بالبغضاء، فهو عدو لدود للإنسان واضح العداوة، وقد علم يعقوب أن أبنائه جميعًا يفسرون الأحلام، فقال له: لا تخبر إخوانك

(١) قرأ حفص بفتح ياء الإضافة من (يا بني) والباقون بكسرها.

(٢) أبدل السوسي همزة (رؤياك) وأوا مدية هكذا (رؤياك) وقرأ أبو جعفر بياء مشددة بعد الراء هكذا (رؤياك) والباقون بهمزة ساكنة.

بما رأيته؛ حتى لا يغريهم الشيطان بالكيد لك، فيولّد بينكم العداوة والبغضاء، ويحملهم على الحسد والإضرار بك.

يَعْقُوبُ يُبَشِّرُ يُوسُفَ بِالرَّسَالَةِ وَتَأْوِيلُ الرُّؤْيَى:

٦- ﴿وَكَذَلِكَ يَجْنِبُكَ رَبُّكَ وَيُعَلِّمُكَ مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ وَيُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَعَلَىٰ آلِ يَعْقُوبَ كَمَا أَتَمَّهَا عَلَىٰ أَبَوَيْكَ مِنْ قَبْلُ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٦﴾﴾

ثم يبين يعقوب لابنه فضل هذه الرؤيا الصالحة التي بشرته بالمنزلة العظيمة في المستقبل، فقال له: إن الله سيختارك ويصطفيك للرسالة، وكما سخر الله الأجرام العظام، يسخر لك وجوه الناس ونواصيهم مذعنين لطاعتك منقادين لك، ويعلمك من تأويل الأحاديث، وتعبير الرؤى ما تؤول إليه من أخبار في المستقبل، ويتم نعمته عليك بالنبوة كما أتمها من قبل على أبويك إبراهيم وإسحاق، فاصطفاهم للنبوة والرسالة، وأخرج الأنبياء من صلبهما.

إن ربك عليم حيث يجعل رسالته، حكيم في تدبير شؤون خلقه وما يصلحهم، فالتأويل: هو تعبیر الرؤى، وسميت أحاديث؛ لأن الرائي يتحدث بها، وكما أراك ربك هذه الرؤيا، فكَذلك يصطفيك ويعلمك تفسير ما يراه الناس في منامهم من الرؤى، بما تؤول إليه واقعاً في حياتهم.

وهكذا: بشر يعقوب يوسف بثلاثة أمور، هي:

١- اصطفاء الله له. ٢- تعبیر الرؤى. ٣- تمام النعمة عليه في الدنيا والآخرة.

كما أنعم على أبويه إبراهيم وإسحاق من قبل، وعلم الله تعالى محيط بكل شيء، وبما تحتوي عليه ضمائر العباد، وهو سبحانه حكيم، يضع الأشياء في مواضعها، ويعطي عباده وفق ما تقتضيه حكمته.

ابْتِلَاءُ يُوسُفَ بِخَمْسِ مَحَنٍ: إِخْوَةُ يُوسُفَ يَتَأَمَّرُونَ عَلَيْهِ

٧- ﴿لَقَدْ كَانَ فِي يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِ آيَاتٌ لِّلسَّائِلِينَ ﴿٧﴾﴾

(١) قرأ ابن كثير (آيات للسائلين) بإفراد (آيات) على إرادة الجنس هكذا (آية) والباقون بالجمع.

وتبدأ القصة بهذه الآية، فهي مقدمة لما تعاقب على يوسف من أحداث؛ أي: لقد كان في خبر يوسف وإخوته عبر وعظات تدل على قدرة الله تعالى وحكمته، وفيها دلائل على صدق محمد ﷺ، ودلائل على عواقب الصبر المحمود، وعواقب الحسد المذمومة، وذلك لمن سأل عنها من اليهود وغيرهم؛ ليستدل بها على نبوة محمد ﷺ، ذلكم أنه ﷺ لم يقرأ الكتب المتقدمة، ولم يجالس العلماء والأخبار، وقد أخبرهم ﷺ عما سألوه عن سبب انتقال ولد يعقوب عليهما السلام إلى أرض مصر؛ فوجدوها موافقة لما في التوراة، فدل ذلك على أن ما أتى به محمد ﷺ وحي من عند الله تعالى، ينتفع به أهل البصائر ويعرض عنه غيرهم.

الْمِخْنَةُ الْأُولَى: مِخْنَةُ حَسَدِ إِخْوَتِهِ وَكَيْدِهِمْ لَهُ

٨- ﴿إِذْ قَالُوا لَيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَيْنَا مِمَّا نَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّ أَبَانَا لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ (٨)

وقد ابتلي يوسف في هذه القصة بضروب من المحن، ومع أن يوسف ﷺ لم يقصص رؤياه على إخوته، فقد قال الإخوة: لَيُوسُفُ وَأَخُوهُ الشَّقِيقُ بَنِيَامِينَ - وكانت أمهما قد ماتت - أحب إلى أبينا منا، ونحن عشرة أبناء أقوياء فينا الكفاية والمنفعة.

وكان حب يعقوب ليوسف وبنيامين؛ لصغرهما وموت أمهما، وحب الصغير من فطرة البشر.

قيل لابنة الحسن: أيُّ بنيك أحب إليك؟ قالت: الصغير حتى يكبر، والغائب حتى يقدم، والمريض حتى يفيق.

وفوق ذلك فقد كانت مخايل النجابة والذكاء تظهر على يوسف، وقَوَّى هذا المعنى الرؤيا الصالحة التي تبشره بمستقبل ينفرد فيه عن إخوته، فضلاً عن أن المحبة القلبية لا مدخل للإنسان فيها، ولا بُدَّ أن يكون حب يعقوب ليوسف إلهاماً من الله تعالى، وقد يكون حبه له نظراً لما فيه من الخصائص التي ليست في غيره من بقية إخوته، ولا لوم على

(١) وفي حالة وصل هذه الآية بما بعدها قرأ أبو عمرو وعاصم وحمة ويعقوب وقنبل وابن ذكوان بخلف عنهما بكسر التنوين وصلاً من (مبين اقتلوه) والباقون بضمه، وهو الوجه الثاني لقنبل وابن ذكوان، والتخلص بالكسر من التقاء الساكنين هو الأصل، فإذا بدأ القارئ (اقتلوه) فإنه يضم همزة الوصل تبعاً لضم ثالث الفعل وهو التاء.

الوالد في تفضيل بعض ولده على بعض في المحبة لمثل ذلك.

ومع هذه الافتراضات، فإن دعوى زيادة محبة يعقوب لابنيه عن غيرهما دعوى باطلة؛ سببها شدة الغيرة منهما بسبب شفقة يعقوب عليهما لصغرهما و وفاة أمهما؛ فتوهموا أن ذلك زيادة في محبتهم، مع التساوي في المعاملة الظاهرة للجميع، ومع تفاوت إخوة يوسف في حسدهم له قالوا: ﴿إِنَّ أَبَانَا لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ والمعنى: أنهم قصدوا وُصف يعقوب بأنه أخطأ في تفضيله يوسف وأخاه عليهم، وغاب عن علمهم حقيقة الأمر، ولم يقصدوا الضلال في الدين؛ لعصمة الأنبياء، ولو أنهم أرادوا ذلك لكفروا، ولكنهم أرادوا الخطأ الدنيوي بإيثار يوسف عليهم.

وهذا كقولهم مخاطبين أباهم ﷺ: ﴿تَاللَّهِ إِنَّكَ لَفِي ضَلَالٍ كَبِيرٍ﴾ [يوسف: ٩٥] وقوله تعالى في حق نبينا ﷺ: ﴿وَوَعَدَكَ صَاحِبُكَ بِهَدْيٍ﴾ [الضحى: ٧] لست على علم بهذه العلوم التي لا سبيل لمعرفة إلا عن طريق الوحي، فهداك الله إليها وعلمك إياها عن طريق الوحي المنزل، وبدأت اقتراحات التخلص من يوسف، فقال أحدهم:

٩- ﴿أَقْتُلُوا يُوسُفَ أَوْ اطْرَحُوهُ أَرْضًا يَخْلُ لَكُمْ وَجْهَهُ أَيَكْمُ وَتَكُونُوا مِنْ بَعْدِهِ قَوْمًا صَالِحِينَ﴾

وتأتي هذه الآية بعد أن تهيات النفوس لاستقبال الغرض المطلوب، وهو تقرير مصير يوسف من قبل إخوته، فهو مقصود القاتلين، ثم أخذوا يأترون على يوسف؛ كي ينفردوا بمحبة أبيهم لهم؛ لأن حبه له شغله عنهم، وصرفه عن محبتهم كما يزعمون، ولذلك اقترح أحدهم قتله، واقترح الآخر نفيه من البلاد إلى مكان بعيد عن العمران؛ كي يكونوا بعد قتله أو نفيه قوماً صالحين عند أبيهم، ويتوبوا إلى الله تعالى بعد قتله.

والرأي الأول اقترحه يهوذا وكان صاحب الرأي فيه، وهكذا فإن إخوة يوسف يرون أن محبة أبيهم لأخيهم جرم عظيم، يستحق إزهاق روح الأخ، فاقترح يهوذا -وهو والد اليهود- قتل يوسف قتلاً مادياً بالإجهاز عليه، أو قتلاً معنوياً بنفيه وإلقائه في مكان بعيد مجهول، لا يصل إليه علم أبيهم ويتركونه حتى يموت، ثم يخلص لهم حب أبيهم ويُقبل عليهم بكليته، وبعد قتله يتوبون إلى الله؛ فيقبل منهم توبتهم، وتسلم لهم دنياهم من المنغصات التي يسببها يوسف لهم.

وهكذا فإن الحسد يعمي قلب صاحبه؛ حتى يؤدي به إلى ارتكاب جريمة القتل، وما قصة قتل قابيل لهابيل إلا من هذا الباب^(١).

المِخْنَةُ الثَّانِيَّةُ: مِخْنَةُ إِقْصَاءِ يُوسُفَ فِي الْجُبِّ

١٠ - ﴿قَالَ قَائِلٌ مِنْهُمْ لَا تَقْنُلُوا يُوسُفَ وَالْقَوْهَ فِي غَيْبَتِ^(٢) الْجُبِّ يَلْتَقِطُهُ بَعْضُ السَّيَّارَةِ إِنْ كُنْتُمْ فَاعِلِينَ﴾

ثم إن الله تعالى قد أراد ليوسف أن يكون نبياً ورسولاً، وأن يمكّن له في أرض مصر، وهو أمر لا بُدَّ من إتمامه وإتمامه؛ فصرفهم الله عنه، حيث إن القول بقتل يوسف وهو أخوهم الصغير أفرع بعض إخوته.

فقال روبييل أكبرهم سناً: ﴿وَالْقَوْهَ فِي غَيْبَتِ الْجُبِّ﴾ أي: في أسفل البئر وظلمته، والجب يوجد على مقربة من بحيرة طبرية على بعد ثلاثة فراسخ من منزل يعقوب في الأردن، وقيل: في بيت المقدس.

قال روبييل: ألقوه في ظلمات الجب؛ حتى يلتقطه بعض المارة فيأخذوه ويبيعوه، وكان هذا الرأي أهونهم شراً، ويبدو أن داعي الشفقة قد تغلب على داعي الانتقام؛ فنزلوا عليه.

(١) والذي في سفر التكوين من التوراة أن الذي أشار بقتل يوسف هو (راوبين) وأن يهوذا دل السيارة عليه، ولعل هذا من التحريف الذي طرأ على التوراة؛ لتحسين صورة اليهود في التاريخ.

(٢) قرأ نافع وأبو جعفر بجمع لفظ (غيابة) هكذا (غيابات) وقرأ الباقر بالإفراد، والجب هو البئر الذي لم يطلو، والغيابة هي الحفرة التي تكون في جوانبه، وقراءة الإفراد على أن يوسف لم يجد في البئر إلا حفرة واحدة، وهذه الكلمة مرسومة في المصحف بالتاء المفتوحة، والوقف عليها يكون بالتاء تبعاً للرسم.

حِوَارُ الْإِخْوَةِ مَعَ أَبِيهِمْ فِي شَأْنِ يُوسُفَ

١١- ﴿قَالُوا يَا أَبَانَا مَا لَكَ لَا تَأْمَنَّا^(١) عَلَى يُوسُفَ وَإِنَّا لَهُ لَنَنْصَحُونَ ﴿١١﴾﴾

لقد كان يعقوب يشعر بحسد إخوة يوسف له، فكان لا يأمنهم عليه من باب الحيطة والحذر، فلعله كان لا يأذن ليوسف بالخروج مع إخوته للرَّغْيِ أو السَّبْقِ؛ خوفاً عليه أن يصيبه شيء من مكرهم، ولم يصرح لهم بشيء من ذلك، ولكن حاله كانت تنطق بذلك، فحاول الإخوة استرضاء أبيهم محاولين استصحاب يوسف معهم؛ فاستمالوا قلبه، وحركوا فيه العواطف بنداء الأبوة؛ حتى يعدل عن تصميمه على عدم خروج يوسف معهم، فقالوا بعد اتفاقهم على إبعاده: يا أبانا، ما لك لا تجعلنا أمناء على يوسف، مع أنه أخونا، ونحن نريد له الخير، ونشفق عليه ونرعاه، ونخلص له النصيح والعناية، مع أنهم يريدون خلاف ذلك، فقد اتفقوا على أخذه وإلقائه في البئر، فلما نفوا عن أنفسهم التهمة ذكروا له مصلحة يوسف في إرساله معهم فقالوا:

١٢- ﴿أَرْسِلْهُ مَعَنَا غَدًا يَرْتَعْ^(٢) وَيَلْعَبَ^(٣) وَإِنَّا لَهُ لَنَحْفَظُونَهُ ﴿١٢﴾﴾

(١) أصل (لا تأمناً) تأمناً بنونين، فأدغمت النون الأولى في الثانية، وصار النطق بواحدة مشددة، ورسمت في المصحف بنون واحدة، وقد قرأ أبو جعفر بالإدغام المحض، من غير روم ولا إشماء، وقرأ بقية القراء بوجهين: الوجه الأول: الإدغام مع الإشارة بالشفتين حال النطق بالإدغام من غير أن يظهر لذلك أثر في النطق، وهذا معنى الإشماء، ولا يوجد إشماء في وسط الكلمة إلا في هذه الكلمة، وهو يشير على أن أصل حركة النون هو الضم، ويتعين هذا الإشماء على القراءة بقصر المد المتفصل لحفص عن عاصم. الوجه الثاني: هو الروم؛ أي: القراءة بنونين مظهرتين، مع اختلاس حركة النون الأولى؛ أي: خفض الصوت عند النطق بها، بحيث يسمعه القريب دون البعيد.

(٢) لفظ (يرتع) فيه خمس قراءات: (أ) قرأ نافع وأبو جعفر بالياء وكسر العين، على أن الفعل مجزوم بحذف حرف العلة، مع إسناده إلى يوسف عليه السلام هكذا (يرتع). (ب) قرأ عاصم وحزمة والكسائي ويعقوب وخلف العاشر بالياء مع سكون العين، مضارع رتع صحيح الآخر مجزوم بالسكون هكذا (يرتع). (ج) قرأ أبو عمرو وابن عامر بالنون وجزم العين لمناسبة (معنا) هكذا (نَرْتَعْ). (د) قرأ البزي بالنون وكسر العين من غير ياء هكذا (نرتع). (هـ) قرأ قبل بالنون وكسر العين مع إثبات الياء وحذفها وصلاً ووقفاً، فله في الياء وجهان هكذا: (نرتعي) وهكذا: (نرتع).

(٣) قرأ ابن كثير وأبو عمرو وابن عامر (نلعب) بالنون، والباقيون بالياء.

ثم أخذوا يرغبون أباهم، ويحبونه في ترك يوسف لهم؛ فأضافوا قائلين: أرسله معنا غداً عندما نخرج إلى مراعيينا، يتنعم بأكل الفاكهة، وكل ما لذ وطاب، ويدفع السامة والملل عن نفسه بالاستجمام، وألوان الرياضة، واللعب المباح كالقفز والجري والتسابق معنا، وهو تحت رعايتنا وعنايتنا، ننصح له، ونحفظه من كل شيء نخافه عليه، وهكذا أخذوا يتحايلون على أبيهم؛ لإقناعه بخروج يوسف معهم؛ حتى يحققوا مآربهم ونواياهم السيئة فأجابهم يعقوب:

١٣ - ﴿قَالَ إِنِّي لَيَحْزُنُنِي^(١) أَنْ تَذْهَبُوا بِهِ وَأَخَافُ أَنْ يَأْكُلَهُ الذِّئْبُ وَأَنْتُمْ عَنْهُ غَافِلُونَ﴾

في هذه الآية يبين يعقوب سبب امتناعه من خروج يوسف معهم بعيداً عن مساكنهم، فقال: إن نفسي تتألم لفراق يوسف، وأخشى أن يفترسه الذئب حال غفلتكم عنه، ومنه يُعلم أن يوسف كان صغيراً؛ لأنه يخشى عليه من الذئب ويخشى غفلتهم عنه، فالذي يمنعني أن أرسله معكم أمران:

الأمر الأول: إن خروجه معكم أمر يحزنني.

والأمر الثاني: أخاف أن يأكله الذئب وأنتم غافلون عنه.

وخصَّ لهم الذئب؛ لأنه رأى في منامه أن الذئب قد شبَّ على يوسف، وقيل: لأن أرضه كانت مليئة بالذئاب.

قال أبو مجلز: لا ينبغي لأحد أن يلْقن ابنه الشر، فإن بني يعقوب لم يدُرُوا أن الذئب يأكل الناس حتى قال لهم أبوهم: إني أخاف أن يأكله الذئب^(٢).

فلما لقن يعقوب أبناءه أن الذئب يأكل الناس قالوا: أكله الذئب، فكانت إجابة إخوته:

١٤ - ﴿قَالُوا لَيْنَ أَكُلَهُ الذِّئْبُ^(٣) وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّا إِذَا لَخَسِرُونَ^(٤)﴾

(١) قرأ نافع بضم الياء وكسر الزاي من (ليحزنني أن) مضارع أحزن، والباقون بفتح الياء وضم الزاي مضارع حزن، وفتح الياء الأخيرة وصلاً نافع وابن كثير وأبو جعفر.

(٢) ابن أبي حاتم (٢١٠٨/٧).

(٣) قرأ ورش والكسائي وأبو جعفر وخلف العاشر وأبو عمر بخلف عنه بإبدال همزة (الذئب) ياء في الحاليين، وكذا حمزة عند الوقف حيث وقعت في القرآن.

(٤) قرأ الأزرق بترقيق الراء وتفخيمها من (لخاسرون) والباقون بالتفخيم.

قال إخوة يوسف محاولين إدخال الطمأنينة على قلب أبيهم وإزالة الخوف والحزن عنه: يا أبانا، يأكله الذئب ونحن عَشْرَةُ أَقْوِيَاءَ؟! إنا إذاً لخاسرون، لا خير فينا، ولا نفع يُرجى منا، ونستحق أن يُدعى علينا بالخسارة والوبال والدمار، فلما ذكروا لأبيهم الأسباب الداعية لإرساله، سمح بإرساله معهم:

إِخْوَةُ يُوسُفَ يُلقُونَهُ فِي الْجُبِّ وَيَكْدِبُونَ عَلَى أَبِيهِمْ

١٥، ١٦- ﴿فَلَمَّا ذَهَبُوا بِهِمْ وَأَجْمَعُوا أَنْ يَجْعَلُوهُ فِي غِيَّبَتِ الْجُبِّ وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ لَتُنَبِّئَنَّهُمْ بِأَمْرِهِمْ هَذَا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿١٥﴾ وَجَاءَ وَ(١) أَبَاهُمْ عِشَاءً يَبْكُونَ ﴿١٦﴾﴾

ومن ثم استسلم الشيخ الكبير لأبنائه وأعطاهم يوسف، وبينما هم في طريقهم كانوا يوبخونه ويعذبونه، ولما وصلوا به إلى حافة البئر كي ينفذوا ما عزموا عليه من إلقائه فيه تعلق بهم، وظلَّ يبكي بصوت عالٍ؛ فترعوا يده وأنزلوه في البئر.

وقيل: إن أيدي جبريل عليه السلام قد تلقت، وألبسته قميص سيدنا إبراهيم عليه السلام الذي ألبسه إياه جبريل وهو في النار التي أعدها له النمرود، فكانت النار بردًا وسلامًا على إبراهيم، ألبس جبريل هذا القميص ليوسف عليه السلام وهو في البئر.

قيل: إن يوسف جلس على حَجَرٍ مرتفع في البئر؛ حتى جاء قوم مارُّون وهم في طريقهم إلى مصر؛ فأرسلوا الساقى لكي يجلب لهم الماء، وكان اسمه (مالك بن ذعر الخزاعي)؛ فأدلى دلوهُ في البئر، وظن أنه قد امتلأ بالماء، وإذ بطفل قد أُعطي شطر الحُسن قد تعلق بالحبال، فقال الساقى: يا بشرى، هذا غلام، وأسروه بضاعة؛ أي: أخفوه لكي يبيعه كما يباع الرقيق، والله عليم بما يصنعون.

وعندما ألقى إخوة يوسف به في الجب، أوحى الله إليه وحياً حقيقياً: إنك يا يوسف، سوف تنبئهم بما حدث منهم، ويكون منك عتاب لهم، تخبرهم فيه عما حدث منهم، وهم لا يشعرون بك، وفيه بشارة بأنه سينجو ويجتمع مع إخوته ويمكن له في الأرض، وقد حدث كُلُّ هذا كما جاء في نهاية السورة، فبعد نحو أربعين عامًا نبأهم يوسف بهذا الأمر.

(١) همزة (وجاؤوا) بالنسبة إلى الألف قبلها مد متصل، وهمزة (أباهم) بالنسبة إلى الواو قبلها مد منفصل، ويلغى البدل، عملاً بأقوى السببين.

والمعنى: فلما أفتح الإخوة أباهم، وأجابهم إلى ما طلبوا أرسله معهم، وذهبوا به إلى المكان الذي فيه الجب، على الطريق بين مصر والشام، على بُعد اثني عشر ميلاً من طبرية مما يلي دمشق، وعزموا على إلقائه في جوف البئر، ونفذوا ما أرادوا تنفيذه دون رحمة ولا شفقة، وأوحى الله إليه -وهو في البئر عن طريق الإلهام القلبي، أو عن طريق جبريل، أو عن طريق الرؤيا الصالحة- لتخبرن إخوانك في المستقبل القريب بما فعلوه بك في الصغر، وهم لا يشعرون أنك أنت يوسف؛ لاعتقادهم أنك هلكت في البئر، وقد تحقق هذا في نهاية القصة.

وكان في وحي الله تعالى إلى يوسف وهو في الجب تأنيس يوسف، وتقوية قلبه، وهو في ظلمة الجب، وبشارته بما سيؤول إليه أمره من تجاوز هذه المحنة، وولايته أمر البلاد، وفي هذا تهوين المصاعب عليه، وشدُّ على قلبه بالصبر، وإعطاؤه قوة معنوية تحوّل الظلمة نوراً، والشدة رخاءً، والوحشة أنساً.

ورجع إخوة يوسف إلى أبيهم عندما أقبل الليل بظلامه ليس معهم يوسف، وهم يتباكون متظاهرين بالأسى والحزن والجزع:

١٧- ﴿قَالُوا يَبْنَآءَ إِنَّا ذَهَبْنَا نَسْتَقِ وَيُتْرَكْنَا يُوسُفَ عِنْدَ مَلْعِنَةٍ كَلَّهَ الذِّئْبُ وَمَا أَنتَ بِمُؤْمِنٍ لَّنَا وَلَوْ كُنَّا صَادِقِينَ ﴿١٧﴾﴾

روي أن يعقوب لما سمع بكاءهم فزع، وقال: ما لكم يا بني، وأين يوسف؟ فكان جوابهم أن قالوا: يا أبانا، إنا ذهبنا نتسابق عن طريق الرمي بالسهم، أو جرياً على الأقدام، وتركنا يوسف؛ لصغر سنه عند ملابسنا وحوائجنا وزادنا؛ ليحفظها، فعدا عليه الذئب وافترسه، ولم نقصّر في حفظه والاعتناء به، بل تركناه في مأمن، ولم نفارقه إلا وقتاً يسيراً فأكله الذئب، ولم يُبقِ منه شيئاً لندفنه.

ونحن نعلم أنك لن تصدقنا فيما أخبرناك به، ولو كنا صادقين في حقيقة الأمر، وذلك لشدة محبتك ليوسف، وقولهم هذا يدل على ارتيابهم فيما يقولون، فالكاذب دائماً يلجأ لمثل هذا الأسلوب، فيعاجل من يتهمه بمثل ذلك، وكان أبناء يعقوب يقولون لأبيهم: أنت لا تصدق بالصدق ولو كنا صادقين.

دَعَوَاهُمْ أَنَّ الذَّنْبَ قَدْ أَكَلَهُ

١٨- ﴿وَجَاءُوا عَلَى قَمِيصِهِ بِدَمٍ كَذِبٍ قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنْفُسُكُمْ أَمْرًا فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَى مَا تَصِفُونَ ﴿٨﴾﴾

وبالإضافة إلى تبكي إخوة يوسف حينما رجعوا إلى أبيهم، فقد جاؤوا بقميصه معهم ملطخًا بدم غير دم يوسف؛ ليشهد هذا الدم على صدقهم، وقد زعموا أنه دم يوسف حين أكله الذئب فكان دليلاً على كذبهم؛ لأنه لم يمزق ولم يخرم، فقد أدرك يعقوب من قسّمات وجوههم، ومن دلائل حالهم، ومن نداء قلبه المفجوع أن يوسف لم يأكله الذئب، وأنهم قد اصطنعوا حيلة مكشوفة ومخادعة لا يقبلها العقل ولا الفكر، فقال لهم: ليس الأمر كما تقولون، بل إن أنفسكم الأمانة بالسوء قد زينت لكم أمراً قبيحاً في شأن يوسف؛ فزعمتم أن الذئب قد أكله، وهذا الأمر القبيح ستظهره الأيام، فصبري صبر جميل على احتمال ما تصفون من الكذب، فإن الصبر على مثل ذلك من جهاد النفس، ومحاربة الهوى، ومقاومة الشيطان.

قيل: إنهم جاؤوا بشاة؛ فذبحوها ولطّخوا قميص يوسف بدمها، وقد وصف الله تعالى ذلك الدم بأنه دم كذب، مبالغة فيه كأنه الكذب نفسه.

ويُروى أن يعقوب عليه السلام أمسك بالقميص الملطخ بالدماء، وقال: كذبتُم، لو أكل الذئب يوسف لشق القميص، وأخذ يقلب القميص ويقول: ما أرى به أثر ناب ولا ظُفر، إن هذا لَسُبُعٌ رحيم.

وقيل: إنه قال: ما أحلمك من ذئب، تأكل ابني ولا تمزق قميصه^(١)، يقول ذلك تهكماً بهم، فكان القميص دليلاً ليعقوب على كذبهم، ودليلاً على براءة يوسف حين قُذِّ من دُبره، ومعجزة ليوسف حين أُلقي على وجه يعقوب فارتد بصيراً.

والصبر الجميل: هو الذي لا شكوى فيه ولا جزع، فإن من بثَّ شكواه لم يصبر.

قال يعقوب: لقد زينت لكم أنفسكم أمراً قبيحاً، فصبري صبر جميل لا سخط فيه ولا

(١) انظر جملة من الآثار في ذلك عن ابن عباس وقتادة والحسن وغيرهم في «الدر المنثور» (٨/ ٢٠٧).

شكوى، وأستعين الله على ذلك.

ورد أن امرأة جاءت إلى شريح القاضي فبكت، فقال الشعبي: يا أبا أمية، أما تراها تبكي؟ فقال شريح: لقد جاء إخوة يوسف سيكون وهم ظلمة كاذبون، لا ينبغي للإنسان أن يقضي إلا بالحق^(١).

اسْتِخْرَاجُ يُوسُفَ مِنَ الْجُبِّ

١٩ - ﴿وَجَاءَتْ^(٢) سَيَّارَةٌ فَأَرْسَلُوا وَارِدَهُمْ فَأَدْلَى^(٣) دَلْوَهُ قَالَ يَبُشْرى^(٤) هَذَا غُلْمٌ وَأَسْرُوهُ بَضْعَةً

وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِمَا يَعْمَلُونَ ﴿١٩﴾

وبعد أن ألقى أبناء يعقوب أخاهم يوسف في البئر، تركوه وانصرفوا، فمرت به قافلة من المسافرين، كانوا متجهين من الشام إلى مصر، قيل: إنهم كانوا من أهل مدين، وقيل: إنهم كانوا من الإسماعيليين؛ أي: من أبناء إسماعيل بن إبراهيم عليهما السلام؛ فتزلوا قريباً من البئر، وهي بئر معروفة ببيت المقدس، وأرسلوا مَنْ يبحث لهم عن الماء؛ فوجد بئراً؛ فأدلى دلوه فيها؛ فتعلق به يوسف فأخرجه، فلما رآه غلاماً فرح به واستبشر، فلما رأى حُسنه وجماله قال: يا بشرى هذا غلام، والغلام من كان سنّه بين العشر والعشرين، وكان سن يوسف يومئذ سبع عشرة سنة، وأخفى هؤلاء المسافرون خبر التقاط يوسف عمن يجاورون البئر من الناس، وعن غيرهم ممن يستقي منه، فكتموا أمره وأخفوه معهم، واعتبروه عرضاً من عروض التجارة القابلة للبيع والشراء، والله عليم بما يعملونه بيوسف.

(١) «تفسير الفخر الرازي» (١٨/١٠١) وقد أخرجه ابن المنذر كما في «الدر المنثور» (٨/٢٠٧).

(٢) أمال ابن ذكوان وحمة وخلف ألف (وجاءت) وهشام بالفتح والإمالة، وفتحها الباقون، ومثلها (وجاؤوا).

(٣) أمال ألف (فأدلى) حمزة والكسائي وخلف، وللأزرق عن ورش الفتح والتقليل.

(٤) قرأ عاصم وحمة والكسائي وخلف (يا بشرى) بألف مقصورة، وقرأ الباقون بفتح الياء، على إضافة على النداء وإضافة البشرى إلى المتكلم، وذكر ابن عطية في تفسيره أن ورشاً قرأ بسكون الياء، والصحيح أنه يقرأ بفتح الياء، ولا يسكنها إلا الكوفيون، وأمال ألفها حمزة والكسائي وخلف، ولا ابن ذكوان الفتح والإمالة ومثله شعبة، وقللها الأزرق ولأبي عمرو ثلاثة أوجه؛ هي: الفتح والتقليل والإمالة.

المِخْنَةُ الثَّالِثَةُ: مِخْنَةُ بَيْعِ يُوسُفَ عَبْدًا رَقِيقًا

٢٠- ﴿وَشَرَوْهُ بِثَمَنٍ بَخْسٍ دَرَاهِمَ مَعْدُودَةٍ وَكَانُوا فِيهِ مِنَ الزَّاهِدِينَ ﴿٢٠﴾﴾

وكان بعض إخوة يوسف يتردد على البئر، وبعضهم كان يجلس قريباً منها، يرقبون ما يحدث له، فلما رأوا هذه القافلة قد التفتت، وأخفوه معهم؛ جاؤوا إليهم وقالوا: هذا عبد آبق من أمتنا، وقد وهبته لنا ونحن نبيعه لكم؛ فباعوه إليهم بثمن قليل من الدراهم، قيل: عشرون درهماً، وقيل: خمسة دراهم، وكانوا غير حريصين على بقاءه معهم، راغبين في التخلص منه بأقل ثمن، وكان بيعه حراماً؛ لأن الحر لا يباع، وهم لا يعلمون منزلته عند الله تعالى، فلا يعلمون أنه سليل الأنبياء، ولا يعلمون أن الله تعالى قد أراد ذلك لما يدخره له في المستقبل القريب، وأنه سيكون أميناً على خزائن مصر، يصرف شؤون الدولة في أحلك أوقاتها أيام المجاعة.

٢١- ﴿وَقَالَ الَّذِي اشْتَرَاهُ مِنْ مِصْرَ لِامْرَأَتِهِ أَكْرِمِي مَثْوَاهُ عَسَىٰ أَنْ يَنْفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ وَلِنُعَلِّمَهُ مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰ أَمْرِهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢١﴾﴾

ولما ذهب المسافرون وأخذوا يوسف معهم إلى مصر، باعته القافلة في سوق مصر السفلى، أي: في مدينة منف أو منفيس، كما يُباع الرقيق، واشتراه (قطفير) وزير خزانة مصر، أو رئيس الشرطة من قبل الملك (الريان بن الوليد) وقال عزيز مصر الذي اشترى يوسف لامراته (زليخا) ويقال لها: راعيل، أكرمي مثواه في إقامته بيننا، وأكرميهِ في المطعم والملبس، عسى أن ينفعنا حين يكبر، أو نتخذه ولداً نستمتع به، وكان عزيز مصر رجلاً حصوراً ليس له ولد، وكما نجينا يوسف من الجب ونجيناه من كيد إخوته، مكنا له في أرض مصر، وجعلناه يتولى شؤون البلاد فيها، وعلمناه تفسير الرؤيا، يعرف منها ما سيقع في المستقبل من الحوادث والأحوال.

وكان يوسف في بيت عزيز مصر يعيش فيه بعز وأمان بعد نجاته من القتل وإخراجه من الجب، وحكم الله نافذ، لا يردّه شيء، ولا يعجزه أمر، فهو سبحانه يفعل ما يشاء، ولا يغلبه شيء، ولكن أكثر الناس لا يعلمون فضل الله تعالى وحكمته.

قال ابن مسعود رضي الله عنه: أفرس الناس ثلاثة:

١- العزيز حين تفرس في يوسف فقال لامرأته: ﴿أَكْرِمِي مَثْوَاهُ عَسَى أَنْ يَنْفَعَنَا أَوْ نَخْذَهُ وَلَدًا﴾.

٢- والمرأة التي أتت موسى فقالت لأبيها: ﴿يَتَأْتِيَ اسْتَجِرَّةً﴾ [القصص: ٢٦].

٣- وأبو بكر حين استخلف عمر^(١).

اضْطِفَاءُ يُوسُفَ عَلَيْهِ السَّلَامُ

٢٢- ﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ ءَاتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ﴾

ولما بلغ يوسف أشده حوالي ثلاثة وثلاثين عامًا، ولم يقل سبحانه: (واستوى) كما قال عن موسى عليه السلام في سورة القصص [١٤] ولعل لفظ (استوى) يفيد تمام الأشد؛ أي: أربعين عامًا، فالآية تشير إلى ما دون ذلك، قال ابن عباس رضي الله عنه: بلغ أشده ثلاثًا وثلاثين سنة^(٢).

والمعنى: أن الله تعالى أعطي يوسف عليه السلام مقدمات النبوة والرسالة والعلم والحكمة، كما قال سبحانه عن نبيه لوط عليه السلام: ﴿وَلَوْطًا ءَاتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا﴾ [الأنبياء: ٧٤] ويوسف أيضًا لما بلغ أشده آتيانه حُكْمًا.

والْحُكْمُ: هو الفصل في القضاء، والعلم: هو التفقه في الدين؛ أي: آتيانه الفقه والعلم والعقل قبل النبوة، وبمثل هذا الجزاء الذي جزيينا به يوسف نجزي به المحسنين.

والمحسن: هو الصابر على النوائب، الذي يُتقن عمله، ويخشى ربه في خلوته وجلوته.

ويستدل بعض أهل العلم على نبوة يوسف بهذه الآية إلى جوار آية سورة غافر ﴿وَلَقَدْ جَاءَكُمْ يُوسُفُ مِنْ قَبْلُ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا زِلْتُمْ فِي شَكٍّ مِمَّا جَاءَكُمْ بِهِ حَتَّى إِذَا هَلَكَ قُلْتُمْ لَنْ يَبْعَثَ اللَّهُ مِنْ بَعْدِهِ رَسُولًا﴾ [غافر: ٣٤] والأظهر أن يوسف قد أعطي النبوة والرسالة وهو في السجن حين دعا مَنْ فيه إلى عبادة الواحد القهار، وعدم الإشراك بالله تعالى.

(١) «تفسير سعيد بن منصور» (١١١٣) وابن سعد (٢٧٣/٣) وابن أبي شيبة (٥٧٤/١٤) والطبراني في «الكبير» (٨٨٢٩) والحاكم (٣٤٥/٢).

(٢) الطبري (٦٧/١٣) وابن أبي حاتم (٢١١٨/٧) والطبراني (٦٨٢٩).

المِخْنَةُ الرَّابِعَةُ: فِتْنَةُ امْرَأَةِ الْعَزِيزِ

٢٣- ﴿وَرَوَدَتْهُ الَّتِي هُوَ فِي بَيْتِهَا عَنْ نَفْسِهِ. وَعَلَّقَتْ الْأَبْيَابَ وَقَالَتْ هَيْتَ ^(١) لَكَ قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ ^(٢) مَثْوَايَ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ ﴿٢٣﴾﴾

ليس المراد من هذه الآية وما بعدها أن قصة امرأة العزيز حدثت ليوسف بعد أن بلغ أشده وبلغ مبلغ الرجال، وآتاه الله العلم والحكمة، فالقرآن لا يأتي بالحوادث مرتبة حسب ترتيبها الزمني ككتب التاريخ، ولكنه كتاب هداية وعبرة وإعجاز، فقد يذكر القرآن قصة لاحقة قبل قصة وقعت بعدها، فلا يلزم أن تكون قصة امرأة العزيز وقعت بعد بلوغ يوسف عليه سن الأشد، فقد علمنا أن يوسف عليه السلام لما نجاه الله تعالى من الجب كان سنه -على أكثر الأقوال- سبعة عشر عامًا، وليس بين خروجه من البئر وبيعه رقيقًا وشراء عزيز مصر له إلا وقت قصير، لا يبلغ أشهرًا.

وقد جاءت هذه الآية بعد أن وصف الله تعالى يوسف عليه السلام بأنه من المحسنين في الآية قبلها، فكانت هذه الآية المبينة لنجاة الله له من كيد امرأة العزيز مكافأة من الله تعالى له على إحسانه، فهي تبين ما حدث ليوسف وهو في منزل العزيز، بعد أن أمر امرأته بإكرام مثواه، وأنها نظرت إليه بعين تخالف العين التي نظر بها إليه زوجها، وأن الله قد حفظه من الوقوع في حبائلها، وهو في ريعان الشباب، وحياة العزوبة، والشهوة العارمة.

فقد طلبت امرأة العزيز من يوسف فعل المنكر، ودعته إلى ذلك بكل رفق ولين، وتوسلت إليه بكل الوسائل؛ ودعته إلى نفسها مع التحايل والإغراء، وقد استعملت امرأة العزيز ألوانًا ثلاثة من دواعي الغواية؛ وهي:

(١) في قوله تعالى (هيت لك) أربع قراءات:

(أ) قرأ نافع وابن ذكوان وأبو جعفر بكسر الهاء وفتح التاء، بينهما ياء مدية، هكذا (هَيْتَ لك).

(ب) وقرأ ابن كثير بفتح الهاء وضم التاء، بينهما ياء ساكنة، هكذا (هَيْتُ لك) تشبيهاً لها.

(ج) وقرأ هشام بكسر الهاء، بعدها همزة ساكنة، مع فتح التاء وضمها، هكذا (هَيْتُ) و (هَيْتُ) على معنى: تهيأ لي أمرك، وتهيأت لك.

(د) وبقية القراء بفتح الهاء وسكون الياء وفتح التاء، هكذا (هَيْتَ لك).

(٢) قرأ نافع وابن كثير وأبو عمرو وأبو جعفر بفتح ياء الاضافة من (ربي أحسن) والباقون بإسكانها.

١- مراودة يوسف عن نفسه (أي: عن عفافه) بأن يُسلم نفسه إليها، ويمكنها مما تريد.

٢- أنها غلّقت الأبواب.

٣- قالت له: لقد أعددت نفسي وتهيأت وترينت لك.

فهذه ثلاثة أنواع من الغواية، ولكن يوسف ﷺ يدرك أن من السبعة الذين يظلمهم الله في ظله يوم لا ظل إلا ظله: شاب نشأ في طاعة الله، ورجل دَعَتْهُ امرأة ذات منصب وجمال فقال: إني أخاف الله^(١).

ويوسف ﷺ شاب نشأ في طاعة الله، وآتاه الله العلم والنبوة، وعَصَمَهُ كما عصم سائر الأنبياء من الوقوع في المعاصي، وقد دَعَتْهُ امرأة حَسَناء ذات منصب وجمال، وهو يَخْذُم في قصرها، وهي تأمره وتنهيه، وليس في وَسْعِهِ إِلَّا أن يطيع أمرها، ومع ذلك فقد توددت إليه كما يتقرب المحب إلى مَنْ يحب، ولكنه أبى وامتنع.

فالمراودة: طَلَبُ برفق ولين ومخادعة، وقد كان يوسف في قَصْرِها سنوات، واكتملت رجولته داخل القصر، وقد أعطاه الله نصف الحُسن، كما صح ذلك عن رسول الله ﷺ في حديث الإسراء والمعراج، حين استفتح جبريل ﷺ السماء الثالثة؛ فوجد النبي ﷺ فيها يوسف ﷺ وقد أعطي شطر الحُسن والجمال.

والقرآن يعلمنا الأدب؛ فيتحاشى ذِكْرَ أسماء النساء تكريماً لهن، وكلما ذاع اسم المرأة وانتشر كان ذلك أمراً غير محمود بالنسبة لها، فإن كانت المرأة من أهل السوء وذاع صيتها بين الناس فإنها تكون أقرب إلى النار.

والقرآن لم يصرح باسم امرأة إلا مريم، وكان ذلك لهدف عظيم؛ لأن النصارى قالوا عن المسيح: عيسى ابن مريم، إنه ابن الله -حاشا لله-.

ومن عادة العرب ألا تَذْكَرَ أسماء نسائهم في مجتمعاتهم أمام الناس؛ ولذا فإن القرآن لم يصرح باسم امرأة العزيز، وعبر عن ذلك بقوله: ﴿الَّتِي هُوَ فِي بَيْتِهَا﴾ أي: تحت

(١) ينظر: حديث أبي هريرة في «صحيح البخاري» برقم (٦٦٠، ١٤٢٣، ٦٤٧٩) و«صحيح مسلم» برقم (١٠٣١).

سلطانها، ثم إنها أحكمت غلق الأبواب، قيل: إن عددها سبع، ثم دعتة إلى نفسها ﴿وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ﴾ بفتح التاء وضمها، أي: هلم وأقبل فقد تجملت وتحسنت وتهيات لك، فماذا كان موقف يوسف عليه السلام؟ ﴿قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ﴾ أعتمصم بالله وألجأ إليه، وأستعين به من الوقوع في الفاحشة.

وكان من الممكن أن تحدث الجريمة، ولا يعرف عنها أحد، ولكن علام الغيوب هو الذي يحكي لنا ما حدث، ويطلعنا على ما خفي علينا، فقد استجار يوسف بربه من خيانة سيده الذي أكرمه وأحسن نزله، فلا يجوز أن يخونه في أهله، فيقابل الإحسان بالإساءة.

قال يوسف: إني أعتمصم بالله تعالى أن يعصمني من الزنى، فإن الله ﷻ قد حفظني وحماني ونجاني من الجب، وأكرمني العزيز في هذا المنزل، وأحسن إقامتي فيه، ويجب علي ألا أخونه؛ لأنه سبحانه لا يفلح الظالمون المتجاوزون الحلال إلى الحرام.

والضمير في ﴿إِنَّهُ﴾ الأولى يعود إلى الله تعالى، ويذكر بعض المفسرين أنه يعود على رب القصر؛ أي: صاحبه، وهو العزيز واسمه (قطفير). أما ضمير ﴿إِنَّهُ﴾ الثانية فيعود على الله تعالى قولاً واحداً.

عَشْرَةُ أدِلَّةٍ عَلَى عِصْمَةِ يُوسُفَ عَلَيْهِ السَّلَامُ

٢٤- ﴿وَلَقَدْ هَمَّتْ يَدُوهُمْ بِهَا لَوْلَا أَنْ رَأَىٰ بُرْهَانَ رَبِّهِ كَذَلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ﴾ (٢) إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ (٣) ﴿٢٤﴾

ولقد مالت نفس امرأة العزيز لفعل الفاحشة بعزم وقصد وتصميم أكيد، واستعدت لذلك بوسائل الإغراء المختلفة، ومالت نفس يوسف بمقتضى الطبيعة البشرية دون عزم ولا قصد، ولولا أن الله تعالى صرفه عن الوقوع في الفاحشة لهم بها؛ فبرهان ربه هو صرفه عن الهم بها؛ ليدفع عنه السوء والفاحشة، فيوسف من عباد الله الذين طهرهم ربهم

(١) أمال الرء والهمزة من (رأى) ابن ذكوان وشعبة وحمزة والكسائي وخلف، وقللها ورش، وأمال أبو عمرو الهمزة فقط.

(٢) قرأ نافع وابن كثير وأبو عمرو وأبو جعفر ورويس بتسهيل الهمزة الثانية من (الفحشاء إنه) والباقون بتحقيقها.

(٣) قرأ ابن كثير وأبو عمرو وابن عامر ويعقوب بكسر لام (المخلصين) اسم فاعل. والباقون بفتحها اسم مفعول.

واصطفاهم لرسالتهم، وأخلصهم لطاعته وتوحيده، فكانوا مخلصين لله في كل أمورهم، ومن ذلك عدم الإقدام على المعصية؛ لعصمتهم وحفظ الله لهم.

وقد وضح القرآن الكريم براءة يوسف عليه السلام من الوقوع في الهمّ بمثل ما همّت به المرأة، فذكر شهادة كل من له تعلق ببراءته عليه السلام، وفوق ذلك شهادة رب العالمين ببراءته.

أما من لهم تعلق ببراءة يوسف فهم: يوسف نفسه، وامرأة العزيز، وزوجها، ونسوة المدينة، والشهود.

وأما شهادة رب العالمين ببراءة يوسف عليه السلام، ففي قوله عز وجل: ﴿كَذَلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ إِنَّكُمْ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ﴾ فقد شهد الله له:

أولاً: بأنه صرف عنه السوء.

ثالثاً: شهد له أنه من عباده.

ف هذه أربع شهادات من رب العالمين بنفي التهمة عن يوسف.

وقد جزم يوسف بأنه بريء من تلك المعصية في قوله: ﴿هِيَ زَوَدَتْنِي عَنْ نَفْسِي﴾. وقوله: ﴿رَبِّ أَلَيْسَ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ﴾.

أما شهادة زوجها فقد جاءت في قوله لزوجته: ﴿إِنَّكُمْ مِنْ كَيْدِكُنَّ إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ﴾.

أما اعتراف المرأة بذلك ففي قولها للنسوة: ﴿وَلَقَدْ زَوَدْتُهُ عَنْ نَفْسِهِ فَاسْتَعْصَمَ﴾. وقولها: ﴿أَلَكُنْ حَصَصَ الْحَقُّ أَنَا زَوَدْتُهُ عَنْ نَفْسِهِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ﴾.

وفي شهادة نسوة المدينة ببراءته فقد قالوا: ﴿مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِنْ سُوءٍ﴾.

أما شاهد يوسف أو اعتراف زوجها، ففي قوله تعالى: ﴿وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنْ أَهْلِهَا إِنْ كَانَ قَمِيصُهُ قُدَّ مِنْ قُبُلٍ فَصَدَقَتْ وَهُوَ مِنَ الْكَاذِبِينَ﴾^(١).

وهذه عشرة أدلة على عصمة يوسف عليه السلام وعدم العزم على مطاوعته للمرأة:

الأول: امتناعه الشديد ووقوفه في مواجهة امرأة العزيز بكل عزم وصلابة ﴿قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ إِنَّهُمْ رَبِّي أَحْسَنَ مَوَاطِنَ﴾.

(١) ينظر: «تفسير الفخر الرازي» (١١٦/١٨) و«أضواء البيان» للشيخ الشنقيطي في تفسير الآية.

الثاني: فراره منها بعد أن غلقت الأبواب وشددت عليه الحصار ﴿وَأَسْتَبَقَا الْبَابَ وَقَدَّتْ قَمِيصَهُ مِنْ دُبُرٍ﴾.

الثالث: إيثاره السجن على اقرار الفاحشة ﴿قَالَ رَبِّ السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ﴾.

الرابع: شهادة الله تعالى بأنه بريء عن الهمم بالفاحشة في قوله تعالى: ﴿ءَايَتُهُ حُكْمًا وَعِلْمًا﴾ وقوله: ﴿كَذَلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ إِنَّهُمْ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ﴾.

الخامس: شهادة الطفل الذي أنطقه الله تعالى وهو في المهد ببراءة يوسف ﷺ في قوله تعالى: ﴿وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنْ أَهْلِهَا﴾.

السادس: اعتراف امرأة العزيز ببراءة يوسف وعفته، والاعتراف سيد الأدلة؛ حيث قالت: ﴿قَالَتْ فَذَلِكُنَّ الَّذِي لُمْتُنَنِي فِيهِ وَلَقَدْ زودتُهُ عَنْ نَفْسِهِ فَاسْتَعَصَمَ﴾.

السابع: استغاثته بربه؛ لينجيه من كيد النساء ﴿فَاسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُ فَصَرَفَ عَنْهُ كَيْدَهُنَّ﴾.

الثامن: إدخال يوسف السجن؛ لدفع كلام الناس عن امرأة العزيز ﴿ثُمَّ بَدَأَ لَهُمْ مِنْ بَعْدِ مَا رَأَوُا الْآيَاتِ لِيَسْجُنُوهُ حَتَّىٰ حِينٍ ﴿٢٥﴾﴾.

التاسع: عدم قبوله الخروج من السجن إلا بعد ظهور براءته من التهمة ﴿قَالَ أَرْجِعْ إِلَىٰ رَبِّكَ فَسَأَلَهُ مَا بَأَلُ النِّسْوَةِ الَّتِي قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ إِنَّ رَبِّي بِكَيْدِهِنَّ عَلِيمٌ﴾.

العاشر: الاعتراف الصريح من امرأة العزيز ببراءة يوسف ﷺ ﴿قَالَتِ امْرَأَتُ الْعَزِيزِ الْقَنَ حَصَّصَ الْحَقُّ أَنَا زودتُهُ عَنْ نَفْسِهِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ﴾^(١).

وكل دليل من هذه الأدلة كافٍ في نفي التهمة عن يوسف وتبرئة ساحته من الهمم بالمرأة.

هذا: وهم امرأة العزيز كان همًا بمعصية مقرونًا بالقصد والعزم على الفعل، أما هم يوسف ﷺ فقد كان مجرد خاطرة دون عزم ولا قصد، كما تميل نفس الصائم إلى الماء في الحر الشديد، ولكن دينه يمنعه من الشرب؛ لأن دينه لا يسمح له بذلك؛ نظرًا لما غرسه الله في قلبه من تحريم ذلك، وهذا هو البرهان الذي حال بين يوسف وبين الوقوع في المحرم.

(١) ينظر: تفسير الآية للشيخ محمد علي الصابوني في «صفوة التفاسير».

مراحل الهم: والهمُّ: هو المقاربة من الفعل من غير وقوع فيه، وهو على أربع مراحل: المرحلة الأولى: تبدأ بخاطرة القلب، مجرد خاطر دون قصد ولا هم، وهذه المرحلة لا يؤاخذ عليها العبد.

المرحلة الثانية: مرحلة حديث النفس يقال: همَّ فلان؛ أي: حدَّث في فكره وخاطره وقلبه، ومن هذا القبيل ما جاء في الصحيحين عن ابن عباس رضي الله عنهما عن رسول الله ﷺ فيما يرويه عن ربه عز وجل أنه قال: «إن الله كتب الحسنات والسيئات، ثم بيَّن ذلك، فمن همَّ بحسنة فلم يعملها كتبها الله له عنده حسنة كاملة، وإن همَّ بها فعلها كتبها الله عز وجل عنده عشر حسنات إلى سبع مئة ضعف، إلى أضعاف كثيرة، وإن همَّ بسيئة فلم يعملها كتبها الله له عنده حسنة كاملة، وإن همَّ بها فعلها كتبها الله سيئة واحدة»^(١).

زاد في رواية: «ومحاهها الله، ولن يهلك على الله إلا هالك»^(٢).

وقوله تعالى: ﴿وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَىٰ ۖ فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَىٰ﴾ [النازعات].

المرحلة الثالثة: مرحلة القصد والهم والعزم دون وقوع الفعل.

المرحلة الرابعة: مرحلة الإصرار والفعل.

وهمُّ يوسف عليه السلام هو أول هذه المراحل، فقد فكَّر في أمر المرأة وشأنها.

أما همُّ المرأة زوجة العزيز: فهو الإصرار والفعل وإرادة وقوع الفاحشة، وهو آخر المراحل.

فالهمُّ يبدأ بخاطرة القلب، ثم حديث النفس، ثم العزم، ثم الفعل أو الترك، وهمُّ الخاطر لا مؤاخذه عليه، وهمُّ الفعل يُؤاخذ عليه العبد، ومن همَّ بسيئة فلم يعملها كتبت له حسنة.

معنى البرهان: ويوسف عليه السلام فكَّر في أمر المرأة، ولولا أنه رأى برهان ربه لهمَّ بها، ولكنه وجد برهان ربه فلم يهمَّ بها، فالهم منفي لرؤية البرهان، وهو آية من ربه حالت بينه وبين القصد والعزم، والهم بالسيئة مع عدم الوقوع فيها لا ينافي عصمة الأنبياء، وهذا البرهان هو ما آتاه الله من الحكم والعلم، ومعرفته بالحلال والحرام، وأن الزنى حرام.

(١) هذا لفظ مسلم برقم (١٣١) وأخرجه البخاري برقم (٦٤٩١).

(٢) «صحيح مسلم» برقم (١٣١).

- ١- فوازع التقوى في نفس يوسف، هو الذي حال بينه وبين الفاحشة.
 - ٢- والبرهان -أيضاً- هو الحُجَّة والعصمة التي حالت بينه وبين أن يتنقل هذا الهم من مرحلة الخاطرة إلى مرحلة الفعل.
 - ٣- ويقال: إن يعقوب عليه السلام قد تجلَّى ليوسف وظهر له في صورته، عاضاً على إصبعه محدراً له، أو إنه: ضربه في صدره وخرجت شهوته من أنامله.
 - ٤- أو إنَّ امرأة العزيز سترت صنماً لها بثوب، حينما غلّقت الأبواب؛ حتى لا يراه يوسف، فيستحي منه - على حد زعمها - فقال يوسف: أنا أحق أن أستحيي من ربي؛ فهرب منها.
 - ٥- أو إنَّ جبريل عليه السلام تمثّل ليوسف؛ فزجره ونهاه.
 - ٦- أو إنه قرأ في سقف البيت (ولا تقربوا الزنى) وغير ذلك مما ذكره بعض المفسرين، وهو من الإسرائيليات التي لم يثبت فيها خبر صحيح.
- والصحيح أن البرهان الذي رآه يوسف هو علمه بتحريم الزنى، وعصمة الله له من الوقوع في الفاحشة، وما آتاه الله من الحكم والنبوة، بدليل قول الله تعالى: ﴿كَذَلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ﴾
- والفحشاء: هو الزنى، والسوء: هو مقدمات الزنى.
- ويوسف من الذين أخلصوا لربهم، أو الذين أخلصهم الله له واجتباهم.
- وبعض المفسرين يقول: إن يوسف همَّ بضربها، وهذا بعيد شيئاً ما عن الحقيقة، ولسنا في حاجة إليه، فإن امرأة العزيز قد شهدت واعترفت بأن يوسف امتنع عنها وأبى الفاحشة فقالت: ﴿وَلَقَدْ زَوَدْتُهُ عَنْ نَفْسِهِ فَاسْتَعَصَمَ﴾ وقالت: ﴿أَنَا زَوَدْتُهُ عَنْ نَفْسِهِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ﴾ كما شهدت النسوة اللاتي قطعن أيديهن وقلن: ﴿حَسْبُ لِلَّهِ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِنْ سُوءٍ﴾.
- وقد كان المانع ليوسف من إجابتها: تقوى الله تعالى، وبرهان الإيمان الذي في قلبه، وهو يقتضى امثال الأوامر واجتناب النواهي، وهو من عباد الله الذين أخلصهم الله له واختارهم، فكان مخلصاً لله في طاعته، وصان نفسه من الظلم، وراعي حق سيده.

شَقُّ الْقَمِيصِ مِنْ خَلْفٍ

٢٥- ﴿وَاسْتَبَقَا الْبَابَ وَقَدَّتْ قَمِيصُهُ مِنْ دُبُرٍ وَأَلْفَيَا سَيِّدَهَا لَدَا الْبَابِ قَالَتْ مَا جَزَاءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوءًا إِلَّا أَنْ يُسْجَنَ أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٥﴾﴾

لقد هَمَّت امرأة العزيز بيوسف تريد الفاحشة، وهمَّ يوسف بالفرار منها متوجهاً نحو الباب؛ للهرب منها، ولحققت به امرأة العزيز، فشددته وجذبت قميصه من خلف؛ لتحول بينه وبين الخروج؛ فشقت القميص من خلف، فهي طالبة وهو مطلوب، والذي يطلب الآخر يجره من الخلف؛ ولذا قدَّت قميصه من الخلف حين استبقا الباب؛ حيث أسرع هو إلى الخروج، وأسرعت هي للإمساك به.

ووجدا سيدها عند الباب الذي تسابقا للوصول إليه، وسيدها -في اللغة المصرية القديمة- هو زوجها، أو أن القرآن قال: سيدها، ولم يقل: سيده؛ لأن يوسف لم يكن رقيقاً ولم يكن مملوكاً للعزيز على وجه الحقيقة، ولم يستطع العزيز أن يدخل؛ لأن الباب كان مغلقاً، ولما فوجئت به امرأة العزيز أرادت أن تنفي التهمة عن نفسها، فقالت: ماجزاء مَنْ أراد بامراتك فاحشة إلا أن يسجن أو يعذب العذاب المؤلم؟ فحددت العقوبة بأحد أمرين: إما أن يسجن، وإما أن يُضرب ويؤدب، وهكذا انقلب الظالم مظلوماً، والبريء متهماً كما يقول المثل: (ضربني وبكى وسبقني واشتكى) لقد أرادت أن تنتقم من يوسف لما لم تنل مرادها منه.

شَاهِدُ يُوسُفَ

٢٦، ٢٧- ﴿قَالَ هِيَ رَوَدَّتْنِي عَنْ نَفْسِي وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنْ أَهْلِهَا إِن كَانَ قَمِيصُهُ قُدَّ مِنْ قُبُلٍ فَصَدَقَتْ وَهُوَ مِنَ الْكَاذِبِينَ ﴿٢٦﴾ وَإِنْ كَانَ قَمِيصُهُ قُدَّ مِنْ دُبُرٍ فَكَذَبَتْ وَهُوَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾

ولم يكن ليوسف أن يتحدث عن هذه القصة لولا اتهام امرأة العزيز له، فكان لا بُدَّ له أن ينفي التهمة عن نفسه، قال يوسف: ﴿هِيَ رَوَدَّتْنِي عَنْ نَفْسِي﴾ أي: هي التي طلبت مني الفاحشة، فشهد صبي في المهد من أهلها أو شهد شاهد من أهل بيتها: إن كان قميصه شق من الأمام فصدقت في اتهامها له وهو من الكاذبين، وإن كان ثوبه قد شق من الوراها فهي كاذبة وهو صادق؛ لأن المنطق يقضي بشق الثوب من الخلف إن كانت هي الطالبة له

وهو الهارب منها، لقد قيص الله ليوسف مَن يشهد ببراءته من أهلها، ولو كان يوسف غير واثق ببراءة نفسه ما استطاع أن يواجه المرأة في حضرة زوجها، ولو لم تبادر هي بتلك التهمة أمام زوجها؛ لاستحى يوسف أن يقول ما قال، لكنها كانت البادئة.

قيل: وكان مع العزيز وهو عند الباب مستشار الملك، وهو ابن عم أو ابن خال للمرأة، وكان رجلاً حكيماً، فشهد بالحكم الذي يفصل في القضية، قال: إن كان قميصه قُذِّ من أمام، فمعنى ذلك: أنه هو الذي كان يطلبها، وإن كان قميصه قُذِّ من الخلف، فمعناه: أنها هي التي كانت تطلبه، وكون الشاهد من أهلها أوجب، لإقامة الحجة عليها، وأوثق لبراءة يوسف، وأنفى للتهمة.

وشهادة الشاهد تصلح أساساً للتحقيقات الجنائية التي تكشف عن الحقائق، وتأخذ بالقرائن، وتبين وجه الصواب في المسألة، والظاهر أن الشاهد كان يظن صدق المرأة، فأراد أن يقيم دليلاً على صدقها؛ فوقع عكس ذلك؛ كرامة ليوسف ﷺ.

وهذا الشاهد المذكور في الآية قيل: هو ابن عمها، كان رجلاً حكيماً^(١) وكان واقفاً مع العزيز عند الباب، وهو رجل كبير، وقيل: كان صبيّاً في المهد، فأنطقه الله تعالى.

واستدلوا على ذلك بحديث ابن عباس: «تكلم أربعة وهم صغار: ابن ماشطة فرعون، وشاهد يوسف، وصاحب جريج، وعيسى ابن مريم»^(٢).

وهذا الحديث مُخَرَّج في الصحيحين دون ذكر شاهد يوسف.

وكان الشاهد من أهل المرأة؛ ليكون أقوى في نفي التهمة عن يوسف، مع وجود القرائن الأخرى؛ كتزيين المرأة لنفسها، وتغليقها للأبواب، وكون يوسف في قصرها مملوكاً لها، وقُذِّ القميص من الخلف، مما يدل على هروبه منها وطلبها له.

(١) قاله زيد بن أسلم وقتادة، ابن أبي حاتم (٢١٢٩/٧) والطبري (١٠٩/١٣).

(٢) رواه أحمد في «المسند» (٣١٠/١) برقم (٢٨٢١، ٢٨٢٢) بإسناد حسن، والطبراني (١٢٢٨٠) عن عبد الله بن أحمد عن أبيه وابن حبان (٢٩٠٣)، والبيهقي في «الدلائل» (٣٨٩/٢) والحاكم في «المستدرک» (٤٩٦/٢) من طريق حماد بن سلمة، وصححه الحاكم ووافقه الذهبي، ورواه الطبري (٥٥/١٦) عن أبي هريرة موقوفاً، والقول بهذا أولى لوجود دليل عليه، وبه قال جمع من الصحابة والتابعين.

مَوْقِفُ الْعَزِيزِ

٢٨- ﴿فَلَمَّا رَأَىٰ قَيْصَهُمْ قَدْ مِنْ دُبُرٍ قَالَ إِنَّهُ مِنْ كَيْدِكُنَّ إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ ﴿٢٨﴾﴾

فلما رأى الزوج بنفسه أن الثوب قد شق من الخلف؛ ظهرت له براءة يوسف، واكتفى بلوم المرأة على ما حدث منها، وأن ادّعاءها عليه من كيد النساء، فقال لها: إن هذا الكذب الذي اتهمت به هذا الشاب هو من جملة مكركن -أيتهن النساء- إن مكركن عظيم، وهو أعظم من كيد الرجال، وأعظم من كيد الشيطان، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ كَيْدَ الشَّيْطَانِ كَانَ ضَعِيفًا﴾ [النساء: ٧٦] وذلك لأن الشيطان يكيد للإنسان ويوسوس له في الخفاء، ويمكنه أن يتغلب عليه بقوة الإيمان، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ﴾ [الإسراء: ٦٥] وقال: ﴿إِنَّهُمْ لَيْسَ لَكَ سُلْطَانٌ عَلَى الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٩٩﴾﴾ إِنَّمَا سُلْطَانُكَ عَلَى الَّذِينَ يَتَوَلَّوْهُ وَالَّذِينَ هُمْ بِكُمْ مُّشْرِكُونَ ﴿١٠٠﴾﴾ [النحل].

أما المرأة فإنها إذا تعرضت للرجل بوسائل الإغراء تسلب عقله فتغلبه، حيث يكون الشيطان معها؛ فيسوّل لها المعصية، وينفخ أوداجها، ويغريها بلذة الفاحشة؛ ولذا فإن النساء حبايل الشيطان، والمرأة تكيد للرجل وهي ماثلة أمامه تتفنن في إغوائه وإغرائه، وإن قرأ عليها آية الكرسي أو حتى القرآن كله لا تنصرف، ما دامت لا تخاف الله تعالى، أما الشيطان فإنه يخنس عند ذكر الله تعالى، وينصرف عند قراءة آية الكرسي والاستعاذة بالله منه.

٢٩- ﴿يُوسُفُ أَعْرِضْ عَنْ هَذَا وَاسْتَغْفِرِي لِذَنبِكِ إِنَّكِ كُنتِ مِنَ الْخَاطِئِينَ ﴿٢٩﴾﴾

ويبدو أن العزيز كان رجلاً قليل الغيرة، فقد طلب من يوسف الستر وعدم ذكر هذا الحديث؛ حتى لا ينتشر ويشيع بين الناس، واكتفى بأن طلب من المرأة الاستغفار والتوبة، مما ألمّت به من الإثم والخطيئة ورمت به يوسف، وقد يكون الرجل مولعاً بحب المرأة وهو سهل لين العريكة، ولا يريد أن يغضبها كما هو الشأن في المجتمع الغربي، يقابل الفضائح الجنسية بالبرود والرخاوة، ولم يتخذ العزيز قراراً بإبعاد يوسف عن قصره، وهذا شأن أهل الطبقات المترفة، وقيل: إن هذا من كلام الشاهد.

(١) قرأ أبو جعفر بحذف الهمزة من (الخاطئين) ومثله حمزة في الوقف عليها.

هذا: والمتأمل في قصة امرأة العزيز يجد أن الخلوة بين الرجل والمرأة هي السبب فيما حدث، سواء أكانت الخلوة بالسائق، أو بالحارس، أو بالخادم، أو بالعامل، أو بأخي الزوج أو زوج الأخت، أو بابن العم أو ابن العمّة، أو ابن الخال، أو ابن الخالة، أو المدرس، أو زميل العمل أو زميل الدراسة، أو ابن الجيران، ونحو ذلك، ولذلك فقد حرم الإسلام الخلوة بالأجنبية ولو كانت أمة سوداء؛ سدًا لباب وقوع الفتنة، ومنعًا من تهيئة الوسائل للوقوع في الفاحشة والاقتراب منها.

وفي حديث عقبة بن عامر رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «إياكم والدخول على النساء» فقال رجل من الأنصار: أفرأيت الحموي يا رسول الله؟ قال: «الحموي الموت»^(١) والحموي هو قريب الزوج كأخيه وابن عمه.

وسئلت امرأة عن سبب انحرافها فقالت: قُرب الوساد، وطول السواد؛

أي: حملني على ذلك قربي ممن أحبه، وكثرة محادثتي له، وخلوتي به.

وينبغي على المسلم إذا همَّ بفعل معصية أن يبادر بكف النفس عن الوقوع فيها، كما في حديث السبعة الذين يظلهم الله في ظله يوم لا ظل إلا ظله، وحديث الثلاثة الذين آواهم الغار؛ ففرج الله عنهم ما هم فيه، ومنهم الذي قام عن المرأة؛ خوفًا من الله تعالى بعد أن قعد بين شعبها الأربع.

وعن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «قالت الملائكة: يا ربنا، ذلك عبدك يريد أن يعمل سيئة -وهو تعالى أبصر به- فقال: ارقبوه، فإن عملها فاكتبوها له بمثلها، وإن تركها فاكتبوها له حسنة، إنما تركها من جرّاي»^(٢).

وفي حديث أبي هريرة أيضًا أن النبي ﷺ قال: «إن الله تجاوز لأمتي عما حدثت به أنفسها ما لم تعمل أو تتكلم»^(٣).

(١) «صحيح البخاري» برقم (٥٢٣٢) و«صحيح مسلم» برقم (٢١٧٢).

(٢) «صحيح البخاري» برقم (٤٢) و«صحيح مسلم» برقم (١٢٩).

(٣) «صحيح البخاري» برقم (٢٥٢٨) و«صحيح مسلم» برقم (١٢٧).

شُيُوعُ خَبَرِ امْرَأَةِ الْعَزِيزِ بَيْنَ نِسَاءِ الطَّبَقَةِ الْمُتَرَفَةِ

٣٠- ﴿وَقَالَ نِسْوَةٌ فِي الْمَدِينَةِ امْرَأَتُ الْعَزِيزِ تُرَاوِدُ فَتْلَهَا عَنْ نَفْسِهِ قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا إِنَّا لَنَرَاهَا فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾ (٣٠)

قيل: إن امرأة العزيز باحت بالسر لبعض خليلاتها، وكأنها أرادت التشاور معهن، أو أرادت الارتياح بالحديث إليهن، فإن من أحب شيئاً أكثر من ذكره؛ ولذا فشا الخبر وانتشر بين نسوة العاصمة المصرية، فتحدثن به، وأنكرن على امرأة العزيز أنها تحاول أن توقع يوسف في غرامها، وهي صاحبة مكانة عالية ومنزلة رفيعة، ولا يليق بها أن تدعوه لنفسها، إنها لفي ضلال بين وأمر مستقبح.

ويصرح القرآن الكريم لأول مرة في مطلع الربع الثاني أن امرأة العزيز هي التي راودت يوسف عن نفسه، وأن الخبر قد شاع في مصر، وأخذت النسوة تتحدث عنه، وهؤلاء النسوة قيل: كُنَّ خمساً: امرأة ساقى الملك، وامرأة خبازه، وامرأة الحاجب، وامرأة صاحب الدواب، وامرأة صاحب السجن.

وقيل: إن عدد النسوة كان أربعين امرأة، من أشرف المدينة، وعاصمة مصر آنذاك كانت منطقة (عين شمس) حيث كان يقيم العزيز، وانتشر بين النسوة أن امرأة العزيز قد ملأ شغاف قلبها (أي: غلافه) حب يوسف ﷺ، وتعلق شغاف قلبها به، فهي تراوده عن نفسه، وهو يمتنع عنها، إنا لنراها في هذا الفعل لفي ضلال واضح، فاللائق بها أن تكون في عزة وعفة.

قال سفيان: الشغاف جلدة رقيقة بيضاء تكون على القلب، وحب يوسف خرق ذلك الجلد حتى وصل إلى القلب^(٢).

وفي حديث أنس أن النبي ﷺ قال: «أُعطي يوسف وأمه شطر الحُسن»^(٣).

(١) وقف ابن كثير وأبو عمرو والكسائي ويعقوب على (امرأة) بالهاء، وهي لغة قريش، ووقف الباقون بالتاء، وهي لغة طيء، وأمالها الكسائي وقفاً، وهي مرسومة في المصحف بالتاء المفتوحة.

(٢) ابن أبي حاتم (٢١٣١/٧).

(٣) «المسند» (١٤٠٥٠) قال محققوه: إسناده صحيح على شرط مسلم، وأخرجه الحاكم (٥٧٠/٢) والطبري (١٣٦/١٣) وابن أبي حاتم (٢١٣٦/٧).

وقال محمد العبداني: قال رجل ليوسف: إني أحبك، فقال له يوسف: لا أريد أن يحبني أحد غير الله، من حب أبي أُلقيتُ في الجبِّ، ومن حب امرأة العزيز أُلقيتُ في السجن^(١).

اعتراف امرأة العزيز في مجلس النسوة

٣١- ﴿فَلَمَّا سَمِعَتْ بِمَكْرِهِنَّ أَرْسَلَتْ إِلَيْهِنَّ وَأَعْتَدَتْ لَهُنَّ مُتَّكَأً^(٢) وَآتَتْ كُلَّ وَاحِدَةٍ مِّنْهُنَّ سِكِّينًا وَقَالَتِ^(٣) أَخْرِجْ عَلَيَّ فَلَمَّا رَأَيْتَهُ أَكْبَرْتُهُ وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ وَقُلْنَ حَاشَ^(٤) لِلَّهِ مَا هَذَا بَشَرًا إِنْ هَذَا إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ﴾

فلما سمعت امرأة العزيز بهذه المقولة التي تنال من شرفها في غيبتها؛ أرسلت إلى النسوة تدعوهن لزيارتها وأعدت لهن مجلساً، ووسائد يتكئن عليها، وقدمت لهن الطعام والفاكهة، وفيها ما يُقطع بالسكين، وكان الأكل بالسكين من عاداتهن عند أكل اللحم والفواكه في المجتمع المصري المترف، وسمي حديث النسوة مكرًا؛ لأنه كان خفية فيما بينهن، ولأنهن أردن أن يتوصلن بكلامهن إلى رؤية يوسف الذي افتتنت به امرأة العزيز، حتى تغضب وتريهن إياه فيعذرنها، وسمى هذا مكرًا وتحايلاً.

وكانت امرأة العزيز قد وصفت يوسف لهن، فطلبن رؤيته؛ فأرادت أن تلمس نفسها عذراً عندهن في حبه، فأعدته للقائهن ﴿وَقَالَتْ أَخْرِجْ عَلَيَّ﴾ وكان لا يستطيع مخالفتها، فهو في قصرها وتحت سلطانها ﴿فَلَمَّا رَأَيْتَهُ أَكْبَرْتُهُ﴾ أي: أعظمته وأجللته، وأخذهن حسنه وجماله وجرحن أصابعهن بالسكين وهن يقطعن الطعام من فرط الدهشة والذهول ﴿وَقُلْنَ﴾ متعجبات ﴿حَاشَ لِلَّهِ﴾ أي: معاذ الله أن يكون هذا بشراً، فقد أُعطي يوسف عليه السلام من الجمال الباهر ما كان آية للناظرين.

ولفظ ﴿حَاشَ﴾ كلمة عربية تقال عند التبرئة من الشر، وتدل على المباحدة بين الإنسان والفعل المنسوب إليه، وقلن أيضاً ﴿مَا هَذَا بَشَرًا﴾ ليس هذا من جنس البشر، فجماله غير

(١) ابن أبي حاتم (٧/٢١٣٢).

(٢) قرأ أبو جعفر بحذف همزة (متكأ) والنطق بكاف منصوبة منونة بعد التاء، وإذا وقف يبدل التنوين ألفاً، وسهلها حمزة عند الوقف.

(٣) قرأ أبو عمرو وعاصم ويعقوب بكسر التنوين وصلًا من (وقالت اخرج) والباقون بالضم.

(٤) قرأ أبو عمرو بألف بعد الشين وصلًا من (حاش) وحذفها وقفًا والباقون بحذف الألف في الوصل والوقف.

معهود في بني آدم ﴿إِنَّ هَذَا إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ﴾ من ملائكة الله الكرام، وهذا تنزيه ليوسف عن صفات البشر في نظرهم، وبهذا فإن امرأة العزيز قد نجحت في كسب أصوات النسوة لصالحها وإعذارها فيما أقدمت عليه، وكان في تصرفها إثبات الحسن والجمال المفرط ليوسف.

٣٢- ﴿قَالَتْ فَذَلِكُنَّ الَّذِي لُمْتُنَنِي فِيهِ وَلَقَدْ زودتُهُ عَنْ نَفْسِهِ فَاسْتَعْصَمَ وَلَئِنْ لَمْ يَفْعَلْ مَا ءَامُرُهُ لَيَسْجَنَنَّ وَلَيَكُونَا مِنَ الصَّاغِرِينَ﴾ (٣٢)

وعندئذ قالت امرأة العزيز للنسوة اللاتي قطعن أيديهن، مصرحة بما في نفسها من حب يوسف، بعد أن اشتركت النسوة معها في حبه، وشعرت بانتصارها عليهن: ﴿فَذَلِكُنَّ الَّذِي لُمْتُنَنِي فِيهِ﴾ قالت ذلك بصوت مرتفع صريح دون استحياء ولا تلميح، والاعتراف بالجريمة أمر فاضح، فهو مجاهرة بمعصية الله.

وفي الحديث عن أبي هريرة ؓ أن النبي ﷺ قال: «كل أمتي معافي إلا المجاهرين، وإن من المجاهرة أن يعمل الرجل بالليل عملاً، ثم يصبح وقد ستره الله، فيقول: يا فلان، عملت البارحة كذا وكذا، وقد بات يستره ربه، ويصبح يكشف ستر الله عنه»^(١).

فالمجاهر بالمعصية يكشف اللثام عن وجهه، ولو ستر نفسه لستره الله، والله تعالى يأمر بالستر ما لم يصل الأمر إلى الحاكم، والذين ينشرون الفضائح في وسائل الإعلام، على مرأى ومسمع من العالم يتوعدهم رب العالمين بقوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُحِبُّونَ أَنْ تَشِيعَ الْفَاحِشَةُ فِي الَّذِينَ ءَامَنُوا لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [النور: ١٩].

وهذه امرأة العزيز تقول للنسوة: هذا الذي رأيتموه هو الذي لمتني في حبه والافتتان به، ثم صارحتهن بالأمر؛ فأعلنت أمامهن أنها أغرته بمواقعتها فلم يستجب وأبى إباء شديداً، قالت امرأة العزيز: ﴿وَلَقَدْ زودتُهُ عَنْ نَفْسِهِ فَاسْتَعْصَمَ﴾ امتنع بشدة، وطلب العصمة لنفسه.

وقد صرحت بذلك لما علمت عدم الملامة عليها من النسوة، ولما شعرت امرأة العزيز أن نسوة العاصمة المصرية قد عذرنها في شغفها بيوسف واشتركن معها في التعلق به، عندئذ أصرّت على التماادي في الباطل، وتجرات على مراودته مرة أخرى بمحضر من النسوة؛ فهتكت جلباب الحياء، وتوعدته بالسجن إن لم يفعل، وبعد أن كان الأمر سرّاً

(١) «صحيح البخاري» برقم (٦٠٦٩) واللفظ له، و«صحيح مسلم» برقم (٢٩٩٠).

بينها وبينه، أصبح جهاراً نهاراً، دون أن تخشى لوماً ولا مقالاً، فقالت: ﴿وَلَيْنَ لَمْ يَفْعَلْ مَا ءَامُرُهُ لَيُسْجَنَنَّ﴾ أي: ولئن لم يطاوعني فيما أريده منه ليعاقبَنَّ بالسجن والحبس ﴿وَلَيَكُونَنَّ مِنَ الصَّغِيرِينَ﴾ الأذلاء المهانين، فأنا سيدته الآمرة الناهية، ولا بُدَّ له أن يطيع أمري، وعندئذ اعتصم يوسف بربه ولجأ إليه:

هذا: والوقف على ﴿وَلَيَكُونَنَّ﴾ حسب الرسم، بإبدال التنوين ألفاً.

يُوسُفُ يَلْجَأُ إِلَى رَبِّهِ كَيْ يَصْرِفَ عَنْهُ النِّسْوَةَ

٣٣- ﴿قَالَ رَبِّ السِّجْنُ^(١) أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُنَّ مِنَ الْجَاهِلِينَ﴾

ورد أن امرأة العزيز لما توعدت يوسف بالحبس والإذلال قالت له النسوة: أطلع مولاتك، وافعل ما أمرتك به؛ ولذلك نسب يوسف بطلب الفاحشة إليهن جميعاً في قوله: ﴿قَالَ رَبِّ السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ﴾ فلم ينسب الدعوة إلى امرأة العزيز وحدها، بل نسبها إلى الجميع.

لقد أحب يوسف السجن مع ما فيه من الألم والشدة وضيق النفس على ما يدعونه إليه من الاستمتاع ولذة الشهوة، ولما علم أنه إما أن يفعل الحرام وإما أن يُسجن، كان السجن أحب إليه من طلب النسوة؛ لأن فيه الخلاص من الحرام، وهذا موقف رجل أعده الله لأن يكون نبياً، فهو يُؤثِّرُ شظف العيش، وخشونة الفراش، وعذاب النفس على معصية الله تعالى، ويقول بلسان حاله: إذا كانت امرأة العزيز تملك سجني وعذاب جسدي، فإنها لا تملك ديني ولا خلقي ولا روحي.

ثم فزع يوسف إلى ربه في هذا الوقت العصيب، ولجأ إليه في وقت اشتدت فيه الفتنة، واستفحل فيه أمر النسوة، وتغلب فيه حزب الشيطان؛ فطلب منه أن يكشف عنه هذه الغمة، وينجّيه من كيد النسوة، وجدير بمن دعا ربه في وقت الشدة أن يخلّصه من محنته، وينقذه من فتنته، ويجيب دعوته، لقد دعا يوسف ربه وسأله أن يصرف عنه كيد النسوة

(١) قرأ يعقوب بفتح السين من لفظ (السجن) في هذه الآية خاصة على أنه مصدر أريد به الحبس، والباقون بكسرها على أن المراد به المكان، ولفظ (أحب) ليس تفضيل؛ لأن يوسف عليه السلام لم يحب ما يدعونه إليه قط.

فقال: ﴿وَلَا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْنَ﴾ أي: أَمِلْ إِلَى ما يدعونني إليه، فالعصمة منك يا رب، وأنت الحافظ، وإلا كنت من السفهاء الذين يرتكبون الإثم؛ لجهلهم بحق ربهم.

٣٤- ﴿فَاسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ فَصَرَفَ عَنْهُمْ كَيْدَهُنَّ إِنَّهُمْ هُمُ السَّاعِيَةُ ۖ وَالْعَلِيمُ ۝٣٤﴾

وقد استجاب الله تعالى لدعاء يوسف؛ لأنه دعاء خرج من قلب مظلوم، والله تعالى يجيب دعوة المظلومين؛ فصرف عنه كيد امرأة العزيز وصواحباتها من الوقوع في معصية الله ونجّاه من مكرهن، وأدخل اليأس في قلوبهن من الطمع فيه، وهو سبحانه السميع لدعاء كل من دعاه، العليم بحاجة جميع خلقه وما يصلحهم.

المِخْنَةُ الْخَامِسَةُ: مِخْنَةُ دُخُولِ يُوسُفَ السِّجْنِ

٣٥- ﴿ثُمَّ بَدَأَ لَهُمْ مِنْ بَعْدِ مَا رَأَوُا آيَاتٍ لِيَسْجُنَّهُمْ حَتَّىٰ حِينٍ ۝٣٥﴾

ولما فشا الخبر في أرجاء المدينة؛ قالت امرأة العزيز لزوجها: إن هذا العبراني قد فضحني بين الناس، فإما أن تأذن لي فأخرج وأعتذر للناس، وإما أن تحبسه، فإن ذلك من المصلحة، ومع تضافر البراهين والأدلة على براءة يوسف، فقد بدا للعزيز وأصحابه إيداع يوسف في السجن مدة قصيرة أو طويلة؛ منعاً للفضيحة، وسترًا للمقالة، وكثماً لما شاع بين الناس، وكان ذلك بعد أن يشت المرأة من محاولاتها وإغرائها وتهديدها ليوسف، فقد كان زوجها مطوعاً لها، وجمالاً ذلولاً، زمامه في يدها، حتى أنساه ذلك ما عاين من براهين براءة يوسف، فأخذ برأيها في سجنه؛ ليلحق الصغار به كما توعدته، وتم إيداع يوسف في السجن؛ ليأتي له بعد ذلك الرخاء والعز والسلطان وإظهار براءته للعالمين.

قال عكرمة: سألت ابن عباس رضي الله عنه عن قوله: ﴿ثُمَّ بَدَأَ لَهُمْ مِنْ بَعْدِ مَا رَأَوُا آيَاتٍ﴾ قال: ما سألتني عنها أحد قبلك، من الآيات: قدّ القميص، وأثرها في جسده، وأثر السكين، وقالت امرأة العزيز: إن أنت لم تسجنه ليصدقته الناس^(١)، وقدّ القميص من دبر أهم الآيات.

(١) ابن أبي حاتم (٢١٣٩/٧).

رُؤْيَا السَّجِينِينَ

٣٦- ﴿وَدَخَلَ مَعَهُ السَّجَنَ فَتَيَانِ قَالَ أَحَدُهُمَا إِنِّي^(١) أَرِنِّي أَعْصِرُ خَمْرًا وَقَالَ الْآخَرُ إِنِّي^(٢) أَرِنِّي^(٣) أَحْمِلُ فَوْقَ رَأْسِي خُبْرًا تَأْكُلُ الطَّيْرُ مِنْهُ نَبِّئْنَا^(٤)﴾ بِتَأْوِيلِهِ إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ ﴿٣٦﴾

ودخل يوسف السجن مع براءته، ودخل معه في الوقت نفسه خبّاز الملك وساقيه؛ بتهمة دس السم في الطعام، في محاولة من أشراف مصر لقتل الملك واغتياله، وكان الساقى قد تراجع عن قبول الاشتراك في اغتيال الملك، وقيل الخباز الرشوة، ثم أخبر كل منهما عن الآخر عند الملك قبل تناوله الطعام والشراب؛ فأمر بحبسهما، ودخلا السجن مع يوسف، وكان يوسف قد أخذ يدعو الضعفاء والمسجونين معه؛ لنبذ الشرك، وعبادة الله الواحد القهار وهو بداخل السجن، واشتهر يوسف بين السجناء بحسن المعاملة وكثرة العبادة، وعُرف بحسن الخلق، وتفسير الرؤيا، والأمانة والصدق.

فلما عَرَفَ ذلك الفتَيَانِ اللذان دخلا معه السجن؛ اقتربا من يوسف وأخبراه بحبهما له، فقال يوسف: ما أحبني أحد إلا وأصابني ضرر بسبب هذا الحب، أحببني عمّتي؛ فاحتالت في بقائي عندها وأنا طفل صغير، بأن شدّت منطقة جدّي إسحاق عليّ تحت ثيابي، وكانت هذه المنطقة يتوارثها أبناء يعقوب؛ فاتهموه بها، وبقي عند عمته بسبب ذلك حتى ماتت، وكان السارق يؤخذ بسرقة في شريعتهم، وأحببني أبي؛ فأُلقيْتُ في الحبّ بسببه، وأحببني امرأة العزيز؛ فدخلت السجن بسببها^(٤).

طلب الفتَيَانِ من يوسف تفسير رؤياهما، فقال أحدهما وهو الساقى: إني رأيت -في المنام- أنني أعصر عنباً؛ ليكون خمرًا، وأني دخلتُ بستاناً فيه أشجار من العنب؛ فقطعتُ ثلاثة عناقيد وعصرتها في كأس، وسقيتها للملك.

وقال الخباز: إني رأيت أنني خرجتُ من مطبخ الملك، أحمل فوق رأسي ثلاث سلال

(١) قرأ نافع وأبو عمرو وأبو جعفر بفتح ياء الإضافة من (إني أراني) في الموضعين معاً، والباقون بإسكانها.

(٢) قرأ نافع وابن كثير وأبو عمرو وأبو جعفر بفتح ياء الإضافة من (أراني أعصر) و(أراني أحمل) وسكنها غيرهم.

(٣) قرأ أبو جعفر بخلف عنه بإبدال همزة (نبئنا) حرف مد وصلًا ووقفًا ومثله حمزة عند الوقف.

(٤) ينظر: «تفسير الخازن» للآية والطبري (١٣/١٥٤، ١٦٨) وابن أبي حاتم (٧/٢١٤٢، ٢١٤٧).

من الخبز، وأن الطيور تأكل منه وهو فوق رأسي.

قالا: يا يوسف، أخبرنا بتأويله، إنا نراك من المحسنين العالمين بتعبير الرؤيا،
المواسين للضعفاء والمساكين، المقرَّبين من الله عز وجل.

يُوسُفُ يُعَرِّفُ أَهْلَ السِّجْنِ بِنَفْسِهِ وَيَدْعُوهُمْ إِلَى التَّوْحِيدِ

٣٧- ﴿قَالَ لَا يَأْتِيَكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِهِ﴾^(١) إِلَّا نَبَأُكُمَا^(٢) بِتَأْوِيلِهِ قَبْلَ أَنْ يَأْتِيَكُمَا ذَلِكَمَا مِمَّا عَلَّمَنِي رَبِّي^(٣) إِنِّي تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ ﴿٣٧﴾

وقبل أن يفسر لهما الرؤيا، أخذ يوسف يمهد لذلك بأن يعرفهما بنفسه وعقيدته ويدعوهما إلى عبادة الله وحده، ويقيم لهما الأدلة على وحدانية الله تعالى، والإيمان باليوم الآخر، وما فيه من الثواب والعقاب، ومن جملة ذلك أنه يعبر الرؤيا، يقول يوسف: وهذا التعبير للرؤى مما علمني ربي، إني آمنت بالله وأخلصت له العبادة، وابتعدت عن دين قوم لا يؤمنون بالله، وهم جاحدون بالبعث والجزاء.

وقد تخول يوسف الوقت المناسب لدعوة رفاقه إلى التوحيد، ليكون هذا أنجح للدعوة.

فلم يعبر لهما يوسف الرؤيا مباشرة، وإنما ابتدأ معهما الحديث بما هو أهم؛ حيث ابتدأ بدعوتهما إلى التوحيد والإسلام، وأخبرهما بأنه نبي مُرسل من عند الله تعالى، وأن الله سبحانه قد أيدته بمعجزات من عنده؛ منها: إخباره بما سيكون في المستقبل للفتيين، ومنها: أن تعبیر الرؤيا جزء من العلم الذي علّمه الله إياه.

وأخذ يوسف ﷺ يخبرهما أنه نبي يُوحى إليه، وأن له شأنًا أكبر من تعبیر الرؤيا، وأن بإمكانه أن يخبرهما بما يحدث لهما في النوم واليقظة والحال والاستقبال، فقال لهما: لا يأتیکما طعام أو غيره وأنتما في السجن أو خارجه، في النوم أو اليقظة، ومن أي جهة

(١) قرأ قالون وابن وردان بخلف عنهما بكسر هاء (ترزقانه) من غير صلة، والباقون بالكسر مع الصلة، وهو الوجه الثاني لهما.

(٢) قرأ أبو جعفر وأبو عمرو بخلف عنه بإبدال همزة (نبأتكما) ألفًا في الوصل والوقف، ومثلها حمزة عند الوقف.

(٣) قرأ نافع وأبو عمرو وأبو جعفر بفتح ياء الإضافة من (ربي إني) في حالة الوصل، والباقون بإسكانها.

كانت إلا نبأتكما عن حقيقة هذا الطعام وأوصافه، ومن أين آل لكما قبل أن يصل إليكما، وهذا ليس من عندي، ولكنه وحي من الله ﷻ، وهذه المعجزة كمعجزة عيسى عليه السلام، كما قال تعالى: ﴿وَأَنبِئُكُمْ بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدْخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمْ﴾ [آل عمران: ٤٩].

يُوسُفُ يُبَاشِرُ مَهَامَّ الرِّسَالَةِ فِي السِّجْنِ

٣٨- ﴿وَاتَّبَعْتُ مِلَّةَ آبَائِي^(١) إِتْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ مَا كَانَتْ لَنَا أَنْ نَشْرِكَ بِاللَّهِ مِنْ شَيْءٍ ذَلِكَ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ عَلَيْنَا وَعَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ ﴿٣٨﴾﴾

أخبر يوسف أهل السجن أنه ترك دين أهل الشرك والوثنية ممن نشأ فيهم وممن تربى بينهم، واتبع دين التوحيد الذي عليه آبؤه وأجداده، قال يوسف: إني تركت ملة قوم لا يؤمنون بالله وهم الكنعانيون ومن معهم ممن نشأ فيهم، وكان ذلك وهو في فلسطين قبل أن يلتقى في الحب، ثم وهو في بيت العزيز وحاشيته، وكانوا يعبدون الشمس من دون الله، وأخبرهم أنه ترك دين الفراعنة الوثنيين، وأنه يعبد الله وحده، ولم يجعل له شريكاً في عبادته.

وهكذا دعا يوسف أهل السجن إلى أصول الإيمان الثلاثة وهي: الإيمان بالله، وتوحيده في العبادة، والإيمان باليوم الآخر، فهذه أصول عقيدة المسلم، ثم أخبرهم عليه السلام أنه سليل بيت النبوة، فأبوه يعقوب، وجده إسحاق وإبراهيم، وقد اتبع ملتهم في التوحيد، وما كان لأهل بيت النبوة أن يشركوا بالله شيئاً، وهذا الاصطفاء للرسالة، والعصمة من الشرك، والإيمان بالله وحده، من فضل الله علينا وعلى عباد الله، وليس باجتهادنا ولا مجهودنا، ولكن أكثر الناس لا يشكرون فضل الله عليهم، ثم صرح يوسف بدعوة أهل السجن إلى التوحيد فقال:

٣٩- ﴿يَصْدِحِّي السِّجْنِ أَرْبَابٌ مُتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمْ اللَّهُ أَلَوْجِدُ الْقَهَّارُ ﴿٣٩﴾﴾

هذا شروع في إقامة الأدلة على صحة عقيدته وفساد عقيدتهم، قال يوسف عليه السلام وهو يدعو الفتنين وغيرهما إلى التوحيد: ﴿يَصْدِحِّي السِّجْنِ﴾ يا رفيقي في السجن أخبراني:

(١) قرأ نافع وابن كثير وأبو عمرو وابن عامر وأبو جعفر بفتح ياء الإضافة وصلًا من (آبائي إبراهيم) والباقون بإسكانها.

﴿ءَازِبَابٌ﴾ عاجرة ضعيفة لا تنفع ولا تضر ولا تعطي ولا تمنع، وهي أرباب متعددة ومختلفة ﴿مُتَفَرِّقُونَ﴾ وآلهة شتى تعبدونها ما بين حجارة وأشجار وملائكة وأموات ﴿خَيْرٌ أَمْ﴾ عبادة ﴿اللَّهُ الْوَاحِدُ﴾ في ذاته وصفاته وأفعاله ﴿الْقَهَّارُ﴾، الذي انقاد الكون لقهره وسلطانه فما من دابة إلا هو آخذ بناصيتها.

وقد كان المصريون المخاطبون بهذه الآية والتي بعدها كغيرهم من الأمم يعبدون آلهة متعددة مختلفة في ذواتها وصفاتها وأعمالها، وكان لهم نحو ثلاثين ربًّا، وأكبر هذه الآلهة (أمون رع) فكانوا أهل وثنية وشرك، وكانوا يؤمنون ببعث الأرواح لا الأجساد، وأن الثواب والعقاب يكون للأرواح دون الأجساد، ومثلهم الإغريق، فهم أحسن حالًا من مشركي العرب الذين يعبدون الحجارة، وهم أيضًا أحسن حالًا من الكلدانيين والآشوريين الذين جعلوا الآلهة رموزًا للنجوم والكواكب، وكلها آلهة مزعومة ما أنزل الله بها من سلطان.

تَفْصِيْلُ لِّلْعَقَائِدِ الْبَاطِلَةِ وَالْأَوْهَامِ الْفَاسِدَةِ

٤٠- ﴿مَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِهِ إِلَّا أَسْمَاءٌ سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَءَابَاؤُكُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ إِنْ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾

وسواء أكانت هذه الأرباب من الإنس أو الجن أو الشياطين، أو من شجر أو حجر أو غير ذلك، فكلها لا تضر ولا تنفع، وليس عندكم دليل على صحة عبادتها، إنها آلهة تقلدون فيها آباءكم، فيوسف عليه السلام يخاطب الفطرة، ويقول: إن الفطرة تعترف إلهاً واحداً، ولا تعدد الأرباب، ثم بين لهم عجز هذه الآلهة، وبيّن أنها ألفاظ فارغة، لا قيمة لها، وليس لها قدرة ولا سلطان، فهي مخلوقة وليست خالقة، وزائلة وليست باقية، وعبادتها جهل وضلال، فلا حجة ولا برهان لهم إلا تقليد الآباء.

ثم أبطل سبحانه عبادة الآلهة المزعومة؛ لأنها لا تملك تصرفاً ولا تدبيراً ولا حكماً في هذا الكون فقال: ﴿إِنْ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ﴾ بيده الأمر والنهي، والملك والسلطان، وبعد إقامة الأدلة على وحدانية الله تعالى أمرهم بإخلاص العبادة لله وحده فقد ﴿أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ﴾.

ثم خُتِمت الآية ببيان أن ما أمروا به من توحيد الله تعالى وإخلاص العبادة له هو الدين القويم الذي لا اعوجاج فيه، ولكن أكثر الناس يجهلون ذلك ولا يعلمون حقيقته.

وبهذا فقد وضع يوسف ﷺ أصول العقيدة، وجذور التوحيد، ونبذ جذور الشرك، في دعوته لقومه بالسجن، وأخبرهم أن الحُكْم والقضاء لله وحده، والعبادة لا تُوجَّه إلا إلى الله وحده، وقد انتشر التوحيد في مصر على يد يوسف.

وبعد دعوة يوسف أهل السجن إلى توحيد الله تعالى، شرع في تأويل رؤيا صاحبه في السجن:

يُوسُفُ يُعَبِّرُ رُؤْيَا السَّجِينِ

٤١- ﴿يَصْحَجِي السَّجْنِ أَمَّا أَحَدُكُمَا فَيَسْقَى رَبَّهُ خَمْرًا وَأَمَّا الْآخَرُ فَيُصَلِّبُ فَتَأْكُلُ الطَّيْرُ مِنْ رَأْسِهِ﴾^(١) قُضِيَ الْأَمْرُ الَّذِي فِيهِ تَسْتَفْتِيَانِ ﴿٤١﴾

هذا هو النداء الثاني من يوسف لرفيقه في السجن بعد أن حاز ثقتهما فيه، وأقام لهما الأدلة على وحدانية الله تعالى ووجوب إخلاص العبادة له، وبعد أن تدرج في دعوتهما وألزمهما الحجة، وبين لهما أن آلهتهما لا تستحق العبودية، وأن الذي يُعبد هو الله الواحد القهار، وهذا من الأسلوب الحكيم؛ حيث يقدم الداعي الهداية والإرشاد، والنصيحة والموعظة قبل أن يتكلم في الأمر المقصود.

وكان يوسف ﷺ قد طمأن رفيقه في بادئ الأمر أنه سيخبرهما عن تأويل الرؤيا، ولكنه أخر الكلام عن الرؤيا؛ للمصلحة الراجحة، وهي الدعوة إلى التوحيد أولاً؛ ولأن تعبير الرؤيا فيه مكروه لأحدهما، وهو يقتضي تذكيره بالإيمان بالله واليوم الآخر، والصبر على المكاره.

وبعد أن تحدث يوسف عن التوحيد، وبلغهم رسالته، أجابهم عن الرؤيا، فقال: ﴿يَصْحَجِي السَّجْنِ أَمَّا أَحَدُكُمَا فَيَسْقَى رَبَّهُ خَمْرًا﴾ أي: أن الذي رأى في منامه أنه يعصر العنب، فإنه سيخرج من السجن، لأن سقياه للملك، يستلزم خروجه من السجن، ويعود إلى الملك فيسقيه خمرًا، ولوضوح هذا المعنى وجلاته فقد طوَّته الآية؛ أي: أن عناقيد العنب الثلاثة التي اقتطفها الساقى من البستان معناها: أنه سيقضي ثلاثة أيام في السجن، لأن سقياه للملك يستلزم خروجه من السجن ثم يأمر الملك بإخراجه، ويبرأ من التهمة

(١) قرأ أبو عمرو بخلف عنه، وأبو جعفر بإبدال همزة (رأسه) ألفًا، وأسكنها غيرهما، ومعهم أبو عمرو في وجهه الآخر.

التي نُسبت إليه، وسيعود إلى قصر الملك ويعمل ساقياً له كما كان قبل ذلك.

وأما الخباز فإنه سيقتل ثم يُصلب وتأكل الطير من رأسه بعد موته، فإن سلال الخبز الثلاث التي رأى في المنام أنه يحملها فوق رأسه، ويأكل الطير منها، معناها: أنه سيقضي ثلاثة أيام في السجن، ثم يأمر الملك بقتله، وأنه لن يدفن حتى يواريه الثرى، ولكنه سيصلب ويعلق على خشبة حتى تنهشه السباع والطيور وتأكل من رأسه.

وهكذا فإن الخبز الذي تأكله الطير، يعني لحم رأسه وشحمه ومُخّه، وأنه لا يقبر ولا يستر عن الطيور، بل يصلب، ويترك في العراء لتتمكن الطيور من أكله.

قال عكرمة عن صاحب الرؤيا الأول: أتى يوسف فقال: رأيت فيما يرى النائم أنني غرستُ حبةً من عنب، فنبئتُ فخرج فيه عناقيد فعصرتهن، ثم سقيتهن الملك، فقال: تمكث في السجن ثلاثة أيام، ثم تخرج فتسقيه خمرًا^(١).

وعن قتادة أن يوسف قال للخباز: إنك تُصلب فتأكل الطير من رأسك، وقال لساقيه: أما أنت، فتردُّ على عملك^(٢).

فلما سمعا هذا التأويل للرؤيا، قالا: ما رأينا شيئاً، إنما كنا نلعب، قال يوسف: ﴿قُضِيَ الْأَمْرُ الَّذِي فِيهِ تَسْتَفْتِيَانِ﴾^(٣) وفرغ منه، وليس ذلك محلاً للجدل والمناقشة، وسيقع لكما ما قلته، سواء صدقتما أم كذبتما.

يُوسُفُ يُرْسَلُ مَظْلَمَتَهُ لِلْمَلِكِ

٤٢- ﴿وَقَالَ لِلَّذِي ظَنَّ أَنَّهُ نَاجٍ مِّنْهُمَا اذْكُرْنِي عِنْدَ رَبِّكَ فَأَنَسَهُ الشَّيْطَانُ ذِكْرَ رَبِّهِ فَلَبِثَ فِي السِّجْنِ بِضْعَ سِنِينَ﴾^(٤٢)

بهذه الآية يُنهي يوسف حديثه إلى صاحبيه في السجن، ونظرًا لأن يوسف قد دخل السجن بدون جُرم ولا ذنب، وبدون بحث أو تروٍّ في حقيقة أمره، أراد يوسف أن يبلغ الملك عن

(١) «تفسير الطبري» (١٣/١٥٥).

(٢) أخرجه أبو الشيخ كما في الدر (٨/٢٥٧).

(٣) ينظر الطبري (١٣/١٦٧، ١٦٩) وابن أبي حاتم (٧/٢١٤٨).

طريق الساقى الذي سيخرج من السجن وينجو منه؛ كي يعيد النظر في قضيته، وهذا من الأخذ بالأسباب المادية التي لا يمانع الشرع فيها، فيوسف بريء وسجين بدون وجه حق.

﴿وَقَالَ لِلَّذِي ظَنَّ أَنَّهُ لَا يَمَانَعُ الشَّرْعَ فِيهَا، فَيُوسُفُ بَرِيءٌ وَسَجِينٌ بِدُونِ وَجْهِ حَقٍّ.﴾
 وهو الذي رأى أنه يعصر خمراً ﴿أَذْكُرْنِي عِنْدَ رَبِّكَ﴾ أي: اذكر قصتي عند سيدك الملك، فقل له: إن بالسجن غلاماً محبوباً ظلماً، وقد طال حبسه، فأنسى الشيطان الساقى أن يذكر حال يوسف عند الملك، فمكث يوسف بعد ذلك في السجن عدة سنوات، والبضع من ثلاث إلى تسع، قيل: إنه مكث سبع سنين في السجن بعد خروج الساقى منه.

قال مجاهد: قال يوسف للذي نجا من صاحبي السجن: اذكرني للملك، فلم يذكره حتى رأى الملك الرؤيا، وذلك أن يوسف أنساه الشيطان ذكر ربه، وأمره أن يذكر الملك ابتغاء الفرج من عنده ﴿فَلَيْتَ فِي السِّجْنِ يَضَعُ سِنِينَ﴾ عقوبة لقوله: ﴿أَذْكُرْنِي عِنْدَ رَبِّكَ﴾^(١).

وهكذا يقول بعض المفسرين: إن الضمير في كلمة ﴿فَأَنسَاهُ﴾ يعود إلى يوسف؛ لأنه قد استعان بالمخلوق وهو الساقى أن يبلغ مظلمته إلى الملك.

وهذا كلام لا يصح؛ لأن العبد مأمور بالأخذ بالأسباب، ولا حرج عليه أن ينتصر لنفسه ويدفع الظلم عنها، فقد وصف الله المؤمنين بقوله: ﴿وَالَّذِينَ إِذَا أَصَابَهُمُ الْبَغْيُ هُمْ يَنْتَصِرُونَ﴾ [الشورى] فإن لم يستطع أن ينتصر لنفسه فلا أقل من أن يرفعها للحاكم، فالذي أنساه الشيطان أن يذكر أمر يوسف عند الملك هو الساقى، وترتب على ذلك مكث يوسف في السجن بضع سنين، والبضع: ما بين الثلاث والتسع، والاستعانة بالمخلوق في الأسباب التي في قدرة العبد، كدفع الضرر المادي عنه، أمر جائز شرعاً.

رُؤْيَا مَلِكٍ مُّصْرَ

٤٣- ﴿وَقَالَ الْمَلِكُ إِنِّي أَرَى^(٢) سَبْعَ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعَ سُنبُلَاتٍ

(١) الطبري (١٦٩/١٣) وابن أبي حاتم (٢١٤٨/٧).

(٢) قرأ نافع وابن كثير وأبو عمرو وأبو جعفر بفتح ياء الإضافة وصلأ من (إني أرى) والباقون بإسكانها.

خُضِرَ وَأُخْرِ يَاسَتْ يَكَايَهَا الْمَلَأُ^(١) أَفْتُونِي فِي رُءْيَايَ^(٢) إِنْ كُنْتُ لِلرُّءْيَا تَعْبُرُونَ ﴿٤٣﴾

وجاء جبريل فبشر يوسف بخروجه من السجن، وكانت الرؤيا الثالثة في السورة، وهي رؤيا ملك مصر (الريان بن الوليد) وهو من ملوك الرعاة (الهكسوس) الذين حكموا مصر في الفترة من عام ١٩٠٠ إلى عام ١٥٢٥ قبل الميلاد، وهم من خارج مصر، ولم يدعوا الربوبية كالفراعنة، حيث سبقتهم دعوة التوحيد قريباً منهم على لسان إبراهيم إلى يعقوب عليهما السلام، وعرفوا شيئاً عن دين الله، فالتوحيد كان معروفاً في مصر قبل يوسف، وجدد هو صاحب الدعوة إليه.

ولما استرد الفراعنة زمام الأمور في مصر بعد عهد ملوك الرعاة الوافدين الذي استغرق نحو قرن ونصف، أعادوا إليها الوثنية التي تقوم عليها الفرعونية.

والقرآن الكريم أطلق على حاكم مصر في عهد يوسف ﷺ لفظ ﴿الْمَلِكُ﴾ ولم يلقبه فرعون؛ لأن هذا الملك لم يكن من الفراعنة، بل كان من العمالقة، وهم من الكنعانيين أو من العرب، ويسميهـم مؤرخو الإغريق: ملوك الرعاة؛ أي: البدو، وكان لمصر آنذاك مَلِكَان: ملك لمصر العليا؛ أي: الوجه القبلي (محافظةـت الصعيد)، وملك لمصر السفلى؛ أي: (محافظةـت الوجه البحري)، وكانت السيادة لملوك مصر السفلى، أما في عهد موسى ﷺ، فقد ذكر القرآن الكريم ملك مصر بلغته (فرعون).

هذا: ورؤيا الملك قد فتحت باب الفرج ليوسف ﷺ، فقد رأى الملك في منامه رؤيا أهمته وأفزعته وجمع لها أشراف القوم وكهنتهم ليعبروها له، وكانت هذه الرؤيا هي السبب في إخراج يوسف من السجن، كما كانت سبباً في براءته من تهمة امرأة العزيز، فقد رأى الملك سبع بقرات سمان قد امتلأن شحماً ولحماً، يَخْرُجْنَ من النهر، ويخرج بعدهن سبع بقرات ضعاف، شديدة الهزال، فابتلع السبع العجاف السبع السمان، ودخلن في بطونهن.

ورأى أيضاً سنبلات خُضِرَ قد امتلأت حباً وانعقد حبها، ورأى سبع سنبلات يابسات، قد التوت على السبع سنبلات الخضر فأكلتها وبلعتها، فقال: يأيتها العلماء والحكماء

(١) قرأ نافع وابن كثير وأبو عمرو وأبو جعفر ورويس بإبدال الهمزة الثانية واواً من (الملا أفتونني) والباقيون بتحقيقها.

(٢) أبدل الأصهباني عن ورش وأبو عمرو بخلف عنه، همزة (رؤياي) واواً، ومثله حمزة عند الوقف، وأبدلها أبو جعفر ياء مشددة ومثله حمزة أيضاً عند الوقف.

والأشراف، أفتوني في رؤياي إن كنتم للرؤيا تعبرون:

٤٤- ﴿قَالُوا أَضْغَتْ أَحْلَامٌ وَمَا نَحْنُ بِتَأْوِيلِ الْأَحْلَامِ بِعَالَمِينَ﴾ ﴿٤٤﴾

قال السحرة والكهنة والمعبرون للملك الأعظم: رؤياك هذه ﴿أَضْغَتْ أَحْلَامٌ﴾ أي: أخلط ومناومات باطلة وكاذبة وأحلام مختلطة، لا تأويل لها، ولا علم لنا بتفسير الأحلام، فالتأويل يكون للأحلام الصحيحة، أما وسوسة الشيطان فلا تأويل لها، وهذا جزم منهم بما لا يعلمون، لقد أعجز الله جماعة الكهنة والمعبرين عن تأويل الرؤيا، ومنعهم من الجواب؛ ليكون ذلك سبباً لخلاص يوسف من السجن، مع ما أصاب الملك من القلق والاضطراب منذ رأى في منامه أن الضعيف الهزيل من البقر والسنبلات يستولي على القوي والسمين منها؛ فجمع السحرة والكهنة لتأويلها.

السَّجِينُ النَّاجِي يَتَذَكَّرُ وَصِيَّةَ يُوسُفَ لَهُ

٤٥- ﴿وَقَالَ الَّذِي نَجَا مِنْهُمَا وَادَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ أَنَا^(١) أُنِيشُكُمْ بِتَأْوِيلِهِ فَأَرْسِلُونِ^(٢)﴾ ﴿٤٥﴾

ولما سمع الساقى الذي نجا من القتل، رؤيا الملك، تذكّر يوسف، صاحبه في السجن، بعد أن غمرته أضواء قُصْر الملك؛ فنسي السجن وأيامه ورفاقه، ونسي وصية الرجل المحسن البريء المحبوس ظلماً، وعندئذ قال: إن في السجن رجلاً يعبر الرؤيا، وكان السجن خارج المدينة؛ ولذا فإنه قال: فأرسلوني إليه لآتيكم بتفسيرها، فأرسلوه، فجاء إلى يوسف وقال:

٤٦- ﴿يُوسُفُ أَيُّهَا الصِّدِّيقُ أَفْتِنَا فِي سَبْعِ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعِ سُنبُلَاتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَاتٍ لَعَلِّي^(٣) أَرْجِعُ إِلَى النَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ ﴿٤٦﴾

أي: ولما وصل الساقى إلى يوسف، بعد أن سهلت له مهمة الدخول إليه في السجن،

(١) قرأ نافع وأبو جعفر بإثبات ألف (أنا) فيصير من قبيل المد المنفصل؛ لوقوع الهمزة بعدها، والباقون بحذفها وصلًا، واتفق الجميع على إثباتها وقفًا.

(٢) قرأ يعقوب بإثبات الياء وصلًا ووقفًا في (فأرسلون) والباقون بحذفها في الحاليين.

(٣) قرأ نافع وابن كثير وأبو عمرو وابن عامر وأبو جعفر بفتح ياء الإضافة من (لعلّي أرجع) والباقون بإسكانها.

قال له: يوسف أيها الصديق، فسّر لنا رؤيا مَنْ رأى سبع بقرات سمان، يأكلهن سبع بقرات هزيلات، ورأى سبع سنبلات خضر وآخر يابسات، لعلي أرجع إلى الملك وأصحابه فأخبرهم؛ ليعلموا تأويل ما سألتك عنه، وليعلموا مكاتك وفضلك.

والسبع السمان: هي السنوات الخصبة، والسنبلات الخضر: هي الزروع والثمار والنبات الذي يكون فيها، فهن سبع سنوات مخصبات.

والسبع العجاف: هي السنوات المجدبة، والسنبلات اليابسات إشارة إلى أنها لا تنبت شيئاً، فهن سبع سنوات مجدبات، وكانت البقر تحرث الأرض، وتسقي الزرع، وكان القمح ولا يزال، هو أعظم القوت.

يُوسُفُ يُفَسِّرُ رُؤْيَا الْمَلِكِ

٤٧- ﴿قَالَ تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَأْبًا^(١) فَمَا حَصَدْتُمْ فَذَرُوهُ فِي سُنْبُلِهِ إِلَّا قَلِيلًا مِمَّا تَأْكُلُونَ﴾ (٤٧)

قال يوسف لمن سأله عن تفسير رؤيا الملك: إن القوم سيُمْرُون بسبع سنين مخصبة خضرة، فيها خيرات وأرزاق كثيرة، ثم يَمْرُون بعد ذلك بسبع سنوات فيها جذب وفقر شديد، ثم وضع لهم خطة اقتصادية، جديدة بأن تُدرَس وتطبق في عالمنا المعاصر، لا سيما في الدول النامية، قال لهم: ازرعوا سبع سنين متواصلة بجد ونشاط حتى يكثر عطاء الأرض فيها، والذي تحصدونه في كل مرة خذوا منه ما تحتاجونه فقط لطعامكم، والآخر ادخروه واركوه في سنبله حتى يحفظ، ولا يأتي عليه السوس، فلا تدرسوا من الحنطة إلا بقدر الحاجة الضرورية، واحفظوا ما بقي منها في سنبله للسنوات المجدبة.

ومن المعلوم أن الحنطة في مصر لا تبقى بدون تسوس أكثر من عامين إلا إذا حُفظت في الصوامع أو بقيت في سنابلها، ولم تكن الصوامع موجودة ولا معروفة؛ ولذا فقد نصحهم أن يتركوا الحب في سنبله إلا ما لا بُدَّ منه للأكل، وقوله: ﴿تَزْرَعُونَ﴾ إخبار عما يكون، ومضى يوسف قائلاً:

(١) قرا حفص بفتح همزة (دأبا) والباقون بإسكانها، وهما لغتان.

٤٨ - ﴿ثُمَّ يَأْتِي مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ سَبْعٌ شِدَادٌ يَأْكُلْنَ مَا قَدَّمْتُمْ لَهُنَّ إِلَّا قَلِيلًا مِمَّا تَحْتَصِنُونَ﴾ ﴿٤٨﴾

ثم يأتي بعد السنين المخصة، سبع سنين مجدبة شديدة على الناس، ينفد فيهن ما ادخرتم من الطعام في السنين المخصة إلا قليلاً مما تُحَرِّزُونَهُ وتَدَّخِرُونَهُ محفوظاً في حصنه من البذور ونحوها؛ ليكون بذوراً للزراعة في الأعوام المقبلة، وقد كان يوسف في غاية الكرم والصبر؛ حيث فسر الرؤيا دون شرط ولا مقابل، ودون تعنيف لرسول الملك على نسيانه وصية يوسف:

وخلاصة تفسير يوسف لرؤيا الملك: أنه فسر البقرات السمان والسنبلات الخضراء بالسنين السبع المخصة، وفسر البقرات العجاف والسنبلات اليابسات بالسنين السبع المجدبة التي تأتي في أعقاب السنين المخصة، وفسر ابتلاع البقرات العجاف للبقرات السمان، بأكلهما لما جُمع في السنين المخصة للسنوات المجدبة.

وهاتان الآيتان أصل في القول بالمصالح الشرعية التي هي حفظ الدين والنفس والعقل والعرض والمال، فكل ما تضمن حفظ هذه الأمور الخمس يجلب مصلحة لها أو دفع مفسدة عنها، فهو من مقاصد الشريعة.

وإلى سنوات الجذب التي حلت بالناس في عهد يوسف عليه السلام أشار النبي ﷺ فيما رواه عبد الله بن مسعود رضي الله عنه وغيره: إن قريشاً لما أبطؤوا عن رسول الله ﷺ بالإسلام قال: «اللهم اكفنيهم بسبع كسبع يوسف»^(١)؛ فأصابتهم سنة حصدت كل شيء حتى أكلوا العظام، حتى جعل الرجل ينظر إلى السماء، فيرى بينه وبينها مثل الدخان، قال الله تعالى: ﴿فَارْتَقِبْ يَوْمَ تَأْتِي السَّمَاءُ بِدُخَانٍ مُبِينٍ﴾ ﴿١٠﴾ [الدخان]

وقال الله تعالى: ﴿إِنَّا كَاشِفُو الْعَذَابِ قَلِيلًا إِنَّكُمْ عَائِدُونَ﴾ ﴿١٥﴾ [الدخان]

أفيكشف عنهم العذاب يوم القيامة؟ وقد مضى الدخان، ومضت البطشة؟^(٢).

ويمضي يوسف في تفسيره لرؤيا الملك قائلاً:

(١)، (٢) من حديث ابن مسعود في «صحيح البخاري» برقم (١٠٠٧، ٤٦٩٣) و«صحيح مسلم» برقم (٢٧٩٨).

٤٩ - ﴿ثُمَّ يَأْتِي مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ عَامٌ فِيهِ يُغَاثُ النَّاسُ وَفِيهِ يَعْرِشُونَ﴾ (١)

ثم أخبرهم يوسف بأمر لا علاقة له بالرؤيا، وهو أنه يأتي بعد السنوات الأربع عشرة عام خصب يرفع الله عنهم فيه الشدة، ويحل فيه الرخاء، ويأتي اليسر بعد العسر، ويكون فيه مطر وغيث وزروع وثمار وأرزاق كثيرة، وفيه يعصر العنب والزيتون والسمسم ونحوها من كثرتها، وينجو الناس فيه من شدة البلاء والجذب، وعام الرخاء هذا ليس له رمز أو ملحظ في رؤيا الملك، وهو من تعليم الله تعالى ليوسف، ومن آيات نبوته، وقد أراد يوسف ﷺ أن يبشر الملك وسائر الناس بالخلاص من الجذب والجوع، ومجيء الرخاء والعيش الرغيد، ومن المعلوم أن الجذب إذا زال، تأتي الخيرات والأرزاق من بعده، فهو نتيجة طبيعية، وإن لم يصرح بها في رؤيا الملك، رجع الرسول إلى الملك والناس، وأخبرهم بتأويل يوسف للرؤيا، فعجبوا من ذلك، وفرحوا بها أشد الفرح، ثم أرسل الملك يأمر بإحضار يوسف إليه:

الْمَلِكُ يَأْمُرُ بِإِخْرَاجِ يُوسُفَ مِنَ السِّجْنِ، وَيُوسُفُ يَطْلُبُ الْبَرَاءَةَ

٥٠ - ﴿وَقَالَ الْمَلِكُ أَتُؤْنِي^(٢) بِدٍّ فَلَمَّا جَاءَهُ الرَّسُولُ قَالَ ارْجِعْ إِلَىٰ رَبِّكَ فَسْأَلْهُ^(٣) مَا بَالُ النِّسْوَةِ الَّتِي قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ إِنَّ رَبِّي بِكَيْدِهِنَّ عَلِيمٌ﴾ (٥٠)

وبعد تأويل يوسف لرؤيا ملك مصر، رجع الساقى إلى الملك وحاشيته، فقص عليهم تعبير يوسف للرؤيا، وقد كانت هذه الرؤيا بتدبير من الله سبحانه؛ لتكون سبباً في إخراج يوسف من السجن، وإظهار براءته، وتوجيه أميناً على خزائن مصر، والانتهاء من كثرة الآلام التي مر بها يوسف، منذ إلقاءه في الجب، وبيعه ببيع الرقيق، ومن محنة امرأة العزيز، ومحنة إلقاءه في السجن نحو سبع سنوات؛ ليبدأ يوسف بسبب هذه الرؤيا مرحلة

(١) قرأ حمزة والكسائي وخلف العاشر بقاء الخطاب في (يعصرون) لمناسبة (يأكلن ما قدمتم) وقرأ الباقون بياء الغيب؛ لمناسبة (فيه يغاث).

(٢) قرأ ورش وأبو جعفر وأبو عمرو بخلفه بإبدال الهمزة الساكنة من (وقال الملك اتؤني) وأوًا في حال الوصل بين الكلمتين، والباقون بالتحقيق، وعند البدء بلفظ (اتؤني) يكون بهمزة وصل مكسورة، بعدها ياء مدية.

(٣) قرأ ابن كثير والكسائي وخلف العاشر بنقل حركة الهمزة من (فسأله) إلى السين قبلها، مع حذف الهمزة هكذا (فسلّه) والباقون بعدم النقل وإسكان السين.

أخرى هي مرحلة الرخاء والعز والتمكين له في الأرض .
ولما بلغ الملك تأويل يوسف لرؤياه، أراد أن يستمع إلى ذلك بنفسه، فأمر بإخراجه من
السجن، وإحضاره بين يديه؛ ليقص عليه تأويل الرؤيا .

ولما جاء رسول الملك إلى يوسف، لم يُسرِع في لقاء الملك؛ ولم يبادر بالخروج من
السجن، لأنه لم يكن من الذين يَخْفُونَ ويفرحون أو يفزعون لمقابلة المسؤولين،
ويتمرغون على أعتاب الحكام، والتملُّق لهم، ومذحهم والثناء عليهم، لبيان أنه العبد
الخاضع، والخادم الأمين .

لم يسارع يوسف لتلبية الدعوة، والتهافت على الخروج من السجن، قبل أن تظهر
براءته، وأثر أن يبقى في السجن لتظهر الحقيقة ناصعة دون تدخل منه، فسأل رسول الملك
أن يعود إليه مرة ثانية، ويسأله إن كان يعرف شيئاً عن إلقاء يوسف بالسجن، وما هو
لسبب في إيداعه فيه؟ إن رآني عليم بصنيعهن وأفعالهن، لا يخفى عليه شيء من ذلك .

ولما جاء رسول الملك إلى يوسف، قال له: ارجع إلى الملك، فاسأله عن النسوة
اللاتي قطعن أيديهن، لم يجرح يوسف امرأة العزيز، ولم يخصّها بالذكر، ولم يعيّنّها
باسمها، وإنما جعلها ضمن النسوة اللاتي راودنّه عن نفسه فقال:

﴿مَا بَالُ النِّسْوَةِ﴾ فعمم ولم يخصص، ثم إن الملك استقصى هذا الموضوع وتبعه،
فأتى بالنسوة وسألهن، ويوسف بعدُ في السجن لم يخرج منه .

جاء في الصحيحين وغيرهما عن أبي هريرة ؓ أن النبي ﷺ قال: «لو لبث في السجن
ما لبث يوسف لأجبت الداعي»^(١) .

وفي لفظ لأحمد «لو كنت أنا لأسرعت الإجابة وما ابتغيت العذر»^(٢) .

(١) البخاري برقم (٣٣٧٢، ٣٣٧٥، ٤٥٣٧، ٤٦٩٤) ومسلم برقم (١٥١) والترمذي (٣١١٦)

و«المسند» (٣٣٦/٢) برقم (٨٣٢٩، ٨٣٩٢) .

(٢) «المسند» (٣٤٧/٢) برقم (٨٥٥٤، ٩٠٦٠) والحاكم (٣٤٦/٢) والطبري (٢٠٠/١٣) قال محققو
«المسند»: صحيح، وهذا إسناد حسن، من أجل محمد بن عمرو وباقي رجاله ثقات رجال الصحيح،
وقال الهيثمي في «مجمع الزوائد» (٤٠/٧): وفيه محمد بن عمرو وهو حسن الحديث، وأخرجه الطبري
في تفسيره (٢٣٥/١٢) .

وعند عبد الرزاق بإسناد مرسل، عن عكرمة عن النبي ﷺ قال: «لقد عجبت من يوسف وصبره وكرمه، والله يغفر له، حين سُئِلَ عن البقرات المجاف والسمان، ولو كنت مكانه ما أجبته حتى أشرط أن يخرجوني... والله يغفر له حين أتاه الرسول، ولو كنت مكانه لبادرتهم الباب، ولكنه أراد أن يكون له العذر»^(١).

فقد أثنى النبي ﷺ على يوسف ﷺ، وبَيَّنَّ فضله وحُسن صبره على المحنة والبلاء، وبين قوة يوسف وثباته، وعدم مبادرته إلى الراحة، ومفارقتها لما هو فيه من الضيق والسجن الطويل، لقد طلب يوسف من الملك أن يسأل النسوة، لماذا قَطَّعن أيديهن، فأخَصَرَهُنَّ الملك وسألهن:

بَرَاءَةُ يُوسُفَ مِنْ تُّهْمَةِ امْرَأَةِ الْعَزِيزِ

٥١- ﴿قَالَ مَا خَطْبُكُنَّ إِذْ رَاَدْتُنَّ يُوسُفَ عَنْ نَفْسِهِ قُلْنَ حَاشَ (٢) لِلَّهِ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِنْ سُوءٍ قَالَتِ امْرَأَتُ الْعَزِيزِ الْقَنَ (٣) حَصَصَ الْحَقُّ أَنَا رَاَدْتُهُ عَنْ نَفْسِهِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ (٥١)﴾

صَبَرَ يوسف حتى تظهر براءته على ملاء من الدنيا، وكأن الملك قد استقصى الأمر، وعلم أمر النسوة قبل مواجهتهن، ولما أحضر النسوة قال: ما شأنكن حين راودتنَّ يوسف عن نفسه يوم الضيافة؟ هل وجدتنَّ منه ميلاً إلیکن.

والخطب: هو الشأن العظيم، والخطاب لجميع النسوة بما فيهن امرأة العزيز.

قالت النسوة: ﴿حَاشَ لِلَّهِ﴾ أي: معاذ الله أن يُتَّهم يوسف بشيء من الخيانة أو مقارفة الذنب، فما علمنا عليه أدنى شيء يشينه، وكلمة ﴿حَاشَ﴾ يقال للمبالغة في البعد عن الشر، والتبرئة منه، وكلمة (السوء) كلمة جامعة، تشمل التهمة وغيرها، والمراد: أيُّ سوء.

(١) «تفسير عبد الرزاق» (٢٨١/١) و«المعجم الكبير» للطبراني (٢٤٩/١١) وقد وصله إسحاق بن راهويه في «مسنده» وهو في الطبري (٢٠٢/١٣) موصولاً من طريق إبراهيم بن يزيد الخوزي، وابن أبي حاتم (٧/٢١٥٦)، وحكى الحافظ في الفتح عن عكرمة: رفعه، وقال: هذا مرسل (فتح الباري (٣٨٣/١٢)).

(٢) قرأ أبو عمرو بالمد الطبيعي في (حاشا لله) والباقون بحذف الألف (حاش لله).

(٣) قرأ ورش وابن وردان بخلف عنه بنقل حركة الهمزة إلى الساكن قبلها من (الآن) والباقون بعدم النقل، وهو الوجه الثاني لابن وردان.

وعندئذ قالت امرأة العزيز: الآن ظهر الحق بعد خفائه، وتبينت براءة يوسف ونزاهته، فأقر واعترف أنني راودته عن نفسه، وأني حاولت إغراءه وفتنته فامتنع، وإنه لمن الصادقين في قوله: ﴿هِيَ زَوَدَتْنِي عَنْ نَفْسِي﴾ وهذا اعتراف صريح على رؤوس الأشهاد ببراءة يوسف، وشهادة منها أمام الملك بعد شهادتها أمام النسوة أنها راودته عن نفسه؛ فاستعصم وامتنع بشدة.

قيل: إن يوسف لما راعى حرمة امرأة العزيز في قوله: ﴿مَا بَالُ النِّسْوَةِ﴾ دون أن يقول: ما بال زليخا، أرادت أن تكافئه على ذلك فرفعت الغطاء عن وجهها واعترفت بأن الذنب منها؛ أي: أنها لما رأت من يوسف أدباً جماً قابلت ذلك بإعلان الحقيقة على الملأ واعترفت بالواقع، وكان ذلك في غيبة يوسف قبل أن يخرج من السجن.

ونظير ذلك ما يحكى أن امرأة جاءت بزوجه إلى القاضي وأدعت عليه المهر؛ فأمر القاضي بأن تكشف عن وجهها حتى يتمكن الشهود من أداء الشهادة، وعندئذ قال الزوج: لا حاجة إلى ذلك، فإني مقر بصدقها في دعواها، فقالت المرأة -لما أكرمها زوجها إلى هذا الحد-: اشهدوا أنني أبرأت ذمته من كل حق لي عليه^(١).

والقول بأن كل واحدة من النسوة راودت يوسف عن نفسه عند الوليمة التي أقامتها امرأة العزيز قول بعيد؛ لأنهن في ضيافتها فلا يشاركنها في معشوقها، ولأنهن رأيناهن لأول مرة، ولم تجر العادة بأن امرأة تراود رجلاً عن نفسه في أول مقابلة بينهما، والمرادة في العادة تكون بين رجل واحد وامرأة واحدة، فلا يعقل أن عدداً من النسوة يراوذن رجلاً واحداً عن نفسه.

والظاهر أن النسوة جاملن امرأة العزيز، وعذرنها في حبها ليوسف، ورفعن الملامة عنها في ذلك؛ وعليه فإن مراودة النسوة ليوسف الواردة في الآية كانت مراودة جماعية وليست فردية.

٥٢- ﴿ذَلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِالْغَيْبِ وَأَنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْخَائِبِينَ﴾ (٥٢)

١- قال يوسف لما بلغه إعلان براءته وهو في السجن قبل أن يخرج منه حين وصله الرسول وأبلغه براءته عند الملك، وعلى لسان النسوة وامرأة العزيز قال: ﴿ذَلِكَ﴾ يعني: فعلت هذا وطلبت إثبات براءتي ليعلم العزيز أنني لم أخنه في زوجته، بل تعففت عنها في غيبته

(١) نقلاً عن كتاب «دعوة الرسل إلى الله تعالى» للشيخ محمد أحمد العدوي ص ٢٦.

﴿وَأَنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْخَائِنِينَ﴾ ولا يرشدهم ولا يوفقهم، ولا يسدد خطاهم، ولو كنت خائناً ما خلّصني الله من هذه الورطة،

٢- وقيل: إن هذا من كلام امرأة العزيز أمام الملك، أي قالت امرأة العزيز: ذلك الإقرار الذي أقررتُ أنني راودت يوسف عن نفسه ليعلم العزيز أنني لم أخنه في غيبته، وأن الذي حدث هو مجرد مراودة وليس تدنيساً للفراش

٣- وعلى القول بأن هذا من كلام المرأة؛ لأنه كلام متصل بما قبله، من قولها: ﴿الْقَنَ حَصَصَ الْحَقُّ أَنَا﴾ إلى قولها: ﴿ذَلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخْنُ بِالْغَيْبِ﴾ يحتمل أن يكون المعنى: ذلك القول الذي قلته في تنزيه يوسف وعفته، وهو في السجن ليعلم أنني لم أتكلم فيه بباطل وهو غائب؛ أي أنها لم تخن يوسف في غيبته وهو في السجن ولم تكذب عليه بل قالت: ﴿أَنَا رَوَدْتُهُ عَنْ نَفْسِهِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الصّٰدِقِينَ﴾ ثم اعتذرت بقولها: ومع ذلك فلا أبرئ نفسي من الخيانة، فقد راودته عن نفسه، واتهمته بذلك، وأودعته السجن، فالنفس أماراة بالسوء بطبعها إلا من عصمه الله كيوسف ﷺ، فنجاه من نفسه الأماراة، حتى صارت نفسه مطمئنة إلى ربها، منقادة لداعي الهدى، وهذا من فضل الله ورحمته بعبده، والله سبحانه غفور لمن تجرأ عليه بالذنوب والمعاصي، رحيم به، يقبل توبته، ويوفقه للعمل الصالح، فلما تحقق الملك من براءة يوسف أرسل في طلبه:

فالمعنى المراد: ليعلم يوسف أنني لم أخنه في حال غيبته عني، بل قررت الحقيقة، وأنه صادق فيما قال، وهذا أرجح، وكل خائن لا بد أن تعود خيائته ومكره عليه، ويتبين أمره، وهذا معنى ﴿وَأَنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْخَائِنِينَ﴾.

٥٣- ﴿وَمَا أَتَّبِعُ نَفْسِي^(١) إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ^(٢) بِالسُّوءِ^(٣) إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّي^(٤)﴾ (١) إِنَّ رَبِّي غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿

ثم قال يوسف متواضعاً هاضماً لنفسه، أو أن امرأة العزيز هي القائلة، وهو مقتضي

(١) قرأ نافع وأبو عمرو وأبو جعفر بفتح ياء الإضافة من (نفسى إن) و(ربى إن) وصلاً، والباقون بإسكانها.
(٢) قرأ قالون والبري بإبدال الهمزة الأولى واواً من (بالسوء إلا) مع إدغامها في الواو التي قبلها، فينطق بواو مكسورة مشددة بعدها محققة، ولهما تسهيل الهمزة الأولى مع المد والقصر، وقرأ ورش وقنبل وأبو جعفر ورويس بتسهيل الثانية بين بين، ولورش وقنبل إبدالها حرف مد مع المد المشبع، وأسقط البصري الهمزة الأولى مع القصر والمد، والباقون بالتحقيق.

السياق: قال يوسف أو قالت امرأة العزيز: ومع ذلك فأنا لا أزكي نفسي ولا أنزهها، فإن النفس البشرية تميل إلى الشهوات، وتأمر صاحبها بالسوء، والسوء: كلمة جامعة لأنواع الشر.

والنفس واحدة، ولها ثلاث صفات؛ وهي:

١- إمّا أن تكون نفساً أمارّة، تأمر بالشر وتُسرع إليه.

٢- وإمّا أن تكون نفساً لوّامة، تلوم صاحبها على فعل المنكر وتؤنبّه.

٣- وإمّا أن تكون نفساً مطمئنة، تفعل الخير وتسارع إليه.

والنفس البشرية تأمر صاحبها غالباً بالسوء، إلا مَنْ حفظها الله وعصمها، وهى لها أسباب الرحمة والغفران، إن هذا الكلام الذي ينضح بالإيمان، هو من كلام الصالحين والصدّيقين، وكلام الأنبياء والمرسلين: ﴿وَأَنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي كَيْدَ الْخَائِنِينَ﴾ ﴿إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّي إِنَّ رَبِّي غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾.

قيل: إن هذا الكلام من كلام يوسف عليه السلام، فهو كلام مؤمن واثق بربه، يؤمن بقضائه وقدره، ويهضم نفسه ولا يزيكها - وامرأة العزيز وقتئذ لم تكن قد أسلمت - وأن يوسف عليه السلام قال ذلك وهو في السجن، حين بلغه إعلان براءته.

وبعض المفسرين يرى أن يوسف قال ذلك عند حضوره لدى الملك.

والسياق يقضي بأن الكلام كله من امرأة العزيز بحضرة الملك، وأن يوسف أحضره الملك بعد ذلك وأخرجه من السجن^(١)، لأن الملك قد أرسل بعد ذلك في طلب يوسف؛ ليجعله من خاصته ويوليه وزارة المالية.

يُوسُفُ مُسْتَشَارٌ لِلْمَلِكِ وَوَزِيرٌ لِّلْاِقْتِصَادِ

٥٤- ﴿وَقَالَ الْمَلِكُ ائْتُونِي بِهِ أَسْتَخْلِصُهُ لِنَفْسِي فَلَمَّا كَلَّمَهُ قَالَ إِنَّكَ الْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ﴾

بعد أن ثبتت براءة يوسف، أرسل الملك في طلبه؛ ليجعله مستشاراً له، يستخلصه لنفسه، قال الملك: ائتوني به أ جعله من خُصائني وأهل مشورتي، فلما جاء يوسف وكلمه الملك، طلب منه يوسف أن يقص عليه الرؤيا التي رآها؛ فذكرها الملك على وجه التفصيل، وقال له رأيت كذا وكذا... ثم قمت فزعاً من النوم، قال الملك: والله ما

(١) اختار هذا كثير من المفسرين منهم أبو حيان في «البحر المحيط» (٣١٧/٥) وابن كثير في تفسيره (٣٢٠/٤).

أخطأت منها شيئاً، فما تأويل هذه الرؤيا؟ فأولها يوسف له، فلما كلمه أعجبه كلامه، وزادت مكانته عنده، فقرّبه منه وقال له: أنت مقيم بيننا، أمين على أسرارنا، وكان الملك بحاجة إلى حافظ مدبر يقوم على شؤون موارد أرض مصر في هذا الوقت العصيب الذي عمت فيه المجاعة.

فقال الملك: ومن لي بمن يجمع محصول الزرع، ويخزّنه ويبيعه، ويكفيني العمل فيه؟ وأبدى الملك رغبته في تولي يوسف هذه المهمة حين قال له: إنك اليوم عندنا عظيم المكانة، ومؤتمن على كل شيء، فأبدى يوسف رغبته في ذلك:

٥٥- ﴿قَالَ أَجْعَلْنِي عَلَى خَزَائِنِ الْأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ عَلَيْكُمْ﴾

طلب يوسف من الملك أن يجعله أميناً على خزائن أرض مصر، يحفظ الداخل والخارج من غلاتها، فلا يضيع منه شيء في غير محله، فإن له علماً بكيفية التدبير والإعطاء والمنع، وحسن التصرف، والدافع إلى ذلك هو الرغبة في النفع العام.

وعندئذٍ ذكر له يوسف أن البلاد والشعوب المجاورة مُقْبِلَةٌ على مرحلتين: سبع سنوات خصبة، وسبع سنوات مجدبة (أي: فقر وجوع) وذلك يحتاج إلى صاحب الخبرة وصاحب الأمانة، وعفة اليد؛ كي يمسك بزمام الأمر، وطلب يوسف من الملك أن يجعله والياً على خزائن الأرض في مصر، وهي المستودعات الضخمة، والمخازن الكبرى التي كانت في الإهرامات، يخزّن فيها يوسف الغلال والطعام، وقال للملك: ﴿إِنِّي حَفِيظٌ﴾ لهذه الخزائن ﴿عَلَيْكُمْ﴾ بما يحتاجه العباد من مصالح الدنيا والدين، على علم وبصيرة بما أتولاه، وتقديم الخبرة والسيرة الذاتية.

ومدّح النفس وتزكيتها، بقصد إيصال النفع والخير إلى الناس، أمر غير مكروه، بل هو مطلوب شرعاً.

من يطلب الإمارة لا يُعطاهَا: ويوسف ﷺ لم يطلب الإمارة أو الحكم، بل طلب تقديم خدماته وخبراته في مجال الاقتصاد، لَا سِيَّما في أعوام المجاعة، وقد جاء في الحديث النهي عن طلب الإمارة، وأن من يطلبها لا يُعطاهَا.

في الصحيحين من حديث عبد الرحمن بن سمرة ؓ قال: قال رسول الله ﷺ: «يا عبد

الرحمن بن سمرة: لا تسأل الإمارة، فإنك إن أوتيتها عن مسألة وكُلتَ إليها، وإن أوتيتها عن غير مسألة أعنتَ عليها»^(١).

وفي حديث أبي ذر رضي الله عنه قال: يا رسول الله، ألا تستعملني؟ قال: فضرب بيده على منكبي، ثم قال: «يا أبا ذر، إنك ضعيف، وإنها أمانة، وإنها يوم القيامة خزي وندامة، إلا من أخذها بحقها، وأدى الذي عليه فيها»^(٢).

وهذا محمول على من لا يستطيع القيام بأعباء الولاية، إما لضعف فيه، وإما لعدم خبرة وكفاءة، فإذا كان ذلك متوافراً فلا حرج في ذلك.

ويوسف عليه السلام قد رشحه الملك لولاية تصريف الأموال، وعنده دراية بإدارتها، وقد أخذها بحقها وأبدى رغبته فيها؛ لأنه نبي مرسل، وهو أعلم بمصالح الأمة من غيره، فقد علم عن طريق الوحي، أو تأويل الرؤيا، أن البلاد مقبلة على مرحلة هلاك، ولا سبيل له لرفع هذا الضرر ونفع العباد إلا بطلب الإمارة، فوجب عليه ذلك، هذا من جانب.

ومن جانب آخر فإن الإمساك عن طلب الإمارة يكون في المجتمع المسلم، وعند الحاكم المسلم، ولكن يوسف لم يكن عند ملك مسلم، وقد وجد في نفسه الخبرة، وكفاءة القيام بهذه المهمة، وأنه مقبل على سنوات فقر وجوع، وهو لا يريد لنفسه غُماً من هذه الولاية، وإنما سوف يتولى أمر شعب وشعوب مجاورة في فترة المحنة والجوع والجذب، إذاً فهو لا يطلب الدنيا، ولا يريد لنفسه الولاية، وإنما يريد إنقاذ الشعوب في هذه المحنة، حسبة لله تعالى، وتولي الأعمال لمصلحة العباد، وطلب هذا من قبل السلطان أمر جائز.

وقد أخذ الفقهاء من هذه الآية جواز طلب القضاء لمن يعلم أنه أهل له، وأنه إذا لم يول ضاعت الحقوق. كما أن من يأنس في نفسه أنه أقرأ وأفقه من حضر للصلاة - ما عدا الإمام الراتب - فإن عليه أن يؤمهم، وهكذا.

ولذلك فإن يوسف عليه السلام كان - وهو على خزائن الأرض - يجوع نفسه، فقليل له: لِمَ

(١) «صحيح البخاري» برقم (٦٦٢٢، ٦٧٢٢، ٧١٤٦) و«صحيح مسلم» برقم (١٦٥٢).

(٢) «صحيح مسلم» (١٨٢٥) و«سنن النسائي الكبرى» (٦٤٦١) وغيرهما.

تجوع وأنت على خزائن الأرض؟ فقال: أخاف أن أشبع فأنسى الجائع^(١).

وكان يأمر طباط الملوكة أن يتأخروا في وقت الغذاء لهم؛ كي يشعروا بشيء من الجوع؛ حتى لا ينسوا غيرهم من عوام الشعب.

يُوسُفُ يُتَوَجَّجُ تاجَ الْمُلْكِ:

٥٦- ﴿وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ يَتَّبِعُوا مِنْهَا حَيْثُ يَشَاءُ^(٢) نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَنْ نَشَاءُ وَلَا نُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ ﴿٥٦﴾﴾

وكما أنعم الله على يوسف فأنجاه من الحب، وخلّصه من السجن، قرّبه من الملك، ومكّن له في أرض مصر، يتصرف فيها كيف يشاء بلا منازع، فبعد سنة من طلب الإمارة، دعاه الملك، وقلّده سيفه، وتولّى زمام الأمور في البلاد؛ فدانت له ملوك الأرض.

ويُروى أن الملك قد أسلم على يد يوسف وكثير من الناس، ثم عزل الملك (قطفير)، العزيز، وأسند إلى يوسف مهمته، ولزم الملك بيته، وتوجّج يوسف تاج الملك، وأسلمه إياه، وأجلسه على كرسيه، وأسند إليه مهام البلاد ﴿يَتَّبِعُوا مِنْهَا حَيْثُ يَشَاءُ﴾.

وهو سبحانه يخص بنعمته ونبوته وعطائه الديني والأخروي من يشاء من عباده، ولا يضيع أجر من أحسن شيئاً من العمل الصالح من المحسنين الصابرين على نوائب الدنيا المخلصين لخالقهم، ويوسف من سادات المحسنين. قال تعالى:

٥٧- ﴿وَلَا جُرْ الْآخِرَةَ خَيْرٌ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا وَكَانُوا يَنْقُونَ ﴿٥٧﴾﴾

جمع يوسف بين الإيمان والتقوى، وبالتقوى تُترك المحرمات من كبائر الذنوب وصغائرها، وبالإيمان التام يحصل الإقرار والتصديق، ويتبع ذلك أعمال القلوب والجوارح من الواجبات والمستحبات، وهكذا كافأ الله تعالى يوسف ﷺ على صبره وتقواه وإحسانه، بما يستحقه من خير وسعادة في الدنيا والآخرة، فإن هذا الثواب الجزيل قد أعدّه الله تعالى للمحسنين المتقين، الذين يخافون عقاب الله، ويطيعونه في أمره ونهيه.

(١) البيهقي في «شعب الإيمان» عن الحسن (٥٦٨٣) وأخرج الخطيب مثله في رُواة مالك عن جابر.

(٢) قرأ ابن كثير (حيث نشاء) بالنون، والباقون بالياء.

ويوسف عليه السلام كان منهم، لقد كان مسلماً تقياً حين طلبته امرأة العزيز، وهي ذات منصب وجمال، فقال: إني أخاف الله رب العالمين، وكان مسلماً تقياً حين كان داعياً محسناً إلى رفاقه في السجن، وما أعدّه الله له في الآخرة من الأجر والمثوبة أفضل من مُلك الدنيا. أخرج أبو الشيخ عن زيد بن أسلم: أن الملك قد زوج يوسف امرأة العزيز بعد أن مات زوجها، وكانت بكرًا، وكان زوجها عنيثًا، وأنجبت منه ولدين هما (أفرائيم) و(ميشا) وأن الأول كان والدًا لنون والد يوشع، ورحمة امرأة أيوب.

قالوا: ولما دخل يوسف بزليخا قال لها: أليس هذا خيرًا لك مما كنت تريدين (وكانت تكبره، وكان هو ابن الثلاثين)؟ قالت: لقد كنت امرأة فاتنة جميلة، وكان زوجي لا يأتي النساء وكنت في قُصر ومُلك ودنيا، وكنت في حُسْنِك وهيبتك؛ فغلبتني نفسي وعصمك الله^(١).

وقال الفضيل بن عياض: وقفت امرأة العزيز على ظهر الطريق حتى مرَّ يوسف، فقالت: الحمد لله الذي جعل العبيد ملوكًا بطاعته، وجعل الملوك عبيدًا بمعصيته^(٢).

وهكذا: مكن الله ليوسف في أرض مصر، وجاءت السنوات السبع المخصبة، وفاض النيل بالمياه، وزرع يوسف أرض مصر كلها، وازدادت الخيرات والبركات، وعرف الناس بمقدار حاجاتهم الضرورية في هذه السنوات السبع؛ فأخرجها لهم، واحتفظ بالاحتياطي من الغلال والطعام.

ثم جاءت السنوات المجدبة، وعم الجذب والجوع مصر وغيرها من البلاد المجاورة، ووصلت المجاعة إلى الشام، وأرض كنعان في فلسطين، فأحسن تصريف شؤون الدولة بأمانة ودقة وشفافية.

(١) ينظر في هذا «تفسير الطبري» (٢٢٠/١٣) وابن أبي حاتم (٢١٦١/٧) والحكيم الترمذي (١٨١/٢، ٣/٣٥) و«الدر المنثور» (٢٨٠/٨) وانظر «تفسير فتح القدير» وابن كثير والخازن وابن عطية للآية، ورواه أيضًا ابن إسحاق، وهذه الرواية لم ترد في الكتاب أو السنة.

(٢) «تفسير ابن كثير» (٣٩٧/٤) وابن أبي حاتم (٢١٦٢/٧).

قُدُومُ إِخْوَةِ يُوسُفَ عَلَيْهِ فِي أَزْبَعِ رِحَالَتِ

الرَّحْلَةِ الْأُولَى: مِنْ فَلَسْطِينَ إِلَى مِصْرَ طَلَبًا لِلْقَوْتِ وَعَوْدَتِهِمْ مِنْهَا

٥٨- ﴿وَجَاءَ إِخْوَةُ^(١) يُوسُفَ فَدَخَلُوا عَلَيْهِ فَعَرَفَهُمْ وَهُمْ لَهُ مُنْكَرُونَ﴾

تولى يوسف خزائن مصر، فدبرها أحسن تدبير، حيث زرع الأرض جميعها في السنين المخصبة، وخزّن الحبوب في المخازن الكبرى، وجبا من الأطحمة الكثير فحفظه وضبطه، فلما دخلت السنين المجدة ووصل القحط والجوع إلى فلسطين حيث يقيم يعقوب وبنوه، أرسل يعقوب عليه السلام أبناءه العشرة في رحلتهم الأولى من الشام إلى مصر، وكان ذلك في السنة الثانية من سنوات القحط؛ ليأتوا له بالطعام منها، لما بلغه شأن عزيزها يوسف، وأنه يسد مجاعة الناس في هذه الأيام، وأمسك يعقوب عنده ابنه بنيامين (شقيق يوسف) وجاء هذا العدد للإكثار من الطعام؛ ولثلا يطمع فيهم أحد وهم في الطريق، وقطعوا المسافة من فلسطين عند حدود الشام حتى وصلوا إلى يوسف في مصر.

فلما رأوه كلّموه بالعبرانية؛ فرد عليهم وعرفهم وهم له منكرون لم يعرفوه، فقد كانت المدة من وقت إلقائه في الجب وهو آخر عهدهم بيوسف، إلى ذلك الوقت -وهو عزيز مصر- نحو ثلاثة وعشرين عامًا، وكان إخوة يوسف رعاة إبل وغنم، فأصابهم الجوع، وكان الناس يأتون إلى مصر بمتارون منها، وكان يوسف واليًا على الناس، فلا يعطي الوارد عليه أكثر من حِمْلٍ بغير من الحنطة.

فلما قدم إخوته عليه، عرفهم ولم يعرفوه لبُعد عهدهم به، وقد تقدّمت به السن، وأصبح ملكًا لمصر، وتغيّر لسانه من العبرية إلى المصرية، وتغيرت هيئته وملامحه. قال تعالى:

٥٩- ﴿وَلَمَّا جَهَّزَهُمْ بِجَهَازِهِمْ قَالَ أَتُنُونِي بِأَنْجَ لَكُمْ مِنْ أَيْكُمُ الْآ تَرَوْتُمْ أَتَنِ^(٢) أَوْفِي الْكَيْلِ وَأَنَا خَيْرُ الْمُنْزِلِينَ﴾

أمر يوسف بإعطاء إخوته نصيبهم من الطعام بعد إكرامهم وحسن ضيافتهم، وكانت التعليمات تقضي أن يُعطى لكل فرد حمل بغير واحد لمدة عام لا يزيد عن ذلك، وكان

(١) سهل الهمزة الثانية من (جاء إخوة) نافع وأبو جعفر وابن كثير وأبو عمرو ورويس، وحققها الباقون.

(٢) فتح ياء الإضافة من (إني أوف) نافع وأبو جعفر، وأسكنها الباقون.

يباع القمح بالأموال، وبالمتاع، والبضائع والعقار، وغير ذلك بطريق التبادل والمقايضة، وجاء إخوة يوسف بثمن الميرة معهم، قيل: إنه كان من الفضة، وقيل: إنه نعال وجلد، وقيل: إنه أوعية، وقيل غير ذلك.

﴿وَلَمَّا جَهَّزَهُمْ بِجَهَازِهِمْ﴾ وأوفى لهم الكيل أراد أن يتعرف على أخبارهم، بما علّمه الله من حيل، فأتى بترجمان وسألهم: من أين أنتم؟ قالوا له: إننا أولاد نبي الله يعقوب، جئنا من فلسطين وقد أصابتنا المجاعة، وعلمنا بأمرك؛ فجئنا نبتاع الطعام، فقال لهم: لعلكم عيون (أي: جواسيس) تعملون لحساب بلد آخر، وجئتم تعرفون عورة بلادي^(١).

قالوا: معاذ الله، إننا أبناء يعقوب، وهو يهديك السلام، ويدعو لك، فسألهم هل لديكم إخوة آخرون؟ قالوا: نعم، لنا أخ صغير، قد هلك في البرية (يقصدون يوسف) ولنا أخ آخر من أبنائنا أسسكه أبوه خوفًا عليه لصغره، وهذا بغيره معنا، فقال لهم من باب الترغيب: إن كنتم صادقين في كلامكم أريد أن تأتوني به معكم في المرة القادمة؛ ليكون هذا دليلًا على صدقكم ﴿أَلَا تَرَوْنَ أَنِّي أُوفِي الْكَيْلَ﴾ فلا أبخسكم شيئًا، وسوف أزيدكم حمل بغير لأخيكم، وأنا من المضيفين لكم.

٦٠ - ﴿فَإِنْ لَّمْ تَأْتُونِي بِهِ فَلَا كَيْلَ لَكُمْ عِنْدِي وَلَا تَقْرَبُونِ﴾ ﴿٦٠﴾

فإن لم تأتوا به معكم في المرة القادمة، فلا تعودوا إلى هذه البلاد، وليس لكم عندي طعام أكله لكم، فقد رغبهم ثم توعددهم.

قال أبو حيان: والظاهر أن كل ما فعله يوسف كان بوحى من الله، وإلا فمقتضى البر أن يبادر إلى أبيه ويستدعيه، لكن الله تعالى أراد أن يكمل أجر يعقوب ومحنته، وليتم تفسير الرؤيا^(٣). قال تعالى:

(١) استبعد هذا الفخر الرازي في تفسيره، ونقله كثير من المفسرين عن السدي وغيره، منهم: ابن أبي حاتم وابن كثير وابن عطية والقرطبي والخازن والشوكاني والجلالين وابن الجوزي وجاء ذلك في التوراة في الإصحاح الثاني والأربعين من سفر التكوين.

(٢) قرأ يعقوب بإثبات الياء من (تقربون) وصلًا ووقفًا، والباقون بحذفها في الحاليين.

(٣) «تفسير البحر المحيط» (٣٢٢/٥).

٦١- ﴿قَالُوا سُرُودٌ عَنْهُ أَبَاهُ وَإِنَّا لَفَعْلُونَ﴾

هذا وعد منهم ببذل الجُهد في إقناع أبيهم أن يرسله معهم، فقالوا: سنحاول ونجتهد في الإتيان به معنا، وقد دل هذا على أن يعقوب كان لا يصبر على فراق بنيامين، وكان يتسلى به بعد رحيل يوسف، فلذلك احتاج إلى مراودة في شأنه:

٦٢- ﴿وَقَالَ لِفَتْنِهِ^(١) اجْعَلُوا يَضَعُكُمْ فِي رِحَالِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَعْرِفُونَهَا إِذَا انْقَلَبُوا إِلَى أَهْلِهِمْ لَعَلَّكُمْ يَرْجِعُونَ﴾

وأمر يوسف عماله أن يعيدوا ثمن الطعام الذي أتوا به معهم من الشام (فضة أو غيرها) وأن يوضع لهم في رحالهم التي جاؤوا بها؛ حتى يجدوه عندما يعودون إلى بلادهم؛ ليكون هذا مرغبا لهم في العودة بأخيهم بنيامين، وحرصا منه على أن يكون عند أبيه شيء من المال؛ ولأنه لا ينبغي له أن يأخذ ثمن هذا الطعام من إخوته، مع شدة حاجتهم له، أو ليعلمهم الكرم والسخاء وحسن الضيافة، وحتى يقدروا إكرامه لهم؛ فيرجعوا إليه طمعا في عطائه، عندما يفتحون أوعيتهم ويجدون أن متاعهم رُد إليهم. قال تعالى:

٦٣- ﴿فَلَمَّا رَجَعُوا إِلَى أَبِيهِمْ قَالُوا يَتَابَانَا مِّنَ الْكِتْلِ فَارْسِلْ مَعَنَا أَخَانَا نَكْتَلْ^(٢) وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾

هذه الآية تحكي قول إخوة يوسف لأبيهم فور عودتهم إليه: ﴿فَلَمَّا رَجَعُوا إِلَى أَبِيهِمْ﴾ بالطعام من أرض مصر ﴿قَالُوا يَتَابَانَا﴾ إنا قدمنا على خير رجل، فأكرمنا وأحسن وفادتنا، وقال لنا: إذا رجعتم إلى أبيكم فأقرئوه مني السلام، ولكنه سوف يمنع منا الكيل في المرات القادمة ما لم نأخذ معنا بنيامين، فأرسل معنا أخانا؛ حتى نأخذ حمل بغير من الطعام لكل منا، ونزداد حملا لأخيना، ونتعهد لك بحفظه، وقيل: إنهم طلبوا منه طعاما لأبيهم وأخيهم، فقال: حتى تُحضروا لي أحاكم، ولما كان لهم سابقة مع يوسف بادروا أباهم قائلين: ﴿وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ فسنرده عليك ولن يناله مكروه.

قال ابن إسحاق: كان منزل يعقوب وبنيه -فيما ذكر لي بعض أهل العلم- بالعربات، وهي

(١) قرأ حفص وحمة والكسائي وخلف (لفتيانه) جمع كثرة، وقرأ الباقر (لفتيته) جمع قلة لفتى.

(٢) قرأ حمزة والكسائي وخلف (يكتل) بالياء والباقر بالنون، على عودة الضمير إلى بنيامين في الأول، وإلى الإخوة في الثاني.

بلاد في جبل على طريق مصر من أرض فلسطين بغور الشام، وقال بعضهم: كان بالأولاج - وهو مكان في شعب بنواحي حسمى - وكان يعقوب صاحب بادية بها شياه وإبل^(١).

٦٤ - ﴿قَالَ هَلْ آمَنْتُمْ عَلَيَّ إِلَّا كَمَا آمَنْتُمْ عَلَىٰ أَخِيهِ مِنْ قَبْلُ فَاللَّهُ خَيْرٌ^(٢) حَفِظْتُ^(٣) وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ ﴿٦٤﴾﴾

لقد أثار طلب الإخوة كوامن الأحزان والآلام في نفس يعقوب، فهم الذين قالوا في شأن يوسف وهو صغير: ﴿أَرْسَلْهُ مَعَنَا غَدًا يَزْتَعِ وَيَلْعَبْ وَإِنَّا لَهُ لَحَفِظُونَ ﴿٦٢﴾﴾ ولذلك فقد رد عليهم في استنكار وألم بعد أن ألحوا عليه في إرسال أخيه معهم وتعهدوا بحفظه، قال لهم أبوهم: كيف آمنكم على بنيامين وقد آمنتم على أخيه يوسف من قبل؟ وقد التزمت بحفظه ففعلتم به ما فعلتم، ولم توفوا بعهدكم، فلا أثق بالتزامكم وتعهدكم بحفظه.

وأمام إلحاحهم وإلحاح الحاجة، فوَّض يعقوب أمره إلى الله عز وجل قائلاً: ﴿فَاللَّهُ خَيْرٌ حَفِظْتُ﴾ وحفظه خير من حفظكم ﴿وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾ وأرجو منه سبحانه أن يرحمني؛ فيحفظه ويرده عليّ؛ فأرسله معهم، وهو يعلم أن الحسد الذي كان بينهم وبين يوسف أقل منه فيما بينهم وبين بنيامين.

قال كعب الأحبار: إن الله تعالى أجاب يعقوب: وعزتي وجلالي لأردنَّ عليك كليهما (أي: يوسف وبنيامين) حين قال: ﴿فَاللَّهُ خَيْرٌ حَفِظْتُ وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾. قال تعالى:

٦٥ - ﴿وَلَمَّا فَتَحُوا مَتَاعَهُمْ وَجَدُوا بِضَاعَتَهُمْ رُدَّتْ إِلَيْهِمْ قَالُوا يَا أَبَانَا مَا نَبْغِي هَٰذِهِ بِضَاعَتُنَا رُدَّتْ إِلَيْنَا وَنَمِيرُ أَهْلَنَا وَنَحْفَظُ أَخَانَا وَنَزْدَادُ كَيْلَ بَعِيرٍ ذَٰلِكَ كَيْلٌ يَسِيرٌ ﴿٦٥﴾﴾

ولما وصلوا بلدهم، وأنزلوا أمتعتهم وفتحوها وجدوا بضاعتهم (أي: ثمن الطعام) الذي دفعوه إلى يوسف رجع معهم، فقالوا: يا أبانا، أي شيء نريد؟! وماذا نطلب أكثر من هذا؟ هذا ثمن بضاعتنا رده العزيز إلينا، فكن مطمئناً على أخينا وأرسله معنا؛ كي نمير أهلنا، ونحمل لهم الطعام من مصر ﴿وَنَحْفَظُ أَخَانَا﴾ بنيامين، فلا يُصاب بشيء مما تخاف، ونزداد أيضاً حمل بعير من الطعام لأخينا بنيامين، فإن عزيز مصر يكيل لكل واحد

(١) ينظر: ابن أبي حاتم (٧/٢١٦٥).

(٢) قرأ حفص وحزمة والكسائي وخلف (خير حافظاً) تميز أو حال، والباقون (خير حفظاً) تميز.

حمل بغير واحد، وذلك الطعام الذي نأتي به، أو الذي نزداده لأخيـنا ﴿كَيْلٌ سِيرٌ﴾ فهو قليل لا يكفينـا، أو هو سهل وهين على المـلـك.

٦٦- ﴿قَالَ لَنْ أَرْسِلَهُ مَعَكُمْ حَتَّى تُؤْتُونِ^(١) مَوْثِقًا مِنَ اللَّهِ لَتَأْتُنِي بِهِ إِلَّا أَنْ يُحَاطَ بِكُمْ فَلَمَّا آتَوْهُ مَوْثِقَهُمْ قَالَ اللَّهُ عَلَى مَا نَقُولُ وَكِيلٌ ﴿١٦﴾﴾

قال لهم يعقوب: لن أتركه يذهب معكم حتى تؤتوني عهدًا مؤكدًا موثقًا باليمين بالله أن تردوه إليّ سالمًا معافى، إلا أن تغلبوا عليه فلا تستطيعوا تخليصه، أو يأتيكم شيء قاهر لا تطيقونه؛ فتهلكوا جميعًا، أو يحيط بكم أمر مفاجئ فيغلبكم، ولا تستطيعون له ردًا.

فلما عاهدوا الله تعالى على طلب أبيهم، وأقسموا على المحافظة على أخيهم، قال يعقوب: الله رقيب وحسيب، وشهيد علينا وعليكم، وقد فوضت أمري إلى الله، فهو الذي سيحاسبكم ويجازيكم إن كنتم تريدون الغدر أو الوفاء، وهو حسبي ونعم الوكيل، وأرسل معهم أخاهم بنيامين، متوكلاً على الله تعالى.

وَصِيَّةُ يَعْقُوبَ لِأَبْنَائِهِ عِنْدَ السَّفَرِ فِي الرِّحْلَةِ الثَّانِيَةِ

٦٧- ﴿وَقَالَ يَبْنَئِي^(٢) لَا تَدْخُلُوا مِنْ بَابٍ وَاحِدٍ وَادْخُلُوا مِنْ أَبْوَابٍ مُتَفَرِّقَةٍ وَمَا أَغْنَى عَنْكُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا لِلَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُمْ وَعَلَيْهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ ﴿١٧﴾﴾

هذه هي الرحلة الثانية لإخوة يوسف من فلسطين إلى مصر ومعهم هذه المرة بنيامين، حيث أشفق يعقوب على أبنائه، وخاف عليهم من الحسد -كما في أصح الأقوال- أو خاف عليهم أن يُتَّهموا بالجاسوسية أو السرقة أو أن الملك يظن فيهم شيئًا، فعددهم يسترعي الانتباه، وهم غرباء، وقد يحدث لهم اغتيال، وكانوا قد اشتهروا في مصر وهم في الرحلة الأولى وتحدث الناس عنهم.

(١) قرأ أبو عمرو وأبو جعفر بإثبات الياء وصلًا من (حتى تؤتوني) وابن كثير ويعقوب بإثباتها في الحالين، والباقيون بحذفها في الحالين، وأبدل همزتها واوًا الأصهباني ورش وأبو عمرو بخلف عنه، وأبو جعفر، وكذا حمزة عند الوقف.

(٢) وقف يعقوب على (يا بني) بهاء السكت بخلف عنه، ووقف غيره بسكون الياء المشددة.

وقيل: إن يعقوب كان يعلم أن ابنه يوسف ملك مصر، وكان غرضه أن يصل بنيامين إليه في وقت الخلوة، وكان لمصر آنذاك أربعة أبواب، وكانت مدينة منفيس من أعظم مدن العالم، فقال لهم: إذا دخلتم مصر، فلا تدخلوا جميعاً من باب واحد، فأنتم أحد عشر رجلاً أبناء رجل واحد، وبهيئة واحدة ومنظر واحد، ولكن ادخلوا من أبواب متعددة.

وإني أوصيتكم بهذا ولا أدفع عنكم شيئاً قضاء الله عليكم، فلا يغني الحذر من القدر، ولا أمنع عنكم قضاء الله وقدره، ولكننا نأخذ بالأسباب، والعين حق، ولو كان شيء سابق القدر لسبقته العين، وما الحكم في كل شيء إلا لله وحده، لا ينازعه منازع، ولا يدافعه مدافع.

وقد اعتمدت عليه ووثقتُ به في كل أموري، وعليه وحده يعتمد المؤمنون الصادقون، فالتوكل على الله والأخذ بالأسباب كلاهما مطلوب، إلا أن العبد عندما يأخذ بالأسباب عليه أن يجزم بأن الحكم لله وحده، فهو النافع الضار، لا راد لقضائه ولا معقب لحكمه، وهو سبحانه الفعال لما يريد، وقد ربط جل شأنه الأسباب بالمسببات، والتائج بالمقدمات.

ومعنى ﴿إِنَّ الْحُكْمَ إِلَّا لِلَّهِ﴾ أي: لا يتم أمر إلا ما أَراده الله، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ بَلِّغُ أَمْرِهِ﴾ [الطلاق: ٣] وعلى العبد أن يأخذ بالأسباب، كما قال تعالى: ﴿وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ﴾ [البقرة: ١٩٥] وقال: ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا خُذُوا حِذْرَكُمْ﴾ [النساء: ٧١] فإن حدث للعبد غير ما سعى لأجله من أسباب؛ فقد حصل له فائدة امتثال أمر الله تعالى.

وقد جمع يعقوب في نصيحته لأبنائه بين الأخذ بالأسباب في قوله: ﴿وَادْخُلُوا مِنْ أَبْوَابٍ مُتَفَرِّقَةٍ﴾ وبين الاعتماد على الله تعالى في قوله: ﴿وَمَا أَغْنِي عَنْكُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ﴾ وختم ذلك ببيان أن التوكل على الله مع الأخذ بالأسباب هو شأن المؤمنين الواثقين بربهم ﴿وَعَلَيْهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ﴾ وفي هذا يبين النبي ﷺ أن الطيور لا يأتيها رزقها إلا مع السعي، فهي تذهب في الصباح جائعة وتعود إلى عشها في المساء وقد امتلأت حواصلها بالقوت.

ويقول عمر رضي الله عنه: لا يقعد أحدكم عن طلب الرزق، ثم يمد يديه إلى السماء، ويقول: اللهم ارزقني، فإن السماء لا تمطر ذهباً ولا فضة.

وُصُولُ إِخْوَةِ يُوسُفَ إِلَى مِصْرَ فِي الرِّحْلَةِ الثَّانِيَةِ

٦٨- ﴿وَلَمَّا دَخَلُوا مِنْ حَيْثُ أَمَرَهُمْ آبُؤُهُمْ مَا كَانَتْ يُغْنِي عَنْهُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا حَاجَةٌ فِي نَفْسِ يَعْقُوبَ قَضَاهَا وَإِنَّهُ لَذُو عِلْمٍ لِمَا عَلَّمْنَاهُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٦٨﴾﴾

لقد بين الله سبحانه أن الأبناء امتثلوا أمر أبيهم، وقضوا الحاجة التي في نفسه، وهو خوفه عليهم من الحسد، ودخلوا من أبواب متعددة.

ويبين الله جل شأنه أن هذا من تعليم الله ليعقوب، فهو صاحب علم من عند الله، علّمه إياه عن طريق الوحي الإلهي، وقد علّمه ربه عواقب الأمور، ودقائق الأشياء، ولكن أكثر الناس لا يعلمون أن إرادة الله نافذة، وعلّمه بخلقه شامل محيط، وقد منح الله يعقوب شيئاً من علمه الواسع؛ فحفظ ما علّمه إياه وعمل به، ومن لم يعمل بعلمه لا يكون عالمًا، وهذا ثناء من الله تعالى على يعقوب ﷺ.

٦٩- ﴿وَلَمَّا دَخَلُوا عَلَى يُوسُفَ ءَاوَىٰ إِلَىٰ أَخَاهُ قَالَ إِنِّي أَنَا (١) أَخُوكَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٦٩﴾﴾

وصل إخوة يوسف قادمين من بادية الشام إلى مصر، ومعهم هذه المرة أخوهم بنيامين، فلما أذن لهم في الدخول قالوا ليوسف: هذا أخونا قد جئناك به كما أمرتنا، قال: أحسبتم وأجبتهم، ثم أكرمهم وأحسن ضيافتهم، ولمّا أعد لهم الطعام، أجلس كل اثنين منهم على مائدة، وبقي بنيامين وحده، فأجلسه معه، فلما جاء الليل، نام كل اثنين منهم على فراش، وبقي بنيامين دون رفيق، فضمه إليه، فلما خلا به سأله عن اسمه، واسم أمه، وعدد إخوته، ثم قال له: هل لك أخ من أم؟ قال: كان لي أخ شقيق، ولكنه هلك، قال يوسف: أتحب أن أكون بدلاً منه؟ قال: ومن يجد أخاً مثلك، ولكن لم يلدك يعقوب ولا راحيل، فبكى يوسف، وقام إليه وعانقه.

ويطوي القرآن الكريم هذه الأحداث، وما عساه أن يكون قد تمّ عند هذا اللقاء،

(١) قرأ نافع وابن كثير وأبو عمرو وأبو جعفر بفتح ياء الإضافة وصلّا من (إني أنا) والباقون بإسكانها.

(٢) قرأ نافع وأبو جعفر بإثبات ألف (أنا) وصلّا ووقفًا، فيكون من قبيل المد المنفصل، والباقون بحذف الألف وصلّا وإثباتها وقفًا.

ويكتفي السياق بأن يوسف قد ضم إليه أخاه، وقال له: ﴿إِنِّي أَنَا أَخُوكَ﴾ أي: فلا تحزن على شيء مضى، فإن الله قد نجانا من الهلاك، وأحسن إلينا، وجمع بيننا.

ثم أسرَّ يوسف إلى بنيامين، بأنه سيحتال في بقاءه معه، وأنه سيوفي لإخوته المكيال من الطعام، ويجعل لكل واحد منهم حمل بغير، ويجعل له معهم حمل بغير باسمه، ويدس صواعه في رحله، ثم ينادى عليهم بالسرقة، فيكون ذلك سبباً لبقائه معه؛ لأن شريعة يعقوب تقضي بأن يؤخذ السارق ذاته في سرقة، فيُسترق لمدة سنة عند مَنْ سرقه، فوافق بنيامين على هذه الخطة، وهذا ما تشير إليه الآية.

أي: ولما دخل إخوة يوسف عليه في منزل ضيافته، ومعهم شقيقه، ضمه يوسف إليه، وقال له سرّاً: إني أنا أخوك، فلا تحزن ولا تغتم بما صنعوه بي فيما مضى، وأمره بكتمان ذلك عنهم.

صَوَاعُ الْمَلِكِ فِي رَحْلِ بَنِيَامِينَ

٧٠- ﴿فَلَمَّا جَهَّزَهُمْ بِجَهَّازِهِمْ جَعَلَ السَّقَايَةَ فِي رَحْلِ أَخِيهِ ثُمَّ أَذَّنَ مُؤَذِّنٌ^(١) ابْتِهَاً الْوَيْلَ إِنَّكُمْ لَسَّرِقُونَ﴾

هذا بيان لما فعله يوسف مع إخوته؛ كي يُبقي شقيقه معه حتى لا يسافر معهم عند الرحيل، فلما جهّزهم يوسف وأعد حمل بغير من الطعام لكل منهم ﴿جَعَلَ السَّقَايَةَ﴾ أي: صواع الملك، وهو إناء كان يكتال به للناس، وكان يقدر بمقدار رطل وثلث، وكانوا يشربون فيه الخمر، وهو يشبه طاس الفضة أو الذهب، كان يشرب فيه الملك، ثم جُعل صواعاً يكال به الطعام؛ لعزّته وندرته؛ لئلا يكال بغيره.

وقيل: إنه كان يُستخدم للشراب من ناحية، ويستخدم قعره المجوّف من الناحية الأخرى في كيل القمح، وكان هذا الصواع في الغالب من الذهب.

أمر يوسف عُملّاه بوضع هذا الصواع في متاع أخيه بنيامين من حيث لا يشعر أحد، وخرجوا من مصر راجعين إلى بلادهم، ولما فارقوا العمران، أرسل يوسف خَلْفَهُم منادياً يقول: يا أصحاب العير المحملة بالطعام، إنكم لسارقون فقفوا للتفتيش، وإعطاء الجائزة

(١) قرأ الأزرق وأبو جعفر بإبدال الهمزة واوًا من (مؤذن) وصلًا ووقفًا، وكذا حمزة عند الوقف.

لمن يأتي بالمسروق.

فالمؤذن: هو المنادي، والعمير: اسم للإبل التي تحمل الطعام، وتطلق العير على قافلة الحمير، وغلب استعمالها على كل قافلة تحمل الزاد وألوان التجارة.

وهل كان هذا النداء بأمر يوسف، أم كان بغير أمره؟ قولان:

١- ليس في القرآن ما يدل على أنهم قالوا ذلك بأمر يوسف، وظاهر الحال أنهم طلبوا السقاية فلم يجدوها.

٢- إن كان ذلك بأمره، فيَحْمَلُ على أنه على سبيل الاستفهام، أو التعريض بسرقة يوسف من قبل، وفي المعارض مندوحة عن الكذب، أو لأن أخاه لن يتألم بذلك؛ لأنه أعلمه مسبقاً بما سيكون، وهذا من الكيد الذي يَسْرُه الله ليوسف، ولعله كان بوحى منه سبحانه.

٧١- ﴿قَالُوا وَقَبِلُوا عَلَيْهِمْ مَاذَا تَفْقِدُونَ﴾

أقبل إخوة يوسف على الذين ينادون عليهم بالسرقة، قائلين لهم في دهشة وفزع: ماذا تفقدون؟ لم يجيبوهم قائلين: ما سرقنا، وإنما سألوهم مستفسرين: ماذا تفقدون؟ وإقبالهم عليهم فيه إبعاد للتهمة عنهم، فإن السارق ليس له همٌّ - في العادة - إلا الهرب والبعد، وهؤلاء جاؤوا مقبلين على المنادي لنفي التهمة عنهم، وكارد المنادي ومن معه أنهم:

٧٢- ﴿قَالُوا نَفَقَدْ صَوَاعَ الْمَلِكِ وَلِمَن جَاءَ بِهِ حِمْلُ بَعِيرٍ وَأَنَا بِهِ زَعِيمٌ﴾

أي: قال المنادي ومن معه: نفقد صواع الملك الذي يكال به الطعام، وقد أعدنا مكافأة لمن جاء بهذا الصواع؛ وهي حمل بعير من القمح زائد على حملة الخاص به، قال المنادي: وأنا بهذا الحمل كفيل وضامن بتأديته لمن يأتي بالصواع.

٧٣- ﴿قَالُوا تَاللَّهِ لَقَدْ عَلِمْتُمْ مَّا جِئْنَا لِنُفْسِدَ فِي الْأَرْضِ وَمَا كُنَّا سَارِقِينَ﴾

أقسم إخوة يوسف قائلين: والله لقد تأكدتم من سلوكنا وأخلاقنا، أننا ما جئنا أرض مصر لنتكبد فيها ما لا يليق، والسرقة ليست من صفاتنا.

والتاء لا تدخل في القسم إلا على اسم الجلالة، وهؤلاء قد أقسموا على أمرين:

قالوا أولاً: ما جئنا من الشام لنفسد في أرض مصر، وقالوا ثانياً: وما كنا سارقين.

واستشهدوا بمعرفة أهل مصر لهم، وأنهم على الطاعة والخير والبر، واشتهارهم بالعفة والأمانة، وأنهم أبناء نبي الله يعقوب، وأصحاب يوسف وحاشيته يعلمون أنهم أهل أمانة وأهل ديانة، وأنهم لم يسرقوا قبل ذلك، واستدلوا على أمانتهم بأمرين:

الأمر الأول: أنهم أعادوا البضاعة التي وضعها يوسف في رحالهم عند عودتهم من الرحلة الأولى، حين وجدوها معهم في المتاع، وهذا من باب الديانة والأمانة، ولو كانوا غير ذلك ما أرجعوا هذه البضاعة من الشام إلى مصر مرة أخرى.

الأمر الثاني: أنهم لما دخلوا أرض مصر كمموا أفواه الدواب؛ حتى لا تأكل شيئاً من الزروع أو النبات أو الثمار، بخلاف جميع الوفود القادمة؛ لأخذ الطعام آنذ، وهذا من باب الأمانة وشدة الحرص؛ حتى لا تأكل دوابهم شيئاً غير مشروع، أو تفسد الزرع وتضره.

ولما كانت السرقة من أعظم الفساد في الأرض أقسموا على أنهم غير سارقين ولا مفسدين، لأنهم عرفوا أن حاشية الملك سبروا أحوالهم، وعرفوا عفتهم وورعهم، وأن هذا الأمر لا يقع منهم.

٧٤- ﴿قَالُوا فَمَا جَزَاؤُهُ إِنْ كُنْتُمْ كَاذِبِينَ﴾ ﴿٧٤﴾

أي: قال المكلفون بالبحث عن المكيال لإخوة يوسف: ما جزاء السارق في شريعة يعقوب؟ وما عقوبته عندكم إن كنتم كاذبين في قولكم وتبين أنكم سارقون؟

٧٥- ﴿قَالُوا جَزَاؤُهُ مَنْ وَجَدَ فِي رَحْلِهِ فَهُوَ جَزَاؤُهُ كَذَلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ﴾ ﴿٧٥﴾

قال إخوة يوسف: جزاء السارق في شريعتنا أن يؤخذ رقيقاً عند من سرقه، فيسلم إليه بسرقة ويسترقه لمدة عام كامل، فهذا جزاء من ظلم بالسرقة، وهذا ديننا وستنا فيمن سرق، قالوا ذلك وهم واثقون من براءتهم، مستنكرون لهذه التهمة.

٧٦- ﴿فَبَدَأَ بِأَوْعِيَتِهِمْ قَبْلَ وِعَاءِ أَخِيهِ ثُمَّ اسْتَخْرَجَهَا مِنْ وِعَاءِ أَخِيهِ كَذَلِكَ كِدْنَا لِيُوسُفَ

(١) أبدل الهمزة الثانية من (وعاء أخيه) ياء خالصة مفتوحة نافع وأبو جعفر وابن كثير وأبو عمرو ورويس، وحققها الباقون، ولا خلاف في تحقيق الأولى.

مَا كَانَ لِیَأْخُذَ أَخَاهُ فِي دِينِ الْمَلِكِ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ نَرْفَعُ^(١) دَرَجَتَیْ^(٢) مَنْ نَشَاءُ وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ ﴿٧٦﴾

أمر يوسف ﷺ بتفتيش الأوعية، بعد عودة إخوته إليه، وبدأ - من باب نفي التهمة - بتفتيش أوعية الإخوة قبل وعاء بنيامين؛ إحصاءً لما دبره لاستبقاء أخيه معه، فلم يجد شيئاً، وكان يستغفر الله عند فتح كل متاع، ولما وصل إلى متاع بنيامين في النهاية يُروى أنه قال: ما أظن أن هذا أخذ شيئاً، وأراد أن يترك متاعه دون تفتيش، قالوا: لا والله حتى تفتح متاعه، ويطيب خاطرك بتفتيشه، فبحث في وعاء أخيه بنيامين، ثم استخرج منه الإئاء، كذلك يَسِّرنا ليوسف وعلمناه هذه الحيلة، ودبرنا له السبب؛ ليبقي له أخاه.

ثم من الذي تولى التفتيش؟ قيل: هو يوسف بنفسه، وهذا مقتضى السياق.

وقيل: هو المنادي وَمَنْ معه، وأنهم الذين أخرجوا الصواع من رَحْل بنيامين.

والكيد من البشر: هو التحايل على الأمر، أما الكيد من الله سبحانه: فهو تدبير الأمر وتهيئة الأسباب، وقد ألهم الله سبحانه يوسف وعلمه، ودبر له أن يضع الصواع في رحل أخيه؛ ليلزمه إليه بطريقة لا يستطيعون دفعها، وألهم الله إخوة يوسف أن ينطقوا بالحكم فقالوا:

﴿مَنْ وُجِدَ فِي رَحْلِهِ فَهُوَ جَزَاءُ﴾ بحيث يبقى السارق عند المسروق منه مدة عام رقيقاً، وهذا كله من تدبير الله ﷻ، وهو من الكيد الذي يقول الله عنه: ﴿كَذَلِكَ كِدْنَا لِيُوسُفَ﴾ وما كان له أن يأخذ أخاه في حكم ملك مصر؛ إذ ليس في شريعته أن يملك السارق مقابل سرقة.

ودين الملك: يعني حُكْم السارق في قانون أهل مصر ونظامهم وقتئذٍ، فعبر عن النظام بأنه الدين.

وشريعة أهل مصر في ذلك أن يُضرب السارق، وأن يغرم ضِعْفِي مقدار السرقة، ولم يكن في نظام الملك وقضائه أن يُسرق السارق عند المسروق لمدة عام، ولو أنه حكم

(١) قرأ يعقوب بالياء في (نرفع) و (نشأ) والفاعل ضمير يعود على الله تعالى، والباقون بنون العظمة.

(٢) قرأ عاصم وحمزة والكسائي بالتثنية في (درجات) على أنه منصوب على الظرفية، و(من) مفعول؛ أي: يرفع من يشاء مراتب ومنازل، والباقون بغير تثنية على الإضافة، فدرجات مفعول به.

بالنظام المعمول به عند ملك مصر آنئذ لم يتمكن يوسف من إبقاء بنيامين معه، وهذا معنى: ﴿مَا كَانَ لِأَخَاهُ فِي دِينِ الْمَلِكِ﴾ وقد علق ذلك بمشيئة الله تعالى؛ أي: إلا أن ألهم الله يوسف أن يأخذ بشريعة يعقوب في هذا الحكم؛ لئتم له استبقاء أخيه عنده، وكل أمر معلق بمشيئة الله سبحانه.

وهكذا يرفع الله منازل من يشاء في الدنيا على غيره، وقد رفع الله درجة يوسف على إخوته بالعلم والنبوة والملك، وفي هذا إشارة إلى أن هذه الحيلة كانت بتعليم الله تعالى ليوسف وإلهامه له، وفوق كل صاحب علم من هو أعلم منه، إلى أن ينتهي العلم إلى رب العزة سبحانه، فمنه سبحانه بدأ العلم وتعلم العلماء، وإليه تعالى يعود العلم وينتهي، وكان إخوة يوسف علماء، وكان يوسف أعلم منهم، ويجب على العالم أن يتهم نفسه، ويدرك أن هناك من هو أعلم منه.

إِخْوَةُ يُوسُفَ يَزْمُونَهُ بِالسَّرِقَةِ

٧٧- ﴿قَالُوا إِن يَسْرِقْ فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَّهُ مِنْ قَبْلُ فَأَسْرَهَا يُوسُفُ فِي نَفْسِهِ وَلَمْ يُبْدِهَا لَهُمْ قَالَ أَنْتُمْ شَرُّ مَكَانٍ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَصِفُونَ﴾ (٧٧)

أقبل إخوة يوسف على بنيامين -لما وجد الصواع في رحله- يؤنبونه ويوبّخونه، قالوا له: يا ابن راحيل (أمه) لقد فضحتنا وسوّدت وجوهنا، وقالوا للملك (يوسف): هذا شأنه وشأن أخيه الهالك، فقد كان سارقاً (يقصدون يوسف) وهما من أم واحدة، وهذه أخلاقهم.

وهذا الكلام مجرد كذب؛ لنفي التهمة عنهم، ولتبرئة أنفسهم، وليبينوا أنهم مختلفون في أخلاقهم عن بنيامين وأخيه، وهذا الكذب ليس بغريب عليهم، ففي أول السورة بيان أنهم كذبوا على أبيهم، وجاؤوا بقميص ملطخ بالدم، وقالوا: هذا دم يوسف، ومن يكذب بالفعل والقول أهون ممن يكذب في القول فقط، والذي قالوه هنا مجرد كذب في الكلام، فنسبتهم السرقة إلى يوسف كذب محض، بدليل كذبهم السابق.

قال بنيامين: إن الذي وضع الصواع في رحلي هو الذي وضع البضاعة في رحالكم، وكأنهم لم ينتبهوا لهذا الجواب واستبعدوه.

والمفسرون يذهبون في تقصّي هذه السرقة على أقوال: ماذا سرق يوسف على فرض

صحة الادعاء؟:

١- قالوا: إن يوسف عليه السلام سرق صنماً كان يعبده جده من جهة أمه، فأخذه وكسّره وألقاه في الطريق، فسّموا ذلك سرقة^(١)!!

٢- وقيل: إنه كان يأخذ الطعام من البيت إذا سأله مسكين أو جائع، فربما أعطاه بيضة أو دجاجة ونحو ذلك، فعدّوا هذا سرقة!!

٣- وقيل: إن يوسف كانت له عمّة (أخت إسحاق، جده) وكانت قد احتضنته وهو طفل صغير، ثم أراد يعقوب أن يأخذه منها بعد سنوات، وكانت تحبه حباً شديداً، فأرادت أن تحتال في بقاء يوسف معها، وكان عندها منطقة إسحاق (وهي ما يشبه الحزام) وهو موروث عن إبراهيم إلى إسحاق، ثم انتقل إلى أكبر الذرية، وهي هذه العمّة، فاحتالت بأن تضع هذه المنطقة تحت ثياب يوسف وهو صغير، ثم قالت: إنه سرق، فقال يعقوب: إن كان قد سرق فهو لك لمدة عام آخر، كما كان ذلك في شريعة يعقوب عليه السلام، وعندما تم تفتيش يوسف وجدوا هذه المنطقة تحت ثيابه، وبهذا احتالت عمته في إبقاء يوسف معها مدة أخرى، فأمسكته عندها حتى ماتت، ثم رجع إلى أبيه فعدّوا ذلك سرقة^(٢)!!
ولعل هذا هو الأرجح.

سمع يوسف مقاتلهم تلك، فأخفاها في نفسه ولم يظهرها لهم، وحدّث نفسه قائلاً: أنتم شر مكاناً وأساءاً حالاً ومنزلة عند الله ممن رميتموه بالسرقة، فأنتم سرقتُم يوسف من أبيه، وألقيتموه في الجب، وبعثتموه بيع الرقيق، ودبرتم كل ذلك ﴿وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَصِفُونَ﴾ به يوسف إن كان ما تقولونه حقيقة أم كذباً.

حَوَارُ بَيْنَ يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِ فِي شَأْنِ بَنِيَامِينَ

٧٨- ﴿قَالُوا يَبْنَئُهَا الْعَزِيزُ إِنَّ لَهُ أَبَا شَيْخًا كَبِيرًا فَخُذْ أَحَدَنَا مَكَانَهُ إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ﴾

قال إخوة يوسف له على وجه الاستعطاف: إذا كان ولا بُدَّ لك أن تأخذ بنيامين فلنأخذ

(١) «تفسير فتح القدير» (٤٣/٣).

(٢) جاء هذا عن مجاهد وابن إسحاق والطبري، ينظر: «تفسير الطبري» (١٦/١٩٦) وابن أبي حاتم (٧/

٢١٧٨) وابن كثير (٤/٣٢٧).

أحدنا مكانه حتى نوفي بالعهد مع أبينا، وحتى لا يصاب بفجعة في حالة عدم عودته إليه، فقد كان من المفروض أن يبقى بنيامين عند يوسف؛ لأن الصواع وُجد في رحله، ولكنهم أخذوا يرجون يوسف أن يعطيهم بنيامين؛ ليعودوا به إلى أبيهم وفاءً بالعهد والميثاق؛ فأخذوا يستعطفونه قائلين: إن له أبا شيخاً كبيراً في السن، وقوراً، عالي القدر والمنزلة والمكانة، وهو لا يقدر على فراقه؛ لأنه أصغر أبنائه، وأحبهم إليه، وقد أخذ علينا العهد الموثق أن نعيده إليه، فخذُ أحدنا بدلاً منه، واستبقه عندك رهينة أو رقيقاً، فإن من عادتكَ الإحسان، وحسن الضيافة، ومقابلة السيئة بالإحسان ﴿إِنَّا نَرُتِّكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ﴾ في أقوالك وأفعالك.

٧٩- ﴿قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ أَنْ نَأْخُذَ إِلَّا مَنْ وَجَدْنَا مَتَّعَيْنًا عِنْدَهُ إِذَا لَطَلِمُوا﴾ (٧٩)

قال يوسف: نعوذ بالله أن نأخذ غير من وجدنا المكيال عنده، لم يقل: لن نأخذ إلا من سرق، تحرزاً من الكذب؛ لأنه يعلم أن بنيامين لم يسرق، وإنما قال: ﴿إِلَّا مَنْ وَجَدْنَا مَتَّعَيْنًا عِنْدَهُ﴾ إنا إذا أخذنا بريئاً بذنب غيره نكون من الظالمين في مذهبكم، فكيف تطلبون ما تعرفون أنه ظلم؟

وإنما استساغ يوسف ذلك، مع ما فيه من مخالفة الحقيقة والشدة على أبيه بفراق بنيامين؛ لأنه فعله بأمر من الله له، وليزيد الله من بلاء يعقوب مضاعفة له في الأجر، كما أخفى عنه خبر يوسف؛ ليزيد بلاءه، وقد كان رد يوسف عليهم قاطعاً، لا يترك أملاً في العفو عن بنيامين، أو أخذ أحد منهم مكانه.

الْأَخُ الْأَكْبَرُ يَبْقَى فِي مِصْرَ مَعَ بَنِيَامِينَ وَيُرْسَلُ إِخْوَتُهُ إِلَى أَبِيهِمْ

٨٠- ﴿فَلَمَّا اسْتَيْسَسُوا^(١) مِنْهُ خَلَصُوا نَجِيًّا قَالَ كَبِيرُهُمْ أَلَمْ تَعْلَمُوا أَنَّ أَبَاكُمْ قَدْ أَخَذَ عَلَيْكُمْ مَوْثِقًا مِنَ اللَّهِ وَمِنْ قَبْلُ مَا فَرَّطْتُمْ فِي يُوسُفَ فَلَنَ أَبْرِحَ الْأَرْضَ حَتَّى يَأْذَنَ لِي^(٢) أَوْ^(٣) أَوْ

(١) قرأ البرزي بخلف عنه بتقديم همزة (استيسس) وجعلها موضع الياء مع إبدالها ألفاً، وتأخير الياء وجعلها في موضع الهمزة، فيصير النطق بألف بعدها ياء مفتوحة هكذا (استايس) والباقون ياء ساكنة بعدها همزة مفتوحة هكذا (استيسس) وهو الوجه الثاني للبرزي.

(٢) قرأ نافع وأبو عمرو وأبو جعفر بفتح ياء الإضافة من (لي أبي) والباقون بإسكانها.

(٣) قرأ نافع وابن كثير وأبو عمرو وأبو جعفر بفتح ياء الإضافة من ياءني (أبي أو يحكم الله لي) والباقون بإسكان.

يَحْكُمُ اللَّهُ لِي وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ ﴿٨١﴾

فلما يسئوا من العزيز ومن قبول شفاعتهم، وأيقنوا أنه لا جدوى من الرجاء في ذلك، ولا سبيل لأن يجدوا حلاً عند يوسف، انفردوا عن الناس، وهذا معنى ﴿خَلَصُوا نَجِيًّا﴾ أي: خلوا للمشاورة حيث جلسوا في مجلس خاص يتناجون ويتشاورون فيما بينهم على عادتهم في تدبير أمورهم، قال كبيرهم في السن، أورئيسهم، أو أرجحهم عقلاً، وكان كبيرهم يسمى (روبيل) وهو الذي نهاهم عن قتل يوسف، وأرجحهم عقلاً هو (يهوذا) ورئيسهم هو (شمعون) قال كبيرهم مذكراً لهم: ألم تعلموا أن أباكم قد أخذ عليكم العهد المؤكد لتعيذن بنيامين إلى أبيه، ثم ذكّرهم بتفريطهم وتقصيرهم في شأن يوسف من قبل وإضاعته لهم؛ لذلك فلن أفارق أرض مصر حتى يأذن لي أبي من موقعه في فلسطين بالخروج من مصر، أو يقضّي الله لي برد أخي، أو بالخروج معكم، أو بالموت، والله خير الحاكمين العادلين المنصفين.

ذكر القاضي عياض أن أعرابياً سمع رجلاً يقرأ هذه الآية ﴿فَلَمَّا اسْتَيْسَسُوا مِنْهُ خَلَصُوا نَجِيًّا﴾ فقال: أشهد أن مخلوقاً لا يقدر على مثل هذا الكلام، وذلك لأن هذه الجملة ذكّرت صفة اعتزالهم جميع الناس، وانفرادهم عن غيرهم وتقلّبهم للآراء ظهوراً لبطن، واتفاقهم على ما يلقّون به أباهم عند عودتهم إليه.

ثم وصاهم يوسف بما يقولوه لأبيهم عند عودتهم إليه، فقال:

٨١- ﴿ارْجِعُوا إِلَىٰ آبَائِكُمْ فَقُولُوا يَتَاَبَايَا إِنَّكَ ابْنُكَ سَرَقَ وَمَا شَهِدْنَا إِلَّا بِمَا عَلَّمَنَا وَمَا كُنَّا

لِلْغَيْبِ حَافِظِينَ ﴿٨١﴾

قال الأخ الأكبر لأبناء يعقوب: ارجعوا أنتم إلى أبيكم من مصر إلى فلسطين وأخبروه بما جرى، وسأبقى هنا رهينة عند عزيز مصر، وقولوا له: إن ابنك بنيامين سرق -وهذا في ظاهر الأمر لا في حقيقة الحال- وما شهدنا بذلك إلا بعد أن تيقنا، فقد أخرج يوسف الصواع من متاعه أمام أعيننا، فأخبرنا عما رأينا، وشهدنا عند الملك أن السارق يؤخذ بسرقة كما هو في شريعتنا -وكانوا يعتقدون بكفر الملك؛ لأنهم حتى الآن لم يعرفوا أنه يوسف- وما كان عندنا علم بالغيب، وما كنا نعرف المجهول، ولا الذي سيحدث في المستقبل حين أخذنا بنيامين، ولو علمنا أنه سيسرق ما أخذناه منك، ولا عاهدناك على رده، ولعل الصواع يكون

قد دُسَّ في رحله وهو لا يدري، فيكون هذا دليلاً على صحة قولنا .

٨٢- ﴿وَسَلِّ^(١) الْقَرْيَةَ الَّتِي كُنَّا فِيهَا وَالْعِيرَ الَّتِي أَقْبَلْنَا فِيهَا وَإِنَّا لَصَدِّقُونَ ﴿٨٢﴾﴾

أى: إن كنت في شك مما نقول فاسأل أهل القرية التي كنا فيها، ونودي علينا فيها بالسرقة حين خرجنا من حدود مصر، أرسل إلى أهل هذه القرية واسألهم .

يقال: إن المراد بهذه القرية هي العاصمة، ويرجح أنهم كانوا قد تركوا العاصمة، وخرجوا من حدودها إلى مسافات بعيدة، ويذكر أن هذه القرية هي (بليس) على بعد نحو خمسين كيلو مترًا تقريبًا من القاهرة، وهي التي حدث فيها التفتيش .

واسأل -أيضًا- أصحاب العير الذين قدموا من الشام بصحبتنا، وهم قوم من كنعان جيران يعقوب، وإنا لصادقون فيما قلناه، وإنما أمرهم أخوهم الأكبر بهذه المقالة مبالغة في نفي التهمة عنهم لموقفهم السابق من يوسف ﷺ .

الْحَوَارُ الْحَزِينُ بَيْنَ يَعْقُوبَ وَأَبْنَائِهِ

٨٣- ﴿قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنْفُسُكُمْ أَمْرًا فَصَبْرٌ جَمِيلٌ عَسَى اللَّهُ أَنْ يَأْتِيَنِي بِهِمْ جَمِيعًا إِنَّهُ

هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ ﴿٨٣﴾﴾

ولما وصلوا إلى يعقوب وأبلغوه هذا الكلام، قال كلمته الأولى عند فقد يوسف: بل زينت لكم أنفسكم الأمانة بالسوء مكيدة دبرتموها كما فعلتم من قبل مع يوسف، وهي حُمِّلَ أخيككم معكم إلى مصر؛ فإن هذه المشكلة بسبب المكيدة السابقة بيوسف .

فقد جال بخاطر يعقوب أنهم فعلوا بينامين كما فعلوا بيوسف من قبل، فصبري على ما قلتم صبر جميل لا جزع فيه ولا شكوى معه، عسى الله أن يرد إليّ أبنائي الثلاثة: يوسف وبينامين والأخ الكبير الثالث روبيل، الذي بقي في مصر متخلفًا من أجل أخيه، قال يعقوب ذلك لما طال حزنه واشتد بلاؤه ومحنته، فأحسن الظن بالله ﴿إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ﴾

(١) قرأ ابن كثير والكسائي وخلف العاشر بنقل حركة همزة (واسأل) إلى الساكن قبلها في الوصل والوقف، وكذا حمزة عند الوقف هكذا (وسل) والباقون بعدم النقل .

بحزن يعقوب ﴿الْحَكِيمُ﴾ فيما يدبره ويقضيه .

٨٤- ﴿وَتَوَلَّى عَنْهُمْ وَقَالَ يَأْسَفُ^(١) عَلَى يُونُسَ وَأَيُّضَتَ عَيْنَاهُ مِنَ الْحُزَنِ فَهُوَ كَظِيمٌ﴾

وجاشت الأحزان في نفس يعقوب، فابتعد قليلاً عن أبنائه معرضاً عنهم، وقد ضاق صدره بما قالوه، وأخذ يتحسر ويتألم لفقد أبنائه لَا سِيَّماً يوسف .

والأسف: هو شدة الحزن؛ وذلك لأن الحزن القديم على يوسف قد تضاعف وتجدد بفقد بنيامين، وهي شكوى إلى الله تعالى كأنه يقول: يا رب ارحم أسفي .

قال سعيد بن جبير: إن الاسترجاع (أي: قول إنا لله وإنا إليه راجعون) لم يكن في شريعة يعقوب، وإنما خص الله تعالى به هذه الأمة^(٢) .

أخذ يعقوب يشكو أمره إلى الله، لا إلى أحد من خلقه، وكثر بكاءه حتى غلب بياض عينيه على سواده، فذهب بصره وعمي؛ بسبب فراقه وهو كظيم، شديد الكتمان، ممتلئ بالكد والحزن، قالوا: إنه بقي أعمى ست سنوات .

قال الحسن: كان بين خروج يوسف من حجر أبيه إلى يوم اللقاء ثمانون سنة لم تجف عينا يعقوب فيها .

ولما ظهر من يعقوب هذا الحزن والهم الذي ذكره بالمصيبة الأولى، تعجب منه أولاده:

٨٥- ﴿قَالُوا تَاللَّهِ تَفْتَأُ تَذْكُرُ يُونُسَ حَتَّى تَكُونَ حَرَضًا أَوْ تَكُونَ مِنَ الْهَالِكِينَ﴾

ويذكر القرآن ما قاله أبناء يعقوب له حين رأوا ما به من الهم والحزن قالوا له مقسمين: تالله تفتأ تذكر يوسف؛ أي: لا تزال تذكر يوسف ومحبهه ويشد حزنك عليه حتى تكون حرَضًا أي: هزياً مريضاً قريباً من الموت فاسد الجسم والعقل مشرفاً على الموت والهلاك من شدة الحزن؛ فخفف عن نفسك .

٨٦- ﴿قَالَ إِنَّمَا أَشْكُوا بَنِي وَحْزَنِي^(٣) إِلَى اللَّهِ وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾

(١) وقف رويس على (يا أسفا) بهاء السكت بخلف عنه .

(٢) أخرجه عبد الرزاق (٣٢٧/١) والطبري (٧٠٨/٢، ٢٩٥/١٣) وابن أبي حاتم (٢١٨٥/٧) .

(٣) قرأ نافع وأبو عمرو وابن عامر وأبو جعفر بفتح ياء الإضافة وصلاً من (وحزني إلى الله) والباقون بإسكانها .

قال يعقوب لما رأى غلظتهم: إنما أشكو بثي وحزني إلى الله، فهو كاشف الضر والبلاء.

والبث: هو ما انطوت عليه النفس من الهم والغم، وبثُ الحزن: نشره، ويعقوب لا يشكو حزنه العظيم وحزنه القليل إلا إلى الله وحده، لا إلى أبنائه ولا غيرهم، فحين يصاب الإنسان بمصيبة، ويتكلم بها إلى الناس شاكيًا جزعه، فهو يبث حُزنه إليهم، كأنه يشكو ربه، وقد أراد يعقوب أن يبين لهم أن شكواه يرفعها إلى الله تعالى لا إليهم، والبث أشد من الحزن؛ لأن الحزن يكون في القلب لا يُنشر ولا يُتكلم به.

ثم أشار يعقوب ﷺ إلى أنه كان يعلم حياة يوسف، ويتوقع رجوعه إليه، فهو يعلم صدق رؤيا يوسف، وقد أحسن بلقائه.

وقيل: إن ملك الموت أخبره بحياته، وهذا معنى: ﴿وَأَعْلَمُ مِنْكَ اللَّهُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ أي: وأعلم من رحمة الله وفرجه ما لا تعلمون، من أن الله تعالى سيردهم عليّ، وتقر عيني بالاجتماع بهم.

رَحْلَةُ أَبْنَاءِ يَعْقُوبَ الثَّالِثَةُ إِلَى مِصْرَ

٨٧- ﴿يَبْقَى أَذْهَبُوا فَتَحَسَّسُوا مِنْ يُوسُفَ وَأَخِيهِ وَلَا تَأْتِسُوا^(١) مِنْ رَوْحِ اللَّهِ إِنَّهُ لَا يَأْتِسُ مِنْ رَوْحِ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمَ الْكَافِرُونَ

قال يعقوب لأبنائه في فلسطين: يا أبنائي عودوا إلى مصر مرة أخرى؛ فاستقصوا أخبار يوسف وأخيه واطلبوا أخبارهم في كل مكان، ولا تقنطوا من رحمة الله وفرجه، فالمؤمن يصبر عند البلاء، ويحمد عند الرخاء، والكافر عكس ذلك، واليأس من فرج الله ورحمته كفر والعياذ بالله.

فلا تقطعوا رجاءكم من رحمة الله، ولا تفقدوا الأمل في العثور على يوسف وأخيه، إنه لا يقطع الرجاء من رحمة الله إلا الجاحدون لقدرته الكافرون به، والمؤمن لا ييأس من فرج الله أبدًا ولو أحدثت به الكروب واشتدت عليه المصائب وتوالت عليه النكبات، فإن الله تعالى إذا أراد تفريج الكروب هيأ له الأسباب.

(١) قدم الهمزة من (ولا تيسوا) و (لا ييس) على الياء وأبدلها ألفًا البيزي بخلف عنه.

والتحسس: طلب المعرفة عن طريق الحواس؛ باستخدام السمع والبصر والمواهب وإجهادها في الظفر بالمطلوب، ويستعمل التحسس في جانب الخير، أما التجسس فيستعمل في جانب الشر.

٨٨- ﴿فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَيْهِ قَالُوا يَا أَيُّهَا الْعَزِيزُ مَسَّنَا وَأَهْلَنَا الضُّرُّ وَجِئْنَا بِبِضْعَةٍ مُزَجَّجَةٍ^(١) فَأَوْفِ لَنَا الْكَيْلَ وَتَصَدَّقْ عَلَيْنَا إِنَّ اللَّهَ يَجْزِي الْمُتَصَدِّقِينَ﴾

امثل إخوة يوسف أمر أبيهم فخرجوا من فلسطين متوجهين إلى مصر للمرة الثالثة؛ لبحثوا عن يوسف وأخيه، وليشتروا من عزيز مصر ما هم في حاجة إليه من الطعام، فخرجوا من عند أبيهم قاصدين مصر، فلما دخلوا على يوسف قالوا له بأدب واستعطاف: يا أيها العزيز، وكان العزيز لقب ملك مصر يومئذ، ومعناه: القادر الممتنع، قالوا: أصابنا وأهلنا -ممن خلّفنا من الزوجات والعيال والأرحام- القحط والجذب، وألّم بنا الفقر والجوع.

فقد أضرت بنا المجاعة ونفد منا النقود وجئناك ببضاعة مزجاة؛ أي: قليلة ورديئة لا يقبلها أحد إلا تجاوزاً، قيل: كانت دراهم مزيّفة، أو صوفاً وأقط، أو أدماً ونعال... إلخ؛ كي نشترى بها الطعام، فأعطنا ما كنت تعطينا من قبل بالثمن الجيد، ولا تعاملنا بمقتضى ما معنا من بضاعة كاسدة غير مقبولة، بل أعطنا طعاماً جيداً وافيّاً كما كنت تعطينا من قبل وتصدق علينا بقبول هذه الدراهم القليلة وتجاوز فيها، وتفضل علينا وسامحنا، ولا تنقصنا شيئاً، وزد لنا في الكيل، وهب لنا أخانا ﴿إِنَّ اللَّهَ يَجْزِي الْمُتَصَدِّقِينَ﴾ على أهل الحاجة بالثواب الجزيل والأجر العظيم.

فلما انتهى الأمر، وبلغ أشده، رق لهم يوسف رقة شديدة، فعرفهم بنفسه وعابتهم:

حَوَارُ يُوسُفَ مَعَ إِخْوَتِهِ بَعْدَ مَعْرِفَتِهِمْ بِهِ

٨٩- ﴿قَالَ هَلْ عَلِمْتُمْ مَا فَعَلْتُمْ يُّوسُفَ وَأَخِيهِ إِذْ أَنْتُمْ جَاهِلُونَ﴾

بعد هذا التضرع والانكسار، لم يستطع يوسف المضي في التخفي عن إخوته، والاستمرار في تمثيل دور العزيز، ففاضت عيناه حين سمع مقالته، ولم يتمالك إلا أن

(١) أمال ألف (مزجاة) حمزة والكسائي وخلف، وقلله ورش بخلف عنه.

عَرَفَهُمْ بِنَفْسِهِ عَنْ طَرِيقِ التَّلْمِيحِ وَالتَّعْرِيزِ وَالتَّذْكِيرِ لَهُمْ بِأَخْطَائِهِمْ، قَالَ: هَلْ تَذْكُرُونَ الَّذِي فَعَلْتُمُوهُ بِيُوسُفَ وَأَخِيهِ مِنَ الْأَذَى فِي وَقْتِ الصَّبَا وَحَالِ الْجَهْلِ مِنْكُمْ بِمَا يُؤُولُ إِلَيْهِ أَمْرُ يُوسُفَ، وَهَكَذَا فَإِنْ يُوسُفَ قَبْلَ أَنْ يَتِمَّ الْجُمْلَةُ اعْتَذِرْ عَنْهُمْ بِقَوْلِهِ: ﴿إِذْ أَنْتُمْ جَاهِلُونَ﴾ أَي: لَا تَعْلَمُونَ قَبْضَ مَا فَعَلْتُمْ وَلَا عَاقِبَتَهُ؛ وَلِذَا أَقْدَمْتُمْ عَلَيْهِ، وَمِنْ هَذَا الْكَلَامِ عَرَفُوا أَنَّ مُحَدِّثَهُمْ هُوَ يُوسُفَ عَلَيْهِ السَّلَامُ:

٩٠- ﴿قَالُوا أَيْنَ نَجِدُ يُوسُفَ قَالَ أَنَا يُوسُفُ وَهَذَا أَخِي قَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا إِنَّهُ مَن يَتَّقِ^(٢) وَيَصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ ﴿٩١﴾﴾

قِيلَ: إِنْ يُوسُفَ أَخْرَجَ لَهُمْ نَسْخَةَ الْكِتَابِ الَّذِي كَتَبَهُ يَهُوذَا حِينَ بَاعُوهُ إِلَى (مَالِكِ بْنِ ذَعْرِ الْخَزَاعِيِّ) الَّذِي أَدْلَى دَلْوَهُ وَأَخْرَجَهُ مِنَ الْبُئْرِ، بَعْدَ ادْعَائِهِمْ أَنَّهُ عَبْدُ أَبَقٍ مِنْهُمْ، وَمَنْ تَمَّ بَاعَهُ (مَالِكُ) إِلَى عَزِيزِ مِصْرَ (قُطْفِيرٍ) فَلَمَّا قَرَأُوا الْكِتَابَ اعْتَرَفُوا بِصَحَّتِهِ^(٣)، وَقَالُوا مُتَعَجِّبِينَ مُسْتَغْرِبِينَ: أَأَنْتَ لَأَنْتَ يُوسُفُ؟ قِيلَ: إِنَّهُمْ لَمْ يَعْرِفُوهُ حَتَّى وَضَعَ التَّاجَ عَنْ رَأْسِهِ، وَكَانَ لَهُ عَلَامَةٌ تُشَبِّهُ الشَّامَةَ فِي جَسَدِهِ عَرَفُوهُ بِهَا، وَهَذَا تَصْدِيقُ لِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ لَتُنَبِّئَنَّهُمْ بِأَمْرِهِمْ هَذَا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ قَالَ: نَعَمْ، أَنَا يُوسُفَ الَّذِي قَصَدْتُمْ قَتْلَهُ، فَأَلْقَيْتُمُوهُ فِي الْجُبِّ وَبِعْتُمُوهُ بِبَيْعِ الرِّقِيقِ، وَهَذَا أَخِي بَنِيَامِينَ الَّذِي ظَلَمْتُمُوهُ مَعِيَ، قَدْ تَفَضَّلَ اللَّهُ عَلَيْنَا بِالْخُلَاصِ مِنَ الْبَلَاءِ، وَالْعِزَّةِ بَعْدَ الذَّلَّةِ، فَأَعْطَانَا خَيْرَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ، وَجَمَعَ بَيْنَنَا بَعْدَ تَفَرُّقٍ، إِنَّهُ مَنْ يَتَّقِ اللَّهَ وَيَتَّعِدُ عَنِ الْفَحْشَاءِ بِامْتِثَالِ أَمْرِهِ وَاجْتِنَابِ نَهْيِهِ، وَمِرَاقَبَتِهِ فِي السِّرِّ وَالْعَلَانِيَةِ، وَيَصْبِرُ عَلَى الْمُحَنِ، وَعَلَى طَاعَةِ اللَّهِ تَعَالَى، وَيَصْبِرُ عَمَّا حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ، وَيَصْبِرُ عَلَى مَا تَكْرَهُ النَّفْسُ، فَإِنَّ اللَّهَ تَعَالَى لَا يُذْهِبُ ثَوَابَ إِحْسَانِهِ، وَإِنَّمَا يَجْزِيهِ أَحْسَنُ الْجَزَاءِ.

وهذان الأمران (التقوى والصبر) يترتب عليهما نتيجة حتمية هي النجاح والفلاح،

(١) قرأ ابن كثير وأبو جعفر بهمزة واحدة مكسورة على الإخبار في (أينك) والباقون بهمزتين، الأولى مفتوحة والثانية مكسورة على الاستفهام التقريري، وكل على مذهبه في التسهيل والتحقيق والإدخال وعدمه.

(٢) قرأ قبل بخلف عنه بإثبات الياء وصلًا ووقفًا من (يتق) والباقون بحذفها، وإثبات الياء على لغة من يثبت حرف العلة مع الجازم.

(٣) «تفسير الخازن» للآية.

والفوز والسعادة في الدنيا والآخرة؛ لأنه كان محسنًا في عمله.

أخرج عبد الرزاق في المصنف عن شيبه أن يوسف لما لقي أخاه قال له: هل تزوجت بعدي؟ قال: نعم، قال: وما شغلك الحزن عليّ؟ قال: إن أباك يعقوب قال لي: تزوج لعل الله أن يذرك منك ذرية يثقلون، أو قال: يسكنون الأرض بتسيحة^(١).

٩١- ﴿قَالُوا تَاللّٰهِ لَقَدْ ءَاتٰكَ اللّٰهُ عَلَيْنَا وَاِنْ كُنَّا لَخٰطِئِيْنَ﴾^(٢)

اعترف إخوة يوسف بخطئهم، فاعتذروا عما فعلوه، وانتابهم الخزي والخجل؛ حيث إنه قابل إساءتهم إليه بإحسانه إليهم، وأقسموا أن الله سبحانه قد فضل يوسف عليهم بالنبوة والرسالة والمُلْك والعلم والعقل والحلم والتقوى والصبر والحسن، ولذلك فقد أعزه الله وأذلنا، وأكرمهم وأهاننا ﴿وَاِنْ كُنَّا لَخٰطِئِيْنَ﴾ فيما صنعناه بك وبأخيك متعمدين، وهذا اعتراف بالخطيئة، وإقرار بالذنب، وتقرير منهم لتفضيل يوسف عليهم، فماذا كان من يوسف؟

٩٢- ﴿قَالَ لَا تَنْرِيْبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ يَغْفِرُ اللّٰهُ لَكُمْ وَهُوَ اَرْحَمُ الرَّحِيْمِيْنَ﴾^(٣)

إن أصحاب النفوس الكريمة، والقلوب الكبيرة، والهمم العالية، حينما تترقى في التقوى، وتقلب في النعم، وتصل إلى درجة عالية، من الجاه والمال والسلطة، حتى تبلغ القمة، وتتمكن من العقاب، أصحاب هذه النفوس لا ينتقمون لأنفسهم، ولا يُكنُون في صدورهم حقداً لأحد.

ويوسف ﷺ في مواجهة ظلم إخوته له، وتمكنه من عقابهم، لم ينتقم لنفسه، ولم يُكنْ لإخوته حقداً ولا بغضاً، مع ما هو فيه من المنزلة الرفيعة، والجاه العريض، والسلطة المطلقة، وإنما عفا عنهم، ولم يزد إلا تواضعاً وانكساراً، فلم يكن منه إلا أن عفا وصفح عن إخوته دون توبيخ ولا تعنيف ولا تأنيب ولا تقرير.

قال لهم يوسف: لا تأنيب عليكم اليوم، فليس هناك من عقوبة ولا محاسبة، ولا إعادة للماضي، فقد عفوت عما صدر منكم في حقي وفي حق أخي، وأرجو الله أن يغفر لكم

(١) «مصنف عبد الرزاق» (١٠٣٨٩).

(٢) قرأ أبو جعفر بحذف همزة (لخاطئين) وصلاً ووقفاً، ووقف عليها حمزة بالتسهيل والحذف.

ما فرط منكم، فهو سبحانه المتفضل على التائبين بالعتو والمغفرة والرضوان، ثم دعا لهم طالبًا من الله المغفرة زيادة على عفوه وصفحه، فقال: ﴿يَغْفِرُ اللَّهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾ لمن تاب من ذنبه وأتاب إلى ربه، وأنا الفقير الضعيف، فسامحهم، ولم يذكر لهم ما حدث منهم، ودعا لهم بالمغفرة والرحمة.

جاء في السيرة: أن أبا سفيان بن الحارث، وعبد الله بن أمية، لما وصلا المدينة مهاجرين، أعرض عنهما النبي ﷺ لقبح أفعالهما السابقة، فشق ذلك عليهما، فذهبا إلى أبي بكر، ومن بعده عمر، يطلبان منهما الشفاعة لدى رسول الله ﷺ فأبيا، ثم ذهب أبو سفيان إلى علي بن عمه، وذهب عبد الله إلى أم سلمة أخته، فقال علي ﷺ: الرأي أن تلقيا رسول الله ﷺ فتقولان له: ﴿تَاللَّهِ لَقَدْ ءَاثَرَكَ اللَّهُ عَلَيْنَا وَإِنْ كُنَّا لَخَطِيئِينَ﴾ فإنه لا يرضى أن يكون دون أحد من الأنبياء، ففعلا ذلك، فقال لهما: ﴿لَا تَتْرِبَ عَلَيْكُمُ﴾^(١).

ولفظ ﴿الْيَوْمَ﴾ إما يكون متعلقًا بما قبله، فيحسن الوقف عليه، وإما أن يكون متعلقًا بما بعده، فيحسن الوقف على ما قبله في التلاوة ولعل الأول أصح.

٩٣- ﴿أَذْهَبُوا بِقَمِيصِي هَذَا فَأَلْقُوهُ عَلَى وَجْهِ أَبِي يَأْتِ بَصِيرًا وَأَتُوفِّي بِأَهْلِكُمُ أَجْمَعِينَ﴾

انتقل يوسف من الصفح عن إخوته إلى السؤال عن أبيهم يعقوب ﷺ، فقالوا له: إنه قد عمي من شدة الحزن، وكثرة البكاء.

جاء عن ابن عباس ومجاهد والضحاك: أن الله تعالى قد أنزل جبريل بقميص من الجنة على إبراهيم ﷺ، حين أُلقي في النار، وألبسه إياه، فكان درعًا واقيًا له من الإحراق، ولا يلبس هذا القميص مبتلى ولا سقيم إلا عوفي؛ لأن فيه رائحة الجنان في الدنيا، وهذا القميص ورثه إبراهيم لابنه إسحاق، ثم ورثه إسحاق لابنه يعقوب، ثم وضعه يعقوب في قسبة من فضة فأغلقها وعلقها في عنق يوسف ﷺ، فلما أُلقي في البئر أخرج جبريل وألبسه إياه، فنجاه الله تعالى من الجب.

وقد أوحى الله إلى يوسف ﷺ أن يرسل هذا القميص إلى أبيه يعقوب، وأن يُلقى به على وجهه، فيعود إليه بصره، ويزول عنه البكاء والحزن، وينشرح صدره، ويفرح قلبه،

(١) «تفسير ابن عطية» (٢٧٧/٣).

فأعطى يوسف القميص إلى أخيه يهوذا وَفَّق طلبه، قال يهوذا لإخوته: قد علمتم أنني ذهبت إليه بقميص الترحه، فدعوني أذهب إليه بقميص الفرحة^(١)؛ لأنه هو الذي كان قد حمل القميص الملطَّخ بالدم الكاذب إلى أبيه يعقوب، وقال له: إن الذئب قد أكل يوسف، فهو الذي سبق له أن كسر قلب أبيه وأحزنه، فأراد يهوذا أن يُدخل السرور والفرح على أبيه، كما أدخل الحزن عليه، فطلب من يوسف أن يحمل القميص بنفسه لأبيه ويعطيه إياه.

وخرج يهوذا بالقميص من مصر حافيًا حاسرًا، بعد أن قال لهم يوسف: عودوا إلي أبيكم ومعكم قميصي هذا، فاطرحوه على وجه أبي يُعَدُّ إليه بصره، ثم أحضروا إليَّ جميع أهلکم: الأخوة وزوجاتهم وأولادهم، قيل: كانوا ثلاثة وسبعين ما بين رجل وامرأة، فما فعله يوسف كان بوحى من الله إليه، وما حدث ليعقوب برد بصره من الخوارق التي أيد الله بها يوسف ويعقوب عليهما السلام، وكان إرساله القميص معهم علامة ودليلاً ليعقوب على أنهم قادمون إليه من طرف أخيه يوسف حتى لا يكذبهم، إلى جوار بشرى رد بصر يعقوب إليه.

يَعْقُوبُ يَشْمُ رَائِحَةَ يُوسُفَ مِنْ قَمِيصِهِ بِمُجَرَّدِ خُرُوجِ الْقَافِلَةِ مِنْ مِصْرَ

٩٤ - ﴿وَلَمَّا فَصَلَ الْعِيرُ قَالَ أَبُوهُمْ إِنِّي لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ لَوْلَا أَنْ تُفَنِّدُونِ﴾ (٢)

استجاب إخوة يوسف إليه، فأخذوا القميص ورجعوا إلى أبيهم في فلسطين، ولما خرجت القافلة من مصر بالقميص متوجهة نحو الشام بأرض كنعان، ثم فارقت العمران والبنيان ووصلت إلى العريش، هبَّت ريح الصبا، قيل: من مصر، وقيل: من العريش، وهي تحمل ريح القميص وفيه رائحة الجنة، حملت الريح رائحة القميص إلى يعقوب ﷺ على مسافة ثمانين فرسخًا؛ أي: مسيرة ثمانية أيام، كما قال ابن عباس ﷺ^(٣).

ولمّا كان هذا القميص فيه أثر ريح يوسف، أراد الله سبحانه أن يشمه يعقوب ﷺ،

(١) «تفسير ابن عطية» (٣/ ٢٨٠).

(٢) قرأ يعقوب بإثبات الياء وصلًا ووقفًا في (تفندون) وحذفها غيره في الحاليين.

(٣) كما في «تفسير عبد الرزاق» (١/ ٣٢٩) والطبري (١٣/ ٣٣٧) وابن أبي حاتم (٧/ ٢١٩٧).

فترجع إليه روحه، ويرجع إليه بصره، والله في ذلك حكم وأسرار.

وبينما كان يعقوب مع الحاضرين معه إذ سمعوا منه صيحة، قال أبوهم: إني أشم ريح يوسف لولا أن تكذبوني أو تسخروا مني، وتقولوا: إنه صدر مني من غير شعور، ولا تصدقوا قلبي، فتنسبوني إلى التخريف.

قال الإمام مالك: أوصل الله ريح قميص يوسف ليعقوب كما أوصل عرش بلقيس إلى سليمان قبل أن يرتد إليه طرفه.

فماذا كان موقف الأبناء تجاه كلام أبيهم؟

٩٥- ﴿قَالُوا تَاللَّهِ إِنَّكَ لَفِي ضَلَالِكَ الْقَدِيرِ﴾ (٩٥)

أي: قال الحاضرون عند يعقوب: تالله إنك لا تزال في خطئك القديم، فأقسموا بالله أن يعقوب لا يزال في حبه الأعمى ليوسف لا ينساه، والمراد بالضلال: الخروج عن الصواب في حبه ليوسف وتفضيله عليهم.

عَوْدَةُ بَصَرِ يَعْقُوبَ إِلَيْهِ

٩٦- ﴿فَلَمَّا أَنْ جَاءَ الْبَشِيرُ أَلْقَاهُ عَلَى وَجْهِهِ، فَارْتَدَّ بَصِيرًا قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنِّي^(١) أَعْلَمُ مِنْ

اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ (٩٦)

وتحقق ما وجده يعقوب من رائحة يوسف، وحان وقت المفاجأة التي حكاها القرآن، فوصل البشير وهو يهودا إلى أرض كنعان، وألقى القميص على وجه يعقوب، فارتد بصيرًا، وعمه السرور والفرح، وتيقن أن يوسف حيٌّ، ويجوز أن يكون يعقوب هو الذي ألقى القميص على وجهه فعاد إليه بصره، وكان هذا معجزة ليوسف ويعقوب، وسُمي الرسول بشيرًا؛ لأنه بشر يعقوب بأن يوسف حيٌّ، وعندئذ قال يعقوب لمن حوله: ألم أخبركم أنني أعلم من الله بمقتضى الوحي والنبوة ﴿مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ من أن يوسف حي لم يمت، وأن الله سيجمع بيننا.

قال قتادة: إن يعقوب لقي ملك الموت فقال: هل قبضت نفس يوسف فيمن قبضت؟

(١) قرأ نافع وابن كثير وأبو عمرو وأبو جعفر بفتح ياء الإضافة وصلًا من (إني أعلم) والباقون بإسكانها.

قال: لا، فعند ذلك قال: ﴿أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنَِّّي أَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾^(١).

ثم سأل يعقوب يهوذا قائلاً: كيف تركت يوسف؟ قال: تركته مَلِك مصر، قال يعقوب: ماذا أصنع بالملك؟ على أي دين تركته؟ قال: تركته على الإسلام، قال: الآن تمت النعمة^(٢).

٩٧- ﴿قَالُوا يَا أَبَانَا اسْتَغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا إِنَّا كُنَّا خَاطِئِينَ﴾

قال إخوة يوسف حين وصلوا إلى أبيهم وأخذوا يعتذرون إليه مما صنعوا به ويوسف: يا أبانا، سل لنا ربنا أن يعفو عنا، ويستر علينا ذنوبنا، واطلب لنا الغفران من الله، ثم اعترفوا بخطيئتهم فقالوا: إنا كنا خاطئين في حقك وحق يوسف وشقيقه.

٩٨- ﴿قَالَ سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّي﴾^(٣) ﴿إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾

ورد أن يوسف لما استغفر لإخوته، ويعقوب استغفر لأبنائه، قال بعضهم لبعض: وما يغني عنا هذا إن لم يغفر الله لنا؟ فاعترفوا بخطيئتهم وطلبوا من يعقوب أن يطلب لهم المغفرة من الله تعالى، فقال يعقوب: سوف أسأل ربي أن يغفر لكم ذنوبكم، وسوف للمستقبل البعيد، وكان يوسف عليه السلام قد قال لهم من فوره لما سأله المغفرة: يغفر الله لكم وهو أرحم الراحمين.

قال المفسرون: إن يعقوب أجَّل الدعاء وطلب المغفرة لهم إلى وقت هو أكثر مظنة لإجابة الدعاء، وكان يعقوب يصلِّي بالليل وقت السحر، فأجَّل الدعاء إلى هذا الوقت^(٤) أو أجَّله إلى يوم الجمعة^(٥)؛ لأنها أشرف الليالي، ويجمعهما قول طاوس: أخر الاستغفار إلى وقت السحر من ليلة الجمعة، فوافق ذلك ليلة عاشوراء، فاستغفر ربه لهم، وطلب منه العفو عنهم، فأوحى الله إليه: إني قد غفرت لك ولهم ﴿إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ﴾ لذنوب عباده التائبين ﴿الرَّحِيمُ﴾ بجميع خلقه.

(١) أخرجه أبو الشيخ كما في «الدر المنثور» (٨/ ٣٣٠).

(٢) «تفسير الفخر الرازي» (١٨/ ٢٠٩).

(٣) قرأ نافع وأبو عمرو وأبو جعفر بفتح ياء الإضافة وصلًا من (ربي إنه) والباقون بإسكانها.

(٤) جاء ذلك عن ابن عباس عند ابن المنذر والطبري وأبي الشيخ وابن مردويه كما في الدر (٨/ ٣).

(٥) ينظر: ابن جرير (١٣/ ٣٤٨).

روى ابن جرير عن محارب بن دثار قال: كان عمر رضي الله عنه يأتي المسجد، فيسمع إنساناً يقول: اللهم دعوتني فأجبت، وأمرتني فأطعت، وهذا السحر فاغفر لي، قال: فاستمع إلى الصوت فإذا هو من دار عبد الله بن مسعود، فسئل عبد الله عن ذلك فقال: إن يعقوب أخر بنه إلى السحر بقوله: ﴿سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّي﴾^(١).

الرَّحْلَةُ الرَّابِعَةُ وَالْأَخِيرَةُ

لِأَخْوَةِ يُوسُفَ بِرِفْقَةٍ أَبِيهِمْ إِلَى مِصْرَ مِنْ أَرْضِ كَنْعَانَ

٩٩- ﴿فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَى يُوسُفَ ءَاوَىٰ إِلَيْهِ أَبْوِيَّهُ وَقَالَ ادْخُلُوا مِصْرَ^(٢) إِن شَاءَ اللَّهُ ءَامِنِينَ

خرج يعقوب وأبنائه من بادية فلسطين، وساروا حتى وصلوا إلى أرض الكنانة، وكانت هذه هي المرة الرابعة بالنسبة لإخوة يوسف، والمرة الأولى بالنسبة ليعقوب رضي الله عنه، وعلى مداخل أرض مصر ومشارفها استقبلهم يوسف ملك مصر استقبالا حافلا في أربعة آلاف من الجند والعظماء وأهل مصر.

وكان يعقوب يتوكأ على يد ابنه يهوذا، فلما دخلوا على يوسف بأرض مصر ضم إليه أباه يعقوب وأمه وعانقهما.

قال أهل الكتاب: إن أمه راحيل كانت قد ماتت وهي تلد بنيامين.

وذكر بعض المفسرين: أن المراد بالأُم خالته (ليثة) التي تزوجها يعقوب بعد موت أختها راحيل أم يوسف.

قيل: إن يوسف قال لأبيه حين ضمه إليه: يا أبت بكيت حتى ذهب بصرك، ألم تكن تعلم أن القيامة تجمعنا؟ قال: بلى، ولكن خشيت أن يُسَلَبَ دينك، فيحال بيني وبينك.

ثم أذن لهم يوسف بالإقامة في أرض مصر ﴿وَقَالَ ادْخُلُوا مِصْرَ إِن شَاءَ اللَّهُ ءَامِنِينَ

(١) «تفسير الطبري» (١٦/٢٦١).

(٢) اتفق القراء على تفخيم راء (مصر) وصلاً للفصل بحرف الاستعلاء، وأما وفقاً ففيها الترقيق والتفخيم، والتفخيم أرجح.

وهذا بمثابة الإذن لهم بالإقامة بمصر، وكان لا يدخلها أحد من الناس إلا بجوارهم، وذلك بسبب المجاعة التي حدثت، فرأى ولاة الأمر ألا يدخل مصر الغرباء؛ حتى لا يضاعفوا عليها المجاعة، فأذن لهم يوسف بالدخول والاستيطان بمصر آمنين على أنفسهم وأهليهم مع تأمين وسائل العيش لهم، فلا استثناء للتبرك، أو أنه يرجع إلى الأمن أو الدخول.

تَأْوِيلُ رُؤْيَا يُوسُفَ

١٠٠- ﴿وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى الْمَرْشِ وَخَرُّوا لَهُ سُجَّدًا وَقَالَ يَتَأَتَّى^(١) هَذَا تَأْوِيلُ رُؤْيَايَ مِنْ قَبْلُ قَدْ جَعَلْنَا رُبِّي حَقًّا وَقَدْ أَحْسَنَ بِي^(٢) إِذْ أَخْرَجَنِي مِنَ السِّجْنِ وَجَاءَ بِكُم مِّنَ الْبَدْوِ مِن بَعْدِ أَنْ نَزَغَ الشَّيْطَانُ بَيْنِي وَبَيْنَ إِخْوَتِي^(٣) إِنَّ رُبِّي لَطِيفٌ لِّمَا يَشَاءُ^(٤) إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ ﴿١٣٣﴾﴾

رفع يوسف أبويه وأجلسهما على سرير الملك وهو (الكرسي) أجلسهما بجانبه إكرامًا لهما، وحياه أبواه وإخوته الأحد عشر بالسجود له تحية وإكرامًا، لا عبادة وخضوعًا، وخرَّ الجميع ليوسف سجدًا، ومعهم يعقوب عليه السلام.

قيل: إن الأنفة والكبر ربما منعنا إخوة يوسف من السجود له، فلما رأوا أن أباهم قد سجد، سجدوا له أيضًا على سبيل التحية والتواضع، فقد كان هذا السجود سجود تحية، إما بالانحناء، وإما بالسجود المعروف بوضع الجبهة على الأرض، وهذا السجود كان في الحقيقة لله تعالى على سبيل الشكر، كما سجدت الملائكة لآدم عليه السلام، وكان هذا السجود جائزًا في شريعتهم.

وهو تحية الملوك من لدن آدم إلى عيسى عليهما السلام، ثم حرّمه الله ورسوله في الإسلام، فنسخ السجود لغير الله جل شأنه؛ سدًا لذريعة الشرك بالله تعالى، فلا سجود في الإسلام إلا لله سبحانه.

(١) قرأ ابن عامر وأبو جعفر بفتح التاء من (يا أبت) والباقون بكسرها، والوقوف عليها بالتاء.

(٢) قرأ نافع وأبو جعفر بفتح ياء الإضافة وصلًا من (أحسن بي إذ) والباقون بإسكانها.

(٣) فتح الياء من (إخوتي إن) ورش وأبو جعفر، وسكنها الباقون.

(٤) قرأ نافع وابن كثير وأبو عمرو وأبو جعفر ورويس بتسهيل الهمزة الثانية بين بين من (يشاء إنه) وإبدالها واوًا خالصة، والباقون بتحقيقها.

وفي الحديث أن معاذًا قدم الشام، فوجدهم يسجدون لأساقفتهم، فلما رجع سجد لرسول الله ﷺ فقال ﷺ: «ما هذا يا معاذ؟» فقال: إني رأيتهم يسجدون لأساقفتهم، وأنت أحق أن يُسجد لك يا رسول الله، فقال: «لو كنت أمرًا أن يُسجد لأحد لأمرت المرأة أن تسجد لزوجها من عظم حقه عليها»^(١).

وورد أن سلمان لقي النبي ﷺ في بعض طرق المدينة، وكان سلمان حديث عهد بالإسلام، فسجد للنبي ﷺ فقال: «لا تسجد لي يا سلمان، واسجد للحي الذي لا يموت»^(٢).

قال قتادة: كانت تحية من كان قبلكم السجود، بها يُحيي بعضهم بعضًا، وأعطى الله هذه الأمة السلام تحية أهل الجنة، كرامة من الله، عجلها لهم ونعمة منه^(٣).

وقال ابن زيد: ذلك السجود تشرفة، كما سجدت الملائكة تشرفة لآدم، وليس بسجود عبادة^(٤).

وقال ابن جريج: بلغنا أن أبويه وإخوته سجدوا ليوسف إيماء برؤوسهم كهيئة الأعاجم، وكانت تلك تحيتهم كما يصنع ناس اليوم^(٥).

وقال يوسف لأبيه عندما رأى ذلك: هذا السجود هو تفسير رؤيائي في المنام التي قصصتها عليك من قبل وأنا صغير، قد جعلها ربي حقًا وصدقًا في اليقظة.

قال الحسن: إن يوسف كان عمره حين أُلقي في الجب سبع عشرة سنة، وأقام في العبودية والسجن والملك ثمانين سنة، وأقام مع أبيه وإخوته وأقاربه ثلاثًا وعشرين سنة، وتوفاه الله وهو ابن مئة وعشرين سنة^(٦).

وقال الحسن أيضًا: كان منذ فارق يوسف يعقوب إلى أن التقيا ثمانون سنة، لم يفارق الحزن

(١) حديث معاذ في «المسند» (٣٨١/٤) برقم (٢١٩٨٦) قال محققوه: صحيح لغيره، وهذا إسناد رجاله ثقات رجال الشيخين إلا أن فيه انقطاعًا فخصين بن جندب لم يدرك معاذًا، وهو في «سنن ابن ماجه» برقم (١٨٥٣) وصححه ابن حبان وأخرجه الطبراني (٣٧٣) وابن أبي شيبة (٣٠٥/٤).

(٢) حديث سلمان من طريق شهر بن حوشب، رواه أبو نعيم في «تاريخ أصبهان» (١٠٣/٢).

(٣) أخرجه عبد الرزاق (٣٢٨/١) والطبري (٣٥٥/١٣) وابن أبي حاتم (٢٢٠٢/٧).

(٤) الطبري (٣٥٦/١٣) وابن أبي حاتم (٢٢٠٢/٧).

(٥) أخرجه الطبري (٣٥٥/١٣) وابن المنذر وأبو الشيخ كما في الدر (٣٤٠/٨).

(٦) ابن أبي شيبة (٥٦٤/١١) وأحمد في «الزهد» ص ٨٠ والطبري (٣٦٠/١٣) وابن أبي حاتم (٢٢٠٢/٧).

قلبه، ودموعه تجري على خديه، وما على وجه الأرض عبد أحب إلى الله من يعقوب^(١).

وصح عن سلمان الفارسي عليه السلام أنه قال: كان بين رؤيا يوسف وعبارتها أربعون عامًا^(٢).

وأحداث السورة من بدئها إلى هنا تفسّر هذه الرؤيا، قال يوسف: وقد تفضل الله عليّ حين أخرجني من السجن، واكتفى يوسف من حُسن أدبه بذكر إخراجه من السجن؛ حتى لا يجرح إخوته ويخجلهم، ولم يذكر إلقاءه في الجب، ولا بيعه ببيع الرقيق، ولا محنته مع امرأة العزيز وغيرها من النسوة، ولا غير ذلك.

اليهود قوم رُحّل:

ثم أكمل يوسف كلامه قائلاً: وجاء بكم إليّ من البدو، والبدو خلاف الحضّر، فبنو إسرائيل هم رعاة إبل وبقر وغنم، وهم قوم رُحّل ليس لهم وطن ثابت، وإنما يتنقلون بخيامهم ومواشيهم هنا وهناك، شأن أهل البادية.

وهذه الكلمة ﴿وَجَاءَ بِكُمْ مِّنَ الْبَدْوِ﴾ من نبي الله يوسف عليه السلام تؤرخ لبني إسرائيل، أنهم بلا حاضرة ولا وطن ثابت، فقد كانوا في حياة أبيهم أهل بادية ومواش وبريّة، وشأن أهل البادية التنقل والترحال.

وقد جاء ذلك صريحاً في قوله تعالى: ﴿وَقَطَعْنَاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَسْمَاءً﴾ [الأعراف: ١٦٨] وغير الصهاينة من اليهود يقرون بذلك ويتبرؤون من قيام الكيان الصهيوني في فلسطين، ويذكرون أن ذلك محاربة لله الذي عاقبهم بترك الجهاد مع نبيهم موسى عليه السلام بالنشست في الأرض هنا وهناك.

وآية سورة الإسراء توضح هذا المعنى ﴿وَقُلْنَا مِنْ بَعْدِهِ﴾ من بعد موسى ﴿لِبَنِي إِسْرَءِيلَ أَسْكُنُوا الْأَرْضَ﴾ و (ال) في الأرض لاستغراق الجنس؛ أي: اسكنوا الأرض كلها متفرقين في أي مكان من العالم هنا وهناك، غير مجتمعين، فإذا اقتربت الساعة ﴿جِئْنَا بِكُمْ لَفِيفًا﴾ [آية: ١٠٤] أي: جمعناكم في مكان واحد، ويكون هذا الجمع بداية النهاية، ليقاتلكم المسلمون، وينصرهم الله عليكم، وتكون نهايتكم على أيديهم؛ حيث يُنطق الله الحجر

(١) «تفسير الطبري» (٢٧٣/١٦). وأخرجه عبد الله بن أحمد في (زوائد الزهد) ص ٨٤.

(٢) قال ابن حجر: أخرجه الطبري والحاكم والبيهقي في «الشعب» بسند صحيح، «فتح الباري» (٣٠٧٧/١٢) وانظر «تفسير الطبري» برقم (١٩٩١٧) و«المستدرک» (٣٩٦/٤) و«شعب الإيمان» برقم (٤٧٨٠).

ويقول: يا مسلم، هذا يهودي ورائي فتعال فاقتله.

ولعل اجتماع عدد كبير منهم في فلسطين اليوم، هو نهايتهم إن شاء الله.

ويأتي هذا تحقيقاً لقول الله تعالى في سورة المائدة: ﴿قَالَ فَإِنَّهَا﴾ أي: فلسطين ﴿مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ﴾ أي: حرمة أبدية ويلزم الوقف على ﴿عَلَيْهِمْ﴾ في التلاوة، ثم يستأنف القارئ ﴿أَرْبَعِينَ سَنَةً يَنْتَهُونَ فِي الْأَرْضِ﴾ [آية: ١٢] لأن مدة التيه كانت أربعين عاماً، أما التحريم فهو مؤبد، ووجودهم الحالي في فلسطين لا ينافي ذلك؛ ليظل باب الجهاد مفتوحاً أمام المسلمين؛ فيثابون عليه.^(١)

وقد نسب يوسف ما حدث من الفساد بينه وبين إخوته بسبب الحسد، إلى الشيطان من باب الأدب؛ لئلا يجرح إخوته فهو الذي أفسد رابطة الإخوة بينهم.

ثم أثنى يوسف على ربه بأنه سبحانه يدبر الأمور ويصرفها لجميع خلقه، ويعلم دقائقها وخفاياها ﴿إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ﴾ بمصالح العباد ﴿الْحَكِيمُ﴾ في جميع أفعاله وأقواله.

مدفن يعقوب عليه السلام: قالوا: إن يعقوب عاش مئة وسبعة وأربعين عاماً كما حققه بعضهم، عاش منها أربعة وعشرين عاماً في مصر مع ابنه يوسف، وأوصى إذا مات أن يدفن في الشام، فلما مات حمله يوسف مع إخوته بعد أن نفخ فيه المرّ لحفظ الجثة، ودفن إلى جوار أبيه إسحاق بالشام، ورجع يوسف إلى مصر، وعاش بعد موت يعقوب ثلاثة وعشرين عاماً، ومات يوسف بعد مئة وعشرين عاماً من عمره، وذكر بعضهم أنه عاش مئة وثلاثين سنة، وعند أهل الكتاب مئة وعشر^(٢).

مدفن يوسف عليه السلام: ولما مات يوسف تنافس أهل مصر على المكان الذي يدفن فيه، فرغب كل منهم أن يدفن في مكانه، فاتفقوا على أن يضعوه في صندوق من المرمر أو الرخام ويدفن في النيل حتى تمر عليه المياه، وتحمل ريحه هنا وهناك، وبقي هكذا حتى كانت رسالة موسى عليه السلام، فأخرج موسى هذا الصندوق من النيل بدلالة عجوز من بني

(١) ينظر تفسير آيات سورة المائدة في حرب العمالقة.

(٢) انظر ابن أبي حاتم عن الربيع بن أنس (٢١٩٦/٧).

إسرائيل عليه، وحمله إلى فلسطين ودفنه هناك^(١).

وكان بداية دخول بني إسرائيل إلى مصر في عهد يوسف عليه السلام، وكان عددهم نحو ثلاثة وسبعين رجلاً وامراً، وبقوا في مصر مدة تقرب من أربع مئة عام، ثم خرج بنو إسرائيل من مصر خروجاً نهائياً في عهد موسى عليه السلام، وكان عددهم آنذ ست مئة وسبعين ألفاً، وحين خرج يعقوب إلى يوسف بمصر كان معه اثنان وسبعون من ولده وولد ولده^(٢).

يُوسُفُ يَسْأَلُ رَبَّهُ تَمَامَ النِّعْمَةِ عَلَيْهِ فِي الْآخِرَةِ

١٠١- ﴿رَبِّ قَدْ آتَيْتَنِي مِنَ الْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِي مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ فَاطِرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَنْتَ وَلِيِّ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ﴾

ذكر يوسف عليه السلام في هذه الآية بعض نعم الله عليه، ثم سأل ربه أن يتم عليه النعمة في الآخرة كما أتمها عليه في الدنيا، لقد أتم الله النعمة على يوسف فتضرع إلى ربه بالدعاء: رب قد أعطيتني من مُلك مصر، وأنعمت عليَّ بالنبوة والرسالة، وعلمتني من تفسير الرؤيا وغيرها من العلوم، يا خالق هذا الكون ومبدعه، يا فاطر السموات والأرض، أنت متولي شؤوني في الدنيا والآخرة، توفني إليك مسلماً، فلا تمنني إلا مسلماً.

لقد سأل يوسف ربه أن يشبته على الإسلام، وأن يظل عليه حتى يلقي ربه، كما قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُمْ مُسْلِمُونَ﴾ [آل عمران]. وقال تعالى: ﴿وَاعْبُدْ رَبَّكَ حَقَّ يَأْنِكَ أَلْيَقِيتُ﴾ [الحجر] وهذا معنى ﴿تَوَفَّنِي مُسْلِمًا﴾. أي آدم عليَّ الإسلام وثبتني عليه إلى أن ألقاك.

وقد ذكر يوسف عليه السلام في الآية نعمتين من نعم الدنيا عليه هما: نعمة الولاية على الأرض ونعمة العلم، كما ذكر نعمة ثالثة أخروية؛ وهي نعمة الإسلام والدين الحق، فيوسف عليه السلام لم يتمنَّ الموت، وإنما طلب من ربه أن يبقيه على ملة الإسلام (التوحيد) حتى الموت.

وفي الحديث عن أنس رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «لا يتمنن أحدكم الموت لضر نزل

(١) ينظر أثر عروة بن الزبير عند ابن أبي حاتم (٢٧٦٨/٨).

(٢) انظر أثر أبي هريرة في «الدر المنثور» (٣٣٨/٨) عن أبي الشيخ.

به، فإن كان لا بُدَّ متمنيًا للموت فليقل: اللهم أحييني ما كانت الحياة خيرًا لي، وتوفني إذا كانت الوفاة خيرًا لي»^(١).

وفي الحديث عن أبي هريرة أن النبي ﷺ قال: «يأتي على الناس زمان يمر فيه الرجل بقبر الرجل فيقول: يا ليتني مكانه»^(٢). وذلك لما يرى من البلاء والفتن.

وأكمل يوسف دعاءه قائلاً: وألحقني بعبادك الصالحين وبإخواني من الأنبياء والمرسلين، وبآبائي إبراهيم وإسحاق.

ويحتمل أن يوسف ﷺ قد سأل ربه ذلك عند احتضاره للموت، كما في حديث عائشة ؓ قالت: كان رسول الله ﷺ إذا اشتكى منا إنسان، مسحه يمينه، ثم قال: «أذهب البأس رب الناس، واشف أنت الشافي، لا شفاء إلا شفاؤك، شفاء لا يغادر سقمًا» فلما مرض رسول الله ﷺ وثقل، أخذت بيده؛ لأصنع به نحو ما كان يصنع، فانتزع يده من يدي، ثم قال:

«اللهم اغفر لي واجعلني مع الرفيق الأعلى» قالت: فذهبت أنظر، فإذا هو قد مضى^(٣).

ويحتمل أن يوسف ﷺ سأل ربه إذا حان أجله وانقضى عمره أن يميتة على الإسلام، كما في الأثر: اللهم أحيينا مسلمين، وتوفنا مسلمين، وألحقنا بالصالحين.

والنهي عن تمنى الموت يكون ما لم يحدث للناس فتنة في الدين، فإن حدثت فتنة فإنه يجوز سؤال الموت حيثئذ، كما طلب سحرة فرعون ذلك فقالوا: ﴿رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَتَوَفَّنَا مُسْلِمِينَ﴾ [الأعراف: ١٢٦].

وقالت مريم لما جاءها المخاض: ﴿يَلَيْتَنِي مِثُّ فَيْلٍ هَذَا وَكُنْتُ نَسِيًّا مَنْسِيًّا﴾ [مريم: ٢٣].

(١) «صحيح البخاري» برقم (٥٦٧١، ٦٣٥١) و«صحيح مسلم» برقم (٢٦٨٠).

(٢) من حديث أبي هريرة في «صحيح مسلم» (١٥٧/٥٤).

(٣) «صحيح البخاري» (٥٦٧٥، ٥٧٥٠، ٧٥٤٣) و«صحيح مسلم» برقم (٢١٩١) و«المسند» (٧٤/٦).

برقم (٢٤١٨٢، ٢٤٩٤٦) وأخرجه ابن ماجه (١٦١٩) والطيالسي (١٤٠٤) والبيهقي في «السنن»

(٣٨١/٣) وفي «الشعب» (٩٢٠١) وأبو يعلى (٤٤٥٩) وغيرهم من طرق متعددة.

وفي حديث معاذ: «وإذا أردت بقوم فتنة فتوفني إليك غير مفتون»^(١).

التَّعْقِيبُ عَلَى قِصَّةِ يُوسُفَ عَلَيْهِ السَّلَامُ

١٠٢ - ﴿ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ أَجْمَعُوا أَمْرَهُمْ وَهُمْ يَمْكُرُونَ﴾^(١١٢)

وفي نهاية قصة يوسف عليه السلام يوجه الله تعالى الخطاب إلى نبيه محمد ﷺ يخبره أن ما قصّه عليه في هذه السورة هو من إخبار الغيب الذي علّمه الله إياه عن طريق الوحي؛ ليظهر لقومه صدقه في دعوة الرسالة، فهي من دلائل صدقه ﷺ ومن براهين رسالته، كما قال تعالى في نهاية قصة نوح عليه السلام: ﴿تِلْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهَا إِلَيْكَ مَا كُنْتَ تَعْلَمُهَا أَنْتَ وَلَا قَوْمُكَ مِنْ قَبْلِ هَذَا﴾ [هود: ٤٩].

وقال سبحانه في التعقيب على قصة مريم: ﴿ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلَمَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ﴾^(١١٣) [آل عمران: ٤٤].

وفي التعقيب على قصة موسى عليه السلام قال سبحانه: ﴿وَمَا كُنْتَ بِجَانِبِ الْفَرْنِ إِذْ فَضَيْنَا إِلَىٰ مُوسَى الْأَمْرَ وَمَا كُنْتَ مِنَ الشَّاهِدِينَ﴾^(١١٤) [القصص].

وقال أيضاً: ﴿وَمَا كُنْتَ ثَاوِيًا فِي أَهْلِ مَدْيَنَ تَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا وَلَكِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ﴾^(١١٥) ﴿وَمَا كُنْتَ بِجَانِبِ الطُّورِ إِذْ نَادَيْنَا وَلَكِن رَّحِمَةً مِن رَّبِّكَ﴾ [القصص: ٤٥، ٤٦].

وهكذا قصة يوسف عليه السلام، هي من الأخبار الغيبية، ومحمد ﷺ كان أمياً، لم يقرأ كتب أهل الكتاب، حتى يتعرف على قصة يوسف فيها، ولم يكن حاضراً مع إخوة يوسف حين ألقوه في البئر، ولم يسافر في طلب العلم، ولم يتلق العلم على أحد من خلق الله، ولم يكن حاضراً مع أبناء يعقوب وهم يمكرون بيوسف ويعقوب وبنيامين، ويتآمرون على قتل يوسف، ويكذبون على نبي الله يعقوب، فهذا كله من باب المعجزة والوحي الإلهي، والدليل القاطع على صحة نبوة محمد ﷺ، وأنه قد عرف ذلك عن طريق الوحي.

(١) «المسند» (٢٤٣/٥) و«سنن الترمذي» برقم (٣٢٣٥) وقال الترمذي: هذا حديث حسن صحيح.

لَا تَحْزَنْ يَا رَسُولَنَا

١٠٣- ﴿وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ﴾ (١٠٣)

ومع أن الإخبار بالغيب دليل قاطع على صدق الرسالة، إلا أن أكثر الناس لا يؤمنون، ولو كان النبي ﷺ حريصاً على إيمانهم، فإنه لن يؤمن منهم إلا مَنْ شاء الله له ذلك.

لقد طلب المشركون واليهود من النبي ﷺ أن يذكر لهم قصة يوسف؛ فشرحها الله لهم شرحاً وافياً، وكان ﷺ يطمع في إسلامهم، وبعد أن سمعوها ولم يُسلموا حزن ﷺ؛ فأنزل الله سبحانه يسلي رسوله، ويقول له: لا تحزن^(١).

فما أكثر الناس من أمتك بمصدقك ولا مُتبعيك ولو حرصت على هدايتهم وإيمانهم، ولو اجتهدت في ذلك، فمهمتك هي البلاغ، وهداية الإرشاد والبيان والدلالة.

١٠٤- ﴿وَمَا تَسْأَلُهُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ﴾ (١٠٤)

وأنت لم تسألهم على تبليغ الرسالة أجراً، وما طلبت منهم شيئاً دنيوياً من مال أو متاع أو جاه، حتى يمتنعوا من الإيمان بك، وما هذا القرآن إلا عظة وتذكير وبيان للعالمين المهتدين.

١٠٥- ﴿وَكَأَيِّنْ^(٢) مِنْ ءَايَةٍ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ﴾ (١٠٥)

وليس للناس عذر في عدم الإيمان بالله تعالى وعدم التصديق بصاحب الرسالة الخاتمة، فالمشركون يمرُّون صباح مساء على الآيات الكونية الكثيرة، التي تقتضي إيمانهم بالله تعالى؛ من سموات وأرض وشمس وقمر وكواكب وأفلاك ونبات وجماد وحدائق... إلخ، ولكنهم في غفلة عن دلائل التوحيد والقدرة، لا يتفكِّرون فيها، ولا يعتبرون بها، ولا يلتفتون إليها، كأنهم لم يروها، وليس هذا الإعراض عن عظيم قدرة الله تعالى، بأعجب من إعراضهم عنك يا محمد، فلا تحزن على عدم إيمانهم بك.

(١) ينظر: «تفسير الألوسي» وابن الجوزي والخازن وغيرهم للآية.

(٢) قرأ ابن كثير وأبو جعفر (وكائن) بألف ممدودة بعد الكاف بعدها همزة، فتكون من قبيل المد المتصل، وأبو جعفر يسهل الهمزة مع المد والقصر، والباقون (وكأين) بهمزة مفتوحة بعد الكاف بعدها ياء مشددة، وهما لغتان بمعنى كثير.

الإِيمَانُ الْخَالِي مِنَ التَّطَبُّقِ الْعَمَلِيِّ وَعُقُوبَةُ ذَلِكَ

١٠٦- ﴿وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللَّهِ إِلَّا وَهُمْ مُشْرِكُونَ﴾

أي وإن وُجد بعض الإيمان، مِمَّنْ يُعرض عن دلائل التوحيد فإنهم لا يكونوا مؤمنين لأنهم، يعترفون بوجود الله ويشركون معه غيره في العبادة.

وهؤلاء المكذبون مقرون ومؤمنون بوجود الله سبحانه، وأنه خالقهم ورازقهم، يلجؤون إليه إذا مسهم الضر، ولكنهم لا يفرّدونه جل شأنه بالعبادة؛ ولذا فإن مَن يؤمن منهم بالله تعالى يكون إيمانه مشوباً بالشرك، فمع إقرارهم بأن الله تعالى خالق كل شيء، يشركون معه غيره في العبادة، ويقولون: ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى﴾ [الزمر: ٣].

وقد سماهم القرآن مؤمنين؛ لأن هذا الإيمان يراد به الإيمان اللغوي؛ أي: الخالي من التطبيق العملي، فليس معه عمل للجوارح، حيث يقول الله تعالى عنهم: ﴿وَلَّيْن سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ﴾ [الزمر: ٣٨]

ويقول سبحانه: ﴿قُلْ مَنْ رَبُّ السَّمَوَاتِ السَّبْعِ وَرَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ﴾ (٨٦) سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ﴿[المؤمنون]

والمشركون يقولون يوم القيامة: ﴿وَاللَّهُ رَبُّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾ [الأنعام: ٢٣]

وإبليس يعترف بوجود الله تعالى فيقول: ﴿رَبِّ فَأَنْظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾ [الحجر: ٣٦].

فالتصديق بوجود الله تعالى لا يقتضي الإيمان الشرعي، وهو العمل بالجوارح، ولذلك فالذي يعترف بأن له رباً، ثم يُوجّه العبادة لغير الله، أو يدعو غير الله، أو يعتقد النفع والضر من غير الله، أو يستعيذ بغير الله، أو يستغيث بغير الله، أو يطلب المدد والعون من غير الله، فإنه في هذه الأحوال وما يشبهها يكون ممن تنطبق عليه هذه الآية، وهي تنهى عن الشرك بالله تعالى، سواء أكان ظاهراً أم خفياً، كبيراً أم صغيراً، وتدعو إلى إخلاص العبادة والطاعة لله وحده:

أحاديث في معنى الآية:

١- فعن أبي هريرة ؓ قال: قال رسول الله ﷺ: «قال الله تبارك وتعالى: أنا أغنى

الشركاء عن الشرك، من عمل عملاً أشرك فيه معي غيري تركته وشركه»^(١).

٢- وفي حديث ابن مسعود رضي الله عنه قال: قلت: يا رسول الله، أي الذنب أعظم؟ قال: «أن تجعل لله نداً وهو خلقك»^(٢).

٣- وعن أبي سعيد بن أبي فضالة قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إذا جمع الله الأولين والآخرين ليوم لا ريب فيه، نادى مناد: مَنْ كان أشرك في عمل عمله لله أحداً، فليطلب ثوابه من عند غير الله، فإن الله أغنى الشركاء عن الشرك»^(٣).

٤- وعن محمود بن كبيد أن رسول الله ﷺ قال: «إن أخوف ما أخاف عليكم الشرك الأصغر» قالوا: وما الشرك الأصغر يا رسول الله؟ قال: «الرياء، يقول الله يوم القيامة إذا جُزِيَ الناس بأعمالهم: اذهبوا إلى الذين كنتم تراؤون في الدنيا، فانظروا هل تجدون عندهم جزاء»^(٤).

٥- ولما سأل الصحابة رسول الله ﷺ: كيف نتقي الشرك وهو أخفى من ديب النمل؟ فقال: «قولوا: اللهم إنا نعوذ بك من أن نشرك بك شيئاً نعلمه، ونستغفرك لما لا نعلم»^(٥).

٦- وفي حديث أبي بكر رضي الله عنه قال: يا رسول الله، علمني شيئاً أقوله إذا أصبحت وإذا أمسيت، وإذا أخذت مضجعي، قال: «قل: اللهم فاطر السموات والأرض، عالم الغيب

(١) «صحيح مسلم» برقم (٢٩٨٥).

(٢) «صحيح البخاري» برقم (٤٤٧٧، ٤٧٦١، ٦٠٠١) و«صحيح مسلم» برقم (٨٦).

(٣) «المسند» (٢١٥/٤) برقم (١٥٨٣٨، ١٧٨٨٨) قال محققوه: صحيح لغيره، وهذا إسناد حسن من أجل زياد بن مينا، وباقي رجال الإسناد ثقات رجال الصحيح، وأخرجه الترمذي (٣١٥٤) وقال: حسن غريب، وابن ماجه (٤٢٠٣) وابن حبان (٤٠٤).

(٤) «المسند» (٤٢٨/٥) برقم (٢٣٦٣٠، ٢٣٦٣١، ٢٣٦٣٦) قال محققو «المسند»: حديث حسن، رجاله رجال الصحيح إلا أنه منقطع، فعمر بن أبي عمرو لم يسمع من محمود بن كبيد، وبينهما عاصم بن عمر بن قتادة، وهو ثقة، وعمر بن صدوق، وأخرجه البغوي في «شرح السنة» (٤١٣٥) وابن خزيمة (٩٣٧) والطبراني في «الكبير» (٤٣٠١) وحسنه ابن حجر في «بلوغ المرام».

(٥) «المسند» (٤٠٣/٤) من حديث أبي موسى برقم (١٩٦٠٦)، قال محققوه: وإسناده ضعيف لجهالة أبي علي الكاهلي وأخرجه ابن أبي شيبة (٣٣٧/١٠) والبخاري في التاريخ الكبير (٥٨/٩) والطبراني في الأوسط (٣٥٠٣).

والشهادة، رب كل شيء ومليكه، أشهد أن لا إله إلا أنت، أعوذ بك من شر نفسي، وشر الشيطان وشركه»^(١).

ومن أمثلة الشرك مع الإيمان ما كان يقوله المشركون في تلييتهم: لبيك لا شريك لك، إلا شريكاً هو لك، تملكه وما ملك.

وليس للمشرك المؤمن إلا أن يحل به عذاب الله، وَيَفْجُؤُهُ الْعِقَابُ وَهُوَ آمِنٌ: قال تعالى:

١٠٧- ﴿أَفَأَمِنُوا أَنْ تَأْتِيَهُمْ غَشِيَةٌ مِّنْ عَذَابِ اللَّهِ أَنْ تَأْتِيَهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾

ثم توعد الله تعالى المكذبين بدلائل التوحيد، وصدق الرسالة، وكل من يشوب إيمانهم شرك بالله تعالى، توعدهم بحلول قارعة أو داهية تدمرهم تدميراً.

فهل عند هؤلاء المكذبين ما يجعلهم آمنين من أن ينزل بهم عذاب من الله يعمهم، أو تأتيتهم القيامة فجأة، وهم لا يشعرون بذلك؟

وهل هؤلاء الناس في مأمن من أن تحل بهم عقوبته تعالى في صباحهم أو مساءهم، أو غدوهم ورواحهم، فتنزل بهم صاعقة، أو ينزل بهم عذاب مفاجئ أو زلازل وبراكين؟

قال تعالى: ﴿أَفَأَمِنَ الَّذِينَ مَكَرُوا السَّيِّئَاتِ أَنْ يَخْسِفَ اللَّهُ بِهِمُ الْأَرْضَ أَوْ يَأْتِيَهُمُ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ﴾ (٤٥) أَوْ يَأْخُذَهُمْ فِي تَقْلِيلِهِمْ فَمَا هُمْ بِمُعْجِزِينَ ﴿٤٦﴾ [النحل]

وقال سبحانه: ﴿أَفَأَمِنَ أَهْلُ الْقُرَى أَنْ يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنَا بَيِّنًا وَهُمْ نَائِمُونَ﴾ (٩٧) أَوْ آمِنَ أَهْلُ الْقُرَى أَنْ يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنَا ضُحًى وَهُمْ يَلْعَبُونَ ﴿٩٨﴾ [الأعراف]

وهل هم في مأمن من قيام الساعة المفاجئ فتحل بهم الصيحة وهم في أسواقهم وأعمالهم؟ ومن ثم يكون البعث والحساب والجزاء على الأعمال، فليتوبوا إلى الله ويتركوا ما كان سبباً في عقابهم.

(١) «المستند» (٩/١) برقم (٥١، ٥٢، ٦٣، ٨١) وعن ابن مسعود (٣٩١٦) وعن ابن عمرو (٦٥٩٧)، (٦٨٥١) بإسناد صحيح ورجال ثقات (محققوه)، و«سنن أبي داود» برقم (٥٠٦٧) و«سنن الترمذي» برقم (٣٣٩٢) و«سنن النسائي الكبرى» برقم (٧٦٩١).

مَنْهَجُ الدُّعَاةِ إِلَى اللَّهِ

١٠٨ - ﴿قُلْ هَٰذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو^(١) إِلَى اللَّهِ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي وَسُبْحَانَ اللَّهِ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾

يأمر الله تعالى نبيه ﷺ ويأمر الدعاة إلى الله من بعده في كل زمان ومكان أن يسيروا في الطريق الذي رسمه الله لهم، وأن يقوموا بدعوة الناس إلى إخلاص العبادة لله وحده ببصيرة نيرة، ومنهاج واضح، وطريق مستقيم لا اعوجاج فيه، وألا يكفوا عن الدعوة إلى الله تعالى مهما اعترضتهم العقبات.

والمعنى: ﴿قُلْ﴾ يا رسولنا، لكل من كفر أو أشرك بالله سبحانه: إن كفرتم أو أشركتم بالله تعالى، فأنا ماضٍ في تبليغ الدعوة إليكم، أحثُّ الخلق والعباد إلى الوصول إلى ربهم، وأرغبهم في ذلك، وأرهبهم مما يبعدهم عن الله، وهذه طريقتي أدعو إلى عبادة الله وحده على بصيرة وحجة، وعلى يقين وهدى، وعلى معرفة ونور من عند ربي، أنا ومن اقتدى بي، فمن آمن وصدّق بما جئتُ به، وسبح الله تعالى تنزيهاً له عما لا يليق بجلاله من الشرك والمشركين، فهو ممن سلك طريق الهدى وسار على النهج الصحيح في توجُّهه ودعوة غيره إلى طريق الخير والرشاد.

وفي ختام الآية أمر الله تعالى رسوله ﷺ أن يبرأ من الشرك وأهله فيقول: وأنا لست من المشركين مع الله غيره، وهو أمر لكل مسلم، ولكل من دعا إلى الله تعالى على بصيرة.

عُقُوبَةُ مُكَذِّبِي الرِّسَالَاتِ

١٠٩ - ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُوْحِي^(٢) إِلَيْهِمْ مِنْ أَهْلِ الْقُرَىٰ أَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ

فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَتْ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَدَارُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا أَفَلَا تَعْقِلُونَ^(٣)﴾

فإن كذبك الجاحدون والجاهلون فلا تحزن يا محمد، فإن من قبلك من الرسل كانوا مثلك، ولست بدعا من الرسل، فقد سبقك من قاموا بهذه الدعوة، فلماذا بادروا إلى

(١) قرأ نافع وأبو جعفر بفتح ياء الإضافة من (سبيلي أدعو) والباقون بإسكانها.

(٢) قرأ حفص (نوحى) بالنون وكسر الحاء، والباقون (يوحى) بالياء وفتح الحاء.

(٣) قرأ نافع وابن عامر وعاصم وأبو جعفر ويعقوب بتاء الخطاب في (تعقلون) والباقون بياء الغيب.

إنكار رسالتك والإعراض عن النظر فيما جئت به؟ ولماذا قالوا: ﴿فَلْيَأْتِنَا بِآيَةٍ كَمَا أُرْسِلَ الْأَوَّلُونَ﴾ [الأنبياء: ٥] ولماذا قالوا: ﴿لَوْلَا أَوْفَىٰ مِثْلَ مَا أَوْفَىٰ مُوسَىٰ﴾ [القصص: ٤٨] لقد أرسل الله قبلك رجلاً؛ فكذبوه، ولم يرسل الله تعالى ملائكة ولا جنًا ولا نساء، وإنما أُرْسِلَ رجلاً من البشر، يبلغون أوامر الله ونواهيه إلى خلقه، وهم من أهل الأمصار والمدن؛ ﴿مِّنْ أَهْلِ الْقُرَىٰ﴾ والقرية في القرآن هي المدينة الكبيرة، وأهل الحضر أعلم وأكمل عقلاً، وأحلم من أهل البوادي، وليس فيهم جهل ولا جفاء ولا قسوة.

ثم نعى القرآن على المكذبين بالدعوة غفلتهم وجهالتهم، وعدم الاعتبار بما حدث لغيرهم ممن كذب رسل الله، فقال تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ﴾ وينظروا في مصائر الأمم المكذبة؛ كقوم عاد، وقوم ثمود، وقوم نوح، فيرون ما حدث بهم، وكيف أهلكهم الله بتكذيبهم، فاحذروا أن تكونوا مثلهم فيصيبكم ما أصابهم.

ثم أشار سبحانه إلى أن ما عند الله من الثواب الجزيل خير من الدنيا وما فيها لمن آمن بخاتم الرسل، ﴿وَلَدَارُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ اتَّقَوْا﴾، وخاف لقاء الله واتقى الشرك، وامتلأ أمر الله ونهيه، وكان من أهل التقوى ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ فتتفكرون وتعتبرون ممن سبقكم فتؤمنون، وتؤثرون ما يبقى على ما يفنى.

إِذَا اشْتَدَّ الْكَرْبُ جَاءَ الْفَرْجُ

١١٠- ﴿حَتَّىٰ إِذَا اسْتَيْسَسَ الرُّسُلُ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ قَدْ كُذِّبُوا^(١) جَاءَهُمْ نَصْرُنَا فَنُجِّي^(٢) مَن نَّشَاءُ وَلَا يَرُدُّ بَأْسُنَا عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ ﴿١١٠﴾﴾

هذه الآية لبيان أنه إذا اشتد الكرب، واستحكمت الشدة، ولم يبق أمل في غير وجه الله تعالى، جاء النصر والفرج من الله تعالى، ولهذه الآية اتصال بالآية التي قبلها، على معنى: وما أرسلنا من قبلك إلا رجالاً ننزل عليهم الوحي لهداية الناس، فأعرض الكثير منهم عن دعوة الرسل وكذبوهم، ووقفوا منهم موقف الجاحد المعاند، حتى إذا ضاق الرسل ذرعاً بعدم إيمانهم، وأيقنوا من تكذيبهم لهم، جاء نصر الله الذي لا يتخلف، وأنت أيها الرسول واحد منهم، فلا تستعجل النصر على من كذَّبك، فقد اقتضت حكمة الله تعالى أن يتأخر هذا النصر بعض الوقت ولا يأتي عاجلاً.

سأل عروة بن الزبير عائشة رضي الله عنها عن معنى الآية، قال: أكذبوا أم كُذِّبوا؟ قالت: بل كُذِّبوا، فأخبرته أن الضمائر كلها تعود على الرسل على قراءة تشديد الذال؛ أي: أن الأقوام هم الذين كذبوا الرسل، وأن الرسل قد تيقنوا أن أقوامهم كذبوهم.

وأخبرته عن قراءة التخفيف أن الضمائر كلها تعود على المرسل إليهم، والمراد بهم: أتباع الرسل الذين آمنوا بهم وصدقوهم وطال عليهم البلاء، واستأخر عنهم النصر، حتى

(١) قرأ عاصم وحزمة والكسائي وأبو جعفر وخلف بتخفيف الذال من (كذبوا) جاء عن ابن عباس أن الضمائر كلها ترجع إلى المرسل إليهم؛ أي: وظن المرسل إليهم أن الرسل قد كذبوهم فيما ادَّعوا من النبوة، وفيما يوعده به من لم يؤمن من العقاب، ورد أن سعيد بن جبیر لما أجاب بذلك قال الضحاك وكان حاضراً: لو رحلتُ في هذه المسألة إلى اليمن كان قليلاً، وقرأ الباقر بتشديد الذال على عود الضمائر كلها على الرسل؛ أي: وظن الرسل أن أممهم قد كذبتهم فيما جاءوا به، ولشدة البلاء وطوله عليهم جاءهم نصر الله.

(٢) قرأ ابن عامر وعاصم ويعقوب بنون واحدة مضمومة مشددة، بعدها جيم مشددة، ثم ياء مفتوحة هكذا (فَنُجِّي) على أنه فعل ماضٍ مبني للمفعول، و(من) نائب فاعل، وقرأ الباقر بنونين، الأولى مضمومة، والثانية ساكنة بعدها جيم مخففة، هكذا (فَنُنَجِّي) وبعد الجيم ياء مدية، على أنه فعل مضارع أنجى مبني للمعلوم، والفاعل ضمير يعود على الله تعالى، و(من) مفعول.

إذا يؤس الرسل من إيمان المكذبين جاء نصر الله حاسماً فاصلاً^(١).

قالت عائشة: والله ما وعد الله رسوله من شيء إلا علم أنه سيكون قبل أن يموت، ولكنه لم يزل البلاء بالرسل حتى ظنوا أن من معهم من المؤمنين قد كذبوهم وكانت تقرؤها: (وظنوا أنهم قد كذبوا) مثقلة^(٢).

وهكذا الدعاة إلى الله تعالى في كل زمان ومكان، عليهم ألا يتأسوا من نصر الله تعالى لهم، مهما كثرت العقبات ومهما أهدق الخصوم، ومهما اشتد الكرب، فإن فرج الله آتٍ لا محالة ﴿فَأَمَّا الزُّبَيُّ فَيَذْهَبُ جُفَاءً وَأَمَّا مَا يَنْفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُتُ فِي الْأَرْضِ﴾ [الرعد: ١٧].

والمعنى: إن رسل الله يبلغون الدعوة إلى الله تعالى، فإذا يؤسوا من إيمان أقوامهم وفقدوا الأمل فيهم، واستبطؤوا النصر، وأيقنوا أن الأمم قد كذبوهم - بتشديد الذال - وظن الأقوام أن الرسل قد كذبوا - بتخفيف الذال وضم الكاف - جاء فرج الله بهلاك الأعداء ونصرة الرسل عليهم.

فنجى الله المؤمنين عند نزول العذاب، وأهلك الكافرين، ولا يرد عذاب الله عمن أجرم وتجراً على الله تعالى من المشركين المجرمين، فسنة الله تعالى لا تتخلف ولا تبدل، فالظن بمعنى اليقين في جانب الرسل، وبمعنى التوهم والحسبان في جانب الأمم، والضمير في ﴿كَذَّبُوا﴾ على قراءة التشديد يعود على الرسل، وعلى قراءة التخفيف يعود على أتباع الرسل.

خَتَامُ السُّورَةِ كَأُولَٰهَا

١١١ - ﴿لَقَدْ كَانَتْ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُولِي الْأَلْبَابِ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَى وَلَكِنْ تَصْدِيقَ^(٣) الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾

(١) انظر الحديث في البخاري بأرقام: (٣٣٨٩، ٤٥٢٥، ٤٦٩٥، ٤٦٩٦) والنسائي (١١٢٥٥) والطبري (٣٩٥/١٣) وابن أبي حاتم (٢٢١١/٧).

(٢) ينظر «صحيح البخاري» (٤٥٢٤، ٤٥٢٥) والطبراني (١١٢٤٥) والطبري (٣٩٥/١٣).

(٣) قرأ حمزة والكسائي وخلف العاشر ورويس بخلف عنه بإشمام الصاد صوت الزاي من (تصديق) وهي لغة قيس، وقرأ الباقون بالصاد الخالصة، وهو الوجه الثاني لرويس، وهي لغة قريش.

لقد كان في نبأ المرسلين الذي قصصناه عليك - أيها المسلم -، وما حل بالمكذابين للرسول من عقوبة، عظة لأولي النهي والألباب، ولقد كان في قصة يوسف على وجه الخصوص عبرة لأصحاب العقول الصحيحة، فيتأملون ويتفكّرون ويتعظون بما حدث ليوسف عليه السلام من إلقاءه في الجب، وسجنه، وعبوديته، ثم عزيز مصر.

ما كانت هذه القصة وغيرها من قصص الأنبياء والمرسلين حديثاً يفترى، أو يختلقه محمد ﷺ من عند نفسه، ولكنها تصديق ما جاء في الكتب السماوية السابقة كالتوراة والإنجيل، فهو ﷺ لم يقرأ الكتب ولم يخالط العلماء، ومع ذلك ففيها بيان لكل ما يحتاجه العباد من حلال وحرام، ومحجوب ومكروه، وفيها إرشاد من الضلالة وتفصيل لكل شيء وهدى إلى كل خير، ورحمة لأهل الإيمان تهتدي به قلوبهم؛ فيعملون بما فيه من الأوامر والنواهي، وأنزلنا هذا القرآن لقوم يؤمنون؛ لأنهم الذين يتفعلون به، والله أعلم بمراده وأسرار كتابه.

هذا: وفي سورة يوسف الكثير من الفوائد والعبر:

- ١- فهي أحسن القصص وأوضحه وأبينه.
- ٢- وفيها أصل تعبير الرؤى وأنه علم شرعي.
- ٣- وفيها دلائل على صحة نبوة محمد ﷺ.
- ٤- وفيها أنه ينبغي على العبد أن يتبعد عن أسباب الشر ويكتم ما يخشى منه الضرر.
- ٥- وفيها أن العدل مطلوب في كل شيء، ومنها معاملة الوالد لأولاده في المحبة والإيثار.
- ٦- ومنها الحذر من شؤم الذنوب، فإن الذنب الواحد تتبعه ذنوب كثيرة كما حدث من إخوة يوسف.
- ٧- ومنها أن بعض الشر أهون من بعض، وارتكاب أخف الضررين أولى، فإلقاء يوسف في الجب أهون من قتله.
- ٨- ومنها الحذر من فتنة النساء والخلوة بهن.
- ٩- ومنها أن الإيمان إذا خامر القلب دفع الله عنه أسباب المعاصي.

- ١٠- ومنها أن العبد إذا رأى فتنة في دينه فعليه أن يفر ويهرب منها .
- ١١- ومنها اختبار الحبس على المعصية وأن يلجأ العبد إلى ربه ويحتمي بحماه .
- ١٢- ومنها أن المفتي إذا سئل يبدأ بالمهم فالأهم .
- ١٣- ومنها أن العبد إذا وقع في مكروه لا يستعين إلا بمن له قدرة على تخليصه .
- ١٤- ومنها أن الإنسان لا يُلام في دفع التهمة عن نفسه .
- ١٥- ومنها أنه لا بأس أن يخبر الإنسان عما عنده من مهارات وقدرات ليتولى عملاً أو منصباً من المناصب .
- ١٦- ومنها حسن تدبير شؤون البلاد اقتصادياً .
- ١٧- ومنها أن سوء الظن مع وجود القرائن عصمة، وحسن الظن مع وجود القرائن العكسية ورطة، كما دار من حوار بين يعقوب وأبنائه في شأن يوسف وبنيامين .
- ١٨- ومنها دفع الحسد واتقاء العين بالأساليب الشرعية .
- ١٩- ومنها جواز استعمال الحيل في التوصل إلى الحق، واستعمال المعارض القولية والفعلية .
- ٢٠- ولا يجوز للإنسان أن يشهد إلا بما رأى وعلم .
- ٢١- ومنها أن الفرّج مع الكرب، وأن مع العسر يسراً .
- ٢٢- ومنها جواز أن يخبر الإنسان عما مسه من ضر دون جزع ولا شكوى، وأن يذكر نعمة الله عليه بعد ما مسه الضر^(١) .

تم تفسير (سورة يوسف) والله الحمد والمنة

(١) هذه رؤوس أقلام استفدت فيها من تفسير ابن سعدي بتصرف كثير .

تَفْسِيرُ سُورَةِ الرَّعْدِ (١٣)

مُقَدِّمَةُ السُّورَةِ

سورة الرعد هي السورة الثالثة عشرة في ترتيب المصحف، والسابعة والتسعون في ترتيب النزول، نزلت بعد سورة يوسف، وقبل سورة إبراهيم على القول بأنها مكية، وبعد سورة القتال، وقبل سورة الرحمن على القول بأنها مدنية.

وهي ثلاث وأربعون آية في المصحف الكوفي^(١).

وثمان مئة وخمسة وخمسون كلمة، وثلاثة آلاف وخمسة مئة وستة حروف.

ولذكر الرعد فيها سُمِّيَتْ به.

وسورة الرعد نزلت على رسول الله ﷺ في مكة المكرمة في أصح القولين، وهي من السور المختلف فيها بين كونها مكية أو مدنية، وموضوعها هو موضوع السور المكية.

فهي تتناول جانب العقيدة والتوحيد كما في الآيات الأربع الأولى، والآية الثامنة وما بعدها، وتتناول جانب الوحي والرسالة كما في الآية الثلاثين وما بعدها، وتتناول جانب البعث واليوم الآخر كما في الآية الخامسة وما بعدها.

والسورة تقيم الأدلة الكثيرة من هذا العالم الفسيح على قدرة الله سبحانه، وعلى صنع الخالق جلَّ شأنه في هذا الكون؛ كي يستدل بها الكافر على توحيد الله سبحانه، ويقر ويعترف بأن الله تعالى واحد أحد، وأنه خالق هذا الكون بما فيه ومن فيه، ورازقه ومدبر أمره، وهذا حال المشركين الذين تخاطبهم السورة في كل مكان وزمان؛ فالمجتمع الجاهلي في مكة كان يضم المسلمين والمشركين في عهد رسول الله ﷺ.

وبعد قيام الدولة الإسلامية في المدينة، كان فيهم المسلم وغير المسلم، وهذا المزيج من المسلمين وغيرهم في المجتمعات، موجود في كل مكان من عالمنا الفسيح، على

(١) وأربع وأربعون آية في المصحف المدني، الأول والثاني والمكي، وخمس وأربعون آية في المصحف البصري، وسبع وأربعون آية في المصحف الشامي.

مختلف عقائده وطبقاته .

وهذه الأدلة التي وردت في السورة -وهي تشير إلى كمال القدرة الإلهية- من شأنها أن تزيد إيمان المؤمن، وتُحْمِل من يعترف بوجود الله تعالى ولا يفرده بالعبادة أن يتوجّه بدعائه ونذره وذبحه واستغاثته وسائر العبادات إلى الله وحده، ويعتقد أن النفع والضرر منه ﷻ.

١- وهكذا بدأت السورة بقضية الإيمان والتوحيد، وهي بداية تُلخّص الموضوع الأساس للسورة وتركز عليه؛ فالحق -الذي جاء به محمد ﷺ من عند الله تعالى- واضح وضوح الشمس في رابعة النهار، ولكن فاقد البصر لا يُنتظر منه إيمان صحيح، ومن لم يحسن النظر في نفسه، لا يُتوقع منه أن يعرف الله تعالى معرفة حقيقية، فالحق يضل عنه كثيرون، وليس هناك عذر لهذه الكثرة التي أعرضت عن الحق، ورفضت الانقياد له.

لقد أقامت السورة أدلة متنوعة على كمال قدرة الله تعالى، وعظيم حكمته:

أ- تارة عن طريق التأمل في هذا الكون وما فيه من سموات مرتفعة بغير عمد، وأرض صالحة للاستقرار فيها، وشمس وقمر، وليل ونهار، وجبال لتثبيت الأرض، وأنهار لسقي الزرع، وكلها لمنافع الناس.

ب- وتارة عن طريق علم الله تعالى المحيط بكل شيء؛ فهو العليم بما تنقص الأرحام وما تزداد، وهو العليم بأحوال العباد، وهم مُستخفون بالليل وظاهرون بالنهار.

ج- وتارة عن طريق المنع والعطاء لمن يشاء من عباده؛ فهو سبحانه يسط الرزق لمن يشاء ويقدر.

د- وتارة عن طريق المصائب والقوارع التي تنزل بالجاحدين المكذبين لوحداية الله تعالى، ولصاحب الرسالة الأخيرة؛ فتصيبهم بما صنعوا، أو تحل قريباً من دارهم.

- وكما أن القرآن دليل ناطق يقود إلى الإيمان بالله تعالى؛ فإن الكون دليل صامت يُعرّف برب العزة والجلال، وكلا الدليلين يحتاج إلى يقظة العقل، ودقة الشعور.

وفي إيقاظ الحس النائم، يذكر القرآن الكريم أن في الأرض قطعاً متجاورات، القطعة الواحدة من الأرض تشتمل على ألوان من: الزروع، والثمار، والفاكهة؛ كالعنب،

والليمون، والتفاح، والحنظل، والبرتقال، والشوك، وهكذا، وكلها تُسقى بماء واحد، ويختلف المذاق واللون والأثر.

وهذا يشبه الدودة تأكل من ورق التوت فتخرج حريراً، وتأكل منه النحلة فتخرج عسلًا، وتأكل منه الشاة فتخرج بعرًا!! فسبحان الخالق العظيم.

ومن الأرض إلى الفضاء الكبير، فقد اكتشف علماء الفلك ما يعتقدون أنه ثقب أسود في مجرة نائية، أكبر مئة مرة من أي ثقب أسود تم اكتشافه من قبل، ويعتقد علماء الفلك أن هذا الثقب يضم ألف مليون نجم.

فإذا كان هذا مجرد ثقب صغير في هذا الكون الكبير، فماذا يكون الكون نفسه؟

لقد ختم الله الآيات التي تُلَفَّت النظر إلى التأمل وإعمال العقل بمثل قوله تعالى:

﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ ﴿أَفَلَا تَتَفَكَّرُونَ﴾ ﴿أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ﴾ وهكذا.

٢- كما تتناول السورة إثبات البعث والجزاء، فتعجب ممن ينكرون الحشر والنشر، والثواب والعقاب، وممن يستبعدون ذلك فيستعجلون نزول العذاب، لقد قصرت أنظارهم عن إدراك أن الذي خلق هذا الكون الهائل قادر على إعادة الخلق في بعث جديد، وعلى إثابة المطيع وعقاب العاصي، وكان عليهم أن يطلبوا هداية الله ويرجوا رحمته، بدلًا من أن ينكروا قدرة الله تعالى، ويطلبوا نزول العذاب بهم ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِلنَّاسِ عَلَى ظُلْمِهِمْ وَإِنَّ رَبَّكَ لَشَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ [٦].

٣- وتحدث السورة على الوحي النازل من السماء، وعن قيام النبي ﷺ بتبليغه قال تعالى: ﴿وَالَّذِي أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ الْحَقُّ﴾ [١].

وقال سبحانه: ﴿أَفَمَنْ يَعْلَمُ أَنَّما أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ الْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَى﴾ [١٩].

وقال جل شأنه: ﴿كَذَلِكَ أَرْسَلْنَاكَ فِي أُمَّةٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهَا أُمَمٌ لِيَتْلُوا عَلَيْهِمُ الَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ﴾ [٣٠].

وقال عز وجل: ﴿وَالَّذِينَ آمَنَتْهُمْ أَلْكَتَبَ يَفْرَحُونَ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمِنَ الْأَخْزَابِ مَنْ يُنْكِرُ بَعْضَهُمْ﴾ [٣٦].

وترد السورة على المكذبين بالرسالة، الذين يطلبون معجزة غير القرآن تدل على صدق محمد ﷺ ﴿وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ﴾ [٧، ٢٧].

ويمضي هؤلاء في كفهم حتى يصلوا إلى هذه النتيجة ﴿وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَسْتَ مُرْسَلًا قُلْ كَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَمَنْ عِنْدَهُ عِلْمُ الْكِتَابِ﴾ (١٣).

وترد عليهم أيضًا في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِنْ قَبْلِكَ وَجَعَلْنَا لَهُمْ أَزْوَاجًا وَذُرِّيَّةً وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَنْ يَأْتِيَ بِثَابِتٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ [٣٨].

أ- وتتضمن السورة عشرة أوصاف للمؤمنين، من الآية التاسعة عشرة إلى الآية الرابعة والعشرين، من استجمع هذه الوصايا العشر، كان أهلاً للجزاء الأوفى في جنات عدن، تسلّم عليه الملائكة، ويتنعم فيها بعقبى الدار.

ب- وتضرب السورة مثلين للحق والباطل:

أحدهما: بالماء النازل من السماء، فتسيل به الأودية والشعاب، ثم يجرف في طريقه الغطاء، فيطفو الزبد الذي لا فائدة فيه على وجهه، ثم يذهب سريعاً ويبقى الماء الصافي.

وثانيهما: المعادن التي تذاب؛ لتصاغ منها الأواني والحلي من الذهب والفضة، وما يعلو هذه المعادن من الزبد الذي سرعان ما يذهب ويتلاشى، ويبقى المعدن النقي الصافي، وهكذا ثبات الحق وذهاب الباطل.

ج - كما تذكر السورة مثلين لأهل السعادة والشقاء، فتشبه السعيد بالمبصر، والشقي بالأعمى ﴿أَفَمَنْ يَعْلَمُ أَنَّمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ الْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَى﴾ [١٩].

د- وقد أشارت السورة إلى زيادة الرقعة الإسلامية، ونقصان أرض الشرك والكفر، وفي ذلك نبوءة قد تحققت، فقد قرع الإسلام أبواب: مصر، والشام، والعراق، وإيران، وباكستان، وأفغانستان، والأندلس، والمغرب العربي، وغيرها، وغيرها، وسرعان ما دخل الناس في دين الله أفواجا، فاعتنقوا الإسلام وصاروا حماة له وحملوه إلى العالم ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَأْتِي الْأَرْضَ نَنْقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا وَاللَّهُ يَحْكُمُ لَا مُعَقَّبَ لِحُكْمِهِ وَهُوَ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾ (١١).

تَفْسِيرُ السُّورَةِ

فَاتِحَةُ السُّورَةِ تُنَوِّهُ بِشَأْنِ الْقُرْآنِ

١- ﴿الْمَرْءُ^(١) تِلْكَ ءَايَتُ الْكِتَابِ وَالَّذِي أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ الْحَقُّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ^(٢)﴾

تبدأ السورة بأربعة من حروف الهجاء: الألف، واللام، والميم، والراء؛ للإشارة إلى أن هذا القرآن المعجز، المتحدي بمثل أقصر سورة منه إلى يوم القيامة، مكوّن من هذه الحروف، ولجذب انتباه غير المسلمين للتأمل فيه، وهذا أصح ما قاله المفسرون فيها.

فإن كنتم في شك في أنه منزل من عند الله فهاتوا مثله، واستعينوا بمن شئتم من الإنس والجن، فإن عجزتم فأتوا بعشر سور مثله، وإن عجزتم فأتوا بمثل أقصر سورة منه، فإن لم تستطيعوا فاعلموا أنما أنزل بعلم الله.

ثم تتناول السورة قضية الوحي بعد هذه الحروف مباشرة، لبيان هذا المعنى، فتتحدث عن هذا الكتاب الذي نزل به الوحي الأمين، وكأنها تقول: هذه هي آيات القرآن، وهي مكوّنة من هذه الحروف، وفيها إشارة إلى أن آيات هذه السورة، وسائر الوحي المنزل من الله سبحانه على رسوله ﷺ هو الحق الوحيد الذي لا مزيد عليه ولا شك فيه، ولا تناقض بينه، فأخباره صدق، وأوامره ونواهيه عدل، وهو مؤيد بالأدلة والبراهين القاطعة، وليس كما يقول المشركون: إنك تأتي به من عند نفسك، فاعتصم به وتمسك بما فيه، فهو الحق الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، وهذا القرآن هو آيات الكتاب الدالة على كل ما يحتاج إليه العباد من أصول الدين وفروعه.

ومع وضوح الأدلة على صدقه فإن كثيرا من الناس لا يصدقونه ولا يعترفون به، ولا يعملون بما فيه، فيكذبون بالوحي الذي أنزل عليك -يا محمد- ويعرضون عنه عنادًا وظلما، كما قال تعالى: ﴿وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ^(٣)﴾ [يوسف] ويكذبون باليوم الآخر وما فيه من بعث، وحشر، ونشر، وحساب، وجزاء:

(١) سكت أبو جعفر على ألف، ولام، وميم، وراء من (المر) سكتة لطيفة بدون تنفس إشارة إلى أنها حروف مقطعة مستقلة، والباقون بعدم السكت.

(٢) قرأ ورش وأبو جعفر وأبو عمرو بخلف عنه بإبدال همزة (يؤمنون) واوًا، وكذا حمزة في الوقف.

عَشْرَةُ أَدِلَّةٍ عَلَى وَحْدَانِيَةِ اللَّهِ تَعَالَى وَكَمَالِ قُدْرَتِهِ ثَلَاثَةٌ مِنَ الْعَالَمِ الْعُلَوِيِّ وَسَبْعَةٌ مِنَ الْعَالَمِ السُّفْلِيِّ

٢- ﴿اللَّهُ الَّذِي رَفَعَ السَّمَوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ثُمَّ أَسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُّسَمًّى يُدَبِّرُ الْأَمْرَ يُفَصِّلُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿٢﴾﴾

تأخذ السورة في ذكر حشد عظيم من بدائع صنع الله ﷻ في الكون بعد الآية الأولى، فتشير إلى السموات، وإلى العرش، وإلى الشمس والقمر، فهن آيات ثلاث عظام من العالم العلوي، وهذه هي القضية الأولى في السورة من قضايا القرآن المكي: قضية التوحيد.

الآية الأولى: خَلَقَ السَّمَوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ: ﴿اللَّهُ الَّذِي رَفَعَ السَّمَوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ﴾.

وهذه السموات كالقبة على الأرض محيطة بها، وبما حولها من الماء والهواء من كل جانب، مرتفعة بدون أعمدة تحملها، وبدون دعائم، وبدون ركائز، وأنتم ترون هذا بأعينكم. وقيل: إن المعنى: لها أعمدة، ولكنكم لا ترونها، بناء على أن الضمير يعود على الأعمدة، والأول أصح.

والسموات ممتدة طويلاً وعرضاً، لا يحيط بها بصر الإنسان، ولا بواسطة المجهر.

وفيما ورد أن بين السماء الأولى والأرض مسيرة خمس مئة عام، وشمك السماء الواحدة مسيرة خمس مئة عام، وبين السماء الأولى والثانية مسيرة خمس مئة عام، وهكذا كل السموات، وكل سماء محيطة بالتي تحتها إلى السماء السابعة، ثم العرش والكرسي، قال تعالى: ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَوَاتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَنْزِلُ الْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ اللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا ﴿٣﴾﴾ [الطلاق]

وقال جلَّ شأنه: ﴿وَمِنْ سَمَاءٍ أَلَمَّا أَنْ تَفْعَ عَلَى الْأَرْضِ إِلَّا يَذْنِبُهُ﴾ [الحج: ٦٥].

الآية الثانية: عِظْمُ عَرْشِ الرَّحْمَنِ ﴿ثُمَّ أَسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ﴾

استواء يليق بجلاله تعالى، والعرش كالسقف، وهو أعلى المخلوقات، وهو سرير الملك عند علماء اللغة، لا يعرف قدره إلا خالقه، ولا يحيط بكنهه إلا خالقه، فهو من

الأمور الغيبية التي أعلمنا الله بها، ولم يطلع عليه أحد من خلقه، وهو معلوم من الدين بالضرورة، لا ينكر وجوده إلا كافر.

وقد ذكر العرش في القرآن في إحدى وعشرين آية، وذكر الاستواء في سبع آيات.

وقد جاء في الأثر: «والذي نفسي بيده ما السموات السبع والأرضون السبع عند الكرسي إلا كحلقة ملقاة بأرض فلاة، وإن فضل العرش على الكرسي كفضل الفلاة على تلك الحلقة»^(١).

فالعالم العلوي والسفلي بالنسبة إلى الكرسي كحلقة في أرض فضاء، أي: كقرش، أو ربع ريال ملقى في صحراء واسعة، فماذا يأخذ هذا القرش من هذه الأرض الواسعة؟

فالسموات في مجموعهنّ، وما بينهنّ بالنسبة إلى الكرسي، كهذا التشبيه، والله المثل الأعلى، والكرسي بالنسبة إلى العرش، كحلقة ملقاة في أرض فضاء واسعة.

إن مُلك الله عظيم لا يحيط به هذا العقل المخلوق المحدود، فكل مخلوق محدود لا يرقى إلى الكمال المطلق.

وهذا العرش له قوائم، وله حملة من الملائكة يحملونه، ﴿وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمَنِيَّةٌ﴾ [الحاقة: ١٧]

الاستواء: أما كيف استوى ربنا على العرش؟ وكيف ينزل كل ليلة في الثلث الأخير من الليل؟ ونحو ذلك من آيات الصفات، فאלله أعلم، وعلينا أن نؤمن بها كما نطق القرآن الكريم ونضع أمامها ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ [الشورى: ١١].

فالله سبحانه استوى على العرش استواء يليق بجلاله، والله أعلم بكيفيته، تقرأون مثلاً في تفسير الجلالين: استوى على العرش أي: استولى عليه وملكه، وهذا تأويل للآية، ومذهب أهل السنة والجماعة أن يمر المسلم على هذه الآية وأمثالها مروراً، وأن يؤمن بها كما جاءت من غير أن يؤول، ولا يشبه، ولا يعطل، ولا يمثل، ولا يكيف.

(١) هذا لفظ ابن مردويه، وقد ورد هذا مقطوعاً وموصولاً عن أبي ذر، يُنظر: «تفسير الطبري» (٣٩٩/٥) و«مصنف ابن أبي شيبة» برقم (٥٨) و«المعجم الصغير» للطبراني (٢١٥/١) وفي سنده محمد بن أبي السري العسقلاني، ضعفه ابن حاتم، وثقه ابن معين، وقال ابن عدي: كثير اللغظ، أفاده محقق «تفسير ابن كثير» سامي محمد السلامة في تفسير آية الكرسي. وانظره في تفسير آية الكرسي من هذا الكتاب.

كما قال الإمام مالك: الاستواء معلوم، والكيف مجهول، والإيمان به واجب، والسؤال عنه بدعة.

وكما قال بعضهم لمن سأله عن معرفة: كيف استوى الرحمن على العرش؟ فقال له: أنت لا تعرف كيف تأكل؟ وكيف تبول؟ ما هي المصانع التي بداخلك تحوّل هذا الطعام زكيّ الرائحة، طيب النكهة، طيب الطعم، لذيق المذاق، كيف تحوله إلى فضلات قدرة؟ ما الذي يحدث بداخلك، فيحول هذا الماء العذب، وهذه المشروبات النقية الشهيّة، إلى بول كريه الرائحة، كريه الطعم والمذاق؟ أنت لا تعرف كيف تأكل وكيف تبول؟ تريد أن تعرف كيف الاستواء؟ وكيف النزول؟ أي: كيف استوى ربنا على العرش؟ وكيف ينزل كل ليلة؟ وهذا أمر يشق على الإنسان معرفته؛ لأنه مخلوق محدود ضعيف، ضمن مخلوقات الله العظيمة، والمخلوق لا يحيط علماً بالخالق.

الآية الثالثة: تَسْخِيرُ الشَّمْسِ وَالْقَمَرِ لِمَنَافِعِ النَّاسِ: ﴿وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ﴾

أي: ذللّهما لمنافع العباد والبلاد، كل منهما يدور في فلكه، يسير بانتظام لا يفتران، ولا يسبق أحدهما الآخر ولا يدركه، حتى يجيء الأجل المسمى، ليطوى هذا العالم، وتُبدل الأرض غير الأرض والسموات، فتكور الشمس والقمر، ويجمع بينهما فيلقيان في النار، واكتفى ربنا بالشمس والقمر، عن سائر الكواكب؛ لأنهما أعظم الكواكب السبعة السيارة.

قال تعالى: ﴿وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ﴾ [يس].

ويدخل في الآية ما دون ذلك من الكواكب، كما قال تعالى: ﴿وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ مُسَخَّرَاتٌ بِأَمْرِي﴾ [الأعراف: ٥٤].

وقال ﴿لَا الشَّمْسُ يَنْبَغِي لَهَا أَنْ تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلَا الْبَلَدُ سَابِقُ النَّهَارِ كُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾ [يس].

أي: أن الشمس تجري لمستقر لها تحت العرش؛ حيث تدور الشمس دورتها في كل عام مرة، ويدور القمر دورته في كل يوم وليلة، وكل منهما يجري لأجل مسمى، أي: إلى وقت انقضاء العالم، حيث تتكور الشمس، وتتكور النجوم وتتناثر، ويخسف الشمس القمر، وهذا عند قيام الساعة.

وهو سبحانه ﴿يَدِيرُ الْأَمْرَ﴾ في العالم العلوي والسفلي ويصرفه حسبما يريد، يدبر أمر هذا الكون كله في وقت واحد ولحظة واحدة، فلا يشغله أمر عن أمر، ويدبر شؤون خلقه كلها من: الخلق والإيجاد، والإحياء والإماتة، والرزق، والشقاء والسعادة، ويرفع أقواماً ويضع آخرين، ويعز ويذل، ويفرج الكربات، وينفذ الأقدار، ويرسل الرسل، وينزل الكتب، ويرسل الملائكة لتنفيذ ما قضى الله به من تدبير شؤون الخلق، وغير ذلك من أحوال العباد والبلاد.

والله تعالى ﴿يُفَصِّلُ الْآيَاتِ﴾ أي يوضح الآيات الكونية الدالة على قدرته تعالى؛ لتؤمنوا بالله وحده، وتوقنوا بالعودة إليه في يوم المعاد؛ فتصدقوا بوعده ووعيده، وأمره ونهيهِ وتخلصوا العبادة له وحده.

والآيات الدالة على وحدانية الله تعالى قسمان:

قسم موجود مشاهد؛ كالسموات والأرض، والشمس والقمر، والجبال، والنجوم.

وقسم حادث غير مشاهد؛ كالحياة والموت، والفقر والغنى، والصحة والمرض، والنصر والهزيمة، والقوة والضعف، وغير ذلك من أحوال العالم.

وهو سبحانه ينزل كتبه ويبعث رسله، ويوضح لكم الآيات، لعلكم - أيها المكذبون - توقنوا ببقاء الله تعالى، وأن القادر على الإيجاد من العدم، قادر على الإحياء بعد الموت، ولعلكم تصدقون باليوم الآخر وما فيه من بعث وحساب، وأنكم مجزيون على أعمالكم التي قدمتموها في دنياكم، وهذه الآية تحدثت عن العالم العلوي، السماء وما فيها.

الآيَةُ الرَّابِعَةُ: خَلَقُ الْأَرْضِ صَالِحَةً لِلْمَعَاشِ وَالْإِسْتِقْرَارِ

٣- ﴿وَهُوَ الَّذِي مَدَّ الْأَرْضَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْهَارًا وَمِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ جَعَلَ فِيهَا رَوَاجِينَ أُنثِينَ يُفْشِي^(١) أَلْتَلَّ النَّهَارُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٣﴾﴾

أما هذه الآية فقد لفتت الأنظار إلى العالم الأرضي السفلي، وإلى الدلائل الأرضية،

(١) قرأ شعبة وحمزة والكسائي ويعقوب وخلف (يُفْشِي) بفتح الغين وتشديد الشين، مضارع غَشَى المضاعف، وقرأ الباقون بإسكان الغين وتخفيف الشين، مضارع أَغْشَى.

فأقامت منها خمسة أدلة من الأدلة العشرة على توحيد الله تعالى، أولها خلق الأرض:

قال تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي مَدَّ الْأَرْضَ﴾ مدها، أي: بسطها طولاً وعرضاً، ومهدّها ووسّعها، وبارك فيها، وأودع فيها أرزاقكم، وهبها لمعاشكم، ودلّلها لمصلحة الإنسان ونفعه.

ولاتساع رقعة الأرض من كل جانب لا تظهر كرويتها للإنسان، فهو لا يرى هذه الكروية؛ لأنه يشاهدها ممدودة من كل جهة، كالسطح الكبير لا ترى أطرافه، وكلما ذهب في جهة من جهات الأرض وجدّها منبسطة، فهي متسعة ممتدة أمامه لا يرى لها نهاية فهي كروية من كل جانب، وليس لها أربعة أطراف تحيط بها الرؤية، قال تعالى: ﴿وَالْأَرْضَ بَعْدَ ذَلِكَ دَحْنًا﴾ [النازعات].

الآية الخامسة: خَلَقُ الْجِبَالِ لِتُثَبِّتِ الْأَرْضَ ﴿وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ﴾

أي جبالاً عظماً، لئلا تميد بالناس، لأنها على تيار ماء لا ثبوت لها ولا استقرار إلا بالجبال الرواسي، التي جعلها الله أوتاداً لها، ولأن اليابس من الأرض يمثل الربع، بالنسبة للمياه التي تمثل ثلاثة أضعاف اليابس، فلا بد لها من أوتاد تثبتها، ولو تُركت هذه الأرض بدون جبال رواسي ثوابت تُمسكها لانجرفت في مياه المحيطات والبحار والأنهار، من أجل ذلك خلق الله تعالى الجبال أعمدة تُثَبِّتُ الأرض وترسيها.

قال ابن عباس: جبل أبو قبيس أول جبل وضع على الأرض.

قال تعالى: ﴿وَيُمْسِكُ السَّمَاءَ أَنْ تَقَعَ عَلَى الْأَرْضِ إِلَّا بِإِذْنِهِ﴾ [الحج: ٦٥]

وقال سبحانه: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُمْسِكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ أَنْ تَزُولَا وَلَئِنْ زَالَتَا إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِنْ عِبَادِهِ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا﴾ [فاطر].

الآية السادسة: خَلَقُ الْأَنْهَارِ لِمَنْفَعَةِ الْإِنْسَانِ وَالْحَيَوَانِ وَالنَّبَاتِ

قال تعالى: ﴿وَأَنْهَارًا﴾ أي: وجعل في الأرض أنهاراً تجري فيها المياه؛ لشربكم ومنافعكم، لحياة الإنسان، وحياة الحيوان، وحياة النبات، وكل شيء حي، فأخرج به من الأشجار والزرع والثمار خيراً كثيراً ونفعاً عميماً قال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ﴾ [الأنبياء: ٣٠]

وقال سبحانه: ﴿فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ إِلَى طَعَامِهِ﴾ (١٤) أَنَا صَبَبْنَا الْمَاءَ صَبًّا (١٥) ثُمَّ شَقَقْنَا الْأَرْضَ شَقًّا (١٦) فَأَلْبَنَّا فِيهَا حَبًّا (١٧) وَعَبَا وَقَضَا (١٨) وَزَيَّنَّا وَغَلَا (١٩) وَحَدَّائِقَ غَلَا (٢٠) وَفَكَهَّهَ وَأَبَّا (٢١) مَلَعَّا لَكُمُ الْأَنْفُسَ (٢٢) ﴿[عبر]

وقال تعالى: عن الماء ﴿لِنُخْرِجَ بِهِ بَلَدَةً مِثْلَ مُثْنٍ وَشَقِيقُهُ مِمَّا خَلَقْنَا أَنْعَمًا وَنَأْسًا كَثِيرًا﴾ (٢٣) [الفرقان].

الآيَةُ السَّابِعَةُ: تَعَدُّ أَنْوَاعِ وَأَشْكَالِ الزُّرُوعِ وَالثَّمَرِ

قال تعالى: ﴿وَمِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ جَعَلْنَا فِيهَا زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ﴾ أي: وجعل في الأرض من كل أنواع الثمرات صنفين: ذكراً وأنثى، حامضاً وحلواً، كبيراً وصغيراً، أبيض أو أخضر، أو أحمر أو أسود، قال تعالى: ﴿سُبْحَنَ الَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنْبِتُ الْأَرْضُ وَمِنْ أَنْفُسِهِمْ وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ﴾ (٢٤) ﴿[يس].

وقال: ﴿يُنْبِتُ لَكُم بِهِ الزَّرْعَ وَالزَّيْتُونَ وَالنَّخِيلَ وَالْأَعْنَابَ وَمِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ﴾ [النحل: ١١].

ويجمع هذه الفقرة -وما قبلها- قوله تعالى: ﴿أَلَمْ نَجْعَلِ الْأَرْضَ مِهْدًا (٦) وَالْجِبَالَ أَوْتَادًا (٧) وَخَلَقْنَاكُمْ أَزْوَاجًا (٨)﴾ [النبأ]

وقوله: تعالى: ﴿جَعَلْنَا مِنَ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالْأُنثَى﴾ (٢٥) [القيامة].

وقد شاع استعمال الزوجين في الذكر والأنثى في مثل قوله تعالى: ﴿قُلْنَا ائْمَلْ فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ﴾ [هود: ٤٠] وقوله ﴿فَأَخْرَجْنَا مِنْ أَزْوَاجٍ مِّنْ نَّبَاتٍ شَتَّى (٥٥) كُلُوا وَارْزُقُوا أَنْفُسَكُمْ﴾ [طه: ٥٣].

الآيَةُ الثَّامِنَةُ: تَعَاقُبُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ

قال تعالى: ﴿يَغْشَى اللَّيْلُ النَّهَارَ﴾ وهو سبحانه يغشي الليل النهار، أي: يدخل الليل على النهار، فيلبسه ويغشيه، أي: يغطيه بظلمته، فيذهب ضوء النهار ويأتي ظلام الليل، حتى يلبس النهار الليل فيذهب ضوءه، ويسكن كل حيوان إلى مأواه ويستريح من التعب والنصب، فإذا قضاوا مآربهم من النوم غشى النهار الليل فإذا هم مبصرون ﴿وَمِنْ رَحْمَتِهِ جَعَلْ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [القصص: ٧٣]

وفيما تقدم من عجائب صنع الله تعالى وعظيم قدرته، دلالات قاطعة لمن يستدل بالصنعة على الخالق، وبالسبب على المسبب، إن في صنع الله وفي دلائل قدرته لآيات

توصل إلى معرفة الله تعالى .

والفكر: هو إعمال العقل وتصرفه في معرفة الأحوال .

وفي الأثر: «تفكروا في آلاء الله، ولا تفكروا في ذاته فتهلكوا»^(١).

فإذا كانت الصنعة تدل على الصانع، والبصرة تدل على البعير، وأثر الأقدام يدل على المسير، فسماء ذات أبراج، وأرض ذات فجاج، كيف لا تدلان على اللطيف الخبير؟!

ومجمل معنى الآية: الله سبحانه جعل لكم الأرض متسعة ممتدة، وقد هيأها لكم لمعاشكم، وجعل فيها جبلاً لتبتهأ، وأنهاراً لشربكم ومنافعكم، وجعل فيها من كل الثمرات صنفين اثنين، فكان منها الأبيض والأسود، والحلو والحامض، وجعل الله الليل يغطي النهار بظلمته، إن في ذلك كله لعظات لقوم يتفكرون فيها ويتعظون.

الآيَتَانِ التَّاسِعَةُ وَالْعَاشِرَةُ:

اِخْتِلَافُ طَبَقَاتِ الْأَرْضِ وَخَلْقُ النَّخِيلِ صِنَوَانًا وَغَيْرِ صِنَوَانٍ

٤- ﴿وَفِي الْأَرْضِ قِطْعٌ مُتَجَوِّزَاتٌ وَجَنَّتْ مِنْ أَعْنَابٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنَوَانٌ وَغَيْرُ صِنَوَانٍ يُسْقَى (٣) يَمَاءً وَحِدٍ وَنُفُضٌ (٤) بَعْضُهَا عَلَى بَعْضٍ فِي الْأَكْثَلِ (٥) إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾

في الآية الرابعة دليلان على توحيد الخالق وكمال قدرته، وهما: اختلاف طبقات الأرض، وخلق النخيل صنواناً وغير صنوان، واختلاف ما يخرج من الأرض من ثمر وزرع وشجر، وهي من دلائل صنع الله سبحانه في الكون لمن يعقل ويتفكر.

(١) سبق تخريجه في آية آل عمران (١٩٠).

(٢) قرأ برفع هذه الألفاظ الثلاثة (وزرعٌ ونخيلٌ صنوانٌ وغيرُ) ابن كثير وأبو عمرو وحفص ويعقوب، بالعطف، على (قِطْعٌ) المنون المرفوع وقرأها الباقون (وزرعٌ ونخيلٌ صنوانٌ وغيرُ) بالخفض، عطفًا على (أعْنَابٍ).

(٣) قرأ (يُسْقَى) ابن عامر وعاصم ويعقوب، بالتذكير، أي: يُسْقَى ما ذكر، وقرأ (تُسْقَى) الباقون، بالتأنيث أي: تُسْقَى هذه الأشياء.

(٤) قرأ (وَنُفُضٌ) حمزة والكسائي وخلف بالبناء للمفعول، وقرأ (وَنُفُضٌ) الباقون، على البناء للفاعل.

(٥) قرأ (فِي الْأَكْثَلِ) نافع وابن كثير بإسكان الكاف وهي لغة تميم، وقرأ (فِي الْأَكْثَلِ) الباقون بضم الكاف، وهي لغة الحجازيين.

أما ما يتعلق بالأرض ذاتها فقله تعالى: ﴿وَفِي الْأَرْضِ قِطْعٌ مُتَجَوِّرَاتٌ﴾ منها: أراضٍ متلاصقة متتابعة، ولكنها تختلف في التربة، هذه أرض طيبة، تشرب الماء، وتنبت العشب والكلاء والزرع والثمر.

وإلى جوارها أرض ثانية، يابسة لا تنبت عشبًا ولا ثمرًا، ولا تمسك ماءً.

وأرض ثالثة تشرب المياه، ولكنها لا تنبت الزرع ولا الثمر.

وأرض رابعة تشرب المياه، وتنبت أنواعًا من الثمار والزرع، بمعنى أنها قد تنبت أشجارًا وثمارًا، ولا تنبت زرعًا أو العكس.

هذه ألوان وأنواع من الأرض: أرض طيبة صالحة، وأخرى سبخة مالحة، هذه طيبة، وأخرى رملية، هذه سميكة وأخرى رقيقة، هذه تربتها حمراء، وأخرى سوداء، هذه قليلة الريع، والأخرى كثيرة الريع، هذه صلبة وأخرى رخوة...، والكل قطع متجاورات ولكنها مختلفة، متباينة أو متتابعة، ومتلاصقة، وكلها آية من آيات الله سبحانه.

أما دلائل قدرة الله تعالى فيما يخرج من جوف الأرض من زرع وثمار، فقد جاء ذكره في قوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا مِنْ أَغْنَبٍ وَزَرْعٍ وَنَخِيلٍ﴾ والجنان: هي البساتين ذات الشجر الكثيف، ملفف الأغصان، أي: وفي الأرض حدائق وبساتين من أنواع الفواكه المختلفة، كالعنب والزيتون، وأنواع الزروع المختلفة في طعمها ولونها من أنواع الحبوب.

والنخيل منه ما يكون في منبت واحد مُجْتَمِع فيه، ومنه غير المُجْتَمِع في منبت واحد.

والصنو: ما كان أصله واحدًا وهو متفرق، مثل جذع النخلة وأصلها، فقد يكون الصنو جذعًا واحدًا، أو أصلًا واحدًا، وينبت منه نخلة واحدة، وقد يكون جذعًا واحدًا أو أصلًا واحدًا، ويتفرع منه نخلتان أو ثلاث أو أربع، هذا معنى ﴿صِنَوَانٌ وَغَيْرُ صِنَوَانٍ﴾ أي: أن للجذع فرعًا واحدًا أو أكثر، وقد تكون النخلة واحدة وطعامها مختلف وهو يشرب بماء واحد.

وهذه الزروع أو الثمار أو النخيل، يُسقى جميعه بماء واحد، ومع هذا يفضل الله سبحانه بعضها على بعض في الأكل، هذا حلو وهذا حامض، هذا مرٌّ وهذا عذب، هذا أصفر وهذا أحمر، أو أبيض أو أسود، هذا خوخ وهذا رمان، هذا عنب وهذا تفاح أو برتقال، والنوع الواحد مختلف في مذاقه ومطعمه، وهو متعدد الأشكال والألوان

والأوراق والأزهار.

وهذا مثل مضروب لاختلاف قلوب بني آدم وطبائعهم، فمنهم من يَرِقُّ قلبه ويخشع، ويلين ويخضع، عند ما يستمع إلى آيات الله تتلى، فيحيا قلبه وإيمانه، كالماء الذي ينزل من السماء على الأرض الميتة فيحييها، ومنهم من يقسو قلبه، فيلهو ويغفل، ولا يتعظ ولا ينتفع، كالماء ينزل على الأرض الجدبة فلا تنبت شيئاً.

قال الحسن: ما جالس القرآن أحداً إلا قام من عنده بزيادة أو نقصان، قال تعالى: ﴿وَنَزَّلَ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلَّا خَسَارًا﴾ [إسراء].

إنها لآيات من عجائب صنع الله تعالى، توقظ الحس النائم، وتسترعي الانتباه، وتستدعي التأمل، ولكن الإنسان من كثرة ما يألف من هذه المخلوقات العظيمة، ومن مداومته على رؤيتها، وامتداد يده إليها في كل حين، يمر بها دون أن يمعن النظر ويتأمل فيها.

كيف أن قطعة واحدة من الأرض فيها شجرة عنب، إلى جوار شجرة الليمون، إلى جوار شجرة الحنظل، إلى جوار شجرة الشوك، تُسقى جميعاً من مصدر واحد بماء واحد، ويختلف الجنّي والمذاق واللون والأثر.

إن الدودة تأكل من ورقة التوت فتضع حريراً، وتأكل منه النحلة فتضع عسلاً، وتأكل منه الشاة فتضع بعراً، سبحان الخلاق العظيم، وتبارك الله رب العالمين وأحسن الخالقين.

إن الله سبحانه خلق الأنواع والأصناف في فجاج الأرض، وآفاق السماء على نحو عجيب مثير، ومع ذلك يأتي امرؤ ملحد فيقول: لا إله، والحياة مادة، ويأتي آخر فيقول للرسول ﷺ: لا أؤمن بك حتى تنسف هذا الجبل، وتنشئ مكانه بستاناً لي!!^(١).

وخلاصة الأدلة التي ساقها الله سبحانه في هذه الآيات الثلاث، على كمال قدرة الله تعالى عشرة أدلة، وهي:

(أ) خلق السموات بغير عمد.

(١) الأسطر الثلاثة الأخيرة مستوحاة من كتاب «نحو تفسير موضوعي لسور القرآن الكريم» للشيخ محمد الغزالي رحمه الله ص (١٩٠).

- (ب) تسخير الشمس والقمر لمنافع الناس .
- (ت) خلق الأرض صالحة للمعاش والاستقرار .
- (ث) خلق الجبال لتثبيت الأرض .
- (ج) خلق الأنهار لمنفعة الإنسان والحيوان والنبات .
- (ح) خلق صنفين من كل نوع من الزروع والثمار .
- (خ) تعاقب الليل والنهار .
- (د) تعدد أنواع وأشكال الزروع والثمار .
- (ر) اختلاف طبقات الأرض .
- (ي) خلق النخيل صنوائاً وغير صنوان .
- ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ﴾ عظات بليغة لقوم يعقلون، ويتفكرون فيها فيتعظون بما فيها من الدلائل على قدرة الله سبحانه، بما عندهم من عقول يتدبرون بها، ويُعملون الفكر والنظر في ملكوت الله ﷻ، فيقودهم هذا إلى ما يرشدكم ويسعدكم في دنياهم وأخراهم، أما أهل الإعراض فهم في ظلمات يعمهون وفي غيٍّ يترددون .

وَجُوبُ الْإِيمَانِ بِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَعُقُوبَةُ مُنْكَرِهِ

- ٥- ﴿وَإِنْ تَعَجَّبَ فَعَجَبٌ قَوْلُكُمْ أَدَا^(١) كُنَّا تَرَابًا أَيْنَا^(٢)﴾ لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ^(٣) أُولَئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ وَأُولَئِكَ الْأَغْلَالُ فِي أَعْنَاقِهِمْ وَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٥﴾
- ثم يأتي الحديث عن القضية الثانية من قضايا القرآن المكي، وهي الإيمان باليوم الآخر، وفي هذه الآية توبيخ لمنكري البعث، وتعجب من جهلهم وإعراضهم عن الحق،

(١) ، (٢) قرأ نافع والكسائي ويعقوب بالاستفهام في الأول والإخبار في الثاني هكذا (أئنذا كنا ترابا إنا)، وقرأ ابن عامر وأبو جعفر بالإخبار في الأول والاستفهام في الثاني هكذا (إذا كنا ترابا أئنا)، وقرأ الباقون بالاستفهام فيهما معاً (أئنذا كنا ترابا أئنا) وكلٌّ على أصله في التحقيق والتسهيل .

(٣) قوله تعالى (لفي خلق جديد) ترك عددا الكوفي، وعددا غيره آية .

فيخاطب الله تعالى رسوله ﷺ ويخاطب كل مسلم أن يعجب من المكذبين بالبعث والنشور، فإن تعجب من شيء فأعجب منه تكذيبهم بالبعث والنشور؛ لأن الأدلة السابقة لم تبق لهم عذرًا.

وإن تعجب -يا محمد- من تكذيب بعض الناس لك، وتعجب من عدم إيمانهم بالله تعالى، بعد قيام الأدلة والبراهين السابق ذكرها على عظيم قدرة الله تعالى في خلق العالم العلوي والسفلي، وما فيهما وما بينهما، وما يخرج من جوف الأرض، فأعجب من ذلك إنكار البعث والحساب والجزاء مع قيام الأدلة على أن الله سبحانه قد ابتدأ خلق هذا العالم وأنشأه النشأة الأولى، فهي تدل لكل ذي لب، على أن إعادة خلق الكون مرة ثانية أهون على الله جلّ شأنه من بدء خلقه، وكل شيء بالنسبة إلى الله تعالى هين، ولكن هذا تقريب لأفهامنا ﴿وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَتْ عَلَيْهِ﴾ [الروم: ٢٧] فالقادر على خلق السموات والأرض، والشمس والقمر، والليل والنهار، والزروع والثمار، قادر على إعادة خلق الإنسان بعد موته من باب أولى.

وليس هناك ما هو أشد عجبًا من إنكار الملحدين والمشركين والكفار للبعث واليوم والآخر، ومن قولهم: أئذا متنا وكنا ترابًا وعظامًا أُنْبِعث من جديد، بعد أن تفتّت أجسامنا وأكلها الدود، وتحللت في الأرض؟! ﴿وَإِنْ تَعَجَّبَ فَعَجَبْ قَوْلُهُمْ أَءِذَا كُنَّا تُرَابًا أَوْ إِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ﴾ يقولون ذلك على وجه الاستبعاد، أي إن هذا بعيد وفي غاية الامتناع، فقاسوا قدرة المخلوق على قدرة الخالق.

١- كما قال تعالى: ﴿وَقَالُوا أَإِذَا كُنَّا عِظْمًا وَرُفُنًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا﴾ [الإسراء].

٢- وقال سبحانه: ﴿وَقَالُوا أَإِذَا ضَلَلْنَا فِي الْأَرْضِ أَإِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ﴾ [السجدة: ١٠].

٣- وقال تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا هَلْ نَدُلُّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ يُنْبِئُكُمْ إِذَا مُزِقْتُمْ كُلٌّ مِّنْكُمْ إِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ﴾ [٧] أَفَتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَمْ بِهِ جِنَّةٌ ﴿[سبأ: ٧، ٨]

وهكذا وصفوا النبي ﷺ بالكذب والجنون، واستبعدوا البعث بعد الموت.

٤- قال تعالى: ﴿وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَنْ يُعْطِي الْعِظْمَ وَهِيَ رَمِيمٌ﴾ [٧٨] قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ ﴿[يس: ٧٨، ٧٩]

٥- وقال جل شأنه: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَمْ يَكُنْ يَخْلُقْهُنَّ يَفْقَدِرُ عَلَى أَنْ يُخَيِّقَ الْمَوْتَ بَلَى إِنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [الأحقاف]

٦- وقال أيضاً: ﴿أَفَعَيَّنَا بِالْخَلْقِ الْأَوَّلِ بَلْ هُمْ فِي لَبْسٍ مِّنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ﴾ [ق]

٧- وقال: ﴿بَلَى قَدَرِينَ عَلَى أَنْ سُوءَ بَنَانِهِمْ﴾ [القيامة].

وقد حكم ﷺ على منكري البعث بثلاثة أشياء:

الأمر الأول: أنهم كفروا

﴿أَوَلَيْكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ﴾ فإنكار البعث كفر؛ لأنه إنكار لقدرة الله تعالى، ومن أنكر صفة من صفاته تعالى فهو كافر.

الأمر الثاني: أنهم يساقون إلى جهنم في السلاسل والأغلال:

﴿وَأُولَئِكَ الْأَغْلَالُ فِي أَعْنَاقِهِمْ﴾ يوم القيامة يطوقون بقيود من حديد عندما يساقون إلى النار بقهر وذلة، وذلك بسبب إنكارهم قدرة الله تعالى على البعث، فتشد أيديهم إلى أعناقهم بقيود من حديد، ويسحبون إلى جهنم في السلاسل الحديدية، كما قال تعالى: ﴿إِذِ الْأَغْلَالُ فِي أَعْنَاقِهِمْ وَالسَّلَاسِلُ يُسْحَبُونَ﴾ (٧١) فِي الْحَمِيمِ ثُمَّ فِي النَّارِ يُسْجَرُونَ ﴿٧٢﴾ [غافر] لأنهم في الدنيا قد ضلوا عن طريق الهدى وعن معرفة الحق، فقد دُعوا إلى الإيمان فلم يؤمنوا، وعرض عليهم الهدى فلم يهتدوا، فهم في أغلال، في دنياهم وأخراتهم.

والأمر الثالث: أنهم يخلدون في النار

﴿وَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ فهم مقيمون فيها، لا يخرجون منها ولا يموتون ﴿كُلَّمَا أَرَادُوا أَنْ يَخْرُجُوا مِنْهَا مِنْ غَمٍّ أُعِيدُوا فِيهَا﴾ [الحج: ٢٢].

﴿لَا يَبْغِضُ عَلَيْهِمْ فِيمُوتُوا وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ مِنْ عَذَابِهَا﴾ [فاطر: ٣٦]

اللَّهُ تَعَالَى لَا يُعَاجِلُ بِالْعُقُوبَةِ فِي الدُّنْيَا مَنْ كَذَبَ خَاتَمَ الرُّسُلِ ﷺ

٦- ﴿وَسْتَغْلِبُونَكَ بِالسِّيئَةِ قَبْلَ الْحَسَنَةِ وَقَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِمْ^(١) الْكُلُوبُ وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِلنَّاسِ عَلَى ظُلْمِهِمْ وَإِنَّ رَبَّكَ لَشَدِيدُ الْعِقَابِ ﴿٦﴾

ثم إن المنكرين للبعث يكذبون الرسول محمداً ﷺ، ويكذبون القرآن، ودلائل التوحيد في النفس والكون، ولا يتعظون بآيات الله الماثلة في الآفاق، ولا يعبؤون بمصارع الغابرين، فيستعجلون ما وعدهم به رسول الله ﷺ من العذاب؛ استهزاء وسخرية، ويطلبون وقوعه بهم على وجه التهكم والاستبعاد، فيقولون للرسول ﷺ: أنت تعدنا بالعذاب، فأنت به إن كنت صادقاً، كما قال قائلهم: ﴿اللَّهُمَّ إِنْ كَانَتْ هَذِهِ هُوَ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَابَهُ مِنَ السَّمَاءِ أَوْ اثْبِتْنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [الأنفال: ٣٢].

وقال تعالى: ﴿وَسْتَغْلِبُونَكَ بِالْعَذَابِ وَلَوْلَا أَجَلٌ مُسَمًّى لَجَاءَهُمُ الْعَذَابُ وَلَيَأْتِيَنَّهُمْ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٥٢﴾﴾ [العنكبوت].

وقال أيضاً: ﴿وَسْتَغْلِبُ بِهَا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِهَا وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مُشْفِقُونَ مِنْهَا وَيَعْلَمُونَ أَنَّهَا الْحَقُّ أَلَا إِنَّ الَّذِينَ يُمَارِقُونَ فِي السَّاعَةِ لَفِي ضَلَالٍ بَعِيدٍ ﴿٥٨﴾﴾ [الشورى].

ومعنى: ﴿وَسْتَغْلِبُونَكَ بِالسِّيئَةِ﴾ أي: يستعجلك المكذبون بنزول العذاب بهم قبل أن يؤمنوا، وقبل أن يأتوا بالحسنة، وهي الإسلام، والله تعالى لا يعاجل بالعقوبة قبل الإيمان، فبه يتحقق الأمن والأمان والرخاء والحسنات، وقد رفع الله عذاب الاستئصال عن هذه الأمة وقد مضت عقوبات المكذبين قبلهم، ومرّ بهم مصارع الكافرين فلم يعتبروا، فليظروا إلى الأمم التي سلفت، ماذا حاق بها من عذاب؟! وماذا نزل بهم من عقوبات؟! لينظروا إلى قوم نوح، وقوم لوط، وقوم هود، وقوم صالح، كيف دمر الله وأباد هذه الأمم؟! فهذه أمثلة للعقوبات السابقة.

(١) قرأ أبو عمرو ويعقوب بكسر الهاء والميم وصلاً من (من قبلهم المثلاث)، وقرأ حمزة والكسائي وخلف بضمهما، والباقون بكسر الهاء وإسكان الميم، وعند الوقف على (قبلهم) لا خلاف في كسر الهاء وإسكان الميم.

فالمثَلات هي: العقوبات الشديدة التي أصبحت مثالا يُضرب لمن يعتبر، فكيف لا يعتبرون؟! ونظير ذلك قوله تعالى: على لسان صالح عليه السلام: ﴿قَالَ يَنْفُورُ لِمَ تَسْعَى لُونَ بِالسَّيِّئَةِ قَبْلَ الْحَسَنَةِ لَوْلَا تَسْتَغْفِرُونَ اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ [٤٦] [النمل]

وقال جلّ شأنه: ﴿وَلَكِنَّ آخَرَنَا عَنْهُمْ الْعَذَابَ إِلَى أُمَّةٍ مَعْدُودَةٍ لِّيَقُولُوا مَا يَحْسِبُهُ آلَا يَوْمَ يَأْتِيهِمْ لَيْسَ مَصْرُوفًا عَنْهُمْ وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾ [٨] [هود].

قال سبحانه في نهاية الآية: ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِلنَّاسِ عَلَى ظُهُمِهِمْ﴾ قالوا: إن هذه أرجى آية في كتاب الله؛ لأن الله تعالى ذكر فيها المغفرة مقرونة بالظلم من غير توبة، فهم يعصونه، ويدعوهم إلى التوبة، ويُجرمون، فلا يحرمهم من خيره وإحسانه.

ولأن الله تعالى يقرن الرجاء بالخوف، والعذاب بالمغفرة، ويطلب من عباده أن لا يأمنوا مكر الله، وألا يقنطوا من رحمة الله، وأن يعملوا للآخرة، ويخافوا ما عند الله من عقوبات، لذا؛ ختم الله الآية بقوله: ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَشَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ لمن أصر على الكفر والضلال، ولم يتب من المعاصي، فهو سبحانه صاحب المغفرة، وهو شديد العقاب لمن يُصِرّ على الذنب ويأبى التوبة والندم.

والمعنى: إن هؤلاء المكذبين بآيات الله، والمكذبين بالبعث والحساب والجزاء، يستعجلون السيئة وهي وقوع العذاب بهم قبل الحسنة، أي: قبل أن يدخلوا في الإسلام ويطمئنوا بالإيمان، ولم يعتبروا بعاقبة من سبقهم ممن كذب بآيات الله، وأنكر لقاء الله، ومع ذلك فإن الله تعالى يفتح باب التوبة والمغفرة لمن رجع إليه وأناب، أما من مات على كفره وشركه فعقابه عند الله شديد.

وهو سبحانه غافر الذنب وقابل التوب شديد العقاب.

ونظير نهاية هذه الآية قوله تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ لَسَرِيعُ الْعِقَابِ وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [الأعراف: ١٦٧].

وقوله: ﴿فَإِنْ كَذَّبُوكَ فَقُلْ رَبُّكُمْ ذُو رَحْمَةٍ وَاسِعَةٍ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُهُ عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ﴾ [الأنعام].

وقوله: ﴿نَبِّئْ عِبَادِي أَنِّي أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ [٩١] وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ الْعَذَابُ الْأَلِيمُ [٥١] [الحجر].

وغير ذلك من الآيات التي تجمع بين الخوف والرجاء، ولولا حلم الله تعالى لعاجل

أهل الكفر والمعاصي بالعقوبة، ولكنه سبحانه يمهلهم، ويترك لهم الفرصة ليتوبوا.
قال تعالى: ﴿وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِمَا كَسَبُوا مَا تَرَكْنَا عَلَى ظَهْرِهَا مِنْ دَابَّةٍ وَلَكِنْ
يُؤَخِّرُهُمْ إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ [فاطر: ٤٥].

الإِتْيَانُ بِخَوَارِقِ الْعَادَاتِ لَا يُحَقِّقُ إِيمَانًا

٧- ﴿وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ إِنَّ مَا أَنْتَ مُنْذِرٌ وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ﴾ (٧)
ثم إن المكذبين -الذين كذبوا الوحي- لا يقتنعون بالقرآن دليلاً معجزاً على رسالة محمد ﷺ، ولا يقتنعون بالآيات الكونية التي جاء بها محمد ﷺ؛ كانشقاق القمر، وتسبيح الحصى في كفه، ونبع الماء من بين أصابعه، وحنين الجذع له، وتكليم الجمل للنبي ﷺ فهم لا يكتفون بذلك، إنما يطلبون خوارق أخرى للعادات، ليس في استطاعة النبي ﷺ أن يأتي بها من تلقاء نفسه، والذي يأتي بها هو الله، ولو علم الله سبحانه أنهم سيؤمنون بها لأجابهم إليها ﴿وَمَا مَنَعَنَا أَنْ نُرْسِلَ بِالْآيَاتِ إِلَّا أَنْ كَذَّبَ بِهَا الْأَوَّلُونَ﴾ [الإسراء: ٥٩].

وقد غاب عنهم أن المعجزات التي يطلبونها معجزات حسية، تُرى بالعين، يؤيد الله بها أصحاب الرسالات المؤقتة المحدودة، ولا تصلح لمن لم يرها بَعْدَهُمْ، أما هذا القرآن فهو معجزة قائمة بين أيديهم إلى يوم الساعة.

والمعجزات التي يطلبونها إنما هي للأمم التي قضى الله بهلاكها واستئصالها، وأمة محمد ﷺ كتب الله لها البقاء، فلا بد أن تكون معجزتها مناسبة للأجيال المتعاقبة.

والمعنى: ويقول الذين كفروا هلاً جاءته معجزة محسوسة، كإبراء الأكمه والأبرص، فنحن نريد آية أخرى غير هذه الآيات، كعصا موسى وناقة صالح، يقول الله سبحانه: لا عليك منهم، فهذا مجرد عناد ولجاج، ومهمتك -أيها الرسول- هي البلاغ والإنذار، إنما أنت مُخَوِّفٌ من لم يَأْمَنْ بِأَسْ اللَّهِ وَعِقَابِهِ.

ولست بدعاً من الرسل في هذا، فكل أمة من الأمم أرسل الله إليهم رسولاً يهديهم إلى

(١) قرأ ابن كثير بإثبات الياء وفقاً من (هاد)، والباقون بحذفها وصلاً ووقفاً، ومثلها (وال) آية: (١١).

الإيمان، ولكل أمة رسول يرشدهم إلى الله تعالى، فما عليك إلا البلاغ، وإنذار من لم يؤمن . والكفار في هذه الآية، هم أصحاب الضمير في الآية السابقة من لفظ ﴿وَيَسْتَعِجِلُونَكَ﴾ الذين يطلبون سرعة نزول العذاب بهم، ظناً منهم أن تأخير نزوله بسبب عجز النبي ﷺ عن الإتيان بما توعدّهم به .

وفي هذه الآية قصر إضافي على صفة الإنذار لهداية هذه الأمة؛ لأن الهداية والإنذار متلازمان، والهداية أعم من الإنذار، قال تعالى: ﴿وَلَنُنَزِّلُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٩٢﴾ نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ ﴿١٩٣﴾ عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنْذِرِينَ ﴿١٩٤﴾ بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ ﴿١٩٥﴾﴾ [الشعراء]. وهذا القرآن مشتمل على الهداية والإنذار، وهو معجزة الرسول العظمى، وكل رسول يؤيده الله بمعجزة تلائم حال المرسل إليهم .

صح في الحديث عن أبي هريرة ؓ أن رسول الله ﷺ قال: « ما من الأنبياء نبي إلا أعطي ما مثله آمن عليه البشر، وإنما كان الذي أوتيت وحياً أوحاه الله إليّ، فأرجو أن أكون أكثرهم تابعاً يوم القيامة »^(١).

مِنْ دَقَائِقِ عِلْمِ الْأَجَنَّةِ

٨- ﴿اللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنْثَىٰ وَمَا تَغِيضُ الْأَرْحَامُ وَمَا تَزْدَادُ وَكُلُّ شَيْءٍ عِنْدَهُ بِمِقْدَارٍ﴾ ولما أقامت السورة البراهين الدالة على عظيم قدرة الله تعالى ووحدانيته، بدأ سبحانه بالخلق والتدبير في قوله تعالى: ﴿اللَّهُ الَّذِي رَفَعَ السَّمَوَاتِ يَغْيِرَ عَمَدَ زُرُوقَهَا﴾ . ثم أتبع ذلك بإقامة الأدلة على علم الله تعالى بدقائق الأشياء وعظائمها، وجاء افتتاحها بالأسلوب الذي ابتدأ به البراهين السابقة ﴿اللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنْثَىٰ﴾ فهذه الآية وما بعدها من تنمة الحديث عن قضية العقيدة والتوحيد في السورة .

والآية تخبر عن تمام علم الله تعالى، وأنه لا تخفى عليه خافية في الأرض ولا في السماء، فهو سبحانه يعلم ما في البر وما في البحر، وما تسقط من ورقة إلا يعلمها، ويعلم سبحانه حبة البقل في جوف الأرض، فما من حبة في ظلمات الأرض، ولا رطب

(١) من حديث أبي هريرة في البخاري برقم (٤٩٨١، ٧٧٧٤) ومسلم برقم (١٥٢).

ولا يابس إلا وهو سبحانه يعلمها ويراها ويسمعها، إنه سبحانه يرى تجلط الدم في العروق، ويسمع صوت الرعد في السماء وهو يسبح بحمد الله، ويرى جلّ شأنه أحوال النجوم والكواكب في الفضاء حين تغيب وحين تشرق؛ «سبحان الله وبحمده عدد خلقه، ورضا نفسه، وزنة عرشه ومداد كلماته»^(١).

وبعد أن تحدثت سورة الرعد عن الكون الكبير، تتحدث عن الإنسان وهو صورة مصغرة من هذا الكون العظيم، ففي داخل الإنسان يوجد المعمل والمصنع والأشجار، وغير ذلك من محتويات الكون الكبير.

في الإنسان مئة ألف شجرة، تتمثل في الشَّعر الذي ينبت في الجسد، هذا الشَّعر يكبر وينمو، ثم ينقص ويتبدل ويتغير، سبحانه الخلاق العليم.

كُرات الدم الحمراء والبيضاء آلاف مؤلفة، ينشئها ويرسلها رب العالمين حسب حاجة الجسم واحتياجه.

شبكة الأعصاب التي في جسم الإنسان تتلقى الأوامر والنواهي من المخ إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها.

والله سبحانه يحيط علمه بالجنين قبل أن يوجد في بطن أمه، وقبل أن يخرج من صلب أبيه، وما يكتشفه الأطباء عن الجنين أو يروونه من حيث النوعية، ومن حيث سلامة الأعضاء والحواس وغيرها، عن طريق الأشعة ونحوها، كل هذا يكون بعد التكوين والخلق في بطن الأم.

وعلم الله تعالى يحيط بالإنسان قبل أن تنفصل بيضة المرأة وتستعد لملاقاة الحيوان المنوي من الرجل، ثم عند ما يحدث التلقيح، وتلتقي النطفتان، وتمر بالمراحل المختلفة: علقه، ثم مضغة، ثم عظاماً، ثم تُكسى هذه العظام باللحم، سبحانه الخلاق العليم.

وعن أطوار خلق الإنسان يقول سبحانه: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ طِينٍ ۝ ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَكِينٍ ۝ ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَامًا فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْمًا ۝ ثُمَّ أَنشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ ۖ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ ۝﴾ [المؤمنون]

(١) الحديث في صحيح مسلم برقم (٢٧٢٦) عن أم المؤمنين جويرية .

وقال جل شأنه: ﴿هُوَ الَّذِي يُصَوِّرُكُمْ فِي الْأَرْحَامِ كَيْفَ يَشَاءُ﴾ [آل عمران: ٦].

جاء في الصحيح، عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «إن أحدكم يجمع خلقه في بطن أمه أربعين يوماً نطفة، ثم يكون علقة مثل ذلك، ثم يكون مضغة مثل ذلك، ثم يرسل الملك فيؤمر بأربع كلمات: بكتب رزقه، وأجله، وعمله، وشقي أو سعيد»^(١).

الله يعلم ما تحمل كل أنثى من: ذكر أو أنثى، طويل أو قصير، أبيض أو أسود، غني أو فقير، شقي أو سعيد، ويرزق هذا الجنين وهو في أحشاء أمه ﴿هُوَ أَعْلَمُ بِكُمْ إِذْ أَنْشَأَكُمْ مِّنَ الْأَرْضِ وَإِذْ أَنْتُمْ أَجِنَّةٌ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ﴾ [النجم: ٣٢] ويمده بالعقل والحواس قبل أن ينزل إلى الأرض ﴿وَاللَّهُ أَفْرَحَكُمْ مِّنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لَا تَقْلَمُونَ شَيْئًا وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَرَ وَالْأَفْعِدَّةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [النحل: ٧٨].

وقد تكفل الله سبحانه برزق الجنين وهو في بطن أمه، يمدّه بالغذاء من دم الحيض الذي ينقطع عن الحامل؛ ليصبح غذاءً للجنين، وحين تنقطع السرة يحوّل الله سبحانه رزق هذا الجنين من بطن أمه وأحشائها إلى الثديين، فيرضع من ثديي أمه، وحين ينزل من بطن أمه يستهل صارخاً استنكاراً لتغيير مكانه، ثم يشب الإنسان ويصير رجلاً، ويكدح ويكد ويسعى، ويشقى وينعم، ويحزن لما يفوته من الأرزاق في الدنيا، وقد تكفل الله برزقه وهو في أحشاء أمه^(٢).

قال تعالى: ﴿وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنْثَى وَلَا تَضَعُ إِلَّا يَعْلَمُهُ﴾ [فصلت: ٤٧].

وهو سبحانه يعلم ما تنقُضه الأرحام فيسقط أو يولد قبل تسعة أشهر، ويعلم ما يزيد حملة عنها، وكل شيء مقدر عند الله تعالى: من النقصان، أو الزيادة، لا يتجاوزه فهو، سبحانه، يعلم كل شيء علماً مفصلاً لا شيوخ فيه ولا إبهام.

قال عكرمة: ما غاضت الرحم بالدم يوماً إلا زاد في الحمل يوماً حتى تستكمل تسعة أشهر طاهراً^(٣).

(١) من حديث ابن مسعود في «صحيح البخاري» برقم (٣٢٠٨) و«صحيح مسلم» برقم (٢٦٤٣).

(٢) جاء هذا المعنى عن مكحول في «تفسير ابن كثير» (٤/٤٣٦) وعند ابن أبي حاتم (٧/٢٢٢٧).

(٣) الطبري (١٣/٤٤٨) وابن أبي حاتم (٧/٢٢٢٧).

وغيضُ الرحم: انحباس دم الحيض، وازديادها: فيضان الحيض عنها.

أو أن الازدياد معناه: تعدد الأجنة في الرحم، والغيض: عدم تعددها.

وعبرَ بالحمل ليشمل ما تحمل كل أنثى، من الإنسان والحيوان؛ لأن الحبل يخص المرأة.

أقل مدة الحمل وأكثره:

١- وأغلب النساء يحملن مدة تسعة أشهر.

٢- ويشير القرآن الكريم إلى أن أقل مدة للحمل ستة أشهر، جاء هذا استنباطاً من قول الله سبحانه عن المولود: ﴿وَحَمَلُهُ وَفَصْلُهُ ثَلَاثُونَ شَهْرًا﴾ [الأحقاف: ١٥] يُطرح من هذه الأشهر الثلاثين مدة الفصال، وهي مدة الرضاعة والفظام، التي جاء أكثرها في قوله سبحانه: ﴿وَالْوِلْدَاتُ يُرْضَعْنَ أَوْلَدَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ لِمَنْ أَرَادَ أَنْ يُتِمَّ الرَّضَاعَةَ﴾ [البقرة: ٢٣٣]

فيبقى -من الثلاثين شهراً بعد الحولين- ستة أشهر، هي أقل مدة للحمل، فمن جاء له مولود فإنه ينسب إلى أبيه، وإن حملت به أمه ستة أشهر.

وأكثر مدة الحمل استنبطها الفقهاء من تتبع أحوال النساء، فليس لها أصل في الكتاب أو السنة، وإنما هي مستنبطة من عادات النساء وأحوالهن.

٣- فعند أبي حنيفة: أن أطول مدة للحمل ستان.

٤- وعند الشافعي وأحمد: أربع سنوات.

٥- وعند مالك: خمس سنوات، فالمولود ينسب لأبيه وإن وصل الحمل إلى خمس سنوات، وهو في بطن أمه.

أ - قال الضحاك: ولدني أمي وقد حملتني في بطنها سنتين، وولدني وقد نبتت ثنيتي، وسُمِّي الضحاك لذلك، أي: أنه ولد بعد أن ظهرت أسنانه وهو في بطن أمه.

ب - وقد وُلد عبد الملك بن مروان لسته أشهر هلالية.

ج - روى الدارقطني عن الوليد بن مسلم قال: قلت لمالك بن أنس: إني حُذِّثت عن عائشة أنها قالت: لا تريد المرأة في حملها على سنتين قُدر ظل المغزل، فقال: سبحان الله! من يقول هذا؟ هذه جارتنا امرأة محمد بن عجلان، تحمل وتضع في أربع سنين،

وكانت تسمى حامله الفيل.

د- وجاء رجل إلى مالك بن دينار وسأله أن يدعو لامرأته، فهي حامل منذ أربع سنين، وقد أصبحت في كرب شديد، فقال في دعائه: اللهم هذه المرأة إن كان في بطنها ريح فأخرجه عنها، وإن كان في بطنها جارية فأبدلها غلامًا، فإنك تمحو وتثبت، وعندك أم الكتاب، ورفع مالك يده، ورفع الناس أيديهم، فجاء رسول إلى زوجها يقول له: أدرك امرأتك، فذهب الرجل، فما حطَّ مالك يده، حتى طلع الرجل من باب المسجد على رقبته غلام جعد قطط، ابن أربع سنين، قد استوت أسنانه، ما قُطِعَتْ سراره^(١).

هـ - وجاء رجل إلى عمر رضي الله عنه فقال: يا أمير المؤمنين، إني غبت عن امرأتي ستين فجئت وهي حُبلى، فشاور عمر الناس في رجمها، فراجعه معاذ في ذلك، فتركها حتى وضعت غلامًا قد خرجت ثنيته، وهو شبيه تمامًا بأبيه، فقال الرجل: ابني ورب الكعبة، فقال عمر: عجزت النساء أن يلدن مثل معاذ، لولا معاذ لهلك عمر^(٢).

و- وقيل: إن محمد بن عجلان مكث في بطن أمه ثلاث سنين، فماتت به وهو يضطرب اضطرابًا شديدًا، فشق بطنها وأخرج وقد نبتت أسنانه.

ز- وقال عباد بن العوام: ولدت جارة لنا -لأربع سنين- غلامًا شَعْرُهُ إلى منكبيه.

ومن هذا يتبين أنه لا حدَّ لأكثر مدة الحمل، وإن كان الأعم الأغلب أنها تسعة أشهر، وأدناها ستة أشهر، وكل شيء عنده - سبحانه - بمقدار، لا يزيد ولا ينقص، ولا يتقدم ولا يتأخر.

صح في الحديث عن أسامة بن زيد رضي الله عنه: أن إحدى بنات النبي صلى الله عليه وسلم بعثت إليه: أن ابناً لها في الموت، وأنها تحب أن يحضره، فبعث إليها يقول: «إن لله ما أخذ، وله ما أعطى، وكل شيء عنده بأجل مسمى، فمُرَّها فلتصبر، ولتحتسب»^(٣).

وعن إحاطة علم الله تعالى بما في الرحم، ما صح عن ابن عمر رضي الله عنه: أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «مفاتيح الغيب خمس لا يعلمها إلا الله: لا يعلم ما في غد إلا الله، ولا يعلم ما تغيض الأرحام إلا الله، ولا يعلم متى يأتي المطر أحدٌ إلا الله، ولا تدري نفس بأي أرض

(١)، (٢) «أضواء البيان» للشيخ الشنقيطي (٨٥/٣).

(٣) من حديث أسامة بن زيد في البخاري برقم (١٢٨٤) ومسلم برقم (٩٢٣).

تموت، ولا يعلم متى تقوم الساعة إلا الله»^(١).

﴿إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ الْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْأَرْحَامِ وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾ [لقمان: ٢٤].

وعلم ما في الأرحام من خصائص عالم الغيب والشهادة:

عِلْمُ اللَّهِ تَعَالَى بِمَا غَابَ وَمَا شُوهِدَ

٩- ﴿عَلِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ الْكَبِيرُ الْمُتَعَالِ﴾^(٢)

وهو جلَّ شأنه عالم الغيب والشهادة، المرئي، وغير المرئي، يعلم ما يظهر وما يستتر، ما يراه العباد، وما لا يرونه ﴿فَلَا أَقِيمُ بِمَا تُبْصِرُونَ﴾ [٢٨] ﴿وَمَا لَا تُبْصِرُونَ﴾ [الحاقة: ٣٨، ٣٩] يعلم المحسوس وغير المحسوس، يعلم المعدوم والموجود، يعلم ما غاب عن الأبصار وما هو مشاهد، وهو الكبير في ذاته وفي أسمائه وصفاته، الذي يصغر كل شيء دونه، وهو المتعال على جميع خلقه بذاته وقدرته وقهره؛ فالعلو والرفعة والكبرياء صفة ذاتية لله وحده.

قال الحسن في معنى الآية: يعلم من السر ما يعلم من العلانية، ويعلم من العلانية ما يعلم من السر، ويعلم من الليل ما يعلم من النهار، ويعلم من النهار ما يعلم من الليل^(٣).

١٠- ﴿سَوَاءٌ مِّنْ أَسْرَأَ الْقَوْلَ وَمَنْ جَهَرَ بِهِ وَمَنْ هُوَ مُسْتَخْفٍ بِاللَّيْلِ وَسَارِبٌ بِالنَّهَارِ﴾

السر والعلانية عند رب العالمين سواء، فإذا أنت رفعت صوتك، أو ناجيت نفسك، أو أسررت إلى غيرك، فالكل عند رب العالمين سواء ﴿وَأِنْ تَجَهَّرَ بِالْقَوْلِ فَإِنَّهُ يَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفَى﴾ [طه: ٧] أي: يعلم ما هو أخفى من السر، وهو ما يحدث به الإنسان نفسه، ويجول داخل صدره ﴿وَأَسْرَأُ قَوْلَكُمْ أَوِ اجْهَرُوا بِهِ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾ [الملك: ١٢].

﴿وَيَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ﴾ [النمل: ٢٥] ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِ نَفْسُهُ﴾ [ق: ١٦].

أي: يستوي عند الله من أسر القول فأضمره في نفسه ومن نطق به، ويستوي في علمه

(١) «صحيح البخاري» برقم (٤٦٩٧).

(٢) قرأ ابن كثير ويعقوب بإثبات الياء وصلًا ووقفًا من (المتعال)، والباقون بحذفها في الحاليين.

(٣) ابن أبي حاتم (٢٢٢٨/٧).

من استخفى بذنبه وخرج على الناس يظهر أنه بريء من الإثم، ومن جهر بالمعصية وكشف اللثام عن وجهه، ويستوي في علمه من استتر بعمله فاخفى وتوارى عن أعين الناس بأعماله القبيحة في ظلمات الليل، وهو في سره، أو في قصر، أو في كهف، أو في مغارة، بعيد عن أعين الناس أو قريب منهم .

ويستوي عند رب العالمين من يجهر بأعماله في وضح النهار، ومن أسرها في جوف الليل. أي: أن الله تعالى يعلم المتخفي المتواري عن الأعين في سواد الليل البهيم، ويعلم الظاهر البارز الذي يمشي في وضح النهار.

والآية تتضمن ثلاثة أصناف من الناس:

١- المُسِرُّ بقوله وفعله. ٢- والذي يجهر بقوله وفعله.

٣- والمتلوّن، أي الذي يُخفي المعصية، ويُظهر البراءة.

وكلها عند الله سواء، والمستخفي هو المستتر، والسارب هو الظاهر البارز.

قالت عائشة رضي الله عنها: سبحان الذي وسع سمعه الأصوات، والله لقد جاءت المرأة المجادلة تشتكي زوجها إلى رسول الله ﷺ وأنا في جنب البيت، وإنه ليخفي عليّ بعض كلامها، فأنزل الله ﴿قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِي إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ سَمِعَ نَجْوَاهُمَا﴾ [المجادلة: ١].

وقال جلّ شأنه: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مَا يَكُونُ مِنْ نَجْوَى ثَلَاثَةٍ إِلَّا هُوَ رَايَهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَا آدَنَ مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا﴾ [المجادلة: ٧].

وقال سبحانه: ﴿أَلَا إِنَّهُمْ يَتَّبِعُونَ صُدُورَهُمْ لِيَسْتَخْفُوا مِنْهُ أَلَا جِنَّةٌ يَسْتَعِشُونَ شِيَابَهُمْ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ إِنَّهُمْ عَلَيْهِمْ يَدَاتُ الصُّدُورِ﴾ [هود].

وقال تعالى: ﴿وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا تَتْلُوا مِنْهُ مِنْ قُرْآنٍ وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ وَمَا يَعْزُبُ عَنْ رَبِّكَ مِنْ مِثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ وَلَا أَصْغَرَ مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْبَرَ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ﴾ [يونس].

وقال لقمان لابنه: ﴿يَبْنِيْ اِنَّهَا اِنْ تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ فَتَكُنْ فِيْ صَخْرَةٍ اَوْ فِي السَّمَوَاتِ اَوْ فِي الْاَرْضِ يَآتِ بِهَا اللّٰهُ اِنْ اللّٰهُ لَطِيْفٌ خَبِيْرٌ﴾ [لقمان].

مُرَاقَبَةُ اللَّهِ لِأَعْمَالِ الْعِبَادِ وَسُنَّتُهُ فِي تَغْيِيرِ أَحْوَالِهِمْ

١١- ﴿لَهُ مُعَقِّبَاتٌ مِّنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ وَإِذَا أَرَادَ اللَّهُ بِقَوْمٍ سُوءًا فَلَا مَرَدَ لَهُ وَمَا لَهُمْ مِنْ دُونِهِ مِن آلٍ ۚ﴾

في هذه الآية بيان لبعض مظاهر قدرة الله تعالى في رعايته لعباده، فكل من نطق بالقول، أو أضمره في نفسه، وكل من توارى بعمله عن أعين الناس أو أظهره، قد وُكِّلَ الله به ملكين بالليل، وملكين بالنهار، يتعاقبان أو يتناوبان على حفظ الإنسان وحراسته، ووقايته من السوء والضرر الذي قد يلحق به ليلاً أو نهاراً، فيحفظانه من الهوام والوحوش والسباع، والحوادث واللصوص، والقتل والغرق والحريق.

وهؤلاء الملائكة يراقبون أحوال كل إنسان في سره وعلايته، وسكونه وحركته، كما قال تعالى: ﴿وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ ۖ كِرَامًا كُنِينًا ۖ يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ﴾ [الانفطار]

وفي هذه الآية يقول تعالى: ﴿لَهُ مُعَقِّبَاتٌ﴾ أي: ملائكة تتعاقب عليه ﴿مِّنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ﴾ ملك من أمامه وملك من خلفه، يحفظونه من المساوئ والأضرار بأمر الله، يقومون على أحواله ويراقبون تصرفاته ويحفظونها - كرجال الديوان العام للمراقبة على الدوائر الحكومية - ويحفظونه مما ينزل به من القضاء المعلق.

ألم تروا إلى بعض الحكام لهم حرس خاص، كل حارس مُوَكَّلٌ بعضو من أعضاء جسد هذا المخلوق، مدرب على أعلى مستوى عالمي، لحراسته من العدوان والأخطار. ونحن عباد الله جميعاً قد جعل الله لكل منا حَفَظَةً، يراقبون أقواله وأفعاله، ويحرسونه من الأضرار التي قد تصيبه.

قيل: إن مع كل واحد من بني آدم ملكين، ملكاً عن يمينه وهو صاحب الحسنات، وملكاً عن شماله وهو كاتب السيئات.

وكاتب الحسنات أمين على كاتب السيئات، فإذا عمل العبد حسنة كتبها له بعشر حسنات، وإذا عمل سيئة قال صاحب الشمال لصاحب اليمين: أكتبها عليه؟ فيقول: أنظره لعله يتوب، أو يستغفر، فيستأذنه ثلاث مرات، فإن هو تاب منها وإلا قال: أكتبها عليه سيئة واحدة.

وَمَلَكَ مُوَكَّلٌ بِنَاصِيَةِ الْعَبْدِ، فَإِذَا تَوَاضَعَ الْعَبْدُ لِلَّهِ رَفَعَهُ بِهَا، وَإِنْ تَجَبَّرَ عَلَى اللَّهِ ﷻ وَضَعَهُ بِهَا.
وَمَلَكَ مُوَكَّلٌ بَعَيْنَيْهِ يَحْفَظُهُمَا مِنَ الْأَذَى.

وَمَلَكَ مُوَكَّلٌ بِفِيهِ يَمْنَعُ أَنْ يَدْخُلَ فِي فَمِهِ شَيْءٌ مِنَ الْهُوَامِ يُؤْذِيهِ.
فهؤلاء خمسة من الملائكة مُوَكَّلُونَ بِالْعَبْدِ فِي لَيْلِهِ، وخمسة غيرهم في نهاره.
فانظر إلى عظمة الله وقدرته وكمال شفقتك عليك أيها العبد، فهي تحفظك من أمامك
ومن خلفك، فإذا جاء الْقَدَرُ خَلَّوْا عَنْهُ^(١).

وقال ابن كثير: إنهم أربعة ملائكة بالنهار، وأربعة بالليل بدلاً عنهم، حافظان أو
حارسان من الأضرار والأساء، وكاتبان يكتبان أعمال العبد من خير أو شر.

قال تعالى: ﴿مَا يَلْفِظُ مِنْ قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾ ﴿٧٨﴾ [ق]

وقال جل شأنه: ﴿وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ ﴿١٠﴾ كِرَامًا كَثِيرِينَ ﴿١١﴾ يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ﴾ ﴿١٢﴾ [الانفطار]

وقال سبحانه: ﴿أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لَا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُمْ بَلَىٰ وَرُسُلْنَا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ﴾ ﴿٨٠﴾
[الزخرف] أي: يسجلون ويكتبون أقواله وأعماله، واثنان يراقبانه ويحرسانه.

جاء في الصحيح عن أبي هريرة أن النبي ﷺ قال: « يتعاقبون فيكم ملائكة بالليل
وملائكة بالنهار، ويجتمعون في صلاة الفجر وصلاة العصر، ثم يعرج الذين باتوا فيكم،
فيسألهم ربهم وهو أعلم بهم، كيف تركتم عبادي؟ فيقولون: تركناهم وهم يصلون،
وأتيناهم وهم يصلون^(٢) ».

أي: أتيناهم في صلاة العصر وهم يصلون، وتركناهم في صلاة الفجر وهم يصلون، أو العكس.

هذه الشهادة من الملائكة تكون لمن يصلي العصر في وقته، ولمن يصلي الفجر في
وقته، فالذي لا يصلي الفجر، ولا يصلي العصر، تشهد له الملائكة التي تتعاقب عليه، بأنه
لا يصلي، والويل لمن شهدت عليه الملائكة بأنه لا يصلي؛ حيث يُسأل المجرمون يوم
القيامة ﴿مَا سَلَكَكُمْ فِي سَقَرٍ﴾ ﴿٤٢﴾ قَالُوا لَوْ نَكَّرْنَا مِنَ الْمَصِيرِ ﴿٤٣﴾ [المدثر].

(١) تفسير الخازن للآية، وقد وردت آثار بذلك لا تخلو من مقال، وانظر: «تفسير الطبري» (١٦/ ٣٧٠).

(٢) «صحيح البخاري» برقم (٥٥٥)، و (٧٤٢٩) و«صحيح مسلم» برقم (٦٣٢).

وفي الحديث عن ابن عمر رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال: « إياكم والتعري فإن معكم من لا يفاركم إلا عند الغائط، وحين يُفْضِي الرجل إلى أهله، فاستحيوهم وأكرمهم »^(١).
أي: فاستحيوا منهم بالتستر، ونحوه، وكل إنسان معه قرين من الجن، وقرين من الملائكة.

١- عن سالم بن أبي الجعد عن أبيه عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: « ما منكم من أحد إلا وقد وُكِّل به قرينه من الجن وقرينه من الملائكة »، قالوا: وإياك يا رسول الله؟ قال: « وإياي، إلا أن الله أعانني عليه فأسلم، فلا يأمرني إلا بخير »^(٢). وقوله (فأسلم) بضم الميم، أي أسلم من شره وأذاه وتسَلَّطه عليّ.

٢- قال أبو مجلز: جاء رجل من مراد إلى عليّ رضي الله عنه وهو يصلي، فقال: احترس، فإن ناسًا من مراد يريدون قتلك، فقال: إن مع كل رجل ملكين يحفظانه مما لم يُقدَّر، فإذا جاء القدر خَلَّيا بينه وبينه، وإن الأجل جُنَّةٌ حصينة^(٣).

٣- وجاء في الحديث عن حفظ الملائكة للعبد بأمر الله تعالى، عن أبي خزيمة عن أبيه قال: سألت رسول الله فقلت: يا رسول الله، أرأيت رُفِّي نَسْتَرُقي بها، ودواء ننداوى به، وثِقَاة نَتَّقِيها، هل تَرُدُّ من قَدَر الله شيئًا؟ قال: «هي من قَدَر الله»^(٤).

٤- وقال مجاهد: ما من عبد إلا ومعه ملكٌ مُوَكَّل به، يحفظه في نومه ويقظته من الجن والإنس والهوام، فما منها شيء يأتيه يريده إلا قال الملك: وراءك وراءك، إلا شيء قد قضى له أن يصيبه^(٥).

والمعنى: إن لله تعالى ملائكة يتعاقبون على الإنسان من بين يديه، ومن خلفه يحفظونه

(١) رواه الترمذي في «السنن» برقم (٢٨٠٠) من طريق ليث عن نافع عن ابن عمر مرفوعًا، وأوله (إياكم والتعري) قال الترمذي: حديث غريب لا نعرفه إلا من هذا الوجه.

(٢) «صحيح مسلم» برقم (٢٨١٤) و«المسند» (٣٩٧/١) برقم (٣٦٤٨، ٣٨٠٢) قال محققوه: إسناده صحيح على شرط مسلم، رجاله ثقات رجال الشيخين غير أبي الجعد فمن رجال مسلم، وأخرجه الدارمي (٣٠٦/٢) والطبراني في الكبير (١٠٥٢٣) وأبو يعلى (٥١٤٣).

(٣) الطبري في التفسير (٣٧٨/١٦).

(٤) رواه الترمذي في «السنن» برقم (٢٠٦٥) من حديث أبي خزيمة، وقال: حديث حسن صحيح.

(٥) «زاد المسير» (٣١٢/٤).

بأمر الله من قضاء الله وقدره المعلق على سبب من الأسباب، ويُحصون ما يصدر عنه من خير أو شر.

سنة الله في خلقه لا تتغير: وفي سياق الاستدلال على عظيم قدرة الله تعالى، والتذكير بها بيّن سبحانه سنة من سنن الله في خلقه لا تتخلف؛ وهي أن الله تعالى لا يغير ما بقوم من نعمة، وعافية، وأمن، ورخاء، وتمكين في الأرض، فلا يسلب الله منهم هذه النعم وأمثالها إلا إذا غيروا ما هم عليه من الطاعة والعمل الصالح، قال تعالى:

﴿وَمَا أَصْبَحْكُمْ مِنْ مُّصِيبَةٍ فِيمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ﴾ [الشورى: ٣٠].

قال ابن أبي حاتم: أوحى الله إلى نبي من أنبياء بني إسرائيل أن قل لقومك: إنه ليس من أهل قرية، ولا أهل بيت، يكونون على طاعة الله، فيتحولون منها إلى معصية الله إلا تحول الله لهم مما يحبون إلى ما يكرهون، ثم قال: ومصدق ذلك في كتاب الله.

﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ﴾^(١).

وعن عمير بن عبد الملك قال: خطبنا علي بن أبي طالب عليه السلام على منبر الكوفة، فقال: كنت إذا سكّ عن رسول الله ﷺ ابتدأني، وإذا سألته عن الخير أنبأني، وأنه حدثني عن ربه ﷻ قال: «قال الرب: وعزتي وجلالي، وارتفاعي فوق عرشي، ما من أهل قرية، ولا أهل بيت كانوا على ما كرهت من معصيتي، ثم تحولوا عنها إلى ما أحببت من طاعتي، إلا تحولت لهم عما يكرهون من عذابي إلى ما يحبون من رحمتي»^(٢).

ومن هذا يُعلم أن قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ﴾؛ لبيان تقلب أحوال الأفراد والشعوب والأمم، فالله، سبحانه، لا يغير أحوال العباد من حال إلى حال، إلا بسبب ذنب أو معصية، أو توبة وطاعة وامثال؛ بمعنى أن الأمة التي تُهزم بعد نصر، أو تُقهر بعد قوة، وكذا الشخص الذي يصاب بمرض أو ابتلاء بعد صحة وعافية، فإن هذا يكون بسبب ما اقترف من معصية بعد طاعة، فلا يسلب الله قوماً نعمة

(١) ابن أبي حاتم (٢٢٣٢/٧) و«تفسير ابن كثير» (٤/٤٤٠) قال: وهذا غريب وفي إسناده من لا أعرفه وقد أخرجه ابن أبي شيبة (١٩) وقال محققه: إسناده ضعيف.

(٢) أخرجه ابن أبي شيبة في كتابه صفة العرش برقم (١٩) وفيه الهيثم مجهول، قال ابن كثير في تفسيره للآية: وهذا غريب، وفي إسناده من لا يُعرف.

أنعمها عليهم حتى يغيروا ما كانوا عليه من الطاعة والعمل الصالح.

قال تعالى: ﴿وَأَن أَحْكَمَ بَيْنَهُمْ يَمَا أَنزَلَ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ وَاحْذَرْهُمْ أَن يَفْتِنُوكَ عَنْ بَعْضِ مَا أَنزَلَ اللَّهُ إِلَيْكَ فَإِن تَوَلَّوْا فَاعْلَمُوا أَنَّهُ يُرِيدُ اللَّهُ أَن يُصِيبَهُم بِبَعْضِ ذُنُوبِهِمْ﴾ [المائدة: ٤٩].

وبيّن تعالى سبب وقوع المحن والشدائد بالعباد في مثل قوله جلّ شأنه: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لِلَّذِينَ كَرِهُوا مَا نَزَّلَ اللَّهُ سَنُطِيعُكُمْ فِي بَعْضِ الْأَمْرِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِسْرَارَهُمْ﴾ [محمد] فلا يغير الله ما يقوم من النعمة والخير، والأمن والرخاء إلى البؤس والضرر، والعذاب والشقاء، والخوف والهزيمة ﴿حَتَّى يُفْعِرُوا مَا يَافُسُهِمْ﴾ فيتحولوا من الطاعة إلى المعصية، وهذه سنة الله في خلقه.

والعكس صحيح، فقد يتحول العبد من المعصية إلى الطاعة، فيغير الله حاله إلى أفضل؛ حيث تتحول الهزيمة إلى نصر، والشدّة إلى رخاء، والقلق إلى طمأنينة.

وقد يصاب الإنسان ببعض المحن والشدائد؛ ابتلاءً وامتحاناً من الله تعالى، ورفعاً لدرجات العبد إن كان من المؤمنين، فلا يلزم أن يكون كل ما يصيب الإنسان من مصائب ومحن بسبب ذنوبه، فقد يكون ذلك تمحيصاً للعبد وتخفيفاً عنه في الآخرة، أو رفعاً لدرجاته.

لا مرد للقضاء المبرم:

وقوله تعالى: ﴿وَإِذَا أَرَادَ اللَّهُ يَقَوْمٍ سُوءًا فَلَا مَرَدَّ لَهُ﴾ أي: إذا أراد الله بفرد أو جماعة بلاء فلا مفر منه، ولا بد من تحقق وقوعه، وذلك أن الملائكة الذين يحفظون العبد، ويحرسونه بأمر الله من الأخطار والأضرار يتخلّون عنه وقت نزول القدر المبرم الذي لا مرد له.

وفي هذا تحذير من ارتكاب المعاصي والموبقات، وتحذير من مقابلة النعمة بالبطر والتحقير والغرور، وفيه بيان أن الله تعالى لا يرد إرادته شيء، إذا أراد أن ينزل بعبد قضاءه المبرم.

ألا ترون إلى من يكون عنده كثرة من الحراس على كل عضو من أعضائه، فإذا أراد الله به سوءاً غفل هؤلاء الحراس، وأعماهم الله، فيتم اغتياله، فالله تعالى قد خلق السبب وخلق المسبب، فلا تقف الوقاية من الرصاص أمام قدر الله ولا تحول دون بأس الله وقضائه.

وإذا أراد الله سبحانه أن ينزل بعبد أمرًا خَلَّتْ الملائكة بين العبد وبين وقوع القدر، فلا تُغْنِي الحِرَّاس عنه شيئًا.

وقد يموت الإنسان في حادثة، أو غرق، أو حريق، أو تحت أنقاض إذا كان قضاء الله منجزًا أي: غير معلق على سبب من الأسباب، كما قال تعالى: ﴿وَلَا يَرُدُّ بَأْسُهُ عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ﴾ [الأنعام: ١٤٧] وفي هذه الحال لا يوجد من يحول بينهم وبين وقوع قضاء الله وقدره، وهذا قوله تعالى: ﴿وَمَا لَهُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَالٍ﴾ أي: ليس لهم من يتولى أمورهم، فيجلب لهم المحبوب، ويدفع عنهم المكروه غير الله، فلا حفيظ ولا ناصر ولا معين لهم غيره سبحانه.

وقد تنزل المصائب بسبب ذنوب الآخرين، إذا رضي العبد بها فسكت ولم ينكر على مرتكبيها، فقد سألت أم المؤمنين زينب بنت جحش رضي الله عنها النبي ﷺ: أفنهلك وفينا الصالحون؟ قال: «نعم إذا كثر الخبث»^(١).

﴿وَاتَّقُوا فِتْنَةً لَا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ خَاصَّةً﴾ [الأنفال: ٢٥].

خَمْسٌ مِنَ الظَّوَاهِرِ الْكَوْنِيَّةِ الدَّالَّةِ عَلَى عَظِيمِ قُدْرَةِ اللَّهِ تَعَالَى

١٢- ﴿هُوَ الَّذِي يُرِيكُمْ الْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنْشِئُ السَّحَابَ الثِّقَالَ﴾

ابتدأت الآيات التي تحمل الأدلة الرئيسة على توحيد الله تعالى بلفظ الجلالة (الاسم العلم)، وابتدأت الآيات التي تحمل فروع الأدلة بالضمائر ﴿يُدِيرُ الْأَمْرَ﴾ ﴿وَهُوَ الَّذِي مَدَّ الْأَرْضَ﴾ ومنها هذه الآية ﴿هُوَ الَّذِي يُرِيكُمْ الْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا﴾ ففيها مظهر من مظاهر قدرة الله تعالى وعجيب صنعه، وفي هذه الآية والتي بعدها: خَمْسَةٌ مِنَ الظَّوَاهِرِ الْكَوْنِيَّةِ الدَّالَّةِ عَلَى عَظِيمِ قُدْرَةِ اللَّهِ تَعَالَى

أولها: ضوء البرق. ثانيها: خلق السحاب المحمّل بالمياه.

ثالثها: تسبيح الرعد. رابعها: تسبيح الملائكة.

خامسها: إنزال الصواعق المحرقة.

(١) صحيح البخاري (٣٣٤٦، ٣٥٩٨)، وصحيح مسلم (٢٨٨٠) و«صحيح سنن الترمذي» (١٧٧٨)

وفي «سنن ابن ماجه» (٣٩٥٣).

الظَّاهِرَةُ الْكَوْنِيَّةُ الْأُولَى: ضَوْءُ الْبَرْقِ

فهو حالة تحمل مثلاً واحداً يجمع بين النعمة والنقمة في آن واحد، وتصرف واحد، يعتبر بهما المؤمن والكافر، والطائع والعاصي؛ لبيان تغير أحوال الجماعة من الناس، تبعاً لتغير ما أحدثوه من الطاعة بعد المعصية، أو المعصية بعد الطاعة؛ ففيه إنذار ويشري في آن واحد، وفيه تخويف من عذاب الله وطمع في رحمته، وهو أمر نسبي يختلف باختلاف أحوال الناس؛ منهم من يخاف منه، ومنهم من يفرح به، فهو يشبه النعمة من وجه، ويشبه العذاب من وجه آخر.

والبرق نور لامع، يظهر من خلال السحب، وعند ما يراه الرائي يخاف من نزول الصواعق المحرقة، ويخاف من نزول السيل الجارف من ليس في حاجة إلى الماء، ومن يتضرر به، ويفرح به ويستبشر من هو في حاجة إليه، كأهل البوادي والمزارعين، ومن إذا نزل المطر عليهم أخضبت الأرض وأنبتت، وشربت المواشي، وخزنوا منها المياه لسقيهم ومنافعهم، وإذا لم ينزل المطر أصابهم القحط والجذب في أرضهم وبهائمهم وأنفسهم.

فيخاف بعض الناس من السيل المدمر، والصواعق المحرقة إذا رأوا البرق، ويطمع أكثرهم في إغاثة العباد والبلا؛ لإحياء الموات وجريان الأنهار.

الظَّاهِرَةُ الْكَوْنِيَّةُ الثَّانِيَّةُ: خَلْقُ السَّحَابِ الْمُحْمَلِ بِالْمِيَاهِ

تتمثل هذه الظاهرة في أن الله، سبحانه، يخلق السحب المحملة بالمياه الكثيرة التي تهطل بالأمطار؛ لإغاثة العباد والبلا، فهو - جل شأنه - المنشئ والموجد لها، ومظهرها للناس، وهذا معنى ﴿وَيُنشِئُ السَّحَابَ الثِّقَالَ﴾ أي: يخلق السحب المحملة بالماء الكثير لمنافعكم؛ حيث يرسلها الله تعالى من مكان إلى مكان، قال تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيْحَ بُشْرًا بِبَيْتٍ يَدَى رَحْمَتِهِ حَتَّى إِذَا أَقْلَّتْ سَحَابًا ثِقَالًا سُقْنَاهُ لِبَنِّ مَيْتٍ فَأَنْزَلْنَا بِهِ الْمَاءَ فَأَخْرَجْنَا بِهِ مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ كَذَلِكَ نُخْرِجُ الْمَوْتَى لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ [الأعراف].

جاء في الحديث عن أبي هريرة ؓ أن النبي ﷺ قال: «إن الله ينشئ السحاب، فينطق

أحسن المنطق، ويضحك أحسن الضحك»^(١).

قال إبراهيم بن سعد: إِنَّ نَطْقَ السُّحُبِ: هو الرعد، وضحكها: البرق.

وَيَنْبَغِي أَنْ الْبَرْقَ آيَةٌ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ فَقَالَ: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ يُرِيكُمُ الْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنَزِّلُ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَيُخْرِجُ بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا﴾ [الروم: ٢٤].

وَمِنْ الظَّوَاهِرِ الْكُونِيَّةِ تَسْبِيحُ الرَّعْدِ وَالْمَلَائِكَةِ وَإِزْسَالِ الصَّوَاعِقِ قَالَ تَعَالَى:

١٣- ﴿وَيَسْبِيحُ الرَّعْدُ بِحَمْدِهِ وَالْمَلَائِكَةُ مِنْ خِيفَتِهِ وَيُرْسِلُ الصَّوَاعِقَ فَيُصِيبُ بِهَا مَنْ يَشَاءُ وَهُمْ يُجَادِلُونَ فِي اللَّهِ وَهُوَ شَدِيدُ الْحَالِ﴾

ثم عطف تسبيح الرعد على ذكر البرق والسحاب؛ لأنه قرين لهما، وفي هذه الآية ثلاث من الظواهر الكونية الدالة على عظيم قدرة الله تعالى:

الظاهرة الكونية الثالثة: تسبيح الرعد ﴿وَيَسْبِيحُ الرَّعْدُ بِحَمْدِهِ﴾

ظاهرة الرعد، وهو يسبح بحمد الله تعالى تسبيحاً يدل على خضوعه لربه.

والرعد: اسم للملك الذي يزجر السحاب، وصوته تسبيحه، كما جاء في الحديث عن ابن عباس رضي الله عنه قال: أقبلت يهود إلى النبي صلى الله عليه وسلم، فقالوا: يا أبا القاسم، أخبرنا عن الرعد ما هو؟ فقال: «ملك من الملائكة، موكّل بالسحاب، معه مخاريق من نار، يسوق بها السحاب، حيث شاء الله»، فقالوا: فما هذا الصوت الذي نسمع؟ قال: «زجرة بالسحاب إذا زجره، حتى ينتهي إلى حيث أمر»، قالوا: صدقت...^(٢).

(١) أخرجه أحمد بسنده عن شيخ من غفار في «المسند» (٤٣٥/٥) ورقمه (٢٣٦٨٦) والبيهقي في «الأسماء والصفات» (٩٨٨) قال محققو «المسند»: إسناده صحيح ورجاله ثقات رجال الشيخين، وجهالة الغفاري لا تضر، وأخرجه الطحاوي في شرح مشكل الآثار (٢٢٠) وأبو الشيخ في العظمة (٧٢٢).

(٢) أخرجه الترمذي برقم (٣٣٣٤) وهذا لفظه وصحّحه الألباني في «صحيح سنن الترمذي» برقم (٢٤٩٢) وهو في «سلسلة الأحاديث الصحيحة» برقم (١٨٧٢) وأخرجه أحمد من حديث طويل في «المسند» برقم (٢٤٨٣) قال محققو المسند: حديث حسن دون قصة الرعد، فقد تفرد بها بكير بن شهاب، وهو لم يرو عنه سوى اثنين.. وقد توبع في حديثه هذا برقم (٢٥١٤) سوى قصة الرعد فإنها منكرة، وباقي رجال الإسناد ثقات غير عبد الله العجلي، فقد روى له الترمذي والنسائي وهو ثقة، وأخرجه النسائي في «السنن الكبرى» (٩٠٧٢).

وقد أطلق القرآن اسم الرعد على أنه آلة من آلات التخويف والإنذار كما في قوله تعالى: ﴿فِيهِ ظُلُمَاتٌ وَّرَعْدٌ وَبَرْقٌ﴾ [البقرة: ١٩] وجاء لفظ الرعد معرّفًا في هذه السورة، ونكرة في سورة البقرة.

لفظ الرعد يطلق على الملك إذا كان معرفة، ويطلق على الصوت الهائل الذي يُسمع كأنه شحنة كهربائية في طبقات الجو؛ فيثير الخوف والإنذار إذا كان نكرة.

والرعد يسبح تسييحًا مقترنًا بحمد الله تعالى والثناء عليه، ولا إشكال في ذلك، على أساس أن الرعد اسم للملك المؤكّل به، فإن الصوت المسموع، هو تسييح الملك.

ولا إشكال كذلك في أن الرعد باعتباره صوتًا مسموعًا، يسبح بحمد الله تعالى تسييحًا حقيقيًا، يجب علينا أن نؤمن به، كما صرّح به القرآن الكريم، وإن كنا لا نفهم معناه، فنفوض الأمر فيه إلى الله كما قال تعالى: ﴿تَسْبِيحٌ لَهُ السَّمَوَاتُ السَّبْعُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِنْ لَا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ﴾ [الإسراء: ٤٤].

الظَاهِرَةُ الْكُونِيَّةُ الرَّابِعَةُ: تَسْبِيحُ الْمَلَائِكَةِ ﴿وَالْمَلَائِكَةُ مِنْ خِيفَتِهِ﴾

تسييح الملائكة بحمد الله تعالى، وتنزيهها لربها خوفًا منه سبحانه، من آيات الله الكونية، فإذا سمعت الملائكة تسييح الرعد بحمد الله سبحت جميعًا، خوفًا من الله تعالى، كما قال سبحانه: ﴿وَيُسَبِّحُ الرَّعْدُ بِحَمْدِهِ وَالْمَلَائِكَةُ مِنْ خِيفَتِهِ﴾ فكلهم يتزهون الله تعالى، ويخضعون لجلاله. فإذا رفعت الملائكة أصواتها بالتسييح نزل المطر.

قال أحمد بن داود: بينما سليمان بن داود، عليهما السلام، يمشي مع أبيه، وهو غلام، إذ سمع صوت الرعد، فخرّ، فلصق بفخذ أبيه داود، فقال: يا بني، هذا صوت مقدمات رحمته، فكيف لو سمعت صوت مقدمات غضبه؟! (١).

وفي صحيح مسلم عن أبي هريرة ؓ أن النبي ﷺ قال: «بينا رجل بفلاة من الأرض فسمع صوتًا في سحابة يقول: اسق حديقة فلان، فأفرغ السحاب ماءه في أرض ذات حجارة سود، وسال الماء من الحرة إلى السهل، قال: فتبعت الماء فإذا رجل قائم في حديقة له يحول الماء بمسحاته، فقلت: يا عبد الله، ما اسمك؟ فقال: فلان، للاسم

(١) أخرجه الخرائطي في «مكارم الأخلاق» (٥٦٢) - متقى.

الذي سمعته في السحابة، ثم سأله: ماذا تصنع؟ قال: إني أتصدق بثلاث ما يخرج منها، وآكل أنا وعيالي الثلث، وأرُدُّ فيه ثلثه^(١).

أخرج الإمام أحمد وغيره بسنده عن سالم عن أبيه عليه السلام قال: كان رسول الله ﷺ إذا سمع الرعد والصواعق قال: «اللهم لا تقتلنا بغضبك، ولا تهلكنا بعذابك، وعافنا قبل ذلك»^(٢).

وكان علي عليه السلام إذا سمع صوت الرعد قال: سبحان من سبَّحت له^(٣).

وكان عبد الله بن الزبير عليه السلام إذا سمع الرعد ترك الحديث وقال: سبحان من يسبح الرعد بحمده والملائكة من خيفته، ثم يقول: إن هذا لوعيد لأهل الأرض شديد^(٤).

الظَّاهِرَةُ الْكَوْنِيَّةُ الْخَامِسَةُ: إِنْزَالُ الصَّوَاعِقِ الْمُحْرِقَةِ

قال تعالى: ﴿وَيُرْسِلُ الصَّوَاعِقَ فَيُصِيبُ بِهَا مَنْ يَشَاءُ﴾.

ذُكر الصواعق في الآيات على أنها جند من جنود الله تعالى، يهلك بها من تجبّر من خلقه؛ حيث يكتمل جوُّ الرهبة، والابتهاال إلى الله تعالى في الآية بذكر الصواعق، وهي الصوت الشديد، أو العذاب النازل من البرق، فيحترق بها من تصيبه وتهلكه، والصواعق منذرة بالهلاك، كما قال تعالى: ﴿يَجْعَلُونَ أَصْوَعًا مِّنْ أَذَانِهِمْ مِّنَ الصَّوَاعِقِ حَذَرَ الْمَوْتِ﴾ [البقرة: ١٩]

وهذه الصواعق: نار تتخلل السحب تنزل من السماء، فيهلك الله بها من يشاء من خلقه، فأين أصوات البشر الضعفاء إلى جوار صوت البرق والرعد والصواعق؟ والكفار يجادلون في صفات الله وفي قدرته على البعث، وينسبون له الشريك والولد،

(١) جاء هذا المعنى في «صحيح مسلم» الحديث برقم (٢٩٨٤).

(٢) «المسند» (١٠٠/٢) برقم (٥٧٦٣) و«سنن الترمذي» برقم (٣٤٥٠) وقال: حديث غريب لا نعرفه إلا من هذا الوجه، والنسائي في «السنن الكبرى» برقم (١٠٧٦٤) والبخاري في الأدب المفرد برقم (٧٢٢) والحاكم (٢٨٦/٤) وضعفه الألباني النووي في الأذكار ص (١٦٤) وضعفه الألباني في ضعيف «سنن الترمذي» (٦٨٠) و«السلسلة الضعيفة» (١٠٤٢)، وقال محققو المسند: إسناده ضعيف لضعف ابن أروطة وجهالة حال أبي مطر.

(٣) الطبري (٤٧٧/١٣).

(٤) رواه مالك في «الموطأ» (٩٩٢/٢) والبخاري في «الأدب المفرد» برقم (٧٢٤) وهو في «صحيح الأدب المفرد» (٥٥٦) وأحمد في «الزهد» ص (٢٠١).

وَيَسْهَوْنَ بِالْهَتَمِ، وهو سبحانه شديد الحول والقوة والبطش بمن عصاه ﴿وَهُمْ يُجَادِلُونَ فِي اللَّهِ وَهُوَ شَدِيدُ الْمِحَالِ﴾ أي: شديد الأخذ والعقوبة والكيد لأعدائه.

والمجادلة: هي المفاوضة والمنازعة والمراجعة في القول.

وَمَنْ جَادَلَ الْكُفَّارَ: ما حكاه القرآن عنهم في قوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرِ الْإِنْسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِنْ نُطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُبِينٌ﴾ (٧٧) وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَنْ يُعْطِي الْعِظَمَ وَهِيَ رَمِيمٌ ﴿٧٨﴾ قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنْشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ ﴿٧٩﴾ [يس].

وقوله: ﴿وَمَنْ النَّاسُ مَنْ يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَابٍ مُبِينٍ﴾ (٨٠) [الحج].

ومن ذلك ما جاء عن أنس وابن عباس ؓ: أن هذه الآية نزلت في عامر بن الطفيل، وإربد بن ربيعة حين قدما على النبي ﷺ يشترطان لدخولهما في الإسلام شروطاً لم يقبلها النبي ﷺ حيث قال عامر: إن أنا أسلمت، أتجعل لي الأمر من بعدك؟ وأخذ يجادل النبي ﷺ ويلهيه، وإربد يدور حول النبي ﷺ يستل سيفه ليقتله، فلما رآه النبي ﷺ قال: «اللهم اكفنيهما بما شئت» فصرفهما الله عنه، فخرج هو وعامر، وتوعدا النبي ﷺ أن يجلبا عليه خيل بني عامر، فأهلك الله إربد بصاعقة أصابته، وأهلك عامراً بغدة نبتت في جسمه فمات بها، وهو في بيت امرأة من بني سلول في طريقه إلى قومه، وأخذ يقول وهو يَمَسُّ غدته: أغدة كغدة البعير، وموت في بيت سلولية؟! ثم مات على ظهر فرسه (١) وصار هذا مثلاً يُضْرَبُ.

وقال أنس بن مالك ؓ: بعث رسول الله ﷺ إلى بعض فراعنة العرب يدعوهم إلى الله تعالى، فقال للرسول: وما الله؟ أمن ذهب هو، أم من فضة، أم من نحاس؟ فرجع إلى النبي ﷺ فأخبره فقال: «ارجع إليه فادعه إلى الله» فرجع، فأعاد عليه الكلام، إلى أن رجع إليه الثالثة، فبينما هما يتراجعان الكلام، إذ بعث الله سحابة حيال رأسه، فرعدت

(١) رواه الطبري في تفسيره عن ابن زيد (٣٧٩/١٦) وما بعدها والواحيدي في «أسباب النزول» (١٥٦) والسيوطي (١٥٧) والطبراني في «المعجم الكبير» (٣٧٩/١٠) و«تفسير ابن عطية» وابن كثير وغيرهما قال الهيثمي في «مجمع الزوائد» (٤٣/٧): في سنده عبد العزيز بن عمران وهو ضعيف.

ووقعت منها صاعقة، فذهبت بحِمْف رأسه، ونزلت الآية^(١).

وعن مجاهد أن هذه الآية نزلت في يهودي جادل في الله، فأصابته صاعقة^(٢).

فإذا الله سبحانه هو الذي يسوق الأمطار، وينشيء السحاب، ويدبر الأمر، وهو الذي تخضع له جميع المخلوقات، فهو يستحق العبادة وحده:

مَنْ يَتَوَجَّهُ بِعِبَادَتِهِ لِغَيْرِ اللَّهِ كَمَنْ يُمَسِّكُ الْمَاءَ بِأَصَابِعِهِ الْمُتَفَرِّجَةِ

١٤- ﴿لَمْ دَعَوْهُ الْحَقُّ وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ لَا يَسْتَجِيبُونَ لَهُمْ شَيْءٌ إِلَّا كَبَسِطَ كَفَّيْهِ إِلَى الْمَاءِ لِيَبْلُغَ فَاهُ وَمَا هُوَ بِيَبْلُغُهُ وَمَا دَعَا الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ ﴿٧﴾﴾

أي وهؤلاء الكفار المجادلون في الله يدعون غير الله، ويتوجهون بعبادتهم إلى غير الله تعالى، ويسألون غيره؛ فعبادتهم باطلة.

أما الذين يدعون دعوة الحق فهم الذين يعبدون الله وحده؛ لأنه المتفرد بالخلق والبعث، والقدرة التامة، وهو الذي ينبغي أن يصرف له: الدعاء والخوف والرجاء، والحب، والرغبة، والرغبة، والإثابة، والاستغاثة، والاستعانة، والاستجارة، وما إلى ذلك.

فطلب الإغاثة، أو طلب النعمة لا يكون إلا من الله تعالى، وإقبال الداعي وهو طالب النجدة أو العطاء لا يكون إلا على الله سبحانه، وهذا معنى: ﴿لَمْ دَعَوْهُ الْحَقُّ﴾ أي: لله وحده دعوة التوحيد (لا إله إلا الله) فلا يُعبد، ولا يُدعى إلا هو؛ فالله سبحانه هو الذي يسمع، وهو الذي يجيب المضطر إذا دعاه.

وهو الذي رد عامر بن الطفيل، وإربد بن ربيعة لما دعا النبي ﷺ ربه وقال: «اللهم

(١) رواه الطبري (١٢٥/١٣) والواحدي (١٥٦) والنسائي في «السنن الكبرى» (١٢٥٩) وذكره الهيثمي في «مجمع الزوائد» (٤٢/٧) عن أبي يعلى والطبراني في «الأوسط» (٢٦٠٢) والبزار، وهو في «مسند أبي يعلى» برقم (٣٣٤١، ٣٣٤٢، ٣٤٦٨) قال محققه: إسناده صحيح، وأخرجه ابن أبي عاصم في «السنن» برقم (٦٩٢) وقال الألباني في «ظلال الجنة»: إسناده صحيح، رجاله ثقات، رجال الشيخين غير ديلم بن غزوان وهو ثقة، وصححه ابن حجر في «مختصر زوائد البزار» برقم (١٤٧٤) وهو في «كشف الأستار» برقم (٤٢٢١) والبيهقي (٢٨٣/٦) في «الدلائل» وألفاظه متقاربة.

(٢) رواه الطبري في تفسير الآية.

اكفنيهما بما شئت» فكانت الدعوة دعوة حق، وهو سبحانه المعبود بحق دون سواه. والدعاء الخالص والعبادة الخالصة لا تكون إلا لله تعالى، وما سواها باطل، أي: أن الآلهة التي يعبدونها من دون الله لا تجيب دعاء من دعاها، وحالهم معها كحال عطشان يمد يده إلى الماء من بعيد؛ ليصل الماء إلى فمه فلا يصل له شيء. ولهذا قال تعالى: ﴿وَمَا دُعَاءُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ﴾ أي: أنهم في غاية البعد من الصواب؛ لإشراكهم مع الله غيره؛ وذلك لأنهم يدعون جمادًا لا يشعر بدعائهم، ولا يستجيب لهم، كما أن الماء جماد لا يشعر ببسط الكفين، ولا بعطش من يريد الماء.

وقيل: المعنى: إن القابض على الماء ناشراً أصابعه لا يمسك بيده شيئاً من الماء، كحال من يدعو أصناماً لا تضر ولا تنفع، ولا تفيده شيئاً.

والمقصود من الآية: نفي استجابة الآلهة لمطالب المشركين نفياً قاطعاً؛ لأن الماء لا يتحرك، ولا يسمع نداء من يناديه؛ فيتحصل من هذا المثل ثلاثة أوجه كما ذكرها القرطبي^(١): الأول: إن الذي يدعو إلهاً من دون الله، كالظمان الذي يطلب الماء إلى فيه من بعيد، فهو يشير إليه، ولكنه لا يأتيه.

الثاني: أنه كالظمان الذي يرى خياله في الماء، فبسط كفيه إلى الماء يظنه حقيقة، ثم بدا له وهمه وفساد ظنه.

الثالث: أنه كمن قبض الماء بكفيه بعد بسط يديه إليه، ثم لم يجد في كفه شيئاً منه.

وهكذا حال من يتوجه بعبادته لغير الله تعالى.

وهذه جملة من الآثار في ذلك:

١- أخرج الطبري بسند حسن عن علي بن أبي طالب عن ابن عباس ؓ قال: هذا مثل المشرك مع الله غيره، فمثله كمثل الرجل العطشان الذي ينظر إلى خياله في الماء من بعيد، فهو يريد أن يتناوله ولا يقدر عليه.

٢- وفي تفسير علي بن أبي طالب ؓ للآية: مثل الذين يعبدون آلهة غير الله، كمثل الذي يتناول الماء من طرف البئر بيده وهو لا يناله أبداً، فكيف يبلغ فاه؟ فكما أن الذي يبسط يده إلى الماء؛ ليتنفع به، ثم لا يصل إليه الماء، فكذلك المشركون في عبادتهم غير الله

(١) «تفسير القرطبي» (٩/٣٠١).

لا يتفنون بهذه العبادة في الدنيا، ولا في الآخرة.

٣- قال أبو السعود: شبه حال المشركين في عدم حصولهم عند دعاء آلهتهم على شيء أصلاً، بحال عطشان هائم لا يدري ما يفعل، قد بسط كفيه من بعيد إلى الماء يبغي وصوله إلى فمه، وليس الماء ببالغ فمه أبداً؛ لكونه جماداً لا يشعر بعطشه^(١).

٤- قال قتادة: هذا مثل ضربه الله، إن هذا الذي يدعو -من دون الله- هذا الوثن، وهذا الحجر، لا يستجيب له بشيء في الدنيا، ولا يسوق إليه خيراً، ولا يدفع عنه سوءاً حتى يأتيه الموت، كمثّل هذا الذي يسط ذراعيه إلى الماء ليلبغ فاه، ولا يلبغ فاه، ولا يصل ذلك إليه حتى يموت عطشاً^(٢).

٥- وقال ابن عباس رضي الله عنهما: هذا مثل المشرك الذي عبد مع الله غيره، فمثله كمثّل الرجل العطشان الذي ينظر إلى خياله في الماء من بعيد وهو يريد أن يتناوله، ولا يقدر عليه^(٣).

وتشبيه دعاء الكافرين لغير الله بالذي يسط كفيه إلى الماء ليلبغ فاه، تشبيه بأمر محال، والتعليق على المحال محال، كما قال تعالى ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَاسْتَكْبَرُوا عَنْهَا لَا تُفَتِّحْ لَهُمُ أَبْوَابُ السَّمَاءِ وَلَا يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ حَتَّى يَلِجَ الْجَمَلُ فِي سَمِّ الْخِيَاطِ﴾ [الأعراف: ٤٠]

كُلُّ مَنْ فِي الْكَوْنِ يَخْضَعُ لِلَّهِ تَعَالَى طَوْعًا أَوْ كَرْهًا

١٥- ﴿وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَظَلَّلَهُمْ بَالُغْدُو وَالْأَصَالِ﴾ ﴿١٥﴾

ثم إن الله ﷻ بيّن في هذه الآية أن المؤمن يخضع لله تعالى طواعية، والكافر يخضع رغماً عنه؛ لأنه يستكبر عن عبادة الله تعالى، ولكن فطرته ولسان حاله يكذّبانه، ويتقاد لعظمة الله تعالى جميع المخلوقات.

وبيان ذلك أن الكفار إذا لم يسجدوا لله سبحانه، وإذا لم يتقادوا إليه ويطيعوه، فإن الكون كله بما فيه ومن فيه، يسجد طوعاً أو كرهاً، لبارئه وخالقه ﴿وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ

(١) «تفسير أبي السعود» (١٠٢/٣).

(٢) الطبري (٤٩٠/١٣).

(٣) الطبري (٤٨٩/١٣) وابن أبي حاتم كما في التعليق (٢٣٠/٤).

وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا ﴿١٥﴾ أي: أن الملائكة في السموات يسجدون لله، ومسلمي الإنس والجن يسجدون لله، والشمس والقمر، والنجوم والشجر، والجبال والدواب، وغير ذلك من الكائنات والمخلوقات يسجدون لله تعالى.

والمنافق يسجد كرهاً؛ لأنه يتظاهر بالإسلام، ولا يرجو على سجوده ثواباً.

والكافر يسجد كرهاً بفطرته التي تكذبه، ويخضع وينقاد لله تعالى عند الشدة والاضطرار، كما قال تعالى: ﴿ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فَإِلَيْهِ تَجْتَرُونَ﴾ [النحل: ٥٣]

وقال: ﴿وَإِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فِي الْبَحْرِ ضَلَّ مَنْ تَدْعُونَ إِلَّا إِلَٰهًا﴾ [الإسراء: ٦٧].

وظلال جميع هذه الكائنات تسجد لله تعالى؛ لأنها تقع على الأرض في كل مكان، والظل يلزم صاحبه.

١- قال المفسرون: ظلُّ كل شخص يسجد لله، سواء ظلُّ المؤمن أم ظل الكافر؛ فظلُّ الكافر يصلي، وصاحبه لا يصلي.

٢- وقال مجاهد: ظلُّ المؤمن يسجد لله طوعاً وهو طائع، وظلُّ الكافر يسجد لله طوعاً وهو كاره^(١).

٣- وقال الضحاك: إذا طلعت الشمس سجد ظلُّ كل شيء نحو المغرب، فإذا زالت الشمس سجد ظلُّ كل شيء نحو المشرق حتى تغيب^(٢).

٤- وقال الزجاج: الكافر يسجد لغير الله، وظلُّه يسجد لله.

٥- وقال ابن الأنباري: لا يبعد أن يخلق الله للظلال عقولاً وأفهاماً تسجد بها وتخضع، كما جعل للجبال أفهاماً، حتى سبَّحت مع داود، فالكافر يسجد لله كرهاً إذا اضطر إلى ذلك، وظله يسجد طوعاً لله سبحانه.

٦- كان ربيع بن خثيم إذا سجد في سجدة سورة الرعد قال: بل طوعاً ياربنا.

وهل المراد بالسجود: سجود حقيقي شرعي بوضع الجبهة على الأرض من الإنسان

(١) الطبري (١٣/٤٩٢).

(٢) أخرجه أبو الشيخ كما في «الدر المنثور» (٨/٤١٦).

ونحوه، ويكون السجود بكيفية يعلمها الله تعالى في الأشجار والجبال والنبات، وغير ذلك من الميل أو الاتجاه إلى القبلة.

أو المراد بالسجود: سجد خضوع وانقياد لله سبحانه، وهذا معنى: ﴿وَلِلَّهِ السُّجُودُ وَالْأَسْوَاقُ﴾ أي: أن الظل يسجد تبعًا للشخص صباحًا ومساءً، فهو يقع على الأرض وقوع الساجد؛ لأنه مرتبط بنظام انعكاس أشعة الشمس على الأرض، ولو كان وجه الأرض لامعًا أو شفافًا كالماء لم يظهر الظل، وهذا من عظمة الصانع سبحانه.

وهذا السجود يكون أول النهار وآخره ﴿وَالْغُدُّو وَالْأَصَالُ﴾.

قال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى مَا خَلَقَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ يَنْفَعِيوُا ظِلَّالَهُ عَنِ الْيَمِينِ وَالشَّمَائِلِ سُجَّدًا لِلَّهِ وَهُمْ دَاخِرُونَ﴾ (٤٨) وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مِنْ دَابَّةٍ وَالْمَلَائِكَةُ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ (٤٩) [النحل].

وقال سبحانه: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَسْجُدُ لَهُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ وَالْجِبَالُ وَالشَّجَرُ وَالدَّوَابُّ وَكَثِيرٌ مِّنَ النَّاسِ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ الْعَذَابُ﴾ [الحج: ١٨].

أَرْبَعَةُ أُدْلَةٍ عَلَى بُطْلَانِ عِبَادَةِ الْمُشْرِكِينَ

١٦- ﴿قُلْ مَنْ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ قُلِ اللَّهُ قُلْ أَفَاتَّخَذْتُمْ مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ لَا يَمْلِكُونَ لِأَنفُسِهِمْ نَفْعًا وَلَا ضَرًّا قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الْأَعْمَى وَالْبَصِيرُ^(١) أَمْ هَلْ تَسْتَوِي الظُّلُمَةُ وَالنُّورُ^(٢) أَمْ جَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ خَلَقُوا كَخَلْقِهِ فَتَشَبَّهُ الْخَلْقُ عَلَيْهِمْ قُلِ اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ^(٣)﴾

ثم يوجّه الله سبحانه أربعة أسئلة تهكمية للكفار:

وهي سؤالهم **أَوَّلًا**: عن خالق هذا الكون.

وسؤالهم **ثانيًا**: عن اتخاذ الأنداد من دونه.

(١) قوله تعالى (هل يستوي الأعمى والبصير) عدها الدمشقي آية، وتركها غيره من العدد.

(٢) قرأ شعبة وحزمة والكسائي وخلف بياء التذكير في (أم هل تستوي الظلمات)، والباقون بتاء التانيث وجاز في الفعل التذكير والتانيث؛ لأن الفاعل غير مؤنث حقيقي.

(٣) قوله تعالى (أم هل تستوي الظلمات والنور) ترك عدها الكوفي، وعدها غيره آية.

وسؤالهم ثالثاً: عن استواء المؤمن والكافر.

وسؤالهم رابعاً: عن وجود شبه في الخلق بين الخالق والشركاء.

وقد صُدّرت هذه الأسئلة بلفظ ﴿قُلْ﴾ ثم تلاها أربع استفهامات إنكارية، الثاني منها جواب لما قبله، وجاء السؤال الرابع في قوله تعالى: ﴿أَمْ جَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ خَلَقُوا كَخَلْقِهِ فَتَشَبَّهُ الْخَلْقُ عَلَيْهِمْ﴾.

وفي هذه الآية خمسة أوامر للنبي ﷺ، فيها جوابان للمشركين هما: ﴿قُلِ اللَّهُ﴾ والثانية: ﴿قُلِ اللَّهُ خَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ﴾ والثلاثة الباقية فيها أسئلة موجهة إلى الكفار، وهي: ﴿قُلْ مَنْ رَبُّ السَّمَوَاتِ﴾ ﴿قُلْ أَفَاتَّخَذْتُمْ مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ﴾ ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الْأَعْمَى وَالْبَصِيرُ﴾.

السؤال الأول: من رب السموات والأرض؟ من خالق هذا الكون؟ من مالكة؟ من يدبر أمره؟ من يرزقه؟ هل خلق الإنسان نفسه؟ أم أنه خلق من غير خالق؟

ولمّا كان الكفار يعترفون بوجود الله تعالى، ويقولون بأن هذا كله من خصائصه تعالى، فإن هذا السؤال جاء مشفوعاً بالإجابة عليه ﴿قُلْ مَنْ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ قُلِ اللَّهُ﴾ الجميع يقر بأن الله تعالى هو الخالق الرازق مدبر الأمر، يحيي ويميت، يقر بذلك المؤمن والكافر؛ ولذلك فالله سبحانه يلقي رسوله الجواب، أي: فإن أنكر بعضهم ذلك فأجبههم يا محمد: ﴿قُلِ اللَّهُ﴾ وأيضاً فلما كان السؤال واضحاً لا ينكره ولا يدفعه أحد كان السبق إلى الجواب أفصح من انتظار جوابهم؛ إذ لا جواب غيره ﴿اللَّهُ خَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ﴾ [الزمر] الله خالق هذا الكون بكل ما فيه ومن فيه، ومدبر أمره، خالق النبات والجماد والحيوان، والإنسان والجن والملائكة، وكل ما كان وما يكون.

ثم يأتي السؤال الثاني لإلزامهم بالحجة، ما داموا معترفين بما جاء في السؤال الأول: ﴿قُلْ أَفَاتَّخَذْتُمْ مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ لَا يَمْلِكُونَ أَنْفُسَهُمْ نَعَمْ وَلَا ضَرًّا﴾.

أي: قل لهم -يا محمد: أ جعلتم لله شركاء وعبدتموهم من دونه، وهم لا يملكون نفع أنفسهم، ولا دفع الضر عنها، فكيف يملكونه لغيرهم.

وهذا استفهام تقريرى توبيخي يسفه رأيهم في اتخاذهم من ليس أهلاً للعبودية، وفي

هذا تنبيه لاستعمال الفكر في أن هؤلاء الأولياء عاجزون تمام العجز عن نصر أنفسهم وتولي أمرها، فضلاً عن غيرهم، قال تعالى: ﴿قُلْ أَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا وَاللَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ [المائدة]

وقال: ﴿يَدْعُوا مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُ وَمَا لَا نَفْعُ لَهُ ذَلِكَ هُوَ الضَّلَالُ الْبَعِيدُ﴾ [الحج: ١٣] يَدْعُوا لَمَن ضَرَّهُ أَقْرَبُ مِن نَفْعِهِ لَيْسَ الْمَوْلَى وَلَيْسَ الْعَشِيرُ [الحج].

السؤال الثالث: يبرهن على بطلان معتقداتهم عن طريق العلم المشاهد المحسوس

﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الْأَعْمَى وَالْبَصِيرُ أَمْ هَلْ سَتَوَى الظُّلُمَتُ وَالنُّورُ﴾ أي: كما لا يستوي الأعمى والبصير لا يستوي الكافر والمؤمن، وكما لا تستوي الظلمات والنور لا يستوي الكفر والإيمان.

وشبّه الكافر بالأعمى؛ لأن الأعمى لا يهتدي إلى الطريق، وكذلك الكافر لا يهتدي إلى الصواب، وحال الكافر كحال الظلمة في انعدام الرؤية، وحال المؤمن كحال النور في العلم والرؤية.

والكفر انطماس في البصيرة وظلمات في القلب، والإيمان نور في القلب وإشراق في النفس، وقد جُمع الظلمات؛ لتعدد طرقه وأسبابه، وأُفرد النور لأن طريقه واحد، ونتيجته واحدة.

ثم انتقل الاستفهام التهكمي في السؤال الرابع إلى إنكار آخر على المشركين عن طريق الالتفات من ضمير الخطاب إلى ضمير الغيبة، فقال تعالى: ﴿أَمْ جَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ خَلَقُوا كَخَلْقِهِ فَتَشَبَّهُ الْخَلْقُ عَلَيْهِمْ﴾.

والمعنى: هل هؤلاء الأولياء الذين أشركوهم مع الله، خلقوا شيئاً مثل خلق الله، فتشابه عليهم خلق الله بخلق الشركاء، وكانت لهم شبهة فاغتروا بهم، واعتقدوا أنهم مستحقون للعبادة، فاتخذوهم آلهة؟ وهذا تهكم لاذع؛ لأنهم يعلمون أن كل شيء من خلق الله، وأن هذه الآلهة المزعومة لم تخلق شيئاً ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ لَن يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَلَوْ اجْتَمَعُوا لَهُ وَإِن يَسْلُبْهُمُ الذُّبَابُ شَيْئًا لَا يَسْتَفِيدُوا مِنْهُ ضَعُفَ الطَّالِبُ وَالْمَطْلُوبُ﴾ [الحج: ٧٣].

ومع هذا فهم يتوجهون لهم بالعبادة، وهذا أحط ما تصل إليه العقول البشرية.

وإذا تبين أن هؤلاء الشركاء لا يملكون لأنفسهم نفعاً ولا ضرراً، وأنهم خلق من خلق الله، وليس في استطاعتهم خلق أو هन شيء كالعنكبوت أو الذباب، تعين أن يكون الله

تعالى هو المتفرد بالنفع والضرر، والخلق والتدبير؛ وبذا تكون الحجة قد لزمته، ووجب عليهم أن يصرفوا عبادتهم لله وحده.

ولذا فإن الله تعالى أمر رسوله أن يعلمهم بهذه النتيجة الحتمية ﴿قُلِ اللَّهُ خَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ﴾ ومُوجده من العدم ﴿وَهُوَ الْوَاحِدُ﴾ المتوحد بالربوبية والألوهية ﴿الْفَهَّارُ﴾ الذي لا يُغلب ولا يقهر، وجميع الخلق تحت قضائه وقدره، فالفهر والتوحيد متلازمان وهما من خصائص الله تبارك وتعالى.

قال مَعْقِل بن يسار: انطلقت مع أبي بكر الصديق إلى النبي ﷺ فقال: «يا أبا بكر، لِلشُّرْكَ الخَفِيُّ فيكم أخفى من ديب النمل» فقال أبوبكر: وهل الشرك إِلَّا مَنْ جعل مع الله إِلَهًا آخَرَ؟ فقال النبي ﷺ: «والذي نفسي بيده، للشرك فيكم أخفى من ديب النمل، ألا أدلك على شيء إذا قُلْتَهُ ذهب عنك قليله وكثيره؟» قال: قل: «اللهم إني أعوذ بك أن أشرك بك شيئاً وأنا أعلم، وأستغفرك لما لا أعلم»^(١).

وقد ورد الاستفهام ﴿قُلْ﴾ في هذه الآية خمس مرات، وفيه إنكار من الله ﷻ على المشركين ما زعموه من أن هذه الأوثان تقرّبهم من الله زلفى، أو تشفع لهم عند الله.

كما قال تعالى عنهم: ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى﴾ [الزمر: ٣]

وقد نفى الله تعالى ذلك في مثل قوله تعالى: ﴿وَلَا نَنْفَعُ الشَّفَعَةَ عِنْدَهُ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُ﴾ [سبأ: ٢٣]

وقوله: ﴿وَكَمْ مِنْ مَلَكٍ فِي السَّمَوَاتِ لَا تُغْنِي شَفَعَتُهُمْ شَيْئًا إِلَّا مِنْ بَعْدِ أَنْ يَأْذِنَ اللَّهُ لِمَنْ يَشَاءُ وَرِضَى

﴿النجم﴾ [النجم] وقوله: ﴿يَوْمَئِذٍ لَا نَنْفَعُ الشَّفَعَةَ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ وَرِضَى لَهُ قَوْلًا﴾ ﴿١٦﴾ [طه].

وجميع الخلق يحشرون إلى الله تعالى، وكل منهم يأتي بما قدم في دنياه.

وقد أعذرنا الله سبحانه فأرسل الرسل، وأنزل الكتب، وبَيَّن الهدى من الضلال، وأمر

ونهى فلا عذر لمشرك في شركه.

(١) «صحيح الأدب المفرد» (٥٥١).

مَثَلُ الْحَقِّ وَمَثَلُ الْبَاطِلِ

١٧- ﴿أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا فَاحْتَمَلَ السَّنِىُّ زَيْدًا رَابِيًا وَمِمَّا يُوقِدُونَ^(١) عَلَيْهِ فِي النَّارِ ابْتِغَاءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتَاعٍ زَبَدٌ مِثْلُ بَرَدٍ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْحَقَّ وَالْبَاطِلَ^(٢) فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً وَأَمَّا مَا يَنْفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الْأَرْضِ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ ﴿٧﴾﴾

في هذه الآية ضرب الله سبحانه مثلين للحق والباطل، أو للمؤمن الذي ينتفع بما أنزله الله على رسوله، والكافر الذي عطل مداركه فلم ينتفع بشيء من الهدى والنور، مع أن أهل الإيمان وأهل الكفر قد استويا في تلقي شيء واحد، ولكن فريقاً من الناس انتفع به وهم أهل الحق، والفريق الآخر لم ينتفع به وهم أهل الباطل، فمثل المؤمن كالماء الصافي والجوهر النقي، ومثل الكافر كرجوة الماء ورجوة الذهب حين يصهر.

المثل الأول: مضروب بالماء وما يعلوه من رجوة

فقد شبه إنزال القرآن المشتمل على هداية الناس، وبه تحيا القلوب والأرواح، بإنزال الماء الذي يحيا به الإنسان والحيوان والنبات، وبه تحيا الأبدان والأشباح.

وشبه ورود القرآن على أسماع الناس بالسيل يمر على التلال والجبال فلا يستقر فيها، ويمضي إلى الأودية فيأخذ من كل واد بقدر سعته، وهذا معنى ﴿فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا﴾ وهذه السيول تحمل في أعلاها رجوة الماء الذي يطفو على سطحه، فيذهب الزبد ويبقى الماء الصافي ينتفع به الناس.

وهكذا القرآن ينتفع به أهل الإيمان بنسب متفاوتة على قدر قوة إيمانهم وضعفه، ولا ينتفع به المنكرون له المعرضون عنه.

ويخالط القرآن قلوب قوم فيأخذون منه ما يثير الشبه والإلحاد، قال تعالى: ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْجٌ فَيَكْتُمُونَ مَا تُنَبِّئُ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ﴾ [آل عمران: ٧].

واختلاف الناس في قابلية الانتفاع بما نزل من عند الله، كاختلاف الأودية في قبول الماء.

(١) قرأ حفص وحزمة والكسائي وخلف بياء الغيب في (يوقدون)، والباقون بقاء الخطاب.

(٢) عدّ لفظ (الباطل) الحمصى وحده وتركه الآخرون.

أخرج الطبري، بسند حسن، عن علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس رضي الله عنه قال: هذا مثل ضربه الله، احتملت منه القلوب على قدر يقينها وشكها؛ فأما الشك فلا ينفع معه العمل، وأما اليقين فينفع الله به أهله، وكما يجعل الحلي في النار فيؤخذ خالصه، ويترك خبيثه، فكذلك يقبل الله اليقين ويترك الشك^(١).

فالشك يمثل قوله تعالى: ﴿فَأَمَّا الزُّبْدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً﴾ واليقين يمثل قوله تعالى: ﴿وَأَمَّا مَا يَنْفَعُ النَّاسَ فَيَكُونُ فِي الْأَرْضِ﴾ وهذا المثل لإقامة الحجة على الكفرة في عدم إيمانهم بالله تعالى.

وقد فسر هذا المثل قول النبي ﷺ فيما يرويه أبو موسى رضي الله عنه: «إن مثل ما بعثني الله به من الهدى والعلم، كمثل غيث أصاب أرضاً، فكانت منها طائفة طيبة قبلت الماء، فأنبتت الكلاً والعشب الكثير، وكان منها أجاب أمسكت الماء فنفع الله بها الناس، فشربوا منها وسقوا ورعوا، وأصاب طائفة منها أخرى إنما هي قيعان لا تمسك ماء ولا تنبت كلاً، فذلك مثل من فقه في دين الله، ونفعه بما بعثني الله به فتعلم وعلم، ومثل من لم يرفع بذلك رأساً، ولم يقبل هدى الله الذي أرسلت به»^(٢).

قال العلماء: والأرض ثلاثة أنواع، وكذلك الناس؛ لأنهم منها خلِقوا:

النوع الأول: أرض طيبة التربة تنتفع بالماء؛ فتنبت العُشب لنفع الإنسان والحيوان، وكذلك الصنف الأول من الناس، يبلغه الهدى فيحيا به قلبه، فيعمل به ويعلمه غيره؛ فينفع نفسه وينفع الناس.

النوع الثاني: أرض لا تشرب الماء في نفسها، ولكنها تمسكه لغيرها، وكذلك الصنف الثاني من الناس لا ينتفع بالهدى في حد ذاته، ولكنه يبلغه للناس فينتفعون به.

النوع الثالث: أرض سبخة لا تمسك ماء، ولا تنبت كلاً، وهكذا الصنف الثالث من الناس لا ينتفع بالهدى في حد ذاته ولا يمسه لغيره، فهو لا يقبل الهدى أبداً.

(١) الطبري (٤٩٨/١٣).

(٢) «صحيح البخاري» برقم (٧٩) و«صحيح مسلم» برقم (٢٢٨٢) من حديث أبي موسى الأشعري وهذا لفظه.

والمثل الآخر: مضروب بالمعادن النقية وزبدها

فقد شبه الله سبحانه ما يوقد عليه في النار من المعادن والجواهر حين تُصهر، بالهدى الذي ينتفع به الناس، كما يُصهر الذهب والفضة طلبًا للزينة، أو النحاس والحديد طلبًا للانتفاع به كمتاع، فإنه يخرج منه زبد يطفو أعلاه، وهو من الخبث الذي لا يصلح لشيء، كما جاء في الحديث عن أبي هريرة رضي الله عنه: «كما ينفي الكير خبث الحديد»^(١).

وهكذا: شبه الله تعالى ما يكون في القلوب من الشهوات والشبهات عند وصول الحق إليها، بالزبد الذي يعلو الماء ويعلو ما يوقد عليه في النار من الحلية التي يراد تخليصها وسبكها، وكذلك الشهوات والشبهات لا يزال القلب يكرها ويجاهدها حتى تذهب، ويبقى القلب صافيا ليس فيه إلا ما ينفع الناس.

فالزبد في المثاليين مثل للباطل، والماء والحلي مثل للحق.

والباطل كغناء الماء وخبث الحديد، يذهب ويزول، ويُرمى، ولا يُنتفع به.

والحق كالماء الصافي، والمعادن النقية، تبقى للانتفاع بها.

قال قتادة: هذه ثلاثة أمثلة ضربها الله في مثل واحد، يقول:

كما اضمحلّ هذا الزبد فصار جُفاء لا يُنتفع به، ولا تُرجى بركته، كذلك يضمحلّ الباطل عن أهله.

وكما مكث هذا الماء في الأرض، فأثمرت ورتبت، وأخرجت نباتها، كذلك يبقى الحق لأهله.

وكما يبقى خالص الذهب والفضة حين أدخل النار، فذهب خبثه، كذلك يبقى الحق لأهله،

وكما اضمحلّ خبث الذهب والفضة حين أدخل في النار، كذلك يضمحلّ الباطل عن أهله^(٢).

وقد ضرب الله سبحانه للمنافقين في أول سورة البقرة مثلاً نارياً في قوله تعالى:

(١) الحديث في البخاري (١٨٧١) ومسلم (١٣٩٢) عن أبي هريرة، وجاءت هذه النهاية للحديث أيضًا في المتابعة بين الحج والعمرة، وفي صحيح الجامع الصغير (٢٨٩٩) عن ابن مسعود، وفي المسند (٣٦٦٩) وابن حبان (٣٦٩٣) والطبراني في الكبير (٣٦١٠) والترمذي (٨١٠) والنسائي في المجتبى ١١٥/٥ وفي الكبرى (٣٦١٠).
(٢) الطبري (٥٠١/١٣).

﴿مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْقَدَ نَارًا﴾ [آية: ١٧].

ومثلاً مائياً في قوله سبحانه: ﴿أَوْ كَصَيِّبٍ مِنَ السَّمَاءِ فِيهِ ظُلُمٌ وَرَعْدٌ وَبَرْقٌ﴾ [البقرة: ١٩].

وضرب سبحانه مثلين للكفار في سورة النور:

أحدهما جاء في قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَلُهُمْ كَسَرَبٍ يَّحْيَعُ يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ مَاءً﴾ [النور: ٣٩].

وثانيهما في قوله تعالى: ﴿أَوْ كَظُلُمَاتٍ فِي بَحْرٍ لُّجِّي يَغْشَاهُ مَوْجٌ مِنْ فَوْقِهِ مَوْجٌ مِنْ فَوْقِهِ سَحَابٌ﴾ [النور: ٤٠].

وفي حديث أبي هريرة ؓ أن النبي ﷺ قال: « مثلي كمثل رجل استوقد ناراً، فلما أضاءت ما حولها جعل الفراش وهذه الدواب التي في النار يقعن فيها، وجعل يحجزهن ويغليته فيتقحمن فيها، قال: فذلكم مثلي ومثلكم، أنا آخذ بحجزكم عن النار: هلم عن النار، هلم عن النار، فتغلبوني، تقحمون فيها»^(١).

فهذا مثل ناري ضربه النبي ﷺ لمن يتبع طرق الباطل ويُلقي بنفسه في النار، والنبي ﷺ يدعوهم إلى الهدى، ويحاول منعهم من الكفر والشرك الذي يأخذ بأيديهم إلى النار، وهم يصرون على أعمالهم فتؤدي بهم إلى النار.

ومعنى الآية التي تقرر مثل الحق والباطل: ﴿أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا﴾:

أودية الأرض: جمع وادٍ، والوادي هو الذي يسيل فيه الماء، ويكون بين جبلين ﴿بِقَدَرِهَا﴾ أي: فيها واد ضيق، وواد واسع، وواد متوسط، كل واد أخذ من الماء بحسب سعته، وكذلك الناس قد يسمع بعضهم مئة كلمة فيأخذ المئة كاملة ينتفع بها، وبعضهم يأخذ منها خمسين كلمة، وبعضهم يأخذ خمسة.

وهكذا من ينتفع بالهدي الإلهي يأخذه كله، أو بعضه.

ومعنى: ﴿فَاتَّخَذَ السَّيْلُ زَبَدًا رَابِيًا﴾ الرَّبْد: هو الغشاء، أو الرغوة التي تكون في أعلى القدر عند الغليان فوق الماء وهو يتحرك ويضرب، أي: فحمل الماء السائل في الأودية بكثرة وقوة.

(١) مسلم برقم (٢٢٨٤) وهذا لفظه وأخرجه البخاري برقم (٦٤٨٢) و«المسند» (٣١٢/٢) برقم (٨١١٧).

هذا مثل الباطل ومثل الكُفر، وهو الذي يذهب جفاءً؛ فالباطل - وإن علا وارتفع أحياناً - فإنه سرعان ما يذهب ويزول، ويبقى الحق والإيمان ثابتاً راسخاً؛ لأن ما ينفع الناس هو الذي يملك في الأرض.

وهكذا الصانع الذي يوقد النار على الذهب والفضة؛ ابتغاء الحلية والزينة للنساء، وهذا معنى: ﴿وَمَا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِي النَّارِ ابْتِغَاءَ حِلْيَةٍ﴾.

الحلية: ما يتحلى به الإنسان من الذهب والفضة، ونحوهما، أي: من أجل استخراج الذهب والفضة الخالصتين للزينة، أو استخراج أمتعة الأواني من النحاس والحديد المشار إليها في قوله تعالى: ﴿أَوْ مَتَاعٍ زَبَدٌ مِثْلَهُ﴾.

المتاع: هو ما يتمتع به الإنسان في حياته من الأواني والآلات المتخذة من الحديد والرصاص، وأشباههما؛ حيث يخرج لهذا المتاع رغبة وغناء، هذا الغناء سرعان ما يطفو ويذهب، وكذلك الباطل والكُفر، وأما الماء والمتاع، أو الذهب والفضة، فإنه يبقى ويُستفاد به، وهذا مثل الحق والإيمان.

ثم قسّم سبحانه المثل إلى قسمين، في قوله: ﴿فَأَمَّا الزَّبَدُ﴾ من الماء والحلي ﴿فَيَذْهَبُ جُفَاءً﴾ لا فائدة فيه ﴿وَأَمَّا مَا يَنْفَعُ النَّاسَ﴾ من الماء الصافي والمعدن النقي ﴿فَيَمْكُثُ فِي الْأَرْضِ﴾ ويستفاد منه الناس.

وكما ضرب الله لكم - أيها الناس - هذه الأمثلة، يضرب المثل للحق والباطل، والهدى والضلال ﴿كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ﴾ قال تعالى: ﴿وَلِئَلَّا تُؤْمِنُوا بِاللَّغْوِ وَالْزَبْدِ﴾ [العنكبوت].

قال بعض السلف: كنت إذا قرأت مثلاً من القرآن فلم أفهمه بكيت على نفسي؛ لأن الله تعالى يقول ﴿وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا الْعَالِمُونَ﴾.

وبمثل الماء والزبد يضرب الله المثل بالحق والباطل؛ فالباطل كغناء الماء يتلاشى، أو يُرمى به فلا فائدة فيه، والحق كالماء الصافي يبقى في الأرض للانتفاع به، وهكذا يتضح الحق من الباطل، والهدى من الضلال.

عَاقِبَةُ أَهْلِ الْحَقِّ وَعَاقِبَةُ أَهْلِ الضَّلَالِ

١٨- ﴿لِلَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمْ^(١) الْحُسْنَىٰ وَالَّذِينَ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُ لَوْ أَنَّ لَهُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مِّثْلَ مَعْدُومٍ لَفَتَدَوَّا بِرُءُوسِهِمْ أَؤُلْتِكَ لَهُمْ سُوَّةُ الْحِسَابِ^(٢) وَمَا وَنَهُمْ جَهَنَّمُ وَيَسَّ لِلَّهَادِ^(٣)﴾

يَبَيِّنُ اللهُ سُبْحَانَهُ فِي هَذِهِ الْآيَةِ عَاقِبَةَ أَهْلِ الْحَقِّ، وَعَاقِبَةَ أَهْلِ الْبَاطِلِ؛ بَعْدَ أَنْ يَبَيِّنَ الْحَقَّ مِنَ الْبَاطِلِ فَيَقْسِمُ الْبَشَرَ إِلَى صَنَفَيْنِ:

سَعْدَاءُ مُسْتَجِيبُونَ لِأَمْرِ رَبِّهِمْ، وَهُمْ أَهْلُ الْحَقِّ.

وَأَشْقِيَاءُ غَيْرُ مُسْتَجِيبِينَ لِأَمْرِ رَبِّهِمْ، وَهُمْ أَهْلُ الْبَاطِلِ.

فَأَمَّا السَّعْدَاءُ وَهُمْ الصَّنْفُ الْأَوَّلُ - نَسْأَلُ اللَّهَ تَعَالَى أَنْ يَجْعَلَنَا مِنْهُمْ- فَهَمُ الَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِربِّهِمْ استجابة حسنة؛ فَعَقِلُوا عَنْ اللَّهِ أَمْرَهُ وَنَهْيَهُ، وَاعْتَبَرُوا بِمَا يَضْرِبُهُ الْقُرْآنُ لَهُمْ مِنَ الْأَمْثَالِ، وَبِمَا وَقَعَ لِلْأُمَمِ السَّابِقَةِ قَبْلَهُمْ مِنْ هَلَاكِ وَدَمَارٍ، وَامْتَثَلُوا أَمْرَ رَبِّهِمْ وَاجْتَنَبُوا نَهْيَهُ، وَأَطَاعُوا رَسُولَ اللَّهِ ﷺ، وَهَؤُلَاءِ السَّعْدَاءُ لَهُمُ الْمَنْزِلَةُ الْعَالِيَةُ فِي الْآخِرَةِ، وَالْفَوْزُ بِالْجَنَّةِ يَوْمَ لِقَاءِ رَبِّ الْعَالَمِينَ، وَهَذَا مَعْنَى: ﴿لِلَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمْ الْحُسْنَىٰ﴾ أَيِ الْجَنَّةِ.

أَمَّا الصَّنْفُ الثَّانِي مِنَ الْبَشَرِ، فَهَمُ الْأَشْقِيَاءُ، مِنَ الْمُشْرِكِينَ وَالْكَافِرِ- نَعُوذُ بِاللَّهِ تَعَالَى مِنْهُمْ وَمِنْ أَعْمَالِهِمْ- وَهُمْ الَّذِينَ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لِربِّهِمْ؛ فَلَمْ يُؤْمِنُوا بِهِ، وَلَمْ يَطِيعُوهُ وَلَمْ يَمْتَثِلُوا أَمْرَهُ، وَلَمْ يَجْتَنِبُوا نَهْيَهُ، وَهَؤُلَاءِ الْأَشْقِيَاءُ لَوْ أَنَّ لِأَحَدِهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِثْلَ الْأَرْضِ ذَهَبًا، وَمِثْلَهُ مَعَهُ، لَيَفْدِي نَفْسَهُ مِنْ عَذَابِ اللَّهِ، يَوْمَ لِقَاءِ رَبِّ الْعَالَمِينَ لِفَعْلٍ، وَلَمَّا قُبِلَ مِنْهُ ذَلِكَ، وَهَذَا مَعْنَى: ﴿وَالَّذِينَ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُ لَوْ أَنَّ لَهُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مِثْلَ مَعْدُومٍ﴾ فَقَدَّمُوهُ فِدْيَةً لِنَفْسِهِمْ مِنْ عَذَابِ اللَّهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مَا قُبِلَ مِنْهُمْ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ أَنَّ لَهُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مِثْلَ مَعْدُومٍ لَيَفْتَدُوا بِهٖ مِنْ عَذَابِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَا تُقْبَلُ مِنْهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ (٣٦) يُرِيدُونَ أَنْ يُخْرِجُوا مِنَ النَّارِ وَمَا هُمْ بِخَارِجِينَ مِنْهَا وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّقِيمٌ﴾ (٣٧) [المائدة].

(١) قرأ أبو عمرو ويعقوب بكسر الهاء والميم من (لربهم الحسنی) حالة الوصل، وقرأ حمزة والكسائي وخلف بضمهما، والباقون بكسر الهاء وضم الميم.

(٢) عدّ (لهم سوء الحساب) آية، الشامي وحده، وتركها غيره.

وقد جاء الكلام في صورة الاستفهام؛ تنبيهًا على غفلة الضالين و عدم استوائهم مع المهتدين، قال سبحانه عن الذين لم يستجيبوا لربهم مبيِّنًا سوء مصيرهم: ﴿أُولَٰئِكَ هُمُ سَوُّوٓا۟ الْحِسَابِ﴾ فيحاسبون على أعمالهم وأقوالهم السيئة، في حق الله وحق عباده، والحساب السيئ هو مناقشة الحساب.

جاء في الحديث عن عائشة ؓ: «من نوقش الحساب عُذِّبَ»^(١).

والمؤمن يحاسبه الله حسابًا يسيرًا فيقرره بما عمل، ثم يقول الله له: «سترناها عليك في الدنيا واليوم أغفرها لك»^(٢).

كما قال تعالى: ﴿فَأَمَّا مَنْ أَوْفَىٰ كَيْلِبُهُ يُسْمِنُ ۖ فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا سَعِيرًا ۝٨﴾ وَنَقَلَبُ إِلَيَّ أَهْلِهِ مَسْرُورًا ۝٩﴾ [الانشقاق].

وقال تعالى: على لسان ذي القرنين: ﴿أَمَّا مَنْ ظَلَمَ فَسَوْفَ نَعَذِّبُهُ ثُمَّ يُرَدُّ إِلَىٰ رَبِّهِ فَيُعَذِّبُهُ عَذَابًا ثَكْرًا ۝٨٧﴾ وَأَمَّا مَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُ جَزَاءً أَحْسَنُ ۖ وَنَسْأَلُ لَهُ مِنْ ءَمْرِنَا يُتْرَ ۝٨٨﴾ [الكهف].

وغير المؤمن يناقش الحساب على المأثم ورؤوس الأَشْهَاد؛ فيحاسب على النكير والقطمير، وعلى كل صغيرة وكبيرة، والذي مات على الكفر والشرك الأكبر لا يغفر الله له ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ﴾ [النساء: ٤٨، ١١٦]

وهؤلاء مصيرهم إلى النار ﴿وَمَا أُولَٰئِكَ بِجَهَنَّمَ﴾ بما فيها الزقوم والزمهرير والضريع والغسلين، وَيَسْأَلُ إِلَٰهَهُمْ أَيُّ: بس المسكن والمستقر لهم، وبس الفراش الذي مهدوه لأنفسهم.

لَا يَسْتَوِي مَنْ يَعْرِفُ الْحَقَّ بِمَنْ هُوَ أَغْمَىٰ عَنْهُ

١٩- ﴿أَفَمَنْ يَعْلَمُ أَنَّمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ الْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَغْمَىٰ ۖ إِنَّمَا يَذَّكَّرُ أُولَٰئِكَ الْآلِفِ ۝٩﴾

ثم بيَّن الله سبحانه أن هذين الصنفين لا يستويان عند الله تعالى، لا يستوي الذي عَلِمَ أن ما أنزل على محمد ﷺ من الوحي، هو حق وصدق لا شك فيه ولا مرية، فعَلِمَ ذلك، وآمن به، وصدَّقه وعمل عملاً صالحاً، واتبع هُذِي محمد ﷺ.

(١) من حديث عائشة في البخاري (١٠٣، ٤٩٣٩) وهو في صحيح مسلم (٢٨٧٦) بزيادة (يوم القيامة).

(٢) ينظر حديث ابن عمر في البخاري (٢٤٤١) وفي مسلم (٢٧٦٨).

لا يستوي هذا بالكافر أعمى البصيرة، كما سماه القرآن؛ لأنه لم يُبصر الحق، ولم يتبع الهدى والنور الذي أنزل إليه من ربه، وهذا إشارة إلى المثل المتقدم.

فالمؤمن العالم بما أنزل الله على رسوله، كالمبصر الذي يرى الطريق، وينجو من الهلاك، والكافر الذي لا يعلم بما أنزل الله، كالأعمى، مطموس البصيرة، يقع في المهالك ﴿أَفَمَنْ يَعْلَمُ أَنَّمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ الْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَى﴾ لا يستوي المؤمن والكافر، ولا يستوي من يعلم الحق بمن لا يعلم، فبينهما فرق كما بين السماء والأرض.

قيل: نزلت هذه الآية في حمزة أو عمار، وأبي جهل، فهل يستويان؟

والآية عامة في كل من عِلِمَ وعمل، ومن أعرض وتولى، فمن يؤمن بالقرآن المنزل على محمد ﷺ، ويعتقد أنه حق وصدق، ويعمل بمقتضاه، لا يستوي بالأعمى عن الحق، وهو الكافر الذي لم يصدق بالقرآن، ولم يؤمن بالله ربًّا، ولا بالإسلام دينًا، ولا بمحمد ﷺ نبيًّا ورسولًا، لا يستويان!

وهذا كقوله تعالى: ﴿لَا يَسْتَوِي أَصْحَابُ النَّارِ وَأَصْحَابُ الْجَنَّةِ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ الْفَائِزُونَ﴾ [الحشر]

ثم مدح سبحانه أهل العلم المنتفعون بعلمهم، فقال سبحانه: ﴿إِنَّمَا يَذْكُرُ أُولُوا الْأَلْبَابِ﴾ إنما ينتفع بالموعظة، ويعتبر بها أصحاب العقول السليمة، فحقيق بالعبد أن يتفكر ويتذكر أي الفريقين أحسن حالًا وخير مآلًا، فيسلك سبيلها كي ينجو يوم لقاء الله.

تِسْعُ صِفَاتٍ لِأُولِي الْأَلْبَابِ وَحُسْنُ عَاقِبَتِهِمْ

٢٠- ﴿الَّذِينَ يُؤْتُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَلَا يَنْقُضُونَ الْعَيْثَ﴾

ثم وصف الله سبحانه أولي الأبواب - وهم أهل السعادة الذين استجابوا لربهم فأطاعوا الله ورسوله - بتسع صفات؛ لنفي المساواة بين المؤمن والكافر، وكلها صفات لموصوف واحد:

الصفة الأولى: ﴿الَّذِينَ يُؤْتُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ﴾

إنهم يوفون بالعهد، والوفاء بالعهد أن يحقق المرء ما عاهد الله عليه من الوعد الموثق والمؤكد، والعهد المذكور في الآية عهد مطلق، يتناول العهد بين العبد وربّه، وبينه وبين الناس، وبينه وبين نفسه، فيجب عليهم الوفاء بجميع هذه العهود.

والتوحيد هو النوع الأول من العهود: فقد عهد الله إلى بني آدم، وهم في أصلاب آبائهم، أن يوحدوه ويطيعوه، ويمثلوا أمره، ويجتنبوا نهيه، قال تعالى: ﴿لَا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ إِنَّهُ لَكُمُ عَدُوٌّ مُبِينٌ﴾ (٢١) وَأَنِ اعْبُدُونِي هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ ﴿٢٢﴾ [يس] وهذا عهد لهم أن يعبدوا الله سبحانه، ولا يعبدوا غيره.

وقد استمر البشر على توحيد خالقهم من لدن آدم إلى نوح، ثم طراً على بعضهم تحريف فاجتالتهم الشياطين، وطراً عليهم الشرك؛ لتفريطهم في النظر في دلائل التوحيد، فكان الشرك بالله نقضاً للعهد مع الله تعالى.

والنوع الثاني من العهود، هو العهد فيما بين الناس وبعضهم من: العقود، والعهود، والمعاملات، والالتزامات، والأمانات، وغير ذلك فيجب الوفاء بها.

والنوع الثالث من العهود، هو العهد فيما بينهم وبين أنفسهم من الأمور التي يلتزمون بها في أنفسهم، ولا يطلع عليها إلا رب العالمين من كل ما هو جائز شرعاً.

قال قتادة: عليكم بالوفاء بالعهد، ولا تنقضوا الميثاق؛ فإن الله قد نهى عنه، وذكره في بضع وعشرين آية، حجة عليكم، ونصيحة لكم، وإنما تُعْظَمُ الأمور بما عَظَّمَهَا اللهُ عند أهل الفهم، وأهل العقل، وأهل العلم بالله، وذكر لنا أن النبي ﷺ كان يقول في خطبته: «لا إيمان لمن لا أمانة له، ولا دين لمن لا عهد له»^(١).

الصفة الثانية: ﴿وَلَا يَنْقُضُونَ أَلَيْتَهُ﴾

وهذه الصفة مؤكدة للأولى، ومحذرة من نقض المواثيق والعهود.

وميثاق التوحيد هو العهد الأكبر، وهذا العهد يتجدد مع رسل الله في كل زمان ومكان، وآخرهم محمد ﷺ.

ونقض المواثيق ضد الوفاء بها، أي: لا يخالفون ما وثَّقوه من العهود المؤكدة بينهم وبين الله، وبينهم وبين الناس، وهذا معنى: ﴿وَلَا يَنْقُضُونَ أَلَيْتَهُ﴾ كالمنافقين الذين إذا

(١) أخرج الإمام أحمد الجزء المرفوع منه من طريق قتادة عن أنس مرفوعاً بإسناد حسن ورجال ثقات، في «المسند» (١٢٣٨٣، ١٢٥٦٧، ١٣١٩٩) وأخرج ابن جرير الجزء الأول منه (٥٠٧٨٣)، وأخرجه ابن أبي شيبه ١١/١١ وعبد بن حمدي (١١٩٨) والطبراني في الأوسط (٢٦٢٧) والبزار في الكشف (١٠٠).

عاهدوا غدروا، وإذا وعدوا أخلفوا، وإذا حدثوا كذبوا، وإذا خاصموا فجروا، وإذا اتتمنوا خانوا.

والميثاق: هو العهد المؤكد، أي: العهد الموثق بالآيمان، وأكبر عهد هو العهد الأول القديم قدم الفطرة، الذي أخذه الله على بني آدم حين استخرج ذريتهم من صلب آبائهم على هيئة الذر، كما جاء في قوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى شَهِدْنَا﴾ [الأعراف: ١٧٢] هذه الشهادة هي مقتضى الإيمان؛ فتوحيد الله تعالى أمر مركوز في الطباع، وموجود في الفطرة، وهو عهد وميثاق أخذه الله سبحانه على بني آدم وهم في أصلاب آبائهم، ومن صفات أولي الألباب أنهم لم ينقضوا هذا الميثاق، وعملوا بمقتضى التوحيد وتوجيه العبادة لله وحده.

الصفة الثالثة: صلة الأرحام ونحوها

٢١- ﴿وَالَّذِينَ يَصِلُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ وَيَخَافُونَ سُوءَ الْحِسَابِ﴾

إنهم يصلون ما أمر الله به أن يوصل، وما أمر الله به أن يوصل شيء عام في جميع الأواصر والعلاقات.

وأولها أصرة الإيمان بدعوة الرسل، والقيام بتكاليف الميثاق المأخوذ على بني آدم من: عبادات، وسلوك، وأخلاق.

ثم ما أمر الله به أن يوصل من: صلة الأرحام، ومن صلة الأقارب والجيران والمحتاجين، وغير ذلك.

واتفق المفسرون على أن صلة الرحم تدخل في الآية دخولاً أولياً.

وفي الحديث القدسي: «قال الله تعالى: أنا الله، وأنا الرحمن خلقت الرحم، وشققت لها اسماً من اسمي، فمن وصلها وصلته ومن قطعها قطعته»^(١).

(١) أخرجه الترمذي عن عبد الرحمن بن عوف برقم (١٩٨٩) وهو في «صحيح سنن الترمذي» (١٥٥٧) و«السلسلة الصحيحة» (٥٢٠).

وعن جبير بن مطعم رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «لا يدخل الجنة قاطع رحم»^(١).

وهذا داخل في معنى: ﴿وَالَّذِينَ يَصِلُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ﴾. فهو أمر عام في كل ما أمر الله بوصله من الإيمان والالتقياد لله ورسوله، وصلة الوالدين ببرهم وعدم عقوبتهم، وصلة الأقارب والأرحام بالإحسان إليهم قولاً وعملاً، بأداء حقوقهم جميعاً كاملة موفورة.

وليس الوصل من باب المكافأة، وليست المعاملة بالمثل، أو رد الجميل، إنما هو الذي يصل ما انقطع من رحمه، فيعفو عمن ظلمه، ويعطي من حرمه، ويصل من قطعه، سيماً القريب الفقير الذي يبغض قريبه، وإلقاء السلام على من بينك وبينه خصومة.

عن عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «ليس الواصل بالمكافئ، ولكن الواصل الذي إذا قُطِعَتْ رحمه وصلها»^(٢).

وصلة الرحم توسع الرزق وتبارك في العمر

عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «من سره أن يُبسط له في رزقه، أو يُنسأ له في أثره فليصل رحمه»^(٣).

الصفة الرابعة: ﴿وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ﴾

إن أولي الأبواب يخشون ربهم خشية تحملهم على امتثال أمره واجتناب نهيه، مع الهيبة والإجلال؛ فهم يراقبونه في السر والعلانية، في ما يفعلون وفي ما يتركون، لا يخافون العباد، ولكن يخشون خالقهم الذي يطلع عليهم في ظلم الليل، وفي وضوح النهار؛ فهو سبحانه رقيب عليم بكل صغيرة وكبيرة، لا تخفى عليه خافية في الأرض ولا في السماء ﴿يَعْلَمُ خَائِنَةَ الْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ﴾ [غافر].

الصفة الخامسة: ﴿وَيَخَافُونَ سُوءَ الْحِسَابِ﴾

إنهم يراقبون ربهم، ويخافون أن يحاسبهم على ذنوبهم ولا يغفر شيئاً منها، وهذا

(١) أخرجه الشيخان عن جبير بن مطعم، البخاري برقم (٥٩٨٤) ومسلم برقم (٢٥٥٦) و«صحيح سنن الترمذي» (١٥٥٩) و«صحيح «سنن أبي داود» (١٤٨٨).

(٢) أخرجه البخاري برقم (٥٩٩١) و«صحيح سنن الترمذي» (١٥٥٨) و«صحيح «سنن أبي داود» (١٤٨٩).

(٣) أخرجه البخاري برقم (٢٠٦٧، ٥٩٨٦) ومسلم برقم (٢٥٥٧).

معنى: ﴿وَيَخَافُونَ سُوءَ الْحِسَابِ﴾ أي: يخافون من الموقف العظيم، ويخافون من مناقشة الحساب يوم القيامة، وأن تُفضح سرائرهم وتظهر أعمالهم على رؤوس الأشهاد، فهم يحاسبون أنفسهم قبل أن يحاسبوا، وهم -لرهبتهم- جادون في طاعة الله، محافظون على حدوده، يخافون من القدوم عليه في يوم الحساب إن تجرؤوا على معاصي الله أو قصرُوا في طاعته.

الصفة السادسة: الصَّبْرُ ابْتِغَاءً وَجْهَ اللَّهِ

٢٢- ﴿وَالَّذِينَ صَبَرُوا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَنفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً وَيَدْرُءُونَ بِالْحَسَنَةِ أُولَٰئِكَ لَمْ يُغَيِّرِ الدَّارَ^(١)﴾

هذه الصفة، وصفتان بعدها، عطفت على ما قبلها بصيغة الماضي؛ لإفادة تحقق هذه الصفات الثلاثة، لأنها أصول لفضائل الأعمال: ﴿وَالَّذِينَ صَبَرُوا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ﴾ أي: صبروا على أداء الطاعات؛ فالعبادات كلها تحتاج إلى صبر، فإذا لم يكن عند المؤمن صبر فليس من أولى الأبواب، إنه لا يصبر على الجلوس في المسجد نصف ساعة مثلاً يصلي النوافل، أو يذكر الله تعالى، أو يجلس في حلقة علم، وإذا لم يكن عند المؤمن صبر فهو لا يطمئن في ركوعه وسجوده، ولا يصبر على قراءة جزء من القرآن مثلاً، ولا يصبر في صيامه، ولا على أداء زكاته، ولا على أداء المناسك في الحج على الوجه المطلوب؛ فالطاعات كلها تحتاج إلى صبر.

وكذا ترك المعاصي والشهوات كلها تحتاج إلى صبر؛ فمن الناس من لا يصبر على ترك نظرة يجدها أمامه في الشارع، ولا يصبر على ترك معصية تنهياً له فرصتها، ولا يصبر على عدم أخذ مال يجده مهياً أمامه وهو مُحَرَّم عليه، وهكذا سائر المحرمات، والمآثم، والذنوب.

فهناك خمسة أنواع من الصبر

١- صبر على أداء الطاعات. ٢- وصبر على ترك الشهوات والمعاصي.

٣- وصبر على الأذى الذي يلاقه الإنسان من الناس.

(١) أمال (الدار) أبو عمرو والدوري والكسائي، وقللها ورش، وفتحها الباقون.

٤- وصبر على قبول الحق من الناس، وعدم المكابرة والعناد فيه.

٥- وصبر على ما يصيب الإنسان من المحن والابتلاءات.

وكل هذا يحتاج إلى صبر، والصبر: منه المحمود، ومنه المذموم.

والقرآن يشير إلى الصبر ابتغاء وجه الله، وهو النوع المحمود من الصبر؛ فيصبر العبد احتساباً وابتغاء لوجه الله تعالى يرجو رحمة الله ويخشى عذابه، ويطلب الأجر منه سبحانه، والصبر المحمود لا بد أن يصحبه الرضا، وعدم السخط، وعدم الجزع. والصبر المذموم هو الذي يكون ضَعْفًا، وقلة حيلة، ليس أمامه طريق آخر؛ فهو يصبر من باب العجز.

ومن الصبر المذموم الذي يصبر عنادًا؛ لثلا يعاب على الجزع، وليقال: إنه بطل وشجاع؛ إذ ليس هذا الصبر ابتغاء وجه الله.

ومن الصبر المذموم الذي يصبر لثلا يشمت فيه الآخرون في أمر من الأمور، فيظهر في هيئة القوي المتماسك، وهو ليس كذلك، وليس كل هذا من باب الصبر المحمود، فشرط الصبر، أن يكون ابتغاء وجه الله، وليس لغرض آخر، وهذا الصبر من خصائص أهل الإيمان. والصبر ملاك استقامة الأعمال، فإذا تحقق الصبر صدرت عنه الحسنات.

الصفة السابعة: ﴿وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ﴾

أي: حافظوا على أداء الصلاة في مواقيتها مع الجماعة بأركانها، وفرائضها، وسننها، وهيئاتها، ونوافلها، وأدائها على الوجه الأكمل، وداوموا على ذلك؛ فإن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر، قال تعالى: ﴿وَأَسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ﴾ [البقرة: ٢٥] وقال سبحانه: ﴿إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ﴾ [العنكبوت: ٤٥].

الصفة الثامنة: ﴿وَأَنفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً﴾

أي: أخرجوا الزكاة، وأخرجوا صدقة التطوع في السر والعلن؛ فالنفقة تشمل الأمرين معًا: الزكاة المفروضة، والصدقة وأعمال البر.

ويُفَضَّلُ في الصدقة أن تكون سرًّا، إلا إذا قصد منها التشجيع والتنافس في مشروع

خيرى، ونحو ذلك، ويُفَضَّل في الزكاة أن تكون جهراً؛ لإعلان هذه الفريضة، ولئلا يُتهم المرء بعدم إخراجها، ويدخل في النفقة: نفقة الأبناء والزوجات والوالدين، ويدخل فيها الكفارات والندور والنفقة المستحبة وصلة الرحم ونحو ذلك.

الصفة التاسعة والأخيرة: ﴿وَيَذَرُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ﴾

أي: إن أولى الألباب في معاملتهم مع الناس يقابلون السيئة بالإحسان، ويدفعون القبيح بالحسن، والأذى بالصبر الجميل والعفو والاحتمال، ويقابلون كل عمل سيئ بعمل وقول صالح، وإذا كان هذا بالنسبة للمسيء فما بالك بغير المسيء؟

وقد عاد السياق إلى صيغة المضارع؛ ليشير إلى التجدد والاستمرار، والحرص الدائم على دفع السيئة بالحسنة، فقال تعالى: ﴿وَيَذَرُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ﴾ أي: يدفعون بالحسنة السيئة فتمحوها، كقوله: ﴿أَدْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ﴾ [فصلت: ٣٤] أي: لا يكن أحدكم شحيح النفس يتعامل مع الناس بالمثل.

ففي الأثر: «إنكم لن تسعوا الناس بأموالكم فسعوهم بأخلاقكم»^(١).

كما بيّن النبي ﷺ في معنى قوله تعالى: ﴿خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ﴾ [الأعراف] من حديث عقبة بن عامر «صل من قطعك، واعط من حرمك، واعف عمن ظلمك»^(٢).

هذه هي أخلاق الإسلام؛ لأن معاملة الند والمثل معاملة شحيحة، وغير كريمة تنبئ عن شخصية غير ممتثلة بالإيمان.

والإسلام فيه درجات للتعامل مع الناس: أدناها كظم الغيظ، ثم العفو عمن أساء، وأعلىها الإحسان إلى المسيء.

قال ابن عباس ؓ: يدفعون بالعمل الصالح العمل السيئ، وهو معنى قوله تعالى: ﴿إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ﴾ [هود: ١١٤]

(١) من حديث أبي هريرة عند البزار بسند حسن كما قال الحافظ في الفتح (٤٥٩/١٠) وحسنه لغيره الألباني في صحيح الترغيب والترهيب (٢٦٦١) وفيه: «ولكن يسعهم منكم بسط الوجه وحسن الخلق».

(٢) السلسلة الصحيحة برقم (٨٩١) وهو بلفظ «أن تعفو عن ظلمك، وتعطي من حرمك، وتصل من قطعك، وتحسن إلى من أساء إليك» ضعيف جداً كما قال الألباني في ضعيف الجامع الصغير عن أنس برقم (٢٥٨٦).

قال: وإذا عملت سيئة فاعمل بجانبها حسنة تمحها، السر بالسر، والعلانية بالعلانية. وجاء في حديث عقبة بن عامر مرفوعاً: «مثل الذي يعمل السيئات ثم يعمل الحسنات، كممثل رجل عليه درع ضيقة قد خنقته، ثم عمل حسنة فانفكت حلقة، ثم عمل أخرى فانفكت حلقة أخرى حتى يخرج إلى الأرض»^(١).
فالمسلمون إذا حُرِّمُوا أعطوا، وإذا ظَلِمُوا عَفُوا، وإذا قُطِعُوا وصلوا، وإذا أذنبوا تابوا، وإذا رأوا منكراً أمروا بتغييره.

وفي الحديث عن أبي ذر ومعاذ بن جبل رضي الله عنهما: أن رسول الله ﷺ قال: «اتق الله حيثما كنت، وأتبع السيئة الحسنة تمحها، وخالق الناس بخلق حسن»^(٢).
فهذه تسع صفات لأولي الألباب يستحقون بمقتضاها حسن العاقبة ﴿أُولَئِكَ﴾ الموصوفون بما ذكر ﴿لَهُمْ عَقَبَى الدَّارِ﴾، والآية التالية فسرت المراد بعقبى الدار:

حُسْنُ الْجَزَاءِ لِمَنْ اتَّصَفَ بِالصِّفَاتِ التَّسْعِ

٢٣- ﴿جَنَّتٌ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا وَمَنْ صَلَحَ مِنْ آبَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ وَالْمَلَائِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِمْ مِنْ كُلِّ بَابٍ﴾^(٣)
وبعد أن بين ﷺ أن المتصفين بالصفات التسع السابقة لهم العاقبة الحسنة، فسر سبحانه هذه العاقبة بأنها ﴿جَنَّتٌ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا﴾ يعني: جنات إقامة، هي مسكنهم في الدار الآخرة، يدخلونها ولا يخرجون منها، بل يستقرون ويخلدون فيها في أواسط الجنة، فيقيمون فيها، ولا يزولون عنها، ولا يحولون، لأنهم لا يرون فوقها غاية.

في صحيح البخاري وغيره عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «... فإذا سألت الله فاسأله الفردوس؛ فإنه أوسط الجنة، وأعلى الجنة، فوقه عرش الرحمن،

(١) أخرجه البغوي بسنده عن عقبة بن عامر عن رسول الله في شرح السنة (٤١٤٩) (وهو في «المسند» برقم (١٧٣٠٧)، بإسناد حسن لأنه من رواية عبد الله بن المبارك وسامعه من ابن أبي عمير قبل احتراق كتبه وباقي رجال الإسناد ثقات، (محققوه) وأخرجه ابن المبارك في الزهد (١٧٠) والطبراني في الكبير ١٧ (٧٨٣).
(٢) رواه الترمذي برقم (١٩٨٧) وقال: حديث حسن صحيح، وحسنه الألباني في صحيح الترغيب والترهيب برقم (٣١٦٠).

(٣) (من كل باب) عدها البصري والشامي والكوفي، وتركها المدنيان والمكي.

ومنه تفجر أنهار الجنة»^(١).

ومن تمام نعمة الله عليهم أن يُلحق بهم الصالحين من: أبائهم، وأبائهم، وأزواجهم من الذكور والإناث، ممن هو أهل لدخول الجنة، بشرط أن يكونوا صالحين لدخولها؛ لأن النسب لا يفيد شيئاً، فهذا ابن نوح لم يُلحق بأبيه، وهذه زوجة نوح لم تُلحق بزوجها، ولذلك فإن الله تعالى يقول: ﴿وَمَنْ صَلَحَ مِنْ آبَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّتِهِمْ﴾ فمن كانت مرتبته في الجنة دون مراتبهم لحق بهم، ومن كانت مرتبته فوق مراتبهم لحقوا هم به؛ إكراماً لهم في الحالين، بأن يجعل سبحانه أصولهم، وفروعهم، وأزواجهم المتأهلين لدخول الجنة معهم، وهذا عكس ما يحدث مع الكفار، كما قال تعالى: ﴿أَخْشَرُوا الَّذِينَ ظَلَمُوا وَأَزْوَاجَهُمْ وَمَا كَانُوا يَعْبُدُونَ﴾ (٢٢) مِنْ دُونِ اللَّهِ فَأَهْدُوهُمْ إِلَى صِرَاطِ الْجَحِيمِ ﴿٢٣﴾ [الصفات] فإن مشاهدة عذاب الأقارب عذاب مضاعف.

وفي هذا بشرى لمن كان له سلف صالح، أو خلف صالح، أو زوج صالح من أصوله وفروعه؛ فترفع درجة الأدنى إلى درجة الأعلى، والقدر المشترك هو الإيمان بأن يكون العبد مؤمناً، ولكنه في درجات أدنى من الآخر، فيلحق بهذه الدرجة الأعلى ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُمْ بِإِيمَانٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ﴾ ولا يترتب على ذلك نقص من حسنات الطرف الآخر، أو درجاته ﴿وَمَا أَلْنَاهُمْ مِنْ عَمَلِهِمْ مِنْ شَيْءٍ﴾ [الطور: ٢١].

والملائكة يدخلون على المؤمنين من أبواب الجنة يهتنونهم بالسلامة، ويقولون لهم:

٢٤- ﴿سَلَامٌ عَلَيْكُمْ بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ﴾ (١٤)

وحين يدخلون الجنة تأتي الملائكة فترحب بهم، وتسلم عليهم، وتهتئهم ﴿وَالْمَلَائِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِمْ مِنْ كُلِّ بَابٍ﴾ وهذا إشارة إلى كثرة أبواب الجنة، وكثرة قدوم الملائكة عليهم، وتقول لهم: لقد سلمتم من كل سوء، وسلمتم من المحن وسلمتم من الآفات بصبركم في الدنيا؛ فقد عملتم صالحاً، وأطعتم الله في الدنيا، ونلتم الجزاء الأوفى في هذا اليوم ﴿سَلَامٌ عَلَيْكُمْ بِمَا صَبَرْتُمْ﴾ على الأذى، وعلى مشاق التكليف، وعلى طاعة الله، وعن

(١) أخرجه البخاري في التوحيد (٧٤٢٣) وأوله (من آمن بالله ورسوله) والجهاد (٢٧٩٠) ورواه أحمد (٣٣٩/١) برقم (٨٤١٩) والترمذي في صفة الجنة (٢٥٣٠).

محارم الله، فلئن تعبتم فيما مضى فقد استرحتم اليوم، وهذه بشرى لهم بدوام السعادة. ومن أوائل من يدخلون الجنة: الفقراء في الدنيا، والضعفاء الذين صبروا على الحاجة، والذين عملوا في صمت من أهل الثغور والمكارة:

عن عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «هل تدرون من أول من يدخل الجنة من خلق الله؟» قالوا: الله ورسوله أعلم، قال: «أول من يدخل الجنة من خلق الله الفقراء المهاجرون، الذين يُسَدُّ بهم الثغور، وتُتَقَى بهم المكارة، ويموت أحدهم، وحاجته في صدره لا يستطيع لها قضاء، فيقول الله تعالى لمن يشاء من ملائكته: اتوهم فحيوهم، فتقول الملائكة: نحن سكان سماواتك، وخيرتك من خلقك، أفأمرنا أن نأتي هؤلاء فنسلم عليهم؟» قال: «إنهم كانوا عبادًا يعبدونني لا يشركون بي شيئًا، وتُسَدُّ بهم الثغور، وتُتَقَى بهم المكارة، ويموت أحدهم وحاجته في صدره، لا يستطيع لها قضاء، قال: فتأتيهم الملائكة عند ذلك، فيدخلون عليهم من كل باب ﴿سَلَامٌ عَلَيْكُمْ بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعَمَ عُقْبَى الدَّارِ﴾»^(١).

وجاء في رواية: «وإن الله يدعو يوم القيامة الجنة، فتأتي بزخرفها وزينتها، فيقول: أين عبادي الذين قاتلوا في سبيلي، وأوذوا في سبيلي، وجاهدوا في سبيلي؟ ادخلوا الجنة بغير عذاب ولا حساب»^(٢).

وهذه الجنة التي هي دار المتقين والفقراء من أولي الأبواب هي العاقبة الحسنة لهم ﴿فَنِعَمَ عُقْبَى الدَّارِ﴾. فحرى بالمؤمن أن يجاهد نفسه لعلها تأخذ بنصيب من صفات أولى الأبواب، فتحظى بسعادة الدارين.

(١) أخرجه أحمد بسنده في «المسند» (١٦٨/٢) برقم (٦٥٧٠) قال محققوه: إسناده جيد، وقال الهيثمي في «مجمع الزوائد» (٢٥٩/١٠): رجاله ثقات، وصححه أحمد شاكر ومحققو «المسند» وأخرجه ابن حبان في «الإحسان» (٤٣٨/١٦) برقم (٧٤٢١) والبخاري (٢٤٥٧) والبيهقي في «الشعب» (٤٢٢٩) والحاكم (٢/٧١) وأبو نعيم في الحلية (٣٤٧/١).

(٢) الطبراني في «الكبير» برقم (١٥٢) والحاكم في «المستدرک» (٧١/٢) بنحوه وقال: هذا حديث صحيح لإسناد ولم يخرجاه ووافقه الذهبي، وابن حبان (٧٣٧٨) والبيهقي في «الشعب» (١٠٣٨٠).

ثَلَاثُ صِفَاتٍ لِأَهْلِ الشَّقَاءِ وَبَيَانُ سُوءِ عَاقِبَتِهِمْ

٢٥- ﴿وَالَّذِينَ يَنْقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ أُولَئِكَ لَهُمُ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ ﴿٢٥﴾﴾

ثم يذكر القرآن الكريم أوصاف أهل الشقاء، ويحدد هذه الأوصاف بثلاثة أمور هي ضد أوصاف أهل السعادة:

الوصف الأول: أنهم ينقضون العهد

أي إنهم لا يوفون بعهد الله تعالى بإفراده بالعبادة بعد أخذ الميثاق عليهم أن يعبدوا الله ولا يشركوا به شيئا، ﴿وَالَّذِينَ يَنْقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ﴾ يعني: أنهم كفروا بالله، ولم يوفوا بعهده، ولم يقرؤا له بالوحدانية ولم يتوجوا له بالعبادة، فلم يعملوا بمقتضى الميثاق المأخوذ عليهم وهم في أصلاب آبائهم، وهو أن يؤمنوا بالله رباً، وبالإسلام ديناً، وبمحمد ﷺ نبياً ورسولاً، بل نقضوا عهدهم مع الله فكفروا به ولم يوحده.

ولم يوفوا بعهودهم أيضاً مع الناس، فنافقوا، وأخلوا بعقودهم وعهودهم في معاملاتهم مع خلق الله تعالى.

ذكر أبو العالية أن المنافقين لهم ست خصال، يظهرونها إذا كان لهم الغلبة على الناس، وهي:

- ١- إذا حدثوا كذبوا.
- ٢- وإذا وعدوا أخلفوا.
- ٣- وإذا ائتمنوا خانوا.
- ٤- ونقضوا عهد الله من بعد ميثاقه.
- ٥- وقطعوا ما أمر الله به أن يوصل.
- ٦- وأفسدوا في الأرض.

وإذا كانوا مغلوبين أظهروا ثلاث خصال من النفاق، وهي:

- ١- إذا حدثوا كذبوا.
- ٢- وإذا وعدوا أخلفوا.
- ٣- وإذا ائتمنوا خانوا^(١).

وقد جعل الله تعالى نقض العهد والميثاق من صفات الفاسقين، فقال تعالى: ﴿وَمَا

(١) «تفسير ابن كثير» (٤/٤٥٣).

يُضِلُّ بِهِ إِلَّا الْفَاسِقِينَ الَّذِينَ يَنْقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ ﴿٢٧﴾ [البقرة: ٢٦، ٢٧].

وقد وصفتهم هذه الآية بالخسران في الدنيا والآخرة، ووصفتهم الآية التي معنا بسوء العاقبة وحلول اللعنة عليهم.

وجاء عن ابن عباس رضي الله عنه أن أكبر الكبائر: الإشراك بالله، ونقض العهد، وقطيعة الرحم.

الوصف الثاني: ﴿وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ﴾

أي إنهم يقطعون ما أمر الله به أن يوصل من: الإيمان بالله، والإيمان برسالات الرسل جميعاً، كل في زمنه، ويقطعون ما أمر الله بوصله من صلة الأرحام، فلم يصلوا ما بينهم وبين ربهم، ولم يصلوا ما بينهم وبين الناس.

والرسالة الأخيرة تنسخ ما قبلها، فالذي آمن بموسى في وقته مطلوب منه حين يأتي عيسى أن يؤمن به، ويترك رسالة موسى؛ لأن رسالته قد انتهت وقتها، وأدت مهمتها في وقت معين، فالذي يظل مؤمناً بموسى في زمن عيسى يكون قد قطع ما أمر الله به أن يوصل؛ لأن رسالات الأنبياء متصلة ببعضها، كل منها يكمل الآخر، حتى كان خاتم الرسل والأنبياء محمد ﷺ، وخاتم الكتب القرآن، ولا صلاحية لأي كتاب، ولا لأي رسالة قبله؛ فالإيمان به ﷺ أمر لا بد منه لكل إنسان على وجه الأرض منذ بعثته ﷺ ﴿وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ [آل عمران: ٨٥].

ومن صفات أهل الشقاء أنهم يقطعون أرحامهم فلا يصلونها، ويقطعون أقاربهم وجيرانهم فلا يصلونهم بالمعاونة والمودة والمحبة، ويقطعون كل ما أمر الله به أن يوصل.

قال ميمون بن مهران: قال لي عمر بن عبد العزيز: لا تؤاخين قاطع الرحم؛ فإنني سمعت الله لعنهم في سورتين من القرآن: في سورة الرعد، وسورة محمد ﷺ ^(١).

الوصف الثالث: ﴿وَيُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ﴾

أي إنهم يفسدون في الأرض: بالشرك، والمعاصي، والكفر، والذنوب والآثام، وظلم

(١) أخرجه أبو الشيخ كما في «الدر المنثور» (٤٣٣/٨).

العباد، وهتك الأعراض، ومحاربة الدعوة ﴿أُولَئِكَ﴾ الموصوفون بهذه الصفات الثلاث القبيحة ﴿لَكُمْ اللَّعْنَةُ﴾ فهم مطرودون ومُبعدون من رحمة الله، ولهم العقاب السيئة بالخلود في نار جهنم، فهي دارهم كما أن عقي الدار دار المؤمنين ﴿وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ﴾ أي: ولهم ما يسوؤهم من العذاب الشديد في الدار الآخرة.

حِكْمَةُ اللَّهِ تَعَالَى فِي بَسْطِ الرِّزْقِ لِلْكَافِرِ

٢٦- ﴿اللَّهُ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ وَيَقْدِرُ وَفَرِحُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا^(١) وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا^(٢) فِي الْآخِرَةِ إِلَّا مَتَاعٌ﴾

لما بين الله سبحانه أن الكافر له سوء الدار، وأنه مغضوب عليه، ينشأ على ذلك سؤال؛ حيث يقول المؤمنون: إن بسط الرزق للكافر في الدنيا من شأنه أن يزيده كفرًا وطغيانًا، كما قال موسى: ﴿رَبَّنَا إِنَّكَ آتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلَأَتْهُ زِينَةً وَأَمْوَالًا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا رَبَّنَا لِيُضِلُّوا عَنْ سَبِيلِكَ﴾ [يونس: ٨٨].

أما الكافرون فيسخرّون من الوعيد، ويحتجون بأنهم أوفر نعمة من المؤمنين، ويقولون: هذا دليل رضى الله عنهم في الدنيا والآخرة، ولو لم يكونوا على صواب لما كانوا في هذا الجاه والمتاع^(٣).

وتأتي هذه الآية للرد على هذا الاعتراض من الفريقين؛ فبين سبحانه أن الفقر والغنى بيد الله، وأن العطاء لا يعني الرضى عن العبد، والمنع والحرمان لا يعني السخط على العبد؛ فقد يسط الله الرزق لمن كان كافرًا، ويُقتره على من كان مؤمنًا، ولا يدل البسط في الرزق على الكرامة، ولا التضييق فيه على الإهانة، وقد بين سبحانه أن الكافر هو الذي يرى هذا المفهوم، قال تعالى: ﴿فَأَمَّا الْإِنْسَانُ إِذَا مَا ابْتَلَاهُ رَبُّهُ فَأَكْرَمَهُ وَنَعَّمَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَكْرَمَنِ^(٥) وَأَمَّا إِذَا مَا ابْتَلَاهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَهْنَنِ^(٦)﴾ [الفجر: ١٥-١٧]

وهو يظن أن سعيد الدنيا سعيد الآخرة فيقول: ﴿وَلَكِنْ رُّدِدْتُ إِلَىٰ رَبِّي لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِنْهَا مُنْقَلَبًا﴾ [الكهف: ٣٦] ويقول: ﴿وَلَكِنْ رُّجِعْتُ إِلَىٰ رَبِّي إِنَّ لِي عِنْدَهُ لَلْحُسْنَىٰ﴾ [فصلت: ٥٠].

(١) ، (٢) أمال لفظ (الدنيا) حيث وقع في القرآن حمزة والكسائي وخلف، وقلها أبو عمرو، وورش بخلفه.

(٣) يُنظَر: «تفسير التحرير والتنوير» (١٣/١٣٤) بتصرف .

وعلى هذا فقد يقول قائل: نحن نرى أن الكافر أكثر حظًا، وأوسع رزقًا، وأكثر متاعًا، فكيف يكون هذا؟ يقول سبحانه في الإجابة على ذلك: ﴿اللَّهُ يَسُطُّ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ وَيَقْدِرُ﴾ أي: يوسعه على من يشاء، ويضيّقه على من يشاء، وهو أعلم بما يصلح العباد، وله في ذلك حكم.

والله سبحانه يفعل هذا بالنسبة للكافر؛ لأنه يأخذ متاعه كاملاً في الدنيا؛ فالدنيا سجن المؤمن وجنة الكافر، ولا حظّ له في الآخرة، فإن كان يعمل بعض أعمال الخير والبر، فإنه يثاب عليها في الدنيا؛ لأن الكفر لا يفيد معه عمل صالح يثاب عليه في الآخرة.

ثم بيّن سبحانه أن الكفار مسرورون بالتوسعة عليهم في الدنيا، وهم لا يعلمون أنه متاع زائل، فقال تعالى: ﴿وَفَرَحُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ حيث بيّن سبحانه أن نعيم الدنيا قليل جداً بالنسبة لنعيم الآخرة، فقال: ﴿وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا مَتَعٌ﴾ أي: أن من صفات الكافر أنه يفرح بمتاع الدنيا فرح بطر وأشر، فيتعالى على الناس ويتكبر، ولا يدرى أنه متاع دنيوي، وظل زائل، وهذا يشمل كل من لم يؤمن بالله ورسوله واليوم الآخر.

فقد يوسّع الله الرزق على الكافر استدراجاً، وقد يضيق على المؤمن ابتلاءً، ورفعاً للدرجات، وقلة المال في الدنيا يتبعه قلة الحساب يوم القيامة عن المصدر والمورد، قال تعالى: ﴿أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُم بِهِ مِنْ مَّالٍ وَنَبِيٍّ ﴿٥٥﴾ تُكَارِبُ لَهُمْ فِي الْخَيْرَاتِ بَلْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٥٦﴾﴾ [المؤمنون].

وقد فضل النبي ﷺ ما عند الله تعالى من الجزاء الأخروي على أن تكون له جبال مكة ذهبًا، وهذه هي آيات القرآن ناطقة بهذا، كما قال تعالى: ﴿ثَلَمَ مَنَعُ الدُّنْيَا قَلِيلٌ وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ لِّمَنِ اتَّقَى وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا﴾ [النساء: ٧٧]

وقال سبحانه: ﴿بَلْ تُؤْثِرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ﴿١٦﴾ وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَى ﴿١٧﴾﴾ [الأعلى].

وفي الحديث عن المستورد بن مخرمة ؓ أن النبي ﷺ قال: «ما الدنيا في الآخرة إلا كمثل ما يجعل أحدكم إصبعه هذه في اليم فلينظر بم ترجع؟»^(١) وأشار إلى السبابة.

(١) «صحيح مسلم» برقم (٢٨٥٨) من حديث المستورد أخى بني فهر ورواه أحمد في «المسند» (٢٢٨/٤)

(١٨٠٠٨، ١٨٠٢٠) والترمذي (٢٣٢٣) وابن ماجه (٤١٠٨) والنسائي في الكبرى كما في التحفة (٢٧٦/٨)

وابن ماجه (٤١٠٨) والحميدي (٨٥٥).

وقد مر النبي ﷺ بِجِدِّي أَسَكَّ، أي: صغير الأذن، لا يرغب الناس فيه، ثم قال: «والله للدنيا أهون على الله من هذا على أهله حين ألقوه»^(١).

وقد كان النبي ﷺ مثلاً يُحتذى في عدم التعلق بالدنيا:

عن عبد الله بن مسعود ؓ قال: نام رسول الله ﷺ على حصير، فقام وقد أثر في جنبه، فقلنا: يا رسول الله، لو اتخذنا لك وطاء، فقال ﷺ: «ما لي وللدنيا؟! ما أنا في الدنيا إلا كراكب استظل بشجرة، ثم راح وتركها»^(٢).

قال ابن عباس ؓ في قوله تعالى: ﴿وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا مَتَاعٌ﴾ كان الرجل يخرج في الزمان الأول في إبله أو غنمه، فيقول لأهله: متّعوني، فيمتّعوه فلقه الخبز أو التمر، فهذا مثل ضربه الله للدنيا^(٣).

ضَلَالُ الْمُعَانِدِينَ وَهِدَايَةُ الْمُنِيبِينَ

٢٧- ﴿يَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ قُلْ إِنَّ اللَّهَ يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ أَنْابَ﴾

ولما كانت الآيات السابقة تتحدث عن السعداء والأشقياء فقد بينت هذه الآية في نصفها الثاني، أسباب الشقاء، وأسباب السعادة، بعد إعادة صُدر الآية لأهميته.

فقد أبهم، سبحانه، أسباباً خفية يعلمها الله تعالى، طواها تحت المشيئة وعلّق عليها ضلال أهل الشقاء.

وبين سبحانه أن سبب هداية أهل السعادة هو الإنابة والرجوع إلى الله تعالى.

وتتمثل هذه الإنابة في الاعتراف بالحق الذي جاء من عند الله تعالى على لسان محمد ﷺ عندما ظهرت دلائله، وفي هذا تعريض بأن سبب ضلال أهل الشقاء هو عدم الإنابة إلى الله تعالى، وعدم الإيمان بمحمد ﷺ مع وضوح الدلائل على صحة نبوته.

(١) رواه مسلم في صحيحه برقم (٢٩٥٧) من حديث جابر رضي الله عنه.

(٢) أخرجه الترمذي وصحّحه (٢٣٧٧) وهو في «صحيح سنن الترمذي» (١٩٣٦) وأخرجه الحاكم (٤/٣١٠)، وصحيح ابن ماجه (٤١٠٩).

(٣) أخرجه ابن أبي حاتم كما في «الدر المشور» (٨/٤٣٣).

فسبب الشقاء هو النفور من الحق، وعدم الرجوع إليه، والإعراض والتكبر عن دعوة النبي ﷺ، ولو أنهم أذعنوا، وأنابوا لهداهم الله تعالى، ولكنهم نفروا وابتعدوا عن الحق.

أما نصف الآية الأول فهو يتحدث عن تعنت المكذبين في طلب الآيات الخارقة للعادة من النبي ﷺ للدلالة على صدقه.

وقد كانت آيات صدق النبي ﷺ واضحة وكافية لإيمانهم، لولا أن عقولهم لم تدركها، فقد كان مطلبهم هو الآيات الحسية، ولم يدركوا أن هذه الآيات كانت لأمم أخرى رأوها ولم يؤمنوا بها، وهكذا فالمكذبون لم يكتفوا بالقرآن معجزة لرسول الله ﷺ ﴿أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ﴾ [العنكبوت: ٥١]

ولم تكنهم الآيات الأخرى التي أيد الله بها رسوله؛ كانشقاق القمر، ونبع الماء من بين أصابعه، وغير ذلك من آيات ظهرت للصحابة ورأوها بأعينهم.

وقالوا: لولا أنزل على محمد آية غير القرآن، وغير انشقاق القمر؛ كالعصا واليد معجزة موسى، أو كإحياء الموتى معجزة عيسى، أو كالناقة، معجزة صالح، والله سبحانه يعلم أنه لو أنزل عليه هذه الآيات ما نفعتهم وما آمنوا؛ لأن الله تعالى قد علم منهم ذلك، كما قال تعالى: ﴿وَمَا مَنَعَنَا أَنْ نُرْسِلَ بِالْآيَاتِ إِلَّا أَنْ كَذَّبَ بِهَا الْأَوَّلُونَ﴾ [الإسراء: ٥٩] وقال سبحانه: ﴿وَمَا تُغْنِي الْآيَاتُ وَالنُّذُرُ عَنْ قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [يونس: ١٠١].

وقال جل شأنه: ﴿إِنَّ الَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ ۖ وَلَوْ جَاءَتْهُمْ كُلُّ آيَةٍ حَتَّىٰ يَرَوْا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ ۖ﴾ [يونس].

وقال عز وجل: ﴿وَلَوْ أَنَّا زَلَلْنَا إِلَيْهِمُ الْمَلِئِكَةَ وَكَلَّمَهُمُ الْمَوْتُ وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَيْءٍ قُبُلًا مَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ﴾ [الأنعام: ١١١].

وفي الحديث عن ابن عباس ؓ: أن الله تعالى أوحى إلى رسوله ﷺ لما سأله أن يحول لهم الصفا ذهباً، وأن يجري لهم ينبوعاً، وأن يزيل جبال مكة، ويجعلها بساتين ومروجاً كما طلبوا: «فإن كفروا فإنني أعذبهم عذاباً لا أعذبه أحداً من العالمين، وإن شئت فتحت عليهم باب التوبة والرحمة، فقال: بل تفتح لهم باب التوبة والرحمة»^(١).

(١) أخرجه أحمد في «المسند» عن ابن عباس (١/ ٢٤٢).

ولما قال المكذبون ﴿لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِّن رَّبِّهِ﴾ وهم يزعمون أنها لو جاءت لآمنوا، فأجابهم الله تعالى بقوله ﴿قُلْ إِنَّ اللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَن أَنَابَ﴾.

فالهداية والضلال ليست بأيديهم حتى يجعلوا ذلك متوقفا على الآيات .

والله تعالى لا يضل إلا من من اختار الضلال لنفسه، قال تعالى: ﴿وَمَا يُضِلُّ بِهِ إِلَّا الْفَاسِقِينَ﴾ [البقرة: ٢٦]

ولا يهدي إلا من اختار الهدى لنفسه، قال تعالى: ﴿يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلَامِ﴾ [المائدة: ١٦]

فمن أناب إلى الله ورجع إليه فإن الله يهديه، قال تعالى: ﴿وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنِ أَنَابَ﴾.

ومعنى الآية: ويقول الكفار على سبيل العناد والجحود: هَلَّا أُنْزِلَ عَلَى مُحَمَّدٍ مَعْجَزَةٌ مَحْسُوسَةٌ؛ كإحياء الموتى، وتحويل جبل الصفا ذهبًا، قل لهم -يا محمد- متعجبًا من شدة ضلالهم: إن الله يضل المعاندين الجاحدين عن الهداية، فلا تنفعهم المعجزات ولا غيرها، والله تعالى يهدي إلى دينه من رجع إليه، وطلب رضوانه بالتوبة والإنابة.

عَلَّاجُ الْقَلْقِ وَالْاِكْتِنَابِ

٢٨- ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ اللَّهِ أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ﴾

ذِكْرُ اللَّهِ فِي هَذِهِ آيَةٍ قَدْ يُرَادُ بِهِ تِلَاوَةُ الْقُرْآنِ وَالتَّسْبِيحِ وَالتَّحْمِيدِ وَالتَّهْلِيلِ وَالتَّكْبِيرِ، وَقَدْ يُرَادُ بِهِ مَا اشْتَمَلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ مِنَ الْمَعَانِي وَالْأَحْكَامِ وَالْأَدْلَةِ وَالْبَرَاهِينِ، وَالْعِلْمُ الْيَقِينِي الَّذِي يَزِيلُ التَّعَارُضَ وَالشُّكُوكَ، وَيُرَادُ بِهِ الْهُدَايَةُ وَالْإِنَابَةُ وَطُرُقُ الرِّشَادِ.

وهكذا فَسَّرَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى الَّذِينَ أَنَابُوا إِلَى رَبِّهِمْ بِالْمُؤْمَنُونَ، الَّذِينَ تَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ اللَّهِ، وَعَلَى ضَوْءِ آيَةِ السَّابِقَةِ، فَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَ النَّاسَ كُلَّهُمْ مُؤْمِنِينَ جَبْرًا وَقَسْرًا، وَلَكِنَّهُ سُبْحَانَهُ تَرَكَ لَنَا الْحَرِيَّةَ وَالْخِيَارَ، وَجَعَلَ الْجَنَّةَ لِمَن أَطَاعَهُ، وَالنَّارَ لِمَن زَاغَ قَلْبُهُ عَنِ الْإِيمَانِ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَمَا يُضِلُّ بِهِ إِلَّا الْفَاسِقِينَ﴾ [البقرة: ٢٦] وَقَالَ:

﴿فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ﴾ [الصف: ٥]

فالهداية تكون لمن أناب ورجع إلى ربه، والذين أنابوا إلى ربهم هم ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ اللَّهِ﴾ هم الذين يخشون ربهم إذا استمعوا إلى القرآن أو قرؤوه، وتخشع قلوبهم إذا ذكر الله في الصلاة وخارجها، كما قال تعالى: ﴿اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُتَشَابِهًا مَثَابًا يَفْشَعُ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ اللَّهِ﴾ [الزمر: ٢٣].

وذكر الله باللسان ينبه القلب إلى مراقبة الله تعالى، قال تعالى: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا﴾ [الأنفال: ٢].

وقال: ﴿إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ﴾ [العنكبوت: ٤٥].

فراحة النفوس، والسكينة والطمأنينة تكون بذكر الله تعالى، وعلاج القلق والاكتئاب والاضطراب النفسي، وتشتيت الذهن يكمن في ذكر الله تعالى والركون إليه، فإذا علمتم سبب راحة بال المسلم فماذا يمنعكم أن تكونوا مثله، وهذا السبب في تناول أيديكم؟! ومن استغرق في ذكر الله تعالى: بتلاوة القرآن، وألوان التسبيح والتحميد والتهليل، أغناه ذلك عن مراجعة العبادات النفسية، وتناول العقاقير الطبية.

أما الكافر فهو يشمئز من ذكر الله تعالى: ﴿وَإِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَحْدَهُ اشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ﴾ [الزمر: ٤٥] ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا إِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ﴾ [الصافات: ٢٥] ألا بطاعة الله وذكره تطمئن قلوب المؤمنين، والذين لم تطمئن قلوبهم بذكر الله، لا يعدون القرآن آية من آيات الله ﴿قَوْلٌ لِلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ مِّنْ ذِكْرِ اللَّهِ﴾ [الزمر: ٢٢]. قال تعالى:

٢٩- ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ طُوبَىٰ لَهُمْ وَحَسَنُ مَّا فِي مَثَابِ ۖ﴾

وقد أعد الله للمؤمنين بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر، المنزلة العالية، والدرجة الرفيعة يوم لقاء رب العالمين.

قيل: إن طوبى: اسم للجنة، وقيل: إنها شجرة في الجنة.

وجاء في الصحيحين عن سهل بن سعد رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «إن في الجنة شجرة يسير الراكب في ظلها مائة عام لا يقطعها»^(١).

ذكر ذلك البخاري وغيره عند تفسير قوله تعالى: ﴿وَلَا يَمْلِكُ الَّذِينَ يَدْعُونَكَ لِيُسَمِعَهُمْ﴾ في سورة الواقعة.

وعقولنا مخلوقة محدودة لا تحيط بهذا الكون العظيم، وليس لنا أن نحكمها في الغيبات.

والمعنى: إن المؤمنين الذين تزودوا بالعمل الصالح لهم عند ربهم في الآخرة عيش طيب، وخير وفير، وثواب جزيل، وفرح وسعادة، وقرة عين، ومرجع حسن يرجعون به إلى ربهم وخالقهم، ولهم في الجنة ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر.

جاء في الصحيح عن أبي هريرة وأبي سعيد رضي الله عنهما أنه يقال لآخر أهل الجنة دخولاً: «تمنّ، فيتمنى حتى إذا انتهت به الأمانى، يقول الله تعالى له: تمنّ كذا وتمنّ كذا، يذكّره، ثم يقول: ذلك لك وعشرة أمثاله»^(٢).

وعن أبي ذر رضي الله عنه، عن رسول الله ﷺ فيما يرويه عن ربه ﷻ: «يا عبادي، لو أن أولكم وآخركم، وإنسكم وجنكم قاموا في صعيد واحد، فسألوني فأعطيت كل إنسان مسألته ما نقص ذلك من ملكي شيئاً، إلّا كما ينقص المخيط إذا أدخل البحر»^(٣).

مُحَمَّدٌ خَاتَمُ الرُّسُلِ وَمُعْجَزَتُهُ صَالِحَةٌ إِلَى قِيَامِ السَّاعَةِ

٣٠- ﴿كَذَلِكَ أَرْسَلْنَاكَ فِي أُمَّةٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهَا أُمَمٌ لِّتَبَيَّنَ لَكَ الَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِالرَّحْمَنِ قُلْ هُوَ رَبِّي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ مَتَابِ﴾^(٤)

ثم يأتي الرد على طلب المشركين من الرسول ﷺ أن ينزل عليهم آية محسوسة بأن رسالة محمد ﷺ ليست بدعاً من الرسل، كما قال تعالى: ﴿قُلْ مَا كُنْتُ بِدْعًا مِّنَ الرُّسُلِ﴾ [الأحقاف: ٩]، فلا يحق لهم أن يستنكروا ما جئت به من آيات بينات أوحاها الله إليك،

(١) البخاري برقم (٦٥٥٢) ومسلم برقم (٢٨٢٧) من حديث سهل بن سعد.

(٢) «صحيح البخاري» برقم (٦٥٧٣) و«صحيح مسلم» برقم (١٨٢) عن أبي هريرة وأبي سعيد.

(٣) من حديث طويل أخرجه مسلم برقم (٢٥٧٧).

(٤) قرأ يعقوب بإثبات الياء وصلّاً ووفقاً من (متاب)، والباقون بحذفها في الحالين، ومثلها (عقاب) في الآية: (٣٢).

لطهارة القلوب وتزكية النفوس .

وقد كانت معجزات الرسل السابقين معجزات حسية مناسبة لزمن الرسالة، أما معجزة هذا النبي فهي القرآن ﴿أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ﴾ [العنكبوت: ٥١].

وفي الحديث عن أبي هريرة ؓ أن النبي ﷺ قال: «ما من الأنبياء من نبي إلا قد أعطي من الآيات ما مثله آمن عليه البشر، وإنما كان الذي أوتيت وحياً أوحى الله إليّ فأرجو أن أكون أكثرهم تابعاً يوم القيامة»^(١).

والآيات التي تشير إلى تكذيب الرسل السابقين من أمهم كثيرة، منها:

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَذَّبْتَ رَسُولٌ مِّن قَبْلِكَ فَصَبْرُوا عَلَىٰ مَا كُذِّبُوا وَأَوْدُوا حَتَّىٰ أَنَّهُمْ نَصَرُوهُ﴾ [الأنعام: ٣٤].

وقوله: ﴿ثُمَّ أَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ فَزَيَّنَّا لَكُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ﴾ [النحل: ٦٣].

فمحمد ﷺ قد سبقه رسل كثيرون، وسبقت أمته أمم كثيرة، أرسل الله فيهم رسلاً، وأنزل فيهم كتباً، وأيد الرسل بمعجزات دالة على صدق رسالتهم.

وهذا معنى ﴿كَذَلِكَ أَرْسَلْنَاكَ فِي أُمَّةٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ أُمَمٌ﴾ أي: كما كان قبلك -يا محمد- أمم كثيرة، أرسل الله إليهم رسلاً كثيرين، أرسلناك في هذه الأمة، لتتلو على مسامعهم هذا القرآن الذي أوحيناه إليك، وحال قومك الجحود بوحدانية الله تعالى، فهم مع ذلك يكفرون بالرحمن، ولم يقابلوا إحسانه إليهم بهذه الرسالة، بالقبول والشكر، وإنما قابلوها بالإنكار والرفض، ولم يعتبروا بما حدث للأمم المكذبة لرسل الله.

وعند ما قيل لمشركي مكة: اسجدوا للرحمن، قالوا: وما الرحمن؟ أنسجد لما تأمرنا؟ وزادهم نفوراً.

ولما سمع أبو جهل رسول الله ﷺ يدعو في الكعبة عند الحجر يقول: «يا الله، يا رحمن» رجع إلى المشركين يقول لهم: إن محمداً يدعو إلهين: يدعو الله، ويدعو إلهاً آخر يُسمَّى الرحمن، ولا نعرف إلا رحمن الإمامة، يقصدون مسيلمة الكذاب.

(١) يُنظر: «صحيح البخاري» برقم (٤٩٨١) و«صحيح مسلم» برقم (١٥٢) من حديث أبي هريرة.

ولما أُملى النبي ﷺ في صلح الحديبية على علي بن أبي طالب ﷺ أن يكتب بسم الله الرحمن الرحيم؛ قالوا: لا نعرف إلا رحمن اليمامة اكتب كما نكتب، باسمك اللهم^(١).

﴿وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِالرَّحْمَنِ قُلْ﴾ لهم - يا محمد: الرحمن الذي أنكرتم معرفته ﴿هُوَ رَبِّي﴾ الذي رباني بنعمه، وهو إلهي الذي أعبدته، وأتوكل عليه ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾.

وقد جمعت هذه الفقرة من الآية بين توحيد الربوبية في ﴿رَبِّي﴾ وتوحيد الالهية في ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ مَتَابُ﴾ عليه أعتمد، وبه أثق، ولا أعبد إلها غيره، وإليه أتوب وأرجع، وفي هذا إبطال لكفرهم.

قال تعالى: ﴿قُلِ ادْعُوا اللَّهَ أَوْ ادْعُوا الرَّحْمَنَ أَيًّا مَا تَدْعُوا فَلَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى﴾ [الإسراء: ١١٠].

وعن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال: «إن أحب أسمائكم إلى الله: عبد الله وعبد الرحمن»^(٢).

فلتحذر هذه الأمة من حلول النقم بها إذا كذبت رسولها، كما حدث لمن قبلهم، والمراد بالأمة في الآية: أمة الدعوة، لا أمة الإجابة.

الْقُرْآنُ هُوَ الْمُعْجَزَةُ الْكُبْرَى

٣١- ﴿وَلَوْ أَنَّ قُرْآنًا^(٣) سُيِّرَتْ بِهِ الْجِبَالُ أَوْ قُطِعَتْ بِهِ الْأَرْضُ أَوْ كُفِّرَ بِهِ الْمَوْتُ بَلْ لِلَّهِ الْأَمْرُ جَمِيعًا أَفَلَمْ يَأْتِ الْذِينَ ءَامَنُوا أَنْ لَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَهْدَى النَّاسَ جَمِيعًا وَلَا يَزَالُ الَّذِينَ كَفَرُوا تُصِيبُهُمْ بِمَا صَنَعُوا قَارِعَةٌ أَوْ تَحُلُّ قَرِيبًا مِّن دَارِهِمْ حَتَّى يَأْتِيَ وَعْدُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُخْلِفُ الْمِيعَادَ﴾^(٤)

ولا يزال الرد موصولاً على الكافرين الذين طلبوا من النبي ﷺ معجزات حسية، للرد عليهم بأن هذا القرآن هو المعجزة الكبرى الباقية في أيدي البشر إلى قيام الساعة، أما المعجزات الكونية فلو رآها جيل لم يرها جيل آخر.

(١) قصة صلح الحديبية في «صحيح البخاري» برقم (٢٧٣٢).

(٢) «صحيح مسلم» برقم (٢١٣٢).

(٣) نقل حركة الهمزة إلى الراء من كلمة (قرآنًا) ابن كثير هكذا (قُرْآنًا).

(٤) قرأ البري بخلف عنه بجعل الهمزة في موضع الياء من (يأس) وإبدالها ألفاً فيقرأها هكذا (يأس).

سبب النزول:

ذكر الطبري، والواحدي، وابن مردويه، وغيرهم عن ابن عباس رضي الله عنهما أن كفار قريش: أبا جهل، وابن أبي أمية، وغيرهما، جلسوا خلف الكعبة، وأرسلوا للنبي ﷺ يقولون له: لو وسَّعت لنا جبال مكة فسيرتها حتى تتسع أرضنا، فنحرثها فإنها ضيقة، أو قربت إلينا الشام فإننا نتجر إليها، أو أخرج لنا قُصيًا نكلّمه، فأنزل الله الآية^(١).

وفي مسند أبي يعلى عن الزبير بن العوام رضي الله عنه أن قريشًا قالوا للنبي ﷺ: تزعم أنك نبي، وأن سليمان سُخِّرَ له الريح، وموسى سُخِّرَ له البحر، وعيسى كان يُحيي الموتى، فادع الله أن يُسيرَ عنا هذه الجبال، ويفجر لنا الأرض أنهارًا، فتخذها محارث ومزارع، وإلا فادع الله أن يحيي لنا موتانا فنكلّمهم ويكلّمونا...^(٢).

فكان الرد عليهم بهذه الآية: ﴿وَلَوْ أَنَّ قُرْآنًا يُقْرَأُ فَتَزُولَ بِهِ الْجِبَالُ عَنْ أَمَاكِنِهَا، أَوْ تَشَقَّ بِهَ الْأَرْضُ أَنْهَارًا وَجَنَانًا وَبَسَاتِينَ، أَوْ يَحْيَا بِهِ الْمَوْتَى وَتَكَلِّمَهُمْ كَمَا طَلَبُوا؟ وَالْجَوَابُ: لَكَانَ هَذَا الْقُرْآنُ هُوَ الْمُتَصِفُ بِذَلِكَ دُونَ غَيْرِهِ، وَلَوْ حَدَثَ هَذَا لَمَّا آمَنُوا، وَلَمْ يَثْبُتْ ذَلِكَ لَغَيْرِهِ مِنَ الْكُتُبِ، وَتَخْصِيصُ هَذِهِ الثَّلَاثَةِ بِالْإِشَارَةِ إِلَى سَبَبِ النَّزُولِ سَالِفِ الذِّكْرِ.

فلو ثبت أن كتابًا من الكتب المنزلة سُيِّرَ به الجبال؛ بسبب قراءته وتلاوته، وترتب على نزوله زحزحة الجبال وإزالتها عن أماكنها، أو قُطِّعت به مسافات الأرض، فثقلت من مكان إلى مكان، وفُجِّرَتْ أنهارًا وعيونًا، أو كُلِّمَ به الموتى فأحياهم، لو ثبت هذا لكتاب من الكتب لكان هذا القرآن أولى بذلك، فهو أفضل الكتب وأكملها ولو حدث كل هذا ما آمتم، وما أثمر ذلك في قلوبكم.

(١) جاء هذا المعنى بسند صحيح عن مجاهد في «تفسير الطبري» (١٣/٥٣١) والطبراني (١٢٦١٧) والضياء المقدسي في «المختارة» (٥٥٦/٩).

(٢) «مجمع الزوائد» (٧/٨٥) وأبو يعلى (٦٧٩) قال محققه: إسناده ضعيف وأخرجه أيضًا ابن مردويه كما في «تخريج الكشاف» (٢/١٩٠).

ولكن الكتب التي نزلت من عند الله لم تشتمل على أكثر من هداية البشر، وليست منزلة لإيجاد العجائب، والقرآن كذلك نزل لهداية الخلق، وإخراجهم من الظلمات إلى النور، ومهمته الإنذار والتبشير.

فالله، سبحانه، يعلم أن طلب الآيات الخارقة من رسول الله ﷺ لا تفيدهم شيئاً، ولا تجعلهم يؤمنون، ولو كان يترتب على مجيئها إيمانهم لفعل سبحانه، ولو أجابهم الله إليها، ولم يؤمنوا، لفعل بهم كما فعل بالأمم السابقة من الإهلاك، والإبادة والعذاب.

ثم قال سبحانه: ﴿بَلِ لِلَّهِ الْأَمْرُ جَمِيعًا﴾ أي: ليس ما طلبتم من تسيير الجبال وتكليم الموتى، شأن الكتب المنزلة، بل الله هو الذي يخلق العجائب، وهو الذي يأتي بالخوارق، وليس هذا مما يستطيعه النبي ﷺ.

والجواب المذكور في قوله تعالى: ﴿بَلِ لِلَّهِ الْأَمْرُ جَمِيعًا﴾ معناه: إن شاء الله فعل، وإن شاء لم يفعل، وإن شاء أتى بالمعجزات وغيرها؛ فما شاء الله كان، وما لم يشأ لم يكن.

ثم يأس الله المؤمنين من إيمان الكافرين، فأشار إلى أنه لو شاء سبحانه لجعل الناس جميعاً مهتدين كالملائكة، ولكن حكمته سبحانه اقتضت أن يخلق خلقاً آخر، غير الملائكة، فيهم استعداد للخير والشر، وكلٌ يختار طريقه بنفسه، فقال سبحانه: ﴿أَفَلَمْ يَأْتِئِصَ الَّذِينَ ءَامَنُوا أَن لَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَهْدَىٰ لِلنَّاسِ جَمِيعًا﴾ أي: أفلم يقنط المؤمنون من إيمان الكفار، ويقطعوا الأمل من ذلك؟ فإنهم قد اختاروا الكفر طريقاً لهم، ولا فائدة من إنذارهم ووعظهم.

أفلم يعلم المؤمنون، ويتيقنوا أن الكفار لا فائدة فيهم، وأنهم لن يؤمنوا؟

ثم حذر سبحانه الكافرين من التماذي في كفرهم، فقال سبحانه: ﴿وَلَا يَزَالُ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ بالله، وكفروا برسول الله، تنزل بهم مصيبة في عثر دأرهم، أو تحل قريباً منهم ومن غيرهم إلى قيام الساعة، وهذا وعيد الله تعالى لأهل الكفر والضلال بنزول العذاب.

وفي هذا تهديد ووعد لهم لعدم إيمانهم، وفي مقدمتهم من كانوا في عهد النبي ﷺ، ثم مَنْ هم في عصرنا، وفي كل عصر من العصور السابقة واللاحقة؛ وهذا التهديد لثلاث صيبيهم قارعة في الدنيا بسبب ذنوبهم وشركهم وكفرهم؛ كالقتل، والأسر، أو تحيط بهم في عُقر دارهم داهية، أو طامة، أو نكبة فتزل على مقربة منهم.

وتسمى المصيبة قارعة؛ لأنها تفرع أسماعهم وتُقلق بالهم، وهذه الدواهي والمصائب، أو هذه النكبات حاصلة ومتجددة لأعداء الله تعالى في الدنيا، ولعذاب الآخرة أشد وأبقى.

فاليهود مثلاً يعيشون اليوم بين المسلمين في خوف مستمر، يعيشون في قلق ورعب، وعدم أمن واستقرار، فهذه قارعة حالة بهم من الله سبحانه، وليس هناك ما هو أعظم من عدم الأمن وعدم الاستقرار، فهم في توقع للانفجارات، وتوَجُّس من الملاحقات، وترَبُّص مستمر، وخوف دائم من الحروب، ولا تزال هذه الحالة قائمة ﴿حَتَّى يَأْتِيَ وَعْدُ اللَّهِ﴾ بعذابهم أئى: أن هذا الوضع مستمر إلى يوم القيامة، أو أن يفتح الله على المؤمنين بالنصر، وبالقوة، وبالغلبة، بعد أن يغيروا ما بأنفسهم، فيغيّر الله أحوالهم.

فالمراد بوعد الله: قيام الساعة، أو الفتح والنصر للمؤمنين، والكلام يعم كل من كفر بالله، ولم يؤمن برسول الله محمد ﷺ، وكذب بهذا القرآن.

ولفظ ﴿وَلَا يَزَالُ﴾ يفيد الدوام والاستمرار، والله لا يخلف الميعاد.

﴿فَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ مُخْلِفَ وَعْدِهِ رُسُلَهُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ ذُو انْتِقَامٍ﴾ [إبراهيم].

وقد حدث لأهل مكة أن ابتلاههم الله بسبع سنوات من الجوع والقحط، وهزموها في غزوة بدر، وفتح مكة بسبب كفرهم بخاتم الرسل ﷺ.

وَعِيدُ الْمُكَذِّبِينَ بِخَاتَمِ الرُّسُلِ ﷺ

٣٢- ﴿وَلَقَدْ أَهْنَتْ رُسُلِي مِنْ قَبْلِكَ فَاَمَلْتُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا ثُمَّ أَخَذْتَهُمْ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ﴾

(١) قرأ أبو عمرو وعاصم وحزمة ويعقوب بكسر الدال وصلًا من (ولقد استهزئ)، والباقون بضمها.

(٢) وقرأ أبو جعفر بإبدال الهمزة من (استهزئ) ياء مفتوحة وصلًا، ساكنة وقفًا، ويقف عليها حمزة بالتسهيل مع الرّؤم وإبدال الهمزة ياء مفتوحة، ثم تسكن للوقف.

ثم يعقّب الله سبحانه على تعنت المشركين في طلب الآيات الخارقة من رسول الله ﷺ، وعلى استعجالهم نزول العذاب الذي وعدهم به، على وجه السخرية، والاستبعاد، والاستهزاء برسول الله ﷺ، وتكذيبهم للقرآن الكريم، فيتوعدهم بأن ينزل بهم من العقاب ما نزل بمن قبلهم ممن كذبوا رسل الله.

ومثّل هذا يحدث على مرّ العصور والدهور، من أعداء الإسلام، في كل زمان ومكان. وها هم اليهود اليوم في الأرض المحتلة يحرقون القرآن، ويمزّقونه ويُهينونه؛ نكاية بالإسلام والمسلمين.

ومثّل ذلك يحدث على أيدي البوذيين في أعقاب هدم صنم بوذا في أفغانستان. والله ﷻ يُمهّل ولا يُمهّل، ويتوعد أمثال هؤلاء بالعقاب الشديد، فيبيّن سبحانه أنه كما استهزأ المشركون برسول الله ﷺ، وتعتّوا معه في طلب الآيات الخارقة، وكذبوا آيات الله، فقد استهزأت الأمم السابقة برسل الله جميعاً، فأمهّلهم الله تعالى، ثم أخذهم أخذ عزيز مقتدر. وهكذا يسلي الله تعالى رسوله، فيخفف عنه ويقول له: لا تحزن - يارسولنا - فقد حدث مثل هذا لكثير قبلك ﴿وَلَقَدْ أَسْتَهْزَيْتَ رَسُولِي مِنْ قَبْلِكَ﴾ كما استهزؤوا بك وبدعوتك ﴿فَأَمَلَيْتُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا﴾ أمهلتهم، وأخرت عقوبتهم بعض الوقت حتى ظنوا أنهم غير معذيين ﴿ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ﴾ أي عاقبتهم عقاباً شديداً ﴿فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِي﴾ لهم، لقد كان عقاباً أليماً استأصلهم، وقطع دابرهم.

﴿وَكَذَلِكَ أَخَذَ رَبِّي إِذَا أَخَذَ الْقُرَىٰ وَهِيَ ظَالِمَةٌ إِنَّ أَخَذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ﴾ [هود: ١٧٢]
﴿وَكَايْنٍ مِنْ قَرْيَةٍ أَمَلَيْتُ لَهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ ثُمَّ أَخَذْتُهَا وَإِلَى الْمَصِيرِ﴾ [الحج: ٤٨].

وفي حديث أبي موسى رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «إن الله ليملي للظالم حتى إذا أخذه لم يفلته»^(١).

وهذه أمثلة نضربها من تكذيب واستهزاء السابقين برسولهم:

١- فقد استهزأ قوم نوح به ﴿وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلَأَ مِنْ قَوْمِهِ سَخِرُوا مِنْهُ﴾ [هود: ٣٨] وقالوا: ﴿وَمَا زَنَّاكَ أَتَعْلَكُ إِلَّا الَّذِينَ هُمْ أَرَادُوا بِكُلِّ بَلٍّ بُلْ﴾

(١) البخاري برقم (٤٦٨٦) من حديث أبي موسى وفي مسلم برقم (٢٥٨٣).

نُظُنُّكُمْ كَذِبِينَ ﴿٢٧﴾ [هود: ٢٧].

٢- واستهزأ قوم عاد بهود ﴿قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ إِنَّكَ لَنَزِلُكَ فِي سَفَاهَةٍ وَإِنَّا لَنُظُنُّكَ مِنَ الْكَذِبِينَ ﴿٢٦﴾﴾ [الأعراف: ٢٦].

٣- واستهزأ قوم ثمود بصالح ﴿قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا بِالَّذِي ءَامَنْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ ﴿٢٦﴾﴾ [الأعراف: ٢٦] ﴿قَالُوا يَصْلِحُ قَدْ كُنْتَ فِينَا مَرْجُوًّا قَبْلَ هَذَا أَتَنْهَدُنَا أَنْ نَعْبُدَ ءَابَاءَنَا وَإِنَّا لَفِي شَكٍّ مِمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ مُرِيبٍ ﴿٢٧﴾﴾ [هود: ٢٧].

واستهزأ قوم مدين بشعيب فقالوا له: ﴿إِنَّكَ لَأَنْتَ الْحَلِيمُ الرَّشِيدُ﴾ [هود: ٨٧].
﴿قَالُوا يَشْعَبُ مَا نَفَقَهُ كَثِيرًا مِمَّا تَقُولُ وَإِنَّا لَنَرِيكَ فِينَا ضَعِيفًا وَلَوْلَا رَهْطُكَ لَرَجَمْنَاكَ وَمَا أَنْتَ عَلَيْنَا بِعَزِيزٍ ﴿٩١﴾﴾ [هود: ٩١] ﴿فَأَسْقُطْ عَلَيْنَا كِسْفًا مِّنَ السَّمَاءِ إِن كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿٩٢﴾﴾ [الشعراء: ٩٢].

واستهزأ فرعون بموسى فقال: ﴿أَمْ أَنَا خَيْرٌ مِّنْ هَذَا الَّذِي هُوَ مَهِينٌ وَلَا يَكَادُ يُبِينُ ﴿٥٦﴾﴾ [الزخرف: ٥٦].
وهكذا كل من سخر بالإسلام ویرسول الإسلام، أو كذب بآيات الله، فإنه يعاقب بذنبه، قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا سَنَسْتَدْرِجُهُمْ مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٨١﴾﴾ [الأعراف: ١٨١].
والله تعالى لا يخلف الميعاد كما قال تعالى: ﴿فَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ تَخَلِّفُ وَعْدَهُ رُسُلُهُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ ذُو انْتِقَامٍ ﴿١٧﴾﴾ [إبراهيم: ١٧] وهكذا كان عقاب الله شديداً لكل من كذب رسله.
فلا يغتر هؤلاء المكذبون بإمهال الله لهم، وليحذروا أن يفعل بهم كما فعل بمن قبلهم.

مِنَ الْأَدِلَّةِ السَّاطِعَةِ عَلَى وَحْدَانِيَةِ اللَّهِ تَعَالَى:

نَفْيُ الْمِثَالَةِ بَيْنَ الْخَالِقِ وَالْمَخْلُوقِ

٣٣- ﴿أَفَمَن هُوَ قَائِمٌ عَلَى كُلِّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ قُلْ سَمُّوهُمْ أَمْ تُنَبِّئُونَهُ^(١) بِمَا لَا يَعْلَمُ فِي الْأَرْضِ أَمْ يَظَاهِرُونَ الْقَوْلَ بَلْ زَيْنَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مَكْرَهُمْ وَصُدُّوا^(٢) عَنِ السَّبِيلِ وَمَن يُضِلِلْ

(١) قرأ أبو جعفر بحذف الهمزة وضم الباء من (أم تنبئونه) وصلاً ووقفاً، ومثله حمزة عند الوقف، وله التسهيل والإبدال.

(٢) قرأ عاصم وحمزة والكسائي ويعقوب وخلف بضم الصاد من (وصدوا) على البناء للمفعول، والباقون بفتحها على البناء للفاعل.

اللَّهُ فَمَا لَكُمْ مِنْ هَادٍ^(١) ﴿٣٣﴾

الله سبحانه يُحصي على كل نفس عملها: من آمن به، ومن أشرك، فيجازي كُلًا بما يستحق، وهو ﷻ قائم على شؤون بني آدم، ومتكفل بأرزاقهم وآجالهم، وحفيظ على أعمالهم، وكل ما يعبد به البشر من دون الله لا يملك ذلك، فالله تعالى رقيب على كل نفس، قد خلقنا، ورزقنا، وأحيانا، ويميتنا، وهو سبحانه الحفيظ الرقيب المطلع عليها، المحاسب والمجازي لها على أعمالها، والعالم بسرّها ونجواها وعلايتها، يعلم ما تكسب كل نفس في كل لحظة من الأعمال الصغيرة والكبيرة، والخير والشر.

والمعنى: أضمن يحصي على كل نفس ما عمله، وهو مطلع على دقائقها وخفاياها، ومسجل لما تكتسبه من الخير والشر.

والخبر محذوف تقديره: أحق أن يُعبد، أم هذه المخلوقات العاجزة؟

وفي هذا إنكار على تسوية من هو قائم على كل نفس، بمن ليس كذلك.

فمعنى ﴿قَائِمٌ عَلَى كُلِّ نَفْسٍ﴾: مُتَوَلِي أُمُورِهَا وَمُدِيرُهَا، فِي جَمِيعِ شُؤْنِهَا، مِنَ الْخَلْقِ وَالْأَجْلِ وَالرِّزْقِ، الْعَالِمُ بِأَحْوَالِهَا، الرَّقِيبُ عَلَيْهَا، الْمَحِيطُ بِأَعْمَالِهَا، الْحَفِيزُ لَهَا، الْقَائِمُ عَلَى سَائِرِ شُؤْنِهَا، وَالْمَجَازِي لَهَا بِمَا كَسَبَتْ يَوْمَ الْبَعْثِ وَالنَّشُورِ.

ومن الآيات الدالة على ذلك قوله تعالى: ﴿وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا تَتْلُوا مِنْهُ مِنْ قُرْآنٍ وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ﴾ [يونس: ٦١].

وقوله: ﴿سَوَاءٌ مِنْكُمْ مَنْ أَسَرَ الْقَوْلَ وَمَنْ جَهَرَ بِهِ وَمَنْ هُوَ مُسْتَخَفٍ بِالنُّذُرِ وَالنَّهَارِ﴾ [الرعد: ١٠] وقوله: ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ [الحديد: ٤].

ومع ذلك فإن غير المسلمين يشركون مع الله ما يعبدونه من خلقه ﴿وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ﴾ هؤلاء الشركاء ماذا يملكون لأنفسهم أو لغيرهم؟ وهي من الحجارة والأوثان أو من البشر، أو غيرهم وليس هذا في عهد الرسول فحسب فنحن لا ننظر إلى الجزيرة العربية، ولا إلى بلاد المسلمين في العالم إنما ننظر إلى العالم بأسره، فالدعوة الإسلامية دعوة عالمية، ومن الشعوب اليوم من يعبد الحجارة، ومنهم من يعبد بقرة، ومنهم من يعبد

(١) وقف ابن كثير على (هاد) و (واق) بياء ساكنة بعد الدال والقاف.

تماثيل، ومنهم من يعبد الشيطان، كما كان الحال في الجاهلية.

ولما قرر الله سبحانه هذه الحقيقة، وهي عبادتهم للأوثان من دون الله، طلب تسمية هذه الآلهة، فقال: ﴿قُلْ سَمُّوهُمْ﴾ أي: قل -يا محمد- لكل من أشرك بالله تعالى: صِفُوا لنا هؤلاء الشركاء، واذكروا أسماءهم لنا، فلن تجدوا في صفاتهم ما يؤهلهم للعبادة، ولا شبهة لهم في تأليهها، فماذا لهم من صفات القدرة الإلهية؟ ماذا يفعلون؟ ماذا يعلمون؟ ماذا يخلقون؟ من يرزقون؟

أم أنكم تخبرون الله تعالى بشيء موجود في هذا الكون فوق أرضه، لا يعلمه خالقه، وهو علام الغيوب، وهذا معنى: ﴿أَمْ تَتْلُوْنَهُ يَمًا لَا يَعْلَمُ فِي الْأَرْضِ﴾ وهو عالم الغيب والشهادة، ولا يعلم سبحانه أن له شريكًا، فهل أنتم أدرى من الخالق جلَّ شأنه؟ ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ﴾ [الملك: ١٤] ﴿قُلْ أَتَنْتِفُونَ اللَّهَ يَمًا لَا يَعْلَمُ فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ﴾ [يونس: ١٨] أم أنكم تعبدونها تقليدًا لغيركم؟ فهي مجرد أسماء وهمية لأبائكم ورثوها عن غيرهم، ليس لها حقيقة كما قال تعالى: ﴿إِنْ هِيَ إِلَّا أَسْمَاءٌ سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَءَابَاؤُكُمْ مَّا أَنْزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ﴾ [النجم: ٢٣] وهو قول باطل لا أصل له، كمن يسمي التفاح عدسًا، وقد علم بهذا بطلان دعوى الشريك.

وسماه القرآن: ظاهرًا من القول، أي: ليس له حقيقة، والسبب في ذلك هو أن الشيطان زين لهم عبادة غير الله سبحانه، وصد الناس عن سبيل الله كما قال تعالى: ﴿وَقَضَّيْنَاهُمْ قُرْءًا فَزَيَّنُوا لَهُمْ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ﴾ [فصلت: ٢٥]

فسوّل لهم الشيطان إخفاء الشر ووسائل الضر، وصرفهم عن عبادة الله بحيلة.

أما في الحقيقة فلا معبود بحق إلا الله، وما سواه ظاهر من القول ليس له حقيقة.

ومن لم يوفقه الله للهداية فليس له أحد يهديه ويوفقه إلى الحق والرشاد؛ لأنه يحمل في نفسه استعدادًا للضلالة من البداية كما قال تعالى: ﴿إِنْ تَحَرَّصَ عَلَى هُدًى فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ يُضِلُّ﴾ [النحل: ٣٧].

وقال: ﴿وَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ فِتْنَتَهُ فَلَنْ تَمْلِكَ لَهُ مِنْ اللَّهِ شَيْئًا﴾ [المائدة: ٤١].

ويؤخذ من هذه الآية ما يلي:

أ- توبيخ المشركين على قياس الأصنام على الله سبحانه في إثبات الإلهية، وإثبات أنه قياس فاسد لانتفاء الشبه.

ب- تجهيلهم في جعلهم للآلهة أسماء لا مسميات لها، والله سبحانه فرد واحد لا يشاركه أحد في ذاته، ولا في أسمائه، ولا في صفاته.

ت- نفي كون هذه الأصنام آلهة؛ إذ لو كانت كذلك لعلمها الله سبحانه.

ث- ادعاء أن هذه الأصنام آلهة كلام باطل ليس له نصيب من الواقع.

ج- القول بأن هذه الأصنام آلهة تمويه باطل روجه دعاء الكفر.

ح- هؤلاء الكفار بادعائهم هذا يصدون الناس عن سبيل الهدى.

النَّهَایَةُ الْأَلِیْمَةُ لِغَیْرِ الْمُؤْمِنِ وَنَعِیمُ أَهْلِ الْإِیْمَانِ

٣٤- ﴿لَهُمْ عَذَابٌ فِي الْحَبِیْرِ الدُّنْیَا وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَشَقُّ وَمَا لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ وَاقٍ﴾ (١١)

والنهاية الأليمة لهذا الصنف من الناس هو العذاب في الدنيا والآخرة، فهم يعذبون في الدنيا بألوان مختلفة من العذاب: بالقتل، والأسر، والخزي، والخوف، والقلق، وغير ذلك من العذاب الدنيوي، ولعذاب الآخرة في نار جهنم أشق وأغلظ، وليس لهم من الله من واق يقيهم عذاب النار، فيمنعهم منه أو يدفعه عنهم، وينصرهم حين ينزل بهم.

كما قال تعالى: ﴿فَيَوْمَئِذٍ لَا يُعَذِّبُ عَذَابُهُ أَحَدٌ﴾ (١٥) وَلَا يُؤْتِي وَاقَهُ أَحَدٌ ﴿١٦﴾ [الفجر]

وقال: ﴿وَأَعْتَدْنَا لِمَنْ كَذَبَ بِالسَّاعَةِ سَعِيرًا﴾ (١١) إِذَا رَأَتْهُمْ مِنْ مَّكَانٍ بَعِيدٍ سَمِعُوا لَهَا تَغَيُّطًا وَزَفِيرًا ﴿١٧﴾ [الفرقان] وعذاب الدنيا له انقضاء وعذاب الآخرة لا ينقضي.

٣٥- ﴿مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعدَ الْمُتَّقُونَ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ أُكُلُهَا دَائِمٌ وَظُلُّهَا نَبَّارٌ﴾

عُقْبَى الَّذِينَ اتَّقَوْا وَعُقْبَى الْكَافِرِينَ النَّارُ ﴿٢٥﴾

(١) أثبت ابن كثير ياء في (من واق) عند الوقف عليها هكذا: وافي، وحذفها وصلًا كغيره.

(٢) قرأ نافع وابن كثير وأبو عمرو بإسكان الكاف من (أكلها)، والباقون بضمها، وهما لغتان.

وشأن القرآن إذا تحدث عن النار أن يتحدث عن الجنة، وإذا تحدث عن أهل الشقاء أن يتحدث عن أهل السعادة، وإذا تحدث عن الوعد أن يتحدث عن الوعيد، وإذا تحدث عن الترغيب أن يتحدث عن الترهيب إلى جواره، وهكذا؛ لبيان الفرق بين الأمرين، ولأخذ العبرة والفائدة منهما معًا.

وبعد ذكر النار في الآية السابقة يأتي ذكر الجنة في هذه الآية لمن وقى نفسه بالإيمان، وصالح الأعمال.

أي: وصفة هذه الجنة التي وعدها الله لعباده المتقين الذين يخشونه، أنها جنة تجري من تحت قصورها وأشجارها أنهار من لبن لم يتغير طعمه، وأنهار من عسل مصفى، وأنهار من خمر في غاية اللذة، ليس فيها ما يغال العقل، ولا يفقد الوعي، وأنهار من ماء لا يتغير مع طول المكث: ﴿مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ فِيهَا أَنْهَارٌ مِنْ مَّاءٍ غَيْرِ آسِنٍ وَأَنْهَارٌ مِنْ لَبَنٍ لَمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُ وَأَنْهَارٌ مِنْ خَمْرٍ لَذَّةٍ لِلشَّارِبِينَ وَأَنْهَارٌ مِنْ عَسَلٍ مُصَفًّى وَلَهُمْ فِيهَا مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ وَمَغْفِرَةٌ مِنْ رَبِّهِمْ﴾ [محمد: ١٥] وهذه الجنة أكلها دائم لا ينقطع أبدًا، إذا أخذت ثمرة من شجرة، عادت مكانها ثمرة أخرى على الفور.

كما في حديث ثوبان ؓ أن رسول الله ﷺ قال: «إن الرجل إذا نزع ثمرة من الجنة عادت مكانها أخرى»^(١).

وأهل الجنة يأكلون ويشربون ولا يتبولون ولا يتمخّطون، ولا يتغوّطون ولا يتجشّؤون، عرقهم رائحته كالمسك، يُلْهَمُونَ التسييح والتحميد، كما يلْهَمُونَ النَّفْسَ، هذا شأنهم بصفة مستمرة.

وظلها أيضًا دائم؛ إذ ليس هناك شمس ولا قمر، ولا ظل يتقلّص أو يزول بسبب دوران الشمس، كما قال سبحانه: ﴿وَوَظِلٌّ مَدْدُورٌ﴾ [الواقعة]

تلك المثوبة بالجنة، وهذا النعيم، عقبى الذين خافوا الله، فأدوا فرائضه، واجتنبوا معاصيه.

(١) «المعجم الكبير» للطبراني (١٠٢/٢) وفيه عباد بن منصور، متكلم فيه.

ومن أحاديث الجنة ونعيمها

١- ما جاء في الصحيحين من حديث ابن عباس رضي الله عنهما قال: خسفت الشمس على عهد رسول الله ﷺ فصلَّى، قالوا: يا رسول الله، رأيناك تناولت شيئاً في مقامك، ثم رأيناك تكعكت، قال: «إني أريْتُ الجنة، فتناولْتُ منها عنقوداً، ولو أخذته لأكلتم منه ما بقيت الدنيا»^(١). ومعنى (تكعكت) تأخرت.

٢- وعن جابر رضي الله عنه قال: بينما نحن في صلاة الظهر، إذ تقدم رسول الله ﷺ فتقدّمنا، ثم تناول شيئاً ليأخذه ثم تأخر، فلما قضى الصلاة، قال له أبيُّ بن كعب: يا رسول الله، صنعتَ اليوم في الصلاة شيئاً، ما رأيناك كنت تصنعه، فقال: «إني عُرضْتُ عليَّ الجنة وما فيها من الزهرة والنَّضرة، فتناولْتُ منها قِطْفاً من عنب لآتيكم به، فحيل بيني وبينه، ولو آتيكم به لأكل منه مَنْ بين السماء والأرض لا ينقصونه»^(٢).

٣- وعن جابر بن عبد الله أيضاً أن رسول الله ﷺ قال: «يأكل أهل الجنة فيها، ويشربون، ولا يتغوَّطون، ولا يتمخَّطون، ولا يبولون، ولكن طعامهم ذاك جُشاء كريح المسك، يُلْهَمون التسييح، كما يُلْهَمون النفس»^(٣).

وطعام أهل الجنة وشرابهم وفاكهتهم دائمة لا تنقطع، كما قال تعالى: ﴿وَفَكَهْمٌ كَثِيرٌ ۖ لَا مَقْطُوعَةٍ وَلَا مَمْنُوعَةٍ﴾ [الوقعة] وقال: ﴿وَجَنَّتِ أَلْفَاقًا﴾ [النبا]

وقال سبحانه: ﴿وَدَانِيَةً عَلَيْهِمْ ظِلُّهَا وَذُلَّتْ قُطُوفُهَا نَذِيلًا﴾ [الإنسان]

وقال جلَّ شأنه: ﴿لَهُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ مُطَهَّرَةٌ وَهُمْ فِيهَا ظِلِيلٌ﴾ [النساء: ٥٧].

وكثيراً ما يقرن الله سبحانه بين صفة الجنة وصفة النار، كما في عقبي المتقين وعقبي الكفار في هذه الآية، وكما قال تعالى: ﴿لَا يَسْتَوِي أَحَبُّ النَّارِ وَأَحَبُّ الْجَنَّةِ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ أَفْضَلُ زُورٌ﴾ [الحشر].

(١) «صحيح البخاري» برقم (٧٤٨) وبنحوه في «صحيح مسلم» برقم (٩٠٧) بعد وصف صلاة الكسوف.

(٢) رواه أبو يعلى في مسنده، ورواه أحمد في «المسند» (٣/ ٣٥٢) بنحوه.

(٣) «صحيح مسلم» برقم (٢٨٣٥).

مَوْقِفُ أَهْلِ الْكِتَابِ مِنَ الْقُرْآنِ

٣٦- ﴿وَالَّذِينَ ءَاتَيْنَهُمُ الْكِتَابَ يَفْرَحُونَ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمِنَ الْأَحْزَابِ مَنْ يُنْكِرُ بَعْضَهُ قُلْ إِنَّمَا أُنْزِلَتْ أَنَا عَبْدُ اللَّهِ وَلَا أُشْرِكُ بِهِ إِلَهًا أَدْعُوا إِلَيْهِ وَإِلَيْهِ مَتَابٌ ^(١)﴾

ثم بيّن الله سبحانه موقف أهل الكتاب من رسالة الإسلام، فالقرآن هو الكلمة الأخيرة في الأرض، والكتاب الأخير في سلسلة الكتب السماوية، وكلمة الله الأخيرة إلى خلقه أجمعين، أثبت الله فيه ما أراد لعباده إلى يوم القيامة، ونسخ منه ما نزل قبله مما كان يناسب الوقت الذي نزل فيه في مراحل الدعوة التي سبقت محمدًا ﷺ.

وهذه الآية التي معنا تتحدث عن القرآن وهو الكتاب الخاتم، وتبيّن موقف أهل الكتاب منه، وأنهم ثلاث فرق:

١- فرقة آمنت به كله، فدخلت في الإسلام، إن قديمًا أو حديثًا، وهؤلاء هم المعنيون بقوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ ءَاتَيْنَهُمُ الْكِتَابَ يَفْرَحُونَ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ﴾.

٢- وفرقة آمنت ببعض القرآن وكفرت ببعض في جميع العصور، وهؤلاء هم المعنيون بقوله تعالى: ﴿وَمِنَ الْأَحْزَابِ مَنْ يُنْكِرُ بَعْضَهُ﴾.

٣- وفرقة كفرت مطلقًا، ولم تؤمن به كليًا، وهذه الفرقة في مقابلة من آمن به كله، ومن آمن ببعض دون بعض، وهي مقتضى القسمة، وهذا على أن هذه الآية مدنية، وهو الأرجح.

والمراد: أن أهل الكتاب من أصحاب الشرائع السابقة من اليهود والنصارى في كل عصر ومصر ﴿يَفْرَحُونَ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ﴾ في هذا القرآن من زيادات على ما في كتبهم، ويستبشرون بما فيه مما يوافق كتبهم، فيؤمنون به ويصدقونه.

الصف الأول: وأول ما ينطبق هذا على من أسلم في العصر النبوي من اليهود؛ كعبد الله بن سلام، وأصحابه، الذين دخلوا في الإسلام، ومن النصارى أربعون رجلًا من أهل نجران، وثلاثون من أهل الحبشة، وعشرة من غيرهم، والنجاشي ومن معه، وثمانون من النصارى دخلوا في الإسلام في وقت النبي ﷺ، وهذه الآية تعنيهم أولًا، ثم تعني من

(١) قرأ يعقوب بإثبات الياء وصلًا ووقفًا في لفظ (مآب)، والباقيون بحذفها في الحالين.

بعدهم، ممن ينطبق عليهم الوصف إلى قيام الساعة.

وقد أثبت الله تعالى في هذا القرآن ما شاء إثباته مما فيه صلاح البشر إلى يوم القيامة، فهو الحَكَمُ الفضل الذي لا بديل عنه؛ لأنه أتى بالتوحيد، وصدق الكتب التي نزلت على رسل الله قبله، فهي تصدق رسالة محمد ﷺ، وتبشّر بما جاء به.

أما الصنف الثاني فهو المشار إليه في قوله تعالى: ﴿وَمِنَ الْأَحْزَابِ﴾ أي: من أحزاب اليهود والنصارى والمشركين، المتحزبين على الكفر ضدك، من ينكر بعض المنزّل عليك؛ حيث ينكرون الآيات الدالة على عموم رسالة محمد ﷺ، وينكرون البعث بالأجساد، ولا يصدقون القصص وأخبار الأمم السابقة.

والصنف الثالث: صنف كفر بالإسلام كله من فجر الدعوة إلى وقتنا، ومنهم أكثر اليهود والنصارى، وأولهم من بقي على كفره في العصر النبوي، مثل: كعب بن الأشرف، والسيد^(١)، والعاقب^(٢) من أساقفة نجران.

والله سبحانه يأمر رسوله بأن يعلن كلمة الله الأخيرة في خلقه، فيقول له:

﴿قُلْ﴾ -أيها الرسول- لمن خالفك، ولم يتبعك: ﴿إِنَّمَا أُرِيتُ أَنَّ عَبْدَ اللَّهِ وَلَا أَشْرَكَ بِهِ﴾.

وإلى عبادته تعالى أدعو الناس، وإليه مرجعي ومصيري.

وفي الآية مدح لمن عرف الحق وفرح به، وذم لمن أنكره جحودًا وعنادًا.

وهذا التفسير بناء على أن هذه الآية مدنية؛ لأن إسلام عبد الله بن سلام، وسلمان الفارسي، وبعض نصارى نجران واليمن، كان بالمدينة، كما قال تعالى: ﴿الَّذِينَ ءَاتَيْنَهُمُ الْكِتَابَ يَتْلُونَهُ حَقَّ تِلَاوَتِهِ أُولَٰئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَمَن يَكْفُرْ بِهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾ [البقرة] ولأن لفظ الأحزاب يطلق غالبًا على أحزاب أهل الكتاب.

وقد أمر الله نبيه أن يعلن لهم أنه ما أمر إلا بتوحيد الله تعالى ﴿قُلْ يَتَاهَلِ الْكِتَابُ تَعَالَوْا إِلَىٰ

(١) اسم السيد: الأيهم وقيل شرجيل، كان صاحب رحالهم ومجتمعهم ورئيسهم في ذلك.

(٢) العاقب: اسمه عبد المسيح، كان صاحب مشورتهم.

كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكَ إِلَّا تَعْبُدُ إِلَّا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُ بِهِ شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ ﴿آل عمران: ٦٤﴾

وفيمن آمن منهم بالقرآن يقول تعالى عنهم: ﴿إِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مِنْ قَبْلِهِ إِذَا يُنْزِلَ عَلَيْهِمْ نِجَازٌ لِلذَّقَانِ سَجْدًا ﴿١٧٧﴾ وَيَقُولُونَ سُبْحَنَ رَبِّنَا إِنْ كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا ﴿١٧٨﴾ وَيَخِرُّونَ لِلذَّقَانِ يَبْكَوْنَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا ﴿١٧٩﴾﴾ [الإسراء]

ويقول أيضًا: ﴿وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَمَنْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِمْ خَشِيعِينَ لِلَّهِ لَا يَشْتَرُونَ بِعَاقِبَتِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا أُولَئِكَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴿١٨٩﴾﴾ [آل عمران].

فمن فرح بالقرآن منهم فليزدد فرحًا، ومن أنكر بعضه فليأخذ بما لا ينكره وهو عدم الشرك، والنصارى يتبرؤون من الشرك، ويعتبرون بنوة عيسى ليست شركًا.

وقد أمر الله نبيه بأمرين: أن يعبده وحده، ولا يشرك به شيئًا.

أما على القول بأن الآية مكية، فإن الذين أرسل الله إليهم محمدًا بالقرآن انقسموا في التصديق به فرقًا ثلاثًا:

١- فريق آمن به وهم المؤمنون، فهم ﴿يَفْرَحُونَ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ﴾.

٢- وفريق كفر به، كما قال تعالى: ﴿وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِالرَّحْمَنِ﴾.

٣- ومن أهل الكتاب، فريق فرح بالقرآن وصدق به، وهم الذين ذكروا في قوله تعالى:

﴿وَإِذَا سَمِعُوا مَا أُنْزِلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرَكَ أَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا مِنَ الْحَقِّ يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ ﴿٨٣﴾﴾ [المائدة].

وكلهم من النصارى؛ كورقة بن نوفل، وغيره، لأنهم كانوا يفتخرون على المشركين بأنهم أول من سيؤمن بمحمد ﷺ ﴿وَكَانُوا مِنْ قَبْلُ يُسْتَنَافُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَمَّا جَاءَهُمْ مَا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ﴾ [البقرة: ٨٩] كما كان اليهود يستفتحون على النصارى ببعثة محمد ﷺ.

وفريق آخر من أهل الكتاب، وهم معظم اليهود والنصارى كفروا به، وأعلنوا عداؤهم

لإسلام، بعد ما علموا أنه دعوة عامة للبشر جميعاً، وكانوا يظنون أنها دعوة مقصورة على العرب، وعلى هذا فالمراد بالأحزاب: من ينكرون عموم الرسالة من اليهود والنصارى.

التَّحْذِيرُ مِنْ اتِّبَاعِ طَرِيقِ الْيَهُودِ وَالنَّصَارَى

٣٧- ﴿وَكَذَلِكَ أَنْزَلْنَاهُ حُكْمًا عَرَبِيًّا وَلَئِنْ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ بَعْدَ مَا جَاءَكَ^(١) مِنْ الْإِلَهِ مَا لَكَ مِنَ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا وَاقٍ^(٢)﴾ (٣٧)

لقد أنكر اليهود والنصارى أن تكون رسالة محمد ﷺ رسالة عالمية، وحسدوه أن تنتقل النبوة من بني إسرائيل إلى ذرية إسماعيل، وأن يكون القرآن بلغة العرب، وهذا هو سبب إنكار بعض أحزابهم له، وسبب كفر من كان منهم يبشر الوثنيين بقرب مقدّمه ﷺ، وأنهم أول من يفتح عليه عندما يُبيّث.

وفي هذه الآية، يُعرض القرآن الكريم بسوء تلقّي المشركين للقرآن، وكان الواجب عليهم أن يحسنوا تلقّيهم له؛ فبيّن ﷺ أنه كما نزلت الكتب السابقة على الأنبياء السابقين بلغاتهم ولسانهم، فإن هذا القرآن نزل على محمد ﷺ بلغته ولسان قومه.

وفي هذا امتنان عليهم كما قال تعالى: ﴿لَقَدْ أَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ كِتَابًا فِيهِ ذِكْرُكُمْ﴾ [الأنبياء: ١٠] وقال: ﴿وَإِنَّهُمْ لَذِكْرُكَ وَلِقَوْمُكَ﴾ [الزخرف: ٤٤] وهنا قال تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ أَنْزَلْنَاهُ حُكْمًا عَرَبِيًّا﴾.

وقد تضمنت هذه الجملة كمال القرآن الكريم من جهة معانيه ومقاصده، وكماله من جهة ألفاظه العربية المعجزة للبشر، قال تعالى: ﴿وَلَهُ لَنْزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ (١٢٢) نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ (١٢٣) عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنْذِرِينَ (١٢٤) بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ (١٢٥) وَإِنَّهُمْ لَفِي زُبُرِ الْأَوَّلِينَ (١٢٦) أُولَئِكَ هُمْ آيَةٌ أَنْ يَعْلَمَهُ عُلَمَتُونا بَيِّنَاتٍ (١٢٧) وَلَوْ أَنْزَلْنَاهُ عَلَى بَعْضِ الْأَعْجَمِينَ (١٢٨) فَقَرَأَهُ عَلَيْهِمْ مَا كَانُوا بِهِ مُؤْمِنِينَ (١٢٩) [الشعراء].

وقد نزل هذا القرآن بلسان العرب؛ ليحكم به النبي ﷺ بين الناس أجمعين، وتُحكمه البشرية في جميع أحوالها، وهو يتضمن الحكمة كلها، ويتضمن جميع التشريعات التي تُصلح

(١) أمال لفظ (جاءك) ابن ذكوان وحزمة وخلف.

(٢) قرأ ابن كثير بإثبات الياء بعد القاف وصلًا، وحذفها وقفًا من (ولا واق)، والباقون بحذفها في الحالين.

البشر إلى يوم القيامة من الحلال والحرام، والنقض والإبرام، وسائر التكاليف الشرعية.

وهذا القرآن هو الكلمة الختامية للخلق أجمعين، وهو كتاب لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، وقد شَرَّفَ الله نبيه به وفضَّله على من سواه.

ثم ساق الله تحذيرًا للأمة في شخص نبيها، فحذرهم في سورة الزمر من اتباع كل كافر، أو فاسق، أو مبتدع، وبيَّن سبحانه أن النبي ﷺ لو اتبع أهواء المنحرفين عن طريق الحق -على سبيل الفرض والتقدير- وهو أكرم الناس على الله، فليس له من ينصره، أو يمنعه من عذاب الله كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكَتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ (٦٥) [الزمر].

وهنا حذر الله الأمة في شخص نبيها ألا يتبعوا أهل الضلال في عبادة غير الله تعالى، وفي طلب المعجزات الخارقة، وفي التحاكم لغير الله، فقال تعالى: ﴿وَلَيْنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ بَعْدَ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ﴾ الذي بلغك وعلمته، وهو الحق الذي جاء من عند الله في هذا القرآن الذي أمرت بتبليغه، والقيام بما فيه من أوامر ونواه، والغرض من هذا هو تحذير الناس أن يتبعوا سبل أهل الضلال والغواية؛ لأنه ﷺ معصوم عن مثل هذا.

وقد جاء مثل هذا التحذير في سورة البقرة بالنسبة لليهود والنصارى، بعد أن بيَّن، سبحانه، أنهم لن يرضوا عنا إلا إذا اتبعنا دينهم، فقال تعالى: ﴿وَلَيْنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ بَعْدَ الَّذِي جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾ [البقرة: ١٢٠].

وجاء هذا في سورة البقرة أيضًا بعد أن بيَّن سبحانه أنهم لن يتبعوا قبله الإسلام، ولو أتاهم الرسول بكل آية، فقال تعالى: ﴿وَلَيْنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ إِنَّكَ إِذًا لَمِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ [البقرة: ١٤٥].

والآية التي معنا جاءت في التحذير من اتباع أهواء اليهود والنصارى الذين يكفرون برسالة محمد ﷺ جملة وتفصيلاً، والذين يقولون: إنه ﷺ رسول إلى العرب خاصة.

والآيات الثلاث تصب في مَعِين واحد.

ويلاحظ أن آية الرعد ٣٧ جاءت بلفظ: ﴿بَعْدَ مَا جَاءَكَ﴾ وآية البقرة الأولى ١٢٠ بلفظ: ﴿بَعْدَ الَّذِي جَاءَكَ﴾ والثانية ١٤٥ بلفظ: ﴿مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ﴾.

وختم الآيات الثلاث لا يختلف في المعنى: ﴿مَا لَكَ مِنَ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾ ﴿مَا لَكَ مِنَ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا وَاقٍ﴾ ﴿إِنَّكَ إِذَا لَمِنَ الظَّالِمِينَ﴾.

مِنْ شُبُهَاتِ الْمُكَذِّبِينَ لِلرَّسَالَةِ

٣٨- ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِنْ قَبْلِكَ وَجَعَلْنَا لَهُمْ أَزْوَاجًا وَذُرِيَّةً وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَنْ يَأْتِيَ بِبَيِّنَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ﴾ (٣٨)

تضمنت هذه الآية شبهتين للمشركين تكرر ذكرهما في القرآن الكريم:

الشبهة الأولى: كيف يكون للرسول ﷺ أزواج وذرية؟ فأجابهم الله تعالى بأن هذا شأن الرسل جميعاً، فلا يعيبك أعداؤك بأن يكون لك أزواج وذرية كما كان لإخوانك من المرسلين.

الشبهة الثانية: أنهم يطلبون من النبي ﷺ آيات خارقة، كآيات التي أيد الله بها موسى، وعيسى، وصالح ﷺ، فكان الجواب: أن هذه الآيات من الله وحده، وليس في إمكان النبي ﷺ أن يأتي بها.

أما عن الشبهة الأولى فقد ورد أن اليهود عيّرت رسول الله ﷺ، وقالت: ما نرى لهذا الرجل مهمة إلا النساء والنكاح، ولو كان نبياً كما زعم لشغله أمر النبوة عن النساء، فأنزل الله الآية^(١).

الرد على الشبهة الأولى: أن جميع الرسل قبل محمد ﷺ كانوا من البشر يتزوجون ولهم ذرية، ويأكلون ويشربون، وليسوا ملائكة، فلماذا يستغرب الكفار أن يكون محمد ﷺ بشراً؟! وقد قال تعالى عن الرسل جميعاً: ﴿وَمَا جَعَلْنَاهُمْ جَسَداً لَا يَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَمَا كَانُوا خَالِدِينَ﴾ (٨) [الأنبياء].

وقال سبحانه: ﴿وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَنْ يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمُ الْهُدَىٰ إِلَّا أَنْ قَالُوا أَبَعَثَ اللَّهُ بَشَرًا رَسُولًا﴾ (٩٤) [الإسراء].

وقد سئلت أم المؤمنين عائشة ؓ عن التبتل، فقالت للسائل: لا تفعل، أما سمعت الله

(١) «أسباب النزول» للواحدي ص (٢٣١) والسيوطي ص (١٥٨) و«زاد المسير» لابن الجوزي (٤/٣٣٦) و«تفسير البغوي والخازن» للآية.

ﷺ يقول: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِّن قَبْلِكَ وَجَعَلْنَا لَهُمْ أَزْوَاجًا وَذُرِّيَّةً﴾ فلا تبتل^(١).

وقد جاء النهي عن التبتل في الصحيحين وغيرهما.

وكان النبي ﷺ قد تزوج في الفترة المكية خديجة ﷺ وحدها، وكانت ثيبًا، وتكبره بخمسة عشر عامًا، وبقي معها إلى أن توفاه الله تعالى، وكان قد بلغ الخمسين من عمره، أما بقية زوجاته ﷺ فكان في المدينة، والزواج بهن جميعًا كان محصورًا في سبع سنوات، كلها جهاد وغزوات، من سن الثالثة والخمسين إلى سن الستين، فلم يتزوج ﷺ في الثلاث سنوات الأخيرة من حياته ﷺ، ولم يتزوج فيما بين الخمسين والثالثة والخمسين، ولم يُنجب إلا من خديجة ﷺ، وإبراهيم من مارية، ولم يتزوج بكرا سوى عائشة، ومع هذا فقد عاب المشركون على النبي ﷺ أن يتزوج النساء.

والله ﷻ يبيِّن في هذه الآية أنه ليس بدعًا من الرسل؛ فنوح ﷺ قد تزوج، ولوط ﷺ قد تزوج، وكان لبعضهم أكثر من زوجة، كإبراهيم، وموسى عليهما السلام، وكان لداود ﷺ مئة امرأة، وكان لسليمان ﷺ ثلاث مئة امرأة، وسبع مئة جارية، فلم يقدح هذا في نبوتهم.

وقد كان (يحيى) حصورًا، فأعلم الله أباه زكريا بأن ابنه لا يكون له نسل، وقد كانت امرأته عاقرا، فسأل الله الولد فمنحه (يحيى) كرامة له، وخاطبه بقوله: ﴿أَنَّ اللَّهَ يَبْشُرُكَ بِيَحْيَىٰ مُّصَدِّقًا بِكَلِمَةٍ مِّنَ اللَّهِ وَسَيِّدًا وَحَصُورًا وَنَبِيًّا مِّنَ الصَّالِحِينَ﴾ [آل عمران: ٣٩].

أما عيسى ﷺ فلم يذر أحد - فيما أعلم - الحكمة في أنه لم يتزوج، وقد رُفِع وهو في سن الثالثة والثلاثين.

كما عاب المشركون على الرسول ﷺ أن يأكل الطعام ويمشي في الأسواق ﴿وَقَالُوا مَالِ هَٰذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ وَيَمْشِي فِي الْأَسْوَاقِ﴾ [الفرقان: ٧]

قال تعالى: في الرد عليهم ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَيَمْشُونَ فِي الْأَسْوَاقِ﴾ [الفرقان: ٢٠].

كما عابوا عليه ﷺ أن يكون بشرا ﴿فَقَالُوا أَبَشَرٌ يَهْدُونَنَا﴾ [التغابن: ٦].

(١) صحيح «سنن النسائي» برقم (٣٠١٥) و«مسند أحمد» (٩٧/٦) والترمذي برقم (١٠٨٢) وابن ماجه برقم (١٨٤٩) وصحيح «سنن ابن ماجه» (١٤٩٩).

فكان الجواب ﴿قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰ إِلَيَّ﴾ [الكهف: ١١٠].

الرد على الشبهة الثانية: وأما اقتراح الآيات التي طلبها عبد الله بن أمية ومن معه فهي إلى الله تعالى، وليست لرسوله ﷺ، ولو علم الله سبحانه أنها ستُجدي فيهم نفعاً لأجابهم إليها. ﴿وَمَا مَنَعَنَا أَنْ نُرْسِلَ بِالْآيَاتِ إِلَّا أَنْ كَذَّبَ بِهَا الْأَوَّلُونَ﴾ [الإسراء: ٥٩]

ومعجزة القرآن كافية في إثبات نبوته ﷺ، ومع ذلك فقد أئده الله تعالى بمعجزات حسية كثيرة؛ كانشقاق القمر، ونبع الماء من بين أصابعه الشريفة، وتكثير الطعام بين يديه، وتكليم الحجر والشجر والجبل له، وحنين الجذع إليه ﷺ، ولكن الذي منعهم من الإيمان به هو العناد والجحود، كما قال تعالى: ﴿فَإِنَّهُمْ لَا يَكْذِبُونَكَ وَلَكِنَّ الظَّالِمِينَ إِنَّمَا يُتَابِعُ اللَّهُ بِحُجُودِهِمْ﴾ [الأنعام: ٣٣] وقال: ﴿وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنْفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا﴾ [النمل: ١٤].

ثم بين سبحانه أن كل شيء عنده بمقدار، له بداية ونهاية، ولكل أمر قضاه الله تعالى له كتاب وأجل، قد كتبه عنده لا يتقدم ولا يتأخر، فلكل رسالة سبقت وقت محدد، وللعذاب الذي يستعجل المشركون نزوله بهم أجل معين، ولكل كتاب أنزله الله من عنده على رسول من رسله مدة معينة، نُسخَت كلها بالقرآن الكريم، وكل مخلوق له أجل محدد ﴿أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِنَّ ذَلِكَ فِي كِتَابٍ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ﴾ (٧٠) [الحج].

وفي الآية تهديد للمشركين الذين كانوا يتعجلون نزول العذاب بهم.

وهذه الآجال اقتضتها حكمة الله تعالى، فهو أعلم بما يُصلح شؤون خلقه.

والمراد بالكتاب هو الوقت المحدد لا يتقدم ولا يتأخر، والأجل يشمل عمر الإنسان وعمر الرسالات.

الْمَخُوءُ وَالْإِثْبَاتُ

٣٩- ﴿يَمْحُوا اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثَبِّتُ^(١) وَعِنْدَهُ أُمُّ الْكِتَابِ﴾ (٦٩)

(١) قرأ ابن كثير وأبو عمرو وعاصم ويعقوب بإسكان التاء وتخفيف الباء من (وَيُثَبِّتُ) مضارع أثبت، والباقون بفتح التاء وتشديد الباء، (وَيُثَبِّتُ) مضارع ثبَّت.

هذه الآية لبيان أن علم الله تعالى لا محو فيه ولا تبديل، من كل ما سبق به القضاء، وأن المحو والإثبات يقع فيما أخبر الله تعالى أنه يبدل، كعفو الذنوب ونسخ آية بعد تلاوتها، ونسخ الرسالات، وما يكون في صحف الحفظة، والمحبة والبغض.

قال المشركون: إن محمدًا يأمر أصحابه اليوم بأمر، ثم يأمرهم بخلافه غدًا، وما ذلك إلا لأنه يقول من تلقاء نفسه؛ فأجاب الله تعالى عن ذلك بأن لكل قرن أجل، ولكل دين وقت، ولكل أمة رسولًا وكتابًا، يلتقي عليه المؤمنون، ثم يمحو الله من الرسالات السابقة، ومن الشرائع والأحكام التي نزلت على رسل الله ما يشاء، مما انقضت مهمته، فينسخ منها ما يشاء، ويثبت ما يشاء مما تبقى فائدته نافعة إلى يوم القيامة، وهذا معنى المحو والإثبات في الآية.

والمحو والإثبات يكون أيضًا في صحف الملائكة؛ فالملائكة منهم حفظة يتناوبون في اليوم الواحد لكتابة أعمال الناس وأقوالهم، وحفظة يرفعون الأقوال والأعمال في يوم الاثنين والخميس من كل أسبوع، كما جاء في الحديث أن الأعمال ترفع فيهما، وفي منتصف شهر شعبان من كل عام تعرض الأعمال على رب العالمين، كما صح في الحديث عن أسامة بن زيد رضي الله عنه حين سئل النبي ﷺ عن سبب إكثاره من الصيام في شهر شعبان، فقال: «ذاك شهر تُرفع فيه الأعمال إلى رب العالمين، وأحب أن يرفع عملي وأنا صائم»^(١).

فهناك رفع يومي للأعمال، ورفع أسبوعي، ورفع سنوي؛ حيث يحدث محو وإثبات في صحف الملائكة بالنسبة للأقوال والأفعال التي ليس فيها حسنات ولا سيئات؛ كالذي يتعلق بالمأكل والمشرب، والملبس والعمل، والذهاب والإياب، ولغو الكلام وما لا فائدة فيه؛ فإن هذا تسجله الملائكة، ثم يُمحى منها ما ليس فيه حسنات، أو سيئات ﴿يَمْحُو اللَّهُ مَا يَشَاءُ﴾.

وقد يكون الإنسان كافرًا أو عاصيًا، ثم يتوب، وهذه التوبة تجب ما قبلها، ويحصل بها

(١) من حديث أسامة بن زيد في سنن النسائي (٢٠١/٤) وحسنه الألباني في صحيح الترغيب والترهيب يرقم (١٠٢٢) وهو في المسند (٢١٧٥٣) إسناده حسن، لأن ثابت بن قيس صدوق حسن الحديث وباقي رجاله ثقات رجال الشيخين (محققوه) وأخرجه البزار في مسنده (٢٦١٧) وعبدالرزاق (٧٩١٧) وابن أبي شيبة (١٠٣/٣).

محو وإثبات في صحف الملائكة .

وقد يرتكب المسلم بعض صفائر الذنوب بين الجمعة والجمعة، أو بين رمضان ورمضان، أو بين الحج أو العمرة، وهذه الذنوب تُمَحَى من صحف الملائكة من فضل الله تعالى، كما قال سبحانه: ﴿إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ أَلْسِنَاتٍ﴾ [هود: ١١٤].

فالذي يصلي الصلوات الخمس، ويلم ببعض اللطم، أو صفائر الذنوب، ويجتنب الكبائر، فإن هذه الصفائر تُمَحَى من ديوان الحفظه.

قال تعالى بعد ذكر أكبر الذنوب: الشرك، والقتل، والزنى وعقوبتها: ﴿إِلَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَالِحًا فَأُولَٰئِكَ يُدْخِلُ اللَّهُ سَعَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ﴾ [الفرقان: ٧٠].

ثم قال تعالى: ﴿وَعِنْدَهُ أُمُّ الْكِتَابِ﴾ أي: الأصل، وهو اللوح المحفوظ الذي لا محو فيه ولا إثبات، وهو النسخة الثابتة الأساس، والصورة الأخيرة لأعمال الخلق وأحوالهم، وما قبلها مسودات، يكون فيها محو وإثبات.

وأم الكتاب هو اللوح المحفوظ الذي كتب الله فيه مقادير الأشياء، وهو الذي لا محو فيه ولا إثبات، أودع الله فيه كل ما كتب وقدر من: الموت والحياة، والسعادة والشقاء، والرزق والعمل.

وهناك أربعة أشياء لا محو فيها ولا إثبات، وهي في أم الكتاب ثابتة: السعادة والشقاء، والرزق والأجل، هذه الأربع هي التي يؤمر الملك بكتابتها حين تُنفخ الروح في المولود، وهو جنين في بطن أمه:

في صحيح مسلم من حديث حذيفة بن أسيد رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إذا مر بالنطفة اثنتان وأربعون ليلة، بعث الله إليها ملكًا فصورها، وخلق سمعها وبصرها، وجلدها ولحمها وعظامها، ثم قال: يارب، أذكر أم أنثى؟ فيقضي ربك ما يشاء، ويكتب الملك، ثم يقول: يارب أجله؟ فيقول ربك ما شاء، ويكتب الملك، ثم يقول: يارب، رزقه؟ فيقضي ربك ما يشاء، ويكتب الملك، ثم يخرج الملك بالصحيفة في يده، فلا يزيد على ما أمر ولا ينقص»^(١).

(١) «صحيح مسلم» (٢٠٣٧/٤) برقم (٢٦٤٥).

وفي لفظ آخر عن حذيفة بن أسيد يبلغ به النبي ﷺ قال: «يدخل الملك على النطفة بعدما تستقر في الرحم، بأربعين أو خمسة وأربعين ليلة، فيقول: يارب، أشقي أو سعيد؟ فيكتبان، فيقول: أي رب، أذكر أو أنسى؟ فيكتبان، ويكتب عمله وأثره، وأجله ورزقه، ثم تطوى الصحف فلا يزداد فيها ولا ينقص»^(١).

وما في اللوح المحفوظ هو مقتضى علم الله تعالى الذي أودعه إياه، وعلم الله الأزلي لا يتغير ولا يتبدل.

قال تعالى: ﴿مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي أَنْفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَابٍ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَبْرَاهُ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ﴾ [الحديد].

وفي الحديث عن ابن عباس ؓ: «واعلم أن الأمة لو اجتمعت على أن ينفعوك بشيء لم ينفعوك إلا بشيء قد كتبه الله لك، وإن اجتمعوا على أن يضروك بشيء لم يضروك إلا بشيء قد كتبه الله عليك رفعت الأقلام، وجفت الصحف»^(٢).

وكان عمر رضي الله عنه يطوف بالبيت، وهو يبكي ويقول: اللهم إن كنت كتبتني عندك سعيداً فأثبتني، وإن كنت كتبتني عندك شقياً فامحُ شقوتي^(٣).

ومن ذلك الدعاء الوارد عن عبد الله بن مسعود ؓ:

يا ذا المنِّ ولا يُمنُّ عليه، يا ذا الجلال والإكرام، يا ذا الطُّول والإنعام لا إله إلا الله، ظَهَرَ اللاجئِين، وجار المستجيرين، ومأمن الخائفين، إن كنت كتبتني عندك في أم الكتاب شقياً فامحُ عني اسم الشقاء، وأثبتني عندك سعيداً، وإن كنت كتبتني عندك في أم الكتاب محروماً مقترراً عليَّ في الرزق فامحُ حرمانِي ويسِّرْ رزقي، وأثبتني عندك سعيداً موفقاً للخيرات؛ فإنك تقول في كتابك الذي أنزلت: ﴿يَمْحُوا اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثَبِّتُ وَعِنْدَهُ أُمُّ

(١) «صحيح مسلم» برقم (٢٦٤٤).

(٢) من حديث ابن عباس في «جامع الترمذي» برقم (٢٥١٨) وقال: حديث حسن صحيح، و«صحيح سنن الترمذي» (٢٠٤٣) و«المسند» (٢٩٣/١) برقم (٢٦٦٩، ٢٧٦٣، ٢٨٠٣) بإسناد قوي وأوله (يا غلام) والبيهقي في «الشعب» (١٩٥، ١٠٧٤) وفي «الأسماء والصفات» (١٢٦)، وأبو يعلى (٢٥٥٦) والطبراني (١٢٩٨٨).

(٣) «تفسير الطبري» (٤٨١/١٦).

الْكِتَابِ ﴿٣٩﴾^(١).

وقد شاع في بعض البلاد قراءة هذا الدعاء مع سورة يس ثلاث مرات في ليلة النصف من شعبان، مع صلوات خاصة بنية طول العمر وسعة الرزق، ويزعمون أنها الليلة التي يُفَرَّقُ فيها كل أمر حكيم ويبرم، وكل هذا من البدع والجهل والتقليد الأعمى.

والليلة المباركة التي يُفَرَّقُ فيها كل أمر حكيم هي ليلة القدر، ولم يصح في فضل ليلة النصف من شعبان حديث عن رسول الله ﷺ، ولا في مشروعية هذه الصلوات، ولا هذا الدعاء، ولا قراءة سورة يس، والسعادة والشقاء ثابتان لا يتغيران.

وليلة النصف من شعبان تحوَّلت فيها القبلة، وفي شهر شعبان تُرْفَعُ أعمال العام إلى رب العالمين.

ومن المحو والإثبات: أن يتغير حال الإنسان قبل الموت إلى العمل بأعمال أهل السعادة بعد عمل أهل الشقاء، أو العكس.

كما جاء في الحديث عن ابن مسعود رضي الله عنه: «إن أحدكم ليعمل بعمل أهل الجنة، حتى ما يكون بينه وبينها إلا ذراع فيسبق عليه الكتاب، فيعمل بعمل أهل النار فيدخلها، وإن أحدكم ليعمل بعمل أهل النار، حتى ما يكون بينه وبينها إلا ذراع فيسبق عليه الكتاب، فيعمل بعمل أهل الجنة فيدخلها»^(٢).

والم تأمل في الحديث يجد أن الكتاب يسبق عليه في كلتا الحالتين، إن التحول عن العمل يتم؛ ليوافق ما هو ثابت في الأزل، فمعنى ذلك: أن العبرة بالختام، وأنه لا تغيير ولا محو لما هو في علم الله، أو في اللوح المحفوظ من السعادة أو الشقاء، وأن هذا التحويل في العمل قد حدث قبل الموت؛ ليوافق ما هو عند الله تعالى مما كُتِبَ له في الأزل وَفَقَ عِلْمُ الله تعالى عنه.

فالتغيير والتبديل يكون في الفروع والشعب، كأعمال اليوم والليلة؛ التي تكتبها الملائكة، ويجعل الله لثبوتها أسبابًا ولمحوها أسبابًا، كما جعل البر والصلة من أسباب

(١) أخرجه ابن أبي شيبة في «المصنف» (٣٣١/١٠) وابن أبي الدنيا في الدعاء.

(٢) «صحيح مسلم» برقم (٢٦٤٣) و«صحيح البخاري» برقم (٣٢٠٨، ٣٣٣٢، ٦٥٩٤).

طول العمر وسعة الرزق، وكما جعل المعاصي سبباً لمحق بركة الرزق والعمر.

فمن المحو والإثبات ما جاء في الحديث عن ثوبان رضي الله عنه: «إن العبد ليحرم الرزق بالذنب يصيبه، ولا يردُّ القدر إلاَّ الدعاء، ولا يزيد في العمر إلاَّ البر»^(١).

وأيضاً قوله ﷺ من حديث أنس رضي الله عنه: «من أحب أن يبسط له في رزقه وينسأ له في أثره فليصل رحمه»^(٢).

وعن ثوبان أيضاً أن رسول الله ﷺ قال: «لا يزيد في العمر إلاَّ البر، ولا يرد القدر إلاَّ الدعاء»^(٣).

ففي هذه الأحاديث وأمثالها ثلاثة أشياء هي:

أ- الزيادة في العمر بسبب صلة الرحم.

ب- رفع القضاء بسبب الدعاء.

ج - حرمان الرزق بسبب الذنوب، وزيادته بسبب صلة الرحم.

ومعنى ذلك: أن الله تعالى قد علّم في الأزل أن فلاناً من الناس سيصل رحمه، وأنه سيبارك له في عمره أو يُزاد له فيه، ويُوسّع عليه رزقه بسبب هذه الصلة، فكتب الله له السبب والمسبب، وكلاهما مخلوق لله تعالى، أي: أنه سبحانه يجعل زيادة العمر، أو البركة فيه مُرتبة على صلة الرحم، وهذا الأمر يظهر للملائكة في الصحف، ولكنه قديم في علم الله تعالى، ويقال مثل ذلك في رفع القضاء بسبب الدعاء، وحرمان الرزق بسبب الذنب، وهكذا.

(١) «المسند» (٢٢٧/٥) برقم (٢٢٤١٣، ٢٢٤٣٨) قال محققوه: وهو حديث حسن لغيره، لضعف أبي الجعد، و«سنن ابن ماجه» برقم (٩٠) عن ثوبان، وأخرجه ابن أبي شيبة (٤٤١/١٠) وابن المبارك في الزهد (٨٦) والطبراني في الكبير (١٤٤٢) والحاكم (٤٩٣/١) وقوله (إن العبد ليحرم الرزق بالذنب يصيبه) وهي زيادة ضعيفة، وللحديث شواهد دونها.

(٢) «صحيح مسلم» برقم (٢٥٥٧) و«صحيح البخاري» برقم (٢٠٦٧) بنحوه.

(٣) حسنه الألباني في صحيح «سنن ابن ماجه» برقم (٧٣) وصحّحه الحاكم بموافقة الذهبي (٤٩٣/١) وهو في «صحيح ابن حبان» برقم (٨٧٢) «الإحسان» وفي «المسند» (٢٧٧/٥) برقم (٢٢٣٨٦، ٢٢٤١٣) و«المعجم الكبير» للطبراني برقم (١٤٤٢) و«السلسلة الصحيحة» (١٥٤).

والعبرة في ذلك بما يُختم به عمل الإنسان قبل الموت، حيث يكون موافقاً لما هو في اللوح المحفوظ.

وقد استشهد عمر بن الخطاب رضي الله عنه بهذه الآية في خطبته بالشام كما جاء عن السائب بن ملحان، أو ابن مَهْجَان وهو من أهل الشام أدرك الصحابة، قال: لما دخل عمر الشام، حمد الله وأثنى عليه، ووعظ وذكّر، وأمر بالمعروف ونهى عن المنكر، ثم قال: إن رسول الله ﷺ قام فينا خطيباً كقيامي فيكم، فأمر: بتقوى الله، وصلة الرحم، وصلاح ذات البين، وقال: «عليكم بالجماعة، فإن يد الله على الجماعة، وإن الشيطان مع الواحد، وهو من الاثنين أبعد، لا يخلون رجل بامرأة، فإن الشيطان ثالثهما، ومن ساءته سيئته، وسرته حسنة، فهو أمانة المسلم المؤمن، وأمانة النفاق الذي لا تسوؤه سيئته، ولا تسره حسنة، إن عمل خيراً لم يرج من الله في ذلك ثواباً، وإن عمل شراً لم يخف من الله في ذلك الشرّ عقوبة، وأجملوا في طلب الدنيا؛ فإن الله قد تكفل بأرزاقكم، وكل سيتم له عمله الذي كان عاملاً، استعينوا بالله على أعمالكم؛ فإنه يمحو ما يشاء ويثبت، وعنده أم الكتاب» صلى الله على نبينا محمد وآله، و**عليه** ورحمة الله، السلام عليكم.

قال البيهقي: هذه خطبة عمر بن الخطاب رضي الله عنه على أهل الشام، أثرها عن رسول الله ﷺ ^(١).

عَذَابُ الْكُفَّارِ حَاصِلٌ فِي الدُّنْيَا أَوِ الْآخِرَةِ أَوْ فِيهِمَا مَعًا

٤٠- ﴿وَإِنَّمَا تُرِيكُم بِغَضِّ اللَّذِي نَعُدُّهُمْ أَوْ تَتَوَفَّيْتُمْ فَأَنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلْغُ وَعَلَيْنَا الْحِسَابُ﴾ (٤٠)

يقول الله سبحانه لرسوله ﷺ: قد نعجل العذاب في الدنيا لهؤلاء المكذبين لك وأنت موجود بينهم، وقد أراك الله ذلك؛ حيث قتل بعضهم بالسيف يوم بدر، ويوم حنين وسائر المعارك الإسلامية فضلاً عن الخزي والتكال الذي لحق بهم.

وقد نؤخر عذابهم إلى بعد مماتك، كما حدث في حروب الردة وما بعدها، وهذا معنى ﴿وَإِنَّمَا تُرِيكُم بِغَضِّ اللَّذِي نَعُدُّهُمْ﴾ حيث ترى العذاب بعينيك، هذه هي الحالة الأولى.

(١) البيهقي في «شعب الإيمان» (١١٠٨٥).

(٢) معنى (وإن ما) وإن تُرِيكَ، فهي (إن) الشرطية دخلت عليها (ما) لتأكيد معنى الشرط، وقوله: (أو توفيتك) شرط آخر، وجوابه محذوف، تقديره أو توفيتك قبل ذلك، فترك لنا الأمر.

والحالة الثانية جاءت في قوله تعالى: ﴿أَوْ تَوَفَّنَا﴾ أي: نقبض روحك في الدنيا قبل نزول العذاب بهم، وحينئذ فإلينا مرجعهم في الآخرة حيث يُعذبون على النقيير والقطمير، فلا تشغل نفسك بهم، ولا تترقب هلاكهم، فمهمتك التبليغ لا غير، وعلينا حسابهم وعقابهم ﴿إِنَّ إِلَيْنَا إِيَابَهُمْ﴾ (١٥) ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُمْ ﴿١٦﴾ [الغاشية].

نُقْصَانُ الْأَرْضِ مِنْ أَطْرَافِهَا

٤١- ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَأْتِي الْأَرْضَ نَنْقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا وَاللَّهُ يَحْكُمُ لَا مُعَقَّبَ لِحُكْمِهِ وَهُوَ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾

هذه الآية للاتعاظ بانتشار الإسلام وعقوبة المكذبين؛ حيث إن تبشير نصر النبي ﷺ قد ظهرت، وملامح ظفره على الكفار قد طلعت، أو لم يرَ المكذبون لك أنا نمكن للمؤمنين في الأرض، ونفتح لهم البلد تلو البلد، فتتقص ديار الكفر، وتزداد ديار المسلمين.

ونقصان الأرض من أطرافها - معناه: أن أرض الكفر تنتقص بفتحها فتحاً إسلامياً، وأرض الإسلام تتسع، والرقعة الإسلامية تزداد، ويدخل الناس في دين الإسلام أفواجا، فمكة والمدينة هما طرفا بلاد العرب، مكة طرفها من جهة اليمن، والمدينة طرفها من جهة الشام، وقد أسلم أهل البلدين، وزال الكفر منهما، ثم زال الكفر من بقاع جمة في شتى أرجاء المعمورة.

وفي الآية بشرى للنبي ﷺ بأن الله مظهر دينه في حياة نبيه، وهذه بدايته، فقد ابتدأ الإسلام في مكة، ثم المدينة، ثم الجزيرة، ثم الشام، إلى أن انتشر في شرق الأرض وغربها، وهكذا تتسع الرقعة الإسلامية إلى يومنا، وإلى أن يرث الله الأرض ومن عليها، فالمراد: اتساع أرض الإسلام، وانقباض أرض الشرك والكفر بإلحاقها ببلاد المسلمين.

وما حَكَمَ الله به من عقاب الكفار لا يرده أحد، فهو واقع ولا بد، وإن تأخر بعض الوقت، وهو سبحانه سريع الانتقام من الكفار، وسريع المثوبة للمؤمنين، فلا يستعجلون العذاب؛ فكل آت قريب، وهذا كقوله تعالى: ﴿أَفَلَا يَرَوْنَ أَنَّا نَأْتِي الْأَرْضَ نَنْقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا أَفَهُمُ الْغَالِبُونَ﴾ [الأنبياء: ٤٤]؛ وذلك كي يتداركوا أمرهم، ويغيروا أحوالهم، كما قال تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ دَمَّرَ اللَّهُ عَلَيْهِمُ وَلِلْكَافِرِينَ أَمْثَلُهَا﴾ (١٦) [محمد].

وانتقاص الأرض ذاتها قد يكون بانجراف أطراف الجامد منها في المياه.

ومن انتقاص الأرض: موت العلماء، وذهاب الفقهاء، وانتقاص العلم.

ففي الصحيحين من حديث عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنه قال سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إن الله لا يقبض العلم انتزاعاً ينتزعه من الناس، ولكن يقبض العلم بقبض العلماء، حتى إذا لم يترك عالماً اتخذ الناس رؤساء جهالاً، فسألوا فأفتوا بغير علم فضلوا وأضلوا»^(١).

وقال الحسن عن عبد الله بن مسعود: موت العالم ثلثة في الإسلام لا يسدها شيء ما اختلف الليل والنهار.

ومعنى الآية: أَعْمِيَ المَكذِبُونَ برسالة خاتم الرسل عن التفكير والاعتبار، ولم يُبصروا قدرة الله تعالى وقوته القاهرة التي أتت على الأمم القوية الغنية حين كفرت بأنعم الله، ولم تؤمن بسيد المرسلين، فقد بذل الله قوتها ضعفاً، وغناها فقراً، وعزها ذلاً، وأمنها خوفاً، وحصرها في بقعة ضيقة من الأرض، بعد أن كانت مترامية الأطراف، فأين إمبراطورية فارس والروم، وهما أقوى دولتين في العالم عند مجيء الإسلام.

وبعد أن بدأت الدعوة بين جبال مكة، أصبحت الشمس لا تغيب عن ممالك الإسلام في أرض الله الواسعة، حتى في عُقُر دار الدولة المنفردة بالقوة في العصر الحاضر، وقد حَكَمَ الله بعزة الإسلام، وحُكِمَ الله نافذ، ووَعَدَه ناجز، وسوف تخضع كل قوة في العالم لحكم الإسلام ونفوذه بمشيئة الله تعالى، والله يحكم لا معقب لحكمه، وسوف يجازي كل مخلوق على ما قدمت يداه.

٤٢- ﴿وَقَدْ مَكَرَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَلِلَّهِ الْمَكْرُ جَمِيعًا يَعْلَمُ مَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ وَسِعِلَّمُ الْكَفَرُ﴾^(٢)
لِمَنْ عَقِبَ الدَّارِ ﴿٤٢﴾

(١) «صحيح مسلم» برقم (٢٦٧٣) و«صحيح البخاري» برقم (١٠٠، ٧٣٠٧) و«المسند» برقم (٦٥١١)، ٦٧٨٧ بإسناد صحيح على شرط الشيخين، وأخرجه عبدالرزاق (٢٠٤٨١) وابن ماجه (٥٢) والترمذي (٢٦٥٢) والنسائي في الكبرى (٥٩٠٧).

(٢) قرأ ابن عامر وعاصم وحمة والكسائي ويعقوب وخلف (وسيعلم الكفار) جمع تكسير، وقرأ الباقون (وسيعلم الكافر) على الأفراد.

ونقص أرض الكفر من أطرافها؛ من مكر الله تعالى بالكفار؛ جزاء مكرهم بالإسلام، وتدبير المكايد له ولرسوله وأهله، وقد دبر الذين من قبلكم المكايد لرسول الله:

فقد مكر النمرود بإبراهيم عليه السلام، ومكر فرعون بموسى عليه السلام، ومكر اليهود بعيسى عليه السلام.

ومكر المشركون برسول الله ﷺ فدبروا قتله ﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَكْرِينَ﴾ [الأنفال].

كما دبر قوم ثمود قتل صالح عليه السلام ﴿وَمَكَرُوا مَكْرًا وَمَكَرْنَا مَكْرًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ [النمل].

وهذا معنى: ﴿وَقَدْ مَكَرَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ﴾ بالكفر والشرك وقتل الأنبياء، كما مكر المكذوبون بك يا محمد ﴿فَلِلَّهِ الْمَكْرُ جَمِيعًا﴾ حيث يعود عليهم جزاء مكرهم بالندم والحسرة، فيحاسبهم ويعاقبهم يوم لقائه، وينكل بهم في الدنيا، ويصل إليهم العذاب من حيث لا يعلمون.

وهو سبحانه ﴿يَعْلَمُ مَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ﴾ من خير أو شر فيجازي عليه، وسوف يعلم الكفار إذا قدموا على ربهم، ووقع بهم العذاب لمن تكون العاقبة المحمودة، لأتباع الرسل أم للمكذبين لهم؟ وفي هذا تهديد ووعد للكفار.

في حديث ابن عباس رضي الله عنهما أن النبي ﷺ كان يدعو ويقول: «رَبِّ أَعْنِي وَلَا تُعِنِّ عَلَيَّ، وَاَنْصُرْنِي وَلَا تَنْصُرْ عَلَيَّ، وَاْمَكُرْ لِي وَلَا تَمْكُرْ عَلَيَّ، وَاَهْدِنِي وَيَسِّرْ الْهَدْيَ إِلَيَّ، وَاَنْصُرْنِي عَلَى مَنْ بَغَى عَلَيَّ، رَبِّ اجْعَلْنِي لَكَ شَكَارًا، لَكَ ذَكَارًا، لَكَ رَهَابًا، لَكَ مَطَوعًا، إِلَيْكَ مَخْبِتًا، لَكَ أَوَّاهًا مُنِيبًا، رَبِّ تَقَبَّلْ تَوْبَتِي، وَاغْسِلْ حَوْبَتِي، وَأَجِبْ دَعْوَتِي، وَثَبِّتْ حُجَّتِي، وَاهْدِ قَلْبِي، وَسَدِّدْ لِسَانِي، وَاسْلُلْ سَخِيمَةَ قَلْبِي»^(١).

شَهَادَةُ اللَّهِ تَعَالَى وَشَهَادَةُ أَهْلِ الْكِتَابِ عَلَى صِدْقِ الرِّسَالَةِ

٤٣- ﴿يَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَسَتْ مُرْسَلًا قُلْ كَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَمَنْ عِنْدَهُ عِلْمُ الْكِتَابِ﴾

(١) «المسند» (٣/٣٠٩) برقم (١٩٩٧) إسناده صحيح ورجاله كلهم ثقات (محققوه) وأبو داود برقم (١٥١٠)،

(١٥١١) والترمذي برقم (٣٥٥١) والنسائي برقم (٦٠٧) في عمل اليوم والليلة، وابن ماجه برقم (٣٨٣٠)

و«صحيح ابن حبان» (٣/٢٢٧) و«المستدرک» (١/٥١٩) وابن أبي عاصم في كتاب «السنة» برقم (٣٨٤)

وقد صحَّحه الألباني في صحيح «سنن أبي داود» (١٣٣٧) والحاكم (١/٥١٩) وأحمد شاكر في المسند.

ومن مكر الكفار أنهم يظهرون الشك في رسالة محمد ﷺ ويبتنون تكذيبه، وقد بينت آخر آية في سورة الرعد، أنهم أفصحوا عما أبطنوه وصرحوا به، وخرجوا من طور المكر الباطني إلى طور المجاهرة بالكفر، ويقول الذين كفروا: لست -يا محمد- رسولاً من عند الله.

﴿قُلْ﴾ يا محمد لهؤلاء الذين أنكروا نبوتك: حسبي شهادة الله بصدقي وتكذبيكم، وكفى تأييده لي بالمعجزات الباهرات، والآيات الواضحات، فالله حسبي وكافيني.

وحسبي أيضاً شهادة الذين عندهم علم التوراة والإنجيل من اليهود والنصارى، ممن آمن منهم برسالتي، وما جئت به من عند الله، فاتبع الحق وصرح بتلك الشهادة ولم يكتمها.

وكان اليهود قبل الهجرة يشرّون المشركين بمجيء النبي المصدّق للتوراة، ومن أول من آمن به من أهل الكتاب (ورقة بن نوفل) الذي قال في أول ما نزل الوحي على رسول الله ﷺ: هذا هو الناموس الذي نزل على موسى ﷺ، وإن يدركني يومك أنصرك نصرًا مؤزرًا. وكان (ورقة) منفردًا بمعرفة التوراة والإنجيل في وقته.

وممن آمن بالنبي ﷺ عبد الله بن سلام، وسلمان الفارسي، وتميم الداري.

قال قتادة: كان من أهل الكتاب قوم يشهدون بالحق ويعرفونه، منهم عبد الله بن سلام، والجارود، وتميم الداري، وسلمان الفارسي^(١).

وقال الزهري: كان عمر بن الخطاب ؓ شديدًا على رسول الله ﷺ فانطلق يوماً حتى دنا من رسول الله ﷺ وهو يصلي، فسمعه وهو يقرأ ﴿وَمَا كُنْتَ تَسْلُوا مِنْ قَبْلِهِ مِنْ كِتَابٍ﴾ حتى بلغ ﴿الظَّالِمُونَ﴾ [العنكبوت: ٤٨، ٤٩] وسمعه وهو يقرأ ﴿وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَسْتَ مُرْسَلًا﴾ إلى آخر الآية فانتظره حتى سلّم، فأسرع في أثره فأسلم^(٢).

وهذا كقوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ ءَايَةٌ أَنْ يَأْتِيَهِمْ عِلْمُهُمْ بِبَنِي إِسْرَءِيلَ﴾ [الشعراء].

وقوله: ﴿الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ﴾ [الأعراف].

(١) عبد الرزاق (٣٣٩/١) والطبري (٥٨٣/١٣).

(٢) رواه عبد الرزاق مطوّلًا برقم (٩٧١٩).

فالأية تشمل أهل الكتاب جميعًا، ممن لم يكتموا صفة محمد ﷺ في التوراة والإنجيل، وآمنوا به واتبعوه قديمًا وحديثًا.

وفي دلائل النبوة: أن عبد الله بن سلام لقي النبي ﷺ والناس حوله، وكان يجدد العهد بزيارة الكعبة، فقال لرسول الله ﷺ: انعت لنا ربنا، فقرأ عليه سورة الإخلاص، فانصرف إلى المدينة وكتّم إسلامه، فلما قدم النبي ﷺ المدينة كان ابن سلام فوق نخلة، فألقى بنفسه من فوقها، فقالت له أمه: لو كان موسى بن عمران ما كان لك أن تُلقني نفسك من رأس النخلة، فقال: والله إني أسرُّ بقدم رسول الله ﷺ من موسى بن عمران حين بُعث^(١).

قال تعالى: ﴿شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُو الْعِلْمِ﴾ [آل عمران: ١٨]

وقال سبحانه: ﴿فَسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [الأنبياء: ٧].

وقال: ﴿فَإِنْ كُنْتَ فِي شكٍ مِمَّا أَرْسَلْنَا إِلَيْكَ فَسْأَلِ الَّذِينَ يَقْرَأُونَ الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكَ﴾ [يونس: ٩٤].

وقد استشهد القرآن بأهل الكتاب على أن محمدًا رسول الله على أساس أنهم كانوا يؤمنون به قبل بعثته، وكانوا يفتخرون على المشركين الوثنيين بمجيء النبي المصدق للتوراة، وأنهم أول من سيؤمن بالله، فلما جاءهم ما عرفوا كفروا به، وحسدوه ﷺ؛ لأنه من العرب، وليس من ذرية إسرائيل.

وقد أمر الله بالاستشهاد بأهل الكتاب، لأن كل أمر إنما يستشهد فيه بأهله، وهم أهل الشأن في هذا لأنهم أصحاب كتاب بخلاف مشركي العرب فلا فائدة في الاستشهاد بهم لعدم خبرتهم ومعرفتهم.

تم تفسير (سورة الرعد) والله الحمد والمنة.

(١) يُنظر: «دلائل النبوة» (١/ ١٢٥) و«المعجم الكبير» للطبراني برقم (٣٧٢) ولفظه في «تفسير ابن كثير» (٤/ ٤٧٤).

تَفْسِيرُ سُورَةِ إِبْرَاهِيمَ (١٤)

مُقَدِّمَةُ السُّورَةِ

سورة إبراهيم هي السورة الرابعة عشرة في ترتيب المصحف، والسبعون في ترتيب النزول، نزلت بعد سورة الشورى، وقبل سورة الأنبياء، وهي اثنتان وخمسون آية في العدد الكوفي برواية حفص^(١).

وعدد كلماتها ثمان مئة إحدى وثمانون كلمة، وعدد حروفها ثلاثة آلاف وأربع مئة وأربعة وثلاثون حرفاً.

وسورة إبراهيم نزلت على رسول الله ﷺ بمكة المكرمة، ولا يُعرف لها اسم آخر. وموضوع هذه السورة موضوع السور المكية في القرآن كله، والسور المكية تناول ثلاثة عناصر، هذه العناصر الثلاث هي:

العنصر الأول: جانب العقيدة والتوحيد:

فأقامت السورة عشرة أدلة على توحيد الخالق سبحانه في ثلاث آيات، من الآية الثانية والثلاثين إلى الآية الرابعة والثلاثين.

والعنصر الثاني: جانب الرسالة والوحي:

وقد جاء ذكرهما في الآيات السبعة عشر الأولى من السورة.

والعنصر الثالث: هو جانب اليوم الآخر:

وما فيه من بعث وحساب وجزاء، وهو من الآية الحادية والأربعين إلى نهاية السورة. وهذه العناصر بعد أن تحدثت السورة عن وظيفة القرآن، وعن جانب من مظاهر قدرة الله تعالى، وسوء عاقبة المكذبين.

(١) وإحدى وخمسون آية في العدد البصري، وخمس وخمسون في المصحف الشامي، وأربع وخمسون في المصحف المدني الأول والثاني والمكي.

وسورة إبراهيم تتميز عن السور المكية بأسلوب خاص في عرضها للعنصر الثاني؛ فهي حين تتكلم عن وحدة الرسالة لا تتناول دعوة كل رسول مع قومه، وإنما تتناول دعوة الرسل جميعاً، ووحدة الرسالات كلها، كأنها تجعل الرسل في جانب، وتجعل الأقوام، أو الأمم، أو أهل الجاهلية من كل أمة، في جانب آخر.

وتوجّه السورة الخطاب أولاً لرسول الله ﷺ المنزل عليه هذا القرآن، ثم تخص من بين الرسل موسى وإبراهيم عليهم جميعاً أفضل الصلاة وأتم التسليم؛ لأن إبراهيم هو أبو الأنبياء، و خليل الله، ولأن موسى من أولي العزم من الرسل، ومن أكثرهم مكابدة ومثابرة لقومه، ولأن أمته كانت أكثر الأمم قبل أمة محمد ﷺ.

وضربت السورة الأمثال للمكذبين بالرسل من الأمم السابقة؛ كقوم نوح، وعاد، وثمود، ومثلت لكلمة التوحيد بالشجرة الطيبة، وكلمة الكفر بالشجرة الخبيثة، ومثلت أيضاً للكفر والإيمان بقبول أعمال المؤمن، وعدم قبول أعمال الكافر.

وأبرزت السورة بعض مشاهد القيامة في التلاوم الذي يكون بين الضعفاء والمستكبرين، كما أبرزت خطبة الشيطان البتراء يوم القيامة في التبرؤ من أتباعه، وبيّنت سوء مصير الظالمين في نهاية السورة، وتنقسم السورة إلى مقطعين:

المقطع الأول: يصوّر المعركة بين الرسل والأمم المكذبة، أو حقيقة الرسالة والرسول.

والمقطع الثاني: يتحدث عن نعم الله تعالى على البشر، فذكرتهم بنعم الله عليهم، وحرّضتهم على شكرها، وحثّرتهم من كفرها وجحودها، وبيّنت أن شكر النعم يزيدّها، وأن جحودها يستوجب العقاب الشديد، وضربت لهم المثل بمن بدّلوا نعمة الله كفراً، وهم الذين كفروا بالنعمة بدل أن يشكروها ويؤدوا حق الله فيها، فجروا بذلك الوبال عليهم وعلى أقوامهم.

وبيّن جلّ شأنه في سورة إبراهيم أنه أعطانا من كل النعم، وأن نعمه تعالى لا تُعدّ ولا تحصى، ولكن الإنسان كثير الظلم لنفسه، شديد الكفر بربه.

وذكرت الفريقين من أهل الإيمان والكفر بحال إبراهيم عليه السلام؛ ليعلم كل منهما من يسلك طريق الحنيفية السمحة، ومن يتنكب الطريق القويم.

وتناولت السورة سوء عاقبة الظالمين في الدار الآخرة، وأنهم يودّون العودة إلى الدنيا لإجابة دعوة الرسل، فيجيبون: ﴿أَوَلَمْ تَكُونُوا أَقْسَمْتُمْ مِّنْ قَبْلِ مَا لَكُم مِّنْ زَوَالٍ ۖ ﴿٤٤﴾ وَسَكَنْتُمْ فِي مَسَاكِينِ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ وَتَبَيَّنَ لَكُم كَيْفَ فَعَلْنَا بِهِمْ وَضَرَبْنَا لَكُمُ الْآمَثَالَ﴾ [الآيتان: ٤٤، ٤٥].

و﴿يَوْمَ﴾ القيامة ﴿تُبَدَّلُ الْأَرْضُ غَيْرَ الْأَرْضِ وَالسَّمَوَاتُ ۖ وَبَرَزُوا لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ﴾ [الآية: ٤٨].
﴿وَ﴾ عندئذ ﴿تَرَى الْمُجْرِمِينَ يَوْمِئِذٍ مُّقَرَّنِينَ فِي الْأَصْفَادِ ۖ ﴿٤٩﴾ سَرَابِلُهُمْ مِّنْ فَطْرَانٍ وَتَعْشَىٰ وُجُوهُهُمْ النَّارُ﴾ [الآيتان: ٤٩، ٥٠].

وكل نفس توفى جزاء عملها يوم القيامة ﴿فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ ۖ ﴿٥٠﴾ وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ﴾ [الزلزلة: ٥، ٧].

وخُتِمت السورة بكلمات جامعة فيها بلاغ للناس، وإنذار لهم، وتوحيد لخالقهم، وتذكير لأولي الألباب منهم.



تَفْسِيرُ السُّورَةِ

فَاتِحَةُ السُّورَةِ

٢٠١- ﴿الرَّ (١) كَتَبْنَا أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ (٢) بِإِذْنِ رَبِّهِمْ إِلَى صِرَاطٍ (٣) الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ (٤) اللَّهُ (٤) الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَوَيْلٌ لِلْكَافِرِينَ مِنْ عَذَابٍ شَدِيدٍ (٥)﴾

تبدأ سورة إبراهيم بثلاثة أحرف هجائية؛ هي: الألف، واللام، والراء، والله أعلم بأسرار كتابه، وفيها إشارة إلى أن هذا القرآن المعجز مكون من هذه الحروف، وأنه جدير بالتأمل وإعمال النظر فيه، وأن هذا الكتاب الذي نزل على محمد ﷺ إنما هو لإخراج الناس من ظلمات الكفر والجهل والضلال والأخلاق السيئة، إلى نور الإيمان والعلم والأخلاق الحسنة، وهذا هو الغرض الأساس الذي نزل الكتاب من أجله.

كما قال تعالى: ﴿اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ ءَامَنُوا يُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ﴾ [البقرة: ٢٥٧].

وقال: ﴿هُوَ الَّذِي يُنَزِّلُ عَلَى عَبْدِهِ ءَايَاتٍ يَتَّبِعْ لِيُخْرِجَكُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ﴾ [الحديد: ٩].

وهذا الإخراج لا يكون إلا ﴿بِإِذْنِ رَبِّهِمْ﴾ فلا يحصل هذا إلا بإرادة الله.

ثم فسر سبحانه هذا النور الذي يهديهم إليه هذا الكتاب، فبيّن أنه صراط العزيز الحميد، فمن سلك هذا الطريق فهو عزيز بعبء الله، ولو لم يكن له أعوان، وهو محمود في الدنيا والآخرة.

والآيات تجمع الظلمات وتفرد النور؛ لأن الظلمات أو طرق الباطل عديدة كثيرة متنوعة

(١) قرأ أبو جعفر بالسكت بدون تنفس على حروف الهجاء الثلاثة من (الر).

(٢) عدّ (إلى النور) آية، المدني الأول والثاني والمكي والشامي، وترك عدها البصري والكوفي.

(٣) قرأ قبل ورويس بالسين في (صراط)، وأشبه الصاد صوت الزاي خلف عن حمزة، والباقون بالصاد الخالصة.

(٤) قرأ نافع وابن عامر وأبو جعفر برفع الهاء من لفظ الجلالة (الله) وصلّاً بـ (الحميد) قبلها، وابتدأ بلفظ الجلالة على أنه مبتدأ خبره (الذي) أو على أنه خبر لمبتدأ محذوف تقديره: هو الله، وقرأ رويس برفع الهاء في الابتداء، وخفضها في الوصل، والباقون بالجر في الحالين على أنه بدل مما قبله.

ومختلفة؛ فهي ظلمات الكفر والشرك، والغني والضلال، والطغيان والمعاصي، والآثام والذنوب، والجهل والباطل... إلخ، وآيات القرآن تخرجهم إلى طريق الحق والهدى والإيمان. وطريق النور واحد لا يتعدد؛ لأن الحق واحد لا يختلف ولا يتنوع، كما قال تعالى: ﴿وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ﴾ [الأنعام: ١٥٣]. وأسند الإخراج إلى النبي ﷺ؛ لأنه المبلغ عن ربه.

وهذا الإخراج بإذن الله سبحانه؛ لأن وظيفة الرسول ﷺ أنه مبلغ عن ربه، يبشر وينذر، ولكن حقيقة الهدى والضلال بيد الله سبحانه وفق ما عَلَّمَهُ من خلقه، ومن استعدادهم لأن يكون كل منهم من أهل الهدى، أو من أهل الضلال؛ فإخراجهم من الظلمات إلى النور يكون ﴿بِإِذْنِ رَبِّهِمْ﴾ وتوفيقه إياهم إلى الإسلام الذي هو طريق الله وصراطه المستقيم.

ولفظ ﴿النَّاسِ﴾ يفيد عموم الرسالة، وأن محمداً ﷺ بُعث إلى جميع الناس في أرجاء المعمورة إلى قيام الساعة ﴿قُلْ يَتَأْتِيهَا النَّاسُ إِيَّيْ رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا﴾ [الأعراف: ١٥٨] وهو سبحانه العزيز الذي لا يُغلب، وهو المحمود بكل لسان في الأرض وفي السماء، والمحمود في السراء والضراء، والمحمود على كل حال.

الكَافِرُ لَا يَضُرُّ إِلَّا نَفْسَهُ

والله سبحانه لا تنفعه الطاعة، ولا تضره المعصية؛ فهو سبحانه مالك الكون كله، وهو غني عن الناس كلهم، ومسيطر على هذا الكون بما فيه ومن فيه، له ما في السموات وما في الأرض: ملكاً، وخلقاً، وعبيداً، وتصرفاً، وتدييراً، لا يشاركه مشارك، ولا ينازعه منازع، له ملك هذا الكون بعالميه العلوي والسفلي، وهو المستحق للعبادة دون سواه؛ ولذلك فإن الكافر الذي لا يؤمن بالله سبحانه المتبع لغير صراط الله، له الويل والعذاب الشديد يوم لقاء رب العالمين.

وَصَفُ الْكَافِرِينَ بِأَرْبَعِ صِفَاتٍ

٣- ﴿الَّذِينَ يَسْتَحِبُّونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا عَلَى الْآخِرَةِ وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا أُولَٰئِكَ

فِي ضَلَالٍ بَعِيدٍ ﴿٣﴾﴾

ثم وصف الله سبحانه الكفار الجاحدين لآيات الله المكذبين لرسله بأنهم يقاومون الوحي، ويكرهون العيش في ظلاله، يفضلون شهواتهم، ويؤثرون ملذاتهم، ويختارون دنياهم، ويقدمونها على طاعة الله ورسوله والعمل للقائه، ويتركون الآخرة الباقية، فيبيعون دنياهم بنعيم الآخرة، ولا يكتفون بذلك، بل يضعون العقبات في طريق الإسلام؛ حتى يتعد الناس عنه ويصدوهم عن سبيل الله.

إنهم يقاومون الدعوة، ويعرقلون الطريق أمامها، ويمنعون الناس من اتباع دين الله، ويقفون حائلًا مانعًا من وصول كلمة الحق إلى عباد الله، ويريدون لكلمة الحق أن تكون معوجة، ويريدون لهذا الدين أن يكون فيه انحراف، وأن يكون معوجًا؛ ليوافق هواهم، فهم ييغونها طريقًا عوجًا، وقد وصف الله الطريق المعتدل في الجانب المحسوس بقوله: ﴿فَيَذَرُهَا قَاعًا صَفْصَفًا ۖ لَا تَرَىٰ فِيهَا عِوَجًا وَلَا أَمْتًا ۗ﴾ [طه]

وهكذا طريق الحق والنور، طريق معتدل مستقيم.

كما قال تعالى: ﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدَىٰ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ۝٥١ صِرَاطِ اللَّهِ﴾ [الشورى].

وقد وصف الله الكفار في الآية بأربع صفات هي:

١- محبتهم الدنيا دون الآخرة.

٢- صدهم الناس عن دين الله.

٣- رغبتهم في أن يكون دين الله موافقًا لهواهم.

٤- بُعدهم عن طريق الحق، وأسباب الهداية.

وهكذا وصف الله الظالمين، ووصف أهل الكتاب، ووصف غير المؤمنين باليوم الآخر، ووصف المشركين بالله تعالى.

أ- فجاء وصف الظالمين في قوله سبحانه: ﴿أَلَا لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ ۝٧٨ الَّذِينَ يَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا﴾ [هود: ١٨، ١٩] وقوله: ﴿فَإِذْ مَوْذَنُ بَيْنَهُمْ أَن لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ ۝٤٤﴾

الَّذِينَ يَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا﴾ [الأعراف: ٤٤، ٤٥]

ب- وعن أهل الكتاب يقول سبحانه: ﴿قُلْ يَتَّاهِلَ الْكَاتِبُ لِمَ تَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ مَن ءَامَنَ تَبِعُونَهَا عِوَجًا وَأَنْتُمْ شُهَدَاءُ﴾ [آل عمران: ٩٩]

ج- ثم وصف الله تعالى المكذبين باليوم الآخر بالضلال؛ بسبب صدهم الناس عن سبيل الحق، وابتغائهم سبيل الباطل، كما قال تعالى: ﴿أَلَا إِنَّ الَّذِينَ يُمَارُونَكَ فِي السَّاعَةِ لَفِي ضَلَالٍ بَعِيدٍ﴾ [الشورى: ١٨] وقوله: ﴿بَلِ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ فِي الْعَذَابِ وَالضَّلَالِ الْبَعِيدِ﴾ [سبأ: ٨] د- كما جاء وصف المشركين بالله بالضلال أيضًا، في مثل قوله: ﴿وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا بَعِيدًا﴾ [النساء: ١١٦].

والذي يمنع الناس من الدخول في الإسلام؛ طلبًا لمرضاة الهوى والشيطان، كمن يمنع المارة من عبور الطريق.

وهؤلاء قد عطلوا مداركهم ومواهبهم عن تدبر آيات القرآن.

العَرَبِيَّةُ هِيَ اللِّسَانُ الْمُخْتَارُ لِلرَّسَالَةِ الْآخِرَةِ

٤- ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانٍ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ فَيُضِلَّ اللَّهُ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِيَ مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾

ثم إن الكفار في كل زمان ومكان يقولون: هلاً نزل هذا القرآن بغير لغة العرب؛ كالعبرانية، أو البلجيكية، أو الإنجليزية، أو الفارسية؛ ظناً منهم أن للكتب الإلهية لغة خاصة تنزل بها، كما زعم السراج البلقيني أن لغة الملائكة ولغة الأرواح وسؤال الميت يكون باللغة السريانية، وهو زعم غير صحيح.

وكان من يتهوّد أو يتنصّر من العرب -كعرب اليمن- تُترجم لهم بعض التوراة، أو الإنجيل بالعربية، كما جاء في حديث ورقة بن نوفل في كتاب بدء الوحي من صحيح البخاري، فاستقر في نفوس المشركين أن القرآن لو كان من عند الله لكان باللغة التي جاءت بها الكتب السابقة، فكانت عريية القرآن عندهم وجهًا من وجوه الطعن فيه، أنه منزل من الله تعالى.

وفي هذه الآية إجابة على هذا الزعم الفاسد؛ فكل رسول أرسله الله بلسان قومه؛ ليسهل التفاهم والتخاطب بينهم، وليمكنوا من تعلّم ما أتى به، ولو كان الوحي بغير لسانهم لا احتاجوا إلى تعلم تلك الله حتى يفهموا عن الله مراده.

وقبل هذه الآية قوله تعالى: ﴿كَتَبْنَا أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ﴾ فيكون المعنى: أنزلنا إليك يا محمد، هذا القرآن بلغة قومك؛ لتبين لهم الذي أوحينا إليك، فتخرجهم من الظلمات إلى النور، وما من رسول أرسلناه إلى قومه إلا بلسانهم؛ ليبين لهم.

فكل رسول يُبعث إلى أمته بلغتهم، وقوم محمد ﷺ هم العرب، أما أمته المبعوث إليهم فهم الناس كافة، وقد نزل القرآن بلغة العرب؛ لأن النبي ﷺ منهم، وهم أول من تلقى الوحي، ومن المتعذر أن ينزل القرآن بلغة الأمم جميعاً، فاختار الله رسوله من أفصح الأمم لساناً، وأحسنهم استعداداً لقبول الهدى والإرشاد، ولم يؤمن برسول من رسل الله في حياته عدد من الناس مثل العدد الذي آمن بمحمد ﷺ؛ فقد عم الإسلام في حياته بلاد العرب، وحج معه مئة ألف من الرجال المستطيعين للحج.

وقد اختار الله لغة العرب للكتاب الخاتم؛ لأنها أصلح اللغات وأكثرها جمعاً للمعاني، وهي أكثر من غيرها إيجازاً وسهولة وسرعة للحفظ، ولها جمال ووقع في الأسماع، ولأنها أبعد من التحريف، وأسلم من الاختلاف.

وجُعِلَت الأمة العربية هي المتلقية له في البداية، وعَهِدَ الله إليها نشره بين الأمم.

ولو نزل القرآن بجميع اللغات لكان هذا مظنة للتنازع، وفتحاً لباب الاختلاف، وادّعت كل أمة من المعاني في لغتها ما لا يعرفه غيرها من بقية اللغات، فيفضي هذا إلى التغيير، والتبديل، والتصحيف؛ بسبب الدعاوى الباطلة التي يقع فيها المتعصبون.

ونزول القرآن بلغة واحدة، مع اختلاف الأمم وتباين اللغات، أبلغ في اجتهاد المجتهدين في تعليم معانيه، وتفهم فوائده وأسراره وعلومه، وحدوده وأحكامه.

إذاً فقد بعث الله محمداً ﷺ من العرب ولسانهم، والناس تبع لهم؛ ليتزجروا لهم بألسنتهم، ويدعوهم إلى الله تعالى بلغاتهم، والعرب آثمون بالنسبة لأي لغة في العالم لا يصل إليها القرآن بلغتهم؛ لأن بعثة النبي ﷺ إلى الخلق جميعاً.

﴿قُلْ يَتَاتِبُهَا النَّاسُ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا﴾ [الأعراف: ١٥٨]

﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا﴾ [سبا: ٢٨]

بل إنه ﷺ رسول إلى الثقلين: الإنس، والجن، بل عمت رسالته ﷺ العالمين جميعاً، فهي رسالة شريف بالنسبة للملائكة ﴿تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا﴾ ﴿١﴾ [الفرقان].

ولو نزل القرآن في العرب بلغة العجم ما آمنوا به ﴿وَلَوْ نَزَّلْنَاهُ عَلَى بَعْضِ الْأَعْجَمِينَ﴾ ﴿١٩٨﴾ فَقَرَأَهُ عَلَيْهِمْ مَا كَانُوا بِهِ مُؤْمِنِينَ ﴿١٩٩﴾ [الشعراء]

﴿وَلَوْ جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا عَجَمِيًّا لَقَالُوا لَوْلَا فُصِّلَتْ آيَاتُهُ ۖ أَعِجْبِي ۖ وَعَرَبِي ۚ قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدًى وَشِفَاءٌ ۚ وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِي آذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى﴾ [فصلت: ٦٤].

فما من رسول أرسله الله إلى قومه إلا بلغة هؤلاء القوم؛ كي يفهموا عن الله مراده، وليبين لهم شرعه وأحكامه بلغتهم التي يفهمونها، كما جاء عن عليّ ﷺ: حدثوا الناس بما يعرفون، أتريدون أن يكذب الله ورسوله؟! (١).

فإذا قال لهم شيئاً لا يفهمونه فإنه يكون مثاراً للخلاف والجدل وعدم الفهم، ولذا، فقد أرسل الله لكل أمة رسولاً بلغتهم؛ ليوضح لهم شرع الله تعالى.

ففي الحديث عن أبي ذر ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: «لم يبعث الله نبياً إلا بلغة قومه» (٢).

وفي الصحيحين عن جابر ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «أعطيت خمسا لم يعطهن أحد قبلي، كان كل نبي يبعث إلى قومه خاصة، وبُعثت إلى كل أحر وأسود، وأُحِلَّت لي الغنائم، ولم تحل لأحد قبلي، وجُعِلَتْ لي الأرض طيبة طهوراً ومسجداً، فأُتيما رجل أدركته الصلاة صلى حيث كان، ونُصرت بالرعب بين يدي مسيرة شهر، وأُعطيت الشفاعة» (٣).

قال ابن عباس ﷺ: إن الله تعالى فَضَّلَ محمداً على أهل السماء وعلى الأنبياء، قيل: فما فضله على أهل السماء؟ قال: إن الله قال لأهل السماء: ﴿وَمَنْ يَقُلْ مِنْهُمْ إِنِّي إِلَهُ مِنْ دُونِهِ فَذَلِكَ نَجْزِيهِ جَهَنَّمَ﴾ [الأنبياء: ٢٩] وقال لمحمد ﷺ: ﴿لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ

(١) من قول عليّ ﷺ في البخاري برقم (١٢٧).

(٢) «المسند» (١٥٨/٥) برقم (٢١٤١٠) قال محققوه: مثته صحيح ورجاله ثقات رجال الصحيح، وفيه انقطاع في السند بين مجاهد وهو ابن جبير وأبي ذر، وأخرجه البزار في مسنده (٤٠٥٤) والحميدي (١٣٣) وابن ماجه (٩٢٧) وابن خزيمة (٧٤٨).

(٣) «صحيح مسلم» برقم (٥٢١) واللفظ له و«صحيح البخاري» بأرقام: (٣٣٥، ٤٣٨، ٣١٢٢).

وَمَا تَأْخُذُكَ [الفتح: ٢] فكتب له براءة من النار.

قيل له: فما فضله على الأنبياء؟ قال: إن الله يقول: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانٍ قَوْمِهِ﴾ وقال لمحمد صلى الله عليه وسلم: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِلنَّاسِ﴾ [سبأ: ٢٨] فأرسله إلى الإنس والجن^(١).

وكل نبي بُعث إلى قوم كان بلغتهم، واختصَّ محمد ﷺ بعموم الرسالة، وكانت العربية هي نقطة الانطلاق إلى لغات العالم، ولو نزل القرآن بغيرها لدار السؤال.

وأمة محمد ﷺ اختار الله لها هذا الرسول العربي من بين العرب في بقعة تتوسط العالم، واختار لها هذه اللغة، ولم ينزل القرآن بلغات الأمم جميعاً، إنما أنزله الله بلسان واحد هو العربية، ومهمة الدعاة إلى الله بعد محمد ﷺ أن يترجموا معاني هذا القرآن، ويوصلوها بلغات العالم جميعاً، ويبلغوا هذه الدعوة للناس جميعاً.

فالنبي ﷺ لم يمت إلا والإسلام قد انتشر في جزيرة العرب كلها، وقبل أن يموت ﷺ جهز جيش أسامة؛ لإرساله إلى أطراف الجزيرة وإلى الشام، ثم امتد الإسلام بعد ذلك إلى خارج الجزيرة، فأرسل الرسول ﷺ -وهو حي- كتبه إلى المقوقس، وإلى النجاشي، وإلى كسرى وقيصر، وغيرهم من الملوك والرؤساء، أرسل إليهم بلغاتهم يدعوهم إلى الإسلام، ولو كان القرآن بهذه اللغات المتعددة لكانت أساليبه مختلفة، وألفاظه متباينة، ومعانيه تبعاً لذلك مختلفة، ولكن القرآن كان واحداً بلسان العرب، وتبليغ الدعوة إلى الناس كافة مهمة هذه الأمة، حكماً وعلماء.

وقد أصبح توصيل دعوة رسول الله ﷺ عبر الفضائيات، وشبكة المعلومات، ووسائل الإعلام المتعددة، والأجهزة العالمية الحديثة إلى العالم كافة، سهلة وميسورة.

وبعد أن يبين لهم الرسول هدى الله وشرعه، ويُقيم عليهم الحجة، يضل الله من يشاء، ويهدي من يشاء على يدي هذا الرسول، فمن كان فيه استعداد للضلال بسبب زيغ قلبه فطريقه الضلال، ومن كان فيه استعداد للهدى بسبب هداية في قلبه واستقامة منه فطريقه

(١) أخرجه أبو يعلى كما في «مجمع الزوائد» (٢٥٥/٨) والطبراني في «الكبير» (١١٦١٠) والحاكم (٣٥٠/٢) والبيهقي في «الدلائل» (٤٨٦/٥) قال الهيثمي: رجاله رجال الصحيح غير الحكم بن أبان وهو ثقة.

الهدى، وذلك وفق علم الله تعالى منه في الأزل، وقد سُجِّلَ هذا في اللوح المحفوظ قبل أن يخلق الله الإنسان، وهو سبحانه عزيز في ملكه لا يغلبه غالب، حكيم في صنعه يضع الأمور في مواضعها وفق حكمته ومشيتته.

مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ يُذَكِّرُ قَوْمَهُ بِنِعَمِ اللَّهِ وَنَقَمِهِ

٥- ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَى بِآيَاتِنَا أَنْ أَخْرِجْ قَوْمَكَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ^(١) وَذَكِّرْهُمْ بِآيَاتِنَا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ^(٢) شَكُورٍ ﴿٥﴾

ثم أفرد الله سبحانه بالذكر من بين الرسل، موسى ﷺ في دعوته لقومه خاصة، بعد أن وجَّه سبحانه الخطاب إلى محمد ﷺ صاحب الرسالة العامة الخاتمة لجميع الرسالات.

أي: وكما أنزل الله كتابه على محمد خاتم الأنبياء؛ ليخرج الناس من الظلمات إلى النور، وليعلمهم أن الحياة الدنيا مرحلة إلى ما بعدها، أرسل الله من قبله موسى ﷺ؛ لينقذ قومه من ظلمات الكفر إلى نور الإيمان، ويدعوهم إلى إخلاص العبادة لله وحده، وينقذهم أيضًا من ظلمات الذل والعبودية، ويؤمن عليهم بالحرية المطلقة: حرية العقل، والضمير، والحركة، والمرح، في نعم الله تعالى، ولم يطلب موسى من قومه أكثر من أن يذكروا فضل الله عليهم، ويعرفوا حق صاحب الفضل، فيؤدوا واجب شكره، ويقدره حق قدره، فقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَى﴾ إلى بني إسرائيل ﴿بِآيَاتِنَا﴾ الدالة على صدق رسالته يدعوهم إلى الإيمان، ويخرجهم من الضلال إلى الهدى، ويذكرهم بنعم الله وإحسانه إليهم، ويذكرهم بحوادث الدهور ووقائع الأيام بالكافرين، ليذكروا نعمه ويحذروا عقابه ويستدلوا بأيام الله على كمال قدرته وعميم إحسانه، وتمام عدله وحكمته.

وقد أيَّد الله موسى بالمعجزات الدالة على صدقه؛ وهي التوراة التي نزلت عليه، والمعجزات التسع: العصا، واليد، والجراد، والقُمَّل، والضفادع، والدَّم، والجَدَب، ونقص الثمرات، أو فلق البحر، ونق الجبل.

فالمهمة واحدة؛ مهمة الدعوة عند محمد ﷺ هي نفس المهمة عند موسى ﷺ، وسائر

(١) عدَّ (إلى النور) آية، الحجازيون والشامي، وتركها العراقي.

(٢) قرأ البصري ودوري الكسائي بإمالة ألف (صبار)، وقللها ورش، وفتحها الباقون.

الرسل؛ وهي إخراج الناس من الظلمات إلى النور.

وبالنسبة إلى محمد ﷺ قال ﷺ: ﴿لِنُخْرِجَ النَّاسَ﴾ أي: تخرج الخلق جميعاً في أرجاء المعمورة، وإلى أن يرث الله الأرض ومن عليها ﴿مَنْ أَظْلَمُ مَنِ إِلَى النُّورِ﴾.

أي: من الكفر إلى الإيمان، ومن الشرك إلى التوحيد، ومن الضلالة إلى الهدى.

أما بالنسبة إلى موسى ﷺ، فقال تعالى: ﴿أَنْتَ أَخْرِجْ قَوْمَكَ﴾ فهي دعوة خاصة بقومه الذين طال عليهم الأمد بعد يوسف ﷺ، فسرى إليهم الشرك؛ بسبب مخالطتهم للفراعنة في مصر، فكانت رسالة موسى ﷺ؛ لإصلاح عقيدتهم، وإخراج بني إسرائيل من مصر، ودعوة فرعون وقومه إلى التوحيد.

فالدعوة واحدة، ولكنها عامة في الرسالة الأخيرة، وقد قال الله سبحانه عن جميع الرسل: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانٍ قَوْمِهِ﴾

وقال تعالى بالنسبة لمحمد ﷺ: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾ [الأنبياء]

فكل رسول له دعوة خاصة، لها زمان معين، ومكان معين.

ثم أمر الله موسى ﷺ أن يعظ قومه بالترغيب والترهيب، والوعد والوعيد، وأن يذكّرهم بالأيام التي نجّى الله فيها بني إسرائيل من عدوهم.

وقد مرّ ببني إسرائيل أيام غمّهم الله فيها بكثرة النعم، وأيام أخرى أصيبوا فيها بالنقم، وقد أمرهم الله أن يتذكروها، فقال تعالى: ﴿وَذَكِّرْهُمْ بِأَيِّمِ اللَّهِ﴾.

عن أبيّ بن كعب ؓ قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إنه بينما موسى ﷺ في قومه يذكّرهم بأيام الله، وأيام الله نعماءه وبلاؤه إذ قال: ما أعلم في الأرض رجلاً خيراً وأعلم مني...» الحديث^(١)، قال تعالى: ﴿وَتِلْكَ الْآيَاتُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ﴾ [آل عمران: ١٤٠].

والأيام كلها أيام الله، والمراد: الأيام التي فيها المحن والشدائد، والبلاء والعبر، وفيها كثرة النعم كفلق البحر، وإنزال المَنِّ والسَّلْوَى، وتظليل الغمام، وغير ذلك.

(١) «صحيح مسلم» برقم (٢٣٨٠)، من حديث طويل في قصة موسى والخضر.

صح عن النبي ﷺ أنه فسّر أيام الله قال: «نعم الله وآلاؤه»^(١).

فيذكرهم موسى ﷺ بنعم الله ونقمه، ويذكرهم بما حدث للأمم السابقة؛ كقوم نوح، وعاد، وثمود؛ حتى يشكروا، ويصبروا، ويعتبروا، ولا يغفلوا.

وفي هذا التذكير، دلالات لكل من: صبر في الضراء والعسر والضيق، وشكر على السراء والنعمة؛ فالمؤمن إن أصابته سراء فشكر كان خيرًا له، وإن أصابته ضراء فصبر كان خيرًا له، فهو إذا ابتلي صبر، وإذا أُعطي شكر.

مِنْ نِعَمِ اللَّهِ تَعَالَى عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ: نَجَاتُهُمْ مِنْ فِرْعَوْنَ

٦- ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ أَذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ أُنْجَيْنَاكُمْ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُوءُ كَيْدَ الْغُلَّابِ وَيَذِيحُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ وَفِي ذَلِكُمْ بَلَاءٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَظِيمٌ﴾

ومن أيام الله التي فيها تذكير موسى لبني إسرائيل بنعم الله عليهم حين نجّاهم الله من فرعون وقومه، فعبر بهم موسى البحر الأحمر، ونجّاهم الله من الغرق؛ كي يشكروه سبحانه.

وهذا يذكرنا بما عليه اليهود في أيامنا هذه من: إفساد في الأرض، واستعلاء وجبروت، وتخطيط شامل لنسف من عداهم، وانفرادهم بالحكم والقوة مع أن اليهودية قد نسختها رسالة عيسى ﷺ، ورسالة محمد ﷺ نسخت رسالة عيسى ﷺ، ولم يبقَ لليهودية، ولا غيرها من الشرائع وجود في ظل الرسالة الإسلامية، فلماذا هذا الطغيان؛ طغيانهم في وقت نبيهم، وطغيانهم في هذا العصر بعد وجود عيسى ومحمد عليهما السلام؟

ومن هذه النعم التي أنعم الله بها على بني إسرائيل أن نجّاهم من آل فرعون، وكانوا يذيقونهم أشد العذاب، ويسخّرونهم في الأعمال الشاقة التي كانوا يتولونها من حفر وبناء، فيستغلّونهم ويذلّونهم، ويذبحون الذكور منهم ويستبقون الإناث؛ حتى لا يأتي منهم من يستولي على ملك فرعون.

(١) صحّ هذا عن أبي بن كعب في زوائد «المسند» برقم (٢١١٢٨) عن عبد الله بن أحمد وقال محققوه: حديث صحيح وهو في «السنن الكبرى» للنسائي (١١٢٦٠) وعند البيهقي في «الشعب» (٤٤١٨)، وعبد بن حميد (١٦٨) والطبري في التفسير (١٨٤/١٣).

قيل: وكان فرعون قد رأى في منامه رؤيا فسرها له الكهنة بأن مولودًا يولد من بني إسرائيل يكون زوال ملكه على يديه، فأراد فرعون أن لا يبقى فيهم قوة، وأن يقتل الذكور؛ حتى لا يخرج منهم هذا الذي يسلبه ملكه، وأن يستبقي الإناث للخدمة والاستمتاع، كما قال تعالى: ﴿وَإِذْ نَجَّيْنَاكَ مِنَ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكَ سُوءَ الْعَذَابِ يُدَبِّحُونَ أَبْنَاءَكَ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكَ وَفِي ذَٰلِكُمْ بَلَاءٌ مِّن رَّبِّكَ عَظِيمٌ ۝١٩﴾ [البقرة]

وفي هذا البلاء والإنجاء اختبار لكم من ربكم عظيم.

قال تعالى: ﴿وَبَلَّوْكُمْ بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً﴾ [الأنبياء: ٣٥]

وقال سبحانه ﴿وَبَلَّوْنَهُمْ بِالْحَسَنَاتِ وَالسَّيِّئَاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ [الأعراف: ١٦٨].

الشُّكْرُ يَزِيدُ النِّعَمَ وَعَدَمُ الشُّكْرِ كُفْرٌ بِهَا

٧- ﴿وَإِذْ^(١) تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِنْ كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ ۝٧﴾

واذكروا -أيها الناس - نعمة الله عليكم؛ إذ أعلمكم الله إعلامًا واضحًا مؤكدًا أنكم إن شكرتموه على نعمه زادكم من عطائه، وإن جحدتموها واستعملتموها في غير ما يرضيه محققها من أيديكم، وهذه سُنَّةُ الله في خلقه؛ النعم تزيد بكثرة الشكر، كما يزيد الثواب بكثرة الطاعة.

وفي الحديث عن ثوبان رضي الله عنه: «إن العبد ليحرم الرزق بالذنوب يصيبه»^(٢).

فالمعصية يقع فيها العبد فيحرم الرزق بسببها.

وفي مسند الإمام أحمد وغيره عن أنس رضي الله عنه أن رجلًا مرَّ بالنبي ﷺ، وسأله فأعطاه تمرًا، فردها الرجل ولم يقبلها؛ لأنها تمر واحدة، ثم مر سائل آخر فأعطاه النبي هذه التمرة، فأخذها الرجل، وقال تمر من رسول الله، أي: يكفي أنها من رسول الله، وفرج بها الرجل وشكر الله، فلما رأى النبي ﷺ قناعته، قال للجارية: «أذهبي إلى أم سلمة

(١) أدغم الذال في التاء من (وَإِذْ تَأَذَّنَ) البصري وهشام وحزمة والكسائي وخلف، وأظهرهما الباقون.

(٢) حسَّنه العراقي في «زوائد البوصيري» (٦١/١) وهو في «المسند» (٨٠/٥) برقم (٢٢٤٣٨، ٢٢٤١٣)

و«سنن ابن ماجه» برقم (٩٠)، وانظر تخريجه في الآية (١٣٩) من سورة الرعد.

فَاعْطِيهِ الْأَرْبَعِينَ دِرْهَمًا الَّتِي عِنْدَهَا»^(١).

ولم يستبق شيئاً في بيته أو لنفسه، فإن شكرتم الله على نعمه زادكم من فضله، وشكروها يكون بالقول والعمل والسلوك، وإن كفرتم نعم الله عليكم؛ جحدتموها ولم تشكروها ﴿إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ﴾.

وشكر النعمة يقتضي القيام بواجب حق الله فيها، وعدم الاستعلاء بها على الناس، ونسبة الفضل فيها إلى الله تعالى، ولا يكون العبد كما قال قارون: ﴿إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ عِنْدِي﴾ [القصص: ٧٨] فينسب لنفسه أنه جدير بها، مستحق لها؛ بمقتضى علمه وخبرته، أو وراثته للمال والمتاع عن غيره، قال تعالى: ﴿إِنْ تَكْفُرُوا فَإِنَّ اللَّهَ عَنِّيْ عَنكُمُ وَلَا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ الْكُفْرَ وَإِنْ تَشْكُرُوا يَرْضَهُ لَكُمْ﴾ [الزمر: ٧].

ضَرَرُ الْكُفْرِ يَعُودُ عَلَىٰ فَاعِلِهِ

٨- ﴿وَقَالَ مُوسَىٰ إِنْ تَكْفُرُوا أَنْتُمْ وَمَن فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا فَإِنَّ اللَّهَ لَغَنِيٌّ حَمِيدٌ﴾

ثم أعلمهم موسى ﷺ أن ضرر جحودهم وكفرهم يعود عليهم، وفائدة شكرهم وطاعتهم تعود عليهم، فإن شكرتم أنتم وجميع الخلائق فلن تنفعوه شيئاً، وإن كفرتم أنتم وجميع الخلائق فلن تضروه شيئاً؛ إن الله غني عن عبادة خلقه؛ فالطاعة لا تنفعه، ولا تضره المعصية: «يا عبادي لو أن أولكم وآخركم، وإنسكم وجنكم كانوا على أتقى قلب رجل منكم ما زاد ذلك في ملكي شيئاً».

يا عبادي لو أن أولكم وآخركم، وإنسكم وجنكم كانوا على أفجر قلب رجل منكم ما نقص ذلك من ملكي شيئاً.

يا عبادي لو أن أولكم وآخركم، وإنسكم وجنكم قاموا في صعيد واحد فسألوني فأعطيت كل واحد مسأله ما نقص ذلك مما عندي إلا كما ينقص المخيط إذا أدخل البحر»^(٢).

(١) يُنظَرُ هذا المعنى في: «المسند» (٣/١٥٤) بسند فيه مقال لأن ابن راذان مختلف فيه ورقمه (١٢٥٧٤)،

(١٣٧٣١)، وهو عند البيهقي في شعب الإيمان (٩١٣٥).

(٢) من حديث أبي ذر في «صحيح مسلم» برقم (٢٥٧٧).

والله سبحانه غني عن خلقه، مستحق للحمد والثناء من جميع خلقه.

الاعْتِبَارُ بِمَا حَلَّ لِلْأُمَمِ الَّتِي كَذَبَتْ رُسُلَهَا

٩- ﴿أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَأُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ^(١) وَالَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ لَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا اللَّهُ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ^(٢) بِالْبَيِّنَاتِ فَرَدُّوا أَيْدِيَهُمْ فِي أَفْوَاهِهِمْ وَقَالُوا إِنَّا كَفَرْنَا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ وَإِنَّا لَفِي شَكٍّ مِمَّا تَدْعُونَنَا إِلَيْهِ مُرِيبٍ^(٣)﴾

والآية التاسعة من سورة إبراهيم فيها تذكير بأيام الله في نعمته من الأمم الكافرة، وهذه الآية وما بعدها تحمل قصة الرسل جميعاً مع أممهم في مواجهة الكفر، وتبين عاقبة الأمم المكذبة التي لم تهتد بهذي الرسل، ولم تقتف أثرهم، في كل زمان ومكان؛ كي تعتبر هذه الأمة، وتتعظ بما أصاب المكذبون؛ لئلا يحدث لها ما حدث لغيرها.

يخاطب الله بذلك أمة الإجابة الذين أجابوا رسول الله ﷺ، واستجابوا لدعوته، ويخاطب أيضاً غير المسلمين من: اليهود، والنصارى، وسائر الكفار من الوثنيين وغيرهم إلى قيام الساعة، من أمة الدعوة التي وُجِّهت إليها دعوة المصطفى ﷺ، ويطلب منها الدخول في الإسلام.

ألم يأتكم -يا أمة خاتم الرسل- خبر الأمم السابقة، وماذا حدث لهم حين كذبوا رسلهم، ووقفوا في وجوههم، ولم يهتدوا بهذيمهم؛ كقوم نوح وما حل بهم من الطوفان، وقوم عاد وثمود، كيف أبادهم الله وخرَّب ديارهم؟ وما حل بالمكذبين بعدهم كقوم لوط الذين قلب الله ديارهم وأمطرهم بحجارة من سجيل، وما أصاب قوم شعيب، وأصحاب الرِّس، وقوم تُبَّع، فهم من العرب يقيمون في مساكنهم وبلادهم، وهم يمرون على ديارهم في غُدُوِّهم ورواحهم، ويخبر بعضهم بعضاً بما حدث لهم، وكذا الأمم التي بعدهم ولا يحصي عددهم إلا الله، وهم غير الأمم التي ذُكرت في القرآن، ورسَل كثيرون لا يحصي عددهم إلا رب العالمين، ومنها أمم قد مضت وانتهت وطوى التاريخ صفحاتها فاندثرت معالمها، ولم تُعَلَّم للبشر، ولا يعلمها إلا رب العالمين.

(١) (وعاد وثمود) عدّها آية البصري والمكي والمدنيان وأسقطها من العدد الشامي والكوفي.

(٢) قرأ أبو عمرو بإسكان السين من (رسلهم)، والباقون بضمها، وهما لغتان، ومثلها (رسلهم) في الآية التالية.

كان ابن مسعود رضي الله عنه عندما يقرأ هذه الآية يقول: كذب النّسّابون من فوق عدنان، أي: الذين يدّعون علم النسب إلى آدم؛ وذلك لأن الله سبحانه قد نفى علمه عن العباد، كما نفى علم الإنسان عن كثير من الأمم والرسل قال سبحانه: ﴿وَقُرُونًا بَيْنَ ذَلِكَ كَثِيرًا﴾ [الفرقان: ٣٨] وقال أيضًا: ﴿ثُمَّ أَنْشَأْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ قُرُونًا آخَرِينَ﴾ ﴿٤٢﴾ [المؤمنون] فقد أجملهم القرآن، ولم يفصل أسماءهم ولا ديارهم، كما قال تعالى: ﴿وَرُسُلًا قَدْ قَصَصْنَاهُمْ عَلَيْكَ مِنْ قَبْلُ وَرُسُلًا لَمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ﴾ [النساء: ١٦٤].

عن ابن عباس رضي الله عنه قال: كان بين إبراهيم وعدنان ثلاثون قرنًا لا يعلمهم إلا الله. وذكر المهدوي: أن بين عدنان وإسماعيل ثلاثين أبا^(١).

وهذه الأمم جاءتهم رسلهم بالبينات، أي: المعجزات الدالة على صدق دعواهم. وفي سورة الأعراف، وهود، وغيرهما من السور التي فيها ذُكر قصص الأنبياء ذُكر الله فيها قصة كل رسول مع قومه: قصة نوح مع قومه، وقصة هود مع قومه، وقصة صالح مع قومه، وهكذا.

وفي سورة إبراهيم إجمال لهذه القصص كلها، وما حدث على وجه الإجمال مع جميع الرسل في كل زمان ومكان، وقد جاؤوا أقوامهم بالمعجزات والخوارق الدالة على رسالتهم، وعلى صدق دعواهم فلم يؤمنوا.

كما جاء في الحديث عن أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «ما من الأنبياء نبي إلا أعطي من الآيات ما مثله آمن عليه البشر».

أي: ما من نبي إلا وقد أيّده الله بمعجزة وآية، دالة على صدق رسالته يؤمن على مثلها البشر، قال ﷺ في تنمة الحديث السابق: «وإنما كان الذي أوتيت وحيا أوحاه الله إليّ، فأرجو أن أكون أكثرهم تابعا يوم القيامة»^(٢).

فما كان من الملائكة، وكبار القوم، والرؤساء إلا أن كذبوا رسلهم، وأعرضوا عنهم،

(١) «تفسير ابن عطية» (٣/٣٢٦) وأخرجه أبو عبيد وابن المنذر كما في «الدر المنثور» (٨/٤٩٦) وأخرجه الحاكم بسند صحيح ووافقه الذهبي في «المستدرک» (٢/٣٥).

(٢) «صحيح البخاري» برقم (٤٩٨١) و«صحيح مسلم» برقم (١٥٢).

وهذا معنى: ﴿فَرَدُّوا أَيْدِيَهُمْ فِي أَفْوَاهِهِمْ﴾.

١- أي: أنهم عضوا أصابعهم وأناملهم غيظاً وحنقاً على ما جاءت به الرسل، استنكافاً عن قبول الإيمان، كما قال تعالى: ﴿وَإِذَا خَلَوْا عَضُّوا عَلَيْكُمُ الْأَنَامِلَ مِنَ الْغَيْظِ﴾ [آل عمران: ١١٩].

٢- وقد يكون المعنى: أنهم وضعوا أيديهم على أفواههم استهزاءً وتعجباً من كلام الرسل.

٣- أو أنهم ردوا أيديهم في أفواههم، بمعنى: أشاروا إلى الرسل بأصابعهم أن اسكتوا، ووضعوا أصابعهم على أفواههم.

والمعنى العام: أنهم كذبوهم، وردوا قولهم.

أخرج عبد الرزاق بسند صحيح عن قتادة قال في معناها: ردوا على الرسل ما جاءت به، كما أنهم ردوا النعمة والحق الذي جاء به الرسل، ولو آمنوا لعاد الخير عليهم في الدنيا والآخرة، ولكنهم كذبوا الرسل، وردوا أقوالهم، وقالوا لرسولهم: إنا لا نصدق بما جئتمونا به، حسب زعمكم أنكم أرسلتم إلينا، وإلا لو كانوا قد اعترفوا بالرسالة، وقالوا ذلك؛ إيماناً منهم لما كانوا كفاراً، ولكنهم لم يعترفوا، وقالوا: إنا كفرنا بما تزعمون أنكم أرسلتم به، وعلى الأقل فنحن في قلق واضطراب، وفي حيرة وشك مما جئتم به، ونحن لا نصدقه، فضلاً عن أننا كفرنا برسالتكم.

الْحَوَارُ بَيْنَ الرُّسُلِ وَالْأُمَمِ الْمَكْذِبَةِ لَهُمْ

١٠- ﴿قَالَتْ رُسُلُهُمْ أَفِي اللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ يَدْعُوكُمْ لِيَغْفَرَ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ وَيُخْرِجَكُمْ^(١) إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى قَالُوا إِنَّ أَنتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا تُرِيدُونَ أَنْ تَصُدُّونَا عَمَّا كَانَتْ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا فَأَتُونَا بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ﴾

قالت الرسل للأقوام على سبيل الإنكار والتعجب من أقوالهم الباطلة: بماذا تكفرون؟ أتكفرون بالله؟ أفي وجود الله تعالى وعبادته ريب؟ أفي إلهية الله وربوبيته شك؟ إن الفطر تشهد بأن الله واحد أحد، فكيف تشككون في وحدانيته تعالى، وفي إفراده بالعبادة؟ وهو خالق السموات والأرض، وهما أكبر شاهد على وحدانيته وألوهيته ﴿لَخَلَقَ السَّمَوَاتِ

(١) قرأ ورش وأبو جعفر بإبدال همزة (ويؤخركم) وأوا ومثلها حمزة عند الوقف.

وَالْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٥٧﴾ [غافر].

أفي الله شك وهو خالق هذا الكون بما فيه من العالم العلوي والسفلي ومبدعهما، وخالق مَنْ فيهما من الكائنات والمخلوقات على غير مثال سابق؟ هل أحد ينكر ذلك؟ وهو سبحانه يدعوكم إلى الإيمان به جلَّ شأنه عن طريق الرسل، وعن طريق الكتب؛ ليغفر لكم بعض ذنوبكم، ولتكون العاقبة لكم.

ومما يستفاد من هذا الإيمان: غفران الذنوب لكم فيما بينكم وبين الله تعالى من: الكفر، والمعاصي، والكبائر التي تقع منكم إن أنتم تبتنم، ورجعتم إلى الله تعالى قبل الغرغرة، فيغفر الله لكم ما بينكم وبينه من بعض ذنوبكم التي هي حق لله تعالى.

أما المظالم وحقوق العباد فإنها ترجع للعباد، ويؤخر الله بقاءكم في الدنيا إلى أجل قدره وهو نهاية آجالكم، فيمهلكم إليه بلا عقوبة، ولا يعاجلكم بالذنب في الدنيا كالأمم التي سبقت، وإنما يؤخركم إلى أن ينتهي أجلكم وهو الأجل المسمى، أو إلى أن تقوم الساعة.

وعندئذ يبدأ الحوار بين الرسل وبين الكفار، فيقول الكفار للرسل: ﴿إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا﴾ صفاتكم كصفاتنا، لا فضل لكم علينا يؤهلكم أن تكونوا رسلاً، وهذه المقولة قالتها كل الأمم إلى جميع الرسل، فهم يستنكرون أن يكون الرسول بشراً منهم، ويعتقدون أنه لا بد أن يكون ملكاً، فيقولون: أنتم بشر مثلنا، تأكلون وتشربون وتنكحون النساء مثلنا! فكيف تُفَضَّلون علينا؟ وكيف تكونون رسلاً، وليس هناك ما يؤهلكم للرسالة؟!

وكان المفروض أن يعتزوا بأن يكون الرسول من البشر، ولكنهم عكسوا الآية، وقالوا: تريدون أن تمنعونا عما كان يعبد آباؤنا، وما ورثناه عن أجدادنا؟ فكل ابن يرث عن أبيه أشياء لا يفكر فيها، وكل مجتمع يرث عن مجتمعه أشياء لا يفكر في مشروعيتها، يقلدها ويفعلها، وإن كان فيها عصيان، أو شرك، أو كفر فأتونا بحجة ظاهرة تشهد على صحة ما تقولون.

الْتَّمَاثُلُ الْبَشَرِيُّ لَا يَمْنَعُ التَّفَاضُلَ بِالنَّبُوءَةِ

١١- ﴿قَالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ إِنْ نَحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَمُنُّ عَلَىٰ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ ۖ وَمَا كَانَ لَنَا أَنْ نَأْتِيَكُمْ بِسُلْطَانٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَعَلَىٰ اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ ﴿١١﴾﴾

قال الرسل لمن كذبوهم بعد سماع أقوالهم: نحن نعلم حقاً أننا بشر مثلكم كما قلتم،

ولكن المماثلة في البشرية لا تقتضي المماثلة فيما زاد عليها؛ فالبشر كلهم عباد الله، ونحن لم ندع أننا ملائكة، وإنما نحن بشر منكم، ونحن نسلم بهذا، ولكن الله يمتن بالفضل، والنبوة، والرسالة على من يشاء من عباده، فيصطفى من الملائكة رسلاً، ومن الناس ﴿اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ﴾ [الأنعام: ١٢٤].

وهكذا بعدما سلّمت الرسل للمكذّبين دعواهم المماثلة في البشرية، بيّنوا لهم جهلهم بأن هذه المماثلة لا تمنع التفاضل بأن يختص الله بعض البشر بالنبوة.

ثم أجابوهم عما يقترحونه عليهم من الإتيان بدلائل النبوة، فقالوا: أما ما طلبتم من المعجزات والخوارق فهذا يرجع إلى الله، ولا نملكه إلا بتوفيق الله تعالى ﴿وَمَا كُنَّا لَنَأْتِيَكُمْ بِسُلْطَانٍ﴾ أي: بآية خارقة ﴿إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ وإرادته، وأمره؛ فنحن عباد الله، ولا نتصرف إلا بإذنه، ونحن ماضون في طريق الدعوة إلى الله، ومتوكلون عليه في دفع شروركم وأذاكم، وهو الذي يمتنعنا وينصرنا.

وعليكم أن تنظروا فيما جئناكم به، فإن كان حقاً فاقبلوه، وإن كان غير ذلك فردوه، ولا تجعلوا بشرية الرسل حجة لكم على ردّ ما جاؤوكم به. قالت الرسل لأممهم:

١٢ - ﴿وَمَا لَنَا أَلَّا نَتَوَكَّلَ عَلَى اللَّهِ وَقَدْ هَدَانَا سُبُلَنَا﴾^(١) وَلَنَصْبِرَنَّ عَلَى مَا آذَيْتُمُونَا وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ ﴿٧﴾

وما الذي يمتنعنا من التوكل على الله؟ وكيف لا نعتد عليه، ونحن على الحق والهدى، بخلاف من كان على ضلال، فهو غير ضامن على الله، لأن حاله يناقض التوكل.

والله سبحانه هو الذي أرشدنا إلى طريق النجاة من عذابه باتباع أحكام دينه.

ومن هذا الباب قول نوح عليه السلام لقومه ﴿يَقَوْمِ إِن كَانَ كِبُرُ عَلَيْكُمْ مَقَامِي وَتَذِكْرِي بَيِّنَاتٍ عَلَى اللَّهِ فَعَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْتُ﴾ يونس [٧١] وقول هود لقومه ﴿إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُمْ﴾ [هود: ٥٦]

وهكذا يستمر الرسل في دعوة أقوامهم غير مباليين بما ينالهم من أذى، قائلين لهم: ولنصبرن صبراً جميلاً في حاضرتنا ومستقبلنا على ما آذيتُمونا بالكلام السيئ والفعل

(١) قرأ أبو عمرو بإسكان الباء من (سبلنا)، والباقيون بضمها.

القيح؛ فالله كافينا، وعلى الله وحده يجب أن يعتمد المؤمنون في نصرهم وهزيمة أعدائهم، فنحن ثابتون على الحق إن شاء الله، ومستمرون في طريق الدعوة إليه، وماضون في التوكل عليه؛ لدفع شروركم وأذاكم، ونعتمد عليه سبحانه في هزيمتكم ونصرنا.

والتوكل الثاني المذكور في هذه الآية، يعني الدوام والاستمرار على اعتمادهم على الله، وتفويض الأمر له، كما قال تعالى: ﴿وَعَلَى اللَّهِ فَتَوَكَّلُوا إِن كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ [المائدة: ٢٣].

وَعِيدُ اللَّهِ تَعَالَى لِمَنْ كَذَبَ رُسُلَهُ

ولما ذكر سبحانه استمرار دعوة الرسل دون ملل مع ما ينالهم من أذى، ذكر منتهى ما وصلت بهم الحال مع أقوامهم، فقال تعالى:

١٣- ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِرُسُلِهِمْ^(١) لَنُخْرِجَنَّكُمْ مِنْ أَرْضِنَا أَوْ لَتَعُوذُنَّ فِي مِلَّتِنَا فَأَوْحَى إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ لَنُهْلِكَنَّ الظَّالِمِينَ﴾

هكذا يتوعد الكفار رسل الله فيهددونهم بالطرد أو اتباع ملتهم، فقد طلب الكفار من الرسل بعد أن ضاقت صدورهم من دعوتهم أحد أمرين: إما أن يخرجوا من بلادهم، أو يكفروا مثلهم، وأكدوا ذلك بالقسم، فقالوا: ﴿لَنُخْرِجَنَّكُمْ مِنْ أَرْضِنَا أَوْ لَتَعُوذُنَّ فِي مِلَّتِنَا﴾ وليس معنى ﴿لَتَعُوذُنَّ﴾ أن الرسل كانوا على ملتهم قبل دعوة النبوة، وإنما المراد طلب الانتقال من حال سابقة إلى حال جديدة، فيصيروا كفارًا مثلهم، وهذه مقولة يقولها الكفار على سبيل التهديد لجميع الرسل في كل الأزمنة والأمكنة، فيخبرونهم بين طردهم، وإخراجهم من أرضهم، وبين أن يدخلوا في ملتهم ويكونوا كفارًا مثلهم.

فلا يكتفيهم أن يتخلوا عن طريق الدعوة، وإنما يريدون أن يتحولوا إلى ملتهم، ويكونوا كفارًا مثلهم، كما قال قوم شعيب له: ﴿لَنُخْرِجَنَّكَ يَشْعَبُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَكَ مِنْ قَرْيِنَا أَوْ لَتَعُوذُنَّ فِي مِلَّتِنَا﴾ [الأعراف: ٨٨].

فالمطلوب أحد الأمرين: إما أن تخرج أنت ومن آمن معك من هذه البلاد، وإما أن تصير إلى ملتنا، كما قالوا للوط عليه السلام: ﴿لَئِنْ لَمْ تَنْتَهِ يَلُوطُ لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمُخْرَجِينَ﴾ [الشعراء: ١٦٧].

(١) قرأ أبو عمرو بإسكان السين من (لرسولهم)، وبضمها الباقون.

وقالوا عنه أيضًا: ﴿أَخْرِجُوا آلَ لُوطٍ مِّن قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أَنَاسٌ يَّظْهَرُونَ﴾ [النمل: ٥٦].

وكما كادوا يفعلون بمحمد ﷺ: ﴿وَإِن كَادُوا لَيَسْتَفِزُّوكَ مِنَ الْأَرْضِ لِيُخْرِجُوكَ مِنْهَا وَإِذَا لَا يَلْبِثُونَ خِلْفَكَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [الإسراء]

وكما تأمروا عليه ﷺ في ليلة الهجرة؛ كي يخرجوه من مكة ﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ﴾ [الأنفال: ٣٠].

والله سبحانه يقول في هذه السورة: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِرُسُلِهِمْ﴾ الذين جاؤوا لهدايتهم، وإخراجهم من الظلمات إلى النور، وذلك على مدى التاريخ كله، وهذه مقولة من جميع الأمم لجميع الرسل حيث قالوا لهم: لنطردنكم من بلادنا؛ حتى تدخلوا في ديننا.

والرسل لم يكونوا كفارًا ولا مشركين؛ حتى يعودوا إلى ما كانوا عليه، وإنما المعنى لنخرجنكم من أرضنا أو لتصيرونَّ في ملتنا وتنتقلن إليها؛ فالرسل لم يعرفوا الشرك، ولم يعرفوا إلا التوحيد منذ خلِّقوا جميعًا.

فأوحى الله سبحانه إلى رسله مجيبًا عن هذا التحدي بنصرة الله تعالى للحق، وأنه سيهلك الكافرين الجاحدين المكذبين لله ورسله، كما قال تعالى: ﴿إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ﴾ [غافر].

وقال: ﴿وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الروم: ٤٧].

وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ﴾ [١٧١] ﴿إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنْصُورُونَ﴾ [١٧٢] ﴿وَإِنَّ جُنَدَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ﴾ [الصافات: ١٧٣].

وقال سبحانه: ﴿كَتَبَ اللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ [المجادلة].

وقال جلَّ شأنه: ﴿إِنَّ الْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [الأعراف: ١٢٨].

فلما تحدوهم بهذا الشكل، وخيروهم بين الأمرين أوحى الله سبحانه إلى رسله ﴿لَتُكْلِفَنَّ الظَّالِمِينَ﴾ من المكذبين المعاندين بأنواع العقوبات، وهكذا وعد الله رسله بهلاك الظالمين، كما وعدهم بسكنى أرضهم بعد هلاكهم، فقال تعالى:

١٤- ﴿وَلَسَّ كُنُوزُكَ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِهِمْ ذَلِكَ لِمَنْ خَافَ مَقَامِي وَخَافَ وَعِيدِ﴾ (١٤)

وعد الله رسله بالاستخلاف في الأرض والتمكين لهم فيها، وجعل العاقبة الحسنة لهم ولأتباعهم، بإسكانهم أرض الكافرين بعد إهلاكهم، وهكذا وعد الله لعباده المؤمنين إن هم رفعوا راية الحق، ونصروا لواء الله تعالى.

قال سبحانه: ﴿وَلَسَّ كُنُوزُكَ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِهِمْ﴾ والمراد: أرض الظالمين وديارهم بالتمكين للصالحين فيها.

ثم بين تعالى أن هذا الوعد بوراثة المؤمنين لأرض الكافرين، أمر مؤكد بالنسبة لمن خاف الوقوف بين يدي رب العالمين يوم القيامة، ﴿ذَلِكَ لِمَنْ خَافَ مَقَامِي وَخَافَ وَعِيدِ﴾ كما قال تعالى: ﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّاتٍ﴾ (٤١) [الرحمن]

وقال: ﴿وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَىٰ﴾ (٤١) ﴿فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَىٰ﴾ (٤١) [النازعات].

وهذا الوعد لمن خاف وعيد الله تعالى بالعذاب وخشي لقاءه؛ حيث يتحقق له الأمن والنصر في الدنيا، والجنة في الآخرة.

وهذه الآية فيها وعد للمؤمنين بنصرهم على عدوهم، ووعد للظالمين بالهلاك والغلبة عليهم، وفي الجمع بين الوعد والوعيد دلالة على أن المؤمن من شأنه أن يخاف غضب ربه ويطمع في ثوابه.

أخرج الحاكم عن عكرمة عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: لما أنزل الله ﷻ على نبيه ﷺ ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا قُلُوبًا ءَافِسَةً وَأَهْلِيكَ نَارًا﴾ [التحریم: ٦] تلاها رسول الله ﷺ على أصحابه ذات ليلة -أو قال يوم- فخرّ فتى مغشياً عليه، فوضع النبي ﷺ يده على فؤاده، فإذا هو يتحرك، فقال: «يا فتى، قل: لا إله إلا الله» فقالها، فبشره بالجنة، فقال أصحابه: يا رسول الله، أمن بيننا؟ فقال رسول الله ﷺ: «أما سمعتم قول الله ﷻ: ﴿ذَلِكَ لِمَنْ خَافَ مَقَامِي وَخَافَ وَعِيدِ﴾» (٢).

(١) قرأ ورش بإثبات الياء وصلًا من (وعيد)، وقرأ يعقوب بإثباتها وصلًا ووقفًا، والباقون بحذفها في الحالين.

(٢) قال الحاكم: هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه، «المستدرک» (٣٥١/٢) ومن رواه: محمد بن يزيد

المكي، قال الذهبي: قال أبو حاتم: شيخ صالح كتبنا حديثه وأخرجه البيهقي في «شعب الإيمان» (٧٣٤).

١٥- ﴿وَاسْتَفْتَحُوا وَخَابَ﴾^(١) كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ ﴿١٥﴾

﴿وَاسْتَفْتَحُوا﴾ أي: طلب الرسل إنفاذ حكمه تعالى بنصرهم وتعجيل العذاب بغيرهم، فقد لجأ الرسل إلى ربهم، وسألوه الفتح والنصر بينهم وبين أعدائهم فاستجاب الله لهم، وهلك كل متكبر لا يقبل الحق، ولا يصدق، ولا يقر بتوحيد الله والإخلاص له، كما قال تعالى عنهم: ﴿رَبَّنَا افْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِالْحَقِّ وَأَنْتَ خَيْرُ الْفَاتِحِينَ﴾ [الأعراف: ٨٩].

وقد يكون الضمير في ﴿وَاسْتَفْتَحُوا﴾ عائد على الكفار، أي أنهم هم الذين استعجلوا فتح الله بينهم وبين أوليائه، فجاءهم العذاب الذي طلبوه واستفتحوا به، وإلا فالله حلیم لا يعاجل من عصاه بالعقوبة.

وطلبت الأمم المكذبة التعجيل بنزول العذاب إن كان ما يقوله محمد حقاً، كما قال تعالى: ﴿وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ﴾ يعني: الذي وعدتنا به -يا محمد- من العذاب ﴿إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ [الملك: ٢٥].

ومعنى ﴿وَخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ﴾ أي: تحقق نصر الله لعباده المؤمنين ولرسل الله الكرام، وحقت كلمة العذاب للجبابرة والطغاة الكافرين، فخابوا وخسروا كما قال تعالى: ﴿أَلْقِيَا فِي جَهَنَّمَ كُلَّ كَفَّارٍ عَنِيدٍ ﴿٢٤﴾ مَتَّاعٍ لِلْخَيْرِ مُعْتَدٍ مُّرِيبٍ ﴿٢٥﴾ الَّذِي جَعَلَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَأَلْقِيَاهُ فِي الْعَذَابِ الشَّدِيدِ ﴿٢٦﴾﴾ [ق]. وقد شمل هذا الخسران كل من طغى وتجبر، فعصى الله وعاند رسله.

عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه وعن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «يؤتى بجهنم يوم القيامة، فتنادى الخلائق، فتقول: إني وكلت بكل جبار عنيد»^(٣).

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «تخرج عُقُورُ من النار يوم القيامة لها عيان ثُبُوران، وأذنان تسمعان، ولسان ينطق، يقول: إني وكُلتُ بثلاثة: بكل جبار عنيد،

(١) آمال الألف من (خاب) حمزة وحده ومثلها (خاف) في الموضعين.

(٢) قرأ بإمالة الألف من (جبار) أبو عمرو ودوري الكسائي وابن ذكوان من طريق الصوري، وقللها ورش، وفتحها الباقون.

(٣) «المسند» (٤٠/٣) و«سنن الترمذي» برقم (٢٥٧٤) وقال: حديث حسن غريب صحيح.

وبكل من دعا مع الله إلهاً آخر، وبالمصورين»^(١).

والمصورون: هم الذين ينحتون التماثيل على صورة إنسان، أو حيوان، أو طائر.

شَرَابُ أَهْلِ النَّارِ وَطَعَامُهُمْ

١٦- ﴿مَنْ وَرَّاهُ جَهَنَّمَ وَنُفِثَ مِنْ مَّاءٍ صَدِيدٍ﴾ (١٦)

ثم إن جهنم تنتظر هذا الكافر العنيد بعد موته يَصْلَى عذابها، ويُسْقَى فيها من: القيح، والدم الذي يخرج من أجسام أهل النار وهذا معنى ﴿مَنْ وَرَّاهُ جَهَنَّمَ﴾ أي: ومن أمام هذا الكافر عذاب جهنم؛ حيث يستعمل لفظ الراء بمعنى الأمام، كما قال تعالى: ﴿وَكَانَ وَرَاءَهُمْ مَلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا﴾ [الكهف: ٧٩] أي: وكان أمامهم ملك وهكذا؛

١- فالكافر أمامه جهنم يسقى فيها من ماء صديد في غاية الحرارة والنتن؛ وهذا الماء الصديد، كما يقال: إنه ما يسيل، أو ما يخرج من بين جلد الكافر ولحمه، أو أنه ما يسيل من فروج الزناة، من القيح والدم والصديد.

وهو أيضاً يشرب من ماء حميم شديد الحرارة يقطع الأمعاء، ﴿وَسُقُوا مَاءً حَمِيمًا فَقَطَّعَ أَمْعَاءَهُمْ﴾ [محمد] وهو ماء متناهي الحرارة؛ كالمهل، أي كالزيت المغلي يشوي الوجوه، ويُضَهَر به ما في البطون، ويذيب الجلود.

٢- أما طعام أهل النار، فقد بيّن تعالى أن طعام الكفار هو الضريع في قوله سبحانه: ﴿لَيْسَ لَهُمْ طَعَامٌ إِلَّا مِنْ ضَرِيعٍ﴾ (١) لَا يُسَوِّنُ وَلَا يُغْنِي مِنْ جُوعٍ ﴿٧﴾ [الغاشية]

وهو الزقوم كما في قوله تعالى: ﴿إِنَّ شَجَرَتَ الزُّقُومِ﴾ (٢) طَعَامُ الْأَثِيرِ ﴿٤٤﴾ كَالْمُهْلِ يَغْلِي فِي الْبُطُونِ ﴿٤٥﴾ كَغَلِي الْحَمِيمِ ﴿٤٦﴾ [الدخان].

(١) صحيح «سنن الترمذي» برقم (٢٠٨٣) والبيهقي في «شعب الإيمان» (٦٣١٧) و«سلسلة الأحاديث الصحيحة» برقم (٥١٢) و«المسند» برقم (٨٤٣٠) وإسناده صحيح على شرط الشيخين (محققوه) والبخاري برقم (٣٥٠٠) «كشف الأستار» عن عبد الصمد عن عبد العزيز بن مسلم، وصحح إسناده في تكملة تحقيق «المسند» الحسيني عبد المجيد هاشم برقم (٨٤١١) وأخرجه الترمذي برقم (٢٥٧٤) وقال: حديث حسن غريب صحيح، وأخرجه أبو يعلى برقم (١١٣٨، ١١٤٦).

وقد وصف الله هذه الشجرة بقوله: ﴿إِنَّهَا شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِي أَصْلِ الْجَحِيمِ ﴿١٤﴾ طَلْعُهَا كَأَنَّهُ رُؤُوسُ الشَّيَاطِينِ ﴿١٥﴾ فَإِنَّهُمْ لَكَائُونَ مِنْهَا الْبَطُونَ ﴿١٦﴾ ثُمَّ إِنَّ لَهُمْ عَلَيْهَا لَشَوْبًا مِنْ حَمِيمٍ ﴿١٧﴾ ثُمَّ إِنَّ مَرْجِعَهُمْ لَإِلَى الْجَحِيمِ ﴿١٨﴾﴾ [الصافات]

وهو غسلين، كما في قوله تعالى: ﴿وَلَا طَعَامَ إِلَّا مِنْ غَسَلِينَ ﴿٣٦﴾ لَا يَأْكُلُهُ إِلَّا الْخَاطِئُونَ ﴿٣٧﴾﴾ [الحاقة] فأهل النار تارة يكونون في أكل الزقوم، وتارة في شراب وحميم، وتارة يردون إلى الجحيم، نعوذ بالله من عذاب جهنم.

وهذا الماء الصديد الذي يشربونه كرهه الطعم والرائحة، وهو في منتهى الحرارة:

١٧- ﴿بَتَجَرَّعُهُ وَلَا يَكَادُ يُسِيغُهُ وَيَأْتِيهِ الْمَوْتُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ وَمَا هُوَ بِمَمِيٍّ وَمِنْ وَرَآئِهِ عَذَابٌ غَلِيظٌ ﴿١٧﴾﴾

أي إن الكافر المتكبر يتحسّى هذا الصديد؛ وهو القيح، والدم، الذي يسيل من أجساد أهل النار يتجرّعه بعنف، فيحاول ابتلاعه كرهاً مرة بعد مرة، جُرعة بعد جرعة، فلا يستطيع أن يبتلعه؛ لقطارته وحرارته ومرارته، وإذا رآه كرهه، فإذا اقترب منه شوى وجهه، ووقعت فروة رأسه، فإذا شربه قطع أمعاءه، حتى يخرج من دبره قال تعالى: ﴿وَسُقُوا مَاءً حَمِيمًا فَقَطَّعَ أَمْعَاءُهُمْ﴾ [محمد: ١٥] وقال جلّ شأنه: ﴿وَلَنْ يَسْتَغِيثُوا يُعَاثُوا بِمَاءٍ كَالْمُهْلِ﴾ أي: الزيت المغلي ﴿يَشْوِي الْوُجُوهُ بِئْسَ الشَّرَابُ﴾^(١) [الكهف: ٢٩]

وقال سبحانه: ﴿فَلْيَذُوقُوهُ حَمِيمٌ وَغَسَّاقٌ ﴿٥٧﴾ وَآخِرُ مِنْ شَكْلِهِ أَزْوَاجٌ ﴿٥٨﴾﴾ [ص]

وهذا الصديد يسمّى: (طينة الحبال) وهي: عصارة أهل النار^(٢).

وفي رواية عبد الله بن عمر ؓ (عصارة أهل جهنم)^(٣).

(١) يُنظر حديث أبي أمامة في «المسند» (٢٦٥/٥) برقم (٢٢٢٨٥) وأوله (يُقَرَّبُ إِلَيْهِ) أي الماء الصديد (فيتكرهه...) قال محققوا المسند: رجاله ثقات معروفون غير عبيد بن بسر، فقد اختلف فيه... وأخرجه الترمذي (٢٥٨٣) والنسائي في الكبرى (١١٢٦٣) والطبراني في الكبير (٧٤٦٠) والبغوي في شرح السنة (٤٤٠٥) والبيهقي في البعث والنشور (٥٤٩).

(٢) كما في رواية أبي ذر في «المسند» (١٧١/٥). برقم (٢١٥٠٢) وهو صحيح لغيره عن جابر برقم (١٤٨٨٠) بإسناد صحيح على شرط مسلم، وهو في صحيح مسلم (٢٠٠٢) وأخرجه البزار في مسنده (٤٠٧٤).

(٣) المسند برقم (٦٦٥٩) وإسناده حسن من أجل عمر وبن شعيب وأبيه وباقي رجاله ثقات رجال الشيخين.

وتأتيه أسباب الموت، فتجتمع عليه من جميع الجهات: من كل قطرة دم، ومن تحت كل شعرة في جسده، ومن كل عرق، ومن كل عضو، ومن كل عَصَب، ومن كل جارحة؛ حيث يستولي عليه أسباب الموت المؤدية إلى الهلاك، والمنهية للأجال، ولكنه لا يموت فيستريح من الشقاء والعذاب، ولا يحيا فيسلم مما هو فيه.

قال مجاهد: تَعَلَّقَ نَفْسُهُ عِنْدَ حَنْجَرَتِهِ، فَلَا تَخْرُجُ مِنْ فِيهِ فَيَمُوتُ، وَلَا تَرْجِعُ إِلَى مَكَانِهَا مِنْ جَوْفِهِ فَيَجِدُ لَذَلِكَ رَاحَةً، فَتَنْفَعَهُ الْحَيَاةُ^(١).

كما قال تعالى: ﴿لَا يُقْضَىٰ عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ مِنْ عَذَابِهَا﴾ [فاطر: ٣٦]
وقال جل شأنه: ﴿ثُمَّ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَىٰ﴾ ﴿٣٧﴾ [الأعلى]

وقال أيضًا: ﴿كُلَّمَا نَضَجَتْ جُلُودُهُمْ بَدَّلْنَاهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا الْعَذَابَ﴾ [النساء: ٥٦].

إنه عذاب مستمر وخلود في جهنم بلا موت، وهذا معنى ﴿وَمَا هُوَ بِمَيِّتٍ﴾.

ومن أمامه بعد هذا العذاب عذاب آخر أشد ألمًا مع الخلود في نار جهنم.

قال تعالى في شدة عذابها: ﴿هَٰذَا جَهَنَّمُ الَّتِي يُكَذِّبُ بِهَا الْمُجْرِمُونَ﴾ ﴿٤٣﴾ يَطُوفُونَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ حَمِيمٍ ؕ عَٰنٍ ﴿٤٤﴾ [الرحمن].

وقال أيضًا: ﴿وَأَصْحَابُ الشَّٰمَالِ مَا أَصْحَابُ الشَّٰمَالِ﴾ ﴿٤٥﴾ فِي سُورٍ وَحْمِيمٍ ﴿٤٦﴾ وَظِلٍّ مِّنْ يَحْمُومٍ ﴿٤٧﴾ لَا بَارِدٍ وَلَا كَرِيمٍ ﴿٤٨﴾ [الواقعة]

وقال سبحانه: ﴿فَالَّذِينَ كَفَرُوا قُطِعَتْ لَهُمْ نِيَابٌ مِّنْ نَّارٍ يَصُبُّ مِنْ فَوْقِ رُءُوسِهِمُ الْحَمِيمُ﴾ ﴿٤٩﴾ يَصْهَرُ بِهِ مَا فِي بُطُونِهِمْ وَالْجُلُودُ ﴿٥٠﴾ وَلَهُمْ مَقْلِعٌ مِّنْ حَدِيدٍ ﴿٥١﴾ كُلَّمَا أَرَادُوا أَنْ يَخْرُجُوا مِنْهَا مِنْ غَمٍّ أُعِيدُوا فِيهَا وَذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ ﴿٥٢﴾ [الحج].

الكَافِرُ لَا يُقْبَلُ مِنْهُ عَمَلٌ صَالِحٌ

١٨- ﴿مَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ أَعْمَلُهُمْ كَرَمَادٍ اشْتَدَّتْ بِهِ الرِّيحُ^(٢) فِي يَوْمٍ عَاصِفٍ لَا يَقْدِرُونَ مِمَّا كَسَبُوا عَلَىٰ شَيْءٍ ذَٰلِكَ هُوَ الصَّلَٰلُ الْبَعِيدُ﴾ ﴿٥٣﴾

(١) الطبري (١٣/٦٢١).

(٢) قرأ نافع وأبو جعفر بالجمع في لفظ (الرياح)، والباقون بالإنفراد.

وإذا كان العذاب الشديد ينتظر الكفار في الآخرة، فما بال الأعمال الحسنة التي عملوها في الدنيا؟ كالذي يطعم الفقير، أو يتحمل الدية عن غيره، أو يفك الأسرى، أو يعتق الرقاب، أو يبرأ أبويه، أو يصل أرحامه، أو يكرم الضيف، أو يحسن المعاملة، أو يتصدق، ونحو ذلك، فبين ﷻ أن هذه الأعمال لا وزن لها، ولا قيمة لها عند الله، ولا تنفع فاعلها يوم القيامة، فقد أذهبها الكفر كما أذهبت الريح الرماد؛ لأن الأصل غير موجود وهو الإيمان، كما قال تعالى: ﴿وَقَدِمْنَا إِلَى مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَثُورًا﴾ [الفرقان] وكذا عمل الكافر الذي أشرك فيه مع الله غيره، أو عبد الأوثان والأصنام، وهو يظن أنه سيتنفع بذلك ﴿مَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ أَعْمَالُهُمْ﴾.

هذا مثل ضربه الله لعدم الانتفاع بأعمالهم الحسنة.

ومعنى المثل: أي صفة أعمال الكفار الصالحة في الدنيا.

وقوله تعالى: ﴿أَعْمَالُهُمْ﴾ جواب سؤال مقدر، وذلك أن المسلمين تطلعت نفوسهم إلى وجه الجمع بين العمل الصالح من الكافر وعدم انتفاعه به، وكأنه قال: ما صفة أعمال الكفار، فكان الجواب: أن أعمالهم الصالحة يمحقها الكفر، كما تمحق الريح الشديدة الرماد في يوم عاصف؛ فلا يجدون لها ثوابًا في الآخرة، فهي ﴿كَرَمَادٍ﴾ مكدس أنت عليه الريح في يوم قوي الهبوب، أي: جاءت العاصفة الشديدة على التراب المتراكم؛ فصار هباءً مثورًا حملته الريح، وذهبت به هنا وهناك، كما قال تعالى: ﴿مَثَلُ مَا يُنْفِقُونَ فِي هَذِهِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَثَلِ رِيحٍ فِيهَا صِرٌّ أَصَابَتْ حَرْثَ قَوْمٍ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ فَأَمْلَكَتْهُ﴾ [آل عمران: ١١٧].

كما قال سبحانه: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ مَاءً حَتَّى إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا﴾ [النور: ٣٩]

وقال سبحانه عن صدقة المرائي: ﴿فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ صَفْوَانٍ عَلَيْهِ تُرَابٌ فَأَصَابَهُ وَابِلٌ فَتَرَكَهُ صَلْدًا لَا يَقْدِرُونَ عَلَى شَيْءٍ وَمَا كَسَبُوا﴾ [البقرة: ٢٦٤]

أي: أنهم في الآخرة لا يجدون ثوابًا لأعمالهم التي عملوها في الدنيا؛ فقد أذهبها الكفر، كما أذهبت الريح الرماد، فلم يقدروا على الانتفاع منها بشيء.

قالت عائشة: يا رسول الله، إن ابن جُذعان كان في الجاهلية يصل الرحم، ويطعم المسكين،

فهل ذاك نافعه؟ قال: « لا ينفعه؛ لأنه لم يقل يوماً: رب اغفر لي خطيئتي يوم الدين »^(١).

إنه عمل باطل، وهو الخسران الواضح الذي يلحق بالإنسان في دنياه وأخراه؛ لأنه عمل على غير أساس.

قُدْرَةُ اللَّهِ تَعَالَى عَلَى اسْتِئْصَالِ الْكُفَّارِ

١٩ - ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ خَلَقَ^(٢) السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ إِنَّ يَئُودَ^(٣) يَدَّهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ^(٤)﴾

ثم إن هلاك أهل الكفر أمر عجيب يثير سؤالاً: كيف يتم هلاك هذه الفئة شديدة القوة؟

والجواب: أن الله تعالى القادر على خلق هذا الكون قادر على أن يهلكهم، والله سبحانه لم يخلق هذا الكون بسمائه وأرضه وما فيهما وما بينهما باطلاً، لم يخلق هذا الكون عبثاً، ولا لهواً، ولا لعباً، سبحانه، إنما خلقه بالحق، والحق معناه هنا ضد العبث؛ لمقابلته بالباطل، أي: خلقهما لغرض صحيح، وأمر عظيم، وغاية كبرى، وهدف نبيل، هذه الغاية هي أن يتعرف الخلق على خالقهم الذي فطرهم، وربّاهم، وأنعم عليهم بنعمه التي لا تُعدُّ ولا تُحصى، فإذا عرفوا خالقهم عبدوه وحده، وأطاعوه، وامثلوا أمره واجتنبوا نهيه، وشكروه على نعمه، وذكروه آناء الليل وأطراف النهار ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ^(٥)﴾ [المؤمنون].

وقد جعل الله ﷻ هذه الحياة مزرعة للآخرة؛ حيث يحاسب الله سبحانه الإنسان يوم القيامة على ما قدمت يداه في هذه الدنيا، فيكون مصيره الدائم في الآخرة: إما السعادة الأبدية، وإما الشقاوة الأبدية، وهذه هي الغاية التي خلق الله سبحانه الخلق من أجلها؛ خلقهم للعمل في الحياة الدنيا، وللحساب بعد ذلك في الآخرة ﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَعِبٍ^(٦) مَا خَلَقْنَاهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ^(٧)﴾

(١) أخرجه مسلم برقم (٢١٤).

(٢) قرأ حمزة والكسائي وخلف (خالق) اسم فاعل، و(السماوات) مجرور بالإضافة، وقرأ الباقون (خلق) فعل ماضٍ، و(السماوات) مفعول به، منصوب بالكسرة.

(٣) قرأ الأصهباني وأبو جعفر، بإبدال همزة (إن يئود) ألفاً وصلًا ووقفًا، وكذا حمزة عند الوقف.

(٤) (بخلق جديد) عدها آية الكوفي والدمشقي والمدني الأول، وتركها من العدد غيرهم.

[الدخان] هذا الحق، هو الهدف والغاية، وهو الأمر العظيم الذي خلق الله الخلق من أجله؛ كي يعرف العباد ربهم وخالقهم، فيطيعوه ويمثلوا أمره ﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَطْلًا﴾ أي: لم نخلقهما عبثًا، أو باطلاً، ولا لهواً ولا لعباً ﴿ذَلِكَ ظَنُّ الَّذِينَ كَفَرُوا فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنَ النَّارِ﴾ [ص: ٢٧].

والآية التي معنا تشير إلى هذا المعنى، فتخاطب النبي ﷺ، وتخاطب كل إنسان إلى يوم الساعة ﴿أَلَمْ تَرَ﴾ تفكر، وتتأمل، وتعلم أيها المخاطب ﴿أَنَّ اللَّهَ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ﴾؟ خلقهما، وأوجدهما على الوجه الصحيح الدال على كمال حكمته وقدرته، وأنه سبحانه لم يخلقهما عبثًا، بل خلقهما للاستدلال بهما على وحدانيته تعالى وكمال قدرته من أجل نفع الإنسان وخدمته؛ كي يتعرف العبد على ربه وخالقه من خلالهما، ويكون عبدًا مطيعًا لله ﷻ فيعبده وحده، ولا يشرك به شيئًا

والله جلّ شأنه قادر على أن يميت الكفار جميعًا، وأن يذهبهم من الوجود، ويأتي بقوم آخرين هم أطوع لله ﷻ منهم، وأسرع استجابة منهم وأكثر أمثالاً لأوامر الله جلّ شأنه. والذي خلق السموات على ارتفاعها واتساعها، وخلق ما فيها من الكواكب الثوابت والسيارات. وخلق الأرض بما فيها من: جبال، وبحار، وأنهار، وصحار، وحيوان، وأشجار، ونبات، على اختلاف الأشكال، والألوان، والأصناف، قادر سبحانه على إفناء من يشاء من خلقه، وإيجاد قوم آخرين غيرهم، وهو سبحانه لا يشق عليه شيء.

ومن ذلك أنه يحيى الخلق بعد فنائهم، قال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَمْ يَعْ يَخْلُقْهُمْ يَقْدِرْ عَلَى أَنْ يُحْيِيَ الْمَوْتَىٰ بَلَىٰ إِنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [الأحقاف].

وقال سبحانه: ﴿أَوَلَمْ يَرَ الْإِنْسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ﴾ (٧٧) وَصَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَنْ يُحْيِي الْعِظْمَ وَهِيَ رَمِيمٌ (٧٨) قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ (٧٩) الَّذِي جَعَلَ لَكُم مِّنَ الشَّجَرِ الْأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَا أَنْتُمْ تُوقَدُونَ (٨٠) أَوَلَيْسَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِقَدِيرٍ عَلَىٰ أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ بَلَىٰ وَهُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ (٨١) إِنَّمَا

أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ﴿٨٢﴾ فَسُبْحَنَ الَّذِي يَدِيهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٨٣﴾ [يس].

والقادر على خلق السموات والأرض قادر على خلق ما دونهما من باب أولى ﴿لَخَلْقُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ ﴿٥٧﴾ [غافر]

إن يشأ يُميتكم - أيها الناس - إن خالفتم أمره، ويأت بأخرين غيركم على غير صفتكم هم خيرٌ منكم يعبدون الله، ولا يشركون به شيئاً، ويكونون أطوع لله منكم، وهو سبحانه القادر على أن يُميتكم ثم يعيدكم ويبعثكم خلقاً جديداً، وليس هذا بممتنع على الله تعالى.

٢٠- ﴿وَمَا ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ بِعَزِيزٍ﴾ ﴿٢٠﴾

أي وإهلاككم أيها الناس، والإتيان بغيركم أمر سهل ويسير على الله سبحانه؛ إذ ليس هناك أمر صعب وأمر سهل على الله سبحانه، فالكل هين على رب العالمين، ولكنه في نظرنا يكون شاقاً وعسيراً أو يسيراً، كما قال تعالى: ﴿يَتَأَيَّأُ النَّاسُ أَنْتُمْ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ﴾ ﴿١٥﴾ إن يشأ يذهبكم ويأت بخلقٍ جديدٍ لا وما ذلك على الله بعزيزٍ ﴿١٥﴾ [فاطر].

وقال: ﴿وَإِنْ تَوَلَّوْا يَسْتَبَدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوا أَمْثَلَكُمْ﴾ [محمد: ٣٨].

وقال: ﴿إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ أَيُّهَا النَّاسُ وَيَأْتِ بِآخَرِينَ وَكَانَ اللَّهُ عَلَى ذَلِكَ قَدِيرًا﴾ [النساء: ١٣٧].

وقال: ﴿يَتَأَيَّأُ الَّذِينَ آمَنُوا مَنْ يَرْتَدَّ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُمْ﴾ [المائدة: ٥٤].

وقال سبحانه ﴿مَا خَلَقُكُمْ وَلَا بَعَثُكُمْ إِلَّا كَفَنَسٍ وَاجِدَةً﴾ [لقمان: ٢٨].

وقال أيضاً: ﴿وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَتْ عَلَيْهِ﴾ [الروم: ٢٧].

ومعنى الآية: ألم تعلم - أيها المخاطب والمراد: عموم الناس - أن الله تعالى أوجد السموات والأرض، وما فيهما من أجرام عظيمة لحكمة بالغة؟ فهو منزّه عن العبث على الوجه الصحيح الذي تقتضيه إرادته؛ ليستدل بهما على وحدانيته تعالى وكمال قدرته، فيعبدوه وحده ولا يشركوا به شيئاً، وهو سبحانه قادر على الإفناء، كما هو قادر على الإحياء والإيجاد، وما ذلك - الإحياء والإفناء - بمتعذر على الله تعالى.

تَلَاوُمُ أَهْلِ النَّارِ وَمَرَاجِلُهُ

٢١- ﴿وَبَرَزُوا لِلَّهِ جَمِيعًا فَقَالَ الضُّعَفَاءُ لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنْتُمْ مُغْنُونَ عَنَّا مِنْ عَذَابِ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ قَالُوا لَوْ هَدَّيْنَا اللَّهُ لَهْدَيْنَاكُمْ سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَجْرُنَا أَمْ صَبْرُنَا مَا لَنَا مِنْ مَحْصِيٍّ﴾

ثم تنتقل الآيات إلى الدار الآخرة، بعد الانتقال إليها من دار الدنيا، إلى المقر الدائم؛ فالدنيا ممر، والآخرة مستقر، وهي مَعْبَرٌ للوصول إلى الدار الدائمة، فليست الدنيا هي الهدف، وإنما الهدف، هو المستقر الدائم بعد الحساب في يوم القيامة؛ حيث يخرج الناس من قبورهم، ويبعثون في ساحة القضاء.

والبروز: هو المكان الخالي الذي ليس فيه ساتر، ولا حجاب ﴿وَبَرَزُوا لِلَّهِ جَمِيعًا﴾ أي: خرجت الخلائق، وظهرت في عرصات القيامة؛ ليحكم الله بينهم في ساحة الحشر بعد الخروج من قبورهم: المؤمن والكافر، والبر والفاجر، والصالح والطالح؛ لقد رفع عنهم الستار، وامتألت بهم ساحة العدل الإلهية في أرض المحشر والمنشر، مكشوفين في الفضاء، لا يستترهم ساتر، ولا يحجبهم حاجب، ولا يقيهم واقٍ، وقد كان أهل المعاصي في الدنيا حين يفعلون الفواحش يستترون عن أعين الناس، وفي يوم القيامة يُفضحون على رؤوس الأشهاد، نسأل الله السلامة والعافية.

وفي هذه الآية يبيِّن الله ﷻ جانبًا من مشاهد يوم الحشر والنشر؛ حيث يخرج الكافرون من قبورهم، ويكون الخصام والتلاوم بين أهل النار، والعياذ بالله.

ومعنى التلاوم: أن كل فريق، أو كل إنسان يُلقَى باللائمة، أو المسؤولية على الآخر، ممن قلَّده في الضلال فاعتر به، ولم يُعْمَلْ فِكْرُهُ وعقله، فألغى حريته الشخصية في التفكير، واغتر الفقير بالغني، أو المرؤوس بالرئيس، أو الأتباع بالقادة.

اغتروا بمن يَظْهَرُونَ في مسرح الحياة أبطالاً في أعين الناس، وإن كانوا على غير هدى فانخدع بعض الناس بكاتب، أو بأديب، أو بممثل، أو بلاعب، أو بشخصية مشهورة ممن هو على ضلال، تابع أو متبوع، وهؤلاء جميعاً عبَّرَ عنهم القرآن الكريم بالضعفاء، والمستكبرين.

فالحوار يدور بين ضعيف وقوي، وفقير وغني؛ فالفقير قد اغتر بالغني وقلَّده، والجاهل قلَّده من يراه على علم، فسلبه فكره وعقله، واتبعه في الكفر والضلال، ويوم القيامة كل

منهم يُلقَى باللائمة على الآخر، ويتبرأ منه؛ حيث يتبرأ الرؤساء من المرؤوسين، ويتبرأ المتبوعون من الأتباع.

ويبدأ الحوار بينهم، فيقول الأتباع للقادة، أو يقول الضعفاء للذين استكبروا: إنا كنا لكم أتباعاً في الدنيا، فلقدناكم واتبعناكم، رأيناكم تُحلُّون الحرام فاتبعناكم فيه، ورأيناكم تحرمون الحلال فاتبعناكم وأطعناكم، كما قال تعالى: ﴿اتَّخَذُوا أَجْزَارَهُمْ وَرَبَّهُنَّهْمُ أَزْكَاءَ مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ [النوبة: ٣١] فهل تدفعون عنا اليوم بعضاً من عذاب الله، أو تتحملون عنا شيئاً منه، كما كنتم تعدُّوننا وتُمنُّوننا؟

وهنا يرد المستكبرون على المستضعفين بضيق وتحسر، فيقولون لهم: لو هدانا الله إلى الإيمان الموصل إلى النجاة لأرشدناكم إليه، ولكن الضلال حصل لنا، ولو كنا نافعين أنفسنا لفتحناكم؛ فنحن وأنتم سواء في الضلال، ولو كنا على هدى لهديناكم، ولكن مصيرنا واحد؛ حيث لم نوفق، وضللنا كما ضللتكم، والصبر والجزع لا ينفعان في هذا اليوم؛ حيث يستوي كل منهما، وليس لنا مهرب من عذاب الله، ولا نجاة لنا منه.

١- والظاهر أن هذا الجدال يكون في المحشر وهم وقوف بين يدي الله تعالى، كما قال تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَى إِذِ الظَّالِمُونَ مَوْقُوفُونَ عِنْدَ رَبِّهِمْ يَرْجِعُ بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ الْقَوْلَ يَقُولُ الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا لَوْلَا أَنْتُمْ لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ ﴿٣١﴾ قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا لِلَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا أَنَحْنُ صَدَدْنَاكُمْ عَنِ الْهُدَى بَعْدَ إِذْ جَاءَكُمْ بَلْ كُنْتُمْ ثَجْرَمِينَ ﴿٣٢﴾ وَقَالَ الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا بَلْ مَكْرُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ إِذْ تَأْمُرُونَنَا أَنْ نَكْفُرَ بِاللَّهِ وَنَجْعَلَ لَهُ أَنْدَاداً وَأَسْرُوا النَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا الْعَذَابَ وَجَعَلْنَا الْأَغْلَالَ فِي أَعْنَاقِ الَّذِينَ كَفَرُوا هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٣٣﴾﴾ [سبا].

٢- وهناك تخاصم، وتلاوم آخر بين الفريقين يكون في النار كما قال تعالى:

﴿وَإِذْ يَتَحَاوَنَ فِي النَّارِ فَيَقُولُ الضُّعَفَاءُ لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنْتُمْ مُغْنُونَ عَنَّا نَصِيبًا مِنَ النَّارِ ﴿٤٧﴾ قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُلٌّ فِيهَا إِنَّكَ اللَّهُ قَدْ حَكَمَ بَيْنَ الْعِبَادِ ﴿٤٨﴾﴾ [غافر].

وقال تعالى في المعنى نفسه: ﴿قَالَ ادْخُلُوا فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِكُمْ مِنَ الْجِنَّ وَالْإِنْسِ فِي

النَّارِ كُلَّمَا دَخَلَتْ أُمَّةٌ أُخِثَتْ خَيِّ إِذَا أَدَارَكُوا فِيهَا جَمِيعًا قَالَتْ أُخْرِهِمْ لِأُولَئِهِمْ رَبَّنَا هَؤُلَاءِ أَضَلُّونَا فَفَاتِهِمْ عَذَابًا ضِعْفًا مِّنَ النَّارِ قَالَ لِكُلِّ ضِعْفٌ وَلَكِن لَّا نَعْلَمُونَ ﴿٣٨﴾ وَقَالَتْ أُولَئِهِمْ لِأُخْرِهِمْ فَمَا كَانَتْ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْسِبُونَ ﴿٣٩﴾ [الأعراف].

وقال سبحانه: ﴿يَوْمَ ثَقُلَتْ وُجُوهُهُمْ فِي النَّارِ يَقُولُونَ يَلَيْتَنَّا أَطَعْنَا اللَّهَ وَأَطَعْنَا الرَّسُولَ ﴿٣٨﴾ وَقَالُوا رَبَّنَا إِنَّا أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكِبَرَاءَنَا فَأَضَلُّونَا السَّبِيلَ ﴿٣٩﴾ رَبَّنَا ءَاتِهِمْ ضِعْفَيْنِ مِنَ الْعَذَابِ وَالْعَنَاهُمْ لَعْنًا كَبِيرًا ﴿٤٠﴾ [الأحزاب].

٣- كما يكون هذا التبرؤ عند رؤية العذاب المتجدد وانقطاع أسباب الخروج من النار.

قال جل شأنه: ﴿إِذْ تَبَرَّأَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا وَرَأَوْا الْعَذَابَ وَتَقَطَعَتْ بِهِمُ الْأَسْبَابُ ﴿٣٨﴾ وَقَالَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا لَوْ أَنَّا كَرِهْنَا لَنَآ كَرِهْنَا فَنَتَّبِعَهُم مِّنْهُمْ كَمَا تَبَرَّءُوا مِنَّا كَذَلِكَ يُرِيهِمُ اللَّهُ أَعْمَلَهُمْ حَسَرَاتٍ عَلَيْهِمْ وَمَا هُمْ بِخَارِجِينَ مِنَ النَّارِ ﴿٣٩﴾ [البقرة].

وقال سبحانه: ﴿هَذَا فَوْجٌ مُّقْتَصِمٌ مَّعَكُمْ لَا مَرْجَأَ بِهِمْ لِمُنْهَمُ صَالُوا النَّارِ ﴿٥٩﴾ قَالُوا بَلْ أَنشُرَ لَّا مَرْجَأَ بِكُمْ أَنشُرَ قَدْ مَثُوهُ لَنَا فَيَقْسَ الْقَرَارُ ﴿٦٠﴾ قَالُوا رَبَّنَا مَن قَدَّمَ لَنَا هَذَا فَزِدْهُ عَذَابًا ضِعْفًا فِي النَّارِ ﴿٦١﴾ [ص].

٤- وبعد عدم حصول جدوى من هذا التخاصم يذهب الكفار إلى خزنة النار، يطلبون منهم أن يخفف الله عنهم من عذاب النار ولو يوماً واحداً:

﴿وَقَالَ الَّذِينَ فِي النَّارِ لِخَزَنَةِ جَهَنَّمَ ادْعُوا رَبَّكُمْ يُخَفِّفْ عَنَّا يَوْمًا مِّنَ الْعَذَابِ ﴿٤٩﴾ [غافر]

أي: أن أهل النار يستغيثون بالخرزنة، ويطلبون منهم أن يخفف الله عنهم يوماً من العذاب. وعندئذ يقولون لهم: ﴿أَوَلَمْ تَكُنْ تَأْتِيكُمْ رُسُلُكُمْ﴾ في الدنيا ﴿يَا لَبِئْسَ أَهْلُ الدُّنْيَا﴾ أي: بالكتب المنزل، والمعجزات المؤيدة للرسالة، وهؤلاء الرسل يبينون لكم ما يتعلق بالبعث والنشور؟ فيكون جواب أهل النار: ﴿قَالُوا بَلَىٰ﴾ جاءتنا الرسل، ونزلت الكتب ﴿قَالُوا فَادْعُوا وَمَا دُعَاؤُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ﴾ [غافر: ٥٠] أي: أنه لا جدوى، ولا فائدة من دعائكم.

٥- فلما لم يجد أهل النار حلاً عند الخزنة يثسوا منهم، ثم يذهبون إلى مالك خازن النار ويطلبون منه أن يهلكهم الله، وأن يميتهم ويقضي عليهم مرة واحدة.

قال تعالى: ﴿وَنَادَاؤُا يَمْلِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ﴾ [الزخرف: ٧٧] فموت، ونهلك دفعة واحدة،

بدلاً من هذا العذاب المتجدد الذي قال الله عنه: ﴿كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُمْ بَدَّلْنَاهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا الْعَذَابَ﴾ [النساء: ٥٦].

فيجيهم مالك بعد سنين عدة: ﴿إِنَّكُمْ مَنكُوتُونَ﴾ ٧٧ لَقَدْ حَسَنَّا بِالْحَقِّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَكُمْ لِلْحَقِّ كَرِهُونَ ٧٨ [الزخرف].

٦ - ثم يقول بعض أهل النار لبعض لَمَّا لم يجدوا سبيلاً لخروجهم من النار: تعالوا بنا ندعو، ونضرع إلى الله تعالى، فما أدرك أهل الجنة الجنة إلا بالبكاء والضراعة إلى الله تعالى فيفعلون. ﴿قَالُوا أَوَلَمْ تَكُ تَأْتِيكُمُ رُسُلُكُمْ بِالْبَيِّنَاتِ قَالُوا بَلَى قَالُوا فَادْعُوا وَمَا دُعَاؤُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ﴾ ٥١ [غافر].

وحين يرون أن ذلك لا ينفعهم يقولون: تعالوا بنا نصبر ونتحمل، فيصبرون صبراً لم يُر مثله، فلا ينفعهم ذلك أيضاً، وحينئذ يقولون: ﴿سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَجْرَعْنَا أَمْ صَبَرْنَا مَا لَنَا مِنْ مَّحِيصٍ﴾ إذ ليس هناك مهرب، ولا منجا، ولا ملجأ من الله إلا إليه، فلا فرار من عذابه، ونحن وأنتم سواء في الجزع وفي سوء المصير!!

خُطْبَةُ الشَّيْطَانِ الْبِتْرَاءِ وَمَصِيرُ الْكَافِرِ وَالْمُؤْمِنِ

٢٢- ﴿وَقَالَ الشَّيْطَانُ لَمَّا قُضِيَ الْأَمْرُ إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ وَوَعَدْتُكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ وَمَا كَانَ لِي عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ إِلَّا أَنْ دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي فَلَا تَلُمُونِي وَلُومُوا أَنْفُسَكُمْ مَا أَنَا بِمُصْرِخِكُمْ وَمَا أَنتُمْ بِمُصْرِخِيَّ﴾ ٢٢ ﴿إِنِّي كَفَرْتُ بِمَا أَشْرَكْتُمُونِ﴾ ٢٣ مِنْ قَبْلُ إِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ٢٤

وبعد أن يعتذر الكبراء إلى الضعفاء، ويذكروا لهم أنهم لم يكونوا سبيلاً في إضلالهم،

(١) قرأ حفص (لي عليكم) بفتح ياء الإضافة من (لي) وصلأ، وسكَّنَهَا عند الوقف، والباقون بإسكانها وصلأ ووقفاً.

(٢) قرأ حمزة بكسر الياء من (مصرخي) على أصل التخلص من التقاء الساكنين، وأصلها (مصرخين لي) حذفت النون للإضافة، فالتقى ساكنان: ياء الإعراب، وياء الإضافة، وأصلها السكون، فكسرت للتخلص من التقاء الساكنين، وهي لغة بني يربوع من تميم وبني عجل بن لجيم من بكر بن وائل، وقرأ الباقر بفتح الياء؛ لأن الياء المدغمة فيها أصلها الفتح، والياء الأولى لجمع المذكر والثانية ياء المتكلم.

(٣) قرأ أبو عمرو وأبو جعفر بإثبات الياء وصلأ وحذفها وقفاً من (أشركتمون)، وقرأ يعقوب بإثباتها وصلأ ووقفاً، والباقون بحذفها في الحالين.

يقع في نفوسهم أن الشيطان هو الذي أغواهم وأضلهم فيتوجهون إليه بالملامة.

جاء في الأثر: «إذا جمع الله الأولين والآخرين، وقضى بينهم يقول المؤمنون: فمن يشفع لنا؟ فينتهون إلى محمد ﷺ فيشفعه الله فيهم، ويجعل لهم نوراً يمشون به، وحيث يقول الكافرون: قد وجد المسلمون من يشفع لهم، فمن يشفع لنا؟ ما هو إلا إبليس، فهو الذي أضلنا، فيأتونه ويسألونه الشفاعة، فينهض نائراً من مجلسه، ويقوم فيهم خطيباً بما جاء في هذه الآية، فيزيدهم حزناً إلى حزنهم، وحسرة إلى حسرتهم»^(١) ويكون هذا حين يفرغ الله تعالى من الحساب، ويقضي بين الخلائق، ويدخل أهل الجنة الجنة، وأهل النار النار.

يستفاد هذا من قوله تعالى: ﴿لَمَّا قُضِيَ الْأَمْرُ﴾ أي: حين تم الحساب، وعرف كل إنسان مصيره فإن أهل النار يلقون باللائمة على الشيطان؛ لأن التلاوم فيما بينهم لم يُجد، كما أن طلبهم التخفيف من الخزنة لم يُجد، وطلبهم القضاء عليهم من مالك، الخازن الأكبر للنار لم يُجد.

وحيث يذهبون إلى إبليس يطلبون منه أن يشفع لهم، ويقولون له: أنت الذي زيّنت لنا الكفر، وأضللتنا وأغويتنا فيقف إبليس، كما قال الحسن: على منبر من نار، يخطب في أهل النار^(٢) الخطبة البتراء، ويتبرأ من عبادتهم، ومن إشراكهم له مع الله سبحانه، يقوم إبليس خطيباً في أهل النار يوم القيامة.

ولفظ الشيطان إذا كان مفرداً يراد به إبليس؛ لأنه رأس الشياطين ورؤسهم.

قال عامر الشَّعْبِي: يقوم خطيبان يوم القيامة على رؤوس الناس، يقول الله لعيسى ابن مريم: ﴿أَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُخِيَ إِلَهَيْنِ مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾^(٣) [المائدة: ١١٦] فيقف خطيباً، ويتبرأ من النصاري، وممن أشركه مع الله سبحانه، فيقول: ﴿مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَا أَمَرْتَنِي بِهِ أَنْ أَعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ﴾ [المائدة: ١١٧].

(١) يُنْظَر: «تفسير الطبري» (١٦/٥٦٢) و«المعجم الكبير» للطبراني (١٧/٣٢٠) عن عقبة بن عامر وفي سنده عبد الرحمن بن زياد بن أنعم قال الهيثمي في «مجمع الزوائد» (١٠/٣٧٦): وهو ضعيف، وهو في «تفسير الفخر الرازي» (١١/١١٠) و«تفسير ابن كثير» (٤/٤٩٠) وغيرهما.

(٢) «تفسير القرطبي» (٩/٣٥٦).

(٣) يُنْظَر: «تفسير ابن كثير» (٤/٤٩١) ورفع ابن عطية في تفسيره (٣/٣٣٣) عن عقبة بن عامر.

أما إبليس، فإنه يخطب فيمن أغواهم بعد أن قضى الله الأمر، وفرغ من حساب خلقه، ودخل أهل الجنة الجنة، وأهل النار النار، يقول لهم: إن الله وعدكم وعدًا حقًا، فأخبركم على ألسنة الرسل أن هناك بعثًا وحسابًا وجزاء، وجنة ونارًا، ووعدتكم وعدًا باطلاً: أن لا حساب، ولا جزاء، ولا جنة، ولا نار فأخلفتكم وعدي، وضحكت عليكم، وكذبت عليكم^(١) كما قال تعالى: ﴿يَعِدُهُمْ وَيُمَنِّيهِمْ وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُورًا﴾ [النساء] وما كان لي عليكم من قوة أقهركم بها على اتباعي، ولا أجبركم، أو أكرهكم على ما فعلتم، ولم يكن معي دليل، ولا برهان، ولا حجة على دعوتي لكم، كما جاءتكم الرسل بالحجج الواضحة، والأدلة القوية، وإنما هي مجرد إشارة، ووسوسة داخلية؛ فالإنسان لا يرى الشيطان بعينه، ولا يجبره بطريقة محسوسة على فعل شيء.

يقول الشيطان: ولكني دعوتكم إلى الكفر والضلال فاتبعتموني، فَيُثْقِي هو أيضًا باللائمة عليهم، ويقول لهم: الذنب ذنبكم، فلو موا أنفسكم على سوء نظركم وقلة تثبتكم؛ فأنا لا أملك القهر والغلبة، ولا أملك الحجة والبينة.

والقرآن الكريم يثبت في آية أخرى من سورة النحل أن الشيطان له سلطان على ضعفاء الإيمان من أوليائه، قال تعالى: ﴿إِنَّمَا سُلْطَانُهُ عَلَى الَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُ﴾ [آية: ١٠٠] والسلطان المذكور في الآية هنا: هو مجرد الإغواء، والتزيين، والإضلال، وليس بالقوة ولا بالحجة ولا البرهان، فهو يؤثر بإغوائه على أتباعه من الذين يتولَّونه، ويتبعون إشارته.

وبهذا يعلم أن السلطان المثبت للشيطان، هو التسلط بالإغراء على المعاصي، أما السلطان المنفى، فهو سلطان الحجة والبرهان، فليس له حجة على من يُغويهم، وغاية أمره أنه يزين لهم الشهوات والشبهات ويُجرِّئ الإنسان على المعاصي.

وقد جاء هذا النفي والاثبات في آيتين من سورة النحل ﴿إِنَّهُ لَكُمُ سُلْطَانٌ عَلَى الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ هذا هو النفي، وجاء الإثبات في الآية بعدها ﴿إِنَّمَا سُلْطَانُهُ عَلَى الَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُ وَالَّذِينَ هُمْ بِهِ مُشْرِكُونَ﴾ [١٠٠، ٩٩].

ثم يتبرأ منهم الشيطان يوم القيامة، ويعلن أنه لا يملك لهم شيئًا فيقول: ما أنا بمنقذكم

(١) يُنْظَرُ «تفسير الطبري» (١٣/٦٢٩).

من العذاب، ولا مغيثكم، ولا منجيكم مما أنتم فيه، وأنتم أيضاً لا تملكون ذلك لي،
إني تبرأت من جعلكم لي شريكاً مع الله في طاعته في الدنيا، إن الظالمين من الكافرين
والمشركين لهم عذاب مؤلم؛ بسبب إعراضهم عن الحق، واتباعهم الباطل.

وقد أخبر الله سبحانه في كثير من آياته أن الشركاء يتبرؤون يوم القيامة ممن عبدوهم،
ويكونون لهم أعداء، كقوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ مَن لَّا يَسْتَجِيبُ لَهُ إِلَى
يَوْمِ الْقِيَمَةِ وَهُمْ عَنْ دُعَائِهِمْ غَفِلُونَ ﴿٥﴾ وَإِذَا حُيِّرَ النَّاسُ كَانُوا لَهُمْ أَعْدَاءً وَكَانُوا بِعِبَادَتِهِمْ كُفِرِينَ ﴿٦﴾﴾
[الأحقاف] أي: جاحدين لها.

وقال أيضاً: ﴿كَلَّا سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا ﴿٨٧﴾﴾ [مريم].

وقال سبحانه: ﴿وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ مَا يَمْلِكُونَ مِنْ قِطْمِيرٍ ﴿١٣﴾ إِنْ تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا
دُعَاءَكُمْ وَلَوْ سَمِعُوا مَا اسْتَجَابُوا لَكُمْ وَيَوْمَ الْقِيَمَةِ يَكْفُرُونَ بَشِرِكِكُمْ وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ ﴿١٤﴾﴾ [فاطر].

ورود أن أهل النار لما قالوا: ﴿سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَجْرُنَا أَمْ صَبَرْنَا مَا لَنَا مِنْ مَّحِيصٍ﴾ قال لهم
إبليس: ﴿إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ﴾ فلما سمعوا مقالته مقتوا أنفسهم، فنودوا: ﴿لَمَقْتُ
اللَّهُ أَكْبَرَ مِنْ مَّقَتِكُمْ أَنْفُسَكُمْ إِذْ تُدْعَوْنَ إِلَى الْإِيمَانِ فَتَكْفُرُونَ﴾^(١) [غافر: ١٠].

وفي الآية تحذير من وسوسة الشيطان وإغوائه حتى ينجو العبد من عذاب النار الذي
يحل باتباع الشيطان يوم القيامة.

هذا: وقد أوضح الشيطان في خطبته لأهل النار خمسة أمور هي:

أولاً: أن ما وعدهم الشيطان به كان باطلاً، معارضاً وعُد الله الحق، وأنه أخلفهم ما وعدهم به.

ثانياً: أنهم قبلوا غوايته عن طوعية واختيار من غير حجة له فيما قال، وإن دعوته لهم
كانت خالية من البرهان.

ثالثاً: أنه لا ذنب له فيما حدث، وعليهم أن يلوموا أنفسهم؛ لأنهم قبلوا الباطل من
غير دليل عقلي.

رابعاً: أنه لا قدرة له على نصرهم ولا على إغاثتهم، بل هو مثلهم قد وقع في البلية.

(١) نقله ابن كثير (٤/ ٤٩١) عن محمد بن كعب القرظي.

خامساً: أنه جحد ما فعلوه من إشراكهم له بالله، فتوالت عليهم الحسرات والمصائب^(١).

٢٣- ﴿وَأَدْخِلْ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِمْ يُحَيِّتُهُمْ فِيهَا سَلَامٌ﴾ ﴿٢٣﴾

وبعد ذكر حال المشركين الظالمين، يأتي ذكر حال المؤمنين الذين صدقوا الله ورسوله، وعملوا الصالحات، فبين سبحانه أنهم يدخلون جنات تجري من تحت قصورها وأشجارها أنهار العسل واللبن والخمر غير المسكرة، والماء الذي لا يتغير، ودخولهم فيها دخولاً أبدياً خالداً مخلداً ﴿بِإِذْنِ رَبِّهِمْ﴾ أي بفضل وحوله وقوته، وتحتيتهم فيها من الله السلام، وكذا فيما بينهم وبين الملائكة، وبين بعضهم البعض، كما قال تعالى: ﴿وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلَامٌ عَلَيْكُمْ﴾ [الزمر: ٧٣].

وقال جل شأنه: ﴿وَالْمَلَائِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِمْ مِنْ كُلِّ بَابٍ﴾ ﴿٧٣﴾ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ بِمَا صَبَرْتُمْ﴾ [الرعد].

وقال سبحانه: ﴿وَيُلَقَّوْنَ فِيهَا تَحِيَّةً وَسَلَامًا﴾ [الفرقان: ٧٥].

وقال أيضاً: ﴿دَعَوْهُمْ فِيهَا سُبْحَنَكَ اللَّهُمَّ وَحَيِّتُهُمْ فِيهَا سَلَامٌ وَآخِرُ دَعْوَاهُمْ أَنِ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ ﴿٧٦﴾ [يونس].

وليس بين المؤمنين في الجنة خصام، ولا نزاع، ولا تلاؤم كما هو الحال بين أهل النار؛ فإنَّ خُلَّتْهم التي كانت في الدنيا مستمرة، ولم تنقلب إلى عداوة كشأن غيرهم، قال تعالى: ﴿الْأَخِلَاءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا الْمُتَّقِينَ﴾ ﴿٧٧﴾ [الزخرف].

وقد نزع الله ما في صدورهم من الشحناء والبغضاء ﴿وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِمْ مِنْ غِلٍّ إِخْوَانًا عَلَى سُرُرٍ مُتَقَابِلِينَ﴾ ﴿٧٨﴾ لَا يَمَسُّهُمْ فِيهَا نَصَبٌ وَمَا هُمْ مِنْهَا بِمُخْرَجِينَ﴾ ﴿٧٨﴾ [الحجر].

مَثَلُ الْمُؤْمِنِ وَمَثَلُ الْكَافِرِ

٢٤- ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ﴾ ﴿٢٤﴾

وبعد أن بين سبحانه أحوال الأشقياء والسعداء ضرب لكل فريق منهم مثلاً، فمثلاً

(١) يُنظر: «تفسير فتح القدير» للشوكاني (٣/ ١٠٤).

(٢) لم يعد لفظ (في السماء) آية المدني الأول وعدّها غيره.

المؤمن الذي رسخت في نفسه عقيدة التوحيد، وأثمرت فيه الثمار المفيدة بالعمل الصالح آناء الليل وأطراف النهار، مثله كالشجرة الطيبة، وأطيب الشجر: النخلة غرسها في أعماق الأرض، وفروعها وأغصانها تمتد في السماء.

ومثل الكافر كشجرة الحنظل المرة، خبيثة الطعم، ليس لها قرار في الأرض، ولا ارتفاع في السماء.

وعمله الصالح كالبرِّ والصدقة لا يُرفع إلى رب العالمين، وقوله الطيب لا يُقبل منه؛ فليس له عمل مقبول، إنما هو مقطوع الأثر، مقطوع النفع والفائدة.

والكلمة الطيبة: هي كلمة التوحيد وما يترتب عليها من قول طيب، وعمل صالح، كما صح في الحديث أنها شهادة الإسلام: لا إله إلا الله محمد رسول الله، والعمل بمقتضى هذه الشهادة من: قول باللسان، وتصديق بالجنان، وعمل بالجوارح:

١- أخرج البخاري وغيره بسنده عن نافع عن ابن عمر رضي الله عنهما قال: كنا عند رسول الله ﷺ فقال: «أخبروني بشجرة تُشبه -أو كالرجل- المسلم، لا يتحات ورقها، ولا...، ولا...، ولا...، تؤتي أكلها كل حين»، قال ابن عمر: فوقع في نفسي أنها النخلة، ورأيت أبا بكر وعمر لا يتكلمان، فكرهت أن أتكلم، فلما لم يقولوا شيئاً، قال رسول الله ﷺ: «هي النخلة»، فلما قمنا قلت لعمر: يا أبتاه، والله لقد كان وقع في نفسي أنها النخلة، فقال: ما منعك أن تكلم؟ قال: لم أركم تكلمون فكرهت أن أتكلم، أو أقول شيئاً، قال عمر: لأن تكون قلتها أحب إليّ من كذا وكذا^(١).

٢- وفي رواية عنه أيضاً ﷺ: أن رسول الله ﷺ قال: «إن من الشجر شجرة لا يسقط ورقها، وهي مثل المسلم، حدثوني ما هي؟» فوقع الناس في شجر البادية، ووقع في نفسي أنها النخلة، قال عبد الله: فاستحييت، فقالوا: يا رسول الله، أخبرنا بها. فقال رسول الله ﷺ: «هي النخلة»^(٢).

(١) «صحيح البخاري» برقم (٤٦٩٨) وهذا لفظه، وانظر برقم (٦١) وينحوه أخرجه مسلم (٢٨١١) ومالك وأحمد وغيرهم.

(٢) هذا لفظ البخاري (١٣١) وهو في مسلم (٢١٦٥/٤) برقم (٢٨١١).

قال العلماء: شبه النخلة بالمسلم في كثرة خيرها، ودوام ظلها، وطيب ثمرها، ووجوده على الدوام؛ فإنه من حين يطلع ثمرها لا يزال يؤكل منه حتى يبيس.

وبعد أن يبيس يُتخذ منه منافع كثيرة: من خشبها وورقها وأغصانها فيستعمل جذوعاً، وحطباً، وعصياً، ومخاصر، وحُصراً وجبالاً، وأواني، وغير ذلك، ثم آخر شيء منها نواها، وينتفع به علماً للإبل.

ثم جمال نباتها، وحُسن هيئة ثمرها؛ ففيها منافع كثيرة، وفيها خير وجمال، كما أن المؤمن خير كله؛ من كثرة طاعاته، ومكارم أخلاقه.

وقد صحَّ الخبر عن غير ابن عمر أيضاً أن الشجرة الطيبة التي ضُربت مثلاً في الآية للمؤمن: هي النخلة.

٣- ومن ذلك ما ورد عن شعيب بن الحبحاب قال: كنا عند أنس -أي: ابن مالك- فأتينا بطبق أو قنَّع عليه رطب، فقال: كُلْ يا أبا العالية؛ فإن هذا من الشجرة التي ذكرها الله ﷻ في كتابه^(١).

فالشجرة الطيبة أصلها ثابت، ككلمة التوحيد مستقرة راسخة في قلب العبد المؤمن، وفروعها ممتدة في السماء، لها فروع وأغصان، تثمر الثمر النافع، والعمل الصالح للمؤمن صباح مساء، آناء الليل وأطراف النهار كالنخلة، ويضرب الله الأمثال للناس لعلهم يعتبرون، ويتفكرون، ويتعظون.

والحكمة في تشبيه كلمة الإسلام بالنخلة من خمسة أوجه:

الوجه الأول: أن كلمة التوحيد قوية الثبوت في قلب المؤمن، كثبوت أصل النخلة في الأرض.

الوجه الثاني: أن كلمة التوحيد ترفع عمل المؤمن إلى السماء، كما قال تعالى: ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ﴾ [فاطر: ١٠] وكذلك فرع النخلة مرتفع في السماء.

الوجه الثالث: أن المؤمن كلما قال: لا إله إلا الله عاد عليه ثمرتها ومنافعها بالعمل

(١) أخرجه الترمذي برقم (٣١١٩) وقال الألباني في صحيح «سنن الترمذي» برقم (٢٤٩٤): صحيح موقوف ولم يرفعه. قلت: وهذا أصح من طريق حماد بن سلمة المرفوع، كما أخرجه عبد الرزاق (٣٤٢/١) والطبري (٦٣٩/١٣).

الصالح في كل وقت، كما أن النخلة تؤتي أكلها كل حين.

الوجه الرابع: أن الإنسان خلق من الطين، ويتناسل بالتلقيح، وإذا قُطعت رأسه فإنه يموت، وكذلك النخلة مغروسة في الطين، ولا تحمل حتى تلقح بطلع الذكر، وإذا قُطع رأسها ماتت وانقطع ثمرها.

الوجه الخامس: أن الإيمان لا يتم إلا بثلاثة أشياء: تصديق واعتقاد بالقلب، وقول باللسان، وعمل بالبدن.

وكذلك النخلة لا تسمى شجرة إلا بثلاثة أشياء: جذع راسخ، وأصل ثابت، وفرع قائم.

ومعنى الآية: ألم تعلم -يا محمد- كيف ضرب الله مثلاً لكلمة التوحيد (لا إله إلا الله) بشجرة عظيمة هي النخلة أصلها متمكن في الأرض، وأعلاها مرتفع علواً نحو السماء.

٢٥ - ﴿تُؤْتِي أَكْلَهَا^(١) كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ^(٢) لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾

أي تعطي ثمارها كل وقت بإذن ربها، وكذلك شجرة الإيمان أصلها ثابت في قلب المؤمن علماً واعتقاداً، وفرعها من الأعمال الصالحة والأخلاق الفاضلة ترفع إلى الله تعالى، وينال العبد ثوابه في كل وقت، ويضرب الله الأمثال للناس؛ ليتذكروا ويتعظوا، فيعتبروا، فإن في ضرب الأمثال تقريب للمعاني وتوضيح لها.

وفي معنى ﴿تُؤْتِي أَكْلَهَا كُلَّ حِينٍ﴾ قال الربيع بن أنس: غدوة وعشيًا؛ لأن ثمر النخل يؤكل أبداً، ليلاً ونهاراً، صيفاً وشتاءً، فيؤكل منها الجُمَار، والطلح، والبلح، والخلال، والبُسْر، والمنصف، والرطب، وبعد ذلك يؤكل التمر اليبس إلى حين، والرطب الطري؛ فأكلها دائم في كل وقت.

قال ابن عباس: الحين حينان: حين يُعرف، وحين لا يُعرف؛ فأما الحين الذي لا يعرف فقلوه تعالى: ﴿وَلَنَعْلَمَنَّ نَبَأُ بَعْدَ حِينٍ﴾ [ص] وأما الحين الذي يُعرف فقلوه:

(١) قرأ نافع وابن كثير وأبو عمرو بإسكان الكاف من (أكلها) وهو لغة تميم، والباقيون بضمها، وهو لغة الحجازيين.

(٢) أمال ألف (الناس) دوري الكسائي، وفتحها غيره.

﴿تُؤْتِي أَكْلَهَا كُلَّ حِينٍ﴾^(١).

قال عكرمة: أرسل إليّ عمر بن عبد العزيز، فقال: يا مولى ابن عباس: إني حلفت ألا أفعل كذا وكذا حينًا، فما الحين الذي يعرف به؟ فقلت: إن من الحين حينًا لا يدرك، ومن الحين حين يدرك، فأما الحين الذي لا يدرك فقول الله تعالى ﴿هَلْ أَتَى عَلَى الْإِنْسَانِ حِينٌ مِّنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُنْ شَيْئًا مَّذْكُورًا﴾^(٢) [الإنسان] والله ما يدري كم أتى له إلى أن خلق، وأما الحين الذي يدرك فقله ﴿تُؤْتِي أَكْلَهَا كُلَّ حِينٍ﴾ فهو ما بين العام إلى العام المقبل، فقال: أصبت يا مولى ابن عباس، ما أحسن ما قلت^(٣).

وليس بين الأثرين تعارض، لأنه يصح إطلاق كل منهما على الآخر. قال تعالى:

٢٦- ﴿وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ^(٣) اجْتُثَّتْ مِن فَوْقِ الْأَرْضِ مَا لَهَا مِن قَرَارٍ^(٤)﴾

ضرب الله في هذه الآية، المثل، للكلمة الخبيثة بالشجرة الخبيثة، والكلمة الخبيثة هي كلمة الشرك والكفر، والعياذ بالله، وهي ﴿كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ﴾ المأكل والمطعم وهي نبت الحنظل، وهذه النبتة أو الشجرة تُقطع من أعلى الأرض؛ لأن عروقها قريبة من سطح الأرض فليس لها قرار، وليست ضاربة بجذورها في أعماق الأرض، إنما تقطع من سطح الأرض، وليس لها أصل راسخ في داخل الأرض، ولا فرع صاعد في السماء.

وكذلك الكافر لا ثبات له، ولا خير فيه، ولا يُرفع له عمل صالح إلى الله؛ والشجرة الخبيثة هي شجرة الحنظل، كما جاء في جامع الترمذي وغيره عن أنس بن مالك ؓ قال: أتني رسول الله ﷺ بقتاع عليه رطب فقال: «مثل كلمة طيبة كشجرة طيبة أصلها ثابت وفرعها في السماء تؤتي أكلها كل حين بإذن ربها، قال: هي النخلة، ومثل كلمة خبيثة كشجرة خبيثة اجتثت من فوق الأرض ما لها من قرار، قال: هي الحنظلة، فأخبرت بذلك

(١) الطبري (٦٤٨/١٣).

(٢) البيهقي في «السنن» (٦٢/١٠) والطبري (٦٤٩/١٣).

(٣) قرأ أبو عمرو وعاصم وحمة ويعقوب وقنبل وابن ذكوان بخلف عنهما بكسر التنوين وصلًا من (خبيثة اجتثت)، والباقون بضمه.

(٤) أمال الألف من (قرار) أبو عمرو وابن ذكوان من طريق الصوري والكسائي وخلف وقللها الأزرق، ولخلف عن حمزة الإمالة والتقليل، ولخلاد الفتح والتقليل، وفتحها الباقيون.

أبا العالية، فقال: صدق وأحسن»^(١).

حُسْنُ الْخَاتِمَةِ وَسُوءُ الْخَاتِمَةِ

٢٧- ﴿يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا^(٢) وَفِي الْآخِرَةِ وَيُضِلُّ اللَّهُ الظَّالِمِينَ وَيَفْعَلُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ﴾ (٢٧)

ويوم القيامة يكون الحكم بين الفريقين: فريق الإيمان، وفريق الكفر؛ فيثبت الله سبحانه المؤمنين على كلمة التوحيد بالقول الثابت إذا فُتِنُوا في دنياهم، عند ورود الشهوات والشبهات، وعند الموت بالثبات على الإسلام وحسن الخاتمة وإذا فُتِنُوا في قبورهم، عند سؤال الملكين للجواب الصحيح، وعند المساءلة يوم لقاء رب العالمين، وهم فريق السعداء المستمرون على التوحيد، ويضل الله الظالمين عن طريق الصراط المستقيم في الدنيا والآخرة.

فالمؤمنون يثبتهم ربهم بالقول الثابت فلا يزيغوا إلى الباطل، ولا إلى الهوى في الحياة الدنيا إذا فُتِنُوا في الدين، ويثبتهم في الآخرة عند الابتلاء بفتنة القبر.. إذا جاءه الملكان، وسألاه: من ربك؟ وما دينك؟ ومن نبيك؟.

فإذا شهد أن لا إله إلا الله، وأن الله ربه، وأن محمدًا رسول الله، ودينه الإسلام، فذلكم قول الله سبحانه: ﴿يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ﴾.

كما في حديث البراء بن عازب رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال «نَزَلْتُ فِي عَذَابِ الْقَبْرِ، يُقَالُ لَهُ: مَنْ رَبُّكَ؟ فيقول: ربي الله وديني دين محمد^(٣)»، فذلك قوله تعالى ﴿يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾.

(١) «سنن الترمذي» برقم (٣١١٩)، وقد ضعفه الألباني كما في حاشية صحيح الترمذي على الحديث (٣٣٣٧) ج ٣ ص ٦٥ ط مكتب التربية العربي لدول الخليج، وأخرجه النسائي في الكبرى (١١٢٦٢) والحاكم (٣٥٢/٢) وأبو يعلى (٤١٦٥) وابن حبان (٤٧٥).

(٢) أمال ألف (الدنيا) حمزة والكسائي وخلف، وللدوري عن أبي عمرو الفتح والإمالة، وقللها الأزرق بخلفه، وفتحها الباقون.

(٣) صحيح سنن النسائي (١٩٤٤) وصحيح سنن ابن ماجه (٤٢٦٩) وهو حديث متفق على صحته كما سيأتي في الحديث التاسع.

والقبر هو عتبة الآخرة، وأول منزلة من منازلها، فإن صلح صلح ما بعده.

قالت امرأة يا رسول الله: إني امرأة ضعيفة، وإن هذه الأمة تُبتلى في قبورها وتُسأل، فقال عليه الصلاة والسلام: ﴿يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ﴾^(١).

والمسلم أمر أن يستعيز بالله تعالى من فتنة القبر عقب كل صلاة في نهاية التشهد، ويقول: اللهم إني أعوذ بك من عذاب جهنم، ومن فتنة القبر، ومن فتنة المحيا وفتنة الممات، وفتنة المسيح الدجال.^(٢)

وفتنة القبر هي الفتنة عند السؤال؛ حيث يثبت الله المؤمنين على الشهادتين، وعلى شرائع الإسلام في الدنيا، ويختتم لهم عند الممات بالخاتمة الحسنة، ويهديهم في القبر عند سؤال الملكين إلى الجواب الصحيح.

أما الكافر فيضله الله سبحانه عن الصواب في الدنيا والآخرة فلا ينطق بالحق، ولا يثبت على كلمة التوحيد، ولا يعمل بمقتضاها؛ لأنه زاغ عن الحق واتبع هواه، فأزاغ الله قلبه ﴿وَمَا يُضِلُّ بِهِ إِلَّا الْفَاسِقِينَ﴾ [البقرة: ٢٦] وختمت الآية بقوله تعالى: ﴿وَيَفْعَلُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ﴾ من توفيق أهل الإيمان، وخذلان أهل الكفر والطغيان.

ويتعلق بهذه الآية جملة من الأحاديث، منها:

١- ما جاء عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ أنه قال: «إن الميت تحضره الملائكة، فإذا كان الرجل الصالح، قالوا: اخرجي أيتها النفس المطمئنة كانت في الجسد الطيب، اخرجي حميدة، وأبشري بروح وريحان، ورب غير غضبان، قال: فلا يزال يُقال لها ذلك حتى تخرج، ثم يُعرج بها إلى السماء، فيُستفتح لها، فيقال: من هذا؟ فيقال: فلان، فيقولون: مرحباً بالروح الطيبة كانت في الجسد الطيب، ادخلي حميدة وأبشري بروح وريحان، ورب غير غضبان، فلا يزال يُقال لها ذلك حتى ينتهي بها إلى السماء التي فيها الله ﷻ.

(١) ينظر الحديث الثامن من الأحاديث التالية.

(٢) ينظر حديث ابن عباس في صحيح مسلم (٥٩٠) وأبي داود (١٥٤٢) والترمذي (٣٤٩٤) وقال: حسن صحيح، والمسند (٢١٦٨) وانظر حديث أبي هريرة في مسلم (٥٨٨) وابن أبي عاصم في السنة (٨٧٢) والطبراني (١٣٧٥) والمسند (٢٣٤٢).

وإذا كان الرجل سوء قالوا: اخرجي أيتها النفس الخبيثة كانت في الجسد الخبيث، اخرجي ذميمة، وأبشري بحميم وغساق، وآخر من شكله أزواج، فلا يزال يقال لها ذلك حتى تخرج، ثم يُعَرَّج بها إلى السماء، فيُستَفْتَح لها، فيقال: من هذا؟ فيقال: فلان، فيقال: لا مرحبًا بالنفس الخبيثة كانت في الجسد الخبيث، ارجعي ذميمة، فإنه لا تفتح لك أبواب السماء، فيرسل من السماء، ثم يصير إلى القبر»^(١).

٢- وعن عثمان ؓ قال: كان النبي ﷺ إذا فُرع من دُفن الرجل، وقف عليه، فقال: «استغفروا لأخيك، واسألوا الله له التثبيت فإنه الآن يسأل»^(٢).

٣- وعن أبي هريرة ؓ أن رسول الله ﷺ تلا: ﴿يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ قال: «ذاك إذا قيل له في القبر: مَنْ ربك؟ وما دينك؟ فيقول: ربي الله، وديني الإسلام، ونبي محمد، جاء بالبينات من عند الله، فآمنتُ به وصدقت، فيقال له: صدقت، على هذا عشت، وعليه مت، وعليه تبعث إن شاء الله»^(٣).

٤- وعن أبي سعيد الخدري ؓ قال: شهدت مع رسول الله ﷺ جنازة، فقال رسول الله ﷺ: «يا أيها الناس: إن هذه الأمة تُبْتَلَى في قبورها، فإذا الإنسان دُفن، فنفق عنه أصحابه، جاءه ملك في يده مطراق فأقعده، قال: ما تقول في هذا الرجل؟ فإن كان مؤمنًا، قال: أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدًا عبد الله ورسوله، فيقول: صدقت، ثم يُفْتَح له باب إلى النار، فيقول: هذا كان منزلك لو كفرت بربك، فأما إذا آمنت فهذا منزلك، فيفتح له باب إلى الجنة، فيريد أن ينهض إليه، فيقول له: اسكن، ويُفْسَح له في قبره.

وإن كان كافرًا، أو منافقًا يقول له: ما تقول في هذا الرجل؟ فيقول: لا أدري، سمعت

(١) أخرجه أحمد في «المسند» (٣٦٤/٢) برقم (٨٧٦٩) بإسناد صحيح على شرط الشيخين وابن ماجه برقم (٤٢٦٢) وقال البوصيري في «الزوائد» (٣١١/٣) هذا إسناد صحيح رجاله ثقات وهو في صحيح «سنن ابن ماجه» برقم (٣٤٣٧) و«مشكاة المصابيح» (١٦٢٧)، وأخرجه بنحوه مختصرًا مسلم (٢٨٧٢).

(٢) انفرد به أبو داود برقم (٣٢٢١) وهو في صحيح «سنن أبي داود» (٢٧٥٨) والحاكم (٣٧٠/١) وعند البيهقي في عذاب القبر (٥٠، ٢٣٣، ٢٣٤).

(٣) رواه الطبري في تفسيره (٥٩٦/١٦) وقال محققه: خبر صحيح الإسناد، وأخرجه ابن حبان في صحيحه، الإحسان برقم (٣١١٣) وصححه الحاكم ووافقه الذهبي في «المستدرک» (٣٧٩/١) والبيهقي في كتاب عذاب القبر (٨).

الناس يقولون شيئاً، فيقول: لا دريت ولا تلتيت، ولا اهتديت، ثم يفتح له باب إلى الجنة، فيقول: هذا منزلك لو آمنت بربك، فأما إذا كفرت به، فإن الله ﷻ أبدلك به هذا، فيفتح له باب إلى النار، ثم يغممه قمعة بالمطراق، يسمعه خلق الله كلهم غير الثقلين، فقال بعض القوم: يا رسول الله، ما أحد يقوم عليه ملك في يده مطراق، إلا هُبل عند ذلك، فقال رسول الله ﷺ: يثبت الله الذين آمنوا بالقول الثابت^(١).

٥ - وعن البراء بن عازب ؓ أن رسول الله ﷺ قال: «المسلم إذا سئل في القبر؟ يشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله، فذلك قوله تعالى: ﴿يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ﴾»^(٢).

٦ - وعن أنس بن مالك ؓ أن رسول الله ﷺ قال: «إن العبد إذا وضع في قبره، وتولى عنه أصحابه إنه ليسمع قرع نعالهم، قال: فيأتيه ملكان فيقعدانه، فيقولان له: ما كنت تقول في هذا الرجل؟ قال: فأما المؤمن فيقول: أشهد أنه عبد الله ورسوله، قال: فيقال له: انظر إلى مقعدك من النار، قد أبدلك الله به مقعداً من الجنة، قال نبي الله ﷺ: فيراهما جميعاً، وأما المنافق والكافر فيقال له: ما كنت تقول في هذا الرجل؟ فيقول: لا أدري، كنت أقول ما يقول الناس، فيقال له: لا دريت ولا تلتيت، ويضرب بمطراق من حديد ضربة فيصيح صيحة يسمعها من يليه إلا الثقلين»^(٣).

٧ - وعن راشد بن سعد عن رجل من أصحاب النبي أن رجلاً قال: يا رسول الله، ما

(١) «المسند» (٣/٣) برقم (١١٠٠٠) وابن أبي عاصم في «السنن» (٨٦٥) والبخاري في «كشف الأستار» (٨٧٢) والبيهقي في عذاب القبر (٤١) قال محققو «المسند» حديث صحيح، وهذا إسناد حسن، وقال الألباني في «ظلال الجنة» برقم (٨٦٥) حديث صحيح، وقال محمود شاكر في حاشية الطبري برقم (٢٠٧٦٢) حديث صحيح الإسناد، وقال السيوطي في «الدر المنثور» (٨٠/٤) سنده صحيح، ونسبه الهيثمي إلى أحمد والبخاري في «مجمع الزوائد» (٤٨/٣) وقال: رجاله رجال الصحيح.

(٢) أخرجه البخاري برقم (١٣٦٩، ٤٦٩٩) ومسلم برقم (٢٨٧١) وأبو داود (٤٧٥٠) والترمذي (٣١٢٠) والنسائي (١٠١/٤) برقم (٢٠٥٦) وابن ماجه برقم (٤٢٦٩).

(٣) «صحيح مسلم» برقم (٢٨٧٠) والبخاري (١٣٣٨، ١٣٧٤) وأبو داود (٤٧٥٢) و«المستدرك» لعبد بن حميد برقم (١١٧٨) واللفظ له، و«سنن النسائي» (٩٧/٤) برقم (٢٠٥٠).

بال المؤمنين يفتنون في قبورهم إلا الشهيد؟ قال: «كفى ببارقة السيوف على رأسه فتنة»^(١).

٨- وعن عائشة رضي الله عنها قالت: قلت: يا رسول الله، تبلى هذه الأمة في قبورها، فكيف بي وأنا امرأة ضعيفة؟ قال: «يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ»^(٢).

٩- وقد ثبت في حديث البراء رضي الله عنه أن هذه الآية نزلت في عذاب القبر^(٣).

وأن المؤمن يُوسَّع له في قبره، والكافر والمنافق يُضَيَّق عليه حتى تختلف أضلاعه، وأنه لا ينجو من ضمة القبر أحد: فَيُضَمُّ المؤمن كما تُضَمُّ الأم ولدها برفق وحنان، ويُضَمُّ الكافر فتختلف ضلوعه، ويُضْرَب بمطراق من حديد ضربة يصيح منها صيحة يسمعها من يليه إلا الثقلين^(٤).

وتشير الأحاديث إلى أن العبد يُسأل في قبره بأن يخلق الله له إدراكًا وتحصيلًا، سواء وُضع في قبره، أو احترق، أو مات غرقًا، أو ذُرِّي في الهواء، أو تقطَّع جسده إربًا، أو ابتلعه السباع، أو غير ذلك فيخلق الله فيه حياة بحيث يفهم السؤال ويجيب عليه، كما في الأحاديث: «وإنه ليسمع خفق نعالهم»^(٥).

وفيها: «وإنه يرى الضوء كأن الشمس دنت للغروب»، وفيها: «فتعاد روحه إلى جسده». والمؤمن يُفسح له في قبره، ويرى مقعده من الجنة، والكافر يُضَيَّق عليه في قبره، ويرى مقعده من النار، ويضمه القبر حتى تختلف أضلاعه.

ومعنى الآية: يثبت الله الذين آمنوا بالقول الحق الراسخ، وهو شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله، وما جاء به من الدين الحق، والعمل الصالح يثبتهم عليه مدة حياتهم، ويُختم لهم عند الموت بالخاتمة الحسنة، ويثبتهم الله عند سؤال الملكين،

(١) «سنن النسائي» (٢٠٥٢) وفي «السنن الكبرى» (٢١٨٠) وصحيح «سنن النسائي» (١٩٤٠)، والتعليق الرغيب (١٩٧/٢).

(٢) البزار في «كشف الأستار» (٨٦٨) قال الهيثمي في «مجمع الزوائد» (٥٣/٣): رجاله ثقات.

(٣) البخاري (١٣٦٩، ٤٦٩٩) ومسلم (٢٨٧١).

(٤) يُنْظَر حديث ابن مسعود في: «الطبراني الكبير» (٩١٤٥) وحديث أنس في البخاري (١٣٣٨) ومسلم (٢٨٧٠).

(٥) ينظر الحديث السادس فيما سبق.

فيهديهم إلى الجواب الصحيح، ويهديهم إلى القول السديد في مواقف يوم القيامة.
وفي مقابل ذلك يضل الله الظالمين، فلا يوفّقون للهداية في الدنيا، وتسوء خاتمهم،
ولا يهتدون إلى الجواب الصحيح في البرزخ، ولا في موقف الحشر والنشر.

سُوءُ خَاتِمَةٍ مِّنْ كَفَرٍ بِنِعْمَةِ الْإِسْلَامِ

٢٩، ٢٨ ﴿الَّذِينَ يَدْعُونَ نِعْمَتَ اللَّهِ كُفْرًا وَأَحَلُّوا قَوْمَهُمْ دَارَ الْآبَارِ ﴿٢٨﴾ جَهَنَّمَ يَصَلَوْنَهَا وَيَبْئِسُ ﴿٢٩﴾ الْفَرَارُ﴾

نعم الله تعالى على خلقه لا تُعدُّ ولا تحصى، وأجلُّ نعمة أنعمها الله ﷻ على الإنسان، هي نعمة الإسلام؛ فهي التي أخرجته من الظلمات إلى النور، ومن الشرك والكفر إلى التوحيد، ومن الضلال إلى الهدى، وهي التي تأخذ بيد المسلم إلى الرحمة والمغفرة والرضوان، وتجعل مصيره جنات النعيم؛ هذه النعمة هي التي جاء ذكرها في قول الله سبحانه: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا﴾ [المائدة: ٣].

فالمراد بالنعمة في الآية: هي نعمة بعثة محمد ﷺ رحمة للعالمين، وواجب العباد أن يقوموا بشكر هذه النعمة، بامثال أمر الله ﷻ واجتناب نهيه، ولكن فريقاً من الناس لم يؤمن برسالة محمد ﷺ كعبدة الأوثان، وكل من أشرك بالله تعالى في عبادته، ومن لم يؤمن بالله ربّاً، ولا بالإسلام ديناً، أو لا يؤمن بعموم الرسالة الخاتمة، من اليهود والنصارى وسائر الملل والنحل إلى أن تقوم الساعة.

هؤلاء الكفرة والمشركون بدّل أن يحمّدوا ربهم، ويشكروه على نعمة الإسلام، ويقوموا بواجباتها، كفروا بهذه النعمة؛ فقد دعاهم الإسلام إلى التوحيد والإيمان فتركوا ذلك تقليداً لآبائهم، أو خوفاً على سلطانهم ومصالحهم، أو بسبب فكر ضال، أو تأثير منحرف، فكفروا به جلّ شأنه، وبرسوله محمد ﷺ؛ فبدلوا نعمة الله بتوحيده، كفراً وشركاً.

(١) لفظ (نعمت) رُسم في المصحف بالتاء المفتوحة، ووقف عليها بالهاء: ابن كثير وأبو عمرو والكسائي، ووقف عليها بالاقون بالتاء، وأمالها الكسائي عند الوقف وأمثالها (نعمت) في الآية (٣٤).

(٢) قرأ ورش وأبو جعفر وأبو عمرو بخلف عنه بإبدال همزة (وييس) ياء وصلّاً ووقفاً ومعهم حمزة عند الوقف.

والذين يتزعمون حركات الكفر والشرك في العالم يتقدمون الشعوب التي أضلواها إلى جهنم يوم لقاء رب العالمين، ويأخذون بأيديهم إلى المصير الأليم، كما قال تعالى عن فرعون: ﴿يَقْدُمُ قَوْمَهُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ فَأَوْرَدَهُمُ النَّارَ﴾ [هود: ٩٨].

وقال تعالى عنه وعن جنوده: ﴿وَجَعَلْنَاهُمْ آيَةً يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ﴾ [القصص: ٤١]
 ذلكم قول الله سبحانه: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ بَدَّلُوا نِعْمَتَ اللَّهِ كَفْرًا﴾ وأهمها: بعثة محمد ﷺ :
 ١- وهي نعمة الإسلام، فبدل أن يعبدوا الله ويطيعوه، ويتبعوا ما جاء به خاتم الرسل كفروا به، وبدل أن يشكروه سبحانه ويحمدوه على هذه النعمة بدّلوا هذا الإيمان بالكفر، وهم بهذا قد تسببوا في هلاك أقوامهم ﴿وَأَحْلَوْا قَوْمَهُمْ دَارَ الْبَوَارِ﴾ فأخذوا بأيديهم إلى دار الهلاك والخسران.

٢- والذين بدّلوا نعمة الله كفرةً، هم الذين تلقوا الكلمة الخبيثة من الشيطان، وهي كلمة الشرك والكفر.

٣- وهم الذين ضرب الله لهم المثل في الآيات السابقة بالشجرة الخبيثة.
 ٤- وهم الذين استكبروا عن قبول الحق، فقابلوا دعوة الإسلام بالعناد والمكابرة، وهم من الذين قال لهم الضعفاء: إنا كنا لكم تبعًا، وذلك في كل زمان ومكان، وفي مقدمتهم مشركو مكة في وقت النبي ﷺ الذين بوّأهم الله حرمة، وأمنهم في سفرهم وإقامتهم، وجعل أفئدة الناس تهوي إليهم، وسلّمهم مما أصاب غيرهم من عذاب الاستئصال، وأنعم عليهم برسالة محمد ﷺ أفضل أنبيائه، فدعاهم إلى الهدى، وهياً لهم أسباب السعادة في الدنيا والآخرة، ولكنهم كفروا بهذه النعم، فعبدوا الحجارة، وكفروا بالله وبرسوله، ولازموا الكفر حتى ماتوا عليه،

٥- وكذلك كل من لم يؤمن برسالة محمد ﷺ من جميع الخلق إلى يوم القيامة، فهو ممن بدل نعمة الله كفرةً^(١).

هذا: ونعمة الإسلام تدخل في الآية دخولاً أولياً، ولفظ: ﴿نِعْمَةً﴾ لفظ عام يشمل كل نعمة أنعم الله بها على الإنسان، وبدل أن يقوم العبد بواجب هذه النعمة استعملها في غير

(١) وما ورد في «تفسير ابن كثير» وغيره من أن المراد بالذين بدلوا نعمة الله كفرةً: هم بنو أمية وبنو المغيرة، منسوباً إلى عمر وعلي ؓ، فهو من وضع الضالين المضادين لبني أمية وكذلك ما ينسب إلى ابن عباس ؓ أن المراد بهم: جيلة بن الأيهم، ومن تبعه من العرب ممن تنصروا في عهد عمر، لا أراه مناسباً لمعنى الآية، وقد حدث هذا في خلافة عمر، بعد نزول الآيات بوقت طويل؟

موضعها، فمن أعطاه الله مالا، أو صحة، أو علما، أو جاهًا، أو سلطانًا، ثم طغى وبغى، وأساء استخدام هذه النعمة في المعاصي بدل الطاعات، وبدد الطاقات في غير ما هو مشروع، فإنه بهذا يكون قد بدل شكر النعمة بكفرها.

والمعنى: ألم تنظر وتعجب -أيها المخاطب- من أولئك الذين قابلوا نعمة الله بالجحود والطغيان، ووضعها في غير موضعها، فغيروا الشكر بالكفر، وكانوا سببًا في إنزال قومهم دار الهلاك والخسران؟!

ودار البوار التي أعدها الله لمن بدلوا نعمة الله كفرًا فلم يؤمنوا بالرسالة الخاتمة، هذه الدار: هي جهنم يقاسون حرها يوم القيامة، وبئس المستقر مستقرهم في نار جهنم، وبئس المصير لهؤلاء الكفار المشركين. قال تعالى:

٣٠- ﴿وَجَعَلُوا لِلَّهِ أَنْدَادًا لِيُضِلُّوا^(١) عَنْ سَبِيلِهِ قُلْ تَمَتَّعُوا فَإِنَّ مَصِيرَكُمْ إِلَى النَّارِ ﴿٣٠﴾

والسبب في هذا العذاب أنهم أشركوا مع الله غيره، وجعلوا له أشباهًا وأمثالا، فقالوا: عيسى ابن الله، وقالوا: إن لله سبحانه زوجة وولدا، وقالوا: عزيز ابن الله؛ ليُبعدوا الناس عن دين الله ﴿وَجَعَلُوا لِلَّهِ أَنْدَادًا﴾ أصنامًا وأوثانًا - كما هو الحال في أماكن كثيرة من أرجاء العالم قديمًا وحديثًا - لِيُضِلُّوا بأنفسهم عن سبيل الله، كما في قراءة فتح الباء وكسر الضاد، أو لِيُضِلُّوا غيرهم عن سبيل الله كما في قراءة أخرى بضم الباء، ويصدونهم عن اعتناق الإسلام.

يقول سبحانه مخاطبًا هذه الفئة إلى يوم القيامة: قل تمتعوا في هذه الحياة بشهواتكم وملذاتكم؛ فإن متاع الدنيا قليل، وهي سريعة الزوال، وإن مردكم ومرجعكم إلى عذاب جهنم، كما قال تعالى: ﴿لَا يَغُرُّكَ تَقَلُّبُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي آلِ الْبَيْتِ ﴿١٦٦﴾ مَتَّعٌ قَلِيلٌ ثُمَّ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمِهَادُ ﴿١٦٧﴾﴾ [آل عمران].

وقال جل شأنه: ﴿مَتَّعٌ فِي الدُّنْيَا ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ نَذِيهِمُ الْعَذَابَ الشَّدِيدَ ﴿٧٦﴾ كَانُوا يَكْفُرُونَ ﴿٧٧﴾﴾ [يونس].

(١) قرأ ابن كثير وأبو عمرو ورويس بفتح الباء من (لِيُضِلُّوا) فعل مضارع لازم، أي: ليضلّوهم في أنفسهم، والباقيون بضم الباء فعل متعد، والمفعول محذوف، أي: ليضلّوا غيرهم.

وقال: ﴿ذَرَهُمْ يَأْكُلُوا وَيَتَمَتَّعُوا وَيُلْهِمُ الْأَمَلُ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾ [الحجر].

وقال سبحانه: ﴿قُلْ مَنْعَ الدُّنْيَا قَلِيلٌ وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ لِمَنِ اتَّقَى وَلَا تُظْلَمُونَ فَتِيلًا﴾ [النساء: ٧٧].

﴿قُلْ تَمَتَّعْ﴾ أيها الكافر ﴿بِكُفْرِكَ قَلِيلًا إِنَّكَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ﴾ [الزمر: ٨]

تمتعوا - أيها الجاحدون لنعم الله - في هذه الحياة قليلاً؛ فإن مصيركم في الآخرة إلى النار.

يقول ابن عباس رضي الله تعالى عنهما: لو أن الكافر كان في الدنيا مريضاً لا ينام من شدة المرض، جائعاً لا يأكل، ولا يشرب مدة حياته، لكان هذا نعمة بالنسبة إلى عذابه يوم القيامة. ولو أن المؤمن كان في أرغد عيش، وأهنأ حال في حياته الدنيا، لكان هذا بؤساً بالنسبة إلى نعيم الآخرة.

وَاجِبُ الْمُسْلِمِ تَجَاهَ رَبِّهِ وَتَجَاهَ وَطَنِهِ

٣١- ﴿قُلْ لِعِبَادِيَ^(١) الَّذِينَ ءَامَنُوا يُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُؤْتُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ يَوْمٌ لَا بَيْعَ فِيهِ وَلَا خِلَالٌ^(٢)﴾ [٣١]

ولما ذكر سبحانه أحوال أهل الكلمة الخبيثة ثنى بالكلام على أهل الكلمة الطيبة؛ ليدوموا ويستمروا على ما هم عليه من الطاعة والعبادة، والخطاب في الآية لعموم المؤمنين؛ فبين سبحانه أنه لا بد لهم من أمرين: أمر في هذه الآية، وأمر في الآية التي بعدها.

الأمر الأول: أنه يجب عليهم أفراداً وجماعات أن ينشغلوا بعبادة الله سبحانه، فيشغلوا أنفسهم بعبادة الواحد الديان، وفي مقدمة هذه الطاعة والعبادة: إقام الصلاة، وإيتاء الزكاة؛ بأن يكون هذا همهم شعوبياً وأفراداً، وجماعات وحكومات، ينشغلون به كأمة وأفراد أكثر من

(١) قرأ نافع وابن كثير وأبو عمرو وعاصم وأبو جعفر ورويس وخلف العاشر بفتح ياء الإضافة وصلًا من (قل لِعِبَادِيَ الَّذِينَ)، والباقون بإسكانها.

(٢) قرأ نافع وابن عامر وعاصم وحزمة والكسائي وأبو جعفر وخلف العاشر بالرفع والتنوين من (لا يَبِيعُ فِيهِ وَلَا خِلَالٌ) على أن لا نافية للوحدة لا عمل لها، وبيع مبتدأ، والجار والمجرور خبر، وخلال مبتدأ خبره محذوف دل عليه الخبر الأول، وقرأ الباقر بالفتح وعدم التنوين، على أن لا نافية للجنس تعمل عمل إن، وبيع اسمها، والجار والمجرور خبرها، وخلال اسم لا، وخبرها محذوف دل عليه الأول، أي: فيه.

انشغالهم بواجبهم الوطني أو القومي، أو بما يتعلق باقتصادهم وسياساتهم واجتماعياتهم؛ فإن الله سبحانه قد خلق الخلق لعبادته، وهذا هو الواجب الأول فيجب أن تقام الصلاة في المساجد، وفي دواوين العمل، ودور التعليم، وتتوقف الأعمال لأداء الصلاة.

وعلى جهاز الحكومة أن يجمع الزكاة قسراً ممن منع إخراجها، ويصرفها في مصارفها المشروعة.

وعلى الدولة أن تلزم غير المسلمين باحترام مشاعر الصائمين في شهر رمضان ما دامت الدولة، دولة إسلامية، وعليها أن تطوع إعلامها ومظهرها الخارجي لأخلاق الإسلام، وفي مقدمة ذلك إقامة الصلاة، وإيتاء الزكاة؛ فيؤدون الصلاة بحدودها، ويحافظون عليها، ويؤمنون ركوعها وسجودها والخشوع فيها، ويؤمنون وضوءها، وأقوالها، وأفعالها.

ويخرجون بعض ما أعطاهم الله من المال سراً في صدقة التطوع، وعلانية في الزكاة المفروضة، والمقصود: الإنفاق في السر والعلن؛ لئلا يظنوا أن إنفاق الأموال جهراً يجر إلى الرياء، أو أن إخفاء الصدقة يفضي إلى إخفاء الغني نعمته الله عليه، فيجر هذا إلى كفران النعمة، فربما ظن الإنسان أحد الأمرين؛ فأفضى هذا إلى ترك الإنفاق في الحالة الأخرى.

ولعل تقديم السر على العلانية للتنبيه على أنه أولى، كما قال تعالى: ﴿إِنْ تُبْدُوا الصَّدَقَاتِ فَنِعِمَّا هِيَ وَإِنْ تُخْفُوهَا وَتُؤْتُوهَا الْفُقَرَاءَ فَهِيَ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ [البقرة: ٢٧١].

وقد أمرنا الله سبحانه على لسان رسوله ﷺ أن: نقيم الصلاة بحدودها، ونؤديها في أوقاتها مع جماعة المسلمين، وأن نعطي بعض ما أعطانا الله من مال للفقراء والمساكين مسرّين ومعلنين، من قبل أن يأتي يوم لا مرد له من الله، وهو يوم القيامة؛ حيث لا ينفع فيه مال ولا بنون، ولا يقبل فيه صدقة ولا فداء، ولا سبيل إلى استدراك ما فات الإنسان في حياته، لا بمعارضة بيع وشراء، ولا بشفاعة خليل أو صديق، فلكل امرئ يومئذ شأن يغنيه.

كما قال تعالى: ﴿قَالِ يَوْمَ لَا يُؤْخَذُ مِنْكُمْ فِدْيَةٌ وَلَا مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مَأْوَتْكُمْ النَّارُ هِيَ مَوْلَاكُمْ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ﴾ [الحديد: ١٥].

وكما قال جلّ شأنه: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَنِفِقُوا مِمَّا رَزَقْتُمْ مِّن قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لَا بَيْعَ فِيهِ وَلَا خُلَّةٌ وَلَا شَفْعَةٌ﴾ [البقرة: ٢٥٤] أي: أن الكافر لا يمكنه أن يشتري نفسه، أو يفديها بماء الأرض ذهباً يوم القيامة -ولو امتلك ذلك- لأنه مستحق للعذاب.

كما لا ينفعه صداقة أحد وخُلَّتْهُ مهما كانت درجته في الدنيا من: الغنى، أو الجاه، والسلطان.
وأيضاً لا ينفعه شفاعاة أحد إذا لقي الله كافرًا، كما قال تعالى: ﴿وَأَتَقُوا يَوْمًا لَا تَجْزِي نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئًا وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا تَنفَعُهَا شَفَعَةٌ﴾ [البقرة: ١٢٣] والمراد بالعدل: الفداء بالمال.
واقترنت الآية التي معنا، على نفي قبول الفدية وعدم نفع الصداقة في يوم ليس فيه بيع ولا شراء، فلا يمكن للكفار أن يقدوا أنفسهم بأموال الدنيا وخزائنها -لو أنهم امتلكوها- لتكون عوضًا عن ما قَصَّروا في جنب الله، وعن الإيمان والعمل الصالح الذي تركوه في الحياة الدنيا؛ إذ لا تجزئ نفس عن نفس شيئًا.

وكما أنه ليس هناك شفاعاة، ولا خُلَّةٌ لأحد يمكن من خلالها أن يحمل، أو يدفع هذا العذاب عن غيره.

وهكذا أمر الله عباده في هذه الآية بالمبادرة إلى الطاعات والمداومة عليها؛ كالصلاة، والصدقات في وجوه الخير دون تردد، ولا إبطاء من قبل أن يفاجئهم يوم لا تقبل فيه المعاولات، ولا الشفاعات، ولا تنفع فيه الصداقات؛ حيث ينظر العبد أمامه فلا يرى إلا ما قدم، وينظر ورائه فلا يرى إلا ما قدم، وينظر عن يمينه وعن شماله فلا يرى إلا ما قدم، فعليه أن يتزوّد لهذا اليوم قبل أن تنتهي الأعمال، ولا يمكن استدراك ما فات، ولا تعويض ما مضى من طاعات واتقوا النار ولو بشق تمره.

تَسْعُ مِنْ نِعَمِ اللَّهِ تَعَالَى عَلَى الْإِنْسَانِ فِي الْكَوْنِ

٣٢- ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَكُمْ وَسَخَّرَ لَكُمُ الْفُلْكَ لِتَجْرِيَ فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ وَسَخَّرَ لَكُمُ الْأَنْهَارَ﴾
هذه تسع نعم ذكرها الله تعالى في هاتين الآيتين؛ للدلالة على وحدانيته تعالى وعلمه وقدرته، وكل هذه النعم مدلّلة لخدمة هذا المخلوق الصغير ونفعه وهي:

- ١ - السماء ينزل منها الماء.
- ٢ - الأرض تتلقى هذا الماء.
- ٣ - الثمرات تخرج من بينهما.

- ٤ - السفن تسير في البحر؛ لجلب الأرزاق، والتنقل بين البلاد، لنفع الإنسان.
- ٥ - الأنهار تجري بالمياه العذبة؛ لحياة الإنسان والحيوان والنبات.
- ٦ - الشمس تجري؛ لتمدنا بالطاقة والضيء، ويتج عنها فصول العام.
- ٧ - القمر يتعاقب مع الشمس؛ فيأتي الليل والنهار، والظلمة والضيء، ويُعرف به بداية الشهور ونهايتها.
- ٨ - الليل يخلف النهار؛ للسكينة والراحة.

٩ - النهار يعقب الليل؛ لتحصيل الأرزاق، وأداء العبادات.

والأمر الآخر الذي يجب على هذه الأمة القيام به^(١): هو أن يكون المسلمون في العالم بيدهم زمام الأمور في الأرض، وتسخير ما في الكون لصالحهم؛ فقد خلقه الله لهم، وسخر لهم ما في الأرض والسماء، وما في البحار والأنهار، ويسر لهم الاستفادة من الشمس والقمر في إمدادهم بالطاقات وبالحياة، وإذا كان الزمام بأيديهم فهم مُلاك، وليسوا عالة، إنهم سادة يملكون ما في الكون من كل ما سخره الله ﷻ لهم، وإلى غيرهم من البشر تبع لهم، كما قال تعالى: ﴿قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا خَالِصَةٌ يَوْمَ الْقِيَمَةِ﴾ [الأعراف: ٣٢] وقال: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا﴾ [البقرة: ٢٩] هذا هو الأصل والأساس.

فإذا انعكست الآية، وكانت الصناعة والزراعة بيد غيرهم، سيَّما التصنيع الحربي؛ فإن هذا يكون السبب في تحكُّم أعدائهم فيهم، ولا سبيل إلى الانتصار على عدوهم، ونشر دعوة ربهم، وامتلاك زمام الحرية والريادة في الأرض إلا بعدم الحاجة إلى غيرهم في جميع الصناعات الحربية والمدنية والإنتاج الزراعي، وقبل ذلك يكون التحاكم إلى كتاب الله وسنة رسوله، وتطبيق الشرع الحكيم في جميع الأمور، والولاء والبراء في الله وحده.

ويستفاد هذا المعنى من الآيتين التاليتين اللتين ذكر الله سبحانه فيهما لفظ: ﴿لَكُمْ﴾ خمس مرات، وهي تفيد الملكية لله الذي خلق السموات والأرض، وأوجدتهما من العدم، وهما أعظم المخلوقات المشاهدة، الدالة على وجود الخالق القادر سبحانه؛ فقد

(١) ذكر الأمر الأول في بداية تفسير الآية (٣١).

خلقهما، وأنشأهما، وابتدعهما سبحانه على غير مثال سابق؛ لنفع الإنسان، وإفادة المسلم على وجه الخصوص.

وأَنزَلَ اللهُ سُبْحَانَهُ الْمَطَرَ مِنَ السَّحَابِ إِلَى الْأَرْضِ لانتفاعكم؛ فأخرج به من الأرض أرزاقكم، وَأَنزَلَ الْمَاءَ مِنَ السَّمَاءِ، وَأَخْرَجَ مِنَ الْأَرْضِ زَرْعًا وَنَبَاتًا وَثَمَرًا وخلافه، وهو رزق سخره الله لكم.

وَذَلَّلَ لَكُمْ الْسَفْنَ لِتَسِيرَ فِي الْبَحْرِ؛ لِتَقْلُكُم، وَلِجَلْبِ أَرْزَاقِكُمْ وَتِجَارَتِكُمْ ﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ الْآلْثَمَ﴾ فالبهار سخرها الله لكم -أيها المؤمنون- لِتَنْتَفِعُوا بِهَا فِي تِجَارَتِكُمْ، واقتصادكم، وسفركم، وتقليبكم، والأَنْهَارَ ذَلَّلَهَا لَكُمْ؛ لِشْرِيكُم أَنْتُمْ، ودوابكم، وزروعكم، وثماركم، وسائر منافعكم، كما فجر لكم العيون؛ لِأَجْلِ هَذِهِ الْمَنَافِعِ، وكلها من نعم الله عليكم.

الْكُونُ كُلُّهُ مُسَخَّرٌ لِلْإِنْسَانِ

٣٣- ﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ دَائِبَيْنِ وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ﴾ (٣٣)

أي وذلل الله لكم -أيها المؤمنون- الشمس والقمر في حركة دائبة في الطلوع، والغروب، يجريان دائماً لا يفتران ولا يفترقان؛ لمصالحكم ومنافعكم إلى نهاية الدنيا.

ومن آثارهما: إزالة الظلمة، وإصلاح النبات والحيوان، ويُعرف بهما فصول السنة، وانتهاء الشهور بصفة متواصلة لا تتخلف ﴿لَا الشَّمْسُ يَنْبَغِي لَهَا أَنْ تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلَا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ﴾ [يس: ٤٠].

وتسخير الشمس والقمر ليس مباشراً، وإنما ينتفع الإنسان بآثارهما: ينتفع بمنازل القمر وضوئه ونوره، وينتفع بضوء الشمس وشعاعها.

وَذَلَّلَ لَكُمْ - أيها الناس - الليل؛ كي تستريحوا وتناموا فيه، وذلَّلَ لَكُمْ النهار؛ كي تسعوا وتعملوا فيه، ولتعاقب النور والظلام، والزيادة والنقصان في كل منهما.

وقد ذُكرت ﴿لَكُمْ﴾ خمس مرات في هاتين الآيتين؛ إشارة إلى أن ما في هذا الكون

(١) لم يعد (والنهار) آية البصري، وعدّها غيره.

خُلِقَ من أجل المؤمن، وسخره الله له، وأن المؤمنين يجب عليهم أن يتزعموا الريادة في العلوم التجريبية وغيرها، وأن يقودوا العالم، وينشروا فيه دعوة الله تعالى، وأن تكون الطاقات والابتكارات في حوزتهم، ولكنَّ المسلمين انحرفوا عن منهج الله، وأخلدوا إلى شهواتهم وملذاتهم، وعطلوا أفكارهم ومواهبهم، وتركوا الأمر لغيرهم؛ فأصبحوا ليسوا أهلاً لنصر الله سبحانه، ولا أهلاً لقيادة العالم، وأخذ المبادرة وزمام الأمور.

فبدل أن تُسخرَ لهم الأرض وما فيها، والكون وما فيه سُخِّروا هم لهذه الأرض وما فيها ومن فيها.

وبدل أن يذلَّ لهم اليهود والنصارى صاروا هم مسخرين ومنقادين لهم.

إن الجهاد في سبيل الله يحتاج في عصرنا إلى سيادة وقوة عسكرية في البر والبحر والجو، وهذه القوة ليست في عدد المقاتلين، وإنما هي في عدتهم وعتادهم، فأين موقف المسلمين من صنَّع الطائرة، ومن صنَّع الصاروخ، ومن صنَّع الدبابة، والسفينة، وغير ذلك؟ أين موقف المسلمين من مختلف الأسلحة؟ والله تعالى قد سخر لهم جميع الطاقات وما في الكون كله، ولكنهم لما جمَّدوا مواهبهم، وأخلدوا إلى دنياهم تقدَّم أعداؤهم، وملكوا الزمام، وتحكموا فيهم، ومع الصحوة الإسلامية المعاصرة تأتي بشائر النصر والحرية إن شاء الله.

ومن الآيات التي ذكرت هذه النعم أو بعضها قوله تعالى: ﴿يُعْثِي آلِيلَ النَّهَارِ يَطْلُبُهُ حَيْثُا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومَ مُسَخَّرَاتٍ بِأَمْرِهِ﴾ [الأعراف: ٥٤].

وقوله: ﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ الْآلِيلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومَ مُسَخَّرَاتٍ بِأَمْرِهِ﴾ [النحل: ١٢].

وقوله: ﴿يُولِجُ آلِيلٌ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارُ فِي آلِيلٍ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ [لقمان: ٢٩] فتارة يأخذ الليل من النهار، وتارة يأخذ النهار من الليل، ويترتب على ذلك طول أحدهما وقصر الآخر في بعض فصول السنة.

وقوله: ﴿يَكْوَرُ آلِيلٌ عَلَى النَّهَارِ وَيَكْوَرُ النَّهَارُ عَلَى آلِيلٍ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ [الزمر: ٥].

وقوله: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ الْفُلْكَ تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِنِعْمَتِ اللَّهِ لِيُرِيَكُمْ مِنْ آيَاتِهِ﴾ [لقمان: ٣١] وغير ذلك.

نِعْمُ اللَّهُ عَلَى الْعِبَادِ لَا تُعَدُّ وَلَا تُحْصَى:

٣٤- ﴿وَأَتَاكُمْ مِنْ كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لَا تَحْصُوهَا إِنَّ الْإِنْسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ﴾ (٣٤)

أي وأعطاكم - أيها الناس - من كل ما تحتاجونه وما لا تحتاجونه، مما تسألونه ومما لا تسألونه، فلم يقتصر سبحانه على تلك النعم السابق ذكرها، بل أعطاكم نعمًا لا تُعدُّ ولا تحصى، كثيرة ومتنوعة فيها كل متطلبات حياتكم، وهذا تعميم بعد تخصيص النعم التسع السابقة، وإن تعدوا نعم الله عليكم لا تطيقوا عدّها، ولا إحصاءها؛ لكثرتها، وتنوعها.

وكان الإحصاء في حساب الحاسب، بعد كل عشرة (عَقْد) يرمي حصاة؛ كي يحفظ بها العدد، والله سبحانه يقول: ﴿وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ﴾ جملة أو تفصيلاً، لا يمكنكم إحصاءها؛ فهي نعم عديدة: نعمة النفس، ونعمة الحواس، والدورة الدموية، وهضم الطعام، والصحة، ودفع المضار، وما إلى ذلك.

ومن نعم الله التي لا تحصى: السموات والأرض، والشمس والقمر، والليل والنهار، والبحار والأنهار، والأمطار والثمار، ولكن الناس لا ينظرون ولا يقرؤون، ولا يتدبرون ولا يشكرون، فيجعل بعضهم لله أندادًا، وهو الخالق الرازق الذي سخر هذا الكون الهائل لهذا الإنسان الصغير!

سأل داود عليه السلام ربه تبارك وتعالى: ما أدنى نعمك عليّ يا رب؟ فقال الله سبحانه: يا داود تنفّس، فتنفّس، فقال: هذه أدنى نعمة أنعمتُ بها عليك^(١).

وورد أن داود عليه السلام قال: يا رب، كيف أشكرك؟ وشكري لك نعمة منك عليّ، فقال الله تعالى: الآن شكرتني يا داود، أي: حين اعترفت بالتقصير عن أداء شكر النعم.

ويقول طلق بن حبيب: إن حق الله على العباد أثقل من أن يقوم به العباد، وإن نعم الله تعالى أكثر من أن يحصيها العباد، ولكن أصبحوا توايين، وأمسوا توايين، إن الإنسان كثير الظلم لنفسه، جحود بنعمة الله وفضله عليه.

(١) ابن أبي الدنيا (١٤٩) والبيهقي (٤٦٢٣).

خَلِيلُ الرَّحْمَنِ، الشَّاكِرُ لِأَنْعَمِ اللَّهِ، يَسْأَلُ رَبَّهُ سَبْعَةَ أُمُورٍ

٣٥- ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ^(١) رَبِّ اجْعَلْ هَذَا الْبَلَدَ آمِنًا وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَنْ نَعْبُدَ الْأَصْنَامَ﴾

والمثال الكامل للإنسان الذاكر الشاكر: هو أبو الأنبياء إبراهيم عليه السلام، فهو مثال عظيم لمن شكر النعم، والذين لم يبدلوا نعمة الله كفرًا، وهو أيضًا مثال لأهل الكلمة الطيبة.

وإبراهيم خليل الرحمن: هو رمز التوحيد وحصنه، يدعو إلى الملة الحنيفية السمحة، وهو الذي حارب الشرك قديمًا، وإبراهيم هو أصل الشجرة الطيبة، وجذورها ممتدة في الأرض وفروعها في السماء، فمن ذرية إبراهيم كان إسماعيل ومحمد، ومن ذرية إبراهيم كان إسحاق ويعقوب، وسائر أنبياء بني إسرائيل، فهو أصل هذه الشجرة المباركة؛ شجرة الأنبياء والصالحين.

وإبراهيم عليه السلام كان متزوجًا لسارة، وسارة كانت عقيمًا لم تنجب، ولما ذهب إلى مصر ورجع منها بهاجر، وهبته إياها، - أي: إن سارة وهبت هاجر لإبراهيم - لأنها لم تلد، فرزقه الله منها بإسماعيل، ولما رزقه الله بإسماعيل غارت سارة من هاجر، فأمره الله سبحانه أن يهاجر بإسماعيل الرضيع وأمه إلى مكة، برفقة جبريل عليه السلام يده على موطن النزول ومكان الهجرة.

وهناك دعا إبراهيم ربه قبل بناء البيت، دعا ربه بما يُذكر هذه الأمة، بأن البلد الحرام، بُني أول ما بُني على التوحيد، وعلى نعمة الأمن والرخاء.

وإبراهيم عليه السلام قد دعا ربه في هذه الآيات بسبع دعوات متوالية ذُكرت في هذه الآيات الست على لسان إبراهيم عليه السلام:

الدَّعَاءُ الْأَوَّلُ: طلب أمن البلد الحرام:

طلب إبراهيم من ربه أن يجعل مكة بلدًا آمنًا، يؤمن الله فيها كل أهلها وساكنيها من الخوف، كما طلب ذلك أيضًا في سورة البقرة فقال: ﴿رَبِّ اجْعَلْ هَذَا بَلَدًا آمِنًا﴾ [آية: ١٢٦]

(١) قرأ ابن عامر بخلف عن ابن ذكوان بألف بعد الهاء من لفظ (إبراهيم) في السورة كلها، وقرأ غيره بياء بعد الهاء ومعهم ابن ذكوان في الوجه الآخر، وهما لغتان.

أي: اجعلها من جملة البلاد الآمنة، وفي الآية التي معنا قال سبحانه: ﴿رَبِّ اجْعَلْ هَذَا الْبَلَدَ أَمْنًا﴾ أي: أخرج أهله من الخوف إلى الأمن، إلى قرب قيام الساعة؛ حيث ثبت في الصحيح عن أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «يُخْرَبُ الكعبة ذو السَّوِيقَتَيْنِ مِنَ الحِشْبَةِ»^(١).

وهذا يكون من علامات الساعة، وتخریب المكان أعلى درجات الخوف.

فمعنى ذلك أن دعاء إبراهيم عليه السلام متحقق إلى قرب قيام الساعة، أو أن الآية عامة مخصوصة بقصة ذي السويقتين.

وقد استجاب الله سبحانه دعاء إبراهيم؛ فأمن الحرم وجميع ساكنيه من الإنس وغيرهم؛ ويسر أسباب حرمة، فالطائر يأمن على نفسه، وكذا الوحوش والحيوانات والإنسان والأشجار، كلها آمنة في حرم الله ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا آمِنًا وَيُخَفَّفُ النَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ﴾ [العنكبوت: ٦٧] ﴿وَمَنْ دَخَلَهُ كَانَ آمِنًا﴾ [آل عمران: ٩٧]

فالطير في مكة لا يُذبح ولا ينفر، ولا يُقطع شجره، ولا تُلتقط لقطته، ولا يُختلى خلاه، ولا يُصطاد صيده، وإن أَرَادَ ظالم بسوء قصمه الله.

الدُّعَاءُ الثَّانِي: تَجَنُّبُ عِبَادَةِ الْأَصْنَامِ:

سأل إبراهيم ربه أن يجنبه عبادة الأصنام هو وذريته من صلبه - وهم يومئذ إسماعيل، وإسحاق - وقد بين سبحانه في آيات أخرى أنه قد أجاب إبراهيم في بعض ذريته دون بعض.

ومن ذلك قوله تعالى: ﴿وَبَشِّرْنَاهُ بِإِسْحَاقَ نَبِيًّا مِّنَ الصَّالِحِينَ ﴿١١٣﴾ وَبَارَكْنَا عَلَيْهِ وَعَلَىٰ إِسْحَاقَ وَمِن ذُرِّيَّتِهِمَا مُحْسِنٌ وَظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ مُبِينٌ ﴿١١٤﴾﴾ [الصافات].

وقوله تعالى: ﴿قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا قَالَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ﴾ [البقرة: ١٢٤].

ومعلوم أن إبراهيم عليه السلام معصوم من عبادة الأصنام، وإنما قال ذلك هضمًا لنفسه، وإظهارًا للحاجة إلى الله تعالى، وأنه لا يقدر على نفع نفسه، فدعا لنفسه وللأنبياء من ذريته؛ طلبًا لزيادة العصمة والتثبيت، كما دعا ربه قائلًا: ﴿رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ﴾ [البقرة: ١٢٤].

(١) «صحيح البخاري» برقم (١٥٩١) و«صحيح مسلم» برقم (٢٩٠٩).

[١٢٨] وهو أول المسلمين، قال إبراهيم: يارب إن الأصنام، مثل: ودّ، وسواع، ويغوث، ويعوق، ونسر، كانت سبباً في ضلال كثير من الناس، والصنم ذاته جماد لا يعقل، ولا يضر، ولا ينفع، وإنما كان السبب في الضلال ﴿وَأَجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَنْ نَعْبُدَ الْأَصْنَامَ﴾.

أي اجعلني - يا رب - في جانب بعيد عن عبادة الأصنام.

الدُّعَاءُ الثَّالِثُ: تَفْوِيضُ الْأَمْرِ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى فِيمَنْ خَالَفَ دَعْوَتَهُ:

٣٦- ﴿رَبِّ إِنِّهْنِ أَضَلَّلْنَ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ فَمَنْ تَبِعَنِي فَإِنَّهُ مِنِّي وَمَنْ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾

يارب إن الأصنام تسببت في إبعاد كثير من الناس عن طريق الحق؛ فمن تبع ملتي وآمن بي، واقتدى بهدي في التوحيد، فهو على ديني وستي، ومن خالفني فيما دون الشرك فأفوض أمره إليك، إن عذبتك فذاك، وإن تغفر له فإنك غفور لما عدا الإلشراك بالله تعالى ممن مات عليه، ومن شفقة إبراهيم عليه أنه طلب المغفرة والرحمة للعصاة، والله تعالى رحيم بعباده لا يعذب إلا من تمرد عليه.

وهذا أدب في مقام الدعاء، ونفع للعصاة من الناس بقدر المستطاع؛ حيث فوض إبراهيم أمره إلى الله تعالى فيهم، ولم يدع بالمغفرة لمن مات كافراً أو مشركاً، وإنما فوض أمرهم إلى رحمة الله تعالى وغفرانه.

وقد طلب إبراهيم من ربه أن يجنب ذريته عبادة الأصنام؛ لأنه لما خرج من بلده (أور) بالعراق خرج منها مُنْكَرًا لعبادة الأصنام فيها، وكان أبوه يصنعها ويصدرها فقال إبراهيم: ﴿إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَىٰ رَبِّي سَيِّدِينَ﴾ [الصافات: ٩٩] وقال لقومه: ﴿وَأَعِزِّلَكُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ﴾ [مريم: ٤٨].

ولما هاجر إلى مصر وجدّهم يعبدون الأصنام، ثم دخل فلسطين فوجدهم عبدة أصنام، ثم جاء مكة فوجدها خالية وفيها عرب تهامة، ووجد حولها قبيلة جُرْهم وهم قوم على الفطرة، فأسكن بها هاجر وابنه إسماعيل، ثم أقام هناك مَعْلَمَ التوحيد؛ فبنى الكعبة هو وابنه إسماعيل، وأراد أن يكون هذا المكان مأوى التوحيد، وأقام ابنه في مكة؛ ليكون داعية إلى التوحيد، وسأل ربه: أن يجعله بلدًا آمنًا حتى يسلم ساكنوه، ومن يأوي إليهم من الأذى، وكان من يأوي إليهم لقنوه أصول التوحيد.

ورد أن النبي ﷺ قرأ ما قاله إبراهيم عن أمته: ﴿فَمَنْ يَتَعَنَّى فَإِنَّهُ مِنِّي وَمَنْ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾.

وقرأ ما قاله عيسى عن أمته: ﴿إِنْ تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [المائدة].

ثم رفع ﷺ يديه إلى السماء وهو يقول: «اللهم أمتي، اللهم أمتي، اللهم أمتي» وهو يبكي ﷺ، فأرسل الله له جبريل عليه السلام يسأله وهو أعلم: مم يبكي؟ فقال: إنه يسأل الله أن يرضيه في أمته، فأخبر الله سبحانه جبريل أن يعلم محمداً ﷺ ويقول له: إني سأسرك في أمتك، وسنرضيك ولن نسوءك^(١).

الدُّعَاءُ الرَّابِعُ: طَلَبُ عُمَرَانَ مَكَّةَ وَجَلْبِ الْأَرْزَاقِ إِلَيْهَا:

٣٧- ﴿رَبَّنَا إِنِّي أَتُكِنُّ مِنْ دُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِنْدَ يَتِّكَ الْمَحْرَمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلَاةَ فَاجْعَلْ أَفْنَدَةً^(٣) مِنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ^(٤) وَأَرْزُقْهُمْ مِنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ﴾ (٣٧)

لما جاء إبراهيم بولده إسماعيل وأمه هاجر إلى مكة برفقة جبريل وضعهما في مكان من الحجر عند دوحة فوق بئر زمزم، وكان البيت ربوة حمراء في أعلى المسجد.

والقرآن يتكلم عن البيت الحرام من عهد إبراهيم عليه السلام حين رفع القواعد، وقبل ذلك يرجع الكلام فيه إلى التاريخ، وهي آثار لا تخلو من مقال، سواء أكان من بنى البيت الملائكة، أم آدم، ولكن القرآن يتكلم عن رفع إبراهيم لقواعد البيت، وهل كانت هناك قواعد فرفعها إبراهيم، أم أن الله تعالى أرشده إلى مكان البيت فبناه؟

(١) «تفسير الطبري» (١٣/١٥١) من حديث عبد الله بن عمرو وهو في «صحيح مسلم» برقم (٢٠٢) و«المسند» (١٤٩/٥).

(٢) قرأ نافع وابن كثير وأبو عمرو وأبو جعفر بفتح ياء الإضافة وصلاً من (إني أسكنت)، والباقون بإسكانها.
(٣) قرأ هشام بخلف عنه ياء ساكنة بعد الهمزة من (أفندة) لغرض المبالغة؛ كالدهايم، والصياريف وهي لغة المشبعين من العرب، والباقون بحذف الياء وهو الوجه الثاني لهشام.

(٤) قرأ حمزة ويعقوب بضم الهاء من (إليهم)، والباقون بكسرها.

هاجر وإسماعيل في جوار البيت: وقبل بناء إبراهيم للبيت كان قد وضع في هذا المكان هاجر وإسماعيل وهو طفل رضيع، وترك عندهما جرابًا فيه تمر، وسقاء فيه ماء، ثم انصرف فدعته هاجر: إلى أين يا إبراهيم؟ أتركنا في هذا المكان حيث لا أنيس، ولا زرع ولا ضرع؟ فلم يجبها مرة ومرتين، ثم قالت له: آله أمرك بهذا؟ وهي تعرف أنه نبي مُرسَل، قال: نعم، قالت: إذن فلن يضيعنا! وأمرها أن تتخذ لها عريشًا يحميها من الشمس ومن الحر؛ كالخيمة تجلس تحتها هي وولدها.

ولما انصرف إبراهيم توجّه نحو الكعبة، ودعا ربه وهو بجوار بيته: أنه جاء إلى هذا المكان، وأسكنهما مكة، وهي وادٍ في مكان منخفض بين جبلين: جبل أبي قبيس، وجبل أجياد، ليس فيه زرع، ولا ضرع، ولا ماء، عند البيت الحرام، وكان إبراهيم لمّا يَبْنِ البيت بعدُ، ولكن هذا بإعلام الله له، أو كان للبيت أثر معروف، ودلّه جبريل عليه.

والبيت المُحَرَّم، هو الممتنع من تناول الأيدي له بما يضره، وله في نفوس الناس توقير وتعظيم؛ بما شاهدوه من هلاك مَنْ يُرد فيه بالحاد بظلم، كما حدث لأصحاب الفيل.

ربنا إني أسكنت زوجي وولدي في هذا المكان بجوار بيتك من أجل طاعتك وعبادتك، وفي مقدمة ذلك أداء الصلاة.

وقد أعلمه الله تعالى أنه سيكون له عَقَبٌ وذرية يعمرون المكان، ويؤدون الصلاة فيه، فدعا ربه أن يوفقهم لطاعته وعبادته، ربنا إني فعلت ذلك بأمرك؛ لكي يؤدوا الصلاة بحدودها متوجهين إليك، فاجعل يارب قلوب بعض الناس وأفئدتهم تَحَنُّ وتنزع وتأوي إلى هذا المكان؛ ليعمّروه، ويطوفوا حوله، ويُصَلُّوا فيه، وارزقهم يارب بالمياه، وبعض الثمرات؛ ليشكروك على فضلك وإنعامك، فاستجاب الله له، وجعل ذلك عونًا على طاعته، وقال إبراهيم: فاجعل أفئدة من الناس، ولم يقل أفئدة الناس.

جاء في الأثر عن مجاهد أنه لو قال ذلك؛ لازدحم على البيت القُرُس، والروم، والمسلمون في كل عام، ولكنها كانت دعوة رحيمة؛ حيث قال: اجعل يارب أفئدة بعض الناس تأوي إلى المكان الذي فيه هاجر وإسماعيل وتحنُّ إليه، وارزقهم من خيراتك وثمراتك؛ ولهذا فإن القلوب تحنُّ نحو بيت الله الحرام وتشوق إليه، وكل من حَجَّ مرة يسأل الله أن لا يحرمه العودة إليه.

وارزقهم من الثمرات: وقد أجاب الله دعاء إبراهيم، فجعل بيته آمناً، ورزق أهله من ثمرات الأرض كلها، قال تعالى: ﴿أَوَلَمْ نُمَكِّنْ لَهُمْ حَرَمًا آمِنًا يُجَبِّئُ إِلَيْهِ ثَمَرَاتُ كُلِّ شَيْءٍ رِزْقًا مِّن لَّدُنَّا﴾ [القصص: ٥٧] فأكهة الشتاء في الصيف، وفاكهة الصيف في الشتاء، والطائف قريبة من مكة بما فيها من الخيرات والثمرات، قيل: إنها قطعة من الشام، ومن إجابة الله لإبراهيم، أن أخرج من ذرية إسماعيل محمداً حتى دعا ذريته إلى الإسلام ملة إبراهيم، فاستجابوا له وصاروا مقيمي الصلاة، وفرض عليهم الحج إلى بيته الذي أسكن عنده ذريته، وأودع فيه سرا تجعل أفئدة الناس تهوي إليه، ولا يتوقف الطواف حول البيت الذي بناه لحظة من ليل أو نهار، وكلما أكثر العبد من التردد عليه ازداد شوقاً إليه.

والمأمل في حال مكة التي هي بين جبلين - في العصر الحاضر - يرى العجب العجائب، من حيث: جلب التجارات، والأرزاق، والثمار إليها؛ ويرى كثرة القصور والمباني والحضارة الحديثة، تحقيقاً لدعوة خليل الرحمن؛ فالفواكه والخضراوات فيها تزيد أضعافاً بكمياتها وأنواعها على أخصب البلاد وأكثرها أنهاراً في الشرق والغرب؛ حيث يجتمع فيها البواكير من الفواكه مختلفة الأزمان في الربيع، والصيف، والخريف، والشتاء، وأغنى الله أهلها بأن فجر لهم الأرض؛ لتخرج كنوزها، ونفطها؛ تحقيقاً لقوله تعالى: ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ عِيْلَةً فَسَوْفَ يُغْنِيكُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ إِنَّ شَاءَ﴾ [التوبة: ٢٨].

سبب إسكان إسماعيل وأمه في مكة: هذا: وقصة إسكان إبراهيم لإسماعيل وأمه في هذه الأرض المباركة كان لها سببٌ مرادٌ لله تعالى، وذلك أن هاجر أم إسماعيل، كانت أمة قد وُهِبَت لسارة من مصر، وكانت سارة عقيماً لا تلد، فوهبها لإبراهيم فتزوجها، وأنجب منها إسماعيل، فدبَّت الغيرة في قلب سارة، ولم تصبر على البقاء معها، فخرج بها إبراهيم، ووضعها هي وابنها بجوار البيت في مكة، ورجع إبراهيم إلى فلسطين، ولما كان عند الثنية بحيث لا يرونها، استقبل بوجهه البيت - وكان مرتفعاً من الأرض كالراية - ودعا ربه بهذه الآية رافعاً يديه إلى السماء: ﴿رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنْتُ مِنْ ذُرِّيَّتِي﴾.

السعي وبثر زمزم: وأخذت هاجر تُرضع ولدها، وتشرب من السقاء الذي تركه لها إبراهيم، فلما نفذ الماء الذي فيه عطِشَتْ، وعطش ابنها، وأخذ يتلوَّى، ويتمرَّغ من شدة

العطش فأخذت تبحث عن الماء، وارتقت على الصفا وهو أقرب الجبال إليها، وأخذت تنظر فلم تجد أحدًا، وسعت في بطن الوادي حتى وصلت إلى المروة وهي الجبل المقابل للصفا، وصعدت فوقه ونظرت فلم تجد أحدًا، وفعلت ذلك بين الصفا والمروة سبع مرات، وكانت تجد في السعي في المنطقة المعروفة الآن بما يسمى بين العلمين الأخضرين، ثم سمعت صوتًا؛ فإذا بالملك عند موضع زمزم، قد ضرب الأرض بعقبه فخرج الماء، فأخذت تحوُّضه وتحوطه، وتغرف منه في سقائها وهو يفور، فشربت وأرضعت ولدها، وقال لها الملك: لا تخافي الضيعة؛ فإن هنا بيت الله بينه هذا الغلام وأبوه، إن الله لن يضيع أهله.

ثم مرَّ بهما جماعة من جرهم جاؤوا من كُداء في أسفل مكة، فرأوا طائرًا في الجو يحوم حول الماء، فقالوا: لا طير إلَّا على ماء، فبعثوا رسولًا فوجد الماء فاستأذنوا هاجر في مجاورتها، يشاركونها في الماء، وتشركهم في اللبن فقبلت، وتعلَّم إسماعيل منهم العربية، ولما كبر زوجه امرأة منهم، وماتت هاجر بعد ما تزوج إسماعيل^(١).

هذا: وقد رجا إبراهيم من إسكان ابنه وزوجه مكة أن يكونا حُرًّا سائرين، وأن يقيما الصلاة، وأن يشكرا نعمة الله عليهم، وفي هذا تعليم للأمة؛ حتى يراقبوا الله تعالى في جميع الأحوال ويخلصوا له النية، ويشكروه على نعمه.

الدُّعَاءُ الْخَامِسُ: دَعْوَانَا يَا رَبِّ مِنْ بَابِ الْعِبَادَةِ لَكَ

٣٨- ﴿رَبَّنَا إِنَّكَ تَعْلَمُ مَا نُخْفِي وَمَا نُعْلِنُ وَمَا يَخْفَى عَلَى اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ﴾

وبعد الدعاء السابق توجه إبراهيم إلى ربه بدعاء جامع لما في ضميره، شامل لما سبق ذكره في الآيات الثلاث السابقة قائلاً: ياربنا إنك وحدك تعلم ما نخفي في سرائرنا، وما نظهر في علانيتنا من الأقوال والأفعال، وتعلم ما يصلح أحوالنا وما يفسدها، فنسألك - يا رب - أن تيسر أمورنا التي نعلمها والتي لا نعلمها، وأنت أرحم بنا منا، ونحن ندعوك إظهاراً للعبودية لك، افتقاراً إليك، وتذللاً لك، وتخشعاً لعظمتك؛ فأنت عالم الغيب والشهادة في كل زمان ومكان، ولا يغيب عنك عِلْمُ شيء من الكائنات في الأرض ولا في

(١) القصة بتمامها في «صحيح البخاري» وغيره.

السماء؛ فأنت ياربنا تعلم سرائرنا، ولست في حاجة إلى دعائنا، وإنما أدعوك عبادة لك؛ فالدعاء هو العبادة.

وأدعوك يارب؛ إظهاراً لفقرتي، وشدة حاجتي، تذللًا وتخشعًا إليك، وأنت تعلم ما نسرُّ وما نعلن، وما نخفي وما نظهر، وتعلم أيضًا ما نخفي من محبتنا لإسماعيل وأمه.

وفي هذا تعليم للمؤمنين أن يراقبوا ربهم في السر والعلن، ويعلموا أن الله تعالى مطلع عليهم في جميع أحوالهم، وهذا من تنمة دعاء إبراهيم، وقيل: هو من قول الله تعالى تصديقًا لإبراهيم الذي فوض أمره إلى الله تعالى.

إِبْرَاهِيمُ يَحْمَدُ رَبَّهُ عَلَى نِعْمَةِ الْوَلَدِ:

٣٩- ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي وَهَبَ لِي عَلَى الْكِبَرِ إِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِنَّ رَبِّي لَسَمِيعُ الدُّعَاءِ﴾ ﴿٣٩﴾

ولما دعا إبراهيم ربه بإقامة التوحيد، وسأله أن يهب له من الصالحين فاستجاب له، حمد الله تعالى على نعمة الولد، وأثنى عليه؛ فقد وهبه الله ولدين على الكبر: أولهما إسماعيل، وثانيهما إسحاق.

ومبلغ سن إبراهيم آنذاك لم يصرح به القرآن، وإنما وردت به بعض الآثار:

١- قيل: رَزَقَ الله إبراهيم ولده إسماعيل، وهو ابن تسع وتسعين عامًا، ثم رزقه إسحاق، بعد ثلاثة عشر عامًا، وهذا قول ابن عباس.

٢- وقال سعيد بن جبیر: بُشِّرَ إبراهيم بإسحاق وهو ابن مئة وسبع عشرة سنة.

٣- وقيل: وُلِدَ إسماعيل، وإبراهيم في سن السادسة والثمانين، ووُلِدَ إسحاق، وإبراهيم في سن مئة، وكان هذا الدعاء بعد أنْ بُشِّرَ إبراهيم بإسحاق.

وإسماعيل هو الذبيح، أبو العرب، وكانت قبيلة جُرْهُمَ لَمَّا وَجَدَتْ طَائِرًا يَحُومُ فَوْقَ الْمَاءِ حِينَ نَبَعَتْ عَيْنَ زَمْزَمَ جَاؤُوا إِلَى هَاجَرَ، وَسَلَّوْهَا أَنْ يَقِيمُوا مَعَهَا، فَأَذْنَتْ لَهُمْ، وَلَمَّا كَبُرَ إِسْمَاعِيلُ تَزَوَّجَ مِنْ قَبِيلَةِ جُرْهُمَ، وَتَعَلَّمَ مِنْهُمْ الْعَرَبِيَّةَ.

وأما إسحاق، وهو الفرع الثاني من ذرية إبراهيم، فهو أبو يعقوب، ويعقوب هو إسرائيل الله، ومنه اليهود، وشتان ما بين الفرعين.

ولما بُشِّرَ إبراهيم بإسحاق، بعد ثلاثة عشر عامًا من ولادة إسماعيل، حمد الله تعالى على ذلك، كما جاء في هذه الآية، وكان إبراهيم قد سأل ربه الولد في قوله: ﴿رَبِّ هَبْ لِي مِنَ الصَّالِحِينَ﴾ [الصافات] فاستجاب الله دعاءه، ووهبه ما طلب، ولم يخيب رجاءه فحمد الله تعالى، وشكره على ذلك.

الدُّعَاءُ السَّادِسُ: طَلَبُ إِبْرَاهِيمَ الصَّلَاحَ لَهُ وَلِذُرِّيَّتِهِ

٤٠- ﴿رَبِّ اجْعَلْنِي مُقِيمَ الصَّلَاةِ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي رَبَّنَا وَتَقَبَّلْ دُعَاءِ﴾ (١)

ثم سأل إبراهيم ربه أن يجعله وذريته صالحًا، مصلحًا، مقيمًا للصلاة، ومداومًا عليها على أتم وجه، وسأله أن يستجيب دعاءه، ويتقبل عبادته، وقد قال في دعائه: ﴿وَمِنْ ذُرِّيَّتِي﴾؛ لأن الله تعالى قد أعلمه أنه سيكون من ذريته جمع من الكفار لا يقيمون الصلاة، وقد قال الله سبحانه لإبراهيم وإسحاق: ﴿وَمِنْ ذُرِّيَّتِهِمَا مُحْسِنٌ وَظَالِمٌ لِنَفْسِهِ مُبِينٌ﴾ [الصافات: ١١٣] منهم محسن مؤمن، ومنهم ظالم مشرك.

ولما سأل إبراهيم الإمامة لذريته قال سبحانه: ﴿لَا يَتَأَلَّ عَهْدِي الظَّالِمِينَ﴾ [البقرة: ١٢٤]. وسأل إبراهيم ربه أن يجيب دعوته، فقبل الله دعاءه بفضله ومَنِّه.

الدُّعَاءُ السَّابِعُ: طَلَبُ غُضْرَانِ الذُّنُوبِ لَهُ وَلِوَالِدَيْهِ وَسَائِرِ الْمُؤْمِنِينَ

٤١- ﴿رَبَّنَا اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ الْحِسَابُ﴾ (١)

ربنا اغفر لي ما وقع مني مما لا يَسْلَمُ منه البشر، واغفر لي ما كان مني قبل نبوتي، واغفر لوالدي، واغفر للمؤمنين جميعًا يوم يقوم الناس للحساب والجزاء، وقد قطع إبراهيم طمعه من كل شيء إلا من فضل الله تعالى وكرمه، والاعتراف له بعبوديته، فسأل الله المغفرة له تواضعًا وتذللًا لا عن ذنب اقترفه؛ فالأنبياء معصومون من ارتكاب الذنوب، وقد طلب إبراهيم المغفرة لوالديه، ولجميع المؤمنين والمؤمنات من ذريته، وسأل ربه قبول الدعاء.

(١) قرأ ورش وأبو عمرو وحزمة وأبو جعفر بإثبات الياء وصلًا من (دعاء) وحذفها وقفًا، وقرأ البزي ويعقوب بخلف عنه بإثباتها وصلًا ووقفًا، والباقون بحذفها في الحالين.

قيل: إن أمه كانت قد أسلمت، أو أنها ماتت قبل نبوته، أما أبوه فقد كان مشركاً، ومات على الشرك، وأنه حين دعا لأبيه لم يكن قد مُنِع من استغفاره له وقت هذا الدعاء، أو أن دعاءه لأبيه كان قبل يأسه من إيمان أبيه، وقبل نزول الآية التي تنهاه عن ذلك ﴿فَلَمَّا بَيَّنَّ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ﴾ [التوبة: ١١٤].

وقد استجاب الله دعاء إبراهيم كله إلا أن دعاءه لأبيه كان عن موعدة وعدّها إياه، فلما تبين له أنه عدو لله تبرأ منه.

خَمْسَةُ أَوْصَافٍ مِنْ مَشَاهِدِ الْقِيَامَةِ وَأَهْوَالِهَا

٤٢- ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ^(١) اللَّهَ غَفْلًا عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ^(٢) إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الْأَبْصَارُ﴾

ونظراً لأن سياق الآيات يتحدث عن المكذبين والمشرّكين، ففي هذه الآية تنبيه لهم ألا يغتروا بسلامتهم وأمنهم في الدنيا؛ فإن متاع الدنيا قليل زائل، وعقابهم آتٍ لا محالة، وإمهالهم لا يعني إهمالهم.

ومن هذا السياق يتبين عقاب الأمم المكذبة لرسولهم، وفي الآية تعزية للمظلوم ووعيد للظالم.

ويتبين أيضاً جزاء الأقوام الذين خالفوا هُذِي رسل الله صلى الله عليه وسلم من الذين بدّلوا نعمة الله كُفْراً، بدل أن يشكروه على نعمة الإسلام وإخراجهم من الظلمات إلى النور، فبدّلوا هذا الشكر إلى كفر، وأحلوا قومهم دار البوار.

وهم الذين قالوا لرسول الله في جميع الأزمنة: ﴿لَنُخْرِجَنَّكَ مِنَّا أَوْ لَنَعُودَنَّ فِي مِلَّتِنَا﴾ [إبراهيم: ١٣].

وفي سياق الآيات بيان موقف الرسل وصبرهم على أذى الأقوام في قولهم لهم: ﴿وَلَنُصَبِّرَنَّ عَلَى مَا ءَاذِيْتُمُونَا﴾ [إبراهيم: ١٢].

وهم الذين توعدهم الله تعالى بقوله: ﴿تَمَتَّعُوا فَإِنَّ مَصِيرَكُمْ إِلَى النَّارِ﴾ [إبراهيم: ٣٠].

(١) قرأ ابن عامر وعاصم وحزمة وأبو جعفر بفتح السين من (ولا تحسبن)، والباقون بكسرها، وهما لغتان، ومثلها (فلا تحسبن) الآية: (٤٧).

(٢) عدّ (يعمل الظالمون) آية، الشامي، وتركها غيره.

وهم من الذين سأل إبراهيم ربه أن يجنّبه وذريته طريقهم.

وحتى يصبر النبي ﷺ كما صبر قبله إبراهيم وسائر الرسل.

وبعد ذلك بيّن الله ﷻ أنه ﷺ ليس بغافل عن هؤلاء الظلمة، وليس بساءٍ، ولا لاهٍ عنهم جلّ شأنه، إنما آخر عذابهم وفق سنته تعالى في إمهال العصاة، ثم يأخذهم أخذ عزيز مقتدر، ﴿وَكَذَلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَىٰ وَهِيَ ظَالِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ﴾ [هود: ١٠٢].

وقد يعجلّ الله لهم العقوبة في دار الدنيا، وقد يؤخر عقوبتهم ليوم شديد ترتفع فيه عيونهم، ولا تغمض من هول ما ترى.

والله سبحانه قد أمهلهم في هذه الحياة، ويعلم أنهم لن يؤمنوا، وسيأتيهم العذاب إن عاجلاً أو آجلاً، والله تعالى ليس بغافل عما يعملون من التكذيب بك، وبغيرك من الرسل، ومن إيذاء المؤمنين وارتكاب المعاصي.

وحقيقة الغفلة: سهوٌ يعتري الإنسان من قلة التحفظ والتيقظ.

أو هي: ذهول يمنع الإنسان من الوقوف على حقائق الأمور.

والغفلة بهذين المعنيين مستحيلة بالنسبة إلى الله تعالى، فتعيّن أن يكون المقصود: هو ترك عقاب المجرمين الظالمين، بمعنى: أن الله تعالى لن يهملهم، وإنما يتقم منهم ويعاقبهم، ولن يعاملهم معاملة الغافل اللاهي الساهي.

وفي هذا تهديد ووعد لهم، وفيه أيضاً تسلية للنبي ﷺ وهي وعيد للظالم، وتغزية للمظلوم، ووعد من الله تعالى بأنه سينصر نبيه، ويظهر دينه، ووعد للمظلوم بالانتصار له من ظالمه.

والمراد بالظالمين في الآية: كل من انحرف عن طريق الحق، واتبع طريق الباطل من كل من أبى الدخول في الإسلام، ولم يتبع ما جاء به خاتم الرسل ﷺ.

والخطاب في قوله تعالى: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ﴾ موجّه للنبي ﷺ، ويصح أن يكون موجّهاً لكل مخاطب بأن الله تعالى لا يخفى عليه خافية، وهو سبحانه رقيب وحفيظ لما يعمله الظالمون، وسوف يعاقبهم ويجازيهم على ظلمهم.

ثم بيّن سبحانه خمسة من المواقف، أو المشاهد التي تحدث لهؤلاء الظلمة عند بعثهم

وقيامهم من قبورهم، وعند حسابهم ووقوفهم بين يدي رب العالمين:

الْوَصْفُ الْأَوَّلُ: ذُھُولُ الْأَبْصَارِ مِنْ هَوْلِ الْمَوْقِفِ:

﴿إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِیَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الْأَبْصَارُ﴾ أي: أن أبصار الكفار المعاندين المخالفين لرسول الله تعالى تكون يوم القيامة شاخصة مبهوتة، لا يلتفتون إلى شيء، رافعين رؤوسهم مع إدامة النظر، فهو يوم لا ينظر فيه أحد إلى أحد وأبصارهم مفتوحة، من الهول والذهول، كما قال تعالى: ﴿وَأَقْرَبَ الْوَعْدُ الْحَقُّ فَإِذَا هِيَ شَاخِصَةٌ أَبْصَارُ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ [الأنبياء: ٩٧] وهذه الأبصار لا تطرف، ولا ينطبق لها جفن؛ فهي مشدودة، ممتدة أمامهم مد البصر، لا تدور، ولا تلتفت يميناً أو يساراً، كما قال تعالى: ﴿وَعَنَتِ الْوُجُوهُ لِلْحَيِّ الْقَيُّومِ وَقَدْ خَابَ مَنْ حَمَلَ ظُلْمًا﴾ [طه].

الْوَصْفُ الثَّانِي: سُرْعَةُ الْخُرُوجِ مِنَ الْقُبُورِ لِإِجَابَةِ الدَّاعِي

٤٣- ﴿مُتَّطِعِينَ مُقْنِعِي رُءُوسِهِمْ لَا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ وَأَفْئِدَتُهُمْ هَوَاءٌ﴾ [٤٣]

يصور الله تعالى حال الظالمين عند قيامهم من قبورهم، بأنهم يخرجون منها مسرعين؛ لإجابة الداعي نحو أرض المحشر ﴿مُتَّطِعِينَ﴾ أي: مسرعين إلى إجابة الداعين حين يدعواهم للحضور بين يدي الله تعالى للعرض والحساب، حيث يخرجون يوم البعث أذلاء، منكسرين من القبور، لا محيص لهم ولا مناص.

والإهطاع: مد العنق والإسراع في المشي على هيئة الخائف، كما قال تعالى:

﴿يَوْمَ يَخْرُجُونَ مِنَ الْأَجْدَاثِ سِرَاجًا كَانَتْهُمْ إِلَىٰ نُصَبٍ يُوْفُّونَهُ﴾ [المعارج].

وقال جل شأنه: ﴿يَوْمَ تَشْقَى الْأَرْضُ عَنْهُمْ سِرَاعًا ذَلِكَ حَشْرٌ عَلَيْنَا يَسِيرٌ﴾ [ق].

فهم يخرجون من قبورهم مسرعين ملين للداعي الذي يدعوهم:

﴿يَوْمَئِذٍ يَتَّبِعُونَ الدَّاعِيَ لَا عِوَجَ لَهُمْ﴾ [طه: ١٠٨].

وهو الملك الذي ينفخ في الصور حين يقوم الناس لرب العالمين ﴿يَوْمَ يَدْعُ الدَّاعِ إِلَىٰ

شَيْءٍ نُّكْرٍ﴾ [القمر: ٦] ﴿مُتَّطِعِينَ إِلَى الدَّاعِ يَقُولُ الْكَافِرُونَ هَذَا يَوْمٌ عَسَرٌ﴾ [القمر].

يلبون الداعي وهم مسرعون من الهول والفرع.

الْوَصْفُ الثَّالِثُ: تَنكِيسُ الرُّؤُوسِ فِي ذُلٍّ وَرَهْبَةٍ

﴿مُقْنِي رُءُوسِهِمْ﴾ أي: أن رؤوسهم منكسة، ذليلة، خاشعة لرب العالمين، أو أن رؤوسهم مشدودة في حيرة واضطراب، مرفوعة إلى أعلى، مشخوطة أمامهم لا يملكون خفضها؛ فهي مشدودة بغير إرادتهم لا يبصرون شيئاً لهول الموقف.

الْوَصْفُ الرَّابِعُ: أَبْصَارُهُمْ مَشْدُودَةٌ وَجُفُونُهُمْ لَا تَنْطَوِي

﴿لَا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ﴾ أي: أن بصرهم لا يعود إليهم من شدة الهول، فلا يستطيع تحويله؛ لأنه مشدود إلى ما يراه أمامه؛ فأعينهم مفتوحة، لا تطرف ولا تتحرك، وجفونهم لا تنطوي، وإنما هي مفتوحة من الدهول، وشدة الخوف والرعب من هول ذلك اليوم، كما قال رب العالمين: ﴿يَتَأَيَّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ ﴿١﴾ يَوْمَ تَرَوْنها تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى النَّاسَ سُكَرَىٰ وَمَا هُمْ بِسُكَرَىٰ وَلَٰكِنَّ عَذَابَ اللَّهِ شَدِيدٌ ﴿٢﴾﴾ [الحج].

الْوَصْفُ الْخَامِسُ: عُقُولُهُمْ لَا تَعِي وَلَا تُدْرِكُ

﴿وَأَفْنَدَتْهُمْ هَوَاءٌ﴾ أي: أن قلوبهم خالية ليس فيها شيء؛ لكثرة الخوف والوجل من هول ما ترى، قد صعدت إلى الحناجر، فهم لا يعقلون، وهم في خجل ووجل، وأفندتهم خاوية وفارغة من الفهم، ومن العقل والإدراك، كما كانت خاوية من الخير في الدنيا، ومن العمل الصالح الذي يؤهلهم للقاء رب العالمين، لكنها مملوءة بالهم والحزن والغم والقلق.

وهكذا وصف الله الظالمين بخمسة أوصاف وهي:

أولاً: شخوص الأبصار في ذهول وزعب.

ثانياً: الإسراع إلى الداعي يوم البعث والنشور في ذلة وانكسار.

ثالثاً: رفع رؤوسهم في حيرة واضطراب، أو خفضها في ذل وهوان.

رابعاً: انفتاح عيونهم دون أن تتحرك من شدة الوجل.

خامساً: قلوبهم خاوية من إدراك أي شيء؛ لشدة الهول والفرع.

تَبَيَّنَتْ الظَّالِمِينَ فِي الْمَوْقِفِ الْعَظِيمِ

٤٤- ﴿وَأَنْذِرِ النَّاسَ يَوْمَ يَأْتِيهِمُ^(١) الْعَذَابُ فَيَقُولُ الَّذِينَ ظَلَمُوا رَبَّنَا أَخِّرْنَا إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ نَجْعِدْ دَعْوَتَكَ وَنَتَّبِعِ الرَّسُولَ^(٢) أُولَمْ نَكُفِّرُوا أَقْسَمْتُمْ مِنْ قَبْلِ مَا لَكُمْ مِنْ زَوَالٍ ۖ﴾

في يوم القيامة يخرج الظالمون من قبورهم وهم في حيرة وندامة، ويتمنون العودة إلى الدنيا مرة ثانية؛ ليتداركوا ما فاتهم من التفریط والتقصير في دنياهم؛ فقد ظلموا أنفسهم بالشرك والكفر.

والله سبحانه يأمر رسوله أن يخبرهم سلفًا عن هول ذلك اليوم، ويخوفهم عذاب الله يوم القيامة، وينذرهم بسوء العاقبة، يوم لقاء رب العالمين.

وَأَنْذِرْ -أيها الرسول- الناس الذين أرسلناك إليهم، أنذرهم عذابَ الله يوم القيامة، وَخَوْفُهُمْ أهوالها، ومُرُهُمْ أن يستعدوا لها بالإيمان والعمل الصالح من قبل أن يحل بهم العذاب فيقول الذين ظلموا أنفسهم بالكفر: ربنا أعدنا إلى الدنيا مرة ثانية، وأمهلنا إلى وقت قريب نؤمن بك، ونصدق رسولك وجميع الرسل قبله؛ لأن دعوتهم واحدة، ومن كَذَّبَ رسولًا فقد كذب الرسل جميعًا.

والكفار يتمنون الرجعة إلى الدنيا حين يرون ابتداء نزول العذاب بهم يوم القيامة، كما جاء ذلك في آيات كثيرة من القرآن الكريم، منها قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰ إِذَا جَاءَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ارْجِعُونِ ۖ﴾ (٩٩) لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحًا فِيمَا تَرَكْتُ﴾ [المؤمنون: ٩٩، ١٠٠].

وقوله: ﴿وَأَنْفِقُوا مِنْ مَّا رَزَقْنَاكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ الْمَوْتُ فَيَقُولَ رَبِّ لَوْلَا أَخَّرْتَنِي إِلَىٰ أَجَلٍ قَرِيبٍ فَأَصَّدَّقَ وَأَكُنْ مِنَ الصَّالِحِينَ ۖ﴾ [المنافقون].

وقوله جلَّ شأنه: ﴿وَلَوْ تَرَىٰ إِذِ الْمُجْرِمُونَ نَاكِسُوا رُءُوسِهِمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ رَبَّنَا أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَارْجِعْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا إِنَّا مُوقِنُونَ ۖ﴾ [السجدة].

وقوله تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَىٰ إِذِ وَقُفُّوا عَلَى النَّارِ فَقَالُوا يَلَيْسَ نَارُ وَلَا نَكْذِبُ يَا أَيُّهَا رَبَّنَا وَنَكُونُ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ

(١) كَسَرَ الهاء والميم من (يأتيهم العذاب) أبو عمرو، وضمها حمزة والكسائي ويعقوب وخلف، والباقون بكسر الهاء وسكون الميم، والجميع يسكن الميم وفقًا ويكسر الهاء ما عدا يعقوب فإنه يضم الهاء ويسكن الميم.

﴿٢٧﴾ بَلْ بَدَأَهُم مَّا كَانُوا يُحْتَفُونَ مِنْ قَبْلُ وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴿٢٨﴾ [الأنعام].

وقوله سبحانه: ﴿وَهُمْ يَصْطَرِخُونَ فِيهَا رَبِّنَا أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَدَقَاتٍ غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَنْ تَذَكَّرَ وَجَاءَكُمُ النَّذِيرُ فَذُوقُوا فَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ نَصِيرٍ ﴿٢٧﴾﴾ [فاطر].

وهكذا الآيات الكثيرة التي تبين حسرتهم وندامتهم في يوم الموقف العظيم؛ حيث يقول الله سبحانه موبخاً، ومبكتاً لهم: ألم تقسموا في حياتكم وأنتم في الدنيا: إنه لا زوال لكم عن هذه الحياة إلى الآخرة، ولم تصدقوا بالبعث، وكنتم تنكرون في الدنيا، وتنكرون النشور والحساب والجزاء، وتحلفون على ذلك، كما قال تعالى: ﴿وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَنِهِمْ لَا يَبْعَثُ اللَّهُ مَنْ يَمُوتُ بَلَى وَعَدًا عَلَيْهِ حَقًّا﴾ [النحل: ٣٨].

هذا موقف الكفار في الدنيا؛ حيث كانوا يحلفون في دنياهم على: أنه لا انتقال من حياة إلى حياة، ولا زوال لهم ولا انتقال من الدنيا إلى الآخرة، وأنه لا بعث، ولا حساب، ولا ثواب، ولا عقاب.

عُقُوبَةُ وَلَاءِ الظَّلَمَةِ:

٤٥- ﴿وَسَكَنَ فِي مَسَاكِنِ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ وَبَيَّنَ لَكُمْ كَيْفَ فَعَلْنَا بِهِمْ وَضَرَبْنَا لَكُمْ الْأَمْثَالَ﴾ ﴿٤٥﴾

لقد حللتم، وأقمتم في مساكن الكافرين والمشركين ممن كان قبلكم من الأمم الظالمة، وقد رأيتم وعلمتم مصائر الظلمة والطغاة قبلكم، وما لحق بهم من عذاب الله في الأمم السابقة؛ ققوم نوح، وقوم هود، وقوم صالح، وكيف أن الله سبحانه قد استأصل هؤلاء الأقوام وأبادهم، وأنتم تمرّون على ديارهم في أسفاركم؟ وفي ذلك ﴿حِكْمَةٌ بَلِغَةٌ فَمَا تُغْنِ النُّذُرُ﴾ ﴿٥﴾ [القمر].

وهذا المشهد متجدد في حياتنا، وقائم على مستوى الأفراد والجماعات، فنحن نرى عقوبات إلهية تحل ببعض الأمم من حروب، وعدم أمن، أو كوارث طبيعية، أو انحدار في الأخلاق وترد إلى ما هو أكثر من الدرك الحيواني، فكم من طغاة حلّوا محل طغاة آخرين في الحكم وكانت نهاياتهم قاسية، وهم لا يعتبرون بمن سبقهم، ولا ينظرون إلى أن الكرسي الذي فرغ ممن كان قبلهم، سيفرغ منهم، ومع هذا فهم يخذون حذوهم،

ويفعلون أفعالهم.

والنبي ﷺ بيّن لنا أن المسلم إذا مرّ بمثل ديار قوم ثمود في مدائن صالح، أو بمثل وادي مُحَسَّر المجاور لمزدلفة حيث كانت موقعة الفيل، إذا مرّ بنحو هؤلاء الأقوام الذين انتقم الله منهم وعذبهم، عليه أن يمر على أماكنهم سريعاً، وأن يسأل الله النجاة، وأن لا يسكن في مثل هذه الديار؛ حتى لا يصيبه ما أصابهم، وقد بعث الله إليهم رسلاً، وأنزل عليهم كتبه، وضرب لهم الأمثال من الأمم السابقة في القرآن الكريم، وبيّن لهم مصائر هؤلاء الأقوام، وهي أمثلة متجددة في الحياة اليومية، ولكن الناس لا تعتبر بما حدث لغيرهم ولا تتعظ، وكان الواجب عليهم أن يثوبوا إلى رشدهم، ويدخلوا في الإسلام، ولكنهم ساروا على منهج أهل الكفر والفجور، ولم يعقلوا عن الله أمره ونهيه. قال تعالى في وصفهم:

٤٦- ﴿وَقَدْ مَكَرُوا مَكْرَهُمْ وَعِنْدَ اللَّهِ مَكْرُهُمْ وَإِنْ كَانَ مَكْرُهُمْ لِتَزُولَ^(١) مِنْهُ الْجِبَالُ﴾

وهؤلاء الكفرة المشركون من اليهود من النصارى، والوثنيين، وغيرهم إلى يوم القيامة لا يزالون يمكرون بالإسلام وأهله، ولا يزالون يخططون، ويكيدون له ليلاً ونهاراً في السر والعلانية، والله ﷻ محيط بمكرهم، لا تخفى عليه خافية في الأرض ولا في السماء.

والآية عامة في كل من يكيد للإسلام، ويمكر به في كل زمان ومكان.

فالضمير في قوله تعالى: ﴿وَقَدْ مَكَرُوا مَكْرَهُمْ﴾ عائد على الذين ظلموا أنفسهم بالكفر والشرك من الأمم السابقة واللاحقة.

وهو عائد أيضاً على كفار قريش الذين مكروا برسول الله، ودبروا قتله ليلة الهجرة.

وعائد على كل من يكيدون للإسلام، ويمكرون بأهله، ويحاولون النيل منه في كل زمان ومكان؛ فالآية تشمل هؤلاء وأولئك، والمعنى قائم متجدد إلى يوم القيامة.

وأصل المكر: تبيت وتبرير فعل السوء وإضماره للآخرين، مع إظهار ما يخالف ذلك،

(١) قرأ الكسائي بفتح اللام الأولى ورفع الثانية من (لَتَزُولَ) على أن (إن) مخففة من الثقيلة، واسمها ضمير الشأن محذوف، والفعل مضارع مرفوع، والجملة خبر كان، وقرأ الباقر بكسر اللام الأولى ونصب الثانية، على أن (إن) نافية، والفعل بعدها منصوب بأن مضمرة بعد لام الجحود.

وَمَكْرُهُمْ ثَابِتٌ فِي عِلْمِ اللَّهِ تَعَالَى، وَمَعْلُومٌ عِنْدَهُ، وَهُوَ سَبْحَانَهُ سَيَاقِبُهُمْ وَيَجَازِيهِمْ عَلَيْهِ، وَسَوْفَ يَعُودُ مَكْرُهُمْ عَلَيْهِمْ، فَالْمَكْرُ السَّيِّئُ لَا يَحْقِيقُ إِلَّا بِأَهْلِهِ، وَهَذَا مَعْنَى قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَعِنْدَ اللَّهِ مَكْرُهُمْ﴾ أَي: وَعِنْدَ اللَّهِ عِقَابُ مَكْرِهِمْ، وَأَنَّهُ سَبْحَانَهُ مُحِيطٌ بِهِمْ، يَعْلَمُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُمْ، وَيَعْلَمُ مَا دَبْرُوهُ وَأَضْمَرُوهُ فِي نَفْسِهِمْ، وَسَوْفَ يَجَازِيهِمْ عَلَيْهِ، وَمَهْمَا عَظُمَ مَكْرُهُمْ وَاشْتَدَّ فَإِنَّهُمْ لَنْ يَضُرُّوا اللَّهَ شَيْئًا، وَلَنْ يَضُرُّوا إِلَّا أَنْفُسَهُمْ، وَهُوَ مَكْرٌ وَاوٍ وَضَعِيفٌ عِنْدَ اللَّهِ تَعَالَى، وَإِنْ كَانَ هَذَا الْمَكْرُ مِنَ الْقُوَّةِ وَالتَّأَثِيرِ يُؤْدِي إِلَى زَوَالِ الْجِبَالِ عَنْ أَمَاكِنِهَا فَإِنَّ اللَّهَ تَعَالَى يَحْفَظُ أَوْلِيَاءَهُ، وَيَعْصِمُهُمْ، وَيَقِيهِمْ مِنْهُ؛ فَهُمْ لَيْسُوا بِأَشَدَّ مِنْ أَمْثَالِهِمُ الَّذِينَ دَمَرَهُمُ اللَّهُ، وَأَبَادَهُمْ، وَأَحْبَطَ مَكْرَهُمْ.

وَالْمُسْلِمُونَ لَا يَزْعِزُهُمْ كَيْدُ الْكَائِدِينَ؛ فَهُمْ كَالْجِبَالِ الرُّوَاسِي، وَأَهْلُ الْمَكْرِ لَمْ يَضُرُّوا اللَّهَ شَيْئًا، وَلَكِنَّهُمْ أَضَرُّوا أَنْفُسَهُمْ، وَهَذِهِ أَمْثَلَةٌ مِنْ مَكْرِ السَّابِقِينَ بِرِسْلِ اللَّهِ:

١- كَفَّارُ قَرِيشٍ مَكَّرُوا بِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ؛ كَيْ يَقْتُلُوهُ، أَوْ يَحْبِسُوهُ، أَوْ يَنْفُوهُ مِنْ مَكَّةَ.

٢- قَوْمُ ثَمُودَ مَكَّرُوا بَنِيَّ اللَّهَ صَالِحَ، فَعَقَرُوا النَّاقَةَ، وَأَرَادُوا قَتْلَهُ.

٣- وَهَكَذَا الْجَبَابِرَةُ وَالْفِرَاعِنَةُ يَزْعُمُونَ أَنَّ بِأَمَاكِنِهِمُ الْوَصُولَ إِلَى السَّمَاءِ، وَهُوَ لَوْ مِنْ الْمَكْرِ الْعَقَائِدِيِّ؛ حَيْثُ يَبْلُغُ بِهِمُ الْفُجُورُ وَالْكَفَرُ إِلَى هَذِهِ الدَّرَجَةِ.

هَكَذَا صَنَعَ فِرْعَوْنُ فَطَلَبَ مِنْ وَزِيرِهِ هَامَانَ أَنْ يَبْنِي لَهُ صَرْحًا حَتَّى يَنْفِذَ إِلَى السَّمَوَاتِ، وَيَزْعُمُ أَنَّهُ يَصِلُ إِلَى إِلَهٍ مُوسَى فَقَالَ: ﴿يَهْمَنُنْ أَبْنِي صَرْحًا لَعَلِّي أَبْلُغُ﴾ **الْأَسْبَبُ** (١٦) **أَسْبَبَ السَّمَوَاتِ فَاطْلَعَ إِلَى إِلَهِ مُوسَى وَإِنِّي لَأَطْنُ كَذِبًا** [غافر].

٤- وَكَذَلِكَ فَعَلَ النَّمْرُودُ الَّذِي حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ، وَكَذَلِكَ فَعَلَ بُخْتَنَصْرُ، وَيُقَالُ: إِنْ كَلَّا مِنْهُمَا صَنَعَ تَابُوتًا، وَوَضَعَ نَفْسَهُ فِيهِ، وَعَلَّقَ قَوَائِمَهُ فِي أَرْبَعَةِ نُسُورٍ يَرِيدُ أَنْ يَصِلَ إِلَى السَّمَاءِ بِطَيَّرِهِ فِي الْهَوَاءِ؛ بَحْثًا عَنْ حَقِيقَةِ قَوْلِ إِبْرَاهِيمَ فِي وَجُودِ اللَّهِ تَعَالَى كَمَا يَزْعُمُ، وَهَكَذَا الْجَبَابِرَةُ وَالطَّغَاةُ فِي كُلِّ زَمَانٍ وَمَكَانٍ مَكَّرُوا بِالضُّعْفَاءِ مِنَ النَّاسِ^(١).

وَكَثِيرٌ مِنْ أَصْحَابِ الثَّرَاءِ وَالْجَاهِ وَالسُّلْطَانِ، يَزِيدُهُمُ اللَّهُ طَغْيَانًا عَنْ غَيْرِهِمْ:

(١) يُنْظَرُ «تَفْسِيرُ الطَّبْرِيِّ» (٧١٨/١٣) وَأَخْرَجَهُ عَبْدُ بْنُ حَمِيدٍ وَابْنُ الْمُنْذِرِ وَابْنُ أَبِي حَاتِمٍ وَابْنُ الْأَنْبَارِيِّ عَنْ عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ كَمَا فِي «الدَّرُ الْمَشْهُورِ» (٥٧٠).

عن أبي عبيدة أن جباراً من الجبابرة قال: لا أنتهي حتى أنظر إلى مَنْ في السماء فسَلَطَ الله عليه أضعف خلقه، فدخلت بعوضة في أنفه فأخذه الموت، فقال: اضربوا رأسي، فضربوه حتى نثروا دماغه^(١).

وَعْدُ اللَّهِ نَاجِزٌ لَا مَحَالَةَ:

٤٧- ﴿فَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ مُخْلَفًا وَعْدُهُ رُسُلُهُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ ذُو انْتِقَامٍ﴾ (٤٧)

ثم خاطب الله رسوله، وكل من يتأتى منه الخطاب مؤكداً إنجاز ما وعد به من النصر على الكفار، كما تحقق ذلك لمن سبقه من الرسل، وهو سبحانه ينتقم ممن عصاه ولا يعجزه شيء، ومكر الأعداء لن يغير شيئاً من وعده تعالى لرسله؛ فوعده تعالى لأنبيائه ورسله، ولعباده المؤمنين بنصرهم، وتعذيب المكذبين، لا يتخلف.

لقد وعد الله بنصر رسله، وبنصر عباده المؤمنين، حين يكونون أهلاً لهذا النصر، ووعد الله لا يتخلف، فهو جلّ شأنه ذو عزة ومنعة لا يعجزه شيء، وهو شديد الانتقام من أعدائه؛ فقد وعدناك -أيها الرسول- بعذاب الظالمين، وأخبرناك بجانب من العذاب الذي يحل بهم يوم القيامة، وما دام الأمر كذلك فاثبت على الحق أنت وأتباعك، وثق بأن الله تعالى ناصرك على أعدائك، كما قال تعالى: ﴿إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ ءَامَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهُدُ﴾ (٥١) [غافر].

وقال سبحانه ﴿كَتَبَ اللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ (٦١) [المجادلة].

وخُلف الوعد يكون نتيجة عجز عن الوفاء به، أو تعوّد لخصال النفاق، وكلاهما مستحيل على الله تعالى.

تَبْدِيلُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ

٤٨- ﴿يَوْمَ تُبَدَّلُ الْأَرْضُ غَيْرَ الْأَرْضِ وَالسَّمَوَاتُ وَبَرَزُوا لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ﴾ (٤٨)

وما يحدث من البعث والنشور، والحساب والجزاء، يكون يوم القيامة حين تبدل

(١) أخرجه ابن أبي شيبة (١٣/٥٤٢).

الأرض غير الأرض والسماوات، فكيف يكون هذا التبديل؟

ذكر المفسرون، وأهل العلم أن تبديل الأرض والسماوات يكون بأحد أمرين:

إما أن يكون بتبديل صفات الأرض وهيئتها، مع بقاء ذاتها، أو يكون بتبديل ذاتها:

فالأول بمعنى: أن الأرض تُدَكُّ، والبحار تُفَجَّرُ وتُسَجَّرُ، وتُسَيَّرُ الجبال، وتُسَوَّى الأودية بالأرض، وتذهب الأشجار، وتذهب المعالم والمباني، والقصور والعمارات، ولا يبقى شيء على وجهها كما قال تعالى: ﴿وَسْتَلَوْكَ عَنِ الْجِبَالِ فَقُلْ يَنْسِفُهَا رَبِّي نَسْفًا ۖ فَيَذَرُهَا قَاعًا صَفْصَفًا ۖ لَا تَرَى فِيهَا عِوَجًا وَلَا أَمْتًا ۗ﴾ [طه].

وقال جل شأنه: ﴿كَلَّا ۚ إِذَا ذُكِّتِ الْأَرْضُ دَكًّا دَكًّا ۖ﴾ [الفجر].

وتُغَيَّرُ صفة السماء وهيئتها مع بقاء ذاتها كذلك؛ فتكون كالدَّهَانِ تارة، قال تعالى: ﴿فَإِذَا أَنْشَقَّتِ السَّمَاءُ فَكَانَتْ وَرْدَةً كَالدِّهَانِ ۖ﴾ [الرحمن] أي: حمراء كلون الورد.

وكالمهل تارة أخرى قال تعالى: ﴿يَوْمَ تَكُونُ السَّمَاءُ كَالْمُهْلِ ۖ﴾ [المعارج] أي: كالزيت المغلي.

والشمس تكور ﴿إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ ۖ﴾ [التكوير] فتطمس، ويذهب شعاعها، وتلف كالعمامة.

والكواكب تتناثر وتتساقط، قال تعالى: ﴿وَإِذَا الْكَوَاكِبُ انْتَرَتْ ۖ﴾ [الانفطار] وهكذا تُغَيَّرُ صفات الأرض والسماء، فالأرض تُسَوَّى وتُمدُّ كمد الأديم، ويلقى ما على ظهرها من جبل ومعلم، فتصير قاعًا صفصفًا، والسماء تكون كالمهل، من شدة أهوال هذا اليوم، ثم يطويها الله بيمينه ﴿يَوْمَ نَطْوِي السَّمَاءَ كَطَيِّ السِّجِلِّ لِلْكُتُبِ ۗ كَمَا ۖ﴾ [الأنبياء: ١٠٤]

ويبدو أن تبديل الأرض، وتبديل السماء على هذا النحو يكون قبل السؤال وقبل الحساب، أي: حينما ينفخ في الصور، تبدل الأرض غير الأرض والسماوات.

وعند الحساب تسأل الأرض، كما قال تعالى: ﴿يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا ۗ﴾ [الزلزلة] فالأرض تتحدث وتشهد لكل إنسان، أو تشهد عليه بما فعل وعمل فيها، تقول: فلان ارتكب الذنب الفلاني في المكان الفلاني، وفلان أطاع الله تعالى، وصلى في المكان الفلاني وهكذا..

والنبي ﷺ كان إذا سافر، وانتقل من مكان إلى مكان يبدأ أول ما يبدأ بالمسجد فيصلي

فيه؛ لتشهد له هذه البقعة من الأرض.

ويتعجب الإنسان كيف تنطق الأرض؟ يقول رب العالمين: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتْلُوا صُورًا تُقَدِّمُوا عَلَيْهَا ذُكْرَانًا وَإِثْنًا وَإِمْرًا وَلَا تُخَالِفُوا طَوَارِقَ رُؤْيَاكُمْ تُقَوِّمُوا وَلَا يُخَالِفُ طَوَارِقَ رُؤْيَاكُمْ إِذَا أُقْبِلُوا لَكُمْ وَلَا إِذَا أُنْزِلُوا إِلَيْكُمْ أَن يَقُولُوا هَٰذَا نَارٌ مُّأْتِيَةٌ مِنْ بَيْنِ الْأَشْيَاءِ﴾ [الزلزلة] الله الذي خلقها هو الذي أنطقها.

المعنى الآخر للتبديل، ثم يكون بعد ذلك تبديل ذات الأرض، أي: أنها تتغير، وتبدل بأرض أخرى بيضاء نقية كالفضة، وتُبدل السموات بسموات أخرى.

ودليل هذا بالنسبة للأرض التي يُحشر الناس عليها ما جاء في الصحيحين عن النبي ﷺ من حديث سهل بن سعد رضي الله عنه: «يُحشر الناس يوم القيامة على أرض بيضاء عَفْرَاء كَقَرْصَةِ النَقْيِ، ليس فيها عِلْمٌ لأحد»^(١).

وعفراء: يعني بياض مشوب بحمرة، كقرص الخبز المصنوع من الدقيق الأبيض الفاخر، وليس فيها علم لأحد، أي: ليس هناك حدود للأراضي بين دولة ودولة، ولا بين شخص وشخص، وليس فيها مِلْكِيَّة، ولا تخصيص لأحد، وليس فيها عِلْم، ولا أثر من عُمران لأحد من خلق الله تعالى.

وجاء عن علي، وابن عباس، وأنس، ومجاهد، وغيرهم، أن هذه الأرض تبدل بأرض من فضة يوم القيامة^(٢).

والأرض المبدلة لم يُسفك فيها دم حرام، ولم يُعمل عليها خطيئة، وهي أرض جديدة غير الأرض الملطخة بالمعاصي والذنوب.

فَتُبَدَّلُ صِفَةُ الْأَرْضِ وَالسَّمَاءِ وَهَيْئَتُهُمَا أَوَّلًا، ثُمَّ يُبَدَّلُ ذَوَاتُهُمَا ثَانِيًا؛ جَمْعًا بَيْنِ الْأَدْلَةِ.

وفي حديث سهل بن سعد، وحديث عائشة، وثوبان، أن الناس عند التبديل يكونون على الصراط.

والتبديل الأول يكون قبل الحساب، والثاني يكون بعد الحساب:

(١) من حديث أبي حازم عن سهل بن سعد، كما في «صحيح البخاري» برقم (٦٥٢١) و«صحيح مسلم» برقم (٢٧٩٠) والطبري (١٣/٧٣٢).

(٢) يُنْظَرُ: الآثار الواردة في ذلك في «تفسير الطبري» (١٣/١٦٤) وغيره.

أين يكون الناس عندما تُبدل الأرض والسموات:

١- في صحيح مسلم عن ثوبان رضي الله عنه أن حَبْرًا من اليهود سأل رسول الله ﷺ على وجه التعجيز، والاختبار ضمن أسئلة أخرى فقال: أين يكون الناس يوم تبدل الأرض غير الأرض والسموات؟ فقال ﷺ: «يكونون في الظلمة دون الجسر»^(١).

أي: عند الصراط المضروب على متن جهنم؛ حيث يكونون في ظلمة الجسر.

٢- وجاء من عدة طرق أن عائشة رضي الله عنها سألت رسول الله ﷺ: أين يكون الناس يوم القيامة حين تُبدل الأرض غير الأرض، فقال ﷺ: «على الصراط»^(٢).

٣- وفي رواية أخرى: «على متن جهنم»^(٣).

وفي ثالثة: «على جسر جهنم»^(٤) وكلها بمعنى واحد.

وهذا هو معنى الورود في قوله تعالى: ﴿وَلَنْ يَنْفَكُوا إِلَّا وَأَرْدُهَا كَانَ عَلَى رِجِّكَ حَتْمًا مَقْضِيًّا﴾^(٥) ثُمَّ نَجَّى الَّذِينَ آمَنُوا وَنَدَّرَ الظَّالِمِينَ فِيهَا جِثْيًا ﴿٧٢﴾ [مريم]

وبرز الناس جميعًا وخرجوا من قبورهم إلى أرض المحشر من باب الزبانية، فهم ليسوا في بيوتهم، وليسوا في قبورهم، بل هم في العراء والفضاء في ساحة العدل الإلهية لا يقيهم واق، ولا يسترهم ساتر، ولا يحجبهم حجاب قد برزوا على وجه الأرض لله الواحد القهار.

ويحسن بنا أن نذكر حديث ثوبان بكامله لما فيه من الفوائد ودلائل النبوة:

أخرج الإمام مسلم بسنده عن ثوبان مولى رسول الله ﷺ قال: كنت قائما عند رسول الله ﷺ فجاءه خبر من أحبار اليهود، فقال: السلام عليك يا محمد، قال ثوبان: فدفعته

(١) «صحيح مسلم» برقم (٣١٥) والطبري (٧٣٨/١٣) والحاكم (٤٨١/٣) والبيهقي في «الدلائل» (٢٦٣/٦).

(٢) «صحيح مسلم» برقم (٢٧٩١) يُنظَر: و«المسند» (٣٥/٦) برقم (٢٤٠٦٩) بإسناد صحيح على شرط مسلم، وانظر (٢٥٠٢٣، ٢٥٨٢٨) و«سنن الترمذي» برقم (٣١٢١) وابن ماجه برقم (٤٢٧٩) وابن حبان (٣٣١، ٧٣٨٠) (٣٥٢/٢)، والحميدي (٢٧٤).

(٣) «المسند» (١١٧/٦).

(٤) «تفسير الطبري» (١٦٦/١٣).

دَفْعَةً كَادَ يُصْرَعُ مِنْهَا، فَقَالَ: لِمَ تَدْفَعُنِي؟ فَقُلْتُ: أَلَا تَقُولُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ؟ فَقَالَ الْيَهُودِيُّ: إِنَّمَا نَدْعُوهُ بِاسْمِهِ الَّذِي سَمَاهُ بِهِ أَهْلُهُ! فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «إِنْ اسْمِي مُحَمَّدًا الَّذِي سَمَانِي بِهِ أَهْلِي».

فَقَالَ الْيَهُودِيُّ: جِئْتُ أَسْأَلُكَ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «أَيَنْفَعُكَ شَيْءٌ إِنْ حَدَّثْتُكَ؟» فَقَالَ: أَسْمِعْ بَأْذَنِي، فَنَكَتَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ بَعُودَ مَعَهُ، فَقَالَ: «سَلْ» فَقَالَ الْيَهُودِيُّ: أَيْنَ يَكُونُ النَّاسُ يَوْمَ تَبْدُلُ الْأَرْضَ غَيْرَ الْأَرْضِ وَالسَّمَوَاتِ؟ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «هُمْ فِي الظُّلْمَةِ دُونَ الْجِسْرِ» قَالَ: فَمَنْ أَوْلَى النَّاسِ إِجَازَةً؟ فَقَالَ: «فُقَرَاءُ الْمُهَاجِرِينَ» قَالَ الْيَهُودِيُّ: فَمَا تُحَفِّتُهُمْ حِينَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ؟ قَالَ: «زِيَادَةُ كَبِدِ الْحَوْتِ» قَالَ: فَمَا غِذَاؤُهُمْ عَلَى إِثْرِهَا؟ قَالَ: «يُنْحَرُ لَهُمْ ثَوْرُ الْجَنَّةِ الَّذِي كَانَ يَأْكُلُ مِنْ أَطْرَافِهَا» قَالَ: فَمَا شَرَابُهُمْ عَلَيْهِ؟ قَالَ: «مَنْ عَيْنٍ فِيهَا تَسْمَى سَلْسَبِيلًا» قَالَ: صَدَقْتَ.

قَالَ: وَجِئْتُ أَسْأَلُكَ عَنْ شَيْءٍ لَا يَعْلَمُهُ أَحَدٌ مِنْ أَهْلِ الْأَرْضِ، إِلَّا نَبِيٌّ، أَوْ رَجُلٌ أَوْ رَجُلَانِ! قَالَ: «يَنْفَعُكَ إِنْ حَدَّثْتُكَ؟» قَالَ: أَسْمِعْ بَأْذَنِي، قَالَ: جِئْتُ أَسْأَلُكَ عَنِ الْوَلَدِ، قَالَ: «مَاءُ الرَّجُلِ أَبْيَضُ وَمَاءُ الْمَرْأَةِ أَصْفَرُ، فَإِذَا اجْتَمَعَا، فَعَلَا مَنِّي الرَّجُلُ مَنِّي الْمَرْأَةُ، أَذْكَرًا بِإِذْنِ اللَّهِ، وَإِذَا عَلَا مَنِّي الْمَرْأَةُ مَنِّي الرَّجُلُ أَثْنًا بِإِذْنِ اللَّهِ» قَالَ الْيَهُودِيُّ: لَقَدْ صَدَقْتَ، وَإِنَّكَ لَنَبِيٌّ، ثُمَّ انْصَرَفَ.

فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «لَقَدْ سَأَلَنِي هَذَا عَنِ الَّذِي سَأَلَنِي عَنْهُ، وَمَا لِي عِلْمٌ بِشَيْءٍ مِنْهُ، حَتَّى أَتَانِي اللَّهُ بِهِ»^(١).

وَعَنْ أَبِي أَيُّوبَ الْأَنْصَارِيِّ ؓ قَالَ: أَتَى حَبْرٌ مِنَ الْيَهُودِ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ فَقَالَ: أَرَأَيْتَ إِذْ يَقُولُ اللَّهُ فِي كِتَابِهِ ﴿يَوْمَ تَبْدُلُ الْأَرْضَ غَيْرَ الْأَرْضِ وَالسَّمَوَاتِ﴾ فَأَيْنَ الْخَلْقُ عِنْدَ ذَلِكَ؟ فَقَالَ: «أَضْيَافُ اللَّهِ، فَلَنْ يَعْجِزَهُمْ مَا لَدَيْهِ»^(٢).

وَمَعْنَى الْآيَةِ: أَنْ انتِقَامَ اللَّهِ تَعَالَى مِنْ أَعْدَائِهِ يَكُونُ يَوْمَ يَتَغَيَّرُ هَذَا الْعَالَمُ الْمَعْهُودُ بِعَالَمٍ

(١) «صحيح مسلم» برقم (٣١٥).

(٢) أخرجه ابن جرير في التفسير (١٦٤/١٣) وابن أبي حاتم وانظر: «فتح الباري» (٣٧٥/١١) وابن كثير (٤٣٨/٤).

آخر جديد، فُتبدل الأرض التي نعيش فوقها، بأرض أخرى بيضاء نقية كالفضة، وكذلك السموات تبدل بغيرها، وتخرج الخلائق من قبورها أحياء للقاء الواحد القهار، المتفرد بعظمته، وأسمائه، وصفاته، وأفعاله، وقهره لكل شيء فيحاسبهم ربهم، ويجازيهم على ما قدمت أيديهم.

هَيْئَةُ الْكَافِرِ وَهُوَ يُقَادُ إِلَى جَهَنَّمَ

٤٩، ٥٠ - ﴿وَتَرَى الْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ مُّقْرَّنِينَ فِي الْأَصْفَادِ ﴿٤٩﴾ سَرَابِلُهُمْ مِّنْ فَطْرَانٍ وَتَعْشَىٰ وُجُوهُهُمْ النَّارُ ﴿٥٠﴾﴾

يصور الله - سبحانه - حال المجرمين بأنهم يُؤتى بهم يوم القيامة مقيدون بالقيود، قد قُرنت أيديهم وأرجلهم بالسلاسل، وهم في حالة ذل وهوان. قال ابن عباس: يُقَرَّن كل كافر مع شيطان في سلسلة.

وقال أبو زيد: تُقَرَّن أيديهم وأرجلهم إلى رقابهم بالأصفاد: وهي القيود، وهو مشهد من مشاهد العذاب العنيف القاسي المذل.

فكل كافر أو مشرك، أو ظالم أو مجرم يُحشر مع قرينه من شياطين الإنس والجن، فيُقَرَّن به، ويُربط معه في سلسلة واحدة، وهو مقيد، ومشدود في الأغلال والسلاسل، مضمومة رجله إلى عنقه، كما قال تعالى: ﴿أَحْشَرُوا الَّذِينَ ظَلَمُوا وَأَزْوَاجَهُمْ وَمَا كَانُوا يَعْبُدُونَ ﴿٢٧﴾ مِّن دُونِ اللَّهِ﴾ [الصافات].

وقال: ﴿وَإِذَا أُلْقُوا مِنْهَا مَكَانًا ضَبَقًا مُّقْرَّنِينَ دَعَوْا هُنَالِكَ ثُبُورًا ﴿٧٣﴾﴾ [الفرقان].

وقال: ﴿وَالشَّيَاطِينُ كُلُّ بَنَاءٍ وَعَوَاصٍ ﴿٢٧﴾ وَآخَرِينَ مُّقْرَّنِينَ فِي الْأَصْفَادِ ﴿٢٨﴾﴾ [ص].

وقال: ﴿فَوَرَبِّكَ لَنَحْشُرَنَّهُمْ وَالشَّيَاطِينَ﴾ [مريم: ٦٨].

وقال: ﴿إِذْ الْأَغْلَالُ فِي أَعْنَاقِهِمْ وَالسَّلْسِلُ يُسْحَبُونَ ﴿٧١﴾ فِي الْحَمِيمِ ثُمَّ فِي النَّارِ يُسْجَرُونَ ﴿٧٢﴾﴾ [غافر].

أما الثياب التي يلبسونها في جهنم فهي من قطران، والقطران: مادة سوداء منتنة، تشتعل فيها النيران بسرعة كالزفت الذي يُطلى به الإبل حين تصاب بالجرب، وقد حذرهم القرآن بما يعرفون.

والْقَطْر: هو النحاس المذاب.

والْقَطْرَان: تركيب كيميائي قديم يُصنع من شجر العرعر؛ حيث تقطع أخشابه، وتوقد عليه النار فيتصاعد منه بخار، ويتجمع منه ماء أسود، يعلوه زبد، يعالج به جَرَبُ الإبل.

والسرايل: جمع سربال وهو القميص ﴿سَرَايِلُهُمْ مِّنْ قَطْرَانٍ﴾.

كما قال تعالى: ﴿فَالَّذِينَ كَفَرُوا قُطِعَتْ لَّهُمْ شَاةٌ مِّنْ نَّارٍ يُصَبُّ مِنْ فَوْقِ رُءُوسِهِمُ الْحَمِيمُ لَا يُصْهَرُ بِهِ مَا فِي بُطُونِهِمْ وَالْجُلُودُ ۝٢٦ وَلَهُمْ مَقْلَعٌ مِّنْ حديدٍ ۝٢٧ كُلَّمَا أَرَادُوا أَنْ يَخْرُجُوا مِنْهَا مِنْ غَمٍّ أُعِيدُوا فِيهَا وَذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ ۝٢٨﴾ [الحج].

ويقال للعزير الكريم في الدنيا: ﴿ذُقْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ ۝٢٩﴾ [الدخان].

أي: قد كنت هكذا في الدنيا، يقال له ذلك من باب السخرية، والتهكم، والاستهزاء.

﴿وَنَعْنَىٰ وَجُوهُهُمْ النَّارُ﴾ إنهم يتقون النار بوجوههم!! ﴿أَفَمَنْ يَتَّقِي بِوَجْهِهِ سُوءَ الْعَذَابِ يَوْمَ الْقِيَمَةِ﴾ [الزمر: ٢٤] أي: أن النار تعلق وجوههم يوم القيامة، وتلفحها فتحرقها، وتغشاها، قال تعالى: ﴿تَلْفَحُ وَجُوهُهُمْ النَّارُ وَهُمْ فِيهَا كَالِحُونَ ۝٣٠﴾ [المؤمنون]

وقال تعالى: ﴿لَوْ يَعْلَمُ الَّذِينَ كَفَرُوا حِينَ لَا يَكْفُرُونَ عَنْ وَجُوهِهمُ النَّارَ وَلَا عَنْ ظُهُورِهِمْ﴾ [الأنبياء: ٣٩].

عن أبي أمامة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: « النائحة إذا لم تثب قبل موتها تقام يوم القيامة وعليها سربال من قطران، ودرع من جَرَبٍ »^(١). قال تعالى:

٥١- ﴿يَجْزِي اللَّهُ كُلَّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ ۝٥١﴾

أي وقد فعل الله بالمجرمين ذلك؛ جزاء لهم بما كسبوا من الآثام في الدنيا، والله تعالى يجازي كل إنسان بما عمل من خير أو شر، فيجزى العاصي بعصيانته، والكافر بكفره، والمؤمن بإيمانه، والمطيع بطاعته.

(١) مسلم (٩٣٤) وأحمد (٢٢٩١٢) وابن أبي شيبة (٣/ ٣٩٠).

وحسابهم سهل يسير على رب العالمين قال تعالى: ﴿مَا خَلَقَكُمْ وَلَا يَعْثُبُكُمْ إِلَّا كَفَّسٍ وَاحِدٌ﴾ [لقمان: ٢٨].

وهو سبحانه لا يشغله شأن عن شأن، ولا يشغله حساب عن حساب.

وفي الأثر: أن جميع الخلائق تُحاسب في مقدار نصف يوم من أيام الدنيا.

وفي بعضها: أنهم يحاسبون في ساعة واحدة، كما يرزقهم ويدبر أمورهم في لحظة واحدة، لا يشغله شأن عن شأن، وهذا الحساب ﴿لِيَجْزِيَ الَّذِينَ أَسْتَوُوا بِمَا عَمَلُوا وَيَجْزِيَ الَّذِينَ أَحْسَنُوا بِالْحُسْنَى﴾ [النجم: ٣١].

ويوم الحساب قد اقترب، وحساب الخلق فيه يكون سريعاً في وقت قليل جداً.

عَالِمِيَّةُ الرِّسَالَةِ فِي بَدْءِ السُّورَةِ وَخِتَامِهَا

٥٢- ﴿هَذَا بَلَّغٌ لِلنَّاسِ وَلِيُنذَرُوا بِهِ وَلِيَعْلَمُوا أَنَّمَا هُوَ إِلَهٌُ وَاحِدٌ وَلِيَذَّكَّرَ أُولُو الْأَلْبَابِ﴾ (٥٢)

وتُختتم سورة إبراهيم، بالبلاغ الذي ابتدأت به، في قوله تعالى: ﴿كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ﴾ [إبراهيم: ١] أي: أن هذا القرآن الذي أنزلناه عليك -يا محمد- فيه بلاغ، وإعلام للناس لنصحهم وتخويفهم؛ ليستيقظوا من غفلتهم، وليتبهوا فيخلصوا له العبادة، ويُفردوه بالطاعة، ويوقنوا أنه الإله الواحد، لا ربَّ غيره، ولا معبود بحقٍّ سواه، وليتعضَّ به أصحاب العقول السليمة، فيعتبروا ويتنفعوا، فقد بُعث الرسل لتذكير أولي الألباب؛ فهم الذين يعقلون عن الله أمره ونهيه.

وقد اشتملت هذه الآية على أربعة أمور هي:

١- البلاغ والإعلام. ﴿هَذَا بَلَّغٌ لِلنَّاسِ﴾

٢- الإنذار والتخويف. ﴿وَلِيُنذَرُوا بِهِ﴾

٣- العلم بوحداية الله تعالى ليفردوه بالعبادة ﴿وَلِيَعْلَمُوا أَنَّمَا هُوَ إِلَهٌُ وَاحِدٌ﴾.

٤- التذكير والاتعاظ لمن يتنفعون بالوعظ والتذكير، فيكون في هذا سعادتهم في الدنيا

والآخرة. ﴿وَلِيَذَّكَّرَ أُولُو الْأَلْبَابِ﴾

والآية تشير إلى أن هذا القرآن بلاغ لجميع الناس، كما قال تعالى: ﴿وَأَوْحَىٰ إِلَيْكَ هَٰذَا الْقُرْآنَ لِأُنذِرَكُم بِهِ وَمَن بَلَغَ﴾ [الأنعام: ١٩].

ومن لم يؤمن به فهو في النار كائنًا من كان ﴿وَمَن يَكْفُرْ بِهِ مِنَ الْأَحْزَابِ فَالنَّارُ مَوْعِدُهُ﴾ [هود: ١٧]

قال تعالى: ﴿وَهَٰذَا كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ مُّصَدِّقُ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَلِتُنذِرَ أُمَّ الْقُرَىٰ وَمَن حَوْلَهَا﴾ [الأنعام: ٩٢].

تم تفسير (سورة إبراهيم) والله الحمد والمنة.



تَفْسِيرُ سُورَةِ الْحَجَرِ (١٥)

مُقَدِّمَةُ السُّورَةِ

سورة الحجر هي السورة الخامسة عشرة في ترتيب المصحف، والرابعة والخمسون في ترتيب النزول، وهي تسع وتسعون آية باتفاق، وست مئة وأربع وخمسون كلمة، وألفان وسبع مئة وستون حرفاً.

والحجر: هي ديار ثمود (مدائن صالح) بين المدينة والشام، وقد جاء ذكر لفظ الحجر في هذه السورة؛ فسُمِّيت باسمه، ولم يُعرف لها اسم آخر.

وسورة الحجر نزلت على رسول الله في مكة المكرمة بعد سورة يوسف، وقبل سورة الأنعام في الفترة بين عام الحزن، وعام الهجرة؛ حيث تعثّر مسار الدعوة، واشتد إيذاء المشركين لرسول الله ﷺ بعد موت أبي طالب، وخديجة رضي الله عنها، فأنزل الله سبحانه هذه السورة؛ لتخفف عن رسول الله ﷺ، ولتنذر المشركين، وتبيّن مصارع المكذّبين لرسول الله، وقيل: إنها نزلت عند خروج النبي ﷺ من دار الأرقم في آخر السنة الرابعة من البعثة، وفيها آية الأمر بالجهر بالدعوة ﴿فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ﴾.

وتكشف هذه السورة أن كُفْرَ من كَفَرَ، وتكذيب من كَذَبَ ليس قدحاً في القرآن، ولا في رسول الإسلام، ولكن العناد والكبرياء في نفوس القوم هو الذي منعهم من الإيمان بمحمد ﷺ.

وهذا الكلام لا يخص أهل الشرك في زمن الرسول ﷺ فقط، بل ينسحب على المشركين والمكذّبين بخاتم المرسلين في كل زمان ومكان، وإلى أن يرث الله الأرض ومن عليها.

وهذه السورة تشبه سورة الأعراف؛ فهي تبدأ بالحديث عن القرآن، وفيها إنذار، ووعيد، وتهديد للمكذّبين لرسول الله ﷺ، وفي كل منهما -الأعراف والحجر- قصة آدم وإبليس، وفي نهايتها في هذه السورة بيان مصير أهل الضلال والغواية ﴿وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمَوْعِدُهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ لها سبعة أبواب لكل باب منهنّ جزءٌ مَقْسُومٌ ومصير أهل الهدى والرشاد

﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ﴾ عيون السلسيل والكافور والتسليم والرحيق المختوم بالمسك، ويقال لهم ﴿أَدْخُلُوهَا بِسَلَامٍ ءَامِينَ﴾ وقد نزع الله من صدورهم الغل والحقد والحسد وجعلهم إخوة متحابين، وهم مخلدون في الجنة بلا تعب ولا مرض ولا كآبة ولا نصب.

وفي السورة لمحات من قصة كل من: إبراهيم، ولوط، وشعيب، وصالح عليهم السلام، وفيها عرض لمشاهد الكون، ودلائل الوجدانية، والقدرة الإلهية: مِنَ السَّمَاوَاتِ، وما فيها من بروج، والأرض الممدودة، والرواسي الراسخة، والماء والسقيا، والحياة والموت، وحشر الخلائق أجمعين، والشمس والقمر، والرياح اللواقح.

وفي سورة الحجر خمس جولات:

١- سُئِلَ الله مع المكذبين لرسول الله [١ - ١٥].

٢- استعراض بعض آيات الله في الكون [١٦ - ٢٥].

٣- قصة البشرية [٢٦ - ٤٨].

٤- مصارع الغابرين [٤٩ - ٨٤].

٥- لم يخلق الله هذا الكون عبثاً [٨٥ - آخر السورة].

أما عن الجولة الأولى: وهي سُئِلَ الله تعالى مع المكذبين لرسوله، فتبدأ مباشرة بعد التنويه بمكانة القرآن الكريم، وفضله، وهديه؛ حيث يعقبه الإنذار والتهديد مُلَفَّعًا بظل من التهويل، والوعيد لمن أضاعوا أعمارهم سُدىً، ولم يستعدوا للمستقبل الأبدي، لقد استغرقوا في عبادة الدنيا ومُتَعِّها، وأفنوا فيها أعمارهم، حتى لكأن الآخرة -في نظرهم- وهم، وَضُرِبَ من الخيال ﴿ذَرَهُمْ يَأْكُلُوا وَيَتَمَتَّعُوا وَيُلْهِمُ الْأَمَلُ فَسَوْفَ يَعْمَلُونَ﴾.

لقد انغمسوا في شهواتهم وملذاتهم، فشغلهم هذا عن الهداية والعمل للدار الآخرة.

وتشير السورة في مطلعها إلى هلاك الأمم الذين كذبوا رسل الله، فاعترضوا طريقهم، وظنوا أن الدنيا باقية لهم ﴿وَمَا أَهْلَكْنَا مِنْ قَرْنٍ إِلَّا وَلَهَا كِتَابٌ مَعْلُومٌ﴾ مَّا تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ أَجَلَهَا وَمَا يَسْتَخِرُونَ.

الجولة الثانية: أما عن استعراض بعض آيات الله تعالى في الكون، فيأتي هذا بعد أن أخبر سبحانه أنه قد تكفل بحفظ كتابه، وصيانتته من أي تحريف، أو تبديل، وبيان أن

المكذبين لرسول الله إنما يكذبون عن عناد، وجحود:

حيث تستعرض السورة ألواناً من الأدلة على وحدانية الله تعالى، وقدرته الباهرة، وسابغ نعمه على عباده، وهو حديث شائق عن الكون، وأسراره وقواه الدالة على عظمة الخالق سبحانه.

وتبدأ هذه الأدلة بمشهد السماء، فمشهد الأرض، فمشهد الرياح اللواقح، فمشهد الحياة والموت، فمشهد الحشر والنشر، وكلها مشاهد ناطقة بعظمة الله تعالى، شاهدة بوحدانيته وقدرته، ينظر المرء إلى أعلى، فيرى شروق الأفلاك وغروبها في فضاء لا نهاية له ﴿وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا وَرَازِبِينَ لِلنَّظِيرِينَ﴾ (١٦).

وينظر إلى الأرض، وما أودع الله فيها من: الجبال، والبحار، والأنهار، والأشجار، والنبات فيرى ألواناً من نعم الله لا حصر لها ﴿وَالْأَرْضَ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ مَوْزُونٍ﴾ (١٧).

والرياح من نعم الله تعالى، تنتقل من مكان إلى مكان، فتلقح السحاب بالماء وتلقح النخيل والثمار ﴿وَأَرْسَلْنَا الرِّيحَ لَوْفِحَ لَافِحٍ فَاَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنْشَأْنَا لَكُمْ بِهِ خَلْقًا جَدِيدًا﴾ (١٨) والحياة والموت من آثار قدرة الله تعالى ﴿وَإِنَّا لَنَحْنُ نُحْيِي وَنُمِيتُ وَبَيْنَ أَلْوَارِثِينَ﴾ (١٩).

أما عن الجولة الثالثة: وهي قصة خلق آدم، وتكليف الملائكة بالسجود له، وامثالهم جميعاً لأمر الله تعالى، وامتناع إبليس وحده عن الطاعة، وما ترتب على ذلك من لغنه وطرده من الجنة، فإن هذه القصة، تشير إلى قصة الإيمان والكفر، والهدى والضلال، وعداوة إبليس لبني آدم إلى يوم القيامة.

لقد خلق الله الإنسان من طينة مثنى ﴿مِنْ صَلَافٍ مِّنْ حَمَلٍ مَّسْنُونٍ﴾ [٢٦] وعند ما يعود إلى التراب بعد رحلة العمر، يُدفن تحت التراب، لأن راحته تكون أشد إزعاجاً، وكأن الناس يتدافنون؛ حتى لا يشمئز بعضهم من بعض.

وفرة البرزخ مسكن مؤقت، أو جسر يعبر عليه الإنسان إلى مصيره الدائم!

والمخدوع: من نسي ربه، ونسي مبدأه ومعاده.

إن عناصر الجسم البشري هي عناصر التربة الأرضية، فكيف يتحول اللحم، والعظم

إلى تراب؟! ثم كيف يتحول التراب مرة أخرى إلى لحم، وعظم؟!

إن الله وحده هو الذي يحيي ويميت، ويخلق ويرزق، وقدرة الله في ذلك فوق مستوى العقل البشري!

الجولة الرابعة: أما مصارع الغابرين في السورة، فهي تقصُّ علينا كيف أهلك الله قوم لوط، وأصحاب الأيكة، وأصحاب الحجر، فتذكر الأسباب والنتائج؛ فقوم لوط لما فسقوا بالضيوف، وأرادوا فعل فاحشة اللواط بهم كانت النتيجة أن قلب الله قُراهم، فجعل عاليها سافلها، وأمطرهم بحجارة من سجيل.

وقوم ثمود عقروا الناقة، وكذبوا رسولهم، فأخذتهم الصيحة بدءًا من الفجر إلى الإشراق.

وأصحاب الأيكة كذبوا نبيهم شعيبًا، فانتقم الله منهم بأن أخذتهم الصيحة، فأصبحوا في ديارهم ميّتين كأنهم لم يكونوا فيها.

وهذه الأماكن في طُرُق الناس يمرُّون عليها في أسفارهم صباح مساء، ﴿وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِمْ مُّصْبِحِينَ﴾ (٧) ﴿وَبِالْأَيْلِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ (٨) الصافات] وهذا تفصيل لقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ فِي شَيْعِ الْأَوَّلِينَ﴾ (٩) ﴿وَمَا يَأْتِيهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾ (١٠).

الجولة الخامسة: والله تعالى لم يخلق هذا الكون عبثًا، وإنما خلقه؛ كي يتعرف الخلق على ربهم، فيعبده، ولا يشركوا به شيئًا، ويوم القيامة يحاسب الله سبحانه الخلائق، فيثيب المطيع، ويعاقب العاصي.

وعليه: فإن الكافر إذا عاش لحياته يأكل، ويتمتع، ويلهيه الأمل وطول البقاء في الدنيا، فإنه يتمنى يوم لقاء الله أن يكون قد سلك طريق الهداية في دنياه كي ينجو من العذاب الشديد في أخره، كما جاء في الآية الثانية من السورة، ﴿رُبِمَا يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ كَانُوا مُسْلِمِينَ﴾.

وعلى هذا فإن على المؤمن ألا يتطلع إلى هذا المتاع الزائل، فإن الله تعالى قد أعد له من النعيم الأخروي ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر، وقد شرفه بالوحي المنزل على رسوله ﴿لَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْهُمْ﴾ [٨٨]. لقد خص

الله المسلمين بالوحي الأخير المهيمن على الوحي السابق، ونعيمهم يوم القيامة بلا حدود، والسؤال يوم القيامة سيعم الجميع ﴿فَوَرَّيْكَ لَنَشْتَأَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ (٩٦) عَمَّا كَانُوا يَقْبَلُونَ. .

وفي نهاية السورة يأمر الله رسوله ألا يحزن لتكذيب المكذبين له، ولا يضيق صدره لجحودهم، ويستعين على ذلك بالتسبيح وكثرة السجود، والثبات على توحيد الخالق، وعبادته إلى الممات ﴿فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَكُنْ مِنَ السَّاجِدِينَ﴾ (٩٨) وَأَعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّى يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ ﴿٩٩﴾. .



تَفْسِيرُ السُّورَةِ

الْقُرْآنُ مُكَوَّنٌ مِنْ حُرُوفِ الْهَجَاءِ

١- ﴿الرَّ^(١) تِلْكَ ءَايَاتُ الْكِتَابِ وَقُرْآنٍ^(٢) مُبِينٍ ﴿١﴾﴾

تبدأ سورة الحجر بحروف الهجاء الثلاثة: الألف، واللام، والراء، وهذا كلام جديد وقت نزوله، ونحن قد ألفناه، وعند قراءته لأول وهلة يشد القارئ والمستمع، ويلفت انتباهه إلى كلام غريب، ما معنى ألف، لام، راء؟ كما قال الجن: ﴿إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا لَا يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ فَآمَنَّا بِهِ وَلَنْ نُشْرِكَ بِرَبِّنَا أَحَدًا ﴿١﴾﴾ [الجن].

لقد كان الكفار يخافون من تأثير القرآن في نفوسهم، وكان بعضهم يمنع الآخر أن يستمع إلى رسول الله ﷺ وهو يقرأ القرآن؛ حتى لا يتأثر به فيؤمن، ولذلك فإن بعض المشركين كان يختفي؛ حتى لا يراه أحد وهو يستمع إلى قراءة القرآن، ثم يلتقي بعضهم ببعض، ويؤنب كل منهم الآخر، ثم يتعاهدون على أن لا يأتوا مرة ثانية، فيأتون مرة ثانية وثالثة، ويستمعون للقرآن كل دون علم الآخرين، ويعترفون به فيما بينهم، ولكن الذي يمنعهم من الإسلام هو الكبر، والعناد، والخوف على جاههم، ولعل ذلك من فوائد افتتاح السور بحروف الهجاء، وهى في متناول الجميع: فما الذي يمنعهم من محاكاته؟

وهذا القرآن المعجز الذي عجز أرباب الفصاحة، والبلاغة عن الإتيان بمثل أقصر سورة منه، مكون من هذه الحروف التي تستعملونها، ومع هذا فقد عجزتم عن الإتيان بمثله، أو بمثل عشر سور منه، أو بمثل أقصر سورة فيه، والتحدي قائم إلى يوم الساعة.

(١) سكت أبو جعفر على حروف الهجاء الثلاثة (الر) سكتة يسيرة بدون تنفس على أن كل حرف منها مستقل عن الآخر.

(٢) قرأ ابن كثير بنقل حركة الهمزة من (قرآن) إلى الراء، ومثله حمزة عند الوقف.

والوحي المنزل من عند الله تعالى باعتباره وحياً يُتلى، وكلاماً يُقرأ يُسمى قرآناً متلوّاً، وباعتباره كلاماً مسطوراً ومكتوباً فهو كتاب.

وهذا القرآن مُوضَّح للحقائق بأحسن لفظ، وأوضح عبارة تدل على المقصود. والكتاب، والقرآن علّمان على هذا المصحف، جمع الله له بين الاسمين. وهو الكتاب الكامل في الفصاحة والبيان، المتعالي عن طاقة البشر، الذي لا خلل فيه، ولا اضطراب.

ولفظ القرآن أرسخ في التعريف به من الكتاب؛ لأنه العَلَمُ الأصلي، سواء أكان نكرة، أم معرفة؛ وقُدِّم الكتاب على القرآن؛ لأن سياق الآيات في توبيخ الكافرين، وتهديدهم بأنه سيأتي وقت يتمنون فيه لو كانوا مؤمنين، وهو مناسب لقولهم: ﴿لَوْ أَنَّا أُنزِلَ عَلَيْنَا الْكِتَابُ لَكُنَّا أَهْدَىٰ مِنْهُمْ﴾ [الأنعام: ١٥٧].

وهذا الكتاب يشتمل على الآيات الدالة على أحسن المعاني وأفضل المطالب، وهو قرآن يُبين الحقائق بأحسن لفظ وأوضحه، وهذا يوجب الإيمان به والانقياد له، والتسليم لحُكْمه، وتلقّيه بالقبول والفرح والسرور، أما من قابل هذه النعمة بالكفر والتكذيب، فإنه سيأتي عليه يوم يتمنى أن لو كان مسلماً منقاداً لحكم الله وأمره.

الْوَقْتُ الَّذِي يَتَمَنَّى فِيهِ الْكَافِرُ لَوْ كَانَ مُسْلِمًا

٢- ﴿رَبِّمَا﴾^(١) يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ كَانُوا مُسْلِمِينَ ﴿٢﴾

ثم يبيّن الله سبحانه أنه بوسع الجميع أن يؤمنوا بهذا القرآن، ويدخلوا في الإسلام قبل أن يأتي وقت يندمون فيه على عدم الإيمان بخاتم الرسل ﷺ، ويتمنون أن لو كانوا قد أسلموا وآمنوا به وهم في الدنيا، فيبيّن سبحانه أن الكفار حين يرون عُصاة المؤمنين يخرجون من النار، يتمنون لو كانوا موحدين مؤمنين بآخر رسالة، ولم يكونوا كافرين بالله ورسوله، وذلك بعد قوات الأوان وانتهاء وقت العمل.

و (رُبَّ) للتحقيق، ولم تُذكر في القرآن إلا في هذا الموضع، وهي في اللغة تعطي معنى

(١) قرأ نافع وعاصم وأبو جعفر بتخفيف الباء من (ربّما)، والباقون بتشديدها، وهما لغتان.

القلة، وقد تكون للكثير، والقرآن الكريم يبين أن الكفار سيأتي عليهم وقت قريب يندمون فيه على كفرهم، ويتمنون أن لو كانوا في دنياهم مسلمين، ولم يكونوا كفارًا.

وهذا التمني يكون في كل موطن يرى فيه الكافر أنه على باطل، فيتمنى أن يكون مسلمًا، وهذا يحدث في الدنيا والآخرة:

وذلك وقت خروج الروح عند الموت؛ فسكرات الموت تختلف بين المؤمن والكافر، ويظهر حُسن الخاتمة وسوء الخاتمة عند النزاع؛ لخروج الروح.

حينئذ يتمنى الكافر لو كان مسلمًا، وذلك في وقت لا يُسَمِّن فيه الندم، ولا يغني من جوع، بل يكون حسرة وألمًا على صاحبه.

قال تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَىٰ إِذِ الظَّالِمُونَ فِي غَمَرَاتِ الْمَوْتِ وَالْمَلَائِكَةُ بَاسِطُوا أَيْدِيهِمْ بِالْعَذَابِ يَقُولُونَ لَهُمْ: ﴿٩٩﴾ أَخْرِجُوا أَنْفُسَكُمُ﴾ مما أنتم فيه ﴿الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ بِمَا كُنْتُمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ وَكُنْتُمْ عَنْ آيَاتِهِ تَسْتَكْبِرُونَ﴾ [الأنعام: ٩٣].

وقال سبحانه: ﴿فَكَيْفَ إِذَا تَوَفَّيْتُهُمُ الْمَلَائِكَةُ بَضْرِيُوتَ وُجُوهِهُمْ وَأَدْبَرَهُمْ﴾ ﴿١٧﴾ [محمد].
وحينئذ يتمنى الكافر أن لو كان مسلمًا، كما قال تعالى: ﴿حَقَّ إِذَا جَاءَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ارْجِعُونِ﴾ ﴿٩٩﴾ لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحًا فِيمَا تَرَكْتُ، فيقول تعالى: ﴿كَلَّا إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَائِلُهَا وَمِنْ وَرَائِهِمْ بَرْزَخٌ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾ [المؤمنون].

وقال سبحانه: ﴿وَأَنْفِقُوا مِنْ مَا رَزَقْنَاكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ الْمَوْتُ فَيَقُولَ رَبِّ لَوْلَا أَخَّرْتَنِي إِلَىٰ أَجَلٍ قَرِيبٍ فَأَصَّدَّقَ وَأَكُنْ مِنَ الصَّالِحِينَ﴾ ﴿١٠﴾ [المنافقون]

قال ابن مسعود رضي الله عنه: ودَّ كفار قريش لو كانوا مسلمين يوم بدر، حين رأوا نصر الله للمسلمين.

فهذه المواطن وأشباهاها يتمنى فيها الكافر العودة إلى الدنيا؛ ليتدارك ما فاتته.

ففي يوم القيامة يتمنى الكافر لو كان مسلمًا، وذلك في أربعة مواطن:

(أ) الموطن الأول في يوم القيامة حين يقف الكافر على النار ويراها، فيتمنى لو كان مسلمًا، كما قال تعالى: ﴿وَبُرَزَتِ الْجَحِيمُ لِمَنْ بَرَى﴾ [النازعات].

وقال جلّ شأنه: ﴿وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ وَقَفُوا عَلَى النَّارِ فَقَالُوا يَالَيْتَنَا نُرَدُّ وَلَا نَكْذِبُ بِآيَاتِ رَبِّنَا وَنَكُونُ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الأنعام] أي: ليتنا نعود مرة ثانية إلى الدنيا، ونتدارك ما فاتنا.

وحين يعرض على ربه قال سبحانه: ﴿وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ وَقَفُوا عَلَىٰ رَبِّهِمْ قَالَ أَلَيْسَ هَذَا بِالْحَقِّ قَالُوا بَلَىٰ وَرَبِّنَا قَالَ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ﴾ [الأنعام] حيثذ يتمنى الكافر أن لو كان مسلمًا.

وقال تعالى: ﴿وَيَوْمَ يَخُصُّ الظَّالِمُ عَلَىٰ يَدَيْهِ يَقُولُ يَلَيْتَنِي أَخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَبِيلًا﴾ [الفرقان].

وقال أيضًا: ﴿حَقِّقْ إِذَا جَاءَتْهُمْ السَّاعَةُ بَقْتَهُ قَالُوا يَحْزَنُنَا عَلَىٰ مَا فَرَطْنَا فِيهَا﴾ [الأنعام: ٣١].

(ب) ويكون الموطن الثاني الذي يتمنى فيه الكافر لو كان مسلمًا: حين يأمر الله تعالى بإخراج الموحدين -الذين ماتوا على غير الشرك- من النار إلى الجنة بعد أن يأخذوا أجزاءهم على معاصيهم، حيثذ يندم الكافر، ويتمنى أن لو كان مسلمًا، ويخرج من النار كعصاة المؤمنين.

عن أبي موسى الأشعري ؓ أن رسول الله ﷺ قال: «إذا اجتمع أهل النار في النار، ومعهم من شاء الله من أهل القبلة، قال الكفار للمسلمين: ألم تكونوا مسلمين؟ قالوا: بلى، قالوا: فما أغنى عنكم الإسلام، فقد صرتم معنا في النار؟ قالوا: كانت لنا ذنوب فأخذنا بها، فسمع الله ما قالوا: فأمر بمن كان في النار من أهل القبلة فأخرجوا، فلما رأى ذلك مَنْ بقي من الكفار قالوا: يا ليتنا كنا مسلمين، فنخرج كما خرجوا»، قال: ثم قرأ رسول الله ﷺ أعوذ بالله من الشيطان الرجيم: ﴿الرَّ تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ وَقُرْآنٍ مُبِينٍ ۝ رُبِمَا يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ كَانُوا مُسْلِمِينَ﴾ (٢) (١).

(١) رواه الطبراني (٢/١٤) كما قال الهيثمي أيضًا في «مجمع الزوائد» (٤٥/٧) ورواه ابن أبي عاصم في «السنّة» برقم (٨٤٣) والحاكم في «المستدرک» (٢/٢٤٢) عن أبي الشعثاء، وقال الحاكم: صحيح الإسناد ولم يخرجاه، ووافقه الذهبي، ورواه ابن أبي حاتم، وزاد فيه (بسم الله الرحمن الرحيم) عوضًا عن الاستعاذة، قلت: وهو أصح؛ لأن البسملة لا بد منها في أول السورة وفيه خالد بن نافع الأشعري متكلم فيه، وبقية رجاله ثقات، وقال الألباني في «ظلال الجنة» عقب حديث (٨٤٤): حديث صحيح رجاله ثقات، رجال مسلم، غير خالد بن نافع وفيه ضعف، وأخرجه البيهقي في البعث والنشور (٨٥).

(ج) والموطن الثالث الذي يندم الكافر فيه يوم القيامة، حين يرى أن قومًا من المسلمين قد خرجوا من النار بعد أن عوقبوا فيها بمقدار ذنوبهم بمقتضى الشفاعة لهم، فيتمنون في هذا الموقف أيضًا لو كانوا مسلمين.

أخرج الطبراني وغيره بسنده أن أبا سعيد الخدري رضي الله عنه سمع رسول الله ﷺ يقول في هذه الآية ﴿ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُوا لَوْ كَانُوا مُسْلِمِينَ﴾: «يُخْرِجُ اللَّهُ أَنَسًا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ مِنَ النَّارِ، بَعْدَمَا يَأْخُذُ نَقْمَتَهُ مِنْهُمْ قَالَ: لَمَّا أَدْخَلَهُمُ اللَّهُ النَّارَ مَعَ الْمُشْرِكِينَ، قَالَ لَهُمُ الْمُشْرِكُونَ: أَلَيْسَ كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ أَنْكُمْ أَوْلِيَاءُ اللَّهِ فِي الدُّنْيَا، فَمَا بِالْكُمْ مَعَنَا فِي النَّارِ؟ فَإِذَا سَمِعَ اللَّهُ ذَلِكَ مِنْهُمْ أَذِنَ فِي الشَّفَاعَةِ لَهُمْ، فَتَشَفَّعَ الْمَلَائِكَةُ وَالنَّبِيُّونَ، وَشَفَعَ الْمُؤْمِنُونَ، حَتَّى يُخْرِجُوا بِإِذْنِ اللَّهِ، فَإِذَا رَأَى الْمُشْرِكُونَ ذَلِكَ قَالُوا: يَا لَيْتَنَا كُنَّا مِثْلَهُمْ فَتَدْرَكُنَا الشَّفَاعَةَ، فَتُخْرِجُ مَعَهُمْ، قَالَ: فَذَلِكَ قَوْلُ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُوا لَوْ كَانُوا مُسْلِمِينَ﴾ ﴿٢﴾ فَيُسَمُّونَ فِي الْجَنَّةِ الْجَهَنَّمِيِّينَ؛ مِنْ أَجْلِ سَوَادٍ فِي وُجُوهِهِمْ، فَيَقُولُونَ: يَا رَبِّ، أَذْهَبْنَا عَنْ هَذَا الْأَسْمِ، فَيَأْمُرُهُمْ فَيَغْتَسِلُونَ فِي نَهْرِ الْجَنَّةِ، فَيَذْهَبُ ذَلِكَ الْأَسْمُ عَنْهُمْ»^(١).

وفي الآية تثبيت المؤمنين، وتبشير لهم أنهم على حق، وفيها حث للكافرين على الدخول في الإسلام قبل فوات الأوان، وتحذير لهم من سوء عاقبة الكفر.

(د) والموطن الرابع من مواطن يوم القيامة الذي يتمنى فيه الكافر لو كان مسلمًا، أنه لا يزال الله تعالى يشفع، ويرحم حتى يدخل الجنة كل من كان مسلمًا، وعندئذ يتمنى الكافر لو كان مسلمًا. قال تعالى:

وأقوال العلماء في هذه الآية راجعة إلى شيء واحد؛ لأن منهم من يقول: إن الكافر إذا احتضر تمنى أن لو كان مسلمًا، ومنهم من يقول: إنه إذا عاين النار تمنى أن لو كان

(١) ورواه ابن حبان في صحيحه برقم (٢٥٩٩) «موارد الظمان إلى زوائد ابن حبان» من طريق عمر بن محمد بن أباد عن أبي أسامة نحوه وهو في «الإحسان» برقم (٧٤٣٢) قال محققه: حديث صحيح، وله شواهد عدة، منها حديث جابر في النسائي برقم (٢٩١) كتاب التفسير، وصحح السيوطي إسناده في «الدر المنثور» (٤/ ٩٢) وحسن إسناده محقق النسائي، وعزاه الهيثمي للطبراني في «الأوسط» وقال: رجاله رجال الصحيح غير بسام الصيرفي وهو ثقة «مجمع البحرين» (٤٨٢٠) ورقمه في الطبراني (٨١١٠) وصحح إسناده الألباني في «ظلال الجنة» برقم (٨٨٤).

مسلمًا، وغير ذلك من المواقف كلها راجعة إلى أن الكفار إذا عاينوا الحقيقة، وانكشف لهم أنهم على باطل ندموا على كفرهم، وتمنّوا لو كانوا مسلمين. قال تعالى:

٣- ﴿ذَرَّهُمْ يَأْكُلُوا وَيَتَمَتَّعُوا وَيُلْهِمُ^(١) الْأَمَلَ فَسَوْفَ يَعْمَلُونَ ﴿٣﴾﴾

ثم بيّن سبحانه أن حياة الكفار: أكل، وشرب، وانغماس في الشهوات والملذات، واشتغال بالدنيا، وانصراف عن طاعة الله ﷻ، ولا جدوى من الحرص على هدايتهم.

فلا لوم عليك -يا محمد- في تركهم بعد أن حذرتهم، وأذرتهم، وليس عليك شيء من أمرهم يا رسول الله، فلا تهتم بهم، وسوف يرون عاقبة أمرهم خسرانًا في الدنيا والآخرة، وهذه جملة من الآيات توضح هذا المعنى:

١- قال تعالى: ﴿وَذَرِ الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَهُمْ لَعِبًا وَلَهْوًا وَعَرَّتَهُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا﴾ [الأنعام: ٧٠].

٢- وقال سبحانه: ﴿فَذَرَّهُمْ يُخَوِّضُوا وَيَلْعَبُوا حَتَّى يُلَاقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِي يُوعَدُونَ ﴿٨٧﴾﴾ [المعارج].

٣- وقال جلّ شأنه: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا يَتَمَتَّعُونَ وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ الْأَنْعَامُ وَالنَّارُ مَثْوًى لَّهُمْ﴾ [محمد: ١٢].

٤- وقال تعالى: ﴿قُلْ تَمَتَّعْ بِكُفْرِكَ قَلِيلًا إِنَّكَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ﴾ [الزمر: ٨].

٥- وقال أيضًا: ﴿مَتَّعٌ قَلِيلٌ ثُمَّ مَا لَهُمْ جَهَنَّمَ وَيَتَسَّ الْمِهَادُ ﴿١٧٧﴾﴾ [آل عمران].

٦- وقال سبحانه: ﴿كُلُوا وَتَمَتَّعُوا قَلِيلًا إِنَّكُمْ تُجْرِمُونَ ﴿٤١﴾﴾ [المرسلات].

٧- وقال أيضًا: ﴿فَذَرَّهُمْ حَتَّى يُلَاقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِي فِيهِ يُصْعَقُونَ ﴿٤٥﴾﴾ [الطور: ٤٥].

والأمل هو حب الدنيا، والركون إليها، والحرص عليها كثيرًا.

يقول عليّ بن أبي طالب ﷺ: إنما أخشى عليكم اثنين: طول الأمل، واتباع الهوى.

فإن طول الأمل يُنسي الآخرة، واتباع الهوى يصد عن الحق، ويجعل الإنسان حريصًا على الدنيا وحبها، والعمل من أجلها مع الركون إليها، وعدم الرغبة فيما عند الله تعالى.

(١) قرأ أبو عمرو وروح ورويس بخلف عنه بكسر الهاء والميم وصلًا من (يلهيم الأمل)، وقرأ حمزة والكسائي وخلف العاشر ورويس في وجهه الثاني بضم الهاء والميم، وقرأ الباقر بكسر الهاء وضم الميم، وعند الوقف لجميع القراء يكسرون الهاء ويسكنون الميم، إلا رويسًا فإنه يضم الهاء ويسكن الميم بخلف عنه، والوجه الثاني كبقية القراء.

وقد ذمَّ الله سبحانه الذين أدخلوا إلى الدنيا، وانغمسوا فيها، واستمتعوا بكل طيباتها في قوله: ﴿يَوْمَ يُعْرَضُ الَّذِينَ كَفَرُوا عَلَى النَّارِ أَدْهَبْتُمْ طَيِّبَتِكُمْ فِي حَيَاتِكُمُ الدُّنْيَا وَاسْتَمْتَعْتُمْ بِهَا فَالْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ بِمَا كُنْتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَمَا كُنْتُمْ تَفْسُقُونَ﴾ [الأحقاف].

فالدنيا سجن المؤمن، وجنة الكافر.

وفي هذه الآية تهديد لمن لم يؤمن برسالة محمد ﷺ؛ حيث يأمر الله تعالى نبيه ﷺ أن يترك الكفار يأكلون، ويتمتعون فسوف يعلمون حقيقة ما يؤول إليه الأمر من شدة تعذيبهم، وإهانتهم، كما جاء في الآيات سالفه الذكر.

أخرج البخاري عن عبد الله بن مسعود ؓ قال: خطَّ النبي ﷺ خطًّا مُرَبَّعًا، وخطَّ خطًّا في الوسط خارجًا منه، وخطَّ خُطَطًا صَغَارًا إلى هذا الذي في الوسط، وقال: «هذا الإنسان، وهذا أجله محيط به، وهذا الذي هو خارج أمله، وهذه الخُطَط الصغار الأعراض، فإن أخطأه هذا نهشه هذا، وإن أخطأه هذا نهشه هذا»^(١).

إِشَارَةٌ مُجْمَلَةٌ إِلَى هَلَاكِ الْأُمَمِ الَّتِي كَذَّبَتْ رُسُلَ اللَّهِ

٤، ٥ - ﴿وَمَا أَهْلَكْنَا مِنْ قَرَبَةٍ إِلَّا وَلَهَا كِتَابٌ مَعْلُومٌ﴾ [٤] مَا تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ أَجَلَهَا وَمَا يَسْتَعِزُّونَ

تشير هذه الآية إلى ما فصلته السورة من إبادة قوم لوط، وأصحاب الأيكة، وأصحاب الجِجْر، وتشير أيضًا إلى أن الله تعالى لا يهلك قومًا إِلَّا بعد أن ينذرهم، ويحذرهم، ويقيم الحجة عليهم، ويأتي أجلهم المحدد لإبادتهم؛ فهلاك الأمم الظالمة موقوت بوقت محدد في علم الله تعالى، وشأن الله فيهم ماضية لا تتخلف.

قال تعالى: ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِرُونَ﴾ [٣٤]. [الأعراف: ٣٤].

والأمة التي أهلكها الله تعالى لا تعود إلى الدنيا مرة ثانية أبدًا كما قال تعالى: ﴿وَحَرَّمْ عَلَى قَرَبَةٍ أَهْلَكْنَاهَا أَنَّهُمْ لَا يَرْجِعُونَ﴾ [٩٥] [الأنبياء].

(١) «صحيح البخاري» برقم (٦٤١٧) وقد رسم ابن حجر في «فتح الباري» (٢٣٧/١١) هذا المربع، وفيه نقطة بداخله يخرج منها خط وفيه بضع خطوط، إشارة إلى الأمل والأعراض التي تعرض للإنسان.

وهكذا ذكّرهم الله سبحانه بسنته في خلقه من إمهال الظالمين؛ لئلا يغتروا بما هم فيه من التمتع بالدنيا، فيظنوا أنهم على شيء، أو يظنوا أنهم في منجى من عذاب الله تعالى، أو أن لهم أجلاً محدداً بعذابهم كالأمم السابقة التي حق عليها الهلاك.

وفي هذا تسلية لرسول الله ﷺ؛ حتى يصبر على تكذيب قومه له، وفيه بيان أن سنة الله تعالى ماضية في جميع الأمم، على القرى التي أهلكتها وأبادهها بعد أن أقام عليها الحجة، وأن ذلك كان في أجل محدد.

فطلب الآيات الخارقة من رسول الله ﷺ، واستعجال نزول العذاب لا يفيد شيئاً.

والله سبحانه يهلك الأمم التي كذبت رسل الله ممن علم الله تعالى أنهم لن يؤمنوا، وليس في أصلاّبهم من يوحد الله ﷻ، وليس فيهم خير، ولا يرجى منهم إيمان؛ كقوم نوح، وقوم عاد، وقوم ثمود، وقوم لوط، وقوم شعيب.

ولا تتجاوز أمة من الأمم أجلها، بالموت أو بنزول العذاب، فتزيد عليه، أو تنقص منه، فإذا حان أجلها، وجاء وقت هلاكها، فلا تُعَدَّم قبل حلول الأجل، ولا تزيد عليه.

وإمهال الظالمين لا يعني ترك عقابهم، إنما هو رحمة من الله لهم؛ لعلهم يثوبون إلى رشدهم، ويسلكون الطريق القويم، فإذا لجأوا في طغيانهم حق عليهم عقاب الله، إن الإساءة يستقبل الأخطاء، فإذا طفح بدأ العقاب.

الْعُنْصُرُ الْأَوَّلُ: مِنْ عَنَاصِرِ الْقُرْآنِ الْمَكِّيِّ فِي السُّورَةِ

عُنْصُرُ النُّبُوَّةِ وَالرِّسَالَةِ

٦، ٧- ﴿وَقَالُوا يَتَّبِعُنَا الَّذِي نَزَلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ ﴿٦﴾ لَوْ مَا تَأْتِينَا بِالْمَلَكِ إِنَّكَ لَمَكِينٌ ﴿٧﴾﴾

قال المكذبون على وجه الاستهزاء، والتهكم برسول الله ﷺ: يا أيها الذي نزل عليه القرآن بزعمه ودعواه، إنك حقاً لمجنون تتكلم بكلام المجانين، إن كنت تظن أنا ستبعلك ونترك ما وجدنا عليه آباءنا لمجرد قولك.

وكان النبي ﷺ عندما ينزل عليه الوحي تصيبه رعدة أو رعشة، من شدة الوحي، فظنوا

ذلك جنونا، فوصفوه بالجنون؛ وقالوا هذا كلام لا يصدر عن عاقل؛ لأنه مخالف للواقع في زعمهم.

والذكر هو الاسم الثالث للقرآن، وفي الآية الأولى من السورة اسم الكتاب والقرآن، وسُمِّيَ ذكراً؛ لأنه يُتلى، ويكرر، ويعاد، وفيه التذكير بالله واليوم الآخر، ولأنه شرف هذه الأمة، كما قال تعالى: ﴿وَإِنَّمَا لَذِكْرُ لَكَ وَلِقَوْمِكَ﴾ [الزخرف: ٤٤]، وقال سبحانه: ﴿وَهَذَا ذِكْرُ مُبَارَكٍ أَنْزَلْنَاهُ أَفَأَنْتُمْ لَمْ تُنْكِرُوا﴾ (٥٠) [الأنبياء].

وقال: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْآنٌ مُبِينٌ﴾ [يس: ٦٩].

وقد أراد المشركون التهمك بالنبي ﷺ، فأنطقهم الله بالحق صراحةً لألستهم عن شتمه ﷺ، فقالوا الحقيقة: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِي نَزَلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ﴾ وفي هذا تعظيم له ﷺ بلفظ ﴿يَتَأْتِيهَا﴾، وقد أنزل الله عليه الذكر في الواقع، ولكنهم لم يقصدوا هذا المعنى في الحقيقة، إنما أرادوا الاستهزاء؛ بقرينة ﴿إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ﴾ كما كانت أم جميل حمالة الحطب حين تريد هجاء النبي ﷺ فلا تقول محمداً، وإنما تقول: (مذمماً).

ولذا فإن النبي ﷺ قال لعائشة ؓ: «ألم تَرَيَ كيف صرف الله عني أذى المشركين وسبهم؟! يسبون مذمماً، وأنا محمد».

ثم استمروا في تكذيبهم للرسول ﷺ بعد وصفهم له بذهاب العقل والهديان، فطلبوا منه إن كان صادقاً في دعواه النبوة فليأت بعدد من الملائكة يشهدون له أنه مرسل من عند الله، فقالوا: هلاً تأتينا بالملائكة يشهدون بصدقك؟

قال مقاتل: نزلت الآيتان في عبد الله بن أمية، والنضر بن الحارث، ونوفل بن خويلد، والوليد بن المغيرة، وقد جاء طلبهم هذا في مناسبات عدة ذكرها القرآن الكريم، منها: قوله تعالى حكاية عنهم: ﴿وَقَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ﴾ إلى قوله: ﴿مَلَكًا رَسُولًا﴾ [الإسراء: ٩٠-٩٥] فطلبوا منه ﷺ عدة آيات خارقة، منها نزول الملائكة.

وفي آيات أخر

قوله تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْنَا الْمَلٰٓئِكَةُ أَوْ نَرَىٰ رَبَّنَا﴾ [الفرقان: ٢١].

وقوله: ﴿لَوْلَا أُنْزِلَ إِلَيْنَا مَلَكٌ فَيَكُونُ مَعَهُ نَذِيرًا﴾ [الفرقان: ٧].

وقوله أيضًا: ﴿فَلَوْلَا أُلْقِيَ عَلَيْهِ أَسْوِرَةٌ مِّنْ ذَهَبٍ أَوْ جَاءَ مَعَهُ الْمَلَأِكَةُ مُقْتَرِنِينَ﴾ [الزخرف].
 ويصح أن يكون معنى الآية: هَلَّا أُنزِلَتْ علينا الملائكة؛ لتنزل علينا بالعقاب من الله
 الذي وعدنا به، فإذا لم تأت بهم فليست من الصادقين. قال تعالى:

٨- ﴿مَا نُزِّلُ^(١) الْمَلَأِكَةَ إِلَّا بِالْحَقِّ وَمَا كَانُوا إِذَا مُنْظَرِينَ﴾

قال سبحانه مجيباً لهم: إن الملائكة لا تنزل لمجرد اقتراح الناس، ولكنها تنزل بالوحي
 وبالرسالة،

وتنزل بالعذاب؛ لإهلاك الذين ظلموا أنفسهم ولم يمهلوا لعدم إيمانهم.
 وتنزل بالحكمة، والشرائع، والوحي بمقتضى مشيئة الله ﷻ.

ولو أن الله سبحانه استجاب لطلب المشركين، وأنزل عليهم الملائكة ولم يؤمنوا
 لأبادهم واستأصلهم، كما فعل بالأمم السابقة، ولم يمهلوا، أو يُنظروا، فيكون نزول
 العذاب تعجيلاً لأنفسهم بالهلاك.

ولكن الله تعالى لم يُرد هذا المصير لهذه الأمة؛ لأن في أصلاب الرجال منهم: الكافر
 والمؤمن، ورسولها آخر الرسل، وكتابتها آخر الكتب، وقد أراد الله لهذه الأمة البقاء، ولو
 أنزل الله ملائكة إلى البشر لُرُفعت الملائكة إلى السماء؛ لأن البشر لا يمكنهم التعامل مع
 الملائكة.

ولذا: فإن جبريل ﷺ كان ينزل على النبي ﷺ في صورة رجل، ولما نزل جبريل عليه
 في صورته الحقيقية رجع إلى زوجته خديجة ﷺ يرجف فؤاده كأن به حُمى، وهو يقول:
 «زملوني»، أو «دثروني»، ولم يره على صورته الحقيقية إلا مرة ثانية ليلة الإسراء
 والمعراج، قال تعالى: ﴿قُلْ لَوْ كُنْتُ فِي الْأَرْضِ مَلَكًا يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِمْ مِنَ
 السَّمَاءِ مَلَكًا رَسُولًا﴾ [الإسراء].

وقال تعالى: ﴿وَلَوْ جَعَلْنَاهُ مَلَكًا لَّجَعَلْنَاهُ رَجُلًا وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِمْ مَا يَلْبِسُونَ﴾ [٩]
 [الأنعام: ٩]. فالطبيعة مختلفة، والبشر لا يقوى على رؤية الملك.

(١) قرأ شعبة بضم التاء وفتح النون والزاي من (ما تنزل) مبنياً للمفعول، وقرأ حفص وحزمة والكسائي
 وخلف العاشر بنونين، الأولى مضمومة، والثانية مفتوحة وكسر الزاي، مبنياً للفاعل، وقرأ الباقر بفتح
 التاء والنون والزاي مشددة، على أن الأصل تنزل، فحذفت إحدى التاءين تخفيفاً، مبنياً للفاعل، مسنداً
 إلى الملائكة.

تَعَهُدُ مِنَ اللَّهِ تَعَالَى بِحِفْظِ كِتَابِهِ مِنَ التَّحْرِيفِ وَالتَّبْدِيلِ

٩- ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُمُ لَحَافِظُونَ ﴿٩﴾﴾

وفي ظلال استهزاء المشركين برسول الله ﷺ، واتهامه بالجنون، وتكذيبهم للوحي المنزل عليه يبين الله سبحانه أن أمر هذا الدين سيتم، وأن هذا القرآن سيبقى على مر الأزمان، ولن يتطرق إليه شيء من الزيادة أو النقصان، أو التحريف، أو التغيير، أو التبديل، كما جرى لغيره من الكتب؛ لأن الذي أنزله هو الذي تولى حفظه بنفسه، وقد حفظ الله كتابه من التحريف حال نزوله، فلم يصل إليه مسترقوا السمع من شياطين الجن، وقد حفظه بعد نزوله، فأودعه في صدور ملايين البشر، وكتبوه في ملايين المصاحف، وكما حفظ الله ألفاظه فسلم من التغيير حفظ معانيه من التحريف فقيض له من يبين الحق من الباطل.

وهو معجزة دالة على صدق محمد ﷺ، ولو كان من قول البشر لوجدوا فيه اختلافاً كثيراً ﴿أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ أَلَمْ يَكُنْ لَهُ الْكُتُبُ الْأُولَىٰ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا عَلِيمِينَ﴾ [النساء].

وقد تكفل الله تعالى بجمعه في صدر الرسول ﷺ، فقال تعالى: ﴿إِنَّا عَلَيْنَا جَمْعُهُ وَقُرْآنُهُ﴾ [القيامة].

وليس في مقدور البشر معارضته ولا تحريفه ولا تصحيفه ﴿وَإِنَّمَا لِكِتَابِ عَزِيزٍ ﴿١١﴾ لَا يَأْتِيهِ الْبُطْلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ﴿٤٢﴾﴾ [فصلت].

وقد كان جبريل عليه السلام ينزل بالوحي على محمد ﷺ، فيحيط بهذا الوحي المنزل، حَفَظَهُ له، من بين يديه ومن خلفه، يرصدونه؛ حتى لا تقربه الشياطين، فتزيد فيه أو تنقص.

قال تعالى: ﴿عَلِمَ الْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِ أَحَدًا ﴿٢١﴾ إِلَّا مَنِ ارْتَضَىٰ مِنْ رَسُولٍ فَإِنَّهُ يَسْلُكُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ رَصَدًا ﴿٢٢﴾ لِيَعْلَمَ أَن قَدِ ابْلَغُوا رِسَالَاتِ رَبِّهِمْ وَأَحَاطَ بِمَا لَدَيْهِمْ وَأَحْصَىٰ كُلَّ شَيْءٍ عَدَدًا ﴿٢٣﴾﴾ [الجن].

لقد حفظ الله كتابه، وصانه من أي تحريف وتغيير في مختلف الأزمنة والأمكنة، حتى في لحظات الضعف، عندما عجز المسلمون عن حفظ أنفسهم، وأموالهم، وأعراضهم. ومن أسباب هذا الحفظ، أن قَيَّضَ الله له، عبر القرون الطويلة، من أبناء هذه الأمة، مَنْ حَفَظَهُ عن ظهر قلب، بما يزيد عن عدد التواتر في كل عصر ومصر.

قال تعالى: ﴿لَا تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ ۚ إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ ﴿٧﴾ فَإِذَا قَرَأْتَهُ فَاسْتَمِعْ ۚ قُرْآنَهُ﴾ ﴿٨﴾ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ ﴿٩﴾﴾ [القيامة].

ومن أسباب حفظ القرآن، أن قيَّض الله له من يجمعه من القطع الصغيرة المتناثرة؛ كالْعُسْب، واللِّخَاف، والجلد، وجريد النخل، والحجارة، فجمع القرآن بين دفتي المصحف، في أحجام مختلفة، وصار بأيدي المسلمين في المشارق، والمغرب.

فصار القرآن محفوظاً في الصدور من ملايين البشر، ومكتوباً في السطور في ملايين المصاحف. وفي هذا دليل قاطع على أن هناك قوة خارقة فوق طاقة البشر تولَّت حفظ القرآن، ولا يماري في ذلك إلا جاحد جهول.

سئل القاضي إسماعيل البصري قاضي بغداد (٣٠٠ - ٣٨٢ هـ) عن السر في تطرق التغيير للكتب السابقة، وسلامة القرآن من ذلك، فأجاب: إن الله تعالى أوكل للأخبار حفظ كتبهم، فقال: ﴿يَمَا اسْتَحْفِظُوا مِنْ كِتَابِ اللَّهِ﴾، وتولى حفظ القرآن بذاته، فقال: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ ﴿٩﴾^(١).

وذكر يحيى بن أكثم أن رجلاً يهودياً أسلم في زمن المأمون، وحكى قصته إلى سفيان بن عيينة، فقال سفيان: قال الله في التوراة والإنجيل: ﴿يَمَا اسْتَحْفِظُوا مِنْ كِتَابِ اللَّهِ﴾ فجعل حفظه إليهم فضاع.

وقال ﷺ: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ ﴿٩﴾ فحفظه الله تعالى علينا فلم يضع^(٢). فالتوراة والإنجيل وكل الله حفظهما إلى الأخبار والرهبان، ولم يتولَّ بنفسه حفظهما، قال تعالى: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَا التَّوْرَةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ يَحْكُمُ بِهَا النَّبِيُّونَ الَّذِينَ أَسْلَمُوا لِلَّذِينَ هَادُوا وَالرَّبَّانِيُّونَ وَالْأَحْبَارُ يَمَا اسْتَحْفِظُوا مِنْ كِتَابِ اللَّهِ﴾ [المائدة: ٤٤]

أي: أن الله تعالى استحفظ الربانيين، والأخبار على التوراة، والإنجيل. والسبب في ذلك أن التوراة لها وقت معين تنتهي فيه بانتهاء رسالة سيدنا موسى ﷺ،

(١)، (٢) «تفسير التحرير والتنوير» (٢١/١٤).

والإنجيل ينتهي بانتهاؤ رسالة سيدنا عيسى عليه السلام، والقرآن يبقى إلى يوم القيامة، ورسوله آخر الرسل، والقرآن حجة على الخلق أجمعين إلى يوم القيامة، وهو معجز في ألفاظه ومعانيه، وقد تعبّدنا الله سبحانه بهما معاً، وصانه جلّ شأنه من التبديل، والتحريف، والنقص، والزيادة.

وحفظه أيضاً من المعارضة؛ فليس في إمكان أحد من البشر أن يعارض القرآن، فيأتي بمثل أقصر سورة منه.

وليس في إمكان أحد من البشر أن يُفسد أو يبطل، ما في القرآن من إعجاز وحقائق ماضية أو قادمة، فالله سبحانه أودعه هذا السر، وصانه من التحريف.

وحينما يحدث خطأ إعرابي أو ترقيق مفخم أو قصر ممدود أو إظهار مدغم -ولو لم يغير المعنى- من قارئ يبدل حرفاً بحرف، أو حركة بحركة، ونحو ذلك، فإن حُفَظَ كتاب الله بالملايين في أرجاء المعمورة يصحّونه، ويصوّبونه.

ولو أن مصحفاً وقع فيه تغيير حرف واحد، أو حركة واحدة: بزيادة، أو نقص، أو في علامات الضبط في المصحف، أو من أخطاء الطباعة، فإن آلاف الحفّاظ يهرعون لتصويبه. وأذكر أن من طلابي من سألني عن: السبب في زيادة مساحة حرف النون في ختام آية من آيات الصفحة الثانية من سورة البقرة، عنه في ختام آية أخرى في الصفحة نفسها، فهو مرسوم هكذا في بعض الآيات (ن)، وهكذا في بعضها (ت) وهو يظن أن هناك حكماً تجويدياً مغايراً، ولم يذُرْ بخلده أن الخطاط أراد أن يكمل السطر فزاد شيئاً ما في الحرف في هذا السطر عن غيره.

وسألني آخر عن: السبب في وضع علامة الوقف قبل آخر حرف في الكلمة الموقوف عليها، فلماذا لا تساوي الحرف الأخير تماماً؟ وهكذا من الحرص الشديد على كتاب الله عز وجل.

واليهود في عهود كثيرة يعملون على تقويض الإسلام، وتحريف القرآن، والقضاء على الأمة الإسلامية، وقد استطاع اليهود أن يدسوا في كتب المسلمين، ويضعوا فيها الإسرائيليات، ونحوها، ولكنهم لم يستطيعوا أن يفعلوا شيئاً من ذلك في كتاب الله ﷻ، لم يغيروا فيه حرفاً ولا حركة، وقد حاول اليهود ذلك كثيراً، وما هي إلا لحظات حتى ينكشف الأمر ويفتضح، ويتم علاجه فوراً بالتنبيه عليه، وإعدام هذه النسخ.

فالقرآن مكتوب في المصاحف بالملايين، ومحفوظ في صدور الملايين من البشر، ولا يوجد فيه أي تحريف، ولا زيادة، ولا نقص، ومن يعتقد أن في القرآن تحريفًا، أو زيادة، أو نقصًا، فإنه يكفر كفرًا مخرجًا من الملة.

وعلى مدى التاريخ لم يحدث شيء من هذا التحريف واستمر بعض الوقت، مع ما أصاب المسلمين من ضعف، وفتن، وهزائم، ومع ظهور كثرة من الفرق، والطوائف الضالة المنتسبة للإسلام على كثرة مشاربها، وهذا دليل على أن القرآن من عند الله، ولو كان من كلام البشر لتطرق إليه الزيادة، والنقصان، واشتمل على الاختلاف، وحاشاه من ذلك.

تِمَّةُ غُنْصِرِ النُّبُوَّةِ وَالرَّسَالَةِ

١٠، ١١- ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ فِي شَيْعِ الْأَوَّلِينَ ﴿١٠﴾ وَمَا يَأْتِيهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾

والله ﷻ يبيِّن لرسوله ﷺ أنه قد أرسل من قبله رسلاً كثيرين أصابهم ما أصابه من التكذيب والاستهزاء، فليس بدعًا من الرسل في هذا، وعليه أن يصبر ويحتسب، وكذا الدعاة إلى الله تعالى في كل زمان ومكان.

ومعنى ﴿شَيْعِ الْأَوَّلِينَ﴾ أي: فرق وطوائف الأمم السابقة.

ومن عادة الكفار: الاستهزاء برسل الله، والدعاة إلى الله، عندما يدعونهم إلى التوحيد ومكارم الأخلاق.

والشيع: جمع شيعة، وهي الطائفة، أو الفرقة من الناس، ذات الطريقة الواحدة، أو المذهب الواحد.

وتشير الآية إلى أن عادة الجاهل في كل زمان ومكان مع جميع الرسل والدعاة إلى الله تعالى أن يؤذوهم، ويضايقوهم، ويقفوا في وجه الدعوة يصدون الناس عنها، ويكذبون دعوتهم.

والمعنى: ولقد أرسلنا من قبلك -يا محمد- رسلاً كثيرين في طوائف الأمم السابقة، فدعا هؤلاء الرسل أقوامهم إلى ما دعوتهم إليه من وجوب إخلاص العبادة لله تعالى، فما كان منهم إلا أن قابلت كل فرقة رسولها بالسخرية، والاستهزاء كما فعل بك قومك، وكما يفعل المكذبون بالدعاة إلى الله تعالى في كل زمان ومكان؛ وذلك لأن

المكذبين لرسل الله يتشابهون في الطباع الذميمة، والأخلاق القبيحة، كما قال تعالى: ﴿كَذَلِكَ مَا أَتَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا قَالُوا سَاحِرٌ أَوْ مُجُنٌّ ﴿٥٢﴾ اتَّوَصَوْا بِهِمْ بَلْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ ﴿٥٣﴾﴾ [الذاريات].

وهكذا فإن الدعوة إلى الله تعالى تزيد قوماً هدىً إلى هداهم، وتزيد قوماً ضلالاً إلى ضلالهم. وهذا شأن المتكبرين والمترفين، وهم الملاء والأشراف من الأقوام في كل زمان ومكان؛ لأنهم يخافون على مناصبهم، وعلى منزلتهم بين الناس؛ والاستهزاء برسول الله، طبيعة متكررة فيهم. وفي هذا تسلية للنبي ﷺ؛ فإن ما فعله المشركون به قد فعل بغيره، ويُفعل بالدعاة إلى الله على مرّ العصور.

الْقُرْآنُ يَنْفُذُ إِلَى الْقُلُوبِ

١٢، ١٣ - ﴿كَذَلِكَ نَسْلُكُهُمْ فِي قُلُوبِ الْمُجْرِمِينَ ﴿١٢﴾ لَا يُؤْمِنُونَ بِهِ وَقَدْ خَلَتْ ^(١) سُنَّةُ الْأَوَّلِينَ﴾ ثم إن المكذبين لرسل الله أمة واحدة، فقد تلقوا ما أنزل على الرسل السابقين واللاحقين بالتكذيب وعدم الإيمان، ولم يستقر الإيمان في قلوبهم، لاستيلاء العناد والجحود عليهم، وتمكن الحسد منهم.

وكما أدخلنا الكفر في قلوب المجرمين السابقين، ندخله في قلوب المجرمين من أمتك يا محمد؛ لسوء تلقيهم للقرآن الكريم؛ فهم يسمعون ولكنه لا ينفذ إلى قلوبهم، ولا يتأثرون به، وهذه عقوبة لهم على إجرامهم، وتلقيهم للوحي المنزل عليك بالسخرية وعدم التدبر.

فهذا القرآن ينزل على أقوام فيزيدهم هدىً، وينزل على آخرين فيزيدهم طغياناً، كما قال تعالى: ﴿وَإِذَا مَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَذِهِ إِيمَانًا فَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا فَزَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿١٢٤﴾ وَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَى رِجْسِهِمْ

(١) أدغم التاء في السين من (خلت سنة) أبو عمرو وحمة والكسائي وخلف، وأظهرها الباقون.

وَمَا تَوْأَاهُم كَافِرُونَ ﴿١٢٥﴾ [التوبة].

وقد وصفهم الله تعالى بالإجرام؛ لأنه تعليل لعدم إيمانهم، بخلاف الكفر فإنه صار علماً عليهم، وهو لا يشعر بالتعليل، والمعني بذلك كل من لم يؤمن برسالة محمد ﷺ من السابقين واللاحقين، من جميع الملل والنحل.

ثم يخبر سبحانه بأن هؤلاء المجرمين لن يصدقوا بهذا القرآن، ولا بالرسالة الخاتمة، فهم لا يؤمنون به ولا في أي وقت، وهذا خبر عام في كل من يموت على الكفر من هذه الأمة.

ثم توعدهم الله تعالى، بأن يحل بهم ما حل بغيرهم من الأمم الماضية من العذاب، فقد مضت سنة الله تعالى بإهلاك من كذب الرسل جميعاً، فاحذروا أن يصيبكم ما أصابهم؛ فإن سنة الله لا تتخلف ﴿قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ﴾ ﴿١٢٧﴾ [آل عمران].

فالضمير في ﴿نَسَلُكُمْ﴾ يعود على الكفر، والضمير في ﴿لَا يُؤْمِنُونَ بِهِ﴾ يعود على القرآن، وهو حال مبيّنة لمسلك المجرمين، من أن القرآن لا يدخل في قلوبهم، ولا يؤمنون به عناداً وتكبراً.

الْكَافِرُ لَا يُؤْمِنُ وَلَوْ رَأَى الْعَجَبَ الْعَجَابَ

١٥، ١٤ ﴿وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَابًا مِّنَ السَّمَاءِ فَظَلُّوا فِيهِ يَعْرُجُونَ ﴿١٤﴾ لَقَالُوا إِنَّمَا سُكَّرَتْ ﴿١٥﴾ أَبْصَرُنَا بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَّسْحُورُونَ ﴿١٥﴾﴾

ثم يكشف الله سبحانه عن العلة، والسبب في كُفْر مَنْ كَفَرَ، وأنه ليس نقصاً في توافر أدلة الإيمان، وإنما هو العناد، وهذا إبطال لمعاذيرهم، وبيان أن السبب في عدم إيمانهم هو الجحود، فلو فتح الله على الكفار باباً من السماء فاستمروا صاعدين فيه، حتى رأوا الملائكة، وهم يطلبون آية دالة على صدق الرسول ﷺ، لما صدّقوا، ولو رأوا العجب

(١) قرأ ابن كثير بتخفيف الكاف من (سُكِّرَتْ) أي: حُبِسَتْ عن المجرى، وقرأ الباقون بتشديدها من الشُّكْر بمعنى حُيِّرَتْ أو المراد: الكثرة.

العجاب في ملكوت السموات والأرض ما آمنوا، كما قال تعالى: ﴿وَنُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ وَأَبْصَارَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ [الأنعام: ١١٠].

والمعنى: ولو فتحنا عليهم بابًا من السماء، ثم يسرنا لهم العروج إلى السماء بابًا بابًا، وسماءً بعد سماء، فشاهدوا الملائكة والملكوت بأعينهم، لو حدث هذا، وقام المشركون بهذه الرحلة فإن هذا لن يجدي معهم شيئًا، ولن يؤمنوا.

ويصح أن يكون المعنى: لو كُشِفَ عن أبصار الكفار، فرأوا بابًا من السماء مفتوحًا، والملائكة تصعد فيه لما آمنوا؛ لعنادهم وكفرهم، ولقالوا: إنا سُحِرْنَا، وهذا بناء على أن المشار إليه في قوله تعالى: ﴿فَطَلَّوْا فِيهِ يَعْرُجُونَ﴾ هم: الملائكة، والمعنى الأول على أن المشار إليه هم الكفار، ولعله الأرجح.

قال تعالى: ﴿وَمَا مَنَعَنَا أَنْ نُرْسِلَ بِالْآيَاتِ إِلَّا أَنْ كَذَّبَ بِهَا الْأَوَّلُونَ﴾ [الإسراء: ٥٩].

وقال جلَّ شأنه: ﴿وَلَوْ أَنَّا زَلَّلْنَا إِلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةَ وَكَلَّمَهُمُ الْتَوَكُّ وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَيْءٍ قُبُلًا مَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ﴾ [الأنعام: ١١١].

ولو حدث أن رأى المشركون الملائكة بأعينهم لقالوا: إنما سُحِرْتَ أعيننا، وغشينا ما يشبه السكر، وأبصارنا عميت، فتخيَّلنا أننا رأينا الملائكة، بل إن محمدًا سحرنا، ولم نر شيئًا.

وهذا كقوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّا زَلَّلْنَا عَلَيْكَ كِتَابًا فِي قِرْطَاسٍ فَلَمَسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ لَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنَّ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ﴾ [الأنعام: ٧].

وحاصل الآية: أن الكفار لما طلبوا من النبي ﷺ أن يُنْزَلَ عليهم الملائكة؛ حتى يروه عيانًا؛ ليشهدوا بصدقه ﷺ، يخبر سبحانه وتعالى أن هذا لو حدث ما آمنوا، وَفَقَّ علم الله تعالى عنهم في الأزل، ولقالوا: هذا ليس بحقيقة، بل هو سحر.

وقوم وصلت بهم الحال إلى هذا الإنكار، لا مطمع في إيمانهم ولا رجاء في تغيير حالهم.

فالمعنى: أن الله تعالى لو فتح بابًا من السماء على من كَذَّبَ محمدًا ﷺ، فاتصلوا من خلال هذا الباب بالعالم الأعلى، ورأوا الملائكة رأي العين لا عتذروا بأن ذلك تخيلات، وأنهم سُحِرُوا، ولم يروا شيئًا، ومن بلغ هذا المبلغ في التَّعَتُّ والجحود، لا تنفع فيه موعظة، ولا يهتدي بآية، ولا يفيد فيه إجابته إلى ما طلب من آيات دالة على صدق النبي ﷺ.

الْعُنْصُرُ الثَّانِي مِنْ عُنَاصِرِ الْقُرْآنِ الْمَكِّيِّ فِي السُّورَةِ: عُنْصُرُ دَلَائِلِ التَّوْحِيدِ وَالْقُدْرَةِ أَوَّلًا: آيَاتُ اللَّهِ تَعَالَى فِي الْعَالَمِ الْعُلَوِيِّ

١٦- ﴿وَلَقَدْ^(١) جَعَلْنَا فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا^(٢) وَزَيَّنَّاهَا لِلنَّاظِرِينَ ﴿١٦﴾﴾

في هذه الآيات بيان لبعض ما جاءت به الرسل من عند الله تبارك وتعالى:

فبعد الحديث عن القرآن الكريم من أول السورة إلى هنا، يبدأ الحديث عن آثار قدرة الله تعالى؛ للاستدلال بها على وحدانيته سبحانه، وأعقب ذلك بالحديث عن البعث، والنشور من قوله تعالى: ﴿وَإِنَّا لَنَحْنُ نُحْيِي وَنُمِيتُ وَنَحْنُ الْوَارِثُونَ ﴿١٧﴾﴾.

فتكون السورة بذلك قد استكملت عناصر القرآن المكي الثلاثة، وهي: جانب الوحي والرسالة، وجانب العقيدة والتوحيد، وجانب اليوم الآخر وما فيه من حساب وجزاء.

وفي هذه الآية يلفت الله ﷻ انتباهنا إلى دلائل القدرة الإلهية في العالم العلوي من الكواكب، والنجوم، أو منازل الشمس والقمر التي تسير فيها الأفلاك، وهي المنازل الاثنا عشر المشهورة التي هي برج: الحمل، والثور، والجوزاء، والسرطان، والأسد، والسنبلة، والميزان، والعقرب، والقوس، والجدي، والدلو، والحوت.

وهذه البروج مقسومة ثمانية وعشرين منزلاً، لكل برج منزلان وثلث المنزل، وهي منازل القمر.

أما منازل الشمس فإن البروج الاثني عشر مقسومة على ثلاث مئة وستين درجة، كل برج منها ثلاثون درجة، تقطعها الشمس في كل سنة مرة، تتم بها دورة الفلك.

والبرج: يطلق على طائفة من النجوم الثابت غير السيارة، يتجمع بعضها بقرب بعض على أبعاد بينها، وهي اثنا عشر مكاناً بعدد شهور السنة الشمسية، وهي مرتبة ابتداءً ببرج الحمل أول فصل الربيع، وانتهاءً ببرج الحوت، وينتج عنها الفصول الأربعة.

(١) أدغم الدال في الجيم من (ولقد جعلنا) أبو عمرو وهشام وحمزة والكسائي وخلف.

(٢) أدغم التثنية من (بروجاً) في واو (وزيناها) بغير غنة خلف عن حمزة.

وَيُسْتَدَلُّ بِهَا أَيْضًا عَلَى الطَّرَقَاتِ، وَالْأَوَاقَاتِ، وَالْخَصْبِ، وَالْجَدْبِ، وَمَعْرِفَةِ عَدَدِ السِّنِينَ وَالْحِسَابِ، فَهِيَ أَبْرَاجٌ وَأَعْلَامٌ عِظَامٌ، يَهْتَدَى بِهَا فِي ظِلْمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ. وَقَدْ سَمَّى الْأَقْدَمُونَ الْأَبْرَاجَ، بِمَعْنَى الدَّارِ أَوْ الْمَكَانِ، وَسَمَّاها الْعَرَبُ بِرُوجًا وَدَارَاتٍ، وَيُسْتَدَلُّ بِهَا عَلَى عَظِيمِ قُدْرَةِ اللَّهِ تَعَالَى، وَانْفِرَادِهِ بِالْخَلْقِ.

قال تعالى: ﴿نَبَارَكُ الَّذِي جَعَلَ فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا وَجَعَلَ فِيهَا سِرَاجًا وَقَمَرًا مُنِيرًا﴾ [١١] [الفرقان].

وقد زَيْنَ الله سبحانه السماء الدنيا بالنجوم لمن ينظر إليها، ويتأملها فيعتبر، كما قال تعالى في تَمَةِ الْآيَةِ: ﴿وَزَيَّنَّاهَا لِلنَّاظِرِينَ﴾ وزَيَّنَّاهَا، أي: زينا السماء الأولى للناظرين.

ومجمل معنى الْآيَةِ: ومن أدلة قدرة الله تعالى أنه خلق السموات وأبدعها، وجعل في السماء الدنيا منازل وطُرُقًا للكواكب تنزل فيها، وتسير بقدرة الله تعالى وحكمته دون خلل ولا اضطراب، وقد جعل الله لهذه الكواكب ثلاث فوائد:

الأولى: أنه يَهْتَدَى بِهَا فِي ظِلْمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ، كما قال تعالى: ﴿وَبِالنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ﴾ [النحل: ١٦].

الثانية: أنه تعالى جعلها زينة وجمالًا للسماء الأولى، كما قال تعالى: ﴿إِنَّا زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِزِينَةِ الْكُوْكَبِ﴾ [الصافات].

الثالثة: أنها جُعِلَتْ لِرَجْمِ الشَّيَاطِينِ الَّتِي تَسْتَرِقُ السَّمْعَ، كما قال تعالى: ﴿وَحَفَظْنَا مِنْ كُلِّ شَيْطَانٍ مَّارِدٍ﴾ [٧] لَا يَسْمَعُونَ إِلَى آلَمٍ الْأَعْلَى وَيَقْدِفُونَ مِنْ كُلِّ جَانِبٍ [٨] دُخْرًا وَهُمْ عَذَابٌ وَأَصِيبٌ [٩] [الصافات].

وفي قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصْبِيحٍ وَجَعَلْنَاهَا رُجُومًا لِلشَّيَاطِينِ﴾ [الملك: ٥] وزيناها، أي: زينا السماء الأولى للناظرين، ولولا النجوم لما كان للسماء هذا المنظر الجميل، وهو يدعو إلى التأمل في ملكوت الله والاستدلال به على عظمة الخالق سبحانه، قال تعالى:

١٧، ١٨ - ﴿وَحَفَظْنَاهَا مِنْ كُلِّ شَيْطَانٍ رَجِيمٍ﴾ [١٧] إِلَّا مَنْ أَسْرَقَ السَّمْعَ فَأَتْبَعَهُ شَهَابٌ مُنِيرٌ

وحفظنا السماء من كل شيطان مرجوم مطرود من رحمة الله تعالى، فإذا استرق السمع، أتبعته الشهب الثواقب، وبقيت السماء محفوظة، أي: حفظناها من استقرار الشياطين

فيها، ومن أن ينفث الشيطان فيها شروره ومفاسده؛ لأنها موطن الملائكة الأطهار، وفيها اللوح المحفوظ، ومقادير العباد، فمنعوا من الوصول إليها، وقد كانت الشياطين قبل مبعث النبي ﷺ يرقى بعضهم فوق بعض، حتى يصعدوا إلى السموات، ويستمعوا إلى الخبر من الملائكة الأعلى؛ حيث يُلقيه الشيطان إلى الكهنة، بعد أن يضع على الخبر الواحد مئة خبر كذبا، ويأتوا بخبر السماء إلى الأرض على هذا النحو، فلمَّا بُعث النبي ﷺ مُنعوا من ذلك.

يقول ﷺ على لسان الجن: ﴿وَأَنَا لَمَسْنَا السَّمَاءَ فَوَجَدْنَهَا﴾ أي: بعد مجيء النبي ﷺ ﴿مِلَّتْ حَرَسًا شَدِيدًا وَشُهَبًا﴾ ﴿٩﴾ وَأَنَا كُنَّا أَي: قبل بعثة محمد ﷺ ﴿نَقْعُدُ مِنْهَا مَقْعَدَ السَّمْعِ﴾، ونأتي بالأخبار منها إلى أهل الأرض ﴿فَمَنْ يَسْتَمِعِ الْآنَ يَجِدْ لَهُ شِهَابًا رَصَدًا﴾ [الجن: ٩، ١٠] أي: يجد شهابًا يرصده، ويقتله قبل أن ينقل الخبر إلى الكهنة، كما قال تعالى: ﴿إِلَّا مَنْ خَطِفَ الْخَطْفَةَ فَأَتْبَعَهُ شِهَابٌ ثَاقِبٌ﴾ ﴿١٠﴾ [الصافات: ١٠]

فالمعنى: أنا حفظنا السماء من الشياطين، إلا من اختلس منهم شيئا من كلام الملائكة الأعلى في بعض الأوقات، فاستمع إلى شيء من خبر السماء، فأدركه ولحقه كوكب مضيء يحرقه، قبل أن يصل بالخبر إلى الأرض، ويُحوّل بينه وبين استراق السمع.

وقد يُلقِي الشيطان إلى من يستخدمه ويواليه من الكهنة، بعض ما استرقه قبل أن يحرقه الشهاب.

والمقصود: منع الشياطين من الاطلاع على ما أراد الله عدم إطلاعهم عليه من أمور القضاء والقدر، ومن وحي الله تعالى إلى رسله مما لو ألقته الشياطين إلى الكهنة لكان في ذلك فساد في الأرض.

وقبل بعثة النبي ﷺ كانت الشياطين تسترق شيئا قليلا من أخبار السماء، فيضيفون إليه الكثير من الكذب، ويلقونه إلى الكهان، ولما بُعث محمد ﷺ منعهم الله من ذلك منعاً باتاً؛ عصمةً للوحي منهم، وإحكاماً لحفظه من أن يتلبس به شيء من الكهانة^(١).

فقد حال الله بينهم وبين سماع الوحي مطلقاً، فلم يستمعوا إلى شيء منه وقت نزوله، وهذا هو معنى قوله تعالى: ﴿إِنَّهُمْ عَنِ السَّمْعِ لَمْعَزُولُونَ﴾ ﴿١٢﴾ [الشعراء].

وهو معنى أن الملائكة ترصد الوحي، وتحوطه من كل جانب؛ حتى يصل إلى النبي

(١) يُنظَر: «تفسير التحرير والتنوير» (٣١/١٤).

ﷺ، كما جاء في قوله تعالى ﴿عَلِمُ الْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَى غَيْبِهِ أَحَدًا ﴿٦﴾ إِلَّا مَنِ ارْتَضَىٰ مِنْ رَسُولٍ فَإِنَّهُ يَسْلُكُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ رَصَدًا ﴿٧﴾﴾ [الجن]

أي: أن الله تعالى يرسل من أمام الرسول، ومن خلفه ملائكة يحفظونه من الجن؛ لئلا يسترقوه، ويهمسوا به إلى الكهنة، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿فَمَنْ يَسْتَعِجِ الْآنَ﴾ أي: بعد بعثة النبي ﷺ ﴿يَجِدْ لَهُ شَهَابًا رَصَدًا﴾ [الجن: ٩].

ومن يزعم أن الجن قد استمعوا إلى شيء من الوحي فعليه أن يأتي بحجة بينة تُصدِّق دعواه، كما قال تعالى: ﴿أَمْ لَهُمْ سُلُّوا يُسْتَعَمُونَ فِيهِ فَلَيَأْتِ مُسْتَعِمُّهُمْ بِسُلْطَانٍ مُبِينٍ ﴿٢٨﴾﴾ [الطور].

أما بالنسبة إلى أخبار السماء مما ليس بوحى فإن الشياطين إذا استمعت إلى شيء منها فإنها تلقىها إلى الكهنة في أسرع من طرفة عين، ثم تتبعهم الشهب، فتقتلهم، أو تخبلهم^(١)، وهذا معنى ﴿إِلَّا مَنْ خَطَفَ السَّحَابَ فَأَتْبَعَهُ شَهَابٌ ثَاقِبٌ ﴿١٢﴾﴾ [الصافات].

فالخلاصة: أن الشياطين لا تستمع إلى الوحي مطلقاً وهو ينزل، وكذا الأمور الغيبية التي لا وجود لها في جنات الأرض، ولا في بطن المرأة، ونحو ذلك، وما عدا ذلك من الأخبار، فقد يحدث شيئاً من الاستراق، يتبعه شهاب يرمم مسترق السمع.

وهذه جملة من الأحاديث في هذا المعنى:

١- عن أبي هريرة ؓ أن النبي ﷺ قال: «إذا قضى الله الأمر في السماء ضربت الملائكة بأجنحتها، خضوعاً لقوله كأنه سلسلة على صفوان، فإذا فُزِعَ عن قلوبهم قالوا: ماذا قال ربكم؟! قالوا للذي قال: الحق، وهو العلي الكبير، فيسمعها مسترق السمع، ومسترق السمع هكذا، بعضه فوق بعض».

- ووصف سفيان بكفه فحرَّفها، وبدد بين أصابعه - «فيسمع الكلمة فيلقبها إلى مَنْ تحته، ثم يلقبها الآخر إلى مَنْ تحته، حتى يلقبها على لسان الساحر أو الكاهن، وربما أدرك الشهاب قبل أن يُلْقِيها، وربما ألقاها قبل أن يُدْرَكَ، فيكذب معها مئة كذبة، فيقال: أليس قد قال لنا يوم كذا وكذا: كذا وكذا، فيُصدَّقُ بتلك الكلمة التي سمع من السماء»^(٢).

(١) يُنْظَرُ: «تفسير القرطبي» (١١/١٠).

(٢) «صحيح البخاري» برقم (٤٨٠٠) وهذا لفظه وانظر: برقم (٤٧٠١) وبرقم (٧٤٨٩).

٢- وعن عائشة ؓ أنها سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إن الملائكة تنزل في العنان - وهو السحاب- فتذكر الأمر قضي في السماء، فتسترق الشياطين السمع، فتسمعه فتوحيه إلى الكهان، فيكذبون معها مئة كذبة من عند أنفسهم»^(١).

٣- وصح عن ابن عباس ؓ أن النبي ﷺ كان جالساً بين أصحابه، فرأوا شهاباً قد سقط فاستنار، فقال لهم رسول الله ﷺ: «ماذا كنتم تقولون في الجاهلية إذا رُمي بمثل هذا؟» قالوا: الله ورسوله أعلم، حينما يحدث مثل ذلك كنا نقول: وُلد الليلة رجل عظيم، ومات رجل عظيم، فقال رسول الله ﷺ: «فإنها لا يُرمى بها لموت أحد، ولا لحياته، ولكن ربُّنا تبارك وتعالى اسمه إذا قضى أمراً سبَّح حملة العرش، ثم سبَّح أهل السماء الذين يلونهم، حتى يبلغ التسبيح أهل هذه السماء الدنيا، ثم قال الذين يلون حملة العرش لحملة العرش: ماذا قال ربكم؟ فيخبرونهم ماذا قال، قال: فيستخير بعض أهل السموات بعضاً، حتى يبلغ الخبر هذه السماء الدنيا، فتخطف الجن السمع، فيقذفون إلى أوليائهم، ويرْمُون به، فما جاؤوا به على وجهه فهو حق، ولكنهم يَقرِّفون فيه ويزيدون»^(٢).

٤- وعن عائشة ؓ أن ناساً سألوا رسول الله ﷺ عن الكهان فقال: «ليسوا بشيء»، قالوا: يا رسول الله، فإنهم يحدثون أحياناً بالشيء يكون حقاً، قال رسول الله ﷺ: «تلك الكلمة من الجن يخطفها الجنِّي، فيقرأها في أذن وليه قرَّ الدجاجة، فيخلطون فيها أكثر من مئة كذبة»^(٣).

ومعنى ليس بشيء: أي أنه لا وجود لما يزعمه الكهنة، ولا يعرفون شيئاً.

ومعنى قرَّ الدجاجة، يقال: قرَّت الدجاجة، أي: أخفت صوتها.

والمقصود: أن الجنِّي يُسرُّ بالكلمة، ويخفض صوته بها حين يلقيها إلى وليه الذي يستعمله من الكهنة.

ورمي الشياطين بالشهب، كان موجوداً قبل مبعث النبي ﷺ، كما يشير إليه حديث ابن عباس

(١) «صحيح البخاري» برقم (٣٢١٠) و«صحيح مسلم» برقم (٢٢٢٨).

(٢) يُنظر «صحيح مسلم» (٤/١٧٥٠) برقم (٢٢٢٩) وفي «المسند» برقم (١٨٨٢)، بإسناد صحيح على شرط الشيخين، وأخرجه عبد بن حميد (٦٨٣) والترمذي (٣٢٢٤) وقال: هذا حديث حسن صحيح.

(٣) «صحيح مسلم» برقم (٢٢٢٨).

السابق في صحيح مسلم، فلما بُعث ﷺ شُدِّد في ذلك، وزيد في حفظ السماء وحراستها صوتاً لأخبار الغيب، كما يؤخذ هذا من الأحاديث الأخرى في الصحيحين، وغيرهما.

وجاء عن ابن عباس ؓ أن الشياطين كانوا لا يُحْجَبُونَ عن السموات، وكانوا يدخلونها، ويأتون بأخبارها إلى الكهان، فيلقونها إليهم، فلما ولد عيسى ﷺ مُنَعُوا من ثلاث سموات، فلما ولد محمد ﷺ مُنَعُوا من السموات السبع، فما منهم من أحد يريد أن يسترق السمع إلا رُمي بشهاب، فلما مُنَعُوا من تلك المقاعد ذَكَّرُوا ذلك لإبليس، فقال: لقد حدث، في الأرض حدث فبعثهم ينظرون، فوجدوا رسول الله ﷺ يتلو القرآن، فقال: هذا والله حدث^(١).

ثَانِيَا: دَلَالُ وَحْدَانِيَةِ اللَّهِ تَعَالَى فِي الْأَرْضِ

١٩- ﴿وَالْأَرْضَ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ مَوْزُونٍ﴾ ﴿١٩﴾

أي: أن الأرض قد دُحِيت من تحت الكعبة، وأن الله تعالى قد أمدّها ووَسَّعها، وبَسَطها حتى يتمكن الناس والدواب من سكنها والتنقل في أرجائها والانتفاع بأرزاقها وخيراتها كما قال تعالى: ﴿وَالْأَرْضَ فَرَشْنَاهَا فَنِعْمَ الْمُنْهَدُونَ﴾ ﴿٢٠﴾ [الذاريات]

وقد مهَّدها الله للإنسان للسعي فيها، والبحث عن الرزق، قال تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ الْأَرْضَ ذُلُولًا فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِنْ رِزْقِهِ وَإِلَيْهِ النُّشُورُ﴾ ﴿٢١﴾ [الملك]

وهي ممدودة، ومبسوطة على وجه الماء، فمادت الأرض وتحركت، فنبَّتها الله تعالى بالجبال، وجعلها رواسي؛ لئلا تميد بالخلق، وهي كالكرة العظيمة، كل جزء منها ممتد كالسطح المستوي، ومنها اليابس، ومنها البحار والمحيطات.

وهذه الجبال أوتاد مثبتة للأرض، كما قال تعالى: ﴿وَالْجِبَالَ أَوْتَادًا﴾ ﴿٢٢﴾ [النبا].

وقال تعالى: ﴿وَأَلْقَى فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَنْ تَمِيدَ بِكُمْ﴾ [لقمان: ١٠] أي: لئلا تميد، فتتحرك بكم وتضطرب، فهي تحفظها وتمسكها بإذن الله ﴿إِنَّ اللَّهَ يُمْسِكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ أَنْ تَزُولَا وَلَئِنْ زَالَتَا إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِنْ بَنِي إِدْرِيسَ﴾ [فاطر: ٤١].

(١) «تفسير الخازن» (٣/ ٩١).

وقد أنبت الله في الأرض مختلف أنواع النبات، والزرع، والثمار، بقدر معلوم، هو ما يحتاجه الناس في معاشهم، وقد خلقه الله بدقة، وإحكام، وتقدير؛ لنفع الإنسان والحيوان.

وقد اشتملت هذه الآية على ثلاثة أشياء هي:

١- بسط الأرض، وتثبيتها بالجبال.

٢- وخلق الرزق فيها من النبات، وغيره.

٣- وبعض ما ينبت من الأرض يكون موزوناً، وبعضه يكون مكيلاً.

والوزن قد يكون حقيقة، أو بالتقدير، قال تعالى: ﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ﴾ [القمر: ٤٩].

وقد خلق الله في الأرض كل ما يحتاج إليه العباد والبلاد من نخيل وأعناب وزروع وثمار ونبات وأشجار وما إلى ذلك، قال تعالى:

٢٠- ﴿وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعِيشَ وَمَنْ لَكُمْ بِرِزْقِنَا﴾

وجعلنا لكم في الأرض ما تعيشون به من معادن، وحجارة، وحرث، وماشية، ومن أنواع المكاسب والحرف والتجارات والصناعات والزراعات، وغيرها، وخلقنا من المطعومات، والمشروبات، والملبوسات لكم ولغيركم من أبنائكم، وخدمكم، والعجزة، والمرضى، والوحوش، والطير، والدواب، مما تنتفعون به.

وليس رزقهم عليكم؛ لأن رزق جميع الخلق بيد رب العالمين تفضلاً منه وتكرماً، فهو الذي خلق الطعام والشراب، وأوجده من العدم.

قال تعالى: ﴿وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا﴾ [هود: ٦].

وقال سبحانه: ﴿وَكَايْنٍ مِنْ دَابَّةٍ لَا تَحْمِلُ رِزْقَهَا اللَّهُ يَرْزُقُهَا وَإِيَّاكُمْ﴾ [العنكبوت: ٦٠].

وفي الآية امتنان من الله تعالى على خلقه، بأنه قد خلق لهم وسائل، وأسباب العيش، وخلق لهم أيضاً من ليسوا برازقين له من العيال، والخدم، والدواب؛ فإنهم ينتفعون بهم، ورزقهم على الله وليس عليهم. قال تعالى:

٢١- ﴿وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا عِنْدَنَا خَزَائِنُهُ وَمَا نُنْزِلُهُ إِلَّا بِقَدَرٍ مَعْلُومٍ﴾

وما من شيء في هذا الكون ينتفع به الإنسان والحيوان وغيرهما، إلا وهو خاضع لإرادة الله تعالى وقدرته، يصرفه كيف يشاء، وينزله بقدر معلوم، فهو سبحانه بيده الخزائن لأرزاق العباد، والبلاد، ويوجدتها، ويخلقها، ويُعِدُّها لنفع خلقه، ويُنَزِّلُها بقدر حاجتهم، وما يتفق مع إصلاح شؤونهم، والله تعالى يُصَرِّفُ المطر حيث يشاء في البلاد، وما نزلت قطرة من السماء، ولا خرجت من ريح إلا بمكيال أو ميزان.

قال تعالى: ﴿وَلَوْ بَسَطَ اللَّهُ الرِّزْقَ لِعِبَادِهِ لَبَغَوْا فِي الْأَرْضِ وَلَكِنْ يُنَزِّلُ بِقَدَرٍ مَّا يَشَاءُ إِنَّهُ بِعِبَادِهِ خَبِيرٌ بَصِيرٌ﴾ [الشورى].

وقال جلَّ شأنه: ﴿إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنَّاظٌ ۚ إِنَّهُ أَشَقُّ ۚ﴾ [العلق].

والله جلَّ شأنه يعطي من يشاء، ويمنع من يشاء حسب اقتضاء حكمته البالغة.

والمراد بالخزائن: نعم الله تعالى على الإنسان، وكل شيء ينفعه من: الأرزاق، والأمطار، والانتصار، والصحة، ورحمة الله بالعباد، وما شابه ذلك من كل ما يتطلع إليه الناس، ولا يقدر عليه إلا الله؛ فإن مفاتيحه، وخزائنه عند رب العالمين، وهو سبحانه قد خلقه لنفع الإنسان، والحيوان، وغيرهما، كما قال تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُمْ مَّا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا﴾ [البقرة: ٢٩].

ولكنه جلَّ شأنه يُوجِدُ هذه الأشياء دون تكلف ولا إبطاء، كما قال تعالى: ﴿إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ [يس].

ويمكِّن سبحانه الناس من الانتفاع بها بمقدار معين، وفي وقت محدد تقتضيه حكمة الله تبارك وتعالى بما يتناسب مع حاجات العباد وأحوالهم.

وكثيرًا ما يعبر القرآن الكريم عن تمكين الناس من الانتفاع بالأرزاق ونحوها، بالإنزال، كما في هذه الآية ﴿وَمَا نُنَزِّلُهُ إِلَّا بِقَدَرٍ مَعْلُومٍ﴾.

وقوله تعالى: ﴿وَأَنزَلَ لَكُمْ مِنَ الْأَنْعَامِ ثَمَنِيَّةً أزواج﴾ [الزمر: ٦].

وقوله تعالى: ﴿وَأَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً﴾ [الرعد: ١٧].

وقوله: ﴿وَأَنزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنْفَعٌ لِلنَّاسِ﴾ [الحديد: ٢٥].

وقوله: ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَنْزِلُ الْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ﴾ [الطلاق: ١٢].

ثَالِثًا: دَلَائِلُ وَحْدَانِيَةِ اللَّهِ تَعَالَى فِي الرِّيَّاحِ وَالْأَمْطَارِ

٢٢- ﴿وَأَرْسَلْنَا الرِّيَّاحَ^(١) لَوَافِحَ فَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَاسْقَيْنَكُمْوهُ وَمَا أَنْشَرُوا لَمْ يَخْزِنَ ﴿٢٢﴾

وبعد الاستدلال على عظيم قدرة الله تعالى في السماء والأرض وظواهرهما، ثلث بالاستدلال على وحدانيته تعالى بالرياح، والأمطار، وما ينتج عنهما؛ حيث إن الرياح منها ما فيه عذاب، أو تراب، أو نار، أو حر، ومنها ما فيه رحمة ومطر، أو نصر، أو غير ذلك، فهي تحمل ما يكون سبباً في المطر، كما تحمل النوق الأجنة في بطونها، والرياح تنتقل من مكان إلى مكان مسخرةً مذللةً بقدرة الله تعالى بما تحمله من هواء، أو ماء، أو تراب، يرسل الله الرياح؛ لتلغح السحاب بالماء كما يلقح الذكر الأنثى، فينشأ عنه البخار الذي يصير ماء في الجو، ثم ينزل مطراً على الأرض، كما قال تعالى:

﴿وَهُوَ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَّاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ حَتَّى إِذَا أَقْلَتْ سَحَابًا فَقَالَا سُقْنَاهُ لِبَلَدٍ مَيِّتٍ فَأَنْزَلْنَا بِهِ الْمَاءَ فَأَخْرَجْنَا بِهِ مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ ﴿٥٧﴾﴾ [الأعراف: ٥٧].

ومعنى ﴿أَقْلَتْ﴾: حملت الرياح السحاب ملقحة له، ويشهد لهذا المعنى تنمة الآية ﴿فَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَاسْقَيْنَكُمْوهُ﴾ أي: سخرنا الرياح لتلغح السحاب، وتحمل المطر، والتراب، والخير، والنفع، فأنزلنا من السحاب ماء أعدناه للشراب لكم، ولأرضكم، ومواشيكم ﴿اللَّهُ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَّاحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَيَبْسُطُهُ فِي السَّمَاءِ كَيْفَ يَشَاءُ﴾ [الروم: ٤٨].

أخرج البخاري في الأدب المفرد عن يزيد عن سلمة قال: كان النبي ﷺ إذا اشتدت الرياح يقول: «اللهم لا قحاً، لا عقيماً»^(٢).

(١) قرأ حمزة وخلف العاشر (الرياح) بالافراد، والباقون (الرياح) بالجمع.

(٢) «الأدب المفرد» برقم (٧٦٨) وأبو يعلى كما في «المطالب العالية» ق(١٢٢) أ وابن حبان في صحيحه برقم (١٠٠٨) «الإحسان» والطبراني في «الكبير» برقم (٦٢٩٦) و«المستدرک» (٢٨٥/٤) بتصحیح الحاكم وموافقة الذهبي، وابن السني في «عمل اليوم والليلة» برقم (٣٠٠) وحسنه الألباني برقم (٢٠٥٨) في «السلسلة الصحيحة»، وصححه في «صحيح الأدب المفرد» (٧١٨/٥٥٣) وقال محقق «المطالب العالية» (٢٣٩/٣) عن البوصيري: رجاله ثقات، وقال محقق ابن حبان: إسناده قوي على شرط البخاري.

وما أنتم بحافظين له في خزائنكم، فنحن الخازنون الحافظون له، وننزله متى شئنا، كما قال تعالى في الآية السابقة: ﴿وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا عِنْدَنَا خَزَائِنُهُ وَمَا نُنْزِلُهُ إِلَّا بِقَدَرٍ مَعْلُومٍ﴾ (٢١)، وقال تعالى: ﴿وَلِلَّهِ خَزَائِنُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ [المنافقون: ٧].

ويصح أن يكون المعنى ﴿وَمَا أُنْشِرْ لَكُمْ بِخَزَائِنِنَا﴾ بعد أن أنزلناه عليكم، أي: أنكم لا تقدرُونَ على حفظه في الآبار، والعيون، والغدران، بل نحن الحافظون له فيها؛ ليكون ذخيرة لكم عند الحاجة.

ويدل على هذا المعنى قوله تعالى: ﴿وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً بِقَدَرٍ فَأَسْكَنَّاهُ فِي الْأَرْضِ وَإِنَّا عَلَى ذَهَابٍ بِهِ لَقَادِرُونَ﴾ (١٨) [المؤمنون].

وقوله: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَلَكَهُ يَنْبِيعٌ فِي الْأَرْضِ ثُمَّ يُخْرِجُ بِهِ زَرْعًا مُخْتَلِفًا أَلْوَنُهُ﴾ [الزمر: ٢١]، وقوله: ﴿أَوْ يُصْبِحَ مَأْوَاهَا غَوْرًا فَلَنْ تَسْتَطِيعَ لَهُ طَلَبًا﴾ [الكهف].

وكما أن الرياح تلقح السحاب فيمتلئ بالماء، فإنها تلقح الشجر المثمر فتحمل اللقاح من الذكر إلى الأنثى، فتفتتح أكمامه ويثمر، ويخرج نباته وحبوبه، كما قال تعالى: ﴿وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً طَهُورًا لَا لِنُخْسِيَ بِهِ بَلَدَةً مِيتًا وَشَقِيقُهُ وَمِمَّا خَلَقْنَا أَنْعَمًا وَنَاسِيًّا كَثِيرًا﴾ (٤٩) [الفرقان].

وقال: ﴿هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً لَكُمْ مِنْهُ شَرَابٌ وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ﴾ (١٥) يُثَبِّتُ لَكُمْ بِهِ الزَّرْعَ وَالزَّيْتُونَ وَالنَّخِيلَ وَالْأَعْنَابَ وَمِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ [النحل: ١٠، ١١].

فالله وحده هو القادر على حفظه في الآبار، والأنهار، والعيون، وغيرها، وهو القادر على حرمانكم منه ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَصْبَحَ مَأْوَاكُمْ غَوْرًا فَن يَأْتِيَكُم بِمَاءٍ مَعِينٍ﴾ (٢٠) [الملك]، ﴿أَفَرَأَيْتُمُ الْمَاءَ الَّذِي تَشْرَبُونَ﴾ (١٨) ءَأَنْتُمْ أَنْزَلْتُمُوهُ مِنَ الْمُزْنِ أَمْ نَحْنُ الْمُنْزِلُونَ (٦٦) لَوْ نَشَاءُ جَعَلْنَاهُ أُجَاجًا فَلَوْلَا تَشْكُرُونَ (٧٠) [الواقعة].

وعن عائشة ؓ أن النبي ﷺ كان إذا عصفت الريح قال: «اللهم إني أسألك خيرها، وخير ما فيها، وأعوذ بك من شرها، وشر ما فيها، وشر ما أرسلت به»^(١).

(١) «صحيح مسلم» برقم (٨٩٩).

وكان ﷺ إذا هبت الريح جثا على ركبتيه وقال: «اللهم اجعلها رحمة، ولا تجعلها عذابا، اللهم اجعلها رياحا، ولا تجعلها ريحا»^(١).

فالريح تكون منذرة، كما قال تعالى: ﴿وَفِي عَادٍ إِذْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الرِّيحَ الْعَقِيمَ ﴿٤١﴾ مَا تَذَرُ مِنْ شَيْءٍ أَنْتَ عَلَيْهِ إِلَّا جَعَلْنَاهُ كَالرَّيْمِ ﴿٤٢﴾﴾ [الذاريات].

وقال: ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمَ رِيحًا صَرْصَرًا فِي يَوْمٍ نَحْسٍ مُسْتَمِرٍّ ﴿١٩﴾﴾ [القمر].

وقال تعالى: ﴿وَأَمَّا عَادُ فَافْتَلَحُوا بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ ﴿٦﴾﴾ [الحاقة].

وقال جل شأنه: ﴿بَلْ هُوَ مَا اسْتَعْجَلْتُمْ بِهِ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٤﴾﴾ [الأحقاف: ٢٤].

أما الرياح فإنها تأتي مبشرات، كما قال تعالى: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ يُرْسِلَ الرِّيحَ مُبَشِّرَاتٍ ﴿٤٦﴾﴾ [الروم: ٤٦]، وقال: ﴿وَهُوَ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ ﴿٤٨﴾﴾ [الفرقان: ٤٨]، وقرئت، (نُشْرًا) بالنون.

الْعُنْصُرُ الثَّالِثُ مِنْ عُنَاصِرِ الْقُرْآنِ الْمَكِّيِّ فِي السُّورَةِ

عُنْصُرُ الْإِيمَانِ بِالْيَوْمِ الْآخِرِ

٢٣- ﴿وَإِنَّا لَنَحْنُ نُحْيِي وَنُمِيتُ وَنَحْنُ الْوَارِثُونَ ﴿١٣﴾﴾

وقد جاء هذا العنصر في ثلاث آيات متوالية هنا، وفي الآية الخامسة والثمانين، وما بعدها من آخر السورة، وبعد أن بين سبحانه قدرته في إحياء الأرض بالمطر، أعقب ذلك بذكر قدرته سبحانه في إحياء الخلائق جميعا وإماتتهم، وبين جل شأنه أنه الباقي بعد فناء جميع الموجودات ﴿إِنَّا نَحْنُ نَرِثُ الْأَرْضَ وَمَنْ عَلَيْهَا وَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ ﴿٤٢﴾﴾ [مريم] ﴿وَإِنَّا لَنَحْنُ نُحْيِي وَنُمِيتُ وَإِلَيْنَا الْمَصِيرُ ﴿٤٣﴾﴾ [ق].

فهو سبحانه يحيي الميت بخلقه من العدم إلى الوجود، ويميت الحي بعد انقضاء أجله، فيسلب الحياة عنه، ثم يبعثه يوم القيامة، وهو سبحانه الوارث لهذا الكون، وما فيه بعد فناء خلقه؛ فكل شيء هالك إلا وجهه. قال تعالى:

(١) ابن مردويه عن أبي هريرة وعن ابن عباس عند البيهقي في «المعرفة» (٢٠٢٩) والشافعي في «شفاء العي» (٨٧٢). وقد ضعفه الألباني في ضعيف الجامع الصغير برقم (٤٤٦١).

٢٤ - ﴿وَلَقَدْ عَلِمْنَا الْمُسْتَقْدِمِينَ مِنْكُمْ وَلَقَدْ عَلِمْنَا الْمُسْتَعْرِينَ﴾

ومن لوازم قدرة الله تعالى في إحياء الخلائق وإماتتهم، عِلْمُهُ تعالى بمن تقدم، أو تأخر من الأحياء والأموات، وعِلْمُهُ بمن هلك من الأمم البائدة، ومن بقي منهم، وعِلْمُهُ بالقرون السابقة واللاحقة، وعِلْمُهُ بما تنقص الأرض منهم، وما تفرق من أجزائهم.

والمستقدمون: هم الذين سبقوا الأحياء إلى الموت أو الهلاك.

والمستأخرون: هم الذين تأخروا، وبقوا بعد انقراض غيرهم إلى أجلٍ يأتي.

عن جابر بن عبد الله رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «خير صفوف الرجال مُقَدِّمُهَا، وشرها مؤخِّرها، وخير صفوف النساء آخرها، وشرها مُقَدِّمُهَا»^(١).

وعن البراء بن عازب رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «إن الله وملائكته يصلون على الصف الأول»^(٢)، وفي لفظ: «على الصفوف الأولى».

وفي حديث عامر بن مسعود القرشي رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «لو يعلم الناس ما في الصف الأول، ما صفوا فيه إلا بقرعة»^(٣).

المعنى: أي قد علمنا من مات منكم أو هلك، من الأفراد والأمم، من ذرية آدم، ويعلم مَنْ هو حيٌّ، وَمَنْ سيأتي إلى يوم القيامة.

ويرشح هذا المعنى الآية التي قبلها؛ فهي تتحدث عن الحياة والموت، وكذا الآية التي بعدها؛ وهي تتحدث عن الحشر بعد الموت.

ومن لوازم هذا المعنى إحاطة علم الله تعالى بكل شيء في هذا الكون: السابق منه،

(١) صحيح «سنن ابن ماجه» (٨٢٠) وابن أبي شيبة (٣٧٩/١) و«المسند» (١٤١٢٣، ١٤٥٥١)، صحيح لغیره وهو حديث صحيح عن أبي هريرة كما في المسند (٧٣٦٢) وصحيح أبي داود (٤٨١) وصحيح ابن ماجه (٨١٩) وصحيح الترغيب (٤٨٨).

(٢) «صحيح سنن أبي داود» (٦١٨) والحاكم (٥٧٢/١) وابن خزيمة (١٥٥١) وابن ماجه (٩٩٧) وصحيح ابن ماجه (٨١٦)، وانظر (٨١٨) وابن أبي شيبة (٣٧٨/١) والدارمي (٢٨٩/١) و«المسند» (١٨٥١٨). والمشكاة (١١٠١).

(٣) ابن أبي شيبة (٣٧٨/١)، وعن أبي هريرة في صحيح ابن ماجه (٨١٧) وصحيح الترغيب (٤٨٧).

واللاحق؛ فهو سبحانه يعلم الصفوف الأولى ممن تقدم إلى الصلاة، ويعلم من تأخر عنها من أهل الصفوف الأخرى، ويعلم أيضًا من تقدم في ساحة القتال، ومن تأخر، ويعلم من يتقدم في فعل الخيرات والمبرّات ومن يتأخر، ويعلم من تقدم على غيره في الولادة والموت، ومن تأخر، فعلمه تعالى محيط شامل بكل شيء. قال تعالى:

٢٥- ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَحْشُرُهُمْ إِنَّهُمْ حَكِيمٌ عَلِيمٌ﴾ ﴿٢٥﴾

والله تعالى لم يخلق الخلق عبثًا، ولم يجعل الموت والحياة عبثًا، فلا يستوي الكافر والمؤمن، ولا الطائع والعاصي، بل لا بد من الحشر والنشر، والحساب والجزاء. ﴿لِيَجْزِيَ الَّذِينَ أَسْتَوُوا بِمَا عَمِلُوا وَيَجْزِيَ الَّذِينَ أَحْسَنُوا بِالْحَسَنِ﴾ [النجم: ٣١].

﴿الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ [الملك: ٢]

﴿وَإِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَحْشُرُهُمْ﴾ للحساب والجزاء، يحشر الطائعين والعاصين، ويحشر الأولين والآخرين، كل منهم يُحشر على ما مات عليه.

في صحيح مسلم عن جابر رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «يبعث كل عبد على ما مات عليه»^(١) ﴿إِنَّهُمْ حَكِيمٌ﴾ في تدبيره يضع الأشياء في موضعها ﴿عَلِيمٌ﴾ بأحوال خلقه لا يخفى عليه منها شيء.

المَادَّةُ الَّتِي خُلِقَ مِنْهَا آدَمُ عليه السلام

٢٦- ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ صَلْصَلٍ مِنْ حَمَإٍ مَسْنُونٍ﴾ ﴿٢٦﴾

وتمضي الآيات في الاستدلال على توحيد الله تعالى، وعظيم قدرته، فتتناول خلق الإنسان، وخلق الجن، وقصة البشرية الكبرى: قصة خلق آدم، وعوامل الهدى والضلال في الإنسان، واستخلافه في الأرض، وتمكينه منها، وقد سبق ذكر هذه القصة في سورتي: البقرة، والأعراف، مع الاختلاف بينها في أسلوب العرض، والأداء والهدف:

ففي سورة البقرة تركز القصة على استخلاف آدم في الأرض، والتمكين له فيها.

(١) «صحيح مسلم» برقم (٢٨٧٨).

وفي سورة الأعراف تركّز على عداوة الشيطان لآدم.

وفي هذه السورة تركّز على تكوين آدم من التراب والروح، وعلى سر وجود الهدى والضلال فيه؛ فالطاعة تنتج عن نفخة الروح في الإنسان، والمعصية تنتج من تكوين جسده من تربة الأرض المختلفة، فالنفخة فيه من روح الله تجعله أهلاً للاتصال بالله تعالى، وللتلقي عنه سبحانه.

والطين، والحمأ المسنون، يخلد بالإنسان إلى الأرض، ويجعله يتردى إلى أسفل سافلين. والروح والجسد، أو العقل والشهوة يتنازعان الإنسان إلى الخير أو الشر، فإما أن يلتحق بأفق الملائكة، وإما أن يلتحق بأفق البهائم.

وتمضي الآية الأولى من هذه القصة، في بيان المادة التي خُلق منها جسد الإنسان، أي: خلقنا الإنسان من طين يابس، إذا نُقر عليه سُمع له صوت، وهذا الطين اليابس هو طين أسود قد تغيّر لونه وريحه من طول مكثه، فصار كالفخار، أو الخزف دون أن تمسه النار، كما قال تعالى: ﴿خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ صَلْصَالٍ كَالْفَخَّارِ﴾ [الرحمن]

وقد ميّز الله آدم وكرّمه على سائر خلقه بأن خلقه بيده سبحانه، كما جاء ذلك في قوله تعالى: ﴿قَالَ يَإَيُّهَا إِبْرَاهِيمُ مَا مَنَعَكَ أَنْ تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِإِيدِي﴾ [ص: ٧٥].

قال المفسرون: إن الله تعالى لما أراد خلق آدم قبض قبضة من تراب الأرض، وكانت هذه القبضة من شتى البقاع، من الأرض الخصبة، والأرض الجذبة، والأرض المثمرة، والأرض التي لا تثمر، فجاءت طباع الناس وفق اختلاف التربة، ونوازع الشر في الإنسان، ترجع إلى نوع التربة التي خُلق منها، ونوازع الخير فيه، ترجع إلى هذه الروح العلوية التي نُفخت في آدم، فصار بشراً سوياً.

وقد بيّن الله سبحانه المادة التي خُلق منها البشر؛ ليُعلم أن شرف الموجودات بمزاياها، وليس بمادة تركيبها، والقرآن الكريم يبيّن أن آدم عليه السلام قد مرّ بأربع مراحل في خلقه:

١- فقد خلقه الله سبحانه من تراب، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِنْدَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ [آل عمران].

وقال: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ إِذَا أَنْتُمْ بَشَرٌ تَنْتَشِرُونَ﴾ [الروم].

وفي الأثر: «إن الله خلق آدم من جميع أنواع التراب: الطيب والخبيث، والأسود والأحمر، والسهل والحزن، فجاء بنو آدم على قدر ذلك».

٢- ثم بُلّ هذا التراب بالماء، فصار طيناً لزجاً متماسكاً ﴿إِنَّا خَلَقْنَاهُمْ مِنْ طِينٍ لَازِبٍ﴾ [الصافات: ١١] ﴿الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ وَبَدَأَ خَلْقَ الْإِنْسَانِ مِنْ طِينٍ﴾ [السجدة: ٧].

٣- ثم ترك هذا الطين حتى تغيرت رائحته واسودَّ، فصار حمماً مسنوناً.

فالحمأ: هو الطين إذا اسودَّ، وتغيّرت رائحته.

والمسنون: هو الذي طالت مدة مكثه.

٤- ثم تُرك هذا الحمأ المسنون، حتى جفَّ وبيس، وصار صلصالاً أجوف كالنفخار، إذا نفخته بيدك تسمع له صوتاً، كما جاء في هذه الآية: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ صَلْصَالٍ مِنْ حَمَإٍ مَسْنُونٍ﴾ [الأنبياء: ١٧].

فهذه أربع مراحل لخلق آدم: تراب، ثم طين، ثم حمأ، ثم صلصال، ثم نفخ الله فيه من روحه، أي: أوجد فيه الروح التي جعلته بشراً سوياً في أحسن تقويم، فجعلت هذا التراب، أو هذا الطين يتكلم ويتحرك، وصار لحمًا وعظماً، ثم إنساناً كرّمه الله وفضّله.

قال ابن عباس رضي الله عنهما: ﴿خلق آدم من أديم الأرض، فألقي على الأرض حتى صار طيناً لازباً، وهو الطين الملتزق، ثم تُرك حتى صار حمماً مسنوناً، وهو المُتَّيْن، ثم خلقه الله بيده، فكان أربعين يوماً مصوراً حتى يبس، فصار صلصالاً كالنفخار إذا ضرب عليه صلصل، فذلك الصلصال، والنفخار مثل ذلك^(١)».

أما خلق ذرية آدم: فكانت من نطفة، ثم علقه، ثم مضغة، ثم عظم، ثم لحم، ثم أرسل الله إليه الملك فنفخ فيه من روحه، ثم صار بشراً سوياً ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ طِينٍ﴾ [الأنبياء: ٢١] هي المراحل التي سبق ذكرها ﴿ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَكِينٍ﴾ [الأنبياء: ٢٢] ﴿ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَامًا فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْمًا ثُمَّ أَنْشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ﴾ [المؤمنون: ١٢-١٤].

(١) أخرجه ابن عساکر (٧/ ٣٨٣).

﴿الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ وَبَدَأَ خَلْقَ الْإِنسَانِ مِن طِينٍ ﴿٧﴾ ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُ مِن سُلَالَةٍ مِّن مَّاءٍ مَّهِينٍ ﴿٨﴾ ثُمَّ سَوَّاهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِن رُّوحِهِ﴾ [السجدة].

المَادَّةُ الَّتِي خُلِقَ مِنْهَا الْجِنُّ وَالْمَادَّةُ الَّتِي خُلِقَتْ مِنْهَا الْمَلَائِكَةُ

٢٧- ﴿وَالْجَانَّ خَلَقْتُهُ مِن قَبْلُ مِن نَّارِ السَّمُورِ﴾

وخلق الله سبحانه قبل آدم، الجان؛ لأنه مخلوق من عنصر الحرارة، والحرارة أسبق في الخلق من الرطوبة، والجان أبو الجن، كآدم أبو البشر، والجن منهم: المؤمن والكافر، ومنهم الصالح والطالح، يأكلون ويشربون، ويتناكحون ويتناسلون، وَيَحْيَوْنَ ويموتون، وَسُمُّوا جَنًّا؛ لاستتارهم عن الأعين.

والكَفَرَةُ من الجن هم المردة العتاة، أي: الشيطان المارد، وأبوهم إبليس، وهم من نوع الجن على الصحيح، والشياطين لا يموتون إلا إذا مات إبليس.

والوقت أو المدة التي يموت فيها إبليس، هي خلال أربعين عامًا بين النفختين، فقد طلب إبليس من ربه الإمهال إلى يوم البعث، فأمره الله إلى أن تفتن الخلائق، ثم يموت معهم، ويكون هذا عند النفخة الأولى، ثم يحيا مع جميع الخلق عند النفخة الثانية، وبين النفختين أربعون عامًا.

وهكذا خلق الله الجان من نار، هو نار السموم، أي: النار الحارة الملتهبة التي لا دخان لها، وهي نار قوية تَنْفُذُ في المسام.

أخرج الطبري بسنده عن قتادة أن إبليس خُلِقَ قبل آدم، آخر الخلق، فحسده عدو الله إبليس على ما أعطاه الله من كرامة، فقال: أنا ناري، وهذا طيني، فكانت السجدة لآدم، والطاعة لله تعالى.

أما الملائكة فقد بيّن النبي ﷺ أنهم خُلِقُوا من مادة أخرى، خلقوا من النور، جاء في الحديث عن عائشة ؓ أن النبي ﷺ قال: «خُلِقَتِ الْمَلَائِكَةُ من نور، وَخُلِقَتِ الْجَانُّ من مارج من نار، وَخُلِقَ آدَمُ مما وُصِفَ لكم»^(١) وهم لا يتناسلون، ولا يأكلون كالجن.

(١) «صحيح مسلم» برقم (٢٩٩٦) عن عائشة ؓ.

قِصَّةُ امْتِنَاعِ إِبْلِيسَ مِنَ السُّجُودِ لِآدَمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ

٢٨- ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي خَلِيقٌ بَشَرًا مِّنْ صَلْصَلٍ مِّنْ حَمَلٍ مَّسْنُونٍ ﴿٢٨﴾﴾

ولما خلق الله - سبحانه - آدم وجه الأمر إلى من في السموات، وهم الملائكة، وكان معهم إبليس، فأمرهم بالسجود تكريماً لآدم، فسجد الملائكة كلهم، وامتنع إبليس، وكان قبل ذلك معروفاً بكثرة العبادة، حتى كان يقال عنه: طاووس الملائكة.

والقرآن قد صرح بأن إبليس لم يكن من الملائكة كما في قوله تعالى: ﴿إِلَّا إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ﴾ [الكهف: ٥٠] فهو مخلوق من مادة أخرى تختلف عن المادة التي خلقت منها الملائكة، وهم ﴿لَا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ [التحریم: ٦].

ولما أمر الله الملائكة بالسجود لآدم، سجدوا جميعاً إلا إبليس فقد أبى، وامتنع عن أمر ربه، وخرج عن طاعة الله سبحانه، ولو كان ملكاً من الملائكة، ما كان في وسعه أن يعصي الله ﷻ.

فاذكر - يا محمد - وقت أن وجه ربك الخطاب إلى الملائكة، وكان معهم إبليس، فقال لهم: إني خالق إنساناً من طين يابس، طين أسود متغير اللون، وقد ذكر الله لهم المادة التي سيخلق منها هذا الإنسان؛ ليعلموا أن شرف المخلوق ليس في المادة التي خلق منها، وإنما بما حباه الله من مزايا وتكریم، وأدُلُّ شيء على ذلك أن هذا المخلوق تفرَّد بخلق الله له بيديه دون سائر المخلوقات. قال تعالى:

٢٩- ﴿فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُوا لَهُم سَاجِدِينَ ﴿٢٩﴾﴾

فإذا سويته، وأكملت صورته، وأتممت خلقه، وجعلت فيه الروح فاسجدوا له، ولفظ: ﴿فَقَعُوا﴾ وصف لحالة السجود، وهو الوقوع على الأرض دون تعظيم، فهو سجد تحية، لا سجد عبادة، وقد حرّم الإسلام السجود لغير الله تعالى؛ لمنع ذريعة الشرك بالله تعالى، والملائكة معصومون من أن يتطرق إليهم الشرك، وهم عالم علوي؛ فلا تقاس أحكامهم على تكاليف عالم الأرض، ولم يكن السجود قبل الإسلام محظوراً، فقد سجد يعقوب وأبناؤه ليوסף وهم أهل إيمان، والسجود لآدم بأمر الله سبحانه هو سجد لله في الحقيقة. قال تعالى:

٣٠، ٣١- ﴿فَسَجَدَ الْمَلَائِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ ﴿٣٠﴾ إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى أَنْ يَكُونَ مَعَ السَّاجِدِينَ﴾

أي فسجد الملائكة كلهم كما أمرهم ربهم، ولم يتخلف منهم أحد.

وأجمعون يعني: أنهم سجدوا دفعة واحدة في وقت واحد، ولم يتأخر منهم أحد.

ومجيء لفظ: ﴿كُلُّهُمْ﴾ للدلالة على سجودهم جميعاً مرة واحدة.

ولفظ: ﴿أَجْمَعُونَ﴾ للدلالة على أنه لم يتخلف منهم أحد، إلا إبليس فقد استكبر، وامتنع عن السجود لآدم مع الملائكة الساجدين؛ حسداً، وكفراً، وعناداً، وافتخاراً بالباطل؛ بسبب الغرور، والتعاضم، ودعوى أنه أفضل من آدم.

وفي قوله سبحانه: ﴿أَبَى وَأَسْتَكْبَرُ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ﴾ [البقرة: ٣٤]

وقوله: ﴿إِلَّا إِبْلِيسَ اسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ﴾ [ص: ٧٦].

وقوله: ﴿إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى﴾ [طه: ١١٦]

وهنا ﴿أَبَى أَنْ يَكُونَ مَعَ السَّاجِدِينَ﴾. ثم يأتي استجواب الله تعالى إلى إبليس:

٣٢- ﴿قَالَ يٰٓإِبْلِيسُ مَا لَكَ أَلَّا تَكُونَ مَعَ السَّاجِدِينَ﴾ ﴿٣٢﴾

قال الله سبحانه له موبخاً، ومؤنباً: يا إبليس ما لك؟! ما الذي منعك من السجود مع الملائكة؟ وهو سبحانه أعلم، وجاء التوبيخ بهذه الصورة في قوله تعالى: ﴿مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ﴾ [الأعراف: ١٢] وقوله: ﴿مَا مَنَعَكَ أَنْ تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِإِيدِي﴾ [ص: ٧٥]

ولم يأتِ النداء باسمه إلا في هذه السورة، وهنا يرد إبليس على الاستجواب السابق:

٣٣- ﴿قَالَ لَمْ أَكُنْ لَأَسْجُدَ لِشَيْءٍ خَلَقْتُهُ مِنْ صَلْصَلٍ مِنْ حَمَلٍ مَسْنُونٍ﴾ ﴿٣٣﴾

أجاب إبليس مُظهِراً كِبَرَهُ، وحسده لآدم، بأنه لا يليق بي أن أسجد لمن هو أدنى مني منزلة، وقد خلقته من طين أسود يابس متغير اللون والرائحة، والمخلوق من الطين حقير ذميم، لا يستحق أن يسجد له من هو أفضل منه.

قالوا: إن إبليس هو أول من قاس، وقياسه فاسد؛ فقد عقد موازنة، أو مقارنة بين المادة التي خلق منها وهي النار، والمادة التي خلق منها آدم وهي الطين، وزعم بجهله أن

النار أفضل من الطين، وليس هذا بصحيح؛ فالطين متواضع، يمشي فيه الماء الذي تحيا به النفوس، ويحيا به النبات والدواب، وينبت من الطين الزرع والشجر والثمر، وعليه يحيا الخلق والبهائم، وفيه منافع لا حصر لها ﴿وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيًّا﴾ [الأنبياء: ٣٠]، والنار لها شرر، ودخان يتصاعد، ويتعالى في شكل الكبرياء، وللدخان مضاره، وللشرر والنار مضارهما، فليست النار خيرًا من الطين، كما زعم إبليس، وفي قوله تعالى: ﴿أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْنِي مِنْ نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ﴾ [ص: ٧٦].

وامتناع إبليس من السجود ليس كفرًا في حد ذاته، وإنما هو معصية، أما تعليله بأنه أفضل، وآدم مفضل، وكون الله تعالى قد كلفه أن يسجد لمن هو دونه، فإن في هذا نسبة الجور والخطأ إلى الله تعالى، ولهذا كان كافرًا، فاستحق اللعن والطرده من رحمة الله تعالى، وإخراجه من الجنة، ومقصود إبليس بهذا الرد: إثبات أنه خير من آدم، وفيه عصيان لأمر الله تعالى، وعدم الرضا بحكمه، ولهذا كانت العقوبة هي طرده من الجنة وإبعاده من رحمة الله تعالى:

٣٤، ٣٥- ﴿قَالَ فَخَرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ﴾ (٣٤) ﴿وَأَنَّ عَلَيْكَ اللَّعْنَةَ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ﴾ (٣٥)

أمر الله سبحانه إبليس أن يهبط، ويخرج من الجنة مطرودًا من كل خير، موصوفًا بالصَّغَار، والذل، والهوان؛ فهو مرجوم، ومطرود، ومبعد من رحمة الله سبحانه، وقد حَقَّتْ عليه اللعنة في السماء والأرض إلى يوم القيامة، وبعد يوم القيامة يُعَذَّبُ عَذَابًا شَدِيدًا، وقد بَيَّنَّ جَلَّ شأنه أن المراد بالخروج: الهبوط في قوله: ﴿قَالَ فَاهْبِطْ مِنْهَا فَمَا يَكُونُ لَكَ أَنْ تَتَكَبَّرَ فِيهَا فَاخْرُجْ إِنَّكَ مِنَ الصَّاغِرِينَ﴾ (٣٦) [الأعراف].

واللعنة تُصَبِّحُكَ وتمسك -يا إبليس- في الدنيا والآخرة، حتى يوم البعث والجزاء ﴿وَأَنَّ عَلَيْكَ لَعْنَتِي إِلَى يَوْمِ الدِّينِ﴾ (٧٨) [ص].

وبعد البعث والنشور يكون العذاب الشديد في النار مصاحبًا لهذه اللعنة.

حَوَارُ الشَّيْطَانِ فِي إِغْوَاءِ الْإِنْسَانِ

٣٦- ٣٨- ﴿قَالَ رَبِّ فَأَنْظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾ (٣٦) ﴿قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ الْمُنْظَرِينَ﴾ (٣٧) ﴿إِلَى يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ﴾ (٣٨)

قال إبليس: رَبِّ أَخْرِنِي فِي الدُّنْيَا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ حِينَ تَبْعَثُ عِبَادَكَ .
وإبليس يُقَرِّئُ ويعترف بوجود الله سبحانه، ولا يُنْكِرُ أن الله جَلَّ شأنه هو خالق هذا
الكون، فهو يقول: ﴿رَبِّ فَأَنْظِرْنِي﴾ يعترف بأن له ربا.

والإنسان انذني يعترف بأن له ربا، ثم لا يمثل أمره، ولا يجتنب نهيه كإبليس، لا يفيد
هذا الاعتراف، ولا هذا الإقرار، ما دام يتوجه بالعبادة لغير الله تعالى، أو يتحاكم إلى
غير شرع الله، أو يتخذ له منهجا غير منهج الله سبحانه.

لم يطلب إبليس من ربه أن يمهل؛ ليتوب، أو يندم، وإنما طلب المُهْلَة؛ كي يكيد
للإنسان ويضله.

وإبليس مقرٌّ بالربوبية، ومقرٌّ باليوم الآخر، ومعتزف بالبعث والنشور، وهو يطلب الإمهال
والتأخير إلى يوم البعث

أجابه الله تعالى بأنه قد أخَّرموته وهلاكه لا إلى يوم البعث كما طلب، بل إلى الوقت
الذي يموت فيه سائر الخلائق عند النفخة الأولى، وليس هذا الإمهال إكراما لإبليس،
وإنما هو استدراج له وزيادة في بلائه وشقائه، وفتنة للثقلين.

لقد أجاب الله سبحانه سؤال إبليس حين دعا ربه، وهو أشقى الخليقة، وفي هذا رد على
من زعم أنه ملوث بالذنوب، وأن (فُلَانًا) من الناس أصلح منه، وأقرب إلى الله تعالى،
ولهذا فهو يتوسَّل به، ويطلب منه رفع دعائه إلى الله سبحانه، وهذا هو عين ما قاله مشركو
الجاهلية: ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى﴾ [الزمر: ٣].

فالله تعالى أقرب إلى الإنسان من حبل وريده، وقد أمرنا سبحانه أن ندعوه مباشرة دون واسطة.

وهذا يختلف عن طلب الإنسان من أخيه أن يدعو له بظهر الغيب؛ فإن هذا أمر
مشروع، مع اعتقاد أن الله تعالى يجيب الجميع، ولا واسطة بينه وبين أحد من خلقه.

لقد سأل إبليس ربه أن يمد له في أجله؛ لإغواء الخلق إلى يوم البعث؛ كي ينجو من

الموت، فأجابه الله تعالى بأنه قد أخره إلى يوم موته، وفوّت عليه الفرصة التي توخاها في سؤاله، فأجلّه ممدود، ولكن إلى وقت النفخة الأولى، وهذا اليوم معلوم عند الله تعالى، ولا يعلمه أحد إلا هو، فلم ينظره الله إلى يوم البعث، ولكن أنظره إلى الوقت الذي ينتهي فيه عمر الدنيا.

ويقال: إن بين النفختين أربعين سنة، وهي المدة التي يموت فيها إبليس، ويوم البعث لا يموت فيه أحد، وفي هذا اليوم ينتهي القيام بالتكاليف الشرعية؛ فالأعمال والأقوال تنتهي، ويبقى الحساب والجزاء.

إِبْلِيسُ يَتَعَهَّدُ بِإِغْوَاءِ أَكْثَرِ بَنِي آدَمَ

٣٩، ٤٠ - ﴿قَالَ رَبِّ بِمَا أَغْوَيْتَنِي لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٣٩﴾ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمْ الْمُخْلِصِينَ^(١)﴾

قال إبليس: ربّ بسبب بُعدي عن الخير، وبسبب قدرتك على إغوائي وإضلالي بما أودعته في جِبِلَّتِي من الاستعداد للخير والشر، لأقعدنّ لبني آدم بكل طريق، فأبعدهم عن الخير، وأقربهم من الشر.

لقد حقد إبليس على آدم، وحسده على أمر الله له بالسجود تكريماً لآدم.

والحسد هو أول معصية، عصى بها إبليس ربه، فتكبر عن السجود لآدم.

والحسد والكبر، صفتان من صفات إبليس، وهما أول مَعْصِيَتَيْنِ وقعتا في الأرض، وذلك أنه لما وجد إبليس أنه قد حقت عليه اللعنة، وأنه طُرِدَ وأبعد من رحمة الله إلى يوم القيامة، وأنه سيعذب في جهنم أخذ على عاتقه أن يكيد لآدم وذريته، بغوايتهم وإضلالهم، وتزيين المعاصي والشهوات والشبهات إليهم، قال: ربّ بسبب إغوائي وإضلالي لأزيننّ لذرية آدم، وأحسنّ المعاصي والسيئات في أعينهم، وأحببهم فيها، وهو عهد قَطَعَهُ إبليس على نفسه قائلاً: ولأغوينهم ولأضلنهم أجمعين، فأحسنّ لهم القبيح، وأزیننّ لهم المنكر، وهذا كقوله تعالى: ﴿قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [ص: ٨٢]

(١) قرأ ابن كثير وأبو عمرو وابن عامر ويعقوب بكسر اللام من (المخلصين) اسم فاعل، والباقون بفتحها اسم مفعول.

وقوله: ﴿لَئِنْ أَخَّرْتَنِ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [الإسراء: ٦٢].

وقوله: ﴿قَالَ فِيمَا آغَايَيْتَنِي لِأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ ﴿١١﴾ ثُمَّ لَا تَجِدُنَهُمْ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَنْ شَمَائِلِهِمْ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ ﴿١٢﴾﴾ [الأعراف]

وقوله: ﴿لَا تَخْذَنْ مِنْ عِبَادِكَ نَصِيبًا مَفْرُوضًا﴾ [النساء: ١١٨].

ثم استثنى إبليس من الغواية من لا يملك إضلالهم، فقال: إلا عبادك الذين هديتهم، فأخلصوا لك العبادة وحدك دون سواك، أو أخلصتهم لعبادتك، فإبليس ليس له سلطان بالوسوسة والتسلط عليهم، فهو لا يملك أن يجبرهم، أو يكرههم على فعل المعاصي؛ إذ ليس في وسعه ذلك، وذلك أن الشيطان لما أوعد أنه سيضل أكثر بني آدم في قوله: ﴿وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ﴾ [الأعراف: ١٢] وقوله: ﴿لَأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [الإسراء: ٦٢]

استثنى من ذلك عباد الله المخلصين معترفاً بأنه لا قدرة له على إضلالهم، كما جاء في قوله: ﴿قَالَ فِعْزَيْكَ لَآغُوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٨٢﴾ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ ﴿٨٣﴾﴾ [ص].

ونظير ذلك قوله سبحانه: ﴿وَلَقَدْ صَدَقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُ فَاتَّبَعُوهُ إِلَّا فَرِيقًا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٢٥﴾﴾ [سبأ].

وقد بين الله أن الشيطان ليس له سبيل على إغواء عباده الذين استخلصهم الله لطاعته، وصانهم عن اقتراف ما نهى عنه، وفي هذا اعتراف من الشيطان بأن لله تعالى عبداً أقوياء في إيمانهم لا يستطيع أن يغويهم، ولا يقدر على إضلالهم، كما قال ﷺ عن عمر رضي الله عنه: «ما سلك عمر فجاً إلا وسلك الشيطان فجاً غيره».

هذا: وكيد الشيطان ضعيف، وسلطانه مجرد وسوسة، فأنت لا تراه حين يكيد لك،

وسلطانه مجرد إغواء وتزيين، ولذلك فهو يتنصل من الإنسان يوم القيامة، ويخطب في الملأ الأعلى متبرئاً ممن أغواهم، يقول: أنا أشرت إليكم فحسب، فاتبعتموني، وما فعلت لكم شيئاً أكثر من مجرد الإشارة ﴿وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ إِلَّا أَنْ دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي فَلَا تَلُومُونِي وَلُومُوا أَنْفُسَكُمْ﴾ [إبراهيم: ٢٢].

٤١ - ﴿قَالَ هَذَا صِرَاطٌ عَلَيَّ^(١) مُسْتَقِيمٌ﴾

أي: أن إغواء الشيطان لما عدا المخلصين لله في طاعتهم هو طريق الله المستقيم، وهو سُنَّةُ الله في خلقه، ولما ذكر الشيطان أنه لا طريق له لإغواء أهل الإخلاص أقوياء الإيمان، بيّن سبحانه أن الشيطان لا يتسلط إلا على من كان غاويًا، مائلًا للغواية مكتسبًا لها، دون مَنْ كَبَحَ جِماح نفسه، ونهاها عن الهوى .

والمعنى: أن الله تعالى يخبر أن طريق الله مستقيم، موصل إليه وإلى دار كرامته، وهذا الطريق هو سُنَّةُ الله في خلقه، بمعنى: أن الشيطان لا يُغوي إلا أولياءه وأتباعه، وهذا كقوله تعالى: ﴿وَعَلَى اللَّهِ قَصْدُ السَّبِيلِ﴾ [النحل: ٩] كأن الله تعالى يقول في الرد على إبليس - الذي قَسَمَ الناس إلى غاوٍ، ومخلصٍ، واعترف بعجزه عن إغواء المخلصين من عباد الله:

يا إبليس، إن عدم قدرتك على إغواء عبادي المخلصين منهج قديم من مناهجي التي اقتضتها حكمتي، وعدالتي، ورحمتي، وهو سُنَّةُ من سنني التي آليت على نفسي أن ألتزم بها مع خلقي، فلا قوة، ولا قدرة لك على إغوائهم؛ لأنهم إذا مسهم طائف من الشيطان أسرعوا بالتوبة الصادقة، فقبلتها منهم، وغفرت لهم زلتهم. قال تعالى:

٤٢ - ﴿إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ إِلَّا مَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْغَاوِينَ﴾

أي: إن عبادي الذين أخلصوا لي قد قضيت ألا أجعل للشيطان منفذًا إلى قلوبهم، لكنه يهيمن على أتباعه الذين اختاروا طريق الغواية، فأطاعوا الشيطان، ورضوا بولايته، فإنه له عليهم سلطان الغواية، وهو سلطان وسوسة وتزيين، وليس سلطان قهر وقوة، والغاوي، هو الذي عرف الحق وتركه، والضال، هو الذي ترك الحق من غير علم به، والراشد، هو الذي عرف الحق وعمل به.

(١) قرأ يعقوب بكسر اللام وضم الباء منونة من لفظ (عليّ) من علوّ الشرف، وقرأ الباقر بفتح اللام والياء من غير تنوين، أي: أن من مرّ على الصراط فقد مرّ عليّ؛ لأنه طريق يؤدي إليّ.

مَصِيرُ الْمُجْرِمِينَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ

٤٣، ٤٤ - ﴿وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمَوْعِدُهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٤٣﴾ لَهَا سَبْعَةُ أَبْوَابٍ لِكُلِّ بَابٍ مِنْهُمْ جُزْءٌ ۖ﴾ مَقْسُومٌ ﴿٤٤﴾

ثم يبين سبحانه أن الغاوين المتبعين لوسوسة الشيطان، مع إبليس وجنده في جهنم. ويبيّن جلّ شأنه أن جهنم دركات بعضها دون بعض؛ لأن الكفر درجات، والنفاق مراتب كذلك. أي: وإن النار الشديدة هي موعد إبليس، وموعد الغاوين الذين اتبعوه أجمعين، وهم الذين يسلكون طريق الضلال والغواية، وطريق الهوى والشيطان.

قال تعالى: ﴿فَكَبِّكُوا فِيهَا هُمْ وَالْغَاوُونَ ۖ وَخُنُودٌ أَيْلِسَ أَجْمَعُونَ﴾ [الشعراء]

وقال ﴿أَنشُرُوا الَّذِينَ ظَلَمُوا وَأَزْوَاجَهُمْ وَمَا كَانُوا يَعْبُدُونَ﴾ [١٢١] مِنْ دُونِ اللَّهِ فَأَمْذُومٌ إِلَى صِرَاطِ الْجَحِيمِ [الصفات] ولجهنم سبعة أبواب، كل باب أسفل من الآخر؛ فهي طبقات، أو دركات، لكل باب من أتباع إبليس جزء مقسوم، أي: نصيب معين من العذاب بحسب أعمالهم.

وأسماء أبواب النار سبعة: جهنم، والحطمة، ولظى، وسعير، وسقر، والهاوية، والجحيم؛ وأولها جهنم، ثم لظى، ثم الحطمة، ثم السعير، ثم سقر، ثم الجحيم، ثم الهاوية، والنار جماع ذلك كله.

قال ابن جريج: النار دركات بعضها دون بعض: جهنم، ثم لظى، ثم الحطمة، ثم السعير، ثم سقر، ثم الجحيم، ثم الهاوية، لكل دركة قوم يسكنونها، حسب مراتب كفرهم، فالهاوية أسفلها، وجهنم أعلاها؛ نعوذ بالله من النار، ومن عذاب النار.

وقال الضحاك: إن جهنم هي الدركة الأولى للعصاة من المؤمنين الموحدين الذين يُعَذَّبُونَ في جهنم بمقدار معاصيهم، وهم الذين لم يتوبوا منها، ولم يموتوا على الشرك، ثم يخرجون منها إلى الجنة، ويلبثهم في الدركة النصارى، وفي الدركة الثالثة اليهود، ثم الصابئون، ثم المجوس، ثم غيرهم من أهل الشرك والكفر، ثم أهل النفاق كما قال تعالى: ﴿إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي

(١) قرأ شعبة بضم الزاي من (جُزْء)، والباقون بإسكانها إلا أن أبا جعفر حذف الهمزة وشدد الزاي، ويقف عليها حمزة وهشام بخلف عنه بنقل حركة الهمزة إلى ما قبلها مع السكون المحض والرّؤم والإشمام.

الَّذِينَ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ ﴿النساء: ١٤٥﴾ أي: في الهاوية، وهي آخر الدركات.

وقيل: إن العدد الذي في الآية غير مقصود، وإن المراد بالأبواب السبعة: كثرة الأبواب من غير عدد معين، أي: أن لكل باب فريقاً يدخل منه، أو لكل طبقة من النار قسمًا خاصًا بها، وهي منازل لأهل النار بحسب أعمالهم.

وعن سَمُرَةَ بن جندب رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «إِنَّ مِنْ أَهْلِ النَّارِ مَنْ تَأْخُذُهُ النَّارُ إِلَى كَعْبِيهِ، وَمِنْهُمْ مَنْ تَأْخُذُهُ إِلَى حُجْرَتِهِ، وَمِنْهُمْ مَنْ تَأْخُذُهُ إِلَى عُنُقِهِ»، وفي لفظ: «إِلَى تَرْقُوتِهِ»^(١).

نَعِيمُ الْمُتَّقِينَ فِي دَارِ الْقَرَارِ

٤٥، ٤٦ - ﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ^(٢) ﴿٤٥﴾ ادْخُلُوهَا بِسَلَامٍ ءَامِينَ ﴿٤٦﴾﴾

ثم ذكر الله سبحانه ما يقابل أهل الغواية أتباع إبليس، وهم عباد الله الذين أخلصوا نفوسهم لله، وأطاعوه في السر والعلن، والذين اتقوا الفواحش والشرك، واتقوا طاعة الشيطان وما يدعوهم إليه من الشرك، والذنوب والمعاصي، فإنهم في بساتين، وأنهار جارية، وهم في حدائق الجنة، وأنهار الخمر، واللبن، والعسل، والماء، وعيون السلسيل، وعيون التسنيم، وعيون الكافور ﴿عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ اللَّهِ يُفَجِّرُونَهَا تَفْجِيرًا ﴿٦﴾﴾ [الإنسان] وهذه العيون غير الأنهار الكبار التي في الجنة.

ويقال لهم: ادخلوا الجنة سالمين من كل سوء، سالمين من الآفات، ومن النَّصَب ومن اللغوب، ومن المرض والحزن والهَم، وسائر المكدرات، مع سلام الملائكة عليكم، آمنين من الخوف، ومن الموت، ومن العذاب، ومن زوال هذا النعيم.

وقد جاءت آيات أخرى تصف ثواب المتقين، وتبين بعض أعمالهم الصالحة التي نالوا بها هذا الثواب الجزيل:

(١) «صحيح مسلم» برقم (٢٨٤٥).

(٢) قرأ ابن كثير وابن ذكوان وشعبة وحمزة والكسائي بكسر العين من (وعيون)، والباقون بضمها، وقرأ أبو عمرو وعاصم وحمزة وروح وقنبل وابن ذكوان بخلف عنهما بكسر التنوين من (عيون) حال وصلها ب (ادخلوها)، والباقون بالضم، وقرأ رويس بخلف عنه بضم تنوين (عيون) أدخلوها مع كسر الخاء على أنه فعل ماض مبني للمفعول، وعند البدء ب (ادخلوها) تضم همزة الوصل تبعًا لضم ثالث الفعل.

من ذلك قوله تعالى: ﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي مَقَامٍ أَمِينٍ ﴿٥١﴾ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ﴿٥٢﴾ يَلْبَسُونَ مِنْ سُنْدُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ مُتَقَابِلِينَ ﴿٥٣﴾ كَذَلِكَ وَزَوَّجْنَاهُمْ بِحُورٍ عِينٍ ﴿٥٤﴾ يَدْعُونَ فِيهَا بِكُلِّ فَاكِهَةٍ ءَامِنِينَ ﴿٥٥﴾ لَا يَدْخُلُونَ فِيهَا الْمَوْتَ إِلَّا الْمَوْتَةَ الْأُولَىٰ وَوَقَّعْنَا لَهُمْ فِيهَا مِنْ جَنَّةٍ أَلْوَنٍ ﴿٥٦﴾ فَضَلًا مِّن رَّبِّكَ ذَٰلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿٥٧﴾﴾ [الدخان].

قال عبد الله بن سلام: لما قدم رسول الله ﷺ المدينة انجفل الناس إليه، فجئت لأنظر في وجهه، فلما رأيت وجهه عرفت أن وجهه ليس بوجه كذاب، فكان أول شيء سمعته منه أن قال: «يا أيها الناس: أطعموا الطعام، وأفشوا السلام، وصلوا الأرحام، وصلوا بالليل والناس نيام، تدخلوا الجنة بسلام»^(١).

وهذه جملة من الآيات في معنى الآية:

١- وقال تعالى: ﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ﴿٥١﴾ ءَاخِذِينَ مَا ءَانَّهُمْ رَبُّهُمْ ءِئِنَّهُمْ لَكَاؤُا۟ فَلَٰذِكَ فَحَسِبْنَ ﴿٥٢﴾ كَاؤًا قَلِيلًا مِّنْ أَلِيلٍ مَا يَهْجَعُونَ ﴿٥٣﴾ وَيَا لَأَسْخَرَ هُمْ يَسْتَفْرِوْنَ ﴿٥٤﴾ وَفِي ءَمْوَالِهِمْ حَقٌّ لِّلسَّائِلِ وَالْمَرْغُومِ ﴿٥٥﴾﴾ [الذاريات].

٢- وقال تعالى: ﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَنَعِيمٍ ﴿٥٦﴾ فَاكِهِينَ بِمَا ءَانَّهُمْ رَبُّهُمْ ءِئِنَّهُمْ لَكَاؤُا۟ فَلَٰذِكَ فَحَسِبْنَ ﴿٥٧﴾ كَاؤًا قَلِيلًا مِّنْ أَلِيلٍ مَا يَهْجَعُونَ ﴿٥٨﴾ وَيَا لَأَسْخَرَ هُمْ يَسْتَفْرِوْنَ ﴿٥٩﴾ وَفِي ءَمْوَالِهِمْ حَقٌّ لِّلسَّائِلِ وَالْمَرْغُومِ ﴿٦٠﴾﴾ [الطور].

٣- وقال تعالى: ﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَنَهَرٍ ﴿٦١﴾ فِي مَقْعَدٍ صِدْقٍ عِندَ مَلِكٍ مُّقَدِّرٍ ﴿٦٢﴾﴾ [القمر].

٤- وقال تعالى: ﴿إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّاتٍ النَّعِيمِ ﴿٦٣﴾﴾ [القلم].

٥- وقال جلَّ شأنه: ﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي ظِلَالٍ وَعُيُونٍ ﴿٦٤﴾ وَفَوَاحٍ مِّمَّا يَشْتَبُونَ ﴿٦٥﴾ كَلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٦٦﴾ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴿٦٧﴾﴾ [المرسلات].

وأهل الجنة آمنون من الموت لا يكبرون، ولا يَسْقَمُونَ، ولا يغرُونَ، ولا يجوعون، ولا يتغوطون، ولا يبولون. قال تعالى:

(١) الترمذي (٢٤٨٥) و«صحيح سنن ابن ماجه» (١٠٩٧، ٢٦٣٠) والحاكم (٦٣/٣) والبيهقي في «الدلائل» (٥٣١/٢). وهو في إرواء الغليل (٢٣٩/٣) والتعليق الرغيب (٢١٤/١) وصحيح الترغيب (٦١٢) والسلسلة الصحيحة (٥٦٩).

٤٧- ﴿وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِمْ مِّنْ غِلٍّ إِخْوَانًا عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَابِلِينَ﴾ (٤٧)

وقد طَهَّرَ الله قلوب المؤمنين من الحسد، والغل، والحقد، والشحناء، والبغضاء، والعداوة، فبقى قلوبهم سالمة من كل غل وحسد.

جاء في الصحيح عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «يَخْلُصُ الْمُؤْمِنُونَ مِنَ النَّارِ، فَيُحْبَسُونَ عَلَى قَنْطَرَةٍ بَيْنَ الْجَنَّةِ وَالنَّارِ، فَيَقْصُرُ لِبَعْضِهِمْ مِنْ بَعْضٍ، مَظَالِمُ كَانَتْ بَيْنَهُمْ فِي الدُّنْيَا، حَتَّى إِذَا هُذِّبُوا وَنُقُوا أُذِنَ لَهُمْ فِي دُخُولِ الْجَنَّةِ، فَوَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ لَا أَحَدُهُمْ أَهْدَى بِمَنْزِلِهِ فِي الْجَنَّةِ مِنْهُ بِمَنْزِلِهِ كَانَ فِي الدُّنْيَا»^(١).

وقبل أن يدخلوا الجنة يقتص الله سبحانه من بعضهم لبعض، ثم تُنْقَى قلوبهم، وتُصَفَّى من جميع عداوات الدنيا، ومما فيها من البغضاء والشحناء، ثم يؤذن لهم بدخول الجنة، وهم في صفاء نفسي، ونقاء قلبي، يعيشون في الجنة إخوة متحابين في الله، متزاورين متصافحين، يجلسون على أسرة عظيمة في مواجهة بعضهم بعضاً، تواصلاً وتحابياً، ينظر بعضهم إلى بعض، ليس منهم أحد يدير قفاه ولا جنبه إلى الآخر، بل تتقابل وجوههم ينظر بعضهم إلى بعض.

قال علي بن أبي طالب رضي الله عنه: إني لأرجو أن أكون أنا وطلحة والزبير ممن قال الله فيهم: ﴿وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِمْ مِّنْ غِلٍّ إِخْوَانًا عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَابِلِينَ﴾ (٤٧)^(٢) فقال الحارث بن الأعور الهمداني، وهو شيعي جاهل: كلاً، الله أعدل من أن يجعلك وطلحة في مكان واحد، فقال علي: فلمن هذه الآية؟ لا أم لك، بفيك التراب.

ونظير هذه الآية قوله تعالى: ﴿وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِمْ مِّنْ غِلٍّ تَجْرَىٰ مِنْ تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ﴾ [الأعراف: ٤٣].

وقوله: ﴿وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَذْهَبَ عَنَّا الْحَزْنَ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ﴾ (٣٤) [فاطر].

وقد جاء وصف السرر التي يجلسون عليها بأنها موضونة، أي: منسوجة بقضبان من الذهب.

(١) «صحيح البخاري» برقم (٢٤٤٠، ٦٥٣٥) وهو عند البيهقي في «الشعب» (٣٤٥) والطبري (٧٩/١٤).

(٢) ابن أبي شيبة (٢/٢٨٢).

قال تعالى في وصف السابقين: ﴿عَلَى سُرُرٍ مَوْضُوعَةٍ ۖ مُتَكِّينَ عَلَيْهَا مُتَقَدِّمِينَ ۖ﴾ [الواقعة].
وجاء وصف هذه السُّرُر بأنها مصفوفة، في قوله تعالى: ﴿مُتَكِّينَ عَلَى سُرُرٍ مَّصْفُوفَةٍ ۖ﴾ [الطور: ٢٠].

ووصفت هذه السُّرُر بأنها مرفوعة، في قوله تعالى: ﴿فِيهَا سُرُرٌ مَّرْفُوعَةٌ ۖ﴾ [الغاشية].
وقوله: ﴿وَفُرُشٌ مَّرْفُوعَةٌ ۖ﴾ [الواقعة]

كما وُصفت هذه السُّرُر بأنها ذات أغطية خضر، وفرش حسان، وذلك في قوله تعالى:
﴿مُتَكِّينَ عَلَى رَقَفٍ خَضِرٍ وَتَبَقَرٍ حِسَانٍ ۖ﴾ [الرحمن]. قال تعالى عن أهل الجنة:

٤٨- ﴿لَا يَمَسُّهُمْ فِيهَا نَصَبٌ وَمَا هُمْ مِنْهَا بِمُخْرَجِينَ ۖ﴾

أي: أن أهل الجنة لا يمسهم فيها تعب، ولا مشقة، ولا عبادة، ولا عمل، ولا إعياء،
وهم فيها باقون أبداً، يقال لهم: يا أهل الجنة خلود بلا موت، ويا أهل النار خلود بلا
موت، كما في الحديث الصحيح.

عن أبي سعيد، وأبي هريرة ؓ أن النبي ﷺ قال: «ينادي مناد: إن لكم أن تصيحوا فلا
تسقموا أبداً، وإن لكم أن تحيوا فلا تموتوا أبداً، وإن لكم أن تشبوا فلا تهرموا أبداً، وإن
لكم أن تنعموا فلا تبأسوا أبداً»^(١).

وهم يدخلون الجنة، ولا يخرجون منها ﴿خَالِدِينَ فِيهَا لَا يَبْغُونَ عَنْهَا حِوَلًا ۖ﴾ [الكهف].

قال تعالى: ﴿الَّذِي أَطْنَا دَارَ الْمَقَامَةِ مِنْ فَضْلِهِ لَا يَمَسُّنَا فِيهَا نَصَبٌ وَلَا يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوبٌ ۖ﴾ [فاطر].

وقال تعالى: ﴿وَيُبَشِّرَ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا حَسَنًا ۖ مُتَكِّينَ
فِيهِ أَبَدًا ۖ﴾ [الكهف].

عن أبي هريرة ؓ قال: أتى جبريل النبي ﷺ، فقال: يا رسول الله، هذه خديجة قد
أتت، معها إناء فيه إدام، أو طعام، أو شراب، فإذا أتتك فاقرأ عليها السلام من ربها
ومني، وبشرها ببيت في الجنة من قصب، لا صخب فيه ولا نصب^(٢).

(١) «صحيح مسلم» برقم (٢٨٣٧).

(٢) «صحيح البخاري» برقم (٣٨٢٠) و«صحيح مسلم» برقم (٢٤٣٢).

التَّعْقِيبُ عَلَى جَزَاءِ الْمُجْرِمِينَ وَنَعِيمِ الْمُتَّقِينَ

٥٠، ٤٩ - ﴿نَبِّئِ^(١) عِبَادِيَ^(٢) أَنِّي أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴿٤٩﴾ وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ الْعَذَابُ الْأَلِيمُ﴾

بعد أن ذكر ﷻ في الآيات السابقة: النار وأهلها، والجنة وأهلها، جمع في هاتين الآيتين بين المغفرة والعذاب، والرحمة والانتقام، والوعد والوعيد؛ كي يظل العبد بين الخوف والرجاء، فلا يقنط من رحمة الله، ولا يقصّر في أداء ما كُلف به، وقَدَّم جلَّ شأنه المغفرة والرحمة على العذاب والانتقام؛ لأن الله تعالى قد سبقت رحمته غضبه، وسبق عفوهُ عقابه.

يقول الله تعالى لنيبه: أخبر عبادي أنني أنا الغفور للثائبين، الرحيم بمن رجع وأناب إليّ.

ولفظ: ﴿الْغَفُورُ﴾ جاء معرّفًا بالألف واللام، ولفظ: العذاب جاء دونها ﴿وَأَنَّ عَذَابِي﴾ فلم يقل الله سبحانه: وأنا المعذّب؛ ليتبين تغليب جانب الرحمة والمغفرة على جانب العذاب، وقد بالغ سبحانه في ذلك، فأكد المغفرة بلفظ أني، ولفظ أنا، ولم يقل مثل ذلك في العذاب، فأكد العذاب بثلاثة أشياء.

أي: وأن عذابي هو العذاب المؤلم الموجه لمن عصاني، وخالف أمري ونهبي.

قال تعالى ﴿فَيَوْمَئِذٍ لَا يُعَذِّبُ عَذَابُهُ أَحَدًا﴾ [الفجر: ٢٥] وعلى العبد ألا يتمادى في الرجاء، وأن يحذّر كل سبب يوجب له العقاب، بل ينبغي أن يكون قلبه دائماً بين الخوف والرجاء، والرغبة والرغبة، فإذا نظر إلى رحمة الله تعالى ومغفرته أحدث ذلك عنده رغبة ورجاء، وإذا نظر إلى ذنوبه ومعاصيه أحدث ذلك له خوفاً ورهبة وإقلاعاً عن الذنب.

في صحيح البخاري وغيره، عن أبي هريرة ؓ قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إن الله خلق الرحمة يوم خلقها مئة رحمة، فأمسك عنده تسعاً وتسعين رحمة، وأرسل في خلقه كلهم رحمة واحدة، فلو يعلم الكافر بكل الذي عند الله من الرحمة، لم ييأس من

(١) قرأ أبو جعفر بإبدال همزة (نبي) حرف مد وصلًا ووقفًا، ومثله حمزة وهشام عند الوقف، والباقون بهمزة ساكنة.

(٢) قرأ نافع وابن كثير وأبو عمرو وأبو جعفر بفتح ياء الإضافة وصلًا من (عبادي) و (إني أنا)، والباقون بإسكانها.

الجنة، ولو يعلم المؤمن بكل الذي عند الله من العذاب، لم يأمن النار»^(١).

وعن أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي ﷺ خرج على رهط من أصحابه وهم يتحدثون، فقال: «والذي نفسي بيده، لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلاً، ولبكيتم كثيراً» فلما انصرفنا أوحى الله إليه: يا محمد، لِمَ تُقْنَطُ عبادي؟ فرجع إليهم فقال: «أبشروا، وقاربوا، وسددوا»^(٢).

وفي إضافة العباد إلى نفسه سبحانه بقوله: ﴿نِعْمَ عِبَادِي﴾ تشريف وتعظيم لهم؛ فكل من اعترف أنه عبد لله دخل في هذا التشريف.

ولما أراد سبحانه أن يُشَرِّفَ محمداً ﷺ برحلة الإسراء، أضافه تعالى إلى نفسه في قوله: ﴿سُبْحَنَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ﴾ [الإسراء: ١] كما أضافه إلى نفسه في آيات المعراج؛ حيث قال تعالى: ﴿فَأَوْحَىٰ إِلَىٰ عَبْدِهِ مَا أَوْحَىٰ﴾ [النجم: ١٠].

وقد جمع الله في الآية بين الرحمة والعذاب، والوعد والوعيد.

مُجْمَلُ قِصَّةِ إِبْرَاهِيمَ وَلُوطَ

٥١- ﴿وَنَبِّئُهُمْ عَنْ ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ﴾

أي أخبر أمتك - أيها الرسول - بهذه القصة العجيبة، فإن في قصص الأنبياء ما يوجب العبرة والاعتداء، سيما قصة خليل الرحمن، وقد أمرنا أن نتبع ملته، وقصة ضيفه من ملائكة الله الكرام.

وفي مطلع السورة بيان أن الله سبحانه لا يهلك أهل قرية من القرى إلا في زمن محدد، لا يستقدمون عنه ولا يستأخرون، قال تعالى: ﴿وَمَا أَهْلَكْنَا مِنْ قَرْيَةٍ إِلَّا وَلَهَا كِتَابٌ مَعْلُومٌ﴾ وفي أول السورة بيان أن الملائكة لا تنزل على الرسل إلا بالوحي والرسالة، وتنزل لإهلاك قوم تمرّدوا على رُسل الله، وخرجوا عن طاعة ربهم، وامتنال أوامره؛ لتهلكهم وتعذيبهم.

وفي سورة الحجر ثلاثة أمثلة للأقوام الذين عصوا رسل الله، فأهلكهم الله، واستأصلهم عن آخرهم؛ ليكونوا عبرة لغيرهم على مر السنين والأيام، وهي قصة هلاك

(١) «صحيح البخاري» برقم (٦٤٦٩، ٦٠٠٠٢) و«صحيح مسلم» برقم (٢٧٥٢، ٢٧٥٥) والبيهقي (١٠٣٦).

(٢) البيهقي في «شعب الإيمان» و«صحيح الأدب المفرد» (١٩١).

قوم لوط، وقصة هلاك أصحاب الأيكة، وقصة هلاك قوم ثمود، وقد سبق ذِكرُ ذلك في سورة الأعراف، وسورة هود ﷻ.

وفي هذه السورة قال تعالى: ﴿وَنَبِّئُهُمْ عَنْ ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ ۝٥١﴾ أي: أخبر أمتك يا محمد عن قصة ضيوف إبراهيم خليل الرحمن، وهم الملائكة الذين نزلوا لهلاك قوم لوط ﷻ. ونظرًا لمنزلة إبراهيم ﷺ بين الرسل، فإنه لا ينبغي أن تنزل الملائكة في مكان، أو دائرة، قبل أن تبدأ بالنزول على كبير القوم، وسيد الدائرة.

الملائكة يمشرون خليل الرحمن وينذرون قوم لوط:

وكان إبراهيم ﷺ في فلسطين، ولوط ﷻ في الأردن، على مقربة منه، فنزلت الملائكة وهم: جبريل، وميكائيل، وإسرافيل، وقيل: إنهم كانوا أحد عشر ملكًا، نزلوا في صورة ضيوف من البشر، حيث بشروا إبراهيم بالولد أولًا، وكان قد بلغ من الكبر عتيًا، فتجاوز المئة من عمره، وكانت زوجته سارة عقيمًا لا تلد، وقد أوشكت على المئة من عمرها، فبشروها بغلام عليم هو إسحاق، ومن ذريته يعقوب.

ثم خرجوا من عند إبراهيم إلى قرى سدوم والمؤتفكة في شرق الأردن، وكان أهلها يأتون الذكران من العالمين، أي: يفعلون جريمة اللواط، وهي فاحشة منكرة، ومن شأنها القضاء على النوع البشري.

وبعض المجتمعات الغربية في العصر الحديث تُقرّها بتشريع برلماني، وتعتبرها حقًا من حقوق الإنسان الشخصية!

والله سبحانه بيّن عقوبة من يفعل هذه الفعلة الشنيعة؛ لبيان العبرة بعقابهم، ولفت الأنظار إلى مكان هلاكهم فقال: ﴿وَإِنَّكَ لَن تَرُونَ عَلَيْهِمْ مُّصْبِحِينَ ۝٥٢﴾ [الصافات: ١٣٧، ١٣٨] وذلك أن بحيرة لوط في الأردن - وهي موضع القرى الخمس التي خسف الله بها - قد رفعها جبريل إلى عنان السماء، وقلّبها.

وأهل الآثار في العصر الحديث وجدوا تحت هذه البحيرة، المسماة بـ (البحر الميت) هذه القرى، منقلبة، ومنكسة في أعماق الأرض!

إنها عبرة وآية قائمة إلى يوم الساعة، ولكن الناس في غفلة عن الاعتبار والاتعاظ.

والله ﷻ يُقَسِّم بِحَيَاة نَبِيهِ ﷺ أَنَّ النَّاسَ فِي سَكْرَةٍ وَغَفْلَةٍ عَنْ مِثْلِ هَذَا الْقَصَصِ .

يقول ابن عباس ؓ: ما خلق الله، ولا ذراً، ولا برأ، نفساً أقرب على الله من محمد ﷺ، وما أقسم الله تعالى بحياة أحد إلا بحياة محمد ﷺ، فقال سبحانه: ﴿لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِي سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ (٧٦) .

ومن المبادئ المقررة أن الله سبحانه يُقَسِّم بما شاء من خلقه، كما أقسم بالليل والنهار، والشمس والقمر، والضحى، وغير ذلك، وأنه لا يجوز للخلق أن يُقَسِّموا إلا بالله وحده، وتمضي الآيات في شرح قصة نزول الملائكة على إبراهيم .

١- الْمَلَائِكَةُ تُبَشِّرُ إِبْرَاهِيمَ بِإِسْحَاقَ

٥٢، ٥٣- ﴿إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ فَقَالُوا سَلَامًا قَالَ إِنَّا مِنْكُمْ وَجِلُونَ ﴿٥٦﴾ قَالُوا لَا تَؤْجِلْ إِنَّا نُبَشِّرُكَ ^(١) بِغُلَامٍ عَلِيمٍ ﴿٥٧﴾

أَعْلِمَ - يا محمد- أمتك بخبر ضيوف إبراهيم من الملائكة حين دخلوا عنده، وسلموا عليه، فردَّ عليهم السلام، وقَدَّم لهم الطعام، ولمَّا لم يأكلوا منه خاف منهم؛ لأن أكل الطعام دلالة على الأمن والأمان .

وجاء في سورة الذاريات قوله تعالى: ﴿إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ فَقَالُوا سَلَامًا قَالَ سَلَامٌ﴾ [الذاريات: ٢٥]

أي: أن إبراهيم ؑ رد عليهم التحية بمثلها، ثم قَرَّب منهم عَجُلاً كما جاء في قوله جلَّ شأنه: ﴿فَرَاغَ إِلَيْكَ أَهْلِيهِ فَبَجَاءَ يُعَجِّلُ سَمِينَ﴾ [الذاريات: ٢٦] أي: عجل حنيذ كما جاء في قوله تعالى: ﴿فَمَا لَيْكَ أَنْ جَاءَ يُعَجِّلُ خَبِيرٌ﴾ [هود: ٦٩] فوجل، أي: خاف منهم وفزع، لما امتنعوا عن الأكل، قال سبحانه: ﴿وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً﴾ [هود: ٧٠] أي: شعربخوف منهم عندئذ طمأنوه، وقالوا له: لا تفزع، ولا تخف، إنا جئنا نبشركم بقدوم غلام صغير، يرزقك الله إياه من زوجتك العقيم، يكون كثير العلم بالدين، وأحكام الشرائع حين يكبر. ﴿وَبَشَّرْنَاهُ بِإِسْحَاقَ نَبِيًّا مِّنَ الصَّالِحِينَ﴾ [الصافات: ١١٢] .

والغلام العليم هو إسحاق، والغلام الحليم الذي صبر على أمر الذبح، هو أخوه الأكبر

(١) قرأ حمزة (نُبَشِّرُكَ) بفتح النون وسكون الباء وضم الشين مخففة مضارع أبشر، وقرأ الباقون (نُبَشِّرُكَ) بضم النون وفتح الباء وكسر الشين مشددة، مضارع بَشَّرَ .

إسماعيل من هاجر، فلما بشروه هذه البشرى عجبته سارة من ذلك؛ نظرًا لكبرها، وعقمها، وكبر زوجها، وقالت: عجوز عقيم، كما في قوله تعالى: ﴿وَبَشِّرُوهُ بِغُلَامٍ عَلِيمٍ﴾ (٢٨) فَأَقْبَلَتْ أَمْرًا فِي صَرْقٍ أَي: في صيحة وضجة ﴿فَصَكَّتْ وَجْهَهَا﴾ لطمته ﴿وَقَالَتْ عَجُوزٌ عَقِيمٌ﴾ [الذاريات].

هذه البشرى كانت لامرأة إبراهيم، كما قال تعالى: ﴿وَأَمْرًا قَائِمَةً فَضَحِكْتُمْ فَبَشَّرْنَاهَا بِإِسْحَاقَ وَمِنْ وَرَاءِ إِسْحَاقَ يَعْقُوبَ﴾ (٦) قَالَتْ يَتُوبَلَّى ءَالِدٌ وَأَنَا عَجُوزٌ وَهَذَا بَعْلِي شَيْخًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عَجِيبٌ ﴿٧﴾ قَالُوا أَنْتَعْجِنِ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ رَحِمْتُ اللَّهُ وَبَرَكْنَاهُ عَلَيْكُمْ أَهْلَ الْبَيْتِ إِنَّهُ حَمِيدٌ مَجِيدٌ ﴿٧٣﴾ [هود]

أما بشرى الغلام الحليم -وهو إسماعيل- فقد جاءت في قوله تعالى: ﴿فَبَشَّرْنَاهُ بِغُلَامٍ حَلِيمٍ﴾ (١١) [الصافات] وكان ذلك قبل بشارة إسحاق بثلاثة عشر عامًا، فماذا كان رد فعل إبراهيم ببشرى الملائكة.

٥٤- ﴿قَالَ أَبَشَّرْتُمُونِي عَلَى أَنْ مَسَّنِيَ الْكِبَرُ فِيمَ يُبَشِّرُونِ﴾ (١)

قال إبراهيم متعجبًا: أبشروني بالولد وأنا كبير، وزوجتي كذلك، فبأي شيء، وبأي أعجوبة تبشرونني؟

وقد أخبر إبراهيم عن كبره في السن وقت أن وهبه الله إسماعيل، وإسحاق.

كما قال تعالى حكاية عنه: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي وَهَبَ لِي عَلَى الْكِبَرِ إِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِنَّ رَبِّي لَسَمِيعُ الدُّعَاءِ﴾ (٣٩) [إبراهيم].

كما أخبرت سارة أن إبراهيم ﷺ كان كبير السن وقت أن بشرته الملائكة بإسحاق فقالت: ﴿وَهَذَا بَعْلِي شَيْخًا﴾.

وأخبرت عن كبر سنها كذلك في قولها: ﴿ءَالِدٌ وَأَنَا عَجُوزٌ﴾ [هود: ٧٢]

وفيما حكى القرآن عنها في قوله تعالى: ﴿وَقَالَتْ عَجُوزٌ عَقِيمٌ﴾ [الذاريات: ٢٩]

(١) قرأ نافع بكسر النون مخففة من (تبشرون)، وقرأ ابن كثير بكسرها مشددة مع إشباع المد وصلًا ووقفًا، والباقيون بفتحها مخففة.

ومجيء الولد للمرأة في حدود سن المئة، لأول مرة، أمر غير عادي، وهو موضع عجب.
أجابت الملائكة إبراهيم بأن ما بشرته به حق لاشك فيه، لأن الله تعالى قادر على كل شيء:

٥٥- ﴿قَالُوا بَشِّرْنَاكَ بِالْحَقِّ فَلَا تَكُن مِّنَ الْقَانِطِينَ﴾ ﴿٥٥﴾

في هذه الآية تأكيد، وزيادة اطمئنان لإبراهيم ببشارته بالغلام العليم، فهو أمر يقيني محقق.

وفيها نهي لإبراهيم عن استبعاد ذلك، ومن شأن هذا الاستبعاد أن يؤدي إلى القنوط واليأس، وإبراهيم عليه السلام منزّه عن القنوط من رحمة الله، ولذا فإن الملائكة جاؤوا في موعظتهم له بأدب مناسب، فنهوه أن يكون من زمرة القانطين، تحذيرًا له من ذلك، كما قال تعالى لنوح عليه السلام: ﴿إِنِّيْ أَعْطَاكَ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ﴾ [هود: ٤٦].

قالت الملائكة لإبراهيم: بشرناك بالصدق الذي قضاه الله، وأعلمنا به، وهو حق لا لبس فيه، فلا تكن من اليائسين من أن يولد لك ولد على كبر سنك، أنت وزوجتك؛ فإن قدرة الله تعالى لا يعجزها شيء، وسيهيك الولد مع تقدم سنك وسن زوجتك. فأجابهم إبراهيم:

٥٦- ﴿قَالَ وَمَنْ يَقْنَطُ^(١) مِنْ رَّحْمَةِ رَبِّهِ إِلَّا الضَّالُّونَ﴾ ﴿٥٦﴾

قال إبراهيم: لم أستنكر ذلك يأسًا من رحمة الله، ولكنني أستبعد ذلك؛ لما جرت به العادة؛ فإنه لا ييأس من رحمة الله إلا القوم الكافرون.

وقد ذكّرت الملائكة إبراهيم مقامًا نسيه، فقد تعجب إبراهيم من حصول الولد له ولزوجه في هذه السن، فنفى عن نفسه رذيلة اليأس من فرج الله، وبيّن أن الذي يقنط من رحمة الله ضال، قد أخطأ طريق الصواب، كما قال تعالى على لسان يعقوب عليه السلام: ﴿إِنَّهُمْ لَا يَأْتِسُ مِنْ رَّوْحِ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ﴾ [يوسف: ٨٧] فالأمن من مكر الله، واليأس من رحمة الله، جهل بكون الله تعالى فعلاً لما يريد، قادرًا على كل شيء، يقول للشيء: كن فيكون.

(١) قرأ أبو عمرو والكسائي ويعقوب وخلف العاشر بكسر النون من (يقنط)، والباقون بفتحها، وهما لغتان.

حَوَارُ إِبْرَاهِيمَ وَالْمَلَائِكَةِ فِي شَأْنِ قَوْمِ لُوطَ:

٥٧-٦٠ - ﴿قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا الْمُرْسَلُونَ ﴿٥٧﴾ قَالُوا إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَى قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ ﴿٥٨﴾ إِلَّا ءَالَ لُوطٍ إِنَّا لَمُنَجُّوهُمْ^(١) أَجْمَعِينَ ﴿٥٩﴾ إِلَّا أَمْرَاتَهُ قَدَرْنَا إِنَّهَا لَمِنَ الْفٰئِرِينَ ﴿٦٠﴾﴾

قال إبراهيم: فما الأمر الخطير الذي جئتم من أجله أيها المرسلون، سوى هذه البشرية؟ فقد فهم إبراهيم أن من وراء البشرية أمراً آخر، فاستفسر عنه ﴿قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا الْمُرْسَلُونَ ﴿٥٧﴾﴾ فما شأنكم إذا؟ ولماذا أرسلتم؟

قالت الملائكة: إن الله تعالى قد أرسلنا لإهلاك قوم لوط المشركين الضالين، الذين يأتون الذكران من العالمين، فقد جئنا إلى هؤلاء المجرمين لإهلاكهم؛ لأننا لا ننزل إلا بأمر ربك، ولا ننزل إلا لأمر عظيم، فقد كثر فسادهم وعظم شرهم.

- وهنا استفهم إبراهيم عن مصير أتباع لوط المؤمنين به، فأجابوه: أما أتباع لوط وأهل دينه فإن الله سينجيهم، ولن يهلكهم.

وعلى هذا فإن الملائكة جاؤوا لإهلاك المجرمين مرتكبي المحظورات، أما من آمن بلوط فقد قال تعالى عنهم: ﴿إِنَّا لَمُنَجُّوهُمْ أَجْمَعِينَ﴾، وهؤلاء المؤمنون أشار إليهم القرآن في قوله تعالى على لسان الملائكة: ﴿فَمَا وَحَدَّا فِيهَا غَيْرَ بَيِّنٍ مِّنَ الْمُسْلِمِينَ ﴿٦١﴾﴾ [الذاريات].

أما امرأة لوط فقد كانت كافرة، وقد قضى الله بإهلاكها وتعذيبها مع القوم الباقين في العذاب.

وجاء إسناد القدر في الآية إلى الملائكة، في قوله تعالى على لسانهم: ﴿إِلَّا أَمْرَاتَهُ قَدَرْنَا﴾؛ لأنهم الذين يباشرون إنزال العقاب بقوم لوط، والمقدر في الحقيقة هو الله تعالى.

وهنا أخذ إبراهيم يجادل الرسل في إهلاك قوم لوط ويراجعهم، فقال تعالى له: ﴿يٰٓإِبْرٰهِيْمُ اَعْرِضْ عَنْ هٰذَا ۖ اِنَّهُ قَدْ جَآءَ اَمْرُ رَبِّكَ وَاِنَّهُمْ ءٰتِيهِمْ عَذَابٌ غَيْرُ مَرْدُوْدٍ ﴿٧٦﴾﴾ [هود: ٧٦]

(١) قرأ حمزة والكسائي ويعقوب وخلف العاشر بإسكان النون من (لمنجّوهم) مع تخفيف الجيم، والباقون بفتح النون وتشديد الجيم، والأول من أنجى والثاني من نجّى.

الْمَلَائِكَةُ فِي بَيْتِ لُوطٍ

٦١، ٦٢ - ﴿فَلَمَّا جَاءَ^(١) آلَ لُوطٍ الْمُرْسَلُونَ ﴿٦١﴾ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ مُّشْكِرُونَ ﴿٦٢﴾﴾

هذا شروع في إهلاك المجرمين، ونجاة المؤمنين؛ حيث خرجت الملائكة من عند إبراهيم عليه السلام بعد أن بشروه بالغلام، وأخبروه بتوجههم إلى لوط عليه السلام، فلما فارقوا إبراهيم، ووصلوا إلى لوط وجدهم في شكل غير معروف في القبائل التي تمر بهم؛ حيث وجدهم في صورة شباب مُرد حسان، فضاعت نفسه، وساوره الخوف عليهم من القوم، كما جاء في قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا جَاءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِئَاءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا وَقَالَ هَذَا يَوْمٌ عَصِيبٌ ﴿٧٧﴾﴾ [هود: ٧٧] وفي قوله: ﴿وَلَمَّا جَاءَتْ رُسُلُنَا إِبْرَاهِيمَ بِالْبَشْرَى قَالُوا إِنَّا مُهْلِكُوا أَهْلَ هَذِهِ الْقَرْيَةِ إِنَّا أَهْلُهَا كَانُوا ظَالِمِينَ ﴿٦١﴾﴾ [هود: ٦١].

قال لوط للملائكة إنكم قوم غير معروفين لي، فليس عليكم زيُّ السفر، ولا أنتم من أهل الحضر، ولا أعرف لأي شيء جئتم؟ وجاء ذلك أيضًا على لسان إبراهيم في قوله سبحانه: ﴿قَالَ سَلِّمْ قَوْمٌ مُّشْكِرُونَ﴾ [الذاريات: ٢٥]. ردت الملائكة على لوط:

٦٣، ٦٤ - ﴿قَالُوا بَلْ جِئْنَاكَ بِمَا كَانُوا فِيهِ يَمْتَرُونَ ﴿٦٣﴾ وَأَتَيْنَاكَ بِالْحَقِّ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ ﴿٦٤﴾﴾

قالت الملائكة للوط؛ لإدخال الطمأنينة على نفسه: لا تخف، ولا تفزع؛ فإننا قد جئنا بالعذاب الذي كان يشك فيه قومك، ولا يصدقون به، فنحن ما جئنا لإزعاجك، وما جئنا لشر، وإنما جئناك بما يسرك، ويشفي صدرك من أعدائك.

وأتيناك باليقين الذي لا شك فيه، فيما أخبرناك به من إهلاكهم، وقد كان لوط في غاية الكرب والهم؛ لأنه لا يملك وسائل لحماية ضيوفه من اعتداء قومه عليهم، قبل أن يعرف أنهم رسل الله، فكان رد الملائكة مشتملاً على تأكيدات كثيرة؛ ليزداد طمأنينة، ويزول عنه هذا الخوف.

وهنا أمر الله لوطاً أن يخرج بأهله من القرية إذا نامت العيون، حتى لا يعلم أحد بخروجه.

(١) في (جاء آل) قراءات تدور حول إسقاط الهمزة الأولى والثانية، وتسهيل الثانية أو إبدالها حرف مد.

٦٥ - ﴿فَأَسْرِ^(١) بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِّنَ اللَّيْلِ وَاتَّبِعْ أَدْبَارَهُمْ وَلَا يَلْتَفِتْ مِنْكُمْ أَحَدٌ^(٢) وَامْضُوا حَيْثُ تُؤْمَرُونَ﴾

أي قالت الملائكة للوط: فإذا جاء وقت السحر من آخر الليل، فاخرج أنت ومن آمن بك وبدعوتك، وانتهى عما نهاه الله عنه من فعل فاحشة اللواط، وهم أهلك المؤمنون بأنك رسول الله، اخرج بقومك من القرية وسر بهم بعد مرور جزء كبير من الليل، وكن خلفهم لتفقدهم؛ حتى لا يتخلف منهم أحد فينال العذاب، وهكذا (كان النبي محمد ﷺ يتخلف في المسير، فيزجي الضعيف، ويُرْدَف، ويدعو لهم)^(٣) وذلك حين يكون في غزواته.

وهكذا أمر الله لوطاً أن يواصل السير هو والمؤمنون معه، ولا يتوانى في ذلك، وقال له: احذر أن يتوقف منكم أحد أدنى توقف، حين يسمع الصيحة تنزل بالقوم فيلتفت خلفه؛ حتى لا يرى ما نزل بقومه من العذاب فيرتاع.

وكان جبريل قد أمر لوطاً أن يسير إلى قرية معينة، قيل: هي مدينة عمورية؛ حيث لم يعمل أهلها عمل قوم لوط، وقد أمره ربه أن يسرع الخطا هو والمؤمنون معه نحوها؛ ليكونوا في منجى من العذاب، ويتوجهوا في سيرهم إلى حيث أمرهم الله تعالى؛ ليكونوا في مكان آمن، ولم يرد نص صريح يحدد هذه الجهة.

وهكذا أمر الله تعالى لوطاً ﷺ أن يتبع أدبار المؤمنين من قومه، بأن يمشي خلفهم، ونهاه عن الالتفات؛ لأنه كالمهاجر الذي فرّ من العذاب، وهرب من موطنه فلا ينبغي له أن يلتفت خلفه؛ لأن من يلتفت خلفه يكون متحسراً على فراق قومه ووطنه، وعليه أن يمضي قدماً إلى حيث أمره الله.

وقد استثنى القرآن الكريم امرأة لوط، فبيّن أنها قد التفتت فأصابها حجر فقتلها، وجاء ذلك مصرحاً به في قوله تعالى: ﴿فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِّنَ اللَّيْلِ وَلَا يَلْتَفِتْ مِنْكُمْ أَحَدٌ إِلَّا أَمْرًاكَ إِنَّكَ مُصِيبُهَا مَا أَصَابَهُمْ﴾ [هود: ٨١]. قال تعالى:

(١) قرأ نافع وابن كثير وأبو جعفر بهمة وصل في (فأسر)، والباقون بهمة قطع.

(٢) قرأ خلف عن حمزة بترك الغنة في (أحد وامضوا).

(٣) من حديث جابر في «سنن أبي داود» برقم (٢٦٣٩). وقد صححه الألباني في صحيح أبي داود برقم (٢٢٩٨).

٦٦- ﴿وَقَضَيْنَا إِلَيْهِ ذَلِكَ الْأَمْرَ أَنَّ دَابِرَ هَتُولَاءِ مَقْطُوعٌ مُّصْبِحِينَ﴾ ﴿٦٦﴾

أوحى الله إلى لوط بأمرٍ قضاهُ وقدره، وهو استئصال القوم عن آخرهم، وإبادتهم في الصباح الباكر ﴿وَقَضَيْنَا إِلَيْهِ ذَلِكَ الْأَمْرَ﴾، ثم فسره بقوله: ﴿أَنَّ دَابِرَ هَتُولَاءِ مَقْطُوعٌ مُّصْبِحِينَ﴾ فعذاب قوم لوط أمر قد حكمنا به، وفرغنا منه.

والقطع: هو الإزالة والاستئصال، وفي هذا بيان أن العذاب سيمحقهم، ولا يبقى منهم أحداً؛ فدابر القوم: هو آخرهم، وإذا قُطِع الدابر فإن العذاب يكون قد أتى على أولهم وآخرهم، ويقال: قطع الله دابره، أي: استأصل شأفته، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿فَقُطِعَ دَابِرُ الْقَوْمِ الَّذِينَ ظَلَمُوا وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ ﴿٤٥﴾ [الأنعام]

وكان قطع دابرهم في الصباح الباكر ﴿إِنَّ مَوْعِدَهُمُ الصُّبْحُ أَلَسَ الصُّبْحُ بِقَرِيبٍ﴾ [هود: ٨١].

قَوْمُ لُوطٍ يُرَاوِدُونَهُ عَنْ ضَيْفِهِ:

٦٧، ٦٩- ﴿وَجَاءَ أَهْلَ الْمَدِينَةِ يَسْتَبْشِرُونَ﴾ ﴿٦٧﴾ قَالَ إِنَّ هَٰؤُلَاءِ ضَيْفِي فَلَا تَفْضَحُونِ ﴿٦٨﴾ وَأَنْفُوا

اللَّهُ وَلَا تَخْزُونِ﴾

المراد بالمدينة؟ المدينة التي فيها لوط، حيث إن أهلها أخذ بعضهم يبشر بعضاً بوجود شباب حسان في بيت لوط، فذهبوا إليه يريدون فعل الفاحشة بهم.

وفي هذه الآية بيان ما حدث من قوم لوط حين سمعوا بوجود شباب في بيت لوط؛ حيث إنه لما نزلت الملائكة على لوط، انتشر خبرهم في مدينة سدوم، فجاء أهل المدينة فرحين مستبشرين يبشر بعضهم بعضاً بضيوف لوط؛ ليأخذوهم، ويفعلوا بهم الفاحشة كما حدثتهم أنفسهم بذلك، قال تعالى: ﴿وَجَاءَهُ قَوْمُهُ يُهْرَعُونَ إِلَيْهِ وَمِنْ قَبْلُ كَانُوا يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ﴾ [هود: ٧٨].

وكانت الملائكة قد طمأننت لوطاً بأن قومه لن يصلوا إليهم بسوء؛ لأنهم رسل الله ﴿قَالُوا يَلُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَنْ يَصْلَوْا إِلَيْكَ﴾ [هود: ٨١] ولما هجموا على دار لوط، وأرادوا أن يقتحموها؛ ليدخلوا على ضيوفه خرج إليهم جبريل، وضربهم بجناحه، فطمس الله أعينهم، قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ رَاوَدُوهُ عَنْ ضَيْفِهِ فَطَمَسْنَا أَعْيُنَهُمْ﴾ [القمر: ٢٧].

(١) قرأ يعقوب بإثبات الباء وصلّاً ووفقاً من (تفضحوني)، والباقون بحذفها، ومثلها (تخزون) في الآية التالية.

قال لوط لقومه: هؤلاء ضيوفي في حمايتي، وحق على الرجل أن يكرم ضيفه، فلا تعرضوا لهم بالأذى، فتلحقوا بي الذل، والعار، والفضيحة.

وخافوا الله، واخلشوا عقابه، ولا تخجلوني، وتتسببوا في إذلالي، وخزيي، وهواني؛ بالإساءة إلى ضيوفي، فصونوا أنفسكم من عذاب الله وسخطه، وإن لم يكن فيكم خوف من الله، فلا تفضحوني في أضياف، ولا تهينوني بالتعرض لهم بالمكروه. فردّ عليه القوم:

٧٠- ﴿قَالُوا أَوْلَمْ نُنْهَكْ عَنِ الْعُلَمِيتِ﴾ ﴿٧٠﴾

قال قوم لوط له: أولم ننهك أن تدخل الغرباء من الناس إلى بيتك وتضيفهم؟ فنحن قد أذرنك، ونهينك أن تحمي أحداً، أو تدافع عن أحد، أو تكلّمنا في شأن أي أحد من العالمين إذا نحن قصدنا منه الفاحشة؟ وكانوا يقطعون الطريق على المارة، والمسافرين؛ ليفعلوا بهم الفاحشة، كما قال تعالى: ﴿أَيُّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ وَتَقْطَعُونَ السَّبِيلَ وَتَأْتُونَ فِي نَادِيَكُمُ الْمُنْكَرَ﴾ [العنكبوت: ٢٩].

وكان القوم يتعرضون بالسوء لكل أحد ينهاهم عن المنكر، وعن فعل الفاحشة، ويحجز بينهم وبين فعلها، فتعوده قائلين له: ﴿لَئِنْ لَمْ تَنْهَ يَلُوطُ لَتَكُونَ مِنَ الْمُخْرَجِينَ﴾ [الشعراء: ١٦٧] فهدوده بالخروج من بينهم؛ لأنه لم يكن منهم، وإنما قدّم إليهم مهاجراً مع عمه إبراهيم عليه السلام من العراق. ردّ عليهم لوط:

٧١- ﴿قَالَ هَؤُلَاءِ بَنَاتِي﴾ ^(١) *إِنْ كُنْتُمْ فَاعِلِينَ* ﴿٧١﴾

لم ييأس لوط عليه السلام من إصلاح قومه، ومحاولة منعهم من الفاحشة، فأرشدهم إلى ما تدعو إليه الفطرة السليمة بقضاء الوطر في طريقه المشروع، قال لوط لقومه الذين أرادوا ضيوفه بسوء: هؤلاء أزواجكم لمن هو متزوج منكم فأتوهن، وهؤلاء بنات المؤمنين من أمتي لمن لم يتزوج منكم فتزوجوهن، واتركوا الحرام إلى الحلال، واقضوا وطركم في نسائكم واكتفوا بهن، ولا تفعلوا ما حرم الله عليكم من إتيان الرجال.

وبنات الأمة بنات الرسول؛ فالرسول أب لأُمَّته، وكان زواج المؤمنين من غير المؤمنين

(١) قرأ نافع وأبو جعفر بفتح باء الإضافة وصلّاً من (بناتي إن)، والباقون بإسكانها.

جائزاً في شريعتهم .

وَيُسْتَدَلُّ عَلَى أَنَّ الْمَرَادَ بِقَوْلِ لُوطٍ : ﴿هَؤُلَاءِ بَنَاتِي﴾ أَنَّ الْمَرَادَ بِنَاتِهِ : نِسَاءَ الْقَوْمِ ، وَبَنَاتِ الْمُؤْمِنِينَ ، بِقَوْلِهِ تَعَالَى عَلَى لِسَانِ لُوطٍ ﷺ : ﴿وَتَذَرُونَ مَا خَلَقَ لَكُمْ رَبُّكُمْ مِنْ أَرْزَاقِكُمْ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ عَادُونَ﴾ [الشعراء]

ولم يكن للوط من صلبه سوى بنتين ، ويبعد أن تكونا مقصودتين بكلام لوط في عَرْضِهِ لهما على القوم ؛ لأن المتدافعين إلى بيته كانوا أعداداً كثيرة ، فلا يصلح مواجهتهم باثنتين ، وقد قال لهم لوط ذلك لما رأى هيجان القوم ، وإصرارهم على فعل الفاحشة بهم .
فلما لم يبالوا بقوله : أقسم الله له أنهم سكارى من حب الفاحشة ، فقال تعالى :

٧٢ - ﴿لَعَنَّاكَ إِنْهُمْ لَفِي سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ (٧٢)

ثم خاطب الله سبحانه رسوله ﷺ مُقْسِماً بحياته تعظيماً لشأنه ، على أن قوم لوط في غفلة شديدة ، وفي إغواء ، وضلال أذهب عقولهم وتميزهم ، فجعلهم يتركون البنات إلى البنين ، وظلوا يترددون ، ويتمادون في غيهم حتى حلت بهم صاعقة العذاب ، فقلبت قُراهم رأساً على عقب .

وهذه آية معترضة ؛ لبيان أن الموعظة لا تجدي مع الغاوين .

والعمر : بفتح العين وضمها لغتان ، إلا أن الفتح يختص بالقسم ، والله تعالى أن يقسم بما شاء من مخلوقاته ، أما المخلوق فلا يجوز له القسم إلا بالله تعالى ، وقيل : إن هذا القسم من الملائكة بحياة لوط ﷺ .

ولما عرف لوط أن ضيوفه ملائكة ، وليسوا بشراً ، زال عنه الضيق الذي يجده ، فامتثل أمر ربه ، وخرج بأهله ليلاً ، فنجوا وهلك أهل القرية :

٢ - عُقُوبَةُ قَوْمِ لُوطٍ

٧٣ ، ٧٤ - ﴿فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ مُشْرِقِينَ﴾ (٧٣) فَجَعَلْنَا عَلَيْهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِنْ سِجِّيلٍ ﴿

واستمر يقوم لوط هذا الطغيان ، حتى حلت بهم صاعقة العذاب التي ابتدأ نزولها وقت الصبح وتمامه ، كما جاء في الآية السابقة ﴿وَقَضَيْنَا إِلَيْهِ ذَلِكَ الْأَمْرَ أَنَّ دَابِرَ هَؤُلَاءِ مَقْطُوعٌ

مُصْحِحِينَ ﴿١٦﴾ [آية] وفي قوله تعالى: ﴿إِنَّ مَوْعِدَهُمُ الصُّبْحُ﴾ [هود].

وانتهى عذابهم باستئصال شأفتهم حين أشرقت الشمس، وفي الآيتين تحديد لبدء العذاب وانتهائه.

لقد أمر الله سبحانه لوطاً ﷺ أن يخرج من القرية في الليل قبل الصبح، ويأخذ معه أهل بيته، وأن يكون هو في المؤخرة؛ حتى يتفقد من يتخلف من المؤمنين، ولا يلتفت منهم أحد خلفه حين يسمع صوت الصيحة، أو الصاعقة التي تنزل بالقوم، فيهلك معهم، وحتى لا يحنّ إلى وطنه ويعود، فيصيبه ما أصاب القوم، باستثناء امرأة لوط فإنه مصيها ما أصابهم؛ لأنها كانت تدلّ القوم، وترشدهم على وجود الضيوف عند لوط ﷺ، ولم تكن على دينه، وقد جاءهم عذاب الله من الفجر إلى وقت الإشراق؛ حيث قلبت القرى الخمس على يد جبريل ﷺ، وأتبعوا بحجارة صلبة متينة؛ لتكون هذه القرى عبرة لغيرهم من أهل النظر والاعتبار.

وبحيرة لوط يمر عليها الناس في مكان معروف، وطريق واضح، لم تندثر معالمها أو تختفي، فاعتبروا يا أولي الأبواب.

فكانت العقوبة أن أمر الله تعالى جبريل ﷺ، فرفع قُرى سدوم إلى السماء، ثم قلبها، وجعل عاليها سافلها، وأتبعوا بحجارة من طين قَوِيٍّ متين متصلّب، ومعلّم من عند الله تعالى بعلامة خاصة لكل من يُرمى بحجر منها ﴿مُسَوَّمَةً عِنْدَ رَبِّكَ﴾ [هود: ٨٣]

وجاء وصف الحجارة في الآية الأخرى من قوله تعالى: ﴿سَجِيلٍ مَّنْضُودٍ﴾ [هود: ٨٢] أي: كالمطر المتتابع.

وعاد الضمير في آية سورة هود على القرية في قوله تعالى: ﴿وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا﴾ وعاد الضمير في الآية التي معنا على القوم ﴿وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ﴾.

وهكذا أخذ الله المجرمين أخذ عزيز مقتدر، فأهلكهم الله بعقوبة تناسب جريمتهم، وكما قلبوا الأوضاع في قضاء الوطر، قلب الله قراهم ونكسها، وهو عقاب لم يسبق له نظير؛ لأن فاحشتهم لم يسبقهم أحد إليها.

الاعتبار بما في قصة لوط من العبر والعظات

٧٥- ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّلْمُتَوَسِّمِينَ﴾

أشارت هذه الآية إلى ما تضمنته قصة لوط من العبر والعظات؛ ففي هذا العذاب الذي نزل بقوم لوط عبرة وعظة لمن ينظرون في عواقب الأمور من أهل الفراسة، وأصحاب الفكر السليم، والبصيرة النافذة من أولي البصر والبصيرة، وهم المؤمنون المتأملون في الأسباب والعواقب، فيدركون أن من تجرأ على معاصي الله، فإن الله تعالى يعاقبه بأشد العقوبات، سيما أهل هذه الفاحشة الشنيعة.

والمتموسمون: هم المتفرسون المثبتون الذين ينظرون في الدلائل، والتجارب السابقة فيعتبرون بها.

جاء في الأثر: «اتقوا فراسة المؤمن؛ فإنه ينظر بنور الله»^(١).

وعن أنس رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «إن لله عبادة يعرفون الناس بالتوسم»^(٢).

والفراسة على نوعين:

النوع الأول: ما دلَّ عليه ظاهر الحديث، وهو: ما يوقعه الله في قلوب أوليائه، فيعلمون به أحوال الناس بنوع من الكرامات، وإصابة الحدس، والظن، والتثبت.

والنوع الثاني: ما يحصل بدلائل التجارب والأخلاق من معرفة أحوال الناس.

قال تعالى في وصف الفقراء المتعفين: ﴿تَعْرِفُهُمْ بِسِيمَاهُمْ﴾ [البقرة: ٢٧٣].

وقال تعالى في المنافقين: ﴿وَلَوْ نَشَاءُ لَأَرَيْنَاكَهُمْ فَتَعْرِفَنَّهُمْ بِسِيمَاهُمْ﴾ [محمد: ٣٠]. قال تعالى:

(١) أخرجه الترمذي وقال: حديث غريب، «سنن الترمذي» برقم (٣١٢٧) عن أبي سعيد الخدري و«تفسير الطبري» (٣١/١٤) وأبو نعيم في «الحلية» (٩٤/٤) وقد روي عن أبي سعيد وابن عمر وثوبان وعمر بن قيس الملائي، وهو حديث ضعيف كما في «ضعيف سنن الترمذي» (٦٠٧).

(٢) رواه الطبراني في «المعجم الأوسط» برقم (٥٠٠٤) وقال الهيثمي في «مجمع الزوائد»: إسناده حسن (٢٦٨/١٠) ورواه القضاعي في «مسند الشهاب» برقم (١٠٠٥) وهو في «تفسير الطبري» (٣٢/١٤) وفي «مسند البزار» برقم (٣٦٣٢) «كشف الأستار».

٧٦، ٧٧- ﴿وَإِنَّا لَسَبِيلٌ مُّقِيمٌ ۖ ﴿٧٦﴾ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ ۖ ﴿٧٧﴾﴾

وقرى قوم لوط التي نزل بها العذاب لم تندثر، ولم تخف معالمها على أحد، إنما هي موجودة في مكان ظاهر معلوم، وآثارها باقية، تمرّون عليها في أسفاركم، قال تعالى: ﴿وَمَا قَوْمٌ لُّوطٍ مِّنْكُمْ بِبَعِيدٍ﴾ [هود: ٨٩].

والضمير في ﴿مِّنْكُمْ﴾ من سورة هود يعود على قوم شعيب؛ فإن المساكن غير بعيدة بين قوم لوط، وقوم مدين، وقال تعالى هنا: ﴿وَإِنَّا﴾ أي: قرى المؤتفكة المهلكة ﴿لَسَبِيلٌ مُّقِيمٌ﴾ أي: في طريق واضح ثابت، يراه المسافرون في مرورهم عليه، كما قال تعالى: ﴿وَلَا تَكُ لَنَمَرُونَهُمْ مَّضْمِينٌ ۖ ﴿٧٧﴾ وَيَأْتِلُ﴾ [الصافات: ١٣٧، ١٣٨] وآثار تدميرهم باقية في بحيرة لوط بوادي الأردن، فيجب الحذر من فعلهم ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ دَمَّرَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلِلْكَافِرِينَ أَمْثَلُهَا﴾ [محمد].

وتُختَم قصة لوط ببيان العبرة منها، وأن في إهلاك هؤلاء القوم دلالة بيّنة للمصدقين الموقنين بالله، الذين يتنفعون بالأدلة والمواعظ، فيعتبرون بسوء عاقبة الظالمين.

واسم الإشارة في الآية يتناول قصتي إبراهيم، ولوط، وما فيهما من العبر.

ولفظ: (آية) اسم جنس يصدق على الآيات المتعددة، ولذا أفردت هنا، وجمعت قبل ذلك في الآية الخامسة والسبعين.

ويصح أن يكون الأفراد في هذه الآية؛ نظرًا لكون قرية لوط في سبيل مقيم؛ فإن هذا في حد ذاته آية، والجمع في الآية السابقة نظرًا لقصة لوط، وإبراهيم، وعاقبة قوم لوط؛ فكل منها آية.

٣- الْأَعْتِبَارُ بِإِهْلَاكِ أَصْحَابِ الْأَيْكَةِ

٧٨، ٧٩- ﴿وَإِنْ كَانَ أَصْحَابُ الْأَيْكَةِ ظَالِمِينَ ۖ ﴿٧٨﴾ فَأَنقَمْنَا مِنْهُمْ وَإِنَّهُمَا لَبِإِمَارٍ مُّبِينٍ ۖ ﴿٧٩﴾﴾

وتأتي العبرة الثانية من إهلاك قوم شعيب، أصحاب البساتين الملتفة بالشجر، وفي هذا تذكير لهم بنعم الله عليهم، وبيان أنهم لم يشكروها ولم يقيموا بواجبها عليهم.

وكانوا قومًا كافرين، يشتهرون بتطفيف الكيل والميزان، فأرسل الله لهم شعيبًا يدعوهم

إلى توحيد الله تعالى، ثم الوفاء بالكيل والميزان، فكذبوه فأهلكهم الله.

والأَيكة: هي الغيضة ذات الشجر الملتف بعضه حول بعض، وكانوا قومًا ظالمين لأنفسهم بالكفر، وتكذيب الرسل، وتطفيف الكيل والميزان، وبخس الناس أشياءهم.

وقد ذكرت قصة أصحاب الأيكة في سورة الشعراء من قوله تعالى: ﴿كَذَّبَ أَصْحَابُ آلَيْكَوَالْمُرْسَلِينَ﴾ [الشعراء] إلى قوله: ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ﴾ [الشعراء].

وأصحاب الأيكة فريق من قوم شعيب غير أهل مدين، فأهل مدين هم سكان الحاضرة، وأصحاب الأيكة هم أهل البادية، وكان شعيب رسولًا إليهم جميعًا، وكانوا جميعًا يسكنون المنطقة التي تُسمى (معان) على حدود الحجاز والشام؛ فقوم شعيب كانوا قبيلتين: أهل مدين، وسكان الغيضة الأضليين الذين نزل عليهم شعيب عليه السلام، وهم أصحاب الأيكة.

ومدين في الأصل اسم لرجل، هو ابن إبراهيم عليه السلام، وكان إبراهيم قد نزل في مدينة الخليل، وأسكن ابنه مدين في شرق الأردن، في مكان مأهول بالسكان، فسُمي المكان باسمه.

ثم بين سبحانه عقوبتهم؛ بسبب كفرهم، وعدم تصديقهم لنبي الله شعيب عليه السلام؛ فقد انتقم الله منهم بالرجفة، وعذاب الظلة، حيث سلط الله الحر على أصحاب الأيكة، سبعة أيام؛ حتى أخذ بأنفاسهم، ثم فروا من الهلاك، وتجمعوا تحت سحابة أرسلها الله عليهم كالظلة، فبعث الله عليهم نارًا أحرقتهم جميعًا، وقد وضح الله تعالى هذا الانتقام في قوله: ﴿فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمُ عَذَابُ يَوْمِ الظُّلَّةِ إِنَّهُ كَانَ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ [الشعراء].

ثم بين سبحانه أن مساكن قوم لوط، وقوم شعيب من أصحاب الأيكة، وقوم مدين.

كلها في طريق واضح للناس معروف لديهم، يمرون عليه في أسفارهم فيعتبرون.

وسُمي الطريق إمامًا؛ لأن الناس تؤمه وتقصده.

ولفظ إمام: يطلق على الطريق، وعلى الكتاب ﴿يَوْمَ نَدْعُوا كُلَّ أُنَاسٍ بِإِمْئِهِمْ﴾ [الإسراء]:

[٧١]، ويطلق على الرجل الذي يُقتدى به.

٤- الْأَعْتَبَارُ بِإِهْلَاكِ قَوْمِ ثَمُودَ

٨٠، ٨١- ﴿وَلَقَدْ كَذَّبَ أَصْحَابُ الْحِجْرِ الْمُرْسِلِينَ ﴿٨٠﴾ وَأَنِتَّهُمْ ءَايَاتِنَا فَكَأَنُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ﴾

ثم تأتي العبرة الثالثة والأخيرة في هذه السورة من إهلاك أصحاب الحجر، وهم قوم ثمود.

والحجر: هو المكان المحاط بالحجارة، الممنوع من الناس، والمراد هنا: وادي القرى في مدائن صالح على الطريق من خيبر إلى تبوك في طريق الشام، وآثارهم موجودة وقائمة إلى يومنا هذا، وقد كان يسكنها قوم ثمود الذين عقروا الناقة، وكذبوا نبيهم صالحاً، وتكذّبهم له تكذيباً للرسول جميعاً؛ لأن من كذب رسولاً فقد كذب الرسل؛ لأن دعوتهم واحدة، وليس تكذيب بعضهم له تكذيب لشخصه، وإنما هو تكذيب لما جاءهم به من الحق.

طلب قوم ثمود من نبيهم صالح أن يأتي لهم بمعجزة دالة على صدقه، وعلى صحة ما جاء به من الحق، فأيده الله بالمعجزات، ومن بينها الناقة وفصيلها؛ حيث طلبوا منه أن يخرج لهم ناقة عشراء من صخرة صماء، فأيده الله بذلك، وأخرجها لهم من الصخرة بالموصفات المطلوبة أمام أعينهم، ومع ذلك فقد أعرضوا عنها، ولم يؤمنوا بها، ونهاهم الله أن يقربوها، أو يمسوها بسوء، وكانت هذه الناقة تسرح في بلادهم، ولها شرب، ولهم شرب يوم معلوم.

قال ابن عباس: كان في الناقة آيات: خروجها من الصخرة، ودُنُوُّ ولادتها عند خروجها، وعِظَمُ خَلْقِهَا، فلم تشبهها ناقة، وكثرة لبنها؛ حيث كان يكفيهم جميعاً، ولكنهم لم يؤمنوا بها، فعقروها، وخالفوا أمر الله تعالى، ونزل بهم العذاب بعد أن أمهلهم الله تعالى ثلاثة أيام، وقال: ﴿تَمَتَّعُوا فِي دَارِكُمْ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ ذَلِكَ وَعْدٌ غَيْرُ مَكْذُوبٍ﴾ [هود: ٦٥].

وكان السبب في عذابهم أنهم اختاروا طريق الضلال على طريق الهدى فكذبوا صالحاً وعقروا الناقة، وعتّوا عن أمر ربهم، فعاجلهم الله بالعقوبة ﴿وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَى عَلَى الْهُدَى فَأَخَذَتْهُمْ صَاعِقَةُ الْعَذَابِ الْهُونِ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿٧٧﴾ وَنَجَّيْنَا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَكَانُوا يَنْقُوتُونَ ﴿٧٨﴾﴾ [فصلت].

وكانوا قد طلبوا العذاب من نبيهم صالح تكذيباً له: ﴿فَعَقَرُوا النَّاقَةَ وَعَتَوْا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ وَقَالُوا يَصْلِحُ أَثْنَانَا بِمَا تَعَدَّانَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾ [الأعراف].

وفي حديث ابن عمر رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال عن أصحاب الحجر: «لا تدخلوا على هؤلاء المعذبين إلا أن تكونوا باكين، فإن لم تكونوا باكين فلا تدخلوا عليهم، لا يصيبكم ما أصابهم»^(١). قال تعالى في وصفهم:

٨٢-٨٤ - ﴿وَكَانُوا يَنْحِتُونَ مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا^(٢) ءَامِنِينَ ﴿٨٢﴾ فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ مُصْبِحِينَ ﴿٨٣﴾ فَمَا أَغْنَىٰ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿٨٤﴾﴾

أي وكان قوم ثمود يخافون من الخراب، ومن وقوع السقف أو الجبل عليهم، فينحتون الجبال وينقبونها، ويبنون فيها بيوتاً من الحجارة محكمة؛ ليأمنوا على أنفسهم من الكوارث، والهدم، ومن نقب اللصوص، أو الأعداء، وهذا معنى ﴿بُيُوتًا ءَامِنِينَ﴾ أي: تأمناً لأنفسهم فيها، وكانوا ينحتون الجبال أيضاً من باب الرفاهية، والترف، والزينة، ويجعلون البيوت فارهة، عالية، مرتفعة كما قال تعالى في آية أخرى: ﴿وَتَنْحِتُونَ مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا فَرِهِينَ﴾ [الشعراء].

وكان قوم ثمود أهل حضارة زراعية، وصناعية، وعمرانية، كما قال تعالى: ﴿أَتَذْكُرُونَ فِي مَا هُمْ هَٰهُنَا ءَامِنِينَ ﴿٤٦﴾ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ﴿٤٧﴾ وَزُرُوعٍ وَنَخْلٍ طَلْعُهَا هَضِيمٌ ﴿٤٨﴾﴾ [الشعراء]

وقال سبحانه: ﴿وَبَوَّأَكُمُ فِي الْأَرْضِ تَنْخُدُونَ مِنْ سُهُولِهَا قُصُورًا وَتَنْحِتُونَ الْجِبَالَ بُيُوتًا﴾ [الأعراف: ٧٤]

وقال جلّ شأنه: ﴿وَتَمُودَ الَّذِينَ جَاءُوا الصَّخَرَ بِالْوَادِ ﴿٩﴾﴾ [الفجر] أي: قطعوا الصخر بنحته بيوتاً.

وهذه الحصون التي نحتوها في الجبال، لم تمنع نزول عذاب الله بهم، فما حمتهم، ولا وقتهم؛ ففي صباح اليوم الرابع بعد انتهاء الأيام الثلاثة التي أمهلهم الله إياها، وتوعدهم بها نبي الله صالح ﷺ، وحدد لها لهم؛ كي ينزل بهم عذاب الله بعدها، صاح بهم جبريل ﷺ،

(١) البخاري (٤٣٣)، وهذا لفظه (٣٣٨٠، ٣٣٨١، ٤٧٠٢) ومسلم (٢٩٨٠) والطبري (١٤/١٠٣).

(٢) قرأ ورش وأبو عمرو وحفص وأبو جعفر ويعقوب بضم الباء من (بُيُوتًا)، والباقون بكسرهما وهما لغتان.

فارتجفت الأرض تحت أقدامهم، ونزلت بهم الصاعقة من فوقهم في الصباح الباكر، كما قال تعالى: ﴿فَأَخَذَتْهُمْ صَاعِقَةُ الْعَذَابِ الْهُونِ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ [فصلت: ١٧] وهي الطاغية التي جاء ذكرها في قوله تعالى: ﴿فَأَنَّا نُمَوِّدُ فَأَفْلِكُكُوا بِالطَّاعِغَةِ ۝﴾ [الحاقة].

- ثم إن هذه البيوت التي نحتوها في الصخور لم تدفع عنهم عذاب الله تعالى، ولم يمنعهم من هذا العذاب، ما أوتوه من جاه وقوة، ومن بناء البيوت الواقية الحصينة، ومن الأموال النفيسة؛ بسبب ما اكتسبوه من الشرك، وخبائث الأعمال:

١- عن ابن عمر رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ لما مرَّ بالحِجْر قال: «لا تدخلوا مساكن الذين ظلموا أنفسهم أن يصيبكم ما أصابهم إلا أن تكونوا باكين، ثم قَنَعَ رأسه، وأسرع السير، حتى أجاز الوادي»^(١).

٢- وعن ابن عمر رضي الله عنه أن النبي ﷺ لما نزل بالحِجْر في غزوة تبوك، أمرهم ألا يشربوا من بئرها، ولا يستقوا منها، فقالوا: قد عَجْنَا منها واستقينا، فأمرهم أن يطرحوا ذلك العجين، ويهريقوا ذلك الماء^(٢).

٣- وعن نافع عن ابن عمر أيضًا أن الناس نزلوا مع رسول الله ﷺ أرض ثمود (الحِجْر) فاستقوا من بئرها، واعتَجْنُوا به، فأمرهم رسول الله ﷺ أن يهريقوا ما استقوا من بئرها، وأن يَغْلِفُوا الإبل العجين، وأمرهم أن يستسقوا من البئر التي كانت تردها الناقة^(٣).

٤- وروى البزار من طريق عبد الله بن قدامة عن أبي ذر رضي الله عنه أنهم كانوا مع النبي ﷺ في غزوة تبوك، فأتوا على واد، فقال لهم النبي ﷺ: «إنكم بواد ملعون، فأسرعوا، وقال: من اعتجن عجينة، أو طبخ قَدْرًا فليكبها». ويؤخذ من هذا:

(أ) البكاء عند دخول الديار التي أهلك الله أهلها.

(ب) الإسراع عند المرور بها حتى يتم تجاوزها.

(ج) عدم الشرب من مياهها، ولا استعمال مائها للأكل أو الشرب.

(١) أخرجه البخاري برقم (٤٤١٩) وهذا لفظه وانظر: حديث برقم (٤٣٣) و«صحيح مسلم» برقم (٢٩٨٠).

(٢) «صحيح البخاري» برقم (٣٣٧٨) و«صحيح مسلم» (٢٩٨١).

(٣) «صحيح البخاري» برقم (٣٣٧٩).

(د) عدم استعمال مائها في الطهارة ولا الوضوء؛ لأنه لا يصلح للأكل والشرب.

الْغَايَةُ الَّتِي خَلَقَ اللَّهُ الْخَلْقَ لِأَجْلِهَا

٨٥- ﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَإِنَّ السَّاعَةَ لَآتِيَةٌ فَأَصْفَحْ الْحَبِيلَ﴾

خلق الله ﷻ الخلق؛ ليعرفوه، فإذا عرفوه ﷻ أطاعوه، وعبدوه، وذكروه، وشكروه على نعمه التي لا تُعدُّ ولا تُحصى، وعلى آلائه العظيمة في هذا الكون الكبير، وقد أعد ﷻ الجنة لمن أطاعه، والنار لمن عصاه.

والله ﷻ لم يخلق الجن والإنس عبثاً، ولا لهوًا، ولا باطلاً، إنما خلقهما لهدف كبير، وغاية عظمى؛ هي عبادة الله تعالى في الدنيا، ثم يثيب الطائعين منهم، ويعاقب العاصين في الدار الآخرة؛ لإظهار الحق بين الناس، وقيام العدل والميزان بينهم يوم القيامة ﴿لِيَجْزِيَ الَّذِينَ أَسْتَوُوا بِمَا عَمِلُوا وَيَجْزِيَ الَّذِينَ أَحْسَنُوا بِالْحَقِّ﴾ [النجم: ٣١] ذلك ما يشير إليه قول الله ﷻ: ﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ﴾

وفي آية ثانية: ﴿وَمَا بَيْنَهُمَا بَطْلًا﴾ [ص: ٢٧]

وفي آية ثالثة: ﴿وَمَا بَيْنَهُمَا لَعِينٌ﴾ [الدخان: ٣٨] بل فيهما دلالة على كمال قدرة الله تعالى، وأنه لا تنبغي العبادة إلا لله وحده، ويوم القيامة تُوفَّى كل نفس بما عملت.

فقد خلق الله السموات والأرض وما فيهما، وما بينهما، من الكائنات والمخلوقات؛ لإظهار الحق، بإثابة المؤمن، وعقاب الكافر يوم القيامة، وإقامة العدل والإنصاف بين المخلوقين.

﴿وَإِنَّ السَّاعَةَ لَآتِيَةٌ﴾ حتى يظهر فيها للناس الحق الذي من أجله خلقهم الله تعالى في الدنيا، أي: وإن ساعة إعطاء كل ذي حق حقه، ومعاقبة كل ذي باطل على باطله، آتية لا ريب فيها، فمن فاته أخذ حقه في الدنيا، فسيأخذه في الآخرة وافيًا غير منقوص ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ﴾ [المؤمنون: ١١٥]

وما دام هناك عدل وإنصاف، وقصاص من الظالم للمظلوم. ﴿فَأَصْفَحْ الْحَبِيلَ﴾ اصفح عمَّنْ أساء إليك، واصفح عمَّنْ آذاك صفحًا لا جزع ولا أذية فيه، ولا سخط.

والصفح الجميل: هو الذي يكون فيه عفو، وإحسان، وإعراض عن المسيئين، بل

ومقابلة الإساءة بالإحسان في القول والفعل .

وفي الآية تذييل لقصص الأمم المكذبة: بأن ما أصابهم من العذاب في الدنيا هو من الجزاء العادل، ومن فاته العذاب في الدنيا بامهال الله تعالى له؛ فإنه لن يفلت من عقاب الله له في الآخرة، وهذا من الحق الذي خلق الله الكون لأجله .

﴿وَأَمَّا رَبُّنَا الَّذِي نَعُدُّهُ أَوْ نَنْفِيكَ فَإِنَّا مَرْجِعُهُمْ﴾ [يونس: ٤٩].

وذكر السموات والأرض يشمل جميع الأمم التي على وجه الأرض، ويشمل الملائكة الموكلة بإنزال العذاب، ويشمل الكوارث والحوادث الكونية التي حلت بالأمم من الزلازل، والصواعق، وغيرهما .

وقد يتأخر ظهور الحق بعض الوقت، ولكنه في النهاية يأتي لا محالة، فهو لا يتخلف، ولو غاب وتأخر، ولهذا أعقب الله سبحانه خلق السموات والأرض بمجيء الساعة، والساعة هي القيامة التي افتتحت بها السورة .

وجاء ذكر الصفح الجميل بعد الساعة؛ لأنه في معنى الجزاء على العمل .

قال تعالى: ﴿فَاعْفُوا وَاصْفَحُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرٍ﴾ [البقرة: ١٠٩]

وقال: ﴿فَاصْفَحْ عَنْهُمْ وَقُلْ سَلَامٌ﴾ [الزخرف: ٨٩] . قال تعالى:

٨٦- ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ﴾

والله ﷻ خلق الخلق وهو أعلم بهم، وأعلم بشؤونهم وما يصلحهم، ويقيم أحوالهم؛ فهو الخلاق لكل شيء، العليم بأحوال عباده، وقد علم الله سبحانه أن الصفح عن أساء أفضل الأمور لإصلاح الخلق .

وهو سبحانه لا يعجزه شيء، ولا يخفى عليه أمر في الأرض ولا في السماء، ومن علم الله تعالى بشؤون خلقه أنه يعلم ما في الصفح والإعراض عن الجاهلين، وما يترتب عليه من انتشار الدعوة، ونصر الله تعالى لأوليائه، وخُذْلان أعدائه، وهداية أصحاب القلوب القاسية، ودخول الناس في دين الله .

ولذا: فإن النبي ﷺ كان كثيرًا ما يقول عن الكفار: «بل أرجو أن يخرج من أصلابهم من يعبد وحده، لا يشرك به شيئاً»^(١).

وقد تحقق هذا في ذرية ثقيف، وغيرهم، وكان الرجل يأتي حربًا على الإسلام، فيقابل بالعمفو والصفح الجميل، فيأتي غداً يقدم نفسه وماله فداء للإسلام.

السَّبْعُ الْمَثَانِي

٨٧- ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَاكَ سَبْعًا مِّنَ الْمَثَانِي وَالْفُرْقَانِ الْعَظِيمِ﴾ (٨٧)

والله ﷻ يمنُّ على رسوله ﷺ بأنه أعطاه سورة الفاتحة، سبع آيات تتكرر في كل صلاة، وأعطاه القرآن العظيم كله، وأعطاه السبع الطوال في أول القرآن الكريم.

والسبع المثاني في أرجح الأقوال هي سورة الفاتحة، وسُمِّيت كذلك؛ لأنها تُتَنَّى وتُقرأ في كل ركعة من الصلاة، بخلاف الشَّهَد، فإنه يقرأ في كل ركعتين، ويؤيد صحة هذا القول:

١- ما ثبت عن رسول الله ﷺ من حديث أبي هريرة ؓ أنه قال: «أم القرآن هي السبعُ المثاني، والقرآن العظيم»^(٢).

٢- وفي حديث أبي سعيد بن المعلى أيضاً قال: مرَّ بي النبي ﷺ وأنا أصلي فدعاني، فلم آتِه حتى صليت، ثم أتيت، فقال: «ما منعك أن تأتيني؟» فقلت: كنت أصلي، فقال: «ألم يقل الله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾ [الأنفال: ٢٤]، ثم قال: ألا أعلمك أعظم سورة في القرآن قبل أن أخرج من المسجد» فذهب النبي ﷺ ليخرج من المسجد فذكرته فقال: «الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٢﴾» هي السبع المثاني والقرآن العظيم الذي أوتيته»^(٣).

(١) من حديث طويل عن عائشة في البخاري برقم (٣٢٣١) وفي صحيح مسلم برقم (١٧٩٥).

(٢) أخرجه البخاري برقم (٤٧٠٤) وانظر أبي داود والترمذي عن أبي هريرة في «صحيح سنن أبي داود» (١٣١) و«صحيح سنن الترمذي» (٢٤٩٨).

(٣) «صحيح البخاري» برقم (٤٧٠٣)، والحديث في أبي داود (١٤٥٨) والنسائي (٩١٢) وفي الكبرى (٨٠١٠) والمسند (١٥٧٣٠) وابن ماجه (٣٧٨٥). و«أسباب النزول» للواحدي ص (١٨٩) و«زاد المسير» (٤/٤١٢) وغيرهم.

٣- وسورة الفاتحة: نصفها ثناء، ونصفها دعاء، عن أبي هريرة رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ قال: «يقول الله تبارك وتعالى: قسمت الصلاة بيني وبين عبدي نصفين، ولعبدني ما سألت»^(١).

والفاتحة أعظم سورة في كتاب الله ﷻ، وقد نزلت مرة بمكة ومرة بالمدينة، وعلى هذا فلا يمنع أن يقال عنها مكية، أو مدنية.

ومما ورد في سبب نزول سورة الفاتحة في المرة الثانية بالمدينة: أن سبع قوافل وافت من بصرى وأذرعات إلى يهود قريظة والنضير في يوم واحد، فيها أنواع من البر، والطيب، والجواهر، فقال المسلمون: لو كانت هذه الأموال لنا لتقوينا بها، وأنفقناها في سبيل الله، فأنزل الله هذه الآية وقال: أعطيتكم سبع آيات هي خير من القوافل السبع.^(٢)

ويدل على صحة ذلك قوله تعالى بعدها: ﴿وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْهُمْ﴾ [طه: ١٣١].

كما أن القرآن كله يقال له مثنائي، كما قال تعالى: ﴿اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُّتَشَبِّهًا مَّثَانًى﴾ [الزمر: ٢٣] حيث يثنى الله فيه الوعد والوعيد، ويثنى فيه الترغيب والترهيب، والبشرى والإنذار، ويعاد ذكرُ القصة فيه، وكذا ذكر الحكم، وذكرُ التشريع والنعم والأمثال؛ لأنه كتاب هداية وإرشاد للبشر.

فالمراد: آتيانك سورة الفاتحة، وسائر القرآن، وهو تعميم بعد تخصيص، أي: ولقد آتيناك أمراً عظيماً وفضلاً كبيراً جامعاً لكمالات الكتب السماوية، ويهدي للتي هي أقوم، فلا تنظر - أيها المخاطب - إلى غيره من أمور الدنيا وزينتها التي متعنا بها أنواعاً من الناس.

ومما ورد في تفسير السبع المثاني أن المراد بها: السبع سور الطوال بعد سورة الفاتحة من أول القرآن، والسورة السابعة هي سورة الأنفال مع براءة، باعتبار أنه لا بسملة بينهما، وقال ابن جبير: بل السابعة يونس.

وقال ابن عباس رضي الله عنه في السبع المثاني: هي السبع الطوال، ولم يعطهن أحد إلا النبي

(١) صحيح مسلم (٣٩٥) وأبي داود (٨٢١) والترمذي (٢٩٥٣) وابن ماجه (٨٣٨) والمسنَد (٧٨٣٦) وغيرهم.

(٢) البيهقي في «الشعب» (٢٤١٨) والطبري (١٠٩/١٤).

ﷺ وأعطى موسى منهن اثنتين^(١)، وهذا قول مرجوح؛

لأن السبع الطوال نزلت بالمدينة ما عدا الأنعام، والأعراف، وسورة الفاتحة مكية، وقيل غير ذلك، والصحيح الأول، لدلالة صحيح السنة عليه.

قال سفيان: المثاني: المئين؛ البقرة، وآل عمران، والنساء، والمائدة، والأنعام، والأعراف، وبراءة والأنفال سورة واحدة^(٢).

أَرْبَعُ تَوْجِيهَاتٍ لِلدُّعَاةِ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى

التوجيه الأول: عدم التطلع لما عند الآخرين

٨٨- ﴿لَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْهُمْ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَخَفَضْ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾

أي ولا تعجب وتطلع إلى ما متعنا به أصنافاً من الناس، فيحملك هذا على إشغال فكرك بشهوات الدنيا والانصراف عن العمل للدار الآخرة، وعدم الاستغناء برزق الله تعالى عما مَتَّعَ به الآخرين؛ لأن من أوتي القرآن، والسبع المثاني لا ينبغي له أن يمتد بصره، أو يتطلع إلى ما أعطاه الله بعض خلقه من الأموال، والمتاع من أهل الثراء.

فلا تنظر بعينيك -أيها الرسول، وأيها الداعي إلى الله- إلى ما متعنا به أصنافاً من الخلق من مُتَّعَ الدنيا من الأثرياء؛ فإن ما أعطيناك أشرف وأعظم مما متعنا به أصنافاً من الناس، ولا تحزن على كُفْرٍ مَنْ كَفَرَ، وتواضع للمؤمنين بالله ورسوله.

وهكذا، فالله ﷻ ينهى رسوله ﷺ، وينهى كل من أوتي القرآن، أو شيئاً منه، أن يعتقد أن الله ﷻ قد أعطى غيره خيراً منه.

وفي حديث أبي بكر رضي الله عنه أن من أوتي القرآن، فرأى أن أحداً أوتي أفضل منه، فقد صَغُرَ عَظِيماً، وعَظُمَ صَغِيراً؛ أي: أنه استصغر ما عَظَّمَهُ الله ﷻ؛ فكل مال، وكل متاع أعطاه الله الإنسان هو شيء صغير بالنسبة إلى القرآن العظيم.

(١)، (٢) ابن أبي حاتم كما في «تفسير ابن كثير» (٥٤٦/٤).

والله ﷻ يقول لرسوله ﷺ ليتأسى به الخلق: لا تنظر إلى غيرك من أهل الثراء، ولا تشغل قلبك بالالتفات إليهم كما في الحديث عن أبي هريرة ؓ أن النبي ﷺ قال: «انظروا إلى من هو أسفل منكم» أي: في الغنى، والمال، والرزق، «ولا تنظروا إلى من هو فوقكم، فهو أجدر أن لا تزددوا نعمة الله عليكم»^(١).

وفي لفظ آخر عن أبي هريرة أيضا أن رسول الله ﷺ قال: «إذا نظر أحدكم إلى من فُضِّل عليه في المال والخلق، فليُنظر إلى من هو أسفل منه، ممن فُضِّل عليه»^(٢).

فعليك -أيها المسلم- أن تنظر إلى من هو أعلى منك في الطاعة والخلق؛ حتى تتأسى به وتقتدي.

وأن تنظر إلى من هو أقل منك في الرزق؛ لتستريح، وتحمد الله على رزقه، وتقنع بما آتاك. قال عوف بن عبد الله بن عتبة: كنت أصحب الأغنياء، فما كان أحد أكثر مني همًا، كنت أرى دابته خيرًا من دابتي، وثوبه خيرًا من ثوبي، فلما سمعت هذا الحديث، صحبت الفقراء، فاسترحت.

وجاء في أسباب النزول أن النبي ﷺ استضاف ضيفًا، ولم يكن عنده شيء، فأرسل إلى يهودي يقترض منه شيئًا من الدقيق، فامتنع اليهودي إلا برهن، فعاد الرجل، وأخبر النبي ﷺ، فقال ﷺ: «والله إني لأمين من في الأرض، وأمين من في السماء، ولئن أسلفني، أو باعني لأؤدينَّ إليه» فلما خرج أبو رافع من عند النبي ﷺ أنزل الله سبحانه: ﴿وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْهُمْ زَهْرَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ﴾ [طه] (٣)؛ يعزي رسوله ﷺ، ويبين له أن ما فيه هذا اليهودي من سعة في المال، هو فتنة، واستدراج له.

والله ﷻ يُعَلِّم الإنسان أن لا يتطلع إلى غيره، وعليه أن يقنع بما رزقه الله؛ ففيه الخير، وفيه المصلحة والفائدة التي يعلمها علام الغيوب، كما قال تعالى: ﴿وَلَوْ بَسَطَ اللَّهُ الرِّزْقَ لِعِبَادِهِ لَبَغَوْا فِي الْأَرْضِ وَلَكِنْ يُنْزِلُ بِقَدَرٍ﴾ [الشورى: ٢٧]

(١) رواه مسلم عن أبي هريرة برقم (٢٩٦٣).

(٢) «صحيح مسلم» برقم (٢٩٦٣) و«صحيح البخاري» برقم (٦٤٩٠).

(٣) أخرجه الطبراني في «الكبير» (٣٣١/١) بإسناد ضعيف؛ لأن فيه موسى بن عبيدة.

وقال جلَّ شأنه: ﴿وَلَا تَدْنُ عَيْنُكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْهُمْ زَهْرَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ﴾ [طه].

ولا تغطنَّ فاجرًا بنعمته؛ فإنك لا تدري ما هو لاقٍ بعد موته.

التوجيه الثاني: تبليغ الدعوة والتأنيج على الله

﴿وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ﴾، ثم نهى الله نبيه عن الحزن على الكفار إذا امتنعوا عن قبول الإسلام، وبدل على ذلك كثير من الآيات، منها قوله تعالى: ﴿وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُنْ فِي ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ﴾ [النمل]، وقوله: ﴿فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسْرَتٍ﴾ [فاطر: ٨]، وقوله: ﴿فَلَا تَأْسَ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾ [المائدة: ٦٨].

وقوله: ﴿فَلَعَلَّكَ بِنِجْعِ نَفْسِكَ عَلَىٰ عَآثِرِهِمْ إِن لَّمْ يُؤْمِنُوا بِهَذَا الْحَدِيثِ أَسَفًا﴾ [الكهف: ٦]، وقوله: ﴿لَعَلَّكَ بِنِجْعِ نَفْسِكَ أَلَّا يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ﴾ [الشعراء: ٢].

فلا تهتم بعدم إيمانهم، ولا تحزن لكفرهم، ولا تُتعب نفسك في هذا.

التوجيه الثالث: الرفق في تبليغ الدعوة:

﴿وَأَخْفِضْ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ يأمر الله تعالى رسوله ﷺ أن يكون لينًا مع أصحابه، رحيماً بهم، ورؤوفاً عليهم، كما قال تعالى: ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [التوبة: ١٢٨].

وهكذا: فإن الله ﷻ يوجه رسوله ﷺ أن يخفض جناحه للمؤمنين بالله ورسوله عن طريق المودة، والتراحم، والصداقة، والتعاطف، والأخوة، ولا ينبغي أن يكون هذا إلّا بين المؤمنين.

وقد وصف الله سبحانه أصحاب محمد ﷺ بقوله: ﴿مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ﴾ [الفتح: ٢٩] فالذي يميل إلى الكافر، ويركن إليه، ويتخذ صديقاً، يفضي إليه بأسراره، ويتودد إليه ويتحبب، ويكون شديداً في معاملته بالنسبة إلى المؤمنين فإن في إيمانه دُخَانًا ونقصاً، وعليه أن يصحح عقيدته، فيحب في الله، ويبغض في الله.

التَّوَجِيهُ الرَّابِعُ: تَبْلِيغُ الدَّعْوَةِ لِلْقَرِيبِ وَالْبَعِيدِ:

٨٩- ﴿وَقُلْ إِنِّي^(١) أَنَا النَّذِيرُ الْمُبِينُ﴾

ولمَّا أمر الله تعالى رسوله ﷺ بالزهد في الدنيا، والتواضع للمؤمنين أمره بتبليغ الرسالة، والتمسك بالقدر العظيم الذي وهبه الله له؛ ففيه هداية الناس إلى الإيمان بالله تعالى، وفيه تخويف العصاة بالعقاب الذي ينزل بهم إن لم يؤمنوا، فقل لهم يا محمد أنا النذير المبين الذي أرسله الله إليكم معلمًا وهاديًا للناس، ومخوفًا من لم يؤمن بالله سبحانه أن يصيبهم مثل ما أصاب مَنْ قبلهم من الشر والعذاب.

عن أبي موسى الأشعري ؓ أن النبي ﷺ قال: «إن مثلي ومثل ما بعثني الله به، كمثلي رجل أتى قومه، فقال: يا قوم، إني رأيت الجيش بعيني، وإني أنا النذير العريان، فالنجاء، فأطاعه طائفة من قومه، فأدلجوا، فانطلقوا على مُهْلَتِهِمْ، وكذبت طائفة منهم، فأصبحوا مكانهم، فصَبَّحَهُم الجيش فأهلكهم واجتاحهم، فذلك مثل من أطاعني واتبع ما جئت به، ومثل من عصاني وكذَّب ما جئت به من الحق»^(٢).

وهكذا: أمر الله تعالى رسوله ﷺ أن يقول للناس: ﴿إِنِّي أَنَا النَّذِيرُ الْمُبِينُ﴾ الذي ينذر الناس بعذاب الله إن لم يؤمنوا، ويبشرهم برضوانه وجنته إن أطاعوه.

يستوي في هذه الدعوة: الصغير والكبير، والقريب والبعيد، والغني والفقير، والحاكم والمحكوم، والعدو والصديق.

ففي حديث جابر ؓ قال: قال رسول الله ﷺ: «مثلي ومثلكم كمثلي رجل أوقد نارًا، فجعل الجنادب والفراش يقعن فيها، وهو يذُبُّهنَّ عنها، وأنا آخذ بِحُجَزِكُمْ عن النار، وأنتم تفلتُون من يدي»^(٣).

وفي هذه الآية يأمر الله تعالى نبيه أن يقول للناس: أنا النذير المبين، كما قال رسل الله قبله، وهكذا أنزل الله عليهم كما أنزل على المختلفين في حكمهم على القرآن، قال تعالى:

(١) قرأ نافع وابن كثير وأبو عمرو وأبو جعفر بفتح ياء الإضافة وصلًا من (إني أنا)، والباقون بإسكانها.

(٢) «صحيح البخاري» برقم (٦٤٨٢) و (٧٢٨٣) و«صحيح مسلم» برقم (٢٢٨٣) وهذا لفظه.

(٣) «صحيح مسلم» برقم (٢٢٨٥).

الْمُقْتَسِمُونَ

٩٠، ٩١- ﴿كَمَا أَنْزَلْنَا عَلَى الْمُقْتَسِمِينَ ﴿٩٠﴾ الَّذِينَ جَعَلُوا الْقُرْآنَ عِضِينَ ﴿٩١﴾﴾

أي مثلما أنزلنا على الذين تفرقوا في حكمهم على القرآن، فمنهم من قال سحر، ومنهم من قال شعر، ومنهم من قال كهانة، ليصدّوا الناس عن دين الله، فقد أنزلنا على اليهود والنصارى وغيرهم كتباً فآمنوا ببعض ما فيها وكفروا ببعض.

أخرج البخاري بسنده عن ابن عباس رضي الله عنهما: ﴿كَمَا أَنْزَلْنَا عَلَى الْمُقْتَسِمِينَ ﴿٩٠﴾﴾ قال: آمنوا ببعض، وكفروا ببعض، اليهود والنصارى^(١).

روى ابن إسحاق بسنده عن ابن عباس رضي الله عنهما: أن الوليد بن المغيرة اجتمع إليه نفر من قريش، وكان ذا شرف فيهم، فقال لهم: يا معشر قريش، إنه قد حضر هذا الموسم، وإن وفود العرب ستقدّم عليكم فيه، وقد سمعوا بأمر صاحبكم هذا، فأجمعوا فيه رأياً واحداً، ولا تختلفوا، فيكذب بعضكم بعضاً، ويردّ قولكم بعضه بعضاً.

فقالوا: وأنت يا أبا عبد شمس، فقل، وأقم لنا رأياً نقول به، قال: بل أنتم قولوا لأسمع.

قالوا: نقول: كاهن، قال: ما هو بكاهن.

قالوا: فنقول: مجنون، قال: ما هو بمجنون.

قالوا: فنقول: شاعر، قال: ما هو بشاعر.

قالوا: فنقول: ساحر، قال: ما هو بساحر.

قالوا: فماذا نقول: قال: والله إن لقوله حلاوة، فما أنتم بقائلين من هذا شيئاً إلا عرف أنه باطل، وإن أقرب القول أن تقولوا: هو ساحر، فتفرقوا عنه بذلك، وأنزل الله فيه: ﴿الَّذِينَ جَعَلُوا الْقُرْآنَ عِضِينَ ﴿٩١﴾﴾^(٢).

(١) «صحيح البخاري» برقم (٤٧٠٦) وعن أبي سعيد برقم (٤٧٠٥).

(٢) «تفسير ابن كثير» (٥٤٩/٤) و«سيرة ابن هشام» (٢٧٠/١) وأبو نعيم في «دلائل النبوة» (١٨٣) والبيهقي في «الدلائل» أيضاً (١٩٩/٢).

وهم الذين قَسَمُوا القرآن، وجعلوه أقسامًا وأجزاء، فقال بعضهم: سحر، وقال بعضهم: كهانة وهكذا؛ ليصدوا الناس، ويصرفوهم عن سبيل الله.

فالمقتسمون: هم الذين قَسَمُوا القرآن فآمنوا ببعضه، وكفروا ببعضه الآخر، وهم اليهود والنصارى وغيرهم من كل من تحالف على مخالفة الأنبياء، فكذبهم، وتآمر عليهم.

ومن أمة محمد ﷺ الذين اختلفوا في شأنه أيضًا، فوصفو النبي ﷺ بأنه ساحر أو شاعر أو كاهن، وتفرقوا في شأن القرآن، فقالوا عنه مثل ذلك.

وهؤلاء هم الذين اقتسموا الطرق المؤدية إلى مكة ومنافذها في موسم الحج ليمنعوا القادمين إليها من الإيمان بمحمد ﷺ وينفروا الناس من سماع القرآن.

وهؤلاء هم الذين اقتسموا أوصاف القرآن أيضًا وتفننوا في تكذيبه.

فقد هدد ﷺ في هذه الآيات ونظائرها كل من حارب دعوة الإسلام، ووصف القرآن بأوصاف لا تليق به، فآمن ببعضه وكفر ببعض، أو أظهر بعضه وكنم بعض، كما فعل أهل الكتاب، أو صدَّ الناس عن الإيمان به واتباع هديه، أو شكَّك في الإسلام ورسول الإسلام، أو وصف القرآن بالأساطير، أو السحر، أو الكهانة، أو بأنه لا يصلح لعالم اليوم، أو أن محمدًا ﷺ أرسل إلى العرب خاصة، أو استهزأ بالقرآن وصاحب الرسالة، وسخر من دعوته، فأنذر ﷺ كل من اتصف بشيء من ذلك بعذاب شديد:

والمعنى: أنذرکم -أيها الناس- إن خرجتم عن منهج الله عذابًا، كعذاب أنزلناه بالمقتسمين.

وقد ذمَّ الله سبحانه المشبه بهم، وهم المقتسمون، وهذا يقتضي ذم المشبهين، وهم مَنْ أُنذروا بالقرآن مِنَ العصاة المخالفين المذكورين في الآية قبلها ﴿وَقُلْ إِنِّي أَنَا النَّذِيرُ الْمُبِينُ﴾ (٨٩)، أو هم من نزل عليهم القرآن، فتلقوه بالرد والتكذيب.

أي: أنزلنا عليك -يا محمد- القرآن، كما أنزلنا التوراة والإنجيل على المقتسمين، وهم الذين قَسَمُوا القرآن، فآمنوا ببعضه وكفروا ببعض من اليهود والنصارى، أو قَسَمُوا كتاب التوراة، وكتاب الإنجيل؛ فأظهروا بعضه، وكنموا بعضه.

ويدخل في معنى الآية أيضًا الذين تقاسموا، وتآمروا على قتل نبي الله صالح ﷺ، وأقسموا بالله لنبيئته وأهله، أي: يقتلون صالحًا، ويعقرون ناقته، وكل ما ماثل ذلك من كل من تآمر، وتحالف على رسل الله.

فالمراد بالمقتسمين في قول ابن عباس، والحسن، ومجاهد، وقتادة: هم اليهود، والنصارى، وقال عكرمة: هم كفار قريش، وأمثالهم من كل مكذب للقرآن.

وعلى هذا فإن للمقتسمين معنيان:

المعنى الأول على قول عكرمة: أنّ الذين جعلوا القرآن عضيّن، هم الذين تقاسموا القول فيه، فوصفوه بأنه سحر، أو شعر، أو كهانة، أو أساطير الأولين.

ووصفوا النبي ﷺ بأنه ساحر، أو شاعر، أو كاهن؛ ليصدوا الناس، ويصرفوهم عن الإيمان به.

سبب التسمية: ورد أن الوليد بن المغيرة اختار ستة عشر رجلاً من كفار قريش، وأمرهم أن يقفوا في مداخل مكة، ويقتسموا الطرق المؤدية إليها في موسم الحج؛ ليمنعوا القادمين إلى مكة من الإيمان بمحمد ﷺ، وينفروا الناس منه، ويصدوهم عن سبيل الله.

وسُمّوا مقتسمين؛ لأنهم قسّموا طرق ومنافذ مكة، واقتسموا أوصاف النبي ﷺ، وأوصاف القرآن، فقال بعضهم: إنه سحر، وقال بعضهم: إنه شعر وهكذا يقولون للناس: لا تغتروا بهذا الخارج علينا، أي: لا تغتروا بمحمد، وبما يقول، ولا تصدقوه؛ فإنه ساحر كذاب، يقول أساطير الأولين.

وهؤلاء المقتسمون يعذبهم الله يوم لقائه بعد أن انتقم منهم، وأهلكهم في الدنيا، وهكذا يفعل الله بكل من كذب بالقرآن، ورسول الإسلام فيعذبهم يوم لقاء ربهم.

وهؤلاء الستة عشر رجلاً هم:

- ١- حنظلة بن أبي سفيان.
- ٢- وعتبة بن ربيعة.
- ٣- وأخوه شيبة.
- ٤- والوليد بن المغيرة.
- ٥- وأبو جهل بن هشام.
- ٦- وأخوه العاص.
- ٧- وأبو قيس بن الوليد.
- ٨- وقيس بن الفاكهة.
- ٩- وزهير بن أمية.
- ١٠- وهلال بن عبد الأسود.

- ١١- والسائب بن صيفي .
 ١٢- والنضر بن الحارث .
 ١٣- وأبو البختری بن هشام .
 ١٤- وزمعة بن الحجاج .
 ١٥- وأمیه بن خلف .
 ١٦- وأوس بن المغيرة^(١) .

هؤلاء جميعاً أهلكهم الله ﷻ في وقت سريع .

المعنى الآخر للمقسمين: على قول ابن عباس ومن معه، أن الذين جعلوا القرآن عضيّن، هم اليهود والنصارى، الذين آمنوا ببعض القرآن فصدقوه، وقالوا: هذا حق؛ لأنه موافق للتوراة، والإنجيل، وكفروا بما هو مخالف للتوراة والإنجيل، فأمنوا ببعض، وكفروا ببعض؛ بدليل الفرق الكثيرة من النصارى، ومن اليهود، ومنهم من آمن ببعض كتبهم، ومنهم من كفر، ومنهم من آمن ببعض القرآن، وكفر بما يُشر بمجيء محمد ﷺ، وبعثته إلى الناس كافة، كما قال تعالى: ﴿تَجْعَلُونَهُ قَرَأِيسَ تُبْدُونَهَا وَتُخْفُونَ كَثِيرًا﴾ [الأنعام: ٩١]. قال تعالى:

٩٢، ٩٣- ﴿قُرْآنِكَ لَسْأَلْنَهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٩٢﴾ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾

ثم أقسم سبحانه بذاته العلية أنه سيحاسبهم يوم القيامة، ويجزئهم على افترائهم على القرآن، وتكذيبهم خاتم المرسلين، ويجزئهم على ما كانوا يعملونه من عبادة غير الله تعالى، ومن فعل المعاصي والآثام، سيحاسبهم ويجازيهم واحداً واحداً. ويحاسب اليهود، والنصارى، ويجازيهم على تحريفهم لكتبهم، وعلى تكذيبهم للقرآن؛ فلنسألن الكافر، والعاصي، والمشرک، وغيرهم، وفي هذا ترهيب وزجر لهم عن إقامتهم على الكفر بمحمد ﷺ، وعلى ارتكاب الذنوب، والموبقات.

ويوم القيامة يوم طويل، تختلف فيه الأحوال، فهناك من يُسأل، وهناك من لا يُسأل، ويكون السؤال في مواطن دون مواطن، وعن أمور دون أمور، وتختلف نوعية السؤال، فمنه ما يكون عن شكر النعم، ومنه ما يكون للتقريع والتوبيخ، ومن المخلوقات من يُلقى به في جهنم دون سؤال، فذنبه عظيم، وحمله ثقیل، قال تعالى: ﴿يَوْمَئِذٍ لَا يُسْأَلُ عَنْ ذُنُوبِهِ إِنْسٌ وَلَا جَانٌّ ﴿٢٩﴾﴾ [الرحمن]، وقال سبحانه: ﴿وَلَا يُسْأَلُ عَنْ ذُنُوبِهِ الْمُجْرِمُونَ﴾ [الفصل: ٧٨].

(١) «تفسير التحرير والتنوير» (٨٦/٤).

وقال تعالى: ﴿ثُمَّ لَنَسْأَلَنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ النَّعِيمِ﴾ [التكاثر].

وقال أيضاً: ﴿فَلَنَسْأَلَنَّ الَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْأَلَنَّ الْمُرْسَلِينَ﴾ [الأعراف]

وهو سؤال توبيخ، وتبكيك عما ارتكبه من أقوال فاسدة، وأعمال قبيحة. وهناك من يُحاسب حساباً يسيراً، ومن يُحاسب حساباً عسيراً، ومن يُفصح على رءوس الأشهاد.

فالمواقف تختلف يوم القيامة، من السؤال وعدم السؤال، ويُسر الحساب وعسره.

الْأَمْرُ بِالْجَهْرِ بِالدَّعْوَةِ وَعَدَمِ الْخَوْفِ مِنَ الْمُسْتَهْزِئِينَ

٩٤- ﴿فَاصْدَعْ^(١) بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ﴾

في هذا أمر لرسول الله ﷺ أن يجهر بالدعوة، ولا يبالي بمن يعرقلون دعوته، أمثال المقتسمين الذين جعلوا القرآن عضيّن.

وفي بدء الدعوة ظل النبي ﷺ متخفياً من الكفار والمشركين مدة ثلاث سنوات، يصلي سراً، ويدعو الناس إلى ربه سراً، حتى أمره الله ﷻ أن يجهر بالدعوة، ويجهر بصلاته، وأن لا يبالي بالمشركين والمستهزئين، فإن الله تعالى قد كفاه إياهم، وقال له: اجهر بدعوة الحق التي أمرك الله بها؛ فإن في صدّك بالدعوة تصديقاً لبنيان المشركين، وهدماً لعقيدتهم، وتفريقاً بين الحق والباطل، وبلغ ما أمرناك بتبليغه علانية، ولا تهتم بالمشركين، ولا تبالي بهم؛ فإن الله قد برأك مما يقولون، ولا تخف أحداً غير الله؛ فإنه كافيك وحافظك.

وقد نزلت هذه الآية في السنة الرابعة من البعثة، والنبي ﷺ مخفٍ في دار الأرقم بن أبي الأرقم.

عن عبد الله بن مسعود ؓ قال: ما زال النبي ﷺ مستخفياً حتى نزلت ﴿فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ

(١) قرأ حمزة والكسائي وخلف العاشر ورويس بخلف عنه بإشمام الصاد صوت الزاي من (فاصدع)، والباقون بالصاد الخالصة وهما لغتان.

وَأَعْرَضَ ﴿١﴾ فخرج هو وأصحابه^(١).

وكانت فترة الدعوة السرية قد بدأت بعد نزول سورة المدثر، وكان من أسلم من الناس إذا أراد أن يصلي، يذهب إلى شُعب من الشعاب، يستخفي بصلاته من المشركين.

وكان المشركون يستهزئون بهم، ويعيون عليهم، فحدث تضارب بينهم وبين سعد بن أبي وقاص؛ حيث أذى فيه (سعد) رجلاً من المشركين، وبعدها دخل النبي ﷺ وأصحابه دار الأرقم، وكانت عند الصفا، واستمروا على ذلك نحو ثلاث سنوات، ثم نزلت هذه الآية، فخرج ﷺ من دار الأرقم بن أبي الأرقم، وأعلن الجهر بالدعوة.

ولما أسلم حمزة بن عبد المطلب، اعتزَّ به المسلمون، ولم يبقَ من أذى المشركين إلا الاستهزاء.

ثم أسلم عمر بن الخطاب فخشيته سفهاء المشركين، وكان إسلامه سنة خمس من البعثة.

اِنْتِقَامُ اللَّهِ تَعَالَى مِمَّنْ يَسْتَهْزِئُ بِرَسُولِهِ ﷺ:

٩٥، ٩٦ - ﴿إِنَّا كَفَيْنَاكَ الْمُسْتَهْزِئِينَ^(٢)﴾ ٩٥ الَّذِينَ يَجْعَلُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿٩٦﴾

هذا وعد من الله تعالى لرسوله أن يكفيه شر المستهزئين وألا يناله منهم أذى، فقد بشر الله سبحانه نبيه ﷺ بأنه سيهلك المستهزئين الساخرين به في عصره، وفي سائر العصور بعده.

أما في عصره ﷺ فقد ورد عن عليٍّ، وعكرمة، وقتادة: أن هؤلاء المستهزئين كانوا خمسة من زعماء قريش، وصناديد الكفر: هم الوليد بن المغيرة، والعاص بن وائل، والأسود بن المطلب، والأسود بن عبد يغوث، والحارث بن قيس^(٣).

وهؤلاء الخمسة كانوا يغالون، ويبالغون في الإيذاء لرسول الله ﷺ.

وزاد في رواية ابن عباس ثلاثة هم: الحارث بن عدي، وعبد العزى بن قصيٍّ، وأبوزمعة^(٤).

(١) «تفسير الطبري» (٤٧/١٤).

(٢) قرأ أبو جعفر بحذف همزة (المستهزئين) وصلًا ووقفًا، ولحمزة وقفًا التسهيل والحذف.

(٣) «تفسير ابن عطية» (٣/٣٧٥) و«تفسير ابن كثير» (٤/٥٥٢) وابن مردويه كما في تخريج «الكشاف» (٢/٢٢١).

(٤) كما في «تفسير الطبري» (١٥٣/١٤).

وقد بشر الله تعالى رسوله ﷺ حين أمره بالجهر بالدعوة، أنه سيكفيه أمر هؤلاء المستهزئين به ويحفظه من شرهم، وقد حقق الله وعده وأهلكهم، فماتوا كلهم متأثرين بعلّة في كل واحد منهم، كما جاء عن قتادة، ويؤسّم مولى ابن عباس قالا:

١- إن الوليد مرّ برجل نبّال من خزاعة، يرمي سهامًا، فعَلِقَ بثوبه سهم، ففقط عِرْقًا من رجله، فمات بسببه.

٢- والعاص بن وائل جاءته شوكة في أخمص قدمه، فانفتحت قدمه وورمت، حتى صارت كعُنُق البعير، فمات بأثرها.

٣- وعَمِي الأسود بن المطلب، قام من الليل وهو ظمآن فلم يزل يشرب من جرّة حتى انفتق بطنه فمات، وكان يقول بعد أن عَمِيَ: دعا عليّ محمد فاستجيب له.

٤- أما الأسود بن يغوث، فأخذ ينطح رأسه في الشجرة، ويضرب وجهه بالسوط من وجع عينيه حتى مات.

٥- والحارث بن قيس امتخط قيحًا، وامتلاً بطنه ماء فمات منه.

٦- وأما عدي بن قيس فقد لدغته حية فمات.

وكانت هذه الآفات تحدث بكل واحد فيهم، بعد أن يسأل جبريلُ النبي ﷺ عن حاله، فيقول: «بئس فلان»، فيقول جبريل: قد كُفِّيتَه، ويشير إلى الموضع الذي كان سببًا في موته من جسده، فأشار جبريل إلى ساق الوليد، وإلى أخمص العاص، وإلى عَيْنِ الأسود، وإلى رأس ابن يغوث، وإلى بطن الحارث، وذلك بعد أن مرّ كل واحد من هؤلاء الخمسة، والرسول يشير إليه، فيشير إليه جبريل، معيّنًا الموضع الذي سيموت به^(١).

أخرج البزار والطبراني عن أنس بن مالك ؓ قال: مرّ النبي ﷺ على أناس بمكة فجعلوا يغمزون في قفاه ويقولون: هذا الذي يزعم أنه نبي، ومعه جبريل، فغمزهم جبريل بأصبعه، فوقع مثل الظفر في أجسادهم، فصارت قروحًا، حتى نتنوا، فلم يستطع أحد أن

(١) يُنْظَرُ: «سيرة ابن هشام» (٤٠٩/١) و«تفسير الطبري» (٨٤/١٤) و«تفسير ابن عطية» (٣/٣٧٥) وعبد الرزاق (٣٥١/١) والطبري (١٥٠/١٤).

يدنو منهم، فأنزل الله ﴿إِنَّا كَفَيْنَاكَ الْمُسْتَهْزِئِينَ﴾ (٩٥) ^(١).

وكفاية المستهزئين أمر قائم إلى يوم الساعة، فكل من يستهزئ بالإسلام، أو يستخف بالقرآن، أو برسول الإسلام، فإن الله سبحانه كافٍ رسوله، وكافٍ المسلمين، والدعاة إلى الله من شره، دون تكلف ولا مشقة من النبي ﷺ، ولا ممن يحمل لواء الدعوة إلى الله في كل زمان ومكان، وهكذا يفعل الله بمن استهزأ برسوله ﷺ من أهل الدنمارك والكيان الصهيوني وأمثالهم وقت كتابة هذه السطور في العام التاسع والعشرين بعد الأربع مئة والألف من تاريخ هجرة النبي ﷺ.

أي: فلا تلتفت - أيها الرسول - إلى الذين يصدونك عن سبيلك، وبلغ ما أنزل إليك من ربك، ولا تخف من شيء؛ فإن الله كافيك إياهم وحافظك منهم، قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الرُّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ﴾ [المائدة: ٦٧]، وبالنسبة لأهل الكتاب فقد قال تعالى: ﴿سَيَكْفِيكَهُمُ اللَّهُ﴾ [البقرة: ١٣٧]، وقال تعالى: ﴿أَلَيْسَ اللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ﴾ [الزمر: ٣٦].

ومن كان الله كافيهِ فلا عليه من البشر؛ فإن الأمة لو اجتمعت على أن يضروك بشيء لم يضروك إلا بشيء قد كتبه الله عليك، ولو اجتمعت على أن ينفعوك بشيء لم ينفعوك إلا بشيء قد كتبه الله لك.

والآيات تصدق على الدعاة إلى الله تعالى في كل زمان ومكان بعد موت النبي ﷺ.

ثم وصف الله المستهزئين فبيّن أنهم لا يستهزئون بك فقط يا رسول الله، إنهم قد فعلوا أكبر من ذلك مع ربهم وخالقهم، فلم يوحّدوه، ولم يقدّروه حق قدره، إنهم يجعلون مع الله إلهاً آخر، فأشركوا معه الأوثان وغيرها ﴿الَّذِينَ يَجْعَلُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ﴾ آية: ٩٦ وسوف يعلمون عاقبة عملهم في الدنيا والآخرة، فالله سبحانه يتوعددهم ويتهددهم بالعذاب على شركهم وكفرهم به سبحانه ﴿فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾ ﴿وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَشَدُّ وَأَبْقَى﴾ [طه: ١٢٧].

(١) يُنظَر: «مسند البزار» برقم (٢٢٢٢) «كشف الأستار»، قال الهيثمي في «المجمع» (٤٦/٧) فيه يزيد بن درهم ضعّفه ابن معين، وثقّه الفلاس، ويُنظَر: «أسباب النزول» للنيسابوري (٢٣٣) و«تفسير ابن الجوزي» (٤١٢/٤).

علاج الضيق والاكتئاب

٩٧، ٩٨ - ﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ ﴿٩٧﴾ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَكُنْ مِنَ السَّاجِدِينَ﴾

ولا شك أن النبي ﷺ، وكل داعية إلى الله تعالى يتأثر، وينقبض صدره مما يقوله المكذبون، والله سبحانه يعلم ذلك، فلا يثنيك ذلك - أيها الرسول - عن تبليغ الرسالة؛ فإن الله كافيك وناصرك، والرسول بشر يضيق صدره من أقوالهم، ومن استهزائهم، وكفرهم وطعنهم في القرآن.

وقد جاء هذا المعنى في مثل قوله تعالى: ﴿قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُ لَيَحْزَنُكَ الَّذِي يَقُولُونَ فَإِنَّهُمْ لَا يَكْذِبُونَكَ وَلَكِنَّ الظَّالِمِينَ إِنَّمَا يُتَابَتِ إِلَهُهُمُ يَجْحَدُونَ ﴿٣٣﴾﴾ [الأنعام].

وقوله: ﴿فَلَعَلَّكَ تَارِكُ بَعْضَ مَا يُوحَىٰ إِلَيْكَ وَضَائِقٌ بِهِ صَدْرُكَ أَنْ يَقُولُوا لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْهِ كُتُبٌ أَوْ جَاءَ مَعَهُ مَلَكٌ﴾ [هود: ١٢].

وقد أمر الله رسوله بالثبات والتفويض إلى ربه؛ لأن حكمة الله تعالى تقتضي إمهالهم، قال تعالى: ﴿وَذَرْنِي وَالْمُكَذِّبِينَ أُولِيَ اللَّعْمَةِ وَمُهْلَكُ قَيْلًا ﴿١١﴾ إِنَّ لَدَيْنَا أَنْكَالًا وَحِمِيمًا ﴿١٢﴾﴾ وَطَعَامًا ذَا غُصَّةٍ وَعَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٣﴾﴾ [المزمل].

وقد أمر الله رسوله أن يفزع إلى ربه إذا ضاق صدره، ويسبح بحمده شاكرًا له، مثنيًا عليه، وأن يكون من المصلين لله، العابدين له؛ فإن ذلك يكفيه ما همم وغمه، ففي ذلك العلاج النافع لضيق الصدر.

وهو علاج لكل مسلم، إذا ضاق صدره وحزن، أو اهتم، أو اغتم، أو أصابته كآبة، فعليه أن يتجه إلى الله ﷻ، ويفزع إليه بالصلاة والإكثار من التسبيح والتحميد، وأن يكون من الساجدين، والسجود لا يكون إلا في الصلاة وتلاوة القرآن.

والله سبحانه لم يأمر رسوله ﷺ بجمع الأموال، ولا بالتجارة، وإنما أمره بالتسبيح، والتحميد، والتهليل، والتكبير، والعبادة.

وكان عليه الصلاة والسلام إذا حزبه أمر فزع إلى الصلاة، ولنا فيه ﷺ أسوة حسنة، فإذا ضاق الإنسان لسبب من الأسباب، فعليه أن يستغرق في التسبيح، والتحميد، والتهليل،

والتكبير؛ ففي ذلك تفريج الكرب، وإزالة الهموم.

وفي الصلاة تخفيف الأحزان، وخشوع القلب، وطمأنينة النفس، بحيث يذهب عن العبد ما به من الهم والغم، وفي هذا علاج نفسي يفوق الأدوية والعقاقير التي يصفها الأطباء النفسيون لمرضاهم، وليس فيها مضار ولا إدمان، ولا محاذير ولا تكاليف مادية. وقد اشتملت هذه الآية على أمرين:

أحدهما: التخلي عن الرذائل، والتنزه عن كل ما لا يليق، وهذا معنى التسييح.

وثانيهما: التحلي بالفضائل، والاتصاف بكل صفات الكمال، وهذا هو معنى الحمد.

وفي الحديث عن أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «كلمتان خفيفتان على اللسان، ثقيلتان في الميزان، حبيبتان إلى الرحمن: سبحان الله وبحمده، سبحان الله العظيم»^(١).

وعن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «أقرب ما يكون العبد من ربه وهو ساجد، فأكثروا الدعاء»^(٢).

فينبغي على المسلم إذا أصابه مكروه أن يفزع إلى الله تعالى بأنواع الطاعات من صلاة، وتسييح، وتحميد، وغير ذلك من ألوان العبادة؛ حتى يفرج الله كربته، وهّمه وغمه، ويسدد دينه، ويوسع عليه رزقه، ففي هذا أفضل عيادة نفسية.

وفي الحديث القدسي عن أبي الدرداء رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «إن الله تعالى يقول: يابن آدم، لا تعجز عن أربع ركعات من أول النهار أكفك آخره»^(٣).

ولذلك فإن النبي ﷺ لما فتح الله عليه الفتوحات، والغزوات، وكان عنده الإماء، والعبيد، والأموال، جاءت ابنته، وحبيته، وقرّة عينه، فاطمة رضي الله عنها، تطلب منه أن يعطيها خادماً يخفف عنها تعب الرّحى التي تديرها وهي تطحن الحبوب، والماء الذي تنقله إلى بيتها هي وزوجها عليّ رضي الله عنه، فقد مجلت يدها، وهو يعمل عند يهودي يوماً كاملاً مقابل ثمرة، ونحوها.

(١) عن أبي هريرة في «صحيح البخاري» برقم (٦٤٠٦، ٦٦٨٢، ٧٥٦٣) و«صحيح مسلم» برقم (٢٦٩٤).

(٢) «صحيح مسلم» برقم (٤٨٢).

(٣) «المسند» (٢٨٦/٥) برقم (٢٧٤٨٠) قال محققوه: صحيح لغيره وله شاهد صحيح من حديث عقبة بن عامر برقم (١٧٣٩٠) وقال الهيثمي في «مجمع الزوائد» (٢/٢٣٦) أخرجه أحمد ورجاله ثقات، وهو في «سنن أبي داود» برقم (١٢٨٩) و«فتح الباري» (٨/٣٨٣).

فكان من الرسول ﷺ أنه لم يواسِ ابنته ﷺ، ولم يجاملها، ولم يقل لها: خذي هذا الخادم، وإنما أرشدها هي وعلياً ﷺ، إلى كثرة التسبيح، والتحميد، والتهليل، والتكبير، وأرشدهما إلى الاستغراق في الطاعة والعبادة، وذكر الله تعالى وشكره، ففي هذا غِنَى عما طلباه، وفيه تفريج لما هُما فيه، وتعليم وتربية، ودرس مستفاد للحكام والمسؤولين؛ فالقرآن الكريم يربي أبناءه على أن يسبحوا بحمد ربهم، ويكونوا من الساجدين.

﴿أَلَا يَنْصَرُّ إِلَيْهِ قَلْبُكَ﴾ [الرعد: ٢٨].

حُسْنُ الْخَاتَمَةِ

٩٩- ﴿وَأَعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّى يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ﴾

وداوم -أيها المخاطب - على العبادة طول حياتك حتى يأتيك الموت، واليقين هو الموت، ولا يشك أحد في الموت: الكافر، والمسلم، والمنافق، وجميع الخلق، من كان منهم يؤمن بالله واليوم الآخر، ومن كان لا يؤمن؛ إذ ليس في إمكانه أن ينكر الموت؛ أو يهرب منه فإنه حقيقة واقعية، ويقين قائم بين أعين الناس، ولذا سماه القرآن: اليقين.

قال تعالى آمراً كل مسلم بتقوى الله تعالى، والاستمرار عليها حتى الموت: ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَنَّفُوا اللَّهَ حَقَّ تَقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾ [آل عمران]

أي: استمروا أيها المسلمون على الطاعة، والعبادة حتى تموتوا.

دخل النبي ﷺ على عثمان بن مظعون ﷺ، وقد مات، فقال: «أما هو فقد جاءه اليقين، وإنني لأرجو له الخير»^(١) أي: عند رب العالمين.

فسمّى النبي ﷺ الموت يقيناً؛ لأن العلم به أمر يقيني لا يمترى فيه عاقل.

وأخرج عبد الرزاق بسند صحيح عن قتادة قال: ﴿الْيَقِينُ﴾ الموت.

وأحوال الناس مختلفة فكم من أناس قد ماتوا فجأة في حوادث المواصلات، وتحت الأنقاض، ومنهم من يموت على فراشه، وفي حروب وقتال، وفي زلازل وحرائق، ونحوها.

(١) يُنْظَرُ: البخاري برقم (١٢٤٣، ٢٦٨٧، ٧٠١٨) والطبري (١٤/١٥٦).

وأعظم ما يفعله المسلم ، أن يتوب إلى الله ﷻ، قبل أن يفاجئه الموت ، وما منا من أحد إلا وفيه جانب تقصير :

فمن الناس من يأتي المسجد يوم الجمعة فقط ، ويصلي الأوقات في بيته .

ومنهم من لا يصلي أبدًا ، ومنهم من يأتي إلى المسجد أحيانًا .

ومن الناس من يصلي في رمضان ، فإذا ذهب رمضان أخذ إجازة من المسجد .

ومن الناس من يرتكب المعاصي والمآثم صباح مساء كأنه فاقد الإحساس والضمير .

وهكذا : فالذنوب كثيرة ، وحياة الإنسان فرصة عظيمة ؛ لتحصيل المغفرة ، والرحمة ، والرضوان .

والشقي من حُرِم الخير ، فأبعده الله من رحمته ، والسعيد من يغتنم أوقات النفحات والأيام

المباركة ، فيقبل على الله ﷻ ويتوب ، ويجدد علاقته بربه ، فيقلع عمَّا هو فيه من الخطايا .

فكم من أناس كانوا لا يعتادون الصلاة مع الجماعة في المسجد ، وكان شهر رمضان

هو السبب في بداية الطريق إلى الله ، صلوا في المسجد يومًا ، ثم استمعوا إلى حديث أو

آية ، وقعت في قلوبهم ، وتأثروا بها ، ثم حافظوا طول عمرهم على صلاة الجماعة ، فكان

ذلك فاتحة خير وتوبة .

وكم من أناس أقبلوا عن المعاصي بسبب نصيحة ، أو ضجة لصديق صالح .

عرفت كثيرًا ممن أقبل عن التدخين بمجرد انتهاء شهر رمضان ، وكان إيمانهم أقوى من

أن تتحكم فيهم هذه العادة ، فهم يخرقون دينهم ، وأموالهم ، وصحتهم ؛ بسبب التدخين ،

فكان شهر رمضان فاتحة خير لهم .

ومن مرتكبي الكبائر من يتوب إلى الله تعالى ، ويقلع عن الذنوب ، ولا يعود إليها ؛

بسبب موعظة أثرت في نفسه وهكذا .

ولذا : فإنه يجب عليك -أيها المسلم- أن تأمر بالمعروف ، وتنهى عن المنكر ؛ فإنك لن

تُحرم الأجر من جهة ، ولن تُعَدِم من ينتفع بأمرك ونهيك من جهة أخرى .

هناك أقوام لا يعرفون المسجد حتى يوم الجمعة ، وقلوبهم لا تتسع إلى خمس دقائق

للجلوس في بيت الله ، أو الاستماع إلى آيات من القرآن ، أو إلى موعظة حسنة ، مع أن

بعضهم يجلس الساعات الطوال مشاهدًا للمنكرات والمعاصي، أو متابعًا لكرة القدم، أو لفيلم، أو مسلسل، أو مسرحية، أو سهرة غنائية .

ومنهم من يقطع الساعات الطوال في قراءة روايات، أو قصص بوليسية خرافية، أو غرامية، كتبها منحرفون علمانيون، أو يقطع الساعات في قراءة كتب مترجمة لكتّاب غربيين، أو متأثرين بما يكتبه الغربيون، ولكنه لا يقضي بضع دقائق مع كتاب الله تعالى، ولا سنة رسول الله ﷺ.

فهو يعرف من تراجم الرياضيين، والمطربات، والممثلات ما لا يعرفه عن الصحابة والصحابيات . فهل مثل هؤلاء قضوا أعمارهم في طاعة الله ﷻ حتى جاءهم اليقين؟ أو أنهم قضوه مع الشيطان في الغواية والضلال، واستمروه في اللهو، واللعب، والمجون .

وعمر الإنسان هو رأس ماله، فإذا أن يستثمر رأس المال هذا في الربح مع الله تعالى، أو يخسر حياته مع الشيطان والهوى .

لقد امثل الرسول ﷺ أمر ربه ﷻ، فلم يزل دائبًا في عبادته حتى جاءه الموت، وهكذا كل مسلم يجب عليه أن يستمر على طاعته تعالى فهو لا يدري متى يأتيه الموت؟

وحسن الخاتمة من علامات السعادة، والصلاة جواز السفر إلى دار النعيم، ولذا فإنه إذا كان يوم القيامة يُسأل المجرمون عن سبب عذابهم في النار، فيكون الجواب الأول ترك الصلاة في الدنيا: ﴿كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينٌ ۖ إِلَّا أَصْحَابَ الْيَمِينِ ۚ﴾ (٣٩) فِي جَنَّتِ يَسَاءَلُونَ ﴿٤٠﴾ عَنِ الْمُجْرِمِينَ ﴿٤١﴾ مَا سَلَكَكُمْ فِي سَقَرٍ ﴿٤٢﴾ قَالُوا لَمْ نَكُ مِنَ الْمُصَلِّينَ ﴿٤٣﴾ وَلَمْ نَكُ نُطْعِمِ الْيَسْكِينِ ﴿٤٤﴾ وَكُنَّا نَحْوُكُمْ مَعَ الْخَائِضِينَ ﴿٤٥﴾ وَكُنَّا نَكْذِبُ يَوْمَ الدِّينِ ﴿٤٦﴾ حَتَّىٰ آتَيْنَا الْيَقِينَ ﴿٤٧﴾﴾ [المدثر].

ولأهمية الصلاة في الإسلام فإنها لا تسقط عن العبد في حال الصحة والمرض، والأمن والخوف، والسلم والحرب، والسفر والحضر، وفي سائر الأحوال، ما لم يفقد الإنسان وعيه وعقله، ففي حديث عمران بن حصين ؓ أن رسول الله ﷺ قال: «صل قائمًا، فإن لم تستطع فقاعدًا، فإن لم تستطع فعلى جنب»^(١).

(١) «صحيح البخاري» برقم (١١١٧).

تَفْسِيرُ سُورَةِ النَّحْلِ (١٦)

مُقَدِّمَةُ السُّورَةِ

سورة النحل هي السورة السادسة عشرة في ترتيب المصحف، والثانية والسبعون في ترتيب النزول، نزلت بعد سورة الأنبياء وقبل سورة السجدة، وهي ألفان وثمان مئة وأربعون كلمة، وسبعة آلاف وسبع مئة وسبعة حروف.

وآيات السورة ثمان وعشرون ومئة آية بلا خلاف.

وهي مشهورة باسم سورة النحل، ويقال لها: سورة النعم.

وسورة النحل من آخر ما نزل على رسول الله ﷺ في مكة بعد الهجرة إلى الحبشة، أي: في آخر العهد المكي، بعدما احتدم العراك بين المؤمنين والمشركين، وطال الأمد، ولم يظفر المؤمنون بنصر، ولم ينزل بالمشركين قاصمُ الظهر، وكان المشركون يقولون للمؤمنين: أين ما تعدوننا به؟ فيقولون لهم: إن غداً لناظره قريب.

والآيات الثلاث الأخيرة من السورة قيل: إنها نزلت في المدينة بعدما انصرف النبي ﷺ من غزوة أُحُد بعد مقتل حمزة عم رسول الله ﷺ وهي قوله تعالى ﴿وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُمْ بِهِ﴾ [١٢٦] وما بعدها، والأصح أنها مكية.

وقال قتادة، وجابر بن زيد: إن الآيات من ﴿وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُمْ بِهِ﴾ إلى آخر السورة، مدنية.

وقد ورد في أسباب النزول: أنه لما نزل قول الله سبحانه: ﴿أَقْرَبَتِ السَّاعَةُ وَأَنْشَقَّ الْقَمَرُ﴾ [القمر] قال المشركون لبعضهم: أمسكوا وكفوا عما أنتم عليه حتى ننظر، فإن محمداً يخبر أن الساعة قد اقتربت، فلما لم يروا شيئاً قالوا: يا محمد، ما نرى شيئاً، فأنزل الله سبحانه ﴿أَقْرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ مُّعْرِضُونَ﴾ [الأنبياء] فأشفقوا وانتظروا، وامتدت بهم الأيام، ولم يروا شيئاً ينزل بهم، ولم تقم الساعة، فقالوا: يا محمد، لم نر شيئاً مما تخوفنا به، فأنزل الله سبحانه ﴿أَنَّهُ أَمْرٌ أَلَلَّ﴾ فوثب رسول الله ﷺ ورفع الناس رؤوسهم، فنزل ﴿فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ﴾ فاطمأنوا فقال ﷺ: «بعثت أنا والساعة

كهايتين» وأشار بالسبابة والتي تليها^(١).

وعن عقبة بن عامر رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «تطلع عليكم عند الساعة سحابة سوداء من المغرب، مثل الترس، فما تزال ترفع في السماء، ثم ينادي مناد فيها: يا أيها الناس، فيقبل الناس بعضهم على بعض: هل سمعتم؟ فمنهم من يقول: نعم، ومنهم من يشك، ثم ينادي الثانية ويقول مثل الأولى، ثم ينادي الثالثة: يا أيها الناس ﴿أَنَّهُ أَمْرٌ أَلَلَّهِ فَلَا سَتَعْلُوه﴾ قال رسول الله ﷺ: فوالذي نفسي بيده، إن الرجلين لينشُران الثوب فما يطويانه أبدًا، وإن الرجل ليمدّن حوضه فما يسقى فيه شيئًا أبدًا، وإن الرجل ليحلب ناقته فما يشربه أبدًا»^(٢).

وسورة النحل كسائر السور المكية تعالج قضية العقيدة والوحدانية، والرسالة واليوم الآخر – فتقيم العديد من دلائل القدرة على وحدانية الله تعالى في هذا الكون الفسيح من السموات والأرض، والبحار والجبال، والسهول والوديان، والماء النازل من السماء، والنبات الخارج من الأرض، والليل والنهار، والشمس والقمر، والنجوم والكواكب، والفلك التي تجري في البحر بأمر الله.

وتبدأ السورة هذا الحشد الهائل من الكائنات بخلق الإنسان، النموذج المصغر لهذا الكون، وتُقرن بدايته بمصيره ونهايته.

وتشّبي بخلق الأنعام من: الإبل، والبقر، والغنم، ومن الخيل والبغال والحمير، وتذكر بعض منافعها، وكيف أن الله تعالى سخرها للإنسان.

وهذه الوسائل للتنقل والمواصلات مشاهد حية ماثلة أمام أعين من نزل عليهم القرآن.

ثم تُقرن إلى جوار ذلك ما يجد في العالم من وسائل المواصلات المختلفة مما يظهر في حينه.

(١) كما في «أسباب النزول» للواحدي (١٥٩) بدون سند، ورواه ابن جرير عن ابن جريج (٧٥/١٤) و«زاد المسير» (٤/٤٢٦). والحديث في البخاري (٦٥٠٣) ومسلم (٢٩٥٠).

(٢) رواه الحاكم في «المستدرک» (٤/٥٣٩) وقال: صحيح الإسناد على شرط مسلم ولم يخرجاه، ورواه الطبراني في «المعجم الكبير» (١٧/٣٢٥) برقم (٨٩٩) وقال الحافظ المنذري في الترغيب والترهيب (٤/٣٨٢): رواه الطبراني بإسناد جيد ورواته ثقات مشهورون، وكلاهما عن يحيى بن آدم قال الهيثمي في «مجمع الزوائد» (١٠/٣٣١): رجاله رجال الصحيح غير محمد بن عبد الله مولى المغيرة، وهو ثقة.

وَتُعَرِّجُ السُّورَةَ عَلَى خَلْقِ الْعَقْلِ فِي الْإِنْسَانِ، وَاسْتَعْدَاجِهِ-لِلْخَيْرِ وَالشَّرِّ، وَالْهُدَى وَالضَّلَالِ، وَأَنَّ اللَّهَ تَعَالَى قَدْ تَرَكَ الْإِنْسَانَ لِإِرَادَتِهِ وَاخْتِيَارِهِ، وَلَوْ شَاءَ لَقَصَرَهُ عَلَى الطَّاعَةِ ﴿وَعَلَى اللَّهِ قَصْدُ السَّبِيلِ﴾ [الآية ٩].

ولم تهمل السورة خلق المعادن والجواهر من الأرض، والأسماك واللؤلؤ والمرجان من البحار. وبعد استعراض آيات الخلق، وآثار القدرة التي في أوائل السورة يقول سبحانه: ﴿أَفَمَنْ يَخْلُقُ كَمَنْ لَا يَخْلُقُ﴾ [١٧].

وكلها ألوان متعددة من النعم يألّفها الإنسان، ولا يشعر بها إلا إذا افتقدها ﴿وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لَا تَحْصُوهَا﴾ [الآية ١٨]

ثم يعقّب سبحانه على ذلك بقوله: ﴿إِلَهُكُمْ إِلَهٌُ وَاحِدٌ﴾ [٢٢].

ولذا: فإن هذه السورة تُسَمَّى سورة النِّعَم؛ لكثرة ما فيها من تعداد نِعَمِ الله تعالى على خلقه، كما قال قتادة، فقد ذكرت في أولها أصول النعم وقواعدها، وفي آخرها متماماتها ومكملاتها.

ومع كثرة الأدلة على تفرد الله تعالى بالإلهية، تُظهر السورة شناعة الشرك وفساده، وتبيّن مصير أهله المحتوم، وتضرب لهم كثيراً من الأمثلة في السورة ﴿ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا عَبْدًا مَمْلُوكًا﴾ [٧٥].

ب- وتتناول السورة القضية الثانية من قضايا القرآن المكي، فتقيم الأدلة على إثبات رسالة محمد ﷺ وصدق القرآن، في مثل قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ جَاءَهُمْ رَسُولٌ مِنْهُمْ فَكَذَّبُوهُ﴾ [١١٣].

وقوله: ﴿يُنَزِّلُ الْمَلَائِكَةَ بِالرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ﴾ [٢].

وقوله: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ مَاذَا أُنْزِلَ رَبُّكُمْ قَالُوا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ﴾ [٢١].

وقوله جلّ شأنه: ﴿وَقِيلَ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا مَاذَا أُنْزِلَ رَبُّكُمْ قَالُوا خَيْرٌ﴾ [٣].

وتبيّن السورة وظيفة الرسل في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنْ تَعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾ [٣٦].

وتبيّن أن رسالة محمد ﷺ قامت على أصول ملة إبراهيم ﷺ في قوله تعالى: ﴿إِنَّ

إِزْهَيْمَ كَانَتْ أُمَّةً قَانِتًا لِلَّهِ خَنِيفًا ﴿١٢﴾.

ج- وثبتت السورة البعث، والحساب، والجزاء في بدايتها ﴿أَنَّى أَمُرُّهُ﴾ [١] وفي أثنائها ﴿وَيَوْمَ نَبْعَثُ مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا﴾ [٨٤] وفي الآية الأخرى ﴿فِي كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا﴾ [٨٩] وتثبتها أيضًا في قوله تعالى: ﴿يَوْمَ تَأْتِي كُلُّ نَفْسٍ تُجَادِلُ عَنْ نَفْسِهَا﴾ [١١]

وهذا الأخير هو القضية الثالثة من قضايا القرآن المكي في السورة، وهي الإيمان باليوم الآخر.

وأغلب آيات السورة تتحدث عن أمرين:

الأمر الأول: الحديث عن الوحي الذي تنزلت به الملائكة، وبيان موقف الناس منه، وأن منهم من أقرَّ به، ومنهم من أنكره، فهم فريقان:

١ - فريق ضال في نفسه مضل لغيره، وهؤلاء وُزَّروهم مضاعف، فهم يحملون أوزارهم يوم القيامة، ويحملون أوزار من أضلَّوهم بغير علم؛ فإن من دعا إلى ضلالة كان عليه من الأثام مثل آثام من تبعه، لا ينقص ذلك من آثامهم شيئًا.

ومثلهم في ذلك مثلُ إنسان ألف كتابًا في الإلحاد والكفر، وهو يظن أن جريمته قد انتهت بصدور الكتاب، ولكنه لا يدري أن له رصيدًا مفتوحًا إلى قيام الساعة، يضيف إلى جريمته كل من انخدع بقوله، واتبع إلحاده وكفره ﴿لِيَحْمِلُوا أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ الْقِيَمَةِ وَرِثَ أَوْزَارِ الَّذِينَ يُضِلُّونَهُمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ [٢٥] أما أتباعه الذين قلَّدوه فهم مجزيون على غفلتهم، وكان عليهم ألا يساقوا كالأنعام.

وهؤلاء هم ﴿الَّذِينَ تَوَفَّيْنَاهُمُ الْمَلَائِكَةُ ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ﴾ [آية ٢٨]

وهذا الفريق من الناس هم الذين يُسوون بين من يخلق ومن لا يخلق، ويصفون القرآن بأنه أساطير الأولين.

وهم الذين يقولون: ﴿لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا عَبْدْنَا مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ نَحْنُ وَلَا آبَاؤُنَا وَلَا حَرَمْنَا مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ﴾ [آية ٣٥].

وهم الذين مكروا السيئات، وقالوا بتعدد الآلهة، ونسبوا الولد لله تعالى: ﴿وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ الْبَنَاتِ سُبْحَانًا وَلَهُمْ مَا يَشْتَهُونَ ﴿٥٧﴾﴾ [آية] ﴿وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ مَا يَكْرَهُونَ﴾ [آية ٦٢].

وهم الذين يثيرون الشبهات حول رسول الإسلام، فيقولون عنه: ﴿إِنَّمَا يَعْلَمُهُ بَشَرٌ﴾ [الآية ١٠٣].

وهم ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ﴾ [الآية ٨٨]

وهم الذين جحدوا نعم الله عليهم ﴿أَفَيَا بَنِي إِسْرَءِيلَ يَوْمَنُوْنَ وَنِعْمَتِ اللَّهِ هُمْ يَكْفُرُونَ﴾.

وقد هددهم الله سبحانه بما يبعث الرعب في القلوب، ويدعو إلى التأمل في الملكوت، فلعل هذا التأمل يكون سبباً في هدايتهم.

٢- والفرق الثاني هم الذين يُحْسِنُونَ الإجابة عندما يقال لهم: ﴿مَآذًا أَنْزَلَ رَبُّكُمْ﴾ فيقولون: ﴿خَيْرًا﴾ [الآية ٣].

وهم يعلمون أن العاقبة الحسنة للمتقين في الدنيا والآخرة، فهم ﴿الَّذِينَ تَتَوَفَّيْهُمْ الْمَلَائِكَةُ طَيِّبِينَ يَقُولُوكَ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ أَدْخَلُوا الْجَنَّةَ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [الآية ٣٢].

وهؤلاء قد قضوا أعمارهم في الإيمان والعمل الصالح، وثابروا على فعل الخيرات وترك المنكرات، فطابت أرواحهم عند الممات، وفي درجات الجنات.

أما الأمر الثاني الذي تتحدث عنه السورة فهو عن آيات الله تعالى في الكون، وآلائه على عباده. ومنها قوله تعالى:

١- ﴿خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ﴾ [الآية ٣].

٢- ﴿خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ نُطْفَةٍ﴾ [الآية ٥].

٣- ﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومَ﴾ [الآية ١٢].

٤- ﴿وَاللَّهُ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا﴾ [الآية ٦٥].

٥- ﴿وَإِنَّ لَكُمْ فِي الْأَنْعَامِ لَعِبْرَةً﴾ [الآية ٦٦].

٦- ﴿وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ﴾ [الآية ٦٨].

٧- ﴿وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ ثُمَّ يَنْوَفِّكُمُ﴾ [الآية ٧].

٨- ﴿وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا وَجَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنْوَابِكُمْ بَنِينَ وَحَفَدَةً وَرَزَقَكُمْ مِنَ

الطَّيِّبَاتِ﴾ [الآية ٧٢].

٩- ﴿وَاللَّهُ أَخْرَجَكُمْ مِنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْئًا﴾ [الآية ٧٨].

١٠- ﴿وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ بُيُوتِكُمْ سَكَنًا﴾ [الآية ٨٠].

١١- ﴿وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِمَّا خَلَقَ ظِلَالًا وَجَعَلَ لَكُمْ مِنَ الْجِبَالِ أَكْنَانًا﴾ [الآية ٨١].

وقد بدأت هذه النعم بنعمة القرآن، وبيّنت أن نعم الله تعالى لا تُعدّ ولا تُحصى، وقرب نهاية السورة بيّنت عقوبة الذين كفروا بأنعم الله، فأذاقهم الله لباس الجوع والخوف بما كانوا يصنعون.

وهكذا أقامت السورة ثلاثة وعشرين دليلاً من البراهين القاطعة الدالة على توحيد الله سبحانه، وعلى مظاهر القدرة الإلهية؛ لبيان أن خالق هذا الكون وما فيه من النعم هو المستحق للعبادة دون سواه.

وهذه الأدلة جاءت في ثلاث مجموعات من السورة متفرقة، في كل مجموعة منها عدد من نعم الله علينا.

في أول السورة اثنا عشر دليلاً، وفي وسطها سبعة أدلة، وبعدها أربعة أدلة، وكلها نعم لله تعالى على خلقه.

وبقية آيات السورة تحاور المشركين بالله تعالى، فهي سورة النعم، وسورة التوحيد، وهذه النعم هي:

١ - نعمة نزول الوحي ونزول القرآن؛ لإحياء القلوب التي أماتها الكفر والضلال [٢].

٢ - نعمة خلق السموات والأرض، وما فيهما، وما بينهما لغاية عظمى، هي معرفة الخلق لربهم وعودتهم إليه في الدار الآخرة؛ ليجازي كل إنسان بما عمل، كما في الآية [٣].

٣ - نعمة خلق الإنسان من نطفة، ومع ذلك فإن بعض الناس ينكر البعث والنشور كما في الآية [٤].

٤ - نعمة خلق الإبل، والبقر، والغنم؛ للانتفاع بلحومها، وألبانها، وجلودها، وصوفها، ووبرها، وللتنقل بها، والزينة الآيتان [٥، ٧].

٥ - نعمة خلق الخيل، والبغال، والحمير؛ للركوب والزينة، وفتح الباب أمام كل جديد يؤدي دورها كما في الآية [٨].

- ٦ - خلق نعمة العقل للإنسان؛ لمعرفة الخير من الشر، والاهتداء به عن طريق النظر، والتأمل للوصول إلى الطريق القويم كما في الآية [٩].
- ٧ - نعمة إنزال الماء من السحاب؛ لحياة الإنسان، والحيوان، والنبات، والأشجار، والطيور، والأسماك الآيتان [١٠، ١١].
- ٨ - نعمة تذليل الليل والنهار، والشمس والقمر والنجوم؛ لمصلحة الإنسان ونفعه الآية [١٢].
- ٩ - خلق جميع ما في الأرض من خيرات، ونعم؛ لصالح الإنسان وخدمته، كما في الآية [١٣].
- ١٠ - تسخير البحر وتذليله للإنسان؛ لينتفع به وبخيراته، كما في الآية [١٤].
- ١١ - تثبيت الأرض بالجبال، وإيجاد المياه العذبة فيها، وشق الطرق؛ للسير فيها، والسعي على الرزق وغيره، كما في الآية [١٥].
- ١٢ - خلق معالم من جبال ونجوم في العالم العلوي والسفلي؛ لهداية الإنسان في أسفاره ومعيشته، كما في الآية [١٦].
- ١٣ - نعمة الماء، كما في الآية [٦٥].
- ١٤ - نعمة خروج اللبن من بين الفرث والدم، كما في الآية [٦٦].
- ١٥ - نعمة الرزق الحسن من ثمرات النخيل والأنعام، كما في الآية [٦٧].
- ١٦ - نعمة العسل يخرج من النحل، كما في الآية [٦٨].
- ١٧ - نعمة الحياة والموت، كما في الآية [٦٩].
- ١٨ - نعمة الرزق، كما في الآية [٧١].
- ١٩ - نعمة الزواج والتناسل، كما في الآية [٧٢].
- ٢٠ - نعمة الحواس والإدراك، كما في الآية [٧٨].
- ٢١ - نعمة تسخير الفضاء للإنسان، كما في الآية [٧٩].
- ٢٢ - نعمة السكن والأثاث، كما في الآية [٨٠].

٢٣ - نعمة الظلال والجبال واللباس، كما في الآية [٨١].

فسورة النحل هي سورة النعم بحق؛ لأن الله سبحانه قد ذكر في أولها قواعد النعم وأصولها، وذكر في آخرها كمال النعم وتمامها؛ فهي تُسَمَّى آيات وتُسَمَّى نِعَمًا، وهي نِعَم من الله تعالى، وآيات دالة على وجوده سبحانه.

وقد أمرنا سبحانه أن نتأمل في عظيم قدرته تعالى في خلق الكون، ونقلب النظر فيه، فقال سبحانه: ﴿قُلْ أَنْظَرُوا مَاذَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ [يونس: ١٠١].

وقال جلَّ شأنه: ﴿أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا﴾ [الأعراف: ١٨٤]

وقال تعالى: ﴿وَفِي أَنْفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾ [الذاريات].

ومن أجل ما يتعبد به العبد إلى ربه ﷻ أن ينظر ويتأمل، ويتدبر ويفكر في هذا الكون وما فيه؛ ليستدل بفكره على وحدانية الله سبحانه، فيقوى إيمانه ويثبت، ويصله بالواحد القهار.

وسورة النحل فيها ميدان رحب فسيح، للنظر في ملكوت الله ﷻ في سمائه وأرضه، وليله ونهاره، وشمسه وقمره ونجومه، وبرّه وبحره وجوّه، وغير ذلك.

والنبي ﷺ حينما نزل عليه قول الله سبحانه: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ﴾ [آل عمران] وما بعدها، قال ﷺ: «ويل لمن قرأها ولم يتفكر»^(١).

قال الحسن البصري: تفكّر ساعة خير من قيام ليلة^(٢).

أي: خير من النوافل المستحبة؛ لأن هذا التفكير يقوّي الإيمان، ويصل العبد بربه.

وقد أمرنا الله ﷻ على وجه الخصوص أن نؤمن النظر في أمرين مهمين:

الأمر الأول: أن ننظر في الأصل الذي خلقنا منه، قال سبحانه: ﴿فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ مِمَّ خُلِقَ

﴿٥﴾ [الطارق] ينظر الإنسان إلى أصله، إلى النطفة التي خُلِقَ منها ﴿خُلِقَ مِنْ مَّاءٍ دَافِقٍ﴾ ﴿٦﴾

يَخْرُجُ مِنْ بَيْنِ الصُّلْبِ وَالتَّرَائِبِ﴾ [الطارق] هذا هو أصله، وليست القبيلة، ولا العشيرة، ولا

المال، ولا الجاه، بل الماء الدافق هو نسب الإنسان وما ينتمي إليه.

(١) رواه الأصبهاني في «الترغيب والترهيب» برقم (٦٦٦) وفي إسناده أبو جناب الكلبي وهو ضعيف.

(٢) «تفسير ابن كثير» (٢/ ١٨٤).

الأمر الآخر: أن ننظر إلى الطعام الذي نأكله صباحًا ومساءً، ممّ يتكون هذا الطعام؟ وكيف خلقه الله سبحانه؟

قال جلّ شأنه: ﴿فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ إِلَى طَعَامِهِ﴾ (٢٤) أَنَا صَبَبْنَا الْمَاءَ صَبًّا (٢٥) ثُمَّ شَقَقْنَا الْأَرْضَ شَقًّا (٢٦) فَأَبْيْنَا فِيهَا حَبًّا (٢٧) وَعَيْنًا وَقَضًا (٢٨) وَزَيْتُونًا وَنَخْلًا (٢٩) وَحَدَائِقَ غُلَبًا (٣٠) وَفَيْكَةً وَأَبَا (٣١) مِنْهَا لَكُمُ وَلَآئِمِكُمْ (٣٢) [عبس].

هذا النظر، وهذا التفكير أو التأمل تدعو إليه سورة النحل أكثر من غيرها؛ لاستشعار فضل الله تعالى، فيكون هذا حافزًا على أفراد الله تعالى بالعبادة، إلى جوار امتنان الله تعالى على خلقه بهذه النعم.

وقد ضربت السورة الأمثال للمؤمن والكافر، والحق والباطل، ولمن قابلوا نعم الله عليهم بالشكر والعرفان، أو بالجحود والكفر.

واعتنت السورة بمكارم الأخلاق وأمّهات الفضائل: كالعدل، والإحسان، وإيتاء ذي القربى، والوفاء، والصبر، والشكر.

ونهدت عن الرذائل، والمنكرات؛ كالغدر، والجحود، ونقض العهود، والاستكبار، والظلم.

وحفّلت السورة بالترغيب والترهيب، والتبشير والإنذار، والوعد والوعيد.

وقد حُتِمت السورة ببيان أن الدعوة إلى الله تعالى تقوم على الحوار والإقناع، والأخذ بالرد، ولا تتخذ من الإكراه طريقًا لانتشارها.

ولا يستطيع القيام بذلك إلا فقيه في الكتاب والسنة، عارف بالداء والدواء، يفرق بين حوار الكافر والمسلم والعاصي، قدوة في نفسه، عامل بالكتاب والسنة، على اطلاع بأحوال الناس وسياسة الأمور وعلوم الكون.



تَفْسِيرُ السُّورَةِ

قُرْبُ قِيَامِ السَّاعَةِ

١- ﴿أَنذَرْتُكُمْ اللَّهَ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ سُبْحَنَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ (١)

قبل نزول سورة النحل، جاءت آيات كثيرة تتوعد المكذبين بيوم يكون الفارق فيه بين الحق والضلال، فتزول فيه شوكتهم، وتذهب قوتهم، ويحل بهم عقاب الله، فقد استبطؤوا هذا اليوم، وظنوا أنه غير واقع بهم، وصاروا يهزؤون به، ويستبعدون وقوعه، فأنزل الله تعالى يبين أن ما توعدهم به النبي ﷺ سيحل بهم في وقت قريب؛ فإن مجيئه شيء محقق.

﴿أَنذَرْتُكُمْ اللَّهَ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ﴾ أي: قُرْبُ قِيَامِ السَّاعَةِ، ودنا قضاء الله بعذابكم -أيها الكفار- فلا تستعجلوا العذاب استهزاءً بوعيد الرسول ﷺ لكم؛ فإن القيامة آتية ولا بد، وإن أشراتها قد وقعت، وإن عذاب الله كائن فيها، فوقعها محقق، وفي هذه الآية تقريب ما وعدها الله به، وبعثة النبي ﷺ من أشراف قِيَامِ السَّاعَةِ.

قال تعالى مشيراً إلى استعجال المكذبين نزول العذاب بهم: ﴿وَسْتَغْلِبُونَكَ بِالْعَذَابِ وَلَنْ يُخْلِفَ اللَّهُ وَعْدَهُ وَإِنَّ يَوْمًا عِنْدَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ﴾ (٧) [الحج].
وقال جلّ وعلا: ﴿وَسْتَغْلِبُ بِهِمُ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِهِمْ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا خِشْيَةً مِّنْهَا وَيَعْلَمُونَ أَنَّهَا الْحَقُّ﴾ [الشورى: ١٨].

وقال تعالى: ﴿وَسْتَغْلِبُونَكَ بِالْعَذَابِ وَلَوْلَا أَجَلٌ مُّسَمًّى لِّجَاءِ هَؤُلَاءِ الْعَذَابِ وَلِيَأْتِيَنَّهُمْ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ (٥٢) ﴿وَسْتَغْلِبُونَكَ بِالْعَذَابِ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ﴾ (٥٤) [العنكبوت].
وقال سبحانه: ﴿وَلَكِنْ أَخْرَجْنَا عَنْهُمْ الْعَذَابَ إِلَّا أُمَّةً مَّعْدُودَةً لِّقَوْلِهِمْ مَا يَٰحِسُّهُ إِلَّا يَوْمَ يَأْتِيَهُمُ لَيْسَ مَصْرُوفًا عَنْهُمْ وَخَافَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهٖ يَسْتَهْزِئُونَ﴾ (٨) [هود].

وقال جلّ شأنه حكاية عن المكذبين للرسول: ﴿وَقَالُوا رَبَّنَا عَجَلْ لَّنَا قِطْنًا﴾

(١) قرأ حمزة والكسائي وخلف بناء الخطاب في (تشركون)، والباقون بياء الغيب على الالتفات.

أي: عَجَّلْ لَنَا نَصِينَا مِنَ الْعَذَابِ فِي الدُّنْيَا ﴿قَبْلَ يَوْمِ الْحِسَابِ﴾ [ص: ١٦].

والقرآن يرد على طلبهم تعجيل العذاب قبل يوم القيامة، بمثل قوله تعالى: ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُهُ بَيِّنَاتًا أَوْ نَهَارًا مَاذَا يَسْتَغِيثُونَ مِنْهُ الْمُجْرِمُونَ﴾ ﴿٥١﴾ أَمَرُ إِذَا مَا وَقَعَ ءَامَنُكُمْ بِهِ ۖ وَعِنْدُ يُقَالُ لَهُمْ: ﴿ءَالْتَنَ﴾ تَوَمَّنُونَ بَعْدَ أَنْ نَزَلَ بِكُمْ الْعَذَابُ ﴿وَقَدْ كُنْتُمْ بِهِ تَسْتَعْجِلُونَ﴾ [يونس: ٥٠، ٥١] والكفار يستعجلون قيام الساعة، ويستعجلون وقوع العذاب بهم.

وقد بيَّن الله سبحانه قرب قيام الساعة بما فيها من الثواب والعقاب في مثل قوله تعالى: ﴿أَقْرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ مُّعْرِضُونَ﴾ ﴿١﴾ [الأنبياء] وقوله: ﴿أَقْرَبَتِ السَّاعَةُ وَانْشَقَّ الْقَمَرُ﴾ ﴿١﴾ [القمر].

وقوله: ﴿وَمَا يَذُرِيكَ لَعَلَّ السَّاعَةَ تَكُونُ قَرِيبًا﴾ [الأحزاب: ٦٣]

وقوله: ﴿وَمَا يَذُرِيكَ لَعَلَّ السَّاعَةَ قَرِيبٌ﴾ [الشورى: ١٧]

وقوله: ﴿وَمَا أَمُرُ السَّاعَةِ إِلَّا كَلَمْحِ الْبَصَرِ أَوْ هُوَ أَقْرَبُ﴾ [٧٧].

والخطاب في قوله تعالى: ﴿أَنَّهُ أَمْرٌ أَلَّهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ﴾ مَوْجَّهٌ لِكُلِّ مَكْذِبٍ بِالْبَعْثِ وَالنَّشُورِ، وهو يشمل عصاة المؤمنين الذي يُسَوِّفُونَ فِي التَّوْبَةِ، وَقَدْ غَابَ عَنْهُمْ أَنَّ الْمَوْتَ يَأْتِي فَجَاءَةً، وَأَنَّ كُلَّ مَنْ مَاتَ قَامَتْ قِيَامَتُهُ.

فأمر الله في الآية هو قيام الساعة، وأشراطها، وما فيها من العذاب.

أما المؤمنون فإنهم يستعجلون نصر الله تعالى لهم على عدوهم.

وأتى بمعنى يأتي، وعبر بالماضي عن المضارع؛ لتحقيق قيام الساعة، أي: أن الساعة آتية لا ريب فيها وقد اقترب مجيئها.

ولما نزلت هذه الآية قال عليه الصلاة والسلام فيما يرويه أنس وأبو هريرة وسهل ؓ:

«بُعِثْتُ أَنَا وَالسَّاعَةُ كَهَاتَيْنِ وَأُشَارَ بِأَصْبِعِيهِ» الحديث^(١).

أي: أن بعثة النبي ﷺ من علامات الساعة الصغرى.
ولما نزل جبريل من السماء مبعوثاً إلى رسول الله ﷺ بالوحي لأول مرة، قال أهل السموات: الله أكبر، قد اقتربت الساعة، قاله ابن عباس.

أي: أن الساعة قد اقتربت، والعذاب الذي يستعجله المكذبون قد اقترب.
ويدل على ذلك قوله سبحانه: ﴿فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ﴾ فإنه لما نزل ﴿أَنَّهُ أَمْرٌ أَلَّهِ﴾ امتدت أعناقهم وأبصارهم ينظرون إلى قيام الساعة التي أتت، فنزل بعدها ﴿فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ﴾ أي: لا تستعجلوا هذا اليوم؛ فإنه آتٍ - لا محالة - في الوقت الذي أَرَادَهُ رب العالمين، وسوف يأتيكم بغتة في وقت حدده الله تعالى وقضاه.

قال ابن عطية: رُوِيَ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ لَمَّا قَالَ جَبْرِيلُ فِي سِرِّهِ الْوَحْيِ: ﴿أَنَّهُ أَمْرٌ أَلَّهِ﴾ وَثَبَّ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ قَائِمًا، فَلَمَّا قَالَ: ﴿فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ﴾ سَكَنَ^(٢).
وفي الحديث: أن الساعة تقوم والرجل ينشر ثيابه للبيع بينه وبين المشتري، فتقوم الساعة، فلا يطويه، والرجل يحلب ناقته فلا يشرب حليبها.

قال تعالى: ﴿مَا يَنْظُرُونَ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً تَأْخُذُهُمْ وَهُمْ يَخِصِّمُونَ﴾ [يس].

أي: وهم في الأسواق يتساقطون في ثمن السلعة، فلا يتم البيع ولا الشراء بين المتبايعين، ولا يعودون إلى أهلهم ببضاعتهم التي اشتروها، ولا يتمكنون من كتابة وصيتهم؛ لأن الساعة قد أتتهم فجأة ﴿فَلَا يَسْتَطِيعُونَ تَوْصِيَةً﴾ أي: كتابة وصيتهم ﴿وَلَا إِلَىٰ أَهْلِهِمْ يَرْجِعُونَ﴾ [يس: ٥٠] ولا يعودون من السوق إلى ذويهم.

ولما كان تكذيب الساعة، وتكذيب ما فيها من البعث والجزاء لوناً من الكفر ولوناً من الشرك، ولما كان القرآن الكريم كتاب هداية فهو يخاطب المؤمنين؛ ليثبتوا في إيمانهم، وليتزودوا بالعمل الصالح.

(١) رواه سهل وأنس وأبو هريرة في البخاري بأرقام: (٦٥٠٣، ٦٥٠٤، ٦٥٠٥) و«صحيح مسلم» برقم (٢٩٥٠، ٢٩٥١).

(٢) «تفسير ابن عطية» (٣/٣٧٧).

ويخاطب غير المسلمين في كل زمان ومكان فيطلب منهم الدخول في الإسلام، وتوحيد الخالق سبحانه، ويقوم لهم الأدلة الناطقة بوحداية الله تعالى، الموجبة لإفراده تعالى بالعبادة.

لما كان الأمر كذلك، كان التكذيب بالبعث والثواب والعقاب لونا من الكفر والشرك، ولذا فإن الله سبحانه ختم الآية التي أخبرت بقرب مجيء الساعة بقوله: ﴿سُبْحَنَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ أي: تنزه الله عن الشرك والشركاء، وعن كل ما لا يليق بجلاله، أو ينافي كمال التوحيد.

ومعنى الآية: قُرب قيام الساعة، ودنا وقت عذابكم -أيها الكفار- فلا تستعجلوا وقوع العذاب استهزاء بوعيد الرسول لكم، تنزه الله سبحانه عن الشرك والشركاء الذي تشركونه مع الله تعالى.

وقد بدأ الله سبحانه سورة النحل بآيتين:

الآية الأولى تتحدث عن القيامة وما فيها، وأن الإيمان بها ركن من أركان من الإيمان، ولا يستقيم إيمان المرء إلا إذا آمن بأن هناك يوما آخر يبعث الله فيه العباد، ويحاسبهم على ما قدمت أيديهم، ويجازيهم على ما فعلوه وقالوه في الحياة الدنيا، إن خيرا فخير، وإن شرا فشر.

والآية الثانية تتحدث عن الوحي الذي نزل الله على رسله، مما يجب اتباعه في كل ما يأتي به من عند الله، من واجبات وسنن وأركان ومستحبات.

دَلَالُ التَّوْحِيدِ فِي السُّورَةِ: الْمَجْمُوعَةُ الْأُولَى اثْنَتَا عَشْرَةَ نِعْمَةً

النَّعْمَةُ الْأُولَى: فِي وَحْيِ السَّمَاءِ حَيَاةُ الْقُلُوبِ وَالنُّفُوسِ

٢- ﴿يُنْزِلُ^(١) الْمَلَائِكَةَ بِالرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ أَنْ أَنْذِرُوا أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاتَّقُونِ^(٢)﴾

وهذه الآية تتحدث عن الوحي، وعن النبوة والرسالة، أي: أن الله سبحانه لم يترك خلقه للشيطان والأهواء، ولم يتركهم لعقولهم، وإنما بيّن لهم الهدى والضلال، وبيّن لهم الخير والشر، على السنة رسل الله، وفي كتب الله التي نزلت عليهم.

فالآية الأولى كانت عن العقيدة، وهذه الآية عن النبوة، وهي من رحمة الله تعالى بعباده؛ حيث أرسل إليهم رسلاً مبشرين ومنذرين، وقد سَمَّى الله سبحانه الوحي روحاً، فقال تعالى: ﴿يُنْزِلُ الْمَلَائِكَةَ بِالرُّوحِ﴾ أي: بالوحي، وهو جبريل عليه السلام ينزل بالقرآن على رسول الله ﷺ، كما قال تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِنْ أَمْرِنَا﴾ [الشورى: ٥٢] فسمَّى القرآن روحاً؛ لأن القلوب بهذه الروح تُحْيَى، ويُحْيِي الله بها الجاهل والكافر، فيجعله يحيى بالإيمان، ويموت بالكفر والإيمان بمنزلة الروح من الجسد.

فالجسد يحيى بالروح، وهو بدون الروح، يساوي قطعة من الأرض، كالجماذ لا قيمة له، والروح إذا حلَّ بالجسم حلَّت به الحياة، وكذلك الإيمان إذا حلَّ في القلب حلَّت به الحياة، قال تعالى: ﴿أَوْ مَنْ كَانَ مَيِّتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَكُمْ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَنْ مَثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِنْهَا﴾ [الأنعام: ١٢٢]

فالجاهل والكافر كالميت؛ لأنه لا ينتفع بحياته.

(١) قرأ ابن كثير وأبو عمرو ورويس بياء مضمومة، وتخفيف الزاي المكسورة، وإسكان النون من (ينزل) مضارع أنزل، والملائكة بالنصب مفعول به.

وقرأ روح بياء مفتوحة بعدها نون مفتوحة ثم زاي مفتوحة مشددة، مضارع تنزل حذفت منه التاء، والملائكة فاعل مرفوع.

والباقون بنون مفتوحة بعد ياء مضمومة، وبعد النون زاي مشددة مكسورة، مضارع نزل، والملائكة مفعول به، فالقراءة الأولى هكذا (يُنْزِلُ الملائكة)، والثانية هكذا (تَنْزِلُ الملائكة)، والثالثة هكذا (يُنْزِلُ الملائكة).

(٢) قرأ يعقوب بإثبات الياء في الوصل والوقف من (فاتقون)، والباقون بحذفها.

ومعنى ﴿مِنْ أَمْرِهِ﴾ أي: أن نزول الملائكة من عند الله إنما يكون بأمر من أموره تعالى، وشأن من شؤونه ومقدراته المتعلقة بخلقه التي استأثر الله تعالى بها، ولذا فقد أضاف الأمر إليه سبحانه في قوله: ﴿وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِنْ أَمْرِنَا﴾ [الشورى: ٥٢]. وقوله عن الملائكة: ﴿يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ﴾ [الرعد: ١١]. وقوله: ﴿قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي﴾ [الإسراء: ٨٥].

والله تعالى ينزل الملائكة بالوحي والنبوة بأمره على من يشاء من عباده المرسلين؛ فنزول الملائكة بالوحي لا يكون إلا بأمر الله، كما قال تعالى على لسانهم: ﴿وَمَا نَنْزِلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ﴾ [مريم: ٦٤] ونزولهم لا يكون إلا على من يختاره الله من خلقه للنبوة والرسالة. ومن أصول العقيدة عند المشركين، ألا يكون الرسول من البشر، فنفى الله سبحانه الشرك عن نفسه في الآية السابقة، ثم أتبع ذلك ببشرية الرسول، وبراءته من الكذب، وقد كانت الرسالة سبباً في حسد المشركين للنبي ﷺ؛ حيث قالوا: ﴿لَوْلَا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَى رَجُلٍ مِّنَ الْفَرِيقَيْنِ عَظِيمٍ﴾.

فكان الرد من الله تعالى عليهم: ﴿أَمَرُ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ﴾ [الزخرف: ٣١، ٣٢]. وقد حسده أهل الكتاب على الرسالة أيضاً، كما قال سبحانه: ﴿أَمْرٌ يُحْشَدُونَ النَّاسَ عَلَى مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ﴾ [النساء: ٥٤]. وعن اختيار الله تعالى لرسله من البشر يقول سبحانه: ﴿اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ﴾ [الأنعام: ١٢٤] ويقول أيضاً: ﴿اللَّهُ يَصْطَفِي مِنَ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا وَمِنَ النَّاسِ﴾ [الحج: ٧٥] ويقول: ﴿يُلْقَى الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ﴾ [غافر: ١٥].

ثم بين جل شأنه المهمة التي من أجلها أرسل الله الرسل جميعاً فقال: ﴿أَنذَرُوا﴾ أي: خوّفوا الناس من الشرك وعلموهم التوحيد، و﴿أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا﴾ فلا معبود بحق إلا الله ﴿فَأَتَّقُون﴾ بأداء فرائضي، وترك محرماتي، وإخلاص العبادة لي، فالله تعالى أرسل الرسل؛ ليعلموا الناس أن يعبدوا الله، ويفردوه بالعبادة، ولا يشركوا معه غيره، وأن يخافوا من الشرك والكفر، قال تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ﴾ [الأنبياء: ٢٥].

وهذا التوحيد هو خلاصة دعوة المرسلين كلهم، فعبادة الله وحده هي التي أرسل الله بها رسله، وأنزل بها كتبه، وشرع الجهاد والولاء والبراء من أجلها.

النِّعْمَةُ الثَّانِيَّةُ: نِعْمَةُ خَلْقِ الْعَالَمِ الْعُلُويِّ وَالْعَالَمِ السُّفْلِيِّ

٣- ﴿خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ تَعَلَّى عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ (٢١)

وهذه جملة من الأدلة والبراهين على وحدانية الله سبحانه، فقد خلق السموات والأرض بالحق الثابت والحكمة الفائقة، ولم يخلقهما عبثاً ولا جُزْأً، بل خلقهما؛ ليستدل بهما العباد على وحدانية الخالق سبحانه، واستحقاقه للعبادة دون سواه.

خلقهما وما فيهما وما بينهما؛ لنفع الإنسان وغيره من مخلوقات الله سبحانه، فهو جلّ شأنه لم يخلق السماوات والأرض وما فيهما عبثاً، ولا لهواً، ولا باطلاً، وإنما خلقهما لغاية عظمى، ولهدف كبير؛ كي يجزي في الآخرة الذين أساءوا بما عملوا في الدنيا، ويجزي الذين أحسنوا بالحسنى.

خلقهما؛ ليتعرف العباد على خالقهم فيعبده، ويذكروه، ويشكروه وحده دون سواه؛ فقد تنزه سبحانه وتعاضم عن الشرك والشركاء.

﴿مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِنْ وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَهٍ إِذَا لَذَهَبَ كُلُّ إِلَهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَّ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ﴾ [المؤمنون: ٩١].

والسموات والأرض أعظم المخلوقات: ﴿لَخَلْقُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ (٥٧) [غافر]

والحق في الآية ضد العبث بمعنى: الحكمة والجدّ وعدم الباطل وعدم اللهو، كما قال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَعِبٍ﴾ (٢٨) مَا خَلَقْنَاهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ [الدخان]

وقال سبحانه: ﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَطْلًا﴾ [ص: ٢٧].

ولما ذكر الله خلق السموات والأرض، ذكر خلق ما فيهما، وبدأ بأشرف المخلوقات وهو الإنسان:

النَّعْمَةُ الثَّالِثَةُ: نِعْمَةُ وُجُودِ الْإِنْسَانِ فِي هَذِهِ الْحَيَاةِ

٤- ﴿خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ نُطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُبِينٌ﴾ ﴿٤١﴾

وبعد ذكر العالم العلوي من الملائكة والسموات، وذكر العالم السفلي من خلق الأرض؛ لأنه ملازم لخلق السماوات، بعد ذلك، قدّم الله سبحانه خلق الإنسان، من العالم الأرضي، فقال: ﴿خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ نُطْفَةٍ﴾ مكونة من ماء الرجل وماء المرأة، كما قال تعالى: ﴿إِنَّا خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ نُطْفَةٍ أَمْشَاجٍ﴾ [الإنسان: ٢] أي: أخلط من ماء الرجل والمرأة، وهو ماء مهين حقير، هذا هو أصل الإنسان، وقد تعهد الله هذه النطفة فنامها ووطورها حتى صارت بشراً سوياً كامل الأعضاء الظاهرة والباطنة.

ثم إن الله سبحانه رباه بنعمه، وجعل له عقلاً، فشب وصار رجلاً، واشتد ساعده حتى صار عاقلاً متكلاً له رأى وفكر، فإذا هو يبارز الله تعالى بالمعاصي ويجادل ويخاصم، ويعاند، فيكذب رسل الله، ويُنكر البعث، والنشور، والحساب، والجزاء على الأعمال، ويكفر بالله سبحانه، وهذا معنى ﴿فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُبِينٌ﴾ أي: معاند، مجادل، مكابر، يكفر، ويتعالى، ويشرك بالله سبحانه، ولم ينظر إلى أصل خلقه من نطفة، وإنما اغتر بنفسه، ولم يفكر، ونسى خلقه الأول، وما أنعم الله عليه به من نعم فاستعان بهذه النعم على معصية الله تعالى.

ومن هذا الصنف من الناس (العاص بن وائل) جاء إلى رسول الله ﷺ بعظم بين أصابعه قد بلي، وأصبح رميماً يفتته بيده، ويقول: يا محمد، أترى أن الله يحيي هذا بعد ما بلي ورّم؟ فقال عليه الصلاة والسلام: «نعم ويبعثك ويدخلك النار»، وأنزل الله سبحانه: ﴿أَوَلَمْ يَرِ الْإِنْسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِنْ نُطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُبِينٌ﴾ ﴿٧٧﴾ وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَنْ يُعِى الْعِظَمَ وَهِيَ رَمِيمٌ ﴿٧٨﴾ قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنْشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ ﴿٧٩﴾ الَّذِي جَعَلَ لَكُم مِّنَ الشَّجَرِ الْأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَا أَنْتُمْ تُوقَدُونَ ﴿٨٠﴾ [يس] إلى آخر الآيات^(١).

(١) يُنظَر: النيسابوري (٢٣٤) والسيوطي (١٦٢) كلاهما في «أسباب النزول» وتفسير «زاد المسير» (٤/٤٢٩) وفيها أن القائل أبي بن خلف، وقد أنكر ذلك ابن كثير في تفسيره؛ لأن أبي بن خلف كان في المدينة والآية مكية.

لقد خلق الله الإنسان؛ ليعبد ربه، فإذا هو يعبد الأصنام بدلاً من عبادته لربه.
قال تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ مِنَ الْمَاءِ بَشَرًا فَجَعَلَهُ نَسَبًا وَصِهْرًا وَكَانَ رَبُّكَ قَدِيرًا ۝٥٤ وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُهُمْ وَلَا يَضُرُّهُمْ وَكَانَ الْكَافِرُ عَلَىٰ رَبِّهِ ظَهِيرًا ۝٥٥﴾ [الفرقان].

عن بُسر بن جَحَّاش القرشي قال: بصق رسول الله ﷺ في كفه، ثم قال: «يقول الله: ابن آدم، أننى تعجزني وقد خلقتك من مثل هذه، حتى إذا سَوَّيْتُكَ فَعَدَلْتُكَ، مشيت بين بُرْدِكَ ولِلأَرْضِ منك وئيد، فجمعتَ ومنعتَ، حتى إذا بلغت الحلقوم قلت: أتصدق، وأنى أوان الصدقة؟»^(١).

وإلى مهانة النطفة يقول سبحانه: ﴿أَلَمْ تَخْلُقْ مِنْ مَّاءٍ مَّهِينٍ ۝٢٠﴾ [المرسلات].

ويرفع القرآن عن ذكر هذه النطفة فيقول: ﴿كَلَّا ۚ إِنَّا خَلَقْنَاهُمْ مِمَّا يَعْلَمُونَ ۝٢٦﴾ [المعارج].

ومع هذا فإن الإنسان يقوى ويغترُّ، فيصبح شديد الخصومة لربه مجادلاً، منكراً للبعث، وقد نسي أن الله تعالى خلقه من العدم ﴿أَلَمْ يَكُنْ نُطْفَةً مِنْ مَنِيٍّ يُنْتَنَى ۝٢٧ ثُمَّ كَانَ عَلَقَةً فَخَلَقَ فَسَوَّى ۝٢٨ جَعَلَ مِنْهُ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالْأُنثَى ۝٢٩﴾ [القيامة].

والنطفة في الأصل: هي الماء الصافي القليل الذي يبقى في الدُّلو، أو القِرْبَةِ كالقطرة المتبقية، ويراد بها في القرآن: المنى، وهو مادة التلقيح من الذكر للأنثى، والآية التي نحن بصددتها تحمل عبراً ثلاثاً:

العبرة الأولى: خلق جنس الإنسان في أكمل صورة، وأحسن قوام، وهو حيوان ناطق ﴿خَلَقَ الْإِنْسَانَ﴾ أي: الإنسان المعروف بماهيته، وخواصه المعلومة.

العبرة الثانية: أن هذا الإنسان الذي هو أشرف المخلوقات، خلقه الله من أحقر شيء هو النطفة ﴿مِنْ نُطْفَةٍ﴾.

(١) أخرجه أحمد في «المستد» (٢١٠/٤) برقم (١٧٨٤٢، ١٧٨٤٤) بإسناد حسن، وابن ماجه في سننه برقم (٢٧٠٧) وقال البوصيري في «الزوائد» (٣/٣٦٥): وإسناده صحيح ورواته ثقات، وأصله في الصحيحين وغيرهما عن أبي هريرة، وصححه الحاكم ووافقه الذهبي، «المستدرك» (٥٠٢/٢/٢) وهو في صحيح «سنن ابن ماجه» (٢١٨٨) ويُنظر: «السلسلة الصحيحة» برقم (١٠٩٩، ١١٤٣) وأخرجه ابن سعد (٤٢٧/٧)، والطبراني في الكبير (١١٩٣).

العبرة الثالثة: أن منتهى شرف الإنسان، في عقله الذي يحاور به، ويفكر ويجادل، فيصل عن طريقه إلى توحيد الخالق سبحانه، أو يصل إلى إثبات الشرك والشركاء ﴿فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّثِينٌ﴾ والمراد بالخصيم: إثبات الشرك، وتكذيب البعث، ونفي التوحيد.

النِّعْمَةُ الرَّابِعَةُ: نِعْمَةُ خَلْقِ الْأَنْعَامِ لِنَفْعِ الْإِنْسَانِ

هـ- ﴿وَالْأَنْعَامَ خَلَقَهَا لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنْفَعٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ﴾

وبعد أن ذكر سبحانه ما يدل على وحدانيته وقدرته، عن طريق خلق السموات والأرض والإنسان، أتبع ذلك بما يدل على قدرته في خلق الحيوان، فذكر سبحانه خلق الأنعام، امتناناً على خلقه، وتعريضاً بمن كفر بها منهم، فجعل من نتاج هذه الأنعام لله نصيباً، ولشركائهم نصيباً، وهي من أجل النعم وأعظمها، ومن أول ما يعود به النفع على الإنسان عموماً: الكافر والمؤمن، الحضري والبدوي، في كل مكان من العالم، فلا غنى لأحد عن الأنعام وما فيها من خيرات ومنافع.

﴿وَالْأَنْعَامَ خَلَقَهَا﴾ لكم، لأجل منافعكم ومصالحكم الكثيرة التي لا تتحقق إلا بها، وهي الأزواج الثمانية ﴿ثَمِينَةَ أَرْوَاحٍ﴾ من الإبل اثنين: ذكر وأنثى، ومن البقر اثنين: ذكر وأنثى، ومن الضأن اثنين كذلك، ومن المعز اثنين كذلك، فهي أربعة أصناف، لكم فيها ثلاث فوائد هي: الدفء، والمنافع والأكل، فهذه ثلاث منافع، أو فوائد ضرورية لحياة الإنسان، ذكرتها هذه الآية، فضلاً عن المنفعة الرابعة في الآية التالية، وهي الجمال والزينة، والمنفعة الخامسة في الآية السابعة، وهي حمل الأثقال.

وهكذا فإن من فوائد الأنعام خمس منافع:

المنفعة الأولى: هي الدفء بالفُرْش المصنوعة من أصواف الأنعام، وأوبارها، وأشعارها، وكذا الأغطية، والخيام، والملابس، كما قال تعالى: ﴿وَجَعَلَ لَكُم مِّنْ جُلُودِ الْأَنْعَامِ بُيُوتًا تَسْتَخِفُّونَهَا يَوْمَ ظَعْنِكُمْ وَيَوْمَ إِقَامَتِكُمْ وَمِنْ أَصْوَابِهَا وَأَوْبَارُهَا وَأَشْعَارُهَا أَثْنَا وَمِثْلًا إِلَى حِينٍ﴾ [٨٠] أي: جعل لكم ما تستدفئون به، وتنسجون به في ملابسكم، وفُرْشكم، وأغطيتكم.

والمنفعة الثانية: منافع كثيرة من النسل، والألبان، والجلود، والركوب، والحمل

عليها، وما إلى ذلك، كما جاء في آيات أخر ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا خَلَقْنَا لَهُمْ مِمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَا أَنْعَامًا فَهُمْ لَهَا مَالِكُونَ ﴿٧٦﴾ وَذَلَّلْنَاهَا لَهُمْ فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ ﴿٧٧﴾ وَلَهُمْ فِيهَا مَنَافِعُ وَمَشَارِبٌ أَفَلَا يَشْكُرُونَ ﴿٧٨﴾﴾ [يس].

والمنفعة الثالثة: هي الطعام والشراب المنصوص عليه في قوله تعالى: ﴿وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ﴾ ولا غنى لأي مخلوق عن الأكل من لحوم الأنعام، وسمنها، ولبنها: المسلم وغير المسلم، أهل الحضر وأهل البدو، وغيرهم.

قال تعالى: ﴿وَإِنَّ لَكُمْ فِي الْأَنْعَامِ لَعِبْرَةً لِّتُنْقِضُوا مِمَّا فِي بُطُونِهَا وَلَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ كَثِيرَةٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿٧٦﴾﴾ [المؤمنون].

وقال: ﴿وَإِنَّ لَكُمْ فِي الْأَنْعَامِ لَعِبْرَةً لِّتُنْقِضُوا مِمَّا فِي بُطُونِهِ مِنْ بَيْنِ فَرْثٍ وَدَمٍ لَبَنًا خَالِصًا سَائِغًا لِلشَّارِبِينَ ﴿٧٦﴾﴾.

الْمَنْفَعَةُ الرَّابِعَةُ: الْجَمَالُ وَالزَّيْنَةُ

٦- ﴿وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ ﴿٦١﴾﴾

وفي الأنعام زينة وجمال يُدخل السرور على ذويها عندما تخرج للمرعى، وعندما تعود إلى منازلها في المساء، أي: لكم في الأنعام زينة، ومنظرٌ، وبهجة تسرُّ النفوس، في وقت حركتها ووقت سكونها.

ولا يشعر بهذا الجمال إلا المزارع الذي يقتني الإبل، والبقر، والضأن، والمعز، وأكثر ما يكون هذا الإحساس وهذا الشعور في فصل الربيع إذا سقط المطر، ونبت العُشب والكلأ، وظهرت خضرة الأرض، مع ملء بطونها بالأكل، والضروع بالحليب.

فالله سبحانه جعل في الأنعام حاجات الإنسان الضرورية التي أشارت إليها الآية السابقة، وجعل فيها حاجاته الكمالية، كما في هذه الآية بالزينة، وجمال المظهر وقت إراحته، أي: عودتها إلى بيوتها من المرعى؛ حيث تكون ممتدة السنم، ممتلئة البطون، حافلة الضروع باللبن، ولذلك قدّم القرآن وقت الإراحة على وقت السراح؛ لأنها تذهب وهي جائعة، ومنظرها لا يكون حسناً حين تخرج صباحاً وتذهب إلى المرعى، ويكون أفضل عند عودتها.

الْمَنْفَعَةُ الْخَامِسَةُ: حَمْلُ الْأَثْقَالِ

٧- ﴿وَتَحْمِلُ الْأَنْعَامُ لَكُمْ مَتَاعَ السَّفَرِ، وَمَا يُلْزِمُ لَكُمْ مِنْ أَغْرَاضِ الثَّقَلِ وَالتَّجَارَةِ، وَكُلِّ مَا ثَقُلَ مِنْ أَمْتِعَتِكُمْ إِلَى بَلَدٍ بَعِيدٍ، كَمَا أَنَّهَا تَحْمِلُكُمْ أَنْتُمْ إِلَى بَلَدٍ لَا تَسْتَطِيعُونَ الْوُصُولَ إِلَيْهِ إِلَّا بِجَهْدٍ شَدِيدٍ، وَمَشَقَّةٍ عَظِيمَةٍ، لَوْلَا هَذِهِ الْأَنْعَامُ، فَقَدْ ذَلَّلَهَا اللَّهُ لَكُمْ وَهَذَا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ تَعَالَى بِكُمْ؛ حَيْثُ سَخَّرَ لَكُمْ مَا تَحْتَاجُونَ إِلَيْهِ، فَلَهُ الْحَمْدُ وَالشُّكْرُ، كَمَا يَنْبَغِي لِجَلَالِ وَجْهِهِ وَعَظِيمِ سُلْطَانِهِ.

وتحمل الأنعام لكم متاع السفر، وما يلزم لكم من أغراض الثقل والتجارة، وكل ما ثقل من أمتعتكم إلى بلد بعيد، كما أنها تحملكم أنتم إلى بلد لا تستطيعون الوصول إليه إلا بجهد شديد، ومشقة عظيمة، لولا هذه الأنعام، فقد ذللها الله لكم وهذا من رحمة الله تعالى بكم؛ حيث سخر لكم ما تحتاجون إليه، فله الحمد والشكر، كما ينبغي لجلال وجهه وعظيم سلطانه.

عن أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «ياكم أن تتخذوا ظهور دوابكم منابر؛ فإن الله تعالى إنما سخرها لكم؛ لتبلغوا إلى بلد لم تكونوا بالغيه إلا بشق الأنفس، وجعل لكم الأرض، فعلوها فاقضوا حاجاتكم»^(١).

قال تعالى: ﴿اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ الْأَنْعَامَ لِتَرْكَبُوا مِنْهَا وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿٧٩﴾ وَلَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ وَلِتَبْلُغُوا عَلَيْهَا حَاجَةً فِي صُدُورِكُمْ وَعَلَى الْفُلْكِ تُحْمَلُونَ ﴿٨٠﴾﴾ [غافر].

وقال جل شأنه: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا خَلَقْنَا لَهُمْ مِنْ مِائَةٍ أَيْدِيًا أَنْعَامًا فَهُمْ لَهَا مَالِكُونَ ﴿٧٦﴾ وَذَلَّلْنَاهَا لَهُمْ فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ ﴿٧٧﴾ وَلَهُمْ فِيهَا مَنَافِعُ وَمَشَارِبٌ أَفَلَا يَشْكُرُونَ ﴿٧٨﴾﴾ [يس].

وقال سبحانه: ﴿وَالَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا وَجَعَلَ لَكُمْ مِنَ الْفُلْكِ وَالْأَنْعَامِ مَا تَرْكَبُونَ ﴿١٢﴾ لِتَسْمُوا عَلَى ظُهُورِهِ ثُمَّ تَذْكُرُوا نِعْمَةَ رَبِّكُمْ إِذَا اسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ وَتَقُولُوا سُبْحَنَ الَّذِي سَخَّرَ لَنَا هَذَا وَمَا كُنَّا لَهُ مُقْرِنِينَ ﴿١٣﴾﴾ [الزخرف].

(١) قرأ أبو جعفر بفتح الشين من (بشق)، والباقون بكسرها، وهما مصدران بمعنى واحد.

(٢) قرأ أبو عمرو وشعبة وحمزة والكسائي ويعقوب وخلف بقصر همزة (الرؤوف) وحذف المد على وزن فُعل، والباقون بالمد على وزن فُعول.

(٣) «صحيح سنن أبي داود» (٢٢٣٨) والبيهقي في «الشعب» (١١٠٨٣) ويُنظر: «السلسلة الصحيحة» (٢٢).

النَّعْمَةُ الْخَامِسَةُ: نِعْمَةُ وَسَائِلِ الْمَوَاصِلَاتِ قَدِيمًا وَحَدِيثًا

٨- ﴿وَالْخَيْلَ وَالْبِغَالَ وَالْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ ﴿٨﴾

وكما امتنَّ سبحانه على عباده بخلق الأنعام امتنَّ عليهم بخلق الخيل، والبغال، والحمير؛ للركوب، والزينة، فقد تستعمل للضرورة في الركوب، وقد تستعمل لأجل الزينة والجمال، ولم يذكر الأكل، لأن البغال والحمير يحرم أكلهما، والخيل لا تستعمل في الأكل غالبًا.

جاء في الحديث عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ ذكر ضمن حديث فيه أشراف الساعة: «لتركنَّ القُلُوصُ فلا تركبونها»^(١).

والقُلُوصُ: هي الجمال، فأخبر ﷺ أن من علامات الساعة، أنه يأتي وقت على الناس يستغنون فيه عن ركوب الإبل، والخيل، والبغال، والحمير، وغير ذلك؛ حيث يستغنون عن هذه المواصلات، وسبل النقل القديمة، بما يجدُّ من أنواع المراكب المختلفة في البر والبحر والجو، وهذه معجزة لرسول الله ﷺ؛ حيث أخبر بأن الإنسان يأتي عليه وقت يستغني فيه عن ركوب الحيوانات، فلا يركبها إلا القليل منهم في المسافات القصيرة، ويركب الناس غيرها مما خلق الله سبحانه، وهَدَى البشر لصناعته.

﴿وَالْخَيْلَ وَالْبِغَالَ وَالْحَمِيرَ﴾ نعمة من نعم الله تعالى، ومن آياته العظيمة أن القرآن ذكر لها فائدتين: الركوب، والزينة.

جاء في الحديث عن عروة البارقي أن النبي ﷺ قال: «الإبل عزٌّ لأهلها، والغنم بركة»^(٢) «والخيل معقود في نواصيها الخير إلى يوم القيامة»^(٣).

(١) «المسند» (١٠٤٠٤) بنحوه وإسناده صحيح على شرط الشيخين، وهو في «صحيح مسلم»، برقم (٢٤٣، ١٥٥) والطحاوي في شرح مشكل الآثار (١٠٥) وابن حبان (٦٨١٦) والبخاري (٤٢٧٦).

(٢) صحيح «سنن ابن ماجه» (١٨٦٦) و«السلسلة الصحيحة» (١٧٦٣).

(٣) من حديث سلمة بن نُفَيْل الكندي في «سنن النسائي الكبرى» (٤٣٨٦) والطبراني الكبير (٦٣٥٧ - ٦٣٦٠) وابن سعد (٤٢٧/٧) وفي «المسند» (١٦٩٦٥) بإسناد حسن، وله شاهد من حديث ابن عمر (١٥٥٩٦) وأخرجه ابن حبان من حديث النواس بن سميان.

وكان من عادة العرب ركوب الخيل للغزو والصيد، وركوب البغال للمشى والغزو، وركوب الحمير؛ للتنقل في القرى ونحو ذلك، ولا يزال أكبر البلاد حضارة يتخذون من الخيل والبغال زينة، حتى في المواكب الملكية، والسباق والتنقل، وغير ذلك.

لحوم الخيل والبغال والحمير:

ولم يذكر القرآن الأكل من الخيل والبغال والحمير، كما ذكر في الأنعام، وإنما قال: ﴿لِتَرْكُوبَهَا وَزِينَةً﴾.

عن جابر رضي الله عنه قال: كنا نأكل لحم الخيل على عهد رسول الله ﷺ قلت: فالبغال؟ قال: أما البغال فلا^(٢).

ويرى جمهور الفقهاء، ومنهم: الشافعي، وأحمد، والمحدثون، وأهل السلف، أنه يجوز الأكل من لحوم الخيل خاصة، وذلك أن السنة النبوية بينت القرآن ووضحته.

جاء في الصحيحين عن أسماء بنت أبي بكر رضي الله عنها قالت: نحرنا فرساً على عهد رسول الله ﷺ، فأكلناه^(٣).

قال أبو حنيفة: إن منفعة الأكل أعظم، فلو كانت مقصودة لذكرها الله سبحانه، فإن أبا حنيفة ومالك لا يريان جواز الأكل من لحوم الخيل والبغال والحمير.

قال ابن جبير: سئل ابن عباس عن لحوم الخيل والبغال والحمير فكرها محتجاً بهذه الآية^(١). وقد جاءت السنة مبيّنة أن الخيل يجوز أكل لحومها، وقاس بعضهم البغال عليها.

١- وقد أذن رسول الله ﷺ في لحوم الخيل، ونهى عن لحوم الحُمُر بعد أن قيل له مرتين في يوم خير: أَكَلَتِ الحُمُرُ فسكت، ثم قيل له: أَفُنِيَتِ الحُمُرُ، فأمر ﷺ مناديه أن ينهى عن أكل لحوم الحُمُر، فأهرقت القدور^(٤).

٢- جاء في الصحيحين وغيرهما عن جابر رضي الله عنه أن النبي ﷺ نهى عن أكل لحوم الحُمُر

(١) «تفسير ابن عطية» (٣/ ٣٨٠).

(٢) صحيح «سنن النسائي» (٤٠٤١) وابن أبي شيبة (٧١/ ٨) والطبري (١٧٦/ ١٤).

(٣) «صحيح مسلم» برقم (١٩٤٢) و«صحيح البخاري» برقم (٥٥١٠) وما بعده والنسائي (٤٣٤٤، ٤٣٤٤) وصحيح «سنن النسائي» (٤٠٤١).

(٤) يُنْظَرُ حديث أنس بن مالك في «صحيح مسلم» (١٩٤٠).

الأهلية، وأذن في لحوم الخيل^(١).

وقاس بعضهم البغال والحمير على الخيل، واختلفت عن الأنعام في أنها لا تجتر، وأنها ذات حوافر، وأنها لا أكرأش لها، وأنها متداخلة في النسل، ومن جهة الشرع فقد قرنت مع الخيل، ولم تجب فيها الزكاة كالخيل، ففي أكل لحوم الخيل والبغال خلاف قوي بين أهل العلم.

أما لحوم الحمر الأهلية فقد أكلها المسلمون يوم خير؛ للضرورة، ثم حرمت.

أما الحمر الوحشية فلحومها مباحة على الأصل.

٣- عن جابر رضي الله عنه قال: أكلنا - زمن خير - الخيل، وحُمِر الوحش، ونهانا النبي ﷺ عن الحمار الأهلي^(٢).

وبعد أن ذكر الله سبحانه هذه الحيوانات قال: ﴿وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ أي مما يكون بعد نزول القرآن، مما يركبه الناس في البر والبحر والجو، ويستعملونه في مصالحهم ومنافعهم، ولم يذكر الله أعيان هذه الوسائل، لأن الله تعالى لا يذكر في كتابه إلا ما يعرفه الناس، أو يعرفون له نظير، أما ما لا يعرفونه فيذكر له أصلاً جامعاً يدخل فيه ما يعلمون وما لا يعلمون، كما ذكر الله تعالى نعيم الجنة، وسمي منه ما له نظير، كالنخيل والأعناب والرمان، ثم أجمل ما لا نعرف له نظير في قوله تعالى: ﴿فِيهَا مِنْ كُلِّ ثَمَرٍ أَكْثَرُ زَوْجَانٍ﴾ [الرحمن: ٥٢] وذكر هنا ما نعرفه من الخيل والبغال وأجمل الباقي في قوله ﴿وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾.

أي: من وسائل المواصلات وغيرها مما لا علم لكم به؛ لتزدادوا إيماناً بالله وشكراً له.

فالقرآن يخاطب الناس على قدر عقولهم في وقت التنزيل، كما قال علي رضي الله عنه: حدثوا الناس بما يعرفون، أتحبون أن يكذب الله ورسوله؟^(٣).

وإذا خاطبهم بما هو فوق عقولهم فإنهم يكذبون، ولا يصدقون.

(١) «صحيح البخاري» برقم (٤٢١٩، ٥٥٢٠) وصحيح مسلم برقم (١٩٤١) وابن أبي شيبة (٦٨/٨) والترمذي (١٧٩٣) والنسائي (٤٣٤٠).

(٢) «صحيح مسلم» (١٩٤١).

(٣) من كلام علي رضي الله عنه كما في البخاري برقم (١٢٧).

والقرآن نزل على أهل بادية في مكة، ولذا لفت أنظارهم إلى قدرة الخالق سبحانه ووحدانيته، بما يتقبلون فيه صباحاً ومساءً، وما يرونه ويشاهدونه بأعينهم في مثل قوله تعالى: ﴿أَفَلَا يَنْظُرُونَ إِلَى الْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ ﴿٧﴾ وَإِلَى السَّمَاءِ كَيْفَ رُفِعَتْ ﴿٨﴾ وَإِلَى الْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ ﴿٩﴾ وَإِلَى الْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ ﴿١٠﴾﴾ [الغاشية]

وهذه هي المخلوقات المحيطة بهم، والتي يعيشون بينها، ويتقبلون فيها. فالبدوي يفتersh الأرض، ويلتحف السماء، وينظر أمامه فيرى الإبل، ويلتفت حوله فيرى الجبال محيطة به، ولو خاطبهم القرآن بغير ذلك لكذبوه.

ولذا: فإن الله سبحانه يضع في هذه الآية قاعدة عامة لكل ما يجد في عالم المواصلات، وهذا يشمل الدواب التي لم تكن معروفة لدى المخاطبين وقتها؛ كالْفَيْلَة عند أهل الحبشة والهنود، ودواب الجهات القطبية: كالْفَقْمَة، والدب الأبيض، ودواب القارة الأمريكية التي كانت مجهولة عند الناس وقت نزول القرآن، كما يشمل: الدَّرَاجَة، والسكك الحديدية، والسيارات، والطائرات، والبواخر، ومركبات الفضاء ﴿وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ مما لا تعرفونه، ولا تطلعون عليه، ولا يظهر في هذا الزمن، من مخلوقاته العجيبة في سمواته وأرضه، وبره وبحره وجوه، سواء في مجال المواصلات، أو المعلومات، أو الفضائيات، أو غير ذلك.

والقرآن يهيئ العقول لكل ما يحدث مستقبلاً، ويفتح المجال لاستخدام كل ما لم تذكره الآية؛ حتى لا يحتج أحد بما جاء فيها فحسب.

النَّعْمَةُ السَّادِسَةُ: نِعْمَةُ الْهُدَايَةِ وَالْبَيَانِ

٩- ﴿وَعَلَى اللَّهِ قَصْدٌ^(١) السَّبِيلِ وَمِنْهَا جَايِزٌ وَلَوْ شَاءَ لَهَدَيْكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٩﴾﴾

قَصْدُ السَّبِيلِ، هو الطريق الموصل إلى مرضاة الله تعالى، وهو الصراط المستقيم.

والجائر، هو الطريق الباطل في العقائد والأعمال، وكل ما خالف طريق

(١) قرأ حمزة والكسائي وخلف ورويس بخلف عنه بإشمام الصاد صوت الزاء من (قصد)، والباقون بالصاد الخالصة وهو الوجه الثاني لرويس.

الاستقامة، فهو الطريق الذي يقطع العبد عن ربه، ويوصله إلى دار الشقاء، والمهتدون سلكوا طريق الاستقامة بإذن ربهم، والضالّون سلكوا الطرق الجائرة، ولو شاء الله لهدى البشر جميعاً، ولكنه جعل للجنة أهلاً وللنار أهلاً وفق اختيارهم وميولهم:

ومن بين النعم التي ذكرتها هذه الآيات: نعمة معنوية ذكرها الله سبحانه وسط هذه النعم الحسية الجليلة، وهي نعمة الهداية والبيان.

بمعنى: أن الله سبحانه خلق لنا عقولاً؛ لنميز بها بين الخير والشر، والحق والباطل، ولم يتركنا لهذه العقول التي قد تضل، وإنما هدانا سبحانه، وجعل فينا الفطرة لقبول التوحيد، وأرسل الرسل؛ ليعينوا لنا الهدى من الضلال، وأنزل الكتب، وآخرها هذا القرآن الذي هو بين أيدينا إلى قيام الساعة، وهذا معنى ﴿وَعَلَى اللَّهِ قَصْدُ السَّبِيلِ﴾.

والسبيل: هو الطريق، والطريق القاصد: هو الطريق المستقيم غير المعوج.

ومن السبيل بيان الحلال والحرام، والطاعة والمعصية، أي: أن الله سبحانه بيّن لنا طريق الاستقامة، تفضلاً منه لا وجوباً عليه، فالله تعالى لا يجب عليه شيء، ولا يلزم بشيء، إنما تفضل علينا بمنه وكرمه، فألزم نفسه أن يهدينا إلى الإسلام، طريق الحق، ويبين لنا الطريق المستقيم الذي يوصل إلى الفوز بالجنة، والنجاة من النار، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ عَلَيْنَا لَلْهُدَىٰ﴾ ﴿١٧﴾ [الليل].

ومن السبيل: سبل جائزة، مائلة لا تهدي إلى الحق، ولا توصل إليه، وهي سبل تضد عن طريق الحق، وتؤدي إلى طريق الغواية والضلال، وهذا معنى ﴿وَمِنْهَا جَائِرٌ﴾ أي: ومن بين الطرق التي يسلكها الناس طريق ضلال وجور.

وهذه السبل بيّنها النبي ﷺ لأصحابه في درس عملي حين خطّ خطاً مستقيماً، وقال: «هذا صراط الله المستقيم»، هذا هو طريق الحق المعتدل، ثم خطّ خطوطاً معوجة كثيرة عن يمين هذا الخط، وعن يساره، وقال: «وهذه السبل المعوجة، ما من سبيل منها إلا وله شيطان يدعو إليه»، ثم قرأ عليه الصلاة والسلام: ﴿وَأَنَّ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ ذَلِكُمْ وَصَّيْكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ ﴿١٥٦﴾ [الأنعام] (١).

(١) سبق تخريج الحديث عند هذه الآية من سورة الأنعام.

ولو شاء الله لهدى الناس أجمعين .

وقد اقتضت حكمة الله تعالى أن يخلق الناس مستعدين للهدى والضلال، وترك لهم حرية الاختيار، فمنهم من سلك طريق الاستقامة، ومنهم من سلك الطريق المعوج .
﴿إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا﴾ [الإنسان: ٢٩] أي: بيّنا له طريق الخير وطريق الشر، وأمرناه بالخير، ونهيناه عن الشر .

ثم بيّن سبحانه أن الهدى هدى الله، فقال تعالى: ﴿وَلَوْ شَاءَ لَهَدَيْنَاكُمْ أَجْمَعِينَ﴾، كما قال تعالى: ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَأَمَنَّ مِنَ فِي الْأَرْضِ كُلَّهُمْ جَمِيعًا﴾ [يونس: ٩٩]

ولكنه سبحانه لم يشأ أن يجعل الإنسان نسخة مكررة من الملائكة الكرام الذين .

﴿لَا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ [التحریم: ٦]

ولو شاء لهداكم كما هدى الملائكة؛ فكلهم مطيعون لله ﷻ، وكلهم مهتدون، وكلهم لا يعصون الله في شيء، ولا يخالفون أمره ونهيه .

فلا يتحقق الهدف من خلق الإنسان إذا كان نسخة مكررة من الملائكة .

ولكن الله سبحانه خلق الإنسان، ورغب فيه العقل والشهوة معاً، وجعله مكلفاً، فأمره ونهاه، وخلق له الجنة والنار، وجعل الإنسان يجاهد الهوى والشيطان، تارة يغلبه هواه، وتارة يتغلب عليه، وخلق له عقلاً وحرية واختياراً، وبيّن له طريق الحق والضلال، وجعله مسؤولاً عن تصرفاته، وعن اختياره ﴿فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيُكْفُرْ﴾ [الكهف: ٢٩]؛ ليترب عليه الثواب والعقاب، فإن هو اختار طريق الهدى نجا ورشد، وإن هو اختار طريق الضلال ضل وغوى .

وهذا الخلق يختلف عن خلق الملائكة؛ حيث جعل الله لهم عقولاً، ولم يجعل فيهم شهوة تنزع العقل، ولذا جُبلوا على الطاعة .

ويختلف خلق الحيوان أيضاً عن خلق الإنسان، فقد جعل الله فيهم الشهوة، ولم يجعل لهم عقولاً، ولذا كانوا غير مكلفين فلا يُثابون، ولا يُعاقبون .

وقد أضاف الله سبحانه سبيل الهداية إليه في الآية، ووصف هذا الطريق بالاستقامة،

ولم يُضَفْ سبيل الضلال إليه سبحانه؛ لأن الإنسان هو الذي اختاره مخالفاً به الفطرة التي فطر الله الناس عليها.

ونهى سبحانه الناس عن طريق الضلال، ووصفها بالسبيل الجائر، وهي سبيل: النصرانية، واليهودية، والبوذية، والهندوكية، والسيخ، وسائر ملل الكفر والضلال، ويدخل فيها أيضاً سبيل أهل البدع والأهواء، ومن يطلبون المدد من غير الله تعالى، ومن يذبحون أو يندرون لغير الله سبحانه، ومن يلتمسون جلب الخير، ودفع الضرر ممن سواه... إلخ. قال تعالى: ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ ۖ إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ﴾ [هود].

والمعنى: وعلى الله بيان الطريق المستقيم لهدايتكم، وهو الإسلام وما اشتمل عليه من: عقائد، وعبادات، وأخلاق، ومن الطرق ما هو مائل لا يُوصَل إلى الهداية، وهو كل ما خالف الإسلام من الملل والنحل، ولو شاء الله لهداكم جميعاً للإيمان.

النَّعْمَةُ السَّابِعَةُ: نِعْمَةُ إِنْزَالِ الْمَاءِ مِنَ السَّحَابِ لِيَحْيَا بِهِ كُلُّ كَائِنٍ حَيٍّ

١٠- ﴿هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً لَّكُم مِّنْهُ شَرَابٌ وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ ﴿١٠﴾﴾

ومن أعظم النعم نعمة الماء الذي يحيا به الإنسان، والحيوان، والطير، والنبات، والشجر، والزرع، ومنه الطعام والشراب الذي لا بد لنا منه صباحاً ومساءً؛ لإقامة حياتنا.

ومن هذا الماء الواحد يُخرج الله أنواع الزروع، والثمار، والأشجار على اختلاف أصنافها، وطعومها، وألوانها، وروائحها، وأشكالها.

وأهم وظيفة للماء: كونه شراباً للإنسان، وهو المراد بقوله تعالى: ﴿لَّكُم مِّنْهُ شَرَابٌ﴾ فأنتم تشربون منه، وتنظفون به، وتطهرون، وهو شراب لدوابكم ومواشيكم.

والوظيفة الثانية: خلق الشجر منه، كما قال تعالى: ﴿وَمِنْهُ شَجَرٌ﴾ أي: وخلق الله

منه الشجر أصنافاً: منه ما له ساق، ومنه ما ليس له ساق، ومنه الكبير والصغير، ومنه الدقيق والعظيم، ومنه سائر النبات الذي يخرج من الأرض؛ كالعشب والكلأ، وفي هذا الشجر ترعى أنعامكم، وتأكل منه ﴿فِيهِ تُسِيمُونَ﴾ أي: ترعون مواشيكم.

والمعنى: هو الذي أنزل لكم من السحاب مطراً، فجعل لكم منه ماء تشربونه، وأخرج لكم به شجراً ترعون فيه دوابكم، ويعود عليكم درهما ونفعها، قال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيًّا﴾ [الأنبياء: ٣٠].

فهو الذي أنزل من السحب الكثيفة ما يسوق الرياح إليها؛ لتلقحه بالمياه، فأحيا بسببه الأرض الميتة، وأنبت به الزرع والكلأ، قال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا سَوَّيْنَا الْمَاءَ إِلَى الْأَرْضِ الْجُرُزِ فَنُخْرِجُ بِهِ زَرْعًا تَأْكُلُ مِنْهُ أَنْعَامُهُمْ وَأَنْفُسُهُمْ أَفَلَا يُبْصِرُونَ﴾ [السجدة]

وقال جل شأنه: ﴿أَفَرَأَيْتُمُ الْمَاءَ الَّذِي تَشْرَبُونَ ﴿٦٨﴾ ءَأَنْتُمْ أَنْزَلْتُمُوهُ مِنَ الْمُزْنِ أَمْ نَحْنُ الْمُنْزِلُونَ ﴿٦٩﴾ لَوْ نَشَاءُ جَعَلْنَاهُ أُجَاجًا فَلَوْلَا تَشْكُرُونَ ﴿٧٠﴾﴾ [الواقعة]

وقال سبحانه: ﴿أَمْنَ خَلْقَ السَّمَكَاتِ وَالْأَرْضِ وَأَنْزَلَ لَكُمْ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنْبَتْنَا بِهِ حَدَائِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ مَا كَانَ لَكُمْ أَنْ تُنْبِتُوا شَجَرَهَا ءَأَلَهُ مَعَ اللَّهِ بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ ﴿٦٠﴾﴾ [النمل].

وفي الآية دليل آخر على وحدانية الله تعالى، وكمال قدرته، وبديع خلقه؛ حيث أنزل المطر من السماء، ولو شاء لأمسكه، أو جعله أجاجاً ملحاً غير صالح للشراب، وأخرج بسببه هذا الشجر والثمر، قال سبحانه ﴿وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَكُمْ﴾ [البقرة: ٢٢]. قال تعالى:

١١- ﴿يُنَبِّتُ^(١) لَكُمْ بِهِ الزَّرْعَ وَالزَّيْتُونَ وَالنَّخِيلَ وَالْأَعْنَابَ وَمِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿١١﴾﴾

ثم فصل سبحانه أهم منافع الماء، ومنها وجود هذه الأشجار، والنبات، والكلأ والمرعى؛ حيث يخرج الله، بهذا الماء الواحد، الزروع المختلفة، وقد ذكر الله في هذه الآية أربعة منهم، ثم ذكر عامة الثمار:

١- فبدأ سبحانه بالزرع، ومنه الحبوب التي يقتات بها الإنسان: كالقمح، والذرة، والعدس، والأرز، والفول، والشعير، ونحو ذلك مما لا غنى للإنسان والحيوان عنه، مع اختلاف الطعم، واللون، والصنف.

(١) قرأ شعبة بنون العظمة من (ينبت)، والباقون بالياء؛ لمناسبة (هو الذي أنزل).

٢- ثم ثنى ﴿١٢﴾ بالزيتون؛ لأنه شجرة مباركة فيها دهن، وفيها إدام.

٣- وثلث بالنخيل؛ لأن ثمر النخيل فيه غذاء، وفاكهة.

٤- ورابعها العنب، وهو مختلف في شكله ومذاقه، متعدد الفوائد والمنافع، وشجر العنب مثل النخيل في فائدته، فيه فاكهة، وغذاء.

وفي هذا الإخراج من الأرض دلالات واضحة لمن يتأمل ويعتبر، قال تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [الرعد: ٣]

وقال سبحانه: ﴿أَفَرَأَيْتُمْ مَا تَحْرُثُونَ﴾ ﴿١٣﴾ ءَأَنْتُمْ تَزْرَعُونَهُ أَمْ نَحْنُ الزَّارِعُونَ ﴿١٤﴾ لَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَاهُ حُطًا مَّا فَطَلْتُمْ تَفَكُّهُنَّ ﴿١٥﴾ إِنَّا لَمَغْرُمُونَ ﴿١٦﴾ بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ ﴿١٧﴾ [الواقعة]

وقال جلَّ شأنه: ﴿وَفِي الْأَرْضِ قِطْعٌ مُّتَجَوِّرَةٌ وَجَعَلْنَا مِنْ أَغْطَبِ زَرْعٍ وَنَحِيلٌ صِنُونًا وَعَيْرٌ صِنُونًا يُسْقَى بِمَاءٍ وَاحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَى بَعْضٍ فِي الْأُكُلِ﴾ [الرعد: ٤].

وفي هذا دلالة وحجة واضحة، لقوم يتأملون ويعتبرون، فيتوصلون إلى أن خالق هذا الكون واحد أحد، لا شريك له ولا ولد، فهو الذي يُعبد دون سواه.

النَّعْمَةُ الثَّامِنَةُ: نِعْمَةُ تَذْلِيلِ الْكَوْنِ لِنَفْعِ الْإِنْسَانِ

١٢- ﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومَ مُسَخَّرَاتٍ﴾ ^(١) بِأَمْرِهِ إِنَّكَ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿١٧﴾

ثم ساق الله سبحانه فوجاً آخر من نعمه، فذكر خمساً منها في هذه الآية، وهي: الليل، والنهار، والشمس، والقمر، والنجوم؛ فالليل وقت للراحة والنوم، وليس وقتاً للسهر والترفيه، قال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا نَوْمَكُمْ سُبَاتًا﴾ ﴿٩﴾ وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ لِبَاسًا ﴿١٥﴾ [النبأ]

ووقت النهار هو وقت العمل، والسعي، والعبادة، والحركة، كما قال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا أَثَّهَارَ مَعَاشًا﴾ ﴿١١﴾ [النبأ] وكلُّ من الليل والنهار يعقب الآخر.

(١) قرأ ابن عامر برفع الأسماء الأربعة وهي: (الشمس والقمر والنجوم مسخراتٍ)، وقرأ حفص بنصب الأولين ورفع الأخيرين، والباقيون بنصب الأسماء الأربعة.

ولا ينبغي للمسلم أن يعكس مراد الله سبحانه في هذا الكون، لا ينبغي له أن يسهر حيث أراد الله أن ينام، وأن ينام حيث أراد الله منه أن يسعى ويعمل.

قال تعالى: ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ اللَّيْلَ سَرْمَدًا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ﴾ فصرتم في ليل دائم طويل لا ينتهي ﴿مَنْ إِلَهُ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُمْ بِضِيَاءٍ أَفَلَا تَسْمَعُونَ﴾ (٧٦) ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ النَّهَارَ سَرْمَدًا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ﴾ أي: دائماً متصلاً ﴿مَنْ إِلَهُ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُمْ بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾ (٧٧) ﴿وَمَنْ رَحِمْتَهُ جَعَلْ لَكَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ (٧٨) [الفصل]

حيث تسكنون في الليل، وتبتغون من فضل الله، وتسعون على أرزاقكم في النهار، ولعلكم تشكرون الله على نعمه.

وكما ذلل لكم الليل والنهار ذلل لكم الشمس والقمر، قال تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسُ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُورًا وَقَدَرَهُ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ﴾ [يونس: ٥].

وتسخير الشمس والقمر يتجلى في إمدادهما لنا بالطاقة، والحرارة، والضوء، والإشراق ولنضج الثمار والزروع، ولمعرفة السنين والحساب، والاهتداء بها في الظلمات، وتجفيف الرطوبات وإزالة البرودة الضارة بالأرض والأبدان، وغير ذلك مما سخر الله له هذه الكواكب؛ لنفع البشرية بأمر الله تعالى وقهره لها، وتصرفه فيها كيف يشاء، وهذا كقوله تعالى: ﴿يُفْثِي اللَّيْلَ النَّهَارَ يَطْلُبُهُ حَثِيثًا وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ مُسَخَّرَاتٌ بِأَمْرِهِ أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ﴾ [الأعراف: ٥٤].

ثم ذكر الله سبحانه النعمة الخامسة في الآية، فقال: ﴿وَالنُّجُومُ مُسَخَّرَاتٌ بِأَمْرِهِ﴾ حيث جعلها الله سبحانه زينة للسماء الدنيا، وجعلها رجوماً للشياطين، وجعلها مصابيح يهتدى بها في ظلمات البر والبحر، ومعرفة الأوقات، وحساب الأزمنة، وفي هذا دلائل واضحة لمن يعقل حجج الله وبراهينه.

ولأن في هذه الآية خمساً من دلائل قدرته تعالى لم يقل سبحانه: لآيات لقوم يتفكرون، وإنما قال: ﴿لَا يَتَذَكَّرُ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ فيدركون أن هذه المخلوقات مسخرات؛ لانفعاع البشر من السكون بالليل، والسعي بالنهار، والمنافع التي لا تُحصى من الشمس والقمر،

والنجوم يهتدى بها في ظلمات البر والبحر.

قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَجَعَلْنَاهَا رُجُومًا لِلشَّيَاطِينِ﴾ [الملك: ٥]
وقال: ﴿وَالنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ﴾ [١٦].

وقال: ﴿وَأَيُّ لَّهُمْ أَلِيلٌ نَسْلَخُ مِنْهُ النَّهَارَ فَإِذَا هُمْ مُظْلِمُونَ﴾ [يس: ٣٧]
وقال: ﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ دَائِبَيْنِ وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ﴾ [إبراهيم: ٣٣]

وفي هذه المخلوقات الخمس: الليل، والنهار، والشمس، والقمر، والنجوم أعظم دليل على وحدانية الله تعالى، واستحقاقه للعبادة دون سواه.

النِّعْمَةُ التَّاسِعَةُ: نِعْمَةُ إِخْرَاجِ مَا فِي جَوْفِ الْأَرْضِ وَتَذْلِيلِ مَا عَلَى ظَهْرِهَا لِنَفْعِ الْإِنْسَانِ

١٣- ﴿وَمَا ذَرَأَ لَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُخْتَلِفًا أَلْوَنُهُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَذْكُرُونَ﴾

ولما ذكر سبحانه نعمه في السموات، أتبعها بذكر نعمه في الأرض من: الدواب، والثمار، والشجر وغيرها، متعددة المنافع، والألوان، والطعم.
أي: ذلل الله سبحانه لكم ما هو مكنون في جوف الأرض من: الذهب، والمعادن، والبترو، والركاز، والكنوز، وغير ذلك.

وذلل لكم ما هو على ظهر الأرض من: الحيوان، والحشرات، والجبال، والنبات، والثمار، كما قال تعالى: ﴿وَمِنَ الْجِبَالِ جُدَدٌ بَيَضٌ وَحُمْرٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَنُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ﴾ [١٨]
وَمِنَ النَّاسِ وَالْدَّوَابِّ وَالْأَنْعَامِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَنُهُمْ كَذَلِكَ﴾ [فاطر: ١٨].

وقال سبحانه: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا﴾ [البقرة: ٢٩].

وفي هذه الدلائل عبر وعظات، لمن يعلم أن في تسخير هذه الأشياء علامات دالة على توحيد الله تعالى، ووجوب إفراده بالعبادة، ففي اختلاف الألوان، والمناظر، والهيئات، والأجناس، والخواص، دلائل واضحة على قدرة الله تعالى، وعلى أنه المتفرد بالخلق والمستحق للعبادة.

هذا: والآيات الثلاث الأخيرة خُتِمت على التوالي: بـ﴿يَتَفَكَّرُونَ﴾، بـ﴿يَسْأَلُونَ﴾، بـ﴿يَذْكُرُونَ﴾.

١- أما الآية الأولى فهي تتحدث عن إخراج النبات والثمار من الأرض، وهذا يحتاج

إلى تأمل، وإعمال فكر.

قال أبوحيان: ألا ترى أن الحبة الواحدة إذا وُضعت في الأرض، ومرَّ عليها زمن معين لحقها من نداوة الأرض ما تنتفخ به، فيشق أعلاها، فتصعد منه شجرة إلى الهواء، وأسفلها يغوص منه في عمق الأرض شجرة أخرى، وهي العروق، ثم ينمو الأعلى ويقوى، فتخرج الأوراق والأزهار، والأكمام والثمار المشتملة على أجسام مختلفة الطبائع، والألوان، والأشكال، والمنافع، وذلك بتقدير قادر مختار، هو الله تعالى^(١).

ونعم الله تعالى في هذه الآية، نِعَمٌ أرضية يشاهدها الإنسان، وما عليه إلا أن يتأمل فيها، فيصل بفكره إلى وحدانية الخالق سبحانه.

٢- أما الآية التي بعدها فالنعم فيها نعم عُلوية من: الشمس والقمر، وينشأ عنهما الليل والنهار، وهذه الدلائل لا يدرك منفعتها ومصلحتها للعباد إلا أصحاب العقول السليمة والعلم الصحيح من أولي الأبواب، فيتوصلون عن طريق ذلك إلى وحدانية الخالق سبحانه.

٣- أما الآية الثالثة فإن المقام فيها مقام عظة واعتبار، وتذكير، واهتداء؛ ليشكروا الله تعالى على نعمه، ويُخلصوا له العبادة.

كما أن الآية الأولى والثالثة أُفِرِدَ فيها لفظ (آية)؛ لأن ما ذُكِرَ في الآيتين يرجع إلى ما يخرج من الأرض، فكأنه آية واحدة تابعة لخلق الأرض وما تحويه سواء في النبات، أو التناسل في الحيوان.

٤- أما الآية الثانية فإن اختلاف الأحوال في الشمس والقمر والكواكب، يجعل لكل منها نظامًا يخصه، ودلائل تخالف الآخر، فكانت مجموعة من الآيات^(٢).

(١) «تفسير البحر المحيط» (٥/٤٧٩).

(٢) يُنظَرُ في تعليل أفراد الآية وجمعها: «تفسير التحرير والتنوير» (٢/١١٧) نقلًا عن الفخر الرازي.

النِّعْمَةُ الْعَاشِرَةُ: نِعْمَةُ تَسْخِيرِ الْبَحْرِ وَاسْتِخْرَاجِ مَا فِيهِ لِنَفْعِ الْإِنْسَانِ

١٤- ﴿وَهُوَ^(١) الَّذِي سَخَّرَ الْبَحْرَ لِتَأْكُلُوا مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُوا مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى الْفُلْكَ مَوَازِيرَ فِيهِ وَلِتَجْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٧﴾﴾

وبعد أن ذكر سبحانه بعض نعمه في خلق الإنسان، والدواب، والسموات، والأرض أتبع ذلك بذكر بعض نعمه في البحار، فإن من أجل نعم الله سبحانه على الإنسان أن سخر له هذا البحر العظيم، متلاطم الأمواج، الذي لا يستطيع الإنسان أن يجابهه بذاته دون تطويع الله له، فقد سخره سبحانه وذلكل لنفع الإنسان ليركب عليه، وليغوص فيه، وليصطاد منه.

وتسخير البحر هو تمكين البشر من التصرف فيه وتذليله للإركاب، والاصطياد، والنقل، والسباحة، وبلوغ الأقطار التي تحول دونها البحار.

وكان ابن عمر رضي الله عنهما يكره ركوب البحر إلا لثلاث: غاز، أو حاج، أو معتمر^(٢) ويلحق بذلك التجارات، والسفر المباح، ونحو ذلك، وذكرت الآية خمس فوائد من فوائد البحر:

الفائدة الأولى: ﴿لِتَأْكُلُوا مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا﴾ أي: لتأكلوا مما تصطادون منه لحماً طرياً طازجاً، هو السمك والحوت.

وفي علم التغذية أن سمك البحار له من الفوائد ما ليس لغيره من الأسماك التي تعيش في الأنهار، أو المزارع، ونحوها، ولا يؤكل ما طفا منه على وجه الماء؛ لما فيه من الضرر، والله سبحانه جعل الأسماك والحيتان في الأنهار، وفي البحار معاً، وعبر الله تعالى عنهما بالبحرين فقال تعالى في سورة فاطر: ﴿وَمَا يَسْتَوِي الْبَحْرَانِ﴾ أي: النهر والبحر، المِلْح والعذب ﴿هَذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ سَائِغٌ شَرَابُهُ﴾ وهو ماء النهر ﴿وَهَذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ﴾ وهو ماء البحر ﴿وَمِنْ كُلِّ﴾ أي: من البحار والأنهار ﴿تَأْكُلُونَ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُونَ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا﴾ [آية: ١٢]

(١) قرأ قالون وأبو عمرو والكسائي وأبو جعفر بإسكان الهاء من (وهو)، والباقون بضمها.

(٢) عبد الرزاق (٩٦٢٨).

واللحم الطري: هو السمك يخرج حيًا، وبعد فترة وجيزة يموت ويفسد.

والله ﷻ أحل لنا ميتتين: هما السمك والجراد، وأحل لنا دَمَيْن: هما الكبد والطحال.

وفي سورة الفرقان قال تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ هَذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ وَهَذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ وَجَعَلَ بَيْنَهُمَا بَرْزَخًا وَجِجْرًا تَحْجُورًا ٥٢﴾ وفي وصف الطراوة تنبيه على المسارعة إلى أكله وهو حيّ طري.

سئل قتادة عن رجل قال لامرأته: إن أكلت لحمًا فأنت طالق، فأكلت سمكًا، فقال: هي طالق، قال تعالى: ﴿لَتَأْكُلُوا مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا ١١﴾.

الفائدة الثانية: ﴿وَتَسْتَخْرِجُوا مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا﴾ أي: تُخرجون من البحر زينة تلبسونها، وتحلون بها من اللؤلؤ، والياقوت، والصدف، والصوف، والمرجان، والجواهر النفيسة.

واللؤلؤ يوجد في الخليج العربي، والمرجان البحري، يوجد في جميع البحار، ويختلف في قلته وكثرته بين بحر وآخر، كما قال تعالى: ﴿يَخْرُجُ مِنْهُمَا اللُّؤْلُؤُ وَالْمَرْجَانُ ٧٧﴾ [الرحمن] أي: حلية تتحللون بها، والمراد: يتزين بها النساء لأجل الرجال، فكأنه زينة للجنسين معًا؛ لاشتراك المنفعة بينهما، ولا يوجد ما ينص على منع تحلي الرجل باللؤلؤ والمرجان، كما في الذهب، وإنما يُمنع أن يتشبه الرجال بالنساء.

الفائدة الثالثة: ﴿وَتَرَى الْفُلْكَ مَوَاحِرَ فِيهِ﴾ وفي آية أخرى: ﴿فِيهِ مَوَاحِرُ﴾ [فاطر: ١٢] أي: وترى السفن والبواخر تشق الأمواج، وتجري فوق الماء، وتمخر عباب البحر فتحمل البضائع وتنقلها، وتحمل العتاد، والعدد الثقيلة التي لا سبيل لنقلها من إقليم إلى إقليم، ومن بلد إلى بلد، إلا بواسطة هذا البحر ذهابًا وإيابًا، مقبلة ومدبرة، ثقيلة وخفيفة، قال تعالى: ﴿وَأَيُّهُ لَّهُمْ أَنَّا حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ فِي الْفُلِّ الْمَشْحُونِ ٤١﴾ وَخَلَقْنَا لَهُمْ مِنْ مِثْلِهِ مَا يَرْكَبُونَ ٤٢ وَإِنْ نَشَأْ نُغْرِقْهُمْ فَلَا صَرِيحَ لَهُمْ وَلَا هُمْ يُنْقَذُونَ ٤٣ إِلَّا رَحْمَةً مِنَّا وَمَتَاعًا إِلَىٰ حِينٍ ٤٤﴾ [يس].

وقال سبحانه: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ الْفُلْكَ تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِنِعْمَتِ اللَّهِ لِيُرِيَكُمْ مِنْ آيَاتِنَا﴾ [لقمان: ٣١].

وقال أيضًا: ﴿وَالْفُلْكَ تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِأَمْرٍ﴾ [الحج: ٦٥].

وقال جلّ شأنه: ﴿وَرَى الْفُلْكَ فِيهِ مَوَاحِرَ لِيَتَّبِعُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [فاطر: ١٢].

الفائدة الرابعة: ﴿وَلْتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ﴾ أي: لتطلبوا رزق الله بالتجارة، والربح فيها، والركوب عليها، ونقل البضائع.

الفائدة الخامسة: ﴿وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ الله على نعمه عليكم، فلا تعبدوا غيره.

فله الحمد حيث أعطى عباده فوق يحتاجون إليه في مصالحهم ومنافعهم.

وأول من صنع السفينة نوح عليه السلام بأمر الله تعالى، وتعليمه إياه، وهو أيضًا أول من ركبها، ثم أخذها الناس عنه جيلًا بعد جيل، وعلمنا سبحانه أن ندعو الله تعالى عند ركوبها بهذا الدعاء: ﴿بِسْمِ اللَّهِ جَعَلَهَا وَرَسْنَهَا﴾ [هود: ٤١].

النِّعْمَةُ الْحَادِيَةُ عَشْرَةَ: نِعْمَةٌ تُثَبِّتِ الْأَرْضَ بِالْجِبَالِ وَإِيجَادِ الْمِيَاهِ الْعَذْبَةِ فِيهَا

١٥- ﴿وَالَّذِي فِي الْأَرْضِ رَوًى أَنْ تُمِيدَ بِكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ (١٥)

ومن نعم الله سبحانه على الإنسان وغيره أن جعل هذه الأرض ثابتة لا تتحرك في نظر الرائي لها رأي العين، فنحن نعيش فوقها بأمن وأمان.

وقد ورد أن الله تعالى لما خلق الأرض جعلت تميد؛ لأنه سبحانه وضعها فوق الماء، فثبَّتَها الله سبحانه بالجبال، وجعلها رواسي وثوابت للأرض؛ لئلا تميل وتضطرب بمن على ظهرها، ولئلا تزول من مكانها.

فالرواسي هي الجبال الثوابت، جعلها الله أوتادًا للأرض؛ لئلا تميد بالناس، فتتحرك وتضطرب، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُمْسِكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ أَنْ تَزُولَا وَلَئِنْ زَالَتَا إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِنْ عِبَادِهِ﴾ [فاطر: ٤١] أي: ليس في مقدور أحد من البشر أن يمسك بزمام السموات والأرض، ويثبتهما إن زالتا عن أماكنهما، وقد كانت الأرض قبل أن تُخلق فيها الجبال، كُرَّة خفيفة تتحرك لأدنى سبب كسائر الأفلاك، فلما ثبَّتَها الله تعالى بالجبال توجهت بثقلها نحو المركز، فصارت الجبال كالأوتاد بالنسبة للأرض، وقد امتنَّ الله على عباده بهذا الاستقرار والثبوت في مواطن كثيرة من القرآن، منها قوله تعالى: ﴿وَالْجِبَالُ أَوْتَادًا﴾ [النبا: ٧].

وقوله: ﴿أَفَلَا يَنْظُرُونَ إِلَى السَّمَاءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَاهَا وَرَافَعْنَاهَا وَمَا هِيَ مِنْ فَوْجٍ﴾ (٦) وَالْأَرْضَ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوًى وَأَلْبَسْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ (٧) تَبَصَّرَةٌ وَذِكْرَىٰ لِكُلِّ عَبْدٍ مُتَبِّ (٨)

[ق: ٦-٨]. وقوله: ﴿خَلَقَ السَّمَوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا وَأَلْقَى فِي الْأَرْضِ رَوْسًا أَنْ تَمِيدَ بِكُمْ﴾ [لقمان: ١٠]. وجاءت آثار كثيرة مرفوعة، وموقوفة تشرح هذا المعنى^(١).

ومن ذلك ما قاله وهب بن منبه: لما خلق الله ﷻ الأرض جعلت تمور وتتحرك، فقالت الملائكة: إن هذه غير مقرة أحدًا على ظهرها، فأصبحوا وقد أُرْسِيَتْ بالجبال، فلم تذر الملائكة مم خلقت الجبال؟^(٢).

ومفهوم الآيات يشير إلى أن خلق الجبال كان متأخرًا عن خلق الأرض.

ولفظ: ﴿تَمِيدَ﴾ يشبه إلقاء شيء في شيء بعد تمامه، فالجبال ليست من الأرض، ولكنها من قدرة الله تعالى وخلقها، وكأن نتوء الجبال على سطح الأرض معدلاً لكرويتها، ولتخفيف حركتها واضطرابها في الفضاء، ولحفظ توازن الأرض.

والعلم الحديث يعلّل وجود الجبال بأنها نشأت بعوامل الحرارة والبرودة، ولا تشير إلى كونها تُمكن الأرض من القرار وعدم الاضطراب.

وخلق ما في الكون أعظم من أن يدركه المخلوق، أو يحيط بعلمه.

والآية التي نحن بصددتها أشارت إلى نعم ثلاث هي:

١- إرساء الجبال في الأرض؛ لتثبيتها، ولئلا تميل بالناس.

٢- وفي مقابل الجبال تأتي نعمة المياه العذبة التي تجري في الأنهار في قوله تعالى: ﴿وَأَنْهَرًا﴾ ولا حياة للإنسان، ولا للحيوان، ولا للنبات إلا بالماء.

٣- جعل الله في الجبال مسالك وطرقا لربط الأرض ببعضها، ولنفع الإنسان والحيوان، والعقلاء هم الذين يتمكنون من حرق الأرض وزرعها، والسير فوقها، والبناء عليها، واستخراج كنوزها، والانتفاع بأنهارها، وجبالها ووديانها وشعابها.

(١) يُنْظَرُ: «تفسير الطبري» (٦٢/١٤) و«تفسير عبد الرزاق» (٣٠٦/١) وما رواه الترمذي (٣٣٦٩) بسنده عن أنس وفي مسند أحمد (١٢٢٥٣) والضياء في المختارة (٢١٤٨) وعبد بن حميد (١٢١٥) وأبو يعلى (٤٣١٠) والبيهقي في شعب الإيمان (٣٤٤١) وفي «تفسير القرطبي» (٩٠/١٠) وما جاء في «تفسير ابن كثير» للآية وغيرهم، وسنده ضعيف في الجميع.

(٢) «تفسير الخازن» (١٠٨/٣) ويُنْظَرُ: «تفسير البغوي» للآية.

النَّعْمَةُ الثَّانِيَّةُ عَشْرَةَ: خَلَقُ الْجِبَالِ وَالنُّجُومِ لِهِدَايَةِ الْإِنْسَانِ فِي أَسْفَارِهِ

١٦- ﴿وَعَلَّمَنَّا وَيَلْتَجِمُ هُمْ يَهْتَدُونَ﴾

والنعمة الثانية عشرة في هذه السورة أن هذه الجبال جعلها الله معالم للطرق في السفر: برًا، وبحرًا، وجوًّا، ليلاً ونهارًا، وكلها سبل وطرق للسفر، يُهتدى بها في ظلمات البر والبحر إلى مقاصدكم في أسفاركم.

أي: ومن نعمة الله سبحانه أن جعل لنا في الأرض متسعًا، هي سبل وطرق تربط بين البلاد وجميع الأماكن، ولولا هذا الاتساع في رقعة الأرض لما استطاع الإنسان أن يتجوّل في أرجاء المعمورة؛ إذ كيف يسلك الإنسان الطرق؟ وكيف يعبر ويتقل من مكان إلى مكان، ومن بلد إلى بلد، لولا هذه الطرق والمنافذ المتعددة.

والإنسان يألف هذه النعم المذكورة في الآيات، يتقلب فيها صباحًا ومساءً، ولكنه لا يتأمل ولا يفكر فيها؛ لأنه يراها في غدوّه ورواحه، وكأنها شيء عاديّ، وإنما يهتم بالشيء ويعرف قيمته، من يفقده ولا يجده.

والذي يفقد الشيء هو الذي يعرف قدره؛ فالصحيح لا يشعر بالمرض إلا إذا رآه، والذي يتوفر له الماء لا يشعر بقيمته إلا إذا فقده ولو يومًا واحدًا، أو ساعة من نهار حين لا يجد ما يروي ظمأه.

- ونعم الله تعالى يتقلب فيها الإنسان دائمًا، ولكنه في غفلة عنها، وهو بحاجة إلى تيقُّظ الضمير؛ ليجعله يفكر في آلاء الله ونعمه، في غدوه ورواحه، وصباحه ومساءه، ومن هذه النعم ما جاء في هذه الآية في قوله سبحانه:

﴿وَعَلَّمَنَّا﴾ أي: أن هذه الطرق علامات يهتدي بها الناس في أسفارهم، وهذه العلامات مثل: الجبال، والأودية، والهضاب، والنجوم، والأنهار، والبحار، فكلُّ ما دل على شيء وأعلم به، فهو علامة.

قال ابن عباس ؓ: العلامات: معالم الطرق.

وأشار ابن عطية إلى أن في بحر الهند حيتانًا طوآلاً رقاقًا كالحيّات، تُسمّى علامات؛

لأنها علامة الوصول إلى بلاد الهند، وأمانة على النجاة في هذا البحر الطويل الذي يجري من اليمن إلى الهند، وكلها علامات للمسافرين وللسائرين في أرض الله.

ومن العلامات: الأمارات التي يضعها الناس؛ للتعرف على حدود الأرض، أو البلد أو المدينة، أو المسافات والمسالك في البر والبحر والجو.

ثم خص النجم بالذكر؛ لأنه يختلف عن علامات الأرض، فقال تعالى: ﴿وَبِالنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ﴾ فالنجم علامات بالليل، والجبال والأودية علامات بالنهار.

قال قتادة: خلق الله النجوم لثلاثة أشياء: لتكون زينة السماء، ومعالم للطريق، ورجوماً للشياطين، فمن قال غير ذلك، فقد تكلف ما لا علم له به^(١).

والنجم: اسم جنس يشمل كل نجم، وليس هناك من دليل على تخصيص بعض النجوم دون بعض، ولكل من الثلاثة التي ذكرها قتادة دليل من كتاب الله تعالى.

فدليل الزينة قوله تعالى: ﴿إِنَّا زَيْنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِزِينَةِ الْكَوْكَبِ﴾ [الصفات].

ودليل كونها رجوماً للشياطين قوله تعالى: ﴿وَحَفَظًا مِّنْ كُلِّ شَيْطَانٍ مَّارِدٍ﴾ [الصفات].

ويجمعهما قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ زَيْنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصْبِيحٍ وَجَعَلْنَاهَا رُجُومًا لِلشَّيَاطِينِ﴾ [الملك: ٥].

ومن أدلة هداية النجوم للمسافرين، وغيرهم، قوله تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ النُّجُومَ لِتَهْتَدُوا بِهَا فِي ظُلُمَاتِ اللَّيْلِ وَالْبَحْرِ﴾ [الأنعام: ٩٧].

وأخص من يهتدي بالنجوم، البحارة؛ لأنهم يضطرون إلى السير ليلاً حيث لا ضوء ولا كهرباء، وكذا أهل البوادي، والقرى، والصحارى في معيشتهم، وزراعتهم، وأهل القطبين؛ حيث لا توجد الحضارة المادية في قارات الدنيا على حد سواء.

فقارة آسيا، وأوروبا، والأمريكتين لا تستوي مع بلاد الأدغال، وكثير من أفريقيا، وأهل القطب الشمالي والجنوبي، ونحو ذلك.

(١) أخرجه الطبري بسند حسن.

هَلْ يَسْتَوِي الْخَالِقُ وَالْمَخْلُوقُ؟

١٧- ﴿أَفَمَنْ يَخْلُقُ كَمَنْ لَا يَخْلُقُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ (١)

وبعد أن سرد سبحانه هذه النعم الكبرى لصالح الإنسان، وأقام الأدلة على انفراده تعالى بالخلق والتدبير، أنكر على المشركين شركهم بالله تعالى، وعبادتهم غيره معه، فوبخهم قائلاً: أبلغ بكم السفه والجهل أن سويتم في استحقاق العبادة بين آلهتكم التي تزعمونها، وهي لا تخلق شيئاً، وبين مَنْ يخلق كل شيء؟ لا يقول بهذا من له أدنى بصيرة، فَيُسَوِّي بين الخالق والمخلوق ﴿أَفَمَنْ يَخْلُقُ﴾ هذه الآيات العظام وهذه النعم الكثيرة ﴿كَمَنْ لَا يَخْلُقُ﴾ شيئاً؟ كيف وهو نفسه مخلوق؟ ﴿أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ فتعظوا، وتعتبروا، وتفردوه سبحانه بالعبادة، وتذكروا أن آلهتكم المزعومة جماد لا تعقل، ولا تضر، ولا تنفع، فإذا انتفت هذه التسوية فقد قامت عليكم الحجة، وألزمتمكم بعبادة الله وحده.

والقرآن بهذا يخاطب المكذابين به في كل زمان ومكان؛ ليتداركوا أنفسهم قبل أن ينتهي عمر كل منهم، ويخاطب المؤمنين؛ ليقوي إيمانهم، ويزدادوا إيماناً.

نِعْمُ اللَّهُ عَلَى خَلْقِهِ لَا تُعَدُّ وَلَا تُحْصَى

١٨- ﴿وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا إِنَّ اللَّهَ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ (٢)

وبعد أن فصل سبحانه ألواناً من نعم الله تعالى على خلقه، نبّه جلّ شأنه على وفرة هذه النعم وكثرتها، فذكر على وجه الإجمال أن نعم الله تعالى لا تُعَدُّ ولا تُحْصَى، فمهما حاول الإنسان حصر هذه النعم فإنه لا يفي بحصرها؛ لكثرتها وتنوعها.

ولفظ: ﴿نِعْمَةً﴾ اسم جنس يشمل جميع النعم، وفي الإنسان وحده من النعم التي لا حصر لها: السمع، والبصر، والعقل، واليد، والرجل، وما في الجهاز الهضمي من تحوّل لذيذ الطعام والشراب إلى فضلات مستقذرة، وما يُحوّل الطعام إلى دم، وما في الجهاز التناسلي من خلايا وكائنات، وما يفرزه الجسم من نقطة، يخلق الله منها هذا

(١) قرأ حفص وحزمة والكسائي وخلف (أفلا تذكرون) بتخفيف الذال، والباقون بتشديدها.

الإنسان على جليل قدره وعظم شأنه من بين الكائنات الحية جميعاً، وغير ذلك مما خلقه الله في الإنسان من النعم، وإن بذلتُم أقصى الجهد لحصر هذه النعم، وحاولتُم تعدادها، فلن تستطيعوا ذلك، فضلاً عن أن تُطيقوا أداء حقها وشكرها.

ولكن الله سبحانه لا يؤاخذكم على التقصير، ولا يؤاخذكم على قلة شكرها، ولذا فقد ختم الله الآية ببيان أنه تعالى غفور رحيم، فيتجاوز عن تقصيركم وعجزكم، ولا يقطع هذه النعم عنكم، ولا يعاجلكم في الدنيا بالعقوبة.

وحين تكون هذه النعم سبباً لكفر الإنسان وظلمه نفسه، فإن ختام الآية يأتي مختلفاً، كما جاء في قوله تعالى: ﴿إِنَّ الْإِنْسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ﴾ [إبراهيم: ٣٤]؛ لأن سياق الآية هناك مسبوق بقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا الْبَنِيَّانَ الْوَحْيَ وَالْإِسْرَافَ﴾ [البقرة: ٢٥٥]، أما في الآية ١٩ من سورة النحل، فإن ختامها يكون بمثل

وحينما تكون هذه النعم سبباً في زيادة الإيمان وشكر المنعم، فإن ختامها يكون بمثل ما في الآية التي معنا ﴿إِنَّ اللَّهَ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾.

أَرْبَعٌ مِنْ خَصَائِصِ الْأُتُوهِيةِ الْحَقَّةِ

الْخَاصِيَّةُ الْأُولَى: عِلْمُ الظَّاهِرِ وَالْبَاطِنِ

١٩- ﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُسْرُوتُ وَمَا تُعْلِنُونَ﴾ (١٩)

ثم ذكرت السورة أربعاً من خصائص الإله الحق سبحانه، أولها علم الظاهر والباطن؛ فالله جلَّ شأنه هو الذي يعلم السر والعلن، ويعلم ما تخفيه في صدرك وما تسرُّ به إلى غيرك، وما تجهر به أمام الجميع، ويعلم جميع أحوالك، ما ظهر منها وما بطن، وسيجزي كل عامل بعمله يوم القيامة، إن خيراً فخير، وإن شراً فشر.

الْخَاصِيَّةُ الثَّانِيَّةُ: خَاصِيَّةُ الْخَلْقِ

٢٠- ﴿وَالَّذِينَ يَدْعُونَ^(١) مِنْ دُونِ اللَّهِ لَا يَخْلُقُونَ شَيْئاً وَهُمْ يُخْلَقُونَ﴾ (٢٠)

(١) قرأ عاصم ويعقوب بياء الغيب في (يدعون) على الالتفات، والباقون بقاء الخطاب.

والإله الحق من خصائصه أنه يَخْلُقُ ولا يُخْلَقُ، فالإله يكون خالقًا، وأصنامكم هذه تنحتونها بأيديكم، وهي مخلوقة، فكيف يستقيم أن تكون آلهة؟ ﴿أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ﴾ (٩٥) وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ ﴿٩٦﴾ [الصفات] فهي مخلوقة، نحتها البشر بأيديهم، وهي لا تَخْلُقُ ولو ذبابة، ليس هذا فحسب، بل إن الذباب لو سلب شيئًا من الإنسان فلا يمكنه إعادته، ولا استخلاصه منه بعد أخذه.

الْخَاصِيَّةُ الثَّالِثَةُ: أَنَّهُ سُبْحَانَهُ حَيٌّ لَا يَمُوتُ

٢١- ﴿أَمُوتُ غَيْرُ أَحْيَاءٍ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ﴾ (٩٧)

ومن خصائص الإله الحق، أن يكون حيًّا دائمًا، لا يموت أبدًا، ولا يغفل لحظة عن خلقه، ولا تأخذه سنة ولا نوم، ولو كانت الأوثان آلهة لاستحال عليها الموت؛ وهذه الآلهة أموات لا تسمع، ولا تبصر، ولا تنطق، ولا تعقل، فهي أموات غير أحياء، وهي جماد، وليس فيها شائبة ولا شبهة من حياة، فكيف يستقيم أن تكون آلهة؟! فنبأ لعقول ضلّت عن أوضح الأمور، فسوت بين الناقص من جميع الوجوه، والكامل من جميع الوجوه.

الْخَاصِيَّةُ الرَّابِعَةُ: عِلْمُ قِيَامِ السَّاعَةِ

ومن خصائص الإله الحق، أنه سبحانه يعلم موعد قيام الساعة، ويعلم الغيب، ﴿وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ﴾ وهذه الآلهة لا تعلم شيئًا عن ذاتها ولا عن غيرها، وهي أصنام لا تشعر متى تُبعث؟ لأن علم يوم البعث من خصائص الله سبحانه، وسوف يُلقى بالأوثان، ومن عبدها في النار يوم القيامة، فكيف يُرجى منها نفع، أو ثواب، أو جزاء، وهي لا تعلم شيئًا؟

وقد أبطلت هذه الآية أصل عقيدة المشركين؛ لأنها تقوم على إنكار التوحيد، وإنكار البعث، وقد جاء إثبات التوحيد في الآية، بأنه تعالى حيٌّ لا يموت، وجاء إثبات البعث، في عدم شعور آلهة المشركين ببعثهم، كما جاء وصف آلهة المشركين بثلاثة أوصاف هي:

أولًا: المعجز التام؛ إذ إنها مخلوقة وليست خالقة، فهي مفتقرة في وجودها إلى غيرها، فكيف يعبدون شيئًا صنّعه أيديهم؟ ﴿أَفَمَنْ يَخْلُقُ كَمَنْ لَا يَخْلُقُ﴾.

ثانيًا: إنها تفقد الحياة فَقْدَانًا تامًّا، فكيف يعبدون ما لا يسمع، ولا يبصر، ولا يغني

عنهم من الله شيئاً؟ ﴿أَمْ تَوَدُّونَ غَيْرَ أَهْلٍ﴾.

ثالثاً: إنها تفقد الإحساس تماماً؛ لأنها جماد، وشعور الجماد مستحيل، وستكون هذه الجمادات وقوداً للنار يوم القيامة، فكيف تصلح للعبادة؟! ﴿وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ﴾.

النتيجة الحتمية لهذه الخصائص

٢٢- ﴿إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ قُلُوبُهُمْ مُنْكَرَةٌ وَهُمْ مُسْتَكْبِرُونَ﴾

والنتيجة الحتمية المنطقية هي: ﴿إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ﴾ هذا خطاب لجميع الناس بعد وصف المشركين بالعجز التام؛ وذلك لإعلان أن واجب الوجود سبحانه، واحد أحد، فهو الذي يجب صرف العبادة إليه وحده.

والمعنى: إلهكم المستحق للعبادة وحده دون سواه، هو الله الذي لا إله إلا هو، وهذا أمر مسلم به بدهة، بما لا يدع مجالاً للشك ولا للتردد، ولذلك فقد جاء الكلام مستأنفاً

مبتدأ به، لم يسبقه قسم ولا تأكيد، وهو خطاب من ليس عنده أدنى إنكار لقضية التوحيد. ومن أصول العقيدة، وأركان الإيمان: الإيمان باليوم الآخر، وما فيه من: بعث، وحساب، وجزاء على الأعمال، والذي ينكر وحدانية الله تعالى ينكر من باب أولى أن هناك يوماً آخر يجازى فيه المحسن بإحسانه، والمسيء بإساءته.

وأقوى رتب الكفر: الجمع بين التكذيب بالله تعالى وبالبعث؛ لأن من يجحد الآخرة قلوبهم تكذب بواحدانية الله ﴿فَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ﴾ من المستكبرين المنكرين للوحي، المكذبين لرسول الله، المكذبين ليوم القيامة، هؤلاء ﴿قُلُوبُهُمْ مُنْكَرَةٌ﴾ جاحدة للتوحيد، جاحدة لنعم الله عليهم، جاحدة للبعث، والحشر، والشور، وقد حُذف متعلق الإنكار؛ لدلالة المقام عليه،

وعبر بالجملة الاسمية؛ ليفيد أن إنكارهم للتوحيد واليوم الآخر مستمر، وأنه سجية لهم، ولم تشتمل جملة ﴿إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ﴾ على تأكيدات، تنزيلاً للمشركين منزلة من لا يتردد في التوحيد، بعد ما سمعوا الأدلة السابقة بخلاف ﴿إِنَّ إِلَهُكُمْ لَوَاحِدٌ﴾ [الصفات] فلم يسبقها دليل.

ثم وصفهم الله سبحانه بالكِبَر، وبَيَّن أن هذا الكبر هو المانع لهم من الإيمان ﴿وَهُمْ مُسْتَكْبِرُونَ﴾ عن اتباع الحق، رافضون قبوله؛ لعدم خوفهم من الله تعالى، فهذا الإنكار لليوم الآخر بسبب المكابرة والمعاندة.

والكبر هو الذي منع إبليس من السجود لآدم ﷺ، وصرفه عن امتثال أمره سبحانه .
والكبر هو أول معصية عُصي بها الله سبحانه، والكبر هو رفض قبول الحق، وعدم الإذعان له.

١- وقد حدد النبي ﷺ معنى الكبر في كلمتين اثنتين فقال: «الكبر بطر الحق» أي: عدم قبوله، ورفضه، وعدم التسليم به، «وغمط الناس» أي: ازدراؤهم واحتقارهم، والتنقيص من شأنهم، كما جاء ذلك في الحديث، وقد سأل رجلٌ رسول الله ﷺ قائلاً: الرجل منّا يحب أن يكون ثوبه حسناً، ونعله حسناً، فقال ﷺ: «إن الله جميل يحب الجمال» وكان الرجل قد سمع قول النبي ﷺ: «لا يدخل الجنة من كان في قلبه مثقال ذرة من كبر» فظن الرجل أن التَّجَمُّل، وحسن المظهر بما هو مشروع من باب الكبر، فبيّن له النبي ﷺ معنى الكبر، بأنه: «بطر الحق وغمط الناس»^(١) أي: رفض الحق، واحتقار الناس، والتنقيص من شأنهم، سيِّمًا أهل العلم والصلاح، المعروفون بين الناس بالتقى، والاستقامة، وغزارة العلم، أو علو المنصب، فيعمد بعض الناس إلى التنقيص من أقدارهم، ومن شأنهم في أعين الناس. وهذه جملة من الأحاديث في هذا المعنى:

٢- وعن عياض بن حمار ؓ أن النبي ﷺ قال في خطبته: «إن الله أوحى إليّ أن تواضعوا؛ حتى لا يفخر أحد على أحد»^(٢).

٣- وعن ابن عمر أن أبا ريحانة قال: يا رسول الله، إني لأحب الجمال حتى في نعلي، وعِلَاقَةٍ سوطي، أفمن الكبر ذلك؟ قال: «إن الله جميل يحب الجمال، ويحب أن يرى أثر نعمته على عبده، الكبر من سَفِه الحق، وغمَصَ الناسَ أعمالهم»^(٣).

(١) الحديث في «صحيح مسلم» برقم (٩١) عن عبد الله بن مسعود ؓ وفي «سنن أبي داود» (٤٠٩١) والترمذي (١٩٩٨، ١٩٩٩) وابن ماجه (٥٩، ٤١٧٣) والبيهقي (٨١٥٢) وابن أبي شيبة (٨٩/٩).

(٢) مسلم (٢٨٦٥/٦٤) والبيهقي في «الشعب» (٦٦٧٢، ٨١٢٣).

(٣) أخرجه ابن عساكر (٨٤/٤٣، ١٩٤/٦١) وصححه الألباني في «السلسلة الصحيحة»، وفي مسند أحمد بنحوه (١٧٢٠٦، ١٧٢٠٧) عن كُرَيْب عن أبي ريحانة، وهو حديث صحيح لغيره. (محققوه).

٤- وعن ثوبان رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «من فارق الروح جسده وهو بريء من ثلاث دخل الجنة: الكبير، والدَّيْن، والغُلُول»^(١).

٥- وعن ابن عمر رضي الله عنه أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: «من كان في قلبه مثقال حبة من خردل من كِبَر كَبَّه الله على وجهه في النار»^(٢).

واستكبار الكافرين عن قبول التوحيد جاء في آيات كثيرة منها قوله تعالى: ﴿أَجْعَلِ الْأَلَمَةَ إِلَهًا وَاحِدًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ﴾ [ص]

وقوله: ﴿وَإِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَحْدَهُ اشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ﴾ [الزمر: ٤٥].

وقوله: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا إِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ﴾ [الصافات] وقوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾ [غافر: ٦٠]

فالكافرون متكبرون عن قبول الحق وعن عبادة الله وحده.

إِحَاطَةُ عِلْمِ اللَّهِ تَعَالَى بِمَنْ يُنْكِرُونَ التَّوْحِيدَ وَالرَّسَالََةَ وَبَيَانُ عُقُوبَتِهِمْ فِي الْآخِرَةِ

٢٣- ﴿لَا جَرَمَ أَنْتَ اللَّهُ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ إِنَّهُمْ لَا يُحِبُّ الْمُسْتَكْبِرِينَ﴾ [٢٣]

أى أن الله تعالى يعلم حقيقة النفاق والإشراك بالله تعالى، وتكذيب الرسول الخاتم، وعدم الإيمان باليوم الآخر، وما تخفيه نفوسهم لا يخفى عليه منه شيء، لا شك في ذلك أبداً، وهم سيندمون على أقوالهم وأفعالهم الذميمة، وسوف يجازيهم الله على سوء صنيعهم ﴿لَا جَرَمَ﴾ أى: حقاً لا بد، ولا محالة، ﴿أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ﴾ إنه سبحانه

(١) «المسند» (٢٢٣٦٩، ٢٢٤٢٨) وإسناده صحيح على شرط مسلم (محققوه) والترمذي (١٥٧٢، ١٥٧٣) والنسائي في «السنن الكبرى» (٨٧٦٤) وابن حبان (١٩٨) والحاكم (٦٢/٢) وصحيح «سنن ابن ماجه» (١٩٥٦).

(٢) «المسند» (٧٠١٥) قال محققوه: إسناده صحيح على شرط الشيخين، والبيهقي (٨١٥٤) وابن أبي شيبة (٨٩/٩).

يعلم ما يخفونه من عقائد وأقوال وأفعال، وما يظهرونه منها، وسيجازيهم على ذلك ﴿إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْتَكْبِرِينَ﴾ عن عبادته، وعن الانقياد له سبحانه. ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾ [غافر: ٦٠]

وقد وردت كلمة ﴿لَا جَرَمَ﴾ في خمسة مواضع من القرآن الكريم، ثلاثة منها في هذه السورة، في الآيات: ٢٣، ٦٢، ١٠٩، والآية الثانية والعشرون من سورة هود، والثالثة والأربعون من سورة غافر.

وقد جاء في الحديث: «إن المتكبرين يُحشرون أمثال الذر يوم القيامة، يطوهم الناس بأقدامهم لتكبرهم»^(١) وهو جزاء موافق لكبرهم في الدنيا، وهذه الآية جملة معترضة بين الآية السابقة واللاحقة. قال تعالى:

٢٤- ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ مَآذَا أَنْزَلَ رَبُّكُمْ قَالُوا أَسْطِيزُ الْأَوَّلِينَ﴾

ثم بيّن ﷺ حال القلوب المنكرة لتوحيد الله تعالى، المستكبرة عن اتباع الحق الذي جاء به محمد ﷺ، فبيّن ﷺ أن من شأن المتكبرين أنهم لا يعترفون بنبوّة محمد ﷺ، ولا يتركون الناس تؤمن به، فإذا سئلوا عن القرآن والوحي، قالوا: كذب اختلقه محمد، وما هو إلا قصص الأولين يتناولها جيل بعد جيل، منها الصدق ومنها الكذب، فهم ضالون في أنفسهم، مضلون لغيرهم، وهذا هو شأن أعداء الإسلام في كل زمان ومكان، لا يصدقون بالإسلام، ويحولون بين الناس وبين الإيمان به، وفي قارات الدنيا من لم يصل إليهم دعوة الإسلام، ومنهم من وصلت إليه صورة مشوهة عنها.

وإذا سئل غير المسلمين عن نبي الإسلام، فلا شك أنهم سيقدحون فيه، ويحولون بين الناس وبين دخولهم في الإسلام، وهكذا كان تعمد أهل الكفر والضلال إلى صد الناس عن سبيل الله، وتنفيرهم من القرآن، ومن صاحب الرسالة ﷺ.

(١) ينظر حديث عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده بنحوه في مسند أحمد (٦٦٧٧) بإسناد حسن، والحميدي (٥٩٨) والترمذي (٢٤٩٢) وحسنه.

(٢) قرأ هشام والكسائي ورويس بإشمام الكسر حركة الضم في (قيل)، والباقون بالكسرة الخالصة.

فإذا سئل الجاحدون عن القرآن أجابوا كذبًا وزورًا: ما جاء محمد إلا بقصص السابقين وأباطيلهم، فهي خرافات وحكايات وهمية.

وهذا شأن المستكبر المنكر، يخلق المعاذير الباطلة لإنكار الحق، ويصد الناس بشتى الطرق عن الإيمان، فيضللهم، ويحول بينهم وبين طريق الهداية.

وقد رأى المنكرون لرسالة سيد المرسلين ﷺ تأثير القرآن على نفوس الناس وكثرة الداخلين فيه، فدبروا المؤامرات واختلقوا الأكاذيب، وقالوا للناس: لا تغتروا بهذا الذي يدعي النبوة، إنه مجنون، أو ساحر.

وذلك أن الوحي الذي نزل على رسول الله ﷺ في ليلة القدر من شهر رمضان؛ كان الناس حياله صنفين: فمنهم من هو مؤمن مصدق به، ومنهم من هو منكر وجاحد له.

وعلى رأس المشركين الذين عارضوا القرآن الكريم: النضر بن الحارث، والوليد بن المغيرة.

فقد جمع الوليد بن المغيرة عددًا من الكفار، وطلب منهم أن يصدوا القادمين إلى مكة، والوافدين إلى الحج، فيمنعهم من الدخول في الإسلام، وينفروهم من رسالة محمد ﷺ.

فاختاروا ستة عشر رجلًا، هم الذين سمّاهم القرآن (المقتسمين) في قوله تعالى: ﴿كَمَا أَنْزَلْنَا عَلَى الْمُقْتَسِمِينَ﴾ (٩٠) الَّذِينَ جَعَلُوا الْقُرْآنَ عِضِينَ ﴿٩١﴾ [الحجر] ووضعهم في فجاج مكة، وعلى مداخلها وطرقها الرئيسة، وجعلوا في كل مدخل منها أربعة من هؤلاء الرجال، يقابلون الوفود التي كانت تأتي من خارج مكة، ومن أطراف الجزيرة؛ لتتعرف على آخر أخبار الرسول الجديد ﷺ فكانوا يأتون إلى أسواق مكة المعروفة؛ كسوق عكاظ، ومجنة، وذئ المجاز، كل أسبوع؛ بقصد التجارة في رحلتي الشتاء والصيف في موسم الحج، والعمرة.

فإذا جاء الوافد إلى مكة يقابله عند الطريق هؤلاء النفر من المشركين فيسألهم: ماذا أنزل ربكم؟ أي شيء أنزله على محمد ﷺ؟ فيقولون: أساطير الأولين، لم ينزل عليه شيء، وما يقوله ما هو إلا خرافات، وأباطيل، وأكاذيب افتراها، واختلقها من عند نفسه،

كما قال تعالى: ﴿وَقَالُوا أَأَسْطِيرُ الْأَوَّلِينَ اكْتَبَتْهَا فِي تَمَلٍّ عَلَيْهِ بُكْرَةٌ وَأَصِيلًا ۝﴾ [الفرقان]
 قال سبحانه في الرد عليهم: ﴿قُلْ أَنْزَلَهُ الَّذِي يَعْلَمُ السِّرَّ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ كَانَ
 عَفُوًّا رَحِيمًا ۝﴾ [الفرقان].

وروى ابن أبي حاتم عن السُّدِّي: أن قريشاً اجتمعت فقالوا: إن محمداً رجل حُلُو
 اللسان، إذا كلمه رجل ذهب بعقله، فاختاروا أشرف قومكم وابعثوهم في كل طريق من
 طرق مكة، فمن جاء إليها يريد محمداً فردُّوه، فخرج ناس في كل طريق يستقبلون
 الوافدين، فيذكُرُ أحدهم نسبه إلى الوافد، ثم يقول له: أنا خير من محمد، إنه رجل
 كَذَّاب، لم يتَّبِعْهُ إلا السفهاء والعييد، أما شيوخ القوم وخيارهم فقد فارقه، فيرجع الوافد
 إلى قومه، وهذا ما يشير إليه ﴿مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ﴾ الأولى، ومنهم من يصرُّ على دخول مكة
 فيلقَى أصحاب محمد ﷺ فيقولون له خيراً، وهذا ما يُشير إليه ﴿مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ﴾ الثانية.

ومن المعنى الأول قوله تعالى: ﴿وَمِنْهُمْ مَن يَسْتَعِمُّ إِلَيْكَ وَجَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِي
 آذَانِهِمْ وَقْرًا وَإِنْ يَرَوْا كَلَّ آيَةٍ لَا يُؤْمِنُوا بِهَا حَتَّى إِذَا جَاءُوكَ يُجَادِلُونَكَ يَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنَّ هَذَا إِلَّا أَسْطِيرُ
 الْأَوَّلِينَ ۝﴾ وهم ينهون عنه وينتنون عنه وإن يهلكون إلا أنفسهم وما يشعرون ﴿٦٦﴾ [الأنعام].

والذي تولى كبره في ذلك، هو الوليد بن المغيرة، فقد أخذ يتخير وصفاً منفراً يصف به
 رسول الله ﷺ، ويصف به القرآن، ففكَّرَ وقَدَّرَ، ونظر، وعبس وبسر، وأدبر واستكبر،
 وقال في نهاية تفكيره، كما في قوله تعالى: ﴿إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ يُؤْتَرُ ۝﴾ [المدثر].

فكان هؤلاء الوفود إذا تجاوزوا الذين يصدونهم عن سبيل الله، وينفرونهم من
 الإسلام، ودخلوا مكة، يلتقون بنفر من أصحاب رسول الله ﷺ فيسألونهم: ماذا قال
 ربكم؟ أي شيء أنزل الله على محمد ﷺ؟ فيجيبونهم: خيراً، ويقولون لهم: أتاننا
 بالتوحيد بعد الشرك، وأخرجنا من الضلالة إلى الهدى، ومن الظلمات إلى النور، وغير
 ذلك من كلمات الخير، والأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر.

وأصرح ما ورد في ذلك ما رواه البخاري في قصة إسلام أبي ذر ؓ أنه قال: كنت
 رجلاً من غفار، فبلغنا أن رجلاً قد خرج بمكة يزعم أنه نبي، فقلت لأخي: انطلق إلى

هذا الرجل كلّمه وأتني بخبره، فانطلق فلقيه ثم رجع، فقلت: ما عندك؟ فقال: والله لقد رأيت رجلاً يأمر بالخير، وينهى عن الشر، فقلت له: لم تُشَفِّني من الخبر، فأخذتُ جراباً وعصاً، ثم أقبلت إلى مكة، ففعلت لا أعرفه، وأكره أن أسأل عنه، وأشربُ من ماء زمزم، وأكون في المسجد... إلى آخر الحديث.

وفيه أن أبا ذر لقي عليّاً، فدخل به على رسول الله ﷺ، فعرض عليه الإسلام، فأسلم من مكانه في لحظته، فقال له النبي ﷺ: «اكتب هذا الأمر، وارجع إلى قومك، فإذا بلغك ظهور الإسلام فأقبل»، والذي بعثك بالحق، لأضرحنّ بها بين أظهرهم، فجاء إلى المسجد وفيه قریش، فقال: يا معشر قریش: إني أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمداً عبده ورسوله، فقالوا: قوموا إلى هذا الصابئ فاضربوه ليموت، فأكبّ عليه العباس، وقال: ويلكم تقتلون رجلاً من غفار، ومتجركم وممرّكم على غفار، وفعلوا ذلك مرتين، ثم تركوه، فكان هذا أول إسلام أبي ذر رضي الله عنه وأرضاه^(١).

فهذا مثال من تساؤل العرب عن بعثة النبي ﷺ لتصديقهم به، أو تكذيبهم. وكان الكفار يقعدون في طرقات مكة؛ ليشوّهوا سمعته قبل الوصول إليه.

كما كان النضر بن الحارث يعارض القرآن، فقد سافر إلى الحيرة وغيرها، وأتى بكتب التاريخ والأمثال، مثل: كليله ودمنة، وأخبار السندباد وغيرها، وأخذ يُلهي الناس عن الاستماع إلى القرآن بأخبار رُستم، وفارس، وغيرهما، ويقول لهم: هذا خير مما يأتيكم به محمد.

ذلكم ما يشير إليه قول الله سبحانه عن الجاحدين المنكرين المكذّبين بالوحي: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ مَآذًا أَنْزَلَ رَبُّكُمْ قَالُوا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ﴾ أي: أنزل عليه أساطير الأولين، وأباطيلهم، يقولون ذلك كذباً وزوراً، قال تعالى: ﴿أَنْظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا لَكَ الْأَمْثَالَ فَضَلُّوا فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا﴾ [الفرقان]. فكان عاقبة المكذّبين بالقرآن، القائلين: إنه أساطير الأولين، أن حملوا أوزارهم، وأوزار من انقاد لهم وقلدتهم، إلى يوم الدين، قال تعالى:

٢٥- ﴿لِيَحْمِلُوا أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ الْقِيَمَةِ وَمِنْ أَوْزَارِ الَّذِينَ يُضِلُّونَهُمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ أَلَا سَاءَ مَا يَزِينُونَ﴾
قال سبحانه مبيناً عاقبتهم وعقوبتهم في الآخرة: ﴿لِيَحْمِلُوا أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ الْقِيَمَةِ﴾

(١) يُنظر: نص الحديث في «صحيح البخاري» برقم (٣٥٢٢، ٣٨٦١) وفي «صحيح مسلم» برقم (٢٤٧٤).

فلا يُغفر لهم منها شيء، فهم كفرة في أنفسهم يتحملون تبعه كفرهم، ويُعذبون على ذلك يوم القيامة.

ثم يحملون بالإضافة إلى هذا، وزراً آخر، هو وزر الذين أضلوهم كذباً بغير علم، فهم يحملون أوزارهم وأوزار غيرهم ممن أضلوهم، كما قال تعالى: ﴿وَلِيَحْمِلُوا أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالًا مَعَ أَثْقَالِهِمْ﴾ [العنكبوت: ١٣] أي: يحملون تبعه أوزارهم وذنوبهم التي ارتكبوها في الدنيا، ويحملون ذنباً أخرى هي ذنوب من أضلوهم وكذبوا عليهم.

ألا ترؤن إلى حديث المصطفى ﷺ: «ومن سن سنة سيئة» علم أنها خصلة قبيحة، وذنب من الذنوب، وكان سبباً في عمل الناس بها، بسبب مجاهرته بالمعصية، أو تعليمها لغيره «فعليه وزرها ووزر من عمل بها إلى يوم القيامة» إنه يموت ويدفن في قبره، ووزره باقٍ، يجري عليه كلما ارتكب أحد هذا الذنب الذي علمه غيره، أو تأسى به فيه، فإنه يتحمل من أوزاره يوم القيامة.

وفي لفظ آخر للحديث: عن أبي هريرة أن النبي ﷺ قال: «من دعا إلى هدى كان له من الأجر مثل أجور من تبعه، لا ينقص ذلك من أجورهم شيء، ومن دعا إلى ضلالة كان عليه من الإثم مثل آثام من تبعه لا ينقص ذلك من آثامهم شيئاً»^(١).

وبالمقابل فإن: «من سن في الإسلام سنة حسنة فعمل بها بعده، كتب له مثل أجر من عمل بها، ولا ينقص من أجورهم شيء»^(٢)؛ لأنه كان قدوة صالحة، أو قال كلمة معروف، أو نهى عن منكر، أو علم شخصاً خصلة من الخير، أو وجهها من وجوه النفع والفائدة، والعمل الصالح، فإن هذا العمل يجري له بعد موته؛ لأنه كان السبب في ذلك، والدال على الخير كفاعله، والسنة الحسنة ليست إحداً في الدين، أو إتياناً بشيء جديد، وإنما سن سنة لها أساس وأصل في الإسلام.

فالصدقة -مثلاً- مشروعة، فلو دعا شخص الناس إلى التبرع لبناء مسجد، أو لمساعدة المجاهدين في فلسطين، أو غيرها، فبدأ شخص بالتبرع علانية، واقتدى به الآخرون، فإنه يكون قد سن سنة حسنة؛ لأنه كان البادئ فاقتدى به غيره.

(١) «صحيح مسلم» برقم (٢٦٧٤).

(٢) من حديث جرير بن عبد الله في «صحيح مسلم» (١٠١٧).

وهذا الحديث يوضحه أوله كما جاء في صحيح مسلم عن جرير بن عبد الله رضي الله عنه قال: جاء ناس من الأعراب إلى رسول الله ﷺ عليهم الصوف: فرأى سوء حالهم، قد أصابتهم حاجة، فحث الناس على الصدقة، فأبطؤوا عنه حتى روي ذلك في وجهه، قال: ثم إن رجلاً من الأنصار جاء بِصُرَّةٍ من ورق، ثم جاء آخر، ثم تتابعوا، حتى عُرف السرور في وجهه، فقال رسول الله ﷺ: «من سنَّ في الإسلام سُنَّةً حسنة، فعُمل بها بعده، كُتِبَ له مثل أجر من عمل بها، ولا ينقص من أجورهم شيء، ومن سنَّ في الإسلام سُنَّةً سيئةً فعُمل بها بعده، كُتِبَ عليه مثل وزر من عمل بها، ولا ينقص من أوزارهم شيء»^(١).

والعمل السيئ الذي يفعله الإنسان ويُضِل به غيره، قد يكون كلمة مكتوبة في صحيفة نشرها، أو في كتاب ضال يضل به الناس، ويغيِّر مفاهيمهم، ويحوِّل أفكارهم.

وقد يكون العمل السيئ في تمثيلية، أو فيلم، أو أي وسيلة من وسائل الإعلام المقروءة، أو المسموعة، أو المرئية يضل بها غيره.

إن مهمة الكاتب لم تنته عند كتابته لهذا الكلام الضال الذي أفسد به الناس، وإنما يمتد أثره إلى ما بعد موته، فكلما حدث للناس مفساد، أو شرور، أو أضرار، وتفشت المنكرات، أو الجرائم، بسبب مقولته، أو كلمته، أو أسطره، أو قيامه بأدوار الممثل الماجن الذي يرسم للناس ألوان الضلال والمفاسد، فإنه يموت، وتبقى آثار ضلالته بعد موته، فيأخذ الناس منه، ويتأسى به الصبيان والشباب، وكل هذا لعنة تلحقه في قبره إلى يوم يلقى الله.

فالمعنى: ليحملوا آثامهم كاملة يوم القيامة، فلا يُغْفَر منها شيء، ويحملوا كذلك آثام من كذبوا عليهم.

ذكر ابن جرير، عن زيد بن أسلم، أن العمل السيئ يتمثل للكافر حين يبعث من قبره، فيقابله في صورة قبيحة، ورائحة متنتة، فيسأله: من أنت؟ فيقول له: أنا عمك الخبيث الذي فعلته في الدنيا، طالما ركبتني في الدنيا، واستفدت من ورائي، واليوم أركبك، فيركبه عمله يوم القيامة^(١).

(١) «صحيح مسلم» برقم (١٠١٧).

ثم أخبر سبحانه عن سوء ما يحمله هؤلاء من الآثام والأوزار إلى الدار الآخرة، فما أقبحه من جمل، فقد كانوا رؤساء يُقتدى بهم في الضلال!

الْأَعْتَابُ بِمَا حَدَّثَ لِحَبَابِرَةِ الْأَرْضِ فِي الدُّنْيَا وَمَا يَخْدُتُ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ

٢٦- ﴿قَدْ مَكَرَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَأَنَّ اللَّهَ بَنَيْنَهُمْ مِنْ الْفَوَاحِشِ فَخَرَّ عَلَيْهِمْ﴾ (٢) السَّقْفُ مِنْ فَوْقِهِمْ وَأَنْتَهُمْ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٢٦﴾

أي وقبل هؤلاء الذين يكذبون الوحي المنزل، قوم آخرون، قد احتالوا بأنواع الحيل على ردّ ماجاءتهم به الرسل، وكانت لهم قواعد وأصول من الباطل، يرجعون إليها في تكذيب الرسل، وإلحاق الضرر بهم، فأبطل الله قواعدهم، وأتى عليها من الأساس، فصار تدميرهم في تدبيرهم، ﴿وَلَا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِ﴾ [فاطر: ٤٣] وكان هذا في الدنيا، ويوم القيامة يفضحهم الله على رؤوس الأشهاد، ويبين لهم كذبهم وافتراءهم.

والله سبحانه يقول لرسوله ﷺ: هؤلاء المكذبون ليسوا أول من مكر برسل الله، وليسوا أول من كذب وخي الله، وليسوا أول من خطط للقضاء على الإسلام وأهله، بل إن قبلهم كثيرين، قبلهم طغاة وجبابرة على مدى التاريخ، وأمما وشعوبا أرادوا أن يطفئوا نور الله بأفواههم، فأبطل الله مكرهم، وأبطل كيدهم، وأتى عليه من أوله إلى آخره، وذلك مثل أقوام: نوح، وعاد، وثمود، ولوط، ومدين، وأصحاب الأيكة، وكفار قريش، وأهل الكتاب، وغيرهم، وكلهم قد دبروا المكاييد لرسول الله، ووقفوا في وجه دعوة الحق، فقوّض الله بنيانهم من أساسه، ودمّر البنية التحتية لهم، وأسقط سقف بنيانهم من أعلى، وأتاهم الهلاك من ما منهم، ومن حيث لا يتوقعون.

قال تعالى: ﴿وَمَكْرُوا مَكَرَ اللَّهِ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَكْرِينَ﴾ [آل عمران]

وقال سبحانه ﴿وَمَكْرُوا مَكْرًا وَمَكْرَنَا مَكْرًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ (٥٥) فَأَنْظُرْ كَيْفَ كَانَتْ

(١) يُنْظَرُ: «تفسير الفخر الرازي» (١٨/٢٠).

(٢) قرأ أبو عمرو بكسر الهاء والميم من (عليهم السقف) في حالة الوصل، وقرأ حمزة والكسائي ويعقوب وخلف بضمهما، والباقون بكسر الهاء وضم الميم.

عَنْبَةً مَكْرَهُمْ أَنَّا دَمَرْنَاهُمْ وَقَوْمَهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٥١﴾ فَبَلَكَ يُؤْتُهُمْ حَاقِبَةً بِمَا ظَلَمُوا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٥٢﴾ وَأَنْجَيْنَا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَكَانُوا يَنْقُوتُ ﴿٥٣﴾ [النمل]

وقال جل شأنه: ﴿وَمَكْرُؤًا مَّكْرًا كَبِيرًا﴾ [نوح]

وكان عاقبة هؤلاء جميعاً كما قال تعالى: ﴿فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذُنُوبِهِ فَمِنْهُمْ مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُمْ مَّنْ أَخَذَتْهُ الصَّيْحَةُ وَمِنْهُمْ مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ الْأَرْضَ وَمِنْهُمْ مَّنْ أَغْرَقْنَا وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُظْلِمَهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ [العنكبوت]

والمكر هو إلحاق الضرر بالآخرين في صورة مموهة، كأنه ينصحه وينفعه، فإن كان الماكر يتحرى الشر والباطل فهو مكر مذموم وهو المراد في الآية.

وإن كان المكر بتدبير محكم لصرف الآخر عن فعل أو قول مذموم، فهو مكر محمود.

والمعنى: لا تهتم -يا محمد- بما يقوله المستكبرون من المكذبين لدعوتك؛ كي يصرفوا الناس عن الإسلام؛ فقد سبق للذين قبلهم أن مكروا بأنبيائهم، فعاقبهم الله على ذلك بأن أفسد حيلهم ومكرهم، وأتى عليه من أساسه، ففوّض دعائهم، وهدم بنيانهم، وأتاهم الهلاك من حيث لا يحتسبون، فكما احتالوا في إضلال الناس بكل حيلة، وحاولوا إطفاء نور الله بأعمالهم وأقوالهم، أتاهم أمر الله فأهلكهم ودمرهم.

ومن أمثلة هؤلاء الذين وقفوا في وجه الدعوة، ودبروا المكائد لرسول الله، فرعون الطاغية الذي ادّعى الربوبية والألوهية، وهو الذي قال عن نبي الله موسى ﷺ: ﴿ذَرُونِي أَقْتُلْ مُوسَى وَلْيَدْعُ رَبَّهُ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَنْ يُظْهِرَ فِي الْأَرْضِ الْفَسَادَ﴾ [غافر: ٢٦]

وفرعون هو الذي قال لوزيره هامان: ﴿يَهَيِّئْ لِي صَرْحًا لَّعَلِّي أَبْلُغُ الْأَسْبَابَ﴾ [غافر: ٣٦، ٣٧].

ومن أوائل الجبابرة، وأكبر طغاة ملوك الأرض: النمرود بن كنعان، كان ملكاً على بابل من أرض العراق، في عهد إبراهيم خليل الرحمن، فهو الذي كاد لرسول الله وخليفه إبراهيم ﷺ، فجمع النيران، وأوقدها، وألقاه فيها، وكانت النار برداً وسلاماً على إبراهيم؛ حيث سلب الله منها خاصية الإحراق.

قالوا: إن النمرود بنى صرحاً عالياً شامخاً، بلغ خمسة آلاف ذراع، أو فرسخين من

الطول، وأنه أراد أن يصعد فوق هذا الصرح الشامخ؛ ليصل إلى من في السموات، ويقاقل من فيها، قالوا: فأرسل الله ريحاً عاتية على الصرح الشامخ الذي بناه النمرود، فأنت عليه من قواعده، وقد قوّض الله تعالى هذا الصرح الشامخ، وأتى عليه من أساسه، وأسقطه على رأس من صنعه، ومن أمر به.

عن زيد بن أسلم: أن الله تعالى سلط على النمرود بعوضة فدخلت في منخره، فمكث أربع مئة سنة، يُضْرَبُ رأسه بالمطارق، وأرحم الناس به من جمع يديه فضرب بهما رأسه، وكان جباراً مدة أربع مئة سنة، فعذّبه الله أربع مئة سنة كمدة ملكه، ثم أماته، وهو الذي بنى صرحاً إلى السماء^(١).

ويحدث المكر بالإسلام وأهله من اليهود والنصارى ومن غيرهم، قال تعالى: ﴿يُرِيدُونَ أَن يُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ يَأْفَوْهُهُمْ﴾، كي يخدموا دعوة الرسالة الإسلامية ﴿وَيَأْبَى اللَّهُ إِلَّا أَن يُسَمِّرَ نُورَهُ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ﴾ [التوبة: ٣٢].

وكان مكر الله دائماً أقوى من مكر الماكرين ﴿وَإِن كَانَتْ مَكْرُهُمْ لِنَزُولٍ مِنْهُ الْجِبَالُ﴾ [إبراهيم: ٤٦] ﴿كُلَّمَا أَوْقَدُوا نَارًا لِلْحَرْبِ أَطْفَأَهَا اللَّهُ﴾ [المائدة: ٦٤] ﴿قَالَتْ لَهُمُ اللَّهُ مِنَّ حَيْثُ لَمْ يَحْسَبُوا﴾ [الحشر: ٢] كان هذا في الدنيا، فماذا في الآخرة؟

ما مصير، وما عاقبة المستكبرين، الذين يدبرون المكائد للإسلام وأهله؟ قال تعالى:

٢٧- ﴿ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يُخْزِيهِمْ^(٢) وَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَائِيَ الَّذِينَ كُنْتُمْ تُشْفِقُونَ^(٣) فِيهِمْ قَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ إِنَّ الْخِزْيَ الْيَوْمَ وَالْسُّوءَ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾

ثم يوم القيامة يذلهم ويؤخّضهم بسؤالهم عن الشركاء الذين عبدوهم في الدنيا، أى: أن الله تعالى يفضحهم على رؤوس الخلائق والأشهاد، كما قال تعالى: ﴿يَوْمَ تَبْيَضُّ بُيُوتُ السَّرَائِرِ﴾ [الطارق] ففي يوم القيامة يظهر الله تعالى فضائح المكذّبين بخاتم الرسل، فيظهر كذبهم وافتراءهم،

(١) من «تفسير ابن كثير» (٥٦٦/٤) وقد أخرجه عبد الرزاق (١٠٥/١) والطبري (٢٠٤/١٤).

(٢) قرأ يعقوب بضم الهاء من (يخزيهم) و (فيهم)، والباقون بكسرهما.

(٣) قرأ نافع بكسر النون من (تشاقون) على حذف إحدى النونين، والراجح أنها نون الوقاية، ثم كسرت نون الرفع، ثم حذفت الياء لدلالة الكسرة عليها، والباقون بفتح نون الرفع والمفعول محذوف، أي المؤمنين، أو: الله.

وَيُظْهِرُ مَا أَضْمَرَتْهُ صُدُورُهُمْ مِنَ الْمَكْرِ، عَلَى رُؤُوسِ الْخَلَائِقِ، وَمَنْ ذَلِكَ مَا كَانُوا يَتَأْمَرُونَ عَلَيْهِ سِرًّا لِلنَّيْلِ مِنَ الْإِسْلَامِ وَأَهْلِهِ، فِي يَوْمِ الْقِيَامَةِ تَظْهَرُ الْفَضَائِحُ، وَمَنْ نَوَقَشَ الْحِسَابَ فَقَدْ عَذِبَ، وَخِزْيَ الْكَافِرِ: دَخُولُهُ النَّارِ؛ فَإِنَّهُ الْخِزْيُ الْأَكْبَرُ كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿فَمَنْ رُحِّجَ عَنِ الْكَارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ﴾ [آل عمران: ١٨٥] وَقَالَ: ﴿رَبَّنَا إِنَّكَ مَنْ تُدْخِلِ النَّارَ فَقَدْ أَخْرَيْتَهُ﴾ [آل عمران: ١٩٢] فِي هَذَا مَتْنُهُ الذَّلُّ وَالْخِزْيُ وَالْهَوَانُ.

وَأَخْبَرَ النَّبِيُّ ﷺ أَنَّ لِكُلِّ غَادِرٍ فِي الدُّنْيَا لَوَاءٌ يُعْرَفُ بِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ؛ حَيْثُ يُنْصَبُ لَهُ هَذَا اللَّوَاءُ، عَلَامَةٌ لَهُ فِي الْمَشْهَدِ الْعَظِيمِ، يُقَالُ: هَذِهِ غَدْرَةُ فُلَانٍ، وَهَذِهِ الْعَلَامَةُ مُمِيزَةٌ لِلْغَادِرِ فِي سَاحَةِ الْحَشْرِ.

صَحَّ فِي الْحَدِيثِ عَنْ ابْنِ عُمَرَ ؓ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: «يُنْصَبُ لِكُلِّ غَادِرٍ لَوَاءٌ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عِنْدَ اسْتِهِ، بِقَدْرِ غَدْرَتِهِ، يُقَالُ: هَذِهِ غَدْرَةُ فُلَانٍ بِنِ فُلَانٍ»^(١).

وَهَذَا اللَّوَاءُ يَعْرِفُ بِهِ الْغَادِرُونَ فِي الْمَشْهَدِ، فَيُفْضَحُهُمُ اللَّهُ عَلَى رُؤُوسِ الْخَلَائِقِ وَالْأَشْهَادِ، وَيُظْهِرُ مَا كَانَ مُسْتَكْتَنًا فِي صُدُورِهِمْ، وَلَا يُطْلَعُ عَلَيْهِ إِلَّا رَبُّ الْعَالَمِينَ.

قَالَ تَعَالَى: ﴿أَفَلَا يَعْلَمُ إِذَا بُعْثِرَ مَا فِي الْقُبُورِ ۖ وَحُصِّلَ مَا فِي الصُّدُورِ ۖ﴾ [العاديات] وَعِنْدَئِذٍ يَقُولُ اللَّهُ لَهُمْ: ﴿أَيْنَ شُرَكَائِكُمْ﴾ فِي الطَّاعَةِ وَالْعِبَادَةِ؟ أَيْنَ مَعْبُودَاتِكُمُ الَّتِي عِبَدْتُمُوهَا مِنْ دُونِ اللَّهِ، وَخَالَفْتُمْ بِهَا عِبَادَ اللَّهِ الْمُؤْمِنِينَ؟ أَيْنَ هَؤُلَاءِ الشُّرَكَاءِ الَّذِينَ كُنْتُمْ تَشْتَقُونَ فِيهِمْ؟ أَيُّ: كُنْتُمْ تُخَاصِمُونَ فِيهِمْ، فَتَعَادُونَ اللَّهَ وَحُزْبَهُ، وَتَحَارِبُونَ الْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَجْلِهِمْ، وَتَقُولُونَ: لَا بَدَ لَكُمْ مِنْ إِشْرَاكِهِمْ مَعِيَ فِي الْعِبَادَةِ، مَا لَهُمْ لَا يَحْضُرُونَ مَعَكُمْ؛ لِيُدْفَعُوا عَنْكُمْ مَا يَنْزِلُ بِكُمْ مِنَ الْعَذَابِ، وَالذَّلِّ، وَالْهَوَانِ؟ كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَائِيَ الَّذِينَ كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ﴾ [القصص].

يُقَالُ لَهُمْ ذَلِكَ عَلَى سَبِيلِ التَّأْنِيبِ وَالتَّبَكُّيْتِ، فَيَسْكُتُ الْمَكْذُوبُونَ؛ بِسَبَبِ الْخِزْيِ وَالذَّلِّ الَّذِي يَلْحَقُ بِهِمْ، وَتَنْطَلِقُ أَلْسِنَةُ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ الرِّبَانِيِّينَ مِنَ الْمَلَائِكَةِ، وَالْأَنْبِيَاءِ، وَالْعُلَمَاءِ، وَالصَّالِحِينَ، وَالدَّعَاةِ، مِمَّنْ هَدَاهُمُ اللَّهُ، وَعَرَفُوا طَرِيقَ الْحَقِّ، فَيَجِيبُونَ عَنْهُمْ، وَيَقُولُونَ: ﴿إِنَّ الْخِزْيَ الْيَوْمَ وَالْأَسْوَى عَلَى الْكَافِرِينَ﴾ فَهُمْ أَهْلُ الْخِزْيِ، وَالْفَضِيحَةِ الشَّامِلَةِ،

(١) أَخْرَجَهُ الشَّيْخَانُ عَنْ ابْنِ عُمَرَ، الْبُخَارِيُّ بِرَقْم (٣١٨٨) وَمُسْلِمٌ بِرَقْم (١٧٣٥).

والعذاب الكبير في الموقف العظيم.

ولم يكن للمشركين جواب على السؤال إلا الإقرار بضلالهم والاعتراف بعنادهم، فيقولون: ﴿ضَلُّوا عَنَّا وَشَهِدُوا عَلَيَّ أَنفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُوا كَافِرِينَ﴾ [الأعراف: ٣٧]

ثم ذكر سبحانه ما يفعل بالذين ردّوا دعوة الرسل عند الوفاة وفي يوم القيامة:

حَالُ الْكَفَّارِ عِنْدَ انْتِزَاعِ أَزْوَاجِهِمْ وَعِنْدَ وَقُوفِهِمْ لِلْحِسَابِ

٢٨- ﴿الَّذِينَ تَوَفَّيْنَاهُمُ^(١) الْمَلَائِكَةُ ظَالِمِي أَنفُسِهِمْ فَأَلْقَوْا السَّلَامَ مَا كُنَّا نَعْمَلُ مِن سُوءٍ بَلَى إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٢٨﴾﴾

وهؤلاء الكافرون هم الذين ظلموا أنفسهم بالكفر والشرك، أي: إن الذل في هذا اليوم، والعذاب للكافرين الذين تقبض الملائكة أرواحهم حال كونهم ظالمين لأنفسهم بالكفر والشرك، فاستسلموا وانقادوا لأمر الله تعالى حين رأوا الموت، وأنكروا ما كانوا يعبدون من دون الله من شدة الخوف، وقالوا: ما أشركنا بالله، وما عملنا شيئاً من المعاصي، ذلكم قوله تعالى:

﴿فَأَلْقَوْا السَّلَامَ﴾ أي: أنهم خضعوا، واستكانوا، واستسلموا عند ما رأوا العذاب بأعينهم، وأنكروا ما كانوا يعبدونهم من دون الله، وقالوا: ﴿مَا كُنَّا نَعْمَلُ مِن سُوءٍ﴾ فيقال لهم: كذبتُم، قد أشركتم بالله، وارتكبتم المعاصي، والله تعالى يعلم حقيقة أمركم، ويطلع على أعمالكم، وسوف يجازيكم عليها، وهذا ما يشير إليه قوله تعالى على لسان الملائكة: ﴿بَلَى﴾ جواب لهم ﴿إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ فلا فائدة في إنكاركم وجحودكم، وهم يظنون أن هذا الإنكار ينفعهم، ولكن الله تعالى ينطق جوارحهم، فتشهد عليهم، وعندئذ يقرون ويعترفون، فيدخلون النار بذنوبهم.

والقرآن في هذه الآية يرسم مشهداً لاحتضار الكافر عند الموت، كما في قوله تعالى: ﴿فَكَيْفَ إِذَا تَوَفَّتْهُمُ الْمَلَائِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَرَهُمْ﴾ [محمد].

(١) قرأ حمزة وخلف بالياء في (توفاهم) على التذكير، والباقون بالياء على التأنيث، وجاز تذكير الفعل وتأنيثه؛ لأن الفاعل مؤنث غير حقيقي، وكذلك في الآية برقم (٢٣).

وقوله: ﴿وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ يَتَوَفَّى الَّذِينَ كَفَرُوا الْمَلَائِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَرَهُمْ وَذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ﴾ (٥١) [الأنفال].

وقوله: ﴿وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ الظَّالِمُونَ فِي غَمَرَاتِ الْمَوْتِ وَالْمَلَائِكَةُ بَاسِطُوا أَيْدِيهِمْ﴾.

وحينئذ يقال لهم: ﴿أَخْرِجُوا أَنْفُسَكُمُ الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ بِمَا كُنْتُمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ وَكُنْتُمْ عَنْ آيَاتِهِ تَسْتَكْبِرُونَ﴾ [الأنعام: ٩٣].

وإذن فهذه الآية تقرر أن هؤلاء الظالمين لأنفسهم، بالكفر والشرك، يستسلمون عندما يعانين الحقيقة، ويعانون الموت والعذاب بأعينهم ماثلاً أمامهم، كما قال تعالى: ﴿وَبَرَزَتِ الْجَنَّةُ لِمَن بَرَىٰ﴾ [النازعات] حينئذ يحلفون ويقولون: ﴿وَاللَّهُ رَبَّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾ [الأنعام: ٢٣] يحلفون بالله كذباً وهم بين يدي رب العالمين، ولذلك فإن الله سبحانه يقول: ﴿أَفَلَمْ يَكْفِ كَذِبُؤُنَا عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ﴾ إنهم كذبوا على أنفسهم، ولم يكذبوا على الله؛ لأن الله تعالى يعلم حقيقتهم، فغاب ذلك عنهم، ونسوا ما كانوا يعبدونه في الدنيا ﴿وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾ [الأنعام: ٢٤] يحلفون بالله وهم يعلمون أنهم كاذبون كما في قوله تعالى: ﴿يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ جَمِيعًا فَيَحْطِفُونَ لَهُمْ مَا يَخْلُقُونَ لَكُمُ﴾ [المجادلة: ١٨]

يحلفون بالله أنهم لم يشركوا قائلين: ﴿وَاللَّهُ رَبَّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾ [الأنعام: ٢٣]

وهم معترفون أن لهم رباً: ﴿وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ عَلَىٰ شَيْءٍ﴾ [المجادلة: ١٨].

والآيات تفيد أن الكفار في يوم القيامة لهم حالتان:

١- فتارة يقرون، ويعترفون على أنفسهم أنهم كانوا في الدنيا كافرين، كما قال تعالى: ﴿وَشَهِدُوا عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُوا كَافِرِينَ﴾ [الأنعام: ١٣٠].

٢- وتارة يجحدون ويكذبون قضداً، فيقولون: ﴿مَا كُنَّا نَعْمَلُ مِن سُوءٍ﴾.

ويقولون ﴿وَاللَّهُ رَبَّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾ [الأنعام: ٢٣].

والآية عامة في جميع الكفار بالله واليوم الآخر، وفي كل من لم يؤمن برسالة خاتم المرسلين ﷺ إلى يوم القيامة، وإن كان سبب النزول خاصاً، فالعبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب، وإنما يُذكر سبب النزول؛ ليُستعان به على فهم الآية:

وهذه الآية تصدق على من يكون في ديار الكفر مهاجرًا، أو مقيمًا ولا يتمكن من عبادة الله فيها، ويُصد عن سبيل الله، ويُمْنَع من إظهار شعائر الإسلام.

كما تُصدّق على من كان في بلاد المسلمين وهو لا يستطيع أن يصلي في المسجد مثلاً، أو ينضم إلى حلقة علم أو قرآن؛ كي لا يلحق به ضرر محقق، وليس متوقعًا.

وتُصدّق أيضًا على من يريد الدخول في الإسلام وهو في بلاد الكفر لا يستطيع ذلك، ثم لا يعلن إسلامه، ولا يهاجر من هذه الديار، فهو يكون قد ظلم نفسه ببقائه بين ظهرائي المشركين الكافرين، مع عدم التمكن من إظهار شعائره، وإظهار دينه.

ومن هذا القليل ما تنص عليه الآية من سورة النساء: أن قومًا من ضعفاء المسلمين في مكة أسلموا باطنًا، وخافوا أن يُظهروا إسلامهم، وظلوا مدة على هذه الحال لا يعلم بهم أحد، فلما كان يوم بدر أكرههم المشركون، وأخرجوهم معهم؛ ليقاتلوا ضد المسلمين، فقاتلوا المسلمين مع المشركين، والقرآن سماهم ظلمة؛ لأنهم ظلموا أنفسهم بعدم الهجرة، وأدرجهم القرآن ضمن وصف حال الذين يموتون على الشرك، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّيْنَاهُمُ الْمَلَائِكَةُ ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ قَالُوا فِيمَ كُنْتُمْ قَالُوا كُنَّا مُسْتَضْعِفِينَ فِي الْأَرْضِ قَالُوا أَلَمْ تَكُنْ أَرْضَ اللَّهِ وَاسِعَةً فَهَاجِرُوا فِيهَا فَأُولَئِكَ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَسَاءَتْ مَصِيرًا ﴿٩٧﴾﴾ [النساء].

قال عكرمة: أنزلت في قوم من أهل مكة آمنوا بقلوبهم ولم يهاجروا، فأخرجهم كفار مكة مكرهين إلى بدر، فقتلوا هنالك فتزلت فيهم الآية^(١).

وهذه الآية التي نحن بصدد تفسيرها ليست جوابًا لما قبلها، ولكنها وقعت موقع الجواب كما قال تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَالْإِيمَانَ لَقَدْ لَبِئْتُمْ فِي كِتَابِ اللَّهِ إِلَى يَوْمِ الْبَعْثِ﴾ [الروم: ٥٦] كما أن قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ تَوَفَّيْنَاهُمُ الْمَلَائِكَةُ﴾ وصف للكفار، فهو بيان من الله تعالى عنهم.

وقوله تعالى ﴿بَلَىٰ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ﴾ جواب من الملائكة للكفار.

(١) «تفسير ابن عطية» (٣/٣٨٩) و«تفسير التحرير والتنوير» (١٤/١٣٨).

مَثْوَى الْكَافِرِ الْأَخِيرِ

٢٩- ﴿فَادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَلِيدِينَ فِيهَا فَلَيْسَ مَثْوَى الْمُتَكَبِّرِينَ﴾ ﴿٢٩﴾

وبعد المسائلة والاعتراف بالظلم في ساحة الحشر يوم البعث يقال للكفار: ﴿فَادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ﴾ كل واحد منكم يدخل من بابه المستحق له ﴿لَهَا سَبْعَةُ أَبْوَابٍ لِكُلِّ بَابٍ مِنْهُمْ جُزْءٌ مَقْسُومٌ﴾ [الحجر] فيدخلون جهنم، ويخلدون فيها، ولا يخرجون منها أبداً، وبئس المقر ودار الإقامة لمن تكبر عن عبادة الله وطاعته.

فإنها مَثْوَى الحسرة والندامة، ومنزل الشقاء والألم، ومحل الهموم والغموم، وموضع سخط رب العالمين، لا يفتر عنهم من عذابها، ولا يُرفع عنهم يوماً من أليم عقابها، نسأل الله العفو والعافية والسلامة.

ووصفهم بالاستكبار في آخر الآية يطابق ما وصفهم الله به في بداية الحديث عنهم في قوله سبحانه: ﴿إِنَّهُمْ لَا يُحِبُّونَ الْمُتَكَبِّرِينَ﴾ [آية: ٢٣].

وقوله قبلها: ﴿فَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ قُلُوبُهُمْ مُنْكَرَةٌ وَهُمْ مُسْتَكْبِرُونَ﴾ [آية: ٢٢].

وهذا يفيد أن هذا الصنف من الناس يختلف عن المستضعفين الذين كانوا يظهرون الكفر ويبتغون الإسلام، ووجه الشبه بينهما أن كلا منهم ظلم نفسه من جانب، فالمستكبرون ظلموا أنفسهم بالكفر، والمستضعفون ظلموا أنفسهم بعدم الهجرة من بلاد الكفر.

والذين يموتون على الكفر ﴿لَا يُقْضَىٰ عَلَيْهِمْ فِيمَوتُوا وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ مِنْ عَذَابِهَا﴾ [فاطر: ٣٦] ﴿كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُمْ بِدَلَّتْهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا الْعَذَابَ﴾ [النساء: ٥٦] فهم في عذاب جهنم خالدون فيها، لا يموتون فيها ولا يحيون، والكفار يقاسون حر جهنم وسمومها وهم في قبورهم، فإذا كان يوم القيامة انضمت أرواحهم إلى أجسادهم، ويخلدون في النار، كما قال تعالى: ﴿النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ﴾ ﴿٤١﴾ [غافر]

وقال: ﴿وَلَنُذِيقَنَّهُمْ مِنَ الْعَذَابِ الْأَلَدِّ﴾ أي: في قبورهم ﴿دُونَ الْعَذَابِ الْأَكْبَرِ﴾.

أي: يوم القيامة ﴿وَلَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ [السجدة: ٢١]

فالقبر إما روضة من رياض الجنة، وإما حفرة من حفر النار.

جَزَاءُ أَهْلِ الْإِيمَانِ يَوْمَ لِقَاءِ اللَّهِ

٣٠- ﴿وَقِيلَ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا مَاذَا أَنْزَلَ رَبُّكُمْ قَالُوا خَيْرٌ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ وَلَدَارُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ وَلَنِعْمَ دَارُ الْمُتَّقِينَ﴾

لما أخبر ﷺ عن قول الأشقياء الذين كفروا بخاتم الرسل ﷺ، وطعنوا في القرآن، فقالوا عنه أساطير الأولين، ووصفوه بالسحر والشعر والكهانة وبيّن سبحانه ما يكونون عليه في الآخرة من الفضيحة، والذل، والهوان.

أخبر جلّ شأنه في هذه الآية عن قول السعداء الذين آمنوا بالله ربّاً، وبالإسلام ديناً، وبالقرآن كتاباً، وبمحمد ﷺ نبياً ورسولاً.

وبيّن سبحانه ما يكونون عليه في الآخرة من النعيم المقيم؛ لتتم المقابلة بين الأشقياء والسعداء، وبين الأبرار والفجار.

ففي هذه الآية بيان حال المؤمنين الذي سئلوا عن القرآن ورسول الإسلام، فأرشدوا السائلين إلى خير الدنيا والآخرة، وكشفوا لهم عن حقيقة القرآن بأصدق وصف وأوجز بيان.

قال ابن عباس ؓ: إن مشركي قريش بعثوا ستة عشر رجلاً إلى مداخل مكة أيام الحج على طرق الناس، وفرّقوهم على كل مدخل أربعة رجال؛ ليصدوا الناس عن رسول الله ﷺ، وقالوا لهم: من أتاكم من الناس يسألکم عن محمد فليقل بعضکم: شاعر، وبعضکم: كاهن، وبعضکم: مجنون، فإذا انتهوا إلينا صدقناکم.

فبلغ ذلك رسول الله ﷺ، فبعث إلى كل أربعة منهم أربعة من المسلمين، فيهم عبد الله بن مسعود، وأمرهم أن يكذبوهم.

فكان الناس إذا مرّوا على المشركين فقالوا ما قالوا، ردّ عليهم المسلمون، وقالوا: كذبوا، بل يدعو إلى الحق، ويأمر بالمعروف، وينهى عن المنكر، ويدعو إلى الخير،

فيقولون: وما هذا الخير الذي يدعو إليه؟ فيقولون: ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا لِحُسْنٍ وَزِيَادَةٌ﴾^(١).

هذا: وقد بيّنت الآيات السابقة صفة الكفار وعاقبة كفرهم في قوله تعالى:

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ مَآذَا أَنزَلَ رَبُّكُمْ قَالُوا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ﴾.

وجاء هنا؛ صفة المؤمنين، وحسن عاقبتهم بأنهم إذا قيل لهم:

﴿مَآذَا أَنزَلَ رَبُّكُمْ قَالُوا خَيْرٌ﴾ فهم قد أرشدوا السائل في الكشف عن حقيقة القرآن بأوجز

بيان وأجمعه، وكلمة ﴿خَيْرٌ﴾ لفظ شامل لكل خير في الدنيا والآخرة والقرآن في مقدمته.

ولما أتوا بالأعمال الصالحة في الدنيا كان ثوابهم في الآخرة مضاعفاً.

والآية تبيّن موقف عباد الله الصالحين من الصحابة - في مقابلة موقف الكافرين السابق - حين يمر بالمؤمنين الوفود القادمون إلى مكة، ويسألونهم عن دعوة محمد ﷺ، فيقولون لهم: ﴿مَآذَا أَنزَلَ رَبُّكُمْ﴾ أي شيء أنزله؟ ﴿قَالُوا خَيْرٌ﴾ أنزل ربنا خيراً، أنزل التوحيد والعلم والنور والهدى والآية عامة إلى يوم القيامة.

ثم بيّن ﷺ - في مقابل بيان جزاء الكفار - جزاء المتقين الذين يخافون لقاء الله، بأن لهم في دنياهم حسنة، ولهم في الآخرة دار النعيم.

فكما أن الكفار يكونون في الدنيا في خوف وقلق وتوتر، وتعاسة وحالة نفسية سيئة، ولو كانوا من أغنى العباد، فإن المؤمن يكون واثقاً بربه، يتمتع بالأمن والأمان والراحة والطمأنينة، فلا يخاف من أحد إلا من رب العالمين، ولذا فهو في سكون، وهدوء، واستقرار نفسي، وهذا معنى ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ﴾ أي: لهم في الدنيا عيشة رغيدة، وسعة رزق، وأمن وأمان، فهم في الدنيا في سعادة وحالة طيبة، وهم في الآخرة أفضل من ذلك، كما قال تعالى: ﴿وَلَدَارُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ﴾ فهي خير لهم من الدنيا ﴿وَلَنِعْمَ دَارُ الْمُتَّقِينَ﴾

فمن أحسن عمله في الدنيا، أحسن الله إليه عمله في الدنيا والآخرة، وكان له عند الله الجزاء الحسن كما قال تعالى: ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهٗ حَيَوةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾.

(١) «زاد المسير» (٤/٤٤٣) وقد استبدلت كلمة (عتاب) بكلمة (مدخل).

وسُمِّيت الدار الآخرة؛ لأنها آخر المنازل للإنسان، بعد أن مر بثلاث مراحل قبلها حيث مر: ببطن أمه، وبالحياة الدنيا، ومدة البرزخ أو القبر، ثم يأتي المثلوى الأخير، الذي لا دار بعده، وهي الدار الآخرة.

وقد مدح الله دار المتقين، ووصفها بنعم الدار، وهي دار الأبرار، ودار المتقين ودار المحسنين، وهي خير وأبقى من دار الدنيا، كما قال تعالى: ﴿وَمَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ لِلْأَبْرَارِ﴾ [آل عمران: ١٩٨]، وقال سبحانه: ﴿وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَى﴾ [الأعلى].

وقال تعالى لرسوله ﷺ: ﴿وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ الْأُولَى﴾ [الضحى].

والمؤمنون لا يريدون التحول عن النعيم الذي أعده الله لهم في الآخرة إلى دار أخرى، قال تعالى: ﴿خَالِدِينَ فِيهَا لَا يَبْغُونَ عَنْهَا حِوَلًا﴾ [الكهف].

وحسنة الدنيا: هي الحياة الطيبة وراحة النفس والزوجة الصالحة.

وحسنة الآخرة: هي النعيم الدائم، ولنعم دار المتقين دار الآخرة.

ومعنى الآية: وإذا قيل للمؤمنين الممثلين أوامر الله، المجتنبين لنواهيه: ما الذي أنزله الله على النبي محمد ﷺ؟ قالوا: أنزل الله عليه الخير والهدى، فتلقوا هذه النعمة بالقبول والانقياد وشكروا الله عليها، ثم بين سبحانه ما أعده للذين آمنوا بالله ورسوله في هذه الدنيا، بما دعوا به عباد الله إلى الإيمان والعمل الصالح، بأنه أعد لهم الرزق الواسع، وطمأنينة القلب، والأمن والأمان، والتمكين والنصر لهم في الدنيا، ولدار الآخرة لهم خير وأعظم مما أوتوه في الدنيا، ولنعم دار المتقين الخائفين من الله في الدار الآخرة قال تعالى:

٣١- ﴿جَنَّتٌ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا يُجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ لَهُمْ فِيهَا مَا يَشَاءُونَ كَذَلِكَ يَجْزِي اللَّهُ الْمُتَّقِينَ﴾

هذه الدار وصفها ربنا بأنها دار استقرار ونعيم في جنات عدن، أي: جنات إقامة يقيمون فيها ولا يتحولون عنها، يقيمون فيها بصفة دائمة ولا يخرجون منها، تجري من تحت قصورها وأشجارها أنهار اللبن، والعسل، والخمر الذي لا يُسكر، والماء الذي لا يتغير، لهم فيها ما تشتهيه الأنفس وتلذ الأعين ﴿لَهُمْ مَا يَشَاءُونَ فِيهَا وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ﴾ [ق] فلا يطلبون أو يتمنون شيئاً من النعيم إلا وهو حاضر بين أيديهم، ويمثل هذا الجزاء الطيب يجزي الله أهل خشيته وتقواه.

تَحِيَّةُ الْمَلَائِكَةِ لِلْمُتَّقِينَ وَبُشْرَاهُمْ لَهُمْ بِالْجَنَّةِ

٣٢- ﴿الَّذِينَ نُوَفِّئُهُمُ الْمَلَائِكَةَ طَيِّبِينَ يَقُولُونَ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ ادْخُلُوا الْجَنَّةَ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ (٣٢)

ثم وصف الله سبحانه المتقين بأنهم الذين توفتهم الملائكة وقلوبهم طيبة، طاهرة من الشرك والكفر، وأحوالهم طيبة ليس فيها خبث ولا سوء وهي صالحة للموت مستعدة له؛ حيث يشتهيهم ربهم بالقول الثابت، وتقول لهم الملائكة: ﴿طَيِّبَتْ فَاَدْخُلُوهَا خَالِدِينَ﴾ [الزمر: ٧٣]

وكلمة (طَيِّب) تُطلق على محاسن الأخلاق، وكمال النفس، وحُسن الرائحة.

فتوصف به المحسوسات، كما في قوله تعالى: ﴿فَكُلُوا مِنَّمَا رَزَقَكُمُ اللَّهُ حَلَالًا طَيِّبًا﴾ [١١٤] وتوصف به المعاني كما في قولهم: طبت نفساً، وقول أبي بكر ؓ لرسول الله ﷺ: طَبْتُ حَيًّا، وَطَبْتُ مَيِّتًا.

ومن ذلك قوله تعالى: ﴿وَالْبَلَدُ الطَّيِّبُ يَخْرِجُ نَبَاتُهُ بِإِذْنِ رَبِّهِ﴾ [الأعراف: ٥٨].

وفي الحديث: عن أبي هريرة ؓ أن رسول الله ﷺ قال: «إِنَّ اللَّهَ طَيِّبٌ لَا يَقْبَلُ إِلَّا طَيِّبًا»^(١) أي: لا يقبل إلا مالا حلالا طيبا غير محرم ولا خبيث.

وقوله تعالى في هذه الآية عن المتقين: ﴿الَّذِينَ نُوَفِّئُهُمُ الْمَلَائِكَةَ طَيِّبِينَ﴾ يجمع كل هذه المعاني، أي: تتوافهم الملائكة وهم منزهون عن الشرك والفسق والمعاصي ونفوسهم مطمئنة، وهذا في مقابلة ﴿الَّذِينَ نُوَفِّئُهُمُ الْمَلَائِكَةَ طَالِييَ أَنْفُسِهِمْ﴾ فالمشركون توفتهم الملائكة وهم ظالمو أنفسهم، وهؤلاء تحضرهم الملائكة عند الموت وهم طيبون، ماتوا على التقوى، والتوحيد والهدى والإيمان، يبشرونهم بدخول الجنة، ويخبرونهم بأنهم من أصحاب اليمين، ويحيونهم بالسلام، ويقولون لهم: سلام عليكم، كلما دخلوا عليهم، ويسلمون عليهم في أربعة مواطن على وجه الخصوص:

١- عند الاحتضار للموت. ٢- وعند السؤال في القبر.

٣- وعند الحساب. ٤- وعند دخول الجنة.

ويقولون لهم: ﴿ادْخُلُوا الْجَنَّةَ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ من الإيمان بالله، والانقياد لأمره فهنيئا

(١) الحديث في «صحيح مسلم» (٦٥، ١٠١٥).

لكم الجنة بما قدمتم من صالح الأعمال.

قال تعالى: ﴿وَتِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [الزخرف: ٦٦].

وقال سبحانه: ﴿وَنُودُوا أَنْ تِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [الأعراف: ٤٣]

وقال أيضًا: ﴿تِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي نُورِثُ مِنْ عِبَادِنَا مَنْ كَانَ تَقِيًّا﴾ [مريم: ٦٣].

والله سبحانه قد أعد لعباده المتقين جنة عدن، وقال لهم: اعملوا في الدنيا، وهذا جزاؤكم يوم القيامة، وهذا الجزاء ليس واجبًا على الله سبحانه، فالله جل شأنه لا يجب عليه شيء، ولكن هذا محض فضل وكرم من الله جل شأنه.

ولهذا جاء في الصحيحين: عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «لن يُدْخَلَ أَحَدًا منكم الجنة عمله»، قالوا: ولا أنت يا رسول الله؟ قال: «ولا أنا إلا أن يتغمدني الله بفضل منه ورحمة»^(١).

وفي بشرى الملائكة للمؤمنين بدخول الجنة ونعيمها يقول تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَمُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ﴾ [٣٠] نَحْنُ أَوْلِيَائُكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهُ أَنْفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدْعُونَ﴾ [٣١] نَزَّلًا مِنْ غُفُورٍ رَحِيمٍ﴾ [فصلت: ٣١].

١- وقد أسند الله سبحانه الوفاة في الآية إلى الملائكة، فقال تعالى: ﴿الَّذِينَ تَوْفَّعَهُمُ الْمَلَائِكَةُ﴾؛ لأنهم أعوان لملك الموت في نزع الروح من الجسد إلى الحلقوم.

٢- وأسندت الوفاة إلى ملك الموت في قوله تعالى: ﴿قُلْ يَتُوفَّكُم مَّلَكُ الْمَوْتِ الَّذِي ذُكِّرَ بِكُمْ﴾ [السجدة: ١١]؛ لأنه المأمور بقبض الأرواح ينزعها من الإنسان إذا بلغت الحلقوم.

٣- وأسندها إلى نفسه سبحانه في قوله: ﴿اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنْفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا﴾ [الزمر: ٤٢]؛ لأنه لا يموت أحد إلا بإذن الله ومشيتته.

قال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَنْ تَمُوتَ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ كِنَبَأًا مُوجَلًّا﴾ [آل عمران: ١٤٥]

فهذه ثلاثة أحوال لقبض روح العبد، يكمل بعضها بعضًا، فالله تعالى هو الذي يتوفى

(١) «صحيح مسلم» برقم (٢٨١٦) و«صحيح البخاري» برقم (٥٦٧٣).

عباده، وملك الموت هو الموكل بقبض أرواحهم، وله أعوان يساعدونه.

مَتَى يُقْلَعُ الْمُذْنِبُونَ عَنْ ذُنُوبِهِمْ؟

٣٣- ﴿هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ^(١) تَأْتِيَهُمُ الْمَلَائِكَةُ أَوْ يَأْتِيَ أَمْرٌ رَبِّكَ كَذَلِكَ فَعَلَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَمَا ظَلَمَهُمُ اللَّهُ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٣٣﴾﴾

يتوعد القرآن الكريم مَنْ وصفوه بأنه حكايات قديمة، وأحكام لا تصلح للعصور الحديثة، ممن تكبروا على الله، وظلموا أنفسهم بعدم الإيمان به، وعدم الإيمان باليوم الآخر وما فيه من حساب وجزاء، وتوعدهم بسوء الخاتمة عند قبض أرواحهم، وتوعدهم بحلول العذاب بهم عندما يأتي أمر الله، فحالهم كحال المترقب لأحد أمرين: إما أن تأتي الملائكة لقبض أرواحهم، وإما أن يحل بهم عذاب الاستئصال الذي حلّ بالذين أتى الله بنيانهم من القواعد، وهكذا فهم مع ظهور دلائل صدق النبي ﷺ كحال من يترقب الموت أو الهلاك، كما قال تعالى: ﴿فَهَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا مِثْلَ آيَاتِ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِهِمْ قُلْ فَانظُرُوا إِلَيَّ مَعَكُمْ مِنَ الْمُنتَظِرِينَ ﴿١٢٢﴾﴾ [يونس] ويدخل في الوعيد المسوفون بالتوبة من المعاصي والذنوب.

ولهذا: يسأل القرآن الكريم، العصاة والمذنبين، ويسأل المشركين والكافرين في هذه الآية، إلى متى يظلون على عصيانهم وكفرهم وجحودهم؟ وماذا ينتظرون؟ هل ينتظرون بدون توبة إلى ساعة احتضارهم للموت، حين تأتي الملائكة لقبض أرواحهم، وهم على الكفر، فلا يكون ثمة عمل ولا توبة، ولا عودة إلى الدنيا.

هل ينتظرون نزول ملك من السماء يُصدق محمداً ﷺ كما طلب المكذبون السابقون .
أو هل ينتظرون قيام الساعة؟ فيحل بهم عقاب الله، أو يحل بهم عذابه في الدنيا، كما

(١) قرأ حمزة والكسائي وخلف بالياء على التذكير في (أن تأتيهم)، والباقون بياء التأنيث، وجاز تأنيث الفعل؛ لأن الفاعل مؤنث غير حقيقي.

حل بغيرهم من الأمم المكذبة.

﴿هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ تَأْتِيَهُمُ الْمَلَائِكَةُ لِقَبْضِ أَرْوَاحِهِمْ؟﴾ (أَوْ يَأْتِي أَمْرُ رَبِّكَ) بعذاب عاجل يهلكهم في الدنيا، كما جاء لمن قبلهم فأهلكهم؟ ففي هذا وعيد يتضمن قيام الساعة، أو عذاب الدنيا.

ويحتمل أن يكون المراد بأمر الله تعالى هو قيام الساعة، وما فيها من العذاب الأبدي لمن مات على الكفر.

فهم لا ينتظرون ولا يترقبون إلا أحد أمرين: إما الموت، وإما عذاب الاستئصال، ثم ذكر سبحانه وتعالى ما كان من أسلافهم من الأمم السابقة، فعاقبهم الله على كفرهم، ولم يكن هذا العقاب ظلماً من الله لهم، ولكنهم ظلموا أنفسهم بعبادة غير الله تعالى، مما جعلهم أهلاً للعقاب.

قال سبحانه: ﴿كَذَلِكَ فَعَلَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ﴾ أي: هل ينتظر المكذبون من عقاب الله إلا مثل السابقين الماضين، حيث تمادى غيرهم في معصية الله، فنزل بهم جزاؤه وعقابه، وما قسا عليهم ربهم، وما ظلمهم شيئاً، ولكنهم هم الذين قسوا على أنفسهم، وهم الذين ظلموها باكتساب الكفر والمعاصي والأعمال الخبيثة، وعدم العودة إلى الله سبحانه قبل أن يأتيهم الموت و قبل أن تقوم الساعة. قال تعالى:

٣٤- ﴿فَأَصَابَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا عَمِلُوا وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾ (٢٤)

لقد تمادى أهل الضلال في الكفر والجحود، حتى نزل بهم عذاب الله، وأحاط بهم من كل جانب، فأصابهم الجزاء والعقوبة نتيجة أعمالهم السيئة، فالمقدمات تأتي بالنتائج، قال تعالى: ﴿وَلَا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِ﴾ [فاطر: ٤٣] وقال: ﴿فَحَاقَ بِالَّذِينَ سَخِرُوا مِنْهُمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾ [الأنعام: ١٠] والذي حاق بهم هو العذاب الأليم في دركات جهنم، وسنة الله في خلقه لا تتخلف، لقد نزل بالمكذبين ما كانوا به يستهزئون، وأحاط

(١) قرأ أبو جعفر بحذف همزة (يستهزئون) مع ضم الزاي، وصلا ووقفاً، ولحمزة وقفاً ثلاثة أوجه:

١- التسهيل بين الهمزة والواو. ٢- الإبدال ياء مع كسر الزاي قبلها.

٣- حذف الهمزة وضم الزاي قبلها. وقرأ الباقر بكسر الزاي مع إثبات الهمزة، وكلها لهجات عربية.

بهم العذاب الذي كانوا يسخرون منه، ويقال لهم يوم القيامة:

﴿هَذِهِ النَّارُ الَّتِي كُنْتُمْ بِهَا تُكَذِّبُونَ﴾ [الطور].

فقد كانوا في الدنيا يسخرون من رسل الله حين يخبرونهم بالعذاب، فحل بهم ما سخروا منه.

التَّمَسُّحُ بِالْقَدَرِ جَدَلٌ كَاذِبٌ قَدِيمًا حَدِيثًا

٣٥- ﴿وَقَالَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا عَبَدْنَا مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ نَحْنُ وَلَا آبَاؤُنَا وَلَا حَرَمْنَا مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ كَذَلِكَ فَعَلَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَهَلْ عَلَى الرُّسُلِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ﴾ [٣٥]

في يوم القيامة يحتج المشركون على شركهم، بمشيئة الله تعالى، وأنه لو شاء الله ما أشركوا، ولا حرموا على أنفسهم ما أحله الله، وهذه حجة باطلة، ولو كانت حقا؛ ما عاقب الله المشركين على شركهم، فقد جعل الله للإنسان إرادة ومشيئة تصدر عنها أفعاله، فالاحتجاج بالقضاء والقدر من أبطل الباطل، لأنهم جمعوا بين تكذيب الله وتكذيب الرسل، وتكذيب الأمور العقلية والحسية:

أ- هذا: وبعض الكفار يُقرُّ بوجود الله تعالى، وأنه الخالق الرازق المدبِّر، وهذا الصنف من الناس كأنه يقول: نحن نعبد الأوثان؛ لتتقرب بها إلى الله سبحانه، ولو كان الله تعالى يكره ذلك لهدانا، أو أهلكنا.

ب- ومن الكفار الملحدين من لا يعتقد بوجود الله تعالى، وكأنه يقول: إن الله الذي تُثبتون وجوده، وتقولون: إنه يعلم حالنا، ويُقدِّرُ على تغييرها، لو كان يكره الكفر منا لغيَّره فينا.

ج- ومقترفو الذنوب في كل زمان ومكان يرتكبون الموبقات والمهلكات، ثم يقولون: هذه إرادة الله، الله هو الذي شاء ذلك، وهذا أمره وقضاؤه، ولو شاء لنا عدم فعلها لمنعنا منها، وما دام الأمر كذلك فلا ذنب لنا، ولماذا يعذبنا عليها؟

وهذه إحالة على القضاء والقدر، كأن العاصي يتنصل من الذنب، ويُحيله على قضاء الله وقدره.

وَمَنْ الَّذِي أَعْلَمَهُ بِمَا عِنْدَ اللَّهِ؟ وَقَدَّرُ اللَّهُ لَا يَطَّلِعُ عَلَيْهِ أَحَدٌ، وما هو مكتوب ومدوّن في اللوح المحفوظ، إنما هو في علم الله الغيبي، لا نعرفه، فكيف نحكم عليه؟ والله سبحانه قد أمرنا بالطاعات، ونهانا عن المعاصي.

فإذا وقع الإنسان في الذنب، أو في المعصية، أو الكفر والشرك، فإنه يكون قد اختار ذلك بنفسه، اختاره بحريته ومحض إرادته مخالفاً بذلك رسل الله، ومخالفاً هدي الله في كتابه.

إنهم يحتجون بالقدر، ويقولون: لو أراد الله لنا أن لا نعبد غيره لفعل، ولو أراد ألا نرتكب المعاصي لفعل، ولكنه أراد لنا ذلك ومكننا منه، ولو شاء منا الإيمان لحصل.

والجواب: إن الله سبحانه لا يرضى لعباده الكفر، وقد نهاهم عنه، وحذرهم منه، كما أنه سبحانه يرضى لهم الإيمان، وقد أمرهم به، يقول سبحانه رداً عليهم في آية مماثلة: ﴿كَذَلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ حَتَّىٰ ذَاقُوا بَأْسَنَا قُلْ هَلْ عِندَكُمْ مِّنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَا﴾ [الأنعام: ١٤٨] هل عندكم علم ومعرفة، بقدر الله وما يعلمه، فتظهره لنا؟ هذا إذا وقع الذنب من الإنسان فعلاً.

أما إذا لم يكن الذنب قد وقع بالفعل، فهو شيء في علم الغيب، ولا سبيل لإطلاع أحد عليه، ولا يقع في هذا الكون شيء يخالف إرادة الله تعالى، أو يخالف علم الله، فالله سبحانه علمه محيط بكل شيء، ولكنه جلّ شأنه لم يأمر بهذه المعصية أو تلك، ونهاك عنها أيها الإنسان، فأنت مسؤول عنها؛ لأن لك عقلاً وحرية واختياراً، إنهم يقولون: ﴿لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا عَبَدْنَا مِن دُونِهِ مِن شَيْءٍ نَّحْنُ وَلَا ءَابَاؤُنَا﴾ السابقون.

وفي آية أخرى يقولون: ﴿لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا وَلَا ءَابَاؤُنَا وَلَا حَرَمْنَا مِن شَيْءٍ﴾ [الأنعام: ١٤٨].

ويقول تعالى على لسانهم: ﴿وَقَالُوا لَوْ شَاءَ الرَّحْمَنُ مَا عَبَدْنَاهُمْ﴾ [الزخرف: ٢٠].

وكما تنصلوا من الشرك تنصلوا من التحريم والتحليل أيضاً، وألقوا بالتبعية على الله سبحانه، فقالوا: ﴿وَلَا حَرَمْنَا مِن دُونِهِ مِن شَيْءٍ﴾ أي: ولو شاء الله ما حرّمنا شيئاً لم يحرمه الله، إنهم حرّموا على أنفسهم ما أحل الله، حرّموا بعض الزروع والحرث، فقالوا: ﴿هَذِهِ أَمْعَالُ حَرِّثُ حَجَرٍ﴾ [الأنعام: ١٣٨] أي: أنها وقف على آلهتهم لا يقربها

أحد غيرهم ﴿وَجَعَلُوا لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ الْحَرْثِ وَالْأَنْعَامِ نَصِيبًا فَقَالُوا هَذَا لِلَّهِ بِرْغِمِهِمْ وَهَذَا لِسُرَكَائِنَا﴾ [الأنعام: ١٣٦]

كما حرموا البحيرة، والسائبة، والوصيلة، والحام، وغير ذلك، يقول سبحانه: ﴿كَذَلِكَ فَعَلُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ﴾ أي وبمثل هذا الاحتجاج الباطل احتج الكفار السابقون، وهم كاذبون في دعواهم، فإن الله تعالى أمرهم ونهاهم، ومكّنهم من القيام بما كلفهم به من الإيمان، وجعل لهم قوة وإرادة ومشئته، لقد قال السابقون مثل هذا القول: ورسل الله حُجّة عليهم جميعاً، كما قال تعالى: ﴿لَيْسَ يَكُونُ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ﴾ [النساء: ١٦٥]

والكتب المنزلة من السماء حُجّة عليهم؛ لتقطع ألسنة المشركين، والعصاة، والكفار، والمذنبين بعد البلاغ المبين، والرسول لا يُلَوّنُ أعناق البشر، ولا يجبرونهم على الهداية، فاحتجاجهم بالقضاء والقدر من أبطل الباطل، وبهذا قطع الله المحاجة معهم، وأعلمهم أن الرسل ما عليهم إلا البلاغ، وليس عليهم أن يكرهوهم على الإيمان.

والهداية على نوعين:

النوع الأول: هداية إرشاد ودلالة، وهذا هو طريق الرسل، والدعاة إلى الله بعدهم؛ إنهم يرشدون الناس إلى الخير، ويبلغون وحي الله تعالى إلى خلقه، ولكنهم لا يُجبرون الناس على شيء؛ إذ ليس على الرسل المنذرين لهم إلا التبليغ الواضح لِمَا كُلفوا به، كما قال تعالى: ﴿لَيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ﴾ [البقرة: ٢٧٢].

النوع الثاني: خَلَقَ الهَدَى في قلب العبد، وهذا النوع من الهداية خاص بالله تعالى وهو المراد في مثل قوله تعالى: ﴿لَيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ﴾ [القصص: ٥٦] وقوله: ﴿مَنْ يُضِلِلِ اللَّهُ فَلا هَادِيَ لَهُ﴾ [الأعراف: ١٨٦]

وقوله: ﴿وَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ فِتْنَتُهُ فَلَن تَمْلِكَ لَهُ مِنْ اللَّهِ شَيْئاً﴾ [المائدة: ٤١]

وكما في الآيتين التاليتين للآية التي نحن بصددتها.

وقد خلق الله الهدى والضلال كما خلق كل شيء في هذا الكون، وكما خلق الإنسان وجعله حراً مختاراً، مستعداً بفطرته أن يختار الإيمان والكفر، وقد بين الله سبحانه طريق

الحق وأمرنا به، كما بين طريق الضلال ونهانا عنه، ولم يجبر أحداً على طاعة أو معصية، والعقل الذي خلقه الله في الإنسان هو مناط التكليف، فمن يفتح قلبه للإيمان يهتد، ومن يحجب قلبه عنه يضلله الله.

كما قال تعالى: ﴿وَمَا يُضِلُّ بِهِ إِلَّا الْفَاسِقِينَ﴾ [البقرة: ٢٦]

وقال: ﴿وَقُلِ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيُكْفُرْ﴾ [الكهف: ٢٢]

وقال: ﴿إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا﴾ [الإنسان: ٢].

والآية تزيل شبهة من شبه المشركين، يحاولون من خلالها إفحام الرسول ﷺ فيقولون: إنه سبحانه قادر عليهم وعلى آلهتهم، وأنه لا يرضى أن يعبد سواه، ولو شاء لنا ألا نعبد الأصنام، وألا نحرم الحلال لفعل، وهم يظنون أنهم قد حاجوا النبي ﷺ بذلك وأفحموه، وهذا من باب المغالطة.

قال ابن تيمية في منهاج السنة: والاحتجاج بالقدر حجة باطلة داحضة باتفاق كل ذي عقل ودين من جميع العالمين، ولهذا لما قال المشركون: ﴿لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا وَلَا آبَاؤُنَا﴾ رد الله عليهم بقوله: ﴿قُلْ هَلْ عِنْدَكُمْ مِنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَا إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ أَنْتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ﴾ [الأنعام: ١٤٨]

والمشركون يعلمون بفطرتهم وعقولهم أن هذه الحجة باطلة، فإن أحدهم لو ظلم الآخر، فقال: لو شاء الله لم أفعل هذا، لم يقبل منه هذه الحجة، ولا يقبلها هو من غيره، وإنما يحتج بها المحتج دفعاً للوم عن نفسه بلا وجه.

الرُّسُلُ حُجَّةُ اللَّهِ عَلَى خَلْقِهِ لِإِقَامَةِ التَّوْحِيدِ وَنَبَذِ الشِّرْكِ

٣٦- ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ فَمِنْهُمْ مَنْ هَدَى اللَّهُ وَمِنْهُمْ مَنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلَالَةُ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ﴾

(١) قرأ أبو عمرو وعاصم وحزمة ويعقوب بكسر النون من (أن اعبدوا) وصلًا، والباقيون بالضم.

بعد أن أشار ﷺ في الآية السابقة إلى أن مهمة الرسل هي البلاغ المبين، أقام جلّ شأنه الحجة على خلقه بأن حكمته تعالى قد اقتضت أن يبعث في كل أمة رسولا بلسانهم، يأمرهم بعبادة الله تعالى وينهاهم عن عبادة غيره، فما من أمة متقدمة أو متأخرة إلا وبعث الله فيها رسولا، وكلهم متفقون على دعوة واحدة ودين واحد، وهو عبادة الله وحده لا شريك له.

ثم بيّن سبحانه موقف الأمم من الرسل، وأنهم كانوا على فريقين، فرقة استجابت لدعوة الرسل، وفرقة لم تستجب، فكان من كل أمة أقواما هداهم الله، فصدّقوا وآمنوا، ومنهم أقوام تمكنت منهم الضلالة فهلكوا، ومن سار في أرض الله رأى دلائل استئصال السابقين منهم.

مُهْمَةُ الرُّسُلِ: الْأَمْرُ بِالتَّوْحِيدِ وَالنَّهْيُ عَنِ الشِّرْكِ

ومهمة الرسل هي البلاغ، ولقد بعث الله -في كل أمة، وفي كل جيل- رسولا مهمته بالدرجة الأولى: يأمرهم بعبادة الله وحده، وينهاهم عن عبادة الطواغيت . وهذا هو معنى لا إله إلا الله، ففي لفظ (لا إله) نفي لكل ما يُعبد من دون الله، وفي لفظ (إلا الله) إثبات العبادة لله وحده .

وهكذا فإن لفظ (إلا الله) تساوي ﴿أَنْ أَعْبُدُوا اللَّهَ﴾، و (لا إله) تساوي ﴿أَجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾ فهي ذات شقين ﴿أَعْبُدُوا اللَّهَ وَأَجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾، كما قال خليل الرحمن ﴿إِنِّي بَرَاءٌ مِمَّا تَعْبُدُونَ ﴿٢١﴾ إِلَّا الَّذِي فَطَرَنِي فَإِنَّهُ سَيَهْدِينِ﴾ [الزخرف]

والبشر في كل أمة على نوعين: منهم أهل السعادة، ومنهم أهل الشقاء، منهم من هدى الله، ومنهم من حقت عليه الضلالة؛ لأنه تسبّب فيها، وقد حقت عليه كلمة الله بالعذاب، كما سبق في علمه جلّ شأنه، أنه يختار طريق الضلال والكفر بنفسه .

(١) ذكر هذا التعليل ابن عاشور في تفسيره (١٥٠/١٤).

وكلا الفريقين، من أهل الشقاء والسعادة، لم يخرج على مشيئة الله تعالى، ولم يجبر أيُّ منهما على الهدى أو الضلال، بل أرسل الله الرسل؛ لتبليغ الناس دعوة ربهم، فكان منهم من استجاب إليها ممن هدى الله، ومنهم من كفر بها ممن أضله الله، وكان عاقبة الصالحين أن دمرهم الله وأبادهم.

فإن كنتم في شك مما أخبرناكم به فسارعوا إلى التقلب في الأرض، وسيروا في أرجائها، وانظروا في كل جهة منها، انظروا في جهة الجنوب تجدوا آثار أهل الأحقاف، قوم عاد، وفي الشمال تجدوا آثار قوم ثمود، وفي جهة أخرى تجدوا آثار أهل مدين، وقوم لوط، وفرعون، وغيرهم، فامشوا في الأرض، وتأملوا بأعينكم كيف كان عاقبة الذين كذبوا رسل الله في كل أمة؟! وماذا حلَّ بهم من عذاب الاستئصال؟ وماذا حاق بهم من دمار؟ لتعتبروا بما حدث لهم، لقد دمرهم الله وأبادهم، وهذا عاقبة من خالف الرسل وكذب الحق ﴿وَلَقَدْ كَذَّبَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ﴾ [الملك].

والطاغوت: هو كل ما عُبد من دون الله من: وثن، أو صنم، أو بقر، أو قبر، أو شيطان، أو نبي، أو ولي، أو طاغية جبار؛ فكل رسول جاء يقول لقومه:

﴿اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَهِ غَيْرُهُ﴾ [الأعراف: ٦٥] منذ بدأت عبادة الأوثان في عهد نوح عليه السلام إلى بعثة محمد ﷺ.

كما قال تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ﴾ [الأنبياء].

وكما قال أيضاً: ﴿وَسَلِّ مَّنْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رُّسُلِنَا أَجَعَلْنَا مِن دُونِ الرَّحْمَنِ إِلَهَةً يَّعْبُدُونَ﴾ [الزخرف].

فكان منهم من آمن، ومنهم من كفر، كما قال تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ فَنُكِّمُ كَوْنَكُمْ كَافِرٌ وَمِنْكُمْ مُّؤْمِنٌ﴾ [التغابن: ٢].

وقال: ﴿فَمِنْهُمْ شَقِيٌّ وَسَعِيدٌ﴾ [هود: ١٠٥].

وقال: ﴿فَرِيقٌ فِي الْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِي السَّعِيرِ﴾ [الشورى: ٧].

اللَّهُ تَعَالَى يَعْلَمُ اخْتِيَارَ الْكَفَّارِ لِلْكَفْرِ قَبْلَ أَنْ يُخْلَقُوا

٣٧- ﴿إِنْ تَحَرَّصَ عَلَى هُدَاهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي^(١) مَنْ يُضِلُّ وَمَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ ﴿٣٧﴾﴾

أخبر الله رسوله بأن حرصه على هداية المُصِّرِّين على ضلالهم لن يغير من واقع أمرهم شيئاً، لقد كان النبي ﷺ حريصاً على هداية قومه، والله سبحانه يقول له: إن تبذل أقصى جهدك لهدايتهم ﴿فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ يُضِلُّ﴾، كما قال سبحانه: ﴿إِنَّ الَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٦﴾ وَلَوْ جَاءَتْهُمْ كُلُّ آيَةٍ حَتَّى يَرَوْا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ ﴿١٧﴾﴾ [يونس]. وقال نوح لقومه: ﴿وَلَا يَنْفَعُكُمْ نُصْحِي إِنْ أَرَدْتُ أَنْ أَصْحَ لَكُمْ إِنْ كَانَ اللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يُغْوِيَكُمْ﴾ [هود: ٣٤].

وهذه الهداية بمعنى: خلق الهدى في نفس العبد، وليست هداية الدلالة والإرشاد، والله سبحانه لا يهدي من أصر على الضلالة، ففسدت فطرته، وفسد استعدادة، قال تعالى: ﴿فَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ وَمَنْ يُرِدْ أَنْ يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصْعَقُ فِي السَّمَاءِ كَذَلِكَ يَجْعَلُ اللَّهُ الرِّجْسَ عَلَى الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٢٥﴾﴾ [الأنعام: ١٢٥] فضيق الصدر كان بسبب سوء اختياره، وعلم الله لا يتغير، وليس في مقدور أحد أن يغير ما أَرَادَهُ الله من الضلال والهدى بمقتضى ما علمه سبحانه عما يكون عليه العبد حين يصبح بشراً سوياً كما قال تعالى: ﴿وَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ فِتْنَتَهُ فَلَنْ تَمْلِكَ لَهُ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا﴾ [المائدة: ٤١].

وقال سبحانه: ﴿وَمَنْ يُضِلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ ﴿٣٦﴾ وَمَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ مُضِلٍّ﴾ [الزمر].

وقال جل شأنه: ﴿فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ﴾ [الصف: ٥].

فالضلال لأهل الضلال هم الذين اختاروه، فأَرَادَهُ الله لهم، وقدره عليهم، وكتبه في أم الكتاب قبل أن يوجد هذا المخلوق في الحياة، وهذا يعني انكشاف علم الله تعالى لما كان وما يكون، وأنه سبحانه قد علم اختيار أهل الكفر للكفر، رغم هداية الرسل وإنزال الكتب، فكتب ذلك في اللوح المحفوظ، كما علم سبحانه باختيار أهل الإيمان للإيمان،

(١) قرأ نافع وابن كثير وأبو عمرو وابن عامر وأبو جعفر ويعقوب ببناء (لا يهدي) للمفعول، بضم الباء وفتح الدال بعدها ألف، و (من) نائب فاعل، والباقون بالبناء للفاعل، و (من) مفعول به.

قبل أن يخلقهم، فسطر ذلك في اللوح المحفوظ.

ولذا: استحق كل أحد من الفريقين الجزاء المناسب له، وليس هناك ما يمنع أهل الضلال من النار، ولا من ينصرهم من عذاب الله يوم لقائه.

كُفِّرْ مُنْكَرِي الْبَعْثِ

٣٨- ﴿وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَا يَبْعَثُ اللَّهُ مَنْ يَمُوتُ بَلَى وَعَدًا عَلَيْهِ حَقًّا وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ (٢٨)

يقسم المكذبون بالله واليوم الآخر أيماناً مؤكدة، على أن الله تعالى لا يبعث الأموات، وأنه لا يقدر على إحيائهم بعد أن كانوا تراباً، والله تعالى يكذبهم ويقسم على أنه سيبعثهم ويجمعهم ليوم لا ريب فيه.

ومن أسباب النزول أنه كان لرجل من المسلمين على رجل من المشركين دين، فذهب إليه يتقاضاه ويطلب حقه، وبينما هو يحدثه قال له المسلم: والذي أرجوه بعد الموت، فقال له المشرك: أتزعم أنك ستبعث بعد الموت؟ وأقسم بالله إن الله لا يبعث من يموت^(١).

فنزلت هذه الآية، تشير إلى أن المكذبين بالبعث يحلفون أيماناً مغلظة أن الله تعالى لا يبعث من يموت، بعد أن بليَ عظمه، وتفرق جسده، وبهذا يقول العلمانيون، والملحدون، والكفرة، وما أكثرهم في بقاع الأرض! يزعمون أن الإنسان إذا مات، وتحللت أجزاؤه امتنع عودته بعد فنائه.

جاء في الصحيح عن أبي هريرة رضي الله عنه فيما يرويه النبي ﷺ عن ربه في الحديث القدسي أنه قال: «يشتمني ابن آدم وما ينبغي له أن يشتمني، ويكذبني وما ينبغي له، أما شتمه إياي فقلوه: إن لي ولداً، وأما تكذيبه فقلوه: ليس يعيدني كما بداني»^(٢).

وفي رواية: «كذبني ابن آدم ولم يكن له ذلك، وشتمني ولم يكن له ذلك، فأما تكذيبه إياي فقلوه: لن يعيدني كما بداني، وليس أول الخلق بأهون عليّ من إعادته، وأما شتمه

(١) يُنْظَرُ: «تفسير الطبري» (٧٣/١٤) و«زاد المسير» (٤٤٦/٤).

(٢) «صحيح البخاري» برقم (٣١٩٣) عن أبي هريرة وبرقم (٤٩٧٤، ٤٩٧٥).

إياي فقلوه: اتخذ الله ولداً، وأنا الأحد الصمد الذي ﴿لَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ﴾^(١) وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ ﴿٢﴾

إن بعضهم ينكرون البعث، مع إيمانهم بوجود الله تعالى؛ ولغفلتهم عن وجودهم من العدم، وغفلتهم عن حكمة البعث بعد الموت؛ حتى لا يستوي البر والفاجر، وأن الدنيا دار عمل، والآخرة دار جزاء.

وفي الحديث: عن أبي موسى رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «لا أحد أصبر على أذى يسمعه من الله ﷻ، إنه يُشْرِكُ به، ويُجْعَلُ له الولد، ثم يعافهم ويرزقهم»^(٢).

يقول سبحانه رداً على منكري البعث: ﴿بَلَىٰ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا﴾ سيبعثهم حتماً، فوعده حق، كما قال تعالى: ﴿زَعَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنْ لَنْ يُعْمَدُوا قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتُبْعَثُنَّ ثُمَّ لَتُنَبَّيَنَّ بِمَا عَمِلْتُمْ وَذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ﴾ [التغابن: ٧] إنهم غفلوا عن خلقهم الأول، ونسوا أن القادر على ابتداء خلقهم قادر من باب أولى على الإعادة، غفلوا عن قدرة الله سبحانه، وغفلوا عن الحكمة من البعث؛ لأنه ليس من الممكن أن تنتهي الدنيا هكذا، يموت الناس ثم لا يكون حساب ولا عقاب، ولا أخذ حق لمظلوم من ظالم، ولا استيفاء للناس في حقوقهم، فهل يستوي الطائع والعاصي، والبر والفاجر، والفاسق والمؤمن؟! لا يستويان.

وقد بين الله سبحانه الحكمة من البعث بعد الموت في قوله: ﴿لِيَجْزِيَ الَّذِينَ أَسْتَوُوا بِمَا عَمِلُوا وَيَجْزِيَ الَّذِينَ أَحْسَنُوا بِالْحُسْنَى﴾ [النجم: ٣١] فلا بد أن يكون هناك عدل، وحساب وجزاء، وقصاص من الظالم للمظلوم؛ فالذي ينكر البعث، يغفل عن حكمة إحياء الله تعالى للخلائق يوم القيامة، وأكثر الناس لا يعلمون قدرة الله تعالى على البعث، فينكروه، وهم يتوهمون أن سلامة الأجساد شرط لقبولها الحياة.

وفي الآية أمر عجيب حيث يعترف المشركون بوجود الله تعالى، ويعظمونه بالقسم به، ثم يثبتون له العجز عن بعث الأموات، وقد جاء إنكار الكفار للبعث في آيات كثيرة منها قوله تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَإِذَا كُنَّا تُرَابًا وَءَبَاؤُنَا إِنَّا لَمُخْرَجُونَ﴾ [النمل: ٢٧]

(١) حديث قدسي عن أبي هريرة في «صحيح البخاري» برقم (٤٩٧٤).

(٢) «صحيح مسلم» برقم (٢٨٠٤) وهذا لفظه والبخاري برقم (٦٠٩٩، ٧٣٧٨).

وقوله: ﴿وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَنْ يُعْطِي الْعِظَمَ وَهِيَ رَمِيمٌ ﴿٧٨﴾ قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنْشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ ﴿٧٩﴾﴾ [يس]

وقوله: ﴿وَقَالُوا إِذَا كُنَّا عِظَمًا وَرَفُنَا أَهْنَا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا ﴿٨٠﴾﴾ [الإسراء].

وقوله: ﴿يَقُولُونَ أَهْنَا لَمَرْدُودُونَ فِي الْحَافِرَةِ ﴿٨١﴾ أَإِذَا كُنَّا عِظَمًا نُخْرَجُ ﴿٨٢﴾ قَالُوا تِلْكَ إِذَا كَرِهَ خَاسِرَةٌ ﴿٨٣﴾ فَإِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ ﴿٨٤﴾ فَإِذَا هُمْ بِالسَّاهِرَةِ ﴿٨٥﴾﴾ [النازعات].

حِكْمَتَانِ لِلْبَعْثِ بَعْدَ الْمَوْتِ

٣٩- ﴿لَبِينَ لَهُمُ الَّذِي يُخْتَلَفُونَ فِيهِ وَلَيَعْلَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّهُمْ كَانُوا كَذِبِينَ ﴿٣٩﴾﴾

ثم بين ﷺ حكمتين من حكم البعث بعد الموت في هذه الآية القصيرة:

الحكمة الأولى: إظهار ما اختلف الناس فيه من أمر البعث، وأنه حقيقة.

الحكمة الثانية: إظهار كذب من أنكر البعث، واستهزأ به؛ وذلك أن الناس اختلفوا وهم في الدنيا في الحق والباطل، والشرك والتوحيد، والمعاصي والطاعات، فكان البعث لازماً؛ حتى يتبين لهم الحق من الضلال في هذا كله يوم القيامة، وليظهر كذب إنكار المنكرين لهذا اليوم، فيكون البعث حقيقة ماثلة أمام أعينهم، ليس في وسعهم إنكاره.

ويوم البعث تتجلى حقيقة هذا الاختلاف الذي كان في الدنيا، فيعلم المؤمن أنه كان على حق، ويعلم الكافر المنكر للبعث والنشور أنه كان على باطل، وأنه كاذب في قسَمِهِ أن لن يبعث الله أحداً بعد الموت، وذلك حين يرى عمله حسرات عليه، ويرى أن ما كان يعبد في الدنيا صار حطباً لجهنم.

وإذا كان يوم القيامة، فإن الزبانية تدفعهم دفعا إلى نار جهنم، ويقولون لهم: ﴿أَصْلَوْهَا فَاصْبِرُوا أَوْ لَا تَصْبِرُوا سَوَاءٌ عَلَيْكُمْ إِنَّمَا تُجْرُونَ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٤٠﴾﴾ [الطور].

إِيجَادُ اللَّهِ لِلْأَشْيَاءِ يَحْصُلُ بِمُجَرَّدِ تَوَجُّهِ الْإِرَادَةِ إِلَيْهِ

٤٠- ﴿إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَا أَرَدْنَاهُ أَنْ نَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ﴿٤٠﴾﴾

(١) قرأ ابن عامر والكسائي بنصب نون (فيكون)، والباقون برفعها.

وكل أمر-على الله تعالى- هين، والبعث بعد الموت شيء يسير؛ حيث يظهر مراد الله تعالى بمجرد توجه إرادته سبحانه إليه، فإذا هم قيام ينظرون، قال تعالى: ﴿وَمَا أَمْرُنَا إِلَّا وَجِدَةٌ كَلَمْحٍ بِالْبَصَرِ﴾ [القمر] وقال سبحانه: ﴿مَا خَلَقَكُمْ وَلَا بَعَثَكُمْ إِلَّا كَلَمْحٍ وَجِدَةٍ﴾ [لقمان: ٢٨] وقال أيضًا: ﴿وَمَا أَمْرُ السَّاعَةِ إِلَّا كَلَمْحِ الْبَصَرِ أَوْ هُوَ أَقْرَبُ﴾ [٧٧] إن قيام الساعة أقرب من لمح البصر، وبعث النفس الواحدة كبعث الناس جميعًا. وتكوين الشيء لا يتوقف إلا على تعلق إرادة الله تعالى بتكوينه، والبعث بعد الموت يتم حال توجه الإرادة الإلهية إليه، حيث يتم بإعادة الحياة إلى الأموات، وقوله تعالى: ﴿كُنْ﴾ تقريب للأذهان، ولا يتوقف إيجاد الله للأشياء عليها، فالله تعالى لا يعجزه شيء.

ثَوَابُ الْمُهَاجِرِينَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ

٤١- ﴿وَالَّذِينَ هَاجَرُوا فِي اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مَا ظَلَمُوا لَنُؤْتِيَنَّهُمْ^(١) فِي الدُّنْيَا^(٢) حَسَنَةً وَلَآخِرُ الْآخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾ [٤١]

أخبر سبحانه وتعالى أن الذين تركوا أوطانهم خوفًا على دينهم، أعد الله لهم ثوابًا في الدنيا بالرزق الواسع والعيش الهنيئ، وثوابًا في الآخرة في جنات النعيم.

وسورة النحل نزلت في آخر؛ الفترة المكية بعد الهجرة إلى الحبشة، وهذه الآية نزلت في المؤمنين بالله واليوم الآخر بعد الحديث عن الكافرين الذين أنكروا البعث والنشور، وهي تقرر صدق المؤمنين في إيمانهم بالبعث بعد أن قررت الآيات قبلها كذب الكافرين في إنكارهم له.

وهذه الآية نزلت في أصحاب رسول الله ﷺ الذين أودوا في مكة وهاجروا إلى الحبشة، ومن الحبشة رجع بعضهم إلى المدينة، فهم قد هاجروا هجرتين: هجرة إلى

(١) قرأ أبو جعفر بإبدال الهمزة ياء من (لنؤتيهم) وصلًا ووقفًا، وكذا حمزة عند الوقف.

(٢) أمال ألف (الدنيا) حمزة والكسائي وخلف، ولدوري أبي عمرو الفتح والإمالة، وقللها الأزرق بخلفه حيث وقعت، وفتحها الباقون.

الحبشة، وظلوا فيها حتى هاجر النبي ﷺ وأصحابه إلى المدينة، فنزلوا على المدينة، ولم يعودوا إلى مكة.

وكانت هذه الهجرة لنحو ثمانين رجلاً وامرأة، منهم: عثمان بن عفان ؓ وزوجته رقية بنت رسول الله ﷺ، ومنهم جعفر بن أبي طالب ابن عم النبي ﷺ الذي وقف خطيباً أمام النجاشي يعلمه مبادئ الإسلام، ومنهم أبو سلمة، وغيرهم.

ومن هؤلاء العائدين من الحبشة إلى المدينة أسماء بنت عميس، وكان عمر ؓ ممن هاجر من مكة إلى المدينة، فدخل على ابنته حفصة، وكانت أسماء بنت عميس عندها، فقال لها عمر ؓ: سبقناكم بالهجرة، أي: جئنا قبلكم من مكة إلى المدينة، قبل أن تصلوا إليها من الحبشة، فنحن أحق برسول الله منكم.

فغضبت أسماء، لا شيء مادي أو دنيوي؛ إنما غضبت لأنه كيف يكون المهاجرون من مكة أحق برسول الله ﷺ ممن عاد إلى المدينة من الحبشة؟ قالت: لقد كنتم عند رسول الله، وكنا في أرض الغربة والبغضاء، وكنتم عند رسول الله يُطعم جائعكم، وَيَعْظُم جاهلكم، واللّه لا أَطْعَمُ طعاماً، ولا أَشْرَبُ شرباً حتى أذكر ذلك لرسول الله ﷺ، وذُهِبَت أسماء تسأل النبي ﷺ عن ذلك، فقال ﷺ: «لا، ليس عُمَرُ بأحق من رسول الله منكم، إن للذين هاجروا من مكة إلى المدينة هجرة واحدة، ولكم يا أهل السفينة - وكانوا قد قدموا إلى المدينة في سفينة - هجرتان»^(١) وفيهم أنزل الله تعالى هذه الآية.

وقال قتادة: هم أصحاب رسول الله ﷺ ظلمهم أهل مكة، فأخرجوهم من ديارهم حتى لحق منهم طائفة بالحبشة، ثم بوأهم الله المدينة بعد ذلك، فجعلها لهم دار هجرة، فهاجروا إليها، وجعل لهم أنصاراً من المؤمنين، فأووهم ونصروهم وواسوهم ﴿وَالَّذِينَ هَاجَرُوا فِي اللَّهِ﴾ ففارقوا ديارهم ﴿مِنْ بَعْدِ مَا ظَلَمُوا﴾ أي: أودوا في مكة وعُذِّبوا، ومنهم ضعفاء المسلمين، ﴿لِنُؤْتِيَهُمْ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً﴾ ننزلهم منزلة حسنة في الدنيا، وقد فُسِّرَ ذلك بإقامتهم في المدينة، ومجاورتهم لرسول الله ﷺ، والمنزلة الحسنة في الدنيا تشمل كل شيء حسن.

(١) القصة في «صحيح مسلم» برقم (٢٥٠٣) وانظر: «صحيح البخاري» (٣١٣٦، ٣٨٧٦، ٤٢٣٣).

وصاحب السعادة في الدنيا ليس بالضرورة أن يكون ثريًا ، فكم من ثريٍّ تيس ، وكم من غنيٍّ شقي ، وكم من فقير سعيد ، فالسعادة ليست في الأموال ، ولا في المتاع ، ولا في النساء ولا في الأولاد ، إنما هي في الرضى والتقوى والإيمان .

والمعنى : هؤلاء المهاجرون وأمثالهم لنبوئهم في الدنيا صحة وأمنًا ، واستقرارًا وقناعة ورضى ، وهذا هو المهم : القناعة ، والرضى .

قالوا : كان عمر بعد نزول هذه الآية إذا أعطى أحد المهاجرين عطاءً يقول له : خذ بارك الله لك فيه ، هذا ما وعدك الله في الدنيا ، وما ادخر لك في الآخرة أفضل ، ثم يقرأ الآية^(١) .

ومع أن الآية عامة في كل مَنْ أُوذِيَ وَعُذِّبَ في الله تعالى إلى يوم القيامة ، فقد ذكر ابن الجوزي وغيره أنها نزلت في ستة من أصحاب رسول الله ﷺ هم : بلال ، وعمار ، وصُهَيْب ، وخبَّاب ، وعائش ، وجبر مؤليان لقريش ، أخذهم أهل مكة ، فجعلوا يعذبونهم ؛ ليردوهم عن الإسلام ، وهم المستضعفون .

فأما بلال فكان أصحابه يُخرجونه إلى بطحاء مكة في شدة الحر ويشدونه ، ويجعلون على صدره الحجارة ، وهو يقول : أحد أحد ، فاشتراه منهم أبو بكر الصديق ؓ وأعتقه ، واشترى معه ستة آخرين .

وأما صهيب فقال لهم : إني رجل كبير ، إن كنت معكم فلن أنفعكم ، وإن كنت عليكم فلن أضركم ، فاشترى نفسه بماله ، فباعوه منه ، فمرَّ به أبو بكر الصديق ، فقال : يا صهيب ربح البيع ، وأما باقيهم ، فأعطوهم بعض ما يريدون منهم .

وقوله تعالى : ﴿ هَاجِرُوا فِي اللَّهِ ﴾ كقوله ﷺ في حديث عمر ؓ : « فمن كانت هجرته إلى الله ورسوله فهجرته إلى الله ورسوله »^(٢) أي : أن الهجرة لا بد أن تكون بنية خالصة لله تعالى ، وإلا كانت مجرد انتقال من بلد إلى بلد لا فضل فيها .

والذين خسروا ديارهم في الدنيا بسبب الهجرة ، ينزلهم الله فيها منزلة حسنة ، فيفتح لهم البلاد ، ويؤمّنهم في ديارهم ، ويعوضهم في الآخرة خيرًا مما فقدوا في دنياهم ﴿ وَلَا جَرْءُ

(١) «تفسير الطبري» (١٤/٧٤) .

(٢) في البخاري (٥٤) ومسلم (١٩٠٧) .

الْآخِرَةَ أَكْبَرُ ﴿١﴾. وقد ذكر القرطبي في المراد بحسنة الدنيا ستة أشياء هي:

١- نزول المدينة. ٢- الرزق الحسن. ٣- النصر على العدو.

٤- لسان صدق. ٥- ما استولوا عليه من البلاد.

٦- ما بقي لهم في الدنيا من ثناء، وما صار فيها من الشرف.

وكل ذلك قد اجتمع لهم بفضل الله تعالى.

وهذا كقوله تعالى: ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ وَلِلَّذِينَ الْآخِرَةُ خَيْرٌ وَلَنِعْمَ دَارُ الْمُتَّقِينَ﴾ [٣٠].

وقوله: ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ وَأَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةٌ إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [الزمر: ١٠].

وفي ثواب هؤلاء المهاجرين يقول تعالى ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ أَتَعْظُمُ دَرَجَةً عِنْدَ اللَّهِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ﴾ ﴿٢١﴾ يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُمْ بِرَحْمَةٍ مِنْهُ وَرِضْوَانٍ وَجَنَّتْ لَهُمْ فِيهَا نَيْمَةٌ مُّقِيمَةٌ ﴿٢٢﴾ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ [التوبة]

ولو علم المتخلفون عن الهجرة أن ما عند الله للمهاجرين في سبيله من الثواب والأجر خير وأعظم من الدنيا وما فيها ما تخلف منهم أحد عن غزوة في سبيل الله، ذلكم قوله تعالى: ﴿لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾ فلا يحزن المهاجرون على مفارقة ديارهم؛ فالأجر أعظم، والمنزلة أسمى.

وفي الآية بيان لمنزلة الذين آمنوا، وهم أحد الفريقين الذين اختلفوا في اختيار الهدى والضلال، فاختاروا طريق الإيمان والرشاد، وهذا توضيح لقوله تعالى: ﴿لِيُبَيِّنَ لَهُمُ الَّذِي يُخْتَلَفُونَ فِيهِ﴾ في الآية قبل السابقة.

ومجمل معنى الآية: والذين تركوا أوطانهم، وأموالهم، وأهلهم من أجل رضا الله تعالى، وإعلاء كلمته، ونصرة دينه، فهاجروا في سبيل الله، بعد أن تحملوا الكثير من الأذى، لنسكنتهم في الدنيا مساكن حسنة يرضونها، ونعطيهم عطاء يسعدهم في حياتهم، وننصرهم على أعدائهم، وندخل السرور والطمأنينة على نفوسهم، ونجزل لهم الأجر والمثوبة في الآخرة بدخولهم الجنة، وحلول الرضوان عليهم.

ولو يعلم التاركون للجهاد، المفرطون فيه، علم اليقين ما أعدّه الله للمجاهدين في سبيله ما تخلف منهم أحد عنه .

ولو يعلم الكافرون سوء مصيرهم لأقلعوا عن كفرهم، ورجعوا إلى ربهم . قال تعالى :

٤٢- ﴿الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾

ثم وصف الله سبحانه المهاجرين في سبيله بوصفين في هذه الآية هما : الصبر، والتوكل؛ فهم قد صبروا على ما أصابهم من : أذى، وظلم، وعدوان، وتوكلوا على ربهم، فسافروا وانتقلوا من ديارهم، وفوضوا الأمر إليه سبحانه، واعتمدوا على الله في السراء والضراء، والعسر واليسر، والمنشط والمكره، وتوجهوا إليه في هجرتهم، فهجروا الأوطان، وفارقوا الإخوان .

لقد صبر المهاجرون في سبيل الله على أوامر الله ﷻ، وعلى ترك نواهيه سبحانه، وصبروا على أقدار الله المؤلمة، وعلى ما نزل بهم من المحن والضّر، ومن الأذى والعذاب، وصبروا على مفارقة الوطن، وعلى الجهاد في سبيل الله، وعلى بذل الأنفس والأموال في الجهاد، وصبروا على ترك الشهوات والمحرمات، فاستحقوا هذه المنزلة العالية، وأحسن الله عاقبتهم في الدنيا والآخرة .

الرَّسُولُ بَشَّرَ يُوحَىٰ إِلَيْهِ

٤٣، ٤٤- ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلَّا رَجُلًا نُوحِيَ^(١) إِلَيْهِمْ فَهُمْ فَعَلُوا^(٢) أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ

﴿بِالْبَيِّنَاتِ وَالزَّبْرِ وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ^(٣) وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾

هذه الآية ونظيراتها رد على من استبعد أن يكون الرسول بشراً، والاستشهاد بأحبار أهل الكتاب ورهبانهم على أن الرسول بشر يوحى إليه؛ كي يخبروا المكذبين أن الرسل يكونون

(١) قرأ حفص بالنون وكسر الحاء في (نوحى) مبنياً للفاعل، والفاعل ضمير مستتر، وقرأ الباقون بالياء وفتح الحاء مبنياً للمفعول، وإليه نائب فاعل .

(٢) قرأ ابن كثير والكسائي وخلف بنقل حركة السين إلى الساكن قبلها من (فاسألوا) هكذا (فسلوا)، والباقون بسكون السين وإثبات الهمزة .

(٣) قرأ حمزة ويعقوب بضم الهاء من (إليه)، والباقون بكسرها .

من البشر، فأخبارهم حجة عليهم؛ لأنهم يصدقونهم، ولا يتهمونهم في شهادتهم، والفضل ما شهدت به الأعداء، مع أن الحق واضح بنفسه، ونحن لا نفتقر إلى شهادتهم في شيء، وقديماً كان المشركون في مكة يسألون يهود المدينة، ويستندون إليهم في شهادتهم.

ورد أن الآية نزلت في مشركي مكة؛ أنكروا نبوة محمد ﷺ، وقالوا: الله أعظم من أن يكون الرسول بشراً، فهلاً بعث إلينا ملكاً؟^(١).

ولفظ الذكر يطلق على القرآن؛ فأهل الذكر في الأصل هم أهل القرآن، ويراد به في هذه الآية: علماء أهل الكتاب.

لقد كذب المشركون برسالة النبي ﷺ، كما مرّ في الآيات السابقة من تكذيبهم للقرآن؛ حيث: ﴿قَالُوا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ﴾ [النحل: ٢٤].

وأنكر المشركون أن يكون الرسول رجلاً من البشر فقالوا: ﴿أَبَعَثَ اللَّهُ بَشَرًا رَسُولًا﴾ [إسراء: ٩٤].

وتعجبوا من كون الرسول بشراً، فقالوا: ﴿أَهَذَا الَّذِي بَعَثَ اللَّهُ رَسُولًا﴾ [الفرقان: ٤١].

وقال تعالى: ﴿أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَا إِلَى رَجُلٍ مِّنْهُمْ أَنْ أَنْذِرِ النَّاسَ وَبَشِّرِ الَّذِينَ ءَامَنُوا أَنَّ لَهُمْ قَدَمٌ صِدْقٍ عِنْدَ رَبِّهِمْ﴾ [يونس: ٢].

وقال سبحانه: ﴿فَقَالُوا أَبَشَرٌ يَهْدُونَنَا﴾ [التغابن: ٦].

وقال أيضاً: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَيَمْشُونَ فِي الْأَسْوَاقِ﴾ [الفرقان: ٢٠].

وهذه الشبهة ليست خاصة بمحمد ﷺ، بل قالها كل قوم لرسولهم:

قالها قوم نوح عليه السلام: ﴿فَقَالَ الْمَلَأُوا الَّذِينَ كَفَرُوا مِن قَوْمِهِ مَا هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُرِيدُ أَنْ يَفْضَلَ عَلَيْكُمْ﴾ [المؤمنون: ٢٤].

وقالها قوم هود عليه السلام: ﴿مَا هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يَأْكُلُ مِمَّا تَأْكُلُونَ مِنْهُ وَيَشْرَبُ مِمَّا تَشْرَبُونَ﴾ [المؤمنون: ٣٣] وكانوا يقولون عنه: ﴿وَلَيْنَ أَطْعَمَهُ بَشَرًا مِّثْلَكُمْ إِنَّكُمْ إِذَا لَخَسِرُونَ﴾ [٢٦] [المؤمنون].

(١) «تفسير الطبري» (٧٣/١٤) و«زاد المسير» (٤/٤٤٦).

وهكذا كل أمة قالت عن رسولها: ﴿قَالُوا إِنْ أَنْتَ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا تُرِيدُونَ أَنْ تَصُدُّونَا عَمَّا كَانَتْ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا﴾ [إبراهيم: ١٠].

وقد ظن المشركون أن الوساطة بين الله وخلقه لا يكون بشرًا، وإنما يكون ملكًا فطلبوا ذلك ﴿وَقَالُوا لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ﴾ [الأنعام: ٨]

وقالوا أيضًا: ﴿لَوْلَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُتُبُ مَعَهُ نَذِيرًا﴾ [الفرقان: ٧].

وفي هذه الآية يرد الله تعالى على هذه الشبهة، فيقول لرسوله ﷺ: لست وحدك الذي أُرسلت من البشر، بل حدث هذا في شأن الرسل جميعًا، أرسلنا رجالًا، ولم نرسل ملائكة، ولم نرسل نساء، ولم نرسل جنًا ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُوْحِيْ إِلَيْهِمْ﴾ [يوسف: ١٠٩] وإن كنتم - أيها المكذبون - في شك من ذلك فاسألوا من سبقكم من أهل الكتب السابقة: التوراة، والإنجيل، اسألوا من لا تتهمونهم ممن لهم معرفة بالرسل السابقين، وبأخبارهم، وبأحوالهم؛ فإنهم قد كانوا جميعًا رجالًا من البشر، فإن كنتم لا تعلمون ذلك فاسألوهم.

وليس المراد حقيقة سؤال أهل الكتاب، إنما المراد تأكيد ما بعد السؤال، وهو أن الله تعالى لم يرسل إلى البشر إلا رجالًا، وأنهم بشر يوحى إليهم، إذ لا يسوغ أن يسأل النبي ﷺ من سبقه من الأموات الذين سبقوه بالرسالة.

والآية عامة في كل مسألة من مسائل الدين، إن لم يكن عند الإنسان علم بها، فليسأل الراسخين في العلم من العلماء، فلا ينبغي لعالم أن يسكت على علمه، ولا ينبغي لجاهل أن يسكت على جهله، قال تعالى:

وقد أرسلنا الرسل السابقين قبلك - أيها الرسول - مؤيدين بالدلائل الواضحة، والبراهين القاطعة، والكتب السماوية المشتملة على التشريعات الحكيمة، والعقائد الصحيحة، والآداب الحميدة، وأنزلنا إليك - يا رسولنا - القرآن؛ لتوضح للناس ما خفي عليهم من معانيه، وأحكامه، وآدابه؛ لكي يتدبروه، ويهتدوا بهديه، ويعملوا بمقتضاه.

والبينات: هي المعجزات، والأدلة العقلية على صدق الرسل سيمًا من ليس لهم كتب، كرسول أهل الرس: حنظلة بن صفوان، ورسول عبس: خالد بن سنان، ولم يذكر الله لنوح ﷺ كتابًا.

والزبور: هي الكتب، والصحف، والألواح، وما كتبه الحواريون عن عيسى عليه السلام، وزبور داود عليه السلام، أي: أرسلنا الرسل جميعًا بالحجج والمعجزات القاطعة الدالة على صدقهم، قال تعالى: ﴿وَكُلُّ شَيْءٍ فَعَلُوهُ فِي الزُّبُرِ﴾ [القمر] وهذا معنى ﴿وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ﴾ يا خاتم النبیین ﴿الذِّكْرَ﴾ وهو القرآن؛ ﴿لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ﴾ أحكامه، وأخباره، ومواعظه، ولتبين لأهل الكتب السابقة ما اختلفوا فيه من عقائد، وتشريع، والآية اشتملت على أمرين:

الأمر الأول: أن السنة تشرح القرآن، وتوضحه، وتبين للناس ما اختلفوا فيه مما اشتبه عليهم.

الأمر الآخر: التفكير في آيات القرآن، والعمل بها، لعلهم يعتبرون، ويتفكرون، ويتعظون فيرجعون إلى الله سبحانه.

قال حذيفة: لقد خطبنا النبي ﷺ خطبة ما ترك فيها شيئًا إلى قيام الساعة إلا ذكره، علمه من علمه، وجهله من جهله، إن كنت لأرى الشيء قد نسيْتُ، فأعرف ما يعرف الرجل إذا غاب عنه فرآه نعرفه^(١).

أي: كما يذكر الرجل وجه الرجل إذا غاب عنه، ثم إذا رآه عرفه، وكما يرى الشيء الذي نسيه فإذا رآه عرفه.

وسمّي القرآن ذِكْرًا؛ لأنه يُذكر، أي: يتلى ويكرر، قال تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُمُ الْحَافِظُونَ﴾ [الحجر]

فالذكر: هو القرآن الذي جاء به محمد ﷺ، وفيه التذكير بالله واليوم الآخر، وقد عرف هذا المعنى غير المسلمين فأطلقوه على القرآن، كما قال تعالى حكاية عنهم: ﴿وَقَالُوا يَتَّبِعُهَا الَّذِي نَزَلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ﴾ [الحجر].

وجاء ذكر القرآن بعد الزبور إشارة إلى أن القرآن معجزة وشرع، وهذه مزية لا يشاركه فيها غيره، وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزُّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرْثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ﴾ [الأنبياء] وقال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ يُتْلَى عَلَيْهِمْ﴾ [العنكبوت: ٥١].

وقال ﷺ في حديث أبي هريرة ؓ: «ما من الأنبياء نبي إلا أُعطي ما مثله آمن عليه البشر،

(١) البخاري (٦٦٠٤) ومسلم (٢٨٩١).

وإنما كان الذي أوتيت وحياً أوحاه الله إليّ، فأرجو أن أكون أكثرهم تابِعاً يوم القيامة»^(١).

والآية تقرر أن الرسول بشر يوحى إليه كشأن الرسل السابقين، وإن شك أحد في ذلك فإن أهل العلم بذلك ممن نزلت عليهم الكتب السابقة قد تقرر عندهم أن الله تعالى ما بعث إلا رجالاً يوحى إليهم، فهو أمر معلوم وثابت في جميع الشرائع لا يحتاج إلى دليل، وقد أنزل الله القرآن على محمد ﷺ ليوضح للناس أمور دينهم ودنياهم.

حِلْمُ اللَّهِ تَعَالَى وَإِنْظَارُهُ لِلْكَفَّارِ وَالْعُصَاةِ

٤٥ - ٤٧ ﴿أَفَأَمِنَ الَّذِينَ مَكَرُوا السَّيِّئَاتِ أَنْ يَخِفَ اللَّهُ بِهِمْ^(٢) الْأَرْضَ أَوْ يَأْتِيَهُمُ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ^(٣) أَوْ يَأْخُذَهُمْ فِي تَقْلِبِهِمْ فَمَا هُمْ بِمُعْجِزِينَ^(٤) أَوْ يَأْخُذَهُمْ عَلَى تَخَوُّفٍ فَإِنَّ رَبَّكُمْ لَرَؤُوفٌ^(٥) رَحِيمٌ^(٦)﴾
بعد أن توعد الله تعالى منكري البعث، ومدبري المكاييد للدعوة الإسلامية، بعذاب يوم القيامة، توعدهم في هذه الآية بعذاب الدنيا، وهو تهديد ووعد يشمل كل من بقي على حاله السيئ يدبر المكاييد للإسلام وأهله:

١- وذلك أن من الناس من هو مُصِرٌّ على الكفر، والشرك، والإلحاد.

٢- ومنهم من يبيت العداوة للإسلام، ويدبر المكاييد للنيل منه، وصد الناس عنه، وصرفهم عن الإيمان بالرسول الخاتم.

٣- ومن الناس من هو مُصِرٌّ على الموبقات، والمنكرات، والمعاصي، والسيئات، وهكذا، أنواع من الناس مختلفة.

فالمكر هو السعي بالفساد سرّاً، والسيئات لفظ عام يشمل: الكفر، والظلم، والإلحاد، والنفاق، ويشمل كبائر الذنوب، ويشمل من يؤذون رسول الله ﷺ حياً، أو ميتاً، وكذا

(١) من حديث أبي هريرة ؓ في «صحيح البخاري» برقم (٤٩٨١) و«صحيح مسلم» برقم (١٥٢).

(٢) قرأ أبو عمرو ويعقوب بكسر الهاء والميم من (بهم الأرض)، وقرأ بضمهما حمزة والكسائي وخلف، والباقون بكسر الهاء وضم الميم.

(٣) قرأ نافع وابن كثير وابن عامر وحفص وأبو جعفر بحذف الواو المدية من (لرؤوف) هكذا (لرءف)، والباقون يثبتونها.

من يؤذون أصحاب رسول الله ﷺ في حياتهم، أو بعد مماتهم، ومن يتعرضون للقرآن بالاستهزاء، أو السخرية، أو النيل منه بوجه من الوجوه.

والله ﷻ يحذر هؤلاء جميعاً أنهم لا يأمنون مكر الله ﷻ، وينكر عليهم أن يكونوا في مأمن من عذابه سبحانه.

خمس حالات لتوقع نزول العذاب بمن يمكرون السيئات:

والمعنى: أفأمن المدبرون للمكايد؛ لإطفاء نور الله تعالى، أن يعاقبهم الله، فيأخذهم العذاب من فوقهم، كما قال تعالى ﴿قُلْ هُوَ الْقَادِرُ عَلَىٰ أَنْ يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِّنْ فَوْقِكُمْ﴾ [الأنعام: ٦٥] هذه هي الحالة الأولى.

والحالة الثانية: أن يأتيهم العذاب من تحت أرجلهم بالخسف والزلازل والبراكين، أو يخسف بهم الأرض كما خسف بقارون، قال تعالى: ﴿فَخَسَفْنَا بِهِ وَبِدَارِهِ الْأَرْضَ﴾ [القصص: ٨١] وفي سورة الأنعام ٦٥ ﴿أَوْ مِنْ تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ﴾.

والحالة الثالثة: أو يأتيهم عذاب الله من مكان لا يحسونه ولا يشعرون به، وهم في غفلة لا يعلمون مصدر العذاب، ولا يتوقعون نزوله بهم، كما نزل بقوم لوط، قال تعالى عن يهود بني النضير: ﴿فَأَنذَرْتَهُمْ اللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا﴾ [الحشر: ٢]

وقال سبحانه عن قوم عاد: ﴿فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضًا مُّسْتَقْبِلَ أَوْدِيَّتِهِمْ قَالُوا هَذَا عَارِضٌ مُّطَرٌ﴾ [الأحقاف: ٢٤].

فهذه ثلاث حالات من التخوف، أن يأتيهم العذاب من فوقهم، أو من تحت أرجلهم، أو من حيث لا يتوقعون، وهذا معنى: ﴿أَنْ يَخِيفَ اللَّهُ بِهِمُ الْأَرْضَ أَوْ يَأْتِيَهُمُ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ﴾ وليسوا بمعجزين الله تعالى في حالة منها.

والحالة الرابعة: ﴿أَوْ يَأْخُذُهُمْ فِي تَقْلِبِهِمْ﴾

أويأخذهم العذاب في تقلبهم وتنقلهم في تجارتهم وحركتهم وسكونهم؛ فالله سبحانه قادر على أن يعذبهم في أسفارهم وفي إقامتهم، في ذهابهم ومجيئهم، في تنقلاتهم وهم يبحثون عن سبل عيشهم، وفي بيعهم وشرائهم، بل وفي تقلبهم في فرشهم، بحيث يأتيهم العذاب ليلاً أو نهاراً، وفي كل هذه الأحوال إنهم لا يعجزون الله سبحانه، فهو القوي القادر الذي لا يغلبه شيء، ولا يستعصي عليه أمر، قال تعالى: ﴿لَا يَغُرُّكَ تَقَلُّبُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي الْبِلَادِ﴾ (١٦٦) ﴿مَتَّعٌ قَلِيلٌ ثُمَّ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمِهَادُ﴾ (١٧٧) [آل عمران] فهم في

قبضته تعالى وتحت تصرفه وقهره .

الحالة الخامسة من توقع العذاب بالمكذبين ﴿أَوْ يَأْخُذُهُمْ عَلَى تَخَوُّفٍ﴾

إن الذين مكروا السيئات لن يأمنوا أن ينزل بهم عذاب الله وعقابه، وهم في حالة ذعر، ورعب، وتخوف مما ينزل بهم من الأعاصير المدمرة فينتقصهم واحداً بعد واحد، أو جماعة بعد جماعة، أو أمة بعد أمة، وينتقص أموالهم وأنفسهم وزروعهم وثمارهم، ولكن رحمة الله واسعة، وفضله كبير، فهو جل شأنه لا يعاجل الناس بالعقوبة، وإنما يمهلهم ولا يهملهم، بل يعطيهم الفرصة، ويمد لهم في الأجل، ويفتح لهم أبواب التوبة.

عن أبي موسى رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «إن الله ليملي للظالم حتى إذا أخذه لم يفلته»، ثم قرأ ﷻ: ﴿وَكَذَلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَىٰ وَهِيَ ظَالِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُ أَلَمٌ شَدِيدٌ﴾ ﴿١٢٦﴾ ﴿١﴾ [هود].

وقد يأتيهم هذا العذاب صباحاً أو مساءً أو ضحى أو في جوف الليل وهم نيام في حلهم وترحالهم وتنقلهم واستقرارهم، يأتيهم في صور متعددة ومتنوعة أكثر من أن تحصى، كأن يرسل الله عليهم حاصباً من السماء، أو أمراضاً وآفات وأوبئة مختلفة أو حوادث جوية وبحرية وبرية، أو يذيق بعضهم بأس بعض...

والآيات في هذا المعنى كثيرة، منها قوله جل شأنه: ﴿مَنْ آمَنُكُمْ مِنْ فِي السَّمَاءِ أَنْ يَخِفَّ بِكُمْ الْأَرْضُ فَإِذَا هِيَ تَمُورُ﴾ ﴿١١﴾ أَمْ آمَنُكُمْ مِنْ فِي السَّمَاءِ أَنْ يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا فَسَتَعْلَمُونَ كَيْفَ نَذِيرِ ﴿٧﴾ وَلَقَدْ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَاعْتَبَرُوا بِهِمْ وَتَأْمَلُوا ﴿فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ﴾ [المُلْك: ١٦ - ١٨].

وفي قوله: ﴿أَفَأَمِنْ أَهْلُ الْقُرَىٰ أَنْ يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنَا بَيِّنًا وَهُمْ نَائِمُونَ﴾ ﴿٩٧﴾ [الأعراف]

أي: في فراشهم يتقلبون، والقرى في القرآن: هي المدن الكبرى، والأمصار.

﴿أَوْ آمِنْ أَهْلُ الْقُرَىٰ أَنْ يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنَا ضُحًى وَهُمْ يُلْعَبُونَ﴾ ﴿٩٨﴾ [الأعراف] في وقت

الضحى وهم في أعمالهم ومعاشهم، وفي أسفارهم وتنقلاتهم.

﴿أَفَأَمِنُوا مَكْرَ اللَّهِ فَلَا يَأْمُنُ مَكْرَ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ﴾ ﴿٩٩﴾ [الأعراف].

وختمت هذه الآيات الثلاث ببيان فضل الله تعالى، وسعة رحمته بعباده، فهو جل شأنه رؤوف بخلقه، رحيم بهم، لا يُعجل لهم العقوبة، لعلهم يتوبون إليه، ولكنهم بدل أن

(١) أخرجه البخاري برقم (٤٦٨٦) ومسلم (٢٥٨٣).

يرجعوا إلى الله تعالى آمنوا مكر الله تعالى، ولم يخشوا بأسه وانتقامه.

جَمِيعُ الْكَائِنَاتِ تَسْجُدُ لِلَّهِ تَعَالَى بِلِسَانِ الْحَالِ أَوْ الْمَقَالِ

٤٨- ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا^(١) إِلَى مَا خَلَقَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ يَنْفَعُهُمْ^(٢) ظُلُمَ اللَّيْلِ عَنِ الْيَمِينِ وَالْشَّمَالِ سُجَّدًا لِلَّهِ وَهُمْ دَاخِرُونَ﴾

أو لم ير الشاكرون في وحدانية الله تعالى كيف يدور ظل جميع المخلوقات ويتمايل سجدًا لربها، مذلة ومسخرة تحت قهر الله وتدبيره، وهذا من أكبر الأدلة على وحدانية الله سبحانه.

وبعد الفراغ من براهين انفراد الله تعالى بالخلق، دلت هذه الآية، وما بعدها على أن جميع الأجسام التي على الأرض، وكل ما في الكون مُنقاد وخاضع ومُسخر لله ﷻ، الجماد والحيوان، والشجر والنبات، والشمس والقمر، والنجوم والأفلاك، والليل والنهار، والإنس والجن والملائكة، وغير ذلك، فهل عمي الكفار والملحدون عن أخذ العبرة من هذه الكائنات؟

أَعْمِيَ هؤلاء الكافرون والمشركون، فلم ينظروا إلى ما حولهم وما فوقهم من كل شيء خلقه الله تعالى له جسم قائم، يتمايل ظله ويدور عن اليمين تارة، وعن الشمال تارة أخرى، تبعًا لحركة الشمس نهارًا، والقمر ليلاً، وذلك من كل جسم قائم له ظل: جبل، أو حجر مرتفع، أو شجر، أو نبات، أو جدار، أو جمل، أو فرس، أو إنسان، كلها تسجد لله طوعًا أو كرهًا، المؤمن يسجد طوعًا، والكافر يسجد ظُلْمَ كَرِهًا، والجماد والنبات والحيوان منقاد ومذل لله تعالى جِبَلَةً وفطرة.

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَسْجُدُ لَهُ^(١) مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ وَالْجِبَالُ وَالشَّجَرُ وَالدَّوَابُّ وَكَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ﴾ [الحج: ١٨].

ومن الجسم القائم الذي لا يسجد لله تعالى طوعية: جسم الكافر؛ وذلك لأن الكافر إذا لم

(١) قرأ حمزة والكسائي وخلف بناء الخطاب في (أو لم يروا)؛ لمناسبة (إن ربكم) آخر الآية السابقة، والباقون بياء الغيب؛ لمناسبة (أفأمن الذين مكروا).

(٢) قرأ أبو عمرو ويعقوب بناء التأنيث في (ينفعهم)، والباقون بياء التذكير، وجاز في الفعل التذكير والتأنيث؛ لأن الفاعل مؤنث غير حقيقي.

يسجد لله تعالى بذاته، فإن ظله يسجد لله سبحانه، فهو يسجد طوعاً أو كرهاً.

فكل كائن، وكل مخلوق في هذا الكون ﴿يَنْفَتِيوُا ظِلِّ اللَّهِ﴾ والتَّقِيُّوُ: هو الرجوع، أي: أن الظل يرجع وينحسر، ويتقلص يميناً ويساراً، وفي أحواله كلها يسجد لله تعالى ﴿عَنِ الْيَمِينِ وَالشَّمَائِلِ﴾.

وتختلف أحوال اتجاهات ظل المخلوق، من إنسان أو شجر أو جماد أو حيوان، أو غير ذلك:

فإذا توجه الإنسان إلى الجنوب عند مشرق الشمس إلى ما قبل الزوال فإن ظله يكون عن يمينه.

وإذا انتصف النهار، وزالت الشمس يكون ظله خلفه، فإذا مالت الشمس إلى الغروب كان الظل عن يساره.

وذات المخلوق وظله، كلاهما يسجد لله سبحانه، فيدور ويتمايل ويتنقل ظلالة عن اليمين والشمال ﴿سُجَّدًا لِلَّهِ﴾ يأتي الظل تارة يميناً، وتارة يساراً، وتارة أماماً، وتارة خلفاً، وهو في كل الأحوال يسجد لله سبحانه.

قال الضحاك: إذا فاء الفيء توجه كل شيء ساجداً لله قِبَلَ الْقِبْلَةِ من بيت، أو شجر^(١).

قالوا: إن ظل الجبل: هو سجوده لله سبحانه، وظل الشجر: سجوده لله جلّ شأنه، وموج البحر: سجوده لله سبحانه، وأغصان الشجر وأوراقها حين تتمايل: تكون متجهة نحو القبلة، إنها تسجد لله سبحانه ﴿وَهُمْ ذَاخِرُونَ﴾ أي: وهم خاضعون صاغرون، فليس في وسعهم أن يمتنعوا من السجود، بل هم مذللون، ومنقادون، ومسخرون لله سبحانه.

قال الجمل: قال العلماء: السجود على نوعين: سجود طاعة وعبادة، كسجود المسلم لله ﷻ، وسجود انقياد وخضوع، كسجود الظلال، فقلوه: ﴿وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾ يحتمل النوعين؛ لأن سجود كل بحسبه: فسجود المسلمين والملائكة سجود طاعة وعبادة، وسجود غيرهم سجود خضوع وانقياد...^(٢). قال تعالى:

٥٠، ٤٩ - ﴿وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مِنْ دَابَّةٍ وَالْمَلَائِكَةُ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ

﴿٤٩﴾ يَخَافُونَ رَبَّهُمْ مِنْ فَوْقِهِمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ﴿٥٠﴾

(١) الطبري (٢٤١/١٤).

(٢) «حاشية الجمل» على «الجلالين» (٥٧٤/٢).

ثم تأتي هذه الآية؛ لتشمل: العقلاء، وغير العقلاء في سجودهم وخضوعهم لله تعالى؛ حيث يُستعمل لفظ ﴿مَا﴾ للدلالة على العموم، وهو في الأصل لغير العاقل، ويشمل العاقل أحياناً، أما ﴿مِنْ﴾ فإنها تستعمل للعاقل غالباً، وقد تستعمل بما يشمل غير العاقل، من كل ما يدب على وجه الأرض: إنسان، وحيوان، وغيرهما.

فالمسلم يسجد بذاته وبظله، والكافر يسجد بظله دون ذاته، والجن يسجد لله سبحانه؛ إذ قالوا: إن السجود على نوعين: سجود عبادة بوضع الجبهة على الأرض، وهذا يصدر من العقلاء المكلفين من جميع المخلوقات: يصدر من الملائكة، ويصدر من الجن المؤمنين، ويصدر من المسلمين من البشر.

وهناك سجود آخر بمعنى الانقياد والخضوع والتسخير فيما خُلق من أجله، وهو سجود غير العقلاء.

مثل: سجود الجبل، وسجود البحر، وسجود الشجر، وسجود الدواب، وغير ذلك مما لا يعقل، وهو مُسَخَّر فيما خُلق من أجله، وليس في وسعه أن يمتنع من أن يكون مُسَخَّرًا لله تعالى في أمر من الأمور.

وسجود الشمس والقمر والنجوم والكواكب وغيرها، قد يكون سجودًا حقيقياً كسجود الإنسان المسلم، وقد يكون انقيادًا وتسخيرًا فيما خلقت من أجله، والأولى حمل اللفظ على ظاهره، وأن يكون المراد به: السجود الحقيقي، ويرجّحه ما جاء في الصحيح عن أبي ذر رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال له حين غربت الشمس: «أتدري أين تذهب الشمس؟» قلت: الله ورسوله أعلم، قال: «فإنها تذهب حتى تسجد تحت العرش، فتستأذن، فيؤذن لها، ويوشك أن تسجد فلا يقبل منها، وتستأذن فلا يؤذن لها يقال: فكأنها قد قيل لها: ارجعي من حيث جئت، فتطلع من مغربها»، فذلك قوله تعالى: ﴿وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا﴾^(١) [يس: ٣٨].

فقد بيّن النبي ﷺ أن الشمس تسجد لله تعالى، ثم تستأذن في الرجوع إلى مشرقها مرة أخرى، فيؤذن لها، فترجع من حيث أتت، فإذا كانت علامات الساعة الكبرى لم يؤذن لها

(١) أخرجه البخاري برقم (٣١٩٩) وهذا لفظه وهو أيضًا في الأرقام التالية منه: (٧٤٢٤)، (٧٤٣٣)، (٤٨٠٢)، (٤٨٠٣) وفي «صحيح مسلم» برقم (١٥٩).

فترجع لشرق من المغرب، فهذا الحديث الصحيح يُرجَّح أن يكون سجود الشمس والقمر والنجوم، وغيرها من الأشجار والجماد والدواب سجود عبادة، كسجود الإنسان الطائع المختار لله سبحانه.

والملائكة يسجدون لله تعالى، وهم لا يستكبرون عن عبادته، فهم يسجدون لله تعالى عن بكرة أبيهم؛ لأنهم ﴿لَا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ [التحریم: ٦] وليسوا كالإنسان؛ فالتناس منهم المستكبر، ومنهم غير المستكبر، وفيهم الممتنع وهو الكافر.

وقد خص الله الملائكة بالذكر بعد العموم؛ لفضلهم، وشرفهم، وكثرة عبادتهم لله تعالى. والملائكة يخافون ربهم وهو فوقهم بذاته، وقهره، وسلطانه، وكمال صفاته، وفي الآية إثبات صفة العلو، والفوقية لله سبحانه على الوجه اللائق بجلاله، كما قال تعالى: ﴿ءَأْمِنْتُمْ مَّنْ فِي السَّمَاءِ﴾ [الملك: ١٦].

والآيات التي تذكر سجود جميع الكائنات لله تعالى كثيرة، منها قوله تعالى:

﴿وَاللَّهُ يَسْجُدُ مَن فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَظُلُمًا لَهُم بِالْعُتُودِ وَالْأَصَابِلِ ۖ﴾ [الرعد].

وكذا الآية الثامنة عشرة من سورة الحج، وهي تستعمل لفظ (مَن) الذي هو للعاقل، وتنص على جميع الكائنات، ومنها الشمس والقمر، والنجوم والجبال، والشجر والدواب. وفي هذا إشارة إلى أنها تسجد لله تعالى سجودًا حقيقيًا كالإنسان العاقل، وإن كنا لا ندرك أو لا نرى هذا السجود، كما جاء ذلك مصرحًا به في آية سورة الحج، وكما قال تعالى: ﴿تَسْبُحُ لَهُ السَّمَوَاتُ السَّبْعُ وَالْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ﴾ [الإسراء: ٤٤].

وتشير الآية إلى أن جميع الكائنات بلا استثناء تسجد لله تعالى عدا الإنسان، وأن كثيرًا من الناس لا يسجدون لله تعالى ممن حق عليه العذاب، كما قال تعالى: ﴿وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ﴾ [يوسف].

وقال أيضًا: ﴿وَإِن تَطَّعَ أَكْثَرُ مَن فِي الْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ﴾ [الأنعام: ١١٦].

إِنَّمَا اللَّهُ إِلَهُ وَاحِدٌ، يَأْتِي بِالنَّعْمِ، وَيَكْشِفُ النَّعَمَ

٥١- ﴿وَقَالَ اللَّهُ لَا تَتَّخِذُوا إِلَهَيْنِ اثْنَيْنِ إِنَّمَا هُوَ إِلَهُ وَاحِدٌ فَإِنِّي فَارَهُونَ﴾ (٥١)

لما أبطلت الآيات السابقة تعدد الآلهة، وأبطلت القول بأن القرآن مفتري، عمدت هذه الآية إلى إبطال نوع آخر من الشرك، وهو القول بوجود إله يصدر عنه الخير، وإله آخر يصدر عنه الشر، ويسميه بعضهم: إله الظلمة، وإله النور، وهذا زعمُ فرقة من أهل الضلال في القديم كالمجوسية، وقد نقله عنهم القبائل المجاورة لفارس، مثل: بني بكر، وبني تميم، في زمن كسرى، وبه يقول بعض أهل الضلال في الوقت الحاضر.

ولم يدخل هذا المعنى في قوله تعالى ﴿وَأَجْتَنِبُوا أَطْغُوتَ﴾ [٣٦]؛ لاختصاص اسم الطاغوت بالصور والأجسام المعبودة، فالله الخير وإله الشر يقول بهما أهل الأديان التي لا تعبد صوراً محسوسة^(٢).

وبعد أن بين الله سبحانه أن الكون بما فيه ومن فيه مُنقاد، ومُسَخَّر لله جلَّ شأنه، نهى ﷻ عن الشرك بالله، فلا بد أن يتجه الخلق إلى الإله الواحد في عبادتهم، وفي دعائهم وتضرعهم؛ فمعبودهم واحد، وهو الله سبحانه، وعليهم أن يخافوه دون سواه، فقد نهى سبحانه عن الشرك به جلَّ شأنه في قوله: ﴿لَا تَتَّخِذُوا إِلَهَيْنِ﴾.

وهذه الجملة كانت كافية في النهي عن الشرك، وإنما أتى بعدها بلفظ: ﴿إِثْنَيْنِ﴾ تأكيداً للمبالغة في نفي الشرك عن الله سبحانه، كما أنه كان يكفي أن يقول الله تعالى: ﴿إِنَّمَا هُوَ إِلَهُ﴾ وإنما جاء بلفظ ﴿وَاحِدٍ﴾ من باب تأكيد إثبات الوحدانية لله سبحانه، لا من باب إثبات الألوهية؛ فإن الألوهية ثابتة لله تعالى.

والمشركون يعترفون بوجود الإله الخالق الرازق المدبر المحيي المميت، كما قال تعالى: ﴿وَلَمَّا سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ﴾ [الزمر: ٣٨] ليس في هذا جحود، ولا إنكار، وإنما الخلاف فيمن يتوجهون بالعبادة، ويتوجهون بالدعاء والتضرع، والنذر والذبح، وطلب المدد، وكشف الضر وغير ذلك.

(١) قرأ يعقوب بإثبات الياء وصلًا ووقفًا من (فارهبون)، والباقيون بحذفها.

(٢) يُنْظَر: «تفسير التحرير والتنوير» (١٤/ ١٧١).

وإذا كان الله سبحانه إلهاً واحداً، فالرهبة لا تكون إلا منه سبحانه، والخوف لا يكون إلا منه جلّ شأنه، فلا ينبغي أن يُخاف غير الله، ولا أن يُرهَب غير الله ﴿فَإِنِّي فَارْهَبُون﴾. فامتثلوا أمري واجتنبوا نهى من غير أن تشركوا بي شيئاً.

وقد اقتصر ختام الآية على جانب الرهبة دون الرغبة؛ لمناسبة الخوف من إله الشر، فإن رهبت شيئاً فإياي فارهبون دون غيري، فأنا الذي لا يعجزني شيء، وقول الله تعالى في الآية موجه إلى عباده، عن طريق رسله، عليهم الصلاة والسلام: ألا يتخذوا معه معبوداً آخر، فهو سبحانه المستحق للعبادة دون سواه.

وقد جاء النهي عن الشرك بالله في عبادته في آيات كثيرة، منها:

قوله تعالى: ﴿لَا تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَتَقْعُدَ مَذْمُومًا مَّخْذُولًا﴾ [الإسراء].

وقوله: ﴿وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَّحْسُورًا﴾ [الإسراء].

وقوله: ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا فَسُبْحَنَ اللَّهُ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾ [الأنبياء].

وقد نهى الله في الآية جميع البشر أن يعبدوا إلهاً آخر، وأن يشركوا معه غيره، وأن يرهبوه ويعبدوه وحده، فهو الذي بيده النفع والضرر، قال تعالى: ﴿فَقَرُّوا إِلَى اللَّهِ إِنِّي لَكُمْ مِنْهُ نَذِيرٌ مُبِينٌ﴾ [الذاريات] ﴿وَلَا تَجْعَلُوا مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ إِنِّي لَكُمْ مِنْهُ نَذِيرٌ مُبِينٌ﴾ [الذاريات].

وقال: ﴿مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِنْ وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَهٍ إِذَا لَذَهَبَ كُلُّ إِلَهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَمَّا لَبَّاهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ سُبْحَنَ اللَّهُ عَمَّا يُصِفُونَ﴾ [المؤمنون].

مرَّ النبي ﷺ على سعد بن أبي وقاص وهو يدعو بأصبعيه، فقال له: «يا سعد أحمُذُ أحمُذُ»، وأشار بالسبابة^(١) فعلى العبد أن يشير في دعائه وذكره بأصبع واحدة؛ فإن في هذا مقمعة للشيطان. قال تعالى:

٥٢- ﴿وَلَكُمْ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَهُ الدِّينُ وَاصِبًا أَفَغَيْرَ اللَّهِ تَتَّقُونَ﴾

(١) ابن أبي شيبة (٤٨٤/٢) و«المسند» (٩٤٣٩) قال محققوه: حديث صحيح وإسناد رجاله ثقات، وأبوداود (١٤٩٩) والترمذي (٣٥٥٧) والنسائي (١٢٧١) و«صحيح سنن الترمذي» (٢٨٢٠) وعن الترمذي والنسائي: أن رجلاً كان يدعو.

ثم بيّن ﷺ أن النور والظلمة، والخير والشر، وغيرها كلها مخلوقة لله تعالى، وهي مظهر من مظاهر السماء والأرض ومخلوقاته، فهو سبحانه مالك هذا الكون العلوي والسفلي، وكل ما في السموات والأرض تحت تصرفه وقهره، ملكًا وخالقًا وعبيدًا، وهو صاحب النعم كلها.

١- وله سبحانه الطاعة الخالصة؛ لأنه سبحانه المنعم على خلقه، الخالق الرازق لهم، فله وحده الطاعة التامة والعبادة الدائمة الواجبة ﴿أَلَا لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ﴾ [الزمر: ٣].

فهو الإله الحق، وكل طاعة لغير الله تعالى لها أجل تنتهي فيه، وهذا معنى ﴿وَلَهُ الدِّينُ وَاصِبًا﴾ أي له وحده الطاعة الدائمة التي لا تنقطع لسبب من الأسباب.

فأنت حين تطيع والدك، فإن هذه الطاعة تنتهي بموته، وحين تطيع رئيسك في العمل، أو تطيع الحاكم، أو غيرهما فإن هذه الطاعة تستمر حتى يموت هذا الرئيس، أو هذا الحاكم، أو حتى تنتهي مدة عمله، أو حكمه، ولكن هناك طاعة واحدة دائمة باقية، لا تنتهي أبدًا، هي طاعة الواحد القهار، ولذلك يقول سبحانه: ﴿وَلَهُ الدِّينُ وَاصِبًا﴾.

أي: دائمًا، كما قال تعالى: ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ وَاصِبٌ﴾ [الصفات: ٩]

أي: لهم عذاب دائم لا ينقطع، فالمراد بالدين في الآية: الطاعة، والعبادة.

فكل طاعة لغير الله تعالى تنقطع وتزول بزوال السبب، ولكن طاعة الله تعالى قائمة دائمًا وأبدًا، وكل مُلك يزول، ومُلك الله تعالى لهذا الكون دائم لا يزول، ولا يحول، فلا يليق بكم بعد أن علمتم أن لله ما في السموات وما في الأرض أن تعبدوا غيره، أو ترهبوه، أو تخافوه ﴿أَفَغَيْرَ اللَّهِ نَتَّقُونَ﴾؟

٢- ويصح أن يكون المراد بالدين: الديانة والشريعة، بمعنى: أن الناس لا يدينون إلا بما شرعه الله لهم؛ فهو الذي يشرع لهم الدين، وليس غيره من أئمة الضلال، أمثال: عمرو بن لُحَيٍّ، وزرّادشت، ومزّذك، وماني، وغيرهم، قال تعالى: ﴿أَمْ لَهُمْ شُرَكَاءُ شَرَعُوا لَهُمْ مِّنَ الدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنُ بِهِ اللَّهُ﴾ [الشورى: ٢١].

٣- ويراد بلفظ الدين أيضًا: الجزاء، كما قال تعالى: ﴿مَلِكِ يَوْمِ الدِّينِ﴾ [الفاتحة] أي: يوم البعث، والحساب، والجزاء؛ فهو سبحانه يملك ما في السموات

والأرض، ويملك العرش والكرسي، ويملك يوم الحساب والجزاء، ويملك الظلمة والنور، والخير والشر، وغير ذلك. قال تعالى:

٥٣- ﴿وَمَا بِكُمْ مِّنْ نَّعْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فَإِلَيْهِ تَجْأَرُونَ ﴿٥٣﴾﴾

أي وكيف تتقون غير الله؟ وكيف تلجؤون إلى غير الله، وجميع ما بكم من نعم فمن الله وحده لا من غيره، وعلى رأس هذه النعم: نعمة الهداية للإسلام، ثم صحة الأبدان، وسعة الأرزاق، ومنح البنين والبنات، فكيف تصرفون العبادة لغير الله، وهو المنعم عليكم بالنعم الدينية والدنيوية؟ وكل عبد يُقرُّ أن الله جلَّ شأنه هو مصدر النعم كلها دقيقتها وجليلها، وهو الخالق، الرازق، المحيي، المميت.

ولذا: فإن العبد إذا وقع في ضرر، أو أصابته محنة، أو مصيبة، بأن ألمَّ به فقر، أو مرض، أو هزيمة، أو جذب، أو جوع، أو ضرر، ونحو ذلك فإنه يلجأ إلى الله وحده، ويرفع أكف الضراعة إلى الخالق سبحانه، فيرفع صوته بالاستغاثة والتضرع إليه وحده دون غيره؛ ليكشف عنه ما حلَّ به من ضرر، كما قال تعالى:

﴿وَإِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فِي الْبَحْرِ ضَلَّ مَنْ تَدْعُونَ إِلَّا إِلَٰهَ﴾ [الإسراء: ٦٧]

وكما قال: ﴿وَإِذَا مَسَّ النَّاسَ ضُرٌّ دَعَوْا رَبَّهُمْ مُنِيبِينَ إِلَيْهِ﴾ [الروم: ٣٣]

وقال أيضًا: ﴿وَإِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ ضُرٌّ دَعَا رَبَّهُ مُنِيبًا إِلَيْهِ﴾ [الزمر: ٨]

وقال عز وجل: ﴿وَإِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ الضُّرُّ دَعَانَا لِجَنبَيْهِ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَائِمًا﴾ [يونس: ١٢].

وهكذا تقرر الآيات أن العبد يلجأ إلى ربه إذا وقع في شدة وبلاء، أو عسر وضيق؛ لأنه سبحانه هو الذي يعطي النعم، ويكشف الضر.

قال تعالى ﴿وَإِنْ يَمَسُّكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ وَإِنْ يَمَسُّكَ بِخَيْرٍ فَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [الأنعام: ١٧] فماذا لو كشف الله عنهم ما هم فيه من ضرر؟ قال تعالى:

٥٤- ﴿ثُمَّ إِذَا كُشِفَ الضُّرُّ عَنْكُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْكُمْ بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ ﴿٥٤﴾﴾

بين الله تعالى في هذه الآية أن من بني آدم من إذا مسهم الضر دعوا الله مخلصين له الدين، فإذا كشف عنهم الضر، وأزال عنهم الشدة، فإن فريقاً منهم -وهم الكفار- يرجعون

في أسرع وقت إلى ما كانوا عليه من الكفر والمعاصي .

قال تعالى يصف حال الإنسان وقت الرخاء: ﴿هُوَ الَّذِي يُسِرُّكُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ حَتَّى إِذَا كُنْتُمْ فِي الْفُلِكِ وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُوا بِهَا جَاءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَاءَهُمُ الْمَوْجُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُوا أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ ۖ﴾ .

هذا تصوير لحالة الشدة عندما تعصف الأمواج بالإنسان وهو في عرض البحر فإنه يلجأ إلى الله تعالى، وهذا معنى ﴿دَعُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ لَئِنْ أَجَبْنَاهُمْ مِنْ هَٰذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ﴾ ثم أشار سبحانه إلى بغيهم وظلمهم بعد نجاتهم، فقال تعالى: ﴿فَلَمَّا أَجَبْنَاهُمْ إِذَا هُمْ يَبْغُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ﴾ [يونس: ٢٢، ٢٣]

وقال أيضًا في وصف هذه الحال: ﴿وَإِذَا أَنْعَمْنَا عَلَى الْإِنْسَانِ أَعْرَضَ وَنَأَىٰ بِجَانِبِهِ وَإِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ فَذُو دُعَاءٍ عَرِيضٍ﴾ (٥١) [فصلت].

وهكذا فإذا رفع الله البأس عن الإنسان، ورجع إلى النعمة التي كان فيها، من الصحة بعد المرض، والغنى بعد الفقر، والنصر بعد الهزيمة، فإنه ينسى ما كان فيه، ويرجع إلى طبعه، فيلجأ إلى الشركاء والأولياء يلتمس منهم النفع والضرر، إنه يتعرف على الله في الرخاء، وينساه في الشدة، كما قال تعالى: ﴿فَلَمَّا تَخَذُوا إِلَى الْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ وَكَانَ الْإِنْسَانُ كَفُورًا﴾ [الإسراء: ٦٧].

وهكذا تنتمه الآيات السابقة تشير إلى هذا المعنى، كما في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ إِذَا أَذَاقَهُمْ مِنْهُ رَحْمَةً إِذَا فَرِيقٌ مِنْهُمْ بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ﴾ [الروم: ٣٣]، وقوله: ﴿ثُمَّ إِذَا حَوَّلَهُ نِعْمَةً مِنْهُ نِسَىٰ مَا كَانَ يُدْعُوا إِلَيْهِ مِنْ قَبْلُ وَجَعَلَ لِلَّهِ أَنْدَادًا لِيُضِلَّ عَنْ سَبِيلِهِ﴾ [الزمر: ٨].

وقوله: ﴿فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ذُرِّيَّتَهُ مَرًّا كَانَ لَمْ يَدْعُنَا إِلَىٰ ذُرِّيَّتِهِ مَسْئُومًا﴾ [يونس: ١٢].

وهذا هو شأن الإنسان المتمرد على نعمة الله تعالى، الجاحد لفضل الله عليه، إنه ينسى حالة الضيق التي كان فيها، فيتمرغ في النعم التي أصبح فيها، وينسى ما كان فيه بالأمس، وهذا هو حال أغلب البشر إلا من عصم الله. قال تعالى:

٥٥- ﴿لَا كُفْرُوكُمْ بِمَا ءَاتَيْنَاهُمْ فَتَمَتَّعُوا فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ (٥٥)

هذا خطاب للفريق الذي كفر بنعمة الله عليه، وجحد كشف البلاء عنه، فكان منه أن بادر بعد أن رفع الله عنه الضر، بالعودة إلى ما كان فيه من شرك وجحود، فوقع في الكفر بدل الشكر، قال سبحانه: ﴿لِيَكْفُرُوا بِمَا ءَاتَيْنَاهُمْ﴾ أي: بدل أن يشكروا نعمة الله عليهم، فإن عاقبة هذه النعم تحولت إلى كفران وجحود لها.

قال سبحانه مهديًا ومتوعداً لهم: ﴿فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ عاقبة جحودكم وكفركم، فاستمتعوا بدنياكم؛ فإن مصيركم إلى الزوال.

مِنْ مَظَاهِرِ كُفْرِ النِّعْمَةِ فِي بِهِمَةِ الْأَنْعَامِ

٥٦- ﴿وَيَجْعَلُونَ لِمَا لَا يَعْلَمُونَ نَصِيبًا مِّمَّا رَزَقْنَاهُمْ تَاللَّهِ لَسْتُ لَكُمْ عَمَّا كُنْتُمْ تَفْعَلُونَ﴾ (٥٦)

ثم بين جل شأنه شيئاً من قبائح المشركين ورذائلهم، وأنهم يجعلون نصيباً منها لآلهتهم وهي جمادات لا تنفع، ولا تضر، ولا تعقل، ولا تعلم شيئاً، وليس لديهم حجة على أنها آلهة، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ هِيَ إِلَّا أَسْمَاءٌ سَمِيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَءَابَاؤُكُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ﴾ [النجم: ٢٣] وهي جمادات لا تعلم شيئاً؛ وهم من سخف عقولهم يجعلون لها نصيباً من زروعهم، وثمارهم، وأرزاقهم، وأنعامهم، كما جاء في قوله تعالى: ﴿وَجَعَلُوا لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ الْحَرْثِ وَالْأَنْعَامِ نَصِيبًا فَقَالُوا هَذَا لِلَّهِ بِرَعْمِهِمْ وَهَذَا لِشُرَكَائِنَا﴾ [الأنعام: ١٣٦] إنهم يخصصون شيئاً من الأنعام للآلهة، ويتركوها بحيث لا يتعرض له أحد، كما في البحيرة، والسائبة، والوصيلة، والحام التي جاء ذكرها في سورة المائدة في الآية الثالثة بعد المئة.

وهذه الصورة ليست في الجاهلية قبل الإسلام فحسب، بل إنها موجودة على مدى الزمن.

فهناك البقر يُقدس ويُحترم، ويترك، فلا ينتفع به، وتقف له الإشارة.

وفي بعض البلاد الإسلامية يوجد لدى بعض الجهلة ما يسمى بعجل السيد البدوي،

وذلك أن أحد الناس يشتري عجلًا ينذر أن يذبحه لولي من أولياء الله الذين ماتوا، فهو نذر وذبح لغير الله، ويبقى هذا العجل لا يتعرض له أحد، يأكل من أي شيء، ومن أي مكان، لا يُمنع، ولا يُنتفع به، ولا يُستعمل في الحرث أو الزرع، تمامًا كما كان يحدث في البحيرة، والسائبة، والوصيلة، والحام.

فأهل الجاهلية كما أخبر الله عنهم: أنهم كانوا يجعلون لله نصيبًا وللآلهة نصيبًا، وهؤلاء جعلوا للبدوي، أو لغيره نصيبًا في الأنعام أيضًا، وهولون من الشرك موجود في عالم اليوم فالقرآن يُصلح الله به كل زمان ومكان.

والله سبحانه يقسم بذاته العلية قائلًا: ﴿تَاللَّهِ لَنُنَبِّئَنَّ أَيُّ يَوْمِ الْقِيَامَةِ﴾ ﴿عَمَّا كُنتُمْ تَفْتَرُونَ﴾ فتختلقونه، وتكذبون به على رب العالمين حين تحرّمون ما أحل الله، وتحلون ما حرم الله، وهو سؤال توبيخ وتقريع، وفيه تهديد ووعد لهم، بأن الله تعالى سيعاقبهم على افتراءهم بما يستحقون، بعد أن يسألهم ﴿أَلَمْ يَأْتِكُمْ أَمْرٌ عَلَى اللَّهِ فَتَفْتَرُونَ﴾ ﴿وَمَا ظَنُّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ [يونس: ٥٩، ٦٠] فيعاقبهم على ذلك أشد العقوبة.

مما سبق يتضح أن ضمير الفاعل في قوله: ﴿لَمَّا لَا يَعْلَمُونَ﴾ إما أن يعود على الكفار وهو الأرجح نظرًا لسياق الآيات، وإما أن يعود على الأصنام.

وما أجملته هذه الآية، فضّلته آيات سورة الأنعام التي أشرنا إلى بعضها.

حَالُ الْمَرْأَةِ قَبْلَ الْإِسْلَامِ

٥٧- ﴿وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ الْبَنَاتِ سُبْحَنَهُ وَلَهُمْ مَا يَشْتَهُونَ﴾ ﴿٥٧﴾

أخبر ﷺ في هذه الآية أن المشركين زعموا أن الملائكة إناث، وجعلوها بنات الله، وعبدوها معه، فنسبوا لله الولد، ثم خصوه بالبنات، وهم لا يرضونها لأنفسهم؛ حيث كانوا يكرهون البنات.

ولما جاء الإسلام، رفع من شأن المرأة، وجعلها ترث بعد أن كانت تُورث، وجعلها على قدم المساواة مع الرجل، سواء بسواء في العبادات، والحقوق، والواجبات.

وقد رغب الإسلام في تربية البنات والإحسان إليهن، وجعل ذلك بابًا من أبواب الجنة

وسترًا حاجزًا من النار، بعد أن كان الناس يدفنون البنات وهن أحياء؛ خوف العار، أو الفقر.

في صحيح مسلم، وغيره: عن عبد الله بن أبي بكر أن عروة بن الزبير أخبره أن عائشة زوج النبي ﷺ قالت: جاءني امرأة ومعها ابنتان لها، فسألتني، فلم تجد عندي شيئًا غير تمر واحدة، فأعطيتها إياها، فأخذتها فقسمتها بين ابنتيها، ولم تأكل منها شيئًا، ثم قامت فخرجت وابنتها، فدخل عليّ النبي ﷺ فحدثته حديثها، فقال النبي ﷺ: «من ابتلي من البنات بشيء، فأحسن إليهن كنَّ له سرًا من النار»^(١).

وعن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «من عال جاريتين حتى تبلغا جاء يوم القيامة أنا وهو» وضم بين أصابعه^(٢).

وشأن المؤمن أن يرضى بما قسم الله له؛ فَلَربَّ جارية للمرء خير له من غلامين، وقد أخبر الله في هذه الآية تعالى بصنيع المشركين؛ لِنَجْتَنِيَهُ وننتهي عنه، فقد كان أحدهم يُغذِّي كلبه، ويثد ابنته.

هذا: وقد كَرَّمَ الله ﷻ الإنسان من حيث هو إنسان، ولم يفرق في ذلك بين الرجل والمرأة، قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ﴾ [الإسراء: ٧٠].

والحياة تنشأ في هذه الدنيا بين زوجين: رجل، وامرأة.

والمرأة تتحمل عبئًا أكبر في بقاء النوع الإنساني، وفي الوجود البشري، فَرَجُمُ المرأة هو المستقر الذي يبدأ فيه الإنسان أطوار حياته الأولى لمدة تسعة أشهر، أو نحوها قبل أن يوجد فوق هذه الأرض، ومما يقدر في عقيدة المسلم أن يعتقد أن المرأة مخلوق مكروه، أو بغيض للنفس، وقد كان الرجل في الجاهلية إذا وُلد له جارية أمسكها على هوان، أو دسَّها في التراب وهي حية^(٣).

والقرآن الكريم -في الآيات التي معنا من سورة النحل- يُقَبِّح ما كان عليه المشركون من أنهم يكرهون الأنثى ويبغضونها، ومع كراحتهم للأنثى، فهم ينسبونها إلى الله سبحانه

(١) «صحيح مسلم» برقم (٢٦٢٩) و«صحيح البخاري» برقم (١٤١٨، ٥٩٩٥).

(٢) «صحيح مسلم» برقم (٢٦٣١).

(٣) الطبري (٢٥٥/١٤).

﴿وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ مَا يَكْرَهُونَ﴾ [٦٢] فكانوا يعتقدون أن الملائكة بنات الله، ويجعلون لأنفسهم ما يُحِبُّون من البنين، يقول جلَّ شأنه: ﴿وَجَعَلُوا الْمَلَائِكَةَ الَّذِينَ هُمْ عِبْدُ الرَّحْمَنِ إِنثًا﴾ وفي قراءة: (الذين هم عند الرحمن إناثا)^(١).

يقول جلَّ شأنه: ﴿أَشْهَدُوا خَلَقَهُمْ﴾؟ هل رأوهم إناثا؟ ﴿سَتَكُنُّنَّ شَهِدَاتُهُمْ وَسُئِلُونَ﴾ [الزخرف: ١٩].

ونسبة الولد إلى الله سبحانه فرية عظيمة تنفطر منها السموات، وتشقق منها الأرض، وتخر لها الجبال ﴿وَقَالُوا أَخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا﴾ [٨٨] لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئًا إِذَا ﴿٨٩﴾ تَكَادُ السَّمَوَاتُ يَفْطَرْنَ مِنْهُ وَتَتَشَقَّى الْأَرْضُ وَخِزِرُ الْجِبَالِ هَذَا ﴿٩٠﴾ أَنْ دَعَوْا لِلرَّحْمَنِ وَلَدًا ﴿٩١﴾ وَمَا يَنْبَغِي لِلرَّحْمَنِ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَدًا ﴿٩٢﴾ إِنْ كُلُّ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا آتَى الرَّحْمَنِ عَبْدًا ﴿٩٣﴾ [مريم].

وهذا من منتهى الجهل، فإنه حينما ينسب المرء الولد إلى الله سبحانه، فإنه ينسب إليه ما يكرهه - على حد زعمه - وهو البنت، ويجعل الذكر لنفسه، وهذا معنى ﴿وَلَهُمْ مَا يَشْتَهُونَ﴾ أي: لهم الذكور من البنين، ولله البنات. سبحانه وتعالى عما يقولون علواً كبيراً.

قال تعالى: ﴿لَوْ أَرَادَ اللَّهُ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَدًا لَاصْطَفَىٰ مِمَّا يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ سُبْحَانَهُ هُوَ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ﴾ [الزمر: ٤] والله جلَّ شأنه منزّه عن الصاحبة والولد، ومنزّه عن الحاجة إلى خلقه، والعباد هم المحتاجون إلى الله تعالى.

وإنها لقسمة جائزة ﴿الْكُفْرُ وَلَهُ الْأَنفَىٰ﴾ [٦١] تِلْكَ إِذًا قِسْمَةٌ ضِيزَىٰ ﴿٦٢﴾ [النجم]

قال تعالى: ﴿أَلَا إِنَّهُمْ مِنْ إِفْكِهِمْ لَيَقُولُونَ﴾ [١٥١] وَلَدَ اللَّهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴿١٥٢﴾ أَصْطَفَى الْبَنَاتِ عَلَى الْبَنِينَ ﴿١٥٣﴾ مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴿١٥٤﴾ [الصافات].

والذين كانوا ينسبون البنات إلى الله سبحانه من العرب هما قبيلتا خزاعة، وكنانة كانوا يزعمون أن الله تعالى قد تزوج من الجن فأنجب منهم الملائكة، قال تعالى: ﴿وَجَعَلُوا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ الْجَنَّةِ نَسَبًا وَلَقَدْ عَلِمَتِ الْجِنَّةُ إِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ﴾ [الصافات].

وقد كان أحدهم إذا بشر بالأنثى أسود وجهه وتوارى من الناس كما قال تعالى:

(١) قرأ بها نافع وابن كثير وابن عامر وأبو جعفر ويعقوب.

٥٨- ﴿وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِالْأُنْثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ﴾

وكانت قبائل مُضر، وخزاعة، وتميم، هذه القبائل الثلاث كانت تند البنت، وتدفعها وهي حية، ولم يكن العرب كلهم يفعلون ذلك، فكانوا إذا أُخبر، أو بُشِّر أحدهم، أنه قد وُلد له أنثى اسودَّ وتغيَّر لون وجهه من الكآبة، والحزن، والأسى الذي يصيبه؛ كراهية لما سمع، وامتلأ غمًا وحزنًا.

وأصل البشارة: الإخبار بما يسر، وتُستعمل في غيره من باب التهكم، قال تعالى: ﴿وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِمَا ضَرَبَ لِلرَّحْمَنِ مَثَلًا ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ﴾ [الزخرف] أي: أنه يكتم في نفسه الغيظ، والغم، والحق على هذه الأنثى التي وُلدت له، فهو:

٥٩- ﴿يَتَوَرَّى^(١) مِنَ الْقَوَارِ مِنْ سُوءِ مَا بُشِّرَ بِهِ أَيُمْسِكُهُ عَلَىٰ هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُ فِي التُّرَابِ أَلَا سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾

وكان أحدهم إذا قربت ولادة زوجته، توارى عن أعين الناس حتى يعلم ما وُلد له، إن كان ذكرًا فرح، وإن كانت أنثى اختفى عن أعين الناس، وهذا معنى ﴿يَتَوَرَّى مِنَ الْقَوَارِ﴾ أي: يستتر بعيدًا عنهم، يفكر ماذا يدبر لهذه الأنثى؟ وماذا يصنع بها؟ والمراد بالتواري في الآية: ما يكون بعد البشارة بالأنثى، وليس ما قبلها.

لقد كان من أهل الجاهلية، مَنْ يقلل الذرية مخافة الفقر، أو مخافة كثرة الأعباء، وهذا قدح في العقيدة؛ فالله الذي خلقكم، هو الذي رزقكم، وهو الذي يحييكم ويميتكم ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ ثُمَّ رَزَقَكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ﴾ [الروم: ٤٠].

هذا: وأرزاق العباد في الواقع المشاهد تكثر، وتزداد مع كثرة الخلق يومًا بعد يوم.

ففي أيام الصحابة، وما قبلها كان الناس يشكون الجوع، والناس في أيامنا هذه تشتكي التخمة، وتشتكي الأمراض من كثرة الطعام والشراب، ويذهبون إلى مصحات الجمية؛ لتخفيف الوزن، فالأمر ليس كما يدَّعون، ولا كما تُصوِّره لنا الصهيونية العالمية، وتزرعه في أدمغة أبناء المسلمين للتقليل من نسلهم.

(١) أمال ألف (يتوارى) التي بعد الراء حمزة والكسائي وخلف وأبو عمرو، وقللها ورش.

وكان أهل الجاهلية أيضًا يدفنون الأنثى خوف العار عندما تتزوج، وخوف أن تُؤسر في الحروب، فتجلب لهم العار؛ لأنها لا تحمل السلاح، ولا تقاتل العدو.

وكانت المرأة في السابق لا تعمل، ولا تكتسب، فهي غالبًا ما تكون عبثًا على الرجل، لهذا وغيره كانوا يضعون البنات في التراب وهن أحياء، وكانوا يرون أن القبر خير لها من الحياة. يقول شاعرهم: إن له ثلاثة أصهار: بَعْلٌ يقوم على ابنته ويتزوجها، وبيت تُستر فيه وتختبئ، وقبر يوارئها، وأفضل هذه الثلاثة القبر الذي يوارئها.

وقال آخر:

فَبَعْلٌ يُزَاعِيهَا، وَخِذْرٌ يُكِنُّهَا وَقَبْرٌ يُوَارِيهَا وَخَيْرُهُمُ الْقَبْرُ
وقال آخر:

يَخَافُ عَلَيْهَا جَفْوَةَ النَّاسِ بَعْدَهُ وَلَا خِثْنَ يُزَجِّي أَوْدُ مِنَ الْقَبْرِ.
والخِثْنُ: هو زوج الأخت، أي: لا قبر خير للمرأة من الزوج.

وكان الرجل يترك امرأته، التي وَلَدَتْ أنثى، إلى ضَرَّتْهَا، ويغضب منها؛ لأنها ولدت له أنثى، فأنشدت إحداهن تقول:

مَا لِأَبِي حَمَزَةٍ لَا يَأْتِينَا يَظَلُّ بِالْبَيْتِ الَّذِي يَلِينَا
عُضْبَانِ أَلَّا نَلِدَ الْبَيْنَا لَيْسَ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا مَا شِينَا (أي: ما شئنا)
وَأَمَّا نَأْخُذُ مَا أُعْطِينَا

وعند ما يُخبر أحدهم بولادة الأنثى يستخفي من قومه؛ كراهة أن يلقاهم بما ساءه من الهم والحزن والعار؛ بسبب البنت التي وُلدت له، ويتحير في أمرها، ماذا يفعل؟ أيبقي هذه البنت على هوان وذلة، أم يدسها في التراب؟ أحد أمرين:

١- أن يمسك الأنثى على هوان، ولا يقتلها، فإذا كُبرت يُلبسها جبة من صوف، أو من شعر، ثم يجعلها ترعى في البادية، الإبل والغنم، ويسخرها في الأعمال الشاقة.

٢- أو يدسها في التراب، فإذا بلغت السادسة من عمرها قال لأُمها: هيئها فسأذهب بها إلى صديقاتها، ويكون قد أعدَّ لها في الصحراء بئراً، أو حفرة عميقة، ثم يأخذها في

أحسن ثيابها، ويوقفها على حافة البئر، ويقول لها: انظري، ثم يدفع بها من الخلف، فإذا سقطت في البئر أهال التراب عليها من فوق رأسها، وربما رأت البنت لِحْيَةً أبيها قد اغبرّت من التراب، فتأخذ تنفض التراب عنه وهو يدفعها.

وتُختم الآية بدمّ صنيعهم هذا، ألا بئس الحكم الذي حَكَّمُوهُ من جعل البنات لله والذكور لهم، وقد أشار القرآن إلى هذه الرذيلة في قوله تعالى: ﴿وَإِذَا الْمَوْءِدَةُ سُئِلَتْ ^(٨) بِأَيِّ ذَنْبٍ قُتِلَتْ ^(٩)﴾ [التكوير]

وقال سبحانه: ﴿وَلَا تَقْنَلُوا أَوْلَادَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَاقٍ نَحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِنَّا لَكَارُونَ﴾ [الإسراء: ٣١]. قال تعالى:

٦٠- ﴿لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ مَثَلُ السَّوْءِ وَلِلَّهِ الْمَثَلُ الْأَعْلَىٰ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ^(١٠)﴾

ولما نسب المشركون مثل السوء للنبي ﷺ في شأن الأنثى، بيّن سبحانه أن المثل الناقص المعيب، لا يكون إلا لمن لا يؤمن بالله واليوم الآخر، والله تعالى أعلى الأمثال في قلوب أوليائه، فهم يعظمونه ويجلّونه ويحبوه.

ولما كانت كثرة البنات أمراً مكروهاً ومذموماً عند بعض الناس، فقد نسب المشركون البنات إلى الله تعالى، وجعلوه مماثلاً لأبي البنات من البشر، أخبر الله تعالى أن المثل السيئ لهم على الإطلاق ^(١١).

وفسر أكثرهم المثل بالصفة، فقد بيّن سبحانه أن الصفة السيئة، وهي الحاجة إلى الولد الذكر، وكراهية الأنثى، وخوف الفقر والعار، هذا كله من صفات المخلوقين، سيماً أهل الشرك ممن ينسبون إلى الله سبحانه الصاحبة والولد.

فالذين لا يؤمنون بالآخرة -من منكري البعث، والحساب، والجزاء- لهم الصفة السيئة، والمثل السيئ، وهم أصحاب الحاجة، فالنقص ينسب إليهم لا إلى الله جلّ شأنه، وهذا معنى ﴿لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ مَثَلُ السَّوْءِ﴾ أي: لهم المثل السيئ، والصفة القبيحة التي نسبوها إلى الله تعالى من الشريك والولد، والعجز والجهل، وله سبحانه الصفات العليا، والاستغناء عن خلقه، وهذا معنى ﴿وَلِلَّهِ الْمَثَلُ الْأَعْلَىٰ﴾ فهو سبحانه غني عن خلقه، وهم الذين يحتاجون إلى الولد وإلى غيره.

(١) يُنْظَرُ: «تفسير ابن عطية» (٣/٤٠٢).

﴿وَهُوَ الْعَزِيزُ﴾ الذي لا يُغْلَب ولا يقهر ﴿الْحَكِيمُ﴾ في تدبير شؤون خلقه، يضع الأشياء في مواضعها، فلا يأمر إلا بخير، ولا ينهي إلا عن شر.

ولما ذكر سبحانه ما افتراه الظالمون عليه، ذكر كمال حلمه وصبره:

عَدَمُ التَّعْجِيلِ بِالْعُقُوبَةِ لِلظَّالِمِينَ، مِنْ مَظَاهِرِ رَحْمَةِ اللَّهِ تَعَالَى

٦١- ﴿وَلَوْ يُوَاحِدُ^(١) اللَّهُ النَّاسَ بِظُلْمِهِمْ مَا تَرَكَ عَلَيْهَا مِنْ دَابَّةٍ وَلَكِنْ يُؤَخِّرُهُمْ إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى فَإِذَا جَاءَ أَجْلُهُمْ لَا يَسْتَفْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِرُونَ ﴿١١﴾﴾

ولأنَّ وأد البنات ذنب عظيم، وعمل قبيح شنيع، وأشنع منه نسبة البنات إلى الله تعالى؛ فإن هذه الآية والتي قبلها جاءتا في أثناء الكلام على هذين الذنبتين، فهما كلام معترض فيه توبيخ لهم على كفرهم.

فعرّفت الآية السابقة بأخص عقائدهم، وهو عدم الإيمان باليوم الآخر، ثم أتبع ذلك بالوعيد والتهديد على أقوالهم وأفعالهم في هذه الآية.

والظلم هو الاعتداء على الحق، وأعظمه الاعتداء على حق الخالق سبحانه، وهذا الحق هو حق أفراد الله تعالى بالعبادة، وهؤلاء ظلموا أنفسهم، فأشركوا بالله تعالى؛ حيث جعلوا له ولداً، وهو شرك أكبر، وظلموا غيرهم، فاعتدوا على حياة بناتهم، وقتلوا النفس معصومة الدم التي حرم الله قتلها إلا بالحق، ولو يعاقبهم الله تعالى على هذين الظلمتين لاستأصلهم وأبادهم، واقتضى ذلك إهلاك كل دابة تمشي على وجه الأرض معهم، ولكن الله سبحانه رفع عذاب الاستئصال عن هذه الأمة؛ لأن رسالتها باقية إلى يوم الساعة، وليس لها وقت محدد، كرسالات الأمم التي أهلكها الله تعالى؛ لتكذيبهم رسل الله.

والأخذ -في القرآن- معناه: العقوبة، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ أَخَذَهُ^(١) إِلَهُمُ شَدِيدٌ﴾ [هود: ١٠٢].

وعدم المؤاخذه -هنا- معناها: عدم تعجيل العقوبة لهم في الدنيا؛ بسبب ظلمهم، ويبقى عذابهم مؤجلاً إلى يوم الحساب والجزاء، فيكون الجزاء بالعذاب خاصاً بمن ظلم أو عصى.

(١) أبدل همزة (يؤاخذه) واواً ورش وأبو جعفر، وحققها الآخرون.

كما جاء عن عبد الله بن عمر رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إذا أراد الله بقوم عذاباً أصاب العذاب من كان فيهم، ثم بعثوا على أعمالهم»^(١).

فالعقاب لا ينال البريء في الآخرة، أما في الدنيا فإن الصالحين ينالهم ما أصاب غيرهم؛ لما في ذلك من حكمة يعلمها الله سبحانه، قد يكون ذلك لرضاهم بالباطل أو لسكوتهم عنه، أو لعدم غضبهم لله تعالى، أو لمجاملة أهل الباطل، وعدم نهيمهم عن المنكر لسبب أو لآخر، والله أعلم، كما في الحديث أنه قيل للنبي ﷺ: «أنهلك وفينا الصالحون؟» قال: «نعم إذا كثُر الخبث»^(٢).

ومن حلم الله سبحانه على خلقه، ومن رحمته بهم أنه جلّ شأنه لا يعجل لهم العقوبة في الدنيا، والعلة في ذلك أنه سبحانه لو عجل لهم العقوبة في الدنيا لأهلك الحرث والنسل، وأهلك كل دابة تدب فوق سطح الأرض، قال تعالى: ﴿وَأَتَّقُوا فَتَنَةَ لَا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ خَاصَّةً﴾ [الأنفال: ٢٥] فإن النعمة تعم، والنعمة تخص، والعذاب إذا نزل يقوم فإنه يأتي عليهم أجمعين، وقد أراد الله تعالى البقاء لهذه الأمة، فرفع عنها عذاب الاستئصال.

﴿وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِظُلْمِهِمْ﴾ أي: بسبب كفرهم، وشركهم، وعصيانهم من غير زيادة ولا نقص ﴿مِمَّا تَرَكَ عَلَيْهِمْ مِنْ دَابَّةٍ﴾ أي: ما ترك سبحانه فوق وجه هذه الأرض من دابة تدب، لا إنسان، ولا حيوان، ولا غيرها إلا أهلكه، فإن شؤم المعاصي يهلك الحرث والنسل، كما قال ابن مسعود: كاد الجعل أن يعذب في جحره؛ بسبب ذنب ابن آدم، ثم قرأ الآية^(٣).

فلو كان الله مؤاخذاً الخلق على كفرهم لأفناهم من الأرض، وأفنى دوابهم معهم، قال تعالى: ﴿وَرَبُّكَ الْغَفُورُ ذُو الرَّحْمَةِ لَوْ يُؤَاخِذُهُمْ بِمَا كَسَبُوا لَعَجَلْ لَهُمُ الْعَذَابُ بَلْ لَهُمْ مَوْعِدٌ لَنْ يَجْدُوا مِنْ دُونِهِ مَوْيلاً﴾ [الكهف: ٥٨]

وقال أيضاً: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ غَافِلًا عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الْأَبْصَارُ﴾ [إبراهيم: ٢٢]

(١) «صحيح مسلم» برقم (٢٨٧٩) و«صحيح البخاري» برقم (٧١٠٨).

(٢) من حديث زينب بنت جحش رضي الله عنها في «صحيح البخاري» برقم (٣٥٩٨) و«صحيح مسلم» برقم (٢٨٨٠).

(٣) ابن أبي شيبة (٣٠١/١٣) والطبري (٢٥٩/١٤) والبيهقي (٧٤٧٨).

وفي الآية التي معنا قال جلَّ شأنه: ﴿وَلَكِنْ يُؤَخِّرُهُمْ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ أي: أنه سبحانه يمهّلهم، ولا يهملهم؛ حيث يؤخر عقوبتهم إلى وقت محدد، هو العذاب في الدار الآخرة، أو عند انتهاء آجالهم، فإذا جاء وقت هذا العذاب لا يتقدمون عليه لحظة ولا يتأخرون قال تعالى: ﴿فَإِذَا جَاءَ أَجْلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً﴾ أي: زمنًا يسيرًا ﴿وَلَا يَسْتَفِيدُونَ﴾ وهذا كقوله تعالى: ﴿وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِمَا كَسَبُوا مَا تَرَكُوا عَلَىٰ ظَهْرِهِمَا مِنْ ذَنْبٍ وَلَٰكِنْ يُؤَخِّرُهُمْ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ [فاطر: ٤٥].

الشَّيْطَانُ يُزَيِّنُ الْكُفْرَ لِأَوْلِيَائِهِ

٦٢- ﴿وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ مَا يَكْرَهُونَ وَنَصِفُ أَلْسِنَتَهُمُ الْكَذِبَ أَنَّ لَهُمُ الْمُسَوَّىٰ لَا جَرَمَ أَنَّ لَهُمُ النَّارَ وَأَنَّهُمْ مُّفْرَطُونَ﴾^(١) ﴿١٧﴾

يعجب القرآن الكريم من هؤلاء القوم الذين يجعلون لله ما يكرهونه لأنفسهم من البنات، وينسبونه إلى رب العزة، كما في قوله تعالى: ﴿الْكُفْرُ الذَّكْرُ وَلَهُ الْأُنثَىٰ﴾ ﴿١٦﴾ تِلْكَ إِذَا قِسْمَةٌ ضِيزَىٰ ﴿٢٢﴾ [النجم] أي: إن هذه قسمة جائرة، يقول تعالى: ﴿وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ مَا يَكْرَهُونَ﴾ من البنات ومن الشركاء؛ فالإنسان لا يحب أن يكون له شريك في ماله ولا في رزقه، ولا يحب أن يطاع معه أحد إن كان أبًا، أو مسؤولًا، أو حاكمًا.

وهؤلاء المشركون ينسبون الذي يكرهونه من البنات إلى رب العالمين، ولا يرضون لأنفسهم شريكًا لهم في التصرف، ومع ذلك فقد جعلوا لله شريكًا، ونسبوا له البنات، وجعلوا لله ما لا يرضونه لآلهتهم من الزروع والثمار ﴿فَمَا كَانَتْ إِشْرَكَائِهِمْ فَلَا يَصِلُ إِلَى اللَّهِ وَمَا كَانَتْ لِلَّهِ فَهُوَ يَصِلُ إِلَى شُرَكَائِهِمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾ [الأنعام: ١٣٦].

إنهم يجعلون لله أراذل أموالهم، ولأصنامهم أكرمها، ويميّزون نصيب آلهتهم على ما زعموا أنه نصيب لله، ألا ما أسوأ قولهم! وما أسوأ فعلهم! فهم يجعلون لله ما يكرهونه

(١) قرأ نافع بكسر الراء من (مفروطون) اسم فاعل، من أفرط إذا جاوز الحد، وقرأ أبو جعفر بكسر الراء مشددة من فرط بمعنى: قصر، وقرأ الباقون بفتح الراء مخففة، اسم مفعول، من أفرطته خلفي، أي: تركته ونسيته.

من البنات، والأموال، والشركاء، مع أنهم يكرهون البنات، ويكرهون أن يشاركهم أحد في أموالهم وفي مناصبهم، وهم مع كل هذا يقولون على الله كذبًا: **إِنْ لَهُمُ الْحَسَنَى، أَيْ: لَهُمُ الْجَنَّةُ فِي الْآخِرَةِ، كَمَا يَقُولُ كَافِرُهُمْ: ﴿وَلَيْنَ زُودْتُ إِلَى رَبِّي لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِنْهَا مُنْقَلَبًا﴾ [الكهف: ٣٦]**

وفي الآية الأخرى: **﴿وَلَيْنَ رُجِعْتُ إِلَى رَبِّي إِنَّ لِي عِنْدَهُمُ لِلْحُسْنَى﴾ [فصلت: ٥٠]**.

ومن ذلك قوله تعالى: **﴿أَفَرَأَيْتَ الَّذِي كَفَرَ بِآيَاتِنَا وَقَالَ لَأُوتِيَنَّكَ مَالًا وَوَلَدًا﴾ [مريم]، وقوله: ﴿وَقَالُوا نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَالًا وَأَوْلَدًا وَمَا نَحْنُ بِمُعَذِّبِينَ﴾ [سبأ]**.

هذا كلام الكافر يقرره رب العالمين، فالكافر يزعم كما أنه في الدنيا غني وسعيد، فهو في الآخرة كذلك، له الحسنَى، والنصيب الأوفر، والحظ الأكبر في الدنيا، وله الحسنَى أَيْ: الْجَنَّةُ فِي الْآخِرَةِ، وهذه دعوى كاذبة، كما قال تعالى: **﴿وَنَصِيفُ أَلْسِنَتَهُمُ الْكَذِبَ﴾** أَيْ: أَنَّهُمْ يَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَنْ لَهُمُ حُسْنُ الْعَاقِبَةِ.

ثم قرر سبحانه ما أعدّه لهم في الدار الآخرة فقال: **﴿لَا جَزَاءَ لَهُمُ النَّارُ﴾** فهي مأواهم حقًا، وهي مأواهم ومصيرهم لا محالة **﴿وَأَنَّهُمْ مُّقْرَّنُونَ﴾** أَيْ: مُقَدَّمُونَ وَمُعْجَلُونَ بِهِمْ إِلَى النَّارِ، وفي الحديث: عن جمع من الصحابة: «أنا فرطكم على الحوض»^(١).

فهؤلاء مقدمون إلى النار، ومنسيون فيها، قال تعالى: **﴿فَالْيَوْمَ نَنسِفُهُمْ كَمَا نَسَوُا لِقَاءَ يَوْمِهِمْ هَذَا وَمَا كَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ﴾ [الأعراف: ٥١]**.

وفي الآية وعيد لهم بإلقائهم في النار، وبيان أنهم قد كذبوا في زعمهم أن لهم العاقبة الحسنَى في الآخرة، بل هم مُلْقَوْنَ فِي النَّارِ، متروكون فيها، قال تعالى: **﴿وَأَنَّ الْمُسْرِفِينَ هُمْ أَصْحَابُ النَّارِ﴾ [غافر: ٤٣]**.

(١) «المسند» عن ابن عباس (٢٣٢٧) قال محققوه: حديث صحيح وإسناده ضعيف لضعف ليث بن أبي سليم، وعن ابن مسعود (٣٦٣٩) بإسناد صحيح على شرط الشيخين وعن جندب البجلي (١٨٨٠٩) وعن أبي بكرة (٢٠٤٢١) وعن جابر بن سُمرة (٢٠٨٠٥) وعن سهل بن سعد (٢٢٨٢٢) وحذيفة بن اليمان (٢٣٣٣٧) وأخرجه مسلم (٢٢٩٧) والبخاري (٦٥٧٥) وأبو يعلى (٥١٩٩، ٥١٦٨) وغيرهم، وحديث الحوض من الأحاديث المتواترة، حيث ذكره الكتاني في نظم المتناثر ص (١٥١) عن (٥٧) صحابيًا ذكر أسماءهم.

الْإِنْحِرَافُ فِي الْعَقِيدَةِ لَيْسَ قَاصِرًا عَلَى أُمَّةٍ مُحَمَّدٍ ﷺ:

٦٣- ﴿ثُمَّ لَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَىٰ أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ فَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَهُوَ^(١) وَلَهُمْ أَلِيمٌ وَعَذَابٌ أَلِيمٌ﴾
ختم الله سبحانه هذا السياق ببيان أن الكفار المتحدّث عنهم في الآيات السابقة لهم نظائر في الأمم الخالية، استهوتهم الشياطين وزينوا لهم سوء أعمالهم؛ كقوم عاد، وثمود، واليهود، والنصارى، فهم مضيعون ومتروكون في النار؛ لأنهم نسوا لقاء ربهم، وأهل الكتاب نسبوا لله الولد، وقالوا: إنهم أهل الجنة.

والله ﷻ يبيّن لرسوله ﷺ في هذه الآية أن الانحراف في العقيدة ليس فقط في أمتك، وإنما هو في الأمم السابقة أيضًا، فلا تحزن يا محمد، وهكذا يعزي الله نبيه ﷺ، ويسليه، ويسري عنه، فيقول له: هذا طبع كثير من البشر، ويقسم الله تعالى بذاته على هذا قائلاً: ﴿ثُمَّ لَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَىٰ أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ﴾ أي: أرسلنا رسلاً إلى أقوامهم، فحدث منهم مثل ما حدث في أمتك ﴿فَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ﴾ أي: حسّن لهم الشيطان ما كانوا يفعلونه من مخالفة الرسل وتكذيبهم لهم، ومخالفة منهج الله ﷻ، والابتداع في دينه ما ليس منه ﴿فَهُوَ﴾ أي: الشيطان ﴿وَلَهُمْ أَلِيمٌ﴾ يتولى إغواءهم في الدنيا، ﴿أَفَنَتَّخِذُوهُ ذُرِّيَّتَهُ أُولَٰئِكَ مِن دُونِي وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّ بِئْسَ لِلظَّالِمِينَ بَدَلًا﴾ [الكهف: ٥٠] ومن كان الشيطان وليّه فإنه يخيب، ويهلك يوم لقاء رب العالمين ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ مؤلم موجه.

والمعنى: يقسم الله تعالى بذاته أنه أرسل رسلاً كثيرين قبل محمد ﷺ إلى أمم كثيرة، فاستحوذ الشيطان على عامة الأمم، وحسّن لهم الأفعال القبيحة، وقبح لهم الأعمال الحسنة، حتى وقفوا في وجه الرسل فعارضوهم، وحاربوهم، وتولى الشيطان إغواءهم في الدنيا، فلهم في الآخرة عذاب مؤلم، لأنهم رضوا بولاية الشيطان، وتركوا ولاية الرحمن.

الْقُرْآنُ حُجَّةُ اللَّهِ عَلَى الْخَلْقِ وَالسُّنَّةُ مُبَيِّنَةٌ لَهُ

٦٤- ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحِيمَةً لِّمَنِ أَنْشَأْنَا فِيهِ وَهَدَىٰ وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾
وبعد بيان ضلالات المشركين وشبهاتهم أتبع ذلك بيان الحكمة في رسالة محمد ﷺ،

(١) قرأ قالون وأبو عمرو والكسائي وأبو جعفر بإسكان الهاء من (فهو)، والباقيون بضمها.

وإنزال القرآن عليه؛ حيث يبين الله سبحانه في هذه الآية أنه جلّ شأنه لن يهلك أمة من الأمم إلا بعد أن يقيم عليها الحجة، فيرسل لأهلها الرسل، وينزل عليهم الكتب، ويبين سبحانه أن الكتاب الخاتم، على الرسول الخاتم، يحمل كلمة الفصل بين الأمم جميعاً، وأن الله تعالى أرسل محمداً ﷺ؛ ليوضح للناس ما اختلفوا فيه من الدين والأحكام، لتقوم الحجة عليهم، وفي القرآن هداية للقلوب، ورحمة وشفاء لمن آمن به؛ فقد أنزل هذا القرآن؛ لبيان التوحيد من الشرك، والحق من الباطل، والهدى من الضلال، والخير من الشر، وهو هدى ورحمة لقوم يؤمنون، فيه تمام الهداية للبشر، وفيه كشف للشبهات التي عرضت للأمم الماضية والحاضرة، ومن ذلك ما سبق ذكره من ضلال المشركين، فقد جاء في هذا القرآن على لسان رسول الله محمد ﷺ ما يجليها ويوضحها، ويفندها بما لا يترك للباطل مسلكاً للنفوس.

فوظيفة الكتاب الأخير، ووظيفة الرسالة الخاتمة، هي الفصل بين أصحاب الكتب السابقة وطوائفهم، فيما شجر بينهم من خلاف سيما في شأن العقيدة؛ فالأصل هو التوحيد، وما طرأ على ذلك من شرك أو شبه، كله باطل، وقد جاء القرآن؛ ليوضح الحق فيه، ويستفيد من هذا أصحاب القلوب المفتوحة؛ لتلقي الإيمان والهداية.

الْمَجْمُوعَةُ الثَّانِيَّةُ مِنْ دَلَائِلِ التَّوْحِيدِ فِي السُّورَةِ وَهِيَ سَبْعُ نَعَمٍ

٦٥- ﴿وَاللَّهُ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْبَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَسْمَعُونَ﴾

سورة النحل تحاور الكفار والملحدين فتقيم لهم مجموعة من الأدلة على وحدانية الخالق سبحانه، وعلى عظيم قدرته وآثاره في هذا الكون، على نحو ما سبق في السورة.

وفي فوج من هذه الأدلة وهذه النعم، يذكر الله تبارك وتعالى أربعة أنواع من الأشربة التي امتن الله بها على الإنسان وهي:

١- نعمة الماء الذي ينزل من السماء.

٢- ونعمة اللبن الذي يخرج من بين الفرث والدم.

٣- ونعمة الرزق الحسن الذي يخرج من النخيل والأعناب.

٤- ونعمة الغسل الذي يخرج من بطون النحل.

٥- ونعمة الخلق. ٦- ونعمة الرزق. ٧- ونعمة الزواج والتناسل.

النَّعْمَةُ الْأُولَى: نِعْمَةُ الْمَاءِ

﴿وَاللَّهُ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً﴾ فالسمااء هي مصدر المياه، وبه يحيي الله الأرض بعد موتها، ومن خصائص الإله الحق أنه يحيي الموتى، فالذي لا يخلق ولا يرزق، ولا يحول الموت إلى حياة ليس بإله، ومن يفعل هذا غير الله؟

فالله تعالى هو المنعم بإنزال المطر، وإنبات النبات، وهو الذي يحيى الأرض بعد موتها، وهو على كل شيء قدير، فهو وحده الجدير بالعبادة دون سواه.

وقد سبق ذكر هذه النعمة في السورة، في قوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً لَكُمْ مِنْهُ شَرَابٌ وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ ﴿١٥﴾ يُنْبِتُ لَكُمْ بِهِ الزَّرْعَ وَالزَّيْتُونَ وَالنَّخِيلَ وَالْأَعْنَابَ وَمِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿١٦﴾﴾.

ولكن الاستدلال في الآية السابقة كان استدلالاً بتكوين الماء وخلقه، وهو من أدلة انفراد الله تعالى بالخلق.

أما في الآية التي معنا فلا استدلال بها جاء في معرض الامتنان بنعمة الماء على الخلق، والاعتبار بإحياء الأرض بعد موتها.

ويتضح هذا المعنى في ختام الآية بقوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً﴾ دالة على وحدانية الله تعالى، وكمال قدرته ﴿لِقَوْمٍ يَسْمَعُونَ﴾؛ لأن السماع آلة التدبر، والاعتبار.

وفيه ذم وتعريض بالمشركين الذين لم يفهموا أدلة التوحيد، وهي دلائل واضحة ظاهرة لا يصد عنها إلا مكابر، وهذا كقوله تعالى: ﴿وَتَرَى الْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأُتْبِتَتْ مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ﴾ [الحج: ٥].

والمعنى: والله أنزل من السحاب مطراً، فتحوّلت الأرض بسبب نزول هذا المطر عليها من أرض جديباء قاحلة إلى أرض خضراء رابية، فأخرج به النبات من الأرض، إن في إنزال الماء من السماء، وفي إحياء الأرض بعد موتها، وفي إخراج النبات من الأرض، لدليلاً واضحاً -على وحدانية الله تعالى، وعلى بعث الناس بعد موتهم- لقوم يتدبرون، ويتعظون، ويطيعون الله ورسوله.

النِّعْمَةُ الثَّانِيَّةُ: نِعْمَةُ اللَّبَنِ الَّذِي يَخْرُجُ مِنْ بَيْنِ الْفَرْثِ وَالدِّمِّ

٦٦- ﴿وَإِنَّ لَكُمْ فِي الْأَنْعَامِ لَعِبْرَةً لِّتُنْقِضُوا^(١) مِمَّا فِي بُطُونِهِ مِنْ بَيْنِ فَرْثٍ وَدَمٍ لَبَنًا خَالِصًا سَائِغًا لِلشَّارِبِينَ﴾

﴿وَإِنَّ لَكُمْ فِي الْأَنْعَامِ﴾ التي خلقها الله وسخرها لمنافعكم ﴿لَعِبْرَةً﴾ تستدلون بها على كمال قدرة الله تعالى، حتى أسقاكم من بطونها المشتملة على الفَرث والدم لبنًا خالصًا، فبالألبان يحيا الإنسان، وبالماء تحيا الأرض، ويحيا الإنسان والحيوان، والماء هو المؤثر في تكوين الألبان بالمرعى، وفي ذلك إدماج للتذكير بنعم الله تعالى على الإنسان، مع أخذ العبرة والعظة منها، قال تعالى: ﴿شُقِّيقُكُمْ مِمَّا فِي بُطُونِهِ﴾ فقد ذَكَرَ الضمير هنا؛ لإفادة الجمع، باعتبار لفظ الأنعام، فهو مفرد.

وفي سورة (المؤمنون) ﴿شُقِّيقُكُمْ مِمَّا فِي بُطُونِهَا﴾ [آية: ٢١] أَنْتَ ضمير الجمع باعتبار المعنى، فالأنعام مؤنث، وهكذا أسماء الأجناس يجوز فيها الوجهان.

وهذه الآية من أعظم الأدلة على وحدانية الله تعالى وتفردة بالخلق، واستحقاقه للعبادة دون سواه.

والأنعام: هي الإبل، والبقر، والغنم، فيها عبرة دالة على وحدانية الخالق سبحانه، فهي عبرة في خلقها، وفي تسخيرها، إنها منقادة ومذللة للإنسان بقدرة الله تعالى، فأنت ترى الطفل الصغير يسحب الجمل الضخم، ويسير الجمل خلفه طائعًا مذللاً مسخرًا، فكيف لا تُسَخَّرُونَ لخالقكم أيها الناس فتوحده وتعبده؟ وكيف لا تتقادون لمن رزقكم، وأوجدكم من العدم؟ وهو الذي يسقيكم مما في بطون هذه الأنعام من بين فرث ودم.

﴿لَبَنًا خَالِصًا سَائِغًا لِلشَّارِبِينَ﴾ وليس المراد أن اللبن يخرج سائلاً بين طبقتي الفرث والدم، وإنما المراد أنه وسط بين مرتبتين، كما يقال: الشجاعة صفة بين التهور والجبن، واللبن ألين من الدم لا يبقى في عروق الضرع كبقاء الدم في العروق، وليس بفضلة كالروث، إنه إفراز طاهر نافع مغذٍّ، وليس قذراً ضاراً غير صالح للتغذية؛ كالبول، والفضلات.

(١) قرأ نافع وابن عامر وشعبة ويعقوب بنون مفتوحة في (نسقيكم) مضارع سقى، ومنه (وسقاهم ربه)، وقرأ أبو جعفر بياء مفتوحة، على التأنيث، مسند إلى ضمير الأنعام، وقرأ الباقون بنون مضمومة، مضارع أسقى ومنه (فأسقيناكموه).

قالوا: إن العلف، أو الغذاء الذي يكون في كرش الأنعام يُكوّن منه الدم، فيجري في العروق.

ويكوّن منه اللبن، فيجري في الضروع.

ويكوّن منه البول، فيجري في المثانة.

ويكوّن منه الروث، فيجري إلى المخرج في الكرش، فإذا خرج منه يسمى زبلًا، ولا

يقال له: روث.

والفرث يكون أسفل، والدم يكون أعلى، واللبن يخرج من بينهما، لبنًا خالصًا غير مشوب بحمرة الدم، وغير مشوب بطعم الروث، لونه صاف، ورائحته زكية، فلا يتأثر بلون الفرث والدم، ولا برائحتهما؛ لأن بينهما حاجزًا بقدرة الله تعالى، فمن الذي علّم محمدًا ﷺ هذا؟ وهي حقيقة علمية لم تكن معروفة طيبًا في ذاك الوقت، ولم تُعرف إلا من وقت قريب، والنبي ﷺ أمّي، فمن الذي أعلمه بهذا؟

ومن الذي يقلب العلف الذي تأكله البهيمة، والشراب الذي تشربه من الماء العذب والملح لبنًا خالصًا سائغًا للشاربين.

في حديث ابن عباس ؓ: عند أبي داود وغيره: «إذا أكل أحدكم طعامًا فليقل: اللهم بارك لنا فيه، وأطعمنا خيرًا منه، وإذا سقي لبنًا فليقل: اللهم بارك لنا فيه، وزدنا منه، فإنه ليس شيء يجزئ عن الطعام والشراب إلا اللبن»^(١).

فاللبن قوام الأجسام، وهو أول ما يتغذى به الطفل حين يخرج من بطن أمه، وينمو به بدنه، واللبن دليل الفطرة، وعلامة الهداية لهذه الأمة، فقد صحّ في حديث الإسراء عن أنس ؓ أن النبي ﷺ قال: «فجاءني جبريل بإناء من خمر، وإناء من لبن، فاخترت اللبن، فقال لي جبريل: اخترت الفطرة، ولو اخترت الخمر لغوث أمتك»^(٢).

(١) «صحيح سنن أبي داود» (٣١٧٣) و«صحيح سنن ابن ماجه» (٣٣٢٢) و«مشكاة المصابيح» (٤٢٨٣) وهو حديث حسن.

(٢) الحديث في «صحيح البخاري» (٧٥١٧) و«صحيح مسلم» (١٦٢) و«المسند» (١٢٥٠٥).

النَّعْمَةُ الثَّالِثَةُ: نِعْمَةُ ثَمَرَاتِ النَّخِيلِ وَالْأَعْنَابِ

٦٧- ﴿وَمِنْ ثَمَرَاتِ النَّخِيلِ وَالْأَعْنَابِ تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَرًا وَرِزْقًا^(١) حَسَنًا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾

أي: ولكم - أيها الناس - فيما يخرج من النخيل، والأعناب عبرة نسقيكم منها، وهي من نعمنا عليكم، فقد جعل الله لعباده من ثمرات النخيل والأعناب منافع للعباد ومصالح من أنواع الرزق الحسن الذي يأكله العباد طرياً ونضيجاً، طعاماً وشراباً.

والسَّكْر هو السُّكْر، وهو ما يتخذ من التمر، والعنب مما يُسَكَّر من الخمر، أو النبيذ. وكان الناس يسمون الخمر سَكْرًا، وكانوا يشربونها، ثم سماها الله بعد ذلك الخمر حين حرمت^(٢).

والرزق الحسن: جميع ما يؤكل وما يُشْرَب حلالاً من النخيل والعنب، مثل: الدبس، والتمر، والزبيب، والخل، مما يخرج من النخيل والأعناب.

وهذه آية مكية، نزلت في مكة، في سورة مكية، وهي تشير إلى ما يُسَكَّر ويغطي العقل، وهو الخمر. والخمر حُرمت في المدينة في آيات الخمر الثلاث من سور: البقرة، والنساء، والمائدة.

وجاء التحريم لها قاطعاً في سورة المائدة، وهذه الآية من سورة النحل هي أول آية نزلت توطئة لتحريم الخمر، وهي الآية الأولى في مراحل تحريمها، وقد نزلت هذه الآية في مكة تدم الخمر وتعيبه، وتصف الواقع الذي كان عليه المجتمع الجاهلي.

فالقرآن يصف الرزق الذي يخرج من النخيل والعنب، بأنه رزق حسن، مثل: التمر، والدبس، والزبيب، ويُشْنِي عليه، ويسكت عن السُّكْر ذمّاً وتقبيحاً له، فإذا أثبت على إنسان وتركت آخره، فمعنى ذلك: أنك تشير إلى ذم الآخر.

فالقرآن يشير من بُعد في هذه الآية إلى تحريم الخمر، في مرحلة من مراحل

(١) قرأ خلف عن حمزة بعدم الغنة في (سكراً وريزقاً). والباقون بالغنة مع الإدغام.

(٢) الطبري (٢٨١/١٤).

تحريمها^(١)، والخمر ليست من الرزق الحسن.

وإلى الرزق الحسن تشير آيات كثيرة، منها قوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا فِيهَا جَنَّاتٍ مِّنْ نَّخِيلٍ وَأَعْنَابٍ وَفَجْرْنَا فِيهَا مِنَ الْعُيُونِ ﴿٣٤﴾ لِيَأْكُلُوا مِنْ ثَمَرِهِ وَمَا عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ أَفَلَا يَشْكُرُونَ ﴿٣٥﴾﴾ [يس]
ومن ذلك قوله تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ نَبَاتَ كُلِّ شَيْءٍ فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِرًا نُّخْرِجُ مِنْهُ حَبًّا مُّتَرَاكِبًا وَمِنَ النَّخْلِ مِن طَلْعِهَا قِنْوَانٌ دَانِيَةٌ وَجَنَّاتٍ مِّنْ أَعْنَابٍ وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَّانَ مُشْتَبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَبِهٍ انظُرُوا إِلَى ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَيَنْعِهِ﴾ [الأنعام: ٩٩].

وجاء ذكر العقل في نهاية الآية؛ لأنه أشرف ما في الإنسان، وقد حرم الله الأشربة المسكرة على الناس صيانة لعقولهم، وفيها دليل على قدرة الله تعالى لقوم يعقلون البراهين فيعتبرون بها.

النَّعْمَةُ الرَّابِعَةُ: نِعْمَةُ الْعَسَلِ يَخْرُجُ مِنْ بُطُونِ النَّحْلِ

٦٨، ٦٩ ﴿وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ أَنِ اتَّخِذِي مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا ﴿٦٨﴾ وَمِنَ الشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ ﴿٦٩﴾ ثُمَّ كُلِي مِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ فَاسْلُكِي سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلًا يَخْرُجُ مِنْ بُطُونِهَا شَرَابٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَنُهُ فِيهِ شِفَاءٌ لِلنَّاسِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٦٩﴾﴾

يقولون: ورق التوت يأكله الدود، فيخرج حريراً، ويأكله الطيبي فيخرج مسكاً، ويأكله النحل فيخرج عسلاً، ويأكله الماعز فيخرج روثاً، سبحان الخلاق العليم!

﴿وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ﴾ المراد بهذا الوحي: وحي الإلهام، والفطرة، والغريزة كوحي الله تعالى لأم موسى، وهناك وحي الرؤيا في المنام، ووحى الله إلى الأنبياء عن طريق جبريل ﷺ، والوحي بمعنى: الأمر، كما قال تعالى: ﴿بَٰنَ رَبِّكَ أَوْحَىٰ لَهَا ﴿٥﴾﴾ [الزلزلة].

(١) قال بهذا ابن عباس وابن مسعود وابن عمر والحسن وابن جبير وإبراهيم النخعي ومجاهد والشعبي وأبو زيد، وقال الطبري: لا مدخل للخمر في ذلك، يُنظر: «تفسير ابن عطية» (٤٠٥/٣) والألوسي (١٤/١٨٠) والقرطبي (١٢٨/١٠).

(٢) قرأ ورش وأبو عمرو وحفص وأبو جعفر ويعقوب بضم الباء من (يُوتَا)، والباقون بكسرها.

(٣) قرأ ابن عامر وشعبة بضم الراء من (ومما يعرُشون)، والباقون بكسرها، وهما لغتان.

ووحى الله إلى النحل، وحي إلهام باتفاق، أوحى لها بمعنى: ألهمها، وأرسلها إلى أن تتخذ لنفسها بيوتًا، يستوي في ذلك النحل الوحشي الذي يسكن الجبال والشجر، ويأوي إلى الكهوف، أو النحل الأهلي الذي يسكن البيوت ويربيه الناس، وكلُّ منهما يعمل بإلهام فطري، أودعه فيه الخالق سبحانه، فمن الذي علّم النحل فألهمه أن يتخذ لنفسه بيتًا سداسيًا، غير ثُماني ولا سُباعي، بل سداسي متساوي الأضلاع، ليس فيه فُرْجة ولا منفذ للحشرات، ثم تُغطّي سطح المسدسات بمادة دُهنية، هي مادة الشمع؛ لئلا تمنع تسرّب العسل منه، بعد أن تكسوه بالشهد؟!!

بيت دقيق مُحكم ينسجه النحل بنفسه، فمن الذي ألهمه رشده؟ إنه رب العالمين.

ألهم الله النحل أن يتخذ له أميرًا مطاعًا نافذ الحكم فيه، هو ملكات النحل، فمن الذي ألهمه هذا؟

ألهم الله النحل أن يجعل لكل خلية بوابًا حارسًا عند باب الخلية، بحيث لا يدخلها أحد من النحل الآخر من غير أبيها، فمن الذي ألهمه بأن يتخذ له ملكات، ويتخذ له حراسًا؟

ألهم الله النحل أن يخرج من عشّه، ومن وكُره وبيته؛ ليلتقط أرزاقه، فيخرج نوعيّة العسل تبعًا لما يأكل، عسل أصفر، أو أحمر، أو أبيض، أو أسود، وبين ذلك، ويخرج منه عسل الزهور، وعسل السدر، والعسل الجبلي، وغير ذلك، مختلفًا ألوانه، ثم يبنى لنفسه مساكن في الجبال والأشجار والعرائش، فأوحى الله إلى النحلة ﴿أَنْ تَخْزِيَ مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ الشَّجَرِ﴾ هي أماكن بيوت النحل ﴿وَمِمَّا يَعْرِشُونَ﴾ أي: مما يعرشه الإنسان ويصنعه من البيوت التي يعدها للنحل، في سقف بعض البيوت في الريف أو في المزارع، ونحو ذلك، مما يعده الناس للنحل، أو يعده النحل لنفسه، كشجر العنب، وتجويف الشجر، وفجوات الجبال.

- وألهم الله النحلة أن تأكل شيئًا، أو جزءًا من كل ثمرة تشتهيها، تأكل من بعض الثمرات التي يتاح لها الأكل منها من سدر، وزهور، وغير ذلك؛ فالنحلة تنتقل من زهرة إلى زهرة، ومن روضة إلى روضة؛ لتمتص من الأزهار قبل أن تصبح ثمرات، فإذا شبعت رجعت إلى بيتها فقذفت ما في بطنها من العسل.

وذلك أن للأزهار غدداً دقيقة، تفرز سائلاً سكرياً تمتصه النحلة، وتملاً به ما يشبه الحوصلة التي في بطنها، فيختلط هذا الزهر بما أودع الله في بطن النحلة من مواد، فيأخذ جسمها ما يحتاجه من قوة، ثم تُخرج من فمها ما حصل في بطنها، وقد ذلّل الله لها الطريق الوعرة، تسلكها هذه الحشرة الضعيفة، وهي تخرج من بيتها، ثم تعود، ولا تضل الطريق، وفي العسل شفاء للناس من كل داء، ومن كل مرض.

قال أهل العلم: ليس فيه شفاء من كل داء، ولا في كل الأحوال، ولو أراد الله ذلك لقال: فيه الشفاء بالتعريف.

والجمهور على أن فيه شفاء من بعض الأمراض وفي بعض الأحوال، ولا يقتضي العموم في كل علة وفي كل إنسان.

جاء في الأثر عن ابن مسعود رضي الله عنه: «عليكم بالشفاءين، العسل والقرآن»^(١).

كما قال تعالى: ﴿وَنَزَّلْنَا مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ [إسراء: ٨٢].

وقال سبحانه: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمْ مَوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَاءٌ لِّمَا فِي الصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ [يونس].

وقال عليه السلام فيما يرويه ابن عباس رضي الله عنه: «الشفاء في ثلاثة: في شرطة محجم، أو شربة عسل، أو كية بنار، وأنا أنهي أمتي عن الكي»^(٢).

وفي الصحيحين: عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه أن رجلاً أتى النبي ﷺ، فقال: أخي يشتكي بطنه، فقال: «اسقه عسلاً»، ثم أتاه الثانية فقال: «اسقه عسلاً»، ثم أتاه الثالثة فقال: «اسقه عسلاً»، فقال قد فعلت، فقال: «صدق الله وكذب بطن أخيك، اسقه عسلاً»، فسقاه، فبرأ^(٣).

(١) من حديث ابن مسعود في «سنن ابن ماجه» برقم (٣٤٥٢) ورواه ابن جرير (٩٤/١٤) موقوفاً، والحاكم (٣٠٤/٤) والبيهقي في «الشعب» (٢٥٨١) وضعفه الألباني في «ضعيف سنن ابن ماجه» (٧٥٦).

(٢) من حديث ابن عباس في البخاري برقم (٥٦٨١) واللفظ له، (٥٦٨٠) ومسلم برقم (٥٦٨١) و«المسند» (١٤٦/٤) برقم (٢٢٠٨) وابن ماجه (٣٤٩١).

(٣) البخاري برقم (٥٦٨٤، ٥٧١٦) وهذا لفظه ومسلم برقم (٢٢١٧) و«المسند» (١١١٤٦).

لقد كان الذي في بطن أخيه حالة إسهال، فسقاه عسلًا، فازداد الإسهال، فرجع إلى النبي ﷺ، فقال له: اسقه عسلًا ثلاث مرات، وكلما سقاه ازداد بطنه إسهالًا.

قال أهل العلم: إن الرجل كان بيطنه فضلات، وإن هذا العسل الحار حلل هذه الفضلات فاندفعت نحو الخروج، وكلما شرب استطلق وزاد إسهاله، حتى إذا عوفي وخرج المرض، استمسك بطنه وبرئ في المرة الرابعة.

ومن العجيب يقين النبي ﷺ بأنه سيشفى! فمن الذي علّمه أن العسل فيه شفاء، ولم يكن هذا معروفًا للناس من الناحية الطبية؟ من الذي جعل الرسول ﷺ على يقين وثبات من أمره، حتى يراجع الرجل في المرات الأربع فيقول له: «اسقه عسلًا»، ثم يقول له: «صدق الله وكذب بطن أخيك، اسقه عسلًا»؟ فكان الواقع كما أخبر المصطفى ﷺ.

وعن عائشة ؓ أن النبي ﷺ كان يعجبه الحلواء والعسل^(١).

وعن جابر بن عبد الله ؓ قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إن كان في شيء من أدويتكم خير ففي شرطة محجم، أو شربة عسل، أو لذغة بنار توافق الداء، وما أحب أن أكتوي»^(٢).

قال علي بن أبي طالب ؓ يصف حقارة الدنيا: أشرف لباس ابن آدم فيها لُعاب دودة، وأشرف شرابه رجيع نحلة^(٣).

وفيما ذكره الله تعالى من إلهام النحل اتخاذ البيوت العجيبة، ومن إدارتها لشؤون حياتها، ومن خروج النحل من بطونها، وغير ذلك دلالات قوية على قدرة خالقها لقوم يتفكرون، فيعتبرون.

(١) البخاري برقم (٥٦٨٢) ومسلم برقم (١٤٧٤) مطولًا واللفظ للبخاري وقريبًا منه في «السنن الكبرى» للنسائي (٧٦٠٣).

(٢) «صحيح البخاري» برقم (٥٦٨٣، ٥٦٩٧، ٥٧٠٢، ٥٧٠٤) و«صحيح مسلم» برقم (٢٢٠٥). وينحوه عن معاوية بن خُذَيْج في مسند أحمد (٢٧٢٥٦) وهو حديث صحيح رجاله ثقات.

(٣) «تفسير ابن عطية» (٤٠٦/٣).

النَّعْمَةُ الْخَامِسَةُ: نِعْمَةُ خَلْقِ الْإِنْسَانِ

٧٠- ﴿وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ ثُمَّ يَوَفِّقُكُمْ وَمِنْكُمْ مَنْ يُرَدُّ إِلَى أَرْدَلِ الْعُمُرِ لِكَيْ لَا يَعْلَمَ بَعْدَ عِلْمٍ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ قَدِيرٌ﴾

ثم انتقلت الآيات من الاستدلال بدقائق صنع الله تعالى على وحدانيته سبحانه إلى الاستدلال بتصرف القدرة الإلهية القاهرة في الخلق، بما لا يمكنهم دفع هذا التصرف عنهم، وهو الحياة والموت، والرزق، والتناسل.

فتختتم هذه الأدلة، بالإشارة إلى قدرة الله تعالى؛ فهو سبحانه يخلقهم بدون اختيار، ويتوفاهم على كره منهم.

وقد تحدثت الآيات السابقة عن أربع من نعم الله ﷻ على الإنسان، وهي: نعمة الماء، ونعمة اللبن الذي يخرج من بين الفرث والدم، ونعمة ثمرات النخيل والأعناب، ونعمة العسل الذي يخرج من بطون النحل.

ثم ساق الله ﷻ بعد ذلك ثلاث نعم أخرى عامة، تشمل الناس جميعاً من المهد إلى اللحد، تضاف إلى النعم السابقة، وهي: نعمة الخلق والوجود في هذه الحياة، ونعمة الرزق الذي رزقه الله ﷻ للإنسان، ونعمة الزواج والتناسل الذي يبقى به الإنسان ويستمر وجوده في الدنيا إلى أن تقوم الساعة.

﴿وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ﴾ من العدم، ولم تكونوا شيئاً، وهبكم هذه الحياة؛ لأداء وظيفة معينة هي طاعة الله تعالى وعبادته، كما قال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِعِبَادُونَ﴾ [الذاريات].

لقد كان من الممكن أن يخلق الله الإنسان تراباً يداس تحت الأقدام، وكان من الممكن أن يخلق الله الإنسان دابة تركب، ولكنه جلَّ شأنه خلقه خلقاً مميزاً، إنساناً كَرَّمَهُ، وفضَّله، وجعله في أحسن تقويم، فوجب عليه أن يشكر هذه الهبة، هبة الحياة التي امتنَّ الله عليه بها، ويقوم بأداء المهمة أو الوظيفة التي خُلق من أجلها.

﴿وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ﴾ من نطفة وجعلها أطواراً حتى كنتم بشراً سوياً ﴿ثُمَّ يَوَفِّقُكُمْ﴾ أي: عند انقضاء آجالكم، ومنكم من يموت وهو طفل، أو صبي، أو شاب، أو كهل، أو شيخ؛ حيث يُرَدُّ إلى أَرْدَلِ الْعُمُرِ، ويبقى فوق متوسط أعمار هذه الأمة، ومتوسط أعمار الأمة،

كما بيّن النبي ﷺ ما بين الستين والسبعين، فالذي يُرد إلى أرذل العمر هو الذي يعيش بعد هذه المدة، أي: فوق السبعين عامًا، والقرآن الكريم سماه أرذل العمر، ووصفه بهذه الصفة؛ لأنه نقص لا يكتمل، ولأنه لا رجعة منه إلى الشباب مرة أخرى، ولأن الإنسان يزداد فيه ضعفًا بعد ضعف، حتى إنه ينسى ما كان يعلمه، وقد كان من طفولته يزداد قوة بعد قوة ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا وَشَيْبَةً يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ﴾ [الروم: ٥٤] فمنكم من يبقى محتفظًا بقوة جسده وعقله حتى يموت، ومنكم من يعتريه الضعف والنقص.

قالوا: إن الإنسان يمر في حياته بأربع مراحل من العمر، منذ أن يولد إلى أن يصل سن الثالثة والثلاثين.

يكون طفلًا، ثم صبيًا، ثم مراهقًا، ثم شابًا، ثم يبلغ أشده، وهو قوة الشباب واكتماله.

ومن الثالثة والثلاثين إلى سن الأربعين يبلغ رشده وكمال القوة البدنية والعقلية.

ومن الأربعين إلى الستين يمرُّ بفترة الكهولة، ثم من الستين إلى أن يموت وهي فترة الشيخوخة، وقد ضبط العلماء هذه المراتب كما يلي:

أولها: سن النشوء والنماء.

وثانيها: سن الشباب، وهذا من ثلاث وثلاثين سنة إلى أربعين سنة.

وثالثها: سن الكهولة، وهو من الأربعين إلى الستين.

ورابعها: سن الشيخوخة، من الستين إلى نهاية العمر^(١) فيرد إلى أرذل العمر؛ حيث تفقد بعض حواس الإنسان شيئًا من مهامها، فيقل العقل، ويقل الإدراك، ويضعف البدن، وهذا يختلف باختلاف أحوال الناس، ومدى سلامتهم من العلل والأمراض، ومدى اتصالهم بالله تعالى وقربهم منه.

وقد بيّن الله سبحانه ذلك في قوله: ﴿لَكَ لَا يَعْلَمُ بَعْدَ عِلْمٍ شَيْئًا﴾ وفي قوله: ﴿لِكَيَلَا يَعْلَمَ مِنْ بَعْدِ عِلْمٍ شَيْئًا﴾ [الحج: ٥] إنه ينسى ما كان قد علم، وتضعف قواه العقلية وإدراكه.

(١) يُنظَر: «تفسير الفخر الرازي» (٣٣٢/٥).

قال عكرمة: من قرأ القرآن لا يرد إلى أرذل العمر؛ حتى لا يعلم بعد علم شيئاً^(١).
أي: لا ينسى، ولا تضعف قواه العقلية.

وفي قوله سبحانه: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾ تَرَدَّدَتْ أَسْفَلَ سَفَلَيْنِ ﴿٥﴾.

يعني: رددناه إلى أرذل العمر، قال تعالى: ﴿إِلَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ [التين].

قال عكرمة: هم الذين قرؤوا القرآن، أي: لا يردون إلى أرذل العمر، ولا ينسون ما فاتهم، ولا ينسون القرآن.

وكان النبي ﷺ يستعيز بالله أن يرده إلى أرذل العمر، كما في حديث أنس ؓ:

«اللهم إني أعوذ بك من العجز والكسل، والجبن والهزم والبخل، وأعوذ بك من عذاب القبر، وأعوذ بك من فتنة المحيا والممات»^(٢).

وعن سعد بن أبي وقاص أن رسول الله ﷺ قال: «اللهم إني أعوذ بك من الجبن، وأعوذ بك أن أرد إلى أرذل العمر، وأعوذ بك من فتنة الدنيا، وأعوذ بك من عذاب القبر»^(٣).

قرأت في مجلة الدعوة السعودية عن رجل مريض في مدينة الرياض، كان يعالج سكرات الموت وقد نسي كل شيء حوله، وكان ابنه يسأله عن زواره الذين يحيطون به، فلا يعرف أحداً منهم، وكان هذا الرجل يحفظ القرآن، فكان الابن يقرأ القرآن وهو جالس عنده، وبمجرد أن يخطئ الابن يرد عليه الأب خطأه، وهو يعاني من سكرات الموت.

والله تعالى قد أحاط علمه وقدرته بكل شيء، فالله الذي رده إلى هذه الحالة قادر على أن يميته، ثم يبعثه.

النَّعْمَةُ السَّادِسَةُ: نِعْمَةُ الرِّزْقِ

٧١- ﴿وَاللَّهُ فَضَّلَ بَعْضَكُمْ عَلَى بَعْضٍ فِي الرِّزْقِ فَمَا الَّذِينَ فُضِّلُوا بِرَادِّي رِزْقِهِمْ عَلَى مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَهُمْ فِيهِ سَوَاءٌ أَفَبِعِزَّةِ اللَّهِ يَتَحَدَّوْنَ﴾^(٤) ﴿٧١﴾

(١) ابن أبي شيبة (١٠/١٤/٥٤).

(٢) يُنْظَرُ البخاري برقم (٢٨٢٣، ٤٧٠٧، ٦٣٦٧) ومسلم برقم (٢٧٠٦) وهذا لفظه.

(٣) البخاري في الجهاد برقم (٢٨٢٢، ٦٣٦٥، ٦٣٧٠) ومسلم في الذكر (٢٧٠٦) عن أنس، والنسائي (٨/٢٥٦).

(٤) قرأ شعبة ورويس بالتاء في (يتحدون)؛ لمناسبة (فضل بعضكم)، وقرأ الباقرن بالياء؛ لمناسبة (فما الذين فضلوا).

أي ومن دلائل التوحيد تفضيل بعض الناس على بعض في الرزق، وكلهم مشتركون في الخلق والرزق، ﴿فَأَنْتُمْ فِيهِ سَوَاءٌ﴾ [الروم: ٢٨] إلا أن الله تعالى جعل منهم الثري والفقير، والحر، والرقيق الذي لا يملك شيئاً.

وهكذا: فالله ﷻ قد فاوت بين خلقه في الأرزاق الحاصلة لجميع الخلق على كل حال، والتفضيل إنما هو في التفاوت بينهم؛ فهم متفاوتون في مقادير الأرزاق ﴿وَاللَّهُ فَضَّلَ بَعْضُكُمْ عَلَى بَعْضٍ فِي الرِّزْقِ﴾ اختباراً، وابتلاء للغني والفقير على حد سواء؛ فالمال ابتلاء، والفقير ابتلاء، كلاهما ابتلاء يجري من الله تعالى على غير رغبات الخلق، ومن غير كدّهم ولا سعيهم، فقد يكون أكيس الناس أفقرهم، وأسفهم أغناهم، وإن من عباد الله من لو أغناهم الله لفسد حالهم، كما قال تعالى: ﴿كَلَّا إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنَّا كَافٍ﴾ ٧ ﴿إِنَّ إِلَهَكُمْ رَحْمَنٌ﴾ ٨ ﴿العلق﴾.

وقال سبحانه: ﴿وَلَوْ بَسَطَ اللَّهُ الرِّزْقَ لِعِبَادِهِ لَبَغَوْا فِي الْأَرْضِ وَلَكِنْ يُنْزِلُ بِقَدَرٍ﴾ [الشورى: ٢٧].

ونعمّ المال الصالح للعبد الصالح، فهو مغبوط على نعمة الله عليه، وهو الذي يؤدي شكر الله تعالى، ويؤدي واجب هذا المال عليه، فلا يطغى، ولا يفسد حاله، ولكنه ينفع به إخوانه المسلمين، ويسخره في العمل الصالح، وفي وجوه الإنفاق المشروعة.

وهذا أمر يثني عليه رسول الله ﷺ، ويمدحه الإسلام: «نعمّ المال الصالح للعبد الصالح»^(١) «والغني الشاكر خير من الفقير الصابر»؛ لأن الأول يتعدى نفعه، بخلاف الآخر فنفعه خاص به، وقد أسند الله سبحانه التفضيل في الرزق إليه سبحانه؛ لأن أسبابه خارجة عن إحاطة عقول البشر.

والآية واضحة وصریحة في أن الله سبحانه فضل بعض الناس على بعض في الرزق،

(١) قال الألباني في السلسلة الضعيفة برقم (٢٠٤٢): إسناده صحيح، وهو في موارد الظمان للهيتمي برقم (١٠٨٩)، وأخرج أحمد نحوه في المسند (١٧٧٦٣) بإسناد صحيح على شرط مسلم، عن عمرو بن العاص، وكذا الطحاوي في شرح المشكل (٦٠٥٦) وابن حبان (٣٢١٠) والطبراني في الأوسط (٣٢١٣) والحاكم (٢٣٦/٢) والبيهقي (٢٤٩٥).

وهذا إبطال للمذهب الاشتراكي الماركسي البائد الذي يقول: إن الناس سواسية تشترك في الأموال، وكانوا يطبقون ذلك على غيرهم من عامة الشعب.

وكم من أناس استخدموا هذه الآية وآية سورة الحشر ﴿كَيْ لَا يَكُونَ دُولَةً بَيْنَ الْأَغْنِيَاءِ مِنكُمْ﴾ وألفوا كُتُبًا استدلوها فيها بهاتين الآيتين على مدح الاشتراكية، وقالوا: إن (عمر) هو أبو الاشتراكيين!! وهؤلاءهم الذين يتلمسون في نصوص الشرع ما يرضى الحكام!!.

والله ﷻ له حكمة في تفاوت الأرزاق، بينها جل شأنه في قوله: ﴿لَنَحْنُ قَسَمًا بَيْنَهُمْ مَعِيشَتُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ﴾ أي: في الأموال، وفي المتاع، وفي الجاه، وفي العقل والإدراك، وفي الصحة والقوة، وفي الجاه والسلطان، وغير ذلك.

وقد بين الله سبحانه العلة في ذلك، فقال: ﴿لِيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضًا سُخْرِيًّا﴾ [الزخرف: ٣٢] ليس هذا من السخرية، بمعنى: الاستهزاء، وإنما هو من التسخير، فلو كان الناس سواسية في الرزق لَمَا عمل هذا عند هذا، ولا استمع هذا إلى كلام هذا، ولا قبل إدارته، ولم يقبل أن يكون خادماً، أو صانعاً، أو موظفاً، أو عاملاً عند الآخر؛ فالله تعالى يسخر هذا إلى هذا، ويسخر هذا في خدمة هذا؛ لينتظم الكون، وتدوم الحياة، وليس في وسع العبد إلا الإقرار والرضى بعد بذل الأسباب المشروعة، ولو كان الناس على درجة واحدة في الرزق لما سار ركب الحياة.

قال سبحانه مخاطباً المشركين: ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ لَكُمْ رِزْقًا فَابْتَغُوا عِنْدَ اللَّهِ الرِّزْقَ وَاعْبُدُوهُ وَاشْكُرُوا لَهُ ۚ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ [العنكبوت: ١٧].

وسورة النحل تركّز على جانب التوحيد، وهي من آخر ما نزل من القرآن في مكة، وتركز بالضرورة على ترك الشرك بالله سبحانه، وتذكّر العبد بهذه النعم، وتربطها بوجوب

شكر المنعم المتفضل ﷻ، وتقرن ذلك بأن الشرك، لا يليق بالخلق، وقد أغدق الله عليهم بخيراته، فأنعم عليهم بهذه النعم وغيرها؛ فكيف يليق بهم أن يعبدوا غيره؟! والقرآن يخاطب البشر جميعاً، فلا يخاطب العرب وحدهم، ولا يخاطب أهل الجزيرة وحدها، وإنما يخاطب العالم أجمع.

ولذلك فإن القرآن الكريم فرّع على ما سبق بيانه، من تفضيل بعض الناس على بعض في الرزق، بضرب مثل لأهل الشرك يبيّن فيه فساد عقولهم في تسويتهم بين الخالق والمخلوق؛ حيث أشركوه سبحانه مع آلهتهم، كما كانوا يقولون في الحج: لبيك لا شريك لك إلا شريكاً هو لك تملكه وما ملك.

فمثل سبحانه بطلان عقيدتهم في الشرك بحال الأغنياء الذين لا يقبلون أن يشاركهم في أموالهم ونسائهم، عبيدهم أو خدمهم؛ حتى لا يستوا معهم، فكيف يسؤون بالله عبيده وخلقهم في الإلهية.

وهذا المثل ضربه الله سبحانه أيضاً في سورة الروم، فقال جلّ شأنه: ﴿ضَرَبَ لَكُمْ مَثَلًا مِّنْ أَنفُسِكُمْ هَلْ لَّكُمْ مِّنْ مَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ مِّنْ شُرَكَاءَ فِي مَا رَزَقْنَاكُمْ فَأَنتُمْ فِيهِ سَوَاءٌ﴾ [الروم: ٢٨].

فالمالك لا يقبل أن يعطي المملوك أموالاً تجعله يتساوى معه في المال والمكانة، وكذلك الله سبحانه لا يقبل أن يكون له شريك يتساوى معه في توجّه العباد إليه بالعبادة، وكُلٌّ من الغني والفقير، والمالك والمملوك مربوب ومخلوق لله تعالى، وهم أمام رزقه سواء، فقوله تعالى: ﴿فَمَا الَّذِينَ فُضِّلُوا بِرَازِي رِزْقِهِمْ عَلَىٰ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ﴾ فيه توبيخ لمن يشركون مع الله غيره، وفيه دعوة لمن وسّع الله عليه في الرزق ألا ييخل على خدمه، ومن يملك، ومن يعملون تحت يده.

جاء في الحديث عن أبي ذر رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «إخوانكم خولكم جعلهم الله تحت أيديكم فمن كان أخوه تحت يده فليطعمه مما يأكل، وليلبسه مما يلبس، ولا تكلفوهم ما يغلبهم، فإن كلفتموهم فأعينوهم»^(١).

ولذلك فالقرآن الكريم يحث الأغنياء، والأحرار، أي: السادة الذين يملكون أرقاء

(١) من حديث أبي ذر في البخاري برقم (٦٠، ٢٥٤٥، ٦٠٥٠) ومسلم برقم (١٦٦١).

وعبيداً، أو خدماً تحت أيديهم، أو عمالاً، ونحوهم، أن يفيضوا من أموالهم على خدمهم، ويعطوهم من المال الذي منحهم الله إياه؟ ونعود إلى السؤال: هل يرضى المالك أن يكون المملوك شريكاً مساوياً له في المال، أو في النساء، أو في الخدم والحشم، ونحو ذلك؟ فإذا كان المالك لا يرضى بذلك، والغني لا يقبل، فكيف ترضون لربكم ما لا ترضونه لأنفسكم؟! فالذي لا ترضونه لأنفسكم لا ترضوه لرب العالمين.

فإذا لم يقبل السادة أن يشركوا عبيدهم معهم في أموالهم ونسائهم، فكيف يشركون مع الله تعالى عبيده في سلطانه؟ وكيف تسوون بين الخالق والمخلوق؟ إن النصارى يساوون مع الله تعالى عيسى ابن مريم، حين يجعلونه إلهاً، أو يجعلون الإله مكوناً من ثلاثة.

إن المشركين ارتضوا لله تعالى أن تكون له صاحبة، وأن يكون له ولد، وأن يكون له شريك مناظر له في الملك والعبودية، وهم لا يرضون لأنفسهم أن يتساووا مع من يملكون، أو مع خدمهم وفقرائهم.

ذلكم ما تشير إليه الآية ﴿فَمَا أَذْبَنُ قُضِلُوا﴾ أي: فليس من الذين فضلهم الله بالمال، والمتاع، والجاه ﴿بِرَأْيِ رِزْقِهِمْ عَلَىٰ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ﴾ أي: أنهم لن يعطوا، ولن يمنحوا عبيدهم ومواليهم من الأموال؛ حتى لا تستوي أحوالهم بهم ﴿فَهُمْ فِيهِ سَوَاءٌ﴾ أي: حتى لا يتساووا معهم، إن هذا لمن أعظم الجحود لنعم الله تعالى: ﴿أَفَبِعِزَّةِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ﴾ فينكروا هذه النعم المذكورة في السورة وأمثالها.

والله سبحانه ينكر عليهم جحودهم؛ لفضله عليهم، وبدل أن يشكروا المنعم ويوحّدوه، فهم يشركون معه غيره، ويرضون له ما لا يرضون لأنفسهم.

ومعنى الآية: والله فضل بعضكم - أيها الناس - على بعض فيما أعطاكم في الدنيا من الرزق، فمنكم غني، ومنكم فقير، ومنكم مالك، ومنكم مملوك، وليس الأغنياء بمشركين عبيدهم ولا خدمهم معهم فيما رزقهم الله من الأموال والنساء؛ حتى لا يستوا معهم في المكانة والمنزلة، فإذا لم يرضوا بذلك لأنفسهم، فلماذا رضي المشركون أن يجعلوا لله شركاء من خلقه؟! إن هذا لمن أعظم الظلم والجحود لنعم الله عليهم.

قال ابن عباس ؓ في معنى الآية: لم يكونوا ليشركوا عبيدهم في أموالهم ونسائهم، فكيف يشركون عبيدي معي في سلطاني؟^(١).

فإن لم ترض لنفسك بهذا فالله أحق أن تيرثه من ذلك، ولا تعدل بالله أحداً من عباده وخلقه^(١).
وكما أن السادة لا يُشركون العبيد معهم في أموالهم، فإنه من الممتنع كذلك أن يكون أحد
من الخلق شريكاً لله تعالى، إذ كيف يمتنع أن يكون الرقيق شريكاً لسيده في ماله، ولا يمتنع أن
يكون أحد من الخلق، شريك لله في ملكه؟

النِّعْمَةُ السَّابِعَةُ: نِعْمَةُ الزَّوْاجِ وَالتَّنَاسُلِ

٧٢- ﴿وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا وَجَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَنْزَلِكُمْ بَنِينَ وَحَفَدَةً وَرَزَقَكُمْ مِنَ
الطَّيِّبَاتِ أَفَبِالْبَاطِلِ يُؤْمِنُونَ وَنَبِغَتْ أَلَهُمْ هُمْ يَكْفُرُونَ ﴿٧٢﴾﴾
يمن الله على عباده بأن جعل لهم أرواحاً يسكنوا إليها، وجعل لهم من أزواجهم أولاداً
وأحفاداً تقربهم أعينهم، ورزقهم من أطيب الطعام والشراب، فهذه ثلاث نعم يمتن الله
بها على عباده في هذه الآية:

١- فمن فَضِّلَ الله تعالى علينا أن جعل الزوجة من جنس الذكر، من شكله وعلى
هيئته، خلقها منه؛ لكي تتم بينهم الألفة، والمودة، والأنس، والرحمة، ولتستريح
نفوسكم معهم، كما قال تعالى: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا
وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً﴾ [الروم: ٢١]، وقال: ﴿هُنَّ لِيَاسٌ لَكُمْ وَأَنْتُمْ لِيَاسٌ لَهُنَّ﴾
[البقرة: ١٨٧] ولو جعل الله الزوجة من الجن، أو من عالم آخر لَمَا استقامت الحياة، وما
بقي التناسل البشري إلى يوم القيامة.

الزواج من الجن:

وكون الإنسان يتزوج من الجن، في هذه المسألة خلاف بين أهل العلم، فبعضهم
يمنع، وبعضهم يقول بجواز ذلك، على خلاف الأصل في زواج الإنس بالإنس، وأن
ذلك يكون في حالات خاصة وشاذة لمن لهم اتصال بالجن بطريقة أو بأخرى.
ومما يذكر في هذا أن ملك اليمين كان عظيم الشأن فأنف وتكبر أن يتزوج من بنات أحد
من رعيته، وقال: لا يوجد كفاء أتزوج منه، فزوَّجوه امرأة من الجن، يقال لها: ربحانة
بنت السكن. فولدت له بلقيس ملكة سبأ، ولم يكن له غيرها، قيل: إن في مؤخرة قدميها

ما يشبه حافر الدابة^(٢).

وفي رواية ضعيفة عن أبي هريرة: أن أحد أبوي بلقيس كان جنيًا.
وقيل: إن السبب في زواج أبيها من الجن أنه كان وزيراً لملك عادٍ يغتصب نساء

(١) هذا قول قتادة كما أخرجه الطبري (٢٩٤/١٤).

(٢) «شرح المناوي للجامع الصغير».

الرعية، وكان الوزير غيورًا، فلم يتزوج، فقال له جني في صورة رجل: هل لك من زوجة؟ قال: لا أتزوج أبدًا؛ فإن ملك بلدنا يغتصب النساء من أزواجهن، فقال: لئن تزوج ابنتي لا يغتصبها أبدًا، قال: بل يغتصبها، قال: إنا قوم من الجن لا يقدر علينا، فتزوج ابنته فولدت له بلبقيس^(١).

ويستدل بهذا بعضهم على جواز أن يتزوج الإنس من الجن .
وربما يستدل على ذلك بقوله تعالى: ﴿يَمَعَشَرُ الْجِنُّ قَدِ اسْتَكْرَمُوا مِنَ الْإِنْسِ وَقَالَ أَوْلِيَاؤُهُمْ مِنَ الْإِنْسِ رَبَّنَا اسْتَمْتَعَ بَعْضُنَا بِبَعْضٍ﴾ [الأنعام: ١٢٨].

قلت: وقد شاهدت رجلاً لا يبرح غرفته وحوله ذريته من الجن في صورة قطط .
أعرف اسمه وأعرف بلده ومكانه .
وذكرت لي إحدى أرحامي أنها لا تستطيع الاقتراب من زوجها بسبب زوجته من الجن .
وقصص العشق بين الإنس والجن كثيرة ومعروفة في عالم مَنْ يستخرجون الجن من الإنس، حيث يقول الجنّي: إني أحبها وأعشقها فلن أخرج منها، وهكذا .
والله سبحانه يقول: ﴿وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا﴾ وهو الأصل في الزواج، والتزوج من الجن يكون على غير الأصل، وكثير من الناس ينكره، لاختلاف الجنسين في الخلق والسعي، وغيرهما .

٢- والتناسل هو ثمرة الزواج، والحفدة هم أبناء الأبناء في الأصل، ويطلق الأحفاد على: الأصهار، والخدم وأبناء الزوجة، والأعوان؛ لأن كلاً من هؤلاء يسعى في الخدمة، وكل من سارع إلى الطاعة فهو حفيد، ولذلك جاء في دعاء القنوت المأثور: «وإليك نسعى ونحفد»^(٢) أي: نسارع إلى الطاعة .

فكل من يسارع إلى الطاعة من أبناء البنين، أو من الأصهار، وهم أقارب الزوجة وأزواج البنات، أو من الخدم، أو من الأعوان يُطلق عليه حفيد، والأحفاد يكونون أيضاً من نسل البنات، والإنسان يشعر بامتداد حياته في أبنائه وأحفاده .

(١) «أضواء البيان» (٣/ ٣٢٠) و«تفسير القرطبي» للآية .

(٢) يُنظر صحيح ابن خزيمة برقم (١١٠٠) .

٣- والله سبحانه لم يعطنا في هذه الدنيا جميع الطيبات؛ لأن الطيبات كلها تكون في الآخرة، إنما رزقنا في الدنيا شيئاً منها، ولذلك يقول سبحانه: ﴿وَرَزَقْنَاكَ مِنْ أَلْطَيِّبَاتِ﴾ ومن للتبعيض، أي: رزقكم في الدنيا بعض الطيبات من الثمار، والحبوب، واللحوم، وغير ذلك، أما الطيبات كلها فهي في الآخرة.

صحّ في الحديث عن أبي هريرة رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ: «إن الله تعالى يقول للعبد يوم القيامة ممثلاً عليه: ألم أكرمك، وأسودك وأزوجك؟ ألم أسخر لك الخيل والإبل، وأذكرك ترأس وتربع؟»^(١).

وقد جمع الله سبحانه أنواع الشهوات في قوله: ﴿زَيْنَ النَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنْطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفَنَكَةِ وَالْحَيْلِ الْمُسَوِّمَةِ وَالْأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ذَلِكَ مَتَكُ الْحَيَوَةِ الدُّنْيَا وَاللَّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الْمَقَابِلِ﴾ [آل عمران].

أفغير الله سبحانه من الأوثان والأصنام ونحوهما من الآلهة الباطلة، تعبدون وتكفرون بالله الواحد الأحد المنعم المتفضل عليكم؟!

والباطل يشمل: كل اعتقاد، أو قول، أو فعل يخالف الحق والرشاد، ويشمل كل ما يعبد من دون الله، والنعم تشمل جميع النعم التي لا تعد ولا تحصى.

عَجْزُ آلِهَةِ الْمُشْرِكِينَ وَضَرْبُ الْأَمْثَلَةِ لِلْمُشْرِكِ وَالْمُوحِدِ

٧٣- ﴿وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَهُمْ رِزْقًا مِنَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ شَيْئًا وَلَا يَسْتَطِيعُونَ﴾

لقد كان أهل الجاهلية يعترفون بوجود الله سبحانه، وفي نفس الوقت يقرون بوجود شريك له، ويعتقدون أن هذا الشريك مملوك لله سبحانه، ففي الحج كانت بعض القبائل تلبّي قائلة: لبيك لا شريك لك إلا شريكاً هو لك تملكه وما ملك، أي: أنهم ينفون الشرك في قولهم: (لا شريك لك)، ويشبّثونه في قولهم: (إلا شريكاً هو لك)، وهذا الشريك (تملكه)، أي: أنه ملكٌ لرب العالمين، (وما ملك) هو شيئاً، فهم يقولون بوجود الشريك لله، ويعترفون بأنه لا يمتلك شيئاً.

(١) «صحيح مسلم» برقم (٢٩٦٨) من حديث طويل عن أبي هريرة.

إن أقبح القبائح، وأعجب الأمور أن يعبد المرء بشراً مساوياً له في الخلق، أو يعبد صنماً، أو حجراً، أو شجراً، أو كوكباً، أو بقرة!!

ذلك إن من خصائص الألوهية: الخلق، والرزق، فالذي يُعبد هو الذي يخلق، وهو الذي يرزق، وهذه الآلهة التي تُعبد من دون الله لا تملك أن تدفع الذبابة عن نفسها، ولا أن تملك رزقاً لنفسها، ولا لغيرها، ولا تستطيع ذلك ببرهان يظهره، ولا حجة يثبتونها. والله تعالى يوبّخهم على شكر من لا يستحق؛ فالذي لا يرزق لا يستحق العبادة.

﴿إِنَّ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ لَكُمْ رِزْقًا﴾ [العنكبوت: ١٧].

ولا يملكون ضرراً، ولا نفعاً، ولا حياة، ولا نشوراً، فاطلبوا الرزق من الله وحده مسبب الأسباب، واعبدوا الخالق الرازق القائل: ﴿مَا أُرِيدُ مِنْهُمْ مِنْ رِزْقٍ وَمَا أُرِيدُ أَنْ يُطِيعُونِ﴾ [الذاريات].

والقائل: ﴿وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلَاةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا لَا تَسْأَلْ رِزْقًا نَحْنُ نَرْزُقُكَ وَالْعَنَقِبَةُ لِلتَّقْوَى﴾ [طه].

والمعنى: إن المشركين لا يملكون أن يعطوا غيرهم أقل القليل من الماء، كالمطر، ولا من الأرض كالزرع، فهم لا يملكون شيئاً البتة، ولا يتأتى منهم أن يملكوه؛ لأنهم لا يقدرون عليه، فكيف يعبدون من دون الله ما لا يملك ضرراً، ولا نفعاً، ولا رزقاً، ولا موتاً، ولا حياة، ولا نشوراً؟!

وقد جاء لفظ: ﴿رِزْقًا﴾ نكرة؛ للدلالة على أنهم لا يملكون أدنى رزق.

وجاء بعده لفظ: ﴿شَيْئًا﴾ نكرة أيضاً؛ للمبالغة في نفي ملكهم لأي رزق؛ للإشعار بعجزهم تماماً، وأنهم لا يقدرون على شيء، مطلقاً. قال تعالى:

٧٤- ﴿فَلَا تَضْرِبُوا لِلَّهِ الْأَمْثَالَ إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [٧٤]

والله جلّ شأنه ليس له شبيه ولا مثل، فلا تساووه بأحد من خلقه، فإذا علمتم أن الأصنام والأوثان لا تنفع نفسها فضلاً عن أن تنفع غيرها، فلا تجعلوا -أيها الناس- لله أشباهاً مماثلين له من خلقه، تشركونهم معه في العبادة؛ ولا تضربوا له الأمثال المتضمنة للتسوية بينه وبين خلقه، لأن الله تعالى يعلم أفعالكم، ويسمع أقوالكم، وأنتم في غفلة عن أخطائكم، وعن سوء عاقبتكم، ومنها ما تضربونه لله من أمثال، ومن أمثالهم التي

ذمها القرآن الكريم ما حكاها الله تعالى عنهم في قوله: ﴿وَقَالُوا ءَالِهَتُنَا خَيْرٌ أَمْ هُوَ﴾ .
 قال تعالى في الرد عليهم: ﴿مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلًا بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ﴾ [الزخرف: ٥٨].
 ومثل ذلك في قوله: ﴿وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَنْ يُعِزُّ الْعَظَمَ وَهِيَ رَمِيَّةٌ﴾ [يس: ٧٨].
 ومن ذلك قوله تعالى: ﴿يَتَأْتِيهَا النَّاسُ أَعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ﴾ إلى قوله: ﴿فَلَا تَجْعَلُوا
 لِلَّهِ أُنْدَادًا وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٢١، ٢٢].

فإذا ثبت أنّ من لوازم دلائل التوحيد وجوب انفراد الله تعالى بالعبادة، ونفي الشريك له
 فيما خلق وأنعم، فمن باب أولى ألا يكون له ولد، وألا يشبه المخلوقين في شيء،
 فلا تتجاسروا وتتطاولوا، وتضربوا لله الأمثال، كما يضرب بعضكم المثل لبعض؛ إذ إن
 الله تعالى وحده هو الذي يعلم كيف تُضرب الأمثال، وأنتم لا تعلمون ذلك.

مَثَلُ الْكَافِرِ وَالْمُؤْمِنِ كَمَثَلِ الْعَبْدِ الْعَاجِزِ وَالْحُرِّ الْمُتَصَرِّفِ

٧٥- ﴿ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا عَبْدًا مَمْلُوكًا لَا يَقْدِرُ عَلَى شَيْءٍ وَمَنْ رَزَقْنَاهُ مِنَّا رِزْقًا حَسَنًا فَهُوَ
 يُنْفِقُ مِنْهُ سِرًّا وَجَهْرًا هَلْ يَسْتَوُونَ الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ (٧٥)
 هذه الآية وما بعدها، موضحة ومبينة، للآية السابقة وما قبلها، بما ضربته، لبطلان الشرك
 من مثاليين لله تعالى ولمن يُعبد من دونه:

أحدهما: عبد مملوك، لا يملك نفسه ولا يملك مالا ولا متاعا.

وثانيهما: حرّ ثريّ، عنده مال كثير، ينفق منه في جميع أحواله، فهل يستوي العبد
 والحر؟ وإذا كانا لا يستويان فكيف يستوي المخلوق الذي لا يملك شيئا بالخالق الذي
 يملك كل شيء.

فالمثال الذي في هذه الآية مضروب للمؤمن والكافر، وهو يشتمل على حالتين: حالة
 العبد المملوك، وحالة الحر المتصرف، فالعبد المملوك يمثل حال من يعبد غير الله
 تعالى، والحر المتصرف يمثل حال المؤمن الذي يعبد الله وحده، وكلاهما مثل للعابد مع
 من يعبده، الأول كافر، والآخر مؤمن.

والمثال الذي في الآية التالية مضروب للمعبود مع عابده، وهو أيضًا يشتمل على حالتين هما:

- ١- الصنم الجامد الذي يحتاج إلى من يحرسه، وينقّض عنه الغبار والوسخ.
 - ٢- والمعبود بحق، وهو الله سبحانه الكامل في ذاته وصفاته، وإفاضته الخير على خلقه.
- وفي كلا المثالين بحالاتهما الأربع: لا يستوي الخالق بالمخلوق، ولا يستوي من يعبد صنمًا بمن يعبد الواحد القهار، ولا يستوي الموحد بالمشرك.
- وقد كان المشركون يقولون: إن الملك يخدمه كبار القوم، وكبار القوم يخدمهم صغارهم، أو عامتهم، فلا يليق بالعبد أن يتجه إلى إله الملك مباشرة -على حدزعمهم- فالله أجل من أن يتوجه إليه المخلوق الضعيف بنفسه.
- ولذلك فقد كانوا يتخذون الأصنام آلهة تقرّبهم إلى الله تعالى، ويقولون: ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى﴾ [الزمر: ٢٣] فهم يتوسلون، أو يتوسطون بهذه الآلهة إلى الله، مع اعترافهم بوجود الإله الخالق، وهم يحتقرون أنفسهم بكونها لا تصلح لمباشرة الخطاب معه سبحانه.
- هذه الصورة موجودة حاليًا، فمن الناس من يقول: إنه كثير الذنوب، وإن فلانًا عبد صالح مقرب إلى الله تعالى، والله سبحانه يجيب دعاء هذا العبد الصالح ويقبل منه، ولا يقبل مني؛ لأنني ملطخ بالذنوب، فلذلك لا أطلب من الله مباشرة، إنما أسأل هذا الواسطة؛ كي يرفع لي دعائي؛ لأنه مسموع الدعاء عند الله أكثر مني.
- هذه مقولة جاهلة تتردد في بعض بلاد المسلمين، وهي نفسها ما كان يقوله المشركون من أهل الجاهلية، أمثال الذين كانوا يطوفون بالبيت وهم عرايا، ويخلعون ملابسهم، ويقولون: بأنها دُتّست بالمعاصي؛ لأنهم عصوا الله فيها، ولذا فهم يطوفون بالبيت عرايا.
- والله سبحانه ليس بينه وبين عباده حجاب، فليس هناك حاجب، ولا وزير، ولا واسطة، والله تعالى أقرب إلى عبده من حبل الوريد يسمع من كل مخلوق، ويجيب كل سائل مهما كان عاصيًا، فليس هناك من هو أشقى من إبليس، وقد استمع الله إليه، وأجابه في حوار معه: ﴿قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ الْمُنْظَرِينَ ﴿٢٧﴾ إِلَى يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ ﴿٢٨﴾﴾ [الحجر]
- وذلك لما سأل ربه النظرة قائلًا: ﴿رَبِّ فَأَنْظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾ [الحجر: ٣٦] فأجابه الله تعالى بأن مدّ في أجله إلى وقت انتهاء أعمار الخلائق، وهو منهم، وذلك عند النفخة

الأولى، وكان قد سأل الله أن يمدَّ في أجله إلى يوم البعث عند النفخة الثانية؛ لينجو من الموت، ولكن الله تعالى فوَّت عليه مقصوده.

فالتوجه بالدعاء يكون مباشرة إلى الله تعالى، ومن عجب أن تنحرف الفطرة إلى هذا الحد، فيتجه الناس بالعبادة إلى ما لا يستطيع خَلْقًا، ولا يملك رزقًا.

وقد ضرب الله ﷻ مثلين في هذه الآية يتبين بهما حال المؤمن والكافر، ويتضح منهما حال المشرك فاسد العقيدة، ويستدل بهما على وحدانية الله تعالى.

وفي المثلين في الآية التالية موازنة بين الحق تبارك وتعالى، وبين الأوثان أو الآلهة التي تُعبد من دون الله.

قال تعالى: ﴿ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا عَبْدًا مَمْلُوكًا لَا يَقْدِرُ عَلَى شَيْءٍ﴾.

هذا طرف من المثل الأول: عبد رقيق لا يملك نفسه ولا يملك شيئًا من حطام الدنيا فهو مسخر بإرادة سيده، وهو عاجز عن التصرف في نفسه، وليس عنده شيء من المال أو المتاع، وهذا المثل مضروب للكافر الذي لم يعمل بطاعة الله، ولم يقدم لنفسه خيرًا فعاقبه الله على ذلك.

والطرف الثاني من المثل الأول: إنسان آخر حر، رزقه الله أموالًا كثيرة يتصرف فيها كيف يشاء، وهو ينفقها في وجوه الخير والبر سرًّا وجهرًا، هذا معنى ﴿وَمَنْ رَزَقْنَاهُ مِمَّا رَزَقْنَا حَسَنًا فَهُوَ يُنْفِقُ مِنْهُ سِرًّا وَجَهْرًا﴾ وهذا هو الحر القادر على التصرف، وهو مثل مضروب للمؤمن الذي أعطاه الله مالًا ورزقًا حلالًا فعمل بطاعة الله، وأنفق في سبيل الله، فأثابه الله على ما قدَّم.

فهل يستوي المثلان؟ مع أن الرجلين يستويان في البشرية، والمخلوقية لله تعالى ﴿هَلْ يَسْتَوُونَ﴾؟ أي: هل يستوي العبد العاجز الذي لا يملك شيئًا، بالحر المتصرف الذي يملك كل شيء وينفقه كيف يشاء في السر والعلن، هل يستويان مثلًا؟ هل يقول عاقل بالتساوي بين الرجلين؟ وفي هذا نفي للتسوية بين من يعبد الله تعالى، ومن يعبد غيره، فالتسوية بينهما باطلة بكل المقاييس.

فكذلك الله الخالق المالك المتصرف، مدبر الأمور، لا يستوي سبحانه مع خلقه وعبيده، فكيف تسوون بينهما؟

﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ الله سبحانه يحمد نفسه بنفسه، ويعلمنا كيف نحمده، ويبيّن لنا أن هذا المثل حجة قوية على خلقه، فالحمد لله على هذه الحجة القوية، والحمد لله على نعمه التي لا تعدُّ ولا تحصى، والحمد لله الذي أنعم على أوليائه بالتوحيد، فالحمد له وحده، وهو المستحق للحمد والثناء.

﴿بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ أي: أن أكثر المشركين لا يعلمون أن الحمد والنعمة لله، وأنه وحده المستحق للعبادة دون سواه.

وجملة ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ معترضة بين الاستفهام والإضراب، وهذا الاعتراض يناسب ما تقدم من قوله تعالى عن المشركين: ﴿وَيَنْعَمَتِ اللَّهُ هُمْ يَكْفُرُونَ﴾.

ونظير هذه الآية قوله تعالى: ﴿ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا رَجُلًا فِيهِ شُرَكَاءُ مُتَشَكِّسُونَ وَرَجُلًا سَلَمًا لِرَجُلٍ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الزمر].

وَمَثَلِ الْكَافِرِ وَالْمُؤْمِنِ: كَمَثَلِ الصَّنَمِ الْأَبْكَمِ الْأَصَمِّ، وَالْإِنْسَانِ الْفَصِيحِ الْمُتَكَلِّمِ

٧٦- ﴿وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا رَجُلَيْنِ أَحَدُهُمَا أَبْكَمٌ لَا يَقْدِرُ عَلَى شَيْءٍ وَهُوَ كَلٌّ عَلَى مَوْلَاهُ أَيْنَمَا يُوَجِّههُ لَا يَأْتِ بِخَيْرٍ هَلْ يَسْتَوِي هُوَ وَمَنْ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَهُوَ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾
والمثل الثاني: يُستدل به على بطلان الشرك برجلين:

أحدهما: رجل أخرس أصم، فهو لا يتكلم ولا يسمع، ولا ينفع نفسه ولا غيره، فهو ناقص من كل وجه، وهو عبء ثقيل على من يعوله، وإذا أرسله صاحبه أو سيده إلى أمر لا يقضيه، ولا يعود عليه بخير ولا فائدة؛ لأنه لا يفهم ولا يفهم.

هذا هو الطرف الأول من المثل الثاني.

وقد وصف الله تعالى فيه الإنسان الكافر، بأربع صفات تدل على عجزه، وقلة حيلته، فهو: أبكم، عاجز، عالة، لا يأتي بخير.

وثانيهما: رجل مؤمن، سليم الحواس، متكلم، بليغ، فطن، قوى، يأمر بالعدل ويذلل النصيحة، ينفع نفسه وينفع غيره، يأمر بالعدل والإنصاف، وهو على طريق واضح لا عوج فيه. وهذا يمثل الطرف الآخر من المثل الثاني، وقد وصفه الله تعالى بوصفين اثنين هما:

الإنصاف والاستقامة، وهما جماع الأوصاف الأربعة، من هذا المثل؛ لأن الأول لا يستحق شيئاً، والآخر يستحق كل شيء، فهل يستوي الرجلان في نظر العقلاء؟
 فكيف تسوون بين الصنم الأبكم الأصم، وبين الله القوي القادر، المنعم على خلقه بكل خير؟! وكيف تسوون بين من لا ينطق، بمن هو فصيح بليغ متكلم؟!
 وكيف تسوون بين المعبود بحق، وبين الآلهة الباطلة؟! وكيف تسوون بين الموحد والمشارك؟!
 وقد شبه الله سبحانه حال الأصنام في عجزها بحال العبد المملوك في عجزه.

كما قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ لَا يَخْلُقُونَ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ ﴿٢٠﴾ أَمْوَاتٌ غَيْرُ أَحْيَاءٍ﴾ [٢٠، ٢١]

وقال: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ لَآ يَمْلِكُونَ لَكُمْ رِزْقًا﴾ [العنكبوت: ١٧].

وشبه شأنه سبحانه في رزقه لخلقه بالغني المالك أمر نفسه.

وسواء أكان لهذين المثليين سبب نزول في أبي جهل ومولاه، أم في عثمان ؓ ومولاه، أو غير ذلك، فإن المثل فيهما عام يشمل كل مؤمن وكافر، أو كل مشرك وموحد.

عن عبد الله بن عثمان بن خثيم، عن إبراهيم، عن عكرمة، عن ابن عباس ؓ قال: نزلت هذه الآية ﴿وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا رَّجُلَيْنِ أَحَدُهُمَا أَبْكَمٌ لَا يَقْدِرُ عَلَى شَيْءٍ﴾ في هشام بن عمرو، وهو الذي ينفق ماله سرّاً وجهراً، ومولاه أبو الجوزاء الذي كان ينهأ، فنزلت ﴿وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا رَّجُلَيْنِ أَحَدُهُمَا أَبْكَمٌ لَا يَقْدِرُ عَلَى شَيْءٍ﴾ فالأبكم منهما، هو الكل على مولاه، أسيد بن أبي العيص، والذي يأمر بالعدل وهو على صراط مستقيم هو عثمان بن عفان ؓ^(١).

وفي رواية الطبري: ^(٢) أن الآية الأولى نزلت في رجل من قريش وعبيده، والآية الثانية نزلت في عثمان بن عفان، ومولاه أسيد بن أبي العيص كان يكره الإسلام، وكان عثمان ؓ ينفق عليه ويكفله ويكفيه المؤونة، وكان الآخر ينهأ عن الصدقة والمعروف فنزلت

(١) النيسابوري (٢٣٥) والسيوطي (١٦٣) و«الدر المنثور» (٤/١٣٥).

(٢) «تفسير الطبري» (١٤/١٠١) وانظر: «تفسير الألوسي» (١٤/١٩٧).

فيهما وهو نفس المعنى السابق، وورد غير ذلك.

﴿وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا زَجُلَيْنِ أَحَدُهُمَا أَبْكَمٌ﴾ وَلَدٌ أُخْرَسَ، لَا يَنْطِقُ وَلَا يَتَكَلَّمُ، وَفِي الْغَالِبِ يَكُونُ أَصَمًّا لَا يَسْمَعُ، وَهُوَ ﴿لَا يَقْدِرُ عَلَى شَيْءٍ﴾ عَاجِزٌ تَمَامًا، وَهُوَ ضَعِيفٌ وَعَالَةٌ عَلَى سَيِّدِهِ أَوْ صَاحِبِهِ، هَذَا مَعْنَى ﴿وَهُوَ كُلُّ عَلَى مَوْلَانَهُ إِنَّمَا يُوجِّهُهُ﴾ أَيْنَمَا يُوجِّهُهُ هَذَا الْعَبْدُ الْعَاجِزُ، الْأَصَمُّ الْأَبْكَمُ فِي طَرِيقٍ مِنَ الطَّرِيقِ ﴿لَا يَأْتِ بِخَيْرٍ﴾ فَهُوَ لَا يَنْطِقُ وَلَا يَفْهَمُ، وَلَا يُؤَدِّي مَهْمَةً، يَتَسَاءَلُ سَبْحَانَهُ: هَلْ يَسْتَوِي هَذَا الْعَاجِزُ عَنِ النَّطْقِ، بِمَنْ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ، فَيَنْطِقُ بِالْحَقِّ، وَيَأْمُرُ بِالْحَقِّ، وَيَحْكُمُ بِالْحَقِّ ﴿وَهُوَ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ وَطَرِيقٌ وَاضِحٌ، إِذَا كَانَا لَا يَسْتَوِيَانِ، فَكَيْفَ يَسْتَوِي أَحَدٌ مِنْ خَلْقِ اللَّهِ، مَعَ رَبِّ الْعَالَمِينَ؟!

السَّاعَةُ تَأْتِي بَغْتَةً

٧٧- ﴿وَلِلَّهِ غَيْبُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا أَمْرُ السَّاعَةِ إِلَّا كَلَمْحِ الْبَصَرِ أَوْ هُوَ أَقْرَبُ إِنَّ إِلَهَ اللَّهِ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾

هَذِهِ الْآيَةُ لِبَيَانِ أَنَّ الْغَيْبَ لَا يَعْلَمُهُ إِلَّا اللَّهُ، فَلَا يَعْلَمُ مَا غَابَ عَنِ الْعِبَادِ وَلَا مَا خَفِيَ عَلَيْهِمْ إِلَّا اللَّهُ، وَمِنْهُ قِيَامُ السَّاعَةِ، فَقَدْ زَعَمَ الْكُفَّارُ أَنَّ فَنَاءَ الْعَالَمِ، وَإِحْيَاءَ الْعِظَامِ وَهِيَ رَمِيمٌ، أَمْرٌ مُسْتَحِيلٌ، فَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ لَا يَبْعَثُ اللَّهُ مَنْ يَمُوتُ، فَبَيَّنَّ سَبْحَانَهُ أَنَّهُ قَادِرٌ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ، وَلَا يَخْرُجُ عَنْ قُدْرَتِهِ أَعْظَمُ شَيْءٍ، وَقِيَامُ السَّاعَةِ الَّتِي أَنْكَرُوهَا لَا تَخْرُجُ عَنْ تَصَرُّفِ اللَّهِ تَعَالَى وَمَشِئَتِهِ.

وَهِيَ مِنْ قَضَايَا الْعَقِيدَةِ الَّتِي لَقِيتُ جَدًّا فِي كُلِّ عَصْرِ، وَمَعَ كُلِّ رَسُولٍ، وَلَوْ عَلِمَ النَّاسُ مَوْعِدَهَا لَتَوَقَّفَتْ عَجَلَةُ الْحَيَاةِ أَوْ اخْتَلَّتْ، وَهِيَ مِمَّا غَابَ عِلْمُهُ عَنِ الْعِبَادِ، وَكُلُّ مَا غَابَ عَنِ الْعِبَادِ مَعْرِفَتُهُ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ، مِمَّا كَانَ، وَمَا يَكُونُ، وَمَا هُوَ كَائِنٌ إِلَى قِيَامِ السَّاعَةِ، عِلْمُهُ عِنْدَ رَبِّ الْعَالَمِينَ، مُخْتَصٌّ بِهِ وَحْدَهُ، فَهُوَ جَلٌّ شَأْنُهُ يَعْلَمُ أَهْلَ السَّعَادَةِ، وَيَعْلَمُ أَهْلَ الشَّقَاءِ، وَيَعْلَمُ سَائِرَ الْأُمُورِ وَالْأَحْوَالِ.

وَقِيَامُ السَّاعَةِ لَا يَحْتَاجُ إِلَى وَقْتٍ طَوِيلٍ إِذَا تَعَلَّقَتْ بِهِ قُدْرَةُ اللَّهِ تَعَالَى، فَقِيَامُهَا أَسْرَعُ مِنْ لَمَحِ الْبَصَرِ؛ لِأَنَّ لَمَحَ الْبَصَرِ يَحْتَاجُ إِلَى حَرَكَةٍ وَزَمَنٍ بِمَقْدَارِ إِطْبَاقِ الْجَفْنِ وَفَتْحِهِ.

وَقُدْرَةُ اللَّهِ تَعَالَى إِذَا تَعَلَّقَتْ بِشَيْءٍ فَإِنَّهُ يَقُولُ لَهُ: كُنْ، فَيَكُونُ، قَالَ تَعَالَى: ﴿وَلِلَّهِ غَيْبُ

السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴿٥٧﴾ أي: كل ما غاب عن العباد في السموات وفي الأرض، وما فيهما وما بينهما ﴿وَمَا أَمْرٌ﴾ قيام ﴿السَّاعَةِ إِلَّا كَلَمْحِ الْبَصَرِ أَوْ هُوَ أَقْرَبُ﴾ فهي من السرعة، بحيث يشك الرائي لقيامها هل هي كلمح البصر؟ أو هي أقرب من ذلك؟ وهي آتية لا محالة، كما قال تعالى: ﴿وَمَا أَمْرُنَا إِلَّا وَجِدَةٌ كَلَمْحٍ بِالْبَصَرِ ﴿٥٨﴾﴾ [القمر]

أي: في قرب مجيئها، يستوي في ذلك بعث الناس جميعاً في آن واحد ﴿وَمَا خَلْقَكُمْ وَلَا بَعَثَكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ وَجِدَةٍ﴾ [لقمان: ٢٨]

أي: أن ذلك لا يحتاج إلى وقت مطلقاً، والله تعالى قادر على كل شيء، لا يعجزه أي أمر.

والمقصود من الآية: إنذار الناس وتحذيرهم من قيام الساعة بغتة؛ ليَقْلِعُوا عما هم فيه من المعاصي، وَيُقْبِلُوا على ربهم، ويثوبوا إليه.

وفي الآية بيان لوحداية الله تعالى، واختصاصه بعلم الغيب، وأن قدرة الله تعالى لا يعجزها شيء، وإذا أراد شيئاً قال له: كن فيكون، قال تعالى: ﴿إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَا أَرَدْنَاهُ أَنْ نَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ﴿٥٩﴾﴾.

الْمَجْمُوعَةُ الثَّلَاثَةُ مِنْ دَلَائِلِ التَّوْحِيدِ فِي السُّورَةِ، وَهِيَ أَرْبَعُ نِعَمٍ: النِّعْمَةُ الْأُولَى: نِعْمَةُ خَلْقِ الْحَوَاسِّ وَالْإِذْرَاكِ

٧٨- ﴿وَاللَّهُ أَخْرَجَكُمْ مِنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ^(١) لَا تَعْلَمُونَ شَيْئًا وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَرَ وَالْأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٧٨﴾﴾

ثم ساق سبحانه أنواعاً أخرى من نعمه تعالى على عباده وهي نعم لا ينكرها عاقل، وهي من قدرة الله سبحانه الدالة على وحدانيته جلّ شأنه، ومن هذه النعم: حواس الإنسان ومداركه؛ حيث يصحب الإنسان عند ولادته الجهل وعدم المعرفة، فلا يعلم شيئاً من أمور دينه ولا دنياه، ولا ما ينفعه أو يضره، وقد زوّده ربه بأدوات الحس، وهو في

(١) قرأ حمزة بكسر الهمزة والميم من (أمهاتكم) حالة وصلها بـ(بطون)؛ لمناسبة الكسرة فيها، وقرأ الكسائي بكسر الهمزة فقط وصلّاً أيضاً، وعند البدء بـ(أمهاتكم) تضم الهمزة وتفتح الميم، والباقون بضم الهمزة وفتح الميم وصلّاً ووفقاً.

بطن أمه، ومنها: نعمة حاسة السمع، ونعمة حاسة البصر، ونعمة حاسة الفؤاد أو القلب، وقد خص الله هذه الثلاثة بالذكر، لأنها مفاتيح العلوم، وبمجرد خروج الجنين من بطن أمه، فإنه يتنفع بهذه الحواس، فيرفع بها جهله الذي وُلد عليه، ويتعرف بها على ربه، وفي هذا باعث على شكر الله تعالى، بتوحيده وعدم الإشراك به:

١- فقد زوّد الله الإنسان بوسائل الإدراك، زوّده بحاسة السمع؛ ليدرك به الأصوات، وليستمع إلى كتاب الله فيهتدي، ويستمتع إلى سُنّة رسول الله ﷺ، فيتعلم منهما ما يصلح دينه وما يُصلح دنياه، ويستمتع إلى كل ما هو نافع ومفيد في معاشه ومعاده.

٢- وزوّده بحاسة البصر؛ لينظر في ملكوت السموات والأرض، وعجائب صنع الله وخلقه، ويدرك به جميع المراتب، فيستدل بآثار قدرة الله سبحانه على وجوده و وحدانيته، ويدرك أنه جلّ شأنه المستحق للعبادة دون سواه، كما قال تعالى:

﴿قُلْ هُوَ الَّذِي أَنْشَأَكُمْ وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَرَ وَالْأَفْئِدَةَ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ﴾ [الملك].

٣- وزوّد الله الإنسان وهو في بطن أمه بالعقل؛ ليستدل به على وحدانية الله تعالى، ويتميز به على سائر الكائنات من الحيوانات والدواب وغيرها، فيعقل ويفهم ويميز بين النافع والضار.

ويناط بهذا العقل: الأوامر، والنواهي التي أمره الله بها، ونهاه عنها.

لقد خلق الله الإنسان وصوّره وهو في بطن أمه، وعَلِمَ ما يتعلق به قبل اللقاء بين الرجل والمرأة، وبعد حصول التلقيح بينهما وهو في الرحم قبل التكوين وبعده، ثم رزقه هذه الحواس؛ كي يستدل بها على وجود الله سبحانه، ويحقق الفائدة، أو الغرض الذي خُلِقَ من أجله في هذه الدنيا؛ ليتمكن بها من عبادة ربه.

فإذا أخلص العبد طاعته لله تعالى، واستعان بكل جارحة من جوارحه على عبادة الله سبحانه فإن أفعاله كلها تكون لله تعالى، فلا يسمع إلا ما شرعه الله، ولا يبصر إلا طاعة الله، ولا يبطش بيده إلا بما ينفعه ذلك البطش في دينه ودنياه، ولا يمشي برجله إلا في طاعة الله وما أباحه له.

وهذا ما يشير إليه الحديث القدسي عن أبي هريرة ؓ عن رسول الله ﷺ أنه قال: «قال

الله ﷻ: من عادى لي وليًا فقد آذنته بالحرب، وما تقرب إلي عبدي بشيء أحب إلي مما افترضته عليه، وما يزال عبدي يتقرب إلي بالنوافل حتى أحبه، فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به، وبصره الذي يبصر به، ويده التي يبطش بها، ورجله التي يمشي بها، ولئن سألني لأعطينه، ولئن استعاذ بي لأعيذه، وما ترددت عن شيء أنا فاعله ترددي عن نفس المؤمن، يكره الموت وأنا أكره مساءته^(١).

إذا أخلص العبد الطاعة، صارت أفعاله كلها لله، فلا يسمع إلا ما شرعه الله، ولا يبصر إلا ما شرعه الله.

وكما أخرجكم الله من العدم، وجعل فيكم الإدراك والوعي، فكذلك ينشئكم يوم البعث بعد الموت، وهذا مما يبعث على شكر الله تعالى بتوحيده وطاعته؛ إذ ليس في إمكان أحد أن يمدكم بوسائل الحس والإدراك إذا سلبها الله منكم ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَخَذَ اللَّهُ سَمْعَكُمْ وَأَبْصَرَكُمْ وَخَمَّ عَلَى قُلُوبِكُمْ مَنْ إِلَهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُمْ بِهِ﴾ [الأنعام: ٤٩].

وقد أخرج الله الإنسان من ضيق بطن أمه، بعد مدة الحمل إلى سعة الدنيا؛ لكي يعيش في هذه الحياة ويقضي فيها عمره، وقد كنتم - أيها الناس - لا تدركون شيئًا، فجعل لكم وسائل الإدراك من السمع والبصر والفؤاد وهو وعاء العقل، وزودكم الله بهذه الحواس الثلاث وهي أهم شيء في الإنسان ﴿لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ خالقكم الذي أنعم عليكم بنعمة الوجود، وتستدلون بذلك على وحدانيته سبحانه، فتعبده ولا تشركوا به شيئًا.

النَّعْمَةُ الثَّانِيَّةُ: نِعْمَةُ تَسْخِيرِ الْفَضَاءِ لِلْإِنْسَانِ

٧٩- ﴿أَلَمْ يَرَوْا^(٢) إِلَى الطَّيْرِ مُسَخَّرَاتٍ فِي جَوْاءِ السَّمَاءِ مَا يُمَسِّكُهُنَّ^(٣) إِلَّا اللَّهُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٧٩﴾﴾

لقد حث سبحانه عباده على التفكير في آثار صنع الله في هذا الكون.

(١) يُنْظَرُ: «صحيح البخاري» برقم (٦٥٠٢) عن أبي هريرة.

(٢) قرأ ابن عامر وحمة ويعقوب وخلف العاشر بقاء الخطاب في (ألم يروا)؛ لمناسبة (أمهاتكم)، والباقون بياء الغيب على الالتفات.

(٣) وقف يعقوب بقاء السكت على (ما يمسكهن) بخلفه عنه، والباقون بدونها وهو معهم في الوجه الثاني.

ومن عجائب قدرة الله سبحانه الدالة على وحدانيته هذه الطيور التي تحلق في الفضاء على مختلف أشكالها وألوانها، وأحجامها وثقلها وخفتها، يحملها الهواء في الفضاء، فقد خلقها الله على هيئة تصلح للطيران، ثم سخر لها الهواء، وأودع فيها قوة الحركة والقدرة على الطيران، والله ﷻ هو الذي يمسكها عن الوقوع على الأرض، حال بسط أجنحتها وحال قبضها، وحين تقف في الهواء، وتصطف صفوفاً في الفضاء بقدرة جلّ شأنه، إن ذلك آية من آيات الله تعالى دالة على وحدانيته سبحانه.

والإنسان ينتفع بهذا المخلوق العجيب، من عالم الطيور في جو الفضاء، كما ينتفع بعالم السمك في البحار، وكلاهما مخلوق مسير بقدرة الله سبحانه.

وقد انتفع الإنسان بعالم الطيور في شكله وخلقه فصمم الطائرات التي هي من أدوات النقل الحديثة؛ ليستخدمها الإنسان في حياته متفعلاً بآثار الله تعالى في هذا الوجود.

والله الذي يمسك الطير في الهواء، هو الذي يمسك الطائرة حين تقلع وترتفع عن جاذبية الأرض، والعبد في هذه اللحظات وهو معلق في الفضاء، يجدر به أن يتذكر نِعَم الله تعالى، ويتقرب منه سبحانه، ويسبّحه ولا يعصيه، فلا يستمع إلى لغو، ولا يشرب محرماً، ولا نحو ذلك، وإنما يسأل الله تعالى أن يحفظه في الجو، ويحفظ أرواح الناس معه وهم تحت قدرة الله جلّ شأنه، في هذا الكرب وهذه الشدة، فيشغل وقته بذكر الله، والتفكير في آلائه.

والمعنى: ألم ينظر المكذبون بدلائل التوحيد إلى الطير مذلّلات للطيران بين السماء والأرض بأمر الله، ما يمسكهن عن الوقوع، في حال قبضهن وبسطهن، إلا الله الذي خلقهن، وأقدرهن على التحليق في الفضاء، إن في ذلك التذليل والإمساك لدلالات على التوحيد لقوم يؤمنون، فالمؤمن هو الذي يعتبر، وهو الذي ينتفع، وهو الذي يتعظ.

وغير المؤمن لاه غافل، مشغول بدياه عن آخرته، فالذي يصنع الطائرة ويصممها، إن لم يكن مؤمناً ينتفع بقدرة الله سبحانه، ويتأمل في خالق الكون ومبدعه، فإنه يكون ممن قال عنه ربه: ﴿يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِّنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ الْآخِرَةِ هُمْ غَفْلُونَ﴾ [الروم].

ولما كانت هذه الآية مسوقة؛ لبيان عظيم قدرة الله تعالى، وبديع صنعه حذف منها

حرف العطف من ﴿أَلَمْ يَرَوْا﴾ وختمت بقوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ .
 أما آية سورة الملك ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ فَوْقَهُمْ صَفًى وَيَقْبِضْنَ مَا يُمَسِّكُهُنَّ إِلَّا الرِّحْنُ﴾ فقد
 ختمت بقوله تعالى: ﴿إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ بَصِيرٌ﴾ [آية: ١٩] وذكر فيها حرف العطف بين الهمزة
 واللام؛ لأنها معطوفة على آيات سبقتها في الدلالة على قدرة الله تعالى .

النِّعْمَةُ الثَّالِثَةُ: نِعْمَةُ الْمَسْكَنِ وَالْأَثَاثِ

٨٠- ﴿وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنْ بُيُوتِكُمْ^(١) سَكَنًا وَجَعَلَ لَكُم مِّنْ جُلُودِ الْأَنْعَامِ بُيُوتًا^(٢) تَسْتَخِفُّونَهَا يَوْمَ
 ظَعْنِكُمْ^(٣) وَيَوْمَ إِقَامَتِكُمْ وَمِنْ أَصْوَابِهَا وَأَوْبَارِهَا وَأَشْعَارِهَا أَثَاثًا وَمَتَاعًا إِلَى حِينٍ ﴿٨٠﴾﴾
 والإنسان يتقلب صباح مساءً في نعم الله سبحانه، ولكنه يألف هذه النعم في غدوه،
 ورواحه، وصباحه، ومساءه، ولذا: فهو لا يفكر فيها غالباً؛ لأنها ملازمة له، وهو مغمور
 بها في جميع حالاته، وعدم التفكير فيها من الغفلة، والله ﷻ يلفت نظر الرجل البدوي
 الذي نزل عليه هذا القرآن أولاً، بما هو معروف لديه، مألوف عنده، فحدثه في هذه الآية
 عن نعمة المسكن الثابت، والمسكن المتنقل، كالخيام وبيوت الشعر ونحوها، ويدخل
 في الآية مساكن العمارات والقصور والفلل.

ولكن القرآن ذكر من المساكن ما هو معروف عند العرب وقت نزول القرآن، كما جاء
 في الأثر: «حدثوا الناس بما يعرفون أتحبون أن يكذب الله ورسوله»^(٣) .
 وقد نزل القرآن في بيئة معينة، ولو خاطبها بغير ما تألف، لكذبوا رسول الله ﷺ .

أى ومن نعم الله تعالى على الناس أن جعل لكم من بيوتكم راحة، واستقراراً تكنكم من
 الحر والبرد وتستركم، وتحفظ أموالكم وأمتعتكم، أنتم وأهليكم، وأنتم مقيمون في
 الحضر أو البادية، وهذا المسكن أو هذا البيت الذي تأوي إليه - أيها الإنسان - في
 صباحك ومساءلك، فتستقر فيه، وتهذا وتطمئن، نعمة من نعم الله سبحانه على الإنسان،

(١) قرأ ورش وأبو عمرو وحفص وأبو جعفر ويعقوب بضم الباء من (بيوتكم) و (بيوتاً)، والباقون بكسرها .

(٢) قرأ نافع وابن كثير وأبو عمرو وأبو جعفر ويعقوب بفتح العين من (ظعنكم)، والباقون بإسكانها، وهما لغتان .

(٣) من كلام الإمام عليّ عليه السلام، «صحيح البخاري» برقم (١٢٧) .

لا يشعر بها إلا المشرّد الذي لا مأوى له، ممن يسكن العراء، ولا يجد له مكانًا يقطنه، أو ممن تُشتته الحروب، أو يُشتته الفقر، أو الغربة أو الأسفار، ونحو ذلك.

والبيوت على قسمين: بيوت من المسلح، والحجارة، والأخشاب، وهي قسم من العقار الذي لا يتنقل، ولا يتحول من مكان إلى مكان.

٢- وهناك صنف آخر من البيوت أشار إليه رب العالمين في هذه الآية، وهي بيوت تنتقل من مكان إلى مكان يحتاج الإنسان إليها؛ فالغني يتنقل بها في أسفاره ورحلاته، والبدوي يعيش دائمًا في بيوت الشعر من الصوف، ومن الوبر.

وقد خصّ القرآن بالذكر القباب، والخيام التي تصنع من الجلود، ويلحق بها ما يُصنع من البلاستيك والقماش، وغيرهما.

والمعنى: والله جعل لكم في أسفاركم، وفي إقامتكم، وفي رحلاتكم وتنقلاتكم من جلود الإبل والبقر والغنم قبابًا وخيامًا يسهل نصبها؛ لتتنفّعوا بها؛ فهي خفيفة المحمل، لكل من الحضريّ والبدويّ، فكلٌّ منهما في حاجة إلى هذه البيوت يستخدمها في إقامته، أو تنزهاته؛ للوقاية من الحر والبرد بالنسبة للبدويّ أو القرويّ، وللترفيه بالنسبة للحضريّ أو المدنيّ، وهذا امتنان من الله تعالى، خاص بالبيوت القابلة للانتقال، والارتحال، كما في موسم الحج، والسياحة، والرحلات.

٣- وبعد حديث الآية عن المسكن يأتي حديثها عن الأثاث، فيبيّن تعالى أنه جعل لنا من أصواف الغنم، وأوبار الإبل، وأشعار الماعز ما تصنعون منه أثاث البيوت مثل: البُسْط، والفُرْش، والأكسية، والأغطية، والزينة تتمتعون بها إلى نهاية أعماركم.

وأثاث البيوت في وقتنا يزيد عن هذا، ويُصنّع من مواد أخرى، ولكن القرآن يخاطب أقوامًا لم يكونوا ليعرفوا غير هذه الخامات التي يصنع منها هذا الأثاث، وإلى غيره يشير قوله سبحانه: ﴿وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [٨] وأنتم تتمتعون بهذا الأثاث إلى حين تنقضي أعماركم، أو إلى حين يبلى هذا الأثاث وتنتهي صلاحيته.

النَّعْمَةُ الرَّابِعَةُ: نِعْمَةُ الظَّلَالِ وَالْجِبَالِ وَاللِّبَاسِ

٨١- ﴿وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِمَّا خَلَقَ ظِلَالًا وَجَعَلَ لَكُمْ مِنَ الْجِبَالِ أَكْنَانًا وَجَعَلَ لَكُمْ سَرَابِيلَ تَقِيَكُمُ الْحَرَّ وَسَرَابِيلَ تَقِيَكُمُ بَأْسَكُمْ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تُشْكُرُونَ﴾

ونعم الله تعالى على العباد تختلف بحسب أحوالهم وبلادهم، فبعد الحديث عن نعمة البيوت والأثاث يأتي الحديث عن نعمة الظلال والجبال واللباس.

١- والله جعل لكم من كل شيء خلقه مما له ظل، من الشجر، ومن الجبال، ومن السقف، ومن البناء، ما تستظلون به من شدة الحر والبرد؛ فالظل نعمة من نعم الله تعالى، تأوون إليه في الحقول والصحاري والقفار، كي يقيكم في شدة الحر والبرد، كما تقيكم الأبنية والجدران، والأشجار، ونحوها ﴿وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِمَّا خَلَقَ ظِلَالًا﴾.

٢- ﴿وَجَعَلَ لَكُمْ مِنَ الْجِبَالِ أَكْنَانًا﴾ الكن: هو الذي يكنُّ إليه الإنسان، أي: يستتر فيه فيحفظه من الريح، والمطر، ومن الحر، والقر، ويكون في الجبال من المغارات، والكهوف، والأسراب، ونحو ذلك مما يحتاج إليه قطاع كبير من البشر، لا سيما فقرائهم من سكان الصحراء، والجبال، ونحوهم ممن يلجؤون إليها عند الحاجة فتغطيهم ويستترون بها، وقد جاء هذا المعنى في قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا قُلُوبُنَا فِي أَكِنَّةٍ وَمَا نَدْعُونَ إِلَيْهِ﴾ [فصلت: ٥] أي: في ستر وحجاب فلا يصل إليها ما تقول.

٣- ﴿وَجَعَلَ لَكُمْ سَرَابِيلَ﴾ السريال: هو الثياب، والقميص، والدرع، وغير ذلك من الملابس التي تُصنع من الصوف والقطن والكتان ونحوها، وهي ملابس ﴿تَقِيَكُمُ الْحَرَّ﴾ أي: والبرد، ولم يذكر البرد في الآية، لأن الوقاية من البرد من أصول النعم الضرورية، أما الوقاية من الحر فهي من مكملات النعم ومتمماتها، وقد ذكرت أصول النعم في أول السورة، وذكر هنا مكملاتها.

وقد جعل الله لكم سراويل أخرى من الدروع تُصنع من الحديد في الحرب تشبه الثياب، وتتفعون بها عند مقابلة العدو، وتقيكم البأس؛ لتردَّ عنكم الطعن والأذى من عدوكم في الحروب، وهذا معنى ﴿وَسَرَابِيلَ تَقِيَكُمُ بَأْسَكُمْ﴾ من السلاح والدروع، كما قال تعالى: ﴿وَعَلَّمْنَاهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَكُمْ لِنُخَصِّنَكُمْ مِنَ بَأْسِكُمْ﴾ [الأنبياء: ٨٠].

وقال تعالى: ﴿وَأَنْزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنْفَعٌ لِلنَّاسِ﴾ [الحديد: ٢٥]

وقال: ﴿وَيَذِيقُ بَعْضُكُم بَأْسَ بَعْضٍ﴾ [الأنعام: ٦٥]

وقال جلَّ شأنه عن الملابس: ﴿يَبْنِيْ عَادَمَ خُذُوا زِينَتَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ﴾ [الأعراف: ٣٦]

وقال: ﴿يَبْنِيْ عَادَمَ قَدْ أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ لِبَاسًا يُورِي سَوَاتِكُمْ وَرِيشًا وَلِبَاسُ النَّقْوَى ذَلِكَ خَيْرٌ ذَلِكَ مِنْ ءَايَاتِ اللَّهِ لَعَلَّهُمْ يَذْكُرُونَ﴾ [الأعراف: ٣٦].

وكما أنعم الله عليكم بهذه النعم يُتم نعمته عليكم ببيان الدين الحق؛ لتستسلموا لأمر الله وحده، ولا تشركوا به شيئاً في عبادته، وتُسَلِّمُوا وجوهكم إليه، فتدخلوا في دين الله عن قناعة واختيار، فإن من يشاهد كل هذه النعم لا يسعه إلا الدخول في الإسلام، وكثرة النعم موجبة لزيادة الشكر، وعدم الشكر ظلم وتمرد. قال تعالى:

٨٢- ﴿فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلْغُ الْمَمِينُ﴾ (٨٢)

أي فإن لم يُسلموا وأعرضوا عنك -أيها الرسول- بعدما رأوا الآيات فلا تحزن؛ فإن مهمتك البلاغ والإنذار بما أُرسِلتَ به، وأما الهداية فهي إلى الله وحده، ولست بقادر على خلق الإيمان في قلوبهم، فبلغ لهم أمر الله ونهيه، فإن آثروا ما هم فيه من الكفر والشهوات، فليس عليك عتبٌ ولا شيءٌ من التقصير؛ فإنما عليك البلاغ الواضح، وعلينا حسابهم وجزاؤهم.

جاء أعرابي إلى النبي ﷺ فسأله، فقرأ عليه النبي ﷺ: ﴿وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ بُيُوتِكُمْ سَكَنًا﴾ قال الأعرابي: نعم، جعل الله لنا من بيوتنا سكناً، ثم قرأ عليه النبي ﷺ: ﴿وَجَعَلَ لَكُمْ مِنْ جُلُودِ الْأَنْعَامِ بُيُوتًا﴾ قال الأعرابي: نعم، وقرأ النبي ﷺ على الأعرابي بقية النعم التي في الآيتين، والأعرابي يقول: نعم، فلما بلغ ﷺ نهاية الآيتين: ﴿كَذَلِكَ يُبَيِّنُ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْلِمُونَ﴾ ولَّى مدبراً، وكان الأعرابي غير مسلم فأنزل الله الآية^(١).

وهكذا: يبيِّن الله تعالى لرسوله ﷺ أن الكفار إن عرفوا هذه النعم فأعرضوا عنها، ولم

(١) حديث مرسل، عزاه السيوطي في «الدر المنثور» (٥/١٥٥) وفي «أسباب النزول» (١٦٣) لابن أبي حاتم عن مجاهد، وهو في «تفسير ابن كثير» (٤/٥٩٢).

يدخلوا في الإسلام، أو جحدوها، ولم يشكروا فضل الله عليهم، فلا تحزن، ولا تأسف - يا رسول الله - فمهمتك هي البلاغ، وأنت لا تملك هدايتهم، ونظيره قوله تعالى: ﴿فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ وَعَلَيْنَا الْحِسَابُ﴾ [الرعد: ٤٠]

وقوله: ﴿قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ فَإِن تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْهِ مَا حُمِّلَ وَعَلَيْكُمْ مَا حُمِّلْتُمْ وَإِن تُطِيعُوهُ تَهْتَدُوا﴾ [النور: ٥٤].

وقوله: ﴿وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَإِنَّمَا عَلَى رَسُولِنَا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ﴾ [التغابن: ١٧].

تَقْرِيعٌ وَتَوْبِيخٌ لِمَنْ يُنْكِرُ نِعَمَ اللَّهِ عَلَيْهِ

٨٣- ﴿يَعْرِفُونَ نِعْمَتَ اللَّهِ ثُمَّ يُنْكِرُونَهَا وَأَكْثَرُهُمُ الْكَافِرُونَ﴾ (٨٣)

في هذه الآية تقريع وتوبيخ لمن لم يقر بأن الله تعالى هو مصدر النعم، وأجلُّ نعمة أنعم الله بها على هذه الأمة، هي بعثة محمد ﷺ، وكل من عرف هذه النعمة ثم جحدوها، كاليهود والنصارى الذين أنكروا ما بشرت به كتبهم، كما جاء ذلك في التوراة والإنجيل، فهم كافرون مستحقون لعذاب الله، لأنهم، يعرفون أن الله هو الخالق الرازق، ولكنهم لا يوحدونه ولا يفرده بالعبادة ولا يؤمنون برسوله.

إن دلائل الإسلام لم تخف على أهل الشرك والكفر فهم يعرفونها، ولكنهم أعرضوا عنها إنكاراً ومكابرة، كما قال تعالى: ﴿وَلَكِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يَقْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكُذِبَ وَأَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾ [المائدة: ١٠٣]

وقال: ﴿فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَكِنَّ الظَّالِمِينَ بِبَايَآتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ﴾ [الأنعام: ١٠٣].

مِنْ مَشَاهِدِ الْقِيَامَةِ وَأَهْوَالِهَا

الْمَشْهَدُ الْأَوَّلُ: عَدَمُ الْإِذْنِ لِلْكَفَّارِ فِي الْاِغْتِدَارِ وَهُمْ فِي سَاحَةِ الْعَرْضِ

٨٤- ﴿وَيَوْمَ نَبْعَثُ مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا ثُمَّ لَا يُؤْذَنُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ﴾ (٨٤)

وفي يوم القيامة يشهد على كل أمة رسولها، بأنهم أجابوا دعوته أم أعرضوا عنه،

ومحمد ﷺ يشهد على أمته بأعمالهم، فلا يُقبل اعتذار من الكفار، ولا يعودون إلى الدنيا مرة أخرى لتدارك مافاتهم.

هذا: والله ﷻ في الآيات الست التالية، يتحدث عن يوم القيامة؛ ليبين فيها أنه بعد البلاغ المبين من الرسول ﷺ لأمرته سيكون الحساب والجزاء.

وسورة النحل سورة مكية عناصرها: التوحيد، والبعث، والوحي: (القرآن)، وفي هذه الآيات الست حديث منفرد عن يوم القيامة، يأمر الله تعالى فيها نبيه أن يذكر لأمرته يوم الحشر والبعث، وهو اليوم الذي يمثل فيه الخلائق جميعاً بين يدي رب العزة، فيحاسبهم على النقيير والقطمير، وهو آت لا محالة.

وفي هذا اليوم يبعث الله من كل أمة شهيداً عليهم، هو نبيها الذي بلغهم رسالات ربه، وشهيد هذه الأمة، هو النبي محمد ﷺ الذي بُعث فيها حيث يكون شهيداً على أمته، من آمن منهم ومن كفر، من وحّد منهم ومن أشرك، يشهد ﷺ أنه بلغهم رسالة ربه، كما قال تعالى: ﴿فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَى هَؤُلَاءِ شَهِيدًا﴾ (٨٤) [النساء].

وكان النبي ﷺ إذا قرأ هذه الآية فاضت عيناه شفقة على أمته.

ثم بيّن تعالى مصير الكفار السيئ يوم القيامة، بأنهم يُطردون من رحمة الله، ولا يجدون من يسمع لهم قولاً، أو يقبل منهم اعتذاراً، كما قال تعالى: ﴿فَيَوْمَئِذٍ لَا يَنْفَعُ الَّذِينَ ظَلَمُوا مَعَذِرَتُهُمْ وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ﴾ (٥٧) [الروم]

وكما قال تعالى عن أهل النار: ﴿فَالْيَوْمَ لَا يَخْرُجُونَ مِنْهَا وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ﴾ [الجاثية: ٣٥]

حيث لا يؤذن للكفار في الاعتذار، ولا يؤذن لهم في الكلام، ولا يؤذن لهم في الرجوع إلى الدنيا، ولا يؤذن لهم في معارضة الشهود.

وذلك لأن الآخرة ليست دار تكليف، فلا مجال فيها للعمل على ما يرضي الله تعالى؛ لأن هذا قد فات وقته في الدنيا، وانتقل الإنسان إلى دار أخرى، فيها الحساب والجزاء، فلا توبة يومئذ، ولا عمل صالح، فقد مضى أوان ذلك، فلا يؤذن للذين كفروا بالمجادلة عن أنفسهم، ولا يؤذن لهم في الاعتذار فيعتذرون، كما قال تعالى: ﴿هَذَا يَوْمٌ لَا يَظْهَرُونَ﴾ (٣٥) وَلَا يُؤْذَنُ لَهُمْ فَيَعْتَذِرُونَ [المرسلات]

وعدم الإذن للكفار بالنطق والاعتذار، يكون في موطن مسبوق بمواطن أخرى من مواطن يوم القيامة:

١- وبداية الأمر، يسألهم ربهم عن الشرك بالله، فيقولون: ﴿وَاللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾ [الأنعام: ٢٣] حيث ينكر المشركون أنهم أشركوا بالله، ويحلفون على ذلك.

والله سبحانه يلفت النظر إلى التعجب من كذبهم فيقول: ﴿أَنْظُرْ كَيْفَ كَذَبُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَصَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ﴾ [الأنعام]

٢- وبعد أن يحلفوا أنهم ما أشركوا بالله، يختم الله على أفواههم، فلا يتكلمون ويقال لهم: ﴿أَخْسَرُوا فِيهَا وَلَا تَكْلُمُونَ﴾ [المؤمنون: ١٠٨].

كما قال تعالى: ﴿الْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَى أَفْوَاهِهِمْ﴾.

٣- ثم تنطق الجوارح، وتشهد ﴿وَتُكَلِّمُنَا أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ [يس: ٦٥] قال تعالى: ﴿حَتَّىٰ إِذَا مَا جَاءُوهَا شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَرُهُمْ وَجُلُودُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ۚ وَقَالُوا لِمَ لُجُودِهِمْ لِمَ شَهِدْتُمْ عَلَيْنَا قَالُوا أَنْطَقَنَا اللَّهُ الَّذِي أَنْطَقَ كُلَّ شَيْءٍ﴾ [فصلت]

فحيثئذ يكون الاعتذار لا جدوى منه، ولا فائدة فيه؛ لأن الكفار لا يرجعون إلى الدنيا مرة ثانية، ولا يكلفون بعمل صالح؛ لتدارك ما فاتهم، فالآخرة دار حساب وجزاء، وليست داراً للعمل، ولذا فإنه لا يؤذن لهم في الاعتذار، ولا في الرجوع إلى الدنيا، ولا يؤذن لهم في الكلام، ولا يطلب منهم أن يُرضوا ربهم، أي: لا يطلب منهم العتبي، وهي طلب الرضا والتوبة؛ لأن الوقت قد مضى، ولا توبة في هذا اليوم.

الْمَشْهَدُ الثَّانِي: الْعَذَابُ لَا يُخَفَّفُ عَنِ الْكُفَّارِ وَلَا يُمَهَّلُونَ إِلَى التَّوْبَةِ

٨٥- ﴿وَإِذَا رَأَوْا الَّذِينَ ظَلَمُوا الْعَذَابَ فَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ وَلَا هُمْ يُنْظَرُونَ﴾

وإذا شاهد الكفار عذاب الله في الآخرة، فلا يخفف عنهم منه شيء، ولا يُمهلون، ولا يؤخر عذابهم، بل يؤخذون سريعاً من الموقف بلا حساب، ويؤتى بجحهم، تُقَاد بسبعين ألف زمام مع كل زمام، سبعون ألف ملك يجرونها.

وآيات القرآن تنطق بأن النار يوم القيامة ترى أهلها فتتغيظ، وتتقطع حقداً وحنفاً عليهم،

قال تعالى: ﴿إِذَا رَأَتْهُمْ مِنْ مَّكَانٍ بَعِيدٍ سَمِعُوا لَهَا تَغَيُّطًا وَزَفِيرًا﴾ [الفرقان: ١٢]، وقال سبحانه: ﴿تَكَادُ تَمَيَّزُ مِنَ الْغَيْطِ﴾ [الملك: ٨].

وأهل النار، وهم في أرض المحشر، في عرصات القيامة، يرون النار بأعينهم، قال تعالى: ﴿وَنَزَّتِ الْجَحِيمُ لِمَنْ يَرَى﴾ [النازعات]

وقال سبحانه: ﴿وَرَأَى الْمُجْرِمُونَ النَّارَ فَظَنُّوا أَنَّهُمْ مُوَافِعُوهَا وَلَمْ يَجِدُوا عَنْهَا مَصْرِفًا﴾ [الكهف].

وقال جل شأنه: ﴿لَوْ يَعْلَمُ الَّذِينَ كَفَرُوا حِينَ لَا يَكْفُرُونَ عَنْ وُجُوهِِهِمُ النَّارَ وَلَا عَنْ ظُهُورِهِمْ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ﴾ [٢٩] بَلْ تَأْتِيهِمْ بَغْتَةً فَتَبْهَتُهُمْ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ رَدَّهَا وَلَا هُمْ يُنْظَرُونَ﴾ [الأنبياء].

وعندما يرى الكفار النار، يتمنون العودة إلى الدنيا؛ كي يؤمنوا، ويرجعوا عن كذبهم، قال تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَى إِذْ وَقُفُوا عَلَى النَّارِ فَقَالُوا يَلَيْسَ نَارُهَا وَلَا تَضُرُّنَا وَلَا نَكْذِبُ بِمَا كُنَّا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الأنعام]

قال سبحانه: ﴿بَلْ بَدَأَهُمْ﴾ أي ظهر لهم ﴿مِمَّا كَانُوا يَخْشَوْنَ مِنْ قَبْلُ وَلَوْ رُدُّوا﴾.

أي: لو رجعوا إلى الدنيا ﴿لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾ [الأنعام: ٢٨]

وهكذا أخبر الله سبحانه أن الكفار إذا رأوا عذاب الله في الآخرة فلا يُخَفِّف عنهم شيء منه، ولا يُمهلون إلى التوبة؛ لأن وقتها قد انتهى، ولا يؤخر عذابهم لحظة؛ فخوفهم وفزعهم في هذا اليوم لن يغيّر من الأمر شيئاً.

المشهد الثالث: تكذيب المغبوضين للعابدين في أنهم أغروهم بعبادتهم

٨٦- ﴿وَإِذَا رَأَى الَّذِينَ أَشْرَكُوا شُرَكَاءَهُمْ قَالُوا رَبَّنَا هَؤُلَاءِ شُرَكَائُنَا الَّذِينَ كُنَّا نَدْعُوا مِنْ دُونِكَ

فَأَلْقُوا إِلَهُهُمُ الْقَوْلُ^(١) إِنَّكُمْ لَكَاذِبُونَ﴾ [٨٦]

إذا شاهد المشركين آلهتهم يوم القيامة قالوا يا ربنا هؤلاء الذين كنا نعبدهم فردت عليهم الآلهة إنكم لكاذبون حيث جعلتمونا شركاء لله، وهكذا يصف القرآن الكريم الجاحدين لتوحيد الله تعالى، الذين لا يتوجهون إليه وحده بالعبادة، المنكرين لرسالة محمد ﷺ يصفهم في هذه الآية، والآيتين قبلها، بثلاثة أوصاف، وكلها لموصوف واحد، وهي تسجل عليهم أنواع إجرامهم.

(١) قرأ حمزة والكسائي ويعقوب وخلف بضم الهاء والميم من (إِلَهُهُمُ الْقَوْل) وكسرها أبو عمرو، وقرأ الباقر بكسر الهاء وضم الميم، وعند الوقف على (إِلَهُم) يقف حمزة ويعقوب بضم الهاء، والباقر بالكسر.

١- فوصفتهم أولاً بالكفر في الآية قبل السابقة، وبيّنت أنهم لا يؤذن لهم في الاعتذار يوم القيامة، ولا في استرضاء الله تعالى.

٢- ووصفتهم ثانياً بالظلم حين يرون العذاب بأعينهم، وذلك في قوله تعالى: ﴿وَإِذَا رَأَى الَّذِينَ ظَلَمُوا الْعَذَابَ فَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ وَلَا هُمْ يُنْظَرُونَ﴾ (٨٥).

٣- وهذه الآية وصفتهم بالشرك، وأنهم حين يرون الأصنام التي كانوا يعبدونها في الدنيا، وقد علموا بطلانها ولم يمكنهم الإنكار إذا رأوها وهي تُحشَر معهم على رؤوس الأشهاد توبيخاً لهم، إذ ليس فيها نفع ولا شفع، وقد بدت العداوة والبغضاء بينهم وبينها عندما أشاروا إليها وقالوا: ﴿هَؤُلَاءِ شُرَكَاؤُنَا الَّذِينَ كُنَّا نَدْعُوا مِنْ دُونِكَ﴾ يريدون بذلك إلقاء المسؤولية عليهم، وحيث تنطق الآلهة بتكذيب من عبدها، فتقول: إننا لم نأمركم بعبادتنا، ولا زعمنا أننا آلهة، فأنتم المذنبون، فيستسلم العابدون ويعلمون أنهم مستحقون للعذاب.

ومعنى ﴿فَأَلْقُوا إِلَيْهِمُ الْقَوْلَ﴾ أي: رد المعبودون على العابدين مكذبين لهم، ومبتريين منهم:

١- وذلك أَنَّ مَنْ كانوا معبودين من البشر، ينطقون بلسانهم مكذبين لهم في أنهم لم يكونوا آلهة، ولم يأمرهم بعبادتهم، فاللوم عليكم أيها العابدون.

٢- أما إن كان المعبود جماداً، فإنها تنطق بقدرة الله تعالى، وتكذب المشركين في وصفهم بأنهم آلهة، وكذلك الحال حين يرى المشركون آلهتهم تُقذف معهم في النار؛ ليكون العابد والمعبود وقوداً لجحيم كما قال تعالى: ﴿قُلْ أَنْفُسُكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ﴾ [التحریم: ٦]

يقول سبحانه: ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنْتُمْ لَهَا وَرَدُونَ﴾ (٩١) لَوْ كَانَتْ هَؤُلَاءِ إِلَهَةً مَا وَرَدُوهَا وَكُلٌّ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٩٩﴾ [الأنبياء].

٣- أما عباد الله الصالحين كعيسى، وعزير، وغيرهما ممن عبد من دون الله، فيقول الله تعالى عنهم: ﴿إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُمْ مِنَّا الْحُسْنَىٰ أُولَٰئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ﴾ (١٠١) [الأنبياء].

وحين يرى المشركون أن الأصنام أُلقيت معهم في النار، يتصلّلون من عبادتها، ويُلْقون بالتبعية أيضاً على قادتهم في الشرك، أنهم هم الذين أغروهم بعبادتهم، كما قال تعالى:

﴿وَقَالَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا لَوْ أَنَّا كَرِهْنَا فَنَتَّبِعُوا مِنْهُمْ كَمَا تَبَرَّأُوا مِنَّا كَذَلِكَ يُرِيدُهُ اللَّهُ لَعَنَهُمْ حَسْرَتٌ عَلَيْهِمْ وَمَا هُمْ بِخَارِجِينَ مِنَ النَّارِ ﴿١٦٧﴾﴾ [البقرة].

وأهل النار حين يرون آلهتهم من البشر، أو من الحجارة، تُقذف معهم في النار، يعترفون على أنفسهم أنهم أشركوا بالله، ويقولون: ربنا هؤلاء الذين عبدناهم في الدنيا، يقولون ذلك اعترافاً منهم، أو تنصلاً، يريدون أن يتحملوا عنهم أوزارهم، وأن يشاركوهم في التبعة والمسؤولية، وعندئذ فإن الأصنام تتبرأ منهم يوم القيامة، ويقولون لهم: أنتم كذبة، حين جعلتمونا شركاء لله تعالى، فنحن لم نأمركم بذلك، ولا زعمنا أننا مستحقون للألوهية، فاللوم عليكم، ونحن جماد، لم نكن نعرف شيئاً عن عبادتكم، كما قال تعالى: ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ مَنْ لَا يَسْتَجِيبُ لَهُمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَمَةِ وَهُمْ عَنْ دُعَائِهِمْ غَفِلُونَ ﴿٥﴾ وَإِذَا حُشِرَ النَّاسُ كَانُوا لَهُمْ أَعْدَاءً وَكَانُوا بِعِبَادَتِهِمْ كَافِرِينَ ﴿٦﴾﴾ [الأحقاف].

إنهم غافلون عن عبادتهم لهم، ولا يعرفون عنها شيئاً، وإذا كان يوم القيامة تبرؤوا منهم، وأنكروا عبادتهم لهم، قال تعالى: ﴿ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَمَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ وَلَيَعْلَمَنَّ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ﴾ [العنكبوت: ٢٥].

وقال أيضاً: ﴿كَلَّا سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا ﴿٨٧﴾﴾ [مريم]، وقال تعالى: ﴿وَيَوْمَ يَقُولُ نَادُوا شُرَكَائِيَ الَّذِينَ زَعَمْتُمْ فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُمْ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ مَوْبِقًا ﴿٥٦﴾﴾ [الكهف].

المشهد الرابع: استسلام المشركين في ساحة الحشر

٨٧- ﴿وَأَلْفُوا إِلَى اللَّهِ يَوْمَذِ السَّلَامِ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴿٨٧﴾﴾

ولما عجز المشركون عن الرد على شركائهم استسلموا، وخضعوا لحكم الله فيهم، وذهب عنهم ما كانوا يفترون واستمعوا له استماع إذلال، وطاعة قهر، كما قال تعالى: ﴿أَسْمِعْ بِهِمْ وَأَبْصِرْ يَوْمَ يَأْتُونَنَا﴾ [مريم: ٣٨] أي: ما أسمعهم، وما أبصرهم يومئذ!! وهم في مشهد ذل وخضوع وإنابة، قال سبحانه يصف حالهم: ﴿وَلَوْ تَرَى إِذِ الْمُجْرِمُونَ نَاكِسُوا رُءُوسِهِمْ عِندَ رَبِّهِمْ رَبَّنَا أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَارْجِعْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا إِنَّا مُوقِنُونَ ﴿٧٧﴾﴾ [السجدة] وذكر جل شأنه رهبة الموقف في مثل قوله: ﴿وَعَنْتِ أَوْجُهُ لِلْحَيِّ الْقَيُّومِ وَقَدْ خَابَ مَنْ حَمَلَ ظُلْمًا ﴿٧٣﴾﴾ [طه].

ذلكم ما يشير إليه قوله تعالى: ﴿وَأَلْفُوا إِلَى اللَّهِ يَوْمَذِ السَّلَامِ﴾ أي: استسلموا، وانقادوا

لله في هذا الموقف العظيم وهو يوم الحشر.

مُضَاعَفَةُ الْعَذَابِ لِمَنْ كَفَرَ وَصَدَّ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ

٨٨- ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ زِدْنَاهُمْ عَذَابًا فَوْقَ الْعَذَابِ بِمَا كَانُوا يُفْسِدُونَ﴾
وهؤلاء الكفار أذنبوا مرتين: مرة بكفرهم، وتكذيبهم بآيات الله، فاستحقوا عذاب النار المَعْدَّة للكفار.

ومرة بمنعهم الناس من الدخول في الإسلام، ومحاربتهم الدعوة إلى الله، فاستحقوا عذاباً إضافياً زائداً على عذاب أهل النار المعهود لأن منعهم الناس من الدخول في الإسلام إفساد كبير في الأرض، يؤهلهم إلى هذا العذاب المضاعف .

وأمثلة صدهم الناس عن دين الله أكثر من أن تحصى :

١- فهذا أبو ذر رضي الله عنه قد تعرضوا له بالأذى في المسجد الحرام حين علموا إسلامه .
٢- وهذا الأعشى حين جاء مكة مادحاً للرسول ﷺ راغباً في الإسلام، لقي من أعداء الإسلام ما يصدّه عن دين الله .

٣- وهذا عامر بن الطفيل الدوسي، حين قدم مكة، مشى إليه رجال من قريش، قالوا: يا طفيل، إنك قدمت بلادنا، وهذا الرجل قد فرق جماعتنا، وشتت أمرنا، وقوله كالسحر، وإننا نخشى عليك وعلى قومك، فلا تكلمه ولا تسمع إليه .

٤- وقصة بلال، وعمار، وسمية، وخباب، وغيرهم، أشهر من أن تذكر .

فكل من كفر بالله، أو آمن به ولم يؤمن بخاتم المرسلين، وإلى جوار ذلك وقف عقبة كؤود في وجه الدعوة، وحال دون نشر الإسلام، زاده الله ﴿عَذَابًا فَوْقَ الْعَذَابِ﴾ .

العذاب الأول: عذاب عام هو عذاب الكفر.

والعذاب الآخر: عذاب خاص لصدهم الناس عن دين الله .

والعذاب العام للكفار مُعَرَّف بالألف واللام؛ لأن عذاب الكفار معروف أنه في نار جهنم. وعذاب آخر جاء نكرة؛ لأنه عذاب خاص، أعدّه الله لهؤلاء الذين منعوا الناس، وصدوهم عن سبيل الله، كما قال تعالى: ﴿وَهُمْ يَنْهَوْنَ عَنْهُ وَيَنْعَوْنَ عَنْهُ وَإِنْ يُهْلِكُونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ﴾ [الأنعام].

أي: أنهم يَمْنَعُونَ الناس من الدخول في الإسلام، ويمتنعون هم من الدخول فيه. قيل في هذا العذاب الزائد: إنه عقارب كالبعال، وحيات كالنخل الطوال، وهذا بسبب تعمدهم الإفساد، وإضلال العباد بالكفر والمعصية، وهذا دليل على تفاوت الكفار في العذاب، كما أن أهل الجنة يتفاوتون في المنازل والدرجات، قال تعالى عن عذاب أهل النار: ﴿لِكُلِّ ضِعْفٌ وَلَكِنْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [الأعراف: ٣٨].

أخرج الحاكم وغيره بسنده عن مسروق قال: قال عبد الله في قول الله ﷻ: ﴿عَذَابًا فَوْقَ الْعَذَابِ﴾ قال: عقارب أيابها كالنخل الطوال^(١).

وأخرج أبو يعلى بسنده عن الحسن عن ابن عباس ؓ أنه قال: ﴿عَذَابًا فَوْقَ الْعَذَابِ﴾ قال: هي خمسة أنهار فوق العرش، يعذبون ببعضها بالليل، وبعضها بالنهار^(٢). وفي الآية تنبيه للمسلمين أن يحذروا كيد غير المسلمين، وإفسادهم في الأرض، وعدم الوقوع في شرورهم.

شَهَادَةُ الرُّسُلِ عَلَى الْأُمَمِ، وَهَيْمَنَةُ الْقُرْآنِ عَلَى الْكُتُبِ

٨٩- ﴿وَيَوْمَ نَبْعَثُ فِي كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا عَلَيْهِمْ مِنْ أَنْفُسِهِمْ وَجِئْنَا بِكَ شَهِيدًا عَلَى هَؤُلَاءِ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ﴾ (٨٩)

(١) قال الحاكم: هذا حديث صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه، «المستدرک» (٣٥٥/٢) ووافقه الذهبي، وأخرجه الطبراني من طريق الأعمش برقم (٩١٠٤، ٩١٠٥) وأخرجه أيضًا عن ابن مسعود برقم (٩١٠٣) وقال الهيثمي في «مجمع الزوائد» (٩١٠/١٠): رواه الطبراني ورجاله رجال الصحيح، وأخرجه الطبري في تفسيره بإسناد صحيح على شرط مسلم (١٠٧/١٤) وأخرجه أبو يعلى في «مسنده» (٦٦/٥) برقم (٢٦٥٩) وعبد الرزاق (٣٦٢/١) وابن أبي شيبة (١٥٨/١٣).

(٢) «مسند أبي يعلى» (٦٦/٥) برقم (٢٦٦٠) قال الهيثمي في «مجمع الزوائد» (٣٩٠/١٠): رجاله رجال الصحيح.

ثم يختم الله ﷻ هذا الربع من سورة النحل بهذه الآية التي تبين أنه إذا كان يوم القيامة فإن الله تعالى يبعث في كل أمة شهيداً عليهم من أنفسهم يشهد عليهم بما أجابوا به رسولهم، وأن محمداً ﷺ يأتي شاهداً على هذه الأمة، قال تعالى: ﴿يَوْمَ يَجْمَعُ اللَّهُ الرُّسُلَ فَيَقُولُ مَاذَا أُجِبْتُمْ﴾ [المائدة: ١٠٩]

وقال سبحانه: ﴿فَلَنَسْأَلَنَّ الَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْأَلَنَّ الْمُرْسَلِينَ﴾ [الأعراف].

وكل رسول يشهد على قومه يكون من جنسهم، ومن بيئتهم وبلسانهم؛ ليكون أتم للحجة، وأقطع للمعذرة، وهو الذي شاهد في الدنيا تكذيبهم وكفرهم، أو إيمانهم وهداهم.

ولما كانت رسالة النبي ﷺ عامة إلى الثقلين، لم يقل الله تعالى: ﴿وَمَنْ أَنْفُسِهِمْ﴾؛ لأنه ﷺ مبعوث إلى جميع الأمم، وشهيد عليهم جميعاً، ولذا قال: ﴿وَجِئْنَا بِكَ شَهِيدًا عَلَى هَؤُلَاءِ﴾.

فيشهد ﷺ أنه قد بلغ الرسالة، وأدى الأمانة، ونصح الأمة، يشهد للصالحين، ويرجو من الله المغفرة للعصاة المذنبين.

قال ابن عطية: ويجوز أن يبعث الله شهداء من الصالحين مع الأنبياء ﷺ^(١).

وقال بعض الصحابة: إذا رأيت أحداً على معصية، فانه، فإن أطاعك وإلا كنت عليه شهيداً يوم القيامة.

ولهذه الآية مثال في سورة النساء، وذلك أنه لما طلب النبي ﷺ من عبد الله بن مسعود أن يقرأ عليه القرآن، قال: يا رسول الله أقرأ عليك وعليك أنزل؟ قال: «إني أحب أن أسمع من غيري»، فقرأ سورة النساء حتى وصل إلى هذه الآية: ﴿فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَى هَؤُلَاءِ شَهِيدًا﴾ (١) فقال رسول الله ﷺ لعبد الله بن مسعود: «حسبك»، قال ابن مسعود: فالتفت فإذا عيناه تذرفان^(٢).

هذه الآية أبكت رسول الله ﷺ شفقة على أمته؛ لشهادته على من آمن منهم ومن كفر، فكل أمة يشهد عليها نبيها أنه بلغها رسالة ربه، فيشهد للمؤمن بالإيمان، ويشهد على الكافر بالكفر، ويشهد على جميع الأمم وعلى جميع الرسل أنهم قد بلغوا رسالات ربهم،

(١) «تفسير ابن عطية» (٣/٤١٥).

(٢) يُنْظَرُ الحديث في «صحيح البخاري» برقم (٤٥٨٢، ٥٠٥٠، ٥٠٥٦) و«صحيح مسلم» برقم (٨٠٠).

كما قال تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾ [البقرة: ١٤٣].

فالرسول ﷺ هو النبي الخاتم، وكتابه هو الكتاب المهيمن، وهو الذي جمع كل ما في الكتب السابقة؛ فالقرآن شاهد على ما نزل قبله من الكتب، والرسول شاهد على أمة ﴿وَجِئْنَا بِكَ شَهِيدًا عَلَى هَؤُلَاءِ﴾ أي: على أمتك وقومك، فقد أرسلك الله إليهم؛ لتخرجهم من الظلمات إلى النور.

﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ﴾ يا محمد ﴿الْكِتَابَ﴾ وهو القرآن ﴿تَبَيَّنَّا لِكُلِّ شَيْءٍ﴾ أي: بيانًا شافيًا لكل ما يحتاج إليه الناس في أصول الدين وفروعه، وكل ما يحتاج إليه العباد في الدارين، من: إصلاح النفوس، وكمال الأخلاق، وتقويم المجتمع، وتبيين الحقوق والواجبات، ودلائل التوحيد، وصدق الرسول ﷺ، وأحوال الأمم والرسل، وأسباب الفلاح والخسران، وما أعدّه الله للعصاة والطائعين.

فما من علم من العلوم الدينية والدنيوية إلا وله أصل في كتاب الله، والسنة موضحة لما جاء في القرآن، وهذا القرآن فيه الهداية للبشر، وفيه الانتفاع للمؤمنين الذين تفتح قلوبهم للقرآن، فتتفع وتعظ بما فيه، ولا تنقبض ويضيق صدرها من سماع القرآن، ومن الموعدة والحكمة.

وقد وصف الله تعالى القرآن في هذه الآية بأربعة أوصاف:

الوصف الأول: أنه تبيان لكل شيء، أي: أنه موضح لكل ما أمر الله به، أو نهى عنه مما يحتاج إلى بيان؛ كالحلال والحرام، والثواب والعقاب؛ فالسنة موضحة للكتاب.

﴿وَمَا ءَأَنَّاكُمْ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْهَوْا﴾ [الحشر: ٧].

أو يحال التبيان على الإجماع، قال تعالى: ﴿وَمَنْ يُسَاقِ الرَّسُولُ مِنْ بَعْدِ مَا بَيَّنَّ لَهُ الْهُدَى وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ تُولِهِ مَا تَوَلَّى وَنُصْلِهِ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا﴾ [النساء].

ثم القياس، كما قال تعالى: ﴿فَاعْتَبِرُوا يٰٓأُولِيَ الْأَبْصَارِ﴾^(١) [الحشر: ٢].

(١) يُنْظَرُ: «حاشية الجمل» على «الجلالين» (٢/٥٩٣).

قال الحسن البصري: أنزل الله مئة وأربعة كتب، أودع علومها أربعة: التوراة والإنجيل والزبور والفرقان، ثم أودع علوم الثلاثة الفرقان، ثم أودع علوم القرآن، المفصل، ثم أودع علوم المفصل فاتحة الكتاب، فمن علم تفسيرها كان كمن علم تفسير الكتب المنزلة^(١).

والقرآن في الأصل كتاب هداية للبشر، ولكنه أشار إلى كثير من العلوم الكونية والتجريبية، فاعتنى بأصول الطب وصحة الأبدان، واعتنى بعلم الجيولوجيا وطبقات الأرض وكنوزها، واعتنى بعلوم الفلك والعالم العلوي وما فيه من أسرار وغيبات.

وأشار إلى علم الهندسة، ومنه أن الشكل المثلث لا ظل، له قال تعالى: ﴿أَطْلِقُوا إِلَى ظِلِّ ذِي تِلْكَ شُعْبٍ ﴿٣٠﴾ لَا ظِلِّ وَلَا يَفْنَى مِنَ اللَّهِ﴾ [المرسلات].

وفيه أصول الصنائع، وأسماء الآلات، وأصول التجارة والزراعة، وعلم الأولين والآخرين، وأسرار البلاغة واللغة، فكان القرآن بحق ﴿يَتَيْنَا لِكُلِّ شَيْءٍ﴾.

الوصف الثاني: أنه كتاب هداية للبشر من الضلال والغواية، يخرجهم الله به من ظلمات الكفر والجهل إلى نور الإيمان وطريق السداد والرشاد ﴿اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ﴾ [البقرة: ٢٥٧].

الوصف الثالث: أنه كتاب رحمة لمن آمن به، وصدق ما فيه، قال تعالى: ﴿يَتَأْتِيَ النَّاسُ قَدْ جَاءَتْكُمْ مَوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَاءٌ لِّمَا فِي الصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ [يونس].

وقال سبحانه: ﴿وَنَزَّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلَّا خَسَارًا﴾ [الإسراء].

الوصف الرابع: أنه بشارة طيبة للمؤمنين بحسن مصيرهم عند رب العالمين، بشارة لمن أسلموا وجوههم لله، فأحسنوا القول والعمل ﴿وَبَشِّرِ الْمُسْلِمِينَ﴾ فهو بشارة طيبة لهم بحسن المصير.

الْأَمْرُ بِأَمَّهَاتِ الْفَضَائِلِ وَالنَّهْيُ عَنْ أَمَّهَاتِ الرَّذَائِلِ

٩٠- ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَايَ ذِي الْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ

(١) أخرجه البيهقي في «الشعب».

وَالْبَغْيَ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٩٠﴾

بينت هذه الآية، كون القرآن تبياناً لكل شيء، باشماله على أصول التشريع الإسلامي المتمثل في الأوامر والنواهي.

فجمعت هذه الآية، أمهات الفضائل في ثلاثة أشياء هي: العدل، والإحسان، وإيتاء ذي القربى، وهي جماع الحقوق الإلهية والاجتماعية.

كما جمعت أمهات الرذائل في ثلاثة أشياء هي: الفحشاء، والمنكر، والبغي، وهي أصول المفاصد الدينية والدنيوية، فهذه ثلاثة أوامر، وثلاثة نواهي هي أصول الشريعة.

وقراءة هذه الآية في نهاية الخطبتين يوم الجمعة ليست شرطاً، ولا ركناً ولا سنة في صحة الخطبة، وإنما هي آية فذة جامعة للأوامر والنواهي، وفيها الوعظ والتذكير، فإن قرئت من باب النصيح والإرشاد فلا بأس بذلك، وإذا لم تُقرأ فلا شيء في هذا، وهو أمر لم يكن في عهد النبي ﷺ، ولا في عهد الخلفاء الراشدين، وإنما حدث ذلك لأمر سياسي حينما استخلف عمر بن عبد العزيز - رحمه الله - سنة تسع وتسعين هجرية، فقد كتب يأمر الخطباء بتلاوة هذه الآية في نهاية الخطبة يوم الجمعة، وتُجعل تلاوتها عوضاً عما كانوا يأتونه في خطبة الجمعة من كلمات لا تجوز، لما جمعته هذه الآية من الأمر بالعدل والإحسان وإيتاء ذي القربى، والنهي عن الفحشاء والمنكر والبغي، ومنه سب بعض الصحابة رضي الله عنهم.

وقال عثمان بن أبي العاص رضي الله عنه: كنت عند رسول الله ﷺ جالساً إذ شَخَصَ بصره فقال: «أتاني جبريل، فأمرني أن أضع هذه الآية بهذا الموضع» ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ﴾^(١).

قلت: وفي هذا - على فرض صحته - دليل على أن ترتيب الآيات توقيفي عن رسول الله ﷺ حيث كان يأمر بوضع الآية بجوار الآية في السورة التي يذكر فيها كذا.

فكان وضعها في هذا الموضع من السورة، بياناً لما قبلها ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِّكُلِّ شَيْءٍ﴾، ومقدمة لما بعدها ﴿وَأَوْفُوا بِعَهْدِ اللَّهِ إِذَا عَاهَدْتُمْ﴾.

(١) قرأ حفص وحمزة والكسائي وخلف العاشر بتخفيف الذال من (تذكرون)، والباقون بتشديدها.

(٢) رواه أحمد «المسند» (٢١٨/٤) برقم (١٧٩١٨) و«مجمع الزوائد» (٥١/٧) قال محققو «المسند»:

ضعيف؛ لضعف ليث بن سليم، وشهر بن حوشب.

وقد ورد في هذه الآية المباركة أقوال مأثورة، منها:

- ١- ما يقوله عنها عبد الله بن مسعود رضي الله عنه: هي أجمع آية في كتاب الله للخير والشر.
- ٢- ويقول عنها عثمان بن مظعون رضي الله عنه: إني قد أسلمت حياء من رسول الله ﷺ؛ لكثرة ما يعرض عليّ الإسلام، فلما نزلت هذه الآية، وأنا عنده، استقر الإيمان في قلبي، وأحببت محمداً ^(١).
- قال: فقرأتها على الوليد بن المغيرة فقال: والله إن له لحلاوة، وإن عليه لطلاوة وإن أعلاه لمثمر، وإن أسفله لمغدق، وما هو بقول بشر.
- وهكذا فقد كانت الآية سبباً في تمكن الإيمان من قلب عثمان بن مظعون، وكان حديث عهد بالإسلام.
- ٣- ويقول الحسن البصري: إن الله جمع لكم الخير كله والشر كله في آية واحدة، فوالله ما من أمر أمر الله به إلا وهو يدخل تحت العدل والإحسان، وما من معصية نهى الله عنها إلا وتدخل تحت الفحشاء والمنكر والبغي ^(٢).
- ٤- وقال قتادة: ليس من خُلِقَ حسن، كان أهل الجاهلية يعملون به، ويستحسنونه إلا أمر الله به في هذه الآية، وليس من خُلِقَ كانوا يتعايرونه بينهم إلا نهى الله عنه وقبح فيه، وإنما نهى عن سفاسف الأخلاق ومذامها ^(٣).
- ٥ - وروى ابن ماجه عن عليّ رضي الله عنه أن النبي ﷺ، وهو يعرض دعوته على القبائل ويدعوهم إلى الإسلام، قال له مفروق بن عمرو: إلام تدعوننا أخا قريش؟ فتلا عليهم الرسول الآية ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ﴾ فقال مفروق: دعوتُ والله إلى مكارم الأخلاق،

(١) يُنظَر: «المسند» (٣١٨/١) عن ابن عباس من حديث طويل بتحقيق أحمد شاكر برقم (٢٩٢٢) وهو في «الدر المنثور» (١٢٨/٤) و«مجمع الزوائد» (٤٨/٧) عن الطبراني، وفي إسناده (شهر) وثقه أحمد وجماعة، وفيه ضعف لا يضر، وبقيّة رجاله ثقات، وحسنه الترمذي برقم (٣٣١٥)، وضعف إسناده محققو المسند برقم (٢٩١٩) عن ابن عباس لضعف شهر بن حوشب.

(٢) أخرجه البيهقي في «الشعب» برقم (١٤٠).

(٣) الطبري (٣٣٧/١٤).

ومحاسن الأعمال، ولقد أفك قوم كذبوك وظاهروا عليك^(١).

٦ - وقال ابن عباس وابن مسعود رضي الله عنهما: أعظم آية في كتاب الله: ﴿اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ﴾ [البقرة: ٢٥٥].

وأجمع آية في كتاب الله للخير والشر ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ﴾.

وأكثر آية في كتاب الله تفويضاً ﴿وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا ۖ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ﴾ [الطلاق].

وأكثر آية في كتاب الله رجاء ﴿قُلْ يَبْعَادَى الَّذِينَ اسْرَفُوا عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا﴾^(٢) [الزمر: ٥٣].

٧ - وورد أن علي بن أبي طالب رضي الله عنه مرَّ بقوم يتحدثون، فقال: فيم أنتم؟ قالوا: نتذاكر المروءة، فقال: أو ما كفاكم الله تعالى في كتابه إذ يقول: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ﴾ فالعدل: الإنصاف، والإحسان: التفضل، فما بقي بعد هذا^(٣).

٨ - ويقول حكيم العرب أكرم بن صيفي، حين أرسل رجُلين إلى النبي صلى الله عليه وسلم يسألانه: من هو؟ وما هو؟ وإلى أي شيء يدعوا؟ فقال صلى الله عليه وسلم: أمّا من أنا؟ فأنا محمد بن عبد الله، وأمّا ما أنا؟ فأنا عبد الله ورسوله، ثم تلا عليهم هذه الآية فقالوا: اردد علينا هذا القول، فردّده عليهم حتى حفظوه، فأتيا أكرم فقالا: أبى أن يرفع نسبه، فسألنا عن نسبه فوجدناه زاكى النسب، واسطاً في مَضَر، وقد رمى إلينا بكلمات، قد سمعناها، فلما سمعهنَّ أكرم قال: إني أراه يأمر بمكارم الأخلاق، وينهى عن مساوئها، فكونوا في هذا الأمر رؤوساً، ولا تكونوا فيه أذناناً، وكان أكرم يريد أن يُقدِّم على النبي صلى الله عليه وسلم بنفسه فأبى قومه عليه،

(١) وقد ألّف الشيخ عز الدين بن عبد السلام كتاباً سمّاه «الشجرة» بيّن فيه أن هذه الآية اشتملت على جميع الأحكام الشرعية في سائر الأبواب الفقهية، وسماه السبكي في الطبقات: «شجرة المعارف».

(٢) أخرجه سعيد بن منصور والبخاري في «الأدب المفرد» (٤٨٩) والطبراني والحاكم وصححه (٣٥٦/٢) والبيهقي في «الشعب» (٢٤٤٠) وابن جرير (٣٣٧/١٤) والطبراني (٨٦٥٨) وابن أبي حاتم و«صحيح الأدب المفرد» (٣٧٦).

(٣) أخرجه البخاري في التاريخ من طريق الكلبي عن أبيه.

وقالوا له: أنت كبيرنا، فأرسل إليه الرَّجُلَيْنِ^(١).

فهو ينصحهم أن يبادروا في الدخول إلى الإسلام، وأن يكونوا أول من أسلم، ولا ينتظروا حتى يكونوا في المؤخرة، فيقول لهم: كونوا أولاً، ولا تكونوا آخراً.

٩ - وأما أعداء الإسلام وصناديد الكفر، فقد أثنوا أيضاً على هذه الآية، فقد قال أبو جهل حين سمع هذه الآية: إن إلهه - يقصد إله محمد ﷺ - ليأمر بمكارم الأخلاق.

١٠ - وقال عكرمة: لما نزلت هذه الآية، قرأها النبي ﷺ على الوليد بن المغيرة، وهو من أكبر أعداء الإسلام، فلما قرأها عليه قال: أعدها عليّ يا بن أخي، فأعادها النبي ﷺ عليه، فقال الوليد يصف القرآن: والله إن له لحلاوة، وإن عليه لطلاوة، وإن أعلاه لمثمر، وإن أسفله لمغدق، وما هو بقول بشر.

وهكذا: فالآية تأمر بثلاثة أشياء هي: العدل، والإحسان، وإيتاء ذي القربى، وتنهى عن ثلاثة أشياء هي: الفحشاء، والمنكر، والبغي.

الأمر الأول والثاني: هما العدل والإحسان:

والمراد بالعدل: القسط، والإنصاف، والمساواة، وعدم الجور.

قال محمد بن كعب القرظي: دعاني عمر بن عبد العزيز فقال: صف لي العدل، فقلت: بنخ، سألت عن أمر جسيم، كن لصغير الناس أباً، ولكبيرهم ابناً، وللمثل منهم أخاً، وللنساء كذلك، وعاقب الناس على قدر ذنوبهم وعلى قدر أجسادهم، ولا تضربن لغضبك سوطاً واحداً متعدياً فتكون من العادين^(٢).

وهناك عدل بين العبد وربّه، وعدل بين العبد ونفسه، وعدل بين العبد وسائر خلق الله، فهذه ثلاثة أنواع من العدل:

١- فالعدل الذي بين العبد وربّه، هو الإنصاف، وأعظم الإنصاف: توحيد الله تعالى

(١) يُنظَر: «معركة الصحابة» (٢/ ٤٢٠) قال ابن حجر: وهو مرسل، وانظر: «الاستيعاب» (١/ ١٤٦).

وأكثر كون أكثم بن صيفي من الصحابة، وانظر: الإصابة (١/ ١١٩).

(٢) أخرجه ابن أبي حاتم كما في «الدر المشثور» (٩/ ١٠٤).

وعدم الإشراك به، وطاعة الله ﷻ وعبادته، وتقديم حق الله تعالى على حظ النفس، وتقديم رضى الله تعالى على هوى النفس، وأداء فرائضه على الوجه المشروع.

والأحسان في هذا العدل : هو الإتقان والإخلاص، كما أخبر النبي ﷺ: «أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك»^(١) وهذا يعني مراقبة الله ﷻ في السر والعلانية.

وعبادة الله تعالى بالعدل، أي: بغير زيادة ولا نقصان، بغير غُلُو ولا تقصير، بغير إفراط ولا تفريط، وبهذا المعنى فسّر ابن عباس العدل في الآية، فقال: إن العدل: شهادة أن لا إله إلا الله، وهذا يعني: تحقيق التوحيد وإخلاصه، وعدم الشرك بالله سبحانه.

والعدل في العبادة: هو أداء الفرائض، وتحقيق التوحيد أولاً، ثم القيام بالتكاليف الشرعية ثانياً.

والإحسان في العبادة: هو الصبر على طاعة الله تعالى فيما أمر ونهى، في الشدة والرخاء والمكره والمنشط^(٢)

٢- **والعدل بين الإنسان وبين نفسه هو:** أن تستوي السريرة والعلانية، وأن يستوي ظاهره وباطنه، بأن يكون ما في داخله موافقاً لما يقوله على لسانه، ولِمَا يَظْهَرُ عليه من أفعال وتصرفات بلا نفاق، ولا تملُّق، ولا نحو ذلك، واستواء السريرة والعلانية عدل: فإذا كانت السريرة أفضل من العلانية فهذا إحسان، وهو درجة أعلى من العدل؛ لأن فيه نافلة وفضلاً.

وإن كانت العلانية أفضل من السريرة -والعياذ بالله- فهذا ظلم وجور وطغيان، وهو من الفحشاء والمنكر، والبغي.

٣- **والعدل بين الإنسان وبين غيره من الناس:** هو إعطاء كل ذي حق حقه، وعدم الظلم، وعدم الجور، والمساواة.

(١) من حديث عمر ؓ عن الإسلام والإيمان والإحسان في «صحيح مسلم» برقم (٨) و«صحيح البخاري» برقم (٥٠، ٤٧٧٧).

(٢) أخرجه الطبري في تفسيره للآية بسند حسن عن الحسن عن علي بن أبي طلحة عن ابن عباس.

والإحسان في هذه الحالة درجة أعلى من العدل، كما بين النبي ﷺ بألا يكتفي العبد بالمساواة في التعامل مع الناس في الحقوق والواجبات، وإنما يرتقي إلى درجة أعلى بأن تحسن -أيها المسلم- إلى من أساء إليك، وأن تغفو عمن ظلمك، وتعطي من حرمك، وتصل من قطعك.

والآيات في القرآن الكريم بهذا المعنى كثيرة:

قال تعالى: ﴿وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُمْ بِهِ﴾ هذا عدل.

﴿وَلَيْنَ صَبْرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِلصَّابِرِينَ﴾ [١٢٦] هذا إحسان وفضل.

وقال سبحانه: ﴿وَلَمَنِ أَنْصَرَ بَعْدَ ظُلْمِهِ فَأُولَئِكَ مَا عَلَيْهِمْ مِنْ سَبِيلٍ﴾ [الشورى] هذا عدل، فالانتصار بعد الظلم عدل وأعلى منه ﴿وَلَمَنِ صَبَرَ وَعَفَرَ إِنَّ ذَلِكَ لَمِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ﴾ [الشورى] هذا فضل وإحسان.

وقال جل شأنه: ﴿وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِثْلُهَا﴾ هذا عدل.

وأعلى منه ﴿فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ﴾ [الشورى: ٤٠] هذا فضل، وإحسان.

ومن العدل مع الناس: قول كلمة الحق ولو على النفس، أو على أقرب الناس، كالوالدين والأقربين، قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَى أَنْفُسِكُمْ أَوِ الْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ﴾ [النساء: ١٣٥].

وقال سبحانه: ﴿وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ﴾ [الأنعام: ١٥٢].

وقال أيضاً: ﴿وَإِذَا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ أَنْ تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ﴾ [النساء: ٥٨].

ومن العدل قول كلمة الحق بالنسبة للعدو، أو من يبغضه الإنسان قال تعالى: ﴿وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَتَاؤُ قَوْمٍ عَلَىٰ أَلَّا تَعْدِلُوا أَعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ﴾ [المائدة: ٨].

ومن العدل قول كلمة الحق في وجه سلطان جائر، كما في حديث أبي سعيد الخدري أن رسول الله ﷺ قال: «أفضل الجهاد كلمة تقال عند سلطان جائر، أو أمير جائر»^(١).

(١) من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه في أبي داود برقم (٤٣٤٤) بتصحیح الألباني في صحيح أبي داود (٣٦٥٠) وفي صحيح ابن ماجه (٤٠١١).

وهكذا فالإحسان -في توحيد الله تعالى وطاعته- رتبة أعلى من أداء الفرائض ومن ترك المحظورات، فترتقي النفس إلى توقي الشهوات والشبهات، وأن يدع الإنسان ما يريه إلى ما لا يريه، ويدع ما لا بأس به مخافة ما فيه بأس، والإكثار من النوافل والقربات، ومراقبة الله تعالى في السر والعلن، فيعبد الله تعالى كأنه ناظر إليه في جميع أحواله، في خلوته وجلوته.

وقد فسّر النبي ﷺ الإحسان في قوله: «أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك»^(١).

أما الإحسان إلى الخلق: فيكون بالقول والعمل، وهو رتبة فوق رتبة العدل والتعامل بالمثل.

وآداب التعامل مع الوالدين، ومع الزوجة ومع الأبناء، وسائر المجتمع، وكذا حُسن العشرة والصحبة، كلها ترجع إلى الإحسان، وليس الإحسان أن تحسن إلى من أحسن إليك، ولكن الإحسان أن تحسن إلى من أساء إليك.

والإحسان إلى الوالدين على وجه الخصوص أمر أوجبه الشرع، وألزم به كل إنسان، وجعله في المرتبة الثانية بعد حق الله تعالى، فهو من باب الواجب، وليس من باب الفضل والتكرم؛ لأن الإحسان إلى الخلق هو المعاملة بالحسنى لمن لا يلزمه الإحسان إليهم، ولمن هو ليس من أهلها، أما مقابلة الإحسان بالإحسان، والفضل بالفضل، فهذا من باب العدل والإنصاف.

وأدنى مراتب الإحسان ما جاء في الموطأ: «أن امرأة بغياً رأت كلباً يلهث من العطش يأكل الثرى، فنزعت خفها وأدلته في بئر، ونزعت فسقته، فغفر الله لها».

وقد «عذبت امرأة في هرة حبستها، حتى ماتت جوعاً، فدخلت النار لا هي أطعمتها وسقته إذ حبستها ولا هي تركتها تأكل من خشاش الأرض»^(٢).

وفي الحديث: عن شداد بن أوس ؓ أن رسول الله ﷺ قال: «إن الله كتب الإحسان على كل شيء، فإذا قتلتم فأحسنوا القِتلة، وإذا ذبحتم فأحسنوا الذبحة»^(٣).

(١) «صحيح مسلم» (٨).

(٢) من حديث عبدالله بن عمر ؓ في صحيح البخاري برقم (٢٣٦٥، ٣٤٨٢) وصحيح مسلم (٢٢٤٢).

(٣) «صحيح مسلم» برقم (١٩٥٥)، وسنن أبي داود برقم (٢٨١٥).

والله تعالى يحب المحسنين، قال تعالى: ﴿وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾ [آل عمران: ١٣٤].

وهكذا يتبين أن الإحسان في الإسلام، لا يقتصر على الإنسان، بل يشمل الحيوان والدواب وسائر المخلوقات.

والأمر الثالث: في الآية، جاء في قوله تعالى: ﴿وَالِيتَايَ ذِي الْقُرْبَىٰ﴾ وقد خص القرابة؛ لأن فيها صلة الرحم، وهم الأقربون والأبعدون من جهة الأم ومن جهة الأب، والعلم رَحِمَ بين أهله، والجيرة رحم بين أهلها، والزمانة والصدقة رحم بين الناس، وهكذا.

وصلة الرحم: تعني أنه إن كان الرحم من أهل الصدقة، أو أهل الزكاة فهو أولى بها؛ لأن الصدقة على القريب برٌّ وصدقة وصلة، وإن لم يكن القريب من أهل الصدقة والزكاة، فالصلة تكون بالمودة والسؤال عنه، وبالهدية، وبالمجاملة، وبالمهاتفة، وبالرسالة، ونحو ذلك من الأحوال في صلة الرحم.

والله ﷻ قد اشتق للرحم اسمًا من اسمه، فقال: «أنا الرحمن خلقت الرحم، وشققت لها اسمًا من اسمي، فمن وصلها وصلته، ومن قطعها قطعته»^(١).

وقطيعة الرحم: فساد موجب لللعنة الله سبحانه، قال تعالى: ﴿فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ تَوَلَّيْتُمْ أَنْ تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَتُقَطِّعُوا أَرْحَامَكُمْ﴾ (٢٢) أُولَئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فَأَصَمَّهُمْ وَأَعَمَّى أَبْصَرَهُمْ ﴿٢٣﴾ [محمد].

وأعلى درجات صلة الرحم أن تصل الرحم الذي يبغضك ويكره لك الكراهية، والبغض؛ فالفضل والإحسان أن تتصدق عليه بالمودة والرحمة والكلمة الطيبة، مهما جفاك، ومهما ابتعد عنك؛ فالإسلام يأمر أن تتقرب إلى قريبك الذي يضمرك لك العداوة، قال تعالى: ﴿خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ﴾ (١٩٩) [الأعراف].

أما النواهي الثلاث، فالنهي الأول منها جاء في قوله تعالى: ﴿وَيَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ﴾.

(١) من حديث عبد الرحمن بن عوف عن رسول الله (عن ربه عز وجل في «المسند» برقم ١٦٥٩، ١٦٨٠)، قال محققوه: حديث صحيح لغيره ورجاله ثقات، وأخرجه أبو يعلى (٨٤١) والحاكم (٤/ ١٥٧) ومصنف عبدالرزاق (٢٠٢٣٤) وأبو داود (١٦٩٥) والبخاري (٩٩٣) وابن حبان (٤٤٣).

والفحشاء: كل ما عظم من الذنوب من كل قول، أو فعل فاحش فيه تجاوز للحد.

فالفعل الفاحش: كالزنى، واللواط، والقتل، والسرقه، وشرب الخمر، والحراة، ونحو ذلك.

والقول الفاحش: كالسب، والقذف، واللعن، ونحو ذلك من الألفاظ السيئة القبيحة، ولم يكن رسول الله ﷺ: فاحشاً، ولا متفحشاً، ولا صخاباً، فلم ينطق بالألفاظ القبيحة الرديئة ولم يكن طعاناً ولا لعاناً.

وسب الرجل كقتله، جاء في الحديث عن ابن مسعود ؓ أن رسول الله ﷺ قال: «سباب المسلم فسوق وقتاله كفر»^(١).

وقال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ﴾ [الأعراف: ٣٣].

والنهي الثاني في الآية هو النهي عن المنكر: ﴿وَالْمُنْكَرِ﴾: كل ما أنكره الشرع من المعاصي والذنوب التي هي من حقوق الله تعالى، وأعظمه الكفر والشرك، ثم كبائر الذنوب، ثم صغائرها فيشمل كل ما هو محرم وما هو مكروه.

والمنكر أيضاً: كل ما أنكره العقل الصحيح، والفطر السليمة.

وتغيير المنكر واجب على الولاة والحكام والأمراء، وعلى كل مسؤول بحسبه، إلا أن الذي يغير المنكر لا يجوز له أن يتجسس، ولا أن يعمل بظنه، ولا يبحث عن المستور، ولا يُغيّر إلا المنكر الظاهر، وليكن أمره ونهيه بالمعروف.

وتغيير المنكر باليد يكون للحكام، وللمن فوضوهم في ذلك، ويكون للوالد في بيته، ولصاحب المصنع في مصنعه، وللمدير في إدارته، وللمدرّس في فصله، وهكذا، وإقامة الحدود تكون من قبل الحاكم المسلم، والأمر بالجهاد يكون من قبل الحاكم المسلم، وقد ذم الله تعالى قوماً كانوا لا يتناهون عن منكر فعلوه، فقال: ﴿لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ بَنِي إِسْرَءِيلَ عَلَى لِسَانِ دَاوُدَ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ﴾ (٧٨) ﴿كَانُوا لَا يَتَنَاهَوْنَ عَنْ مُنْكَرٍ فَعَلُوهُ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ﴾ [المائدة: ٧٨].

(١) من حديث ابن مسعود ؓ في البخاري برقم (٤٨) ومسلم برقم (٦٤).

والنهي الثالث في الآية هو النهي عن البغي: والبغي هو: ما يتعلق بحقوق العباد من كل ما فيه ظلم وتعدُّ على خلق الله تعالى، وفيه مجاوزة للحدود في أموال الناس، أو أعراضهم، أو أنفسهم، أو دمائهم.

وفي الحديث: عن أبي بكرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «ما من ذنب أجدر أن يعجل الله عقوبته في الدنيا، مع ما يدخره الله لصاحبه في الآخرة، من البغي، وقطيعة الرحم»^(١).

ولو أن جبلاً بغى على جبل لُدَّ الباغي، حتى في الجمادات، فكيف بالإنسان؟ وكما أن الفحشاء أعظم درجات المنكر، فإن البغي نوع من المنكر، والبغي هو ظلم الناس والتعدي عليهم.

وكان العرب يُغيرون على غيرهم في الحروب وغيرها بدون ذنب، من باب الكسب والحصول على الغنائم، وكانوا يتجاوزون الحد في مقابلة الذنب، حتى يكون هناك إفراط في المؤاخذه.

ولذا قال تعالى: ﴿فَمَنْ أَعَدَّى عَلَيْكُمْ فَأَعِدُوا عَلَيْهِ يَمْثِلْ مَا أَعَدَّى عَلَيْكُمْ﴾ [البقرة: ١٩٤] أي: بدون تجاوز، ولا إفراط.

وقال تعالى: ﴿ذَلِكَ وَمَنْ عَاقَبْ يَمْثِلْ مَا عُوقِبَ بِهِ ثُمَّ بُغِيَ عَلَيْهِ لِيَنْصَرُهُ اللَّهُ﴾ [الحج: ٦٠].

وحاصل معنى الآية: أن الله ﷻ يأمر عباده في هذا القرآن العظيم بستة أشياء:

أولاً: أن يلتزموا بالحق والعدل والإنصاف في كل أقوالهم وأفعالهم وأحكامهم، ففي عبادتهم لربهم، أمرهم أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئاً، وفي تعاملهم مع الناس أمرهم أن يعطوا كل ذي حق حقه.

ثانياً: ويأمر الله تعالى عباده أن يلتزموا بالعفو، والصفح، والتسامح في أقوالهم

(١) رواه أحمد بنحوه في «المسند» (٣٦/٥) برقم (٢٠٣٧٤، ٢٠٣٩٨) وإسناده صحيح، وأبو داود في «السنن» برقم (٤٩٠٢) والترمذي في «السنن» برقم (٢٥١١) وابن ماجه في «السنن» برقم (٤٢١١) وقال الترمذي: هذا حديث حسن صحيح، وقال الحاكم: صحيح الإسناد ولم يخرجاه، وأقره الذهبي، «المستدرک» (٣٥٦/٢) قال الألباني: وهو كما قال، فإن رجال إسناده كلهم ثقات، وصحح إسناده محقق الإحسان، في صحيح ابن حبان برقم (٤٤٥، ٤٤٦).

وأفعالهم مع الناس، وأن يحسنوا في عبادتهم لله تعالى بأداء فرائضه على الوجه المشروع، وأن يخلصوا فيها، ويُتقنوها على أكمل وجه.

ثالثًا: ويأمر الله جلَّ شأنه عباده بصلة الأقارب، وتقديم العون والمساعدة للفقير منهم بكل وجه من وجوه الخير والبر، ففي هذه الفضائل الثلاث سعادة الدنيا والآخرة.

رابعًا: وينهى الله ﷻ عباده عن كل ما اشتد قبحه من الأقوال والأفعال.

خامسًا: وينهاهم عن كل ما ينكره الشرع، ولا يرضاه من الكفر والمعاصي والردائل على اختلاف أنواعها، وأشكالها.

سادسًا: وينهاهم ربهم عن ظلم الناس، والتطاول عليهم، وتجاوز الحد في كل شيء.

وبهذه الأوامر والنواهي يعظم ربهم، ويذكّرهم العواقب، لعلهم يحسنون التذكر لما ينفعهم، ويعملون بما فيه صلاحهم وسعادتهم في الدارين.

ولمّا أمر الله تعالى بما هو واجب في أصل الشرع، أمر بعد ذلك بالوفاء بما أوجبه العبد على نفسه من العقود والعهود:

نَاقِضُوا الْعَهْدَ كَنَاقِضَةِ الْغَزْلِ بَعْدَ إِحْكَامِهِ

٩١- ﴿وَأَوْفُوا بِعَهْدِ اللَّهِ إِذَا عَاهَدْتُمْ وَلَا تَنْقُضُوا الْأَيْمَانَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا وَقَدْ جَعَلْتُمُ اللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلًا إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ﴾ (٩١)

ومن أعظم البغي نقض العهد وخلف الوعد، سيّما إذا كان هذا العهد أو الوعد موثّقًا ومؤكّدًا باليمين، ولفظ العهد عام يشمل ما كان مكتوبًا، وما كان كلامًا باللسان، والتزم الإنسان به من بيع أو شراء، أو وعد، أو وصية، أو صلة، ما لم يكن عهدًا على معصية، أو في أمر محرم، والعهد كل ما من شأنه أن يراعى ويُحفظ، كالوصية والأمانة والدين، فنقض العهد من كبائر الذنوب.

والإسلام لم يتسامح في هذه النقطة من الكبائر، فقد شدد على وجوب الوفاء بالعهد؛ لأن نقض العهد يفقد الناس الثقة والمصداقية بين الأفراد والمجتمعات، وبينه وبين نفسه:

١- فهناك عهد بينك وبين الله تعالى، بأداء ما عليك من طاعة، وعبادة، ونذر،

وكفارة، وأوامر، ونواو، وغير ذلك.

٢- وهناك عهد بينك وبين الناس من الحقوق، والعقود، والتعهدات، والمعاوضات.

٣- وهناك عهد بين الدول بعضها مع بعض، وبين الأفراد والقبائل والمجتمعات. وكلها عهود أمر الله بالوفاء بها، وألا نرجع فيما تعاهدنا عليه، بعد أن وثقناها بالآيمان؛ لأنها أقوى من الآيمان التي هي للحث على فعل شيء، أو المنع منه، فكونوا أوفياء بعهودكم، ولا تنقضوا آيمانكم بعد توثيقها وتغليظها.

والتزموا -أيها المسلمون- بالوفاء بكل عهد ولا تنقضوه؛ فإن هذا من كبائر الذنوب، وقد جعلتم الله، حين حلفتكم به، ضامناً لكم فيما ألزمتكم به أنفسكم من العهود فيما بينكم وبين الله، وفيما بينكم وبين الناس، ما دام لا يخالف كتاب الله ولا سنة نبيه؛ فالكفيل مهيم على مكفوله وضامن له، والله رقيب، وشهيد، ومطلع عليكم، وسيجازيكم عليه، فهو يعلم ما تفعلون.

وخلف الوعد، ونقض العهد من علامات النفاق، كما في الحديث عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ: «آية المنافق ثلاث: إذا حدث كذب، وإذا وعد أخلف، وإذا أؤتمن خان»^(١) وفي رواية: «وإذا عاهد غدر».

وقد نهى الإسلام عن نقض الآيمان، إلا إذا كانت هذه الآيمان مانعة من فعل الخير، كما قال تعالى: ﴿وَلَا تَجْعَلُوا اللَّهَ عُرْضَةً لِأَيْمَانِكُمْ أَنْ تَبَرُّوا وَتَقْلُوا وَتُضِلُّوا بَيْنَ النَّاسِ﴾ [البقرة: ٢٢٤].

وكذلك إذا حلف الإنسان على شيء، ورأى أن غيرها خير منها، كما قال ﷺ في حديث أبي موسى رضي الله عنه: «إني والله إن شاء الله لا أحلف على يمين فأرى غيرها خيراً منها، إلا أتيت الذي هو خير، وتحللتها»^(٢) وفي رواية: «وكفرت عن يميني».

وأول العهود في الإسلام بيعة النبي ﷺ من أصحابه، على ألا يعصوه في معروف، كما في بيعتي العقبة والحديبية، وغيرهما، والخطاب في الآية عام.

(١) أخرجه الشيخان عن أبي هريرة في البخاري (٣٣، ٢٦٨٢، ٢٧٤٩، ٦٠٩٥) ومسلم (٥٩).

(٢) البخاري (٢٦٤٩، ٣١٣٣، ٦٧٢١) ومسلم (٦٤٩).

وجاء في الحديث عن عبد الله بن عمر رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «إن الغادر ينصب له لواء يوم القيامة فيقال: هذه غدرة فلان...»^(١)

والآية تشمل جميع العهود فيما بين العبد وربّه، وفيما بينه وبين الناس.

فلا يحل للمؤمن أبداً أن ينقض عهداً أخذه على نفسه مع الله، أو مع الناس.

ومن أكبر العهود مبايعة أصحاب رسول الله ﷺ له على الإسلام ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللَّهَ﴾ [الفتح: ١٠] وكذا مبايعة المسلم لربه على الإسلام باعتناقه له، فإنه إن خرج منه -والعياذ بالله- يكون قد نقض هذا الدين وارتد عنه، وكان فتنة لغيره، فإذا رآه غيره أنه قد خرج من دينه، فإن هذا يكون سبباً لفتنة الناس وخروجهم من دينهم.

وقد جاء الأمر بالوفاء بالعهد في آيات كثيرة، منها قوله تعالى: ﴿وَبِعَهْدِ اللَّهِ أَوْفُوا﴾ [الأنعام: ١٥٢] وقوله: ﴿وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ إِنَّ الْعَهْدَ كَانَتْ مَسْئُولًا﴾ [الإسراء: ٣٤] وقد بين ﷺ أن من أوفى بعهده يؤته الله أجراً عظيماً، ومن نقض العهد فلا يضر إلا نفسه، قال تعالى: ﴿فَمَنْ نَكَثَ فَإِنَّمَا يَنْكُثُ عَلَى نَفْسِهِ وَمَنْ أَوْفَى بِمَا عَاهَدَ عَلَيْهِ اللَّهُ فَمِيسُوتُهُ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ [الفتح: ١٠] ونقض العهد والميثاق موجب للجنة الله تعالى، قال سبحانه: ﴿فِيمَا نَقَضْتُمْ مِيثَقَهُمْ لَعْنَهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَلْسِيَةً﴾ [المائدة: ١٣]

وقال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يَنْقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ أُولَئِكَ لَهُمُ الْعَذَابُ وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ ۖ﴾ [الرعد: ٢٥]

ونقض العهد من صفات الفاسقين، كما قال تعالى: ﴿وَمَا يُضِلُّ بِهِ إِلَّا الْفَاسِقِينَ﴾ [٦١] الَّذِينَ يَنْقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ أُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴿٧٧﴾ [البقرة: ٧٧]

وقد مدح الله تعالى الموفين بعهودهم فقال تعالى: ﴿مَنْ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ﴾ [الأحزاب: ٢٣].

وبين سبحانه أن من يبرمون العهد على الالتزام بالإسلام ديناً، فإن عهدهم معقد مع الله

(١) البخاري برقم (٣١٨٨) ومسلم برقم (١٧٣٥) عن ابن عمر رضي الله عنه و«المسند» (٤٨/٢) برقم (٥٠٨٨، ٥٨٠٤).

تعالى، قال سبحانه: ﴿إِنَّ إِلَٰهَ الْأَنبِيَاءِ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ يُّبَٰعِدُكُم مِّنْ بَيْنِهِمْ﴾ [الفتح: ١٠]. قال تعالى:

٩٢- ﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِي نَقَضَتْ غَزْلَهَا مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ أَنكَا تَتَّخِذُونَ إِمَنَكُمْ دَخَلًا بَيْنَكُمْ أَن تَكُونَ أُمَّةٌ هِيَ أَرْبَىٰ مِنْ أُمَّةٍ إِنَّمَا يَبُلُوكُمْ اللَّهُ بِذِهِ وَلِيَبَيِّنَنَّ لَكُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ مَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ﴾^(١)
أي ولا تكونوا في نقضكم للعهد كصاحبة أسوأ الأمثال، وهي امرأة كانت تغزل غزلاً قوياً محكماً، فإذا فرغت منه، نقضته من جديد، فلم تستفد سوى سفاهة العقل، وضياع الوقت، فلا تخذعوا غيركم بالأيمان الكاذبة ولا تنقضوها بعد إحكامها.

ومن ذلك نقض عهد دولة للتحالف مع دولة أخرى، وهذا من أسباب المحن التي يمتحن الله بها عباده ليظهر الوفي من الشقي ويجزي كلا بما يستحق.

وهكذا: ضرب الله ﷻ المثل لمن ينقض عهده مع الله تعالى أو مع خلقه، بمن يغزل غزلاً ويحكم نسجه، ثم يفكه بعد إبرامه.

١- ويضرب هذا المثل بامرأة كانت تسمى: رَيْطَة بنت سعد التيمية، من بني تميم، كانت هذه المرأة في مكة، وهي مختلة العقل، ولها جوار، وعندها مغزل، تغزل هي وجوارها من الصوف، أو الوبر، أو الشعر، من الصباح إلى منتصف النهار، فإذا انتصف النهار تأمر جوارها أن ينقض ما غزلن، بعد إبرام الغزل وإحكامه، ثم تعيد غزله من جديد.

وهكذا تفعل كل يوم، فهي امرأة حمقاء، تُضيّع وقتها، وتبدد طاقتها وجهدها بهذا العمل.

٢- وأخرج ابن أبي حاتم عن أبي بكر بن أبي حفص قال: كانت سعيدة الأسدية مجنونة تجمع الشعر، والليف، ثم تنقضه بعد أن تعبت في نسيجه فنزلت الآية^(١).

٣- وفي الصحيحين: عن عطاء بن رباح قال: قال لي ابن عباس ؓ: ألا أريك امرأة من أهل الجنة؟ قلت: بلى، قال: هذه المرأة السوداء، أتت النبي ﷺ فقالت: إني أضرع، وإني أتكشف، فادع الله لي، قال: «إن شئت صبرت ولك الجنة، وإن شئت دعوت الله أن يعافيك»، فقالت: أضبر، فقالت: إني أتكشف، فادع الله لي أن لا أتكشف، فدعا لها^(٢).

(١) النيسابوري (٢٣٦) و«تفسير الطبري» (١٤/١١٠).

(٢) البخاري (٥٦٥٢) ومسلم (٢٥٧٦).

قال ابن عباس رضي الله عنه: فاختارت الصبر والجنة، قال: وهذه المجنونة، سَعِيرَةُ الْأَسَدِيَّةُ وكانت تجمع الشعر والليف، فنزلت الآية^(١).

٤- وقال مجاهد: هذا شأن نساء أهل نجد، كانت المرأة تأتي بحبل لها فتنفضه، وبعد ما تنفضه تخلطه بالصوف ثم تغزله.

٥- قال قتادة: لو سمعتم بامرأة نقضت غزلها من بعد إبرامه لقلتم: ما أحق هذه! وهذا مثل ضربه الله تعالى لمن نكث عهده^(٢).

ويبدو أنه كان يوجد أكثر من امرأة شأنها ذلك، فليس المراد امرأة بعينها، والله سبحانه ضرب ذلك مثلاً لمن يُبرم العهد، ثم ينقضه.

قال المفسرون: نزلت هذه الآية في العرب، الذين كانت القبيلة منهم إذا حالفت قبيلة أخرى، ثم جاءت إحداها قبيلة ثالثة قوية، فداخلتها، غدرت بالأولى، ونقضت عهدها، وحالفت القوية، فنهى الله تعالى عن ذلك في قوله: ﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِي نَفَضَتْ غَزْلَهَا مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ﴾ بعدما أحكمته وأبرمته، أي: ولا ترجعوا في عهودكم، فيكون مثلكم مثل امرأة غزلت غزلاً وأحكمته، ثم نقضته.

ومعنى ﴿أَنْكُثًا﴾ أي: منقوضاً، تجعله خيوطاً عديدة، أي: تجعلون أيمانكم الصالحة أيماناً فاسدة كاذبة، وهذا معنى ﴿تَنْخِذُونَ﴾ أي: تجعلون ﴿أَيْمَانَكُمْ﴾ الحقيقية ﴿دَخَلًا يَبِينَكُمْ﴾ أي: خديعة لمن عاهدتموه، فتجعلونها وسيلة للغدر، والمكر، والغش؛ فالدخل: هو الفساد، وهو الذريعة إلى الخداع والغدر؛ لأن المحلوف له، يكون مطمئناً، فيتمكن الحالف من ضربه والغدر به.

وقد بينت الآية أن هذا الغدر، يكون عادة من جماعة، عندما توجد لها جماعة أخرى للتحالف معها، وهي أقوى من سابقتها، وذلك في قوله تعالى: ﴿أَنْ تَكُونُ أُمَّةٌ هِيَ أَرْبَىٰ﴾ أي: أقوى وأشد من أمة أخرى، وأكثر منها عدداً، وأوفر مالا، وأقوى سلاحاً وعتاداً. قال مجاهد: كانوا يحالفون الحلفاء، فيجدون أكثر منهم وأعز، فينقضون حلف هؤلاء،

(١) أخرجه ابن مردويه من طريق عطاء بن رباح كما في «الدر المشثور» (١٠٦/٩).

(٢) الطبري (٣٤٣/١٤).

ويحالفون أولئك^(١).

فلا يَحْمِلُكُمْ عَلَى نَقْضِ الْإِيمَانِ كَوْنُ أُمَّةٍ هِيَ أَحْسَنُ وَأَقْوَى مِنْ أُمَّةٍ، فَلَا تَنْقُضُوا الْعَهْدَ وَالْمَوَاقِيقَ؛ بِسَبَبِ الْمَصَالِحِ وَالْمَنَافِعِ الدُّنْيَوِيَّةِ، كَالَّذِي يَحْدُثُ بَيْنَ الدُّوَلِ مِنْ مَعَاهِدَاتٍ وَمَوَاقِيقَ، أَوْ مَا يَحْدُثُ بَيْنَ الْأَفْرَادِ، أَوْ الْعَشَائِرِ وَالْقَبَائِلِ، فِيرْجِعُونَ عَنْهَا، وَيَنْقُضُونَهَا وَالْإِسْلَامَ يَنْهَى عَنْ هَذَا:

كَانَ بَيْنَ مَعَاوِيَةَ، وَبَيْنَ مَلِكِ الرُّومِ، عَهْدٌ إِلَى أَجَلٍ، فَأَرَادَ مَعَاوِيَةُ أَنْ يَسِيرَ إِلَيْهِ فِي نَهَايَةِ الْمَدَّةِ؛ لِيَكُونَ قَرِيبًا مِنْهُ، فَإِذَا انْتَهَى الْأَجَلُ بَيْنَهُمَا، غَارَ عَلَيْهِ وَهُوَ لَا يَشْعُرُ، وَسَاقَ جَيْشَهُ ذَاهِبًا إِلَيْهِ.

فَقَالَ لَهُ عُمَرُو بْنُ عَبْسَةَ: اللَّهُ أَكْبَرُ يَا مَعَاوِيَةُ، وَفَاءٌ لَا غَدْرَ، سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: «مَنْ كَانَ بَيْنَهُ وَبَيْنَ قَوْمٍ أَجَلٌ فَلَا يَحِلُّنَّ عَقْدَةً حَتَّى يَنْقُضِي أَمْدَهَا»^(٢). فَرَجَعَ مَعَاوِيَةُ بِالْجَيْشِ.

أَيُّ: أَنَّهُ لَا يَحِلُّ لِرَجُلٍ أَنْ يَنْقُضَ عَهْدَ قَوْمٍ، حَتَّى يَأْتِيَ الْمَوْعِدَ الْمَضْرُوبَ بَيْنَهُمَا، فَكَانَ مِنْ مَعَاوِيَةَ أَنْ وَقَفَ عِنْدَمَا سَمِعَ حَدِيثَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ - وَكَانُوا وَقَّافِينَ عِنْدَ حُدُودِ اللَّهِ تَعَالَى - وَرَجَعَ بِجَيْشِهِ.

فَالْإِسْلَامُ يَأْمُرُ بِالْوَفَاءِ بِالْعَهْدِ، وَالْعُقُودِ، وَالْوَعُودِ، وَيَنْهَى عَنْ نَقْضِهَا.

يَنْهَى الْحَاكِمَ الْمُسْلِمَ إِذَا وَجَدَ دَوْلَةً أَقْوَى مِنْ دَوْلَتِهِ عَسْكَرِيًّا، أَوْ اقْتِصَادِيًّا، أَوْ نَفُوذًا، أَنْ يَتْرِكَ الْأُمَّةَ الضَّعِيفَةَ الْمُتَحَالِفَ مَعَهَا، وَيُلْجَأَ إِلَى الْأُمَّةِ الْقَوِيَّةِ، وَيَنْقُضَ عَهْدَهُ السَّابِقَ.

وَقَدْ حَدَّثَ هَذَا حِينَ خَرَجَ قَوْمٌ عَنْ بَيْعَةِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَانْحَازُوا إِلَى قُرَيْشٍ؛ لِأَنَّهُمْ أَكْثَرُ وَأَعَزُّ مَالًا وَنَفَرًا.

وكَذَلِكَ الشَّأْنُ فِي عَصْرِنَا مِنَ الدُّوَلِ الَّتِي تَوَالِي الْقُوَى الْكُبْرَى فِي الْعَالَمِ؛ لِأَنَّهَا أَكْثَرُ نَفُوذًا، وَأَكْثَرُ قُوَّةً اقْتِصَادِيَّةً وَعَسْكَرِيَّةً.

(١) «تفسير القرطبي» (١٠/١٨٠).

(٢) يُنْظَرُ «المسند» (١٧٠١٥، ١٧٠٢٥، ١٩٤٣٦)، (قَالَ مُحَقِّقُو): وَهُوَ حَدِيثٌ صَحِيحٌ بِشَاهِدِهِ، كَمَا فِي حَدِيثِ أَبِي هُرَيْرَةَ فِي الْبَخَارِيِّ (٣٦٩، ٣١٧٧) وَفِيهِ كَيْفَ يَنْبِذُ إِلَى أَهْلِ الْعَهْدِ، وَأَخْرَجَهُ الطِّيَالِسي (١١٥٥) وَالنَّسَائِيُّ فِي الْكُبْرَى (٨٧٣٢) وَصَحَّحَهُ ابْنُ حِبَانَ (٤٨٧١) وَأَخْرَجَهُ أَبُو عِيَدٍ فِي الْأَمْوَالِ (٤٤٨) وَأَبُو دَاوُدَ (٢٧٥٩) وَالتِّرْمِذِيُّ (١٥٨٠).

وهكذا كانت قريش في الجاهلية تعقد الحلف، أو المعاهدة مع القبيلة فإذا وجدت أن غيرها أقوى منها نقضت عهدها معها، وانضمت إلى القبيلة الأقوى. ومن ذلك أنه لا ينبغي الخروج على الحاكم المسلم إلا إذا أتى بكفر بواح، عندكم فيه من الله برهان، أي: دليل قاطع على أن ما يفعله كفر ظاهر، وهذا بحكم البيعة له، وهي عهد بينه وبين من بايعوه، حتى لو تسلّم هذا الحاكم إدارة البلاد بالغلبة والقوة، وذلك حقاً لدماء الناس، ولعدم إثارة الفتن والحروب. وفي نهاية الآية، أخبر سبحانه أنه يتلى عباده بما أمركم به من الوفاء بالعهود، وما نهاكم عنه من نقضها، وبين سبحانه أن ذلك فتنة وإغراء ﴿إِنَّمَا يَبْتَلُوكُمْ اللَّهُ بِهِ﴾.

ورّد الفصل بين العباد يوم لقاء الله تعالى فيما اختلفوا فيه في حياتهم الدنيا:

١- من الإيمان بالله تعالى.

٢- ونبوة محمد ﷺ.

٣- ومن الغدر ونقض العهود، ورّد كل ذلك إلى الله تعالى وحده:

فيجازي أهل الحق بما يستحقون من ثواب، ويجازي أهل الباطل بما هم أهلهم من عقاب.

﴿وَلَيَبَيِّنَنَّ لَكُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ مَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ﴾

الْإِنْسَانُ حُرٌّ مَّخْتَارٌ

٩٣- ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِنْ يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَلَتَسْلُنَّ عَمَّا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾

ثم إن الله تعالى قادر على بيان الحق من الباطل في هذه الدنيا، بأن يجعل الناس كلهم على دين واحد، وملة واحدة هي الإسلام والإيمان، بلا خلاف ولا فرقة، ويلزمكم به جميعاً، ولكن الله تعالى خلقكم باستعدادات متعددة، فأمركم ونهاكم؛ ليختبركم، ويحاسبكم، هل وقّيتم بميثاق التوحيد الذي أخذه الله عليكم وأنتم في أصلاب آبائكم أم لا؟ وذلك كي يضل الله من يشاء، ممن علّم منه إثارة الضلال واختياره قبل أن يُخلق، فكتب ذلك عنده، ويهدي من يشاء، ممن علّم منه إثارة الهدى واختياره حسب استعداده الشخصي، فكتب ذلك عنده، وعلّم الله تعالى، مجرد انكشاف لما سيكون عليه حال العبد عندما يكون إنساناً مكلفاً، وليس فيه إجبار له على القول أو الفعل، فقد ترككم الله سبحانه لحريتكم واختياركم، وجعل لكم عقولا تميزون بها الخير من الشر، ولم يترككم لها، بل أرسل

لكم الرسل، وأنزل عليكم الكتب.

فإذا كان يوم القيامة، فإن الله تعالى سائل كل أحد عما عمل في الدنيا، مما أمركم به ونهاكم عنه، وسوف يجازيكم على ذلك.

ولهذه الآية نظائر كثيرة، منها قوله تعالى: ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ ۚ﴾ (١٨) إِلَّا مَنْ رَّحِمَ رَبُّكَ وَلَئِنَّكَ خَلَقَهُمْ ﴿[هود].

وقوله: ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَأَمَنَّ مَنْ فِي الْأَرْضِ كُلَّهُمْ جَمِيعًا﴾ [يونس: ٩٩].

وقوله: ﴿وَلَوْ شِئْنَا لَآتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدًى﴾ [السجدة: ١٣].

النَّهْيُ عَنِ خِدَاعِ النَّاسِ بِالْأَيْمَانِ الْكَاذِبَةِ لِكَسْبِ ثِقَتِهِمْ

٩٤- ﴿وَلَا تَتَّخِذُوا أَيْمَانَكُمْ دَخَلًا بَيْنَكُمْ فَتَزِلَّ قَدَمٌ بَعْدَ ثُبُوتِهَا وَتَذُوقُوا الشَّوْءَ بِمَا صَدَدْتُمْ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَلَكُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ (٩٤)

أي ولا تخذعوا الناس بالأيمان الكاذبة، فتزل أقدامكم عن الصراط يوم لقاء الله، بعد ثبوتها، كحال ناقض العهد، وتذوقوا سوء العذاب بسبب ضلالكم عن سبيل الله وضلال غيركم ممن تسببتم في خديعتهم وإغوائهم.

وبعد أن نهانا سبحانه عن نقض العهود بصفة عامة، نهانا عن الغش والخديعة، بأن نجعل الحلف بالله تعالى ذريعة إلى غش الناس وخداعهم، وأخذ حقوقهم، وقد جاء ذلك تأكيداً للآية السابقة، ومبالغة في النهي عن خداع الناس بالأيمان الكاذبة.

وقد جرت عادة الناس أن يطمئنوا إلى صدق من يقسم بالله تعالى، فلا تجعلوا - أيها المخادعون - هذه الثقة، وسيلة للكذب، وإفساد ما بينكم وبين الناس من مودة.

وقد جاء النهي في هذه الآية بنفس اللفظ الذي حذرت منه الآية قبل السابقة، في ضرب المثل بالمرأة التي نقضت غزلها، فقال تعالى: ﴿وَلَا تَتَّخِذُوا أَيْمَانَكُمْ دَخَلًا بَيْنَكُمْ﴾ أي: لا تخذعوا الناس بالأيمان الكاذبة؛ لنقض العهود التي أبرمت مع غيركم، فإن غير المسلم إذا رأى المسلم قد عاهد ثم غدر، لم يبقَ لديه ثقة في هذا الدين فيمتنع من الدخول فيه، ويصد الناس عنه، ويكون في هذا إساءة إلى الإسلام وأهله.

فلا تجعلوا أيمانكم التي تحلفونها خديعة وغشاً لمن حلفتُم لهم بها ﴿فَنَزَلَ قَدَمُ بَعْدَ بُتُوتِهَا﴾ أي: تُهَلَكُوا بعد أن كنتم آمنين، ولا تثبتوا على الصراط يوم تزل الأقدام، كمن زلقت قدمه عن موضعها بعد أن كانت راسخة ثابتة، أو كمن سقط في ورطة، أو وقع في بلاء ومحنة، بعد أن كان في سلامة وعافية، وهو مثل يضربه العرب لمن كان كذلك.

وفضلاً عن ذلك فإنكم تتحملون وزر من علمتموه نقض العهود من الناس، ذلكم معنى قوله تعالى: ﴿وَتَذَوُّوا أَلْسِنَتَكُمْ﴾ أي: عذاب الدنيا؛ بسبب صدكم لغيركم عن دين الله، وبما تسببتم فيه من منع غيركم من الدخول في الإسلام لَمَّا رأى منكم هذا الغدر ﴿وَلَكُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ يوم لقاء الله بالإضافة إلى ما يسؤوكم في الدنيا من الخزي والفضيحة.

عن عبد الله بن عمرو رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «الكبائر: الإشراك بالله، وعقوق الوالدين، وقتل النفس، واليمين الغموس»^(١).

النَّهْيُ عَنِ الرِّشْوَةِ وَالْيَمِينِ الْغَمُوسِ

٩٥- ﴿وَلَا تَشْتَرُوا بِعَهْدِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا إِنَّمَا عِنْدَ اللَّهِ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾

ثم نهى الله سبحانه عباده أن يبيعوا دينهم بدنياهم، فينقضوا عهودهم ومواثيقهم مقابل عَرَضٍ من أعراض الدنيا، أو منفعة دنيوية زائلة، وكل عوض يؤخذ على نقض عهد من عهود الله، فهو عوض قليل، ولو كان أعظم المكتسبات، فلا تنقضوا عهد الله؛ لتستبدلوا مكانه عرضاً قليلاً من متاع الدنيا.

وفي الآية نهى عن الرشوة بأخذ المال على ما يجب على الإنسان فعله أو تركه؛ فإن في ذلك نقضاً للعهد مقابل منفعة، ومهام الوظيفة يجب القيام بها دون مقابل من الناس، ودون الإضرار بالآخرين، وهذا هو النهي الثالث في هذا الربع من السورة.

فالنهي الأول: نهى عن نقض الأيمان ﴿وَلَا نَنْقُضُوا الْأَيْمَانَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا﴾.

والنهي الثاني: نهى عن اتخاذ الأيمان وسيلة لإبطال الحق، أو إحقاق الباطل.

﴿وَلَا لِنَخْذُوا أَيْمَانَكُمْ دَخَلاً بَيْنَكُمْ فَتَزِلَّ قَدَمُ بَعْدَ بُتُوتِهَا﴾.

(١) «صحيح البخاري» برقم (٦٦٧٥).

والنهي الثالث: نهى عن استبدال عهد الله تعالى بمتاع الدنيا القليل.

جاء رجلاً إلى النبي ﷺ يختصمان في قطعة أرض بينهما، فأراد أحدهما أن يحلف كذباً، فأرجأه النبي ﷺ أي: أمهله لأن لا يحلف، فأنزل الله قوله جلّ شأنه: ﴿وَلَا تَشْرَوْا بِعَهْدِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا﴾^(١).

وهو مثل ينطبق على كل من حلف بالله يميناً يعلم أنه غير صادق فيها؛ ليقطع به حق امرئ مسلم، وهو اليمين الغموس؛ ليشترى به عرض الدنيا، فإن ما عند الله من الثواب على الوفاء بالعهد، أفضل لكم - أيها الناكثون للعهود - من هذا الثمن القليل، إن كنتم من أهل العلم، فتدبروا الفرق بين خيري الدنيا والآخرة.

نَعِيمُ الدُّنْيَا يَزُولُ وَنَعِيمُ الْآخِرَةِ لَا يَفَارِقُ صَاحِبَهُ

٩٦- ﴿مَا عِنْدَكُمْ يَنْفَدُ وَمَا عِنْدَ اللَّهِ بَاقٍ﴾^(٢) وَلَنَجْزِيَنَ^(٣) الَّذِينَ صَبَرُوا أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٩٦﴾

وبعد أن بين ﷺ أن ما عند الله من الفضل والمثوبة خير من كل ثمن، مهما عظم قدره، بين جلّ شأنه العلة في ذلك بأن ما ادخره الله لعباده من الخير في الدنيا والآخرة، لا يفنى ولا ينقضي ولا يزول، بل هو متجدد لا ينفد؛ فحزائن الناس تنفد، وخزائن الله باقية، وكل ما عند الناس من عطاء هو من حطام الدنيا الزائل، وما عند الله من الرزق والثواب لا يزول، وهذا كقوله تعالى بَلْ تُؤْثِرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ﴿٩٦﴾ وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَى ﴿٩٧﴾ [الأعلى] وكقوله: ﴿وَمَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ لِلْآزِرِينَ﴾ [آل عمران: ١٩٨]

فنعيم الدنيا يذهب عن الإنسان، أو يذهب الإنسان ويتركه، ونعيم الآخرة لا يفارق صاحبه، فآثروا ما يبقى على ما يفنى، والله تعالى يثيب الذين تحملوا مشاق التكليف الشرعية، ومنها الوفاء بالعهد، والصبر على السراء والضراء، يثيبهم الله تعالى أحسن من

(١) قال أبو بكر بن الخطيب: اسم صاحب الأرض: ربيعة بن عبدان، وقيل: عيدان، وهو المدعي، واسم المدعى عليه امرؤ القيس، وهو الذي هم أن يحلف، يُنْظَرُ: «زاد المسير» (٤/٤٨٧) وهو مروى عن ابن عباس عن أبي صالح.

(٢) وقف ابن كثير على (باق) بالياء، والباقون بحذفها وصلًا ووقفًا، ومعهم ابن كثير في الوصل.

(٣) قرأ ابن كثير وعاصم وأبو جعفر وابن عامر بخلف عنه بنون العظمة في (ولنجزيين)، والباقون بالياء؛ لمناسبة (وما عند الله باق) ومعهم ابن عامر في الوجه الآخر.

أعمالهم، فيضاعف لهم الأجر والمثوبة على أدنى الأعمال الصالحة، كما يعطيهم أعظم منه على أعلى الأعمال الصالحة، فضلاً منه وكرماً، وجزاء الصابرين على طاعة الله، وعمّا حرم الله، وعلى أقدار الله، جزاء بلا حدود، كما قال تعالى: ﴿إِنَّمَا يُؤَقِّبُ الصَّابِرِينَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [الزمر: ١٠].

عن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «من أحب دنياه أضر بآخرته، ومن أحب آخرته أضر بدنياه، فآثروا ما يبقى على ما يفنى»^(١).

وكل ما في الدنيا من مال ومتاع فهو زائل، وما عند الله خير وأبقى.

﴿قُلْ مَنْعَ الدُّنْيَا قَلِيلٌ وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ لِّمَنِ اتَّقَى وَلَا تُظْلَمُونَ فَتِيلًا﴾ [النساء: ٧٧]

ثَوَابُ الْعَمَلِ الصَّالِحِ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ

٩٧- ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أَنَّىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهٗ حَيٰوةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ (٩٧)

ثم عمّم ﷺ مضاعفة الأجر والجزاء لكل من ثبت على الإسلام وعمل صالحاً، بعد أن خص به الذين صبروا على الوفاء بالعهود في الآية السابقة، مبيّناً سبحانه أنه يستوي في ذلك الذكر والأنثى، فيعطى الحسنة بعشر أمثالها إلى سبع مئة ضعف إلى أضعاف كثيرة، مع استيفاء شروط ثلاثة لقبول العمل الصالح وهي:

أولاً: أن يكون العبد مؤمناً سليم العقيدة، وهذا شرط لقبول الأعمال الصالحة.

ثانياً: أن يكون هذا العمل خالصاً لله تعالى، لا يشوبه شرك.

ثالثاً: أن يكون العمل موافقاً لما جاء به محمد ﷺ، وهذا شرط آخر لقبول الأعمال.

والعمل الصالح يشمل جميع الطاعات، وقد جاء مقيداً بالإيمان؛ ليخرج عمل غير المسلم فإن عمله مردود على صاحبه.

والرجل والمرأة يستويان في الجزاء، والتكاليف، والعقوبات، والمثوبات.

(١) «المسند» (١٩٦٩٧، ١٩٦٩٨) قال محققوه: حسن لغيره، وأخرجه الحاكم (٣٠٨/٤) وصححه، وأخرجه البيهقي في «الشعب» (١٠٣٣٧).

ثم بيّن سبحانه الجزاء المترتب على العمل الصالح في الدنيا والآخرة، فقال: ﴿فَلَنُحْيِيَنَّكُمْ حَيَاةً طَيِّبَةً﴾ وذلك في الدنيا، بأن يعيش العبد عيشة رغيدة، ويرزقه الله رزقًا حلالًا طيبًا؛ فالحياة الطيبة بأن يرزق الله العبد رزقًا حلالًا، فيأكل حلالًا، ويشرب حلالًا، ويلبس حلالًا، ويسكن حلالًا، وإن كان فقيرًا، أو معسرًا، فإنه يكون سعيدًا في دنياه قانعًا برزقه.

فالثروة عنصر واحد من عناصر السعادة في الدنيا، وقد تكون الثروة مصدرًا للشقاء.

وهناك عناصر عديدة يجد فيها المسلم السعادة؛ كالرضا، والقناعة، وإسعاد الآخرين، والبحث العلمي، والإحسان إلى الوالدين، وحسن تربية الأبناء، وصلة الرحم، ومحبة الناس، وقوة الرجاء في رضوان الله تعالى، ونشاط النفس، والقراءة المفيدة، والكتابة المفيدة، والحياة الطيبة تشمل وجوه الراحة من أي جهة كانت، والاعتقاد بأن ما هو فيه من أحوال أصلح له، فإن فيه اطمئنانًا وسعادة وعدم قلق.

١- في الحديث عبدالله عن ابن عمرو رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ أنه قال: «قد أفلح من أسلم، ورزق كفافًا، وقنعه الله بما آتاه»^(١).

٢- وفي لفظ عن فضالة بن عبيد: «طوبى لمن هُدي إلى الإسلام، وكان عيشه كفافًا، وقنع»^(٢).

٣- وكان النبي ﷺ يقول: «اللهم قنّني بما رزقني، وبارك لي فيه، واخلف عليّ كلّ غائبة لي بخير»^(٣).

(١) رواه مسلم برقم (١٠٥٤) عن عبد الله بن يزيد المقرئ، وهو في الترمذي (٢٣٤٨) وابن حبان (٦٧٠) وابن ماجه (٤١٣٨) ورواه أحمد في «المسند» (١٦٨/٢) برقم (٦٥٧٢) عن عبد الله بن عمرو.

(٢) أخرجه الترمذي في «السنن» برقم (٢٣٤٩) من حديث فضالة بن عبيد، وقال: هذا حديث حسن صحيح، وهو في «صحيح سنن الترمذي» برقم (١٩١٥)، وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة (١٥٠٦) والتعليق الرغيب (١١/٢).

(٣) أخرجه الحاكم في «المستدرک» (٣٥٦/٢) وقال: صحيح الإسناد، ولم يخرجاه وأقره الذهبي، وهو عن عطاء بن السائب عن سعيد بن جبير عن ابن عباس رضي الله عنه، وأخرجه البيهقي في «الشعب» (١٠٣٤٧) وابن خزيمة (٢٧٢٨) وضعّفه الألباني.

فالفرضى والقناعة فيهما السعادة؛ لأن القانع احتقر الدنيا فزالت همومها عنه.

وهناك السعادة بالعمل الصالح، والفرح به، وكذا الفرح بالاتصال بالله سبحانه في الصلوات، وفي ذكره سبحانه، وفي تلاوته للقرآن.

وهناك السعادة في الصلح بين الناس، وفي قضاء حوائج المسلمين، والسعادة في الصحة والأمن والاستقرار وعدم القلق، وهكذا: ألوان من السعادة يسعد بها المسلم في حياته.

ولذلك يقول بعض المفسرين: كل أمر فيه هدوء وراحة، فهو من العيش في الحياة الطيبة التي عناها الله في الآية.

أما غير المسلم فهو - وإن كان غنيًا - لا يلزم أن يكون سعيدًا بماله، فقد يكون شقيًا قلقًا، لا ينام الليل خوفًا على ماله وحساباته، ومصادره وموارده، وقد يجلب عليه ماله الشقاء والتعاسة.

فكم من ثريٍّ يعيش في قلق، واكتئاب، وصراع نفسي، وصحة عليلة، وقد يكون الثريُّ عبدًا صالحًا يرزقه الله مالًا، فينتفع بهذا المال، وينفقه في وجوه الخير، وينفع به إخوانه المسلمين، وهو من الحياة الطيبة له في الدنيا.

وكم من صاحب جاه يعيش في خوف على الجاه والكرسي، وكم من حاكم يخشى على نفسه من الرعية، فلا يمكنه أن يتحرك إلا بالحراس، وتسخير أعداد من البشر لحمايته، وكل ذلك من الشقاء والتعاسة.

أما ثواب الآخرة للمؤمنين الذين يعملون الصالحات، فإن الله تعالى يوفيههم أجورهم، ويشيهم في أخراهم بأحسن ما عملوا في الدنيا، وهذا وعد من الله تعالى لهم بدخول الجنة. ذكر الطبري عن أبي صالح أنه قال: نزلت هذه الآية؛ بسبب قوم من أهل الملل تفاخروا، وقال كل منهم: ملتي أفضل، فعرفهم الله تعالى في هذه الآية أفضل الملل. قال الحسن: لا تطيب الحياة لأحد إلا في الجنة؛ لأنها حياة بلا موت، وغنى بلا فقر، وصحة بلا سقم، وسعادة بلا شقاوة^(١).

وعن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الله لا يظلم مؤمنًا حسنة، يعطى بها في الدنيا، ويُجزى بها في الآخرة، وأما الكافر فيُطعم بحسنات ما عمل بها لله في

(١) «حاشية الصاوي» على «الجلالين» (٣٢٧/٢).

الدنيا، حتى إذا أفضى إلى الآخرة لم تكن له حسنة يُجزى بها»^(١).

ومن مات من المسلمين الذين عملوا الصالحات، وكان يعيش في دنياه في شظف من العيش، فإن الله تعالى يعوضه عن عمله ما فاته في الدنيا.

كما صح عن خبّاب بن الأرت رضي الله عنه قال: هاجرنا مع رسول الله ﷺ نبتغي بذلك وجه الله، فوجب أجراً على الله، فمئناً من مضى لم يأكل من أجره شيئاً، كان منهم مصعب بن عمير قُتل يوم أحد، فلم يترك إلا نمرّة كنا إذا غطينا بها رأسه خرجت رجلاه، وإذا غُطي بها رجلاه خرج رأسه، ومئناً من أينعت له ثمرته فهو يَهْدُبُها.

الاستعاذة عند بدء التلاوة

٩٨- ﴿فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ﴾

بعد أن ذكر ﷺ أن هذا الكتاب تبياناً لكل شيء، وذكر أمهات الفضائل، وأصول الرذائل، أمر عباده أنهم إذا شرعوا في تلاوة هذا الكتاب العزيز، المشتمل على أصول التشريع، والعبادة، والعقيدة، أن يبدؤوا بالاستعاذة بالله من الشيطان الرجيم.

ومن عناصر القرآن المكي، الحديث عن: الوحي، والرسالة.

والآيات التالية تتحدث إلى جوار الاستعاذة عند بدء تلاوة القرآن الكريم، عن شبهتين من شبه الكفار والملحدين:

الشبهة الأولى: النسخ في القرآن الكريم.

والشبهة الثانية: دعوى أن هذا القرآن علّمه شخص لرسول الله ﷺ.

والاستعاذة عند بدء تلاوة القرآن الكريم هي تمهيد وتهئية للجو الذي تتلى فيه آيات القرآن الكريم، وتطهير له من وساوس الشيطان ونزغاته.

(١) «صحيح مسلم» برقم (٢٨٠٨).

(٢) قرأ أبو عمرو بخلف عنه وأبو جعفر ومعهما حمزة وفقاً بإبدال همزة (قرأت) ألفاً، والباقون بهمزة ساكنة.

(٣) قرأ ابن كثير ومثله حمزة عند الوقف بنقل حركة همزة (القرآن) إلى ما قبلها، والباقون بتحقيق الهمزة وإسكان الراء.

فالمسلم يلجأ إلى الله ﷻ، ويستعيد به، ويعتصم بجناحه، ويلوذ بحماه، أن يوسوس له الشيطان في تلاوته فيلبس عليه، أو يخلط عليه أمره، فتشتبه عليه آيات القرآن الكريم، أو يصرفه الشيطان عن تدبر معانيه وتأمل آياته، أو يصرفه عن العمل بما فيه.

وهكذا يأمر الله المسلم أن يستعيد به ﷻ من نزغات الشيطان ووساوسه عند بدء تلاوة القرآن الكريم.

﴿فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ﴾ أي: إذا أردت أن تبدأ تلاوة القرآن فاستعذ بالله من الشيطان الرجيم؛ فالاستعاذة لأول القراءة وليست لآخرها، والوضوء لأول الصلاة وليس لانتهائها كما قال تعالى: ﴿إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ فَاغْسِلُوا وُجُوهَكُمْ﴾ [المائدة: ٦].

أي: إذا أردتم القيام إلى الصلاة فاغسلوا..

والرجيم: هو المرجوم المطرود من رحمة الله تعالى، والخطاب موجّه لرسول الله ﷺ، وموجّه لجميع المسلمين من باب أولى.

ومن أفضل الأعمال الصالحة أن يستعيد المسلم بالله تعالى من الشيطان المطرود من رحمة الله تعالى، عند بدئه التلاوة، وفي الركعة الأولى من الصلاة بعد دعاء الاستفتاح.

عن أبي سعيد رضي الله عنه قال: كان رسول الله ﷺ إذا قام من الليل فاستفتح الصلاة قال: «سبحانك اللهم وبحمدك، وتبارك اسمك، وتعالى جدك، ولا إله غيرك»، ثم يقول لا إله إلا الله ثلاثاً، ثم يقول: الله أكبر كبيراً ثلاثاً: «أعوذ بالله السميع العليم من الشيطان الرجيم من همزه ونفخه ونفثه..»^(١).

(١) صحيح «سنن أبي داود» (٧٠١) (٧٠٢) والبيهقي (٣٥/٢)، ومسنند أحمد (١١٤٧٣) قال محققوه: وإسناده ضعيف، لأن جعفر بن سليمان متكلم فيه، وأخرجه عبد الرزاق في المصنف (٢٥٥٤) وأبو داود (٧٧٥) والترمذي (٢٤٢) وابن خزيمة (٤٦٧) وأبو يعلى (١١٠٨) وألفاظهم متقاربة قال الترمذي: وقد تُكلم في إسناده حديث أبي سعيد، وقال أحمد: لا يصح هذا الحديث وضعفه النووي في المجموع (٣/٢٧٨) وإلى (لا إله غيرك) أخرجه ابن أبي شيبة (٢٣٢/١) والنسائي في المجتبى (١٣٢/٢) وفي الكبرى (٩٧٣) وابن ماجه (٨٠٤) (انظر تحقيق المسند (٥١/١٨) قلت: وقد صح الحديث عن عائشة كما في صحيح ابن ماجه (٦٥٧) وأبي داود (٧٤٩) إلى (غيرك) فقط، وابن أبي شيبة (٢٣٢/١) والنسائي في المجتبى (١٣٢/٢)

ويستعيز المسلم بالله تعالى من الشيطان ندبًا عندما يبدأ أي عمل صالح.

وظاهر القرآن الكريم يفيد أن الأمر بالاستعاذة عند بدء التلاوة للوجوب؛ لأن الله ﷻ يقول: ﴿فَاسْتَعِذْ﴾ وهذا الأمر لا صارف له عن الوجوب، ولم يثبت أن النبي ﷺ تركها عند بدء التلاوة.

وأكثر أهل العلم على أن الاستعاذة عند بدء التلاوة للندب والاستحباب.

وكان النبي ﷺ يعلم الأعرابي الصلاة، حين سألته عن كيفيةها، فلم يذكر له الاستعاذة؛ لأنه لم يكن يعلمه تلاوة القرآن.

ولعل القول الأول هو الأولى، كما قال تعالى: ﴿وَقُلْ رَبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزَاتِ الشَّيْطَانِ﴾ (٩٧) وَأَعُوذُ بِكَ رَبِّ أَنْ يَحْضُرُونِ ﴿٩٨﴾ [المؤمنون].

فإذا بدأ المسلم القراءة من أول السورة فإنه يستعيز بالله ويسمل حتمًا، ويستعيز بالله كذلك في الركعة الأولى من صلاته سرًا.

ويستعيز بالله جهراً في القراءة الجهرية في غير الصلاة، ويستعيز سرًا في القراءة السرية.

فإذا بدأ القارئ من أواسط السورة، فله أن يسمل بعد الاستعاذة، وله أن لا يسمل، وإذا ابتدأ بآية يعود فيها الضمير على الله تعالى أو على نبيه ﷺ، أو فيها نعيم الجنة ونحو ذلك، فمن الأدب أن يسمل بعد الاستعاذة حتى لا يقول: أعوذ بالله من الشيطان الرجيم (هو الذي خلقكم) أو (الله لا إله إلا هو).

وله أن يسمل أيضًا اختياريًا في وسط سورة براءة، ولكنه لا يسمل في أولها باتفاق.

واللفظ المشروع للاستعاذة، هو ما نطقت به الآية: أعوذ بالله من الشيطان الرجيم، وقد تضافرت الروايات عن رسول الله ﷺ بهذه الصيغة.

وما جاء في حديث الترمذي وغيره عن أبي سعيد الخدري ﷺ قال: كان رسول الله إذا قام من الليل يقول: «أعوذ بالله السميع العليم من الشيطان الرجيم من همزه ونفخه ونفثه»^(١).

فهذا من باب التعوذ والتحصن، وليس من باب الاستعاذة لأجل قراءة القرآن.

(١) ذكر ذلك ابن عطية في تفسيره والحديث في «صحيح الترمذي» (٢٠١) و«صحيح سنن ابن ماجه» (٨٠٤) و(٦٥٨) عن ابن مسعود بنحوه.

وورد أن ابن مسعود رضي الله عنه قرأ على النبي ﷺ فقال: أعوذ بالله السميع العليم من الشيطان الرجيم، فقال له النبي ﷺ: «يا بن أم عبد، قل: أعوذ بالله من الشيطان الرجيم، هكذا أقرأني جبريل»^(١).

والحكمة في مشروعية الاستعاذة عند بدء القراءة: أنه لما كان الشيطان مسلطاً على الإنسان، ساعياً في إلقاء الوسوسة في قلوب بني آدم، وهو مصدر الضلال، ويقف للإنسان بالمرصاد، فيثير في نفسه ألواناً من الشكوك؛ ليفوت عليه الانتفاع بهدي القرآن، كانت الاستعاذة بالله تعالى مانعة من ذلك، فلذلك أمر الله رسوله بالاستعاذة، وهو غير محتاج إليها؛ لأنه ﷺ معصوم من فتنه، وقد أعان الله رسوله على شيطانه فأسلم، وأصبح زمامه بيد النبي ﷺ فلا يأمره إلا بخير.

وأمر المؤمنين -من باب أولى- بالاستعاذة عند بدء القراءة؛ حتى تكون التلاوة مصونة من وساوس الشيطان.

وفي حديث جبير بن مطعم رضي الله عنه عند أبي داود وغيره أنه رأى النبي ﷺ صلى صلاة فقال: «الله أكبر كبيراً، ثلاثاً، والحمد لله كثيراً، ثلاثاً، وسبحان الله بكرة وأصيلاً، ثلاثاً، أعوذ بالله من الشيطان الرجيم من نفخته، ونفثته، وهمزته»^(٢).

ونفخة الشيطان: هي الكبر، ونفثه: السحر، وهمزه: الموة بالجنون.

ومعنى الاستعاذة: الاعتصام بالله تعالى، والالتجاء إليه سبحانه من شر الشيطان ووسوسته.

والشيطان هو إبليس، أبو الجن، ويطلق على جميع المردة من الشياطين؛ لأن لهم قدرة على إلقاء الوسوسة في قلوب بني آدم بإذن الله تعالى وقدرته؛ لابتلاء الإنسان واختباره، والاستعاذة تصرف كيد الشيطان، وهي تتضمن التوكل على الله تعالى والانقطاع إليه.

(١) رواه الثعلبي والواحدي كما في «تفسير الألوسي» (٢٢٨/١٤).

(٢) «سنن أبي داود» (٧٦٤)، ومسنند أحمد (١٦٧٣٩، ١٦٧٦، ١٦٧٤٠) قال محققوه: وهو حديث حسن لغيره، لضعف الراوي عن نافع بن جبير، فقد اختلف في اسمه، وأخرجه الطبراني في الكبير (١٥٦٩) وفي المسند عن عبد الله بن عمر (٤٦٢٧) نحوه بإسناد صحيح.

نَفْيُ وَلَايَةِ الشَّيْطَانِ وَإِثْبَاتِهَا

٩٩، ١٠٠ - ﴿إِنَّهُ لَيْسَ لَهُ سُلْطَانٌ عَلَى الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٩٩﴾ إِنَّمَا سُلْطَانُهُ عَلَى الَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُ وَالَّذِينَ هُمْ بِهِ مُشْرِكُونَ ﴿١٠٠﴾﴾

ثم إن الشيطان وليٌّ لغير المؤمن، كما قال تعالى: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [الأعراف: ٢٧].

أما المؤمن الحق فلا سلطان له عليه، كما في هذه الآية، وقد بيّن الله ﷻ أن الشيطان ليس له تسلط، ولا تغلب، ولا حجة، ولا قهر، على من يتوافر فيهم شرطان:
الشرط الأول: هو الإيمان الكامل بالله تعالى.

الشرط الثاني: هو حُسن التوكل على الله سبحانه؛ فالشيطان ليس له سلطان على المؤمنين المخلصين لله تعالى في إيمانهم، المعتمدين عليه في جميع أحوالهم، المتوكلين عليه حق توكله.

والإيمان هو المبدأ الأصيل؛ لتوهين سلطان الشيطان في نفس المؤمن، فإذا انضم إليه التوكل على الله تعالى اندفع سلطان الشيطان عن المؤمن المتوكل؛ فوسوسة الشيطان ليس لها أثر على المؤمنين الصادقين، وهم الذين أخلصوا لله جلّ شأنه، فحُسن إيمانهم، وحُسن توكلهم على الله سبحانه؛ فليس للشيطان عليهم سبيل في إغوائهم أو إضلالهم، أو التأثير فيهم بوسوسة، أو نزغات، ونحو ذلك، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ إِلَّا مَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْغَاوِينَ ﴿٩٢﴾﴾ [الحجر].

وهم الذين قال فيهم إبليس: ﴿إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمْ الْمُخْلِصِينَ ﴿٩٣﴾﴾ [الحجر].

وقال تعالى عنهم: ﴿وَمَا كَانَ لَكُمْ عَلَيْهِمْ مِنْ سُلْطَانٍ﴾ [سبا: ٢١].

وقال الشيطان: ﴿وَمَا كَانَ لِي عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ إِلَّا أَنْ دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي﴾ [إبراهيم: ٢٢].

وقال تعالى: ﴿إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ وَكَفَى بِرَبِّكَ وَكِيلًا ﴿٩٥﴾﴾ [الإسراء].

فهذا هو الجانب الأول، وهو نفى ولاية الشيطان وسلطانه على من أخلص إيمانه وتوكل على الله.

أما غير المخلصين من أتباع الشيطان وهم الذين يتَّبَعُونَ أهواءهم، ويسرون في ركب الشيطان ويتأثرون به، فإن منهم أصحاب الشرايع المخالفة لدين الإسلام، وهم من الذين اقتفوا أثره، فجعلوه معيًّا لهم، ولمَّا أطاعوه صرفهم عن الدين الحق، وعن الطريق الصحيح. وهم بسبب ولايتهم له مشركون بالله سبحانه في عقيدتهم وعبادتهم، وهذا هو الجانب الآخر، وهو إثبات ولاية الشيطان لمن اتخذه وليا وكانوا من حزبه.

وفي وقتنا المعاصر فريق من الناس يسمون أنفسهم: عُباد الشيطان؛ لأنهم يعبدون الشيطان نفسه، ويسمون: إله الشر، وهم يداهنونه، ويتخلصون منه بطاعته وإرضائه؛ ما دام هو الذي يأمرهم بالشر - حسب زعمهم هذا - كما أشركه أسلافهم في عبادتهم له من دون الله تعالى.

النسخ في القرآن

١٠١- ﴿وَإِذَا بَدَلْنَا آيَةً مَكَانَ آيَةٍ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُزِيلُ^(١)﴾ قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ مُفْتِرٌ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٠١﴾

١- من أهم ما تعرضت له سورة النحل بيان أن القرآن منزل من عند الله، فكان في بداية السورة ﴿يُنَزِّلُ الْمَلَائِكَةَ بِالرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ﴾ [٢].

٢- ثم أتبع ذلك بطعن المكذبين في القرآن ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ مَآذَا أَنْزَلَ رَبُّكُمْ قَالُوا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ﴾ [٣].

٣- ثم بينت السورة أن القرآن الكريم فيه بيان ما اختلف فيه أهل الكتاب.

﴿وَمَا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ إِلَّا لِتُبَيِّنَ لَهُمُ الَّذِي اخْتَلَفُوا فِيهِ﴾ [النحل: ٦٤].

٤- ثم أشارت السورة إلى أن القرآن قد جمع أصول الشريعة ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِكُلِّ شَيْءٍ﴾ [٨٩].

٥- ثم نبهت السورة على تميّز قراءة القرآن عن غيره من سائر الكلام، بوجوب بدء تلاوته بالاستعاذة بالله من الشيطان الرجيم.

(١) قرأ ابن كثير وأبو عمرو بتخفيف الزاي من (ينزل) مضارع أنزل، والباقون بتشديدها مضارع نزل.

شبهتان للمكذبين بالرسالة:

ثم عرضت السورة إلى شبهتين من شبهات المكذبين للقرآن الكريم في هذه الآيات الثلاث، وهذا مبني على أن المراد بلفظ (آية) آيات القرآن وليست الآيات الخارقة التي يطلبها المكذبون، وهو ما عليه جمهور المفسرين بدليل قوله تعالى: ﴿قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ مِنْ رَبِّكَ بِالْحَقِّ﴾ الآية وهي تصف القرآن بأنه ﴿هُدًى وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ﴾.

الشبهة الأولى: شبهة النسخ^(١)

أما الشبهة الأولى من المكذبين للقرآن في كل زمان ومكان فهي شبهة النسخ في القرآن الكريم، وقد جاءت هذه الشبهة في آية سورة البقرة ١٠٦ وفي هذه السورة، في قوله تعالى: ﴿وَإِذَا بَدَّلْنَا آيَةً مَكَانَ آيَةٍ﴾ أي: أن الله تعالى هو الخالق للعباد، وهو أعلم بما يصلح شأنهم بما ينزله من الأحكام في الأوقات المختلفة، وأعلم بما يوافق أحوالهم، ومن ذلك أنه تعالى يبدل آية بآية، وحكمًا بحكم بما يتناسب مع أحوال العباد، فإذا رأى المكذبون ذلك قدحوا في القرآن وفي رسول الإسلام.

وهذه الجملة ﴿وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُنَزِّلُ﴾ جملة معترضة في الآية بين شرط (إذا)، وجوابها؛ لتعليم المسلمين أن الله تعالى أعلم بما ينزل.

ثم بين تعالى موقف المكذبين للقرآن عند تبديل آية بآية، أو حكمًا بحكم، فقد كانوا يقولون: لو كان هذا من عند الله لم يتغير ولم يتبدل، وإنما هو افتراء محمد ﷺ؛ حيث يصبوب ما أخطأ، فقد قالوا لرسول الله ﷺ: أنت كاذب مختلق على الله ما لم يقله، فأنت مفتر، أي: أنت تختلق القرآن، وتكذب على الله تعالى!!

ثم بين جلَّ شأنه أن أكثرهم لا يعلمون الحكمة، والفائدة من هذا النسخ، وأنه سبحانه أعلم بما يصلح للعباد فترة من الوقت، ثم ما يصلح لهم طول الوقت بعد ذلك، فلا علم لهم بشرع الله وأحكامه، ولا علم لهم بما يصلح أحوال العباد.

ومصلحة الأمس قد تكون مفسدة اليوم؛ فالطبيب يصف علاجًا للمريض اليوم، وينهاه

(١) يراجع الموضوع أيضًا في تفسير الآية (١٠٦) من سورة البقرة.

عنه غداً، أو يأمر له بغيره، والله سبحانه أعلم بالمصالح والمفاسد.

وقد كان القرآن الكريم ينزل بتشريع، ويستمر هذا التشريع فترة من الوقت، ثم ينزل تشريعاً آخر، ولو أدرك الطاعنون في القرآن هذه المعاني، ما اتخذوا من النسخ شبهة ومادة يلمزون بها القرآن.

وهكذا: كان المشركون يقولون: إن محمداً يَسْخَرُ بأصحابه، يأمرهم اليوم بأمر وينهاهم عنه غداً، ولا يقول هذا إلا من عند نفسه، فأنزل الله سبحانه هذه الآية^(١).

والنسخ في القرآن ثابت بالكتاب، والسنة، والإجماع، قال تعالى: ﴿مَا نَسَخَ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِنْهَا أَوْ مِثْلَهَا﴾ [البقرة: ١٠٦].

وقد اقتضت حكمة الله أن يتدرج مع خلقه في التربية والتشريع، فينزل سبحانه حُكماً على لسان رسول الله ﷺ عن طريق الوحي، وهو جلّ شأنه يعلم أن هذا الحُكم لفترة معينة، وأن مصلحته لزمان معين، فإذا انتهى هذا الوقت وانتهت هذه الصلاحية ينزل الله حُكماً آخر، ينسخ به الحكم الأول.

وهذا يشبه ما يطرأ للإنسان من الثراء بعد الفقر، أو المرض بعد الصحة، وعكس ذلك، كأن يقول الطبيب للمريض: خذ هذا العلاج المكثف لمدة أسبوع، أو شهر، أو ثلاثة أشهر، أو سنة.

فإذا استقامت الصحة، وذهبت العلة، وصار الجسد في وضعه الطبيعي فإن الطبيب ينصحه بأن يستمر على طعام أو غذاء معين، أو على علاج أخف من العلاج السابق، ولله المثل الأعلى.

والله ﷻ أعلم بما يصلح شؤون عباده، فينزل حُكماً، ثم ينسخه بعد ذلك بِحُكم آخر أثقل، أو أخف منه، أي: أهون، أو أشد، بما يناسب أحوال الناس ومراحل نُضجهم، فالطفل يبدأ بالرضاعة، ثم يتدرج في الأكل إلى أن يصل إلى متناه، وهكذا الإنسان في تلقى الشرائع والأحكام.

(١) جاء ذلك عن ابن عباس كما في «التفسير الكبير» للفخر الرازي (١١٦/٢٠) و«تفسير ابن عاشور» (١٤/٢٨١) و«زاد المسير» (٩١/٤).

ونسخ القرآن بالقرآن أجمع عليه جمهور أهل العلم، كما أجمعوا على جواز نسخ السنة بالسنة المتواترة، واختلفوا في نسخ السنة المتواترة بسنة الآحاد، واختلفوا أيضًا في جواز نسخ السنة بالقرآن، فهذه أربع حالات للنسخ، ونسخ القرآن بالقرآن له ثلاث حالات:

الحالة الأولى: نسخ التلاوة والحكم معًا عن المكلفين:

كما في صحيح مسلم وغيره من حديث عائشة رضي الله عنها قالت: كان فيما أنزل: عشر رضعات معلومات يُحرَّمُن، فنسخن بخمس رضعات ^(١).

أي: أن هذا الحكم، وهو تحريم الرضاع بعشر رضعات معلومات، نُسخ بخمس رضعات، ونسخ التلاوة، أي: الآية المتعلقة بذلك، فهي غير موجودة في المصحف، فهذا نسخ للحكم ونسخ للتلاوة معًا.

الحالة الثانية: نسخ التلاوة عن المكلفين وبقاء الحكم:

كنسخ آية سورة النور: (الشيخ والشيخة إذا زنيا فارجموهما البتة نكالا من الله والله عزيز حكيم)، قال عمر لما أنزلت أتيت رسول الله ﷺ فقلت: أكتبنيها، قال شعبة: فكأنه كره ذلك، فقال عمر: ألا ترى أن الشيخ إذا لم يُحصن جُلِد وأن الشاب إذا زنى وقد أُحصن رُجم ^(٢).

فإن هذه الآية قد نُسخت، وبقي الحكم ثابتًا بالسنة الفعلية المتواترة عن رسول الله ﷺ، وهو رجم الزاني المحصن حتى الموت، فهو ثابت بوحي السنة، وليس بنص قرآني، لأن آيات القرآن لا تثبت إلا بالتواتر، وهذا الحديث من أخبار الآحاد ^(٣).

الحالة الثالثة: نسخ الحكم عن المكلفين وبقاء التلاوة:

وهذا معظم ما في القرآن الكريم، وذلك مثل نسخ حُكْم تقديم الصدقة بين يدي

(١) مسلم (١٤٥٢) وأبو داود (٢٠٦٢) وابن ماجه (١٩٤٢) والترمذي (١١٥٠).

(٢) وقد جاء ذلك عن زيد بن ثابت، وعمر بن الخطاب، وعن أبي أمامة بن سهل كما في «سنن النسائي الكبرى» (٧١٠٧، ٧١٠٨) و«المسند» (٢١٥٩٦) والدارمي (٢٣٢٧) و«التحفة» (٣٧٣٧، ١٨٣٦٥)، قال محققو المسند: رجاله ثقات رجال الشيخين غير كثير بن الصلت فقد روى له النسائي وهو ثقة.

(٣) أنظر أقوال أهل العلم عند هذا الحديث في تحقيق المسند (٤٧٢/٣٥) وما بعدها.

التحدث إلى رسول الله ﷺ في قوله تعالى: ﴿يَأْتِيَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نَجَّيْتُمُ الرَّسُولَ﴾ أي: إذا أردتم التحدث إليه ﴿فَقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيْ نَجْوَانِكُمْ صَدَقَةٌ﴾ [المجادلة: ١٢]

فُنُسِخَتْ هذه الآية، أي: نُسخ حُكْمُهَا والعمل بها، وهو تقديم الصدقة عند إرادة مناجاة الرسول ﷺ بالآية التي بعدها، وفيها تشريع الإكثار من الأعمال الصالحة بدلاً من الصدقة ﴿ءَأَشْفَقْتُمْ أَنْ تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيْ نَجْوَانِكُمْ صَدَقَةٌ فَإِذَا لَمْ تَفْعَلُوا وَتَابَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ﴾ يعني: خفف الله عنكم، ورفع هذا الحكم ﴿فَأَقِمْوْا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾ [المجادلة: ١٣] فنسخ الله تقديم الصدقة، بهذه الأعمال الصالحة، وهي إقام الصلاة، وإيتاء الزكاة، وطاعة الله ورسوله.

ونسخ الأحكام كان بعد الهجرة؛ حيث شرعت الأحكام التشريعية، وهو قليل جداً في مكة، ومنه نسخ قوله تعالى: ﴿وَلَا يَجْهَرُ بِصَلَاتِكَ وَلَا تُخَافُ مِنْهَا﴾ [الإسراء: ١١٠] بقوله: ﴿فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ﴾ [الحجر: ٩٤].

أما نسخ التلاوة، فلم يقع في مكة، بل كان في المدينة.

والنسخ في الأحكام هو مقتضى مصلحة العباد المناسبة لطور حياتهم، والله أعلم بما يصلح شؤون عباده، فهذا التبديل من الله تعالى والرسول ﷺ هو المبلغ عن الله ﷻ أحكامه وتشريعاته، والذين يقدحون في القرآن بسبب النسخ جهال لا علم لهم، وقدح الجاهل لا عبرة به، لأن القدح في الشيء فرع عن العلم به، وهؤلاء لا علم لهم.

الْقُرْآنُ كَلَامُ اللَّهِ وَلَيْسَ مِنْ كَلَامِ الْبَشَرِ

١٠٢- ﴿قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ^(١) مِنْ رَبِّكَ بِالْحَقِّ لِيُثَبِّتَ الَّذِينَ آمَنُوا وَهُدًى وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ﴾

ثم أجاب الله سبحانه الذين قالوا للنبي ﷺ: ﴿إِنَّمَا أَنْتَ مُفْتَرٍ﴾ أي: مختلق لهذا القرآن عن طريق التلقين للنبي ﷺ بما ينقض دعواهم، ويبطلها بأن هذا القرآن ليس مختلقاً من عند محمد ﷺ، بل نزل به جبريل الأمين من عند الله تعالى بالصدق والعدل، وهو مشتمل على الحق في أخباره وأوامره ونواهيه.

(١) سَكَّن دال (القدس) ابن كثير، وضمها غيره.

وروح القدس هو جبريل، أي: الروح المقدس، وهو الطاهر من كل ما لا يليق، والمطهر من أدناس البشرية، والروح تحيى بها الأجسام، وجبريل يحمل الرسالة الإلهية التي تحيى بها القلوب، فجبريل يشبه الروح الحقيقية التي هي مادة الحياة للبشر، والقدس معناه: الطهر، والبركة.

وقد جاء نزول جبريل بالقرآن من عند الله تعالى في آيات كثيرة منها قوله تعالى:

﴿مَنْ كَانَتْ عَدُوًّا لِّجِبْرِيلَ فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلَى قَلْبِكَ بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ [البقرة: ٩٧].

وقوله: ﴿وَإِنَّهُ لَنَزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ (١٨٢) نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ (١٨٣) عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنذِرِينَ (١٨٤) لِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ (١٨٥) وَإِنَّهُ لَفِي زُبُرِ الْأَوَّلِينَ (١٨٦)﴾ [الشعراء].

وقوله: ﴿إِنْ عَلَيْنَا جَمْعُهُمْ وَقَوْلُهُمْ﴾ (١٧) فَإِذَا قَرَأْتَهُ فَانصَحْ قَوْلَهُ (١٨)﴾ [القيامة].

ثم بين سبحانه وظيفة القرآن بالنسبة للبشر، فذكر أوصافاً ثلاثة للقرآن الكريم:

الوصف الأول: أنه تثبيت لقلوب المؤمنين؛ حتى يزدادوا إيماناً ورسوخاً و يقيناً بربهم، وصدق نبيهم، فقد نزل به جبريل بالحق تثبيتاً للمؤمنين شيئاً فشيئاً حتى يصل إلى قلوبهم فيكون إيمانهم أثبت من الجبال الرواسي.

والوصف الثاني: أنه كتاب هداية للبشر من الضلال يخرجهم من ظلمات الجهل إلى نور الإيمان، ويبين لهم الهدى من الضلال، والحق من الباطل.

والوصف الثالث: أنه بشارة طيبة لمن أسلم، وخضع لله رب العالمين، فأمن به، واستقام على منهج الله تعالى، فإن له أجراً حسناً يمكث فيه أبداً.

أما أهل الزيغ، والضلال، والكفر، والإلحاد فإن القرآن لا يثبتهم، ولا يهديهم، ولا يبشّرهم؛ لأنه هدى ورحمة للمؤمنين، ولا يزيد الظالمين إلا خساراً، فهو هدى للمتقين لا للكفار.

الشبهة الثانية: قَوْلُ الْمَكْذِبِينَ: إِنَّ مُحَمَّدًا ﷺ يُعَلِّمُهُ الْقُرْآنَ بَشَرٌ

١٠٣- ﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ لِّسَانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ^(١) إِلَيْهِ

(١) قرأ حمزة والكسائي ويعقوب وخلف بفتح الياء والحاء من (يلحدون) مضارع لحد، والباقون بضم الياء وكسر الحاء مضارع ألحد، وهما بمعنى: الميل.

أَعْجَمِيَّ وَهَذَا لِسَانُ عَكْرِيٍّ مُيَيْتٍ ﴿١٢٦﴾

وهذه مقولة متجددة من أهل الكفر والإلحاد، فقد عُقد في روسيا في عهد الاشتراكية البائدة، عام أربعة وخمسين بعد التسع مئة والألف من الميلاد مؤتمر استشراقي، وقرر المستشرقون في هذا المؤتمر، أن القرآن لا يمكن أن يكون من عمل فرد، فهم يستكثرون أن يكون القرآن من عمل شخص واحد، وإنما هو في زعمهم عمل مجموعة كبيرة من الناس، وقرروا أيضًا أنه لا يمكن أن يكون هذا القرآن قد خرج من جزيرة العرب.

هذا: ومعجزة القرآن في أخباره، وأحكامه، وأسلوبه، وفصاحته، وبلاغته، ولا يمكن لهذه الفصاحة والبلاغة التي تحدى الله بها فصحاء العرب، وبلغاءهم، أن يأتي بها لسان أعجمي؛ إذ لا يمكن للأعجمي أن يذكر اسمه صحيحًا بالحروف العربية، وقد ورد في تسمية هذا الأعجمي، الذي زعموا أنه يعلم محمدًا القرآن، نحو تسعة أقوال، منها:

١- أن اسمه: (يعيش)، كان عبدًا نصرانيًا روميًا يقرأ التوراة، وكان غلامًا لبني المغيرة^(١).

٢- وقيل: هو غلام، يقال له: (بلعام)، كان نصرانيًا، وكان يقرأ التوراة، وكان حدادًا في مكة، وكان النبي ﷺ يدخل عليه ويخرج، يعلمه شيئًا من آداب النبوة، فقالوا: إنه يعلم محمدًا القرآن^(٢).

٣- وقالوا: إن رجلين يقال لهما: (يسار، وجبر) عبدان كانا يصنعان السيوف بمكة، وكان لهما علم بالإنجيل، وكان النبي ﷺ إذا مرَّ بهما وقَّف واستمع، فقال المشركون: إنما يتعلم منهما، فنزلت الآية^(٣).

٤- وقال مجاهد في قول كفار قريش: ﴿إِنَّمَا يَعْلَمُهُ بَشَرٌ﴾ أي: إنما يعلم محمدًا (عبد لابن الحضرمي)، وهو صاحب كتب^(٤) أي: لسانه أعجمي، وقيل غير ذلك، وكله كلام ساقط، وقد جاءت الآثار مبينة لهذه الأقوال الأربعة:

(١) قاله عكرمة كما في «تفسير الطبري» (٣٦٥/١٤).

(٢) يُنْظَرُ: الطبري (٣٦٥/١٤) وابن أبي حاتم وابن مردويه عن ابن عباس.

(٣) كما في «تفسير مجاهد» ص (٤٢٥) والطبري (٣٦٧/١٤) والبيهقي في «الشعب» (١٣٨).

(٤) أخرجه آدم بن أبي إياس بسند صحيح عن مجاهد، كما في تفسيره ص (٤٢٦) وأخرج الطبري نحوه بسند حسن عن

قتادة (٣٦٥/١٤) وابن أبي حاتم، والبيهقي في «شعب الإيمان» (١٣٧، ١٤٦) والحاكم (٣٥٧/٢).

١- أخرج الطبري بسنده عن عبيد الله بن مسلم قال: كان لنا غلامان نصرانيان من أهل عين التمر -وهي قرية في العراق- اسم أحدهما: يسار، والآخر: جبر، وكانا يقرآن كتبًا لهما بلسانهما، وكان رسول الله ﷺ يمرُّ بهما فيسمع قراءتهما، وكان المشركون يقولون: يتعلم منهما، فأنزل الله الآية فكذبهم^(١).

٢- وقال ابن عباس ؓ: كان في مكة غلام أعجمي لبعض قريش، يقال له: بلعام، فكان رسول الله ﷺ يكلمه، ويعلمه الإسلام، فقالت قريش: هذا يعلم محمدًا من جهة الأعاجم، فنزلت الآية بسببه، وكان هذا الغلام عبدًا لرجل من قريش، وكان أعجمي اللسان، وكان الرسول ﷺ يدخل عليه، ويخرج من عنده يعلمه الإسلام^(٢).

٣- وقال عكرمة، وسفيان، وقتادة: كان اسم الغلام يعيش^(٣).

٤- وقال ابن إسحاق: كان رسول الله ﷺ فيما بلغني -كثيرًا ما يجلس عند المروة إلى غلام نصراني يقال له: جبر، عبد لبعض بني الحضرمي، فكانوا يقولون: والله ما يعلم محمدًا كثيرًا مما يأتي به إلا جبر النصراني غلام بني الحضرمي، فأنزل الله الآية^(٤).

وكان هذا الغلام يصنع السيوف بمكة، وكان مولى لعامر بن الحضرمي، وكان هذا الغلام قد أظهر الإسلام.

ولم يصرح القرآن باسم هذا الغلام؛ لأن خطأ القائلين يدور على نسبة تعليم النبي ﷺ لأحد من البشر، كائنًا من كان، والله جلّ شأنه يبيّن أن هذا اللسان الذي يذكرونه ليس بعربي، فكيف له أن يأتي بهذا القرآن، وما فيه من فصاحة وبلاغة، والقرآن لسان عربي مبين؟! ولكن الكاذب يكذب ولا يفكر فيما يؤول إليه كذبه، فيكون فيه من التناقض والفساد ما يوجب رده.

ثم إذا نظرنا إلى التوراة والإنجيل، ونظرنا إلى القرآن، نجد فرقًا واضحًا، فقد دخل

(١) «تفسير الطبري» (١٤/١٢٠).

(٢) «تفسير ابن عطية» (٣/٤٢١) و«تفسير الطبري» (١٤/١١٩) و«زاد المسير» (٤٩٦٤).

(٣) «تفسير الطبري» (١٤/١١٩) وابن كثير (٤/٦٤).

(٤) «السيرة النبوية» لابن هشام (١/٣٩٣).

التحريف إليهما من بعد موسى وعيسى عليهما السلام، وإننا لنجد التوراة المحرفة تقوم على التجسيد لله ﷻ في كثير من مواطنها، وتقوم على وصف رب العزة بأوصاف لا تليق بجلاله، فيصفونه -وحاشاه- بأنه يندم ويجهل، ويلعب مع الحوت، ويغضب، وغير ذلك، تعالى الله عما يشركون ويقولون، فالله تعالى يقول: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ [الشورى: ١١].

فأين ما جاء في كتبهم المحرفة مما يعرفه هؤلاء الغلمان الذين أشاروا إليهم، بما جاء في القرآن الكريم؟ هل القرآن يتضمن شيئاً من الأوصاف السابقة ونحوها، حتى يقال: إن القرآن اقتبس، أو أخذ عن التوراة، أو الإنجيل؟ إنها دعاوى كاذبة تحمل بطلانها في ثنائها، فالله تعالى: ﴿لَمْ يَأْتِ فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَمَا تَحْتَ الثَّرَى﴾ (٦) وَإِنْ تَجَهَّرَ بِالْقَوْلِ فَإِنَّهُ يَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفَى ﴿٧﴾ [طه].

والقرآن الكريم يقوم على وحدانية الله سبحانه، كما جاء في سورة الإخلاص: ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ﴿١﴾ اللَّهُ الصَّمَدُ ﴿٢﴾ لَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ ﴿٣﴾﴾.

فماذا يقول النصارى في أنجيلهم تجاه هذه الوجدانية؟ إنه اختلاف جوهري في العقيدة؛ حيث يقولون عن عبد من ملائكة الله، وهو جبريل الأمين، الروح القدس، - والروح القدس يطلق على جبريل أو على مريم - يقولون: إنه جزء من الإله، المكون من الأب، والابن، والروح القدس، ويقولون عن عبد من رسل الله، وهو عيسى ﷺ: إنه ابن الله، فسمّوه بالإله الابن، وأما الله ﷻ الخالق القادر، فسمّوه بالإله الأب، وقالوا عن الكل: واحد، الثلاثة واحد، والواحد ثلاثة، والذات مكونة من هذه الثلاثة، ولا مانع عندهم أن يكون الابن هو الرب، وهو الإله.

فهل القرآن الكريم تضمن شيئاً من هذه الخرافات؟ حتى يقال: إن محمداً ﷺ قد أخذ القرآن عنمن عنده علم سابق بالوحي المنزل على رسل الله؟

إن القرآن الكريم جاء بالوحدانية المطلقة ﴿إِنْ كُلُّ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا آتِي الرَّحْمَنِ عَبْدًا﴾ (٩٣) [مريم] ولذا فإن الله تعالى يلقي رسوله الجواب كما في الآية السابقة: ﴿قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ مِنْ رَبِّكَ بِالْحَقِّ﴾.

وروح القدس هو جبريل، سُمّي كذلك نسبة إلى الروح المقدسة، أي: المطهرة من

دنس الأخطاء التي يرتكبها البشر، فجبريل عليه السلام لا يخون ولا يغفل، وهو يبلغ الرسالة عن ربه، وقد نزل بهذا القرآن على محمد ﷺ، كما نزل بالتوراة على موسى، والإنجيل على عيسى.

ومعنى الآية: ولقد علمنا علمًا مؤكدًا، مقالة المشركين الشنيعة ودعواهم أن النبي ﷺ تلقى هذا القرآن عن أحد من البشر من بني آدم، وقد كذبوا فيما زعموه؛ فإن لسان الذي نسبوا إليه هذه المقالة أعجمي، لا يُفصح في نطقه، وهذا القرآن عربي في غاية الفصاحة والبيان، فكيف يمكن لصاحب اللسان الأعجمي أن يعلم محمدًا هذا القرآن العربي المبين؟ ومن أين للأعجمي أن يتذوق بلاغة هذا الكتاب المعجز في فصاحته وبيانه؟!!

وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُ

١٠٤- ﴿إِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ لَا يَهْدِيهِمُ اللَّهُ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ (١٢)

ثم يعلل القرآن مقولة الكفار الضالة - أن الرسول ﷺ يعلمه بشر - بأن هذا القول يصدر ممن علم الله أن الإيمان لا يدخل قلوبهم؛ بسبب زيغهم وعنادهم، وإيثارهم الضلال على الهدى، وإعراضهم عن آيات الله، فالذين لا يصدقون بالقرآن، لا يوفقهم الله لإصابة الحق، ولا يهديهم إلى طريق النجاة والسعادة، وهذا تهديد ووعد لهم على كفرهم وافتراءهم، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ كَذِبٌ كَفَّارٌ﴾ [الزمر: ٣].

فوصفهم سبحانه بثلاثة أوصاف: الكذب، وشدة الكفر، وعدم هدايتهم للإيمان؛ لأن جبلتهم تنافي الإيمان، والكافر غير مُعرَّضٍ للإيمان، ولذا فإن الهداية لا تتكون في قلبه.

ثم بيّن سبحانه في ختام الآية أن الكفار معذبون في الآخرة بعذاب مؤلم موجه؛ بسبب إصرارهم على الباطل، وعدم استجابتهم لداعي الحق.

وهذا الصنف من البشر قد علم الله منهم في الأزل أنهم لن يؤمنوا، فحققت عليهم كلمة العذاب، ووجبت عليهم قبل وجودهم في هذه الحياة، وقبل مرورهم بمرحلة التطبيق العملي؛ لعدم إيمانهم في الدنيا.

(١) قرأ أبو عمرو بكسر الهاء والميم من (لا يهديهم الله)، وقرأ حمزة والكسائي ويعقوب وخلف بضمهما، وقرأ الباقون بكسر الهاء وضم الميم، وضم هاء (يهديه) الثانية يعقوب وقرأ.

ولعل هذا ما يشير إليه قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ ۖ وَلَوْ جَاءَتْهُمْ كُلُّ آيَةٍ حَتَّى يَرَوْا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ ۝﴾ [يونس]

وهم الذين زاغت قلوبهم أولاً: ﴿فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ ۝﴾ [الصف: ٥]

وهم الذين فسقوا، وخرجوا عن طاعة الله أولاً، فأضلهم الله، قال تعالى: ﴿وَمَا يُضِلُّ بِهِ إِلَّا الْفَاسِقِينَ ۝﴾ [البقرة: ٢٦].

وقال تعالى: ﴿كُتِبَ عَلَيْهِ أَنَّهُ مَنْ تَوَلَّاهُ فَأَنَّهُ يُضِلُّهُ وَيَهْدِيهِ إِلَى عَذَابِ السَّعِيرِ ۝﴾ [الحج: ١٧].

وهذا الصنف من البشر يختلف عن الكفار الذين علم الله منهم أنهم سيتخلَّون عن كفرهم ويدخلون في الإسلام، فهم غير داخلين في الآية.

ومن الأمثلة على ذلك: أبو جهل، وأبو سفيان؛ فكلاهما كان كافراً، بل إن أبا سفيان كان أطول مدة في الكفر من أبي جهل، ومع هذا فإن أبا جهل هلك كافراً، ودخل أبو سفيان في الإسلام، وشرفه الله بمصاهرته للنبي ﷺ.

وهذا الوليد بن المغيرة، وعمر بن الخطاب، كانا كافرين، يمنعان الناس من الدخول في الإسلام، وكان الوليد يخلق أساليب الطعن في القرآن، وكان عمر ؓ يصدُّ الناس عن الدخول في الإسلام علناً، فعزَّ الإسلام بعمر ؓ، وحُرم الوليد الهداية.

فتبيَّن بهذا أن أبا جهل والوليد ممن علم الله أنهم لا يؤمنون بآياته، ولا يهتدون بهداه.

اِفْتِرَاءُ الْكَذِبِ لَا يَصْدُرُ إِلَّا عَنْ كَافِرٍ

١٠٥- ﴿إِنَّمَا يَفْتَرِي الْكَذِبَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ ۝﴾

ثم يأتي الرد الآخر من الله تعالى على قول المشركين للرسول ﷺ ﴿إِنَّمَا أَنْتَ مُفْتَرٍ﴾ حيث بيَّن سبحانه أن افتراء الكذب لا يصدر إلا عن الكافرين، وأن المؤمنين بوحداية الله تعالى، المصدقين برسول الله ﷺ، وبالיום الآخر، وما فيه من: بعث، وحشر، ونشر، وحساب، وجزاء على الأعمال، هؤلاء المؤمنون لا يفترون الكذب، ولا يخلتقونه؛ لأن إيمانهم الخالص يجعلهم يخافون عقاب الله تعالى، ويرجون ثوابه، على عكس الكافرين.

فإذا كان هذا شأن المؤمنين فما بالكم بالرسول ﷺ، وهو المؤمن الأول، المبلَّغ عن

ربه وحيه، المصطفى المختار؟! إنه من المحال أن يكذب على الله تعالى، ويقول عليه ما لم يقله، فالذين يفترون الكذب على الله لا يتوقعون ثوابًا ولا عقابًا.

وبعد أن أخبر سبحانه عن الكفار، أنهم يفترون الكذب على الله، وصفهم بأن الكذب صفة ملازمة لهم، فقال سبحانه: ﴿وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْكَٰذِبُونَ﴾ أي أن الكذب منحصر فيهم، أما محمد ﷺ فمحال أن يكذب على الله تعالى ويتقوله عليه ما لم يقله.

وقد نفى الله سبحانه عن رسوله ﷺ ما يزعمه الكفار بالنسبة لرسول الله ﷺ في افتراءه للقرآن، فقال تعالى: ﴿وَلَوْ نَقُولُ عَلَيْنَا بَعْضُ الْأَقَاوِيلِ ﴿٤٤﴾ لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ ﴿٤٥﴾ ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ ﴿٤٦﴾ فَمَا يَنْكُرُ مِنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَاجِيزٌ ﴿٤٧﴾﴾ [الحاقة].

وقال جل شأنه: ﴿وَمَا يَطِّقُ عَنِ الْمَوْكَا ﴿٣﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا رَحَىٰ يُوحَىٰ ﴿٤﴾ عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَىٰ ﴿٥﴾﴾ [النجم]

فالكفار هم الذين لا يصدقون بأن القرآن وحي من عند الله، والله سبحانه يقرر أنه لا يمكن لمحمد ﷺ أن يغير، أو يبدل شيئًا من كتاب الله كما طلبوا منه، قال تعالى: ﴿وَإِذَا تَتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالَ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا آتِنَا بِشَرِّ مَا نَحْنُ بِكَافِرِينَ ﴿١٠٥﴾﴾ [الأنعام: ١٠٥] فالكذب يفتره غير المؤمنين، والرسول ﷺ أول المؤمنين، فكيف يفترى على الله الكذب؟

وقال سبحانه حاكياً أقوال المكذبين: ﴿وَقَالُوا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ ﴿١٠٦﴾﴾ [الفرقان].

وقال جل شأنه: ﴿وَكَذَٰلِكَ نُصَرِّفُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يُدْرِسُونَ ﴿١٠٧﴾﴾ أي: تعلمت على غيرك ﴿وَلِيُنذِرَ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ [الأنعام: ١٠٥] فالكذب يفتره غير المؤمنين، والرسول ﷺ أول المؤمنين، فكيف يفترى على الله الكذب؟

وقد عُرف ﷺ قبل الوحي والرسالة بالأمانة والصدق، فقالوا عنه: الصادق الأمين، حتى أعداء النبي ﷺ، شهدوا له بذلك، فهذا أبو سفيان يسأله هرقل: هل تتهمونه بالكذب؟ قال أبو سفيان: لا، وكان ذلك قبل أن يسلم، فقال هرقل: ما كان ليدع الكذب على الناس، ويكذب على الله ﷻ.

فالمؤمن قد يكون جباناً، أو مرتكباً لبعض الكبائر، وليس من شأن المؤمن أن يكون

كاذبًا؛ فالكذب يتنافى مع الإيمان.

ولذا فإن النبي ﷺ لما جاءه رجل يريد الدخول في الإسلام، وهو يرتكب جميع الموبقات، ويقول للنبي ﷺ: إنه ليس في استطاعته ترك الزنى، ولا السرقة، ولا غيرهما من كبائر الذنوب، فقبل النبي ﷺ منه ذلك، وقال له: عاهدني فقط على ترك الكذب، فعاهده على ألا يكذب، ورأى الرجل أن هذا أهون شيء بالنسبة له، فكان ترك الكذب سببًا لتركه جميع الذنوب؛ حيث إنه كان إذا أراد أن يُقدم على الزنى، سأل نفسه: إن زנית وسألني رسول الله ﷺ: هل زנית؟ فإن قلت: نعم، أقام عليّ الحد، وإن قلت: لا، أكون قد كذبت وخنت العهد، فترك الزنى، وهكذا السرقة، وهكذا الخمر، حتى ترك جميع الذنوب.

الْفِتْنَةُ فِي الدِّينِ

١٠٦- ﴿مَنْ كَفَرَ بِاللَّهِ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِهِ إِلَّا مَنْ أَكْرَهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيمَانِ وَلَكِنْ مَنْ شَرَحَ بِالْكُفْرِ صَدْرًا فَعَلَيْهِمْ^(١) غَضَبٌ مِنَ اللَّهِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٠٦﴾﴾
ولمَّا بَيَّنَّ سبحانه أمر الكاذبين الذين كفروا بعد إيمان، أخرج منهم المؤمنين الذي يضطرون تحت وطأة التعذيب إلى النطق بكلمة الكفر بالسنتهم.
فالآية تبيِّن أنه إنما يفترى الكذب، من نطق بكلمة الكفر اختياريًا، وارتد بعد إيمانه، وهؤلاء عليهم غضب من الله إلا من أرغم على النطق بالكفر فلا لَوْمَ عليه، أما من كان الكفر متمكنًا من قلبه، فعليه غضب شديد من الله، ولهم عذاب عظيم؛ لأنهم فضّلوا الدنيا على الآخرة.

وقد كان أعداء الإسلام -ولا يزالون- يحاولون فتنه المسلمين؛ ليردوهم عن دينهم، ويحاولون أيضًا، الإحالة بين الإسلام وبين من يريد الدخول فيه، ومن ذلك قول المشركين للرسول ﷺ: ﴿إِنَّمَا أَنْتَ مُفْتَرٍ﴾ وقولهم: ﴿إِنَّمَا يَعْلَمُهُ بَشَرٌ﴾ وهذه الآية تتحدث عن فتنه الكافرين للمسلمين في دينهم.

(١) ضم الهاء من (فعلهم) حمزة ويعقوب، وكسرها الباقون.

وسياق الآيات في فتنه الناس عن دينهم، والرد على القائلين: ﴿إِنَّمَا يَعْلَمُهُ بَشَرٌ﴾ فإن هذا الغلام الذي أشاروا إليه وهو على الأرجح: جبر مولى عامر بن الحضرمي، كان قد أسلم، ثم فتنه المشركون فكفر.

في صحيح البخاري: عن عكرمة قال: أُتِيَ عَلِيٌّ ﷺ بزنادقة، فأحرقهم، فبلغ ذلك ابن عباس ﷺ فقال: لو كنت أنا لم أُحرقهم؛ لِنَهْيِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ: «لا تعذبوا بعذاب الله» ولَقَتْلَتُهُمْ؛ لقول رسول الله ﷺ: «من بدل دينه فاقتلوه»^(١).

كما أن المشركين راودوا عددًا من ضعفاء المسلمين على الارتداد عن دينهم؛ كبلال، ورفاقه، فثبتوا على الإسلام، وفتنوا نفرًا آخرين فكفروا، ومنهم: الحارث بن ربيعة بن الأسود، وأبو قيس بن الوليد بن المغيرة، وعلي بن أمية بن خلف، والعاص بن منبه بن الحجاج.

ولعل هؤلاء هم الذين نزل فيهم قول الله تعالى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِاللَّهِ فَإِذَا أُوذِيَ فِي اللَّهِ جَعَلَ فِتْنَةَ النَّاسِ كَعَذَابِ اللَّهِ﴾^(٢) [العنكبوت: ١٠].

هذا: وأول من دخل في الإسلام سبعة هم أول من فتنوا فيه:

أبو بكر، وبلال، وضمي، وخباب، وعمار، وأبوه ياسر، وأمه سمية.

١- أما (أبو بكر) فمنعه قومه وعشيرته من أذى قريش، وكان رجلًا غنيًا يشتري الأرقاء، ويعتقهم لوجه الله سبحانه، فمنعته مكانته وماله من أذى المشركين.

٢- وأما (خباب) فكانوا يسحبونه على الشوك ويعذبونه، وكانوا يوقدون له النار الملتبهة، فما يطفئها إلا ودك ظهره.

٣- وأما (بلال) فكانوا يسحبونه في حر الظهيرة في الرمضاء، ويضعون الصخرة العظيمة فوقه، ويعرضون عليه الكفر، وهو يقول: أحد أحد، ولو أعلم كلمة أغبط على المشركين لقلتها، فاشتراه أبو بكر، وأعتقه.

(١) «صحيح البخاري» برقم (٣٠١٧، ٦٩٢٢) وأبوداود (٤٣٥١) والترمذي (١٤٥٨) وعبدالرزاق (٩٤١٣) و«المسند» (٢١٧/١) برقم (١٨٧١، ٢٥٥١، ٢٩٦٦) وعن أبي موسى الأشعري برقم (٢٢١٠٥)، وإسناده صحيح على شرط البخاري

(٢) «التحرير والتنوير» (٢٦٢/٧).

٤، ٥- وأما (سمية) فقد ربط أبو جهل رجلها بين بعيرين، وأتى بحربة فطعنت بها في فرجها، وخرجت من ظهرها حتى ماتت، وقتلوا زوجها (ياسراً)، وهما أول شهيدَيْن في الإسلام، وهكذا بقية المسلمين الضعفاء.

٦- وأما (عمار) ابنهما، فلما اشتد به الأذى أخذه بنو المغيرة، فغطّوه في بئر سيمون، وقالوا له: اكفر بمحمد، وأكْرِه على النطق بكلمة الكفر، فقالها وقلبه مطمئن بالإيمان، لقد أعطاهم ما أرادوا بلسانه مكرهاً.

ولما قالوا: إن عماراً قد كفر، بلغ ذلك النبي ﷺ فقال: «كَلَّا، إن عماراً ممتلئ إيماناً من قرنه إلى قدمه، وإن الإيمان يخالط لحمه ودمه»، وجاء عمار وهو يبكي، فقال له النبي ﷺ: «كيف تجد قلبك؟» قال: مطمئن بالإيمان يا رسول الله، فقال ﷺ وهو يمسح دموعه: «إنه لا يضرّك، وإن عادوا فعد» فنزلت هذه الآية^(١)

وفيها رخصة النطق بكلمة الكفر، خوفاً من الهلاك، ما دام القلب ثابتاً على الإيمان، ولا لوم عليه في ذلك.

٧- أما (صهيب) فقد ابتلى في نفسه وماله وأهله وولده.

صحّ عن عبد الله بن مسعود ؓ قال: كان أول من أظهر إسلامه سبعة: رسول الله ﷺ، وأبو بكر، وعمار، وأمه سمية، وصهيب، وبلال، والمقداد، فأما رسول الله ﷺ فمنعه الله بعمه أبي طالب، وأما أبو بكر فمنعه الله بقومه، وأما سائرهم فأخذهم المشركون، وألبسوهم أدراع الحديد، وصهروهم في الشمس، فما منهم من أحد إلا وقد وافقهم على ما أرادوا، إلا بلالاً، فإنه هانت عليه نفسه في الله، وهان على قومه، فأخذوه فأعطوه الولدان، فجعلوا يطوفون به في شعاب مكة، وهو يقول: أحد أحد^(٢).

(١) «تفسير الطبري» (١٢٢/١٤) وعبد الرزاق (٣٦٠/١) وابن سعد (٢٤٩/٣) والحاكم (٣٥٧/٢) وابن عساكر (٣٧٣/٤٣) وغيرهم وكلها أسانيد مرسلة.

(٢) «تفسير ابن عطية» (٤٢٣/٣) والحديث في «سنن ابن ماجه» برقم (١٥٠) و«المسند» (٤٠٤/١) و«المستدرک» (٢٨٤/٣) قال الحاكم: صحيح الإسناد ولم يخرجاه ووافقه الذهبي، وحسنه الألباني في «صحيح ابن ماجه» (٣٠/١) برقم (١٢٢).

وقال ابن عباس رضي الله عنه: نزلت في عمار بن ياسر، وذلك أن المشركين أخذوه وأباه ياسرًا، وأمه سمية، وصهييًّا، وبلاًّا، وخبابًا، وسالمًا.

فأما سمية فإنها رُبِطت بين بعيرين وُجئ قُبُلها بحربة، وقيل لها: إنك أسلمت من أجل الرجال، فُقُتلت، وقُتِل زوجها ياسر، وهما أول قتيلين في الإسلام، وسبقت الإشارة إلى قصة عمار.

وقال مجاهد: نزلت هذه الآية، في أناس من أهل مكة، آمنوا، فكتب إليهم المسلمون بالمدينة أن هاجروا، فإننا لا نراكم منا حتى تهاجروا إلينا، فخرجوا يريدون المدينة، فأدركتهم قريش بالطريق ففتنهم مكرهين، وفيهم نزلت هذه الآية^(١). والآية عامة إلى قيام الساعة.

وهل يجوز للمسلم أن يُعرِّض نفسه للقتل في مثل هذه الحالة؟

١- قال الألوسي: في الآية دليل على جواز التكلم بكلمة الكفر عند الإكراه، وإن كان الأفضل أن يتجنب ذلك إعزازًا لدينه، ولو تيقن القتل، كما فعل ياسر وسمية، وليس ذلك من إلقاء النفس إلى التهلكة، بل هو كالقتل في الغزو كما صرحوا به^(٢).

٢- وقال ابن عطية: أما من عذبه كافر قادر عليه؛ ليكفر بلسانه، وكان هذا العذاب يؤدي إلى قتله، فله الإجابة باللسان قولًا واحدًا فيما أحفظ، فإن أراد منه الإجابة بفعل كالسجود إلى صنم، ونحو ذلك ففي هذا اختلاف فقال الجمهور: يجب بحسب التقية، وقالت فرقة: لا يجب ويسلم نفسه، وقالت فرقة: إن كان السجود نحو القبلة أجاب واعتقد السجود لله.

٣- وقال القرطبي: أجمع أهل العلم على أن من أكره على الكفر حتى خشي على نفسه القتل أنه لا إثم عليه إن كفر وقلبه مطمئن بالإيمان، ولا تبين منه زوجته، ولا يُحكم عليه بحكم الكفر^(٣).

(١) «تفسير الطبري» (١٢٢/١٤) و«المستدرک» (٣٥٧/٢).

(٢) هذا كلام الألوسي في تفسيره (٢٣٧/١٤).

(٣) «تفسير القرطبي» (٣٧٩٨/٦).

٤- وقال ابن كثير: والأولى والأفضل أن يثبت المسلم على دينه، ولو أفضى إلى قتله، كما قال الحافظ ابن عساكر^(١).

قلت: إن الآية تنطق بأن من يرتد عن دينه، فيكفر بعد إيمان، فعليه غضب من الله وله عذاب عظيم، ثم استثنت من ينطق بكلمة الكفر من لسانه تقية وخوفاً من هلاك حقيقي قائم، وهو ثابت القلب على الإيمان، فإنه لا إثم ولا حرج عليه في ذلك، ويشهد لهذا قول النبي ﷺ: «إن عادوا فعد» وهذا بمثابة الرخصة لمن أراد ذلك.

ويدل على ذلك أنه لا عبرة بكلام المكروه على الطلاق والعتاق أو البيع والشراء. أو سائر العقود، ولا يترتب عليه حكم شرعي.

أما من أثر الموت، واحتسب نفسه عند الله فأجره على الله، وإذا ثبتت الرخصة بالنطق بالكفر وقاية للنفس من التهلكة المحققة، فإن ما عدا الكفر من سائر المعاصي يكون من باب أولى إن أجبر الإنسان عليه تحت وطأة السلاح، ونحوه.

ومن أصحاب رسول الله من لم يرض النطق بكلمة الكفر، وأثر الشهادة على النطق بها، ومنهم من أخذ بهذه الرخصة:

فتنة حبيب بن زيد الأنصاري:

جاء بين يدي مسيلمة الكذاب بحبيب بن زيد الأنصاري، فقال له مسيلمة: أتشهد أن محمداً رسول الله؟ قال: نعم، قال: أتشهد أني رسول الله؟ فوضع أصبعيه في أذنيه وهو يقول: لا أسمع، فردد عليه مراراً وهو يقول: لا أسمع، فقطعه إرباً إرباً، وهو ثابت على ذلك، وقد أثر حبيب أن يقطع جسده إرباً إرباً، على أن ينطق بكلمة الكفر بلسانه^(٢).

فتنة عبد الله بن حذافة السهمي:

وهذا عبد الله بن حذافة السهمي أسره الروم، وجيء به إلى مليكهم، فقال له ملكهم:

(١) «تفسير ابن كثير» (٤/٦٠٥).

(٢) أخرجه ابن أبي شيبة (٣٥٧/١٢) عن الحسن، وانظر: «الاستيعاب» لابن عبد البر (١/٣٢٧) و«أسد

الغابة» لابن الأثير (١/٤٤٣).

تنصّر وأنا أزوّجك ابنتي، وأشركك في مُلكي.

قال ابن حذافة: لو أعطيتني جميع ما تملك، وجميع ما يملك العرب على أن أترك دين محمد طرفة عين ما فعلت، فقال: إذا أقتلك، قال: أنت وذاك، فأمر به فُصِّل، وأمر الرماة فرموه قريباً من أطرافه: يديه، ورجليه، وهو يعرض عليه دين النصرانية تحت وطأة التعذيب فيأبى.

ثم أمر بِقَدْرٍ من نحاس، فأحميت حتى صارت كأنها قطعة من الجمر، ثم أمر بأسير من المسلمين فألقاه في هذا القَدْر وهو ينظر، حتى صار عظماً يلوح، وعرض عليه الكفر، فأبى.

ثم أمر أن يلقي به في القدر، فرفعه في بكرة؛ لكي يُنزله بها في هذا القَدْر الذي يَغلي، فبكى عبد الله وهو معلّق في البكرة، فطمع فيه الملك، ودعاه لِمَا رآه يبكي، وقال في نفسه: لعله ضعُف، أو يتنازل، فقال له: لماذا تبكي؟ قال: أبكي؛ لأن لي نفساً واحدة سوف تُلقَى في هذا القَدْر مرة واحدة وتنتهي، فأحببتُ لو أنّ لي أنفُساً بعدد شعر جسدي حتى تُلقَى في هذه القَدْر؛ لتعذب في سبيل الله.

جاء في رواية أن الملك سَجَنَه ومنَعَ عنه الطعام والشراب أياماً، ثم أرسل إليه بلحم خنزير وخمر، فامتنع عبد الله من تناوله فاستدعاه، وقال له: لماذا لا تأكل، ولا تشرب؟ قال: أما إنه قد حلّ لي فأنا مضطّر؛ كي لا أشرف على الموت، ولكن لم أكن لأشمتك فيّ.

قال الملك لعبد الله: قَبِّلْ رأسي وأنا أُطلقك. قال: لا، بل تُطلق جميع الأسرى المسلمين، فأذن الملك، فقَبَّل عبد الله رأسه، وأطلق جميع أسرى المسلمين بهذه القبلة، فلما رجع عبد الله إلى عمر رضي الله عنه، وعرف عمر ما حدث، قال عمر: حق على كل مسلم أن يقبل رأس عبد الله بن حذافة، وأنا أولهم، وبدأ عمر يقبل رأس عبد الله ^(١).

هذه أمثلة من التضحية بالنفس مقابل الثبات على العقيدة مع وجود الرخصة.

عبدالله بن أبي سرح:

أما من رضي بالكفر، وفتح له قلبه مثل: عبد الله بن أبي سرح، وأضرابه، فعقابه عند

(١) يُنظر: «تفسير ابن كثير» و«تاريخ دمشق» المخطوط (١١٦/٩).

الله عظيم، قال تعالى: ﴿وَلَكِنَّ مَن شَرَحَ بِالْكَفْرِ صَدْرًا﴾ ممن يطمئن إلى كلمة الكفر، وينطق بها من قلبه ﴿فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِّنَ اللَّهِ﴾.

عن السُّدِّي أن عبد الله بن أبي سرح أسلم، ثم ارتد، فلحق بالمشركين، ووشى بعمَّار، وجبر عبد ابن الحضرمي -أو ابن عبد الدار- فأخذوهما وعذَّبوهما حتى كفرا، فنزلت ﴿وَلَكِنَّ مَن شَرَحَ بِالْكَفْرِ صَدْرًا﴾^(١).

وكان عبد الله بن أبي سرح يكتب لرسول الله فأزله الشيطان فلحق بالكفار، فأمر به النبي ﷺ أن يُقتل يوم فتح مكة، فاستجار له عثمان بن عفان، فأجاره النبي ﷺ^(٢).

قال ابن عباس ؓ: أخبر الله سبحانه أن من كفر بعد إيمانه فعليه غضب من الله، وله عذاب عظيم، فأما من أكره فتكلم بلسانه، وخالفه قلبه بالإيمان؛ لينجو بذلك من عدوه، فلا حرج عليه؛ لأن الله سبحانه إنما يأخذ العباد بما عقدت عليه قلوبهم^(٣).

وقد وصفهم ربنا في هذه الآية والآيتين بعدها بصفات ست:

أولاً: عليهم غضب من الله.

ثانياً: لهم عذاب عظيم في الآخرة.

ثالثاً: أنهم اختاروا الدنيا على الآخرة.

رابعاً: لقد حرّمهم الله من الهداية.

خامساً: أنهم أهل الغفلة والطبع على القلوب.

سادساً: أنهم الخاسرون في دنياهم وآخرتهم.

لأن الإنسان قد يخسر في الدنيا؛ ليكتسب الجنة في الآخرة، فإذا وجد نفسه في النار، فإنه يكون قد خسر رأس ماله وهو الإيمان، وبهذا يكون قد خسر دنياه وآخرته.

وعلى هذا فإن من كفر بالله عن عقيدة ورضى، فإنه معاقب بأمرين:

(١)، (٢) الطبري (٤٠٥/٩).

(٣) البيهقي في «السنن» (٢٠٩/٨) والطبري (٣٧٦/١٤).

أولهما: غضب الله تعالى عليه، وهذه أعظم عقوبة -نعوذ بالله من غضبه- واستحقاق الغضب من الله تعالى لا يكون إلا من كبائر الذنوب.

وثانيهما: عذاب الله له يوم القيامة.

وقد وصف الله هذا العذاب بأنه عذاب هائل لا يعرف حقيقته إلا رب العالمين، قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ فَنَوْا الْمُؤْمِنِينَ وَكُفِّرُوا بَعْدَ ذَلِكَ مِنْهُمْ قَدْ ضَلُّوا عَنَّا إِنَّهُمْ لَمُنْكَرُونَ وَلَهُمْ عَذَابُ الْحَرِيقِ ۝١٠٧﴾ [البروج].

مِنْ أَسْبَابِ اسْتِحْقَاقِ الْمُرْتَدِّ لِعُذَابِ اللَّهِ وَعَذَابِ الْآخِرَةِ

١٠٧، ١٠٨ - ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ اسْتَحَبُّوا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا عَلَى الْآخِرَةِ وَأَنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ ۝١٠٧﴾ أُولَئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَسَمِعِهِمْ وَأَبْصَرِهِمْ^(١) وَأُولَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ ﴿١٠٨﴾ ثم بيّن ﷺ أن السبب في استحقاق المرتد لهذا العذاب؛ لأنه آثر الدنيا وزيتها، وفضلها على الآخرة وثوابها، فلم يدخل الإيمان في قلبه، ولم يهتد بنور الإسلام، والله تعالى لا يوفق من ضل الطريق إلى الحق والصواب، فزهّد في الآخرة، واختار الكفر على الإيمان.

والسبب في حرمان الكفار من النظر الصادق في دلائل التوحيد، ومن الإذعان لرسول الله ﷺ، والاهتداء بالوحي المنزل عليه: أنهم قد انسلخوا عن الإيمان وشرحوا صدورهم بالكفر، وطابت نفوسهم به، فصارت ممنوعة من وصول الحق إليها، وعاجزة عن الانتفاع به. حيث ختم الله على قلوبهم بالكفر فلا يصل إليها نور الهداية. وأصمّ سمعهم عن آيات الله، فلم يسمعوها سماع عبدة وتدبّر. وأعمى الله أبصارهم وبصائرهم، فلم يروا البراهين الدالة على ألوهية الله تعالى، وغفلوا عما أعد الله لهم في الآخرة من العذاب، ولا غفلة أشد من غفلة المعرض عن عاقبة أمره، ولا بلاهة أفدح من بلاهة من آثر الفانية على الباقية.

والطبع هو الختم على الشيء، بحيث لا يخرج منه ما هو بداخله، ولا يدخل فيه ما هو خارج عنه. قال تعالى:

(١) أمال ألف (أبصارهم) أبو عمرو وابن ذكوان من طريق الصوري ودوري الكسائي، وقللها ورش، وفتحها الباقون.

١٠٩- ﴿لَا جَرَمَ أَنَّهُمْ فِي الْآخِرَةِ هُمْ الْخَسِرُونَ﴾ ﴿١٠٩﴾

لا شك ولا محالة، في أن هؤلاء الذين اختاروا الكفر على الإيمان، سيكونون يوم القيامة من الخاسرين الهالكين، الذين صرفوا حياتهم إلى ما فيه عذابهم وهلاكهم ﴿لَا جَرَمَ﴾ بمعنى حقا ﴿أَنَّهُمْ فِي الْآخِرَةِ هُمْ الْخَسِرُونَ﴾؛ لأنهم أضاعوا النعيم الأخروي إضاعة أبدية.

فالإنسان يعمل في الدنيا؛ ليربح في الآخرة، وهؤلاء دخلوا النار، فخسروا دنياهم وأخراهم.

الْهَجْرَةُ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى بَعْدَ الْفِتْنَةِ فِي الدِّينِ

١١٠- ﴿ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ هَاجَرُوا مِنْ بَعْدِ مَا فُتِنُوا^(١) ثُمَّ جَاهَدُوا وَصَبَرُوا إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ ﴿١١٠﴾

أي: ثم إن ربك لمن هاجر في سبيله من المستضعفين بعد أن فتن في دينه ليرجع إلى الكفر، فثبت على الإسلام، بعد أن وافقهم على الكفر باللسان ثم تمكن من الهجرة وجاهد أعداء الله بيده ولسانه، وصبر على طاعة الله، فهو أهل لمغفرة الله ورحمته، وهكذا:

تشير الآيات إلى قوم من المستضعفين في مكة فتنهم المشركون في دينهم، ومنعواهم من الدخول في الإسلام، فأعطوهم ما أرادوا بلسانهم؛ لِيَسْلَمُوا من شرورهم؛ حتى يتمكنوا من الهجرة، واللاحق برسول الله ﷺ فلما أمكنهم الخلاص منهم هاجروا، وجاهدوا، وصبروا.

١- جاء في أسباب النزول أن هذه الآية نزلت في جماعة فتنهم المشركون في دينهم وعذبوهم، ثم تمكنوا من الهجرة بعد ذلك.

ومن هؤلاء: عياش بن أبي ربيعة، كان أخا لأبي جهل من أمه، أو أخا له من الرضاع، ومنهم: أبو جندل بن سهيل، والوليد بن الوليد، وسلمة بن هشام، وعبد الله بن أسد الثقفي^(٢).

(١) قرأ ابن عامر بفتح الفاء والتاء من (فتنوا) مبنياً للفاعل، أي: فتنوا المؤمنين يكرههم على الكفر، أو فتنوا أنفسهم ثم أسلموا، كعكرمة وسهل بن عمرو، والباقون بضم الفاء وكسر التاء مبنياً للمفعول، أي: فتنهم الكفار بالإكراه على التلطف بالكفر وقلوبهم مطمئنة بالإيمان كعمار بن ياسر.

(٢) «تفسير الخازن» (١٣٦/٣).

٢- قال ابن عباس رضي الله عنه: كان قوم من أهل مكة أسلموا، وكانوا يستخفون بالإسلام، فأخرجهم المشركون يوم بدر معهم، فأصيب بعضهم، فقال المسلمون: كان أصحابنا هؤلاء مسلمين وأكرهوا، فاستغفروا لهم، فنزلت ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّيْتُمُ الْمَلَائِكَةَ ظَالِمِينَ أَنْفُسِهِمْ﴾ [النساء: ٩٧] إلى آخر الآية.

قال: وكتبوا بها إلى من بقي بمكة من المسلمين، وأن لا عذر لهم، في عدم الهجرة فخرجوا، فلحقهم المشركون، فأعطوهم الفتنة، فنزلت ﴿وَمَنْ النَّاسُ مَنْ يَقُولُ ءَامَنَّا بِاللَّهِ فَإِذَا أُوذِيَ فِي اللَّهِ جَعَلَ فِتْنَةَ النَّاسِ كَعَذَابِ اللَّهِ﴾ [العنكبوت: ١٠]

فكتب المسلمون إليهم بذلك، فخرجوا، ويئسوا من كل خير، فنزلت فيهم ﴿ثُمَّ إِنَّكَ رَبُّكَ لِلَّذِينَ هَاجَرُوا مِنْ بَعْدِ مَا فُتِنُوا﴾ فكتبوا إليهم بذلك أن الله تعالى قد جعل لكم مخرجاً، فأدركهم المشركون فقاتلوهم حتى نجا من نجا، وقُتل من قُتل^(١).

٣- وقال قتادة: ذُكر لنا أنه لما أنزل الله: أن أهل مكة لا يقبل الله منهم إسلاماً حتى يهاجروا، كتب بها أهل المدينة إلى أصحابهم من أهل مكة، فلما جاءهم ذلك خرجوا، فلحقهم المشركون فردوهم، فنزلت ﴿الْمَرْءُ أَحْسَبُ النَّاسِ أَنْ يُتْرَكَ أَنْ يَقُولُوا ءَامَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ﴾ [العنكبوت: ٢٠، ٢١] فكتبوا بها إليهم، فتبايعوا بينهم على أن يخرجوا، فإن لحقهم المشركون من أهل مكة قاتلوهم؛ حتى ينجوا ويلحقوا بالله، فأدركهم المشركون فقاتلوهم، فمنهم من قُتل، ومنهم من نجا، فأنزل الله هذه الآية^(٢).

٤- قال ابن إسحاق: فلما رأى رسول الله ﷺ ما يصيب أصحابه من البلاء، وما هو فيه من العافية بمكانه من الله تعالى، ومن حماية عمه أبي طالب له، وأنه لا يقدر على أن يمنعهم مما هم فيه من البلاء، قال لهم: لو خرجتم إلى أرض الحبشة؛ فإن بها ملكاً لا يُظلم عنده أحد، وهي أرض صدق، حتى يجعل الله لكم فرجاً مما أنتم فيه، فخرج عند ذلك المسلمون من أصحاب رسول الله ﷺ إلى أرض الحبشة مخافة الفتنة، وفراراً بدينهم.

ولا يستقيم معنى الهجرة هنا إلا بالهجرة لأرض الحبشة ممن أذن لهم النبي ﷺ بالهجرة

(١) «تفسير ابن عطية» (٣/٤٢٥).

(٢) النيسابوري (٢٣٨) و«زاد المسير» (٤/٤٩٧) والطبري (١٤/٣٧٨).

إليها للتخلص من أذى المشركين؛ لأن هذه الأحداث كانت قبل الهجرة إلى المدينة.

فإن الله تعالى لما ذكر الذين آمنوا وصبروا على الأذى.

وعذر الذين نطقوا بكلمة الكفر وقاية لأنفسهم وقلوبهم مطمئنة بالإيمان.

ذكر في هذه الآية فريقاً آخر فرؤوا من الفتنة بالهجرة إلى الحبشة، حتى يتم استيفاء فرق المسلمين كلها، ولثلاثا يتوهم متوهم أن بُعدهم عن النبي ﷺ يوهن من شأنهم.

والهجرة بهذا المعنى هي مفارقة الأوطان، كما قال تعالى عن إبراهيم عليه السلام: ﴿وَقَالَ إِنِّي

ذَاهِبٌ إِلَىٰ رَبِّي سَيِّدِينَ﴾ [الصافات: ٩٩]

وقال سبحانه في الأنصار: ﴿يُحِبُّونَ مَن هَاجَرَ إِلَيْهِمْ﴾ [الحشر: ٩].

والمعنى: ثم إن ربك للمستضعفين في مكة الذين عذبهم المشركون، حتى وافقوهم على ما هم عليه ظاهراً، ففتنهم بالتلفظ بما يرضيهم، وقلوبهم مطمئنة حتى تمكنوا من الهجرة، وجاهدوا مع رسول الله ﷺ، وصبروا على أداء الطاعات، وترك المحرمات، وعلى مشاق الجهاد، فغفر الله لهم ورحمهم.

وأصل الفتنة في اللغة: إدخال الذهب في النار؛ لتظهر جودته من رداءته، ثم استعمل في الابتلاء والمحن، والمراد هنا: العذاب والأذى الشديد، كما قال تعالى: ﴿يَوْمَ هُمْ عَلَى النَّارِ يُفْتَنُونَ﴾ [الذاريات: ١٣] والمجاهدة هنا معناها: مقاومة العدو، ومدافعة جهدهم حتى لا يردوهم إلى الكفر.

أسماء بنت عميس:

وهذه السورة مكية، نزلت قبل الهجرة إلى المدينة، ويدل على ذلك ما في صحيح البخاري:

عن أسماء بنت عميس، وهي ممن قدم من أرض الحبشة إلى المدينة؛ حيث دخلت على حفصة فدخل عليهما عمر، فقال لها: سبقناكم بالهجرة، فنحن أحق برسول الله منكم، فغضبت أسماء، وقالت: كلاً والله، كنتم مع النبي يطعم جائعكم، ويعظ جاهلكم، وكنا في أرض البعداء والبغضاء بالحبشة، ونحن كنا نؤذى ونخاف، وذلك في الله ورسوله، وإيم الله لا أطعم طعاماً، ولا أشرب شراباً حتى أذكر ما قلت لرسول الله ﷺ، فلما جاء النبي ﷺ بيت حفصة، قالت أسماء: يا رسول الله، إن عمر قال كذا

وكذا، قال: «فما قلت له؟» قالت: قلت: كذا وكذا، قال: «ليس بأحق بي منكم، وله ولأصحابه هجرة واحدة، ولكم أنتم أهل السفينة هجرتان»^(١) فهؤلاء جاهدوا في سبيل الله، وصبروا على مشاق التكليف، إن ربك من بعد توبتهم لغفور لهم رحيم بهم. والآية تنطبق على كل من كان على شاكلتهم من الأقليات المسلمة في العالم إلى يوم القيامة ممن يؤذون في سبيل الله، ويفتنون في دينهم.

وقيل: إن هذه الآية مدنية، وإن المراد بالهجرة فيها: الهجرة إلى المدينة؛ فهي تشير إلى هجرة الذين فتنوا في دينهم كعمار بن ياسر إلى المدينة، أما الهجرة في الآية الحادية والأربعين فهي تشير إلى الهجرة إلى الحبشة ﴿﴾.

يَوْمَ الْحِسَابِ وَالْجَزَاءِ

١١١- ﴿يَوْمَ تَأْتِي كُلُّ نَفْسٍ تُجَادِلُ عَنْ نَفْسِهَا وَتُوَفَّى﴾^(٢) كُلُّ نَفْسٍ مَا عَمِلَتْ وَهَمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿﴾

واذكر -يا محمد- يوم القيامة، يوم الثواب والعقاب، حيث تأتي كل نفس مؤمنة، أو كافرة تدافع بأقوالها، وتجادل عن ذاتها، وتعتذر عما كان منها في الدنيا، فكل إنسان يومها يخاصم، ويدافع عن ذاته، فإذا كذب الكافر وجحد، شهدت عليه الجوارح وشهدت الرسل، وذلك حين لا ينطقون، ولا يؤذن لهم فيعتذرون.

وفي يوم القيامة لا يفكر أحد في أحد، لا في زوجة، ولا في ابن، ولا أخ، ولا أم، ولا أب، وإنما كل واحد مشغول بنفسه، ويجازي كل من أحسن بإحسانه، وكل من أساء بإساءته، وهم لا ينقصون من أعمالهم الصالحة، ولا يزداد على أعمالهم السيئة، بل يوفون جزاء أعمالهم كاملة بالعدل والقسط، وتعطى كل نفس جزاء ما عملت في الدنيا وافيًا غير منقوص، لا يزداد في سيئاتها ولا يُنقص من حسناتها ﴿فَالْيَوْمَ لَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَلَا تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [يس: ٥٤]

قال كعب: كنت عند عمر بن الخطاب، فقال: خوَّفْنَا يا كعب، فقلت: يا أمير المؤمنين، أو ليس فيكم كتاب الله وحكمة رسوله؟ قال: بلى، ولكن خوَّفْنَا، قلت: يا أمير المؤمنين، لو وافيت القيامة، بعمل سبعين نبياً، لأزدريت عملك مما ترى، قال: زدنا، قلت: يا أمير

(١) البخاري (٣١٣٦) ومسلم (٢٥٠٣).

(٢) أمال الألف من (توفى) حمزة والكسائي وخلف، وقللها ورش بخلف عنه.

المؤمنين، لو فتَح من جهنم قُدْرٌ مَنخَرٌ ثُورٌ بالشرق، وَرَجُلٌ بالمغرب لَغَلَى دماغه حتى يسيل من حرها، قال: زدنا، قلت: يا أمير المؤمنين، إن جهنم لتزفرُ زَفْرَةً يوم القيامة، لا يبقى ملكٌ مُقرب، ولا نبي مرسل، إلا خَرَّ جاثيًا على ركبتيه، حتى إن إبراهيم خليله ليخرنَّ جاثيًا على رُكبتيه، فيقول: ربِّ، نفسي نفسي، لا أسألك اليوم إلا نفسي، فأطرق عمر مليًا، قلت: يا أمير المؤمنين أو ليس تجدون هذا في كتاب الله؟ قال: كيف؟ قلت: قول الله تعالى في هذه الآية ﴿يَوْمَ تَأْتِي كُلُّ نَفْسٍ مُّجْدِلٌ عَنْ نَفْسِهَا﴾^(١).

كُفْرُ النِّعْمَةِ وَأَهْمُهَا نِعْمَةُ الْإِسْلَامِ

١١٢- ﴿وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ ءَامِنَةً مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِّن كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللَّهِ فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ﴾

يضرب الله سبحانه المثل لكفر النعمة، بأهل مكة، كانوا في أمن وطُمأنينة، وهي بلد ليس فيها زرع ولا ثمر، فيسر الله لها الرزق يأتيها من كل مكان، وأرسل الله فيهم رسولاً يعرفون صدقه وأمانته، فكذبوه وكفروا بنعمة الله، فأذاقهم الله لباس الجوع والخوف بسبب كفرهم النعمة وعدم إيمانهم بالرسول الخاتم.

وهكذا في مطلع الربع الأخير من سورة النحل يضرب الله ﷻ مثلاً عامًّا لمجتمعات الكفر في كل زمان ومكان، يهدد به كل من قابل نِعَمَ الله تعالى بالجحود والكفران، وفي طليعتهم أهل مكة؛ لأنهم أول من خطب بهذا القرآن،

وذلك أنهم لما لم يشكروا فضل الله عليهم، ولم يؤمنوا بمحمد ﷺ، وأشركوا بالله تعالى، فعبدوا الأصنام من دونه، وكانوا يعيشون في أمن واستقرار، ورغد من العيش، وكثرة أرزاق فبطروا النعمة وجحدوها.

ولما بلغتهم دعوة محمد ﷺ فكذبوها، وبدل أن يشكروا- نعمة الله سبحانه، فيوحدوه ويعبدوه، كفروا بأنعم الله عليهم.

وأعظم النعم على البشرية هي نعمة رسالة محمد ﷺ، وكان الواجب عليهم أن يؤمنوا بها، ويعملوا بمقتضاها، ولكنهم ﴿بَدَّلُوا نِعْمَتَ اللَّهِ كُفْرًا وَأَحَلُّوا قَوْمَهُمْ دَارَ الْبَوَارِ﴾ [إبراهيم: ٢٨] فكذبوا بدعوة النبي ﷺ، ولم يؤمنوا بها.

والمجتمعات الكافرة في كل زمان ومكان أهل لأن تحل بها نقمة الله سبحانه، وينزل

(١) أخرجه أحمد في «الزهد» ص ١٢١ وابن أبي شيبة (١٣/١٥٥) وابن المبارك (٢٢٥).

بها عذاب الله ﷻ إن عاجلاً أو آجلاً؛ فهي أهل لأن يبدل الله أمنهم خوفاً، وأن يبدل رخاءهم جوعاً وجدباً وقحطاً.

وهذا المثل المضروب في سورة النحل، كما ينطبق على أهل مكة المكرمة وقت التنزيل، ينطبق على غيرهم، في كل زمان ومكان، من كل مَنْ كَذَّبَ رسول الله وكفر بأنعم الله ﷻ، فيبدل الله غناهم فقراً، وأمنهم خوفاً

وأهل مكة من لدن دعاء إبراهيم ﷺ أن يجعل الله بلدهم حرماً آمناً، إلى سرايا النبي ﷺ وغزواته، وما بعد ذلك وهم يعيشون في أمن واستقرار، كما قال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا آمِنًا وَيَنْتَضِلُّ النَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ﴾ [العنكبوت: ٦٧] حتى إن الإنسان ليرى في الحرم قاتل أبيه فلا يهيج، ولا يتعرض له بأذى، إلى أن يخرج من الحرم، حتى إن الطير والحيوانات لتأمن على نفسها فيه، ومع أن أهل الحرم في صحراء وبادية، فإن الله سبحانه يرسل لهم الأرزاق من كل مكان، كما قال تعالى: ﴿يُجِئُ إِلَيْهِ ثَمَرَاتُ كُلِّ شَيْءٍ رِزْقًا مِنْ لَدُنَّا﴾ [القصص: ٥٧] وذلك في رحلتي الشتاء والصيف قديماً، وعن طريق التجارة حديثاً ولا زالت الثمار تأتيتهم فيأكلون فاكهة الصيف والشتاء التي ترد إليهم من شتى أرجاء المعمورة.

سبب تحويل النعمة إلى نقمة :

وأهل مكة لما جاءهم محمد ﷺ كذبوه، ولم يؤمنوا به، واشتد إيذاؤهم له ﷺ، وتآمروا على قتله، حتى أمره ربه بالهجرة من مكة إلى المدينة، فبدل الله أمن أهل مكة خوفاً بسرايا النبي ﷺ وغزواته، حتى فتحت مكة. وبدل الله رخاءهم ورزقهم جوعاً حين دعا عليهم النبي ﷺ أن يشدد الله وطأته على مُضَرٍّ، وأن يجعلها عليهم سنوات كسني يوسف ﷺ فأصابهم القحط، والجذب، والجوع، حتى أكلوا الميتة، والجيف، والعظام، وأوبار الإبل، وأصبح أحدهم ينظر إلى السماء فيرى كأن بينه وبينها دخاناً كثيفاً؛ لِمَا يصيبه من آلام الجوع والخوف.

ذلكم قول الله تعالى: ﴿وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا﴾ للناس كافة ﴿قَرْيَةً﴾ هي مكة المشرفة وغيرها ﴿كَانَتْ آمِنَةً﴾ من الاعتداء عليها في الجاهلية والإسلام، ﴿مُطْمَئِنَّةً﴾ من ضيق العيش، هادئة البال.

والقرية في القرآن تطلق على المدينة العظيمة، وعلى العاصمة الكبرى، ولذلك فإن مكة

تسمى أم القرى .

وقد وصف الله هذه القرية المضروبة مثلاً للناس إلى يوم القيامة بثلاثة أوصاف :

الصفة الأولى : كانت آمنة تتمتع بنعمة الأمن ، وهو مقدم على نعمة الرزق في الآية ، وجاء في آية أخرى ؛ تقديم نعمة الرزق (الطعام) على نعمة الأمن ، قال تعالى : ﴿ فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَذَا الْبَيْتِ ۖ الَّذِي أَطْعَمَهُمْ مِنْ جُوعٍ وَآمَنَهُمْ مِنْ خَوْفٍ ۖ ﴾ [قریش] .

الصفة الثانية : أن رزقها يأتيها كثيراً سهلاً هيناً من كل مكان ، ولكن أهل هذه القرية لما كفروا بأنعم الله ولم يشكروه ، وجحدوا فضل الله عليهم ، ولم يوحده أذاقهم الله لباس الجوع والخوف ؛ بسبب سوء صنيعهم .

وشكر المنعم سبحانه يكون بالإيمان به ، وتوحيده جل شأنه ، ويكون بعمل الجوارح بفعل الفرائض ، والسنن ، والأركان ، وغير ذلك ؛ فالشكر ليس مقصوراً على نطق اللسان ، وإنما يتعداه إلى الاعتقاد بالعقل والجنان ، وإلى العمل بالجوارح .

ولما كفرت هذه القرية بأنعم الله ، عاقبها الله سبحانه على سوء صنيعها ، فأذاق أهلها لباس الجوع والخوف ، والله سبحانه يعبر عن الجوع والخوف الذي أصابهم بأنه لباس لهم ؛ لما يغشاهم ويحيط بهم من آلام الجوع والخوف ، وقد تذوقوهما حقيقة ، وظهر آثارهما على أهل مكة بضمور الجسم ، وشحوب اللون ، وكسوف البال ، وتغيير الحال ؛ بسبب سوء صنيعهم .

الدخان المبين :

وقد نزلت هذه الآية بعد ما أصاب أهل مكة الجوع الذي أُنذروا به في الآية التي فسرناها ابن مسعود ؓ كما في صحيح مسلم ، بأنه الدخان الوارد في قوله تعالى : ﴿ فَارْتَقِبْ يَوْمَ تَأْتِي السَّمَاءُ بِدُخَانٍ مُبِينٍ ۖ يَغْشَى النَّاسَ هَذَا عَذَابٌ أَلِيمٌ ۖ ﴾ [الدخان]

وهو الذي كان يراه أهل مكة أيام القحط الذي أصابهم ، فقد كان الواحد منهم ينظر إلى السماء ، فيرى بينه وبينها كهيئة الدخان الكثيف ، لا يستطيع من خلاله أن يحقق الرؤيا من شدة الجوع ، فيدعو ربه قائلاً : ﴿ رَبَّنَا اكْشِفْ عَنَّا الْعَذَابَ إِنَّا مُؤْمِنُونَ ﴾ [الدخان] وهذا علامة من علامات الساعة الصغرى .

وأما الخوف المذكور في الآية فكما جاء في التفسير المأثور من قوله تعالى: ﴿وَلَا يَزَالُ الَّذِينَ كَفَرُوا تُصِيبُهُمْ بِمَا صَنَعُوا قَارِعَةٌ﴾ قالوا: إن القارعة هي السرية الأولى من سرايا رسول الله ﷺ التي خوفت أهل مكة بعد أن هاجر منها المصطفى ﷺ ﴿أَوْ تَحُلُّ﴾ أنت يا محمد ﴿قَرِيبًا مِّن دَارِهِمْ حَتَّى يَأْتِيَ وَعْدُ اللَّهِ﴾ [الرعد: ٣١] وتفتح مكة فتحاً مبیناً على يد رسول الله ﷺ، فكان هذا الخوف هو المفسر بهذه الآية، وهذا بالنسبة لأهل مكة في عصر التنزيل، أما في العصور اللاحقة بالنسبة لهم ولغيرهم فإنه يتحقق بعدم توافر الأمن، عن طريق تسلط العدو، أو تسلط الحاكم الظالم، ونحو ذلك.

ولا يلزم أن يكون الجوع بسبب القحط والجذب، وإنما قد يكون بسبب قلة الموارد، أو سرقة الأموال، أو غلاء الأسعار، أو عدم نزول الأمطار، أو تجفيف منابع الخير، أو الحصار الاقتصادي، ونحو ذلك.

الصِّفَةُ الثَّالِثَةُ لِمُجْتَمَعَاتِ الْكُفْرِ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ

١١٣- ﴿وَلَقَدْ جَاءَهُمْ^(١) رَسُولٌ مِّنْهُمْ فَكَذَّبُوهُ^(٢) فَأَخَذَهُمُ الْعَذَابُ وَهُمْ ظَالِمُونَ ﴿١١٣﴾﴾

أرسل الله في أهل مكة رسولاً من بينهم يعرفون أصله وفصله، ويعرفون نسبه، وصدقه، وأمانته، وعفافه، حيث كان يدعوهم إلى توحيد الله، ويأمرهم بكل خير، وينهاهم عن كل شر، فكذبوه، فحل بهم عذاب الله، بأن بدل أمنهم خوفاً، وشبعهم جوعاً ﴿وَمَا ظَلَمَهُمُ اللَّهُ وَلَكِنْ أَنفُسُهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿١١٧﴾﴾ [آل عمران] وكان ذلك بسبب الكفر برسالة خاتم الرسل محمد ﷺ، يأمرهم بطاعته واتباعه فكذبوه وأعرضوا عنه، فحل بهم عذاب الله تعالى؛ بسبب كفرهم، وتكذيبهم، وهذه سنة الله في جميع الأمم مع جميع الرسل.

وإلى هذا المعنى يشير قوله تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِّن نَّبِيٍّ إِلَّا أَخَذْنَا أَهْلَهَا بِالْبَاسَاءِ وَالضَّرَاءِ لَعَلَّهُمْ يَضُرَّعُونَ ﴿٩٤﴾ ثُمَّ بَدَّلْنَا مَكَانَ السَّيِّئَةِ الْحَسَنَةَ حَتَّى عَفَوْا وَقَالُوا قَدْ مَسَّ آبَاءَنَا الضَّرَّاءُ وَالسَّرَّاءُ فَأَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٩٥﴾﴾ [الأعراف].

(١) أدغم الدال في الجيم من (ولقد جاءهم) أبو عمرو وهشام وحزمة والكسائي وخلف، وأمال (جاءهم) ابن ذكوان وخلف وحزمة.

(٢) وصل هاء (فكذبوه) بحرف مد ابن كثير، وقصرها الآخرون.

وهكذا حدث لأهل مكة لما لم يقبلوا ما جاءهم به محمد ﷺ، ولم يصدقوه فأخذهم العذاب بالشدائد العظام، وبالجوع والخوف، وقتل رسول الله ﷺ عظماءهم يوم غزوة بدر، وكان السبب في ذلك أنهم ظلموا أنفسهم فأشركوا بالله، وصدوا الناس عن سبيله.

وهكذا يفعل الله بكل من كذب خاتم النبيين ﷺ في كل زمان ومكان، فهولن ينجو من عذاب الله تعالى إن عاجلاً وإن آجلاً، وما من قرية أهلكها الله إلا وقد جاءهم رسول منهم فكذبوه، كما قال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرَى حَتَّى يَبْعَثَ فِي أُمِّهَا رَسُولًا يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا وَمَا كُنَّا مُهْلِكِي الْقُرَى إِلَّا وَأَهْلُهَا ظَالِمُونَ﴾ [القصر].

الطَّيِّبَاتُ وَالْخَبَائِثُ فِي الْمَأْكَلِ

١١٤- ﴿فَكُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ حَلَالًا طَيِّبًا وَاشْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ إِنَّ كُفْرَ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ﴾

يأمر الله عباده أن يأكلوا مما رزقهم الله من الحيوانات والحبوب والثمار وغيرها، على أن يكون هذا من الحلال الطيب، من غير إسراف ولا تبذير، واشكروا نعمة الله عليكم وأخلصوا له العبادة.

وهكذا: فإن الله ﷻ يوجه الخطاب إلى كل مجتمع لم يؤمن برسول الله محمد ﷺ ممن استحقوا العذاب وهم ظالمون، كأنه تعالى يقول لهم: إن كنتم تريدون السير على منهج الله، والاهتداء على طريق الحق، فاتركوا ما أنتم عليه من الكفر بالرسالة الأخيرة، واشكروا نعمة الله عليكم، وأعظمها نعمة بعثة محمد ﷺ فآمنوا به وبدعوته، بعد أن تؤمنوا بالله وحده، واصرفوا عبادتكم له وحده دون سواه، وكلوا من طيبات ما رزقكم الله من الحلال المشروع، واتركوا الأموال الخبيثة المحرمة.

فالشرط الأول: أن يكون الطعام حلالاً جاء من طريق مشروع.

والشرط الآخر: أن يكون طعامكم طيباً، مما أحله الله، وليس من المحرمات.

فكلوا مما جعله الله لكم حلالاً مستطاباً، واشكروا نعمة الله عليكم، ووحدوا الله، وأطيعوه إن كنتم مؤمنين بالله، مخلصين له في العبادة، مصدقين بما جاء به رسول الله ﷺ؛ فقد رأيتم حال الذين بدلوا نعمة الله كفراً، وأحلوا قومهم دار البوار، ورأيتم كيف

أذاقهم الله لباس الجوع والخوف، فاحذروا أن تكونوا مثلهم، وكما أحل الله لكم الطيبات فقد حرم عليكم الخبائث، قال تعالى:

١١٥- ﴿إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ^(١) وَالْدَّمَ وَلَحْمَ الْخَنزِيرِ وَمَا أُهْلَ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ^(٢) فَمَنِ اضْطُرَّ^(٣) غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَاكِفٍ^(٤) فَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا^(٥)﴾

والله جل شأنه لم يحرم عليكم الكثير من المطعومات، إنما حرم أمورًا محصورة ومحدودة لصالحكم، لما فيها من الأضرار التي تعود على البدن، والأضرار التي تعود على عقيدة المسلم، وهذه المحرمات جاء ذكرها في كتاب الله تعالى في سور: البقرة، والمائدة، الأنعام، وهذه السورة، وهي محرمات أربع:

أولاً: الميتة، أي: ميتة الحيوان البري الذي له نفس سائلة؛ ليُخرج بذلك ما ليس له نفس سائلة؛ كالجراد، والذباب، والبراغيث، وليُخرج أيضًا حيوان البحر.

ويراد بالميتة التي ماتت حتف أنفها، أو قُتلت على هيئة غير مشروعة، ويدخل فيها: المنخنقة، والموقوذة، والمتردية، والنطيحة، وما عدا عليها السبع؛ لفساد جسمها، ولتعفُّنها، ولقذارتها، وما فيها من ضرر البدن، واستثنى من ذلك، السمك والجراد.

ثانيًا: الدم المسفوح السائل من الحيوان الحي بعد ذبحه، كثيرًا كان أو قليلًا.

أما ما بقي في العروق واللحم فلا يضر.

ثالثًا: لحم الخنزير بما يشمل شحمه، ودمه، وجلده، وغضاريفه؛ لقذارته وخُبثه، ولما فيه من الأضرار والأمراض التي أثبتتها العلم الحديث، كالدودة التي تضر بمن يتعاطى شيئًا منه.

رابعًا: ما أهل لغير الله به، أي: وما ذبح على غير اسم الله تعالى؛ فإن في هذا فسادًا للعقيدة، كالذي ذبح على اسم الصليب، ونحوه من كل ما ذبح لغير الله، بأن ذبح لجن،

(١) قرأ أبو جعفر بتشديد الياء مكسورة من (الميتة)، والباقون بتخفيفها ساكنة.

(٢) قرأ أبو عمرو وعاصم وحمة ويعقوب بكسر النون وصلًا (فمن اضطر)، والباقون بضمها.

(٣) قرأ أبو جعفر بكسر الطاء من (اضطر)، والباقون بضمها، وأجمع القراء على ضم همزة الوصل عند الابتداء بها.

أو لقبر، أو في مكان يذبح فيه لغير الله تعالى .

فمن ألجأته الضرورة إلى أكل أو شرب شيء من ذلك، بأن كان مشرفاً على الهلاك، فأخذ ما يقيته ويردُّ إليه الحياة من هذه المحرمات، وهو غير متجاوز للقدر الضروري، ولا متجاوز لحد؛ فإن الله غفور له، رحيم به لا يعاقبه على ما فعل .

وتحريم ما أهْلَ لغير الله به سببه التوجه بالمذبح إلى غير الله سبحانه، وما عدا ذلك فتحريمه لعلّة ذاتية ضارة فيه، والله ﷻ لم يحرم علينا من المطاعم غير ما هو منصوص عليه في هذه الآيات .

حَقُّ التَّشْرِيعِ لِلَّهِ وَحْدَهُ

١١٦، ١١٧- ﴿وَلَا تَقُولُوا لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ الْكَذِبَ هَذَا حَلَلٌ وَهَذَا حَرَامٌ لِنَقْتَرُوا عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ إِنَّ الَّذِينَ يَقْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ لَا يَفْلِحُونَ ﴿١١٦﴾ مَتَّعَ قَلِيلٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١١٧﴾﴾

بيّن جلّ شأنه أن التحريم والتحليل والتشريع حق خاص بالله وحده، فلا ينبغي لأي إنسان، ولا لأي مجتمع، ولا لأي مجلس شورى، أو مجلس أمة أو شعب، ونحو ذلك أن يدلي برأي في الثوابت الشرعية القطعية، فضلاً عن أن يُحل ما حرمه الله، أو يُحرّم ما أحله الله، فلا يجوز أن يُطرح على طاولة المفاوضات مثلاً: هل تُمنع الخمر، أو لا تُمنع في بلد مسلم؟! ولا يجوز لأحد من خلق الله أن يشرع شيئاً لنفسه، ولا لغيره، كما حرم أهل الجاهلية على أنفسهم أموراً أحلها الله لهم؛ فقد حرموا على أنفسهم: البحيرة، والسائبة، والوصيلة، والحام ﴿وَقَالُوا مَا فِي بُطُونِ هَذِهِ الْأَنْعَامِ خَالِصَةٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا وَمُحَرَّمٌ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَإِنْ كَانَ مِثْقَلُ ذَرَّةٍ مِنْهُ فِي بُطُونِ الْغَنَاقِ لَسَاءً لِلَّذِينَ آمَنُوا بِهِمْ يُضَاهَوْنَ فِي الْغَنَاقِ﴾ [الأنعام: ١٣٩] وقالوا يزعمهم: هذا لله، وهذا لشركائنا، فإن هذا من فعل أهل الجاهلية، ومثلها في كل زمان ومكان، من يحرمون ما أحل رب العالمين، أو يحلون ما حرم الله .

قال تعالى: ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ لَكُمْ مِنْ رِزْقٍ فَجَعَلْتُمْ مِنْهُ حَرَامًا وَحَلَلًا قُلْ إِنَّ اللَّهَ أَدَّبَ لَكُمْ أَمْ عَلَى اللَّهِ تَفْتَرُونَ ﴿٥٩﴾﴾ [يونس] .

والمعنى: ولا تقولوا أيها المشركون للكذب الذي تصفه وتحكيه ألسنتكم من أقوال وأحكام لا صحة لها، لا تقولوا: هذا حلال لما حرمه الله، وهذا حرام لما أحله الله؛ لتختلقوا الكذب على الله، وتنسبوه إليه زورًا وبهتانًا، وتظهروا بمظهر العلم، وتتفخروا بذلك على الناس.

ويدخل في هذا كل من ابتدع في دين الله ما ليس منه، أو شرع للناس ما لم يشرعه رب العالمين، أو أحل لهم ما حرمه الله سبحانه.

ثم حذر سبحانه المسلمين أن يتقوّلوا على الله ما لم يقله بنص صريح، أو بتحميل الألفاظ ما لا تتحمّله، أو تأويلها على غير وجهها الصحيح، فبيّن سبحانه أن الذين يختلقون الكذب على الله، لا يفوزون في الدنيا ولا في الآخرة. وفي الآية تحذير للمسلمين أن يقولوا على الله تعالى بغير علم.

قال أبو نضرة: قرأت هذه الآية ﴿وَلَا تَقُولُوا لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ الْكَذِبَ هَذَا حَلَالٌ وَهَذَا حَرَامٌ﴾ فلم أزل أخاف الفتيا إلى يومي هذا^(١).

ثم إن الذين يشرعون لأنفسهم، أو لغيرهم ما لم يشرعه الله؛ للحصول على منفعة، أو متاع من متاع الدنيا، فإن نفعهم مؤقت، ومتاعهم ضئيل زائل، ولهم في الآخرة عذاب مؤلم وموجع.

ونظير هذا قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ﴾ (٦٩) متع في الدنيا ثم إنا مرجعهم ثم نذيقهم العذاب الشديد بما كانوا يكفرون ﴿٧٠﴾ [يونس]

وقوله: ﴿نُمَتِّعُهُمْ قَلِيلًا ثُمَّ نَضْطَرُّهُمْ إِلَىٰ عَذَابٍ غَلِيظٍ﴾ (٧٤) [لقمان].

وقوله: ﴿وَمَنْ كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُ قَلِيلًا ثُمَّ أَضْطَرُّهُ إِلَىٰ عَذَابِ النَّارِ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ﴾ [البقرة: ١٢٦].

مَا حَرَّمَهُ اللَّهُ عَلَى الْيَهُودِ عُقُوبَةً لَهُمْ

١١٨- ﴿وَعَلَى الَّذِينَ هَادُوا حَرَمًا مَّا فَصَّصْنَا عَلَيْكَ مِنْ قَبْلُ وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾

(١) أخرجه ابن أبي حاتم كما في «الدر المشثور» (١٢٩/٩).

ولما قص الله على المؤمنين ما حرمه عليهم من الميتة، والدم، ولحم الخنزير، وما ذبح على غير اسم الله، أتبع ذلك ببيان ما حرمه على اليهود عقوبة لهم على تبديل شرع الله، ثم ما حرموه من تلقاء أنفسهم كما جاء في الآية الثالثة والتسعين من سورة آل عمران.

وما حرمه الله سبحانه على اليهود قبل نسخ شريعتهم؛ إنما كان بسبب ظلمهم، وبغيهم، وتجاوزهم الحد؛ فقد حرم الله عليهم بعضاً من الطيبات التي هي في حد ذاتها حلال، ولكن الله عاقبهم بتحريمها عليهم، كما قال تعالى: ﴿فَيُظَاهِرُ مِنَ الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمًا عَلَيْهِمْ طَيْبَاتٌ أُحِلَّتْ لَهُمْ﴾ [النساء: ١٦٠].

وقال هنا: ﴿وَعَلَى الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمًا مَا فَصَصْنَا عَلَيْكَ مِن قَبْلُ﴾ أي: حرم سبحانه ما قصه علينا في قوله تعالى: ﴿قُلْ لَا أُحَدِّثُ فِي مَا أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا عَلَى طَاعِمٍ يَطْعَمُهُ إِلَّا أَنْ يَكُونَ مِثْنَةً أَوْ دَمًا مَسْفُوحًا أَوْ لَحْمَ خَنزِيرٍ﴾ [الأنعام: ١٤٥] وهذا بالنسبة للبشر عامة.

وبالنسبة لليهود خاصة فقد حرم الله عليهم ما في الآية بعدها ﴿وَعَلَى الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمًا كُلُّ ذِي ظُفْرٍ﴾ أي: حرم الله على اليهود كل ذي ظفر؛ كالنعام، والبعير، وحرم عليهم الشحم، أي: الدهون الخالصة من البقر، والغنم، وشحم الكلى، إلا شحم الظهر، وشحم الأمعاء، وهو المراد بالحوايا، وكذا الشحم المختلط بعظم، كشحم الذنب ﴿وَمِنَ الْبَقَرِ وَالْغَنَمِ حَرَّمًا عَلَيْهِمْ شُحُومُهُمَا﴾ أي: شحوم البقر، والغنم ﴿إِلَّا مَا حَمَلَتْ ظُهُورُهُمَا﴾ إلا الشحم الذي في الظهر ﴿أَوْ الْحَوَايَا﴾ أي: شحم الأمعاء ﴿أَوْ مَا اخْتَلَطَ بِعَظْمٍ﴾.

قال تعالى: ﴿ذَلِكَ جَزَيْنَاهُم بِبَغْيِهِمْ﴾ [الأنعام: ١٤٦] أي: أن هذا كله حلال في حد ذاته، ولكن الله تعالى حرمه عليهم عقوبة لهم ﴿وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ أي: أنهم لما ظلموا أنفسهم بالكفر والبغي استحقوا هذا التحريم عقوبة لهم، قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ النَّاسَ شَيْئًا وَلَكِنَّ النَّاسَ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ [يونس: ٤٤].

وقد حرم الله ما ذكر على اليهود ابتداءً، ولم يكن محرماً في شريعة إبراهيم عليه السلام، وهي التي كان عليها سلفهم، كما قال تعالى: ﴿كُلُّ الطَّعَامِ كَانَ حَلَالًا لِّنَبِيِّ إِسْرَءِيلَ إِلَّا مَا حَرَّمَ إِسْرَءِيلُ عَلَى نَفْسِهِ مِن قَبْلِ أَنْ تُنَزَّلَ الْتَّوْرَةُ﴾ [آل عمران: ٩٣] فهو تحريم خاص بهم دون غيرهم؛ بسبب بغيهم وظلمهم، أما ما حرمه الله على المسلمين من الميتة وغيرها فكان رحمة بهم، وحرصاً على مصلحتهم.

فَتْحُ بَابِ الْمَغْفِرَةِ لِكُلِّ مَنْ تَابَ

١١٩- ﴿ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ عَمِلُوا الشُّوْءَ بِجَهَلَةٍ ثُمَّ تَابُوا مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَأَصْلَحُوا إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [١١٩].

ولما ذكرت الآيات السابقة ما كان من أهل الشرك فيما حرموه على أنفسهم من بهيمة الأنعام، في قوله: ﴿وَلَا تَقُولُوا لِمَا نَصَبُ الْإِسْتِكْرَارُ الْكَذِبَ هَذَا حَلَالٌ وَهَذَا حَرَامٌ لِنُفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ﴾ وكان بعض المسلمين قد شاركوهم في شيء من ذلك في الجاهلية، بالإضافة إلى ما حرمه اليهود على أنفسهم، في قوله تعالى: ﴿كُلُّ الطَّعَامِ كَانَ حَلَالًا لَبِيتَ إِسْرَءِيلَ إِلَّا مَا حَرَّمَ إِسْرَءِيلُ عَلَى نَفْسِهِ﴾ [آل عمران: ٩٣].

وما حرمه الله عليهم عقوبة لهم ﴿فَظَلِمَ مَنْ الَّذِينَ هَادُوا حَرَمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَاتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ﴾ [النساء: ١٦٠]. بعد ذلك أراد الله سبحانه أن يُطمئن الجميع أنه جلَّ شأنه يغفر ذنب من تاب، وإلى ربه رجع وأناب، ومن ذلك الكفار الذين افترؤا على الله الكذب ممن سبق ذكرهم في الآيات، في قوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَقْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ﴾ الآية: ١١٦ فهم إذا تابوا من كفرهم، فآمنوا، وأصلحوا نفوسهم، وأعمالهم، غفر الله لهم، وتشمل الآية أيضاً كل من عصى الله تعالى عمداً، أو جهلاً؛ فإن الله تعالى يتوب عليه، فبيّن سبحانه أنه يفتح باب التوبة أمام المشركين والكفار والعصاة، ممن ﴿عَمِلُوا الشُّوْءَ بِجَهَلَةٍ﴾ والسوء: لفظ يتناول كل قول وفعل قبيح، فيدخل تحته الكفر والشرك، وسائر المعاصي، والجهالة عدم الإصرار والتعمد، وهي ليست قيّداً ولا شرطاً، وإنما هي بيان للواقع.

وكل من عصى الله تعالى فهو جاهل، لا يعرف مقدار العقوبة المترتبة على هذه المعصية. ١- فالجاهل هو الذي يعصي الله تعالى في لحظة ضعف إنساني، مِنْ تَغْلُبِ شَهْوَةٍ أَوْ نَزْوَةٍ، فهو في حقيقة الأمر لا يريد عصيان الخالق جلَّ شأنه، وإنما غلبته شهوته أو غضبه، أو ثارت حميته.

٢- أو أن الجاهل هو الذي يجهل أدلة الشرع على تحريم الشيء، ويجهل العقاب المقرر على المعصية، وأنه موجب لسخط الله تعالى، أو أنه يعمل عملاً حراماً، ويجهل أنه حرام، من غير تقصير منه في الأخذ بأسباب العلم به.

٣- أو أنه ارتكب الذنب ليس عن عمد، وإنما بدافع الحمق، والطيش، والسفه، وعدم تدبر عواقب الأمور.

وقد خص الله سبحانه من يعمل السوء بجهالة؛ لأن هذا شأن من يفعل الذنوب غالباً من المسلمين، فهو بيان للواقع الكثير في الناس، وليس شرطاً في التوبة، وإلا فإن الله تعالى يغفر لكل من تاب من ذنبه، سواء عمله بجهالة أم بغير جهالة، أي: مخطئاً أو متعمداً عالمًا بالتحريم.

قال تعالى: ﴿إِنَّمَا التَّوْبَةُ عَلَى اللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السُّوءَ بِجَهَالَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِنْ قَرِيبٍ فَأُولَٰئِكَ يَتُوبُ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ۝ (٧) وَلَيْسَتِ التَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ حَتَّىٰ إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ إِنِّي تُبْتُ الْفَنَ وَلَا الَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمْ كُفَّاءٌ أُولَٰئِكَ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ۝ (٨)﴾ [النساء] ومعنى تابوا من قريب أي: قبل غرغرة الموت، وقبل ظهور علامات الساعة الكبرى، فإن الله يتوب عليهم.

ومعنى ﴿وَأَصْلَحُوا﴾ أي: أصلحوا الأعمال السيئة التي عملوها قبل التوبة، فمن تاب من ترك الفرائض فليقضها، ومن تاب من الغيبة فليش على صاحبها، ويرجع عن قوله أمام من تكلم معهم، ومن تاب عن السرقة فليعُد الأموال المسروقة إلى أصحابها، وهكذا بأن تاب توبة صادقة، فأصلح نفسه، وأكثر من العمل الصالح، وهياً نفسه للسير على الطريق المستقيم، إن ربك من بعد التوبة، وما يصاحبها من رد المظالم والحقوق ﴿لَعَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ لمن تاب وأتاب ﴿رَّحِيمٌ﴾ بعباده.

عَشْرَةُ أَوْصَافٍ لِخَلِيلِ الرَّحْمَنِ

١٢٠- ﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ ۞ (١) كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ۝ (٢)﴾

وبعد أن بشر سبحانه عباده بمغفرة ذنب من تاب ورجع إلى الله تعالى، بين سبحانه فضل الإسلام الذي اتبعوه، وقدم لذلك بالثناء على إبراهيم أبي الأنبياء، وهو الذي سمّانا المسلمين من قبل وفي هذا القرآن؛ للدلالة على أن فضل الإسلام فضل زائد على جميع الأديان، وللدلالة على أن المشركين الذين حرّموا الطيبات على أنفسهم، لم يكونوا على دين إبراهيم؛ لأن إبراهيم عليه السلام، وبالحنيفية السمحة، فأباح الطيبات وحرّم الخبائث.

(١) قرأ هشام وابن ذكوان بخلف عنه بفتح الهاء وألف بعدها في (إبراهيم) هنا وفي الآية (١٢٣)، والباقون بكسر الهاء وباء بعدها وهو الوجه الثاني لابن ذكوان.

وإبراهيم خليل الرحمن ﷺ أتى بدعوة التوحيد، ومحمد ﷺ وَصَلَ ما جاء به إبراهيم، مقتفياً أثره، ومتبعاً لدينه في توحيد الله ﷻ، واتباع شريعته فيما لم يُنسخ كما يقرر ذلك علماء الأصول.

وقد وصف الله سبحانه إبراهيم ﷺ بأوصاف عشرة في الآيات الثلاث التالية من سورة النحل.

وذلكم لأن المشركين يقولون: إنهم على دين إبراهيم، واليهود والنصارى يقولون: إنهم على دين إبراهيم، والله ﷻ يرى إبراهيم منهم جميعاً، فيبين سبحانه أن إبراهيم ﷺ لم يكن مشركاً، وإنما كان حنيفاً مسلماً، وأنتم يا أهل الكتاب قد غيرتم وبدلتم دين إبراهيم، وأولى الناس به هو محمد ﷺ، وهذه هي الأوصاف العشرة:

الوصف الأول: أَنَّهُ كَانَ أُمَّةً: جاء ذلك في قوله تعالى: ﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً﴾ أي: كان إماماً قدوة جامعاً لخصال الخير، هادياً مهتدياً، ولفظ أمة له عدة معان:

المعنى الأول: أنه كان وحده أمة، أي إماماً جامعاً لخصال الخير، وإبراهيم ﷺ كان مؤمناً وحده، والناس كلهم كانوا كفاراً، فهو أمة؛ لأنه وحده الذي كان مسلماً من بين قومه، وكان قومه كلهم كفاراً، عبدة أوثان، فهو أمة وحده، كما كان معلماً للخير، هادياً ومصلحاً. قال مجاهد: سُمي إبراهيم أمة: لانفراده بالإيمان في وقته.

المعنى الثاني: أنه وحده يساوي أمة أو بمنزلة أمة.

فإن إبراهيم وحده يعدل أمة من الناس في طاعته لربه، وفي صفات الخير، وإبراهيم ﷺ كان وحده بمنزلة أمة كاملة في الفضل والكمال، وكان أمة وحده في الدين، فقد أحيا الله به التوحيد، وبيّنه في الأمم والأقطار، وجعل الكعبة معلماً له حين دعا الناس لها، ولم يزل هذا باقياً على مر العصور.

وفي البخاري أن إبراهيم ﷺ قال لزوجته سارة: ليس على الأرض اليوم مؤمن غيري وغيرك^(١).

وقال عمر رضي الله عنه: لو كان معاذ حياً لاستخلفته؛ فإني سمعت رسول الله ﷺ يقول: «أبو عبيدة

(١) من حديث طويل عن أبي هريرة في البخاري (٢٢١٧، ٣٣٥٨) ومسلم (٢٣٧١).

أَمِنْ هَذِهِ الْأُمَّةِ، وَمَعَاذَ أُمَّةٍ قَانَتْ لِلَّهِ، لَيْسَ بَيْنَهُ وَبَيْنَ اللَّهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِلَّا الْمُرْسَلُونَ»^(١).

وقال ﷺ في زيد بن عمرو بن نفيل: «يبعثه الله أمة وحده»؛ لأنه كان قد فارق الجاهلية، وما هم عليه من عبادة الأصنام. فالأمة في الأصل هي الطائفة الكبيرة من الناس، التي تجمعها جهة جامعة.

المعنى الثالث: ويأتي لفظ ﴿أُمَّةٌ﴾ بمعنى: الملة والدين، قال تعالى ﴿إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ﴾ [الزخرف: ٢٢] أي: على دين وملة.

المعنى الرابع: ويأتي لفظ ﴿أُمَّةٌ﴾ بمعنى: الحين والزمان، قال تعالى: ﴿وَلَكِنَّ آخِرَنَا عَنْهُمْ الْعَذَابَ إِلَىٰ أُمَّةٍ مَّعْدُودَةٍ﴾ [هود: ٨] أي: إلى زمان معين.

المعنى الخامس: والأمة أيضاً: الإمام الذي يقتدي به الناس فيؤمهم، ويهديهم إلى الخير، وهو يأخذ أجر فعله للخير، وأجر فعل الأمة التي اهتدت بهديه، واقتدت به؛ فالإمام هو الذي يُقتدى به، ويُقتفى أثره.

الوصف الثاني: أَنَّهُ كَانَ قَانِتًا: إن إبراهيم عليه السلام كان قانتاً لله، أي مديماً لطاعة الله مخلصاً له العبادة والقانت: هو المطيع الممثل لأمر الله ﷻ، والمجتنب لمعصية الله ﷻ.

أخرج عبد الرزاق بسنده إلى مسروق قال: قرأت عند ابن مسعود ﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِلَّهِ﴾ فقال: إن معاذاً كان أمة قانتاً لله، قال: فأعاد عليه، قال: فأعاد عليهم، ثم قال: أتدرون ما الأمة؟ الذي يعلم الناس الخير، والقانت: الذي يطيع الله ورسوله.

الوصف الثالث: أَنَّهُ كَانَ حَنِيفًا: إن إبراهيم خليل الرحمن كان حنيفاً، أي: مائلاً عن الشرك، مجتنباً له، مخلصاً توحيده وعبادته لله وحده، مقبلاً عليه بالمحبة والإنابة والعبودية، معرضاً عما سواه، لا يميل عن دين الإسلام إلى غيره، ولا يميل عن الحق إلى الباطل.

الوصف الرابع: أَنَّهُ كَانَ مُوَحِّدًا: إن إبراهيم عليه السلام كان موحداً لله غير مشرك به ﴿وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ في قوله وعمله وجميع أحواله، أي: لم يعبد صنماً، ولم يستقسم بالأزلام كما زعموا، ولم يكن من الذين أشركوا مع الله آلهة أخرى في الطاعة والعبادة، بل كان

(١) يُنْظَرُ حَدِيثُ أَنَسٍ عَنْ أَبِي عُبَيْدَةَ فِي الْبَخَارِيِّ (٣٧٤٤، ٤٣٨٢) وَمُسْلِمٍ (٢٤١٩).

حَنِيفًا مَّا تَلَّا عَنْ الْبَاطِلِ، وَعَنِ الشِّرْكِ، وَعَنْ جَمِيعِ الشَّرَائِعِ الْبَاطِلَةِ، كَمَا قَالَ تَعَالَى عَلَى لِسَانِهِ: ﴿إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ حَنِيفًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ [الأنعام] بل كان إمامًا للموحدين الحنفاء.

الْوَصْفُ الْخَامِسُ: أَنَّهُ كَانَ شَاكِرًا لِأَنْعُمِ اللَّهِ

١٢١- ﴿شَاكِرًا لِأَنْعُمِهِ آجِنَهُ﴾

أعطى الله إبراهيم في الدنيا حسنة وفي الآخرة حسنة، وأنعم عليه بنعم ظاهرة وباطنة، فقام بشكرها خير قيام، ومن ذلك إن إبراهيم كان لا يأكل إلا مع ضيف، وإذا لم يأت إليه ضيف ربما طوى بطنه أيامًا حتى يأتيه ضيف، وربما مشى الأميال على قدميه لمقابلة الضيف.

ورد أن الله تعالى ابتلى إبراهيم عليه السلام في كرمه، وشكره لربه، فأرسل له ملائكة في صورة بشر كأن بهم مرض الجذام، فلم يمنعه هذا من ضيافتهم، ومؤاكلتهم قائلاً: الآن وجبت مؤاكلتكم شكرًا لله تعالى على أن عافاني وابتلاكم^(١).

الْوَصْفُ السَّادِسُ: اصْطَفَاهُ اللَّهُ لِإِبْرَاهِيمَ: إن الله تعالى اجتبه، أي: اصطفاه لخلته واختاره للنبوّة والرسالة، وجعله إمامًا يقتدى به ﴿قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا﴾ [البقرة: ١٢٤] وقد اختاره ربه ليكون أبًا للأنبياء، من سلالة العرب وسلالة بني إسرائيل، وجعله من صفوة خلقه وعباده المقربين.

الْوَصْفُ السَّابِعُ: الْاهْتِدَاءُ إِلَى أَقْوَمِ الطَّرِيقِ: ﴿وَهَدَيْنَاهُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾

وإبراهيم عليه السلام هو أول من اختن، وضحّى، وأقام مناسك الحج، وقد حبيه الله سبحانه لجميع خلقه، فكل منهم يدّعي أنه على دينه. إن الله تعالى هداه إلى صراط مستقيم، هو دين الإسلام، دين التوحيد ﴿هُوَ سَعْنُكُمْ الْمُسْلِمِينَ مِنْ قَبْلُ وَفِي هَذَا﴾ [الحج: ٧٨] ﴿إِذْ قَالَ لَوْ رُبُّهُ أَسْلَمْتُ قَالَ أَسْلَمْتُ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [البقرة: ١٣٠]. فكان إبراهيم عالمًا عاملاً، علم الحق وعمل به.

قال تعالى: ﴿قُلْ إِنِّي هَدَيْتُ رَبِّيَ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ دِينًا قِيَمًا نَّالَهُ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ [الأنعام].

(١) من «تفسير النسفي» للآية.

(٢) قرأ خلف عن حمزة بإشمام الصاد صوت الزاء في (صراط)، وقرأ قبل ورويس بالسین، وقرأ الباقون بالصاد.

الْوَصْفُ الثَّامِنُ: الثَّنَاءُ الْجَمِيلُ عَلَيْهِ فِي الدُّنْيَا

١٢٢- ﴿وَأَتَيْنَهُ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَإِنَّمَا فِي الْآخِرَةِ لَمِنَّ الصَّالِحِينَ﴾ ﴿١٢٢﴾

جاء في قوله تعالى: ﴿وَأَتَيْنَهُ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً﴾ أَنَّ حَسَنَةَ الدُّنْيَا لإبراهيم هي: الثناء الجميل عليه، والذكر الحسن من أهل الشرائع جميعاً إلى يوم القيامة، ونحن في صلاتنا وعبادتنا نجد أن الله سبحانه قرَن الصلاة على إبراهيم، بالصلاة على محمد ﷺ في التشهد، فأنت تقول في صلاتك في كل ركعتين: «اللهم صلِّ على محمد، وعلى آل محمد كما صليت على إبراهيم وعلى آل إبراهيم، وبارك على محمد، وعلى آل محمد كما باركت على إبراهيم وعلى آل إبراهيم»... وهكذا.

فكل مسلم يصلي على إبراهيم ﷺ في صلاته، كما يصلي على محمد ﷺ في صلاته، فهذا ذكر وثناء حسن على إبراهيم، إلى يوم لقاء رب العالمين.

والحسنة في الدنيا أيضاً راحة العيش، وهناءة البال، والزوجة الحسنة، والذرية الصالحة، واطمئنان القلب، والصحة والسلامة، وطول العمر على الصلاح وسعة الرزق الكافي، كما قال تعالى: ﴿وَمِنْهُمْ مَّنْ يَقُولُ رَبَّنَا إِنَّا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةٌ﴾ [البقرة: ٢٠١].

الْوَصْفُ التَّاسِعُ: أَنَّهُ مِنْ أَصْحَابِ الدَّرَجَاتِ الرَّفِيعَةِ فِي أَعْلَى الْجَنَّاتِ:

هذا الوصف ﴿وَإِنَّمَا فِي الْآخِرَةِ لَمِنَّ الصَّالِحِينَ﴾ تمام الاستقامة وثمرتها، وكان إبراهيم عليه السلام قد دعا ربه بقوله: ﴿رَبِّ هَبْ لِي حُكْماً وَالْحَقْنِي بِالصَّالِحِينَ﴾ ﴿٨٣﴾ وَاجْعَلْ لِي لِسَانَ صِدْقٍ فِي الْآخِرِينَ ﴿٨٤﴾ [الشعراء] وهو من أصحاب الدرجات الرفيعة في أعلى الجنات وهذا معنى ﴿وَإِنَّمَا فِي الْآخِرَةِ لَمِنَّ الصَّالِحِينَ﴾.

أي أنه يحشر في زمرة النعم، وينال أفضل النعيم جزاءً وفاقاً على صلاحه وهدايته في الدنيا.

الْوَصْفُ الْعَاشِرُ: أَمْرُ سَيِّدِ الْخَلْقِ بِاتِّبَاعِ أَصُولِ مِلَّةِ إِبْرَاهِيمَ وَفُرُوعِهَا

١٢٣- ﴿ثُمَّ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ أَنِ اتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ ﴿١٢٣﴾

ومن أعظم فضائل إبراهيم عليه السلام أن الله تعالى أوحى إلى سيد الخلق ﷺ أن يتبع ملة إبراهيم ويقبض به.

هذا: ولما وصف الله تعالى إبراهيم عليه السلام بهذه الصفات الشريفة العالية، أمر الله ﷻ نبيه محمداً ﷺ مع علو درجته، وسمو منزلته، وكونه سيد ولد آدم، أن يتبع أصول ملة إبراهيم في عقيدة التوحيد، وأصول الدين الثابتة في جميع الشرائع، ومنها كثير من سنن الفطرة، والتوسط بين اللين والشدّة، وهذا من جملة الحسنات التي آتاها الله إبراهيم، قال تعالى: ﴿وَمَا جَعَلْ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ﴾ [الحج: ٧٨]

كما أمر النبي ﷺ أن يتبع ملة إبراهيم في كثير من الفروع الشرعية، مثل الختان وخصال الفطرة، وهذه الفروع تختلف من شريعة إلى أخرى، وفق مقتضيات أحوال البشر وتربيتهم على أيدي الرسل، فقد أمرناك - يا محمد - أن تتبع دين الإسلام، كما اتبعه إبراهيم، وأن تستقيم عليه، ولا تحذ عنه؛ فإن إبراهيم لم يكن من المشركين، كما قال تعالى: ﴿قُلْ إِنِّي هَدَىٰ رَبِّي إِلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ دِينًا قِيَمًا مِّلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ [الأنعام: ٩٠]. وقال سبحانه عن رسل الله جميعاً: ﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ هَدَىٰ اللَّهُ فَيُهْدِيهِمْ أَفْتَدَىٰ﴾ [الأنعام: ٩٠].

عن عبد الله بن عمرو رضي الله عنه قال: صلى جبريل بإبراهيم، الظهر والعصر بعرفات، ثم وقف حتى إذا غابت الشمس دفع به، ثم صلى المغرب والعشاء بجمع، ثم صلى به الفجر كأسرع ما يصلي أحد من المسلمين، ثم وقف به، حتى إذا كان كأبطأ ما يصلي أحد من المسلمين، دفع به، ثم رمى الجمرة، ثم ذبح وحلق، ثم أفاض به إلى البيت فطاف به، فقال الله لنبيه: ﴿ثُمَّ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ أَنْ اتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ (١).

وقد وصف الله إبراهيم عليه السلام في الآية السابقة بقوله: ﴿وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ ووصفه في هذه الآية بقوله: ﴿وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾؛ ليؤخذ منهما ثلاث فوائد:

أولاً: نفي الشرك عن إبراهيم في الماضي.

ثانياً: تجدد واستمرار نفي الشرك عنه.

ثالثاً: براءته من الشرك براءة تامة.

وعلم من هذا أن دين الإسلام منزّه عن أن تتعلق به شوائب الشرك، فقد سدّ القرآن

(١) أخرجه ابن أبي شيبة في «المصنف» الجزء الأول ص ٣٧٤ والبيهقي في «شعب الإيمان» (٤٠٧٥، ٤٠٧٦).

منافذ الشرك بصراحة أقواله وفصاحة بيانه، فلم نجد في الإسلام وَصَفَ النبوة مثلاً كما زعم اليهود في قولهم: عزيز ابن الله، ولا كما زعم النصارى في قولهم: عيسى ابن الله. وقد أشار النبي ﷺ إلى هذا المعنى في قوله في حجة الوداع كما جاء في حديث جابر رضي الله عنه: «إن الشيطان قد يئس أن يعبد في أرضكم هذه أبداً، ولكنه قد رضي أن يطاع فيما سوى ذلك مما تحقرون من أعمالكم، فاحذروه على دينكم»^(١).

فاتباع النبي ﷺ ملة إبراهيم، كان بالقول والعمل، وفق أصول الشريعة بإثبات التوحيد ونفي الشرك، وما تقتضيه سنن الفطرة، وسائر ما أوحى الله به إلى نبيه من الحنيفية السمحة.

قال تعالى مقررًا أن إبراهيم عليه السلام كان حنيفًا مسلمًا، ولم يكن يهوديًا، ولا نصرانيًا، ومُبتلاً مزاعمهم في اتباعهم له، وكونهم على دينه، فقال تعالى: ﴿يَتَأَهَّلَ الْكَتَبِ لِمَ تُحَاجُّونَ فِي إِبْرَاهِيمَ وَمَا أُنْزِلَتِ التَّوْرَةُ وَالْإِنْجِيلُ إِلَّا مِنْ بَعْدِهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ (١٥) هَآأَنْتُمْ هَآؤُلَآءِ حَبَجْتُمْ فِيمَا لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ فَلِمَ تُحَاجُّونَ فِيمَا لَيْسَ لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ (١٦) مَا كَانَ إِبْرَاهِيمَ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَكِنْ كَانَتْ حَنِيفًا مُسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ (١٧) إِنَّ أَوَّلَى النَّاسِ بِإِبْرَاهِيمَ لَلَّذِينَ اتَّبَعُوهُ وَهَذَا النَّبِيُّ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُؤْمِنِينَ (١٨) [آل عمران].

تَعْظِيمُ يَوْمِ السَّبْتِ عِنْدَ الْيَهُودِ

١٢٤- ﴿إِنَّمَا جُعِلَ السَّبْتُ عَلَى الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ (١٢٤)

أي إنما جعل الله تعظيم يوم السبت بعدم العمل فيه، فرضاً على اليهود، حين ضلوا عن يوم الجمعة واختلفوا فيه، فصار اختلافهم سبباً لتعظيمه واحترامه عندهم، وإلا فالفضيلة الحقيقية ليوم الجمعة الذي هدى الله إليه هذه الأمة.

ولما كان اليهود مخالطين للعرب في بلادهم، وكان أهل مكة يتصلون بهم في أسفارهم وأسواقهم، بخلاف النصارى، فقد كانوا غير مخالطين لهم، وكان اليهود يزعمون أنهم على ملة إبراهيم.

(١) يُنْظَرُ «صحيح مسلم» برقم (٢٨١٢).

لذا بيّن ﷺ أن اليهود لم يكونوا على الحنيفة، ملة إبراهيم، ومن ذلك خروجهم عن دينه، باختيار يوم السبت؛ لتعظيمه بالعبادة، ومنع العمل فيه.

فبيّن سبحانه أن ما فرض على اليهود من تعظيم يوم السبت، وحُرمة الاصطياد فيه، بعد إعراضهم عن يوم الجمعة، كان عقوبة من الله لهم على مخالفتهم هُذي نبيهم موسى ﷺ كما أوضح ذلك النبي ﷺ في حديث أبي هريرة وحذيفة رضي الله عنهما قالا: قال رسول الله ﷺ: «أضل الله عن الجمعة من كان قبلنا، فكان لليهود يوم السبت، وكان للنصارى يوم الأحد، فجاء الله بنا، فهدانا الله ليوم الجمعة، فجعل الجمعة والسبت والأحد، وكذلك هم تبع لنا يوم القيامة، نحن الآخرون من أهل الدنيا، والأولون يوم القيامة، والمقضي بينهم قبل الخلائق»^(١).

وعن أبي هريرة رضي الله عنه أنه سمع النبي ﷺ يقول: «نحن الآخرون السابقون يوم القيامة، بيد أنهم أوتوا الكتاب من قبلنا، وأوتينا من بعدهم، وهذا يومهم الذي فرض الله عليهم، فاختلفوا فيه، فهدانا الله له، فهم لنا فيه تبع، فاليهود غداً، والنصارى بعد غد»^(٢).

فالتحريم الخاص بيوم السبت ليس من ملة إبراهيم ﷺ، وليس من ملة محمد ﷺ، إنما هو تحريم خاص باليهود عقوبة لهم، وتعظيم يوم الجمعة أدّخره الله للملة الإسلامية؛ لقول النبي ﷺ: «فهدانا الله إليه» أي: بعد أن ضل عنه اليهود والنصارى.

وإنما جعل الله تعظيم يوم السبت على الذين اختلفوا فيه على نبيهم، فكل أمة من الأمم جعل الله ﷻ لهم يوماً يجتمعون فيه لعبادته، فأمر موسى قومه أن يتخذوا يوم الجمعة ويخصّوه بالعبادة فأبوا، وقالوا: لا نريد يوم الجمعة، ونريد يوم السبت؛ لأنه اليوم الذي تفرغ الله فيه من الخلق - على حد زعمهم - فنحن نريد أن نوافق الله - سبحانه - في عدم العمل في هذا اليوم، فهم يزعمون أن الله تعالى يعمل ويتعب ويستريح، وأنه لم يخلق شيئاً في يوم السبت، فجعل لهم يوم السبت وألزمهم الله به إلزاماً قوياً، ووصاهم

(١) رواه مسلم برقم (٨٥٦) وهذا لفظه، وأخرجه أحمد بنحوه في «المسند» برقم (٧٢١٤، ٧٣١٠). قال محققوه: حديث صحيح بإسناد حسن ورجال ثقات.

(٢) البخاري برقم (٨٧٦، ٨٩٦، ٣٤٨٦، ٦٦٢٤) ومسلم برقم (٨٥٥) وهذا لفظه وأخرجه الشافعي في «الأم» (١/١٨٨).

أن يتمسكوا به، ويحافظوا عليه ونهاهم عن الاعتداء فيه كما قال تعالى: ﴿وَقُلْنَا لَهُمْ لَا تَعْدُوا فِي السَّبْتِ وَأَخَذْنَا مِنْهُمْ مِيثَاقًا غَلِيظًا﴾ [النساء: ١٥٤] ثم شدد الله عليهم فيه، فمنعهم من العمل والصيد فيه، وابتلاهم الله بالحيثان تَطْفُو على وجه الماء في يوم السبت ابتلاء لهم.

- ١- فكان منهم من اصطاد في يوم السبت مخالفاً بذلك ما حرمه الله عليهم .
 - ٢- ومنهم من احتال فحجز السمك في الشبك إلى الليلة التي بعدها؛ حتى يصطاده فعلاً في يوم الأحد .
 - ٣- وكان منهم من نهى الذي يصطاد عن الصيد في يوم العبادة .
 - ٤- ومنهم من سكت .
- فكانت عقوبة الله تعالى لهم أن مسخهم قردة وخنازير، كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ الَّذِينَ اعْتَدَوْا مِنْكُمْ فِي السَّبْتِ فَقُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ﴾ [البقرة: ١٧٥] فتعظيم يوم السبت، وتحريم العمل فيه خاص باليهود الذين ضلوا عن يوم الجمعة أفضل الأيام، ففيه تمام الخلق وكماله .
- ويوم القيامة يحكم الله بين اليهود الذين اختلفوا على نبيهم، واختاروا يوم السبت؛ لتعظيم العبادة فيه بدل يوم الجمعة الذي أمرهم الله به، ويجازي كلاً منهم بما يستحقه .
- وفي زمن قسطنطين تحوّل النصارى إلى يوم الأحد لمخالفة اليهود، كما تحولوا في الصلاة إلى جهة الشرق .
- والله سبحانه وتعالى سوف يحكم في هذه القضية وغيرها يوم لقائه، فيُظهر المحق من المبطل، والمستحق للثواب ممن يستحق العقاب .

أَسَالِيبُ الدَّعْوَةِ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى ثَلَاثَةٌ

١٢٥- ﴿ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَحَدِّ لَّهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ﴾ (١٢٥)

يوجّه الله رسوله ﷺ، ويوجّه الدعاة إلى الله تعالى، والهداة والمرشدين في كل زمان ومكان، إلى المنهج الصحيح في الدعوة:

ادع -أيها الرسول- أنت ومن تبعك إلى دين ربك بالحكمة، أي: بالمقالة الصحيحة، والمعرفة، والأسلوب الحسن بالدليل القطعي اليقيني، وبالحجة، والإقناع، وادع إلى دين

ربك بالنصيحة الحسنة، وبالتحذير من الشر والتنفير منه، والترغيب في الخير، وهذه هي الموعظة الحسنة، وهكذا أمر الله موسى في دعوته لفرعون: ﴿فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لِّئِنَّا لَعَلَّمُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى﴾ [طه]، فالحكمة لطائفة من الناس، والموعظة الحسنة لطائفة أخرى. فالناس أنواع:

١- منهم العالم الذي يريد دليلاً مقنعاً، قطعيّ الثبوت والدلالة، موصّلاً إلى الحقيقة العلمية، فهو يحتاج إلى الحكمة، ومراعاة مقتضى الحال، ومن الحكمة: الدعوة بالعلم لا بالجهل، والبدء بالأهم فالهم، وبالأقرب للفهم والذهن، وبالرفق واللين، وما يكون قبوله أوقع وأتم.

٢- ومنهم غير العالم صاحب الفطرة الصحيحة السليمة، الذي تنفع فيه الموعظة، والكلمة الطيبة بالترغيب والترهيب الذي يلين القلب بالطرق الحكيمة، ومنها الأمر والنهي المقرون بالترغيب والترهيب، وما تشتمل عليه من المنافع والمضار، وما أعدّه الله للطائعين من الثواب العاجل والآجل، وما أعدّه للعصاة من العقاب العاجل والآجل، وهكذا، ووُصِفَت الموعظة بالحسنة؛ لأن المقصود منها -غالبًا- ردع نفس الموعوظ عن أعماله السيئة، أو ما يتوقع منه.

ولأن الوعظ ثقيل على النفوس، يحتاج إلى لطف ورقة، لا إلى جفاء وغلظة، قال تعالى مخاطباً موسى وهارون: ﴿أَذْهَبَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَىٰ﴾ [١٣] ﴿فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لِّئِنَّا لَعَلَّمُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى﴾ [طه].

وفي حديث العرياض بن سارية رضي الله عنه قال: وعظنا رسول الله ﷺ موعظة وجلت منها القلوب، وزرفت منها العيون، فقلنا: يا رسول الله كأنها موعظة مودع^(١).

والوعظ يشتمل على الحكمة، والخطابة، والجدل حين يسلك الداعية مسلك الإقناع والبرهان. وقال تعالى: ﴿وَلَا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ﴾ [العنكبوت: ٤٦]

٣- وهناك المجادل المعاند المكابر الذي لا يقبل الحق، ويجادل فيه، وهذا النوع من

(١) الحديث في أبي داود (٤٦٠٧) والترمذي (٢٦٧٦) وقال: حديث حسن صحيح و«المسند» (٤/١٢٦).

الناس جادله بالحسنى ﴿وَحَدِّثْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ أي: بالرفق واللين، وعدم العنف، أو الغلظة والفظاظة من أهل الكتاب، ومن الملحدين والمجادلين والمكابرين، وذلك بإبطال حججهم ونقض دعواهم، وهم في هذا أنواع:

فمنهم من يلين الله قلبه، ويهديه للطريق القويم، ومنهم من لا تفيد فيه موعظة.

فإن ألبأتك الدعوة إلى محاجة غير المسلمين فجادلهم بالتي هي أحسن، والمجادلة لا تكون إلا مع المعارضين والظالمين منهم حيث يُقابلون بما يناسبهم.

ومنهم من لا تلين له قناة، كما جاء في الحديث أن النبي ﷺ قرأ القرآن على الوليد بن المغيرة، ثم قال له: «هل ترى بما أقول بأساً؟»، قال: لا. ^(١) ولكنه لم يُسلم.

وقرأ النبي ﷺ القرآن على عبد الله بن أبيّ فقال: إن كان ما تقوله حقاً، فاجلس في بيتك فمن جاءك فحدّثه، ولا تأتينا في مجالسنا بما نكره.

ولمّا وُضع السيف على عنق سيد بني قريظة التفت إلى النبي ﷺ، وقال: والله ما لمتُ نفسي في عداوتك يوماً، فقد آثر الموت على قبول الإسلام، وهذا صنف ثالث من البشر، وهذه ثلاثة طرق من أساليب الدعوة إلى الله تعالى، وهي:

١- الدعوة بالحجة اليقينية والدلائل القطعية.

٢- والدعوة بالترغيب والترهيب عن طريق الموعظة الحسنة.

٣- والدعوة بإقامة البراهين المفحمة للخصم بإبطال زعمه، وتصويب خطئه.

فمن الناس من يكون علاجه بالمقالة المحكمة الدقيقة.

ومنهم من يكون علاجه بهزّ المشاعر، وتحريك الوجدان، وإثارة العواطف.

ومنهم من يكون علاجه بالحوار، والمناقشة، والمناظرة، والجدال الحسن.

ومنهم من لا يفيد فيه الجدال الحسن، فيعامل بما يردعه ويصدّه.

وذلك لاختلاف مراتب الناس، وأفهامهم، واستعداداتهم لقبول الحق، أو رفضه.

(١) ينظر موطأ الإمام مالك (٢٠٣/١) برقم (٤٧٦) عن هشام بن عروة عن أبيه.

وقد طبق النبي ﷺ هذه الأساليب في دعوته لأصناف الناس، حسبما يقتضيه حال المخاطبين من خاصة وعامة، ومنكرين وغير منكرين، ولا يلزم أن يكون الكلام الواحد مشتملاً على هذه الأساليب الثلاثة، فقد تشتمل الحكمة على الموعظة والوعيد، مع وضوح الدليل وإزالة الشبهة، ووضع الأمور في نصابها، كما قال تعالى: ﴿يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَن يَشَاءُ وَمَن يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا﴾ [البقرة: ٢٦٩].

وقد جمعت هذه الآية أصول الاستدلال العلمي الحق، وهي: البرهان، والخطابة، والجدل، وكل ذلك يرجع إلى الموعظة الحسنة الموجهة إلى أكثر الناس في المجتمع كله.

وبعد النصح الحسن، ومخاطبة الناس بما يناسب كلاً منهم، وترغيبهم في الخير، وتنفيرهم من الشر، ومجادلتهم بالرفق واللين، فما عليك - أيها الداعية - إلا البلاغ، وربك أعلم بمن ضل عن سبيله ومن اهتدى.

ويجب على من يتصدى للدعوة إلى الله تعالى أن يتزود - إلى جانب ثقافته الدينية الواسعة - بالكثير من العلوم الأخرى؛ كعلوم النفس، والاجتماع، والتاريخ، والسياسة، والاقتصاد، وطبائع الأفراد والأمم؛ فإن ذلك أنجع في معالجة مختلف أحوال الناس وجميع الأمور.

ولما كانت لغات العالم متعددة، وعلماء الإسلام منوط بهم تبليغ دعوة الله تعالى إلى الخلق جميعاً، فلا بُدَّ لكل عالم من علماء الإسلام أن يجيد ولو لغة واحدة على الأقل من لغات العالم تحدثاً وكتابة؛ ليستطيع تبليغ المعلومة الصحيحة إلى من يدعوهم من غير الناطقين بالعربية، ولا بُدَّ من الانتفاع بالقنوات الفضائية، وشبكة المعلومات، والاتصال الشخصي، وسائر وسائل الإعلام وما يجدر منها.

وقد ختم الله الآية ببيان أن الهداية من الله وحده، فهو الذي يملك خلقها في نفوس العباد، وهو سبحانه الذي يعلم أحوال خلقه من سعادة وشقاء، وهداية وضلال، وهو أعلم بمن ضل من خلقه عن صراطه المستقيم، وسيجازي كلاً بما يستحق من الثواب والعقاب، ومهمة الرسل والدعاة إلى الله تعالى هي البلاغ والنصح والإرشاد، ومن الناس من ينتفع ويهتدي، ومنهم من لا ينتفع ولا يهتدي، فلا تيأس من دعوتهم، ولا تحزن على عدم هدايتهم.

الْعَدْلُ وَالْفَضْلُ فِي الْعِقَابِ

١٢٦- ﴿وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُمْ بِهِ وَلَئِنْ صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِلصَّابِرِينَ﴾

أي وإن عاقبتم من اعتدى عليكم وأساء إليكم بالقول أو الفعل، فعاقبوا بالمثل، من غير زيادة منكم، وإن عفوتهم عن جرمهم، وصبرتم على أذاهم، فهو خير لكم ﴿فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ﴾ [الشورى: ٤٠]

أي: فإن اعتدى على الدعوة، أو على الدعاة أحد، وهم يبلغون إلى الناس رسالة ربهم، وأردتم القصاص منه، والمعاملة له بالمثل فعاقبوا من اعتدى عليكم بمثل عدوانه من غير زيادة، ولا تجاوز.

قيل: إن هذه الآيات الثلاث الأخيرة من سورة النحل نزلت بالمدينة لما قتل المشركون في غزوة أحد سبعين من المسلمين، وقتلوا حمزة عم رسول الله ﷺ ومثلوا به، وبقرؤا بطنه، فقال أصحاب النبي ﷺ: لو أصبنا مثل هذا اليوم لثربن عليهم، أي: لتزيدن في القتل على هذا العدد، والتمثيل بهم، فأنزل الله هذه الآيات: ﴿وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُمْ بِهِ﴾ من غير زيادة كما قال تعالى: ﴿وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِثْلُهَا﴾ [الشورى: ٤٠] ﴿وَلَئِنْ صَبَرْتُمْ﴾ وهذه درجة أفضل ﴿لَهُوَ خَيْرٌ لِلصَّابِرِينَ﴾ قال النبي ﷺ: «نصبر، ولا نعاقب»^(١).

أخرج الحاكم وغيره بسنده إلى أبي بن كعب ؓ قال: لما كان يوم أحد أصيب من الأنصار أربعة وستون رجلاً، ومن المهاجرين ستة، فمثلوا بهم، وفيهم حمزة، فقالت الأنصار: لئن أصبناهم يوماً مثل هذا لثربن عليهم، فلما كان فتح مكة أنزل الله ﷻ: ﴿وَإِنْ عَاقَبْتُمْ﴾ فقال رجل: لا قريش بعد اليوم، فقال رسول الله ﷺ: «نصبر ولا نعاقب».

(١) يُنظَر: زوائد «المسند» (١٣٥/٥) برقم (٢١٢٢٩) عن أبي بن كعب بإسناد حسن، وقد جاء مثل ذلك في «مسند البزار» برقم (١٧٩٥) في «كشف الأستار» وفي «تفسير الطبري» (١٣٢/١٤) بإسناد ضعيف، وأخرجه الضياء في المختارة (١١٤٤) والترمذي (٣١٢٩) والنسائي في الكبرى (١١٢٧٩).

كفوا عن القوم غير أربعة»^(١).

وفي هذه الآية مشروعية العدل في الجزاء، والندب إلى الفضل، كما في قوله تعالى: ﴿فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ﴾ [الشورى: ٤٠].

وقوله: ﴿وَالْكَاظِمِينَ الْفَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾ [آل عمران: ١٣٤].

الأصل في العقاب هو التماثل:

أخرج البخاري وغيره بسنده إلى أنس بن مالك رضي الله عنه أن يهودياً رضى رأس جارية بين حجرين، فقيل لها: من فعل بك هذا؟ أفلان، أفلان؟ حتى سُمي اليهودي، فأومأت برأسها، فجاء باليهودي فاعترف، فأمر به النبي ﷺ فرضاً رأسه بالحجارة، وقد قال همام: بحجرين^(٢).

ولا يجوز لمن ظلمه رجل في أخذ مال ائتمنه عليه، أن يخونه بمقدار ما أخذ منه، كما لا يجوز خيانة الأمانة في الأعراض بقصد القصاص ممن خانه في عرضه؛ إذ لا ينبغي للمرء أن يقابل السيئة بمثلاً.

والمعنى: وإن أردتم معاقبة من ظلمكم واعتدى عليكم، فعاقبوه بمثل ما فعل بكم ولا تزيدوا عليه؛ فإن في الزيادة حيفاً وظلماً، وإن صبرتم وتركتم مقابلة السيئة بمثلاً فهو خير لكم في الدنيا والآخرة. قال تعالى:

١٢٧- ﴿وَأَصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِاللَّهِ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ^(٣) وَلَا تَكُ فِي ضَيْقٍ^(٤) مِمَّا يَمْكُرُونَ﴾

(١) قال الحاكم: هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه، وأقر الذهبي في «المستدرک» (٣٥٨/٢) وأخرجه الترمذي برقم (٣١٢٩) قال الألباني في «صحيح سنن الترمذي» (٦٧/٣) برقم (٢٥٠١): حسن صحيح الإسناد وقال الترمذي: حديث حسن غريب وأخرجه النسائي برقم (٢٩٩) قال محققه: وإسناده حسن وأخرجه ابن حبان في صحيحه برقم (٤٨٧) الإحسان، قال محققه: وإسناده حسن وأخرجه النسائي في «السنن الكبرى» (١١٢٦٩) والطبراني في «الكبير» (٢٩٣٧) والبيهقي في «الدلائل» (٢٨٩/٣) والضياء في «المختارة» (١١٤٣، ١١٤٤) وعبد الله بن أحمد في «زوائد المسند» (٢١٢٣٠). بإسناد حسن، بدون (غير أربعة).

(٢) «صحيح البخاري» برقم (٦٨٨٤) و«صحيح مسلم» برقم (١٦٧٢).

(٣) قرأ حمزة ويعقوب بضم الهاء من (عليهم)، والباقون بكسرها.

(٤) قرأ ابن كثير بكسر الضاد بعدها ياء مدية في (ضيق)، والباقون بفتح الضاد بعدها ياء ساكنة وهم لغتان في المصدر.

رَغَبَ سبحانه في الصبر على الأذى، والعفو عن أساء، فأمر رسوله ﷺ والدعاة إلى الله بعده أن يصبروا على الأذى في سبيله صبرًا يثبتهم ويُعينهم ويقويهم، حتى يأتيهم الفرج.

وما صَبَرَ الإنسان في حالة من الحالات بِمُؤْتِ ثماره إلا بتوفيق من الله سبحانه؛ فهو الذي يعين العبد ويثبت، فاصبر على من أصابك، وعلى من خالفك ولم يتبعك، ويهتدي بهديك.

فلا تحزن أيها الرسول على من استشهد في غزوة أحد ومنهم عمك، ولا تحزن أيها الداعية إلى الله إذا أعرض عنك الناس، أو نالك منهم الأذى، ولا تغتم من كيد الناس ومكرهم؛ فإن وبال ذلك عائد عليهم، وإن الله تعالى منجّيك من شرورهم، ولن يضع أجرك عند الله على ما يصيبك من أذى؛ فَإِنَّ عِلْمَ ذَلِكَ لا يخفى على الله، وهو الذي يبييك ويجازيك أحسن الجزاء، قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ﴾ (٩٧) ﴿فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَكُنْ مِنَ السَّاجِدِينَ﴾ (٩٨) وَأَعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّى يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ ﴿٩٩﴾ [الحجر].

مِسْكُ الْخِتَامِ

١٢٨- ﴿إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا وَالَّذِينَ هُمْ مُحْسِنُونَ﴾ (١٢٨)

ثم يختم الله سبحانه السورة ببيان أن الله تعالى مع الذين اتقوا الفواحش والكبائر، وسائر المعاصي، وأحسنوا في عبادتهم لله، وأحسنوا إلى خلق الله، وهذه معية خاصة مع المؤمنين المتقين بتأييدهم، وبنصرهم، وبتوفيقهم، فهو سبحانه معهم بهذا المعنى، كقوله تعالى: ﴿إِذْ يُوحَىٰ رَبُّكَ إِلَى الْمَلَائِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ﴾ [الأنفال: ١٢].

وقوله سبحانه لموسى وهارون: ﴿إِنِّي مَعَكُمْ أَسْمَعُ وَأَرَىٰ﴾ [طه: ٤٦].

وقول النبي ﷺ لأبي بكر ؓ: ﴿لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا﴾ [التوبة: ٤٠].

وقال موسى ؑ: ﴿كَلَّا إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ﴾ [الشعراء: ٦٢]

وهذه المعية الخاصة تعني: معية الله تعالى للمؤمنين بالإعانة، وبالنصر، وبالتوفيق والتسديد وبالعون وبالنصر، ومن كان الله معه فلن يضره كيد الكائدين.

وهناك معية عامة لله تعالى مع الخلق كلهم بالإحاطة، وبالعلم التام، وبنفوذ قدر الله

تعالى فيهم، كما قال سبحانه: ﴿هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا﴾ [المجادلة: ٧].

والمتقون المحسنون هم القائمون بفرائض الله تعالى، وحدوده، وشرائعه مع الإحسان في القول والعمل، ولزوم طاعته تعالى وهم يقابلون السيئة بالإحسان. لما نزل الموت بهرم بن حيّان، قالوا له: أوص، قال: أوصيكم بآخر سورة النحل^(١).

تم تفسير (سورة النحل) والله الحمد والمنة.



(١) ابن أبي شيبة (٥٦٢/١٣) وابن سعد (١٣٢/٧) والطبري (٤٠٩/١٤).

الآية	فهرس الم	وحدات	الصفحة
	تفسير سورة يوسف، مقدمة السورة، يوسف عليه السلام نزول السورة: - ابتلاءات يوسف - نبوة يوسف	٥	
	موضوعات سورة يوسف: - حوار السورة يدور حول ثمانى شخصيات - أبطال القصة	٨	
	يوسف في بيت العزيز - يوسف يعبر الرؤيا	٩	
	رحلات إخوة يوسف الأربع إلى مصر - سبب النزول	١٠	
٣-١	تفسير السورة القرآن لسان عربي مبين - أحسن القصص	١٤	
٤	رؤيا يوسف عليه السلام - الرؤيا والحلم - أحاديث في الرؤيا والحلم - نماذج من الرؤي - الأحلام وتغيرها:	١٧	
٥	رؤيا يوسف تبشر بمستقبله وتشير إلى أحداث القصة - أسباب زيادة محبة يعقوب له:	٢٢	
٦	يعقوب يشر يوسف بالرسالة وتأويل الرؤى:	٢٣	
٩-٧	ابتلاء يوسف بخمس محن: إخوته يتآمرون عليه - المحنة الأولى: محنة حسد إخوته وكيدهم له ..	٢٣	
١٠	المحنة الثانية: محنة إلقاء يوسف في الحب	٢٦	
١٤-١١	حوار الإخوة مع أبيهم في شأن يوسف	٢٧	
١٧-١٥	إخوة يوسف يلقونه في الحب ويكذبون على أبيهم	٢٩	
١٨	دعواهم أن الذئب قد أكله	٣١	
١٩	استخراج يوسف من الحب	٣٢	
٢١، ٢٠	المحنة الثالثة: محنة بيع يوسف عبدا رقيقا	٣٣	
٢٢	اضطفاء يوسف عليه السلام	٣٤	
٢٣	المحنة الرابعة: فتنه امرأة العزيز	٣٥	
٢٤	عشره أدلة على عصمة يوسف عليه السلام - مراحل الهم: - معنى البرهان	٣٧	
٢٩ - ٢٥	شق القميص من خلف - شاهد يوسف - موقف العزيز	٤٢	
٣٠	شيوخ خبر امرأة العزيز بين نساء الطبقة المترفة	٤٦	
٣٢، ٣١	إغتراف امرأة العزيز في مجلس النسوة	٤٧	
٣٤، ٣٣	يوسف يلجأ إلى ربو كي يصرف عنه كيد النسوة	٤٩	
٣٥	المحنة الخامسة: محنة دخول يوسف السجن	٥٠	
٣٦	رؤيا السجينين	٥١	
٣٧	يوسف يعرف أهل السجن بنفسه ويدعوهم إلى التوحيد	٥٢	
٣٩، ٣٨	يوسف يبشر مهام الرسالة في السجن	٥٣	
٤٠	تفنيد للعقائد الباطلة والأوهام الفاسدة	٥٤	
٤١	يوسف يعبر رؤيا السجينين	٥٥	
٤٢	يوسف يرسل مظلمته للملك	٥٦	
٤٤، ٤٣	رؤيا ملك مصر	٥٧	
٤٦، ٤٥	السجين الناجي يتذكر وصية يوسف له	٥٩	
٤٩-٤٧	يوسف يفسر رؤيا الملك	٦٠	

الآية	فهرس الموه	وحدات	الصفحة
٤	الْإِثْنَانِ النَّاسِئَةُ وَالْعَاشِيرَةُ: اخْتِلَافُ طَبَقَاتِ الْأَرْضِ وَخَلْقُ النَّجِيلِ صِنَوَانًا وَغَيْرِ صِنَوَانٍ -	١٢٦	١٢٦
٥	وَجُوبُ الْإِيمَانِ بِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَعُقُوبَةُ مُنْكَرِهِ بِلَاثِ عَقُوبَاتٍ: أَنَّهُمْ كَفَرُوا	١٢٩	١٢٩
١٣١	الثاني: أَنَّهُمْ يَسْأَلُونَ إِلَى جَهَنَّمَ فِي السَّلَاسِلِ وَالْأَغْلَالِ - الثالث: أَنَّهُمْ يَخْلُدُونَ فِي النَّارِ	١٣١	١٣١
٦	- اللَّهُ تَعَالَى لَا يُعَاجِلُ بِالْعُقُوبَةِ: فِي الدُّنْيَا مَنْ كَذَّبَ خَاتَمَ الرُّسُلِ ﷺ	١٣٢	١٣٢
٧	الْإِثْنَانُ بِخَوَارِقِ الْعَادَاتِ لَا يُحَقِّقُ إِيْمَانًا	١٣٤	١٣٤
١٠-٨	مِنْ دَقَائِقِ عِلْمِ الْأَجْنَةِ - عِلْمُ اللَّهِ تَعَالَى بِمَا غَابَ وَمَا شُوهِدَ	١٣٥	١٣٥
١١	مُرَاقِبَةُ اللَّهِ لِأَعْمَالِ الْعِبَادِ وَسُتَّةٌ فِي تَغْيِيرِ أَحْوَالِهِمْ - سَنَةُ اللَّهِ فِي خَلْقِهِ لَا تَغْيِيرَ - أَحَادِيثُ - لَا مَرَدَّ لِلْقَضَاءِ الْمَبْرُورِ	١٤٢	١٤٢
١٢	خَمْسٌ مِنَ الظَّوَاهِرِ الْكَوْنِيَّةِ الدَّالَّةِ عَلَى عَظِيمِ قُدْرَةِ اللَّهِ تَعَالَى - الظَّاهِرَةُ الْأُولَى: ضَوْءُ الْبَرَقِ	١٤٧	١٤٧
١٤٨	الظَّاهِرَةُ الْكَوْنِيَّةُ الثَّانِيَةُ: خَلْقُ السَّحَابِ الْمُحْمَلِ بِالْمِيَاهِ	١٤٨	١٤٨
١٣	الثَّالِثَةُ: تَنْسِيحُ الرُّغْدِ - الرَّابِعَةُ: تَنْسِيحُ الْمَلَائِكَةِ - الْخَامِسَةُ: أَنْزَالُ الصَّوَاعِقِ الْمُحْرِقَةِ	١٤٩	١٤٩
١٤	مَنْ يَتَوَجَّهْ بِعِبَادَتِهِ لِغَيْرِ اللَّهِ كَمَنْ يُمْسِكُ الْمَاءَ بِأَصَابِعِهِ الْمُتَفَرِّجَةِ	١٥٣	١٥٣
١٥	كُلُّ مَنْ فِي الْكَوْنِ يَخْضَعُ لِلَّهِ تَعَالَى طَوْعًا أَوْ كَرْهًا	١٥٥	١٥٥
١٦	أَرْبَعَةُ أَدِلَّةٍ عَلَى بُطْلَانِ عِبَادَةِ الْمُشْرِكِينَ	١٥٧	١٥٧
١٧	مَثَلُ الْحَقِّ وَمَثَلُ الْبَاطِلِ - الْمَثَلُ الْأَوَّلُ مَضْرُوبٌ بِالْمَاءِ وَمَا يَلْعُوهُ مِنْ رَغْوَةٍ	١٦١	١٦١
١٦٣	وَالْمَثَلُ الْآخَرُ مَضْرُوبٌ بِالْمَعَادِنِ النَّقِيَّةِ وَزَيْدِهَا	١٦٣	١٦٣
١٨	عَاقِبَةُ أَهْلِ الْحَقِّ وَعَاقِبَةُ أَهْلِ الضَّلَالِ	١٦٦	١٦٦
١٩	لَا يَسْتَوِي مَنْ يَعْرِفُ الْحَقَّ بِمَنْ هُوَ أَعْمَى عَنْهُ	١٦٧	١٦٧
٢٠	تِسْعُ صِفَاتٍ لِأُولِي الْأَلْبَابِ، الْأُولَى: ﴿الَّذِينَ يُؤْتُونَ بِهَدْيِ اللَّهِ﴾ الثَّانِيَةُ: ﴿وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَفِيَ﴾	١٦٨	١٦٨
٢١	الثَّالِثَةُ: صَلَوةُ الْأَرْحَامِ وَنَحْوُهَا - الرَّابِعَةُ: ﴿وَيَحْتَشِرُونَ رَبَّهُمْ﴾ الْخَامِسَةُ: ﴿وَيَحْفَظُونَ سَوَاءَ الْحِسَابِ﴾	١٧٠	١٧٠
٢٢	الْصِفَةُ السَّادِسَةُ: الصَّبْرُ ابْتِغَاءَ وَجْهِ اللَّهِ - خَمْسَةُ أَنْوَاعٍ مِنَ الصَّبْرِ - السَّابِعَةُ: ﴿وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ﴾	١٧٢	١٧٢
٢٤، ٢٣	الثَّامِنَةُ: ﴿وَأَقْفُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ رِيزًا وَعَلَّانِيَةً﴾ التَّاسِعَةُ: ﴿وَيَذَرُونَ الْمَسَّةَ الْأَمَّ﴾	١٧٤	١٧٤
٢٥	حُسْنُ الْجَزَاءِ لِمَنْ اتَّصَفَ بِالصِّفَاتِ التَّاسِعَةِ	١٧٥	١٧٥
٢٦	ثَلَاثُ صِفَاتٍ لِأَهْلِ الشَّقَاءِ وَيَبَيِّنُ سُوءَ عَاقِبَتِهِمْ - الْوَصْفُ الْأَوَّلُ: أَنَّهُمْ يَقْضُونَ الْعَهْدَ	١٧٨	١٧٨
٢٦	الْوَصْفُ الثَّانِي: ﴿وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ﴾ - الْوَصْفُ الثَّالِثُ: ﴿وَيُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ﴾	١٧٩	١٧٩
٢٧	جَحْمَةُ اللَّهِ تَعَالَى فِي بَسْطِ الرِّزْقِ لِلْكَافِرِ	١٨٠	١٨٠
٢٧	ضَلَالُ الْمُعَانِدِينَ وَهَدَايَةُ الْمُتَّبِعِينَ	١٨٢	١٨٢
٢٩، ٢٨	عِلَاجُ الْقَلْقِ وَالْاِكْتِسَابِ	١٨٤	١٨٤
٣٠	مُحَمَّدٌ خَاتَمُ الرُّسُلِ وَمُعْجَزَتُهُ صَالِحَةٌ إِلَى قِيَامِ السَّاعَةِ	١٨٦	١٨٦
٣١	الْقُرْآنُ هُوَ الْمَعْجَزَةُ الْكُبْرَى - سَبَبُ النُّزُولِ:	١٨٨	١٨٨
٣٢	وَعِيدُ الْمُكَذِّبِينَ بِخَاتَمِ الرُّسُلِ ﷺ	١٩١	١٩١
٣٣	مِنْ الْأَدِلَّةِ السَّاطِعَةِ عَلَى وَحْدَانِيَةِ اللَّهِ تَعَالَى: نَفْيُ الْمُمَازَلَةِ بَيْنَ الْحَالِيِّ وَالْمَحْلُوقِ	١٩٣	١٩٣
٣٥، ٣٤	الْخَاتَمَةُ الْأَلِيمَةُ لِغَيْرِ الْمُؤْمِنِ وَنَعِيمُ أَهْلِ الْإِيمَانِ - مِنْ أَحَادِيثِ الْجَنَّةِ وَنَعِيمِهَا	١٩٦	١٩٦

الآية	فهرس المـ ووجـ وعات	الصفحة
٣٦	مَوْفَقُ أَهْلِ الْكِتَابِ مِنَ الْقُرْآنِ	١٩٩
٣٧	التَّحْذِيرُ مِنْ اتِّبَاعِ طَرِيقِ الْيَهُودِ وَالنَّصَارَى	٢٠٣
٣٨	مِنْ شُبُهَاتِ الْمُكَذِّبِينَ لِلرَّسَالَةِ: ١- الزواج والدرية، ٢- والآيات الحسية والرد عليهما	٢٠٤
٣٩	الْمَخُوفُ وَالْإِتْبَاطُ - أحاديث في المعنى	٢٠٦
٤٠	عَذَابُ الْكُفَّارِ حَاصِلٌ فِي الدُّنْيَا أَوِ الْآخِرَةِ أَوْ فِيهِمَا مَعًا	٢١٢
٤٢، ٤١	تَقْصَانُ الْأَرْضِ مِنْ أَطْرَافِهَا	٢١٣
٤٣	شَهَادَةُ اللَّهِ تَعَالَى وَشَهَادَةُ أَهْلِ الْكِتَابِ عَلَى صِدْقِ الرِّسَالَةِ	٢١٥
١١٨	تَفْسِيرُ سُورَةِ إِيزَاهِيم - مُقَدِّمَةُ السُّورَةِ - العنصر الأول: جانب العقيدة والتوحيد:	٢١٨
٢١٩	والعنصر الثاني: جانب الرسالة والوحي: - والعنصر الثالث: هو جانب اليوم الآخر:	٢١٩
٢، ١	تَفْسِيرُ السُّورَةِ - فَاتِحَةُ السُّورَةِ - الْكَافِرُ لَا يَضُرُّ إِلَّا نَفْسَهُ	٢٢١
٣	وَضُفُّ الْكَافِرِينَ بِأَرْبَعِ صِفَاتٍ	٢٢٢
٤	الْعَرِيَّةُ هِيَ اللِّسَانُ الْمُخْتَارُ لِلرَّسَالَةِ الْآخِرَةِ	٢٢٤
٥	مُوسَى ﷺ يُذَكِّرُ قَوْمَهُ بِنِعَمِ اللَّهِ وَيَقِيمُوهُ	٢٢٨
٦	مِنْ نِعَمِ اللَّهِ عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ نَجَاتُهُمْ مِنْ فِرْعَوْنَ	٢٣٠
٧	الشُّكْرُ يَزِيدُ التَّعَمُّ وَعَدَمُ الشُّكْرِ كُفْرٌ بِهَا	٢٣١
٩، ٨	ضَرَرُ الْكُفْرِ يَعُودُ عَلَى قَاعِلِهِ - الْاِغْتِيَارُ بِمَا حَلَّ لِلْأُمَمِ الَّتِي كَذَّبَتْ رُسُلَهَا	٢٣٢
١٠	الْجَوَارُ بَيْنَ الرُّسُلِ وَالْأُمَمِ الْمُكَذِّبَةِ لَهُمْ	٢٣٥
١٢، ١١	الْتِمَاطُ الْبَشَرِيُّ لَا يَمْنَعُ التَّقَاضُلَ بِالنَّبِوَةِ	٢٣٦
١٥-١٣	وَعِيدُ اللَّهِ تَعَالَى لِمَنْ كَذَّبَ رُسُلَهُ	٢٣٨
١٧، ١٦	شَرَابُ أَهْلِ النَّارِ وَطَعَامُهُمْ	٢٤٢
١٨	الْكَافِرُ لَا يَقْبَلُ مِنْهُ عَمَلٌ صَالِحٌ	٢٤٤
٢٠، ١٩	قُدْرَةُ اللَّهِ تَعَالَى عَلَى اسْتِثْصَالِ الْكُفَّارِ	٢٤٦
٢١	تَلَاوُمُ أَهْلِ النَّارِ وَمَرَاجِلُهُ	٢٤٩
٢٣، ٢٢	خُطْبَةُ الشَّيْطَانِ الْبِتْرَاءِ وَمَصِيرُ الْكَافِرِ وَالْمُؤْمِنِ	٢٥٢
٢٦-٢٤	مَثَلُ الْمُؤْمِنِ وَمَثَلُ الْكَافِرِ	٢٥٦
٢٧	حُسْنُ الْخَاتِمَةِ وَسُوءُ الْخَاتِمَةِ - جملة من الأحاديث	٢٦١
٣٠-٢٨	سُوءُ خَاتِمَةٍ مَنْ كَفَرَ بِنِعْمَةِ الْإِسْلَامِ	٢٦٦
٣١	وَاجِبُ الْمُسْلِمِ تَجَاهَ رَبِّهِ وَتَجَاهَ وَطَنِهِ	٢٦٩
٣٢	تَسْنَعُ مِنْ نِعَمِ اللَّهِ تَعَالَى فِي الْكَوْنِ عَلَى الْإِنْسَانِ	٢٧١
٣٣	الكون كله مسخر للإنسان	٢٧٣
٣٤	نعم الله على العباد لا تعد ولا تحصى:	٢٧٥
٣٥	خَلِيلُ الرَّحْمَنِ الشَّاكِرُ لَا نَعْمَ اللَّهُ يَسْأَلُ رَبَّهُ سَبْعَةَ أُمُورٍ - الدُّعَاءُ الْأَوَّلُ: طلب أمن البلد الحرام: ..	٢٧٦

الآية	فهرس الم	وجع	وحدات	الصفحة
	الدُّعَاءُ الثَّانِي: تَجَنُّبُ عِبَادَةِ الْأَصْنَامِ:			٢٧٧
٣٦	الدُّعَاءُ الثَّلَاثُ: تَفْوِيضُ الْأَمْرِ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى فِيمَنْ خَالَفَ دَعْوَتَهُ:			٢٧٨
٣٧	الدُّعَاءُ الرَّابِعُ: طَلَبُ عُمَرَانَ مَكَّةَ وَجَلْبُ الْأَرْزَاقِ إِلَيْهَا- هَاجِرَ وَإِسْمَاعِيلَ فِي جَوَارِ الْبَيْتِ			٢٧٩
	وَارزَقَهُمْ مِنَ الثَّمَرَاتِ: - سَبَبُ إِسْكَانِ إِسْمَاعِيلَ وَأُمِّهِ فِي مَكَّةَ - السَّعْيِ وَزَمَمِ			٢٨١
٣٨	الدُّعَاءُ الْخَامِسُ: دَعْوَتُكَ يَا رَبِّ مِنْ بَابِ الْعِبَادَةِ لَكَ			٢٨٢
٣٩	إِبْرَاهِيمَ يَحْمَدُ رَبَّهُ عَلَى نِعْمَةِ الْوَلَدِ:			٢٨٣
٤١، ٤٠	الدُّعَاءُ السَّادِسُ: طَلَبُ الصَّلَاحِ لَهُ وَلِذَرِيَّتِهِ - السَّابِعُ: طَلَبُ غَفْرَانِ الذُّنُوبِ لَهُ وَلِوَالِدَيْهِ وَسَائِرِ الْمُؤْمِنِينَ .			٢٨٤
٤٢	خَمْسَةُ أَوْصَافٍ مِنْ مَشَاهِدِ الْقِيَامَةِ وَأَهْوَالِهَا			٢٨٥
٤٣	الْوُصْفُ الْأَوَّلُ: ذَهُولُ الْأَبْصَارِ مِنْ هَوْلِ الْمَوْقِفِ: الثَّانِي: سُرْعَةُ الْخُرُوجِ مِنَ الْقُبُورِ لِإِجَابَةِ الدَّاعِي			٢٨٧
	الْوُصْفُ الثَّلَاثُ: تَنْكِيسُ الرُّؤُوسِ فِي ذُلِّ وَرَهْبَةٍ			٢٨٨
	الْوُصْفُ الرَّابِعُ: أَبْصَارُهُمْ مَشْدُودَةٌ وَجَفُونُهُمْ لَا تَنْطَوِي - الْوُصْفُ الْخَامِسُ: عَقُولُهُمْ لَا تَعِي وَلَا تُدْرِكُ .			٢٨٨
٤٤	تَبَكُّيْتُ الظَّالِمِينَ فِي الْمَوْقِفِ الْعَظِيمِ			٢٨٩
٤٧-٤٥	عُقُوبَةُ وَلَائِ الظَّلَمَةِ-وَعَدَ اللَّهُ نَاجِزَ لَا مَحَالَةَ			٢٩٠
٤٨	تَبْدِيلُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ - أَيْنَ يَكُونُ النَّاسُ عِنْدَمَا تُبَدَّلُ الْأَرْضُ وَالسَّمَوَاتُ			٢٩٣
٥١-٤٩	هَيْئَةُ الْكَافِرِ وَهُوَ يُقَادُّ إِلَى جَهَنَّمَ			٢٩٨
٥٢	عَالَمِيَّةُ الرِّسَالَةِ فِي بَدْءِ السُّورَةِ وَخِتَامِهَا			٣٠٠
	تَفْسِيرُ سُورَةِ الْحَجَرِ - مَقْدَمَةُ السُّورَةِ - خَمْسُ جَوَلَاتٍ فِي السُّورَةِ			٣٠٢
١	تَفْسِيرُ السُّورَةِ - الْقُرْآنُ مُكَوَّنٌ مِنْ حُرُوفٍ الْهِجَاءِ			٣٠٧
٣، ٢	الْكَافِرُ يَتَمَنَّى لَوْ كَانَ مُسْلِمًا فِي حَالَتِهِ:			٣٠٨
	الْأَوَّلَى عِنْدَ خُرُوجِ الرُّوحِ: وَالثَّانِيَةِ فِي أَرْبَعَةِ مَوَاطِنَ يَوْمِ الْقِيَامَةِ			٣٠٩
٥، ٤	إِشَارَةٌ مُجْمَلَةٌ إِلَى هَلَاكِ الْأُمَمِ الَّتِي كَذَّبَتْ رُسُلَ اللَّهِ			٣١٣
٨-٦	الْعُنْصُرُ الْأَوَّلُ: مِنْ عَنَاصِرِ الْقُرْآنِ الْمَكِّيِّ فِي السُّورَةِ - عُنْصُرُ النَّبُوءَةِ وَالرِّسَالَةِ			٣١٤
٩	تَعَهَّدَ مِنَ اللَّهِ تَعَالَى بِحِفْظِ كِتَابِهِ مِنَ التَّخْرِيفِ وَالتَّبْدِيلِ			٣١٧
١١، ١٠	تَيَمُّنُهُ عُنْصُرُ النَّبُوءَةِ وَالرِّسَالَةِ			٣٢٠
١٣، ١٢	الْقُرْآنُ يَنْفُذُ إِلَى الْقُلُوبِ			٣٢١
١٥، ١٤	الْكَافِرُ لَا يُؤْمِنُ وَلَوْ رَأَى الْعَجَبَ الْعَجَابَ			٣٢٢
١٨-١٦	الْعُنْصُرُ الثَّانِي مِنْ عَنَاصِرِ الْقُرْآنِ الْمَكِّيِّ فِي السُّورَةِ: عُنْصُرُ دَلَائِلِ التَّوْحِيدِ وَالْقُدْرَةِ			٣٢٤
	أَوَّلًا: آيَاتُ اللَّهِ تَعَالَى فِي الْعَالَمِ الْعُلُويِّ - جُمْلَةٌ مِنَ الْأَحَادِيثِ فِي هَذَا الْمَعْنَى			٣٢٥
٢١-١٩	ثَانِيًا: دَلَائِلُ وَحْدَانِيَّةِ اللَّهِ تَعَالَى فِي الْأَرْضِ			٣٢٩
٢٢	ثَالِثًا: دَلَائِلُ وَحْدَانِيَّةِ اللَّهِ تَعَالَى فِي الرِّيحِ وَالْأَمْطَارِ			٣٣٢
٢٥-٢٣	الْعُنْصُرُ الثَّلَاثُ مِنْ عَنَاصِرِ الْقُرْآنِ الْمَكِّيِّ - عُنْصُرُ الْإِيمَانِ بِالْيَوْمِ الْآخِرِ			٣٣٤
٢٦	الْمَادَّةُ الَّتِي خُلِقَ مِنْهَا آدَمُ ﷺ			٣٣٦

الآية	فهرس الم	ووعات	الصفحة
٥	النَّعْمَةُ الرَّابِعَةُ: نِعْمَةُ خَلْقِ الْأَنْعَامِ لِنَفْعِ الْإِنْسَانِ، فيها خمس منافع:	٤١٠	٤١٠
	المنفعة الأولى: الدفء بالفرش والأغطية والخيام وغيرها	٤١٠	٤١٠
	المنفعة الثانية: النسل والألبان والجلود وغيرها - المنفعة الثالثة: الطعام والشراب	٤١١	٤١١
٦	المنفعة الرابعة: الجمال والزينة	٤١١	٤١١
٧	المنفعة الخامسة: حمل الأثقال	٤١٢	٤١٢
٨	النَّعْمَةُ الْخَامِسَةُ: نِعْمَةُ وَسَائِلِ الْمَوَاصِلَاتِ قَدِيمًا وَحَدِيثًا	٤١٣	٤١٣
٩	النَّعْمَةُ السَّادِسَةُ: نِعْمَةُ الْهَدَايَةِ وَالنِّبَاتِ	٤١٦	٤١٦
١١، ١٠	النَّعْمَةُ السَّابِعَةُ: نِعْمَةُ انْزَالِ الْمَاءِ مِنَ السَّحَابِ لِيَخِيَا بِهِ كُلُّ كَائِنٍ حَيٍّ	٤١٩	٤١٩
١٢	النَّعْمَةُ الثَّامِنَةُ: نِعْمَةُ تَذَلُّلِ الْكَوْنِ لِنَفْعِ الْإِنْسَانِ	٤٢١	٤٢١
١٣	النَّعْمَةُ الثَّاسِعَةُ: نِعْمَةُ إِخْرَاجِ مَا فِي جَوْفِ الْأَرْضِ وَتَذَلُّلِ مَا عَلَى ظَهْرِهَا لِنَفْعِ الْإِنْسَانِ	٤٢٣	٤٢٣
١٤	النَّعْمَةُ الْعَاشِرَةُ: نِعْمَةُ تَسْخِيرِ الْبَحْرِ وَاسْتِخْرَاجِ مَا فِيهِ لِنَفْعِ الْإِنْسَانِ	٤٢٥	٤٢٥
١٥	النَّعْمَةُ الْحَادِيَةُ عَشْرَةَ: نِعْمَةُ تَنْشِيطِ الْأَرْضِ بِالْجِبَالِ وَإِبْجَادِ الْمَيَاءِ الْعَذْبَةِ فِيهَا	٤٢٧	٤٢٧
١٦	النَّعْمَةُ الثَّانِيَّةُ عَشْرَةَ: خَلْقُ الْجِبَالِ وَالنُّجُومِ لِهَدَايَةِ الْإِنْسَانِ فِي أَسْفَارِهِ	٤٢٩	٤٢٩
١٨، ١٧	هَلْ يَسْتَوِي الْخَالِقُ وَالْمَخْلُوقُ؟ - نَعَمْ اللَّهُ عَلَى خَلْقِهِ لَا تَعْدُ وَلَا تُخْصَى	٤٣١	٤٣١
١٩	أَرْبَعٌ مِنْ خَصَائِصِ الْأَلُوْهِيَّةِ الْحَقَّةِ - الْخَاصِيَّةُ الْأُولَى: عِلْمُ الظَّاهِرِ وَالْبَاطِنِ	٤٣٢	٤٣٢
٢١، ٢٠	الْخَاصِيَّةُ الثَّانِيَّةُ: خَاصِيَّةُ الْخَلْقِ - الْخَاصِيَّةُ الثَّالِثَةُ: أَنَّهُ سُبْحَانَهُ حَيٌّ لَا يَمُوتُ الرَّابِعَةُ: عِلْمُ قِيَامِ السَّاعَةِ ...	٤٣٣	٤٣٣
٢٢	النَّتِيْجَةُ الْحَقِيْقِيَّةُ لِهَذِهِ الْخَصَائِصِ	٤٣٤	٤٣٤
٢٥-٢٣	إِحَاطَةُ عِلْمِ اللَّهِ تَعَالَى بِمَنْ يُتَكَبَّرُونَ التَّوْحِيدَ وَالرَّسَالَةَ وَبَيَانُ عُقُوبَتِهِمْ فِي الْآخِرَةِ	٤٣٦	٤٣٦
٢٧، ٢٦	الْإِغْتِيَارُ بِمَا حَدَّثَ لِحَبَابَةِ الْأَرْضِ فِي الدُّنْيَا وَمَا يَحْدُثُ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ	٤٤٣	٤٤٣
٢٨	حَالُ الْكُفَّارِ عِنْدَ انْتِزَاعِ أَرْوَاحِهِمْ وَعِنْدَ وَقُوفِهِمْ لِلْحِسَابِ	٤٤٧	٤٤٧
٣١-٢٩	مُنَوَّى الْكَافِرِ الْآخِرِ وَجَزَاءُ أَهْلِ الْإِيمَانِ يَوْمَ لِقَاءِ اللَّهِ	٤٥٠	٤٥٠
٣٢	نَجِيَّةُ الْمَلَائِكَةِ لِلْمُتَّقِينَ وَبُشْرَاهُمْ لَهُمْ بِالْجَنَّةِ	٤٥٤	٤٥٤
٣٤، ٣٣	مَتَى يَقْلَعُ الْمَذْنُوبُونَ عَنْ ذُنُوبِهِمْ؟	٤٥٦	٤٥٦
٣٥	التَّمَسُّحُ بِالْقَدْرِ جَدَلٌ كَاذِبٌ قَدِيمًا وَحَدِيثًا - والهداية على نوعين	٤٥٨	٤٥٨
٣٦	الرُّسُلُ حُجَّةُ اللَّهِ عَلَى خَلْقِهِ لِإِقَامَةِ التَّوْحِيدِ وَتَبْذِيرِ الشُّرْكِ - وهي مُهِمَّةُ الرُّسُلِ	٤٦١	٤٦١
٣٧	اللَّهُ تَعَالَى يَعْلَمُ اخْتِيَارَ الْكَفَّارِ لِلْكُفْرِ قَبْلَ أَنْ يُخْلَقُوا	٤٦٤	٤٦٤
٣٩، ٣٨	كُفْرٌ مُتَكَبِّرِي الْبَغْيِ - حِكْمَتَانِ لِلْبَغْيِ بَعْدَ الْمَوْتِ	٤٦٥	٤٦٥
٤٠	إِبْجَادُ اللَّهِ لِلْأَنْبِيَاءِ يَحْصُلُ بِمُجَرَّدِ تَوَجُّهِ الْإِرَادَةِ إِلَيْهِ	٤٦٧	٤٦٧
٤٢، ٤١	تَوَابُ الْمُهَاجِرِينَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ	٤٦٨	٤٦٨
٤٤، ٤٣	الرُّسُولُ بَشَرٌ يُوحَى إِلَيْهِ	٤٧٢	٤٧٢
٤٧-٤٥	جَلَمُ اللَّهِ تَعَالَى وَإِنْقَارُهُ لِلْكُفَّارِ وَالْعَصَاةِ، خمس حالات لتوقع نزول العذاب بمن يمكرون السيئات	٤٧٦	٤٧٦
٥٠-٤٨	جَمِيعُ الْكَاتِبَاتِ تَسْجُدُ لِلَّهِ تَعَالَى بِلِسَانِ الْحَالِ أَوْ الْمَقَالِ	٤٧٩	٤٧٩

الآية	فهرس الم	وجع	وعات	الصفحة
٥٥-٥١	إِنَّمَا اللَّهُ إِلَهٌ وَاحِدٌ يَأْتِي بِالنِّعَمِ، وَيَكْشِفُ النِّعَمَ			٤٨٣
٥٦	مِنْ مَظَاهِرِ كُفْرِ النِّعْمَةِ فِي بَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ			٤٨٨
٦٠-٥٧	حَالُ الْمَرْأَةِ قَبْلَ الْإِسْلَامِ			٤٨٩
٦١	عَدَمُ التَّعَجُّلِ بِالْعُقُوبَةِ لِلظَّالِمِينَ مِنْ مَظَاهِرِ رَحْمَةِ اللَّهِ تَعَالَى			٤٩٥
٦٢	الشَّيْطَانُ يُزَيِّنُ الْكُفْرَ لِأَوْلِيَائِهِ			٤٩٧
٦٣	الانحراف في العقيدة ليس قاصراً على أمة محمد ﷺ			٤٩٩
٦٤	الْقُرْآنُ حُجَّةٌ لِلَّهِ عَلَى الْخَلْقِ وَالسُّنَّةُ مَبْنِيَّةٌ لَهُ			٤٩٩
٦٥	الْمَجْمُوعَةُ الثَّانِيَةُ مِنْ دَلَائِلِ التَّوْحِيدِ فِي السُّورَةِ وَهِيَ سَبْعُ نِعَمٍ - النِّعْمَةُ الْأُولَى: نِعْمَةُ الْمَاءِ			٥٠٠
٦٦	النِّعْمَةُ الثَّانِيَةُ: نِعْمَةُ اللَّبَنِ الَّذِي يَخْرُجُ مِنْ بَيْنِ الْقَرْنِ وَالْدَّمِ			٥٠٢
٧٦	النِّعْمَةُ الثَّالِثَةُ: نِعْمَةُ ثَمَرَاتِ النَّجِيلِ وَالْأَغْنَابِ			٥٠٤
٦٩، ٦٨	النِّعْمَةُ الرَّابِعَةُ: نِعْمَةُ الْفَسْلِ يَخْرُجُ مِنْ بَطْنِ النَّحْلِ			٥٠٥
٧٠	النِّعْمَةُ الْخَامِسَةُ: نِعْمَةُ خَلْقِ الْإِنْسَانِ			٥٠٩
٧١	النِّعْمَةُ السَّادِسَةُ: نِعْمَةُ الرِّزْقِ			٥١١
٧٢	النِّعْمَةُ السَّابِعَةُ: نِعْمَةُ الزَّوْجِ وَالنَّاسِلِ			٥١٦
٧٤، ٧٣	عَجْزُ آلِهَةِ الْمُشْرِكِينَ وَضَرْبُ الْأَمْثِلَةِ لِلْمُشْرِكِ وَالْمُوحِدِ			٥١٨
٧٥	مَثَلُ الْكَافِرِ وَالْمُؤْمِنِ كَمَثَلِ الْعَبْدِ الْعَاجِزِ وَالْحُرِّ الْمُتَصَرِّفِ			٥٢٠
٧٧، ٧٦	وَمَثَلُ الْكَافِرِ وَالْمُؤْمِنِ كَمَثَلِ الضَّنَمِ الْأَبْكَمِ الْأَصَمِّ، وَالْإِنْسَانِ الْفَصِيحِ الْمُتَكَلِّمِ - السَّاعَةُ تَأْتِي بَغْتَةً			٥٢٣
٧٨	الْمَجْمُوعَةُ الثَّالِثَةُ مِنْ دَلَائِلِ التَّوْحِيدِ فِي السُّورَةِ وَهِيَ أَرْبَعُ نِعَمٍ - النِّعْمَةُ الْأُولَى: نِعْمَةُ خَلْقِ الْخَوَاسِّ وَالْإِنْدَرَاكِ			٥٢٦
٧٩	النِّعْمَةُ الثَّانِيَةُ: نِعْمَةُ تَسْخِيرِ الْقَضَاءِ لِلْإِنْسَانِ			٥٢٨
٨٠	النِّعْمَةُ الثَّالِثَةُ: نِعْمَةُ الْمَسْكَنِ وَالْأَنْثَاثِ			٥٣٠
٨٢، ٨١	النِّعْمَةُ الرَّابِعَةُ: نِعْمَةُ الظَّلَالِ وَالْجِبَالِ وَاللِّبَاسِ			٥٣٢
٨٣	تَقْرِيعٌ وَتَوْبِيخٌ لِمَنْ يُكْفِرُ نِعَمَ اللَّهِ عَلَيْهِ			٥٣٤
٨٤	مِنْ مَشَاهِدِ الْقِيَامَةِ وَأَهْوَالِهَا: الْأَوَّلُ: عَدَمُ الْإِذْنِ لِلْكَفَّارِ فِي الْأَعْتِدَارِ وَهُمْ فِي سَاحَةِ الْعَرْصِ			٥٣٤
٨٥	الْمَشْهَدُ الثَّانِي: الْعَذَابُ لَا يُخَفَّفُ عَنِ الْكُفَّارِ وَلَا يُنْهَلُونَ إِلَى التَّوْبَةِ			٥٣٦
٨٦	الْمَشْهَدُ الثَّالِثُ: تَكْذِيبُ الْمُعْبُودِينَ لِلْعَابِدِينَ فِي أَنَّهُمْ أَغْرَوْهُمْ بِعِبَادَتِهِمْ			٥٣٧
٨٧	الْمَشْهَدُ الرَّابِعُ: اسْتِسْلَامُ الْمُشْرِكِينَ فِي سَاحَةِ الْحَشْرِ -			٥٤٠
٨٨	مُضَاعَفَةُ الْعَذَابِ لِمَنْ كَفَرَ وَصَدَّ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ			٥٤٠
٨٩	شَهَادَةُ الرُّسُلِ عَلَى الْأَمَمِ وَهَيْمَةُ الْقُرْآنِ عَلَى الْكُتُبِ			٥٤١
٩٠	الْأَمْرُ بِأَمَهَاتِ الْقَضَائِلِ وَالتَّهْيُّ عَنْ أَمَهَاتِ الرَّدَائِلِ			٥٤٤
٩٢، ٩١	تَأْقِضُوا الْعَهْدَ كَتَاوَضَةَ الْعَزْلِ بَعْدَ إِحْكَامِهِ			٥٥٥
٩٣	الْإِنْسَانُ حُرٌّ مُخْتَارٌ			٥٦١
٩٤	التَّهْيُّ عَنْ خِدَاعِ النَّاسِ بِالْأَيْمَانِ الْكَاذِبَةِ لِكَسْبِ ثِقَتِهِمْ			٥٦٢

الآية	فهرس الموضع	الصفحة
٩٥	النَّهْيُ عَنِ الرُّشْوَةِ وَالْيَمِينِ الْقَمُوسِ	٥٦٣
٩٦	نَعِيمُ الدُّنْيَا يَزُولُ وَنَعِيمُ الْآخِرَةِ لَا يَفَارِقُ صَاحِبَهُ	٥٦٤
٩٧	ثَوَابُ الْعَمَلِ الصَّالِحِ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ	٥٦٥
٩٨	الْأَسْتِعَاذَةُ عِنْدَ بَدْءِ التَّلَاوَةِ	٥٦٨
١٠٠، ٩٩	نفى ولاية الشيطان وإثباتها	٥٧٢
١٠١	النَّسْخُ فِي الْقُرْآنِ - شبهتان للمكذبين بالرسالة- الشُّبْهَةُ الْأُولَى: شُبْهَةُ النَّسْخِ - انواع النسخ	٥٧٣
١٠٢	الْقُرْآنُ كَلَامُ اللَّهِ وَلَيْسَ مِنْ كَلَامِ الْبَشَرِ	٥٧٧
١٠٣	الشُّبْهَةُ الثَّانِيَةُ: قَوْلُ الْمَكْذِبِينَ: إِنَّ مُحَمَّدًا ﷺ يُعَلِّمُهُ الْقُرْآنَ بَشَرًا	٥٧٨
١٠٤	وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ يَهْدِ اللَّهُ قَلْبَهُ	٥٨٢
١٠٥	افْتِرَاءُ الْكُذْبِ لَا يَضُرُّ إِلَّا عَنِ كَافِرٍ	٥٨٣
١٠٦	الْفِتْنَةُ فِي الدِّينِ - أول من فتنوا في الإسلام بالدخول فيه سبعة	٥٨٥
١٠٩-١٠٧	فتنة حبيب بن زيد الأنصاري - فتنة عبد الله بن حذافة السهمي - عبد الله بن أبي سرح:	٥٨٩
١١٠	مِنْ أَسْبَابِ اسْتِحْقَاقِ الْمُؤْتَدِّ لِعَذَابِ اللَّهِ وَعَذَابِ الْآخِرَةِ	٥٩٢
١١١	الْهَجْرَةُ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى بَعْدَ الْفِتْنَةِ فِي الدِّينِ - أسماء بنت عميس	٥٩٣
١١٢	يَوْمُ الْحِسَابِ وَالْجَزَاءِ	٥٩٦
١١٣	كُفْرُ النَّعْمَةِ وَأَهْمُهَا نِعْمَةُ الْإِسْلَامِ - سبب تحويل النعمة إلى نقمة - الدخان الممين	٥٩٧
١١٤، ١١٥	الضَّمَّةُ الثَّالِثَةُ لِمُجْتَمَعَاتِ الْكُفْرِ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ	٦٠٠
١١٦، ١١٧	الطَّيِّبَاتُ وَالْخَبَائِثُ فِي الْمَأْكَلِ	٦٠١
١١٨	حَقُّ الشَّرِيعِ لِلَّهِ وَخَدُّهُ	٦٠٣
١١٩، ١٢٠	مَا حَرَّمَ اللَّهُ عَلَى الْيَهُودِ عُقُوبَةً لَهُمْ	٦٠٤
١٢١	فَتْحُ بَابِ الْمَغْفِرَةِ لِكُلِّ مَنْ تَابَ - عشرة أوصافٍ لِكَلِيلِ الرَّحْمَنِ - الوُصْفُ الْأَوَّلُ: كَانَ أُمَّةً	٦٠٦
١٢٢	الْوُصْفُ الثَّانِي: كَانَ قَانِتًا - الوُصْفُ الثَّالِثُ: كَانَ حَنِيفًا - الوُصْفُ الرَّابِعُ: كَانَ مُوَحِّدًا	٦٠٩
١٢٣	الْخَامِسُ: كَانَ شَاكِرًا لِأَنْعَمِ اللَّهِ - السَّادِسُ: اضْطَفَأَ اللَّهُ لِإِبْرَاهِيمَ - السَّابِعُ: الْاهْتِدَاءُ إِلَى أَقْوَمِ الطَّرِيقِ ..	٦١٠
١٢٤	الْوُصْفُ الثَّامِنُ: الثَّنَاءُ الْجَبِيلُ عَلَيْهِ فِي الدُّنْيَا - الثَّاسِعُ: أَنَّهُ مِنْ أَصْحَابِ الدَّرَجَاتِ الرَّفِيعَةِ فِي أَعْلَى الْجَنَاتِ	٦١١
١٢٥	الوصف العاشر: أمر سيد الخلق بِاتِّبَاعِ أَصُولِ مِلَّةِ إِبْرَاهِيمَ وفروعها	٦١١
١٢٦-١٢٨	تَعْظِيمُ يَوْمِ السَّبْتِ عِنْدَ الْيَهُودِ	٦١٣
	أَسَالِيبُ الدَّعْوَةِ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى ثَلَاثَةٌ	٦١٥
	الْعَدْلُ وَالْفَضْلُ فِي الْعِقَابِ - الأصل في العقاب هو التماثل - مِنْكَ الْخِتَامُ	٦١٩
	فهرس الموضوعات	٦٢٣



فَأَحْبَرُ النَّفْسِ

تأليف :

أَحْمَدُ بْنُ أَحْمَدَ مُحَمَّدَ عَبْدَ اللَّهِ الطَّوِيلَ

عُضُو الدَّجَنَةِ الْعِلْمِيَّةِ لِمُرَاجَعَةِ مُصْحَفِ الْمَدِينَةِ النَّبَوِيَّةِ
وَلَجَنَةِ الْإِشْرَافِ عَلَى الشَّجَرَاتِ الْقُرْآنِيَّةِ
بِمُجْمَعِ الْمَلِكِ فَهْدٍ لَطَبَاعَةِ الْمُصْحَفِ الشَّرِيفِ

قَدَّمَ لَهُ : مَعَالِي الدُّكْتُورُ / عَبْدُ اللَّهِ بْنُ عَبْدِ الْمُحْسِنِ الشُّرَيْكِي
وَالْأَسْتَاذُ الدُّكْتُورُ / صَالِحُ بْنُ غَانِمِ السَّدْلَانِ
وَنُحْبَةً مِنَ الْعُلَمَاءِ الْمُتَخَصِّصِينَ

المجلد الثامن

الإسراء والكهف ومريم وطه

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

تَفْسِيرُ سُورَةِ الْإِسْرَاءِ (١٧)

مُقَدِّمَةُ السُّورَةِ

سورة (الإسراء) هي السورة السابعة عشرة في ترتيب المصحف، والخمسون في ترتيب النزول، نزلت بعد سورة القصص، وقبل سورة يونس.

وهي سورة مكية كما جاء في صحيح البخاري وغيره، عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: بنو إسرائيل والكهف، ومريم، إنهن من العتاق الأول، وهنّ من تِلَادِي^(١).

وجاء عن عائشة رضي الله عنها أن النبي صلى الله عليه وسلم كان يصوم حتى نقول: ما يريد أن يفطر، ويفطر حتى نقول: ما يريد أن يصوم، وكان يقرأ كل ليلة ببني إسرائيل والزمر^(٢).

وعدد آياتها إحدى عشرة ومئة آية في المصحف الكوفي، ومئة وعشر آيات في بقية المصاحف.

وهي ألف وخمسة مئة وثلاث وثلاثون كلمة، وستة آلاف وأربع مئة وستون حرفاً.

وهذه السور الثلاث: الإسراء، والكهف، ومريم من السور العتيقة، أي: من أوائل ما نزل على رسول الله صلى الله عليه وسلم بمكة، ومن أول ما تعلّم ابن مسعود من القرآن، وأن لهن فضلاً؛ لما فيهن من القصص، وأخبار الأنبياء والأمم.

فالعتاق: جمع عتيق، وهو القديم، أو أنه الذي بلغ الغاية في الجودة، ومعنى تِلَادِي: أي مما حُفِظ قديماً.

(١) البخاري في التفسير برقم (٤٧٠٨، ٤٧٣٩).

(٢) رواه أحمد في «المسند» (١٨٩/٦) برقم (٢٤٣٨٨، ٢٤٩٠٨، ٢٥٥٥٦) قال محققوه: حديث صحيح، دون قوله (وكان يقرأ...). الخ، وابن خزيمة في صحيحه برقم (١١٦٣) من طريق أبي لبابة، وقد وثقه ابن معين، وتوقف ابن خزيمة في تصحيحه، وصححه الألباني في «صحيح سنن الترمذي» برقم (٢٧١١) و«صحيح الجامع الصغير» (٢٥٠/٤) وقال الترمذي: حديث حسن غريب كما في «السنن» برقم (٢٩٢٠) ولفظه عنده (كان النبي صلى الله عليه وسلم لا ينام على فراشه حتى يقرأ بني إسرائيل والزمر) وسكت عنه الحاكم والذهبي في «المستدرک» (٤٣٤/٢) وأخرجه النسائي في عمل اليوم والليلة برقم (٧١٢) وفي «السنن الكبرى» (١١٤٤٤) ويُنظر: «السلسلة الصحيحة» (٦٤١).

شهرتها: تسمى: سورة الإسراء، لذكر حادثة الإسراء في الآية الأولى منها.

وتسمى: سورة بني إسرائيل، للحديث السابق ذكره، وللحديث عنهم في سبع آيات بعد الآية الأولى.

وتسمى أيضًا: سورة سبحان، لافتتاحها بالتسبيح، ولا يكون هذا إلا لأمر جليل عظيم يأتي ذكره بعد التسبيح، وهو هنا إسراء النبي ﷺ من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى في لحظة من الليل، وهذا كمن يذكر أمرًا غريبًا، فيقول المستمع متعجبًا (سبحان الله).

وفي القرآن الكريم ست سور أخرى افتتحت بمادة التسبيح:

١- منها ما جاء بفعل الأمر ﴿سَبِّحْ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى﴾ والأمر الجليل بعده هو الخلق والتقدير لهذا الكون.

٢- ومنها ما جاء بالفعل الماضي وهو سور: الحديد والحشر والصف، أما سورة الحديد، فَلِذِكْرِ اثْنَيْنِ وَعَشْرِينَ اسْمًا وصفة لله تعالى في مطلع السورة.

وأما سورة الحشر، فلإخراج بني النضير من ديارهم لأول الأرض التي حُشروا إليها.

أما سورة الصف، فلأن الله تعالى يحب الذين يقاتلون في سبيله صفاً.

٣- ومنها ما جاء بالفعل المضارع، وهو سورة الجمعة، والأمر الجليل في أولها هو بعثة محمد ﷺ إلى هذه الأمة، وآخرين منهم لما يلحقوا بهم.

وفي سورة التغابن، كان التسبيح لخلق الإنسان وتصويره في أحسن صورة، وخلق العالم العلوي والسفلي.

والآية الأولى من سورة الإسراء هي الآية الوحيدة المختومة بحرف الراء، وبقية آيات السورة مختومة بالألف.

موضوعات السورة:

وقد تحدثت الآية الأولى عن الإسراء، وأما الحديث عن المعراج فقد جاء في أول

سورة النجم ﴿وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ ﴿١٢﴾ عِنْدَ سِدْرَةِ الْمُنْتَهَىٰ ﴿١٣﴾﴾ [النجم]

وتحدثت السورة في أوائلها عن إفساد بني إسرائيل في الأرض، كما تحدثت عن القرآن

الكريم في أحد عشر موضعاً منها .

وتحدثت عن أحكام وآداب إسلامية كثيرة، ذكر في الربع الثاني منها بضعة وعشرون تكليفاً شرعياً في ثماني عشرة آية، بدأت بالأمر بتوحيد الله تعالى، وانتهت بخُلُق التواضع وعدم الكبر، وهي الوصايا التي ذكرتها ألواح موسى ﷺ .

وتحدثت السورة أيضاً عن موقف المشركين من رسالة محمد ﷺ، وطلبهم منه خوارق العادات، كما تناولت بعض الآيات الكونية الدالة على وحدانية الله تعالى، كالليل والنهار، وتحدثت عن البعث والنشور، والحساب والجزاء .

وذكر فيها قصة آدم وإبليس وإغوائه بني آدم، وعوده لهم بالمرصاد، وسأقت السورة ألواناً من نعم الله تعالى على خلقه في البرّ والبحر، ويُنْت سنن الله تعالى التي لا تتخلف في شأن الهدى والضلال بالنسبة للعباد، وخُتِمت السورة بالحمد، كما افْتُتِحت بالتسبيح .

وبذلك فإن السورة تناولت شؤون العقيدة، والرسالة، والمعاد، وهذه الثلاثة هي عناصر القرآن المكي .

وباستعراض مجمل آيات السورة نجدها تشير -بعد الافتتاح بالحديث عن الإسراء- إلى التوراة التي أنزلها الله تعالى على موسى ﷺ؛ لتكون هداية لبني إسرائيل، ولكنهم حرّفوها وبدّلوها، وأفسدوا في الأرض إفسادتين كبيرتين، بتحريفهم للتوراة، وقتلهم لأنبياء الله: شعيا وزكريا ويحيى عليهم السلام، وكفرهم بمحمد ﷺ بعد اعترافهم به ووعدهم بالإيمان به حين يُبعث، ولا يزال إفسادهم متجدداً متواصلاً بأهل فلسطين وغيرهم، وبمحاولاتهم هدم المسجد الأقصى وبناء الهيكل المزعوم، وهذا الإفساد مصحوب بخُذْلان الله تعالى لهم، وانتقامه منهم .

وبعد الحديث عن كتاب موسى ﷺ أشارت السورة إلى كتاب محمد ﷺ الذي أنزله الله عليهم هداية للبشر إلى التي هي أقوم، وليبشر المؤمنين بالأجر الكريم، ويبيّن لهم أن كل إنسان محاسب يوم القيامة، ومجزئ بعمله إن خيراً فخير، وإن شراً فشر، وأن كل نفس لا تتحمل إثم نفسٍ أخرى .

ثم أشارت السورة إلى أن سُنّة الله تعالى في خلقه، أن تكون عاقبة أهل البطر والفسق

هي الدمار والهلاك، ومن يَسْخَ للعالم تكون نهايته جهنم، ومن يَسْخَ للآخرة تكون نهايته الجنة، وهذا مجمل ما جاء في الربع الأول من السورة.

الأوامر والنواهي في الربع الثاني من السورة:

ثم ذكرت السورة أربعة عشر من الأوامر والنواهي الإلهية، جاء ذكرها في ثماني عشرة آية من الآية ٢٢-٣٩، وهي:

- ١- النهي عن الشرك بالله تعالى في قوله: ﴿لَا تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ﴾ [٢٢]
- ٢- الأمر بالتوحيد: وقُدِّم النهي عن الشرك على الأمر بتوحيد العبادة لله في قوله تعالى: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِلَٰهَهُ﴾ [٢٣]؛ لأن التولية تكون قبل التحلية.
- ٣- ثم أمر سبحانه بالإحسان إلى الوالدين في قوله تعالى: ﴿وَالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا ۚ الَّذِي﴾ [٢٣] وخفض الجناح لهما، ﴿وَأَخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذَّلِيلِ مِنَ الرَّحْمَةِ﴾ ونهت عن أدنى ما يؤذيها، سِيِّمًا عندما يتقدم بهما العمر، وتشتد الحاجة إلى الأبناء ﴿فَلَا تَقُلْ لَّهُمَا قَوْلًا يَنْهَرُهُمَا﴾.
- ٤- وتلا ذلك الأمر بصلة الرحم، ومدد يد العون إلى المسكين، وابن السبيل، وحسن القول عند فقد المادة. ﴿وَأَتَىٰ ذَا الْقُرْبَىٰ حَقَّهُ وَالْمِسْكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ﴾. ﴿وَأَمَّا تَعْرِضَنَّهُمْ لِنِيعَةِ رَبِّهِمْ مِنْ رَبِّكَ تَرْجُوهُمَا فَقُلْ لَهُمْ قَوْلًا مَيِّسُورًا﴾.
- ٥- ونهت آيات الله تعالى في السورة عن الإسراف والتبذير، وصورت المبدزين في أقبح صورة؛ حيث جعلتهم إخوانًا للشياطين، والشيطان كافر بربه: ﴿وَلَا تُبَذِّرْ تَبْذِيرًا ۚ إِنَّ الْمُبَذِّرِينَ كَانُوا إِخْوَانَ الشَّيَاطِينِ وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِرَبِّهِ كَفُورًا﴾.
- ٦- كما نهت عن التقدير والبخل، وأمرت بالتوسط والاعتدال في الإنفاق. ﴿وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَّحْسُورًا﴾.
- ٧- ونهت أيضًا عن جريمة الإجهاض، وتحديد النسل، ونحوهما، خوفًا من الفقر؛ فإن الرزق بيد الله تعالى، ﴿وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ خَشْيَةً إِمَّا يَحْكُمُ النَّحْسُ تَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ﴾.
- ٨- ونهت عن جريمة الزنى وسائر الفواحش ما ظهر منها وما بطن. ﴿وَلَا تَقْرَبُوا الزِّنَىٰ ۚ إِنَّهُ كَانَ فَحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلًا﴾.

٩- كما نهت عن قتل النفس التي حرم الله إلا بالحق، وبَيَّنَّتْ أن المقتول ظلمًا منصور ولا بُدَّ، ﴿وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ﴾.

١٠- ونهت عن أكل مال اليتيم إلا بالتي هي أحسن حتى يبلغ أشده.

﴿وَلَا تَقْرُبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُ﴾.

١١- وأمرت الآيات بالوفاء بالعهد والوعد، وبينت مسؤولية ذلك عند الله تعالى.

﴿وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ إِنَّ الْعَهْدَ كَانَ مَسْئُولًا﴾.

١٢- كما أمرت الآيات بوفاء الكيل والميزان في البيع والشراء، وسائر الأمور المادية والمعنوية. ﴿وَأَوْفُوا الْكَيْلَ إِذَا كِلْتُمْ وَزِنُوا بِالْقِسْطَاسِ الْمُسْتَقِيمِ﴾.

١٣- ثم نهت عن القول بغير علم؛ فقد جاء ذلك قرين الشرك في كتاب الله تعالى.

﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ﴾.

١٤- وأشارت إلى أن الإنسان مسؤول عن سمعه وبصره وفؤاده، فلا يستعملهم إلا في طاعة الله سبحانه. ﴿إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَٰئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا﴾.

١٥- وخُتِمت هذه الوصايا بالنهي عن الكبر، والغرور، والخيلاء، سواء أَمْشَى الإنسان على الأرض بقدميه، أم بدابته، أم بسيارته، أم بطائرته، أم بغير ذلك.

﴿وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا إِنَّكَ لَن تَخْرِقَ الْأَرْضَ وَلَن تَبْلُغَ الْجِبَالَ طُولًا﴾.

وكما بدأت هذه الأحكام بالنهي عن الشرك بالله تعالى ختمت كذلك بالنهي عن الشرك به جل شأنه ﴿وَلَا تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَتُلْقَىٰ فِي جَهَنَّمَ مَلُومًا مَّدْحُورًا﴾ [٣٩].

ذَكَرُ لَفْظُ الْقُرْآنِ فِي السُّورَةِ أَحَدَ عَشَرَ مَرَّةً:

وقد جاء ذكر لفظ القرآن في السورة في إحدى عشرة آية بما لم يقع في سورة أخرى:

١- فقد أشارت في الآية التاسعة من السورة إلى أن هذا القرآن يهدي إلى أقوم الطرق وأعدلها. ﴿إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ﴾.

٢- وأشارت الآية الحادية والأربعون إلى أن الله تعالى قد صرَّف وجوه الهدايات في هذا القرآن ونوعها؛ ليتذكر الناس ويعتبروا، ولكن الكافرين لا يزدادون إلا نفورًا:

﴿وَلَقَدْ صَرَفْنَا فِي هَذَا الْقُرْآنِ لِيَذْكُرُوا وَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا نُفُورًا﴾.

٣- وذكرت الآية الخامسة والأربعون أن غير الموحد تشمئز نفسه إذا سمع كلام الله لأن الله قد جل بينه وبين قارئ القرآن حجابًا ساترًا فينصرف مُدْبِرًا نَافِرًا.

﴿وَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ حِجَابًا مَسْتُورًا﴾.

٤- وبيّنت الآية السادسة والأربعون أن قلوب غير المسلمين عليها أغطية، وحجاب ساتر، يحجب عقولهم عن الانتفاع بما في القرآن، والاهتداء بهديه: ﴿وَجَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ﴾.

٥- وفي الآية الستين ذُكِرَ شجرة الزقوم، وهي الشجرة الملعونة في القرآن، وجاء ذكرها ابتلاءً للناس وتخويفاً لهم؛ كي يثوبوا إلى رشدهم، ويرجعوا إلى ربهم:

﴿وَمَا جَعَلْنَا آلِ زَيْدٍ آلَ حِجٍّ أَرَيْتَكَ إِلَّا فَتْنَةً لِّلنَّاسِ وَالشَّجَرَةُ الْمَلْعُونَةُ فِي الْقُرْآنِ﴾.

٦، ٧- وذكر لفظ القرآن مرتين في الآية الثامنة والسبعين؛ للإشارة إلى إطالة القراءة في صلاة الفجر؛ لأن الملائكة تحضر هذه الصلاة:

﴿أَفِیرَ الصَّلَاةَ لِذُلُوكِ السُّمُوسِ إِلَى عَسَقِ اللَّيْلِ وَقُرْآنَ الْفَجْرِ إِنَّ قُرْآنَ الْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا﴾.

٨- وأشارت الآية الثانية والثمانون إلى أن القرآن علاج لأمراض القلوب، والأبدان، والأرواح، وهذا العلاج لا يستفيد منه غير المسلم؛ لأنه قد حَرَمَ نفسه الهداية، ففسق عن أمر ربه، وضل الطريق الموصِّل إلى رضوان الله تعالى:

﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلَّا خَسَارًا﴾.

٩- وأشارت الآية الثامنة والثمانون إلى أن الإنس والجن لو اجتمعوا على أن يأتوا بمثل هذا القرآن فلن يتسنَّى لهم ذلك، ولو تعاونوا وتضافروا بجميع ما يملكون من قُدْرَاتٍ، وأموال، ومهارات. ﴿قُلْ لَّيْنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا﴾.

١٠- وأشارت الآية التاسعة والثمانون إلى أن الله تعالى قد ضرب الأمثال، ونوع الأساليب في هذا القرآن فأبى أكثر الناس إلا جحودًا للحق، ونكرانًا لحجج الله على خلقه. ﴿وَلَقَدْ صَرَفْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ فَأَبَى أَكْثَرُ النَّاسِ إِلَّا كُفُورًا﴾.

١١- وَبَيَّنَّتْ الآيَةُ السَّادِسَةُ بَعْدَ الْمِثَّةِ أَنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يُقْرَأُ بِتَوَدَّةٍ، وَتَمَهُّلٍ، وَتَدَبُّرٍ، كَمَا أَنَّهُ نَزَلَ مَفْرَقًا، وَمَوْزَعًا وَفَقِ الْحَوَادِثِ، وَمَقْتَضَى الْأَحْوَالِ:

﴿وَقُرْءَانًا فَرَقْنَاهُ لِتَقْرَأَهُ عَلَى النَّاسِ عَلَى مُكْثٍ وَنَزَّلْنَاهُ تَنْزِيلًا﴾.

وقد ذُكِرَ الْقُرْآنُ فِي هَذِهِ السُّورَةِ بِالْفَافِ أُخْرَى كَثِيرَةً؛ كَلَفِظَ الْوَحْيَ، وَالرُّوحَ، وَأَسْمَاءَ الْإِشَارَةِ، وَالْمَوْصُولَ، وَعَوَّدَ الضَّمِيرَ عَلَيْهِ.

مِنْ ذَلِكَ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَإِنْ كَادُوا لَيَفْتِنُونَكَ عَنِ الَّذِي أُوحِيََا إِلَيْكَ لِيَفْتَرِيَ عَلَيْنَا غَيْرُ وَإِذَا لَا تَأْخُذُوكَ حِيلًا ﴿٧٦﴾ وَلَوْلَا أَنْ ثَبَّنَّاكَ لَقَدْ كِدْتَ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْئًا قَلِيلًا ﴿٧٧﴾ إِذَا لَا ذِفْنَكَ ضِعْفَ الْحَيَوةِ وَضِعْفَ الْمَمَاتِ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ عَلَيْنَا نَصِيرًا ﴿٧٨﴾﴾.

وقوله سبحانه: ﴿وَلَيْنَ شِئْنَا لَنَذْهَبَنَّ بِالَّذِي أُوحِيََا إِلَيْكَ﴾ [٨٦].

وَفِي أَعْقَابِ ذَلِكَ تَأْتِي اقْتِرَاحَاتُ الْمَكْذِبِينَ بِالْقُرْآنِ، الَّذِينَ يَطْلُبُونَ مِنَ النَّبِيِّ ﷺ أَنْ يَأْتِيَ لَهُمْ بِبَدَائِلِ أُخْرَى غَيْرِ الْقُرْآنِ، بِأَنْ يَفْجُرَ لَهُمُ الْأَرْضَ، أَوْ تَكُونَ لَهُ حَدَائِقُ وَبَسَاتِينُ، أَوْ يَنْزِلَ السَّمَاءُ عَلَيْهِمْ قِطْعًا، أَوْ يَأْتِيَ لَهُمُ بِاللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ عِيَانًا، أَوْ يَكُونَ لَهُ قَصْرٌ مِنْ ذَهَبٍ، أَوْ يَصْعَدَ إِلَى السَّمَاءِ وَيَأْتِيَ لَهُمْ مِنْهَا بَكْتَابٍ مَنشُورٌ يَقْرَءُونَ فِيهِ أَنْ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ.

وَقَدْ أَمَرَ اللَّهُ رَسُولَهُ أَنْ يَجِيبَهُمْ عَلَى كُلِّ ذَلِكَ قَائِلًا: ﴿سُبْحَانَ رَبِّي هَلْ كُنْتُ إِلَّا بَشَرًا رَسُولًا﴾ [٩٣]. وَهَذِهِ الْآيَاتُ مِنْ [٩٠-٩٦].

وَيَتَّبِعُ ذَلِكَ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَمَا مَنَعَنَا أَنْ نُرْسِلَ بِالْآيَاتِ إِلَّا أَنْ كَذَّبَ بِهَا الْأَوَّلُونَ﴾ [٥٩].

وَمِنْ حَدِيثِ السُّورَةِ عَنِ الْقُرْآنِ يَتَبَيَّنُ أَنَّ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ عَرَفُوا الْحَقَّ، وَلَمْ يَنْكُرُوهُ وَأَنَّهُمْ إِذَا تَلَّيَ عَلَيْهِمْ هَذَا الْقُرْآنَ خَرُوا سَجْدًا وَبُكْيًا، وَسَبَّحُوا بِحَمْدِ رَبِّهِمْ، وَزَادَهُمْ ذَلِكَ خُشُوعًا وَإِيمَانًا مِنْ [١٠٧-١٠٩].

أَمَّا حَدِيثُ السُّورَةِ عَنْ يَوْمِ الْقِيَامَةِ فَمِنْهُ مَا جَاءَ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَكُلَّ إِنْسَانٍ أَلْزَمْنَاهُ طَلْعَهُ فِي عُرْضِهِ وَخَرَجَهُ لَوْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ كِتَابًا يَلْقَاهُ مَنشُورًا ﴿١٣﴾ أَقْرَأَ كِتَابَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا ﴿١٤﴾﴾.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿يَوْمَ نَدْعُوا كُلَّ أُنَاسٍ بِإِمْئِهِمْ فَمَنْ أَوْقَىٰ كِتَابُهُ يَمِيسُهُ فَأُولَٰئِكَ يَقْرَءُونَ كِتَابَهُمْ وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا ﴿٦١﴾ وَمَنْ كَانَتْ فِي هَذِهِ أَعْمَىٰ فَهُوَ فِي الْآخِرَةِ أَعْمَىٰ وَأَضَلُّ سَبِيلًا ﴿٦٢﴾﴾.

ومن ذلك إنكار الكفار والملحدين لليوم الآخر قائلين: ﴿وَقَالُوا أَإِذَا كُنَّا عِظْمًا وَّرُفْنًا أَءَنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا﴾ ﴿٤٩﴾ ﴿قُلْ كُونُوا حِجَارَةً أَوْ حديدًا﴾ ﴿٥٠﴾ أَوْ خَلْقًا مِمَّا يَكْبُرُ فِي صُدُورِكُمْ فَسَيَقُولُونَ مَنْ يُعِيدُنَا قُلِ الَّذِي فَطَرَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ فَسَيُنْغِضُونَ إِلَيْكَ رُءُوسَهُمْ وَيَقُولُونَ مَتَى هُوَ قُلْ عَسَى أَنْ يَكُونَ قَرِيبًا ﴿٥١﴾ يَوْمَ يَدْعُوكُمْ فَتَسْجُدُونَ لِحَمْدِهِ وَتَنْتَوْنُ إِنْ لَبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا﴾ ﴿٥٢﴾ .

ومن حديث السورة عن الشرك والمشركين، ما جاء في قوله تعالى:

﴿أَفَأَصْفَنكُمْ رَبُّكُم بِالْبَيْنِ وَأَتَّخَذَ مِنَ الْمَلَكَةِ إِنثًا إِنَّكُمْ لَقَائِلُونَ قَوْلًا عَظِيمًا﴾ ﴿٥٣﴾ .

ومن ذلك قوله تعالى: ﴿قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِنْ دُونِي فَلَا يَمْلِكُونَ كَشْفَ الضُّرِّ عَنْكُمْ وَلَا تَحْوِيلًا﴾ ﴿٥٤﴾ أُولَئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورًا﴾ ﴿٥٥﴾ .

ومن الأدلة على وحدانية الله تعالى في السورة قوله: ﴿رَبُّكُمُ الَّذِي يُرْسِلُ لَكُمْ الْفَلَائِكَ فِي الْبَحْرِ لِيَتَّبِعُوا مِنْ فَضْلِهِ﴾ ﴿٦٦﴾، وقوله: ﴿وَإِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فِي الْبَحْرِ ضَلَّ مَنْ تَدْعُونَ إِلَّا إِيَّاهُ﴾ ﴿٦٧﴾ ويأتي بعد هاتين الآيتين وعيد لكل من عصى الله تعالى أن يخسف الله بهم الأرض، أو يرسل عليهم قاصفاً من الريح يهلكهم ويبيدهم.

وجاء ختام السورة مشيراً إلى إنكار الكفار أن يدعو المسلم ربه بقوله: يا الله، يا رحمن، فبين سبحانه أن له الأسماء الحسنی، وأن للمسلم أن يدعو ربه بما شاء منها، وأن له تعالى الثناء الحسن، والذكر الجميل، وأنه جل شأنه ليس له شريك في ملكه، وهو الغني عن خلقه، والخلق كلهم محتاجون إليه، فكبره تكبيراً.



تَفْسِيرُ السُّورَةِ

الإِسْرَاءُ وَالْمِغْرَاجُ

١- ﴿سُبْحَنَ الَّذِي أَسْرَىٰ^(١) بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَا الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنَ الْإِنشَاءِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ﴿١﴾﴾

بدأت السورة بلفظ: ﴿سُبْحَنَ﴾ وفي القرآن الكريم سبع سور افتتحت بالتسبيح أولها هذه السورة، فُتِحَتْ بالمصدر سبحان، وآخرها سورة الأعلى، افتتحت بفعل الأمر: ﴿سَبِّحْ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَىٰ ﴿١﴾﴾.

أما سور: (الحديد، والحشر، والصف) فقد افتتحت هذه الثلاث بالفعل الماضي ﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾ وأما سورتا (الجمعة، والتغابن) فافتتحتا بالفعل المضارع ﴿يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾.

والتسبيح يؤتى به عند الأمر العجيب، فعندما يتعجب العبد من شيء يقول: سبحان الله، وافتتاح السورة بالتسبيح يشير إلى الخبر العجيب الذي يستقبله السامعون في الآية بما يدل على عظيم قدرة الله تعالى، ورفع منزلة المتحدث عنه، وهذا التعجب بالنسبة لخبر الإسراء، وشأن المُسْرَىٰ به ﷺ.

ومعنى التسبيح: تنزيه الله ﷻ عن كل نقص، وعن كل ما لا يليق بجلاله.

وجميع الكائنات تسبح بحمد الله تعالى، وتنزهه عن كل نقص: ﴿يُسَبِّحُ لَهُ السَّمَوَاتُ السَّبْعُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ ﴿٤٤﴾﴾ السماوات ومن فيها، والأرض ومن فيها، وما من شيء عاقل أو غير عاقل، جماد، أو حيوان، أو نبات، أو طير، وغير ذلك إلا سبح الله تعالى ﴿وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِنْ لَا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ إِنَّهُمْ كَانُوا حَلِيمًا غَفُورًا﴾.

متى كان الإسراء: ابتدأت سورة (الإسراء) بالحديث عن الإسراء، وليس هناك نص صريح صحيح يثبت متى كان تاريخ الإسراء بالليل، وبالشهر، وبالسنة، على وجه

(١) أمال (أسرى) أبو عمرو وحمة والكسائي وخلف وابن ذكوان بخلف عنه، وقللها ورش.

التحديد، لا يوجد دليل قطعي على ذلك، ولكن الإسراء نفسه حدث قطعاً، وهو حادثة عظيمة لرسول الله ﷺ ثابتة بالكتاب، وبما تواتر عن رسول الله ﷺ، وقد رواه أكثر من عشرين من صحابة النبي ﷺ، ولكن الزمن أو الوقت الذي وقع فيه الإسراء غير معروف على وجه القطع.

١- ف قيل: إنه كان في الثاني عشر من شهر ربيع الأول، أي: قبل الهجرة بسنة وخمسة أشهر، وهذا أرجح الأقوال.

٢- وقيل: كان في السابع عشر من الشهر نفسه، أو في السابع والعشرين منه.

٣- وقيل: إنه كان في شهر ربيع الآخر، وقيل: كان في شهر رمضان.

٤- وقيل: كان في شهر رجب، والقائل بأنه كان ليلة السابع والعشرين منه هو الحافظ المقدسي^(١).

هذه أقوال كثيرة، ولا يوجد منها دليل قطعي على أنه كان في ليلة معينة، أو في شهر معين منها، ويرجح أنه كان قبل الهجرة بسنة، بعد وفاة خديجة ﷺ، ووفاة أبي طالب في عام الحزن.

وكانت هذه الرحلة تسلية للنبي ﷺ بعد أن صده أهل الطائف، وأدموا عقيقه، فأرسل الله له الجن -وهو في عودته إلى مكة- حيث استمعوا إلى القرآن، وآمنوا به، ثم كان الإسراء، كأن الله تعالى يقول له: إن لم يؤمن بك الإنس فقد آمن بك الجن، وإن لم تتسع لك الأرض فإن مكانك فوق السماء.

وبناءً عليه: فإن تخصيص ليلة معينة بليلة الإسراء هو تخصيص بلا مخصص، وليس عليه دليل.

على أن الاحتفال بليلة الإسراء والمعراج، وليلة الهجرة، وليلة ميلاد النبي ﷺ وغيرها، هذه الاحتفالات ليس لها أصل من كتاب أو سنة، ولم تحدث في عهد رسول الله ﷺ، ولا في عهد الخلفاء الراشدين، ولم يقم عليها دليل، ولم يفعلها صحابة النبي ﷺ، ولا التابعون، ولو كان ذلك خيراً لسبقونا إليه، وصيام النبي ﷺ ليوم الاثنين الذي ولد فيه هو شكر منه لربه الذي خلقه، ولا أرى فيه دليلاً على الاحتفاء بهذا اليوم، كما أن ثناء حسان بن ثابت على رسول الله ﷺ لا يدل على ذلك، وإذا وُجد من يحتفلون بهذه

(١) تفسير القاسمي (١٠/٢٨٨٨).

المناسبات في المساجد فإن عامة المسلمين يرتكبون الموبقات في هذه الاحتفالات، التي تقام في السرايدات ونحوها، فسَدُّ الباب أولى.

١- أُسْرِي برسول الله ﷺ من مكة ليلاً إلى المسجد الأقصى.

٢- وهناك أحاديث تشير إلى أن الإسراء كان من بيت أم هانئ، أخت علي بن أبي طالب، ابنة عم رسول الله ﷺ.

٣- وهناك أحاديث تقول: إن الإسراء كان من المسجد الحرام، من الحطيم أو الحجر.

والجمع بينها: أن النبي ﷺ كان في هذه الليلة في بيت أم هانئ، ثم انتقل من فراشه الذي كان ينام فيه إلى المسجد الحرام، فلما كان في الحطيم، أو الحجر، بين النائم واليقظان، أُسْرِي به إلى بيت المقدس، ثم عُرِجَ به إلى السماوات العلا، ثم عاد إلى فراشه قبل أن يبرد مكانه كما في بعض الروايات.

وكانت قریش في الجاهلية قد بنت بيوتها حول المسجد الحرام، وبني قُصَيّ دار الندوة بالقرب منه، فكانوا يجلسون فيها حول الكعبة، وكانت دار الندوة تنفذ إلى المسجد الحرام مباشرة؛ إذ لم يكن للمسجد جدار يُحفظ به، وكانت الطرق المؤدية إلى المسجد من هذه البيوت تسمى أبواباً، مثل: باب بني شيبه، وباب بني هاشم، وباب بني مخزوم، وهو باب الصفا، وباب بني سهم، وباب بني تميم، وهي العشائر المحيطة بالمسجد الحرام، ومجموع البيوت كانت تسمى شِعْباً، وأول من جعل للمسجد الحرام جداراً يحفظ به هو عمر بن الخطاب ؓ سنة سبع عشرة من الهجرة.

وجاء وصفه بالحرام؛ لأنه لا يحل انتهاكه بقتال فيه، ولا بصيد يصاد فيه، ولا بقطع شجره، فمعنى المسجد الحرام، أي المحرم.

وبينما كان رسول الله ﷺ بين الحجر والحطيم، كما جاء في رواية أنه ﷺ كان في الحجر في المسجد الحرام، وفي رواية أخرى أنه كان في الحطيم جاءته الملائكة فشَقَّتْ صدره وغسلته بماء زمزم، وملأته علماً، وحكمة، وإيماناً.

وشق الصدر هذا كان مرة ثانية سبقها شق صدر رسول الله ﷺ وهو مسترضع عند حليلة السعدية، صبي صغير، قبل أن يعود إلى أحضان أمه في مكة المكرمة.

وقيل: إن هناك شقًا ثالثًا لصدر رسول الله ﷺ كان عند البعثة.

وكان هذا الشق بطريقة حسية لا تبعد على رب العالمين، ولا نعلم كيفيتها، وقيل: إنه كان بطريقة معنوية، ويرجح الأول.

وشق الصدر، في حادثة الإسراء، كان إعدادًا وتهيئة للنبي ﷺ إلى هذه الرحلة المباركة في صحبة جبريل ﷺ؛ ليجوب الآفاق، وليطوف به فوق سبع سموات، وهذا يحتاج إلى إعداد خاص، ونحن نعلم كيف يُجَهَّزُ رُؤَادُ الفضاء لغزو الفضاء، ولله المثل الأعلى ولرسوله.

وفي صحيح مسلم وغيره: من حديث أنس بن مالك عن مالك بن صعصعة قال: قال نبي الله ﷺ: «بيننا أنا عند البيت، وبين النائم واليقظان إذ سمعت قائلاً يقول: أحد الثلاثة بين الرجلين، فأُتِيتُ فانطَلَقَ بي، فأُتِيتُ بطست من ذهب فيها من ماء زمزم، فشرح صدري من كذا إلى كذا» قال قتادة: فقلت للذي معي: ما يعني؟ قال: إلى أسفل بطنه «فاستخرج قلبي فغسل بماء زمزم، ثم أعيد مكانه، ثم حُشي إيمانًا وحكمة، ثم أُتِيتُ بدابة أبيض، يقال له: البراق، فوق الحمار ودون البغل، يقع خَطْوُهُ عند أقصى طرفه، ثم حُمِلْتُ عليه، ثم انطلقنا عليه، حتى أتينا السماء الدنيا...»^(١).

وعند أحمد وغيره: أن النبي ﷺ كان في الحطيم، أو في الحجر بين النائم واليقظان، «إذ أتاني آت فشق ما بين هذه إلى هذه»^(٢).

أتى جبريل بالبراق، وركبه النبي ﷺ حتى وصل إلى المسجد الأقصى^(٣).

بناء المسجد الأقصى:

وسُمِّيَ بالمسجد الأقصى؛ لبعد المسافة بينه وبين المسجد الحرام، وقيل: لأنه لم يكن

(١) الحديث بطوله في صحيح مسلم برقم (١٦٤) وصحيح البخاري برقم (٣٢٠٧) و (٣٣٩٣) و (٣٤٣٠) و (٣٨٨٧).

(٢) يُنْظَرُ: الحديث في «المسند» (٢٠٨/٤) برقم (١٧٨٣٣-١٧٨٣٧) والترمذي (٣٣٤٦) والنسائي (٤٤٧) وفي «الكبرى» (٣١٣).

(٣) ذكره ابن كثير في آخر الحديث عن الإسراء، وذكره السيوطي في «الدر المنثور» (٢٢٤/٥) عن أبي نعيم في «دلائل النبوة» وهو في «صحيح مسلم» برقم (١٦٢) وابن أبي شيبة (٣٠٢/١٤).

هناك مسجد بعده، فقيل: المسجد الأقصى، وهو الذي بُني بعد المسجد الحرام بأربعين عامًا، كما جاء ذلك في الحديث الصحيح عن رسول الله ﷺ فيما يرويه أبو ذر رضي الله عنه قال: قلت: يا رسول الله، أيُّ مسجد وُضع في الأرض أولًا؟ قال: «المسجد الحرام»، قال: قلت: ثم أيُّ؟ قال: «المسجد الأقصى»، قلت: كم كان بينهما؟ قال: «أربعون سنة»^(١).

فالمسجد الأقصى هو ثاني مسجد بناه إبراهيم عليه السلام، وكانت المدة بين المسجدين أربعين عامًا، وهذه المدة كانت في حياة إبراهيم عليه السلام، الذي قُرن ذكره بذكر المسجد الحرام.

وجاء في سفر التكوين في الإصحاح الثاني عشر: أن إبراهيم عليه السلام لما دخل أرض كنعان نصب خيمته في الجبل شرق بيت إيل، وغربي بلاد عاي، وبنى هناك مذبحًا للرب.

وأرض كنعان هي أرض فلسطين، وبيت إيل، مدينة على بُعد أحد عشر ميلًا من أورشليم إلى الشمال، وكان اسمه عند الفلسطينيين (لوزا) فسماه يعقوب (إيل) وبلاد عاي تعرف الآن (الطّيبة) والمذبح، هو المسجد؛ فقد كانوا يذبحون القرابين في مساجدهم، ويطلقون اسم المذبح على المسجد^(٢).

وعلى هذا فإن إبراهيم عليه السلام هو الذي بنى المسجد الأقصى بعد بنائه للكعبة بأربعين عامًا، وهو الموضع الذي وضع عليه داود خيمته، وبنى عليه محرابه، كما أوحى الله إليه، وأوصى ابنه سليمان أن يبني عليه الهيكل، وقد جاء ذلك في سفر الملوك من أسفار التوراة.

تخريب المسجد الأقصى: وقد تخرب المسجد الأقصى ثلاث مرات:

المرّة الأولى: على يد بختنصر ملك بابل سنة ٥٧٨ قبل الميلاد، ثم جدده اليهود تحت حكم الفرس.

والمرّة الثانية: على يد الرومان في عهد ملكهم (طيطس) بعد حروب طويلة بينه وبين اليهود، وأعيد بناؤه، فأكمل تخريبه أدریانوس سنة ١٣٥ قبل الميلاد، ولم يبق منه إلا أطلال.

والمرّة الثالثة على يد الملكة (هيلانة أم قسطنطين) ملك الروم حين زارت أورشليم،

(١) «صحيح مسلم» برقم (٥٢٠) و«صحيح البخاري» برقم (٤٣٢٥)، (٣٣٦٦).

(٢) يُنظر: «تفسير التحرير والتنوير» لابن عاشور (١٥/١٦).

فأمرت بأن يُجعل موضع المسجد الأقصى مرمى للزبالة والقمامة.

ولما فتح المسلمون أرض الشام في عهد عمر بن الخطاب رضي الله عنه، جاء بنفسه ليشهد فتح مدينة فلسطين بما فيها القدس الشريف، وكانت تسمى أورشليم، وعرفها العرب باسم إيلياء وهو اسم من أنبياء بني إسرائيل كان في أوائل القرن التاسع قبل الميلاد، وتم الصلح بين عمر وأهل فلسطين، وكانوا نصارى يمثلهم البطريرك صفرونيوس^(١).

وإيلياء اسم بيت المقدس قبل الإسلام، وبعد الإسلام سميت بيت المقدس، كما أن تسمية إيلياء بالمسجد الأقصى من مبتكرات القرآن؛ إذ لم يكن معروفاً بهذا الاسم قبل الإسلام.

والبنيان القائم للمسجد الأقصى الموجود الآن، أي: حوائطه وبنيانه، هو الذي حدث في الدولة الأموية، بناه عبد الملك بن مروان، وأكمل البناء بعده الوليد ابنه، وكان جبريل عليه السلام قد ربط البراق في الحلقة التي في حائط البراق، ويزعم اليهود أن اسمه: حائط المبكى، وهو الحائط الذي رُبط فيه براق النبي صلى الله عليه وسلم ليلة أن أُسري به إليه، ودخل صلى الله عليه وسلم المسجد الأقصى، وصلى ركعتين تحية المسجد.

أثر مربوط البراق في زاوية المسجد الأقصى:

وهنا وقفة: فإن أبا سفيان لما كان بين يدي هرقل قيصر الروم، حين استدعى من بالشام من التجار، فجاءه بأبي سفيان، وأخذ يسأله عن سيرة محمد صلى الله عليه وسلم، وأبو سفيان يريد أن يطعن في النبي صلى الله عليه وسلم، ولكنه يقول: أخاف أن أسقط من عيني هرقل، إني لا أريد أن أكذب كذبة، فياخذها عليّ، ثم لا يصدقني بعد ذلك.

قال أبو سفيان لهرقل: سأذكر لك خبراً تعرف منه كذب محمد صلى الله عليه وسلم قال: ما هو؟ قال: إنه يزعم أنه خرج من أرضنا، أي: أرض الحرم إلى المسجد الأقصى، فصلى فيه ثم رجع من ليلته قبل الصباح إلى المسجد الحرام، وكان يقف عند رأس القيصر، بطريق إيلياء، وهذا البطريرق من بطارقة النصارى هو الخاص ببيت المقدس، وكانت الديانة النصرانية هي المنتشرة في هذا المكان قبل الإسلام.

وكان هذا البطريرق موثقاً بأن يقفل أبواب المسجد الأقصى عند الليل.

(١) يُنظر: «تفسير التحرير والتنوير» (١٧/١٥).

قال البَطْرِيقُ لَمَّا سَمِعَ كَلامَ أَبِي سَفِيانَ: لَقَدْ عَرَفْتُ هَذِهِ اللَّيْلَةَ، أَي: الَّتِي جَاءَ فِيهَا مُحَمَّدٌ ﷺ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَى، فَنَظَرَ إِلَيْهِ قَيَّصِرٌ وَقَالَ: وَمَا عَلَّمُكَ بِهَذَا؟ قَالَ: إِنِّي كُنْتُ لَا أَنَامُ لَيْلَةً حَتَّى أُغْلِقَ أَبْوَابَ الْمَسْجِدِ، فَلَمَّا كَانَتْ تِلْكَ اللَّيْلَةُ أَغْلَقْتُ الْأَبْوَابَ كُلَّهَا غَيْرَ بَابٍ وَاحِدٍ غَلَبَنِي، فَاسْتَعَنْتُ عَلَيْهِ بِعَمَّالِي وَمَنْ يَحْضُرُنِي كُلَّهُمْ، فَعَالَجْتُهُ فَغَلَبَنِي، فَلَمْ نَسْتَطِعْ أَنْ نَحْرُكَهُ، كَأَنَّمَا نَزَاوِلُ بِهِ جِبَلًا، فَدَعَوْتُ إِلَيْهِ النُّجَّارِينَ، فَنَظَرُوا إِلَيْهِ فَقَالُوا: إِنَّ هَذَا الْبَابَ سَقَطَ عَلَيْهِ النُّجَافُ وَالْبَنِيَانُ، وَلَا نَسْتَطِيعُ أَنْ نَحْرُكَهُ حَتَّى نَصْبِيحَ فَنَنْظُرَ مِنْ أَيْنَ أَتَى؟! قَالَ: فَرَجَعْتُ وَتَرَكْتُ الْبَابَيْنِ مَفْتُوحَيْنِ، فَلَمَّا أَصْبَحْتُ غَدَوْتُ عَلَيْهِمَا فَإِذَا الْمَجْرُ الَّذِي فِي زَاوِيَةِ الْمَسْجِدِ مَثْقُوبٌ، وَإِذَا فِيهِ أَثَرٌ مَرَبُوطِ الدَّابَّةِ.

قال: فَقُلْتُ لِأَصْحَابِي: مَا حُبَسَ هَذَا الْبَابَ اللَّيْلَةَ، إِلَّا عَلَى نَبِيٍّ، وَقَدْ صَلَّى هَذَا النَّبِيُّ اللَّيْلَةَ فِي مَسْجِدِنَا^(١).

١- فِي حَدِيثِ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ ؓ فِي صَحِيحِ مُسْلِمٍ، وَغَيْرِهِ، أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: «أُتِيتُ بِالْبَرَّاقِ، وَهُوَ دَابَّةٌ، أَبْيَضُ طَوِيلٌ، فَوْقَ الْحِمَارِ وَدُونَ الْبَغْلِ، يَضَعُ حَافِرَهُ عِنْدَ مَتْنِ طَرَفِهِ، قَالَ: فَرَكِبْتُهُ حَتَّى أُتِيتُ بَيْتَ الْمَقْدَسِ، قَالَ: فَرَبَطْتُهُ فِي الْحَلْقَةِ الَّتِي يَرِبُطُ بِهَا الْأَنْبِيَاءُ، قَالَ: ثُمَّ دَخَلْتُ الْمَسْجِدَ، فَصَلَّيْتُ فِيهِ رَكْعَتَيْنِ، ثُمَّ خَرَجْتُ، فَجَاءَنِي جَبْرِيلُ ؑ بِإِنَاءٍ مِنْ خَمْرٍ، وَإِنَاءٍ مِنْ لَبَنٍ، فَاخْتَرْتُ اللَّبَنَ»، فَقَالَ جَبْرِيلُ ؑ: اخْتَرْتُ الْفِطْرَةَ، ثُمَّ عَرَجَ بِنَا إِلَى السَّمَاءِ... الْحَدِيثُ^(٢).

٢- وَفِي جَامِعِ التِّرْمِذِيِّ: عَنْ بَرِيدَةَ ؓ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «لَمَّا انْتَهَيْنَا إِلَى بَيْتِ الْمَقْدَسِ، قَالَ جَبْرِيلُ كَذَا بِأَصْبَعِهِ، فَخَرَقَ بِهِ الْحَجَرَ، وَشَدَّ بِهِ الْبَرَّاقَ»^(٣) وَمَعْنَى قَالَ: كَذَا، أَي: ضَرَبَ الْجِدَارَ بِأَصْبَعِهِ.

(١) ذَكَرَهُ السَّيُوطِيُّ فِي «الدَّر الْمُنْثُور» (٢٢٤/٥) وَفِي الطَّبَعَةِ الْمُحَقَّقَةِ (٢٢٦/٩) وَقَدْ أَخْرَجَهُ أَبُو نَعِيمٍ فِي «الدَّلَائِل» عَنْ مُحَمَّدِ بْنِ كَعْبٍ الْقُرْظِيِّ.

(٢) بِطَوْلِهِ فِي «صَحِيحِ مُسْلِمٍ» بِرَقْمٍ (١٦٢) وَ«صَحِيحِ الْبُخَارِيِّ» (٧٥١٧) وَالطَّبْرِيِّ (٤١٦/١٤) وَ«الْمُسْنَدُ» (١٤٨/٣) بِرَقْمٍ (١٢٥٠٥) وَعَنْ حَذِيفَةَ بِرَقْمٍ (٢٣٣٣٢، ٢٣٣٣٣).

(٣) «سُنَنِ التِّرْمِذِيِّ» بِرَقْمٍ (٣١٣٢) قَالَ أَبُو عِيسَى: هَذَا حَدِيثٌ حَسَنٌ غَرِيبٌ. وَصَحَّحَ إِسْنَادَهُ الْأَلْبَانِيُّ فِي «صَحِيحِ التِّرْمِذِيِّ» (٢٥٠٤).

٣- وفي رواية البزار: «أن جبريل أتى صخرة بيت المقدس، فوضع إصبه فيها، فخرقها، فشدَّ به البراق».

٤- وأخرج عبد الرزاق عن قتادة عن أنس قال: أتى النبي ﷺ بالبراق ليلة أُسري به مُسْرَجًا مُلْجَمًا ليركبه، فاستصعب عليه، فقال له جبريل: ما يحملك على هذا؟ فوالله ما ركبك أحد قط أكرم على الله منه، فارتَضَّ عرقاً^(١)، أي: تصبب، وسال عرقاً وسكن.

وقد كان الإسراء من مكة إلى بيت المقدس، وكان المعراج ليلتها من بيت المقدس إلى السماوات العلا.

من مشاهد ليلة العُروج: ثم نُصِبَت الصخرة لرسول الله ﷺ، وعُرج به إلى السماوات، ورأى المقربين والأنبياء في كل سماء حيث أحياهم الله له.

رأى آدم في السماء الأولى ينظر على يمينه فيُسِّرُ حين يرى أبناءه في الجنة، وينظر عن يساره فيستاء حين يرى أبناءه في النار.

ووجد يحيى وعيسى -ابني الخالة- في السماء الثانية، ويوسف في السماء الثالثة، وإدريس في السماء الرابعة ﴿وَرَفَعْنَاهُ مَكَانًا عَلِيًّا ۝٥٧﴾ [مريم] وهارون في السماء الخامسة، ووجد موسى في السماء السادسة.

وفرض الله عليه وعلى أمته خمسين صلاة في اليوم واللييلة، فرضها الله هكذا أوَّلًا؛ حتى لا تستكثر أمته الخمس صلوات إذا عرفت أنها كانت خمسين في أول الأمر، ثم خففها الله علينا رحمة بنا، وجعلها خمسة في الفعل وخمسين في الأجر والثواب.

وفي السماء السابعة وجد النبي ﷺ إبراهيم عليه السلام وقد أسند ظهره إلى البيت المعمور، ثم تجاوز السماء السابعة، حتى سمع صريف الأقلام في الألواح، وزجَّ به جبريل في النور، وتأخر عنه قائلاً: ﴿وَمَا مِنَّا إِلَّا لَهُ مَقَامٌ مَّعْلُومٌ ۝١٢٤﴾ [الصافات].

(١) تفسير عبد الرزاق برقم (٣١٣١) وصححه الألباني في «صحيح سنن الترمذي» برقم (٢٥٠٣) وهو في «المسند» (١٦٤/٣) برقم (١٢٦٧٢) بإسناد صحيح على شرط الشيخين (محققوه) وأبو نعيم في الحلية (٢٢٨/٩) والبيهقي في «الدلائل» (٣٢٦/٢).

وتقدم النبي ﷺ وحده، ورأى من آيات ربه الكبرى، رأى سدرة المنتهى التي ينتهي إليها ما يصعد من أسفل، وما يهبط من أعلى.

ورأى جبريل على صورته الحقيقية وله ست مئة جناح ﴿وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ ۖ عِنْدَ سِدْرَةِ الْمُنْتَهَىٰ ۚ عِنْدَهَا جَنَّةُ الْمَأْوَىٰ﴾ [النجم] ورأى رفرفاً أخضر قد سدّ الأفق.

ورأى البيت المعمور في السماء السابعة يطوف حوله كل يوم سبعون ألف ملك لا يعودون إليه ثانية.

ورأى الجنة والنار، وقد صوّر الله له نعيم أهل الجنة، وصوّر له عذاب أهل النار بصور حسية، ومن ذلك تجسيد الثواب والعقاب كثواب المجاهدين في سبيل الله، وتمثيل ذلك بمن يزرع في يوم ويحصد في يوم، كلما حصد عاد الزرع كما كان.

وكما في عقاب من تتناقل رؤوسهم عن الصلاة المكتوبة يقوم تُرَضِّخ رؤوسهم بالصخر والحجارة، وكذا تصوير عقاب الزناة يقوم أمامهم لحم طيب وآخر خبيث، فيتركون الطيب ويذهبون إلى الخبيث.

وهكذا الذين يأكلون الربا، وصوّر الذين يغتابون الناس بأن لهم أظفاراً من نحاس يخمشون بها وجوههم ... إلخ. ثم نزل ﷺ إلى بيت المقدس، وأنزل الله معه الأنبياء الذين رحبوا به في السماوات، وصلى بهم إماماً.

الرسول محمد يؤم الرسل في المسجد الأقصى:

جاء في بعض الروايات أن هذه الصلاة كانت قبل العروج، والأرجح أنها كانت بعد العروج، أي: بعد أن رجع النبي ﷺ، والتقى بالأنبياء والمرسلين، ثم نزل ونزلوا معه وصلى بهم إماماً، وهذه الصلاة يُرَجَّح أنها صلاة الصبح؛ لأن النبي ﷺ عاد إلى مكة بعدها، وهذه الإمامة تشير إلى أن المصطفى ﷺ هو النبي الخاتم.

وقد كان اليهود يقولون لرسول الله ﷺ: ما من نبي بُعث قبلك إلا بُعث في بيت المقدس، أو هاجر إلى بيت المقدس، أو وُلد في بيت المقدس، وأنت جئت من مكان آخر، ومن ذرية أخرى؛ ولست من بني إسرائيل، فأخذ الله رسوله إليه في رحلة إلى بيت

المقدس؛ ليؤم الأنبياء والمرسلين؛ كي يبين الله سبحانه لهم ولغيرهم في درس عملي أن الراية والقيادة، وعموم الرسالة، إنما هي لهذا النبي الخاتم، فيها هو قد جاء بيت المقدس، وها هو يؤم جميع الرسل.

وهذه الصلاة تجسيد للميثاق المأخوذ على الأنبياء جميعاً وهم في عالم الغيب ﴿وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَا آتَيْنَاكُمْ مِنْ كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنْصُرُنَّهُ قَالَ أَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِي قَالُوا أَقْرَرْنَا قَالَ فَاشْهَدُوا وَأَنَا مَعَكُمْ مِنَ الشَّاهِدِينَ ﴿٨١﴾﴾ [آل عمران].

وفي هذا حث للخلق جميعاً -وفي مقدمتهم اليهود والنصارى- على اتباع صاحب هذه الرسالة التي نسخت ما قبلها من الرسالات.

وكل ما حدث في الإسراء والمعراج لا يخضع لمنطق العقل، ولا تتحكم فيه الماديات، فكله أمر خارق، ومن ذلك أن الإسراء والمعراج كانا بجسد النبي ﷺ وروحه، في هذا الوقت القصير، وقد قال تعالى: ﴿أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِ﴾ أي: جسداً وروحاً، يقظة لا مناماً.

شرف مقام العبودية لله: والنبي ﷺ أقرب الخلق إلى الله، وأرفعهم عنده منزلة؛ لكماله في مقام العبودية، حيث ذكره الله بها في أشرف مقاماته:

ففي الإسراء (أسرى بعبد)، وفي المعراج ﴿فَأَوْحَىٰ إِلَىٰ عَبْدِهِ مَا أَوْحَىٰ﴾ [النجم].

وفي مقام الدعوة إليه سبحانه: ﴿وَأَنَّهُ لَمَّا قَامَ عَبْدُ اللَّهِ يَدْعُوهُ كَادُوا يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِبَدًا﴾ [الجن].

وفي مقام التحدي بإعجاز القرآن ﴿وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا﴾ [البقرة: ٢٣].

وفي مقام الوحي والرسالة ﴿تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا﴾ [الفرقان: ١].

وقال ﷺ -فيما يرويه ابن عباس ؓ: «لا تطروني كما أطرت النصارى ابن مريم، فإنما أنا عبده، فقولوا: عبد الله ورسوله»^(١).

(١) من حديث ابن عباس في «صحيح البخاري» برقم (٣٤٤٥) وانظر: (٢٤٦٢) و«صحيح مسلم» برقم (١٦٩١).

فأكمل الخلق عند الله أكملهم عبودية له، ولهذا كان النبي ﷺ أقرب الخلق إلى الله، وأرفعهم عنده منزلة؛ لكماله في مقام العبودية لله.

الإسراء والعروج كانا يقظة بالجسد والروح:

والتسييح في أول السورة؛ لذكر أمر عظيم بعده، وللتعجب من شأن هذا الأمر الخارق، ولو كان الإسراء منامًا ما استحق العجب، وثبت أن النبي ﷺ ركب البراق، وركوب البراق يكون يقظة بالجسد، ووصف رسول الله ﷺ للمسجد الأقصى حين سأله المشركون عنه، وكذا وصف قوافل قريش التي كانت في الطريق، في كل هذا دليل على أن الإسراء كان يقظة بالجسد والروح.

ولو كان الإسراء والمعراج منامًا، ما كذبت قريش، ولا تعجبت، ويؤيد ذلك قوله تعالى: ﴿مَا زَاغَ الْبَصَرُ وَمَا طَغَى ﴿٧﴾ لَقَدْ رَأَى مِنْ ءَايَاتِ رَبِّهِ الْكُبْرَى ﴿٨﴾﴾ [النجم].

وما توصل إليه الإنسان من تقدم علمي في مجال اختراق الفضاء، يجعل الذهن مهينًا لقبول حادثة الإسراء والمعراج عقلاً عن ذي قبل، أما صلاة الرسل والأنبياء خلف النبي ﷺ بأجسادهم وأرواحهم، ورؤيته لهم في السماوات فإن ذلك بقدرة الله تعالى.

وقد خصَّ الله تعالى الأنبياء صلوات الله عليهم بخصائص في الآخرة، كما خصهم في الدنيا بخصائص، ومنها الإسراء والمعراج في جزء من الليل، وإذا كان الشهداء أحياء عند ربهم يرزقون، فالأنبياء أفضل منهم.

موقف المكذبين بالمعراج:

ولما رجع النبي ﷺ - في طريق عودته وهو عند ذي طوى - قال لجبريل: «إن قومي سيكذبونني»، فقال له جبريل: إن أبا بكر سيصدقك، فلما أصبح النبي ﷺ بمكة، وأخبر قومه بما حدث، واستمع إليه أبو جهل، جمع الناس، وقال لهم: استمعوا إلى ما يقول، فذكر لهم الرسول ﷺ ما كان من أمره، فكان منهم المصنفق، ومنهم الواضع يده على رأسه تعجبًا، ومنهم المكذب، ومنهم من ارتد عن إسلامه.

. وصدق أبو بكر ﷺ وأرضاه، فقال: إني أصدقه فيما هو أبعد من ذلك، أصدقه في خبر السماء،

أي: الوحي ينزل عليه صباحًا أو مساءً، فكيف لا أصدقه في رحلة الإسراء والمعراج؟! (١).

وكان من القوم من ذهب إلى المسجد الأقصى، ويعرف أوصافه، فقالوا له: إن كنت قد ذهبت إلى المسجد الأقصى فصفه لنا، فأخذ عليه الصلاة والسلام يصف لهم المسجد، قال: «حتى التَّسَّ عليَّ».

قلت: هذا أمر عجيب! أنا أصلي في هذا المسجد -الذي شُرح هذا التفسير على منبره (٢)- منذ أكثر من ربع قرن من الزمان، ولو سألتني أحد خارج المسجد، كم فيه من عمود، أو من باب أو من شباك؟ ما استطعت أن أعرف ذلك ولا أجيبه، والنبى ﷺ دخل المسجد الأقصى لمدة لحظات، أو دقائق، ومع هذا فقد أخذ ﷺ يصفه لهم، حتى التَّسَّ عليه الوصف.

عن جابر بن عبد الله أن رسول الله ﷺ قال: «لما كذبتني قريش حين أُسري بي إلى بيت المقدس قمت في الحجر، فجلى الله لي بيت المقدس، فطفقت أخبرهم عن آياته وأنا أنظر إليه» (٣) أي: رأيته أمامي كالشاشة، عند دار عقيل بن أبي طالب، ابن عمه ﷺ، وداره قرية من المسجد، يقول: رأيت المسجد الأقصى عند دار عقيل: «فطفقت أخبرهم عن آياته» أوصافه، وشكله «وأنا أنظر إليه» وعندئذ قالوا: أما النعت فوالله لقد أصاب (٤).

لكنهم أيضًا يريدون تعجيز النبي ﷺ وتكذيبه، فقالوا: يا محمد، لنا غير في الطريق - قافلة تجارية - قادمة من الشام صفها لنا، وأين هي الآن؟ قال: «رأيت غير بني فلان في الروحاء»، فحدد لهم المكان، «ورأيتهم وقد ضلَّ منهم بعير، وأخذوا يبحثون عنه،

(١) يُنظر هذا المعنى في: «دلائل النبوة» للبيهقي (٣٦٠/٢) و«المستدرک» (٦٢/٣) قال الحاكم: هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه.

(٢) جامع مستشفى القوات المسلحة بالرياض.

(٣) «صحيح البخاري» برقم (٤٧١٠) وبنحوه (٣٨٨٦) و«صحيح مسلم» برقم (١٧٠) والترمذي (٣١٣٣) والنسائي في «الكبرى» (١١٢٨٢) والطبري (٤٢١/١٤) و«المسند» (٣٧٧/٣) برقم (٥٠٣٤) والبيهقي برقم (١٥٠٣٤) حديث صحيح، في «دلائل النبوة» (٣٥٩/٢) من حديث جابر بن عبد الله.

(٤) جاء هذا عند أحمد في «المسند» (٣٠٩/١) عن ابن عباس برقم (٢٨١٩) وإسناده صحيح على شرط الشيخين والبخاري في «الكشف» (٥٦) والطبراني في «الكبير» (١٢٢٨٢) وفي «سنن النسائي الكبرى» برقم (١١٢٨٥) و«دلائل النبوة» للبيهقي (٣٦٣/٢) وإسناده صحيح.

ووجدت في رحالهم إناء فيه ماء، وكنت عطشاً، فرفعتُ الغطاء، وشربتُ من هذا الماء، ثم غطّيته، ووضعتُه كما كان، وذهبت، فاسألوهم: هل وجدوا الماء في القَدَح كما كان؟ قال: ومررت بِعِيرِ بني فلان، وفلان وفلان راكبان، فنفر البعير فرمى بفلان، فانكسرت يده، فاسألوهم عن ذلك.

قالوا: أخبرنا عن عيرنا؟ قال: رأيتهَا بالتنعيم، وكنت في شغل عن عدتها، فأوحى الله إليه بأن جعلها ماثلة أمامه، فذكر عددهم كذا، ووصفهم كذا، يتقدمهم جمل أَوْرق، وعلى هذا الجمل غرارتان مَخِيطتان سوداوان، وأن هذه العير ستصل عند طلوع الشمس، فخرج القوم نحو الثنية في الوقت المحدد إلى (كداء) وهم ينتظرون متى تطلع الشمس حتى يكذبوه، فقال أحدهم، وهو ينظر جهة المشرق: ها هي الشمس قد طلعت، أي: والعير لم تحضر، فقال الآخر: وهذه العير قد أقبلت، يتقدمها بعير أَوْرق، وفيها فلان وفلان، كما قال ﷺ^(١).

ولكن القوم بعد ذلك لم يؤمنوا، وقالوا: ساحر كذاب، وتلك طبيعة أهل الكفر والفجور، إنهم لا يكتفون بالحجة والبرهان والبيان، ولا بالمنطق والحوار، ولا بالدليل العقلي، ولا بالروحانية الإيمانية، كما قال سبحانه: ﴿قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُ لَيَحْزُنُكَ الَّذِي يَقُولُونَ فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَكِنَّ الظَّالِمِينَ إِنَّمَا يُعِندُكَ اللَّهُ بِمَا تُكَدُّونَ﴾ [الأنعام].

أخرج الإمام أحمد، وغيره، عن عبد الصمد، وحسن، عن ابن عباس ؓ قال: أُسْري بالنبي ﷺ إلى بيت المقدس، ثم جاء من ليلته، فحدّثهم بمسيره وبعلامة بيت المقدس وبغيرهم، فقال ناس: قال حسن: نحن لا نصدق محمداً بما يقول: فارتدوا كفاراً، فضرب الله أعناقهم مع أبي جهل، وقال أبو جهل: يخوفنا محمد بشجرة الزقوم، هاتوا تمرًا وزُبْدًا، فترقّموا.

ورأى الدجال في صورته رؤية عين ليس رؤيا منام، ورأى عيسى، وموسى، وإبراهيم

(١) جاء هذا في حديث شداد بن أوس في «سنن الترمذي» وابن أبي حاتم في تفسيره، وحديث أنس بن مالك في «سنن النسائي» وفي المعجم الكبير للطبراني (٤٣٢/٢٤) برقم (٧١٤٢) وفي «دلائل النبوة» للبيهقي (٣٥٥/٢) وقال: هذا إسناد صحيح وأخرجه البزار (٥٣) كشف.

صلوات الله عليهم، فسئل النبي ﷺ عن الدجال فقال: «أَقْمَرُ هَجَانًا» أي: أبيض كريم، قال: حسن: قال: رأيته فيلمايًا أقمر هَجَانًا، إحدى عينيه قائمة كأنها كوكب دري، كأن شعر رأسه أغصان شجرة.

ورأيت عيسى شابًا أبيض جعد الرأس، حديد البصر، مبطن الخلق.

ورأيت موسى أسحم -أسمر- آدم، كثير الشعر، شديد الخلق. ونظرت إلى إبراهيم فلم أنظر إلى إرب من آراه، إلا نظرت إليه مني، كأنه صاحبكم، فقال جبريل ﷺ: سلم على أبيك، فسلمت عليه^(١).

مع آية الإسراء:

لقد بارك الله حول المسجد الأقصى بالثمار، والزرورع، والأشجار، والأنهار ﴿الَّذِي بَرَكْنَا حَوْلَهُ﴾ وباركنا فيه أيضًا، كما قال تعالى في شأن إبراهيم ﷺ: ﴿وَنَجَّيْنَاهُ وَلُوطًا إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي بَرَكْنَا فِيهَا﴾ [الأنبياء: ٧١] ومن بركته، تفضيله على غيره من المساجد، سوى الحرمين، وأنه يطلب شد الرحل إليه للعبادة والصلاة فيه، وأن الله تعالى اختصه مكانًا لكثير من أنبيائه ورسله وأصفياه، فهو مهبط الأنبياء، ومهبط الملائكة، وهو مكان إرسال الرسل، ومسرى خاتم النبيين، والصلاة فيه مُفَضَّلَةٌ بخمس مئة صلاة في غيره بعد المسجد الحرام، والمسجد النبوي، وهو أولى القبلتين، وثاني المسجدين، وثالث الحرمين، وإليه تشد الرحال بعد المسجد الحرام، ومسجد رسول الله ﷺ، وقد وصف الله المسجد الحرام بقوله: ﴿مُبَارَكًا﴾ أي: هو مبارك في حد ذاته، ووصف المسجد الأقصى بقوله ﴿بَرَكْنَا حَوْلَهُ﴾.

ووصف مسجد بيت المقدس بالأقصى يتضمن الإشارة إلى أنه سيكون بين المسجدين، مسجد عظيم هو المسجد النبوي، وهو قصي عن المسجد الحرام، فيكون مسجد بيت المقدس أقصى منه، فتكون الآية مشيرة إلى المساجد الثلاثة المفضلة في الإسلام على

(١) «المسند» (٤٧٣/١) صحيح إسناده عند أحمد شاكر ومحققو المسند برقم (٣٥٤٦) وأخرجه النسائي في التفسير بإسناد صحيح من حديث أبي زيد، ثابت بن يزيد، عن هلال، وهو ابن خباب، وفي «السنن الكبرى» برقم (١١٤٨٤) وأبي يعلى (٢٧٢٠) والطبري في تهذيب الآثار ص (٤٠٨) قال ابن كثير (٥/ ٢٨): وهو إسناد صحيح.

جميع المساجد، والتي لا تشد الرحال إلا إليها.

وقد ذكرت الآية مبدأ الإسراء ونهايته، للتنقيص على قطع هذه المسافة في جزء من الليل، وللإشارة إلى أن حدث الإسراء يرمز إلى أن الإسلام قد جاء بشرائع التوحيد والحنيفية التي جاء بها خليل الرحمن الصادرة من المسجد الحرام إلى ما تفرّع عنه من الشرائع في بيت المقدس^(١).

وبيّن الله سبحانه العلة في هذه الرحلة في قوله: ﴿لِنُرِيَهُمْ مِنْ آيَاتِنَا﴾ أي: ليشاهد عجائب قدرة الله تعالى، وأدلة وحدانيته، ومن ذلك أنه رأى الجنة والنار، ورأى الأنبياء على مراتبهم، وفرض الله عليه الصلوات، وقد ذكرنا طرفاً منها ﴿إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ سميع لأقوال العباد، بصير بأعمالهم، كما قال تعالى عن إبراهيم: ﴿وَكَذَلِكَ نُرَى إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَكُوتِ وَالْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ﴾ [الأنعام]؛ لأن إدراك المحسوسات أثبت من إدراك المدلولات، وفي ليلة المعراج انتقل النبي ﷺ من عالم الغيب إلى عالم المشاهدة.

تَكْرِيمُ اللَّهِ تَعَالَى لِمُوسَى بِالتَّوْرَةِ كَمَا كَرَّمَ مُحَمَّدًا بِالإِسْرَاءِ

٢- ﴿وَأَتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَجَعَلْنَاهُ هُدًى لِبَنِي إِسْرَءِيلَ^(٢) أَلَّا^(٣) تَتَّخِذُوا مِنْ دُونِي وَكِيلًا﴾

قرن الله سبحانه بين نبوة موسى ونبوة محمد، وقرن بين كتابيهما وشريعتيهما، لأن نبوتيهما أعلى النبوات، وكتابيهما أفضل الكتب، وشريعتيهما أكمل الشرائع.

وكانت حادثة الإسراء ليلاً، كما كانت نبوة موسى ليلاً، حين سار بأهله من أرض مدين؛ إذ آنس من جانب الطور ناراً فقال لأهله: امكثوا إني آنست ناراً، وهناك نودي: ﴿أَنْ يَمْوِسَّىٰ إِنْتَ أَنَا اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ [القصص: ٣٠].

(١) يُنظَر: «تفسير التحرير والتنوير» (١٥/١٥).

(٢) قرأ أبو جعفر بتسهيل الهمزة الثانية من (إسرائيل) مع المد والقصر ومثله حمزة عند الوقف، والباقون بالتحقيق.

(٣) قرأ أبو عمرو بياء الغيب في (ألا تتخذوا)؛ لمناسبة (وجعلناه) و (أن) مصدرية مجرورة بحرف جر محذوف، و (لا) نافية، أي: لئلا يتخذوا، والباقون بقاء الخطاب على الالتفات، و (أن) مفسرة بمعنى: أي، و (لا) ناهية، أي: لا تتخذوا.

وبعد أن ذكر الله سبحانه هذه الكرامة لرسوله محمد ﷺ أعقبها بإكرام الله تعالى لنبيه موسى ﷺ بإعطائه التوراة؛ لمناسبة ذكر المسجد الأقصى، فقال تعالى: ﴿وَأَتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ﴾ أي: أنزلنا عليه التوراة، وجعلناها كتاب هداية، ونور لبني إسرائيل، يخرجهم من ظلمات الجهل والكفر إلى نور العلم والإيمان، وأمرناهم أن لا يعبدوا غير الله، وأن لا يشركوا معه غيره، وألا يعتمدوا على سواه، وألا يتخذوا وكيلًا أو حفيظًا -يتوكلون عليه، ويفوضون إليه أمورهم- غير الله سبحانه؛ فالوكيل هو الذي تُفوض إليه الأمور، وقد أنزل الله التوراة على موسى؛ لئلا يتخذ بنو إسرائيل معبودًا غير الله سبحانه.

وقد جاء وصف التوراة بأنها بيان للحق، وإرشاد لبني إسرائيل في أكثر من آية، قال تعالى: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَا التَّوْرَةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ﴾ [المائدة: ٤٤].

وقال سبحانه: ﴿قُلْ مَنْ أَنْزَلَ الْكِتَابَ الَّذِي جَاءَ بِهِ مُوسَى نُورًا وَهُدًى لِلنَّاسِ﴾ [الأنعام: ٩١].

وقال سبحانه بعد وصف القرآن والثناء عليه: ﴿وَمِنْ قَبْلِهِ كِتَابُ مُوسَى إِمَامًا وَرَحْمَةً﴾ [هود: ١٧]، ويشبه هذه الآية قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ فَلَا تَكُنْ فِي مِرْيَةٍ مِنْ لِقَائِهِ وَجَعَلْنَاهُ هُدًى لِبَنِي إِسْرَءِيلَ﴾ [السجدة: ١٢].

وبعد أن وصف الله التوراة هنا بأنها ﴿هُدًى لِبَنِي إِسْرَءِيلَ﴾ وصف القرآن بعدها بأنه أقوم طريقة من غيره في الهداية، فقال تعالى: ﴿إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ﴾ [الإسراء: ٩].

دَعْوَةُ الْأُمَّةِ إِلَى تَوْحِيدِ اللَّهِ تَعَالَى

٣- ﴿ذُرِّيَّةَ مَنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ إِنَّهُ كَانَ عَبْدًا شَكُورًا﴾

ثم نادى الله سبحانه البشر جميعًا: أمة محمد ﷺ، وأمة بني إسرائيل وغيرهم؛ فهم جميعًا مخاطبون بالدعوة الإسلامية، فقال: يا ذرية نوح أبي البشرية الثاني، الذي نجاه الله وأبناءه في سفينة النجاة، غير ابنه الكافر، الذي أغرق مع الكافرين، يا ذرية من حملنا مع نوح في السفينة، اعبدوا الله، واشكروه، ووحّدوه، كما كان أبوكم نوح يشكر الله تعالى ويعبده، إنه كان عبدًا شكورًا، وفي هذا ثناء على نوح ﷺ لقيامه بشكر الله تعالى، واتصافه بالعبودية والشكر، وفيه حث لذريته أن يقتدوا به في شكره، وأن يتذكروا نعمة الله

عليهم، حيث أبقاهم واستخلفهم في الأرض، وأغرق غيرهم.

قال سلمان: كان نوح إذا أكل أَكَلَةً حمد الله عليها، وإذا شرب شَرَبَةً حمد الله عليها، وإذا لبس ثيابًا حمد الله عليها فُسِّمِيَ عبدًا شكورًا^(١).

والله سبحانه يقول لنا: يا أمة محمد، تأسؤا بأبيكم نوح، واقتدوا به في هدايتكم، وشكركم لله سبحانه.

وفي الآية تعريض بالذم لبني إسرائيل؛ لأنهم لم يهتدوا بهدي التوراة، ولم يشكروا نعم الله تعالى عليهم، وهم من ذرية سام بن نوح الذي نجا في السفينة مع من نجا؛ فإن ذرية نوح ﷺ نجا منهم فريق، وغرق منهم.

ولأن بني إسرائيل لم يعملوا بما في التوراة، ولم يقوموا بواجب شكر نجاتهم وعدم إهلاكهم، فإنه يوشك أن ينزل بهم عذاب استئصال كامل، ولذا جاء ذكْرُهُمْ في الآية التالية باستئصال معظمهم مرتين؛ نتيجة الإفساد في الأرض.

فالآية تَصِلُ ما قبلها بما بعدها عن بني إسرائيل، وفيها تبكيت لهم على إشراكهم بالله تعالى وتحريفهم للتوراة، وهي تمهيد لبيان سبب إهلاكهم مرتين، وقد بيّن تعالى في آية أخرى أن من ذرية نوح من يعذبهم الله تعالى، ويمسهم عذاب أليم بعد أن يُمَتَّعُوا وَيُنْعَمُوا في الدنيا، ومنهم من تحل عليهم بركات الله تعالى، فينعمون في الدنيا والآخرة، قال تعالى: ﴿قِيلَ يَنْوُحُ أَهْطِ سَلَامًا مَّا وَبَّرَكْتَ عَلَيْكَ وَعَلَىٰ أُمَمٍ مِّمَّنْ مَعَكَ وَأُمُّ سَمْعُومَ ثُمَّ يَمْسُهُمْ مِنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [هود] فنوح ﷺ أب للأبرار المطيعين، وأب للكفار المتكبرين، وقد ذكّر الله تعالى بني إسرائيل بأن نوحًا ﷺ، كان عبدًا بارًا مطيعًا لربه، فإن اقتدوا به فقد فازوا ونجّوا، وإن خالفوا طريقه فهم من الفريق الهالك.

وقد جاء وصف نوح ﷺ في هذا الحديث الشريف بما جاء في الآية التي معنا:

عن أبي هريرة ؓ أن النبي ﷺ قال في حديث الشفاعة: «... فيأتون نوحًا، فيقولون:

(١) أخرجه الحاكم بسند صحيح في «المستدرک» (٢/ ٦٣٠) عن سلمان التيمي عن سفيان الثوري وأبي عثمان النهدي، وكذا الطبري، وأخرجه عبد الرزاق بسند صحيح عن معمر عن قتادة وأخرجه أحمد في «الزهد» ص (٥٠) عن محمد بن كعب القرظي، وابن أبي الدنيا (٢٠٧).

يا نوح، أنت أول الرسل إلى أهل الأرض، وقد سمّاك الله عبداً شكوراً، اشفع لنا إلى ربك... الحديث^(١).

فيا ذرية نوح، ويا أبناء المؤمنين الذين كانوا مع نوح في السفينة، لقد نجينا آباءكم من الغرق، وهذا الإنجاء قد أدى إلى وجودكم في الحياة، فاشكروا الله على نعمه، ولا تشركوا بالله أحداً في عبادته، واقتدوا بنوح عليه السلام، فقد كان شاكراً لله بقلبه ولسانه وجوارحه.

وفي معنى الآية قوله تعالى: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ مِنْ ذُرِّيَةِ آدَمَ وَمِمَّنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ﴾ [مريم: ٥٨] والذين حملهم نوح معه في السفينة هم أهله، ومن آمن معه من قومه الذين جاء ذكرهم في قوله تعالى: ﴿قُلْنَا أَمَلْ فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَنْ سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ وَمَنْ آمَنَ وَمَا آمَنَ مَعَهُ إِلَّا قَلِيلٌ﴾ [هود: ٤٠].

والذين سبق عليهم القول من أهله بالشقاء: امرأته، وابنه الكافر؛ فقد قيل لامرأة نوح وامرأة لوط: ادخلا النار مع الداخلين، أما ابنه فقد حال بينهما الموج فكان من المغرقين.

إِفْسَادُ بَنِي إِسْرَائِيلَ فِي الْأَرْضِ

٤- ﴿وَقَضَيْنَا إِلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ فِي الْكِتَابِ لُفْسِدُنَّ فِي الْأَرْضِ مَرَّتَيْنِ وَلَعَنَّا غُلُوكَ كَبِيرًا﴾

أخبرنا الله سبحانه أن اليهود، أنه سيقع منهم إفساد في الأرض مرتين، وأن الله تعالى سيسلط عليهم أعداءهم في كل مرة لينتقموا منهم فيقتلوهم ويأسروهم، وقد تحقق إعلام الله لهم، وفي هذا الإعلام تحذير وإنذار لهم لعلهم يرجعون عن الإفساد في الأرض.

والآية الرابعة من سورة الإسراء، هي بداية آيات خمس تتحدث عن إفساد بني إسرائيل في أرض فلسطين وما حولها، وكذا في كل أرض يحلُّون بها، وتبيِّن الآية أن بني إسرائيل يفسدون في فلسطين إفسادتين عظيمتين كبيرتين، ثم يقع منهم إفساد كثير متجدد بين الحين والآخر، وأن الله ﷻ ينتقم منهم في كل مرة على أيدي عباد له أولي بطش وبأس شديد، وكلما عادوا إلى الإفساد في أرض فلسطين، وغيرها عاد الله سبحانه إلى الانتقام منهم على أيدي عباد له أقوياء أشداء؛ تحقيقاً لقوله جل شأنه: ﴿وَإِذْ تَأَذَّتْ رَبُّكَ لِبَعْنٍ عَلَيْهِمْ إِلَى

(١) في «صحيح البخاري» برقم (٣٣٤٠، ٤٧١٢) و«صحيح مسلم» (١٩٤).

يَوْمَ الْقِيَمَةِ مَنْ يَسُومُهُمْ سُوءَ الْعَذَابِ إِنَّ رَبَّكَ لَسَرِيعُ الْعِقَابِ وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿١٧٧﴾ [الأعراف]
فالوعد قائم إلى يوم الساعة: ﴿لَيَبْعَثَنَّ عَلَيْهِمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَمَةِ مَنْ يَسُومُهُمْ سُوءَ الْعَذَابِ﴾.

الإفسادتان وأولوا البأس الشديد:

وتتعدد أقوال المفسرين والمؤرخين في تحديد الإفسادتين، وفي تحديد القوم أو العباد الذين بعثهم الله سبحانه على بني إسرائيل فعذبوهم وانتقموا منهم؛ إذ ليس في ذلك خبر عن المعصوم ﷺ.

ويرجح من أقوال المفسرين والمؤرخين أن الإفسادة الأولى: كانت بتحريفهم التوراة، وتبديلهم كلام الله تعالى، ومخالفتهم لأحكام الله التي نزلت في التوراة، وقتلهم نبي الله (شعيا) عليه السلام، وهو الذي بشر بعيسى ومحمد عليهما السلام، وحبسهم لنبيهم (أرميا).

وأما الإفسادة الثانية فهي قتلهم لنبي الله زكريا، وابنه يحيى عليهما السلام.

وأما العباد الذين بعثهم الله إليهم للانتقام منهم في المرة الأولى فيرجح أنه يختصر وجنوده، في سلسلة الأسر البابلي.

والعباد الذين بعثوا للانتقام منهم في المرة الثانية هم قيصر الروم وابنه وجنودهما؛ حيث خربوا أورشليم، وأحرقوا الهيكل.

وهؤلاء العباد الذين سُلِّطوا عليهم في المرتين، وصفهم ربنا بأنهم أصحاب قوة وبأس في الحروب، قال تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ نُوَلِّي بَعْضَ الظَّالِمِينَ بَعْضًا بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ [الأنعام].

الأسر البابلي لليهود لهم ثلاث مرات: (البعث الأول)

وقد كان بنو إسرائيل قبل عهد بختنصر مقهورين مهزومين من جالوت وجنوده؛ حيث سلطهم الله عليهم فقتلوا وأسروا منهم الأعداد المهولة، وضربوا الجزية عليهم، وعذبوهم وساموهم سوء العذاب.

ثم إن بني إسرائيل طلبوا من نبيهم (صموئيل) أن يدعو الله تعالى أن يرسل إليهم ملكًا يقاتل معهم جالوت وجنوده، فأرسل الله لهم طالوت ملكًا وزاده بسطة في العلم

والجسد، كما جاءت قصته في سورة البقرة^(١)؛ حيث أرسل الله إليهم طالوت يقاتل معهم جالوت وجنوده، فكان ضمن جند طالوت، داود عليه السلام، وكان فتى صغيراً قبل أن يُبعث نبياً، فقتل داود جالوت، كما جاء في قوله تعالى: ﴿فَهَزَمُوهُمْ بِإِذْنِ اللَّهِ وَقَتَلَ دَاوُدُ جَالُوتَ وَءَاتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَهُ مِمَّا يَشَاءُ﴾ [البقرة: ٢٥١].

ولما قتل داود جالوت عاد مُلك بني إسرائيل إليهم، وانتصروا على أعدائهم، كما قال سبحانه: ﴿ثُمَّ رَدَدْنَا لَكُمُ الْكَرَّةَ عَلَيْهِمْ﴾ أي: نصرناكم على جالوت وجنوده، وأظهرناكم عليهم، وازدهر ملككم في هذه الفترة ﴿وَأَمَدَدْنَكُمْ بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ﴾ وكان هذا في عهد داود، وعهد ابنه سليمان عليهما السلام، ودام مُلكهم نحو ثمانين سنة، وبعد ذلك انقسمت دولتهم إلى مملكة إسرائيل في الشمال وقد غزاها الآشوريون سنة ٧٢١ ق.م، ودولة يهوذا في الجنوب وقد انتهت على يد بُخْتَنْصَر سنة ٥٨٨ ق.م.

فالمراد بالبعث الأول في الآية: ما يسمى في التاريخ بالأسر البابلي، وهو سلسلة غزوات ملك بابل، وآشور، لأورشليم، وقد حدث ذلك ثلاث مرات، انتصر فيها بختنصر على اليهود فأسرهم وقتلهم.

الأسر الأول: كان في حدود سنة ٦٠٦ قبل الميلاد؛ حيث تم فيه أسر جماعات كثيرة من اليهود من أورشليم إلى بابل بالعراق.

الأسر الثاني: كان سنة ٥٨٨ قبل الميلاد أيضاً؛ حيث أكثر بُخْتَنْصَر القتل في اليهود، وسبى كل من بقى منهم حياً، وأحرق هيكل سليمان، وبقيت أورشليم خراباً.

الأسر الثالث: كان سنة ٥٠٨ قبل ميلاد المسيح؛ حيث تم فيه أسر ملك يهوذا، وجمع غفير من الإسرائيليين، وكان هذا الأسر أعظم من الأسر الأول.

وقد قضى بنو إسرائيل في الأسر البابلي نيفاً وأربعين سنة إلى أن حارب (قورش) ملك فارس، البابليين وهزمهم، وفتحت بابل سنة ٥٣٨ قبل الميلاد، ثم أذن لليهود أن يرجعوا إلى أورشليم؛ لأنهم كانوا أعواناً للفرس على غزو بابل.

(١) في الآيات من (٢٤٦) إلى (٢٥٢) في سورة البقرة.

ولما عاد اليهود إلى أورشليم جددوا ملكهم وهيكلمهم، وكانوا تحت نفوذ مملكة فارس، ومكثوا على ذلك مئتي سنة من سنة ٥٣٠ إلى سنة ٣٣٠ قبل الميلاد.

ثم أخذ ملكهم يضمحل؛ بسبب غزو ملوك مصر البطالمة لهم، فصاروا تحت سلطانهم إلى سنة ١٦٦ قبل الميلاد، ثم انتصر لليهود أحد اللاويين، واسمه (ميشيا) فتولى الأمر عليهم، وصار الملك في أبنائه إلى سنة أربعين قبل الميلاد.

ثم دخلت مملكتهم تحت نفوذ الرومان، وأقاموا عليها أمراء من اليهود، كان أشهرهم (هيرودس)، ثم تمردوا على الرومان، وخرجوا عليهم.

ثم كان البعث الثاني على يد قيصر الروم: حين أرسل قيصر الروم قائده وابنه لخراب أورشليم وإحراق الهيكل، فأسر من اليهود نيفاً وتسعين ألفاً، وقتل منهم نحو المليون، وكان ذلك في حدود سنة أربعين ميلادية.

ثم جاء إمبراطور الروم (أدريانوس) فرمى قناطير الملح على أرض أورشليم؛ كي لا تصلح للزراعة، وكان ذلك سنة ١٣٥ ميلادية.

وبذلك انتهى أمر اليهود وانقرض، وتفرقوا في الأرض، ولم تخرج أورشليم من حكم الرومان إلى أن فتحها المسلمون في عهد عمر بن الخطاب رضي الله عنه سنة ١٦ هجرية^(١).

فالمسلط عليهم في المرة الأخيرة هم الرومان حين كانت الإفساد الثانية وهي قتلهم لذكريا، ويحيى عليهما السلام.

سبب قتل اليهود لنبي الله زكريا وابنه يحيى:

وقيل في سبب قتل زكريا عليه السلام: أنهم اتهموه في مريم، وأرادوا أن يقتلوه، فهرب منهم، ولما هرب، فتح الله له شجرة فدخل فيها، وبقي شيء من أهداب ملابسه خارج الشجرة، فدلهم الشيطان على الشجرة فنشروها بالمنشار وزكريا داخلها.

وقيل في سبب قتلهم لنبي الله يحيى بن زكريا: إن يحيى عليه السلام أرسل إليهم اثني عشر حوارياً من حوارهم يعلمونهم أحكام الحلال والحرام، وكان من بين ذلك أن يحرموا

(١) يُنظَر: «تفسير التحرير والتنوير» (٣٨/١٥).

عليهم نكاح المحارم، مثل: بنت الزوجة، وابنة الأخ، وكان مَلِكُهُمْ، له ابنة أخ يريد أن يتزوجها، فسأل يحيى: هل يجوز له الزواج منها؟ فقال: إنها لا تحل لك، فاجتازت أم البنت، وطلبت من بنتها أن تتصنع للملك، وأن تلبس وتتجمل له؛ حتى تُوقعه في حبائلها، وتمتلك عليه مشاعره، وتسقيه خمرًا، ثم تمتنع منه إلى أن يأتي لها برأس يحيى، وكان لها في كل يوم حاجة تطلبها منه ويقضيها لها، ففعلت البنت، وقتل الملك يحيى ﷺ، ووُضِعَتْ رأسه في طست، قالوا: ووقع شيء من دمه على الأرض فأخذ يغلي هذا الدم، ولم يَسْكُنْ حتى سلط الله عليهم الرومان، فساموهم سوء العذاب؛ وذلك لأن زكريا ويحيى كانا على عهد الرومان؛ إذ إن يحيى كان معاصرًا لعهد عيسى ﷺ، وأن الفترة الزمنية بين بختنصر، وبين زكريا ويحيى نحو خمسة قرون، فالمسلط عليهم في المرة الثانية هم الرومان وكان ذلك سنة ٧٠ ميلادية؛ لأن التاريخ يقول: إن بختنصر كان قبل رفع عيسى، و وفاة يحيى، وزكريا، بسنين متطاولة، والملك الذي انتقم من اليهود بسبب هؤلاء هو ملك من الرومان^(١).

وما أوقعه الرومان بهم كان أشد، وأنكى، مما أوقعه بهم بختنصر؛ إذ إنهم لقوا على أيدي الرومان بقيادة (تيطس) الأهوال، والسلب، والقتل، فمزق شملهم، ودمر أورشليم، وقتل من اليهود نحو المليون، وسالت الدماء كالأنهار، وما أوقعه بهم بختنصر كان أهون من هذا، فيما يُسمَّى بالسبي البابلي^(٢).

فوائد من الآية:

- ١- وفي ذكر القضاء إلى بني إسرائيل، إخبار من الله تعالى بأنه لا يظلم الناس شيئًا، فيعاقبهم على ما يقع منهم من عصيان، ويرحمهم إذا تابوا، وأصلحوا، ورجعوا إليه.
- ٢- وفيه تحذير من الوقوع في المعاصي، وتبصير بسوء العقاب لمن سلك طريق الغي والضلال.
- ٣- وفيه تنبيه لليهود المعاصرين، ومن على شاكلتهم من مجاوزة الحدود والطغيان.
- ٤- وفيه دعوة لليهود وغيرهم إلى الدخول في الإسلام الناسخ لجميع الديانات السابقة.

(١) يُنظر: «مفاتيح الغيب» للرازي (٢٠٥/٤).

(٢) يُنظر: «تاريخ الإسرائيليين» لشاهين مكاريوس ص (٧٦).

٥- وفيه إشارة إلى أن الأمم المغلوبة تستطيع أن تسترد مجدها، وعزها متى أصلحت من شأنها، واستقامت على منهج الله تعالى.

٦- وفي القصة تذكير لبني إسرائيل ببعض نعم الله عليهم، ومنها أن الله تعالى يجعل لهم الغلبة على عدوهم، ويمدهم بالأموال والبنين، ويجعلهم أكثر عددًا وأعز قوة.

وَنَرْجِعْ إِلَى الْآيَاتِ: ﴿وَقَضَيْنَا إِلَىٰ بَنِي إِسْرَءِيلَ فِي الْكِتَابِ لُفُؤُكُمْ فِي الْأَرْضِ مَرَّتَيْنِ﴾ أي: أخبرنا بني إسرائيل وعهدنا إليهم، وأعلمناهم، وأوحينا إليهم في التوراة التي أنزلت على نبيهم موسى ﷺ أنه سيقع منهم إفساد كثير في الأرض المقدسة وهي الأرض التي يعيشون عليها ويتسلطون عليها بالظلم والقهر.

ويجوز أن يراد بالكتاب: كتب أنبياء بني إسرائيل وأسفارهم؛ فقد ذُكر الإفساد مرتين في كتاب أشعياء، وكتاب أرمياء، كما ذُكر في الإصحاح السادس والعشرين، والثامن والعشرين، والثلاثين من التوراة، فهي كتب متعددة.

وليس معنى الآية أن الله تعالى ألزمهم وأجبرهم، أو قضى عليهم قضاء مبرماً، إنما المعنى: إعلام من الله تعالى وإخبار بما سيقع منهم، فقد كتب الله ذلك في أم الكتاب، ثم أعلمهم بنفاذه في التوراة على لسان موسى ﷺ، فأعلمهم أنه سيقع منهم عصيان وكفر وطغيان، وسيرسل الله عليهم من يقهرهم ويذلهم، ثم يردهم إلى الطغيان فيبعث الله عليهم أمة أخرى تقتلهم، وتخرب ديارهم.

وقد حدث الذي أخبر به القرآن ووقع، ولو لم يقع لكذب اليهود رسول الله ﷺ فيما أخبر به، ولكذبوا القرآن فيما جاء به، وهذا من آيات النبوة، ومن علامات صدق محمد ﷺ؛ إذ أخبر بأشياء لم تكن موجودة في عهده ﷺ، وذكر أنها ستقع منهم، ويحدث كذا وكذا، وكان صدق ما أخبر به النبي ﷺ في الواقع، وفي كتاب الله سبحانه.

وكان مقتضى ذلك أن يؤمنوا، ويصدقوا برسالة محمد ﷺ، ولكنهم لم يفعلوا. والمراد بالأرض: أرض بيت المقدس والشام وما حولها، وكل أرض يحلُّون بها، يفسدون فيها إفسادتين كبيرتين عظيمتين، بالظلم، وقتل الأنبياء، والتكبر، والعدوان وهذا معنى ﴿وَلَعَلَّكُمْ عَلَٰمٌ كَبِيرٌ﴾ تكبرون على طاعة الله تعالى، وتتجبرون على خلق الله، وتظلمونهم، وتتجاوزون الحد والطغيان في تجاوز حدود الله تعالى، وانتهاك شرعه بالمعاصي والذنوب، وتستكبرون، وتتجبرون على خلق الله، وترفعون عليهم.

قال تعالى في بيان الإفسادة الأولى والبعث الأول:

٥- ﴿فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ أُولَاهُمَا^(١) بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَادًا لَنَا أُولَى بَأْسٍ^(٢) شَدِيدٍ فَجَاسُوا خِلَالَ الدِّيَارِ^(٣) وَكَانَ وَعْدًا مَفْعُولًا ﴿٥﴾

﴿فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ أُولَاهُمَا﴾ أي إذا جاء وقت الإفسادة الأولى ﴿بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَادًا لَنَا﴾ أي سلطنا عليكم عبادًا لنا وصفهم ربنا بأنهم ﴿أُولَى بَأْسٍ شَدِيدٍ﴾ يغلِبونكم، ويقتلونكم، ويشردونكم ﴿فَجَاسُوا خِلَالَ الدِّيَارِ﴾ فَتَّشُوا وَنَقَّبُوا فيها، وأخذوا يتخلَّلونها، ويبحثون عن بني إسرائيل في كل مكان؛ ليقتلوهم، ويتعقبوهم هنا وهناك، قال تعالى: ﴿وَكَانَ وَعْدًا مَفْعُولًا﴾ أي: أن هذا القضاء، وهذا الوعد بالتسليط عليهم والانتقام منهم أمر حتمي، كما أخبر الله به، وكان أمرًا واقعًا لا محالة، ليس فيه نقيض ولا تبديل وكان هذا الفساد قبل معركة طالوت وجالوت.

٦- ﴿ثُمَّ رَدَدْنَا لَكُمُ الْكَرَّةَ عَلَيْهِمْ وَأَمْدَدْنَاكُمْ بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَجَعَلْنَاكُمْ أَكْثَرَ نَفِيرًا ﴿٦﴾

﴿ثُمَّ رَدَدْنَا لَكُمُ﴾ يا بني إسرائيل ﴿الْكَرَّةَ﴾ أي الغلبة، والنصر، والظهور ﴿عَلَيْهِمْ﴾ أي: على أعدائكم الذين سُلِّطُوا عليكم لما قتل داود جالوت، ولما انتصر ملك الفرس على ملك بابل، فانتصرتهم عليهم، وظفرتهم بهم، وأكثرنا أرزاقكم وأولادكم، وذلك بعد أن تبتم وأنبتم ﴿وَأَمْدَدْنَاكُمْ بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ﴾ في عهد داود وسليمان؛ إذ كانت لهم مملكة استمرت ثمانين عامًا ﴿وَجَعَلْنَاكُمْ أَكْثَرَ نَفِيرًا﴾ أي: قويناكم، وجعلناكم أكثر عددًا. وفي الآية نعم ثلاث، أنعم الله بها على بني إسرائيل، يذكرهم بها، بعدما أصابهم من عدوهم ما أصابهم، وهذه النعم هي:

- ١ - إعادة الظفر بالعدو. ٢ - كثرة الأموال والأولاد. ٣ - زيادة قوتهم.
- ولكنهم لم يشكروا هذه النعم فكانت عاقبتهم الخسران.

(١) أمال (أولاهما) حمزة والكسائي وخلف، وبالتقليل لأبي عمرو، وورش بخلف عنه.

(٢) قرأ أبو جعفر وأبو عمرو بخلف عنه بإبدال همزة (بأس) ألفًا، ووافقهما حمزة عند الوقف.

(٣) أمال (الديار) أبو عمرو، ودوري الكسائي وأبي ذكوان يَخْلِفُ عنه، وقللها وورش.

الْبَعْثُ الْآخِرُ

٧- ﴿إِنْ أَحْسَنْتُمْ أَحْسَنْتُمْ لِأَنْفُسِكُمْ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الْآخِرَةِ لِيَسْتَوْفُوا^(١) وَجُوهَكُمْ وَلِيَدْخُلُوا الْمَسْجِدَ كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَلِيُتَبَرَّأُوا مَا عَلَوُا تَبَرُّاً﴾

يقول الله سبحانه: ﴿إِنْ أَحْسَنْتُمْ﴾ يا بني إسرائيل في أقوالكم وأفعالكم ﴿أَحْسَنْتُمْ لِأَنْفُسِكُمْ﴾ لأن النفع عائد عليكم، كما حدث في انتصاركم على عدوكم، وهذا مقتضى قانون العقوبة والجزاء؛ فإن سُنَّةَ الله تعالى لا تتخلف، فممنفعة الإحسان وثوابه يعود عليكم، وإن أسأتم فالعاقبة ترجع لكم أيضاً، كما أراكم الله من تسليط الأعداء عليكم، قال تعالى: ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا﴾ [فصلت: ٤٦].

وقال جل شأنه: ﴿مَنْ كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُ وَمَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلَأَنْفُسِهِمْ يَمْهَدُونَ﴾ [الروم].

والله تعالى غني عن عبادته، لا تنفعه الطاعة، ولا تضره المعصية.

ثم قال تعالى عن الإفساد الثانية: ﴿فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الْآخِرَةِ﴾ أي: موعد عقاب الإفساد الثانية ﴿بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ﴾ مرة أخرى ﴿عِبَادًا لَنَا أَوَّلَىٰ بَأْسٍ شَدِيدٍ﴾ وقد بعثناهم هذه المرة؛ ليدلّوكم ويفهروكم، وهذا معنى ﴿لِيَسْتَوْفُوا وَجُوهَكُمْ﴾ فتظهر آثار المذلة، والمهانة عليكم وليسومونكم سوء العذاب، ويبدو ذلك على وجوهكم ﴿وَلِيَدْخُلُوا الْمَسْجِدَ كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ فقد كان التدمير والخراب لبيت المقدس وما فيه على أيدي بختنصر ثلاث مرات فأهلكهم وأيادهم في البعث الأول.

ثم كان البعث الثاني على يد قيصر الروم، حيث انتهى أمرهم على يديه، وأنوا على بنيانهم من القواعد وهذا معنى: ﴿وَلِيُتَبَرَّأُوا مَا عَلَوُا تَبَرُّاً﴾ أي: ليدمروا، ويهلكوا ما شيده بنو إسرائيل.

وسلط الله عليهم مجوس الفرس، فشردوهم في الأرض، وقتلوهم، ودمروا مملكتهم تدميرًا.

(١) قرأ الكسائي بنون العظمة وفتح الهمزة من (ليسوا) على أنه فعل مضارع مسند إلى ضمير المتكلم، وقرأ ابن عامر وشعبة وحزمة وخلف العاشر بالياء وفتح الهمزة أيضًا على أن الفعل مسند إلى ضمير الوعد وهو العذاب، أو على الالتفات من التكلم إلى الغيبة، والفاعل ضمير يعود على الله تعالى، وقرأ نافع وابن كثير وأبو عمرو وحفص وأبو جعفر ويعقوب بالياء وضم الهمزة بعد واو مدية، والفعل مسند إلى واو الجماعة.

وَإِنْ عُدْتُمْ عُدْنَا:

٨- ﴿عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَنْ يَرْحَمَكُمۥُ وَلَئِنْ عُدْتُمْ عُدْنَا وَجَعَلْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ حَصِيرًا ۝٨﴾

والله سبحانه يفتح لبني إسرائيل باب التوبة، ويقول لهم: هذا عقاب من الله، وإن رجعتُم عن الإفساد في الأرض يا بني إسرائيل، وأنتم إليه، وأخلصتم له العبادة، فربكم يرحمكم بعد انتقامه منكم ﴿عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَنْ يَرْحَمَكُمۥُ﴾ هذا وعد من الله تعالى بكشف العذاب عنهم إن رجعوا إلى ربهم، أن يجعل لهم الكرة عليهم و﴿عَسَىٰ﴾ من الله واجبة ﴿وَإِنْ عُدْتُمْ﴾ إلى الظلم، والإفساد في الأرض ﴿عُدْنَا﴾ إلى الانتقام منكم، وإلى مذلتكم، وهذا وعد قائم متجدد إلى يوم الساعة، وقد عادوا مرات ومرات، فسلط الله عليهم محمدا ﷺ فانتقم الله به منهم، هذا في الدنيا، ولهم في الآخرة عذاب جهنم يصلونها ولا يخرجون منها:

ففي وقت النبي ﷺ كانوا يستفتحون على الأوس والخزرج في المدينة، فهؤلاء وثنيون، واليهود أهل كتاب، فكان اليهود يقولون لهم: جاء الوقت الذي يُبعث فيه نبي آخر الزمن، محمد ﷺ فهو سيبعث في هذه الآونة، ونحن أول من سيؤمن به ويفتح عليه، فلما جاء محمد ﷺ كانوا أول من كفر به، قال تعالى: ﴿وَلَمَّا جَاءَهُمْ كِتَابٌ مِّنْ عِندِ اللَّهِ﴾ هو القرآن، يأتي به محمد ﷺ ﴿مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ﴾ من التوراة ﴿وَكَانُوا مِن قَبْلُ﴾ أي: قبل مجيئه ﴿يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ من الوثنيين، يقولون لهم: نحن سنسبقكم إلى الإيمان بمحمد ﷺ ﴿فَلَمَّا جَاءَهُمْ مَا عَرَفُوا﴾ من صحة رسالة خاتم النبوة ﴿كَفَرُوا بِهِ﴾ فلعنة الله على الكافرين ﴿البقرة: ٨٩﴾ فكان انتقام الله منهم على يد محمد ﷺ، فأجلى بني النضير، وبني قينقاع، من المدينة، وأخذوا يخربون بيوتهم بأيديهم وأيدي المؤمنين، كما جاء في أول سورة الحشر، وقتل بني قريظة، كما جاء في قوله تعالى: ﴿وَأَنزَلَ الَّذِينَ ظَاهَرُوهُم مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِن صَيَاصِيهِمْ وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ فَرِيقًا تَقْتُلُونَ وَتَأْسِرُونَ فَرِيقًا﴾ [الأحزاب].

وعادوا إلى الإفساد بعد ذلك فسلط الله عليهم هتلر، وسلط عليهم ملوك أوروبا.

وقد عادوا إلى الإفساد -في وقتنا- في صورة الكيان الصهيوني، فأحرقوا، وخربوا، وانتهكوا حرمة المسجد الأقصى، وبيت المقدس، وحائط البراق، وهم يحفرون الأنفاق المفتعلة، تحت المسجد الأقصى وحوله، بقصد إسقاط المسجد.

آلية يهودية لبناء الهيكل:

وتوجد منظمة أو جماعة من اليهود، يقال لهم: أمناء البيت، أو (أمناء الهيكل) أعدوا حجارة الهيكل، وأعدوا له الرخام، ونقشوا على الحجارة الكتابة والرسومات المطلوبة، وقد أتوا بحجر رمزي للهيكل، وأخذوا يطوفون به في شوارع البلاد، تحت سمع وسائل الإعلام وبصرها، إنهم يجسئون نبض المسلمين حيناً بعد حين ومن ذلك انتقال عاصمتهم إلى القدس، والمسلمون لم يحركوا ساكناً.

والمرحلة التي تلي ذلك في مخططهم هي العمل على هدم المسجد الأقصى، وإقامة الهيكل مكانه، وهم يفعلون ذلك منذ حرب عام ١٩٦٧م إلى وقتنا، ويكررون هذا الأمر، وهم على استعداد تام لإقامة معبد سليمان، أو الهيكل المزعوم موضع المسجد الأقصى^(١).

قال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ حَصِيرًا﴾ أي: جعلنا جهنم للكافرين سجناً، ومحبساً مؤبداً، ينامون فيه، ولا يخرجون منها إلى يوم الساعة، فهم يُحصرون فيها، والحصير أيضاً: هو الفراش، والمهاد، والبساط، كما قال تعالى ﴿لَهُمْ مِنْ جَهَنَّمَ مِهَادٌ وَمِنْ فَوْقِهِمْ غَوَاشٍ﴾ [الأعراف: ٤١].

أما المعنى الأول فقد جاء في قوله تعالى: ﴿وَإِذَا أُلْقُوا مِنْهَا مَكَانًا ضَبَقًا مُقَرَّنِينَ دَعَوْا هُنَالِكَ ثُبُورًا﴾ [الفرقان] فالمكان الضيق: هو الحبس والسجن.

وفي الآية تحذير لأهل المعاصي؛ حتى لا يصيبهم ما أصاب بني إسرائيل؛ فسنن الله تعالى لا تتبدل، ولا تتغير.

عروبة فلسطين:

والواقع أن فلسطين عربية، يسكنها العرب اليبوسيون من ستة آلاف عام، أي: من قبل أن يأتي إبراهيم عليه السلام من العراق مهاجراً إلى مصر، وماراً بفلسطين بألفين وست مئة عام.

وفلسطين أرض عربية يسكنها العرب قبل الميلاد بثلاثة آلاف سنة، فقد هاجر الفينيقيون من شبه الجزيرة العربية بسبب القحط، وأقاموا على شاطئ البحر الأبيض المتوسط في الشمال. وبعد خمس مئة عام، أي: قبل الميلاد بألفين وخمس مئة سنة، هاجر إلى جنوب

(١) وقت كتابة هذه السطور سنة ١٤٢٨هـ.

الفينيقيين قبائل الكنعانيين، واستقروا على ضفة نهر الأردن الغربية، نحو البحر المتوسط، وسميت هذه الأرض بأرض الكنعانيين.

وقبل الميلاد بمئات السنين، نزل بالساحل المطل على البحر المتوسط في يافا، وغزة، قبائل (فلسطين)، وتم الاختلاط بينهم وبين الكنعانيين، وتمازجوا في الدم العربي، وعاشوا في هذه المنطقة التي سُميت بفلسطين.

وفي الشمال الشرقي لنهر الأردن كانت تعيش قبائل الآراميين، وهم السوريون الوافدون من حوض نهر الفرات بعد ازدحامه بالوافدين من جزيرة العرب، وكانت عاصمتهم دمشق، وإلى جنوب البحر الميت كانت تسكن مجموعة أخرى من الآراميين^(١)، وتتوالى على فلسطين الهجمات من الذين يريدون الغزو، والاحتلال في كل الأزمنة، وفي جميع الغارات، وأهل المكان من العرب الفلسطينيين هم الذين يدافعون عنها، ويُخرجون أهل الاحتلال منها.

وعلى مدى التاريخ لم تقم دولة لبني إسرائيل في أرض الإسراء إلا في عهد داود ﷺ في زمن مليكهم (شاول) فبعد أن قتل داود جالوت تأسست مملكة برئاسة طالوت، واستمر حكمه سنتين فحسب، ثم تُوفِّي سنة ١٠٥٥ ق.م، وبعد وفاة طالوت دام ملك داود زهاء أربعين عامًا، وملك سليمان ابنه بعده نحو هذه المدة، وبعد وفاة سليمان انقسم مُلك بني إسرائيل قسمين:

أحدهما: في الشمال، ويسمى مملكة إسرائيل، وعاصمتها السامرة.

والآخر: في الجنوب في منطقة القدس، ويسمى مملكة يهوذا، وعاصمتها أورشليم.

وقائع نهاية إسرائيل على مدى التاريخ القديم:

وكانت نهاية مملكة إسرائيل على يد (سرجون) ملك آشور سنة ٧٢١ ق.م، وكانت نهاية مملكة يهوذا على يد بختنصر سنة ٥٨٦ ق.م، فجعل عاليها سافلها، وهدم الهيكل، وفي سنة ٥٣٨ ق.م، نشبت حرب بين قورش ملك الفرس وبختنصر ملك بابل، وانتهت بانتصار الفرس، فأصدر الملك أمرًا سنة ٣٥٦ ق.م يأذن فيه لليهود بالعودة إلى أورشليم،

(١) يُنظر: كتاب «نذير ونفير» لعبد العزيز مصطفى كامل ص ٧٩.

فلم يرجع منهم إلا القليل.

وفي سنة ٣٣٠ ق.م انتصر الإسكندر المقدوني على الفرس، وطردهم ومات الإسكندر سنة ٣٢٣ ق.م، فكانت أورشليم تحت حكم البطالمة إلى أن استولى السلوقيون عليها سنة ١٩٨ ق.م.

وفي سنة ٦٣ ق.م استولت الدولة الرومانية على أورشليم.

وفي سنة ٧٠ ق.م أرسلت الدولة الرومانية جيشًا بقيادة (تيطس) فهزم اليهود، وفرق شملهم، ودخل أورشليم فدمرها تدميرًا، وسام اليهود أقسى ألوان العذاب، وظلت أورشليم في حوزة الرومان حتى استولى عليها الفرس بقيادة كسرى الثاني^(١). وكان آخر ذلك فتح عمر ؓ لبيت المقدس سنة ٦٠٧م وهو حلقة في سلسلة من حلقات تحرير الأرض المقدسة من الذين غزوها، واحتلوها.

أسباب الهزيمة أمام اليهود:

هذا: والصراع الدائر بين اليهود وبين سكان المنطقة من المسلمين العرب، صراع غريب، فاليهود في حربهم يرفعون راية التوراة، ويعظمون يوم السبت، يعملون لدينهم ويحترمونه، وهو دين قد حُرِّف، ونُسَخ، وبُدِّل، فهم على باطل، ولكنهم يتمسكون بباطلهم، ويحاربوننا تديُّنًا عن عقيدة، والمسلمون الذين يقاومون الاحتلال، منهم الذين يرفعون راية العلمانية في الحكم، والتعليم، والإعلام، وينبذون كتاب الله وراء ظهورهم.

والنتيجة طبيعية؛ فالسبب في عدم نصر المسلمين واضح، والله ﷻ بيَّن في كتابه مَنْ هُمْ جديرون بنصر الله جلَّ شأنه، فقال: ﴿وَلَيَنْصُرَنَّ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُٓ﴾ أي: من ينصر دينه، فيمثل أمره، ويجتنب نهيه، ويحل حلاله، ويحرم حرامه، ولا تأخذه في الله لومة لائم، فهو يوالي في الله، ويعادي في الله ﴿إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ [الحج: ٤٠]

وقد وصف الله سبحانه الذين يستحقون هذا النصر بصفات ينبغي علينا أن نبحث عنها

(١) يُنظر: «سورة الإسراء والأهداف التي ترمي إليها» رسالة دكتوراه للدكتور سيد محمد النمر ص ٣٣٧، وما بعدها، ويُنظر: «بنو إسرائيل في القرآن والسنة» (٣٥٩/٢) رسالة دكتوراه، للدكتور محمد سيد طنطاوي، وكتاب «تاريخ الإسرائيليين» ص ٧٦ لشاهين مكاريوس.

في أنفسنا، وأن نطبق هذه الصفات على الوضع القائم، فهم ﴿الَّذِينَ إِنْ مَكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ﴾.

فهذه ثلاثة أمور؛ لتحقيق النصر على العدو، لا بُدَّ منها على مستوى الأفراد والأمم وهي:

١- إقامة الصلاة في المساجد، والدوائر الحكومية أثناء العمل، وتعطيل الأعمال لها، فضلاً عن إقامتها جماعة في سائر الأوقات.

٢- إخراج الزكاة طوعية، وقسراً، بواسطة الدولة، ممن لا يخرجها، وصرفها في مصارفها الشرعية.

٣- الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، فلا تجد منكرات في الشوارع والأسواق في بلاد الإسلام، بل يكون المظهر العام مظهرًا إسلاميًا، فلا مجاهرة بالإفطار في نهار رمضان، ولا بيع للخمر أو تعاطيها علناً، ولا بيع أو شراء أثناء صلاة الجمعة... إلخ.

وهذه قاعدة عظيمة جلية في الإسلام، وهي الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، بإقامة نظام الحسبة في كل بلد مسلم.

وفي آية أخرى بيّن الله سبحانه أوصاف مَنْ هُمْ أَهْلٌ لِلتَّمَكِينِ فِي الْأَرْضِ، فيصفهم سبحانه بالإيمان والعمل الصالح، في قوله تعالى: ﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّن بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا﴾ [النور: ٥٥].

وحينما زوّد عمر رضي الله عنه جيوشه بالنصيحة، قال لهم: إن استويتم أنتم وأعداؤكم في المعصية غلبوكم بقوة السلاح، والله سبحانه لا يغيّر ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم، والأمر يحتاج إلى أهلية وجدارة لنصر الله سبحانه، وللتمكن لعباده في الأرض إذا صدقت النية.

ولو أن الذين يحاربون اليهود يقاتلون في سبيل الله؛ لإعلاء كلمة الله، وأقاموا الصلاة، وآتوا الزكاة، وأمروا بالمعروف، ونهوا عن المنكر، وأخذوا بأسباب النصر المادية معتمدين فيها على أنفسهم، لو أنهم فعلوا ذلك لهيّا الله تعالى لهم أسباب النصر على أكبر القوى العالمية من حيث لا يدرون.

والله سبحانه قد نصر رسوله ﷺ بالريح في غزوة الأحزاب فقلبت قُدُور العدو، واقتُلعت خيام قوة مهولة، وأعداد كبيرة من اليهود والمشركين الذين تحزَّبوا لقتال النبي ﷺ وصحبه، وهم قلة، فنصرهم الله بالريح.

وهيَّا الله تعالى لرسوله ﷺ وهو في الغار خيوطاً من العنكبوت نسجت على فم الغار، كئى تُعمِّي على الكفار الطلب كما جاء ذلك بسند ضعيف، قال تعالى: ﴿وَلِلَّهِ جُنُودُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ غَزِيًّا حَكِيمًا﴾ [٧] [الفتح].

وفي إحدى المعارك الإسلامية رأى الأعداء في يد كل جندي من جنود المسلمين سواكًا، فذبَّ الرعب في قلوبهم، وقالوا: هؤلاء قوم يأكلون الخشب، أفلا يأكلوننا؟ وهزمهم الله بهذا السبب.

ومن أسباب نصر الله تعالى لنبيه محمد ﷺ أن يلقي الرعب في قلب العدو على مسافة سفر شهر، قبل اللقاء، مع بُعد المسافة بينهما.

وقال تعالى لرسوله في غزوة بدر: ﴿وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَى﴾ [الأنفال: ١٧] فنصر الله المسلمين على قلة عددهم وعدتهم.

وأنا أنظر إلى أطفال الحجارة يرمون بها العدو، والجندي اليهودي المدجج بالسلاح يختبئ وراء جدار، أو وراء باب السيارة أو الدبابة، وأتذكر قول الله تعالى: ﴿لَا يُقْبِلُونَكُمْ جَمِيعًا إِلَّا فِي قُرَى مُحَصَّنَةٍ أَوْ مِنْ وَرَاءِ جُدُرٍ بَأْسُهُمْ بَيْنَهُمْ شَدِيدٌ تَحْسَبُهُمْ جَمِيعًا وَقُلُوبُهُمْ شَتَّى﴾ [الحشر: ١٤] فالقوم جبناؤ ضعفاء، والخلاف بين طوائفهم شديد، ولسنا في حاجة لمقاومتهم إلا بالمصالحة مع الله تعالى والرجوع إليه، ثم الأخذ بأسباب النصر المادية.

وفي سورة الأنفال ستة عوامل للنصر على العدو، جاءت في قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَاثْبُتُوا وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [٤٥] وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ وَاصْبِرُوا إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾ [٤٦] وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ خَرَجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بَطَرًا وَرِئَاءَ النَّاسِ وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَاللَّهُ يَمَّا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ﴾

ومع ذلك كله لابد من إعداد القوة المضارعة لقوة العدو ﴿وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ﴾ [الأنفال: ٦٠] ومن الغباء أن نشترى سلاحنا من عدونا الأكبر، الملتزم بحماية أمن

الكيان الصهيوني ، فهو لن يسمح لنا بالانتصار عليها مهما كنا أصدقاء له!!

هَدَايَةُ الْقُرْآنِ لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ

١٠، ٩ ﴿إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ^(١) يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ^(٢) الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا ﴿٩﴾ وَأَنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٠﴾﴾

يخبر سبحانه أن هذا القرآن يهدي لأعدل الطرق في العقائد والعبادات والأخلاق، فمن اهتدى به كان أكمل الناس وأقومهم، وقد أعد الله لمن يتمسكون به نزلاً في دار كرامته، ومن أعرض عنه فله عذاب مؤلم.

وبعد هذا الكلام المهور عن بني إسرائيل، وبيان ما حلَّ بهم من البلاء مما يثير في نفوس المسلمين الخوف من أن يصيبهم ما أصاب اليهود، نفس الله عن المؤمنين، فأخبرهم بأن في هذا القرآن ما يعصمهم من الوقوع فيما وقع فيه بنو إسرائيل؛ إذ هو يهدي للطريق التي هي أقوم مما سلكه بنو إسرائيل.

فبعد أن تحدث القرآن عن إفساد بني إسرائيل، وعلوهم في الأرض، كأنَّ الله ﷻ يقول لبني إسرائيل وغيرهم ممن هم على شاكلتهم: وما لكم لا تؤمنون بمحمد نبياً ورسولاً؟! وما لكم لا تؤمنون بهذا القرآن، وقد عرفتم أنه أعظم الكتب وأجمعها لجميع العلوم، وآخرها عهداً برب العالمين، وعرفتم أن هذا القرآن يهدي لأعدل الطرق وأصوبها وأقومها؟!!

فما لكم يا بني إسرائيل المعاصرين لعهد التنزيل، وعلى مر الأزمنة، وفي جميع الأمكنة، ما لكم لا تؤمنون بهذا القرآن؟! ولو أنكم اتبعتموه وعملت بمقتضاه، لنهاكم هذا عن الإفساد في الأرض، ولنهاكم عن العلو والطغيان، ولما كانت العقوبات التي تنزل بكم من نتائج المفاسد التي تفعلونها.

إن هذه الآية آية جامعة لجميع ما في القرآن الكريم من طرق الهداية.

(١) نقل حركة الهمزة إلى الراء قبلها من (القرآن) ابن كثير في الحالين، وحمزة وفقاً.

(٢) قرأ حمزة والكسائي بفتح الياء وسكون الباء وضم الشين من (يُبَشِّرُ) بالتخفيف، والباقون بضم الياء وفتح الباء وكسر الشين المشددة من (بَشَّرَ) المضعف.

وقد تحدثت سورة الإسراء عن أكثر من خمسين طريقًا من طرق الهداية التي تتناولها هذه الآية^(١)، وعلى رأسها توحيد الله تعالى في ربوبيته، وفي عبادته، وفي أسمائه وصفاته، بتنزيهه تعالى عن مشابهة المخلوقين في صفاتهم، وفي إقامة حدوده تعالى، وتحكيم شرعه.

﴿إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ﴾ الذي أنزلناه على عبدنا محمد ﴿يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ﴾ فهو يرشد الناس إلى أحسن الطرق في مجال العقيدة، وفي مجال العبادة، وفي مجال المعاملات، وفي مجال الأخلاق والآداب، وفي مجال الأحكام، والحدود، والقصاص، وفي نظام الحكم، ونظام المال، ونظام التعامل، ونظام الاجتماع، وفي علاقات الناس بعضهم ببعض: أفرادًا، وحكومات، وشعوبًا ودولًا وأجناسًا، وفي الدين، والنفس، والعقل، والنسب، والعرض، والمال، وفي قضايا الجهاد، ونشر الدعوة، وقضايا الأسرة، وغير ذلك من جوانب الحياة، وشؤون الدين والدنيا مما تناولته سورة الإسراء.

وهذا القرآن الكريم فيه البشرى للمؤمنين بالجنة ﴿وَيُبَشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ﴾ بمقتضاه، فيؤدون الواجبات والسنن ويتزودون بالأعمال الصالحة، فيعملون بما أمرهم به، وينتهون عما نهاهم عنه ﴿أَنَّ لَهُمْ﴾ عند الله سبحانه ﴿أَجْرًا كَبِيرًا﴾ أي: ثوابًا عظيمًا، ودرجات كبيرة في جنات نعيم؛ فالأجر العظيم هو الجنة، وقيد العمل الصالح بالإيمان؛ إذ لا حظَّ لغير المؤمن في عمله الصالح.

ويبشر أعداء الذين لا يصدقون به، ولا يعملون بمقتضاه، ولا يصدقون بالدار الآخرة وما فيها من الجزاء العادل بأن لهم عذابًا أليمًا في دار الجحيم، وفي الآيتين جمع بين الثواب والعقاب، والترغيب والترهيب.

الدُّعَاءُ الْمُنَوَّعُ

١١- ﴿وَيَدْعُ الْإِنْسَانُ بِالشَّرِّ دُعَاءُهُ بِالْخَيْرِ﴾ وَكَانَ الْإِنْسَانُ عَجُولًا ﴿١١﴾

أي ومن جهل الإنسان وعجلته أن يدعو على نفسه أو على أهله وأولاده بالشر عند

(١) يُنظَر: تفسير الشيخ الشنقيطي للآية.

الغضب، ويبادر إليه كما يبادر بالدعاء في الخير، ومن لطف الله تعالى ورحمته بخلقه أنه يستجيب لهم في الخير ولا يستجيب لهم في الشر، فلا يدع الإنسان على نفسه أو ولده بالشر كما يدعو لهما بالخير، وذلك لأن الإنسان لا يعرف مصائر الأمور وعواقبها، فقد يفعل الشر، أو يدعو به على نفسه، أو يتعجل وقوعه، وذلك حين لا يقوى على كبح جماح نفسه، وضبط زمامها.

﴿وَيَدْعُ الْإِنْسَانُ﴾ أحياناً على نفسه، أو على ولده، أو ماله ﴿بِالشَّرِّ﴾ عند الغضب، والضجر ﴿دُعَاءَهُ بِالْخَيْرِ﴾ أي: مثل ما يدعو بالخير، فقد يجد الإنسان ويجتهد، ويسعى في طلب الوسائط من الناس في أمر ما، وهذا الأمر يكون فيه ضرره في الحقيقة، وهو يعتقد أنه يسعى في جلب خير أو مصلحة له، ولكنه في الواقع يسعى في شر يجلبه لنفسه من جهله وعجلته.

ومن رحمة الله تعالى بعباده أنه يستجيب الدعاء منهم بالخير دون الشر، وذلك عندما يدعو الإنسان على نفسه بالشر، ويجتهد في ذلك كما يجتهد في دعائه لنفسه بالخير.

قال الله سبحانه في نهاية الآية: ﴿وَكَانَ الْإِنْسَانُ عَجُولًا﴾ أي: أن من طبعه أنه يتعجل الإجابة، ويتعجل الأحوال، ولا يصبر على السراء أو الضراء.

ومن ذلك ما ورد عن سلمان، وابن عباس، وقتادة، ومجاهد، وغيرهم: أن الله ﷻ لما خلق آدم، ونفخ فيه الروح همّ بالنهوض قائماً قبل أن تصل الروح إلى رجليه، وذلك حين جاءته النفخة من قِبَلِ رأسه، فلما وصلت الروح إلى دماغه عطس، فقال: الحمد لله، فقال الله تبارك وتعالى له: يرحمك الله يا آدم، فلما وصلت الروح إلى عينيه فتح عينيه وأبصر، فلما سرت إلى أعضائه وجسده أخذ ينظر بإعجاب إلى بقية جسده، والروح تدب فيه، فهمّ بالنهوض قبل أن تصل الروح إلى رجليه فلم يستطع، فلما جاء العصر قال: يارب، عَجِّلْ قبل أن يأتي الليل^(١) وهذا نوع من عجلة الإنسان.

وقد عذر الله تعالى الناس بعض العذر فيبين أن العجلة في الإنسان شيء فطري، قال تعالى: ﴿خُلِقَ الْإِنْسَانُ مِنْ عَجَلٍ﴾ [الأنبياء: ٣٧] وقال في ختام الآية: ﴿وَكَانَ الْإِنْسَانُ عَجُولًا﴾.

(١) يُنظَر: «تفسير ابن عطية» (٤٤١/٣) و«تفسير ابن كثير» (٤٩/٤) وابن أبي شيبة (١١٠/١٤) والطبري (٥١٤/١٤) وابن عساكر (٣٨٤/٧).

في الدعاء وأحكامه:

١- ومن هدايات القرآن: أن المسلم ينبغي عليه أن يترث في الدعاء؛ فالدعاء من أجل أنواع العبادة، كما قال ﷺ في حديث النعمان بن بشير ؓ قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «الدعاء هو العبادة»^(١) وكما جاء في الأثر: «الدعاء مخ العبادة».

٢- ومن ذلك أن المسلم لا ينبغي له أن يدعو إلا بالخير، ولا يجوز له أن يدعو على نفسه، أو على غيره بشر، ففي الحديث: عن أبي هريرة ؓ أن رسول الله ﷺ قال: «لا يزال يُستجاب للعبد ما لم يدع بإثم، أو قطيعة رحم»^(٢).

وكما جاء في الحديث: عن جابر بن عبد الله ؓ أن رسول الله ﷺ قال: «لا تدعوا على أنفسكم، ولا تدعوا على أولادكم، ولا تدعوا على أموالكم، لا توافقوا من الله ساعة يُسأل فيها عطاءً، فيستجاب فيها»^(٣).

ومن أمثلة ذلك أن أم سُلَيْم ؓ قالت: يا رسول الله، أنس خادمك، ادع الله له، قال: «اللهم أكثر ماله، وولده، وبارك له فيما أعطيته»^(٤).

وقد يغضب الإنسان، وفي حالة الغضب قد يدعو على نفسه، أو يدعو على أهله أو ولده، وهو في واقع الأمر لا يحب أن يجاب دعاؤه، ولو أجاب الله دعاءه وهو في هذه العجلة من أمره، أو في هذه الحالة من الغضب لهلك العبد، أو لهلك أهله، أو ولده، قال تعالى: ﴿وَلَوْ يُعَجِّلُ اللَّهُ لِلنَّاسِ الشَّرَّ اسْتِعْجَالَهُمْ بِالْخَيْرِ﴾ أي: ولو يعجل الله لهم الشر، كما يعجل لهم الخير ﴿لَفُضِيَ إِلَيْهِمْ أَجَلُهُمْ﴾ أي: لهلكوا، وماتوا ﴿فَنَذَرُ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ [يونس: ١١].

ودعاء الإنسان على نفسه، أو على ولده، أو أهله بالشر عند الغضب، أو الضجر، فيه إثم كبير كأن يقول: اللهم اهلكني، أو اهلك ولدي، ولو أجاب الله دعاءه في وقت

(١) «صحيح سنن الترمذي» (٢٥٩٠، ٢٦٨٥) وصحيح أبي داود (١٣١٢) والمشكاة (٢٣٣) وسنن ابن ماجه (٣٨٢٨). وصحيح سنن (٣٠٨٦).

(٢) من حديث أبي هريرة في «صحيح مسلم» برقم (٢٧٣٥).

(٣) من حديث جابر في «صحيح مسلم» برقم (٣٠٠٩) وانظر: «سنن أبي داود» برقم (١٥٣٢).

(٤) «صحيح البخاري» برقم (٦٣٧٨، ٦٣٧٩) وانظر: (١٩٨٢) و«صحيح مسلم» (٢٤٨٠).

الغضب والضجر، لهلك، ولكنه تعالى يعفو، ويصفح، فلا يجيب دعاء الضجر والغضب؛ لجهل الإنسان وعجلته.

٣- ومن هدايات القرآن أن لا يتعجل المسلم إجابة الدعاء، بل عليه أن يأخذ بالأسباب، وأن يلح، ويدعوه ربه بالخير في كل حال.

ففي حديث أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «يُستجاب لأحدكم ما لم يعجل، يقول: دعوت فلم يستجب لي»^(١).

وإجابة الدعاء قد تكون في صورة لا يعلمها العبد:

أ- فقد يجيب الله تعالى دعاءه بما يسأله، ويطلبه في الدنيا، إن كان في ذلك خيره ومصلحته.

ب- وقد يؤجل الله له الإجابة، ويدخرها له في الآخرة، إن كان ﷺ يعلم أن في هذا خيرًا له.

ج - وقد يبدل الله سبحانه بهذا الشيء الذي يطلبه الإنسان شيئًا آخر فيه نفعه.

د - وقد يدفع الله عنه من الضرر، أو الشر والأذى مما كان سينزل به، ولا يعلمه، فرفعه رب العالمين عنه دون علمه؛ فالدعاء يستجاب في إحدى هذه الحالات الأربع، ونحوها.

والقرآن الكريم يبين أن من الكفار من دعا على نفسه مثل: النضر بن الحارث، وهو يقول عن القرآن، وعن صاحب الرسالة ﷺ: ﴿اللَّهُمَّ إِنْ كَانَتْ هَذَا هُوَ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَابًا مِنَ السَّمَاءِ أَوْ اقْتُلْنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [الأنفال: ٣٢].

وقد أجاب الله سبحانه عن هذا المطلب بأن عذاب الاستئصال في الدنيا مرفوع عن هذه الأمة؛ بسبب وجود محمد ﷺ فيهم، وبسبب كثرة استغفارهم ﴿وَمَا كَانَتْ أَلَلَةُ لِعَذَابِهِمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ وَمَا كَانَتْ أَلَلَةُ مُعَذِّبِهِمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾ [الأنفال: ٣٣].

(١) «صحيح البخاري» برقم (٦٣٤٠) و«صحيح مسلم» برقم (٢٧٣٥).

مِنْ دَلَائِلِ التَّوْحِيدِ

١٢- ﴿وَجَعَلْنَا أَلِيلَ وَالنَّهَارَ آيَاتَيْنِ فَمَحَوْنَا آيَةَ أَلِيلٍ وَجَعَلْنَا آيَةَ النَّهَارِ مُبْصِرَةً لِّتَبْتَغُوا فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ وَلِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ وَكُلُّ شَيْءٍ فَضْلَنَاهُ تَفْصِيلًا﴾ (١٢)

وعجلة الإنسان ودعاؤه بالشر، لا يقدم عجلة الزمن، ولا يؤخرها؛ فإن من آيات الله سبحانه في هذا الكون أن هذا الزمن يسير فيه الليل والنهار متعاقبين، كل منهما يخلف الآخر ﴿وَأَيُّ لَّهُمْ أَلِيلٌ نَّسْلَخُ مِنْهُ النَّهَارَ فَإِذَا هُم مُّظْلِمُونَ﴾ (٢٧) [يس]

والآية: هي العلامة المنصوبة للنظر والعبرة، ومع سير الزمن فالله سبحانه يغير الأحوال، ويبدل الأمور ويقلبها، ويداول الأيام بين الناس، فما لكم يا بني إسرائيل لا تعتذرون، ولا تفتيئون إلى رشدكم ﴿وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ﴾ [آل عمران: ١٤٠] فبعد علوكم وإفسادكم في الأرض يغير الله الأحوال من جيل إلى جيل، ومن حال إلى حال، وتكونون كما وصفكم ربنا في قوله: ﴿وَضَرَبْتَ عَلَيْهِمُ الدَّلِيلَ وَالْمَسْكَنَةَ وَبَاءُوا بِغَضَبٍ مِّنَ اللَّهِ﴾ [البقرة: ٦١]

قال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا أَلِيلَ وَالنَّهَارَ آيَاتَيْنِ﴾ أي: آيتين عظيمتين داليتين على كما قدرة الله سبحانه، وسعة رحمته وعلى تديره للأمور في هذا الكون العظيم؛ فكل منهما آية، أو أن آية الليل: هي القمر، وآية النهار: هي الشمس.

قال ابن عباس ؓ: والقمر آية الليل، والشمس آية النهار.

﴿فَمَحَوْنَا آيَةَ أَلِيلٍ﴾ وهي السواد الذي في القمر، وذلك في أصل الخلقة؛ أي جعلناه مظلمًا للسكون فيه والراحة، فالقمر هو المحو، والشمس هي المبصرة.

وقال ابن عباس: جعل الله نور الشمس جزءًا، ونور القمر كذلك، فمحا من نور القمر تسعة وستين جزءًا، فجعلها مع نور الشمس.

والمحو: هو طمس النور، كما قال علي بن أبي طالب ؓ: السواد الذي في القمر، هو أثر المحو والطمس^(١).

(١) انظر ما أخرجه عبد بن حميد، وابن المنذر عن عكرمة في هذا المعنى في: «الدر المنثور» (٩/٢٦٩).

فقد نقل الطبري عن أهل الكوفة أن علي بن أبي طالب ﷺ قال: سلوا عما شئتم، فقال ابن الكوا: ما السواد الذي في القمر؟ فقال له علي: قاتلك الله، هلاً سألت عن أمر دينك وآخرتك؟ ذلك محو الليل^(١).

فائدتان لمحو آية الليل وإبصار آية النهار: فالله تعالى يمتن على خلقه بأن جعل كلاً من الليل والنهار، والتعاقب بينهما آيتين عظيمتين داليتين على وحدانية الله تعالى؛ فنفس الليل آية، ونفس النهار آية، والليل يتضمن آية ثلاثة ملازمة له، هي نور القمر، والنهار يتضمن آية رابعة ملازمة له، هي ضوء الشمس، فالقمر يلزم الليل، والشمس تلازم النهار، فهذه أربع آيات على وجه التفصيل تتجلى فيها فائدتان عظيمتان:

الفائدة الأولى: لقد محا الله آية الليل التي هي القمر، فلم يخلق له شعاعاً كشعاع الشمس، وجعل للشمس شعاعاً يُبَصِّرُ في ضوءه كل شيء، ومحا الله آية الليل؛ لتسكنوا فيه، قال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ لِبَاسًا ۖ﴾ [النبا].

وذلك أن الليل ليس للصخب، ولا للضحج، ولا للسهر، إنما الليل يكون للراحة، وللنوم بعد العشاء، وغير ذلك انعكاس وقلب لآيات الله سبحانه في هذا الكون.

وجعل سبحانه النهار؛ لتبتغوا فيه من فضله، ولتسعوا على تحصيل أرزاقكم وأعمالكم، وهذا من فضل الله عليكم: ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ اللَّيْلَ سَرْمَدًا إِلَى يَوْمِ الْقِيَمَةِ مَنْ إِلَهُ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُمْ بِضِيَاءٍ أَفَلَا تَسْمَعُونَ ۖ﴾ (٧١) قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ النَّهَارَ سَرْمَدًا إِلَى يَوْمِ الْقِيَمَةِ مَنْ إِلَهُ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُمْ بِاللَّيْلِ تَسْكُونُونَ فِيهِ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ۖ﴾ [القصص].

قال تعالى: ﴿وَجَعَلَ اللَّيْلَ سَكَنًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ حُسْبَانًا﴾ [الأنعام: ٩٦]

والله سبحانه يقول: ﴿وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ خِلْفَةً﴾ أي: كل منهما يخلف الآخر، وذلك ﴿لِمَنْ أَرَادَ أَنْ يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ شُكُورًا﴾ [الفرقان: ٦٢].

والفائدة الثانية: جاءت في قوله تعالى: ﴿وَلَتَعْلَمُوا عَدَدَ اللَّيْلِ وَالْحَسَابِ﴾ فمن مجموع الليل والنهار تعرفون الأهلة، وتعرفون الأشهر، ومواسم الطاعة والعبادات، وتعرفون شهر الصيام، وأيام الحج، وأيام العدة، وأيام المتعة، وأيام الحيض، وغير ذلك من الأمور

(١) انظر: «تفسير الطبري» (٥١٥/١٤) وفي تاريخه (٧٦/١).

التعبدية، وأحوال الدنيا، كما قال تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسُ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُورًا وَقَدَرُ مَنَازِلَ لِنَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ مَا خَلَقَ اللَّهُ ذَلِكَ إِلَّا بِالْحَقِّ﴾ [يونس: ٥].

وقال: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَهْلِ قُلْ هِيَ مَوَاقِيتُ لِلنَّاسِ﴾ [البقرة: ١٨٩].

وكل شيء أنتم بحاجة إليه من أمور دينكم ودنياكم فصله ربنا، ووضحه، وبينه ﴿وَكُلَّ شَيْءٍ فَضَّلْنَاهُ تَفْصِيلًا﴾ أي بينا الآيات وصرّفناها لتمييز الأمور، وبتبين الحق من الباطل، كما قال تعالى: ﴿مَا فَرَطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ ثُمَّ إِلَّا رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ﴾ [الأنعام: ٣٨].

وللخير والشر أجل موعود ينتهيان إليه، لا يقربه استعجال، ولا يؤخره استبطاء؛ لأن الله تعالى قد جعل لكل شيء قدرًا، لا إبهام فيه، ولا شك، كما قال تعالى: ﴿بِفَصْلِ آيَاتٍ لَعَلَّكُمْ يَلْقَاءُ رَبَّكُمْ تَوَقُّونَ﴾ [الرعد: ٢].

وقال تعالى: ﴿كَتَبْنَا أُخُوتَ إِيمَانُكُمْ ثُمَّ فَضَّلْنَا مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ خَيْرٍ﴾ [هود: ١].

وقال جل شأنه: ﴿قَدْ فَضَّلْنَا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ [الأنعام: ٩٧].

وهذا التفصيل يكون عن طريق الرسل بالتبليغ، وعن طريق العقول بما أودع الله فيها من إدراك، ومن جملة ما فصله الله للناس: الثواب، والعقاب على الأقوال والأفعال.

مَلَا زِمَةُ الْإِنْسَانِ لِسَجْلِ أَعْمَالِهِ

١٣- ﴿وَكُلَّ إِنْسَانٍ أَلْزَمْنَاهُ طَبْعُهُ فِي عَنُقِهِ وَنُخْرِجُ^(١) لَهُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ كِتَابًا يَلْقَاهُ^(٢) مَنشُورًا﴾

(١) قرأ أبو جعفر بياء مضمومة و راء مفتوحة من (ونخرج) على أنه مضارع أخرج مبني للمجهول، ونائب الفاعل ضمير يعود على الطائر، و (كتابًا) منصوب على الحال، وقرأ يعقوب بياء مفتوحة و راء مضمومة، على أنه مضارع خرج، والفاعل ضمير يعود على الطائر، و (كتابًا) حال، وقرأ الباقر بنون مضمومة وراء مكسورة، على أنه مضارع أخرج المتعدي بالهمزة، و (كتابًا) مفعول به.

(٢) قرأ ابن عامر وأبو جعفر بضم الباء وفتح اللام وتشديد القاف من (يُلقاه) مضارع لقي بالتشديد مبني للمجهول، ونائب الفاعل ضمير يعود على الإنسان، وهو المفعول الأول، والهاء مفعوله الثاني وهو عائد على الكتاب، والباقر بفتح الباء وتخفيف القاف، مضارع لقي، والفاعل ضمير يعود على الإنسان، والهاء مفعول به، وهو عائد على الكتاب.

ثم إن هذا الليل والنهار يسيران إلى أن تقوم الساعة؛ فالقرآن ينتقل بنا في هذه الآية من الدنيا إلى القبر، ومن القبر إلى الآخرة، وهكذا يطوي القرآن الزمن، ويتحدث عن يوم القيامة، فيقول: ﴿وَكُلَّ إِنْسَانٍ أَلْزَمْنَاهُ طَلْعَهُ فِي عُنُقِهِ﴾.

وفي يوم القيامة يلزم كل إنسان ما عمله في الدنيا من خير أو شر، لا يتعداه إلى غيره، فلا يحاسب بعمل غيره، ولا يحاسب غيره بعمله، فيخرج له كتابه ويقال له: حاسب نفسك.

الطائر: هو عمل الإنسان، الذي فيه سعادته وشقاؤه، فعمل الإنسان من خير أو شر معلق في عنقه، وملازم له كلزوم القلادة للعنق، وكل إنسان يعمل وفق ما قُدِّرَ له في علم الله لا محالة.

وهذا الطائر فيه شؤم، وفيه فال؛ لأن العمل فيه خير، وفيه شر، ففيه التفاؤل والتشاؤم، وكل إنسان يتفاءل ويتشاءم؛ فالطائر على هذا هو ما سبق في علم الله تعالى من سعادة أو شقاء.

والأصل في هذا أن الله ﷻ قبل خلق آدم ﷺ عَلِمَ جُلَّ شأنه مَنْ سيكون عاصيًا من ذريته إلى يوم الساعة، ومن سيكون مُطِيعًا، من سيكون مصيره الجنة، ومن سيكون مصيره النار، وَعَلِمَ سبحانه أطوار حياته: متى يكتسب الطاعة؟ ومتى يقترب المعصية؟ وَعَلِمَ الله تعالى لا يتخلف، ثم قَدَّرَ الله تعالى، وجرى القلم بما هو كائن وما يكون، وَفُقَّ علم الله سبحانه لما سيقع من العباد، من أقوال وأعمال.

وهذا العمل هو طائر الإنسان وهو ملازم له، ولا يمكن له أن يحيد عنه وفق ما علم الله سبحانه أنه من أهل النعيم، أو من أهل الشقاء، نسأل الله السلامة.

وقد عبَّرَ سبحانه عن عمل الإنسان بطائره؛ لأن العرب كانوا يتفاءلون بالطير، فإذا سافروا ومَرَّ بهم الطير زجره، فإن مَرَّ بهم سانحًا -أي: من جهة الشمال إلى اليمين - تيمُّنوا وتفاءلوا، وإن مَرَّ بارحًا -أي: من جهة اليمين إلى الشمال - تشاءموا.

وقد نهى الإسلام عن ذلك فقال ﷺ كما في حديث أبي هريرة ؓ: «لا عدوى، ولا

طيرة، ولا هامة، ولا صفر، وفَرَّ من المجذوم فرارك من الأسد»^(١).

وكان العرب أيضًا يطلقون الطائر على السهم الذي يقع على الشيء، فيكون من حظ من رُمي به، فأطلق الطائر في الآية على العمل؛ لما يحمله من خير أو شر، فهو حظه من العمل، كما أنَّ ما يقع عليه السهم هو حظ الإنسان فيه.

فالشق الأول من الآية، يتعلق بالعمل الذي يعمله الإنسان، وهو ما يشير إليه قوله تعالى: ﴿وَكُلَّ إِنْسَانٍ أَلْزَمْنَاهُ طَائِرَهُ فِي عُنُقِهِ﴾ وقد خاطب الله العرب في الآية بما تعرف، فقد كان من عاداتهم التيمُّن والتشاؤم بالطير، في كونها سانحة وبارحة، وكانت تعتقد أن فعل الطير قاضي بما يلقاه الإنسان من خير أو شر، فأخبرهم الله في هذه الآية بأن كل ما يلقاه الإنسان قد سبق به القضاء.

ففي حديث حذيفة بن أسيد الغفاري يبلغ به النبي ﷺ قال: «يدخل الملك على النطفة بعدما تستقر في الرحم بأربعين، أو خمسة وأربعين ليلة، فيقول: يارب، أشقي أو سعيد؟ فيكتبان، فيقول: أي رب! أذكر أو أنثى؟ فيكتبان، ويكتب عمله، وأثره، وأجله، ورزقه، ثم تطوى الصحف فلا يزداد فيها ولا ينقص»^(٢).

زاد في رواية أحمد: «ثم يقول الملك: يارب، ما أصنع بهذا الكتاب؟ فيقول: علِّقه في عنقه إلى قضائي عليه»، فذلك قوله تعالى: ﴿وَكُلَّ إِنْسَانٍ أَلْزَمْنَاهُ طَائِرَهُ فِي عُنُقِهِ﴾. ولما نسبوا الخير والشر إلى الطائر استعير استعارة تصريرية؛ لما يشبههما من قدرة الله تعالى، وعمل العبد؛ لأنه سبب للخير والشر^(٣).

(١) «المسند» (٦٤١/٤) برقم (١٧٣١٦) حديث صحيح بإسناد حسن قال ابن كثير (٥٢/٤): إسناده جيد قوي ولم يخرجوه، قلت: وفيه ابن لهيعة وقد صرح بالتحديث، وقد رواه عنه عبد الله بن المبارك قبل احتراق كتبه، وأخرجه الطبراني في الأوسط (٣٢٥٧) والكبير ١٧ (٧٨٢) والبعث في شرح السنة (١٤٢٨) والحاكم (٢٦٠/٤).

(٢) «صحيح مسلم» برقم (٢٦٤٤). ومسند أحمد (١٦١٤٢) بإسناد صحيح ورجال ثقات رجال الشيخين وأخرجه الحميدي (٨٢٦) والطبراني في الكبير (٣٠٣٩) وابن أبي عاصم في السنة (١٨٠).

(٣) يُنظَر: «تفسير الألوسي» (٣١/١٥).

أما الشق الآخر في الآية، فهو يتناول كتابة هذه الأعمال، وتسجيلها في ديوان يُنشر لصاحبه يوم القيامة، فيراه مفتوحاً ومكشوفاً، ولا يمكنه المغالطة أو التجاهل، فلا يحاسب بعمل غيره، ولا يحاسب غيره بعمله.

وكل إنسان له صحيفتان في الدنيا، وعليه مَلَكَان موكَّلان به يحفظان حسناته وسيئاته، ويدوّنانهما في صحيفتي الحسنات والسيئات، صحيفتان منشورتان لكل إنسان وهو حي، فإذا مات طويت الصحيفتان، وعُلِّقتا في عنقه وهو في قبره، فإذا كان يوم القيامة كان منهم الآخذ كتابه بيمينه، ومنهم الآخذ كتابه بشماله.

والذي يأخذ كتابه بيمينه يفرح، ويقول لذويه وأهله: اقروا شهادة النجاح ﴿هَآؤُمْ أَقْرَأُ كِتَابِي﴾ [الحاقة: ١٩] هذه شهادتي وهذا تقديري ﴿فَهُوَ فِي عِشَّةٍ رَاضِيَةٍ﴾ (٢٢) فِي جَنَّةٍ عَلَيْكَ ﴿٢٣﴾ [الحاقة] و﴿يَحَاسِبُ حِسَابًا يَسِيرًا﴾ (٨) وَيَنْقَلِبُ إِلَى أَهْلِهِ مَسْرُورًا ﴿٩﴾ [الانشقاق].

ومن هو عكس ذلك -والعياذ بالله - يدعو على نفسه بالويل، والنبور، والهلاك، ويتمنى أنه لم يُبعث، ولم يخرج من قبره مرة ثانية، ويقاد إلى جهنم في سلسلة ذرعها سبعون ذراعاً؛ لأنه كان لا يؤمن بالله العظيم، هذا معنى: ﴿وَنُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ كِتَابًا يَلْقَاهُ مَنشُورًا﴾ فيه أعماله التي قدمها في الدنيا، قال تعالى: ﴿إِذْ يُلْقَى الْمُتَّقِينَ عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ قَيْدٌ ﴿٧﴾ مَا يَلْفُظُ مِنْ قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ ﴿٨﴾﴾ [ق].

وقال جلّ شأنه: ﴿وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ ﴿١٠﴾ كِرَامًا كَاتِبِينَ ﴿١١﴾ يَعْمُونَ مَا تَفْعَلُونَ ﴿١٢﴾﴾ [الانفطار].

وقال سبحانه: ﴿أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لَا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُمْ بَلَىٰ وَرُسُلُنَا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ ﴿٨٠﴾﴾ [الزخرف].

وقال ﷻ: ﴿يَبْنُوا الْإِنْسَنُ يَوْمِي بِمَا قَدَّمَ وَأَخَّرَ ﴿١٣﴾﴾ [القيامة].

فكل عمل ابن آدم محفوظ في كتابه، قليله وكثيره، صغيره وكبيره، يكتب عليه قوله، وعمله في ليله ونهاره، وصباحه ومساءه، ويُجزى به يوم القيامة.

قال تعالى: ﴿فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ ﴿٧﴾ وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ ﴿٨﴾﴾ [الزلزلة].

وقال سبحانه: ﴿إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [الطور: ١٦].

فهذا العمل الذي ألزم الإنسان به نفسه، يخرج له يوم القيامة مكتوبًا في كتاب يلقاه مفتوحًا ليقرأ ما فيه؛ بعدما خُتم عليه في الدنيا عندما انقطع العمل بموته.

كما في حديث عقبة بن عامر رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «ليس من عمل يوم، إلا هو يُختم عليه، فإذا مرض المؤمن، قالت الملائكة: ياربنا، عبدك فلان، قد حبسته، فيقول الرب ﷻ: اختما له على مثل عمله حتى يبرأ، أو يموت»^(١).

فإذا كان يوم القيامة وَجَدَ العبد في صحيفته كل جليل ودقيق، كما قال تعالى: ﴿وَوُضِعَ الْكِتَابُ فَتَرَى الْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَوَلَّلَنَا مَا لَ هَذَا الْكِتَابِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا﴾ [الكهف: ٤٩].

فإذا حاول العبد أن ينكر شيئًا مما يجده أمامه في كتابه، ختم الله ﷻ على فمه، وتنطق جوارحه بما قال وفعل، قال تعالى: ﴿الْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَى أَفْوَاهِهِمْ وَتُكَلِّمُنَا أَيْدِيهِمْ وَنَشْهَدُ أَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ [يس].

ومعنى الآية: وكل إنسان يجعل الله ما عمله من خير، أو شر، ملازمًا له، صادرًا عنه يكسبه واختياره، لا يزداد عليه ولا ينتقص منه، وكان العرب يتفاءلون بالطير في أسفارهم إن مرَّ بهم من الشمال إلى اليمين، ويتشاءمون به إذا مرَّ بهم من اليمين إلى الشمال.

مَا يُخَاطَبُ بِهِ الْإِنْسَانُ بَعْدَ فَتْحِ كِتَابِهِ أَمَامَهُ

١٤- ﴿اقْرَأْ﴾^(٢) كَتَبَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا ﴿٤٤﴾

والإنسان يومئذ هو الحسب على نفسه؛ فالله سبحانه يترك حسابه له، ويقول له: ﴿اقْرَأْ كَتَبَكَ﴾ اقرأه وحدك؛ إذ ليس هناك حسيب آخر، اقرأ الصحيفة بنفسك، وهكذا يقرأها من كان أميًا في الدنيا، ومن كان فيها قارئًا، يقرأها بأي لسان، وبأي لغة؟ تكفيك نفسك اليوم مُحَصِّية عليك عملك، فتعرف ما عليها من جزاء، وهذا أعظم العدل والإنصاف، وهل هذه الصحيفة ستكون بلغة القرآن، لغة الرسالة الخاتمة، اللغة العربية، أم غيرها؟

(١) من حديث أبي هريرة في «صحيح البخاري» برقم (٥٧٠٧) و«صحيح مسلم» برقم (٢٢٢٠).

(٢) قرأ أبو جعفر بإبدال الهمزة ألفًا من (اقرأ) وحزمة وهشام وقفًا، وحققها الباقون.

الله أعلم، والله تعالى قادر على أن يقرأها جميع الخلق على اختلاف ألسنتهم وأجناسهم، وقد تكون هذه الصحيفة لكل قوم بلغتهم، وحقيقة الأمر عند رب العالمين، ولكن كل إنسان يقرأ صحيفته بنفسه، العالم والجاهل، القارئ وغير القارئ، وتكفي شهادته على نفسه، ومن أعظم العدل والإنصاف أن يقال للعبد: حاسب نفسك، كفى بها حسيباً عليك.

أخرج الطبري عن الحسن أنه قال: يابن آدم، بسطت لك صحيفتك، ووكل بك ملكان كريمان، أحدهما عن يمينك يكتب حسناتك، والآخر عن شمالك يحفظ سيئاتك، فاعمل ما شئت، أقلل، أو أكثر، حتى إذا مت طويت صحيفتك، فجعلت في عنقك، معك، في قبرك، حتى تخرج يوم القيامة كتاباً تلقاه منشوراً، قد عدلَ والله فيك من جعلك حسيب نفسك^(١) قال ابن كثير: هذا من حسن كلام الحسن رحمته الله.

مَسْئُولِيَّةُ الْإِنْسَانِ عَنْ نَفْسِهِ

١٥- ﴿مَنْ أَهْتَدَى فَإِنَّمَا يَهْتَدِ لِنَفْسِهِ وَمَنْ ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَلَا نُزِرُ وَاِزْدَهُ وَزَرَ أُخْرَىٰ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا﴾ (١٥)

ومن اهتدى وسلك طريق الحق، والطاعة وقام بالغاية التي خلقنا الله من أجلها فهو المهتدي، وهدايته لنفسه، وثوابه يعود عليه، ومن لم يسلك طريق الهدى، وحاد عن الحق إلى الباطل، فعقابه يعود عليه، والغاية التي خُلِقْنَا من أجلها جاءت في قوله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ (٥١) [الذاريات].

وليس هناك أحد يحمل وزر أحد؛ فالمسؤولية فردية، والتبعة تقع على الإنسان وحده، وكل أحد يحاسب عن نفسه لا عن غيره، الوالد لا يحمل شيئاً عن ولده، والولد لا يحمل شيئاً عن والده، والزوج لا يحمل شيئاً عن زوجه، والصاحب لا يحمل شيئاً عن صاحبه، والعكس صحيح قال تعالى: ﴿يَتَأْتِيهَا النَّاسُ أَتَقُورُوا رَبَّكُمْ وَأَخْشَوُا يَوْمًا لَا يَجْزِي وَالِدٌ عَنْ وَلَدِهِ وَلَا مَوْلُودٌ هُوَ جَازٍ عَنِ وَالِدِهِ شَيْئًا﴾ [لقمان: ٣٣]

(١) الطبري (١٤/٥٢٣)، وتفسير ابن كثير للآية.

قال تعالى: ﴿يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ ﴿٣٤﴾ وَأُمِّهِ وَأَبِيهِ ﴿٣٥﴾ وَصَاحِبِهِ وَبَنِيهِ ﴿٣٦﴾ لِكُلِّ امْرِئٍ مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَانٌ يُغِيهِ ﴿٣٧﴾﴾ [عبس] وقال سبحانه ﴿كُلُّ امْرِئٍ مَّا كَسَبَ رَهِينٌ﴾ [الطور: ٢١].

فلا تحمل نفس مذنبه إثم نفس أخرى مذنبه.

وفي الآية إبطال لما يتوهمه بعض الناس أن غيرهم يحمل أوزارهم.

وقد رُوي أن الوليد بن المغيرة لما رأى قوماً يترددون في الدخول في الإسلام قال لقريش: اكفروا بمحمد وعليّ أوزاركم^(١).

أي: عليّ تبعاتكم، ومسؤولية تكذيبكم، إن كان هناك تبعه!

قال تعالى: ﴿وَلَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ إِلَّا عَلَيْهَا وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾ [الأنعام: ١٦٤].

وقال سبحانه: ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ وَذَرِ الْأَخْرَىٰ وَإِن تَدْعُ مُثْقَلَةٌ إِلَىٰ حِمْلِهَا لَا يَحْمِلُ مِنْهُ شَيْءٌ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ﴾ [فاطر: ١٨].

أما إذا تسبب الإنسان في ارتكاب غيره للأوزار، بأن كان قدوة له في الشر بقوله، أو عمله؛ كدعاة الكفر، والفسوق، والبدع، والمجاهرة بالمعاصي، فإنه يتحمل أوزار من أضلهم؛ لأنه المتسبب، وهذا ما يشير إليه قوله تعالى: ﴿وَلِيَحْمِلُوا أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالًا مَّعَ أَثْقَالِهِمْ﴾ [العنكبوت: ١٣].

وقوله: ﴿لِيَحْمِلُوا أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ الْقِيَمَةِ وَمِنْ أَوَارِ الْأَذِيتِ يُضْلُونَهُمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ [النحل: ٢٥].

كما أن من يسُنُّ في الناس سنة سيئة فإنه يتحمل من آثام من ارتكبوها، كما جاء في الصحيح: عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «ما من نفس تُقتل ظلماً إلا كان على ابن آدم الأول كفل من دمها؛ لأنه كان أول من سن القتل»^(٢).

(١) من «تفسير ابن عطية» والبقوي والخازن و«زاد المسير» للآية.

(٢) من حديث ابن مسعود في «صحيح مسلم» برقم (١٦٧٧) و«صحيح البخاري» (٦٨٦٧، ٦٨٦٨، ٧٣٢١).

بكاء أهل الميت عليه:

أما حديث عمر وابن عمر رضي الله عنهما في الصحيح: «إن الميت ليعذب ببكاء أهله عليه»^(١) فهو محمول على أنه إذا أوصى الميت بذلك قبل موته، أو إذا كان يعلم واثقاً أنهم يَلْطُمُونَ الخدود، ويشقون الجيوب، بأن كان هذا شأنهم وديدنهم ولم ينههم عن ذلك، قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا قُوا أَنْفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا﴾ [التحريم: ٦].

قال ابن عباس رضي الله عنهما: فلما مات عمر، ذكرت ذلك لعائشة، فقالت: يرحم الله عمر، لا والله ما حدث رسول الله ﷺ: إن الله يعذب المؤمن ببكاء أحد، ولكن قال: «إن الله يزيد الكافر عذاباً ببكاء أهله عليه»، قال: وقالت عائشة: حسبكم القرآن ﴿وَلَا تُزْرُ وَازِرَةٌ وَّرَدَّ أُخْرَىٰ﴾^(٢).

وعن هشام بن عروة عن أبيه قال: ذُكر عند عائشة قول ابن عمر: «الميت يعذب ببكاء أهله عليه» فقالت: رحم الله أبا عبد الرحمن سمع شيئاً لم يحفظه، إنما مرّت على رسول الله ﷺ جنازة يهودي وهم ييكون عليه، فقال: «أنتم تكون وإنه ليعذب»^(٣).

ومعلوم أن الإنسان يتنفع بصالح عمله، فينال ثواب المهتدى بسببه، وينفعه بعد موته: «صدقة جارية، أو علم يُتَنَفَّع به، أو ولد صالح يدعو له».

بلوغ الدعوة شرط في العذاب:

وما كان الله سبحانه ليعذب أحداً في الدنيا، ولا في الآخرة، حتى يقيم عليهم الحجة، فيرسل لهم الرسل، وينزل عليهم الكتب، ولذلك فإن أهل العلم تحدثوا على ضوء الأحاديث الواردة في أطفال الكفار، وفي أهل الفترة الذين لم تبلغهم الرسالة، وفي المجنون الذي لا عقل له، والأصم والأبكم الذي لا تصل إليه الدعوة، ونحو ذلك، ما مصير هؤلاء؟ هل هم إلى الجنة، أم إلى النار؟ والصحيح أنهم لا يعذبون أخذاً من هذه

(١) من حديث عمرو ابن عمر وابن عباس في «صحيح مسلم» برقم (٩٢٧، ٩٢٨) و«صحيح البخاري» برقم (١٢٨٦، ١٢٨٧).

(٢) «صحيح مسلم» (٩٢٩).

(٣) «صحيح مسلم» (٩٣١، ٩٣٢) بزيادة.

الآية: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا﴾^(١)

أي: أن الله تعالى لا يهلك أفراداً، أو أمة بعذاب إلا بعد بلوغ الرسالة إليهم وإنذارهم، وهذا إعلام من الله تعالى إلى خلقه أنه لا يعذب في الآخرة إلا بعد بعثة الرسل، ومما يدخل في ذلك والد النبي ﷺ وأمه.

وقد يُفسَّرُ الرسول في الآية بمعنى العقل، فقد بعث الله آدم بالتوحيد، وبثه آدم في ذريته وأبنائهم، وتجدد ذلك في عهد نوح ﷺ بعد غرق الكفار، ولأن بعض العقول قد تضل، وتنحرف عن الفطرة فقد أرسل الله الرسل، وأنزل الكتب؛ لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل.

ومن نظائر هذه الآية في القرآن الكريم قوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّا أَهْلَكْنَاهُمْ بِعَذَابٍ مِّن قَبْلِهِ لَقَالُوا رَبَّنَا لَوْلَا أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ آيَاتِكَ مِن قَبْلِ أَنْ نُنْزِلَ وَنَخْزِيَ﴾ [طه].

وقوله: ﴿رُسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ لِّئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ﴾ [النساء: ١٦٥].

وقوله: ﴿يَتَأَهَّلَ الْكِتَابُ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ عَلَىٰ فَتْرَةٍ مِّنَ الرُّسُلِ أَنْ تَقُولُوا مَا جَاءَنَا مِن بَشِيرٍ وَلَا نَذِيرٍ﴾ [المائدة: ١٩].

وقوله: ﴿كُلَّمَا أُنْزِلَتْ فِيهَا فَوْجٌ سَأَلْتُم مَّا خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ﴾ [٨] ﴿قَالُوا بَلَىٰ قَدْ جَاءَنَا نَذِيرٌ فَكَذَّبْنَا وَقُلْنَا مَا نَزَّلَ اللَّهُ مِن شَيْءٍ﴾ [الملك].

وقوله: ﴿وَمَا أَهْلَكْنَا مِن قَرْنٍ إِلَّا لَهَا مُنْذِرُونَ﴾ [الشعراء].

وقوله: ﴿فَإِذَا جَاءَ رَسُولُهُمْ قُضِيَ بَيْنَهُم بِالْقِسْطِ﴾ [يونس: ٤٧].

أطفال غير المسلمين:

هذا: وقد أورد ابن كثير مجموعة من الأحاديث، وأقوال الأئمة الواردة في أطفال المشركين، وأن منهم من قال: إنهم في الجنة، ومنهم من قال: إنهم في النار، ومنهم من

(١) انظر الآثار الواردة في ذلك بأسانيد حسنة في: «المسند» (١٦٣٠١، ١٦٣٠٢) وابن حبان (٧٣٥٧) والطبراني (٨٤١) والبزار في «الكشف» (٢١٧٧) وعبد الرزاق (٣٧٤ / ١) والطبري (٥٢٦ / ١٤).

توقف، ثم قال: ومنهم من ذهب إلى أنهم يُمتَحَنون يوم القيامة في العرصات، فمن أطاع دخل الجنة، وانكشف علم الله فيهم بسابق السعادة، ومن عصى دخل النار داخراً، وانكشف علم الله فيه بسابق الشقاوة، وذكر لكل فريق أدلته ثم قال: وهذا القول، أي الأخير، يجمع بين الأدلة كلها، وقد صرحت به الأحاديث المتعاضدة الشاهد بعضها لبعض... (١).

وقال الشيخ الشنقيطي: الظاهر أن التحقيق في هذه المسألة وهي: هل يُعَذَّرُ المشركون بالفترة، أو لا؟ والجواب: أنهم معذورون بالفترة في الدنيا، وأن الله تعالى يوم القيامة يمتحنهم بنار يأمرهم باقتحامها، فمن اقتحمها دخل الجنة، وهو الذي كان يُصَدِّقُ الرسل حين جاءته في الدنيا، ومن امتنع دخل النار وعُذِّبَ فيها، وهو الذي كان يُكْذِّبُ الرسل حين جاءته في الدنيا؛ لأن الله تعالى يعلم ما كانوا عاملين لو جاءتهم الرسل (٢).

وفي حديث أبي هريرة ؓ أن رسول الله ﷺ سئل عن أطفال المشركين من يموت منهم صغيراً، فقال: «الله أعلم بما كانوا عاملين» (٣).

عِلَّةُ إِهْلَاكِ الْأُمَمِ: مُخَالَفَةُ الرُّسُلِ وَالتَّمَادِي فِي الْفُسَادِ

١٦- ﴿وَإِذَا أَرَدْنَا أَنْ نُهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا^(٤) مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ فَدَمَرْنَاهَا تَدْمِيرًا

أي إذا أراد الله أن يهلك قرية من القرى الظالمة، أمر مُتْرَفِيهَا بما جاءت به الرسل، فخالفوهم، واشتد طغيانهم، فحق عليهم كلمة العذاب، واسأنصلهم الله تعالى، وذلك كقوم نوح وقوم هود وقوم صالح، وغيرهم ممن عاقبهم الله بغيهم.

وهكذا بين سبحانه أن علة إهلاك الأمم، هو مخالفة الرسل، والتماذي في الفساد، فإنه تعالى يأمر كبار القوم من المترفين والرؤساء بما جاءت به الرسل، فيعرضون عنه، ويخرجون عن أمر الله، فيحق عليهم الوعيد فيهلكهم الله تعالى، قال تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ

(١) «تفسير ابن كثير» (٥٥/٤) وما بعدها.

(٢) «أضواء البيان» (٤٨١/٣) بتصرف.

(٣) «صحيح مسلم» (٢٦٥٩) و«صحيح البخاري» (١٣٨٤، ٦٥٩٨، ٦٦٠٠).

(٤) قرأ يعقوب بمد همزة (أمرنا) بمعنى: كثرنا، وقرأ الباقون بالقصر، من الأمر.

جَعَلْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ أَكْثَرَ مُجْرِمِيهَا لِيَنْكَرُوا فِيهَا وَمَا يَمْكُرُونَ إِلَّا أَنْفُسِهِمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴿١٧﴾ [الأنعام].

وقد خص الله المترفين بالذكر مع الأمر بالطاعة للجميع؛ لأن المترفين هم القادة فإذا استجابوا للطاعة استجاب غيرهم تبعاً لهم، ولأنهم الأسرع في الانغماس في الشهوات وارتكاب المحرمات، والله ﷻ إذا عاقب قومًا، أو أمة من الأمم، فإن الفتنة تعم والرحمة تخص ﴿وَأَتَّقُوا فِتْنَةً لَا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ خَاصَّةً﴾ [الأنفال: ٢٥].

وقد يعصي الله تعالى في أمة من الأمم عددًا من الناس، والعدد الآخر لا يأمرهم بالمعروف ولا ينهوهم عن المنكر، ولم يتمر وجه أحدهم غضبًا لله تعالى، فالنقمة في هذه الحالة تعم الجميع.

كما في حديث زينب بنت جحش أم المؤمنين ﷺ حين دخل عليها النبي ﷺ فرعًا وهو يقول: «لا إله إلا الله، ويل للعرب من شر قد اقترب، فتُح اليوم من ردم بأجوج ومأجوج مثل هذه» وحلّق بأصبعيه الإبهام والتي تليها، قالت زينب: يا رسول الله أنهلك وفينا الصالحون؟! قال: «نعم إذا كثر الخبث»^(١) أي: أنه إذا كان أهل الشر أكثر فإن الهلاك يعم، إذا لم يقم الآخرون بواجب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

وفي كل زمان ومكان يكون أهل النعمة والترف غالبًا هم أهل الطغيان والفساد.

والله جلّ شأنه إذا أراد بأمة خيرًا، وكانوا أهلًا له، فإن الله سبحانه يوليّ عليهم رجالًا صالحًا، وإذا كانوا لا يستأهلون ذلك، فإنه جلّ شأنه يوليّ عليهم من هو مثلهم، ولذا قيل: كما تكونون يولّ عليكم، هذا معنى: ﴿وَإِذَا أَرَدْنَا أَنْ نُهْلِكَ قَرْيَةً﴾ أي: لظلمهم وبغيهم وطغيانهم ﴿أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا﴾ أي: أمرناهم بالطاعة، والتوحيد، واتباع الرسل، فلم يمتثلوا، ولم يستجيبوا، وخرجوا عن الطاعة ففسقوا، وعصوا.

والحكمة في هذا الأمر، هو الإعذار، والإنذار، والتخويف، والوعيد.

والقرية في القرآن هي الأمة العظيمة، والمدينة الكبرى كالعاصمة.

(١) «صحيح مسلم» برقم (٢٨٨٠) و«صحيح البخاري» برقم (٣٥٤٦، ٣٣٩٨، ٧١٣٥، ٧٠٥٩).

فالمعنى: أمرنا مترفيها بالطاعة، ففسقوا فيها، فتكون النتيجة أنهم استحقوا العقوبة وهذا معنى ﴿فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ﴾ أي: وجب عليهم عذاب الله سبحانه، ونزلت بهم جميعاً العقوبة، فاستأصلهم الله بالهلاك التام؛ لأنهم أخذوا بأسبابه، وهذه سُنَّةُ الله في خلقه، والله تعالى لا يأمر بالفحشاء.

وفي لغة العرب: أمرنا - بمد الهمزة - مترفيها، أي: كثرناهم، وجعلناهم كثرة، وفي قراءة أمراً. بتشديد الميم^(١). مترفيها، أي: جعلنا حكامهم، وقادتهم أمراء من الطغاة المترفين الجبابرة، كما قال تعالى: ﴿وَقَالُوا رَبَّنَا إِنَّا أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَاءَنَا فَأَضَلُّنَا السَّبِيلَ﴾ [الأحزاب] فكان غير المترفين تبعاً لهم؛ لأنهم لم يأمرؤا بالمعروف، ولم ينهؤا عن المنكر، والناس على دين ملوكهم، وهذه أمثلة لمن أهلككم الله تعالى بسبب فسقهم وخروجهم عن طاعة الرسل، قال تعالى:

١٧- ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنَ الْقُرُونِ مِنْ بَعْدِ نُوحٍ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ بِذُنُوبِ عِبَادِهِ خَبِيرًا بَصِيرًا﴾ [١٧]

ثم ضرب الله مثلاً لإهلاك القرى التي فسق مترفوها، من الأمم الطاغية، المكذبة لرسل الله؛ كقوم هود، وقوم صالح، وقوم لوط، وقوم شعيب، وفرعون وقومه.

فلا تكذبوا محمداً - أيها الناس - فلستم أكرم على الله منهم، قال تعالى: ﴿وَقَوْمَ نُوحٍ لَمَّا كَذَبُوا الرُّسُلَ أَغْرَقْنَاهُمْ وَجَعَلْنَاهُمْ سُلَالَةً لِلنَّاسِ آيَةً وَأَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ [٢٧] وَعَادًا وَثَمُودًا وَأَصْحَابَ الرَّسِّ وَقُرُونًا بَيْنَ ذَلِكَ كَثِيرًا [٢٨] وَكُلًّا ضَرَبْنَا لَهُ الْأَمْثَالَ وَكُلًّا تَبَّرْنَا تَتْبِيرًا [٣٩] وَلَقَدْ أَنزَلْنَا عَلَىٰ آلِ فِرْعَوْنَ الْمَطَرِ السَّوَّىٰ أَفَكُم يَكُونُوا يَكُونُوهَا بَلْ كَانُوا لَا يَرْجُونَ شُورًا [٤٠] [الفرقان] فهؤلاء ممن استحبوا الضلال على الهدى، وآثروا الكفر على الإيمان، والغى على الرشد، فكانوا أهلاً لغضب الله تعالى وسخطه، ونزول العذاب بهم، ويشبه هذا قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَسِيرُونَ فِي الْأَرْضِ يَنْظُرُونَ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ دَمَّرَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلِلْكَافِرِينَ أَمْتَانَهُمَا﴾ [١٠] [محمد].

والله سبحانه يقول لنا: خذوا العبرة من الأمم التي سبقت قبل نوح، فقد كان الناس

(١) وهي لأبي عثمان النهدي وأبي العالية وابن عباس وعلي، يُنظر: «تفسير ابن عطية» (٣/ ٤٤٤) وليست من القراءات المتواترة.

على الإسلام عشرة قرون، وهم على التوحيد من لدن آدم إلى نوح، ثم كان هلاك الأمم من عهد نوح لما عُبدت الأصنام من دون الله، فكان هلاك قوم عاد، وثمود، وقوم لوط، وكثير من الأمم المكذبة الجاحدة، من بعد نوح، وقد كذبتهم أشرف الرسل وأكرم الخلق، فعقوبتكم أولى وأحرى، وقد أهلك الله كثيرًا من الأمم السابقة التي استحبت العمى على الهدى، وآثروا الكفر على الإيمان.

وكان زعماء الكفر من قوم نوح هم المترفون الذين قالوا: ﴿وَمَا زَنَّاكَ أَتَّبَعَكَ إِلَّا الَّذِي هُمْ أَرَادُوا بِادِّىَ الرَّأْيِ﴾ [هود: ٢٧] كما قال تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ﴾ ﴿٢٤﴾ [سبأ].

وقد حُصِّصَ قوم نوح بالذكر؛ لأن عبادة الأوثان ظهرت في عصره، فهو أول رسول، والعذاب الذي حل بقومه عذاب مهول، وزمن نوح ﷺ هو مبدأ قصص الأمم والرسل. وفي الحديث: عن عبد الله بن مسعود ؓ أن رسول الله ﷺ قال: «خير الناس قرني، ثم الذين يلونهم»^(١).

والقرن: هو الجيل من الأمة، وهو في الغالب مئة عام، كما رُوِيَ أن النبي ﷺ وضع يده على رأس عبد الله بن بشر المازني، وقال: «سيعيش هذا الغلام قرنًا»، قال محمد بن القاسم: فما زلنا نعدُّ له حتى تَمَّتْ له مئة سنة، ثم مات^(٢).

وقد يزيد: الجيل الواحد عن مئة عام كجيل الصحابة، فإنه تم عشرون ومئة سنة، فقد كان آخره يزيد بن معاوية، وقيل: أنس بن مالك، ونقص عمر التابعين عن ذلك فكان ثمانون عامًا، والمتوسط مئة عام.

ثم طمأن الله رسوله بأنه مطَّلِع على ذنوب القوم، وهو سبحانه مجازيهم بذنوبهم، فبيَّن تعالى أنه عالم بجميع أعمال عباده، لا تخفى عليه خافية ﴿وَكَفَىٰ بَرِّكَ يَذُنُوبٍ عِبَادِهِ خَبِيرًا بَصِيرًا﴾ وهو سبحانه مجازيهم على ما قدمت أيديهم، كما قال تعالى: ﴿نَسِيتُكُمْ اللَّهُ وَهُوَ

(١) من حديث عبد الله بن مسعود في «صحيح البخاري» برقم (٢٦٥٢، ٥١٣٦، ٦٤٢٩) و«صحيح مسلم» (٢٥٣٣).

(٢) «تفسير الخازن» (١٥٩/٣).

السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿البقرة: ١٣٧﴾ فاحذروا أن تكونوا مثلهم .

مَصِيرُ مَنْ يَعْمَلُ لِلدُّنْيَا وَمَنْ يَعْمَلُ لِلْآخِرَةِ

١٨- ﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعَاجِلَةَ عَجَلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَاءُ لِمَنْ نُرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُ جَهَنَّمَ يَصْلَاهَا مَذْمُومًا مَدْحُورًا﴾

ثم إن الناس على قسمين: منهم من يعمل لشهواته مدة حياته، كأنه لا بعث، ولا حساب، ولا جزاء على كل ما اقترفت يده في هذه الحياة.

ومنهم من يعمل لآخريته، فيسدد ويقارب .

وبعض الناس أكبر همه الدنيا، يعمل لها، ويسعى من أجلها .

والله سبحانه يعطي الدنيا من يحب ومن لا يحب، ولكنه سبحانه لا يعطي الدين إلا لمن أحب ﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعَاجِلَةَ﴾ أي: الدنيا، ويعمل لها وحدها، ولا يؤمن بالآخرة، ولا يعمل لها ﴿عَجَلْنَا لَهُ فِيهَا﴾ أي: في الدنيا ﴿مَا نَشَاءُ﴾ تعجيله، هذا شرط، والشرط الثاني: ﴿لِمَنْ نُرِيدُ﴾ أي: وفق مشيئة الله تعالى، لا وفق ما يريده العبد، ولمن يريد الله سبحانه من عبادته، وليس لما يريده العبد، ثم يوفى نصيبه في الدنيا، وقد قيّد الله العطاء في الدنيا لمن يريد، بمشيئته وإرادته .

والكافر يأخذ حقه في الدنيا على الأعمال الصالحة، فإن كان يصل رحمه، ويبر والده، ويتصدق على الضعفاء، ويواسي أهل المصائب، ويكرم الضيف، ونحو ذلك، فإنه سيأخذ ثوابه وجزاءه في الدنيا على هذا، وليس له في الآخرة من نصيب .

روى مسلم في صحيحه عن أنس بن مالك ؓ قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الله لا يظلم مؤمناً حسنة يعطى بها في الدنيا ويُجزى بها في الآخرة، وأما الكافر فيعطى بحسناته ما عمل بها لله في الدنيا، حتى إذا أفضى إلى الآخرة، لم تكن له حسنة يُجزى بها»^(١) .

وفي لفظ له: «إن الكافر إذا عمل حسنة أطعم بها طعمة في الدنيا، وأما المؤمن فإن الله يدخر له حسناته في الآخرة، ويعقبه رزقاً في الدنيا على طاعته»^(٢) .

(١) «صحيح مسلم» برقم (٢٨٠٨) .

(٢) «صحيح مسلم» برقم (٢٨٠٨) .

فمن كان يطلب الدنيا، ويسعى لها وحدها، ولم يصدق بالدار الآخرة، ولم يعمل لها عجل الله له في الدنيا ما يشاؤه مما كتبه الله له في اللوح المحفوظ، فَيُؤَفِّي نصيبه في الدنيا كاملاً ﴿ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُمْ جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا مَذْمُومًا مَدْحُورًا﴾ أي: أن مصيره في الآخرة هو عذاب جهنم يدخلها وهو ملوم مطرود من رحمة الله تعالى؛ بسبب توجهه للدنيا وحدها، وعدم إيمانه بالآخرة.

عن عائشة ؓ قالت: قال رسول الله ﷺ: «الدنيا دار من لا دار له، ومال من لا مال له، ولها يجمع من لا عقل له»^(١).

ولفظ الإرادة مرادف للفظ المشيئة، فإن أعطى الله من يعمل للدنيا بعض ما يريد، فإنه يكون مقيداً بإرادة الله تعالى ومشيتته.

وكثير من الناس يتمنى الكثير ولا يعطاه، فيجتمع له فقر الدنيا والآخرة، قال تعالى: ﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَلَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ ﴿١٥﴾ أُولَئِكَ الَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ إِلَّا النَّكَارُ وَحَبِطَ مَا صَنَعُوا فِيهَا وَبِطُلَّ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٦﴾﴾ [هود].

١٩- ﴿وَمَنْ أَرَادَ الْآخِرَةَ وَسَعَى لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَئِكَ كَانَ سَعْيُهُمْ مَشْكُورًا﴾

أما من يعمل للآخرة فهو لا يُبالي إن أُعطي حظاً في الدنيا أم لا؛ لأنه في الآخرة مكافأ على كل حال ﴿وَمَنْ أَرَادَ الْآخِرَةَ وَسَعَى لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ﴾ هذه ثلاثة شروط وهي:

١- أن يريد بعمله وجه الله تعالى والدار الآخرة.

٢- أن يسعى سعيًا حثيثاً للآخرة لا رياءً فيه، ولا سمعة.

٣- وهو مؤمن، هذا هو الشرط الأساس ﴿فَأُولَئِكَ كَانَ سَعْيُهُمْ مَشْكُورًا﴾

أي: أن عملهم مقبول، مدخر لهم عند ربهم، وسيثابون عليه، ومع هذا فلا يفوتهم نصيبهم من الدنيا.

(١) أخرجه أحمد في «المسند» (٧١/٦) برقم (٢٤٤١٩) وقال الهيثمي في «مجمع الزوائد» (٢٨٨/١٠): رجاله رجال الصحيح غير دُوَيْد وهو ثقة وقال السخاوي في «المقاصد الحسنة» (٤٩٤): رجاله ثقات، وضعف إسناده محققو «المسند» فقالوا: إن دُوَيْد غير منسوب.

(٢) سَكَنَ الهاء من (وهو) قالون وأبو عمرو والكسائي وأبو جعفر.

قال بعض السلف: من لم يكن معه ثلاث لم ينفعه عمله: إيمان ثابت، ونية صادقة، وعمل مصيب، وتلا هذه الآية، قال تعالى: ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهٗ حَيٰوةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [النحل].

وجاء في الحديث عن أنس بن مالك ؓ: «من كانت الآخرة همه، جعل الله غناه في قلبه، وجمع عليه شمله، وأتته الدنيا وهي راغمة، ومن كانت الدنيا همه، جعل الله فقره بين عينيه، وفرّق عليه شمله، ولم يأتها من الدنيا إلا ما قدر له»^(١).

قال قتادة: من كانت الدنيا همه، ورغبته، وطلبته، ونيتته؛ عجل الله له فيها ما يشاء، ثم اضطره إلى جهنم^(٢).

قال تعالى: ﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الْآخِرَةِ نَزِدْ لَهُ فِي حَرْثِهِ وَمَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِن نَّصِيبٍ﴾ [الشورى]. قال تعالى:

٢٠- ﴿كَلَّا تُؤْمَدُ هَتُولَاءُ وَهَتُولَاءُ مِّنْ عَطَاءِ رَبِّكَ وَمَا كَانَ عَطَاءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا﴾^(٣)

أي وجميع الخلق سواء منهم من يريد الدنيا، ومن يريد الآخرة، كلهم يمدهم ربنا من فضله ورزقه ﴿كَلَّا تُؤْمَدُ﴾ من عطاء الله ورزقه، كلا الفريقين: الكافر والمؤمن، والطائع والعاصي ﴿هَتُولَاءُ وَهَتُولَاءُ﴾ جميعهم يأخذون ﴿مِّنْ عَطَاءِ رَبِّكَ﴾ الواسع، تفضلاً منه، وإحساناً ﴿وَمَا كَانَ عَطَاءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا﴾ أي: لم يكن هذا العطاء خاصاً، ولا محبوساً، ولا منقوصاً، ولا ممنوعاً من أحد، بحيث يخص المؤمنين وحدهم، بل كل من العاملين للدنيا والفانية، والعاملين للآخرة الباقية نزيده من رزقنا، فنرزق الجميع: البرّ والفاجر، والتقّي والعاصي، وهذا الرزق عطاء من الله تعالى، وتفضل منه على جميع خلقه، وليس ممنوعاً على أحد.

قال قتادة: إن الله قسم الدنيا بين البرّ والفاجر، والآخرة خصوصاً عند ربك

(١) «سنن الترمذي» برقم (٢٤٦٥) وانظر تخريجه في: سورة هود الآية [١٥].

(٢) الطبري (٥٣٦/١٤).

(٣) كسر التنوين من (محظوراً) حال وصلها بـ (انظر) بعدها حمزة وأبو عمرو وابن ذكوان وعاصم ويعقوب، وقرأ الباقون بالضم.

للمتقين^(١). قال تعالى:

٢١- ﴿أَنْظِرْ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ وَلَآخِرَةُ أَكْبَرُ دَرَجَتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلًا﴾

وعطاء الدنيا غير منوط بصلاح الأعمال، بل قد يزيد عطاء الكافر على عطاء المؤمن في الرزق، وفي العمل، وفي الصحة، وفي المال، وفي العقل والجاه، وغير ذلك، فتأمل في كيفية تفضيل الله لبعض الناس على بعض في الدنيا، واعتبر، واتعظ ﴿وَلَآخِرَةُ أَكْبَرُ دَرَجَتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلًا﴾ والفضل في الآخرة هو فضل المؤمن وحده، فهو أكبر درجة وأعظم أجراً، فلا نسبة ولا مقارنة بين نعيم الدنيا ونعيم الآخرة بوجه من الوجوه، ولا يستوي من هو في الغرف العاليات، بمن يتقلب في الجحيم، وقد حلّ عليه سخط الله تعالى.

وقف على باب عمر بن الخطاب جمع من الناس فيهم الضعفاء والفقراء، وفيهم أشرف قريش وملوك العرب، أبو سفيان، وغيره، فأذن عمر بالدخول أولاً، لبلال، وصهيب، وعلى الباب أبو سفيان، وغيره من أشرف العرب، وملوكهم، فقال سهيل بن عمرو - وكان قد أسلم مؤخراً - قال: إنما أوتينا من قِيلِنَا، دُعُوا ودُعِينَا، فأسرعوا وأبطأنا، أي: أن هؤلاء الضعفاء أسرعوا إلى الدخول في الإسلام قَبْلَنَا، ونحن تأخرنا عنهم.

فإذا كان الأمر هكذا بباب عمر، فكيف بأبواب الجنة؟ وما ينتظر أمثال هؤلاء الضعفاء والمساكين، من أهل الصلاح، من الثواب الجزيل، إنهم أعظم فضلاً، وأعلى درجات عند رب العالمين، فأهل الدرجات يتفاوتون، والجنة مئة درجة ما بين كل درجتين كما بين السماء والأرض، وأهل الجنة يُرَوْنَ فيها كما يرى الكوكب في السماء.

وَصَايَا سُورَةِ الْإِسْرَاءِ الْأَرْبَعِ عَشْرَةَ

في نحو صفحتين من صفحات المصحف، من سورة بني إسرائيل، تناولت السورة أربع عشرة وصية، جاء أكثرها في الربع الأخير من سورة الأنعام، وهي موجودة في الشرائع الإلهية على السنة الرسل جميعاً، لم ينسخ منها شيء من شريعة إلى أخرى، وهي جماع الأوامر والنواهي، وجماع الأخلاق والفضائل، ومجمل هذه الوصايا:

(١) الطبري (٥٣٦/١٤).

- ١- تنهى عن الشرك. ٢- تأمر بالتوحيد. ٣- تأمر ببر الوالدين.
 - ٤- تأمر بالإحسان إلى الأقارب. ٥- تنهى عن التبذير والإسراف.
 - ٦- تنهى عن البخل والتقتير. ٧- تنهى عن قتل الأولاد خشية الفقر.
 - ٨- تنهى عن الزنى. ٩- تنهى عن قتل النفس إلا بالحق.
 - ١٠- تنهى عن أكل مال اليتيم. ١١- تنهى عن تطفيف الكيل والميزان.
 - ١٢- تنهى عن نقض العهد، وخلف الوعد.
 - ١٣- تنهى عن سوء الظن والتقول بغير علم. ١٤- تنهى عن الكبر والخيلاء.
- وتنهي مرة ثانية عن الشرك بالله في نهاية هذه الوصايا، كما نهت عنه في بدايتها.

وهذه الوصايا الجامعة لأمهاث الفضائل، أتى بها محمد ﷺ الذي نشأ في بيئة جاهلية، هذه البيئة كانت لا تعرف إلا الثأر، والقتل، والغارات، ووأد البنات، والزنى، وشرب الخمر، وقطع الرحم، وغير ذلك من الأخلاق الدنيئة، فمن الذي علّم محمدًا ﷺ أمهاث الفضائل في وسط هذه البيئة الجاهلية، إنه الوحي الإلهي الذي علّم محمدًا ﷺ أصول النظام الاجتماعي في الإسلام.

والله ﷻ يسمي هذه الوصايا (آيات الحكمة) فيقول جلّ شأنه في نهايتها: ﴿ذَلِكَ مِمَّا أَوْحَىٰ إِلَيْكَ رَبُّكَ مِنَ الْحِكْمَةِ﴾ وكأنّ القرآن الكريم يقول لبني إسرائيل الذين أفسدوا في الأرض، وعاقبهم الله سبحانه على الإفسادتين الكبيرتين التي جاء ذكرهما في أول السورة، كأنّ الله سبحانه يقول لهم ولغيرهم: لقد عرفتم أن هذا القرآن يهدي للتي هي أقوم، ومن هداية القرآن للتي هي أقوم، هذه الوصايا، وهذه الأوامر والنواهي التي جاء ذكرها في هذه السورة، وهي موجودة عندكم في التوراة، وموجودة في الإنجيل، وفي سائر الكتب السماوية، فلماذا لم تهتدوا؟ ولماذا لا تتبعون هذا القرآن، وتقتفون أثره، وتؤمنون بالنبي الخاتم، الذي جاء وضّفه عندكم في التوراة والإنجيل.

وتبدأ هذه الوصايا الجامعة بالنهي عن الشرك بالله ﷻ، وتنتهي كذلك بالنهي عن الشرك بالله تعالى ﴿لَا تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَتَقَعُدَ مَذْمُومًا مَّخْذُولًا﴾ ﴿٢١﴾ هذه هي الوصية الأولى، أما الوصية الأخيرة فهي ﴿وَلَا تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَتُلْقَىٰ فِي جَهَنَّمَ مَلُومًا مَّدْحُورًا﴾.

الْوَصِيَّةُ الْأُولَى: النَّهْيُ عَنِ الشَّرِكِ .

٢٢- ﴿لَا تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَتَقَعُدَ مَذْمُومًا مَحْدُولًا ۚ﴾ (٢٢)

تبدأ الآيات بالنهي عن الشرك، وتُختم به؛ لأنه الذنب الأعظم الذي لا يُغفر إذا مات العبد عليه، والعياذ بالله؛ ولأن عدم الإشراك بالله تعالى هو خلاصة أسباب الفوز بالجنة، وهو بداية الطريق للعمل الصالح، وهو أول خطوات السعي للدار الآخرة، ولأن الشرك يعني: اختلال التفكير، وتضليل العقول، وأي خلل، وأي ضلال أعظم من أن يعبد المرء حجراً أو صنماً يصنعه بيده، ولذا فإن إبراهيم عليه السلام قال لقومه: ﴿أَعْبُدُونِ مَا نَنجُوْنَ ۖ وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ﴾ (٩٦) [الصفات] وهو وثن من جماد، أو صنم من حيوان لا يعقل، ولا ينفع، ولا يضر، كما قال تعالى: ﴿إِنْ تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا دُعَاءَكُمْ وَلَوْ سَمِعُوا مَا اسْتَجَابُوا لَكُمْ وَيَوْمَ الْقِيَمَةِ يَكْفُرُونَ بَشِرِكِكُمْ ۖ وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ﴾ (٢٤) [فاطر].

وقال إبراهيم لأبيه: ﴿يَتَّبِعِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِي عَنْكَ شَيْئًا﴾ [مريم: ٤٢].

سأل عبد الله بن مسعود رضي الله عنه رسول الله ﷺ: أي الذنب أعظم؟ قال: «الشرك بالله»، قال ثم أي؟ قال: «أن تقتل ولدك خشية أن يطعم معك»، قال: ثم أي؟ قال: «أن تزاني حليلة جارك»^(١).

أي: زوجة جارك؛ وذلك لأن الزنى محرم، ولكنه بالنسبة للجار أعظم وأشد، ففيه اقتراف لجريمة، وانتهاك لحرمة الجوار.

فالشرك بالله تعالى أعظم الذنوب، فلا تعتقد أن أحداً من المخلوقين يستحق العبادة مع الله سبحانه، لا من أهل السماوات ولا من أهل الأرض، لا من الأحياء ولا من الأموات، فإنك إن فعلت ذلك وكلك الله إلى من أشركته به كما في الحديث القدسي عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «قال الله تعالى: أنا أغنى الشركاء عن الشرك من عمل عملاً أشرك معي فيه غيري تركته وشركه»^(٢) أي: وكلته إلى هذا الذي أشركه معي،

(١) «صحيح البخاري» برقم (٤٧٦١، ٦٨١١) و«صحيح مسلم» برقم (٨٦).

(٢) «صحيح مسلم» برقم (٢٩٨٥).

وهو لا يملك له نفعا ولا ضرا، بل إنه إلى ضره أقرب من نفعه، وهو في هذه الحالة مخذول، فالله وحده هو الناصر، وهو الولي، وهو المعين، قال تعالى: ﴿إِنْ يَنْصُرْكُمُ اللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ وَإِنْ يَخْذُلْكُمْ أَي: إن لم ينصركم ربكم ﴿فَمَنْ ذَا الَّذِي يَنْصُرُكُمْ مِنْ بَعْدِهِ﴾ [آل عمران: ١٦٠].

﴿لَا تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ﴾ من الجن، أو من الملائكة، أو من الناس، ولا تشرك بالله أحدا منهم، فإن الشرك بالله من دواعي الذم والخذلان، لأن من تعلق بغيره فهو مخذول، قد وكله الله إلى من تعلق به، وهذا معنى: ﴿فَلَقَعَدَ مَذْمُومًا تَخْذُولًا﴾ لا ناصر لك؛ لأن رب العالمين تخلى عنك.

والمذموم: هو المذكور بالعيب والسوء.

والمخذول: هو الذي تخلى عنه وليه وناصره ﴿ذَلِكَ يَأْنَى اللَّهُ مَوْلَى الَّذِينَ ءَامَنُوا وَأَنَّ الْكَافِرِينَ لَا مَوْلَى لَهُمْ﴾ [محمد].

وقد ابتدأت هذه الوصايا بالنهي عن عبادة غير الله تعالى؛ لأن ذلك هو أصل الإصلاح؛ فإصلاح الفكر مقدم على إصلاح العمل، وهذا كما في الحديث عن النعمان بن بشير: «ألا وإن في الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله، وإذا فسدت فسد الجسد كله ألا وهي القلب»^(١)، وإصلاح الأعمال مرتب على نبذ الشرك.

الْوَصِيَّةُ الثَّانِيَّةُ: الْأَمْرُ بِالتَّوْحِيدِ

٢٣- ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا إِمَّا يَبْلُغَنَّ^(٢) عِنْدَكَ الْكَبَرُ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُلْ لَهُمَا أُفٍّ^(٣) وَلَا تَنْهَرُهُمَا وَقُلْ لَهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا﴾

(١) من حديث النعمان بن بشير في البخاري (٥٢) ومسلم (١٠٧، ١٥٩٩).

(٢) قرأ حمزة والكسائي وخلف العاشر (يلغن) بإثبات ألف بعد الغين مع المد وكسر النون مشددة، على أن الفعل مسند إلى ألف الاثنين، وهي الفاعل، وكسرت نون التوكيد بعدها تشبيها لها بنون المثني، والباقون بحذف الألف وفتح النون مشددة، على أنه فعل مضارع مبني على الفتح لاتصاله بنون التوكيد، وأحدهما فاعل، وكلاهما معطوف عليه.

(٣) قرأ نافع وحفص وأبو جعفر بكسر الفاء منونة من (أف) لغة أهل الحجاز واليمن، والتنوين للتنكير، وقرأ ابن كثير وابن عامر ويعقوب بفتح الفاء بلا تنوين لغة قيس، وقرأ الباقون بكسر النون بلا تنوين.

وبعد النهي عن الشرك بالله تعالى، يأمر سبحانه عباده بالتوحيد، بطريقتي: السلب، والإيجاب؛ فترك الشرك أمر سلبي، وتوحيد الله تعالى عمل إيجابي ﴿وَقَصَّ رَبُّكَ أَلاَّ تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ﴾ قضاء محكمًا حتميًا مبرمًا واجبًا في حصر العبادة لله وحده بعد النهي عن الإشراف به، فلا تدع إلا الله، ولا تسأل إلا الله، ولا تستغث إلا بالله، ولا تنذر إلا لله، ولا تذبح إلا لله ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٢٢٠﴾ لَا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ ﴿٢٢١﴾﴾ [الأنعام].

فهو وحده الواحد الأحد، الفرد الصمد، وهو المنعم على خلقه بالنعمة الظاهرة والباطنة، وهو المتفرد بالخلق والرزق والتدبير والإحياء والإماتة..

الْوَصِيَّةُ الثَّالِثَةُ: الْإِحْسَانُ إِلَى الْوَالِدَيْنِ

وشأن القرآن دائمًا بعد الأمر بتوحيد الله تعالى، أن يثني بالإحسان إلى الوالدين، ووجوب برهما ويأتي ذلك في الدرجة الثانية؛ لأن الوالدين لهما الفضل الثاني بعد الله سبحانه في إيجاد العبد؛ فهما السبب المباشر في وجود الإنسان في هذه الحياة، ومن ثمَّ كان لهما الفضل الثاني بعد الله سبحانه.

وجاء الأمر بعبادة الله تعالى مقرونًا ببر الوالدين في كثير من آيات القرآن الكريم.

قال ابن عباس ؓ: ثلاث آيات قرئت بثلاث ﴿وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ﴾ [التغابن: ١٢] ﴿وَأَقِمْوْا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ﴾ [المزمل: ٢٠] ﴿أَنْ أَشْكُرَ لِي وَلَوْلَايَكَ﴾ [لقمان: ١٤].

وهكذا فإن طاعة الله تعالى قرئت بطاعة الرسول، والصلاة قرئت بالزكاة، وشكر الله تعالى قرن بشكر الوالدين.

ويشبه هذه الآية قوله تعالى: ﴿قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبِّيَ عَلَيْكُمْ أَنَّا نَشْكُرُ بِهِ سُبْحَانَ﴾ هذه هي المرتبة الأولى، والمرتبة الثانية ﴿وَالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا﴾ [الأنعام: ١٥١].

وقوله سبحانه: ﴿وَأَعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ سُبْحَانَ﴾ هذه هي المرتبة الأولى، والمرتبة الثانية: ﴿وَالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا﴾ [النساء: ٣٦].

وقوله جلَّ شأنه: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَءِيلَ لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ﴾ هذه هي المرتبة

الأولى، والمرتبة الثانية ﴿وَالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا﴾ [البقرة: ٨٣] وهكذا.

والإسلام يوجب الإحسان إلى الوالدين وإن كانا غير مسلمين يجاهدانه، ويطلبان منه الكفر، قال تعالى: ﴿وَلِنْ جَهْدَكَ عَلَىٰ أَنْ تَشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطْعِمَهُمَا وَلِغِيظِهِمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفًا﴾ أي: لا تقاطعهما؛ فلهما حق الصحبة، وحق الأبوة ﴿وَاتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَيَّ﴾ [لقمان: ١٥] فالقرآن لم ينه عن صحبتهما، حتى في حالة شركهما، ومجاهدة الابن في خروجه عن طريق الإسلام، بل يأمر أيضًا ببرهما وإن ظلما.

فإن كان أبوك قد منعك من الميراث، أو أساء تربيتك، أو تركك بدون تربية، أو بدون تعليم، فحسابه على الله، وأنت عليك البر، أنت مطالب بالبر والإحسان إلى الوالدين وإن ظلماك، وحساب الظالم على الله، إن كان قد قصّر في التربية، أو في غيرها.

وبر الوالدين مقدم على أعظم مراتب الإسلام؛ فهو بعد التوحيد وقبل ذروة سنام الإسلام، وهو الجهاد في سبيل الله، وهذه بعض الأحاديث الواردة في هذا المقام:

١- في صحيح مسلم، وغيره: عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: «سألت رسول الله ﷺ أي الأعمال أحب إلى الله تعالى؟ قال: «الصلاة لوقتها» قلت: ثم أي؟ قال: «بر الوالدين» قلت: ثم أي؟ قال: «الجهاد في سبيل الله»^(١).

أي: أن بر الوالدين مقدم على الجهاد في سبيل الله.

٢- ومن هنا فقد جاء في الصحيحين: عن عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنه قال: جاء رجل إلى النبي ﷺ فاستأذنه في الجهاد، فقال ﷺ: «أحيي والدك؟» قال: نعم، قال: «ففيهما فجاهد»^(٢).

وفي لفظ آخر: «ارجع إليهما فأحسن صحبتهما»^(٣).

فإن برَّهما والإحسان إليهما جهاد في سبيل الله.

(١) «صحيح مسلم» برقم (٨٥) و«صحيح البخاري» برقم (٥٢٧) وانظر: (٢٧٨٢، ٥٩٧٠، ٧٥٣٤) و«المسند» (٣٨٩٠، ٤١٨٦) والترمذي (١٧٣) والنسائي (٦٠٩).

(٢) «صحيح مسلم» برقم (٢٥٤٩) و«صحيح البخاري» برقم (٣٠٠٤، ٥٩٧٢) وعبد الرزاق في «المصنف» (٩٢٨٤) وابن أبي شيبة (٤٧٣/١٢).

(٣) «صحيح مسلم» برقم (٢٥٤٩).

٣- وعن سليمان بن بريدة عن أبيه أن رجلاً كان في الطواف حاملاً أمه يطوف بها، فسأل النبي ﷺ: هل أديتها حقها؟ قال: «ولا بزفرة واحدة»^(١) أي: من زفرات طلق الولادة.

٤- وقد بين النبي ﷺ أن الجنة لا يدخلها عاق، كما في صحيح مسلم وغيره: عن أبي هريرة ؓ قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «رغم أنفه، ثم رغم أنفه»، قيل: من يا رسول الله؟ قال: «من أدرك والديه عند الكبر أحدهما أو كلاهما ثم لم يدخل الجنة»، وفي لفظ آخر: «أبعده الله»^(٢)، أي: أبعده من رحمته، وأصبح أهلاً لدخول النار.

٥- وفي الحديث المشهور: أن جبريل ؑ طلب من النبي ﷺ أن يؤمن على من ذكر عنده اسم الرسول ﷺ ولم يصل عليه، وعلى من دخل عليه شهر رمضان وخرج منه ولم يغفر له، وعلى من أدرك أحد أبويه أو كليهما فأغضبهما، ولم يكونا سبياً لدخوله الجنة، فإن هؤلاء جميعاً يكونون مبعدين مطرودين من رحمة الله سبحانه، يقول جبريل ؑ للنبي ﷺ: قل آمين بعد كل واحدة من هذه الثلاث فقال ﷺ: «آمين»^(٣).

٦- وذلك لأن عقوق الوالدين من أكبر الكبائر كما في الحديث عن عبدالرحمن بن ابي بكرة عن أبيه أن رسول الله ﷺ قال: «ألا أنبئكم بأكبر الكبائر؟» قلنا: بلى يا رسول الله، قال: «الإشراك بالله، وعقوق الوالدين»، وكان متكئاً فجلس، فقال: «ألا وقول الزور وشهادة الزور» فما زال يكررها، حتى قلنا: ليته سكت^(٤).

٧- وعن أبي الدرداء ؓ قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «الوالد أوسط أبواب الجنة، فإن شئت فضيِّع هذا الباب، أو احفظه»^(٥).

(١) أخرجه البزار في «كشف الأستار» برقم (١٨٧٢).

(٢) «صحيح مسلم» برقم (٢٥٥١) و«المسند» (٣٦٤/٢) برقم (٧٤٥١، ٨٥٥٧) وانظر: البخاري في «الأدب المفرد» (٢١) والبيهقي (٧٨٨٤).

(٣) يُنظر نص الحديث عن أبي هريرة في الأدب المفرد (٦٤٦) وابن خزيمة (١٨٨٨) وفي: «كشف الأستار» للبزار برقم (٣١٦٨) عن أنس، ومن حديث عمار بن ياسر وجابر بن سمرة وابن مسعود في «مسند البزار» برقم (٣١٦٤) و (٣١٦٧).

(٤) من حديث عبد الرحمن بن أبي بكرة عن أبيه في «صحيح البخاري» برقم (٢٦٥٤، ٥٩٧٦) و«صحيح مسلم» برقم (٨٧).

(٥) أخرجه الترمذي وقال: حديث صحيح ورقمه: (١٩٠٠) و«صحيح الجامع» (٢١٢٠) و«السلسلة الصحيحة» (٩١٤).

٨- وعن أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «لا يجزي ولدٌ والده إلا أن يجده مملوكًا فيشتريه فيعتقه»^(١).

وَيُعْظَمُ حق الأم؛ لقيامها بالحمل، والولادة، والرضاعة.

٩- عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: جاء رجل إلى النبي ﷺ فقال: «يا رسول الله، من أحق الناس بحسن صحابتي، قال: «أملك، ثم أمك، ثم أباك، ثم أدناك فأدناك».

وفي لفظ آخر: «قال: أملك»، قال: ثم من؟ قال: «أملك»، قال: ثم من؟ قال: «أملك»، قال: ثم من؟ قال: «أبوك»^(٢).

١٠- وجاء رجل إلى النبي ﷺ، فقال: يا رسول الله، أردت الغزو، وجئت أستشيرك؟ فقال: «هل لك من أم؟» قال: نعم، فقال: «الزمها؛ فإن الجنة عند رجلها»^(٣).

١١- وفي الصحيحين: عن أسماء بنت أبي بكر قالت: قدمت أمي وهي مشركة، فاستفتيت النبي ﷺ فقلت: إن أمي قدمت وهي راغبة، أفأصلها؟ قال: «نعم، صلي أمك»^(٤).

ومعنى: وهي راغبة، أي: في بري وصلتي، أو وهي راغبة عن الإسلام كارهة له.

وسأل رجل الإمام مالك فقال: إن أبي في بلد السودان، وقد كتب إلي أن أقدم عليه، وأمي تمنعني من ذلك؟ فقال: (أطع أباك، ولا تعص أمك)^(٥).

١٢- قالت عائشة رضي الله عنها: أتى رسول الله ﷺ رجلٌ ومعه شيخ فقال: «من معك؟» قال:

(١) «صحيح مسلم» برقم (١٥١٠) والبخاري في «الأدب المفرد» (٨) وابن أبي شيبة (٣٥١/٨) والترمذي (١٩٠٦) والنسائي في «الكبرى» (٤٨٩٦) وابن ماجه (٣٦٥٩) والبيهقي (٧٨٤٦).

(٢) يُنْظَرُ: «صحيح البخاري» برقم (٥٩٧١) و«صحيح مسلم» برقم (٢٥٤٨).

(٣) رواه أحمد في «المسند» عن معاوية بن جاهمة السلمي (٤٢٩/٣) برقم (١٥٥٣٨) بإسناد حسن و«سنن النسائي» (١١/٦) برقم (٣١٠٤) وابن سعد (٢٧٤/٤) و«صحيح سنن ابن ماجه» (٢٢٤١) و«سنن ابن

ماجه» برقم (٢٧٨١) والبيهقي (٧٨٣٢)، والبيهقي في الشعب (٧٨٣٣) وفي السنن ٩/ ٢٦٠.

(٤) «صحيح مسلم» برقم (١٠٠٣) و«صحيح البخاري» برقم (٢٦٢٠، ٣١٨٣، ٥٩٧٨، ٥٩٧٩).

(٥) ذكره القرافي في «الفرق» (٢١) عن «مختصر الجامع».

أبي، قال: (لا تَمْشِينَ أَمَامَهُ، ولا تَقْعُدَنَّ قَبْلَهُ، ولا تَدْعُهُ بِاسْمِهِ، ولا تُسَبِّبْ لَهُ)^(١).

أي: لا تتسبب في سبه، كأن تسب أباه فيسب أباك.

١٣- وقال عروة: إن أغضبك والداك فلا تنظر إليهما شذراً، فإنَّ أول ما يُعرف غضب المرء، بشدة نظره إلى من غضب عليه^(٢).

١٤- وقد أخبر النبي ﷺ عن رجل كان باراً بأمه، أنه رآه في الجنة، يقرأ القرآن، فقد صح عن عائشة ؓ قالت: قال رسول الله ﷺ: (نمتُ فرأيتني في الجنة، فسمعت صوت قارئ يقرأ، فقلت: من هذا؟ قالوا: حارثُ بنُ النعمان، فقال رسول الله ﷺ: «كذلك البر، كذلك البر» قال: (وكان أبر الناس بأمه)^(٣).

١٥- وفي حديث عبد الله بن عمرو ؓ أن رسول الله ﷺ قال: «لا يدخل الجنة منان ولا عاق، ولا مدمن خمر»^(٤).

١٦- وفي حديث أبي هريرة ؓ أن رسول الله ﷺ قال «ثلاث دعوات مستجابات: دعاء الوالد على ولده، ودعوة المظلوم، ودعوة المسافر»^(٥).

من أهداف بر الوالدين:

ويهدف الإسلام من الأمر ببر الوالدين وصلة الأرحام إلى أمرين:

(١) الطبراني في «الأوسط» (٤١٥٩) ومن رُواته: علي بن سعيد بن بشير وهو لُيْن، ونقل ابن دقيق العيد أنه وثَّق، قال الهيثمي في «مجمع الزوائد» (١٣٧/٨): وبقيّة رجاله رجال الصحيح، وقد جاء هذا عن أبي هريرة بإسناد صحيح في «صحيح الأدب المفرد» (٣٢) وعبد الرزاق في «المصنف» (٢٠١٣٤) والبيهقي في الشعب (٧٨٩٤).

(٢) أخرجه ابن أبي حاتم كما في «الدر المنثور» (٢٩١/٩).

(٣) «المسند» (٢٥١٨٢) والحاكم (١٥١/٤) والبيهقي (٧٨٥١) واللفظ له، قال محققو «المسند»: إسناده صحيح، رجاله ثقات، ويُتَظَر: «السلسلة الصحيحة» (٩١٣).

(٤) «صحيح سنن النسائي» (٥٢٤١) و«السلسلة الصحيحة» (٦٧٠).

(٥) أخرجه البيهقي (٧٨٩٥) وصححه الألباني في «السلسلة الصحيحة» (١٧٩٧). وهو في مسند أحمد (٧٥١٠، ٨٥٨١) قال محققوه: حسن لغيره، وأخرجه الطيالسي (٢٥١٧) وابن ماجه (٣٨٦٢) وأبو داود (١٥٣٦) والترمذي (١٩٠٥) وابن أبي شيبة (٤٢٩/١٠).

أحدهما: تربية نفوس الأمة على الاعتراف بالجميل لصانعه، فكما أمر سبحانه بشكر الله تعالى على نعمة الخلق والرزق، أمر أيضًا بشكر الوالدين على إجراء نعمة الوجود في هذه الحياة على أيديهما، وعلى التربية والرعاية.

وثانيهما: توثيق أواصر العلاقة العائلية بما يُقوّي الروابط بينها، بحسن المعاشرة، والتحابب، والتواد، في مقابلة عاطفة الأمومة الغريزية، وعاطفة الأبوة الطبيعية العقلية، ليقابل ذلك بما يناسبه في حال الكفر.

وقد وزّع الإسلام هذه المعاني على بقية مراتب القرابة، حسب الدنوّ النسبي في درجة القربى بما شرعه من صلة الرحم.

جاء في الحديث عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «إن الله تعالى خلق الخلق حتى إذا فرغ من خلقه قالت الرحم: هذا مقام العائذ بك من القطيعة، قال: نعم: أما ترضين أن أصل من وصلك، وأقطع من قطعك؟ قالت: بلى، قال: فهو لك»^(١).

بر الوالدين بعد موتهما:

وبر الوالدين لا يتقطع بموت الوالدين، وإنما يتصل بعد موتهما، سأل رجل رسول الله ﷺ: هل بقي عليّ من بر أبيّ شيء، أبرهما به بعد موتهما؟ قال: «نعم»، وذكر له خمسة أشياء:

أولاً: الصلاة عليهما، بمعنى: الدعاء لهما؛ فهذا هو الشيء الوحيد الذي يعود على الأب، أو الأم من ولده بعد موته، دعوة صالحة من الابن للأب، أو الأم بعد موتهما، إن كان ولدًا صالحًا، ودعاؤه مقبول.

ولذا: فإن الآباء يجب عليهم أن يحرصوا على تربية أبنائهم تربية صالحة، عن طريق ارتباطهم بالمسجد، وارتباطهم بكتاب الله، ومعرفة الحلال والحرام؛ فإن هذا أكبر وأعظم من الشهادة الدراسية، وأعظم من المنصب أو المركز الذي يكون فيه الابن بعد ذلك، ولا تنافي بينهما؛ فالإنسان بعد موته لا يعود عليه شيء من ذلك، مهما بلغ ابنه قمة المجد الدنيوي، وإنما يعود عليه منه دعوة صالحة إن كان عبدًا صالحًا.

(١) من حديث أبي هريرة في «صحيح البخاري» برقم (٥٩٨٧) وانظر: (٤٨٣٠) و«صحيح مسلم» برقم (٢٥٥٤).

ثانيًا: والاستغفار لهما، أي: طلب المغفرة، والرحمة لهما من الله سبحانه.

ثالثًا: وإنفاذ عهدهما إن كان الأب قد أخذ على نفسه عهدًا أن يصل فلانًا، أو ينفق على فلان، أو على حلقات تحفيظ القرآن، أو على المسجد، ونحو ذلك؛ فإن الابن ينبغي عليه أن يكون مددًا لنفاذ هذا العهد واستمراره.

رابعًا: وإكرام صديقهما؛ فإن من البر بالأب، والأم أن يبر الإنسان، القريب، أو الصديق، الذي كان يحبه أحد أبويه في الله، ولله، وعلى طاعة الله.

خامسًا: وصلة الرحم التي لا توصل إلا بهما^(١)؛ كالأعمام، والأخوال؛ فإن صلتهم صلة للآباء والأمهات.

ومن تمام البر أن يصل الإنسان أقاربه، وأصدقاء والديه، سيِّمًا بعد وفاة والديه؛ فإن في هذا برًّا لهما.

كما في الصحيح وغيره: عن ابن عمر رضي الله عنهما قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إن أبر البر أن يصل الرجل أهل وُدِّ أبيه بعد أن يُولِّي»^(٢).

وكان ﷺ يهدي لصديقات خديجة رضي الله عنها بعد موتها برًّا بها، ووفاء لها، وهي زوجته، فما ظنك ببر الوالدين.

إن المتأمل في المجتمعات الغربية، وما يحدث فيها من قطيعة وتفكك أسري بين الآباء والأبناء، بدءًا من سن البلوغ؛ حيث يترك الأب ولده، والابن بعد ذلك يسد نفقات التربية لأبيه، في دور رعاية المسنين، ولا تعارف بينهما إلا في المناسبات وأعياد الميلاد، إن الذي ينظر إلى هذا يدرك قيمة الصلة، والرابطة الأسرية التي يحرص عليها الإسلام.

(١) يُنظر: نصّ الحديث في «المسند» (٤٩٧/٣) برقم (١٦٠٥٩) عن أبي أسيد الساعدي، وعند أبي داود برقم (٥١٤٢) وابن ماجه برقم (٣٦٦٤) والبخاري في «الأدب المفرد» (٣٥) والحاكم (١٥٤/٤) وابن حبان (٤١٨)، والبيهقي (٧٨٩٦) وقد ضعفه الألباني في «ضعيف سنن أبي داود» (١١٠١)، وضعفه أيضًا محققوا المسند، لجهالة حال علي بن عبيد.

(٢) البخاري في «الأدب المفرد» (٤١) ومسلم (٢٥٥٢) وأبو داود (٥١٤٣) والترمذي (١٩٠٣) وابن حبان (٤٣١) والبيهقي (٧٨٧٩).

إن هذه المجتمعات الغربية مليئة بالملاجئ، وبيوت العجزة والمسنين، لهؤلاء الآباء والأمهات، إذا تقدم بهما السن، فإنهم ينتظرون الموت في هذه الملاجئ وهذه المساكن، وكأنَّ دُورهم التي أقاموها، وقَضَوْا فيها شبابهم، وتربية أبنائهم ضاقت عنهم، وكأنَّ أبنائهم تنكَّروا لهم، ولم يعودوا يتحملون أن يعكَّروا عليهم حياتهم. أين هذا من الوصايا الخمس التي جاءت في هذه الآيات ﴿إِنَّمَا يَبْتَغِ الْكَبِيرُ﴾؟ ليس المراد حالة الكبر فقط، بل إن هذه الحالة هي الأكثر حاجة إلى عطف الأبناء، وبرِّهما، والإحسان إليهما، ولكن البر مطلوب في كل حال، سواء أكان الأبوان كبيرين أم شابين، كأنَّ القرآن يقول للابن: ينبغي أن يكون الوالد والوالدة في حضنك معك في بيتك، وتحت عينك، ورعايتك ﴿أَحْذَهُمَا﴾ عند وفاة الآخر إلى رحمة الله ﴿أَوْ كِلَاهُمَا﴾ عند بقائهما على قيد الحياة.

وهذه الأمور الخمسة المتعلقة ببر الوالدين، منها اثنان بأسلوب النهي وثلاثة بأسلوب الأمر، فهي: نهيان وثلاثة أوامر تخص الوالدين:

النَّهْيُ الْأَوَّلُ: ﴿فَلَا تَقُلْ لَهُمَا أُفٍ﴾

نهى سبحانه عن الأذى للوالدين باللسان، بأوجز كلمة، وأدنى أذى، للتنبيه على ما فوقه، و﴿أُفٍ﴾ هي في الأصل النفخة التي ينفخها الإنسان على شيء وقع عليه غبار، أو رماذ، ونحو ذلك، ثم استُعْمِلَت للتعبير عن أدنى مكروه، أو أي أذى يمس الإنسان بالقول أو بالفعل، ويعبَّرُ هذا اللفظ عن الضجر والتأفف، ولو أن هناك كلمة أدنى من هذا التعبير لذكرها القرآن الكريم.

وعند الكبر يحتاج الوالدين إلى قضاء حوائجهما، ورعايتهما، وتمريضهما، وتفقد أحوالهما كل يوم، وهذا أهم من رعايتك لزوجك وأولادك.

لقد كان الأبوان وأنت طفل صغير، يُطَهَّرَان بَوْلَكَ، وَيَغْسِلَان نجاستك بنفس راضية، ويريدان لك الأجل الطويل، وأن تكبُر كل يوم شيئا.

والوفاء: هو رد هذا الجميل للأبوين عند الكبر، فقد يحدث منهما مثل ذلك، قد يقعد أحد الأبوين، ويحتاج إلى من يحمله، ومن يغسل نجاسته، ومن يُطَهَّر بوله، فلا تتضرر منهما، ولا تُهمل خِدْمتهما، وقد كانا يودَّان حياتك، ولذلك يختم القرآن هذه الوصايا

بقوله: ﴿رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا فِي نُفُوسِكُمْ﴾ أعلم بصدق النية، وأعلم بطيب الخاطر، وأعلم بالرضى والسخط، إن كنت تفعل هذا وأنت راضٍ، أو فيك شيء من السخط، والتأفف، والضجر.

وربك أعلم بمضايقة زوجتك لهما أو القيام على شؤونهما بنفس طيبة راضية.

النَّهْيُ الثَّانِي: ﴿وَلَا تُنْهَرُهَا﴾

أي: لا تترجهما، ولا تتكلم لهما بكلام خشن أو تسيء لهما عن طريق رفع الصوت ومخالفة الأمر، فقد نهى القرآن عن التأفف منهما، وهو الدرجة الدنيا في العقوق، أما الدرجة العالية فهي رفع الصوت أمام الوالدين.

الْأَمْرُ الْأَوَّلُ: ﴿وَقُلْ لَهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا﴾

أي: قل لهما قولاً حسناً ليناً لطيفاً، بحسن أدب واحترام، ولين وتلطّف، ووقار يشعرهما بالكرامة، وتطمئن له نفسيهما، ولما فرغ القرآن من القول تحدث عن الفعل:

الْأَمْرُ الثَّانِي: التَّذَلُّلُ وَالْخُضُوعُ لَهُمَا

٢٤- ﴿وَخَفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ وَقُلْ رَبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيْتَنِي صَغِيرًا﴾

أي تذلل لوالديك وتواضع لهما، احتساباً للأجر، لا خوفاً منهما، بل رحمة وإحساناً إليهما، وقد شبه خفض الجناح للوالدين بحال الطائر حين ينزل من أعلى، يضم جناحيه، وحين يرتفع إلى أعلى، ينشر جناحيه إذا أراد العلو والارتفاع.

والقرآن الكريم يعبر بخفض الجناح عن لين الجانب، والتواضع، وعدم الكبرياء ﴿وَخَفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ﴾ أي: كن كالعبد الذليل بين يدي والديك، كما يخضع العبد الذليل لسيده الفظ الغليظ.

الْأَمْرُ الثَّالِثُ: ﴿وَقُلْ رَبِّ ارْحَمْهُمَا﴾

ادع الله لهما أن يرحمهما وهما على قيد الحياة، أو بعد موتهما، جزاءً لهما على تربيتهما لك صغيراً، والدعاء للوالدين خاص بهما إذا كانا مسلمين، أو خاص بالأب إن كان مسلماً دون الأم، أو العكس، ولا يجوز الدعاء لهما إن كانا غير مسلمين، كما في

قوله تعالى: ﴿مَا كَانِ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا أَنْ يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوا أُولَىٰ قُرْبَىٰ﴾ [التوبة: ١١٣] ويجوز الدعاء لهما بأن يهديهما الله للإسلام، ومن تولى تربية الإنسان تربية صالحة غير الوالدين، له حق التربية، وحق البر، من الدعاء ورد الجميل وحسن الصلة.

فالآيات بدأت بالأمر والإلزام الحتمي بإفراد الله تعالى بالعبادة، ثم شفعت ذلك بالإحسان إلى الوالدين، وبخاصة في سن الشيخوخة، فلا يتضجر الابن، ولا يستقل شيئاً يراه من أحدهما أو منهما، ولا يُسمعهما قولاً سيئاً، حتى التأفيف الذي هو أدنى مراتب القول السيئ، ولا يصدر منه لهما فعل قبيح، فلم يرض الإسلام الإساءة لهما بأدنى كلمة أو فعل سيئ، بل يَرْفُقُ بهما ويخضع ويتذلل لهما، ويتلطف معهما في القول، ويدعو لهما، ويترحم عليهما، أحياءً أو أمواتاً، كما صبرا على تربيته طفلاً ضعيف الحول والقوة.

ولما كان الوالدان يندفعان بالفطرة إلى حب الأبناء ورعايتهم، والتضحية من أجلهم، فإنهم ليسوا بحاجة إلى التوصية بهم، وإنما يوصي الإسلام الأبناء بالإحسان إلى الآباء، ويستجيش وجدانهم، ويحثهم على بَرِّهم وإكرامهم والتواضع لهم؛ لأنهم سرعان ما ينسَوْنَ تربية آبائهم لهم، وربما سموه واجباً اجتماعياً تُملِيه عليهم البيئة، ويفرضه عليهم الواقع، وربما قالوا: إنه لا فضل لآبائهم في مجيئهم إلى هذه الحياة، فقد جاؤوا إليها في ساعة حظ بين الأبوين، وهو غير مقصود فيها.

أقول: قد يصل العقوق، وانحراف الفكر إلى هذه الدرجة، ومن هنا كان اهتمام الإسلام بالوالدين وبرهما؛ حتى لا تطغى الحياة بما فيها من مشاغل، ولا يطغى حب الزوجة، ولا حب الأولاد على حق الوالدين، وقد بذل كل منهما رحيقه حتى أدركه الجفاف، وتقدما نحو الشيخوخة بعد أن امتص الأبناء كل جهد وعافية منهما، كما يمتص الفرخ كل غذاء في البيضة، فإذا هي قشر، وكما امتصت النابتة الخضراء كل غذاء في الحبة فإذا هي فُتات!! ومن هنا كان أمر الله تعالى ببر الوالدين، وإحسان إليهما قضاء مبرماً، وأمرًا مؤكّداً، وكان مخالفتهما في الأمور الجائزة من العقوق، وموافقتهما فيها برّاً بهما قال تعالى:

٢٥- ﴿رَبِّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا فِي نُفُوسِكُمْ إِن تَكُونُوا صَالِحِينَ فَإِنَّهُ كَانَ لِلْأَوَّلِينَ غَفُورًا﴾

ربكم مطلع على ما تكنه صدوركم من الخير والشر، وهو لا ينظر إلى صوركم وأبدانكم

وإنما ينظر إلى قلوبكم، فإن كانت نياتكم وأعمالكم وأقوالكم في مرضاة الله، فإن الله الذي اطلع على قلب العبد، وعلم أنه ليس فيه إلا الإجابة، ومحبة ما يقربه إليه، فإن الله تعالى، يعفو عنه ويغفر له الأمور العارضة.

والله سبحانه يختم الأمر بتوحيده تعالى، والأمر ببر الوالدين، بهذه الآية ﴿رُكُوعُكُمْ أَعْلَمُ بِمَا فِي نُفُوسِكُمْ﴾ أي: أعلم بما تكنه صدوركم، وضمايركم من ضجر أو أريحية، ومن خير أو شر ﴿إِنْ تَكُونُوا صَالِحِينَ﴾ في طلبكم مرضاة الله تعالى، وما يقربكم إليه، أو كنتم مرائين بأعمالكم غير صادقين في توحيدكم لله، وبركم لأبويكم، فيجازيكم بما تستحقون، فإن حدث منكم عجز وتقصير، أو إساءة طارئة، وكنتم صادقين وصالحين مع الله تعالى، أو مع والديكم، فإن الله سبحانه يغفر ذنب من تاب، وهذا معنى ﴿فَإِنَّهُ كَانَ لِلْأَوَّابِينَ﴾ أي: الرجّاعين إلى الله سبحانه المطيعين له في جميع الأوقات ﴿عَفْوًا﴾ لهم، فمن علم الله منه أنه ليس في قلبه إلا الإجابة إليه تعالى ومحبته، فإنه جلّ شأنه يعفو عنه، ويغفر له ما أصاب من اللوم، وصغائر الذنوب، التي هي مقتضى الطبيعة البشرية.

وفي الآية وعيد لكل من تهاون في حقوق الله تعالى وحقوق أبويه، وفي كل حق أوجبه الله عليه، ووعد لمن رجع إليه سبحانه بالتوبة الصادقة.

قال الفخر الرازي: والمقصود من هذه الآية: أنها تدل على وجوب تعظيم الوالدين، ثم إن الولد قد يظهر منه ما يخل بتعظيمهما، فإن كانت تلك الهفوة ليست لأجل العقوق، بل ظهرت بمقتضى الجبلة البشرية كانت في محل الغفران^(١).

الأواب:

قال سعيد بن المسيب: الأواب: الذي يذنب ثم يتوب، ثم يذنب ثم يتوب، وهو الرجّاع إلى الخير، كثير العودة إلى الله تعالى، كلما ألمّ بذنب، فهو التائب من الذنب، والراجع من المعصية إلى الطاعة، والراجع مما يكرهه ربه إلى ما يحبه.

والأواب يقابل صاحب النفس اللوامة، فهو كثير اللوم لنفسه، كثير العودة إلى الله

(١) «التفسير الكبير» (١٩٥/٢٠).

سبحانه؛ لما يعتره من التقصير والتفريط.

وقد وصف النبي ﷺ من يؤدي صلاة الضحى بالأوابين، كما جاء في حديث زيد بن أرقم ؓ عند مسلم قال: خرج رسول الله ﷺ على أهل قباء وهم يصلون الضحى، فقال: «صلاة الأوابين إذا رمضت الفصال»^(١).

ومعناه: إذا ارتفعت الشمس، وصار وقت الرضاء، أي: شدة الحر.

وعن ابن عباس ؓ قال: إن الملائكة لتحف بالذين يصلون بين المغرب والعشاء، وهي صلاة الأوابين.

وفي الحديث الصحيح: عن ابن عمر ؓ أن النبي ﷺ كان إذا رجع من سفره قال: «آيئون، تائبون، عابدون، لربنا حامدون»^(٢).

ومنه قوله تعالى: ﴿إِنَّ إِلَيْنَا إِيَابَهُمْ﴾ [الغاشية].

الْوَصِيَّةُ الرَّابِعَةُ: أَدَاءُ حُقُوقِ الْأَقَارِبِ وَالْمَسَاكِينِ وَأَنْبَاءِ السَّبِيلِ

٢٦- ﴿وَمَا يَذَّارِفُ حَقَّهُ وَالْمَسْكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ وَلَا يُبْذِرْ بَذِيرًا﴾

جمعت هذه الآية ثلاث وصايا: هي الوصية بالأقارب، والمساكين، وابن السبيل.

والمراد بالقرابة في الآية: صلة النسب، الذي يكون بين الناس، وليس لها تعلق بحقوق قرابة النبي ﷺ:

١- وفي حرص الإسلام على الروابط الأسرية، وحُسن العلاقات بين الناس، يذكّر الله سبحانه بعد الأمر بالوالدين حق الأقارب، والمساكين، كما هو شأن القرآن الكريم بعد أن يأمر ببر الوالدين، يأمر بصلة الرحم، والإحسان إلى الأقارب، سواء أكانوا قريين أم بعيدين، وَيُعَدِّ الإسلام ذلك حقًا، ويوصي الناس كلهم بصلة أقاربهم سِيَّمَا الأرحام منهم، وذلك بزيارتهم، والسؤال عنهم، وتهنئتهم، وتعزيتهم، وسد حاجة الفقير منهم.

(١) «صحيح مسلم» برقم (٧٤٨).

(٢) «صحيح البخاري» برقم (١٧٩٧) وانظر: (٢٩٩٥، ٣٠٨٤) و«صحيح مسلم» برقم (١٣٤٤).

حكم النفقة على الأقارب:

وسورة النساء تذكر حق الأقارب إذا حضروا القسمة ممن ليس لهم حق في الميراث، وتبين أنه ينبغي أن يُطَيَّبَ خاطرهم بشيء مَّا، من تركة المُتَوَفَّى: ﴿وَإِذَا حَضَرَ الْقِسْمَةَ أُولُو الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسْكِينُ فَأَرْزُقُوهُمْ مِنْهُ وَقُولُوا لَهُمْ قَوْلًا مَعْرُوفًا﴾ (٨) [النساء]

أعطوهم شيئًا من هذه التركة، شيئًا غير مفروض، نصيبًا غير معلوم، طيَّبوا خاطرهم، وآتوهم من مال الله الذي آتاكم.

وقد أخذ الإمام أبو حنيفة من هذه الآية أن القريب ذو الرحم غير الوارث، إذا كان معسرًا محتاجًا فإنه يجب على قريبه أن ينفق عليه.

وقال الإمامان مالك، والشافعي: إن النفقة الواجبة لا تكون إلا للأصول والفروع، والأصول: الآباء، والفروع: الأبناء.

وقال الإمام أحمد: إن النفقة الواجبة تكون على القريب الوارث، وهذه تتعدى إلى الأخوين، وإلى أبناء العمومة، وأبناء الأخوة، في حالة عدم وجود أصل، أو فرع وارث، فإنه يجب النفقة عليهم.

﴿وَأَاتِ ذَا الْقُرْبَىٰ حَقَّهُ﴾ من الصدقة، ومن الزكاة، ومن حق المواساة، والمودة، والزيارة، وحُسن العشرة، ومن الهدية، والمراسلة، والمهاتفة، والمجاملة في السراء والضراء، والمناصرة في الحق للمحتاج منهم.

قيل: إن معاوية جاء إليه رجل قال له: أنشدك بصلة الرحم التي بيننا أن تعطيني شيئًا، نظر معاوية، فلم يعرف الرجل، ولم يقابله قبل ذلك، وليس بينهما رحم، فقال له: أي رحم تشدني به؟ قال: صلة الرحم التي بيني وبينك هي آدم وحواء، قال معاوية: نعم، والله هي رحم، ثم كتب له كتابًا يأمر خازن بيت المال، أن يعطيه درهمًا، فلما وصل إليه ليتسلم الجائزة أعطاه درهمًا، فاستقله، ورجع إلى معاوية قال: إنه درهم، قال: يا أخي لو أنني وصلتُ أرحامي، من لدن آدم إلى الآن لم يأخذ كل منهم درهمًا.

٢- أما الحق الثاني في الآية فهو حق المسكين، وهو المحتاج الذي لا يجد ما يغنيه في الإنفاق بالمعروف، على مستوى الفقراء والمساكين بما يسد رمقهم، ويستر عوراتهم،

ويؤويهم، ويكفل لهم حق الصحة والتعليم.

وقد عرّف النبي ﷺ المسكين في حديث أبي هريرة ؓ عند الشيخين في قوله ﷺ: «ليس المسكين الذي يطوف على الناس فترده اللقمة واللقمتان، والتمرّة والتمرتان»، قالوا: فما المسكين؟ قال: «الذي لا يجد غنى يغنيه، ولا يُفطن له فيُتصدّق عليه، ولا يسأل الناس شيئاً»^(١).

وفي حديث سلمان بن عامر أن رسول الله ﷺ قال: «الصدقة على المسكين صدقة، وعلى ذي الرحم اثنتان: صدقة، وصلة»^(٢)، فللقراءة حق الصلة، وحق المواساة.

وحق المسكين: هو الصدقة عليه، وحث الناس على الإحسان إليه، وإكرامه وعدم إهانته، كما قال تعالى: ﴿وَلَا تَخْضَوْنَ عَلَى طَعَامِ الْمَسْكِينِ﴾ [الفجر].

وقال: ﴿أَوْ إِطْعَمُوا فِي يَوْمٍ ذِي مَسْغَبٍ﴾ [٤] ﴿يَلِمًا ذَا مَقْرَبَةٍ﴾ [٥] أَوْ مَسْكِينًا ذَا مَتْرَبٍ﴾ [٦] [البلد].

والحض على طعام المسكين، يحتل منزلة عالية في الإسلام، فهو قرين التكذيب باليوم الآخر قال تعالى: ﴿أَرَأَيْتَ الَّذِي يُكَذِّبُ بِالْذِّكْرِ﴾ [١] ﴿فَذَلِكَ الَّذِي يَدْعُ الْيَتِيمَ﴾ [٢] وَلَا يُحْضُ عَلَى طَعَامِ الْمَسْكِينِ﴾ [٣٢] [الماعون].

بل هو قرين للكفر بالله سبحانه، قال تعالى في وصف صاحب الشمال:

﴿إِنَّمَا كَانَ لَا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ الْعَظِيمِ﴾ [٣٣] وَلَا يُحْضُ عَلَى طَعَامِ الْمَسْكِينِ﴾ [٣٤] [الحاقة].

وهو أيضاً قرين ترك الصلاة، فيوم القيامة يُسأل المجرمون عن سبب دخولهم النار، فيقولون: ﴿لَوْ نَكَّ مِنْ الْمُصَلِّينَ﴾ [٤٣] وَلَوْ نَكَّ نَطِيعِ الْمَسْكِينِ﴾ [٤٤] وَكُنَّا نَحُوسُ مَعَ الْخَافِضِينَ﴾ [٤٥] وَكُنَّا نَكْذِبُ يَوْمَ الدِّينِ﴾ [٤٦] حَتَّى أَتَيْنَا الْيَقِينَ﴾ [٤٧] [المدرثر] وحق المسكين أحد مصارف الزكاة الثمانية الواردة في قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا الصَّدَقَتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسْكِينِ﴾ [التوبة: ٦٠].

عن أنس بن مالك أنه قال: أتى رجل من بني تميم إلى رسول الله ﷺ فقال: يا رسول

(١) «صحيح مسلم» برقم (١٠٣٩) و«صحيح البخاري» برقم (١٤٧٦، ١٤٧٩).

(٢) أخرجه أحمد برقم (١٦٢٢٧، ١٦٢٣٣، ١٧٨٨٣) وغيرهما، قال محققوه: وهو حديث صحيح لغيره،

لجهالة الرباب بنت صويلح وبقية رجاله ثقات رجال الصحيح، وأخرجه الترمذي في صحيح سننه برقم

(٥٣١) وهو في «صحيح سنن ابن ماجه» (١٨٤٤) وابن أبي شيبة (١٩٢/٣) والطبراني في الكبير (٦٢١٢)

والنسائي في المجتبى (٩٢/٥) وابن خزيمة (٢٣٨٥).

الله، إني ذو مال كثير، وذو أهل وولد وحاضرة، فأخبرني كيف أنفق؟ وكيف أصنع؟ فقال رسول الله ﷺ: «تُخرج الزكاة من مالك، فإنها طهرة تطهرك، وتصل أقرباءك، وتعرف حق السائل، والجار، والمسكين...»^(١).

وسأل رجل الحسن قال: أعطي قرابتي زكاة مالي؟ فقال: إن لهم في ذلك لحقاً سوى الزكاة، ثم تلا الآية.

٣- أما الحق الثالث في الآية فهو حق ابن السبيل، وهو المسافر الغريب المنقطع عن أهله وماله، وهو أحد مصارف الزكاة الثمانية، ويأخذ ابن السبيل من الصدقة ما يسد حاجته، ويعيده إلى بلده، وإن كان في الأصل غنياً، وضيافة ابن السبيل من سنن نبينا إبراهيم عليه السلام، فكان لا يأكل إلا مع ضيف، وقد جاء حق الضيافة في قوله ﷺ: من حديث أبي شريح الخزاعي «من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليكرم ضيفه»^(٢).

والإسلام يهدف من كل ذلك إلى تقوية أواصر الأسرة والمجتمع، وتحقيق التكافل الاجتماعي فيه.

الْوَصِيَّةُ الْخَامِسَةُ: النَّهْيُ عَنِ التَّبْذِيرِ

ثم ختم الله الآية ببيان أن المال لا بد أن يُنفق منه في طاعة الله تعالى، وتحريم الإسراف والتبذير فيه، بل تكون النفقة بالمعروف من غير تقتير ولا تبذير، ولا إنفاق للمال في وجه من وجوه المعاصي ﴿وَلَا تُبْذِرْ بُذِيرًا﴾.

التبذير: إنفاق للمال ولو قرشاً واحداً في غير طاعة الله تعالى، أو فيما يضر ولا ينفع.

ومن هنا استدلوا على تحريم التدخين؛ لأنه إنفاق للمال فيما يضر ولا ينفع.

وإنفاق المال في وجوه الخير مهما بلغ، لا يعدُّ تبذيراً، وقد وصف الله عباد الرحمن

بقوله: ﴿وَالَّذِينَ إِذَا أَنْفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَامًا﴾ [الفرقان]

قال مجاهد: لو أنفق الإنسان ماله كله في الحق لم يكن مبدراً، ولو أنفق مئداً في غير حق

كان مبدراً.

(١) أخرجه أحمد في «المسند» بإسناد حسن ورجاله ثقات رجال الشيخين (محققه) (١٣٦/٣) برقم

(١٢٣٩٤) وأخرجه الحاكم وصححه ووافقه الذهبي، «المستدرک» (٣٦٠/٢).

(٢) من حديث أبي شريح الخزاعي في «صحيح مسلم» برقم (٤٧) و«صحيح البخاري» برقم (٦٠١٩).

وقال قتادة: التبذير: النفقة في معصية الله تعالى وفي غير الحق والفساد.

وقد نهانا الإسلام عن تجاوز الحد في الطعام والشراب، فقال تعالى: ﴿وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا﴾ [الأعراف: ٣١] كما نهانا عن الإسراف في استعمال الماء في الوضوء بالزيادة على ثلاث مرات، وإن كان المسلم يغترف من نهر جارٍ.

الْمُبَذِّرُ قَرِينُ الشَّيْطَانِ

٢٧- ﴿إِنَّ الْمُبَذِّرِينَ كَانُوا إِخْوَانَ الشَّيَاطِينِ وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِرَبِّهِ كَفُورًا﴾ (٢٧)

ويكفي أن الله سبحانه شبه المبذر بالشیطان، وجعله أخًا مماثلاً له؛ لأنه تجاوز الحد في الإنفاق، وأسرف فيه، والمُسرفون الذين ينفقون أموالهم في المعاصي هم أشباه الشياطين في الشر، والفساد، والمعصية، وهم أولياؤهم وأتباعهم؛ لأنهم يطيعونهم فيما يأمرونهم به من إنفاق المال، قليلاً أو كثيراً، في غير وجوه الحق والمنفعة، وكذا إنفاقه في المباح إذا بلغ حدَّ الإسراف.

والشیطان يدعو الإنسان إلى الشح والبخل، فإذا عصاه دعاه إلى الإسراف والتبذير، ومن صفات عباد الرحمن، أنهم إذا أنفقوا لم يسرفوا ولم يقتروا، وكانوا وسطاً بين ذلك، وأمر الله الإنسان ألا ييسط يده بالإنفاق كل البسط ولا يجعلها شحیحة بخيلة مغلولة إلى عنقه، فيَلام على بسط يده، ويتحسّر على فراغها.

والمقصد الشرعي من ذلك: أن يكون المال عُدة وقوة لبناء الأمة؛ حتى تكون مرهوبة الجانب، غير محتاجة إلى غيرها، فلا يبتز العدو منافعها، ولا يدخلها تحت سلطانه، ولهذا أضاف الله الأموال إلى ضمير المخاطبين في قوله: ﴿وَلَا تُؤْتُوا السُّفَهَاءَ أَمْوَالَكُمُ الَّتِي جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ قِيَمًا﴾ [النساء: ٥] ولم يقل: أموالهم، مع أنها مملوكة لهم، ومع ذلك فقد منعهم من التصرف فيها.

وقال تعالى: ﴿فَإِنْ ءَاسْتُمْ مِنْهُمْ رُشْدًا فَادْفَعُوا إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ﴾ [النساء: ٦] وما منع الإسلام السفهاء والصبيان من التصرف في أموالهم إلا خشية إنفاقها في غير وجوها المشروعة، وإذا اعتاد المرء التبذير أدمنه، وصار خُلُقًا ذميماً، كما قال ﷺ في حديث عبدالله بن

مسعود ﷺ: «ولا يزال الرجل يكذب، ويتحرى الكذب حتى يُكتب عند الله كذاباً»^(١).
فليحذر المرء من عمل هو من شأن إخوان الشياطين.

وكما حذر القرآن من التبذير حذر أيضاً من أن يُفسي الشيطان بصاحبه إلى الكفر تدرجياً؛ حتى يأخذه إلى مهاوي الضلال، قال تعالى: ﴿وَإِنَّ الشَّيْطَانَ لِرُؤُوسِ الْإِنْسَانِ أَوْلَىٰ لَهُمْ لِيُجْدِلَكُمْ وَأَنْ أَطَعْتُمُوهُمْ لَكُمْ لَشْرَكُونَ﴾ [الأنعام: ١٢١]

والتبذير خلق أهل النار وهو يأخذ بأيديهم إلى نار جهنم، قال تعالى: ﴿وَيَوْمَ يُعْرَضُ الَّذِينَ كَفَرُوا عَلَى النَّارِ أَلَهُمْ مَطَيِّبَاتُ فِي حَيَاتِكُمُ الدُّنْيَا وَاسْتَمْتَعْتُمْ بِهَا فَالْيَوْمَ يُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ﴾ [الأحقاف: ٢٠].

والشيطان شديد الجحود لنعمة الله تعالى، لا يشكره عليها، فليحذر المرء أن يكون قرينه؛ وقد نُهيينا عن التشبه به في صفاته القبيحة، إشعاراً بأن صفة التبذير أقبح الصفات التي يجب على العاقل أن يبتعد عنها؛ حتى لا يكون مماثلاً للشيطان الجاحد لنعم ربه.

والتبذير: صرف للمال في غير ما أمر الله به، فهو كفر لنعمة الله بالمال، وهذا يؤدي إلى كفر النعمة.

الْقَوْلُ الْمِيسُورُ

٢٨- ﴿وَإِمَّا تُعْرِضَنَّ عَنْهُمْ آيَةً رَّحْمَةً مِنْ رَبِّكَ تَرْجُوهَا فَقُلْ لَهُمْ قَوْلًا مَيْسُورًا﴾ ﴿٢٨﴾

يقول سبحانه: وإما تعرضن عنهم آية من ربك ترجوها فقل لهم قولاً ميسوراً، أو جاءك مسكين، أو ابن السبيل، وليس عندك شيء تعطيه، فعدهم وعداً حسناً، وقل لهم قولاً جميلاً لطيفاً ليناً واعتذر لهم بعدم الإمكان في الوقت الحاضر، وتلطف في الرد عليهم، كما قال تعالى: ﴿قَوْلٌ مَعْرُوفٌ وَمَغْفِرَةٌ خَيْرٌ مِنْ صَدَقَةٍ يَتْبَعُهَا أَذًى وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَلِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٦٣] كأن تقوله لهم: إن أعطاني الله سأعطيكم، أو في الوقت الفلاني سوف أعطيكم إن شاء الله، أو تقول: يرزقنا الله وإياكم من فضله، فتؤانس بالقول الميسور، والدعاء بالتوسعة عليه في الرزق، والوعد الحسن بالعتاء في وقت آخر.

(١) من حديث عبد الله بن مسعود في البخاري برقم (٦٠٩٤) ومسلم برقم (٢٦٠٧).

قيل: إن بعض الفقراء من الصحابة مثل: بلال، وعمار، وصهيب، وخباب، وسالم، ومهجع، أتوا رسول الله ﷺ يسألونه، ولم يكن عنده شيء يعطيهم، فسكت، وأعرض عنهم حياءً، فأنزل الله الآية: ﴿وَأِمَّا تُعْرِضَنَّ عَنْهُمْ أَتِغَاءَ رَحْمَةٍ﴾ أي: انتظاراً لرزق يأتيك من عند الله.

وقد عبر الله سبحانه عن الرزق بأنه ﴿رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ تَرْجُوهَا﴾ أي: رزقاً حسناً يمنحك الله إياه ﴿فَقُلْ لَهُمْ قَوْلًا مِّنْسُورًا﴾ أي: قل لهم قولاً لئناً، وعدّهم وعداً حسناً، وادع الله لهم بسعة الرزق، وطيب العيش، ولا تعرض عنهم إعراض المستهزئ، أو إعراض البخيل الممسك، وإنما إعراض العاجز الذي لا يجد ما يتصدق به، فيتلطف بهم، ويتأدب معهم بآداب القرآن، وقد كان النبي ﷺ إذا سأله أحد، وليس عنده ما يعطيه أعرض عنه حياءً، فنبهه ربه إلى أدب أكمل.

وقد شرطت الآية، الإعراض عن عطاء مَنْ أَمَرَ المرء بإعطائهم بشرطين:

أحدهما: أن يكون الإعراض انتظاراً لتيسير أسباب الرزق، وليس شحاً ولا بخلاً.

وثانيهما: أن يصحب هذا الإعراض قول معروف، وكلام طيب، يدخل السرور عليهم، ويطيب خاطرهم.

الْوَصِيَّةُ السَّادِسَةُ: النَّهْيُ عَنِ الْإِسْرَافِ وَالتَّقْتِيرِ

٢٩- ﴿وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَّحْسُورًا﴾

ثم نهى سبحانه عن طرفي النقيض في النفقة، وهما: الإسراف، والتقتير؛ فقد نهى القرآن عن البخل الشديد، وشبّهه بمن يده مغلولة أو مربوطة لا تصل إلى عنقه من شدة البخل، وشبّهه الميسر بأن يده مبسوطة لا تمسك شيئاً؛ فهو يتفق كل ما في يده، وأمر سبحانه بالتوسط في النفقة.

ومن وصف عباد الرحمن أنهم ﴿إِذَا أَنْفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَامًا﴾

[الفرقان: ٦٧]

قال تعالى: ﴿وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ﴾ أي لا تمسك يدك عن الإنفاق في سبيل الخير، مضيقاً على نفسك، وأهلك، والمحتاجين، وهذا كناية عن البخل الشديد ﴿وَلَا

نَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ ﴿٢٩﴾ فتوسع في النفقة والكماليات، وتعطي فوق قدرتك وطاقتك ﴿فَنَقَعْدُ مَلُومًا﴾ مذمومًا من الناس، ومتحسرًا على أنه لم يبق في يدك شيء.

فالأية تأمر بالتوسط والاعتدال في النفقة، وتنهى عن البخل والإسراف؛ فإن الإسراف، والبخل، يؤديان إلى الحسرة والملامة، ففي الأثر: ما عال من اقتصد^(١).

ومن الحكيم قولهم: ما رأيت قط سرفًا إلا معه حق مضيع؛ فالمحمود في العطاء، هو الوسط الواقع بين طرفي: الإفراط، والتفريط.

فكل حقيقة لها طرفان، وكل خُلِقَ له طرفان، والمحمود: هو الوسط والعدل، والشح والإسراف فيهما مفسد، فالشح مفسدته تعود على الفقير المحتاج، والإسراف مفسدته تعود على صاحب المال إذا أنفق بالباطل.

وليس في إنفاق المال في وجوه الخير والبر والصلاح إسرافٌ وتبذير.

قال بعضهم لمن رآه يكثر من النفقة في وجوه الخير: لا خير في السرف، فأجابه المنفق: لا سرف في الخير، وبهذا نطقت الأحاديث:

١- فعن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «ما من يوم يصبح العباد فيه إلا وملكان ينزلان من السماء يقول أحدهما: اللهم أعط منفقًا خلفًا، ويقول الآخر: اللهم أعط ممسكًا تلفًا»^(٢).

٢- وعن أبي هريرة مرفوعًا: «ما نقصت صدقة من مال، وما زاد الله عبدًا بعفو إلا عزًا، وما تواضع أحد لله إلا رفعه الله»^(٣).

٣- وعن المنهال بن عمرو قال: بعثت امرأة مسلمة، تناظر ضررتها اليهودية، أن النبي ﷺ أكرم الخلق، فأرسلت ابنها إلى النبي ﷺ فقالت: قل له اكسني ثوبًا، فقال: «ما

(١) رواه أحمد عن عبد الله بن مسعود بإسناد فيه ضعف، يُنظر: «المسند» (٤٤٧/١) برقم (٤٢٦٩) والبيهقي

(٦٥٦٩) وابن أبي شيبة (٩٦/٩). والطبراني في الكبير (١٠١١٨).

(٢) أخرجه البخاري برقم (١٤٤٢) ومسلم برقم (١٠١٠).

(٣) «صحيح مسلم» برقم (٢٥٨٨).

عندي شيء»، فقالت: ارجع إليه فقل له: اكسني قميصك، فرجع إليه، فزرع قميصه فأعطاه إياه، فنزلت الآية^(١).

٤- وفي حديث أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «قال الله تبارك وتعالى: يابن آدم، أنفق أنفق عليك»^(٢).

٥- وفي الصحيحين: أن أبا هريرة سمع النبي ﷺ يقول: «مثل البخيل، والمنفق كمثلي رجلين عليهما جُبَّتَان من حديد، من ثديهما إلى تراقيهما، فأما المنفق فلا ينفق إلا سَبَعَتْ، أو وَفَرَتْ على جلده حتى بنانه وتعفو أثره، وأما البخيل فلا يريد أن ينفق شيئاً إلا لزقت كل حلقة مكانها، فهو يوسَّعها ولا تتسع»^(٣).

والمعنى: أن الصدقة تستر الخطايا، كما يغطي الثوب الذي يُجرُّ على الأرض، أثر صاحبه إذا مشى، وذلك بمرور الذيل عليه، والبخيل إذا حدث نفسه بالصدقة شحت نفسه فضاق صدره وانقبضت يده^(٤).

التَّفَاوُتُ فِي الْأَرْزَاقِ مُقْتَضَى الْحِكْمَةِ الْإِلَهِيَّةِ

٣٠- ﴿إِنَّ رَبَّكَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ وَيَقْدِرُ إِنَّهُ كَانَ بِعِبَادِهِ خَبِيرًا بَصِيرًا﴾ (٣٠)

ثم عَقَّب سبحانه بأن القصد والاعتدال في النفقة على النفس، وعلى من يعول، وعلى من يتصدق، هو واجب الناس تجاه أموالهم، والشُّحُّ لا يُبقي المال في اليد، والتبذير لا يفني المال ممن وُضِعَ في يده؛ فإن الله تعالى قد قَدَّرَ لكل نفس رزقها، إن ربك يوسع الرزق على بعض الناس، ويضيقه على بعضهم وَفَّقَ علمه وحكمته سبحانه، إنه هو المطلع على خفايا خلقه، لا يغيب عليه شيء من أحوالهم، والتفاوت في أرزاق العباد له حكمة يعلمها الله، لأجل مصالح العباد.

(١) «الدر المنثور» (١٧٨/٤) وقد أخرجه ابن أبي حاتم، ومثله ابن مردويه عن ابن مسعود.

(٢) «صحيح مسلم» برقم (٩٩٣) و«صحيح البخاري» برقم (٤٦٨٤، ٥٣٥٢، ٧٤١١، ٧٤٩٦).

(٣) هذا لفظ البخاري برقم (١٤٤٣) وانظر: (١٤٤٤، ٢٩١٧، ٥٧٩٧) وهو في «مسلم» برقم (١٠٢١).

(٤) «فتح الباري» (٢١٨/٥).

جاء في الأثر: (إن من عبادي من لا يصلحه إلا الفقر، ولو أغنيته لأفسدت عليه دينه، وإن من عبادي من لا يصلحه إلا الغنى، ولو أفقرته لأفسدت عليه دينه)^(١).

والله سبحانه هو الرازق، القابض، الباسط، يُغني من يشاء، ويُفقر من يشاء، وهو سبحانه خير بمن يستحق الفقر أو الغنى ﴿مَا يَفْتَحُ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِنْ رَحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا وَمَا يُمْسِكُ فَلَا مُرْسِلَ لَهُ مِنْ بَعْدِهِ﴾ [فاطر: ٢].

الْوَصِيَّةُ السَّابِعَةُ: النَّهْيُ عَنْ تَرْكِ الْإِنْجَابِ مَخَافَةَ الْفَقْرِ

٣١- ﴿وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ خَشْيَةً إِمَّا نَحْنُ نَرْزُقَهُمْ وَإِيَّاكُمْ إِنَّ قَتْلَهُمْ كَانَ خِطْئًا كَبِيرًا﴾ (٣١)

وإذا علمتم - أيها الناس - أن الرزق بيد الله، فلا تقتلوا أولادكم خوفاً من الفقر؛ فإنه سبحانه هو الرازق لعباده، يرزق الأبناء كما يرزق الآباء...، والتذرع بحسن التربية، للعدد القليل دون الكثير، أو أن موارد الدولة لا تكفي، أو لأن الرقعة الزراعية لا تزيد، أو لكثرة عدد السكان، وإثقال كاهل المجتمع، ونحو ذلك، تذرع غير مقبول، وهو من الأسباب المدعاة التي يكذبها الواقع، وتكذبها الإحصاءات، وهي أسباب يتذرع بها دعاة تحديد النسل الذي اختير له اسم تنظيم النسل؛ ليكون أخف وقعاً على النفوس يتقبله الناس، وهو نوع من الوأد الخفي بالحيلولة دون الإنجاب لهذا القصد.

وقد جاءت هذه الوصية عطفاً للنهي عن فعل ينشأ عن اليأس من رزق الله تعالى، وهو خُلُق مذموم من أخلاق الجاهلية، بقتل الأولاد خوفاً من الفقر.

ولم تعرف البشرية تشريعاً، ولا نظاماً، ولا قانوناً، يصون الإنسان، ويحفظ عليه دمه، وماله، وعرضه، ويصون حريته وكرامته كالإسلام.

فالإسلام قد صان الإنسان وحفظه قبل أن يوجد أحد فوق وجه هذه الأرض، حفظه

(١) ضعفه الألباني عن عمر رضي الله عنه في السلسلة الضعيفة برقم (١٧٧٤).

(٢) قرأ ابن كثير، بكسر الخاء وفتح الطاء بعدها ألف ممدودة في (خطأ) هكذا (خطأ) مصدر خاطئ يخاطئ خطاءً، وقرأ ابن ذكوان وأبو جعفر وهشام بخلف عنه بفتح الخاء والطاء من غير ألف ولا مد، هكذا (خَطَأً) مصدر خطئ خطئاً، بمعنى: أثم ولم يصب، وقرأ الباقون بكسر الخاء وسكون الطاء وهو الوجه الثاني لهشام هكذا (خِطْئًا) مصدر خطئ خطئاً كَأَثَمَ إِثْمًا، بمعنى: مجانبة الصواب.

بأن جعله يأتي من طريق مشروع، يأتي من نكاح، ولا يأتي من سفاح، وأوصى باختيار الأم، وحسن اختيار الاسم، وحفظ الإسلام للإنسان وهو طفل رضيع، وحفظه في شبابه وكهولته، وأوصى به وهو شيخ هرم، ولم تعرف البشرية جريمة أعظم من أن يقتل الإنسان ولده وهو جنين مخافة أن يقطع معه.

وفي نهى الآباء عن قتل أبنائهم مخافة الفقر بيان أن الله تعالى أرحم بالأبناء من الآباء، وأنه سبحانه قد تكفل برزق الجميع، وأن قتلهم من كبائر الذنوب لزوال الرحمة من القلب.

تنظيم النسل:

وفي الآية التي معنا يبين الله ﷻ أنه لا علاقة بين الرزق وكثرة النسل؛ فالله ﷻ متكفل بأرزاق العباد، ضامن لها، فلن تموت نفس حتى تستوفي رزقها وأجلها، ولذلك فإن الآية التي في سورة (الأنعام) موجهة إلى الآباء الفقراء الذين يعانون من فقر حاصل.

آيتا الأنعام والإسراء: وقد بينت الآية التي (في سورة الأنعام) ١٥١ أن الله سبحانه يرزق الآباء بالأصالة، ويرزق الأبناء تبعاً لهم، وسيجعل الله بعد عسر يسراً ﴿وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ مِنْ إِمْلَاقٍ﴾ أي: خوفاً من فقر واقع وحاصل بالفعل ﴿تَحْتُنْ رِزْقَكُمْ وَإِيَّاهُمْ﴾ فخطب القرآن الآباء الفقراء، بأن الرزق حاصل لهم بالأصالة، والأبناء تبع لهم.

وفي آية الإسراء التي معنا، وُجِّه الخطاب فيها إلى الآباء الموسرين، الذين يتخوفون من الفقر في المستقبل؛ حيث يبين الله سبحانه أنه إذا كان قتل الذرية خوفاً من فقر متوقع في المستقبل، ومن أجله يمنع الإنسان الذرية، ويحول بينه وبينها، فيحددها، أو يقتلها، أو ينظمها مخافة كثرة الأعباء بالعيال، ومخافة أن لا يحسن تعليمهم أو تربيتهم، إن كان الأمر كذلك - فالله سبحانه يخاطب الآباء الأغنياء قائلاً لهم: ﴿وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ إِمْلَاقٍ﴾ أي: إن كان القتل خوفاً من فقر يحدث في المستقبل فإن رزق الأبناء مقدم على رزق الآباء، فكأن الرزق يأتي للأبناء بالأصالة، ويأتي للآباء تبعاً لهم.

. ولذا قدم الأبناء على الآباء في الآية للاهتمام بهم، وبيان أن رزق الآباء تابع لرزق الأبناء، وذكر الأبناء بضمير الغيبة، والآباء بضمير الخطاب، وقد جاءت آية سورة الأنعام (١٥١) على العكس من ذلك، لاستيفاء ضمان الرزق في الحالتين، قال تعالى:

﴿وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ مِنْ إِمْلَاقٍ نَحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِنَّهُمْ﴾ [الأنعام: ١٥١]

وكما نهى الإسلام عن قتل الأبناء مخافة الفقر، فقد نهى عن وأد البنات مخافة الفقر، أو السبي، أو العار قال تعالى: ﴿وَإِذَا الْمَوْءُدَةُ سُئِلَتْ ﴿٨﴾ بِأَيِّ ذَنْبٍ قُتِلَتْ﴾ [التكوير].

وتقليل النسل لا علاقة له بالفقر، ولا علاقة له بالرزق، وعلى العباد أن يسلكوا أسبابه بأن يضربوا في الأرض، ويبتغوا من فضل الله، ويستخرجوا كنوز الخيرات التي أودعها الله ﷻ في الأرض؛ فإن بلدًا واحدًا من البلاد العربية كالسودان مثلاً، تتسع أرضها لجميع العرب من حيث: الزراعة، والسكن، ومن حيث استخراج كنوزها والاكثفاء بزراعتها، وكذا كثير من بلاد الإسلام في قارات الدنيا، ولكن الأمم البليدة هي التي تعيش لنفسها فحسب، وما استحق الحياة من عاش لنفسه فقط، بحيث لا يعمل للأجيال، ولا يسعى لزراعة الأرض، وإخراج المياه منها، وتوسعة الرقعة الزراعية والصناعية.

وقد بين عمر بن الخطاب ؓ أن السماء لا تمطر ذهبًا ولا فضة، وما على العباد إلا أن يأخذوا بالأسباب، كما قال سبحانه: ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ الْأَرْضَ ذُلُولًا﴾ أي: ذللها، وسرها لكم ﴿فَاتَمَشُوا فِي مَنَاجِبِهَا وَكُلُوا مِنْ رِزْقِهِ وَإِلَيْهِ النُّشُورُ﴾ [الملك: ١٥].

ثم بين سبحانه أن قتل الذرية خطأ كبير، فقال تعالى: ﴿إِنَّ قَتْلَهُمْ كَانَ خِطْئًا كَبِيرًا﴾. وفي قراءة: (كان خطأ كبيرًا) أي: كان إثماً عظيماً، وذنباً كبيراً عند رب العالمين.

التنظيم المؤقت والعزل:

وتقليل النسل له أسبابه وملابساته عندما تدعو الضرورة القصوى إليه؛ فالمرأة التي تحمل تباعاً، وليس هناك من وقت يكفي لإرضاع الجنين السابق، فالقرآن قد ذكر أن مدة الرضاعة حولان كاملان لمن أراد أن يتم الرضاعة، وفي هذا نوع تنظيم مؤقت.

والعزل قد ذكر في الأحاديث، فعن جابر ؓ قال: كنا نعزل والقرآن ينزل، فبلغ ذلك رسول الله ﷺ فلم ينهنا عنه^(١).

(١) مسلم (١٤٤٠) والترمذي (١١٣٧) وابن ماجه (١٩٢٧) والسنائي في «السنن الكبرى» (٩٠٩٣) وعبد الرزاق (١٢٥٦٦) وابن أبي شيبة (٢١٩/٤) والبيهقي (٢٢٨/٧).

وفيه دليل على جواز الحيلولة بين البويضة، والحيوان المنوي لإتمام مدة رضاع الطفل السابق، أو لتلافي تدهور صحة المرأة، ونحو ذلك؛ فإن هذا العزل لن يمنع أمراً قدره الله تعالى، ولا يُعزل عن الحرية إلا بإذنها، والاتفاق بينها وبين زوجها، وهذا العزل يشبه حالة كمال مدة الإرضاع، كما في حالة تعارض حياة الأم مع الجنين؛ فالإسلام يرتكب أخف الضررين في مثل هذه الأحوال.

أما منع النسل خوفاً من فقر حاصل بالفعل، أو من فقر متوقع في المستقبل، فإن هذا يتصادم مع عقيدة المسلم؛ فإن الحياة من حق هذه الأجنة، كما هي حق لآبائهم، ومن الظلم البين الاعتداء على حقوقهم، والتخلص منهم لسبب من الأسباب؛ فإن الله تعالى قد تكفل بأرزاق خلقه قال تعالى: ﴿وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا﴾ [هود: ٦]

وقال جل شأنه: ﴿وَكَيْفَ أَنْ مِّنْ دَابَّةٍ لَا يَحْمِلُ رِزْقَهَا اللَّهُ يَرْزُقُهَا وَإِيَّاكُمْ﴾ [العنكبوت: ٦٠]

وقال سبحانه: ﴿وَفِي السَّمَاءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ ﴿٢٣﴾ فَوَرَبِّ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ لَحَقٌّ مِّثْلَ مَا أَنَّكُمْ تَنطِقُونَ ﴿٢٤﴾﴾ [الذاريات]

وقال أيضاً: ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ ثُمَّ رَزَقَكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ﴾ [الروم: ٤٠].

جاء في الصحيحين: عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: قلت: يا رسول الله، أي الذنب أعظم؟ قال: «أن تجعل لله نداً وهو خلقك» قلت: ثم أي؟ قال: «أن تقتل ولدك خشية أن يطعم معك» قلت: ثم أي؟ قال: «أن تزاني حليلة جارك»^(١).

فاعلموا أن الرزق بيد الله، ولا تقتلوا أولادكم، أو تمنعوا النسل خوفاً من الفقر؛ فإن الله هو الرازق لعباده، يرزق الأبناء كما يرزق الآباء.

وإن من المشاهد كثرة أرزاق الناس عن ذي قبل؛ فقد كان الناس قديماً يَشْكُونُ الجوع، أما اليوم فهم يَشْكُونُ التَّخمة والسمنة، مع زيادة الكماليات ومتطلبات الحياة، وقد ورد أن المال يكثر في آخر الزمن، ولا يجد من يأخذه، فمحاربة النسل جهل بسنن الله تعالى في الكون، ومصادمة للواقع المحسوس، فإن الإنسان عندما يتزوج تكون حالته المادية ضعيفة، وبعد ما يكون عنده عدد من الأولاد، تجده في سعة من الرزق، وتجد بيته مليئاً

(١) البخاري برقم (٤٤٧٧، ٤٧٦١، ٦٠٠١، ٧٥٣٢) ومسلم برقم (٨٦).

بالكماليَّات التي لم يكن يملكها من قبل:

الْوَصِيَّةُ الثَّامِنَةُ: النَّهْيُ عَنِ الزَّنى

٣٢- ﴿وَلَا تَقْرَبُوا الزَّنىَ﴾^(١) إِنَّهُ كَانَ فَحِشَةً^(٢) وَسَاءَ سَبِيلًا ﴿٣٢﴾

النهي عن الاقتراب من الزنى أبلغ من النهي عن فعل الزنى، لأن الأول يشمل النهي عن جميع مقدماته ودواعيه، فإن من حام حول الحمى يوشك أن يقع فيه، وقد وصف الله الزنى بأنه مستفحش في الشرع والعقل والفطرة، لأن فيه تعدُّ على حق الله، وعلى حق المرأة، وحق أهلها وزوجها، وفيه تدنيس للفراش، واختلاط للأنساب، وجلب للأمراض، وإثارة للفتن وتقطيع الأواصر بين الناس.

ولأن الإسلام يحفظ على المرء دمه، وعرضه، وماله، فقد جاء النهي عن الزنى حفظاً للنسل في هذه الآيات التي نحن بصددتها من سورة الإسراء، وهي ثماني عشرة آية أكثرها في الوصايا العشر التي جاء ذكرها في سورة الأنعام، ويقول عنها ابن عباس ؓ: إن هذه الآيات جاءت في ألواح موسى عليه السلام ﴿وَكُتِبْنَا لَهُ فِي الْأَلْوَحِ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ مَوْعِظَةً وَتَفْصِيلاً لِكُلِّ شَيْءٍ﴾ [الأعراف: ١٤٥] فهي أحكام لم تنسخ، والحدود والقصاص شرعاً في المدينة، وجاءت الإشارة إلى القتل، والزنى، وغيرها من أحكام التشريع في هذه الآيات المكية.

وقد جاء النهي عن الزنى بين آيتي النهي عن قتل الأولاد خشية الفقر، والنهي عن قتل النفس التي حرم الله قتلها إلا بالحق؛ لأن الزنى قتل في حقيقته، فالزاني يضع مادة الحياة في غير الطريق المشروع، وهذا وأد وقتل لها من البداية؛ لأنه لم يضعها في الموضع الذي جعله الله لها، وهو موضع الحرث والنسل، إنما وضعها في طريق آخر محرَّم، وهذا قتل لها، ثم إن الزاني والزانية يريدان قتل هذا الجنين، وإسقاطه بشتى الوسائل.

وإحصائيات الإجهاض في العالم الغربي كثيرة، وهي شاهدة وناطقة بذلك.

إن الزنى في المجتمعات الغربية عملية حضارية متجددة، وهم يرون أن الزنى في مجال

(١) أمال ألف (الزنى) حمزة والكسائي وخلف، وبالثقليل ورش بخلف عنه.

(٢) أدغم التنوين في الواو بدون غنة من (فاحشة وساء) خلف عن حمزة.

التربية للشباب أفضل من دراسة الكتب ومعرفة القانون، وأنه من الثقافة الضرورية، وهو أمر مستورد في بعض بلاد المسلمين، فلا يعاقب القانون الوضعي على الزنى ما دام بالتراضي بين الزاني والزانية، وإن خدشا الحياء فزنيا في الطريق العام، فعليهما غرامة مالية قليلة جدًا.

وليس أعظم من هذه التربية التي يربها النبي ﷺ لأصحابه ولسائر المسلمين بعدهم، وتتمثل في هذا الشاب الذي دخل في الإسلام حديثًا، ثم أقبل على رسول الله ﷺ يقول له: ائذن لي يا رسول الله في الزنى، فأقبل عليه القوم فزجروه، فقال ﷺ «دعوه، اذن مني» فدنا منه قال له: «اجلس» فجلس بين يدي المصطفى ﷺ، ثم قال له: «أتحب الزنى لأمك؟» قال: لا يا رسول الله، جعلني الله فداك، قال: «وكذلك الناس لا يحبونه لأمهاتهم، أتحبه لابتك؟» قال: لا يا رسول الله، جعلني الله فداك، قال: «وكذلك الناس لا يحبونه لبناتهم، أتحبه لأختك؟» قال: لا يا رسول الله، جعلني الله فداك، قال: «وكذلك الناس لا يحبونه لأخواتهم» وذكر العمة والخالة، ثم وضع النبي ﷺ يده على صدر هذا الشاب المولع بالزنى، وقال: «اللهم اغفر ذنبه، وطهر قلبه، وحسن فرجه» قال الشاب: دخلتُ على رسول الله ﷺ والزنى أحب شيء إلى نفسي، وخرجتُ من عنده والزنى أبغض شيء إلى نفسي^(١).

ولو أن ولد الزنى نزل من بطن أمه، فإنه يعيش حياة مهينة ذليلة في المجتمع، وهذا قتل للنفس في صورة أخرى، وإذا وُجد الإنسان أنه سيقضي شهوته بهذه الوسيلة السهلة فإنه سيكتفي بها عن الزواج الذي فيه مسؤولية، وتتبعه زوجة، وأبناء، وأسرة، وبيت، وفي هذا قتل للمجتمع كله.

إن الزنى يخلط الدماء، ويخلط الأنساب، ويدنس الأعراض، وفي هذا قتل للإنسانية.

وكما نهى الإسلام عن وأد البنات خشية العار، ونهى عن قتل الذكور خوف الفقر، نهى كذلك عن الزنى؛ لأن فيه إضاعة للنسب، بحيث لا يُعرف للمولود أصل يرجع إليه، ونهى

(١) يُنظر: نص الحديث في «المستد» عن أبي أمامة (٣٥٦/٥) برقم (٢٢٢١١) قال محققوه: رجاله ثقات رجال الشيخين، وإسناده صحيح، وأخرجه الطبراني في «المعجم الكبير» برقم (٧٦٧٩) قال الهيثمي في «مجمع الزوائد» (١/١٢٩): ورجاله رجال الصحيح، وصححه الألباني في «السلسلة الصحيحة» برقم (٣٧).

عن كافة الأسباب المفضية إليه، وفي هذه الآية نهي عن مجرد الاقتراب من الزنى، وهو يعني شدة النهي عن أقل ملابسة للزنى.

والزنى : مجامعة الرجل امرأة غير زوجته، وغير مملوكة له.

وعلل الإسلام تحريم الزنى بأنه فاحشة بالغة القبح، وهو عار ملازم للفاعل والمفعول؛ لِمَا يترتب عليه من آثار سيئة، فلا تقربوا مقدماته، ولا دواعيه؛ كي لا تقعوا فيه، فهو فعل بالغ القبح، وطريق يُعصى به الخالق سبحانه، ومن مفسدات الزنى:

١- اختلاط الأنساب واشتباهاها، فلا يعرف المولود هو ابن مَنْ، على وجه التحديد؟!

٢- الزنى يسبب القتاتل، ويسبب اغتصاب المرأة أحياناً، وتُقطع به أواصر المجتمع.

٣- وجوب إقامة الحد على الزاني والزانية، وفضيحتهما بين الناس والمجتمع.

٤- فَقْدُ حُسْنِ المعاشرة، والسكن، والمودة بين الرجل والمرأة.

٥- عدم اختصاص المرأة بالرجل، كما يحدث بين البهائم، وبالتالي عدم قيام الأسرة في المجتمع.

٦- المرأة الزانية مستقدرة بين الناس، ناقلة للأمراض؛ كالإيدز، ونحوه.

٧- الزنى يؤدي إلى قطع النسل، وخراب العالم، ومجرد قضاء الشهوة البهيمية.

الزنى والإيمان لا يجتمعان في قلب العبد:

١- فعن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «لا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمن، ولا

يسرق السارق حين يسرق وهو مؤمن، ولا يشرب الخمر حين يشربها وهو مؤمن، ولا ينتهبُ نُهباً ذات شرف، يرفع المؤمنون إليه فيها أبصارهم وهو مؤمن»^(١).

٢- وسئل أبو هريرة رضي الله عنه عن قوله ﷺ: «لا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمن» فأين

يكون الإيمان منه؟ قال أبو هريرة: يكون هكذا عليه، وقال بكفَّيه فوق رأسه، فإن تاب ونزع رجع إليه^(٢).

(١) البخاري (٢٤٧٥) ومسلم (٥٧) وابن أبي شيبة (٤٠٥/٤).

(٢) البيهقي (٥٣٦٧) وانظر الحديث في البخاري (٢٤٧٥) ومسلم (٥٧) والمسند (١٠٢١٦، ٨٨٩٥) والحميدي (١١٢٨) وأبو يعلى (٦٢٩٩).

٣- وعن أبي هريرة أيضًا أن رسول الله ﷺ قال: «إذا زنى الرجل خرج منه الإيمان، فكان عليه كالظلة، فإذا انقلع منها رجع إليه الإيمان»^(١).

من التدابير الوقائية لجريمة الزنى: وحين أراد الإسلام أن ينهى عن الزنى لم يقل: لا تزنوا، وإنما قال: لا تقربوا الزنى، أي: لا تقربوا دواعي الزنى ومقدماته ومسبباته؛ فإن من حام حول الحمى يوشك أن يقع فيه.

لقد أحاط الإسلام هذه الجريمة بسياج منيع، فحرّم النظرة، ومنع الاختلاط، وحرّم الخلوة، وحرّم التبرج، وحرّم أن تتعطر المرأة وتخرج إلى الشارع تفوح رائحتها، وحرّم الإسلام أن تضرب المرأة الأرض برجليها؛ لئلا تلفت الأنظار إليها، ولئلا يعلم ما تخفي من زيتها، وشرع الزواج، وشرع لمن لم يستطع الزواج أن يصوم كبحاً لشهوته، وغير ذلك من الوسائل التي تحول دون الزنى، والله سبحانه يقول: لا تقربوا الوسائل، والأسباب المؤدية أو المفضية إلى الزنى.

قال تعالى: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا الزِّنَى﴾ ولا مقدماته ودواعيه ﴿إِنَّهُ كَانَ فَحِشَةً﴾ ذنباً عظيماً، بالغ القبح ﴿وَسَاءَ سَبِيلًا﴾ أي: وبئس الطريق طريقاً موثقاً موصلاً إلى جهنم.

وفي سد منافذ الزنى، وعدم ارتكاب الفاحشة، شرع الإسلام ما يلي:

١ - عدم الخلوة بالمرأة الأجنبية، والاختلاط بين الرجال والنساء من غير ضوابط شرعية، وقد جاء في الصحيحين: أن النبي ﷺ قال: «لا يخلون رجل بامرأة، إلا مع ذي محرم»^(٢) وفي الحديث أيضًا عن عقبة بن عامر أن رسول الله ﷺ قال: «لا يخلون رجل بامرأة، إلا كان الشيطان ثالثهما»^(٣).

٢- وأخبر الشيخان عن عقبة بن عامر أيضًا أن رسول الله ﷺ قال: «إياكم والدخول

(١) «صحيح سنن أبي داود» (٣٩٢٤) والحاكم (٢٢/١) والبيهقي في «الشعب» (٥٣٦٤).

(٢) من حديث ابن عباس في «صحيح البخاري» برقم (١٨٦٢، ٣٠٠٦، ٣٠٦١، ٥٢٣٣) و«صحيح مسلم» برقم (١٣٤١).

(٣) جامع الترمذي برقم (١١٧١) من حديث عقبة بن عامر، قال أبو عيسى: حديث حسن صحيح، وصححه الألباني في صحيح الترمذي (٩٣٤) وأوله (إياكم والدخول على النساء).

على النساء، فقال رجل من الأنصار: أفرأيت الحمو، فقال ﷺ الحمو: الموت^(١).

والحمو: هو قريب الزوج كأخيه وابن عمه، وتفسيره بالموت، أي: أن خلوته بالمرأة، ودخوله على زوجة أخيه، أو ابن عمه، ونحوهما، يؤدي إلى الهلاك، ووقوع الفتن.

٣ - وقد أوجب الإسلام غض البصر، وحرم النظر إلى المرأة الأجنبية، فأمر الرجل أن يغض بصره، ويحفظ فرجه، كما أمر المرأة أن تغض بصرها، وتحفظ فرجها.

روى الشيخان وغيرهما عن أبي هريرة ؓ أن رسول الله ﷺ قال: «كتب على ابن آدم نصيبه من الزنى، مدرك ذلك لا محالة، فالعينان زناهما النظر، والأذنان زناهما الاستماع، واللسان زناه الكلام، واليد زناها البطش، والرجل زناها الخطا، والقلب يهوى ويتمنى، ويصدق ذلك الفرج أو يكذبه»^(٢).

٤ - وعن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «ثلاثة لا يكلمهم الله يوم القيامة، ولا يزكهم، ولا ينظر إليهم ولهم عذاب أليم: شيخ زان، وملك كذاب، وعائل مستكبر»^(٣).

٥ - وفي حديث أسامة ؓ أن رسول الله ﷺ قال: «ما تركت بعدي على أمتي فتنة أضرَّ على الرجال من النساء»^(٤).

٦ - كما أوجب الإسلام التستر والاحتشام، وحرَّم السفور والتبرج؛ لأنه يحرك الغريزة الجنسية، ويغري الرجال بالنساء، قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لِّأَزْوَاجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَاءِ الْمُؤْمِنِينَ يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِنْ جَلْبِيبِهِنَّ ذَلِكَ أَدْنَى أَنْ يُعْرَفْنَ فَلَا يُؤْذَيْنَ﴾ [الأحزاب: ٥٩].

٧ - وحضَّ الإسلام على الزواج، ويسرَّ وسائله، وخفف مؤونته وتكاليفه، فإن لم يستطع الشاب الزواج فليتحصن بالصوم؛ فإنه له وقاية، وكل هذا من باب التدابير الوقائية من الزنى.

(١) «صحيح البخاري» برقم (٥٢٣٢) و«صحيح مسلم» (٢١٧٢).

(٢) «صحيح مسلم» برقم (٢٦٥٧) والرقم نفسه من حديث ابن عباس وهو في البخاري (٦٢٤٣، ٦٦١٢)، وهو في مسند أحمد (٨٢١٥ و ٨٥٩٨).

(٣) «المسند» (١٠٢٢٧) بإسناد صحيح على شرط الشيخين، ومسلم (١٠٧) والنسائي في «الكبرى» (٧١٣٨).

(٤) البخاري (٥٠٩٦) ومسلم (٢٧٤٠) وابن أبي شيبة (٤٠٥/٤).

والأمة التي يفشو فيها الزنى أمة منحلة، لا تقاوم عدواً، ولا تحمي وطناً، ولا تقيم حدود الله في أرضه، ولا تحمي عرضها ولا شرفها

الْوَصِيَّةُ التَّاسِعَةُ النَّهْيُ عَنْ قَتْلِ النَّفْسِ إِلَّا بِحَقٍّ

٣٣- ﴿وَلَا تَقْتُلُوا أَنْفُسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَمَنْ قُتِلَ مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا لَوْلِيٍّ سُلْطَانًا فَلَا يُسْرِفُ^(١) فِي الْقَتْلِ إِنَّكُمْ كَانُمْ مَنصُورًا ﴿٣٣﴾﴾

نهى الإسلام عن قتل كل نفس، صغيرة أو كبيرة، أنثى أو ذكر، حرة أو أمة، كافرة أو مسلمة، إلا أن يكون هذا القتل بحق، كالنفس بالنفس، والزاني المحصن، والمترد، والباغي، والكافر المحارب، ومن قتل بغير حق، فإن لورثته وأقرب عصبته حق القصاص من القاتل، إذا كان القتل عمداً عدواناً، والذي يتولى التنفيذ هو ولي الأمر ومن ينييه، على ألا يسرف، فيتجاوز الحد، بأن يُمثّل بالقاتل، أو يقتله بغير ما قتل به، أو يقتل غير القاتل، فإن عفا ولى الدم سقط القصاص، وعلى وليّ المقتول أن يعين المعنيين بالأمر على تنفيذ حدود الله تبارك وتعالى.

هذا: وحِفْظُ النفس من القواعد الكلية، ومن الضرورات الخمس التي جاءت بها جميع الشرائع، وحُرْمَةُ الدماء يصونها الإسلام إلا بالحق الشرعي الذي حرّم الله قتلها إلا به، فما هو هذا الحق؟ لقد فسّره النبي ﷺ في الحديث الذي في الصحيحين، وغيرهما.

عن ابن مسعود رضي الله عنه بقوله ﷺ: «لا يحل دم امرئ مسلم، يشهد أن لا إله إلا الله، وأني رسول الله، إلا بإحدى ثلاث: النفس بالنفس، والثيب الزاني، والتارك لدينه المفارق للجماعة»^(٢) أي: أن الذي تستحق به النفس القتل شرعاً أحد حقوق ثلاثة:

الحق الأول: القصاص، فالقاتل عمداً عدواناً يُقتل، وهذا معنى: «النفس بالنفس».

(١) قرأ حمزة والكسائي وخلف العاشر بناء الخطاب في (فلا تسرف) على الالتفات، والمخاطب هو ولي الدم، والباقون بياء الغيبة جرياً على نسق الآية، وضمير الغائب يعود على ولي الدم والإسراف المنهي عنه هو التعدي في القصاص، كأن يقتل بالواحد جماعة، أو يقتل غير القاتل.

(٢) رواه البخاري عن ابن مسعود برقم (٦٨٧٨) وهذا لفظه، ومسلم برقم (١٦٧٦).

وفي الحديث: عن البراء بن عازب رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «لزوال الدنيا أهون عند الله من قتل مؤمن بغير حق»^(١).

والذمّي المعاهد حكمه حكم المسلم؛ ففي الحديث عن عبد الله بن عمرو رضي الله عنه.

أن رسول الله ﷺ قال: «من قتل معاهدًا لم يرح رائحة الجنة، وإن ريحها توجد من مسيرة أربعين عامًا»^(٢).

فالنفس البشرية مسلمة أو غير مسلمة لها هذه المنزلة عند رب العالمين، قال تعالى: ﴿مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ كَتَبْنَا عَلَى بَنِي إِسْرَءِيلَ أَنَّهُ مَنْ قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعًا﴾ [المائدة: ٣٢]. والذي يتولى القصاص هو ولي أمر المسلمين، ومن ينييه في ذلك.

والحق الثاني: هو الثيب الزاني: وهو الشخص الذي سبق له الزواج، رجلًا كان أو امرأة، فهو الذي يقال له: مُحْصَن، أو ثِيْب، ثم زنى بعد أن حُصِّن بالزواج، فإنه يُرجم حتى الموت.

والحق الثالث: المرتد، وهو: التارك لدينه المفارق للجماعة، وهو الذي خلع ربة الإسلام من عنقه، وكفر بعد إيمان، فإنه يُستحل دمه؛ لأنه صار فتنة لغيره، والفتنة أكبر وأشد من القتل، وفي اللفظ الآخر للحديث: «الثيب الزاني، والنفس بالنفس، والتارك لدينه المفارق للجماعة»^(٣).

وأخرج الطبري بسند حسن عن قتادة في قوله: ﴿وَلَا تَقْتُلُوا أَنْفُسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ﴾ قال: وإنا والله ما نعلم بحل دم امرئ مسلم إلا بإحدى ثلاث: إلا رجلًا قتل متعمدًا، فعليه القود (القصاص)، أو زنى بعد إحصانه فعليه الرجم، أو كفر بعد إسلامه فعليه القتل.

(١) من حديث البراء بن عازب في «سنن ابن ماجه» برقم (٢٦١٩) بإسناد صحيح ورجال ثقات وصححه الألباني في «صحيح سنن ابن ماجه» برقم (٢١٢١) و«غاية المرام» (٤٣٩) وله شواهد عند النسائي من حديث بريدة في «السنن».

(٢) من حديث عبد الله بن عمرو في «صحيح البخاري» برقم (٣١٦٦، ٦٩١٤) ومسنده أحمد (٦٧٤٥).

(٣) هذا لفظ مسلم (١٦٧٦).

ومن قُتل له قَتِيلٌ ظَلَمًا، بدون سبب يوجب قتله، فإن دمه لم يذهب هدرًا؛ فقد شرعنا لوليه سلطانًا على القاتل إن شاء طالب بالقصاص منه، وإن شاء أخذ الدية، وإن شاء عفا عنه، فولي الدم هو صاحب الكلمة، وهو صاحب التصرف في القاتل.

وقد نهى الله المسلم أن يقابل الظلم بالظلم، بل يتبع طريق العدل والإنصاف، وولي الدم هو أقرب العصبة إليه من الورثة، والحاكم ولي من لا ولي له، وقد جعل الله الوليَّ ﴿سُلْطَانًا﴾ أي: حجة على القاتل، وهذا السلطان يتمثل في ثلاثة أشياء:

إما القصاص «النفس بالنفس» أي: أن القاتل يُقتل، وإذا أبى وليُّ الدم إلا القصاص فإنه يقتص منه.

والشيء الثاني: أن يأخذ قريب القَتِيلِ الدية، ويعفو عن قتله.

والشيء الثالث: أن يتنازل وليُّ الدم عن القصاص، ويتنازل عن الدية، فقال تعالى: ﴿فَمَنْ عَفَىٰ لَكُمْ مِنْ أَخِيهِ شَيْءٌ فَانْبِاعْ بِالْمَعْرُوفِ وَأَدَاءٌ إِلَيْهِ بِإِحْسَنٍ ذَلِكَ تَخْفِيفٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَرَحْمَةٌ﴾ [البقرة: ١٧٨].

هذا هو السلطان الذي جعله الله لولي الدم على القاتل، ولا يستطيع أحد أن ينازعه هذا الحق، أو يجبره على التنازل.

وتنفيذ هذا يحتاج إلى حكم قضائي شرعي من الجهة التشريعية القضائية، ويحتاج إلى تنفيذ من الجهة التنفيذية التي يخوّل لها ولي الأمر بقتل القاتل.

والإنسان لا يأخذ ثأره بنفسه، ولا يقتص بنفسه، إنما السلطة التنفيذية في كل بلد هي التي تتولى هذا الأمر.

أما الإسراف في القتل فمعناه أن يتجاوز وليُّ الدم، القاتل إلى غيره، فيقتل اثنين أمام واحد، أو يقتل غير القاتل، أو يمثل به، فلا يسرف في القتل؛ فإن الله قد نصره عن طريق ما شرعه بالقصاص أو الدية.

وهذا هو المهلهل بن أبي ربيعة قُتل أخوه في الجاهلية، وكان قاتله يسمى جَسَّاسًا من آل مُرَّة، قال: إن جَسَّاسًا لا يساوي نعل أخي، وإنني سأقتل آل مُرَّة جميعًا، يعني: الأسرة بأكملها.

وقد كان الثأر في الجاهلية على هذا النحو، فلا يكفي الإنسان بأن يقتل القاتل إنما يتعداه إلى غيره، أو إلى من هو أكبر، أو أشرف، أو أكثر منه، والإسلام قد نهى عن هذا السرف بقوله تعالى: ﴿فَلَا يُسْرِفَ فِي الْقَتْلِ﴾ سواء أكان المقتول شريفاً، أو ضيعاً، فالإسراف في القتل يكون بأحد هذه الأشياء الثلاثة:

١- بالتمثيل بجثة القاتل، فقد نهى رسول الله ﷺ عن المثلة كما جاء في حديث:

هياج بن عمران أتى عمران بن حصين قال: إن أبي قد نذر لئن قدرَ على غلامه ليقطعن يده، فقال: قل لأبيك يكفر عن يمينه ولا يقطع منه طابقاً فإن رسول الله ﷺ كان يحب في خطبته على الصدقة وينهى عن المثلة..^(١).

٢- أن يقتل ولي الدم غير من قُتل.

٣- أن يزيد في القتل عن شخص واحد.

قال تعالى: ﴿إِنَّهُ كَانَ مَنْصُورًا﴾ أي: أن المقتول وولي الدم منصور بتشريع الله له؛ فالله تعالى قد نصره وأعانه، وجعل له حُكماً بحيث يأخذ الثأر من قاتله بواسطة ولي الأمر، فلا داعي لهذا الإسراف، ولا داعي لهذا الثأر الجاهلي الذي كان يحدث، ولا يزال يحدث مثله في بعض بلدان العالم.

فالضمير في ﴿إِنَّهُ كَانَ مَنْصُورًا﴾ يعود على ولي الدم، وهو بالضرورة عائد على المقتول، والله تعالى قد نصرهما بتشريع القصاص.

والقتل عمداً من أعظم الذنوب وأكبرها، قال تعالى: ﴿وَمَنْ يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُتَعَمِّدًا فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِداً فِيهَا وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُ وَأَعَدَّ لَهُ عَذَاباً عَظِيماً﴾ [النساء: ٩٣].

وقد جاء ذكر القتل بعد الشرك بالله تعالى في قوله: ﴿وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ﴾ [الفرقان: ٦٨].

وفي الصحيحين: عن ابن مسعود ؓ أن النبي ﷺ قال: «أول ما يُقضى بين الناس يوم

(١) كما في حديث عمران بن حصين في «صحيح سنن أبي داود» (٢٣٢٢) والبخاري في مسنده (٣٦٠٥) وابن أبي شيبة (٤٢٣/٩) و«المسند» (١٩٨٤٤، ١٩٨٤٦) بإسناد حسن.

القيامة في الدماء»^(١).

وفي الأثر أيضاً: (لو اجتمع أهل السماء والأرض على قتل امرئ مسلم لأكبهم الله في النار)^(٢).

وفي حديث ابن عمر رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «لن يزال المؤمن في فسحة من دينه ما لم يُصب دمًا حرامًا»^(٣).

ولا علاج لجريمة القتل إلا بما شرعه الله تعالى من القصاص، ففيه الرحمة والعدل، وحياة الأنفس جميعاً، كما قال تعالى: ﴿وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَوةٌ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ﴾ [البقرة: ١٧٩].
قال الضحاك: هذه الآية هي أول آية نزلت في شأن القتل، وقد عالجت جريمة القتل علاجاً حكيمًا.

الْوَصِيَّةُ الْعَاشِرَةُ: النَّهْيُ عَنْ أَكْلِ مَالِ الْيَتِيمِ

٣٤- ﴿وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُ وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ إِنَّ الْعَهْدَ كَانَ مَسْئُولًا﴾

الأموال لها حرمة، ومال اليتيم أعظمها، فلا تستحلوا أموال اليتامى؛ لضعفهم، وعدم التفتن لمن يأكلها إلا بحفظها، وتنميتها حتى يبلغ اليتيم سن الرشد، ويحسن التصرف في أمواله، ولهذه الآية نظير في سورة الأنعام؛ حيث يأمر الإسلام فيهما بحسن رعاية مال اليتيم، والمحافظة عليه حتى تسلم إليه بأمانة، واستعفاف، وترفع عن التطلع إلى شيء منه.

ولذا: يوصي النبي ﷺ أبا ذر فيقول: «يا أبا ذر إني أراك ضعيفًا، وإنني أحب لك ما أحب لنفسي، لا تأمرنَّ على اثنين، ولا تولين مال يتيم»^(٤).

أي: لا تكن أميرًا على اثنين من الناس؛ لأن الإمارة فيها مسؤولية.

ويوصيه ﷺ أن لا يتولى أمر يتيم؛ لأن في هذا مسؤولية إلا إذا كان يأنس في نفسه

(١) «صحيح البخاري» برقم (٦٨٦٤) وانظر: (٦٥٣٣) و«صحيح مسلم» برقم (١٦٧٨).

(٢) ورد هذا الأثر عن ابن عباس وقد ضعفه الألباني في ضعيف الترغيب والترهيب برقم (١٤٥١) ج ٢.

(٣) «صحيح البخاري» برقم (٦٨٦٢) وانظر: (٦٨٦٣).

(٤) أخرجه مسلم برقم (١٨٢٦).

العدل، والإنصاف، والعفة، والأمانة.

وقد رَهَبَ الإسلام من ظلم اليتامى، وتوعَّد من يأكل أموالهم بالعباب في الدنيا والآخرة: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَى ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا﴾.

هذا في الدنيا، أما في الآخرة فمصيرهم جهنم ﴿وَسَبُلُونَ سَعِيرًا﴾ [النساء: ١٠]

قال تعالى ناهياً عن أكل أموالهم: ﴿وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ إِلَى أَمْوَالِكُمْ﴾ أي: لا تضيفوا أموالهم إلى أموالكم ﴿إِنَّهُ كَانَ حُوبًا﴾ أي: كان ظلماً ﴿كَبِيرًا﴾ [النساء: ٢].

وأمر الإسلام الوصي، أو الولي القائم على أموال اليتامى، وهو يديرها أن ينميها، ويستثمرها لهم، فإن كان غنياً فلا يأخذ شيئاً على إدارته، أو على توليه هذا الأمر، وإن كان فقيراً فليأخذ بالمعروف غيره ﴿وَمَنْ كَانَ غَنِيًّا فَلْيَسْتَعْفِفْ وَمَنْ كَانَ فَقِيرًا فَلْيَأْكُلْ بِالْمَعْرُوفِ﴾ [النساء: ٦].

فإذا بلغ اليتيم سن الرشد، فإنه يمكن من ماله، وهل سن الرشد هو سن البلوغ، أو هو كمال القوة وتمام العقل؟ أي: حتى يصل إلى سن العشرين، أو الحادية والعشرين وهو سن الرشد، أو يصل إلى السادسة عشرة، وهو سن البلوغ، هذا خلاف بين الفقهاء، قال تعالى: ﴿فَإِنْ عَاسْتُمْ مِنْهُمْ رُشْدًا فَادْفَعُوا إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ وَلَا تَأْكُلُوهَا إِسْرَافًا وَبِدَارًا أَنْ يَكْبَرُوا﴾ [النساء: ٦] وفي الحديث عن أبي هريرة ؓ أن رسول الله ﷺ قال: «كل المسلم على المسلم حرام: دمه، وماله، وعرضه»^(١).

فلا تتصرفوا في أموال الأطفال الذين مات آباؤهم، وصاروا في كفالتكم إلا بالطريقة التي هي أحسن لهم بالتنمية والاستثمار، وهذه الوصية من أهم الوصايا؛ لأن العرب في الجاهلية كانوا يستحلون أموال اليتامى؛ لضعفهم، وقلة نصيرهم، فحذر الله المسلمين من ذلك؛ لإزالة ما يتبقَّى في نفوس الناس من آثار الجاهلية.

وقد أتى القرآن بضمير المخاطب، ونهى عن مجرد الاقتراب من مال اليتيم؛ للمبالغة في النهي، والزجر عن التصرف في مال اليتيم بغير حق.

ولما نزلت هذه الآية شَقَّتْ على المسلمين، وتجنَّبوا الأكل معهم على مائدة واحدة،

(١) «صحيح مسلم» برقم (٢٥٦٤) و«سنن أبي داود» (٤٨٨٢).

وكانوا لا يخالطونهم في مال، ولا مأكّل، ولا مركب، فأنزل الله ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الِيتَمٰنِ قُلْ اِصْلَاحٌ لَهُمْ خَيْرٌ وَّ اِنْ تَخَاطَبُوهُمْ فَاِخْوَانُكُمْ﴾ [البقرة: ٢٢٠].

وقد رغب الإسلام في كفالة اليتيم، ورفع منزلة من يكفله، كما في الحديث عن سهل بن سعد ؓ أن رسول الله ﷺ قال: «أنا وكافل اليتيم في الجنة هكذا» وأشار بالسبابة والوسطى، وفرّج بينهما^(١).

وأخرج الشيخان، وغيرهما عن أبي هريرة ؓ أن النبي ﷺ قال: «اجتنبوا السبع الموبقات» قالوا: يا رسول الله، وما هن؟ قال: «الشرك بالله، والسحر، وقتل النفس التي حرم الله إلا بالحق، وأكل الربا، وأكل مال اليتيم، والتولي يوم الزحف، وقذف المحصنات المؤمنات الغافلات»^(٢).

الْوَصِيَّةُ الْحَادِيَةُ عَشْرَةَ: الْوَفَاءُ بِالْعَهْدِ

﴿وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ اِنَّ الْعَهْدَ كَانَ مَسْئُوْلًا﴾ أي: أدوا العهد الذي بينكم وبين ربكم، والعهد الذي بينكم وبين غيركم من الناس، ويدخل في ذلك عقود العمل، وعقود البيع والشراء، وعقود النكاح، والوصية، واليمين، وغير ذلك من العقود والمعاهدات، كما قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اؤْفُوا بِالْعُقُوْدِ﴾ [المائدة: ١].

ونقض العهد، وخلف الوعد آية من آيات المنافقين، كما في الحديث: «وإذا عاهد غدر». والوفاء بالعهد من صفات الأبرار، كما قال تعالى: ﴿وَالْمُؤْمِنُوْنَ بِعَهْدِهِمْ اِذَا عٰهَدُوْا﴾ [البقرة: ١٧٧]. والوفاء بالعهد من صفات أصحاب العقول، قال تعالى: ﴿اِنَّمَا يَذْكُرُ اَوَّلُوْا اَلْاَلْبٰبِ ۝١٩ الَّذِيْنَ يُوْفُوْنَ بِعَهْدِ اللّٰهِ وَلَا يَنْقُضُوْنَ اَلْمِيْثَاقَ ۝٢٠﴾ [الرعد].

والوفاء بالعهد من صفات المتقين، كما قال تعالى: ﴿بَلٰى مَنْ اَوْفٰ بِعَهْدِهٖ وَاتَّقٰۤىۤ فَاِنَّ اللّٰهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِيْنَ ۝٧١﴾ [آل عمران].

(١) البخاري (٥٣٠٤، ٦٠٠٥).

(٢) «صحيح مسلم» برقم (٨٩، ١٢٨٢) و«صحيح البخاري» برقم (٢٧٦٦، ٥٧٦٤، ٦٨٥٨) والنسائي في «السنن الكبرى» (٣٢٥/٤).

ووصف الله به المؤمنين في قوله: ﴿وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمْتِنَتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رِعُونَ﴾ ﴿٨﴾ [المؤمنون].

وأمر سبحانه بالوفاء بالعهد في قوله تعالى: ﴿وَأَوْفُوا بِعَهْدِ اللَّهِ إِذَا عَاهَدْتُمْ﴾ [النحل: ٩١] وقوله ﴿وَبِعَهْدِ اللَّهِ أَوْفُوا﴾ [الأنعام: ١٥٢].

وقد رغب الإسلام في الوفاء بالعهد في مثل قوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَوْفَى بِمَا عَاهَدَ عَلَيْهِ اللَّهُ فَمِثْقَلِ حَبِّ ظَنِينٍ﴾ [الفتح: ١٠].

وحذر الإسلام من مغبة نقض العهد في مثل قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يَنْقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ وَيَفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ أُولَٰئِكَ هُمُ اللَّعَنَةُ وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ﴾ ﴿٥٥﴾ [الرعد].

ووبَّخ الله سبحانه اليهود على كثرة نقضهم للعهد في قوله تعالى: ﴿أَوْكَلَمَا عَاهَدُوا عَهْدًا نَبَذُو فَرِيقٌ مِّنْهُمْ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ ﴿١٠٠﴾ [البقرة].

فأتموا الوفاء بكل عهد التزمتم به - أيها المسلمون - فإن الله تعالى يسأل عنه صاحبه يوم القيامة، فيثبه إذا أتمه ووفاه، ويعاقبه إذا خان فيه، ونقض عهده ووعده.

الْوَصِيَّةُ الثَّانِيَّةُ عَشْرَةَ: ائْوَفَاءُ بِالْكَيْلِ وَالمِيزَانِ

٣٥- ﴿وَأَوْفُوا بِالْكَيْلِ إِذَا كَلَّمْتُمْ وَزِنُوا بِالْقِسْطِ﴾ ^(١) الْمُسْتَقِيمِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا ﴿٣٥﴾

هذا أمر بالعدل، وإيفاء المكايل والموازين بالقسط من غير نقص ولا بخس، ونظرًا لحاجة الناس إلى المعايضة، والبيع والشراء في حياتهم، فقد بالغ الإسلام في النهي عن تطفيف الكيل، ونقص الميزان، وتوعّد من يفعل ذلك بالعذاب الشديد، حرصًا منه على أموال الناس، وحفظ الحقوق، وسريان الأمانة في التعامل بين الناس، في مجال البيع والشراء، ولو أن البائع طَفَّفَ الكيل وبخسه، ونقص الميزان ولم يتمه لكان في هذا خيانة للأمانة، وفقد للثقة في التعامل بين الناس، وكان فيه مَحَقٌّ للبركة بين البائع والمشتري، ولهذا فإن تطفيف الكيل والميزان من كبائر الذنوب.

(١) قرأ حفص وحمزة والكسائي وخلف العاشر بكسر القاف من (بالقسطاس)، والباقون بضمها، وهما لغتان، الضم لغة الحجازيين، والكسر لغة غيرهم.

وقد أرسل الله سبحانه شعيباً عليه السلام لأهل مدين، ولأصحاب الأيكة؛ لمحاربة هذه الجريمة البشعة.

قال تعالى: ﴿أَوْفُوا الْكَيْلَ وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُخْسِرِينَ ﴿٨١﴾ وَزِنُوا بِالْقِسْطِ أَلْمُسْتَقِيمِ﴾ [الشعراء].

وقال سبحانه: ﴿وَيَقَوْمِ أَوْفُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تَعْنُوا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿٨٥﴾﴾ [هود].

وقد بين سبحانه أن الوفاء بالكيل والميزان خير لكم في الدنيا في معاشكم وأحوالكم، وخير لكم في الآخرة عند رب العالمين.

وفي الأثر: أن من يقدّر على شيء من الحرام، ثم يتركه خوفاً من الله تعالى، فإن الله تعالى يُعَجِّلُ له به في الحلال وهو في دنياه قبل آخرته:

«من عف عن الحرام رزقه الله إياه في الحلال».

وعن أبي قتادة، وأبي الدهماء عن رجل من أهل البادية أن النبي ﷺ أخذ بيده وقال: «إنك لن تدع شيئاً اتقاء لله، إلا أعطاك الله خيراً منه»^(١).

فأتموا - أيها المؤمنون - الكيل، ووفوه لغيركم عندما تكيلون لهم، وزنوا لهم بالميزان السوي العادل عندما تبيعون لغيركم، ولا تكونوا ممن قال الله فيهم: ﴿وَبَلِّغْ لِلْمُطَفِّينَ ﴿١﴾ الَّذِينَ إِذَا أَكَلُوا عَلَى النَّاسِ يَسْتَوْفُونَ ﴿٢﴾ وَإِذَا كَالُوهُمْ أَوْ وَزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ ﴿٣﴾﴾ [المطففين].

فإن العدل في الكيل والميزان أحسن عاقبة ومالاً، فجزاؤه في الآخرة عظيم، وهو يُرَغَّبُ الناس في التعامل معكم في الدنيا.

وتطفيف الكيل والميزان سرقة خفية، وجشع وطمع نفسي، وغش وخيانة تذهب بالبركة، وتفقّد الثقة بين الناس، وتؤدي إلى الكساد وضعف الحركة التجارية، وفيه جلب كراهية الناس ودمهم، وفيه كسب للسحت، واحتقار الإنسان لنفسه في داخله.

(١) رواه أحمد في «المسند» (٨٧/٥) برقم (٢٠٧٣٩) والبيهقي في «السنن» (٣٣٥/٥) قال محققو «المسند»: إسناده صحيح.

الفرق بين آية الأنعام وهذه الآية:

ولما كان الخطاب بالوفاء بالكيل والميزان في هذه السورة موجَّهًا للمؤمنين، فقد زادت هذه الآية لفظ ﴿إِذَا﴾ الظرفية الشرطية؛ لتعطي معنى عدم التسامح في شيء من نقص الكيل والميزان، في كل مرة يباشر فيها المسلم البيع والشراء، أي: بصفة مستمرة متجددة، وهذا بخلاف التي في سورة (الأنعام)؛ فإن الخطاب فيها موجه للمشركين.

كما جاء فيها لفظ: ﴿بِالْقِسْطِ﴾ وهو العدل، تذكيرًا للمشركين بما هم عليه من الظلم، وعدم العدل.

وجاء هنا لفظ: ﴿بِالْقِسْطَيْنِ﴾ وهو آلة الوزن مع الإيماء إلى العدل؛ لأنها خطاب للمسلمين.

الْوَصِيَّةُ الثَّالِثَةُ عَشْرَةَ:

الْمَنْهَجُ الْعَمَلِيُّ لِاسْتِقَامَةِ الْقَلْبِ وَالْعَقْلِ وَالْجَوَارِحِ

٣٦- ﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا﴾

كل إنسان مسؤول عما يقوله بلسانه أو قلمه، وما يفعله بجوارحه، ومؤاخذ عليه، فلا تتحدث بما ليس لك به علم، بل تثبّت في كل ما تقول وما تفعل.

وفي هذه الوصية أدب خُلقي، فيه إصلاح للعقل؛ حتى لا يختلط عنده المعلوم، والمظنون، والموهوم، في الخواطر العقلية.

وفيه إصلاح اجتماعي يُجنّب الأمة الوقوع في المهالك؛ بسبب الاستناد إلى أدلة وهمية.

وفيه مسؤولية الإنسان عما يصدر من سمعه وبصره وفؤاده، وسائر جوارحه من أعمال ناشئة من إشارة العقل، وهو مؤاخذ على كل ما اقترفت جوارحه.

﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ﴾ أي: لا تتبع -أيها الإنسان- ما لا تعلم من قول، أو فعل، ولا تكن كمن يتبع مسلکًا لا يدري أين يوصله، فلا تقل ما لا تعلم، ولا تعمل بما لا تعلم، بل تأكد وتثبت قبل القول أو الفعل، فلا مجال للشك، أو الظن، أو الوهم في حياة المسلم، بل يقوم شأنه كله على استقامة العقل، والقلب، والجوارح على منهج الله،

وذلك كأن يقول الإنسان أو يفعل ما لا علم له به، كمن يفتي بغير علم، أو يسلك طرق أهل الضلال، أو يُقلّد أهل البدع والفساد.

ويشبه هذه الآية قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّي الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَالْإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَأَنْ تُشْرِكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا نَعْلَمُونَ﴾ [الأعراف].

وقوله: ﴿وَلَا تَقُولُوا لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ الْكَذِبَ هَذَا حَلَالٌ وَهَذَا حَرَامٌ لِنَفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ﴾ [النحل].

وقوله: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ كُلُوا مِنْ مَا فِي الْأَرْضِ حَلَالًا طَيِّبًا وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ﴾ [البقرة] إِنَّمَا يَأْمُرُكُمْ بِالسُّوءِ وَالْفَحْشَاءِ وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا نَعْلَمُونَ﴾ [البقرة].

أحاديث في معنى الآية:

وقد نهى سبحانه عن القول بغير علم، في مثل قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِّنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ﴾ [الحجرات: ١٢].

١- وفي الحديث: عن أبي مسعود رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «بئس مطية الرجل زعموا»^(١) ومثلها: قالوا، وسمعت.

٢- وفي الحديث أيضًا عن عبد الله بن عمر رضي الله عنه: «إن من أفرى الفرى أن يُري الرجل عينيه ما لم تريا»^(٢).

٣- وقال ﷺ فيما يرويه أبو هريرة رضي الله عنه: «من تحلّم بحلم لم يره، كُلّف أن يعقد بين شعيرتين ولن يفعل»^(٣).

ومعنى: تحلّم، أي: قال: إنه رأى كذا في منامه، وهو لم ير شيئًا، وهكذا نهى الإسلام عن الظن، والقول، أو الفعل بدون علم، ويندرج تحت هذه القاعدة أمورًا كثيرة:

(١) سنن أبي داود برقم (٤٩٧٢)، وصححه الألباني في صحيح أبي داود (٤١٥٨) وفي السلسلة الصحيحة (٨٦٦).

(٢) من حديث ابن عمر في «البخاري» برقم (٧٠٤٣).

(٣) من حديث أبي هريرة في «البخاري» برقم (٧٠٤٢) معلقًا ووصله النسائي في «السنن» (٢١٥/٨)، وانظر مسند أحمد (١٠٥٤٩) بإسناد صحيح على شرط البخاري.

(أ) عدم الطعن في أنساب الناس بسبب سوء ظن، أو بُعد في الشَّبه بين المولود وأبيه؛ فإن النسل ينزع في الشبه إلى سلسلة الآباء، والأمهات الأقربين، أو الأبعدين، وقد ينشأ الشبه من الوحم.

جاء أعرابي إلى النبي ﷺ قال: إن امرأتي ولدت غلامًا أسود، وإنني أنكرته، فقال له النبي ﷺ: «هل لك من إبل؟» قال: نعم، قال: «ما ألوانها؟» قال: حُمْر، قال: «هل فيها من أورك؟» قال: نعم، قال: «فأنى ذلك؟» قال: لعله نزع عرق، فقال ﷺ: «فلعل ابنك هذا نزع عرق»^(١) وكان الرجل يريد نفي الولد عنه؛ لاختلاف لونه عنه.

وقد نظر (مجزز المدلجي) إلى أقدام زيد وأسامة فقال: «إن هذه الأقدام لمن بعض» والجمهور على القول بالقافة^(٢).

(ب) ومن ذلك قذف الناس واتهامهم بالزنى، بدون مشاهدة شخصية، بل نقلًا عن الآخرين، أو لأن زوج المرأة غائب، أو لأن فلانًا خرج من عندها، ونحو ذلك.

(ج) ومن ذلك الكذب، وشهادة الزور، وسوء الظن.

والعبد مسؤول عما استعمل فيه سمعه وبصره وفؤاده، فإن استعملها في الخير نال ثواب ذلك، وإن استعملها في الشر نال عقاب ذلك:

﴿فَوَرَبِّكَ لَنَسْتَلَنَّهٗمْ أَجْمَعِينَ ﴿٩٦﴾ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [الحجر].

﴿الْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَىٰ أَفْوَاهِهِمْ وَتُخْفِتُ أَيْدِيهِمْ وَنَشْهَدُ أَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿١٥﴾﴾ [يس].

﴿وَيَوْمَ يُحْشَرُ أَعْدَاءُ اللَّهِ إِلَى النَّارِ فَهُمْ يُوزَعُونَ ﴿١٩﴾ حَتَّىٰ إِذَا مَا جَاءُوهَا شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَرُهُمْ وَجُلُودُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٢٠﴾ وَقَالُوا لَجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدْتُمْ عَلَيْنَا قَالُوا أَنْطَقَنَا اللَّهُ الَّذِي أَنْطَقَ كُلَّ شَيْءٍ﴾ [فصلت].

﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ﴾ أي: لا ينبغي أن يكون التعامل بين الناس مبنياً على الظن، أو الوهم، أو الشك، لا تدم غيرك بناءً على إشارة الظن، ولا بناءً على كلام

(١) يُنظر الحديث في: «البخاري» عن أبي هريرة (٥٣٠٥، ٦٨٤٧، ٧٣١٤) ومسلم (١٥٠٠).

(٢) يُنظر: «تفسير التحرير والتنوير» (١٠٠/١٥).

الآخرين، لا تقل رأيت وأنت لم تر ببصرك، لا تقل سمعت وأنت لم تسمع بأذنك، لا تقل علمت وأنت لم تعلم حقيقة؛ إن هذه الحواس وهذه الجوارح من: السمع، والبصر، والفؤاد، سائلها رب العالمين يوم القيامة عن كل ما يحدث منها، فلا تتحدث بما لا تعلم، ولا تتحدث بناءً على الظن، أو الشك، أو الوهم، بل تثبت وتيقن، واعلم علم اليقين قبل القول أو الفعل.

وفي الحديث: عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «إياكم والظن فإن الظن أكذب الحديث»^(١) وهذا معنى ﴿إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا﴾. أي: أن الله تعالى سائل كل إنسان عما حواه سمعه، وبصره، وفؤاده ومحاسبه عليه يوم لقائه، وسؤال السمع والبصر والفؤاد له معنيان:

المعنى الأول: أن الإنسان يُسأل يوم القيامة عما فعلت جوارحه، فيقال له: لِمَ سمعت ما لا يحل لك؟ وَلِمَ نظرت إلى ما لا يحل لك؟ وَلِمَ عزمت على ما لا يحل لك؟ وهكذا كما قال تعالى: ﴿وَلَنَسْأَلَنَّ عَنْمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [النحل: ٩٣].

المعنى الثاني: أن الجوارح هي التي تسأل عن أفعال أصحابها، فتشهد عليه جوارحه بما فعل، وهكذا كقوله تعالى: ﴿وَمَا كُنتُمْ تَسْتَشِيرُونَ أَن يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلَا أَبْصَرُكُمْ وَلَا جُلُودُكُمْ وَلَكِن ظَنَنْتُمْ أَنَّ اللَّهَ لَا يَعْلَمُ كَثِيرًا مِّمَّا تَعْمَلُونَ﴾ ﴿٣٧﴾ وَذَلِكُمْ ظَنُّكُمُ الَّذِي ظَنَنْتُمْ بِرَبِّكُمْ أَرَدْتُمْ فَأَصْبَحْتُمْ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴿٣٨﴾ [فصلت].

الْوَصِيَّةُ الرَّابِعَةُ عَشْرَةَ: النَّهْيُ عَنِ الْكِبْرِ وَالْخِيَلِ

٣٧- ﴿وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا إِنَّكَ لَن تَخْرِقَ الْأَرْضَ وَلَن تَبْلُغَ الْجِبَالَ طُولًا﴾ ﴿٣٧﴾

ينهى القرآن الكريم عن الكبر في شتى صورته، ومنه المشي باختيال وتفاخر وإعجاب بالنفس؛ فإنها مشية تدل على تكبر فاعلها، وإهانته للناس بإظهار التعالي عليهم، وإرهابهم بقوته. فقد رأى عمر بن الخطاب رضي الله عنه غلاماً يتبختر في مشيته، فقال له: إن البختر مشية تُكره، إلا في سبيل الله؛ لإرهاب العدو، وإظهار القوة له.

(١) رواه البخاري برقم (٦٠٦٦) وانظر: (٥١٤٣) ومسلم برقم (٢٥٦٣) من حديث أبي هريرة.

وكان النبي ﷺ يمشي كأنما ينحط من صَبَبٍ، أي: كأنه ينحدر من موضع عال، وكأنَّ الأرض تُطوى له ﷺ من غير أن يُجهد نفسه، ومن غير تكبر، ولا تبختر.

وقد وصف الله عباد الرحمن بقوله: ﴿الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا﴾ [الفرقان: ٦٣].

وقوله تعالى: ﴿عَلَى الْأَرْضِ﴾ في سورة الفرقان، وفي الآية التي معنا ﴿فِي الْأَرْضِ﴾ إشارة إلى أصل خلق الإنسان، وتذكير له بعودته إليها، فهي تذكير بالمبدأ والمعاد، كما قال تعالى: ﴿مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَى﴾ ﴿٥٥﴾ [طه] ويشبه هذه الآية قوله تعالى: ﴿وَلَا تُصْعِرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَمَسْ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ﴾ ﴿١٨﴾ [لقمان].

وكيف يتعالى الإنسان، ويُعجب بنفسه، وهو يحمل العذرة بين جنباته حين يختال، وقد خُلِقَ من نطفة قدرة، وعندما يموت يكون جيفة متنتة، كما قال عليٌّ ؓ: ما لابن آدم والكبر، أولُّه نطفة قدرة، وآخره جيفة مذرة، وبين الاثنين حامل العذرة.

١- وفي الحديث عن عِيَاض بن حمار ؓ أن رسول الله ﷺ قال: «إن الله أوحى إليَّ أن تواضعوا؛ حتى لا يفخر أحد على أحد، ولا يبغى أحد على أحد»^(١).

٢- وفي الحديث: عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «لا ينظر الله يوم القيامة إلى من جر إزاره بطراً»^(٢).

٣- وفي حديث ابن عمر ؓ أن رسول الله ﷺ قال: «لا ينظر الله إلى من جر ثوبه خيلاء»^(٣).

وفي هذا نهى عن التعالي والتطاول على الناس، وأمر بالتواضع وخفض الجناح للمؤمنين.

ففي الأثر: «لا يزال الرجل يذهب بنفسه حتى يكتب في الجبارين»^(٤).

(١) أخرجه أبو داود عن عياض بن حمار برقم (٤٨٩٥) وصححه الألباني في صحيح أبي داود (٤٠٩٣) وابن ماجه (٤٢١٤) والبيهقي في «الشعب» (٦٦٧٢، ٨١٣٣) وانظر: «صحيح مسلم» (٢٨٦٥)، وهو في صحيح الجامع (١٧٢٥) والسلسلة الصحيحة (٥٧٠).

(٢) أخرجه الشيخان عن أبي هريرة، البخاري برقم (٥٧٨٨) ومسلم برقم (٢٠٨٧).

(٣) «صحيح مسلم» برقم (٢٠٨٥) و«صحيح البخاري» برقم (٧٥٨٣).

(٤) عن سلمة بن الأكوع في ضعيف الترغيب والترهيب ج ٢ برقم (١٧٤٤).

وقال ﷺ كما في حديث عبد الله بن مسعود رضي الله عنه: «لا يدخل الجنة من كان في قلبه مثقال ذرة من كبر»^(١).

وقد بين النبي ﷺ الكبر بأنه يَصْدُق على أمرين اثنين:

الأمر الأول: ازدراء الناس، أي: احتقارهم وتنقيصهم: احتقار فقير لفقره، أو احتقار ضعيف لمهنته، أو احتقار ذي نسب لنسبه أو قبيلته، أو لوضعه الاجتماعي، ونحو ذلك من الأحوال، كأن يعمد الإنسان إلى شخص مرموق، أو شخصية معروفة فينقص من شأنها؛ لِيُنْزِلَهَا من أعين الناس، أو أن يغتر الإنسان بنفسه وجماعته، فيعتقد أنه وجماعته على صواب، أو أنه هو وحده المقبول عند الله، وينسب غيره إلى البدع بغير وجه حق، أو ينتقص من الآخرين ويرميهم بالسوء.

الأمر الثاني: من الكبر هو عدم الاعتراف بالحق، وعدم الخضوع له مع وضوح الحق وظهوره أمامه، فينكره أثناء الحديث أو المناقشة، أو الخصام والجدال، ولا يقبل الحق، ولا يخضع له، وقد جاء هذا في قوله ﷺ من حديث ابن مسعود السابق: «الكبر بطن الحق، وغمط الناس»^(٢).

٥- وعن أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «بينما رجل يمشي في حُلَّة تعجبه نفسه، مُرَجِّلُ جُمَّتِهِ إذ خسف الله به، فهو يتجلجل إلى يوم القيامة»^(٣).

كما قال عليه السلام عن قارون: ﴿خَسَفْنَا بِهِ وَبِدَارِهِ الْأَرْضُ﴾ [القصص: ٨١].

٦- ورأى النبي ﷺ رجلاً يأكل بشماله، فقال له: «كُلْ بيمينك» فتكبر الرجل أن يستمع إلى النصيحة، وقال: لا أستطيع -كذباً- فقال ﷺ: «لا استطعت» دعا عليه النبي ﷺ، ثم قال ﷺ: «ما منعه إلا الكبر» قالوا: فما رفع الرجل يده إلى فمه بعد ذلك، أي: أن يده قد شَلَّتْ^(٤).

(١) من حديث عبد الله بن مسعود في «صحيح مسلم» برقم (٩١).

(٢) من حديث ابن مسعود السابق في «مسلم» (٩١) وأبي داود (٤٠٩١) والترمذي (١٩٩٨) وابن ماجه (٥٩).

(٣) يُنْظَر: الحديث في «البخاري» برقم (٥٧٨٩) وانظر: (٥٧٩٠) و«مسلم» برقم (٢٠٨٨) عن أبي هريرة.

(٤) هذا المعنى رواه الترمذي عن سلمة بن الأكوع وأخرجه أحمد في «المسند» بإسناد صحيح على شرط مسلم

(١٦٤٩٣، ١٦٤٩٩) وهو في صحيح مسلم برقم (٢٠٢١).

٧- وفي حديث ابن عمر رضي الله عنهما أن النبي ﷺ قال: «إذا مشيت أمتي المطيطاء -أي: التبخر- وخدمتهم فارس والروم سلط بعضهم على بعض»^(١).

وكل هذا يدخل تحت قوله تعالى: ﴿وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا﴾ أي فرحًا، متبخرًا، معجبًا بنفسك، وليس المراد المشي بالقدمين فحسب، بل كل مشي، سواء أكان على الدابة، أم في السيارة، أم في الطائرة، أم على الدراجة، أم في السفينة، ونحو ذلك، فهذا الذي يخترق الشارع بسيارته كالحية التي تتلوى يمنة ويسرة، كلما رأى نافذة أو فجوة دخل منها، وضايق الناس هنا وهناك، يتلوى في الشارع وهو يظن أن هذه مهارة وذكاء، وهو في الواقع عدم خلق، إن الأخلاق تتجلى في المشي بأدب، ووقار، وثبات، وتفادي أخطاء الآخرين، سواء أكان ذلك بالقدمين، أم بالسيارة، أم بالدابة، وغير ذلك.

ومهما ضرب المتكبر الأرض بقدميه، أو أسرع فيها بسيارته، فإن الأرض أقوى منه ﴿إِنَّكَ لَنْ تَخْرِقَ الْأَرْضَ﴾ ومهما أسرع في مشيته فإن الجبال أطول منه ﴿وَلَنْ تَبْلُغَ الْجِبَالَ طُولًا﴾، بل تكون محتقرًا عند الله، ومحتقرًا عند الناس، مبغوضًا ممقوتًا.

والمعنى: إنك -أيها الإنسان- ضئيل هزيل، لا يليق بك التكبر؛ إذ كيف تتكبر على الأرض وأنت لن تجعل فيها خرقًا ولا شقًا مهما ضربتها برجليك، أو تطاولت بعنقك إلى السماء، وكيف تتطاول على الجبال وأنت لن تبلغها طولًا، ومهما تطاولت وتعاليت، فأنت أحقر وأضعف من الأرض ومن الجبال، وفي هذا تهكم، وتقريع للمتكبرين.

التَّعْقِيبُ عَلَى مَجْمُوعِ الْوَصَايَا

٣٨- ﴿كُلُّ ذَلِكَ كَانَ سَيِّئُهُ^(٢) عِنْدَ رَبِّكَ مَكْرُوهًا﴾

(١) صححه الألباني في «السلسلة الصحيحة» (٩٥٦) وهو في «الترمذي» (٢٢٦١) وابن أبي الدنيا في كتاب «التواضع» (٢٤٩).

(٢) قرأ ابن عامر وعاصم وحزمة والكسائي وخلف العاشر، بضم همزة (سيئه) بعدها هاء مضمومة ممدودة، وهي اسم كان و (مكروها) خبرها، وقرأ الباقون بفتح الهمزة، بعدها تاء تأنيث منصوبة متونة هكذا (سَيِّئَةً)، على الأفراد، خبر كان، واسمها ضمير يعود على (كل) و (مكروها) خبر بعد خبر، وتأنيث (سيئة) حملًا على المعنى، والمعنى: كل ما سبق من النواهي المتقدمة كان سيئة مكروها عند ربك.

أشار ﷺ إلى جميع التكاليف السابقة، ابتداءً من قوله تعالى: ﴿لَا تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا ءَاخَرَ فَتَقَعُدَ مَذْمُومًا مَّخْذُولًا﴾ إلى قوله ﴿وَلَنْ تَبْلُغَ الْحَبَالَ طَوْلًا﴾ باعتبار ما اشتملت عليه من التحذيرات والنواهي والأوامر؛ فكل أمرٍ منها، يقتضي النهي عن ضده، وكل نهى منها يقتضي الأمر بضده، فهي تبلغ بهذا ثلاثين تكليفاً، وأكثرها من كبائر الذنوب التي يبغضها رب العالمين، وهي مذمومة عند الله تعالى.

﴿كُلُّ ذَلِكَ﴾ أي: إنّ جميع ما تقدم من النواهي والأوامر، يكره الله سيئها، ولا يرضاه لعباده ويحب حسنّها، ويرضاه لعباده.

وهكذا فالله تعالى يأمر بالإحسان إلى الوالدين في الآية الثانية من هذا السياق، وهذا المأمور به ليس سيئاً ولكنه حسن، فيكون المعنى: أن الله تعالى يكره ضد ذلك، وهو عقوق الوالدين، فهو سيئة مذمومة، والله تعالى نهى عن قتل النفس بغير حق، فهذا سيئة مكروهة، وضد ذلك: هو سلامة النفس الإنسانية وصيانتها، وهو أمر محمود، وهكذا، فكلها أوامر ونواهٍ تضبط قواعد السلوك والآداب، والتكاليف الفردية والاجتماعية؛ فالضمير في ﴿سَيِّئُهُ﴾ يعود على ما نهى الله عنه؛ كالشرك، وعقوق الوالدين، والزنا، ونقض العهد، وأكل مال اليتيم، وقتل النفس، وغير ذلك. قال تعالى:

٣٩- ﴿ذَلِكَ مِمَّا أَوْحَىٰ إِلَيْكَ رَبُّكَ مِنَ الْحِكْمَةِ وَلَا تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا ءَاخَرَ فَتُلْقَىٰ فِي جَهَنَّمَ مَلُومًا مَّدْحُورًا﴾

ثم أشار جلّ شأنه إلى أن الآيات الثماني عشرة السابقة، وما اشتملت عليه من الأوامر والنواهي، هي مما أوحى الله تعالى به إلى رسوله محمد ﷺ.

وقد سمى الله تعالى ذلك حكمة؛ لأنها حقائق ثابتة ليس فيها خطأ، ولا اشتباه.

وفي هذا تنبيه على أن هذه الأحكام ثابتة في جميع الديانات والملل، وهي آيات محكمة، لا تقبل النسخ ولا الإبطال، ولولا الوحي الإلهي ما وصلت هذه الأحكام إلى النبي ﷺ ولا عرفته الأمة الأمية.

قال ابن عباس ؓ: إن التوراة كلها في خمس عشرة آية من بني إسرائيل، ثم تلا الآية^(١).

﴿ذَلِكَ مِمَّا أَوْحَىٰ إِلَيْكَ رَبُّكَ مِنَ الْحِكْمَةِ﴾ أي: إنَّ ذلك الذي بيَّنَّاه، ووضحناه من الأحكام الجليلة، وفيها الأمر بمحاسن الأعمال، والنهي عن رذائل الأخلاق، مما أوحيناه إليك - يا محمد - من علم الشرائع، ومعرفة الحق.

وكما بدأت هذه الوصايا بالنهي عن الشرك في قوله تعالى: ﴿لَا تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا ءَاخَرَ﴾ خُتِمَتْ بالنهي عن الشرك أيضًا، فقال تعالى: ﴿وَلَا تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا ءَاخَرَ﴾ أي: لا تجعل - أيها الإنسان - شريكًا مع الله في عبادته.

وفي هذا إشارة إلى أن التوحيد هو المقصود الأول والأخير، وهو القاعدة والأساس الذي تُبنى عليه جميع الأعمال، وبدونه لا ينفع الإنسان عمل ولا قول.

وقد خُتِمَت الآية الأولى رقم [٢٢] ببيان أن المشرك يكون بين الناس، وأمام الله تعالى ﴿مَذْمُومًا مَّخْذُولًا﴾ فهو مذموم؛ لأنه أتى فعلًا قبيحًا منكراً يذمُّ عليه عند الله تعالى، وهو مخذول بين الناس، ضعيف لا وليَّ له، ولا ناصر، ولا معين.

وخُتِمَت هذه الآية بقوله تعالى خطابًا للمشرك: ﴿فَلْتَقَىٰ فِي جَهَنَّمَ مَلُومًا مَّدْحُورًا﴾ أي: أنك - أيها المشرك - تُقذف في نار جهنم، وتكون مُلامًا من نفسك ومن الناس، كما تكون مطرودًا مبعدًا من كل خير إذا أشركت مع الله غيره في عقيدتك، وعبادتك.

التَّعْقِيبُ عَلَىٰ وُجُوبِ وَخَدَانِيَةِ اللَّهِ تَعَالَىٰ وَتَنْزِيهِهِ عَنِ الشَّرْكِ

٤٠- ﴿أَفَاصْفَكُمْ بِرَبِّكُم بِالْبَيِّنِ وَاتَّخَذَ مِنَ الْمَلَائِكَةِ إِنثًا إِنَّكُمْ لَقَائِلُونَ قَوْلًا عَظِيمًا﴾

هذا إنكار شديد على من زعم أن الملائكة بنات الله، ونسبها إلى الله سبحانه، ففي هذا أعظم الجراءة عليه، حيث خصوا أنفسهم بالذكور، ونسبوا الإناث إلى الله، مع كراهيتهم لهن، فتعالى الله عما يقوله الظالمون علوا كبيرا.

هذا: ولما نهت الآية السابقة عن الشرك بالله تعالى أتبت ذلك بذكر الأدلة على استحالة أن يكون لله تعالى شريك أو ولد، بل كل من في السماوات والأرض خاضع لسلطانه، مُسَبِّح بحمده.

فقد نزلت سورة (الإسراء) على رسول الله ﷺ بمكة المكرمة.

وعناصر القرآن الذي نزل بمكة يتكون من ثلاثة عناصر:

العنصر الأول: اقتلاع جذور الشرك، وغرس عقيدة التوحيد في نفوس البشر.

والعنصر الثاني: الإقرار بالوحي المنزل على محمد ﷺ، والإيمان به.

والعنصر الثالث: غرس عقيدة البعث والنشور، والحساب والجزاء، في نفوس البشر.

والآية الأربعون من هذه الآيات، وخمس آيات بعدها تتحدث عن العنصر الأول من عناصر القرآن المكي، وهو عقيدة التوحيد.

والآيات الأربع بعدها تتحدث عن الوحي والرسالة.

والآيات الأربع التي تليها تتحدث عن البعث والنشور.

وما من فرية أعظم على الله سبحانه من نسبة الشريك والولد إليه جلّ شأنه، وهذه فرية موجودة قديماً، وموجودة في وقتنا؛ فالنصارى يعتقدون أن المسيح ابن الله، أو أنه هو الله، أو أن الله ثالث ثلاثة، وبعض اليهود يعتقدون أن عزيزاً ابن الله، وأهل الجاهلية قبل الإسلام جعلوا الملائكة إناثاً، وعبدوهم، كالأصنام، وقالوا: إنهم بنات الله.

﴿وَقَالُوا لَوْ شَاءَ الرَّحْمَنُ مَا عَبَدْنَاهُمْ﴾ [الزخرف: ٢٠]

﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا سُبْحَنَهُ بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ﴾ [الأنبياء].

والله سبحانه يعرفنا ماهية الملائكة وحقيقتهم، فهم عباد عند الله مكرمون ﴿لَا يَسْقُوتُ بِأَلْقَالٍ وَهُمْ بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ﴾ ﴿يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنْ أَرَادَ وَهُمْ مِنْ خَشْيَتِهِ مُشْفِقُونَ﴾ ﴿وَمَنْ يَقُلْ مِنْهُمْ إِنِّي إِلَهٌ مِنْ دُونِهِ فَذَلِكَ نَجْزِيهِ جَهَنَّمَ كَذَلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ﴾ [الأنبياء].

وبيّن ﷺ في سور: النحل، والزخرف، و الصافات، وغيرها حقيقة هذه الفرية، فقال

تعالى: ﴿وَجَعَلُوا الْمَلَائِكَةَ الَّذِينَ هُمْ عِبْدُ الرَّحْمَنِ إِنثَاءً﴾ وهم المشركون الذين جعلوا الملائكة بنات الله، يقول سبحانه: ﴿أَشْهَدُوا خَلَقْنَاهُمْ﴾؟ هل رأوهم إناثاً؟!

قال تعالى: ﴿سَتَكُنُّنَّ شَهِدَاتُهُمْ وَنُصَلُّونَ﴾ [الزخرف: ١٩]

وفي القراءة الأخرى: ﴿سَنَكْتُبُ شَهَادَتَهُمْ وَيُسْأَلُونَ﴾. بالنون بدل التاء.

وفي قوله تعالى: ﴿فَاسْتَفْتِهِمْ أَلِرَبِّكَ الْبَنَاتُ وَلَهُمُ الْبَنُونَ﴾؟ [الصفات]

فقد نسبوا البنات إلى الله سبحانه ﴿وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ مَا يَكْرَهُونَ﴾ [النحل: ٦٢]

وهم يكرهون البنات ويثدونهن، ومع ذلك فقد نسبوهن إلى الله تعالى، واختاروا لأنفسهم الذكور؛ لأنهم يحبونهم.

قال تعالى: ﴿أَلِرَبِّكَ الْبَنَاتُ وَلَهُمُ الْبَنُونَ﴾ ١٤٩ ﴿أَمْ خَلَقْنَا الْمَلَائِكَةَ إِنثًا وَهُمْ شَاهِدُونَ﴾ ١٥٠ ﴿أَلَا إِنَّهُمْ مِّنْ إِفْكِهِمْ﴾ كذبهم وافتراءهم ﴿لَيَقُولُونَ﴾ ١٤٩ ﴿وَلَدَ اللَّهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾ ١٥٢ ﴿أَصْطَفَى الْبَنَاتِ عَلَى الْبَنِينَ﴾؟ [الصفات]

فهل اختار الله تعالى لنفسه البنات، وخصكم بالبنين؟ ﴿مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ﴾ ١٥٤؟ [الصفات: ١٥٤] فتفضلوا أنفسكم عليه سبحانه.

وهذه الآية التي معنا من سورة الإسراء توضح هذا المعنى، وتنكر عليهم قولهم: ﴿أَفَاصْفَنُكُمْ رَبُّكُمْ بِالْبَنِينَ﴾؟

أفخصكم ربكم، واختار لكم من البنين الذكور، واختار لنفسه الإناث، وأنتم تكرهونهن؟! ﴿إِنكُم لَقَالُونَ قَوْلًا عَظِيمًا﴾ إن قولكم هذا قول بشع شنيع، بالغ القبح، لا يليق بجلال الله تعالى، بل تأباه العقول، وتخزُّ له الجبال هذا.

كما قال تعالى: ﴿وَقَالُوا أَخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا﴾ ٨٨ ﴿لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئًا إِذَا﴾ ٨٩ ﴿عَظِيمَ الْفِرْيَةِ﴾ على الله سبحانه ﴿تَكَادُ السَّمَوَاتُ يَنْفَطَرْنَ مِنْهُ﴾ أي: من هذه المقولة، وهي نسبة الوالد إلى الله سبحانه ﴿وَتَنشَقُّ الْأَرْضُ وَتَخِرُّ الْجِبَالُ هَدًّا﴾ ٨٨ ﴿أَنْ دَعَا لِلرَّحْمَنِ وَلَدًا﴾ ٩١ ﴿وَمَا يَنْبَغِي لِلرَّحْمَنِ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَدًا﴾ ٩٢ ﴿إِنْ كُلُّ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا آتَى الرَّحْمَنِ عَبْدًا﴾ ٩٣ ﴿لَقَدْ أَحْصَاهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا﴾ ٩٤ ﴿وَكُلُّهُمْ آتِيهِ يَوْمَ الْقِيَمَةِ فَرْدًا﴾ ٩٥ [مریم].

والآيات تشير إلى أن فريقاً من العرب، عبدوا الملائكة كما عبدوا الأصنام، ولما نهاهم الله تعالى، وحذرهم من عبادتهم، علَّلوا عبادتهم لهم بأنهم بنات الله، فنسبوا لله الولد، وجعلوهم إناثاً، وعبدوهم.

ولذا: فإن الله تعالى خص عبادتهم للملائكة بالذكر؛ لئلا يتوهموا أن الله تعالى يرضى بعبادتهم، تعالى الله عما يقولون علواً كبيراً.

وقد جاء ذكر ذلك في آيات كثيرة بالإضافة إلى ما ذكرناه، منها قوله تعالى:

﴿الْكُمْ الذِّكْرُ وَلَهُ الْأَنْثَى ۖ تِلْكَ إِذَا قَسَمْتُ ضِيقَ ۖ﴾ [النجم]

وقوله: ﴿أَمْ لَهُ الْبَنَاتُ وَلَكُمْ الْبَنُونَ ۖ﴾ [الطور]

وقوله: ﴿لَوْ أَرَادَ اللَّهُ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَدًا لَاصْطَفَىٰ مِمَّا يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ﴾ [الزمر: ٤].

وقولهم: ﴿اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا﴾ الاتخاذ معناه: الخلق، وهو ينافي التوالد، ولا يتوافق مع قولهم: (الملائكة بنات الله) من سروات الجن، فكيف يخلق الله الشيء، ثم يكون ابناً له؟ وفي الآية تسفيه لأقوالهم الباطلة، وعقولهم السقيمة.

تَنَوُّعُ أَسَالِيبِ دَلَائِلِ التَّوْحِيدِ فِي الْقُرْآنِ

٤١- ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَذَا الْقُرْآنِ لِيَذَكَّرُوا^(١) وَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا نُفُورًا ۖ﴾

ثم بيّن سبحانه أنه نوع في هذا القرآن، ووضّح الأحكام، والأمثال، والمواعظ بألوان من: الوعد، والوعيد، والقصص، والحجج، والأخبار؛ وأكثر من الأدلة والبراهين، سيما في مجال التوحيد الذي هو أصل الأصول، فأمر ونهي، ووعظ وذکر، وأقام الحجج والبراهين العقلية والنقلية، ليتعظ الناس، ويتدبروا ما ينفعهم فيأخذوه، وما يضرهم فيتركوه، ولكن هذا التوضيح والبيان لا يزيد الظالمين إلا تباعداً عن الحق، وغفلة عن النظر والاعتبار، وذلك لبغضهم للحق، وحبهم للباطل وتعصّبهم له.

وقد بيّن الله سبحانه أدلة التوحيد في القرآن بأساليب متعددة ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَذَا الْقُرْآنِ لِيَذَكَّرُوا﴾ أي: بيّنا أدلة التوحيد، وكررتها بأساليب مختلفة، وأنواع بلاغية متعددة؛ - يأتي ذكر بعضها في الآية التالية - ليتذكروا فيعتبروا ويتفعلوا؛ وذلك لأن التوحيد كامن في النفوس بالفطرة، لا يحتاج إلا إلى مجرد التذكير، ولكن الكفار يأبون ذلك، فلا يعتبرون،

(١) قرأ حمزة والكسائي وخلف العاشر بسكون الذال وضم الكاف مخففة من (ليذكروا) مضارع ذكر، من الذكر ضد النسيان، والباقون بتشديد الذال والكاف مع فتحهما، مضارع تذكّر من التذكر والثبوت والمبالغة في الانتباه.

ولا ينتفعون ﴿وَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا نُفُورًا﴾ ما تزيدهم هذه التذكرة إلا إعراضاً عن توحيد الله سبحانه، كما قال سبحانه: ﴿ذَلِكُمْ بِأَنَّهُ إِذَا دُعِيَ اللَّهُ وَحْدَهُ كَفَرْتُمْ وَإِنْ يُشْرَكَ بِهِ تُؤْمِنُوا﴾ [غافر: ١٢] وقال جلّ شأنه: ﴿وَإِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَحْدَهُ اشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ وَإِذَا ذُكِرَ الَّذِينَ مِنْ دُونِهِ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ﴾ ﴿٤٥﴾ [الزمر]

فالكفار لا يزدادون بأدلة التوحيد إلا تباعداً عن الحق، وغفلة عن النظر.

ونظير هذه الآية قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ صَرَفْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ فَأَيُّ أَكْثَرِ النَّاسِ إِلَّا كُفُورًا﴾ ﴿٨٩﴾ [الإسراء].

وقوله: ﴿وَلَقَدْ صَرَفْنَا فِي هَذَا الْقُرْآنِ لِلنَّاسِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ وَكَانَ الْإِنْسَانُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلًا﴾ ﴿٥٤﴾ [الكهف].

أَرْبَعَةٌ مِنَ الْبَرَاهِينِ الْعَقْلِيَّةِ وَالنَّقْلِيَّةِ عَلَى وَحْدَانِيَّةِ اللَّهِ تَعَالَى

٤٢- ﴿قُلْ لَوْ كَانَ مَعَهُ آلِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ^(١) إِذَا لَا تَبْتَغُوا إِلَى ذِي الْعَرْشِ سَبِيلًا﴾ ﴿٤٦﴾

أي لو كان مع الله آلهة أخرى - كما يزعم المشركون - لطلبت تلك الآلهة طريقاً إلى مغالبة ذي العرش فيهم، وهو صاحب الملك، وحاولت محاربته والاستيلاء على بعض ملكه، ولكنه سبحانه واحد أحد لا شريك له في ربوبيته ولا في ألوهيته، فهو ذو العرش الوحيد.

ومن الأدلة والبراهين العقلية، والنقلية على توحيد الله سبحانه التي جاءت في القرآن الكريم أربعة أدلة:

أولها: دليل الخلق والإيجاد:

وذلك لأن الخلق من خصائص الإله الحق، وما دام الله سبحانه هو الخالق لهذا الكون، فلا يعقل أن يستوي مع أحد من المخلوقين، وإذا انتفى ذلك تعين إفراده تعالى بالعبادة، وتوحيد الألوهية لله وحده قال تعالى: ﴿أَفَمَنْ يَخْلُقُ كَمَنْ لَا يَخْلُقُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ ﴿٧﴾ [النحل]. وقال سبحانه ﴿أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمْ الْخَالِقُونَ﴾ [الطور: ٣٥]

(١) قرأ ابن كثير وحفص بياء الغيب في (كما يقولون)؛ لمناسبة (وما يزيدهم) وقرأ الباقون بياء الخطاب حكاية لقول الرسول لهم.

ثانيها : دليل الإحكام والإبداع :

فهو من براهين التوحيد وأدلتها، التي صرّفها الله تعالى في القرآن، قال تعالى :

﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا﴾ [الأنبياء: ٢٢].

والضمير من ﴿فِيهِمَا﴾ يعود على السماوات والأرض في الآيات قبلها، أي: لو كان هناك إله لهذا الكون غير الله تعالى، لفسدت السماوات والأرض ومن فيهن، ولكن هذا الكون المُحكّم البديع، صنع الواحد الأحد، لا إله غيره، ولا رب سواه، وهو يسير بنظام دقيق بدون خلل ولا تفاوت ﴿فَأَنجِعِ الْبَصَرَ هَلْ تَرَىٰ مِن فُطُورٍ﴾ ٢٣ ثُمَّ أَتِجِعِ الْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنقَلِبْ إِلَيْكَ الْبَصَرُ خَاسِئًا وَهُوَ حَسِيرٌ﴾ [الملك]

ثالثها : دليل التنازع والتخاصم :

قال تعالى: ﴿مَا أَخَذَ اللَّهُ مِن وَلِيٍّ وَمَا كَانَتْ مَعَهُ مِنْ إِلَهٍ إِذَا لَذَهَبَ كُلُّ إِلَهٍ بِمَا خَلَقَ﴾ [المؤمنون: ٩١] وذلك لأن كل إله يريد أن يستأثر بالذي خلقه، ويريد أن تكون له مساحة أكبر من الكون، ويستقطع زيادة عن الآخر بطريق التنازع والخصام ﴿وَلَمَّا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾ كل منهم يريد أن يترفع على الآخر، ويتعالى عليهم، فالشركاء يتنازعون ويختلفون ويتقاسمون

رابعها : دليل القهر والغلبة :

وهو الدليل الذي معنا في هذه السورة ﴿قُلْ لَوْ كَانَ مَعَهُ آلِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ إِذَا أُتْبِعُوا إِلَىٰ ذِي الْعَرْشِ سَبِيلًا﴾ ٤٢ أي: لو كان مع الله إله آخر لحدث على الملك والسلطة، نزاع ومغالبة؛ فكل إله يريد أن يستأثر بالكون، كما يحدث بين ملوك الدنيا، وتحدث الانقلابات والثورات، وغير ذلك من سبل القهر والغلبة؛ للظفر والانفراد بالملك، وهذا المعنى هو الراجع .

أو يكون المعنى: لو كان هناك إله غير الله معه لتقربت الآلهة المزعومة إلى هذا الإله، وطلبوا الوصول إليه، واعترفوا بفضله، وابتغوا طريقًا يسلكونه، ويتقربون به إلى صاحب العرش العظيم؛ ليخلصوا له العبادة، وهذا كقوله تعالى ﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ﴾ [الإسراء: ٥٧] وقوله عن المشركين ﴿قَالُوا سُبْحَنَكَ مَا كَانَ يَلْبِغِي لَنَا أَن نَّتَّخِذَ مِن دُونِكَ مِنْ أَوْلِيَاءَ﴾ [الفرقان: ١٨] فاعبدوا الله وحده، ولا حاجة لكم إلى معبود آخر، يكون واسطة بينكم وبينه، قال تعالى منزهاً نفسه عن الشريك والولد:

٤٣- ﴿سُبْحَنَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يَقُولُونَ﴾^(١) عُلُوًّا كَبِيرًا ﴿٤٣﴾

يقول سبحانه مُنْزَهَاً نفسه، ومعلماً لنا كيف ننزه الله سبحانه، ونقدسه عن الشريك والولد: ﴿سُبْحَنَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يَقُولُونَ عُلُوًّا كَبِيرًا﴾ ﴿٤٣﴾ أي: تنزهه، وتقدس سبحانه عما يقوله المشركون، وتعالى وتعاظم عن زعمهم، علوًّا كبيرًا.

وفي القراءة الأخرى: (عما تقولون) بالثناء، خطاباً من النبي ﷺ للمشركين.

لقد تضاءلت لعظمته المخلوقات، وصغرت لكبريائه الأرض والسموات، وافتقر إليه العالم العلوي والسفلي افتقاراً ذاتياً، لا ينفك عنهم بوجه من الوجوه، وهم يفزعون إليه في السراء والضراء، فهو إلههم ومعبودهم بحق، لا رب غير ولا معبود سواه.

جَمِيعُ الْكَائِنَاتِ تُسَبِّحُ بِحَمْدِ اللَّهِ تَعَالَى

٤٤- ﴿تُسَبِّحُ لَهُ السَّمَوَاتُ السَّبْعُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِنْ لَا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ إِنَّهُمْ كَانُوا حَلِيمًا غَفُورًا﴾ ﴿٤٤﴾

ثم بيّن جلّ شأنه أن كل شيء في هذا الكون ينطق بوحداية الله تعالى، ويشهد بربوبيته له: السماوات في زُرْقَتِهَا، والشمس في شُرُوقِهَا وغُرُوبِهَا، والسُّحُبُ في أمطارها، والمياه في خَرِيرِهَا، والطيور في تُغْرِيدِهَا، والحدائق في خُضْرَتِهَا، والبساتين في نُضْرَتِهَا، وغير ذلك من المُلْكِ والملكوت كله يسبح بحمد الله، كله يشهد أن لا إله إلا الله.

﴿تُسَبِّحُ لَهُ السَّمَوَاتُ السَّبْعُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ﴾ من الملائكة والإنس والجن، ثم عمّم سبحانه الأشياء كلها فقال: ﴿وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ﴾.

أي: من جميع المخلوقات، فكل شيء في هذا الوجود ينزه الله تعالى تنزيهاً مقروناً بالثناء والحمد له سبحانه: كل حصاة، وكل حجر، وكل نبتة، وكل زهرة، وكل ثمرة، وكل شجرة، وكل حيوان، وكل دابة تدب على الأرض، أو تُسبح في الماء، أو تسير في

(١) قرأ حمزة والكسائي وخلف العاشر ورويس بخلف عنه بناء الخطاب في (عما يقولون) حكاية لقول الرسول ﷺ لهم، والباقون بياء الغيب ومعهم رويس في وجهه الثاني؛ لمناسبة ما قبلها.

(٢) قرأ نافع وابن كثير وابن عامر وشعبة وأبو جعفر ورويس بخلفه بياء التذكير في (يسبح)، والباقون بياء التأنيث.

الهواء، ومعهم سكان السماء، كلها تسبح بحمد الله، وتتوجه إليه في علاه.

وبهذا أمرت الرسل الأمم، وبه أوصى نوح ابنه وهو في مرض الموت.

كما في حديث عبد الله بن عمرو رضي الله عنه أن نوحاً لما حضرته الوفاة، دعا ابنه، فأوصاهما بأمرين، ونهاهما عن أمرين: نهاهما عن الشرك بالله، وعن الكبر، وأمرهما بلا إله إلا الله؛ فإن السماوات والأرض وما بينهما لو وُضعت في كفة، ولا إله إلا الله في كفة، لرجحت لا إله إلا الله، ولو أن السماوات والأرض كانتا حلقة فوُضع عليهما لا إله إلا الله لقصمتهما، وأمرهما بسبحان الله وبحمده؛ فإنها صلاة كل شيء، وبها يرزق الخلق^(١).

ونصوص الكتاب والسنة، ناطقة بتسبيح جميع الكائنات لله تعالى، وهذا التسبيح تسبيح حقيقي بلسان الحال والمقال، ولكنه بلغة لا يفهمها الناس، كما قال تعالى: ﴿وَلَكِنْ لَا يَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ﴾ أي: لكنكم -أيها الناس- لا تدركون ذلك، وكما قال تعالى مبيناً أن جميع الكائنات تسجد لله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَسْجُدُ لَهُ مَن فِي السَّمَوَاتِ وَمَن فِي الْأَرْضِ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ وَالْجِبَالُ وَالشَّجَرُ وَالدَّوَابُّ وَكَثِيرٌ مِّنَ النَّاسِ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ الْعَذَابُ﴾ [الحج: ١٨].

فجميع الكائنات من: ملك، وإنسان، ونبات، وحيوان، وشجر، وحجر، ومدر، ومن له عقل، ومن لا عقل له، كلها تسبح بحمد الله: ﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ﴾ أي: ما من كائن في هذا الكون ﴿إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ﴾ على اختلاف الألسنة، واختلاف اللغات، ونحن -بني البشر- لا نعرف لغة بعضنا البعض، لا نعرف هذه اللغة من تلك اللغة، لا نعرف العربية من الفرنسية من الألمانية من الإنجليزية من غيرها، فما بالكم بلغات المخلوقات الأخرى مثل: الطيور، والحيوانات، والنباتات، والأشجار، والأسماك، وعالم النمل والنحل، وما إلى ذلك؟! لا يفهم هذه الألسنة إلا مَنْ خلقها، وقد جاء في القرآن الكريم ما يقطع بأن الجماد يسبح بحمد الله، يشهد وينطق بالتوحيد.

قال سبحانه مبيناً تسبيح الجبال والطيور في الآيات التي تحدث عن داود عليه السلام:

(١) يُنظر نص الحديث في «المسند» برقم (٦٥٨٣). وإسناده صحيح (محققوه) وهو في «المستدرک» (٤٨/١) وأخرجه البخاري في الأدب المفرد (٥٤٨) والبخاري (٣٠٦٩، ٢٩٩٨) والهيتمي في المجمع (٢١٩/٤) وقال: رواه كله أحمد، ورواه الطبراني بنحوه... ورجال أحمد ثقات.

﴿إِنَّا سَخَرْنَا الْجِبَالَ مَعَهُ يُسَبِّحْنَ بِالْعُشِيِّ وَالْإِشْرَاقِ﴾ [ص] فأثبت سبحانه أن الجبال تسبح مع داود.
وقال جل شأنه: ﴿وَالطَّيْرَ مَحْشُورَةً كُلٌّ لَّهِ أَوَّابٌ﴾ [ص] أي: أن الطير رجّاع مسبح بحمد الله تعالى.

وفي الآية الأخرى يجمع الله تعالى الجبال والطير معاً، فيقول تعالى:
﴿وَسَخَرْنَا مَعَ دَاوُدَ الْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَالطَّيْرَ﴾ [الأنبياء: ٧٩] الجبال، والطير يسبحن بحمد الله، وينطقن بالتوحيد، ويعترفن بربوبية الله سبحانه، وألوهيته.

ويقول تعالى: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُدَ مِنَّا فَضْلًا يَجِبَالُ أَوِي مَعَهُ وَالطَّيْرُ﴾ [سبأ: ١٠]
فبيّنت هذه الآية أن الجبال، والطير ترجّع التسبيح مع داود ﷺ.
وجاء عن الحجارّة أنها تخشع وتخشى الله تعالى فقال سبحانه: ﴿وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ﴾ [البقرة: ٧٤].

وقال أيضاً: ﴿لَوْ أَنزَلْنَا هَذَا الْقُرْآنَ عَلَى جَبَلٍ لَّرَأَيْنَاهُ خَشْيَةً مُّتَصِّدِعًا مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ﴾ [الحشر: ٢١].
فالجبال وهي جماد تخشع، وتهبط، تسبح بحمد الله سبحانه، وبهذا نطق الأحاديث:

الماء ينبع من بين أصابع النبي ﷺ

١- قال ابن مسعود ؓ: كنا مع رسول الله ﷺ في سفر فقلّ الماء، فقال: «اطلبوا فضلة من ماء»، فجاءونا بإناء فيه ماء قليل، فأدخل يده ﷺ في الإناء، ثم قال: «حي على الطهور المبارك، والبركة من الله» فلقد رأيت الماء ينبع من بين أصابع رسول الله ﷺ، ولقد كنا نسمع تسبيح الطعام وهو يؤكل^(١).

الطعام والحصى يسبحان بين يديه ﷺ:

٢- وفي الصحيح: عن أنس ؓ قال: كنا نسمع تسبيح الطعام بين يدي رسول الله ﷺ، وكنا نسمع تسبيح الحصى في كف المصطفى ﷺ.

٣- وفي حديث أبي ذر ؓ أن النبي ﷺ أخذ في يده حصيات، فسُمع لهن تسبيح

(١) أخرجه البخاري برقم (٣٥٧٩).

كحنين النحل، وكذا يد أبي بكر وعمر وعثمان رضي الله عنهم أجمعين^(١).

الحجر يسلم على النبي ﷺ:

٤- جاء في صحيح مسلم: عن جابر بن سمرة رضي الله عنه أن النبي ﷺ وهو في مكة أول البعثة، كان يمر بحجر، فيسلم عليه كلما مر به، قال ﷺ: «وإني لأعرفه الآن»^(٢).

صوت الضفدع تسبيح لله سبحانه:

٥- وعن عبد الرحمن بن عثمان رضي الله عنه أن النبي ﷺ نهى عن قتل الضفدع^(٣). وقال: «نقيقها تسبيح» والنقيق: هو صوت الضفدع.

الضفدع يعبد الله تعالى:

٦- وورد أيضًا أن داود عليه السلام ظل ليلة يصلي، فلما أصبح سُرَّ في نفسه من أنه قام هذه الليلة مصليًا مسبحًا بحمد الله، فقالت له ضفدعة: يا داود، إني كنت أدأب منك على عبادة الله هذه الليلة -أي: كنت أكثر عبادة منك، وأكثر تواصلًا مع الله تعالى في هذه الليلة منك- لقد أغفيت إغفاء، أي: حدث منك أن غفلت عينك لحظة، فهي تخبره أنها كانت أدأب منه على عبادة الله تعالى في هذه الليلة، مع أنه أعجب بنفسه، وسرّه أن قام هذه الليلة.

جذع النخل يحنُّ للنبي ﷺ ويسمع له صوت وأنين:

٧- في البخاري: عن ابن عمر رضي الله عنهما قال: كان رسول الله ﷺ يخطب إلى جذع، فلما اتخذ المنبر تحوّل إليه، فحنَّ الجذع، فأتاه فمسح يده عليه^(٤).

(١) رواه أحمد في «المسند» (٤/٤١٥).

(٢) صحيح مسلم برقم (٢٢٧٧).

(٣) رواه أحمد في «المسند» (٤/٤١٥) برقم (١٥٧٥٧، ١٦٠٦٩) بإسناد صحيح ورجال ثقات، (محققوه) وأخرجه ابن أبي شيبة (٩٢/٨) والطيالسي (١١٨٣) وأبو داود (٣٨٧١) والنسائي في المجتبى (٧/٢١٠) والحاكم (٤١٠/٤).

(٤) «صحيح البخاري» برقم (٣٥٨٣).

وفي رواية: فاحتضنه وسارّه بشيء.

٨- وفي حديث جابر بن عبد الله رضي الله عنه قال: كان المسجد مستقوفاً على جذوع من نخل، فكان النبي ﷺ إذا خطب يقوم إلى جذع منها، فلما صُنع له المنبر وكان عليه، فسمعنا لذلك الجذع صوتاً كصوت العِشار، حتى جاء النبي ﷺ فوضع يده عليه فسكت^(١).

جريد النخل يسبح بحمد الله:

٩- في حديث ابن عباس رضي الله عنه أن النبي ﷺ مرَّ بقبرين، فقال: «إنهما يعذبان، وما يعذبان في كبير، أما أحدهما فكان لا يستتر من البول، وأما الآخر فكان يمشي بالنميمة»، ثم أخذ جريدة رطبة فشققها نصفين، ثم غرز في كل قبر واحدة، ثم قال: «لعله يخفف عنهما ما لم ييبسا»^(٢).

قال العلماء: «ما لم ييبسا»؛ لأنهما يسبحان ما دام فيهما خضرة، فإذا يبسا انقطع تسييحهما.

النمل يسبح بحمد الله:

١٠- وفي الصحيحين وغيرهما: عن أبي هريرة رضي الله عنه: «أن نبياً من الأنبياء قرصته نملة، فأمر بإحراق قرية النمل، فأوحى الله تعالى إليه: من أجل نملة واحدة، أحرقت أمة تسبح بحمد الله؟»^(٣).

الدود يكثر من ذكر الله:

١١- وفيما يروى عن داود عليه السلام أنه رأى في محرابه دودة صغيرة تمشي، ففكر فيها، وقال: ما يعبد الله بخلق هذه الدودة؟! يعني: ما فائدتها؟ أو نحو ذلك، فأنطق الله الدودة، وقالت يا داود: أتعجبك نفسك على قدر ما أنا فيه من صغر حجمي، إني لأكثرُ ذكراً وشكراً لله تعالى منك، على ما أنت فيه.

(١) «صحيح البخاري» برقم (٣٥٨٥) وانظر: (٤٤٩).

(٢) البخاري برقم (٢١٨، ١٣٦١، ٦٠٥٥) ومسلم برقم (٢٩٢).

(٣) البخاري في الجهاد برقم (٣٠١٩) ومسلم في السلام (٢٢٤١) وأبو داود في الأدب برقم (٥٢٦٦) والنسائي

(١٢٠/٧) برقم (٤٣٦٩، ٤٣٧١) وابن ماجه في الصيد برقم (٣٢٢٥) وأبو الشيخ (١٢٠٣، ١٢٠٤).

الغراب يستنكر عدم التسبيح لله تعالى :

١٢- أتى أبو بكر رضي الله عنه بغراب وافر الجناحين، فجعل ينشر جناحيه، ويقول: ما صيد من صيد، ولا عضد من شجرة، إلا بما ضيّع من التسبيح^(١).

هذه أدلة وبراهين ثابتة في كتاب الله تعالى، وفي صحيح سنة رسول الله ﷺ تبين أن الكائنات جميعاً: ما له عقل منها، وما لا عقل له من: جماد، وحيوان، ونبات، وطيور، وغيره، كلها يسبح بحمد الله ﷻ **﴿وَلَكِنْ لَا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ﴾**؛ لأن تسبيحهم بغير لغتكم، وفوق مستوى فهمكم، والذي يعلم تسبيحهم هو خالقهم **﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ﴾** [الملك: ١٤] فهو تسبيح حقيقي بلسان المقال.

والسور المسبحات في القرآن الكريم تنطق بأن العالم العلوي والسفلي يسبح بحمد الله.

ومنها: ما هو مفتوح بالفعل الماضي **﴿سَبَّحَ﴾**.

ومنها ما هو مفتوح بالفعل المضارع **﴿يُسَبِّحُ﴾**.

ومنها ما بُدئ بالمصدر **﴿سُبْحَنَ﴾**.

ومنها ما بدأ بفعل الأمر **﴿سَبِّحْ أَسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى﴾**.

وكلها ناطقة بأن جميع الكائنات من يعقل منها، ومن لا يعقل، كلها تسبح بحمد الله.

ثم يختم الله سبحانه الآية بقوله: **﴿إِنَّهُمْ كَانُوا حَلِيمًا غَفُورًا﴾** وفي هذا تعريض بالمشركين في قولهم: الملائكة بنات الله، وفي عبادتهم غير الله، وأنه سبحانه لو شاء لعاجلهم بالعقوبة في الدنيا، ولكنه جلّ شأنه عاملهم بالحلم والإمهال، وفي هذا حث لهم على الإقلاع عما هم فيه؛ ليغفر الله لهم، فإن استمر العبد على كفره وعناده أخذه أخذ عزيز مقتدر، كما جاء في الصحيحين: من حديث أبي موسى الأشعري رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «إن الله ليملي للظالم حتى إذا أخذه لم يفلته»، ثم قرأ **﴿وَكَذَلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرْآنَ وَهُوَ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ﴾** [هود: ١٢].

(١) أخرجه ابن راهويه في «مسنده» من طريق الزهري كما في «فتح القدير» للشوكاني (٢٣٨/٣).

(٢) «صحيح البخاري» برقم (٤٦٨٦) و«صحيح مسلم» برقم (٢٥٨٣).

وقال سبحانه ﴿وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِمَا كَسَبُوا مَا تَرَكَ عَلَى ظَهْرِهِمَا مِنْ ذَنْبٍ﴾ [فاطر: ٤٥].

وقال تعالى: ﴿وَكَأَنَّمِنْ قَرِيبَةٍ أَمَلْتُ لَهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ ثُمَّ أَخَذْتُهَا وَإِلَى الْمَصِيرِ﴾ [الحج: ٤٨].

ومن أفلح عما هو فيه من كفر أو عصيان، ورجع إلى الله تعالى تاب الله عليه، قال تعالى:

﴿وَمَنْ يَعْمَلْ سُوءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ اللَّهَ يَجِدِ اللَّهَ غَفُورًا رَحِيمًا﴾ [النساء: ١١٠].

عَدَمُ الْإِيمَانِ بِالْيَوْمِ الْآخِرِ يَسُدُّ مَنَافِذَ الْهُدَايَةِ فِي وُجُوهِ أَهْلِ الضَّلَالِ

٤٥- ﴿وَإِذَا قَرَأْتَ (١) الْقُرْآنَ (٢) جَمَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ حِجَابًا مَسْتُورًا﴾ [٤٥]

ولما ذكر الله تعالى في صدر السورة أن هذا القرآن يهدي للتي هي أقوم، وأتبع ذلك بجملة من هدايات القرآن في أصول العقيدة، وجوامع الأعمال، أشار هنا إلى عدم انتفاع الكفار بهدي القرآن؛ تنبيهاً لهم على وجوب إقلاعهم عن شركهم وعنادهم، فبيّن ﷺ أن قلوبهم محجوبة عن إدراك معاني القرآن، وأنهم ينفرون منه عند سماعه.

وبيّنت الآية أن الله تعالى يحجب رسوله ﷺ، ويستره عن أعين الكفار وهو يقرأ القرآن، فلا يرونه بأعينهم؛ حتى لا يصيبوه بأذى، وهذا الحجاب المستور له معنيان:

المعنى الأول: حجاب حسي، وهذا بالنسبة لمن كان يهمل بالإضرار بالنبي ﷺ بحيث لا تراه الأعين، وهذا هو ما تشير إليه هذه الآية، فتخبر أن الله تعالى يحمي نبيه من الكفرة الذين كانوا يؤذونه في وقت قراءته للقرآن، وفي صلاته في المسجد الحرام فيمدون أيديهم إليه بالأذى، فيحجبه الله عنهم، فلا يرونه وهو أمامهم.

والمعنى الآخر: حجاب معنوي، معناه: صَرَفُ قُلُوبِ الْكُفَّارِ عَنْ تَدْبِيرِ الْقُرْآنِ، فلا يفهمون معانيه، وهذا ما تشير إليه الآية التي بعد هذه؛ فقد أخبر الله تعالى نبيه ﷺ أنه سبحانه يجعل بين الكفرة وبين فهمهم للقرآن حجاباً مستوراً عن أعين الخلق لا يدركه أحد برؤية، كسائر الحجب.

(١) أبدل همزة (قرأت) ألفاً أبو عمرو بخلف عنه، وأبو جعفر وصلاً ووقفاً وحمزة عند الوقف.

(٢) نقل حركة الهمزة إلى الراء قبلها من (القرآن) ابن كثير وصلاً ووقفاً وحمزة وقفاً.

وبالنسبة للمعنى الأول، فقد ثبتت أخبار كثيرة أن نفراً همُّوا بقتل النبي ﷺ أو ضربه، وقد كفى الله نبيه شرهم، فقد نزلت هذه الآية بعد نزول سورة تَبَّتْ، وفي سورة (تَبَّتْ) حديث عن أبي لهب، وعن امرأته حمالة الحطب، وكانت العوراء أم جميل لما نزلت سورة (تَبَّتْ) أخذت في يدها فهراً، يعني: حجراً ضخماً، وأقبلت على رسول الله ﷺ وهو يجلس إلى جوار أبي بكر في المسجد الحرام، ولما رآها أبو بكر ﷺ قال: إني أخاف عليك يا رسول الله، فقال ﷺ: «إنها لن تراني»^(١).

وقرأ النبي ﷺ قُرْآنًا اعتصم منها، ثم وقفت على رأسه، وقالت تدم النبي ﷺ وتعيبه: مذممًا عصيئنا... وأمره أئينا... ودينه قلئنا.

وهي توجه الكلام إلى أبي بكر ﷺ، وهي لا ترى رسول الله ﷺ وهو أمامها يجلس إلى جوار أبي بكر، لقد أعمى الله بصرها عنه.

وفي رواية: أن النبي ﷺ قال لأبي بكر: «جعل الله بيني وبينها ملكاً»، قالت: يا أبا بكر، إن صاحبك يهجوني، تعني: حين نزل ﴿وَأَمْرَأَتُهُ حَمَّالَةَ الْحَطَبِ﴾ قال لها: إنه لا يهجوكم، قالت: والله إني أريد أن أرضخ رأسه بهذا الحجر، والله إن قريشاً لتعلم أني بنت سيدها^(٢)، وخرجت دون أن ترى النبي ﷺ.

ومن ذلك ما حدث ليلة الهجرة حيث قرأ النبي ﷺ ﴿وَجَعَلْنَا مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا فَأَغْشَيْنَاهُمْ فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ﴾ [يس] فأعمى الله أبصار المشركين عن رسول الله ﷺ.

والحجاب المستور: حجاب بالغ الغاية، في ستر ما يحجبه، كأنه مستور بستار آخر

(١) أخرجه ابن حبان (٦٥١١) عن ابن عباس، وأخرجه الحاكم (٣٦١/٢) وقال: صحيح الإسناد ووافقه الذهبي، وقال الألباني: صحيح الإسناد.

(٢) أخرجه أبو يعلى في مسنده (٥٣/١) برقم (٥٣) عن أسماء بنت أبي بكر، وحسنه الحافظ ابن حجر في «الفتح» (٧٣٨/٨) عن ابن عباس، وصححه الحاكم (٣٦١/٢) ووافقه الذهبي والبيهقي في «الدلائل» (١٩٥/٢) وأخرجه أبو نعيم (١٤١) والبخاري والحميدي وابن أبي حاتم ويُنتظر: رواية سعيد بن جبر في «تفسير القرطبي» والبخاري وغيرهما للآية.

يحجبه، كما قال تعالى: ﴿وَيَقُولُونَ حَبْرًا مَّحْجُورًا﴾ [الفرقان: ٢٢].

وفي آية أخرى قال المشركون للنبي ﷺ: ﴿قُلُوبُنَا فِي أَكِنَّةٍ مِّمَّا نَدْعُونَكَ إِلَيْهِ وَفِيْءَ آذَانِنَا وَقْرٌ وَمِنْ بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ فَأَعْمَلْ إِنَّا عَمِلُونَ﴾ [فصلت: ٥].

وخصت الآية الذين لا يؤمنون بالآخرة بالذكر كامرأة أبي لهب، وغيرها؛ لأنهم هم الذين استبعدوا إعادة الخلق بعد الموت، كما قال تعالى عنهم: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا هَلْ نَذُكَّرُ عَلَىٰ رَجُلٍ يَنْتَشِكُمْ إِذَا مُمِرَّتْ كُلُّ مُرْجَةٍ إِنَّكُمْ لَعِىَ خَلْقٍ جَدِيدٍ﴾ (٧) أفترى على الله كذباً أم به جنة؟ قال تعالى: ﴿بَلِ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ فِي الْعَذَابِ وَالضَّلَالِ الْبَعِيدِ﴾ [سبأ: ٧، ٨].

حَجَبُ عُقُولِ الْكُفَّارِ عَنْ فَهْمِ الْقُرْآنِ

٤٦- ﴿وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ^(١) وَفِيْءَ آذَانِهِمْ وَقْرًا وَإِذَا ذُكِّرْتَ فِي الْقُرْآنِ وَحَدِّثُوا وَلَوْ أَنَّ آذَنَهُمْ نَفُورًا﴾ (٤٦)

ثم بين ﷺ النوع الآخر من الحجاب، وهو حجب عقول الكفار عن فهم القرآن؛ عقاباً لهم على كفرهم وعنادهم، فقد جعل الله تعالى بينهم وبين الرسول ﷺ حجاباً خفياً، وجعل على قلوبهم كالأغلفة، فلا تفقه القرآن، وجعل في آذانهم كالصمم فلا تعي ما فيه من توجيه ﴿وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً﴾ أي: أغطية وأغشية تستر عقولهم؛ كي لا يفقهوا القرآن، وفي آذانهم وقْر وثقل يمنع من السمع الذي تقوم به الحجة؛ فقد جعل الله على قلوب الذين لا يؤمنون بالآخرة أغطية، فهم يستمعون إلى القرآن فلا ينتفعون به، ولا يعملون بمقتضاه، بل يستخفون به ويستهزئون، وجعل في آذانهم صمم وثقل كأنهم لا يسمعون.

ورد أن النبي ﷺ طلب من علي عليه السلام أن يصنع وليمة، ويدعو إليها كبار المشركين، فدعاهم، ثم دخل عليهم النبي ﷺ، ودعاهم إلى توحيد الله سبحانه، وقرأ عليهم القرآن، فتحدث بعضهم إلى بعض سراً، وتناجوا قائلين: ما هذا إلا ساحر.

لقد كانوا ينفرون من القرآن؛ لأنه يهدد وضعهم الاجتماعي الذي يقوم على أوهام الوثنية وتقليد الجاهلية، ودخل ملاً من قريش على أبي طالب يزورونه، فدخل عليهم

(١) وصل هاء (يفقهوه) بحرف مد، ابن كثير، وقصرها غيره.

رسول الله ﷺ، فقرأ عليهم القرآن، ومرّ بآيات التوحيد، ثم قال: «يا معشر قريش، قولوا: لا إله إلا الله، تملكوها بها العرب، وتدين لكم بها العجم»، فولّوا ونفروا، فنزلت هذه الآية^(١) تصف حال من يفرون من التوحيد إلى الشرك، ونظير هذا ما جاء في الحديث عن أبي هريرة ؓ أن النبي ﷺ قال: «إذا نودي للصلاة أدبر الشيطان وله ضراط»^(٢).

إن إبليس وجنوده هم الذين يَضيقون بكلمة التوحيد، وينفرون منها، وإنما يعرفها أهل الإسلام، ويأبى الله إلا أن يتم نوره ولو كره المشركون الذين إذا سمعوا ما يبطل آلهتهم ازدادوا ضلّالاً ونفوراً، ذلكم قول تعالى: ﴿وَإِذَا ذُكِّرَتْ رَبِّكَ فِي الْقُرْآنِ وَحَدُّهُ وَلَوْ أَعْلَىٰ أَذْبَرَهُمْ نُفُورًا﴾ أي: إذا جاءت مواضع التوحيد وأنت تقرأ القرآن فرّ المشركون هرباً من التوحيد، ومحبة في الشرك، فهم يغضبون لعدم ذكر آلهتهم، فإذا ذكرت ربك -يا محمد- داعياً إلى توحيد، وناهياً عن الشرك، دون أن تذكر مع آلهتهم المزعومة، كالألات والعزى، وهبل ومناة انفضوا من حولك؛ لأنك ترفض آلهتهم وتنكرها، ورجعوا على أعقابهم نافرين من قولك استكباراً واستعظاماً من أن يوحدوا الله تعالى في عبادته ﴿كَأَنَّهُمْ حُمُرٌ مُّسْتَفِِرَّةٌ﴾ [المدرّج] فَرَّتْ مِنْ قَسْوَرَةٍ ﴿٥١﴾ [المدرّج]

فإذا ذُكر الله وحده اشمأزت قلوبهم، ونفروا، وإذا ذكر معه غيره فرحوا، واستبشروا قال تعالى: ﴿ذَلِكُمْ بِأَنَّهُ إِذَا دُعِيَ اللَّهُ وَحْدَهُ كَفَرْتُمْ وَإِنْ يُشْرَكَ بِهِ تُؤْمِنُونَ﴾ [غافر: ١٢] وقال سبحانه: ﴿وَإِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَحْدَهُ اشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ وَإِذَا ذُكِرَ الَّذِينَ مِنْ دُونِهِ إِذَا هُمْ يَسْتَفْشِرُونَ﴾ [الزمر: ٢٥]

وقال عز وجل: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا إِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ﴾ [الصفّات: ٣٥] وقال أيضاً: ﴿وَإِذَا نُتِلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَتُنَا بَيِّنَاتٍ تَعْرِفُ فِي وُجُوهِ الَّذِينَ كَفَرُوا الْمُنْكَرُ يَكَادُرُونَ يُسْطُونَ بِالَّذِينَ يَتْلُونَ عَلَيْهِمْ ءَايَتِنَا﴾ [الحج: ٧٢].

(١) يُنْظَرُ: «تفسير ابن عطية» (٤٦٠/٣).

(٢) صحيح البخاري (٦٠٨، ١٢٣١) وصحيح مسلم (٣٨٩) وسنن أبي داود برقم (٥١٦) وصحيح أبي داود (٤٨٥).

فَضْحُ أَسْرَارِ الْمُكَذِّبِينَ بِالْقُرْآنِ

٤٧- ﴿تَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَسْتَمِعُونَ بِهِ إِذْ يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ وَإِذْ هُمْ نَجْوَى^(١) إِذْ يَقُولُ الظَّالِمُونَ إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَسْحُورًا^(٢)﴾

ذكر الله سبحانه في هذه الآية السبب المانع من انتفاع المكذبين باليوم الآخر بسماع القرآن، وهو أن الله تعالى يعلم سوء مقاصدهم وأنهم يريدون أن يتصيدوا ما يقدحون به في الإسلام ورسول الإسلام، وليس استماعهم للانتفاع وقبول الحق. لقد كان المشركون يلتفون حول النبي ﷺ وهو يقرأ القرآن في المسجد الحرام؛ ليتلقفوا منه ما ينكرون؛ كتوحيد الله تعالى، وإثبات البعث بعد الموت، وكان تجمعهم؛ لاستماع قراءة النبي ﷺ، يثير تساؤلاً وتعجباً، فكشف الله سبحانه عن سرائرهم، وأخبر بأنهم لا يتفعلون بهذي القرآن إذا تلي عليهم، وبين جلال شأنه، السبب الذي من أجله يستمعون إلى القرآن، ففضحهم، وكشف عن مكنون صدورهم، فقال تعالى: ﴿تَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَسْتَمِعُونَ بِهِ﴾ نحن نعلم الغاية التي يجلسون من أجلها حولك، وهي الاستهزاء، والسخرية، والاستخفاف ونعلم ما يسر به بعضهم إلى بعض ﴿إِذْ يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ﴾ وأنت تقرأ القرآن ﴿وَإِذْ هُمْ نَجْوَى﴾ فليس استماعهم لأجل الاسترشاد، وقبول الحق، وإنما ليتناجوا سرّاً بينهم حيث يقولون ما تتبعون إلا رجلاً مسحوراً ﴿إِذْ يَقُولُ الظَّالِمُونَ إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَسْحُورًا﴾ أصابه السحر فاختلط عقله.

ومن ذلك أنه كان يقوم عن يمين النبي ﷺ رجلان من بني عبد الدار، وعن يساره رجلان منهم، فيصفقون، ويصفرون، ويخلطون عليه بالأشعار إذا قرأ القرآن، قال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ صَلَاتُهُمْ عِنْدَ الْبَيْتِ إِلَّا مُكَاءً وَتَصْدِيَةً﴾ [الأنفال: ٣٥].
فالمعنى: نحن على علم تام بأحوال المشركين عند استماعهم للقرآن حين تتلوه عليهم، ونعلم الطريقة التي يستمعون بها، ونعلم الغرض الذي يستمعون من أجله، ونحن على علم تام بهم حين يستمعون إليك وهم فرادى، وحين يتناجون بينهم بالإثم والعدوان، والتواصي بالمعصية، ويقولون: إنك مسحور ومجنون، هذا من جانب.

(١) أمال الألف من (نجوى) حمزة والكسائي وخلف، وقللها أبو عمرو وورش بخلفه.

(٢) كسر التثنية من (مسحوراً) حال وصلها بما بعدها حمزة وعاصم وأبو عمرو ويعقوب وابن ذكوان وضمه الباقون.

متى ندرك ذلك؟

ومن جانب آخر: فإن كبار قريش كانوا حين يستمعون إلى القرآن يجاهدون قلوبهم؛ حتى لا ترقّ له، ويمانعون فطرتهم أن تتأثر به، فكانوا يتآمرون على عدم الاستماع إليه، فيغلبهم التأثير به، فيعاودون الاستماع إليه مرة بعد مرة، وكان بعضهم يفعل ذلك من وراء بعض، بما تمليه عليه فطرته، فإذا التقوا مصادفة عاتب بعضهم بعضًا على ذلك، وتعاهدوا على عدم العودة؛ ليحجزوا أنفسهم عن القرآن الذي يجذب القلوب والألباب، ولكن كبرياءهم ينفرهم منه.

وهذه صورة ناطقة بهذا المعنى: كبار المشركين: أبو سفيان، وأبو جهل، والأخنس بن شريق يتسلل كل منهم ليلاً، خفية عن الآخر؛ ليستمع إلى القرآن، والنبي يصلي في الليل في بيته. وكانوا يقاومون أنفسهم، ويجاهدون فطرتهم لئلا تميل إلى النبي ﷺ؛ حتى لا تتأثر بالقرآن وحلاوته.

وفي ليلة جلس كل منهم يستمع إلى القرآن في مكان لا يعلم به الآخر حتى طلع الفجر، ثم انصرفوا، والتقوا في الطريق، فلام بعضهم بعضًا؛ حتى لا يراهم الناس، فيتأثرون بهم، ويأتون محمدًا ﷺ، ويستمعون إليه، فأوصى بعضهم بعضًا بعدم العودة، وكرروا ذلك في الليلة الثانية، واللييلة الثالثة، حتى أخذ كل منهم على الآخر عهدًا أن لا يأتي بعد ذلك، فأخذ الأخنس في الصباح عصاه، وذهب إلى أبي سفيان، وقال له: يا أبا حنظلة، ما رأيك فيما سمعت من محمد، قال: سمعت أشياء أعرفها، وأعرف ما يراد بها، وسمعت أشياء لا أعرفها ولا أعرف ما يراد بها، فتركه وذهب إلى أبي جهل، وقال: يا أبا الحكم: ما رأيك فيما سمعت من محمد؟ قال: تنازعنا نحن وبنو عبد مناف على الشرف وتنافسنا، أعطوا فأعطينا، وحملوا فحملنا، وأطعموا فأطعمنا، حتى إذا تجاثينا على الركب وكُنَّا كَفَرَسِي رهان، يعني: متساويين، فقال بنو عبد مناف: منا نبي يأتيه الوحي من السماء، قال أبو جهل: فمتى ندرك هذه؟ أي: متى يكون منا نبي أيضًا يوحى إليه من السماء؛ حتى نكون مثلهم؟ والله لا نُصدِّق به أبدًا، فقام عنه الأخنس وتركه^(١).

(١) تنظر القصة في «سيرة ابن هشام» (٣١٥/١) والبيهقي في «دلائل النبوة» عن الزهري (٢٠٦/٢).

فالمسألة إذا ليست مسألة تكذيب لرسول الله ﷺ إنما هي عناد ومكابرة، كما قال سبحانه: ﴿فَإِنَّهُمْ لَا يَكْذِبُونَكَ وَلَكِنَّ الظَّالِمِينَ بَيَّاتٍ اللَّهُ يَجْحَدُونَ﴾ [الأنعام: ٣٣] وهذه الآية تدل على أن الله تعالى سيجازي الكفار بما يستحقون من عقاب، وهي تشمل كل شقي مكذب بالقرآن، وبخاتم الأنبياء إلى قيام الساعة. قال تعالى:

٤٨- ﴿أَنْظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا لَكَ الْأَمْثَالَ فَضَلُّوا فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا﴾ ﴿٤٨﴾

تأمل وانظر كيف كانوا يتظاهرون بالاستماع إلى القرآن من رسول الله ﷺ، ويتناجون فيما بينهم؟! فقد بلغ بهم الجحود أن ذكروه بعدة أوصاف، فضربوا له الأوصاف والأمثال، وقالوا: إنه ساحر، وإنه كاهن، وإنه شاعر، وغير ذلك، يقول سبحانه: ﴿أَنْظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا لَكَ الْأَمْثَالَ﴾ مرة شاعر، ومرة كاهن، ومرة مجنون، وقد حكم الله عليهم بالضلال، وعلى رأسهم الوليد بن المغيرة الذي قال: إنه ساحر ﴿فَضَلُّوا فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا﴾ أي: لا يستطيعون سبيلاً لإفساد دعوتك، وإطفاء نورك، وليس لديهم فهمٌ صحيح يؤدي إلى الإيمان بك، وبدعوتك.

رَدُّ شُبُهَاتِ الْمُكَذِّبِينَ بِالْبُعْثِ وَالنُّشُورِ

٤٩- ﴿وَقَالُوا أَإِذَا كُنَّا عِظْمًا وَرُقُنَّا آءَنَّا^(٢) لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا﴾ ﴿٤٩﴾

وبعد أن تحدثت السورة عن التوحيد، وعن الوحي، وعن الرسالة، أتبت ذلك بالحديث عن البعث، والحساب، والجزاء، وردت على شبهات المشركين والمكذبين في ذلك، وهذه الثلاثة (التوحيد، والرسالة، والبعث) هي عناصر القرآن المكي.

والإيمان بالبعث والنشور، والحساب والجزاء، والجنة والنار، جزء من عقيدة المسلم، وركن من أركان إيمانه، ومنكر ذلك كافر بالله تعالى كفرًا يخرج من الملة، وقد جاءت بذلك الشرائع السماوية جميعًا، والكفار الذين لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر يستبعدون أن يبعث الله سبحانه الخلائق بعد موتهم، ويحشرهم، ويحاسبهم.

(١) قرأ نافع والكسائي وأبو جعفر بهزتين في (أنذا) على الاستفهام، وهمزة واحدة في (إننا) على الخبر، وقرأ ابن عامر وأبو جعفر بعكس هذه القراءة، أي: بالإخبار في الأول، والاستفهام في الثاني، وقرأ الباقر بالاستفهام فيهما، وكل على أصله فيما بين الهمزتين من التسهيل والتحقيق والإدخال وعدمه.

وفي عهد النبي ﷺ جاء العاص بن وائل - وهو نموذج لأهل الشرك والكفر والضلال، والملحدين المنكرين للبعث والنشور - جاء وفي يده عظم قد بُلي ورُمَ يَفْتَتُهُ بين أصابعه، ويقول: يا محمد، أترى أن الله يبعث هذا بعدما بلي ورُمَ؟ قال ﷺ: «نعم، وبيعثك، ويدخلك النار».

وأُنزل الله في ذلك قرآنًا يُتْلَى: ﴿أَوَلَمْ يَرِ الْإِنْسَانُ أَنَّا خَلَقْتَهُ مِنْ نُطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُبِينٌ ۖ وَصَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَنْ يُعْجِ الْعِظَمَ وَهِيَ رَمِيمٌ ۖ﴾ (٧٨) قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ (٧٩) [يس].

والآية التي معنا من سورة الإسراء تتحدث عن هذا المعنى، وتبين مقولة الكفار والمشركين في التعجب من البعث بعد الموت وإنكاره واستعباده ﴿وَقَالُوا أَإِذَا كُنَّا عِظْمًا وَرَقًا ۖ﴾ أي: إذا كنا ترابًا وحطامًا، وعظمًا باليًا، وتحللت أجسامنا، واختلطت بالتراب ﴿أَوَإِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا﴾؟ أُنْبِثَ مرة ثانية؟ أي: قال المشركون المنكرون لوحداية الله تعالى، ولنبوّة محمد ﷺ، وللبعث والحساب على سبيل الإنكار والاستبعاد: أنذا بليت عظامنا، وتفتت أجزاءنا، وصرنا كالتراب في تفتيته ودقته، أننا لمبعوثون يوم القيامة بعثًا جديدًا، فتعود أرواحنا، وتدب فينا الحياة مرة ثانية؟ ونظير ذلك ما حكاه الله عنهم في قوله: ﴿يَقُولُونَ أَإِنَّا لَمَرْدُودُونَ فِي الْحَيَاةِ ۖ﴾ (١٠) ﴿أَوَإِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا﴾ (١١) قَالُوا نَعْلَمُ نَحْنُ إِذَا كَرِهَ اللَّهُ حِسْرَةً (١٢) [النازعات].

وقوله: ﴿وَإِنْ نَعَجَبَ فَعَجَبٌ قَوْلُهُمْ أَإِذَا كُنَّا تُرَابًا أَإِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ﴾ [الرعد: ٥].

وقوله: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا هَلْ نَدُلُّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ يُنْبِئُكُمْ إِذَا مُزِقْتُمْ كُلٌّ مَزْقٍ إِنِّكُمْ لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ﴾ (٧) أَفَتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَمْ بِهِ جِنَّةٌ ۚ [سبأ: ٧، ٨]، وقولهم: ﴿أَوَإِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا﴾ (١١) قَالُوا نَعْلَمُ نَحْنُ إِذَا كَرِهَ اللَّهُ حِسْرَةً (١٢) رَجَعُ بَعِيدٌ (٢) [ق]. وقد أمر الله رسوله أن يقول للمكذبين باليوم الآخر:

٥١، ٥٠- ﴿قُلْ كُونُوا حِجَارَةً أَوْ حَدِيدًا ۖ﴾ (٥٠) ﴿أَوْ خَلْقًا مِمَّا يَكْفُرُ فِي صُدُورِكُمْ فَسَيَقُولُونَ مَن يُعِيدُنَا قُلِ الَّذِي فَطَرَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ فَسَيُنْغِضُونَ (١) إِلَيْكَ رُءُوسَهُمْ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هُوَ قُلْ عَسَىٰ أَن يَكُونَ قَرِيبًا﴾ يقول الله سبحانه مجيبًا للمكذبين بالبعث والنشور: كونوا أي شيء أضلَب وأشد وأقوى

(١) قرأ أبو جعفر بإظهار النون وإخفائها من (فسينغضون)، والباقون بإظهارها.

من الإنسان المكون من العظم واللحم، كونوا أي مادة أبعد عن وجود الحياة فيها من العظام والرفات، كونوا ما شئتم -إن استطعتم ذلك- وهذا على سبيل التعجيز والتحدي، وإلا فهم لا يملكون أن يكونوا شيئاً من ذلك، كونوا حجارة، أو كونوا أشد من الحجارة، كالحديد؛ أو كونوا أعظم من الحديد وأشد منه، مما يُستبعد قبوله للبعث عندكم، كونوا من أي خلق يعظم في نفوسكم، وتتصورون أنه لا يقبل الحياة بحال، كونوا الموت نفسه، كونوا ذهباً أو فضة، أو خلقاً آخر أشد وأصلب من الحديد؛ فإن قدرة الله لا يستعصي عليها شيء، فلو كنتم حجارة، أو حديداً لأحياكم الله بعد هلاككم.

فالله الذي خلقكم أول مرة قادر على إعادتكم مرة ثانية، وكل هذا يستوي عنده سبحانه، ولا يعجزه أن يُفخذ فيكم مشيئته، ولن تسلموا من أن تنالكم قدرة الله تعالى، ولن يفيدكم هذا الإنكار: ﴿فَسَيَقُولُونَ مِنْ يُعِيدُنَا﴾؟ من يردنا إلى الحياة بعد الموت؟ ﴿قُلِ الَّذِي فَطَرَكُمْ﴾ خلقكم وأنشأكم ﴿أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾، كما قال تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَتْ عَلَيْهِ﴾ [الروم: ٢٧].

ثم بين سبحانه موقف الملاحظة في كل زمان ومكان وهم يهزؤون، ويسخرون من البعث والنشور، فيخبر سبحانه أنهم عند سماعهم هذا الرد يهزؤون رؤوسهم ساخرين متعجبين ﴿فَسَيَقُولُونَ إِلَيْكَ رُءُوسُهُمْ﴾ يعني: يحركونها من أعلى إلى أسفل استهزاءً وسخرية ﴿وَيَقُولُونَ مَتَى هُوَ؟﴾ متى هذا اليوم الذي يكون فيه البعث؟ يقولون ذلك على وجه الاستبعاد، كما قال تعالى عنهم: ﴿وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ [يس: ١٨].

وقال ﷺ: ﴿يَسْتَعْجِلُ بِهَا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِهَا وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مُشْفِقُونَ مِنْهَا وَيَعْلَمُونَ أَنَّهَا الْحَقُّ﴾ [الشورى: ١٨] يقول سبحانه: ﴿قُلْ عَسَى أَنْ يَكُونَ قَرِيبًا﴾ أي تأتاكم الساعة بغتة بأمر ﴿كُنْ﴾ فإذا هم من بطن الأرض إلى ظهرها، وكل آت قريب، كما قال ﷺ: «بُعِثْتُ أَنَا وَالسَّاعَةُ كَهَاتَيْنِ»^(١) وأشار بالسبابة والوسطى، وعلمها عند رب العالمين، كما قال: ﴿يَسْأَلُكَ النَّاسُ عَنِ السَّاعَةِ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ اللَّهِ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ السَّاعَةَ تَكُونُ قَرِيبًا﴾ [الأحزاب: ١٣].

(١) من حديث أنس بن مالك في «صحيح مسلم» برقم (٢٩٥٠) و«صحيح البخاري» برقم (٦٥٠٤).

الاستجابة لأمر الله تعالى وقت البعث والنشور

٥٢- ﴿يَوْمَ يَدْعُوكُمْ فَتَسْتَجِيبُونَ بِحَمْدِهِ وَتَظُنُّونَ إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا ۖ﴾ ﴿٥٢﴾

ويكون البعث في يوم المحشر والمنشر، يوم يناديكم ربكم وخالقكم للخروج من القبور، بواسطة الملائكة الذين يسوقون الناس إلى المحشر، فتحيون وتمثلون للحساب، بعد أن كنتم عظامًا ورفاتًا، فتستجيبون لأمر الله، وتنقادون له، والداعي هو إسرئيل عندما يأذن الله له بالنفخ في الصور، قال تعالى: ﴿وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَعِقَ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَنْ شَاءَ اللَّهُ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ بِنُظُرٍ﴾ ﴿١٨﴾ [الزمر].

وقال جل شأنه: ﴿وَمِنْ ءَايَاتِهِ أَنْ تَقُومَ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ بِأَمْرِهِ ثُمَّ إِذَا دَعَاكُمْ دَعْوَةً مِّنَ الْأَرْضِ إِذَا أَنتَ تَخْرُجُونَ﴾ ﴿١٦﴾ [الروم].

وقال سبحانه: ﴿وَأَسْمِعْ يَوْمَ يُنَادِ الْمُنَادُ مِن مَّكَانٍ قَرِيبٍ﴾ ﴿٩١﴾ [ق].

قال مقاتل: ينادي إسرئيل في أرض المحشر من فوق صخرة بيت المقدس: أيتها العظام البالية، واللحوم المتمزقة، والشعور المتفرقة، والعروق المتقطعة: اخرجوا إلى فصل القضاء؛ لتُجزوا بأعمالكم، فيسمعون النداء، ويستجيبون له.

وقال سعيد بن جبير: يخرجون من قبورهم وألستهم تلهج بحمد الله سبحانه، يقولون: سبحانهك اللهم وبحمدك.

﴿يَوْمَ يَدْعُوكُمْ﴾ للبعث والنشور والحساب والجزاء، وينفخ في الصور ﴿فَتَسْتَجِيبُونَ بِحَمْدِهِ﴾ أي: وتقومون من قبوركم تنفضون التراب عن رؤوسكم، وأنتم مسبحون بحمد الله، وتلهجون بذكره وتظنون أنكم ما لبثتم في قبوركم ولا في الدنيا إلا يومًا أو بعض يوم، كما قال تعالى: ﴿كَانَتْهُمْ يَوْمَ يُؤْتَىٰ لِمَ يَلْبَثُوا إِلَّا عَشِيَّةً أَوْ ضُحًى﴾ ﴿٤١﴾ [النازعات].

وقال أيضًا: ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُقْسِمُ الْمُجْرِمُونَ مَا لَبِثُوا غَيْرَ سَاعَةٍ﴾ [الروم: ٥٥].

ومن ذلك قصة أهل الكهف، وقصة الذي مر على قرية وهي خاوية على عروشها، وكذا المجرمون حين يقومون من قبورهم، ومن خفت موازينهم، هؤلاء جميعًا حين يُسألون يوم القيامة عن المدة التي مكثوها في قبورهم، أو عمروها في الدنيا، كما ذكر القرآن عن

هؤلاء جميعاً فيقال لهم: ﴿كَمْ لَبِثْتُمْ فِي الْأَرْضِ عَدَدَ سِنِينَ﴾؟ فيكون جوابهم ﴿لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ﴾ وفي آية أخرى ﴿إِذْ يَقُولُ آمَنَّا لَهُمْ طَرِيقَةً إِنْ لَبِثْتُمْ إِلَّا يَوْمًا﴾ [طه: ١٠٤].

وهذه المدة طالت، أو قصرت هي قليلة بالنسبة لأيام الله، كما قال تعالى:
﴿قُلْ إِنْ لَبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا لَوْ أَنَّكُمْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [المؤمنون: ١١٢].

وقد وصف الله تعالى حال الناس عند خروجهم للبعث والجزاء بمثل قوله تعالى:
﴿خُشْعًا أَبْصَرُهُمْ يَخْرُجُونَ مِنَ الْأَجْدَاثِ كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُنتَبِرٌ﴾ [٧] مُهْطِعِينَ إِلَى الدَّاعِ [القمر].

وقوله: ﴿يَوْمَ تَشَقُّقُ الْأَرْضُ عَنْهُمْ سِرَاعًا﴾ ذَلِكَ حَشَرٌ عَلَيْنَا يَسِيرٌ [٤٤] [ق]،

وقوله: ﴿هُنَالِكَ تَبْلُوا كُلُّ نَفْسٍ مَّا أَسْلَفَتْ وَرُدُّوْا إِلَى اللَّهِ مَوْلَاهُمُ الْحَقُّ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَّا كَانُوا يَقْتَرُونَ﴾ [٣٠] [يونس].

وهم في هذا اليوم يستحقرون مدة الدنيا ويستقلونها، وهكذا تطوى الدنيا، فإذا هي لمحّة مرّت، وعَهْدٌ زال، وظلٌّ تحوّل، ومتاع قليل ﴿إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَا أَرَدْنَاهُ أَنْ نَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ [٤٠] [النحل] ﴿وَمَا أَمْرُنَا إِلَّا وَاحِدَةٌ كَلَمْحٍ بِالْبَصَرِ﴾ [٥٥] [القمر]

﴿فَإِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ﴾ [١٣] فَإِذَا هُمْ بِالسَّاهِرَةِ [١٤] [النازعات].

الْكَلِمَةُ الطَّيِّبَةُ صَدَقَةٌ

٥٣- ﴿وَقُلْ لِعِبَادِي يَقُولُوا الَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ الشَّيْطَانَ يَنْزِعُ بَيْنَهُمْ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلْإِنْسَانِ عَدُوًّا مُبِينًا﴾

وبعد أن أمر الله رسوله أن يرد شبهات المكذبين بالبعث والنشور، أمره أن يبلغ المؤمنين أدباً ينفعهم في تبليغ الدعوة، وفي حياتهم الخاصة والعامة، وذلك أن المسلمين في دعوتهم لأهل الضلال والإلحاد والكفر؛ كي يؤمنوا بالله سبحانه ويوحّدوه، ويؤمنوا بالنبي الخاتم ﷺ وبالكتاب الذي نزل عليه، ويؤمنوا باليوم الآخر وما فيه من حساب وجزاء، يَلْقَوْنَ من غيرهم الأذى، والعنت، والمشقة، حدث هذا في عهد رسول الله ﷺ وقت أن نزلت هذه الآيات، ويحدث أيضاً على مدار الزمن.

والمسلمون مكلفون أن يقوموا بدعوة محمد ﷺ وأن يبلغوا هذه الدعوة إلى جميع ملل الكفر والإلحاد، مهما لاقوا في سبيل ذلك ما يُلاقونه من الأذى، وعليهم أن يصبروا عليه

كما صبر أصحاب رسول الله ﷺ.

والله جلّ شأنه يعلمنا في هذه الآية، أدب الدعوة، وأدب الحوار، وأدب الحديث مع أنفسنا، ومع بعضنا البعض، المسلم مع المسلم، والمسلم مع غير المسلم، كما قال تعالى: ﴿وَلَا تَسْتَوِ الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ﴾ أي: أنه بالكلمة الطيبة يصبح العدو ﴿كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ﴾ [فصلت: ٣٤].

قال الحسن البصري: ﴿الَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ لا يقول له مثل قوله، بل يقول له: يرحمك الله، يغفر الله لك.

فالآية تأمر المؤمنين أن يقولوا الكلمة الطيبة، فيحسنوا الأدب، ويخفضوا الجناح، ويُلينوا القول، ويطرحوا نزغات الشيطان، أما الكلمة الشديدة المنفّرة فإنها تغرس في صدر الآخرين العداوة، والحقد، والبغضاء، والشيطان ينزغ في قلوبهم الخصام، والفساد، ومن هنا أمر الله عباده أن يحسنوا إلى غيرهم في أقوالهم؛ فالكلمة الطيبة صدقة: ﴿وَقُلْ لِعِبَادِي يَقُولُوا﴾ في حوارهم، ودعوتهم ﴿الَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ من الكلام الحسن الطيب، الذي يُعرب عن حُسن النية، والنفس الزكية؛ لأن الكلام يعبر عن المقاصد، ومن هنا وجبت مراقبة اللسان وما يصدر عنه، وعدم الاستخفاف بالكلمة النابية، ولو كانت مزاحاً، وفي الآية أمر بكل كلام يقرب إلى الله تعالى، من قراءة وذكر وعلم، وأمر بمعروف ونهي عن منكر، وكلام حسن لطيف مع الخلق على اختلاف مراتبهم ومنازلهم، فينبغي على المسلمين تحري الكلمة سيئاً في دعوتهم لغير المسلمين، كما قال تعالى: ﴿وَلَا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ﴾ [العنكبوت: ٤٦].

وقال جلّ شأنه: ﴿ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ﴾ [النحل: ١٢٥] بحيث يترفقون بهم في عرض الأدلة، وأسلوب الدعوة، وفي بسط ما يتعلق بالبعث والنشور، ونحو ذلك.

﴿إِنَّ الشَّيْطَانَ يَنْزِعُ بَيْنَهُمْ﴾ فيجد ويجتهد، ويحرص حين تخرج الكلمة النابية؛ ليوغر بها الصدور بين المسلمين وغيرهم، وبين المسلمين بعضهم مع بعض ليفسد عليهم دينهم ودنياهم ﴿إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلْإِنْسَانِ عَدُوًّا مُبِينًا﴾ ظاهر العداوة، يدعو أصحابه ليكونوا منه أصحاب السعير.

وقد نهى النبي ﷺ عن أن يشير المسلم إلى أخيه، أو يجلسه بسلاح أو حديدة في يده؛ فإن الشيطان قد ينزغ في يده فيقع في حفرة من النار:

فعن أبي هريرة ؓ أن رسول الله ﷺ قال: «لا يشير أحدكم إلى أخيه بالسلاح؛ فإنه لا يدري أحدكم لعل الشيطان أن ينزغ في يده، فيقع في حفرة من نار»^(١).

وصح في الحديث: عن معاذ بن جبل ؓ أن النبي ﷺ أمره بأعمال تدخله الجنة، ثم قال له: «ألا أخبرك بملاك ذلك كله؟» قلت: بلى يا رسول الله، فأخذ بلسانه وقال: «كف عليك هذا»، قال: قلت: يا رسول الله، وإنا لمؤاخذون بما نتكلم به؟ فقال: «ثكلتك أمك يا معاذ، وهل يكب الناس في النار على وجوههم، أو قال: على مناخرهم إلا حصائد ألسنتهم»^(٢).

وفي الحديث عن أبي هريرة ؓ أن رسول الله ﷺ قال: «إن العبد ليتكلم بالكلمة من رضوان الله لا يلقي لها بالاً يرفعه الله بها درجات، وإن العبد ليتكلم بالكلمة من سخط الله لا يلقي لها بالاً يهوي بها في جهنم»^(٣).

وروى الكلبي أن المشركين في بدء الدعوة كانوا يؤذون أصحاب رسول الله ﷺ بالقول والفعل، فأنزل الله هذه الآية^(٤).

وقيل: نزلت هذه الآية في عمر ؓ شتمه بعض الكفار، فأمره الله بالعفو^(٥).

ونزغ الشيطان وعداوته قديمة منذ بدء الخليقة مع أبينا آدم ؑ ﴿إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُرْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا إِنَّمَا يَدْعُوا حِزْبَهُ لِيَكُونُوا مِنْ أَصْحَابِ السَّعِيرِ﴾ [فاطر] فهو حريص على الإفساد بين الناس يتربص بهم، ويتلمس السقطات التي تخرج من أفواههم، والعثرات التي تنطق

(١) «المسند» (٣١٧/٢) والبخاري برقم (٧٠٧٢) ومسلم برقم (٢٦١٧).

(٢) من حديث معاذ بن جبل في «الترمذي» (٢٦١٦) وابن ماجه (٣٩٧٣) و«المسند» (٢٣١/٥)، برقم (٢٢٠١٦) وهو حديث صحيح بطرقه وشواهده كما قال محققوه، وأخرجه عبدالرزاق في المصنف

(٢٠٣٠٣) وعبد بن حميد (١١٢) والنسائي في الكبرى (١١٣٩٤).

(٣) من حديث أبي هريرة في «صحيح البخاري» برقم (٦٤٧٨) وهذا لفظه و«صحيح مسلم» برقم (٢٩٨٨) مختصراً.

(٤) «أسباب النزول» للواحدي ص (٢٤٣) و«زاد المسير» (٤٦/٥).

(٥) «تفسير القرطبي» (٢٧٦/١٠).

بها أَلَسْتَهُمْ؛ لكي يبذر بذور الشر والبغضاء بينهم، ولذا حذرنا الله سبحانه منه أشد تحذير فقال: ﴿يَبْقَىٰ عَادَمَ لَا يَفْنَىٰكُمْ الشَّيْطَانُ كَمَا أَخْرَجَ أَبَوَيْكُم مِّنَ الْجَنَّةِ﴾ [الأعراف: ٢٧] فإن لم يأخذوا حذرهم منه، ألقى بينهم العداوة والفساد والخصام، فهو ظاهر العداوة يوسوس لأوليائه بالشر ليحدث العداوة والبغضاء بين المرء وأخيه. قال تعالى:

٥٤- ﴿زُبُكُّرُ أَعْلَمُ بِكُم بِشَأْنٍ^(١) يَرْحَمَكُمُ أَوْ إِنِ يَشَأْ^(١) يُعَذِّبْكُمْ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ وَكِيلًا﴾

يُبَيِّنُ الله سبحانه لخلقه جميعاً، لا سيَّما الكفرة الملحدين، أنهم في قبضة الله تعالى، وتحت قهره وتصرفه؛ ليكون هذا زاجراً لهم عما هم فيه من الكفر والإلحاد ﴿زُبُكُّرُ أَعْلَمُ بِكُمُ﴾ من أنفسكم، فهو محيط بكم، وبأحوالكم، وأعلم بدخائل نفوسكم، وأعلم بما يناسب حالكم من أسباب الرحمة أو العذاب، فيوفقكم للإيمان والهداية، أو للكفر والضلال فلا يأمركم إلا بخير، ولا ينهاكم إلا عن شر ﴿إِنِ يَشَأْ يَرْحَمَكُمُ﴾ بالتوفيق للإيمان ﴿أَوْ إِنِ يَشَأْ يُعَذِّبْكُمْ﴾ فيميتكم على الكفر والعصيان، وهو سبحانه أعلم بأسباب الهداية وأسباب الضلال، وما يوافق أحوالكم، ولكنه جلَّ شأنه يترككم إلى أنفسكم، وإلى محض اختياركم؛ حتى لا تكونوا مسيرين؛ كالملائكة، أو الحيوانات، فإن لكم عقولاً تميزون بها، وفيكم شهوة تنازع عقولكم.

وقد بيَّن الله لكم طريقي الحق والضلال في كتبه، وعلى السنة رسله، ولو شاء سبحانه لجمعكم على الهدى، ولكنه جلَّ شأنه لا يُسأل عما يفعل، فإن شاء رحم وإن شاء عذب، والرسل لا يُجْبِرُونَ النَّاسَ عَلَى الْإِيمَانِ، ومهمتهم هي البلاغ، فمن أطاعهم دخل الجنة ومن عصاهم دخل النار، وقد أرسلناك داعياً إلى الله، ولست رقيباً عليهم ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ وَكِيلًا﴾ تحفظ أعمالهم - يا محمد - وتكفل بهم، وتقصرهم على الإيمان، وإنما أنت بشير ونذير.

والآية تخاطب كل مَنْ عاند وأصر على الكفر، ولم يستجب للكلمة الطيبة.

(١) قرأ أبو جعفر والأصبهاني بإبدال همزة (يشأ) ألفاً وصلًا ووقفًا ومثلهما حمزة وهشام عند الوقف عليها.

عَلَّمَ اللَّهُ تَعَالَى مُحِيطٌ وَشَامِلٌ

٥٥- ﴿وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِمَن فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ النَّبِيِّنَ (١) عَلَى بَعْضٍ وَءَاتَيْنَا دَاوُدَ زَبُورًا (٢)﴾

يُبَيِّنُ الله سبحانه شمول علمه، وإحاطته بخلقه، وسعة علمه بهم، ومن علمه تعالى أن الرسالة والنبوة لا تكون إلا في عظماء الناس وخيارهم، وهو سبحانه أعلم بمن يستحق الرسالة من خلق الله تعالى، وبمن هو أهل لها؛ فاعتراضكم - أيها المكذبون - على رسالة محمد ﷺ ليس في محله؛ فمحمد ﷺ ليس بدعاً من الرسل.

والله أعلم حيث يجعل رسالته، ولذا اختار محمداً ﷺ؛ ليكون خاتم الرسل، وفضَّله على غيره، والله أعلم بجميع خلقه، يفضل بعضهم على بعض، ويعطي كلا منهم ما يستحق حسب حكمته، ومن ذلك تفضيل بعض النبيين على بعض.

وهذه الجملة من الآية مقدّمة لقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ النَّبِيِّنَ عَلَى بَعْضٍ﴾ فهو سبحانه أعلم باختيار محمد ﷺ رسولاً لكم، ومن سعة علمه سبحانه أن فضَّل هذه الأمة على غيرها من الأمم، وفضَّل بعض الرسل على بعض، فلا تنكروا أمر محمد ﷺ وفضله.

وكان المشركون يقولون: أبعث الله بشراً رسولاً، أبعث الله يتيماً أبي طالب رسولاً، فردَّ الله عليهم بهذه الآية، ويبيِّن سبحانه أنه أعلم حيث يجعل رسالته، وهو الذي فضَّل بعض النبيين على بعض، بحسب علمه الشامل لكل ما في الكون، ومنه التفاضل بينهم؛ فإدريس، رفعه الله مكاناً عليّاً، وإبراهيم، خليل الرحمن، وموسى، كلمه الله، وعيسى روح الله وكلمته ألقاها إلى مريم، وآتى الله سليمان ملكاً لا ينبغي لأحد من بعده، وآتى داود الحكمة وفضل الخطاب، وأسرى برسوله محمد، واصطفاه وقربّه، وغفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر.

(١) قرأ نافع بالهمز في (النبيين) مع المد المتصل، وثلاثة أوجه البديل لورش، والباقون بياء مشددة.

(٢) قرأ (زُبُورًا) بضم الزاي حمزة وخلف العاشر، وقرأ الباقون بالفتح، وهما لغتان في اسم الكتاب المنزل على سيدنا داود عليه السلام.

نبي الله داود عليه السلام:

ولما قال اليهود: لا نبي بعد موسى، وقالوا: لا كتاب بعد التوراة، رد الله سبحانه عليهم بقوله: ﴿وَأَتَيْنَا دَاوُدَ رُتُورًا﴾ ولما ذكر الله سبحانه أنه فضّل بعض النبيين على بعض خص داود بالذكر؛ لأن داود وسليمان، أرسلوا في بني إسرائيل من بعد موسى، واليهود اليوم يريدون إقامة معبد سليمان أو هيكله المزعوم، فهذا هو داود، وهذا هو سليمان أرسلهما الله فيكم يا معشر يهود، وأنتم تنكرون النبوة بعد موسى عليه السلام، وهذا هو الكتاب المنزل على داود (الزبور) فيه مئة وخمسون سورة، أو مئة وخمسون خطبة، كل خطبة أو سورة فيه، يقال لها: مزمور، ويسمى في العهد القديم: كتاب المزامير.

والزبور كتاب دعاء، وثناء، وتمجيد، وتحميد لله سبحانه، وفيه الحكمة وفضل الخطاب، وليس فيه حلال ولا حرام، وليس فيه أحكام ولا تشريعات، فهو يعتمد على التوراة قبله.

وفي الآية الأخرى من سورة الأنبياء: ﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزُّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ﴾.

أي: من بعد اللوح المحفوظ ﴿أَنْتَ الْأَرْضُ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ﴾ [الأنبياء: ١٠٥].

وهذه الأرض هي أرض بيت المقدس، أرض المسجد الأقصى، وهي تصدق على أرض الله كلها، لبيان أن الصالحين من عباد الله هم الذين يرثون الأرض، ويُعمّرونها، ويكونون سادة عليها.

قال أهل العلم: إن في هذه الآية إشارة إلى أن هذه الأمة، لها الكلمة الأخيرة، وأن الله سبحانه، سينصرها حتمًا على اليهود، وعلى غيرهم، وأنهم سيرثون أرض بيت المقدس والمسجد الأقصى إلى يوم القيامة إن شاء الله، مهما حدث من اليهود غُلُوءًا وتكبرًا في حِقْبَةٍ من الزمان، ووَعْدُ الله تعالى لا يتخلف.

وهذه بشرى تزفها هذه الآية للمسلمين، وأنهم يرثون أرض المحشر والمنشر، وتكون في أيديهم إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها.

هذا: وقد أعطى الله داود النبوة والملك، فلم يذكره بصفته مَلِكًا، بل ذكره بصفته نبيًا أنزل عليه كتابًا، وبالنبوة يكون التفضيل لا بالملك، والمال، والجاه.

وأيضًا: فإن الله تعالى كتب في الزبور: محمد خاتم الأنبياء، وأمته خير الأمم، وهو ما ذكره القرآن في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ﴾ (١٥) ولذا: خص داود بالذكر دون سواه.

وفي تخصيص داود بالذكر رد على من قالوا: أبعث الله يتيم أبي طالب رسولًا، ومن قالوا: ﴿لَوْلَا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَى رَجُلٍ مِنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ﴾ [الزخرف: ٣١]؛ وذلك لأن داود عليه السلام كان راعي غنم، ذا قوة في الرمي، فأمر الله ملك بني إسرائيل، شاول، أن يختار داود عليه السلام لمحاربة جالوت الكنعاني، فلما قتل داود جالوت آتاه الله النبوة والملك، وفي هذا إشارة إلى أن اختيار الأنبياء لا يكون عن وراثته، ولا عن عظمة سابقة ﴿أَمْ يَحْسُدُونَ النَّاسَ عَلَى مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ﴾ [النساء: ٥٤].

في حديث أبي هريرة ؓ أن النبي ﷺ قال: «خُفِّفَ عَلَى دَاوُدَ الْقِرَاءَةَ، فَكَانَ يَأْمُرُ بِدَابْتِهِ لِيُسْرَجَ، فَكَانَ يَقْرَأُ قَبْلَ أَنْ يَفْرَغَ»^(١) أي: يقرأ التوراة والزبور.

وهذا التفضيل بين الأنبياء، يكون من الله تعالى، وإخباره عن ذلك يكون على لسان رسله، ولا خلاف في أن الرسل أفضل من الأنبياء، وأن أولي العزم من الرسل، وهم: نوح، وإبراهيم، وموسى، وعيسى، ومحمد، أفضل من غيرهم، كما قال تعالى:

﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَاقَهُمْ وَمِنْكَ وَمِنْ نُوحٍ وَإِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ﴾ [الأحزاب: ٧].

فجاء ذكر أولي العزم الخمسة من الرسل في هذه الآية.

وقال أيضًا: ﴿شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ﴾ [الشورى: ١٣] فجاء ذكرهم أيضًا في هذه الآية.

قال قتادة: اتخذ الله إبراهيم خليلًا، وكلم موسى تكليمًا، وجعل عيسى كمثل آدم، ثم قال له: كن فكان، وهو عبد الله ورسوله خُلِقَ من كلمة الله وروحه.

وأتى سليمان ملكًا لا ينبغي لأحد من بعده، وأتى داود زبورًا، وغفر لمحمد ما تقدم من ذنبه وما تأخر^(٢).

(١) «صحيح البخاري» برقم (٢٠٧٣، ٣٤٧١٣).

(٢) ابن جرير (١٤/٦٢٥).

ولا خلاف في أن محمداً ﷺ أفضل الرسل أجمعين، قال تعالى: ﴿تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ مِنْهُمْ مَنْ كَلَّمَ اللَّهُ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَاتٍ﴾ [البقرة: ٢٥٣].

وَيُحْمَلُ قول النبي ﷺ: «لا تفضلوا بين أنبياء الله»^(١) على أن التفضيل يكون لله تعالى لا إليكم؛ حتى لا تتعصب كل أمة لرسولها، ولا يفضلون بغير دليل.

الْفَرْقُ بَيْنَ دَعْوَةِ الْحَقِّ وَدَعْوَةِ الْبَاطِلِ

٥٦- ﴿قُلْ ادْعُوا^(٢) الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِنْ دُونِي فَلَا يَمْلِكُونَ كَشْفَ الضَّرِّ عَنْكُمْ وَلَا تَحْوِيلًا^(٣)﴾

قل - أيها الرسول - لمن يدعون غير الله: ادعوا آلهتكم، وانظروا هل يدفعون عنكم الضر، أو يجلبون لكم النفع؟ فإذا كانوا لا يملكون شيئاً من ذلك فلا شيء تدعونهم من دون الله؟

وهكذا: يبين سبحانه الفرق بين دعوة الحق التي جاء بها الرسل الذين فضل الله بعضهم على بعض، وبين دعوة الباطل التي يعبدها المشركون، وهي عبادة غير الله تعالى في كل زمان ومكان، كما جاء مثل ذلك في قوله تعالى: ﴿إِنَّ إِلَهِي إِلَهُ الَّذِي نَزَّلَ الْكِتَابَ وَهُوَ يَتَوَلَّى الصَّالِحِينَ﴾ وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَكُمْ وَلَا أَنْفُسَهُمْ يَهْلِكُونَ^(٤) [الأعراف].

وبعد أن أبطل الله تعالى آلهة المشركين بالبرهان العقلي في قوله: ﴿لَوْ كَانَ مَعَهُ آلِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ إِذَا أَتَيْنَا إِلَى ذِي الْعَرْشِ سَبِيلًا﴾ [إسراء: ٤٢] أبطل آلهتهم هنا بالبرهان الحسي، فبين سبحانه في هذه الآية أن هذه الآلهة التي تنادونها - أيها المشركون - لكشف الضر عنكم، لا تملك رفع البلاء عنكم، ولا تقدر على تحويله إلى غيركم، ولا تقدر على تغييره من حال إلى حال، ولا يقدر على ذلك إلا الله سبحانه، كما قال تعالى:

﴿قُلْ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهَا مِنْ شَرْكٍ وَمَا لَكُمْ مِنْهُمْ مِنْ ظَهِيرٍ﴾^(٥) [سبا].

وهذه الآية عامة في كل ما يُدعى من دون الله، من: الأولياء، والصالحين، وغيرهم ممن يُستغاث بهم، ويُطلب المدد منهم، ويُتقرب بهم إلى الله تعالى، فلا واسطة بين

(١) من حديث طويل أخرجه البخاري برقم (٢٤١١، ٣٤١٤) ومسلم برقم (٢٣٧٣) عن أبي هريرة .

(٢) قرأ عاصم وحزمة ويعقوب بكسر اللام وصلًا من (قل ادعوا)، وضمها غيرهم.

الخالق والمخلوق، يستوي في ذلك من عبدوا عزيزاً، والمسيح وأمه، ومن عبدوا الملائكة، أو الشياطين، أو الكواكب، أو البقر، أو الأصنام.

ثم إن الذين تعبدونهم من دون الله في شغل شاغل عنكم، فهم مهتمون بافتقارهم إلى الله، وابتغاء الوسيلة إليه:

التَّوَسَّلُ الْمُنَوَّعُ وَالْمَشْرُوعُ

٥٧- ﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ^(١) أَتَيْتُمُ اقْرَبَ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورًا ﴿٥٧﴾

أي إن الذين تدعونهم من دون الله، من الأنبياء والأولياء والصالحين والملائكة، يتنافسون في القرب من ربهم، ويجتنبون كل ما يوصلهم إلى عذاب الله عز وجل، فإن عذاب الله ينبغي شدة الحذر منه.

ثم إن هذه السورة تغرس العقيدة الصحيحة في نفوس البشر، وتخطب أهل الشرك والضلال في هذا الصدد، فهي سورة مكية، وكان المشركون -ولا يزالون- يقولون: إننا ملطخون بالذنوب والمعاصي، ولسنا أهلاً لأن نعبد الله تعالى مباشرة، أو نسأله مباشرة، فهناك عباد أقرب منا إلى الله، دعوتهم مستجابة، وسؤالهم مستجاب، ولذلك فإنه ينبغي علينا أن نتقرب إليهم؛ فإنهم يقربونا إلى الله، هكذا يقول بعض الناس في وقتنا، وهكذا قال المشركون في عهد النبي ﷺ.

وفي سبب نزول هذه الآية: أن نفرًا من قبيلة خزاعة عبدوا نفرًا من الجن فأسلم الجن، وبقي هؤلاء النفر من العرب يعبدون الجن بعد أن أسلموا وهم لا يشعرون بهم^(٢).
والله سبحانه يوبخ من يعبدون غير الله تعالى حيث يقول: ﴿وَاتَّخَذُوا مِن دُونِهِ آلِهَةً لَا يَخْلُقُونَ

(١) قرأ أبو عمرو ويعقوب بكسر الهاء والميم وصلًا من (ربهم الوسيلة) وحمزة والكسائي وخلف بضمهما، والباقون بكسر الهاء وضم الميم، وعند الوقف على (ربهم) كلهم يكسر الهاء ويسكن الميم.

(٢) يُنظَر: البخاري برقم (٤٧١٤، ٤٧١٥) ومسلم (٣٠٣٠) من حديث سليمان بن مهران الأعمى عن إبراهيم عن أبي معمر عن عبد الله بن مسعود، وأخرجه عبد الرزاق (٣٧٩/١) والنسائي في «الكبرى» (١١٢٢٣)، (١١٢٢٥) والطبراني في الكبير (٩٠٧٧) وغيرهم.

شَيْئًا وَهُمْ يَخْلُقُونَ وَلَا يَمْلِكُونَ لِأَنْفُسِهِمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا وَلَا يَمْلِكُونَ مَوْتًا وَلَا حَيَوةً وَلَا شُورًا ﴿٣﴾ [الفرقان].

ويقول: ﴿قُلْ أَفَرَأَيْتُمْ مَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ أَرَادَنِيَ اللَّهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَاشِفَاتُ ضُرِّيهِ أَوْ أَرَادَنِي بِرَحْمَةٍ هَلْ هِيَ مُنْسِكَةٌ رَحْمَتَهُ؟﴾ [الزمر: ٣٨] فهم لا يملكون كشف الضر عنكم، ولا أن يغيروا أوضاعكم من حال إلى حال، أولئك الذين يدعونهم؛ من الأولياء والصالحين الذين ماتوا أو الأحياء، أو الملائكة، أو المسيح، أو عزيز، أو الجن، أو غيرهم، ممن عبدوا النجوم، والشمس والقمر، والأصنام ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ﴾ أي: الذين يعبدونهم الناس من دون الله ﴿يَبْتَغُونَ إِلَيْنَا رِبَهُمُ الْوَسِيلَةَ﴾ هم أنفسهم يتقربون إلى الله، ويبحثون عما يوصلهم إلى الله، ويتوسلون إليه بما يقدر عليهم من الأعمال الصالحة، ويتنافسون في القرب من ربهم، كل منهم يطمع في رحمة الله، ويخشى عذابه، وقد وصفهم ربهم بمحبتهم لله ﴿أَيُّهُمْ أَقْرَبُ﴾ إليه، ووصفهم بالخشية، وبالخوف والرجاء ﴿وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ﴾ يخافه الملك، ويخافه الإنسان، ويخافه النبي، والولي، والصالح، وكل عبد من عباد الله يخاف عذاب الله يوم لقائه، والتوسل المشروع على نوعين:

النوع الأول: والآية تشير إلى التوسل الممنوع والمشروع، والتوسل المشروع الذي لا خلاف فيه، وليس فيه شبهة، هو التوسل بأسماء الله الحسنى، وصفاته العلى، يتوسل فيه العبد إلى ربه بأسمائه الحسنى، كأن يقول: اللهم إني أسألك بأسمائك الحسنى وصفاتك العلى أن تغفر لي، ويطلب ما يشاء.

النوع الثاني من التوسل: أن يتوسل العبد إلى الله سبحانه بعمله الصالح، أي: بصلاته وصيامه، وقيامه الليل، وبتلاوته للقرآن، وبره لوالديه، ونحو ذلك من العمل الصالح الذي يقدمه لنفسه، يتوسل به إلى الله سبحانه أن يقضي له حاجاته، أو أن يغفر له ذنبه، كما في حديث الثلاثة الذين آواهم الغار، وتوسلوا إلى الله تعالى بأعمالهم الصالحة، فكشف الله عنهم الغمة.

هذان النوعان من التوسل، لا جدال في جوازهما، ولا شبهة عند أحد فيهما، فلا ينبغي للمسلم أن يفعل ما فيه شبهة، ويترك ما هو متفق عليه.

والتوسل بالنبي ﷺ: في حياته مشروع كما في قوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ جَاءُوكَ فَاسْتَغْفَرُوا اللَّهَ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ لَوَجَدُوا اللَّهَ تَوَّابًا رَحِيمًا﴾ [النساء: ٦٤]

أما التوسل به بعد مماته فهو محل خلاف، وفيه كلام لأهل العلم، فإذا كان التوسل بالنبي ﷺ بعد مماته موضع خلاف، فما بالكم بغيره من الأولياء والصالحين؟

وطلب المسلم من أخيه المسلم أن يدعو له بظهر الغيب، ليس من باب التوسل، وهو أمر مشروع، ولا علاقة له بالتوسل الممنوع.

والآية تشير إلى أن رسل الله وأنبياءه، ممن فضّل الله بعضهم على بعض، هم الذين إن دعوا ربهم يستجيب لهم، ويكشف الضر عنهم، وليسوا كالذين يدعوه المشركون من الأحياء أو الأموات بلفظ الاستغاثة، أو الاستعانة، أو المدد، أو الدعاء؛ فإنهم لا يملكون كشف الضر عنكم بأنفسهم، ولا بشفاعتهم عند الله تعالى.

وأنبأ الله ورسله، وملائكته، والصالحون من عباده، يتنافسون في القرب من الله تعالى بما يقدرون عليه من الأعمال الصالحة، وهم يأملون رحمة الله، ويخافون عذابه، ومع قربهم من الله تعالى فإنهم لا يزدادون إلا إجلالاً له، وخوفاً من غضبه؛ فعذاب الله تعالى شديد يجب على العباد أن يحذروه، ويخافوه.

عِقَابُ الْأُمَمِ الْمُكَذِّبَةِ لِرُسُلِ اللَّهِ تَعَالَى

٥٨- ﴿وَإِنْ مِنْ قَرْيَةٍ إِلَّا نَحْنُ مُهْلِكُوهَا قَبْلَ يَوْمِ أَلْفِكَمَةٍ أَوْ مَعِزُّوَهَا عَذَابًا شَدِيدًا كَانَ ذَلِكَ فِي الْكِتَابِ مَسْطُورًا ﴿٥٨﴾﴾

أي وما من قرية من القرى المكذبة لرسل الله، إلا ولا بد أن يصيبها الله بهلاك قبل يوم القيامة، أو عذاب شديد، وهذا اقضاء مبرم لا بد من وقوعه، فليبادر المكذبون بالإنبابة إلى الله والرجوع إليه.

ولما حُتِمَت الآية السابقة بقوله تعالى: ﴿إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورًا﴾ وكان في هذا تهديد لمكذبي الرسل، فقد بيّن سبحانه في هذه الآية أنه ما من قرية ظالمة كافرة بالله ورسله إلا ستنزل بها عقاب الله بالهلاك في الدنيا قبل يوم القيامة، وذلك يكون بالموت والفناء، أو بالقحط والجذب، أو بالخسف والغرق، أو بالفتن والحروب، أو بالوباء والبلاء، أو بالذل والأسر، أو بالخراب والدمار، أو باستئصال شأفتها وقطع دابرها، وهذا أمر مُسَطَّر في اللوح المحفوظ، كتبه ربنا، وقضاه وأبرمه، فلا بد من وقوعه؛ وذلك بسبب ذنوبهم

وخطاياهم، كما قال تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَىٰ وَهِيَ ظَالِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ﴾ [هود].

والمراد بالقرية في الآية: كل قرية أو مدينة كفرت بالله، وكذبت رسل الله في أي زمان، وفي أي مكان، وهذا ما تنطق به الآيات الأخرى، كقوله تعالى:

١- وقوله- ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ الْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلِهَا مُصْلِحُونَ﴾ [هود].

٢- وقوله: ﴿ذَلِكَ أَنْ لَّمْ يَكُنْ رَبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلِهَا غَافِلُونَ﴾ [الأنعام].

٣- وقوله: ﴿وَمَا كُنَّا مُهْلِكِي الْقُرَىٰ إِلَّا وَأَهْلُهَا ظَالِمُونَ﴾ [القصص: ٥٩].

٤- وقوله: ﴿وَكَأَيِّنْ مِنْ قَرْيَةٍ أَمَلَتْ لَهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ ثُمَّ أَخَذْتُهَا وَإِلَى الْمَصِيرِ﴾ [الحج: ٤٨].

٥- وقوله: ﴿فَكَأَيِّنْ مِنْ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ فِيهَا خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا وَيَبْنَؤُ مِعْطَلَةٌ وَقَصْرٍ مَشِيدٍ﴾ [الحج: ٤٥].

٦- وقوله: ﴿وَكَأَيِّنْ مِنْ قَرْيَةٍ عَنَتْ عَنْ أَمْرِ رَبِّهَا وَرُسُلِهِ فَحَاسَبْنَاهَا حِسَابًا شَدِيدًا وَعَذَّبْنَاهَا عَذَابًا نُكَرًا﴾ [الطلاق: ٩].

٧- وقوله: ﴿وَكَأَيِّنْ مِنْ قَرْيَةٍ هِيَ أَشَدُّ قُوَّةً مِنْ قَرْيِكَ الَّتِي أَخْرَجْنَاكَ أَهْلَكْنَاهُمْ فَلَا نَاصِرَ لَهُمْ﴾ [محمد: ١٣].

وقوله تعالى: ﴿قَبْلَ يَوْمِ الْقِيَامَةِ﴾ تحدد أن هذا الاستئصال، أو العذاب يكون في الدنيا، وهذا يخص الأمم المكذبة لرسول الله، أما هلاك يوم القيامة، لانتهاء عمر الدنيا، فهو هلاك عام، يشمل المؤمنين والكفار، ويشمل الخلق جميعاً وفق سنة الله تعالى في فناء كل حادث، فقد اقتضت حكمة الله سبحانه أن تقوم الساعة، وما على وجه - هذه الأرض - أحد من الأحياء.

فيموت الخلق جميعاً، وتفتنى الأمم والحضارات، بما في ذلك أهل المدن الكبرى، أو القرى الصغرى؛ حيث تقوم الساعة وما على وجه الأرض أحد من الأحياء، وتكون الأمم الكافرة السابقة، قد أهلكها الله في الدنيا بالاستئصال، وعذبها عذاباً شديداً، كما حدث لقوم: نوح، وقوم هود، وقوم صالح، وقوم لوط، وقوم شعيب، الذين كذبوا رسل الله؛ فأبادهم الله سبحانه واستأصلهم؛ بسبب تكذيبهم لأنبياء الله.

فما من قرية من هذه القرى الظالمة إلا أهلكها الله وأبادها قبل قيام الساعة .
﴿كَانَ ذَلِكَ فِي الْكِتَابِ مَسْطُورًا﴾ أي: أمرًا محكمًا ومقدرًا وثابتًا في علم الله سبحانه .
ومعلوم أن عذاب الاستئصال قد رفعه الله تعالى عن الأمم التي أنزل الله فيها كتبًا على السنة رسله ، فهو خاص بالأمم التي كانت قبل أهل الكتاب .
قال تعالى : ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ مِنْ بَعْدِ مَا أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ الْأُولَى﴾ [القصص: ٤٣] .
وقال سبحانه : ﴿وَمَا كَانَتْ أَلَلَّةٌ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ وَمَا كَانَتْ أَلَلَّةٌ مُعَذِّبُهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾ [الأنفال: ٣٣] .

خَوَارِقُ الْعَادَاتِ لَا تَنْفَعُ طَالِبِيهَا

٥٩- ﴿وَمَا مَنَعَنَا أَنْ نُرْسِلَ بِالْآيَاتِ إِلَّا أَنْ كَذَبَ بِهَا الْأَوَّلُونَ وَءَايِنَا ثُمُودَ النَّاقَةَ مُبْصِرَةً فَظَلَمُوا بِهَا وَمَا نُرْسِلُ بِالْآيَاتِ إِلَّا تَخْوِيفًا﴾

ثم بيّن سبحانه أنه أمهل المتمردين على الإسلام من هذه الأمة إلى يوم القيامة، ولم يجبههم إلى ما طلبوا من الآيات، وكانت الأقوام من سائر الأمم -قبل أمة محمد ﷺ- يطلبون من رسلهم آيات مادية: كالعصا، والناقة، وإحياء الموتى؛ لتكون علامة لهم على صدق الرسل، فيؤيد الله رسله بهذه الآيات، ثم يكذبون بها، فتكون النتيجة أن الله سبحانه يهلكهم؛ لأنه لا لعب، ولا سخرية، ولا استهزاء مع الله سبحانه، ومن رحمة الله بهذه الأمة ألا يجيبهم إلى إنزال الآيات التي اقترحوها، خوفًا من تكذيبهم لها، فإن كذبوها عاجلهم الله بالعقوبة.

كذلك الشأن في أهل مكة، سألوا رسول الله ﷺ أن يجعل لهم جبل الصفا ذهبًا، وأن يزيل جبال مكة عن أماكنها؛ كي تتسع الأرض للزراعة، فأوحى الله سبحانه إلى رسوله ﷺ: إن شاء أجاب مطلبهم، فيجعل الجبل ذهبًا، ويُنحِّي هذه الجبال عن أماكنها، ولكنهم إذا لم يؤمنوا فإن عذاب الله نازل بهم كغيرهم، وإن شاء أمهلهم؛ فإنه يُرجى منهم ومن ذرياتهم الإيمان.

قال ابن عباس ؓ: سأل أهل مكة رسول الله ﷺ أن يجعل لهم الصفا ذهبًا، وأن

يُنَحِّي عَنْهُمْ الْجِبَالَ فَيُزْدِرِعُوا، قَالَ اللَّهُ ﷻ: «إِنْ شِئْتَ أَتَيْنَاهُمْ مَا سَأَلُوا، فَإِنْ كَفَرُوا أَهْلَكُوا كَمَا أَهْلَكَ مَنْ قَبْلَهُمْ، وَإِنْ شِئْتَ نَسْتَأْذِنُ بِهِمْ، لَعَلْنَا نَتَّبِعُ مِنْهُمْ» فقال: «بل أَسْتَأْذِنُ بِهِمْ» فَأَنْزَلَ اللَّهُ هَذِهِ الْآيَةَ^(١).

وقال ابن عباس أيضًا: قالت قريش للنبي ﷺ: ادع لنا ربك أن يجعل لنا الصفا ذهبًا ونؤمن لك، قال: «وتفعلون؟» قالوا: نعم، فدعاه، فأتاه جبريل فقال: إن ربك يقرأ عليك السلام، ويقول لك: إن شِئْتَ أَصْبَحَ الصِّفَا لَهُمْ ذَهَبًا، فَمَنْ كَفَرَ مِنْهُمْ بَعْدَ ذَلِكَ أَعَذِبَهُ عَذَابًا لَا أَعَذِبُهُ أَحَدًا مِنَ الْعَالَمِينَ، وَإِنْ شِئْتَ فَتَحْتُ لَهُمْ بَابَ التَّوْبَةِ وَالرَّحْمَةِ، قَالَ: «بل بَابُ التَّوْبَةِ وَالرَّحْمَةِ»^(٢).

قال تعالى: ﴿وَمَا مَنَعَنَا أَنْ نُرْسِلَ بِالْآيَاتِ﴾ أي: المعجزات الحسية ﴿إِلَّا﴾ بسبب ﴿أَنْ كَذَّبَ بِهَا الْأَوَّلُونَ﴾ من الأمم السابقة، والآيات التي يطلبونها هي الخوارق.

ومعجزة محمد ﷺ هي القرآن؛ لأن رسالة محمد ﷺ باقية إلى يوم الساعة، ومعجزة الرسالة المستمرة، ينبغي أن تكون باقية بين أيديهم إلى نهاية العالم، معجزة عامة ودائمة، كعموم الرسالة ودوامها.

أما الرسائل السابقة، فكانت محدودة بزمان ومكان، يناسبها المعجزات المادية التي يراها جيل من الأجيال، أو يراها أهل زمن من الأزمان، أو أهل مكان من الأماكن، ثم تذهب هذه المعجزة، ولا يطلع عليها الآخرون، أما القرآن فهو بين أيدينا إلى قيام الساعة.

ثم ضرب الله مثلًا على هذه الآيات الحسية، فقال: ﴿وَأَيْنَا نَعْمُودُ النَّاقَةَ مُبْصِرَةً﴾ أي: آية واضحة دالة على صدق نبيهم صالح عليه السلام حين طلبوا ذلك منه ﴿فَطَلَمُوا بِهَا﴾ أي: عقروا الناقة فعاقبهم الله تعالى كما قال: ﴿فَعْتَوْا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْغَةُ وَهُمْ لَا يَنْظُرُونَ﴾^(٣) فَمَا اسْتَطَاعُوا مِنْ قِيَامٍ وَمَا كَانُوا مُنْصِرِينَ^(٤) [الذاريات].

- (١) «سنن النسائي الكبرى» (١١٢٢٦) والبخاري (٢٢٢٥) في «الزوائد» والحاكم (٣٦٢/٢) و«المسند» (٢٣٣٣) وإسناده صحيح على شرط الشيخين، وأخرجه أيضًا الطبراني في «الكبير» (١٢٧٣٦) والبيهقي في «دلائل النبوة» (٢٧١/٢) والضياء المقدسي في «المختارة» (٧٨/١٠) والطبري (٦٣٥/١٤).
- (٢) «المسند» (٢١٦٦) والبيهقي في «الدلائل» (٢٧٢/٢) قال محققو «المسند»: إسناده صحيح على شرط مسلم، وأخرجه عبد بن حميد (٧٠٠) والطبراني (١٢٧٣٦).

قال سبحانه: ﴿وَمَا تُرْسِلُ بِالْآيَاتِ إِلَّا تَخْوِيفًا﴾ يخوف الله بها المكذبين بآيات الله، والمكذبين لرسل الله، يخوفهم من نزول العذاب بهم؛ حتى ينزجروا، ويدخلوا في حظيرة الإيمان، وليست هذه الآيات لحصول الإيمان، أو تصديق الرسل، بل هي للتخويف والترهيب.

وخص الله تعالى بالذكر ناقة صالح عليه السلام؛ لأنها مشهورة عند العرب، وهي من أعظم الآيات الحسبة، وأثار هلاك قوم ثمود في بلاد العرب يمرون عليها في أسفارهم بين المدينة والشام، وهي معجزة واضحة الدلالة تفيد اليقين، وتجعل من يراها ذا بصيرة، كما قال تعالى عن فرعون وقومه: ﴿فَلَمَّا جَاءَتْهُمْ ءَايَتُنَا مُبْصِرَةً قَالُوا هَذَا سِحْرٌ مُبِينٌ﴾ [النمل].

والمعنى: وما كان سبب تركنا لإجابة المقترحات التي طلبها المشركون منك -يا محمد- إلا لعلمنا بأنهم سيكذبون بهذه المقترحات إذا جاءتهم، كما كذب بها من سبقهم من الأمم، فقد أجاب الله قوم صالح لما طلبوا الناقة فأيده الله بها، ولكنهم لم يؤمنوا، فأخذهم عذاب الاستئصال.

وما إرسال الرسل بالمعجزات والعبر والآيات، إلا تخويفاً للعباد؛ ليعتبروا، ويتعظوا. ولو أجاب الله كفار قريش لما طلبوه من النبي ﷺ لكذبوه، وقالوا: هذا سحر مبين، واستوجبوا بذلك عذاب الاستئصال، وقد أراد الله تعالى أن يمهل المكذبين من هذه الأمة إلى يوم القيامة، وأخبر سبحانه أنه لا جدوى من تلبية ما يطلبون، فهي لا تنشيء إيماناً، ولا تهدى ضالاً: ﴿إِنَّ الَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ ۖ وَلَوْ جَاءَتْهُمْ كُلُّ آيَةٍ حَتَّى يَرَوْا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ﴾ [يونس].

﴿وَنُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ وَأَبْصَارَهُمْ كَمَا لَوْ يُؤْمِنُوا بِهِ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَنَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ ﴿١١٢﴾ ﴿وَلَوْ أَنَّا نَزَّلْنَا إِلَيْهِمُ الْمَائِكَةَ وَكَلَّمَهُمُ الْتَوَقُّ وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَيْءٍ قُبُلًا مَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ وَلَكِنْ أَكْثَرُهُمْ يَجْهَلُونَ﴾ [الأنعام].

وهذه الآية وأشباهها تثبت لفؤاد المؤمنين؛ لئلا يفتنهم الشيطان كما فتن غيرهم، وفيها تسلية للنبي ﷺ لحرصه على إيمان قومه.

إِحَاطَةُ عِلْمِ اللَّهِ تَعَالَى بِمَنْ يُؤْمِنُ وَمَنْ يَكْفُرُ

٦٠- ﴿وَإِذْ قُلْنَا لَكَ إِنَّ رَبَّكَ أَحَاطَ بِالنَّاسِ وَمَا جَعَلْنَا الرُّيَا^(١) الَّتِي آتَيْنَاكَ إِلَّا فِتْنَةً لِلنَّاسِ وَالشَّجَرَةَ الْمَلْعُونَةَ فِي الْقُرْآنِ وَنُخَوِّفُهُمْ فَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا طُغْيَانًا كَبِيرًا ﴿٦٠﴾﴾

وفي هذه الآية يبين الله ﷻ أن علمه محيط بجميع خلقه، محيط بأولهم وآخرهم، ومن هذه الإحاطة: حفظه ﷻ، ومنعه من الكفار أن يقتلوه، أو يناله منهم مكروه، فقد عصمه الله منهم؛ كي يبلغ دعوة ربه.

قال الحسن: أحاط بالناس: عصمك من الناس، وقد علم ﷻ أن المكذبين من أمة محمد ﷺ لن يؤمنوا به، ولا برسائله مهما أتاها من الآيات، أو الخوارق، والمعجزات، فيطمئن الله سبحانه رسوله ﷺ، ويقول له: امض في طريق الدعوة، فنحن ناصرك، ونحن عاصموك من أن يقتلوك، أو تمتد أيديهم إليك بأذى حتى تبلغ رسالة ربك، ولا تهتم بمن كفر منهم، ولا تحزن عليهم؛ فإن الله تعالى محيط بهم ومالك أمرهم، وهم في قبضة الله تعالى، فاذكر - أيها النبي - يوم أوحى الله إليك، بأنه أحاط بالناس علما وقدره، فليس لهم ملجأ إلا الله، وليس لهم ملاذًا يلوذون به إلا الله.

ثم ذكرت الآية أمران افتتن بهما الناس وكثر شرهما، وهما:

- ١- ما أطلع الله عليه رسوله ليلة المعراج، من عجائب المخلوقات، ليظهر المصدق من المكذب.
- ٢- وما ذكره الله في القرآن عن شجرة الزقوم الملعونة في كتاب الله، امتحاناً للعباد وتخويفاً للكفار، ومع ذلك فلا يزيدهم هذا التخويف إلا إمعاناً في الكفر والعصيان، وهذا من إحاطة علم الله تعالى بشؤون خلقه، وتحت تصرفه.

رؤيا الرسول ﷺ ليلة المعراج:

وقد بين الله ﷻ في هذه الآية أن الرؤيا التي أريها رسول الله ﷺ في ليلة الإسراء والمعراج - حيث رأى من آيات ربه الكبرى - هي رؤيا عين.

(١) أبدل همزة (الرؤيا) واوًا أبو عمرو بخلف عنه، وقرأ أبو جعفر بياء مشددة بعد الراء هكذا (الرُّيَا) والباقيون بهمزة ساكنة، ووقف حمزة كالسوسي وأبي جعفر.

كما جاء في صحيح البخاري وغيره: عن ابن عباس رضي الله عنه قال: هي رؤية عين رآها رسول الله ﷺ ليلة أسري به ^(١) من الرؤية البصرية، وليست من رؤيا المنام، أي: أن ما أطلع الله عليه رسوله، وأراه إياه، من عجائب المُلْك والملكوت، ومن الجنة والنار في ليلة المعراج، وما رآه النبي ﷺ حال الإسراء من مكة إلى بيت المقدس، كانت كلها رؤية عين بصرية، وكان إسراءً ومعراجاً لرسول الله ﷺ بجسمه وروحه، يقظة لا مناماً، وأن هذه الرؤية كانت بلاء وفتنة للناس، واختباراً لهم؛ لتمييز الكافر من المؤمن، فمنهم من آمن وصدق، وازداد إيمانه وثبت يقينه، ومنهم من كفر وارتد وكذب، وازداد الكافرون كفرًا، ومنهم من ضعف إيمانه وارتاب.

فقال الوليد بن المغيرة: هذا ساحر ^(٢).

قال قتادة: أرى الله رسوله من الآيات والعبر في مسيره إلى بيت المقدس، وذَكَرَ لنا أن ناسًا ارتدوا بعد إسلامهم، بعد أن حَدَّثَهُمْ رسول الله ﷺ بمسيره، أنكروا ذلك وكذبوا به، وعجبوا منه، وقالوا: تحدثنا أنك سِرْتَ شهرين في ليلة واحدة ^(٣).

وقال الحسن: لَمَّا أُسْري برسول الله ﷺ أصبح يحدث بذلك فكذب به أناس، فأنزل الله فيمن ارتد ﴿وَمَا جَعَلْنَا أَرْثِيَكَ إِلَّا فِتْنَةً لِلنَّاسِ﴾ ^(٤).

وكان النبي ﷺ قد أخبر أنه رأى الجنة والنار، ورأى نعيم أهل الجنة وعذاب أهل النار، ورأى شجرة الزقوم طعام الكافرين المكذبين في النار، والعياذ بالله.

وقيل: إن المراد بالرؤيا في الآية: رؤيا رسول الله ﷺ أنه يدخل مكة، فافتتن بعض من أسلموا لَمَّا صُدَّ عنها، فلما كان العام المقبل دخلها، ومن ذلك أن النبي ﷺ رأى في

(١) «صحيح البخاري» برقم (٣٨٨٨، ٤٧١٦) وقال ابن حجر في «الفتح» (٣٠٢/٨) زاد سعيد بن منصور عن سفيان في آخر الحديث (وليست رؤيا منام) قلت: وقد جاء هذا في رواية عبد الرزاق (٣٨٠/١) وغيره، وقال الطبري في التفسير (١١٣/١٥): عُني به رؤيا رسول الله، ما رأى من الآيات والعبر في طريقه إلى بيت المقدس ليلة أسرى به، ونقل الإجماع على هذا المعنى.

(٢) ابن سعد (٢١٣/١).

(٣) الطبري (٦٤٣/١٤).

(٤) «سيرة ابن هشام» (٣٩٩/١) والطبري (٦٤٢/١٤).

منامه مصارع كفار قريش في غزوة بدر، فقيل له: هذا مصرع فلان، وهذا مصرع فلان، فتحققت رؤيا النبي ﷺ.

والراجع من ذلك هو ما يتعلق بالإسراء والمعراج فهو المناسب لموضوع السورة وجوها، ولأن الإسراء كان في مكة، والسورة مكية.

الشجرة الملعونة: ولما ذكر ﷺ شجرة الزقوم كان في ذلك أيضًا فتنة وابتلاء للناس، فمنهم من آمن وصدق، ومنهم من كذب وجحد.

ومنهم أبو جهل قال حين سمع ذلك: إن محمدًا يتوعدكم بنار تحرق الحجارة، ويزعم أن في النار شجرة نابتة، وكيف تنبت الشجرة في النار، والنار تأكل الشجر؟ ثم ما الزقوم الذي يخوفكم به محمد ﷺ؟ قال أحد المشركين، وهو عبد الله بن الزبيري: إنه التمر بالزبد، بلغة أهل اليمن، قال أبو جهل: ائت لنا يا جارية، بتمر وزبد نتزقم، ونأكل مما يعدنا به محمد ﷺ، فأتت لهم بتمر وزبد، وأخذ أبو جهل يقول لمن حوله: تزقموا، وكلوا من هذا الذي يخوفكم به محمد^(١).

وشجرة الزقوم ليست ملعونة في ذاتها، وإنما الملعون من يأكل منها، فقد لعنت شجرة الزقوم، ولعن الكفار الذين يأكلونها، على أن اللعن: هو الطرد والإبعاد من رحمة الله تعالى، وقد جعلت شجرة الزقوم في أبعد مكان من الرحمة، وهو أصل جهنم وقعرها، وهذا معنى ﴿وَالشَّجَرَةُ الْمَلْعُونَةُ﴾ أي: المذمومة ﴿فِي الْقُرْآنِ﴾.

صحَّ عن قتادة في قوله تعالى: ﴿وَالشَّجَرَةُ الْمَلْعُونَةُ فِي الْقُرْآنِ﴾ قال: الزقوم، قال: وذلك أن المشركين قالوا: يخبرنا محمد أن في النار شجرة، والنار تأكل الشجر، ولا تدع منه شيئًا، فذلك فتنة لهم، ولما سمع الكفار عن هذه الشجرة قالوا: ظهر كذب محمد؛ لأن الشجر لا ينبت في الأرض اليابسة، فكيف ينبت في أصل النار؟! فكان ذلك فتنة للظالمين.

وفي حديث ابن عباس ؓ أن النبي ﷺ قال: «لو أن قطرة من الزقوم قطرت في دار

(١) يُنظر: «سيرة ابن هشام» (٣٦٢/١) والبيهقي (٥٩٨) والطبري (٦٤٨/١٤) عن ابن عباس.

الدنيا لأفسدت على أهل الدنيا معاشهم، فكيف بمن يكون طعامه؟!»^(١).

وقد جاء وصفها في قوله تعالى: ﴿أَذَلَّكَ خَيْرٌ نَزْلًا أَمْ شَجَرَةُ الزَّقُّومِ﴾ (٦٢) إِنَّا جَعَلْنَاهَا فِتْنَةً لِلظَّالِمِينَ (٦٣) إِنَّهَا شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِي أَصْلِ الْجَحِيمِ (٦٤) [الصافات]

أي: أنها تنبت في قعر جهنم، قال الله سبحانه ذلك تنفيرًا، وتخويفًا للمكذبين من الأمة.

ثم وصفها ربنا بقوله: ﴿طَلَعَهَا كَأَنَّهٗ زُؤُوسٌ الشَّيْطَانِ﴾ (٦٥) فَإِنَّهُمْ (٦٥) أي: أهل النار ﴿لَا يَكُونُونَ مِنْهَا فَمَالُونَ مِنْهَا الْبُطُونَ﴾ [الصافات: ٦٥، ٦٦] فلا يأكلون مجرد أكل أو تذوق، إنما يملؤون بطونهم منها، ثم إذا امتلأت البطون وصارت ملتعبة، فإنهم يريدون أن يطفئوا هذا اللهب فيغاثون ﴿بِمَاءٍ كَالْمُهْلِ يَشْوِي الْوُجُوهَ﴾ [الكهف: ٢٩].

قال تعالى: ﴿ثُمَّ إِنَّكُمْ أَنْتَ الْبَاطِلُونَ الْمَكْذُوبُونَ﴾ (٥١) لَا يَكُونُ مِنْ شَجَرٍ مِّنْ زَقُّومٍ (٥٢) فَمَالُونَ مِنْهَا الْبُطُونَ (٥٣) فَشَرِبُوا مِنْهُ (٥٤) فَشَرِبُوا شَرَبَ الْمُهْلِ (٥٥) [الواقعة] أي: شرب الإبل، وهي عطشى حين ترد الماء، يقول سبحانه: ﴿هَذَا نُزْلُكُمْ يَوْمَ الدِّينِ﴾ (٥٦) [الواقعة].

وبيّن الله جلّ شأنه وصف شجرة الزقوم أيضًا في قوله: ﴿إِنَّ شَجَرَةَ الزَّقُّومِ﴾ (٤٣) طَعَامُ الْأَثِيمِ (٤٤) أي الظالم الكافر ﴿كَالْمُهْلِ يَغْلِي فِي الْبُطُونِ﴾ (٤٥) كَغَلَى الْحَمِيمِ (٤٦) حَذُوهُ فَأَعْيَلُوهُ (٤٧) أدخلوه ﴿إِلَى سَوَاءِ الْجَحِيمِ﴾ أي إلى وسط النار ﴿ثُمَّ صُبُّوا فَوْقَ رَأْسِهِ مِنْ عَذَابِ الْحَمِيمِ﴾ (٤٨) يقال له تذوق عذاب أهل النار، فقد كنت في الدنيا معززا مكرّما في قومك، صاحب منزلة عالية ﴿إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ﴾ [الدخان ٤٣-٤٩] يقال له هذا تهكمًا به، وبمصيره الأخروي يوم لقاء رب العالمين.

والله سبحانه يخوف عباده بشجرة الزقوم، ويخوفهم بأنواع العذاب والآيات، ولكن هذا التخويف لا يزيد الطغاة والمتكبرين إلا طغيانًا أكبر ﴿وَنُخَوِّفُهُمْ فَمَا يَزِيدُهُمْ﴾ هذا التخويف إلا علوًا واستكبارًا ﴿إِلَّا طُغْيَانًا كَبِيرًا﴾.

(١) قال الترمذي: حديث حسن صحيح، «السنن» برقم (٢٥٨٥) وابن ماجه برقم (٤٣٢٥) وصححه ابن حبان برقم (٧٤٧٠) الإحسان، وصححه الحاكم ووافقه الذهبي، «المستدرک» (٢/ ٢٩٤). وهو في مسند أحمد (٢٧٣٥، ٣١٣٦) بإسناد صحيح على شرط الشيخين، (محققه) وعند الطيالسي (٢٦٤٣) والطبراني (١١٠٦٨) والبغوي في شرح السنة (٤٤٠٨).

ومما خَوَّفَ الله به المشركين وقت نزول هذه الآيات: القحط، والجذب، والجوع الذي أصاب أهل مكة حتى رأوا الدخان بين السماء والأرض، وسألوا الله أن يكشف عنهم فقالوا: ﴿رَبَّنَا اكْشِفْ عَنَّا الْعَذَابَ إِنَّا مُؤْمِنُونَ﴾ [الدخان].
قال تعالى: ﴿إِنَّا كَاشِفُو الْعَذَابِ قَلِيلًا إِنَّكُمْ عَائِدُونَ﴾ [الدخان].

تَكْبُرُ الشَّيْطَانِ وَتَصَدِّيهِ لِإِغْوَاءِ بَنِي آدَمَ

٦١- ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ^(١) اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ قَالَ مَا أَسْجُدُ^(٢) لِمَنْ خَلَقْتَ طِينًا﴾
ثم ما السبب في هذا الطغيان من الكافر؟ وما السبب في هذا الضلال؟ السبب: هو الكبر، والعناد، والحسد، الذي عانى منه الأنبياء قبلك يا محمد، من لدن آدم عليه السلام.
فمعصية الكبر والحسد وقعتا أولاً من إبليس حين حسد آدم الذي فضله الله عليه وأمره بالسجود له، وجاء ذكر هذه القصة مفصلة في سور: (البقرة، والأعراف، والحجر، و ص)، وأشار إليها هنا في سورة (الإسراء)، وفي سورة (الكهف).
والله سبحانه يبيِّن سبب الغواية، وسبب استيلاء الشيطان على الكافر المتمرد على ربه سبحانه في قوله: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا﴾ سجود تحية وتكريم، فسجد الملائكة كلهم إلا إبليس فقد أبى، وامتنع.

وقد خوطب إبليس مع الملائكة؛ لأنه كان يقيم معهم، فوجَّه الأمر والخطاب إليهم جميعاً ﴿إِلَّا إِبْلِيسَ﴾ فقد عقد مفاضلة بينه وبين العنصر الذي خُلق منه آدم ﴿قَالَ﴾ على سبيل الاستنكار والاستكبار: أأسجد لهذا المخلوق الضعيف الذي خلَقته من طين؟! ﴿مَا أَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِينًا﴾؟ وقد خلقتني من النار، والنار أفضل من الطين في زعمه ﴿قَالَ﴾

(١) قرأ أبو جعفر بخلف عن ابن وردان بضم التاء من (للملائكة اسجدوا) وصلًا، وقرأ ابن وردان في وجهه الثاني بإشمام كسرتها للضم، والباقون بكسر التاء، والجميع يسكنها عند الوقف.
(٢) قرأ قالون وأبو عمرو وأبو جعفر وابن ذكوان بخلف عنه بتسهيل الهمزة الثانية من (أأسجد) مع إدخال ألف بينهما، وقرأ ورش وابن كثير ورويس بالتسهيل وعدم الإدخال، ويبدل ورش الهمزة الثانية حرف مد مع الإشباع، ولهشام التسهيل والتحقيق مع الإدخال، والباقون بالتحقيق وعدم الإدخال.

أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقَنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ ﴿٧٦﴾ [ص: ٧٦].

وهذا قياس باطل، ولما تبين لإبليس تفضيل الله لآدم، توعد ذريته بالغواية والإضلال:

٦٢- ﴿قَالَ أَرَأَيْتَكَ^(١) هَذَا الَّذِي كَرَّمْتَ عَلَيَّ لِنِ أَخَرْتَنِي^(٢) إِلَى يَوْمِ الْفَلِئَةِ لَأَخْنِكَ ذُرِّيَّتَهُ إِلَّا قَلِيلًا﴾

فصل، سبحانه، ما قاله إبليس في اعتراضه على السجود لآدم ﴿قَالَ﴾ إبليس مخاطباً ربه ﴿أَرَأَيْتَكَ﴾ أخبرني عن هذا الذي كرمته، وفضلته، وميزته عليّ وأنا خير منه، ثم أقسم وأخذ على نفسه عهداً، وقال: لئن أمهلتنّي، وأخرت أجلي، ولم تقبض روعي إلى يوم القيامة لأضلنّ ذريته، ولأغوينهم، وهذا معنى ﴿لَأَخْنِكَ﴾ أي: لأستأصلنّ، وأستولينّ على ذريته فأجلبهم، وأغوينهم، وأفسدهم، وكان إبليس قد سأل ربه النظرة إلى يوم البعث؛ ليستمر في إغواء بني آدم، فأنظره الله إلى وقت انتهاء أعمار الخلائق، وفناء العالم.

وأصل الاحتناك: وضع اللجام في حنك الفرس؛ ليشده الراكب، ويجلبه إليه، ويسيره حسبما أراد.

وخص الذرية بالذكر، إشارة إلى امتداد الإغواء واستمراره من إبليس لذرية آدم من بعده، في احتوائهم، وملك زمامهم، والتأثير عليهم، إلا القلة المخلصة من عبادك الذين لا سبيل لي عليهم؛ بسبب قوة إيمانهم، وقوة إخلاصهم لله سبحانه، وتحصنهم صباح مساء من الشيطان ومن كيده.

وهذا كقوله تعالى: ﴿قَالَ فِعْرَنُكَ لَأَغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٨٧﴾ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ ﴿٨٨﴾﴾ [ص: ٨٨].

وجاء تهديد إبليس وتوعدّه بالاستيلاء على ذرية آدم، وإغوائهم بالمعاصي والشهوات في آيات كثيرة، منها قوله تعالى على لسان إبليس:

﴿ثُمَّ لَآتِيَنَّهُمْ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَنْ شَمَائِلِهِمْ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ ﴿٧٧﴾﴾ [الأعراف: ٧٧].

وقد تحقق ظن إبليس في كثير من بني آدم، كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ صَدَقَ عَلَيْنِمُ إِبْلِيسُ ظَنَّهُ فَاتَّبَعُوهُ إِلَّا فَرِيقًا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٧٠﴾﴾ [سبأ: ٧٠]. قال تعالى في الرد على إبليس:

(١) قرأ نافع وأبو جعفر بتسهيل الهمزة الثانية بَيْنَ بَيْنَ من (أرأيتك)، ولورش إبدالها ألفاً مع المد المشبع وسهّلها حمزة وفقاً وقرأ الكسائي بحذف الهمزة هكذا (أريتك) وأثبتها الآخرون محققة.

(٢) قرأ نافع وأبو عمرو وأبو جعفر بإثبات الياء وصلّاً من (أخرتن) وقرأ ابن كثير ويعقوب بإثباتها وصلّاً ووفقاً، والباقون بحذفها في الحالين، ومن يثبت الياء يسكنها.

٦٣- ﴿قَالَ أَذْهَبَ فَمَنْ يَتَّبِعَكَ مِنْهُمْ فَإِنَّ جَهَنَّمَ جَزَاءُكُمْ جَزَاءً مَوْفُورًا﴾ ﴿١٣﴾

﴿قَالَ﴾ سبحانه مهذبًا إبليس وأتباعه ﴿أَذْهَبَ﴾ أي: امض في الطريق الذي اخترته لنفسك ﴿فَمَنْ يَتَّبِعَكَ مِنْهُمْ﴾ أي: فإن من أطاعك واتبعك من ذرية آدم، فإن عقابك، أنت وهو، عقاب وافر في نار جهنم، تُجْزَوْنَ فيها جزاء كاملاً وافياً لا ينقص منه شيء، والنار فيها العقاب الكامل للعصاة المذنبين، والطغاة المتجبرين، الخارجين على أمر رب العالمين، فقد أذنت لك في إغوائهم بعد أن زودتهم بالعقل والإرادة، وبيّنت لهم الخير والشر، وهم يملكون أن يتبعوك، أو يُعرضوا عنك، فمن غلب منهم جانب الغواية على جانب الهداية، وآثر نداء الشيطان على نداء الرحمن، فهو أهل للعقوبة، ومن غلب نداء العقل على الهوى فهو من عبادنا المخلصين.

وهذه الآية كقوله تعالى: ﴿قَالَ فَالْحَقُّ وَالْحَقُّ أَقُولُ﴾ ﴿٨٤﴾ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنْكَ وَمِمَّنْ يَتَّبِعَكَ مِنْهُمْ أَتَمَعِينَ ﴿٨٥﴾ [ص]، وقوله: ﴿فَكُبْكِبُوا فِيهَا هُمْ وَالْغَاوُونَ﴾ ﴿٩٤﴾ وَخُودُ إِبْلِيسَ أَجْمَعُونَ ﴿٩٥﴾ [الشعراء]. ثم أمر الله إبليس أن يفعل كل ما في وسعه لإغواء بني آدم فقال:

خَمْسٌ مِنْ مَكَائِدِ الشَّيْطَانِ

٦٤- ﴿وَاسْتَفْزِرْ مِنْهُمْ بِصَوْتِكَ وَأَجْلِبْ عَلَيْهِمْ بِخِيلِكَ وَرَجِّلْ فِي الْأَثْمَالِ وَالْأَوْلَادِ وَعَدَّهُمْ وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُورًا﴾ ﴿١٤﴾

وبعد أن بين الله تعالى أن جهنم هي العقاب المعد لإبليس، ومن تبعه من بني آدم، استدرك ﷻ إبليس بمعاصي خمس، يستخدمها في طرق كيده، وجلبه للإنسان بأن يفعل ما يستطيع فعله معهم من: الاستخفاف، والخداع، والإزعاج، ولهو الحديث، وكل ما يقدر عليه من طرق ووسائل بأن يحشد لهم جنوده على اختلاف أنواعهم؛ لحربهم وإغوائهم وصدّهم عن الصراط المستقيم.

وهذه الأمور الخمسة هي: اذهب، واستفز..، وأجلب..، وشاركهم..، وعدهم.

(أ) فالذهاب، المراد به: الاستمرار والمضيّ قدماً فيما نواه الشيطان من إغواء بني

(١) قرأ حفص بكسر الجيم من (ورجلك) على أنها صفة مشبهة بمعنى: راجل ضد الراكب، وقرأ الباقر بإسكان الجيم، على أنها اسم جمع لراجل.

آدم، ممن اختاروك واتبعوك كما مرَّ في الآية السابقة.

(ب) والاستفزاز: هو الخفة، وعدم الثقل، والإزعاج، لمن يتبعه منهم بدعوته للمعصية، وإلقاء الوسوسة في أنفسهم، وإشغالهم بلهو الحديث وصوت الشيطان، ويدخل في هذا كل داع إلى المعصية.

(ج) ﴿وَأَجْلِبْ عَلَيْهِم بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ﴾ أي: اجمع عليهم كل ما تقدر عليه من جنودك من كل راكب وماشي في معصية الله، فهو من خيل الشيطان ورجله.

والجلبة: هي الصياح للنفير أو للغارة والهجوم، والدعوة إلى معصية الله بالأقوال والأفعال.

والخيل: اسم جمع للفرس، وليس له واحد من لفظه، ومنه قول النبي ﷺ: «يا خيل الله اركبي»^(١).

أي: أجلس عليهم بجندك، من خيالة ورجالة، وابدل جهدك في صرفهم عن الطاعة.

أما (الرجل): فهو المشي على قدميه، مقابل الراكب على فرسه.

والمعنى: اجمع لمن اتبعك من ذرية آدم وسائل الفتنة والوسوسة؛ لإضلالهم بتزيين المفاسد، وتحثين المعاصي.

(د) أما المشاركة في الأموال، فيكون بجمعها من حرام، أو إنفاقها في حرام، أو منع الزكاة منها، أو الإسراف بها في المباح...، ونحو ذلك، ويدخل في هذا، كل معصية تعلقت بالأموال، كمنع الحقوق الواجبة، وعدم الوفاء بالكفارات والنذور ونحوهما.

والمشاركة في الأولاد: بأن يكون للشيطان نصيب في أحوال أولادهم؛ فكل مولود عُصي الله تعالى فيه بلون من ألوان المعاصي، فإن الشيطان يكون قد شارك فيه، وفي مقدمة ذلك: الزنى بأمه، أو إجهاضه، أو قتله، أو وأده.

ومن ذلك ترك التسمية والدعاء عند الجماع، كما جاء في الصحيحين: عن ابن عباس رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال: «لو أن أحدكم إذا أراد أن يأتي أهله قال: بسم الله، اللهم جنبنا الشيطان وجنب الشيطان ما رزقتنا فإنه إن يقدر بينهما ولد في ذلك لم يضره الشيطان أبداً»^(٢).

(١) رواه ابن عائد عن قتادة مرسلًا كما في فتح الباري (٤١٣/٧).

(٢) البخاري برقم (١٤١)، ٣٢٧١، ٣٢٨٣، ٧٣٩٦، ومسلم برقم (١٤٣٤).

قيل: إن الشيطان يقعد وقت الجماع على ذكّر الرجل، فإذا لم يقل: بسم الله، أصاب معه امرأته، وأنزل في فرجها كما يُنزل الرجل.

وسأل رجل ابن عباس رضي الله عنه فقال: إن امرأتي استيقظت وفي فرجها شعلة نار، قال: ذلك من وطء الجن.

ومن ذلك ترك التسمية عند الطعام والشراب، فإن الشيطان يقول في هذه الحالة: أدركنا العشاء، فإذا دخل الإنسان بيته ولم يُسمَّ قال: أدركنا المبيت والعشاء، فإذا سَمَّ العبد في الحاليتين، قال الشيطان لمن معه: لا مبيت لكم ولا عشاء.

ومن مشاركة الشيطان في الأولاد: سوء التربية، وعدم تحصينهم من التيارات الجارفة التي تصرف الإنسان عن دينه.

جاء في الحديث القدسي: «إني خلقت عبادي حنفاء، فجاءتهم الشياطين فاجتالهم عن دينهم، وحرّمت عليهم ما أحللت لهم»^(١).

ومن ذلك الشرك بالله تعالى في تسمية الأبناء؛ كمن يسمي ولده (عبد النبي)، أو (عبد الرسول)، أو (عبد الحسن)، أو (عبد العزّي)، أو (عبد شمس)، أو (عبد الحارث)، ونحو ذلك.

ومن ذلك: تربية الأبناء من مال حرام، أو عن طريق مخالفة أوامر الله تعالى بمختلف وسائل الفسق والفجور، فكل ما عُصي الله به أو فيه، وأُطيع به الشيطان أو فيه، فهو مشاركة للشيطان في المال والولد.

ومعنى ﴿وَعَدَهُمْ﴾ أي: أعطاهم المواعيد المزيقة التي لا حقيقة لها، بحصول ما يرغبونه من الشهوات في دنياهم، ومن ذلك: أنه ليس هناك بعث، ولا حساب، ولا عقاب.

وكلّ داع يدعو إلى معصية الله، هو صوت الشيطان واستفزازه، والقرآن يصور في هذه الآية كأن هناك معركة ومبارزة بين إبليس وبين ذرية آدم، تتمثل في الأصوات المرتفعة والمنخفضة، والماشي والراكب، وأنواع المبارزة بالخيال غيره.

(١) رواه مسلم برقم (٢٨٦٥) عن عياض بن حمار.

يقول تعالى لإبليس: لقد أنظرتك فابذل جهدك فيهم، استخف من استطعت منهم بصوتك، والمراد: صوت الشيطان حين ينادي بالمعصية، وينفّر من الطاعة، وإيثار اللذة العاجلة: وهو راكب، وهو ماش، وهو بطيء، وهو سريع، استخدم الوسائل المتاحة لك في كل طريق ﴿مَنْ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَنِهِمْ وَعَنْ شَمَائِلِهِمْ﴾ [الأعراف: ١٧] وفي كل اتجاه، وكل خطوة يخطوها الإنسان إلى المعصية سواء أكان راكباً أم ماشياً فهي خيل الشيطان وطريقه، وهذا معنى ﴿وَأَجَلَبَ عَلَيْهِمْ بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ﴾.

قال بعض أهل العلم: إن صوت الشيطان المراد في الآية: هو الغناء، والمزمار، والموسيقى.

قال مجاهد: استنزّل من استطعت منهم بالغناء، والمزامير، واللّهو الباطل^(١) والشيطان يعد الإنسان، ويمنيه بالباطل؛ فهو يعدهم أنه لا جنة، ولا نار، ويمنيهم باللذة العاجلة المؤقتة التي تصحب المعصية في الدنيا ﴿وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُورًا﴾ فيجعلهم يفضلون الدنيا، ويؤثرون الفانية على الآخرة.

وقال تعالى ﴿الشَّيْطَانُ يَعِدُكُمُ الْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُم بِالْفَحْشَاءِ وَاللَّهُ يَعِدُكُم مَّغْفِرَةً مِّنْهُ وَفَضْلًا﴾

[البقرة: ٢٦٨]

وفي يوم القيامة يتبرأ الشيطان من إغوائه للإنسان، فيقول: ﴿وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَانٍ إِلَّا أَن دَعَوْتُكُم فَاسْتَجَبْتُمْ لِي فَلَا تَلُومُونِي وَلُومُوا أَنفُسَكُمْ﴾ [إبراهيم: ٢٢]

ووعد الشيطان كله غرور وباطل، كوعده لبعض الناس أن يشفع لهم عند الله، ويقربهم منه، قال تعالى: ﴿يَعِدُهُمْ وَيُمَنِّيهِمْ وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُورًا﴾ [النساء: ١٢٠] وقال سبحانه: ﴿وَلَا تَكْفُرُوا فَنَتَنَّفَعُ بِأَنفُسِكُمْ وَتَرَبَّصْتُ وَغَرَّتْكُمْ الْأَمَانِيُّ حَتَّى جَاءَ أَمْرُ اللَّهِ وَغَرَّكُمْ بِاللَّهِ الْغُرُورُ﴾ [الحديد: ١٤].

وقال جلّ شأنه: ﴿فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُمُ بِاللَّهِ الْغُرُورُ﴾ [فاطر: ٥].

والغرور بفتح الغين: وصف للشيطان، أما الغرور بضم الغين: فهو وصف للمتكبر المغتر بنفسه. ولما أخبر سبحانه عما يريد الشيطان أن يفعله بالعباد، ذكر ما يُعْتَصَم به من فتنته، وهو تحقيق العبودية لله تعالى، والقيام بالإيمان به والتوكل عليه فقال:

(١) ابن أبي الدنيا في ذم الملاهي (٧٣) والطبري (١٤/٦٥٧).

٦٥- ﴿إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ وَكِيلًا﴾ ﴿٦٥﴾

قال سبحانه مستثنيًا عباده الصالحين من تأثير الشيطان عليهم، وإغوائه لهم: إن عبادي المؤمنين المخلصين الذين أطاعوني ليس لك قدرة على إغوائهم، كما قال ﷺ عن عمر رضي الله عنه: «والذي نفسي بيده، ما لقيك الشيطان سالكا فجا قط إلا سلك فجًا غير فجك»^(١) فإذا أذنبوا ذنبًا، واستغفروا غفره الله لهم.

وقال ﷺ في حديث عبد الله بن مسعود رضي الله عنه: «ما منكم من أحد إلا وقد وُكِّل به قرينه من الجن» قالوا: وإياك يا رسول الله؟ قال: «وإياي إلا أن الله قد أعانني عليه فأسلم، فلا يأمرني إلا بخير»^(٢) أي: حتى أسلم قرين النبي ﷺ، وصار زمامه، وأمره بيد الرسول ﷺ، ليس له عليه سلطان، وكذلك عباد الله المخلصين في كل زمان وفي كل مكان، وهذا على رواية فتح الميم، من (أسلم)، وفي رواية بضم الميم، أي: أسلم أنا من شره. وفي معنى هذه الآية قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا سُلْطَانُكَ عَلَى الَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُ وَالَّذِينَ هُمْ بِهِ مُشْرِكُونَ﴾ ﴿١١٣﴾ [النحل].

وقوله: ﴿إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ إِلَّا مَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْغَاوِينَ﴾ ﴿٦٥﴾ [الحجر].

أخرج البخاري، وغيره عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «يعقد الشيطان على قافية رأس أحدكم -إذا هو نام- ثلاث عقد، يضرب كل عقدة مكانها: عليك ليل طويل فارقد، فإذا استيقظ فذكر الله انحلت عقدة، فإن توضأ انحلت عقدة، فإذا صلى انحلت عقده كلها، فأصبح نشيطًا طيب النفس، وإلا أصبح خبيث النفس كسلان»^(٣).

وفي حديث أبي هريرة أيضًا أن رسول الله ﷺ قال: «إذا نودي بالصلاة أدبر الشيطان وله ضراط؛ حتى لا يسمع التأذين، فإذا قُضِيَ النداء أقبل، حتى إذا نُوب بالصلاة أدبر، حتى إذا قُضِيَ التَّوْبُ أقبل، حتى يخطر بين المرء ونفسه، يقول: اذكر كذا، اذكر كذا، حتى يظل الرجل لا يدرى كم صلى»^(٤).

(١) من حديث طويل عن سعد بن أبي وقاص في «البخاري» (٣٦٨٣) ومسلم (٢٣٩٦).

(٢) «صحيح مسلم» (٢٨١٤) وانظر: (٢٨١٥) وابن حبان (٦٤١٦).

(٣) «صحيح البخاري» برقم (١١٤٢، ٣٢٦٩) و«صحيح مسلم» (٧٧٦).

(٤) «صحيح البخاري» برقم (٦٠٨، ١٢٢٢، ٣٢٨٥) و«صحيح مسلم» برقم (٨٢، ٣٨٩).

وقد وجه الله عباده في نهاية الآية إلى تفويض الأمر إليه سبحانه، والاعتصام بجنابه من وساوس الشيطان ونزغاته، وكفى به سبحانه وكيلاً، وحفيظاً، وعاصماً، من كيد الشيطان ومكره.

لَا يُنْجِي فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ إِلَّا اللَّهُ

٦٦- ﴿رَبُّكُمُ الَّذِي يُرْسِلُ لَكُمْ الْفُلْكَ فِي الْبَحْرِ لِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ إِنَّهُ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا﴾

يضرب الله ﷻ لنا مثلاً بنعمة واحدة من نعمه العظيمة التي لا تُعدُّ ولا تحصى؛ وهي نعمة تسخير السفن والفلك والمراكب، وإلهام الإنسان كيفية صنعها وقيادتها في البحر متلاطم الأمواج، إذ كيف تنسؤون ربكم؟ وكيف تتبعون غواية الشيطان، وهو الذي خلقكم وصوركم، وأسبغ عليكم نعمه ظاهرة وباطنة، ورزقكم من الطيبات، وسخر لكم ما في البر والبحر والجو؟! ومن ذلك أنه تعالى يسوق لكم السفن في البحر حين تمشي بالوقود، أو بالطاقة؛ فإن الهواء والرياح هو العامل المؤثر في سيرها، والله هو الذي سيرها في البحار والمحيطات للأسفار وللتجارة والحروب؛ لتنقلوا بضائعكم، وأساطيلكم في عابرات القارات والمحيطات، فربكم -أيها الناس- هو الذي يسوق لكم السفن في البحار؛ لتطلبوا رزق الله في أسفاركم وتجاراتكم.

قال تعالى: ﴿وَأَيُّهُم مَّنْ آتَا حَمْلًا دُزِّيْتَهُمْ فِي الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ﴾ [١٣١] [يس]

وقال: ﴿وَالْفُلْكَ تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ﴾ [الحج: ٦٥]

وقال: ﴿حَتَّىٰ إِذَا كُنْتُمْ فِي الْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِمْ بِرِيحٍ طَبَیَّةٍ﴾ [يونس: ٢٢]

ومن منافع السفن: طلب الأرزاق، والحج، والجهاد، والسياحة، وغير ذلك ﴿إِنَّهُ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا﴾ حيث يسر لكم هذه المنافع، والمصالح، والمقصد من ذلك هو الاعتبار، وشكر المنعم سبحانه، فلا تعبدوا غيره؛ إذ لا يملك هذه القدرة إلا رب العالمين. قال تعالى:

٦٧- ﴿وَإِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فِي الْبَحْرِ ضَلَّ مَنْ تَدْعُونَ إِلَّا إِلَهُهُ فَلَمَّا نَجَّكُمُ إِلَى الْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ وَكَانَ الْإِنْسَانُ كَفُورًا﴾

وبعد الامتحان على الإنسان، بحفظ السفن في البحر، يأتي الامتحان عليه بحفظ الإنسان، ورعايته، في هيجان البحر وارتفاع أمواجه، فيضرب الله المثل للإنسان وهو في

حالة الخوف والاضطراب، حين يقع في ضيق وكرب، وهو في غُرُض البحر، فإنه يتجه إلى الله سبحانه، ويتعرف عليه وحده في شدته، مع أن مشركي الزمان الأول كانوا يعرفون ربهم في الشدة والرخاء، ومشركو اليوم يعرفون الله تعالى في الشدة فحسب، فإذا جاء وقت الرخاء نسوه، ونسوا ما كانوا فيه ﴿وَإِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فِي الْبَحْرِ﴾ أي: إذا أشرفتم على الهلاك، والغرق، واشتدت عليكم الرياح، وغَشِيَتْكُمْ أمواج البحر كالجبال، وكنتم بين الخوف والرجاء، فإنه لا يخطر ببالكم غير الله وحده في هذه الحالة، ولا تلجؤون إلا إليه، ولا تدعون إلا هو؛ فهو القادر على إغاثتكم ونجاتكم، وجميع الآلهة التي تقتربون بها، أو تدعونها، وتعبدون لها من دون الله تغيب عنكم في هذه اللحظات، فلا تسألون إلا الله، وهذا معنى ﴿ضَلَّ مَنْ تَدْعُونَ إِلَّا إِلَاهَ﴾ أي أنكم إذا مسكم الضر في البحر، وخفتم من الهلاك، لتراتكم الأمواج واضطرابها، غاب عن أذهانكم، وخواطركم، كل ما يعبد من دون الله، وأنتم في هذه الحالة لا تدعون غير الله؛ لعلمكم أنه لا ينجي إلا الله، فأخلصوا له وحده العبادة والدعاء.

هذا: ولما فتح النبي ﷺ مكة، وأصدر عفواً عاماً عن أعدائه، كبر على عكرمة بن أبي جهل أن يبقى بمكة، ففر هارباً وخرج من مكة، وركب البحر متوجّهاً إلى الحبشة، فاضطربت السفينة بالقوم في البحر وفيهم عكرمة، وأشرفوا على الهلاك والغرق، فقال القوم بعضهم لبعض: لا ينجيكم إلا الله، ادعوا الله، واسأله أن ينجيكم مما أنتم فيه.

قال عكرمة: والله لئن كان الله وحده هو الذي ينفع في البحر؛ فإنه لا ينفع في البر غيره، اللهم لك عليّ عهد لئن أخرجتني منه، لأذهبن فأضعنّ يدي في يدي محمد ﷺ فلا جدنه رؤوفاً رحيماً، فخرجوا من البحر، فرجع إلى رسول الله ﷺ فأسلم وحسن إسلامه.

﴿فَلَمَّا بَجَّكُمُ إِلَى الْبَرِّ﴾ فأجاب دعاءكم، وكشف عنكم الضر ونجّاكم، وخرجتم من هذا الضيق، ومن الكرب الذي أنتم فيه نسيتم ما كنتم فيه و﴿أَعْرَضْتُمْ﴾ عن الإيمان والإخلاص، ورجعتم إلى الكفر، والشرك بالله ﴿وَكَانَ الْإِنْسَانُ كَفُورًا﴾ جحوداً لنعم الله عليه.

١- وهذا كقوله تعالى: ﴿فَإِذَا رَكِبُوا فِي الْفُلِ دَعَوْا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ فَلَمَّا بَجَّهْتُمْ إِلَى الْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ﴾ [العنكبوت].

٢- وقوله: ﴿وَإِذَا غَشِيَهُمْ مَوَجُّ كَاطِلٍ دَعَوْا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ فَلَمَّا بَجَّهْتُمْ إِلَى الْبَرِّ فَمِنْهُمْ

مُقْنَصِدٌ وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلَّا كُلُّ خَتَّارٍ كَفُورٍ ﴿٣٢﴾ [لقمان].

٣- وقوله: ﴿وَإِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ ضُرٌّ دَعَا رَبَّهُ مُنِيبًا إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَا حَوَّلَهُ نِعْمَةً مِنْهُ نَسَىٰ مَا كَانَ يَدْعُوًا إِلَيْهِ مِنْ قَبْلُ وَجَعَلَ لِلَّهِ أَنْدَادًا لِّضِلٍّ عَنْ سَبِيلِهِ قُلْ تَمَتَّعْ بِكُفْرِكَ قَلِيلًا إِنَّكَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ ﴿٨١﴾﴾ [الزمر].

٤- وقوله: ﴿وَإِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ ضُرٌّ دَعَا رَبَّهُ مُنِيبِينَ إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَا أَذَاقَهُمْ مِنْهُ رَحْمَةً إِذَا فَرِيقٌ مِنْهُمْ بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ ﴿٣٣﴾﴾ [الروم].

٥- وقوله: ﴿قُلْ مَنْ يُجْحِكُمْ مِنَ ظُلُمَاتِ اللَّيْلِ وَالْبَحْرِ تَدْعُونَهُ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً لَّيْنٍ أَنْجَحْنَا مِنْ هَٰذِهِ لَتَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ ﴿١٦٣﴾﴾ قُلِ اللَّهُ يُجْحِكُمْ مَتَىٰ وَمِنْ كُلِّ كَرْبٍ ثُمَّ أَنْتُمْ مُشْكِرُونَ ﴿١٦٤﴾﴾ [الأنعام].

٦- وقوله: ﴿هُوَ الَّذِي يُسَوِّرُكَ فِي الْبَرْقِ وَالْبَحْرِ حَتَّىٰ إِذَا كُنْتَ فِي أَلْفَاكٍ وَجَرَيْنَ بِهَمٍّ رِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُوا بِهَا جَاءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَاءَهُمُ الْمَوْجُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الَّذِينَ لَئِنْ أَنْجَيْنَا مِنْ هَٰذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ ﴿٢٢﴾﴾ فَلَمَّا أَنْجَيْنَهُمْ إِذَا هُمْ يَبْتَغُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ ﴿٢٣﴾﴾ [يونس].

وذلك لأن شكر النعمة متوقف على ذكرها، فإذا غطت الشواغل على تذكُّر النعم، وغاب ذكرها عن الحواس، أذهله ذلك عن شكرها، والقيام بواجبها، ولكنه يذكُّرها عند فقدها، كما قالوا: الصحة تاج على رؤوس الأصحاء لا يراه إلا المرضى.

ولعل هذا ما يشير إليه قوله تعالى: ﴿وَإِذَا أَنْعَمْنَا عَلَى الْإِنْسَانِ أَعْرَضَ وَنَسَىٰ بِنِعْمَتِنَا وَإِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ فَذُو دُعَاءٍ عَرِيضٍ ﴿٥١﴾﴾ [فصلت].

وهكذا فإن الإنسان كفور للنعم، إلا من هدى الله، فمنّ عليه بالعقل السليم، واهتدى إلى صراطه المستقيم، فإنه يعلم أن الذي يكشف عنه الشدائد وينجيه من الأهوال، هو الذي يستحق العبادة دون سواه، أما من خذله الله، ووكله إلى عقله الضعيف، فإنه إذا كشف الله عنه الضر، نسى ما كان يدعو إليه من قبل، وأشرك مع الله من لا ينفع ولا يضر، ولا يعطي ولا يمنع، وهذا من الجهل وعمي البصيرة.

جَمِيعُ الْخَلْقِ فِي قَبْضَةِ اللَّهِ تَعَالَى وَهُمْ فِي الْبَرِّ أَوْ الْبَحْرِ أَوْ الْجَوْ

٦٨- ﴿أَفَأَمِنْتُ أَنْ يَخْسِفَ^(١) بِكُمْ جَانِبَ الْبَرِّ أَوْ يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا ثُمَّ لَا تَجِدُوا لَكُمْ وَكِيلًا﴾

ثم بيّن سبحانه أن قدرته تعالى لا يعجزها شيء، لا في البر، ولا في البحر، ولا غيرهما، ولذا: خوَّف الله عباده بقدرته العظيمة حين ينزل بهم بأسه وعقابه، أن يحل بهم عذاب الله من فوقهم أو من تحت أرجلهم، إذا استمروا في كفرهم وجحودهم، ومن هنا وجب على الإنسان أن يتذكر أيام الله وتداولها بين الناس؛ حتى يذكر النعمة، ويتعاهد شكرها والقيام بواجبها، فإن من آداب النفس: تذكيرها دائماً بنعم الله تعالى عليها؛ لأن الأمن والقرار لا يكونان إلا في جوار الله وحماه، فالناس في قبضة الله تعالى في البر، كما هم في قبضته في البحر والجو، فكيف يأمنون أن يخسف الله بهم جانب البر بزلزال، أو بركان، أو غيرهما، فتتهارّ بهم الأرض خسفًا، أو يُمطرهم الله بحجارة من السماء فتقتلهم، ثم لا يجدون أحدًا يحفظهم، ويمنعهم من عذاب الله تعالى؟

فالله سبحانه يبيّن أن البر، والبحر، والجو، في قبضته تعالى وتحت تصرفه، فالذي أنجاهم من البحر قادر على أن يخسف بهم ساحل البحر من جانب البر الذي خرجوا إليه، ووقفوا فوقه.

﴿أَفَأَمِنْتُ﴾ حين نجوتم من البحر - أيها المعرضون الناسون وقت الشدة - أنكم في قبضة الله تعالى في جميع أحوالكم وتقلباتكم؟ ﴿أَفَأَمِنَ الَّذِينَ مَكَرُوا السَّيِّئَاتِ أَنْ يَخْسِفَ اللَّهُ بِهِمُ الْأَرْضَ أَوْ يَأْتِيَهُمُ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ﴾ (٤٥) أَوْ يَأْخُذَهُمْ فِي تَقْلِبِهِمْ فَمَا هُمْ بِمُعْجِزِينَ ﴿٤٦﴾ أَوْ يَأْخُذَهُمْ عَلَى تَخَوُّفٍ فَإِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَحِيمٌ ﴿٤٧﴾ [النحل]

فلا تأمنوا ﴿أَنْ يَخْسِفَ بِكُمْ جَانِبَ الْبَرِّ﴾ أي: المكان الذي خرجتم فوقه من ساحل البحر.

(١) قرأ ابن كثير وأبو عمرو بنون العظمة في هذه الأفعال الخمسة من هذه الآية والتي بعدها (أن يخسف، ويرسل، أن يعيدكم، فيرسل، فيغرقكم)، على الالتفات من الغيبة إلى التكلم، وقرأ أبو جعفر ورويس بناءً التانيث في (فتغرقكم) بإسناد الضمير للريح، والباقون بياء الغيبة في الأفعال الخمسة على أن الفاعل ضمير يعود على (ربكم) في (ربكم الذي يزجي). وشدد ابن وردان الراء من (فتغرقكم) بخلف عنه من طريق الدرّة.

والخسف: انقلاب ظاهر الأرض في باطنها من الزلازل.

﴿أَوْ يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا﴾ أي: ريحًا تحمل الحجارة، والحصباء، فتُمطرُكم كقوم لوط، وتعذبكم، كما قال تعالى عن قوم لوط: ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ حَاصِبًا إِلَّا آلَ لُوطٍ نَّجَّيْنَاهُمْ بِسَحَرٍ﴾ [القمر]

فالحاصب: هو المطر الذي يحمل الحجارة، قال تعالى: ﴿أَمْ أَمِنْتُمْ مِّنْ فِي السَّمَاءِ أَنْ يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا فَسَتَعْمَلُونَ كَيْفَ نَذِيرٍ﴾ [الملك]

﴿ثُمَّ لَا يَجِدُوا لَكُمْ وَكَيلًا﴾ أي: لا تجدوا من يمنعكم، ومن يحول بينكم وبين عذاب الله تعالى.

٦٩- ﴿أَمْ أَمِنْتُمْ أَنْ يُعِيدَكُمْ فِيهِ تَارَةً أُخْرَىٰ فَيُرْسِلَ عَلَيْكُمْ قَاصِفًا مِّنَ الرِّيحِ^(١) فَيُغْرِقَكُم بِمَا كَفَرْتُمْ ثُمَّ لَا تَجِدُوا لَكُمْ عَلَيْنَا بِهِ تَبِيعًا﴾ [٦٩]

أم أمتم -أيها الناس- أن ترجع دواعيكم إلى ركوب البحر مرة أخرى، فيعيدكم فيه مرة ثانية، وينزل بكم عذابًا من لون آخر؟ ﴿أَمْ أَمِنْتُمْ﴾ حين كفرتم بربكم ﴿أَنْ يُعِيدَكُمْ فِيهِ﴾ أي: إلى ركوب البحر ﴿تَارَةً أُخْرَىٰ فَيُرْسِلَ عَلَيْكُمْ﴾ في هذه المرة ﴿قَاصِفًا مِّنَ الرِّيحِ﴾.

أي: ريحًا عاتية قاصفة شديدة، تقصف وتحطم وتكسر السفن وتدمرها، فيغرقكم بسبب كفركم، هل أمتم ذلك؟ ﴿ثُمَّ لَا تَجِدُوا لَكُمْ عَلَيْنَا بِهِ تَبِيعًا﴾ أي: لا تجدوا أثناء ذلك أو بعده، تبعة ومطالبة بحقوقكم؛ فإن الله تعالى لم يظلمكم ولا مثقال ذرة، ولا يوجد من يطالب الله تعالى بما فعله بكم، ولا من ينصركم من الله سبحانه، ولا من يأخذ لكم الثأر ممن انتقم منكم ﷻ، فيجدر بكم أن تلجؤوا إلى الله وحده وأن تفردوه بالعبادة، وتوحدوه، وتعترفوا عليه في السراء والضراء، في وقت الشدة ووقت الرخاء.

خَمْسٌ مِّنْ نَّعَمِ اللَّهِ تَعَالَىٰ عَلَىٰ بَنِي آدَمَ

٧٠- ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْوَرْدِ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُمْ مِّنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا﴾ [٧٠]

والحديث موصول عن نعم الله تعالى ومنته على خلقه، وفي هذه الآية إجمال لنعم الله

(١) قرأ أبو جعفر (الرياح) بالجمع، والباقون (الريح) بالإنفراد.

تعالى على الإنسان، وقد ذكرت هذه الآية خمس من على بني آدم وهي:

١- التكريم. ٢- وتسخير المراكب في البر.

٣- وتسخيرها في البحر. ٤- والرزق من الطيات.

٥- والتفضيل على كثير من المخلوقات.

أولاً: تكريم بني آدم: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ﴾

عدّد الله في هذه الآية، ما خصّ به بنو آدم من بين المخلوقات، فمن نعم الله ﷻ على الإنسان أنه جلّ شأنه كرمه على سائر المخلوقات، فميزه بالعقل، وبالعلم، وبالنطق، وإرسال الرسل، وإنزال الكتب، وجعل منه الأصفياء والأولياء، وأنعم عليه بالنعم الظاهرة والباطنة، وجعله في أحسن تقويم، معتدل القامة، يمشي على رجلين، ولا يمشي على أربع كالذباب، ويأكل بيديه، ولا يأكل بقمه كالذباب، أكرمه الله وميزه، فأودع فيه فطرة التوحيد وشرفه وفضله ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾ [التين].

وجعل له سمعاً، وبصرًا، وفؤادًا يفرّق بين الأشياء، ويميز المضار من المنافع، وجعله أهلاً لحمل الأمانة دون غيره من المخلوقات، فهو مخلوق نفيس غير ذليل في صورته، ولا حركته، ولا مشيته، ولا بشرته، وجميع الحيوانات لا تعرف النظافة، ولا اللباس، ولا الزينة، ولا التجمل، ولا حُسن تناول الطعام والشراب، ولا ترك القبائح، وجلب ما ينفع ودفع ما يضر، والإنسان هو الذي يعرف العلوم، والمعارف، والصناعات، والتطور، والحضارة.

ثانيًا: تسخير البر والبحر للإنسان: ﴿وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ﴾

أي: سخر الله لهم وسائل التنقل، والمواصلات المختلفة في: برهم، وبحرهم، وجوّهم، بفضل الله سبحانه؛ حيث سخر لهم من يصنعها، فألهمه وهده إلى تصميمها، فبعد المواصلات القديمة من: دواب، وخيول، وجمال، وحمير، ونحوها، كانت المواصلات الحديثة من: سيارات وطائرات وسفن وعبارات وحافلات وغير ذلك، فيسرّ لهم الرواحل، وألهمهم استعمالها، كما ألهمهم استعمال السفن والقلاع والمجاديف، ويسرّ لهم ركوب القطارات، والطائرات، والأقمار الصناعية، وسفن الفضاء، وكل ما يجدُّ في العصور المتلاحقة، وهكذا سخر الله له كل ما في الكون.

قال تعالى: ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنْ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَكُمْ وَسَخَّرَ لَكُمُ الْفَلَكَ لِتَجْرِيَ فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ وَسَخَّرَ لَكُمُ الْأَنْهَارَ ﴿٣٢﴾ وَسَخَّرَ لَكُمُ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ دَائِبَيْنِ وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ ﴿٣٣﴾ وَآتَاكُم مِّنْ كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لَا تَحْصُوهَا إِنَّ الْإِنسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ ﴿٣٤﴾﴾ [إبراهيم].

وقال تعالى: ﴿وَعَلَيْهَا وَعَلَى الْفَلَكَ تَحْمَلُونَ ﴿٣٥﴾﴾ [المؤمنون].

وقال: ﴿وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ الْفَلَكَ وَالْأَنْعَامِ مَا تَرْكَبُونَ﴾ [الزخرف: ١٢].

وقال: ﴿وَالْحَيْلَ وَالْعِجَالَ وَالْحِمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٣٦﴾﴾ [النحل].

ثالثاً: الرزق من الطيبات: ﴿وَرَزَقْنَاهُمْ مِّنَ الطَّيِّبَاتِ﴾

كالزروع، والثمار، واللحوم، والألبان، أي: أنعمنا عليهم بسائر المطاعم، والمشارب، مما أحله الله لهم، وجعل ما يتناوله الإنسان من الأطعمة، والمشروبات أكثر مما يتناوله غيره من الحيوانات التي لا تأكل إلا أشياء معينة اعتادت بها.

رابعاً: تفضيل بني آدم على كثير من المخلوقات: ﴿وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا﴾

أي: وفضلهم الله على كثير ممن خلق، والتفضيل منظور فيه إلى التشريف فوق غيره، أما التكريم فمنظور فيه إلى تكريمه في ذاته، فقد كرم الله الإنسان على سائر الحيوانات، بأمور خلقية طبيعية، مثل: العقل، والنطق، والعلم، وحُسن الصورة، وعرفه الله أصناف العلوم بواسطة العقل والفهم، واكتساب العقيدة الصحيحة، والأخلاق الفاضلة، فالأول هو التكريم والثاني هو التفضيل.

وقد فضل الله بني آدم على كثير ممن خلق، لا على الكل.

قال ابن عمر رضي الله عنهما: ما من رجل يرى مبتلى فيقول: الحمد لله الذي عافاني مما ابتلاك به، وفضلني عليك وعلى كثير من خلقه تفضيلاً، إلا عافاه من ذلك البلاء كائناً من كان^(١).

فقد فضله الله على كثير من المخلوقات: كالجن، والبهايم، والدواب، والوحوش، والطير.

وهنا يقف المفسرون، ويتحدثون عن المفاضلة بين الإنسان وبين الملائكة، ويرى

(١) أخرجه ابن أبي شيبة (١٠/٣٩٥).

أكثرهم أن الخواص من البشر وهم الأنبياء، أفضل من خواص الملائكة، وأن خواص الملائكة مثل: جبريل، وميكائيل، وإسرافيل أفضل من عوام الناس، وعوام الملائكة، أفضل من عوام البشر، وهي مفاضلة بين الملائكة والمؤمنين خاصة، وهذه مفاضلة لا تفيدنا في شيء، وليس هناك داع للبحث فيها، وإنما يبحث الإنسان فيما يعود عليه بالنفع، ويعود عليه بزيادة العمل الصالح، وما يثقل ميزانه.

وأبرز ما يتميز به الإنسان على سائر الحيوانات هو: العقل، والنطق، والعلم، والصورة الحسنة، واكتساب الفضائل، والعقائد، والأخلاق، والقيام بالتكاليف الشرعية، أفلا يشكرون نعم الله عليهم، ويتركوا الاستعانة به على معاصي الله، ويخلصوا العبادة لله وحده.

مَصَائِرُ الْأُمَمِ وَالشُّعُوبِ يَوْمَ لِقَاءِ اللَّهِ تَعَالَى

٧١- ﴿يَوْمَ نَدْعُوا كُلَّ أُنَاسٍ بِإِمْئِهِمْ فَمَنْ أَوْفَىٰ كِتَابُهُ بِمِيزَانِهِ فَأُولَٰئِكَ يَفْرَحُونَ ۖ كِتَابُهُمْ وَلَا يَظْلَمُونَ قَتِيلًا ۝٧١﴾

ويوم القيامة ينادي الله العباد، فيخرجون من قبورهم، للبعث، والنشور، والحساب وتنادى كل أمة بكتابها، وبقائدها، ورسولها، وإمامها، فتبشر أو تنذر، وتظهر أحوال الناس يومئذ، فينادى المؤمنون بإمامهم في الإيمان، وينادى الكفرة بإمامهم في الضلال والكفر، كما قال تعالى عن فرعون: إنه يتقدم قومه يوم القيامة، فهو إمامهم، يوردهم النار، كما أوردتهم المهالك في الدنيا، قال تعالى: ﴿يَقْدُمُ قَوْمُهُ يَوْمَ الْفَيْصَةِ فَأُورَدَهُمُ النَّارَ وَيَشْأَىٰ أَلُورْدُ الْمَوْرُودُ ۝٧٨﴾ [هود]

ويصور الله سبحانه الأمم يوم القيامة أنها تحشر جاثية على الركب في ذل وانكسار.

﴿وَرَأَىٰ كُلُّ أُمَّةٍ جَاثِيَةً كُلُّ أُمَّةٍ تُدْعَىٰ إِلَىٰ كِتَابِهَا﴾ [الجاثية: ٢٨] أي: تُنسب إليه، فأهل التوراة يتبعون موسى، وأهل الإنجيل يتبعون عيسى، وأهل القرآن يتبعون محمداً ﷺ، وهكذا.

والمراد بأهل التوراة، وأهل الإنجيل، وغيرهم: الأمم الذين ماتوا وقت صلاحية الرسالة، أي: اليهود الذين ماتوا في زمن موسى ﷺ وقبل أن يأتي عيسى، والنصارى الذين ماتوا في مدة صلاحية رسالة عيسى ﷺ، وقبل أن يأتي محمد ﷺ:

١- فالمراد ﴿بِإِمْئِهِمْ﴾: الكتاب الذي أنزل على نبيهم.

٢- أو المراد ﴿يَا مَعْشَرَ﴾: نبيهم ومن اتبعوه، فيقال: يا أمة موسى، يا أمة عيسى، يا أمة محمد، يا أمة بوذا، يا أمة زرادشت، يا أمة برهما، يا أتباع فرعون، يا عبدة العزى، يا عبدة اللات، وهكذا.

٣- أو المراد بإمامهم: كتاب أعمالهم.

ويجمع هذه الأقوال الثلاثة أن كل أمة تدعى في حضرة نبيها وكتابها معاً، كما قال تعالى: ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولٌ فَإِذَا جَاءَ رَسُولُهُمْ قُضِيَ بَيْنَهُمْ بِالْقِسْطِ﴾ [يونس: ٤٧]، وقال: ﴿وَأَشْرَقَتِ الْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا وَوُضِعَ الْكِتَابُ﴾ [الزمر: ٦٩].

الحديث عن أبي هريرة ؓ يجمع الله الناس فيقول: «من كان يعبد شيئاً فَيَتَّبِعْهُ، فَيَتَّبِعْ من كان يعبد القمر القمر، ومن كان يعبد الشمس الشمس، ويتبع من كان يعبد الطواغيت، الطواغيت»^(١).

وبعد أن تحضر كل أمة مع رسولها وكتابها يعطى كل فرد من أفراد هذه الأمة كتاب أعماله، كما قال تعالى: ﴿وَكُلُّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ فِي إِمَامٍ مُّبِينٍ﴾ [يس: ١٢].

وقوله: ﴿وَوُضِعَ الْكِتَابُ فَتَرَى الْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ﴾ [الكهف: ٤٩].

وقوله: ﴿وَنُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ كِتَابًا يَلْقَاهُ مَنشُورًا﴾ [الإسراء: ١٣].

أما سائر الملل والنحل من يهود، ونصارى، وغيرهم بعد بعثة الرسول ﷺ فهم من أمة محمد ﷺ، وهم مخاطبون بالدعوة الإسلامية ومكلفون بها، فينادون بقائد هذه الأمة وإمامها وكتابها، وهم من المخالفين المكذبين بمحمد ﷺ وهم من أهل النار إن لم يؤمنوا به وبدعوته

﴿يَوْمَ نَدْعُوا كُلَّ أَنَسٍ يَامَعْشَرَ﴾؛ حيث يكون الناس صنفين، منهم من يأخذ كتابه بيمينه، وهؤلاء يقرؤون كتابهم فرحين مسرورين، ويقول كل منهم لأهله وعشيرته: انظروا شهادة نجاحي بتقدير امتياز ﴿هَؤُلَاءِ أَقْرَأُوا كِتَابِي﴾ [الحاقة: ١٩] يأخذه وهو مسرور، وينقلب إلى أهله

(١) ينظر: صحيح الترغيب والترهيب (٣٦١١) ج ٣ قال الألباني: صحيح لغيره وقد جاء هذا في حديث طويل عن أبي هريرة في مسند أحمد (٧٧١٧) بإسناد صحيح على شرط الشيخين، (محققوه) وهو في مصنف عبدالرزاق (٢٠٨٥٦) والبخاري (٦٥٧٣) ومسلم (١٨٢).

وهو مسرور ﴿فَمَنْ أَوْفَىٰ كِتَابُهُ يَمِينُهُ فَأُولَٰئِكَ يَفْرَهُونَ كِتَابَهُمْ وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا﴾

والفتيل: هو خيط رفيع يكون في ظهر النواة، أي: ولا يظلمون شيئاً يسيراً حقيراً، فهم لا ينقصون شيئاً من ثواب أعمالهم، وإن كان أدنى من مقدار الخيط الذي في شق النواة. وقد سكنت الآية عن الفريق الآخر الذي يأخذ كتابه بشماله، اكتفاء بما ورد في أول السورة ﴿وَكُلٌّ لِّإِنْسَنِ الزَّمَنَةُ طَرْفٌ فِي عُنُقِهِ﴾ وجاءت الإشارة إليه في قوله تعالى:

٧٢- ﴿وَمَنْ كَانَتْ فِي هَذِهِ أَعْمَى^(١) فَهُوَ فِي الْآخِرَةِ أَعْمَى^(١) وَأَضَلَّ سَبِيلًا ﴿٧٢﴾﴾

أما أهل الشمال -نعوذ بالله أن نكون منهم- فهم الذين يأخذون كتابهم بشمالهم، أو من وراء ظهورهم، لقد كانوا في الدنيا عُميًّا عن الحق، وعُميًّا عن الهدى، فلم يقبلوه ولم يتقادوا له، بل اتبعوا الضلال، فهم في الآخرة عُمي عن طريق الجنة، وعُمي عن طريق النعيم وطريق الخير، فالجزاء من جنس العمل.

ومن كان في هذه في الدنيا أعمى عن شكر النعم، وعن الإيمان بمن أسداها إليه، فهو في الآخرة أعمى عن طريق الجنة، وكما تدين تدان.

ومن كان في الدنيا أعمى القلب، مطموس البصيرة عن دلائل قدرة الله تعالى، فلم يؤمن بما جاء به محمد ﷺ، وآثر الكفر على الإيمان، فهو في يوم القيامة أشد عمى عن سلوك طريق الجنة، فهو حيران يتخبط ليس لديه حجة، وهو أضل طريقاً عن الهدى والرشاد؛ فإن الكافر في الدنيا يمكنه أن يهتدي فينجو، أما في الآخرة فلا يمكنه ذلك.

وأعمى القلب، أضل من أعمى البصر؛ لأن الأول لا تنفعه الذكرى، أما الآخر، فإنه يتنفع، فيتذكر، ويتعظ.

كما قال تعالى عن ابن أم مكتوم: ﴿وَمَا يَدْرِيكَ لَعَلَّكَ يَرْكَى^(٢) أَوْ يَذَّكَّرُ فَتَنْفَعَهُ الذِّكْرَى^(٣)﴾ [عبس].

وقال تعالى: ﴿فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَرُ وَلَكِن تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ﴾ [الحج: ٤٦].

لقد كان في الدنيا يمكنه تدارك ما فاتته، أما في الآخرة فلا يمكنه ذلك، فهو أشد

(١) قرأ أبو عمرو وشعبة وحزمة والكسائي ويعقوب وخلف بالإمالة في (أعمى) الأولى، وبالفتح والتقليل لورش، والثانية مثل الأولى إلا أن أبا عمرو ويعقوب لهما الفتح فيها.

عمى، وأكثر حيرة واضطراباً، فالمراد بعمى الآخرة: ما ينشأ عن العمى من الحيرة، والاضطراب، وضلال الدنيا يمكن الخلاص منه، أما ضلال الآخرة، فلا خلاص منه إلا بنار جهنم، ولذا كان أشد ضللاً منه، وهؤلاء هم الذين يأخذون كتابهم بشمالهم من وراء ظهورهم، كما قال تعالى: ﴿وَأَمَّا مَنْ أَوْقَ كَتَبَ بِشِمَالِهِ فَيَقُولُ يَلْتَنِنِي لِمَ أُوتِ كِتَابِي﴾ [٢٥] ﴿الْحَاقَّةُ﴾ [١٣] ﴿وَأَمَّا مَنْ أَوْقَ كَتَبَ وَرَاءَ ظَهْرِهِ﴾ [١٠] ﴿فَسَوْفَ يَدْعُوا ثُبُورًا﴾ [١١] ﴿وَيَصِلَىٰ سَعِيرًا﴾ [١٢] إِنَّهُ كَانَ فِي أَهْلِهِ مَسْرُورًا [١٣] إِنَّهُ ظَنَّ أَنْ لَنْ يَحُورَ﴾ [١٤] [الانشقاق].

جاء في الأثر، عن أبي هريرة ؓ ما معناه: «يُدعى أحدهم فيعطى كتابه بيمينه، ويمدُّ له في جسمه، ويبيض وجهه، ويجعل على رأسه تاج يتلأل، فيفرح به أهله، ويتمنون مثله، فيقول لهم: أبشروا؛ فإن لكل منكم مثل هذا، وأما الكافر فيسودُّ وجهه، ويراه أهله، فيتعدون بالله منه ومن شره»^(١).

عَصْمَةُ النَّبِيِّ ﷺ فِي تَبْلِيغِ الدَّعْوَةِ

٧٣- ﴿وَلَنْ كَادُوا لَيَفْتِنُونَكَ عَنِ الَّذِي أُوحِيَٰنَا إِلَيْكَ لَيَفْتَرِيٰ عَلَيْنَا غَيْرٌ وَإِذَا لَا تَأْخُذُكَ خَلِيلًا﴾

وبعد أن وصف الله الكفار بالعمى والضلal، بين سبحانه أن من ضلالهم، معارضتهم لدعوة الإسلام، وإعراضهم عنها، وطمعهم في أن يوافقهم الإسلام، وينزل على أهوائهم، مع رغبة الإسلام في اقترابهم منه، وسماعهم للقرآن لعلمهم يهتدون.

والآية الثالثة والسبعون والآيتان بعدها من سورة بني إسرائيل يمتنُّ الله ﷻ فيها على رسوله ﷺ بأنه جلَّ شأنه قد ثبتته على الوحي المنزل عليه، وهو هذا القرآن، وعصمه من فتنة المشركين وإغرائهم له، وقد كان من محاولاتهم أن يداهنهم الرسول ﷺ، أو أن يوافقهم إلى أهوائهم، ووقاه سبحانه من الركون إليهم ولو قليلاً، وحفظه من عاقبة هذا الركون في حالة حدوثة، وهو العذاب المضاعف في الدنيا والآخرة.

لقد حاول المشركون كثيراً مساومة النبي ﷺ على ترك الدعوة كلياً، أو جزئياً، ساوموه على أن يدع عيب آلهتهم، وأن يعبدوها سنة؛ ليعبدوا إلهه سنة.

(١) يُنظر النص في: «مسند البزار»، ورواه الترمذي في «السنن» برقم (٣١٣٦) وقال: حديث حسن غريب.

وفي سورة (الكافرون) التي نزلت بعد سورة (الإسراء) يقطع الله سبحانه فيها بمنع ذلك، ورَفَضَ النبي ﷺ لطلبهم ﴿قُلْ يَتَّيْنَاهَا الْكَافِرُونَ﴾ ﴿١﴾ لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ ﴿٢﴾ وَلَا أَنْتَ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ ﴿٣﴾ .

وقبل سورة (الإسراء) نزلت سورة (القلم)، وفيها محاولة المشركين لاستمالة قلب النبي ﷺ إليهم، وطلبهم منه أن يداهنهم، وأن يلين لهم؛ كي يلينوا له ﴿وَدُّوا لَوْ تُدْهِنُ فَيُدْهِنُونَ﴾ ﴿١﴾ [القلم] أي: تمنوا أن تميل إليهم، فيميلون إليك، ويناصرونك ويوالونك، ولكن شيئاً من ذلك لم يحدث.

وهذه المحاولات التي عصم الله رسوله منها، هي محاولات أهل السلطان مع أصحاب الدعوات دائماً؛ لإغرائهم بالانحراف عن صلابة الدعوة، والرضا بالحلول الوسط. في أسباب النزول لهذه الآيات: أن المشركين طلبوا من النبي ﷺ أن يستلم آلهتهم كما يستلم الحجر الأسود.

وعن ابن إسحاق، وغيره أنهم اجتمعوا ليلة فعظموا النبي ﷺ، وقالوا له: أنت سيدنا ولكن أقبل على بعض أمرنا، ونقبل على بعض أمرك.

وفي أسباب النزول أيضاً: أن كبار المشركين طلبوا من النبي ﷺ أن يجعل لهم مجلساً خاصاً غير مجلس الفقراء، أو يطردهم عن مجلسه، وكانوا يعلمون الحرص الشديد من رسول الله ﷺ على إسلامهم.

وبعض المشركين طلب من النبي ﷺ أن يمدح آلهتهم، ويثني عليها، ويقرر أن لها شفاعاة عند الله تعالى، كما جاء ذلك في حديث الغرانيق، الذي يأتي ذكره عند آيات سورتي: النجم، والحج، والذي افتتن به صاحب الآيات الشيطانية (سلمان رشدي) بسبب الأخذ من الدين بطرف، ومعرفة القشور منه دون اللباب، وعدم فهم الحقائق والإلمام بها، وحديث الغرانيق هذا يقول عنه ابن إسحاق: إنه من وضع الزنادقة، وهو أصل الفتنة والردة التي قام بها هذا الرجل، والمشركون يحاولون أن يُلبَّسوا على المسلمين دينهم، ويُلقَّون الشُّبه عليهم، كما كان المشركون يفعلون مع رسول الله ﷺ، فهم لا يريدون منهم الخروج من الدين مرة واحدة، وإنما يريدون التشكيك، أو التنازل عن نقطة ولو يسيرة؛

ليلتقوا في وسط الطريق، ثم هم بعد ذلك إذا تنازلوا عن جزئية فيه فإنه يأتي ما بعدها، ويكون الإخراج من الدين بالكلية.

جاء وفد ثقيف إلى النبي ﷺ وطلبوا منه أن يعطيهم أشياء؛ حتى يبايعوه على الإسلام، فإن سئل عنها فليقل: الله أمرني بهذا؛ حتى يميزهم عن سائر العرب، بأن يجعل لهم منزلة ومكانة خاصة، ويحرّم وأديهم، أي: أن يجعل أرضهم التي في الطائف لها حرمة كحرمة مكة، وأن يضع عنهم الربا، وطلبوا منه أن لا ينحنوا في الصلاة، أو أن يضع عنهم الصلاة، وطلبوا منه أن لا يكسّروا أصنامهم بأيديهم، وأن يمتّعهم بعبادة اللات لمدة سنة^(١).

والله سبحانه يجيب عن ذلك كله بقوله: ﴿وَإِنْ كَادُوا لَيَفْتِنُونَكَ عَنِ الَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ لِتَفْتَرِيَ عَلَيْنَا غَيْرُ﴾ أي: لقد قارب المشركون أن يصرفوك عن القرآن الذي أنزلناه عليك، لتختلق علينا غير ما أوحيناه إليك، فتأتي بما يوافق أهواءهم، وتترك ما أنزله الله عليك. حتى يتخذوك حبيباً خالصاً.

والآية مسوقة في مقام المنّ على النبي ﷺ بعصمة الله إياه من الخطأ وحفظه من أعدائه، الحريصين على فتنه بكل طريق، وعدم إجابتهم إلى شيء مما استدرجوه إليه.

وفيها أيضاً إظهار ملل المشركين وخوفهم من عواقب الدعوة الإسلامية، مع ما فيها من تثبيت النبي ﷺ والمؤمنين والدعاة إلى الله تعالى في كل زمان ومكان.

وفيها تبيّن للمشركين بأن مثل ذلك لن يكون.

وقد بيّن الله سبحانه أن النبي ﷺ أعرض عن مقترحاتهم ورفضها، ولم يلتفت إليها، كما قال تعالى: ﴿وَلَوْ نَفَعْنَا عَلَيْنَا بَعْضَ الْأَقَاوِيلِ ﴿٤٤﴾ لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ ﴿٤٥﴾ ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ ﴿٤٦﴾ فَمَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَاجِزِينَ ﴿٤٧﴾﴾ [الحاقة].

وقال سبحانه: ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالَ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا آتِنِي بِقُرْآنٍ غَيْرِ هَذَا أَوْ بَدِّلْهُ﴾ أي آت بقرآن ليس فيه هذا الوعد وهذا الوعيد، وهذه الأوامر والنواهي، وهذا الحلال والحرام ﴿قُلْ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أُبَدِّلَهُ مِنْ تِلْقَائِي نَفْسِي إِنْ أَتَيْتُ إِلَّا مَا

(١) يُنظَر «أسباب النزول» هذه عند تفسير الآية في «زاد المسير»، و«فتح القدير»، و«تفسير ابن عطية»، و«لباب التأويل في معاني التنزيل» للخازن وابن جرير والقرطبي والبغوي.

يُوحَىٰ إِلَيْكَ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتَ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿يونس: ١٥﴾.

يقول سبحانه: لو حدث منك -يا محمد- الميل والركون إليهم، ولو شيئاً قليلاً بموافقة أهوائهم لاتخذوك صديقاً حميماً فوالوك، وناصروك، وأحبوك ﴿وَإِذَا لَاتَخَذُوكَ خَلِيلاً﴾ ولكن الله ثبَّتَكَ، وعصمك، وحفظك، ولو حدث ذلك لكنت ولياً لهم، وخرجت من ولايتي؛ فالنبي ﷺ معصوم من الخطأ في تبليغ الدعوة، ولكن الله تعالى ذكر هذا في القرآن؛ لتعلم الأمة، ولكي لا تميل إلى غير المسلمين ولو طرفة عين، ولئلا يركنوا، أو يميلوا إلى الظلمة، ولكي يعلموا أنهم فاتنُوهم عن دينهم في كل زمان ومكان.

فآليات فيها تعليم للأمة، والنبي ﷺ معصوم من الزلل، ومحفوظ بحفظ الله سبحانه، قال تعالى:

٧٤- ﴿وَلَوْلَا أَن ثَبَّتْنَاكَ لَقَدْ كِدْتَ تَرْكُنُ إِلَيْهِمْ^(١) شَيْئًا قَلِيلًا ﴿٧٤﴾﴾

يقول النحاة: لولا: حرف امتناع لوجود، أي: ولولا عصمة الله لك عن موافقتهم، وتثبيتته إياك على الحق لقاربت الركون إليهم، ولكن هذا الركون، أو القليل منه، امتنع؛ لوجود العصمة، ولتثبيت الله لك بأن فهمك وجه الحق، ولولا ذلك لتحقق قرب ميلك القليل، ولكن ذلك لم يقع؛ لأننا ثبتناك.

فالمعنى: لقد قاربت أن تركن إليهم شيئاً قليلاً، ولكن هذه المقاربة، أو الركون إليهم امتنعت؛ لوجود العصمة، والتثبيت من الله سبحانه ﴿لَقَدْ كِدْتَ تَرْكُنُ إِلَيْهِمْ شَيْئًا قَلِيلًا﴾ ولو أن الله تركك، ولم يعصمك، ولم يحفظك، ولم يثبتك لحدثت المقاربة.

وقد نفت الآية مجرد المقاربة للركون إلى الكفار بأربعة أمور، هي: (لولا) الامتناعية، و (كدت) وهي من أفعال المقاربة، و (شيئاً) المنكِّرة بقصد التحقير، و (قليلاً) المقيدة للقلّة، وهذا مبالغة في نفي مجرد المقاربة من الركون إليهم، فضلاً عن الركون نفسه، والركون إليهم منتف من أصله لأجل التثبيت بالعصمة، كما انتفى أن يفتنه المشركون عن الذي أوحاه الله إليه بصرف الله لهم عن تنفيذ فتنهم، وكان النبي ﷺ يقول فيما يرويه

(١) ضم الهاء من (إليهم) حمزة ويعقوب، وكسرها الباقون.

قتادة: «اللهم لا تكلني إلى نفسي طرفة عين»^(١).

فيطلب من الله تعالى حفظه وعصمته، ويطلب منه سبحانه تثبيت قلبه على الإيمان صباح مساء. ولو حدث شيء من الميل إلى الكفار لأصابك الله بعذاب مضاعف في الدنيا والآخرة كما قال تعالى:

٧٥- ﴿إِذَا لَاقَظْنَاكَ ضِعْفَ الْحَيَاةِ وَضِعْفَ الْمَمَاتِ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ عَلَيْنَا نَصِيرًا﴾ (٧٥)

أي: ولو أنك -يا رسولنا- ملأت وركنت إليهم شيئاً قليلاً، لأذقناك عذاباً مضاعفاً في الدنيا والآخرة، أي: مثلي عذاب الحياة في الدنيا، ومثلي عذاب الممات في الآخرة.

ومضاعفة عذاب الحياة يكون بتراكم المصائب والنكبات، وزوال البهجة والسرور، وتمكن الأعداء ونزول الهزائم، مع استمرار هذا العذاب حتى الموت، فيموت العبد حسيراً مكموذاً بالتواجد الذليل بين الكفار الذين يرون أنهم قد فازوا عليه بعد أن أشرفوا على السقوط أمامه.

وليس المراد من ﴿وَضِعْفَ الْمَمَاتِ﴾: عذاب الآخرة؛ وإنما المراد التهديد والوعيد، بمضاعفة العذاب له على فعل المعصية، لأن الرسول ﷺ لو ركن إليهم شيئاً قليلاً لكان ذلك عن اجتهاد منه لمصلحة الدين في نظره، والاجتهاد لا عقاب عليه في الآخرة؛ وذلك لأن عظم العذاب مع عظم الذنب، وعظم الذنب مع عظم المرتكب لهذا الذنب، والرسول ﷺ أعظم الخلق على الإطلاق، وأكملهم عند الله تعالى، وقد أتم الله عليه نعمته بالرسالة فهو أعرف الخلق بربه.

وقد بين الله سبحانه في شأن نساء الرسول ﷺ مضاعفة العذاب لمن تأتي منهن بفاحشة مبينة؛ لأن نساء الرسول ﷺ يختلفن عن غيرهن من النسوة ﴿يَنْسَاءَ الَّتِي مَن يَأْتِ مِنْكُنَّ بِفَاحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ يُضَاعَفْ لَهَا الْعَذَابُ ضِعْفَيْنِ﴾ [الأحزاب: ٣٠] والتهديد على فعل المعصية لا يعني الوقوع فيها، وعند حلول العذاب بالعاصي لا يجد من يُخلصه منه يوم لقاء الله ﴿ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ عَلَيْنَا نَصِيرًا﴾ أي: لا تجد من ينصرك، ومن يحميك، ومن يمنعك من عذاب

(١) ضعيف الجامع الصغير (١٢١٧).

الله تعالى، ولكن الله ثبتك وهداك ولم تترك إلههم بوجه من الوجوه، فله الحمد والمنة.

وَعِيدُ مَنْ هَمُّوا بِإِخْرَاجِ الرَّسُولِ ﷺ مِنْ مَكَّةَ

٧٦- ﴿وَإِنْ كَادُوا لَيَسْتَفِزُّوكَ مِنَ الْأَرْضِ لِيُخْرِجُوكَ مِنْهَا وَإِذَا لَا يَلْبُثُونَ خِلَافَكَ^(١) إِلَّا قَلِيلًا﴾

ولما فشلت هذه المفاوضات، وهذه المحاولات من المشركين؛ كي يُثْنُوا رسول الله ﷺ عن دعوته، أو عن شيء مما أوحاه الله إليه، ولو جزءاً يسيراً منه، لجؤوا إلى استعمال القوة، وهذه القوة تتمثل في عزمهم على إخراج رسول الله ﷺ من مكة.

﴿وَإِنْ كَادُوا لَيَسْتَفِزُّوكَ﴾ يحملونك على الخروج من وطنك، ويُجلوك عنه لبغضهم إقامتك بين أظهرهم ﴿مَنْ الْأَرْضِ﴾ أي: أرض مكة، لقد قارب المشركون أن يزعمجوك ﴿لِيُخْرِجُوكَ مِنْهَا﴾ ولو حدث هذا، وأخرجوك منها كُرْهاً؛ فإنهم لا يقيمون بعدك فيها إلا زمناً يسيراً حتى تحل بهم العقوبة.

وأهل مكة لم يُخْرِجُوا النبي ﷺ منها، وإنما الذي أذن له بالخروج والهجرة هو رب العالمين، فلما علم الله كيدهم، وتديبرهم قَتَلَهُ أمره بالهجرة، فخرج ﷺ بنفسه دون أن يخرجوه هم؛ لأن الله سبحانه أراد لأهل مكة البقاء، ولم يُرد أن يستأصلهم، ويبيدهم كغيرهم من الأمم.

قال مجاهد، وقاتدة، والحسن: هَمَّ أهل مكة بإخراج رسول الله ﷺ من مكة، فأمره الله تعالى بالخروج، وأنزل هذه الآية إخباراً عما همُّوا به^(٢).

يقول جل شأنه: ﴿وَإِذَا لَا يَلْبُثُونَ خِلَافَكَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ أي: لا يقيمون بعدك إلا وقتاً يسيراً، فيهلكهم الله، وقد عاقبهم الله تعالى على هذا الهم، وهذا القصد بعد نحو عام، فخرج كبارهم إلى غزوة بدر فلقي كل منهم حتفه، ومات سبعون من صناديد قريش، وهم الذين كانوا يدبرون المؤامرة لقتل رسول الله ﷺ فلم يلبثوا بعده إلا قليلاً حتى أهلكهم

(١) قرأ نافع وابن كثير وأبو عمرو وشعبة وأبو جعفر بفتح الخاء وسكون اللام من غير ألف بعدها هكذا (خِلَافَكَ)، وقرأ الباقر (خلافك) بكسر الخاء وفتح اللام بعدها ألف وهما لغتان بمعنى: بعد خروجك.

(٢) النيسابوري (٢٤٥) والسيوطي (١٧١) و«زاد المسير» (٧٠/٥).

الله سبحانه، وقد أبقي الله عامتهم؛ لضعف كيدهم، وعلمهم أنهم سيدخلون في الإسلام.
والآية تشير إلى أن النبي ﷺ سيخرج من مكة، وأنهم المتسببون في خروجه، وأن الله سيعاقبهم بعد خروجه منها. قال تعالى:

٧٧- ﴿سُنَّةَ مَنْ قَدْ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنْ رُسُلِنَا^(١) وَلَا تَجِدُ لِسُنَّتِنَا تَحْوِيلًا

وتلك سنة الله وعادته في الأمم، وأن الأمة التي تخرج رسولها يهلكها رب العالمين، كما حدث لقوم هود لما أخرجوا نبهم إلى مكة، وكذا قوم صالح، وإبراهيم، ولوط فقد هلكت أقوامهم لما أخرجوا رسلهم من ديارهم، سنة الله في خلقه، قال تعالى: ﴿وَكَايْنِ مِنْ قَرْيَةٍ عَتَتْ عَنْ أَمْرِ رَبِّهَا وَرُسُلِهِ فَحَاسَبْنَاهَا حِسَابًا شَدِيدًا وَعَذَّبْنَاهَا عَذَابًا ثَقِيلًا﴾ [الطلاق].

وقال سبحانه: ﴿وَكَايْنِ مِنْ قَرْيَةٍ هِيَ أَشَدُّ قُوَّةً مِنْ قَرْيَتِكَ الَّتِي أَخْرَجْنَا أَهْلَكْتَهُمْ فَلَا نَأْوِيَهُمْ﴾ [محمد] ﴿وَسُنَّةَ اللَّهِ لَا تَتَغَيَّرُ، ووعدته لا يتخلف ولا يتحول.

اللُّجُوءُ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى عَنْ طَرِيقِ أَدَاءِ الصَّلَاةِ

٧٨- ﴿اقْرَأِ الصَّلَاةَ لِلدُّلُوكِ الشَّمْسِ إِلَى غَسَقِ اللَّيْلِ وَقُرْآنَ الْفَجْرِ إِنَّ قُرْآنَ الْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا

ثم وجه الله رسوله في الآيات التالية، إلى الاتصال به سبحانه، بالوقوف بين يديه في الصلاة؛ فوسائل الاتصال بالله سبحانه، وتقوية الروح، تتمثل في إقامة الصلاة، والمحافظة عليها، وفي العمل بالقرآن وما فيه؛ ففيه طب القلوب ودواؤها.

وجاء ذكر الأوقات الخمسة في قوله تعالى: ﴿وَأَقِمِ الصَّلَاةَ طَرَفِي النَّهَارِ وَزُلْفًا مِنَ اللَّيْلِ﴾ [هود: ١١٤] ﴿وَقُرْآنَ الْفَجْرِ﴾.

وقوله: ﴿فَسُبِّحْنَ اللَّهَ حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ﴾ ﴿وَلَهُ الْحَمْدُ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَعَشِيًّا وَحِينَ تُظْهِرُونَ﴾ [الروم] وغير ذلك، وكانت مشروعية الصلوات الخمس على الأمة ليلة الإسراء، كما ثبت في أحاديث الإسراء والمعراج.

وقد نزلت هذه الآية، عقب حادث الإسراء، جمعًا للتشريع بين الكتاب والسنة، الذي شرع للأمة في قوله تعالى: ﴿وَقَضَى رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ﴾ [الإسراء: ٢٣].

(١) قرأ أبو عمرو بإسكان السين من (رسلنا)، والباقون بضمها.

وقد عَيَّنَت الآية أوقات الصلوات الخمس بعد تقرير فرضيتها .

وقد بَيَّنَت السُّنَّة المتواترة عن رسول الله ﷺ من أقواله وأفعاله ﷺ بتفاصيل أوقات الصلاة على ما عليه أهل الإسلام اليوم، مما تلقَّوه خَلْفًا عن سلف، وقرنًا بعد قرن، وبَيَّنَت كيفية الصلاة وما تشتمل عليه من الأفعال والأقوال، بَيَّنَت أيضًا السُّنَّة المتواترة، كما في قوله ﷺ: «صلوا كما رأيتموني أصلي»^(١).

هذا ما يشير إليه قوله تعالى: ﴿أَقِمِ الصَّلَاةَ لِذُلُوكِ الشَّمْسِ﴾ وهو أمر من الله تعالى لرسوله ﷺ، ويراد بهذا الأمر: الأمة.

ودلوك الشمس: هو وقت زوال الشمس عن وسط، أو كَبِد السماء إلى جهة الغروب، حيث يبدأ وقت الظهر، ويدخل فيه صلاتا: الظهر، والعصر، ولهذا صح الجمع بينهما بالنسبة للمسافر والمريض، فله أن يجمع بين صلاتي: الظهر، والعصر جمع تقديم، أو تأخير؛ فهما وقت دلوك الشمس.

ودلوك الشمس أيضًا: ميلانها نحو الغروب ﴿إِنِّي عَسَى أَلِيلٌ﴾

وغسق الليل: بدء دخول الظلمة، ويدخل في هذا وقت المغرب، والعشاء، ولهذا صح الجمع بينهما في السفر والمرض جمع تقديم أو تأخير، والوقت الخامس هو صلاة الفجر الذي عبر الله تعالى عنه بقوله: ﴿وَقُرْآنَ الْفَجْرِ﴾.

فالخلاصة: أن دلوك الشمس: هو زوالها، وفيه إشارة إلى صلاتي: الظهر، والعصر، وغسق الليل: ظلمته، وفيه إشارة إلى صلاتي: المغرب، والعشاء.

وفي قوله: ﴿وَقُرْآنَ الْفَجْرِ﴾ إشارة إلى صلاة الفجر، وسماه قرآنًا؛ لكثرة القراءة في صلاة الفجر بطوال المفصل، ولأنها صلاة جهرية، ولفضل صلاة الجماعة فيها، كما جاء في الصحيحين، وغيرهما:

١- عن أبي هريرة ؓ أن النبي ﷺ قال: «فضل صلاة الجميع على صلاة الواحد خمسٌ وعشرون درجة، وتجتمع ملائكة الليل وملائكة النهار في صلاة الصبح، يقول أبو

(١) من حديث مالك بن الحورث في «صحيح البخاري» برقم (٦٣١) و«صحيح مسلم» برقم (٦٧٤).

هريرة: اقرؤوا إن شئتم ﴿إِنَّ قُرْآنَ الْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا﴾^(١).

٢- وفي الحديث: عن أبي هريرة أيضًا أن النبي ﷺ قال: «يتعاقبون فيكم ملائكة الليل وملائكة النهار، ويجتمعون في صلاة الصبح، وفي صلاة العصر، فيعرج الذين باتوا فيكم، فيسألهم ربهم: كيف تركتم عبادي؟ فيقولون: تركناهم وهم يصلون، وأتيناهم وهم يصلون، فيشهدون من صلى الفجر ومن صلى العصر»^(٢).

٣- وصح عن رسول الله ﷺ فيما يرويه أبو هريرة ؓ في قوله تعالى: ﴿وَقُرْآنَ الْفَجْرِ﴾ قال: «تشهده ملائكة الليل، وملائكة النهار تجتمع فيها»^(٣).

فهذا نص في أن المراد بقرآن الفجر: القرآن الذي يُقرأ في صلاة الفجر، وتشهده ملائكة الليل، وملائكة النهار.

فيكون معنى الآية: أقم الصلاة تامة وحافظ عليها من وقت زوال الشمس عند الظهر، وهو وقت دلوك أو تحول الشمس، كما في حديث جابر بن عبد الله ؓ أنه دعا النبي ﷺ، وأصحابه قطعوا عنده، ثم خرجوا حين زوال الشمس عن وسط السماء، أي: أول وقت الظهر، فقال عليه الصلاة والسلام لأبي بكر: «اخرج يا أبا بكر فهذا حين دلت الشمس»^(٤).

ومن وقت الزوال إلى الغروب يسمى: دلوگا، إلى وقت ظلمة الليل، ويدخل في هذا صلوات: الظهر، والعصر، والمغرب، والعشاء.

وأقم صلاة الفجر، إن قراءة القرآن في صلاة الفجر تحضرها ملائكة الليل، وملائكة النهار. ودل هذا على أن الصلاة لا تكون إلا بقرآن؛ لأنها سُميت قرآنًا:

(١) أخرجه البخاري برقم (١٧٦، ٤٧١٧) وأخرجه مسلم برقم (٦٤٩) وبنحوه (٢٧٢) مطولاً وعبد الرزاق (٢٠٠١).

(٢) البخاري برقم (٥٥٥، ٣٢٢٣، ٧٤٢٩) ومسلم برقم (٦٣٢).

(٣) «المسند» (١٠١٣٣) قال محققوه: رجاله ثقات رجال الشيخين و«صحيح سنن الترمذي» (٢٥٠٧) و«سنن النسائي الكبرى» (١١٢٩٣) والحاكم (٢١٠/١) والبيهقي في «الشعب» (٢٨٣٥) وابن ماجه (٦٧٠)، وابن خزيمة (١٤٧٤) وأخرجه البخاري في القراءة خلف الإمام (٢٥١).

(٤) «تفسير الطبري» (٩٣/١٥) وفي سننه (العزني) مجهول.

- ١- عن عبادة بن الصامت رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «لا صلاة لمن لم يقرأ بفاتحة الكتاب»^(١).
- ٢- وفي الحديث: عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: «أمرنا أن نقرأ بفاتحة الكتاب، وما تيسر»^(٢).
- ٣- وفي حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال: «أمرني رسول الله ﷺ أن أنادي: إنه لا صلاة إلا بقراءة فاتحة الكتاب فما زاد»^(٣).

صَلَاةُ التَّهَجُّدِ

٧٩- ﴿وَمِنَ اللَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِ نَافِلَةً لَّكَ عَسَىٰ أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا﴾ (٧٩)

عطف سبحانه صلاة الليل على صلاة الفريضة وصلاة التهجد ﴿الَّيْلِ﴾ فيها زيادة على الصلاة المكتوبة، وهي خاصة بالنبي ﷺ؛ لرفع قدره، وعلو درجته مخاطباً بذلك رسول الله ﷺ في قوله: ﴿نَافِلَةً لَّكَ﴾ أي: فريضة زائدة لك، وهي بالنسبة لغير النبي ﷺ سنة مرغّب فيها على أفراد الأمة، المخاطبين بقوله تعالى: ﴿فَاقْرَءُوا مَا يَسَّرَ مِنْهُ﴾ [المزمل: ٢٠].

وقد سئل النبي ﷺ عن أفضل الصلاة بعد المكتوبة فقال: «صلاة الليل»^(٤).

والهجوم: هو النوم في الليل، وصلاة التهجد تكون بعد منتصف الليل، وتكون بعد نوم على الأرجح؛ لأن فيها تركاً للهجوم وهو النوم، وجاء ذكر صلاة التهجد من بين النوافل في القرآن الكريم على وجه الخصوص؛ فالله سبحانه يمدحها، ويثني عليها، ويأمر رسوله بها، وهي من النوافل في حق الأمة.

والأرجح أنها مفروضة في حق رسول الله ﷺ، وقد كانت صلاة التهجد فريضة على الأمة في بدء الإسلام؛ بمقتضى قوله تعالى: ﴿يَأْتِيهَا الْمَرْمِلُ﴾ ﴿قُرْ أَلَيْلَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ ﴿يُصَفِّهُ أَوْ﴾

(١) مسلم برقم (٣٩٤) والبخاري برقم (٧٥٦) والترمذي برقم (٢٤٧) وقال: حسن صحيح وأبو داود وابن ماجه وكلهم عن عبادة.

(٢) أبو داود في الصلاة (٨١٨) وصححه الألباني في صحيح أبي داود (٧٣٢) والترمذي في الصلاة (٢٣٨) وقال: حديث حسن.

(٣) أبو داود (٨٢٠) وصححه الألباني في صحيح أبي داود (٧٣٣).

(٤) أخرجه مسلم عن أبي هريرة برقم (١١٦٣).

أَنْقَضَ مِنْهُ قَلِيلًا ﴿٢﴾ أَوْ زِدَ عَلَيْهِ ﴿٣﴾ [المزمل].

وظلَّ هذا معمولًا به حتى نزلت الآية الأخيرة من سورة المزمل [٢٠]، وفيها: ﴿عَلِمَ أَنْ لَنْ تُخْصَوْهُ فَتَأْتِيَكُمْ فَآرَءُ مَا يَسَّرَ مِنَ الْقُرْآنِ عَلِمَ أَنْ سَيَكُونُ مِنْكُمْ مَرْجُؤٌ وَآخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِي الْأَرْضِ يَبْتَغُونَ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ وَآخَرُونَ يُقْتَلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَآرَءُ مَا يَسَّرَ مِنْهُ﴾.

وهذه الآية الأخيرة من سورة المزمل نزلت بعد سنة من نزول أول السورة، ونسخت فرضية التهجد على الأمة، وهي متقدمة في النزول على آية الإسراء ﴿وَمَنْ أَلِيلٌ فَتَهَجَّدْ بِهِ نَافِلَةً لَكَ﴾.

ومن الأحاديث الواردة في فضل قيام الليل:

١- حديث أبي هريرة ؓ أن رسول الله ﷺ قال: «أفضل الصيام بعد رمضان شهر الله المحرم، وأفضل الصلاة بعد الفريضة صلاة الليل»^(١).

٢- ومن ذلك ما جاء في الصحيحين، وغيرهما: عن المغيرة بن شعبة ؓ قال: صلى رسول الله ﷺ حتى انتفخت قدماه، فقليل له: أتتكلف هذا وقد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر؟! قال: «أفلا أكون عبدًا شكورًا؟»^(٢).

٣- وفي صحيح مسلم، وأبي داود، وغيرهما: عن زيد بن خالد الجهني ؓ أنه توسّد عتبة النبي ﷺ وقال: لأرْمُقَنَّ صلاة رسول الله ﷺ قال: فصلّي ركعتين خفيفتين، ثم صلى ركعتين طويلتين، طويلتين، ثم صلى ركعتين دونهما، ثم صلى ركعتين دونهما، ثم صلى ركعتين دونهما، ثم أوتر، فهذه ثلاث عشرة ركعة»^(٣).

٤- وفي الصحيحين: عن عائشة ؓ قالت: ما كان رسول الله ﷺ يزيد في رمضان، ولا في غيره على إحدى عشرة ركعة، يصلي أربعًا فلا تسأل عن حسنهن وطولهن، ثم يصلي أربعًا فلا تسأل عن حسنهن وطولهن، ثم يصلي ثلاثًا، قالت عائشة: فقلت: يا

(١) «صحيح مسلم» برقم (١١٦٣).

(٢) هذا لفظ مسلم برقم (٢٨١٩) وأخرجه البخاري برقم (١١٣٠)، ٤٨٣٦، ٦٤٧١.

(٣) مسلم (٧٦٥) وأبو داود (١٣٦٦) وابن ماجه (١٣٦٢) والترمذي في «الشمائل» (٢٦٩) والنسائي في «الكبرى» (٣٩٥، ١٣٣٨).

رسول الله أتنام قبل أن توتر؟ فقال: «يا عائشة إن عيني تنامان، ولا ينام قلبي»^(١).

٥- وفي الصحيحين، وغيرهما: عن عائشة ؓ وهي تصف صلاة النبي ﷺ في الليل، قالت: كان رسول الله ﷺ يصلي بعد أن يفرغ من صلاة العشاء إلى الفجر إحدى عشرة ركعة، يسلم من كل ركعتين، ويوتر بواحدة^(٢).

وقد وصفت ؓ سجوده ﷺ بأنه بمقدار ما يقرأ أحدكم خمسين آية قبل أن يرفع رأسه.

٦- وروى أبو داود، والنسائي، وغيرهما: عن عوف بن مالك الأشجعي ؓ قال: قمت مع رسول الله، فقام فقرأ سورة البقرة، لا يمر بآية رحمة إلا وقف وسأل، ولا يمر بآية عذاب إلا وقف وتعوذ، ثم ركع بقدر قيامه يقول في ركوعه: «سبحان ذي الجبروت والملكوت والكبرياء والعظمة»، ثم سجد بقدر قيامه، ثم قال في سجوده مثل ذلك، ثم قام فقرأ بآل عمران، ثم قرأ سورة النساء^(٣).

٧- وفي الصحيحين: عن الأسود قال: سألت عائشة ؓ: كيف كانت صلاة رسول الله ﷺ من الليل؟ قالت: كان ينام أوله، ويقوم آخره فيصلّي، ثم يرجع إلى فراشه، فإذا أذن المؤذن وثب، فإن كان به حاجة اغتسل، وإلا توضأ وخرج^(٤).

فهذه أحاديث صحيحة تدل على مختلف أحوال النبي ﷺ في صلاة التهجد والوتر.

وفي قوله تعالى: ﴿عَسَىٰ أَنْ يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا﴾ لفظ: ﴿عَسَىٰ﴾ بالنسبة لله تعالى للوجوب.

والمقام المحمود: هو موقف الشفاعة العظمى يوم القيامة لرسول الله ﷺ؛ حيث يبعثه الله هذا المقام وييده لواء الحمد، ويحمده الأولون والآخرون من البشر، والناس في موقف عصيب، يعرّقون حتى يبلغ العرق إلى أنصاف آذانهم، ومنهم من يلجمه العرق

(١) «صحيح البخاري» برقم (١١٤٧، ٢٠١٣، ٣٥٦٩) و«صحيح مسلم» برقم (٧٣٨) وأبو داود (١٣٤١) والترمذي (٤٣٩) و«المسند» (٢٤٠٧٣) بإسناد صحيح على شرط الشيخين، وأخرجه مالك في الموطأ ١/ ١٢٠ وعبد الرزاق (٤٧١١).

(٢) البخاري (٩٩٤، ١١٢٣) ومسلم (٧٣٦) و«السنن الكبرى» للنسائي (٤١٨، ١٤٤٩) و«المسند» (٢٤٠٥٧).

(٣) أبو داود (٨٧٣) والترمذي في «الشمائل» (٣١٣) و«المسند» (٢٣٩٨٠) والنسائي في «السنن الكبرى» (٧٢٢).

(٤) «صحيح البخاري» برقم (١١٤٦) و«صحيح مسلم» مطوّلًا برقم (٧٣٩).

إلجأماً، وهو يوم تشيب فيه رؤوس الأطفال، ويكون الناس في كرب شديد، فيتوجهون إلى الأنبياء بدءاً من آدم، ثم نوح، ثم إبراهيم، وهكذا... إلى عيسى عليهم جميعاً أفضل الصلاة وأتم التسليم، يسألونهم أن يفصل الله بينهم، فيحاسبهم، ويقضي بينهم، ويضربهم من هذا الموقف ولو إلى النار؛ من شدة ما هم فيه من كرب، ويتخلى جميع الأنبياء عن هذه الشفاعة، ويسجد رسول الله ﷺ بين يدي ربه، ويقول الله تعالى له: «ارفع رأسك، وسل تعط، واشفع تشفع»^(١).

هذا هو المقام المحمود، كما نطقت بذلك الأحاديث، ومنها:

١- ما جاء في الصحيحين: عن جابر بن عبد الله رضي الله عنه أن من سمع النداء الآذان فقال: «اللهم رب هذه الدعوة التامة، والصلاة القائمة، آت محمداً الوسيلة والفضيلة، وابعثه مقاماً محموداً الذي وعدته، حلت له شفاعتي يوم القيامة»^(٢).

أي: وجبت له شفاعته النبي ﷺ يوم القيامة.

٢- وقال عبد الله بن عمر رضي الله عنهما: إن الناس يصيرون يوم القيامة جثاً، كل أمة تتبع نبيها يقولون: يا فلان: اشفع، يا فلان: اشفع، حتى تنتهي الشفاعة إلى النبي ﷺ، فذلك يوم يبعثه الله مقاماً محموداً^(٣) وجثاً يعني: جماعات.

٣- وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ في قوله: ﴿عَسَى أَنْ يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَحْمُودًا﴾ قال: «هي الشفاعة»^(٤). ولفظ أحمد «هو المقام الذي أشفع لأمتي فيه»^(٥).

٤- وفي صحيح مسلم: عن عبد الله بن عمرو بن العاص أن رسول الله ﷺ قال: «إذا سمعتم المؤذن، فقولوا مثل ما يقول، ثم صلوا عليّ، فمن صلى عليّ صلاة، صلى الله

(١) يُنظر: حديث الشفاعة العظمى في «المسند» (١١٦/٣) و(٤٣٥/٢٢) برقم (١٢٨٢٤) والبخاري برقم (٧١٢، ٣٣٤٠، ٤٤٧٦) ومسلم برقم (١٩٣).

(٢) «صحيح البخاري» برقم (٦١٤، ٤٧١٩).

(٣) «صحيح البخاري» برقم (١٤٧٤، ٤٧١٨) ومسلم (١٠٤٠).

(٤) أخرجه الترمذي وقال: حديث حسن صحيح (٣١٣٧) و«صحيح سنن الترمذي» (٢٥٠٨) والسلسلة الصحيحة (٢٦٣٩، ٢٣٧٠) وظلال الجنة (٧٨٤).

(٥) و«المسند» (٩٦٨٤، ١٠٨٣٩). قال محققوه: حديث حسن لغيره وأخرجه الطبري (١٤٥/١٥).

عليه بها عشرًا، ثم سلوا الله لي الوسيلة، فإنها منزلة في الجنة، لا تنبغي إلا لعبد من عباد الله، أرجو أن أكون هو، فمن سأل لي الوسيلة حلت له الشفاعة»^(١).

٥- وأخرج النسائي وغيره بسندهم إلى حذيفة رضي الله عنه قال: يُجمع الناس في صعيد واحد، فيُسْمِعُهُم الداعي، وينفذهم البصر، حفاة عراة كما خُلِقُوا، قِيَامًا، لا تكلّم نفس إلا بإذنه، ينادى: يا محمد، فيقول: «ليك وسعديك والخير في يديك، والشر ليس إليك، والمهدي من هديت، عبدك وابن عبدك، وبك وإليك، لا ملجأ ولا منجا منك إلا إليك، تباركت وتعاليت، سبحانه رب هذا البيت»، فهذا المقام المحمود الذي ذكره الله تعالى^(٢).

٦- وعن كعب بن مالك رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «يبعث الناس يوم القيامة فأكون أنا وأمتي على تلٍّ، ويكسوني ربي حلة خضراء، ثم يؤذن لي فأقول: ما شاء الله أن أقول، فذلك المقام المحمود»^(٣).

٧- وعن ابن عمر رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «إن الشمس لتدنو حتى يبلغ العرق نصف الأذن، فبينما هم كذلك استغاثوا بآدم، فيقول: لستُ صاحب ذلك، ثم بموسى فيقول كذلك، ثم بمحمد، فيشفع بين الخلق، فيمشي حتى يأخذ بحلقة باب الجنة، فيومئذ يبعثه الله مقامًا محمودًا يحمده أهل الجمع كلهم»^(٤).

٨- وعن أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «أنا سيد ولد آدم يوم القيامة، وأول من ينشق عنه القبر وأول شافع، وأول مشفع»^(٥).

٩- وفي الصحيحين: عن أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «لكل نبي دعوة مستجابة،

(١) «صحيح مسلم» برقم (٣٨٤).

(٢) وأخرجه النسائي في «السنن الكبرى» من حديث حذيفة برقم (١١٢٠٣٠) والطيالسي (٤١٤) والبزار في «الزوائد» (٣٤٦٢) وعبد الرزاق، والحاكم من طريق ابن أبي إسحاق وصححه ووافقه الذهبي، «المستدرک» (٢/٣٦٣).

(٣) «المسند» (١٥٧٨٣) بإسناد صحيح على شرط مسلم وابن حبان (٦٤٧٩) والحاكم (٢/٣٦٣).

(٤) «صحيح البخاري» برقم (١٤٧٥، ٤٧١٨) و«تفسير الطبري»: (٩٨/١٥) وانظر: «صحيح مسلم» (١٠٤٠).

(٥) «صحيح مسلم» برقم (٢٢٧٨).

فَتَعْجَلْ كُل نَبِي دَعْوَتَهُ، وَإِنِّي اخْتَبَأْتُ دَعْوَتِي شَفَاعَةً لِّأُمَّتِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ، فَهِيَ نَائِلَةٌ إِنْ شَاءَ اللَّهُ مِنْ مَاتَ مِنْ أُمَّتِي لَا يَشْرِكُ بِاللَّهِ شَيْئًا»^(١).

ومن خصائص النبي ﷺ يوم القيامة إلى جوار ذلك، أنه أول من تنشق عنه الأرض، ويُبعث إلى الحشر راکبًا، ويكون الخلق تحت لوائه، وله الحوض المورود، ويشفع في أقوام قد أمر بهم إلى النار، فَيَرُدُّونَ عَنْهَا، وهو أول من يُقضى بين أُمته، وأول من يجوز الصراط بأُمته، وأول شفيع في الجنة، وأول داخل إلى الجنة، وأُمته قبل الأمم، ويشفع في رفع درجات أقوام في الجنة، ويشفع للعصاة من أُمته بما لا يعلم عددهم إلا الله، ولا يساويه أحد في هذه الشفاعة، ولا يكون مثله.

وقد أمر الله نبيه أن يتهيأ لهذه الدرجات يوم القيامة بقيام الليل، وتلاوة القرآن فيها؛ ليكون ذلك زيادة له في علو شأنه، حتى يشفع للناس يوم القيامة؛ ليرحمهم الله مما هم فيه، ويحمده الأولون والآخرون.

اللُّجُوءُ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى عَنْ طَرِيقِ الدُّعَاءِ

٨٠- ﴿وَقُلْ رَبِّ أَدْخِلْنِي مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِي مَخْرَجَ صِدْقٍ وَاجْعَلْ لِي مِنْ لَدُنْكَ سُلْطَانًا نَصِيرًا﴾

ولما أمر الله نبيه بالشكر الفعلي في الآية السابقة، أمره هنا بالشكر القولي، بأن يبتهل إلى الله تعالى، ويسأله التوفيق إلى كل خير، والخروج من كل شر، ومن ذلك أن يسأل ربه التوفيق في الدخول إلى كل مكان، ومن ذلك دخول المدينة النبوية، والخروج من أي مكان؛ ومن ذلك الخروج من مكة وغيرها، وأن يحسن الله حاله في كل ما يتناول من الأمور، ويجول من أسفار، ويحاول من أعمال، وما ينتظر من تصرف المقادير في الموت والحياة، فالآية على هذا العموم.

ويصح أن يكون المراد منها: معنى خاصًا، وهو دخول المدينة النبوية، ولكن المعنى العام أولى، ولعل كون هذه الآية مسبقة بقوله تعالى: ﴿عَسَى أَنْ يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَحْمُودًا﴾ أي: يوم القيامة بعد البعث من القبور، لعل ذلك يناسب أن يكون المعنى: أدخلني يارب إلى القبر مدخل صدق، وأخرجني من القبر مخرج صدق.

(١) مسلم (١٩٨، ١٩٩) وهذا لفظه البخاري (٦٣٠٤، ٧٤٧٤).

وأيضاً فإن هذه الآية سُبقت بقوله تعالى: ﴿وَإِنْ كَادُوا لَيَسْتَفِزُّوكَ مِنَ الْأَرْضِ لِيُخْرِجُوكَ مِنْهَا﴾ وفيها إشارة للنبي ﷺ أنه سيخرج من مكة، سائلاً ربه أن يخرج منه مخرج صدق، وأن يدخله المدينة مدخل صدق، ودخول القبر، ودخول مكة، يدخلان ضمن عموم الآية، وكذلك الدخول إلى كل أمر فيه خير، والخروج من كل أمر فيه شر.

قال ابن عباس ؓ: كان النبي ﷺ بمكة، ثم أمر بالهجرة، فأنزل الله هذه الآية^(١).

وقال الحسن البصري: إن كفار مكة لما ائتمروا برسول الله ﷺ؛ ليقتلوه، أو يطردوه، أو يوثقوه، وأراد قتال أهل مكة، أمره ربه أن يخرج إلى المدينة فهو الذي قال الله فيه: ﴿وَقُلْ رَبِّ أَدْخِلْنِي مُدْخَلَ صِدْقٍ﴾^(٢).

قال ابن عاشور: والظاهر أن هذه الآية نزلت قبيل بيعة العقبة الأولى، التي كانت مقدمة الهجرة إلى المدينة^(٣). فالآية عامة، ولعل الأمر بالهجرة هو سبب النزول:

المراد بالسلطان النصير في الآية:

وقال قتادة: إن نبي الله علم أن لا طاقة له بهذا الأمر إلا بسلطان، فسأل سلطاناً نصيراً لكتاب الله، ولحدود الله، ولفرائض الله، ولإقامة دين الله؛ فإن السلطان رحمة من الله جعله بين أظهر عباده، ولولا ذلك لأغار بعضهم على بعض فأكل شديدتهم ضعيفهم^(٤).

ولذا: سأل النبي ربه أن يؤيده بالحجة والبرهان، وبالعزة والسلطة، والقوة والمنعة؛ لكي يبلغ رسالة ربه، فقال: ﴿وَجَعَلْ لِي مِنْ لَدُنْكَ سُلْطَانًا نَصِيرًا﴾.

والسلطان: هو الحجة، والبيّنة الثابتة التي ينتصر بها الرسول ﷺ على جميع الخلق الذين خالفوا دعوته، بأن يظهر الله هذا الدين على سائر الشرائع، كما قال تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ﴾ [الصف]

(١) «المسند» (٢٢٣/١) برقم (١٩٤٨) بإسناد ضعيف والترمذي (٣١٣٩) والطبراني (١٢٦١٨) وضعفه الألباني في «ضعيف سنن الترمذي» (٦١١).

(٢) «تفسير الطبري» (١٠٠/١٥) و«تفسير ابن كثير» (١١١/٤).

(٣) «تفسير التحرير والتنوير» (١٠٠/١٥).

(٤) «تفسير ابن كثير» (١١١/٤).

ولابد لإقامة الحق من قوة تدعمه وتسانده، فتقهر أهل الباطل وتدحضهم، وتحول بينهم وبين الوقوف في وجه انتشار الدعوة، فلن يكون الدين عزيزاً قوياً إلا بغلبة الأعداء، ولذا: فقد وعد الله رسوله بنزع مُلك فارس، والروم، وغيرهما، وعصمه بحفظ دمه من أعدائه، فقال: ﴿وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ﴾ [المائدة: ٦٧]

وقال تعالى: ﴿فَإِنَّ حَرْبَ اللَّهِ هُمْ الْقَلِيلُونَ﴾ [المائدة: ٥٦]

وقال: ﴿كَتَبَ اللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ [المجادلة].

وقال: ﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّن بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا﴾ [النور: ٥٥].

وقد أيد الله رسله بالقوة المادية، والحجج البينة لإقامة الحق وظهور الشريعة، قال تعالى: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ وَأَنزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنْفَعٌ لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ مَن يَصُرُّ وَرُسُلُهُ بِالْغَيْبِ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ [الحديد]

فقد جمعت الآية بين الحجة العقلية، وهي الكتاب، والحجة العقلية، وهي البينات، والعدل، وهو الميزان والقسط، والقوة المادية، وهي الحديد. وبيّنت الآية أن نصر الله سبحانه، وقوة المؤمنين وعزتهم، تتحقق بهذه الأمور مجتمعة. وجاء في الأثر: إن الله يزع بالسلطان ما لا يزع بالقرآن.

أي: يمنع بالقوة والغلبة، ما لا يمنعه بالبرهان، والدليل الثقلي.

ولما استعمل النبي ﷺ (عتّاب بن أسيد) على أهل مكة، قال له: «انطلق فقد استعملتك على أهل الله»، فكان شديداً على المريب، ليثاً على المؤمن، وقال: لا، والله لا أعلم متخلفاً يتخلف عن الصلاة في جماعة إلا ضربت عنقه؛ فإنه لا يتخلف عن الصلاة إلا منافق، فقال أهل مكة: يا رسول الله، لقد استعملت على أهل الله (عتّاب بن أسيد) أعرابياً جافياً، فقال ﷺ: «إني رأيت فيما يرى النائم كأن عتّاب بن أسيد أتى باب الجنة، فأخذ بحلقة الباب فقلقلها قلقلًا شديداً، حتى فُتح له فدخلها، فأعز الله به الإسلام لنصرة

المسلمين على من يريد ظلمهم، فذلك السلطان النصير^(١).

وطلبُ النبي ﷺ السلطان لنصره في تبليغ الدعوة وانتشار الإسلام، لا للتعالي وطلب الجاه، فكأنه ﷺ يقول: واجعل لي - يا إلهي - حجة تنصرنني بها على من خالفني، وقوة غالبية تُرهب المبطلين وتُعيني على إقامة دينك، وإزالة الشرك والكفر.

مَجِيءُ الْإِسْلَامِ بِالتَّوْحِيدِ وَإِزَالَةُ الشُّرْكِ

٨١- ﴿وَقُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا﴾ (٨١)

ثم لقن الله رسوله أن يدعو ربه بتسديده وتأيينه؛ لإقامة الحق، وإبطال الباطل، بإظهار أمره وفوزه على أعدائه، فأمره الله أن يقول للمشركين: جاء الإسلام وذهب الشرك؛ لأنه باطل، والباطل لا يثبت، وإنما يتنفش وينتفخ، ثم يتهاوى ويسقط، أما الحق فهو يحمل عناصر البقاء، ولذلك فهو ثابت لا يزول.

فالحق هو الإسلام وتعاليمه، والباطل هو الشرك وسائر المعاصي.

وقد قال تعالى: ﴿بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ﴾ [الأنبياء: ١٨].

وقال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ رَبِّي يَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَٰمُ الْغُيُوبِ﴾ (٤٨) ﴿قُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَمَا يُبْدِئُ الْبَاطِلُ وَمَا يُعِيدُ﴾ (٤٩) [سبأ].

وفي الآية التي معنا بشارة لرسول الله ﷺ بإظهار الحق وهو الإسلام، وما تضمنه القرآن من التوحيد وغيره، وزوال الباطل، وهو دولة الشرك والوثنية، وقد ظهر الإسلام وانتشر في الآفاق، فهذا كتاب الله بين أيدينا، وقد ذهبت دولة الشرك من جزيرة العرب، وسوف تذهب بمشيئة الله تعالى من العالم كله ﴿إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا﴾ لا ثبات له مع الحق.

وقد استحضر النبي ﷺ هذه الآية الفذة الجامعة، فألقاها على مسامع أعدائه يوم فتح مكة:

ففي الصحيح وغيره: أن النبي ﷺ لما دخل مكة فاتحاً وجد حول الكعبة ثلاث مئة وستين صنماً، فأخذ ﷺ يطعن بها بقضيب في يده، فتسقط وتتكسر وهو يقول: ﴿جَاءَ الْحَقُّ

(١) تفسير الكشاف (٢/٦٨٨).

وَزَهَقَ الْبَاطِلُ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا^(١).

الْقُرْآنُ شِفَاءٌ لِلْأَزْوَاجِ وَشِفَاءٌ لِلْأَبْدَانِ

٨٢- ﴿وَنَزَّلُ^(٢) مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلَّا خَسَارًا^(٣)﴾

وهذا الحق المزهق للباطل يتمثل في القرآن؛ والقرآن يشتمل على الشفاء والرحمة الخاصة بالمؤمنين، لأن القرآن هو وعاء الإسلام، وهذا القرآن فيه شفاء للناس: شفاء للأرواح والقلوب من الجهل والضلال، وفيه شفاء من الشرك والشك والشقاق والنفاق، ومن الشح والحسد والكبر، وشفاء للأبدان من العلل والأمراض كما ثبت ذلك في الحديث الصحيح: عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه أنه كان في سرية فنزلوا على قوم فأبوا أن يضيفوهم، فلُدغ سيد الحي فسألوهم: أفيكم من يرقى من لدغ العقرب؟ قال: نعم، ولكن لا أرقى حتى تعطونا، فأعطوهم ثلاثين شاة، فقرأ عليه الفاتحة سبع مرات، فقال ﷺ: «وما يدريك أنها رقيه؟» قال: يا رسول الله، ألقى في روعي قال: «كلوا وأطعمونا من الغنم»^(٣).

فثبت بهذا أن الرُّقيا بالقرآن، أو الاستشفاء به، أمر مشروع، وهو شفاء للأبدان والأجسام كما هو شفاء للقلوب والأرواح ﴿وَنَزَّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ﴾ هذه الرحمة خاصة بالمؤمنين؛ لأنهم يهتدون بسببه؛ فالمؤمنون هم الذين يتشفعون بالقرآن، أما الظالم وغير المؤمن، فهو لا ينتفع به؛ لأنه يكذبه، ويجحده، ولذلك قال سبحانه: ﴿وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلَّا خَسَارًا﴾.

فكل آية من القرآن فيها أمر ونهي، ووعد ووعد، وهي مشتملة على هدى وصلاح للمؤمنين، وعلى عكسه للكافرين، فيزدادون غيظًا وكراهية للإسلام، فيزيدهم ذلك آثامًا، وبعثًا، وهلاكًا، كما قال تعالى:

(١) يُنْظَرُ: «البخاري» برقم (٢٤٧٨، ٤٧٢٠) و«مسلم» برقم (١٧٨١) و«مصحف ابن أبي شيبة» (٤٨٧/١٤) و«الترمذي» (٣١٣٨) والنسائي في «الكبرى» (١١٢٩٧، ١١٤٢٨).

(٢) قرأ أبو عمرو ويعقوب وتخفيف الزاي وإسكان النون من (ونزل) مضارع أنزل، وقرأ الباقون بتشديد الزاي وفتح النون، مضارع نزل، ومثلها (حتى تنزل) في الآية [٩٣].

(٣) يُنْظَرُ: «البخاري» (٢٢٧٦، ٥٧٣٦، ٥٧٤٩) و«مسلم» (٢٢٠١).

﴿فَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا فَرَّادَتْهُمْ إِيمَانُهُمْ يَسْتَغِيثُونَ ﴿١٧٤﴾ وَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فَرَّادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَى رِجْسِهِمْ وَمَاتُوا وَهُمْ كَافِرُونَ ﴿١٧٥﴾﴾ [التوبة] وقوله: ﴿قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا هُدًى وَشِفَاءٌ وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِي ءَادَانِهِمْ وَقَرْ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَذَابٌ﴾ [فصلت: ٤٤].

الكَافِرُ لَا يَشْكُرُ فِي السَّرَّاءِ وَلَا يَصْبِرُ عَلَى الضَّرَّاءِ

٨٣- ﴿وَإِذَا أَنْعَمْنَا عَلَى الْإِنْسَانِ أَعْرَضَ وَنَسَى ^(١) بِحَانِهِ وَإِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ كَانَ يَتُوسَّسُ ﴿١٧٦﴾﴾

يَبِّينُ ﷻ السبب النفسي الذي يوقع الكافر في الحرمان من الخير؛ فالإنسان بغير القرآن، إذا تُرك إلى نزعاته وشهواته ورغباته فإنه يضل الطريق، وفي هذه الآية تصوير لحال غير المؤمن عند الشدة والرخاء، والعسر واليسر؛ فالإنسان الكافر حين يُنعم الله عليه بالصحة، وبالأمن، وبالرزق، فإنه يتعذر عن ذكر الله تعالى وشكره، ويتكبر وينسى ربه في وقت الرخاء، وإذا مسه الشر فإنه يجزع ويفزع، كما فسرت ذلك سورة المعارج [١٩-٢٢] فوصفته بالهلع فقالت ﴿﴿ إِنَّ الْإِنْسَانَ خُلِقَ هَلُوعًا ﴿١٩﴾﴾﴾ ثم فسرت الآية التي بعدها الهلع فقال تعالى: ﴿﴿ إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعًا ﴿٢٠﴾﴾﴾ يجزع عند الشر ولا يصبر، وإذا مسه الخير يمنع ﴿﴿ وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعًا ﴿٢١﴾﴾﴾.

قال تعالى: ﴿﴿ إِلَّا الْمُضِلِّينَ ﴿٢٢﴾﴾﴾ ووصفهم ربنا بأوصاف تلي هذه الآية في سورة المعارج.

فالمعنى: أن الله تعالى إذا أنعم على الإنسان المكذب بآيات الله، بنعمة كالصحة، والأمن، والثراء تولى وتباعد عن طاعة الله، فهو ينكر الجميل في حالة السراء والرخاء، ويكفر بنعمة الله عليه، وهذا معنى قوله تعالى: ﴿﴿ وَإِذَا أَنْعَمْنَا عَلَى الْإِنْسَانِ أَعْرَضَ وَنَسَى بِحَانِهِ ﴿١٧٦﴾﴾﴾ فإذا زالت عنه هذه النعم، وأصبح في حالة الضراء والشدة، كالفقير، أو المريض، أو الخوف، فإن حاله لا يصلح، بل يظل ملازمًا لنكران الجميل، عاكفًا على كفره وشركه، وعدم التوبة إلى الله تعالى، فيضيق صدره، ويقنط يائسًا من فضل الله تعالى، قاطعًا للرجاء في حصول الخير، وهذا معنى ﴿﴿ وَإِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ كَانَ يَتُوسَّسُ ﴿١٧٦﴾﴾﴾ فهو إلى شر في كلتا الحالتين: إذا كان في نعمة طغي، وبغى، وتكبر، وإذا زالت عنه النعمة يئس من الخير،

(١) قرأ ابن ذكوان وأبو جعفر (وناء بجانه) بالالف ممدودة بعد النون وبعدها همزة مفتوحة، بمعنى: نهض، وقرأ الباقر (ونأى) بهمزة مفتوحة ممدودة بعد النون، من النأي، وهو: البعد.

وضاق صدره .

١- وهذا كقوله تعالى : ﴿وَلَيْنَ أَذْقَنَا الْإِنْسَانَ مِمَّا رَحِمَهُ ثُمَّ نَزَعْنَاهَا مِنْهُ إِنَّهُ لَيَكُونُ مِنْكُمْ قَوْرٌ ۖ وَلَيْنَ أَذْقَنَهُ نِعْمَاءَ بَعْدَ ضَرَاءٍ مَسْتَه لِيَقُولَنَّ ذَهَبَ السَّيِّئَاتِ عَنِّي إِنَّهُ لَفَرِحٌ فَخُورٌ ﴿١٠﴾ إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ [هود] .

٢- وقوله : ﴿وَإِذَا أَذَقْنَا النَّاسَ رَحْمَةً فَرِحُوا بِهَا وَإِن تُصِيبَهُمْ سَيِّئَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ إِذَا هُمْ يَقْنَطُونَ ﴿٣١﴾﴾ [الروم] .

٣- وقوله : ﴿وَإِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ الضُّرُّ دَعَانَا لِجَنبِهِ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَائِمًا فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُ مَرَّ كَأَن لَّمْ يَدْعُنَا إِلَى ضُرِّ مَسَّهُ﴾ [يونس : ١٢]

٤- وقوله : ﴿لَا يَسْتَعِمْ الْإِنْسَانُ مِنْ دُعَاءِ الْخَيْرِ وَإِن مَسَّهُ الشَّرُّ فَيَكُونُ قَنُوطٌ﴾ [فصلت] .

٥- وقوله : ﴿وَإِذَا مَسَّ النَّاسَ ضُرٌّ دَعَوْا رَبَّهُمْ مُنِيبِينَ إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَا أَذَاقَهُمْ مِنْهُ رَحْمَةً إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُمْ بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ ﴿٣٢﴾﴾ [الروم] .

٦- وقوله : ﴿وَلَيْنَ أَذْقَنَهُ رَحْمَةً مِّمَّا مِنْ بَعْدِ ضَرَاءٍ مَسْتَه لِيَقُولَنَّ هَذَا لِي وَمَا أَطْنُ السَّاعَةَ قَائِمَةً﴾ [فصلت : ٥٠] .

وعلى هذا فإن طبيعة الإنسان أن يفرح بالنعم، ويقطع الرجاء عند حدوث النقم، إلا من هداه الله، فإنه عند النعم يشكر ربه ويقوم بواجبها عليه، وعند النقم يسأل الله العافية وإزالة ما وقع فيه .

ومن هنا تتجلى قيمة الإيمان، وما فيه من رحمة للإنسان في السراء والضراء على حد سواء .

كُلُّ إِنَاءٍ يَنْضَحُ بِمَا فِيهِ

٨٤- ﴿قُلْ كُلُّ يَعْمَلُ عَلَى شَاكِلَتِهِ فَرَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَنْ هُوَ أَهْدَى سَبِيلًا ﴿٨٤﴾﴾

ثم ذم الله الكافر، ومدح المؤمن بقوله : ﴿قُلْ كُلُّ يَعْمَلُ عَلَى شَاكِلَتِهِ﴾ أي : كل إنسان يعمل ما يشاء وفق أخلاقه، وفطرته، وسجيته، وما يناسبه من أحوال، وما هو عليه من هدى أو ضلال، فإن كانت نفس الإنسان صافية مشرقة صدرت عنه أفعال حسنة، وإن كانت نفسه فاجرة كافرة، صدرت عنه أفعال سيئة شريرة، فربكم أعلم بأهل الهداية ومن

يسلكون طريقها، فيوفقهم ويسددهم.

وفي هذا ترغيب للمؤمن وإنذار للكافر، كما قال تعالى: ﴿وَقُلْ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ أَعْمَلُوا عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنَّا عَمِلُونَ﴾ (١٦) وَأَنْظِرُوا إِنَّا مُنْظِرُونَ ﴿١٧﴾ [هود].

والله سبحانه سيجزي ﴿الَّذِينَ اسْتَوُوا يَمَّا عَمِلُوا وَيَجْزِي الَّذِينَ أَحْسَنُوا بِالْحَسَنَى﴾ [النجم: ٣١].

﴿فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ﴾ (٧) وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ ﴿٨﴾ [الزلزلة].

وفي الآية تهديد بعاقبة العمل السيئ، وتحذير من سلوك طريق الضلال، والحث على سلوك طريق الهدى والرشاد.

الرُّوحُ مِنْ أَسْرَارِ اللَّهِ تَعَالَى

٨٥- ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾ (٨٥)

ثم ذكر الله تعالى جانباً من الأسئلة التي كانت توجه للنبي ﷺ على سبيل التعجيز؛ لتكذيبه في دعوى النبوة، وقد كان بين قريش وأهل يثرب، مصاهرة وتجارة وصحبة، وكان لكل يثريٍّ صاحب بمكة، ينزل عليه، كما كان بين أمية بن خلف وسعد بن معاذ، وكانت قريش تخالط نصارى الشام في رحلة الصيف، فاستفادت قريش من اليهود شيئاً، ومن النصارى شيئاً بحكم الصلات والعلاقات بينهما، وقد جاء السؤال من اليهود للنبي ﷺ عن الروح منفرداً، وجاء مع سؤاليين آخرين عن أهل الكهف وعن ذي القرنين، كما سئل النبي ﷺ عن الروح وهو في مكة، وسئل عنها وهو في المدينة، وكانت الإجابة بالآية نفسها:

(أ) في الصحيحين، وغيرهما: عن عبد الله بن مسعود ؓ قال: بينما أنا أمشي مع رسول الله ﷺ في حرث في المدينة وهو متكئ على عسيب (أي: على عصي من جريد) قال: فمر بنفر من يهود، فقال بعضهم لبعض: سلوه عن الروح فسألوه، فقام ﷺ ينتظر الوحي ساعة، قال: ثم رفع رأسه إلى السماء، فتأخرت عنه، وعلمت أن الوحي قد نزل عليه، ولما صعد الوحي قرأ ﷺ هذه الآية: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾ (٨٥) ^(١).

(١) يُنْظَرُ «المسند» (٣٨٩١/١) برقم (٣٦٨٨) و(٣٨٩٨) بإسناد صحيح على شرط الشيخين (محققوه) و«البخاري» برقم (١٢٥، ٤٧٢١، ٧٤٦٢) و«مسلم» برقم (٢٧٩٤) و«الترمذي» (٣١٤١) و«السنن الكبرى» للنسائي (١١٢٩٩) وابن حبان (٩٨).

(ب) وأخرج الترمذي، وغيره من طريق ابن أبي مليكة عن ابن عباس رضي الله عنه أن المشركين في مكة أرسلوا إلى أحبار يهود في المدينة، يقولون لهم: أعطونا شيئاً نسأل عنه هذا الرجل، أي: محمداً ﷺ، فقالوا لهم: سلوه عن الروح، فسألوه، فأنزل الله سبحانه الآية **﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ﴾** الحديث^(١).

هذان سببان لنزول الآية يفيدان التعاون بين كفار قريش وبين يهود المدينة في محاولاتهم لتعجيز رسول الله ﷺ وإفحامه، ويفيدان أيضاً أن هذه الآية تعدد نزولها، نزلت بمكة، ونزلت بالمدينة؛ لأن السورة مكية.

(ج) وفي رواية لابن عباس أيضاً أن نفرًا من قريش اجتمعوا، وقالوا: إن محمداً نشأ فينا بالأمانة والصدق، وما اتهمناه بكذب قط، وقد ادعى النبوة، فابعثوا نفرًا من اليهود بالمدينة واسألوهم عنه؛ فإنهم أهل كتاب، فبعثوا النضر بن الحارث، وعقبة بن أبي معيط، فقالت اليهود: سلوه عن ثلاثة أشياء، فإن أجاب عنها كلها، أو لم يُجب عن شيء منها فليس بنبي، وإن أجاب عن اثنتين ولم يجب عن واحدة، فهو نبي: اسألوه عن فتية فُقدوا في الزمن الأول، ما شأنهم؟ فإن لهم حديثاً عجيباً، وعن رجل بلغ مشرق الأرض ومغربها، ما خبره؟ واسألوه عن الروح، فسألوا النبي ﷺ فقال: «أخبركم بما سألتهم غداً»، فتأخر الوحي خمسة عشر يوماً؛ معاتبة على ترك الاستثناء، حتى حزن النبي ﷺ وشق عليه ذلك، ثم نزل جبريل بقوله تعالى: **﴿وَلَا تَقُولَنَّ لِشَايٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَلِكَ غَدًا﴾** [الكهف: ٢٣، ٢٤].

ونزل في الفتية **﴿أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَابَ الْكَهْفِ وَالرَّقِيعِ كَانُوا مِنَّ آيَاتِنَا عَجَبًا﴾** [الكهف]. ونزل فيمن بلغ المشرق والمغرب **﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ ذِي الْقُرْنَيْنِ قُلْ سَأَتْلُوا عَلَيْكُمْ مِنْهُ ذِكْرًا﴾** [الكهف: ٨٣].

ونزل في الروح **﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي﴾**^(٢).

(١) الترمذي (٣١٤٠) وقال: حديث حسن صحيح غريب، و«صحيح سنن الترمذي» (٢٥١٠) و«المسند»

(٢٣٠٩) بإسناد صحيح (محققه) و«السنن الكبرى» للنسائي (١١٣١٤) وابن حبان (٩٩) وأبو يعلى

(٢٥٠١) والحاكم (٥٣١/٢).

(٢) «تفسير الخازن» (١٧٩/٣).

فوقع السؤال عن الروح منفردًا كما في السببين السابقين، ووقع السؤال عنها مع المسألتين الأخيرتين مرة أخرى كما في هذا السبب، وكلها نزلت بمكة، وإن كانت سورة الإسراء متقدمة في النزول على سورة الكهف، على معنى أن النبي ﷺ أجاب عن سؤال الروح بما في سورة الإسراء، وأجاب عن أهل الكهف وعن ذي القرنين بما في سورة الكهف.

ولما سأل اليهود النبي ﷺ -كما في الرواية الأولى- انتظر إجابة الوحي ظنًا منه أنه سيجيبهم بغير ما أجاب به قريش؛ لأن اليهود أقرب إلى فهم معنى الروح، فأعلمه الله تعالى أن اليهود وقريشًا يستويان في العجز والجهل، وكان الجواب واحدًا؛ حيث أمره الله أن يتلو عليهم آية الإسراء، أو أنه قد تكرر نزول الآية.

وكان سؤالهم عن حقيقة الروح التي يحيا بها الإنسان وبيان ماهيتها، فهي أمر غير مشاهد، ولو شُرح الجسد فإنه لن يفقد شيئًا من أعضائه الظاهرة أو الباطنة، فكيف تتصل بالجسد؟! وكيف تفارقه؟! وقد صرف الله السائلين عن الإجابة، وبيّن أنها مما استأثر الله بعلمه، وليس في هذا حَجْرٌ على العقل من النظر والعمل، ولكنه توجيه للعقل أن يعمل في حدوده.

وقد نص العلماء على أن هذه الآية لا تصد عن البحث في حقيقة الروح؛ لأن الجواب نزل لطائفة من اليهود ولم يُقصد به المسلمون^(١).

المراد بالروح: والروح مخلوقة لله تعالى قبل خلق البدن، أو عنده، وهي تبقى بعد فناء الجسد، وتحضر يوم الحساب، والروح تطلق في القرآن، ويراد بها عدة معانٍ:

١- فقد يراد بها: جبريل عليه السلام كما في قوله تعالى: ﴿نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ﴾ [الشعراء: ١٩٣] ﴿نَزَّلْنَا الْمَلَائِكَةَ وَالرُّوحَ فِيهَا﴾ [القدر: ٤] أي: جبريل.

وكما في قوله تعالى: ﴿يُلْقِي الرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ﴾ [غافر: ١٥].

فلفظ الروح في هذه الآيات الثلاث يراد به جبريل الذي ينزل بالوحي من عند الله، سواء أنزل على محمد ﷺ أم على غيره من الرسل.

(١) نقله ابن عاشور في تفسيره عن أبي بكر العربي في «العواصم» والنووي في «شرح مسلم»، «تفسير التحرير والتنوير» (٢٠٠/١٥).

٢- وتطلق الروح، ويراد بها: القرآن كما في قوله تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا﴾ [الشورى: ٥٢].

٣- وتطلق الروح على عيسى عليه السلام؛ لأنه خلق بكلمة كن، قال تعالى: ﴿إِنَّمَا الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ اللَّهِ وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِّنْهُ﴾ [النساء: ١٧١].

٤- وتطلق الروح على الموجود الخفي الذي يحيا به جسد كل كائن حي، فيكون النمو والإحساس، ويموت هذا الكائن الحي عند مفارقتها للجسد.

والروح في هذه الآية: هي الروح التي يحيا بها الجسد؛ لأن القلوب تحيا بها، وهي من عند الله سبحانه، ومما استأثر الله جلّ شأنه بعلمها.

وقد عجز العقل البشري عن معرفة حقيقة الروح إلى يومنا هذا، وفي هذا إشارة إلى أن العقل ضعيف مخلوق محدود، له إمكانيات لا يستطيع أن يتعدها، فلا ينبغي له أن يبدد طاقته فيما لا يمكنه إدراكه، فإذا عجز العقل عن معرفة حقيقة الروح فهو من باب أولى يكون عاجزاً عن إدراك الذات الإلهية، وعن كنهها وحقيقتها.

ومع أن الله سبحانه قد فوّض أمر معرفة الروح إليه سبحانه، وبيّن أنها مما استأثر الله بعلمه، وأنها من أمر الله وتكوينه، كما قال تعالى عن آدم عليه السلام: ﴿فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُّوحِي﴾ [ص: ٧٢] فإن بعض العلماء والمفسرين تحدثوا كثيراً في معنى الروح، وهو كلام اجتهداي، لا يفيد شيئاً يقينياً مقطوعاً به في معنى الروح:

معاني الروح:

١- قالوا: إن الروح هي النفس، والصحيح: أنهما شيان.

٢- وقالوا: إن الروح هي الدم الذي يجري في الأوردة والعروق؛ لأن بانقطاعه، وتوقفه تتوقف الحياة.

٣- وقالوا: إنها عرض.

٤- وقالوا: إنها جسم لطيف نوراني يعيش به البدن.

٥- وقيل: إنها من الجواهر المجردة.

فهذه خمسة أقوال من بين أكثر من مئة وثمانية عشر قولاً، قيلت في معنى الروح، وهي من باب التصور والاجتهاد.

ولما نزلت ﴿وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾ قال اليهود: نحن أم أنتم؟ لقد أوتينا العلم والحكمة، والتوراة التي نزلت على موسى، والإنجيل الذي نزل على عيسى - قبل تحريفهما - فيهما خير وعلم وحكمة كثيرة، ولكن هذا الخير الكثير بالنسبة إلى علم الله تعالى شيء قليل، فهي ردُّ على اليهود.

قال عطاء بن يسار: نزلت بمكة ﴿وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾ فلما هاجر رسول الله ﷺ إلى المدينة أتاه أحبار يهود، فقالوا: يا محمد، بلغنا أنك تقول: ﴿وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾ أفَعَيْنَتْنَا أم قومك؟ قال: «كُلَّا عَيْنْتُ» قالوا: فإنك تتلو: إِنَّا أوتينا التوراة، وفيها تبيان كل شيء؟ فقال رسول الله ﷺ: «هي في علم الله قليل، وقد آتاكم ما إن عملتم به انتفعتُم» فَأَنْزَلَ اللَّهُ ﴿وَلَوْ أَنَّمَا فِي الْأَرْضِ مِنْ شَجَرَةٍ أَقْلَمٌ وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِنْ بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَا نَفِدَتْ كَلِمَاتُ اللَّهِ﴾ [لقمان: ٢٧].

والله ﷻ يبيِّن أن القرآن الذي أوتيهِ محمد ﷺ فيه العلم والحكمة، وفيه الخير كله.

والآية عامة بالنسبة للخلق أجمعين، فعلمهم قليل محدود، بالنسبة إلى علم الله سبحانه، كما قال الخضر لموسى عليهما السلام: ما نقص علمي وعلمك وعلم الخلائق من علم الله تعالى إلا كما نقص هذا العصفور من البحر، وكان قد نقر في البحر ليشرب. قال تعالى في الرد على اليهود: ﴿وَلَوْ أَنَّمَا فِي الْأَرْضِ مِنْ شَجَرَةٍ أَقْلَمٌ وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِنْ بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَا نَفِدَتْ كَلِمَاتُ اللَّهِ﴾ [لقمان: ٢٧].

هذا: وفي الآية ردع لمن يسأل تعثُّاً وتعجيزاً، ولهذا فقد أمر الله رسوله أن السؤال عن الروح ليس فيه كبير فائدة، وأن علمهم قليل بالنسبة لعلم الله تعالى، وفيها أن المسؤول ينبغي له أن يوجه السائل إلى ما هو أهم من سؤاله، مما يرشده وينفعه.

مَانِحُ الْعِلْمِ قَادِرٌ عَلَى سَلْبِهِ

٨٦- ﴿وَلَيْنَ شِئْنَا لَنُذْهِبَنَّ بِالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ بِهِ عَلِيًّا وَكَيْلًا﴾

ولما كان قوله تعالى: ﴿وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾ يفيد أن الإنسان مُنح علماً، ومُنح علماً، كعلم الروح، فقد بيّن ﷺ أن الذي منح العلم قادر على سلبه، وخوطب بذلك النبي ﷺ؛ لأن علمه أعظم العلوم، فإذا كان علمه خاضعاً لمشيئة الله تعالى، فما بالكم بعلم غيره؟ وفي هذا امتنان من الله تعالى على نبيه، وتحذير لسائر العلماء.

من أدلة انتزاع العلم:

- ١- قال عبد الله بن مسعود ﷺ: «اقرأوا القرآن قبل أن يُرفع؛ فإنه لا تقوم الساعة حتى يُرفع»^(١).
 - وعن عبد الله بن عمرو بن العاص ﷺ قال: «لا تقوم الساعة حتى يُرفع القرآن من حيث نزل، له دويٌّ حول العرش كدوي النحل، فيقول الرب: ما لك؟ فيقول: يارب، أثلى ولا يعمل بي»^(٢).
 - ٣- وعن عبد الله بن مسعود ﷺ قال: «ولَيُنزَعَنَّ القرآن من بين أظهركم، يُسرى عليه ليلاً، فيذهب من أجواف الرجال فلا يبقى في الأرض منه شيء»^(٣).
 - ٤- وفي حديث عبد الله بن عمرو بن العاص ﷺ: «إن الله لا يقبض العلم انتزاعاً ينتزعه من العباد، ولكن يقبض العلم بقبض العلماء، حتى إذا لم يبق عالم، اتخذ الناس رؤساء جهالاً، فسألوا فأفتوا بغير علم، فضلوا وأضلوا»^(٤).
- ويبدو من مجموع الأدلة أن انتزاع العلم يكون بقبض العلماء أولاً، ثم يكون برفع القرآن آخرًا، وذلك حين يأتي عليه وقت يُقرأ ولا يُعمل به، والله أعلم. والعلم الحقيقي يتضمنه هذا القرآن.

والله سبحانه يمتنُّ على رسوله ﷺ بأنه أوحى إليه هذا القرآن، ولو شاء جَلَّ شأنه لمحاه: ﴿وَلَيْنَ شِئْنَا لَنُدْهَبَنَّ بِالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ﴾ أي: ولئن شئنا ذهاب القرآن من صدرك

(١) «تفسير الخازن» للآية، والأثر في «شعب الإيمان» للبيهقي (٢٠٢٦).

(٢) «تفسير الخازن» للآية والأثر أخرجه محمد بن نصر في كتاب الصلاة، كما في «الدر المنثور» (٤٣٩/٩).

(٣) ذكره الحافظ ابن حجر في «فتح الباري» (١٣/١٣) من رواية الطبراني (٨٦٩٨، ٨٧٠٠) وقال: سنده

صحيح موقوف عليه وينحوه عند ابن أبي شيبة (٥٣٤/١) وابن أبي حاتم (١٦٥٨٦) والحاكم (٥٠٤/٤)

قال الهيثمي في «مجمع الزوائد» (٥٢/٧): رجاله رجال الصحيح غير شداد بن معقل وهو ثقة.

(٤) أخرجه البخاري برقم (١٠٠، ٧٣٠٧) ومسلم برقم (٢٦٧٣).

لأذهبناه من الصدور فمحوناه من السطور، ومحوناه من صدرك، ومحوناه من المصاحف ﴿ثُمَّ لَا يَجِدُكَ بِهِ عِلْمًا وَكِيلًا﴾ أي: لا تجد بعد ذهابه ومحوه من يتوكل عنا برده إليك في صدرك، أو بتسطيره في الكتب والسطور مرة أخرى وليس هناك من يمنعنا من ذلك. قال تعالى:

٨٧- ﴿إِلَّا رَحْمَةً مِن رَّبِّكَ إِنَّ فَضْلَهُ كَانَ عَلَيْكَ كَبِيرًا﴾

أي: ولكننا لم نشأ محو القرآن، وإزالته عنك، بل أبقيناه في صدرك رحمة من ربك ﴿إِلَّا رَحْمَةً مِن رَّبِّكَ﴾ أي: أن الله سبحانه أبقى هذا الوحي، محفوظًا تفضلاً منه سبحانه، ومنة على عباده، ورحمة وفضلاً منه جلّ شأنه ﴿إِنَّ فَضْلَهُ كَانَ عَلَيْكَ كَبِيرًا﴾، فلتغبط به، وتقرّ به عينك، ولا يحزنك تكذيب المكذبين، ولا استهزاء المستهزئين.

ومن فضل الله تعالى على رسوله ﷺ أن أعطاه هذا القرآن.

ومن فضل الله على رسوله أن أعطاه المقام المحمود.

ومن فضل الله على رسوله أن غفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر.

ومن فضل الله على رسوله أن ختم به النبوة والرسالة.

ومن فضل الله على رسوله أن شرح له صدره، ووضع عنه وزره، ورفع له ذكره.

ففضل الله عليه كبير، وأعظمه القرآن والوحي، فهو أكبر النعم على الإطلاق.

التَّحْدِي بِإِعْجَازِ الْقُرْآنِ قَائِمٌ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ

٨٨- ﴿قُلْ لِّئِنْ أَجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ

بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا﴾

ولما كان القرآن هدى ورحمة للمؤمنين، ولا يزيد الظالمين إلا خسارًا؛ فإن الله تعالى قد تحدى الذين لا يزيدهم إلا خسارًا، أن يأتوا بمثله، أو بمثل عشر سور منه، أو بمثل أقصر سورة منه فعجزوا عن كل ذلك مع معارضتهم له، وهذا دليل قاطع وبرهان ساطع على صحة ما جاء به محمد ﷺ، حيث تحدى الإنس والجن أن يأتوا بمثل هذا القرآن.

ولو تعاونوا كلهم على ذلك، فإنهم لن يقدرُوا، وهم أهل الفصاحة والبلاغة.

وإذا عجز البشر عن معرفة حقيقة الروح وكنهها؛ فإنهم عاجزون كذلك عن مضاهاة هذا

القرآن، ومحاكاته، ومعارضته من الإنس والجن كلهم.

فالنبي ﷺ بُعث إلى الثقلين: الإنس، والجن، وخلق الله الجن قبل خلق الإنس، وفي سورة الذاريات [٥٦]: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ ﴿٥٦﴾ قَدَّمَ الله الجن على الإنس في مقام العبودية؛ لأنهم خلقوا أولاً.

وقدَّمَ الإنس على الجن في هذه الآية من سورة (الإسراء)؛ لأن الإنس هو المعارض للقرآن، فهو أولى بالتقديم ﴿قُلْ لِّئِنْ أَجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ﴾ أي بما يشبهه، ﴿لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ﴾ ولو تعاونوا على ذلك وتضافرت جهودهم على الإتيان بما يشبه هذا القرآن وهم أرباب الفصاحة والبلاغة، وكان بعضهم يزعم أن الجن له قدرة على الإتيان بمثل هذا القرآن في نظمه ومعانيه، وفي مناهجه وبلاغته، فنفى الله تعالى ذلك نفياً قاطعاً: ﴿وَلَوْ كَانَتْ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيراً﴾ أي: ولو تعاون الإنس والجن معاً في هذا المقام ما استطاعوا، وذكرُ الجن مع الإنس بقصد التعميم، كما يقال: لو اجتمع أهل السماوات وأهل الأرض، فنفى إمكانية ذلك، ولو تظاهروا وتعاونوا.

وفي أسباب النزول: أن هذا التحدي حصل أيضاً لليهود؛ حيث قالوا: يا محمد، إن الله يصنع لرسوله إذا بعثه، ما شاء، فأنزل علينا كتاباً نقرؤه ونعرفه، وإلا جئناك بمثل ما تأتي به، فأنزل الله الآية^(١).

وفي أسباب النزول أيضاً: أن جماعة من قريش قالت لرسول الله ﷺ: يا محمد، جئنا بآية غريبة غير هذا القرآن، فإننا نقدر على المجيء بمثله^(٢). وقد وقع هذا التحدي على أربع مراحل:

أولها: تحداهم الله تعالى أن يأتوا بمثل القرآن كله، كما في هذه الآية التي معنا، والآية التي في سورة الطور ٣٤ ﴿فَلْيَأْتُوا بِحَدِيثٍ مِثْلِهِ إِنْ كَانُوا صَادِقِينَ﴾.

وثانيها: أن يأتوا بمثل عشر سور منه، كما في قوله تعالى: ﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَيْنَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوَرٍ مِثْلِهِ مُفْتَرِينَ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ ﴿١٣﴾ [هود].

وثالثها: أن يأتوا بمثل أقصر سورة منه، كما في قوله تعالى: ﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَيْنَاهُ قُلْ فَأْتُوا

(١) أخرجه الطبري بسند حسن من طريق ابن إسحاق عن ابن عباس.

(٢) «تفسير ابن عطية» (٤٨٣/٣).

بِسُورَةٍ مِّثْلِهِ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿٢٨﴾ [يونس].

وهذه المراحل الثلاث كانت بمكة .

ورابعها : إن عجزوا عن الإتيان بمثل سورة واحدة من القرآن، فليأتوا بسورة من مثله، أي : تشبه كلامًا يشبه القرآن، جاء ذلك في آية مدنية من سورة البقرة، في قوله تعالى : ﴿وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿٢٣﴾ فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا وَلَنْ تَفْعَلُوا فَأْزَنُوا النَّارَ أَتَىٰ وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ ﴿٢٤﴾﴾ [البقرة].

وقد عجز الإنس والجن معًا عن الإتيان بمثل أقصر سورة من القرآن، والتحدي قائم إلى قيام الساعة، كما حدث في فترتي الدعوة بمكة والمدينة معًا، وكيف يمكن للمخلوق العاجز أن يعارض كلام رب الأرض والسماء، فكما أن المخلوق لا يماثل الله تعالى في أسمائه وصفاته وأفعاله، فكذلك كلام الله تعالى وهو من أوصافه، لا يماثله فيه أحد . قال تعالى :

٨٩- ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا^(١) لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ فَأَبَىٰ أَكْثَرُ النَّاسِ إِلَّا كُفُورًا ﴿٨٩﴾﴾

ثم ذكر ﷺ جانبًا من جوانب إعجاز القرآن الذي اشتمل عليها، وهو ضرب الأمثال، وتنوع المواعظ، وبيان الحجج والبراهين القاطعة، وتوضيح الحق بالآيات والعبر، والترغيب والترهيب، فقال تعالى : ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ﴾ .

أي : أن الله سبحانه كرر وبيّن الأحكام والتشريع بوجوه مختلفة، وأمثلة متعددة، فأمر ونهى، ورغب ورهب، وذكر الأمثال والقصص بأساليب متنوعة؛ ليعتبر الناس وليستفيدوا، ولكن لم يتعظ منهم إلا القليل، أما الكثير فيقول الله تعالى عنهم : ﴿فَأَبَىٰ أَكْثَرُ النَّاسِ إِلَّا كُفُورًا﴾ أي : جحودًا للحق، وإنكارًا لحجج الله تعالى وأدلته، فلم يستجيبوا لهديه، وامتنعوا عن الإيمان به، وعموا، وصموا عن الحق الذي جاء به رسول الإسلام ﷺ .

وفي هذه الآية زيد لفظ (الناس) عن الآية السابقة [٤١]؛ لأن هذه الآية في مقام التحدي والإعجاز، فالناس فيها هم المقصودون أصلاً، أما الآية السابقة فهي في مقام توبيخ المشركين خاصة .

(١) أدغم الدال في الصاد من (ولقد صرفنا) أبو عمرو وهشام وحزمة والكسائي وخلف .

إِجَابَةُ الْكُفَّارِ إِلَى مُقْتَرَحَاتِهِمْ لَا يُدْخِلُهُمْ فِي الْإِيمَانِ

٩٠- ﴿وَقَالُوا لَنْ تُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى تَفْجُرَ^(١) لَنَا مِنَ الْأَرْضِ يَنْبُوعًا ﴿٩٠﴾﴾

ولما حُتِمت الآية السابقة بقوله تعالى: ﴿فَإِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ إِلَّا كُفُورًا﴾ ﴿٩٠﴾ بين سبحانه في هذه الآية كُفْرَ من كفر بالقرآن فلم يؤمن به، وطلب معجزات أخرى.

كبار كفار قريش يُساومون النبي ﷺ:

١- ومن ذلك ما رواه عكرمة عن ابن عباس ؓ أن عددًا فوق العشرة، من كبار كفار قريش، اجتمعوا بعد غروب الشمس عند ظهر الكعبة، وأرسلوا إلى النبي ﷺ؛ ليجادلوه، ويكلموه، ويخاصموه، فجاء ﷺ مسرعًا، وكان صلوات الله وسلامه عليه حريصًا على هداية القوم وإرشادهم، فقالوا له: يا محمد، إنا بَعَثْنَا إِلَيْكَ لِنُعْذَرَ فِيكَ، وإنا والله لا نعلم رَجُلًا من العرب أدخل على قومه ما أدخلت على قومك، لقد عِثَّتْ آلِهَتُنَا، وَشَتَمَتْ آبَاءُنَا، وَسَفَّهَتْ عَقُولُنَا، وَفَرَّقَتْ جَمَاعَتَنَا.

فإن كنت تريد بهذا الحديث مألًا جمعنا لك من أموالنا؛ حتى تكون أكثرنا مألًا.

وإن كنت تريد شرفًا، وسيادة سؤدناك علينا.

وإن كنت تريد مُلْكًا مُلْكُنَاكَ علينا.

وإن كان الذي يَأْتِيكَ مَسًّا من الجن بَدَلْنَا لَكَ من أموالنا، وجلبنا لك الأطباء؛ حتى تَبْرَأَ مما أنت فيه.

فقال ﷺ: «لا أطلب شيئًا من ذلك، ما جِئْتُكُمْ لطلب أموالكم، ولا للشرف عليكم، وإنما بعثت إليكم بشيرًا ونذيرًا، وأنزل الله عليّ كتابًا، فبلغتكم رسالة ربي، فإن تؤمنوا بي وتصديقوا قولي، فهو حظكم في الدنيا والآخرة، وإن لم تؤمنوا وتعرضوا عني فأصبر حتى يحكم الله بيني وبينكم».

(١) قرأ عاصم وحمزة والكسائي ويعقوب وخلف العاشر بفتح التاء وسكون الفاء وضم الجيم من (تَفْجُرُ) مضارع فَجَّرَ الأرض، بمعنى: شققها، والباقون بضم التاء وفتح الفاء وكسر الجيم مشددة هكذا (تُفْجِرُ) مضارع فَجَّرَ المضعف؛ للدلالة على تكثير النبع أو العيون.

قالوا له: فإن لم تقبل ما قلناه لك، فأنت تعلم أن أرضنا وبلادنا ضيقة، ولا يوجد أقل مالا، ولا أشد عيشا منا، فنحن نعيش في جبال مكة، ولا يوجد عندنا المياه، فسل ربك أن يسير هذه الجبال، وأن يفجر لنا الأرض فتكون أنهارا، كأنهار الشام والعراق، وتكون الحدائق والبساتين والزروع والأشجار، وما إلى ذلك، فأنت ترى ما نحن فيه من ضيق العيش.

وأخرج لنا أبناءنا، وأجدادنا الذين ماتوا سيما قصي بن كلاب، حتى نكلمه ويكلمنا، فإنه كان شيخا صدوقا فنسأله عما تقول، أهو حق، أم باطل؟

فإن لم تفعل فاسأل ربك أن يبعث ملكا يصدقك بما تقول، وتسأله، فيجعل لك جنات، وكنوزا من ذهب وفضة، ويغنيك عما نراك من غشيانك للأسواق، والتماسيك المعاش كما نلتمس، حتى نعرف فضلك ومنزلتك عند ربك إن كنت رسولا.

فقال لهم: «ما أنا بالذي يسأل ربه ذلك، وما بعث بهذا، ولكن الله بعثني إليكم بشيرا ونذيرا».

قالوا: إن لم تقدر على الخير، فافعل الشر، إن لم تقدر على المنافع فأت بالمضار: اجعل السماء تنزل علينا قطعا؛ حتى نؤمن بك، أي: أنهم يستعجلون نزول العذاب بهم على وجه الاستهزاء، كما قالوا: ﴿اللَّهُمَّ إِنْ كَانَتْ هَذِهِ حَقًّا هُوَ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَابًا مِنَ السَّمَاءِ أَوْ اثْبِتْنَا بِعَذَابٍ إِلَيْهِ﴾ [الأنفال: ٣٢] وهم يشيرون إلى قوله تعالى: ﴿إِنْ نَشَأْ نُخِيفْ بِهِمُ الْأَرْضَ أَوْ نُسْقِطَ عَلَيْهِمْ كِسْفًا مِنَ السَّمَاءِ﴾ [سبا: ٩] قالوا: فأسقط السماء علينا قطعا من العذاب كما تقول.

قال: «ذلك إلى الله، إن شاء فعل بكم»^(١).

٢- قال عبد الله بن أمية: والله لن نؤمن لك حتى ترقى في السماء، أي: تصعد إليها ونحن ننظر إليك.

٣- وقال ابن أمية: وسألوك أشياء يعرفون بها منزلتك، فلم تفعل، وسألوك نزول العذاب فلم تفعل، ولن نصدقك حتى تأتي إلينا بكتاب نقرؤه، ومعك أربعة من الملائكة يشهدون بصدق قولك، فقد عرض عليك قومك ما عرضوا فلم تفعل.

٤- وقال آخر: لن نؤمن لك حتى تأتي بأصناف الملائكة قبيلة قبيلة، وتأتي بربك

(١) يُنظر مشكاة المصابيح (١١٥٦) عن مالك بنحوه.

نشاهده فيقف أماننا، ويشهدون لك بصدق ما تقول.

فكان جواب النبي ﷺ مليئاً بأدب الرسول والرسالة: ﴿قُلْ سُبْحَانَ رَبِّيَ هَلْ كُنْتُ إِلَّا بَشَرًا رَسُولًا﴾ فلا يستطيع ذلك إلا رب العالمين، وانصرف ﷺ حزينا أسفاً^(١).

ونظير ذلك قوله تعالى على لسانهم: ﴿وَقَالُوا مَالِ هَذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ وَيَمْشِي فِي الْأَسْوَاقِ لَوْلَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونُ مَعَهُ نَذِيرًا ﴿٧﴾ أَوْ يُنْفَخَ إِلَيْهِ كَافُرٌ أَوْ تَكُونُ لَهُ جَنَّةٌ يَأْكُلُ مِنْهَا﴾ [الفرقان].

قال تعالى مجيباً لهم: ﴿تَبَارَكَ الَّذِي إِنْ شَاءَ جَعَلَ لَكَ خَيْرًا مِنْ ذَلِكَ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَيَجْعَلُ لَكَ فُصُورًا ﴿١٠﴾﴾ [الفرقان].

وقد أعطي النبي من المعجزات ما يُغني عما طلبوه، فقد أعطي القرآن، وأُعطي انشقاق القمر، ونبع الماء من بين أصابعه، وكثير من الآيات الحسية، ولكنهم كانوا متعتين جاحدين، وليس قصدهم طلب الدليل.

ثم إن الله سبحانه أعلم بما يصلح أحوالهم كما بين جل شأنه: فلو فرض أن الله تعالى نزل إليهم الملائكة كما طلبوا، وكلمهم الموتى، أي: أخرجناهم من قبورهم فكلموهم كما يطلبون، وحشرنا عليهم كل شيء قبلاً، فأرأوا الله تعالى، ورأوا الملائكة معاينة أمامهم - كما طلبوا - لو أجيئوا إلى كل هذا، ما كانوا ليؤمنوا إلا أن يشاء الله.

إذن: فطلب الآيات لا تنفعهم شيئاً، فهم يطلبون أن يصعد محمد ﷺ إلى السماء، ويأتي منها بكتاب يشهد له، والله سبحانه يجيبهم: ولو أننا نزلنا عليك كتاباً مكتوباً، ومنشوراً في ورق - كما طلبوا - فلمسوه حقيقة وعياناً، وأمسكوه بأيديهم.

﴿لَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنَّ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ﴾

وقال تعالى: ﴿وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَابًا مِنَ السَّمَاءِ﴾ كما طلبوا ﴿فَظَلُّوا فِيهِ يَعْرُجُونَ﴾ يصعدون من هذا الباب إلى السماء ﴿لَقَالُوا إِنَّمَا سُكَّرَتْ أَبْصَارُنَا بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَسْحُورُونَ ﴿١٥﴾﴾ [الحجر].

(١) يُنظر هذا في: «سيرة ابن هشام» (٢٩٦/١) و«أسباب النزول» للواحدي (٢٤٧) و«تفسير الطبري» (١٥/١١٠) والقرطبي (٣٢٨/١٠) وابن كثير والبغوي و«زاد المسير» وغيرهم.

وقال: ﴿وَمَا مَنَعَنَا أَنْ نُرْسِلَ بِالْآيَاتِ إِلَّا أَنْ كَذَّبَ بِهَا الْأَوَّلُونَ﴾ [الإسراء: ٥٩].

وقال تعالى: ﴿وَنُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ وَأَبْصَارَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ [الأنعام: ١١٠].

وقال سبحانه: ﴿إِنَّ الَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٩١﴾ وَلَوْ جَاءَتْهُمْ كُلُّ آيَةٍ حَتَّى يَرَوْا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ ﴿٩٢﴾﴾ [يونس].

وقد أنزل الله سبحانه هذه الآيات من سورة الإسراء: ﴿وَقَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الْأَرْضِ يَلْبُوعًا ﴿٩١﴾﴾ أي: عيونًا جارية في أرض مكة ﴿أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِّنْ نَّحِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجَّرَ الْأَنْهَارُ خِلَالَهَا تَفْجِيرًا ﴿٩٢﴾﴾ أي: تجري الأنهار في وسطها بغزارة ﴿أَوْ تُسْقِطَ السَّمَاءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا أَوْ تَأْتِيَ بِاللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ قِيْلًا ﴿٩٣﴾﴾ أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِّنْ زُخْرٍ ﴿٩٤﴾ أي: من ذهب مزركش، بحيث يكون البيت مزركشًا بالذهب، ومزينًا به ﴿أَوْ تَرْفَعَ فِي السَّمَاءِ وَلَنْ نُؤْمِنَ لِزُفَيْكَ ﴿٩٥﴾﴾ ولن نصدق صعودك حتى تعود، ومعك كتاب نقرؤه ﴿حَتَّى تَنْزِلَ عَلَيْنَا كِتَابًا نَّقْرُؤُهُ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّيَ هَلْ كُنْتُ إِلَّا بَشَرًا رَسُولًا ﴿٩٦﴾﴾؟ هذه مطالب ستة، منها ثلاثة في حكم الممكن، ومنها ثلاثة في حكم الاستحالة، إلا على الله سبحانه.

وهذه المقترحات الست جاءت في الآيات الأربع على النحو التالي:

الاقتراح الأول: أَنْ يُخْرِجَ لَهُمْ مِنَ الْأَرْضِ أَنْهَارًا جَارِيَةً:

قالوا: لن نصدقك -يا محمد- ولن نتبعك فيما تدعوننا إليه، ونعمل بما تقول، حتى تُخْرِجَ لنا من أرض مكة عينًا جارية غزيرة، لا ينقطع ماؤها ولا يغور، ولا ينقص في وقت من الأوقات، وهذا معنى ﴿حَتَّى تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الْأَرْضِ يَلْبُوعًا﴾.

الاقتراح الثاني: أَنْ تَكُونَ لَهُ حَدِيقَةٌ مُثْمِرَةٌ تَتَفَجَّرُ فِيهَا الْأَنْهَارُ

٩١- ﴿أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِّنْ نَّحِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجَّرَ الْأَنْهَارُ خِلَالَهَا تَفْجِيرًا ﴿٩٢﴾﴾

أي: أن تكون لك بصفة خاصة حديقة فيها أنواع النخيل والأعناب، ملتفة الأغصان، تتفجر الأنهار في وسطها بقوة وغزارة، فنستغني بها عن الأسواق، والذهب والمجيء إليها، وكان النخيل والأعناب أهم الثمار عندهم.

وهذان الاقتراحان في حكم الممكن بالنسبة للبشر.

الْاِقْتِرَاحُ الثَّالِثُ: أَنْ يُنْزَلَ عَلَيْهِمُ الْعَذَابُ الَّذِي تَوَعَّدَهُمْ بِهِ

٩٢- ﴿أَوْ تَشَقِطَ السَّمَاءُ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسْفًا^(١) أَوْ تَأْتِيَ بِاللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ فَيَلَا^(٢)﴾

أن تجعل السماء تتساقط علينا قطعة قطعة، كما هددتنا من أن في قدرة ربك أن ينزل علينا عذاباً من السماء إن لم نؤمن بك، هذا هو الاقتراح الأول في هذه الآية.

الْاِقْتِرَاحُ الرَّابِعُ: أَنْ يَأْتِيَهُمُ بِاللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ عَيَانًا:

أن تحضر لنا الله وملائكته فتراهم عياناً ومقابلة، ﴿أَوْ تَأْتِيَ بِاللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ فَيَلَا﴾ وهذا جراءة على الله تعالى وعلى رسوله ﷺ كما طلب اليهود من نبيهم موسى عليه السلام فقالوا ﴿أَرَأَيْتَ اللَّهُ جَهْرَةً﴾ [النساء: ١٥٣] وهو الاقتراح الثاني في هذه الآية، وهذان الاقتراحان مستحيلان على البشر.

الْاِقْتِرَاحُ الْخَامِسُ: أَنْ يَكُونَ لَهُ قَصْرٌ مِنْ ذَهَبٍ

٩٣- ﴿أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِنْ زُخْرٍ أَوْ تَرْقَى^(٣) فِي السَّمَاءِ وَلَنْ نُؤْمِنَ لِرُفَيْكَ حَتَّى تُنْزِلَ^(٤) عَلَيْنَا كِتَابًا نَقْرؤه قُلْ^(٥) سُبْحَانَ رَبِّي هَلْ كُنْتُ إِلَّا بَشَرًا رَسُولًا^(٦)﴾

أي: أن يكون لك قصر عظيم مزخرف ومشيد من الذهب يناسب مكانتك، وليس من الحجر والطين، وهذا الاقتراح في حكم الممكن بالنسبة للبشر، وهو الاقتراح الأول في هذه الآية.

الْاِقْتِرَاحُ السَّادِسُ: أَنْ يَصْعَدَ إِلَى السَّمَاءِ وَيَأْتِيَ لَهُمْ بِكِتَابٍ يُصَدِّقُهُ

أي أن تصعد في درج إلى السماء، مع مشاهدتنا لك، ولن نصدقك في صعودك حتى تعود إلينا ومعك كتاب كامل من الله يُلغِيتنا، وأسلوبنا نقرؤه، ونفهم ما فيه، ويدل دلالة

(١) قرأ نافع وابن عامر وعاصم وأبو جعفر، بفتح السين من (كسفاً)، والباقون بإسكانها.

(٢) أمال حمزة والكسائي وخلف ألف (ترقى)، وقللها ورش بخلف عنه، وفتحها الباقون.

(٣) قرأ أبو عمرو ويعقوب بالتخفيف في (تنزل)، والباقون بالتشديد في الزاي.

(٤) قرأ ابن كثير وابن عامر (قال) بصيغة الماضي؛ إخباراً من الله تعالى عما قاله الرسول ﷺ ردّاً عليهم،

والباقون (قل) بصيغة الأمر من الله تعالى لنبيه أن يرد عليهم بتنزيه الله تعالى عما طلبوه.

قاطعة على أنك رسول من عند الله، فنطالع في هذا الكتاب بأعيننا أنك نبي مرسل من عند الله، وهذا أمر يستحيل على البشر، وهذا هو الاقتراح الثاني في هذه الآية، وهو الاقتراح السادس والأخير.

فكان الرد على هذه المقترحات ما يلي: قل يا محمد متعجباً من تعنت الكفار: سبحان ربي، هل أنا إلا عبد من عباده، مبلغ رسالته، فلا أقدر على فعل ما تطلبون، كما قال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰ إِلَيَّ﴾ [الكهف: ١١٠].

الرَّسُولُ يَكُونُ بِلِسَانِ قَوْمِهِ وَطَبِيعَتِهِمْ

٩٤- ﴿وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَنْ يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمْ^(١) أَلْهُدًى إِلَّا أَنْ قَالُوا أَبَعَثَ اللَّهُ بَشَرًا رَسُولًا﴾

ثم بين سبحانه السبب الذي منع أكثر الناس من الإيمان بمحمد ﷺ، وهو كون الرسول بشراً من جنسهم، فهذا هو السبب في إنكارهم وجحودهم الرسالة، وامتناعهم من الإيمان بها، وهو توهمهم أن الرسول لا يكون من البشر.

والواقع أنهم يقترحون هذه الاقتراحات؛ للتوصل من الدخول في الإسلام، ولو جاءهم الرسول بما سألوا لانتقلوا إلى سبب آخر، فقالوا: إن ذلك سحر، أو قالوا: قلوبنا غلف، وهذا يرجع إلى أصل كفرهم، وزيف قلوبهم.

واستبعاد أن يكون الرسول بشراً، شبهة نشأت عندهم من الجهل، وتعتمد إنكار الرسالة، والعكوف على موروثة فاسدة.

ومعنى الآية: وما منع الكفار من الإيمان بالوحي المنزل، حين جاءهم من عند الله، إلا قولهم جهلاً؛ أيكون الرسول بشراً منا ﴿وَعَجِبُوا أَنْ جَاءَهُمْ مُنْذِرٌ مِنْهُمْ وَقَالَ الْكَافِرُونَ هَذَا سَاحِرٌ كَذَّابٌ﴾ [ص: ٤] وذلك بسبب شبهة ترددت في نفوسهم، وإنكاراً منهم أن يبعث الله رسولاً من البشر.

وهذه الآية تبين موقف البشر في جميع الأمم من المكذبين بالوحي والرسالة، وأنهم ينكرون الرسالات، ويعجبون من أن يكون الرسول واحداً منهم، يأكل مما يأكلون،

(١) أدغم الذال في الجيم من (إذ جاءهم) أبو عمرو وهشام والداجوني بخلفه، وأمال الألف من (جاءهم) ابن ذكوان وحزمة وخلف.

ويشرب مما يشربون، وتكون له أزواج وذرية، ويعتقدون أن الرسول لابد أن يكون ملكًا منزلاً من السماء، جاء هذا على ألسنة الأمم جميعاً؛ حيث تقول الأمم لجميع الرسل: ﴿إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا تُرِيدُونَ أَنْ تَصُدُّونَا عَمَّا كَانَتْ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا﴾ [إبراهيم: ١٠].

ويجيب الرسل على الأمم في الآية التي تليها: ﴿إِنْ نَحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَمُنُّ عَلَىٰ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ﴾ [إبراهيم: ١١] أي: أن الله تعالى يمن على من يشاء بالوحي والرسالة، كما قال سبحانه: ﴿اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ﴾ [الأنعام: ١٢٤].

وهذه الشبهة التي ذكرتها هذه الآية، قالتها جميع الأمم لجميع الرسل:

١- فقد قال قوم نوح له: ﴿مَا نَزَّلَكَ إِلَّا بَشَرًا مِثْلَنَا﴾ [المؤمنون: ٢٧].

٢- وهكذا قال قوم هود: ﴿مَا هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يَأْكُلُ مِمَّا تَأْكُلُونَ مِنْهُ وَيَشْرَبُ مِمَّا تَشْرَبُونَ﴾ [المؤمنون: ٣٣].

٣- وقال قوم صالح: ﴿أَشْرَكَ مِثَّا وَاحِدًا نَنُوعُهُ إِنَّا لِلَّهِ ضَالِّينَ وَسُعُرٌ﴾ [القمر: ٢٤].

٤- وقال قوم شعيب له: ﴿وَمَا أَنْتَ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا﴾ [الشعراء: ١٨٦].

٥- وقال قوم فرعون عن موسى وهارون: ﴿أَتُؤْمِنُ لِبَشَرَيْنِ مِثْلِكَ؟﴾ [المؤمنون: ٤٧].

٦- وهكذا عجب المشركون من العرب فقالوا عن النبي ﷺ: ﴿مَالِ هَذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ وَيَمْشِي فِي الْأَسْوَاقِ لَوْلَا أَنْزَلَ إِلَهُهُ مَلَكٌ فَيَكُونُ مَعَهُ نَذِيرًا﴾ [الفرقان: ٧].

٧- وقال الله تعالى عنهم: ﴿بَلْ عَجِبُوا أَنْ جَاءَهُمْ مُنْذِرٌ مِنْهُمْ فَقَالَ الْكَافِرُونَ هَذَا شَيْءٌ عَجِيبٌ﴾ [ق: ٢].

٨- وقال أيضاً: ﴿أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبٌ أَنْ أَوْحَيْنَا إِلَىٰ رَجُلٍ مِنْهُمْ﴾ [هود: ٢].

٩- وقال جلَّ شأنه: ﴿فَقَالُوا أَبَشَرٌ يَهْدُونَنَا﴾ [التغابن: ٦] وهكذا.

لَا بُدَّ لِلرَّسُولِ أَنْ يَكُونَ مِنْ جِنْسِ الْمُرْسَلِ إِلَيْهِمْ حَتَّىٰ يُمَكِّنَهُ تَبْلِغِ الرِّسَالَةِ

٩٥- ﴿قَدْ لَوْ كَانَتْ فِي الْأَرْضِ مَلَائِكَةٌ يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِمْ مِنَ السَّمَاءِ مَلَكًا رَسُولًا﴾

ثم رد الله سبحانه على شبهة الكفار: أن يكون الرسول من البشر، بأنه لو وُجد في الأرض ملائكة يمشون على أقدامهم، كما يمشي الإنسان، ويعيشون فوقها مطمئنين

مستقرين، كما يقيم الإنسان ويستقر، لو ثبت وجود ذلك لأرسل الله لهم رسولاً من الملائكة؛ حتى يكون من جنسهم، يتكلم بلسانهم، ويمكنهم مخاطبته، والأخذ عنه، والتفاهم معه؛ لأن الرسول يلزم أن يكون من جنس المرسل إليهم؛ حتى يمكنه أن يبلغهم رسالة ربه، ولما كان أهل الأرض بشرًا، لزم أن يكون الرسول بشرًا مثلهم من جنسهم، وبلغتهم؛ ليفهموا كلامه، ويألفوا هيأته، فمن رحمة الله تعالى بعباده أن أرسل إليهم بشرًا منهم، لأنهم لا يطيقون التلقى من الملائكة.

ولو أن الله تعالى أرسل إلى البشر ملكًا على سبيل الفرض لجعله رجلًا مثلهم؛ حتى يمكنهم رؤيته، والتعامل معه، قال تعالى: ﴿وَلَوْ جَعَلْنَاهُ مَلَكًا لَّجَعَلْنَاهُ رَجُلًا﴾ فتكون النتيجة أن اللبس يظل قائمًا، والشبهة لا تزال موجودة، وهذا معنى: ﴿وَلَلْبَسْنَا عَلَيْهِمْ مَا يَلِيسُوكَ﴾ [الأنعام: ٩] فمن رحمة الله تعالى بعباده أن بعث إليهم رسولاً من جنسهم.

١- كما قال تعالى: ﴿لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ﴾ [آل عمران: ١٦٤].

٢- وقال جل شأنه: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ﴾ [إبراهيم: ٤]

٣- وقال سبحانه: ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ﴾ [التوبة: ١٢٨].

٤- وقال جل شأنه: ﴿كَمَا أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولًا مِّنكُمْ﴾ [البقرة: ١٥١].

٥- وقال أيضًا: ﴿هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيَّةِ رَسُولًا مِّنْهُمْ﴾ [الجمعة: ٢].

هذا: وقد اختص الله رسوله محمدًا ﷺ باجتثاث هذه الشبهة من أصلها بهذا الرد السابق، وادخر الله لرسوله الرد عليها؛ لكونه خاتم الرسل، ولأن الله تعالى أراد لأُمَّته البقاء إلى قيام الساعة.

أما بالنسبة للرسل السابقين فقد كان الرد عليهم بإهلاك أقوامهم انتصارًا لهم.

كما قال تعالى عن قوم نوح عليه السلام: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي قَوِيٌّ كَذَبُونَ﴾ ④ فافْتَحَ بَيْنِي وَبَيْنَهُمْ فَتَحًا وَجَّحِي وَمَنْ مَعِيَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ⑤ [الشعراء].

وقال عنه أيضًا: ﴿فَدَعَا رَبَّهُ أَنِّي مَغْلُوبٌ فَانْتَصِرَ﴾ ⑥ [القمر] أي: انتصر لي يارب من قومي.

فأجابه الله تعالى بقوله: ﴿فَفَتَحْنَا أَبْوَابَ السَّمَاءِ بِمَاءٍ مُّنْهَرٍ ⑦ وَفَجَرْنَا الْأَرْضَ عُيُونًا﴾ [القمر]

أي: أن الله تعالى عاقبهم بالغرق بالطوفان.

وهكذا كان إهلاك قوم لوط حين دعا ربه قائلاً: ﴿رَبِّ أَنْصُرْنِي عَلَى الْقَوْمِ الْمُفْسِدِينَ﴾ [العنكبوت: ٣٠].

وهكذا كان إهلاك قوم صالح حين كذبوه ﴿قَالَ رَبِّ أَنْصُرْنِي بِمَا كَذَّبُونِ﴾ [المؤمنون].

وقال تعالى عن موسى وهارون: ﴿فَكَذَّبُوهُمَا فَكَانُوا مِنَ الْمُهْلَكِينَ﴾ [المؤمنون].

أما بالنسبة لخاتم الرسل ﷺ فإن الله تعالى لم يهلك أمته، وإنما لقن رسولها ما يكفي لزوال هذه الشبهة من نفوسهم، كما تقرره الآية التي معنا من سورة الإسراء، وأنه لو كان سكان الأرض ملائكة يستقرون فوق الأرض، ويسكنونها لكانت الرسل ملائكة من جنسهم، ولكن لما كان أهل الأرض من البشر، كان لابد أن يكون الرسل من البشر؛ لأن طبيعة البشر تختلف عن طبيعة الملك، فالملك له أجنحة؛ لأن الملائكة ﴿أُولَ الْأَجْنَحَةِ مَتْنًى وَتِلْكَ وَرُبْعٌ﴾ [فاطر: ١] وهذه الأجنحة يضرب بها الملك في السماء.

والبشر يستقرون، ويسكنون فوق الأرض، ويتخذونها مستقراً لهم، ومسكن الملائكة في السماوات، وهذا معنى: ﴿قُلْ لَوْ كُنَّا فِي الْأَرْضِ مَلَائِكَةً يَمُوتُ مَطْمَئِنِينَ﴾ كحالة البشر، أي: لو كان سكان الأرض ملائكة لكانت الرسل أيضاً ملائكة من جنسهم و﴿لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِم مِّنَ السَّمَاءِ مَلَكًا رَسُولًا﴾ ولو أن الله سبحانه أرسل ملائكة إلى البشر لما فهموا لغتهم، ولا أمكنهم أن يأنسوا بهم، ويقتدوا بهم، فيجيئون يوم القيامة بعذر إلى الله سبحانه ويقولون: إنا لم نفقه قولهم، ولم نعرف أفعالهم، ولم يمكننا أن نتأسى، ونقتدي بهم، ولذلك فقد اقتضت حكمة الله سبحانه أن يرسل لكل أمة رسولاً من البشر بلسانهم ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ﴾ [إبراهيم: ٤]

وهذا الرسول يكون رجلاً، ولا يكون امرأة، ولا من الجن، قال تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلَّا رَجُلًا نُوحِيَ إِلَيْهِمْ﴾ [النحل: ٤٣].

قَطْعُ الْحَوَارِ وَالْجَدَلِ مَعَ الْمُكَذِّبِينَ بِالنُّوحِي وَالرَّسَالَةِ

٩٦- ﴿قُلْ كَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ إِنَّهُ كَانَ بِعِبَادِهِ خَبِيرًا بَصِيرًا﴾ [٩٦]

وبعد أن خص الله تعالى نبيه محمداً ﷺ بتلقيه الحجة القاطعة في كون الرسول للبشر،

لا يكون إلا بشراً مثلهم، لقن، سبحانه، رسوله أيضاً، ما لقنه للرسل السابقين من تفويض الأمر إلى الله تعالى في الحكم والفصل بينه وبين أعدائه؛ فهو خير الحاكمين، ومن ثم يقطع الله سبحانه الجدل والحوار مع المكذبين بالوحي والرسالة، ويبين جل شأنه أنه تكفي شهادة الله وحده على صدق رسالة محمد ﷺ، وحقيقة نبوته؛ فهو سبحانه رقيب ومطلع على أحوال عباده، بصير بهم، وهو محاسبهم يوم القيامة على ما قدمت أيديهم، وهو الذي أرسل محمداً وجعله خاتم النبيين، وهو الذي أيدته بالمعجزات وما أنزله عليه من الآيات، ونصره على من عاداه..

روى البخاري أن الملاء من قريش الذين عرضوا على النبي ﷺ الملك والجاه والثروة، قالوا له: فمن يشهد أنك رسول؟ فكانت هذه الآية ردّاً عليهم أن الله تعالى يشهد بيني وبينكم، وكفى به شهيداً.

ولو كان الرسول ﷺ كاذباً لانتقم الله منه أشد الانتقام، كما قال تعالى: ﴿وَلَوْ لَقَوْلٌ عَلَيْنَا بَعْضُ الْأَقَاوِيلِ ﴿٤٤﴾ لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ ﴿٤٥﴾ ثُمَّ لَقَطْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ ﴿٤٦﴾ فَمَا يَنْكُرُ مِنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَاجِزِينَ ﴿٤٧﴾﴾ [الحاقة].

صُورَةٌ مِنْ حَشْرِ الضَّالِّينَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ

٩٧- ﴿وَمَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ ﴿١﴾ وَمَنْ يُضِلِلْ فَلَنْ تَجِدَ لَهُمْ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِهِ وَيَحْشُرُهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَى وُجُوهِهِمْ عَمِيًَا وَبُكْمًا وَصُمًّا مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ كُلَّمَا خَبَتْ زِدْنَاهُمْ سَعِيرًا ﴿٤٧﴾﴾.

ثم إن للهداية والضلال عند الله تعالى سُنَنًا لا تتخلف، فمن يختار لنفسه طريق الهدى ويسلكه، ويأخذ في أسباب الهداية، يهده الله سبحانه، ويوفقه للهداية والصواب والحق والإيمان.

ومن يَزِغْ قلبه عن طريق الهدى، ويختار لنفسه طريق الضلال فإن الله ﷻ يخذله ويكبله إلى نفسه، فيَحْرِمَ التوفيق من الله تعالى؛ لأنه أَصْرٌّ على الكفر مع وضوح الدليل، واتخذ هواه معبوداً من دون الله، فاستوجب غضب الله تعالى.

﴿وَمَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ﴾ إلى الحق فيسيره الله لليسرى، ويجنبه العسرى، فهو المهتدى على الحقيقة ﴿وَمَنْ يُضِلِلْ﴾ الله، فيخذله إلى نفسه، فلا هادي له من دون الله، وليس له ولي ينصره من عذاب الله، وهذا معنى: ﴿فَلَنْ تَجِدَ لَهُمْ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِهِ﴾ أي: ليس له

(١) قرأ نافع وأبو عمرو وأبو جعفر بإثبات ياء (المهتد) وصلأ، ويعقوب بإثباتها وصلأ ووقفأ، والباقون بحذفها في الحالين.

من دون الله وليّ ولا نصير، ولا هادي له غير الله سبحانه.

وأهل الضلال من الكفار الذين يموتون على الكفر، يُحشرون يوم القيامة على وجوههم خزيًا وإهانة لهم، عُميًا لا يَرَوْنَ، وبُكْمًا لا ينطقون، وصُمًا لا يسمعون، وهم في أبشع صورة وأقبح منظر، مقرهم جهنم، كلما تهيأت للإطفاء زادهم الله سعيًا.

والحشر: جمّع الناس من مواضع متفرقة إلى مكان واحد.

والسبب في هذا أنهم قد عطّلوا في حياتهم هذه الحواس عن الانتفاع بها، والاهتداء بهدي رسول الله ﷺ كما قال تعالى عنهم: ﴿وَقَالُوا قُلُوبُنَا فِيْ أَكِنَّةٍ مِّمَّا نَدْعُونَآ إِلَيْهِ وَفِيْ ءَاذَانِنَا وَقْرٌ وَمِنْ بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ﴾ [فصلت: ٥] ولذلك فإنهم يحشرون وهم فاقدو هذه الحواس يوم القيامة كما كانوا في الدنيا.

أو أنهم لا يسمعون سمعًا تلتذ به آذانهم، ولا ينطقون بما يُقبل منهم، ولا يَرَوْنَ ما تقرُّ به أعينهم، إنما يَرَوْنَ النار ولهيبها، وهي تراهم، ويسمعون زفير جهنم، كما قال تعالى: ﴿إِذَا رَأَتْهُمْ مِّنْ مَّكَانٍ بَعِيدٍ سَمِعُوا لَهَا تَغَيُّظًا وَزَفِيرًا﴾ [١٧] [الفرقان] وهم من هول الموقف لا ينطقون بكلمة، ويقال لهم يوم القيامة: ﴿أَخْشَوْا فِيْهَا وَلَا تُكَلِّمُوا﴾ [المؤمنون: ١٠٨].

وفي الصحيحين وغيرهما: عن أنس ؓ أن رجلاً قال: يا رسول الله، كيف يحشر الكافر على وجهه؟ قال ﷺ: «إن الذي أمشاه على رجليه قادر على أن يمشيه على وجهه يوم القيامة»^(١).

وهذا كقوله تعالى: ﴿يَوْمَ يُسْحَبُونَ فِي النَّارِ عَلَى وُجُوهِهِمْ ذُوقُوا مَسَّ سَقَرَ﴾ [٤٨] [القمر] وقوله: ﴿أَفَمَن يَتَّقِيْ بُوْجِهَهُ سُوْءَ الْعَذَابِ يَوْمَ الْقِيَمَةِ﴾ [الزمر: ٢٤] فهو يتقي النار ويتلقاها بوجهه، وهو يسكن جهنم ويقيم فيها، والعياذ بالله، كما قال تعالى: ﴿مَأْوَنُهُمْ جَهَنَّمُ﴾ أي: هي مصيرهم، ودارهم، ومستقرهم ﴿كُلَّمَا خَبَتْ﴾ هذه النار وسكنت ﴿زِدْنَاهُمْ سَعِيرًا﴾ نارا ملتبهة متأججة، وليس معناه أنه يوجد نقص في إيلام الكافر أحيانًا؛ فنار جهنم لا تخبو؛ لأن وقودها الناس والحجارة، والعذاب لا يخفف عنهم ولا يفتّر، كما قال تعالى: ﴿وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ مِّنْ عَذَابِهَا﴾ [فاطر: ٣٦].

(١) البخاري برقم (٤٧٦٠، ٦٥٢٣) ومسلم برقم (٢٨٠٦) و«المسند» (١٦٧/٣) برقم (١٢٧٠٨، ١٣٣٩٢) والنسائي في «السنن الكبرى» (١١٣٦٧) والحاكم (٤٠٢/٢).

وقال سبحانه: ﴿إِنَّ الْمُجْرِمِينَ فِي عَذَابٍ خَلَدُونَ ﴿٧٦﴾ لَا يُفَرِّغُهُمْ عَنْهُمْ وَهُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ ﴿٧٥﴾ وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا هُمْ الظَّالِمِينَ ﴿٧٦﴾﴾ [الزخرف] وهم في عذاب متجدد مستمر: ﴿كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُمْ بَدَّلْنَاهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا الْعَذَابَ﴾ [النساء: ٥٦].

فالمعنى: أن لحومهم وجلودهم كلما أكلتها النار، زادها الله توقدًا، فتبدل جلودهم ولحومهم، بجلود ولحوم أخرى، فتعود النار كحالتها الأولى مُلتهبة مستعرة.

ومن الإمعان في عذابهم، أن الله تعالى يجعل وجوههم كأنها أعضاء، للمشي عليها، عوضًا عن الأرجل، فهم يُسحبون على وجوههم، تجرهم الزبانية من أرجلهم إلى جهنم، كما يفعل في الدنيا بمن يبالغ في هوانه وتعذبه.

وفي رواية الترمذي في الحديث السابق: «أما إنهم يتقون بوجوههم كل حدب وشوك»^(١) والحدب: هو ما ارتفع من الأرض.

وفي الحديث: عن معاوية بن حيدة قال: قال رسول الله ﷺ «إنكم تحشرون رجالًا وركبانًا وتجرون على وجوهكم إلى ها هنا، ونحا بيده نحو الشام»^(٢).

قال تعالى: ﴿وَرَأَى الْمُجْرِمُونَ النَّارَ فَظَنُّوا أَنَّهُمْ مُوَاقِعُوهَا وَلَمْ يَجِدُوا عَنْهَا مَصْرِفًا ﴿٥٣﴾﴾ [الكهف: ٥٣] والظن بمعنى: اليقين؛ ذلك أنهم لما أنكروا البعث في الدنيا كان الجزاء يوم القيامة من جنس عملهم ﴿وَقَالُوا أَإِذَا كُنَّا عِظْمًا وَّرُفَّتًا إِيَّاَنَا لَمُبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا ﴿٤٩﴾﴾ [الإسراء: ٤٩].

فهم في عذاب النار، تأتي على أجسامهم، تأكلها جزءًا جزءًا، فإذا فني الجسم فإنه يعاد من جديد ﴿كُلَّمَا خَبَتْ﴾ أي: كلما فرغت النار من إحراقهم، وسكن لهيبتها المقدر لهم، ثارت من جديد، والنار لا تَخْبُتُ ولا تنطفئ، ولكن أجسامهم تفتنى، ثم تحيا من جديد، جزاء تكذيبهم بالبعث يوم لقاء رب العالمين، قال تعالى:

٩٨- ﴿ذَلِكَ جَزَاءُهمُ بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا وَقَالُوا أَإِذَا كُنَّا عِظْمًا وَّرُفَّتًا إِيَّاَنَا لَمُبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا﴾

(١) ضعفه الألباني في ضعيف جامع الترمذي برقم (٣١٤).

(٢) «المسند» بنحوه برقم (٢٠٠٣١، ٢٠٠٣١، ٢٠٠٥٠) قال محققوه: إسناده حسن ورجاله ثقات، وهو في

الترمذي (٢٥٧١) بدون (ونحا بيده...) و«صحيح سنن الترمذي» (١٩٧٦) والنسائي في «الكبرى»

(١١٤٣١) والحاكم (٥٦٤/٤) والدارمي (٢٨٣٦) وغيرهم.

(٣) سبق مثل هذا في الآية [٤٩].

ثم يبين سبحانه أن الذي أفضى بأهل النار إلى تلك العاقبة السيئة سببان:

أحدهما: الكفر، وينطوي تحته صنوف الإجمام.

وثانيهما: إنكار البعث والحساب والجزاء.

فالسبب في عقاب المشركين أنهم في الدنيا كفروا، وكذبوا بآيات الله وما تضمنتها من: أوامر، ونواه، وجحدوا رسالة محمد ﷺ، وكذبوا بالبعث والنشور، فاستبعدوا أن يُبعث الناس مرة ثانية، بعد أن أماتهم الله تعالى، وصاروا عظاماً وتراباً ﴿وَقَالُوا أَإِذَا ضَلَلْنَا فِي الْأَرْضِ أَإِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ﴾ [السجدة: ١٠].

الرَّدُّ عَلَى مُنْكَرِي الْبَعْثِ بِطَرِيقِ الْأَسْتِدْلَالِ الْعَقْلِيِّ

٩٩- ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ قَادِرٌ عَلَى أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ وَجَعَلَ لَهُمْ أَجَلًا لَا^(١) رَيْبَ فِيهِ فَإِنِّي الظَّالِمُونَ إِلَّا كُفُورًا﴾ (٩٩)

ثم رد الله سبحانه على منكري البعث ردًا عقليًا مقنعًا بعد زجرهم في الآية السابقة بأسلوب التهديد والوعيد، فبين تعالى أنه لا غرابة في البعث، فقد خلق الله سبحانه هذا الكون الهائل بسماواته وأرضه، والقادر على ذلك قادر على إعادة أجساد الناس بعد فنائها من باب أولى، وقادر على أن يخلق أناسًا آخرين غيرهم، فعودة الحياة إليهم ليس أمرًا عجبًا؛ لأن إعادة أهون من البداية في نظر الخلق، وليس عند الله سبحانه هيِّن وأهون، ولا سهل وأسهل، بل الكل عند الله سواء.

فهل عمي الكفار المنكرون للبعث والحساب والجزاء، فلم ينظروا في هذا الملكوت، وما فيه من العالم العلوي والسفلي، ويستدلوا بذلك على أن البعث بعد الموت ليس بأعجب من خلق السماوات والأرض؟! والإعادة تكون بجمع ما تفرَّق، أو بما يُبْتُ من عَجَب الذَّنْب، كما تنبت النخلة من النواة، وهي أهون من البداية في عرف البشر.

ثم يبين تعالى أن لهذه الإعادة وقتًا معلومًا وفق حكمته تعالى، فقال: ﴿وَجَعَلَ لَهُمْ أَجَلًا لَا رَيْبَ فِيهِ﴾ فقد جعل الله للمكذبين بآياته، ولغيرهم من البشر أجلًا محددًا لموتهم، ولبعثهم

(١) قرأ حمزة بمد (لا) من (لا ريب) أربع حركات بخلف عنه، والباقون بالقصر، ومعهم حمزة في الوجه الآخر.

ونشورهم، وهو آت لا محالة، والأجل في الآية يراد به: أجل الموت، أو أجل البعث.

ومع وضوح الحق، وإقامة الحجة فإن الظالمين يأبون إلا الكفر والجحود.

وهذا كقوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَمْ يَغَيِّمْ يَخْلُقْ بِقَدْرِ عَلَى أَنْ يُخَيِّقَ الْمَوْتَ بَلَى إِنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٣٣﴾﴾ [الأحقاف].

وقوله: ﴿أَوَلَيْسَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِقَدِيرٍ عَلَى أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ﴾؟ [يس: ٨١]
وقوله: ﴿إِنَّمَا أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ السَّمَاءِ﴾؟ [النازعات: ٢٧].

وتخصيص ذُكر السماوات والأرض في الآية دون غيرهما؛ لأن خلقهما أكبر وأعظم من خلق الإنسان، ومن كان قادرًا على خلق الأصغر، فهو قادر على خلق الأكبر بلا شك، كما قال تعالى: ﴿لَخَلْقُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٥٧﴾﴾ [غافر]

فإعادة الناس إلى الحياة بعد موتهم أمر ممكن، سهل ويسير، ولكن هذه الإعادة لها وقت محدد عند الله تعالى ﴿وَمَا تُؤَخِّرُهُ إِلَّا لِأَجَلٍ مُّعَدُّورٍ ﴿١٦﴾﴾ [هود].

الرَّدُّ عَلَى مُقْتَرِحِي الْمُعْجَزَاتِ

١٠٠- ﴿قُلْ لَوْ أَنْتُمْ تَمْلِكُونَ خَزَائِنَ رَحْمَةِ رَبِّي ^(١) إِذَا لَأَمْسَكْتُمْ خَشْيَةَ الْإِنْفَاقِ وَكَانَ الْإِنْسَانُ قَتُورًا﴾

ثم رد الله تعالى على الظالمين المكذبين، الذين طلبوا من رسول الله ﷺ أن يجعل جبل الصفا ذهبًا، أو أن يكون له بيت من ذهب، أو أن تكون المنطقة حول مكة جنات وبساتين، ونخيلاً وأعنابًا.

والله سبحانه يُجابه مَنْ طلبوا الخوارق من النبي ﷺ، ببيان ما هم فيه من شُح وبخل، تجاه تلك المقترحات التي اقترحوها، فيقول لهم: لو أنكم بيدكم مفاتيح خزائن الخيرات التي لا تنفذ ولا تبید، وملکتم خزائن النعيم كله، لأمسکتهم، ولما أنفقتهم، شُحًا وبخلًا منكم، وخوفًا من نفاد الخزائن، فتصبحوا فقراء ﴿قُلْ لَوْ أَنْتُمْ تَمْلِكُونَ خَزَائِنَ رَحْمَةِ رَبِّي﴾ من الخير والأرزاق والنعيم، إِذَا لَأَمْسَكْتُمْ عن الإنفاق، خشية أن تنفذ هذه النعم وهذه الأرزاق

(١) قرأ نافع وأبو عمرو وأبو جعفر بفتح ياء الإضافة وصلًا من (ربي إذا)، والباقيون بإسكانها.

من أيديكم ﴿وَكَانَ الْإِنْسَانُ فَتُورًا﴾ أي: ممسكًا بطبعه؛ لأن الأشياء تفنى، وتتناهى، فهو يخشى الفقر.

قال تعالى: ﴿أَمْ لَهُمْ نَصِيبٌ مِّنَ الْمُلْكِ فَإِذَا لَا يُؤْتُونَ النَّاسَ نَقِيرًا﴾ [النساء].

ومن شأن الإنسان أنه بخيل بما في يده إلا من عصمه الله بالإيمان، وقد وصف الله الإنسان الكافر بالهلع، والجزع، والبخل الذي جاء ذكره في قوله تعالى: ﴿إِنَّ الْإِنْسَانَ خُلِقَ هَلُوعًا﴾ [١٩] إِذَا مَسَّهُ شَرْ جَزُوعًا ﴿٢٠﴾ وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعًا ﴿٢١﴾ [المعارج].

أما المؤمن المصلي، المخرج للزكاة، الحافظ لأمانته وفرجه، والحافظ لشهادته، فإنه ليس كذلك، كما بيّن سبحانه ذلك في أوصاف المؤمنين في سورة المعارج، وفي أول سورة المؤمنون.

وفي الحديث عن أبي هريرة ؓ أن رسول الله ﷺ قال: «يد الله ملأى، لا تغيضها نفقة، سحاء الليل والنهار، أرايتم ما أنفق منذ خلق السماوات والأرض؟ فإنه لم يغيض ما في يمينه»^(١).

قال الألوسي: وقد بلغت هذه الآية من الوصف بالشح الغاية القصوى التي لا يبلغها الوهم؛ حيث أفادت أنهم لو ملكوا خزائن رحمة الله التي لا تتناهى، وانفردوا بملكها، من غير مزاحم، لأمسكوا عن النفقة من غير مقتض إلا خشية الفقر^(٢).

الْعِبْرَةُ لَيْسَتْ بِخَوَارِقِ الْعَادَاتِ بَلْ بِفَتْحِ الْقُلُوبِ وَاسْتِعْدَادِهَا لِقَبُولِ الْحَقِّ

١٠١- ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَىٰ تِسْعَ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ فَسْتَلَّ^(٣) بَنِي إِسْرَءِيلَ^(٤) إِذْ جَاءَهُمْ فَقَالَ لَهُ فِرْعَوْنُ إِنِّي لَأَظُنُّكَ يَمُوسَىٰ مَسْحُورًا﴾ [١٦]

(١) أخرجه البخاري برقم (٧٤١٩) ومسلم برقم (٩٩٢).

(٢) «تفسير الألوسي» (١٥/١٨١).

(٣) قرأ ابن كثير والكسائي وخلف العاشر بنقل حركة همزة (فاسأل) إلى الساكن قبلها، فقرأ هكذا (فسل) وكذا حمزة وقفًا، والباقون بإسكانها وهمزة مفتوحة بعدها، وسكت على سكون السين: حمزة وحفص وابن ذكوان بخلفهما، (فاسأل).

(٤) سهل همزة (إسرائيل) التي بعد الراء أبو جعفر مع المد والقصر، وقرأ ورش من طريق الأزرق بمدّ الهمزة بعد الألف وقصرها، والباقون بالتحقيق مع القصر.

لست - أيها الرسول - أول رسول كذبه الناس، فقد أرسلنا قبلك موسى وأيدناه بتسع آيات، فكذبه فرعون وقومه، فإن شككت في شيء من ذلك، فاستشهد ببني إسرائيل على صحة رسالة موسى وتكذيب فرعون له، ووصفه له بالسحر.

وليس المراد حقيقة السؤال في الآية، إذ كيف يغور محمد ﷺ في غابر الزمن، ليسأل من كانوا في زمن موسى وفرعون، إنما المراد تأكيد ما بعد السؤال، وهو تكذيب الأمم لرسولهم على مدى الأزمنة واختلاف الأمكنة، ومحمد ﷺ واحد منهم.

وهكذا: يبين الله سبحانه أن المعجزات والخوارق التي يطلبها المكذبون بالوحي، لو أن الله تعالى أنزلها عليهم، وأيد رسوله بها، فإنها لن تغير منهم شيئاً؛ لأنها لا تنشئ الإيمان في قلوب الجاحدين، ولا تزيد المعاندين إلا كفرًا على كفرهم، ورجسًا على رجسهم، فاصبر على أذى قومك وتكذيبهم لك.

وقد ضرب الله سبحانه مثلاً على ذلك بقوم موسى عليه السلام؛ فقد أيد الله سبحانه بتسع آيات بينات، هذه الآيات التسع: خمس منها ذكرت في آية واحدة من سورة الأعراف [١٣٣] ﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الطُّوفَانَ وَالْجَرَادَ وَالْقُمَّلَ وَالضَّفَادِعَ وَالدَّمَ﴾ وذكر معجزتان في الآية قبلها: ﴿وَلَقَدْ أَخَذْنَا آلَ فِرْعَوْنَ بِالسِّنِينَ وَنَقْصٍ مِنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَذْكُرُونَ﴾ [١٣٠] أما معجزتا العصا واليد فقد جاء ذكرهما في قوله تعالى: ﴿فَأَلْقَى عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُبِينٌ﴾ [١٣٧] وَزَرَعَ يَدُهُ فَإِذَا هِيَ بَيْضَاءُ لِلنَّظِيرِينَ [١٣٨] [الشعراء] وقوله تعالى: ﴿وَأَلْقَى عَصَاكَ﴾ [النمل: ١٠]

وقوله أيضًا ﴿وَأَدْخِلْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ﴾ [النمل: ١٢] وغير هذين الموضعين.

قال ابن عباس عليه السلام: هي اليد، والعصا، والطوفان، والجراد، والقمل، والضفادع، والدم، والسنين، ونقص من الثمرات^(١).

وتحديد الآيات بالتسع، لا ينفي غيرها مما حدث لموسى عليه السلام بعد خروجه من مصر، ولكن هذه التسع، هي التي شاهدها فرعون وقومه في مصر، وكانت حجة عليهم، فكفروا بها وجحدوها ﴿وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنْفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا﴾ [النمل: ١٤].

ومن معجزات موسى الأخرى: فلق البحر، وثق الجبل فوقهم، والطمس؛ حيث دعا

(١) عبد الرزاق (١/ ٣٩٠) والطبري (١٥/ ١٠٢) وابن أبي حاتم (٩/ ٢٨٥١).

موسى، وأمن هارون، فطمس الله أموالهم وردّها حجارة.

ومن معجزات موسى ﷺ: إنزال المن والسلوى، وتظليل الغمام، والحجر الذي كان يضربه موسى بعصاه فيتفتق اثنتا عشرة عيناً من الماء بعدد أسباط بني إسرائيل، ومنها فك عقدة لسانه حين دعا ربه قائلاً: ﴿وَأَحْلِلْ عُقْدَةَ مِنِّ لِسَانِي ﴿٧٧﴾ يَفْقَهُوا قَوْلِي ﴿٧٨﴾﴾ [طه]

هذه هي المعجزات، أو الآيات البينات التي أيد الله بها موسى ﷺ، وعلى رأسها التوراة، وما تضمنته من أحكام؛ كالنهي عن: الشرك بالله، والقتل، والزنى، والربا، والسحر، والبغي، والسرقة، والفرار من الزحف، وقذف المحصنات، وعدم التعدي في يوم السبت، وهي دلائل قاطعة على صدقه ونبوته، فماذا كان من فرعون وقومه؟

يقول الله تعالى لرسوله محمد ﷺ: أسأل بني إسرائيل المعاصرين لك، واستشهد بهم، واجعلهم يقرّون ويعترفون بما كان من أسلافهم حين جاءهم موسى ﷺ بهذه الآيات البينات، وحين جاء موسى إلى فرعون يطلب منه أن يعبد الله وحده، وأن يخلص بني إسرائيل من تعذيبه وتسلّطه عليهم، كما قال تعالى على لسان موسى ﷺ: ﴿أَن أَرْسِلَ مَعًا بَنِي إِسْرَءِيلَ ﴿٧٧﴾﴾ [الشعراء] وعندما قال فرعون لموسى: ﴿إِنِّي لَأَظُنُّكَ يَمُوسَىٰ مَسْحُورًا﴾ مخدوعاً ومغلوباً على عقلك بما يأتيه من غرائب الأفعال، فأنت تتخبط وتهذي، هكذا كان موقفه مع وجود الآيات بين أيديهم.

قال له موسى ﴿وَإِنِّي لَأَظُنُّكَ يَفْرَعَوْتُ مَسْجُورًا﴾ أي هالكا.

قال الفخر الرازي: وليس المطلوب من سؤال بني إسرائيل أن يستفيد النبي ﷺ هذا العلم منهم، بل المقصود أن يظهر لعامة اليهود وعلمائهم صدق ما ذكره الرسول ﷺ فيكون هذا السؤال سؤال استشهاد^(١).

والمسؤولون هم المؤمنون من بني إسرائيل؛ كعبد الله بن سلام، وأصحابه، والمراد: اسأل -يا رسولنا- مؤمني أهل الكتاب عما جرى بين موسى وفرعون؛ فإنهم يعلمونها مما لديهم في التوراة.

ثم ذكّر الله تعالى نبيه محمداً ﷺ بحال فرعون حين تناول على موسى ورماه بالسحر،

(١) «التفسير الكبير» (٢١/٦٥).

وقال له: إني لأظنك يا موسى قد سُحرت، فتخَبَّطَ عقلُك، فالأرجح أن الخطاب في قوله تعالى: ﴿فَسَلِّ بِنِي إِسْرَءِيلَ﴾ موجه إلى النبي محمد ﷺ المنزل عليه هذه الآيات؛ ليسأل اليهود المعاصرين له سؤال تقرير، واستشهاد، عما جرى بين موسى وفرعون مع قومه؛ ليظهر بذلك صدق النبي ﷺ في دعوته، وإقامة الحجة على أهل الكتاب والمشركين الذين كذبوا بالرسالة، وهذا في مقام المناظرة بين إيتاء موسى التوراة، وإيتاء محمد القرآن، وموقف فرعون وقومه من موسى، وموقف اليهود والمشركين من محمد.

وفي الآية التالية ردُّ موسى على فرعون:

١٠٢- ﴿قَالَ لَقَدْ عَلِمْتَ^(١) مَا أَزْلَ هَؤُلَاءِ^(٢) إِلَّا رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ بَصَائِرَ وَإِنِّي لَأَظُنُّكَ يَافِرَعَوْنُ مَثْبُورًا^(٣)﴾

ولما رمى فرعون، موسى بالسحر، قال موسى لفرعون ردًّا على كذبه وافترائه: لقد علمت بالدليل والحجة، ولم يبق في نفسك شك أن هذه الآيات التسع لا تكون إلا بتسخير الله تعالى؛ إذ لا يقدر عليها غيره، فأنت تعلم أنها من عند الله حقيقة، ولكنك تكابر وتجادل وتعاقد؛ فهي من الوضوح بحيث لا تجهل أن هذه الآيات البينات أيد الله بها موسى، وأنزلها هداية للناس في كشف الحقائق وتجليتها، فهي حجج وبراهين واضحة ﴿وَإِنِّي لَأَظُنُّكَ يَافِرَعَوْنُ مَثْبُورًا﴾ أي: هالكًا، مطرودًا، ومبعدًا من رحمة الله سبحانه.

فالمثبور: هو الذي أصابه الثور وهو الهلاك.

وظنُّ فرعون تخمين، وكذب، وتخريص.

(١) قرأ الكسائي بضم التاء من (لقد علمت) مسندًا إلى ضمير المتكلم وهو موسى عليه السلام، أي: لقد علمت أن هذه الآيات ليست سحرًا كما زعمت، قال علي بن أبي طالب ؓ: ما علم عدو الله قط، وإنما علم موسى، وقرأ الباقون بفتح التاء مسندًا إلى ضمير المخاطب وهو فرعون.

(٢) قرأ قالون والبيزي بتسهيل الهمزة الأولى مع المد والقصر، وقرأ ورش وقنبل وأبو جعفر ورويس بتسهيل الثانية، ولورش وقنبل وجه آخر هو إبدالها ياء ساكنة مع المد، ولورش وجه ثالث هو إبدالها ياء مكسورة، وأسقط أبو عمرو ورويس بخلف عنه، الهمزة الأولى مع المد والقصر، والباقيون بتحقيق الهمزتين، وهم ابن عامر وعاصم وحمزة والكسائي وروح وخلف.

وظنَّ موسى صدق وعلم يقيني ، وجعله موسى ظناً تأدباً مع الله سبحانه .

فالمعنى : وإني لعلی علم ویقین أنك -يا فرعون- ملعون مغلوب ، مصيرك إلى الهلاك والتدمير ؛ بسبب إصرارك على الكفر والطغيان ، بعد إتياني بالمعجزات الدالة على صدقي وصحة نبوتي .

وفي هذا ذم وتوبيخ لفرعون على تجاهله الحقائق ؛ حيث كان على علم يقيني بأن موسى ليس ساحراً ولا مسحوراً ، وأن الآيات التي جاء بها إنما هي من عند الله .

والله ﷻ يوضح هذا المعنى في قوله تعالى خطاباً لموسى ﷺ : ﴿وَأَدْخِلْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخَرِّجْ يَضَاءً مِنْ غَيْرِ سُوءٍ فِي ثِيَابٍ سَبْعَ آيَاتٍ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَقَوْمِهِ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ ﴿١٢﴾﴾ فَلَمَّا جَاءَهُمْ ءَايَاتُنَا مُبْصِرَةً قَالُوا هَذَا سِحْرٌ مُّثْبِتٌ ﴿١٣﴾ وَحَمَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنْفُسُهُمْ ظُلُمًا وَعُلُوًّا فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ ﴿١٤﴾﴾ [النمل] .

عِقَابُ اللَّهِ لِفِرْعَوْنَ حِينَ عَزَمَ عَلَىٰ إِخْرَاجِ مُوسَى وَقَوْمِهِ مِنْ مِصْرَ

١٠٣- ﴿فَأَرَادَ أَنْ يَسْتَفِزَّهُمْ مِنَ الْأَرْضِ فَأَغْرَقْنَاهُ وَمَنْ مَعَهُ جَمِيعًا ﴿١٢٦﴾﴾

وبعد أن وبخ موسى فرعون وهدده ، أراد فرعون أن يطرد موسى وقومه من أرض مصر ، وهذا شأن الطغاة والجبابرة في كل زمان ومكان ؛ حيث يلجؤون إلى القوة المادية ، بنفي خصومهم ، وإيداعهم السجون ، أو طردهم وإبعادهم ، بعد إفلاس حجتهم ، وعجزهم عن مناظرة الخصوم ومقارعة الحجة بالحجة .

وهكذا أراد فرعون بموسى وقومه ، كما قال تعالى : ﴿وَقَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِ فِرْعَوْنَ أَتَنْذَرُ مُوسَى وَقَوْمَهُ لِيُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَيَذَرَكَ وَءَالِهَتَكَ قَالَ سَنُقَرِّبُ أَبْنَاءَهُمْ وَنَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَاهِرُونَ ﴿١٢٧﴾﴾ [الأعراف] .

لجأ فرعون إلى القوة فأراد أن يُخرج موسى وقومه من مصر ، فيُشردهم ، أو يقتلهم ويستأصلهم ﴿فَأَرَادَ أَنْ يَسْتَفِزَّهُمْ مِنَ الْأَرْضِ﴾ .

الاستفزاز : هو الطرد والنفي والإبعاد ، أي : أراد فرعون أن يخرج موسى وقومه من أرض مصر كما أراد كفار مكة أن يفعلوا بالرسول ﷺ .

قال تعالى: ﴿وَإِنْ كَادُوا لَيَسْتَفِزُّوكَ مِنَ الْأَرْضِ لِيُخْرِجُوكَ مِنْهَا﴾ [الإسراء: ٧٦] فماذا كانت النتيجة بالنسبة لفرعون حين أراد أن يزجج موسى، ويُخرجه مع قومه من مصر؟ ﴿فَأَغْرَقْنَاهُ وَمَنْ مَعَهُ جَمِيعًا﴾ أغرق الله فرعون وجنوده في اليمِّ عقابًا لهم دون أن يستثني منهم أحدًا، فردَّ الله سهامهم في نحورهم.

وكما فعل فرعون مع موسى ﷺ فعل المشركون مع محمد ﷺ، فأضرموا إخراجهم من مكة، فعاد محمد إلى مكة فاتحًا، كما أورش الله بني إسرائيل الأرض.

الْيَهُودُ، شَعْبُ بِلَا وَطَنٍ

١٠٤- ﴿وَقُلْنَا مِنْ بَعْدِهِ لِبَنِي إِسْرَءِيلَ أَكُنُوا الْأَرْضَ فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الْآخِرَةِ جِئْنَا بِكُمْ لَفِيفًا﴾

وبعد هلاك فرعون وجنده، قال الله تعالى لبني إسرائيل على لسان موسى ﷺ: ﴿أَكُنُوا الْأَرْضَ﴾ و (ال) في ﴿الْأَرْضِ﴾ للجنس، أي: اسكنوا الأرض كلها، موزعين، متفرقين، مشتتين في أرجائها، فإذا جاء وعد الدار الآخرة جئنا بكم مجتمعين في مكان واحد. ولعل هذا ينطبق على اليهود في وقتنا، وهم يقومون بإفساد كبيرة في الأرض، وهي قيام معبد سليمان، وإيذاء أهل فلسطين، وقتل النشطاء منهم، وسجنهم وحصارهم.

ولعل تجمعهم في فلسطين حاليًا هو بداية النهاية التي أخبر بها النبي ﷺ: «أن اليهود يقاتلهم المسلمون ويتصرون عليهم، حتى يُنطق الله الحجر فيقول: يا مسلم، هذا يهودي ورائي فتعال فاقتله»^(١).

فالضمير في ﴿وَقُلْنَا مِنْ بَعْدِهِ﴾ يعود على فرعون، أي بعد غرقه وإهلاكه.

ويذكر المفسرون أن المراد بالأرض هي أرض مصر أو الشام، ف(ال) للعهد - على هذا - وأن المراد بالآخرة: هي قيام الساعة، بمعنى: أنهم يخرجون جميعًا من قبورهم للبعث والحساب.

وليست أرض فلسطين وطنًا لهم حتى يعدهم الله بها، ولا يوجد ما يرجح هذا المعنى، فقد وعدهم الله بها، ولمَّا امتنعوا من قتال الجبارين حرّمها الله عليهم حرمة أبدية عقوبة لهم. قلت:

(١) الحديث في «البخاري» عن عبد الله بن عمر (٢٥٢٩، ٣٥٩٣) وفي «مسلم» (٢٩٢١).

١- القرآن الكريم يفسر بعضه بعضاً، وإن يوسف عليه السلام يؤرخ لإخوته إلى يوم القيامة؛ حيث بيّن يوسف عليه السلام أن إخوته قوم رُحُل، جاؤوا من البدو، وهم رعاة غنم في الأصل، ليس لهم وطن ثابت، ويسكنون في شتى أرجاء الأرض، شأنهم شأن البدو، ورعاة الماشية، يتنقلون هنا وهناك، من العراق إلى الشام، إلى مصر، إلى السودان، إلى اليمن، إلى روسيا، إلى أمريكا، إلى فلسطين، وهكذا، قال يوسف عليه السلام: ﴿وَقَدْ أَحْسَنَ بِي إِذْ أَخْرَجَنِي مِنَ السِّجْنِ وَجَاءَ بِكُم مِنَ الْبَدْوِ﴾ [يوسف: ١٠٠].

٢- ويرشح ما قلناه من أن (ال) في (الأرض) للجنس، وليست للعهد، قوله تعالى عن اليهود: ﴿وَقَطَعْنَاهُمْ فِي الْأَرْضِ أُمَمًا﴾ [الأعراف: ١٦٨] أي: شتّناهم، ووَزَعناهم في أرجاء الأرض، وهذا بعد قوله تعالى: ﴿وَإِذْ تَأَذَّتْ رُكَّتُكَ لِيَتَعَنَّ عَلَيْهِمْ إِلَى يَوْمِ الْفَيْصَةِ مَنْ يُسُوْهُمْ سُوءَ الْمَذَابِ إِنَّ رَبَّكَ لَسَرِيعُ الْعِقَابِ وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [الأعراف: ١٦٧].

٣- وقد حرم الله تعالى على اليهود، أرض فلسطين، حُرمة أبدية، بعد جُبنهم وتقاعسهم عن حرب العمالقة، ومخالفتهم أمر رسولهم موسى عليه السلام بدخولها للقتال، فكان هذا التحريم عقوبة لهم، كما في قوله تعالى: ﴿قَالَ فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ﴾ والوقف هنا: وقف لازم؛ لأن مدة التيه في صحراء سيناء كانت أربعين سنة ﴿أَرْبَعِينَ سَنَةً يَتِيهُونَ فِي الْأَرْضِ﴾ [المائدة: ٢٦] فهذه المدة هي مدة التيه، وليست مدة تحريم دخولها، فإن هذا التحريم قائم إلى قيام الساعة، وعلامة وقف التعانق في الآية اجتهاد من بعض أهل العلم.

٤- وهذه الآية تشير إلى أنهم بعد تفرقهم في أرجاء الأرض، يؤتى بهم مجتمعين في الأرض المقدسة عند قيام الساعة فقال تعالى: ﴿فَإِذَا جَاءَ وَعَدُ الْآخِرَةِ جِئْنَا بِكُمْ لَفِيفًا﴾.

وهذا ربط بين أول السورة وآخرها، فقد بيّن سبحانه أن بني إسرائيل يفسدون في الأرض كثيراً بين الحين والآخر، وأنهم يفسدون إفسادتين كبيرتين عظيمتين.

وقد جرى كثير من المفسرين على أن الإفسادتين قد وقعتا في الماضي، على ضوء ما جاء ذكره عند تفسير الآية ﴿وَفَضَيْنَا إِلَى بَنِي إِسْرَءِيلَ فِي الْكِتَابِ لُفْسِدُنَ فِي الْأَرْضِ مَرَّتَيْنِ﴾ والعمل على هدم المسجد الأقصى أكبر إفسادة في العصر الحديث.

وقد قال تعالى عن بني إسرائيل: ﴿وَإِنْ عُدْتُمْ عَدُنَا﴾ [الإسراء: ٨] أي: وإن عدتم إلى الإفساد في الأرض عدنا إلى الانتقام منكم على أيدي عباد لنا أولي بأس شديد.

وإقامة معبد سليمان المزعوم في ساحة المسجد الأقصى هو ما تفعله اليهود في الوقت الحاضر، بالإضافة إلى جمع شتاتهم من هنا وهناك، وهجرتهم إلى الأرض المقدسة، فلعل هذا تفسير واقعي لهذه الآية.

ونسأل الله بأسمائه الحسنى وصفاته العلا أن يجعل نهايتهم على أيدي عباد له صالحين، يسوؤون وجوههم، ويدخلون المسجد الأقصى كما دخلوه أول مرة.

الْقُرْآنُ يُرَبِّي أُمَّةً وَيُقِيمُ مِنْهَجًا

١٠٥- ﴿وَبِالْحَقِّ أَنْزَلْنَاهُ وَبِالْحَقِّ نَزَلَ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا﴾

وبعد أن تحدثت السورة عن خوارق العادات، وبيّنت تكذيب المستقبلين لها، وكيف مضت سنة الله تعالى بإهلاكهم، بعد ذلك، بيّنت السورة أن هذا القرآن أنزله الله آية دائمة للخلق أجمعين، فيه أمرهم ونهيهم وثوابهم وعقابهم، وقد نزل القرآن في مدة طويلة؛ ليقرأ على الناس على مهل، وتودة، وطمأنينة، كما قال تعالى: ﴿وَقُرْآنًا فَوْقَهُ لِنُقَرِّأَهُ عَلَى النَّاسِ عَلَى مَكٍّ وَنَزَّلْنَاهُ نَزِيلًا﴾ [الإسراء: ١٠٦] وقال سبحانه: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً كَذَلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلًا﴾ [الفرقان: ٣٢].

فقد نزل هذا القرآن؛ بالصدق والعدل، والحفظ من كل شيطان رجيم، نزل ليربي أمة، ويشرع نظامًا، ويقيم مجتمعًا، ويرسم منهجًا يصلح البشر إلى قيام الساعة.

والخوارق أو المعجزات التي يطلبها مكذبو الوحي والرسالة في جميع الأمم لها فائدة مؤقتة؛ فهي لا تنفع إلا من يراها في زمانها ومكانها.

أما معجزة القرآن فهي معجزة ثابتة باقية بين يدي الخلق جميعا إلى قيام الساعة، وإلى هذا المعنى يشير الله سبحانه بقوله: ﴿وَبِالْحَقِّ أَنْزَلْنَاهُ﴾ فالقرآن نزل بالحق: الحق مادته، والحق غايته، وأمره حق، ونواهيه حق، وأخباره حق، ووعدته حق، ووعيده حق، وقد نزل القرآن؛ ليكون حجة باقية بين يدي الخلق إلى يوم القيامة، جاء لهداية البشر، فهو

﴿يَهْدِي لِلَّذِي هِيَ أَقْوَمُ﴾ [الإسراء: ٩] ﴿وَبِالْحَقِّ نَزَّلَ﴾ أي: وقد أنزلنا هذا القرآن على محمد ﷺ لأمر العباد ونهيهم، وثوابهم وعقابهم، وأنزلناه بالصدق والعدل، وبالحفظ من التغير والتبديل نزل، وقد ذكر فعل النزول في الآية مرتين، وذكر لفظ الحق مرتين، مع اختلاف المعنى فيهما.

فالمراد بالحق الأولى: أن هذا القرآن هو القول الثابت الذي لا ريب فيه ولا كذب، وفقاً للحكمة الإلهية التي اقتضت نزوله، وفيه رد على المشركين المنكرين أن يكون القرآن وحياً من عند الله، وهذا كقوله تعالى: ﴿ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ﴾ [البقرة: ٢] هذا هو معنى النزول الأول.

أما الحق الثاني: فبمعنى بلوغ القرآن للناس بالحق، الذي هو ضد الباطل، أي: نزل مشتملاً على الحق الذي به صلاح الناس في الدنيا، وفوزهم في الآخرة، كما قال تعالى: ﴿وَقُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ﴾ [الإسراء: ٨١] وهو بيان لما اشتمل عليه القرآن من: عقائد، وعبادات، ومعاملات، وأخلاق، وأحكام، وحكم، وأمثال، ومواعظ، فأخباره صدق وأحكامه عدل، وهذا كقوله تعالى: ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا﴾ [الأنعام: ١١٥] وكيف لا؟ وقد نزل بعلمه سبحانه: ﴿لَكِنَّ اللَّهَ يَشْهَدُ بِمَا أَنْزَلَ إِلَيْكَ أَنْزَلَهُ بِعِلْمِهِ وَالْمَلَكُ يَشْهَدُونَ وَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا﴾ [النساء]

والرسول مؤتمن على إنزاله فلا يغير ولا يبدل، وهو قوي لا يغالب ولا يُعارض، فقد ﴿نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ﴾ ﴿عَلَى قَلْبِكَ﴾ [الشعراء].

﴿إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ﴾ ﴿ذِي قُوَّةٍ عِنْدَ ذِي الْعَرْشِ مَكِينٍ﴾ [التكوير].

جاء في تفسير النسفي للآية، أن محمد بن السماك اشتكى -قال الراوي- : فأخذنا ماءً وذهبنا به إلى طبيب نصراني، فاستقبلنا رجل حسن الوجه، طيب الرائحة، نقي الثوب، فقال لنا: إلى أين؟ فقلنا له: إلى فلان الطبيب، نُرِيه ماء ابن السماك، فقال: سبحان الله! تستعينون على ولي الله بعدو الله، اضربوه على الأرض، وارجعوا إلى ابن السماك، وقولوا له: ضع يدك على موضع الوجع وقل: ﴿وَبِالْحَقِّ أَنْزَلْنَاهُ وَبِالْحَقِّ نَزَّلَ﴾ ثم غاب عنا، فلم نره، فرجعنا إلى ابن السماك، فأخبرناه بذلك، فوضع يده على موضع الوجع، وقال ما قال الرجل، وعوفي في الوقت نفسه، وقال: كان ذلك الرجل حسن

الوجه، هو الخضر عليه السلام.

ثم يقول الله تعالى لرسوله ﷺ: لا تحزن؛ فمهمتك أن تبشّر من أطاع الله بدخول الجنة، وتندّر من عصاه بدخول النار، أما خلق الهدى في قلوب العباد فإن ذلك إلى الله سبحانه.

إِقَامَةُ حُرُوفِ الْقُرْآنِ وَحِفْظُ حُدُودِهِ

١٠٦- ﴿وَقُرْآنًا فَرَقْنَاهُ لِتَقْرَأَهُ عَلَى النَّاسِ عَلَى مُكْثٍ وَنَزَّلْنَاهُ نَزِيلًا ﴿١٠٦﴾﴾

هذا القرآن أنزلناه فارقًا بين الحق والباطل، والهدى والضلال، والإيمان والكفر، والحلال والحرام ﴿وَقُرْآنًا فَرَقْنَاهُ﴾ أي: ونزل هذا القرآن منجمًا مفرقًا، ولم ينزل دفعة واحدة كسائر الكتب السماوية، إنما نزل في ثلاث وعشرين عامًا؛ للتثبيت والتفكير، ولتعلم الأمة.

وكما قال أبو عبد الرحمن السلمي: حدثنا الذين كانوا يُقرئونا القرآن: إنهم كانوا يستقرئون على النبي ﷺ، وكانوا إذا تعلموا عشر آيات لم يتركوها حتى يعملوا بما فيها، قال: فتعلمنا القرآن والعمل جميعًا.

ويقول ابن عمر رضي الله عنهما: كنا لا نتجاوز العشر آيات حتى نعلمها ونعمل بما فيها، فتعلمنا العلم والعمل معًا، وقد أنزلنا هذا القرآن منجمًا ﴿لِنَقْرَأَهُ عَلَى النَّاسِ عَلَى مُكْثٍ﴾ أي: على تأمل، وترسل، وتأن.

هكذا يكون الأمر بالنسبة لتلاوة القرآن الكريم والعمل بما فيه ﴿وَنَزَّلْنَاهُ نَزِيلًا﴾.

والمعنى: وأنزلنا عليك -يا محمد- قرآنًا بيناه، وأحكمناه، وفصلناه، وجعلناه فارقًا بين الحق والباطل، والهدى والضلال؛ لتقرأه على الناس في تودة، وتمهل، وحُسن ترتيل؛ حتى يتيسر لهم حفظه بسهولة، وحتى يتمكنوا من تطبيق تشريعاته وتوجيهاته تطبيقًا عمليًا دقيقًا في جميع أحوالهم الدينية والدنيوية، ونزلناه شيئًا فشيئًا على حسب الوقائع، والأحداث، والأحوال.

أخرج الطبري بسنده عن عكرمة عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: أنزل القرآن من السماء جملة واحدة إلى السماء الدنيا في ليلة القدر، ثم أنزل بعد ذلك في عشرين سنة، قال: ﴿وَلَا

يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ وَأَحْسَنَ نَفْسِيرًا ﴿٢٣﴾^(١).

صُورَةٌ مِنْ إِيْمَانٍ بَعْضُ أَهْلِ الْكِتَابِ بِالْقُرْآنِ

١٠٨، ١٠٧ - ﴿قُلْ ءَامِنُوا بِهِ أَوْ لَا تُؤْمِنُوا إِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مِنْ قَبْلِهِ إِذَا يُتْلَى عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا^(٢)﴾ ﴿١٠٧﴾ وَيَقُولُونَ سُبْحَنَ رَبِّنَا إِنْ كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا ﴿١٠٨﴾

وبعد أن تحدثت السورة عن القرآن الكريم، وبيّنت أنه منزل من عند الله، وليس في استطاعة الإنس والجن الإتيان بمثله، وأن هذا القرآن قد اشتمل على ضرب الأمثال للناس بعد ذلك كشفت السورة عن شبهة المشركين باقتراحهم معجزات أخرى، وأن الرسول لا يكون بشراً، ومثلت حال المشركين مع رسول الله بحال فرعون وجنده مع موسى، وردّت على شبهتهم في عدم نزول القرآن جملة واحدة.

بعد هذا أمر الله رسوله أن يخير المكذوبون بالقرآن في كل زمان ومكان، إن شاؤوا آمنوا بالقرآن، وإن شاؤوا لم يؤمنوا، وعليهم تبعه ما يختارونه لأنفسهم ﴿قُلْ ءَامِنُوا بِهِ أَوْ لَا تُؤْمِنُوا﴾ ففوّض النظر إليهم في تصديق القرآن وعدمه، وخيرهم بين إيمانهم أو كفرهم به، فأمنوا - أيها المكذوبون - بهذا القرآن أو لا تؤمنوا، فإن إيمانكم لا يزيده كمالاً، وكفركم وتكذيبكم له لا يلحق به نقصاً، ولا يضره في شيء؛ فالضرر يعود عليكم.

ثم إن العلماء الذين أوتوا الكتب السابقة قبل القرآن؛ كورقة بن نوفل، الذي شهد للنبي ﷺ بالنبوة، وكذا من آمن بعد نزول هذه السورة، من اليهود والنصارى، ممن ميزوا بين الحق والباطل، وهم أولو العلم من أهل الكتاب، الذين عرفوا حقيقة الوحي، وعرفوا معالم النبوة؛ كعبد الله بن سلام، وتميم الداري، وزيد بن عمرو بن نفيل، ومعيقب، وسلمان الفارسي، والنجاشي، وغيرهم من الذين دخلوا في الإسلام، وآمنوا بما جاء به محمد ﷺ، هؤلاء وأمثالهم يشير الله تعالى إليهم بقوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مِنْ قَبْلِهِ﴾ أي:

(١) رجاله ثقات، وإسناده صحيح إلى ابن عباس، وصححه الحاكم والذهبي في «المستدرک» (٢/٢٦٨) وصححه ابن حجر في «الفتح» (٤/٩) وقد أخرجه النسائي (٧٩٨٩، ٧٩٩٠) والطبري (١١٥/١٥) وابن أبي حاتم (١٥١٢٧) والبيهقي (١٣١/٧).

(٢) عدّ لفظ (سجدا) الكوفي، وتركها بقية علماء العدد.

قبل نزول القرآن ﴿إِنَّا يُسَلِّىٰ عَلَيْهِمْ﴾ هذا القرآن، يعترفون به، ويتأثرون به غاية التأثر، ويخضعون له، و ﴿يَحْزَنُونَ لِلَّذِينَ سُبِّحُوا﴾ تعظيمًا وخشوعًا لله سبحانه، فهم يتأثرون من وعظ القرآن، ويزيدهم خشوعًا، فيكون ويتضرعون إلى الله سبحانه، وهؤلاء هم الذين مَنَّ الله عليهم بالإسلام من أهل الكتاب في وقت النبي ﷺ وبعد ذلك.

والبكاء مستحب عند تلاوة القرآن الكريم، كما قال ﷺ فيما يرويه أبو هريرة ؓ: «لا يلج النار رجل بكى من خشية الله حتى يعود اللبن في الضرع، ولا يجتمع على عبد غبار في سبيل الله، ودخان من جهنم»^(١).

وفي حديث ابن عباس ؓ أن النبي ﷺ قال: «عينان لا تمسهما النار: عين بكت من خشية الله، وعين باتت تحرس في سبيل الله»^(٢).

- ويقول الذين أوتوا العلم بالتوراة والإنجيل عند سماعهم للقرآن، تنزيهاً لله ﷻ، وتبرئة له مما يصفه به المشركون، يقولون عندما يسقطون على الأرض، ممكنين جبهتهم منها؛ بسبب قوة الرغبة في السجود، استحضاراً لعظمة الله تعالى، وتأثراً بالقرآن، يقولون في سجودهم: ﴿سُبْحَنَ رَبِّنَا إِن كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا﴾ أي: ما كان وعد الله في التوراة والإنجيل بمجيء الرسول الخاتم إلا حقاً وصدقاً، يقولون ذلك ابتهاجاً بتحقيق الموعد به في كتبهم، فيسبحون الله تعالى تعجباً وسروراً بتحقيق البشرى بالنبي الأخير.

والسجود الأول شكراً لله تعالى على إنجاز وعده ببعثة محمد ﷺ.

والسجود الثاني؛ لفرط تأثرهم بالقرآن.

(١) أخرجه الترمذي برقم (١٦٣٣، ٢٣١١) والنسائي بزيادة (في منخري مسلم أبداً) في «السنن الكبرى» (٤٣٠١) ومسلم (١٨٩١) وابن ماجه (٢٧٧٤) و«المسند» (٧٤٨٠) وابن حبان (٤٦٠٧) والبخاري في «الأدب المفرد» (٢٨١).

(٢) أخرجه الترمذي عن ابن عباس برقم (١٦٣٩) وصححه الألباني في «صحيح سنن الترمذي» (١٣٣٨).

قال تعالى في وصف بعض أهل الكتاب المؤمنين بخاتم المرسلين:

١٠٩- ﴿وَيُخْرِجُونَ لِلْأَذْقَانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا ۝﴾ (١٠٩)

أعيدت كلمة ﴿يُخْرِجُونَ﴾ مرة ثانية اهتمامًا بما صحب السجود من علامات الخشوع؛ حيث حصل الانفعال الباطني فتتج عنه البكاء، وهم يقعون ساجدين على وجوههم، يكون تأثرًا بمواعظ القرآن، ويزيدهم القرآن خشوعًا على خشوعهم من سماع كتابهم، فيخضعون لأمر الله تعالى وعظيم قدرته.

ومن السنة سجود القارئ والمستمع للقرآن قصدًا عند نهاية هذه الآية، وعند غيرها من مواضع السجود في القرآن؛ فالمسلم أجدر بالسجود من أهل الكتاب، ومما يقوله في سجود التلاوة: ﴿سُبْحَانَ رَبِّنَا إِنْ كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا﴾.

الدُّعَاءُ بِأَسْمَاءِ اللَّهِ الْحُسْنَى

١١٠- ﴿قُلْ^(١) أَدْعُوا اللَّهَ أَوْ^(٢) أَدْعُوا الرَّحْمَنَ أَيًّا^(٣) مَا تَدْعُوا فَلَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى وَلَا تَجْهَرُوا بِصَلَاتِكُمْ وَلَا تَخَافُوهَا وَابْتَغِ بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلًا ۝﴾ (١١٠)

وبعد أن خير الله الناس بين أن يؤمنوا بهذا القرآن، أو لا يؤمنوا، خيرهم في الدعاء بما شأوا من أسمائه الحسنى، سِيَمًا لفظ الجلالة (الله) الذي هو علم على الذات الإلهية، ولفظ: ﴿الرَّحْمَنُ﴾ وهو الصفة المختصة بالله سبحانه، المعادلة للفظ الجلالة، وليس لله تعالى اسم غير حسن، حتى يُنهي عن الدعاء به، بل أسماؤه كلها حسنى، فادعوه بما شئتم منها، وبتخير العبد من الأسماء ما يناسب مطلوبه، فيقول مثلاً: يا رحيم، ارحمني، يا غفور، اغفر لي، يا تواب، تُب عليّ، وهكذا.

وكان الناس في الجاهلية ينكرون تسمية الله تعالى بالرحمن، فبيّن ﷺ أن تعدد الأسماء

(١) قرأ عاصم وحمة بكسر لام (قل) و واو (أو) حال وصلهما بما بعدهما، وقرأ يعقوب بكسر اللام وضم الواو، والباقون بضمهما.

(٢) عند الحاجة إلى الوقف، يجوز الوقف على كل من (أَيًّا) و (مَا) لجميع القراء، اتباعًا للرسم؛ لأنهما كلمتان منفصلتان.

لا يقتضي تعدد المسمى؛ فشتان بين دعاء المشركين آلهة مختلفة الأسماء والمسميات، كما يفعل النصارى في دعائهم لله تعالى، وللمسيح، ولأمه، ولجبريل عليه السلام، وبين سبحانه من يعبد إلهاً واحداً له الأسماء الحسنى؛ فالتوحيد، والشرك يتعلقان بالذات لا بالأسماء، وقد تعددت الأسماء والصفات لله تعالى، ولكن المسمى واحد:

عن سعيد بن جبيرة عن ابن عباس رضي الله عنه قال: نزلت هذه الآية ورسول الله مختف بمكة، وكانوا إذا سمعوا القرآن سبوه، وسبوا من أنزله ومن جاء به، فقال الله تعالى لنبيه صلى الله عليه وسلم: ﴿وَلَا تَجْهَرْ بِصَلَاتِكَ﴾ أي: بقراءتك، فيسمع المشركون فيسبون القرآن ﴿وَلَا تَخَافُ بِهِ﴾ عن أصحابك ﴿وَأَتَّبِعْ بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلًا﴾ بين المخافة، والجهر^(١).

وعن هشام بن عروة عن عائشة رضي الله عنها أن هذه الآية نزلت في الدعاء^(٢).

ففي الآية التخيير بين دعاء الله تعالى باسمه العلم، وبين دعائه بصفة الرحمن خاصة، ثم بينت الآية أن للمسلم أن يدعو ربه بأي اسم من أسمائه الحسنى، وأنه لا حرج في دعائه تعالى بعدة أسماء من أسمائه تعالى؛ إذ المسمى واحد سبحانه.

ولفظ الصلاة في الآية يحتمل الدعاء، ويحتمل العبادة المعروفة، ويكون المراد: الجهر بالقراءة في الصلاة، وللمسلم أن يسمي ربه: الله، وله أنه يسميه: الرحمن، أو الرحيم، وما إلى ذلك.

ومن أسمائه الحسنى ما جاء في قوله تعالى: ﴿هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْمَلِكُ الْقُدُّوسُ السَّلَامُ الْمُؤْمِنُ الْمُهَيَّمُ الْعَزِيزُ الْجَبَّارُ الْمُتَكَبِّرُ سُبْحَنَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٣٣﴾ هُوَ اللَّهُ الْخَلِيقُ الْبَارِئُ الْمُصَوِّرُ لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى﴾ [الحشر].

وقد جاء الحديث في الترمذي بتسعة وتسعين اسماً لله تعالى^(٣).

(١) أخرجه البخاري برقم (٤٧٢٢، ٧٤٩٠، ٧٥٢٥، ٧٥٤٧) و«المسند» (١٥٥، ١٨٥٣) والترمذي (٣١٤٦) ومسلم برقم (٤٤٦) وذكره الواحدي النيسابوري في «أسباب النزول» ص ٢٥٠.

(٢) أخرجه البخاري برقم (٤٧٢٣) وانظر: (٦٣٢٧، ٧٥٢٦) ومسلم (٤٤٧) والبخاري في «الكشف» (٢٢٢٨) وابن أبي شيبة (٤٤٠/٢) وسيأتي.

(٣) انظر في هذا تفسير الآية [١٨٠] من سورة الأعراف.

وهي أسماء لا تكون إلا بتوقيف من الله تعالى، ومن رسوله ﷺ، من كل اسم سَمَّى الله به نفسه، أو أنزله في كتابه، أو علَّمه أحدًا من خلقه أو استأثر به في علم الغيب عنده، ومما جاء في أسباب النزول:

(أ) أن رسول الله ﷺ تهجد ذات ليلة بمكة، فجعل يقول في سجوده: «يا رحمن يا رحيم» فقال المشركون: كان محمد يدعو إلهاً واحداً، وهو الآن يدعو إلهين اثنين: الله والرحمن، ما نعرف إلا رحمن الإمامة، يَعتُنون: مسيلمة الكذاب، فأنزل الله الآية^(١).

(ب) وقال ميمون بن مهران: كان النبي ﷺ يكتب في أول ما أوحى إليه: «باسمك اللهم» حتى نزل ﴿إِنَّهُ مِنْ سُلَيْمَانَ وَإِنَّهُ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾ ﴿٢٠﴾ فكتب: «بسم الله الرحمن الرحيم»، فقال مشركو العرب: هذا الرحيم نعرفه، فما الرحمن؟ فنزلت^(٢).

(ج) ولما سمع أبو جهل رسول الله ﷺ وهو في صلاته يقول في دعائه: يا رحمن يا رحيم، قال: انظروا هذا الصابئ ينهانا أن ندعو إلهين، وهو يدعو إلهين، فأنزل الله سبحانه ﴿قُلِ ادْعُوا اللَّهَ أَوْ ادْعُوا الرَّحْمَنَ أَيًّا مَا تَدْعُوا فَلَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ﴾ ﴿٣﴾.

فاسم الرحمن مرادف لاسم الجلالة، وهم ينكرون الرحمن كما جاء في قوله تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ اسْجُدُوا لِلرَّحْمَنِ قَالُوا وَمَا الرَّحْمَنُ أَنَسْجُدُ لِمَا تَأْمُرُنَا وَزَادَهُمْ نُفُورًا﴾ ﴿٦٠﴾ [الفرقان] وقال: ﴿وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ فَادْعُوهُ بِهَا﴾ [الأعراف: ١٨٠].

فالرجل يوصف بأنه شجاع، وكريم، وغيور، وصادق، وأمين، وهكذا مئة وصف، أو أكثر أو أقل، وكلها لمسمى واحد.

(١) أخرجه الطبري في التفسير (١٨٢/١٥) عن مكحول عن ابن عباس.

(٢) «زاد المسير» و«تفسير القرطبي» (٣٤٣/١٠).

(٣) يُنَظَر: الطبري (١٢١/١٥).

ونحن نقول للنصارى: أنتم مثلثون، فيقولون: وأنتم مثلثون، تقولون: بسم الله الرحمن الرحيم، فتدعون ثلاثة آلهة: الله والرحمن والرحيم، وهذا جهل فاضح، ومغالطة واضحة مكشوفة؛ فذات الله تعالى واحدة، وصفاته عديدة ﴿أَيُّ مَا تَدْعُوا فَلَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى﴾.

والمعنى: قل -يا محمد- لمن ينكر أسماء الله الحسنى: ادعوا الله، أو ادعوا الرحمن، فبأي أسمائه دعوتموه فإنكم تدعون إلهاً واحداً؛ لأن أسمائه كلها مشتملة على معاني التقديس والتعظيم والتمجيد، فكلها حسنى.

وعن ابن عباس ؓ أن النبي ﷺ قال عن هذه الآية: «هي أمان من السرقة» وأن رجلاً من المهاجرين تلاها حين أخذ مضجعه، فدخل عليه سارق، فجمع ما في البيت وحمله، والرجل ليس بنائم، حتى انتهى إلى الباب، فوجده مردوداً، ففعل ذلك ثلاث مرات، فضحك صاحب الدار، وقال: إني حصنت بيتي^(١) أي: بقراءة هذه الآية.

وهكذا فقد كان النبي ﷺ يجهز بصلاته وقراءته في الفترة المكية قبل نزول هذه الآية، فكان المشركون يستمعون إليه، ويسبّون القرآن ومن أتى به، فأنزل الله سبحانه ﴿وَلَا تَجْهَرُ بِصَلَاتِكَ﴾ أي بقراءتك في الصلاة، فيسمع المشركون فيسبوا القرآن ويسبوا من جاء به ﴿وَلَا تُخَافُتْ بِهِ﴾ عن أصحابك فلا تسمعهم ﴿وَابْتَغِ بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلًا﴾^(٢) أي توسط بين الجهر والإسرار.

وقيل: إن أبا بكر ؓ كان يخفض صوته في صلاته، وكان عمر ؓ يرفع صوته كثيراً، فقيل لهما في ذلك؟ فقال أبو بكر: أناجي ربي، وقد أسمعت من أناجي، وقال عمر: أطرده الشيطان، وأوقظ الوسنان، فلما نزل ﴿وَلَا تَجْهَرُ بِصَلَاتِكَ وَلَا تُخَافُتْ بِهِ﴾ قيل لأبي بكر: ارفع شيئاً، وقيل لعمر: اخفض شيئاً^(٣)، والمراد بالصلاة هنا: هو القراءة فيها.

واعترض المشركين كان بسبب جهر النبي ﷺ بلفظ: ﴿الزَّكَّاتِ﴾ في البسمة، وقد اغتاظ المشركون من عدم ذكره لآلهتهم في صلاته فسبوه، فنهاه الله تعالى أن يثير حفيظة

(١) أخرجه البيهقي في «الدلائل» (١٢١/٧) من طريق نهل بن سعيد عن الضحاك.

(٢) يُنْظَرُ الحديث في: «البخاري» برقم (٤٧٢٢) و يُنْظَرُ: (٧٤٩٠، ٧٥٢٥، ٧٥٤٧) و«مسلم» برقم (٤٤٦) و«المسند» (٢٣/١) برقم (١٥٥، ١٨٥٣) والطبري (١٨٤/١٥) والترمذي (٣١٤٦) والنسائي (١٠١٠) والطبراني (١٢٤٥٤) وابن حبان (٦٥٦٣).

(٣) الطبري (١٢٤/١٥) وقد أخرجه ابن أبي حاتم عن الربيع بن أنس كما في «الدر» (٤٦٦/٩).

نفوسهم، وأن يزيدهم تصلُّبًا في كفرهم، فقال الله له: لا تجهر بالقراءة في صلاتك فيسمعك المشركون، ولا تُسرَّ بها فلا يسمعك أصحابك، وكُنَّ وسطًا بين الجهر والهمس سداً للذريعة.

قلت: وكان الإسرار بالبسملة في الصلاة بعد نزول هذه الآية كما في حديث أنس وغيره، ومع زوال العلة التي من أجلها كان هذا الإسرار فقد بقى الحكم، كما هو عند أحمد، وغيره، وقد أخذ الشافعي وغيره، بالجهر بالبسملة كما في حديث أم سلمة، وابن عباس عند الترمذي، وغيره، والجهر محمول على ما قبل نزول هذه الآية، والإسرار محمول على ما بعد نزولها، ولذا فقد صح الحديث فيهما^(١).

آيَةُ الْعَزِّ

١١١- ﴿وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُنْ لَمْ شَرِيكٌ فِي الْمَلِكِ وَلَمْ يَكُنْ لَمْ وَلِيٌّ مِنَ الذَّلِيلِ وَكِبَرُهُ تَكْبِيرًا﴾

خُتِمَت سورة (الإسراء) بما بُدِئَتْ به، فقد ابتدأت السورة بتسبيح الله سبحانه، وخُتِمَت بحمد الله ﷻ ردًّا على من زعم أن لله تعالى شريكًا، أو أن له مُعينًا، أو ناصرًا؛ فإن الحاجة إلى الشريك أو إلى الناصر والمعين عجز، والعجز مستحيل على الله تعالى، فوجب وصفه سبحانه بالغنى المطلق، فهو المالك لكل شيء القوي القاهر لجميع الطغاة والجبابرة، وهو أهل لصفات العزِّ والجلال والكمال، والعظمة والكبرياء ﴿وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا﴾ كما يقول اليهود، والنصارى، والمشركون الوثنيون، بل له الكمال المطلق، والثناء والحمد والمجد من كل الوجوه، المنزه عن كل نقص ﴿وَلَمْ يَكُنْ لَمْ شَرِيكٌ فِي الْمَلِكِ﴾ كما يدَّعي الذين يقولون بتعدد الآلهة في القارة الهندية، وغيرها، وكما كان يقول المشركون في مكة وهم يُلبُّون: إلا شريكًا هو لك تملكه وما ملك.

ولا أدري! إذا كان هذا الشريك مملوكًا لله تعالى وهو لا يملك شيئًا، فكيف يكون شريكًا؟ بل لله الملك كله، في العالم العلوي والسفلي، وهو الواحد والقهار.

(١) انظر بحثًا وافيًا في هذا في: كتابنا «فن الترتيل وعلومه» الجزء الأول.

وهو سبحانه ليس له ناصر ينصره من دُلَّ أصابه، فهو الغني الحميد، ولا يحتاج إلى أحد من خلقه ﴿وَلَمْ يَكُنْ لَهُ وَلِيٌّ مِّنَ الدُّنْيَا﴾ أي: ليس بحاجة إلى نصرة أحد، كما يقول الصابئون والمجوس: لولا أولياء الله لذل، قبحهم الله... (١).

فالله تعالى ليس بذليل، فيحتاج إلى وزير، أو مشير، أو معين، وهو المعز المذل ﴿قُلِ اللَّهُمَّ مَلِكُ الْمَلِكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَن تَشَاءُ وَتَنزِعُ الْمُلْكَ مِمَّن تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَاءُ بِيَدِكَ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [آل عمران]

﴿بَدِيعُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَنَّى يَكُونُ لَهُ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُنْ لَهُ صَاحِبَةٌ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ [الأنعام] فوجب تقديسه وتعظيمه:

﴿وَكَبِيرَةٌ تَكْبِيرًا﴾ عظمه ومجده وقُدسه، وأخلص له العبادة.

جاء في الأثر: عن معاذ بن أنس أن هذه الآية تسمى (آية العز) فقد جاء في حديث معاذ بن أنس مرفوعاً: آية العز ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُنْ لَهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ وَلِيٌّ مِّنَ الدُّنْيَا وَكَبِيرَةٌ تَكْبِيرًا﴾ (٢)، وكان النبي ﷺ يعلمها الصغار والكبار من أهله (٣).

وورد أن النبي ﷺ كان يعلم الغلام من بني هاشم إذا أفصح، سبع مرات: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُنْ لَهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ وَلِيٌّ مِّنَ الدُّنْيَا وَكَبِيرَةٌ تَكْبِيرًا﴾ (٤).

وقد أمر الله تعالى نبيه ﷺ أن يحمده على وحدانيته وإلهيته، فهو سبحانه المستحق لجميع المحامد، والمتره عن جميع النقائص.

فعن جابر بن عبد الله ؓ أن رسول الله ﷺ قال: «إن أفضل الدعاء: الحمد لله، وأفضل الذكر: لا إله إلا الله» (٥).

(١) يُنظَر: «تفسير الطبري» (١٥/١٢٦).

(٢) رواه أحمد في «المسند» (٤٤٠/٣) برقم (١٥٦٢٥، ١٥٦٣٤) بإسناد ضعيف (محققوه) وأخرجه أيضاً الطبراني في الكبير (٤٣٠/٤٢٩)، وفي الدعاء (١٧٣٢).

(٣) ابن جرير (١٥/١٢٦) والطبراني (٤٢٩).

(٤) أخرجه عبد الرزاق في «المصنف» عن عبد الكريم بن أبي أمية برقم (٧٩٧٦) وابن أبي شيبة برقم (١٥٣٢٨).

(٥) أخرجه مسلم (٢١٣٧) وأبوداود (٤٩٥٨) والترمذي وقال: حديث حسن غريب لا نعرفه إلا من حديث موسى بن إبراهيم ورقمه (٣٣٨٣)، وهو في مسند أحمد (٢٠١٠٧، ٢٠٢٤٤) بإسناد صحيح على شرط مسلم. (محققو)

وعن سمرة بن جندب رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «أحب الكلام إلى الله أربع: سبحان الله، والحمد لله، ولا إله إلا الله، والله أكبر، لا يضرك بأيهن بدأت»^(١).

وهو سبحانه له الحمد الكامل والثناء الجميل، فهو الغني عن خلقه، وهم الفقراء المحتاجون إليه، وهو القوي المتين، وهم الضعفاء الأذلاء إليه، وهو جلّ شأنه قاهر الجبابرة، ومذل الطغاة ﴿أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ [الأعراف: ٥٤]

﴿هُوَ الْغَنِيُّ لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾ [يونس: ٦٨] فعظمه تعظيماً تاماً بالثناء عليه، وعبادته وحده لا شريك له، وإخلاص الدين كله له، فالموصوف بهذه الصفات، هو العزيز الذي يفتقر إليه العباد، وهو القادر على إعطاء النعم التي يعجز غيره عن إسداؤها.

تم تفسير (سورة الإسراء) والله الحمد والمنة.



(١) أخرجه مسلم في صحيحه برقم (٢١٣٧)

تَفْسِيرُ سُورَةِ الْكَهْفِ (١٨)

مُقَدِّمَةُ السُّورَةِ

سورة الكهف هي السورة الثامنة عشرة في ترتيب سور المصحف، والسورة الثانية والستون في ترتيب النزول، نزلت بعد سورة الغاشية، وقبل سورة الشورى، وهي سورة مكية.

وعدد آياتها مئة وعشر آيات في المصحف الكوفي^(١) وهي ألف وخمسة مئة وسبع وسبعون كلمة، وستة آلاف وثلاث مئة وستون حرفاً.

سماها النبي ﷺ سورة الكهف كما في حديث أبي الدرداء: «من حفظ عشر آيات من أول سورة الكهف عُصِمَ من فتنة الدجال»^(٢)، ويقال: سورة أصحاب الكهف.

وروى الديلمي في مسند الفردوس أنها نزلت جملة واحدة معها سبعون ألفاً من الملائكة.

وهذه السورة تقع في منتصف المصحف، وقد قالوا: إن حرف التاء من قوله تعالى: ﴿وَلَيْسَ لَكَ بِهَا مِنْ دُونِ اللَّهِ حَافِظٌ وَنِهَايَةٌ﴾ هو نصف حروف القرآن الكريم، وإن حرف النون من قوله تعالى: ﴿لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا نُكْرًا﴾ هو نهاية خمسة عشر جزءاً من القرآن الكريم وفق التقسيم الحرفي للمصحف.

فضل سورة الكهف:

وقد وردت أحاديث في فضل سورة الكهف بصفة عامة، ووردت أحاديث في فضل الآيات العشر الأول منها، وأحاديث أخرى في فضل الآيات العشر الأواخر منها بصفة خاصة، وأنها تعصم من فتنة المسيح الدجال، من ذلك:

١- ما جاء في الصحيحين، وغيرهما، عن البراء رضي الله عنه قال: قرأ رجل سورة الكهف،

(١) ومئة وخمس آيات في المصحف الحجازي (المكي والمدني) ومئة وست آيات في المصحف الشامي، ومئة وإحدى عشرة آية في المصحف البصري.

(٢) «صحيح مسلم» برقم (٨٠٩) من حديث أبي الدرداء، زاد أبو عبيد في فضائل القرآن ص ٢٤٥: «ومن حفظ خواتيم سورة الكهف كانت له نوراً يوم القيامة» والحديث في «المسند» (٢١٧١٢) بإسناد صحيح على شرط مسلم ورجال ثقات (محققه)، وأبي داود (٤٣٢٣) والترمذي (٨٨٦)، وابن حبان (٧٨٥) والنسائي (١٠٧٨٧) والحاكم (٣٦٨/٢).

وفي الدار دابة جعلت تنفر، فنظر فإذا ضبابة، أو سحابة قد غشيته، فذكر ذلك للنبي ﷺ فقال: «اقرأ فلان؛ فإن السكينة نزلت للقرآن»^(١).

والذي كان يقرأ السورة هو أسيد بن حضير، كما بينه الطبراني، وكان له حصان مربوط، فغشيته سحابة، وجعلت تدنو منه وتدنو، والحصان ينفر، فلما أصبح ذكر ذلك للنبي ﷺ فقال: «تلك السكينة تنزلت بالقرآن».

٢- وعن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «من قرأ سورة الكهف كانت له نوراً من مقامه إلى مكة، ومن قرأ عشر آيات من آخرها ثم خرج الدجال لم يضره»^(٢).

وفي لفظ: لم يسلط عليه، ومن توضأ ثم قال: (سبحانك اللهم وبحمدك، لا إله إلا أنت، أستغفرك وأتوب إليك) كتب في رق ثم طبع بطابع فلم يكسر إلى يوم القيامة.^(٣)

٣- وعن أبي سعيد أيضاً أن النبي ﷺ قال: «من قرأ سورة الكهف في يوم الجمعة أضاء له من النور ما بينه وبين الجمعتين»^(٤).

٤- وعن نافع عن ابن عمر رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «من قرأ سورة الكهف في يوم الجمعة سطع له نور من تحت قدمه إلى عنان السماء يضيء له يوم القيامة، وغُفر له ما

(١) البخاري برقم (٣٦١٤، ٤٨٣٩، ٥٠١١) ومسلم برقم (٧٩٥) والترمذي برقم (٢٨٨٥) وقال: حسن صحيح و«المستند» (٢٨١/٤) برقم (١٨٤٧٤، ١٨٥٠٩، ١٨٥٩١) والنسائي (١١٥٠٣) وابن حبان (٧٦٩) وغيرهم.

(٢) صححه الحاكم على شرط مسلم (٥٦٤/١) وقال الذهبي: ووقفه ابن مهدي عن الثوري عن أبي هاشم، وأخرجه البيهقي موقوفاً (٢٤٩/٣) وقال الهيثمي في «مجمع الزوائد» (٥٦/٧): رواه الطبراني في الأوسط من حديث طويل (١٤٥٥) وهو بتمامه في كتاب الطهارة ورجاله رجال الصحيح.

وقال الألباني في صحيح الترغيب والترهيب (١٩٠/١) عند الحديث رقم (١٤٧٣): الصواب (من أولها) كما حققه في السلسلة الصحيحة (٢٦٥١)، وذكر أن رواية (من آخرها) جاءت في النسائي من رواية شعبة الشاذة، وأنه بين ذلك في الصحيحة (٥٨٢).

(٣) ينظر: صحيح الترغيب (١٩١/١) حديث رقم (١٤٧٣) صحيح لغيره قال: والموقوف صحيح لذاته. (الألباني).

(٤) أخرجه البيهقي في «السنن الكبرى» (٢٤٩/٣) وصححه الحاكم في «المستدرک» (٣٦٨/٢) وقال الذهبي: قلت: نعم ذو مناكير، قلت: له شواهد بمعناه تقويه كالحديث الذي يليه، وصححه الألباني في «الإرواء». (٦٢٦) و«صحيح الترغيب والترهيب» (٧٣٦).

بين الجمعتين»^(١).

٥- وعن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه أنه قال: «من قرأ سورة الكهف في يوم الجمعة، أضاء له من النور ما بينه وبين البيت العتيق»^(٢).

٦- وعن أبي هاشم بإسناده: «من قرأ سورة الكهف كما أنزلت كانت له نوراً يوم القيامة»^(٣).

٧- وعن علي رضي الله عنه مرفوعاً: «من قرأ سورة الكهف يوم الجمعة فهو معصوم إلى ثمانية أيام من كل فتنة تكون، وإن خرج الدجال عُصِمَ منه»^(٤).

٨- وعن أبي الدرداء رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «من حفظ عشر آيات من أول سورة الكهف عُصِمَ من فتنة الدجال»^(٥). وهذا بالنسبة لحفظ عشر آيات من أولها.

٩- وعن أبي الدرداء رضي الله عنه أيضاً: «من قرأ العشر الأواخر من سورة الكهف عُصِمَ من فتنة الدجال»^(٦). وهذا لمن قرأ العشر آيات من آخرها حفظاً أو نظراً.

فهذه أحاديث وآثار تنص على أن من قرأ سورة الكهف يوم الجمعة سيَّما الآيات العشر من أولها أو آخرها فإنه يُعصم من الدجال، ويضاء له نور إلى عنان السماء، وإلى

(١) ذكره المنذري في «الترغيب والترهيب» (٥١٣/١) وقال: رواه ابن مردويه بإسناد لا بأس به، وضعف الألباني رفعه في «ضعيف الترغيب» (٤٤٧) وقال ابن كثير: في رفعه نظر، وأحسن أحواله الوقف.

(٢) رواه سعيد بن منصور، وأبو عبيد في «فضائل القرآن» ص ١٣١ والنسائي في «السنن الكبرى» برقم (١٠٧٩٠) ورجح الفاضل محمد طرهوني في «موسوعة فضائل القرآن» (٣٣٧/١) أنه موقوف له حكم الرفع وأخرجه الدارمي (٤٥٤/٢) وابن الضريس (٢١١) والحاكم (٥٦٤/١) والبيهقي في الشعب (٢٤٤٤).

(٣) رواه الطبراني في «المعجم الأوسط» برقم (٤٢٨) وقد رُوِيَ مرفوعاً وموقوفاً وهو في «شعب الإيمان» عن أبي سعيد برقم (٢٤٤٦).

(٤) رواه الضياء المقدسي في «المختارة» برقم (٤٣٠) وابن مردويه، وفي تخريج «الإحياء» (٤٤٧/١): سنده مجهول.

(٥) أخرجه أحمد (٤٤٩/٦)، (٤٥٠) برقم (٢١٧١٢)، (٢٧٥٤٠) بإسناد صحيح على شرط مسلم ورجال ثقات ومسلم برقم (٨٠٩) وأبو داود برقم (٤٣٢٣) والترمذي برقم (٢٨٨٦) وقال: حسن صحيح، إلا أنه قال: ثلاث آيات بدلاً من عشر آيات، وأخرجه النسائي في «السنن الكبرى» برقم (٨٠٢٥) و(١٠٧٨٧) وأبو داود (٤٣٢٣) وابن حبان (٧٨٥، ٧٨٦) والحاكم (٣٦٨/٢) وصحيح الترغيب والترهيب (١٤٧٢).

(٦) «المسند» (٤٤٦/٦) برقم (٢٧٥١٦) ومسلم في صلاة المسافرين وقصرها (٢٥٧/٨٠٩) والنسائي في عمل اليوم والليلة (١٠٧٨٥) وابن حبان (٧٨٣) وأبو عبيد في فضائله ص (١٣٢).

البيت العتيق، ويُغفر له ما بين الجمعتين، وتُنزل السكينة عليه، ولا يضره شيطان ولا آفة.

سبب نزول السورة:

ذكر ابن إسحاق، والطبري، وغيرهما بسند فيه رجل لم يذكر اسمه، عن عكرمة عن ابن عباس رضي الله عنهما: أن كفار قريش أرسلت النضر بن الحارث، وعقبة بن أبي معيط، من مكة إلى أحبار اليهود بالمدينة، يقولون لهم: أنتم أهل كتاب، وعلى علم بالأنبياء وصفاتهم وعلاماتهم وأحوالهم أكثر منا، وقد جئنا نسألکم عن أمر محمد ﷺ فوصفوه لهم، وذكروا أخباره وأقواله.

ثم قالوا لهم: سلوه عن ثلاث: عن فتية ذهبوا في غابر الزمن ما قصتهم؟ وسلوه عن رجل طاف الأرض مشرقاً ومغرباً ما نبؤه؟ وسلوه عن الروح ما هي؟ فإن أجابكم عنها فهو نبي مرسل، وإن لم يجبكم فهو متقول، أي: كاذب في أقواله، فلما سألوا النبي ﷺ قال: سأخبركم غداً ولم يستثن، فانصرفوا عنه.

ثم مكث ﷺ خمس عشرة ليلة، وانقطع الوحي خلال هذه المدة، وشق ذلك على رسول الله ﷺ وحزن كثيراً، ثم نزل الوحي بسورة الكهف، وفيها جوابهم بقصة أصحاب الكهف، وقصة ذي القرنين، وبقوله تعالى من سورة الإسراء: ﴿وَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي﴾^(١).

وفي رواية أخرى: أن اليهود قالوا للمشركين من قريش: سلوه عن الروح، فإن أخبركم به، فليس بنبي، وإن لم يخبركم به فهو نبي، كما سبق ذكره عند آية الروح في سورة الإسراء.

وأهم غرض نزلت له سورة الكهف هو قصة أصحاب الكهف، وقد ذكرت القصة في أول السورة، ثم ذكرت قصة ذي القرنين في آخر السورة، أما الإجابة عن الروح فقد نزلت لئلا تحق بسورة الإسراء التي نزلت قبل سورة الكهف بتفويض العلم فيها إلى الله تعالى.

ويُحتمل أن نزول سورة الإسراء ظل مفتوحاً إلى وقت نزول سورة الكهف.

(١) يُنظر: «تفسير الطبري» (١٢٧/١٥) وابن كثير (١٤) و«سيرة ابن هشام» (٣٠٢/١) وأبو نعيم في «الدلائل» والبيهقي في «الدلائل» أيضاً (٢/٢٧٠).

وقد عاتب الله سبحانه رسوله ﷺ بآيتين في هذا المقام: الآية السادسة وهي تتعلق بحزنه ﷺ وحرصه الشديد على إيمان القوم ﴿فَلَعَلَّكَ بَنِعْ نَفْسَكَ عَلَيَّ أَثَرِهِمْ﴾، أي: لعلك قاتلها ومهلكها على عدم إيمانهم، وإنما أنت رسول تبلغ عن الله أمره ونهيه فحسب، وهذا معنى: ﴿إِنْ لَرَّ يُؤْمِنُوا بِهِذَا الْحَدِيثِ أَسَفًا﴾.

وعاتبه ربه أنه لم يستثن حين قال: سأخبركم غداً، أي: لم يقل (إن شاء الله)، ولذلك فإن الوحي قد انقطع، قيل: ثلاثة أيام، وقيل: خمسة عشر يوماً، ثم نزل قوله تعالى: ﴿وَلَا تَقُولَنَّ لِشَأْنِي إِنْ فَعِلْتُ ذَلِكَ غَدًا ۚ﴾ (٣٣) إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ.

أغراض السورة:

وسورة الكهف فيها ثلاث قصص: قصة أهل الكهف في سبعة عشر آية، من الآية (٩-٢٩) وهي قصة الإيمان والكفر، وإثبات البعث والحساب والجزاء في يوم القيامة.

وقصة موسى والخضر في اثنين وعشرين آية، من الآية (٦٠-٨٠)، وهي قصة فيها آداب طلب العلم، وبيان أن فضل موسى ﷺ لا يمنع أن يكون الله سبحانه قد أطلع الخضر ﷺ على ما لم يُطلع عليه موسى وهو نبي مرسل.

وجاءت قصة ذي القرنين في ثماني عشرة آية، من الآية (٨٣-١٠١) وهي قصة المَلِكِ العادل، الذي يحول دون وصول الأذى إلى رعيته، ويسوس الناس بالعدل والقسط، ويفتح البلاد، ويقوم الحضارات، فيعمل لخير العباد والبلاد، ولا يحرص على بقاء المنصب وتوريث الحكم.

وفي السورة ضرب الله سبحانه ثلاثة أمثلة: ضرب مثلاً بالرجل الغني المغرور المفتون بأمواله، في مقابل الرجل الفقير، المعتر بدينه وعقيدته، وذلك في اثنتي عشرة آية، من الآية (٣٢-٤٤).

وضرب مثلاً ثانياً للحياة الدنيا في زيتنها وبهجتها، ثم تصوير إلى زوال وفناء.

وذلك في الآية (٤٥).

وضرب مثلاً ثالثاً للتكبر والاستعلاء، يتمثل في إباء إبليس وامتناعه عن السجود لآدم

وفق أمر الله سبحانه له، وذلك في الآية (٥٠).

وبعد كل مثل وقصة تعليق شافٍ رائع يهدي إلى الله سبحانه، ويُعدُّ للقائه:

ففي نهاية قصة أهل الكهف يعقب الله تعالى عليها بقوله: ﴿مَا لَهُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا يُشْرِكُ فِي حُكْمِهِ أَحَدًا﴾ الآية [٢٦].

وفي نهاية مثل أصحاب الجنتين يعقب الله تعالى عليها بقوله: ﴿هَٰذَاكَ الْوَلِيُّ لِلَّهِ الَّذِي هُوَ خَيْرٌ نَّوَابًا وَخَيْرٌ عُقْبًا﴾ الآية.

ويأتي ذكر المثل بالحياة الدنيا وسرعة زوالها بعد ازدهارها عقب قصة المفتون بجنته، وفي التعقيب على مثل الحياة الدنيا وزينتها يقول سبحانه: ﴿وَالْبَقِيَّةُ الْصَّالِحَةُ خَيْرٌ عِنْدَ رَبِّكَ نَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلًا﴾ الآية [٤٦].

وفي التعقيب على قصة ذي القرنين يقول تعالى: ﴿أَفَحَسِبَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنْ يَتَّخِذُوا عِبَادِي مِنْ دُونِي أَوْلِيَاءَ إِنَّا أَعْتَدْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ نُزُلًا﴾ الآية [١٠٢].

وقد مثل القصص في السورة أكثر من سبعين آية من مجمل آيات السورة، وهي عشر ومئة آية في المصحف الكوفي.

ولأن سورة الكهف مكية، فهي تُعنى بالدرجة الأولى بتصحيح العقيدة في إعلان التوحيد وإنكار الشرك، وإقامة منهج القيم والنظر والفكر على ميزان العقيدة الصحيحة.

ويرتبط أول السورة بآخرها وثناياها برباط التوحيد:

ففي أول السورة قوله تعالى: ﴿وَيُنذِرَ الَّذِينَ قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا﴾ الآية.

وفي آخرها يقول سبحانه: ﴿فَمَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا﴾ الآية [١١٠].

وفي ثنايا السورة: ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا﴾ الآية [١٥].

وفيها: ﴿وَلَا يُشْرِكْ فِي حُكْمِهِ أَحَدًا﴾ [٢٦].

وفيها: ﴿لَيْكِنَّا هُوَ اللَّهُ رَبِّي وَلَا أُشْرِكُ بِرَبِّي أَحَدًا﴾ الآية.

ولتقرير أن ما على وجه الأرض من زينة ومتاع إنما هو للابتلاء والاختبار، والنهاية إلى زوال وفناء.

ويلي هذا الافتتاح قصة فتية آمنوا بربهم، وآثروا هذا الإيمان على زخرف الدنيا وبهجتها، فهربوا بعقيدتهم من جور الملِك الطاغية، واتخذوا من الكهف مأوى لهم، فرعتهم العناية الإلهية، حتى إن شعاع الشمس كان يميل عن فم الكهف في الصباح يمينا، وفي المساء شمالا؛ حتى لا يشعر المارة بأن في هذا الكهف أحدا، وبعد ثلاث مئة سنة، يستيقظون ليجدوا أن الزمن قد تغير، فزالت دولة الشرك، وجاءت دولة التوحيد، وذهب الخوف والبطش، وحل الأمن والأمان.

وبعد هذه القصة يوجه الله سبحانه رسوله ﷺ إلى أن يكون مع الذين يدعون ربهم بالغداة والعشي من أهل التقى والإيمان، وإن كانوا أفقر الناس وأضعفهم، وأن يبتعد عن الغافلين عن ذكر الله، وإن كانوا أهل ثراء وجاه.

ثم بين سبحانه المصير العادل لكلا الفريقين في قوله تعالى: ﴿إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا وَإِنْ يَسْتَغِيثُوا يُغَاوُوا بِمَاءٍ كَالْمُهْلِ يَشْوِي الْوُجُوهَ﴾ الآية [٢٩].

وقوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا ۖ ﴿٣٠﴾ أُولَٰئِكَ لَهُمْ جَنَّاتُ عَدْنٍ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ﴾ الآيتان [٣٠، ٣١].

ثم يعقب ذلك حوار بين مؤمن قليل المال، وكافر على جانب من الثراء، يتناول فيه الكافر على المؤمن مغترًا ومفاخرًا بماله، فتأتي جوائح السماء لتجعل جنته قاعًا صفصفاً.

﴿فَاصْبِرْ لِقَوْلِ كَافِرِهِ عَلَىٰ مَا نَفَقَ فِيهَا وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا وَيَقُولُ بَلِّغْ لِي بِرَبِّ أَحَدًا﴾ الآية [٤٢].

لقد كان عليه أن يتأدب بأدب الإسلام وينسب الفضل إلى الله وحده، ويقول: «اللهم لا مانع لما أعطيت ولا معطي لما منعت»^(١)

إن الحضارة الحديثة صنعت أجيالاً من طراز هذا الثري، فارتبطت بالتراب، واستبعدت الدار الآخرة وما فيها من حساب وجزاء، وجنة ونار، وفُتِنُوا بالدنيا وزخرفتها، فانهزموا

(١) يُنظر: البخاري (٨٤٤، ٦٣٣٠، ٦٤٧٣) ومسلم (٥٩٣) من حديث المغيرة بن شعبة.

أمام حب الدنيا، وتعلّقوا بالحطام، وليس للدار الآخرة حساب في منظورهم، وهم في انتظار يوم الحساب حيث تكون المفاجآت، ويوقنون أنهم كانوا على خطأ يّين.

ولذا: فإن الله سبحانه يحذرنا من عداوة الشيطان أثناء الحديث عن مشاهد القيامة؛ لنكون على حذر من كيده ومكره.

وبعد قصة موسى مع الخضر، وقصة ذي القرنين، تُختم السورة ببيان ما أعدّه الله سبحانه للكافرين من سوء العذاب، وما أعدّه للمؤمنين من جزيل الثواب؛ لإبراز عنصر الموازنة بين حُسن عاقبة الأخيار، وسوء عاقبة الأشرار.

وبعد تقرير جزاء المحسن والمسيء تأتي آية تتحدث عن كلمات الله تعالى؛ لتبيّن أنه ليس في مقدور أحد إحصاؤها، وأن البحار لو كانت مدادًا، والأشجار أقلامًا لنفد البحر، وفنيت الأقلام، دون أن تفنى كلمات الله.

وبيّنت السورة -في نهايتها- التوحيد الصحيح، عن طريق إفراد الله تعالى بالعبادة، فأشارت إلى أن العمل الصالح المقبول يحتاج إلى توافر شرطين فيه، هما:

١- إخلاص العبادة لله وحده وعدم الإشراك به سبحانه.

٢- وأن يكون العمل موافقًا لهدي النبي ﷺ.

٣- أي: أن يكون العمل خالصًا لله، صوابًا وفق سنة رسول الله.

﴿مَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا﴾ الآية [١١٠].

هذا: ويمكن تقسيم السورة إلى ثمانية أقسام:

١- من أول السورة إلى الآية الثامنة: حديث عن الكتاب المنزل على رسول الله ﷺ،

وأسف النبي ﷺ على عدم إيمان من لم يؤمن.

٢٠- ومن الآية (٩-٢٦) عن قصة أصحاب الكهف.

٣- وحديث عن خفض جناح الداعية إلى الفقراء والضعفاء، وبيان نعيم المؤمنين

وعذاب الكافرين بعد البلاغ والإنذار، وذلك من الآية (٢٧-٣١).

٤- ومن الآية (٣٢-٤٤) مثل الرجلين، المعترّ بدينه، والمفتون بدنيه.

- ٥- ومن الآية (٤٥-٥٩) حديث عن الدنيا والآخرة، وآدم وإبليس والقرآن، ومهمة الرسل، ووعيد من لم يؤمن منهم بالعذاب المؤلم.
- ٦- أما قصة موسى والخضر فهي من الآية (٦٠-٨٢).
- ٧- يليها قصة ذي القرنين من الآية (٨٣-١٠١).
- ٨- ثم ختام السورة من (١٠٢-٢١٠) عن جزاء أهل الكفر والإيمان، وعدم نفاذ كلمات الله تعالى، وبشرية النبي ﷺ وشرطا قبول العمل.



تَفْسِيرُ السُّورَةِ

الْقُرْآنَ كِتَابَ قَيْمٍ، يُنذِرُ وَيُبَشِّرُ، وَفِيهِ عِلْمُ الْأَوَّلِينَ وَالْآخِرِينَ

١- ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَى عَبْدِهِ الْكِتَابَ وَلَمْ يَجْعَلْ لَكُمْ عِوَجًا﴾ (١)

وتبدأ سورة الكهف بلفظ: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ الذي يُفتح به الخطبة، والكلام المهم، ولما سألت قريش رسول الله ﷺ عن المسائل الثلاث: الروح، والكهف، وذي القرنين بتوجيه من اليهود، قال لهم النبي ﷺ: «غَدًا أُخبركم» ولم يقل: إن شاء الله، فعاتبه الله على ذلك، بأن انقطع الوحي خمسة عشر يومًا، فقال الكفار: إن محمدًا قد تركه ربه، وقال بعضهم: إنه عجز عن أكاذيبه، فلما انقضى أمد العتاب نزل الوحي بالجواب على الأسئلة، مفتتحًا ذلك بحمد الله الذي أنعم عليه بجوابهم وإفحامهم، وكانوا يحبون الإساءة إليه.

ووصف الله نبيه بالعبودية تقريبًا لمنزلته، ورفعًا لمكانته، وتنويهًا بعلو شأنه، وهذه بداية تصدرت خمس سور من القرآن الكريم هي: الفاتحة، والأنعام، والكهف، وسبأ، وفاطر، وهذه السور الخمس المفتحة بحمد الله سبحانه تشير إلى أمرين:

الأمر الأول: جاء فيما عدا سورة الكهف حيث تشير السور الأربع إلى أن الإيمان الصحيح يستمد حقيقته من هذا الكون، وهو يدل على توحيد الله سبحانه، إنها تتحدث عن الكون وما فيه من عجائب، وتبين أن آثار الصنعة تدل على الصانع سبحانه، فهي تشير إلى السموات والأرض والملائكة أولي الأجنحة، وإلى خلق العالمين جميعًا، وهو من آثار قدرة الله جلَّ شأنه، وهذا من شأنه أن يأخذ بيد العبد إلى معرفة وحدانية الله سبحانه.

(١) قرأ حفص بالسكت دون تنفس على ألف (عوجًا) بخلف عنه، حال وصلها بالآية بعدها (قيمًا) والأفضل الوقف على (عوجًا) مع التنفس؛ لأنها رأس آية، والوقف على رءوس الآي سُنَّةٌ، وبقيّة القراء بعدم السكت، ومعهم حفص في الوجه الثاني، وهو المتعين على قصر المد المنفصل له من طريق طيبة النشر، ووجه السكت أنه لدفع توهم أن يكون (قيمًا) نعتًا، لا (عوجًا) فيفسد المعنى؛ لأن العوج لا يكون قِيمًا، و(قيمًا) حال، أو مفعول لفعل محذوف تقديره: بل جعله قِيمًا.

والأمر الثاني: تُشير إليه الآية الأولى من سورة الكهف، وهو الإيمان بهذا القرآن، وبالوحي المنزل من السماء، وتبين أنه أعظم نعمة أخرج الله بها الناس من الظلمات إلى النور، ومن الضلال إلى الهدى.

فالإيمان بالقرآن يقود العبد إلى الإيمان الصحيح، كما أن النظر في هذا الكون يقوده إلى الإيمان الصحيح كذلك، وفي الآية إرشاد للعباد أن يحمدوا ربهم على إرسال الرسل وإنزال الكتب، وبيان الحق والباطل، والهدي والضلال.

والله سبحانه يعلمنا كيف نحمده، ويبين لنا أعظم نعمة نحمده عليها، وهي نعمة الإسلام، ونعمة القرآن الذي أنزله الله على رسوله محمد ﷺ، فالحمد الكامل، والثناء الجميل كله لله وحده الذي تفضل به على عبده ورسوله محمد ﷺ، فأنزل عليه القرآن؛ لإخراج الناس من الظلمات إلى النور، وفيه سبب نجاتهم وفوزهم، وسعادتهم في الدنيا والآخرة، وفيه انتظام حياتهم وسيادتهم وهدايتهم.

والحمد أعم من الشكر؛ لأن الحمد يكون على النعم العامة الواصلة للخلق أجمعين، أما الشكر فيكون خاصاً بشخص معين بهذه النعمة.

والحمد أخص من المدح؛ لأن المدح يكون للعاقل وغير العاقل، أما الحمد فلا يكون إلا للفاعل المختار، فالثناء لله تعالى على إنزال هذا الكتاب الذي يحمل هداية البشر، ويحذرهم مما فيه ضررهم وهلاكهم.

وهذا القرآن ليس فيه ميل عن الحق، فهو منزّه عما يرميه به المشركون من أنه سحر، أو أساطير الأولين ﴿قُرْآنًا عَرَبِيًّا غَيْرَ ذِي عِوَجٍ﴾ [الزمر: ٢٨] ليس فيه زيادة ولا نقص، وليس فيه اختلاف ولا تناقض، لا في ألفاظه، ولا في معانيه ﴿وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا﴾ [النساء: ٨٢].

وقد وصفت هذه الآية القرآن بوصفين، وهما: نفى العوج عنه، وإثبات أنه قيم.

ونفَى العوج يقتضي أنه ليس في أخباره كذب، ولا في أوامره ونواهيه ظلم ولا عبث.

وإثبات الاستقامة له، تقتضي أن أوامره ونواهيه تزكى النفوس وتطهرها، وتملأ القلب إيماناً ومعرفةً و يقيناً وعدلاً وقسطاً وإخلاصاً، وجدير بكتاب هذا وصفه أن يُحمد الله على إنزاله.

فهو كتاب ليس فيه إفراط ولا تفريط، لا في العقيدة، ولا في العبادة، ولا في أحكامه، ولا تشريعاته التي يأمر بها، وينهى عنها، بل هو كتاب قيم ومهيمن على الكتب التي نزلت من السماء على موسى، وداود، وعيسى، وغيرهم من رسل الله. والأفضل للقارئ أن يقف على نهاية هذه الآية، ويتنفس، ثم يبدأ بما بعدها؛ لأن السكت بينهما بدون تنفس لتلافي فساد المعنى؛ لأن العوج لا يكون قِيَمًا، وهذا يتحقق بالوقف أكمل من السكت ولأنه رأس آية.

وقد مدح الله القرآن بأنه يهدي إلى صراط مستقيم، وأنه يهدي للتي هي أقوم، وأنه يُخرج الناس من الظلمات إلى النور، إلى غير ذلك من الصفات، ثم وصف الله هذا الكتاب فقال:

٢-٤ - ﴿قِيمًا لِيُنْذِرَ بَأْسًا شَدِيدًا مِّن لَّدُنْهُ^(١) وَيُبَشِّرَ^(٢) الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا حَسَنًا ۖ مَّا كَثُوبٌ فِيهِ أَبَدًا ۖ وَيُنْذِرَ الَّذِينَ قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا ۚ﴾

وقد أنزل الله هذا القرآن، وجعله ﴿قِيمًا﴾ أي: مستقيمًا لا اعوجاج فيه ولا زيغ، بل يهدي إلى صراط مستقيم يقوم على هُدي الأمة وإصلاحها. ومهمة القرآن، أو الغرض من إنزال هذا الكتاب، أن يبشر مَنْ عَمِلَ به بدخول الجنة، وينذر من لم يعمل به بدخول النار.

فيخوِّف مَنْ خالفه وكذبه ولم يؤمن به بعذاب شديد في الدنيا والآخرة. والبأس: هو شدة الألم، ويطلق على القوة في الحرب. وهذا الإنذار يشمل عقاب الدنيا والآخرة، قال تعالى ﴿لَهُمْ مِّن قَوْفِهِمْ ظُلَلٌ مِّن النَّارِ وَمِن تَحْتِهَا ظُلَلٌ ۚ ذَٰلِكَ يُخَوِّفُ اللَّهُ بِهِ عِبَادَهُ ۚ يَعْبُدُونَ﴾ [الزمر: ١٦].

وببشر المؤمنين الصادقين في إيمانهم أن لهم مثوبة عظيمة وأجرًا حسنًا، هذا الأجر الحسن هو الجنة يمكنون فيها دائمًا وأبدًا، لا يرحلون عنها ولا يفارقونها.

(١) قرأ شعبة بإسكان الدال من (لدنه) مع إشمامها، وكسر النون والهاء، ووصلها بياء في اللفظ مع مداها حركتين، هكذا (لذنيهي) مع الإشارة إلى ضم الدال بالإشمام - حال سكون الدال على اختيار الجعبري - وهو ضم الشفتين، والباقون بضم الدال وسكون النون وضم الهاء.

(٢) قرأ حمزة والكسائي بفتح الباء وإسكان الباء من (يبشر) وضم الشين مخففة من البشارة، والباقون بضم الباء وفتح الباء من بَشَّرَ المضعف، لغة أهل الحجاز.

وهذا الأجر الحسن هو الثواب الذي رتبته الله تعالى على الإيمان والعمل الصالح، وأعظمه الفوز برضى الله عز وجل.

والعمل الصالح يشترط فيه أن يكون خالصاً لوجه الله سبحانه، لا يشوبه رياء ولا نفاق، فلا يُقبل عمل صالح من غير مؤمن، ويشترط في هذا العمل أن يكون صواباً موافقاً لهدي النبي ﷺ ليس فيه ابتداء، بل كما جاء به المصطفى ﷺ، والإيمان والعمل الصالح شرطان لاستحقاق دخول الجنة والمكث فيها.

والإنذار: هو الإعلام المقترن بتخويف وتهديد، فكل إنذار إعلام، وليس كل إعلام إنذاراً.

والبشرى: هي الخبر السار، قال تعالى: ﴿فَإِنَّمَا يَسَّرْنَاهُ بِلِسَانِكَ لِتُبَشِّرَ بِهِ الْمُتَّقِينَ وَتُنذِرَ بِهِ قَوْمًا لَّدَا﴾ ﴿٩٧﴾ [مريم].

ويُنذر هذا القرآن على وجه الخصوص: اليهود، والنصارى، وبعض قبائل العرب من المشركين الوثنيين الذين نسبوا لله تعالى الشريك والولد، وانفردوا بهذه الصفة القيحة، فالنصارى يعتقدون أن عيسى ﷺ ابن الله، أو أنه ثالث ثلاثة، والوثنيون قالوا: الملائكة بنات الله.

قال تعالى: ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ عُزَيْرٌ ابْنُ اللَّهِ وَقَالَتِ النَّصَارَى الْمَسِيحُ ابْنُ اللَّهِ ذَلِكَ قَوْلُهُمْ بِأَفْوَاهِهِمْ﴾ [التوبة: ٣٠]. وقال: ﴿وَجَعَلُوا لِلَّهِ الْبَنَاتِ سُبْحَنَهُ﴾ [النحل: ٥٧].

وقال: ﴿وَجَعَلُوا بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْجَنَّةِ نَسَبًا وَلَقَدْ عَلِمَتِ الْجِنَّةُ إِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ﴾ ﴿١٥٨﴾ [الصافات].

فالآية عامة في كل مشرك نسب الولد إلى الله تعالى، وإن كانت وقت نزولها بمكة تخاطب مشركي العرب الذين نسبوا الولد لله تعالى، والولد هو المولود، ويطلق الولد على الذكر والأنثى، والمشركون كانوا ينسبون البنات لله سبحانه؛ لأنهم يكرهونهن، ويخصون أنفسهم بالذكور، وقد عاب الله عليهم ذلك في قوله:

﴿الْكُفْرَ وَالْزُكْرَ وَالْآَنَتِ﴾ ﴿٢١﴾ ﴿تِلْكَ إِذًا قِسْمَةٌ ضِيزَى﴾ [النجم]. قال تعالى:

٥- ﴿تَاللَّهِ لَئِنْ لَمْ يَنْزِلْ بِهِ مِنْ عَلَمٍ وَلَا لَآبَاءَهُمْ كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ إِنْ يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبًا﴾

أي: وليس عند هؤلاء المشركين المكذبين شيء من العلم على ما يدَّعون لله تعالى من اتخاذ الولد، كما أنه ليس عند آبائهم وأسلافهم الذين قلَّدهم واتبعوهم علم بنسبة الولد

إلى الله تعالى، وانتفاء هذا العلم يعني: أن هذه النسبة مستحيلة على الله تعالى، لا يتعلق بها علم، وليس هناك من طريق يوصل إليها، فعدم العلم بالشيء يعني: الجهل به، أو استحالة وقوعه في حد ذاته، فهو فرية؛ لأنه أمر مستحيل لا يقولونه عن علم، إنما يقولونه عن جهل، أو عن ظن، أو عن كذب وافتراء، تقليدًا لآبائهم، كما قال تعالى:

﴿وَحَرِّفُوا لَمْ يَنِينْ وَبَنَيْنَا يَغْيِرَ عِلْمٍ﴾ [الأنعام: ١٠٠].

وقال في آبائهم: ﴿أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ﴾ [المائدة: ١٠٤].

إنها مقالة شنيعة، عظيمة القبح، تنطق بها ألسنتهم، كما قال تعالى: ﴿إِنَّكُمْ لَقَوْلُونَ قَوْلًا عَظِيمًا﴾ [إسراء: ٤٠] أي: في غاية الفساد والبطلان.

﴿وَمَنْ يَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ لَا بُرْهَانَ لَهُ بِهِ فَإِنَّمَا حِسَابُهُ عِنْدَ رَبِّهِ﴾ [المؤمنون: ١١٧].

وهذه المقولة افتراء وكذب على الله تعالى، ولا يوجد أحد أظلم ممن افترى على الكذب.

﴿كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ﴾ أي: عظمت هذه الكلمة التي ينسبون فيها الولد إلى الله سبحانه فلا شناعة ولا قرينة أعظم من نسبة الولد إلى الله تعالى: ﴿تَكَادُ السَّمَوَاتُ يَنْفَطَرْنَ مِنْهُ وَتَنْشَقُّ الْأَرْضُ وَتَخِرُّ الْجِبَالُ هَدًا﴾ ﴿٩١﴾ ﴿أَنْ دَعَوْا لِلرَّحْمَنِ وَلَدًا﴾ ﴿٩٢﴾ ﴿وَمَا يَنْبَغِي لِلرَّحْمَنِ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَدًا﴾ ﴿٩٣﴾ ﴿إِنْ كُلُّ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا آتَى الرَّحْمَنِ عَبْدًا﴾ ﴿٩٤﴾ [مريم].

فالشرك بالله تعالى مجرد كذب مخالف للواقع، مع علم قائله أنه باطل ﴿إِنْ يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبًا﴾ قال تعالى: ﴿يَدْعِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَنِّي يَكُونُ لَهُ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُنْ لَهُ صَاحِبَةٌ وَخَلَقَ كُلُّ شَيْءٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ ﴿١١١﴾ [الأنعام]. والقول باتخاذ الولد بالنسبة لله تعالى فيه:

١- تقول على الله بغير علم ﴿مَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ وَلَا لِآبَائِهِمْ﴾.

٢- ﴿كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ﴾.

٣- ﴿إِنْ يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبًا﴾.

حِرْصُ النَّبِيِّ ﷺ عَلَى هِدَايَةِ الْبَشَرِ

٦- ﴿فَلَعَلَّكَ بَنِيعٌ نَفْسَكَ عَلَى آثَرِهِمْ إِنْ لَمْ يُؤْمِنُوا بِهَذَا الْحَدِيثِ أَسَفًا﴾ ﴿٦﴾

ومن حرص النبي ﷺ على هداية الخلق، أنه كان يفرح ويُسر بهداية المهتدين، ويحزن ويأسف على المكذبين الضالين.

والله سبحانه يقول لرسوله: لا تحزن على عدم إيمان من لم يؤمن، فلماذا هذا الحرص الشديد؟! فلا تُشغل نفسك بهدايتهم، إن عليك إلا البلاغ، فمهمتك أن تبشر وتنذر، ولا عليك إن آمنوا أو لم يؤمنوا ﴿فَلَعَلَّكَ بَخْعٌ﴾ أي: قاتل نفسك ومهلكها غمًا وغيظًا ﴿عَلَىٰ أَثَرِهِمْ﴾ أي: على إثر توليهم وإعراضهم عن دعوتك ﴿إِنْ لَّمْ يُؤْمِنُوا بِهَذَا الْحَدِيثِ﴾ أي: بما جاء في هذا القرآن حسرة و﴿أَسْفًا﴾ وحزنًا على عدم إيمانهم، شفقة بهم وخوفا عليهم.

كما قال تعالى: ﴿فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً﴾ [فاطر: ٨]. وقال: ﴿فَلَا تَأْسَ عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾ [المائدة: ٦٨]. وقال: ﴿لَعَلَّكَ بَخْعٌ نَفْسُكَ أَلَّا يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ﴾ [الشعراء].

وكأن هذه الآيات سبقت إلى الرسول ﷺ في آخر أوقات رجائه في إيمانهم بمعنى: إنهم لن يؤمنوا فامض -أيها الرسول- في تبليغ الدعوة وما أوحيناه إليك، ولا تبال بإصرار الكافرين على كفرهم، واصبر صبرًا جميلًا على أذاهم؛ فإن الهدى من الله، وإن الله مظهر دينه، ومُعلِّ كلمته ولو كره الكافرون والمشركون.

قال ابن عباس: اجتمع عُتْبَةُ بن ربيعة، وشيبة بن ربيعة، وأبو جهل بن هشام، والنضر بن الحارث، وأمّية بن خلف، والعاص بن وائل، والأسود بن المطلب، وأبو البختر في نفر من قريش، وكان رسول الله ﷺ قد كُبر عليه ما يرى من خلاف قومه عليه، وإنكارهم ما جاء به من النصيحة، فأحزنه ذلك حزنًا شديدًا، فأنزل الله الآية^(١).

وقال قتادة: نهى الله رسوله أن يأسف على الناس في ذنوبهم^(٢).

وهؤلاء لو علم الله فيهم خيرا لهداهم، ولكنه علم أنهم لا يصلحون إلا للنار، فليس فيهم فائدة، وعلى هذا فإن على الداعية أن يبلغ دعوة ربه ويسلك السبل الموصلة إلى الهداية، ويسد منافذ الضلال، والغواية، فإن اهتدوا، فالحمد لله، وإلا فلا يحزن ولا يأسف، فإن هذا خارج عن قدرته، فعليه أن يمضي في طريق دعوته، فإن موسى عليه السلام

(١) أخرجه ابن مردويه كما قال السيوطي في «الدر المنثور» (٤٨٣/٩).

(٢) عبد الرزاق (٣٩٦/١).

﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي لَا أَمْلِكُ إِلَّا نَفْسِي وَأَخِي﴾ [المائدة: ٢٥]

وقال تعالى لحبيبه محمد ﷺ ﴿فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنْتَ مُذَكِّرٌ ﴿١١﴾ لَسْتَ عَلَيْهِمْ بِمُصَيِّرٍ﴾ [الغاشية]
وقال أيضًا ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ﴾ [القصص: ٥٦]

الدُّنْيَا ابْتِلَاءٌ وَمَصِيرُهَا إِلَى زَوَالٍ

٧- ﴿إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الْأَرْضِ زِينَةً لَهَا لِنَبْلُوهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ﴿٧﴾﴾

إنا جعلنا ما على وجه الأرض من المال والبنين، والمسكن، والأنهار، والزرع، والثمار والذهب والفضة، والنساء، والخيول المسومة، والنخيل والأعنان والأشجار، والمأكول والمشرب، وغير ذلك من زخرف الدنيا وبهجتها، جعلناه زينة لها؛ لنختبر العباد: أيهم أطوع لله تعالى وأيهم أسوأ عملاً بالمعاصي، فنظهر الطائع من العاصي.

وفي الآية تذكير للناس بنعم الله عليهم، فقد خلقها الله وأنعم عليهم بها؛ ليظهر علمه للخلائق بهذا الابتلاء، ثم يجازي في الدار الآخرة كلًّا بما يستحق؛ فالله تعالى يعلم حقيقة النفوس، ويعلم ما يفعله العباد، وإنما يتليهم كي يُسَجَّلَ هذا في صحف الملائكة، وتظهر أفعال الناس وأقوالهم للخلائق، قال تعالى: ﴿الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ [الملك: ٢].

أي: أخلصه وأصوبه، وأورع عن محارم الله، وأسرع في طاعته.

وفي الآية تسلية للنبي ﷺ عن إغراض المشركين عنه ببيان أن الله تعالى قد أمهلهم وأعطاهم زينة الدنيا؛ كي يشكروه ويعبدوه، ولكنهم بطروا هذه النعمة، والله تعالى مُحَاسِبُهُمْ ومجازيهم على صنيعهم، فما يستحق هؤلاء أن تحزن أو تأسف عليهم، فقد جعلنا ما على وجه الأرض مما يصلح منها أن يكون زينة وجمالاً ومنفعة لأهلها.

كما قال تعالى: ﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنْطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْأَفْضَةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالْأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ذَلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاللَّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الْمَقَابِ ﴿٧﴾﴾ [آل عمران].

وقال: ﴿وَالْخَيْلِ وَالْإِغَالِ وَالْحَمِيرِ لِرَّكْبُوهَا وَزِينَةً وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [النحل].

وقال: ﴿الْمَالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ عِنْدَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلًا﴾ (٤١).

وهذه الزينة المباشرة على ظهر الأرض، توقظ العقول إلى النظر في توحيد خالق هذا الكون، وقيام أصحابها بشكره تعالى وعبادته؛ فإن من لوازم هذه الزينة أنها تثير الشهوات لا قناعتها وتناولها، والناس متفاوتون في ذلك: فمنهم المؤمن القائم بواجب الشكر، ومنهم الكافر الجاحد لفضل الله عليه، فمن اتبع أمر الله ونهيه، وأسرع في ذلك فقد نجح في الامتحان، ومن أعرض وتباطأ فقد رسب في الامتحان، فامض -أيها الرسول- في طريق دعوتك وتبليغ ما أوحينا إليك، فهم في موضع اختبار؛ ليتبين المحسن من المسيء.

عن أبي سعيد رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ أنه قال: «إن الدنيا خضرة حلوة، وإن الله مستخلفكم فيها، فناظر ماذا تعملون، فاتقوا الله، واتقوا النساء؛ فإن أول فتنة بني إسرائيل كانت في النساء»^(١).

والناس متفاوتون في حسن العمل، ويوم القيامة تتلو كل نفس ما أسلفت. قال تعالى:

٨- ﴿وَإِنَّا لَجَاعِلُونَ مَا عَلَيْهَا صَعِيدًا جُرُزًا﴾ (٨)

ثم إن هذه الدنيا تصير إلى زوال وتراب وفناء، لا نبات فيها عند انقضاء عمرها، أي: وإنا مُخَرَّبُو هذه الدنيا بعد عمارتها، حيث يأتي عليها الفناء والزوال، وتصير ركامًا كالتراب الذي لا نبات فيه، فتعود صعيدًا جُرُزًا، قد ذهب لذاتها وانقطعت أنهارها، وزال نعيمها، واندثرت آثارها، وقد حذرنا الله تعالى من الاغترابها، ورغبنا في دار يدوم نعيمها.

ومعنى صعيدًا: يعني ترابًا، وجُرُزًا: أي لا نبات فيه.

ثم حض سبحانه على التزود بالعمل الصالح الذي يؤدي إلى سعادة الدارين؛ فإن مصير هذه الدنيا إلى الزوال، حيث تعود الأرض بعد زخرفها وبهجتها وخضرتها إلى تراب جاف أجرد، لا يصلح للحياة فوقه عند فناء العالم، كما قال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا سَوَّيْنَا الْمَاءَ إِلَى الْأَرْضِ الْجُرُزِ فَنُخْرِجُ بِهِ زَرْعًا تَأْكُلُ مِنْهُ أَنْعَامُهُمْ وَأَنْفُسُهُمْ أَفَلَا يُبْصِرُونَ﴾ (٧) [السجدة].

وقال: ﴿إِنَّمَا مَثَلُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنْزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ النَّاسُ

(١) رواه مسلم برقم (٢٧٤٢) من طريق أبي سلمة عن أبي نضرة به.

وَالْأَنْعَادُ حَتَّىٰ إِذَا أَخَذَتِ الْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَازَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَا أَنَّهُمْ قَدِرُوا عَلَيْهَا أَمْرًا لَّيْلًا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَاهَا حَصِيدًا كَأَن لَّمْ تَغْنَبْ بِالْأَمْسِ ﴿٢٤﴾ [يونس: ٢٤].

وقال: ﴿وَاضْرِبْ لَهُم مَّثَلَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنْزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ الرِّيحُ وَكَانَ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ مُّقْنَدًا ﴿٢٥﴾﴾ [الكهف: ٢٥].

وهكذا الدنيا تفنى بعد بهجتها وزخرفتها، ومصير الناس إلى دار البقاء والسعادة الأبدية أو الشقاء الأبدى، عياذ بالله.

مُجْمَلُ قِصَّةِ أَصْحَابِ الْكَهْفِ فِي أَرْبَعِ آيَاتٍ

٩- ﴿أَمْرٌ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَابَ الْكَهْفِ وَالرَّقِيمِ كَانُوا مِنْ ءَايَاتِنَا عَجَبًا ﴿١﴾﴾

لقد تعجب الكفار والمشركون قديماً وحديثاً من قصة أصحاب الكهف، فوصفوها بأنها من قصص وحكايات الأولين، ولذا فقد سألت قريش رسول الله ﷺ بإيعاز من اليهود، ومن النصارى والرهبان الذين كانوا في الأديرة الواقعة في طريق رحلة قريش من مكة إلى الشام في رحلة الصيف للتجارة، وإيعاز من النصارى الذين يردون إلى مكة للتجارة.

والله ﷻ يقول لهم: لا تحسبوا أن قصة أهل الكهف وحدها عجبٌ، فتسألوا عنها رسول الله ﷺ على سبيل الامتحان، فإن آياتنا كلها عجبٌ، ويوجد ما هو أجدر بالاهتمام منها، وأنتم عنها غافلون، فخلق السموات والأرض، وما فيهما، وما بينهما، أمر عجب، وما على وجه الأرض من نبات وحيوان وإنسان ومعادن أمر عجب أيضاً، وانقراض هذا العالم وفناؤه أعظم من ذلك، ولا يزال الإنسان يتفكر في نفسه وفي الكون حتى يتبين له الحق من الباطل والهدى من الضلال، فليست قصة أصحاب الكهف هي العجيبة وحدها، بل يوجد من جنسها الكثير، والوقوف عندها نقص في العلم والعقل.

لقد سألتهم عن أمر عجيب هو قصة أهل الكهف، وكفرت بما هو أعجب، وهو البعث والنشور، والحساب والجزاء، وهذا هو مغزى قصة أهل الكهف؛ حيث أماتهم الله في الدنيا ثم أحياهم؛ ليكون هذا دليلاً حياً مشاهداً لمن قالوا: ﴿مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلَّا الدَّهْرُ﴾ [الجاثية: ٢٤].

وفي الآيات الأخرى يقول تعالى عنهم: ﴿وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ﴾ [الأنعام: ٢٩].

ويقول: ﴿وَإِنْ تَعَجَّبَ فَعَجَبٌ قَوْلُهُمْ إِذْ ذَا كُنَّا تَرَبًّا لِّئِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ أُولَئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ وَأُولَئِكَ الْأَغْلَالُ فِي أَعْنَاقِهِمْ وَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ [الرعد].

وقد ابتدأ القرآن قصة أهل الكهف ببيان العبرة منها، ويُجمل الله سبحانه قصتهم في أربع آيات، ويفصلها بعد ذلك في ثلاث عشرة آية.

والمعنى: أظننت يا محمد أن قصة أهل الكهف كانت عجباً من بين آياتنا، فقد كان الناس يظنون أن قصتهم عجيبة، يقول الله سبحانه لنبه: هناك ما هو أعجب من قصة أصحاب الكهف، ومن ذلك: الموت والحياة، والكون وما فيه، وغير ذلك.

والرقيم: اسم للوح من رصاص، أو لَوْحَيْن، كُتِبَ فيهما أسماء أهل الكهف وأنسابهم وأخبارهم وقصتهم، هذا هو أشهر الأقوال في الرقيم، وهو فعيل بمعنى مفعول، أي: الكتاب المرقوم فيه دينهم، وسبب لجوئهم إلى الكهف والتعريف بهم، وذكر وقت فقدهم، وجعله تاريخاً لهم، ووضع على باب الكهف، كما قال تعالى عن كتاب الأبرار: ﴿كُتِبَ مَرْقُومٌ﴾ [المطففين].

قال سعيد بن جبير: الرقيم لوح من حجارة، كتبوا فيه قصة أصحاب الكهف وأمرهم، ثم وُضع على باب الكهف^(١).

وقال السُّدِّي: الرقيم، حين رُقِّمَت أسماءهم في الصخرة، كتب الملك فيها أسماءهم، وكتب أنهم هلكوا في زمان كذا وكذا في مُلْك دقيانوس ملك الروم، وكانت مدينة (طرُسوس) تتبع ملكه، ثم ضربها في سور المدينة على الباب، فكان من دخل أو خرج قراها، فذلك قوله تعالى: ﴿أَصْحَابُ الْكَهْفِ وَالرَّقِيمِ﴾^(٢).

والرقيم أيضاً: اسم للجبل الذي فيه الكهف، قُرب (طرُسوس) وهو اسم لواء ومكان معروف في الأردن، وقيل: الرقيم هو الكلب.

والكهف: هو النقب، أو الشق المتسع في وسط الجبل، الذي اتخذته الفتية مستقراً

(١)، (٢) «الدر المنثور» (٩/ ٤٨٨).

لهم، فإن لم يكن هذا النفق واسعاً فهو غار. قال تعالى:

١٠- ﴿إِذْ أَوَى الْفِتْيَةُ إِلَى الْكَهْفِ فَقَالُوا رَبَّنَا إِنَّا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً وَهَيِّئْ^(١) لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا﴾

اذكر -يا محمد- حين لجأ الشبان المؤمنون إلى الكهف، خشيةً من فتنة قومهم لهم، وإرغامهم على عبادة الأصنام، فقالوا: ربنا أعطنا من عندك رحمة، تُبَيِّنْنا بها وتحفظنا من الشر، ويَسِّرْ لنا الطريق الصواب الذي يوصلنا إلى العمل الذي تحب؛ حتى نكون راشدين غير ضالين، وأصلح لنا أمر ديننا ودنيانا، فجمعوا بين التضرع والدعاء، وبين السعي والفرار من الفتنة.

اذكر إذ أوى هؤلاء الفتية الذين اختبؤوا في الكهف خفية، ودعوا ربهم قائلين: ﴿رَبَّنَا إِنَّا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا﴾ ولأهل الكهف قصة أخرى مماثلة:

ثبت من حديث ابن عمر رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال: «بينما ثلاثة نفر ممن كان قبلكم يمشون، إذ أصابهم مطر، فأووا إلى غار فانطبق عليهم، فقال بعضهم لبعض: إنه والله يا هؤلاء، لا ينجيكم إلا الصدق، فليدع كل رجل منكم بما يعلم أنه قد صدق فيه، فقال واحد منهم: اللهم إن كنت تعلم أنه كان لي أجير عمل لي على فرق -أي: مكيال- من أرز، فذهب وتركه، وإني عمدتُ إلى ذلك الفرق فزرعته فصار من أمره أني اشتريتُ منه بقرًا، وإنه أتاني يطلب أجره، فقلت: اعتمدُ إلى تلك البقر، فسقها، فقال لي: إنما لي عندك فرق من أرز، فقلت له: اعتمدُ إلى تلك البقر، فإنها من ذلك الفرق، فساقتها، فإن كنت تعلم أني فعلتُ ذلك من خشيتك، ففرج عني، فأنساختُ -أي: انشقت- عنهم الصخرة.

فقال الآخر: اللهم إن كنت تعلم أنه كان لي أبوان شيخان كبيران، فكنْتُ آتيهما كل ليلة بلبن غنم لي، فأبطأتُ عليهما ليلة، فجنْتُ وقد رقدا، وأهلي وعيالي يتضاغون -أي: يكون ويصيحون- من الجوع، فكنْتُ لا أسقيهم حتى يشرب أبواي، فكرهتُ أن أوقظهما، وكرهتُ أن أَدْعُهُمَا، فَيَسْتَكِنَّا لَشَرِبَتِهُمَا -أي: يضعفنا لعدم الشرب- فلم أزل أنتظر حتى طلع الفجر، فإن كنت تعلم أني فعلت ذلك من خشيتك، ففرج عني، فأنساختُ

(١) قرأ أبو جعفر بإبدال همزة (وهي) ياء، فيكون النطق بياء من الثانية منهما مخففة، ومثله حمزة وهشام بخلفه عند الوقف، ومثلها (ويهيئ) في الآية: (١٦)، والباقون بهمزة ساكنة.

عنهم الصخرة حتى نظروا إلى السماء.

فقال الآخر: اللهم إن كنت تعلم أنه كان لي ابنة عمّ من أحب الناس إليّ، وإني راودتها عن نفسها، فأبث إلا أن آتيا بمئة دينار، فطلبتها حتى قدّرت، فأتيت بها فدفعتها إليها، فأمكنّني من نفسها، فلما قعدت بين رجلها قالت: اتق الله، ولا تفضّ الخاتم إلا بحقه، فقمّت وتركّت المئة دينار، فإن كنت تعلم أنني فعلت ذلك من خشيتك، ففرّج عنا، وفرّج الله عنهم، فخرجوا»^(١).

وقد وصف الله أصحاب الكهف بأنهم فتية، وأنهم لجؤوا إلى الكهف، وأنهم دعوا ربهم بهذا الدعاء، ووصفهم بعد ذلك بأنهم فتية آمنوا بربهم وزادهم الله هدى، وربط على قلوبهم، وأنهم وحدّوا ربهم ونبذوا الشرك، وأنه لا أحد أظلم ممن افترى الكذب على الله تعالى باتخاذ الشريك والولد.

أجاب الله دعاء أهل الكهف، وقبض لهم ما لم يكن في حسابهم، وأمنهم من الفتنة:

١١ - ﴿فَضَرَبْنَا عَلَىٰ آذَانِهِمْ فِي الْكَهْفِ سِنِينَ عَدَدًا﴾

ثم بيّن سبحانه ما حدث لهؤلاء الفتية بعد أن لجؤوا إلى الكهف، ودعوا ربهم بهذا الدعاء الشامل لأنواع الخير، فقد أنامهم الله في الكهف نومًا طويلًا ثقيلًا بحيث لا يسمعون، ولم يكونوا أحياء، فالأحياء يأكلون ويشربون، وهؤلاء لا يأكلون ولا يشربون ولا يتحركون، ومكثوا في الكهف ثلاث مئة سنة شمسية، وازدادوا تسعا بالسنة القمرية، وخلال هذه المدة لم يكونوا أمواتًا، فالأموات لا يتقلّبون، وهؤلاء كانوا يُقلّبون ذات اليمين وذات الشمال، ولم يكونوا أحياء، لأنهم لا يأكلون.

ويوم بُعثوا وخرجوا من كهفهم، ذهب واحد منهم ليأتي لهم بالطعام، فكان في الصورة والهيئة التي كان عليها قبل ثلاث مئة عام وتسعة، كما في قوله تعالى:

﴿وَلَبِثُوا فِي كَهْفِهِمْ ثَلَاثَ مِائَةٍ سِنِينَ وَازْدَادُوا تِسْعًا﴾ [٢٥]

أي: أنهم حين خرجوا كانت أجسامهم طرية فهم شبان كما هم، لم يشيوا، ولم تبّل أو

(١) البخاري (٣٤٦٥) ومسلم (٢٧٤٣) والنسائي كما في «تحفة الأشراف» (٨٤٦١).

تَنْ أَجْسَامَهُمْ، إِنْهُمْ لَمْ يَمُوتُوا، وَلَمْ يَكُونُوا أَحْيَاءَ، بِحَيْثُ يَسْمَعُونَ كَمَا يَسْمَعُ الْأَحْيَاءُ.

فالمعنى إذن: أن الله تعالى جعل على آذانهم غشاوة أو حائلًا عن السمع، كمن ينام نومًا ثقیلاً، وهذه حالة خاصة لم تكن معروفة قبل بيان هذه الآية لها، وهي من الإعجاز القرآني، وفيها كرامة لأهل الكهف.

ولذا سماها القرآن ضَرْبَ عَلَى الْأَذَانِ، وَلَمْ يَقُلْ مَوْتًا، فَالضَرْبُ بِمَعْنَى: الْوَضْعُ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ اللَّيْلَةُ وَالْمَسْكَنَةُ﴾ [البقرة: ٦١].

وقال: ﴿فَضْرَبَ بَيْنَهُمُ اسُورَ لَمْ يَبْأَبُ﴾ [الحديد: ١٣]. والعبرة من هذه القصة هي إثبات البعث بطريقة حسية عملية، ليؤمن به من ينكره أو يشك فيه، قال تعالى:

١٢- ﴿ثُمَّ بَعَثْنَاهُمْ لِنَعْلَمَ أَيُّ الْحَرِيِّينَ أَحَصَنَ لِمَا لَسْتُمْ أَمْدًا﴾

وبعد ثلاث مئة سنة وتسع، بالسنة القمرية، بعثناهم من نومهم؛ ليظهر الله علمه، أي من الطائفتين المتنازعتين في مدة لبثهم أضبط في الإحصاء، فقد كانوا يتحدثون عن أنفسهم بعد خروجهم ويقولون: مكثنا في الكهف يومًا أو بعض يوم؛ وذلك لأنهم دخلوا عند شروق الشمس، وخرجوا عند غروبها، فظنوا أنهم مكثوا في الكهف هذه المدة من الشروق إلى الغروب.

وقال غيرهم من المؤمنين الذين كانوا في زمن بعثهم: مكثوا أكثر من ذلك أو أقل، واختلفوا في هذه المدة كما ستذكر السورة، وقد فعل الله تعالى ذلك ليظهر للناس أي الفريقين - أهل الكهف، أو الذين بعثهم الله إليهم ليروهم - أيهم أدق إحصاء للمدة التي ناموها، وليظهر اضطراب الناس في ضبط تاريخ الحوادث، ويعرفوا عدد السنين والحساب، ولو أن أهل الكهف استمروا في نومهم، لم يحصل الاطلاع على شيء من ذلك في قصتهم.

قِصَّةُ أَصْحَابِ الْكَهْفِ

ومجمل قصة أهل الكهف: أنه وُجد سبعة من الفتية، شبان، مؤمنون بالله سبحانه، قد نَوَّرَ الإيمان قلوبهم في عهد ملك الروم: (دقيانوس) بعد زمن عيسى عليه السلام، وقبل تنصُّر

قسطنطين في حدود سنة ٢٣٧م كان في مدينة طرسُوس في سورية قُرب حلب وأنطاكية بـ (أفسُس) وكان هذا الرجل شديد البغض للنصرانية، عابد صنم، يذبح للطواغيت، ويقتل كلَّ من يخالفه، وكان مُلكه مدة عام واحد، فلما علم بأمر هؤلاء الفتية أرسل إليهم، فلما كانوا بين يديه توعدّهم بالقتل والتعذيب إن لم يعبدوا الأوثان، ويذبحوا للطواغيت، فوقفوا في وجهه وتمسكوا بإيمانهم بين يديه، وقالوا: ﴿رَبَّنَا رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ لَنْ نَدْعُوَ مِنْ دُونِهِ إِلَهًا﴾ [١٤].

لقد قلنا إن عبدنا غير الله قولاً فيه شطط، وفيه بُعد، قال لهم: أنتم فتية أحداث السن، صغار، وسأمهلكم إلى الغد لتغيّروا أقوالكم، ثم هربوا ليلاً إلى كهف في جبل الرقيم بالأردن بين النَّقَب ومَعان، ودخلوا فيه، حيث قال أحدهم: إني أعرف كهفًا كان أبي يُدخل فيه غنمه، فلنذهب إليه نختفي فيه حتى يفتح الله لنا، فلما دخلوه ألقى الله عليهم النوم العميق، وهذا الكهف على بعد فرسخين من مقر الملك.

وعَلِمَ بأحوالهم اثنان في بيت الملك، مؤمنان يكتمان إيمانهما، فكتبا أسماءهم ونسبهم وقصتهم، في لوح أو لوحين من رصاص أو غيره، ووضعاهما في تابوت من نحاس، ووضع هذا التابوت في البناء الذي كان على الكهف؛ ليعلم الناس قصتهم، وكانوا وهم في الطريق قد مرّوا براع، فتبعهم كلب هذا الراعي، ومشى خلفهم، ونام على باب الكهف.

وعلم الملك بقصتهم، فسار هو وجنده خلفهم، ولكنهم لم يهتدوا إلى الغار، وألقى الله عليهم النوم، ومضت ثلاثة قرون، ثلاث مئة عام، وتسع سنوات، هي فرق السّنة الشمسية من السنة القمرية، وبعدها بعثهم الله؛ ليرَوْا انقراض الذين كانوا يخافون منهم على دينهم، فظنوا بعد بعثهم أنهم أقاموا يومًا أو بعض يوم، وشعروا بالجوع، فأرسلوا أحدهم يأتي لهم بأزكى الطعام، ويتخير لهم من المدينة ما يراه حسنًا، وقالوا له: تلطّف في القول حتى لا يعلم الناس بنا، ويأتي الملك إلينا، فكن حذرًا.

فلما وصل مَنْ يأتي لهم بالطعام إلى البلدة وجد معالمها قد تغيرت، ولم يعرف أحدًا من أهلها، فظن أنه أخطأ الطريق، فلما أخرج نقوده وأعطاهم للبائع أخذ يقلبها في يده، وقال له: من أين حصلت على هذه النقود، هل أنت عثرت على كنز؟ قال: لا، هذه نقودنا، فقال البائع: إنها مضروبة من عهد الملك دقيانوس، قال الفتى: وما أخباره؟

قالوا: هذا ملك قد مات من قرون، ويوجد الآن ملك صالح، يعبد الله سبحانه، فذكر لهم قصتهم، لَمَّا عرف أن الوقت والناس قد تغيروا، ثم أخبروا الملك بقصتهم.

فجاء إلى الكهف: القيصر، والأساقفة، والبطارقة، والقساوسة، فأروهم وكلموهم، وآمنوا بكرامتهم وحيوهم عند الكهف، ثم أمانتهم الله سبحانه بعد ذلك في مكانهم، وقال الملك: ستتخذ عليهم مسجدًا، أي: مصلى في هذا المكان، وكان هذا أمرًا جائرًا في شريعتهم، ولم يذكر التاريخ: هل نُقِّد بناء هذا المسجد، أم لا؟^(١).

عن عائشة ؓ أن النبي ﷺ قال في مرضه الذي مات فيه: «لعن الله اليهود والنصارى اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد»^(٢).

قال ابن عباس ؓ: غزونا مع معاوية غزوة المضيق نحو الروم، فمررنا بالكهف الذي فيه أصحاب الكهف، فقال معاوية: لو كُشف لنا عن هؤلاء فنظرنا إليهم، فقال ابن عباس: ليس ذلك لك، قد منع الله ذلك مَنْ هو خير منك، فقال: ﴿لَوْ أَطَّلَعْتَ عَلَيْهِمْ لَوَلَّيْتَ مِنْهُمْ فِرَارًا وَلَمَلِئْتَ مِنْهُمْ رُغْبًا﴾ فقال معاوية: لا أنتهي، حتى أعلم علمهم، فبعث رجالًا وقال: اذهبوا، فادخلوا الكهف وانظروا، فذهبوا، فلما دخلوه، بعث الله عليهم ريحًا فأخرجتهم^(٣).

ولعل اليهود علموا قصتهم من النصارى، ولم يكن أمام قريش إلا اليهود في المدينة فبعثوا إليهم يسألونهم عن شأن محمد ﷺ وعن مدى صدقه في رسالته، وكانت هذه القصة من بين أسئلة الاختبار الموجهة له ﷺ.

تَفْصِيلُ قِصَّةِ أَصْحَابِ الْكَهْفِ عَلَى ضَوْءِ الْآيَاتِ التَّالِيَةِ:

١٣ - ﴿تَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُم بِالْحَقِّ إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ آمَنُوا بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَاهُمْ هُدًى﴾^(٤)

(١) يُنظَرُ: «تفسير التحرير والتنوير» (٢٨٣/١٥) و«تفسير ابن عطية» (٤٩٨/٣) و«تفسير ابن كثير» (١٤٠/٤) و«تفسير الصابوني» (٧/٨) وغيرها.

(٢) من حديث عائشة ؓ في البخاري برقم (١٣٣٠، ٤٣٥٢) ومسلم (٥٢٩، ٥٣١).

(٣) أخرجه ابن أبي شيبة كما في تخريج أحاديث «الكشاف» (٣٠١/٢) وابن المنذر وابن أبي حاتم كما قال الألوسي في تفسيره وكما في «تغليق التعليق» (٢٤٤/٤) وقال الحافظ: هذا إسناد صحيح.

(٤) لم يعد (وزدناهم هدى) الشامي وعدا غيره آية.

ونمضي مع الآيات التي تُفصّل وتسرد أحداث القصة في السورة، وقبل نزول هذه الآيات، كان الناس قد شَوَّشُوا وخلَطُوا، ومَزَجُوا بين الحق والباطل فيما يتعلق بقصة أهل الكهف، فأوحى الله تعالى إلى رسوله ﷺ يخبره أنه سيذكر له قصة أهل الكهف بالحق الصادق، والخبر اليقين من رب العالمين ﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُم بِالْحَقِّ﴾ ليس فيه باطل، وليس فيه ريب ولا شك ولا شبهة بوجه من الوجوه:

إنهم سبعة شبان آمنوا بربهم في وقت عَبَدَ الناس فيه الأصنام، والفتية: من جموع القلة، وهو يدل على أنهم كانوا دون العشرة، وكانوا على دين مليكهم الوثني، وكانوا هم على التوحيد، فشكر الله لهم إيمانهم، وزادهم هدى، فالإيمان يزيد بالطاعة وينقص بالمعصية، كما قال سبحانه: ﴿وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى وَءَانَتْهُمْ نَفْسُهُمْ﴾ [٧] ﴿[محمد]. ومن زيادة الهدى: العلم النافع والعمل الصالح.

وكما قال جلّ شأنه في وصف عباده المؤمنين: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ [٢] ﴿[الأنفال]. وقال تعالى: ﴿لِيَزَادُوا إِيمَانًا مَعَ إِيمَانِهِمْ﴾ [الفتح: ٤].

وقال سبحانه: ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا فَرَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ﴾ [التوبة: ١٢٤].

إن أصحاب الكهف شبان صدقوا ربهم، واستجابوا له، وزادهم الله هدى وثباتاً على الحق، فقد علموا أن ما دونه سبحانه أصفار على الشمال، لا تضر ولا تنفع، فأخلصوا العبادة لله وحده، وأسلموا وجوههم له سبحانه، وآمنوا به إيماناً عميقاً ثابتاً لا يتزعزع، فكان هؤلاء الفتية أفضل بكثير من شيوخ لهم قَدَمٌ راسخة في الباطل، إنهم فتية أنار الله بصائرهم، فعرفوا طريق النجاة، وألهمهم الله التوفيق والسداد. قال تعالى:

١٤ - ﴿وَرَبَطْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ إِذْ قَامُوا فَقَالُوا رَبُّنَا رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ لَن نَدْعُو مِن دُونِهِ ۚ إِلَٰهًا لَقَدْ قُلْنَا إِذَا شَطَطًا﴾ [١٤]

لقد غرس الله في قلوب هؤلاء الشباب قوة الإيمان، والثبات على الحق، والصبر على فراق أهلهم، فقوي واشتد عزم هؤلاء الفتية، وربط الله على قلوبهم فأعلنوا إيمانهم بالله وحده في مجامع قومهم، وصبرهم حين فارقوا أوطانهم، وخرجوا من بلادهم مهاجرين

إلى ربهم، وكانوا من أبناء ملوك الروم وسادتهم، فتركوا ما هم فيه من نعيم، وخرجوا فارين بدينهم إلى الكهف الذي لجؤوا إليه من ظلم الملك الطاغية الذي تعقبهم هو وجنده ليقتلهم؛ لأنهم خرجوا عن طاعته في عبادة الأصنام.

لقد ربط الله على قلوبهم فثبتهم، ولم يترددوا حين وقفوا بين يدي الملك دقيانوس وحاشيته، وهو يحاورهم كي يعبدوا الأصنام، فأعلنوا في وجهه على مسامع القوم جميعاً إيمانهم بربهم قائلين: ﴿رَبَّنَا رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ واستدلوا بتوحيد الربوبية على توحيد الألوهية، كما قال موسى لفرعون: ﴿رَبِّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا﴾ [الشعراء: ٢٤].

فهو الذي خلقنا ورزقنا ودبر أمرنا وربانا بنعمه، وهو النافع الضار، المحيي المميت، فإن دعونا معه آلهة أخرى نكون قد شططنا وبعدنا عن الصواب وملنا عنه ميلاً عظيماً.

وقوله تعالى: ﴿إِذْ قَامُوا﴾ يحتمل ثلاثة معان:

الأول: وقوفهم بين يدي الملك معلنين التوحيد.

والثاني: قيامهم بين يدي أقوامهم وعُظماءهم معلنين إيمانهم بالله وحده.

والثالث: عزمهم على الهجرة إلى الله وحده، والفرار بدينهم، وترك الشرك وأهله^(١).

ومادام الله سبحانه هو خالق هذا الكون، فلن نتخذ من دونه إلهاً كما تعبدون، وإذا فعلنا غير ذلك نكون قد شططنا عن الحق، وخرجنا عن الصواب. وهؤلاء القوم افتروا على الله الكذب حين أشركوا معه غيره في العبادة.

والآية تدل على قوة إيمان هؤلاء الفتية، وعلى أن من كان كذلك ثبت الله قلبه، وقواه على تحمّل الشدائد، وتدل الآية على أن من أشرك مع الله إلهاً آخر، فإنه يكون قد اشتطّ وابتعد عن الحق والصواب، كما قال تعالى: ﴿وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ السَّمَاءِ فَتَخْطَفُهُ الطَّيْرُ أَوْ تَهْوِي بِهِ الرِّيحُ فِي مَكَانٍ سَحِينٍ﴾ [الحج: ٣١].

ولما ذكر هؤلاء الفتية ما من الله عليهم به من الإيمان والهدى، ذكروا بعد ذلك ما عليه قومهم من الشرك بالله، فذمّوهم، وبيّنوا أنهم ليسوا على يقين من أمرهم، بل هم في غاية

(١) يُنظر: «تفسير القرطبي» (١٠/٣٦٥).

الجهل والضلال، فقالوا:

١٥ - ﴿هَؤُلَاءِ قَوْمًا اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ آلِهَةً لَوْلَا يَأْتُواكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ بَيِّنٌ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى^(١) عَلَى اللَّهِ كَذِبًا ۝﴾

أي وبعد أن أعلنوا إيمانهم، وقرروا عقيدتهم، ذموا عقيدة الملك وعقيدة قومه حين قالوا: ﴿هَؤُلَاءِ قَوْمًا اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ ۝﴾ فعبدوا الأصنام وذبحوا للطواغيت، هلاً يأتون على هذه الآلهة التي عبدوها من دون الله بدليل واضح، وحجة بينة ﴿لَوْلَا يَأْتُواكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ بَيِّنٌ﴾ أي بحجة وبرهان على ما هم عليه من الضلال؟

وفي هذا تبكيت وتوبيخ لقومهم، لأن الإتيان بحجة واضحة على عبادة الأوثان أمر محال، وفي هذا تعجيز وتخجيل لهم، فلا أحد أظلم ممن كذب على الله سبحانه، فنسب الشريك والولد لله جل شأنه: ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا﴾.

فاتخاذ الآلهة من دون الله محض افتراء منهم، وكذب على الله تعالى، وهذا أعظم الظلم.

إن هؤلاء الفتية لم يكتفوا بإعلان إيمانهم الصادق، بل أضافوا إليه استنكارهم لما عليه القوم من الشرك، وبينوا أن طريق الاعتقاد لا بد أن يكون مستنداً إلى دليل واضح، وبرهان ساطع، وإلا فهو الكذب الشنيع، كما وصف الله سبحانه المشركين بالجهل والعجز في قوله:

﴿قُلْ هَلْ عِنْدَكُمْ مِنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَا إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ أَنْتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ﴾ [الأنعام: ١٤٨].

وكما قال تعالى: ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ مَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَرُونِي مَاذَا خَلَقُوا مِنَ الْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِي السَّمَوَاتِ أَفَتُنُونِ يَكْتُمُونَ مِنْ قَبْلِ هَذَا أَوْ أَنْذَرُوا مِنْ عِلْمٍ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ۝﴾ [الأحقاف: ٢٢].

وإذا تبين هذا فلا أحد أشد ظلماً ممن زعم أن لله تعالى شريكاً له في الطاعة والعبادة ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أُولَٰئِكَ يُعْرَضُونَ عَلَىٰ رَبِّهِمْ وَيَقُولُ الْأَشْهَادُ هَؤُلَاءِ الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَىٰ رَبِّهِمْ أَلَا لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ ۝﴾ [هود: ٦٨].

(١) أمال ألف (افتري) حمزة والكسائي وخلف وأبو عمرو، وابن ذكوان بخلف عنه، وقللها ورش، وفتحها الباقون.

لُجُوءُ الْفِتْيَةِ إِلَى الْكَهْفِ فِرَارًا بِدِينِهِمْ

١٦- ﴿وَإِذْ أَفْتَلْتُمُوهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ فَأَوَّا^(١) إِلَى الْكَهْفِ يَنْشُرْ لَكُمْ رَبُّكُمْ مِنْ رَحْمَتِهِ وَيُهَيِّئْ لَكُمْ مِنْ أَمْرِكُمْ مَرْفَقًا^(٢)﴾ ﴿١٦﴾

هذه الآية من كلام أهل الكهف بعضهم لبعض، وذلك أنه لما أصر هؤلاء الفتية على توحيد الله تعالى في مواجهة الملك الطاغية وأعوانه، وأبوا الاستجابة له في شركه، تهذدهم وتوعددهم، وأعطاهم مهلة ليراجعوا أنفسهم، وكان هذا من لطف الله تعالى بهم، حيث قرروا الفرار بدِينهم ومفارقة قومهم، وترك ما يعبدونه من الآلهة، إلا عبادة الله وحده، واللجوء إلى الكهف، ليتمكنوا من إفراد الله تعالى بالعبادة.

وهذا هو ما يُشرع في الفتن، كما جاء عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «يوشك أن يكون خير مال المسلم غنم يتبع بها شعف الجبال ومواقع القطر، يفر بدينه من الفتن»^(٣).

وفي غير وقت الفتن ذات الضرر البالغ التي لا يُستطاع ردها ولا قبل لهم بها، لا يجوز اعتزال الناس، كما في حديث أبي هريرة رضي الله عنه عن الرجل الذي مر بشعب فيه عُيُنة من الماء، فقال: لو أقمْتُ في هذا الشَّعب واعتزلت الناس، ولكني لن أفعل حتى استأذن رسول الله ﷺ، فلما ذكر ذلك للنبي ﷺ قال: «لا تفعل»، ثم قال: «اغزوا في سبيل الله، من قاتل في سبيل الله فُواق ناقة وجبت له الجنة»^(٤).

والمعنى: أن المجاهد في سبيل الله ولو كان جهاده فترة وجيزة، بمقدار ما يعود اللبن إلى الضرع، فإن هذا يوجب له الجنة إن كان قتاله في سبيل الله.

(١) قرأ الأصهباني عن ورش وأبو جعفر وأبو عمرو بخلف عنه وكذا حيزة عند الوقف بإبدال همزة (فأووا) ألفاً، والباقون بهمزة ساكنة.

(٢) قرأ نافع وابن عامر وأبو جعفر بفتح الميم وكسر الفاء من (مرفقا)، والباقون بكسر الميم وفتح الفاء، وهما لغتان.

(٣) راواه البخاري برقم (١٩، ٣٣٠٠، ٣٦٠٠، ٦٤٩٥، ٧٠٨٨).

(٤) أخرجه الترمذي برقم (١٦٥٠) وقال: حديث حسن، وأخرجه أحمد في المسند (٩٧٦٢، ١٠٧٨٦) بإسناد حسن، وهو في سنن البيهقي (٩/١٦٠) وشعب الإيمان (٤٢٣٠) وابن أبي عاصم في الجهاد (١٣٥).

والبزار (١٦٥٢) كشف الأستار، والحاكم (٦٨/٢).

والله ﷻ يخبر عما جرى بين هؤلاء الفتية من تشاور وتناج حين خرجوا من ديارهم متوجهين إلى الكهف، حيث قال بعضهم لبعض: ما دمت قد اعتزلتم القوم، واعتزلتم دينهم، وفارقتموهم بعقيدتكم، واعتزلتموهم جسمانيًا، فخالفتموهم في العقيدة وعبدتم الله وحده، ولجأتم إليه سبحانه.

مادام الأمر كذلك، فآلجؤوا إلى الكهف يستركم ربكم في الدارين؛ حيث يسر لكم الله السبل، وينشر عليكم رحمته، ويهيئ لكم من أمركم ما ترثقون وتعاشون به في هذا الكهف. ويقال: إن الملك تقصّى أثرهم، فلم يظفر بهم وعمى الله عليهم.

وهكذا حين كان النبي ﷺ في غار ثور، وتقصّى القوم أثره فوصلوا إلى الغار، وقال أبو بكر للنبي ﷺ: لو نظر أحدهم تحت قدميه لأبصرنا، فقال ﷺ: «يا أبا بكر، ما ظنك باثنين الله ثالثهما؟! لا تحزن إن الله معنا»^(١).

وهكذا فعل إبراهيم ﷺ فقال كما حكى الله تعالى عنه: ﴿وَأَعْتَزَلُكُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَأَدْعُوا رَبِّي عَسَىٰ أَلَّا أَكُونَ بِدُعَاءِ رَبِّي شَقِيًّا ۝٤٨﴾ فَلَمَّا أَعْتَزَلَهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ كُلًّا جَعَلْنَا نَبِيًّا ۝٤٩ وَوَهَبْنَا لَهُمْ مِنْ رَحْمَتِنَا وَجَعَلْنَا لَهُمْ لِسَانَ صِدْقٍ عَلِيًّا ۝٥٠﴾ [مريم].

وهكذا الإيمان الصادق يحمل صاحبه على تفضيل المغارات والكهوف على العيش الرغيد، والقصور العالية.

وكان هؤلاء الفتية قد دعوا ربهم قائلين ﴿رَبَّنَا ءِإِنَّا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا﴾ فجمعوا بين التبرّي من حولهم وقوتهم، والتجؤوا إلى ربهم، في صلاح أمرهم، فنشر الله عليهم رحمته، حيث حفظ عليهم دينهم وأبدانهم، وجعلهم آية للناس، وموضع ثنائهم إلى قيام الساعة.

(١) البخاري (٣٦٥٣) ومسلم (٢٣٨١) و «المستد» (١١).

حَفْظُ أَبْدَانِ الْفِتْيَةِ فِي الْكَهْفِ

١٧- ﴿وَتَرَى^(١) الشَّمْسَ إِذَا طَلَعَتْ^(٢) تَزَوُّرُ^(٣) عَنْ كَهْفِهِمْ ذَاتَ الْيَمِينِ وَإِذَا غَرَبَتْ تَقَرَّبُ^(٤)هُمْ ذَاتَ الشِّمَالِ وَهُمْ فِي فَجْوَةٍ مِنْهُ ذَلِكَ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ مِنْ يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ^(٤) وَمَنْ يُضِلِلْ فَلَنْ يَجِدَ لَهُ وَلِيًّا مُرْشِدًا ﴿١٧﴾

ولما دعا أهل الكهف ربهم قائلين لبعضهم: ﴿يَنْشُرْ لَكُمْ رَبُّكُمْ مِنْ رَحْمَتِهِ وَيَهَيِّئْ لَكُمْ مِنْ أَمْرِكُمْ مَرْفَقًا﴾ أجاب الله دعاءهم، فحفظ أبدانهم، وحفظ عليهم دينهم من الملك وجنوده، فلما دخلوا الغار حفظ الله الغار، وجعله في غاية الصيانة، إجابة لدعائهم حين دعوا ربهم قائلين: ﴿رَبَّنَا إِنَّا أَمَّا لَدُنْكَ رَحْمَةً﴾.

وهكذا هيأ الله لهم الأمر، فجعل في الكهف فجوة، أي: متسعاً، بحيث ينالهم برد الريح ونسيمه، فلا ينقطع عنهم الهواء، ولا تؤذيهم حرارة الشمس.

وفي هذه الآية والتي قبلها كلام مقتضب يُفهم مما تقدم، تقديره: فأووا إلى الغار، وضرب الله على آذانهم، ومكثوا فيه، فكانت الشمس لا تصيبهم البتة؛ حيث تدخل إلى الغار من شمال الباب، من ناحية المشرق، فكانت الشمس ﴿إِذَا طَلَعَتْ تَزَوُّرُ﴾ أي: تنقلص وتميل ﴿عَنْ كَهْفِهِمْ ذَاتَ الْيَمِينِ﴾ أي: إلى جهة اليمين ﴿وَإِذَا غَرَبَتْ تَقَرَّبُ^(٤)هُمْ﴾ أي: تتجاوزهم، وتركهم، وتميل عنهم؛ حتى لا تؤذيهم بحرّها فتغير ألوانهم وتبلي ثيابهم، فتكون ﴿ذَاتَ الشِّمَالِ﴾ أي: تميل إلى جهة الشمال فهي لا تصل إليهم في الحالتين، وهذا

(١) أمال راء (وترى الشمس) وصلًا السوسي بخلف عنه، وأمالها وقفًا أبو عمرو وحزمة والكسائي وخلف وقللها ورش، وفتحها الباقون.

(٢) قرأ الأزرق عن ورش بتعليظ لام (طلعت)، ورفقها غيره.

(٣) قرأ عاصم وحزمة والكسائي وخلف العاشر بفتح الزاي مخففة وألف بعدها، مع تخفيف الراء، في (تزاور) مضارع تزاور، على حذف إحدى التائين تخفيفاً. وقرأ ابن عامر ويعقوب (تزوّر) بإسكان الزاي وتشديد الراء بلا ألف. وقرأ الباقون (تزاور) بفتح الزاي مشددة، وألف بعدها، وتخفيف الراء، وأصله تزاور فأدغمت التاء في الزاي، وكلها بمعنى: الميل.

(٤) قرأ نافع وأبو عمرو وأبو جعفر بإثبات الياء وصلًا من (المهتد) ويعقوب بإثباتها وصلًا ووقفًا، والباقون بحذفها في الحالين.

كرامة من الله تعالى لأهل الكهف ﴿وَهُمْ فِي فَجْوَةٍ مِّنْهُ﴾ أي: أن الكهف كان مفتوحاً وواسعاً بحيث تدخل فيه الشمس، قال الرازي: للمفسرين هنا قولان:

أولهما: أن باب الكهف كان مفتوحاً إلى جانب الشمال، فإذا طلعت الشمس كانت عن يمين الكهف، وإذا غربت كانت عن شماله، فلم يكن ضوء الشمس يدخل إلى الكهف.

وثانيهما: أن الله تعالى منع ضوء الشمس من وقوعه عليهم، وكان هذا أمراً خارقاً للعادة، وكرامة خص الله بها أصحاب الكهف^(١).

والخلاصة: أن الشمس لم تدخل عليهم الغار، إما لأسباب طبيعية، على القول الأول، وإما لأسباب غير طبيعية على القول الثاني.

قلت: إن مؤدى القولين واحد، وهو عدم إصابة الشمس لهم في وقتي الشروق والغروب، مع اتساع المكان الذي ينامون فيه، وهو الفجوة في وسط الغار، وهذا وحده كافٍ في أن يكون هذا آية من آيات الله لهم، حيث حجب عنهم ضوء الشمس في جميع الأحوال.

وهذه الآية تردُّ على القول الذي يقول: إن الملك (دقيانوس) قد وصل إلى الكهف وسدَّ عليهم باب الغار، والصحيح أن الملك لم يهتد إلى الغار، بل تعقَّبهم، ولكن الله تعالى أعماه عن الغار هو وجنده، كما أن الله سبحانه فعل ذلك برسول الله ﷺ حين لجأ إلى الغار في طريقه إلى المدينة ليلة الهجرة، وخرج المشركون في طلبه، ووقفوا فوق فم الغار، وأعمى الله أبصارهم عنه وعن صاحبه.

فالصحيح أن الملك لم يهتد إلى الغار، وأن الغار كان مفتوحاً جهة الشمال، وأن الله تعالى قد حفظ أبدانهم من حرارة الشمس، وأن باب الغار كان يفتح شمالاً، وأن الشمس كانت إذا طلعت في أول النهار تميل إلى جهة اليمين، وإذا غربت في آخر النهار تميل إلى جهة الشمال.

وهذا من آيات الله وعجائب صنعه وكرمه لهم ﴿ذَلِكَ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ﴾ أي: من دلائل قدرته، وهو أمر خارق للعادة أيدهم الله به؛ وذلك لأن الله تعالى هداهم فيمن هدى من خلقه، فالأسباب والمسببات بيد الله تعالى، ومن يوفقه الله للاهتمام فهو الموفق، فالذي يأخذ بسبيل الهدى، ويسلك طريق النجاة يوفقه الله إلى الهداية، ويأخذ بيديه، والذي يسلك طريق

(١) بتصرف من «تفسير الفخر الرازي» (٩٩/٢١).

الضلال، ويزيغ قلبه عن طريق الهدى، يكون ماله إلى الضلال، ولا تجد له معيناً يرشده لإصابة الحق، كما قال تعالى: ﴿إِنْ تَحَرَّصَ عَلَى هُدًى مِنْهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ يُضِلُّ﴾ [النحل: ٣٧].

وقال تعالى: ﴿فَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ وَمَنْ يُرِدْ أَنْ يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي السَّمَاءِ﴾ [الأنعام: ١٢٥]. قال تعالى:

١٨- ﴿وَنَحْسَبُهُمْ^(١) أَيْقَاطًا وَهُمْ رُقُودٌ وَنُقَلِّبُهُمْ ذَاتَ الْيَمِينِ وَذَاتَ الشِّمَالِ وَكَلْبُهُمْ بَاسِطٌ ذِرَاعَيْهِ بِالْوَصِيدِ لَوِ اطَّلَعْتَ عَلَيْهِمْ لَوَلَّيْتَ مِنْهُمْ فِرَارًا وَلَمَلِئْتَ^(٢) مِنْهُمْ رُعبًا^(٣)﴾

وكما حفظ الله عقيدة هؤلاء الفتية بفرارهم من الملك، ولجؤهم إلى الكهف، وتعمية الملك عنهم، حفظ الله أبدانهم من أن تأكلها الأرض، فالميت إذا مات والتصق بدنه بالأرض، فإن الأرض تأكله، وعينه إذا أطبقت الجفون عليها فإنها تتلف وتبلى، ولذلك فإن الله سبحانه قد حفظ أهل الكهف، فجعل عيونهم مفتوحة، يحسبهم الرائي إذا نظر إليهم أيقاظاً، وهم في نوم عميق، لا يحسّون ولا يشعرون بأحد، ولو شاهدتهم وهم على تلك الحال لفررت منهم هارباً، رُعباً منهم، لِمَا ألقى الله عليهم من المهابة وهم نيام.

ثم إن الله ﷻ يقلّبهم في الكهف، قيل: يُقَلَّبُونَ مرتين في العام، وقيل: مرة كل عام، وقيل: إنه كان في يوم عاشوراء، والعلم عند الله تعالى:

والله سبحانه قادر على أن يحفظ أبدانهم دون تقلّب، ولكن الله تعالى يربط الأسباب بالمسببات، وهي سُنَّة الله في الكون.

وكلبهم على باب الغار في الفناء خارج الباب، مفترش ذراعيه، كأنه يحرسهم ويمنع الوصول إليهم، قيل: إن اسم هذا الكلب قطميز.

قال الحسن البصري: كان اسم كبش إبراهيم: جرير، واسم هدهد سليمان: عَنَقَز، واسم كلب أصحاب الكهف: قطميز، واسم عجل بني إسرائيل الذي عبده: بهموت،

(١) قرأ ابن عامر وعاصم وحزمة وأبو جعفر بفتح السين من (وتحسبهم)، والباقون بكسرها، وهما لغتان.

(٢) قرأ نافع وابن كثير وأبو جعفر بتشديد اللام الثانية من (ولمليت) للمبالغة، والباقون بتخفيفها.

(٣) قرأ ابن عامر والكسائي وأبو جعفر ويعقوب، بضم العين من (رعباً)، والباقون بإسكانها للتخفيف، وهما لغتان.

وهبط آدم بالهند، وحواء بجدة، وهبط إبليس بدست بيسان، والحية بأصبهان^(١).
والله أعلم بصحة ذلك.

وَرَدَّ أَنْ أَهْلَ الْإِنْجِيلِ كَثُرَتْ فِيهِمُ الْخَطَايَا، وَطَغَتْ مَلُوكُهُمْ حَتَّى عَبْدُوا الْأَصْنَامَ، وَأَكْرَهُوا عَلَى عِبَادَتِهَا، وَمِنْ شَدَدِ فِي ذَلِكَ (دَقْيَانُوسَ)، فَأَرَادَ أَنْ يُجْبِرَ فَرِيقًا مِنْ أَشْرَافِ قَوْمِهِ عَلَى الشَّرِكِ، وَتَوَعَّدَهُمْ بِالْقَتْلِ، فَأَبَوْا إِلَّا الثَّبَاتَ عَلَى الْإِيمَانِ، وَالتَّصَلُّبَ فِيهِ، ثُمَّ هَرَبُوا إِلَى الْكَهْفِ، وَمَرُّوا بِكَلْبٍ، فَتَبِعَهُمْ فَطَرَدُوهُ، فَأَنْطَقَهُ اللَّهُ تَعَالَى، فَقَالَ: مَا تَرِيدُونَ مِنِّي، إِنِّي أَحِبُّ أَحْبَابَ اللَّهِ، فَتَامُوا وَأَنَا أَحْرَسُكُمْ^(٢).

إِنْ هَذَا الْكَلْبُ أَحَبَّ أَهْلَ الْفَضْلِ وَصَحْبِهِمْ، فَتَالَ دَرَجَةً عَالِيَةً، بِأَنْ ذَكَرَهُ اللَّهُ تَعَالَى وَأَخْبَرَ عَنْهُ فِي كِتَابِهِ، فَمَنْ أَحَبَّ أَهْلَ الْفَضْلِ نَالَ بَرَكَتَهُمْ، وَإِذَا كَانَ كَلْبُ أَهْلِ الْكَهْفِ نَالَ هَذِهِ الدَّرَجَةَ، فَمَا ظَنُّكَ بِالْمُؤْمِنِينَ الْمُحِبِّينَ لِأَوْلِيَاءِ اللَّهِ وَالصَّالِحِينَ، إِنْ هَذَا حَفِزَ لَهُمْ الْمُقْصِرِينَ عَنْ دَرَجَاتِ الْكَمَالِ^(٣).

ويشهد لهذا المعنى ما جاء في الصحيح عن أنس رضي الله عنه قال: بينما أنا ورسول الله ﷺ خارجين من المسجد فلقينا رجلاً عند سُدَّةِ المسجد، فقال: يا رسول الله، متى الساعة؟ قال رسول الله ﷺ: «ما أعددت لها؟» قال: فكأن الرجل استكان، ثم قال: يا رسول الله، ما أعددتُ لها كثير صلاة ولا صيام ولا صدقة، ولكنني أحببت الله ورسوله، قال ﷺ: «فأنت مع من أحببت».

وفي رواية: قال أنس: فما فرحنا بعد الإسلام فرحاً أشد من قول النبي ﷺ: «فأنت مع من أحببت» قال أنس: فأنا أحب الله ورسوله وأبا بكر وعمر، فأرجو أن أكون معهم، وإن لم أعمل بأعمالهم^(٤).

والذي تمسك به أنس يشمل كل مسلم، ويطمع فيه كل مقصر يرجو رحمة الله وإن لم

(١) رواه ابن عساکر في ترجمة الهمام بن الوليد الدمشقي، يُنظَر: «مختصر تاريخ دمشق» لابن منظور (١٤٢/٢٧).

(٢) يُنظَر «تفسير النسفي» للآية، وهذا من أقوال أهل الكتاب التي لا تُصدَّق ولا تُكذَّب.

(٣) يُنظَر: كلام ابن عطية والقرطبي في تفسيرهما للآية.

(٤) يُنظَر الحديث في: «صحيح مسلم» برقم (٢٦٣٩) و«صحيح البخاري» برقم (٣٦٨٨، ٦١٦٧، ٧١٥٣).

يكن مستأهلاً لها .

والله سبحانه نصر هؤلاء الفتية، وحفظهم بإلقاء الرعب في قلوب من يأتي إليهم بالخوف منهم، وإلقاء المهابة عليهم .

والله سبحانه كان ينصر رسوله ﷺ بإلقاء الرعب في قلوب الأعداء من مسيرة سفر شهر على الإبل .

وهو سبحانه قادر أن ينصر عباده المؤمنين في كل زمان ومكان إن أخلصوا النية له، وقادر على نصر عباده بإلقاء الرعب في قلوب اليهود، وفي قلوب غيرهم من أعداء الإسلام، وإن قلت أسلحتهم، وإن قلت ذخيرتهم ﴿وَمَا يَغُودَ جُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ﴾ [المدثر: ٣١] .

ومعنى الآية: وتظن -أيها الناظر- أن أهل الكهف أيقاظ؛ لأن عيونهم كانت مفتوحة وهم في الواقع نيام، وتعهدهم بالرعاية حتى لا تأكل الأرض أجسادهم بسبب طول رقادهم، فنقلبهم مرة للجنب الأيمن ومرة للجنب الأيسر، وكلبهم الذي صاحبهم ماؤ ذراعيه بفناء الكهف، ولو أنك -أيها المخاطب- عايتهم لأدبرت منهم هارباً، ولملئت نفسك فرعاً منهم .

خُرُوجُ الْفِتْيَةِ مِنَ الْكَهْفِ وَالتَّعَرُّفُ عَلَيْهِمْ

١٩- ﴿وَكَذَلِكَ بَعَثْنَاهُمْ لِنَتَّسَعَّ لَوْلَا بَيْنَهُمْ قَالَ قَائِلٌ مِّنْهُمْ كَمْ لَبِثْتُمْ^(١) قَالُوا لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ قَالُوا رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثْتُمْ فَابْعَثُوا أَحَدَكُمْ بِوَرِقِكُمْ^(٢) هَذِهِ إِلَى الْمَدِينَةِ فَلْيَنْظُرْ أَيُّهَا أَزْكَى طَعَامًا فَلْيَأْتِكُمْ بِرِزْقٍ مِّنْهُ وَلْيَتَلَطَّفْ وَلَا يُشْعِرَنَّ بِكُمْ أَحَدًا ﴿١٩﴾﴾

وكما أنمناهم وحفظناهم هذه المدة الطويلة، أيقظناهم من نومهم على هيئتهم دون تغير؛ لكي يسأل بعضهم بعضاً: كم من الوقت ظلُّوا نائمين؟ فقد صار هناك جدل بين أهل الكهف وغيرهم من أهل المدينة، أو بين أهل الكهف أنفسهم، أو بين المسلمين وأهل الكتاب؛ لأنهم هم الذين اعتنوا بحفظ قصتهم ومعرفتها، وسألهم المشركون عنها .

(١) قرأ أبو عمرو وابن عامر وحمزة والكسائي وأبو جعفر بإدغام الباء في التاء من (لبثتم) والباقون بالإظهار .

(٢) قرأ أبو عمرو وشعبة وحمزة وروح وخلف العاشر بإسكان الراء من (بورقكم) للتخفيف، والباقون بكسرها على الأصل .

فحدث خلاف في مدة نومهم، كم لبثوا؟ -كما حصل في قصة عزيز في سورة البقرة، حيث دخل القوم الكهف صباحًا وقت الشروق، وكان خروجهم بعد ثلاث مئة عام قبيل الغروب، فظنوا أنهم مكثوا يومًا أو بعض يوم، ثم فوضوا الأمر إلى الله تعالى فقالوا: ربكم وحده هو العليم بمقدار الزمن الذي قضيتموه نائمين في الكهف، فكُفُّوا عن الحديث في هذه المسألة، وقد حسم الله سبحانه هذا الجدل فبين أنهم لبثوا في كهفهم ثلاث مئة عام بالسنة الشمسية، وثلاث مئة وتسعة بالسنة القمرية.

وكانوا قد أصابهم الجوع حين استيقظوا من نومهم الطويل، فأرسلوا واحدًا منهم بالنقود الفضية التي كانت معهم إلى المدينة التي كانوا يسكنونها قبل لجوئهم إلى الكهف؛ وهي قرية منهم جدا، فقد أرسلوا من يشتري لهم الطعام وظلوا في انتظاره وقد بعثوه، ليتخير لهم أحلى الطعام وأطيبه، وإن كان الطعام من ذبيحة فلتكن مذبوحة بطريق شرعي صحيح، وليتلطف في شرائه مع البائع حتى لا ننكشف، وليكن فطناً ذكيًا ليئًا في قوله وفعله؛ حتى لا يظهر أمرنا، فقد ظنَّ القوم أن الناس كما هم، ولم يعرفوا أن عجلة الزمن قد دارت، وأن المدينة قد تغيرت، وأن الأجيال قد تعاقبت، وأن دولتهم قد دالت، وأن الملك عابد الوثن قد مات، وجاء ملك آخر مسلم موحد، ولذلك قالوا لرسولهم: ﴿وَلَا يُشْعِرَنَّ بِكُمْ أَحَدًا﴾ أي: لا يعلم بكم أحد من الناس، لقد خافوا على أنفسهم، كما خافوا عليها حين دخلوا الغار أول لحظة.

قيل: إن المبعوث إلى شراء الطعام كان اسمه (تمليخا) وإنه لما وصل إلى المدينة وجد أمارات التوحيد والإسلام عليها، فأخذته الحيرة، ولما أعطى البائع ما معه من نقود قال له: هذه دراهم من عهد الملك (دقيانوس)، من أين لك بها؟ فتعجب وقال: لا أعرف، غير أنني وأصحابي خرجنا بالأمس من هذه المدينة، فقال الناس: إنه مجنون، اذهبوا به إلى الملك، فلما وصلوا به إليه، لم يجده الملك الكافر، ووجد ملكًا مؤمنًا صالحًا يقال له: (بيدوسيس) فلما سمع منه القصة سار معه هو وأصحابه إلى الكهف، ثم طلب (تمليخا) أن يدخل عليهم هو؛ لئلا يأخذهم الرعب، فدخل عليهم وأعلمهم بالأمر، فسُرُّوا وفرحوا، وخرجوا إلى الملك وعظموه، وقال بعض أصحاب الملك: هؤلاء الفتية

الذين أُرْخَ لهم في عهد (دقيانوس)، وكتب تاريخهم على لوح النحاس بباب المدينة^(١).
والذين أحصوا حروف القرآن وكلماته، قالوا: إن كلمة ﴿وَلَيْتَلَطَفْ﴾ هي منتصف القرآن. قال تعالى:

٢٠- ﴿إِنَّهُمْ إِنْ يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ يَرْجُمُوكُمْ أَوْ يُعِيدُوكُمْ فِي مِلَّتِهِمْ وَلَنْ تُفْلِحُوا إِذَا أَبَدًا ﴿٢٠﴾﴾

إن قومكم إن عرفوا مكانكم، وأطلعوا عليكم، فهم بين أمرين: إما يرموكم بالحجارة فيقتلوكم شر قتله، أو يعيدوكم في ملة عبدة الأصنام، فتصيروا كفارًا، وإن فعلتم ذلك فلن تفلحوا بدخول الجنة أبدًا ﴿إِنَّهُمْ إِنْ يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ﴾ أي: يظفروا بكم ﴿يَرْجُمُوكُمْ﴾ رميًا بالحجارة ﴿أَوْ يُعِيدُوكُمْ فِي مِلَّتِهِمْ﴾ كفارًا ﴿وَلَنْ تُفْلِحُوا إِذَا﴾ أي: إن فعلتم ذلك فعُدتم إلى دينهم ووافقتموهم على كفرهم، فلن تفوزوا بخير ﴿أَبَدًا﴾ في أخراكم ولا في دنياكم.

وهذا الكلام علة للأمر بالتلطف، والنهي عن إشعار أحد بهم، فقد كانوا يتاجون فيما بينهم، ويوصون رسولهم بالتلطف في الدخول والخروج، وأخذ الحيلة والحذر؛ حتى لا يعرف مكانهم الملك الجبار فيقتلهم، أو يرددهم إلى عبادة الأوثان.

الْعِلَّةُ مِنَ الْعُثُورِ عَلَى الْفِتْيَةِ بَعْدَ نَوْمِهِمُ الطَّوِيلِ

٢١- ﴿وَكَذَلِكَ أَتَتْهُمْ لَعْنَتُنَا عَلَيْهِمْ لَئِلَعَلُّوْا أَنْتَ وَعَدَ اللَّهُ حَقًّا وَأَنَّ السَّاعَةَ لَا رَيْبَ ﴿٢١﴾﴾ فِيهَا إِذْ يَنْتَرِضُونَ عَنْهُمْ أَمْرُهُمْ فَقَالُوا أَبْنَا عَلَيْهِمْ^(٣) بَنَيْنَا رُبُّهُمْ أَعْلَمَ بِهِمْ قَالَ الَّذِي عَلَيْهِمْ أَمْرُهُمْ لَنَنْجِذَكَ عَلَيْهِمْ مَسْجِدًا ﴿٢٢﴾﴾

ثم يأتي المشهد الأخير من قصتهم، وهو مشهد العثور عليهم بعد وفاتهم، ومعرفة مكانهم وقصتهم، وكان الحديث عن أهل الكهف في طرسوس ضاحية أفسوس وما حولها، أمرًا شائعًا يتناقله الناس، فيسر الله لأهل هذه المدينة، العثور عليهم؛ لبيان الحكمة من القصة، وهي علمهم بأن الساعة آتية لا ريب فيها، وكان الذين عثروا عليهم

(١) يُنظر: «تفسير ابن عطية» (٥٠٥/٣) و«تفسير ابن كثير» (١٤٦/٤).

(٢) قرأ حمزة بمد لام (لا ريب) أربع حركات بخلف عنه، للمبالغة في النفي، والباقون بقصرها.

(٣) ضم الهاء من (عليهم) حمزة ويعقوب، وكسرهما الباقيون.

مؤمنين مثلهم، فكان هذا تثبيتاً وتقوية لإيمانهم، وقد كان الناس في عهدهم مختلفين في أمر البعث، فالمسلمون يقولون: يُبعث الناس يوم القيامة بأجسادهم وأرواحهم كما هي عقيدة المسلمين.

ومن الناس من يقول: يُبعث الناس بأرواحهم دون أجسادهم، كما هي عقيدة النصارى في شريعتهم المحرفة، فكانت قصة أهل الكهف دليلاً عملياً، ودرساً محسوساً، حيث أماتهم الله ثم أحياهم؛ لتكون قصتهم عبرة ودليلاً على أن الله تعالى يُحيي الناس بعد موتهم، وأن البعث والحشر والنشر والحساب والجزاء حق لا ريب فيه، وفي هذا زيادة يقين للمؤمنين، وحجة على الجاحدين.

قال تعالى ﴿وَكَذَلِكَ أَغْتَرْنَا عَلَيْهِمْ﴾ أي: وكما بعثناهم من نومهم أعثرنا عليهم، فأطلعنا وأعلمنا الناس الذين كانوا في زمانهم، بعد أن كشف البائع نوع الدراهم التي جاء بها مبعوثهم، أعلمناهم أن الحساب والجزاء للأجساد والأرواح حق في يوم البعث والنشور، يوم يقوم الناس لرب العالمين، بعد أن كان الناس بين مُثَبِّت له ومنكر، فجعل الله الاطلاع على أصحاب الكهف حجة للمؤمنين على الجاحدين بيوم القيامة.

وبعد أن انكشف أمرهم، وعرف الناس قصتهم، وأيقظهم الله، أماتهم في مكانهم، ولمَّا ماتوا، تنازع الناس في أمر البناء عليهم بعد وفاتهم، فقال فريق من المطلعين عليهم: ابنوا على أهل الكهف بناء يحجبهم، فسُدُّوا عليهم باب الغار، واتركوهم وشأنهم، ربهم أعلم بحالهم ﴿فَقَالُوا أَتَبْنُوا عَلَيْهِمْ بُنْيَانًا﴾ وهم الذين جاؤوا مع من ذهب ليجلب لهم الطعام: المَلِكُ المسلم ومن معه، قالوا: ابنوا عليهم بنياناً يسترهم، وليكون مَعْلَمًا أثرياً لهم في هذا المكان.

وقال أصحاب الكلمة والسلطة والنفوذ فيهم: لتتخذن على مكانهم مسجدًا للعبادة ﴿قَالَ الَّذِينَ غَلَبُوا عَلَىٰ أَمْرِهِمْ﴾ أي: قالت الكثرة الغالبة من أصحاب الكلمة والنفوذ. والمراد ولاة الأمر بالمدينة التي كانوا يسكنونها، قالوا ﴿لَتَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِمْ مَسْجِدًا﴾.

بناء المساجد على القبور:

والمسجد في اللغة: اسم لكل موضع يكون فيه السجود، وهو يطلق على المعبد لليهود

وللنصارى، ولذلك فإن النبي ﷺ سَمَّى معابد اليهود والنصارى: مساجد، وذلك في الحديث عن عائشة ؓ أن رسول الله ﷺ قال: «لعن الله اليهود والنصارى اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد»، قالت: ولولا ذلك لأبرزوا قبره، غير أنني أخشى أن يتخذ مسجداً^(١)، وفي لفظ لمسلم عن أبي هريرة ؓ أن رسول الله ﷺ قال: «قاتل الله اليهود اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد»^(٢) فسمّاها النبي ﷺ مساجد.

وهذا الحديث فيه ذمٌ لإقامة المساجد على القبور، وأن هؤلاء الذين قالوا: ﴿لَتَنَحْذَرُ عَلَيْهِمْ مَسْجِدًا﴾ كانوا من المبتدعة في اليهودية والنصرانية، كما يفعل بعض جهال المسلمين اليوم من إقامة المساجد على القبور، فهم كذلك من الذين حرّفوا وغيروا، وهم يتوهّمون أن هذا عمل صالح، والقرآن يحكي قولهم، ولا يُشرّع حكماً، قال تعالى: ﴿لِكُلِّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا﴾ [المائدة: ٤٨]

وقد نهى رسول الله ﷺ عن ذلك في آخر وصاياه لأمته، كما نهى عن البناء على القبور مطلقاً، وعن تجسيصها والكتابة عليها؛ لأن ذلك من الغلو الذي قد يؤدي إلى عبادة من فيها.

جاء في حديث ابن عباس ؓ: أن النبي ﷺ «لعن زائرات القبور والمتخذين عليها المساجد والسرج»^(٣)، زاد مسلم: «ألا وإن من كان قبلكم كانوا يتخذون قبور أنبيائهم وصالحيهم مساجد، ألا فلا تتخذوا القبور مساجد، فإني أنهاكم عن ذلك»^(٤).

وفي الصحيحين عن عائشة ؓ: أن أم حبيبة وأم سلمة ذكرتا كنيسة رأتها بالحبشة، فيها تصاوير، فقال رسول الله ﷺ: «إن أولئك إذا كان فيهم الرجل الصالح فمات، بنوا على قبره مسجداً، وصوروا فيه تلك الصور، أولئك شرار الخلق عند الله يوم القيامة»^(٥).

(١) أخرجه البخاري عن عائشة برقم (١٣٣٠)، وانظر: (٤٣٥) و«صحيح مسلم» برقم (٥٣٠) عن أبي هريرة، وبرقم (٥٢٩، ٥٣١) عن عائشة، وينظر مسند أحمد (١٨٨٤).

(٢) «صحيح مسلم» برقم (٥٣٠) والبخاري برقم (٤٣٧) و«الموطأ» من رواية أبي مصعب (٥٧١).

(٣) أخرجه أحمد برقم (٢٠٣٠، ٢٦٠٣، ٢٩٨٤، ٣١١٨) قال محققوه: وهو حديث حسن لغيره، دون لفظ (السرج) وهذا إسناده ضعيف لضعف أبي صالح مولى أم هاني، وعن أبي هريرة بلفظ (زوّارات) (٨٤٤٩، ٨٤٥٢) وعن حسان بن ثابت (٨٦٧٠، ١٥٦٥٧) وأخرجه أبو داود والنسائي والترمذي وابن ماجه وغيره.

(٤) «صحيح مسلم» برقم (٥٣٢) عن جندب بن جنادة.

(٥) «صحيح مسلم» برقم (٥٢٨) و«صحيح البخاري» برقم (٤٢٧) وانظر: (٤٣٤، ١٣٤١).

وكان اتخاذ المساجد على قبور الصالحين من سُنَّة النصارى، فنسخه الإسلام، قالت عائشة يوم وفاة النبي ﷺ: ولولا ذلك لأبرز قبره^(١) أي: ولولا نهيه عن ذلك لأبرز القبر في المسجد النبوي، ولم يُجعل وراء جدار الحجرة.

وكان من آخر حال النبي ﷺ وهو في مرض الموت أنه يكشف عن وجهه ويقول: «اللهم لا تجعل قبري وثناً يُعبد، اشتد غضب الله على قوم اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد»^(٢)؛ وذلك لأن كل قبر طاف الناس حوله، وسألوا صاحبه رفع ضراً أو جلب نفع، واتخذوه عبداً لهم، فهو وثن يُعبد من دون الله، سواء أكان لنبي، أم ولي، أم كافر، أم غير ذلك.

وسبب النهي عن ذلك؛ لأنه ذريعة لعبادة صاحب القبر، أو اتخاذه وسيلة لرفع الدعاء إلى الله، والتقرب به إليه، سيِّماً بعد تناسي سيرة صاحبه وتعاقب الأجيال، وهذا أمر مشاهد من عوام المسلمين لدى أضرحة: الحسين، وزينب، والسيد البدوي، وعبد القادر الجيلاني وغيرهم، حيث ينذر الناس لهم الذبائح وغيرها، ويطوفون حولهم، ويسألونهم حاجاتهم، ويتمسحون بضريرهم، ولما وجد عمر ؓ قبر (دانيال) بالعراق أمر بإخفائه عن الناس، وأن تدفن تلك الرقعة التي وجدوها عنده، وفيها شيء من الملاحم وغيرها^(٣).

وفي هذه القصة دليل على أن من قرّ بدينه من الفتن، سلّمه الله منها، ومن حرص على العافية، عافاه الله، ومن آوى إلى الله آواه الله، ومن تحمل الأذى في سبيله وابتغاء مرضاته، كان عاقبة أمره عزاً ونصراً.

قِصَّةُ أَهْلِ الْكَهْفِ حَدِيثُ النَّاسِ فِي نَوَادِيهِمْ وَمَجَالِسِهِمْ

٢٢- ﴿سَيَقُولُونَ ثَلَاثَةٌ رَّابِعُهُمْ كَلْبُهُمْ وَيَقُولُونَ خَمْسَةٌ سَادِسُهُمْ كَلْبُهُمْ رَجْمًا بِالْغَيْبِ وَيَقُولُونَ سَبْعَةٌ وَثَامُنُهُمْ كَلْبُهُمْ قُلْ رَبِّي أَعْلَمُ^(٤) يَعِدُّهُمْ مَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا قَلِيلٌ^(٥) فَلَا تُحَاسِبْهُمْ فِيهِمْ إِلَّا مِرَاءً

(١) «صحيح مسلم» برقم (٥٢٩، ٥٣١) عن العباس وعائشة، والبخاري (١٣٣٠، ١٣٩٠، ٤٤٤١).

(٢) من حديث عطاء بن يسار في «الموطأ» من رواية زيد بن أسلم برقم (٥٧٠).

(٣) «تفسير ابن كثير» (١٤٧/٤).

(٤) قرأ نافع وابن كثير وأبو عمرو وأبو جعفر بفتح ياء الإضافة وصلّاً من (ربي أعلم)، والباقون بإسكانها.

(٥) عدّ المدني الأخير (إلا قليل) آية، ولم يعدها غيره.

ظَهَرًا وَلَا تَسْتَفْتِ فِيهِمْ^(١) مِنْهُمْ أَحَدًا ﴿٢٢﴾

وقصة أصحاب الكهف التي نزل بها القرآن كانت قد شاعت، وذاع صيتها، وأصبحت حديث الناس في مجالسهم ونواديهم، وأخذوا يتحدثون عن عددهم، ومدة مكثهم في الكهف، وقد نبّه القرآن الناس أن يتركوا الاشتغال بما ليس فيه فائدة تعود عليهم ولا على غيرهم في الدنيا ولا في الآخرة، وبَيَّن سبحانه أن الناس سيخوضون في عددهم، سِيَّما النصارى المعاصرون للنبي ﷺ.

فقد ورد أن قصة أهل الكهف ذُكرت بين يدي النبي ﷺ في حضور عدد من نصارى نجران، منهم: (السيد، والعاقب) وكلُّ منهما يمثل طائفة من طوائف النصارى.

فقال السيد: كانوا ثلاثة رابعهم كلهم، وقال العاقب: كانوا خمسة سادسهم كلهم.

وقال المسلمون: كانوا سبعة وثامنهم كلهم، فصَدَّقَ الله قول المسلمين؛ لأنهم عرفوا ذلك بإخبار الرسول لهم، بعد أن حكى قول النصارى وأتبعه بقوله: ﴿رَجْمًا بِالْغَيْبِ﴾^(٢) أي: ظنًا وتخرصًا من غير يقين ولا دليل، ولم يذكر سبحانه قولًا رابعًا، وضَعَفَ القولين الأولين ببيان أنه قول بلا علم.

وبعد أن بيَّن سبحانه أن الله تعالى هو الذي يعلم حقيقة عددهم في قوله: ﴿قُلْ رَبِّي أَعْلَمُ بِعَدَّتِهِمْ﴾ أثبت علم عددهم لعدد قليل من الناس في قوله: ﴿مَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا قَلِيلٌ﴾ وهذا العلم المثبت لقلّة من الناس، أولهم رسول الله ﷺ فهو أول من أطلعه الله على ذلك بطريق الوحي، وقد علّم الرسول ﷺ بعض أصحابه، منهم: حَبْرُ الأمة عبد الله بن عباس ؓ، فقد قال ﷺ: أنا من أولئك القليل، وذكر أسماءهم، كما أن عليًا ؓ ذكر أسماءهم وهم سبعة.

والله سبحانه يُذَكِّرُ الخلاف الذي لا طائل تحته في عددهم في قوله: ﴿سَيَقُولُونَ ثَلَاثَةٌ رَأَيْتُهُمْ كُلُّهُمْ وَإِقُولُوتُ خَمْسَةٍ سَادُسُهُمْ كُلُّهُمْ﴾ وقد ضَعَفَ الله سبحانه هذين القولين بقوله: ﴿رَجْمًا بِالْغَيْبِ﴾، ثم قال: ﴿وَيَقُولُوتُ سَبْعَةٌ وَثَامِنُهُمْ كُلُّهُمْ﴾ وسكت، ولم يقل رجماً بالغيب، فدلّ هذا على أنه هو العدد الصحيح.

(١) ضم الهاء من (فيهم) يعقوب، وكسرها غيره.

(٢) يُنْظَرُ: «تفسير زاد المسير» و«الخازن» و«النسفي».

ثم يقول الله تعالى لرسوله ﷺ: ﴿فَلَا تُخَافِرْ فِيهِمْ إِلَّا مِرَّةً ظَهَرَ﴾ أي: لا تجادل في هذا الأمر أهل الكتاب وغيرهم، إلا مرةً سطحياً ظاهراً من غير عُمق، بل أخبرهم بما جاء به الوحي فحسب، فهو عن علم يقيني.

والمراد بالظاهر: الذي لا يطول الخوض فيه؛ لأنه لا سبيل إلى إنكاره.

ولا تسأل في شأن أهل الكهف أحداً من أهل الكتاب ولا من غيرهم، لا تسألهم عن عددهم ولا عن أحوالهم؛ فهم لا يعلمون ذلك، فقد أخبرناك بعددهم وأحوالهم على لسان جبريل، وهذا معنى ﴿وَلَا تَسْتَفْتِ فِيهِمْ مِنْهُمْ أَحَدًا﴾ فإن كلامهم مبني على الرجم بالغيب، والظن لا يغني عن الحق شيئاً.

والاستفتاء: طلب الفتى من الآخرين، وفيه دليل على المنع من استفتاء من لا يصلح للفتوى، إما لقصوره، أو لعدم مبالاته، أو عدم ورعه، ونحو ذلك.

وَجُوبُ تَغْلِيْقِ الْأَفْعَالِ وَالْأَقْوَالِ الْمُسْتَقْبَلِيَّةِ بِمَشِيئَةِ اللَّهِ تَعَالَى

٢٣، ٢٤ - ﴿وَلَا تَقُولَنَّ لِشَيْءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَلِكَ غَدًا^(١)﴾ (٢٣) إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ وَادْكُرْ رَبَّكَ إِذَا نَسِيتَ وَقُلْ عَسَى أَنْ يَهْدِيَنِي^(٢) رَبِّي لِأَقْرَبَ مِنْ هَذَا رَشَدًا^(٣)﴾ (٢٤)

ثم عاتب الله نبيه ﷺ على قوله للكفار الذين سألوه ﷺ - بإيعاز من اليهود والنصارى - عن قصة أهل الكهف، وعن ذي القرنين، وعن الروح، فقال لهم الرسول ﷺ: «سأجيكم غداً»، ولم يقل: إن شاء الله، وكان الوحي قد انقطع عن النبي ﷺ خمسة عشر يوماً، أو ثلاثة أيام؛ بسبب هذا، فأنزل الله جلَّ شأنه هذه الآية يبيِّن فيها أن المسلم ينبغي عليه أن يياشر الأسباب التي شرعها الله سبحانه، ثم يقرن عمله بمشيئة الله تعالى، سواء أتعلق ذلك بالماضي، أم بالحاضر، أم بالمستقبل.

﴿وَلَا تَقُولَنَّ لِشَيْءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَلِكَ غَدًا^(١)﴾ (٢٣) إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ﴾ أي: لا تقولن لشيء تعزم على فعله: إني فاعل هذا الشيء غداً، إلا أن تُعَلِّقَ قولك وفعلك بمشيئة الله تعالى،

(١) لم يعد (ذلك غدا) آية، المدني الأخير، وعدها آية البقية.

(٢) قرأ نافع وأبو عمرو وأبو جعفر بإثبات الياء وصلًا من (يهدين) وقرأ ابن كثير ويعقوب بإثباتها وصلًا ووقفًا، والباقون بحذفها في الحالين.

فتقول: إن شاء الله، فاتَّخِذْ الأسباب -أيها المسلم- وفكِّر واعزم واستعن بالله وفوض الأمر إليه سبحانه، ولا تعزم على فعل شيء دون أن تُقدِّم المشيئة، وذلك لأن الإنسان لا يدري ما الله فاعل في المستقبل، والمشيئة كلها لله، ولأن في ذكر المشيئة تيسير للأمر وتسهيل له، واستعانة من العبد بربه، وردَّ المشيئة إليه.

وفي الصحيحين عن أبي هريرة رضي الله عنه أن سليمان بن داود عليهما السلام قال: لأطوفنَّ الليلة على سبعين امرأة، تلد كل امرأة منهن غلامًا يقاتل في سبيل الله، ولم يستثنِ، أي: لم يقل: إن شاء الله، فكانت العقوبة على ذلك أنه لم يولد له إلا نصف ولد.

وفي رواية: أن عدد النساء كان تسعين، وفي ثالثة: كان مئة^(١).

وفي هذا يقول سبحانه: ﴿وَلَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمَانَ وَأَلْقَيْنَا عَلَى كُرْسِيِّهِ جَسَدًا﴾ [ص: ٣٤] أي: نصف ولد، لا حراك فيه، ولا فائدة منه؛ ليكون هذا عبرة ﴿ثُمَّ أَنَابَ﴾ سليمان واستغفر ربه؛ لأنه لم يقدم المشيئة، ورجع إليه.

فإذا نسيت -أيها العبد - تقديم المشيئة فقدمها عندما تتذكر ﴿وَأَذْكُرْ رَبَّكَ إِذَا نَسِيتَ﴾ أي: تدارك ما فاتك، وعلّق فعلك بمشيئة الله ولو بعد الشروع في العمل، كما قال عليه السلام فيما يرويه أنس رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «من نسى صلاة أو نام عنها فكفارتها أن يصليها إذا ذكرها، لا كفارة لها إلا ذلك» قال تعالى: ﴿وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي﴾^(٢) [طه: ١٤] وكلما نسيت فاذكر الله؛ فإن ذكر الله تعالى يذهب النسيان، ولما كان الإنسان ينسى أمره ربه أن يستثنى بعد ذلك عند ما يتذكر، حتى يحصل المطلوب ويندفع المحذور.

وفي حديث ابن عمر رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال: «من حلف فقال: إن شاء الله، فإن شاء مضى، وإن شاء رجع غير حاث»^(٣).

(١) تُنظَر رواية السبعين في البخاري برقم (٢٨١٩) ورواية مئة برقم (٥٢٤٢) ورواية تسعين برقم (٣٤٢٤)، ٦٧٢٠ وفي مسلم برقم (١٦٥٤) والنسائي برقم (٣٢٢) و«المسند» (٧٧١٥) والبيهقي في «الأسماء والصفات» (٣٥٨، ٣٥٩).

(٢) رواه البخاري برقم (٥٩٧) ومسلم برقم (٦٨٤).

(٣) «صحيح سنن أبي داود» (٢٧٩٤) والنسائي (٣٨٣٧) وأحمد في المسند (٤٥١٠) و(٥٣٦٢) و(٦١٠٤) بإسناد صحيح على شرط الشيخين (محققوه) والحاكم (٣٠٣/٤) وابن حبان (٤٣٤٠) والبيهقي في «الأسماء والصفات» (٣٦٢). وفي السنن (٤٦/١٠).

ومع أن الله تعالى قد أجاب رسوله ﷺ عن الأسئلة الثلاثة التي سألها المشركون قبل النهي الوارد في هذه الآية، فإن هذا النهي لم يترتب عليه إعراض الله تعالى عن إجابة رسوله ﷺ، وفي هذا كرامة للنبي ﷺ، وأدب عظيم من آداب النبوة.

ومثاله في تأديب النبي ﷺ لأصحابه ما جاء في الصحيح: أن حكيم بن حزام قال: سألت رسول الله ﷺ فأعطاني، ثم سألته فأعطاني، ثم سألته فأعطاني، ثم قال: «يا حكيم، إن هذا المال خضرة حلوة، فمن أخذه بسخاوة نفس بُورك له فيه، ومن أخذه بإشراف نفس لم يُبارك له فيه، وكان كالذي يأكل ولا يشبع، واليد العليا خير من اليد السفلى» قال حكيم: يا رسول الله، والذي بعثك بالحق لا أرزأ أحدًا بعدك شيئًا حتى أفارق الدنيا. فكان أبو بكر يدعو حكيمًا إلى العطاء، فيأبى أن يقبل منه، ثم إن عمر دعاه ليعطيه، فأبى أن يقبل منه شيئًا، فقال عمر: أشهدكم يا معشر المسلمين على حكيم، إني أعرض عليه حقه من هذا الفيء فيأبى أن يأخذه، فلم يرزأ حكيم أحدًا من الناس بعد رسول الله ﷺ حتى تُوفِّي^(١).

فعلم حكيم أن قول رسول الله ﷺ له ليس القصد منه منعه من السؤال، وإنما قصده أن يخلقه بخلق جميل، ولذلك فإن حكيم أقسم ألا يأخذ من أحد شيئًا مادام حيًا بعد رسول ﷺ، ولم يقل: لا أسأل شيئًا بعد هذه المرة.

وعلى من فاته تقديم المشيئة أن يسأل ربه الهداية والتوفيق فيما شرع فيه، وألا يغفل عن تقديمها فيما يجدر له من أعمال بعدها، وكأن الله تعالى يقول لرسوله أيضًا: وإذا سُئلت عن شيء لا تعلمه فاسأل ربك أن يوفقك إلى طريق الحق والإجابة الصحيحة، ويرشدك إلى الهدى والرشاد.

(١) «صحيح البخاري» برقم (١٤٧٢) واللفظ له، وانظر: (٢٧٥٠، ٤١٤٣، ٦٤٤١) و«صحيح مسلم» مختصرًا برقم (١٠٣٥).

مُدَّةُ مُكْثِ الْفِتْيَةِ فِي الْكَهْفِ

٢٥- ﴿وَلَيْسُوا فِي كَهْفِهِمْ ثَلَاثَ مِائَةٍ^(١) سِنِينَ وَازْدَادُوا سِتْعًا^(٢)﴾

أخبر الله سبحانه عن مدة مكث أهل الكهف في الكهف على وجه اليقين، وهي ثلاث مئة عام بالسنة الشمسية، وثلاث مئة وتسعة أعوام بالسنة الهلالية القمرية، وهذا هو فصل الخطاب في أمر أهل الكهف يقرره عالم الغيب والشهادة، فلا جدال ولا مرأى.

ومعلوم في التفاوت بين السنتين القمرية والشمسية أن كل مئة سنة شمسية تزيد على المئة سنة القمرية بثلاث سنوات، وكان النصارى يعرفون حديث أهل الكهف ويؤرخون به، واليهود الذين لقنوا قريشاً السؤال كانوا يؤرخون بالأشهر القمرية، فكل مئة وثلاث سنوات قمرية تساوي مئة سنة شمسية. قال تعالى:

٢٦- ﴿قُلِ اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا لَيْسُوا لَهُ غِيبُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَبْصِرْ بِهِ وَأَسْمِعْ مَا لَهُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا يُشْرِكُ^(٣) فِي حُكْمِهِ أَحَدًا^(٤)﴾

لقد أَرَجَعَ الله سبحانه العِلْمَ إليه، فهو جَلَّ شأنه يعلم ما غاب وما حضر، ويعلم ما خفي وما ظهر، ويعلم ما صَغُرَ وما كَبُرَ، وهو سميع بصير بخلقه أجمعين.

فإذا سُئِلَتْ -يا محمد- عن مدة لبثهم في الكهف، وليس عندك علم في ذلك وتوقيف من الله تعالى، فلا تتقدم فيه بشيء، بل قل: الله أعلم بمدة لبثهم؛ فإن مردَّ الأمر في ذلك إلى الله؛ فهو سبحانه لا يغيب شيء عن سمعه وبصره؛ إذ لا يحجبه شيء، ولا يغيب عنه دقيق ولا كثيف، ولا صغير ولا كبير، ولا واضح ولا خفي، فما أسمعهم سبحانه! وما أبصره!

(١) قرأ حمزة والكسائي وخلف العاشر بترك التنوين من (ثلاث مئة سنين) على الإضافة إلى ما بعده، وقرأ الباقر بالتنوين على أنه عطف بيان، وقرأ أبو جعفر بإبدال همزة (مائة) ياء مفتوحة وصلًا ووقفًا، وكذا حمزة عند الوقف.

(٢) قرأ ابن عامر بقاء الخطاب وجزم الكاف في (ولا يشرك)، على أن (لا) ناهية، والمخاطب هو النبي (، والمراد: أمته، وقرأ الباقر بياء الغيبة ورفع الكاف، على أن (لا) نافية، والفعل مسند إلى ضمير يعود إلى الله تعالى.

وهذا تعجب من كمال سمعه وبصره وإحاطته بكل شيء، بعدما أخبر بإحاطة علمه بالمعلومات، ثم أخبر سبحانه عن انفراده بالولاية العامة والخاصة، فهو الولي الذي يتولى تدبير شؤون الخلق جميعاً، وهو الولي لعباده المؤمنين، يخرجهم من الظلمات إلى النور، وهو الذي يتولى أصحاب الكهف بلطفه وكرمه، وليس للخلق أحد غير الله تعالى يتولى أمورهم ويرعاهم ويحفظهم وينصرهم ﴿مَا لَهُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَلِيٍّ﴾ وليس لأصحاب الكهف ولي من دون الله، بل هو سبحانه وليهم ونصيرهم، كما أنه جل شأنه ولي المؤمنين جميعاً، والولي هو: من انعقد بينك وبينه سبب يواليك وتواليه.

والإيمان هو سبب ولاية المؤمنين لرَبِّهم بالطاعة، وولايته سبحانه لهم بالثواب والنصر والإعانة، قال سبحانه: ﴿اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ ءَامَنُوا يُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ﴾ [البقرة: ٢٥٧]. وولاية الله تعالى خاصة بالمؤمنين ولا تشمل الكافرين، قال تعالى: ﴿ذَٰلِكَ يَأَنَّهُ مَوْلَى الَّذِينَ ءَامَنُوا وَأَنَّ الْكَافِرِينَ لَا مَوْلَى لَهُمْ﴾ [محمد].

والمؤمنون بعضهم يوالي بعضاً، قال تعالى: ﴿وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ﴾ [التوبة: ٧١]. وأولياء الله لا خوف عليهم ولا هم يحزنون، ثم نفى سبحانه أن يكون له شريك من خلقه كائناً من كان، فقال تعالى: ﴿وَلَا يُشْرِكْ فِي حُكْمِهِ أَحَدًا﴾ أي: ليس له سبحانه شريك، ولا مثل، ولا نظير، وليس له شريك في حكمه وقضائه وتشريعه ﴿أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ [الأعراف: ٥٤].

ولا يشرك في حكم الله أحد من خلقه، ولا في قضائه وحكمه بينهم.

هذه نهاية قصة أصحاب الكهف، وفيها إثبات صدق النبي ﷺ فيما أوحاه الله إليه بشأنهم.

وهؤلاء الفتية مثال يحتذى للشباب المؤمن الذي يؤثّر دينه وعقيدته على جميع الاعتبارات والتوجّهات، واللجوء إلى الله تعالى بالدعاء مع الأخذ بالأسباب، وأن الأخذ بالأسباب لا ينافي التوكل على الله تعالى.

وفي القصة أوضح دليل على إحياء الناس بعد موتهم، كما جاء في قصة البقرة: ﴿فَقُلْنَا أَصْرُوهُ بِبَعْضِهَا كَذَٰلِكَ يُخَيِّ اللَّهُ الْمَوْتَى﴾ [البقرة: ٧٣] وقصة الذي مرّ على قرية، وقصة الذين أماتهم الله ثم أحياهم، وقصة خليل الرحمن مع الطيور الأربعة، فكلها أدلة محسوسة

لمنكري البعث والحساب والجزاء، توجب الإيمان باليوم الآخر، وقد ذكر الله سبحانه الحكمة من قصة أهل الكهف في قوله: ﴿وَكَذَلِكَ أَغْتَرْنَا عَلَيْهِمْ لِيَعْلَمُوا أَن وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَأَنَّ السَّاعَةَ لَا رَيْبَ فِيهَا﴾ [٢١].

لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ تَعَالَى

٢٧- ﴿وَأَنزَلْنَا مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنْ كِتَابٍ رَبِّكَ لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ وَلَنْ تَجِدَ مِنْ دُونِهِ مُتَعَدِّلاً﴾

وبعد أن أبرأ الله رسوله بإجابة المشركين عن قصة أهل الكهف، أمره أن يتلو على الناس وحي الله إليه، وختم ذلك بأمره ﷺ أن يواظب ويدوم على تلاوة ما أوحاه الله إليه من الكتاب العزيز، وتبليغه للإنس والجن كما أنزله عليه؛ فإن فيه ما يغنيه عن السؤال والاستفتاء، وما يثقل الميزان: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَابَ اللَّهِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَنفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً يَرْجُونَ تَجَرَّةً لَّنْ تَبُورَ﴾ [٢٩] [فاطر].

وهو الكتاب الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه.

وفي هذا قطع لأطماع المشركين والكافرين في كل زمان ومكان، أن يجيهم الإسلام إلى مقترحاتهم الفاسدة أو الثناء على أفعالهم، كما قال المشركون المعاصرون للنبي ﷺ: ﴿أَنْتَ يَشْرَعَانِ غَيْرَ هَذَا أَوْ بَدِّلْهُ﴾ [يونس: ١٥].

فبيّن ﷺ أن هذا الكتاب لا يتغير ولا يتبدل ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ﴾ [الأنعام: ١١٥] ومحاولة التحريف لألفاظه أو معانيه أمر يُخرج من رتبة الإسلام، وليس في استطاعة أحد أن يغير أو يبدل كلام الله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي آيَاتِنَا لَا يَخَفُونَ عَلَيْنَا﴾ [فصلت: ٤٠].

ذلكم قول الله تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَا مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنْ كِتَابٍ رَبِّكَ﴾ أي: اقرأ وتابع -أيها الرسول- ما أوحاه الله إليك من القرآن، وتتبع إرشاداته وتوجيهاته؛ وفهم معانيه، والعمل بما فيه، وتصديق أخباره، وامثال أمره ونهيه، وتلاوته غصّاً طريّاً كما أنزل، فإن هذا القرآن يهديك إلى طريق الحق، وهذا الكتاب ﴿لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ﴾؛ لصدقها وعدلها، فإن خالفت ذلك فلن تجد غير الله ملجأً تلجأ إليه، ولا مأوى تأوي إليه؛ كي تنجو من العقوبة، وهذا معنى ﴿وَلَنْ تَجِدَ مِنْ دُونِهِ مُتَعَدِّلاً﴾ أي: لا تجد مكاناً ولا جهة تميل إليها

للنجاة من العذاب، ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَتِهِ﴾ [الأنعام: ١١٥].

والإلحاد: هو الميل عن الحق، والملحد: هو المائل عن الدين الحق.
والملتحد: هو المكان الذي يميل إليه الملحد ويلجأ إليه، ولن تجد من دون الله ملجأً تلجأ إليه، ولا ملاذًا تلوذ به، وإذا تعين ذلك وجب توجيه العبادة لله وحده.

قال تعالى: ﴿قُلْ إِنِّي لَنْ يُخِيرَنِي مِنَ اللَّهِ أَحَدٌ وَلَنْ أَجِدَ مِنْ دُونِهِ مُلْتَحَدًا﴾ (١٢) إِلَّا بَلَاغًا مِنَ اللَّهِ وَرِسَالَاتِهِ [الجن] فلا تعباً - يا رسولنا - بمن يكره تلاوة القرآن كله أو بعضه، واتل جميع ما أوحى إليك وبلغه للثقلين: ﴿يَتَأْتِيَهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ﴾ [المائدة: ٦٧].

فالقرآن فيه الخبر الصادق، والخبر اليقين، وفيه الحكم التشريعي، وفصل الخطاب، وفيه الأمر والنهي من رب العالمين.

وقد خُتمت قصة أصحاب الكهف بهذه الآية، كما بدأت بمثلها ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَى عَبْدِهِ الْكِتَابَ﴾ والكتاب هو القرآن الذي جاء في هذه الآية ﴿وَأَتْلُ مَا أُوْحِيَ إِلَيْكَ مِنْ كِتَابِ رَبِّكَ﴾.

فُقَرَاءُ الْمُؤْمِنِينَ أَوْلَى مِنْ غَيْرِهِمْ فِي قُرْبِ الدُّعَاءِ مِنْهُمْ

٢٨- ﴿وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ^(١) وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدَ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَنْ ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا﴾ (٢٨)
ثم بين جل شأنه أن الناس تجاه هذا الكتاب فريقان: منهم المؤمن، ومنهم الكافر.

وقد أمر الله رسوله أن يحبس نفسه ويصبرها مع المؤمنين الذين يطيعون ربهم، ويسبحونه ويذكرونه، فيهلّلونه ويحمدونه ويسبحونه ويكبرونه، ويعبدونه صباحاً ومساءً، سواء أكانوا فقراء أم أغنياء.

ومما قيل في سبب نزول هذه الآية:

(أ) أن عيينة بن حصن، دخل على رسول الله ﷺ قبل أن يُسلم، وعنده سلمان الفارسي

(١) قرأ ابن عامر (بالغداة) أي: بضم الغين وإسكان الدال وفتح الواو، على أنها نكرة دخلت عليها لام التعريف، وهي لغة، وقرأ الباقر (بالغداة) أي: بفتح الغين والدال وبعدها ألف، على غداة اسم للوقت، ثم دخلت عليها لام التعريف.

عليه جبة من صوف تفوح منها رائحة العرق، وبيده خوص يشقه وينسجه، فقال عيينة: أما يؤذيك ريح هؤلاء؟ اجعل هذا وأمثاله ينصرفون عن مجلسك، واجعل لنا مجلسًا خاصًا بعيدًا عنهم؛ فنحن سادات مُضَرّ وأشرافها، إن أسلمنا أسلم الناس، وما يمنعنا من اتباعك إلا هؤلاء، فنحنهم عنك حتى نتبعك، أو اجعل لنا مجلسًا^(١).

(ب) وعن مسلمة بن عبد الله الجهني، عن عمه ابن مشجمة بن ربعي الجهني، عن سلمان الفارسي رضي الله عنه قال: جاءت المؤلفة قلوبهم إلى رسول الله ﷺ: عيينة بن حصن، والأقرع بن حابس، وذووهم، فقالوا: يا رسول الله، إنك لو جلست في صدر المجلس، ونحيت عنا هؤلاء، وأرواح جبابهم -يعنون: سلمان وأبا ذر وقراء المسلمين، وكانت عليهم جباب من صوف، -جلسنا إليك وحادثناك، وأخذنا عنك، فأنزل الله الآية يتهددهم بالنار، فقام النبي ﷺ يلتمسهم، حتى أصابهم في مؤخر المسجد يذكرون الله تعالى فقال: «الحمد لله الذي لم يُمتني حتى أمرني أن أصبر نفسي مع رجال من أمتي، معكم المحيا، ومعكم الممات»^(٢).

(ج) وعن عبد الرحمن بن سهل بن حنيف قال: نزلت على رسول الله ﷺ وهو في بعض أبياته ﴿وَأَصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ﴾ فخرج يلتمسهم، فوجد قومًا يذكرون الله منهم ثائر الرأس، وحافي الجلد، وذو الثوب الواحد، فلما رآهم جلس معهم، وقال: «الحمد لله الذي جعل في أمتي من أمرني أن أصبر نفسي معهم»^(٣).

(د) وعن سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه قال: كنا مع النبي ﷺ ستة نفر، فقال المشركون للنبي ﷺ: اطرده هؤلاء، لا يجترئون علينا، قال: وكنت أنا، وابن مسعود، ورجل من هذيل،

(١) يُنظر: الطبري (٢٣٦/١٥) و«أسباب النزول» للواحدي ص ١٧١ والقرطبي (٣٩١/١٠) و«الدر المنثور» (٢١٩/٤) وقد أخرجه عبد بن حميد عن سلمان.

(٢) «زاد المسير» (١٣٢/٥) و«الدر المنثور» (٢١٩/٤) وقد أخرجه أبو نعيم في «الحلية» (٣٤٥/١) والبيهقي في «شعب الإيمان» (١٠٤٩٤) والطبري (٢٣٨/١٥).

(٣) رواه ابن منده وأبو نعيم في الصحابة كما في «أسد الغابة» (٣٥٣/٣) من طريق أبي حازم به، ورواه ابن جرير (١٥٥/١٥) وقال الهيثمي في «مجمع الزوائد» (٢١٧): رواه الطبراني ورجاله رجال الصحيح، ورواه ابن مردويه.

وبلال، ورجلان نسيتهما اسمهما، فوقع في نفس رسول الله ﷺ ما شاء الله أن يقع، فحدث نفسه، فأنزل الله ﴿وَلَا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ﴾^(١).

(هـ) وقال الربيع: حدثنا أن النبي ﷺ تصدّى لأمية بن خلف وهو ساء غافل عما يقال له، فأنزل الله ﴿وَلَا تُطْعَمَنَ أَعْقَلُنَا قَلْبُهُ عَنْ ذِكْرِنَا﴾ فرجع إلى أصحابه وخلّى عن أمية، فوجد سلمان يذكّرهم، فقال: «الحمد لله الذي لم أفارق الدنيا حتى أراني قوماً من أمتي أمرني أن أصبر نفسي معهم»^(٢).

وقد جاءت الإشارة إلى هذا المعنى في قصة عبد الله بن أم مكتوم في قوله تعالى: ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّى ۖ إِنْ جَاءَهُ الْأَعْمَى ۖ﴾.

وكما طلب كفار قريش من النبي ﷺ أن يطرد فقراء المؤمنين وضعفاءهم عن مجلسه تكبراً عليهم وازدراء بهم، طلب ذلك أيضاً قوم نوح من نوح عليه السلام، فقالوا له: ﴿وَمَا نَزَّلَكَ اتَّبَعَكَ إِلَّا الَّذِينَ هُمْ أَرَادُوا أَنْ كَفُرُوا﴾ [هود: ٢٧].

وقالوا: ﴿أَتُؤْمِنُ لَكَ وَاتَّبَعَكَ الْأَرْذَلُونَ﴾ [الشعراء: ١١١]. فقال نوح عليه السلام: ﴿وَمَا أَنَا بِطَارِدِ الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنَّهُمْ مُلْتَقُوا بِرَبِّهِمْ وَلَكِنِّي أَرِيتُمْ قَوْمًا يَجْهَلُونَ﴾ ٢٨ وَيَقُولُونَ مَنْ يَنْصُرُنِي مِنَ اللَّهِ إِنْ طَرَدْتُهُمْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ٢٩﴾ [هود: ٢٩].

ومثل هؤلاء وأولئك: ضعفاء المسلمين وفقراءهم من مكة، أهل صُفَّة مسجد رسول الله ﷺ، وكانوا سبع مئة رجل حبسوا أنفسهم على الجهاد في سبيل الله، وتركوا أرضهم وأموالهم وديارهم في مكة، ولم يكن لهم في المدينة زرع ولا ضرع ولا تجارة، وقد أمر رسول الله ﷺ أن يصبر نفسه معهم.

وكان ﷺ يعلم أصحابه هذا الخلق الكريم، وهو مخالطة أهل الإيمان والتقوى ولو كانوا ضعفاء فقراء، بحيث لا يمنع المسلم فقرهم وضعفهم أن يجالسهم ويصاحبهم، ويتواضع لهم، ويؤانسهم.

كما روى البخاري عن سهل بن سعد الساعدي عليه السلام قال: مرّ رجل على النبي ﷺ فقال

(١) أخرجه مسلم في فضائل الصحابة برقم (٢٤١٣).

(٢) أخرجه ابن أبي حاتم كما في «الدر المنثور» (٥٢٧/٩).

لرجل عنده جالس: «ما رأيك في هذا؟»، فقال: رجل من أشرف الناس، هذا -والله- حريٌّ إن خطب أن يزوج، وإن شفع أن يُشفع، فسكت رسول الله ﷺ.

ثم مرَّ رجل آخر، فقال له رسول الله ﷺ: «ما رأيك في هذا؟»، فقال: يا رسول الله، هذا رجل من فقراء المسلمين، هذا -والله- حريٌّ إن خطب ألا يزوج، وإن شفع ألا يشفع، وإن قال ألا يُسمع لقوله، فقال رسول الله ﷺ: «هذا خير من ملء الأرض من مثل هذا»^(١).

وهكذا أمر الله رسوله أن يقرب فقراء المؤمنين من مجلسه، أمثال: بلال، وصُهيْب، وعمَّار، وخبَّاب، وسلمان، وابن مسعود، فهؤلاء يعبدون الله وحده، ويدعونه في صباحهم ومساءهم، وهم بذلك لا يريدون إلا وجه الله تعالى ورضاه ومغفرته، ولا يصرف عينه عنهم إلى غيرهم من كبار القوم، طمعًا في إسلامهم لإرادة التمتع بزيينة الحياة الدنيا في صحبة الوجهاء والأعيان، ولهذا نهى الله رسوله ألا يغفل عن فقراء المسلمين وضعفائهم، فقال: ﴿وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ الدُّنْيَا﴾.

ونهاه كذلك عن أن يُطيع من كانت قلوبهم غافلة عن ذكره تعالى، مؤثرة لهوى النفس، ممن صار أمره في جميع أعماله وأحواله ضياعًا وهلاكًا.

وهكذا نهى الله رسوله نهياً جامعاً قاطعاً عن اتباع من حاد عن طريقه سبحانه، فقال: ﴿وَلَا تُطِيعِ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ وَدَعْ أَذُنَهُمْ﴾ [الأحزاب: ٤٨]. وقال: ﴿فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تُطِيعْ مِنْهُمْ ءِثْمًا أَوْ كَفُورًا﴾ [الإنسان: ٢٢]. وقال: ﴿وَلَا تُطِيعْ كُلَّ حَلَافٍ مِّمَّهِنَ﴾ [القلم: ١٠].

لقد نهى الله تعالى عن طاعة مَنْ غفل قلبه عن ذكر الله، وكان متبعًا لهواه حيثما اشتتهت نفسه ولو كان فيه هلاكه وخسرانه، وكان من المفرطين في طاعته، وأمر بطاعة من امتلأ قلبه بمحبة الله تعالى، وفاض ذلك على لسانه فلهج بذكر الله، فحفظ وقته، وصلاح حاله، واستقامت أفعاله.

وإنما صَبَرَ نفسك واحبسها مع ضعفاء المسلمين، ففيهم الخير، وفيهم ثمر الدعوة، فكان ﷺ يقول لابن أم مكتوم حين يقدم عليه: «مرحبًا بمن عاتبني فيه ربي».

وكان ﷺ يمرُّ بالمجلس فيه فقراء وضعفاء المسلمين، يقرؤون شيئًا من القرآن فيقول:

(١) «صحيح البخاري» برقم (٥٠٩١، ٦٤٤٧).

«هؤلاء الذين أمرني ربي أن أصبر نفسي معهم، معكم المحيا ومعكم الممات»^(١).

وهذا الصبر المأمور به في الآية: صبر على طاعة الله، وهو أعلى أنواع الصبر.

وفي تخصيص الغداة والعشي بالذكر إشعار بفضل العبادة فيهما؛ لأنهما محل الغفلة والاشتغال بأمور الدنيا غالباً، كما جاء ذلك أيضاً في قوله تعالى: ﴿وَلَا تَقْرُؤْ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِمْ مِنْ شَيْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِمْ مِنْ شَيْءٍ فَتَطْرُدَهُمْ فَتَكُونَ مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ [الأنعام].

وَعِيدُ الْكَافِرِينَ بِعَذَابٍ مُؤَلَّمٍ

٢٩- ﴿وَقُلِ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ^(٢) وَمَنْ شَاءَ فَلْيُكْفُرْ^(٣) إِنَّا أَعَدْنَا لِلظَّالِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا وَإِنْ يَسْتَغِيثُوا يُغَاثُوا بِمَاءٍ كَالْمُهْلِ يَشْوِي الْوُجُوهَ^(٤) بِئْسَ الشَّرَابُ وَسَاءَتْ مُرْتَفَقًا^(٥)﴾

ثم أمر الله رسوله أن يَجْهر بالحق في وجوه المستكبرين، ويبين مصير المؤمنين ومصير الكافرين في نهاية هذا الربع من السورة، وأن على الإنسان أن يختار لنفسه ما يجده غداً عند ربه، وظاهر الآية هو التخيير بين الإيمان والكفر، وليس الأمر كذلك، وإنما المراد: هو التهديد والتخويف لمن اختار الكفر بعد بيان الهدى من الضلال، والرشد من الغي، وصفات أهل السعادة، وصفات أهل الشقاء، ولم يبق إلا اختيار أحد الطريقين.

وقد أعطى الله العبد مشيئة يقدر بها على الإيمان والكفر، والخير والرشاد، فمن آمن فقد وفق للصواب، ومن كفر فقد قالت عليه الحجة، وهو غير مكره على الإيمان ﴿لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ﴾ [البقرة: ٢٥٦]

والمعنى: قل -أيها الرسول- لهؤلاء الغافلين: ما جئكم به هو الحق من ربكم، المتضمن لدين الإسلام، فمن أراد منكم أن يصدق به ويتبعه فليفعل؛ فهو خير له، وعاقبته الثواب الجزيل والنعيم المقيم، ومن أراد أن يجحد ويكفر فليفعل، وعاقبته الهلاك

(١) يُنظر: صحيح سنن أبي داود برقم (٣٦٦).

(٢) قرأ خلف عن حمزة بإدغام النون في الواو من (فليؤمن ومن شاء) بدون غنة، والباقون بغنة، ومثلها (وإن يستغيثوا).

(٣) أبدل حمزة (بئس) ياء، ورش وأبو عمرو بخلف عنه وأبو جعفر، وكذا حمزة عند الوقف، وحققها الآخرون.

والخسران، فما ظلم إلا نفسه.

وليس المراد بالآية: التخيير بين الإيمان والكفر، بل المراد: هو التخويف والتهديد والوعيد، بدليل ما بعدها؛ فقد بيّن سبحانه أن الظالمين لهم نار أعدها الله لهم، فهي جاهزة معدة، لا تستغرق زمناً ولا جهداً ﴿إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا﴾.

وهو السور والحوائط، أي: أحاط بهم سُورها.

وطعام أهل النار: الزقوم، والضريع، والغسلين، نعوذ بالله، فإذا حدث لهم عطش من لهب النار، وأرادوا أن يستغيثوا ليشربوا فإنهم يغاثون بماء كالمهل، أي: كعكر الزيت المغلي، أو كالرصاص، أو النحاس المذاب بالنار.

وَرَدَ أن عبد الله بن مسعود ؓ أهديث إليه سقاية من ذهب، أو من فضة، فأمر بها فأذيت حتى تميّعت وتلوّنت ألواناً، فدعا مَنْ ببابه من أهل الكوفة، فقال: ما رأيْتُ في الدنيا شيئاً أدنى شَبْهاً بالمهل من هذا^(١).

وعن أبي سعيد الخدري ؓ أن رسول الله ﷺ قال: «ماء كالمهل -كعكر الزيت- فإذا قُرِبَ إليه سقطت فروة وجهه فيه»^(٢).

قال تعالى: ﴿وَإِنْ يَسْتَغِيثُوا يُغَاثُوا بِمَاءٍ كَالْمُهْلِ يَشْوِي الْوُجُوهَ﴾

وقد وصف الله السماء يوم القيامة بقوله: ﴿يَوْمَ تَكُونُ السَّمَاءُ كَالْمُهْلِ﴾ [المعارج].

وهذا الماء إذا شربوه يُقَطِّعُ أمعاءهم، كما قال تعالى: ﴿وَسُقُوا مَاءً حَمِيمًا فَقَطَّعَ أَمْعَاءَهُمْ﴾ [محمد: ١٥]. وقال: ﴿تَشْفَى مِنْ عَيْنٍ أَنِيرٍ﴾ [الغاشية] أي: بالغة الحرارة، فإذا اقتربوا منه شوى وجوههم، وسقطت فروة الرأس، وجلد الوجه.

﴿يَشْرَبُ الشَّرَابُ﴾ أي: قبح الله هذا الشراب الذي لا يروي ظمأً، بل يزيده، وبُتِست النار لهم منزلاً ومقاماً، ﴿وَسَاءَتْ مُرْتَقَقًا﴾ أي: وبُتِست هذا الشراب رفيقاً لهم في النار،

(١) «تفسير ابن عطية» (٥١٣/٣) والطبري (٢٤٨/١٥) والطبراني (٩٠٨٢، ٩٠٨٣) قال الهيثمي في المجمع (١٠٥/٧): فيه يحيى الحماني وهو ضعيف.

(٢) «المسند» (٧٠/٣) برقم (١١٦٧٢) إسناده ضعيف، وأبو يعلى (١٣٧٥) و«سنن الترمذي» برقم (٢٥٨١) و«تفسير الطبري» (١٣٢/٢٥) و«المستدرک» (٥٠١/٢) وضعفه الألباني في «ضعيف سنن الترمذي» (٤٧٩).

وساءت النار مكانًا للارتفاق، وفي هذا تهديد شديد لمن أعرض عن الحق فلم يؤمن بالإسلام، ثم ذكر الله تعالى الفريق الثاني الذي اختار الإيمان.

ثَوَابُ مَنْ آمَنَ وَأَحْسَنَ الْعَمَلَ

٣٠- ﴿إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا ۖ﴾

وبعد أن ذكر تعالى أحوال الأشقياء ذكر عباده المؤمنين الصالحين، فبينَ جُلِّ شأنه حُسن عاقبتهم، وأنه تعالى لا يضيع ثواب أعمالهم، فهم يوم القيامة في جنات تجري من تحت قصورها أنهار اللبن والعسل، والماء غير الآسن، والخمر الذي لا يُسكر.

﴿إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ وصدقوا يقينًا بالله ورسوله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر والقدر خيره وشره ﴿وَعَمِلُوا﴾ الأعمال ﴿الصَّالِحَاتِ﴾ من الواجبات والمستحبات، لهم أعظم الأجر والمثوبة، ولن نُضيع أجور أعمالهم، ولن نُقصها، بل نزيدها، ونميتها ثوابًا لهم على ما أحسنوه من العمل، متبعين فيه شرع الله وسنة نبيه، ولا نترك أعمالهم تذهب سُدى، بل نجازيهم عليها أحسن الجزاء ثم ذكر سبحانه أجرهم وجزاءهم فقال:

٣١- ﴿أُولَٰئِكَ لَهُمْ جَنَّاتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ ۖ يُحَلَّلُونَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِنْ ذَهَبٍ وَيَلْبَسُونَ ثِيَابًا خُضْرًا مِنْ سُندُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ مُتَّكِنِينَ ۖ فِيهَا عَلَى الْأَرَائِكِ نَعَمَ الثَّوَابُ وَحَسُنَتْ مُرْتَفَقًا ۖ﴾

وأهل الجنة الموصوفون بالإيمان والعمل الصالح، يُحلَّلون في الجنة من أساور من ذهب ولؤلؤا، ويلبسون ثيابًا خضرًا من السندس، وهو الغليظ من الديباج، والاستبرق، وهو مارق منه، وهم متكئون على السرر المزينة بأفخم الفرش، والخدم يسعون بينهم بما يشتهون، كعادة ملوك أهل الدنيا، فإن عباد الله الصالحين يكونون في الجنة أفضل منهم، نعيم هذا الثواب رفيقًا لهم في دار الخلود والنعيم، فهؤلاء الذين آمنوا بالله ورسوله، وعملوا الأعمال الصالحة أعد الله لهم في الآخرة جنات يقيمون فيها إقامة دائمة، كما قال تعالى: ﴿وَمَسْكَنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتٍ عَدْنٍ﴾ [التوبة: ٧٢]. تجري من تحت

(١) كسر الهاء والميم من (تحتهم الأنهار) حالة الوصل أبو عمرو ويعقوب، وضمهما حمزة والكسائي وخلف، وكسر الهاء وضم الميم الباقون، والجميع يسكن الميم عند الوقف عليها.

(٢) حذف الهمزة من (متكئين) أبو جعفر، ومثله حمزة عند الوقف، وله أيضًا التسهيل.

قصورها وأشجارها، ومن تحت غرفهم ومنازلهم الأنهار العذبة، وهم يُحَلَّلُونَ في الجنات بأساور من ذهب، وأساور من فضة، ومن لؤلؤ، كما قال تعالى: ﴿وَحُلُّوا أَسَاوِرَ مِنْ فِضَّةٍ﴾ [إنسان: ٢١]. وقال: ﴿يُحَلَّلُونَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِنْ ذَهَبٍ وَلَوْلُؤًا﴾ [الحج: ٢٣، وفاطر: ٣٣].

وفي الآية التي معنا ﴿وَلْيَبْسُوثُ ثِيَابًا خَضِرًا مِنْ سُنْدُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ﴾ وقد نُسجت هذه الثياب الخُضْرُ من الحرير الرقيق، يُلبس على الجسم مباشرة، كما أنهم يحلون أيضًا بثياب منسوجة من الحرير، أو الديباج الغليظ يُلبس فوق الثياب الرقيقة، وهو الإِستَبْرَق.

قال تعالى: ﴿عَلَيْهِمْ ثِيَابٌ سُنْدُسٍ خُضْرٌ وَإِسْتَبْرَقٌ﴾ [إنسان: ٢١].

فالسُنْدُس: هو الثياب الرقيقة من الحرير والديباج.

والإِستَبْرَق: هو الثياب الغليظة من الحرير والديباج.

عن أبي هريرة ؓ أنه سمع عبد الله بن عُكَيْم قال: كنا مع حذيفة بالمدائن، فاستسقى حذيفة، فجاءه دهقان بشراب في إناء من فضة، فرماه به، وقال: أخبركم أني قد أمرته ألا يسقيني فيه؛ فإن رسول الله ﷺ قال: «لا تشربوا في إناء الذهب والفضة، ولا تلبسوا الديباج والحرير؛ فإنه لهم في الدنيا، وهو لكم في الآخرة»^(١).

ويكون أهل النعيم في الجنة على هيئة الملوك المنعمين، يتكئون فيها على فُرُشٍ مزدانة بالستائر الجميلة على الأرائك والأسِرَّة.

قال الحسن: لم نكن ندرى ما الأرائك حتى لقينا رجلاً من أهل اليمن، فأخبرنا أن الأريكة عندهم الحَجَلَة إذا كان فيها سرير^(٢)

والحجّال مثل القبة: وهو بيت يُزَيَّن بالثياب والأسِرَّة والستور. والسرير بغير حَجَلَة، لا يسمى أريكة، والحَجَلَة بغير سرير، لا تُسَمَّى أريكة، فإذا اجتمعا كانا أريكة، ولعل ذلك ما يطلق عليه في وقتنا (غرفة النوم)، حيث يكون السرير داخل غرفة مُزَيَّنة بالستائر والفُرُش.

نِعْمَ هذا الثواب والجزاء رفيقاً لهم في الجنة ﴿وَحُسْنَتٌ﴾ لهم الجنات ﴿مُرْتَفَعًا﴾ أي:

(١) «صحيح مسلم» برقم (٢٠٦٧) والبخاري (٥٤٢٦، ٥٦٣٢، ٥٨٣٧).

(٢) يُنْظَر: «فتح الباري» (٣٢١/٦)، ومشكاة المصابيح (٥٦٣٧) التحقيق الثاني للشيخ، الألباني.

منزلًا ومكانًا ومستقرًا لهم، قال تعالى: ﴿أُولَٰئِكَ يُجْزَوْنَ الْغُرْفَةَ بِمَا صَبَرُوا وَيُلَقَّوْنَ فِيهَا نَحِيَّةً وَسَلَامًا ۖ خَالِدِينَ فِيهَا حَسُنَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا ۖ﴾ [الفرقان].

وقد بشرهم ربهم في هذه الآية بخمسة أمور، وهي:

(أ) جنات عدن.

(ب) والأنهار تجري من تحتهم.

(ج) وهم يحلون فيها من أساور من ذهب.

(د) ويلبسون ثيابًا خضرًا من سندس وإستبرق.

(هـ) ويتكئون في تلك الجنات على الأرائك.

روى سعد عن النبي ﷺ أنه قال: «لو أن رجلاً من أهل الجنة اطلع فبدث أساوره؛ لطمس ضوءه ضوء الشمس كما يطمس ضوء النجوم»^(١).

وهذا في مقابل قوله تعالى عن الكافرين: ﴿يَسْكُو الشَّرَابُ وَسَاءَتْ مُرْتَفَقًا﴾ أي: قبح هذا الجزاء، وساء الرفيق مرافقًا لهم في النار.

وكان الله تعالى يقول لمن يتكبرون عن مخالطة الفقراء ويأنفون منهم: من شاء فليجالس فقراء المؤمنين، وجبا بهم تفوح منها رائحة العرق، أو فلينفّر، فمن لم تُرضه رائحة العرق من تلك الجباب التي تضم أصحاب القلوب الزكية بذكر الله تعالى، فليرتفق في سرادق النار، وليهنأ بدُرِّي الزيت، أو القيقح، يغاث به في النار^(٢).

قال تعالى عن صديد أهل النار: ﴿يَتَجَرَّعُهُ وَلَا يَكَادُ يُسِيغُهُ وَيَأْتِيهِ الْمَوْتُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ وَمَا هُوَ بِحَيِّتٍ وَمِنْ وَرَائِهِ عَذَابٌ غَلِيظٌ ۖ﴾ [إبراهيم].

أَصْحَابُ الْجَنَّتَيْنِ

وبعد أن بيّن سبحانه ما أعدّه من الجزاء الأخروي لكل من الكفار والمؤمنين، ضرب

(١) «صحيح سنن الترمذي» (٢٠٦١). ومشكاة المصابيح (٥٦٣٧) التحقيق الثاني للشيخ الألباني.

(٢) «في ظلال القرآن» (٤/٢٢٧١٠).

مثلاً لحال الفريقين يُظهر تأييده للمؤمن وإهانته للكافر؛ ليتبين للفريقين ما يجره الكفر والغرور والإعجاب والجبروت من سوء العاقبة والخسران، وما يلقاه المؤمن المتواضع من النجاح وحُسن العاقبة.

والمثل الذي في هذه الآية مَثَلٌ عَامٌّ في كل من ينطبق عليه الوصف في كل زمان ومكان، وإن كان مبدأ ضَرْب هذا المثل على رجلين بذاتهما، فإن بعض الناس حينما يرزقه الله ﷻ مَالاً أو متاعاً، أو يرزقه جاهاً أو منصباً، يتعالى على فقراء الناس، فيترفع عن مُجالستهم، أو مُصاحبتهم، أو التعرف عليهم، والسبب في هذا لا يرجع إلى المال أو الجاه في حد ذاته، فالثراء ليس مذمومًا لذاته، والجاه أو المنصب ليس مذمومًا لذاته، وإنما المذموم هو الإنسان الذي أبطرته النعمة واغترَّ بديناه، وافتتن بها فتعالى وتعاظم، وافتخر على الناس.

وسورة الكهف تضرب لنا مثلاً لرجل فقير مؤمن متصدق، معتز بدينه وعقيدته، فكانت نهايته حُسن العاقبة في الدنيا والآخرة، ورجل آخر مفتون بماله، كافر بالبعث والنشور، فكانت عاقبته أن خسر الدنيا والآخرة.

والرجلان قيل: إنهما اللذان ذُكرا في قوله تعالى: ﴿قَالَ قَائِلٌ مِّنْهُمْ إِنِّي كَانَ لِي قَرِينٌ ﴿٥١﴾ يَقُولُ أَإِنَّكَ لَمِنَ الْمَصْدِقِينَ ﴿٥٢﴾ أَوَدَا مِنَّا وَكُنَّا تُرَاكًا وَعَظَمْنَا أَهْنًا لَمَدِينُونَ ﴿٥٣﴾﴾ [الصفات]

أي: أنه كان له صديق في الدنيا ينكر البعث والنشور، فلما دخل أهل النار النارَ، وأهل الجنة الجنةَ، قال القرين المؤمن لمن معه في الجنة: تعالوا معي نَطْلُعْ على صديقي الذي كان ينكر هذا اليوم، فاطَّلَعَ عليه وهو في وسط الجحيم، قال له صديقه المؤمن: ﴿تَاللَّهِ إِنْ كِدَتْ لَتُرْدِينَ﴾ وتدخلني معك نار جهنم ﴿وَلَوْلَا رِجْمَةُ رَبِّي لَكُنْتُ مِنَ الْمُحْضَرِينَ ﴿٥٧﴾﴾ معك في النار، إلى آخر الآيات.

وهذه القصة تختلف عن قصة أصحاب الجنة التي ذُكرت في سورة القلم في قوله تعالى: ﴿إِنَّا بَلَوْتُمُوهُمْ كَمَا بَلَوْنَا أَصْحَابَ الْجَنَّةِ﴾ [القلم: ١٧-٣٣] فهؤلاء إخوة شركاء في جنة واحدة، وأولئك رجلان أخوان، أحدهما يمتلك جنتين، قيل: إن الرجلين من مكة من بني مخزوم، يقال لأحدهما: عبد الله بن الأسد، أبو سلمة زوج أم سلمة، وهو مؤمن، وأخوه الكافر يقال له: الأسود بن عبد الأسد، وربما كانت الجنتان في الطائف.

وقيل: إنهما أخوان من بني إسرائيل، ورثا أموالاً طائلة عن أبيهما.

وقيل: إن هذه الأموال في ذلك الوقت السحيق، كانت ثمانية آلاف دينار، فاقسماها فيما بينهما، وكان المؤمن يقال له: يهوذا، والكافر يقال له: قطروس، كما في بعض الروايات.

١- أما الكافر فقد اشترى أرضاً بألف دينار، فقال أخوه المؤمن: اللهم إني أشتري عندك أرضاً في الجنة بهذه الألف، وتصدق بها في سبيل الله.

٢- ثم قام أخوه ببناء دار فوق هذه الأرض بألف دينار، فقال أخوه المؤمن: اللهم إني أشتري عندك داراً في الجنة بهذه الألف، وتصدق بها في سبيل الله.

٣- ثم تزوج أخوه امرأة بألف دينار، فقال أخوه المؤمن: اللهم إني أدفع هذه الألف صداقاً لامرأة من الحور العين في الجنة، وتصدق بها في سبيل الله.

٤- ثم اشترى أخوه خدماً ومتاعاً بالألف دينار الرابعة، فقال أخوه: اللهم إني أشتري عندك في الجنة الولدان المخلدين، وتصدق بالألف دينار الرابعة.

وبقي الرجل كفافاً راضياً قانعاً بالشيء اليسير الذي معه.

ثم أصبح لأخيه الكافر جنتان مثمرتان بأنواع أشجار العنب، ومحاطة بالنخيل، وبين النخيل والعنب، زروع مثمرة، والأنهار تتفجر بين الجنتين.

مرَّ الكافر يوماً بأخيه المؤمن وهو جالس، وحاله قد افتقرت، فأخذ بيده وأدخله إحدى جنتيه، وقال له متكبِّراً مفتخراً بما عنده: ﴿أَنَا أَكْثَرُ مِنْكَ مَالًا وَأَعَزُّ نَفَرًا﴾.

وهكذا فإن بعض الناس حينما يُرزق بالأموال أو الجاه أو المنصب يَنسِب ذلك إلى نفسه، وأنه اكتسب ذلك بخبرته وجنَّته، واكتسبها بمؤهلاته وعلمه، وهذا من الجهل الفادح، وهي مقالة قارون، حينما أُوتِيَ أموالاً وادَّعى أنه اكتسبها بخبرته:

﴿قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ عِنْدِي﴾ [القصص: ٧٨].

وهذا شأن صاحب الشهادة والخبرة الذي يقول: إنما جمعتُ هذه الأموال، أو حصلتُ على هذا المنصب بفضل خبرتي وشهادتي ودراستي، ولا يعزو هذا الفضل إلى رب العالمين.

قال الرجل لأخيه: أنا أكثر منك مالاً، وأكثر أنصاراً وخدماءً وحشماً، وأخذ بيد أخيه

وأدخله إحدى الجنتين، وهو ظالم لنفسه بالكفر، وظالم لنفسه بالتكبر على أخيه.

قال له أخوه المؤمن: ﴿أَكْفَرْتَ بِالَّذِي خَلَقَكَ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُفُوسٍ ثُمَّ سَوَّكَ رَجُلًا﴾ ﴿وَدَخَلَ﴾ الكافر ﴿جَنَّتَهُ وَهُوَ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ قَالَ مَا أَظُنُّ أَنْ تَفْنَى هَذِهِ الْجَنَّةُ أَبَدًا﴾ ﴿وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً﴾ أنكر القيامة وما فيها من بعث وحشر، وحساب وجزاء.

قال: ولو فرض أن هناك بعثًا -كما تقول- وأنني بعثت مع الناس كما يبعثون، فإن سعيد الدنيا سعيد الآخرة، وغني الدنيا غني الآخرة -كما يزعم- وهذا كلام الذين يقيسون الدنيا على الآخرة.

وقد بين النبي ﷺ أن الله ﷻ يعطي الدنيا لمن يحب ومن لا يحب، ولكنه جل شأنه لا يعطي الآخرة إلا لمن يحب، وقد بين الرسول ﷺ أن الدنيا قد تُؤْتَى للعبد استدراجًا له، حتى يستمر في كفره، كما قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا سَنَسْتَدْرِجُهُمْ مِنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ﴾ ﴿[الأعراف]﴾. ولا يكون الغنى والجاه دليلًا على محبة الله ﷻ لعبده.

قال له صاحبه (أخوه المؤمن): أكفرت بالذي خلقك ورزقك حين أنكرت البعث، وحين قلت: إن حديقتك باقية لن تزول؟! لقد كفرت بخالقك الذي أوجدك من العدم، وأسبغ عليك نعمه ظاهرة وباطنة، ولم تزل تتقلب في نعم الله، وتنتقل من حالة إلى أخرى: من نطفة، إلى علقة، إلى مضغة، حتى سواك بشرًا سويًا، لكن أنا أو من بربي ﴿وَلَا أَشْرِكُ بِرَبِّي أَحَدًا﴾ وكان الأولى والأليق بك حين دخلت جنتك، وأعجبت بما فيها أن تنسب هذا الفضل إلى رب العالمين، وأن تقول: ما شاء الله لا قوة إلا بالله؛ فإن من رأى شيئًا فأعجب به فقال: ما شاء الله لا قوة إلا بالله، لم يضره شيء، أي: أن هذا الفضل من الله، وأنه بحول الله وقوته، إن شاء أبقاه وإن شاء أفناه.

وفي الحديث الصحيح: عن أبي موسى ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: «ألا أدلك على كنز -أو قال: على كلمة- من كنوز الجنة: لا حول ولا قوة إلا بالله»^(١).

(١) «صحيح البخاري» برقم (٦٦١٠) و«صحيح مسلم» برقم (٢٧٠٤) و«المستد» (٤٩٢/٢) عن أبي هريرة برقم (٧٩٦٦، ٨٤٢٦، ٨٧٥٣).

قال المؤمن لأخيه الكافر: ﴿إِنْ تَرَنِ أَنَا أَقَلَّ مِنْكَ مَالًا وَوَلَدًا﴾ فلعل الله أن يقليب الأمور، وتتغير الأحوال وتبدل، فيرزقني ربي بإيماني خيرًا من جنتيك، ويرسل على جنتيك -بسبب كفرك- صاعقة من السماء، أو عذابًا مهلكًا يأتي عليهما ويُدْرهما، أو يرسل عليهما عذابًا مقدّرًا في حساب الله تعالى، فتصبح أرضًا جرداء زلقاء ملساء، لا نبات فيها، ولا يثبت عليها قدم، أو أن ماءها يغور في باطن الأرض، فلا يمكنك أن تحصل عليه.

وتحقق في الأخ الكافر رجاء أخيه المؤمن، وتحققت فيه الدعوة التي دعا عليه بها، فأحاط الهلاك والعذاب بالجنتين، وسقطنا على عروشهما، أي: سقطت سقوفهما على الجدران، وسقطت أعمدة الكروم أو العنب على عروشها، وأصبح الرجل يضرب يداً بأخرى نادماً ومتحسراً ﴿يُقَلِّبُ كَفَيْهِ عَلَى مَا أَفَقَّ فِيهَا﴾ وما بذل في هاتين الجنتين من أموال وهو يندم ويتحسر ﴿وَيَقُولُ يَلَيْتَنِي لَمْ أُشْرِكْ بِرَبِّي أَحَدًا﴾.

والله ﷻ يعقّب على القصة، فيقول: ﴿وَلَمْ تَكُنْ لَمْ فِتْنَةً يَضُرُّونَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ لقد كان مغترًا بعشيرته وماله وهو يقول: ﴿أَنَا أَكْثَرُ مِنْكَ مَالًا وَأَعَزُّ نَفَرًا﴾ فأين هؤلاء النفر؟ إذ ليس هناك من جماعة منعوا عنه الهلاك والعذاب حين أحاط بجنتيه ﴿وَمَا كَانَ مُنْصِرًّا﴾؛ لأن من خذله الله لا ينصره أحد.

وفي هذا المقام يتضح للمؤمن أن الولاية والنصرة من الله وحده، وأن صاحب الملك والسلطان هو الله وحده ﴿هُنَالِكَ الْوَلِيَّةُ لِلَّهِ الْحَقِّ﴾ بالجبر، وقرئت: (لله الحق) بالرفع، والولاية من النصرة، والولاية من الملك والسلطان، وفي كلتا الحالتين يرجع الأمر إلى رب العالمين فهو خير مُجَازٍ، وأحسن عاقبة.

وَصْفُ الْجَنَّتَيْنِ

٣٢- ﴿وَأَضْرَبَ لَهُمْ مَثَلًا رَجُلَيْنِ جَعَلْنَا لِأَحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ مِنْ أَعْنَابٍ وَحَفَفْنَاهُمَا بِنَخْلٍ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمَا زَرْعًا^(١)﴾
ونمضي مع الآيات الكريمة، أي: اضرب -يا محمد- لقومك مثلاً حياً من الواقع العملي

(١) لم يعد المدني الأول والمكي (بينهما زرعاً) آية، وعده غيرهما وهم المدني الأخير والشامي والبصري والكوفي.

المحسوس، في هذا الحوار الذي يدور بين كافر على جانب من الثراء، ومؤمن قليل المال، شاكر لأنعم الله، وقد جعلنا لأحدهما -وهو الكافر- حديقتين، أو بستانين من شجر العنب، مثمرين بأنواع العنب اللذيذ، ولم يعين القرآن مكانهما؛ لأنه لم يتعلق به غرض صحيح، وجعلنا النخل محيطاً بالحديقتين، وكانت هذه عادة أهل الثراء، أن يحيطوا شجر العنب بالنخل المثمر، وأنبتنا وسط هاتين الحديقتين زروعاً نافعة مختلفة الأشكال والمذاق، تتخلل أشجار النخيل والعنب؛ كي تجمع الحديقتين بين القوت والفواكه، وما يشرح الصدر ويفيد الناس.

فهذه الآية بيّنت ثلاثة أشياء اشتملت عليها الحديقتان، وهي: العنب، والنخل، والزروع. قال تعالى مبيناً وصف الجنتين:

٣٣- ﴿كُنَّا^(١) الْجَنَّتَيْنِ ءَأَنْتَ أَكْلَهُمَا^(٢) وَلَمْ تَظَلِرْ مِنْهُ شَيْئاً وَفَجَّرْنَا خِلْفَهُمَا نَهراً ﴿٣٣﴾

أي: وكل واحدة من الحديقتين أثمرت ثمارها، بجودة وغزارة ووفرة، بصورة دائمة مستمرة، فكانت ثمارها من العنب والتمر، وأنواع الزروع والثمار، يانعة طيبة كثيرة، ولم تنقص شيئاً منه في عام من الأعوام، على خلاف ما جرت به عادة البساتين، ولم يكن فيها عقاب بنقص الثمر أو إهلاكه، لظلم صاحبها.

ثم بيّن سبحانه الشيء الرابع الذي اشتملت عليه الحديقتان، وهو وجود نهر جارٍ عذب قد شق طريقه بينهما؛ لِسُقْيِهِمَا يسر وسهولة.

حِوَارُ الرَّجُلَيْنِ: الْمُؤْمِنِ وَالْكَافِرِ

٣٤- ﴿وَكَاثَ لُثْمٍ^(٣) فَقَالَ لِصَاحِبِهِ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَنَا^(٤) أَكْثَرُ مِنْكَ مَالاً وَأَعَزُّ نَفْراً ﴿٣٤﴾

(١) اخْتَلَفَ فِي أَلْفٍ (كلنا) هل هي للتأنيث أم للثنية؟ فعلى القول بأنها للتأنيث يميلها وفقاً حمزة والكسائي وخلف ويقللها ورش وأبو عمرو ويخلف عن ورش ويفتحها الباقون، وعلى القول بأنها للثنية فلا إمالة فيها ولا تقليل.

(٢) قرأ نافع وابن كثير وأبو عمرو بإسكان الكاف من (أكلها)، والباقون بضمها، وهما لغتان.

(٣) قرأ عاصم وأبو جعفر ويعقوب بفتح الثاء والميم من (ثمر) جمع ثمرة، وسكنت الميم تخفيفاً، وقرأ أبو عمرو بضم الثاء وسكون الميم، والباقون بضم الثاء والميم، جمع ثمرة أيضاً، مثل: خَشْبَةٌ وَخُشْبٌ.

(٤) قرأ نافع وأبو جعفر بمد ألف (أنا) وصلأ، فيصبح من قبيل المد المنفصل، والباقون بعدم المد وصلأ، وجميع القراء بمدّها مدّاً طبيعياً عند الوقف، ومثلها (أنا أقل) في الآية (٣٩).

وكان لهذا الأخ الكافر، صاحب الجنتين، أنواع أخرى من الفواكه والخضراوات والثمار ﴿وَكَانَ لَمْ ثَمْرٌ﴾ وقد فسرهما ابن عباس، وقتادة، ومجاهد بالأموال الكثيرة من الذهب، والفضة، والحيوان، وغير ذلك، ولعل لفظ (ثمر) يشير إلى ما يخرج من الأرض من الزروع والثمار والأشجار والنخيل والأعناب.

فكان المعنى: وكانت لصاحب الجنتين أموال أخرى غير الجنتين، كما في القراءة الأخرى بضم الثاء والميم (ثُمُر) والمراد: الأموال الكثيرة المثمرة من كل صنف، كالذهب والفضة، وغيرهما.

ثم حكى القرآن ما تفوّه به الغني المغرور، المفتون بديناه، في حوارهِ مع أخيه المؤمن، قال له على سبيل المفاخرة والتكاثر: أنا أغنى منك وأشرف، وأكثر أنصاراً وأعواناً وخدماءً.

وقوله: ﴿وَأَعَزُّ نَفَرًا﴾ يفيد أنه لم يكن أخاه، ومن قال: إنه أخوه، فسّر النفر بالعبيد والخدم، والمحاورة: هي المراجعة في الكلام، والنفر: العدد من الناس، والمراد هنا: العشيرة والخدم والحشم، فيكون مجموع ما أوتيته هذا الثري هو:

أ- الحديقتان المشتملتان على العنب، والنخل، والزروع، والثمار، والنهر الذي يروي هذه الأشجار والزروع.

ب- وصنوف الأموال الأخرى العينية والمقومة.

والافتخار بالمال، والمتاع، والجاه، والمنصب على الفقير الضعيف، شأن كثير من الناس، إلا من رحم ربي، وفي هذا تطاول من الأغنياء على الفقراء، حين يَسْتَوْن أن الأيام دُول، وأن الجوائح كثيرة، وأن الله تعالى يُغني ويُفقر، ويُعزُّ ويذلُّ، بين عشية وضحاها.

لقد كره الله سبحانه من المؤمن المطيع أن يتطاول بطاعته على رجل آخر مذب مقصر، فقال له: واللّه لا يغفر الله لك، فقال الله تعالى: أكنت على ما في يدي قادراً؟! فإني غفرت له وأحببت عملك^(١).

والواجب على صاحب الثروة والجاه، بدلاً من تطاوله على الفقير الضعيف أن يساعده ما استطاع، وأن يحفظ لسانه عنه، فمن يدري، فلعله يكون خيراً منه عند الله تعالى؟!!

(١) يُنظر: صحيح مسلم برقم (٢٦٢١).

قال تعالى مُثَبِّتًا ظَلَمَ الكافر حال دخوله الحديقة:

٣٥- ﴿وَدَخَلَ جَنَّتُمْ وَهُوَ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ قَالَ مَا أَظُنُّ أَن تَبِيدَ هَذِهِ أَبَدًا^(١)﴾ (٣٥)

أي: وأخذ الكافر بيد أخيه المؤمن، ودخل حديقته؛ ليريه ما فيها من أشجار وثمار وأنهار، وجاء لفظ: الجنة في هذه الآية مفردًا في قوله تعالى: ﴿وَدَخَلَ جَنَّتُمْ﴾؛ لأنه لم يدخل الجنتين معًا في وقت واحد، بل دخل جنة واحدة، ثم دخل الأخرى، دخلها وهو ظالم لنفسه بالشرك والكفر، وبطّر النعمة والعُجب، فأعجب بما فيها من ثمار، وقال: لا أعتقد أن تنفى هذه الحديقة، وتزول من على ظهر الأرض مدى الحياة، بل ولا أعتقد أن هناك يومًا آخرًا يحاسب فيه العباد، ولو وُجد هذا اليوم - كما يزعمون - فسيكون لي بستان أعظم من هذا البستان؛ قال:

٣٦- ﴿وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً وَلَئِن رُّدِدْتُ إِلَىٰ رَبِّي لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِنْهَا^(٢) مُنْقَلَبًا﴾ (٣٦)

انتقل الكافر المغتر بماله ومتاعه، من اعتقاده ببقاء بستانه، إلى غرور أشد وأشنع، وهو اعتقاده بنفي قيام الساعة، فقال: وما أعتقد أن القيامة واقعة، فلا بعث ولا نشور كما تقولون، فأنكر فناء هذا العالم، وأنكر أن تنفى جنته، وأنكر البعث والنشور، ثم قال: ولئن فُرض وقامت الساعة - كما تزعم أيها المؤمن - فإنني سأجد عند ربي أفضل من هذه الحديقة؛ حيث يعطيني إياها بكرامتي ومنزلتي عنده، فكما أعطاني في الدنيا يعطيني في الآخرة.

وبهذا قال غيره من أهل الكفر والغرور: ﴿وَقَالُوا نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَالًا وَأَوْلَدًا وَمَا نَحْنُ بِمُعَذِّبِينَ﴾ [سبأ]. ﴿أَفَرَأَيْتَ الَّذِي كَفَرَ بِآيَاتِنَا وَقَالَ لَأَتُنِيبَ مَالًا وَلَوْلَا ﴿٧﴾﴾ [مريم].

وجاء في الآية الأخرى: ﴿وَلَئِن رُّجِعْتُ إِلَىٰ رَبِّي إِنَّ لِي عِنْدَهُ لَلْحُسْنَىٰ﴾ [فصلت: ٥٠].

وهذا الكلام لا يخلو من أمرين، إما أن يكون على وجه التهكم والاستهزاء، فيكون فيه زيادة كفر على كفره، وإما أن يكون من باب الشك والظن، فيكون جهلاً ونقصاً، إذ ليس

(١) لم يعد الشامي والمدني الأخير (هذه أبدا) آية، وعدّها غيرهما.

(٢) قرأ نافع وابن كثير وابن عامر وأبو جعفر (خيرًا منهما) بزيادة ميم بعد الهاء على الشنية، وبهذا رسم المصحف المدني والمكي والشامي، والباقون بحذف الميم وفتح الهاء، على الأفراد، والضمير على القراءة الأولى يعود على الجنتين، وعلى القراءة الثانية يعود على الجنة الموعود بها في الآخرة.

هناك تلازم بين عطاء الدنيا وعطاء الآخرة، حتى يظن بجهله أن من أعطى في الدنيا يعطى في الآخرة، بل الغالب أن الكافر يكون أوسع حظا في الدنيا من المؤمن.

٣٧- ﴿قَالَ لَهُ صَاحِبُهُ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَكَفَرْتَ بِالَّذِي خَلَقَكَ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّكَ^(١) رَجُلًا

أي: قال الرجل الفقير المؤمن في رده على صاحبه الكافر المغرور، منكرا عليه جحوده للنعمة، وإنكاره البعث والنشور: كيف تكفر بالله الذي خلق أصلك -آدم- من تراب، فقد ذكّره بنعم الله عليه، ويدلائل البعث والنشور، حيث ذكّره بالخلق الأول؛ لأن من اعترف به لا ينكر الخلق الثاني ﴿أَفَعَيَّنَا بِالْخَلْقِ الْأَوَّلِ بَلْ هُمْ فِي لَبْسٍ مِنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ﴾ (٥٥) [ق].

﴿اللَّهُ يَبْدُوَ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ (١١) [الروم].

﴿وَهُوَ الَّذِي يَبْدُؤُا الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَتْ عَلَيْهِ﴾ [الروم: ٢٧].

وذكّره بذلك؛ لأن الأجزاء التي تتكون منها النطفة مستخلصة من تراب الأرض

﴿سُبْحَنَ الَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنْبِتُ الْأَرْضُ وَمِنْ أَنْفُسِهِمْ وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ﴾ (٣١) [يس].

ثم خلقك -أيها الإنسان- من نطفة الأبوين، ومرت هذه النطفة بأطوار خلق الإنسان التي فصلها في مثل قول الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ طِينٍ﴾ (١٢) ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَكِينٍ (١٣) ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظْمًا فَكَسَوْنَا الْعِظْمَ لَحْمًا ثُمَّ أَنشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ (١٤) [المؤمنون].

ثم جعلك الله بشرا سويا، معتدل القامة والخلق، ذا سمع وبصر وعقل وإرادة واختيار، فكيف تعبدون ربكم، وهذه دلائل قدرته وعظيم صنعته ﴿كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَكُنْتُمْ أَمْوَاتًا فَأَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ (٢٨) [البقرة].

ولما رأى الرجل المؤمن، صاحبه الكافر مستمرا على كفره وطغيانه، قال مخبرا عن نفسه على وجه الشكر لربه، والإعلان بدينه.

(١) أمال ألف (سواك) حمزة والكسائي وخلف، وقللها ورش بخلف عنه، وفتحها الباقون.

٣٨- ﴿لَيْكِنَّا﴾^(١) هُوَ اللَّهُ رَبِّي وَلَا أُشْرِكُ بِرَبِّي ^(٢) أَحَدًا ﴿٣٨﴾

ثم يعلن الرجل الصالح عقيدته بشجاعة ووضوح، فقال لصاحبه الكافر: لكن أنا أعترف بوحداية ربي وخالقي، ولا أقول بمقالتك الكافرة، فإن كنت قد كفرت بربك فإني لست بكافر، ولكنني مؤمن بالله ورسله وكتبه واليوم الآخر، وبالقضاء خيره وشره، وأنا مطيع لله تعالى، موحد له في عبادتي، وأنا لا أشرك بالله شيئاً في ربوبيته، ولا في ألوهيته، ولا في أسمائه وصفاته، فهو سبحانه المعبود بحق، لا رب غيره، ولا معبود سواه.

قَوْلُ مَنْ نَظَرَ إِلَى شَيْءٍ فَأَعْجَبَهُ، وَنِهَايَةُ الْحِوَارِ

٣٩- ﴿وَلَوْلَا إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَاءَ اللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ﴾ ^(٣) إِن تَرَنِ ^(٤) أَنَا أَقَلُّ مِنكَ مَالًا وَلَوْلَا

أرشد المؤمن صاحبه الكافر إلى ما كان يجب عليه أن يقوله عند دخوله جنته، فيقول: ﴿مَا شَاءَ اللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ﴾ أي: وهلاً حين دخلت حديقتك وأعجبك ما فيها من ثمار وأشجار وأنهار، حمدت الله تعالى على ما أنعم به عليك، وعلى ما أعطاك من المال والولد ما لم يعط غيرك، فقلت: هذا من فضل الله، وما شاء الله كان، وما لم يشأ لم يكن، إن شاء أبقاها وإن شاء أفناها، هذا ما شاء الله لي، ولا قوة لي على تحصيله إلا بالله.

والآية ترشد إلى أن من نظر إلى شيء فأعجبه فليقل: ﴿مَا شَاءَ اللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ﴾ فإن في هذا رد الفضل والنعمة إلى الله تعالى، وفيه ردُّ للحسد ودفع له.

فعن أنس رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «ما أنعم الله على عبد نعمة من أهل، أو مال، أو

(١) قرأ ابن عامر وأبو جعفر ورويس بإثبات ألف بعد النون من (لكننا) وصلًا ووقفًا، والأصل: لكن أنا، فحذفت الهمزة لكثرة الاستعمال، وأدغمت النون في النون تخفيفًا، وقرأ الباقر بحذف الألف وصلًا وإثباتها وقفًا، تبعًا للرسم.

(٢) قرأ نافع وابن كثير وأبو عمرو وأبو جعفر بفتح ياء الإضافة وصلًا من (بربي أحدًا) والباقر بإسكانها، ومثلها في الآية (٤٢).

(٣) قرأ قالون والأصبهاني عن ورش وأبو عمرو وأبو جعفر بإثبات الياء وصلًا من (إن ترن أنا) وقرأ ابن كثير ويعقوب بإثباتها وصلًا ووقفًا، والباقر بحذفها في الحالين، ومثلها (أن يؤتين) إلا أن ورشًا يشبها وصلًا من الطريقتين.

(٤) أثبت ألف (أنا) وصلًا نافع وأبو جعفر، وحذفها الباقر وصلًا وأثبتوها وقفًا.

ولد، فيقول: ما شاء الله لا قوة إلا بالله، فيرى فيه آفة دون الموت^(١).

ويمضي الرجل المؤمن قائلاً:

٤٠ - ﴿فَعَسَىٰ رَبِّي أَن يُؤَيِّنَ خَيْرًا مِّنْ جَنَّتِكَ وَيُرْسِلَ عَلَيْهَا حُسْبَانًا مِّنَ السَّمَاءِ فَتُصْبِحَ صَعِيدًا زَلَقًا﴾

أي: فإني أرجو الله تعالى الذي لا يعجزه شيء أن يعطيني أفضل من حديقتك، ويرزقني ما هو خير منها في الدنيا والآخرة، فيقلب ما بي وما بك من الفقر والغنى، ويغير الأحوال ويبدلها، فيسلب عنك النعمة؛ لكفرك بالله تعالى، ويرسل على جنتك -أي: بستانك- صواعق من السماء تدمرها، أو آفة تخربها، فتصبح حديقتك أرضاً جرداء مستوية ملساء، لا تثبت عليها قدم، بلا نبات فيها ولا شجر، فلا يُستفَع بها بوجه من الوجوه، حتى ولا بالمشي عليها.

فالحسبان: هو هلاك الجنتين بسبب آفة أو عذاب مدمر.

والزلق: هو الأرض الملساء الجرداء، الخالية من الزروع والثمار، كما قال تعالى ﴿وَأَنَّا لَجَاعِلُونَ مَا عَلَيْهَا صَعِيدًا جُرًّا﴾ (٨). واستمرَّ المؤمن قائلاً:

٤١ - ﴿أَوْ يُصْبِحَ مَأْوَاهَا غَوْرًا فَلَن تَسْتَطِيعَ لَهُمُ طَلَبًا﴾ (٩)

أي: يصير مأوها الذي تُسقى منه غائراً في الأرض، ذاهباً في أسفلها، فلا تقدر على إخراجه، ولا يكون في مقدورك أن تأتي بهذا الماء الغائر، ولا تطلبه بأية حيلة، كما قال تعالى: ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَصْبَحَ مَأْوُكُمْ غَوْرًا فَمَنْ يَأْتِيكُمْ بِمَاءٍ مَّعِينٍ﴾ (٣٠) [الملك].

وكان هذا الدعاء من المؤمن غضباً لله تعالى لكون الكافر قد غرته دنياه وأطغته، لعله يرجع إلى ربه ويثوب إليه.

وبهذا يكون المؤمن قد ذكّر الكافر بحلقه ونشأته، ووجّهه إلى الأدب الذي يجب أن يتحلّى به مع خالقه ورازقه، وحذّره من سوء عاقبة بطّره.

وإلى هنا ينتهي الحوار بين الأخوين: المؤمن والكافر، وقد أجاب الله دعاء المؤمن

(١) رواه البيهقي في «الشعب» برقم (٤٥٢٥) من طريق الحسن بن صباح، عن عمرو بن يونس، ورواه أبو يعلى كما في «الدر المشثور» و«تفسير ابن كثير».

فأتلف الحديقة بشمارها ولم يبق منها شيء :

مَشْهَدُ الْبَوَارِ وَالْدِّمَارِ

٤٢- ﴿وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِ﴾^(١) فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ عَلَى مَا أَنْفَقَ فِيهَا وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا وَيَقُولُ يَا لَيْتَنِي لَمْ أُشْرِكْ بِرَبِّي أَحَدًا ﴿٤٢﴾

ثم تأتي المفاجأة المدهشة، فيحقق الله رجاء العبد الصالح بزوال النعيم عن الكافر، فينتقل السياق من مشهد البهجة والازدهار إلى مشهد البوار والدمار، ومن حال البطر والاستكبار إلى حال الندم والاستغفار، فقد أحاط الهلاك والخراب بحديقته، وأحرق بهما من كل جانب، فغار الماء، وهلكت الأشجار والزرع والثمار، حيث أرسل الله عليهما عذاباً من السماء، فهلكت الأنعام وسُلبت الأموال، وتلفت الثمار، وأصبحتا صعيداً زلقاً، مقتلعة الأشجار، قد زال نفعها وغرق زرعهما.

وتملأه الحسرة والندامة، فأصبح يضرب كفّاً بالأخرى، ويُقَلِّبُ ظاهر كَفَّيْهِ وباطنهما أسفاً وحزناً على ماله الضائع، وما أنفقه من أموال على هاتين الحديقتين حتى أثمرت وأينعتا، وقد تهذمتا على دَعَائِمِهِمَا، وسقط السقف على الجدران، وأصبحتا خراباً خاليتين من الشجر والزرع والعروش، وصارتا حطاماً يابساً هشيماً تذروه الرياح، وهذا مثلٌ للخراب التام، كما قال تعالى: ﴿أَوْ كَالَّذِي مَرَّ عَلَى قَرْيَةٍ وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا﴾ [البقرة: ٢٥٩]. قيل: إن الله تعالى أغرق هاتين الجنتين في يوم وليلة، وأن مكانهما الآن بحيرة تُسَمَّى: بحيرة تنيس^(٢).

وبعد أن أفاق الرجل من صدمته قال: يا ليتني عرفت نعم الله وقدرته، فلم أشرك به أحداً. وهذا يوحى بأنه قد ندم وتاب من شركه وكفره، ومن جحوده وبطوره للنعمة، وأنه قد دخل في الإيمان، فإن من شروط التوبة أن تكون قبل الغرغرة، وقبل طلوع

(١) قرأ عاصم وأبو جعفر وروح بفتح الثاء والميم من (بثمره)، وقرأ أبو عمرو بضم الثاء وإسكان الميم، والباقون بضم الثاء والميم.

(٢) نسب ابن عطية ذلك إلى إبراهيم بن القاسم الكاتب، في كتابه «عجائب البلاد»، انظر: «تفسير ابن عطية» (٥١٥/٣).

الشمس من مغربها، ولم يحدث شيء من ذلك للرجل، وقد قال تعالى بالنسبة للمشركين: ﴿أَفَلَا يَتُوبُونَ إِلَى اللَّهِ وَيَسْتَغْفِرُونَهُ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [المائدة: ٧٤]. ولا شك أن هذا الكافر لو هلك وزالت عنه دنياه، وانفرد بعمله لتمنى أنه لم يكن قد أشرك بالله وكفر به.

التَّعْقِيبُ عَلَى الْقِصَّةِ

٤٣- ﴿وَلَمْ تَكُنْ (١) لَمْ فِتْنَةً (٢) يَنْصُرُونَكَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَمَا كَانَ مُنْصِرًا﴾ [٤٣]

ثم جاءت هذه الآية من باب العظة والتنبيه والتذكير، والعبرة المستفادة من هذه القصة، أو من هذا المثل المضروب للأغنياء الذين يترفعون عن مجالسة الضعفاء الفقراء، ويرون أنهم أدنى منهم منزلة، فبين سبحانه أنه لم تكن لهذا المغرور بماله، المفتون بحاله - جماعة ممن افتخر بهم ينصرونه، ويمنعونهم من عقاب الله النازل به، وما كان هو قادرًا على الامتناع مما نزل به في إهلاك حديقته، ولا منتصرًا لنفسه بقوته من انتقام الله منه، بل زالت عنه دنياه وزال عنه ما كان يغتر به، فلم تنفعه عشيرته التي اعتزَّ بها، ولم ينفعه ماله الذي افتخر به، ﴿وَمَا أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ بِالَّتِي تُقَرِّبُكُمْ عِندَنَا زُلْفَىٰ إِلَّا مَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَأُولَٰئِكَ لَهُمْ جَزَاءُ الضَّعِيفِ يَمَّا عَمِلُوا وَهُمْ فِي الْغُرُفَاتِ ءَامِنُونَ﴾ [سبأ: ٣٧]. قال تعالى:

٤٤- ﴿هُنَالِكَ الْوَلَايَةُ (٣) لِلَّهِ الْحَقُّ (٤) هُوَ خَيْرٌ ثَوَابًا وَخَيْرٌ عُقْبًا (٥)﴾ [٤٤]

وفي هذا المقام، وهذه الشدائد، وفي مثل تلك الحالة، فإن الولاية والنصرة والمنعة والقوة لله وحده، فلا يقدر على منع العقوبة عن أحد إلا الله، فولايته ونصرته هي الحق والصدق، وغيرها زائف وباطل، كما قال تعالى: ﴿وَرُدُّوْا إِلَى اللَّهِ مَوْلَاهُمُ الْحَقُّ﴾ [يونس: ٣٠]. هو خير

(١) قرأ حمزة والكسائي وخلف (لم يكن) بالياء، والباقون بالناء، وجاز تذكير الفعل وتأنيته؛ لأن الفاعل مؤنث غير حقيقي.

(٢) أبدل أبو جعفر همزة (فتنة) ياء وحمزة وقفًا، وحققها الآخرون.

(٣) قرأ حمزة والكسائي وخلف بكسر الواو من (الولاية)، والباقون بفتحها، وهما لغتان.

(٤) قرأ أبو عمرو والكسائي برفع القاف من لفظ (الحق)، على أنه صفة للولاية، أو خير لمبتدأ محذوف، تقديره: هو الحق، أو أنه مبتدأ والخير محذوف، تقديره: أي الحق ذلك، بمعنى: الحق ما قلناه، والباقون بالجر، على أنها صفة للفظ الجلالة.

(٥) قرأ عاصم وحمزة وخلف بسكون القاف من (عقبا)، والباقون بضمها.

جزاء لمن آمن في الدنيا والآخرة، وخير عاقبة لمن تولاهم، وكل مؤمن وكافر يرجع إلى الله وحده ﴿الْمَلِكُ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ لِلرَّحْمَنِ﴾ [الفرقان: ٢٦]، فمن كان مؤمنًا تقيًا، كان الله له وليًا، يكرمه ويدفع عنه الشرور، ومن كان شقيًا موليًا للشيطان، خسر دينه ودنياه.

مَثَلُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا

٤٥- ﴿وَأَضْرِبْ لَهُم مَّثَلَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَا أَتْرَكْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ الرِّيحُ^(١) وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ مُقَدِّرًا ﴿٤٥﴾﴾

وكيف يتناول الغني على الفقير، ويتعالى ويتكبر عليه، وكيف يغتر الإنسان بماله ويعتز بدنياه وهي إلى زوال؟!

والله ﷻ في نهاية قصة المشرك المغتر بحديقته، المنكر للحساب والجزاء، يعقّب عليه بذكر مثل لما في الدنيا من زخرف ومتاع، مصيره إلى سرعة زوال، فيأمر نبيه ﷺ أن يضرب للناس مثلاً، سيّما المتكبرين منهم، بأن صفة الدنيا التي اغتروا بها في بهجتها وسرعة زوالها، كما أنزله الله من السماء على الأرض، فخرج به النبات، واختلط بعضه ببعض، وأنبت من كل زوج بهيج، وما هي إلا مدة يسيرة، وبينما هي في زخرفها وبهجتها للناظرين، إذ اصفرّ لونها وذبل وبيس، وأصبح هشاً يابساً تنسفه الرياح بعد نُضرته وخُضرته، فأصبحت غبراء تراباً.

وهكذا الدنيا تنتهي وتزول، بعد أن فارق الإنسان الشباب، وذهب الدرهم والدينار، واقتطف من اللذات والشهوات، وظن أنه كذلك سائر أيامه، وإذ بالشيخوخة وضعف الشهوات، وانصراف الخلّان، وزوال السرور والحبور، فأصابه الموت، وأصبح كهيئة الهشيم المتفتت من العشب اليابس، كما قال تعالى: ﴿فَكَانُوا كَهَشِيرِ الْحُمْطِرِ﴾ [القمر: ٣١]. ثم يصير حطامًا يابسًا تذرّوه الرياح.

وذلك لأن قدرته سبحانه عظيمة، لا يعجزها شيء، وهو القادر على الإحياء والإماتة. فالآية تشبّه حال الدنيا في نُضرتها وحُسْنها وبهجتها، وما يعقبها من الفناء وسرعة

(١) قرأ حمزة والكسائي وخلف (الريح) بالإنفراد، والباقون (الرياح) بالجمع.

الزوال، بحال النبات يكون أخضر، ثم يصفّر، ويدبل، ويتكسر، وتفتت، فتطير به الرياح، ويصبح كأن لم يكن، وقد جاء هذا المثل في آيات كثيرة، منها:

قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا مَثَلُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أُنْزِلَتْهُ مِنَ السَّمَاءِ فَأَخْلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ النَّاسُ وَالْأَنْعَامُ حَتَّى إِذَا أَخَذَتِ الْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَازِيدَتْ وَطَرَتْ أَهْلَهَا أَنَّهُمْ قَدِرُونَ عَلَيْهَا أَنهَذَا لَمَثَلٌ قَدْ جَاءَ لَهَا مِنْهَا فَجَعَلْنَاهَا حَصِيدًا كَأَن لَّمْ تَغْنَبْ بِالْأَمْسِ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢٤﴾﴾ [يونس].

وقوله: ﴿اعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهُمْ زِينَةٌ وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ الْكُفَّارَ نَبَاتُهُ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَاهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَكُونُ حُطَمًا وَفِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٌ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْعُورِ ﴿٢٥﴾﴾ [الحديد].

وقوله: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَلَكَهُ يَنبِيعٌ فِي الْأَرْضِ ثُمَّ يُخْرِجُ بِهِ زَرْعًا مُخْتَلِفًا أَلْوَنُهُ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَاهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَجْعَلُهُ حُطَمًا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرًا لِأُولِي الْأَلْبَابِ ﴿٢٦﴾﴾ [الزمر].

على أن الحياة الدنيا وما فيها من زخرف ومتاع مشروع، ليست شرًا، ولا محرمة على العبد، قال تعالى: ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا خَالِصَةٌ يَوْمَ الْقِيَمَةِ﴾ [الأعراف: ٣٢].

وقال سبحانه: ﴿وَاتَّبَعْنَاهُ فِيمَا ءَاتَيْنَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا﴾ [القصاص: ٧٧].

الدنيا لا تطلق:

وليس من منهج الإسلام طلاق الدنيا وتركها للعابثين المجرمين، كما قال قائلهم:

إِنَّ لِلَّهِ عِبَادًا فُطِنَا طَلَّقُوا الدُّنْيَا وَخَافُوا الْفِتْنَا

فمن قال للمؤمن: طلق الدنيا؟ والله تعالى خلق للناس ما في الأرض جميعًا، ونصّر الشرع على المحرمات من المطاعم والمشارب والملابس وغيرها، كالخمر والخنزير، ولبس الحرير، والذهب بالنسبة للرجال... إلخ.

والله تعالى لم يحرم الثراء على عباده الصالحين ليختص به المجرمون، فنعم المال الصالح للعبد الصالح، والتمكين للمؤمن في الأرض، وارتقاؤه إلى أعلى المناصب يكون دعمًا

للحق، وعوناً للضعفاء، كما قال تعالى عن يوسف عليه السلام: ﴿وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ يَتَّبِعُوا مِنْهَا حَيْثُ شَاءَ نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَنْ شَاءَ وَلَا نُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ﴾ ﴿٥٦﴾ [يوسف].

ودراسة الأرض، واستخراج كنوزها، وغزو الفضاء، والتعرف على كل ما فيه تعريف للناس بربهم، من شأنه أن يجعل الإيمان يتدفق ويزدهر في قلوب العباد، ولكن الحضارة الغربية الحديثة، صنعت أجيالاً ارتبطت بحطام الدنيا، واستبعدت الآخرة من حسابها؛ فهي لا تبصر شيئاً وراء هذه الحياة، كما قال هذا الكافر المغرور: ﴿مَا أَظُنُّ أَنْ تَبِيدَ هَذِهِ أَبَدًا﴾ ﴿٣٥﴾ وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً وَلَئِنْ رُودِدْتُ إِلَى رَبِّي لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِنْهَا مُنْقَلَبًا﴾ ﴿٣٦﴾ ولذا فإن المكافأة على هذا التناول عند رب العالمين أن يكون العبد حطب النار في الآخرة.

لقد كان الانهماك في الإقبال على نعيم الدنيا هو السبب الصارف عن إعمال العقول في فهم أدلة التوحيد والبعث، كما قال تعالى: ﴿وَذَرَى الْمُلْكَيْنِ أُولَى الْأَعْمَةِ وَمُهَيَّزًا قَلِيلًا﴾ ﴿١١﴾ [المزمل].

وقال في وصف الجاحد المعاند المكابر: ﴿أَنْ كَانَ ذَا مَالٍ وَبَنِينَ﴾ ﴿١٤﴾ إِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِ أَيُّسُنَا قَالِ اسْطِغْرِ الْأَوَّلِينَ﴾ ﴿١٥﴾ [القلم].

وهؤلاء هم الذين يزعمون أن هذا العالم غير آيل إلى الفناء ﴿وَقَالُوا مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلَّا الدَّهْرُ﴾ [الباقية: ٢٤]. وكان صاحب الجنتين واحداً من هؤلاء.

ولذا: فإن الله تعالى ضرب في نهاية قصته مثلاً للحياة الدنيا التي اغتر وقتن بها، فما أسرع زوالها! وما أسرع انقضاءها!

أما صاحب المال الذي يسانده الإيمان، ويحدوه الرفق والتواضع، وترشيد الإنفاق منه في وجوه الخير، فهو عابد، تُمدّخ دنياه ولا تُدَم، فليس عنده جنون الشره، ولا عبادة المال، ولا التعلق بالحطام، ولا يمنعه الغنى من التمسك بالآداب الفاضلة.

جاء في الحديث: عن زيد بن ثابت رضي الله عنه مرفوعاً: «من كانت الآخرة همه، جعل الله غناه في قلبه، وجمع عليه شمله، وأتته الدنيا وهي راغمة، ومن كانت الدنيا همه، جعل الله فقره بين عينيه، وفرّق عليه شمله، ولم يأت من الدنيا إلا ما قُدّر له، فلا يمسي إلا فقيراً، ولا يصبح إلا فقيراً، وما أقبل عبد على الله بقلبه، إلا جعل الله قلوب العباد تنقاد إليه

بالودِّ والرحمة، وكان الله بكل خير إليه أسرع^(١).

الْبَاقِيَّاتُ الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ مِنَ الْمَالِ وَالْبَنِينَ

٤٦- ﴿الْمَالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَالْبَاقِيَّاتُ الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ عِنْدَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلًا﴾

وبعد أن بيَّن الله ﷻ أن هذه الدنيا وما فيها من زخرف ومتاع إلى زوال سريع، بيَّن جلياً شأنه أن الزينة تتمثل في عنصرين أساسيين، هما:

المال، والبنون، فهما مصدران للجمال والقوة في الحياة، وهما أيضاً سبب الفتنة ﴿أَنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ﴾ [التغابن: ١٥].

والمال: اسم لكل ما يتموِّله الإنسان، ويتملّكه، من النقود والعقار والحرث والأنعام، قال تعالى: ﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنْطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالْأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ذَلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاللَّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الْمَتَابِ﴾ [آل عمران: ١٤].

وهكذا فإن في الدنيا نوعان: نوع يزول بعد الانتفاع به قليلاً وهو المال والبنون، ونوع يبقى وينفع صاحبه على الدوام، وهو الباقيات الصالحات.

ثم إن الله تعالى وجَّه عباده إلى العمل الذي يبقى ويثمر، ويعود على الإنسان بالفائدة الدائمة التي لا تنقطع، وهو العمل الصالح المتمثل في الباقيات الصالحات، بما يشمل جميع الطاعات الواجبة والمستحبة من حقوق الله تعالى وحقوق العباد.

أحاديث في الباقيات الصالحات:

والباقيات الصالحات هي أعمال الخير، من الفروض والنوافل، ووجوه البر والطاعات، وصلة الرحم، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وبر الوالدين، ومن ذلك التسبيح والتحميد والتهليل والتكبير والحوقة، أي: قول: لا حول ولا قوة إلا بالله:

(١) «المسند» (٢١٥٩٠)، بإسناد صحيح (محققه)، وأخرجه ابن أبي عاصم في السنة (٩٤) وفي الزهد (١٦٣) وابن حبان (٦٧) والدارمي (٢٢٩) وأبو داود (٣٦٦٠) وابن ماجه (٤١٠٥) والطبراني في الكبير (٤٨٩٠، ٤٨٩١) والبيهقي في الشعب (١٧٣٦) والترمذي (٢٦٥٦) والطحاوي في شرح مشكل الآثار (١٦٠٠).

- ١- فقد جاء في حديث أبي سعيد أن النبي ﷺ قال: «استكثروا من الباقيات الصالحات»، قيل: وما هن يا رسول الله؟ قال: «التسبيح والتحميد والتهليل والتكبير ولا حول ولا قوة إلا بالله»^(١) أي: هذه الخمس المذكورة
- ٢- وجاء في الأثر: إنكم إن عجزتم عن مكابدة الليل ومجاهدة العدو، فلا تعجزوا عن قول: سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم^(٢).
- ٣- وفي صحيح مسلم، وغيره: عن أبي هريرة أن النبي ﷺ قال: «لأن أقول: سبحان الله، والحمد لله، ولا إله إلا الله، والله أكبر، أحب إلي مما طلعت عليه الشمس»^(٣).
- ٤- وتوضأ عثمان ؓ، ثم أخبر أنه رأى رسول الله ﷺ يتوضأ مثل وضوئه، ثم قال: من توضأ وضوئي هذا، ثم قام ف صلى صلاة الظهر غُفِرَ له ما كان بينها وبين الصبح - وذكر بقية الأوقات - ثم قال: وهُنَّ الحسنات يذهبن السيئات، قالوا: هذه الحسنات، فما الباقيات الصالحات يا عثمان؟ قال: هي: لا إله إلا الله، وسبحان الله، والحمد لله، والله أكبر، ولا حول ولا قوة إلا بالله^(٤).
- ٥- وجاء عن رسول الله ﷺ من حديث أبي سلمى، راعي رسول الله ﷺ أنه قال: «بخ بخ لخمس، ما أثقلهن في الميزان: لا إله إلا الله، والله أكبر، وسبحان الله، والحمد لله، والولد الصالح يُتَوَفَّى، فيحتسبه والده، بخ بخ لخمس، من لقي الله مستيقناً بهن دخل
-
- (١) يُنظَر: «المسند» (٧٥/٣) من حديث دراج برقم (١١٧١٣) وهو حديث حسن لغیره، (محققوه) والطبري في التفسير (١٦٧/١٥) عن أبي سعيد، وأخرجه أبو يعلى (١٣٨٤) وابن حبان (٨٤٠) والحاكم (١/٥١٢)، والطبراني في الدعاء (١٦٩٦) والبغوي في شرح السنة (١٢٨٢) والبيهقي في الشعب (٦٠٥).
- (٢) أخرجه ابن مردويه عن أبي هريرة كما في «الدر» (٥٥٥/٩).
- (٣) «صحيح مسلم» برقم (٢٦٩٥) وابن أبي شيبه (٢٨٨/١٠).
- (٤) تفرد به أحمد في «المسند» (٧١/١) برقم (٥١٣) قال الشيخ محمود شاكر في حاشية الطبري: إسناده صحيح، ورقمه: (١٨٦٦٢)، وقال الهيثمي في «مجمع الزوائد» (٢٩٧/١): رجاله رجال الصحيح غير الحارث مولى عثمان وهو ثقة، وأخرجه البزار (٤٠٥) والطبري (١٣٢/١٢) وحسن إسناده محققو المسند، وفيه الحارث أبو صالح، مولى عثمان، وباقي رجاله ثقات رجال الصحيح.

الجنة: يؤمن بالله، واليوم الآخر، وبالجنة والنار، وبالبعث بعد الموت، وبالحساب»^(١).

٦- وقال ﷺ فيما يرويه شداد بن أوس رضي الله عنه: «إذا كنز الناس الذهب والفضة، فاكثروا هؤلاء الكلمات: اللهم إني أسألك الثبات في الأمر، والعزيمة على الرشد، وأسألك شكر نعمتك، وأسألك حسن عبادتك، وأسألك قلباً سليماً، وأسألك لساناً صادقاً، وأسألك من خير ما تعلم، وأعوذ بك من شر ما تعلم، وأستغفرك لما تعلم، إنك أنت علام الغيوب»^(٢).

٧- وعن سُمرة بن جندب رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «أحب الكلام إلى الله أربع: سبحان الله، والحمد لله، ولا إله إلا الله، والله أكبر، لا يضرُّك بأيهنَّ بدأت»^(٣).

وورد هذا التفسير عن عدد من الصحابة: كعثمان، وعلي، وابن عباس رضي الله عنه، وعن عدد من التابعين: كسعيد بن المسيب، وعطاء بن أبي رباح، وسعيد بن جبير وغيرهم، وهذه الألفاظ الأربعة تدخل ضمن الأعمال الصالحة، فهي منها.

أخرج الطبري بسند حسن عن علي بن أبي طلحة عن ابن عباس رضي الله عنه قال: ﴿وَالْبَقِيَّةُ الْفَالِحَةُ﴾ هي ذكر الله، قول: لا إله إلا الله، والله أكبر، وسبحان الله، والحمد لله، وتبارك الله، ولا حول ولا قوة إلا بالله، وأستغفر الله، وصلى الله على رسول الله، والصلاة، والصيام، والحج، والصدقة، والعق، والجهاد، والصلة، وجميع أعمال الحسنات، وهن الباقيات الصالحات التي تبقى لأهلها في الجنة، ما دامت السموات والأرض.

(١) أخرجه أحمد في «المسند» عن أبي سلام عن مولى لرسول الله ﷺ هو أبو سلمى راعي رسول الله ﷺ (٢٣٧/٤) برقم (١٥٦٦٢، ١٨٠٧٦) وعن رجل برقم (١٥٨٨٣) وهو حديث صحيح رجاله رجال الصحيح (محققوه) وقال الهيثمي في «مجمع الزوائد» (٨٨/١٠): رجاله رجال الصحيح.

(٢) من حديث شداد بن أوس في «المسند» (١٢٣/٤) برقم (١٧١١٤) و«سنن النسائي» بنحوه برقم (١٢٢٧)، وابن أبي شيبه (٢٧١/١٠) وابن حبان (٩٣٥) والطبراني (٧١٥٧) وأبو نعيم في الحلية (٢٦٦/١) والحاكم (٥٠٨/١) قال محققو المسند: حديث حسن بطرقه، وهذا إسناد ضعيف لانقطاعه، حسان بن عطية لم يدرك شداد بن أوس، ورجال الإسناد ثقات رجال الشيخين، فقد أدخل مسلم بن مشكم بين حسان وبين عطية بن شداد.

(٣) مسلم (٢١٣٧) وابن أبي شيبه (٤٤٢/١٠) والنسائي في «السنن الكبرى» (١٠٦٨١، ١٠٦٨٢) والبيهقي في «الأسماء والصفات» (١٠٤٤).

والله ﷻ يبين لنا أن ما في الدنيا من مال ومتاع، زينة زائلة لا تنفع في القبر، ولا تنفع في الآخرة، إلا بما يقدمه العبد لنفسه من عمل صالح، بما ينفق من هذا المال ويدخره لنفسه، وبما يُربي عليه ولده من تربية حسنة، بحيث تعود عليه منه دعوة صالحة بعد مماته، وهذا مما يرجوه العبد من ثواب ينال به في الآخرة ما كان يؤمله في الدنيا.

وهذه الآية كقوله تعالى: ﴿وَالْبَقِيَّةُ الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ عِنْدَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ مَرَدًّا﴾ [مريم: ٧٦]، وقوله: ﴿وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا مَتَعٌ﴾ [الرعد: ٢٦].

فالمال والبنون زينة في الدنيا فقط، والذي يبقى هو الباقيات الصالحات، فهي خير عند ربك ثوابًا وخير أملًا، فهي أفضل من المال والبنين.

مِنْ مَشَاهِدِ الْقِيَامَةِ تَسْيِيرُ الْجِبَالِ

٤٧- ﴿وَيَوْمَ نُسِّرُ^(١) الْجِبَالَ وَتَرَى الْأَرْضَ بَارِزَةً وَحَشَرْنَاهُمْ فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَدًا﴾ (٤٧)

وما دام الحديث عن الباقيات الصالحات، فالله ﷻ يتحدث عن يوم القيامة، وفيه يكون الوزن والثواب لهذه الباقيات الصالحات، فيوم القيامة، يوم تبدل فيه الأحوال، وتتغير فيه الأوضاع، حتى إن الجبال الشُّمَّ، وهي أوتاد الأرض، لتُصبح في خفتها كالصوف المنفوش حين يتطاير في الهواء.

١- قال تعالى: ﴿وَتَكُونُ الْجِبَالُ كَالْعِهْنِ الْمَنفُوشِ﴾ (٥) [القارة].

٢- وقال سبحانه: ﴿وَنَسْأَلُونَكَ عَنِ الْجِبَالِ فَقُلْ يَنْسِفُهَا رَبِّي نَسْفًا﴾ (١٥) [طه].

٣- وقال عز وجل: ﴿وَسُيِّرَتِ الْجِبَالُ فَكَانَتْ سَرَابًا﴾ (١٠) [النبأ].

٤- وقال أيضًا: ﴿يَوْمَ تَمُورُ السَّمَاءُ مَوْرًا﴾ (٩) وَتُسِيرُ الْجِبَالُ سِيرًا (١٠) [الطور].

٥- وقال سبحانه: ﴿وَحُمِلَتِ الْأَرْضُ وَالْجِبَالُ فَدُكَّتَا دَكَّةً وَاحِدَةً﴾ (٧) [الحاقة].

٦- وقال جل شأنه: ﴿وَتَرَى الْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ السَّحَابِ﴾ [النمل: ٨٨].

(١) قرأ ابن كثير وأبو عمرو وابن عامر بقاء مضمومة وياء مشددة مفتوحة في (تُسِيرُ)، على البناء للمفعول ورفع (الجبال) نائب فاعل، والباقون (تُسِيرُ الجبال) بنون مضمومة، وياء مشددة مكسورة، على البناء للفاعل، والجبال مفعول به، منصوب، والفاعل ضمير يعود على الله تعالى.

فاذكر - يا رسولنا - يوم الانقلاب الكوني الكبير، وما يحدث فيه من الأهوال والشدائد، ويكون ذلك بانقراض هذا العالم وإقبال عالم آخر، وذلك حين نُسِرَّ الجبال ونزيلها عن أماكنها، فنجعلها كالعهن المنفوش، ثم تضمحل وتتلاشى حتى تصير هباءً منبثًا، ثم تبرز الأرض فتصير الجبال قاعًا صفصفًا لا ترى فيها عوجًا ولا أمتًا، بعد أن ينسفها ربي نسفًا وترى الأرض بعينيك بارزة ظاهرة، لا يسترها شيء، فليس هناك شيء يُختبأ وراءه، وليس هناك شيء يحجب الإنسان، فالأرض بما عليها من مباني وعمارات وجبال وأشجار وغير ذلك، كل شيء قد زال عن مكانه، وكل ما فيها من مرتفعات ومنخفضات قد سُوي بالأرض، فأنت ﴿لَا تَرَى فِيهَا عِوَجًا وَلَا أَمْتًا﴾ (١٧) [طه].

ويوم القيامة يُحشر الخلق جميعًا في ساحة العدل الإلهية، ويؤتى بهم من شتى أرجاء الأرض للحساب والجزاء، ولا نترك منهم أحدًا

قال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ الْأَوَّلِينَ وَالْآخِرِينَ ﴿٤٩﴾ لَمَجْبُوعُونَ إِلَىٰ مِيقَاتِ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ ﴿٥٠﴾﴾ [الواقعة].

وقال سبحانه: ﴿ذَلِكَ يَوْمٌ مَّجْمُوعٌ لَّهُ النَّاسُ وَذَلِكَ يَوْمٌ مَّشْهُودٌ ﴿١٢٣﴾ وَمَا تُؤَخِّرُهُ إِلَّا لِأَجَلٍ مَّعْدُودٍ ﴿١٢٤﴾ يَوْمَ يَأْتِ لَا تَكَلُمُ نَفْسٌ إِلَّا بِإِذْنِهِ فَمِنْهُمْ شَقِيٌّ وَسَعِيدٌ ﴿١٢٥﴾﴾ [هود].

يجمع الله الأولين والآخرين بعدما تفتتوا وتمزقوا، ويعيدهم خلقًا جديدًا، فيعرضون على ربهم صفًا لينظر في أعمالهم، ويحكم فيهم بحكمه العادل.

وهذه الآية جمعت ثلاثة أهوال من أهوال يوم القيامة:

الهول الأول: نسف هذه الجبال الراسخة وتسييرها كالهباء.

الهول الثاني: استواء الأرض وخلوها من كل ما عليها.

الهول الثالث: حشر الخلق جميعًا، وجمعهم في عرصات القيامة وساحة العدل الإلهية.

الْعَرْضُ فِي سَاحَةِ الْحَشْرِ

٤٨ - ﴿وَعَرِّضُوا عَلَىٰ رَبِّكَ صَفًّا لَقَدْ ﴿١﴾ جِئْتُمُونَا كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ بَلْ زَعَمْتُمْ أَلَّنْ نَجْعَلَ لَكُمْ مَوْعِدًا﴾

(١) أدغم الدال في الجيم من (ولقد جئتمونا) أبو عمرو وهشام وحزمة والكسائي وخلف.

أما الهول الرابع: فهو عَرَضُ الخلائق جميعاً وقيامهم بين يدي رب العالمين يوم القيامة، مضطَّفين صفوفًا كهيتَّهم في الصلاة، كل أمة أو زمرة، صفًا، لا يحجبهم حاجب، ولا يحجب أحد أحدًا، قال تعالى: ﴿يَوْمَ يَقُومُ الرُّوحُ وَالْمَلَائِكَةُ صَفًّا لَا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ وَقَالَ صَوَابًا﴾ (النبا).

ويكون العرض على رب العالمين بعد البعث والحشر في صفوف منتظمة بارزين، ليس هناك ما يحجب أحدًا من الخلق، لا حجر ولا شجر ولا بناء.

١- في الأثر مرفوعًا: عن معاذ بن جبل ؓ أن الله ﷻ يقول يوم القيامة: «يا ملائكتي أقيموا عبادي صفوفًا، على أطراف أنامل أقدامهم للحساب».

٢- وفي الحديث عن أبي هريرة ؓ أن رسول الله ﷺ قال: «يجمع الله الأولين والآخرين في صعيد واحد صفوفًا، يسمعهم الداعي وينفذهم البصر، وتدنو الشمس، فيبلغ الناس من الغم والكرب ما لا يُطيقون ولا يحتملون، فيقول الناس: ألا ترون ما قد بلغكم؟! ألا تنظرون من يشفع لكم إلى ربكم؟! فيقول الناس لبعض: عليكم بآدم^(١)».

كما قال تعالى: ﴿وَجَاءَ رَبُّكَ وَالْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا﴾ (الفجر).

لقد بُعثتم وجئتم إلينا فرادى، حفاة عراة، لا مال ولا ولد، ولا جاه ولا منصب، ولا زوجة، ولا شفعاء، وجئتمونا كما خلقناكم أول مرة، وتركتم ما خولناكم وراء ظهوركم، تركتم ما أعطيناكم في الدنيا، وجئتم حفاة عراة.

٣- في البخاري، وغيره: عن ابن عباس ؓ قال: قام فينا رسول الله ﷺ بموعظة فقال: «يا أيها الناس، إنكم تحشرون إلى الله حفاة عراة غرلاً ﴿كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُعِيدُهُ وَعَدًا عَلَيْنَا إِنَّا كُنَّا فَاعِلِينَ﴾ [الأنبياء: ١٠٤] ألا إن أول الخلائق يُكسى يوم القيامة: إبراهيم ؑ، ألا وإنه سيُجاء برجال من أمتي، فيؤخذ بهم ذات الشمال، فأقول: يارب أصحابي، فيقول: إنك لا تدري ما أحدثوا بعدك، فأقول: كما قال العبد الصالح:

(١) بطوله أخرجه البخاري برقم (٤٧١٢) ومسلم برقم (١٩٤) عن أبي هريرة.

﴿وَكُنْتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَّا دُمْتُ فِيهِمْ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنْتُ أَنْتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ وَأَنْتَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴿١٧﴾ إِنَّ تَعَذُّبَهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿١٨﴾﴾ [المائدة] قال: فيقال لي: إنهم لم يزلوا مرتدين على أعقابهم منذ فارقتهم^(١).

وفي حديث وكيع، ومعاذ: «فيقال: إنك لا تدري ما أحدثوا بعدك»^(٢).

٤- وفي البخاري وغيره: عن عائشة رضي الله عنها قالت: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «يُحْشَرُ النَّاسُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ حِفَاةَ عِزَّةٍ غَرَلًا»، قلت: يا رسول الله، الرجال والنساء جميعًا، ينظر بعضهم إلى بعض؟ قال: «يا عائشة، الأمر أشد من أن ينظر بعضهم إلى بعض»^(٣).

زاد النسائي: ﴿لِكُلِّ أَمْرٍ مِنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ﴾ [عبس].

والغُرُل: هو المختون، مقطوع الفلفة التي تؤخذ من جلدة الذكر.

والْبُهْم: هو الذي لا شيء معه، وأهل الردة، من ارتدوا عن الإسلام - والعياذ بالله.

ثم انتقلت الآية إلى تعنيف أشد وأقسى، وهو إنكار البعث والتكذيب به، كما قال تعالى: ﴿وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَا يَبْعَثُ اللَّهُ مَنْ يَمُوتُ﴾ [النحل: ٣٨]. حيث ظن المشركون أن الله تعالى لم يجعل لهم موعدًا للبعث والحساب والجزاء على الأعمال والأقوال.

ويشبه هذه الآية قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَادَى كَمَا خَلَقْتُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَتَرْكُم مَّا خَوَّلْتُمْ وَرَاءَ ظُهُورِكُمْ﴾ [الأنعام: ٩٤]. وقوله: ﴿وَكُلُّهُمْ آتِيهِ يَوْمَ الْفَيْصَةِ فَرْدًا﴾ [٩٥] [مريم].

ولما أنكر المكذبون بالبعث والحساب والجزاء على الأقوال والأعمال، تحقق وعد الله تعالى ووعيده، فهذه صحف الأعمال التي سجلتها الملائكة، تطير لها القلوب، وتعظم لها الكروب، ويشفق منها المجرمون، يوم يقوم الناس لرب العالمين:

(١) صحيح مسلم (٢٨٦٠).

(٢) «صحيح البخاري» برقم (٣٤٤٧، ٤٦٢٥، ٤٧٤٠) و«صحيح مسلم» برقم (٢٨٦٠).

(٣) «صحيح البخاري» برقم (٦٥٢٧) ومسلم برقم (٢٨٥٩).

نَشْرُ الصُّحُفِ

٤٩- ﴿وَوُضِعَ الْكِتَابُ فَتَرَى^(١) الْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَا وَيْلَتَنَا مَا لَ هَذَا الْكِتَابِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا وَلَا يَظُنُّ رَبُّكَ أَحَدًا﴾ (٤٩)

وأحضرت صحف الأعمال، وجيء بالنبيين والشهداء، وجمع الله الأولين والآخرين، جمع الله الرسل وجمع الأمم ﴿وَوُضِعَ الْكِتَابُ﴾ أي: جيء باللوح المحفوظ، وهو الأصل، وجيء بصحف العباد، كلُّ يأخذ كتابه، فالمراد: صحف العباد التي سجلها الحفظة عليهم، المؤمن يأخذ كتابه يمينه، نسأل الله ذلك، والكافر يأخذه بشماله، نعوذ بالله من ذلك.

قال تعالى: ﴿فَأَمَّا مَنْ أَوْفَىٰ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ﴾ (٧) ﴿فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا﴾ (٨) ﴿وَنَقَلُبُ إِلَىٰ أَهْلِهِ مَسْرُورًا﴾ (٩) ﴿وَأَمَّا مَنْ أَوْفَىٰ كِتَابَهُ وَرَاءَ ظَهْرِهِ﴾ (١٠) ﴿فَسَوْفَ يَدْعُوا ثُبُورًا﴾ (١١) وَيَصِلَىٰ سَعِيرًا﴾ (١٢) [الانشقاق].

والمجرم الذي ظلم نفسه، وأسرف على نفسه بالكفر والمعاصي، وأخذ كتابه بشماله، خائف وجل مما يقرؤه في صحيفة أعماله ﴿فَتَرَى الْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ﴾ حين يقرؤون الكتاب ويقولون ندمًا وتحسرًا: يا ويلتنا ما لهذا الكتاب لم يترك صغيرة من أعمالنا ولا كبيرة إلا أحصاها وأثبتها؟! كما قال تعالى: ﴿وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَمَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَإِنْ كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَىٰ بِنَا حَاسِبِينَ﴾ (٤٧) [الأنبياء]. ﴿يُسْأَلُنَّ أَلْسِنُهُنَّ يَوْمَئِذٍ بِمَا قَدَّمْنَ وَآخَرُ﴾ (١٣) [القيامة].

والنصوص الشرعية تفيد: أن المؤمن الذي يحافظ على الصلوات الخمس، وصلاة الجمعة، ويؤدي زكاة ماله، ويحج ويعتمر، ويصوم رمضان، فإن هذه الأعمال تكفر ما بينها من صغائر الذنوب، كما أن اجتناب الكبائر يكفر الصغائر، قال تعالى: ﴿إِنْ تَجَتَنَّبُوا كَبَائِرَ مَا نُهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَنُدْخِلْكُم مِّدْخَلًا كَرِيمًا﴾ (٣١) [النساء].

أما الذي يصير على الذنوب الصغيرة، ويتهاون بها، ويستمر على فعلها مع العزم عليها،

(١) أمال حمزة والكسائي وخلف وأبو عمرو وابن ذكوان بخلف عنه الراء من (فتري المجرمين) عند الوقف عليها، وقللها ورش، وأمالها عند الوصل السوسي بخلف عنه.

فإن هذه الذنوب الصغيرة تجتمع على العبد يوم القيامة حتى تهلكه.

في أعقاب غزوة حنين، جلس النبي ﷺ وطلب من أصحابه أن يجمعوا له أعوادًا من حطب، وفي ساعة واحدة جمعوا له شيئًا كثيرًا، فقال ﷺ فيما يرويه سهل بن سعد ؓ: «إياكم ومُحَقَّرَاتِ الذنوب، فإنما مثل مُحَقَّرَاتِ الذنوب، مثل قوم نزلوا بطن وادٍ، فجاء ذا بعود، وجاء ذا بعود، حتى أنضجوا خُبْزَهم، وإن مُحَقَّرَاتِ الذنوب متى يؤخذ بها صاحبها تُهْلِكُ»^(١).

فقد بين النبي ﷺ أن من يستقل الذنب الصغير، ويصير تافهًا يسيرًا في نظره، فهو بالنسبة له من الموبقات، أي: من كبائر الذنوب المهلكة؛ لأن الإصرار على الصغيرة يجعلها كبيرة، بالنسبة لمن أصر وداوم عليها، وكل إنسان يجد ما قدّمه في صحيفة عمله، فيتمنى أن يقترب منه عمله الصالح، ويبتعد عنه عمله السيئ، كما قال تعالى: ﴿يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّخَضَّرًا وَمَا عَمِلَتْ مِنْ سُوءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُ أَمَدًا بَعِيدًا﴾ [آل عمران: ٣٠]. فهو يتمنى أن يفارقه هذا العمل السيئ، وأن يكون بينهما أمد بعيد ﴿وَلَا يَظَلُّ رُبُّكَ أَحَدًا﴾ فلا تزر وازرة وزر أخرى، وليس هناك من صاحب ذنب يزداد في سيئاته، ولا صاحب حسنات ينقص من أجره، وعندئذ يحاسبون، ويجزون بأعمالهم وما قدمت أيديهم من خير أو شر.

ومعنى الآية: ووضِعَ كتاب أعمال كل واحد في يمينه أو شماله، وعُرضت عليهم أعمالهم، فتُبصر العصاة يومئذ خائفين من صحائف أعمالهم؛ بسبب ما قدموه من الجرائم والخطايا، وحينما يعاينون أعمالهم القبيحة في صُحفهم يندمون ويتحسرون، ويخافون من العقاب ويقولون: يا هلاكنا، ثم يتعجبون من كون هذا الكتاب لم يترك صغيرة ولا كبيرة من أفعالهم وأقوالهم إلا أثبتها وسجلها.

ووجدوا ما عملوه في الدنيا مسجلاً ومسطراً، حاضراً مثبِتاً أمام أعينهم، يجازيهم الله عليه من ثواب أو عقاب، من غير نقص في ثواب المطيع، ولا زيادة في عقاب العاصي، بل يغفر سبحانه ويصفح ويرحم، ويعذّب من يشاء بعدله وحكمته.

(١) «المسند» (٢٢٨٠٨) قال محققوه: إسناده صحيح، رجاله رجال الشيخين، وأخرجه الطبراني في «الكبير» (٥٨٧٢) و«الأوسط» (٧٣١٩) و«الصغير» (٩٠٤) والبيهقي في «الشعب» (٧٢٦٧) والبخاري في «شرح السنة» (٤٢٠٣).

﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ وَإِنْ تَكَ حَسَنَةً يُّضَاعِفْهَا وَيُؤْتِ مِنْ لَدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ [النساء].

جاء في حديث عبد الله بن أنيس رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «يحشر الناس يوم القيامة عراة غرلاً بُهَمًا»، قلت: وما بُهَمًا؟ قال: «ليس معهم شيء»، ثم يناديهم بصوت يسمعه من بُعد، كما يسمعه من قُرب: أنا الملك، أنا الديان، لا ينبغي لأحد من أهل النار أن يدخل النار وله عند أحد من أهل الجنة حق حتى أَقْصَهُ منه، ولا ينبغي لأحد من أهل الجنة أن يدخل الجنة وله عند رجل من أهل النار حق حتى أَقْصَهُ منه، حتى اللَّطْمَةُ، قال: قلنا: كيف؟ وإنما تأتي الله عراة غرلاً بُهَمًا؟ قال: «بالحسنات والسيئات»^(١).

وقد اشترى جابر بن عبد الله رضي الله عنه بغيراً وسار عليه شهراً إلى الشام؛ ليسأل ابن أنيس عن هذا الحديث، وقال له: خشيت أن تموت أو أموت قبل أن أسمعه.

عَدَاوَةُ الشَّيْطَانِ وَذُرِّيَّتِهِ لِبَنِي آدَمَ

٥٠- ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ (٢) اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ أَفَتَتَّخِذُونَهُ وَذُرِّيَّتَهُ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِي وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّ بِئْسَ لِلظَّالِمِينَ بَدَلًا﴾

قال بعض أهل العلم: إذا كانت الخطيئة أو المعصية التي يرتكبها الإنسان بسبب الكبر، فإنه لا تُرجى له توبة، كما وقع ذلك من إبليس، فقد كان امتناعه عن السجود وعدم امتثاله لأمر الله تعالى؛ بسبب كِبَرِهِ وَعُلُوِّهِ عَلَى آدَمَ ﷺ.

وكما يحدث ذلك من اليهود، والنصارى، وسائر الكفار والمشركين، الذين لم يؤمنوا بخاتم الرسل ﷺ، عنادًا وجحودًا وكبرًا، وما منعهم من الإيمان به إلا الكبر.

قالوا: وإذا كانت الخطيئة أو المعصية التي يرتكبها الإنسان بسبب الشهوة ونحوها، فإن توبتهم تُرتجى، ولذا كانت معصية آدم ﷺ حين أكل من الشجرة بسبب شهوة نفسه،

(١) أخرجه أحمد في «المسند» (٤٩٥/٣) برقم (١٦٠٤٢)، بإسناد حسن، وأخرجه الحافظ في تعليق التعليق (٣٥٥/٥) وهو عند الحاكم (٤٣٧/٢) والبخاري في الأدب المفرد (٩٧٠) وابن عبد البر في بيان العلم ص (١٢٢) وابن أبي عاصم في السنة (٥١٤).

(٢) قرأ أبو جعفر بخلف عن ابن وردان بضم التاء وصلًا من (للملائكة اسجدوا) وقرأ ابن وردان في وجهه الثاني بإشمام كسرتها للضم، والباقون بالكسر الخالص.

وسرعان ما رجع إلى ربه فتاب، وقَبِلَ الله توبته.

والآية التي نتحدث عن المعصية سقت بمناسبة الحديث عن المتكبرين من أرباب الجاه والأموال، ممن أنفوا واستكبروا عن مجالسة الضعفاء والفقراء، وطلبوا من رسول الله ﷺ أن يُعدهم عن مجلسه؛ حتى ينفردوا بالجلوس معه.

وكما وعظنا الله تعالى بأول أيام الآخرة في الآيات السابقة، ذكرنا في هذه الآية بأول أيام الدنيا، حين خُلِقَ آدم ﷺ، وفي هذا تمهيد وتوطئة لقوله تعالى بعد ذلك: ﴿وَيَوْمَ يَقُولُ نَادُوا شُرَكَائِيَ الَّذِينَ زَعَمْتُمْ﴾ الآية [٥٢].

فضرب الله سبحانه مثلاً بِكِبَرِ صاحب الجنتين وترفعه على أخيه.

وضرب مثلاً - ثانياً - بقيمة هذه الحياة ووزنها عند الله سبحانه.

وضرب مثلاً - ثالثاً - بِكِبَرِ إبليس، ويبيّن أن هذا الكبر، هو السبب الذي من أجله طُرد إبليس من الجنة، وخرج من رحمة الله سبحانه، وقد ذُكرت هذه القصة كثيراً في القرآن، وفي كل مرة تشتمل على شيء لا تشتمل عليه في المواضع الأخرى.

والآية نص صريح في أن إبليس لم يكن من الملائكة، وأنه كان من الجن، فكل ما استتر عن العين فهو جنٌّ، ولذلك فإن الملائكة يقال لهم: جَنَّةٌ؛ لأنهم أيضاً مستترون عن العين لا نراهم، كما قال تعالى: ﴿وَجَعَلُوا بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْجَنَّةِ نِجَابًا﴾ [الصافات: ١٥٨].

والجَنَّةُ هم الملائكة، وكانت قريش تقول: الملائكة بنات الله.

وإبليس خُلِقَ كما ذكر القرآن الكريم من مارج من نار، قال تعالى:

﴿خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ صَلْصَلٍ كَالْفَخَّارِ ۖ وَخَلَقَ الْجَانَّ مِنْ مَّارِجٍ مِنْ نَّارٍ﴾ [الرحمن].

وخُلِقَتِ الملائكة من نور، كما صح ذلك عن رسول الله ﷺ من حديث عائشة ؓ أن رسول الله ﷺ قال: «خُلِقَتِ الملائكة من نور، وخُلِقَ إبليس من مارج من نار، وخُلِقَ آدم مما وُصف لكم»^(١).

وآدم أصل البشر، وإبليس أصل الجن، فهو مخلوق من عنصر آخر، وخُلِقَ الإنسان مما

(١) «صحيح مسلم» برقم (٢٩٩٦).

وُصِفَ لكم، أي: من التراب والطين، والملائكة معصومون من الكفر الذي وقع فيه إبليس، فليس في وسعهم أن يَعصوا ربهم، ولا أن يَفْسُقُوا، أو يخرجوا عن طاعته سبحانه، فهم ﴿لَا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ [التحریم: ٦].

وقد فسق إبليس وخرج عن طاعة الله سبحانه بامتناعه عن السجود لله الذي خلق آدم، أو من سجوده سجود تحية لآدم.

قيل: إن المراد بالسجود: السجود المعروف بوضع الجبهة على الأرض كما في الصلاة، وهو سجود عبادة لله تعالى وتحية لآدم.

وقيل: المراد بالسجود: الانحناء والإيماء نحو الأرض.

وكان إبليس مخالطاً للملائكة ومقيماً بينهم، وكان يتوسم أفعالهم ويتشبه بهم، ويتعبد ويتنسك مثلهم.

ولذا فإنه دخل في الخطاب الذي وجهه الله تعالى إلى الملائكة بأمره لهم بالسجود لآدم، وعندئذ نضح كل إناء بما فيه: فاستجابت الملائكة، وعصى إبليس ربه فخالف أمره، فاستكبر وكان من الكافرين، وقال: ﴿أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ﴾ [الأعراف: ١٢] وقال ﴿أَسْجُدْ لِمَنْ خَلَقْتَ طِينًا﴾ [الإسراء: ١١] فتبين بهذا عداوته لله، وعداوته لآدم، وعداوته لذريته، فكيف تتخذونه وذريته أولياء من دون الله.

ولذا: تعجب الله سبحانه في الآية ممن يتبع خطوات الشيطان، ويسلك طريقه، بعد أن ظهر له خروج إبليس عن طاعة ربه، ولإبليس ذرية يتبعون نهجه، وينفذون أمره.

وقد جاء عن مجاهد أن من ذريته (الأعور) الذي يحبب في الزنى، و(ولهان) موسوس الطهارة، و(مطوس) مزيّن الأراجيف، و(داسم) يأكل مع كل من لم يسم الله، و(زلنبور) يزيّن اللغو والحلف الكاذب، وفي الحديث: أن موسوس الصلاة اسمه (خنزب) وهكذا:

١- أخرج الترمذي عن أبي بن كعب رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «إِنَّ لِلْوُضوءِ شَيْطَانًا يَقَالُ لَهُ: الْوُلْهَانُ، فَاتَّقُوا وَسَاوِسَ الْمَاءِ»^(١).

(١) «سنن الترمذي» برقم (٥٧) قال أبو عيسى: حديث أبي بن كعب، حديث غريب وليس إسناده بالقوي عند أهل الحديث؛ لأننا لا نعلم أحداً أسنده غير خارجة، وقد روي هذا من غير وجه عن الحسن، وفي الباب عن عبد الله بن عمرو، وعبد الله بن مغفل.

٢- وفي صحيح مسلم: عن عثمان بن أبي العاص رضي الله عنه قال: قلت: يا رسول الله، إن الشيطان قد حال بيني وبين صلاتي، وبين قراءتي يُلبّسها عليّ، فقال رسول الله ﷺ: «ذاك شيطان يقال له: خِزْب، فإذا أحسسته فتعوّذ بالله منه، واتفل عن يسارك ثلاثاً»، قال: ففعلت ذلك فأذهبه الله عني^(١).

٣- وفي صحيح مسلم: عن جابر رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إن إبليس يضع عرشه على الماء، ثم يبعث سراياه، فأدناهم منه منزلة أعظمهم فتنة، يجيء أحدهم فيقول: فعلت كذا وكذا، فيقول: ما صنعت شيئاً، ثم يجيء أحدهم فيقول: ما تركته حتى فرّقت بينه وبين امرأته، قال: فيدنيه منه، ويقول: نعم أنت» قال الأعمش: أراه قال: «فيلتزمه»^(٢) أي: يحتضنه ويقبله.

ولذا يقول سبحانه: بعد أن تبين لكم هذا، أفصح منكم أن تتخذوا إبليس وذريته أولياء من دوني، فتتبعوا إشاراتهم وتطيعوهم وتقدموهم على موالاة الله سبحانه، وهم الذين استبدلوا بطاعة الله طاعة إبليس وأعوانه؟! وقد نهاهم الله عنها في قوله: ﴿أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَنْبِئَ ءَادَمَ أَن لَّا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾ (٦٦) وَأَنِ اعْبُدُونِي هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ (٦٧) وَلَقَدْ أَضَلَّ مِنْكُمْ جِبِلًّا كَثِيرًا أَفَلَمْ تَكُونُوا تَعْقِلُونَ (٦٧) [يس].

وقال تعالى: ﴿فَرِيقًا هَدَىٰ وَفَرِيقًا حَقَّ عَلَيْهِمُ الضَّلَالَةُ إِنَّهُمْ اتَّخَذُوا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ مِن دُونِ اللَّهِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ﴾ (٣٠) [الأعراف]

وقال تعالى: ﴿وَإِنَّ الشَّيَاطِينَ لَيُوحُونَ إِلَىٰ أَوْلِيَائِهِمْ لِيُجِدُوا لَكُمْ وَإِن أَطَعْتُمْهُمْ إِنَّكُمْ لَمَشْرِكُونَ﴾ [الأنعام: ١٢١]. فبئس ما اختار الإنسان لنفسه من ولاية الشيطان، وهو لا يأمر إلا بالفحشاء، والمنكر، ولا يفعل ذلك إلا ظالم لنفسه ﷻ وَلِئِذِ ابْتَلَىٰ الْفِرْعَوْنَ بِطَوَافِقٍ مِّنَ النَّارِ بِأَن يَخْرُجَهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أُولَئِكَ لَظَالِمُونَ يُخْرِجُونَهُم مِّنَ النُّورِ إِلَى الظُّلُمَاتِ أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ [البقرة: ٢٥٧]

(١) «صحيح مسلم» برقم (٢٢٠٣).

(٢) «صحيح مسلم» برقم (٢٨١٣).

اللَّهُ تَعَالَى هُوَ الْمُتَفَرِّدُ بِالْخَلْقِ

٥١- ﴿مَا أَشْهَدُهُمْ^(١) خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَا خَلَقَ أَنْفُسِهِمْ وَمَا كُنْتُ^(٢) مُتَّخِذَ الْمُضِلِّينَ عَضُدًا﴾

والله جلَّ شأنه هو الذي تفرَّد بخلق هذا العالم، ورزقه وأنعم عليه بالنعم الظاهرة والباطنة ﴿هَذَا خَلْقُ اللَّهِ فَأَرُونِي مَاذَا خَلَقَ الَّذِينَ مِنْ دُونِهِ﴾ [لقمان: ١٠].

وهو سبحانه لم يُحضِر أحدًا من الشياطين، ولا من المضلين، ولا من الجن وذريتهم، وقت هذا الخلق، ولم يشاركه أحد في الخلق والإلهية، فقد خلق الله السموات والأرض قبل خلق سُكَّانِهما، ولم يحضُرْه أحد، فيشاهده أو يشاوره، أو يستعين به على خلق السموات والأرض، وما فيهما وما بينهما وإنما انفرد سبحانه بخلق هذا الكون.

﴿مَا أَشْهَدُهُمْ﴾ أي: لم أحضرهم، ولم أَسْتَشِرْهم، ولم أَسْتَعِنْ بهم على ﴿خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ ولا على خلق بعضهم، ﴿وَمَا كُنْتُ مُتَّخِذَ الْمُضِلِّينَ﴾ عن سبيلي من الشياطين وغيرهم أعوانًا وأنصارًا في شأن من شؤوني، فكيف تطيعونهم من دون الله؟! وليس له سبحانه وزير ولا مُعين، ولا أحد يشاركه في خلقه، فهو سبحانه الذي ينفرد بالعبادة، وغير الله تعالى لا يملك مثقال ذرة في هذا الكون ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَنْ يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَلَوْ اجْتَمَعُوا لَهُ وَإِنْ يَسْلُبْهُمُ الذُّبَابُ شَيْئًا لَا يَسْتَفِيدُوا مِنْهُ﴾ [الحج: ٧٣].

﴿قُلْ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِنْ شِرْكٍ وَمَا لَهُ مِنْهُمْ مِنْ ظَهِيرٍ﴾ [سبأ].

وكان أهل الجاهلية يعتقدون أن في الأرض جنًّا يتصرفون فيها، فكانوا إذا نزلوا واديًا مهجورًا يستعيذون بعزير هذا الوادي، أي: بسيده من الجن؛ ليكونوا في مأمن من ضره، وقد ذكر الله ذلك في قوله تعالى: ﴿وَأَنَّهُ كَانَ رِجَالٌ مِنَ الْإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِنَ الْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا﴾ [الجن: ١]. أي: زادوهم خوفًا على خوفهم.

(١) قرأ أبو جعفر (ما أشهدناهم) بنون بعدها ألف، على الجمع، والباقون (ما أشهدتهم) بالتاء المضمومة من غير ألف، على إسناد ضمير المتكلم إلى الله تعالى.

(٢) قرأ أبو جعفر بفتح التاء من (وما كنت) خطابًا للنبي ﷺ، والمراد: أمته، والباقون بضم التاء إخبارًا من الله تعالى عن ذاته المقدسة.

فهؤلاء الشياطين الذين عبدتهم بعض الناس من دون الله، لم يشهد بعضهم خلق بعض، فقد خلقت السموات والأرض قبل وجودهما، ولم يكونوا شركاء أو أعواناً لله تعالى في شيء من مخلوقاته، وهم لا يملكون جلب نفع لكم، ولا دفع ضرر عنكم، فهم عبيد أمثالكم، فكيف تطيعونهم من دون الله؟!

إن ذلك لا يليق بالكمال الإلهي المطلق، فهو وحده المستحق للعبادة دون سواه، ولا يليق بصاحب الكمال المطلق أن يتخذ له أعواناً وأنصاراً ﴿وَمَا كُنْتَ مَتَّخِذَ الْمُضِلِّينَ عَضُدًا﴾ أي: أعواناً وأنصاراً، كما قال تعالى عن نبيه موسى عليه السلام: ﴿سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ﴾ [القصص: ٣٥]. وقد تبرأ موسى عليه السلام من أن يكون ناصرًا ومعينًا للمجرمين ﴿قَالَ رَبِّ بِمَا أَفْعَمْتُ عَلَىٰ فَلَن أَكُونَ ظَهِيرًا لِّلْمُجْرِمِينَ﴾ [القصص: ١٧].

عَجَزُ الْأَلْهَةِ عَنْ إِغَاثَةِ مَنْ عَبَدُوهُمْ

٥٢- ﴿وَيَوْمَ يَقُولُ^(١) نَادُوا شُرَكَائِيَ الَّذِينَ زَعَمْتُمْ فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُمْ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُم مَّوْبِقًا﴾

ولما أبطل الله الشرك وذكر حال المشركين، حكم عليهم بالجهل والسفه، وهذه الآية فيها وعيد لكل من أشرك بالله تعالى، وقد بين الله سبحانه فيها مشهداً من مشاهد يوم القيامة على رؤوس الأشهاد، وهو الموقف الذي يكون بين الشركاء مع من أشركوهم مع الله تعالى، أي: بين العابدين والمعبودين.

وهذا انتقال من إبطال عبادة الشياطين والجن إلى إبطال إلهية جميع الآلهة التي عبدها المشركون، مع ما يعترهم من الخزي يوم القيامة في عرصاتهما، حيث يقال لهم: نادوا شركائي الذين أشركتموهم مع الله تعالى في عبادته كذباً وافتراء، وزعمت أنهم شركاء لله في أرضه، ادعوهم ونادوهم، فرداً فرداً بأسمائهم، فقد زعمت أنهم شركاء لله في الطاعة والعبادة، ادعوهم لينصروكم اليوم مني، وليمنعوا عنكم العذاب وينفعوكم فاستغاثوا بهم، فلم يغيثوهم، ولم يجيبوهم ولم ينصروهم ﴿فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُمْ﴾ لأن الملك والحكم لله وحده.

(١) قرأ حمزة بنون العظمة في (نقول)؛ لمناسبة (وإذ قلنا)، وقرأ الباقون (يقول) بالياء على أن الفعل مسند إلى ضمير يعود على (ربك) من قوله تعالى: (وعرضوا على ربك صفاً).

وقد وضح الله تعالى عدم استجابة مَنْ زعموهم شركاء لله سبحانه، إذا دَعَوْهم يوم القيامة واستغاثوا بهم لينصروهم، ويمنعوهم من عذاب الله، فلم يستجيبوا لهم، في مثل قوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَائِيَ الَّذِينَ كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ ﴿٦٢﴾ قَالَ الَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ رَبَّنَا هَؤُلَاءِ الَّذِينَ أَغْوَيْنَا أَغْوَيْنَهُمْ كَمَا غَوَيْنَا تَبَرَّأْنَا إِلَيْكَ مَا كَانُوا إِيَّانَا يَعْبُدُونَ ﴿٦٣﴾ وَقِيلَ ادْعُوا شُرَكَاءَكُمْ فَدَعَوْهُمُ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُمْ وَرَأَوُا الْعَذَابَ لَوْ أَنَّهُمْ كَانُوا يَهْتَدُونَ ﴿٦٤﴾﴾ [القصص].

وقوله سبحانه: ﴿إِنْ تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا دُعَاءَكُمْ وَلَوْ سَمِعُوا مَا اسْتَجَابُوا لَكُمْ وَيَوْمَ الْقِيَمَةِ يَكْفُرُونَ بَشِرِكِكُمْ﴾ [فاطر: ١٤].

وقوله جلَّ شأنه: ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ مَنْ لَا يَسْتَجِيبُ لَهُ إِلَى يَوْمِ الْقِيَمَةِ وَهُمْ عَنِ دُعَائِهِمْ غَافِلُونَ ﴿٥﴾ وَإِذَا حُشِرَ النَّاسُ كَانُوا لَهُمْ أَعْدَاءً وَكَانُوا بِعِبَادَتِهِمْ كَافِرِينَ ﴿٦﴾﴾ [الأحقاف].

ويوم القيامة يميز بين العابدين والمعبودين، كما قال تعالى: ﴿وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا مَكَانَكُمْ أَنْتُمْ وَشُرَكَاءُكُمْ فَزَيَّلْنَا بَيْنَهُمْ﴾ [يونس: ٢٨].

وقد بيَّن تعالى في هذه الآية أنه يُفصل يوم القيامة بين الناجين والهالكين، بواد عميق بين أهل الهدى وأهل الضلال، وبين أهل الجنة وأهل النار، فقال: ﴿وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ مَوْبِقًا﴾ أي: حاجزًا حصينًا، مهلكًا، وهو واد عميق يحجز ويفصل بين أهل الإسلام وغيرهم.

والموبق: هو المهلك، يقال: أوبقه، أي: أهلكه، ومنه قوله تعالى:

﴿أَوْ يُؤْفَكُهُنَّ بِمَا كَسَبُوا﴾ [الشورى: ٣٤] أي: يهلكهن.

وفي الحديث: عن أبي هريرة: «اجتنبوا السبع الموبقات»^(١)، أي: المهلكات، وفي الحديث أيضًا: «كل الناس يغدو، فبائع نفسه فمعتقها أو موبقها»^(٢)، أي: مهلكها. فالموبق: اسم وادٍ في جهنم، فرَّق الله به بين الهالكين والناجين.

وعندئذ يتبين عداوة العابدين للمعبودين، ويتبرأ بعضهم من بعض، كما قال تعالى ﴿ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَمَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ وَلَيَعَنُ بَعْضُكُمْ بَعْضًا﴾ [العنكبوت: ٢٥].

(١) عن أبي هريرة في البخاري (٢٧٦٦) ومسلم (٨٩) وأبي داود (٢٨٧٤) والنسائي في «السنن الكبرى» (٦٤٦٥).

(٢) من حديث أبي مالك الأشعري في صحيح مسلم (٢٠٣/١) برقم (٢٢٣) وأوله «الطهور شطر الإيمان».

والتفرقة بين المؤمنين والكافرين في الدار الآخرة جاءت في آيات كثيرة:

منها قوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ نَقُومُ السَّاعَةَ يُفَرَّقُونَ﴾ (١٤) [الروم].

وقوله: ﴿وَأَمَنَّا بِأَنَّهَا الْيَوْمَ الْمَجْرُومُونَ﴾ (٥٩) [يس] أي: تميزوا عن المؤمنين.

وقوله: ﴿فَزَيَّلْنَا بَيْنَهُمْ﴾ [يونس: ٢٨] أي: ميّزنا، وفرقنا بينهم بحيث لا يتجاوز أهل النار مكانهم ولا يخرجون منه.

أما الشركاء الذين أشركوهم مع الله تعالى، من عباده الصالحين وأنبيائه، كعزير والمسيح والملائكة، ممن لم يرضوا ولم يقبلوا أن يكونوا شركاء مع الله تعالى، فهم في جنة الله، بخلاف الطواغيت الذين رضوا بالعبادة، أو لم يعرفوا شيئاً عنها، كالحجارة أو الأصنام والأوثان، فهي في النار مع من عبدوهم، كما قال تعالى: ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ﴾ العابد والمعبود كلاهما وقود النار يوم القيامة ﴿أَنْتُمْ لَهَا وَرَدُونَ﴾ (٩٨) قال تعالى: ﴿لَوْ كَانَتْ هَتُولَاءَ إِلَهِةً مَا وَرَدُوهَا وَكُلٌّ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ (٩٩) لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَهُمْ فِيهَا لَا يَسْمَعُونَ (١٠٠).

ثم أخبر سبحانه عمّن يرفضون عبادتهم من عباد الله الصالحين: ﴿إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُمْ مِنَّا الْحُسْنَىٰ﴾ كالملائكة وعيسى وعزير ﴿أُولَٰئِكَ عَنَّا﴾ أي: عن النار ﴿مُبْعَدُونَ﴾ (١٠١) لَا يَسْمَعُونَ حَٰسِيسَهَا ﴿وهو الصوت من بعيد﴾ وَهُمْ فِي مَا أَشْتَهَتْ أَنْفُسُهُمْ خَالِدُونَ ﴿[الأنبياء: ٩٨-١٠٢]. ولجهنم زفير وشهيق، كما بيّن ذلك ﷺ. وبعد أن يميز أهل الجنة من أهل النار، تحق كلمة العذاب على المجرمين، فيرون جهنم قبل دخولها:

لَا بَدِيلَ لِأَهْلِ الْكُفْرِ مِنَ النَّارِ

٥٣- ﴿وَرَاءُ﴾ (١) الْمَجْرِمُونَ النَّارَ فَظَنُّوا أَنَّهُمْ مُوَاقِعُوهَا وَلَمْ يَجِدُوا عَنَّا مَصْرِفًا﴾ (٥٢)

والمجرمون يرون النار الموبقة بأعينهم يوم القيامة، حين يؤتى بها نقاد، أي: تُجْرُ

(١) أمال الرء من (ورأى) وصلأ، شعبة وحمزة وخلف وهشام بخلف عنه، وأمال الرء والهمزة عند الوقف عليها ابن ذكوان وشعبة وحمزة والكسائي وخلف، وأمال الهمزة وحدها أبو عمرو، وقلل ورش الرء والهمزة مع البدل في الهمزة.

بالسلاسل بسبعين ألف زمام، مع كل زمام سبعون ألف ملك يجرونها، فإذا رأى المجرمون النار، أيقنوا بها وتحقق لهم أنهم واقعون فيها لا محالة، فهم يرون النار، والنار تراههم، كما قال تعالى: ﴿إِذَا رَأَتْهُمْ مِنْ مَّكَانٍ بَعِيدٍ سَمِعُوا لَهَا تَغَيُّظًا وَزَفِيرًا﴾ (١٢) أي أنها تحترق حرقاً وغضباً، تريد أهلها ﴿وَإِذَا أُلْقُوا مِنْهَا مَكَانًا ضَيِّقًا مُقَرَّبِينَ دَعَوْا هُنَالِكَ ثُبُورًا﴾ (١٣).
يقول سبحانه: ﴿لَا تَدْعُوا الْيَوْمَ ثُبُورًا وَاحِدًا وَادْعُوا ثُبُورًا كَثِيرًا﴾ [الفرقان].

أخرج ابن حبان وغيره بإسناد حسن عن أبي هريرة ؓ قال: «ينصب للكافر يوم القيامة مقدار خمسين ألف سنة، كما لم يعمل في الدنيا، وإن الكافر ليرى جهنم، ويظن أنها موافقته من مسيرة أربعين سنة»^(١).

﴿وَرَأَى الْمُجْرِمُونَ النَّارَ﴾ فأيقنوا أنهم داخلوها، كما جاء في قوله تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَىٰ إِذِ الْمُجْرِمُونَ نَاكِسُوا رُءُوسِهِمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ رَبَّنَا أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا﴾ [السجدة: ١٢]
فهم سمعوا وأبصروا، ولكنهم لم يجدوا مصرفاً أو معدلاً عنها للانصراف إلى غيرها؛ إذ إنها أحاطت بهم من كل جانب، فلم يقدروا على الهرب منها، فقد أهدت بهم من كل جانب: ﴿لَهُمْ مِنْ قُوَّتِهِمْ ظُلَلٌ مِنَ النَّارِ وَمِنْ تَحْتِهِمْ ظُلَلٌ﴾ [الزمر: ١٦].
فليس هناك ملجأ من الله إلا إليه، وليس هناك من يمنعهم، ولا ينصرهم، ولا يحول بينهم وبين عذاب الله غيره سبحانه.

وهذا في غاية التخويف والترهيب بما ترتعد له الأفئدة والقلوب.

الكَافِرُ لَا يَنْتَفِعُ بِهِذِيَ الْقُرْآنِ

٥٤- ﴿وَلَقَدْ^(٢) صَرَّفْنَا فِي هَٰذَا الْقُرْآنِ لِلنَّاسِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ وَكَانَ الْإِنْسَانُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلًا﴾

(١) ابن حبان في الإحسان برقم (٧٣٥٢) قال محققه: إسناده حسن، وأخرجه أحمد في «المسند» (٧٥/٣) عن أبي سعيد برقم (١١٧١٤) قال محققوه: حسن لغیره، والطبري (٢٩٩/١٥) وأبو يعلى في مسنده برقم (١٣٨٥) والحاكم في «المستدرک» (٥٩٧/٤) وقال: صحيح الإسناد ووافقه الذهبي، وقال الهيثمي في «مجمع الزوائد» (٣٣٦/١٠): إسناده حسن.

(٢) أدغم الدال في الصاد من (ولقد صرفنا) أبو عمرو وهشام وحمزة والكسائي وخلف.

ولقد كان لعموم الناس في الدنيا مصرف عن النار، لو أنهم صرفوا قلوبهم قِل القرآن، ولم ينصرفوا عنه، فقد أنزلنا هذا القرآن على رسولنا ﷺ وكرّرنا وردّدنا فيه الأمثال الكثيرة، ووضّحنا فيه الحجج والبراهين، والوعد والوعيد، والترغيب والترهيب، والقصص والأمثال، والحلال والحرام؛ كي يتعظوا ويؤمنوا، فانتفع به المؤمنون المهتدون، ولم ينتفع به الكفار.

وهنا جملة محذوفة تقديرها: فجادلوا فيه، وجواب هذه الجملة: ﴿وَكَانَ الْإِنْسَانُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلًا﴾ أي: أنه كثير الجدل يخاصم، ويعاند، ويجادل بالباطل، أو بالحجة أو الإقناع؛ ليقاوم الحق، فالجدال يكون بالحسنى ويكون بالباطل، وليس المراد بالإنسان في الآية: الإنسان الكافر؛ لأنه سيأتي -في الآية بعد التالية- أن الكافر يجادل بالباطل ﴿وَيُجَادِلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالْبَاطِلِ لِيُدْحِضُوا بِهِ الْحَقَّ﴾ فدلّ هذا على أن المراد هنا: عموم الإنسان، وأن الجدل منه ما هو مذموم، كما في قوله تعالى: ﴿وَيَقُولُ الْإِنْسَانُ إِذَا مَا مِثٌ لَسَوْفَ أَخْرِجُ حَيًّا ۖ﴾ [مريم].

ومنه ما هو محمود، كما في قوله تعالى: ﴿وَجَاءَتْهُ الْبَشَرَىٰ يُجَادِلُنَا فِي قَوْمِ لُوطٍ﴾ [هود: ٧٤]. وقد يراد بالجدال: الحجة والإقناع، كما في قوله تعالى: ﴿وَلَا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ﴾ [العنكبوت: ٤٦].

وقوله: ﴿قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِي إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَا﴾ [المجادلة: ١]. وقد يراد بالجدال: إبطال الحق، كمحام يجادل في قضية جدلاً مريباً وهو يعلم أنه على باطل، كما قال تعالى عمن خالفوا في الخروج لغزوة بدر: ﴿يُجَادِلُونَكَ فِي الْحَقِّ بَعْدَ مَا بَيَّنَّ كَأَنَّمَا يُسَاقُونَ إِلَى الْمَوْتِ وَهُمْ يَنْظُرُونَ﴾ [الأنفال].

وليس المراد: أن الإنسان أكثر جدلاً من غيره، وإنما المراد: أنه كثير الجدل؛ وذلك لأن الجدل خاص بالإنسان، وهو من شعب النطق.

جاء في الصحيحين وغيرهما: أن النبي ﷺ مرَّ ليلاً ببيت عليٍّ وفاطمة، فطرق بابهما، وقال: «ألا تصليان؟» -يعني: صلاة التهجد- قال علي: يا رسول الله، أنفسنا بيد الله، فإذا شاء أن يبعثنا -أي: يوقظنا من مرقدنا- بعثنا، فانصرف النبي ﷺ وهو غاضب،

يضرب يده على فخذيه، ويقول: ﴿وَكَانَ الْإِنْسَانُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلًا﴾^(١). قال تعالى:

٥٥- ﴿وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَنْ يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمْ^(٢) الْهُدَىٰ وَيَسْتَغْفِرُوا رَبَّهُمْ إِلَّا أَنْ تَأْتِيَهُمْ سُنَّةُ الْأَوَّلِينَ أَوْ يَأْتِيَهُمُ الْعَذَابُ قُبُلًا^(٤)﴾

ثم بيّن سبحانه السبب الذي منع بعض الناس من الإيمان بالرسول ﷺ وبهذا القرآن، فصرفهم عن الهدى، وصرفهم عن طلب العفو من ربهم: هو العناد والطغيان، وتكذيبهم للرسول ﷺ وتحذيرهم له أن يأتيهم بالهلاك أو العذاب الذي توعدهم به. وهو نفس السبب الذي منع الأولين السابقين من الإيمان برسول الله وكتبه، بعد قيام الحجة عليهم ببيان الحق من الباطل، والهدى من الضلال، وما منعهم إلا الظلم والعناد، فلم يبق لهم إلا أن تحلّ بهم العقوبة.

أي: ما منعهم من الإيمان بالله جلّ شأنه، ومن الاستغفار والرجعة إلى الله سبحانه، إلا ما سبق في علم الله تعالى أنهم لن يؤمنوا، مهما جاءتهم الدلائل الواضحة، والحجج المقتنعة فهم سوف يستمرّون على كفرهم وجحودهم وعدم العودة إلى ربهم بالاستغفار، حتى يأتيهم العذاب الذي يستأصلهم في الدنيا، كما حدث لكفار قوم نوح، وقوم لوط، وقوم هود، وقوم شعيب، وقوم صالح، أو يأتيهم العذاب عياناً يوم لقاء رب العالمين، قال تعالى: ﴿فَهَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا مِثْلَ آيَاتِ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِهِمْ﴾ [يونس: ١٠٢].

وسنّة الأولين هي استمرارهم في الكفر حتى ينزل بهم العذاب الذي حدث لأمثالهم من: الغرق، والصيحة، وعذاب يوم الظلة، والخسف، والريح وغير ذلك، لولا أن الله تعالى رفع عذاب الاستئصال عن هذه الأمة.

ومن سنن الأولين أنهم يطلبون الآيات والخوارق من رسل الله، ومنها أنهم يستعجلون

(١) يُنْظَرُ: «صحيح البخاري» برقم (١١٢٧، ٧٣٤٧) و«صحيح مسلم» برقم (٧٥٥) و«المسند» (١/١١٢).

(٢) أدغم الذال في الجيم من (إذ جاءهم) أبو عمرو وهشام.

(٣) أمال ألف (جاءهم) ابن ذكوان وحزمة وخلف.

(٤) قرأ عاصم وحزمة والكسائي وأبو جعفر وخلف بضم القاف والباء من (قبلا) جمع قبيل، بمعنى: أنواعاً وألواناً، ونصبه على الحال، وقرأ الباقون بكسر القاف وفتح الباء، بمعنى: مقابلة، أي: معاينة، ونصبه على الظرفية.

نزول العذاب بهم، كما قال قوم نوح له: ﴿فَأَنَّا بِمَا نَعْمَدُ إِن كُنْتَ مِنَ الصّٰدِقِينَ﴾ [هود: ٣٢]. وهكذا قال كل قوم لرسولهم:

فقوم شعيب قالوا له: ﴿فَأَسْقِطْ عَلَيْنَا كِسْفًا مِّنَ السَّمَاءِ إِن كُنْتَ مِنَ الصّٰدِقِينَ﴾ [الشعراء: ١٢٧].
وكفار قريش قالوا للنبي ﷺ: ﴿اللَّهُمَّ إِن كَانَتْ هَذِهِ هُوَ الْحَقُّ مِن عِنْدِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَابَهُ مِّنَ السَّمَاءِ أَوْ آتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [الأنفال: ٣٢].

فمعنى ستة الأولين: طريقتهم في الكفر والطغيان وتكذيب الرسل، ومقتضى هذه السنة إذا استمروا عليها أن يأتيهم عذاب الاستئصال؛ لإصرارهم على الكفر.

ومعنى ﴿أَوْ يَأْتِيهِمُ الْعَذَابُ قَبْلًا﴾ أي: يأتيها العذاب أصنافاً وأنواعاً، وعلى قراءة (قَبْلًا) بكسر القاف؛ يكون المعنى: أن ينزل بهم عذاب الله عياناً جهاراً بحيث يُعَايِن وَيُشَاهِد كُلُّ مِنْهُمْ الْآخِرَ، بأن يكون في مقابلته يعاينه ويواجهه.

وَضِيْفَةُ الرُّسُلِ صَلَوَاتُ اللَّهِ عَلَيْهِمْ وَسَلَامُهُ

٥٦- ﴿وَمَا تُرْسِلُ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَمُجَدِّلِينَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالْبَاطِلِ لِيُدْحِضُوا بِهِ الْحَقَّ وَاتَّخَذُوا آيَاتِي وَمَا أُنذِرُوا هُزُوًا﴾ (٥٦)

ثم بين سبحانه أن الرسل لم يُبعثوا للجدال، ولا لاقتراح الآيات عليهم، وإنما مهمة الرسل أن يبشروا من أطاع الله بدخول الجنة، وينذروا من عصاه وكفر به بدخول النار، وليس من مهمتهم أن يخلقوا الإيمان في قلوب العباد، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ ۚ وَلَوْ جَاءَتْهُمْ كُلُّ آيَةٍ حَتَّى يَرَوْا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ﴾ (٩٧) [يونس].

وقال سبحانه: ﴿وَمَا تَفْنَى الْآيَاتُ وَالنَّذْرُ عَنْ قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [يونس: ١٠١].

ماذا تفيد الآيات المقترحة، وماذا يفيد الإنذار عن قوم لا يتفنون بهما؟

لقد أرسلنا الرسل مبشرين ومنذرين بما فيه مُقْنَعٌ لطالب الحق والهدى، ومع وضوح

(١) قرأ حفص بإبدال همزة (هزواً) واواً للتخفيف، مع ضم الزاي وصلًا ووقفًا، وقرأ حمزة بالهمز مع إسكان الزاي وصلًا، ويسكت على الساكن وصلًا، وكذا خَلَفَ عن حمزة في الوصل والوقف، ويقف حمزة بالنقل والإبدال، ولادريس السكت وعدمه وصلًا، والباقون بالهمز مع ضم الزاي.

الحق والدلائل، يخاصم الكفار رسلهم بالباطل تعنتاً؛ لِيُزِيلُوا بِبَاطِلِهِمُ الْحَقَّ الَّذِي جَاءَ بِهِ الرُّسُلُ، فهم يطلبون خوارق العادات، ويستعجلون نزول العذاب، لا لطلب الإيمان، ولكن للسخرية والاستهزاء ﴿وَيُحَدِّثُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالْبَاطِلِ﴾ أي: يجادلون في شأن القرآن فيقولون عنه: إنه سحر، أو شعر، أو كهانة، كما قال النضر بن الحارث، وغيره: ﴿وَقَالُوا أَأُتِىَ الْأَوَّلِينَ اكْتَتَبَهَا فَهِيَ تُمْلَى عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا﴾ [الفرقان: ٤١].

ويجادلون في شأن محمد ﷺ، كما قال بعض الكفار عنه: إنه ساحر، أو شاعر، أو كاهن، وقالوا: ﴿أَهَذَا الَّذِي بَعَثَ اللَّهُ رَسُولًا﴾ [الفرقان: ٤١].

وقال تعالى عنهم ﴿وَعِجُّوا أَنْ جَاءَهُمْ مُنْذِرٌ مِنْهُمْ وَقَالَ الْكَافِرُونَ هَذَا سِحْرٌ كَذَابٌ﴾ [ص: ١٠].

وقال أيضاً: ﴿أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَا إِلَى رَجُلٍ مِنْهُمْ أَنْ أَنْذِرِ النَّاسَ وَبَشِّرِ الَّذِينَ ءَامَنُوا أَنَّ لَهُمْ قَدَمٌ صِدْقٍ عِنْدَ رَبِّهِمْ قَالَ الْكَافِرُونَ إِنَّ هَذَا لَسِحْرٌ مُبِينٌ﴾ [يونس: ١٠١].

ويجادلون في البعث، كما قال العاص بن وائل منكرًا الحساب والجزاء وقد أمسك بيده عظمًا قد بليَ وهو يفتته بيده، ويقول: أترى يا محمد أن الله يبعث هذا بعدما بليَ ورماً؟! فقال ﷺ: «نعم، ويبعثك ويدخلك النار»^(١).

﴿وَقَالُوا مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلَّا الدَّهْرُ﴾ [الجاثية: ٢٤].

والله متم نوره، ولو كره الكافرون والمشركون.

والدحض: هو الطين الذي لا تستقر عليه الأقدام، يقال: دحضت رجلُ فلان، أي: زلت وزلقت.

والمعنى: يزيلون ويبطلون، كما قال تعالى: ﴿مُجْتَنِّمٌ دَاخِضٌ﴾ أي: زائلة.

ويأبى الله إلا أن يتم نوره، ويظهر الحق على الباطل ﴿بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ﴾ [الأنبياء: ١٨].

ثم إن الكفار لم يكتفوا بجidal الرسل، بل أضافوا إلى ذلك الاستهزاء، والاستخفاف بهم، وبما أيدهم الله به من آيات ومعجزات ﴿وَاتَّخَذُوا ءَايَتِي وَمَا أُنْذِرُوا هُزُوًا﴾ المراد بآيات الله: الآيات الدالة على صدق رُسله من المعجزات الخارقة والكتب المنزلّة، فهم يستهزئون بكتب الله،

(١) الطبري بسنده عن سعيد بن جبیر (٤٨٧/١٩) والحاكم (٤٢٩/٢) والضياء في «المختارة» برقم (٨٢).

ويستهزئون برسُل الله، ولذا حَقَّتْ عليهم لعنة الله، وطُرِدَهم من رحمة الله.

قَوَارِعُ الْمُكَذِّبِينَ وَسُوءُ عَاقِبَتِهِمْ

٥٧- ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ فَأَعْرَضَ عَنْهَا وَنَسِيَ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ إِنَّا جَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا وَإِنْ تَدْعُهُمْ إِلَى الْهُدَى فَلَنْ يَهْتَدُوا إِذًا أَبَدًا ﴿٥٧﴾﴾

ثم إن الحق واضح، ولكن الكفار يجادلون بسوء نية، ولا يرجي منهم أن ينتفعوا بهذا القرآن، فهم أظلم الناس، ولذا بيَّن ﷺ أنه لا أحد في الوجود أظلم ممن وُعِظَ وَذُكِّرَ وَخُوفَ بآيات الله، ثم أعرض عن ذكر الله، ولم يعمل بمقتضى ما جاء في كتابه، ولا بما خُوفَ به رسل الله، ورغبوه في طاعته.

﴿وَمَنْ أَظْلَمُ﴾ أي: لا أحد أكثر ظلمًا لنفسه ولا أكبر جرمًا في حق ربه:

﴿وَمِمَّنْ ذُكِّرَ﴾ وُعِظَ وَخُوفَ ﴿بِآيَاتِ رَبِّهِ﴾ الواضحة وبيَّن له الحق من الباطل، والهدى من الضلال، وَخُوفَ وَرُهب، ﴿فَأَعْرَضَ عَنْهَا﴾ أي: فانصرف عنها إلى لهوه وباطله ولم يرجع عما كان عليه ﴿وَنَسِيَ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ﴾ من الأفعال القبيحة، فلم يرجع عنها، ولم يراقب علام الغيوب.

والمراد بالنسيان: الترك والإهمال والإعراض، أي: نسي ما ارتكبه من الكفر والفسوق والعصيان؛ نتيجة لعدم الانتفاع بالوعظ، ولعدم الانتفاع بالذكرى، ولعدم الانتفاع بآيات الهداية، وبالترغيب والترهيب، وقد نُسِبَ النسيان إلى اليمين؛ لأنهما آلة اكتساب الأمور المحسوسة، فجُعِلَت كذلك في الأمور المعنوية.

ولنسيان المعاصي والذنوب آثار سيئة وعواقب وخيمة، وذلكم أن الذي يعصي ربه كلما ارتكب المعصية، ولم يتب منها، فإنها تترك أثرًا أسود على قلبه حتى يُصبح ممن قال فيهم ﷺ: ﴿كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ [المطففين]. ثم تتراكم هذه العلامات على العبد بتعدد المعاصي، وعدم التوبة منها، حتى يسود القلب، وَيُظْمَسَ عليه، فيطبع الله على قلبه، وَيُخْتَمَ عليه، فلا يقبل هدى ولا إيمانًا؛ بسبب تكرار ارتكاب المعاصي والذنوب، وكثرتها وتراكمها، وأنه نسي ما قدمت يدها منها.

ثم بيَّن سبحانه علة هذا الإعراض، وآثار هذا النسيان في ثلاثة أشياء:

أولها: عدم الانتفاع بالهداية ﴿إِنَّا جَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ﴾ أي: أغطية، فقلوبهم مقفلة، مختوم عليها، لا تقبل هدى، والعياذ بالله، فهي في غلاف ساتر؛ لئلا يفقهوا ويفهموا هذا القرآن ويعملوا به، وهذه عقوبة من الله تعالى بسبب إعراضهم عن آيات الله، ونسيانهم لذنوبهم، والرضا بالشر، مع العلم به، وسد منافذ الهداية على أنفسهم، فهم كانوا السبب؛ حيث عطلوا أجهزة الاستقبال فيهم عن أداء مهامها؛ بسبب زيغ قلوبهم، وانحراف فطرتهم، واختيارهم طريق الضلال، وقد علم الله سبحانه ذلك منهم فسجله عليهم، ومن مات منهم على الشرك فلا ترجى له مغفرة، وهو كما قال تعالى:

﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ﴾ [النساء: ٤٨].

وقد فتح الله باب التوبة لمن يتوب قبل أن يغرغر، وقبل أن تطلع الشمس من مغربها: ﴿قُلْ يَبْعَادَى الَّذِينَ أَشْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا﴾ [الزمر: ٥٣].

ثانيها: ومن آثار هذه المعاصي أن الله تعالى جعل في آذانهم وقراً، أي: صمماً معنوياً بحيث لا ينتفعون بما يسمعون، وقلوبهم لا تنفسح ولا تتسع للحق، وإنما تنشرح للمعصية، ولا تنشرح للطاعة، وهذا معنى ﴿وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا﴾.

وإذا كانوا بهذه الحالة فلا سبيل لهدايتهم.

ثالثها: أنهم لن يستجيبوا للهداية؛ لأنه قد ختم وطبع على قلوبهم ﴿وَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ فِتْنَتَهُ فَلَنْ تَمْلِكَ لَهُ مِنْ اللَّهِ شَيْئًا﴾ [المائدة: ٤١]. فكل من علم الله أنه لن يؤمن، فلن ينتفع بالدعوة إلى الهدى أبداً ﴿وَأِنْ تَدْعُهُمْ إِلَى الْهُدَى فَلَنْ يَهْتَدُوا إِذًا أَبَدًا﴾ وهم كما قال تعالى:

﴿خَتَمَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَعَلَى سَمْعِهِمْ وَعَلَى أَبْصَارِهِمْ غِشْوَةً﴾ [البقرة: ٧].

وقال: ﴿وَحَتَمَ عَلَى سَمْعِهِمْ وَقَلْبِهِمْ وَجَعَلَ عَلَى بَصَرِهِمْ غِشْوَةً﴾ [الجاثية: ٢٣].

وقال أيضاً: ﴿وَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ حِجَابًا مَسْتُورًا﴾ [١٥] و﴿جَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا﴾ [الإسراء: ٤٥، ٤٦].

وهذه الأكنة تمنعهم أن يفقهوا ما ينفعهم من آيات القرآن التي ذكروا بها، فلا ينفع فيهم دعوة الهدى، كما قال تعالى: ﴿كَذَلِكَ سَلَكْنَاهُ فِي قُلُوبِ الْمُجْرِمِينَ﴾ [٢٠] لا يُؤْمِنُونَ بِهِ حَقَّ يَرَوْنَ الْعَذَابَ الْأَلِيمَ [٢١] [الشعراء].

وقال: ﴿وَمَا كَانَتْ لِنَفْسٍ أَنْ تُؤْمِنَ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَيَجْعَلُ الرَّحْمَنُ عَلَى الَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ ﴿١٠٠﴾﴾ [يونس]. وقال سبحانه: ﴿إِنْ تَحَرَّصَ عَلَى هُدًى لَّهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ يُضِلُّ وَمَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرٍ ﴿٢٧﴾﴾ [النحل].

وفي هذا تخويف لمن ترك الحق بعد العلم به، أن يُحال بينه وبينه ولا يتمكن منه بعد ذلك ﴿وَإِنْ تَدْعُهُمْ إِلَى الْهُدَى فَلَنْ يَهْتَدُوا إِذًا أَبَدًا﴾.

مِنْ سِعَةِ رَحْمَةِ اللَّهِ تَعَالَى وَعِظَمِ فَضْلِهِ

٥٨- ﴿رَبُّكَ الْغَفُورُ ذُو الرَّحْمَةِ لَوْ يُؤْخِذُهُمْ ﴿١﴾﴾ بِمَا كَسَبُوا لَعَجَلْ لَهُمُ الْعَذَابُ بَلْ لَهُمْ مَوْعِدٌ لَنْ يَحْدُوا مِنْ دُونِهِ مَوْيِلًا ﴿٥٨﴾﴾

وبعد الوعيد والترهيب في الآية السابقة، يأتي الترغيب في رضوان الله تعالى، بطلب عفوهِ ومغفرته، والوعد بالرحمة، وغفران الذنوب في هذه الآية، وفيها بيان أن الله تعالى لو أخذ العباد بذنوبهم لعَجَلْ لهم العذاب، ولكنه تعالى يمهل ولا يهمل، إذ لا بدَّ من جنئ ثمار المعصية وإن تأخر هذا الجنئ بعض الوقت.

والله سبحانه يبيِّن أن بابه مفتوح، يقبل توبة كل من يرجع ويتوب إليه سبحانه، حتى الكافر والمشرِك إذا تاب من كفره وشركه قبل أن يغرغر، فإن الله تعالى يقبل توبته.

كما قال تعالى: ﴿أَفَلَا يَتُوبُونَ إِلَى اللَّهِ وَيَسْتَغْفِرُونَهُ﴾ [المائدة: ٧٤].

وهذه الآية من سورة المائدة في سياق الحديث عن الكفار والمشرِكين الذين قالوا: إن الله هو المسيح ابن مريم، وقالوا: إن الله ثالث ثلاثة، ومع هذا فإن الله تعالى يقبل توبتهم إذا تابوا ورجعوا إليه، كما قال جلَّ شأنه: ﴿قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ يَنْتَهُوا يُغْفَرْ لَهُمْ مَا قَدْ سَلَفَ﴾ [الأنفال: ٣٨]. حتى الكافر إن ينته عن كفره يغفر له ما قد سلف.

قال تعالى: ﴿رَبُّكَ الْغَفُورُ﴾ هذا اسم يتضمن المبالغة في الغفران؛ لأنه تعالى واسع المغفرة، يغفر لأعداد لا تحصى، ويغفر ذنوبًا لا تحصر، فهو سبحانه يغفر جميع الذنوب

(١) قرأ ورش وأبو جعفر بإبدال همزة (يؤاخذهم) واوًا في الحالين، وكذا حمزة عند الوقف، وليس للأزرق عن ورش فيها إلا قصر البدل؛ لأنه من المستثنيات.

لمن تاب منها، إلا من مات على الشرك بالله، فهو جلَّ شأنه عظيم المغفرة لعباده مع تقصيرهم وعصيانهم، وهو سبحانه ﴿ذُو الرَّحْمَةِ﴾ ورحمته واسعة، يُدْخِلُ فِيهَا كُلَّ مَنْ تَحَقَّقَ فِيهِ شَرْطُ التَّقْوَى ﴿وَرَحِمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ فَسَاكُنْهَا لِلَّذِينَ يَنْقُونَ﴾ [الأعراف: ١٥٦]. وهم الموصوفون بالصفات المذكورة في الآية السابعة والخمسين بعد المئة من سورة الأعراف وهي: إخراج الزكاة، والإيمان بالقرآن، والاتباع للنبي الخاتم. ومن فضل الله تعالى وكرمه وحلمه على عباده أنه لا يعاقب المُعْرِضَ عن آياته بما اكتسب من الذنوب والآثام في هذه الحياة، ويُعَجِّلُ لَهُ الْعُقُوبَةَ فِيهَا، بل لهم موعد محدد يُجَاوِزُونَ فِيهِ، لا مفر منه ولا محيد عنه.

ولو يؤاخذ الله العباد في دنياهم على ما اقترفوا واكتسبوا من المعاصي والذنوب، فعَجَّلَ لَهُمُ الْعُقُوبَةَ فِي الدُّنْيَا، فلن تجد على ظهر الأرض أحدًا، ولكن الله تعالى يمهّل ولا يهمل، قال تعالى: ﴿وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِظُلْمِهِمْ مَا تَرَكَ عَلَيْهَا مِنْ دَابَّةٍ﴾ [النحل: ٦١]. وفي الآية الأخرى: ﴿وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِمَا كَسَبُوا مَا تَرَكَ عَلَى ظَهْرِهَا مِنْ دَابَّةٍ وَلَكِنْ يُؤَخِّرُهُمْ إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ [فاطر: ٤٥].

وفي الآية التي معنا: ﴿لَوْ يُؤَاخِذُكُم بِمَا كَسَبْتُمْ لَعَجَلْ لَكُمْ الْعَذَابُ﴾ يعني: في هذه الدنيا، وإنما حدد لهم موعدًا، يأتي في وقت معين هو يوم القيامة، كما اقتضته الحكمة الإلهية، فإذا لم يعجل الله لهم العذاب في الحال، فإنه ليس غافلًا عنهم، ولا تاركًا عقابهم يوم لقائه، كما قال تعالى: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ غَافِلًا عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الْأَبْصَارُ﴾ [إبراهيم: ٤٦]. ﴿بَلْ لَهُمْ مَوْعِدٌ لَّنْ يَجِدُوا مِنْ دُونِهِ مَوْيِلًا﴾ فليس هناك من يلجؤون إليه غير الله تعالى، وليس هناك من يعصمهم من الله، فيحفظهم ويمنعهم من عذابه يوم لقائه، ولا فرار من هذا اليوم، ولا مندوحة لهم عنه.

هَلَاكُ الْأُمَمِ الَّتِي كَذَبَتْ رُسُلَ اللَّهِ تَعَالَى

٥٩- ﴿وَتِلْكَ الْأَمْمَاتُ لِمَا ظَلَمُوا وَجَعَلْنَا لِمَهْلِكِهِمْ^(١) مَوْعِدًا﴾

(١) قرأ شعبة بفتح الميم واللام التي بعد الهاء من (لمهلكهم) مصدر ميمي قياسي، من هلك، وقرأ حفص بفتح الميم وكسر اللام، مصدر ميمي سماعي، ومعنى القراءتين: وجعلنا لهلاكهم موعدًا، وقرأ الباقون بضم الميم وفتح اللام، مصدر ميمي من أهلك، أي: وجعلنا لإهلاكهم موعدًا.

لقد ظلم المعرضون عن آيات الله، المكذبون لرسوله، ظلموا أنفسهم بكفرهم، فاستحقوا العذاب كالأمم التي سبقتهم من أهل القرى القريبة منهم، كأقوام هود، وصالح، ولوط، وشعيب، وغيرهم من الأمم الذين أهلكهم الله بسبب ظلمهم لأنفسهم بالكفر.

قال سبحانه: ﴿وَلَئِكَ الْفُرَى﴾ أي: انظروا إلى الأمم التي سبقتكم من الذين كذبوا رسل الله، وتعتثوا في طلب الآيات الخارقة منهم، ماذا فعل الله فيهم؟ ﴿أَهْلَكْنَاهُمْ لَمَّا ظَلَمُوا﴾ أي: أن الله تعالى أبادهم لما كذبوا رسل الله، ولم يؤمنوا بآياته، فظلموا أنفسهم بالشرك وتكذيب الرسل، وأثارهم ليست بعيدة عنكم، قال تعالى: ﴿وَإِنَّكَ لَتَكُونُ عَلَيْهِمْ مُّصِيبِينَ﴾ [الصافات] أي: أنكم تمرون على ديارهم الخربة صباحًا ومساءً في طرقانكم وأسفاركم.

فاحذروا أن يصيبكم ما أصابهم، فقد كذبتهم أشرف رسول وأعظم نبي، ولستم بأعز على الله منهم، فاعتبروا بمن كان قبلكم من المكذبين المعاندين لرسول الله، ممن جعل الله لهلاكهم وقتًا محددًا لا يتقدم ولا يتأخر، فإذا بلغوه جاءهم العذاب.

قِصَّةُ مُوسَى وَالْخَضِرَ عَلَيْهِمَا السَّلَامُ

٦٠- ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَتْنِهِ^(١) لَا أَبْرَحُ حَتَّىٰ أَبْلُغَ مَجْمَعَ الْبَحْرَيْنِ أَوْ أَمْضِيَ حُقُبًا﴾

ثم تأتي قصة موسى والخضر، وليست هذه القصة مما سأل عنه المشركون النبي ﷺ بواسطة أهل الكتاب، حين سألوه عن الروح، وعن أصحاب الكهف، وعن ذي القرنين، ولكنها ذكرت هنا بين قصتي أصحاب الكهف وذي القرنين، تنبيهًا لأهل الكتاب على أنه كان من الأولى بهم أن يسألوا عن أخبار أنبياء بني إسرائيل، وعلى التقلب في البلاد؛ لأجل تحصيل العلم والحكمة، كما حدث من نبههم موسى بن عمران مع الخضر عليهما السلام، وفي هذه القصة إشارة من الله جلَّ شأنه إلى أن النبي -أي نبي- لا يلزمه أن يكون عالمًا بجميع القصص والأخبار.

وسبب هذه القصة أن موسى ﷺ لما استقر به المقام في مصر، بعد أن أظهر الله دينه

(١) أمال ألف (فتاه) حمزة والكسائي وخلف، وقللها ورش بخلفه، وفتحها الآخرون.

على فرعون، وأبطل كيد السحرة، قام موسى خطيباً في بني إسرائيل، يعظهم ويذكرهم بأيام الله، ويعدّد لهم نعم الله عليهم، حتى رقت القلوب وفاضت العيون، ولما فرغ من موعظته تعلّق به رجل من بني إسرائيل، وسأله: هل في الأرض من هو أعلم منك؟ وعندئذ نظر موسى ﷺ في نفسه، وفي غيره من البشر حوله، فإذا هو نبي الله المرسل، الذي أنزلت عليه التوراة، وهو الذي كلّمه ربه تكليماً، وهو صاحب العصا واليد، وهو الذي فلق البحر بعصاه، فقال للسائل: إنه لا يعلم أن أحداً أعلم منه على وجه الأرض، فعتب الله ﷻ على موسى؛ حيث لم يرّد العلم إليه جلّ شأنه، وأوحى الله تعالى إليه: يا موسى، إن العلم أكبر وأعظم من أن يحويه رجل، أو أن ينفرد به رسول، إن لي عبداً بمجمع البحرين هو أعلم منك.

ومجمع البحرين عند ملتقى خليج السويس بخليج العقبة.

والبحران: هما البحر الأبيض والأحمر، ويلتقيان في منطقة البحيرة المرة وبحيرة التمساح.

وفي رواية: أن موسى ﷺ سأل ربه، فقال: أي ربّ، إن كان في عبادك أحد هو أعلم مني فدلّني عليه، فقال: نعم، في عبادي من هو أعلم منك، ثم وصف له مكاناً وأذن له في لقائه^(١).

قيل: وكان موسى ﷺ قد سار إلى المكان مدة يوم وليلة راجلاً، وأن هذا المكان يسمى عند الإسرائيليين: بحر الجليل، وهو مصب نهر الأردن في بحيرة طبرية.

وتأقت نفس موسى لرؤية هذا العبد الصالح الذي هو أعلم منه، قال: يارب أنى لي به؟ كيف أعرفه؟ قال: خذ معك حوتاً مشويّاً مملحاً وضّعه في مكث (زميل)، وحيث فقدت الحوت، سوف تجد الرجل الذي تطلبه في المكان الذي فقدت فيه الحوت.

أخذ موسى فتاه وولّيّ عهده الذي يلازمه في حضّره وسفره، وهو (يوشع بن نون) - الذي نبئ فيما بعد- ويقال: إنه ابن أخت موسى، ويوشع بن نون، أحد الرجال الاثنا عشر، الذين بعثهم موسى إلى أرض كنعان؛ لاختبار بأس أهلها وقوّتهم، وهو أحد

(١) يُنظر: «تفسير الطبري» (١٥/١٨٠) والقصة في البخاري (١٢٢)، ٣٢٧٨، ٣٤٠١، ٤٧٢٥، ٤٧٢٧، ٦٦٧٢ وفي «صحيح مسلم» (٢٣٨٠) والترمذي (٣١٤٩) والنسائي في «السنن الكبرى» (١١٣٠٨) والبيهقي في «الأسماء والصفات» (٢٢٠).

الرجلين اللذين شجعا بني إسرائيل على دخول أرض كنعان، وقد ذكرهما القرآن في قوله تعالى: ﴿قَالَ رَجُلَانِ مِنَ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمَا ادْخُلُوا عَلَيْهِمُ الْبَابَ فَإِذَا دَخَلْتُمُوهُ فَإِنَّكُمْ غَالِبُونَ﴾ [المائدة: ٢٣]. وكان ميلاد يوشع في حدود سنة ١٤٦٣ قبل ميلاد المسيح ﷺ، وكانت وفاته في حدود سنة ١٣٥٣ قبل الميلاد، وعمر يوشع مئة وعشر سنين.

وقد أمر الله موسى أن يعهد إلى يوشع بتدبير أمر بني إسرائيل بعد وفاته.

حمل يوشع المكتل وفيه الحوت، حتى وصلا إلى مجمع البحرين، وقد أصر موسى على أن يصل إلى هذا المكان، قائلاً: مهما بلغت بي الشقة أو المشقة، ومهما طالت المدة فلا أبرح، أي: لا أزال أسير حتى أبلغ مجمع البحرين، أو أمضي حقاً، أي: أسير زمناً طويلاً.

قال عبد الله بن عمرو: الحقب ثمانون سنة، وقال مجاهد: سبعون خريفاً.

رَحْلَةُ مُوسَى وَيُوشَعَ

٦١- ﴿فَلَمَّا بَلَغَا مَجْمَعَ بَيْنَهُمَا نَسِيَا حُوتَهُمَا فَاتَّخَذَ سَبِيلُهُ فِي الْبَحْرِ سَرَبًا﴾

وجد موسى ويوشع في السير، حتى وصلا إلى صخرة عند مجمع البحرين.

وفي رواية: أن في أصل هذه الصخرة عيناً يقال لها: (عين الحياة) فيها ماء لا يشرب، أو لا يصيب منه أحد، إلا عاش وحيي.

وفي هذا المكان عند الصخرة، نام موسى وفاته يوشع بعضاً من الوقت، وكان موسى قد قال ليوشع: ونحن في رحلتنا هذه لن أكلفك بشيء، إلا إذا فقد منك الحوت أن تُعلمني بالمكان الذي فقد فيه، وأصاب الحوت شيء من ماء السماء، أو أصابه بلل البحر، أو أصابه من ماء عين الحياة، فاضطرب في المكتل..

وهو نفس الحوت المشوي المملح الذي أكل منه، لقد دبت فيه الحياة، وخرج من المكتل، فانسل منه، وأخذ طريقه في البحر، وصار مع حيوانات البحر حياً.

وهذه آية من آيات الله ﷻ لموسى ﷺ، فكان للحوت سرّب في البحر، وعجب لموسى وفاته، وأمسك الله عن الحوت جرّيه، فطوّقه الماء.

وفي صحيح البخاري: أن الماء صار كالنَّقَق في الموضع الذي مرَّ منه الحوت، حيث تجمد الماء فوقه، واتخذ له طريقًا مفتوحًا في المكان الذي صار فيه^(١).

٦٢ - ﴿فَلَمَّا جَاوَزَا قَالَ لِفَتْنِهِ إِنَّا غَدَاءَنَا لَقَدْ لَقِينَا مِنْ سَفَرِنَا هَذَا نَصَبًا﴾

ولما رأى يوشع أن الحوت قد انسلَّ ودخل البحر، وجد موسى نائمًا، فكَرِهَ أن يُوقظه؛ ليخبره بذلك، ولما استيقظ موسى في اليوم التالي نسي يوشع أن يُذكِّره، واستأنفا المسير يومًا وليلة، حتى بلغ منهما التعب مبلغه، فلما فارقا المكان الذي نسيا فيه الحوت، ومشيا يومًا وليلة، شعرا بالجوع؛ فقال موسى لخدامه: أَحْضِرْ لَنَا الحوت حتى نأكل منه، لقد لقينا من سفرنا هذا تعبًا.

٦٣ - ﴿قَالَ أَرَأَيْتَ^(٢) إِذْ أَوْيَيْنَا إِلَى الصَّخْرَةِ فَإِنِّي نَسِيتُ الْحَوْتَ وَمَا أَنَسِيَهُ^(٣) إِلَّا الشَّيْطَانُ أَنْ

أَذْكُرَهُ وَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ عَجَبًا﴾

وهنا تذكَّر يوشع أنه نسي الحوت عند الصخرة، فقال لموسى: أتذكَّر حين لجأنا إلى الصخرة التي استرحنا عندها؟ فإني نسيت أن أخبرك ما كان من شأن الحوت، وما أنساني أن أذكر لك ذلك إلا الشيطان؛ فإن الحوت الميت قد دَبَّت فيه الحياة، وقَفَز في البحر، واتخذ له طريقًا فيه، وكان أمره عَجَبِيًّا، ووجه العجب أنه حوت قد مات، وأُكِل شَقُّهُ الأيسر، ثم حيي بعد ذلك، وقد نسب الفتى النسيان إلى الشيطان، كما قال تعالى: ﴿أَسْتَحْذَرُ عَلَيْهِمُ الشَّيْطَانُ فَأَنسَهُمْ ذِكْرَ اللَّهِ﴾ [المجادلة: ١٩].

ونسبة النسيان إلى الشيطان يؤيدها القرآن الكريم في كثير من آياته.

قيل: إن موسى مشى إلى مناجاة ربه أربعين يومًا لم يحتج فيها إلى طعام، وفي رحلته

(١) تُنظَر القصة بكاملها في: «صحيح البخاري» برقم (٤٧٢٥، ٤٧٢٧) وفي «صحيح مسلم» (١٨٤٧/٤) برقم (٢٣٨٠) والترمذي (١٤٣/٢) برقم (٣١٤٩) وقال: حديث حسن صحيح.

(٢) سَهْلُ الهمزة الثانية من (أرأيت) نافع وأبو جعفر، ولورش إبدالها حرف مد مشبعًا وصلًا، وليس له في الوقف إلا التسهيل، ومثله حمزة.

(٣) قرأ حفص بضم الهاء من (أنسانيه) من غير صلة، والباقون بالكسر من غير صلة، إلا ابن كثير فله الصلة حال الوصل.

للقاء الخضر لحقه الجوع في بعض يوم^(١).

٦٤- ﴿قَالَ ذَلِكَ مَا كُنَّا نَبِغُ^(٢) فَأَرْتَدَّا عَلَىٰ آثَارِهِمَا قَصَصًا﴾

ولما علم موسى بفقد الحوت قال: إن ما حصل هو الذي نطلبه، وهو الهدف من هذه الرحلة؛ فإن الرجل الذي نريده هناك، فلنرجع حيث كنا؛ فإن هذا علامة على مكان العبد الصالح، فرجعا يقصان الأثر، ويقتفیان الطريق الذي مشياه حتى رجعا إلى الصخرة عند مَجْمَعِ البحرين مرة ثانية، وكان الله قد وعد موسى أنه متى فُقد الحوت، فثمّ ذلك العبد الذي قصّده.

مُوسَى يَلْقَى الْخَضِرَ

٦٥- ﴿فَوَجَدَا عَبْدًا مِّنْ عِبَادِنَا ءَاتَيْنَاهُ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَعَلَّمْنَاهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا﴾

نظر موسى وفتاه فوجدا عبداً من عباد الله الصالحين، هو الخضر، بإجماع أهل العلم كما صح ذلك عن رسول الله ﷺ^(٣).

وسُمِّيَ الخضر؛ لأنه كان يجلس على فروة بيضاء فاهتزت خلفه خضراء.

وقيل: إنه ما كان يجلس في مكان، أو يصلي في مكان، إلا اخضرَّ هذا المكان حوله.

عن أبي هريرة ؓ أن رسول الله ﷺ قال: «إنما سُمِّيَ الخضر؛ لأنه جلس على فروة بيضاء فإذا هي تهتز من خلفه خضراء»^(٤).

والمراد بالفروة: الحشيش اليابس، وهو الهشيم من النبات.

(١) يُنظَر: «تفسير ابن عطية» (٥٢٩/٣).

(٢) قرأ نافع وأبو عمرو والكسائي وأبو جعفر بإثبات الياء وصلًا من (نبح)، وابن كثير ويعقوب بإثباتها وصلًا ووقفًا، والباقون بحذفها في الحالين.

(٣) تُنظَر القصة في «صحيح البخاري» برقم (٤٧٢٥-٤٧٢٧) وفي «صحيح مسلم» (٢٣٨٠) والترمذي (٢/١٤٣) قال: حديث حسن صحيح.

(٤) «صحيح البخاري» (٣٠٩/٦) برقم (٣٤٠٢) ورواه أحمد في «المسند» برقم (٨١١٣) بإسناد صحيح على شرط الشيخين والترمذي (٣١٥١) والطيالسي (٢٥٤٨).

والخضر: هو ابن ملكان بن فالغ بن عابر، من نسل سام بن نوح، وهو ابن عم الجد الثاني لإبراهيم، وقيل: الخضر لقبه، واسمه (إيليا) وليس الخضر من بني إسرائيل ولا مكلفاً بشريعة موسى ﷺ.

ولعل الأرجح أن الخضر كان نبياً من أنبياء الله، بدليل قوله تعالى: ﴿فَوَجَدَا عَبْدًا مِّنْ عِبَادِنَا ءَاتَيْنَاهُ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَعَلَّمْنَاهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا ۝﴾ والرحمة تطلق في القرآن على النبوة، وعلى الوحي، كما قال تعالى:

﴿أَمَرُ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ﴾ [الزخرف: ٦٢]. وبدليل قوله تعالى على لسان الخضر:

﴿وَمَا فَعَلْنَاهُ عَنْ أَمْرِى﴾ [٨٢] أي: إنما كان الذي فعلته بوحي من الله سبحانه.

والأرجح أن الخضر قد مات وليس بحي، وليس هناك خبر صحيح يؤيد وجود الخضر حياً^(١). ويتشبه بعض الناس في مخالفة ظاهر الشرع بما فعله الخضر، ويزعمون أنهم قد منحو عِلْماً لَدُنِّيَا كالخضر، وفي هذا ذريعة لمخالفة الشرع؛ لأن الخضر كان نبياً، ولم يفعل ما فعل باطني أو بإلهام.

وبعض الناس ينسبون إلى أنفسهم أو إلى غيرهم الكرامات، اقتداءً بالخضر، وليس لأحد أن يزعم لنفسه ما أيد الله به الخضر؛ لأن هذه المهمة الخاصة قام بها الخضر بأمر من الله سبحانه، تأدياً لموسى ﷺ حينما نسب العلم إلى نفسه؛ لبيّن الله له أنه يوجد في الأرض من هو أعلم منه.

فمخالفة ظاهر الشريعة، كما فعل الخضر، أمر خاص به، وهو نبي من أنبياء الله، ولا ينبغي لأحد أن يشبه نفسه بالخضر، فقد أعطاه الله من الإلهام والكرامة ما يحصل به الاطلاع على بواطن بعض الأمور التي تخفى على غيره، وكان موسى ﷺ أكثر علماً منه سيما في العلوم الإيمانية والأصولية، لأنه من أولي العزم من الرسل الذين فضّلهم الله بالعلم والعمل.

حَوَارُ مُوسَى وَالْخَضِرَ عَلَيْهِمَا السَّلَام

٦٦ - ﴿قَالَ لَهُ مُوسَى هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَىٰ أَنْ تُعَلِّمَني مِمَّا عَلَّمْتَ رُسُدًا﴾^(١) ﴿٦٦﴾

نظر موسى إلى هذا العبد فوجد عليه سيما الصالحين: رجل نحيل البدن، غائر العينين، مغطى بثوبه الأبيض، قال له موسى: السلام عليك، قال الخضر: وأتّى بأرضك السلام، أي: ومن يعرف السلام في هذه الأرض، من أنت؟ قال: أنا موسى. قال الخضر: نبي بني إسرائيل؟ قال موسى: من الذي أعلمك أني نبي بني إسرائيل؟ قال الخضر: الذي بعثك إليّ هو الذي أعلمني^(٢).

ثم قال موسى للخضر في أدب جم، وتواضع رفيع، أدب طالب العلم مع العالم: هل تأذن لي في أن أتبعك على أن تعلمني مما ينفعني ويرشدني في ديني ودنياي؟

٦٧، ٦٨ - ﴿قَالَ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا﴾^(٣) ﴿٦٧﴾ وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَىٰ مَا لَمْ تُحِطْ بِهِ خُبْرًا ﴿٦٨﴾

أي: قال الخضر لموسى: إنني لا أمتنع من ذلك، ولكنك لن تطيق أن تصبر على اتباعي وملازمتي، إني على علم من الله علمني إياه لا تعلمه، وأنت على علم من الله علمك إياه لا أعلمه، فموسى كان نبيًا رسولًا، يعلم أمور الشريعة والرسالة، والخضر آتاه الله شيئًا من علم المستقبل، وهو علم لا يتعلق بالتشريع؛ لأن موسى ﷺ مستغن بالوحي، وهذا من باب زيادة العلم مما خصّ الله به الخضر.

قال الخضر لموسى: إنك إذا صحبتني فسوف ترى أمورًا تخالف ظاهر الشرع، فلا تصبر على رؤيتها لأنك لا تعلم المقصود منها.

وكيف تصبر على ما لا تعلمه، ولم تحط به خبرًا، مما سأفعله من أمور تخفى عليك، ظاهرها منكر، وباطنها لا تعلمه؟

(١) قرأ أبو عمرو ويعقوب بفتح الراء والشين من (علمت رشدًا)، والباقون بضم الراء وإسكان الشين، وهما لغتان كالْبُخْل والْبَحْل.

(٢) يُنْظَر: «تفسير ابن عطية» (٣/٥٢٩).

(٣) قرأ حفص بفتح باء الإضافة وصلًا من (معي صبرًا) هنا وفي الآيتين: (٧٢، ٧٥)، والباقون بإسكانها.

٦٩- ﴿قَالَ سَتَجِدُنِي^(١) إِنْ شَاءَ اللَّهُ صَابِرًا وَلَا أَعْصِي لَكَ أَمْرًا^(٢)﴾

قال موسى للخضر: ستجدني إن شاء الله صابراً على ما أراه منك، ولا أخالف ما تأمرني به، وهكذا أخذ موسى العهد على نفسه بالصبر وعدم المخالفة، وعزم على ذلك قبل أن يرى شيئاً مما أشار إليه الخضر، ولذا أجابه إلى ما طلب:

٧٠- ﴿قَالَ فَإِنْ اتَّبَعْتَنِي فَلَا تَسْأَلْنِي^(٢) عَنْ شَيْءٍ حَتَّى أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْرًا^(٣)﴾

وافق الخضر على مصاحبة موسى له، واشترط عليه شرطاً، قال له: فإن تبعني وصاحبتني فلا تسألني عن شيء تنكره حتى أعلمك السبب بما خفي عليك دون سؤال منك، فلا تبدأني بسؤال ولا إنكار حتى أخبرك، فوعده أن يوقفه على حقيقة الأمر:

خَرَقَ السَّفِينَةَ فِي الرِّحْلَةِ الْأُولَى

٧١- ﴿فَانْطَلَقَا حَتَّى إِذَا رَكِبَا فِي السَّفِينَةِ خَرَقَهَا^(١) قَالَ أَخْرِقْنَاهَا لِنُغْرِقَ^(٢) أَهْلَهَا لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا إِمْرًا^(٣)﴾

وسار موسى والخضر يمشيان على ساحل البحر حتى أدركتهما سفينة، وعرف الخضر بعض مَنْ فيها، فوقفت لهما السفينة، وحملوهما حين توسموا في وجهيهما الصلاح والتقوى، حملوهما معهم في السفينة بغير أجر، وإذ بموسى يفاجأ بأن الخضر يعمد إلى لوح أو لوحين من السفينة، وَيَقْلَعُهُمَا بِالْقُدُومِ أو الفأس من جدار السفينة، أو من على وجه الماء، فأخذ موسى ﷺ يسدُّ الماء بشيابه، ويقول: هذا أمر عجيب، قوم حملونا معهم بغير أجر، تعمد إلى سفينتهم فخرقها؟ قال موسى: (أَخْرِقْنَاهَا لِنُغْرِقَ أَهْلَهَا)، وفي القراءة الثانية ﴿أَخْرِقْنَاهَا لِنُغْرِقَ أَهْلَهَا﴾؟ هذا أمر عظيم، ومنكر كبير، لا يتناسب مع كرمهم لنا، وعندئذ أجابه الخضر:

(١) قرأ نافع وأبو جعفر بفتح ياء الإضافة وصلًا (ستجدني إن شاء الله صابراً)، والباقون بإسكانها.
(٢) قرأ نافع وابن عامر وأبو جعفر بفتح اللام وتشديد النون من (فلا تسألني عن شيء) على أنها نون التوكيد كسرت؛ لمناسبة الياء، والباقون بإسكان اللام وتخفيف النون على أن الفعل مُغْرِب، والنون للوقاية.
(٣) قرأ حمزة والكسائي وخلف (لِنُغْرِقَ أَهْلَهَا) بياء وراء مفتوحتين في (ليغرق) ورفع (أهلها) فاعلاً، والباقون (لِنُغْرِقَ أَهْلَهَا) بياء مضمومة وراء مكسورة في (لتغرق) ونصب (أهلها) مفعولاً به.

٧٢- ﴿قَالَ أَلَمْ أَقُلْ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا﴾ (٧٢)

لم يزد الخضر على أن ذكّره بعهده وشرطه، فقال لموسى: لقد قلت لك من أول الأمر: إنك لن تستطيع الصبر على صُحْبتي لما ترى من صنيعي وأنت لا تدرك السبب فيه، فوقع ما أخبرتك به، وكان هذا من موسى نسياناً، ولذا:

٧٣- ﴿قَالَ لَا تُؤَاخِذْنِي^(١) بِمَا نَسِيتُ وَلَا تَرْهَقْنِي مِنْ أَمْرِ عُسْرًا^(٢)﴾ (٧٣)

قال موسى للخضر معذراً: لقد نسيْتُ هذه المرة، فلا تؤاخذني بنسياني شرطك عليّ، ولا تكلفني مشقة في تعلّمي منك، وعاملني بيُسْر ورفق، فاسمح لي ولا تؤاخذني أول الأمر، فجمع موسى بين الإقرار والعذر، فسامحه الخضر هذه المرة.

قال رسول الله ﷺ من حديث أبي بن كعب ؓ: «كانت الأولى من موسى نسياناً»^(٣).

أي: نسياناً حقيقياً، قال مجاهد: وكانت الثانية شرطاً، والثالثة عمداً.

والصحيح: أن هذا من معاريض الكلام، يتضمن السؤال والإنكار.

ولما ركب السفينة جاء طائر فوق على حرف السفينة، ففقر في البحر نقرة، فقال الخضر لموسى: تدري ما يقول هذا الطائر؟ قال: وما يقول؟ قال: يقول: ما علمك وعلم موسى في علم الله، إلا كما آخذ بمنقاري من الماء^(٤).

وفي رواية البيهقي: ما أصبتُ أنا وأنت من العلم في علم الله، إلا بمنزلة ما أصاب هذا الطير من هذا البحر^(٥).

وذلك لأن نسبة علم موسى والخضر كنسبة تلك النقطة إلى البحر، فعلمُ البشر يتناهى، وعلمُ الله تعالى لا يتناهى.

(١) قرأ ورش وأبو جعفر بإبدال همزة (تؤاخذني) واواً في الوصل والوقف، وكذا حمزة عند الوقف.

(٢) قرأ أبو جعفر بضم السين من (عُسْرًا) والباقون بإسكانها، وهما لغتان.

(٣) من حديث طويل عن أبي بن كعب في البخاري (٧٤، ٤٧٢٥) ومسلم (٢٣٨٠).

(٤) أخرجه الحاكم عن أبي بن كعب (٣٦٩/٢) و«الأسماء والصفات» (٢٢٢) عند البيهقي.

(٥) أخرجه البيهقي عن ابن عباس في الأسماء والصفات.

قَتْلُ الْغُلَامِ فِي الرِّحْلَةِ الثَّانِيَةِ

٧٤- ﴿فَانْطَلَقَا حَتَّىٰ إِذَا لَفَيَا غُلَامًا فَقَتَلَهُ قَالَ أَقْتَلْتَنِي نَفْسًا زَكِيَّةً^(١) بِغَيْرِ نَفْسٍ لَّقَدْ جِئْتَ شَيْئًا نُّكَرًا^(٢)﴾

قَبِلَ الْخَضِرُ عُذْرَ مُوسَى، ثُمَّ خَرَجَا مِنَ السَّفِينَةِ، وَسَارَا يَمْشِيَانِ عَلَى شَاطِئِ الْبَحْرِ، وَإِذْ بَعْدَ مِنَ الْغُلَامَانِ يَلْعَبُونَ، وَمَعَهُمْ صَبِي يَافِعٌ صَغِيرٌ، دُونَ سِنِّ الْحُلُمِ، فَعَمِدَ الْخَضِرُ إِلَى هَذَا الْغُلَامِ، وَتَنَحَّى بِهِ جَانِبًا وَقَتَلَهُ، قِيلَ: إِنَّهُ اقْتَلَعَ رَأْسَهُ، وَقِيلَ: رَضَّهَ بِحَجَرٍ فَقَتَلَهُ، فَفَزِعَ مُوسَى وَاسْتَنَكَرَ الْحَادِثَةَ، فَغَضِبَ، وَأَخَذَتْهُ الْحَمِيَّةُ الدِّينِيَّةُ، لِأَنَّهُ قَتَلَ غُلَامًا صَغِيرًا بِدُونِ ذَنْبٍ، وَقَالَ: هَذَا أَمْرٌ لَا يُسَكَّتُ عَلَيْهِ، قَالَ مُوسَى لِلْخَضِرِ: أَقْتَلْتَ نَفْسًا زَاكِيَةً طَاهِرَةً بَرِيَّةً لَمْ تَبْلُغْ حَدَّ التَّكْلِيفِ بِغَيْرِ أَنْ تَقْتُلَ، فَتَسْتَحِقُّ الْقَتْلَ قِصَاصًا؟ هَذَا مِنْكَرٌ عَظِيمٌ لَا يُسَكَّتُ عَلَيْهِ، وَهَذِهِ أَشَدُّ مِنَ الْأُولَى، وَكَانَتْ الْأُولَى مِنْ مُوسَى نِسِيَانًا وَهَذِهِ غَيْرُ نِسِيَانٍ وَلَكِنْ عَدَمُ صَبْرِ.

٧٥- ﴿قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَّكَ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا^(٣)﴾

ذَكَرَ مُوسَى الْخَضِرَ بِشَرْطِهِ، فَقَالَ لَهُ مَعَاتِبًا وَمَذَكَّرًا: أَلَمْ أَقُلْ لَّكَ إِنَّهُ لَيْسَ فِي مَقْدُورِكَ الصَّبْرَ عَلَى مَا تَرَى مِنْ أَفْعَالِي، مِمَّا لَمْ تُحِطْ بِهِ خَبْرًا؟ بِزِيَادَةِ (لَكَ) عَنْ الْأُولَى؛ لِتَأْكِيدِ الْقَوْلِ وَتَثْبِيْتِهِ وَتَقْوِيْتِهِ.

٧٦- ﴿قَالَ إِنْ سَأَلْتُكَ عَنْ شَيْءٍ بَعْدَهَا فَلَا تُصَحِّبْنِي قَدْ بَلَغْتَ مِنَ اللَّذِي^(٤) عُدْرًا^(٥)﴾

قَالَ مُوسَى لِلْخَضِرِ: إِنْ سَأَلْتُكَ بَعْدَ هَذِهِ الْمَرَّةِ عَنْ شَيْءٍ آخَرَ، فَلَا تَصَاحِبْنِي وَاتْرَكْنِي.

-
- (١) قرأ نافع وابن كثير وأبو عمرو وأبو جعفر ورويس (نفساً زاكية) بألف بعد الزاي وتخفيف الياء، اسم فاعل، أي: طاهرة من الذنوب والباقون (زكية) بحذف الألف وتشديد الياء، صيغة مبالغة، من الزكاة بمعنى: الطهارة.
- (٢) قرأ نافع وابن ذكوان وشعبة وأبو جعفر ويعقوب بضم الكاف من (نكراً)، والباقون بإسكانها.
- (٣) قرأ نافع وأبو جعفر بضم الدال وتخفيف النون من (الذني)، على الأصل في ضم الدال وحذف نون الوقاية، اكتفاء بكسر النون الأصلية؛ لمناسبة الياء، وقرأ شعبة بوجهين: الأول: إسكان الدال مع الإشارة بالشفتين إلى الأصل، وهو الضم، فينطق القارئ بالإشمام مقارناً لسكون الدال. والثاني: باختلاس ضمة الدال؛ لقصد التخفيف، وكلا الوجهين مع تخفيف النون، وقرأ الباقون بضم الدال وتشديد النون؛ لأن الأصل في (لذن) ضم الدال والإدغام للتماثل، وألحقت نون الوقاية بهذه الكلمة؛ لتقي السكون الأصلي من الكسر.

قال ﷺ فيما يرويه أبي بن كعب ؓ: «رحمة الله علينا وعلى موسى لو لبث مع صاحبه لأبصر العجب، ولكنه قال: ﴿إِنْ سَأَلْتَكَ عَنْ شَيْءٍ بَعْدَهَا فَلَا تُصَجِّني قَدْ بَلَغْتَ مِنْ لَدُنِّي عُذْرًا﴾»^(١).

قال عمر بن الخطاب ؓ بعد أن فرغ النبي ﷺ من القصة: يرحم الله موسى، ودَدْنَا أنه لو صبر حتى يقص الله علينا من خبرهما^(٢).

لقد تعددت الأعذار مني، وأنت لم تُقصّر، فقد أخبرتني أنني لن أستطيع معك صبرًا. ورد في هذه الآية أن الله تعالى جعل الأمثلة التي وقعت لموسى مع الخضر حجة على موسى وعجبًا له.

وذلك أنه لما أنكر خرق السفينة نودي: يا موسى، أين كان تدبيرك هذا وأنت في التابوت مطروحًا في اليم؟

فلما أنكر قتل الغلام، قيل له: أين إنكارك هذا من وكرك للقبطي وقضائك عليه؟

فلما أنكر إقامة الجدار، نودي: أين هذا يا موسى من رفعك حجر البثر لبنات شعيب دون أجر؟^(٣).

لقد راجع موسى نفسه فوجد أنه قد خالف ما اتفق عليه مع الخضر مرتين، فأخبر صاحبه بأن يترك له فرصة أخيرة، فقال له: إن سألتك بعد هذه المرة الثالثة فلا تجعلني صاحبًا أو رفيقًا لك، فإني قد بلغت الغاية في مخالفتك؛ لأنني كررت ذلك مرارًا، وهذا يدل على اعتذار شديد من موسى، وعلى شدة ندمه واعترافه بخطئه.

(١) رواه أبو داود في «السنن» عن أبي بن كعب برقم (٢٧٠٧، ٣٩٨٤) وانظر: «الطبري» (١٥/١٨٦) وصححه الحاكم والذهبي على شرط الشيخين في «المستدرک» (٢/٥٧٤) وهو في «المسند» (١١٢٤٤، ٢١١٢٦).

(٢) أخرجه ابن أبي حاتم من طريق محمد بن كعب القرظي كما في «الدر المنثور» (٩/٦١٤) وكذا البخاري في العلم (١٢٢، ٢٢٦٧، ٧٤٧٨) ومسلم في الفضائل (١٧١، ١٧٤، ٢٣٨٠) والترمذي في التفسير (٣١٤٩) وقال: حسن صحيح، والنسائي في التفسير (٣٢٧) وفي «الكبرى» (٥٨١٣).

(٣) «تفسير ابن عطية» (٣/٥٣٣).

إِقَامَةُ الْجِدَارِ فِي الرِّحْلَةِ الثَّالِثَةِ

٧٧- ﴿فَانْطَلَقَا حَتَّىٰ إِذَا أَنَّىٰ أَهْلَ قَرْيَةٍ اسْتَطَمَّ أَهْلُهَا فَأَبَوْا أَنْ يُضَيِّقُوهُمَا فَوَجَدَا فِيهَا جِدَارًا يُرِيدُ أَنْ يَنْقَضَ فَأَقَامَهُ قَالَ لَوْ شِئْتَ لَتَّخَذْتَ ^(١) عَلَيْهِ أَجْرًا ﴿٧٧﴾

استمر موسى والخضر في رحلتهم، وانطلقا يمشيان حتى وصلا إلى مدينة أنطاكية على الأرجح، ليصل الخضر إلى حيث يُنفَّذ ما عنده من علم الله، فمرّا بأهل هذه القرية قال ابن سيرين: هي أبخل قرية.

وجاء في الحديث عن أبي بن كعب ؓ: أنهم قوم لئام ^(٢).

فطلبوا من أهلها أن يضيّقوهم، فلم يضيّقوهم، ثم طلبوا منهم أن يطعموهم فأبوا، والضيافة من حق المسلم على أخيه، كما في الحديث عن أبي هريرة ؓ: «ومن كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليكرم ضيفه» ^(٣).

ومع هذا فإن الخضر نظر إلى جدارٍ آيلٍ للسقوط، فمسحه بيده فأقامه، وجعله مستويًا سليمًا وعدل مائله، وفي رواية: أنه هدمه وبناه، فعجب موسى من ذلك، ولم يتمالك مشاعره؛ لأنه وجد نفسه أمام حالة متناقضة: قوم بخلاء لا يستحقون العون، ورجل يُتعب نفسه في إقامة حائط مائل لهم، دون أجر، فكان الأجدر به أن يطلب منهم أجرًا على هذا العمل الشاق، ولذا قال موسى للخضر: لو شئت لأخذت على هذا العمل أجرًا تصرفه في شراء طعام لنا، فهم قوم لم يضيفونا، ولم يطعمونا وتفعل بهم هكذا. وهنا:

٧٨- ﴿قَالَ هَذَا فِرَاقُ بَيْنِي وَبَيْنِكَ سَأُنَبِّئُكَ بِمَا لَمْ تَسْتَطِعْ عَلَيْهِ صَبْرًا ﴿٧٨﴾

قال الخضر لموسى: لقد حان وقت الفراق بيني وبينك، تحقيقًا للشرط الذي اشترطته على نفسك، فإن الشرط قد حصل، ولكنني قبل المفارقة سأشرح لك وأخبرك بما أنكرته

(١) قرأ ابن كثير وأبو عمرو ويعقوب بتخفيف التاء الأولى وكسر الخاء من غير ألف الوصل في (لاتخذت) هكذا (لتخذت) على أنه فعل ماضٍ من تخذ يتخذ، كعلم يعلم، والباقون بألف وصل وتشديد التاء الأولى وفتح الخاء هكذا (لاأخذت) على أنه فعل ماضٍ من (اتخذ) فأدغمت الفاء في التاء.

(٢) أخرجه النسائي كما في «تحفة الأشراف» (٤٩) والديلمي (٤٢٦٩).

(٣) الحديث في البخاري (٦١٣٨، ٦٤٧٥) ومسلم (٤٧).

عليّ من أفعالي التي لم تصبر على ترك السؤال عنها، والإنكار عليّ فيها.

الْخَضْرُ يُخْبِرُ مُوسَى بِأَسْبَابِ الْأَفْعَالِ الثَّلَاثَةِ الَّتِي أَنْكَرَهَا عَلَيْهِ

٧٩- ﴿أَمَّا السَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسْكِينٍ يَعْمَلُونَ فِي الْبَحْرِ فَأَرَدْتُ أَنْ أَعِيبَهَا وَكَانَ وَرَاءَهُمْ مَلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ

سَفِينَةٍ غَصْبًا ﴿٧٩﴾

أما السفينة التي خرقها فكانت لعشرة مساكين إخوة، منهم خمسة يعملون عليها في البحر، سعيًا وراء الرزق، ومنهم خمسة مرضى بأمراض مزمنة، وعمل هؤلاء الخمسة لا يكفيهم؛ فهم مساكين، وكان أمامهم ملك ظالم يأخذ كل سفينة صالحة، ويغتصبها غصبًا من أهلها، من أجل ذلك أردت أن أعيبها بهذا الخرق؛ كي تسلم لهم السفينة، ولا يأخذها الملك.

٨٠- ﴿وَأَمَّا الْغُلَامُ فَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤْمِنَيْنِ فَخَشِينَا أَنْ يُرْهَقَهُمَا طُغْيَانًا وَكُفْرًا ﴿٨٠﴾

وأما الغلام الذي قتلته فقد طُبع كافرًا، وكان أبوه وأمه مؤمنين، فعلمنا أنه لو بقي الغلام حيًا لكان سببًا في كفر أبويه وطغيانهما إرضاء ومحبة له، كما جاء في الحديث عن أبيّ بن كعب رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «الغلام الذي قتله الخضر طُبع يوم طُبع كافرًا، ولو أدرك، لأرهلك أبويه طغيانًا وكفرًا»^(١) قال الخضر:

٨١- ﴿فَأَرَدْنَا أَنْ يُبْدِلَهُمَا^(٢) رَبُّهُمَا خَيْرًا مِمَّا زَكَّوْهُ وَأَقْرَبَ رُحْمًا^(٣) ﴿٨١﴾

أي: فأردنا أن يبدل الله أبويه بمن هو خير منه صلاحًا ودينًا وبرًا، وكان أبواه صالحين، فخشنا لو بقي الغلام حيًا لحملهما على الكفر والطغيان لأجل محبتتهما إياه، أو للحاجة إليه.

(١) مسلم في القدر (٢٦٦١) وأبو داود في السنة (٤٧٠٥) والترمذي في التفسير (٣١٥٠) وقال: حسن صحيح غريب، وعبد الله بن أحمد (٢١١٢١، ٢١١٢٢).

(٢) قرأ نافع وأبو عمرو وأبو جعفر بضم الياء وتشديد الدال من (أن يبدلها) مضارع بدل، والباقون بإسكان الباء وتخفيف الدال مضارع أبدل.

(٣) قرأ ابن عامر وأبو جعفر ويعقوب بضم الحاء من (رحما)، والباقون بإسكانها.

قيل: إن المرأة كانت حاملاً، فولدت بنتاً، وإن هذه البنت ولدت نبياً، وإن هذا النبي هدى الله به أمة.

وقال ابن جريج: إن أم الغلام يوم قُتل كانت حاملاً بغلام مسلم.

ولكن هل يسوغ هذا في شريعة الإسلام، وأن يُقتل الصبي الذي لم يبلغ الحلم، ويؤخذ بجريرة غيره؟ لعل هذا كان جائزاً في شريعة الخضر، أو لعل هذا قد حدث بمقتضى ما أطلع الله عليه الخضر، وما سيؤول إليه الأمر، من أن هذا الغلام بعد بلوغه سيكون كافراً، ويتسبب في كفر أبويه، فكان هذا هو سبب قتل الغلام.

وَرَدَّ أَنْ نَجِدَةَ الْحُرُورِيِّ كَتَبَ إِلَى ابْنِ عَبَّاسٍ رضي الله عنه يَسْأَلُهُ عَنْ قَتْلِ الصَّبِيِّ، فَكَتَبَ إِلَيْهِ: إِنْ كُنْتَ الْخَضِرُ، تَعْرِفُ الْكَافِرَ مِنَ الْمُؤْمِنِ فَاقْتُلْهُمْ، وَقَدْ نَهَى رَسُولُ اللَّهِ ﷺ عَنْ قَتْلِهِمْ فَاعْتَرِلْهُمْ ^(١).

٨٢- ﴿وَأَمَّا الْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَامَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِي الْمَدِينَةِ وَكَانَ تَحْتَهُ كَنْزٌ لَهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا صَالِحًا فَأَرَادَ رَبُّكَ أَنْ يَبْلُغَا أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنْزَهُمَا رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ وَمَا فَعَلْتُهُ عَنْ أَمْرِي ذَلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِعْ عَلَيْهِ صَبْرًا﴾ (٨٢)

وأما الجدار المائل الذي عدلته فكان لغلامين يتيمين في مدينة أنطاكية، وكان تحت هذا الجدار الآيل للسقوط كنز من ذهب وفضة للغلامين، فأراد ربك أن يُحتفظ بهذا الكنز حتى يكبر الغلامان ويبلغا قوتهما؛ إذ لو سقط الجدار قبل بلوغهما لتناولته الأيدي بالحفر، وعثروا على الكنز، لذا: أبقى الجدار ثابتاً فوقه.

وفي الأثر: (إن الله تعالى يحفظ الرجل الصالح في ذريته) قال الخضر لموسى: هذا رحمة من ربك بهما، وما فعلتُ هذا كله من تلقاء نفسي، إنما فعلته بوحي من الله تعالى وأمر من عنده، وهذا الذي بينتُ أسبابه توضيح للأمور التي لم تصبر على ترك السؤال عنها، والإنكار عليَّ فيها.

أخرج ابن جريج عن الحسن البصري في قوله تعالى: ﴿وَكَانَ تَحْتَهُ كَنْزٌ لَهُمَا﴾ قال:

(١) «فتح القدير» للشوكاني نقله عن أحمد وابن أبي شيبه (٣/٣٠٩) وهو في «المسند» عن عطاء برقم (١٨٦٧) وقال محققوه: إسناده صحيح، وهو عند مسلم برقم (١٨١٢).

لوح من ذهب مكتوب فيه: بسم الله الرحمن الرحيم: عجبْتُ لمن يؤمن بالقدر كيف يحزن؟ وعجبْتُ لمن يوقن بالموت كيف يفرح؟ وعجبْتُ لمن يعرف الدنيا وتقلبها بأهلها كيف يطمئن إليها؟ لا إله إلا الله محمد رسول الله^(١).

وجاء في أول القصة: ﴿فَأَرَدْتُ أَنْ أَعِيبَهَا﴾ الآية [٧٩] في شأن السفينة، وقال في شأن الغلام: ﴿فَأَرَدْنَا أَنْ يُبْدِلَهُمَا﴾ الآية [٨١] وقال في شأن الجدار: ﴿فَأَرَادَ رَبُّكَ﴾.

وذلك أن الخضر تأدب مع ربه في شأن السفينة والغلام، فلم ينسب الفعل فيهما إلى ربه، وأسندهما إلى نفسه، أما في شأن الجدار، فالزمن فيه طويل، وهو من أمور الغيب الذي يحدث في المستقبل، فناسب هذا أن يسند الفعل فيه إلى ربه.

أخرج البيهقي وغيره عن أبي عبد الله المَلَطِيّ قال: أراد موسى أن يفارق الخضر، فقال له موسى: أوصني؛ قال: كن نَفَّاعًا ولا تكن ضَرَّارًا، كن بَشَاشًا ولا تكن غَضْبَانًا، ارجع عن اللَّجَاجَةِ، ولا تَمْشِ في غير حاجة، ولا تُعَيِّرْ امرأً بخطيئته، وإبكِ على خطيئتك يا ابن عمران^(٢). ويؤخذ من القصة:

١- أن الإنسان مهما أوتي من العلم، فعليه أن يطلب المزيد، قال تعالى: ﴿وَمَا أَوْتِيَتْهُ مِنْ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [الإسراء: ٨٥].

وقد أمر الله رسوله بطلب زيادة العلم، فقال: ﴿وَقُلْ رَبِّ زِدْنِي عِلْمًا﴾ [طه: ١١٠].

وقال تعالى عن يوسف عليه السلام: ﴿وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ﴾ [يوسف: ٧٦].

٢- ويؤخذ منها استحباب الرحلة في طلب العلم والبحث عنه، ولو في أقصى البلاد:

قال البخاري: رحل جابر بن عبد الله رضي الله عنه مسيرة شهر إلى عبد الله بن أنيس رضي الله عنه في طلب حديث.

(١) وجاء أيضًا عن أبي ذر يرفعه، وعن ابن عباس وعلي ومجاهد، كما عند البزار عن أبي ذر برقم (٤٠٦٥) قال الهيثمي في «مجمع الزوائد» (٥٣/٧): رواه البزار من طريق بشر بن المنذر عن الحارث بن عبد الله اليحصبي، ولم أعرفهما، وبقية رجاله ثقات. وانظر: البيهقي في الزهد (٥٤٤) وابن عساكر (٤١٥/١٦) والحاكم (٣٦٩/٢).

(٢) البيهقي في «شعب الإيمان» (٦٦٩٤).

٣- ويؤخذ أيضًا وجوب التواضع وخفض الجناح، والتلطف مع المعلم ولو كان مفضولًا والمتعلم فاضلاً، والاعتذار له عند الحاجة، ولا بأس أن يشترط المعلم على المتعلم شروطاً معينة، ومنها وجوب التاني والثبت في الأمور.

٤- ثم إن العلم علمان: علم لدني يهبه الله تعالى لمن يشاء فيفيض به عليه عن طريق الوحي، أو إلقائه في رُوعه، كما حدث في قتل الخضر للغلام، فقد كان ذلك بوحي من الله تعالى حفظاً للدين.

والعلم الآخر: علم مكتسب يحصّله الإنسان باجتهاده وتحصيله.

٥- ويؤخذ من القصة أيضًا وجوب تقديم المشيئة قبل الإقدام على العمل، وأن صلاح الآباء ينفع الأبناء.

٦- كما يؤخذ منها أن على الصاحب ألا يفارق صاحبه؛ حتى يبين له الأسباب في الأمور المخالفة للعادة أو للظاهر.

٧- ومن القواعد المقررة: دفع الضرر الأكبر بارتكاب الضرر الأصغر، فرب ضارة نافعة، ولو اطلعتم على الغيب لاخترتم الواقع، وعسى أن تكرهوا شيئاً وهو خير لكم، وهذا يتمثل في قصة خرق السفينة ونحوها.

٨- الخضر كان نبياً يوحى إليه على الأرجح، وقد مات كما يموت سائر البشر، وخبره قد انتهى بهذه القصة.

٩- جواز اتخاذ الخادم في الحضر والسفر، واستحباب أن يكون ذكياً فطناً كيئساً، ومؤاكلته ومجالسته ومحادثته.

١٠- جواز ارتكاب أخف الضررين، ودفع الشر الكبير بارتكاب الشر الصغير.

١١- القتل من أكبر الذنوب، والقتل قصاصاً غير منكر.

١٢- لا يؤاخذ الإنسان بالنسيان، لا في حق الله ولا في حقوق العباد.

١٣- من لا صبر له لا يدرك العلم، ومن لازم الصبر حصل العلم^(١).

(١) ينظر نحو هذه النقاط في تفسير ابن سعدي عند نهاية القصة.

قِصَّةُ ذِي الْقَرْنَيْنِ

٨٣- ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ ذِي الْقَرْنَيْنِ قُلْ سَأَتْلُوا عَلَيْكُمْ مِنْهُ ذِكْرًا ﴿٨٢﴾﴾

وتأتي القصة الرابعة في السورة: قصة ذي القرنين، وهي ضمن الأسئلة الثلاثة التي وجهها مشركو مكة بواسطة يهود المدينة إلى النبي ﷺ، كما سبق ذكرها في سبب النزول أول السورة.

وهناك سبب خاص ذكره ابن أبي حاتم عن السدي قال: قالت اليهود للنبي ﷺ: يا محمد، إنك إنما تذكر إبراهيم، وموسى، وعيسى، والنبيين؛ لأنك سمعت ذكركم منا، فأخبرنا عن نبي لم يذكره الله في التوراة إلا في مكان واحد، قال: ومن هو؟ قالوا: ذو القرنين، قال: ما بلغني عنه شيء، فخرجوا فرحين قد غلبوا في أنفسهم، فلم يبلغوا باب البيت، حتى نزل جبريل بهذه الآيات ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ ذِي الْقَرْنَيْنِ﴾^(١).

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «ما أدري: أتبع كان لعينا أم لا؟ وما أدري: أذو القرنين كان نبيا أم لا؟»^(٢).

قال البقاعي: كانت قصة موسى مع الخضر مشتملة على الرحلات من أجل طلب العلم، وكانت قصة ذي القرنين مشتملة على الرحلات من أجل الجهاد في سبيل الله، ولما كان العلم أساس الجهاد، تقدمت قصة موسى والخضر على قصة ذي القرنين^(٣)، والسائلون عن القصة هم كفار قريش بتلقين من اليهود.

وذو القرنين ملك صالح عادل، طاف المعمورة من الأرض في وقته، شرقًا وغربًا، وشمالًا وجنوبًا، وهو الذي بنى الإسكندرية وسماها باسمه، ودانت له ملوك العرب والروم والفرس والبربر، وغزا البلاد القريبة والبعيدة، وبوّب الأبواب، وبنى السدود^(٤).

(١) «فتح القدير» للشوكاني (٣/٣١٣) و«الدر المثور» (٩/٦٢٩).

(٢) صححه الحاكم على شرط الشيخين، وقال: لا أعلم له علة، ووافقه الذهبي (١/٣٦)، (٢/٤٥٠) و«التاريخ الكبير» للبخاري (١/١٥٣) ويُنظر: «السلسلة الصحيحة» (٢٢١٧).

(٣) «نظم الدرر» للبقاعي (١٢/١٢٨).

(٤) «تفسير الخازن» (٣/٢٠٩).

وسُمِّيَ ذا القرنين؛ لأنه بلغ قرني الشمس في المشرق والمغرب، أو لأنه أطال شعره وضفَّره ضفيرتين، والعرب يطلقون القرن على الضفيرة من الشعر.

وفي حديث أم عطية رضي الله عنها في صفة غسل ابنة النبي ﷺ قالت: إنهن جعلن رأس بنت رسول الله ﷺ ثلاثة قرون، نقضته ثم غسلته، ثم جعلته ثلاثة قرون^(١).

وقيل: إن ذا القرنين كان يلبس خوذة في الحرب بها قرنان، ولهذا كان يلقب بذي القرنين.

والأرجح: ما أخرجه الضياء المقدسي بسند صحيح إلى أبي الطفيل، قال: سمعت ابن الكواء يسأل علي بن أبي طالب عليه السلام عن ذي القرنين، فقال علي: لم يكن نبياً ولا ملكاً، كان عبداً صالحاً أحبَّ الله فأحبه، وناصح الله فناصره الله، بُعث إلى قومه فضربوه على قرنه فمات، فبعثه الله، فُسِّمِيَ ذي القرنين^(٢).

قال مجاهد: أربعة ملكوا الأرض: مؤمنان، وكافران، المؤمنان: سليمان وذو القرنين، والكافران: بُخْتَنَصْر والنمرود^(٣).

وأخرج الحاكم عن معاوية رضي الله عنه قال: ملك الأرض أربعة: سليمان، وذو القرنين، ورجل من أهل حُلوان، ورجل آخر، ف قيل له: الخضر؟ قال: لا^(٤).

وقد أُطلق ذو القرنين في التاريخ على عدد من الرجال منهم رجلان يقال لهما: ذو القرنين: أحدهما: كان قبل الميلاد بنحو ستة قرون، وكان ملكاً صالحاً.

والآخر: كان قبل عهد عيسى عليه السلام بمئتين وسبع وأربعين سنة، وهو الإسكندر اليوناني المقدوني تلميذ أرسطو، وكان كافراً وثنياً، وبينهما أكثر من ألفي سنة، ومنهم مَنْ كان ملكاً مِنْ ملوك فارس، ومنهم مَنْ كان مِنْ ملوك الصين، ولا يعني أن كان ذو القرنين الذي ذكره القرآن هو من ملوك الصين، أو من ملوك فارس، أو من ملوك اليمن، وهم قوم تُبَّع -ملوك

(١) البخاري (١٢٦٠) ومسلم (٩٣٩).

(٢) «المختارة» برقم (٥٥٥) وأخرجه ابن عبد الحكيم في «فتوح مصر» ص ٤٠، وابن أبي عاصم في «السنة» (١٣١٨) وصححه ابن حجر في «الفتح» (٣٨٣/٦) وأخرجه الطبري في التفسير (٩/١٦) وسنده صحيح.

(٣) «البحر المحيط» (١٥٧/٦).

(٤) الحاكم (٥٨٩/٢).

حمير- وهم الذين كانوا يُسْمُون ملوكهم بذئ يزن، وذئ نواس، وذئ القرنين .

ولعل ذا القرنين المذكور في القرآن هو المعروف بـ (قورش)

وكان ذو القرنين -صاحب القصة في القرآن- رجلاً صالحاً، وليس نبياً على الأرجح، وهو رجل مكَّن الله له في الأرض، وآتاه من كل شيء سبباً، أي: يسَّر الله له السبل لفتح البلاد، ودعوة أهلها إلى الإيمان.

قال سفيان: إن الله تعالى سَخَّر له النور والظلمة: فالنور يسير أمامه في أي وقت يشاء، وتحيطه الظلمة من ورائه.

وأخرج الضياء المقدسي بسنده إلى حبيب بن جمار قال: كنت عند علي بن أبي طالب، عليه السلام وسأله رجل عن ذي القرنين كيف بلغ المشرق والمغرب؟ قال: سبحان الله، سَخَّر له السحاب، ومُدَّت له الأسباب، وبُسط له النور، فقال: أزيدك؟ قال: فسكت الرجل وسكت علي^(١).

والمعنى: يسألك -يا محمد- هؤلاء المشركون من قومك عن خبر العبد الصالح والملك العادل ذي القرنين، قل: سأقص عليكم من أخباره ما تذكرون وتعتبرون به.

٨٤، ٨٥ - ﴿إِنَّا مَكَّنَّا لَهُ فِي الْأَرْضِ وَءَاتَيْنَاهُ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ سَبَبًا^(٢)﴾ فَاتَّبَعَ^(٣) سَبَبًا^(٤) ﴿

إنا جعلنا ذا القرنين رجلاً صاحب نفوذ وسلطان في أقطار الأرض المختلفة، ومكانه من التصرف فيها كيف يشاء، وأعطيناه من كل شيء يريد الوصول إليه؛ لتقوية ملكه، أعطيناه أسباباً وطرقاً لفتح المدائن، وقهر الأعداء، من سبل التنقل، وكثرة الجند، ووسائل

(١) «المختارة» برقم (٤٠٩) وصححه المحقق، ونقل توثيق العجلي لحبيب بن جمار، كما في «تعجيل المنفعة» (٨/٤).

(٢) قوله تعالى (من كل شيء سبباً) و (فاتبع سبباً) في هاتين الآيتين وفي الآيتين (٨٩) و (٩٢) عدّها آية في المواضع الأربعة المصحف العراقي، أي البصري والكوفي وترك عدّها الآخرون.

(٣) قرأ ابن عامر وعاصم وحزمة والكسائي وخلف بهمة قطع وإسكان التاء في (فاتبع سبباً) و (ثم أتبع سبباً) على أنه فعل ماضٍ متعد بالهمز ومفعوله (سبباً) أو أنه متعد لمفعولين على أن (سبباً) مفعول ثانٍ والمفعول الأول محذوف تقديره: فاتبع أمره سبباً، وقرأ الباقون بهمة وصل وتشديد التاء، على أنه فعل ماضٍ، أدغمت تاء الافتعال في تاء الكلمة، وهو على وزن افتعل، وهما لغتان.

البيان والعلم والقدرة والعمران، وَيَسِّرْنَا لَهُ أَسْبَابَ الْمُلْكِ والسلطان والفتح والعمران .
فأخذ ذو القرنين بتلك الأسباب والطرق بجد واجتهاد، فسلك الطريق الذي يَسِّرُهُ الله
له إلى المكان الذي تغرب فيه الشمس في الرحلة الأولى له .

رَحْلَةُ ذِي الْقَرْنَيْنِ الْأُولَى إِلَى أَقْصَى الْغَرْبِ

٨٦- ﴿حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ مَغْرِبَ الشَّمْسِ وَجَدَهَا تَغْرُبُ فِي عَيْنٍ حَمِئَةٍ ^(١) وَوَجَدَ عِنْدَهَا قَوْمًا ^(٢) قُلْنَا يَبْنَؤُا الْقَرْنَيْنِ إِمَّا أَنْ تُعَذَّبَ وَإِمَّا أَنْ نَتَّخِذَ فِيهِمْ حُسْنًا ^(٣)﴾

وكان لذي القرنين رحلات ثلاث: رحلة إلى أقصى بلاد المغرب، ورحلة إلى أقصى بلاد المشرق، ورحلة إلى أقصى الشمال الشرقي .

أما رحلة المغرب فقد وصل فيها إلى شاطئ البحر المحيط، ولعله وقف عند أحد مصبات الأنهار، في مكان تكثر فيه الأعشاب، وتوجد فيه البرك، ويختلط فيه الماء بالطين الأسود، فنظر، فإذا الشمس تغرب في هذه العين، في رؤية العين، ووجد الشمس في مرأى العين، كأنها تغرب في عين حارة، ذات طين أسود وهي عين حامية، كما في القراءة الثانية، أي: حارة من وهج الشمس .

أرسل معاوية إلى كعب يسأله: أين تجد الشمس تغرب في التوراة؟ قال: أما العربية فلا علم لي بها، وأما أنا فأجد الشمس في التوراة تغرب في ماء وطنين، وأشار بيده إلى المغرب ^(٣) وفي الحديث: أن أبا ذر رضي الله عنه كان خلف رسول الله ﷺ حين غربت الشمس فقال له: «أتدري أين غربت هذه؟» قال: لا، قال: «فإنها تغرب في عين حمئة» ^(٤) .

(١) قرأ نافع وابن كثير وأبو عمرو وحفص ويعقوب بهمزة من غير ألف هكذا (حمئة)، وقرأ الباقون بألف بعد الحاء وإبدال الهمزة ياء مفتوحة هكذا (حامية)، والحمأ: هو الطين الأسود. والحامية: هي الحارة، فيكون المراد: أن الشمس تغيب في عين حارة ذات طين أسود.

(٢) قوله تعالى (ووجد عندها قوما) لم يعدها آية المدني الأخير والكوفي وعدها آية الباقون.

(٣) يُنظر: عبد الرزاق (٤١١/١) والطيالسي (٥٣٨) وقال الألباني في «صحيح سنن الترمذي» (٢٣٣٧): صحيح المتن .

(٤) يُنظر البخاري برقم (٣١٩٩، ٤٨٠٢) ومسلم برقم (١٥٩) مطوَّلاً .

فهذا يدل على أن العين التي تغرب فيها الشمس عين حامية .

قال ابن عاشور: والظاهر أن هذه العين من عيون النفط، الواقعة على ساحل بحر الخزر، حيث مدينة (باكو)، وفيها منابع النفط الآن، ولم يكن معروفاً يومئذ، والمؤرخون المسلمون يسمونها البلاد الممتنة^(١).

ولا يمنع مانع أن يكون ذو القرنين قد عبر المحيط، ورأى غروب الشمس في تلك العين، ولكن يرجح أن ذا القرنين نظر إلى الشمس وهو يقف على ساحل البحر المحيط الغربي، وليس أمامه إلا الماء، حيث لا يرى شاطئاً آخر، فرأى الشمس كأنها تغيب في الماء في نظر عينيه، والذي يقف في صحراء ولا يرى أمامه إلا الجبل يرى كأن الشمس تغيب وراء هذا الجبل، وهو غير صحيح، وإنما هذا منتهى الرؤية البصرية.

وَوَجَدَ ذو القرنين في هذا المكان قوماً كانوا أخلاطاً، فيهم المحسن والمسيء، فأعلن دستوره في البلاد التي يفتحها، وكيف يعامل أهلها، فوضع الله له هذه الخطة:

بالنسبة للظالمين، فإنه يعذبهم ويرهبهم، حتى تعود النفوس إلى رشدها.

وبالنسبة للمؤمنين الصالحين فإنه يقابلهم بالإحسان.

وهذا أسلوب حكيم يتبعه كل حاكم صالح في أي زمان ومكان، فأعلن أنه سوف يدعوهم إلى عبادة الله تعالى وإلى توحيده، فمن يصّر منهم على الكفر والشرك يعذبه ويأسره ويقتله، ومن يؤمن منهم ويعمل الصالحات يعامله معاملة حسنة ﴿قُلْنَا يَذَا الْقَرْيَيْنِ إِنَّمَا أَنْ تُعَذِّبَ﴾ بالقتل أو الأسر أو الحبس أو الضرب، ﴿وَأِمَّا أَنْ نَخَذَ فِيهِمْ حُسْنًا﴾ بالدعوة إلى الهدى والإيمان، اختر أحد الأمرين.

ولفظ: ﴿قُلْنَا﴾ وحي من الله سبحانه، أو إلهام منه سبحانه لذي القرنين.

والظاهر أنهم كانوا كفاراً أو فاسقاً، لأنهم لو كانوا مؤمنين لم يرخص له في تعذيبهم، فكان عنده من السياسة الشرعية ما استحق به المدح والثناء لتوفيق الله له في ذلك.

فقال ذو القرنين: سأجعلهم قسمين: ظالم ومؤمن.

(١) «تفسير التحرير والتنوير» (٢٨/١٦).

٨٧- ﴿قَالَ أَمَّا مَنْ ظَلَمَ فَسَوْفَ نَعَذِّبُهُ ثُمَّ يُرَدُّ إِلَىٰ رَبِّهِ فَيُعَذِّبُهُ عَذَابًا ثَكْرًا﴾ (٨٧)

اختار ذو القرنين الطريق الثاني، وهو أن يدعوهم ويصبر عليهم، قال: أما من ظلم نفسه وبقي على الكفر والشرك بربه فسوف نعذبه في الدنيا بالقتل أو الأسر، ثم يرجع إلى ربه في الآخرة فيعذبه عذاباً أعظم في نار جهنم، فتحصل له العقوبتان، عقوبة الدنيا وعقوبة الآخرة.

٨٨- ﴿وَأَمَّا مَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُ جَزَاءٌ^(١) الْحَسَنُ وَسَنَقُولُ لَهُ مِنْ أَمْرِنَا يُسْرًا^(٢)﴾ (٨٨)

أي: ومن آمن منهم بربه فصّدق به، ووحدّه فاستجاب للدعوة، وعمل بطاعة الله، وأكثر من الصالحات فإنه يلقي عند الله الجزاء الحسن بدخوله الجنة في الآخرة، ونعامله في الدنيا معاملة حسنة، فيحصل له حسن الجزاء في الدنيا والآخرة، وهذا يدل على أنه كان من الملوك الصالحين والأولياء العادلين، حيث وفقه الله تعالى إلى هذا الحكم العادل.

رَحْلَةُ ذِي الْقَرْنَيْنِ الثَّانِيَةُ إِلَى أَقْصَى الشَّرْقِ

٨٩، ٩٠- ﴿ثُمَّ أَنبَأَ سَبِيًّا^(١) حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ مَطْلِعَ الشَّمْسِ وَجَدَهَا تَطْلُعُ عَلَىٰ قَوْمٍ لَّمْ يَجْعَلْ لَهُم مِّن دُونِهَا سَبِيلًا﴾

واستأنف ذو القرنين رحلته نحو المشرق متبعا لأسباب التي أعطاه الله إياها، فما لقي أمة، ولا مراً بمدينة، إلا دانت له ودخلت في طاعته، وكل من عارضه أو توقف عن أمره جعله عبرة وآية لغيره.

وصل ذو القرنين إلى مطلع الشمس، وعندها وجد قوماً متخلفين، لزيادة همجيتهم وتوحيشهم، وعدم تمدنهم، يسكنون في صحراء مكشوفة، لا يثبت عليها بنيان، ولا يحجبهم من الشمس حجاب، لا أشجار ولا جبال، ولا لباس يسترهم، فهم قوم عراة، والشمس عندهم دائمة، ولا تغرب عنهم إلا غروباً لا يذكر.

(١) قرأ حفص وحزمة والكسائي ويعقوب وخلف بهمزة مفتوحة منونة منصوبة في (جزاء الحسنی) مع كسر التنوين وصلّاً لالتقاء الساكنين، على أنه مصدر في موضع الحال، وقرأ الباقر بالرفع من غير تنوين هكذا (جزاء الحسنی) على أنه مبتدأ مؤخر خبره الجار والمجرور قبله، والحسنی مضاف إليه، وأمال (الحسنی) حمزة والكسائي وخلف، وقللها أبو عمرو وورش بخلفه.

(٢) قرأ أبو جعفر بضم السين من (يسراً)، والباقر بإسكانها.

والمكان الذي وصل فيه ذو القرنين عند مطلع الشمس؛ ربما كان على ساحل بحر اليابان في حدود كوريا شرقاً، ووجد هناك قومًا يتقون شعاع الشمس في الكهوف ونحوها؛ فليس لهم بنيان يسترهم، ولا شجر يظلهم، ولم نجعل لهم ما يسترهم ولا ما يحجبهم عن الشمس، فهي أرض مكشوفة واسعة، تشبه شاطئ أفريقيا الشرقي الجنوبي.

فكانوا إذا طلعت الشمس يدخلون في سراديب تحت الأرض، أو أسراب أو كهوف ومغارات، وقد يدخلون في ماء البحر، فإذا غربت الشمس خرجوا إلى معاشهم وأحوالهم ومكاسبهم؛ حيث لا يستقر لهم بنيان في هذا المناخ، ولو سلط الله عليهم الشمس لأحرقتهم، ولكن يسترهم في العراء: السحاب، والغمام، وبرد الهواء، والأشجار...، ولا يستترون منها في البنيان والخيام والمظلات.

قال قتادة: مضى ذو القرنين يفتح المدائن، ويجمع الكنوز، ويقتل الرجال إلا من آمن، حتى أتى مطلع الشمس، فأصاب قومًا في أسرابٍ عراة، ليس لهم طعام إلا ما أنضجته الشمس إذا طلعت، حتى إذا زالت عنهم الشمس خرجوا من أسرابهم في طلب معاشهم، وذكر لنا أنهم كانوا في مكان لا يثبت عليه بنيان، ويقال: إنهم الزنج^(١).

وقد عاملهم ذو القرنين بما عامل به أهل المغرب، أي: بالدستور الذي أعلنه في رحلاته الجهادية، عندما توجه جهة المغرب، فلسنا في حاجة إلى تكراره في رحلتي المشرق والشمال. قال تعالى:

٩١- ﴿كَذَلِكَ وَقَدْ أَحَطْنَا بِمَا لَدَيْهِ خُبْرًا﴾

وكما بلغ ذو القرنين مغرب الشمس، بلغ مطلعها، وكلما مرَّ بأمة دعاهم إلى الله تعالى، فإن أطاعوه، وإلا قهرهم وأذلهم، وحكم في القوم الذين هم عند مطلع الشمس كما حكم فيمن هم عند مغربها، وقد أحاط علم الله تعالى إحاطة تامة بما عند ذي القرنين من: جنود، وآلات، ومال، وأسباب النفوذ والملك والسلطان، حيثما توجه وسار.

(١) «زاد المسير» (١٨٧/٥) و«تفسير الطبري» (١٤/١٦).

رَحْلَةُ ذِي الْقَرْنَيْنِ الثَّالِثَةُ إِلَى شَمَالِ الْكُرَةِ الْأَرْضِيَّةِ

٩٢، ٩٣- ﴿ثُمَّ أُنْجِ سَبَبًا ﴿٨٩﴾ حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ بَيْنَ السَّدَيْنِ ^(١) وَجَدَ مِنْ دُونِهِمَا قَوْمًا لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ ^(٢) قَوْلًا﴾

ثم سار ذو القرنين آخذًا بالطرق والأسباب التي منحها الله إياه، فتوجه في مسيره هذه المرة نحو طريقٍ معترضٍ بين المشرق والمغرب متوجهًا نحو الشمال، حيث الجبال الشاهقة.

وواصل ذو القرنين مسيره إلى منطقة تقع بين جبلين عظيمين (السدين) يحجزان ما وراءهما، وهما سَدَان، كانا سلاسل جبال معروفين في ذلك الزمان، يسدان بين يأجوج ومأجوج وبين الناس، واصل سيره مستأنفًا رحلته الثالثة نحو الشمال، ووجد في هذه الأماكن قَوْمًا يشبهون أهل المشرق في التخلف والعجز، ولكن لهم جيرانًا يُغيرون عليهم، وينالون منهم، وهم لا يكادون يفقهون قولًا، ولا يفهمون كلام غيرهم إلا بواسطة الترجمة، وقد أعطى الله ذا القرنين من الأسباب العلمية، مَافِقَةً به السنة هؤلاء القوم، فراجعهم وراجعوه، واشتكوا إليه أضرار يأجوج ومأجوج.

يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ

٩٤- ﴿قَالُوا يَنْذِ الْأَرَضِينَ إِنَّ يَأْجُوجَ ^(٣) وَمَأْجُوجَ مُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ فَهَلْ نَجْعَلُ لَكَ خَرْجًا ^(٤) عَلَىٰ أَنْ تَجْعَلَ

بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ سَدًّا ^(٥)﴾ ﴿٩٤﴾

- (١) قرأ ابن كثير وأبو عمرو وحفص بفتح السين من (بين السدين)، والباقون بضمها، وهما لغتان بمعنى واحد.
- (٢) قرأ حمزة والكسائي وخلف بضم الياء وكسر القاف من (يُفْقَهُونَ) من أفقه غيره، أي: أفهمه، وهو متعد لمفعولين: الأول محذوف، أي: لا يفهمون السامع كلامهم، والثاني (قَوْلًا)، وقرأ الباقر بفتح الياء والقاف من فِقِّهِ الثلاثي فيتعدى لمفعول واحد، أي: لا يفقهون كلام غيرهم؛ لجهلهم بلسانهم.
- (٣) قرأ عاصم بهمزة ساكنة في لفظي (يأجوج ومأجوج) وهي لغة بني أسد، والباقر بإبدالهما حرف مد، أي: بدون همزة، وهي لغة أكثر العرب.
- (٤) قرأ حمزة والكسائي وخلف بفتح الراء وألف بعدها من لفظ (خرجا) هكذا (خَرَجًا)، والباقر بسكون الراء وحذف الألف (خَرَجًا)، وهما لغتان بمعنى واحد، وقيل: الخراج: ما يُضرب على الأرض كل عام. والخرج: ما يُجعل من المال مرة واحدة من غير تكرار.
- (٥) قرأ نافع وابن عامر وشعبة وأبو جعفر ويعقوب بضم السين من (سدًا)، والباقر بفتحها، وهما لغتان بمعنى واحد.

حينما رأى أهل الشمال إذا القرنين استعانوا به على قبيلتي يأجوج ومأجوج، وهما قبيلتان كبيرتان من أبناء يافث بن نوح.

في حديث سمرة بن جندب رضي الله عنه: «وَلَدَ نوح ثلاثة: سام أبو العرب، وحام أبو السودان، ويافث أبو الترك»^(١) فالترك منهم.

ويأجوج ومأجوج قوم هَمَج، لا يضبطهم وحي، ولا تحكمهم شريعة، وهم مفسدون في الأرض بشتى أنواع الفساد والنهب والسبي، يقطعون الطريق ويغتصبون الأموال، ويستهلكون الحرمات.

وظهور يأجوج ومأجوج بخروجهم من وراء السد يكون بعد نزول عيسى عليه السلام وقته للمسيح الدجال ضمن علامات الساعة الكبرى، واقترب خروجهما لا يستلزم وقوعه بالفعل وقت التنزيل، بل معناه: الاقتراب مع مهلة، كما قال تعالى: ﴿أَقْرَبَ السَّاعَةُ﴾ [القمر: ١]. ﴿أَقْرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ﴾ [الأنبياء: ١]. ﴿أَنَّهُ أَمْرٌ أَلَّهِ﴾ [النحل: ١].

وعليه يحمل قوله تعالى: ﴿حَقَّقَ إِذَا فُتِحَتْ يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ وَهُمْ مِّن كُلِّ حَدَبٍ يَنْسِلُونَ﴾ (٩٦) وَأَقْرَبَ الْوَعْدُ الْحَقُّ [الأنبياء: ٩٦، ٩٧].

ودلت الآية على أن القوم لا يقدرّون بأنفسهم على بناء السد، وأنهم عرفوا قدرة ذي القرنين على بنائه، فعرضوا عليه الأجرة مقابل البناء، وذكروا له السبب، وهو إفساد يأجوج ومأجوج في الأرض، ولم يكن ذو القرنين طالب دنيا ولا تاركًا لإصلاح أحوال الرعية، فلذلك أجابهم إلى مطلبهم دون أجرة، وشكر ربه على تمكينه واقتداره.

ومن الأحاديث الواردة في ذلك:

١- قوله عليه السلام كما جاء في الصحيحين وغيرهما: من حديث زينب بنت جحش رضي الله عنها قالت: استيقظ رسول الله صلى الله عليه وسلم من نومه وهو محمرّ وجهه، وهو يقول: «لا إله إلا الله، ويل للعرب من شر قد اقترب، فُتِحَ اليوم من رَدَم يأجوج ومأجوج مثل هذه» - وخلق بين

(١) أخرجه أحمد في «المسند» (٩/٥) برقم (٢٠١١٤) بإسناد ضعيف لأن ابن أبي الحسن البصري لم يصرح بالسماع، (محققه) وأخرجه الطبري في تاريخه (٢٠٩/١) والترمذي (٣٢٣١) والطبراني في الكبير (٦٨٧١).

أصابه - قلت: يا رسول الله، أنهلك وفينا الصالحون؟ قال: «نعم، إذا كثرت الخبث»^(١).

٢- وفي حديث أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «فُتِحَ اليوم من ردم يأجوج ومأجوج مثل هذه»، وعقد بيده تسعين^(٢).

وفُتِحَ شيء من السد في زمن النبي ﷺ، كما جاء في هذا الحديث، يشير إلى بداية ظهور فساد يأجوج ومأجوج في الأرض، ولا ينافي اقتراب ذلك السد يوم القيامة؛ فإن بعثة النبي ﷺ من علامات الساعة.

ظهور المسيح الدجال:

وفي حديث النواس بن سمعان رضي الله عنه في صحيح مسلم وغيره: أن النبي ﷺ ذكر المسيح الدجال ذات يوم، فرفع رأسه وخفضها، ثم ذكر لأصحابه أنه يخاف عليهم فتنة الدجال، فإنه إن يخرج وهو فيهم فهو حجيجهم، وإن يخرج وهو ليس فيهم فكل امرئ حجيج نفسه.

ثم وصف النبي ﷺ الدجال فقال: «إنه شاب قطط، عينه طافئة، أشبه بعبد العزى، فمن أدركه منكم فليقرأ عليه فواتح سورة الكهف».

وبَيَّنَّ ﷺ أنه يخرج بين الشام والعراق، وأنه يعيث في الأرض فسادًا يمينًا وشمالًا، وأنه يمكث في الأرض أربعين يومًا، يومًا كسته، ويومًا كشهر، ويومًا كجمعة، ويومًا كسائر أيامكم.

ثم بَيَّنَّ ﷺ ما يظهره الله على يديه فتنة للناس، ومنها:

أنه يأمر السماء أن تمطر فتمطر، ويأمر الأرض أن تُنبِت فتنبِت، ويمرُّ بالأرض الخربة، فيقول لها: أخرجي كنوزك فتخرج كنوزها، ويدعو شابًا مُمْتَلِكًا فيضربه بالسيف، ويجعله نصفين، ثم يدعوهُ فيقبل عليه حيًّا، يتهلَّل وجهه بالضحك، وأنَّ من يؤمن به تكثُر أرزاقه، ومن لا يستجيب له يُصبح وليس بيده شيء من ماله.

(١) «صحيح البخاري» برقم (٣٣٤٦، ٣٥٩٨، ٧٠٥٩، ٧١٣٥) و«صحيح مسلم» برقم (٢٨٨٠، ٢٢٠٧).

(٢) «المسند» (٨٥٠١، ١٠٨٥٣) بإسناد صحيح على شرط الشيخين والبخاري (٣٣٤٧، ٧١٣٦) ومسلم (٢٨٨١) وابن أبي شيبة (٦٢/٥).

نزل عيسى ونهاية يأجوج ومأجوج :

ثم قال النبي ﷺ: «فبينما هو كذلك إذ بعث الله المسيح ابن مريم، فينزل عند المنارة البيضاء، شرقي دمشق، بين مَهْرُودَتَيْنِ، واضعًا كفيه على أجنحة ملكين، فيطلب الدجال فيدركه بباب لد فيقتله»، ثم قال ﷺ: «ويبعث الله يأجوج ومأجوج وهم من كل حذب ينسلون، فيمرُّ أوائلهم على بُحيرة طبرية فيشربون ما فيها، ويمرُّ آخرهم، فيقولون: لقد كان بهذه ماء».

ثم يرسل الله عليهم دودًا قاتلاً في رقابهم فيموتون، وتمتلئ الأرض بنسنتهم، ثم يرسل الله طيرًا كأعناق البخت، فتحملهم فتطرحهم حيث شاء الله، ويرسل الله مطرًا، فتُغسل الأرض من آثارهم، ثم يقال للأرض: أخرجي ثمركِ، ورُدِّي بركتك، فيومئذٍ يشترك العدد من الناس في أكل الحبة الواحدة من الفاكهة، وتكفي الحلبة الواحدة من الإبل، أو البقر، أو الغنم، لعدد كبير من الناس، فبينما هم كذلك إذ بعث الله ريحًا طيبة، فتأخذهم تحت آباطهم، فتقبض روح كل امرئ مؤمن، وكل مسلم، ويبقى شرار الناس، فعليهم تقوم الساعة^(١).

وفي هذا الحديث الصحيح بيان شافٍ لثلاثة من علامات الساعة الكبرى، وهي:

١- ظهور المسيح الدجال.

٢- ونزل عيسى عليه السلام.

٣- وخروج يأجوج ومأجوج.

- وجاء في البخاري: عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «لِيُحْجَنَّ الْبَيْتُ وَلِيُعْتَمَرَ بَعْدَ خُرُوجِ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ»^(٢).

- وأخرج الترمذي وغيره بسند صحيح إلى أبي هريرة رضي الله عنه، عن النبي ﷺ أنه قال في السدِّ: «إن يأجوج ومأجوج يحفرون كل يوم، حتى إذا كادوا يخرقونه قال الذي عليهم: ارجعوا فستخرقونه غدًا، فيعيده الله كأشد ما كان، حتى إذا بلغ مدتهم وأراد الله أن

(١) يُنْظَرُ النص بطوله في: «صحيح مسلم» برقم (٢٩٣٧).

(٢) «صحيح البخاري» برقم (١٥٩٣).

يبعثهم على الناس قال للذي عليهم: ارجعوا فستخرقونه غداً إن شاء الله واستثنى، قال: فيرجعون فيجدونه كهيته حين تركوه، فيخرقونه فيخرجون على الناس، فيستقون المياه، ويفرُّ الناس منهم، فيرمون بسهامهم في السماء، فترجع مخضبة بالدماء، فيقولون: قهرنا من في الأرض، وعلو من في السماء قسراً وعلواً، فيبعث الله عليهم نغفاً في أقفائهم فيهلكون، فوالذي نفس محمد بيده: إن دواب الأرض تسمن وتبظر، وتشكر شكرًا من لحومهم^(١).

ومعنى تشكر، بفتح الكاف، أي: أنها تسمن وتمتلئ شحمًا.

وشكرًا، بفتح الشين والكاف، أي: أنها سمنت وامتلا ضرعها لبنًا^(٢).

- وفي الصحيحين: من حديث أبي سعيد رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «إن الله تعالى يقول: يا ابن آدم، فيقول: لبيك وسعديك، فيقول: ابعث بعث النار، فيقول: وما بعث النار؟ فيقول: من كل ألف تسع مئة وتسعة وتسعون إلى النار، وواحد إلى الجنة! فحيث يشيب الصغير، وتضع كل ذات حمل حملها، فيقال: إن فيكم أمتين، ما كانتا في شيء إلا كثرتا: يأجوج ومأجوج»^(٣).

ومع أن هؤلاء القوم الذين هم وراء السدين، كانوا لا يفهمون كلام غيرهم، فإنهم بذلوا جهدًا في إبلاغ ذي القرنين أن قبيلتي يأجوج ومأجوج المجاورين لهم يغيرون عليهم، وأنهم مفسدون في الأرض بشتى أنواع الفساد، ثم قالوا له: هل نجعل لك مقدارًا كبيرًا من أموالنا على سبيل الأجرة؛ لكي تقيم بيننا وبين قبيلتي يأجوج ومأجوج حاجزًا منيعا يحول بيننا وبينهم؟

موقع السد: وهذا السد يقع شمال الصين، وجنوب منغوليا، وهو الردم الفاصل بين الصين وبلاد المغول، وقد وُجد السدُّ هناك، ولم تزل آثاره إلى اليوم يشاهدها السائحون

(١) «سنن الترمذي» برقم (٣١٥٣) قال أبو عيسى: هذا حديث حسن غريب، وصححه الألباني في «صحيح سنن الترمذي» برقم (٢٥٢٠) و«سنن ابن ماجه» (٤٠٨٠) وصحيح سنن ابن ماجه (٣٢٩٨) والسلسلة الصحيحة (١٧٣٥) و«صحيح ابن حبان» برقم (٦٨٢٩) الإحسان، وصححه محققه، كما صححه الحاكم والذهبي في «المستدرک» (٤٨٨/٤).

(٢) «النهاية» لابن الأثير (٤٩٤/٢).

(٣) «صحيح البخاري» برقم (٣٣٤٨، ٤٧٤١، ٦٥٣٠، ٧٤٨٣) و«صحيح مسلم» برقم (٢٢٢).

والجغرافيون، وصُوِّرت له صور شمسية في كتب الجغرافيا، وكتب التاريخ العصرية^(١) وهو ما يعرف بالسور الأعظم.

مَنْ يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ؟

وبناء عليه: فإن يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ هما المغول والتتار، وقد تَشَتَّتَ مُلْكُ المسلمين بأيدي المغول والتتر، بخروج جنكيز خان المغولي واستيلائه على بخارى سنة ست مئة وست عشرة هجرية، وخرب هولاكو بغداد عاصمة الإسلام سنة ست مئة وستين هجرية.

هل هما قبيلة واحدة أم قبيلتان؟ يقال: إن (يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ) كلمة واحدة مركبة تركيباً مزجياً، والواو ليست عاطفة، ولكنها جاءت في صورة الواو العاطفة، فتكون الكلمة اسماً لأمة واحدة هي المغول.

وقيل: إن الواو عاطفة، فتكون أمة كثيرة العدد ذات شعبين مَأْجُوجَ وهم المغول، ويَأْجُوجَ وهم بعض أصناف التتر، وهو الأرجح، وكانا متجاورين.

يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ من أبناء يافث واستقرَّ في منغوليا:

وهما من أبناء يافث بن نوح من صلبه، وكان نوح قد اختار له الشمال الشرقي من الأرض مسكناً، ضمن تقسيمة الأرض لأبنائه الثلاثة بعد الطوفان، وهي مساحة واسعة مرتفعة استقر فيها يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ وذريتهم، وتحول الاسم بعد ذلك عبر العصور إلى (منغوليا) ولهم أسماء مختلفة عند الآشوريين والصينيين والأوروبيين^(٢).

وتقع منغوليا في قارة آسيا، وهي أكثرها ارتفاعاً ووُعُورة، ومن جهة الشمال الغربي إلى الجنوب الشرقي تمتد سلسلة جبال ألطاي، بطول يزيد على سبع مئة ميل، وارتفاع يصل إلى خمسة عشر ألف قدم فوق سطح البحر.

ومنغوليا: هضبة مرتفعة مغلقة تحيط بها سلسلة من الجبال الشاهقة والمنيعة، وهي تتصل بالعالم عبر ممرات جبلية تربطها بالصين من الجنوب والشرق، وبأوروبا من

(١) يُنظر: الشيخ محمد الطاهر بن عاشور في تفسيره (٣١/١٦).

(٢) يُنظر: كتاب «يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ» د/ الشفيع المليحي أحمد، ص ٥، دار ابن حزم بالرياض، ط بيروت، طبعة أولى (١٤١٦هـ).

الغرب، ومن جهة الشمال والجنوب لا تتوافر فيها ممرات، نظرًا لارتفاعها الشاهق وبرودتها القارسة.

أوصافهم: ويشترك يأجوج ومأجوج مع إخوانهم من سلالة يافث في نظام الجسم العام والملامح العامة، بيد أن الله تعالى جعل لهم هيئة مَيَّزَتْهُمْ عن إخوانهم، ورَكَّبَ فيهم صفات وخصائص معينة تتسم بالشدة والاضطراب والسرعة، واصطبغوا بالتأجج الذي يشبه النار المشتعلة المؤججة، ومنه اشتق اسمهم، وقد أحدثوا من الخراب والفساد الشيء الكثير؛ لِمَا تنطوي عليه نفوسهم من القسوة والعنف والهمجية والوحشية والشراسة.

وهم ذوو أجسام ضخمة قصيرة، وَسِمَنَ يحجبُ مفاصلهم، وأبدانهم رطبة مسترخية، وتجاويفهم السفلى تمتلئ رطوبة؛ إذ لا يمكن للبطن أن يبس في مناخ بلادهم، وعيونهم صغيرة سوداء اللون، ومدفونة في الرأس بعمق، وأنوفهم مسطحة ملساء، وشعرهم أسود صلب، وأجسامهم مربعة القامة ممتلئة، وأكتافهم عريضة، ورقابهم غليظة وصلبة، ورؤوسهم كبيرة، هكذا شاهدتهم الأوروبيون في القرن الخامس الميلادي حين أغاروا عليهم، وهكذا يوصف المغول.

قال البلخي: إن الغالب عليهم خفس العيون، وفطس الأنوف، وقَصَرَ القامة، وهم أسوأ الناس عيشًا، وأخبثهم طعمًا، وأقلهم تمييزًا أو فطنة^(١).

من مفاسد المغول والتتار:

ومن فساد المغول أنه قُتِلَ على أيديهم في الفترة التي غزوا فيها الصين والعالم الإسلامي، [٦٠٨-٦٢٠هـ] عددًا من الخلق يُقدَّر بأكثر من ثمانية عشر مليونًا من الأنفس، وكان عدد القتلى في المجر (هنغاريا) ١٣٥ ألف شخص بالإضافة إلى غيرها من مناطق أوروبا^(٢).

والتاريخ لم يتضمن مثل ما فعلوه من آدم إلى وقتنا، ناهيك عن تخريبهم لبلاد البلقان، فقد بلغ من الوحشية والقسوة ما يربو على أربعة قرون تحولت فيه المدن إلى أطلال بالية تأوي إليها البوم والوحوش.

(١) «البدء والتاريخ» للبلخي (٦٤).

(٢) «البدء والتاريخ» للبلخي ص ٣٣١.

وقد حكم المغول العالم الإسلامي ردحًا من الزمن، ذابوا خلاله في أمة الإسلام ذوبانًا لم يترك لهم بقية من خصائص ومميزات، وقد حرصوا على إضفاء الطابع الإسلامي على أنفسهم في كل تصرفاتهم ومظاهر حياتهم الخاصة والعامة، فكانوا يحرسون على أداء الصلاة في المساجد، واهتموا بفريضة الحج، واتخذوا لأنفسهم ألقابًا إسلامية، وتسموا بأسماء عربية إسلامية، وكان هذا في القرن السابع الهجري، الثالث عشر الميلادي.

ومنذ القرن السابع قبل الميلاد، وحتى القرن الثالث عشر الميلادي وهم يغيرون على الصينيين والآشوريين والرومان والمسلمين في سلسلة من خروج يأجوج ومأجوج، وقد أرخ القرآن الكريم لهم في سياق قصة ذي القرنين (قورش)^(١).

وصف مكان السدين:

وكان ذو القرنين بعد انتهاء مهمته في جهة الشرق قد توجه شمالًا تاركًا بحر قزوين عن يمينه، متوجهًا إلى جنوب جبال القوقاز، حيث عسكر بجيشه على شاطئ نهر قورش، الذي سُمي باسمه، وتمتد سلسلة جبال القوقاز من البحر الأسود حتى بحر قزوين.

وفي وسط سلسلة الجبال هذه، يوجد مضيق نحو الشرق، يشق هذه السلسلة طولًا، ويكون جبلين منفصلين في موقع فريد يحجز بين سلسلتين من الجبال، بينهما ممر أشبه بالثغرة، وكل من السلسلتين من الجبال تقف إحداها في مواجهة الأخرى، كما يقف الجبلان وجهًا لوجه، حيث تمتد الأولى من الممر شرقًا حتى بحر قزوين، وتمتد الثانية غربًا حتى البحر الأسود، وهو موضع السدين المشار إليهما في قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ بَيْنَ السَّدَّيْنِ﴾ وكان هذا المضيق هو المنفذ، أو الرابط الوحيد بين شمال آسيا وجنوبها^(٢).

قال أهل الشمال لذي القرنين: هل نعطيك أموالًا على أن تقيم حاجزًا وحصنًا منيعًا بيننا وبينهم حتى لا يؤذونا.

قال أهل التفسير: إن الأتراك كانوا في غارة لهم على قوم، أي: أن طائفة منهم كانوا قد خرجوا للإغارة على قوم، فضرب ذو القرنين السد، فبقوا خارجه، فسموا أترًا؛ لأنهم تركوا دون السد.

(١) «البدء والتاريخ» ص ٦٤.

(٢) نفسه ص ٦٥، ٦٦.

بِنَاء الرَّدْمِ

٩٥- ﴿قَالَ مَا مَكَّنِّي^(١) فِيهِ رَبِّي خَيْرٌ فَأَعِينُونِي بِقُوَّةٍ أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ رَدْمًا^(٢)﴾

قال ذو القرنين في الرد عليهم: عندي أموال كثيرة من فضل الله، فلا أريد مالا، ولكن أمدوني بالأيدي العاملة ومواد البناء أجعل بينكم وبينهم ما هو أعظم من السد وهو الردم. قيل: إنه حفر الأرض حتى وصل إلى الماء، وأقام أساسا منيعا من الصخر والحديد والنحاس المذاب. وهكذا قال ذو القرنين: إن الله قد بسط عليّ من الرزق والمال والقوة ما هو خير من أموالكم التي تريدون أن تجعلوها لي لإقامة السد بينكم وبين يأجوج ومأجوج، فوفروا أموالكم، وقفوا إلى جانبي بسواعدكم وآلات البناء؛ حتى أجعل مواد البناء يتراكم بعضها فوق بعض بتكاثف، حتى تتصل وتتواصل بهذا الردم الذي هو أقوى وأبلغ من السد؛ لأن السد بين الجبلين يجعلهم يتسلقون إلى البلاد المجاورة، فأراد أن يبنى سورًا ممتدًا على الجبال في طول حدود البلاد؛ حتى يتعذر عليهم تسلق الجبال، وهذا ما سماه ردمًا، وأنه بنى جدارين مرتفعين، وردم الفراغ الذي بينهما بما يشبه الخرسانة.

وموقف ذي القرنين في علو الهمة، والنفس الأبية، كموقف سليمان عليه السلام حين ردّ هدية بلقيس قائلاً: ﴿أَتُذَوِّنُ بِمَالٍ فَمَا ءَاتَنِيَ اللَّهُ خَيْرٌ مِّمَّا ءَاتَكُم بَلْ أَنْتُمْ بِهَدِيَّتِكُمْ فَفَرِحُونَ﴾ [النمل: ٣٦].

وقد نُقل كلام القوم الذين لا يفقهون قولاً، إلى ذي القرنين، إما بواسطة مترجم له إمام بلغتهم، أو أنه من الأسباب التي يسرها الله تعالى إليه؛ ليجوب الدنيا شرقاً وغرباً وشمالاً وجنوباً.

(١) قرأ ابن كثير بنونين خفيفتين: الأولى مفتوحة والثانية مكسورة بدون إدغام في (مكنتي)، على الأصل، والباقون بإدغام النونين (نون لام الفعل، ونون الوقاية) والنطق بنون واحدة مشددة مكسورة.

(٢) في حالة وصل الآيتين ببعضهما (ردمًا آتوني) قرأ شعبة بخلف عنه بكسر تنوين (ردمًا) بعده همزة وصل ساكنة، على أن (اتنوني) فعل أمر ثلاثي بمعنى: المجيء، فإن وقف القارئ على (ردمًا)، وابتدأ بما بعدها فإنه يبدأ بهمزة وصل مكسورة وإبدال الهمزة الساكنة ياء مدية، والباقون بإسكان التنوين في (ردمًا) وهمزة قطع بمعنى: أعطوني.

آيَةُ الْعَمَلِ فِي بِنَاءِ الرَّدْمِ

٩٦- ﴿آتُونِي زُبَرَ الْحَدِيدِ حَتَّىٰ إِذَا سَاوَىٰ بَيْنَ الصَّدَفَيْنِ^(١) قَالَ انْفُخُوا حَتَّىٰ إِذَا جَعَلُهُ نَارًا قَالَ^(٢) آتُونِي أَفْرِغْ عَلَيْهِ قِطْرًا^(٣)﴾

ولما تطوَّع ذو القرنين ببناء السد، وطلب منهم عون الرجال فحسب، ولما كانت سلسلة جبال القوقاز شاهقة معدومة المعابر، تمتد من البحر الأسود غربًا بارتفاع ١٢٠٠ كيلومتر حتى بحر قزوين، ثم تمتد من بحر قزوين حتى تتصل بجبال الهيمالايا، وهذه المنطقة تفصل ما بين شمال المنطقة وجنوبها، وفيها ممرٌ واحد تنفذ منه إلى شمال آسيا وغربها.

وقد أدرك ذو القرنين أنه لا سبيل للحيلولة بين هؤلاء القوم الضعاف وبين جيرانهم يأجوج ومأجوج، إلا بإقامة سد حاجز يُحَكِّم إغلاق هذا الممر الوحيد، بحيث يستحيل عليهم اختراقه مهما بلغت قوتهم وتضافرت جهودهم.

عبقريّة هندسية رائعة: وبدأ ذو القرنين برّدّم الممر الوحيد الفاصل بين الصين ومنغوليا، بقطع الحديد الكبيرة بوضع بعضها فوق بعض، حتى ساوى أعلى رؤوس الجبلين طولًا وعرضًا ببعضها، وهما ﴿الصَّدَفَيْنِ﴾ -والصدف: جانب الجبل- ثم أمر بأكوام هائلة من الحطب والخشب والفحم والحجارة فوُضعت فوق الحديد، ثم أمر بإشعال النار فيها فاشتعلت، ثم أمر بنفخ النار بالمنافخ، وهي (الكيران)؛ ليشدّ سعيها وتأججها.

ولمّا صار الحديد متوهجًا كالنار، وبلغ درجة الانصهار، أمر بإحضار النحاس المذاب، وهو (القَطْر) فأفرغه على الحديد المنصهر؛ حتى تسدّ الثُّقْب التي فيه، ويلتصق بعضه ببعض، ويزداد تماسكًا؛ حتى يصبح مع السلسلة الجبلية المتجانسة جدارًا صُلْبًا، حجارته الحديد، وطينه النحاس المذاب^(٣).

(١) قرأ ابن كثير وأبو عمرو وابن عامر ويعقوب بضم الصاد والذال من (الصَّدَفَيْنِ) وهي لغة قريش، وقرأ شعبة بضم الصاد وإسكان الذال مخففة من القراءة السابقة، وقرأ الباقر بفتحهما وهي لغة الحجازيين.

(٢) قرأ حمزة وشعبة بخلف عنه بهمزة ساكنة بعد اللام من (قال آتوني) وصلًا، والباقرن بهمزة قطع مفتوحة بعدها ألف، وصلًا ووفقًا وهو الوجه الثاني لشعبة وهي مثل (آتوني) السابقة في توجيه القراءتين.

(٣) «البدء والتاريخ» للبليخي ص ٣٠٨.

وقد بلغ طول السدِّ ثلاثة آلاف وثلاث مئة كيلومتر، وكان بناؤه في القرن الثالث قبل الميلاد. ومن الثابت تاريخياً أن رحلة ذي القرنين إلى مشرق الشمس، ثم توجُّهه إلى ما بين السدين، استغرقت نحو ستة أعوام من عام ٥٤٥ ق.م إلى عام ٥٣٩ ق.م وهو العام الذي اكتمل فيه بناء الردم، وبعد عشرة أعوام، وبالتحديد في عام ٥٢٩ ق.م تُوفِّي ذو القرنين (قورش) وخلفه ابنه (قمييز)، واستمر حكمه ثمانية أعوام^(١).

باب الأبواب:

وقد ظل سدُّ ذي القرنين باقيًا على حاله، ولما فتح المسلمون هذه المناطق وأدخلوها ضمن سيادتهم سموه (باب الأبواب) وهو الحاجز بين جورجيا وولاية شيروان، وسماه الأتراك (باب الحديد)، وسماه الأرمن (مضيق قورش)، وسماه أهل جورجيا (الباب الحديدي)^(٢).

وفي هذا السد، عبقرية هندسية رائعة، قام بها ذو القرنين، وعرفها البشر منذ هذا التاريخ، وهذا ما يشير إليه قوله تعالى: ﴿ءَاتَوْنِي زُبْرَ الْحَدِيدِ﴾ أي: أحضروا إليَّ الكثير من قطع الحديد ﴿حَتَّىٰ إِذَا سَاوَىٰ بَيْنَ الصَّدَفَيْنِ﴾ أي: الجبلين اللذين بُنِيَ بينهما السد ﴿قَالَ انْفُخُوا﴾ النار بالمنافخ على هذه القطع الكبيرة من الحديد لتشتدَّ فتذيب النحاس، فلماذا بالنحاس ﴿حَتَّىٰ إِذَا جَعَلَهُ نَارًا﴾ وانصهر الحديد، وحاذوا به جانبي الجبلين ﴿قَالَ ءَاتُونِي أُفْرِغْ عَلَيْهِ قِطْرًا﴾ أي: النحاس المذاب؛ ليزداد صلابة وقوة، فاستحكم السدُّ استحكامًا هائلًا، ومنع الناس من أضرار يأجوج ومأجوج: ولم يعد لهم قدرة على الصعود عليه ولا على نعبه لإحكامه وقوته. قال تعالى:

٩٧ - ﴿فَمَا اسْتَطَعُوا﴾^(٣) ﴿أَن يَظْهَرُوهُ وَمَا اسْتَطَعُوا لَمْ نَقْبًا﴾^(٩٧)

﴿فَمَا اسْتَطَعُوا﴾ يعني: يأجوج ومأجوج ﴿أَن يَظْهَرُوهُ﴾ أي: يرتقوا، أو يصعدوا فوق هذا السد؛ لارتفاعه وملاسته ﴿وَمَا اسْتَطَعُوا لَمْ نَقْبًا﴾ أي: خرقًا من أسفله؛ لصلابته ويُعد عرضه ومثاقته.

(١)، (٢) نفسه ص ٣١٠.

(٣) قرأ حمزة بتشديد الطاء بعد إدغام التاء التي قبلها فيها، من (فما استطاعوا)، وأصلها (استطاعوا)، والباقون بحذف التاء وفتح الطاء تخفيفًا، أما (وما استطاعوا) فقد أجمع القراء على قراءته بإثبات التاء مع الإظهار.

وبذلك يكون ذو القرنين قد لبَّى دعوة القوم بإقامة السد المنيع؛ للحيلولة بينهم وبين يأجوج ومأجوج، ولما تم بناء السد، أضاف ذو القرنين الفضل إلى ربه:

تَوَاضَعُ الْحَاكِمُ الصَّالِحِ

٩٨- ﴿قَالَ هَذَا رَحْمَةٌ مِنْ رَبِّي فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ رَبِّي جَعَلَهُ دَكَّاءَ^(١) وَكَانَ وَعْدُ رَبِّي حَقًّا ﴿٩٨﴾﴾

لم يغترَّ ذو القرنين حين أجرى الله على يديه هذا العمل الضخم، فلم يأخذه البطر والعجب، وإنما أرجع الفضل إلى ربه، فذكر الله وشكره، وأظهر عجزه أمام قدرته تعالى، وردَّ إليه العمل الصالح الذي وفقه إليه، وتبرأ من حوله وقوته، وأعلن أن جميع الحواجز والسدود والجبال ستدك قبل يوم القيامة.

وهكذا قال سليمان عليه السلام لما وصله عرش بلقيس في لحظة، على بُعد المسافة، قال :

﴿هَذَا مِنْ فَضْلِ رَبِّي لِيَبْلُوَنِي أَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ﴾ [النمل: ٤٠] بخلاف أهل الكبر والعلو كقارون لما آتاه الله الكنوز قال ﴿إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ عِنْدِي﴾ [القصص: ٧٨]

وهكذا يكون الحاكم الصالح، حين يمكن الله له في الأرض، فيُحق الحق، ويبطل الباطل، ويردع الظالم، ويُحسِّن للمحسن، قال ذو القرنين في خشوع وتواضع لخالقه: هذا رحمة من ربي، فإذا جاء وعد ربي بخروج يأجوج ومأجوج، أو بقيام الساعة ﴿جَعَلَهُ دَكَّاءَ وَكَانَ وَعْدُ رَبِّي حَقًّا﴾ أي: أن هذا الجبل، أو هذا السد سوف يتهدم ويسوى بالأرض، فيدكُّ قرب قيام الساعة، عندما يجيء الوقت الموعود به بخروج يأجوج ومأجوج، وانتشارهم في الأرض.

وجاء في صحيح مسلم وغيره: أن دكَّ السد يكون بعد نزول عيسى عليه السلام، وقتله المسيح الدجال.

والمعنى: إذا جاء وعد الله باقتراب يوم القيامة، ودنا الأجل الذي ينتهي إليه أمر السد، سواء الله بالأرض، وعاد ممراً وطريقاً كما كان أول مرة، وهذا الوقت في علم الله

(١) قرأ عاصم وحزمة والكسائي وخلف بمد الكاف وهمزة مفتوحة غير منونة في (دكاء) ممنوع من الصرف، مد متصل، أي: أرضاً مستوية، والباقون بحذف الهمزة وحذف المد مع تنوين الكاف (دكاً) مصدر، أي: مذكوكاً.

تعالى، فالمراد بوعد الله تعالى في قوله: ﴿فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ رَبِّي﴾ هو وعده تعالى بذلك الرُّدْم، وخروج يأجوج ومأجوج، وأن ذلك يكون قرب قيام الساعة.

النَّفْخُ فِي الصُّورِ

٩٩- ﴿وَتَرَكْنَا بَعْضَهُمْ يَوْمَئِذٍ يَمُوجُ فِي بَعْضٍ وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فُجِعَتْهُمْ جَمْعًا ۖ﴾

ويوم يأتي وعد الله تعالى بذلك السدّ وتسويته بالأرض تتزاحم قبائل يأجوج ومأجوج فيضطربون، ويموج بعضهم في بعض، من شدة الحيرة والاضطراب؛ لكثرتهم واختلاط بعضهم ببعض، وذلك قرب قيام الساعة.

لأن التنوين في ﴿يَوْمَئِذٍ﴾ يحتمل أن يكون المراد به:

١- أنهم يوم تمام بناء السدّ تركوا خلفه يموج بعضهم في بعض، ويستفاد هذا من قوله تعالى: ﴿فَمَا اسْطَاعُوا أَنْ يَظْهَرُوهُ وَمَا اسْتَطَاعُوا لَهُ نَقْبًا ۖ﴾.

٢- أو أنهم يوم يُفتح السد، ويُسوّى به الأرض، يخرجون على الناس، ويموج بعضهم في بعض في الدنيا؛ لكثرتهم واضطرابهم، كما قال تعالى ﴿حَتَّىٰ إِذَا فُجِحَتْ يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ وَهُمْ مِّنْ كُلِّ حَدَبٍ يَنْسِلُونَ﴾ [الأنبياء: ٩٦].

وعلى هذا فإن الضمير في (بعضهم) يعود على يأجوج ومأجوج في الحالتين.

٣- ويحتمل أن يكون المراد بالتنوين في ﴿يَوْمَئِذٍ﴾ هو يوم القيامة، حيث يجتمع الخلائق، فيكثرون، ويموج بعضهم في بعض من الزلازل والأهوال، ويستدلون بقوله تعالى ﴿وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فُجِعَتْهُمْ﴾ وعلى هذا فإن الضمير في ﴿بَعْضُهُمْ﴾ يعود على الخلائق جميعًا.

فهذه ثلاثة أقوال للمفسرين في الآية.

قلت: ويجمع هذه الأقوال أن يكون المراد: هو قرب قيام الساعة، وليس القيامة ذاتها، وقرب قيام الساعة يَصْدُقُ عليه منذ بدء البعثة المحمدية، وأن خروج يأجوج ومأجوج يكون آخرها، وهو من علامات الساعة الكبرى، بدليل أن الله تعالى قال بعدها: ﴿وَنُفِخَ فِي الصُّورِ﴾ أي: نفخ إسرافيل في القرن، أو البوق -وهو الصور- النفخة الثانية للبعث والنشور، يوم يقوم الناس من قبورهم لرب العالمين، كما قال تعالى: ﴿وَنُفِخَ فِي

الْصُّورِ فَصَعِقَ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَنْ شَاءَ اللَّهُ ﴿٦٨﴾ هذه النفخة الأولى، أما النفخة الثانية فيقول الله تعالى عنها: ﴿ثُمَّ نُفِخُ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنْظُرُونَ﴾ [الزمر: ٦٨].

والدليل على أن المراد هو النفخة الثانية، قوله تعالى بعدها: ﴿فَجَمَعْنَاهُمْ جَمْعًا﴾ أي: جمعنا الخلق جميعًا بعد خروجهم من القبور للحساب والجزاء، لا يَشُدُّ عنه أحد، ولا يفلت منه مخلوق ﴿قُلْ إِنَّ الْأَوَّلِينَ وَالْآخِرِينَ ﴿٤٩﴾ لَمَجْبُوعُونَ إِلَىٰ مِيقَاتِ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ ﴿٥٠﴾﴾ [الواقعة]. وقال سبحانه ﴿وَحَشَرْنَاهُمْ فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَدًا﴾ [٤٧].

وقد أسند الطبري إلى أبي هريرة ؓ أن النفخ في الصور يكون ثلاث نفخات: نفخة الفزع، ونفخة الصعق، ونفخة القيام لرب العالمين، والجمع بينها أن نفخة الصعق هي نفخة الفزع، وأنها تكون نفخة طويلة ممتدة من صعق الخلائق، أي: موتهم جميعًا إلى فزعهم، كما أجملتها آية سورة الزمر ٦٨.

وجاء لفظ الفزع في قوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ فَفَزِعَ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَنْ شَاءَ اللَّهُ﴾ [النمل: ٨٧]. أما النفخة الثانية فجاءت في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ نُفِخُ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنْظُرُونَ﴾ [الزمر: ٦٨].

وفي الحديث: عن ابن عباس ؓ أن رسول الله ﷺ قال: «كيف أنعم وصاحب القرن قد التقم القرن، وحنى جبهته، يسمع، متى يؤمر فينفخ؟!»^(١).

وهكذا فقد كان ذو القرنين مَلِكًا صالحًا عادلاً، شمل ملكه أقطارًا شاسعة في أرجاء المعمورة، بلغ في فتوحه ما كان مجهولاً مما سماه القرآن عينًا حمئة، وبلغ بلاد يأجوج ومأجوج، وأقام سدًا يحول بينهم وبين وصول فسادهم إلى الأمم المجاورة لهم، وقد كان معه قوم أهل صناعة متقنة في الحديد والبناء، وخروج يأجوج ومأجوج، ودكُّ السد من علامات الساعة الكبرى.

(١) «المسند» (٣٠٠٨) حسن لغیره (محققه) وعن زيد بن أرقم (١٩٣٤٥) وعن أبي سعيد (١١٣٠٩)، (١١٦٩٦) وفي «سنن النسائي الكبرى» عن أبي هريرة (١١٠١٦) وأبو الشيخ في «العظمة» (٣٩٦) والطحاوي في «مشكل الآثار» (٥٣٤٤).

أَهْلُ الْكُفْرِ يَرَوْنَ النَّارَ فِي سَاحَةِ الْعَرْضِ وَالْحِسَابِ

١٠٠- ﴿وَعَرَضْنَا جَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ لِلْكَافِرِينَ عَرَضًا﴾ ﴿١٠٠﴾

ويوم القيامة تبرز جهنم وتظهر للعيان؛ ليرى الخلق ما فيها من العذاب والنكال ولينظروا إلى أغلالها وسعيرها وحميمها وزمهريرها، قبل دخولها؛ ليكون هذا أبلغ في تعجيل الهم والحزن لهم.

والمعنى: وعرضنا جهنم يوم الجمع والحشر والبعث للكافرين، وأظهرناها لهم في عرصات القيامة؛ ليرؤا سوء عاقبتهم، كما قال تعالى ﴿وَوُزِّتَ الْجَحِيمُ لِمَنْ يَرَى﴾ [النازعات].

وكما قال تعالى ﴿وَوُزِّتَ الْجَحِيمُ لِلْغَاوِينَ﴾ [الشعراء: ٩١]

وعن ابن مسعود رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «يؤتى بجهنم يومئذ لها سبعون ألف زمام، مع كل زمام سبعون ألف ملك يجرونها»^(١).

وكما أن الكفار يرون النار ويشاهدونها دون لباس ولا خفاء، فإنهم يُعرضون أيضًا على النار، كما قال تعالى: ﴿وَيَوْمَ يُعْرَضُ الَّذِينَ كَفَرُوا عَلَى النَّارِ﴾ [الأحقاف: ٢٠].

وقال: ﴿النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا﴾ [غافر: ٤٦]. وهذا في البرزخ قبل قيام الساعة. لقد كانوا في الدنيا معرضين عن الذكر الحكيم ﴿وَقَالُوا قُلُوبُنَا فِي أَكِنَّةٍ مِمَّا نَدْعُونَ إِلَيْهِ فِيْءِءَادَانِئَا وَقَرْ وَمِنْ بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ﴾ [فصلت: ٥] وعلى أعينهم أعطية تمنعهم من الرؤيا النافعة. فقد ﴿خَتَمَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَعَلَى سَمْعِهِمْ﴾ وجعل ﴿وَعَلَى أَبْصَرِهِمْ غِشْوَةٌ﴾ فهم لا يؤمنون [البقرة: ٧]

١٠١- ﴿الَّذِينَ كَانَتْ أَعْيُنُهُمْ فِي غِطَاءٍ عَنْ ذِكْرِي وَكَانُوا لَا يَسْتَطِيعُونَ سَمْعًا﴾ ﴿١٠١﴾

ثم وصف الله سبحانه الكفار بما يدل على استحقاقهم دخول النار، فبين تعالى أن الذين أبرزت لهم جهنم في هذا اليوم العصيب ليشاهدوها بأعينهم يوم القيامة، هم الذين كانت أعينهم في الدنيا في غطاء كثيف، وغشاوة وإعراض عن الانتفاع بآيات الله تعالى المنزل على رسوله ﷺ، وكانوا كذلك في إعراض عن رؤية دلائل الله تعالى في هذا الكون، فلا يبصرونها.

(١) «صحيح مسلم» برقم (٢٨٤٢).

وبسبب إصرارهم على الكفر والباطل، فقد كانوا لا يُطيعون سماع حجج الله تعالى، الموصلة إلى الإيمان به؛ لأنهم عطّلوا جهاز الاستقبال فيهم، فكانوا كفاقد السمع بالكلية، ولأنهم يبغضون القرآن ورسول الإسلام، ومن يبغض شيئاً لا يلقى بسمعه إليه، فإذا انحجبت عنه طرق الخير، فتحت له أبواب الشر، ومنها الهوى، وقرناء السوء والشيطان:

قال تعالى: ﴿وَمَنْ يَعْشُ عَنْ ذِكْرِ الرَّحْمَنِ نُقَيِّضْ لَهُ شَيْطَانًا فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ ﴿٦٦﴾ وَإِنَّهُمْ لَيَصُدُّوهُمْ عَنِ السَّبِيلِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ مُّهْتَدُونَ ﴿٦٧﴾﴾ [الزخرف]

وقال جلّ وعلا: ﴿وَقَيَّضْنَا لَهُمْ قُرَنَاءَ فَزَيَّنُوا لَهُمْ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ﴾ [فصلت: ٢٥].

التَّعْقِيبُ الْأَوَّلُ عَلَى مَا جَاءَ فِي السُّورَةِ

١٠٢ - ﴿أَفَحَسِبَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنْ يَتَّخِذُوا عِبَادِي مِنْ دُونِي ^(١) أَوْلِيَاءَ ^(٢) إِنَّا أَعْتَدْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ نُزُلًا ﴿١﴾﴾

هذه هي الآية الثانية من الآيات العشر الأخيرة من سورة الكهف، وهي آيات تعقب على ما جاء في السورة من أحداث وقصص؛ ذلكم أن المشركين واليهود الذين سألوا النبي ﷺ عن أصحاب الكهف والرقيم، وعن ذي القرنين، وعن الروح، منهم من يعبد الملائكة، ومنهم من يعبد الجن، وبعض اليهود يعبدون عزيزاً، والنصارى يعبدون المسيح، ويكفرون بالجنة، وهؤلاء جميعاً كفار.

والجميع يظنون أنهم في عبادتهم على حق وصواب، وأنهم يحسنون العمل، والله ﷻ يبيّن أنهم أخطؤوا الحسبان؛ لأن أعينهم كانت في غطاء عن ذكر الله، وكانوا لا يطيقون سماع الحق والهدى، وقد ظنوا أنهم على صواب.

﴿أَفَحَسِبَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ وكلمة ﴿كَفَرُوا﴾ تشمل اليهود والنصارى والمشركين بأنواعهم.

قال القرطبي: وجواب الاستفهام محذوف، تقديره: أفحسبوا أن ذلك ينفعهم، أو لا أعاقبهم ^(٣).

أي أفحسب الكفار أن يتخذوا بعض عبادي آلهة يعبدونهم ويدفعون عنهم عذابي.

(١) قرأ نافع وأبو عمرو وأبو جعفر بفتح ياء الإضافة وصلّا في (من دوني أولياء)، والباقون بإسكانها.

(٢) سهّل الهمزة الثانية من (أولياء إنا) نافع وأبو جعفر وأبو عمرو ورويس، وحققها الباقون، والهمزة الأولى محققة للجميع.

(٣) «تفسير القرطبي» (١١/٦٥).

والعباد المشار إليهم في الآية كالنبي عيسى وعزير والملائكة، وأيضاً الجن والشياطين فهم من عباد الله وعباده، والأصنام أيضاً مخلوقة لله تعالى، والوثنيون يعبدونهم مع الله، أو يعبدونهم عبادة مستقلة، أو يوالونهم من دون الله سبحانه، أحسبوا أن هذا ينفعهم؟ أظنوا أن الله تعالى لا يغضب عليهم ولا ينتقم منهم؟

فمن زعم أنه يتخذ ولياً لله ولياً له، وهو معادٍ لله، فهو كاذب، لأن أولياء الله موافقون لله في محبته ورضاه وسخطه وبغضه، وهذا يشبه قوله تعالى ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلَائِكَةِ أَهْلُوا إِيَّاكُمْ كَانُوا يَعْبُدُونَ﴾ (٤٥) قَالُوا سُبْحَانَكَ أَنْتَ وَلِيِّنَا مِنْ دُونِهِمْ بَلْ كَانُوا يَعْبُدُونَ الْجِنَّ أَكْثَرُهُمْ بِهِمْ مُؤْمِنُونَ ﴿٤٦﴾ قال تعالى: ﴿فَالْيَوْمَ لَا يَمْلِكُ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ نَفَعًا وَلَا ضَرًّا﴾ [سبأ: ٤٠-٤٢]

ويحتمل أن يكون المراد بالآية: أفحسب الذين يتخذون آلهة من دون الله، أنهم ينصرونهم وينفعونهم ويدفعون عنهم عذاب الله؟ هذا زعم فاسد، كما قال تعالى: ﴿قُلْ أَدْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِنْ دُونِهِ فَلَا يَمْلِكُونَ كَشْفَ الضُّرِّ عَنْكُمْ وَلَا تَحْوِيلًا﴾ [الاسراء: ٥٦] وقال سبحانه: ﴿وَلَا يَمْلِكُ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ الشَّفْعَةَ إِلَّا مَنْ شَهِدَ بِالْحَقِّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ [الزخرف: ٨٦].

ثم بين سبحانه أن مصيرهم في الآخرة نار جهنم، فهي دار ضيافة لهم، ينزلون بها، ويحلون فيها، طعامهم الزقوم والضريع والغسلين، وشرابهم ماء حار متتن، يشوي الوجوه ويقطع الأمعاء، وفراشهم من نار جهنم والعياذ بالله، وغطاؤهم النار كذلك ﴿لَهُمْ مِنْ جَهَنَّمَ مِهَادٌ وَمِنْ فَوْقِهِمْ غَوَاشٍ﴾ [الأعراف: ٤١] أي: فراش وغطاء ﴿لَهُمْ مِنْ فَوْقِهِمْ ظُلَلٌ مِنَ النَّارِ وَمِنْ تَحْتِهِمْ ظُلَلٌ﴾ [الزمر: ١٦]. نسأل الله العافية والسلامة والنجاة من النار.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّا أَعْتَدْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ نُزُلًا﴾ جاء على سبيل التهكم والتفريع؛ لأن النزل: هوما يعد للضيف على سبيل التكريم، وهذا كقوله تعالى: ﴿فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [لقمان: ٧]. لأن البشرى تكون بالنعيم لا بالعذاب، وقوله تعالى عن صاحب النار: ﴿خُذُوهُ فَاعْتِلُوهُ إِلَى سَوَاءِ الْجَحِيمِ﴾ (٤٧) ثُمَّ صُبُّوا فَوْقَ رَأْسِهِ مِنْ عَذَابِ الْحَمِيمِ ﴿٤٨﴾ ذُقْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ ﴿٤٩﴾ [الدخان] فأى عزة وأى كرامة له وهو في وسط الجحيم، يصب الحميم من فوق رأسه؟! نسأل الله العافية والسلامة.

أَخْسَرُ النَّاسِ لِدُنْيَاهُ وَأُخْرَاهُ

١٠٣- ﴿قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا﴾^(١)

وتمضي الآيات في التهكم والتوبيخ بأهل الضلال، فتقول هذه الآية ما معناه: أتحبون أن أخبركم بأخسر الناس عند الله يوم القيامة؟ إنهم الذين يظنون أنهم على حق وصواب في عبادتهم لله تعالى، والواقع أنهم على باطل وضلال، كأهل البدع الذين يُحدثون في دين الله تعالى ما ليس منه، فيزيدون أو ينقصون، أو يبدلون، ويغيرون، ويحرفون، ومنهم الخوارج وأضرابهم.

يقول الله سبحانه عن هؤلاء وأولئك جميعًا: ﴿قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا﴾؟

أي: حذر الناس وأخبرهم بأن الذي خسر عمله كما يخسر التاجر تجارته وبضاعته، فيذهب ربحه ورأس ماله معًا، وهؤلاء قد يعملون في الدنيا أعمالاً خيرة كثيرة، كالصدقة، وبر الوالدين، وصلة الرحم، ولكن الإيمان متنفٍ، فلا قيمة له ولا وزن لأعمالهم.

فهؤلاء خسروا أنفسهم وأهلهم يوم القيامة، وذلك هو الخسران المبين.

يقول أبو سعيد الخدري رضي الله تعالى عنه: يأتي أناس بأعمال يوم القيامة هي عندهم من العظم كجبال تهامة، فإذا وزنها لم تزن شيئًا، وذلكم كما يقول رب العزة: ﴿مَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ أَعْمَالُهُمْ كَرَمَادٍ اشْتَدَّتْ بِهِ الرِّيحُ فِي يَوْمٍ عَاصِفٍ﴾ [إبراهيم: ١٨].

وقوله: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْثَانُ مَاءً حَاقًّا إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا وَوَجَدَ اللَّهُ عِنْدَهُ فَوْقَهُ حِسَابًا وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾ [النور].

ومثل قوله: ﴿وَقَدِمْنَا إِلَى مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَنْثُورًا﴾ [الفرقان].

إنهم يتقربون بأولياء الله تعالى إلى الله سبحانه، إنهم يدعون مع الله غيره، إنهم لا يعترفون برسالة محمد ﷺ إلى العالمين، ويظنون أنهم يحسنون صنعًا، إنهم يقولون: المسيح ابن الله، ويظنون أنهم يحسنون صنعًا ﴿أَفَمَنْ زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ فَرَآهُ حَسَنًا﴾ [فاطر: ٨].

(١) عد المصحف الشامي والبصري والكوفي (أعمالًا) آية، وأسقطها من العدد غيرهم.

واليهود والنصارى ممن ضل سعيهم كما أخبر بذلك النبي ﷺ.

وعلى سبيل التمثيل بمن ضل سعيه في الحياة الدنيا، فقد سأل مصعب أباه سعد بن أبي وقاص ؓ عن المقصودين بالآية، فقال: أهم الحرورية؟ يعني: الخوارج، نسبة إلى حروراء، وهي القرية التي ابتدأ خروجهم منها، قال: لا، هم اليهود والنصارى، أما اليهود فكذبوا محمدًا ﷺ، وأما النصارى فقد كفروا بالجنة، وقالوا: لا طعام فيها ولا شراب، والحرورية الذين يتقضون عهد الله من بعد ميثاقه، وكان سعد ؓ يسميهم الفاسقين^(١). وقال عليّ ؓ أيضًا: هم الحرورية.

والآية عامة تشمل اليهود والنصارى، وتشمل الخوارج وأهل البدع والأهواء وغيرهم، من كل من يعمل عملاً يحسبه مقبولاً، وهو مردود عليه.

ومعلوم أن هذه الآية مكية، قبل أن يخاطب القرآن أهل الكتاب، وقبل وجود الخوارج، ولكنها تشملهم وتعود عليهم كما صح في الحديث السابق.

ومن يعمل من الكفار عملاً يُتعب فيه نفسه، فهو عمل باطل؛ لأنه يشقى بدون عائد، بل ويعذب على عمله، كما قال تعالى:

﴿وَجُودٌ يَوْمَئِذٍ خَشِيعَةٌ ﴿٢﴾ عَامِلَةٌ نَاصِبَةٌ ﴿٣﴾ تَصَلَّى نَارًا حَامِيَةً ﴿٤﴾ تَسْقَى مِنْ عَيْنٍ ءَانِيَةٍ ﴿٥﴾ لَيْسَ لَهُمْ طَعَامٌ إِلَّا مِنْ ضَرِيعٍ ﴿٦﴾ لَا يُسَمِّنُ وَلَا يُغْنِي مِنْ جُوعٍ ﴿٧﴾﴾ [الغاشية].

وفي الآية تحذير للناس من سلوك طريق أهل الضلال، حيث يقول تعالى: قل -يا محمد- للناس محذراً: هل نخبركم بأخسر الناس أعمالاً؟ والجواب في الآيات التالية:

الْوَصْفُ الْأَوَّلُ لِلْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا

١٠٤ - ﴿الَّذِينَ ضَلَّ سَعِيَّهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ ﴿٢﴾ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا ﴿٣﴾﴾

ويأتي الجواب في هذه الآية ببيان أن الذين بطل عملهم وضاع، في الحياة الدنيا: هم

(١) «صحيح البخاري» برقم (٤٧٢٨) والنسائي في «السنن الكبرى» (١١٣١٣) وعبد الرزاق (٤١٣/١) والحاكم (٣٧٠/٢).

(٢) قرأ ابن عامر وعاصم وحزمة وأبو جعفر بفتح السين من (يحسبون)، والباقون بكسرها.

الذين يظنون أنهم يقدّمون أعمالاً حسنة تنفعهم، وهم غير مؤمنين بالله، أو غير مؤمنين بخاتم الرسل، أو غير مؤمنين بأنه رسول الله إلى الناس كافة، وهذا هو الجهل المركب؛ لأن من يعمل عملاً سيئاً وهو يعلم سوء عمله؛ فإن استقامته تُرجى، أما من يعمل السوء ويعتقد أنه حسن؛ فهذا هو الضلال اليّس، وهكذا كل من ضل عن سواء السبيل، وهو يظن أنه على صواب وهُدًى كالمشركين واليهود والنصارى ونحوهم، من الذين بطل ثواب عملهم في الدنيا، فلا قيمة له ولا فائدة منه، ولا وزن له، وكذا عمل الكافر من الصالحات فهو عمل باطل؛ لأنه بدون إيمان.

الْوَصْفُ الْآخَرُ لِلْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا

١٠٥ - ﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَلِقَائِهِمْ فَحَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ وَزَنًا﴾

ثم عرّف الله سبحانه الأخسرين أعمالاً: بأنهم الذين كفروا بآيات ربهم المنزلة على رسوله محمد ﷺ، وكفروا بأدلة التوحيد كلها: فكفروا بالآيات الكونية، وكفروا بالآيات المنزلة من رب العالمين، وكفروا باليوم الآخر وما فيه من بعث وحساب وجزاء.

﴿فَحَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ وَزَنًا﴾.

والوزن يوم القيامة يكون بين الحسنات والسيئات: كفة للحسنات وكفة للسيئات، وهؤلاء لا حسنة لهم؛ إذ لا توجد حسنة مع عدم الإيمان، فيكون الميزان للسيئات من جهة واحدة ﴿وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَٰئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ فِي جَهَنَّمَ خَالِدُونَ﴾ (١٢٣) تَلْفَحُ وُجُوهُهُمُ النَّارُ وَهُمْ فِيهَا كَالِحُونَ ﴿١٢٤﴾ [المؤمنون].

والإيمان شرط لقبول العمل، قال تعالى: ﴿وَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا يَخَافُ ظُلْمًا وَلَا هَضْمًا﴾ [طه: ١١٢]

وقد بينت السّنة الصحيحة أن الكافر مهما كان عظيمًا في الدنيا فإنه يوم لقاء رب العالمين يكون لا قيمة له ولا وزن؛ إذ ليس له حسنة توزن في ميزانه، ومن لا حسنة له فهو في النار.

جاء في الحديث الصحيح: عن أبي هريرة ؓ أن رسول الله ﷺ قال: «إنه ليأتي الرجل

العظيم السمين يوم القيامة لا يزن عند الله جناح بعوضة، اقرؤوا إن شئتم: ﴿فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ وَزَنًا﴾^(١).

هذا هو الكافر لا وزن لعمله، ولا وزن لذاته، كما جاء في الأثر: يؤتى بالرجل الأكل والشروب العظيم، فيوزن بحبة فلا يزنها، وقرأ ﴿فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ وَزَنًا﴾^(٢).

والآية ذكرت ركنين من أركان الإيمان، هما سبب عدم قبول العمل، وحبوط أجره، وهما: الكفر بآيات الله، والكفر بقاء الله.

والحبوط: أصله انتفاخ بطن الدابة حين تأكل شيئاً ساماً يكون سبباً في موتها، وهكذا العمل الباطل الذي لا أصل له في الشرع، ينتفخ انتفاخاً زائفاً لا وزن له ولا قيمة.

سَبَبُ عَذَابِ الْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا

١٠٦ - ﴿ذَلِكَ جَزَاءُكُمْ جَهَنَّمُ بِمَا كَفَرُوا وَاتَّخَذُوا آيَاتِي وَرُسُلِي هُزُوًا﴾

وبعد أن تساءل القرآن الكريم عن الأخسرين أعمالاً، ثم وصفهم وبين بطلان عملهم، بين في هذه الآية أن سبب عذابهم في نار جهنم يوم القيامة هو كفرهم بالله تعالى، وكفرهم بكل ما يجب الإيمان به، والسخرية والاستهزاء بآيات الله وحججه، وتكذيبهم رسل الله جلّ وعلا، فقال تعالى: ﴿ذَلِكَ﴾ وهو إشارة إلى ما تقدم من حبوط العمل وبطلانه ﴿جَزَاءُكُمْ جَهَنَّمُ بِمَا كَفَرُوا﴾ أي: بسبب جحودهم بكل ما يجب الإيمان به، وبسبب أنهم ﴿وَاتَّخَذُوا آيَاتِي وَرُسُلِي هُزُوًا﴾.

أَسْعَدُ النَّاسِ فِي دُنْيَاهُمْ وَأُخْرَاهُمْ

١٠٧، ١٠٨ - ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَانَتْ لَهُمْ جَنَّاتُ الْفِرْدَوْسِ نُزُلًا﴾

﴿يَبْعَثُونَ عَنْهَا حَوْلًا﴾

(١) البخاري عن أبي هريرة برقم (٤٧٢٩) ومسلم برقم (٢٧٨٥).

(٢) رُوي مرفوعاً وموقوفاً على أبي هريرة، «تفسير الطبري» (٢٩/١٦) وهو في «فتح الباري» (٨/٣٢٤) وأخرجه هناد بن كعب بن عجرة بنحوه (٨٦٦).

وبعد أن أخبرنا سبحانه عن حال الأشقياء -نعوذ بالله من سوء المصير- أخبرنا جلّ شأنه بحال السعداء -نسأل الله تعالى أن يجعلنا منهم- فبيّن سبحانه ما أعدّه للمؤمنين الذين كانوا يتزودون بالأعمال الصالحة في الدنيا، وقد شمل ذلك الدين كله: عقائده وعباداته وأعماله، وأصوله وفروعه الظاهرة والباطنة، فهؤلاء جميعاً أعد الله لهم من الثواب العظيم والنعيم المقيم يوم لقائه، جنات الفردوس، فكما أن جهنم دار نزل وضيافة أعدت للكافرين، فإن الجنة دار نزل وضيافة أعدّها الله لعباده المتقين، سيّما جنات الفردوس، فقد جاء في الحديث: عن أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «إذا سألتكم الله فاسألوه الفردوس الأعلى، فإنها أوسط الجنة، وأعلى الجنة، وفوقه عرش الرحمن، ومنه تفجر أنهار الجنة»^(١).

أي: الأنهار الأربعة: الماء، واللبن، والعسل، والخمر، وأوسط الجنة أفضل الجنات، وأرفعها درجة.

وإذا كانت جنة الفردوس جنة واحدة، وهي أعلى الجنات، فإنها تكون لأكمل الناس إيماناً، وهم الأنبياء والمقربون.

وإن كانت جنة الفردوس جنات متعددة، كما جاء في الآية ﴿جَنَّاتُ الْفِرْدَوْسِ﴾ فهي إذن طبقات، ودرجات ومنازل، أعلى الجنة، وأوسطها، وأفضلها، وهي تستوعب أهل الإيمان جميعاً، تستوعب المقربين والأبرار والمقتصدين، فإن لكل طبقة من هؤلاء درجة من درجات الفردوس، وهي نزل وضيافة، تشمل كل نعيم للقلوب والأبدان والأرواح، وفيها ما تشتهيهِ الأنفس وتلذ الأعين، وهي أعظم من أن يحيط بها وصف.

والفردوس: هو البستان الجامع لكل ما يكون في البساتين، فهي جنات من وصف الفردوس.

وفي حديث عبادة بن الصامت رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «إن في الجنة مئة درجة، كل درجة فيها ما بين السماء والأرض، والفردوس أعلاها درجة، ومن فوقها يكون العرش، ومنه

(١) «صحيح البخاري» برقم (٧٤٢٣) ورقم (٢٧٩٠) و«المسند» (٢/٣٣٣-٣٣٩) برقم (٨٤٧٤) حديث صحيح عن أبي هريرة وعن معاذ (٢٢٠٨٧) وعن عبادة (٢٢٦٩٥).

تفجر أنهار الجنة، فإذا سألتهم الله فاسألوهم الفردوس الأعلى^(١).

وهم مخلدون في جنات الفردوس خلودًا أبدًا سرمديًا، لا يريدون أن يتحولوا عنها إلى غيرها؛ لرغبتهم فيها، وحُبِّهم لها؛ لِمَا حَوَّته الجنات من اللذات والنعيم، فلهم فيها ما تشتهيهِ الأنفس وتلذ الأعين وهم فيها خالدون في عطاء دائم ونعيم لا ينقطع، ولذا فإنهم لا يحبون الانتقال منها ولا التحول عنها مع ما جُبِّل عليه الإنسان من حب الانتقال والتحول من مكان إلى مكان ومن حال إلى حال.

التَّعْقِيبُ الثَّانِي: شُمُولُ عِلْمِ اللَّهِ تَعَالَى وَإِحَاطَتُهُ

١٠٩ - ﴿قُلْ لَوْ كَانَ الْبَحْرُ مِثْقَالَ رَيْبٍ لَنَفَذَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَنْ تَنْفَدَ^(٢) كَلِمَتُ رَبِّي وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِ مَدَدًا﴾

ثم يأتي التعقيب الثاني من هذه الآيات الأخيرة على ما جاء في سورة الكهف؛ لبيان شمول علم الله سبحانه وإحاطته، وأن علم الله جلَّ شأنه لا ينفد، ولا ينتهي، بالقياس إلى علم الإنسان المحدود، وذلك بعد أن أجاب النبي ﷺ عما سأله المكذبون عن الروح، وعن أصحاب الكهف، وعن ذي القرنين، وهي إجابات لا قبل لمحمد ﷺ بها إلا بتعليم الله إياه، ولما كان آخرها خبر ذي القرنين أتبع ذلك ببيان سعة علم الله تعالى، ومنه ما أوحاه إلى نبيه محمد ﷺ.

أخرج الترمذي وغيره بسنده إلى عكرمة عن ابن عباس ؓ قال: قالت قريش ليهود: أعطونا شيئًا نسأل هذا الرجل، فقالوا: سلوه عن الروح، قال: فسألوه عن الروح، فأنزل الله ﴿وَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [الإسراء].

(١) أخرجه ابن أبي شيبة برقم (٥١٩٢٣) وأحمد (٣١٦-٣٢١) برقم (٢٢٦٩٥، ٢٢٧٣٨) بإسناد صحيح ورجال ثقات والترمذي برقم (٢٥٣١) وابن جرير (٣٠/١٦) والحاكم (٨٠/١) والبيهقي في البعث (٢٤٨) وصححه الألباني في «صحيح الترمذي» برقم (٢٠٥٦) وله شاهد في الصحيح عن أبي هريرة برقم (٢٧٩٠).

(٢) قرأ حمزة والكسائي وخلف بياء التذكير في (أن تنفذ)، والباقون بقاء التأنيث، ولأن الفاعل مؤنث غير حقيقي جاز تذكير الفعل وتأنيثه.

قالوا: أوتينا علماً كثيراً: التوراة، ومن أوتي التوراة فقد أوتي خيراً كثيراً، فأُنزلت ﴿قُلْ لَوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدَادًا لِكَلِمَاتِ رَبِّي لَنَفِدَ الْبَحْرُ﴾^(١).

وروى الترمذي وغيره عن ابن عباس رضي الله عنهما أن حبي بن أخطب اليهودي، قال: في كتابكم ﴿وَمَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا﴾ [البقرة: ٢٦٩]. ثم تفرؤون: ﴿وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾ فنزلت الآية^(٢).

ولما نوّهت سورة الكهف في أولها بشأن القرآن العظيم الذي أنزله الله على عبده محمد ﷺ، وأنه لم يجعل له عوجاً، ثم ذكرت السورة أربعاً من أحسن القصص والعبر والمواعظ. بعد ذلك بين ﷺ في نهاية هذا القصص، أن ما سبق ذكره في السورة هو شيء قليل من علم الله تعالى الذي أفاض منه على رسوله محمد ﷺ إجابة لما ظننتم أنه مُفْجَم للنبي ﷺ وأنه لا قبل له بعلمه.

والمعنى: لو كان ماء الأبحر التي في العالم جبراً، يكتب به القلم، وهذه الأبحر تُمدُّ بسبعة أبحر أخرى، والأقلام التي يكتب بها، هي مجموع أشجار الدنيا وأعوادها، كما في قوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّمَا فِي الْأَرْضِ مِنْ شَجَرَةٍ أَقْلَمٌ وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِنْ بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَا نَفِدَتْ كَلِمَاتُ اللَّهِ﴾ [لقمان: ٢٧] لفني ماء البحار ونفد، وتكسرت الأقلام وانتهت، ولم ينفد علم الله الواسع، وهذا من باب تقريب المعاني إلى الأذهان لأن كل مخلوق ينقضي ويتتهى، وكلام الله تعالى وعلمه ليس له حد ولا نهاية، لأنه من صفات الله، وصفات الله غير مخلوقة، فلو جُمع علم الخلاق أجمعين، من الأولين والآخرين، لأهل السموات والأراضين، لكان ذلك بالنسبة إلى علم الله تعالى أقل مما أخذه العصفور بمنقاره من ماء

(١) «سنن الترمذي» برقم (٣١٤٠) وقال: حديث حسن صحيح غريب، وأخرجه أبو يعلى (٢٥٠١) وصححه الألباني في «صحيح سنن الترمذي» برقم (٢٥١٠) وصححه الحاكم والذهبي (٥٣١/٢) وقال ابن حجر في «الفتح» (١٠٤/٨): رجاله رجال مسلم، وأخرجه النسائي في التفسير برقم (٣٣٤) وفي الكبرى (١١٣١٤) وأحمد في «المستد» برقم (٢٣٠٩) بإسناد صحيح، وابن حبان برقم (٩) وابن أبي شيبة برقم (٥١٩٢٣) وابن جرير (٣٠/١٦).

(٢) من حديث ابن عباس عن عكرمة في الترمذي برقم (٣١٤٠) و«تفسير النسائي» برقم (٣٣٤) و«المستد» برقم (٢٣٠٩) وابن حبان في الإحسان برقم (٩٩) و«المستدرك» (٥٣١/٢) وصححه الألباني في «صحيح سنن الترمذي» برقم (٢٥١٠).

البحر بالنسبة إلى مياه البحر.

وكلمات الله: هي كل ما يدل على شيء من علم الله تعالى مما أوحاه الله إلى رسله، وكلمات الله لا تنتهى؛ لأن علم الله لا يتناهى، وعلم العباد كلهم كقطرة من ماء بحر، بالقياس إلى علم الله تعالى، فلو كان البحر حبراً للأقلام التي يكتب بها كلام الله تعالى، لنفد ماء البحر قبل أن تنفذ كلمات الله، ولو جئنا بمثل البحر بحاراً أخرى مدداً له، وفي الآية إثبات صفة الكلام لله تعالى على وجه الحقيقة، كما يليق بجلاله سبحانه.

التَّعْقِيبُ الْأَخِيرُ عَنِ الْإِخْلَاصِ وَالْمُتَابَعَةِ

١١٠- ﴿قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰ إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمُ اللَّهُ وَحْدَهُ فَمَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا ۝﴾

هذا هو التعقيب الأخير في السورة على ما جاء فيها من قصص وأمثال؛ لبيان أن المنزل العاليا من البشر هي منزلة الرسول محمد ﷺ، ومع ذلك فإن الله جل شأنه يرُدُّ العلم إليه، ويعلم رسوله التواضع، ويأمره أن يخاطب المشركين وأهل الكتاب الذين أجابهم عما سألوه، ويقول لهم: إني بشر مثلكم، ولكن الله يوحى إليّ، وقد اصطفاني ربي واختارني للنبوة والرسالة، ومع ذلك فإنني لم أبعث للإخبار عن الحوادث الماضية، والقرون الخالية، وليس من مقتضى الرسالة أن يحيط علم الرسول بالأشياء كلها، فيتصدى للإجابة عنها، ولكنه بشر، علمه كعلم البشر، أوحى إليه بما شاء إبلاغه إلى العباد من التوحيد والشرعة، ولا علم له إلا ما علمه ربه ﴿قُلْ إِنَّمَا أَتَّبِعُ مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ مِنْ رَبِّي﴾ [الأعراف: ٢٠٣].

وقصّر الموصوف على الصفة في قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ﴾ معناه: ما أنا إلا بشر أبلغ ما يوحى إليّ، ولا أتجاوز البشرية إلى شيء من علم الغيب، ومما أوحاه الله إليّ ما أحببتكم به عن أهل الكهف، وذو القرنين، ولكن الهدف الأول من الوحي هو التوحيد، فأنا بشر: ﴿يُوحَىٰ إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمُ اللَّهُ وَحْدَهُ﴾ هذا هو الأساس، ويأتي بعده العمل الصالح ﴿فَمَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ﴾ ويأمل في حُسن لقاء الله عند القدوم عليه، ويخاف عذاب الله ﴿فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا﴾.

وقد اشتملت هذه الجملة من الآية على ركني قبول العمل، وهما:

١- أن يكون العمل موافقاً لهدي رسول الله ﷺ ليس فيه بدعة، ولا خروج على الدين.

٢- وأن يكون خالصاً لله ﷻ، لا يشوبه رياء، ولا شرك، ولا سمعة.

جاء في أسباب النزول:

١- قال ابن عباس ؓ: نزلت في جندب بن زهير الغامدي، وذلك أنه قال: إني أعمل العمل لله فإذا أطلع عليه الناس سرّني، فقال رسول الله ﷺ: «إن الله تعالى طيب لا يقبل إلا طيباً، ولا يقبل ما رُوئي فيه»، فأنزل الله هذه الآية^(١).

٢- وقال طاوس: قال رجل: يا نبي الله، إني أحب الجهاد في سبيل الله، وأحب أن يرى مكاني؛ فأنزل الله تعالى هذه الآية^(٢).

٣- وقال مجاهد: جاء رجل إلى النبي ﷺ فقال: إني أتصدق، وأصل الرحم، ولا أصنع ذلك إلا لله ﷻ، فيذكر ذلك مني، وأحمد الله عليه، فيسرّني ذلك وأعجب به؛ فسكت رسول الله ﷺ ولم يقل شيئاً؛ فأنزل الله تعالى الآية^(٣).

أحاديث في ذم الشرك بالله تعالى:

والشرك المذكور في الآية يشمل الشرك الأكبر المخرج من الملة، وهو الذنب الذي لا يُغفر إذا مات العبد عليه، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ﴾ [النساء: ٤٨].

ويشمل أيضاً الشرك الأصغر، وهو الرياء، كما يشمل الشرك الخفي:

١- عن محمود بن لبيد أن رسول الله ﷺ قال: «إن أخوف ما أخاف عليكم الشرك الأصغر»، قالوا: وما الشرك الأصغر يا رسول الله؟ قال: «الرياء، يقول الله يوم القيامة

(١) «تفسير القرطبي» (٦٩/١١).

(٢) «تفسير الطبري» (٣٢/١٦) وهو خبر مرسل أخرجه عبد الرزاق (٤١٤/١) والحاكم (٣٢٩/٤).

(٣) «أسباب النزول» للواحدي ص ٢٥١ والسيوطي (١٧٨) قال ابن كثير (٢٠٥/٤): وهكذا أرسل هذا

مجاهد وغير واحد، وأخرجه أبو نعيم (١٥٩٧) وابن عساكر (٣٠٤/١١).

إِذَا جَزَىٰ النَّاسُ بِأَعْمَالِهِمْ: اذهبوا إلى الذين كنتم تراءون في الدنيا، فانظروا هل تجدون عندهم جزاء؟»^(١).

٢- وفي الصحيحين وغيرهما: عن جندب بن عبد الله البجلي رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «مَنْ سَمِعَ سَمْعَ اللَّهِ بِهِ، وَمَنْ يُرَائِي يُرَائِي اللَّهُ بِهِ»^(٢).

أي: من عمل عملاً ليشتهر به بين الناس، شهّر الله به يوم القيامة.

٣- في حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «قال الله تبارك وتعالى: أنا أغنى الشركاء عن الشرك، من عمل عملاً أشرك فيه معي غيري تركته وشأنه»^(٣).

فإذا أخلص العبد في عمله لله تعالى، ولم يُرد إلا وجهه سبحانه، وأثنى الناس عليه خيراً، فإن هذا من عاجل ثوابه في الدنيا.

٤- جاء في الحديث: عن ابن عباس رضي الله عنه أن رجلاً سأل النبي ﷺ قال: يا رسول الله، إني أقف المواقف -يعني: أجاهد وأعمل الأعمال الصالحة- أريد بها وجه الله، وأحب أن يري موطني -أي: أحب أن يطلع الناس على عملي- فسكت النبي ﷺ ولم يُردّ عليه، حتى أنزل الله هذه الآية ﴿فَمَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا﴾^(٤).

٥- وفي الحديث: عن شداد بن أوس رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «من صلى يُرَائِي فقد أشرك، ومن صام يُرَائِي فقد أشرك، ومن تصدق يُرَائِي فقد أشرك»^(٥).

(١) أخرجه أحمد في «المسند» (٤٢٨/٥) وقال الهيثمي في «مجمع الزوائد» (١٠٢/١): رجاله رجال الصحيح، ورقمه في «المسند» (٢٣٦٣٠، ٢٣٦٣١) والبيهقي (٦٨٣١) وقال محققو «المسند»: حديث حسن، رجاله رجال الصحيح إلا أنه منقطع. وأخرجه البغوي في «شرح السنة» (٤١٣٥) وابن خزيمة (٩٣٧).

(٢) «صحيح البخاري» برقم (١٧٥٢، ٦٤٩٩) و«صحيح مسلم» برقم (٢٩٨٧) وعن ابن عباس (٢٩٨٦) و«المسند» (١٨٨٠٨) وابن أبي شيبة (٥٢٥/١٣) وابن ماجه (٤٢٠٧) والبيهقي (١٠١٩).

(٣) حديث قُدسي في «صحيح مسلم» عن أبي هريرة برقم (٢٩٨٥).

(٤) صححه الحاكم على شرط الشيخين ووافقه الذهبي (١١١/٢)، (٢٣٩/٤) وأخرجه البيهقي في «الشعب» برقم (٦٨٥٤) الكتب العلمية، وعبد الرزاق (٤١٤/١).

(٥) من حديث طويل أخرجه أحمد في «المسند» (١٢٥/٤) برقم (١٧١٤٠) بإسناد ضعيف، لضعف شهر بن حوشب والطبراني في الكبير (٧١٣٩) والحاكم (٣٢٩/٤) والبيهقي (٦٨٤٤) والطيالسي (١٢١٦)، قال الهيثمي في المجمع (٢٢٠/١٠): رواه أحمد، وفيه شهر بن حوشب، وثقه أحمد وغير واحد، وبقيّة رجاله ثقات.

٦- وجاء في الحديث: عن أبي سعد بن أبي فضالة الأنصاري رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «إذا جمع الله الأولين والآخرين ليوم لا ريب فيه نادى مناد: من كان أشرك في عمل عمله لله أحدًا فليطلب ثوابه من عند غير الله ﷻ؛ فإن الله أغنى الشركاء عن الشرك»^(١).

٧- وفي حديث ابن مسعود رضي الله عنه: «من أحسن الصلاة حيث يراه الناس وأساءها حيث يخلو، فتلك استهانة استهان بها ربه ﷻ»^(٢).

٨- وعن محمود بن لبيد مرفوعًا: «إياكم وشرك السرائر» قالوا: وما شرك السرائر؟ قال: «أن يقوم أحدكم يزئّن صلاته جاهدًا؛ لينظر الناس إليه، فذلك شر السرائر»^(٣).

٩- وجاء في الأثر: لو لم يُنزل الله ﷻ على أمة محمد ﷺ إلا خاتمة سورة الكهف لكفتهم^(٤).

أحاديث في فضل الآيات العشر الأخيرة وسورة الكهف:

وتقدم في أول السورة آثار وأحاديث في فضل سورة الكهف، والآيات العشر الأخيرة منها^(٥) نذكر منها:

١- ما جاء في صحيح مسلم والمسنند وغيرهما عن أبي الدرداء رضي الله عنه، وفي النسائي عن قتادة رضي الله عنه، أن النبي ﷺ قال: «من قرأ العشر الأواخر من سورة الكهف عُصِمَ من فتنة الدجال».

٢- وفي صحيح مسلم، وغيره عن أبي الدرداء رضي الله عنه: «من حفظ عشر آيات من أول سورة الكهف عُصِمَ من الدجال».

٣- ومن قرأ ثلاث آيات من سورة الكهف عُصِمَ من الدجال.

(١) أخرجه أحمد في «المسنند» (٢١٥/٤) برقم (١٥٨٣٨، ١٧٨٨٨) وهو حديث صحيح لغيره وإسناده حسن.

(محققو المسند)، والبيهقي في «الشعب» (٦٨١٧) وفي «صحيح سنن الترمذي» (٢٥٢١) وفي «سنن الترمذي» برقم (٣١٥٤) وقال: حديث حسن غريب، وابن ماجه برقم (٤٢٠٣) وهو عن أبي سعد بن أبي فضالة.

(٢) «مسند أبي يعلى» (٥٤/٩) وحسنه ابن حجر في «المطالب العلية» (١٨٣/٣) وقال الهيثمي في «مجمع الزوائد» (٢٢١/١٠): فيه إبراهيم بن مسلم الهجري وهو ضعيف.

(٣) ابن أبي شيبه (٤٨١/٢) والبيهقي في «الشعب» (٣١٤١).

(٤) أخرجه الطبراني وابن مردويه عن أبي حكيم في «مسند الشاميين» (١٦٨٥) وفيه محمد بن إسماعيل وهو ضعيف كما قال محققه.

(٥) سبق تخريجها في أول السورة.

- ٤- وعن عليٍّ عليه السلام مرفوعاً إلى النبي ﷺ: «من قرأ سورة الكهف في يوم الجمعة فهو معصوم من كل فتنة إلى ثمانية أيام، فإن خرج الدجال عُصِمَ منه».
- ٥- جاء مرفوعاً وموقوفاً على ابن عمر رضي الله عنهما عن نافع: «من قرأ سورة الكهف في يوم الجمعة -أي: في أي وقت من نهار الجمعة- سطع منه نور من تحت قدمه إلى عنان السماء، يضيء له يوم القيامة، وغُفِرَ له ما بين الجمعتين».
- ٦- وفي الحديث الآخر: «من قرأ سورة الكهف في يوم الجمعة أضاء له من النور ما بينه وبين البيت العتيق».
- ٧- وفي الصحيحين وغيرهما: أن أسيد بن حضير كان يقرأ سورة الكهف وفي الدار دابةً فجعلت تنفر، فنظر فإذا ضبابة أو سحابة قد غشيت، فذكر ذلك للنبي ﷺ فقال: «اقرأ فلان، فإنها السكينة تنزل عند القرآن، أو تنزلت للقرآن»^(١).

تم تفسير (سورة الكهف) والله الحمد والمنة



(١) هذه الأحاديث والآثار مخرّجة في مقدمة السورة.

تَفْسِيرُ سُورَةِ مَرْيَمَ (١٩)

مُقَدِّمَةُ السُّورَةِ

سورة مريم هي السورة التاسعة عشرة في ترتيب المصحف، والرابعة والأربعون في ترتيب النزول، وسورة مريم مكية عند الجمهور، وهي تسعون وثمانين آيات بالعدد الشامي والمدني الأول والبصري والكوفي الذي هو على رواية حفص، وفي غيرها أي المكي والمدني الأخير تسع وتسعون آية. وهي سبع مئة واثنان وستون كلمة، وثلاثة آلاف وثمان مئة حرف وحرفان.

وهي أول سورة في القرآن يُذكر فيها لفظ: ﴿كَلَّا﴾ الذي يدل وجوده في السورة على أنها مكية. وعن أبي بكر بن عبد الله بن أبي مريم الغساني، عن أبيه، عن جده أبي مريم، قال: أتيت النبي ﷺ، فقلت: يا رسول الله، إنه وُلِدْتُ لي الليلة جارية، فقال: «والليلة أنزلت عليّ سورة مريم، فسَمَّها مريم»^(١).

وجه التسمية: أن السورة بسطت قصة مريم وابنها قبل سورة آل عمران وغيرها. ويقال لها: (سورة كهيعص)، وقد نزلت بعد سورة فاطر، وقبل سورة طه، أي: أنها نزلت سنة أربع من البعثة.

وقد تكرر اسم مريم في القرآن ثلاثين مرة، ولم تُذكر امرأة بالاسم الصريح في القرآن سواها، ردًّا على الذين يفترون على الله الكذب بقولهم: عيسى ابن الله، حيث إن من عادة العرب الذين نزل فيهم القرآن أنهم يستحيون من ذكر اسم المرأة أمام الرجال، فذكر اسمها الصريح في القرآن ينفي بنوة عيسى لله تعالى، كما يزعمون، ولذلك اهتمت السورة بإقامة الأدلة على وحدانية الله تعالى، ونفي الشريك والولد عن ذاته سبحانه، وهذا هو العنصر الأول من عناصر القرآن المكي ﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا ۚ لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئًا إِدًّا ۚ تَكَادُ السَّمَوَاتُ يَفْطَرْنَ مِنْهُ وَتَتَشَقُّ الْأَرْضُ وَتَخِرُّ الْجِبَالُ هَدًّا ۚ أَن دَعَوْا لِلرَّحْمَنِ وَلَدًا ۚ﴾.

كما اهتمت السورة بالعنصر الثاني، وهو إقامة الأدلة على أن البعث حق، وأن الناس

(١) رواه الطبراني في «الكبير» برقم (٨٣٤) وأبو نعيم في «المعرفة» برقم (٧٠٣٠) والحاكم والديلمي، وابن مندة.

سيحاسبون على أقوالهم وأعمالهم يوم القيامة، ويجزون عليها بالإحسان إحساناً وبالسوء سوءاً ﴿فَوَرَبِّكَ لَنَحْشُرَنَّهُمْ وَالشَّيَاطِينَ ثُمَّ لَنُحْضِرَنَّهُمْ حَوْلَ جَهَنَّمَ جِثِيًا﴾ وقال سبحانه ﴿وَلَنُكَفِّرَنَّ إِلَّا وَارِدُهَا كَانَ عَلَى رَبِّكَ حَتْمًا مَقْضِيًّا﴾ ﴿٧١﴾ ثُمَّ نُنَجِّي الَّذِينَ اتَّقَوْا وَنَذَرُ الظَّالِمِينَ فِيهَا جِثِيًا ﴿٧٢﴾.

أما العنصر الثالث للقرآن المكي، وهو: إثبات الوحي والرسالة، فيتجلى في ذكر شيء من تفصيل قصتي مريم وإبراهيم مع أبيه، والإشارة المركزة إلى موسى وإسماعيل وإدريس بالإضافة إلى زكريا ويحيى في أول السورة صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين، وهذا مما جاء به محمد ﷺ في القرآن.

وسورة مريم جاءت فواصلها غالباً مختومة بحرف الياء المشدد المنصوب، عدا الصفحة الأخيرة منها، فقد جاءت بحرف الدال المشدد المنصوب.

وقد افتتحت السورة بكلمة الرحمة: ﴿ذَكَرْ رَحْمَتَ رَبِّكَ عَبْدُ زَكِرِيَّا﴾ ﴿٢﴾.

وكررت هذه الكلمة أربع مرات أثناء السورة، في الآيات: ٢ و ٢١ و ٥٠ و ٥٣.

وذكر اسم ﴿الرَّحْمَنُ﴾ في السورة ست عشرة مرة في قوله تعالى:

١- ﴿قَالَ إِنِّي أَعوذُ بِالرَّحْمَنِ مِنْكَ إِنْ كُنْتَ يَقِينًا﴾ ﴿٨﴾.

٢- ﴿فَقُولِي إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَنِ صَوْمًا فَلَنْ أُكَلِّمَ الْيَوْمَ إِنْسِيًّا﴾ [٢٦].

٣- ﴿إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلرَّحْمَنِ عَصِيًّا﴾ [٤٤].

٤- ﴿يَتَأْتِيَ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِنَ الرَّحْمَنِ﴾ [٤٥].

٥- ﴿إِذَا نُنَادِي عَلَيْهِمْ عَلَيْكُمْ رَبُّكُمْ خَرُّوا سُجَّدًا وَسُكُوتًا﴾ [٥٨].

٦- ﴿جَنَّتٍ عَدْنٍ الَّتِي وَعَدَ الرَّحْمَنُ عِبَادَهُ بِالْغَيْبِ﴾ [٦١].

٧- ﴿ثُمَّ لَنَنْزِعَنَّ مِنْ كُلِّ شِيعَةٍ أَيُّهُمْ أَشَدُّ عَلَى الرَّحْمَنِ عُنِيًّا﴾ ﴿٦٩﴾.

٨- ﴿قُلْ مَنْ كَانَ فِي الضَّلَالَةِ فَلْيَمْدُدْ لَهُ الرَّحْمَنُ مَدًّا﴾ [٧٥].

٩- ﴿أَطْلَعَ الْغَيْبِ أَمْ أَخَذَ عِنْدَ الرَّحْمَنِ عَهْدًا﴾ ﴿٧٨﴾.

١٠- ﴿يَوْمَ نَحْشُرُ الْمُتَّقِينَ إِلَى الرَّحْمَنِ وَفْدًا﴾ ﴿٨٥﴾.

- ١١- ﴿لَا يَمْلِكُونَ الشَّفْعَةَ إِلَّا مَنِ اتَّخَذَ عِنْدَ الرَّحْمَنِ عَهْدًا ۝﴾ .
 ١٢- ﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا ۝﴾ .
 ١٣- ﴿إِن دَعَا لِلرَّحْمَنِ وَلَدًا ۝﴾ .
 ١٤- ﴿وَمَا يَنْبَغِي لِلرَّحْمَنِ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَدًا ۝﴾ .
 ١٥- ﴿إِنْ كُلُّ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا آتَى الرَّحْمَنِ عَبْدًا ۝﴾ .
 ١٦- ﴿إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرَّحْمَنُ وُدًّا ۝﴾ .

وذكر اسم الرحمن في السورة بهذا العدد، مع بدئها بصفة الرحمة وتكراره أربع مرات - إشارة إلى أن جوَّ السورة هو ظل الرحمة والرضى والاتصال، وهي تقرر عقيدة التوحيد وتُنزِّه الله تعالى عما لا يليق بجلاله، وثُبِّت عقيدة الإيمان بالبعث والجزاء، إلى جوار استنكار الكون كله، وارتجافه لوقع كلمة الشرك التي لا تطيقها الفطرة.

وسورة مريم نزلت في السنوات الأولى للدعوة بمكة المكرمة قبل الهجرة إلى الحبشة، ولما هاجر بعض أصحاب رسول الله ﷺ إلى الحبشة قرأ جعفر بن أبي طالب صدر سورة مريم على النجاشي، فبكى حتى ابتلت لحيته وأسلم، وبكت الأساقفة حوله حتى ابتلت الصحف التي بين أيديهم، ثم قال النجاشي: إن هذا والذي جاء به عيسى ليخرج من مشكاة واحدة^(١).

فشأن سورة مريم شأن السور المكية، تدعو إلى توحيد الله سبحانه، وتغرس في الناس معالم الرسالة الإلهية، وتتحدث عن البعث والنشور والجنة والنار.

وهي من السور ذات القصص القرآني، فقد ابتدأت بذكر قصة نبي الله زكريا، وابنه يحيى عليهما السلام، وذكرت قصة مريم، وقصة ولادة عيسى ﷺ، واختلاف النصارى في شأنه، وهي القصة الرئيسة في السورة، وذكرت الحوار المصحوب بالأدب الجم بين

(١) تُنظَر القصة في: «المسند» (٢٠١/١) برقم (١٧٤٠، ٢٢٤٩٨) بإسناد حسن، ورجال ثقات رجال الشيخين غير ابن إسحاق وقد صرح بالتحديث، (محققوه) والبيهقي في «الدلائل» (٣٠/٢) وأبونعيم في الدلائل (١٩٤) وابن إسحاق (٣٦٠/١) من حديث أم سلمة.

خليل الله إبراهيم الابن، وأبيه عابد الوثن، وهو يدعو إلى عبادة الله وتوحيده.
وأشارت السورة إلى عدد من الأنبياء منهم: إسحاق، ويعقوب، وموسى، وهارون، وإسماعيل، وإدريس، وآدم، ونوح.

وبيّنت السورة أن هؤلاء من الذين أنعم الله عليهم جميعاً، وأنهم من أهل الجنة، وأنه سبحانه قد خَلَفَ من بعدهم خَلْفٌ أضاعوا الصلاة واتبعوا الشهوات، وأنهم أهل النار، وقد استغرق هذا نحو ثُلثي السورة، ثم تحدثت في نهايتها عن أهل الضلال والشقاء، وأهل الهداية والسعادة، وبعض مشاهد القيامة.

ويمكن تقسيم السورة إلى ثلاثة مقاطع:

المقطع الأول: يشتمل على قصة زكريا ويحيى، وقصة مريم وعيسى، ويستغرق هذا من أول السورة إلى الآية الخمسين منها.

وقد تحدث هذا المقطع من السورة عن معجزة ولادة يحيى عليه السلام من شيخ كبير قد وهن عظمه، وخارت قواه، ومن أم عجوز عقيم، وكان لزكريا عليه السلام أقارب لا يَصْلُحُونَ لميراث النبوة في بني إسرائيل وهم يتطلعون لها، فسأل ربه أن يرزقه مَنْ يَسُدُّ الطريق عليهم، فوهبه الله يحيى بعد ثلاث ليال من التسبيح والتحميد والانقطاع للعبادة.

وتحدث هذا المقطع من السورة عن معجزة ولادة عيسى عليه السلام بدون أب، كما وُلِدَ آدم بدون أب ولا أم، ووُلِدَتْ حواء بدون أم، ووُلِدَ سائر البشر من أب وأم، وقد أنطق الله عيسى عليه السلام وهو في المهد، لِيُبَرِّئَ أمه من تهمة اليهود لها.

المقطع الثاني: يتضمن قصة إبراهيم مع أبيه، وإشارة إلى قصص النبيين ومن اهتدى بهديهم، ثم مَنْ جَاء بعدهم من الخَلَفِ الغُواة، وهذا من الآية الحادية والخمسين إلى الآية الخامسة والستين.

وفي هذا المقطع يدور حوار بين إبراهيم وأبيه المشرك، حيث يناشد الابن أباه أربع مرات أن يدع الأصنام، وَيُسَلِّمَ وجهه لله تعالى، ومع أدب الحوار فإن أباه يهدده بالرجم واعتزاله إن بقي على عقيدته الصحيحة.

المقطع الثالث: يتحدث عن قضية البعث وبعض مشاهد القيامة، مع التعرض لمن أنكر

ذلك من المكذبين بلقاء الله تعالى وشبهاتهم في ذلك، وينتهي هذا القسم بمشهد مؤثر من مصارع الظلمة في القرون المكذبة، ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِّنْ قَرْنٍ هُمْ أَحْسَنُ أَثْنًا وَرِيعًا ۖ﴾ ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِّنْ قَرْنٍ هَلْ يُحِشُّ مِنْهُمْ مِّنْ أَحَدٍ أَوْ تَسْمَعُ لَهُمْ رِكْزًا ۖ﴾.

وقد استغرق هذا من الآية السادسة والستين إلى نهاية السورة.

وفي هذا المقطع خطاب موجه إلى منكري البعث إلى قيام الساعة، وموازنة بينهم وبين المؤمنين الصالحين الذين يَظْفَرُونَ بالنجاة ويأمنون من الفرع، إلى جوار تنفيذ عقيدة كل من زعم أن لله تعالى شريكًا، فكل ما عدا الله سبحانه من إنس وجن ومَلَك، عَبْدٌ لله تعالى، لا يملك لنفسه نفعًا ولا ضرًا، فكيف يملك شيئًا لغيره؟ والله سبحانه يَغْضُ كل من أشرك به، ولا يغفر له جريمته إن مات وهو مُصِرٌّ عليها، ويحب الموحدين ويُقبل عليهم بالودِّ والرحمة.



تَفْسِيرُ السُّورَةِ

فَاتِحَةُ السُّورَةِ

١- ﴿كَهَيَّصَ^(١)﴾

بدأت السورة بخمسة أحرف من حروف الهجاء، وهي: الكاف، والهاء، والياء، والعين، والصاد، وتُمدُّ الكاف والصاد ست حركات، وتُمدُّ الهاء والياء حركتين، وفي العين ثلاثة أوجه هي: المَدُّ ست حركات، وهو المَقْدَمُ في الأداء، والتوسُّط أربع حركات، والقصر حركتين، ويتعيَّن وجه القصر فيها على قصر المد المنفصل مع توسط المتصل، وعلى قصر المنفصل مع إشباع المد المتصل، ويُن حرف العين والصاد غنة مفخمة مع الإخفاء الحقيقي بمقدار حركتين.

وهذه الحروف من المتشابه الذي لا يعلم حقيقة المراد به سوى رب العالمين، قيل: إن هذه الكلمة ﴿كَهَيَّصَ﴾ اسم للسورة، وقيل: إنها اسم الله الأعظم، وقيل: إن كل حرف منها يدل على اسم أو صفة من أسماء الله تعالى وصفاته.

ولعل الأرجح أنها حروف هجاء، كسائر الحروف الهجائية التي افتتح الله بها بعض السور، نزلت هذه الأحرف لتحدي المشركين الذين كذَّبوا رسول الله ﷺ، فتحدَّاهم القرآن بأن يأتوا بمثل أقصر سورة منه، مع أنه مكوَّن من هذه الحروف التي ينطقون ويتلفظون بها.

مع ما في هذه الحروف من الإيقاظ والتنبيه، ولُفَّت النظر إلى فصاحة القرآن وبلاغته، وكونه ليس من كلام البشر، وشدَّ الانتباه إلى تدبر معانيه وفهم ما فيه من عبر ومواعظ

(١) قرأ أبو جعفر بالسكت من غير تنفس على كاف، وها، ويا، وعين، وص، على أنها حروف مقطعة مستقلة، وأمال الهاء والياء شعبة والكسائي، وفتح الهاء وأمال الياء ابن ذكوان وهشام بخلفه، وحمزة وخلف، وأمال الهاء أبو عمرو، وله في الياء الفتح والإمالة، وفتح هشام الهاء، وله في الياء الفتح والإمالة، ولنافع الفتح والتقليل في الهاء والياء، والباقون بفتحهما.

هذا: وقد عد الكوفي (كهيص) آية، وأسقطها غيره من العدد.

وأحكام وهدايات، وفي هذه السورة سبع قصص لأنبياء الله ورسله:

١- نَبِيُّ اللَّهِ زَكَرِيَّا يَسْأَلُ رَبَّهُ الْوَلَدَ

٢، ٣- ﴿ذَكَرْ رَحْمَتَ^(١) رَبِّكَ عَبْدُكَ زَكَرِيَّا^(٢)﴾ إِذْ نَادَى رَبَّهُ نِدَاءً خَفِيًّا ﴿٣﴾

ابتدأت السورة بالحديث عن عبد الله ونبيه ورسوله زكريا عليه السلام، وهو زوج خالة مريم، ومن رسل بني إسرائيل، وليس له كتاب في أسفار التوراة.

يرجع نسبه إلى سليمان بن داود عليهما السلام، وينتهي نسبه إلى يعقوب عليه السلام.

وقد عاش زكريا عليه السلام -على الراجح- مئة وعشرون عامًا، منها مئة قبل ميلاد عيسى عليه السلام، وعشرون بعد ميلاده، وهو غير (زكريا بن برخيا) الذي كان موجودًا في القرن السادس قبل المسيح، ولذا يقال له: زكريا الثاني.

وكان (زكريا) خادمًا للهيكل، رئيسًا في قومه، يدعوهم إلى عبادة الله وتوحيده، ويدعوهم إلى الصلاة والزكاة، ويبلغ الناس رسالة ربه، وينصحهم بما أمره الله تعالى، ولكن القوم كانوا أهل فسق وعناد، وكانوا يقتلون الأنبياء والمرسلين وأولي العلم من الناس، فلما تقدمت السن بزكريا عليه السلام، وبلغ من الكبر عتياً، ورأى في قومه من يتطلع إلى الرئاسة والزعامة، وهم ليسوا أهلاً لها، ولا يصلحون لإمامة الدين، ولا للخلافة في النبوة، ولا يصلحون إلى وراثة العلم؛ نظرًا لتفشي الفساد والمنكرات فيهم؛ لما رأى زكريا عليه السلام ذلك دعا ربه أن يرزقه الولد، ونمضي مع الآية:

﴿ذَكَرْ رَحْمَتَ رَبِّكَ عَبْدُكَ زَكَرِيَّا﴾ أي: هذا ذكر رحمة الله سبحانه بعبده زكريا سنقصه عليك؛ ونفصله لك، ونبين آثاره الصالحة، ومناقبه الجميلة، فإن فيه عبرة للمعتبرين.

وكان زكريا قد دخل على مريم وهي تخدم الهيكل، ورآها وهي تتعبد وتبتلى، ورأى

(١) وقف ابن كثير وأبو عمرو والكسائي ويعقوب بالهاء على (رحمت) وهي لغة طيِّ، ووقف الباقون بالياء كرسمها في المصحف وهي لغة قريش.

(٢) قرأ حفص وحزمة والكسائي وخلف بالقصر وحذف الهمزة من (زكريا)، والباقون بالمد وهمزة مفتوحة، فتصح من قبيل المد المتصل.

عندها فأكهة الشتاء في الصيف، فتعجب من ذلك وسألها: أنى لك هذا؟ قالت: ﴿هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [آل عمران: ٣٧].

هنالك طمع زكريا ﷺ في رحمة ربه الذي أمده مريم بهذه الكرامة، وهياً لها الأسباب، ورزقها بفاكهة الشتاء في الصيف؛ فهو سبحانه قادر على أن يرزقه الولد بعد أن بلغ هذه السن، وبعد أن كانت امرأته عقيماً منذ الصغر، وكانت قد بلغت ثمانية وتسعين عاماً.

فاذكر -يا محمد- نبي الله زكريا وقت أن دعا ربه في ضراعة وخفية، وسأله أن يرزقه الله الولد، وكان ذلك في أوقات تردده على مريم؛ لأن الله تعالى يقول: ﴿هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُ قَالَ رَبِّ هَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً إِنَّكَ سَمِيعُ الدُّعَاءِ﴾ [آل عمران: ٣٨].

وقد أمرنا الله تعالى بإخفاء الدعاء أو الجهر به، ونهانا عن الاعتداء في الدعاء، كما قال تعالى: ﴿ادْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً إِنَّهُمْ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ﴾ [الأعراف: ٥٥].

وكان دعاء زكريا ربه سرّاً بصوت خفي؛ لأن الله تعالى يعلم القلب النقي، ويسمع الصوت الخفي، ولأن الدعاء في السر يكون أقرب إلى الإجابة، وهو أحب إلى الله تعالى، وأبعد عن الرياء، وأقرب إلى الإخلاص، ولأن زكريا كان ضعيفاً لم يستطع في أواخر حياته إلا أن يذهب إلى الهيكل ليتعبد، ويذهب إلى مكان عمله (حانوته)؛ ليشغل ساعة من نهار، فيأتي بقوت يومه، له ولأولاده، كما أخبر النبي ﷺ في الحديث الصحيح الذي رواه أبو هريرة رضي الله عنه: أن نبي الله زكريا عليه السلام كان نجاراً^(١) يأكل من عمل يده.

وكان زكريا من الذين يكتبون الوحي ببيت المقدس^(٢).

وهو من آخر أنبياء بني إسرائيل من ذرية يعقوب عليه السلام.

رأى زكريا من نفسه الضعف، وخاف الموت، ولم يكن له أحد ينوب عنه في دعوة الخلق إلى ربهم، وعندئذ شكا ضعفه إلى ربه وناداه نداءً خفياً.

(١) من حديث أبي هريرة في «صحيح مسلم» برقم (٢٣٧٩) و«المسند» (٩٢٥٧) بإسناد صحيح على شرط مسلم ورجال ثقات وأبي يعلى (٦٤٢٦) والحاكم (٥٩٠/٢) والطحاوي في شرح مشكل الآثار (٩٨١).

(٢) كما أخرجه ابن عساكر (٤٨/١٩) عن ابن عباس.

زَكَرِيَّا يَتَوَسَّلُ إِلَى رَبِّهِ بِثَلَاثَةِ أَشْيَاءَ

٤- ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ الْعَظْمُ مِنِّي وَاسْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْبًا وَلَمْ أَكُنْ بِدُعَائِكَ رَبِّ شَقِيًّا﴾

ربّ إني تقدمت بي السن، وضعف عظمي، وانتشر الشيب في رأسي، وهكذا ذكر زكريا في دعائه لربه ثلاثة أشياء:

١- ضعف العظم. ٢- وانتشار الشيب.

٣- وأنه لم يكن محروماً من إجابة الدعاء في وقت من الأوقات.

وهذا تمهيد في الدعاء يتضمن اضطرابه لسؤال الولد، والله تعالى يجيب دعاء المضطر إذا دعاه.

وقول زكريا هذا يشبه قول خليل الرحمن: ﴿عَسَىٰ أَلَّا أَكُونَ بِدُعَاءِ رَبِّي شَقِيًّا﴾ [٤٨].

ويشبه حديث أبي هريرة، وأبي سعيد رضي الله عنهما في شأن الذاكرين الله تعالى: «هم القوم لا يشقى بهم جليسهم»^(١)، أي: أنه يسعد معهم.

وإذا وهن العظم، وهن الجسم كله؛ فالعظم هو عمود البدن، وقوامه وأصلبه، وانتشار الشيب في الرأس نذير الموت ورسوله، وعلامة الضعف والكبر.

ويغرض البياض للشعر عند كبر السن غالباً، بسبب نقصان المادة التي تُعطي اللون الأصلي للشعر، وقد يكون ذلك من مرض، يقول زكريا عليه السلام متوسلاً إلى ربه بضعفه وعجزه، وهذا من أحب سبل التوسل إلى الله تعالى، لأنه يسأل متبرئاً من حوله وقوته، فهو يدعو ربه بعيداً عن عيون الناس وأسماعهم، في قُرب واتصال مباشر بربه بدون حرف نداء، ومستعيناً بحول الله وقوته، وأنه لم يعهد منه إلا الإجابة ﴿وَلَمْ أَكُنْ بِدُعَائِكَ رَبِّ شَقِيًّا﴾ أي: لم تُخَيِّب رجائي فيك في وقت من الأوقات، ولم تترك إجابتي في يوم من الأيام، وها أنا ذا أدعوك يا رب العالمين، وأسعد بدعائك وإن لم تعطني، وفي هذا شكر لله تعالى على سالف أياديه عليه، فكما أحسنت إليّ سابقاً أسألك أن تتم إحسانك إليّ لاحقاً.

(١) جزء من حديث طويل في «المسند» (٧٤٢٤، ٨٩٧٢) بإسناد صحيح على شرط الشيخين، وأخرجه الطبراني في الدعاء (١٨٩٤) والترمذي (٣٦٠٠) وهو في البخاري (٦٤٠٨) وابن حبان (٨٥٧) والبيهقي في شعب الإيمان (٥٣١).

قال البيضاوي: هذا توسل بما سلف له من الاستجابة، ومن حق الكريم ألا يخيب من أطمعه^(١).
خاف زكريا على مستقبل الدعوة في بني إسرائيل، لأنه لم ير فيهم من هو أهل للقيام
بهذه المهمة بعد موته، فسأل ربه ولدًا صالحًا يرثه في النبوة:

سَبَبُ إِلْحَاحِ زَكْرِيَّا فِي الدُّعَاءِ

٦٥- ﴿وَإِنِّي خِفْتُ الْمَوَالِيَ مِنْ وَرَأَى^(٢) وَكَانَتْ أَمْرَاتِي عَاقِرًا فَهَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ وَلِيًّا
يَرِثُنِي^(٣) وَيَرِثْ مِنْ آلِ يَعْقُوبَ وَاجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا^(٤)﴾

ثم ذكر زكريا بعض الأسباب الأخرى للإلحاح في الدعاء، فقال: ﴿وَإِنِّي خِفْتُ الْمَوَالِيَ
مِنْ وَرَأَى^(٢) الْمَوَالِيَ: هم الأقارب والعصابات، كما قال تعالى: ﴿وَلِكُلِّ جَعَلْنَا مَوَالِيَّ
مِمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ﴾ [النساء: ٣٣].

فالموالي في الآية هم الذين يتولون الأمر من بعده، من بني عمومته وأقاربه، وكان فيهم
من يتطلع إلى الزعامة والرئاسة، فأراد زكريا أن يسد عليهم الطريق بدعائه لربه أن يرزقه
ذرية طيبة، تقود بني إسرائيل قيادة صالحة، كما جاء في آيات أخرى: ﴿قَالَ رَبِّ هَبْ لِي مِنْ
لَدُنْكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً إِنَّكَ سَمِيعُ الدُّعَاءِ﴾ [آل عمران: ٣٨].

﴿وَزَكَرِيَّا إِذْ نَادَى رَبَّهُ رَبِّ لَا تَذَرْنِي فَرْدًا وَأَنْتَ خَيْرُ الْوَارِثِينَ﴾ [الأنبياء: ٨٩].

والمعنى: إني خفت أقاربي وعصبي من بعد موتي، ألا يقوموا بدينك حق القيام، فقد
كان قومه شرار بني إسرائيل، فخاف ألا يحسنوا خلافته في أمته، وليس أدل على ذلك من
أنهم قتلوه ونشروه بالمنشار.

كان زكريا رجلاً كبيراً، قد وهن عظمه واشتعل الشيب في رأسه وإلى جوار ذلك فإن امرأته
كانت عاقراً لا تلد ﴿وَكَانَتْ أَمْرَاتِي عَاقِرًا﴾ هذا أمر فوق العادة، فارزقني من عندك ولدًا
وارثاً ومُعِينًا.

(١) البيضاوي (١٤/٢).

(٢) قرأ ابن كثير بفتح ياء الإضافة في (من ورأي)، والباقون بإسكانها.

(٣) قرأ أبو عمرو والكسائي بجزم الفعلين من (يرثني ويرث) فالأول مجزوم في جواب الدعاء والثاني
معطوف عليه، والمعنى: أسألك يا رب أن تهب لي من لدنك ولياً يرثني، وقرأ الباقر بالرفع فيهما على
أن الأول صفة والثاني معطوف عليه، والمعنى: فهب لي من لدنك ولياً وارثاً لي، ووارثاً من آل يعقوب.

وقد بين سبحانه في آية أخرى أنه أزال عنها العقم، وأصلحها للولادة، فقال: ﴿فَاسْتَجَبْنَا لَهُمُ وَوَهَبْنَا لَهُمُ يَحْيَىٰ وَأَصْلَحْنَا لَهُمُ زَوْجَهُ﴾ [الأنبياء: ٩٠].

وبعد هذا التمهيد دعا زكريا ربه قائلاً: ﴿فَهَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ وَلِيًّا﴾ لم يصرح زكريا بالولد، وإنما طلب الولي الصالح الذي يُحسِنُ الوراثة، والولي: هو النصير والمعين.

ولم يذكر الولد تصريحاً؛ لأنه يعلم أنه رجل كبير قد خارت قواه، وقلّت رغبته في إتيان النساء، وامراته بلغت الثامنة والتسعين من عمرها، وهي عقيم من الصغر لا تلد، فإجابة دعائه أمر معجز لا يقدر عليه إلا الله، ولذا قال: اجعل لي من لدنك وليا يقوم بأمر الدين بعدي، يرثني في العلم والنبوة والخلافة؛ فالأنبياء لم يورثوا ديناراً ولا درهماً، كما قال النبي ﷺ في حديث عائشة ؓ: «لا نورث ما تركنا صدقة»^(١).

وفي لفظ: «إنا معاشر الأنبياء لا نورث»^(٢).

وفي الحديث، عن أبي الدرداء: «... إن العلماء هم ورثة الأنبياء لم يورثوا ديناراً ولا درهماً وإنما ورثوا العلم...»^(٣).

أي: اجعل يا رب هذا الولد يرثني في نبوتي وعلمي، ويرث النبوة من آخر أجداده في بني إسرائيل؛ فإن من المعلوم أن آل يعقوب قد انقضوا منذ زمن، فلا يورث عنهم إلا العلم والنبوة والدين؛ لأن أموالهم لا وجود لها، واجعله يا رب مرضياً عنه عندك، مُحبباً إلى خلقك، جاء في الأثر: «يرحم الله أخي زكريا، ما كان عليه من وراثته، ويرحم الله

(١) البخاري برقم (٤٠٣٤، ٦٧٢٧، ٦٧٣٠) ومسلم برقم (١٧٥٨) عن عائشة، وفي البخاري عن أبي بكر (٣٧/١) برقم (٦٧٢٦) ومسلم برقم (١٧٥٩) وفي البخاري عن عمر وعثمان وطلحة والزبير برقم (٣٠٩٤، ٦٧٢٨، ٧٣٠٥) ومسلم برقم (١٧٥٧).

(٢) أخرجه النسائي من طريق أبي عينة عن أبي الزناد، وهو عند أحمد في «المسند» برقم (٩٩٧٢) عن أبي هريرة بإسناد صحيح على شرط الشيخين، وانظر (٧٣٠٣) ومسلم (١٧٦٠، ١٧٦١) والبخاري (٢٧٧٦) وأبو داود (٢٩٧٤).

(٣) من حديث طويل في «المسند» (٢١٧١٥) والترمذي (٢٦٨٢) وأبو داود (٣٦٤٢) وابن ماجه (٢٣٩) وهو حديث حسن لغيره، أورده السخاوي في «المقاصد الحسنة» (٧٠٣) وله شاهدان عن البراء بن عازب وعن أنس.

لوطًا، إِنْ كَانَ لِبَأْوِي إِلَى رُكْنٍ شَدِيدٍ»^(١).

وأخرج البخاري وغيره بسنده إلى عائشة ؓ أن فاطمة والعباس ؓ أتيا أبا بكر يلتمسان ميراثهما من رسول الله ﷺ، وهما حيثن يطلبان أرضيهما من فذك، وسهمهما من خير، فقال لهما أبو بكر: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «لا نورث ما تركناه صدقة، إنما يأكل آل محمد من هذا المال»، قال أبو بكر: والله لا أدع أمرًا رأيت رسول الله ﷺ يصنعه فيه إلا صنعته، قال: فهجرته فاطمة، فلم تكلمه حتى ماتت^(٢).

قال الرازي: قدّم زكريا ؑ على طلب الولد أمورًا ثلاثة: أحدها: كونه ضعيفًا.

وثانيها: أن الله تعالى ما ردّ دعاء البتّة.

وثالثها: كون المطلوب بالدعاء سببًا للمنفعة في الدين^(٣).

والحاصل: أن زكريا سأل ربه ولدًا، ذكرًا، صالحًا، يبقى بعد موته، ويكون وليًا ونيبًا، مرضيًا عند الله وعند الناس.

إِجَابَةُ دُعَاءِ زَكَرِيَّا عَلَيْهِ السَّلَامُ

٧- ﴿يَزَكَرِيَّا﴾^(٤) إِنَّا نُبَشِّرُكَ^(٥) بِغُلَامٍ أَسْمُو يَحْيَى لَمْ يَجْعَلْ لَمْ مِنْ قَبْلُ سَمِيًّا ﴿٧﴾

(١) أخرجه عبد الرزاق (٣/٢) والطبري (٤٥٩/١٥). وانظر صحيح البخاري برقم (٣٣٧٢) عن أبي هريرة وفيه (يرحم الله لوطا...) ومسلم (١٥١).

(٢) «صحيح البخاري» برقم (٣٠٩٢، ٤٢٤٠، ٤٢٤١، ٦٧٢٥، ٦٧٢٦) و«صحيح مسلم» برقم (١٧٥٩).

(٣) «التفسير الكبير» (١٨١/٢١).

(٤) قرأ حفص وحزمة والكسائي وخلف بدون همزة بعد ألف (زكريا) فيكون المد متفصلاً حال وصلها بما بعدها، وقرأ الباقر بهمزة مضمومة بعد الألف، فيكون المد متصلاً، وتلتقي هذه الهمزة بالهمزة التي بعدها، الأولى مضمومة والثانية مكسورة، فيسهل الثانية ويبدلها واوًا خالصة نافع وابن كثير وأبو عمرو وأبو جعفر ورويس، ويحققها ابن عامر وشعبة وروح.

(٥) قرأ حمزة (نُبَشِّرُكَ) بفتح النون، وإسكان الباء، وضم الشين، من البشّر، وقرأ الباقر بضم النون وفتح الباء وكسر الشين مشددة (نُبَشِّرُكَ) من بَشَّرَ المضعف، لغة أهل الحجاز.

أجاب الله دعاء زكريا، فبشّره بمولود تولى الله سبحانه تسميته بنفسه تشريفاً له، ولم يترك التسمية لأبويه، ولم يُسمَّ أحد بيحيى قبله، فهو اسم وحيد وفريد من نوعه؛ إذ ليس هناك من سُمِّي قبله بهذا الاسم.

ومن قال من المفسرين: إن يحيى ليس له بين الأنبياء الذين قبله شبيه ولا نظير، فهو قول مردود بأفضلية أنبياء الله: نوح، وإبراهيم، وموسى عليهم جميعاً أفضل الصلاة وأتم التسليم، وإنما المراد: لم نجعل له من يوافقه في هذا الاسم قبل وجوده.

ونظير هذه الآية ما جاء في سورة آل عمران بعد أن دعا زكريا ربه أن يرزقه الذرية الطيبة، وكان ذلك بعد انقطاعه للعبادة والتبتل، والإكثار من التسبيح والتحميد مدة ثلاث ليال ﴿فَنَادَتْهُ الْمَلَائِكَةُ وَهُوَ قَائِمٌ يُصَلِّي فِي الْمِحْرَابِ أَنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَى مُصَدِّقًا بِكَلِمَةٍ مِنَ اللَّهِ وَسَيِّدًا وَحَصُورًا وَنَبِيًّا مِنَ الصَّالِحِينَ﴾ [آل عمران].

وقد امتنَّ الله تعالى على زكريا، وأثنى على يحيى بأنه لم يجئ قبله من الأنبياء من اجتمع له ما اجتمع ليحيى:

- (أ) فإنه قد أُعطي النبوة وهو صبي، كما قال تعالى: ﴿وَأَيَّتَنُ الْخُكْمِ صَيًّا﴾.
- (ب) وجعله الله حصوراً، لا يأتي النساء، مع قدرته على ذلك، وهو أبلغ في عصمته من الحرام، وأدنى مشقة عليه في الجمع بين حقوق العبادة والحقوق الزوجية.
- (ت) ووُلد لأبيه بعد الشيخوخة، ولأمه بعد أن كانت عاقراً.
- (ث) وبُعِث مبشراً برسالة عيسى قبل أن يكون هو رسولاً.
- (ج) وجعل الله اسمه مبتكراً لم يسبق لأحد أن تسمَّى به، وهذا مزية في قوة التعريف؛ لعدم الاشتراك في التسمية، وهذه المزايا لا تقتضي الأفضلية على أولي العزم من الرسل.

زَكَرِيَّا يَتَعَجَّبُ وَيُرِيدُ الْأَطْمِنَانَ

٨- ﴿قَالَ رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِرًا وَقَدْ بَلَغْتُ مِنَ الْكِبَرِ عِتِيًّا﴾
قال زكريا متعجباً وفرحاً مسروراً من عظيم قدرة الله تعالى، شاكراً فضله عليه، ومعترفاً بأنه قد أعطاه عطية عزيزة غير مألوفة، مقررّاً ذلك في بيان أن زوجته كانت عاقراً لا تلد

في شبابها، فكيف وهي عجوز؟! وأنه قد تقدمت به السن، وبلغ النهاية في الكبر، فالمانع من وجود الولد موجود بي وبزوجتي، وكأنه وقت دعائه لم يستحضر هذا المانع لشدة الرغبة في الولد.

قال المفسرون: كان زكريا قد بلغ مئة وعشرين عامًا، وامرأته ثمانية وتسعين عامًا.

وقال وهب بن منبه: قال هذه المقالة وهو ابن ستين أو خمس وستين سنة^(١).

وعدم الإنجاب قد يكون لعل في رحم المرأة، أو لعل في ماء الرجل، تجعله غير صالح لنمو البويضات، وعليه فإن كلاً من الرجل والمرأة يوصف بأنه عاقر، وكان الله تعالى قد أجاب دعاء زكريا في طلبه الولد وأصلح له عقر امرأته حين قال: ﴿رَبِّ لَا تَذَرْنِي فَرْدًا وَأَنْتَ خَيْرُ الْوَارِثِينَ﴾ [الأنبياء: ٨٩].

فأجاب الله دعاءه، ورزقه الولد بعد أن أصلح له زوجه، وبلغ هو مبلغًا كبيرًا في دقة العظم، ونحول الجسم، وضعف إتيان النساء، ولما قبلت دعوة زكريا، تعجب من ذلك، فأجابه الله بأن هذا الأمر وغيره هيّن على الله تعالى:

٩- ﴿قَالَ كَذَلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَى هَيْنٍ وَقَدْ خَلَقْتَكَ^(٢) مِنْ قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْئًا^(٣)﴾

قال الملك مجيبًا زكريا عما تعجب منه: الأمر كذلك، أي: أن الحال كما تقول من كون امرأتك عاقرا، وبلوغك من الكبر مبلغًا كبيرًا، ولكن هذا قدر الله تعالى ﴿قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَى هَيْنٍ﴾ فخلق يحيى من شيخين كبيرين أمر سهل وهيّن على رب العالمين؛ لأن قدرته تعالى لا يعجزها شيء، ولا تخضع لما جرت به العادة.

ثم لفت نظره إلى ما هو أعجب مما تعجب منه، فقال: ﴿وَلَمْ تَكُ شَيْئًا﴾ أي: وقد خلقتك أنت يا زكريا من قبل يحيى، ولم تكن شيئًا مذكورًا، كما قال تعالى: ﴿أَوَلَا يَذْكُرُ الْإِنْسَانُ أَنَّا خَلَقْتَهُ مِنْ قَبْلُ وَلَمْ يَكُ شَيْئًا^(٤)﴾.

وقال: ﴿هَلْ أُنَبِّئُكَ عَلَى الْإِنْسَانِ حِينٍ مِنَ الْدَّهْرِ لَمْ يَكُنْ شَيْئًا مَذْكُورًا^(٥)﴾ [الإنسان].

(١) كما أخرجه الرامهرمزي في «الأمثال» ص ٦٤.

(٢) قرأ حمزة والكسائي (وقد خلقناك) لمناسبة (إنا نبشرك)، وقرأ الباقون (وقد خلقتك) لمناسبة (هو علي هين).

وقبلك خلقتُ أباك آدم، وأوجدته من العدم، فلا عجب أن أصلحنا لك زوجك،
ورزقناك الولد على كبر.

وليس في الخلق ولا في غيره ما هو هينٌ وصعب على الله تعالى، فكل شيء عليه هينٌ،
وإنما هذا في اعتبار الناس، والله تعالى يخلق كل شيء بقوله: كن فيكون ﴿إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ
شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ [يس: ٨٢] أي: بمجرد توجه الإرادة إليه.

زَكَرِيَّا يَطْلُبُ عَلَامَةً عَلَى حَمْلِ امْرَأَتِهِ

١٠- ﴿قَالَ رَبِّ اجْعَلْ لِّي^(١) ءَايَةً قَالَ ءَايَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلَاثَ لَيَالٍ سَوِيًّا﴾

أراد زكريا زيادة الاطمئنان، خاصة وأن البشارة لم تحدّد زمناً، فقد فرح زكريا فرحاً
شديداً بهذه البشارة، وتاقت نفسه إلى الاطمئنان، فأسرع يطلب من ربه علامة تبين له ذلك
﴿قَالَ رَبِّ اجْعَلْ لِّي ءَايَةً﴾ أي: علامة أستدلُّ بها على حملِ امرأتي! وهذا كقول الخليل
﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَى قَالَ أُولَئِمُ تُؤْمِنُ قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قُلُوبِي﴾
[البقرة: ٢٦٠] فطلب الوصول إلى عين اليقين بعد علم اليقين، فأجابه الله إلى طلبه.

قال سبحانه: العلامة أنك تُمنع من الكلام، ولا تقدر عليه مدة ثلاثة أيام من غير أن
تكون أخرسَ ولا أبكم، أي: من غير علة ولا مرض، وأنت سويٌّ معافى، فلا تكلم
الناس إلا بالإشارة أو الكتابة.

وهذا لا ينطبق على التسبيح والتحميد وتلاوة التوراة، فقد كان زكريا ممنوعاً من كلام
الناس، ولكنه إذا سبّح الله تعالى فإنه كان يسبح، وإذا قرأ التوراة فإنه يتلوها، وإذا ذكر
الله تعالى فإنه يذكّره، وإنما أمسك الله لسانه عن كلام الناس ثلاث ليالٍ سويّاً، وفي قوله
تعالى: ﴿ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ إِلَّا رَمَزًا﴾ [آل عمران: ٤١] أي: إلا كلاماً بالإشارة، فقد ختم الله على
لسان زكريا وهو صحيح سويٌّ فلم يتكلم ثلاثة أيام^(٢)، والأيام الثلاثة هي الليالي الثلاث،
فتارة يعبر القرآن بالليالي وتارة يعبر بالأيام، والمعنى واحد.

(١) قرأ نافع وأبو عمرو وأبو جعفر بفتح ياء الإضافة وصلّاً من (اجعل لي آية)، والباقون بإسكانها.

(٢) الحاكم (٥٩١/٢).

قال ابن عباس رضي الله عنه: اعتقل لسانه من غير مرض^(١)

وقال ابن زيد: حُبِسَ لسانه، فكان لا يستطيع أن يكلم أحداً، وهو مع ذلك يسبح ويقرأ التوراة، ولم يكن الإنجيل قد ظهر بعد؛ لأن هذا كان قبل ولادة عيسى عليه السلام - فإذا أراد أن يكلم الناس لم يستطع أن يكلمهم^(٢).

وحَبَسَ لسان زكريا عن الكلام ثلاثة أيام من غير خَرَسٍ ولا آفة، آية عجيبة من آيات الله تعالى الدالة على عظيم قدرته، لاسيما وأن هذا المنع خاص بخطاب الناس، فإذا أراد أن يذكر ربه زال المانع، كما قال تعالى ﴿وَاذْكُرْ رَبَّكَ كَثِيرًا وَسَبِّحْ بِالْعَشِيِّ وَالْإِبْكَارِ﴾ [آل عمران: ٤١] فاطمأن قلبه واستبشر، وامثل أمر ربه في الذكر والعبادة، وعكف في محرابه.

زَكَرِيَّا يُمْنَعُ مِنْ كَلَامِ النَّاسِ

١١ - ﴿فَخَرَجَ عَلَى قَوْمِهِ مِنَ الْمِحْرَابِ فَأَوْحَى إِلَيْهِمْ أَنْ سَبِّحُوا بُكْرَةً وَعَشِيًّا﴾

أي: فأظهر الله الآية المطلوبة، وخرج زكريا على قومه من المحراب، وهو المصلي الذي يصلي فيه وكانوا يتخذون المحارب فيما ارتفع من الأرض، وهو أيضاً المكان الذي بُشِّرَ فيه بالولد، كما جاء ذلك في قوله تعالى: ﴿فَنَادَتْهُ الْمَلَكَةُ وَهُوَ قَائِمٌ يُصَلِّي فِي الْمِحْرَابِ أَنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَى﴾ [آل عمران: ٣٩].

وكانت مساجدهم تُسمى محارب، أي: الأماكن التي تُحارب فيها الشياطين، وكان زكريا هو الحبر الأعظم لهم، فكان يصلي بهم في المحراب، والناس وراءه ينتظرون أن يُفْتَحَ لهم الباب؛ كي يدخلوا الهيكل ويتعبدوا، ففُتِحَ لهم الباب، وبدل أن يتكلم، أشار إليهم أن ادخلوا وسبحوا وصلّوا بكرة وعشيّاً، أي: في صلاة الفجر، وصلاة العصر، وأكثرُوا من ذكر الله وتسيّحه صباحاً ومساءً شكراً لله تعالى، لأن البشارة بنبي الله يحيى فيها مصلحة دينية يعود نفعها على الجميع.

وانتظر زكريا، فما هي إلا أيام ثلاثة حتى رزقه الله بالجنين في بطن أمه.

(١) الطبري (٤٦٨/١٥).

(٢) «تفسير الطبري» (٢٥/١٦) عن ابن أبي حاتم.

ويقف القرآن هنا عند قصة زكريا عليه السلام، فيطوي ما بعده من تمام قصة زكريا عليه السلام، ويفتح الصفحة الجديدة على قصة ابنه يحيى عليه السلام.

٢- نَبِيُّ اللَّهِ يَحْيَى عليه السلام

عَشْرُ خَصَائِصَ مَدَحَ اللَّهُ بِهَا نَبِيَّهُ يَحْيَى

١٢- ﴿يَحْيَى خُذِ الْكِتَابَ بِقُوَّةٍ ۖ وَآتَيْنَاهُ الْحُكْمَ صَبِيًّا ۝﴾

قبل هذه الآية كلام محذوف تقديره: حملت أم يحيى به -وهي أخت حنة، أم مريم، فيحيى وعيسى ابنا خالة- حملت به أمه ووضعتُه وشبَّ وترعرع، ثم خصه الله بعشر خصائص.

الأولى: أن يأخذ التوراة بقوة، وذلك أنه لما بلغ مبلغًا يعقل فيه ويخاطب، خاطبه الله سبحانه بقوله: ﴿يَحْيَى خُذِ الْكِتَابَ﴾ أي: التوراة، فالإنجيل لما ينزل بعد، وعيسى لما يولد بعد، خذ التوراة بقوة، أي: بجِد واجتهاد وعزم، احفظها وافهمها، واعمل بما فيها، وامثل أمرها واجتنب نهيها، وحلل حلالها، وحرَّم حرامها، واتَّعظ بما فيها. امثل يحيى أمره، فأقبل على كتابه يحفظه ويفهمه ويعمل بما فيه.

الثانية: أنه أوتي الحكم وهو صبي، فقد آتاه الله من الذكاء والفطنة ما لا يوجد في غيره، ولذا قال تعالى: ﴿وَآتَيْنَاهُ الْحُكْمَ صَبِيًّا﴾ أي: آتيناه الحكمة، وحسن فهم التوراة، ورجاحة العقل، وعدم اللهو واللعب، والاشتغال بالعبادة، وهو ابن سبع سنين، فالمراد بالحكم: الحكمة، ورجاحة العقل، والفهم، وقد أوتي يحيى وعيسى النبوة، قبل سن الأربعين بكثير؛ لحكمة يعلمها الله تعالى، فقد أرسل الله رسله في سن الأربعين، عدا يحيى وعيسى، فكانت رسالتهما في سن الثلاثين؛ ولعل ذلك لاستشهاد يحيى، ورفع عيسى قبل بلوغ الأربعين، وقد أوتي يحيى الحكم وهو صبي، فقرأ التوراة وهو صغير.

قال قتادة: جاء الغلمان إلى يحيى بن زكريا، فقالوا: اخرج بنا نلعب، قال: ما للعب خُلِقنا^(١).

وقال ابن عباس رضي الله عنهما: من قرأ القرآن قبل أن يبلغ سن الحُلُم فقد أوتي الحكم صبيًّا^(٢).

(١) أخرجه عبد الرزاق عن معمر (٤/٢).

(٢) «تفسير ابن عطية» (٧/٤) وقد أخرجه البيهقي في «شعب الإيمان» (١٩٤٩).

الثالثة: أنه أعطى الحب والحنان، كما قال تعالى:

١٣، ١٤ - ﴿وَحَنَانًا مِّن لَّدُنَّا وَزَكَاةً وَكَانَ تَقِيًّا ۝١٣ وَيَبْرَأُ بَوَالِدَيْهِ وَلَمْ يَكُن جَبَّارًا عَصِيًّا﴾

أي: ورزق الله زكريا الرأفة والرحمة والحنان والحب، والعطف والشفقة - ومن ذلك قولهم: حنَّ الرجل إلى وطنه، وحنَّت الناقة على ولدها، وحنَّت المرأة على زوجها - كما رزق الله زكريا الرحمة بالناس، ولين الجانب، وهذه الخاصية يشير إليها قوله تعالى: ﴿وَحَنَانًا مِّن لَّدُنَّا﴾.

الرابعة: أن الله تعالى جعله زكياً طاهراً من الذنوب، وهذا معنى ﴿وَزَكَاةً﴾ فالمراد بها الطهارة والنقاء من الرجس والدنس، والمعاصي والذنوب.

جاء في الأثر عن سعيد بن المسيب، وعن الحسن أن يحيى بن زكريا لم يقدم على خطيئة، ولم يهَمَّ بمعصية.

فقد طهر الله لسانه وقلبه وجوارحه من الآفات والذنوب، ومن الأوصاف المذمومة والأخلاق الرديئة، وسائر الشرور والمساوئ.

عن عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «كل بني آدم يأتي يوم القيامة وله ذنب إلا ما كان من يحيى بن زكريا»^(١). وفي لفظ البزار: (لا ينبغي لأحد أن يقول: أنا خير من يحيى بن زكريا ما هم بخطيئة - أحسبه قال - ولا عملها)^(٢).

الخامسة: أن يحيى كان تقياً، فاعلاً للمأمورات، تاركاً للمكروهات والمحرمات، ومن كان تقياً كان ولياً. وكان من أهل الجنة التي أعدت للمتقين، وأكرمه الله بالثواب الجزيل في الدنيا والآخرة. وهذا معنى: ﴿وَكَانَ تَقِيًّا﴾.

(١) يُنظر: «تفسير الطبري» (٤٤/١٦) و«المستدرک» (٣٧٣/٢) من طريق ابن إسحاق، قال الحاكم: صحيح على شرط مسلم ولم يخرجاه، ووافقه الذهبي، ورجَّح أبو حاتم أنه موقوف، وانظر: «تفسير ابن عطية» (٩/٤). وابن كثير (٢١٨/٤). وابن إسحاق متكلم فيه، وقد عنعن في هذا الحديث، وجاء مثله عن ابن عباس في «المسند» (٢٢٩٤) بإسناد ضعيف لضعف ابن جدعان، وأخرجه أبو يعلى (٢٥٤٤) والبزار (٢٣٥٩) كشف الأستار، وابن أبي شيبة (٥٦٢/١١) وعبد بن حميد (٦٦٥).

(٢) من حديث عبد الله بن عمرو بن العاص عند البزار (٢٣٦٠) بإسناد رجاله كلهم ثقات رجال الشيخين إلا محمد بن الوليد البغدادي فقد روى له النسائي وقال: لا بأس به.

السادسة: وكان يحيى كثير البر والإحسان لوالديه، مطيعاً لهما، لم يكن عاقاً ولا مسيئاً لهما بقول أو فعل. ﴿وَبَرًّا بِوَالِدَيْهِ﴾.

السابعة: ولم يكن يحيى متجبراً ولا متكبراً عن طاعة ربه ولا عن طاعة والديه، ولا عاصياً لربه، بل كان متذللاً متخشعاً رجاءاً إلى الله تعالى قد جمع بين القيام بحقوق الله وحقوق العباد. ﴿وَلَمْ يَكُنْ جَبَّارًا﴾ بل كان متواضعاً متطامناً لربه ولخلق الله.

الثامنة: ولم يكن يحيى عاصياً لربه، بل كان مطيعاً له ممثلاً أمره ونهيه، وقد أخذ هذا من قوله تعالى: ﴿وَلَمْ يَكُنْ جَبَّارًا عَصِيًّا﴾.

وقد وصف الله تعالى يحيى عليه السلام بوصفين آخرين:

أحدهما: أنه كان سيداً في قومه يرجع الناس إليه في أمورهم الدينية والدنيوية.

وثانيهما: أنه حصور كما قال تعالى عنه: ﴿وَسَيِّدًا وَحَصُورًا وَنَبِيًّا مِّنَ الصَّالِحِينَ﴾ [آل عمران: ٣٩].

والحضور: هو الذي لا يأتي النساء مع قدرته على ذلك، فهو يمتنع عن إتيان النساء تبتلاً وانقطاعاً للعبادة، وكان هذا جائزاً في شريعتهم، فكان يحيى خائفاً مطيعاً لله تعالى، مؤدياً للفرائض، مجتنباً للمحرمات، فهذه عشرة خصائص مدح الله بها يحيى عليه السلام قال تعالى:

١٥- ﴿وَسَلَّمَ عَلَيْهِ يَوْمَ وُلِدَ وَيَوْمَ يَمُوتُ وَيَوْمَ يُبْعَثُ حَيًّا﴾

وتحية من الله وسلام وأمان على يحيى من حين مولده إلى حين بعثته في يوم ولادته، وفي يوم موته، ويوم يبعث من قبره، فقد حياه الله في مواطن ثلاثة: هي موطن الغربية، وموطن الوحشة، وموطن الضعف، التي يكون فيها العبد بحاجة أشد إلى عطف ربه، وافتقار إلى رعايته سبحانه، وذلك يوم الولادة حين يخرج من بطن أمه إلى عالم آخر، ويوم يموت حين يخرج من الدنيا ويدخل في وحشة القبر، ويوم يبعث حياً إلى الحشر والنشور يوم الفزع الأكبر.

قال سفيان بن عيينة: أحوج ما يكون المرء في ثلاثة مواطن: يوم ولد، فيرى نفسه خارجاً مما كان فيه، ويوم يموت، فيرى قوماً لم يكن عاينهم، ويوم يبعث، فيرى نفسه في محشر عظيم.

فخص الله يحيى بالكرامة والسلامة في المواطن الثلاثة .

وهذه الأحوال الثلاثة هي ابتداء أطوار: الوجود على الدنيا، والارتحال عنها، والورود على الآخرة.

وفي الآية سلامة ليحيى من الشيطان ومن الشرور، والآفات والعقاب، وسلامة من النار وأهوالها، وبشرى له بأنه من أهل دار السلام.

قال الحسن البصري: التقي يحيى وعيسى، فقال عيسى ليحيى: استغفر لي فأنت خير مني، قال يحيى: استغفر لي أنت خير مني، قال عيسى أنت خير مني، سلم الله عليك، وسلمت على نفسي^(١).

وقد سلم عيسى على نفسه، كما قال تعالى حكاية عنه: ﴿وَالسَّلَامُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدْتُ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا﴾.

وسلم الله على يحيى في قوله: ﴿وَسَلَّمَ عَلَيْهِ يَوْمَ وُلِدَ وَيَوْمَ يَمُوتُ وَيَوْمَ يُبْعَثُ حَيًّا﴾.

قال مالك: بلغني أن عيسى ابن مريم ويحيى بن زكريا ابنا خالة، وكان حملهما جميعاً معاً، فبلغني أن أم يحيى قالت لمريم: إني أرى ما في بطني يسجد لما في بطنك^(٢).

وهذا معنى ﴿يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَى مُصَدِّقًا بِكَلِمَةٍ مِّنَ اللَّهِ﴾ [آل عمران: ٣٩].

وفي الحديث عن أبي سعيد الخدري ؓ أن رسول الله ﷺ قال: «الحسن والحسين سيدا شباب أهل الجنة، إلا ابني الخالة: عيسى ابن مريم ويحيى بن زكريا»^(٣).

(١) أخرجه ابن جرير في تفسيره للآية بإسناده عن الحسن، وذكره ابن الجوزي في «زاد المسير» (٢٥/٥) باختلاف في اللفظ، وأخرجه عبد الرزاق (٤/٢) وأحمد في «الزهد» ص ٧٦.

(٢) أخرجه ابن أبي حاتم من طريق عبد الرحمن بن القاسم كما في «الدر المنثور» (٢٨/١٠).

(٣) «المسند» (١٠٩٩٩، ١١٥٩٤، ١١٦١٨، ١١٧٧٧) بدون (إلا ابني الخالة..). وأبو يعلى (١١٦٩) وابن حبان (٦٩٥٩) والحاكم (١٦٦/٣) قال محققو «المسند»: إسناده صحيح، ويُتَظَر: «السلسلة الصحيحة» (٧٩٦)، والزيادة المذكورة جاءت من طرق أخرى كالخطيب في تاريخه (٢٠٧/٤) وأبو نعيم في الحلية (٥/٧١) والنسائي في الكبرى (٨١٦٩) والطبراني في الكبير (٢٦١٠). والحديث صحيح بدون هذه الزيادة.

اسْتِشْهَادُ يَحْيَى عَلَيْهِ السَّلَامُ

أخذ يحيى عليه السلام يدعو قومه إلى توحيد الله سبحانه، وإقامة شرائعه، من الصلاة والصيام، والصدقة والذكر، وغير ذلك مما أمر بتبليغه.

وكان حاكم فلسطين وقتها يُسمى (هيرودس) وهو رجل طاغية، وكان يعشق ابنة أخيه، فأحبها وأراد أن يتزوجها، وهي محرمة عليه؛ لأنه عمها، وهذا من زواج المحارم، فلما علم يحيى بذلك أخذ يحارب هذه الزيجة ويمنعها، فعلمت أم البنت بذلك، فزيّنتها وجملتها وأدخلتها على الملك، وأخذت تراقصه حتى قال لها: تمني عليّ، فتمنّت عليه - كما قالت لها أمها- رأس يحيى، فأمر بقتله، وجيء برأسه في طبق، فقتل يحيى عليه السلام في حياة أبيه زكريا عليه السلام.

ولما احتجّ أهل العلم واستنكروا على الحاكم قتله له، قتلهم جميعاً، فكان ممن قال الله عنهم: ﴿وَيَقْتُلُونَ الَّذِينَ يَأْمُرُونَ بِالْقِسْطِ مِنَ النَّاسِ﴾ [آل عمران: ٢١]. وهم العلماء الآمرون بالمعروف، والناهون عن المنكر، وقتل فيهم ضمن من قُتل: زكريا عليه السلام، وقد نُشر بالمشار. ولما كانت ولادة يحيى عليه السلام من الأمور العجيبة انتقلت الآيات إلى ما هو أعجب منها.

٣- وَلَادَةُ عِيسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ أَعْجَبُ مَا عَرَفَتْهُ الْبَشَرِيَّةُ

١٦- ﴿وَأَذْكُرْ فِي الْكِتَابِ مَرْيَمَ إِذِ اتَّيَدَتْ مِنْ أَهْلِهَا مَكَانًا شَرْقِيًّا﴾

وبعد قصة زكريا ويحيى عليهما السلام، تأتي قصة ولادة عيسى عليه السلام، وهي قصة أعجب من قصة ولادة يحيى؛ إذ إن ولادة العذراء من غير بعل أعجب وأغرب من ولادة العاقر من بعلها الشيخ الكبير، فولادة عيسى أعجب ما عرفته البشرية في تاريخها كله، وهو حادث فذ لا نظير له من قُبل ولا من بعد، ولغرابة الحادث، فإن فريقاً من الناس أخذ يُضفي على عيسى صفات الألوهية، ويصنع حول مولده الخرافات والأساطير، حيث قال بعض النصارى: صحيح ليس له أب من البشر، وإنما أبوه هو الله نفسه، وأنه رب ثان مثل أبيه، ويوجد إله ثالث يكمل سلسلة الآلهة، هو الروح القدس الذي نفخ في مريم، وهذه هي الأسرة المقدسة!!

ولما كان هذا الكلام لم يُعهد في دين سابق، ولم يجر على لسان أحد من المرسلين، فقد سُمي بالعهد الجديد.

والإنسان يتساءل: هل الأب والابن والروح القدس كلمات مترادفة، لذاتٍ واحدة؟ أم أن لكل منهم ذاتًا خاصة؟ فإذا كان لكل منهم ذات خاصة، فكيف يكون الكل ذاتًا واحدة؟ وهل هم ثلاثة أثلاث يكوّنون واحدًا صحيحًا؟! كل الفروض يأباه العقل!

ويقول بعض النصارى: بل هما ذات واحدة وصفتان! الأب والابن، والصفة، التي هي المسيح، تُضَلَب ثم تصعد إلى السماء، والأب يُنظر.

والصحيح أن الله تعالى إله واحد، وأن عيسى عبده ورسوله، كسائر العباد المرسلين، وأنه كلمة الله ألقاها إلى مريم وروح منه، وقد أكد القرآن هذه الحقيقة في عشرات السور.

إن هذا الخلاف سيظل محتدمًا، حتى يجمعنا الله يوم المشهد العظيم، عندئذ يعلم الجميع أن الله تعالى واحد، وأن ما عداه من مخلوقاته عبد له، وأنه هو الذي يدين له العباد يوم الدين، وإذا كان بعض الناس اليوم ينظر ولا يرى، ويسمع ولا يعي، فإن الحواس يومها ستسمع الهمس، والعيون سترى الذرَّ ﴿أَسْمِعْ يَوْمَ وَأَبْصِرْ يَوْمَ يَأْتُوتَنَّا﴾ [٣٨] أي: ما أشد سمعهم! وما أشد بصرهم يومئذ! ^(١).

وَلَادَةُ مَرْيَمَ

وقصة ولادة عيسى ﷺ ترتبط بقصة ولادة أمه مريم التي سبق ذكرها في سورة آل عمران [٣٥-٣٧] فقد كان أبوها عمران رئيسًا في قومه، كبيرًا وإمامًا لأمته، وكانت زوجته حنة لا تلد، فنذرت إن رزقها الله مولودًا فستجعله وقفًا على خدمة بيت المقدس، وتهبه له، ولما وضعت حنة هذا المولود ووجدته أنثى اعتذرت إلى ربها قائلة: ﴿رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَا أُنْثَىٰ﴾، ﴿وَلَيْسَ الذَّكَرُ كَالْأُنْثَىٰ﴾ في خدمة بيوت الله، وجملة ﴿وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعْتَ﴾ جاءت معترضة بين قولها: ﴿إِنِّي وَضَعْتُهَا أُنْثَىٰ﴾ وقولها: ﴿وَلَيْسَ الذَّكَرُ كَالْأُنْثَىٰ﴾ ومعنى لفظ مريم، أي: عابدة ناسكة، وقد أعادتها أمها بالله، هي ونسلها من الشيطان الرجيم.

ثم إن الله ﷻ أعلمها أنه تقبل مريم - هذه الأنثى - لخدمة بيته ﴿فَنَقَلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ﴾.

(١) يُنظر: الشيخ محمد الغزالي في كتابه: «نحو تفسير موضوعي لسور القرآن الكريم» ص ١٤٣.

ونشأت مريم نشأةً صالحةً، عابدةً ناسكةً، وأنبتها الله نباتًا حسنًا، ومات أبوها عمران، وهي طفلةٌ صغيرة، فحملتها أمها إلى سدة بيت المقدس (الكهان والأخبار) وقالت لهم: دونكم هذه البنت فقد نذرتها لخدمة بيت الله، فتنازعوا مَنْ يكفلها، ومَنْ يقوم على تربيتها، وكان زكريا عليه السلام هو النبي المرسل في ذلك العهد، وهو زوج خالتها أم يحيى، وكان زكريا يرغب في كفالتها.

ولمّا تنازعوا اقترعوا، حيث خرجوا إلى نهر، وألقى كل منهم بقلم في هذا النهر، فتساقطت الأقلام جميعًا، وترسّبت تحت الماء، وظهر قلم زكريا فوق الماء، فكانت القرعة لصالحه، فأخذها وكفلها، قال تعالى: ﴿وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَقُولُ أَقْلَمَهُمْ﴾ أي: في النهر ﴿أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ﴾ أي: وهم يتنازعون على من يقوم بتربية مريم وكفالتها.

ولما خرجت القرعة على زكريا عليه السلام تولى القيام على شؤون مريم، وبنى لها محرابًا، أي: غرفة في أعلى المسجد مقفلة، لا يدخل إليها أحد، فإذا فرغت من خدمة البيت في غير وجود الناس، استراحت في هذا المكان.

وبعد وقت من الزمن، لفت نظر زكريا شيء عجيب، حيث وجد عندها طعامًا وشرابًا، ووجد فاكهة الشتاء في الصيف، وفاكهة الصيف في الشتاء، فعجب من ذلك وسألها: أنى لك هذا؟ قالت: ﴿هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾.

حَمْلُ مَرْيَمَ بَعِيسَى عليها السلام

ولما بلغت مريم سن الثالثة عشرة تقريبًا، وبلغت مبلغ الحيض، انتبذت من أهلها مكانًا شرقيًا، أي: أنها تنحّت عن المسجد إلى مكان آخر، هو شرقي بيت المقدس، وشرقي دارها، ولذا: فإن النصارى يتجهون في صلاتهم تجاه المشرق، في الجهة التي ولدت فيها مريم عيسى عليه السلام.

قال ابن عباس رضي الله عنهما: إنما اتخذت النصارى المشرق قبله؛ لأن مريم اتخذت من أهلها مكانًا شرقيًا، فاتخذوا ميلاده قبله، وإنما سجدت اليهود على حرف، حين نُتق فوقهم الجبل، فجعلوا يتحرّفون وهم ينظرون إليه، يتخوّفون أن يقع عليهم، فسجدوا سجدة

رضيها الله، فاتخذوها سُنَّةً^(١).

ومعنى الآية: اذكر -يا محمد- في هذا القرآن، الذي يتلوه المسلمون في مشارق الأرض ومغاربها، خبر مريم بالذكر الحسن والثناء الجميل، إذ تباعدت عن أهلها واعتزلتهم، فاتخذت لها مكاناً في الدار، مما يلي الشرق عنهم؛ لتحتجب عن أنظارهم، وتتفرغ لعبادة ربها.

جَبْرِيلُ يَخْتَرِقُ عَلَى مَرْيَمَ حِجَابَهَا وَيُبَشِّرُهَا بِعِيسَى

١٧- ﴿فَاتَّخَذَتْ مِنْ دُونِهِمْ حِجَابًا فَأَرْسَلْنَا إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا ﴿١٧﴾﴾

أي: أن مريم اعتزلت قومها؛ لتتقطع للعبادة، وقيل: إن الحيض قد أتاها لأول مرة، فاعتزلت حتى تطهر منه، وجعلت لها ساتراً يسترها، أو حجاباً يحول بينها وبين قومها؛ حتى لا يدخل عليها أحد، كي تنفرد لعبادة ربها وتفتت له، امثالاً لأمر الله تعالى لها في قوله ﴿يَمْرُؤٌ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاكِ وَطَهَّرَكِ وَاصْطَفَاكِ عَلَى نِسَاءِ الْعَالَمِينَ ﴿٤٢﴾ يَمْرُؤٌ أَقْنِي لِرَبِّكِ وَاسْجُدِي وَارْكَعِي مَعَ الرَّاكِعِينَ﴾ [آل عمران]

فأرسل الله تعالى إليها في هذا المكان، جبريل عليه السلام، فظهر لها في صورة إنسان تام الخلقة، حسن الصورة، مكتمل شكل بني آدم، فالمراد بلفظ: ﴿رُوحَنَا﴾ في الآية: هو جبريل عليه السلام، وقد أضافه الله تعالى إلى نفسه تكريماً وتشريفاً له، وقد أرسله الله لها في صورة رجل لأنها لا تحتمل رؤية الملك.

وسمّاه الله ﴿رُوحَنَا﴾؛ لأنه يحمل الوحي الإلهي إلى رسل الله، فتحيا به قلوب الناس، كما تحيا الأجسام بالروح، وقد حمل جبريل إلى مريم مادة الحياة التي يحيا بها عيسى، وهي تشبه الروح الحقيقية التي هي مادة الحياة للبشر.

لقد اعتزلت مريم الناس، واتخذت لها حجاباً عن أعز الناس من أهلها، ولكنها فوجئت بمن دخل عليها:

١٨- ﴿قَالَتْ إِنِّي أَعُوذُ بِالرَّحْمَنِ مِنْكَ إِنْ كُنْتَ نَقِيًّا ﴿١٨﴾﴾

(١) الطبري (٥٤٣/١٠) وابن أبي حاتم (١٦١١/٥).

(٢) قرأ نافع وابن كثير وأبو عمرو وأبو جعفر بفتح ياء الإضافة وصلّاً من (إني أعوذ)، والباقون بإسكانها.

فلما رأت مريم هذا الإنسان قد اخترق عليها حجابها وسرّها أساءت به الظن؛ لشدة ورعها وعفافها، فاستعادت بالله منه، وخشيت أن يكون إنما أرادها بسوء، فقالت: إني أعوذ وأستجير والتجئ إلى الله منك وأعتصم بجنابه، إن كنت عبداً صالحاً ممن يتقي الله ويخافه، ف ﴿إِنْ كُنْتَ تَقِيًّا﴾ فاتركني، ولا تؤذيني.

قيل: كان في وقتها رجل فاجر يسمّى تقيّاً، فلما تسوّر عليها المحراب ظنّته هو، فاستعادت بالله منه، واحتمت بحماه، ولجأت إليه أن يحفظها منه^(١).

والله سبحانه لم يرسل إليها جبريل على هيئته؛ لكي لا تنفر منه، ولا تقدر على محادثته، بل ظهر لها بشراً مستوي الخلقة؛ لتأنس به ولا تنفر منه، ويمكنها التحدث إليه، وقد جمعت مريم بين الاعتصام بربها، وبين تخويف من تخاطبه وترهيبه من عذاب الله تعالى، وأمرته بلزوم التقوى، وهذا أبلغ ما يكون في العفة مع وجود الدواعي وعدم الموانع، ولذلك أثنى الله عليها في قوله: ﴿وَمَرْيَمَ ابْنَتْ عِمْرَانَ الَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهِ مِنْ رُوحِنَا﴾ التحريم: ١٢ وقوله: ﴿وَالَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهَا مِنْ رُوحِنَا﴾ [الأنبياء: ٩١] وخصت اسم الرحمن بالذكر؛ لإثارة مشاعر التقوى في نفسه؛ حتى يرجع عما أراده بها حسبما ظنت، فلما رأى جبريل ما بها من رُوع وخيفة:

١٩- ﴿قَالَ إِنَّمَا أَنَا رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ^(٢) لَكِ غُلَامًا زَكِيًّا﴾

﴿قَالَ﴾ لها جبريل مطمئناً: ﴿إِنَّمَا أَنَا رَسُولُ رَبِّكِ﴾ الذي استعذت به، ولجأت إليه، فلا تخافي ولا تجزعي، وقد أرسلني الله إليك؛ لِأَعْلِمَكَ ولأنفخ فيك من روح الله، فمهمتي أن أنفخ رسالة ربي ﴿لِأَهَبَ لَكِ﴾ بإذن الله تعالى ﴿غُلَامًا زَكِيًّا﴾ طاهراً مبرأً من الذنوب والعيوب، وقد نسبت الآية الهبة إلى جبريل؛ لأنه السبب فيها، وفي قراءة: (ليهب لك)، أي: ليهب الله لك غلاماً زكياً، وفي هذا إشارة بالولد وزكائه، وهذا يستلزم الاتصاف

(١) يُنسب هذا القول إلى وهب بن منبه، وهو قول ضعيف، يُنظر: «تفسير ابن عطية» (٩/٤).

(٢) قرأ ورش وأبو عمرو ويعقوب وقالون بخلف عنه بياء بعد اللام في (لأهب) هكذا: (ليهب) على إسناد الفعل إلى ضمير (ربك) في قوله تعالى: (رسول ربك) وهو إسناد حقيقي، أي: ليهب الله لك، وقرأ الباقون ومعهم قالون في وجهه الآخر بهمزة بعد اللام، على إسناد الفعل إلى ضمير المتكلم وهو الملك، فهو من إسناد الفعل إلى سببه المباشر؛ لأنه باشر النفخ.

بالأخلاق الحميدة، والبعد عن الأخلاق الذميمة.

وقد جاء وصف هذا الغلام في آيات أخرى، منها قوله تعالى في وصفه ﴿وَجِيهًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ﴾ (٤٥) وَيُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلًا وَمِنَ الصَّالِحِينَ ﴿٤٦﴾ [آل عمران]. وقوله: ﴿وَيُعَلِّمُهُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ﴾ (٤٨) وَرَسُولًا إِلَى بَنِي إِسْرَءِيلَ ﴿[آل عمران]. وهنا تعجبت مريم من وجود الولد من غير أب:

مَرِيْمُ تَتَعَجَّبُ مِنْ بَشَارَتِهَا بِالْغُلَامِ

٢٠- ﴿قَالَتْ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَلَمْ يَمَسِّنِي بَشَرٌ وَلَمْ أَكْ بَغِيًّا﴾ (٢٠)

تعجبت مريم من حدوث أمر لها لا تطيقه، فأخذت تحاور الملك لما علمت أنه مرسل من عند الله؛ لتصرفه عما جاء لأجله، فكأنها تراجع ربها في ذلك، كما راجع إبراهيم رُسُلَ الله حين جاؤوه في شأن نبي الله لوط، وكما راجع محمد ﷺ ربه في فرض الصلاة خمسين صلاة في بادئ الأمر، وقد تضمنت مراجعة مريم أمرين:

أحدهما: التعجب من حملها دون زواج.

والآخر: أنها لم تزّن. ﴿قَالَتْ﴾ للملك: ﴿أَنَّى يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَلَمْ يَمَسِّنِي بَشَرٌ؟﴾ أي: لم أتزوج زواجًا شرعيًا.

ومثل ذلك قوله تعالى: ﴿قَالَتْ رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي وَلَدٌ وَلَمْ يَمَسِّنِي بَشَرٌ﴾ [آل عمران: ٤٧]

وعدم مسّ بشر لها، يعني: أنه لم يمسه أحد في حلال ولا حرام.

والمسّ: هو النكاح الحلال، كما قال تعالى: ﴿مَنْ قَبْلَ أَنْ تَمْسُوهُنَّ﴾ [البقرة: ٢٣٧]

أي: تجامعهن بعد الدخول عليهن، فقد يخطب الرجل المرأة، أو يعقد عليها دون أن يمسه، وكانت مريم مخطوبة ليوسف النجار، ولم يعقد عليها ولم يمسه.

ثم قالت مريم: ﴿وَلَمْ أَكْ بَغِيًّا﴾ أي: ولست بزانية فيما مضى، ولا فيما هو آتٍ، والمولود لا يأتي إلا من أحد هذين الطريقتين.

٢١- ﴿قَالَ كَذَلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَى هَئِئَةٍ لِنَجْعَلَهُ آيَةً لِّلنَّاسِ وَرَحْمَةً مِنَّا وَكَانَ أَمْرًا مَّقْضِيًّا﴾

﴿قَالَ﴾ لها الملك: الأمر ﴿كَذَلِكَ﴾ كما تقولين، لم يمسسكِ بشر، ولست زانية، ولكن ﴿قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَىٰ هَيْنٍ﴾ أي: أن خلق عيسى من غير أب أمر سهل ويسير على الله سبحانه، وكل أمر عند الله سهل يسير، ولنجعل ولادة عيسى من غير أب علامة دالة على قدرة الله سبحانه؛ لتكتمل القسمة العقلية عند البشر، فالله سبحانه قد خلق آدم من غير أب ولا أم، وخلق حواء من غير أم؛ ليُعلم أن خلق الإنسان لا يتوقف على الحمل، ولا على بطن الأم، وخلق عيسى من غير أب؛ ليُبين أن قدرة الله سبحانه في خلق الإنسان لا تتوقف على تلقيح الذكر للأنثى، وكان خلق سائر البشر من أب وأم، ذكر وأنثى.

وقد خلق الله عيسى من غير أب؛ ليجعله رحمة منه، ورحمة لأمه، ورحمة لمن يبعث إليهم نبياً، فيهدون بهديه مدة صلاحية رسالته، التي ينتهي أمدّها ببعثة محمد ﷺ.

ذلكم قول الله تعالى: ﴿وَرَحْمَةً مِّنَّا﴾، أي ولنجعل رحمة منا به وبوالدته وبالناس.

أما رحمة الله به، فَلَمَّا أنزله عليه من الوحي وجعله من أولي العزم من الرسل.

وأما رحمته بأمه، فلما حصل لها من الفخر والثناء الحسن.

وأما رحمته بالناس، فلأنه بُعث فيهم رسولاً يتلو عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة، فتحصل سعادة الدنيا والآخرة لمن أطاعه وأتبعه وقال: إنه عبد الله ورسوله.

وكان خلق عيسى بهذه الصورة قضاءً سابقاً مقدراً في علم الله تعالى، مسطوراً في اللوح المحفوظ، فلا بد من نفاذه، فهو أمر مقدر في الأزل عند الله سبحانه. وبهذا ينتهي الحوار بين جبريل ومريم.

أخرج ابن عساكر بسنده إلى سعيد بن جبير عن ابن عباس ؓ قال بما معناه: لما بلغت مريم، فبينما هي في بيتها منفصلة، إذ دخل عليها رجل بغير إذن، فخشيت أن يكون دخل عليها ليغتالها فاستعادت بالله منه، فأخبرها أنه رسول الله إليها جاء ليهب لها غلاماً زكياً، وأن هذا أمر الله، فجعل جبريل يردد: ﴿كَذَلِكَ قَالَ رَبُّكَ﴾ وهي تردد: ﴿أَنِّي يَكُونُ لِي غُلَامٌ﴾ وتغفلها جبريل فتنفخ في جيب درعها، ونهض عنها، فاستمر بها حملها... (١).

(١) ابن عساكر (٧٠/٨١).

وقال ابن مسعود رضي الله عنه: خرجت مريم إلى جانب المحراب لحيض أصابها، فلما طهرت إذا هي برجل معها تمثل لها بشراً، ففرغت واستعاذت بالله منه، فخرجت وعليها جلبابها فأخذ بكُمها فنفخ في جيب درعها - وكان مشقوقاً من قدامها - فدخلت النفخة صدرها فحملت... (١).

قِصَّةُ حَمَلِ مَرْيَمَ بَعِيسَى وَوِلَادَتِهِ

٢٢- ﴿فَحَمَلَتْهُ فَانْتَبَذَتْ بِهِ مَكَانًا قَصِيًّا﴾ (٢٢)

لما اطمأنت مريم إلى قول جبريل المتمثل لها في صورة بشر، اقترب منها فنفخ في جيب درعها، أي: في فتحة ثوبها من أعلى، فوصلت النفخة إلى فرجها؛ كما قال تعالى: ﴿وَمَرْيَمَ ابْنَتْ عِمْرَانَ الَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهِ مِنْ رُوحِنَا﴾ [التحریم: ١٢].

وقال: ﴿وَالَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهَا مِنْ رُوحِنَا﴾ [الأنبياء: ٩١].

وقد وصلت النفخة التي نفخها جبريل إلى بطنها فحملت بعيسى عليه السلام، وهذه النفخة الإلهية، هي الروح التي نفخها الله في آدم عليه السلام، فإذا هو إنسان، ونفخها في مريم بواسطة جبريل فإذا البويضة مستعدة للنمو، فهي النفخة التي تمنح الحياة، كما صحَّ في حديث ابن مسعود رضي الله عنه: أن الإنسان يكون أربعين يوماً نطفة، ثم أربعين يوماً علقة، ثم أربعين يوماً مضغة، ثم يرسل الله الملك فينفخ فيه الروح، ويؤمر بكتب رزقه، وأجله، وعمله، وشقي أو سعيد.

فهذه الروح واحدة، هي التي أمدت آدم بالحياة، كما قال تعالى: ﴿فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُمْ سَجِدِينَ﴾ (٢٩) [ص]. وأمدت عيسى بالحياة، وهي التي تمدُّ كل إنسان بالحياة، وقد حملها جبريل من عند الله تعالى إلى مريم، ولذا فإنه يسمى روحاً.

والأظهر أن مريم حملت بعيسى كما تحمل بقية النساء، أي: أنها حملت به حملاً عادياً استمرَّ تسعة أشهر على الأرجح، وكان سن مريم آنذاك ثلاث عشرة سنة. ولما حملت مريم بعيسى خرجت من مكانها شرقي بيت المقدس إلى بيت لحم حيث تنحَّت عن أعين الناس إلى مكان بعيد عن أهلها، وهو ﴿مَكَانًا قَصِيًّا﴾.

قال ابن عباس رضي الله عنه: أقصى الوادي، وهو وادي بيت لحم، فراراً من قومها أن يعيروها

(١) أخرجه الحاكم (٥٩٣/٢) والبيهقي في «الأسماء والصفات» (٧٧٣).

بولادتها من غير زوج^(١).

وقال وهب بن منبه: إن مريم لما حملت بعيسى كان معها ابن عم لها يقال له: يوسف النجار، وكانا يخدمان ذلك المسجد، ولا يُعلم من أهل زمانهما أحد أشد عبادة واجتهادًا منهما، وأول من عَلِم بحمل مريم هو يوسف، فبقي متحيرًا في أمرها، كلما أراد أن يتهمها ذَكَر عبادتها وصلاحتها وأنها لم تغب عنه، وإذا أراد أن يبرئها رأى ما ظهر عليها من الحمل.

فكان أول ما تكلم به إليها أنه قال: إنه وقع في نفسي من أمرك شيء، وقد حرصتُ على كتمانك فغلبني ذلك، فرأيت أن أتكلم به؛ كي أشفي صدري، فقالت: قل قولاً جميلاً.

قال: أخبريني يا مريم، هل ينبت زرع بغير بذر؟ وهل ينبت شجر بغير غيث؟ وهل يكون ولد من غير ذكر؟

قالت: نعم، ألم تعلم أن الله تعالى أنبت الزرع يوم خلقه من غير بذر، ألم تر أن الله أنبت الشجر بالقدرة من غير غيث؟ أو تقول: إن الله تعالى لا يقدر على إنبات الشجر حتى يستعين بالماء، ولولا ذلك لم يقدر على إنباتها؟

قال يوسف: لا أقول هذا، ولكني أقول: إن الله تعالى يَقْدِر على كل شيء، يقول له كن فيكون.

قالت له مريم: ألم تعلم أن الله خلق آدم وامرأته من غير ذكر ولا أنثى؟ فعند ذلك زال ما عنده من التهمة.

وكان يوسف ينوب عنها في خدمة المسجد؛ لاستيلاء الضعف عليها بسبب الحمل، فلما دنت ولادتها أوحى الله إليها أن اخرجي من أرض قومك، فذلك قوله تعالى: ﴿فَانْبَدَتْ بِهٖ مَكَانًا قَصِيًّا﴾^(٢).

وكانت مريم قد أفشت سرها إلى أختها امرأة زكريا، بعد أن حملت بيهي، وذلك حين دخلت امرأة زكريا على مريم فقامت إليها واعتنقتها، وقالت لها: أشعرت يا مريم أني حبلى؟ فقالت مريم: وهل علمت أيضًا أني حبلى؟ وذكرْتُ لها شأنها.

(١) «حاشية الجمل» (٥٧/٣).

(٢) من «تفسير الخازن» (٢١٨/٣) وقد ذكره ابن كثير في تفسير الآية غير منسوب لوهب (٢٢٢/٤).

وقد نقل ابن أبي حاتم بسنده عن مالك قال: بلغني أن عيسى ابن مريم ويحيى بن زكريا ابنا خالة، وكان حملهما جميعًا معًا، فبلغني أن أم يحيى قالت لمريم: إني أرى أن ما في بطني يسجد لما في بطنك؟

قال مالك: أرى ذلك لتفضيل عيسى عليه السلام؛ لأن الله جعله يُحيي الموتى، ويبرئ الأكمه والأبرص بإذن الله^(١).

هذا: ولما حملت مريم بعيسى خافت من الفضيحة، فاتخذت لها مكانًا بعيدًا عن الناس، إلى أن قرب وقت الولادة وجاءها المخاض:

آلَمُ الطَّلَقِ وَالْوِلَادَةِ

٢٣- ﴿فَلَجَّاءَهَا الْمَخَاضُ إِلَى جِذْعِ النَّخْلَةِ قَالَتْ يَلَيْتَنِي مِتُّ^(٢) قَبْلَ هَذَا وَكُنْتُ نَسِيًّا مَّنْسِيًّا^(٣)﴾

وبعد أن حملت مريم بعيسى، وابتعدت به عن أهلها، حان وقت ولادته، ولما جاءها الطلق وآلم الولادة أمسكت بجذع نخلة يابسة واحتضتها؛ لتكئ عليها عند الولادة، فلما نزل المولود نظرت إليه وهي بائسة حزينة مكتئبة، قالت: يا ليتني مت قبل هذه اللحظة التي ألد فيها من غير بعل، وكنت شيئًا لا يُعرف، قالت ذلك حياءً من الناس، وخوفًا من ملامتهم.

عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «ما من مولود يولد إلا نخسه الشيطان، فيستهل صارخًا من نخسة الشيطان، إلا مريم وابنها»^(٤)، ثم قال أبو هريرة: اقرءوا إن شئتم ﴿وَإِنِّي أُعِيذُهَا بِكَ وَذَرَيْتَهَا مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ﴾ [آل عمران: ٣٦].

وتمني الموت لا يجوز لأمر دنيوي، كالفقر، والمرض، والهزيمة، ويفوّض العبد الأمر إلى الله تعالى في الأمور الدينية، كما جاء في صحيح مسلم وغيره: أن النبي ﷺ قال فيما يرويه أنس رضي الله عنه: «لا يتمنين أحدكم الموت لضرّ نزل به، فإن كان لابد متمنيًا فليقل: اللهم

(١) «تفسير ابن كثير» (٢٢١/٤).

(٢) قرأ نافع وحفص وحزمة والكسائي وخلف بكسر الميم من (مت)، والباقون بضمها، وهما لغتان.

(٣) قرأ حفص وحزمة بفتح النون من (نسيًا)، والباقون بكسرهما، وهما لغتان كالوُتر والوتر، بمعنى: الشيء المتروك.

(٤) «صحيح مسلم» برقم (٢٣٦٦) و«صحيح البخاري» برقم (٣٤٣١، ٤٥٤٨) و«المسند» (٧١٨٢، ٨٢٥٤).

وعبد الرزاق (١١٩/١) وابن أبي حاتم (٣٤٣٢).

أحييني ما كانت الحياة خيراً لي، وتوفني إذا كانت الوفاة خيراً لي»^(١).

فلا يجوز تمنّي الموت إلا عند الفتنة في الدين.

وتمني مريم للموت كان لأجل الدين؛ إذ خافت أن يظن الناس بها الشر في دينها.

ومعناه: أن الموت أهون عليها من العار الذي لحق بها وبأهلها.

خَوَارِقُ لِلْعَادَاتِ أَكْرَمَ اللَّهُ بِهَا مَرْيَمَ

٢٤ - ﴿فَنَادَتْهَا مِنْ^(٢) تَحْتِهَا أَلَّا تَحْزَنِي قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا﴾

ولما وضعت مريم ناداها الملك من تحت جذع النخلة، وقال بعضهم: إن الذي تحتها هو عيسى، والضمير يرجع إليه، أي: ناداها ابنها عيسى الذي كان أسفل منها عندما وضعت، ولعل الذي ناداها هو جبريل، بدليل القراءة الأخرى بفتح الميم: (فناداها مَنْ تحتها)، أي: الذي تحتها من مكان أسفل منها، ناداها قائلاً: ﴿أَلَّا تَحْزَنِي قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا﴾.

قال ابن عباس: المراد بمن تحتها: جبريل، أي: ناداها الملك من أسفل الوادي، وهو مكان أسفل منها.

قال ابن عباس رضي الله عنه: ولم يتكلم عيسى حتى أتت به قومها، وعلى هذا فإن المنادي لها هو جبريل، والسري: هو النهر، أو الجدول الصغير، قيل: إن جبريل أو عيسى ضرب الأرض بقدمه فنبعت عين ماء عذبة فجرت جذولاً أو نهراً يسري لها.

(١) «صحيح مسلم» برقم (٢٦٨٠) عن أنس، و«صحيح البخاري» برقم (٥٦٧١، ٦٣٥١، ٧٢٣٣).

(٢) قرأ نافع وحفص وحمزة والكسائي وأبو جعفر وروح وخلف بكسر ميم (من) وجرّ تاء (تحتها) جار ومجرور والفاعل ضمير يعود على عيسى، والباقون بفتح الميم ونصب تحتها على أن (من) اسم موصول فاعل نادی، وتحت ظرف.

٢٥- ﴿وَهَزَىٰ إِلَيْكَ بِجِذْعِ النَّخْلَةِ تُسَاقُطُ^(١) عَلَيْكَ رُطْبًا جَنِيًّا﴾

وأمرها جبريل أن تهز جذع النخلة اليابسة يساقط عليك، أو تساقط عليك رطبًا جنياً. قال العلماء: إن أفضل طعام للنفساء هو الرطب، ولو كان شيء خير منه للنفساء لأطعمه الله مريم.

والمرأة حين تضع تحتاج إلى الماء، فهياً الله لمريم جذولاً كثير المياه يجري كالساقية؛ لتشرب وتقضي حاجتها منه، ثم إن جذع النخلة الذي أمسكت به كان يابساً ميتاً فحركته - كما طلب منها الملك - فتساقط منه الرطب، وهل النفساء وهي في حالة ضعف تقوى على تحريك جذع نخلة؟ ولكن الله تعالى يربط الأسباب بالمسببات، فالرزق يأتي مع العمل والحركة وبذل السبب، ولا يأتي من تلقاء نفسه، ثم إن الوقت كان في الشتاء، وهو ليس موعداً لجني الرطب، وكان رطباً ولم يكن تمرًا، فهذه خوارق للعادات أكرم الله بها مريم، وشهدها يوسف النجار؛ لتقوى فيه براءة مريم وعصمتها مما يظن بها.

٢٦- ﴿فَكَلِمَ^(٢) وَأَشْرَىٰ وَقَرَىٰ عَيْنًا^(٣) فِيمَا تَرَىٰ مِنْ الْبَشَرِ أَحَدًا فَقُولِي^(٤) إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَنِ صَوْمًا فَلَنْ أُكَلِمَ^(٥) الْيَوْمَ^(٦) إِنْسِيًّا﴾

﴿فَكَلِمَ﴾ من الرطب الشهي ﴿وَأَشْرَى﴾ من الماء العذب السلسيل ﴿وَقَرَى عَيْنًا﴾ بالمولود ولا تحزني، فإن وجدت أحداً من البشر، وأراد أن يسألك عن أمرك فلا تنطقي ولا تتكلمي، بل قولي له بالإشارة: ﴿إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَنِ صَوْمًا﴾ أي أوجبت على نفسي سكوتاً، وكان من الصوم في شريعتهم الإمساك عن الكلام ﴿فَلَنْ أُكَلِمَ الْيَوْمَ إِنْسِيًّا﴾ أي: لن أكلّم أحداً من البشر، وهذا وحي من الله تعالى إلى مريم بواسطة الملك، أو بواسطة الطفل، وقد نسخ الإسلام أن يكون السكوت ضرباً من العبادة، أو نوعاً من الصيام.

(١) قرأ حفص بضم التاء من (تَسَاقُط) وتخفيف السين وكسر القاف، مضارع تَسَاقَطَ والفاعل ضمير يعود على النخلة، و(رطباً) مفعول به. ٢- قرأ حمزة بفتح التاء وتخفيف السين وفتح القاف هكذا (تَسَاقُط) على حذف إحدى التائين، والفاعل ضمير يعود على النخلة، و(رطباً) تمييز. ٣- قرأ يعقوب بالياء على التذكير، وتشديد السين، وفتح القاف هكذا (تَسَاقُط) مضارع تساقط، أدغمت التاء في السين تخفيفاً، والفاعل ضمير يعود على الجذع و(رطباً) تمييز. ٤- قرأ شعبة مثل قراءة يعقوب. ٥- وله قراءة أخرى بفتح التاء وتشديد السين وفتح القاف هكذا (تَسَاقُط)، وبها قرأ الباقون، فهذه خمس قراءات في (تساقط).

فقد روى مالك في الموطأ أن رسول الله ﷺ رأى رجلاً قائماً في الشمس فقال: «ما بال هذا؟» فقالوا: نذر ألا يتكلم، ولا يستظل من الشمس، ولا يجلس، ويصوم، فقال ﷺ: «مروه فليتكلم، وليستظل، وليجلس، وليتم صيامه»^(١) وكان هذا الرجل يُدعى أبا إسرائيل. ودخل أبو بكر الصديق رضي الله عنه على امرأة قد نذرت ألا تتكلم، فقال لها: إن الإسلام قد هدم هذا فتكلمي.

وكان بعض العرب قد اقتبس من بني إسرائيل هذا الصمت، فحجّت امرأة من الخمس وهي صامته لا تتكلم، فنسخ الإسلام ذلك بالحديث السابق.

وقد دلّ هذا النسخ على أن النذر ليس قربي إلى الله تعالى، وأنه لو كان في معصية أو كان في شيء يتعذر الوفاء به، فإنه لا تلزم فيه الكفارة، ولا يلزم الوفاء به؛ لأن النبي ﷺ لم يأمر الرجل الذي نذر ألا يتكلم أن يكفر عن نذره، أو يفني بنذره، بل أشار إلى أن مثل هذا النذر لا ينعقد أساساً بقوله: «إن الله عن تعذيب هذا نفسه لغني».

كما جاء في البخاري وغيره: عن أنس أن النبي ﷺ رأى شيخاً يُهادى بين ابنيه فقال: «ما بال هذا؟» قالوا: نذر أن يمشي، قال: «إن الله عن تعذيب هذا نفسه لغني» وأمره أن يركب^(٢).

وكان هذا المشي في الطواف بالبيت، ومع هذا أمره النبي ﷺ أن يركب، وكان الركوب في الطواف وقتها ميسراً، وفي معناه الآن حمل الطائف فوق الخشبة.

وفي البخاري أيضاً: عن ابن عباس أن النبي ﷺ مرّ وهو يطوف بالكعبة بإنسان ربط يده إلى إنسان بخيط أو بسير أو بشيء آخر، فقطعه النبي بيده ثم قال: «قُده بيده»^(٣).

قلت: وإن هذا ليدكرني بأحوال الناس اليوم، وهم يطوفون حول الكعبة، فمنهم من يضرب سوراً من حبل ونحوه حول المجموعة من الناس، سيمّاً النساء؛ حتى لا يضيع بعضهن من بعض، ومنهم من يضرب حلقة من الرجال حول النساء ليُطْفَنَ وهكذا، وهم لا يفكرون في الضرر الذي يلحق بالآخرين من جرّاء ذلك.

(١) «الموطأ» من رواية أبي مصعب برقم (٢٢١٤).

(٢) «صحيح البخاري» برقم (١٨٦٥، ٦٧٠١) و«صحيح مسلم» برقم (١٦٤٢).

(٣) «صحيح البخاري» برقم (١٦٢٠، ٦٧٠٢، ٦٧٠٣).

وفي المسند بإسناد حسن: عن محمد بن عبد الله بن عمرو بن العاص أن النبي ﷺ أدرك رجلين وهما مقترنان، فقال: «ما بالهما؟» قالا: إنا نذرنا لنقترننَّ حتى نأتي الكعبة، فقال: «أطلقا أنفسكما، ليس هذا نذرًا، إنما النذر ما ابتُغي به وجه الله»^(١).

ونذَرُ شيء لم يشرعه الله تعالى في العبادات يُعدُّ معصية لله تعالى، والإمساك عن الكلام ليس عبادة في الإسلام، والنصارى يعدُّونه عبادة وترحُّمًا على الميت، حين يقفون عليه صامتين هنيهة.

مَرِيَمُ تَضَعُ عِيسَى وَتُؤَاجُهُ اسْتِنَكَارَ قَوْمِهَا

٢٧- ﴿فَأَتَتْ بِهِ قَوْمَهَا تَحْمِلُهُ قَالُوا يَمْرِيْمُ لَقَدْ جِئْتِ شَيْئًا فَرِيًّا﴾

وبقيت مريم في بيت لحم حتى انتهت مدة النفاس، وفي اليوم الحادي والأربعين^(٢) وبعد أن اطمأنت نفسها، وقرت عينها بتكليم عيسى لها، وبعد أن عَلِمَتْ أن الله سَيَّرَها وبيَّن عذرَها، رجعت إلى أهلها وهي تحمل مولودها بين يديها من المكان القصي الذي انتبذت إليه.

قيل: إن قومها خرجوا في طلبها فوجدوها وهي مقبلة عليهم، فلما رأوها وهي تحمله بين يديها، قالوا لها: ﴿يَمْرِيْمُ لَقَدْ جِئْتِ شَيْئًا فَرِيًّا﴾ أي: منكراً عظيماً، حين أتيت بولد من غير زوج.

٢٨- ﴿يَتَأَخَتِ هَارُونَ مَا كَانَ أَبُوكَ أَمْرًا سَوْءًا وَمَا كَانَتْ أُمُّكَ بَغِيًّا﴾

١- قيل: كان لها أخ حقيقي، رجل صالح اسمه هارون، وكانوا يتسمَّون بأسماء الأنبياء.
٢- وقيل: هو رجل صالح في قومها اسمه هارون، وليس بهارون أخي موسى بن عمران؛ لأن بينهما نحو ألف عام.

والمعنى: يا أخت هارون في الصلاح والتقوى أنت من أهل بيت نبوة وشرف، معروف

(١) «مسند أحمد» برقم (٦٧١٤)، حديث حسن، وأخرجه أبو داود (٣٢٧٣، ٢١٩٢) والخطيب في تاريخه (٤٨/٦).

(٢) ذكر ذلك إنجيل لوقا.

بالصلاح والعبادة والزهد، فكيف صدر هذا منك؟! فأبوك ليس برجل شر يأتي الفواحش، وأمك ليست زانية.

في صحيح مسلم وغيره: عن المغيرة بن شعبة رضي الله عنه قال: لما قدمت نجران سألوني، فقالوا: إنكم تقرأون ﴿يَتَأَخَّتَ هَارُونُ﴾ وموسى قبل عيسى بكذا وكذا، فلما قدمت على رسول الله ﷺ سألته عن ذلك، فقال: «إنهم كانوا يُسمُّون بأسماء أنبيائهم والصالحين قبلهم»^(١).

وفي بعض الروايات: أن الذين سألو المغيرة هم أهل خراسان.

وأخرج عبد الرزاق بسند صحيح إلى قتادة قال: كان رجلاً في بني إسرائيل صالحاً يسمى هارون، فشبهوها به، فقالوا: يا شبيهة هارون في الصلاح^(٢).

وقال السهيلي: هارون رجل من عبّاد بني إسرائيل المجتهدين، كانت تُشَبَّه به في اجتهادها، وليس بهارون أخى موسى بن عمران فإن بينهما دهرًا طويلاً^(٣).

وكان هذا الاسم كثيرًا في بني إسرائيل، يسمون به أبناءهم تبرّكًا به دون أخى موسى؛ فهو اسم وافق اسمًا.

وقد شَبَّهوها بهارون العابد المنقطع إلى الله تعالى؛ لأنها كانت كذلك منقطعة لخدمة المعبد.

٣- وذكر الطبري وابن أبي حاتم أنه كان في زمانها رجل فاجر يقال له هارون، فشبهوها به على جهة التعيير والتوبيخ، ونسب هذا إلى سعيد بن جبير^(٤).

ولعل الأرجح من هذه الأقوال الثلاثة أنهم شَبَّهوها برجل صالح في زمانها يسمى هارون، أو أنها نُسبت إلى هارون بن عمران؛ لأنها كانت من سبطه، كما تقول: يا أخا الأنصار.

(١) يُنظَر: «صحيح مسلم» برقم (٢١٣٥) و«المسند» (١٨٢٠١) بإسناد حسن على شرط مسلم، وابن أبي شيبة (٥٥١/١٤) والترمذي (٣١٥٥) والنسائي في «السنن الكبرى» (١١٣١٥) وابن حبان (٦٢٥٠) والطبراني (٩٨٦).

(٢) عبد الرزاق (٧/٢) ويُظَر: «تفسير الطبري» (٧٧/١٦) وعبد بن حميد.

(٣) وجاء هذا عن قتادة عند ابن أبي حاتم، كما في «الدر المنثور» (٦٥/١٠).

(٤) كما في «الدر المنثور» (٦٦/١٠).

عِيسَى يَتَكَلَّمُ فِي الْمَهْدِ

٢٩- ﴿فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ قَالُوا كَيْفَ نُكَلِّمُ مَنْ كَانَ فِي الْمَهْدِ صَبِيًّا﴾ ﴿٢٩﴾

وبعد اتهامهم لها بالفاحشة أرادت مريم أن تدافع عن نفسها، ولمّا لم تكن لها حجة أشارت إلى عيسى ولسان حالها يقول: وجّهوا كلامكم إليه، فإنه سيخبركم بحقيقة الأمر، وليكون كلامه حجة لها، لم تجبه بنفسها ولم تكلمهم، واكتفت بالإشارة إليه، أن أسأله ﴿قَالُوا﴾ مستكرين عليها: كيف نسأله؟ أتتهكمين بنا؟ إنه لا يزال طفلاً رضيعاً في مهده، وقد دلّت الآية على أن الإشارة المفهومة تقوم مقام الكلام والنطق، ومن أدلة ذلك:

١- قصة الأمة السوداء التي قال لها رسول الله ﷺ: «أين الله؟» فأشارت إلى السماء، فقال ﷺ: «أعتقها فإنها مؤمنة»^(١).

فجعل النبي ﷺ إشارتها كنطقها، وحكم لها بالإيمان الذي هو أصل الشرائع، وبه يعصم الدم والمال، وتُستحق به الجنة، ويُنجّى به الله من النار.

ونُزلت إشارة زكريا منزلة الكلام في قوله تعالى: ﴿فَأَوْحَى إِلَيْهِمْ أَنْ سَبِّحُوا بُكْرَةً وَعَشِيًّا﴾.

ومن ذلك أن النبي ﷺ أشار بأصابعه إلى أن الشهر قد يكون تسعة وعشرين يوماً، وثلاثين يوماً.

٢- كما رواه مسلم وغيره: عن عبد الله بن عمر ؓ أن رسول الله ﷺ ذكر رمضان ف ضرب يديه، فقال: «الشهر هكذا، وهكذا، وهكذا»، ثم عقد إبهامه في الثالثة، وقال: «فصوموا لرؤيته، وأفطروا لرؤيته، فإن غُمَّ عليكم فاقْدُرُوا له ثلاثين»^(٢).

٣- وفي البخاري وغيره: عن ابن عمر ؓ أن النبي ﷺ قال: «لا يعذب الله بدمع العين ولكن يعذب بهذا» وأشار إلى لسانه^(٣).

(١) يُنظر الحديث في: «صحيح سنن أبي داود» عن معاوية بن الحكم السلمي برقم (٢٨٠٩) وفي «المسند» برقم (٢٣٧٦٢، ٢٣٧٦٧)، بإسناد صحيح على شرط مسلم ورجال ثقات (محققوه) وأخرجه ابن أبي شيبة (٢/ ٤٣٢) ومسلم (٥٣٧) والدارمي (١٥٠٣) وأبو داود (٩٣٠) وابن حبان (١٦٥) والطيالسي (١١٥٠) وغيرهم.

(٢) «صحيح مسلم» (١٠٨٠) و«صحيح البخاري» (١٩٠٨، ٥٣٠٢).

(٣) أخرجه البخاري في كتاب الطلاق، باب الإشارة في الطلاق والأمور، ك (٦٨) ب (٢٤) قبل الحديث رقم (٥٢٩٣) وانظر: (١٣٠٤) ومسلم (٩٢٤).

٤- وقالت أم المؤمنين زينب بنت جحش ؓ: قال رسول الله ﷺ: «فُتِحَ اليوم من ردم يأجوج ومأجوج مثل هذه وهذه» وعقد تسعين^(١).

٥- وعن ابن عمر ؓ قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إن الفتنة تجيء من هنا»، وأشار إلى المشرق^(٢).

وفي حديث عبد الله بن أبي أوفى ؓ: أن النبي ﷺ أشار إلى المشرق، وقال: «إذا رأيتم الليل قد أقبل من ها هنا فقد أفطر الصائم»^(٣).

٦- وفي حديث النبي ﷺ لمعاذ ؓ وقد أشار إلى لسانه، وقال: «كُفَّ عليك هذا»^(٤).
فهذه الأدلة وأمثالها حجة على أن الإشارة المُفهِمة تقوم مقام الكلام^(٥).

عِيسَى يَصِفُ نَفْسَهُ بِتِسْعَةِ أَوْصَافٍ

٣٠- ﴿قَالَ إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ ءَاتَنِي^(٦) الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا^(٧)﴾

فأنطق الله عيسى، ووصف نفسه بتسعة أوصاف:

الْوَصْفُ الْأَوَّلُ: كونه عبداً لله تعالى ﴿قَالَ إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ﴾

قال الرازي: رُوي أنه كان يرضع فلما سمع ذلك ترك الرضاع وأقبل عليهم بوجهه وكلمهم، ثم لم يتكلم حتى بلغ مبلغاً يتكلم فيه الصبيان^(٨)، هذه أول كلمة ينطق بها

(١) «صحيح مسلم» (٢٨٨٠) و«صحيح البخاري» (٣٣٤٦، ٣٥٩٨، ٧٠٥٩، ٧١٣٥).

(٢) «صحيح مسلم» (٢٩٠٥) و«صحيح البخاري» (٣٥١١، ٧٠٣٢).

(٣) «المسند» (١٩٣٩٩)، بإسناد صحيح على شرط الشيخين وأخرجه عبد الرزاق (٧٥٩٤) والحميدي (٧١٤) والبخاري (١٩٤١) ومسلم (١١٠١) والنسائي في الكبرى (٣٣١١) وابن حبان (٣٥١٢).

(٤) «المسند» (٢٢٠١٦) من حديث طويل صحيح بطرقه وشواهد وهو في مصنف عبد الرزاق (٢٣٠٣) وعبد بن حميد (١١٢) والبغوي في شرح السنة (١١) وعند ابن ماجه (٣٩٧٣) والترمذي (٢٦١٦) والنسائي في الكبرى (١١٣٩٤) والبيهقي في الشعب (٣٣٥٠) وغيرهم.

(٥) يُنظر: تفصيل هذه المسألة للشيخ الشنقيطي في «أضواء البيان» (٢٥٥/٤) وما بعدها.

(٦) قرأ حمزة بإسكان ياء (آتاني الكتاب)، وفتحها الباقون.

(٧) قرأ نافع بالهمز في (نبياً) فيكون من قبيل المد المتصل، والباقون بياء مشددة.

(٨) «التفسير الكبير» (٨٠٢/٢١).

عيسى، وهو رضيع في المهد، وفيها ردُّ على ضلالات النصارى وافتراءاتهم، فهو يقول لهم: لستُ بآله، ولستُ ابنًا للإله، ولستُ ثالث ثلاثة، إنما أنا عبد الله ورسوله.

الْوَصْفُ الثَّانِي: نزول الإنجيل عليه ﴿ءَاتَيْنِي الْكِتَابَ﴾

وقد قضى الله سبحانه في الأزل بإعطائي الإنجيل مصدقًا للتوراة ومبشرًا بالقرآن، فيه هدى ونور، فهو سبحانه منزل عليَّ جبريل بالوحي، فقد ﴿ءَاتَيْنِي الْكِتَابَ﴾.

الْوَصْفُ الثَّالِثُ: أنه نبي مرسل ﴿وَجَعَلَنِي نَبِيًّا﴾

وأتاني النبوة والرسالة؛ فأنا رسول الله إلى بني إسرائيل أيدني الله بالمعجزات، ولأهلهم بعض ما حُرِّم عليهم عقوبة لهم؛ بسبب ظلمهم وبغيهم، وأخبره الله بما هو كائن من أمره إلى أن يموت.

والمعنى: سيجعلني نبيًّا، ويؤتيني الكتاب وهو الإنجيل، وهذا إخبار من الله له عما سيكون في المستقبل، كما قيل للنبي ﷺ: متى كنت نبيًّا؟ قال: «كنت نبيًّا وآدم بين الروح والجسد»^(١).

وقد أقرَّ عيسى على نفسه بالعبودية؛ لئلاَّ يُتخذ إلهاً كما فعل النصارى، وفيه إزالة للتهمة عن الأم؛ لأن الله تعالى لم يختص بمرتبة النبوة ولد الزنى.

وكلام عيسى هذا وهو في المهد أهملته أناجيل النصارى؛ لأنهم طَوَّوا خبر وصول مريم إلى أهلها بعد أن وضعت عيسى، وهذا أمر عجيب يدل على عدم الدقة في صحة نقل الإنجيل عن عيسى عليه السلام.

وفي هذه الآية والآيتين بعدها، اطلاع الله تعالى لنبيه محمد ﷺ على ما كتبه النصارى من هذا الأمر.

الْوَصْفُ الرَّابِعُ: أَنَّهُ مُبَارَكٌ أَيْنَمَا حَلَ

٣١- ﴿وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنْتُ وَأَوْصَنِي بِالْصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيًّا﴾ (٣١)

ومضى عيسى ﷺ يكمل كلامه، فقال: ﴿وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنْتُ﴾ أي: جعلني

(١) قال الألباني في سلسلة الأحاديث الضعيفة (١١٥/٢) برقم (٦٦١): ضعيف.

الله عظيم الخير والنفع حيثما وُجدت، وحيثما حَلَّت.

وذلك لأن الله تعالى أرسله رحمة لبني إسرائيل، يعلمهم الخير، ويدعوهم إلى توحيد الله وعبادته، ومن بركته عليهم أن يُحِلَّ لهم بعض الذي حُرِّم عليهم، ويدعوهم إلى مكارم الأخلاق، بعد أن قست قلوبهم، وغيَّروا في دينهم.

ومن بركته عليهم أن جعل الله حلول عيسى في الأرض المقدسة سبباً للخير والخصوبة، وسبباً لاهتداء أهلها، وتوفيقهم إلى الخير، حيث تنفتح قلوب الناس فيها للإيمان والحكمة، ولذا فإن الحواريين كانوا من عامة الأميين: عمَّالاً وصيَّادين، فصاروا دعاة هدى، وفاضت ألسنتهم بالحكمة.

الْوَصْفُ الْخَامِسُ: أنه يقيم الصلاة ويخرج الزكاة

وواصل عيسى كلامه قائلاً: ﴿وَأَوْصِنِي بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيًّا﴾ أي: أن الله تعالى أمرني أمراً مؤكداً مستمراً بالمحافظة على الصلاة وإيتاء الزكاة ما بقيت حياً، وهي وصية خاصة، زائدة على الصلاة والصدقة المفروضتين، كما خصَّ الله نبيه محمداً ﷺ بمزيد من قيام الليل.

الْوَصْفُ السَّادِسُ: برّه بأمه

٣٢- ﴿وَبِرًّا بِوَالِدَتِي وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا شَقِيًّا﴾

ثم أخبر عيسى ﷺ، أن الله تعالى جعله باراً بأمه، محسناً إليها غاية الإحسان، ومطيعاً لها، ومكرماً إياها، وفي هذا تصريح بأنه لا والد له.

الْوَصْفُ السَّابِعُ: ليس بجبار ولا متكبر ﴿وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا شَقِيًّا﴾

أي أن الله تعالى لم يجعلني جباراً مغروراً غليظ القلب جافياً، ولم يجعلني عاصياً لربي، ولا متكبراً على خلق الله، بل جعلني متواضعاً، خاضعاً، هيئاً، لئلاً.

الْوَصْفُ الثَّامِنُ: تَحِيَّةٌ عَلَيْهِ مِنَ اللَّهِ عِنْدَ الْوِلَادَةِ وَعِنْدَ الْمَوْتِ وَيَوْمَ الْبَعْثِ

٣٣- ﴿وَالسَّلَامُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدْتُ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا﴾

ومما نطق به عيسى وهو طفل رضيع في المهد إخباره أن الله تعالى قد حيّاه وسلّم عليه في يوم ولادته، ويوم مماته، ويوم خروجه من قبره، فقال: ﴿وَالسَّلَامُ عَلَيَّ﴾ أي من الله تعالى في هذه المواطن الثلاثة التي يكون العبد فيها ضعيفاً ﴿يَوْمَ وُلِدْتُ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا﴾.

أي: والسلامة والأمان عليّ؛ حيث لم يمسنني الشيطان بشراً، ولا بشيء سيئ، ولا عقوبة من الله سبحانه تنالني يوم ولادتي، ويوم موتي، ويوم أُبعث حياً.

ثم سكت عيسى بعد ذلك، فلم يتكلّم حتى بلغ المدة التي يتكلم فيها الأطفال.

وهكذا وصف عيسى نفسه في هذه الآيات الثلاث بأوصاف ثمانية هي: العبودية، وإنزال الإنجيل عليه، والنبوة، والبركة، ومزيد من الصلاة والصدقة، والبر بأمه، والتواضع، وأنه من أهل السعادة والسلامة.

وأكثر هذه الصفات، وصف الله تعالى بها نبيه يحيى عليه السلام.

وإجابة عيسى عليه السلام لقومه كانت بناء على مجرد إشارة أمه إليه دون كلام.

قال سعيد بن جبير: تكلم في المهد أربعة: عيسى، وصاحب يوسف، وصاحب جُريج، وابن ماشطة فرعون^(١).

وعن هلال بن يساف قال: لم يتكلم في المهد إلا ثلاثة: صاحب جُريج، وعيسى، وصاحب يوسف^(٢). قال تعالى:

٣٤- ﴿ذَلِكَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ قَوْلَ (٣) الْحَقِّ الَّذِي فِيهِ يَمَتُّونَ﴾

(١) أخرجه عبد بن حميد كما في «الدر المنثور» (٦٧/١٠). وهو عن ابن عباس من حديث طويل في مسند أحمد (٢٨٢١) بإسناد حسن، وأخرجه الطبراني (٢٢٨٠) عن عبد الله بن أحمد، وبنحوه عند ابن حبان (٢٩٠٣) والطبراني (١٢٢٧٩) وانظر في المسند (٢٨٢٢، ٢٨٢٣).

(٢) أخرجه ابن أبي شيبة (٥٤٥/١١).

(٣) قرأ ابن عامر وعاصم ويعقوب بنصب لام (قول)، على أنه مصدر مؤكد لمضمون الجملة قبله، وعامله محذوف وجوباً تقديره: أقول قول الحق، أي: الصدق، والباقون بالرفع على أنه خبر بعد خبر، والحق يحتمل أن يراد به: الصدق، أو على اسم من أسماء الله تعالى.

ثم بيّن ﷺ وجه الحق في قضية ولادة عيسى؛ للرد على اليهود والنصارى معاً؛ فهم الذين يشكّون ويختلفون في أمره، فاليهود ينسبونه إلى الزنى، ويزنلونه إلى الحضيض، والنصارى يرفعونه إلى مقام الألوهية، وكلاهما مبطل مخطئ، وما قصّه الله علينا في الآيات السابقة هو صفة عيسى وخبره، من غير شك ولا مرية، وهو القول الحق الذي لا شك فيه، وما يخالف تلك الصفات فهو باطل لا ينطبق على عيسى ﷺ، فلا تلتفت إلى شكّهم وكفرهم، بل ذرهم في طغيانهم يعمهون.

وهذا الذي قصصناه عليك -يا محمد- هو قصة ولادة عيسى ﷺ، وحقيقة أمره وهو القول الحق الذي يشكّ فيه اليهود والنصارى، وهذه الحقيقة من رب العالمين، فهي خبر يقيني، وما عداه مقطوع ببطلانه.

٣٥- ﴿مَا كَانَ لِلَّهِ أَنْ يَتَّخِذَ مِنْ وَلَدٍ سُبْحَنَهُ إِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ (٢٥)

ثم نزه الله سبحانه نفسه عن قولهم: اتخذ الله ولداً، فما كان لله تعالى أن يتخذ من خلقه ولداً -كما يقول المشركون والكفار- ولا يليق به سبحانه ذلك، وإذا قضى الله أمراً من الأمور صغيراً كان أو كبيراً، توجهت إليه إرادته سبحانه، فخلق في لمح البصر، قال تعالى: ﴿وَمَا أَمْرُنَا إِلَّا وَجِدَةٌ كَلَمْحٍ بِالْبَصَرِ﴾ (٥٥) [القمر].

وقد خلق الله عيسى ﷺ بكلمة ﴿كُنْ﴾ فكان كما شاء وأراد.

الْوَصْفُ التَّاسِعُ: نَفْيُ الْبُنُوَّةِ وَنَفْيُ التَّثْلِيثِ عَنْهُ

٣٦- ﴿وَإِنَّ اللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ﴾ (٣٦)

(١) قرأ ابن عامر بنصب نون (فيكون)، على تقدير إضمار (أن) بعد الفاء حملاً للفظ (كن) على الأمر الحقيقي، وقرأ الباقون بالرفع على الاستئناف.

(٢) قرأ ابن عامر وعاصم وحزمة والكسائي وروح وخلف بكسر همزة (وأن) على الاستئناف، أو عطفاً على (قال إني)، والباقيون بفتحها، على أنه مجرور بلام محذوفة والجار والمجرور متعلق بالفعل بعده، والمعنى: ولوحدانية الله تعالى في الربوبية أطيعوه، ويصح أن يكون عطفاً على الصلاة، أي: وأوصاني بالصلاة، والزكاة، وبأن الله ربي وربكم.

(٣) قرأ رويس وقبل بخلف عنه بالسین في (صراط)، وقرأ حمزة وخلف بإشمام الصاد صوت الزاي، والباقيون بالصاد الخالصة، وهو الوجه الثاني لقنيل، وكلها لغات.

ومن تتمّة كلام عيسى وهو في المهد، أن قال لقومه: ﴿وَإِنَّ اللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ﴾ وهذا كلام بشر، ينفي دعوى النصارى في قولهم: عيسى ابن الله، فهو يقول: أنا مخلوق مثلكم، وأنا عبد الله مثلكم فاعبدوه ولا تشركوا به شيئاً، وهذا الذي أعلمتكم به عن الله من وحدانيته تعالى، ونفي الولد عنه، وغير ذلك مما يتنزّه عنه سبحانه، هو الطريق القويم المؤدي إلى جنات النعيم.

والآية السابقة والتي قبلها كلام معترض بين كلام عيسى عليه السلام.

اِخْتِلَافُ أَهْلِ الْكِتَابِ فِي شَأْنِ عِيسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ

٣٧- ﴿فَاخْتَلَفَ الْأَحْزَابُ مِنْ بَيْنِهِمْ قَوْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ مَّشْهَدٍ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾

ومع وضوح الحق وبيانه إلا أن أهل الكتاب حادوا عنه، وسلکوا طرقاً أخرى، ولم يتفقوا على شيء، فقد اختلف الأحزاب - وهم فرق اليهود والنصارى - في شأن عيسى عليه السلام:

(أ) فقالت اليهود: إنه ابن يوسف النجار، إنه ابن زنى، قَبَّحهم الله، فقد كان يوسف النجار عابداً ناسكاً يخدم المعبد، وحينما رأى بواذر الحمل على مريم سألتها: يا مريم أيكون زرع بغير بذر؟ قالت: فمن الذي خلق الزرع الأول؟ قال: أيكون شجر بغير ماء؟ قالت: فمن الذي خلق الشجر الأول؟ قال: أيكون ولد بغير ذكر؟ قالت: إن الله تعالى خلق آدم من غير ذكر ولا أنثى. ثم ذكرت له قصة مجيء جبريل إليها، وأن الله سبحانه قد وهب لها بشراً سوياً، فافتتحت بالأمر.

(ب) وأما النصارى فيذكر المؤرخون أن امبراطور الرومان (قُسطنطين) قد جمع ألفين ومئة وسبعين من الأساقفة؛ لاتخاذ قرار في شأن عيسى، فكانوا فرقاً أربعاً: نُسبت ثلاث منها إلى كبار علمائهم، وهم: يعقوب، ونسطور، وملكان:

١- فقالت اليعقوبية، وهم يمثلون من الفرق الحالية (الأرثوذكس)، قالوا: إن عيسى عليه السلام هو الله، نزل إلى الأرض، فأحيا من أحياء، وأمات من أمات، ثم صعد إلى السماء.

٢ - وقالت النسطورية، وهم (البروتستانت)، قالوا: إن عيسى هو ابن الله؛ لأنه نفخ فيه من روحه، وأظهره بعض الوقت، ثم رفعه إليه.

٣- وقالت المَلَكانيّة، وهم (الكاثوليك)، قالوا: إن عيسى ثالث ثلاثة، وهم: الله، وعيسى، ومريم، أو جبريل بدل مريم، فكل واحد من الثلاثة إله، وقالوا: إن الثلاثة واحد، والواحد ثلاثة.

ثلاثة في واحد، وواحد في ثلاثة، كيف يكون هذا؟! فالثلاثة لا تدل على شيء واحد أبداً؛ لأن كل واحد منها يدل على ذات مستقلة، فكيف يكون الواحد ثلاثة؟! هذا تناقض.

٤- وقالت فرقة من النصارى: عيسى عبد الله ورسوله، وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه، وهذا ما يقرره إنجيل برنابا، وسائر الفرق لا تعترف به.

ولذلك فإن الله سبحانه قال: ﴿فَاخْتَلَفَ الْأَحْزَابُ مِنْ بَيْنِهِمْ فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا﴾ وهم الفرق الثلاث منهم، وهذا يعني: أن هناك من لم يكفر، وهم الذين قالوا: إنه عبد الله ورسوله، ولذا لم يقل الله تعالى: فويل لهم.

وقوله تعالى: ﴿فَاخْتَلَفَ الْأَحْزَابُ مِنْ بَيْنِهِمْ﴾ يشير إلى أن النصارى كانوا متفقين على قول واحد، هو التوحيد، وكان ذلك في حياة الحواريين.

ثم حدث الاختلاف بين تلاميذهم، فكانت الفرق الثلاث السابق ذكرها في وقت لاحق، ومنها تشعبت فرق أخرى كثيرة^(١).

قال قتادة: اجتمع بنو إسرائيل فأخرجوا منهم أربعة نفر، أخرج من كل قوم عالمهم، فامتروا في عيسى حين رُفع، فقال أحدهم: هو الله هبط إلى الأرض، فأحيا من أحيا، وأمات من أمات، ثم صعد إلى السماء، وهم اليعقوبية، فقال الثلاثة: كذبت، ثم قال اثنان منهم للثالث: قل فيه، فقال: هو ابن الله، وهم النسطورية، فقال اثنان: كذبت، ثم قال أحد الاثنين للآخر: قل فيه، قال: هو ثالث ثلاثة، الله إله، وعيسى إله، وأمه إله، وهم الإسرائيلية، وهم ملوك النصارى، فقال الرابع: كذبت، هو عبد الله ورسوله وروحه من كلمته، وهم المسلمون، فكان لكل رجل منهم أتباع على ما قال^(٢).

(١) مثل: الألبانية، والبيارسية، والمقدانوسية، والسبالية، والبوطينوسية، والبولية، وغير ذلك مما ذكره الشهرستاني في «الملل والنحل» وذكره غيره.

(٢) أخرجه عبد الرزاق (٨/٢) وابن أبي حاتم.

وإنجيل برنابا شاهد صدق على الفرقة الموحدة في زمانهم.

ومعلوم أن من كان موحدًا بالله تعالى، ولم يؤمن بمحمد ﷺ بعد بعثته فهو كافر بمحمد ﷺ، وبما أنزل عليه، ولا يقبل له قول ولا عمل.

عن عبادة بن الصامت ؓ قال: قال رسول الله ﷺ: «من شهد أن لا إله إلا الله، وحده لا شريك له، وأن محمدًا عبده ورسوله، وأن عيسى عبد الله ورسوله، وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه، وأن الجنة حق، والنار حق، أدخله الله الجنة على ما كان من العمل»^(١).

وقد هدد الله سبحانه وتوعد من نسب إلى الله تعالى الشريك والولد، فأنظره إلى يوم القيامة، وهو يوم المشهد العظيم، حيث تُجزى كل نفس بما تستحق.

كما جاء في الصحيحين: عن أبي موسى ؓ أن رسول الله ﷺ قال: «إن الله ليملي للظالم حتى إذا أخذه لم يفلته»، ثم قرأ رسول الله ﷺ: ﴿وَكَذَلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرْآنَ وَهِيَ ظُلُمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُ أَلَمٌ شَدِيدٌ﴾^(٢) [هود].

وفي الصحيحين أيضًا: من حديث عبد الله بن قيس أن رسول الله ﷺ قال: «لا أحد أصبر على أذى يسمعه من الله، إنهم يجعلون له نداءً، ويجعلون له ولدًا، وهو يرزقهم ويعافيهم ويعطيهم»^(٣).

٢٨- ﴿أَسْمِعْ يَوْمَ وَأَصْبِرْ يَوْمَ يَأْتُوتَنَّا لَكِنِ الظَّالِمُونَ الْيَوْمَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾ (٢٨)

ثم إن هؤلاء الكفار الذين قالوا: عيسى ابن الله، أو قالوا: إن الله ثالث ثلاثة، أو قالوا: إن عيسى هو الله، هؤلاء جميعًا لم يستعملوا حواسهم وعقولهم فيما خلقت من أجله، فلم ينتفعوا بها في التوصل إلى توحيد الله سبحانه، فكأنهم كانوا في الدنيا بلا سمع ولا بصر، فإذا كان يوم القيامة فإن سمعهم يكون قويًا، وبصرهم يكون حادًا نافذًا، ولكنهم يسمعون ويبصرون ما يكرهون، مما تنخلع له القلوب، وتسود له الوجوه، وقد كانوا في الدنيا صمًا وعميانًا عن الحق.

(١) «صحيح البخاري» برقم (٣٤٣٥) و«صحيح مسلم» برقم (٢٨).

(٢) البخاري (٤٦٨٦) ومسلم (٢٥٨٣).

(٣) البخاري برقم (٦٠٩٩، ٧٣٧٨) ومسلم برقم (٢٨٠٤) وهذا لفظه.

لقد كان السمع والبصر في الدنيا وسيلتين للهدى والنجاة، ولكنهما في الآخرة وسيلتان للخي والندامة، فما أعجب حالهم! وما أشد سمعهم وبصرهم يوم لقاء رب العالمين! كما قال تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَىٰ إِذِ الْمُجْرِمُونَ نَاكِسُو رُءُوسِهِمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ رَبَّنَا أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا﴾.

ها هم يعترفون ويقرون يوم القيامة، فيقولون ورؤوسهم منكسة من الخزي والفضيحة: ﴿رَبَّنَا أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا﴾ ثم يتمنون العودة إلى الدنيا لإصلاح الماضي، فيقولون: ﴿فَارْجِعْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا﴾ [السجدة: ١٢]. ولكن القطار قد فات، فما أسمعهم! وما أبصرهم يوم يَرْجِعُونَ إلينا، ويرؤن ما نصنع بهم من العذاب! حيث يزول إعراضهم، ويُقبلون على الحقيقة، فيقرون بكفرهم وشركهم وأقوالهم وأفعالهم، ويقولون ﴿رَبَّنَا أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَارْجِعْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا﴾ [السجدة: ١٢] ويكون هذا يوم لا ينفعهم الإقبال على الله سبحانه، وقد كانوا في الدنيا ضُمًا، بكمًا، عميًا، لا يتفنعون بالهدى، ولا يُقبلون عليه، ويوم القيامة يسمعون وبصرون حقيقة ما قاله لهم رسل الله في شأن عيسى وغيره، فما أسمعهم وما أبصرهم ﴿يَوْمَ يَأْتُونَنَا﴾ في يوم القيامة، حين تُنشر الصحف، وتُبلى السرائر، وقد كانوا في الدنيا في غفلة وذهول عن الحق، ظالمين لأنفسهم بالشرك والكفر، فهم معاندون ضالون، لأنهم عرفوا الحق وانصرفوا عنه.

ذَبْحُ الْمَوْتِ

٣٩- ﴿وَأَنْذَرُهُمْ يَوْمَ الْحَسْرَةِ إِذْ قُضِيَ الْأَمْرُ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ وَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾

هذه الآية تخاطب النبي ﷺ؛ لإعلام الأمة، ويوم الحسرة هو اليوم الذي يُقضى فيه الأمر بذبح مثال الموت، ويُقضى فيه بالعذاب على الكافرين فَتَتَابُهُمُ الحسرة حين يرؤن مقاعدهم التي فاتتهم في الجنة لو كانوا مؤمنين، والحسرة هي الندامة الشديدة، والحسرة اسم من أسماء يوم القيامة؛ حيث يتحسر كل إنسان: المحسن يتحسر أن لو ازداد من حسناته، والمسيء يتحسر على سيئاته.

أحاديث في ذبح الموت:

١- جاء في الحديث عن أبي سعيد الخدري ؓ: أنه إذا دخل أهل الجنة الجنة، وأهل النار النار، يجاء بالموت كأنه كبش أملح، ويُذبح على الصراط بين الجنة والنار، ثم يقال: يا أهل

الجنة خلود بلا موت، ويا أهل النار خلود بلا موت، ثم قرأ النبي ﷺ: ﴿وَأَنْذَرَهُمْ يَوْمَ الْحَسْرَةِ إِذْ قُضِيَ الْأَمْرُ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ﴾ وأشار بيده، وقال: «أهل الدنيا في غفلة الدنيا»^(١).

٢- ومجيء الموت يوم القيامة في صورة كبش، ثم يُذبح، صحّت به الأحاديث عن رسول الله ﷺ كما جاء في الصحيحين وغيرهما، من حديث أبي سعيد الخدري قال: قال رسول الله ﷺ: «يؤتى بالموت كهيئة كبش أملح، فينادي مناد: يا أهل الجنة، فيشربون وينظرون، فيقول: هل تعرفون هذا؟ فيقولون: نعم، هذا الموت، وكلهم قد رآه، ثم يُنادى: يا أهل النار، فيشربون وينظرون، فيقول: هل تعرفون هذا؟ فيقولون: نعم، هذا الموت، وكلهم قد رآه، فيُذبح، ثم يقول: يا أهل الجنة، خلود فلا موت، ويا أهل النار، خلود فلا موت»^(٢).

هذا هو يوم الحسرة إذ قُضِيَ الأمر، وفُرغ من الحساب، وفُرغ من القضاء بين العباد. والله تعالى يأمر رسوله محمداً ﷺ أن يخوّف الخلائق وهم في الدنيا قبل فوات الأوان، وقبل أن يأتي وقت الحسرة، يخوفهم من أهوال يوم القيامة؛ حيث يتحسر الظالمون على تفريطهم في طاعة الله تعالى في وقت لا ينفع فيه الندم، وذلك إذا دخل أهل الجنة الجنة، وأهل النار النار، حين يُقضى الأمر، ويُفصل بين الخلائق، فيصير أهل الإيمان إلى الجنة، وأهل الكفر إلى النار، وقد كانوا في الدنيا في غفلة عما أنذروا به، لا يصدقون بالحساب والجزاء، ولا يعملون الصالحات، ويوم القيامة يكون فريق منهم في الجنة، وفريق في السعير.

وصحّ في الحديث: أن المراد بقوله تعالى: ﴿إِذْ قُضِيَ الْأَمْرُ﴾ أي: ذُبح الموت، مع أن الموت عَرَض وليس بجسم، ولكن الله تعالى يجعله في صورة كبش، ثم يُذبح، ويموت الموت.

٣- جاء في الصحيحين: عن عبد الله بن عمر ؓ أن رسول الله ﷺ قال: «إذا صار أهل الجنة إلى الجنة، وأهل النار إلى النار، جيء بالموت حتى يُجعل بين الجنة والنار،

(١) يُنظر الحديث في «المسند» (٩/٣) عن أبي سعيد الخدري برقم (١١٠٦٦) بإسناد صحيح على شرط الشيخين، والنسائي في «الكبرى» (١١٣١٦) وانظر البخاري برقم (٤٧٣٠) ومسلم برقم (٢٨٤٩) وهو في الترمذي برقم (٣١٥٦) وقال: حديث حسن صحيح، وأبي يعلى (١١٧٥).

(٢) صحيح البخاري برقم (٤٧٣٠) وصحيح مسلم (٢٨٤٩).

فيذبح! ثم ينادي منادٍ: يا أهل الجنة لا موت، ويا أهل النار لا موت، فيزداد أهل الجنة فرحًا إلى فرحهم، ويزداد أهل النار حزنًا إلى حزنهم^(١).

فلو أن أحدًا مات فرحًا لمات أهل الجنة، ولو أن أحدًا مات حزنًا لمات أهل النار.

وحين يؤتى بالموت في صورة كبش أملح، ينادي منادٍ: يا أهل الجنة، هذا هو الموت الذي كان يُميتُ الناس في الدنيا، فلا يبقى أحد من أهل عليين، ولا في أسفل درجة في الجنة إلا نظر إليه.

ثم ينادى: يا أهل النار، هذا هو الموت الذي كان يُميتُ الناس في الدنيا، فلا يبقى أحد في ضحضاح من نار، ولا في أسفل دُرْك في جهنم إلا نظر إليه.

ثم يُذبح بين الجنة والنار، ثم ينادى: يا أهل الجنة هو الخلود أبد الآبدين، ويا أهل النار هو الخلود أبد الآبدين، فيفرح أهل الجنة فرحة، لو كان أحدٌ ميتًا من فرح ماتوا، ويشهق أهل النار شهقة، لو كان أحدٌ ميتًا من شهقة ماتوا، فذلك قوله تعالى: ﴿وَأَنْذَرَهُمْ يَوْمَ الْحَسْرَةِ إِذْ قُضِيَ الْأَمْرُ﴾ يقول: إذا ذبح الموت^(٢).

وعن التحسر في هذا اليوم يقول سبحانه: ﴿أَنْ تَقُولَ نَفْسٌ بَحَسْرَتِي عَلَى مَا فَرَطْتُ فِي جَنِبِ اللَّهِ﴾ [الزمر: ٥٦].

٤- وأخرج البخاري عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «لا يدخل أحد الجنة إلا أُرِيَ مقعده من النار لو أساء؛ ليزداد شكرًا، ولا يدخل أحد النار إلا أُرِيَ مقعده من الجنة لو أحسن؛ ليكون عليه حسرة»^(٣).

وقد أخبر الله سبحانه أن الكافر يظل في ذهول وغفلة، ويستمر على عدم إيمانه إلى حلول قضاء الأمر يوم الحسرة حتى يلقوا ربهم، حين يجمع الأولين والآخرين في موقف واحد، ويسألهم عن أعمالهم، فمن آمن وعمل صالحًا، سعد سعادة لا يشقي بعدها أبدًا، ومن لم يؤمن ويتبع رسوله، شقى شقاوة لا سعادة بعدها، فحينئذ يندم ويتحسر حسرة

(١) «صحيح البخاري» برقم (٦٥٤٤، ٦٥٤٨) و«صحيح مسلم» برقم (٢٨٥٠).

(٢) قاله السدي، عن زياد، عن زُرِّ بن حبيش، عن ابن مسعود، كما في تفسير الآية عند ابن كثير (٢٣٤/٤) عن ابن أبي حاتم وابن مردويه، وهو في «الدر المنثور» (٧٤/١٠).

(٣) «صحيح البخاري» برقم (٦٥٦٩).

تقطع منها القلوب، وتتصدع منها الأفئدة، وقد كان في الدنيا في غفلة عن هذا اليوم. ولم يخطر لهم على بال، لقد ألهمهم دنياهم وحالت بينهم وبين الإيمان بالله واتباع رسله شهواتهم وشبهاتهم، فهم لا يؤمنون، مع أن هذه الدنيا ستذهب عنهم ويذهبون عنها: قال تعالى:

٤٠ - ﴿إِنَّا نَحْنُ نَرِثُ الْأَرْضَ وَمَنْ عَلَيْهَا وَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ﴾^(١)

وخُتِمت قصة ولادة عيسى عليه السلام ببيان أن الكون كله في قبضة الله تعالى، في قبضة الواحد الأحد، وهو الذي أشرك المشركون معه غيره في عبادته؛ حيث جعلوا عيسى ابناً له سبحانه، أو جعلوه شريكاً مع الله جلّ وعلا، علماً بأن جميع ما على وجه الأرض سيفنى، ويكون في جوف الأرض، ومنهم عيسى عليه السلام.

فإذا هلك الإنسان والحيوان لم يبق تصرف في هذا الكون إلا لخالقه، فهو الباقي بعد فناء جميع الخلاق، وبقاء الخالق وفناء المخلوقات كأنها وراثته، حيث لا يبقى لأحد من البشر سلطان على الأرض، قال تعالى: ﴿وَبَقِيَ وَجْهَ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ﴾^(٢) [الرحمن]. وبعد فناء خلقه يبقى حكمه سبحانه فيهم، وهذا معنى: ﴿وَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ﴾ أي: إلينا مصيرهم وحسابهم، فنجازيهم على أعمالهم.

قال تعالى: ﴿وَإِنَّا لَنَحْنُ نُحْيِي وَنُمِيتُ وَنَحْنُ الْوَارِثُونَ﴾^(٣) [الحجر].

فهو سبحانه الحي الذي لا يموت، والخلاق يموتون، ثم يرجعون إليه يوم القيامة فيحاسبهم ويجازيهم على ما قدمت أيديهم.

٤- وَصَفُ إِبْرَاهِيمَ بِالصَّدِيقِ

٤١ - ﴿وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِبْرَاهِيمَ﴾^(١) إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَبِيًّا ﴿٤١﴾

(١) قرأ يعقوب بفتح الياء وكسر الجيم من (يرجعون)، على البناء للفاعل، والباقون بضم الياء وفتح الجيم، على البناء للمفعول.

(٢) قرأ ابن عامر بخلف عن ابن ذكوان بفتح الهاء وألف بعدها من (إبراهيم)، والباقون بكسر الهاء وياء بعدها، وهو الوجه الثاني لابن ذكوان، وهما لغتان. هذا: وقد عدّ (إبراهيم) آية المدني الأخير والمكي، وترك عده الباقون.

وبعد أن بيّنت سورة مريم فرية النصارى في عقيدتهم الفاسدة، من أن عيسى عليه السلام هو ابن الله، وبيّنت كذب ذلك وضلاله، وقررت أن عيسى عليه السلام عبد الله ورسوله.

تمضي سورة مريم بعد ذلك في بيان عقيدة الشرك الباطلة، على لسان خليل الرحمن إبراهيم صلوات الله وسلامه عليه، فيأمر الله سبحانه نبيه محمداً صلى الله عليه وآله أن يذكر للناس في القرآن ويتلو عليهم آيات الله، ويبلغهم قصة إبراهيم عليه السلام مع أبيه حين نهاه عن عبادة الأصنام.

ولما كان إبراهيم أباً للأنبياء، وهو الذي بنى قبة التوحيد، وجاء بالحنيفية السمحة، وخالفه العرب، فأشركوا بالله، وهم ورثة إبراهيم، لذلك قدّم على غيره من الأنبياء في محاربته للأصنام.

والمنكرون للتوحيد فريقان: فريق أثبت معبوداً غير الله، حياً عاقلاً، وهم النصارى ومن على شاكلتهم.

وفريق أثبت معبوداً ليس بحي ولا عاقل، وهم عبدة الأوثان، وكلاهما على ضلال، إلا أن ضلال الفريق الثاني أعظم.

ولما بيّن سبحانه ضلال الفريق الأول وهم النصارى، أتبعه بذكر الفريق الثاني وهم عبدة الأوثان، ومنهم قوم إبراهيم، وقد وصف الله إبراهيم في الآية بصفتين هما: الصّدّيقية والنبوة.

فاذكر -أيها الرسول- في هذا القرآن نبيّ الله إبراهيم، وبلغ دعوته للناس أجمعين، فقد كان إبراهيم صديقاً نبياً، جمع الله له بين الصّدّيقية والنبوة، فهو صادق في أقواله وأفعاله وأحواله، وكان مصدّقاً بكل ما أمر به، وإبراهيم أفضل الأنبياء بعد محمد صلى الله عليه وآله، وهو الأب الثالث لأهل الشرائع الثلاث، وقد جعل الله في ذريته النبوة والكتاب، وجعله إماماً يقتدى به، وكان صديقاً نبياً.

والصّدّيقية رتبة دون رتبة النبوة، ولذلك فإن الله سبحانه انتقل منها إلى الرتبة التي هي أعلى وهي رتبة النبوة والرسالة، فالرسل هم الذين اختارهم الله سبحانه؛ ليكونوا الواسطة بينه جلّ شأنه وبين عباده في تبليغ الدعوة إلى الناس.

والصّدّيقون على مراتب، قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ ءَامَنُوا بِاللّٰهِ وَرُسُلِهِۦٓ أُولَٰئِكَ هُمُ الصّٰدِقُونَ﴾

[الحديد: ١٩]. والمؤمنون ليسوا على درجة واحدة.

كما أن الله تعالى وصف يوسف عليه السلام بأنه صديق؛ لفرط صدقه، وقد عُرف بذلك بين رفاقه في السجن، يقول تعالى على لسان من جاء يطلب منه تأويل رؤيا الملك:

﴿يُوسُفُ أَيُّهَا الصِّدِّيقُ﴾ [يوسف: ٤٦].

ولفرط تصديق أبي بكر لرسول الله ﷺ لُقِبَ بالصِّدِّيق، وقال الله تعالى في شأنه: ﴿وَالَّذِي جَاءَ بِالصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِ أُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ﴾ [الزمر].

والصِّدِّيق هو من صدَّق الله سبحانه في وحدانيته، وصدَّق رسل الله وكتبه، وصدَّق بالبعث وما بعد الموت، وقام بالأوامر والنواهي.

والصِّدِّيق أيضًا: هو الملازم للصدق في جميع أقواله وأفعاله وأحواله، وكان إبراهيم عليه السلام من أولي العزم الذين فضّلهم الله على غيرهم من الرسل، فقد كان عظيم الصدق، وكان من أرفع أنبياء الله منزلة، وقد أثنى الله عليه في قوله: ﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّهٌ مُنِيبٌ﴾ [هود: ٧٥].

حِوَارُ إِبْرَاهِيمَ عليه السلام مَعَ أَبِيهِ فِي أَرْبَعِ نِدَاءَاتٍ

٤٢- ﴿إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ يَتَابَتُ^(١) لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِي عَنْكَ شَيْئًا﴾ [٣١]

ثم ذكرت السورة الحوار الذي دار بين إبراهيم -خليل الرحمن- وبين أبيه آزر، عابد الأوثان، ومُصَنِّعُهَا وَمُصَدِّرُهَا، وقد وجه إبراهيم عليه السلام إلى أبيه أربع نداءات بلفظ الأبوة ﴿يَتَابَتُ﴾، وهو نداء فيه عطف وبر واستعطاف، واستمالة لقلب أبيه، وإشعار بإخلاص النصيحة له.

وقد ابتدأ ذلك بذكر الحجة المحسوسة، ثم أتبعها بالحجة العقلية.

وقد رتب إبراهيم هذا الكلام في غاية الحسن مقرونًا بالتلطف والرفق، مصدّرًا بما يدل

(١) قرأ ابن عامر وأبو جعفر بفتح التاء من (يا أبت) في المواضع الأربعة، والباقون بكسرهما، وأصلها: يا أبي، فعُوِّضَ عن الياء تاء التانيث، ووقف عليها بالهاء ابن كثير وابن عامر وأبو جعفر ويعقوب، ووقف الباقون عليها بالتاء.

على شدة الحب والرغبة في صرف العقاب عنه، وإرشاده إلى الصواب:

- ١- فنبهه أوّلاً إلى بطلان عبادة الأوثان، وبيّن له العلة في ذلك. [الآية ٤٢]
- ٢- ثم رغبه في الإيمان، واتباع الدليل، وترك التقليد الأعمى، ولم يصف إبراهيم نفسه بالعلم الفائق، ولم يصف أباه بالجهل المفرط. [الآية: ٤٣].
- ٣- ثم ذكره بأن طاعة الشيطان غير جائزة عقلاً. [الآية: ٤٤]
- ٤- ثم ختم كلامه بتحذيره سوء العاقبة بالوعيد الزاجر عند الإقدام على ما يخالف أمر الله تعالى، [الآية ٤٥] وإنما فعل إبراهيم ذلك مع أبيه لأمر ثلاثة:
 - أحدها: حرصه الشديد على هداية أبيه مع الرفق به وأداء حق الأبوة.
 - ثانيها: أن النبي لا بد له أن يكون رفيقاً حكيماً؛ حتى تُقبل دعوته.
 - ثالثها: أن النصيح واجب لكل أحد، فبذّله للأب من باب أولى.

النِّدَاءُ الْأَوَّلُ: تَلَطَّفُ إِبْرَاهِيمَ مَعَ أَبِيهِ لِتَرْكِ عِبَادَةِ الْأَصْنَامِ

وهكذا: بيّن إبراهيم لأبيه في النداء الأول أن عبادة الأصنام أمر باطل، وذكر له الدليل العقلي والبرهان المنطقي: يا أبت لم تعبد ما لا يسمع قولك إذا تكلمت، ولا يسمع من يناديه، ولا يُبصر فعلك، ولا يُبصر من وقف أمامه، ولا يدفع عنك شرّاً من الله تعالى ولا من الناس، ولا يجلب لك نفعاً ولا خيراً.

وقد وصف الله سبحانه الأصنام في هذه الآية بثلاثة أوصاف: عدم السمع، وعدم البصر، وعدم النفع، وكل وصف منها يقدر في الإله الحق.

والأصل في العبادة أن تُوجّه إلى الله وحده، ولا تُوجّه لمخلوق حي، يسمع ويبصر، وينفع ويضر في أمور الدنيا، فما بالك إذا وُجّهت هذه العبادة إلى حجر أو صنم لا يسمع ولا يبصر، ولا ينفع ولا يضر، ولا يغني من الله شيئاً؟! وعبادة الناقص في ذاته وأفعاله مستقبح عقلاً وشرعاً.

النِّدَاءُ الثَّانِي: دَعْوَتُهُ إِلَى طَرِيقِ الْحَقِّ

٤٣- ﴿يَتَابَتِ إِيَّيْ قَدْ جَاءَنِي مِنَ الْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَاتَّبِعْنِي أَهْدِكَ صِرَاطًا سَوِيًّا ۝٤٣﴾

كان النداء الثاني من إبراهيم عليه السلام لأبيه، يدعوه فيه بالطف أسلوب إلى اتباع دعوته في توحيد الله سبحانه، فيقول له: يا أبت أنا ولدك، وأنت أبي وأكبر مني، لا تحتقروني ولا تستصغرنني، فإن كانت خبرتك أكثر، وأنت أكبر، فإن الله تعالى قد أوحى إليّ وأعطاني من العلم ما لم يُعطك، فاقبل مني وأطعني في دعوتي وتوحيدي لله سبحانه، وبهذا آخذ بيدك إلى الطريق السوي والهداية المستقيمة، وأرشدك إلى الطريق الذي لا تضل فيه، وهو الإيمان.

ولم يكن إبراهيم حين قال هذه المقالة يائساً من إيمان أبيه، فكان يرجو له الإيمان، ويخاف عليه أن يتمادى في كفره فيمسه العذاب، وقد كرر إبراهيم النصيح لأبيه باللطف، ولم يصفه بالجهل الشنيع في عبادته للأصنام، بل تطف به وترفق.

النِّدَاءُ الثَّالِثُ: نَهْيُهُ عَنْ طَاعَةِ الشَّيْطَانِ

٤٤- ﴿يَتَابَتِ لَا تَعْبُدِ الشَّيْطَانَ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلرَّحْمَنِ عَصِيًّا ۝٤٤﴾

بيّن إبراهيم عليه السلام لأبيه في النداء الثالث أن عبادة الأصنام طاعة للشيطان، فاحذر يا أبت طاعة الشيطان في عبادة الأصنام؛ فإنها جهل وانحطاط في التفكير، وكل من يطع الشيطان فهو عابد له.

وقد عبّر بالعبادة عن الطاعة؛ لأن من أطاع شيئاً في معصية الله فقد عبده.

وفي الآية بيان لعله النهي عن طاعة الشيطان، وهي أنه كثير العصيان لله تعالى، وهو أول من خالف أمر الله تعالى، واستكبر عن طاعته، وأخذ على عاتقه أن يُضِلَّ بني آدم ويغويهم بكل وسيلة، فقال كما حكى الله تعالى عنه: ﴿ثُمَّ لَآتِيَهُمْ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَنْ شَمَائِلِهِمْ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ ۝٧﴾ [الأعراف].

وقد أخذ الله العهد على بني آدم بعدم اتباعه، فقال: ﴿أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَبْنَىءَ آدَمَ أَنْ لَا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ ۝٦٦ وَأَنْ أَعْبُدُونِي هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ ۝٦٧﴾ [يس].

ونهانا سبحانه في كثير من الآيات عن اتباع إشارته، ومنها قوله تعالى: ﴿وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ﴾ [البقرة: ١٦٨]. ومن يتبع خطوات الشيطان فقد اتخذه ولياً، وكان عاصياً لله تعالى، ومعصية الله تعالى تمنع العبد من رحمة الله، وتُغلق عليه أبوابها، ولذا قال تعالى:

وقوله: ﴿إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا إِنَّمَا يَدْعُوا حِزْبَهُ لِيَكُونُوا مِنْ أَصْحَابِ السَّعِيرِ﴾ [فاطر: ١٠٠].

وقوله: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَى أُمَمٍ مِنْ قَبْلِكَ فَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَهُمْ وَآلِهِمُ الْيَوْمَ﴾ [النحل: ٦٣].

النِّدَاءُ الرَّابِعُ: تَحْذِيرُ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ مِنْ سُوءِ الْعَاقِبَةِ

٤٥- ﴿يَتَأْتِيَ إِنْ^(١) أَخَافُ أَنْ يَمْسَكَ عَذَابٌ مِنْ الرَّحْمَنِ فَتَكُونَ لِلشَّيْطَانِ وَلِيًّا﴾

حذّر إبراهيم أباه في النداء الرابع من العاقبة الوخيمة التي تترتب على عبادة الأصنام، فبيّن له أنه مشفق عليه من أن ينزل به عذاب الرحمن؛ بسبب إصراره على عبادة غير الله تعالى، فيصبح قريباً للشيطان في عذاب النار، فإبراهيم يخاف على أبيه أن يموت على الكفر، فيحل به عذاب الله، ويخلد في النار، ويكون قريباً للشيطان في النار يوم القيامة، وقريباً له في البعد عن رحمة الله سبحانه، وقريباً له في حلول اللعنة به كما حلت بالشيطان، فأخبر إبراهيم أباه بما يعلم من أمور الآخرة، ونهاه عن عبادة الشيطان لما فيها من المضار المهلكة، وحذره من عقاب الله تعالى إن بقي على حاله.

أَزْرُ يُهَدِّدُ إِبْرَاهِيمَ بِالرَّجْمِ وَيَطْرُدُهُ

٤٦- ﴿قَالَ أَرَأَيْتُ أَنْتَ عَنِ الْهَيْتِ يَتَذَكَّرُ لَكُمْ لَمْ تَنْتَهِ لَأَرْجُمَنَّكَ وَاهْجُرْنِي مَلِيًّا﴾

ولكن هذه النصائح الحكيمة من إبراهيم لأبيه لم تصادف أذناً واعية، ولم تحظ من أبيه بالقبول، بل قوبلت بالاستنكار والتهديد من الأب الكافر للابن المؤمن البار، الذي يتوسل لأبيه ويستعطفه أن يترك عبادة الأوثان، فماذا كان رد الأب على ابنه إبراهيم؟

(١) قرأ نافع وابن كثير وأبو عمرو وأبو جعفر بفتح ياء الإضافة وصلاً من (إني أخاف)، والباقون بإسكانها، وهما لغتان.

إن قلبه لم يكن ولم يرق، بل لم يزل مصراً على دعوة إبراهيم إلى عبادة الأصنام معه، فبدل أن يجيبه إلى التوحيد وبخه على تركه لعبادة الأصنام، فقال له: هل أنت مُعرض عن عبادة أحد الأصنام التي أعبدوها؟ ثم هدده وتوعدّه قائلاً له: لئن لم تنته يا إبراهيم عن سبها وتنفير الناس منها لأرجمك بالحجارة حتى تُقتل، ثم طرده كما يطرد الأب ابنه العاق ويُخرجه من بيته، فقال له: ابتعد عني ولا أرينك زمناً طويلاً.

لقد كان آزر قاسي القلب، بعيد الفهم، شديد التصلب في الكفر، فلم يقابل قول إبراهيم: ﴿يَتَأْتٍ﴾ بقوله: يا بني، بل ناداه باسمه قائلاً: ﴿يَا إِبْرَاهِيمُ﴾ وبدل أن يجيبه بأنه سيظل على عبادة الأصنام، ولن يتبع إبراهيم في دعوته، يجيبه بغير الجواب المطلوب، فيبدأ بما هو الأهم في نظره من كلام إبراهيم؛ حيث يقدم الخبر على المبتدأ في قوله: ﴿أَرَأَيْتَ أَنْتَ عَنْ ءَالِهَتِي﴾؛ ليدل على أن الأب ينكر على إبراهيم عدم رغبته في عبادة الأصنام، وينكر عليه أن عدم عبادتها أمر متمكن من نفس إبراهيم، ويعتبر آزر أن هذا شيء عجيب من إبراهيم.

وبأسلوب الفظاظ والغلظة والعناد والجهالة يهدد الأب ابنه، ويتوعدّه بعقوبة آجلة إن لم يُقلع عن كفره بآلهتهم وهي القتل فقال له ﴿لَأَرْجُمَنَّكَ﴾ فهو يهدده بعقوبة عاجلة هي الطرد من معاشرته، وقطع تكليمه له، فيقول له: ﴿وَأَهْجُرَنِي مَلِيًّا﴾ وهذا الهجر معناه: الطرد والإبعاد لإبراهيم من أبيه إشعاراً بتحقيقه، وعدم الرضا عنه.

إِبْرَاهِيمُ يَعِدُ أَبَاهُ بِالْإِسْتِغْفَارِ وَالِدُعَاءِ، وَيُفَارِقُهُ وَمَا يَعْبُدُ

٤٧- ﴿قَالَ سَلَامٌ عَلَيْكَ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّي﴾ (١) إِنَّهُ كَانَ فِي حَقٍّ ﴿٤٧﴾

لم يغضب إبراهيم الحليم من قسوة أبيه، ولم يفقد برّه وعطفه وأدبه مع أبيه، فقابل غضبه وتهديده بسعة الصدر، وجميل المنطق، وودّعه مشيراً له بأنه لن يناله منه أذى ولا مكروه، ويبيّن له أن هذا الهجر لا يسوّؤه ما دام في مرضاة الله تعالى، وأنه سيظل حريصاً على هدايته، وهكذا قابل إبراهيم قسوة أبيه وجفائه ﴿قَالَ سَلَامٌ عَلَيْكَ﴾ سلام توديع ومتاركة ومسالمة، ومع ذلك ﴿سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّي﴾ وأطلب منه سبحانه أن يغفر لك ذنبك،

(١) قرأ نافع وأبو عمرو وأبو جعفر بفتح ياء الإضافة وصلّاً من (ربي إنه)، والباقون بإسكانها، وهما لغتان.

وأن يهديك إلى التوحيد، فيغفر لك بإيمانك ﴿إِنَّهُ كَانَ فِي حَفِيٍّ﴾ فهو سبحانه يجيب دعائي، ورجائي فيه كبير.

نهي الله لإبراهيم أن يستغفر لأبيه الكافر: وقد ظل إبراهيم يستغفر لأبيه مدة طويلة قبل أن يهاجر من العراق، وبعد أن هاجر إلى الشام، وبعد أن بنى الكعبة، ورزقه الله بإسماعيل وإسحاق، طيلة هذه المدة وهو يستغفر لأبيه ويدعو له، كما في قوله تعالى: ﴿رَبَّنَا اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [إبراهيم: ٤١].

ثم نهاه الله سبحانه عن الاستغفار لأبيه بعد أن أعلمه أن أباه سيموت على الكفر، وبعد أن أوحى إليه أنه لا يغفر لكافر.

ولعل إبراهيم هو أول نبي أوحى إليه بهذا، كما ذكر القرآن الكريم في قوله: ﴿وَمَا كَانَ اسْتِغْفَارُ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَنْ مَوْعِدَةٍ وَعَدَهَا إِيَّاهُ﴾ [التوبة: ١١٤]. وهذه الموعدة كانت حين قال له: ﴿سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّي﴾ في هذه الآية التي معنا من سورة مريم ﴿فَلَمَّا بَيَّنَّ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ﴾ [التوبة: ١١٤]، وترك إبراهيم الاستغفار لأبيه وتبرأ منه.

وقد كان المسلمون يستغفرون لأهلهم وأقربائهم من المشركين، حتى نزل قول الله سبحانه ينهاهم عن ذلك في قوله: ﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا أَنْ يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ﴾ الذين ماتوا على الكفر والشرك ﴿وَلَوْ كَانُوا أُولَىٰ قُرْبَىٰ مِنْ بَعْدِ مَا بَيَّنَّ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ﴾ [التوبة: ١١٣]. فلا تدع لهم بالرحمة، ولا تدع لهم بالمغفرة.

وقد أمرنا الله سبحانه أن نتأسى بإبراهيم عليه السلام في البراءة من الشرك وأهله في قوله تعالى: ﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَءُؤُا مِنْكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاءُ أَبَدًا حَتَّىٰ تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَحْدَهُ إِلَّا قَوْلَ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ﴾ [الممتحنة: ٤] أي: لا تتأسوا بإبراهيم في الدعاء للمشركين؛ فإن إبراهيم كان يدعو لأبيه قبل أن يعلم أنه عدو الله ﴿فَلَمَّا بَيَّنَّ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ﴾ [التوبة: ١١٤].

وتوديع إبراهيم لأبيه بالسلام والأمان، هو صفة المؤمن في حوارهِ مع الجاهل المعرض، كما قال تعالى في وصف عباد الرحمن: ﴿وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا﴾ [الفرقان: ٦٣].

وقال تعالى في وصف عباده المؤمنين: ﴿وَإِذَا سَمِعُوا اللَّغْوَ أَعْرَضُوا عَنْهُ وَقَالُوا لَنَا أَعْمَلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَلُكُمْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ لَا تَبْغَى الْجَاهِلِينَ﴾ [الفصص].

وهكذا ودّع إبراهيم أباه قائلاً له: سلام عليك مني، فلا ينالك مني أذى ولا مكروه، وسوف أدعو الله لك بالهداية والمغفرة؛ إنه كان رحيماً بي، رءوفاً بحالي، يجيئني إذا دعوته. وقد أمرنا باتباع ملة إبراهيم، وسلوك طريقه في الدعوة إلى الله بالعلم والحكمة واللين واليسر والصبر على الأذى، والعفو والصفح، ولما أيس إبراهيم من قومه وأبيه قال:

٤٨- ﴿وَأَعْتَزِّلُكُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَأَدْعُوا رَبِّي عَسَىٰ أَلَّا أَكُونَ بِدُعَاءِ رَبِّي شَقِيًّا﴾

رأى إبراهيم أن هجرته لأبيه وحده لا تكفي؛ لأن بقية القوم على دين أبيه، يعبدون الأصنام مثله، فلا بد أن يهجرهم جميعاً هم وأصنامهم، فقرر مفارقتهم جميعاً حين قال: ﴿وَأَعْتَزِّلُكُمْ﴾ أنتم وأصنامكم التي تعبدونها من دون الله، وأرتحل عنكم جميعاً إلى أرض الله الواسعة، وأدعو ربي، دعاء عبادة ودعاء مسألة، مخلصاً له طاعتي ودعائي، عسى ألا أشقى بدعاء ربي، فلا يعطيني ما أسأله.

وهكذا قال إبراهيم لأبيه: إذا كان جوابي إليك يؤذيك، وإذا كانت دعوتي لك تؤذيك، فإني مهاجر إلى ربي، وإني معتزل لكم بجسمي وبدني، ومعتزل لما تعبدون من دون الله، وأرجو بسبب إخلاصي العبادة لله ألا يجعلني شقياً ولا محروماً، كما شقيتم أنتم بعبادتكم للأصنام، وطردتم من رحمة الله تعالى وهكذا الداعي إلى الله إذا أيس من إصلاح قومه يشتغل بإصلاح نفسه، ويرجو القبول من ربه، ويعتزل الشر وأهله، وكل من ترك شيئاً لله عوضه الله خيراً منه، وقد عوض الله إبراهيم بأن جعل النبوة في ذريته.

أَنَسَ اللَّهُ وَخَشَةَ إِبْرَاهِيمَ بَأْنَ جَعَلَ فِي ذُرِّيَّتِهِ النَّبُوَّةَ

٤٩- ﴿فَلَمَّا أَعْتَرَفَهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَكُلًّا جَعَلْنَا نَبِيًّا﴾

طَوْتُ هذه الآية، خبر اعتزال إبراهيم لأبيه وقومه، اكتفاء بما ترتب على هذه العزلة، فقد هاجر إبراهيم من بلد الكلدان بالعراق إلى فلسطين ﴿وَقَالَ إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَىٰ رَبِّي سَيِّدِينَ﴾ [الصافات]. وكان قد تزوج بسارة، ورزقه الله ياسحاق، كما رزقه من قبل ياسماعيل من هاجر، ورزقه يعقوب حفيداً له من إسحاق، تربى في حجره.

وهكذا آتس الله وحشة إبراهيم وغرته، فلم يتركه وحيداً، بل عوّضه خيراً من أبيه وأهله، وجعل في ذريته النبوة، في بني إسرائيل مدة طويلة، بدءاً من إسماعيل، ثم إسحاق، ثم يعقوب حفيده ابن إسحاق، كما قال تعالى: ﴿وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ نَافِلَةً﴾ [الأنبياء: ٧٢]. وقال: ﴿وَمِنْ زُرَّاءِ إِسْحَاقَ يَعْقُوبُ﴾ [هود: ٧١]. ولم يكن يعقوب قد نُبئ في حياة إبراهيم، ولكن الله تعالى أشار إلى أن يعقوب سيكون نبياً، فقال:

﴿وَلَا جَعَلْنَا نَبِيًّا﴾ وحسبك بهذا مكرمة له عند ربه.

وكان إبراهيم حين ترك قومه، وخرج من أرض العراق مهاجراً إلى الشام، قد خرج بزوجه سارة التي اعتزلت قوماً أيضاً إرضاء لربها ولزوجها، ولذلك فإن الله تعالى اكتفى بذكر المكرمة التي تشمل إبراهيم وزوجه سارة، فذكر إسحاق دون إسماعيل، مع أن إسماعيل أكبر من إسحاق، بثلاثة عشر عاماً، ولأن يعقوب وُلد لإسحاق قبل موت إبراهيم بخمسة عشر عاماً، فرأى إبراهيم حفيده يعقوب وسراً به.

وكانت سارة، وإسحاق، وزوجه، ويعقوب، كانوا جميعاً يؤانسون إبراهيم، ويعيشون معه ويعاشرونه، ولذا خصَّهم الله تعالى بالذكر في الآية، ولم يذكر الابن الأكبر لإبراهيم، وهو إسماعيل الذي أراد الله له أن يجاور بيته الحرام، وإنه لجوار أعظم من كل جوار، وقد خصَّ الله إسماعيل بالذكر بعد ذلك في قوله سبحانه: ﴿وَأَذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِسْمَاعِيلَ﴾ [٥٤].

وجاء ما يبيّن أن إسماعيل هو الذي وهبه الله لإبراهيم أولاً، بعد مفارقتها وطنه بالعراق في قوله تعالى: ﴿وَقَالَ إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَى رَبِّي سَيِّدِينَ﴾ (٩٩) رَبِّ هَبْ لِي مِنَ الصَّالِحِينَ ﴿١٠٠﴾ فَبَشَّرْنَاهُ بِغُلَامٍ حَلِيمٍ ﴿١٠١﴾ [الصفات] والغلام الحليم هو إسماعيل.

وذكر القرآن قصة ذبح إسماعيل، وفي نهايتها قال تعالى: ﴿وَبَشَّرْنَاهُ بِإِسْحَاقَ نَبِيًّا مِّنَ الصَّالِحِينَ﴾ (١١٢) فذكر إسحاق بعد ذكر إسماعيل، وهذا هو الترتيب الموافق لسنّ إسماعيل، ولسنّ إسحاق.

وإسحاق هو الغلام العليم الذي بشرت به الملائكة الذين جاؤوا لإهلاك قوم لوط ﴿وَبَشَّرُوهُ بِغُلَامٍ عَلِيمٍ﴾ [الذاريات: ٢٨]. وكان من نسل يعقوب ابنه، أنبياء بني إسرائيل جميعاً، وكان

من نسل إسماعيل محمد ﷺ وحده، فهما شجرتا النبوة التي أصلها إبراهيم ﷺ. قال تعالى:

٥٠- ﴿وَوَهَبْنَا لَهُمْ مِّن رَّحْمَتِنَا وَجَعَلْنَا لَهُمْ لِسَانَ صِدْقٍ عَلِيًّا ۝٥٠﴾

أي: ومع ما وهب الله لإبراهيم وبنيه من النبوة، وهب لهم أيضًا المال والولد، وبسط لهم الدنيا، كما قال تعالى: ﴿أَمْ يَحْسُدُونَ النَّاسَ عَلَى مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ فَقَدْ آتَيْنَا آلَ إِبْرَاهِيمَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَآتَيْنَاهُم مَّلَكًا عَظِيمًا ۝٥١﴾ [النساء]. فقد منح الله آل إبراهيم الكثير من فضله وإحسانه ورزقه، وجعل الناس إلى يوم القيامة تُثني عليهم، وتمدحهم وتذكرهم بالثناء الجميل.

وهذه الهبات والمكافآت هي عند الله تعالى لآل إبراهيم في الأزل، ولكنها ظهرت لهم ولجميع الناس بعد أن خرج إبراهيم من بلده بمدة، وبعد أن سكن أرض كنعان، واجتاز أرض مصر، ورجع منها:

١- فقد أعطاهم الله المال، والحكمة، والعلم، والنبوة والكتاب، وخصهم بوحيه، واختارهم لرسالته، واصطفاهم من خلقه.

٢- ووهب لإبراهيم وابنيه من رحمته: العلوم النافعة، والأعمال الصالحة، والذرية الكثيرة المثمرة الذين كثر فيهم الأنبياء والصالحون.

٣- وجعل لهم لسان صدق، هو الثناء الحسن على إبراهيم وعلى آله من الخلق كلهم: اليهود، والنصارى، والمسلمين، وامتلأت القلوب بمحبتهم وفاضت الألسنة بذكرهم، فصاروا قدوة للمقتدين، وأئمة للمهتدين، وفي عبادة المسلم وتشهده في صلاته خمس مرات كل يوم وجوبًا، وبعدد النوافل التي يتنقلها العبد، فإنه كذلك يصلي على إبراهيم وعلى آل إبراهيم.

وهذا ذكر وثناء حسن من الله سبحانه على إبراهيم وعلى آل إبراهيم إلى يوم القيامة.

وهذا الثناء الحسن مرتب على نبذ إبراهيم للشرك، حيث جُوزي في الدنيا بالذرية الصالحة، وجوزي في الآخرة بالرحمة.

ولسان الصدق غير الكاذب الموصوف بالثناء الحسن، يأتي نتيجة هاتين النعمتين؛ إذ لا يناله إلا من حظي بنعيم الدنيا والآخرة.

٥- نَبِيُّ اللَّهِ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ

٥١- ﴿وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ مُوسَى إِنَّهُ كَانَ مُخْلَصًا^(١) وَكَانَ رَسُولًا نَبِيًّا^(٢)﴾ ﴿٥١﴾

وبعد أن ذكر الله سبحانه حلقة من قصة إبراهيم في سورة مريم، تبعها بفروع إبراهيم، والفرع الأكبر، أو النبي الأكبر في بني إسرائيل، هو موسى عليه السلام، فقد بعث الله أنبياء كثيرين في بني إسرائيل، يبلغون دعوة موسى، ويحكمون بالتوراة، كما قال تعالى: ﴿يَحْكُمُ بِهَا النَّبِيُّونَ الَّذِينَ أَسْلَمُوا لِلَّذِينَ هَادُوا وَالرَّبَّيُّونَ وَالْأَحْبَارُ بِمَا اسْتُحْفِظُوا مِنْ كِتَابِ اللَّهِ وَكَانُوا عَلَيْهِ شُهَدَاءً﴾ [المائدة: ٤٤].

ومعنى الآية: اتل -يا محمد- في القرآن لقومك قصة موسى عليه السلام، وبلغها للناس؛ فقد كان عبداً مخلصاً لله سبحانه في طاعته وعبادته، كما أن الله تعالى اصطفاه واجتبه لحمل الرسالة، كما قال تعالى عنه: ﴿إِنِّي اصْطَفَيْتُكَ عَلَى النَّاسِ بِرِسَالَتِي وَبِكَلِمِي﴾ [الأعراف: ١٤٤].

وقد أخلصه الله للنبوة والعبادة، كما قال تعالى: ﴿إِنَّا أَخْلَصْنَاهُمْ بِخَالِصَةٍ ذِكْرَى الدَّارِ﴾ ﴿٤١﴾ [ص]. وجمع الله له بين النبوة والرسالة، وكان من أولي العزم من الرسل، وقد استخلصه الله لنفسه، واصطفاه من بين الخلق بكلامه.

بمعنى أن الله تعالى أخلصه لنفسه واصطفاه لرسالته.

وقد خصه الله سبحانه بهذا الوصف في قوله: ﴿مُخْلَصًا﴾ بفتح اللام وكسرهما، بمعنى أن موسى كان مخلصاً لله تعالى في جميع أقواله وأفعاله وأحواله، وأن الله تعالى قد أخلصه إليه، والمعنيان متلازمان، فإن الله تعالى أخلصه لإخلاصه، وإخلاصه حقيق باستخلاصه، وكانت هذه مزية له لسببين:

الأول: أنه أخلص لله في طاعته وعبادته، كما أخلص له في دعوته حين استخف بأعظم جبار في الأرض وهو فرعون، فجادله وحاوره، ووقف منه موقف الداعي الناصح، وهو يقول له: ﴿أَلَمْ تَرْبِكَ فِينَا وَلِيدًا وَلِئْتَ فِينَا مِنْ عُمَرِكَ سِنِينَ﴾ [الشعراء: ٤٨].

(١) قرأ عاصم وحزمة والكسائي وخلف بفتح لام (مُخْلَصًا) اسم مفعول، والباقون بكسرها اسم فاعل.

(٢) قرأ نافع بالهمز في (نَبِيًّا) فيكون من قبيل المد المتصل، وقرأ غيره بياء مشددة.

كما أنه أخلص في الانتصار للمظلوم حين قال: ﴿رَبِّ يَمَّا أَتَمَمْتَ عَلَيَّ فَلَن أَكُونَ ظَهِيرًا لِلْمُجْرِمِينَ﴾ [القصص: ١٧]. فكان هذا الإخلاص مزية له.

والثاني: أن الله تعالى قد اصطفاه لحمل الرسالة، واصطفاه لكلامه قبل أن ينزل عليه الوحي بالتوراة ﴿قَالَ يَمُوسَىٰ إِنِّي اصْطَفَيْتُكَ عَلَى النَّاسِ بِرِسَالَتِي وَبِكَلِمِي فَخُذْ مَا ءَاتَيْنَاكَ وَكُن مِّنَ الشَّاكِرِينَ﴾ [الأعراف: ١٧٤].

وهو الذي ربّاه الله على عينه، ونجّاه من الذبح وهو صغير، كما قال تعالى: ﴿وَاصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِي﴾ [طه: ٦١].

وقد جمع الله لموسى بين النبوة والرسالة، والرسالة تقتضي تبليغ ما جاء به من عند الله إلى بني إسرائيل، والنبوة معناها: نزول الوحي عليه، فالنبوة بينه وبين ربه، والرسالة بينه وبين الخلق، وقد اختص موسى بأعظم أنواع الوحي وهو تكليم الله له، ولذا قال تعالى:

٥٢- ﴿وَنَدَيْنَاهُ مِنْ جَانِبِ الطُّورِ الْأَيْمَنِ وَفَرَّغَتْهُ نَجِيًّا﴾ [طه: ٥٢]

يُنَّ سبحانه في هذه الآية فضائل أخرى منحها لنبيه موسى ﷺ، ومنها تكليم الله تعالى له، وكان ذلك حين ناداه ربه في جبل طور سيناء من الجانب الأيمن بالنسبة لموسى، وكان هذا النداء بعد أن قضى موسى الأجل الذي بينه وبين صهره، وسار بأهله بعد أن تزوج ابنة الرجل الصالح، وسار بهم من مَدْيَن متوجّهاً إلى مصر، ونودي من شاطئ الوادي الأيمن على يمين موسى، من الشجرة المباركة في طور سيناء، من ناحية الجبل السفلي، مع استقبال مشرق الشمس، قال تعالى: ﴿فَلَمَّا أَتَاهَا نُودِيَ مِنْ شَاطِئِ الْوَادِ الْأَيْمَنِ فِي الْبُقْعَةِ الْمُبَارَكَةِ مِنَ الشَّجَرَةِ أَنْ يَمُوسَىٰ إِنَّكَ أَنَا اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ [القصص: ٢٠].

وقال تعالى: ﴿فَلَمَّا أَتَاهَا نُودِيَ يَمُوسَىٰ﴾ [طه: ١١] إِنَّكَ رَبُّكَ فَاحْلَعْ نَعْلَيْكَ إِنَّكَ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى ﴿١٢﴾ وَأَنَا اخْتَرْتُكَ فَاسْتَمِعْ لِمَا يُوحَىٰ ﴿١٣﴾ إِنَّنِي أَنَا اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدْنِي وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي ﴿١٤﴾ [طه: ١٤].

وكان هذا النداء هو بدء الرسالة، وبدء نزول الوحي على نبي الله موسى ﷺ، قال تعالى: ﴿وَنَدَيْنَاهُ مِنْ جَانِبِ الطُّورِ الْأَيْمَنِ﴾ أي: من ناحية اليمين بالنسبة لموسى؛ لأن الجبل لا يمين له ولا شمال.

﴿وَقَرْنَتْهُ نَجِيًّا﴾ أي: أن الله تعالى اصطفى موسى وناجاه وكلمه بلا واسطة، وذلك حين كان يسير بأهله في طور سيناء، فرأى قطعة من النار تلوح ﴿فَقَالَ لِأَهْلِهِ امْكُثُوا إِنِّي آنَسْتُ نَارًا﴾ حتى آتيكم منها بخبر، أو جذوة من النار لعلكم تصطلون، فقصدها، فوجد نورًا عند شاطئ الوادي من جبل الطور، فكلمه ربه بعد أن قرّبه منه وناجاه.

والمناجاة: هي المسارّة بالكلام.

وقد بارك الله هذه النار ومن حولها. ﴿فَلَمَّا جَاءَهَا نُودِيَ أَنْ بُورِكَ مَنْ فِي النَّارِ وَمَنْ حَوْلَهَا﴾ [النمل: ٨]

قال ابن عباس رضي الله عنه: أذني موسى من الملكوت، وزُفعت له الحُجُب حتى سمع صريف الأعلام في الألواح ^(١).

أخرج ابن أبي حاتم عن عمرو بن معدي كرب، قال: لما قرّب الله موسى نجياً بطور سيناء، قال: يا موسى، إذا خلقت لك قلباً شاكراً، ولساناً ذاكراً، وزوجة تعين على الخير، فلم أخزن عنك من الخير شيئاً، ومن أخزن عنه هذا، فلن أفتح له من الخير شيئاً ^(٢).

قال مجاهد في قوله تعالى: ﴿وَقَرْنَتْهُ نَجِيًّا﴾ قال: بين السماء السابعة وبين العرش سبعون ألف حجاب: حجاب نور وحجاب ظلمة، وحجاب نور وحجاب ظلمة، فما زال موسى يُقَرَّبُ حتى كان بينه وبينه حجاب، فلما رأى مكانه وسمع صريف القلم قال: ﴿رَبِّ ارْنِي أَنْظِرْ لِي إِلَيْكَ﴾ ^(٣) [الأعراف: ١٤٣]. قال تعالى:

٥٣ - ﴿وَوَهَبْنَا لَهُ مِنْ رَحْمَتِنَا أَخَاهُ هَارُونَ نَبِيًّا﴾

أي: وهبنا لموسى من نعمتنا عليه ورحمتنا به أخاه هارون؛ ليكون عوناً له في تبليغ الرسالة، وكان ذلك حين أعلم الله موسى أنه مرسل لبني إسرائيل؛ لتخليصهم من عذاب فرعون، وأطلعه على العصا واليد معجزتين له، بعد ذلك طلب موسى عليه السلام أن يرسل الله

(١) «البحر المحيط» (١٩٩/٦) وقد أخرجه ابن أبي شيبة في «المصنف» (٥٣٣/١١) والطبري (٥٥٩/١٥) والحاكم (٣٧٣/٢) والديلمي (٧١٩٦) وجاء ذلك عن سعيد بن جبير وأبي العالية وميسرة كما في «الدر المشور» (٧٨/١٠).

(٢) «تفسير ابن كثير» (٢٣٨/٥).

(٣) أخرجه أبو الشيخ في «العظمة» (٢٨٢) واللفظ له، وأخرجه البيهقي في «الأسماء والصفات» (٨٥٥) قال محققه: إسناده صحيح.

معه أخاه هارون وزيرًا ومعينًا.

وهارون آنذاك كان في مصر، وهو أكبر سنًا من موسى، وموسى كان في صحراء سيناء حين دعا ربه أن يشد أزره بأخيه، فأجاب الله شفاعته، ولَبَّى دعاءه، وفي ذلك يقول الله تعالى على لسانه: ﴿وَإِخِي هَارُونَ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّي لِسَانًا فَأَرْسَلْهُ مَعِيَ رِدْءًا يُصَدِّقُنِي إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُكَذِّبُونِ﴾ [٣٦] [القصص].

وفصاحة اللسان تتمثل في اللكنة التي كانت في لسان موسى ﷺ حين أخذ الجمرة ووضعها على لسانه، وقت أن كان طفلًا، وأُتي به من النيل إلى فرعون، وجذبه من لحيته، فأراد أن يقتله، فقالوا له: إنه طفل، لا يفرق بين التمرة والجمرة، فوُضعت له ثمرة وجمرة، فأراد موسى أن يأخذ التمرة، فحوّل جبريل يده إلى الجمرة، ثم وضعها على لسانه، فكانت هذه اللكنة التي أصابته، وفي هذا يقول تعالى كما جاء على لسان موسى: ﴿وَأَحْلَلْ عُقْدَةً مِن لِسَانِي يَفْقَهُوا قَوْلِي﴾ [٢٨] ﴿وَجَعَلْ لِي وَزِيرًا مِّنْ أَهْلِي﴾ [٢٩] ﴿هَارُونَ أَخِي﴾ [٣٠] ﴿أَشَدُّ بِهِ أَزْرَى﴾ [٣١] ﴿وَأَشْرِكُهُ فِي أَمْرِي﴾ [٣٢] [طه].

فأرسل الله له أخاه هارون نبيًا يؤازره ويعضده، ويرافقه في الدعوة، فكان يتكلم عن موسى بما يريد إبلاغه، وكان يستخلفه على قومه في الأمور المهمة، وكانت هبة هارون لموسى رحمة من الله تعالى به؛ إذ يسّر له أخًا فصيح اللسان مُبَلِّغًا عن أخيه، ولم يوصف هارون ﷺ بأنه رسول يوحى إليه؛ لكونه كان مرافقًا لأخيه في تبليغ الدعوة، فنبوته كانت تابعة لنبوته موسى ﷺ يساعده ويعاونه، والتوراة نزلت على موسى، .

وقوله تعالى: ﴿فَقُولَا إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ﴾ [طه: ٤٧]. هو من باب التغليب، وكان هذا رحمة من الله تعالى بهارون ومثته عليه، وكرامة لموسى حيث أجاب الله دعاءه، فوهب له أخاه هارون نبيًا.

قال بعض السلف: ما شفع أحد في أحد شفاعة في الدنيا أعظم من شفاعة موسى في هارون أن يكون نبيًا.

وما ذكره الله تعالى هنا مجملًا عن ندائه لموسى من جانب الطور الأيمن، جاء مفصّلًا في مواطن أخرى، منها قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا قَضَىٰ مُوسَى الْأَجَلَ وَسَارَ بِأَهْلِهِ آنَسَ مِنْ جَانِبِ

أَطْوَرَ نَارًا قَالُوا لِيَهْلِكِ أَهْلُهَا أَكْثَرًا إِنِّي مَأْسُتٌ نَارًا لَعَلِّي مَأْتِيكُمْ مِنْهَا يُحْبَرُ أَوْ جَذَوْفَ مَبِّ النَّارِ
لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ ﴿٢٩﴾ فَلَمَّا أَتَاهَا نُودِيَ مِنْ شَاطِئِ الْوَادِ الْأَيْمَنِ فِي الْبُقْعَةِ الْمُبْرَكَةِ مِنَ الشَّجَرَةِ
أَنْ يَمْوِسَّ إِلَى آتِ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴿٣٠﴾ [الفصل].

٦- نَبِيُّ اللَّهِ إِسْمَاعِيلُ عَلَيْهِ السَّلَامُ

٥٤- ﴿وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِسْمَاعِيلَ إِنَّهُ كَانَ صَادِقَ الْوَعْدِ وَكَانَ رَسُولًا نَبِيًّا ﴿٥٤﴾﴾

ذكر الله سبحانه في هذه الآية الفرع الآخر لإبراهيم، نبي الله إسماعيل، - وهو أصل العرب - تنبيهاً على جدارته بالاستقلال بالذكر؛ لأنه الابن البكر لإبراهيم، وشريكه في بناء الكعبة، ولأن إسماعيل صار جدًّا لأمة العرب، قبل أن يكون يعقوب جدًّا لبني إسرائيل.

وإسماعيل عليه السلام نبي مرسل، قد نُبئ في مكة، وأرسله الله إلى قبيلة جُزهم، وهم من عرب اليمن، أبناء قحطان، وكانوا مجاورين للبيت العتيق، فتزوج منهم، وكان من ذريته محمد ﷺ وقد وصفه الله سبحانه بقوله: ﴿إِنَّهُ كَانَ صَادِقَ الْوَعْدِ﴾ وجميع رسل الله وأنبيائه يتصفون بهذه الصفة، فهم صادقون في وعودهم، ولكن هذه ميزة خصَّ الله بها إسماعيل عليه السلام، وتميَّز بها؛ لشدة وفائه بالوعد، فقد كان إسماعيل يفي بوعد في عبادته ونذره لربه، ويفي بوعد للناس، وربما ينتظر صاحب الوعد أيامًا وليالي.

عن سهل بن سعد رضي الله عنه: أن إسماعيل عليه السلام وعد رجلاً أن يأتيه في مكان، فجاء إسماعيل ونسي الرجل، فبات في مكانه حتى جاء الرجل من الغد، وقال: إني نسيت، فقال إسماعيل: لم أكن لأبرح مكاني حتى تأتي. وهذا من صدق الوعد^(١).

وليس أدل على ذلك من أن أباه حين قال له: ﴿إِنِّي أَرَى فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ فَأَنْظُرْ مَاذَا تَرَكْتُ﴾؟ [الصفحات: ١٠٢]. أنه وفَّى بوعد، وقَدَّم نفسه للذبح صابراً محتسباً، وهو أعظم وعد وفَّى به، مع أن أباه لم يجلس معه طفولته وصباه.

لقد أتى به طفلاً رضيعاً إلى مكة، وتركه مع أمه، وكان يتردد عليهما بين الحين والآخر، ثم جاءه بعد ثلاثة عشر عاماً من عمره يقول له: ﴿إِنِّي أَرَى فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ﴾

(١) الطبري (١٥/٥٦١).

والرجل منا يربي ولده، ويؤدبه ويعلمه، ثم يقول الابن لأبيه: لم تفعل لي شيئاً!

وهذا إسماعيل عليه السلام يبرُّ والده مرة أخرى، لما لم تُعجبه امرأته حين كُنِيَ لها إبراهيم بالطلاق، فطلق إسماعيل زوجته فوراً؛ لمجرد كلمة يشير فيها أبوه إلى الطلاق دون تصريح، مع أنه لم يره، ولم يأمره بهذا مشافهة، بل قال لامرأته: قولي له: غير عتبة بابك، إنه البر بالوالدين وأخلاق الرسل، ونحن نرى الأبناء غالباً ما يفارقون آباءهم؛ لإرضاء زوجاتهم.

وقد جمع الله لإسماعيل بين النبوة والرسالة وصدق الوعد الذي تميَّز به إسماعيل، وهو من علامات الإيمان الكامل، كما أن خُلف الوعد من علامات النفاق، ومن الصفات المذمومة ﴿كَبُرَ مَقْتًا عِنْدَ اللَّهِ أَنْ تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ﴾ [الصف: ٣].

وفي الحديث عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «آية المنافق ثلاث: إذا حدث كذب، وإذا وعد أخلف، وإذا أُوْتِمِن خان»^(١).

وقد كان النبي ﷺ لا يَعدُّ وغداً إلا وفى به، ولما تُوفِّيَ ﷺ قال أبو بكر: من كان له عند رسول الله عِدَّة، أو دين، فليأتني أنجز له، فجاءه جابر بن عبد الله رضي الله عنه، فقال: إن رسول الله كان قد قال لي: «لو جاء مال البحرين أعطيتك هكذا وهكذا وهكذا»، يعني: ملء كفيه ثلاث مرات، فلما جاء مال البحرين، أمر الصديق أن يحضروا جابراً فغرف بيديه من المال، ثم أمره بعده، فإذا هو خمس مئة درهم، فأعطاه مثليها معها^(٢).

قال تعالى في وصف إسماعيل:

٥٥- ﴿وَكَانَ يَأْمُرُ أَهْلَهُ بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ وَكَانَ عِنْدَ رَبِّهِ مَرْضِيًّا﴾

ثم وصف الله إسماعيل بصفة رابعة، وهي أنه كان حريصاً على طاعة قومه وأهل بيته لربهم، فكان يأمرهم بإقامة الصلاة، وإيتاء الزكاة، وهما الركنان الأول والثاني بعد الشهادتين، وهما عماد الدين، ولهما هذه المنزلة في كل شريعة، وكان يبدأ في الدعوة

(١) البخاري برقم (٣٣، ٢٦٨٢، ٦٠٩٥) ومسلم برقم (٥٩) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) يُنظر: البخاري برقم (٢٥٩٨، ٣١٣٨، ٣١٦٤) ومسلم برقم (٢٣١٤).

إلى ربه بأهل بيته، وأقرب الناس إليه أولًا؛ حتى يكون هو وأهله قدوة للناس في العمل الصالح، والزوج والزوجة هما اللبنة الأولى في الأسرة.

لذا جاء في الحديث عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «رحم الله رجلًا قام من الليل فصلَّى وأيقظ امرأته، فإن أبت نضح في وجهها الماء، رحم الله امرأة قامت من الليل فصلت وأيقظت زوجها فإن أبى نضحت في وجهه الماء»^(١).

وعن أبي سعيد رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «إذا استيقظ الرجل من الليل وأيقظ امرأته فصليا ركعتين، كتبا من الذاكرين الله كثيرًا والذاكرات»^(٢).

وإذا كان هذا بالنسبة لصلاة الليل وهي نافلة، فالأمر عظيم بالنسبة للفريضة، ولا ينبغي التهاون، أو المجاملة بين الزوجين على حساب الدين، قال تعالى: ﴿يَتَأْتِيَ الَّذِينَ آمَنُوا قَوْلًا أَنفُسُهُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقَوْدُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ﴾ [التحریم: ٦]. ولذا كان الاهتمام الأول لإسماعيل عليه السلام هو وصيته بالصلاة والزكاة لأتمته وأهل بيته وعشيرته، كما قال تعالى: ﴿وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلَاةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا﴾ [طه: ١٣٢].

وكان إسماعيل راضيًا عن ربه، مرضيًّا عنه عند ربه، مرضيًّا الخصال؛ لاستقامته في أقواله وأفعاله، وصدقه في وعده، وأمره لأهله بالصلاة والزكاة.

قال الفخر الرازي: وهذا نهاية المدح؛ لأن المرضي عند الله هو الفائز في كل طاعاته بأعلى الدرجات، وقد وصف الله عباده المؤمنين المستحقين لجنته، كما وصف أصحاب رسول الله ﷺ بقوله: ﴿رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ﴾ [البينة: ٨، والتوبة: ١٠٠]^(٣).

(١) أبو داود برقم (٤٥٠، ١٣٠٨) وابن ماجه برقم (١٣٣٦) و«المسند» (٧٤١٠) بإسناد قوي، وابن حبان (٢٥٦٧) و«الكبرى» للنسائي (١٣٠٢) وابن خزيمة (١١٤٨) والحاكم (٣٠٩/١).

(٢) أبو داود برقم (١٣٠٩، ١٤٥١) والنسائي في «السنن الكبرى» برقم (١٣١٢) وابن ماجه برقم (١٣٣٥) وابن حبان (٢٥٦٨، ٢٥٦٩)، وصححه الألباني في صحيح أبي داود (١٢٨٨) بلفظ (من استيقظ من الليل) وهو في صحيح ابن ماجه (١٠٩٨) ومشكاة المصابيح (١٢٣٠) والروض النضير (٩٦٢).

(٣) «التفسير الكبير» (٢١/٢٣٢).

٧- نَبِيُّ اللَّهِ إِدْرِيسُ عَلَيْهِ السَّلَامُ

٥٦، ٥٧- ﴿وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِدْرِيسَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَبِيًّا ﴿٥٦﴾ وَرَفَعْنَاهُ مَكَانًا عَلِيًّا ﴿٥٧﴾﴾

واذكر - يا محمد- لأمتك في القرآن نبي الله إدريس، وإدريس هو الرسول الأول بعد آدم عليه السلام، وهو من ذرية شيث، واسمه: أخنوخ، وهو جد نوح، وكان بين إدريس ونوح ألف سنة، وليس إدريس من أنبياء بني إسرائيل؛ لأنه كان قبل نوح، وكان إدريس خياطاً، وهو أول من خاط الثياب ولبس، وكان الناس يلبسون الجلود، وهو أول من وضع للبشر عمارة المدن والحضارة، ووضع قواعد العلم والتربية والنظم العقلية.

وهو أول من خطَّ بالقلم، وأول من نظر في علم النجوم والحساب وقواعد سير الكواكب، وأول من عرف المكيال والموازين.

وقد أنزل الله عليه ثلاثين صحيفة، وذكر في القرآن مرتين: هنا، وفي قوله تعالى: ﴿وَإِسْكِعِلْ وَإِدْرِيسَ وَذَا الْكِفْلِ كُلٌّ مِنَ الصَّابِرِينَ ﴿٨٥﴾﴾ [الأنبياء].

وقد وصفه الله سبحانه بما وصف به إبراهيم من أنه كان صديقاً نبياً، فجمع له بين النبوة والصديقية.

وقد رفع الله إدريس مكاناً عالياً، فهو صاحب منزلة عالية هي النبوة، وهو صاحب مرتبة عليا في الجنة، ولا شرف أعلى من هذا، أو أنه في السماء الرابعة، كما جاء ذلك في حديث أنس بن مالك بن صعصعة أن النبي ﷺ: رأى إدريس في السماء الرابعة ليلة المعراج. متفق عليه^(١).

ولعل المراد برفعه مكاناً علياً: رفع منزلته بين المقربين، وذكره في العالمين، فكان عالي الذكر، وعالي المنزلة؛ لما أوتي من العلم الذي فاق به غيره.

وجاء في الخبر عن الحسن وهب: أن إدريس عليه السلام طلب من ملك الموت أن يقبض

(١) يُنظر: «صحيح البخاري» في حديث الإسراء الطويل برقم (٣٢٠٧، ٣٣٩٣، ٣٤٣٠، ٣٨٨٧) و«صحيح مسلم» برقم (١٦٤) و«سنن الترمذي» برقم (٣١٥٧) و«صحيح سنن الترمذي» برقم (٢٥٢٤) وأخرجه الطبري بسنده إلى قتادة (٧٩/١٦).

روحه فأماته، ثم أحياه الله، ثم طلب منه أن يدخله النار؛ ليزداد رهبة، فأدخله النار، ثم خرج منها، ثم طلب منه أن يدخله الجنة؛ ليزداد رغبة، فأدخله الجنة، ثم قال له: اخرج، فقال: ما أنا بخارج من الجنة، قالوا: فأرسل الله ملكًا يحكم بينهما، فقال لإدريس: ما لك لا تخرج؟ قال: قال الله تعالى: ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ﴾ [آل عمران: ١٨٥]. وقد ذقت الموت، وقال: ﴿وَإِنْ يَنْكُرُ إِلَّا وَارِدُهَا﴾ [٧١] يعني: النار، وقد وردتها، وقال عن الجنة: ﴿وَمَا هُمْ مِنْهَا بِمُخْرِجِينَ﴾ [الحجر: ٤٨]. وها أنا دخلت الجنة ولا أخرج منها إلا بإذن ربي، فأوحى الله إلى ملك الموت: بإذني دخل الجنة، وبأمرني لا يخرج^(١).

قالوا: والذي أعلم إدريس هذه الآيات التي نزلت على محمد ﷺ هو الله سبحانه عن طريق الوحي.

وقال وهب: كان يرفع لإدريس من العبادة مثل ما يرفع لجميع أهل الأرض في زمانه.

قال بعضهم: إن إدريس رُفِعَ حيًّا كما رُفِعَ عيسى، ولم يمت^(٢).

قال أبو مسلم الأصفهاني: هو رفع حقيقي إلى السماء، والعلم عند الله.

الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَصَفَتْهُمْ

٥٨ - ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ (٣) مِنْ ذُرِّيَةِ آدَمَ وَمِمَّنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ وَمِنْ ذُرِّيَةِ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْرَءِيلَ (٤) وَمِمَّنْ هَدَيْنَا وَاجَبْتِنَا إِذَا تَنَزَّلْنَا عَلَيْهِمْ (٥) ءَايَاتُ الرَّحْمَنِ خَرُّوا سُجَّدًا وَبُكِيًّا (٦)﴾

(١) ذكره السيوطي في «الدر المنثور» (٢٧٤/٤) من رواية ابن المنذر عن عمر مولى عُفْرَةَ يرفعه، وعن ابن أبي حاتم من طريق داود بن أبي هند عن بعض أصحابه، وهو في الطبعة المحققة (٨٦/١٠) وما بعدها، والله أعلم بصحته، وهو في تفسير «زاد المسير» والنسفي والخازن وغيرهم للآية.

(٢) قاله مجاهد، كما أخرجه ابن أبي شيبة وابن أبي حاتم وابن المنذر وابن حميد، وقال ابن كثير: إن أراد أنه لم يمت إلى الآن ففيه نظر. «البداية والنهاية» (٢٣٥/١).

(٣) قرأ نافع بالهمز في (النبين)، والباقون بياء مشددة.

(٤) قرأ أبو جعفر بتسهيل الهمزة من (إسرائيل) مع المد والقصر، والباقون بالتحقيق.

(٥) قرأ حمزة ويعقوب بضم الهاء من (عليهم)، والباقون بكسرها.

(٦) قرأ حمزة والكسائي بكسر الباء من (بكيا)، والباقون بضمها، وهما لغتان.

وبعد أن ذكر الله ﷻ في سورة مريم عشرة من الرسل والأنبياء، وهم: زكريا، ويحيى، وعيسى، وإبراهيم، وإسحاق، ويعقوب، وموسى، وهارون، وإسماعيل، وإدريس، وكان أولهم زكريا وآخرهم إدريس، بعد ذلك قال سبحانه: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ مِن ذُرِّيَةِ آدَمَ﴾ وهو إدريس ﴿وَمِمَّنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ﴾ في السفينة، وهو إبراهيم من ولد سام ﴿وَمِن ذُرِّيَةِ إِبْرَاهِيمَ﴾: إسماعيل، وإسحاق، ويعقوب، ممن ذكروا في السورة، ومن ذرية إسرائيل -أي: نبي الله يعقوب- كان زكريا، ويحيى، وموسى، وهارون، وعيسى عليهم جميعاً أفضل الصلاة وأتم التسليم، وهم جميعاً ممن هدى الله سبحانه، وممن اصطفى، واختارهم لحمل رسالته وتلقي وحيه، ممن وُصفوا في الآيات بأنهم أنبياء صديقون.

وقد جمع الله لهم في هذه الآية فضائل ثلاثاً، وهي أنه سبحانه: أنعم عليهم، وهداهم، واجتباهم، والإشارة في الآية لا تخص هؤلاء الرسل والأنبياء المذكورين في هذه السورة فقط، وإنما تشمل رسل الله وأنبياءه جميعاً.

وفي سورة الأنعام: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهِدَّتْهُمْ أَفْتَدَهُ﴾ [الأنعام: ٩٠] وقد ذكر الله سبحانه فيها ثمانية عشر رسولاً، وقال في نهاية تعدادهم: ﴿وَمِنَ آبَائِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ وَإِخْوَانِهِمْ وَاجْتَبَيْتَهُمْ وَهَدَيْتَهُمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾.

ثم قال سبحانه عنهم: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ ءَاتَيْنَهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَ وَالنُّبُوَّةَ﴾ وأمر رسوله ﷺ أن يقتفي أثرهم، ويتبع هداهم، وهؤلاء الرسل ممن ذكر الله في كتابه.

وهناك رسل غيرهم لم يذكرهم الله في كتابه، كما قال تعالى: ﴿وَرُسُلًا قَدْ قَصَصْنَاهُمْ عَلَيْكَ مِن قَبْلُ وَرُسُلًا لَّمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ﴾ [النساء: ١٦٤].

وقال سبحانه: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِّن قَبْلِكَ مِنْهُمْ مَن قَصَصْنَا عَلَيْكَ وَمِنْهُمْ مَّن لَّمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ﴾ [غافر: ٧٨].

وهؤلاء الرسل والأنبياء جميعاً يشملهم آدم ﷺ وهو أصل شجرة النبوة، وأقرب رسول يتنسب إليه ممن ذكروا في سورة مريم، هو إدريس عليه السلام.

ونوح يشمل من بعده، وله وإدريس شرف القرب من آدم عليه السلام.

وإبراهيم يشمل فرعَي النبوة في العرب وبني إسرائيل، وله شرف القرب من نوح.

ويعقوب يشمل شجرة النبوة في بني إسرائيل.

وإلى إسماعيل ينتسب العرب، ومنهم خاتم النبيين، ولهما شرف الانتماء لإبراهيم.

وهؤلاء الأنبياء هداهم الله للإيمان، بمنه وفضله وتوفيقه، واصطفاهم للنبوة والرسالة، وهم الصفوة المختارة من البشر، ومن صفاتهم أنهم: ﴿إِذَا نُتِلَّ عَلَيْهِمْ ءَايَةُ الرَّحْمَنِ﴾ المتضمنة لتوحيده وحججه ﴿خَرُّوا سُجَّدًا وَبُكِيًّا﴾ خضوعًا واستكانة من الرغبة والترهيب الذي في الآيات، ومن الوعظ والحكم، ومن الأخبار الماضية والمستقبلية؛ حيث تتأثر قلوبهم، وتقشعر خوفًا من الله سبحانه فهم ﴿يَخْرُجُونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا﴾ ويكون من تأثرهم بآيات الله ﷻ، ومن خشيتهم منه سبحانه.

وفي سورة النساء بين الله سبحانه الذين أنعم عليهم من غير الأنبياء، من أهل الدرجات التي هي أدنى من درجة النبوة، وذلك في قوله جل شأنه: ﴿وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَٰئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصَّدِيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَٰئِكَ رَفِيقًا ۖ﴾ (٢٩) ذلك أَلْفَضَلُ مِنَ اللَّهِ وَكَفَى بِاللَّهِ عَلِيمًا ﴿٧٠﴾ [النساء].

وهؤلاء الذين ذكروا في هذه الآية لم يأت ذكرهم في سورة مريم، وإنما ذكروا في سورة النساء.

وقد ذكر الله سبحانه أن من غير الأنبياء من عباد الله المؤمنين الصالحين أيضًا، من وصفهم القرآن بالمخبتين، وهم أولو العلم من أهل الكتاب السابقين، الذين إذا تلى عليهم القرآن خروا لله سبحانه سجدة وبكيا، كما في قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مِنْ قَبْلِهِ إِذَا يُتْلَى عَلَيْهِمْ أَقْبَتُوا ۖ هَٰذَا الْقُرْآنُ يُخْرَجُونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا لَا يَقُولُونَ فِي سَجودِهِمْ سُبْحَنَ رَبِّنَا إِنْ كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا﴾ وبهذا وغيره يقول المسلم في سجود التلاوة. قال تعالى: ﴿وَيَخْرُجُونَ لِلْأَذْقَانِ يَسْكُوتُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا﴾ (١٠٩) [الإسراء].

وقد وصف الله سبحانه عباده المؤمنين حين يستمعون إلى القرآن بقوله: ﴿اللَّهُ زَلَّ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُتَشَابِهًا مَثَابًا ۖ نَفْسُهُ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ﴾ [الزمر: ٢٣].

وقوله: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا﴾ [الأنفال: ٢].

كما وصف سبحانه مَنْ رَقَّ قَلْبُهُ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ، فتأثر بالقرآن، ودخل في الإسلام بقوله: ﴿وَإِذَا سَمِعُوا مَا أُنْزِلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرَى أَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا مِنَ الْحَقِّ يَقُولُونَ رَبَّنَا ءَامَنَّا فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ﴾ [المائدة].

وهذه الآية التي معنا في سورة مريم من مواضع سجود التلاوة في القرآن الكريم للقارئ والمستمع في الصلاة وخارجها.

وسجود التلاوة: سنة مستحبة.

الدعاء والبكاء في سجود التلاوة: قال بعض أهل العلم: يستحب لمن قرأ آية سجدة فسجد، أن يدعو بما يناسب تلك السجدة:

فإن قرأ السجدة التي في سورة الإسراء [١٠٩]. قال: اللهم اجعلني من الباكين إليك، والخاشعين لك.

وإن قرأ سجدة سورة مريم [٥٨]. قال في سجوده: اللهم اجعلني من عبادك المنعم عليهم الساجدين لك الباكين عند تلاوة آياتك.

وإن قرأ سجدة آية سورة السجدة [١٥]. قال: اللهم اجعلني من الساجدين لوجهك، المسبحين بحمدك، وأعوذ بك أن أكون من المستكبرين عن أمرك، وهكذا.

والبكاء ينشأ غالباً من انفعال النفس انفعالاً مختلطاً بالخوف والرغبة وخشوع القلب.

وقد سجد النبي ﷺ عند هذه الآية، وقرأها عمر وسجد، ثم قال: هذا السجود، فأين البكاء؟! ^(١).

وجاء في الأثر: «اتلوا القرآن وابكوا، وإن لم تبكوا فتباكوا» ^(٢).

وقال صالح المري: قرأت القرآن على رسول الله ﷺ في المنام فقال لي: يا صالح، هذه القراءة، فأين البكاء؟

(١) ابن أبي الدنيا في «ذم الدنيا» (٤١٨) والطبري (٥٦٦/١٥) والبيهقي في «الشعب» (٢٠٥٩)، وفتح الباري

(٤٢٨/٨) ومصنف ابن أبي شيبة بزيادة (والدعاء) برقم (٣٥٥٣٢).

(٢) مسند سعد بن أبي وقاص رقم (١٢٨).

وعن صفية زوج النبي ﷺ أنها رأت قومًا قرؤوا سجدة فسجدوا فنادتهم: هذا السجود والدعاء، فأين البكاء^(١)؟

أَهْلُ الشَّقَاءِ وَمَصِيرُهُمْ

٥٩- ﴿فَخَلَفَ مِنْ بَإِذِنِ خَلْفٍ أَصَاعُوا الصَّلَاةَ وَاتَّبَعُوا الشَّهْوَاتِ فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غِيًّا﴾

ثم بين الله سبحانه أنه بعد هؤلاء الأنبياء والمرسلين، المخلصين المتبعين، جاء -في القرون التي تلتهم- جيل ثم جيل، خلف من بعدهم خلف، أضاعوا الصلاة واتبعوا الشهوات، وهذه الآية تتحدث عن أهل الشقاء بعد الحديث عن أهل السعادة.

فإن الخلف -بسكون اللام- هم أولاد السوء، أو القوم السوء، أهل الضلال.

والخلف -بفتح اللام- على عكسهم، فهم أولاد الخير، أو القوم الصالحون، فالخلف هو البذل، كما قال تعالى: ﴿فَخَلَفَ مِنْ بَإِذِنِ خَلْفٍ وَرِثُوا الْكِتَابَ﴾ [الأعراف: ١٦٩].

والخلف المذكور في الآية يشمل جميع الأفراد وجميع الأمم التي ضلَّت عن سبيل الله؛ لأنها ترجع في النسب إلى إدريس جد نوح، وهم من ذرية نوح، ومن ذرية إبراهيم في العرب وفي بني إسرائيل، وهذا يشمل طبقات وقرونًا كثيرة.

وهذا الخلف السيئ الذي جاء من بعد النبيين الكرام، كان من صفاتهم أنهم أضاعوا الصلاة واتبعوا الشهوات، وهما وصفان جامعان لأنواع الكفر والفسوق.

فإضاعة الصلاة من الشرك بالله، كما قال تعالى: ﴿وَأَقِمْوْا الصَّلَاةَ وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ [الروم: ٣١].

ويوم القيامة يجيب المشركون عن سبب عذابهم في جهنم، فيقولون: ﴿لَمْ نَكُ مِنْ الْمُصَلِّينَ﴾ [المدثر: ٤٣].

وقد توعدهم الله سبحانه من يشهو عن أداء الصلاة في وقتها بالويل والعذاب الشديد، فقال تعالى: ﴿فَوَيْلٌ لِلْمُصَلِّينَ﴾ ④ الَّذِينَ هُمْ عَنْ صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ ⑤﴾ [الماعون].

(١) ابن أبي شيبة (٨/١٤).

وإتباع الشهوات من ألوان الشرك، كما قال تعالى: ﴿أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهُهُ هَوَاهُ﴾ [الجاثية: ٢٣].
فالذي يتبع شهوات نفسه مقدّمًا لها عن أمر الله سبحانه، يكون قد عبد الهوى من دون الله؛ لأنه قدّم مراد نفسه على مراد الله.

عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «يكون خلف بعد ستين سنة، أضعوا الصلاة، واتبعوا الشهوات فسوف يلقون غيًا، ثم يكون خلف يقرؤون القرآن لا يحدو تراقيهم، ويقرأ القرآن ثلاثة: مؤمن، ومنافق، وفاجر».

قال بشير: قلت للوليد: ما هؤلاء الثلاثة؟ قال: المؤمن مؤمن به، والمنافق كافر به، والفاجر يأكل به^(١).

حكم تارك الصلاة جحودًا: ومما يتعلق بالآية أن تارك الصلاة -جحودًا لوجوبها- كافر، وأنه يُقتل كفرًا ما لم يتب، كما في حديث جابر بن عبد الله رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «بين الرجل وبين الشرك والكفر ترك الصلاة»^(٢).

وقوله سبحانه: ﴿فَإِنْ تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَخَلُّوا سَبِيلَهُمْ﴾ [التوبة: ٥].

وفي الآية الثانية: ﴿فَاخْوَنُكُمْ فِي الدِّينِ﴾ [التوبة: ١١].

ومعنى ذلك أنهم ليسوا إخوة لنا في الدين إن لم يقيموا الصلاة ويؤتوا الزكاة.

وفي الحديث: عن بريدة الأسلمي رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «العهد الذي بيننا وبينهم الصلاة فمن تركها فقد كفر»^(٣).

(١) أخرجه أحمد في «المسند» (٣٨/٣) برقم (١١٣٤٠) بإسناد حسن، والبخاري في خلق أفعال العباد (ص ١١٨) والبيهقي في الشعب (٢٦٢٦) و«صحيح ابن حبان» برقم (٧٥٥) الإحسان، و«المستدرک» (٢/ ٣٧٤) صححه الحاكم ووافقه الذهبي.

(٢) «صحيح مسلم» برقم (٨٢) و«المسند» (١٤٩٧٩، ١٥١٨٣) وأبو داود (٤٦٧٨) والترمذي (٢٦١٨) والنسائي (٤٦٣) وابن ماجه (١٠٧٨) وابن أبي شيبه (٣٣/١١).

(٣) من حديث بريدة بن الحبيب في «الترمذي» برقم (٢٦٢١)، وقال: هذا حديث حسن صحيح غريب، و«سنن النسائي» (٢٣١/١) برقم (٤٦٢) وابن ماجه (١٠٧٩) و«المسند» (٢٢٩٣٧) وابن أبي شيبه في «المصنف» (٣٤/١١) وصححه الحاكم (٦/١) ووافقه الذهبي، و«التمهيد» لابن عبد البر (٢٣٠/٤) وابن حبان (١٤٥٤) وإسناده قوي كما قال محققو المسند.

ويقول أبو هريرة رضي الله عنه: كان أصحاب رسول الله ﷺ لا يرون شيئاً من الأعمال تركه كفر غير الصلاة.

وتارك الصلاة يُحشَر يوم القيامة مع رؤوس الكفر: قارون، وفرعون، وهامان، وأبي بن خلف، كما جاء في الحديث.

وهؤلاء الأربعة يمثلون: الغنى، والمُلْك، والوزارة، والتجارة؛ فكل من ألهاه غناه، أو ملكه، أو وزارته، أو تجارته عن أداء الصلاة، فهو مع هؤلاء يوم القيامة.

ومن ترك الصلاة تهاوناً وكسلاً مع الإقرار بوجوبها يُستتاب ويُعزَّر.

حكم تارك الصلاة كسلاً وتهاوناً: ومن نسي صلاة أو نام عنها حتى فات وقتها وجب عليه قضاؤها؛ لما رواه الشيخان عن أنس أن رسول الله ﷺ قال: «من نسي صلاة فليصلها إذا ذكرها، لا كفارة لها إلا ذلك» ﴿وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي﴾^(١) [طه: ١٤].

والصلاة الفاتئة تُقدَّم على الحاضرة إذا كان في الوقت متسع، وأكثر أهل العلم على وجوب الترتيب بين الفوائت.

ومن كان لا يصلي البتة ثم بدأ يصلي، فهو في حكم الكافر الذي أسلم، والإسلام يجب ما قبله، والتوبة تجب ما قبلها، فلا يلزمه قضاء ما فات.

أما من كان يصلي أحياناً وبدأ يلتزم، فعليه أن يقضي ما فات، حتى يغلب على ظنه أنه قضى؛ لأنه مسلم عاص، قال تعالى: ﴿قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ يَنْتَهُوا يُغْفَرْ لَهُمْ مَا قَدْ سَلَفَ﴾ [الأنفال: ٣٨]. وهكذا وصف الله هذا الخلف بوصفين:

الأول: تضييع الصلاة: والصلاة عماد الدين وقوامه، والمراد بإضاعة الصلاة: إضاعة مواقيتها، ولو كان المراد تركها لكان ذلك كفراً.

قال عمر بن عبد العزيز: لم تكن إضاعتهم لها تركها، ولكن أضاعوا الوقت.

وهي العبادة الوحيدة التي تفرق بين المسلم والكافر، وهي علامة ظاهرة على الإيمان، لا يؤتى بها سرّاً، وإنما يؤتى بها جهراً، يتردد الرجل من أجل أدائها على المساجد،

(١) البخاري برقم (٥٩٧) ومسلم برقم (٦٨٤).

والذي يقول: أنا أصلي في البيت، وأنا لا أصلي للناس، شخص يحتال على ترك الصلاة، وهو كلام لا معنى له، فالصلاة عبادة ظاهرة تؤدَّى أمام الناس، ولذا جاء في الأثر: «إذا رأيتم الرجل يعتاد المساجد فاشهدوا له بالإيمان»^(١).

ومن أعظم الصلوات: صلاة الجماعة والمحافظة عليها، لا سيَّما صلوات: الفجر، والعشاء، والعصر، وفي خصوص هذه الأوقات الثلاثة نصوص كثيرة صحيحة وصريحة وردت عن رسول الله ﷺ تُبيِّن فضل المحافظة عليها مع الجماعة، وفيها الوعيد لمن يتهاون أو يتخلف عنها.

البكور إلى صلاة الجمعة: والصلاة صلة بين العبد وربّه، وخصَّها القرآن في هذه الآية بالذكر؛ لأن من أضاع الصلاة فهو لما سواها أضيع، ولكن كيف أضاعها؟ فَجَحْدُ وجوبها إضاعة لها.

وتضييع أوقاتها سهوًا أو تكاسلاً حتى يخرج الوقت ثم يصلّيها قضاء، إضاعة لها. والنوم عنها في الفجر أو العصر مثلاً إضاعة لها، والتهاون في أركان الصلاة وشروطها، أو النقص منها تضييع لها. وترك الصلاة مع الجماعة تضييع لها.

وتعطيل المساجد عن إقامة الصلاة فيها تضييع لها، كل ذلك داخل في إضاعة الصلاة. ومن أعظم الصلوات المفروضة: صلاة الجمعة، وقد بيَّن النبي ﷺ أن من ترك جمعيتين متواليتين بدون عذر طبع الله على قلبه، وبيَّن ﷺ أن أول بدعة أحدثت في الإسلام: ترك البكور إلى الجمعة، وأن الذي يُعدُّ ممن صلى الجمعة هو الذي يحضر إلى المسجد قبل أن يصعد الإمام إلى المنبر، فإذا صعد الإمام المنبر فليس من جاء بعد ذلك، من العدد الذي تتعقّد به صلاة الجمعة.

وإن كان قد فاته شيء من أول الخطبة فهو لا ينتفع غالباً بموضوع الخطبة، ولا ينتفع

(١) حديث ضعيف عن أبي سعيد في «المسند» (١١٦٥١، ١١٧٢٥) وأخرجه الترمذي (٢٦١٧) وقال هذا حديث غريب حسن، وأخرجه ابن خزيمة (١٥٠٢) وابن حبان (١٧٢١) وابن ماجه (٨٠٢).

بما فيها من الموعظة، ولا يدرك مدى ارتباط الكلام بما قبله أو بعده، فالذي يريد أن يحافظ على صلاة الجمعة، ويكتب من العدد الذي حضر الجمعة، لا بد له أن يحضر إلى المسجد قبل أن يصعد الإمام إلى المنبر، وهذا أضعف درجات الإيمان، فهو كمن أهدى بيضة، والذي يأتي قبله يهدي ما هو أكثر.

والذي يأتي إلى المسجد في ساعات مبكرة يوم الجمعة، يجلس يتلو كتاب الله، أو يصلي، أو يسبح ويستغفر، أو مجرد الجلوس في المسجد وانتظار الصلاة، فكل هذا عبادة، وأجره عند الله كبير.

الوصف الآخر: اتباع الشهوات:

وهم الذين: اتبعوا هوى النفس، والميل إلى الحرام، والسير في طريق الشيطان، بما يزيته لهم من الخمر، أو المسكرات، أو الزنى، أو الربا، ونحو ذلك
ثم بين سبحانه مصير هؤلاء الذين أضاعوا الصلاة، واتبعوا الشهوات، فقال سبحانه: ﴿فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيًّا﴾ قالوا: إن غيًّا: اسم لوادٍ في جهنم، بعيدٍ قعره، خبيث طعمه، يسيل من قيح وصيد أهل النار.

التَائِبُونَ لَهُمْ جَنَّاتُ النَّعِيمِ

٦٠- ﴿إِلَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَأُولَٰئِكَ يَدْخُلُونَ^(١) الْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ شَيْئًا﴾

ثم إن الله سبحانه يفتح باب التوبة للعبد ما لم يغرر، وما لم تطلع الشمس من مغربها، فيقول تعالى: ﴿إِلَّا مَنْ تَابَ﴾ أي: من شركه وكفره، ومن تضييع الصلاة عن وقتها، ومن اتباع الشهوات والشبهات، فلم يضيّع الصلاة بعد توبته، ولم يتبع الشهوات، وتزود بالإيمان والعمل الصالح.

والذين وصفهم الله سبحانه بالإيمان والعمل الصالح، والتوبة من الشرك والكفر، هم الذين يدخلون الجنة مع المؤمنين، ولا يُنقصون شيئاً من ثواب أعمالهم.

(١) قرأ ابن كثير وأبو عمرو وشعبة وأبو جعفر ويعقوب بضم الياء وفتح الخاء من (يدخلون)، على البناء للمفعول، وقرأ الباقر بفتح الياء وضم الخاء، على البناء للفاعل.

وهذا الاستثناء في الآية كقوله تعالى: ﴿إِلَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَالِحًا فَأُولَٰئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ﴾ [الفرقان: ٧٠]. بعد ذكر بعض كبائر الذنوب، وهي: الشرك بالله تعالى، والقتل، والزنى.

وفي الحديث عن عبد الله مسعود رضي الله عنه: «التائب من الذنب كمن لا ذنب له»^(١). وعن أنس رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «كل بني آدم خطاء، وخير الخطائين التوابون»^(٢). ثم ذكر سبحانه ما أعده لهؤلاء التائبين من الأجر العظيم فقال:

٦١- ﴿جَنَّتٍ عَدْنٍ الَّتِي وَعَدَ الرَّحْمَنُ عِبَادَهُ بِالْغَيْبِ إِنَّهُ كَانَ وَعْدُهُ مَأْتِيًا﴾

ثم بين سبحانه مصير التائبين الراجعين إلى الله سبحانه، فبين أنهم في نعيم الجنة لا يرحلون عنها، فهم يخلدون فيها بصفة دائمة، فمعنى عدن من قوله تعالى: ﴿جَنَّتٍ عَدْنٍ﴾ يعني: أنها دار إقامة، يقيمون فيها دائماً، ولا يرحلون عنها، ولا يظعنون ولا يسافرون، ولا يزولون ﴿وَأَمَّا الَّذِينَ أَبْغَضْتَ وَجُوهَهُمْ فَبِئْسَ رَحْمَةً اللَّهُ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٧].

وهذه الجنة هي ﴿الَّتِي وَعَدَ الرَّحْمَنُ عِبَادَهُ بِالْغَيْبِ﴾ فآمنوا بها وهم لم يروها، آمنوا بالجنة وهم في الدنيا، وآمنوا بما فيها مما تشتهي النفس وتلد الأعين، وأن فيها ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر، ومن صفات عباد الله المتقين أنهم يؤمنون بالغيب، ولا وجه للمفاضلة بين وعد الله لعباد الرحمن، ووعد الملوك لعبيدهم، قال تعالى: ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُمْ مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [السجدة: ١٧]. ووعد الله لعباده بالجنة أمر محقق ﴿إِنَّهُ كَانَ وَعْدُهُ مَأْتِيًا﴾ أي: آتياً لا محالة.

والجنة لا لغو فيها ولا نصب، قال تعالى:

٦٢- ﴿لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا إِلَّا سَلَامًا وَلَهُمْ رِزْقُهُمْ فِيهَا بُكْرَةً وَعَشِيًا﴾

(١) أخرجه ابن ماجه في «السنن» برقم (٤٢٥٠) من حديث ابن مسعود، وفي سنده انقطاع، وحسنه الألباني في صحيح ابن ماجه (٣٤٢٧) وأخرجه ابن أبي حاتم عن الشعبي (٢١٢٣) والبيهقي في «الشعب» (٧١٩٦) وغيرهما.

(٢) «سنن ابن ماجه» برقم (٤٢٥١) و«صحيح سنن الترمذي» (٢٠٢٩) والبيهقي في «الشعب» (٧١٢٧) وابن أبي شيبة (١٨٧/١٣) وهو حديث حسن، كما قال الألباني في صحيح ابن ماجه (٣٤٢٨) ومشكاة المصابيح (٢٣٤١).

ثم ذكر الله سبحانه شيئاً من أوصاف أهل الجنة، فهم لا يسمعون فيها لغطاً، ولا لهواً، ولا سخطاً، ولا ضجيجاً؛ إذ ليس فيها كلام خارج، ولا باطل ﴿لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا﴾ أي: لا يسمع أهل الجنة فيها كلاماً باطلاً، ولكن يسمعون التحية فيما بينهم، ويجدون فيها الأمن والخير، والإكرام والطمأنينة، وهذا معنى ﴿إِلَّا سَلَامًا﴾ أي: يسلم بعضهم على بعض، وتسلم عليهم الملائكة، يقولون لهم: ﴿سَلَامٌ عَلَيْكُمْ بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعَمَ عُقْبَى الَّذِينَ﴾ [الرعد]. ﴿وَلَهُمْ رِزْقُهُمْ﴾ من الطعام والشراب بصفة دائمة.

١- أخرج الحكيم الترمذي في «نوادير الأصول» من طريق أبان، عن الحسن، وأبي قلابة قالا: قال رجل: يا رسول الله، هل في الجنة من ليل؟ قال: «وما هيَّجك على هذا؟» قال: سمعت الله يذكر في الكتاب: ﴿وَلَهُمْ رِزْقُهُمْ فِيهَا بُكْرَةً وَعَشِيًّا﴾ فقلت: الليل من البكرة والعشي، فقال رسول الله ﷺ: «ليس هناك ليل، وإنما هو ضوء ونور، يَرُدُّ الْغُدُوَّ عَلَى الرُّوْحِ، وَالرُّوْحُ عَلَى الْغُدُوِّ، وتأتيهم طُرفُ الهدايا من الله لمواقيت الصلاة التي كانوا يصلُّون فيها في الدنيا، وتسلم عليهم الملائكة».

وهذا الرزق الذي في الجنة يأتي بغير كد ولا تعب، وبغير أن يشقى الإنسان في طلب هذا الرزق، أو يبحث عنه، وإنما يأتيه بدون بذل أسباب، يأتيه صباحاً ومساءً، وقت ما يطلب.

وليس في الجنة ليل ولا نهار، فهم في ضياء مستمر، ونور دائم، وإنما قال سبحانه: ﴿بُكْرَةً وَعَشِيًّا﴾؛ لأن رزقهم يأتيهم في الجنة على مقدار أيام الدنيا، حسب ما يألفون ويعرفون في الدنيا، أو أن الحُجُب تُرفع وتُسدل على العباد، فيكون هذا بمثابة الليل والنهار.

٢- عن ابن عباس ؓ أن رسول الله ﷺ قال: «الشهداء على بارق نهر الجنة، في قبة خضراء، يخرج إليهم رزقهم في الجنة بكرة وعشيًّا»^(١).

(١) «صحيح ابن حبان»، الإحسان برقم (٤٦٥٨) قال محققه: إسناده قوي و«المسند» (٢٦٦/١) برقم (٢٣٩٠) إسناده حسن، من أجل ابن إسحاق حسن الحديث وباقي رجاله ثقات رجال الصحيح (محققوه) وأخرجه ابن حبان (٤٦٥٨) وابن أبي شيبه (٢٩٠/٥) وابن أبي عاصم في الجهاد (١٩٩) والبيهقي في الشعب (٤٢٤١). و«المستدرک» (٧٤/٢) وصححه الحاكم على شرط مسلم ووافقه الذهبي، وقال الهيثمي في «مجمع الزوائد» (٢٩٨/٥): رجال أحمد ثقات، ونسبه للطبراني وهو برقم (١٠٨٢٥) وفي الأوسط (١٢٣)

٣- وأخرج عبد الرزاق بسند صحيح عن قتادة قال: كانت العرب إذا أصاب أحدهم الغداء والعشاء عجب له، فأخبرهم الله أن لهم في الجنة بكرة وعشيًا قدر ذلك الغداء والعشاء.

٤- وعن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «أول زمرة تلج الجنة صُورهم على صورة القمر ليلة البدر، لا يبْصُقون فيها، ولا يتمخّطون فيها، ولا يتغوّطون، أنبتهم وأمشطهم الذهب والفضة، ومجايرهم الألوة، ورشعهم المسك، ولكل واحد منهم زوجتان يُرى مُحّ ساقها من وراء اللحم من الحُسن، لا اختلاف بينهم ولا تباغض، قلوبهم على قلب واحد، يسبحون لله بكرة وعشيًا»^(١).

قال تعالى مبيّنًا أهل الجنة المستحقون لها:

٦٣- ﴿تِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي نُورِثُ^(٢) مِنْ عِبَادِنَا مَنْ كَانَ تَقِيًّا ﴿١٦﴾﴾

أي: أن هذه الجنة التي ذكر الله شيئًا من أوصافها، يورثها سبحانه في الآخرة لعباده المتقين.

وحقيقة الإرث: انتقال مال القريب إلى قريبه بعد موته، وكما أن الحي يرث مال مورثه؛ لأنه أولى الناس بماله، فإن التقي يرث ثمرة عمله الصالح وتقواه في الآخرة، بعد أن انقضى عمله في الدنيا، فالتقي يرث الجنة، كما أن الوارث يرث المال.

قال تعالى عن عباده المؤمنين: ﴿أُولَئِكَ هُمُ الْوَارِثُونَ ﴿١٠﴾ ^{الَّذِينَ} يَرِثُونَ الْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿١١﴾﴾ [المؤمنون].

وقال تعالى: ﴿وَتِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٧٣﴾﴾ [الزخرف].

فالثمن هو التوبة، والإيمان، والعمل الصالح.

وبهذا يرث المؤمن الجنة، كما أنه يرث مكان الكافر في الجنة، وذلك أن كل إنسان عند الموت يرى مقعده من النار، ومقعده من الجنة، فالكفار قد كانت لهم أماكن في

(١) «المسند» (٣١٦/٢) برقم (٨١٩٨) وإسناده صحيح على شرط الشيخين، والبخاري برقم (٣٢٤٥)، (٣٢٤٦، ٣٢٥٤) ومسلم برقم (٢٨٣٤).

(٢) قرأ رويس بفتح الواو وتشديد الراء من (نورث) مضارع ورث المضعف، والباقون بسكون الواو مدية وكسر الراء مضارع أورث.

الجنة، ولكنهم تركوها، وذهبوا إلى النار ليرثها المؤمنون، وهم أيضًا يرثون الجنة بأعمالهم الصالحة التي قَدَّموها في الدنيا، كما قال تعالى: ﴿وَتُودُّوْا أَنْ تِلْكَمُ الْجَنَّةُ أَوْرَثْتُمُوهَا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [الأعراف: ٤٣].

وقال جلَّ شأنه: ﴿وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [آل عمران: ١٣٣].
وقال سبحانه: ﴿وَسِيقَ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ إِلَى الْجَنَّةِ زُمَرًا﴾ [الزمر: ٧٣].

جَبْرِيلُ يَنْزِلُ بِالْوَحْيِ وَفَقَّ مُقْتَضَى الْحِكْمَةِ الْإِلَهِيَّةِ

٦٤- ﴿وَمَا نَنْزِلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ لَمْ يَأْتِكُمْ آيِدِينَ وَمَا حَفَلْنَا وَمَا بَيْنَ ذَلِكَ وَمَا كَانَ رَبُّكَ ضَيَّاعًا﴾

هذه الآية نزلت في شأن جبريل عليه السلام حين تغيب في النزول أَيْامًا على رسول الله ﷺ، فقال له النبي ﷺ: «يا جبريل، ما يمنعك أن تزورنا أكثر مما تزورنا»، فأنزل الله الآية: ﴿وَمَا نَنْزِلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ﴾^(١).

أي: إنما ننزل على الرسل حينما تقتضي الحكمة، وحينما يلزم نزول الوحي.

أخرج الطبري بسند حسن عن قتادة قال في هذه الآية: هذا قول جبرائيل، احتبس جبرائيل في بعض الوحي، فقال نبي الله ﷺ: «ما جئت حتى اشتقت إليك»، فقال جبرائيل: ﴿وَمَا نَنْزِلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ﴾.

وقال مجاهد: أبطأ الملك على رسول الله ﷺ، ثم أتاه فقال: لعلِّي أبطأت، قال: «قد فعلت». قال: ولم لا أفعل وأنتم لا تتسوّكون، ولا تقصّون أظفاركم، ولا تُنقّون براجمكم؟ قال: ﴿وَمَا نَنْزِلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ﴾ قال مجاهد: فنزلت الآية^(٢).

(١) رواه سعيد بن جبیر عن ابن عباس، «المسند» (٢٣١/١) برقم (٢٠٤٣، ٢٠٧٨، ٣٣٦٥) بإسناد صحيح على شرط الشيخين، وهو في البخاري برقم (٣٢١٨، ٤٧٣١، ٧٤٥٥) و«تفسير الطبري» (٧٨/١٦) والترمذي (١٤٥/٢) برقم (٣١٥٨) وصحيح الترمذي (٢٥٢٥) والنسائي في «السنن الكبرى» (١١٣١٩) والحاكم (٦١١/٢) والبيهقي (٦٠/٧).

(٢) «أسباب النزول» للواحدي ص (٢٥٣) و«زاد المسير» (٢٤٩/٦) ورفع الطبراني عن ابن عباس، «المعجم الكبير» (٤٣١/١١) وهو في «المسند» (٢٤٣/١) وفي إسناده أبو كعب مولى ابن عباس لا يُعرف إلا في هذا الأثر.

قال المفسرون: إن الوحي لما احتبس عن رسول الله ﷺ فترة من الوقت، حتى قال المشركون: إن رب محمد قلاه وأبغضه، فلما نزل جبريل بعد غياب خمسة عشر يوماً، وقيل أكثر، قال ﷺ: «يا جبريل احتبست عليّ حتى ساء ظني، واشتقت إليك»، فقال جبريل: إني كنت أشوق، ولكنني عبد مأمور، إذا بُعثت جئت، وإذا أُحبست احتبست، فأنزل الله هذه الآية، وآية الضحى^(١).

والآية إخبار من الله تعالى على لسان جبريل أن القرآن لا يتنزل إلا بأمر الله في الأوقات التي يريدّها رب العالمين، وهي تشبه قوله تعالى: ﴿مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَى﴾ [الضحى].

ثم بيّن سبحانه أن هذا الكون يسير وفق مراد الله تعالى، وأن الملائكة لا تتصرف في قليل ولا كثير، ولا تتقل من مكان إلى مكان إلا بإذن الله تعالى؛ فهم مقيدون بالقدرة الإلهية، لا يتصرفون، ولا يتنزلون، ولا يتنقلون إلا بأمر الله.

فإن له سبحانه جميع الجهات والأماكن والأزمنة، وكل ما مضى وكل ما هو آت، لا يعزب عنه مثقال ذرة في السموات ولا في الأرض، يعلم الحاضر والغائب، ويعلم السرّ والنجوى.

وحين يتأخر نزول الوحي، فليس هذا عن نسيان من الله سبحانه، وإنما هو عن حكمة اقتضت ذلك، فتنزّل جبريل لا يقع إلا بأمر الله تعالى، وليس له اختيار في ذلك، قال تعالى: ﴿لَا يَسْفِقُونَهُ بِالْقَوْلِ وَهُمْ بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ﴾ [الأنبياء].

وهم ﴿لَا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ [التحريم: ٦]

والنسيان: هو الغفلة عن توقيت الأشياء بأوقاتها، وما كان ربك لينسى نبيه ويهمله.

﴿مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَى﴾ [الضحى: ٣] بل لم يزل معتنياً به في جميع شؤونه، وإذا تأخر عنه الوحي بعض الوقت، فإن ذلك لحكمة أَرادها الله تعالى.

جاء في الحديث عن أبي الدرداء مرفوعاً: «ما أحلّ الله في كتابه فهو حلال، وما حرّم فهو حرام، وما سكت عنه فهو عفو، فاقبلوا من الله العافية، فإن الله لم يكن نسياً».

(١) يُنظَر: «تفسير الطبري» (٨٧/١٦) والألوسي (١١٤/١٦).

ثم تلا: ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ سَيِّئًا﴾^(١). ﴿وَسِيقَ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ إِلَى الْجَنَّةِ زُمَرًا﴾ [الزمر: ٧٣].

ثم علل سبحانه إحاطة علمه وعدم نسيانه بأنه رب السموات والأرض:

مُقْتَضَى اسْتِحْقَاقِ الْعِبَادَةِ

٦٥- ﴿رَبِّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا فَاعْبُدْهُ وَاصْطَبِرْ لِعِبَادَتِهِ هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا﴾

ثم يُخْتَم هذا السياق بالتعقيب على مقتضى التوحيد الذي تدعو إليه السورة، فتبين أنه سبحانه رب هذا الكون، وخالقه، ومالك أمره، ومدبر شؤونه، وهو خالق السموات والأرض، على أحسن نظام وأكمل هيئة، وفي هذا برهان قاطع على أنه الإله الحق المستحق للعبادة دون سواه، فاعبده وحده، وكن صبوراً على تكاليف العبادة بمجاهدة النفس، والهوى، والشیطان، والعبادة لا تشمل الصلاة، والزكاة، والصيام، والحج، فحسب، إنما هي منهج حياة متكامل للمسلم، أنفاسه عبادة، وحركاته عبادة، وعمله عبادة، ونومه عبادة، وشهوته حين يأتي أهله عبادة، وحينما ينوي بأعماله كلها وجه الله تعالى فهي عبادة.

﴿قُلْ إِنْ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ (١١٢) لَا شَرِيكَ لَهُ وَيَذِلَّكَ أَمْرُ وَأَنَا أَوَّلُ السَّالِفِينَ (١١٣) [الأنعام].

فهو سبحانه مالك كل شيء، وخالقه، ومدبره، فاعبده وحده، وكن شديد الصبر على طاعته أنت ومن تبعك من أهلك، ومن هم تحت مسؤوليتك، قال تعالى:

﴿وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلَاةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا﴾ [طه: ١٣٢].

ثم ختم الله الآية ببيان أنه سبحانه ليس له ند، ولا نظير، ولا مماثل، ولا سمي، يقول سبحانه: ﴿هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا؟﴾ هل تعلم لله شبيهاً ونظيراً؟ هل تجد أحداً سُمِّي باسمه

(١) رواه البزار في مسنده (١٢٣، ٢٢٣١) «كشف الأستار» والحاكم وصححه بموافقة الذهبي في «المستدرک» (٣٧٥/٢) والبيهقي في «السنن الكبرى» (١٢/١٠) وهو حديث صحيح الإسناد وعزاه الهيثمي في «مجمع الزوائد» (١٧١/١) إلى الطبراني في «الكبير» والبزار، وقال: إسناده حسن، ورجاله موثقون، وقال ابن حجر في «فتح الباري» (٢٢٦/١٣): إسناده صالح.

تعالى، الله؟ أو أحداً شَمِّي باسم الرحمن؟ الله وحده واحد أحد، فرد صمد، لا والد له ولا ولد، وهذا استفهام بمعنى النفي المعلوم بالعقل، فالله تعالى غني عن خلقه من كل الوجوه، وغيره فقير إليه بكل وجه

والمعنى: أنه لا يوجد أحد مماثل لله تعالى، في اسمه (الله) اسم الجلالة: ولا يوجد لله مسامياً ولا مشابهاً ولا مماثلاً من المخلوقين؛ فإن المشركين لم يُسَمُّوا شيئاً من أصنامهم (الله)، وإنما يقولون للواحد منها: (إله)، وفي هذا اعتراف منهم بأنه لا مماثل له سبحانه في صفة الخلق، فهم لم يجترئوا على أن يدَّعوا لآلهتهم صفة الخلق، كما قال تعالى: ﴿وَلَيْنَ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ﴾ [الزمر: ٣٨].

وهو سبحانه ليس كمثله شيء في ذاته، ولا في أسمائه وصفاته وأفعاله، وهذا موجب لإفراد الله تعالى بالعبادة التي جاء الأمر بها في قوله تعالى: ﴿فَاعْبُدْهُ وَاصْطَبِرْ لِعِبَادَتِهِ﴾.

الْبَعْثُ وَالْحِسَابُ وَالْجَزَاءُ

٦٦- ﴿وَيَقُولُ الْإِنْسَانُ أَذًا^(١) مَا مِثُّ^(٢) لَسَوْفَ أَخْرَجُ حَيًّا

وبعد الأمر بعبادته تعالى والصبر على أدائها، أبطل ﷺ عقيدة المشركين في نفي البعث بعد الموت، بعد إبطال عقيدة الإشراف مع الله تعالى غيره في عبادته؛ ليتم بذلك نقض أضلِّي الكفر، وهما: نفي التوحيد، ونفي البعث؛ فأنكر سبحانه على الكافرين عدم إيمانهم بالبعث والنشور، وأنكر عليهم أنهم لا يتذكرون نشأتهم الأولى وهي أعجب؛ فإن الإيجاد من عدم، أدعى إلى الاستبعاد والغرابة، من إعادة ما كان موجوداً، وهذا في عُرف الناس، ولكنه عند الله سواء.

وفي الحديث القدسي: عن أبي هريرة ؓ أن النبي ﷺ قال: «يقول الله تعالى: كذبني ابن آدم ولم يكن له ذلك، وشتمني ابن آدم ولم يكن له ذلك، أما تكذبه إياي فقله: لن يعيدني كما بدأني، وليس أول الخلق بأهون عليّ من إعادته، وأما شتمه إياي فقله: إن

(١) قرأ ابن ذكوان بخلف عنه بهمزة واحدة، على الإخبار في (أنذا)، والباقون بهمزتين على الاستفهام ومعهم ابن ذكوان في الوجه الآخر، وكلٌّ على مذهبه في التسهيل والتحقيق والإدخال وعدمه.

(٢) قرأ نافع وحفص وحمزة والكسائي وخلف بكسر الميم من (مت)، والباقون بضمها.

لي ولداً، وأنا الأحد الصمد، الذي لم يلد ولم يولد، ولم يكن له كفواً أحد»^(١).

وقد جاء تكذيب الكفار للبعث في آيات كثيرة، منها قوله تعالى: ﴿وَإِنْ تَعَجَّبَ فَعَجَبٌ قَوْلُهُمْ أَءِذَا كُنَّا تُرَابًا أَلَمْ يَأْتِ خَلْقٍ جَدِيدٌ﴾ [الرعد: ٥].

وقوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرِ الْإِنْسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِنْ نُطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُبِينٌ﴾ (٧٧) وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسَى خَلْقَهُ قَالَ مَنْ يُعِى الْعِظَمَ وَهِيَ رَمِيمٌ (٧٨) قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنْشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ (٧٩) الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ مِنَ الشَّجَرِ الْأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَا أَنْتُمْ تُوقَدُونَ (٨٠) [يس].

فسبب هذا الإنكار هو غفلة الإنسان عن نشأته الأولى، فإن النشأة الأولى، فيها إخراج الجواهر والأعراض من العدم إلى الوجود، أما النشأة الثانية فليس فيها إلا تأليف الأجزاء الموجودة وردّها إلى ما كانت عليه مجموعة بعد التفريق، وفي هذا دليل عقلي يهدي القلوب إلى الحق، ويفتح العقول إلى قدرة الله تعالى، ويبين أن البعث حق وصدق، بقوله سبحانه: ﴿وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ النَّشْأَةَ الْأُولَىٰ فَلَوْلَا تَذَكَّرُونَ﴾ [الواقعة].

ومن الناس في كل زمان ومكان من ينكر البعث والحساب والنشور، ومنهم من يشكك فيه، كما قال تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَالسَّاعَةُ لَا رَيْبَ فِيهَا قُلْتُمْ مَا نَدْرِي مَا السَّاعَةُ إِنْ نَقُولُ إِلَّا ظَنًّا وَمَا نَحْنُ بِمُتَّقِينَ﴾ (٢٢) [الجاثية]. هذه الشبهة قديمة حديثة.

ففي عهد رسول الله ﷺ جاء بعض الكفرة، كالوليد بن المغيرة، والعاص بن وائل، وأبي جهل، إلى النبي ﷺ بعظم يفتته بين أصابعه، وقد بليّ هذا العظم وتفتّت وأصبح رميمًا، وهو يقول: أترى أن الله يُحيي هذا بعدما رُمّ وبليّ؟ فيقول ﷺ: «نعم، وبيعتك ويدخلك النار» قيل: نزلت في العاص بن وائل حين أخذ عظامًا بالية يفتتها بيده، ويقول: زعم لكم محمد أنا بُعثت بعدما نموت^(٢).

فهم يقولون هذا على وجه الاستبعاد والاستنكار، وعلى سبيل الاستهزاء والسخرية

(١) يُنظر: «صحيح البخاري» برقم (٣١٩٣، ٤٩٧٤، ٤٩٧٥) من حديث أبي هريرة.

(٢) «زاد المسير» (٢٥١/٦) وقد رواه الطبري عن سعيد بن جبير (٤٨٧/١٩) والحاكم (٤٢٩/٢) والضياء المقدسي في «المختارة» (٨٢) وقد جاء في بعض الروايات، ذكّر عبد الله بن أبيّ فيه، ولكنه كان بالمدينة والسورة مكية.

والتكذيب ﴿أَوَلَمْ نَلْبِسُهُمْ﴾؟ يعني: بعدما نموت نحيا مرة ثانية، وأيضاً آباؤنا وأجدادنا الأقدمون الذين ماتوا قبلنا يعيشون؟!

وفي سورة مريم يقول الله سبحانه: ﴿وَيَقُولُ الْإِنْسَنُ﴾ أي: الكافر المنكر للبعث، فالمراد بالإنسان: كل منكر للبعث مستبعد لوقوعه، يقول على وجه النفي والعناد والكفر: ﴿أَوَلَمْ نَكُنْ مِنْكُمْ نَفْسًا مِّنْ قَبْلُ﴾ سوف أخرج من قبري حيّاً بعدما أموت؟ هذا لا يكون، ولا يُتصوّر.

ثم ذكر سبحانه برهانا قاطعاً ودليلاً واضحاً على إمكان البعث فقال:

٦٧- ﴿أَوَلَا يَذْكُرُ^(١) الْإِنْسَنُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِن قَبْلُ وَلَمْ يَكُ شَيْئًا ۚ﴾

والله سبحانه يقول: استعملوا عقولكم، واستدلوا على الإعادة بالبداية؛ فالبداية أهون، والله ﷻ قد خلقكم من العدم، والبداية تحتاج إلى خلق وإنشاء جديد، أما الإعادة فليس فيها إلا تأليف الأعضاء، وإعادة الأجزاء التي كانت موجودة، فهي أهون، وكيف ينسى الكافر خلقه الأول وهو لم يكن له وجود؟ ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا كَيْفَ يُبْدِئُ اللَّهُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ ۝﴾ [العنكبوت]. ﴿اللَّهُ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ۝﴾ [الروم].

فما على من ينكر البعث إلا أن يتذكر خلقه الأول، وأن القادر على إنشائه من النقطة، قادر على إعادته بعد ما تفتت وتفرق.

مِنْ مَّشَاهِدِ الْقِيَامَةِ: حَشْرُ الْكَافِرِينَ مَعَ الشَّيَاطِينِ

٦٨- ﴿فَوَرَبِّكَ لَنَحْشُرَنَّهُمْ وَالشَّيَاطِينَ ثُمَّ لَنُحْضِرَنَّهُمْ حَوْلَ جَهَنَّمَ جِثِيًا^(٢)﴾

ثم يُقسم الله سبحانه على مشهد الحشر في عرصات القيامة، يقسم بذاته العلية، أنه سبحانه سيجمع منكري البعث يوم القيامة مع الشياطين، ويأتي بهم أجمعين حول جهنم باركين على الركب، فلا يقدرّون على القيام؛ لشدة ما هم فيه من الهول.

(١) قرأ نافع وابن عامر وعاصم بإسكان الذال وضم الكاف من (يذكر) مضارع ذكر من الذكر ضد النسيان، والباقون بتشديد الذال والكاف مفتوحين مضارع تذكّر، وأصله يتذكر فأبدلت التاء ذالاً وأدغمت الذال في الدال، وهي من التذكّر، بمعنى: التيقظ والمبالغة في عدم الغفلة.

(٢) قرأ حفص وحزمة والكسائي بكسر الجيم من (جثيًا)، والباقون بضمها وكذا الآية (٧٢).

﴿فَوَرَبِّكَ لَنَحْشُرَنَّهُمْ﴾ أي: نحشر الكفرة منكري البعث، مع شياطينهم الذين زينوا لهم الباطل، ونحشر الخلق جميعاً، لميقات يوم معلوم، ومنهم الإنس والشياطين؛ حيث نحشر كل كافر مع شيطانه الذي أغواه، فيقيّد معه في سلسلة ويحضّر به إلى جهنم، كما قال تعالى: ﴿قَالَ قَرِينُهُ رَبَّنَا مَا أَطْغَيْتُهُ وَلَكِنْ كَانَ فِي ضَلَالٍ بَعِيدٍ﴾ [٢٧] ﴿ق﴾. فيجلس جلسة الخائف الذليل على ركبته، كالأسرى حينما يكونون بركين على ركبهم وأطراف أصابعهم، وهو مشهد رهيب يصوّر حالة الذلة والمهانة، ولأن الشياطين هم سبب ضلال الإنس كان المصير واحداً، وهيئة الخضوع والجثو واحدة، كما قال تعالى: ﴿وَرَبِّكَ كُلُّ أُمَّةٍ جَائِيَةٌ كُلُّ أُمَّةٍ تُدْعَى إِلَى كِتَابِهَا الْيَوْمَ تُحْزَرُونَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [٢٨] ﴿الجبائية﴾. وهو جثو حول جهنم، من شدة الأهوال، وفظاعة الأحوال، وانتظار حكم الكبير المتعال.

مَشْهَدُ قَذْفِ الْأَعْتَى فَالْأَعْتَى فِي نَارِ جَهَنَّمَ

٦٩- ﴿ثُمَّ لَنَزِعَنَّ مِنْ كُلِّ شِيعَةٍ أَنتَهُمُ أَشَدُّ عَلَى الرَّحْمَنِ عِثًّا﴾ [٦٩]

ثم يأتي مشهد القذف بالكفار في نار جهنم، ونزعهم، وجذبهم إليها؛ حيث يكون البدء بالأكابر فالأكابر جُرمًا، من كل أهل ديانة كفروا بالله وبرسوله، ومن كل طائفة، ومن كل فرقة، فنميزهم، للإلقاء بهم في دركات جهنم، نأخذ الأعتى فالأعتى، الأشد كفراً فالأشد، والأشد جُرمًا فالأشد، يُقَذَف به في نار جهنم، الأول، فالأول، فنأخذ من كل طائفة أشدهم تمرّدًا وعصيانًا، فنبدأ بعذابهم، وفي هذا تخصيص بذكر الطغاة من الكافرين أيهم أشد كفراً وأعظم جُرمًا، فيقدّمون في العذاب، ومن ثم يلعن بعضهم بعضًا، ويكفر بعضهم ببعض ﴿ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَمَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ وَلَيَعَنُ بَعْضُكُم بَعْضًا وَمَأْوَنُكُمْ النَّارُ وَمَا لَكُمْ مِنْ نَاصِرِينَ﴾ [العنكبوت: ٢٥]

روى أبو سعيد الخدري رحمه الله أنه يندلق عنق من النار فيقول: إني أُمّرت بكل جبار عنيد، وهذا الذي يحدث في جهنم، هو من عدل الله وحكمته وعلمه الواسع، ولذا قال تعالى:

٧٠- ﴿ثُمَّ لَنَحْنُ أَعْلَمُ بِالَّذِينَ هُمْ أَوْلَىٰ بِهَا صِلَاً﴾ [٧٠]

(١) قرأ حفص وحزمة والكسائي بكسر الجيم من (جثيا)، والعين من (عتيا)، والصاد من (صليا)، والباقون بضم الحروف الثلاثة، وهما لغتان.

ثم يذكر سبحانه أنه أعلم بمن يستحق دخول النار، ومن هو أولى بدخولها ومقاساة حرها، ومن يستحق أن يُقذف به أولاً فيبدأ به ويكون في المقدمة، وهو سبحانه أعلم بمن يستحق الخلود في نار جهنم، وبمن يستحق أن يضاعف له العذاب فيختارون اختياراً؛ ليكونوا في طليعة المقذوفين، ولا يؤخذ منهم أحد جزافاً، بل يتم اختياره وفق مؤهلاته الإجرامية في الدنيا، ثم يحاسبهم سبحانه، ويجازي كلًا بما يستحق.

وهذه الآية كقوله تعالى: ﴿حَتَّىٰ إِذَا آدَرَكُوا فِيهَا جَمِيعًا قَالَتْ أُخْرِهِمْ لِأُولَئِهِمْ رَبَّنَا هَؤُلَاءِ أَضَلُّونَا فَتَأْنِهِمْ عَذَابًا ضِعْفًا مِّنَ النَّارِ قَالَ لِكُلِّ ضِعْفٌ وَلَكِن لَّا تَعْلَمُونَ لَا وَقَالَتْ أُولَئِهِمْ لِأُخْرِهِمْ فَمَا كَانَتْ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْسِبُونَ ﴿٧١﴾﴾ [الأعراف].

وفي الآية التالية خطاب لجميع الخلق، مؤمنهم وكافرهم، برهم وفاجرهم، أنه ما منهم من أحد إلا سيرد النار حتماً وقضاءً نافذاً.

وَرُودُ جَهَنَّمَ وَنَجَاةُ الْمُتَّقِينَ

٧١، ٧٢- ﴿وَلَن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ حَتْمًا مَّقْضِيًّا ﴿٧١﴾ ثُمَّ نَجَّيْنَا ﴿١﴾ الَّذِينَ آمَنُوا وَنَزَّلْنَا الذَّلِيلِينَ فِيهَا جَنَّتًا ﴿٧٢﴾﴾

لما ذكر سبحانه انتزاع أعتى الجبابرة ليُقذف بهم أولاً في جهنم، بيّن هنا أن جميع طوائف الكفر والشرك يدخلون النار؛ لئلا يتوهم متوهم أن دخولها يقتصر على العتاة.

وتحويل ضمير الخطاب في الآية؛ للالتفات عن الغيب، ليدخل فيه الناس جميعاً، من نزع منهم إلى النار ومن لم ينزع، مؤمن وكافر، كلهم يرد جهنم، فيقسم الله سبحانه على أنه: ما من أحد إلا وهو وارد النار، بالمرور على الصراط المنصوب على متن جهنم، كلٌ بحسب عمله، ثم ينجي الله المتقين، وهذا أمر محتوم، قضى به رب العالمين ولا بد من وقوعه، وهو عرض رهيب على النار، حيث يمرّون عليها وهي تتأجج وتتلظى وتلمظ حقاً على الكفار، وفي القرآن ثلاثة مواضع غير هذه الآية جاء فيها لفظ الورد، وهي في سور: هود [٩٨]، والأنبياء [٩٨]، والقصص [٢٣].

(١) قرأ الكسائي ويعقوب بإسكان النون الثانية، وتخفيف الجيم من (نَجَّيْنَا) مضارع أنجي، والباقون بفتح النون الثانية وتشديد الجيم، مضارع نجى.

وللعلماء في معنى الورود في الآية التي معنا أربعة أقوال:

١- فمنهم من قال: المراد بالورود: دخول النار لجميع الناس، المؤمن والكافر، إلا أنها تكون بردًا وسلامًا على المؤمن.

وهكذا يُفسَّر بعضهم الورود بالدخول؛ لأن الله تعالى قال: ﴿وَنَذَرُ الظَّالِمِينَ﴾ يعني: نتركهم فيها، قالوا: ومعنى ذلك أن الجميع دخلوا النار أولًا، ثم يُترك الظالمون فيها، والترك لا يكون إلا بعد الدخول.

٢- ومنهم من يرى أن المراد بالورود: القرب والمشاركة، أي رؤية النار والإشراف عليها والقرب منها، دون الدخول، كما في قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا وَرَدَ مَاءَ مَدْيَنَ﴾ [القصص: ٢٣]. أي اقترب منها وأشرف عليها.

- ومنهم من يرى أن الدخول خاص بالكفار كما في قوله تعالى عن فرعون: ﴿يَقْدُمُ قَوْمُهُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ فَأُورِدَهُمُ النَّارَ﴾ أي أدخلهم النار ﴿وَيُنْسِ الْأَوْرُدَ الْأَمْرُودُ﴾ [هود: ٩٨].

٤- ومنهم من قال: إن الورود هو المرور على النار عند اجتياز الصراط. ولعل هذا هو الأرجح. وحقيقة الورود: هو الوصول إلى الماء للشرب منه، كورود الحوض.

وإطلاق الورود على الدخول مجاز يحتاج إلى قرينة.

وصدُر الكلام موجه للكافرين في قوله تعالى: ﴿فَوَرِّكَ لَنَحْشُرَنَّهُمُ وَالشَّيَاطِينَ﴾ [٦٨].

وقد بيَّن سبحانه بعد ذلك اختلاف حشر المؤمنين والكافرين في قوله: ﴿يَوْمَ نَحْشُرُ الْمُتَّقِينَ إِلَى الرَّحْمَنِ وَفْدًا﴾ [٨٥] وَنَسُوقُ الْمُجْرِمِينَ إِلَى جَهَنَّمَ وَرِدًا [٨٦]. فورود المؤمنين معناه: المرور والرؤية؛ لقوله تعالى عن المؤمنين: ﴿أُولَئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ﴾ [الأنبياء: ١٠١] أي: مبعدون عن النار فلا يدخلونها، وإذا فهذا الدخول خاص بالكفار، كما قال به بعضهم.

ويقول سبحانه عن الكفار، وَمَنْ يُعْبُدُونَ آلِهَةً مِنْ دُونِ اللَّهِ: ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ حَصْبُ جَهَنَّمَ أَنْتُمْ لَهَا وَرِدُونَ﴾ [الأنبياء: ٢٢] يعني: داخلون.

وبناء على ما سبق فإن الورود يكون بالنسبة لجميع الخلق، وهو المرور فوق الصراط، وأن الكلايب تتخطف أهل النار فيسقطون فيها، والمتقون يمرون عليها ويرونها، ولا

يسقط فيها إلا عصاة المؤمنين فينالهم منها بقدر معاصيهم، ثم يخرجون منها .

ويؤيد ذلك أحاديث منها :

١- ما جاء في البخاري وغيره: عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه عن النبي ﷺ وفيه: «... يؤتى بالجسر، فيجعل بين ظهري جهنم». قلنا: يا رسول الله، وما الجسر؟ فبين ﷺ أنه مدحضة، عليه كلاليب وخطاطيف، لها شوك كشوك السعدان، يمر المؤمن عليها كالطرف، أو البرق، أو الريح، أو أجاويد الخيل...، فالمسلم إما ناجياً وإما مكدوشاً، وإما مكدوشاً في نار جهنم، حتى يمر آخرهم يسحب سحباً.

وبعد شفاعاة من المؤمنين، يقول الله تعالى: اذهبوا فممن وجدتم في قلبه مثقال دينار من إيمان فأخرجوه، ويحرم الله صورهم على النار، فيأتون، وبعضهم قد غاب في النار إلى قدميه، وإلى أنصاف ساقيه.

ثم يأمر الله بإخراج من هم أدنى منهم رتبة في الإيمان، ثم يشفع الملائكة، والنبئون، والمؤمنون. فيقول الله تعالى: بقيت شفاعتي، فيقبض قبضة من النار فيخرج أقواماً قد امتحشوا، فيلقون في نهر بأفواه الجنة، يقال له: ماء الحياة، فينبئون في حافتيه، كما تنبت الحبة إلى جانب الصخرة وإلى جانب الشجرة^(١).

٢- وأخرج الترمذي وغيره عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «يردُّ الناسُ النارَ، ثم يصدُّون منها بأعمالهم، فأولهم كلمح البرق، ثم كالريح، ثم كحضر الفرس، ثم كالراكب في رخله، ثم كشدَّ الرجل، ثم كمشيهِ»^(٢).

وفائدة ورودهم النار: أنهم يزدادون سروراً للخلاص منها، ويكون هذا سبباً لمزيد التلذذ بنعيم الجنة.

(١) يُنظر الحديث بطوله في: «صحيح البخاري» برقم (٤٥٨١، ٤٩١٩، ٧٤٣٩) في كتاب التوحيد، و«صحيح مسلم» برقم (١٨٣).

(٢) قال الترمذي: حديث حسن، ورواه شعبة عن السدي فلم يرفعه وهو برقم (٣١٥٩) وصححه الألباني في «صحيح سنن الترمذي» (٢٥٢٦) وصححه الحاكم على شرط مسلم والذهبي في «المستدرک» (٣٧٥/٢) وحسنه البغوي في «مشكاة المصابيح» برقم (٥٦٠٦) وأخرج شطره الأول بإسناد حسن أحمد في «المستد» (٤١٤١) وهو في «السلسلة الصحيحة» (٣١١) وعند أبي يعلى (٥٢٨٢، ٥٠٨٩).

وفي الوقت نفسه، يكون في ذلك مَزِيدٌ غَمٌّ لأهل النار باجتماعهم إليها، ونجاة المؤمنين.

٣- أما حديث أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «لا يموت لأحد من المؤمنين ثلاثة من الولد، فتمسه النار إلا تحلة القسم» وفي رواية: «فيلج النار إلا تحلة القسم»^(١).

أي: ولَوْجًا قليلًا، يشبه ما يُفعل لأجل تحلة القسم، ولا علاقة له بالآية.

٤- وفي صحيح مسلم وغيره: عن أم مُبَشَّر رضي الله عنها أن النبي ﷺ قال: «لا يدخل النار -إن شاء الله تعالى- من أصحاب الشجرة أحد من الذين بايعوا تحتها» قالت حفصة: بلى يا رسول الله، فاتهرها، فقالت: ﴿وَلَنْ مِّنْكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا﴾ فقال النبي ﷺ: «قد قال الله تعالى: ﴿ثُمَّ تَنَجَّى الَّذِينَ أَتَقَوَّا﴾»^(٢).

٥- وفي البخاري وغيره: عن أنس رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «يخرج من النار من قال: لا إله إلا الله، وفي قلبه وزن شعيرة من خير» وفي آخر الرواية: «وزن ذرة»^(٣).

٦- وفي حديث طويل جاء في الصحيحين: عن أبي هريرة رضي الله عنه، وفيه: «ويُضْرَب الصراط بين ظهري جهنم، فأكون أنا وأمتي أول من يُحْزِزُها ولا يتكلم يومئذ إلا الرسل، ودعوى الرسل يومئذ: اللهم سلِّم سلِّم، وفي جهنم كلاليب مثل شوك السَّعْدَانِ، هل رأيتم السعدان؟» قالوا: نعم يا رسول الله، قال: «فإنها مثل شوك السعدان»^(٤) غير أنه لا يعلم ما قَدَّرَ عَظَمُهَا إلا الله تعالى، تَخْطِفُ النَّاسَ بِأَعْمَالِهِمْ، فمنهم الْمُؤَبَّقُ^(٥) بَقِيَ بِعَمَلِهِ^(٦)،

(١) «تفسير عبد الرزاق» (١١/٢) البخاري برقم (٦٦٥٦، ١٢٥١) ومسلم برقم (٢٦٣٢) والترمذي (١٠٦٠) والنسائي في «الكبرى» (١١٣٢٠) وابن ماجه (١٦٠٣).

(٢) «صحيح مسلم» برقم (٢٤٩٦) و«المسند» (٢٧٣٦٢) بإسناد صحيح على شرط مسلم ورجال ثقات والطبراني (٣٥٨) والنسائي في الكبرى (١١٣٢١) والبيهقي في الشعب (٣٧١) والدلائل (١٤٣/٤) وقد جاء عن حفصة في المسند (٢٦٤٤٠) وابن ماجه (٤٢٨١) وغيرهما.

(٣) «صحيح البخاري» برقم (٤٤، ٤٤٧٦، ٦٥٦٥) و«صحيح مسلم» برقم (١٩٣).

(٤) شوك السعدان: نبت ذو شوك معقف، وهو من أجود مراعي الإبل.

(٥) يوبق بعمله: أي أن ذنوبه أوبقته، وأهلكته.

(٦) إلى هنا من «صحيح البخاري» برقم (٧٤٣٧) ويُنْظَرُ: رقم (٨٠٦) و«صحيح مسلم» برقم (١٨٢).

ومنهم من يَنْجِدُ^(١) ثم ينجو، حتى إذا أراد الله رحمة من أراد من أهل النار، أمر الملائكة أن يُخْرِجُوا من كان يعبد الله، فَيُخْرِجُونَهُمْ، ويعرفونهم بآثار السجود، وحرم الله على النار أن تأكل أعضاء السجود، فيخْرِجُونَ من النار، ثم يُصَبُّ عليهم ماء الحياة، فينبُتُونَ كما تنبت الحبة، ثم يُفْرَغ من القضاء بين العباد، ويبقى رجل بين الجنة والنار، هو آخر من يدخل الجنة من أهل النار^(٢).

٧- وكان عبد الله بن رواحة رضي الله عنه مريضاً فوضع رأسه في حجر امرأته وأخذ يبكي، فبكت امرأته، قال: ما يُبْكِيكَ؟ قالت: رأيتُكَ تبكي فبكيتُ، قال: إني ذكرت قول الله تعالى: ﴿وَلَنْ يَنْكُرَ إِلَّا وَاْرِدُهَا﴾ فلا أدري، أنجو منها، أم لا؟^(٣).

٨- وفي رواية: عن بكر بن عبد الله المزني قال: لما نزلت هذه الآية ﴿وَلَنْ يَنْكُرَ إِلَّا وَاْرِدُهَا﴾ ذهب عبد الله بن رواحة إلى بيته فبكى، فجاءت المرأة فبكت، وجاءت الخادمة فبكت، وجاء أهل البيت فجعلوا يبكون، فلما انقطعت عِزَّتُهُمْ قال: يا أهلاه، ما الذي أبكاكم؟ قالوا: لا ندري، ولكن رأيناك بكيت فبكينا، قال: إنه أنزلت على رسول الله ﷺ آية، يُنبئ فيها ربي تبارك وتعالى أنني وارد النار، ولم ينبئني أنني صادر عنها، فذاك الذي أبكاني^(٤).

٩- وعن الحسن أن رجلاً قال لأخيه: يا أخي، هل أتاك أنك وارد النار؟ قال: نعم، قال: فهل أتاك أنك خارج منها؟ قال: لا، قال: ففيم الضحك؟ فما رُئي ضاحكاً حتى مات^(٥).

١٠- وفي الحديث الذي أخرجه الحاكم وأحمد وغيرهما، عن عبد الرحمن بن شبية قال: اختلفنا في الورود، فقال قوم: لا يدخلها مؤمن، وقال آخرون: يدخلونها جميعاً ثم ينجي الله الذين اتقوا، فقلت له: إنا اختلفنا بالبصرة، فقال قوم: لا يدخلها مؤمن، وقال آخرون: يدخلونها جميعاً ثم ينجي الله الذين اتقوا، فأهوى بأصبعيه إلى أذنيه فقال: صمّاً

(١) ينجد: أي تقطعه كلاليب الصراط حتى يقع في النار.

(٢) يُنْظَر: «صحيح البخاري» (٨٠٦).

(٣) يُنْظَر: «تفسير عبد الرزاق» (١١/٢) وهو من حديث متفق عليه.

(٤) أخرجه ابن المبارك (٣٠٩) وابن عساكر (١٠٦/٢٨) وأحمد في «الزهد» ص ٢٠٠.

(٥) ابن المبارك (٣١٢).

إن لم أكن سمعت رسول الله ﷺ يقول: «الورود: الدخول، لا يبقى برّ ولا فاجر إلا دخلها، فتكون على المؤمن بردًا وسلامًا كما كانت على إبراهيم، حتى إن للنار -أو قال: لجهنم- ضجيجًا من نزقها»، ثم قال: ﴿ثُمَّ نُنَجِّي الَّذِينَ اتَّقَوْا وَنَذَرُ الظَّالِمِينَ فِيهَا جِثًا﴾^(١).

أي: ثم ننجي الذين اتقوا ربهم بطاعته، والبعد عن معصيته، وترك الظالمين لأنفسهم بالكفر بالله في النار باركين على ربهم، أي: أن المؤمنين يدخلونها ولكنها تكون عليهم بردًا وسلامًا كما كانت على إبراهيم ﷺ.

ومجموع الأحاديث الواردة في ذلك ترسخ هذا المعنى، فهو المراد بقول النار يوم القيامة: جُزْ يا مؤمن. ويوضحه حديث أبي هريرة وأنس في الصحيحين.

فالورود على الأرجح: هو المرور على الصراط، أي: الجسر الكائن فوق متن جهنم، هذا الصراط يمر عليه الخلائق كلهم، ثم يكون هناك خطاطيف وكلايب من نار يُجذب بها الكفار من فوق الصراط إلى جهنم، ويكون مرور المؤمن فوق هذا الصراط على قدر عمله في الدنيا، منهم من يمرُّ كالبرق، ومنهم من يمرُّ كالريح، ومنهم من يمرُّ كالطير، ومنهم من يمرُّ كأجود الخيل، ومنهم من يمرُّ كأجود الإبل، ومنهم من يَعْدُو عَدْوًا، ومنهم من يمشي مشيًا، ومنهم من يَحْبُو حَبْوًا.

ويأخذ المؤمن العاصي نصيبه منها ثم يخرج، أما من مات على الكفر والشرك فهو الذي يُخَلَّد فيها، فهو دخول أبدي بالنسبة للكافر، بسبب ظلمه وكفره، وهو دخول مؤقت بقدر عصيان العاصي، ومرور عابر بالنسبة للمؤمن، نسأل الله السلامة والعافية.

عن أبي هريرة ؓ قال: خرج رسول الله ﷺ يعود رجلاً من أصحابه وَعِكَا وأنا معه،

(١) أخرجه أحمد في «المسند» (٣/٣٢٨) برقم (١٤٥٢٠) من حديث جابر، قال محققوه: وإسناده ضعيف لجهالة أبي سُمَيَّة، وقال المنذري في «الترغيب والترهيب» (٢/٣٠٦): رجاله ثقات، وصححه الحاكم والذهبي في «المستدرک» (٤/٥٨٧) وحسنه البيهقي في «الشعب» برقم (٣٦٤) وقال الهيثمي في «مجمع الزوائد»: (٧/٥٥) رواه أحمد ورجاله ثقات، وهذا لفظ الحاكم وأخرجه عبد بن حميد (١١٠٦).

فقال: «إن الله تعالى يقول: هي ناري أُسَلِّطُهَا عَلَى عَبْدِي الْمُؤْمِنِ؛ لتكون حظه من النار في الآخرة»^(١)، وفي الآية التالية بيان لبعض الأسباب التي استحق بها الكافر الخلود في النار:

مَتَاعُ الْكَافِرِ ظِلٌّ زَائِلٌ

٧٣- ﴿وَإِذَا نُتِلَّى عَلَيْهِمْ ءَايَتُنَا يَنْتَحِرَ قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ ءَامَنُوا أَيُّ الْفَرِيقَيْنِ خَيْرٌ مَّقَامًا^(٢) وَأَحْسَنُ نَدِيًّا﴾

ثم عطف الله سبحانه على الآية السابقة، وهي قوله تعالى في شأن منكري البعث: ﴿وَيَقُولُ الْإِنْسَانُ إِذَا مَا مِثٌ لَسَوْفَ أَخْرَجُ حَيًّا ۖ﴾^(٣) بيان نوع آخر من أهل الكفر، وهم قوم استدلووا بحسن حالهم في الدنيا على أنهم خير من المؤمنين، وهذا من أكاذيب الكافرين بالله ورسوله في كل زمان ومكان، من الذين اغتروا بدنياهم، حين يستمعون إلى القرآن، وهو يُنذِرُهُمْ بسوء المصير، ويبشر المؤمنين بحسن العاقبة، فإنهم يكذبونه، ويقولون: لو كان هذا صحيحًا لكان المتبعون لمحمد ﷺ في نعمة وسيادة ورفاهية عيش، وكنا في هزيمة وضنك وسوء عيش، فيقيسون الدنيا على الآخرة، كما قال تعالى عنهم: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ ءَامَنُوا لَوْ كَانَ خَيْرًا مَّا سَبَقُونَا إِلَيْهِ﴾ [الأحقاف: ١١].

وهذه مغالطة من الكافرين؛ حيث يستدلون بدنياهم على حُسن حظهم في الآخرة، فيقولون للمؤمنين: انظروا إلى مانحن فيه من حضارة وتفوق، ونصر وتقدم، انظروا إلى منازلنا فهي أحسن من منازلكم، وانظروا إلى مجالسنا ونوادينا التي نتصدها، فنحن خير منكم عند الله، ولو كنتم على حق لأكرمكم الله مثلنا، وهذا كما قال تعالى عنهم: ﴿وَقَالُوا نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَالًا وَأَوْلَدًا وَمَا نَحْنُ بِمُعَذِّبِينَ﴾^(٤) [سبا].

وقال سبحانه: ﴿وَكَذَلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لِيَقُولُوا أَهَؤُلَاءِ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنْ بَيْنِنَا أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِالظَّالِمِينَ﴾^(٥) [الأنعام]. وهكذا تأفف قوم نوح من فقراء المسلمين، وقالوا له: ﴿أَنُؤْمِنُ لَكَ وَاتَّبَعَكَ الْأَرْذَلُونَ﴾ [الشعراء: ١١١].

(١) أخرجه الطبري (٥٩٧/١٥) وصححه الألباني في «السلسلة الصحيحة» (٥٥٧).

(٢) قرأ ابن كثير بضم الميم الأولى من (مقامًا) على أنه مصدر ميمي، أو اسم مكان، من أقام الرباعي، أي: خير إقامة أو مكان، والباقيون بفتحها، من قام الثلاثي، أي: خير قيام، أو مكان قيام.

كما تأفف سادة قريش من فقراء المسلمين الذين يَلْتَفُونَ حول رسول الله ﷺ، وهم يقولون: ﴿أَيُّ الْفَرِيقَيْنِ خَيْرٌ مَقَامًا وَأَحْسَنُ نَدِيًّا﴾.

وهكذا تقاس الأفراد، بالجانب المادي في حياتها، وتقاس الأمم بقوة اقتصادها في عالمنا المعاصر، والأمم ضعيفة الاقتصاد تسمى بالعالم الثالث، أو الدول النامية، والفقير لا يُسمع له قول، ولا يُنصت إلى منطقه، ولا يؤبه بعقله وحُجته وبرهانه.

هذا المعنى الذي نعيشه، هو الذي كان موجودًا أيضًا في عهد رسول الله ﷺ، فقد نزل القرآن على النبي ﷺ بالحجة والبرهان، وبالإعجاز البين، وكان هذا القرآن إذا تُلي على كفار مكة من الأثرياء والمترفين أعرضوا عنه، وعن حججه، وبراهينه، وإعجازه، وقابلوا ذلك بشرائهم وتُرفهم، وقالوا: لو كان المؤمنون خيرًا منا لكانوا أحسنَ منا حالًا بالمال والمتاع ومظاهر الحياة.

لقد كان الكفار في مكة أمثال: النضر بن الحارث، وعمرو بن هشام، والوليد بن المغيرة، يعيشون في رُغد من العيش، وفي بيوت فخمة مؤثثة، وحالة حسنة، وكانت لهم نوادٍ في قرى قريش (مجلس شورى) يجتمعون فيها.

وكان المسلمون يعيشون في خشونة وضنك من العيش، أمثال: بلال، وعُمَار، وخَبَّاب، وكانت بيوتهم متواضعة، ويجتمعون في دار الأرقم بن أبي الأرقم.

والمعنى: وإذا تتلى على العباد آيات القرآن واضحة المعاني، قال الكافرون للمؤمنين على وجه المفاخرة أى منا أفضل منزلة وأكثر أتباعًا؟ هذا هو موقف المشركين من نزول القرآن على رسول الله ﷺ في قوله: ﴿وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ﴾ أى آيات القرآن المنزلة من عند الله، الدالة على وحدانيتنا وقدرتنا، وهي ظاهرة الحجة، واضحة الدلالة على صدق ما جاء به محمد ﷺ ﴿قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا أَيُّ الْفَرِيقَيْنِ﴾ نحن الأثرياء، أم المؤمنون الفقراء، أيننا ﴿خَيْرٌ مَقَامًا وَأَحْسَنُ نَدِيًّا﴾ أي: أيننا أكثر مالًا ومتاعًا؟ وأيننا أحسن ديارًا وأثنا؟ وأيننا أحسن ناديا؟ وأيننا أكثر عُمرًا وروادًا لها؟ فنحن أكثر مالًا وأولادًا وجاهًا ومتاعًا وحضارة! وهذا دليل فاسد، فيه قلب للحقائق، وسوء استنتاج، واستدلال على النتائج بالمقدمات.

والنادي: هو المكان الذي يجلسون فيه، ويجتمعون فيه، والمراد بالمقام في الآية: مكان القيام، وهو السكن والمنزل، كما قال تعالى عن أهل الجنة: ﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي مَقَامٍ أَمِينٍ﴾ [الدخان].

وَمَثَلُ هَؤُلَاءِ الْقَوْمِ، كما لو أنك قارعتَ إنسانًا وناظرته بالحجة والبرهان، والمنطق والعقل، فيردُّ عليك قائلًا: أنا أجمل منك ثوبًا، وقصّري أعلى من دارك. وهذا إفلاس في المناظرة؛ فإن المناظرة تقتضي إقامة الحجة أمام الحجة، وألا يستهين أحد الطرفين بالطرف الآخر مهما كان فقيرًا، وألا ينظر إلى حالته المادية، وإنما ينظر إلى منطقه، وعقله، وحجته، وعلمه، وبرهانه، ومقدار قُربه من الله تعالى؛ على أن كثرة الأموال والأولاد كثيرًا ما تكون سببًا للشقاء والهلاك:

وَكَمَا أَهْلَكَ اللَّهُ السَّابِقِينَ يُهْلِكُ الْلَّاحِقِينَ

٧٤- ﴿وَكَمَا أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِّنْ قَرْنٍ هُمْ أَحْسَنُ أَثْنًا وَرَءًى﴾ (٧٤)

قال البيضاوي: إن المشركين لما سمعوا الآيات الواضحات، وعجزوا عن معارضتها، أخذوا في الافتخار بما لهم من حظوظ الدنيا، والاستدلال بزيادة حظهم فيها على فضلهم وحُسن حالهم؛ لقصور نظرهم^(٢).

فردَّ الله عليهم بأن كثيرًا من الأمم التي أهلكها الله بسبب تكذيبهم لرسول الله، وكفرهم بآيات الله، كانوا أكثر منهم متاعًا وقوة وجاهًا وسلطانًا، وكما أهلك الله السابقين يُهلك اللاحقين. ﴿أَكْفَارُكُمْ خَيْرٌ مِّنْ أُولَئِكَ﴾ [القمر: ٤٣]

وفي الآية تهديد لجميع الكفار إلى قيام الساعة، وفيها بيان أن ما هم فيه من زخرف ومتاع، ومن علم بظواهر الأمور، إنما هو من باب الاستدراج، وتوفية حقوقهم في الدنيا، والله ﷻ يُلْقِي أَنْظَارَهُمْ إِلَى أَنَّهُ يَجِبُ عَلَى الْكُفَّارِ جَمِيعًا أَنْ يَنْظُرُوا إِلَى الْأُمَمِ السَّالِفَةِ الَّتِي كَذَّبَتْ رِسْلَ اللَّهِ، ماذا لحق بهذه الأمم؟ ﴿وَكَمَا أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِّنْ قَرْنٍ﴾؟

(١) قرأ قالون وابن ذكوان وأبو جعفر بتشديد الياء بلا همز، هكذا (وريًا) وقرأ الباقر بالهمز هكذا (ورثيا) وهو من رؤية العين، أي: أحسن منظرًا، بمعنى المفعول، أما القراءة الأولى فهي من الحُسن والنضارة، وهي إما أن تكون مهموزة الأصل فأبدلت ياء وأدغمت في الياء بعدها تخفيفًا، أو تكون مصدرًا من روى يروي، والريان يكون حَسَنَ المنظر.

(٢) «تفسير البيضاوي» (٢/ ٢٠).

فأمة عاد كانت أكثر مالا وأشد قوة ﴿فَأَمَّا عَادُ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَقَالُوا مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً؟﴾ يقول سبحانه في بيان مصيرهم: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ﴾ (٥) ﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِي أَيَّامٍ نَحْسَاتٍ لِنَذِيقَهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَخْزَىٰ وَهُمْ لَا يُصْرُونَ﴾ (٦) [فصلت].

﴿وَأَمَّا ثَمُودُ﴾ وهم قوم صالح عليه السلام ﴿فَهَدَيْتَهُمْ فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَىٰ عَلَى الْهُدَىٰ فَأَخَذَتْهُمُ صَاعِقَةُ الْعَذَابِ الْهُونِ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ (٧) ﴿وَنَحْنُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَكَانُوا يَنْقُوتُونَ﴾ (٨) [فصلت].

وهكذا قال الله تعالى عن قوم فرعون حين أهلكهم: ﴿كَمْ تَرَكُوا مِنْ جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ﴾ (٩) ﴿وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ﴾ (١٠) ﴿وَنَعَمَ كَانُوا فِيهَا فِتْكِهِينَ﴾ (١١) ﴿كَذَٰلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا قَوْمًا ءَاخِرِينَ﴾ (١٢) [الدخان].

إن النوادي الفخمة، والمجامع المترفة، ومظاهر الترف والبهجة والزينة التي يفتخرون بها، ويحتججون بها على صحة باطلهم، لم تُغن عنهم من الله شيئاً يوم لقائه، لقد تركوها في الدنيا وجاؤوا إلى الله فرادى كما خلقهم أول مرة ﴿وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرْدَىٰ كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَتَرْكُمُ مَا خَوَّلْنَاكُمْ وَرَاءَ ظُهُورِكُمْ﴾ [الأنعام: ٩٤].

فلو كان نعيم الدنيا ومتاعها، ينفع في الآخرة، لنفع هؤلاء المهلكين من الأمم السابقة، قال تعالى: ﴿وَمَا أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ بِالَّتِي تُقَرِّبُكُمْ عِندَنَا زُلْفَىٰ إِلَّا مَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَأُولَٰئِكَ لَهُمْ جَزَاءُ الضَّعْفِ بِمَا عَمِلُوا وَهُمْ فِي الْغُرُفَاتِ ءَامِنُونَ﴾ (١٣) [سبا].

فعلّم بهذا أن الاستدال بخير الدنيا على خير الآخرة، من أفسد الأدلة، وأنه من طرق الكفار.

سُنَّةُ اللَّهِ فِي إِمْهَالِ الْكَافِرِينَ وَإِثَابَةِ الْمُهْتَدِينَ

٧٥- ﴿قُلْ مَنْ كَانَ فِي الضَّلَالَةِ فَلِمَ دِدَ لَهُ الرَّحْمَنُ مَدًّا^(١) حَتَّىٰ إِذَا رَأَوْا مَا يُوعَدُونَ إِمَّا الْعَذَابَ وَإِمَّا السَّاعَةَ فَسَيَعْلَمُونَ مَنْ هُوَ شَرٌّ مَّكَانًا وَأَضْعَفُ جُنْدًا﴾ (١٤)

ثم كشف ﷺ عن شبهة المشركين ومغالطتهم، في أن سعيد الدنيا سعيد الآخرة، فأعلمهم أن ما هم فيه من نعيم في الدنيا، إنما هو إمهال من الله تعالى، واستدراج للكافر، فقد فرّق الله سبحانه بين النعمة الناشئة عن رضى الله تعالى على عبده، والنعمة

(١) لم يعد الكوفي لفظ (مدا) آية، وعده غيره.

الناشئة عن استدراج الكافر وإمهاله، فقال تعالى في شأن المؤمن المنعم عليه: ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهٗ حَيٰوةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [النحل: ٩٧].

وقال جلَّ شأنه في حق الكافرين: ﴿أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُم بِهِ مِن مَّالٍ وَبَيْنَ ٥٥ سَاعٍ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ بَلْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ [المؤمنون: ٥٦].

فمن كان منغمسًا في الشقاوة والضلال والغفلة، فقد اقتضت حكمة الله تعالى أن يمدَّ له في العطاء، ويوسع عليه في الرزق؛ ليقطع عذره، فقد أمهله الله تعالى وأمدَّ له؛ ليعود إلى رشده وصوابه، ويُقْلَع عن غروره وتفاخره بإنعام الله عليه، كما قال تعالى: ﴿أَوَلَمْ نَعْمَرْكُمْ مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ وَجَاءَكُمُ النَّذِيرُ فَذُوقُوا فَمَا لِلظَّالِمِينَ مِن نَّصِيرٍ﴾ [فاطر: ٣٧].

ولكنه بدلًا من ذلك يزداد طغيانًا وجهلاً وغرورًا، فتكون نهايته أليمة، وعقابه وخيمًا، كما قال تعالى: ﴿فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمَ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّىٰ إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُم بَغْتَةً فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ ٤٤ فَقُطِعَ دَابِرَ الْقَوْمِ الَّذِينَ ظَلَمُوا وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ٤٥﴾ [الأنعام: ٤٤-٤٥].

وكما قال سبحانه: ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّمَا نُطَمِّلُ لَهُمْ خَيْرٌ لِّأَنفُسِهِمْ إِنَّمَا نُمَلِّي لَهُمْ لِيُزَادُوا إِثْمًا وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾ [آل عمران: ١٧٨].

فالمعنى: أن من كان منغمسًا في الضلالة، فرضيها لنفسه وسعى فيها، واغترَّ بإمهال الله تعالى له فركبه الغرور وازداد إثماً، فإن الله تعالى قد أمهله، ومدَّ له في النعيم؛ حتى لا يبقى له عذر، فازداد حبًّا للضلالة، عقوبة له على اختيارها على الهدى.

وعلى هذا فصيغة الطلب في ﴿فَلْيَمْدُدْ﴾ إخبار من الله تعالى عن سُنته من سُنته تعالى في خلقه، أو هو دعاء عليهم بالضلال، أي: أن الله ﷻ يأمر رسوله محمداً ﷺ أن يدعو ربه بأن من كان من الفريقين في ضلال وطغيان وعماية عن الحق والهدى، فلْيَزِدْهُ الله في ضلاله، أي: فلْيُمَلِّ له، ولْيُمَهِّلْهُ، ويزد في أجله؛ ليزداد في طغيانه، كما قال سبحانه: ﴿إِنَّمَا نُمَلِّي لَهُمْ لِيُزَادُوا إِثْمًا﴾ [آل عمران: ١٧٨].

فهو استدراج لهم كقوله تعالى: ﴿فَدَرْبِي وَمَنْ يُكَذِّبْ بِهَذَا الْحَدِيثِ سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ ٢١ وَأُمَلِّي لَهُمْ إِيَّا كَيْدِي مَتِينٌ﴾ [القلم: ٢١].

وَأَنْ مَنْ كَانَ عَلَى هَدًى مِنَ الْفَرِيقَيْنِ فَلْيَزِدْهُ اللَّهُ هَدًى .

وهكذا فإن الله تعالى أجرى العادة بأن يُمهِّل الضالَّ، ويُملي له في ضلاله استدراجًا، وهذه سُنَّةُ الله في خلقه، بأنَّ مَنْ كَانَ فِي ضلاله مُستمرًّا على طغيانه وكُفْره عاكفًا عليه، فالله ﷻ يمهله ويزيده في طغيانه، استدراجًا له حتى يأتي أجله المحتوم ووقته الموعود، وقد علم الله منه أنه راسخ في الضلال، ثابت عليه، لا يتحول عنه، كما قال تعالى: ﴿وَنُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ وَأَبْصَرَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ [الأنعام: ١١٠].

فضلاله وفسقه هو السبب كما قال تعالى ﴿وَمَا يُضِلُّ بِهِ إِلَّا الْفَاسِقِينَ﴾ [البقرة: ٢٦].

وزيغ قلبه هو السبب ﴿فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ﴾ [الصف: ٥]. فهم الذين زاغوا أولاً.

وكُفْرُهُمْ هو السبب ﴿لَنْ طَبَعَ اللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ﴾ [النساء: ١٥٥]. وهكذا.

فيكون المراد بالآية على هذا: هو الدعاء عليهم، وبيان أن هذا من سنة الله في خلقه.

﴿حَتَّىٰ إِذَا رَأَوْا يَقِيْنًا﴾ مَّا يُوعَدُونَ﴿ أَي: مَا تَوَعَّدَهُمُ اللَّهُ بِهِ مِنَ الْعَذَابِ الْعَاجِلِ فِي الدُّنْيَا، أَوْ بَعْدَ قِيَامِ السَّاعَةِ﴾ ﴿إِمَّا أَلْعَابُ﴾ فِي الدُّنْيَا حَتَّى يَلْقَى الْعَبْدَ رَبَّهُ، وَيَنْقُضِي أَجْلَهُ ﴿وَإِمَّا السَّاعَةُ﴾ وَهِيَ الْقِيَامَةُ وَيَكُونُ فِيهَا الْحِسَابُ وَالْجَزَاءُ ﴿فَسَيَعْلَمُونَ﴾ حِينَئِذٍ ﴿مَنْ هُوَ شَرٌّ مَكَانًا وَأَضَعْفُ جُنْدًا﴾ أَهْمُ أَمْ الْمُؤْمِنُونَ؟ الَّذِينَ قَالُوا عَنْهُمْ ﴿أَيُّ الْفَرِيقَيْنِ خَيْرٌ مَقَامًا وَأَحْسَنُ نَدِيًّا﴾، هَلْ هُمْ الْأَقْلُ أَنْصَارًا وَأَعْوَانًا، أَمْ الْمُؤْمِنُونَ؟ وَهَلْ هُمْ شَرٌّ مَكَانًا، أَمْ الْمُؤْمِنُونَ؟ سَيَرُونَ ذَلِكَ رَأَى الْعَيْنَ، وَتَنَكَّشَ الْحَقَائِقُ، وَيُظْهِرُ الصَّبْحُ لِكُلِّ ذِي عَيْنِينَ.

ولما ذكر سبحانه أن الظالمين يستدلون على نعيم الآخرة بنعيم الدنيا، أخبر في الآية التالية أن الأمر ليس كما زعموا، بل العمل الصالح هو عنوان السعادة وسبب الفوز والنجاة.

الْإِيمَانُ يَزِيدُ وَيَنْقُصُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَبْقَى

٧٦- ﴿وَيَزِيدُ اللَّهُ الَّذِينَ اهْتَدَوْا هُدًى وَالْبَاقِيَتِ الصَّالِحَتِ خَيْرٌ عِنْدَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ مَرَدًّا﴾

وكما أن الكفار يزدادون ضلالًا، فإن المؤمنين يزدادون هدى وبصيرة وإيمانًا، كما قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى﴾ [محمد: ١٧].

وقال تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي أُنْزِلَ فِي قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ لِيَزَادُوا إِيمَانًا مَعَ إِيمَانِهِمْ﴾ [الفتح: ٤].

وقال جل شأنه: ﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا﴾ [العنكبوت: ٦٩].

وقال أيضاً: ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا فَوَزَدْنَاهُمْ إِيْمَانًا وَهُمْ يُسْتَبْشِرُونَ﴾ [التوبة: ١٢٤].

وقال سبحانه: ﴿وَيَزِيدُ اللَّهُ الَّذِينَ اهْتَدَوْا هُدًى﴾.

وهكذا بين الله سبحانه أن مظاهر الحياة من المال والمتاع إلى فناء ولا بُدَّ، وأن الذي يبقى هو الإيمان والعمل الصالح، وما يقوم به العبد من الفرائض، والنوافل، والتسبيح، والتحميد، والتهليل، والتكبير.

والهدى يشمل: العلم النافع، والعمل الصالح، من صلاة وصيام وزكاة وحج وعمرة، وتلاوة وإحسان، الخ، فكل من سلك طريقاً في العلم والإيمان والعمل الصالح زاده الله منه، ويسره له، وسهله عليه، ووهب له أموراً أخرى لا تدخل تحت كسبه.

وكما أنه لا جزاء للكفار سوى النار، فإنه لا ثواب للمؤمنين سوى الجنة؛ فالأعمال الصالحة هي التي تبقى، ومظاهر الحياة هي التي تفتنى، والكافر يجازى على عمله الصالح، كبر الوالدين، والتنفيس عن المكروب، بسعة الرزق وكثرة المتاع.

وكان سائلاً سأل: أي الأعمال يبقى نعيمها وخيرها؟ فكان الجواب: ﴿وَالْبَقِيَّةُ الصَّالِحَةُ خَيْرٌ عِنْدَ رَبِّكَ ثَوَابًا﴾ أي: خير جزاء يوم القيامة، وخير عاقبة، وهذا معنى: ﴿وَخَيْرٌ مَرَدًّا﴾.

أخرج عبد الرزاق بسند صحيح إلى قتادة في قوله: ﴿وَالْبَقِيَّةُ الصَّالِحَةُ﴾ قال: لا إله إلا الله، والحمد لله، وسبحان الله، هن الباقيات الصالحات.

والمشهور: أن الباقيات الصالحات هي: سبحان الله، والحمد لله، ولا إله إلا الله، والله أكبر.

وقد ورد أن النبي ﷺ قال لأبي الدرداء ؓ: «خُذْهُنَّ يَا أبا الدرداء، قبل أن يُحَال بينك وبينهنَّ، فهن الباقيات الصالحات، وهن من كنوز الجنة».

وكان أبو الدرداء يقول إذا ذُكِرَ هذا الحديث: لأهللنَّ الله، ولأكبرنَّ الله، ولأسبحنَّه، حتى إذا رأيته الجاهل ظنني مجنوناً^(١).

(١) يُنْظَرُ فِي هَذَا: «تفسير ابن عطية» (٤/ ٣٠) و«تفسير عبد الرزاق». (٢/ ١٢) و«سنن ابن ماجه» برقم (٣٨١٣).

ورود عن أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال لأصحابه يوماً: «خُذُوا جُسُكُم» قالوا: يا رسول الله، أَمِنْ عَدُوٍّ حَضَرَ؟ قال: «مِنَ النَّارِ» قالوا: ما هي يا رسول الله؟ قال: «سَبْحَانَ اللَّهِ، وَلَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، وَاللَّهُ أَكْبَرُ، وَهُنَّ الْبَاقِيَّاتُ الصَّالِحَاتُ»^(١).

وقد جاءت روايات في شأن الباقيات الصالحات بزيادة ونقصان عن الكلمات السابقة، فكل ما كان من هذا الباب فهو داخل فيها.

وفي الآية ارتقاء بشارة المؤمنين بالنجاة من النار، إلى بشارتهم برفع الدرجات، أي: أن الباقيات الصالحات، خير من السلامة من العذاب الذي مُني به مَنْ هُمْ شَرُّ مَكَانًا وَأَضْعَفُ جَنْدًا، وسيظهر يوم لقاء الله تعالى أن مآل المسلمين على ضعفهم، خير من مآل غيرهم على ما هم فيه من الدنيا من مال ومتاع.

مَتَاعُ الدُّنْيَا لَا يَسْتَلْزِمُ مَتَاعَ الْآخِرَةِ

٧٧- ﴿أَفَرَأَيْتَ^(٢) الَّذِي كَفَرَ بِآيَاتِنَا وَقَالَ لَأُوتِيَنَّكَ مَالًا وَّوَلَدًا^(٣)﴾

يضرب الله سبحانه مثلاً لكل كافر نزلت فيه هذه الآية، وهو ينكر البعث والنشور، وَيَسْخَرُ بما في الآخرة من نعيم، والكلام متصل بقوله تعالى: ﴿وَيَقُولُ الْإِنْسَانُ إِذَا مَا مِئْتُ لَسَوْفَ أُخْرَجُ حَيًّا^(٤)﴾ فقايل هذا الكلام مفتون بدنياه، ومغرور بها فقد جمع بين الكفر بآيات الله وبين أمانيه بأنه سيؤتى في الآخرة مالا وولداً، فالآية وإن كانت قد نزلت في كافر معين، إلا أنها تشمل كل كافر زعم أنه على حق، وأنه من أهل الجنة:

وفي الصحيحين وغيرهما: أن خَبَّابَ بنِ الْأَرْتِّ رضي الله عنه كان حَدَّادًا (قِيَّنًا) يصنع السيوف

(١) «سنن النسائي الكبرى» (١٠٦١٧) والطبراني في «الصغير» (٤٠٧) والحاكم (٥٤١/١) والبيهقي في «الدعوات» (١١١).

(٢) قرأ الأصبهاني عن ورش وقالون وأبو جعفر بتسهيل الهمزة الثانية من (أفرأيت) وحذفها الكسائي، وللأزرق عن ورش فيها، التسهيل والإبدال.

(٣) قرأ حمزة والكسائي بضم الواو وسكون اللام من (وُلْدًا) جمع وَلَدٌ، والباقون بفتحهما، مفرد قام مقام الجمع، وقيل: هما لغتان بمعنى واحد، وذلك في المواضع الثلاثة هنا وفي الآيتين: [٨٨، ٩١].

ونحوها، وكان صائغاً أيضاً، فصنع سيفاً للعاص بن وائل السهمي، وذهب إليه يطلب منه حقه، فقال العاص لخبّاب: لا أعطيك حتى تكفر بمحمد، قال خباب: والله لا أكفر بمحمد حتى تموت ثم تبعث، قال العاص: وإني لمبعوث بعد الموت؟ قال: نعم، قال: فإنه سيكون لي شأن هناك، أي: مال وولد، فأتني يومئذ، فسأعطيك وأقضي لك دينك^(١).

وعن ابن عباس رضي الله عنه أن رجلاً من الصحابة ذهبوا إلى العاص بن وائل يطلبونه في ديون لهم، فقال لهم: أستم تزعمون أن في الجنة ذهباً، وفضة، وحريراً، ومن كل الثمرات؟ قالوا: بلى، قال: فإن موعدكم الآخرة، فوالله لأوتين مالاً وولداً، ولأوتين مثل كتابكم الذي جئتم به^(٢).

وهكذا فإن هذا الكافر لم يكتف بكفره، بل قال بكل تبجح وإصرار على الباطل، واستهزاء وتهكم بالدين الحق، إنه سيعطى في الآخرة مثل ما في الدنيا من المال والولد.

وقد بدأت الآية بالتعجب من شأن هذا الكافر وأمثاله من كل من يجحد آيات الله، ويكفر بخاتم المرسلين، ويزعم أن الله تعالى سيعطيه في الآخرة، المال والبنين، والثروة والمتاع...، وهذا كما قال تعالى على لسانه في آية أخرى: ﴿وَلَكِنْ رُجِعْتُ إِلَىٰ رَبِّي إِنَّ لِي عِنْدَهُ لَلْحُسْنَىٰ﴾ [فصلت: ٥٠] أي: وكما أنا في الدنيا صاحب مال ومتاع فسأكون في الآخرة كذلك، فسيعد الحظ في الدنيا سعيد الحظ في الآخرة، على حدّ زعمه.

وقد أنزل الله سبحانه هذه الآية يبين فيها ما يقوله الكافر تهكماً وسخرية بالبعث والحساب والجزاء على وجه التعجب.

﴿أَفَرَأَيْتَ الَّذِي كَفَرَ بِآيَاتِنَا﴾ أعلمت -يا محمد- وعجبت من هذا الكافر (العاص بن وائل) وأمثاله؟! إذ كفروا بآيات الله، وكذبوا بها، وقال هذا الكافر: لأعطين في الآخرة أموالاً وأولاداً، قال تعالى:

(١) يُنظر الحديث في «المسند» (١١١/٤) برقم (٢١٠٦٨) بإسناد صحيح على شرط الشيخين والبخاري برقم (٢٠٩١)، (٢٢٧٥)، (٢٤٢٥)، (٤٧٣٢)، (٤٧٣٣) ومسلم برقم (٢٧٩٥) و«تفسير عبد الرزاق» (١٣/٢) و«سنن الترمذي» برقم (٣١٦٢) وقال: حسن صحيح، والبيزار (٢١٢٤) والطبري (٦١٧/١٥) وابن حبان (٤٨٨٥) والطبراني (٣٦٥١).

(٢) «تفسير الطبري» (١٠١/١٦) والألوسي (١٢٩/١٦) والقرطبي (١٦١/١١) وأخرجه ابن أبي حاتم وابن مردويه.

٧٨- ﴿أَطْلَعَ الْغَيْبَ أَمْ أَخَذَ عِنْدَ الرَّحْمَنِ عَهْدًا﴾ (٧٨)

يقول سبحانه في الرد على كل متبجح مغرور، يفترى على الله الكذب: ﴿أَطْلَعَ الْغَيْبَ﴾ فرأى أن له مالا ولداً عند الله تعالى؟! هل عرف ما في علم الله؟! وهل قرأ ما في اللوح المحفوظ، وعلم أنه سيكون صاحب مال وولد يوم القيامة؟! أم أنه اتخذ عهداً عند الرحمن أن يدخله الجنة، فتقنن من ذلك، ولا سبيل له لمعرفة إلا بأحد أمرين: المكاشفة أو المشاهدة، والاطلاع على الغيب، ولا يكون العهد عند الله إلا بالإيمان والعمل الصالح، وهذا لا إيمان له، ولا عمل يرجى له ثواب، ولا عهد له عند الله، وما دام كل من الأمرين لم يتحقق فإن ما قاله مجرد كذب وافتراء، وتقوّل على الله تعالى.

وما ذكرته الآية، من عدم الاطلاع على الغيب، وعدم اتخاذ عهد عند الله بما قال، كلاهما حاصل، فينتفى هذان الأمران، ويُعلم بذلك بطلان الدعوى. قال تعالى:

٧٩، ٨٠- ﴿كَلَّا سَنَكْتُبُ مَا يَقُولُ وَنَمُدُّ لَهُ مِنَ الْعَذَابِ مَدًّا﴾ (٧٩) وَنَرِثُهُ مَا يَقُولُ وَيَأْتِينَا فَرْدًا

قال سبحانه في الرد عليه وعلى أمثاله: كَلَّا، ليس الأمر كما زعم هذا الكافر، فلا علم له بالغيب، ولا عهد له عند الله، وسنكتب ما يقول من كذب وافتراء على الله، فنسجل عليه قوله، ونحاسبه عليه حساباً عسيراً، ونزيده في الآخرة من أنواع العقوبات، وكما ازداد من الغي والضلال في الدنيا، نزيده من العذاب، ونضاعفه له يوم القيامة، فكان الإمداد بالمال والولد؛ بسبب كفره وفجوره، وافتراءه الكذب على الله سبحانه، فتقوله مكتوب محفوظ ليجازى عليه ويعاقب.

وهذه أول مرة يُذكر فيها لفظ: ﴿كَلَّا﴾ في القرآن، فالنصف الأول من القرآن لا يوجد فيه لفظ: كَلَّا، وهي إذا ذُكرت في سورة تكون دلالة على أن هذه السورة نزلت على رسول الله ﷺ في مكة، وهذا من باب الاستقراء والتبع.

وكل ما خلفه الكافر وتركه وراء ظهره من المال والولد في الدنيا، وما كان يفتخر به، فإنه يتركه لغيره، ويرثه الآخرون، ثم يأتيها يوم القيامة فرداً وحده بلا مال ولا ولد، وهذا معنى ﴿وَنَرِثُهُ مَا يَقُولُ﴾ أي: أن ما كان يقوله الكافر في الدنيا من أنه سيؤتاه في الآخرة من المال والولد سنسلبه إياه، فيخرج من الدنيا خالي الوفاض، ليس معه في قبره سوى كفته،

فإذا كان يوم القيامة فإنه سيأتينا بعد بعثته فردًا، بدون مال، ولا ولد، ولا خدم، ولا حشم، ولا منصب، ولا جاه، ولا نصير له، ولا سند.

والقرآن قد أوجز ولم يُعِدْ ما قاله الكافر من الإلحاد والتهكم على الإسلام، وما قاله عن المال والولد، واكتفى بأن الله تعالى سيحاسبه ويجازيه على قوله وفعله.

تَنْصُلُ الْمُعْبُودِ بِالْبَاطِلِ مِمَّنْ عَبْدُهُ، فِي سَاحَةِ الْحَشْرِ

٨١، ٨٢- ﴿وَاتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ آلِهَةً لِيَكُونُوا لَهُمْ عِزًّا ۖ كَلَّا سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا﴾ (٨٢)

أي: واتخذ الكفار المشركون آلهة يعبدونها من دون الله، فقد عبدوا الملائكة، وعبدوا الجن، وعبدوا غيرهم؛ ليكونوا لهم أعوانًا يعتزون بهم، وأنصارًا ينصرونهم، وشفعاء يقربونهم إلى الله تعالى يوم القيامة على حد زعمهم.

قال سبحانه في الرد عليهم: كَلَّا، الأمر ليس كذلك، فلن تكون الآلهة لهم أعوانًا ولا أنصارًا، ولن يقربوهم من الله سبحانه، ولن يشفعوا لهم عنده، وإنما ستكفر هذه الآلهة بعبادتهم لها، أي: سيجحدون عبادتهم لهم وينكرونها؛ وذلك لأن المعبود يكفر بالعابد في الآخرة، أي: يكذبه، ويخاصمه، ويتبرأ منه:

١- كما قال تعالى: ﴿ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَمَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ وَلَيَعْلَنَ بَعْضُكُم بَعْضًا﴾ [العنكبوت: ٢٥].

٢- وقال سبحانه: ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ مَنْ لَا يَسْتَجِيبُ لَهُ إِلَى يَوْمِ الْقِيَمَةِ﴾ فهو لا يعرف عنه شيئًا، وهو في غفلة عن عبادته وهذا معنى: ﴿وَهُمْ عَنْ دُعَائِهِمْ غَفِلُونَ وَإِذَا حُشِرَ النَّاسُ كَانُوا لَهُمْ أَعْدَاءً﴾ أي: أضدادًا لهم، يقولون: ما كانوا إيانا يعبدون ﴿وَكَانُوا بِعِبَادَتِهِمْ كَافِرِينَ﴾ [الأحقاف: ٦٥].

٣- وهؤلاء الشركاء لا يملكون لمن عبدوهم قليلًا ولا كثيرًا من النفع أو الضرر.

قال سبحانه: ﴿وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ مَا يَمْلِكُونَ مِنْ قِطْمِيرٍ﴾ (٣٣) ﴿إِنْ تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا دُعَاءَكُمْ وَلَوْ سَمِعُوا مَا اسْتَجَابُوا لَكُمْ وَيَوْمَ الْقِيَمَةِ يَكْفُرُونَ بَشْرِكِكُمْ وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ﴾ (٣٤) [فاطر].

٤- وعن تبرؤ المعبودين من العابدين يقول سبحانه حكاية عنهم: ﴿تَبَرَّأْنَا إِلَيْكَ مَا كَانُوا إِيَّانَا يَعْبُدُونَ﴾ [القصص: ٦٣].

٥- ويقول أيضاً: ﴿وَقَالَ شُرَكَائُهُمْ مَا كُنْتُمْ إِثْنَا تَعْبُدُونَ﴾ ﴿١٨﴾ فَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ إِن كُنَّا عَنْ عِبَادَتِكُمْ لَغْفِيلِينَ﴾ ﴿٢٩﴾ [يونس].

٦- والمعبودون يكذبون العابدين في دعواهم أنهم عبدوهم ﴿وَإِذَا رَأَى الَّذِينَ أَشْرَكُوا شُرَكَاءَهُمْ قَالُوا رَبَّنَا هَؤُلَاءِ شُرَكَائُنَا الَّذِينَ كُنَّا نَدْعُوا مِنْ دُونِكَ فَأَلَقُوا إِلَيْهِمْ الْقَوْلَ إِنَّكُم لَكَاذِبُونَ﴾ ﴿٨١﴾ [النحل].

٧- والعابد ينكر أنه قد عبد الآلهة في الدنيا، ويُقسم على ذلك، كما قال ﷺ حكاية عنهم: ﴿وَاللَّهُ رَبَّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾ [الأنعام: ٢٣]. فهم يتبرؤون من عبادتهم، والله سبحانه يكذبهم في هذا فيقول: ﴿أَنْظُرْ كَيْفَ كَذَبُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ﴾ ﴿٢٤﴾ [الأنعام].

وهذا معنى ﴿كَلَّا سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ﴾ أي: ستنكر الآلهة عبادة المشركين لهم ﴿وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا﴾ يتقلبون لهم أعداء.

وواو الفاعل التي في ﴿سَيَكْفُرُونَ﴾ ترجع إلى المعبودات التي كانوا يعبدونها من دون الله، ويرجح الضمير الذي بعده في قوله تعالى: ﴿وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا﴾.

وقيل: إن الواو ترجع إلى العابدين، وأنهم الذين يكفرون بعبادتهم لشركائهم وينكرونها. وآيات القرآن الكريم تشير إلى أن كلاً من العابد والمعبود يتبرأ من الآخر، ويلقي باللائمة عليه كما في الآيات السابقة.

هذا: ولما لم يعتصم الكافرون بربهم، ولم يتمسكوا بحبله، بل أشركوا معه غيره، سلط الله عليهم الشياطين، تدفعهم إلى الكفر، وتسوقهم إلى المعاصي، قال تعالى:

٨٣، ٨٤- ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّا أَرْسَلْنَا الشَّيَاطِينَ عَلَى الْكَافِرِينَ تَؤْهُمْ أَرَا﴾ ﴿٨٣﴾ فَلَا تَعَجَلْ عَلَيْهِمْ إِنَّمَا نَعُدُّ لَهُمْ عَذَابًا

ألم تعلم -أيها الرسول- أنا سلطنا الشياطين على الكافرين بالله ورسله، تحركهم إلى المعاصي، وتهيجهم، وتزعجهم، وتصرفهم عن الطاعة، وتدفعهم دفعاً إلى ارتكاب الشهوات والشبهات والمفاسد والمنكرات، كما قال تعالى: ﴿وَمَنْ يَعْسُ عَنْ ذِكْرِ الرَّحْمَنِ نُقِصْ

لَمْ شَيْطَانًا فَهُوَ لَمْ قَرِينٌ ﴿٣٦﴾ وَإِنَّهُمْ لَيَصُدُّونَهُمْ عَنِ السَّبِيلِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ مُّهْتَدُونَ ﴿٣٧﴾ [الزخرف].

وقال سبحانه: ﴿وَقَيَّضْنَا لَهُمْ قُرَنَاءَ فَزَيَّنُوا لَهُمْ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ﴾ [فصلت: ٢٥].

وقال جل شأنه: ﴿وَلِخَوْنَتِهِمْ يَمُدُّونَهُمْ فِي الْغَيِّ ثُمَّ لَا يُقْصِرُونَ﴾ [الأعراف].

والأز: هو التحريك بقوة، والتحريض على فعل المعاصي.

فتشرب قلوبهم حب الباطل ومقاومة الحق، وذلك لأن ولايتهم للشيطان جعلت له عليهم سلطانا، كما قال تعالى ﴿إِنَّهُمْ لَيْسَ لَهُمُ سُلْطَانٌ عَلَى الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ [٩٩] ﴿إِنَّمَا سُلْطَانُكُمْ عَلَى الَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُ وَالَّذِينَ هُمْ بِهِ مُشْرِكُونَ﴾ [النحل].

وقال سبحانه ﴿إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ﴾ [إسراء: ٦٥].

ومادام الأمر كذلك، فلا تستبطئ عقابهم ولا يضق صدرك عليهم، ولا تستعجل نزول العذاب بهم، فنحن نعد أيامهم وأعوامهم، ونعد أنفاسهم عدا، ونمد لهم في النعيم وقبوح أعمالهم، ﴿إِنَّمَا نَعْدُ لَهُمْ عَذَابٌ﴾ أي: نُنظِّرهم ونؤجلهم إلى يوم القيامة:

١- كما قال تعالى: ﴿وَمَا تُؤَخِّرُهُ إِلَّا لِأَجَلٍ مُّعَدُّورٍ﴾ [هود].

٢- وحين ينزل بهم العذاب فإنه سيحل بهم ولا يُصرف عنهم، كما قال سبحانه: ﴿وَلَكِنْ أَخْرَأْنَا عَنْهُمْ الْعَذَابَ إِلَيَّ أَتُمِوْا مَعْدُودَةَ لِقَوْلِكُمْ مَا يَحْسِبُهُ آلَا يَوْمَ يَأْتِيهِمْ لَيْسَ مَصْرُوفًا عَنْهُمْ﴾ [هود: ٨].

٣- وقال تعالى: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ غَفِيْلًا عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الْأَبْصَارُ﴾ [إبراهيم: ٤٢].

٤- وقال جل شأنه: ﴿تُؤْتِيهِمْ لَيْلًا ثُمَّ تَضَضُّهُمْ إِلَىٰ عَذَابٍ غَلِيظٍ﴾ [لقمان].

٥- وقال سبحانه: ﴿فَهَلِ الْكَافِرِينَ أَنَّهُمْ رَوْدًا﴾ [الطارق].

٦- وقال أيضا: ﴿قُلْ تَمَتَّعُوا فَإِنَّ مَصِيرَكُمْ إِلَى النَّارٍ﴾ [إبراهيم: ٣٠].

فإذا لم ينجح فيهم الإمهال وعدم تعجيل العقاب لهم، أخذناهم أخذ عزيز مقتدر.

الْمُتَّقُونَ وَالْمُجْرِمُونَ فِي طَرِيقِهِمْ إِلَى سَاحَةِ الْعَرْضِ

٨٥، ٨٦- ﴿يَوْمَ نَخْشُرُ الْمُتَّقِينَ إِلَى الرَّحْنِ وَفَدًّا ۖ ﴿٨٥﴾ وَنَسُوقُ الْمُجْرِمِينَ إِلَى جَهَنَّمَ وَرَدًّا ۖ ﴿٨٦﴾﴾

ثم بيّن سبحانه عاقبة المتقين والمجرمين في يوم المحشر؛ حيث يُحشر المتقون الذين اتقوا الشرك والبدع والمعاصي، إلى الرحمن وفدًا على هيئة الركب مُعَزَّزِينَ مَكْرَمِينَ، كما يفد الوفود على الملوك، فيلقونهم بالحفاوة والتكريم، كما قال عليٌّ ؑ: ما أرى الوفد إلا الركب يا رسول الله.

وأما المجرمون، فإنهم يساقون إلى جهنم عطاشًا متوجهين إلى أعظم سجن وأفظع عقوبة، يعلوهم الذل والصغار، وهم في حال ظمأ ونصب، يستغيثون فلا يُغاثون، ويَدْعُونَ فلا يُجابون، ويستشفعون فلا يُشفع لهم، فالمتقون يفدون إلى الرحمن والمجرمون يساقون إلى جهنم:

١- جاء في الحديث عن عليٍّ ؑ عنه ؑ: «إنهم يحشرون ركبانًا على نُوقٍ لها أجنحة ورحائل من ذهب»^(١). يركب كلُّ منهم ما يحب أن يركبه.

٢- وجاء في الأثر: عن أبي سعيد الأشج عن ابن مرزوق: أن المؤمن يخرج من قبره فيستقبله صاحب وجه حسن، وهيئة مضيئة، ومظهر جميل، ورائحة طيبة، فيقول له: ألا تعرفني؟ يقول: لا أعرفك، فيقول له: أنا عملك الصالح، هكذا كنت في الدنيا، حسن العمل، طيبه، فطالما ركبك في الدنيا، فهلّم اركبني، فيركبه^(٢).

٣- وفي الصحيحين وغيرهما: عن أبي هريرة ؑ أن رسول الله ﷺ قال: «يُحشر الناس على ثلاث طرائق: راغبين، وراهبين، واثنان على بعير، وثلاثة على بعير، وأربعة على بعير، وعشرة على بعير، وتَحْشُرُ بقيتهم النار، تَقِيلُ معهم حيث قالوا، وتَبِيتُ معهم

(١) يُنْظَرُ: «زوائد المسند» (١/١٥٥) و«تفسير الطبري» (١٦/٩٦) من حديث النعمان بن سعد عن عليٍّ ؑ، عند عبد الله بن أحمد بن حنبل، ورواه مطولاً ابن أبي الدنيا في «صفة الجنة» برقم (٧٠).

(٢) نقله ابن كثير عن ابن أبي حاتم (٥/٢٦٣).

حيث باتوا، وتصبح معهم حيث أصبحوا، وتُمسي معهم حيث أمسوا^(١).

وهذا يكون من المحشر إلى الجنة أو إلى النار والعياذ بالله.

٤- وعن أبي هريرة أيضاً أن رسول الله ﷺ قال: «يُحشر الناس يوم القيامة ثلاثة أصناف: صنفاً مشاة، وصنفاً ركباناً، وصنفاً على وجوههم»، قيل: يا رسول الله، كيف يمشون على وجوههم؟ قال: «إن الذي أمشاهم على أقدامهم، قادر على أن يمشيهم على وجوههم، أما إنهم يتقون بوجوههم كل حدب وشوك، وكل مرتفع من الأرض»^(٢).

قال تعالى: ﴿أَفَمَنْ يَبْقَىٰ بِوَجْهِهِ سُوءَ الْعَذَابِ يَوْمَ الْقِيَمَةِ﴾ [الزمر: ٢٤].

وقال سبحانه: ﴿وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ عُمًى وَبِكَمَا وَصَّأْنَا مَاؤُهُمْ جَهَنَّمَ كُلَّمَا خَبَتْ زِدْنَاهُمْ سَعِيرًا﴾ [الإسراء: ٩٧].

والمعنى: فلا تستعجل -يا محمد- بطلب العذاب إلى الكافرين، إنما نحصي أعمارهم وأعمالهم إحصاء لا تفريط فيه ولا تأخير.

والفرق بين نهي الله تعالى لنبيه عن استعجال نزول العذاب بالكفار هنا، وفي قوله تعالى: ﴿فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُو الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ وَلَا تَسْتَعْجِلْ لَهُمْ﴾ أي لا تستعجل نزول العذاب بهم ﴿كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ لَمْ يَلْبِسُوا إِلَّا سَاعَةً مِّنْ نَّهَارٍ﴾ [سورة الأحقاف: ٣٥]. الفرق بينهما أن العذاب المنهي عن استعجاله هنا: هو نزول العذاب الدنيوي بهم، بدليل ﴿إِنَّمَا نَعْدُ لَهُمْ عَذَابٌ﴾.

أما العذاب الذي في سورة الأحقاف فهو العذاب الأخروي، بدليل ختام الآية، وهو عن يوم القيامة، أي: أن العذاب سينزل بهم في وقت قريب. وقد فسر بعضهم نزول العذاب بهم في الدنيا، بما كان يوم غزوة بدر، بالنسبة للكفار المعاصرين لنزول هذه الآية. والآية عامة في كل من لم يؤمن بالله ورسوله، وأنه سينال عقابه في الآخرة ولا بد،

(١) «صحيح البخاري» برقم (٦٥٢٢) و«صحيح مسلم» برقم (٢٨٦١) والنسائي (٢٠٨٤).

(٢) أخرجه أحمد في «المسند» (٨٦٤٧، ٨٧٥٥)، قال محققوه: حديث حسن لغيره، وأخرجه الترمذي (٣١٤٢) والطبراني (٢٥٦٦) ويشهد للقسم الأخير منه حديث أنس في البخاري (٤٧٦٠) ومسلم (٢٨٠٦).

سواء أعذب في الدنيا أم لا ، فوقت إهلاكهم قد اقترب .

والمعنى : فلا تستعجل وقوع العذاب بهم ؛ فإن الله تعالى قد حدد لهم أجلاً معدوداً ، فإذا انتهى ذلك الأجل جاءهم العذاب ، كما قال تعالى : ﴿ وَنَسْجِلُوكَ بِالْعَذَابِ وَلَوْلَا أَجَلٌ مُّسَمًّى لِّجَاءِ هَؤُلَاءِ الْعَذَابِ وَلِيَأْتِيَنَّهُمْ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ٥٣ ﴾ يَسْجِلُوكَ بِالْعَذَابِ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ ٥٤ ﴾ يَوْمَ يَغْشَاهُمْ الْعَذَابُ مِنْ فَوْقِهِمْ وَمِنْ تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ وَيَقُولُ ذُوقُوا مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ٥٥ ﴾ [العنكبوت].

أما المجرمون الذين ماتوا على الكفر والشرك فإنهم يساقون إلى النار سوقاً شديداً وهم مشاة عطاش ، كما تساق الإبل إلى الحياض ، وموارد الماء ، وهي عطشى ، يبحثون عن الماء فلا يجدونه .

شُرُوطُ الشَّفَاعَةِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ

٨٧- ﴿لَا يَمْلِكُونَ الشَّفَاعَةَ إِلَّا مَنْ اتَّخَذَ عِنْدَ الرَّحْمَنِ عَهْدًا ٨٧﴾

وهؤلاء الكفار لا يملكون الشفاعة لأحد ، ولا يملك أحد أن يشفع لهم ، إنما يملكها المؤمنون الذين لهم عهد الإيمان بالله ورسله ﴿لَا يَمْلِكُونَ الشَّفَاعَةَ﴾ أي : لا يملك كافر أن يشفع لغيره ، ولا أن يشفع فيه غيره ﴿يَوْمَئِذٍ لَا نَنْفَعُ الشَّفَاعَةَ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ وَرَضِيَ لَهُ قَوْلًا ١٠٩﴾ [طه] . ﴿قُلْ لِلَّهِ الشَّفَاعَةُ جَمِيعًا﴾ [الزمر : ٤٤]

وإنما يملك الشفاعة المؤمنون الذين رضي الله عنهم وقبل شفاعتهم ، فلم يبق عند الله عهد وحظوة بمقتضى إيمانهم وعملهم الصالح ﴿إِلَّا مَنْ اتَّخَذَ عِنْدَ الرَّحْمَنِ عَهْدًا﴾ بذلك ، وهم المؤمنون بالله ورسله .

فالمجرمون لا يستحقون أن يشفع فيهم شافع يخلصهم مما هم فيه من الهول والعذاب ، كما قال تعالى : ﴿فَمَا نَنْفَعُهُمْ شَفَاعَةُ الشَّافِعِينَ ٤٨﴾ [المدثر].

وقال أيضاً : ﴿مَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ حَاسِبٍ وَلَا شَفِيعٍ يُطَاعُ﴾ [غافر : ١٨].

ومن باب أولى ، فإن المجرمين لا يشفعون في غيرهم ، كما قال تعالى : ﴿وَكَمْ مِنْ مَلَكٍ فِي السَّمَوَاتِ لَا تُغْنِي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئًا إِلَّا مِنْ بَعْدِ أَنْ يَأْذَنَ اللَّهُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَرْضَى ٦٦﴾ [النجم].

وقال سبحانه : ﴿مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ ٢٥٥﴾ [البقرة : ٢٥٥].

وقال أيضًا: ﴿وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ارْتَضَى﴾ [الأنبياء: ٢٨].

فالكافر لا يشفع لغيره، ولا غيره يشفع له، وشفاعة النبي ﷺ تكون لأهل الكبائر من أمته. والعهد المذكور في الآية هو توحيد الله تعالى، وامثال أمره، واجتناب نهيه، فهو الإيمان والعمل الصالح.

وجاء في الحديث: عن ابن مسعود ؓ، أن النبي ﷺ قال لأصحابه ذات يوم: «أبعجز أحدكم أن يتخذ كل صباح ومساء عند الله عهدًا؟» قالوا: وكيف ذلك؟ قال: «يقول كل صباح ومساء: اللهم فاطر السموات والأرض، عالم الغيب والشهادة، إني أعهد إليك بأني أشهد أن لا إله إلا أنت وحدك لا شريك لك، وأن محمدًا عبدك ورسولك، وإنك إن تكلمني إلى نفسي تُقرّبني من الشر، وتباعدني من الخير، وإني لا أثق إلا برحمتك، فاجعل لي عهدًا تُوفّينيهِ يوم القيامة، إنك لا تخلف الميعاد، فإن قال ذلك طُبع عليه بطابع، ووُضع تحت العرش، فإذا كان يوم القيامة نادى مناد: أين الذين كان لهم عند الله عهد فیدخلون الجنة»^(١).

وعن أبي هريرة ؓ أن رسول الله ﷺ قال: «من جاء بالصلوات الخمس يوم القيامة قد حافظ على وضوئها، ومواقبتها، وركوعها، وسجودها، لم ينقص منه شيئًا، جاء وله عند الله عهد ألا يعذبه، ومن جاء قد نقص منها شيئًا فليس له عند الله عهد، إن شاء رحمه، وإن شاء عذبه»^(٢).

الْكُونُ كُلُّهُ يَفْرَعُ مِنْ شَرِكِ ابْنِ آدَمَ بِاللَّهِ تَعَالَى

٨٨، ٨٩- ﴿وَقَالُوا أَخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا﴾ ﴿لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئًا إِذَا﴾ ﴿٨٩﴾

ومهمة سورة مريم بالدرجة الأولى غرسُ عقيدة التوحيد في نفوس الناس، ونفْيُ الشريك والولد عن الله سبحانه، ففي مقدمة السورة تحدثت عن الأسطورة والخرافة التي

(١) أخرجه ابن أبي شيبة (٣٢٩/١٠) وابن أبي حاتم والطبراني في «الكبير» والحاكم وصححه (٣٧٧/٢) وابن مردويه، قال الهيثمي في «مجمع الزوائد» (١٨٤/١٠): فيه المسعودي وهو ثقة ولكنه اختلط، وبقيّة رجاله ثقات.

(٢) رواه الطبراني في «الأوسط» برقم (٤٠١٢).

لدى النصارى المشركين، وهي نسبة عيسى عليه السلام إلى الله تعالى، وفي نهايتها تُعنى السورة أيضًا بهذا الأمر في هذه الآيات التي معنا.

والمشركون الذين يقولون: اتخذ الله ولدًا، هم: اليهود الذين يقولون: عزيز ابن الله، والنصارى الذين يقولون: المسيح ابن الله، والمشركون من العرب الذين يقولون: الملائكة بنات الله، وهؤلاء جميعًا قالوا: اتخذ الرحمن ولدًا.

لقد جئتم أيها الضالون المضلون بقولكم هذا، شيئًا فظيعًا عظيمًا منكرًا، تقشعر له الأبدان، فالإدُّ: هو الأمر الشنيع الفظيع، والداهية الكبيرة، فهو شيء مفترى، وجُرم عظيم، وأمر شنيع، وداهية عظيمة.

رُوي أنه أول ما قيلت هذه المقالة: شاك الشجر، واستعرت جهنم، وغضبت الملائكة من هذا المنكر العظيم والمقالة الكبيرة. قال تعالى:

٩٠ - ﴿تَكَادُ^(١) السَّمَوَاتُ يَنْفَطَرْنَ^(٢) مِنْهُ وَتَنْشَقُّ^(٣) الْأَرْضُ وَخَرُّ^(٤) الْجِبَالُ هَذَا

تكاد السموات تصدع من فظاعة هذا القول، والأرض تنشق، والجبال تسقط سقوطًا شديدًا، غضبًا لله تعالى الذي نسبوا له الولد.

جاء في الأثر عن ابن مسعود رضي الله عنه: أن الجبل ينادي الجبل باسمه ويسأله: هل مرَّ بك اليوم ذاكر لله تعالى، فيقول: نعم ويستبشر، قال راويه -عون بن عبد الله: إن الجبال للخير أسمع، أفتسمع الزور والباطل، ولا تسمع غيره؟! ^(٣).

(١) قرأ نافع والكسائي بياء التذكير في (يكاد)، والباقون بياء التأنيث، وجاز تذكير الفعل وتأنيثه؛ لأن الفاعل مؤنث غير حقيقي.

(٢) قرأ نافع وابن كثير وحفص والكسائي وأبو جعفر بياء بعد الياء مع فتح الطاء وتشديدها في (ينفطرن)، على أنه مضارع تفطر، بمعنى: تشقق، وقرأ الباقر بنون ساكنة بعد الياء، مع كسر الطاء مخففة هكذا (يَنْفَطِرْنَ) مضارع انفطر، بمعنى: انشق.

(٣) رواه أبو الشيخ في «العظمة» برقم (١١٧٦، ١١٨٥) ورواه الطبراني في «المعجم الكبير» برقم (١٠٧٩، ٨٥٤٢) من طريق سعيد بن منصور عن سفيان، عن مسعر، عن عون، عن ابن مسعود، وقال الهيثمي في «مجمع الزوائد»: (١٧٩/١٠) رجاله رجال الصحيح، وأخرجه ابن المبارك في «الزهد» (٣٣٣) وابن أبي شيبة (٣٠٥/١٣) والبيهقي في «الشعب» (٥٣٧، ٥٣٨).

وعن أبي موسى عليه السلام أن رسول الله ﷺ قال: «ما أحد أصبر على أذى يسمعه من الله، إنه يشرك به، ويُجعل له ولد، وهو يعافيه، ويدفع عنهم، ويرزقهم»^(١).

قال ابن عباس رضي الله عنه: إن الشرك فزعت منه السموات والأرض والجبال، وجميع الخلائق إلا الثقلين، وكادت أن تزول، وغضبت الملائكة، واستعرت جهنم حين قالوا: اتخذ الله ولدًا^(٢).

تكاد السموات تشقق، والأرض تتصدع، والجبال تسقط من فضاة هذا الجرم العظيم، الذي يهدم أركان الدين وقواعده؛ لأن هذه الكائنات فُطِرت على التوحيد، فعجبت من فجرة بني آدم إعظامًا لله سبحانه، فلو أن جميع الكائنات وُضعت في كفة، ولا إله إلا الله في كفة، لرجحت بهن كفة لا إله إلا الله، وتفتّر السماء: انشاقها، وهو مرادف لتشقق الأرض، وجيء به لدفع ثقل تكرار اللفظ، والهدؤ: هو الهدم والفرق السريع للجبال، وكل ذلك بسبب:

٩١، ٩٢- ﴿أَنْ دَعَا لِلرَّحْمَنِ وَلَدًا ۖ وَمَا يَنْبَغِي لِلرَّحْمَنِ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَدًا ۚ﴾ (٩٢)

أي: أن هذا كله حدث بسبب دعواهم الولد لله سبحانه، وهي أعظم فرية افتراها الإنسان.

وهذا نفى على جهة التنزيه لله تعالى، أي: ما يليق ولا يصح بالرحمن اتخاذ الولد، ولا أن يوصف به، فهو الغني سبحانه، وهو الخالق الذي لا شبيه له، فكيف يكون له ولد؟ لأن اتخاذ الولد يكون عن حاجة ونقص، ويكون الولد من جنس الوالد، والله تعالى لا شبيه له ولا نظير، والله هو الغني الحميد عن الشريك والمعين والولد، وجميع الخلق عبيد لله سبحانه.

٩٣- ﴿إِنْ كُلُّ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا آتَى الرَّحْمَنِ عَبْدًا ۚ﴾ (٩٣)

أي: إن كل من في السموات والأرض من الملائكة، ومن إنس وجن إلا آتى الرحمن يوم القيامة خاضعًا ذليلاً مقرًا بعبوديته لله تعالى، والعبودية تنافي البنوة؛ لأن بنوة الإله،

(١) «المسند» (٤٠٥/٤) برقم (١٩٥٨٩) والبخاري برقم (٦٠٩٩، ٧٣٧٨) ومسلم برقم (٢٨٠٤).

(٢) أخرجه الطبري بسند حسن عن علي بن أبي طلحة عن ابن عباس (٦٣٥/١٥) وابن أبي حاتم كما في تعليق التعليق (٢٤٩/٤).

جزء من الإله، قال تعالى: ﴿يَدْعُ السَّمَنَاتِ وَالْأَرْضِ أَنْ يَكُونَ لَهُ وَلَدٌ وَلَوْ تَكُنْ لَهُ صَاحِبَةٌ وَخَلَقَ كُلُّ شَيْءٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ [الأنعام].

وقال تعالى: ﴿قُلْ إِنْ كَانَ لِلرَّحْمَنِ وَلَدٌ فَأَنَا أَوَّلُ الْعَبِيدِ﴾ [الزخرف] أي: أنه لو كان لله تعالى ولد، لعبدته قبلكم، فاتخاذ الولد مستحيل على الله تعالى.

قال سبحانه عن عباده المنزهين له: ﴿قَالُوا سُبْحَنَكَ مَا كَانَ يَدْعَىٰ لَنَا أَنْ نَتَّخِذَ مِنْ دُونِكَ مِنْ أَوْلِيَاءَ﴾ [الفرقان: ١٨].

وتكرار اسم الرحمن أربع مرات في هذه الآيات يشير إلى ثبوت وصف الرحمة لله تعالى، وأن هذه الرحمة تشمل كل مخلوق، وأن كل مخلوق مفتقر إليها، ولا يتحقق ذلك إلا بالعبودية لله تعالى، ولو كان بعض المخلوقين ابناً لله تعالى لاستغنى عن رحمته؛ لأن اتخاذ الابن يتطلب برَّ الابن بأبيه، ورحمته له، وهذا ينافي عموم الرحمة للمخلوق. قال تعالى:

٩٤، ٩٥- ﴿لَقَدْ أَحْصَيْنَاهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا ۖ وَكُلُّهُمْ أَتِيهِ يَوْمَ الْقِيَمَةِ فَرْدًا﴾ [٩٥]

والله سبحانه قد أحاط علمه بالأولين والآخرين، فعلم عددهم منذ خلقهم إلى يوم القيامة، صغيرهم وكبيرهم، وذكرهم وأنثاهم، وعلم حركاتهم وسكناتهم، لا يخرج أحد عن علمه تعالى وإحاطته، وكلهم في قبضته، وما منهم من أحد يدعي أنه شريك لله تعالى، ولا أنه ابن له سبحانه.

لقد أحصى الله أنفاسهم وأيامهم وآثارهم، وعددهم عدداً، فلا يخفى عليه شيء من أمورهم، وكلهم تحت تدبيره وقهره وقدرته.

وكل فرد من الخلق يأتي ربه يوم القيامة وحيداً فريداً بلا مال، ولا ولد، ولا متاع، ولا معين، ولا نصير، بل يأتي فرداً أعزل ليس معه ما يُجيره من عذاب الله تعالى إن كان قد مات على الشرك والكفر.

مَنْ أَحْبَبَهُمُ اللَّهُ حَبَبَ النَّاسِ فِيهِمْ

٩٦- ﴿إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرَّحْمَنُ وُدًّا﴾ [٩٦]

ولما ذكر سبحانه أحوال المجرمين أتبعه بذكر أحوال المؤمنين، وذلك أنه لَمَّا خُتِمت الآية السابقة بأن كل أحد من الخلق يأتي ربه يوم القيامة فردًا، بلا مال، ولا جاه، ولا ولد، فلا يجد المشرك من يدفع عنه عذاب الله يوم لقائه، وهذا يُشعر بغضب الله تعالى عليه.

أعقب ذلك بذكر حال المؤمنين الصالحين، وبيان أنهم على العكس من حال المشركين، حيث سيكونون في مقام المودة، والمحبة، والتبجيل من الملائكة، والناس أجمعين، كما قال تعالى: ﴿نَحْنُ أَوْلِيَائُكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ﴾ [فصلت: ٣١]. وقال تعالى عن موسى عليه السلام: ﴿وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِنِّي﴾ [طه: ٣٩].

والمعنى: أن الله تعالى سيُخِذُ لهم مودة ومحبة في قلوب العباد، وذلك في مقابلة المجرمين، فالله سبحانه يزرع المحبة والمودة لعباده المؤمنين في قلوب الصالحين والملائكة من خلقه، فيحبهم الله تعالى ويحبهم إلى الناس، وهذا من نعم الله تعالى على من جمع بين الإيمان والعمل الصالح، وأن لهم محبة في الأرض ومحبة في السماء:

في الصحيح عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «إذا أحب الله عبدًا دعا جبريل، فقال: يا جبريل، إني أحب فلانًا فأحبه، قال: فيحبه جبريل، قال: ثم ينادي في أهل السماء: إن الله يحب فلانًا، قال: فيحبه أهل السماء، ثم يوضع له القبول في الأرض، وإن الله إذا أبغض عبدًا دعا جبريل، فقال: يا جبريل، إني أبغض فلانًا فأبغضه، فيبغضه جبريل، ثم ينادي في أهل السماء: إن الله يبغض فلانًا فأبغضوه، قال: فيبغضه أهل السماء، ثم توضع له البغضاء في الأرض»^(١).

وقال قتادة: ما أقبل عبد على الله بقلبه إلا أقبل الله بقلوب المؤمنين إليه، حتى يرزقه مودتهم ورحمتهم.

وقال عثمان رضي الله عنه: ما من عبد يعمل خيرًا أو شرًا إلا كساه الله ﷻ رداء عمله.

فالقبول الذي يضعه الله في الأرض هو لمن يحب من عباده.

أخرج ابن جرير عن عبد الله بن عوف أنه لما هاجر إلى المدينة وجدَّ في نفسه على

(١) «المسند» (٤١٣/٢) برقم (٢٢٢٧٠) و«صحيح مسلم» برقم (٢٦٣٧) و«صحيح البخاري» برقم (٣٢٠٩)، ٦٠٤٠، (٧٤٨٥) و«سنن الترمذي» برقم (٣١٦١) والبيهقي في «الأسماء والصفات» (٤٤٦، ١٠٤٠).

فراق أصحابه بمكة، منهم: شيبه، وعتبة ابنا ربيعة، وأميه بن خلف، فأنزل الله الآية إلى ﴿سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرَّحْمَنُ وُدًّا﴾ قال: محبة في قلوب المؤمنين^(١).

وقال عثمان بن عفان: إن هذه الآية بمنزلة قول النبي ﷺ: «من أسر سريرة ألبسه الله رداءها»^(٢).

وفي الأثر عن أبي هريرة: «ما من عبد إلا وله في السماء صيت، فإن كان حسناً وضع في الأرض حسناً، وإن كان سيئاً وضع كذلك»^(٣).

إِيذَانُ بِانْتِهَاءِ السُّورَةِ

٩٧- ﴿فَإِنَّمَا يَسَّرْنَاهُ بِلِسَانِكَ لِتُبَشِّرَ^(٤) بِهِ الْمُتَّقِينَ وَتُنذِرَ بِهِ قَوْمًا لَّدَا^(٥٧)﴾

فإنما يسرنا هذا القرآن، وأنزلناه بلسان عربي مبين، وجعلناه سهلاً يسيراً لمن تدبره وحفظه وقرأه؛ لتبشر به المتقين من أمتك، وتخوف به قوماً معاندين شديدي الخصومة والجدال من المائلين عن الحق إلى الباطل، قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ﴾ [القمر: ٢٢]. وقال سبحانه: ﴿فَإِنَّمَا يَسَّرْنَاهُ بِلِسَانِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ [الدخان].

وقد نزل هذا القرآن بأفضل اللغات وأفصحها، وهي من أسباب فضله على غيره من الكتب، وتسهيل حفظه، وفهمه وتدبره، والعمل بما فيه، وهو كالبحر يغترف منه كل إنسان بمقداره.

ومهمته: البشـرى للمؤمنين المستجيبين له، الممثلين أمره، المجتنبين نهيه، والإنذار للكفار المجرمين ﴿وَتُنذِرَ بِهِ قَوْمًا لَّدَا﴾ أي: قوماً أشداء الخصومة بالباطل، معاندين للحق.

وفي الحديث: عن عائشة ؓ أن النبي ﷺ قال: «أبغض الرجال إلى الله الألد الخصيم»^(٥).

(١) «تفسير الطبري» (١٠١/١٦) والقرطبي (١٦١/١١).

(٢) «تفسير ابن عطية» (٣٤/٥).

(٣) الحكيم الترمذي (٢٢٦/٢). وانظر السلسلة الصحيحة (٢٢٧٥) ج ٥ ص (٣٤٥).

(٤) قرأ حمزة بفتح التاء وإسكان الباء مخففة من (لِتُبَشِّرَ) من البشر وهو البشارة، وقرأ الباقون بضم التاء وفتح الباء وكسر الشين مشددة (لِتُبَشِّرَ) مضارع بشر المضعف، لغة أهل الحجاز.

(٥) «صحيح البخاري» برقم (٢٤٥٧، ٧١٨٨) و«صحيح مسلم» برقم (٢٦٦٨).

قال تعالى: ﴿فَإِنَّهُمْ لَا يَكْذِبُونَكَ وَلَكِنَّ الظَّالِمِينَ إِنَّمَا يُجَادِلُونَ﴾ [الأنعام: ٣٣].

وقال سبحانه: ﴿وَمَنْ النَّاسُ مَنْ يُعْجِبُكَ قَوْلُهُ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيُشْهَدُ اللَّهُ عَلَى مَا فِي قَلْبِهِ وَهُوَ أَلَدُّ الْخِصَامِ﴾ [البقرة: ٢٤].

وكان الله تعالى يقول لرسوله ﷺ: بَلِّغْ -أيها الرسول- ما أنزل إليك من ربك ولو كره المشركون ما فيه من إبطال دينهم، وإنذارهم بسوء العاقبة، فما أنزلناه عليك إلا لتبشر به الصالحين، وتخوف به المجرمين، ولا تعباً بما يحصل لك من الإيذاء والتكذيب كمن يقولون لك: لو كفت عن شتم آلهتنا وآبائنا وتسفيه عقولنا وآرائنا لاتبعتك، فقد جاء هذا القرآن بالبشرى لمن أقبل عليه واستجاب له، وبالإلذار لمن أعرض عنه ولم يستجب له.

وفي الآية تعريض بأن من كفر بالقرآن إنما كفر به عن عناد وجحود ومكابرة، فالألدّ الخصم: هو الدائم في الخصومة المستمر على شدته وعناده، قال تعالى: ﴿وَمَا تُغْنِي الْآيَةُ وَالنُّذُرُ عَنْ قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [يونس: ١٠١].

خِتَامُ السُّورَةِ

٩٨- ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنْ قَرْنٍ هَلْ يُخَشِئُهُمْ مِنْ أَحَدٍ أَوْ تَسْمَعُ لَهُمْ رِكْزًا﴾

ثم ختم الله السورة بموعظة بليغة فذة جامعة؛ لأن الناس إذا علموا وأيقنوا أنه لا بد من زوال الدنيا، خافوا سوء العاقبة، فكانوا إلى ترك المعاصي أقرب

وطريق ذلك هو النظر إلى الأمم السابقة، فكثيراً ممن سبق هذه الأمة أهلكهم الله، فلم يبق لهم أثر، وكذلك الشأن بكفار هذه الأمة، يهلكهم الله كما أهلك من قبلهم.

وفي هذا تهديد ووعد لكل من كذب بخاتم الرسل ﷺ ولم يؤمن بعموم رسالته للخلق أجمعين، فسنة الله تعالى لا تتخلف. كما قال تعالى في الظالمين: ﴿نُعَمِّعُهُمْ قَلِيلًا ثُمَّ نَضْطَرُّهُمْ إِلَىٰ عَذَابٍ غَلِيظٍ﴾ [لقمان: ٢٤].

فكم أهلك الله قبلهم من قرن، وما عليهم إلا أن ينظروا إلى أمة عاد، وثمود، وقوم لوط، وقوم فرعون، وغيرهم من الأمم التي أبادها رب العالمين.

فانظر -أيها المسلم- وتلقت وتأكد هل تجد منهم من أحد على وجه الأرض؟ أو تسمع

من أخبارهم قليلاً أو كثيراً أو طَرْفًا خفيًا ضعيفًا ﴿هَلْ تُحِشُّ مِنْهُمْ مِنْ أَحَدٍ﴾؟ هل تراه بعينك؟ هل تلمسه بيدك؟ هل تسمع له صوتًا؟ هل بقي له أثر؟ ﴿أَوْ تَسْمَعُ لَهُمْ رِكْزًا﴾ أي: صوتًا خفيًا؟ كما قال تعالى: ﴿فَكَأَيِّنْ مِنْ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ فِيهَا خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا وَيَبْتَئِرُ مُعَظِّمٌ لِقَا رَبِّهِمْ وَمِنْهُمْ مَنِّي وَمِنْهُمْ هَارُونَ﴾ [الحج]. إنهم في سكون عميق وصمت رهيب.

وإذا كان الأمر كذلك، فعليكم أن تأخذوا العبرة، وتتفعوا بالدروس التي سبقت من الأمم التي أتى الله عليها؛ لأنها كذبت رسل الله، لقد أهلكوا وأبیدوا، وخلت منهم الديار، وأوحشت منهم المنازل، وكذلك نفعل بمن كان مثلهم.

قال الحسن: بادؤوا جميعًا، فلم يبق منهم عين ولا أثر، فقد خيم الصمت عليهم، وكنتم الموت أنفاسهم، فلا صوت ولا حركة، فسبحان الحي الذي لا يموت.

تم تفسير (السورة هويم) والله الحمد والمنة.



تَفْسِيرُ سُورَةِ طهَ (٢٠)

مُقَدِّمَةُ السُّورَةِ

سورة (طه) هي السورة العشرون في ترتيب المصحف، والخامسة والأربعون في ترتيب النزول. وهي سورة مكية: نزلت بعد سورة (مريم)، وقبل سورة (الواقعة) في السنة الخامسة من البعثة. وعدد آياتها في المصحف الكوفي مئة وخمس وثلاثون آية^(١).

وهي ألف وست مئة وإحدى وأربعون كلمة، وخمسة آلاف ومئتان وأربعون حرفاً.

وشهرتها: سورة (طه)، وتسمّى: سورة (موسى)، أو سورة (الكليم)؛ لأن معظم السورة تحدثت بالتفصيل عن قصة موسى ﷺ، بدءاً من رسالته، بعد قضائه الأجل في مدين، إلى عبادة بني إسرائيل للعجل الذهبي بعد خروجهم من مصر، بما في ذلك موقف الجدل بين موسى وفرعون، والمباراة بين موسى والسحرة.

وقد ذكرت قصة موسى ﷺ في حلقات موزعة في أكثر من عشر سور في القرآن الكريم، منها سور: (البقرة، والمائدة، والأعراف، ويونس، والإسراء، والكهف، والشعراء، والنمل، والقصص، والذاريات، والنازعات)، وهي حلقات يُكْمَل بعضها بعضاً، وليس فيها تكرار.

فقصة ولادة موسى ورضاعه، وقتله القبطي، وخدمته لصهره عشرة أعوام مهراً لابنته، ذكرت هذه القصة في سورة القصص فقط.

وقصة الرسالة، والعصا، واليد، والسحرة، وعبادة بني إسرائيل للعجل، ذكرت أكثر من مرة، في أكثر من سورة، بأساليب تناسب مقام السورة، وسياق الكلام، والعبرة المطلوب الاستفادة منها في كل مقام بإيجاز، أو إطناب.

وقد اعتنى القرآن بها؛ لأنها تشبه السيرة النبوية في كثير من مراحلها.

(١) وعند أهل المدينة ومكة: مئة وأربع وثلاثون آية، وعند أهل الشام: مئة وأربعون آية، وعند أهل البصرة: مئة واثنان وثلاثون آية، وفي العدد الحمص مئة وثمان وأربعون آية.

وبعد هذه المقدمة من السورة، تأتي حلقة طويلة من قصة موسى ﷺ، وكأنَّ الله سبحانه يُعِدُّ رسوله محمداً ﷺ؛ ليتحمل أعباء الرسالة، ويقول له: لك فيمن سبقك من الرسل أسوة، فتأسَّ بهم، وانظر ماذا فعل موسى ﷺ مع قومه، وكيف واجه فرعون على جبروته وطغيانه، وكيف لاقى من المشقة والعنت والأذى في تبليغ الدعوة ما لاقى، وفي هذا تسلية للنبي ﷺ؛ كي يحتسب ويصبر، ويتحمل ما يجده من أذى قريش، وليتأسى به الدعاة إلى الله تعالى في كل زمان ومكان.

وهذه الحلقة من قصة موسى ﷺ في سورة طه، تُذَكِّر بإطنا ب وإسهاب، وتبدأ من نزول الرسالة على موسى ﷺ، وتنتهي بعبادة بني إسرائيل للعجل بعد خروجهم من مصر، ثم تختم السورة بحديث يَرَوِي مشاهد من يوم القيامة، ومصير أهل الضلال وأهل الهدى يوم لقاء رب العالمين، وفي ثانياً ذلك نبذة يسيرة عن قصة آدم وحواء عليهما السلام.

وتبدأ هذه السورة، وتُختم ببيان وظيفة النبي ﷺ ومهمته، وبيان التكليف التي أمر بها، وأن هذه الرسالة لم تَنْزَل عليه ﷺ ليشقَّى بها، وإنما مهمته هي البشرى والإنذار، والدعوة والتذكرة والبلاغ، أما الهداية فهي من الله سبحانه، المهيم على هذا الكون وخالقه، وخالق العباد جميعاً، ورازقهم ومدبر أمرهم.

هذا: ويمكن تقسيم السورة إلى ثلاثة مقاطع:

المقطع الأول: يخاطب الله تعالى فيه النبي ﷺ؛ ليشُدَّ أزره، ويُقَوِّي رُوحه في مواجهة المكذبين لدعوته، ويرشده إلى وظيفته التي اصطفاه لها، وفي هذا المقطع تنويه بشأن القرآن، وأنه نزل لهداية القابلين للهداية، وفيه إثبات أن رسالة محمد ﷺ أعمُّ وأشمل من رسالة أعظم رسول قبله شاع ذكره في الناس، فضرب الله المثل لنزول القرآن على محمد ﷺ بكلام الله تعالى لموسى ﷺ، وهذا المقطع من أول السورة إلى الآية الثامنة منها.

المقطع الثاني: يبدأ من الآية التاسعة إلى الآية الثامنة والتسعين، وهو عن بَسْطِ قصة نشأة موسى ﷺ ووحى الله إليه، ونَصْرِهِ على فرعون بالحجة والمعجزة، ونجاة موسى وقومه بإخراجهم من قبضة فرعون، وإيمان السحرة، وصناعة السامري للعجل، وتنتهي القصة بإحراق العجل وإلقائه في اليمِّ.

وفي هذا تعريض بأن رسالة محمد ﷺ ستصير إلى ما صارت إليه رسالة موسى ﷺ من النصر على مُعانديه ونشرها في الآفاق.

والمقطع الثالث: يبدأ من الآية التاسعة والتسعين إلى نهاية السورة، وفيه وعيد لمن أعرض عن القرآن، ولم يتتفع بمواعظه وأمثاله، ثم تذكر ما أعدّه الله لهؤلاء المعرضين من عقاب مؤلم، إلى جوار بيان ما في يوم القيامة من مشاهد وأهوال، وتذكر السورة بعداوة الشيطان للإنسان، وموقفه من آدم أبي البشر.

وتختتم السورة بما بدأت به من خطاب الله تعالى لرسوله ﷺ وتحديد معالم الرسالة له، وعدم التطلع إلى ما مَتَّع الله به الآخرين من زينة الحياة..

وفي النهاية يكون انتظار العقبي؛ ليعلم مَنْ أصحاب الصراط السوي ومن اهتدى.

قصة إسلام عمر ؓ:

وقد نزلت سورة (طه) قبل إسلام عمر بن الخطاب ؓ؛ لما رواه الدارقطني عن أنس بن مالك، وابن إسحاق في سيرته^(١) أن عمر بن الخطاب كان قبل أن يُسلم شديد العداوة للإسلام، وأنه قد خرج يوماً متوشّحاً سيفه يريد قتل النبي ﷺ فلقبه في الطريق نُعَيْم بن عبد الله، قال: إلى أين تريد يا عمر؟ قال: أريد محمداً هذا الصابي، الذي فرّق أمر قريش، وسفّه أحلامها، وعاب دينها، وسبّ آلهتها فأقتله، قال له نُعَيْم: أترى بني عبد مناف تاركيك تمشي على الأرض، إذا أنت قتلت محمداً؟ أفلا ترجع إلى أهلِكَ فتقيم أمرهم؟ قال: ومن هم أهل بيتي؟ قال: ختنتك -والختن: هو زوج الأخت- وابن عمك، سعيد بن زيد، وزوجه فاطمة أختك؛ فإنهما والله قد أسلما، وتبعا دين محمد، فعليك بهما، فرجع عمر إليهما، وبالقرب منهما سمع صوتاً خفياً، وكان خبّاب بن الأرت، يقرأ من صحيفة فيها صدر سورة (طه)، فلما سمعوا صوت عمر، اختبأ (خبّاب) في غرفة لهما، وأخذت فاطمة بنت الخطاب الصحيفة فوضعتها تحت فخذها، فلما دخل عمر قال: ما هذه المهمة -أي: ما هذا الكلام الخفي- الذي سمعت، فأنكرا، فقال: لقد أبلغتُ أنكما تبعتما محمداً على دينه.

(١) وهو عند ابن سعد في «الطبقات» (٢٦٧/٣) والحاكم (٥٩/٤) والبيهقي في الدلائل (٢١٩/٢) وغيرهم.

ثم ضرب ابن عمه وأخته حتى شجها، فقالا: والله قد أسلمنا، وآمنا بالله ورسوله، وتبعنا محمداً، فاصنع ما بدا لك، قال: فأرني هذه الصحيفة التي سمعتمكم تقرؤونها آنفاً، أنظر ما جاء به محمد، قالت: إننا نخشى عليها منك، فأقسم بآلهته أن يردّها عليهم، وألا يمسها بسوء، فلما قال ذلك، طمعت في إسلامه، فقالت له: إنك مشرك نجس، ولا يقرب هذه الصحيفة إلا طاهر، فذهب واغتسل، ثم جاء فأعطته الصحيفة، فقرأ فيها صدر سورة (طه)، فقال: ما أحسن هذا الكلام! وما أجمله! فلما سمع خباب هذه المقالة وهو مختبئ، تجرّأ وخرج، فقال: إني والله لأرجو أن يكون الله سبحانه قد خصك بدعوة نبيه ﷺ فإني سمعته بالأمس وهو يقول: «اللهم أعز الإسلام بأحب هذين الرجلين إليك، بأبي جهل أو بعمر بن الخطاب، فكان أحبهما إليه عمر»^(١) فالله الله يا عمر، فقال عمر: يا خباب، أين محمد؟ دُلّني عليه، فجاء إلى النبي ﷺ، وأسلم وحسن إسلامه ﷺ، وكان هذا بسبب قراءة عمر ﷺ لأوائل سورة طه.



(١) جامع الترمذي برقم (٣٦٨١) عن ابن عمر ﷺ وقال: حديث حسن صحيح غريب من (اللهم أعز الإسلام..). وصححه الألباني برقم (٢٩٠٧) وفي مشكاة المصابيح (٦٠٣٦) التحقيق الثاني وصححه ابن حبان (٦٨٨١) وانظر المسند برقم (٥٦٩٦) من (اللهم أعز الإسلام..). قال محققوه: خارجه بن عبد الله الأنصاري، ضعفه أحمد والدارقطني والذهبي وقال ابن معين وابن عدي: لا بأس به، وقيل: غير ذلك، وبقية رجاله ثقات رجال الشيخين.

تَفْسِيرُ السُّورَةِ

التَّنْوِيهِ بِشَأْنِ الْقُرْآنِ وَالرُّسُولِ

١-٣- ﴿طه﴾ (١) مَا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ (٢) لِتَشْقَى (٣) إِلَّا نَذْكِرَكَ لِمَنْ يَخْشَى ﴿٤﴾

بدأت السورة بحرفين من حروف الهجاء هما: الطاء، والهاء، وهما من الحروف الهجائية المقطعة التي افْتُتِحَتْ بها بعض أوائل السور في القرآن الكريم، والتي يُرَجَّح أنها نزلت في مقام التحدي والإعجاز.

وقد افتتحت السورة بملاحظة النبي ﷺ بأن الله تعالى لم يُرد من إرساله وإنزال القرآن عليه أن يشقى بذلك، أي: تصيبه المشقة وشدة النصب، سواء أكان من كثرة العبادة، أم من حرصه على إيمان قومه.

وفي هذا إشارة إلى عِظَم ما يطلع به النبي ﷺ من القيام بأعباء الرسالة، وتأهيله ليكون من أولي العزم من الرسل، وأن يذكر بهذا القرآن من يخاف لقاء الله ﴿فَذَكِّرْ بِالْقُرْآنِ مَنْ يَخَافُ وَعِيدِ﴾ [ق: ٤٥] ومما ورد في أسباب النزول ما جاء:

١- عن مقاتل، قال: قال أبو جهل، والنضر بن الحارث، للنبي ﷺ: إنك لتشقى بترك ديننا، وذلك لما رأياه من طول عبادته واجتهاده، فأنزل الله الآية (٣).

٢- وأخرج ابن أبي حاتم عن الضحاك، قال: لما نزل القرآن على النبي ﷺ قام هو وأصحابه فصلوا، فقال كفار قريش: ما أنزل الله تعالى هذا القرآن على محمد إلا ليشقى

(١) قرأ أبو جعفر بالسكت بدون تنفس على الطاء والهاء من (طه)، على أنها حروف مقطعة، والباقون بعدم السكت، وأمال الطاء والهاء شعبة وحمزة والكسائي وخلف، وأمال الهاء وحدها ورش وأبو عمرو، والباقون بفتحهما. وأمال كل رؤوس الآي في هذه السورة حمزة والكسائي وخلف، وأمال أبو عمرو ما كان منها من ذوات الرءاءات، وقلل ما عدا ذلك. أما ورش فقلل جميع رؤوس الآي فيها. هذا: وقد عدا الكوفي (طه) آية، وأسقطها غيره من العدد.

(٢) قرأ ابن كثير بنقل حركة همزة (القرآن) إلى الرءاء، وكذا حمزة عند الوقف، والباقون بعدم النقل.

(٣) «زاد المسير» (٢٦٩/٥) و«تفسير ابن كثير» (٢٧١/٥).

به، فأنزل الله تعالى ﴿طه﴾ يقول: يا رجل ﴿مَا أُنزِلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَى﴾^(١) ومعنى كلمة طه بالنبطية: يا رجل^(٢).

٣- وعن ابن عباس ؓ أن النبي ﷺ كان أول ما أنزل عليه الوحي يقوم على صدور قدميه إذا صلى، فأنزل الله الآية^(٣).

٤- وأخرج عبد بن حميد في تفسيره، وابن المنذر، عن الربيع بن أنس قال: قالوا: كان النبي ﷺ إذا صلى قام على رجل ورفع الأخرى، فأنزل الله (طه) يعني: طأ الأرض يا محمد بقدميك ﴿مَا أُنزِلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَى﴾^(٤).

٥- وأخرج ابن مردويه عن عليّ ؓ قال: لما نزل على النبي ﷺ ﴿يَا أَيُّهَا الْمَرْمُلُ﴾^(٥) فُرِ أَيْلَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٢﴾ [المزمل]. قام الليل كله حتى تورمت قدماه، فجعل يرفع رجلًا ويضع رجلًا، فهبط عليه جبريل، فقال: (طه) يعني: طأ الأرض بقدميك يا محمد ﴿مَا أُنزِلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَى﴾^(٦) وأنزل ﴿فَاقْرَأْ مَا يَنْسَرُ مِنْهُ﴾^(٥) [المزمل: ٢٠].

٦- وأخرج ابن مردويه، وابن جرير من طريق العوفي عن ابن عباس ؓ قال: قالوا: لقد شقي الرجل بربه، فأنزل الله الآية^(٦).

٧- وقيل: إن قريشًا نظرت في شظف عيش النبي ﷺ مع كثرة عبادته، فقالوا: إن محمدًا مع ربه في شقاء^(٧).

(١) الواحدي ص (٢٥٥) والسيوطي ص (١٨١) و«تفسير الطبري» (١٠٣/١٦).

(٢) جاء ذلك عن عدد من الصحابة والتابعين كما في «تفسير ابن كثير» (٢٧١/٥) و«الدر المنثور» (١٠/١٥٥) والطبري (٥/١٦) وابن أبي شيبه (٤٧٢/١٠).

(٣) نسبه السيوطي في «الدر المنثور» إلى ابن المنذر وابن مردويه والبيهقي في «الشعب» برقم (١٤٩٧) وابن عساكر (١٤٤/٤).

(٤) وأخرجه البزار بسند حسن عن عليّ برقم (٩٢٦)، وانظر: «مجمع الزوائد» (٥٦/٧) و«الشفاء» للقاضي عياض (٥٦/١) و«تخريج أحاديث الكشاف» (٣٤٨/٢) و«تفسير ابن كثير» للآية.

(٥) يُنْظَرُ: «تخريج أحاديث الكشاف» (٣٤٨/٢) و(طه) بسكون الهاء وردت في قراءة شاذة.

(٦) «زاد المسير» (٢٦٩/٥) والطبري (٥/١٦).

(٧) «تفسير ابن عطية» (٤٠/٤).

وما قيل من أن (طه) اسم للنبي ﷺ ورد فيه أثر ضعيف، لم يصح عن رسول الله ﷺ.
وعلى هذا فإن (طه) معناها: يا رجل، والمراد بالرجل: محمد ﷺ وأن هذا قد ورد في بعض لهجات العرب.

ولذا فقد قيل: إن معنى (طه) طأ الأرض بقدميك يا محمد،
وهكذا فإن النبي ﷺ كان يتحمل من المشقة في الصلاة، حتى تتورم قدماه، ويحتاج إلى الترويح بينهما، ف قيل له: طأ الأرض بقدميك، ولا تتعب نفسك؛ حتى لا تحتاج إلى هذا الترويح.

فقد صح أن النبي ﷺ كان يصلي حتى تتورم قدماه، وكان يقف على صدر قدميه، وكان يقف على قدم ويرفع أخرى، كما جاء عن الربيع بن أنس: وربما ربط نفسه بحبل؛ كي لا ينام، وحين يأخذه النوم يستيقظ ويشد هذا الحبل، فأنزل الله تعالى يقول له: طأ الأرض بقدميك، ما أنزلت عليك هذا القرآن لتشقى به^(١) ولتتعب نفسك وتحمّلها فوق الطاقة، وتُرهبها في أداء العبادة؛ فإن الله تعالى قد أراد لك به خيراً كثيراً، كما ثبت في الصحيحين: من حديث معاوية أن النبي ﷺ قال: «من يرد الله به خيراً يفقهه في الدين»^(٢).

وفي الحديث القدسي: عن ثعلبة بن الحكم: يقول الله تعالى للعلماء يوم القيامة، إذا قعد على كرسيه لقضاء عباده: «إني لم أجعل علمي وحكمتي فيكم، إلا وأنا أريد أن أغفر لكم على ما كان منكم ولا أبالي»^(٣).

ومن جهة أخرى فقد كان ﷺ حريصاً على هداية القوم، يأسف ويحزن كثيراً لتكذيبهم وعدم إيمانهم، فقال الله سبحانه له: إن مهمتك هي الدعوة والتذكير، والتبشير والإنذار ﴿مَا أُنزِلْنَا عَلَيْكَ﴾ يا رسولنا هذا ﴿الْقُرْآنَ لِتَشْقَى﴾ به في طاعتك وعبادتك، فشريعة الإسلام سمحة سهلة يسيرة، ليس فيها عسر ولا مشقة، وهي غذاء للقلوب والأبدان والأرواح،

(١) أوردته القاضي عياض في كتابه «الشفاء بحقوق المصطفى» (٢٦/١) عن أنس بن مالك من طريق عبد بن حميد في تفسيره.

(٢) البخاري برقم (٧١، ٣١١٦، ٣٦٤١، ٧٣١٢) ومسلم برقم (١٠٣٧).

(٣) «المعجم الكبير» للطبراني (٨٤/٢) وقال الهيثمي في «مجمع الزوائد» (١٢٦/١): رجاله موثقون.

وهي تأخذ بيد العبد إلى سعادة الدارين، وما أنزلنا عليك - أيها الرسول - هذا القرآن، لتشقى به في عبادتك، ولا لتشقى به من أَسْفِكَ وحُزْنِكَ على من لم يؤمن من أمتك.

فلا تُجهد نفسك -أيها الرسول- همًّا وغمًّا؛ بسبب إعراض المشركين عن دعوتك، كما قال تعالى: ﴿فَلَعَلَّكَ بَنِيعٌ نَفْسَكَ عَلَىٰ ءَاثَرِهِمْ إِنْ لَمْ يُؤْمِنُوا بِهَٰذَا الْحَدِيثِ أَسَفًا ﴿٦﴾﴾ [الكهف]. وقال: ﴿فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسْرَتٍ﴾ [فاطر: ٨].

وإنما أنزلنا عليك هذا القرآن؛ لتسعد بنزوله، ولتبلغ للناس آياته، ثم من شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر، فعليك البلاغ وعلينا الحساب.

وقد أنزل الله تعالى عليك هذه الرسالة؛ لتكون أسعد بني آدم في الدنيا والآخرة، فتحظى بأعلى المراتب في جنات النعيم.

وفي هذه الآية ثلاث توجّهات للمفسرين:

أولها: نهى النبي ﷺ عن إجهاد نفسه في العبادة، فقد كان ﷺ يقوم الليل حتى تتورم قدماه.

ثانيها: أنها ردّ على المشركين الذين قالوا: إن محمدًا يشقى بسبب تركه لديتنا، واتباعه لهذا الدين الجديد.

وثالثها: أنها تُواسي الرسول ﷺ وتُسليّه بسبب قَرُطِ أسفه على كفر الكافرين.

والآية تتسع لهذه المعاني الثلاثة وهي إلى الأول أقرب؛ لأن الآية التي تليها ترشح هذا المعنى.

لكن أنزلنا هذا القرآن تذكرة وموعظة، ودعوة وبيانًا لمن يخاف عقاب الله تعالى بأداء الفرائض واجتناب المحرمات، وامثال الأوامر واجتناب النواهي، إنه تذكرة ينتفع بها من يخشى الله تعالى ويخاف عقابه.

وبعض الناس مهما سمع من وعظ وحكم، وقرآن وحديث، فإن قلبه مقفل والعياذ بالله تعالى.

قال بعض الكفار؛ كالتضر بن الحارث، والوليد بن المغيرة، والمطعم بن جبير، وأبي جهل، حينما رأوا النبي ﷺ يتعب الليالي الطوال، ويُتعب نفسه في العبادة، قالوا: إن

محمدًا ليشقى بترك ديننا^(١).

والمعنى: ما نزل هذا القرآن على محمد ﷺ ليشقى به، وليكون عليه عناء ومشقة بهذا التهجد وهذا القيام، فأنزل الله تعالى: ﴿طه ١﴾ مَا أُنزِلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَى ﴿٢﴾.

ومادام الأمر كذلك فامض في طريقك، وبلغ دعوة ربك، ولا تثعب نفسك لكفر الكافرين؛ فإن الهداية من الله، كما قال تعالى: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ﴾ [القصص: ٥٦]. وقال أيضًا: ﴿إِنَّمَا أَنْتَ مُنذِرٌ مَنْ يَخْشَى﴾ [النازعات].

وقال ﴿سَيَذَرُكَ مَنْ يَخْشَى﴾ ١٠ وَيَجْنِبُهَا آلُ شَقِي ١١ الَّذِي صَلَّى النَّارَ الْكُبْرَى ﴿[الأعلى]

ثم بين سبحانه في الآية التالية أن هذا القرآن تنزل من خالق الأرض والسماء.

مِنْ دَلَائِلِ التَّوْحِيدِ

٤، ٥ - ﴿تَنْزِيلًا مِمَّنْ خَلَقَ الْأَرْضَ وَالسَّمَوَاتِ الْفُلَى﴾ ٤ الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ أَسْتَوَى ﴿٥﴾

إن التوحيد كامن في النفوس، مستقر فيها بالفطرة، والشرك منافٍ لها، وهذا القرآن تذكير بهذه الفطرة، وتذكير بملة إبراهيم الحنيفية السمحة، ومن يخشى الله تعالى هو المستعد للتأمل والنظر، وهو الذي ينتفع بالذكرى فيهتدي، وهذا القرآن ليس كما يقول عنه الكفرة، فهو ليس بسحر، ولا شعر، ولا كهانة، ولا أساطير الأولين، إنما هو تنزيل ممن خلق هذا الكون بعالميه: السفلي، والعلوي وما فيهما وما بينهما، فهو سبحانه خالق المخاطبين بالقرآن، وخالق ما هو أعظم منهم كالسموات والأرض، وكثيرا ما يقرن القرآن بين الخلق والأمر، كما قال تعالى ﴿أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ﴾ [الأعراف: ٥٤]

وقال ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَوَاتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَنْزِلُ الْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ﴾ [الطلاق: ١٢]

فالخالق هو الأمر الناهي، وليس على الخلق أمر ولا نهى إلا ممن خلقهم، وأيضا فإن الخالق هو المدبر لشؤون الخلق، فهو سبحانه الخالق المدبر الأمر الناهي.

والمعنى: إن هذا القرآن تنزل من خالق الأرض، ومبدع الكون، ورافع السماء بلا

(١) يُنْظَرُ: «أسباب النزول» للواحي بدون سند.

عمد، وَوُصِفُ السَّمَاوَاتِ بِالْعَلَا، دليل على عظمة قدرة مَنْ اخترعها.

ويصح أن يكون ﴿تَزِيلًا﴾ مفعول لأجله، أي: ما أنزلنا عليك القرآن إلا تذكرة، أي: لأجل التذكرة لمن يخشى الله ويخاف عقابه.

والتذكرة هي الموعظة التي ترقُّ لها القلوب وتلين، فتمثل الأوامر، وتجنب النواهي، وخص بالتذكرة من يخشى الله تعالى دون غيرهم؛ لأنهم المتفعون بها، كما قال تعالى: ﴿إِنَّمَا تُنذِرُ مَنِ اتَّبَعَ الذِّكْرَ وَخَشِيَ الرَّحْمَنَ الْعَلِيمَ فَبَشِّرْهُ بِمَغْفِرَةٍ وَأَجْرٍ كَرِيمٍ﴾ [يس].

ثم زاد في تصوير عظمة الله تعالى، وسعة مُلْكِهِ وسلطانه، فبين أنه ليس كمثله شيء، فمن هو الله سبحانه؟ هو الرحمن الذي مَلَكَ هذا الكون، وارتفع وعلا، واستوى على العرش استواءً يليق بجلاله وعظمته بلا كيف ولا انحصار، ولا تشبيه ولا تحديد، ولا تعطيل ولا تمثيل.

قال مالك بن أنس لرجل سألَه عن الاستواء: الاستواء معلوم، والكيفية مجهولة، والسؤال عن هذا بدعة، وأظنك رجل سوء، أَخْرِجُوهُ عَنِّي، فأدبر السائل وهو يقول: يا أبا عبد الله، لقد سألتُ عنها أهل العراق، وأهل الشام، فما وُفِّقَ أحدٌ توفيقك.

وقد ذُكر العرش في القرآن في إحدى وعشرين آية، والله تعالى منزّه عن مشابهة المخلوقين ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ [الشورى: ١١]. فاستواؤه تعالى على العرش ليس له كيف ولا انحصار، وليس له شبه ولا نظير، وكيفية الاستواء أمر غيبي لا يعلمه إلا الله سبحانه، وكما أن الله تعالى استوى على العرش فقد احتوى على الملك:

٦ - ﴿لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَمَا تَحْتَ الثَّرَى﴾

وهو سبحانه مهيمن على هذا الكون، مالكة ومدبر أمره، يعلم ظاهره وباطنه، ما خفي منه وما ظهر، ويعلم ما هو تحت الأرض، من كل ما في هذا الكون، خلقًا ومُلْكًا وتديرًا، فالجميع ملك لله، عبيد مدبرون مسخرون، ليس لهم من الملك شيء، ولا يملكون لأنفسهم نفعا ولا ضرا ولا موتًا ولا حياة ولا نشورًا، ويملك ما تحت الثرى، أي: وما تحت التراب من معادن ونفط، وكنوز وأموات، ومياه وغير ذلك يعلمه سبحانه، ويملكه ويصرف أحواله.

والثرى هو التراب الندي، وخصَّ بالذكر؛ لتأكيد شمول ملكيته تعالى بكل شيء. قال تعالى:

٧، ٨- ﴿وَإِنْ تَجَهَّرَ بِالْقَوْلِ فَإِنَّهُ يَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفَى ۖ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى﴾

وإن تجهر -يا رسولنا- في عبادتك أو في قولك أو فعلك، فلا حاجة له في ذلك؛ فإنه سبحانه يعلم السر، ويعلم ما هو أخفى منه، فالسر هو الذي تُناجي به أو تُسرُّ به إلى غيرك، وما هو أخفى منه، يكون كالوسوسة والخطر والهاجس الذي هو حديث النفس، وما يجيش في الصدر ويدور في الخلد، وهو سبحانه يعلم ما خفي على ابن آدم مما هو فاعله قبل أن يعلمه، ويعلم السر الذي في القلب ولم يُنطق به، ويعلم ما خطر على القلب وما لم يخطر.

قال تعالى: ﴿وَأَسْرُوا قَوْلَكُمْ أَوْ أَجْهَرُوا بِهِ ۚ إِنَّهُمْ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ۝١٣﴾ أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ ﴿١٤﴾ [الملك].

وقال سبحانه: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِ نَفْسُهُ وَحَنَّا أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ ۝١٦﴾ [ق]. فعلم الله تعالى محيط بجميع الأمور، دقيقها وجليلها، خفيها وظاهرها، فسواء جهرت أو أسررت في قولك أو عملك، فالكل سواء عند الله تعالى.

وفي الآية زجر عن القبائح ظاهرها وباطنها، وترغيب في الطاعات، وفيها أن الله تعالى يعلم ما يُسرُّه المرء في نفسه من الذنوب أو الطاعات، ويعلم ما يعزم عليه منها، ويعلم ما يخفيه في نفسه ولا يعزم عليه، ويَحَاسِبُ على كل ما يترتب عليه ثواب أو عقاب.

وفيها تطمين للنبي ﷺ بأن ربه معه يسمعه ويراه، ولن يتركه وحيداً يواجه الكفار بلا سند، والعبد إذا استشعر قُرب الله تعالى منه، وَعَلِمَهُ بِسَرِّهِ وَنَجْوَاهُ، فإنه يطمئن ويأنس بقرب ربه منه.

في صحيح البخاري، وغيره: عن عبد الله بن مسعود ؓ قال: اجتمع عند البيت قرشيان وثقفي، أو ثقفيان وقرشي، كثيرة شحم بطونهم، قليلة فقه قلوبهم، فقال أحدهم: أترؤن أن الله تعالى يسمع ما نقول؟ قال الآخر: يسمع إن جَهَرْنَا، ولا يسمع إن أَخْفَيْنَا! وقال الآخر: إن كان يسمع إذا جهرنا فإنه يسمع إذا أخفينا، فأنزل الله تعالى: ﴿وَمَا كُنْتُمْ

تَسْتَبْرُونَ أَنْ يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلَا أَبْصَرُكُمْ وَلَا جُلُودُكُمْ وَلَكِنْ ظَنَنْتُمْ أَنَّ اللَّهَ لَا يَعْلَمُ كَثِيرًا مِمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٢٢﴾ ﴿١١﴾ [فصلت].

وقال تعالى: ﴿أَلَا إِنَّهُمْ يَتَّبِعُونَ صُدُورَهُمْ لِيَسْتَخْفُوا مِنْهُ أَلَا حِينَ يَسْتَغْشُونَ ثِيَابَهُمْ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ إِنَّهُمْ عَلَيْهِمْ بذَاتِ الصُّدُورِ ﴿٥﴾﴾ [هود].

وقال سبحانه: ﴿يَعْلَمُ خَائِنَةَ الْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ ﴿٦﴾﴾ [غافر].

والآيات في هذا كثيرة، مبيّنة أن الله تعالى يعلم السر ويعلم ما هو أخفى من السر، وقد ثبت في السنّة مشروعية الجهر بالدعاء والذكر، فلا مزية للجهر على السر إلا ما ورد الشرع باستواء الأمر فيه.

وصاحب العرش والملك هو الإله الخالق المدبّر، المستحق للعبادة دون سواء.

ثم أتبع الله ذلك بما يدل على عظيم سلطانه؛ فهو سبحانه واحد أحد في ذاته وصفاته، وهو المتفرد بالوحدانية، لا رب غيره ولا معبود بحق إلا هو، وله أسماء وصفات عدة ﴿لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى﴾ الكاملة في الحُسْن، فهو سبحانه واحد في ذاته، متعددة أَسْمَاؤه وصفاته.

قال المشركون لما سمعوا النبي ﷺ يقرأ: ﴿قُلِ ادْعُوا اللَّهَ أَوْ ادْعُوا الرَّحْمَنَ﴾ [الإسراء: ١١٠]. قالوا: إن محمداً يدعو إلهين.

ولما سمعوا ﴿لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى﴾ قالوا: إنه يدعو آلهة متعددة.

وهكذا يقول النصارى: إنكم تدعون ثلاثة آلهة: بسم (الله) واحد، (الرحمن) اثنان، (الرحيم) ثلاثة.

والله ﷻ يقول: ﴿اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾ فهو واحد في ذاته، أما أَسْمَاؤه وصفاته فهي متعددة، فالإنسان يوصف بعدة أوصاف، فيقال: كريم، وشجاع، وبطل، وصادق، وأمين، وصابر، وحليم، وكذا أسماء الله تعالى وصفاته فهي كثيرة متعددة بعدد الأسماء الحسنى، وكلها حسنى دالة على المدح، فليست أعلاماً محضة، وإنما هي أسماء وأوصاف، وهي وسائل يُتَعَبَدُ بها ويتقرب بها إلى الله تعالى، ومن حسنها أنك إذا سألت

(١) «صحيح البخاري» برقم (٤٨١٦، ٤٨١٧، ٧٥٢١) و«صحيح مسلم» برقم (٢٧٧٥).

الله تعالى بها فدعوته وتوسلت إليه بأسمائه وصفاته، فهو سبحانه يجيب دعاءك ﴿وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ فَادْعُوهُ بِهَا﴾ [الأعراف: ١٨٠]. وهي صفات كمال وجلال لله رب العالمين.

جاء في حديث أبي هريرة ؓ أن رسول الله ﷺ قال: «إن لله تسعة وتسعين اسماً، مئة إلا واحداً، من أحصاها دخل الجنة»^(١).

وجاء في الأثر أن لله تعالى أسماء أخرى غيرها، عن عبد الله بن مسعود ؓ أن رسول الله ﷺ قال: «أسألك بكل اسم هو لك، سميت به نفسك، أو أنزلته في كتابك، أو علمته أحداً من خلقك، أو استأثرت به في علم الغيب عندك»^(٢).

فهناك أسماء لله تعالى أخرى، جاءت في القرآن وفي السنة، غير العدد المعروف، وهناك أسماء لله تعالى استأثرت بها عنده لا يعلمها إلا هو.

قِصَّةُ نَزُولِ الرِّسَالَةِ عَلَى مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ

٩، ١٠- ﴿وَهَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ مُوسَى ﴿٩﴾ إِذْ رَأَىٰ نَارًا فَقَالَ لِأَهْلِهِ ﴿٣﴾ امْكُثُوا إِنِّي ﴿٤﴾ آنَسْتُ نَارًا لَّعَلِّي ﴿٥﴾ آيِكُمْ مِنْهَا بِقَبَسٍ أَوْ أَجْدُ عَلَى النَّارِ هُدًى ﴿١٠﴾﴾

ثم تأتي بعد ذلك قصة موسى عليه السلام، وحين نزول هذه الآيات كان الإسلام مضطهداً، والمسلمون يعذبون، فأراد الله سبحانه أن يخفف عن رسوله ﷺ بما لقيه نبي الله موسى عليه السلام في سبيل الدعوة إليه، فقال له على سبيل التقدير والتعظيم لهذه القصة: هل علمت - يا محمد - خبر موسى بن عمران عليه السلام، وما تحمَّله من أعباء النبوة وتكاليف الرسالة، والصبر على مقاساة الشدائد حتى نال الدرجة العليا.

-
- (١) البخاري (٦٤١٠) ومسلم (٢٦٧٧) والترمذي (٣٥٠٧) وابن ماجه (٣٨٦١) وغيرهم.
 (٢) ينظر «المسند» (٣٧١٢، ٤٣١٨) وأوله: «اللهم إني عبدك» وقد ضعفه محققوه، وأخرجه ابن حبان (٢٣٧٢) والحاكم (٥٠٩/١) وابن السني في «عمل اليوم والليلة» (٣٤٢) وغيرهم، وقد ضعفه الدار قطني في العلل (٢٠١/٥) ينظر تفسير آية سورة الأعراف (ولله الأسماء الحسنى فادعوه بها).
 (٣) قرأ حمزة بضم هاء الضمير وصلّاً من (لأهله امكثوا)، والباقون بكسرها.
 (٤) قرأ نافع وابن كثير وأبو عمرو وأبو جعفر بفتح ياء الإضافة من (إني آنست ناراً) وصلّاً، والباقون بإسكانها.
 (٥) ومثلها (لعلي آتيكم) إلا أن ابن عامر يفتحها مع مَنْ فتح.

ولم يكن الرسول ﷺ يعرف شيئاً عن قصة موسى عليه السلام، وكان الله تعالى يقول له: تأسّر بموسى واصبر على أذى قومك، ولا تحزن على أقوالهم وتكذيبهم لك، وانظر ماذا فعل بموسى مع قومه.

وتبدأ القصة بأحداث نزول الرسالة عليه، وهي منشأ نبوته ومبدأ سعادته، كما جاء في قوله تعالى: ﴿هَلْ أُنَبِّئُكَ حَدِيثُ مُوسَى ۖ إِذْ نَادَاهُ رَبُّهُ بِالْوَادِ الْقَدَسِ طُوًى﴾ [النازعات].

وكان هذا بعد ما جاء موسى من مصر إلى مدين وقضى فيها عشرة أعوام على الأرجح، هي صداق لابنة الرجل الصالح، فلما قضى موسى هذه الأعوام العشرة وهي (أتم الأجلين) بالنسبة للعقد المبرم بينه وبين صهره، وكان موسى قد اشتاق إلى أمه في مصر، فاستأذن صهره أن يأخذ زوجته، ويأخذ أغنامه وخدمه، ويذهب إلى مصر لرؤية أمه وأخته، وكانت زوجته حاملاً.

جاء في سفر الخروج من التوراة: فأخذ موسى امرأته وبنيه وأركبهم على الحمير ورجع إلى أرض مصر. وكان يفضل السير ليلاً؛ ليكون أستر على أهله من الناس.

وفي طور سيناء، في ليلة شاتية مظلمة، فيها سحب وضباب وبرق، ضل موسى الطريق، وفقد الماء فلم يجده، وجاء طلق الولادة لزوجته، فأراد أن يلتمس ناراً كي تستدفئ ويضيء بها المكان، فأخذ يقدح زنده الذي معه حسب العادة؛ ليخرج منه الشرر، فيستضيء به، ولما لم يقدح الزناد، رأى نوراً فظنه ناراً، فقال لأهله: انتظروا هنا؛ إني أبصرْتُ على بُعد ناراً، لعلني أجيئكم بقتيل تستدفئون به من هذه النار، وتوقدون به ناراً أخرى، أو أجد من يهديني على الطريق، فلما دنا منها تباعدت منه، فإذا رجع عنها تبعته، فلما رأى ذلك أيقن أن هذا أمر خارق للعادة، وهو من عند الله تعالى.

وفي هذا يقول تعالى: ﴿فَلَمَّا قَضَىٰ مُوسَى الْأَجَلَ وَسَارَ بِأَهْلِهِ ۚ آنَسَ مِنْ جَانِبِ الطُّورِ نَارًا ۚ قَالَ لِأَهْلِهِ امْكُثُوا إِنِّي آنَسْتُ نَارًا لَّعَلِّي آتِيكُمْ مِنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ جَذْوَةٍ مِنَ النَّارِ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ﴾ [الفصل].

وفي الآية الأخرى: ﴿إِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِأَهْلِهِ ۖ إِنِّي آنَسْتُ نَارًا سَائِكُمْ مِنْهَا خَبَرٍ أَوْ آتِيكُمْ بِشَاهِدٍ قَبِيرٍ ۖ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ﴾ [النمل].

والقبس أو الجذوة من النار: هو ما يكون مشتعلًا في رأس العود ونحوه، فأراد

موسى إما أن يجد فتيلًا من النار يستدفيء به هو وأهله، أو يجد مرشدًا أو دليلًا يهديه، ويرشده إلى الطريق الذي ضله في شدة الظلمة من الليل. قال تعالى:

١١، ١٢- ﴿فَلَمَّا أَتَاهَا نُودِيَ يَمْؤُوسِي ﴿١١﴾ إِنِّي ﴿١﴾ أَنَا رَبُّكَ فَأَخْلَعْ نَعْلَيْكَ إِنَّكَ بِالْوَادِ ﴿٢﴾ الْمُقَدَّسِ طُوًى ﴿٣﴾﴾

فلما وصل موسى إليها وجدها نارًا بيضاء تتقد في شجرة خضراء.

قال أهل التفسير: لم يكن الذي رآه موسى نارًا، بل كان نورًا ذكر بلفظ النار؛ كما حَسِبَهَا موسى ﷺ، وهذه النار هي إحدى حُجُبِ الرب تبارك وتعالى، يدل عليه ما جاء في صحيح مسلم وغيره: عن أبي موسى الأشعري ؓ عن النبي ﷺ قال: «حجابه النار، لو كشفها، لأهلك سُبُحات وجهه ما انتهى إليه بصره من خلقه»^(٤).

قيل: إن موسى أخذ شيئًا من الحشيش اليابس وقصد الشجرة، فكان كلما دنا منها نأث عنه، وإذا نأى دنت منه، فوقف متحيرًا، وسمع تسبيح الملائكة، وأُلْقِيَتْ عليه السكينة، وعندئذ نودي موسى:

ناداه الله تعالى من هذه الشجرة أن يا موسى، إني أنا الله رب العالمين؛ ربك الذي يحدثك. ﴿وَنَدَيْتُهُ مِنْ جَانِبِ الطُّورِ الْأَيْمَنِ وَفَرَّقْتُهُ نَجْمًا﴾ [مريم: ٥٢]

وفي إظهار النار لموسى، رمز ربّاني لطيف، يشير إلى أنه سيجد عند هذه النار هدى عظيمًا يبلغه لقومه، ويبدد به الظلمات، ويخرجهم -بالوحي الذي سيتلقاه في هذا المكان- من فساد الاعتقاد وضلال الطريق إلى الدين الصحيح، والنور التام، ناداه الله

(١) قرأ ابن كثير وأبو عمرو وأبو جعفر بفتح همزة (إني) من (إني أنا ربك) على تقدير الباء، أي: بأنّي، والباقون بكسرها على إضمار القول، وفتح ياء المتكلم منها في حالة الوصل: نافع وابن كثير وأبو عمرو وأبو جعفر، وأسكنها الباكون.

(٢) وقف يعقوب بالياء على (بالواد)، والباقون بدونها.

(٣) قرأ ابن عامر وعاصم وحمزة والكسائي وخلف بتثوين الواو من (طوى)، حال وصلها بما بعدها، والباقون بعدم التثوين.

(٤) يُنْظَرُ: «مسند أحمد» برقم (١٩٦٣٢) و(١٩٥٨٧) بإسناد صحيح على شرط مسلم (محققوه) وصحيح مسلم برقم (١٧٩) وابن ماجه (١٩٥) وابن أبي عاصم في السنة (٦١٤) وأبو يعلى (٧٢٦٣) وابن خزيمة في التوحيد ص(١٩) والطبراني في الأوسط (١٥٣٥).

تعالى من الشجرة المباركة، يا موسى، إني أنا الله العزيز الحكيم.

وقد علم موسى ﷺ أن هذا النداء موجه إليه من قِبَل الله تعالى؛ لأنه نداء غير صادر عن شخص مشاهد، ولا صادر من جهة معينة، أو مكان معين، ولا هو موجه بواسطة ملك يتولّى تبليغه، بل كان كلامًا مباشرًا بطريقة غير معتادة. قال تعالى: ﴿وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَى تَكْلِيمًا﴾ [النساء: ١٦٤].

ورؤية النار تدل على أن ذلك كان في الليل، وكان موسى يُحِبُّ أن يسير ليلاً، وقد خفي عليه الطريق من شدة الظلمة، فلما أتاها نودي من الجانب الغربي في جبل الطور، في وادي طوى المبارك بسيناء، من تحت الشجرة المباركة: أن يا موسى ﴿إِنِّي أَنَا رَبُّكَ﴾. وجاء هذا في قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا أَتَاهَا نُودِيَ مِنْ شَاطِئِ الْوَادِ الْأَيْمَنِ فِي الْبُقْعَةِ الْمُبْرَكَةِ مِنَ الشَّجَرَةِ أَنْ يَمْوَسَّيْ إِنْتَ أَنَا اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ [القصص: ٢٥].

وفي قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا جَاءَهَا نُودِيَ أَنْ بُورِكَ مِنْ فِي النَّارِ وَمَنْ حَوْلَهَا وَسُبْحَنَ اللَّهُ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [النمل: ٢٤].

يسمع موسى هذا النداء، وقلبه يخفق، وكيانه يرجف، إنه يسير فريداً في صحراء واسعة متعرجة، ليس فيها ماء ولا نور، في ليل دامس، وظلام شامل، وصمت رهيب، وهدوء مخيم، وهو ذاهب يلتمس ناراً، فيسمع هذا النداء العلوي: ﴿إِنِّي أَنَا رَبُّكَ﴾. سمع موسى هذا النداء من جميع الجهات، ومن جميع جوارحه، وأمر بخلع نعليه ﴿فَأَخْلَعَ نَعْلَيْكَ إِنَّكَ بِأَلْوَادِ الْمُقَدَّسِ﴾ المطهر، تعليماً للأدب والتواضع، نظراً لقداسة المكان وطهارته، أو أنه يخلع نعليه نظراً لما يسمع من كلام ربه، وقيل: إنهما كانا من جلد حمار ميت غير مدبوغ، فأمره الله تعالى بخلعهما.

عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه عن النبي ﷺ بسند فيه مقال قال: «كان على موسى يوم كلمه ربه كساء صوف، وجبة صوف، وكُفَّة صوف، وسراويل صوف، وكانت نعلاه من جلد حمار ميت»^(١).

(١) أخرجه الترمذي في كتاب اللباس، لبس الصوف برقم (١٧٣٤) قال أبو عيسى: هذا حديث غريب لا نعرفه إلا من حديث حميد الأعرج - وحميد هو ابن علي الأعرج - منكر الحديث، وحميد بن قيس الأعرج المكي صاحب مجاهد ثقة، والكُفَّة: القُلُوسَة الصغيرة.

قال تعالى: ﴿إِنَّكَ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ﴾ المسمّى ﴿طُوًى﴾ الذي باركته وطوئته ليلاً، فاصعد أعلى الوادي؛ لتلقى الوحي، وذلك استعداداً لمناجاة ربك، فخلع موسى نعليه وألقاهما، قيل: إن الله تعالى أمره أن يُلقى نعليه لأنهما من جلد حمار، والله أعلم.

قال الفخر الرازي: وفي هذا نهاية الهيبة والجلالة فكأنه قال: لقد جاءك أمر عظيم هائل فتأهب له، واجعل كل عقلك وخاطرك مصروفاً إليه^(١).

وقد أباح الإسلام الصلاة في النعلين ما لم يكن فيهما أذى، وكان هذا أمراً شائعاً بين الصحابة والتابعين، مقتدين فيه برسول الله ﷺ.

ولما اتخذ الناس الفُرش والبُسط في المساجد، تَعَوَّدُوا خُلْعَ نعالهم عند دخول المسجد حفاظاً على فُرشه النظيفة مما عساه أن يكون قد علق بها من الطريق، أو من رطوبة الحمام.

والأصل هو جواز الصلاة فيهما، إذا لبسهما المسلم على طهارة، أو مسح عليهما على طهارة.

أخرج الطبراني عن علقمة أن ابن مسعود ؓ، أتى أبا موسى الأشعري ؓ في منزله، فحضرت الصلاة، فقال له أبو موسى: تقدم يا أبا عبد الرحمن، فإنك أقدم سنّاً وأعلم، قال: لا، بل أنت تقدّم، فإنما أتيناك في منزلك، فتقدّم أبو موسى، فخلع نعليه، فلما صلى قال له ابن مسعود: لِمَ خَلَعْتَ نعليك؟ أبالواد المقدس أنت؟ لقد رأيتُ رسول الله ﷺ يصلي في الخفين والنعلين^(٢).

التَّوْحِيدُ وَالْبَغْثُ عُنْصُرَا الرِّسَالَةِ الْإِلَهِيَّةِ

١٣، ١٤ - ﴿وَأَنَا^(٣) أَخْتَرْتُكَ فَاسْتَمِعْ لِمَا يُوحَىٰ ﴿١٣﴾ إِنَّنِي^(٤) أَنَا اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدْنِي وَأَقِمِ

(١) «التفسير الكبير» (١٩/٢٢).

(٢) الطبراني في الكبير برقم (٩٢٦٢) وهو عند أحمد في «المسند» (٤٠٤/٧) برقم (٤٣٩٧) وقال محققوه: صحيح، وأخرجه ابن أبي شيبة (٤١٧/٢) وابن ماجه (١٠٣٩) وفي الباب عن أنس في البخاري (٣٨٦) ومسلم (٥٥٥).

(٣) قرأ حمزة بتشديد النون من (وأنا)، وقرأ ما بعدها هكذا (اخترناك)، والباقون بتخفيف النون وما بعدها هكذا (اخترتك).

(٤) قرأ نافع وابن كثير وأبو عمرو وأبو جعفر بفتح ياء المتكلم وصلّاً من (إنني أنا)، والباقون بإسكانها، ومثلها (لذكرى إن) إلا أن ابن كثير يسكنها مع من سكن.

الصَّلَاةُ لِذِكْرِي^(١)

وأنا اصطفتك للنبوة من أفراد قومك؛ لتحمل رسالتي، وتُبَلِّغَ دعوتي، كما قال تعالى: ﴿قَالَ يَمُوسَىٰ إِنِّي اصْطَفَيْتُكَ عَلَى النَّاسِ بِرِسَالَتِي وَبِكَلِمَتِي﴾ [الأعراف: ١٤٤]، واجتبيتك؛ لتكون سفيراً بيني وبين خلقي ﴿فَاسْتَمِعْ لِمَا يُوحَىٰ﴾ إليك مني.

قيل: إن موسى عليه السلام لما قيل له: ﴿فَاسْتَمِعْ لِمَا يُوحَىٰ﴾ وَوَقَفَ عَلَى حَجَرٍ، وَاسْتَدَّ إِلَى حَجَرٍ، ووضع يمينه على شماله، وألقى ذقنه على صدره، وقف يستمع، وكان لباسه صوفاً^(٢).

وقد تضمن النداء الأول لموسى عليه السلام منهج الدعوة إلى الله تعالى مشتملاً على ثلاثة عناصر هي: أولاً: الدعوة إلى توحيد الله تعالى.

ثانياً: الدعوة إلى عبادته سبحانه

ثالثاً: الإخبار بالساعة، وأنها آتية لا ريب فيها.

العنصر الأول: إخلاص التوحيد لله تعالى:

لقد أوحى الله تعالى إلى موسى عليه السلام في بدء الأمر؛ بالعقيدة وتوحيد الخالق؛ لأنهما الأساس الأول ﴿إِنِّي أَنَا اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا﴾ فلا معبود بحق إلا أنا، لا شريك لي، وهذا هو أول واجب على الخلق، أن يعلموا أنه لا إله إلا الله وحده لا شريك له، الكامل في أسمائه وصفاته وأفعاله، المستحق للعبادة دون سواه، وهذا هو أصل الدين ومبدؤه، وعماد الدعوة الإسلامية، وهو الركن الأول في الإسلام.

العنصر الثاني: هو ركن العبادة الذي يترتب على العقيدة، وقد جاء هذا في قوله تعالى: ﴿فَاعْبُدْنِي﴾ أي: أطعني وخدي، ولا تعبد غيري، ولا تُشْرِكْ مع الله أحداً في عبادتك بجميع أنواعها، أصولها وفروعها، ظاهرها وباطنها.

ومن العبادة: الصلاة، ولكن الله تعالى خصها بالذكر؛ لشرفها وفضلها، ولأنها تصل العبد بربه وتُذَكِّرُهُ به، وهي تشتمل على عبادة القلب واللسان والجوارح ﴿وَأَقِمِ الصَّلَاةَ﴾

(١) فتح الباء من (ذكرى) حال وصلها بأول الآية التي بعدها، نافع وأبو عمرو وأبو جعفر، وسكنها الباقون.

(٢) نسه ابن عطية في تفسيره إلى أبي الفضل بن الجوهري.

لِذِكْرِي ﴿١٤﴾ أي: لِتَذَكُّرْنِي فيها، فاللام للتعليل، أي أقم الصلاة لأجل تذكرك إياي، لأن ذكر الله تعالى أجل المقاصد وأسنَى المطالب، والقلب المعطل عن ذكر الله، معطل عن كل خير، والمقصود من العبادات، ذكر الله تعالى، وعلى رأسها الصلاة، فالعبد يذكر الله تعالى في صلاته، والذي لا يصلي لا يذكر الله سبحانه، وتنقطع الصلة بينه وبين رب العالمين.

وإقامة الصلاة عند ذِكْرِهَا مأخوذ من الآية، على وجه التبعية والاستئناس، إلى جوار المعنى الأصلي وهو إقامة الصلاة لذكر الله فيها، أي: أقم الصلاة؛ لأنها مشتملة على ذكر الله تعالى، أو أن المعنى: أقم الصلاة في الوقت الذي خصصته لذكرك، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ الصَّلَاةَ كَانَتْ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ كِتَابًا مَوْقُوتًا﴾ [النساء: ١٠٣].

وأقم الصلاة بأدائها قضاء إن أنت نمت عنها، أو غفلت عنها، بمجرد تذكرك لها، كما جاء في الحديث، عن أنس رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «إذا رقد أحدكم عن الصلاة، أو غفل عنها، فليصلها إذا ذكرها؛ فإن الله تعالى يقول وأقم الصلاة لذكركي»^(١).

وفي الصحيحين: عن أنس أيضًا أن النبي ﷺ قال: «من نسي صلاة فليصلها إذا ذكرها، لا كفارة لها إلا ذلك وأقم الصلاة لذكركي»^(٢).

وذكر الله في الصلاة علاجٌ نافعٌ في ترك الفواحش، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ﴾ [العنكبوت: ٤٥]

أي: أكبر في النهي عن الفحشاء والمنكر، أي: أن ذكر الله أثناء الصلاة، أعظم درجة عند الله تعالى وأكبر تأثيرًا في النفس إذا واطأ اللسان فيه القلب، وصحبه العمل.

الْعُنْصُرُ الثَّالِثُ: الْإِيمَانُ بِالْيَوْمِ الْآخِرِ:

١٥، ١٦ - ﴿إِنَّ السَّاعَةَ ءَاتِيَةٌ أَكَادُ أَخْفِيهَا لِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا تَسْعَىٰ ﴿١٥﴾ فَلَا يَصُدُّكَ عَنْهَا مَن لَّا يُؤْمِنُ بِهَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَتَرْدَىٰ ﴿١٦﴾﴾

(١) أخرجه أحمد في «المسند» (١٨٤/٣) برقم (١٢٩٠٩) بإسناد صحيح على شرط الشيخين ومسلم (٦٨٤) وأبو داود (٤٤٢) وأبو يعلى (٣١٩٢).

(٢) البخاري برقم (٥٩٧) ومسلم برقم (٦٨٤) وهذا لفظه.

ثم ذَكَرَ الله تعالى الركن الثالث المهم في الدعوة، وهو قيام الساعة، التي يُبعث فيها الناس، وهي ما تسمى باليوم الآخر، وهي آتية لا محالة، ففي الآية إخبار من الله تعالى أن الساعة آتية، وأن الله تعالى يُخفي وقت إتيانها عن الناس، كما قال تعالى: ﴿أَكَادُّ أَخْفِيهَا﴾ عن نفسي فلا أُطلع عليها أحدًا من المخلوقين، لا ملكًا مقربًا، ولا نبيًا مرسلًا ﴿يَسْأَلُكَ النَّاسُ عَنِ السَّاعَةِ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ اللَّهِ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ السَّاعَةَ تَكُونُ قَرِيبًا﴾ [الأحزاب: ٦٣] ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسِنُهَا قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ رَبِّي لَا يُجِيبُهَا لَوْفَهَا﴾ [الأعراف: ١٨٧].

وقد أخفاها الله تعالى عن كل إنسان؛ كي يجتهد في الطاعة والعبادة؛ لأنه لا يعلم وقت موته، ولا يعلم متى قيام الساعة، حتى يلقي ربه، وهو تائب إليه مقبل عليه، فيجازيه بما قدم لنفسه من قول وعمل ﴿فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ ۖ وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ﴾ [الزلزلة]

والسبب في إخفاء موعد قيام الساعة؛ ألا يستمرَّ العصاة في عصيانهم حتى موتهم، أو إلى قرب قيام الساعة، ثم يتوبون، فإخفاؤها لكي يجتهد الناس في العبادة حتى يأتيهم اليقين، ثم تُجْزَى كل نفس بما عملت في الدنيا من خير أو شر.

قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس ؓ: ﴿أَكَادُّ أَخْفِيهَا﴾ يقول: لا أُطلع عليها أحدًا غيري، كما يقال: كَتَمْتُ سِرَّكَ في نفسي.

فالمعنى: أكاد أخفي وقت مجيء الساعة عن نفسي، فكيف أُطْلِعُكُمْ عليها وهي شديدة الغموض على المخلوقين؟!

وقال السدي: ليس أحد من أهل السموات والأرض، إلا وقد أخفى الله عنه علم الساعة.

وقال ابن مسعود ؓ: إني أكاد أخفيها من نفسي، يقول: كَتَمْتُهَا من الخلاق، حتى لو استطعتُ أن أكتُمها من نفسي لفعلت.

وعن قتادة قال: لقد أخفاها الله تعالى عن الملائكة المقربين، وعن الأنبياء والمرسلين^(١).

وقيل: إنَّ المعنى: أكاد أظهرها، أي: أظهر وقوعها؛ لقرب وقتها، وفيه رد على من أنكرها

(١) من «تفسير ابن كثير» للآية و«الدر المنثور» (١٧٨/١٠).

في قولهم: ﴿مَتَى هُوَ؟﴾ [الإسراء: ٥١]. وقولهم: ﴿مَا نَدْرِي مَا السَّاعَةُ﴾؟ [الجاثية: ٣٢].

وهذا كقوله تعالى: ﴿قُلْ لَا يَعْلَمُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ الْغَيْبَ إِلَّا اللَّهُ﴾ [النمل: ٦٥]. وقوله: ﴿تُفْلَكُ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ لَا تَأْتِيكُمُ إِلَّا بَغْثَةٌ﴾ [الأعراف: ١٨٧].

والحكمة في إخفاء الساعة حتى يستعد العباد لمجيئها بالعمل الصالح الذي ينفعهم يوم لقاء ربهم. قال تعالى: ﴿وَمَنْ أَرَادَ الْآخِرَةَ وَسَعَى لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَئِكَ كَانَ سَعْيُهُمْ مَشْكُورًا﴾ [الإسراء: ١٩].

والحكمة في الإتيان بالساعة ﴿لِتُجْزَى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا سَعَى﴾، كما قال تعالى: ﴿لِيُجْزَى الَّذِينَ اسْتَوْا بِمَا عَمِلُوا وَيُجْزَى الَّذِينَ أَحْسَنُوا بِالْحُسْنَى﴾ [النجم: ٣١].

فلا يَضُرُّكَ وَيُشْغَلَكَ - يا نبي الله موسى - عن ذكر الساعة والاستعداد لها، من لا يُصَدِّقُ بوقوعها، أو شكَّ واشتبها فيها، واتبع هوى نفسه وكذب بها، فتهلك وتَفْنَى. كما قال تعالى: ﴿وَمَا يُغْنِي عَنْهُ مَالُهُ إِذَا تَرَدَّى﴾ [الليل: ١١].

والخطاب في هذه الآية لكل واحد من المكلفين ألا يصدّه عن الإيمان بالساعة ومجيئها، مَنْ كَذَبَ بها فخالف أمر الله تعالى، وأقبل على ملاذ الدنيا وعصى خالقه، فمن وافقهم على ذلك فقد تَرَدَّى، أي: خاب وخسر.

والآية تحذّر من اتباع المنكرين ليوم البعث والنشور، المنغمسين في شهواتهم وملذاتهم، الغافلين عنها، المعرضين عن التفكير فيها والعمل لها.

فكن - أيها المسلم - قويّ الإيمان، شديد التمسك به؛ حتى لا يلوح منك لمن لم يؤمن بالبعث والحساب والجزاء، أن يطمع في صدك عما أنت عليه من الإيمان بالله واليوم الآخر؛ لأن من لم يؤمن باليوم الآخر مُتَّبِعٌ لهواه، كافر بربه، وأنت إن فعلت ذلك هلكت مع الهالكين.

قال تعالى: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنْتَ يُحْيِ الْمَوْتَى وَأَنْتَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [١] وَأَنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ لَا رَيْبَ فِيهَا وَأَنَّ اللَّهَ يَبْعَثُ مَنْ فِي الْقُبُورِ﴾ [٧] [الحج: ١٧].

مُعْجَزَةُ الْعَصَا

١٧، ١٨ - ﴿وَمَا يَلِكُ يَمِينُكَ يَتُوسَى ﴿١٧﴾ قَالَ هِيَ عَصَايَ أَتَوَكَّؤُا عَلَيْهَا وَاهْتَسُّ بِهَا عَلَيَّ غَنَمِي وَلِيٍّ (١) فِيهَا مَنَازِبُ أُخْرَى ﴿١٨﴾﴾

بعدما أعلم الله سبحانه موسى ﷺ بأنه اصطفاه للرسالة، أراد أن يبين له المعجزة التي أيده بها، فلفت نظره إلى العصا التي معه وسأله: ما هذه العصا التي بيدك يا موسى؟ والمقصود من السؤال: هو اعتراف موسى، وإقراره، بأن ما في يمينه هو العصا، فإذا تأكد ذلك له أمره بإلقائها، كما يقول الإنسان لصاحبه: ما الذي في يدك؟ فيقول: درهم، فيقول: سوف أحوِّله إلى عصا، ويريد بذلك أن يتأكد مما في يده؛ حتى لا يشك بعد التحويل فيما حدث؛ لتظهر لموسى القدرة الباهرة، والمعجزة القاهرة في تحويل العصا إلى حية. أجب موسى على السؤال قائلاً:

١ - ﴿هِيَ عَصَايَ﴾ - والله أعلم بما في يمينه، فلا يحتاج الأمر إلى سؤال وجواب، ولكنه سبحانه يلفت نظره إلى ما سيكون من هذه العصا - وهذا جواب كافٍ، ولكن موسى لم يكتفِ به .

٢ - بل قال: ﴿أَتَوَكَّؤُا عَلَيْهَا﴾ أي: أعتمد عليها في سيري ومشبي.

٣ - ﴿وَاهْتَسُّ بِهَا عَلَيَّ غَنَمِي﴾ فأزجر بها الغنم؛ حتى لا تذهب يَمْنَةً أَوْيسرة، وتنفلت مني، وأهز بها أوراق الشجر اليابسة فيسقط ورقها، فترعاه غنمي، ففي هذه العصا معونة للإنسان ومنفعة للبهايم.

وفي بعض الآثار: أن الله تعالى عتب على موسى؛ لأنه أضاف العصا إلى نفسه، فأمره بإلقائها؛ ليعلم أنه لا مِلْكَ له عليها، وليرى منها العجب.

٤ - ثم استطرد موسى في الجواب، فذكر أن له فيها منافع أخرى غير هذين الأمرين.

إنه يفتح باب التخاطب مع الله سبحانه، طمعاً في كثرة الحديث مع الذات العلية؛ كي يزداد تلذذاً بالخطاب؛ لأن كلام الحبيب مريح للنفس، ومُذْهِبٌ للعناء، وقد كان ربه

(١) قرأ الأزرق عن ورش وحفص بفتح ياء (ولي فيها) وصلاً، والباقون بإسكانها.

يُكَلِّمُهُ بِلَا وَاسْطَةٍ، فيقول موسى: ولي فيها مآرب أخرى كثيرة.

فهذه أربعة أغراض ذكرها موسى، وهو يطمع في أن يسأله ربه عن هذه المآرب الأخرى؛ ليزداد أنسًا ومناجاة.

وقد ذكر العلماء في منافع وفوائد هذه العصا، كلامًا ممتعًا وشيقًا، منها: أنه يضع فيها زاده وشرابه ومتاعه، ويحملها على عاتقه، ويقتل بها الحيات والعقارب، وغير ذلك.

١٩، ٢٠- ﴿قَالَ أَلْقِهَا يَمُوسَىٰ ۖ فَالْقَنَآءُ فَإِذَا هِيَ حَيَّةٌ تَسْعَىٰ ۚ﴾

قال الله تعالى لموسى: اطرح هذه العصا يا موسى على الأرض؛ لترى ما يكون من شأنها.

ألقى موسى العصا على الأرض ممثلاً أمر ربه، ونظر إليها، فإذا العصا تنقلب حية بإذن الله تعالى، وإذا بها يتغير لونُها، ويكبر حجمُها، ويمدّها الله بخفة الحركة وكثرتها، فولّى موسى هاربًا خائفًا ولم يعقب، فناداه ربه: ﴿يَمُوسَىٰ أَقْبِلْ وَلَا تَخَفْ إِنَّكَ مِنَ الْآمِنِينَ﴾ [القصص: ٣١] ﴿يَمُوسَىٰ لَا تَخَفْ إِنِّي لَا يَخَافُ لَدَى الْمُرْسَلُونَ﴾ [النمل: ١٠].

والغرض من ذلك تشييته ﷺ حين يؤمر بذلك، فهي تجربة.

وفي القرآن العظيم أن هذه الحية يتعدد وصفها: مرة تأخذ شكل ثعبان، ومرة تكون في شكل حية، ومرة تكون في شكل جان، والثعبان هو الذكر الكبير العظيم، والحية تصدق على الصغير والكبير، والذكر والأنثى، والثعبان أعظم وأكبر حجمًا، والجان هو الذكر الصغير من أنواع الحيات، دقيق الجسم، خفيف الحركة، والحية في عظم الثعبان، وسرعة الجان، فهي في غاية الكبر، وغاية السرعة، قال تعالى: ﴿وَأَلْقَىٰ عَصَاكَ فَلَمَّا رَآهَا تُهَنَّرُ كَأَنَّهُآ جَانٌّ وَلَىٰ مُدِيرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ يَمُوسَىٰ لَا تَخَفْ إِنِّي لَا يَخَافُ لَدَى الْمُرْسَلُونَ﴾ [النمل: ١٠].

وقال أيضًا: ﴿وَأَن أَلْقَىٰ عَصَاكَ فَلَمَّا رَآهَا تُهَنَّرُ كَأَنَّهُآ جَانٌّ وَلَىٰ مُدِيرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ يَمُوسَىٰ أَقْبِلْ وَلَا تَخَفْ إِنَّكَ مِنَ الْآمِنِينَ﴾ [القصص: ٣١].

ووصف الله للحية بأنها (تسعى) لإزالة الظن بأنها تخيل لا حقيقة، فكونها تسعى يزيل هذا الوهم، ثم طمأن الله موسى، ووعدّه بأن الحية ستعود كما كانت:

٢١- ﴿قَالَ خُذْهَا وَلَا تَخَفْ سَعِيدُهَا سِيرَتَهَا الْأُولَىٰ ۚ﴾

تَمَلَّكَ موسى الخوف والفرع، وحين رأى أن العصا قد انقلبت حية اعتراه ما يعترى البشر، عند رؤية الأهوال والمخاوف، فولَّى مدبراً ولم يعقب ﴿قَالَ﴾ الله تعالى مطمئناً له: ﴿خُذْهَا وَلَا تَخَفْ﴾ وبمجرد إمساكك لها ستعود عصا كما كانت، ونعيدها إلى حالتها الأولى، فعادت عصاه التي كان يعرفها.

قيل: إن هذه العصا كانت في بيت عصا الأنبياء عند شعيب، ولما استأذنه موسى في العودة بأهله إلى مصر أعطاه هذه العصا، وكانت ذات شعبتين، فصارت الشعبتان لها فمًا، وصارت حية تتنقل وتمشي، وقد أراد الله سبحانه أن يُدَرِّبَ موسى على تلقِّي تكاليف الرسالة، وتأنيده بالمعجزات التي يواجه بها طغيان فرعون.

هذه هي المعجزة الأولى التي أيدك الله بها يا موسى.

مُعْجَزَةُ الْيَدِ

٢٢، ٢٣- ﴿وَاضْمُمْ يَدَكَ إِلَى جَنَاحِكَ تَخْرُجَ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ آيَةً أُخْرَى ۖ لِيُزِيلَ مِنْ ءَايَاتِنَا الْكِبْرَى﴾

وأدخل يدك اليمنى -وكان موسى أسمر اللون- أدخلها تحت إبطك الأيسر، ثم أخرجها، وانظر فيها فإنك ستجدها بيضاء تتلأأ كفلقة من القمر، أو كالثلج في نصاعة بياضه، وهذا البياض من غير برص ولا مرض، إنما هو معجزة أخرى.

وقد عارض القوم العصا، ولم يستطيعوا معارضة اليد، وقد قال الله تعالى له: اضمم يدك إلى جنبك تحت العضد؛ لتكون لك معجزة ثانية، ولتكون علامة دالة على صدق رسالتك.

وفي الآية الأخرى: ﴿وَاضْمُمْ إِلَيْكَ جَنَاحَكَ مِنَ الرَّهْبِ ۖ فَذَٰلِكَ بُرْهَانُكَ مِنْ رَبِّكَ ۖ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِۦ﴾ [القصص: ٣٢]. والجناح هو الجنب تحت الإبط، كما قال تعالى: ﴿وَأَدْخِلْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجَ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ﴾ [النمل: ١٢].

وقد فعلنا ذلك يا موسى؛ كي نطلعك على عظيم قدرتنا وسلطاننا، ونطمئنك على صحة رسالتك بما أيدك الله به من خوارق العادات، ومن آيات الله العظيمة التي تقلب العصا حية، وتجعل اليد مختلفة اللون، ثم تعود كما كانت.

ومجموع الآيات يفيد أن موسى ﷺ أمر أن يُدْخَلَ كف يده اليمنى تحت ذراعه الأيسر،

فيضمها إليه ثم يخرجها، فإذا هي بيضاء، بياضًا يخالف لون جسده، معجزة أخرى، أيد الله بها موسى ﷺ، وقد خص الله موسى بقلب العصا حية، وإخراج يده بيضاء بعد إدخالها تحت عضده، دون غيره من الرسل؛ لأن الله تعالى يعلم من بطش فرعون وجبروته ما ليس لغيره من أقوام الرسل، فكان من الحكمة أن يثبت الله قلب موسى قبل أن يرسله إلى فرعون، ويَعُدّه لتلك المهمة الشاقة.

مُوسَى يُوَاكِهُ أَكْظَمَ مُلُوكِ الْأَرْضِ

٢٤- ﴿أَذْهَبَ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَىٰ﴾

أعطى الله سبحانه موسى هذا السلاح ممثلًا في هاتين المعجزتين وطمأنه، ثم قال له: ﴿أَذْهَبَ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ﴾ فادَّعُهُ إِلَىٰ عِبَادَةِ اللَّهِ تَعَالَىٰ وَتَوْحِيدِهِ، اذْهَبْ إِلَىٰ هَذَا الطَّاعِيَةِ، وَخَلِّصْ بَنِي إِسْرَائِيلَ مِنْ شَرِّهِ، فَقَدْ تَجَاوَزَ الْحَدَّ فِي الْكِبَرِ وَالطُّغْيَانِ، وَتَمَرَّدَ عَلَىٰ رَبِّهِ، وَعَصَىٰ، وَتَجَبَّرَ، وَمُوسَى ﷺ مَرْسَلٌ إِلَىٰ الْجَمِيعِ، وَلَكِنْ خُصَّ فِرْعَوْنُ بِالذِّكْرِ؛ لِأَنَّهُ ادَّعَىٰ الرِّبَوِيَّةَ وَالْأَلُوْهِيَّةَ، وَأَوْغَلَ فِي الْكُفْرِ وَالْفَسَادِ وَالْعُلُوِّ فِي الْأَرْضِ، وَالْقَهْرِ لِلضَّعْفَاءِ، وَكَانَ مُتَكَبِّرًا، مُتَبَوِّعًا مِنْ غَيْرِهِ ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَأْتِيَهَا الْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَهِ غَيْرِي﴾ [القصص: ٣٨]. وَقَالَ أَيْضًا: ﴿أَنَا رَبُّكُمْ الْأَعْلَىٰ﴾ [النَّازِعَات: ٢٤]. وَتَجَاوَزَ الْحَدَّ فِي تَعْذِيبِ وَقَتْلِ بَنِي إِسْرَائِيلَ، كَمَا قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَأَسْتَكْبَرَهُ وَهُوَ وَجُودُهُ فِي الْأَرْضِ يَكْفِرُ الْحَقَّ وَطَنُوا أَنَّهُمْ إِلَٰهًا لَا يُرْجَعُونَ﴾ [القصص: ٢٩].

وكان طغيان فرعون سبب لإهلاكه، ومن رحمة الله تعالى أنه لا يعذب أحدا إلا بعد قيام الحجة عليه بإرسال الرسل وإنزال الكتب، فكانت رسالة موسى إلى فرعون.

وهكذا سلَّح الله موسى بمعجزتين عظيمتين لا قِيلَ لفرعون بمعارضتهما، وأمره أن يدعوه إلى توحيد الله تعالى، وأن يرسل معه بني إسرائيل؛ ليتحرروا من ظلمه وجبروته؛ فقد تجاوز فرعون الحد في الفساد والطغيان.

لم يبادر موسى بالتراجع خوفا من ظلم فرعون، بل سلَّم واستجاب، وسأل الله تعالى الإعانة عليه، بخلق الأسباب التي تعينه على تبليغ الدعوة.

مُوسَى يَسْأَلُ رَبَّهُ أَرْبَعَةَ أُمُورٍ تُعِينُهُ عَلَى مَهَامِّ الرِّسَالَةِ

٢٥، ٢٦- ﴿قَالَ رَبِّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي ۖ وَيَسِّرْ لِي أَمْرِي﴾ (٢٥)

علمَ موسى أنه أمام مهمة شاقة وصعبة، وأنه قد تحمّل حملاً ثقيلاً، حيث أرسله الله إلى هذا الجبار العنيد، وهو صاحب منة عليه، فموسى ﷺ قد تربّى في جِجْر فرعون، وشاهد بعينه طغيانه وجبروته في تعذيب بني إسرائيل، ومع ذلك فقد تلقى موسى الأمر من ربه، ممثلاً أمره، ولم يتراجع خوفاً من بطش فرعون، بل سأل الله تعالى الإعانة على ذلك، في رباطة جأش وقوة يقين، فدعا ربه أن ييسّر له هذه المهمة، وسأله أربعة أمور:

أَوَّلًا: شَرْحُ الصَّدْرِ ﴿قَالَ رَبِّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي﴾ (٢٥)

قال موسى: يارب اشرح صدري للحق ووسّعه؛ حتى أعلم أنه لا أمان ولا ملاذ لأحد غيرك، ولا أخاف سواك، وحتى أعلم أنه لا سبيل إلى وصول الأذى لخلقك إلا بإذنك، فأفسخ لي صدري لأتحمل الأذى القولي والفعلّي، حتى لا يتكدر قلبي، ولا تضيق نفسي، فإن الصدر إذا ضاق لا يصلح صاحبه لهداية الخلق ودعوتهم.

وشرح الصدر قوة معنوية تفيض بالسكينة على العبد، وتجعله يصبر ويتحمل المشاق، ويُقبل على الدعوة بهمة ونشاط، أما ضيق الصدر فهو من أسباب الضعف، والملل، وخور العزيمة.

ثَانِيًا: تَيْسِيرُ الْأَمْرِ: ﴿وَيَسِّرْ لِي أَمْرِي﴾ (٢٦)

طلب موسى من ربه أن يذلل له الصعاب، ويوفقه للأخذ بالأسباب، فاجعل يارب، أمري سهلاً هيناً، لا مشقة فيه ولا نصب، وسهّل عليّ كل أمر أسلكه، وكل طريق أقصده في سبيلك، وهوّن عليّ ما أجد من الشدائد.

ثَالِثًا: فَصَاحَةُ اللِّسَانِ

٢٧، ٢٨- ﴿وَأَحْلَلْ عُقْدَةً مِّن لِّسَانِي ۖ يَفْقَهُوا قَوْلِي﴾ (٢٨)

(١) قرأ نافع وأبو عمرو وأبو جعفر بفتح باء الإضافة من (ويسر لي أمري) وصلّا، وأسكنها غيره.

قال موسى: يارب، أطلق لساني بفصيح المنطق؛ ليفهموا قولي، فلا بد للرسول من قوة البيان، وبلاغة القول، وفصاحة اللسان حتى يفقه الناس ما يقولون، ويحصل المقصود من الدعوة بحسن المخاطبة والمراجعة والبيان عن المعاني:

١- وحين كان موسى صغيراً في حجر فرعون نتف لحيته، وشد شعره، ولطمه لطمه شديدة، فتوجس فرعون في نفسه خوفاً من أن يزول ملكه على يديه، وهمم بقتله، فقالت له زوجته: إنه طفل صغير لا يعلم شيئاً، وأرادت أن تُبرهن لفرعون على ذلك؛ حتى يطمئن ولا يؤذيه، فجاءت بجمرتين وتمرتين وقالت: إن أمسك بالتمرّة فإنه يُدرك ويفهم، وإن أمسك بالجمرّة فإنه لا يفهم ولا يدري، وأمسك موسى بالجمرتين ووضعهما على لسانه، فأنجاه الله من أذى فرعون، وأصاب لسانه لثغة^(١).

وقيل: إن موسى أراد أن يمسك التمرة، فحوّل جبريل يده على الجمرّة فوضعها في فمه، فصار في لسانه عقدة من أثر النار. وقيل: بدل التمرة جوهرة أو لؤلؤة، ولهذا قال عنه فرعون: ﴿أَنَا خَيْرٌ مِّنْ هَذَا الَّذِي هُوَ مَهِينٌ وَلَا يَكَادُ يُبِينُ﴾ [الزخرف: ٥٢] أي: يُفصِح في الكلام.

وكان هارون أكبر من موسى، وأفصح لساناً وأجمل، وأوسم، وكان أبيض اللون، وكان موسى أسمر.

٢- وقيل: إن موسى ﷺ كان في لسانه ثقل، فقال لربه: يارب أرسل معي أخي الأكبر ﴿وَأَخِي هَارُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّي لِسَانًا فَأَرْسَلْهُ مَعِيَ رِدْءًا يُصَدِّقُنِي﴾ [القصص: ٣٤].

٣- وقيل: إن موسى لما أقام في مدين مدة طويلة، نسي لهجة المصريين، وإن هارون كان مختلطاً بالمصريين، ويعرف لغتهم، فهو أعلم منه بلغة القوم.

أخرج الحاكم عن وهب قال: كان هارون فصيحاً، بين النطق، يتكلم في تودة، ويقول بعلم وحلم، وكان أطول من موسى وأكبرهما في السن، وأكثرهما لحماً، وأبيضهما جسماً، وأعظمهما ألواحاً، وكان موسى جعداً آدم، طوالاً، كأنه من رجال شنوءة.

(١) يُنظر في هذا: ما جاء عن سعيد بن جبیر، عند عبد بن حمید، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، كما في «الدر المنثور» (١٠/١٨٤).

ولم يبعث الله نبياً إلا وقد كانت عليه شامة النبوة في يده اليمنى، إلا أن يكون نبينا محمد ﷺ فإن شامة النبوة كانت بين كتفيه^(١).

رابعاً: التوزيع المعين

٢٩-٣٢- ﴿وَاجْعَلْ لِي وَزيراً مِنْ أَهْلِي﴾ ﴿٢٩﴾ هَرُونَ أَخِي ﴿٣٠﴾ أَشَدُّ بِهِ أَزْرَى ﴿٣١﴾ وَأَشْرِكُهُ ﴿٣٢﴾ فِي أَمْرِي ﴿٣٣﴾

سأل موسى ربه أن يجعل له معيماً من أهله، هو أخوه هارون، يساعده ويتحمل معه أعباء الرسالة، يؤازره ويعينه، ويلجأ إليه في أموره، فأجاب الله دعاءه ﴿قَالَ سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ وَنَجْعَلُ لَكَ سُلْطَانًا فَلَا يَصْلُونَ إِلَيْكُمَا﴾ [القصص: ٣٥]

قال ابن عباس ؓ: شكى موسى إلى ربه ما يتخوف من آل فرعون في شأن القبطي الذي قضى عليه، وشأن عقدة لسانه فإنه كان في لسانه عقدة تمنعه من كثير من الكلام، وسأل موسى ربه أن يعينه بأخيه هارون يكون له رُدءاً، ويتكلم عنه بكثير مما لا يُفصح به لسانه، فأتاه الله سؤله، وحل عقدة من لسانه^(٤).

واجعله يارب معيماً وناصرًا لي، وقوَّني به، وشُدَّ به ظهري؛ فإن من شأن الأخ أن يكون حريصاً على نجاح أخيه، وفي هذا بيان لحكمة الاختيار من قرابته.

قال موسى: وأشركه يارب معي في النبوة وتبليغ الرسالة.

وقد أجاب الله سؤال موسى ﷺ فأوحى لهارون وهو في مصر، في نفس الوقت والساعة التي أرسل فيها موسى وهو في طور سيناء.

قال ابن عباس ؓ: نبئ هارون ساعتئذ حين نبئ موسى ﷺ.

(١) «المستدرک» (٢/ ٥٧٧).

(٢) قرأ ابن كثير وأبو عمرو بفتح ياء الإضافة من (أخي اشد) وصلًا، والباقون بإسكانها.

(٣) قرأ ابن عامر وابن وردان بخلف عنه بهمزة قطع مفتوحة وصلًا وبدءًا من (اشدد) مضارع شدَّ، وقرأ ابن عامر وابن وردان بخلف عنه أيضًا (وأشركه) بهمزة قطع ولكنها مضمومة من أشرك، والباقون بهمزة وصل فيهما تحذف وصلًا وتثبت في البدء مضمومة في (اشدد)؛ لضم ثالثها ومفتوحة في (واشركه)؛ لكسر ثالثها.

(٤) «تفسير ابن كثير» (٥/ ٣٨٢).

وورد عن عائشة رضي الله عنها أنها سمعت رجلاً يسأل من معه: أي الإخوة كان أنفع لأخيه في هذه الدنيا؟ فقالوا: ما ندري، قال: والله أنا أدري، قالت عائشة: فقلت في نفسي: في حلفه لا يستثني، إنه ليعلم أي أخ كان في الدنيا أنفع لأخيه، قال: موسى حين سأل لأخيه النبوة، فقلت: صدق والله^(١).

وفي هذا قال الله تعالى في الثناء على موسى عليه السلام: ﴿وَكَانَ عِنْدَ اللَّهِ وَجِيهاً﴾ [الأحزاب: ٦٩].

وهكذا طلب موسى من ربه أن يُعينه بأخيه، يشد به أزره؛ لِمَا يعلم منه من فصاحة اللسان، وثبات الجنان، وأن يُشركه معه في المهمة للقيام بشؤون الدنيا، وأن يجعله نبياً رسولاً، وذلك لما يعلم من طغيان فرعون وجبروته. قال موسى عليه السلام مُبيناً الفائدة في ذلك:

٣٣-٣٥ ﴿كَيْ سُبْحَكَ كَثِيراً﴾ (٢) ﴿وَنَذْرَكَ كَثِيراً﴾ (٣) ﴿إِنَّكَ كُنْتَ بِنَا بَصِيراً﴾ (٢٥)

علل موسى سؤاله لربه أن يشد أزره بأخيه هارون؛ فبيّن أنه كي يستعين به على الإكثار من ذكر الله تعالى وتسبيحه، وفي هذا بيان للغاية المنشودة من الوزير المعين للحاكم ومن البطانة التي حوله، وهي الإعانة على البر والتقوى، وما يعود على الناس بالخير والنفع في دينهم ودنياهم ﴿كَيْ سُبْحَكَ كَثِيراً﴾ (٣٣) أي: نُكثّر من حمدك، وتسبيحك، وتزبيحك عما لا يليق بجلالك، ونُكثّر من ذكرك وشُكرك؛ فأنت سبحانه لا يخفى عليك شيء من أقوالنا وأفعالنا فاخترتنا - يا ربنا - لرسالتك، وبعثتنا إلى عدوك، ومنحتنا الكثير من فضلك، وأنت تعلم ضعفنا وعجزنا وافتقارنا إليك في كل الأمور، فَمُنَّ علينا بما سألناك، وأجب لنا فيما دعوناك، فلك الحمد والمنة.

٣٦- ﴿قَالَ قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ﴾ (٤) ﴿يَمُوسَى﴾ (٣٦)

قال سبحانه: قد أعطيتك يا موسى، كل ما سألت؛ فإن الله يسر لك أمرك، وشرح لك

(١) أخرجه ابن أبي حاتم كما في «تفسير ابن كثير» (٢٧٧/٥) و«الدر المنثور» (١٨٥/١٠).

(٢)، (٣) أسقط البصري (كثيراً) من العدد في الآيتين (٣٣، ٣٤) وعدهما بقية علماء العدد.

(٤) قرأ الأصبهاني عن ورش وأبو جعفر وأبو عمرو بخلف عنه بإبدال همزة (سؤلك) حرف مد وصلًا ووقفًا وكذا حمزة وقفًا، والباقون بإثبات الهمزة ساكنة.

صدرك، وفك لك عقدة لسانك؛ ليفقهوا قولك، وأرسل معك أخاك هارون شريكًا لك في النبوة، فطب نفسًا وقرَّ عينًا.

سَبِّعْ مِنْهُ أُخْرَىٰ أَمَتْنِ اللَّهُ بِهَا عَلَىٰ مُوسَىٰ تَتَنَاولُ حَيَاتَهُ كُلَّهَا

٣٧- ﴿وَلَقَدْ مَتَنَّا عَلَيْكَ مَرَّةً أُخْرَىٰ﴾ ﴿٣٧﴾

أراد الله سبحانه أن يذكّر موسى ﷺ بنعم أخرى سابقة، كانت هذه النعم في وقت التربية، وفي نشأته وأطوار حياته، منها ما يدركه، ومنها ما لا يدركه. فذكر سبحانه وتعالى له ثماني ممن امتن بها عليه، وجاء ذكرها في سورة (القصص) مفصلة، وجاءت هنا موجزة.

ومن هذه المنن، ما لا يذكرها موسى؛ لأنه كان طفلًا صغيرًا، لا يدرك ولا يميز، وذلك حينما أنجاه الله تعالى من بطش فرعون وقت أن كان رضيعًا.

قيل: إن فرعون رأى في منامه أن نارا قد أحرقت فرعون والمصريين، وأبقت على بني إسرائيل، فجمع الكهنة والعرافين؛ ليفسروا له هذه الرؤيا، فقالوا له: إن مولودًا يولد من بني إسرائيل يكون سببًا في زوال مُلْكِكَ، فأمر فرعون بقتل الرجال، وإبقاء الإناث أحياء، واستمر القتل في بني إسرائيل لكل مولود، حتى كاد النسل من الذكور أن ينقرض.

وكان فرعون يستعمل الرجال من بني إسرائيل في الأعمال الشاقة، من الحفر والبناء ونحوها، فذهب المقرَّبون من فرعون إليه، وأعلموه بأن عدد الذكور يكاد أن ينقرض، فأمر بأن يُقتل الذكور عامًا، ويتركون عامًا، ووُلِدَ هارون في العام الذي فيه عفو، ووُلِدَ موسى في العام الذي فيه القتل.

وقيل: إن فرعون وجلساءه تذكروا ما وعد الله به إبراهيم، أن يجعل في ذريته أنبياءً وملوكًا، وكانوا يظنون أنه يوسف عليه السلام، فلما مات، قال فرعون: كيف ترون؟ فأجمعوا أمرهم على ذبح الذكور من بني إسرائيل، فكان هذا سبب محنة موسى عليه السلام.

الْمِنَّةُ الْأُولَى: نَجَاةُ مُوسَى مِنَ الْبَحْرِ، عَلَى يَدِ عَدُوِّهِ

٣٨، ٣٩- ﴿إِذْ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ مَا يُوحَىٰ (٢٨) أَنْ أَقْرِضْهُ فِي الْغَابِوتِ فَأَقْضِهِ فِي آلِ يَمِّ (١) فَلْيَلْقِهِ
الْيَمُّ بِالسَّاحِلِ يَأْخُذْهُ عَدُوٌّ لِّي وَعَدُوٌّ لَّكَ وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِنِّي وَلِتُصْنَعَ (٢) عَلَىٰ عَيْنِي (٣)﴾

أي: أَلْهَمْنَا أَمْلَكَ - يا موسى - فَأَلْقَيْنَا فِي قَلْبِهَا أَنْ ضَعِي ابْنُكَ مُوسَى بَعْدَ وِلَادَتِهِ فِي
التَّابُوتِ، ثُمَّ اطَّرَحِيهِ فِي النَّيْلِ، فَسَوْفَ يَلْقِيهِ النَّيْلُ عَلَى السَّاحِلِ، فَيَأْخُذْهُ فِرْعَوْنُ عَدُوِّي
وعَدُوِّهِ، وَلَا تَخَافِي عَلَيْهِ، وَلَا تَحْزَنِي؛ فَإِنَّ اللَّهَ سَيَرُدُّهُ عَلَيْكَ بِتَدْبِيرِهِ وَحُكْمَتِهِ، وَيَكُونُ لَهُ
شَأْنٌ عَظِيمٌ بِالنَّبُوءَةِ وَالرَّسَالَةِ.

ولما خافت عليه أمه من قتل فرعون له، أَلْهَمَهَا اللَّهُ تَعَالَى، وَأَوْحَى إِلَيْهَا أَنْ اصْنَعِي لَهُ
صَنْدُوقًا وَضَعِيهِ فِيهِ، وَأَلْقِيهِ فِي الْيَمِّ، فَفَعَلْتُ ذَلِكَ.

وهذا أمر يصادم العقل، إِذْ كَيْفَ يَقُولُ اللَّهُ تَعَالَى لِأُمِّ مُوسَى: إِنْ خَفْتُ عَلَى وَلَدِكَ فَأَلْقِيهِ
فِي النَّهْرِ؟ وَلَكِنَّ اللَّهَ تَعَالَى طَمَأَنَّا بِعَوْدَتِهِ وَبَشَّرَهَا بِرِسَالَتِهِ، فَأَجَابَتْ أَمْرَ رَبِّهَا، وَامْتَلَأَ قَلْبُهَا
يَقِينًا بِوَعْدِ اللَّهِ لَهَا.

وصنع مؤمن آل فرعون وهو (حزقيل) صندوقًا لها، وطلاه بالزفت، وحشاه بالقطن
المحلوج، وربطته بحبل تجرُّه إليها كلما أرادت أَنْ تُرْضِعَهُ، ثُمَّ تُرْجِعُهُ مَرَّةً أُخْرَى.

وكان للنهر فرع كبير يدخل بيت فرعون، وذات يوم انفلت الحبل منها، وانجرف
الصندوق مع الماء، فطار عقلها خوفًا عليه، كما قال سبحانه: ﴿وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَى
فَرِغًا إِنْ كَادَتْ لَتُبْدِيَ بِهِ لَوْلَا أَنْ رَبَّنَا عَلَى قَلْبِهَا لَتَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ (١٠)﴾ وَقَالَتْ لِأُخْتِهِ
فُصَيْيَّةُ ﴿الْقَصَص: ١٠، ١١﴾

وكان اسمها مريم، أرسلتها أمها؛ لتتعرف على خبر موسى بعد إلقاءه في اليمِّ، وقد

(١) عد الحمصى (في اليم) آية، وأسقطها غيره من العدد.

(٢) قرأ أبو جعفر بإسكان اللام من (ولتصنع) مع جزم العين، فهي لام الأمر الجازمة، وقرأ الباقر بكسر
اللام ونصب العين، على أن اللام لام كي وما بعدها منصوب بأن مضمرة بعدها.

(٣) قرأ نافع وأبو عمرو وأبو جعفر بفتح ياء الإضافة من (عيني) حال وصلها مع (إذ) بعدها، والباقر بإسكانها.

أخذ الموج موسى لِقَصْرِ فرعون، وكان قَصْرُ فرعون فيه شجر وماء، فأمر الله البحر أن يُلقى موسى على الساحل، وقبض له من يأخذه، وهو أعدى الأعداء، كي يتربى في بيته كأولاده ويكون قرة عين لمن يراه:

وبينما كان فرعون جالسًا مع امرأته على فرع نهر النيل الذي يمر ببيته، إذا بتابوت يحمله الماء، فأمر الغلمان والجواري بإخراجه، فأخرجوه وفتحوه، وإذا بغلام من أُمّ لَح الناس وجهًا، فألقى الله محبته في قلب آل فرعون، ولم يملك فرعون إخفاء ذلك، ولا منع امرأته وابنته من محبته.

وُجِد موسى بين الماء والشجر فُسِّمِي (موشى) بالشين، وهي كلمة مركبة من (مو) وهو الماء، و(شَى) وهو الشجر، ثم أُبدلت الشين سينًا ﴿وَقَالَتْ أَمْرَأْتُ فِرْعَوْنُ قُرْتُ عَيْنٍ لِي وَلَكَ لَا تَقْتُلُوهُ عَسَى أَنْ يَنْفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا﴾ [القصص: ٩].

فقال فرعون لآسية: قرة عين لك وحدك، فأنا لا أريده.

الْمِثَّةُ الثَّانِيَّةُ: ﴿وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّنِّي﴾^(١)

أي إني ألقيت عليك يا موسى محبة مني فصِرْتُ بها محبوبًا بين العباد، حيث زرعْتُ محبتك وأنت صغير في قلوب الناس، فلا يراك أحد إلا أحبك، ولا أدل على ذلك من محبة فرعون وآله لك، وتَرْبِيَّتُكَ في بيته معززا مكرما، مع أنك ستكون عدوه في المستقبل، ووصف المحبة بأنها من الله؛ للدلالة على أنها محبة خارقة للعادة بوضع القبول له في الأرض، كما يضعه الله لعباده الصالحين.

أخرج عبدُ بنُ حميد أن عكرمة قال: نظرتُ آسية وجهَ موسى فرأت حُسْنًا ومَلاحةً، فعندها قالت لفرعون: ﴿قُرْتُ عَيْنٍ لِي وَلَكَ﴾ [القصص: ٩].

قال ابن عباس ؓ: كان في عيني موسى مَلاحة، بحيث لا يراه أحد إلا أحبه، وذلك قول الله تعالى: ﴿وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّنِّي﴾.

(١) قوله تعالى (وألقيت عليك محبة مني) عدّها آية، المدنيان والمكي والدمشقي، وأسقطها غيره من العدد.

الْمِنَّةُ الثَّالِثَةُ: ﴿وَلِنُصْنَعَ عَلَى عَيْنِي﴾

أي: أنك تَرَبَّيَ على عيني، في حفظي وتحت رعايتي وعنايتي، وأنت في بيت عدو الله وعدوك، لا يصيبك سوء، ولا ينالك مكروه، بل تكون في عزة ومنعة، ومستوى راقٍ من المعيشة، وأنت في أحضان أمك وبيت أبيك، ونفقة فرعون عليك، وحب أهل بيته لك، وإعدادك للنبوّة والرسالة.

وفي الآية إثبات صفة العين لله سبحانه، كما يليق بجلاله وكماله.

الْمِنَّةُ الرَّابِعَةُ: عَوْدَتُهُ إِلَى أَحْضَانِ أُمِّهِ

ومن حسن تدبير الله تعالى لموسى، أنه لما وقع في يد عدوه، قلقته أمه قلقاً شديداً، فحرم الله عليه المرضعات تمهيداً لعودته إلى أحضانها بإقباله على ثديها، وقد أخذت أخته تطوف في الديار لعلها تجده:

٤٠- ﴿إِذْ تَمْشِي أُخْتُكَ فَتَقُولُ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ مَن يَكْفُلُهُ ۖ فَرَجَعْنَاكَ إِلَىٰ أُمِّكَ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ ۚ (١) وَقَلَّتْ نَفْسًا فَنَجَّيْنَاكَ مِنَ الْغَمِّ وَفَتَنَّاكَ فُتُونًا (٢) فَلَمَّتْ سِنِينَ فِي أَهْلِ مَدْيَنَ (٣) ثُمَّ جِئْتَ (٤) عَلَىٰ قَدَرٍ يَمْوِئُ (٥)﴾

أي: ومنا عليك يا موسى، حين رفضت المرضعات بإيحاء منا؛ حتى تعود إلى أمك وتُربِّي في حضنها، وذلك حين أخذ موسى يبكي من الجوع، وجاءوا إليه بالمرضعات، فرفض أن يرضع، وامتنع من كل المرضعات، كما قال تعالى: ﴿وَحَرَمْنَا عَلَيْهِ الْفَرَاغَ مِن قَبْلُ﴾. وتقصت أخته أثره، وتبعته فوجدته في قصر فرعون، فقالت لهم: ﴿هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُ لَكُمْ﴾ أي: يحفظونه ويصونونه ﴿وَهُمْ لَهُ نَاصِحُونَ﴾ [القصص: ١٢]. يحافظون عليه ويُرِضُّونَهُ، وفي ذلك يقول تعالى: ﴿إِذْ تَمْشِي أُخْتُكَ﴾ وتتبع أثرك

(١) عد (ولا تحزن) آية، الشامي وحد، وأسقطها غيره من العدد.

(٢) عد (وفتناك فتونا) آية، الشامي والبصري، وتركه غيرهما.

(٣) عد (في أهل مدين) آية، الشامي وحده، وأسقطها غيره من العدد.

(٤) أبدل أبو عمرو بخلف عنه وأبو جعفر، همزة (جئت) حرف مد، وكذا حمزة عند الوقف، والباقون بإثبات الهمزة ساكنة.

﴿فَقُولْ﴾ لمن أخذوك من آل فرعون ﴿هَلْ أَذْكَرٌ عَلَىٰ مَنْ يَكْفُلُهُ﴾ ويُرضعه لكم.

ولم يُقبل موسى على أي امرأة ممن أُخْضِرْنَ له، فلما أُخْضِرَتْ له أمه رضع منها، وفرحوا فرحاً شديداً، وقالت آسية: أُخْضِرُوهَا للقُصْر لترضعه، فقالت أمه: إن لديها مسؤوليات، ولن تستطيع ترك بيتها والإقامة عندهم، فوافقوا على إرساله لها في البيت لترضعه، وتحقق بهذا وعد الله سبحانه لها في قوله: ﴿فَرَدَدْنَاهُ إِلَىٰ أَبِيهِ كَيِّنَ نَفَرٍ عَيْنَهَا وَلَا تَحْزَنَ﴾ [القصص: ١٣]، وفي قوله: ﴿إِنَّا رَأَوْنَاهُ إِلَيْكَ وَجَّاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾ [القصص: ٧]. وهنا قال تعالى: ﴿فَرَجَعْنَاكَ إِلَىٰ أُمِّكَ كَيِّنَ نَفَرٍ عَيْنَهَا وَلَا تَحْزَنَ﴾ أي: أعدناك إلى أحضان أمك بعدما كنت في حجر فرعون؛ كي تطيب نفسها بسلامتك من الغرق، والقتل، ولا تحزن على فقدك.

الْمِثَّةُ الْخَامِسَةُ: ﴿وَقَلَّتْ نَفْسًا فَنَجَّيْنَاكَ مِنَ الْغَمِّ﴾

أي: واذكر يا موسى حين قتلت الرجل القبطي خطأ، حين كانت سنُّك اثنتي عشرة سنة، فنَجَّيْنَاكَ من غم مؤكّد، وقَتَلِ محقق؛ حيث اغتَمَّ موسى خوفاً من عقاب الله له، واغْتَمَّ خوفاً من القصاص، فغفر الله له ذنبه ونجاه من القصاص.

في صحيح مسلم بسنده إلى سالم بن عبد الله بن عمر رضي الله عنه قال: يا أهل العراق، ما أسألكم عن الصغيرة وأركبكم للكبيرة، سمعت أبي، عبد الله بن عمر يقول: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إن الفتنة تجيء من ها هنا» وأوماً بيده نحو المشرق من حيث يطلع قرنا الشيطان، «وأنتم يضرب بعضكم رقاب بعض، وإنما قَتَلَ موسى الذي قَتَلَ من آل فرعون خطأ»، فقال الله ﷻ له: ﴿وَقَلَّتْ نَفْسًا فَنَجَّيْنَاكَ مِنَ الْغَمِّ وَفَتَّكَ فُتُونًا﴾^(١).

وقد جاء سبب هذا القتل الخطأ في سورة القصص [١٥، ١٦] وهو استغاثة الإسرائيلي بموسى على المصري الذي تشاجر معه، وأن موسى ﷺ أراد أن يفصل بينهما، فوكز المصري؛ ليدفعه عن الآخر، فكانت القاضية، فأسند موسى ذلك إلى الشيطان، واستغفر ربه فغفر له، وهذا هو المراد في قوله: ﴿رَبِّ إِنِّي قَتَلْتُ مِنْهُمْ نَفْسًا فَأَخَافُ أَنْ يَقْتُلُونِ﴾ [القصص: ٣٣].

وهو الذنب المراد في قوله: ﴿وَلَهُمْ عَلَىٰ ذَنْبٍ فَأَخَافُ أَنْ يَقْتُلُونِ﴾ [الشعراء: ٤]. وهو مراد فرعون حين قال لموسى: ﴿وَفَعَلْتَ فَعَلْتِكَ الَّتِي فَعَلْتَ وَأَنْتَ مِنَ الْكَافِرِينَ﴾ [الشعراء: ٦].

(١) «صحيح مسلم» (٣/ ٢٢٢٩) برقم (٢٩٠٥) كتاب الفتن، باب الفتنة في المشرق من حيث طلع قرنا الشيطان.

وقد نجى الله موسى من الغم: أي من عقوبة الذنب ومن القتل.

الْمِثَّةُ السَّادِسَةُ: هِجْرَتُهُ إِلَى مَدِينٍ وَنَجَاتُهُ مِنَ الْفِتَنِ ﴿وَفَنَّاكَ فُتُونًا﴾

أي: ابتليناك ابتلاء، واختبرناك فوجدناك مستقيماً في أحوالك وأطوارك حتى وصلت إلى ما وصلت إليه من النبوة والرسالة، وهما أعلا مراتب البشر:

وبعد تعداد هذه المنن، ذكّر الله سبحانه موسى بالفتن التي ابتلي بها، وهي قتله للقبطي، والهجرة إلى مدين، ويبيّن سبحانه أن عاقبة هذه الفتن كانت محمودّة؛ حيث أعده الله تعالى لتحمل المصاعب، وأعباء الرسالة.

﴿فَلَيْتَ سِنِينَ فِي أَهْلِ مَدْيَنَ﴾ أي: خرجت خائفاً من مصر ووصلت إلى مدين، ومكثت فيهم سنين طويلاً، ثم رجعت من مدين في الموعد الذي قدّرناه لإرسالك، فجئت في وقت موافق لقدر الله وإرادته، والأمر كله لله تعالى.

قالوا: إن قتل موسى للمصري الذي اشتبك مع الإسرائيلي، كان خطأ، فإن موسى دفع المصري؛ ليُبْعِدَه عن الإسرائيلي، فوقع على الأرض من هذه الدفعة ومات، ولم يكن موسى يقصد قتله، وخرج موسى من مصر هارباً إلى أهل مدين، ونجّاه الله من فرعون وقومه، وبقي في مدين ثمانية وعشرين عاماً، عشرة منها كانت مهراً لابنة شعيب، وثمانية عشر بعدها؛ حيث ولد له أولاد، وكان عنده غنم.

ثم خرج موسى من مدين قاصداً مصر، متوجّهاً إلى أمه، وبينما كان في أرض سيناء، بجبل الطور، نزل عليه الوحي، وعُمره أربعون سنة، ذلكم قول الله تعالى: **﴿ثُمَّ جِئْتَنَا عَلَىٰ قَدَرٍ يَمْوِسَّىٰ﴾** المراد بالقدر هنا: هو وقت محدد لا يتقدم ولا يتأخر، أي: أن موسى **﴿عليه السلام﴾** جاء في وقت مقدّر ومحدد من الله تعالى، قال تعالى: **﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ﴾** [القمر]

وقال: **﴿وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ قَدَرًا مَّقْدُونًا﴾** [الأحزاب: ٣٨]. وهو القدر العام الذي يدبر الله به شؤون الكون.

وكان هذا المجيء يوافق بلوغه سن الأربعين وهو السن الذي يوحى فيه إلى الرسل غالباً، فقد وصل موسى في هذا الوقت إلى جبل الطور، وجاءته النبوة حيث أوحى الله إليه ما أوحى.

وما حصل لموسى كان من الابتلاءات والمحن التي نجاه الله وخلّصه منها، واحدة بعد الأخرى: قال تعالى: ﴿وَفَنَّكَ فُتُونًا﴾ أي: محنة بعد محنة، وفتنًا متتابعة، حيث ابتليناك بابتلاءات متلاحقة، وخلّصك الله منها جميعًا، ومن هذه المحن:

أن أمك حملتك في السنة التي يُذبح فيها الأطفال، ثم ألقتك في اليم بعد وضعك في الصندوق، ثم منعك من الرضاعة إلا من ثدي أمك، ثم أخذت بلحية فرعون وهمّ بقتلك، ثم قتلت القبطي، وخرجت إلى مدين خائفًا، فنجاك الله من هذا كله.

وأهل مدين هم قوم شعيب، ومدين أحد أبناء إبراهيم عليه السلام، حيث سكنت ذريته في مواطن تسمى مدين والأيكة، على شاطئ البحر الأحمر، جنوب العقبة، وصار الاسم علمًا على المكان، ومدين والأيكة مكانان مختلفان متجاوران، وليسا مكانًا واحدًا على الأرجح؛ لأن الله تعالى قال في أهل مدين: ﴿وَالِئِنْ مَدِينَتْ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا﴾ [هود: ٨٤]. وقال عن أهل الأيكة: ﴿كَذَّبَ أَصْحَابُ الْأَيْكَةِ الْمُرْسَلِينَ﴾ [الشعراء: ١٧٦] إِذْ قَالَ لَهُمْ شُعَيْبٌ [الشعراء: ١٧٦]. ولم يقل: (أخوهم)، فتبيّن بهذا أن شعيبًا كان من مدين، ولم يكن من الأيكة، وأنه قد أرسل إليهما معًا، وتبيّن أيضًا أنه الرجل الصالح الذي تزوج موسى ابنته.

فقد خرجت يا موسى من مصر، ولبثت سنين في أرض مدين، وأنت بجانب الطور الأيمن أثناء عودتك إلى مصر اصطفتك لرسالتي، ونبوتي؛ للقيام بمهام الرسالة وفق إرادتي، وجعلتك واسطة بيني وبين عبادي.

الْمِنَّةُ السَّابِعَةُ: اجْتِبَاءُ مُوسَى وَاصْطِفَاؤُهُ

٤١ - ﴿وَاصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِي﴾ (١)

أي وأنعمت عليك يا موسى، هذه النعم، اجتباءً مني لك، واختيارًا لرسالتي، والبلاغ عني، والقيام بأمرى ونهبي.

(١) فتح نافع وابن كثير وأبو عمرو وأبو جعفر الياء من (لنفسى) حال وصلها بما بعدها، والباقون بإسكانها، ومثلها ياء (ذكرى) عند وصلها بما بعدها، وعند الوقف عليهما: الجميع بالسكون المدي. هذا: وقد عد (لنفسى) آية، الشامي والكوفي وتركها غيرهما.

والمعنى: إني اصطفتك واجتبيتك رسولاً، كما أريد وأشاء، وربيتك على مرأى مني، تحت حفظي ورعايتي، لتكون لنفسي حبيباً مختصاً، وتبلغ مبلغاً كبيراً بين الخلق.

عن أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «التقى آدم وموسى، فقال موسى لآدم: أنت الذي أشقيت الناس وأخرجتهم من الجنة؟ قال له آدم: أنت الذي اصطفاك الله برسالته، واصطفاك لنفسه، وأنزل عليك التوراة؟ قال: نعم، قال: فوجدتها كُتبت عليّ قبل أن يخلقني؟ قال: نعم، فحج آدم موسى»^(١).

ومعنى أن الله تعالى كتب ذلك على آدم قبل أن يخلقه، أي: أن الله سبحانه علّم فأراد، فالكتابة تسجيل لما سيقع، مما كشفه علّم الله تعالى في الأزل، ولا يقع في ملك الله تعالى ما يخالف علّمه وإرادته.

وهكذا يمتنّ الله على نبيه موسى بأن حفظه وهو في نهر النيل، ثم حفظه وهو في حضن أعدائه وأعداء الله، ثم سخر له أخته؛ لترشد آل فرعون إلى من يرضعه ويكفله، ثم رده إلى أمه بعد حزنها البالغ وألمها الشديد، والذي صنع به كل ذلك قادر على أن يحفظه من بطش فرعون وهو يدعوه إلى توحيد ربه، وإطلاق سراح بني إسرائيل من ظلمه واضطهاده.

مُوسَى وَهَارُونُ رَسُولَانِ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ بِاللُّطْفِ وَاللِّينِ

٤٢ - ﴿أَذْهَبَ أَنتَ وَأَخُوكَ بِآيَاتِي وَلَا نَبِيًّا فِي ذِكْرِي﴾

كان ذكّر المنن السابقة تمهيداً للأمر الذي جاء في هذه الآية، وكأنّ الله تعالى يُطمئن موسى سلفاً؛ لئلا يرهب جيروت فرعون في مواجهته له بالدعوة إلى الله تعالى؛ لأنه تربّى في بيته، ونشأ في رعايته، وليبيّن له أن الله تعالى الذي حفظه ورعاه في طفولته، وصباه، وشبابه، سيحفظه من فرعون، وينصره عليه وهو نبياً رسولاً.

وهكذا أمر الله موسى بالذهاب إلى فرعون مع أخيه هارون؛ لتبليغه دعوة الله إليه، حيث خاطب الله موسى وهارون أن يقوما بدعوة فرعون، بعدما كان هارون حاضراً مع موسى على أرض مصر، بوحي من الله تعالى إلى هارون في أرض (جاسان) صفط الحنة

(١) أخرجه البخاري برقم (٤٧٣٦) وهذا لفظه، وانظر: (٣٤٠٩) وغيره ومسلم برقم (٢٦٥٢).

حاليا، بين مدينتي الزقازيق وأبي حماد، حيث كانت منازل بني إسرائيل، في محافظة الشرقية بمصر، وجاء في التوراة أنهما التقيا في جبل حُوريب^(١)؛ وجبل الطور هو جبل حُوريب في سيناء ويكون الكلام قد طُوِيَ عن الفترة ما بين تكليم الله لموسى ﷺ في صحراء سيناء، حتى وصوله أرض مصر، حيث لقي أخاه وأبلغه أمر ربه.

وكان الله تعالى قد أمر موسى أن يتجه إلى مصر، وأمر هارون أن يقابل أخاه لدى وصوله إلى أرض مصر، حيث قال الله تعالى لموسى: ﴿أَذْهَبْ أَنْتَ وَأَخُوكَ يَتَيْنِي﴾ الدالة على ألوهيتي، وكمال قدرتي، وقد أَيْدُنْكَ بمعجزتي العصا، واليد؛ لبيان صدق رسالتك ﴿وَلَا نَبِيَّ فِي ذِكْرِي﴾ أي: لا تضعُفا، ولا تفتُرا عن المداومة على ذكرِي، ولا تُقْصِرا في تبليغ دعوتي.

وفي هذه الآية أمر من الله تعالى لموسى أن يبلِّغ أخاه هارون بمرافقته في تبليغ الدعوة لفرعون وقومه؛ لأن هارون لم يكن حاضراً حين كلَّم الله موسى في البقعة المباركة من الشجرة، ولم يكن هارون حاضراً في الوقت الذي أمر الله فيه موسى أن يصحب أخاه في تبليغ الدعوة إلى فرعون، فتعيَّن أن يكون المراد: هو ذهاب موسى بعد وصوله مصر حيث يوجد فرعون، وبعد لقائه بأخيه هارون، وإبلاغه أمر الله تعالى إليه.

أُسْلُوبُ دَعْوَةِ الطُّغَاةِ وَإِعَانَةُ اللَّهِ لِلدُّعَاةِ

٤٣، ٤٤ - ﴿أَذْهَبَا إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى ﴿٤٣﴾ فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لِّنَا لَعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى ﴿٤٤﴾﴾

أمر الله موسى وهارون أن يذهبا إلى فرعون؛ لدعوته إلى الله تعالى، فقد تجاوز الحد في الكفر والظلم، فذهب موسى ولقي أخاه هارون، وأبلغه أمر الله إليه، واصطحبه معه للقاء فرعون، ورسم الله لموسى وهارون في هذه الآية أسلوب الدعوة الذي يجب أن يتحلَّى به كل داعية فأمرهما بلبين القول، ورفيق العبارة عن طريق الترغيب والترهيب، لعله يتعظ ويخاف، لأن القول الغليظ ينفر الناس عن صاحبه.

(١) وذلك في الإصحاح الرابع عشر من سفر الخروج، يُنظَر: «تفسير التحرير والتنوير» (٢٢٤/١٦).

وهناك بيان لهذا القول في قوله تعالى: ﴿هَلْ لَكَ إِلَهٌ إِلَّا أَنْ تَرْكِبَ لَا وَاهِدِيكَ إِلَّا رَبُّكَ فَتَخْشَى﴾ [النازعات] أي: ولتكن دعوتكما له بكلام رقيق لين، قريب سهل؛ ليكون أوقع وأبلغ، وأنجع في النفوس، لعله يرجع عما هو فيه من الضلال، كما قال تعالى: ﴿ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَحَدِّثْ لَهُم بِآيَاتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ [النحل: ١٢٥]، ولفظ (هل) يدل على العرض والمشاورة.

فقولا له: إن لك ربًّا، وإن لك معادًا، وإن بين يديك جنة ونارًا، وارفقا به ولا تُعَنِّفَاهُ، وكنياه فقولا له: (يا أبا الوليد).

قيل: إن فرعون أعجبه كلام موسى، وأراد اتباعه، ولكن هامان منعه، وكان لا يتخذ قرارًا دونه، وقد تذكر فرعون ذلك وخشي مما كان موسى قد وعظه به، وذلك حين ألجمه الغرق، في وقت لا تنفع فيه الذكرى والخشية.

واللين هو شعار دعوة الحق، كما قال تعالى: ﴿فِيمَا رَحِمَهُ مِنَ اللَّهِ لَئِنْ لَمْ يَأْمُرْ بِهِ لَكُنَّا مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ [آل عمران: ١٥٩]. إذ المقصود هو حصول الاهتداء، لا إظهار العظمة، وغلظة القول بدون جدوى، فإذا لم ينفع اللين جازت الغلظة، كما أمر الله نبيه محمدا ﷺ أن يدعو أهل الكتاب بالتي هي أحسن: ﴿إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ﴾ [العنكبوت: ٤٦]. وهم ممن أعرض، واستكبر، وكذب، وتولى، وقد دعا موسى فرعون إلى تزكية النفس وتطهيرها من الشرك، ثم دعاه إلى مقابلة النعم بالشكر وسلوك الطريق السوي.

إن الله تعالى يعلم أن فرعون لن يؤمن، ولكنه سبحانه يقيم عليه الحجة؛ ليقطع عذره، وليتعلم الدعاة إلى الله أن لا ييأسوا من جدوى دعوتهم، وأن يقوموا بدعوة الضعفاء والجبابرة على حد سواء، باللطف واللين، والحكمة والموعظة الحسنة.

٤٥، ٤٦- ﴿فَالَا رَبَّنَا إِنَّا نَخَافُ أَنْ يُفْرِطَ عَلَيْنَا أَوْ أَنْ يَطْغَى﴾ [٤٥] قَالَ لَا تَخَافَا إِنِّي مَعَكُمْ أَسْمَعُ وَأَرَى﴾

قال موسى، وهارون: ربنا إننا نخاف إن دعونا فرعون إلى الإيمان أن يعجل بعقوبتنا، أو يتمرد على الحق فلا يقبله.

﴿قَالَ﴾ الله تعالى لموسى وهارون: ﴿لَا تَخَافَا﴾ سطوة فرعون ﴿إِنِّي مَعَكُمْ﴾ بالعون والنصرة، والتأييد والقدرة على فرعون ﴿أَسْمَعُ﴾ كلامكما، ﴿وَأَرَى﴾ مكانكما

وأفعالهما، فلا تخافا من بطش فرعون، فإن ناصيته بيدي، فلا يتنفس، ولا يتكلم، ولا يبطش إلا بإذني وحولي وقوتي، فزال الخوف عنهما واطمأنت قلوبهما بوعده الله لهما، وذهبا إلى فرعون والله معهما يسمع ويرى، قال تعالى:

٤٧، ٤٨ - ﴿فَأَنبَأَهُ فُقُولًا إِنَّا رَسُولًا رَّبِّكَ فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِي إِسْرَءِيلَ^(١) وَلَا تَعْذِيبُهُمْ قَدْ جِئْنَاكَ بِثَآئِلَةٍ مِّن رَّبِّكَ وَالسَّلَامُ عَلَىٰ مَنِ اتَّبَعَ الْهُدَىٰ ﴿٤٧﴾ إِنَّا قَدْ أُوحِيَ إِلَيْنَا أَنَّ الْعَذَابَ عَلَىٰ مَن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ﴾
اذهبا إلى فرعون فقولاً له: إننا رسولان إليك من ربك، قالوا: إن موسى وصل إلى قصر فرعون، وقرع الباب بعصاه، فقال له البوابون: ماذا تريد؟ فقال: أريد فرعون، فقالوا لفرعون: إن بالبواب رجلاً مجنوناً يريدك، ويقول: إنه رسول رب العالمين، فأذن لهما، فدخلا عليه وقالا له: ﴿إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ﴾ وأخبراه بأن هنالك إلهاً واحداً يجب عليه أن يعبد، ويوحده، وهذا هو الشق الأول من الدعوة.

أما الشق الثاني: فهو إنقاذ بني إسرائيل من تسلط فرعون؛ ليكونوا أمة واحدة، وهذا معنى ﴿فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِي إِسْرَءِيلَ وَلَا تَعْذِيبُهُمْ﴾، وقالوا له: قد جئناك بالآية والمعجزة الدالة على أننا رسولان من عند الله إليك، فقال فرعون: ما هي؟ فأدخل موسى يده في جيبه تحت إبطه، ثم أخرجها بيضاء لها شعاع كشعاع الشمس.

قال موسى لفرعون: وجئناك بآية أخرى، هي آية العصا التي انقلبت حية في يوم الزينة - كما سيأتي بيانه -.

ثم قال موسى وهارون لفرعون في نهاية كلامهما: ﴿وَالسَّلَامُ عَلَىٰ مَنِ اتَّبَعَ الْهُدَىٰ﴾ ومن لم يتبع الهدى فإنه لا ينجو من عذاب الله يوم القيامة.

والمعنى: والسلام عليك إن اتبعت الهدى، فأمنت بالله وصدقت رسوله.

وهكذا لما كتب النبي ﷺ إلى هرقل عظيم الروم كتاباً كان أوله: «بسم الله الرحمن الرحيم، من محمد رسول الله إلى هرقل عظيم الروم: سلام على من اتبع الهدى.

أما بعد: فإنني أدعوك بدعاية الإسلام، فأسلم تسلم، يؤتك الله أجرك مرتين»^(٢).

(١) عد (معنا بني إسرائيل) آية، الشامي، وأسقطها غيره.

(٢) عبد الرزاق في «المصنف» (٩٧٢٤) والبخاري (٤٥٥٣) ومسلم (١٧٧٣).

ولما كتب النبي ﷺ إلى مسيلمة الكذاب رادًا على رسالته قال له: «من محمد رسول الله، إلى مسيلمة الكذاب، سلام على من اتبع الهدى، أما بعد: فإن الأرض لله يورثها من يشاء من عباده والعاقبة للمتقين»^(١) وهكذا قال موسى وهارون لفرعون.

قال قتادة: التسليم على أهل الكتاب إذا دخلت عليهم بيوتهم أن تقول: السلام على من اتبع الهدى^(٢).

وقالا له إن ربك وخالقك قد أوحى إلينا أن عذابه على من كذب الرسل، وأعرض عن دعوة الله وشريعته، وفي هذا ترغيب لفرعون بالإيمان، وترهيب له من الكفر، ودعوة إلى الانقياد والا تباع لما جاء به موسى عليه السلام، ولكن فرعون لم يُقد فيه هذا الوعظ والتذكير، فكفر بالله وكذب رسوله، وجادل في ذلك ظلمًا وعنادًا:

وهذا كقوله تعالى: ﴿فَأَمَّا مَنْ طَغَىٰ (٣٧) وَءَاثَرَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا (٣٨) فَإِنَّ الْجَحِيمَ هِيَ الْمَأْوَىٰ (٣٩)﴾ [النازعات].

وقوله: ﴿فَأَنْذَرْتُكَ نَارًا تَلْتَظَىٰ (٤٠) لَا يَصْلَاهَا إِلَّا الْأَشْقَى (٤١) الَّذِي كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ (٤٢)﴾ [الليل].

وقوله: ﴿فَلَا صَدَقَ وَلَا صَلَّىٰ (٤٣) وَلَكِنْ كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ (٤٤)﴾ [القيامة]

أي: كذب بقوله وتولى بفعله، وبهذا الترهيب والتحذير من مخالفة أمر الله تعالى ورسله، يُختم كلام موسى وهارون إلى فرعون.

وقد تضمنت هاتان الآيتان جملة الدعوة التي وجهها موسى وهارون إلى فرعون، وتوعده بالعذاب إن هو كذب وأعرض، ووعدته بالسلامة من العقاب إن هو اتبع الهدى.

وفي قولهما: ﴿إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ﴾ إشارة إلى الجانب الأول من مهمتهما وهي دعوته إلى التخلي عن الكفر والطغيان، وإقراره بوحدانية الواحد القهار، وإخلاص العبادة له سبحانه.

وفي قولهما: ﴿فَأَرْسَلْنَا مَعَنَا بَنِي إِسْرَءِيلَ﴾ إشارة إلى الجانب الآخر من الدعوة، وهو إطلاق سراح بني إسرائيل؛ كي يعيشوا أحرارًا ويخرجوا من أرض مصر، وألا يعذبهم

(١) «السيرة النبوية» لابن هشام (٢/ ٦٠٠) وهو في الأحاد والمثاني برقم (١٣٠٩) عن أبي سلمة بن نعيم بن مسعود، عن أبيه.

(٢) أخرجه عبد الرزاق في «المصنف» (٩٨٤١) والبيهقي في «الشعب» (٨٩٠٧).

بِاسْتِعْبَادِهِمْ وَفَهْرِهِمْ، وَقَتْلَ الذَّكَورِ وَإِبْقَاءَ الْإِنَاثِ، كَمَا أَمَتَنَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ بِذَلِكَ فِي قَوْلِهِ: ﴿وَإِذْ نَجَّيْنَاكُمْ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ أَلْقَابٍ يُدَيِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ وَفِي ذَٰلِكُمْ بَلَاءٌ مِّنْ رَبِّكُمْ عَظِيمٌ﴾ [البقرة].

فهو سبحانه خلق ورزق وقدر وهدى ﴿الَّذِي خَلَقَ فَسَوَّىٰ﴾ ② ﴿وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَىٰ﴾ ③ [الأعلى].

جَانِبٌ مِّنَ الْحَوَارِ بَيْنَ مُوسَى وَفِرْعَوْنَ

٤٩، ٥٠ - ﴿قَالَ فَمَنْ رَبُّكُمَا يَمُوسَىٰ﴾ ④ ﴿قَالَ رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَىٰ كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَىٰ﴾ ⑤

أي: أن موسى وهارون أتيا فرعون، وبلغاه ما أمرا به، فقال لهما: ومن هذا الرب الذي تدعوانني إليه يا موسى؟! إني لا أعرفه، وقد أضاف الرب إليهما، إنكاراً وطغياناً أن يكون هناك رب غيره؛ فهو يدعي الربوبية والألوهية، وهذا هو السؤال الأول، وقد خصَّ فرعون موسى بالخطاب؛ لِعِلْمِهِ أَنَّهُ الْأَصْلُ فِي الرِّسَالَةِ، وَأَنَّ هَارُونَ وَزِيرَهُ تَابِعَ لَهُ، وَلَمَّا بينهما من اتصال سابق؛ حيث كان موسى معروفاً في بلاط فرعون، وقد سأله بضمير التثنية، ثم أفرد موسى بالذكر، وأجابه موسى بالجمع في الآية التالية.

قال موسى لفرعون مجيباً عن سؤاله: إن ربنا هو الذي وهب الوجود لكل موجود، وخلق هذا الخلق، وصوّر كل مخلوق بصورته وشكله وهيئته التي تناسب وظيفته، فصورة المرأة غير صورة الرجل، وصورة الحيوان غير صورة الطير، ثم هدى كل مخلوق إلى أداء الوظيفة التي خلقه من أجلها، وهداه إلى منافعتها، فقد ألهم الله الذَّكْرَ كيف يأتي الأنثى، وألهم كل جارحة لأداء مهمتها، فاليد وظيفتها البطش، والرجل وظيفتها المشي، والأذن وظيفتها السمع وهكذا كل مخلوق هداه الله لأداء المهمة التي خلق من أجلها.

فالمعنى: أن الله تعالى أعطى كل مخلوق، وكل عضو صورته وهيئته المناسبة التي تلائمه، وثبَّق مصلحته؛ كالعين، والأذن، والأنف، واللسان، واليد، والرجل، فأعطى العين الهيئة التي تُطابق الإبصار، وأعطى الأذن الشكل الذي يُوافق الاستماع، وهدى كل مخلوق، وكل عضو إلى وظيفته التي خُلق من أجلها، وأمده بالوسائل والملكات التي تحقق وظيفته، وهكذا.

وهدى خلقه إلى كل ما يحتاجونه في معاشهم وحياتهم، فهو سبحانه: ﴿الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ

شَيْءٍ خَلَقَهُ ﴿٧﴾ السجدة: [٧] وهدى كل مخلوق لأداء وظيفته التي خُلق من أجلها.

وخلق للذكور نطائر من الإناث؛ ليكونوا أزواجاً لهم، فيأنس كل منهم بالآخر، وتغمر هذه الحياة، فخلق من الإنسان الذكر والأنثى، ومن الحيوان الذكر والأنثى، ومن الطيور الذكر والأنثى، ومن الهوام الذكر والأنثى، وهكذا الشجر والنبات وسائر المخلوقات، كما خلق سبحانه كل نظير من الإناث على هيئة الذكور وصورته؛ ليتم الأنس والنفعة، ويكون النسل والرزق، ويعمر هذا الكون.

١- فسواء أكان المعنى: أن الله تعالى أعطى كل مخلوق صورته ثم هداه إلى وظيفته التي خلقه من أجلها.

٢- أو كان المعنى: أن الله تعالى أعطى كل مخلوق نظيراً له في الهيئة والشكل.

٣- أو أنه - سبحانه - أعطى كل شيء مقومات صلاحه، ثم هداه لما يُصلحه.

٤- أو أنه جل شأنه - أعطى خلقه كل ما يحتاجونه، ثم هداهم إلى طرق استعماله والانتفاع به. سواء أكان المعنى هذا أو ذلك فإن الآية تشمل هذه المعاني كلها.

فالله تعالى هو الذي أفاض بالوجود والنعم على كل مخلوق، ثم هداه إلى ما خلقه من أجله، كما قال تعالى ﴿أَلَمْ يَجْعَلْ لَكُمْ عَيْنَيْنِ ﴿٨﴾ وَلِسَانًا وَشَفَتَيْنِ ﴿٩﴾ وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ ﴿١٠﴾﴾ [البلد].

والنجدان: هما طريقا الخير والشر، وبهذا أجاب موسى فرعون وهو يعرفه بربه ورب كل شيء. فماذا كان جواب فرعون؟

٥١، ٥٢- ﴿قَالَ فَمَا بَالُ الْقُرُونِ الْأُولَى ﴿٥١﴾ قَالَ عَلِمَهَا عِنْدَ رَبِّي فِي كِتَابٍ لَا يَضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنْسَى ﴿٥٢﴾﴾

قال فرعون في سؤاله الثاني: فما شأن الأمم السابقة؟ وما خبر القرون الماضية؟ مثل:

قوم نوح، وعاد، وثمود، فإنها كانت تعبد الأوثان وتنكر البعث؟! وكان مؤمن آل فرعون قد ذكر له مصارعهم في قوله: ﴿يَقَوْمِ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ مِثْلَ يَوْمِ الْأَحْزَابِ ﴿٣٠﴾﴾ مِثْلَ دَابِ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَالَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ ﴿٣١﴾﴾ [غافر] فرد عليه موسى بأن علمها عند ربي في كتاب، محفوظ عند الله

يجازيهم عليها، فاحتجاج فرعون بمن كان قبله مردود عليه بأن الله تعالى محيط بهم، وسوف يعاقبهم.

قال موسى لفرعون: عِلْمُ تلك القرون فيما فَعَلْتُ من الإيمان، أو الكفر، وغيرهما، عند ربي في اللوح المحفوظ، ولا عِلْمَ لي به، وإنما قال موسى ذلك؛ لأن هلاك فرعون كان قبل نزول التوراة.

إن ربي لا يَغْفُلُ عن شيء في أفعاله وأحكامه، وعِلْمُهُ محيط شامل، ولا ينسى شيئاً مما عِلِمَهُ منها، ولا من غيرها، فهو سبحانه ﴿لَا يَضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنْسَى﴾ وعِلْمُ الإنسان يعتريه النقص والنسيان، أما عِلْمُ الله تعالى فلا يَنْدُ عنه صغيرة ولا كبيرة، ولا يُنسى منه شيئاً، مهما تطاولت القرون والأزمان.

وتلك أمة قد خلت بمالها وما عليها، وقد أريناك - يا فرعون - من الآيات ما يوجب الانقياد للدعوة، وإن كنت في شك من ذلك فالإيمان مفتوح للحجة والبرهان.

ثم استطردت الآيات في ذكر بعض الدلائل الكونية الموجبة لوحداية الله تعالى:

مِنْ آيَاتِ اللَّهِ فِي الْكَوْنِ لِهِدَايَةِ مَنْ كَفَرَ بِهِ سُبْحَانَهُ

٥٣، ٥٤ - ﴿الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ مَهْدًا^(١) وَسَلَّكَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِّنْ نَّبَاتٍ شَتَّى ۖ كُلُّوْا وَارْعَوْا أَنْعَامَكُمْ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّأُولِي النُّهَى ۝٥٣﴾

هذه الآية، والآيتان بعدها معترضة في أثناء القصة، وفيها استدلال بالأرض وهي ممهدة للعيش فوقها، واستدلال بما فيها من طُرُق ومسالك، واستدلال بها حين ينزل عليها الماء، فتُخْرِجُ النبات والكُلأ، واستدلال بها في خلق الإنسان من الأرض ودَفْنِهِ فيها، وإخراجه منها يوم البعث والنشور.

ولا يُحتمل أن تكون هذه الآيات الثلاث من كلام موسى ﷺ؛ لأن فيها ﴿فَأَخْرَجْنَا بِهِ﴾.

وفي هذه الآيات لَفْتُ نظر فرعون وغيره إلى قدرة الله تعالى في هذا الكون، سَيِّمًا المكان الذي يعيش فيه فرعون من العالم في مصر، وهي أرض منبسطة، فيها ماء، وفيها

(١) قرأ نافع وابن كثير وأبو عمرو وابن عامر وأبو جعفر ويعقوب (الأرض مهذا) بكسر الميم وألف بعد الهاء، اسم لما يمهد كالفراش، والباقون (مهذا) بفتح الميم وحذف الألف.

زراع ونخيل وأنعام، فقال تعالى في مقام الاستدلال على آثار قدرة الله تعالى في الأرض والزراع والنبات والماء:

﴿الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ مَهْدًا﴾ بسطها ومهدّها لكل إنسان في أي مكان من العالم، فيسرّها للانتفاع بها في السكنى والبناء والغرس والزراع واستخراج المعادن والكنوز وغير ذلك، وجعلها مستقرًا لنا في الحركة والنوم والحياة، ولم يجعلها كلها جبالًا، ولا بحارًا، ولا سهولًا، ولا أودية، بل جعلها متعددة المنافع

﴿وَسَلَكَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا﴾ أي: جعل فيها الطرق الكثيرة، والفجاج الواسعة، كما قال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا فِيهَا فِجَاجًا سُبُلًا لَّعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ﴾ [الأنبياء: ٣١]. فينتقلون من مكان إلى مكان، ومن بلد إلى بلد، ويتفجعون بأسفارهم وتنقلاتهم، وأنزل بقدرته من السماء ماء، فأخرج بسببه أصنافًا متعددة من النبات تختلف في طعمها، وشكلها، ورائحتها، وأحيا به الأرض بعد موتها.

والأزواج في الآية هي الأصناف من النبات، كما قال تعالى: ﴿وَتَرَى الْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَا أَنزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْزَلَتْ وَرَبَّتْ وَأَنْبَتَتْ مِنْ كُلِّ رَوْحٍ بِهِيجٌ﴾ [الحج: ٥].

وجميع الأجناس المتفاوتة من النبات والزروع يُخرجها الله تعالى من الأرض بسبب هذا الماء، كما قال تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ نَبَاتَ كُلِّ شَيْءٍ﴾ [الأنعام: ٩٩].

وقال سبحانه: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ ثَمَرَاتٍ مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهَا﴾ [فاطر: ٢٧].

وقال جلّ ذكره: ﴿أَمَنْ خَلَقَ السَّمَكَاتِ وَالْأَرْضَ وَأَنْزَلَ لَكُمْ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنْبَتْنَا بِهِ حَدَائِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ مَا كَانَ لَكُمْ أَنْ تُنْبِتُوا شَجَرَهَا﴾ [النمل: ٦٠].

وهكذا فإن الآية الكريمة اشتملت على أربع مننٍ امتنَّ الله بها على عباده، وذكرها الله تعالى في سياق تعريف العبد بربه، وهذه المنن الأربع هي:

١- تمهيد الأرض وتهيتها لنفع الإنسان والحيوان.

٢- وجعل الطرق فيها للتنقل والأسفار.

٣- وإنزال المطر من السماء ليحيى به كل كائن حي.

٤- وإخراج النبات المتنوع من الأرض قوتاً للإنسان والحيوان.

كلوا أيها الناس من طيبات ما أنبتنا لكم من الأرض، واتركوا حيواناتكم وبهائمكم تسرح وترعى من الكلأ الذي أخرج به الله من الأرض وجعله ﴿مَتَاعًا لَّكُمْ وَلِأَنْعَامِكُمْ﴾ [النازعات]. إن فيما ذُكر لَعَلَّامَاتٍ دالة على قدرة الله تعالى، ودعوة لوحدانيته سبحانه، وإفراده بالعبادة، فهي حجج واضحة، وعظات وعبر لذوي العقول والبصائر، وخص أولى النهي بذلك، لأنهم المتنفعون بالدلائل والبراهين، بخلاف غيرهم فهم كما قال تعالى: ﴿وَكَايْنٍ مِّنْ آيَاتِهِ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ﴾ [يوسف: ١٠٥].

ولما ذكر سبحانه نعمة الأرض، أخبر أنه خلقنا منها وفيها يعبداً إذا متنا ومنها يخرجنا عند البعث والنشور للحساب والجزاء على الأقوال والأعمال فقال:

٥٥- ﴿مِنهَا خَلَقْنَاكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَى﴾

بَيَّنَّ الله سبحانه في هذه الآية، أنه خلقنا من الأرض، وإليها نعود، ومنها نُبعث: فإن كنت تعقل -أيها المخاطب- فاعلم أن هذا من آثار نعم الله عليك، وعلى غيرك، فلا تتكبر فإنك مخلوق من تراب، بِخَلْقِ آدَمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ منه، وأنت -أيها الإنسان- مخلوق من هذه الأرض، وعناصر جسم الإنسان من عناصر الأرض، من المادة ذاتها، ومن الأرض يأكل الإنسان، ومنها يشرب، وفيها يموت، فيتحلل إلى نفس المواد الترابية التي خُلِقَ منها، ودفن فيها، ومن الأرض نُحييكم تارة أخرى.

حضر النبي ﷺ جنازة، فلما دُفن الميت، أخذ قبضة من التراب فألقاها في القبر، ثم قال: ﴿مِنهَا خَلَقْنَاكُمْ﴾ ثم قَبَضَ حِفْظَةً أُخْرَى، فقال: ﴿وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ﴾ وقَبَضَ قَبْضَةً ثَلَاثَةً فقال: ﴿وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَى﴾ أي: للبعث، والحساب، والجزاء.

فأصل خَلَقَ الإنسان من الأرض، شبيه بإخراج النبات منها، وخروج الناس إلى الحشر، شبيه بخروج النبات من الأرض، قال تعالى:

﴿وَاللَّهُ أَنْبَتَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ نَبَاتًا ۖ ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيهَا وَيُخْرِجُكُمْ إِخْرَاجًا﴾ [نوح].

والقادر على البدء قادر على الإعادة، وهذا كقوله تعالى:

﴿قَالَ فِيهَا تَحْيَوْنَ وَفِيهَا تَمُوتُونَ وَمِنْهَا تُخْرَجُونَ﴾ [الأعراف].

وقوله: ﴿يَوْمَ يَدْعُوكُمْ فَتَسْتَجِيبُونَ بِحَمْدِهِ وَتَظُنُّونَ إِن لَّبِئْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [الإسراء: ٥٢].

ودفن الميت في اللحد أو الشق من الأرض، هو الأمر المشروع، وليس إحراقه بالنار، ولا إغراقه في الماء، وبهذا هدى الله الغراب؛ ليرشد ابن آدم إلى دفن أول جثة تموت بوضعها في الأرض، وإلى هنا ينتهي هذا المقطع من السورة، وتبدأ قصة موسى مع السحرة:

آيَاتُ مُوسَى التَّسْعُ

٥٦- ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَيْنَا كُلَّهَا فَكَذَّبَ وَأَبَى﴾ [٥٦]

وبعد هذا الاستطراد تعود الآيات إلى قصة موسى مع فرعون، فتأتي هذه الآية مقدمة لاستئناف الحوار بينهما، بمعنى: أن موسى وهارون أتيا فرعون، وقالوا له ما أمرهما الله به، وأطلع موسى فرعون على ما أيده الله به من المعجزات المشار إليها في قوله تعالى: ﴿وَأَدْخِلْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ فِي سِتْعِ عَائِنَتِ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَقَوْمِهِ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ﴾ [النمل: ١٧].

وقوله: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِسِتْعِ عَائِنَتِ بَيِّنَاتٍ﴾ [الإسراء: ١٠١].

وكانت معجزتا العصا واليد، هما أول ما واجه بهما موسى فرعون، واستمر تكذيبه حتى بعدما أيده الله ببقية المعجزات، وعلى هذا جاء ذكر الآيات كلها في هذه الآية.

وقد بين سبحانه أن فرعون وقومه لن يتفعلوا بها، ولن يؤمنوا بمقتضاها، فقال تعالى حكاية عنهم: ﴿وَقَالُوا مَهْمَا تَأْتِنَا بِهِ مِنْ آيَةٍ لِّتَسْحَرَنَا بِهَا فَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ﴾ [الأعراف: ١٣٦].

وقال سبحانه: ﴿فَلَمَّا جَاءَهُمْ بِآيِنِنَا إِذَا هُمْ مِنْهَا يَضْحَكُونَ﴾ [الزخرف: ١٧].

ومنها آيات التوحيد وآيات النبوة، ولكن فرعون لجحوده وطغيانه كذب بها جميعاً.

لقد أطلع موسى ﷺ فرعون على الآيات الكونية، وهي آيات الله في الكون، الناطقة بتوحيده سبحانه وعدم الإشراك به، وأطلعه كذلك على المعجزات الحسية، وهي الآيات التسع التي أيده الله بها.

وهذه الآيات التسع هي: العصا، واليد، وفلق البحر، والحجر، والجراد، والقمل، والضفادع، والدم، ونشق الجبل، إلى جوار الآيات الأخرى المذكورة في القرآن، وكان

كلما أطلعه على معجزة من هذه المعجزات، طلب منه أن يوحد الله تعالى، ويرسل معه بني إسرائيل؛ ليخرج بهم من مصر حتى يخلصهم من عذابه، فيعده فرعون، ثم يُخلف وعده، ثم يُطلعه على آيات أخرى، فيعده، ثم يُخلف وعده.

ثم قال فرعون لموسى: هل يستطيع ربك أن يؤيدك بغير العصا، واليد، وغير الحجر، وفلق البحر، وثق الجبل؟ فأرسل الله عليه، وعلى قومه: الطوفان، والجراد، والقمل، والضفادع، والدم آيات مفصلات، وهي الآيات الدالة على صدق رسالته.

وهكذا أطلع موسى فرعونَ على حجج الله تعالى، وآياته الدالة على ألوهيته سبحانه وقدرته، والدالة كذلك على صدق موسى ﷺ في رسالته، فكذب فرعون بها جميعاً، وامتنع عن قبول الحق ﴿فَكَذَّبَ وَأَبَى﴾ كذب الخبر، وتولَّى عن الأمر والنهي، وجعل الحق باطلاً والباطل حقاً، وجادل بالباطل ليضل الناس بغير علم.

وهكذا: كَذَّبَ فرعون موسى مع علمه بأنه صادق، كما قال سبحانه: ﴿فَلَمَّا جَاءَتْهُمْ ءَايَاتُنَا مُبْصِرَةً قَالُوا هَذَا سِحْرٌ مُبِينٌ ﴿١٣﴾ وَحَدِّثُوا بِهَا وَأَسْتَفِنتَهَا أَنْفُسُهُمْ ظُلُمًا وَعُلوً﴾ [النمل]

فهذا التكذيب وهذا الإباء إنما هو استكبار وعلو؛ حتى لا يؤمن فرعون بموسى ﷺ فيسلب منه الملك والعظمة والسيادة.

السحر: أضراره، وعلاجه، وحكمه

السحر: من كبائر الذنوب، ومن السبع الموبقات، وتعلم السحر والعمل به إن كان فيه تعظيم لغير الله تعالى، وتقرب لغيره سبحانه، كالتقرب إلى الجن والكواكب، وتعظيمها من دون الله، فإن ذلك كفر مخرج من الملة، كما قال سبحانه عن سحر هاروت وماروت: ﴿وَمَا يَعْلَمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّى يَقُولَا إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ﴾ [البقرة: ١٠٢].

أي: لا تكفر بتعلمك للسحر والعمل به.

وعلاج السحر قبل وقوعه يكون بتحسين المسلم بالأذكار والأدعية في صباحه، ومساءه، وبعد الصلوات، فيقرأ المسلم آية الكرسي، وآخر البقرة، والمعوذتين، والأدعية والأذكار الواردة في ذلك، فإنه بمشيئة الله تعالى لا يصيبه سحر، ولا عين، ولا جن، ولا نحو ذلك.

وعلاج السحر بعد حدوثه يكون كذلك بالرقية الشرعية المزوية، وذلك بقراءة القرآن الكريم، وآيات التحصين، ومنها آيات السحر في سورة الأعراف [١١٧، ١١٨]، ويونس [٨١، ٨٢]، وطه [٦٩].

ويكون علاج السحر أيضًا بإبطاله إن عُرف مكانه، ودل عليه دليل بالطرق الشرعية، كأن رأى الإنسان في منامه ما يُعلمه بمكان السحر، أو اعترف الفاعل الذي صنعه بوجود السحر ومكانه، أو دله عليه شخص رآه أو عَلِمَه، ونحو ذلك.

والسحر قد يُرى له تأثير وحقيقة فعلية، كما قال تعالى: ﴿فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِ بَيْنَ الْمَرْءِ وَزَوْجِهِ﴾ [البقرة: ١٠٢]. فأثبت القرآن الكريم حدوث التفرقة بين الرجل والمرأة بسبب السحر، ولكن هذا لا يقع ولا يكون إلا بإذن الله تعالى وإرادته.

﴿وَمَا هُمْ بِصَاحِبِينَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ [البقرة: ١٠٢].

هل سحر النبي ﷺ؟

وقد ثبت في الصحيحين، وغيرهما: من حديث عائشة ؓ قالت: سَحَر رسول الله ﷺ يهوديٌّ، من يهود بني زُرَيْقٍ، يقال له: لَبِيدُ بْنُ الْأَعْصَمِ، قالت: حتى كان رسول الله ﷺ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ أَنَّهُ يَفْعَلُ الشَّيْءَ وما يفعلُه، حتى إذا كان ذات يوم أو ذات ليلة، دعا رسول الله ﷺ ثم دعا، ثم دعا، ثم قال: «يا عائشة، أَشَعَرْتَ أَنَّ اللَّهَ أَفْتَانِي فِيمَا اسْتَفْتَيْتُهُ فِيهِ، جَاءَنِي رَجُلَانِ، فَقَعَدَ أَحَدُهُمَا عِنْدَ رَأْسِي، وَالْآخَرُ عِنْدَ رِجْلِي، فَقَالَ: أَحَدُهُمَا لَصَاحِبِهِ: مَا وَجَعُ الرَّجُلِ؟ قَالَ: مَطْبُوبٌ، قَالَ: مَنْ طَبَّهُ؟ قَالَ: لَبِيدُ بْنُ الْأَعْصَمِ، قَالَ: فِي أَيِّ شَيْءٍ؟ قَالَ: فِي مُشْطٍ وَمُشَاطَةٍ، وَجُفٌّ طَلَعَ نَخْلَةً ذَكَرٍ، قَالَ: وَأَيْنَ هُوَ؟ قَالَ: فِي بَثْرِ ذِي أَرْوَانٍ»، قالت: فَأَتَاهَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فِي أَنْاسٍ مِنْ أَصْحَابِهِ، ثُمَّ قَالَ: «يا عائشة واللَّهِ لَكَ أَنْ مَاءَهَا نُقَاعَةُ الْحَنَاءِ، وَلَكِنْ نَخْلَهَا رُؤُوسُ الشَّيَاطِينِ»، قالت: فقلت: يا رسول الله، أَفَلَا أَخْرَفْتَهُ؟ قَالَ: «لا، أَمَا أَنَا فَقَدْ عَافَانِي اللَّهُ، وَكَرِهْتُ أَنْ أُثِيرَ عَلَى النَّاسِ شَرًّا، فَأَمَرْتُ بِهَا فُدْفِنْتُ»^(١).

(١) البخاري (١٩٢/١٠) برقم (٣١٧٥، ٣٢٦٨، ٥٧٦٣، ٦٠٦٣) معلقًا ومسلم (١٧١٩/٤) برقم (٢١٨٩) وهذا لفظه، وانظر: (٤٣، ٤٤) وابن ماجه (٣٥٤٥) والبيهقي في «الدلائل» (٢٤٧/٦) و«المسند» (٢٤٣٠٠) والنسائي في «الكبرى» (٧٥٦٩).

وفي رواية أخرى للبخاري، وغيره: حتى كان يرى أنه يأتي النساء، ولا يأتيهن^(١).

بدل: «حتى كان يخیل إليه أنه يفعل الشيء وما يفعله». والرواية الثانية توضح الرواية الأولى.

والسحر الذي أصيب به النبي ﷺ هو من قبيل الأمراض التي تعرض للبدن دون أن تؤثر على شيء من العقل، ولا يعدو أن يكون نوعاً من أنواع العقد عن النساء، وهو الذي يسمونه رباطاً، فكان يخیل إليه ﷺ أن عنده قدرة على إتيان إحدى نسائه فإذا همَّ بها عجز عن ذلك، وهذا غير مخل بمقام النبوة.

وفي قوله تعالى: ﴿وَمِنْ شَرِّ النَّفَّاثَاتِ فِي الْعُقَدِ﴾ [الفرق: ٤].

وفي هذا الحديث الصحيح، ما يدل على أن السحر له تأثير وله حقيقة، فالسحر يؤثر على جسد الإنسان، وجوارحه، ونشاطه الجنسي، وظاهر حاله.

ولذا فإن أخت لبيد بن الأعصم قالت: إن كان نبياً فسيخبر، أي: يخبره الله تعالى، وإلا فسيذهله هذا السحر، حتى يذهب بعقله، وقد أخبر الله تعالى نبيه به، ودله جبريل على مكانه، وحيء به.

الرسول بشر يعتريه ما يعتري البشر بما لا يقدر في العصمة:

ولم يؤثر هذا السحر على عقل النبي ﷺ، ولم يقدر في مقام النبوة والرسالة، فإن الرسول ﷺ معصوم وهو يبلغ رسالة ربه.

وحادثة السحر هذه؛ لبيان أنه ﷺ بشر يعتريه ما يعتري البشر، ولكن العناية الإلهية تلحظه وتكلمه، فلم يتركه الله تعالى لمكر اليهود، وإنما عصمه، وحفظه، وأرسل له جبريل ﷺ؛ ليزيل عنه الغمة.

ليس من السحر: وقد يكون السحر ضرباً من الخيال، والوهم، والشعوذة، كما حدث من سحرة فرعون، وما ذكره الله عنهم من أن موسى كان يخیل إليه من سحرهم أن حبالهم وعصيهم تسعى ﴿قَالَ بَلْ أَلْقُوا فَإِذَا حِبَالُهُمْ وَعِصِيُّهُمْ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِنْ سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَى﴾ [طه].

(١) البخاري برقم (٥٧٦٣، ٥٧٦٥، ٥٧٦٦) من رواية ابن عيينة ومسلم برقم (٢١٨٩) وابن حبان (٦٥٨٣)، (٦٥٨٤) والبخاري في «شرح السنة» (٣٢٦٠) وعبد الرزاق (١٩٧٦).

ومن قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا أَفْقَوْا سَحَرُوا أَعْيُنَ النَّاسِ وَاسْتَرْهَبُوهُمْ﴾ [الأعراف: ١١٦].

ومن السحر: تسخير الجن واستخدامهم، ومنه الاستعانة ببعض الأدوية والبخور التي تؤثر على الدماغ، ومنها الطلاس، والعزائم، والتنجيم، وضرب الودع والرمل، وقراءة الكف والفنجان.

حكم السحر والساحر: ومن استحل السحر، أو اعتقد أنه يؤثر بنفسه فإنه يكفر؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَكِنَّ الشَّيَاطِينَ كَفَرُوا يُعَلِّمُونَ النَّاسَ السِّحْرَ﴾ [البقرة: ١٠٢]. وذلك إذا أدى به إلى الكفر؛ كتعظيم غير الله تعالى، واعتقاد جلب الخير، أو دفع الضر من الجن، أو الكواكب، ونحو ذلك، فتعليمه وتعلمه حرام إذا تضمن ما يقتضي الكفر.

والساحر المصير على سحره يقتل عند أكثر أهل العلم، كما ورد عن عمر، وحفصة، وجندب.

وإن كان السحر لا يتضمن كفرًا فهو من السبع الموبقات، وكبائر الذنوب.

أما حل السحر عن المسحور فهو جائز إن كان بالقرآن؛ كآية الكرسي، والمعوذتين، ونحوهما مما تجوز به الرقية.

ومن ذلك ما ورد عن وهب بن منبه في المربوط عن أهله: أن يأخذ سبع ورقات من سدر أخضر، فيدقه ثم يضربه في الماء، ويقرأ عليه آية الكرسي، ويحسو منه ثلاث حسوات، ويغتسل، فإنه يذهب ما به إن شاء الله.

ويجوز حلّه كذلك بالدلالة على مكان السحر كما فعل جبريل بسحر النبي ﷺ.

والسحر في عهد فرعون كان منتشرًا متفشياً، وقد أيد الله تعالى موسى ﷺ بمعجزات منها قلب العصا حية، تلقف ما يأفك السحرة، وقد أيد الله سبحانه كل رسول بمعجزة من نوع ما نبغ فيه القوم، ومعجزة موسى، التي نحن بصدد الحديث عنها، على ضوء هذه الآيات من سورة (طه)، كانت في مقابلة هذا السحر.

قِصَّةُ السَّحَرَةِ

٥٧- ﴿قَالَ أَجِئْتَنَا﴾^(١) لِنُخْرِجَكَ مِنْ أَرْضِنَا بِسِحْرِكَ يَمْوَسَى ﴿٥٧﴾

(١) أبدل السوسي وأبو جعفر همزة (أجئتنا) الساكنة ياء وكذا حمزة وقفًا، وحققها الباقون.

زعم فرعون أن ما جاء به موسى من الآيات، سحر وتمويه، المقصود منه إخراجهم من أرضهم والاستيلاء عليها.

قال فرعون لموسى على سبيل التهديد والوعيد: هل جئتنا بهذه الآيات؛ كي تُخرجنا من ديارنا بسحرك هذا؟ وهذه المقالة دعوى كل حاكم طاغية، يُقابل بها الدعاة إلى الله تعالى والمصلحون، فإذا أمروهم بالمعروف ونهوههم عن المنكر، وإذا دعوههم إلى طريق الحق، قالوا لهم: أنتم طُلاب زعامة، وطُلاب حُكم وسيطرة على البلاد، وطلاب سياسة، وهذا هو عين ما فعله فرعون مع موسى.

لم يقابل فرعون المعجزة بمثلها، وإنما انتقل من المناظرة إلى شيء آخر ينفّر به قلوب الناس عن موسى فقد لجأ فرعون إلى مقاومة موسى وتأليب الناس عليه، حين قال: أجبنا لتخرجنا من أرضنا -يعني: أرض مصر- بسحرك -أي: بقلب العصا حية- يا موسى؟!!

وقد جاء هذا المعنى في آيات كثيرة، منها قوله تعالى: ﴿قَالَ لِلْمَلَإِ حَوْلَهُ إِنَّ هَذَا لَسِحْرٌ عَلِيمٌ ۖ (٢٤) يُرِيدُ أَنْ يُخْرِجَكُمْ مِنْ أَرْضِكُمْ بِسِحْرِهِ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ ۖ (٢٥)﴾ [الشعراء].

وقوله جلّ شأنه: ﴿قَالُوا أَجِئْنَا لِنُلْفِنَا عَمَّا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا وَتَكُونَ لَكُمُ الْكِبْرِيَاءُ فِي الْأَرْضِ وَمَا نَحْنُ لَكُمُ بِمُؤْمِنِينَ ۖ (٧٨)﴾ [يونس].

ورّد فرعون على موسى في هذه الآية يدل على أن أمر موسى كان قويًا، وأنه كان له أتباع كثر من بني إسرائيل، وأن رسالته وقعت في قلوب الناس، فارتعدت فرائضه خوفًا مما جاء به موسى، فهو يعلم أن من كان على حق لا يُخذل، ولا يقل ناصروه، وأنه غالب على ملّكه لا محالة.

وهذه الآية تقتضي أن فرعون أُرِي انقلاب العصا حية، وانقلاب اليد السمراء إلى بيضاء، كالقمر، وهو الذي سماه سحرًا. قال فرعون لموسى:

٥٨- ﴿فَلَنَأْتِيَنَّكَ بِسَحَرٍ مِّثْلِهِ فَاجْعَلْ بَيْنَنَا وَبَيْنَكَ مَوْعِدًا لَا نُخْلِفُهُ^(١) نَحْنُ وَلَا أَنْتَ مَكَانًا سَوِيًّا^(٢)﴾

قال فرعون: فسوف تأتيك، يا موسى، بسحر مماثل؛ لنُعَارِضَكَ بسحر يقابل سحرك، ثم طلب فرعون من موسى أن يحدّد زماناً ومكاناً معيّناً للمقابلة، يلتزم به جميع الأطراف، ولا يُخْلِفُهُ أحد؛ حتى يظهر للناس جميعاً أنك ساحر، ولست برسول، طلب فرعون أن يكون الموعد بعد أربعين يوماً، ووافقته موسى^(٣) وشدّد على عدم خُلف الموعد من الطرفين، وأن يكون اللقاء في موعد معين معلوم عند الجميع، يستوي فيه علم موسى وعلم فرعون وعلم السحرة، ويكون اللقاء في مكان وسط بين الطرفين، وفي أرض مستوية ليس فيها انخفاض ولا ارتفاع.

٥٩، ٦٠- ﴿قَالَ مَوْعِدُكُمْ يَوْمَ الزَّيْنَةِ وَأَنْ يُحْشَرَ النَّاسُ ضَحَىٰ ﴿٥٩﴾ فَتَوَلَّىٰ فِرْعَوْنُ فَجَمَعَ كَيْدَهُ ثُمَّ أَتَىٰ﴾

قَبْلَ موسى تحدي فرعون، وحدّد لفرعون يوم اللقاء والاجتماع، في يوم الزينة، وهو يوم عيد لهم، يتزينون فيه ويتجملون، ويجتمعون من كل فج وناحية في وقت الضحى، حيث يكون فراغ الناس واجتماعهم وهم تاركون أعمالهم.

ويوم الزينة قيل: هو يوم عيد النيروز، وكان موافقاً ليوم عاشوراء، وهو ما يسمّى بيوم الربيع، أو شم النسيم، أو وفاء النيل، حيث يرتفع منسوب المياه في نهر النيل، وأن يحشر الناس ضحى، أي: يكون الموعد في وقت الضحى، لا في وقت الصباح الباكر، ولا في وقت الظهيرة، أثناء الحر الشديد، ولا في وقت المساء، إنما يكون في ضحوة الشمس واجتماع الناس، وكون الاجتماع في يوم الزينة في وقت الضحى منه، يحصل فيه من كثرة الاجتماع ورؤية الأشياء على حقائقها.

وفي هذا تحدّد من موسى إلى فرعون؛ حيث طلب أن يكون الاجتماع في يوم العيد، وقت اجتماع الناس كلهم؛ كي يشهدوا المباراة، حتى يَظْهَرَ الحق، وتعلو كلمة الله، ويزهق الباطل على رؤوس الأشهاد، ويشيع أمر موسى في الأقطار.

(١) قرأ أبو جعفر بإسكان الفاء من (لا نخلفه) فعل مضارع مجزوم في جواب الأمر، ويلزم منه عدم صلة الهاء، وقرأ الباقر برفع الفاء مع الصلة في الهاء، فعل مضارع مرفوع، والجملة في محل نصب صفة لـ (موعداً).

(٢) قرأ ابن عامر وعاصم وحزمة ويعقوب وخلف بضم السين من (سوى)، والباقر بكسرها، وهما لغتان.

(٣) نقله ابن كثير عن وهب بن منبه عند تفسير الآية (٥/٣٠٠).

انصرف فرعون وحاشيته يجولون في المدائن كلها؛ لجمع السحرة كلهم من أرجاء البلاد، قيل: كان عددهم اثنين وسبعين، مع كل منهم عصا وحبال - وهذا أدنى ما قيل في العدد - اثنين من القبط من أهل مصر، وسبعين من بني إسرائيل، وكان فرعون يَجْبُرُهُمْ عَلَى تعلُّم السحر، وتم جمعهم من الإسكندرية والفيوم والقرمّا، وهي مدينة قرب العريش.

وقيل: إن عددهم بلغ المئات أو الآلاف، حتى أوصله بعضهم إلى ثمانية آلاف، وربما دخلت الإسرائيليات في هذا العدد.

جمع فرعون هذا العدد الكبير من السحرة، ثم أتى يوم اللقاء في الموعد المحدد، وهذا كقوله تعالى: ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ أَتَأْتُونِي بِكُلِّ سَحِرٍ عَلِيمٍ﴾ (٧٩) [يونس].

وقد وعدهم فرعون بالعطاء الوافر والقرب منه، كما جاء في قوله تعالى عن السحرة: ﴿أَيْنَ لَنَا لَاجِرٌ إِن كُنَّا نَحْنُ الْغَالِبِينَ﴾ (٨١) قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ إِذَا لَئِن الْمُقَرَّبِينَ (٨٢) [الشعراء].

وجاؤوا في الزمان والمكان المحددين، كما قال تعالى: ﴿فَجِئَ السَّحَرَةُ لِيَقْتَتِ يَوْمَ مَعْلُومٍ﴾ (٢٨) [الشعراء].

وكان الجمع حافلاً، حضره الرجال والنساء والملا والأشراف والعوام والصغار والكبار، حضر الجميع وقالوا للناس: ﴿لَعَلَّنَا نَبْجُ السَّحَرَةَ إِن كَانُوا هُمُ الْغَالِبِينَ﴾ [الشعراء: ٤٠] وحيثُذ وعظهم موسى ليقم عليهم الحجة.

٦١- ﴿قَالَ لَهُم مُّوسَى وَيَلَكُمْ لَا تَقْرَؤْا عَلَى اللَّهِ كَذِبًا فَيُسْحِتْكُمْ^(١) يَعْذَابُ يَفْقَدَ خَابَ مَنِ افْتَرَى﴾

جلس فرعون على سرير مملكته، وكبار رجال الدولة يحيطون به عن يمينه وشماله، ووقف السحرة صفّاً واحداً، وجاء موسى متكئاً على عصاه ومعه هارون عليهما السلام، وقال موسى لسحرة فرعون قبل اللقاء، في هذا المجتمع من الناس أمام فرعون، وأمام الملا، وهو يريد أن ينصح السحرة، ويعظهم أولاً، فيخوفهم من الله تعالى، ويحذّرهم عاقبة الكذب الوخيمة، قال لهم: إن أنتم سميتُم آيات الله ومعجزاته سحراً أهلككم الله

(١) قرأ حفص وحزمة والكسائي ورويس وخلف بضم الياء وكسر الحاء من (فيسحِتكم) مضارع: أسحته، أي: استأصله، والباقون بفتح الياء والحاء مضارع سحته، أي: استأصله أيضاً، وهما لغتان.

بعذاب من عنده، فاستأصلكم وخيب سعيكم، وخيبتكم في دنياكم وأخراكم.

أي: لا تختلقوا على الله الكذب، فيستأصلكم بعقوبة من عنده، ويبيدكم بسبب هذا السحر، الذي تُحِيكُونَهُ للناس، فتزعمون أنه حق، فالويل والهلاك لكم أن تقفوا في وجهي، وتزعموا أن معجزاتي نوع من السحر، وتسيروا في رِكَاب فرعون، وتطيعوا أمره.

وبعد أن وعظهم موسى ﷺ نهاهم عن الكذب، وخوفهم من عقاب الله تعالى، فأنذرهم عذابه، وضرب لهم مثلاً بالأمم البائدة، وهكذا قدّم موسى للسحرة النصيح والإرشاد، لعلهم يثوبوا إلى رشدهم، فقال لهم: لا تفتروا على الله كذباً، بإشراككم بالله، والتوجه إلى غيره بالعبادة، ولا تفتروا على الله كذباً، فتزعمون أن المعجزة التي أتى بها موسى سحر، ولا بدّ لكم أن تنصروا الحق، وتخذلوا الباطل، وأن تُطلعوا فرعون على حقيقة الأمر، وقد أفاد فيهم وعظ موسى فأصبحوا من أنصاره بعد أن كانوا من خصومه، وذلك أنهم - في بادئ الأمر - اتفقوا سرّاً على أن يتبنّوا مقالة واحدة لينجحوا في موقفهم ويتمسك الناس بدينهم، كما قال تعالى:

٦٢- ﴿فَنَزَعُوا أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ وَأَسْرُوا النَّجْوَى﴾

سمع السحرة هذه الكلمة الوعظية من موسى فوقع في نفوسهم موقعاً، سيّما أنهم على باطل، ثم تجاذبوا أطراف الحديث وتحادثوا سرّاً، فأخذوا يتشاورون فيما بينهم، واختلفوا في شأن موسى، فمنهم من خشي الانخدال، ومنهم من قال: إنه ساحر، ومنهم من قال: هذا ليس بكلام ساحر، إنه كلام نبي، ومنهم من قال: إنه جاء لتغيير عقائد الناس، واكتساب الجاه والسلطان والمنافع، ثم قالوا: إن كان ساحراً فسوف نغلبه، وإن كان أمره من السماء فله شأن عظيم^(١).

أما المقالة التي اتفق عليها السحرة سرّاً فهي كما جاء في هذه الآية:

(١) هكذا قال قتادة، كما أخرجه ابن أبي حاتم.

٦٣- ﴿قَالُوا إِنَّ^(١) هَٰذَا نَ سَحَرَن يَرِيدَان أَن يُخْرِجَاكُم مِّنْ أَرْضِكُم بِسِحْرِهِمَا وَيَذْهَبَا بِطَرِيقِنَا كُ الْمَثَلِ﴾

وبعد أن تجاذب السحرة أطراف الحديث وأخذوا يتشاورون سرًا، قالوا: إِنَّ موسى وهارون ساحران يريدان أن يخرجكما من بلادكم مصر، بسحرهما، ويذهبا بطريقة السحر العظيمة التي أنتم عليها؛ فالسحر هو سبب عيشكم وأرزاقكم، وأنتم بسببه مُعَزَّزُونَ بين الناس، وأصحاب شرف ومكانة بهذه الطريقة، وموسى يريد أن يغلبكم، وأن ينتصر عليكم، وينتزع منكم هذه الطريقة، منهجكم القويم.

وفي هذه المقالة، حضَّ بعضهم بعضًا على الاجتهاد في مغالبة موسى وهارون، ولهذا قالوا:

٦٤- ﴿فَاجْمَعُوا^(٢) كَيْدَكُمْ ثُمَّ أَتُوا صَفًّا وَقَدْ أَفْلَحَ الْيَوْمَ مَنِ اسْتَعَلَىٰ ﴿٤٤﴾﴾

لقد خاف السحرة من موسى وهارون، فأخذوا يبذلون جهدهم في تجميع صفوفهم، وتشجيع بعضهم لبعض؛ حتى لا يسلب منهم موسى جاههم وسلطانهم ومنافعهم، فقال بعضهم لبعض: أظهروا سحركم دفعة واحدة، متظاهرين متعاونين، وأحكموا أمركم، واعزموا عليه من غير اختلاف بينكم، ثم اتوا إلى الميدان صفًّا واحدًا؛ ليكون أهيب في صدور الناظرين، وألقوا ما في أيديكم مرة واحدة؛ لتبهروا الأبصار، وتغلبوا سحر موسى وأخيه، فهذا يوم له ما بعده.

(١) ١- قرأ حفص بسكون نون (إن) وألف بعد الذال في (هذان) مع تخفيف النون، فلا (إن) مخففة من الثقيلة مهملة، و(هذان) مبتدأ، و(لساحران) خبر، ولام (لساحران) هي الفارقة بين إن المخففة والنافية.

٢- وقرأ ابن كثير مثل قراءة حفص إلا أنه شدد النون من (هذان)؛ وذلك للتعويض عن ألف المفرد التي حذفت في الثنية، ٣- وقرأ أبو عمرو بتشديد النون، و(هذين) بالياء، على أن (إن) هي المؤكدة العاملة، و(هذين) اسمها، واللام للتأكيد، و(ساحران) خبرها، ٤- وقرأ الباقون وهم: نافع وابن عامر وشعبة وحزمة والكسائي وأبو جعفر ويعقوب وخلف بتشديد النون وألف بعد الذال من (هذان) على أن (إن) عاملة ناصبة، و(هذان) اسمها، وذلك على لغة من يلزم المثنى الألف في الأحوال الثلاثة، واختاره أبو حيان، وحكى الكسائي عن بعض العرب: من يشتري مني خفان، فهذه أربع قراءات في (إن هذان).

(٢) قرأ أبو عمرو بهمزة وصل بعد الفاء مع فتح الميم من (فاجمعوا) فعل أمر، من جَمَعَ ضد فَرَّق، وقرأ الباقون بهمزة قطع مفتوحة مع كسر الميم، فعل أمر، من أجمع أمره، بمعنى: أحكمه، وجمع يتعدى للحسي والمعنوي، تقول: جمعت القوم، وجمعت أمري، وأجمع لا يتعدى إلا للمعنوي، تقول: أجمعت أمري، ولا تقول: أجمعت القوم.

ويبدو أن السحرة تحيروا في أمرهم، فاهتموا بالكيد لموسى، كما جاء في قوله تعالى: ﴿وَقِيلَ لِلنَّاسِ هَلْ أَنْتُمْ مُجْتَنِعُونَ﴾ (٦٥) لَعَلَّآ نَتَّبِعُ السَّحَرَةَ إِنْ كَانُوا هُمْ الْغَالِبِينَ﴾ (الشعراء).

ثم قالوا من باب الحث والتحريض: ﴿وَقَدْ أَفْلَحَ الْيَوْمَ مَنْ أَسْتَعْلَى﴾ أي: وقد ظفر بحاجته اليوم من انتصر، وفاز وغلب صاحبه وقهره، يقولون ذلك إشارة إلى قول السحرة لفرعون: ﴿أَيِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِنْ كُنَّا نَحْنُ الْغَالِبِينَ﴾ (الشعراء: ٤١) أي: إن غلبنا موسى، هل يكون لنا أجر مادي على هذا؟ قال لهم فرعون: نعم، لكم الهدايا، ولكم الأجر الكبير، وفوق ذلك أنتم من المقربين إليَّ ﴿قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ إِذَا لَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ﴾ (الشعراء).

وهكذا، فقد أرادوا بالفلاح: ما وَعَدَهُم به فرعون من الإنعامات، والهدايا التي وعدهم بها، مع القرب منه، وتكريمهم.

فلما تمت مكيدتهم، وانحصر مقصدهم، ولم يبق إلا العمل.

٦٥- ﴿قَالُوا يَمْوَسِيَّ إِمَّا أَنْ تُلْقَىٰ وَإِمَّا أَنْ نَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَلْقَىٰ﴾ (٦٥)

ولما حان وقت المباراة قال السحرة لموسى: إما أن تلقي عصاك أولاً، وإما أن نبدا نحن فنلقي ما معنا؟ وهو تخيير يبدو فيه التحدي والتلويح بالقوة، فقد قالوا هذا وهم معتدّون بأنفسهم، وهم واثقون مما هم عليه، متوهمين أنهم على يقين، ثم طلب منهم موسى أن يبدؤوا هم بإلقاء ما في أيديهم:

٦٦- ﴿قَالَ بَلْ أَلْقُوا فَإِذَا حِجَابُهُمْ وَعَصِيُّهُمْ يُخِيلُ^(١) إِلَيْهِ مِنْ سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَى﴾ (٦٦)

أظهر موسى عدم المبالاة بسحرهم؛ ليُثِرُوا ما معهم، ويستفرغوا جهدهم، ويظهر الله الحق ويخذل الباطل، فقال لهم بأسلوب مهذب مؤدب: بل ألقوا أنتم ما معكم أولاً.

فألقوا حبالهم وعصيَّهم، فخيَّل إلى موسى أن هذه الحبال والعصي من قوة سحرهم، أنها تسعى، وخيَّل إلى الناس كذلك، وهي من الكثرة بحيث غطَّت الساحة.

(١) قرأ ابن ذكوان وروح، بناء التأنيث في (يخيّل) على أن الفعل مسند إلى ضمير يعود على العصي والحبال وهي مؤنثة، والمصدر المنسبك من (أنها تسعى) بدل اشتغال من ذلك الضمير، وقرأ الباقر بياء التذكير، على أن الفعل مسند إلى المصدر المنسبك من (أنها تسعى) وهو مذكر، أي: يخيّل إليه سعيها.

قيل: إنهم طَلَّوْا هذه الحبال والعصيّ بمادة الزئبق، وجعلوا فيها عقاقير، فإذا أتى عليها حرارة الشمس اضطربت وتحركت، وخُيِّلَ للرائي أنها تسعى؛ بسبب مادة الزئبق التي طُلِّيت بها هذه الحبال والعصيّ.

وقد بيّن الله سبحانه أنهم لَمَّا أَلْقَوْا حبالهم وعصيّهم ﴿سَحَرُوا أَعْيُنَ النَّاسِ وَاسْتَهْوَاهُمْ وَجَاءَ وَبِسِحْرِ عَظِيمٍ﴾ [الأعراف: ١١٦].

وبيّن موسى ﷺ أن الله تعالى مُبْطِل سِحْرِهِمْ، ومُظْهِر كَيْدِهِمْ، كما قال تعالى: ﴿فَلَمَّا جَاءَ السَّحَرَةُ قَالَ لَهُم مُّوسَى أَلْقُوا مَا أَنْتُمْ مُلْقُونَ﴾ (٨٠) ﴿فَلَمَّا أَلْقَوْا قَالَ مُوسَى مَا جِئْتُمْ بِهِ السِّحْرُ إِنَّ اللَّهَ سَيُبْطِلُهُ﴾ [يونس].

وأقسم السحرة بعزة فرعون أنهم سيغلبون موسى ﴿فَالْقُوا جِهَاهُمْ وَعَصِيَّتَهُمْ وَقَالُوا بِعَزِّ فِرْعَوْنَ إِنَّا لَنَحْنُ الْغَالِبُونَ﴾ [الشعراء].

فلما خيل إلى موسى أنها حيات تسعى توجّس في نفسه خيفة منهم بمقتضى الطبيعة البشرية:

٦٧، ٦٨ - ﴿فَأَوْجَسَ فِي نَفْسِهِ خِيفَةً مُّوسَى﴾ (٦٧) ﴿لَمَّا لَا تَخَفَ إِنَّكَ أَنْتَ الْأَعْلَى﴾ (٦٨)

أحس موسى في نفسه بالخوف، وخشي أن يظهر أمر السحرة، فيظهر الباطل، ويتنصر على الحق، وموسى يعلم أن الله تعالى مُظْهِر دينه، ولكنه خشي أن يكون هذا استدراجاً للسحرة، فيظهر الكُفْر ولو مدة قليلة، وخشي موسى أيضاً على الناس الحاضرين أن يتبعوا السحرة، ويؤمنوا بهم من قَبْلِ أن يروا معجزته.

قال الله تعالى لموسى مُطْمَئِنَّا لَهُ: لا تخف من شيء إنك أنت الأعلى، وسيظهر أمرك على هؤلاء السحرة، وعلى فرعون وجنوده، وستغلبهم، فألق ما في يمينك:

٦٩ - ﴿وَأَلْقِ مَا فِي يَمِينِكَ تَلَقَّفَ^(١) مَا صَنَعُوا إِنَّمَا صَنَعُوا كَيْدٌ سَحِرٍ^(٢) وَلَا يُفْلِحُ السَّاحِرُ حَيْثُ أَتَى﴾

(١) قرأ ابن ذكوان بفتح اللام وتشديد القاف ورفع الفاء من (تَلَقَّفَ) مضارع تَلَقَّفَ يتَلَقَّفَ، على الاستئناف بمعنى: تتلع، وقرأ حفص بإسكان اللام وتخفيف القاف وجزم الفاء، وقرأ الباقر بفتح اللام وتشديد القاف، وجزم الفاء، جواباً للأمر في (وَأَلْقِ ما في يمينك) وكذا قراءة حفص، وشدد البزي التاء وصلاً بخلف عنه.

(٢) قرأ حمزة والكسائي وخلف (كيد سحر) بكسر السين وإسكان الحاء وحذف الألف، على أنه مصدر بمعنى اسم الفاعل، أو على تقدير مضاف، أي: كيد ذي سحر، وقرأ الباقر (ساحر) بفتح السين وألف بعدها وكسر الحاء، اسم فاعل مضاف إليه، من إضافة المصدر لفاعله.

وبعد أن فرغ القوم من إلقاء سحرهم، أوحى الله تعالى إلى موسى في اللحظة نفسها أن يبطله، فأمره أن يُلقِي ما في يده اليمنى، فألقى موسى عصاه، فإذا هي ثعبان فاغر فاه، له قوائم وعُنُق ورأس، أقبل نحو فرعون، ففزع من سرير مُلكه، وارتعدت فرائصه، واستغاث بموسى أن يمنعه منه، ففعل موسى، وإذ بهذا الثعبان العظيم يلتهم، ويتلع بسرعة وخفة فائقة، جميع العصبيّ والحبال التي ألقاها القوم، ثم أخبره الله تعالى بأن ما عملوه أمامك يا موسى، ما هو إلا مكرٌ ساحر، وتخييلٌ سحر، ولا يظفر الساحر بالنجاة في الدنيا ولا الآخرة.

ثم مد موسى يده إلى العصا فرجعت كما كانت، فنظر السحرة وعلموا أن الحق ما جاء به موسى فآمنوا، بعد أن ظهرت المعجزة وبطل ما كانوا يعملون.

وقد جاء هذا المعنى موضحاً في آيات كثيرة، منها قوله تعالى: ﴿فَأَلْقَى مُوسَى عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ﴾ [الشعراء].

وقوله: ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ أَنَّ آلِٰى عَصَاكَ فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ﴾ [١١٧] فَوَقَعَ الْحَقُّ وَبَطَلَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ [١١٨] فَعَلُوا هُنَالِكَ وَانْقَلَبُوا صَٰغِرِينَ [١١٩] [الأعراف].

وكلمة ﴿لَا يُفْلِحُ﴾ تأتي في القرآن العظيم مصاحبة للكفر وللظلم، والإجرام والفساد، كما قال تعالى: ﴿إِنَّهُمْ لَا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ﴾ [المؤمنون: ١١٧]، ﴿لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ﴾ [الأنعام: ٢١]، ﴿لَا يُفْلِحُ الْمُجْرِمُونَ﴾ [يونس: ١٧]. ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُصْلِحُ عَمَلَ الْمُفْسِدِينَ﴾ [يونس: ٨١] أي: إن هؤلاء لا يظفرون بعون الله تعالى ونصره، والساحر من هذا القبيل.

سُبْحَانَ مُقَلَّبِ الْقُلُوبِ

٧٠- ﴿فَأَلْقَى السَّحَرَةُ سِحْرَهُمْ قَالُوا ءَأَمَّا رَبِّ هَٰرُونَ وَمُوسَىٰ﴾ [٧٠]

أدرك السحرة، حينما رأوا معجزة موسى، أن ما صنعه ليس بسحر، وأنه قد جاء بأمر ليس في طُوق البشر، ولا في قدرتهم، إنه معجزة من عند الله تعالى؛ إذ كيف أن عصاً واحدة، تلقف هذه العصي وهذه الحبال التي تُقدَّر بالآلاف؟!

ولما ظهر الحق، وقامت الحجة عليهم، كانت النتيجة أن ألقى السحرة أنفسهم على الأرض ساجدين لله تعالى، مؤمنين به، مصدقين بنبوة موسى وهارون، قائلين: لو كان هذا سحرًا ما غلبنا موسى، فكان من السحرة، أن أعلنوا إيمانهم، وخروا على الأرض ساجدين؛ لأنهم يعرفون السحر وحقيقته، وما جاء به موسى ليس بسحر؛ لذا: أدركوا أن هذا من عند الله سبحانه، فخروا له سجدًا، فسبحان مقلب القلوب، يُمسي الإنسان كافرًا ويصبح مؤمنًا، والعكس صحيح؛ فإن العبد قد يسمع كلمة بقلب مفتوح، يُلقِي الله في قلبه الهدى والإيمان بعد الكفر والجحود، خَرَّ السحرة سجدًا ﴿قَالُوا ءَامَنَّا بِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ (٤٧) رَبِّ مُوسَى وَهَارُونَ ﴿الشعراء﴾، و[الأعراف: ١٢١، ١٢٢].

وتقديم هارون على موسى، أو موسى على هارون، ليس فيه تفضيل لأحدهما على الآخر، والواو لمطلق الجمع.

قال ابن عباس ؓ: كانوا أول النهار سحرة، وفي آخر النهار شهداء بررة، وهكذا أصحاب النفوس النقية عندما يتبين لها الحق تفيء إلى رشدتها وتستجيب له، وتُفْلِعُ عن غِيَّهَا وضلالها، فما أعجب أمرهم!!

لقد أَلْقَوْا حبالهم وعصيهم، كُفِرُوا وجحودًا برسالة موسى، ثم أَلْقَوْا رؤوسهم بعد ساعة سجودًا وشكرًا لله تعالى، فما أعظم الفرق بين الإلقاءين.

قيل: إنهم لما سجدوا لم يرفعوا رؤوسهم حتى أراهم الله منازلهم في الجنة التي يَصِيرُونَ إليها، فرفعوا رؤوسهم قائلين: ﴿ءَامَنَّا بِرَبِّ هَارُونَ وَمُوسَى﴾ وتحدوا فرعون قائلين: ﴿كُنْ نُؤْتِرُكَ عَلَىٰ مَا جَاءَنَا مِنَ الْآيَاتِ وَالَّذِي فَطَرَنَا﴾.

ولما رأوا عصا موسى تبتلع حبالهم وعصيهم، وهم أهل خبرة بفنون السحر وطرقه ووجوهه، عَلموا علم اليقين أن ما فعله موسى معجزة وليس بسحر، وأنه حق لا مرية فيه، ولا يقدر عليه إلا من قال للشيء: كن فيكون.

فَزَعُونُ يَتَوَعَّدُ السَّحَرَةَ عَلَى إِيْمَانِهِمْ

٧١- ﴿قَالَ ءَامَنْتُمْ لِي قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ^(١) لَكُمْ إِنَّهُ لَكَبِيرُكُمُ الَّذِي عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ فَلَا تُقِطِعُوا أَيْدِيَكُمْ وَأَنْتُمْ مَنِ خَلْفٍ وَأَصْلَيْتُكُمْ فِي جُذُوعِ النَّخْلِ وَلَعَلَّكُمْ بَيْنَنَا أَشَدُّ عَذَابًا وَأَبْقَى^(٢)﴾

قال فرعون للسحرة بعد أن شاهدتهم ساجدين لله: صدقتم بموسى، واتبعتموه، وأقررتم له، قبل أن تستأذنوني، وقبل أن أسمح لكم بذلك؟

ثم أراد فرعون أن يدير الدفة على السحرة، ويلفق لهم الأكاذيب، وينتقل إلى نقطة أخرى، فقال لهم: ﴿إِنَّهُمْ لَكَبِيرُكُمُ الَّذِي عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ﴾ وفي الآية الأخرى: ﴿إِنَّ هَذَا لَمَكْرٌ مَّكْرْتُمُوهُ فِي الْمَدِينَةِ لِتُخْرِجُوا مِنْهَا أَهْلَهَا فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ [الأعراف: ١٢٣].

أي: هو أستاذكم ورئيسكم ومعلمكم الذي تعلمتم السحر على يديه، فلذلك تابعتهم، وانفقتم معه لتذهبوا بملكي، وقصدته من ذلك صرّف الناس عن التآسي بهم، وعن الإيمان بالحق الذي آمن به السحرة، والظهور أمام الناس بمظهر الثبات والتماسك بعد أن استبدّ به الخوف والهلع.

ولكن كيف هذا وموسى قد جاء بالأمس القريب من أرض مدين، وكان مقيمًا فيها سنوات طوالًا، وهؤلاء السحرة رجال فرعون، وليس لموسى علاقة بهم، فهو لا يعرفهم، وفرعون هو الذي جاء بهم من ضواحي البلاد، ولم يروا موسى إلا في مكان المناظرة؟!

ثم تهدد فرعون السحرة، وتوعدهم مُقْسِمًا أن يُقَطَّعَ أيديهم وأرجلهم من خلاف: اليد اليمنى والرجل اليسرى، وبالعكس، وأن يعلّقهم على جذوع النخل بربط أجسادهم عليها، وقتلهم شر قتلة، ﴿وَلَعَلَّكُمْ بَيْنَنَا أَشَدُّ عَذَابًا وَأَبْقَى﴾ وسوف ترون من منا أشد عذابًا وأكثر إيلاّمًا، أنا أم رب موسى؟ وأي منا أدوم على العذاب، أنا أم رب موسى الذي آمنتم وصدقتم به؟ فهو يزعم أنه أشد عذابًا من الله وأبقى، وهذا من قلب الحقائق لترهيب الخصم.

(١) هذه الكلمة فيها ثلاث همزات: مفتوحة، فساكنة، والثالثة مبدلة ألفًا، ١- وقد حقق الأولى وسهل الثانية قالون والأزرق والبزي وأبو عمرو وابن ذكوان وأبو جعفر وقنبل وهشام بخلف عنه. ٢- وقرأ الأصهباني وحفص ورويس وقنبل في وجهه الثاني بإسقاط الهمزة الأولى وتحقيق الثانية وألف بعدها. ٣- وقرأ شعبة وحمزة وروح وخلف العاشر وهشام في وجهه الثاني بهمزتين محقتين وألف بعدهما.

وفي كلام فرعون إشارة إلى قول موسى قبل ذلك: ﴿لَا تَقْتَرُوا عَلَى اللَّهِ كَذِبًا فَيُسْحِتَكُمْ بِعَذَابٍ﴾. ولما عرف السحرة الحق، أجابوا فرعون بأنهم لن يفضلوه على ما وعدهم الله به من الأجر والثواب العظيم.

الإيمان الصادق يصنع العجائب

٧٢- ﴿قَالُوا لَنْ نُؤْثِرَكَ عَلَىٰ مَا جَاءَنَا مِنْ الْآيِنَتِ وَالَّذِي فَطَرْنَا فَاقْضِ مَا أَنْتَ قَاضٍ إِنَّمَا تَقْضِي هَذِهِ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا﴾ (٧٢)

في هذه الآية بيان أن السحرة التائبون أظهروا استخفافهم بوعيد فرعون وتعذيبه، بعد أن أصبحوا أهل إيمان ويقين؛ حيث قالوا لفرعون: لن نُفْضِلَكَ فنُطِيعَكَ، ونُتَّبِعَ دينَكَ على الإيمان والهدى الذي جاء به موسى، وعلى ما رأينا من المعجزات القاطعة الواضحة، الدالة على صدق موسى ووجوب متابعتة، وطاعة ربه، ولن نفضل ربوبيتك المزعومة على ربوبية الله الذي خلقنا، فافعل بنا ما أنت فاعل، فإنَّ ما تفعله بنا، وما تملكه بالنسبة لنا، ما هو إلا عذاب وفتنة، تنتهي بانتهاء هذه الحياة ﴿فَاقْضِ مَا أَنْتَ قَاضٍ﴾ أي: اصنع ما شئت، مما وعدتنا به من الصلب والقطع والعذاب، ولو كانت حياتنا هي الثمن ﴿إِنَّمَا تَقْضِي هَذِهِ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا﴾، فإن ما وعدتنا به من عقاب، ينقضي ويزول، بخلاف عذاب الله تعالى لمن استمر على كفره، فإن عذابه دائم لا يزول، وكأن هذا جواباً لقول فرعون ﴿وَلَعَلَّامُنْ أَتَيْنَا أَشَدَّ عَذَابًا وَابْقَى﴾ وفيه دليل على أنه ينبغي للعاقل أن يوازن بين لذات الدنيا ولذات الآخرة، وبين عذاب الدنيا وعذاب الآخرة.

أخرج عبد بن حميد، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن عكرمة، أن سحرة فرعون كانوا تسع مئة، فقالوا لفرعون: إن يكن هذان ساحرين فإننا نغلبهما؛ فإنه لا أسحر منا، وإن كانا من رب العالمين، فإنه لا طاقة لنا برب العالمين، فلما كان من أمرهم أن خروا سجداً، وأراهم الله في سجودهم منازلهم التي إليها يصيرون في الجنة، فعندها قالوا: ﴿لَنْ نُؤْثِرَكَ عَلَىٰ مَا جَاءَنَا مِنْ الْآيِنَتِ﴾ إلى ﴿خَيْرٌ وَابْقَى﴾^(١).

رُوي أن السحرة ليلة موعد اللقاء في يوم الزينة طلبوا من فرعون أن يُريهم موسى وهو

(١) «الدر المنثور» (١٠/٢١٩).

نائم، فأخذهم ورأوا موسى وهو نائم، فإذا بعصاه تَحْرُسُهُ، أي: أن موسى نائم، يغط في نومه، وعصاه تحرسه، عندئذ قال السحرة لفرعون: هذا ليس بساحر، إن الساحر إذا نام بطل سحره، ولذلك فإنهم أرادوا أن يُحْجِمُوا عن مقابلة موسى ومعارضته خوفاً من الفضيحة، ولكن فرعون أكرههم وأجبرهم على مقابلة موسى بالسحر، في الساحة المعدّة لذلك، ولهذا وقع في قلوب السحرة قبل مقابلة موسى أنه ليس شخصاً عادياً، وأن هذه العصا ليست عصا عادية، وإنما هي مؤيَّدة بقوة إلهية عظيمة، ليس في قدرتهم مقابلتها.

ولذلك سرعان ما آمنوا بموسى، ووقفوا من فرعون هذا الموقف القوي، حينما هددهم بالقتل والصلب، فقالوا: ﴿لَنْ نُؤْفِرَكَ عَلَىٰ مَا جَاءَنَا مِنْكَ الْبَيِّنَاتِ﴾ وأقسموا على ذلك قائلين: ﴿وَالَّذِي فَطَرْنَا﴾ ثم استعدّوا للقاء حتفهم فداءً لهذه العقيدة، فقالوا: ﴿فَاقْضِ مَا أَنْتَ قَاضٍ﴾ أي: افعل ما شئت، حتى لو أزهقت أرواحنا، وفقدنا هذه الحياة.

ثم هل فعل بهم فرعون ما تهددهم به؟ يظهر -والله أعلم- أنه لم يفعل، وإن كانت بعض الروايات تذكر أنه قطع أيديهم وأرجلهم من خلاف وأنه نفذ ما قال، فأمسوا شهداء برة؛ فهي روايات بدون سند صحيح، ثم أكّد السحرة إيمانهم بالله، وتصديقهم بمعجزة موسى ﷺ، وبغضهم لفرعون وقومه، فقالوا:

٧٣- ﴿إِنَّا آمَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا خَطِئَنَا وَمَا أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ السِّحْرِ وَاللَّهُ خَبِيرٌ وَبَقِي (٧٣)﴾

قالت السحرة معلنين توبتهم: إنا آمنّا وصدّقنا بالله ربّاً، وصدّقنا بموسى نبياً؛ ليغفو الله عن ذنوبنا، ويغفر لنا ما أكرهتنا عليه يا فرعون، من تعلّم السحر والعمل به، ومن معارضة موسى ومقابلة معجزته بسحرنا، فقد كان فرعون يُكره بني إسرائيل على تعلّم السحر.

أخرج ابن أبي حاتم عن ابن عباس ؓ قال: أخذ فرعون أربعين غلاماً من بني إسرائيل، فأمر أن يُعلّموا السحر بالفرما -وهي مدينة على الساحل، قُرب العريش في مصر- وقال: علّموهم تعليماً لا يغلبهم أحد في الأرض.

قال ابن عباس ؓ: فهم من الذين آمنوا بموسى، وهم الذين قالوا: ﴿إِنَّا آمَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا خَطِئَنَا وَمَا أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ السِّحْرِ﴾^(١).

(١) من تفسير الآية في ابن كثير (٢٩٨/٥) و«الدر المنثور» عن ابن أبي حاتم (٢٢٠/١٠).

ثم قال السحرة الذين آمنوا بالله رباً وبموسى نبياً: الله خير لنا منك يا فرعون، وخير لنا ثواباً وجزاء، وأبقى عاقبة، وعذاباً لمن عصاه وخالف أمره.

وهذه الجملة: ﴿وَاللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَى﴾ في مقابلة قول فرعون: ﴿وَلَنَعْلَمَنَّ إِنَّا أَشَدُّ عَذَابًا وَأَبْقَى﴾.

قَاعِدَةُ الْجَزَاءِ الْآخِرِيِّ

٧٤- ﴿إِنَّهُ مَنْ يَأْتِ رَبَّهُ مُجْرِمًا فَإِنَّ لَهُ جَهَنَّمَ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَى﴾ ﴿٧٤﴾

هذه الآية والآيتان بعدها؛ ليست من كلام السحرة، وإنما هي من كلام الله تعالى، مُعْتَرِضَةٌ بين قصة السحرة وقصة خروج بني إسرائيل من مصر، ساقها الله تعالى موعظة وتأييداً لمقالة السحرة الذين آمنوا^(١).

والآيتان فيهما قاعدة الجزاء الآخروي الذي أعده الله تعالى للمؤمن والكافر، جاء ذِكْرُهُما هنا تنبيهاً على قُبْح ما فعله فرعون وهو قمة الكفر، وحُسن ما فعله السحرة، ترغيباً وترهيباً للناس إلى قيام الساعة، وأنَّ مَنْ يَلْقَى ربه كافرًا يَعَذَّبُ عَذَابًا لَا يُؤْدِي به إلى الموت، فلا يُجْهَز عليه فيستريح، ولا يُخَفَّف عنه شيء من العذاب، بل يُعَادُ جُلْدُهُ وَيُجَدَّدُ عَذَابُهُ، وهذا بالنسبة لمن يموت على الكفر الأكبر، ويلقى ربه كافرًا ﴿فَإِنَّ لَهُ جَهَنَّمَ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَى﴾. لا يموت فيستريح، ولا يحيا حياة يتلذذ بها، فهو في عذاب مستمر، لا يُفْتَر عنه ساعة، يستغيث فلا يُغَاث، ويدعو فلا يجاب، بل يقال له ﴿قَالَ أَخْسَأُوا فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُون﴾ [المؤمنون: ١٠٨]

كما قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ نَارُ جَهَنَّمَ لَا يُقْضَىٰ عَلَيْهِمْ فِيمَوتُوا وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ مِنْ عَذَابِهَا﴾ [فاطر: ٣٦].

وقال سبحانه: ﴿وَنَادَوْا يَمَّاكَ لِيَقْضَ عَلَيْنَا رَبُّكَ قَالَ إِنَّكُمْ مَرْكُوتٌ﴾ [الزخرف].

وقال جلَّ شأنه: ﴿وَنَجَّيْنَاهَا الْأَشَقَى﴾ ﴿١١﴾ الَّذِي يَصِلُ النَّارَ الْكُبْرَى ﴿١٢﴾ ثُمَّ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَى ﴿١٣﴾ [الأعلى].

وقال أيضاً: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا سَوْفَ نُصْلِيهِمْ نَارًا كَمَا نَصَبَتْ جُلُودُهُمْ بَدَلَتْهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا الْعَذَابَ﴾ [النساء: ٥٦]؛ وذلك لأنهم من أهل النار لا يموتون موتاً نهائياً

(١) يُنْظَرُ: «تفسير التحرير والتنوير» (٢٨٨/١٦).

فيستريحون، ولا يحيون حياة ينتفعون بها ويتلذذون.

وهذا بخلاف من يدخل النار من عصاة المؤمنين ممن عصا ربه بارتكاب الجرائم، فإنه لا يُجهز عليهم، ولا يُجدد عذابهم، وإنما يخرجون من النار بشفاعاة النبي ﷺ فيهم، بعد أن يُعذبوا بمقدار جرمهم.

ب- وقد ينطبق هذا المعنى على هذه الآية فلا يكون الكلام معترضاً فهذه الآية تشمل العصاة من المؤمنين الذين يعذبون في النار بقدر ذنوبهم، فيموتون موة واحدة، ثم يقوم الشفعاء فيشفعون لهم، فينبئون بعد ذلك، ويخرجون من النار ويدخلون الجنة.

عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «أما أهل النار الذين هم أهلها، فإنهم لا يموتون فيها ولا يحيون، ولكن تُصيهم النار بذنوبهم، فتميتهم إماتة، حتى إذا صاروا فحمًا، أذن لهم في الشفاعاة، فجيء بهم ضبائر، ضبائر، فبثوا على أنهار الجنة، فيقال: يا أهل الجنة: أفيضوا عليهم، فينبئون نبات الحبة تكون في حَمِيل السيل» فقال رجل من القوم: كأن رسول الله ﷺ كان بالبادية^(١).

وأهل النار في الحديث هم غير المخلدين فيها، وهم ممن يؤذن في الشفاعاة لهم بعد تطهيرهم من الذنوب في النار. هذا جزاء الكافر، فما جزاء المؤمن؟ قال تعالى:

٧٥- ﴿وَمَنْ يَأْتِهِ^(٢) مُؤْمِنًا قَدْ عَمِلَ الصَّالِحَاتِ فَأُولَئِكَ لَهُمْ الدَّرَجَاتُ الْعُلَى ﴿٧٥﴾﴾

أي: ومن مات على الإيمان، وتزوّد بالعمل الصالح، وترك المنهيات، فأولئك لهم المنزلة العالية، والدرجات الرفيعة عند رب العالمين.

٧٦- ﴿جَنَّتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ذَلِكَ جَزَاءُ مَنْ تَزَكَّى ﴿٧٦﴾﴾

وهؤلاء المؤمنون يكونون يوم القيامة في جنات إقامة دائمة، تجري من تحت أشجارها وقصورها أنهار العسل، والخمر، واللبن، والماء، ماكثين فيها بصفة دائمة، لا يخرجون

(١) أخرجه أحمد في «المسند» (١١/٣) برقم (١١٠١٦، ١١٠٧٧) بإسناد صحيح على شرط مسلم (محققوه) وهو في «صحيح مسلم» برقم (١٨٥) وابن خزيمة في التوحيد ص (٢٨٢) وعند عبد بن حميد في المنتخب (٨٦٥) والضبائر: الجماعة من الناس في تفرق، كما في «النهاية» (٧١/٣).

(٢) قرأ قالون وابن وردان ورويس بوجهين في (ومن يأت): الأول: اختلاس كسرة الهاء، الثاني: إشباع الكسرة، وللوسوسي وجهان: إسكان الهاء، وإشباع كسرتها، والباقون بالإشباع.

منها، وهذا النعيم المقيم ثواب من الله تعالى لمن طَهَّرَ نفسه من الدنس، والخَبْث، والشرك، وعَبَدَ الله وحده فأطاعه، واجتنب معاصيه، ولم يشرك بالله أحدًا من خلقه.

وعن عبادة بن الصامت رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «الجنة مئة درجة، ما بين كل درجتين منهما كما بين السماء والأرض، الفردوس أعلاها درجة، ومنها تخرج الأنهار الأربعة، والعرش فوقها، فإذا سألتم الله فاسألوه الفردوس»^(١).

وفي الصحيحين: من حديث سهل بن سعد رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «إن أهل الجنة لَيَرَوْنَ من فوقهم كما تَرَوْنَ الكوكب الغابر في أفق السماء؛ لتفاضل ما بينهم»، قالوا: يا رسول الله، تلك منازل الأنبياء؟ قال: «بلى، والذي نفسي بيده، رجال آمنوا بالله، وصدقوا المرسلين»^(٢).

وفي السنن: «وإن أبا بكر وعمر منهم وأنعمًا»^(٣).

قِصَّةُ خُرُوجِ بَنِي إِسْرَائِيلَ مِنْ مِصْرَ

٧٧- ﴿وَلَقَدْ أَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى^(٤) أَنْ أَسْرِ^(٥) بِعِبَادِي فَأَضْرِبْ لَهُمْ طَرِيقًا فِي الْبَحْرِ يَبَسًا لَا تَخَافُ^(٦) دَرَكًا وَلَا تَخْشَى^(٧)﴾

أخذ موسى عليه السلام يدعو الناس -ومنهم فرعون وجنده- إلى دين الله تعالى، ويحاول أن يخلِّص بني إسرائيل من فرعون وعذابه، حيث تمادى فرعون في الطغيان، فأمعن في إيذاء بني إسرائيل بعد حادث السحرة، فأذن الله لموسى في الخروج من مصر، فرارًا من الاضطهاد، وتخليصًا لقومه من الفتنة، وقد دَبَّرَ الله لهم النجاة، ودَبَّرَ لفرعون ومن معه العرق.

(١) «المسند» (٣١٦/٥) برقم (٢٢٦٩٥، ٢٢٧٣٨) و«سنن الترمذي» برقم (٢٥٣١) قال محققو «المسند»:

حديث صحيح، وهذا إسناد رجاله ثقات رجال الشيخين، وأخرجه ابن أبي شيبة (١٨٣/١٣) وغيرهم.

(٢) البخاري برقم (٦٥٥٦) عند أبي سعيد برقم (٣٢٥٦)، وانظر: مسلم برقم (٢٨٣١) واللفظ له.

(٣) أبو داود برقم (٣٩٨٧) وابن ماجه برقم (٩٦) والترمذي.

(٤) عَدَّ الشامي وحده (إلى موسى) آية، ولم يعدها غيره.

(٥) قرأ نافع وابن كثير وأبو جعفر بهمزة وصل تثبت في البدء وتسقط في الوصل في (أن أسر) فعل أمر من سرى، والباقون بهمزة قطع تثبت في الحالين، فعل أمر من أسرى.

(٦) قرأ حمزة (لاتخف) بالجزم في جواب الأمر، والباقون (لا تخاف) جملة مستأنفة.

وكان بنو إسرائيل يعبدون الله تعالى سرًا خوفًا من فرعون، واتخذوا بيوتهم قبله للصلاة؛ لأنهم في حالة ضعف، كما قال تعالى: ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ وَأَخِيهِ أَنْ تَبَوَّءَا لِقَوْمِكُمَا بِمِصْرَ بُيُوتًا وَاجْعَلُوا بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ ﴿٨٧﴾ [يونس].

فأراد الله أن ينجيهم من عدوهم، ويمكن لهم في الأرض، كي يعبدوا الله جهرا، فأوحى الله إلى نبيه موسى عليه السلام أن يسير بهم ليلاً، وأخبره أن فرعون سيلحق به، فخرج موسى وبنو إسرائيل، فلما أصبح أهل مصر لم يجدوا منهم أحداً.

وهكذا: لما انتهى أمر السحرة، ظهرت دعوة موسى وقوي جانبه، وعندئذ وعده فرعون أن يرسل معه بني إسرائيل، ولكنه غدر ونقض عهده، وأعلم موسى أنه لن يرسلهم معه، فأيدّه الله بمعجزات: الجراد، والقمل، والضفادع، والدّم، وغيرها، وكلما جاءته آية يُخْلِف وعده، حتى انتهت الآيات، وعندئذ أراد الله لموسى أن يَخْرُجَ ببني إسرائيل من مصر هاربًا، وأن يسير بهم ليلاً متوجّهاً إلى البحر الأحمر، ولما أشعرهم موسى بلبلة الخروج استعاروا من معارفهم المصريين حُلِيِّهم وثيابهم.

ويُروى أنهم عجنوا زادهم ليلة خروجهم، وتركوه ليختمر، فلما استعجلهم موسى جعلوه فطيرًا، فصارت هذه سُنَّةَ فيهم، وكان خروجهم ليلة السابع من شهر برمها، من السنة القبطية، وقد اتخذها اليهود يومًا لرأس السنة عندهم، وخرجوا من مدينة رعمسيس.

وهكذا لما أراد الله تعالى إهلاك فرعون وقومه أوحى إلى موسى أن أخرج بني إسرائيل من مصر في أول الليل، وخذُ بهم طريق البحر.

نزع بهم موسى عليه السلام ليلاً، وخرج برجالهم ونسائهم وأطفالهم، وبلغ تعدادهم يومئذ سبعين ألف رجل، وكانوا قد دخلوا مع أبيهم يعقوب أرض مصر في زمن سيدنا يوسف عليه السلام أسرة واحدة، وكانوا يسكنون في مكان بمصر يقال له: (جاسان) في محافظة الشرقية، واسمه الحالي (صفط الحنة) بين الزقازيق وأبي حماد، على طريق الإسماعيلية.

خرج بنو إسرائيل، ووصلوا إلى ساحل البحر الأحمر على خليج السويس، وكان خليج السويس ممتدًا إلى البحيرات المُرَّة، أو ما يُقَرَّب منها، أما مكان عبور موسى ببني إسرائيل، فكان من شمال المكان المعروف بعيون موسى، ولما علم فرعون بخروج موسى غضب غضبًا

شديدًا، ونادى في قومه، وأخذ يجمع جنوده من كل المدائن بمصر: ﴿فَأَرْسَلَ فِرْعَوْنُ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ ۚ إِنَّ هَؤُلَاءِ لَشِرْذِمَةٌ قَلِيلُونَ ۚ وَإِنَّهُمْ لَنَا لَغَائِظُونَ ۝﴾ [الشعراء: ٥٥].

وسار فرعون بجيش بلغ تعداده ست مئة ألف، وخرج في مركبته ومعه ست مئة مركبة مختارة، ومركبات أخرى تحمل جيشه، وعند شروق الشمس كانوا على مقربة من البحر.

وعندما رأى بنو إسرائيل فرعون خلفهم، والبحر أمامهم، قال يوشع بن نون، لموسى: هذا فرعون وجنوده وراءنا ﴿قَالَ أَصْحَابُ مُوسَى إِنَّا لَمَذْكُونٌ﴾ [الشعراء: ٦١].

فالبحر أمامنا والعدو خلفنا، عندئذ قال موسى: ﴿كَلَّا إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ﴾ [الشعراء: ٦٢].

فأوحى الله تعالى لموسى أن اضرب بعصاك البحر، فضربه، فانفلق اثني عشر طريقًا، بعدد أسباط بني إسرائيل، حيث تجمد الماء كالجبل الأشم، والطرق الاثنا عشر أصبحت يابسة لا ماء فيها، ولا بلل، ولا طين، كما قال تعالى: ﴿فَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنْ اضْرِب بِعَصَاكَ الْبَحْرَ فَانْفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَالطَّوْدِ الْعَظِيمِ ۝﴾ [الشعراء: ٦٣].

فأمر الله موسى وبني إسرائيل أن يعبروا البحر فعبروه، وعند آخر فرّدهم منهم جاء فرعون بجنوده ليلحق بهم، وينزل البحر وراءهم، فالتفت موسى، وأراد أن يضرب البحر بعصاه؛ حتى لا يلحقوا بهم، فقال الله تعالى لموسى: ﴿وَأَتْرِكْ الْبَحْرَ رَهَوًّا﴾ أي: اتركه ساكنًا على حاله ﴿إِنَّهُمْ جُنْدٌ مُّغْرَقُونَ﴾ [الدخان: ٢٤].

وقد طمأن الله موسى بنجاته من الغرق، قبل أن يخرج ليلاً ببني إسرائيل من مصر، فأعلمه أنه سيعبر طريقًا جافًا يابسًا في وسط البحر، فلا يخشى الغرق، ولا يخاف من أن يلحق به فرعون وجنوده فيدركه، ويصيبه بمكره، فقال تعالى له: ﴿لَا تَخَفْ دَرَكًا﴾ أي: لا تخف أن يُدْرِكَكَ فرعون ﴿وَلَا تَخْشَى﴾ من الغرق في البحر.

٧٨، ٧٩- ﴿فَأَنبَعَثْهُمْ فِرْعَوْنُ يَحْيُوهُمْ فَعَشَاهُمْ مِّنَ الْيَمِّ مَا غَشَاهُمْ ۖ﴾ (٧٨) ﴿وَأَضَلَّ فِرْعَوْنُ قَوْمَهُ وَمَا هَدَىٰ﴾

خرج موسى ببني إسرائيل من مصر، وعبر بهم البحر في طريق ييس، كما وعده ربه، وتبعه فرعون وجنده، طمعا منه في أن يعبر البحر مثلهم، ولما نزل هو وجنوده البحر

(١) عدّ (ماغشيههم) آية، المصحف الكوفي، وتركها غيره.

غشيهم من اليمِّ ما غشيهم، فغمرهم من الماء ما لا يعلم كُنْهه إلا الله، وغرقوا جميعاً، ونجَّى الله موسى وقومه، وهم ينظرون إلى عدوهم وقد أقر الله أعينهم بهلاكهم.

وكان من حكمة الله تعالى أن أنجى فرعون ببدنه، ولما رأى مكانه من النار، وهو يعالج سكرات الموت في أمواج البحر الهائج ﴿قَالَ ءَامَنْتُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا الَّذِي ءَامَنْتُ بِهِ بَنُو إِسْرَءِيلَ وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ قال الله تعالى: ﴿الَّذِينَ تَوْمنَ﴾ ﴿وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلَ وَكُنْتَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ﴾ [يونس: ٩٠، ٩١]. وقد كان بعض الناس يظنون أن فرعون إله لا يموت، فأماته الله؛ ليكون عبرة وموعظة لكل جبار عنيد إلى يوم القيامة.

ومع ذلك فإن بني إسرائيل حين خرجوا من البحر بعد أن نجَّاهم الله من الغرق، ووجدوا قومًا يعبدون الأصنام، قالوا لموسى: اجعل لنا إلهاً نعبده مثل هؤلاء، فقال لهم: ﴿إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَبْهَلُونَ﴾ ﴿إِنَّ هَؤُلَاءِ مُتَّبِعُونَ مَا هُم بِدَاعِلُونَ﴾ ﴿وَلَا يَخَافُ الْعَذَابَ﴾ [الأعراف: ١٣٩].

وما جاء مجملًا هنا في آيتين فضله قوله تعالى: ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ أَنِ اسْرِ بِعِبَادِي بِأَنْفُسِكُمْ فَاصْطَبِرْ﴾ ﴿فَأَرْسَلَ فِرْعَوْنُ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ﴾ ﴿إِنَّ هَؤُلَاءِ لَشِرْذِمَةٌ قَلِيلُونَ﴾ ﴿وَأَنَّهُمْ لَنَا لَافِطُونَ﴾ ﴿وَأَنَا لَجَمِيعٌ حَاذِرُونَ﴾ ﴿فَأَخْرَجْنَاهُمْ مِنْ جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ﴾ ﴿وَكُنُوزٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ﴾ ﴿كَذَلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا بَنِي إِسْرَءِيلَ﴾ ﴿فَاتَّبَعُوهُمْ مُشْرِقِينَ﴾ ﴿فَلَمَّا تَرَأَىٰ الْجَمْعَانِ قَالَ أَصْحَابُ مُوسَىٰ إِنَّا لَمَذْكُورُونَ﴾ ﴿قَالَ كَلَّا إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ﴾ ﴿فَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ أَنِ اضْرِبْ بِعَصَاكَ الْبَحْرَ فَانْفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَالطَّوْدِ الْعَظِيمِ﴾ ﴿وَأَرْسَلْنَا نَحْمِلُ الْآخِرِينَ﴾ ﴿وَأَنفَيْنَا مُوسَىٰ وَمَنْ مَعَهُ أَجْمَعِينَ﴾ ﴿ثُمَّ أَغْرَقْنَا الْآخِرِينَ﴾ [الشعراء: ٦١].

وقوله تعالى: ﴿فَدَعَا رَبُّهُ أَنِ هَؤُلَاءِ قَوْمٌ تُجْرِمُونَ﴾ ﴿فَأَسْرِ بِعِبَادِي لَيْلًا إِنَّكُمْ مُتَّبَعُونَ﴾ ﴿وَاتْرِكِ الْبَـحْرَ رَهْوًا إِنَّهُمْ جُنْدٌ مُّغْرَقُونَ﴾ ﴿كَمْ تَرَكُوا مِنْ جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ﴾ ﴿وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ﴾ ﴿وَنَعَمَةٍ كَانُوا فِيهَا فَكَهِنَ﴾ ﴿كَذَلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا قَوْمًا ءَاخِرِينَ﴾ ﴿فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ وَمَا كَانُوا مُنْظَرِينَ﴾ ﴿وَلَقَدْ نَجَّيْنَا بَنِي إِسْرَءِيلَ مِنَ الْعَذَابِ ءَالْمُهِينِ﴾ ﴿مِنْ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ كَانَ عَلِيلًا مِّنَ الْمُسْرِفِينَ﴾ [الدخان: ٢١].

لقد كان السبب في هذا الغرق، أن فرعون قاد قومه إلى الضلال بما زينه لهم من الكفر والتكذيب والغواية، ولم يسلك بهم طريق الهداية والرشاد ﴿قَالَ فِرْعَوْنُ مَا أُرِيكُمْ إِلَّا مَا أَرَىٰ وَمَا أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ الرَّشَادِ﴾ [غافر: ٢٩].

فكان من نتيجة اتباعهم له أنه يتقدمهم في الدخول إلى النار يوم القيامة، ويؤمهم. والسبب أنهم اتبعوا أمر فرعون، قال تعالى: ﴿وَمَا أَمْرُ فِرْعَوْنَ بِرَشِيدٍ لَا يَقْدُمُ قَوْمَهُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ فَأَوْرَدَهُمُ النَّارَ وَيَتَسَّ الْأَوْرَدُ الْمَوْزُودُ﴾ [هود].

وقال تعالى عن مصير فرعون وجنده: ﴿فَأَخَذْنَاهُ وَجُنُودَهُ فَنَبَذْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ فَاُنْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الظَّالِمِينَ﴾ [٤٤] وَجَعَلْنَاهُمْ آيَةً يُدْعَوْنَ إِلَى التَّكْوَرِ وَيَوْمَ الْقِيَمَةِ لَا يُنْصَرُونَ ﴿٤٥﴾ وَأَتْبَعْنَاهُمْ فِي هَذِهِ الدُّنْيَا لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيَمَةِ هُمْ مِنَ الْمَقْبُوحِينَ﴾ [٤٦] [القصص].

وليس في هذه الآية اعتذار عن قوم فرعون، وإنما هي تبيين أن ما حدث لهم كان بسبب طاعتهم لفرعون ومُمالأتهم له، وماذا عليهم لو خرجوا عليه، ولم يبالوا بوعيده كما فعل السحرة؟ ولكنهم أعانوه على الضلال، ولو أنه رأى منهم صلابة في الحق، ونُفرة من الظلم، واستنكاراً للباطل، ما تمادى في طغيانه إلى هذا الحد، وحسبنا أن يقول الله تعالى فيه وفي قومه: ﴿فَاسْتَحَفَّ قَوْمَهُ فَأَطَاعُوهُ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ﴾ [الزخرف].

بَعْضُ نِعَمِ اللَّهِ تَعَالَى عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ

٨٠- ﴿يَبْنَى إِسْرَءِيلَ قَدْ أَجْنَيْتَكُمْ^(١) مِنْ عَدُوِّكُمْ وَوَعَدْنَاكُمْ^(٢) جَانِبَ الطُّورِ الْأَيْمَنِ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكُمُ الْمَنَّاءَ وَالسَّلْوَى﴾

يُذَكِّرُ الله اليهود المعاصرين بثلاث من أنعم الله تعالى على أسلافهم: هي نعمة الإنجاء، ونعمة نزول التوراة، وهي نعمة دينية، ونعمة المن والسلوى، وهي نعمة دنيوية، أنعم الله بهذه النعم عليهم وهم في التيه، وذلك أنهم نزلوا في صحراء سيناء وفيها حر الشمس شديد، فأظلمهم الله بالغمام.

ولما نفذ زادهم، ولم يبق معهم شيء من طعام، أرسل الله لهم المن كالعسل على أوراق الشجر، وأرسل لهم الطير السمانى.

(١) قرأ حمزة والكسائي وخلف بقاء المتكلم مضمومة، من غير ألف في (أنجيناكم) هكذا (أنجيتكم)؛ لمناسبة (فيحل عليكم غضبي)، وقرأ الباقر بنون العظمة وألف بعدها، ومثلها (وواعدناكم) في هذه الآية، فقرأ (وواعدتكم) وأيضاً: (كلوا من طيبات ما رزقناكم) [٨١].

(٢) قرأ أبو عمرو وأبو جعفر ويعقوب بحذف الألف الأولى من (وواعدناكم)، والباقر بنون بإثباتها.

ولما أرادوا أن يشربوا وقد بلغ بهم العطش مبلغه، وسألوا موسى السقيا، أمره الله أن يضرب الحجر بعصاه فانثقت منه اثنتا عشرة عينا بعدد الأسباط، وهذه العيون قرب مدينة السويس في مصر في مكان معروف، يقال له: (عيون موسى).

وهكذا من الله على بني إسرائيل، وحباهم بهذه النعم، ولم يكن حدوثها لهم عقب خروجهم من البحر، وقال لهم حين من عليهم بها بعد ذلك: اذكروا هذه النعم، ولا تمردوا على الله، ولا تكفروا بنعم الله عليكم، لقد أنجيناكم من عدوكم فرعون، وأغرقناه أمام أعينكم وكان يسومكم سوء العذاب.

وجعلنا موعدكم بجانب الطور الأيمن؛ لإنزال التوراة عليكم، وهذه المواعدة هي التي قال الله عنها: ﴿وَإِذْ وَعَدْنَا مُوسَىٰ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً ثُمَّ اتَّخَذْتُمُ الْعِجْلَ مِن بَعْدِهِ وَأَنتُمْ ظَالِمُونَ﴾ [البقرة: ٥١]. وقال عنها أيضا: ﴿وَوَعَدْنَا مُوسَىٰ ثَلَاثِينَ لَيْلَةً وَأَتَمَمْنَاهَا بِعَشْرِ فِتْنٍ مِّمَّا مِيقَاتُ رَبِّهِ أَزْبَعِينَ لَيْلَةً﴾ [الأعراف: ١٤٢].

قصة المواعدة جانب الطور:

إن الله تعالى لما أنجى بني إسرائيل من عدوهم، وعد موسى أن يأتيه عند جانب طور سيناء؛ ليكلّمه ويناجيه وينزل عليه التوراة، فيها أمرهم ونهيهم، وصلاحتهم وسعادتهم. فلما توجه موسى بقومه نحو الجبل، تعجل لقاء ربه وتقدم على قومه، فكان منهم أن عبدوا العجل الذي صنعه السامري في هذه المدة، وكان موسى قد سأل ربه الرؤية، ونزول التوراة؛ لتكون نبراسا لبني إسرائيل يهتدون بهديها. ونزلنا عليكم في التيه ما تأكلونه مما يشبه العسل، والطير الذي يشبه السماني، إلى جانب إخراج الماء لكم من الحجر، وتظليل الغمام عليكم.

وكانت نجاة موسى وقومه من فرعون يوم عاشوراء، كما صح في الحديث عن ابن عباس رضي الله عنه قال: لما قدم رسول الله ﷺ المدينة، واليهود تصوم يوم عاشوراء فسألهم فقالوا: هذا اليوم الذي ظهر فيه موسى على فرعون، فقال النبي ﷺ: «نحن أولى بموسى

منكم فصوموه»^(١). قال تعالى:

٨١- ﴿كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَلَا تَطْغَوْا فِيهِ فَيَحِلَّ^(٢) عَلَيْكُمْ غَضَبِي وَمَنْ يَحِلَّ^(٢) عَلَيْهِ غَضَبِي فَقَدْ هَوَىٰ ﴿٨١﴾﴾

أنعم الله على بني إسرائيل بهذه النعم وغيرها، وقال لهم: كلوا من رزقنا الطيب الذي أنعمنا عليكم به، ولا تعتدوا بأن يظلم بعضكم بعضاً، ولا تتجاوزوا ما أحله الله لكم، ولا تسرفوا، ولا تتعالموا على غيركم، وتتطاولوا عليهم؛ ولا تستعملون هذه النعمة في معاصي الله فينزل بكم غضب الله تعالى، وتحل عليكم لعنته، وتستوجبوا عقابه، ومن ينزل به غضب الله تعالى فقد خسر وهلك، وهو يشبه من سقط في ورطة بعد النجاة منها.

فَتْحُ بَابِ الرَّجَاءِ لِلتَّائِبِينَ

٨٢- ﴿وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِّمَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا ثُمَّ اهْتَدَىٰ ﴿٨٢﴾﴾

ولما حذر الله تعالى بني إسرائيل من غضبه، ومن الطغيان في نعمه، فتح باب الرجاء للتائبين، أي: ومع طغيانكم فإن الله تعالى يفتح باب التوبة للمشرك والكافر، وللخلق جميعاً، فيغفر لمن تاب من ذنبه وكفره، وآمن بالله، وتزود بالعمل الصالح، واستقام على إيمانه، فاجتنب المحرمات، وكان مستمسكاً بمنهج الله سبحانه، وقد أمر الله عباده جميعاً بالتوبة في قوله: ﴿وَتَوْبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهُ الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [النور: ٣١].

والناس بالنسبة للتوبة على أنواع:

١- فمنهم المستمر في فعل الذنب مع قدرته على إتيانه، وهذا يجب عليه الندم على ما مضى، والإقلاع عن الذنب في الحال، والعزم الأكيد على تركه في المستقبل، ورد المظالم إلى أهلها، وقضاء ما فاتته من العبادات في بعض الأحيان.

٢- ومنهم من اقترف الذنب في الماضي، وأصبح غير قادر على فعله في الوقت الحاضر؛ بسبب عجز، أو مرض، أو كبر، ونحو ذلك، وهذا يجب عليه الندم الشديد

(١) «صحيح البخاري» برقم (٣٩٣٤، ٤٦٨٠، ٤٧٣٧) و«صحيح مسلم» برقم (١١٣٠).

(٢) قرأ الكسائي بضم الحاء من (فيحل) واللام الأولى من (ومن يحلل)، والباقون بكسرها.

على ما سبق فعله، وعقد العزم على أنه لو كان قادرًا عليه لتركه من فوره.

٣- ومن الناس من لم يقع في الذنب أصلاً، والتوبة بالنسبة له هي: العزم على ترك الذنوب، وعدم الوقوع فيها.

ولو كان الإنسان مرتكبًا لأكثر من ذنب فإن توبته من أحدها تصح، وهي توبة مقيدة.

وإذا تاب المرء ثم عاد إلى الذنب بعد مدة، فعليه أن يجدد التوبة، ويحاول أن يتوب من قريب، وألاً يعاود الذنب.

ولا يطمع في مغفرة الله تعالى من كان مصرًا على المعصية، مغاضبًا لله تعالى، قال تعالى: ﴿إِنَّمَا التَّوْبَةُ عَلَى اللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السُّوءَ بِجَهْلَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِنْ قَرِيبٍ فَأُولَٰئِكَ يَتُوبُ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ۝٧﴾ وَلَيْسَتِ التَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ حَتَّىٰ إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ إِنِّي بُتْتُ الْأَنْفَ وَلَا الَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمْ كُفَّارٌ أُولَٰئِكَ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿٨﴾ [النساء].

والله تعالى يقبل توبة الذين إذا فعلوا فاحشة من كبائر الذنوب، أو ظلموا أنفسهم بارتكاب بعض المعاصي، ذكروا الله من فورهم فاستغفروا لذنوبهم.

وهذه الآية تشبه قول الله تعالى حكاية عن حملة العرش ومن حوله وهم يستغفرون للمؤمنين قائلين: ﴿فَاعْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا وَاتَّبَعُوا سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ﴾ [غافر: ٧].

وقد ذكرت الآية أربعة شروط لقبول التوبة، وهي:

١- التوبة من صغائر الذنوب وكبائرها، فإن التوبة تجب ما قبلها.

٢- الإيمان والإسلام، فإنه يهدم ما قبله.

٣- العمل الصالح، فإن الحسنات يذهبن السيئات.

٤- الاستمرار على الهداية والاستقامة، ورد البدع والضلال وأنواع الشرك.

مُوسَىٰ عَلَيْهِ السَّلَامُ يُسْرِعُ لِلِقَاءِ رَبِّهِ

٨٣- ﴿وَمَا أَعْجَلَكَ عَنْ قَوْمِكَ يَمُوسَىٰ﴾ ﴿٨٣﴾

كان موسى ﷺ قد وعد قومه أن الله تعالى سَيُنْزِلُ عليه الألواح فيها التوراة، بعدما سأل ربه ذلك، فأمره الله تعالى أن يصوم ويتطهر ثلاثين يوماً، ويذهب لنزول التوراة عليه في جانب الطور الأيمن، فاختار موسى سبعين رجلاً من قومه؛ ليذهبوا معه في الموعد تحت سفح الجبل، ثم تعجل موسى بالذهاب شوقاً للقاء ربه، وسبقهم قبل الموعد المحدد له، اجتهداً ورغبة منه في سرعة تلقي التوراة قبل وصول النقباء من بني إسرائيل إلى جبل الطور، بقصد سبق إلى ما فيه خيره وخير أمته، وكان قد استخلف هارون على بني إسرائيل، وطلب موسى من النقباء أن يلحقوا به إلى جبل الطور.

فلما وصل موسى قَبْلَهُمْ، وناجاه ربه، زاده في الأجل عشراً، ثم أعلمه أنه لَمَّا استعجل رضا ربه فُتِنَ بنو إسرائيل بالعجل الذي صنَّعه لهم السامري، واتخذوه إلهًا في غيابه، فعاتبه الله تعالى على خروجه من بين قومه، قبل أن يوصيهم بالمحافظة على العهد، ويحذِّرهم من مكر من يمكر بهم؛ حيث كان ذلك سبب افتتان قومه بصنَّع السامري صنماً لهم يعبدونه حين استبطؤوا رجوع موسى ﷺ.

وقد أجاب موسى ﷺ بأنه قد تسرَّع في المجيء إلى الموضع الذي حدده له ربه؛ ليزداد رضى عنه، وأنه لم يتقدم عليهم إلا بوقت يسير، ومسافة قريبة، لا يُعتدُّ بها في العادة.

وهذا يشبه حين دخل أبو بكر المسجد فوجد النبي ﷺ راكعاً فركع حيث هو، ثم تقدم إلى الصف، فقال له النبي ﷺ: «زادك الله حرصاً ولا تعد»^(١). أجاب موسى ربه:

٨٤- ﴿قَالَ هُمْ أَوْلَاءَ عَلَىٰ أَثَرِي^(٢) وَعَجِلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضَىٰ﴾

وقد اعتذر موسى عن ذلك بأنه قد عجل استجابة أمر الله تعالى مبالغة في إرضائه، وأن قومه سائرون خلفه على موضع قدمه، مُوَالُونَ له في الوصول، قال موسى: ﴿هُمْ أَوْلَاءَ عَلَىٰ أَثَرِي﴾ أي: قريبون مني، وسيلحقون بي، فأمره الله تعالى أن يصوم عشرة أيام ليتم ميقات ربه أربعين ليلة.

(١) من حديث أبي بكر في البخاري (٧٨٣) وأبي داود (٦٨٣) و«المسند» (٢٠٤٠٥) بإسناد صحيح، وابن حبان (٢١٩٤، ٢١٩٥) والبزار في مسنده (٣٦٥١) والنسائي في المجتبى (١١٨/٢) وفي الكبرى (٩٤٣).
(٢) قرأ رويس بكسر الهمزة وسكون الثاء من (إثري)، والباقون بفتحهما، وهما لغتان.

وقيل: في سبب زيادة هذه الأيام العشرة أن موسى وجد تغيرًا في رائحة فمه بسبب الصيام، فتناول شيئًا من نبات الأرض فمضغه، فقال له ربه: لِمَ أفطرت؟ قال: كرهتُ أن أكلمك إلا وفي طيب الريح، قال تعالى: أما علمت أن ريح فم الصائم أطيب عند الله من ريح المسك؟ ارجع فصم عشرًا.

فِتْنَةُ قَوْمِ مُوسَى بِعِبَادَتِهِمْ لِلْعِجْلِ

٨٥- ﴿قَالَ فَإِنَّا قَدْ فَتَنَّا قَوْمَكَ مِنْ بَعْدِكَ وَأَضَلَّهُمُ السَّامِرِيُّ﴾

قال الله تعالى لموسى: فإننا فتنا قومك، وابتليناهم بعد فراقك إياهم بعبادة العجل، وإن السامري قد أضلهم، فزين لهم عبادة العجل، وهي الفتنة الواردة في الآية، وهي تُشبه فتنة المسيح الدجال في خرق العادة له حين ادّعى الربوبية. وكان موسى قد تأخر أيامًا عن موعد عودته إلى قومه، ففتنوا في هذه المدة بعبادة العجل الذهبي؛ حيث كانت نساء بني إسرائيل قد استعرن من نساء مصر ذهبًا، وأخذنه معهن عندما خرجن مع موسى من مصر، وكان هنالك شخص منافق يقال له: موسى السامري، وكان من قوم يعبدون البقر، وهو يتسبب لطائفة من اليهود، ويقال لمكانهم: السامرة، ولهم مذهب خاص يخالف بقية اليهود، وهم لا يعظمون بيت المقدس، وينكرون نبوة معظم أنبياء بني إسرائيل، ولديهم بعض الشذوذ العقدي، والإلحاد.

وذكر بعضهم أن اسمه موسى بن ظفر بفتح الظاء والفاء.

وقيل: إنه كان من قبط مصر من مكان يسمى: (كرمان) وهو مروئي عن سعيد بن جبير، وكان مقدسًا في بني إسرائيل^(١).

وكان موسى السامري قد أخذ قبضة من تراب، من أثر حافر فرس جبريل، فألقى هذا التراب على الذهب، وأوقد فيه النار، وصنع منه عجلاً بشكل هندسي، يدخل فيه الريح من الخلف ويخرج من الجهة الأخرى، وكان له صوت كصوت خوار البقر، كما قال تعالى: ﴿وَاتَّخَذَ قَوْمُ مُوسَى مِنْ بَعْدِهِ مِنْ حُلِيِّهِمْ عِجْلًا جَسَدًا لَهُ خُورٌ﴾ [الأعراف: ١٤٨].

(١) يُنظر: تحقيق ذلك للشيخ ابن عاشور في تفسيره «التحرير والتنوير» (٢٧٩/١٦).

وقال لهم السامري: ﴿هَذَا إِلَهُكُمْ وَإِلَهُ مُوسَى﴾ ولكن موسى نسيه هنا، وذهب يطلبه جانب الطور، فافتتن به اليهود فعبدوه، ونهاهم هارون فلم ينتهوا.

وهكذا صنع لهم موسى السامري صنماً على هيئة العجل المجسّد، له أعضاء وقوائم؛ لأن الناس في مصر كانوا يعبدون عجلاً يقال له: (أبيس) فصورة هذا المعبود معروفة لديهم، ولما زاد العجل الذهبي، على العجل الذي عرفوه، بأن له خواراً، لوجود فتحة أمامية وفتحة خلفية رسخ في أذهانهم أنه إله حقيقي، وأنه أفضل من العجل (أبيس) لذا قالوا: ﴿هَذَا إِلَهُكُمْ وَإِلَهُ مُوسَى﴾^(١).

رجع موسى إلى قومه وهو ممتليء غيظاً وحنقاً وغضباً على قومه:

٨٦- ﴿فَرَجَعَ مُوسَى إِلَى قَوْمِهِ غَضْبَنَ أَسْفًا^(٢) قَالَ يَتَقَوَّمُ أَلَمْ يَعِدْكُمْ رَبُّكُمْ وَعَدًّا حَسَنًا^(٣) أَفَطَالَ عَلَيْكُمْ الْعَهْدُ أَمْ أَرَدْتُمْ أَنْ يَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبٌ مِّنْ رَبِّكُمْ فَأَخْلَفْتُمْ مَوْعِدِي^(٤)﴾
عاد موسى من موعد لقاء ربه بعدما استوفى الأربعين يوماً: ذا القعدة، وعشر ذي الحجة، رجع وهو حزين غاضب، لما فعله قومه من عبادة العجل بعد فراقه إياهم، فوبّخهم وأنّبهم على قبيح صنيعهم قائلاً لهم: هل طال عليكم عهدي فاستبظّأتم وعدي وهي مدة قصيرة، أم أردتم أن تفعلوا فعلاً يحل عليكم بسببه غضب من عند الله، فأخلفتم موعدي معكم، وعبدتم العجل من دون الله، وتركتم الالتزام بأوامري؟ ويحتمل أن يكون المعنى: أفضال عليكم عهد النبوة والرسالة، فاندثرت معالمها وانمحت آثارها، لبعد العهد بها، فعبدتم غير الله؟ والجواب: أن الأمر ليس كذلك، فالنبوة بين أظهركم، والعلم قائم بينكم، فالعذر غير مقبول.
لقد وعدكم ربكم وعداً حسناً بأنه سينزل عليكم التوراة؛ لهدايتكم وإصلاحكم، فلماذا أعرضتم عن عبادته إلى عبادة غيره، ولماذا أخلفتم ما عاهدتموني عليه من الثبات في إخلاص العبادة لله وحده؟

لقد كانت عبادتهم للعجل، وتركهم السير على منهج موسى إخلالاً لما وعدوه به من التمسك بدين الله تعالى، وبسنة موسى ﷺ، وألا يُخلفوا أمر الله أبداً.

(١) «تفسير التحرير والتنوير» (١٦/ ٢٨٧).

(٢) عدّ (أسفاً) آية، المدني الأول والمكي، وتركه غيرهما.

(٣) عدّ (حسناً) آية، المدني الأخير والشامي، وتركه غيرهما.

لقد اشتد غضب موسى ﷺ، حتى أنه ألقى ألواح التوراة من يده على الأرض، كما جاء في قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا رَجَعَ مُوسَى إِلَى قَوْمِهِ غَضَبَنَ أَسِفًا قَالَ يَلَسَمَا خَلَفْتُونِي مِنْ بَعْدِي أَعَجِلْتُمْ أَمْرَ رَبِّكُمْ وَأَلْقَى الْأَلْوَحَ وَأَخَذَ بِرَأْسِ أَخِيهِ يَجُرُّهُ إِلَيْهِ قَالَ ابْنَ أُمَّ إِنَّ الْقَوْمَ اسْتَضَعُّونِي وَكَادُوا يَقْتُلُونَنِي فَلَا تُشْمِتْ بِيَ الْأَعْدَاءَ وَلَا تَجْعَلْنِي مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿١٥٠﴾﴾ [الأعراف].

وأخرج الحاكم بسنده إلى سعيد بن جبير عن ابن عباس ؓ أن رسول الله ﷺ قال: «يرحم الله موسى، ليس المعادين كالمخبر، أخبره ربه أن قومه فُتِنوا بعده، فلم يُلْقِ الألواح، فلما رآهم وعابنهم ألقى الألواح»^(١).

أجاب بنو إسرائيل موسى ﷺ على خُلُفِهِمُ الوعد في اللحاق به، بما جاء في الآية التالية:

صِنَاعَةُ الْعِجْلِ الذَّهَبِيِّ

٨٧- ﴿قَالُوا مَا أَخْلَفْنَا مَوْعِدَكَ بِمَلِكِنَا^(٢) وَلَكِنَّا حُمَلْنَا^(٣) أَوْزَارًا مِنْ زِينَةِ الْقَوْمِ فَقَدَفْتَهَا فَكَذَلِكَ أَلْقَى السَّامِرِيُّ^(٤)﴾

قال بنو إسرائيل لموسى على سبيل الاعتذار: إننا لم نُخلف وعدك بإرادتنا واختيارنا، فنحن لم نتماد ذلك، ولكن السامري هو الذي أكرهنا وأجبرنا حين حُمَلْنَا أُنْقَالًا من حُلِي قوم فرعون، كنا قد استعزناهم، فخرجنا وهي معنا، وانتظرنا موسى لنراجعه فيها، فرآنا السامري فألقيناها في حفرة فيها نار بأمر السامري، ووضع السامري في الحفرة ما كان معه من تربة أخذها من تحت حافر فرس جبريل ؑ، وكان إذا ألقاها على شي بلا روح، صارت فيه حياة، فتنة وابتلاء، فألقاها على العجل الذي صاغه من الذهب فتحرك العجل وصار له صوت وحوار، فنحن ما أخلفنا موعدك باختيارنا وحریتنا، وهكذا اعتذروا عن أخذهم ذهب نساء المصريين، ووقعوا في عبادة البعل، فتورعوا عن الحقيق، وفعلوا الأمر الكبير،

(١) صححه الحاكم ووافقه الذهبي في «المستدرک» (٢/ ٣٨٠). وهو في صحيح ابن حبان (٩٧/ ١٤) برقم

(٦٢١٤) بدون لفظ (يرحم الله موسى) ورقم (١٨٢٧) عن أنس بن مالك، وقال: إسناده صحيح.

(٢) قرأ نافع وعاصم وأبو جعفر بفتح الميم من (بملكنا) وقرأ حمزة والكسائي وخلف بضمها، وقرأ الباقون بكسرهما.

(٣) قرأ نافع وابن كثير وابن عامر وحفص وأبو جعفر ورويس بضم الحاء وكسر الميم مشددة من (حملنا)

فعل ماضي مزيد بالتضعيف، وقرأ الباقون بفتح الحاء والميم مخففة، فعل ماضي ثلاثي مجرد.

(٤) عدّ لفظ (السامري) آية، المدني الأول والمكي والبصري والكوفي والشامي وتركه من العدد، المدني الأخير.

وظنوا أن العجل إله الأرض والسموات، وكانوا قد رأوه تمثالاً جمادًا، ثم رأوه يتحرك.

٨٨- ﴿فَأَخْرَجَ لَهُمْ عِجْلًا جَسَدًا لَهُ خُورٌ فَقَالُوا هَذَا إِلَهُكُمْ وَإِلَهُ مُوسَى^(١) فَنَسِيَ^(٢)﴾

في هذه الآية إخبار من الله تعالى عما فعله السامري، أي: وهكذا صنع السامري لبني إسرائيل من الذهب عجلًا جسدًا يَخُور خُور البقر وليس فيه روح.

والضمير في ﴿فَقَالُوا﴾ يرجع إلى المتكلمين مع موسى.

أي: قال المفتونون بعبادة العجل للآخرين: ﴿هَذَا إِلَهُكُمْ وَإِلَهُ مُوسَى﴾ فنسيه موسى هنا، وغفل عنه حين ذهب إلى الجبل يبحث عنه.

أخرج عبد بن حميد، وابن أبي حاتم عن ابن عباس رضي الله عنه قال: إن بني إسرائيل استعاروا حليًا من القبط، فخرجوا به معهم، فقال لهم هارون: قد ذهب موسى إلى السماء، اجتمعوا هذا الحلي حتى يجيء موسى فيقضي فيه ما قضى، فلما ألقى السامري القبضة، تحوّل عجلًا جسدًا له خوار، فقال: ﴿هَذَا إِلَهُكُمْ وَإِلَهُ مُوسَى﴾ قال: إن موسى ذهب يطلب ربه فضلًا، ولم يعلم مكانه، وهو هذا^(٣).

وكان السامري قد قال لبني إسرائيل لما أبطأ موسى في العودة إليهم: إنما احتبس عليكم لأجل ما عندكم من الحلي الذي أخذتموه من نساء المصريين قبل خروجكم من مصر، فجمعوه وأعطوه له، فرمى به في النار، وصاغ لهم منه عجلًا، وألقى عليه قبضة من أثر فرس جبريل عليه السلام فأخذ يخور، وكان السامري قد ألقى في رُوعه أن هذه القبضة لا تُلقَى على شيء ويقال: كن كذا، إلا كان، وكانت هذه القبضة في يده مُذ رأى جبريل على فرسه في البحر وعرفه^(٤).

وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن عباس رضي الله عنه قال: إن هارون مرّ بالسامري وهو ينحت العجل، فقال له: ما تصنع؟ قال: أصنع ما يضر ولا ينفع، فقال هارون: اللهم أعطه ما

(١) عد المدني الأول والمكي (والله موسى) آية، وتركه غيرهما.

(٢) أسقط المدني الأول والمكي (فنسى) من العدد وعدها غيرهما.

(٣) «الدر المنثور» (١٠/٢٣٠).

(٤) يُنظَر: ابن جرير (١/٦٦٩).

سأل، على ما في نفسه، ومضى هارون، فقال السامري: اللهم إني أسألك أن يخور؛ فَخَارَ، فكان إذا خار سجدوا له، وإذا خار رفعوا رؤوسهم^(١).

فخوار العجل فتنة، اختبر الله به بني إسرائيل؛ ليظهر من يبقى منهم على إيمانه ممن يكفر، وهو أمر خارق للعادة، يشبه فتنة إجراء بعض الخوارق على يد المسيح الدجال فتنة للناس؛ ليظهر مَنْ يبقى على إيمانه ممن يُفْتَن به.

فالحاصل أن الله تعالى لم يخلق في هذا العجل روح ولا حياة، وإن هذا الصوت كان من المنافذ التي جعلها السامري في صناعة العجل، وهناك آثار كثيرة تشهد للقول الأول. قال تعالى:

٨٩- ﴿أَفَلَا يَرَوْنَ أَلَّا يَرْجِعُ إِلَيْهِمْ^(٢) قَوْلًا^(٣) وَلَا يَمْلِكُ لَهُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا ﴿٨٩﴾

أفلا يرى الذين عبدوا العجل، وتبين لهم أن العجل الذي عبدوه لا يملك أن يكلمهم ابتداء، ولا يرد عليهم جوابًا، ولا يقدر على دفع ضرر عنهم، ولا جلب نفع لهم، كما قال الله تعالى: ﴿أَلَمْ يَرَوْا أَنَّهُ لَا يُكَلِّمُهُمْ وَلَا يَهْدِيهِمْ سَبِيلًا اتَّخَذُوهُ وَكَانُوا ظَالِمِينَ﴾ [الأعراف: ١٤٨].

وفي هذا توبيخ لهم على عبادتهم للعجل، وأنهم قد بلغوا من الغباوة حدًا كبيرًا.

هَارُونُ يَنْهَى قَوْمَهُ عَنْ عِبَادَةِ الْعِجْلِ وَهُمْ يُصِرُّونَ عَلَى عِبَادَتِهِ

٩٠- ﴿وَلَقَدْ قَالَ لَهُمْ هَارُونُ مِنْ قَبْلُ يَقَوْمُ إِنَّمَا فُتِنْتُمْ بِهِ وَإِنَّ رَبَّكُمُ الرَّحْمَنُ فَاتَّبِعُونِي وَأَطِيعُوا أَمْرِيَ﴾

كان موسى قد استخلف هارون على قومه عندما ذهب لمقابلة ربه، وقد منعهم هارون ﷺ من عبادة العجل، ونهاهم عنها، وأخبرهم أنه فتنة، وأمرهم بالمعروف، ونهاهم عن المنكر، ولكنه خاف أن يفرق بينهم إذا قسرهم على ذلك، وتحدث الفتنة بتمزيق وخذلتهم، فقد تبعه فريق منهم، وتبع الفريق الآخر، موسى السامري، فانتظر هارون حتى يأتي موسى ﷺ.

فلما جاء موسى غضبان، أخذ بلحية أخيه يجرّه إليه، فأخبره هارون أنه قد نصحهم

(١) ابن أبي حاتم برقم (٨٩٩١).

(٢) قرأ حمزة ويعقوب بضم الهاء من (إليهم)، والباقون بكسرها.

(٣) عد (قولا) آية، المدني الأخير وحده، وتركه غيره.

وذكرهم ونبههم إلى أن ما فعله السامري فتنة وابتلاء لهم، فقال لهم: يا قوم، إنما فُتنتم بهذا العمل، واختبرتم بهذا العجل؛ ليظهر المؤمن منكم والكافر، وإن ضلالكم وكُفركم بسبب عبادتكم له ﴿وَإِنَّ رَيْكُمُ الرَّحْمَنُ﴾ لا رب غيره، ولا معبود سواه، فهو خالقكم ورازقكم، وإنكم قد عصيتم الرحمن فاتبعوني فيما دعوتكم إليه، وأطيعوا أمري في اتباع شرع الله سبحانه.

وهكذا، فإن هارون عليه السلام بين لهم أن عبادة العجل فتنة، فزجرهم عن عبادته، ثم دعاهم إلى معرفة ربهم وخالقهم، وأتبع ذلك بدعوتهم إلى اتباع الرسول، وأخيرًا دعاهم إلى العمل بشريعته، فهذه أربع مراتب، فما كان منهم إلا الاستمرار والتصميم على عبادة العجل.

وقد سلك هارون في موعظته لئني إسرائيل مسلكًا حسنًا:

١- حيث زجرهم أولًا عن عبادة العجل في قوله: ﴿إِنَّمَا فُتِنْتُمْ بِهِ﴾.

٢- ثم دعاهم إلى معرفة الله في قوله: ﴿وَإِنَّ رَيْكُمُ الرَّحْمَنُ﴾.

٣- ثم دعاهم إلى معرفة النبوة في قوله: ﴿فَاتَّبِعُونِي﴾.

٤- ثم دعاهم إلى الأخذ بشريعته في قوله: ﴿وَأَطِيعُوا أَمْرِي﴾.

وهذا ترتيب جيد؛ لأنه لا بد أولًا من إمطة الأذى عن الطريق بإزالة الشبهات، ثم معرفة الله تعالى؛ فإنها الأصل، ثم معرفة النبوة، ثم الأخذ بالشريعة، والعمل بما فيها. وخصَّ ﴿الرَّحْمَنُ﴾ بالذكر؛ لينبههم أنهم إذا تابوا قَبِلَ الله توبتهم، ولكنهم قابلوا هذا كله بالإصرار والجحود، وقالوا: لن نقبل قولك، وسنظل ملازمين لعبادة العجل حتى يرجع إلينا موسى، فاعتزلهم هارون.

٩١- ﴿قَالُوا لَنْ نَبْرَحَ عَلَيْهِ عَاكِفِينَ حَتَّى يَرْجِعَ إِلَيْنَا مُوسَى﴾

قال عبَادُ العجل منهم: لن نزال مقيمين على عبادة العجل حتى يرجع إلينا موسى، فننظر في الأمر.

هذا وقد تفرق بنو إسرائيل بالنسبة لهذا العجل فرقًا أربعا:

١- منهم فرقة صدّقت قول السامري، فقالوا: هذا إلهكم وإله موسى، ولكن موسى ضل الطريق.

٢- وقالت فرقة: لا نصدّق أن هذا العجل هو ربنا، ولا نكذب، حتى يرجع موسى

ويقرر رأيه فيه.

٣- وقالت فرقة: هذا من عمل الشيطان لا نؤمن به ولا نصدّقه.

٤- وصدّق قوم السامري فيما قال، وقالوا: فما بال موسى وعدنا ثلاثين يومًا ثم أخلفنا، فخالقوا هارون، وحاربوه، وأصروا على شركهم.

حَوَارُ عَنِيفُ بَيْنَ مُوسَى وَهَارُونَ

٩٢، ٩٣- ﴿قَالَ يَهُدُونُ مَا مَنَعَكَ إِذْ رَأَيْتَهُمْ ضَلُّوا^(١) ﴿٩٢﴾ أَلَّا تَتَّبِعَنِ^(٢) أَفَعَصَيْتَ أَمْرِي ﴿٩٣﴾

انتقل موسى من حوار قومه إلى حوار أخيه، فتوجه إليه باللوم والعتاب على ما حدث، فقال: يا هارون، أي شيء منعك حين رأيتهم ضلوا عن دينهم بعبادتهم العجل أن تقاومهم، وتُتكر عليهم؟ وما الذي منعك ألا تتبعني، فتلحق بي وتركهم؟ ﴿أَفَعَصَيْتَ أَمْرِي﴾ فيما أمرتك به من خلافتي في غيبتني والإصلاح من بعدي في شأنهم حين قلت لك: ﴿اخْلُفْنِي فِي قَوْمِي وَأَصْلِحْ وَلَا تَتَّبِعْ سَبِيلَ الْمُفْسِدِينَ﴾ [الأعراف: ١٤٢]. فلم تركت قتالهم وتأديبهم؟

وكان موسى عليه السلام يريد من هارون عليه السلام موقفًا يتّسم بالحزم والشدة حتى ولو أدى الأمر لقتالهم، فأقبل موسى على أخيه يلومه ويعنفه ويهزه هزًا عنيفًا.

٩٤- ﴿قَالَ يَبْنَومُ^(٣) لَا تَأْخُذْ بِلِحْيَتِي وَلَا بِرَأْسِي^(٤) إِنِّي خَشِيتُ أَنْ تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِي إِسْرَءِيلَ وَلَمْ تَرْقُبْ قَوْلِي ﴿٩٤﴾

أخذ موسى بلحية هارون ورأسه معًا، وأخذ يجرّه إليه وهو يعنّفه ويؤنّبّه على عبادة قومه للعجل، فردّ هارون على موسى بردّ فيه رفق واستعطاف، حيث دعاه بأمه؛ لأنه أشفق، وأشدّ استرحامًا، فأراد أن يحرك عاطفة الرحم في قلبه، فقال: يا بن أمي لا تُمسِكْ بلحيتي، ولا تُمسِكْ بشعر رأسي، إني خفت -إن تركتُهم ولحقْتُ بك- أن تظنّ أنني فرقتُ

(١) عدّ الكوفي (ضلوا) آية، ولم يعدّها غيره.

(٢) قرأ نافع وأبو عمرو بإثبات الياء وصلّا وحذفها وقفاً من (ألا تتبعني)، وقرأ يعقوب بإثباتها وصلّا ووقفًا، وقرأ أبو جعفر بفتح الياء حال وصلها بما بعدها وحذفها وقفاً، والباقون بالحذف في الحالين.

(٣) قرأ ابن عامر وشعبة وحزمة والكسائي وخلف بكسر الميم من (يا بن أمي)، والباقون بفتحها، وهما لغتان.

(٤) قرأ نافع وأبو عمرو وأبو جعفر بفتح ياء الإضافة وصلّا من (ولا برأسي إني)، والباقون بإسكانها.

بين بني إسرائيل، وتقول: إنك لم تحفظ وصيتي بحسن رعايتك لهم، والمحافظة على وحدتهم، فحرصت على حفظ الدماء وألا يقاتل بعضهم بعضاً، وفي قوله تعالى: ﴿إِنَّ الْقَوْمَ اسْتَضَعُّوْنِي وَكَادُوا يَقْتُلُونِي﴾ [الأعراف: ١٥٠].

ولذا أبقىْتُ على وحدتهم حتى ترجع إليهم فتعالج الأمر بنفسك.

واعتذار هارون، بالمحافظة على وحدة الأمة وعدم تفرقها، كان اجتهداً منه في سياسة الأمة، إذا تعارضت المحافظة على الوحدة الوطنية بالمحافظة على العقيدة، وقد رجَّح هارون المحافظة على وحدة القوم؛ لأن فيها حفظ الأنفس والأموال والأخوة، ورأى أن حفظ العقيدة سيُستدرك برجوع موسى، وإبطال عبادة العجل سيتحقق كذلك برجوع موسى، وحفظ العقيدة رأس الإصلاح الاجتماعي، وحرمة الشريعة بحفظ أصولها وعدم التساهل فيها، وبقاء نفوذها في الأمة والعمل بها.

وقد ندم موسى على ما صنع بأخيه وهو غير مستحق لذلك ﴿قَالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلِأَخِي وَأَدْخِلْنَا فِي رَحْمَتِكَ وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾ [الأعراف: ١٥١].

الْحَوَارُ بَيْنَ مُوسَى وَالسَّامِرِيِّ

أقبل موسى ﷺ على موسى السامري يحاوره:

٩٥- ﴿قَالَ فَمَا خَطْبُكَ يَسْمِرِيُّ﴾

أي توجه موسى ﷺ للسامري بالحوار، قائلاً له: فما شأنك يا سامري حيث فعلت ما فعلت؟ وما الذي دفعك إلى ما فعلت؟ ولم يُغلظ موسى في القول للسامري، كما فعل مع هارون؛ لأنه كان جاهلاً، فلم يكن لضلالة عجب، فرد عليه السامري:

٩٦- ﴿قَالَ بَصُرْتُ بِمَا لَمْ يَبْصُرُوا^(١) بِهِ فَقَبَضْتُ قَبْضَةً مِّنْ أَثَرِ الرَّسُولِ فَنَبَذْتُهَا وَكَذَلِكَ سَوَّلَتْ لِي نَفْسِي﴾

قال السامري لموسى: تفتننتُ إلى ما لم يتفطن إليه القوم، ورأيت ما لم يروه، فقد

(١) قرأ حمزة والكسائي وخلف بقاء الخطاب في (تبصروا) والمخاطب موسى، والباقون بقاء الغيب، على إسناد الفعل إلى بني إسرائيل.

رأيت جبريل عليه السلام حين كان على فرسه وقت خروج بني إسرائيل من البحر، وإغراق فرعون وجنوده، فرأيت حافر الفرس حين وطئ الأرض، فإذا هو مُخَضَّرٌ بالنبات، فعلمتُ أن أثر جبريل إذا أُلقي في جماد صار حيًّا، فأخذتُ بكفِّي ترابًا من أثر حافر فرس جبريل، فألقيته على الذهب الذي صنعتُ منه العجل، فكان عجلًا حيًّا، له جسد وله صوت، كصوت البقر^(١) ابتلاءً وفتنة للناس، وهكذا حسنتُ لي نفسي الأمارة بالسوء هذا الصنيع؛ لما عندي من عِلْمٍ بصناعة التماثيل والصور ومختلف الحيل.

أخرج الطبري بسند صحيح عن مجاهد في قول الله تعالى: ﴿فَقَبَضْتُ قَبْضَةً مِنْ أَثَرِ الرَّسُولِ﴾ قال: من تحت حافر فرس جبرائيل، نبذه السامري على حلية بني إسرائيل المستعار من نسوة مصر، فانسبك عجلًا جسدًا له خوار، خفيف الريح فيه خوار. والعجل: ولد البقرة.

وذهب أبو مسلم الأصفهاني إلى معنى آخر للآية، وهو: أن السامري قال لموسى: كنت قد أخذتُ جانبًا من دينك وعلمك، ثم تبين لي أنك على ضلال، فنبذتُ ما أخذته عنك، وحسنتُ لي نفسي أن أصنع للناس عجلًا لكي يعبدوه؛ لأنني أرى أن عبادة العجل حق، فهو يقول: ﴿بَصُرْتُ بِمَا لَمْ يَبْصُرُوا بِهِ﴾ أي: عرفت أن الذي أنتم عليه ليس بحق، وأن المراد بالرسول في الآية: هو موسى، وليس جبريل، والقبضة: هي العلم والدين. وهو قول خالف به المفسرين^(٢).

عُقُوبَةُ السَّامِرِيِّ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَنَهَايَةُ الْعِجْلِ الذَّهَبِيِّ

٩٧- ﴿قَالَ فَاذْهَبْ فَإِنَّ لَكَ فِي الْحَيَاةِ أَنْ تَقُولَ لَا مِسَاسَ وَإِنَّ لَكَ مَوْعِدًا لَنْ تُخْلَفَهُ^(٣) وَانْظُرْ إِلَى إِلَهِكَ الَّذِي ظَلْتَ عَلَيْهِ عَاكِفًا لَنُحَرِّقَنَّهُ^(٤) ثُمَّ لَنَنْسِفَنَّهُ فِي الْيَمِّ نَسْفًا^(٥)﴾

(١) وبهذا قال ابن عباس وقتادة ومجاهد وبعض السلف، ومعنى الآية يتضمنها ولم يرد هذا في شئ صحيحه.

(٢) يُنْظَرُ: «تفسير الفخر الرازي» (٧٠/٦).

(٣) قرأ ابن كثير وأبو عمرو ويعقوب، بكسر اللام من (تخلفه) مضارع مبني للمعلوم، متعدٍ لمفعولين، وقرأ الباقر بفتح اللام، مبني للمجهول، والمعنى: لن يخلفك الله موعداً.

(٤) قرأ ابن وردان بفتح النون وإسكان الحاء وضم الراء مخففة هكذا (لَنُحَرِّقَنَّهُ) مضارع حرق، وقرأ ابن جمار مثله إلا أنه كسر الراء (لَنُحَرِّقَنَّهُ). مضارع أحرق، والباقر (لَنُحَرِّقَنَّهُ) بضم النون وفتح الحاء وكسر الراء مشددة.

اكتفى موسى ﷺ بإخراج السامري من بين بني إسرائيل، وإخراجه طريداً ونفيه من البلاد، بحيث لا يجد سبيلاً إلى أن يخبر أحداً عن أحواله، ولا يجد من يخبره عن حاله، كمن هو في سجن انفرادي في معزل عن الناس، وهذه عقوبته في الدنيا، فضلاً عن العقوبة الكبرى في الآخرة.

قال موسى للسامري: اذهب فإنك ستعيش وحيداً منبوذاً في الحياة، تقول لكل أحد: لا تقترب مني ولا أقرب منك، لا أمس ولا أُلَمَس، وسوف تلقى عقاب الله لك في الآخرة، فلن يخلفك وعده.

فمعنى ﴿لَا مَسَاسَ﴾ أي: لا يمَسُّك أحد، ولا تمس أحداً، وتكون في عزلة عن الناس، هذا في الدنيا، عقوبة لك فيها، ولك موعد صادق في الآخرة تُعَذَّب فيه أبد الآباد ﴿وَإِنَّ لَكَ مَوْعِدًا لَّنْ تَخْلَفَهُ﴾.

وبهذا يكون السامري قد انخلع من الأمة؛ إما لأنه لم يكن منهم، وإما لأن الله تعالى عَلِمَ أنه لا يُرجى صلاحه، وقد سلبه الله الأنس الذي يكون بين الناس، فأصبح في عزلة تامة، كصاحب المرض الوبائي المُعدي، لا يقترب من أحد ولا يقترب منه أحد.

أمَّا العجل الذي عبدته من دون الله فَلَنَحْرَقَنَّهُ بالنار، ثم نُذَرِيهِ في الهواء، فحرقه موسى وذراه في اليم ونسفه نسفاً، ولم يدفع الضر عن نفسه، وما أشبه هذا بما فعله إبراهيم ﷺ حين كسر الأصنام؛ ففي هذا قطع لجذور الشرك والوثنية.

قيل: إن موسى بَرَدَ العجل حتى صار غباراً، ثم ذراه في البحر، وأمر بني إسرائيل أن يشربوا من الماء، فكل من شرب منه أُشرب قلبه حب العجل، وخرج على شاربته من الذهب فضيحة له^(١)، ولو كان العجل إلهاً لمنع نفسه من الأذى والإحراق، وقد أحرقه موسى وسحقه وذراه في اليم ونسفه، ليزول ما في قلوب بني إسرائيل من حبهم له، وقد أهلكه موسى ﷺ وهم ينظرون، حتى يقطعوا الطمع في إعادته، ويتبين لهم بطلان ما قاله موسى السامري.

(١) يُنْظَرُ: «تفسير ابن عطية» (٤/٦٢).

التَّغْيِيبُ عَلَى قِصَّةِ مُوسَى وَفِرْعَوْنَ

٩٨- ﴿إِنَّمَا إِلَهُكُمُ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَسِعَ كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا﴾ (٩٨)

إنما معبودكم -أيها الناس- هو الله وحده، خالقكم ورازقكم ومدبر أمركم، فلا معبود بحق إلا هو، وقد أحاط علمه بكل شيء، لا تخفى عليه خافية في الأرض ولا في السماء، وفي الآية انتقال من خطاب السامري إلى خطاب الأمة؛ لتصحيح العقيدة، وبيان الخطأ في الشرك بالله تعالى، وعبادة غيره. قال تعالى:

٩٩- ﴿كَذَلِكَ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ مَا قَدْ سَبَقَ وَقَدْ آتَيْنَاكَ مِنْ لَدُنَّا ذِكْرًا﴾ (٩٩)

وفي نهاية قصة موسى عليه السلام من سورة (طه) يُعَقَّبُ ربنا سبحانه بأنه: كما قصصنا عليك -يا محمد- من أنباء موسى وفرعون وقومهما، نقصُّ عليك من أنباء الأمم السابقة عن طريق الوحي، كما قال تعالى: ﴿ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ﴾ [يوسف: ١٠٢]. وقال: ﴿تِلْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهَا إِلَيْكَ﴾ [هود: ٤٩].

وقد أنزلنا عليك -يا محمد- هذا القرآن المشتمل على هذه الأخبار؛ ليكون ذكراً لمن يتذكر، وعبرة لمن يعتبر، قال تعالى: ﴿وَهَذَا ذِكْرٌ مُبَارَكٌ أَنْزَلْنَاهُ أَفَأَنْتُمْ لَهُ مُنْكَرُونَ﴾ [الأنبياء: ٥٠]. وفي هذا القرآن ذكر لك ولقومك.

وإذا كان القرآن ذِكْرًا للرسول ولأُمته، فيجب قبوله بالتسليم والقبول والانقياد له، والاهتداء بهديه، والإقبال عليه بالتعلم والتعليم، أما مقابله بالإنكار أو الإعراض فإنه كفر مستحق للعقوبة؛ كما قال تعالى:

١٠٠، ١٠١- ﴿مَنْ أَعْرَضَ عَنْهُ فَإِنَّهُ يَحْمِلُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ وِزْرًا﴾ (١٠١) ﴿خَلِيلَيْنِ فِيهِ وَسَاءَ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ حِمْلًا﴾ (١٠٠)

في هذا إخبار من الله تعالى عن سوء عاقبة من يُعرض عن القرآن، ويكذب ما جاء فيه، ولم يؤمن به، ولم يعمل بما فيه ﴿فَإِنَّهُ يَحْمِلُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ﴾ إثماً كبيراً، ووزراً من الأوزار العظيمة، والذنوب الكبيرة يخلد به يوم القيامة في نار جهنم، وبش هذا الحمل الثقيل الذي يحمله الإنسان يوم القيامة من الآثام والخطايا؛ حيث أوردتهم النار.

ومن ذلك قوله تعالى: ﴿لِيَحْمِلُوا أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ الْقِيَمَةِ وَمِنْ أَوْزَارِ الَّذِينَ يُضِلُّونَهُمْ

بَعِيرٌ عَلَيْهِ إِلَّا سَاءَ مَا يَزُرُونَ ﴿٢٥﴾ [النحل].

وقوله: ﴿وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالًا مَعَ أَثْقَالِهِمْ وَلَيَسَ لَنَّ يَوْمَ الْقِيَمَةِ عَمَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾ ﴿١٣﴾ [العنكبوت: ١٣]. ويُشَبَّه الوزر بالحمل لثقله.

مِنْ أَهْوَالِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ

١٠٢، ١٠٣ - ﴿يَوْمَ يُنْفَخُ^(١) فِي الصُّورِ وَتَحْشُرُ الْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ زُرْقًا ﴿١٧﴾ يَخَفَتُونَ يَتَنَبَّهُونَ إِنْ لَيْسَ إِلَّا عَشْرًا﴾

وما دام الحديث عن يوم القيامة، فإن من المناسب أن يذكر الله سبحانه بعض مشاهد القيامة في نهاية هذه السورة؛ لبيان جل شأنه مصير المؤمنين، ومصير الظالمين المكذبين، ويبدأ ذلك بالنفخ في الصور.

والصور: هو القرن، أو البوق، والنافخ هو إسرافيل، ينفخ في الصور مرتين: مرة يُصْعَقُ فيها الخلائق جميعًا فيموتون، كما قال تعالى: ﴿وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَعِقَ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَنْ شَاءَ اللَّهُ﴾. والنفخة الثانية حين يقوم الخلائق من قبورهم للبعث والنشور، والحساب والجزاء، وبين النفختين أربعون عامًا، قال تعالى: ﴿ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنْظُرُونَ﴾ [الزمر: ٦٨].

وفي الحديث: عن أبي هريرة ؓ أن النبي ﷺ قال: «كيف أنعم وصاحب القرن قد التقم القرن، وحنى جبهته، وأصغى سمعه، وانتظر أن يؤذن له؟» فقالوا: يا رسول الله، كيف نقول؟ قال: «قولوا حسبنا الله ونعم الوكيل، على الله توكلنا»^(٢).

أي: كيف ألتذذ وأتمتع بما في الدنيا من النعيم، وكيف أنعم وصاحب القرن وهو

(١) قرأ أبو عمرو (تُفْخ) بنونين: الأولى مفتوحة وضم الفاء، مبني للمعلوم، مسند إلى ضمير العظمة، وهو عائد على الله تعالى في قوله: (إنما إلهكم الله)، وقرأ الباقون بياء مضمومة وفاء مفتوحة (تُفْخ) مبني للمجهول، نائب فاعله الجار والمجرور بعده.

(٢) «سنن النسائي الكبرى» (١١٠١٦) وأبو الشيخ في «العظمة» (٣٩٦) والطحاوي في «مشكل الآثار» (٥٣٤٤) و«تفسير الطبري» (٤٦٣/١١) والحديث عن ابن عباس في المسند (٣٠٠٨) قال محققوه: وفيه عطية العوفي، فهو حسن لغیره، وأخرجه ابن أبي شيبه (٣٥٢/١٠) والطبراني (١٢٦٧٠) والحاكم (٤/٥٥٩) وابن حبان بإسناد صحيح (٨٢٣).

إسرافيل، قد وضع فمه في الصور، واستعد للنفخة، وحتى جبهته، وانتظر أن يؤذن له؟! أي: أن النفخ في الصور أمر حاصل وشيك، والمجرمون يُحشرون ويُجمعون في هذا اليوم سود الوجوه، زُرُق العيون، قد تغيرت ألوانهم وعيونهم من شدة الأهوال والأحداث، فيكونون في بعض الحالات عُميًا، وفي بعضها زُرُقًا، وهم الذين ماتوا على الكفر والشرك.

أي: أن المجرمين يُحشرون يوم القيامة سود الوجوه حين يخرجون من القبور، فيتحدثون ويتهايمسون سرًا، ويتحاورون فيما بينهم، يقول بعضهم لبعض وهم يتحدثون عن المدة التي قضوها في الدنيا، أو في القبور، فيقولون: ما لبثتم في الحياة الدنيا إلا عشرة أيام، أي: أننا عشنا في الدنيا مدة قصيرة جدًا، فالموت أنساهم مدة الحياة ومدة البرزخ، كأنهم ما لبثوا في الدنيا ولا في القبور شيئًا يذكر، وهم يندمون على ما قَصَّروا في حق الله تعالى حين يرون عِظَم الموقف فيلوم بعضهم بعضًا، وهذا كقوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُقْسِمُ الْمُجْرِمُونَ مَا لَبِثُوا غَيْرَ سَاعَةٍ﴾ [الروم: ٥٥].

وقوله: ﴿كَأَنَّهُمْ يَوْمَ رَوْنَهَا لَمْ يَلْبُثُوا إِلَّا عَشِيَّةً أَوْ ضُحًى﴾ [النازعات].

وقوله تعالى: ﴿قُلْ كَمْ لَبِثْتُمْ فِي الْأَرْضِ عَدَدَ سِنِينَ ﴿١٧٢﴾ قَالُوا لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ فَسْكَرَ الْعَادِينَ ﴿١٧٣﴾﴾ [المؤمنون].

وعن أهل الكهف يقول تعالى: ﴿قَالَ قَائِلٌ مِّنْهُمْ كَمْ لَبِثْتُمْ قَالُوا لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ﴾ [الكهف: ١٩].

وهكذا: فإن المتقين يحشرون إلى الرحمن وفداً، والمجرمون يحشرون زُرُق الألوان، من الخوف والقلق، وهم يتناجون فيما بينهم عن قصر عمر الدنيا فبعضهم يقول: مدتها عشرة أيام، وبعضهم يقول: يوماً، وبعضهم يقول: ساعة من نهار، وبعضهم يقول: عشيّة أو ضحاها وهكذا. قال تعالى:

١٠٤ - ﴿نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ إِذْ يَقُولُ أَمْثَلُهُمْ طَرِيقَةً إِن لَبِثْتُمْ إِلَّا يَوْمًا ﴿١٧٤﴾﴾

يقول سبحانه: نحن أعلم بما يتخافتون به فيما بينهم، فرب العالمين يسمعهم، ويعرف أحوالهم، ولا يخفى عليه شيء من سرهم ونجواهم، إذ يقول أعقل القوم، وأصوبهم

رأيًا، وأعدّ لهم طريقة: ما لبثتم في الدنيا، أو في قبوركم إلا يومًا واحدًا؛ وذلك لِقَصْرِ مدة الدنيا في أعينهم يوم القيامة.

وسواء استقلّوا هذه المدة التي مكثوها في الدنيا، أو في قبورهم، أو لم يستقلّوها، فلو أن مدة الدنيا كانت عشرة أيام، أو يومًا واحدًا، أو كانت ألف عام، أو أكثر أو أقل، وكانت كلها مليئة بالسعادة، فإنها لا تُساوي شيئًا يذكر في مقابل نفحة واحدة من عذاب الله يوم القيامة، كما قال تعالى: ﴿وَلَكِنْ مَسَّتْهُمْ نَفْحَةٌ مِّنْ عَذَابِ رَبِّكَ لَيَقُولُنَّ إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ﴾ [الأنبياء].

حيث يذهب مع هذه النفحة من العذاب، نعيم الدنيا ومتاعها كله، كأنه لم يذق نعيمًا قط، وكذلك الفقير الصالح حين يتذوق شيئًا من نعيم الجنة، فكأنه يومئذ لم ير بؤسًا قط في دنياه.

مِنْ مَّشَاهِدِ الْقِيَامَةِ: نَسْفُ الْجِبَالِ

١٠٥-١٠٧- ﴿وَسْتَأْتُونَكَ عَنِ الْجِبَالِ فَقُلْ يَنْسِفُهَا رَبِّي نَسْفًا ﴿١٠٥﴾ فَيَذَرُهَا قَاعًا صَفْصَفًا ﴿١٠٦﴾ لَا تَرَى فِيهَا عِوَجًا وَلَا أَمْتًا ﴿١٠٧﴾﴾

في يوم القيامة أهوال وزلازل جسام، ومن ذلك أن الجبال الرواسي تُقْلَع وتُزال عن أماكنها، فتكون كالعهن المنفوش، وتكون كالرمل كثيبًا مهيلًا، ثم تدك فتصير هباء منبثًا، ثم تتلاشى وتضمحل فتسوي بالأرض، وتُجعل الأرض قاعًا صفصفًا مستويًا، لا ترى منها ارتفاعًا ولا انخفاضًا ولا أودية ولا بروزًا، ويمدها الله مد الأديم فتتسع للخلائق كلهم، ويكونون في موقف واحد، يُسمعهم الداعي وينفذهم البصر^(٢).

سأل رجلٌ من قريش رسولَ الله ﷺ عن الجبال: أين تكون هذه الجبال يوم القيامة وما مصيرها؟ وسأل رجل آخر من ثقيف عن: حال الجبال التي يسكنون بينها في الطائف، أين تذهب يوم القيامة^(٣)؟ وكلاهما سؤال تعنت واستهزاء، وليس سؤال استرشاد واستهداء، فنزلت هذه الآية تبين أن الله تعالى يُزيلها ويقتلعها من أماكنها، ويرسل عليها الريح،

(١) عدّ (قاعًا صفصفًا) آية، المصحف البصري والشامي والكوفي، وتركها غيرهم من العدد، وهم الحجازيون.

(٢) ينظر: تفسير ابن سعدي للآية.

(٣) «تفسير الطبري» (١١/٤٦٣).

فتذروها في الهواء، وتصير كالعهن المنفوش، أو هباء منثورًا، كما قال تعالى: ﴿وَسُيِّرَتِ الْجِبَالُ فَكَانَتْ سَرَابًا﴾ [النبا: ٢٢]. وقال سبحانه: ﴿وَإِذَا الْجِبَالُ سُيِّرَتْ﴾ [التكوير: ٢٢].

وقال جل شأنه: ﴿وَسُيِّرَتِ الْجِبَالُ بَسًا﴾ [٥] فَكَانَتْ هَبَاءً مُنْبَثًا ﴿٦﴾ [الواقعة].

وعندما تُزال الجبال عن أماكنها، تبقى الأرض مستوية بلا ارتفاع ولا انخفاض؛ أي: أن الله تعالى يترك أماكن الجبال خاوية، أرضًا مستوية ملساء، لا نبات فيها ولا شجر، وهذه الجبال لا يرى الناظر إليها يوم القيامة ميلًا ولا انحرافًا، فهي أرض مستوية وغير معوجة؛ إذ ليس فيها مرتفع ولا منخفض، وليس فيها نبات، ولا عقارات، ولا مبانٍ، ولا غيرها.

فالقاع: هو الأرض السهلة المكشوفة ليس فيها نبات ولا ماء.

والصفصف: هو الأرض المستوية الملساء.

والعوج بكسر العين يكون في المعاني، وليس في الأعيان، أي: أن العوج المنفي عن الأرض ليس بالقياس الهندسي، وإنما هو في عين الرائي.

أما الأمت: فهي الأرض التي ليس فيها ثروة بعد اقتلاع الجبال منها.

اتِّبَاعُ الدَّاعِي إِلَى سَاحَةِ الْعَرْضِ

١٠٨- ﴿يَوْمَئِذٍ يَتَّبِعُونَ الدَّاعِيَ لَا عِوَجَ لَهُمْ وَخَشَعَتِ الْأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَنِ فَلَا سَمْعَ إِلَّا هَمْسًا﴾

ويوم تُنسف الجبال، يتبع الخلق صوت الداعي إلى ساحة العرض يوم الحشر، يوم يقوم الناس من القبور، ويسمعون صوت إسرافيل، وهو يناديهم من فوق صخرة بيت المقدس: أيتها العظام البالية، والجلود المتمزقة، واللحوم المتفرقة، هلموا إلى عرش الرحمن؛ فيقومون من قبورهم، لا يخطئون الطريق، ولا يتركون إجابة الداعي، ولا يزيغون عنه، ولا ينحرفون، قال تعالى: ﴿يَوْمَ يَخْرُجُونَ مِنَ الْأَجْدَاثِ سِرَاعًا كَانَتْهُمْ إِلَى نُصْبٍ يُؤْفَضُونَ﴾ [٤٣] خَشَعَةً أَصْوَرَهُمْ تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ ﴿٤٤﴾ [المعارج: ٤٣، ٤٤].

وقال سبحانه: ﴿يَوْمَ تَشَقُّقُ الْأَرْضُ عَنْهُمْ سِرَاعًا ذَلِكَ حَشْرٌ عَلَيْنَا يَسِيرُ﴾ [٤٤] [ق].

وقال جل شأنه: ﴿إِنَّمَا يُخْرِجُهُم لِيَوْمٍ تُنْشَخَصُ فِيهِ الْأَبْصَارُ﴾ [٤٦] مُهْطِعِينَ مُقْنِي رُؤُسِهِمْ لَا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ وَأَفْئِدَتُهُمْ هَوَاءٌ ﴿٤٧﴾ [إبراهيم: ٤٧]. وقال ﷻ: ﴿مُهْطِعِينَ إِلَى الدَّاعِ﴾ [القمر: ٨].

وقال أيضًا: ﴿يَوْمَ يَدْعُ الدَّاعِ إِلَى شَيْءٍ نَّكِرٍ﴾ ﴿٦﴾ خُشْعًا أَبْصَرُهُمْ يَخْرُجُونَ مِنَ الْأَجْدَاثِ كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُنْتَشِرٌ ﴿٧﴾ [القمر].

أي: أنه في ذلك اليوم، يثبع الناس صوت الداعي إلى موقف القيامة، لا محيد عن دعوة الداعي؛ لأنها دعوة حق وصدق لجميع الخلق، وعندئذ تسكن الأصوات خضوعًا وهيبة للرحمن، فلا تسمع إلا صوتًا خفيًا كوطء الأقدام، وهمس الشفاه، يملكهم الخشوع والسكون والإنصات، انتظارًا لحكم الرحمن فيهم، فترى الوجوه منكسرة ذليلة، الكل سواء: الثري والفقير، الحاكم والمحكوم، الرجل والمرأة، الملوك والسوقة، الكل ساكت منصت، أبصارهم خاشعة، ورقابهم خاضعة، جاثمين على ركبهم، خاضعة وجوههم لا يدرون ماذا يفعل بهم.

﴿الْمَلِكُ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ لِلرَّحْمَنِ وَكَانَ يَوْمًا عَلَى الْكَافِرِينَ عَسِيرًا﴾ [الفرقان: ٢٦].

قال تعالى: ﴿يَوْمَ يَأْتِ لَا نَكَلِّمُ نَفْسٌ إِلَّا بِإِذْنِهِ فَمِنْهُمْ شَقِيٌّ وَسَعِيدٌ﴾ ﴿١١٥﴾ [هود].

والمسؤولية يومئذ مسؤولية فردية ﴿كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ﴾ [المدثر].

﴿لِكُلِّ أَمْرٍ مِنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ﴾ ﴿٧٧﴾ [عبس]. عن ابنه، وأخيه، وأبيه، وأهله، وعشيرته، قد اشتغل كل بنفسه، وعندئذ يحكم فيهم رب العالمين، فيجازي المحسن بإحسانه، والمسيء بالحرمان، والكل يؤمل في عفو الله وإحسانه وصفحه وغفرانه، فالله تعالى أرحم بعباده من الوالدة بولدها، والله تعالى مئة رحمة، أنزل لعباده منها رحمة واحدة، يتراحمون بها فيما بينهم، حتى إن البهيمة لترفع حافرها عن ولدها مخافة أن تطأه، فإذا كان يوم القيامة ضم هذه الرحمة إلى التسعة والتسعين فرحم بها العباد:

شُرُوطُ الشَّفَاعَةِ

١٠٩- ﴿يَوْمَئِذٍ لَا تَنْفَعُ الشَّفَاعَةُ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ وَرَضِيَ لَهُ قَوْلًا﴾ ﴿١٢٩﴾

وفي ذلك اليوم، لا تنفع الشفاعة أحدًا من الخلق، إلا إذا أذن الله للشافع أن يشفع، وهذا مقام الأنبياء والصديقين والشهداء والصالحين، ورضي ربنا عن المشفوع له، وهو من قال: لا إله إلا الله محمد رسول الله، أي: ولا تكون هذه الشفاعة إلا للمؤمن المخلص ممن رضي الله قوله وفعله.

فالشفاة لها شرطان: شرط يتعلق بالشافع وهو الإذن له بالشفاة، وشرط يتعلق بالمشفوع له، وهو الرضى عنه بأن يكون أهلاً للشفاة.

وعن الشرط الأول يقول سبحانه: ﴿مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ﴾ [البقرة: ٢٥٥]. ويقول أيضاً: ﴿وَلَا تَنْفَعُ الشَّفَعَةُ عِنْدَهُ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُ﴾ [سبا: ٢٣].

وعن الشرط الثاني يقول تعالى: ﴿وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ارْتَضَى﴾ [الأنبياء: ٢٨]. ويجمع الشرطين قوله تعالى: ﴿وَكَمْ مِنْ مَلَكٍ فِي السَّمَوَاتِ لَا تُغْنِي شَفَعَتُهُمْ شَيْئاً إِلَّا مِنْ بَعْدِ أَنْ يَأْذَنَ اللَّهُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَرْضَى﴾ [النجم: ٢٠].

في صحيح البخاري وغيره: عن أنس رضي الله عنه قال: سمعت النبي ﷺ يقول: «إذا كان يوم القيامة شُفِعْتُ، فقلت: يارب، أدخل الجنة من كان في قلبه خردلة، فيدخلون، ثم أقول: أدخل الجنة من كان في قلبه أدنى شيء» قال أنس: كأني أنظر إلى أصابع رسول الله ﷺ ^(١). وفي حديث أنس أيضاً أن النبي ﷺ قال: «يا رب ائذن لي فيمن قال: لا إله إلا الله، فيقول: وعزتي وجلالي وكبريائي وعظمتي لأُخرجنَّ منها من قال: لا إله إلا الله» ^(٢). قال تعالى:

١١٠- ﴿يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ ^(٣) وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِهِ عِلْماً﴾

الضمير في الآية يعود على المتبعين للداعي، أي: أن الله تعالى يعلم ما سيكون في يوم القيامة، وهو ﴿مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ﴾ أي: أمامهم، ويعلم ما مضى من أحوالهم في الدنيا، وهو معنى ﴿وَمَا خَلْفَهُمْ﴾ أي: ويعلم ما خفي وما ظهر من شؤون خلقه، فلا تخفى عليه خافية في أمور الدنيا ولا في أمور الآخرة، أما الخلائق فإنهم لا يحيطون علماً بخالقهم.

فِي يَوْمِ الْحَشْرِ وَالنَّشْرِ يُذَلُّ الْكَافِرُ وَيُعَزُّ الْمُؤْمِنُ

١١١- ﴿وَعَنَتِ الْوُجُوهُ لِلْحَيِّ الْقَيُّومِ وَقَدْ خَابَ مَنْ حَمَلَ ظُلْماً﴾

وفي هذا الموقف العظيم تخضع الوجوه وتذل لرب العالمين، فتذعن وتستسلم لخالقها

(١) «صحيح البخاري» برقم (٧٥٠٩) وأخرجه مسلم (١٩٣) مطولاً.

(٢) من حديث طويل في «صحيح البخاري» برقم (٧٥١٠) وأخرجه مسلم (١٩٣).

(٣) قرأ يعقوب بضم الهاء من (أيديهم)، والباقون بكسرها.

وبارئها، سَيِّمًا وجوه الظلمة والمشركين والمكذابين، كما قال تعالى: ﴿وُجُوهُ يَوْمَئِذٍ خَشِيعَةٌ ۖ ۝٢١ عَامِلَةٌ نَّاصِبَةٌ ۖ﴾ [الغاشية].

وقال أيضًا: ﴿فَلَمَّا رَأَوْهُ زُلْفَةً سَيَّتَ وَجُوهُ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ [الملك: ٢٧].

وقال سبحانه: ﴿وُجُوهُ يَوْمَئِذٍ عَلَيْهَا غَبَرَةٌ ۖ ۝٢٢ تَرَهَقَهَا فَتْرَةٌ ۖ ۝٢٣ أُولَٰئِكَ هُمُ الْكَافِرَةُ الْفَجَرَةُ ۖ﴾ [عبس].

لقد ذلَّت الوجوه في يوم الحشر والنشر، وخشعت الأصوات، وخضعت الجبابرة للحي الذي لا يموت، وهو سبحانه القيوم، أي: القائم على تدبير شؤون خلقه.

وقد خاب وخسر في هذا اليوم مَنْ تحمَّل ظلمًا من دنياه لآخرته، وفي مقدمة هذا الظلم من أشرك بالله أحدًا من خلقه، ولم يُقدِّم لنفسه عملاً صالحًا ينفعه في هذا اليوم العسير، ومن ذلك ظلم العباد بعضهم لبعض، ومنه الحقوق والديون.

وفي حديث جابر رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «اتقوا الظلم، فإن الظلم ظلمات يوم القيامة»^(١).

ويوم القيامة، يوم يُقْتَصُّ فيه من الظالم للمظلوم، حتى يُقْتَصَّ من الشاة القرناء للشاة الجماء وهي التي لا قرن لها.

وخيبة المشرك دائمة ملازمة له، وخيبة العاصي مؤقتة حتى يُعَاقَبَ بقدر معصيته. قال تعالى:

١١٢ - ﴿وَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا يَخَافُ ۖ ۝١٢٢ ظُلْمًا وَلَا هَضْمًا ۖ﴾

أما من جاء يوم القيامة مؤمنًا، وقد قدَّم في الدنيا الأعمال الصالحة، فإنه يأتي يوم القيامة آمنًا مطمئنًا لا يخاف زيادة على سيئاته، ولا نقصًا من حسناته.

قل في الفرق بين الظلم والهضم: إن الظلم قد يكون بمنع الحق كله، أما الهضم فيكون بمنع بعض الحق، فكل هضم ظلم، وليس كل ظلم هضمًا.

وقد بين ﷺ أنه لا يظلم الناس شيئًا في مواطن كثيرة من كتابه، منها قوله تعالى: ﴿إِنَّ

(١) «صحيح مسلم» برقم (٢٥٧٨).

(٢) قرأ ابن كثير (فلا يخف) بحذف الألف بعد الخاء وجزم الفاء، على أن لا ناهية، والباقون بألف بعد الخاء وضم الفاء، على أن لا نافية، والفعل بعدها مرفوع؛ لتجرده من الناصب والجازم، وجملة الفعل والفاعل خبر لمبتدأ محذوف تقديره: فهو لا يخاف.

اللَّهُ لَا يَظْلِمُ الْنَّاسَ شَيْئًا وَلَكِنَّ الْنَّاسَ أَنْفُسُهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٤٤﴾ [يونس].

وقوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ شَيْئًا وَلَكِنْ النَّاسُ أَنْفُسُهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ وَإِنْ تَكُ حَسَنَةً يُضْعِفُهَا وَيُؤْتِ مِنْ لَدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٤٥﴾ [النساء].

وقد جاء في هذه الآية والتي قبلها أن الناس في يوم الحشر على قسمين: قسم ظالم بكفره، ممن حمل ظلما، وهذا معذب في نار جهنم، وقسم مؤمن قد عمل الصالحات، وهذا القسم لا يزداد في سيئاته ولا ينقص من حسناته، بل تضاعف له الحسنات ﴿وَإِنْ تَكُ حَسَنَةً يُضْعِفُهَا وَيُؤْتِ مِنْ لَدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ [النساء: ٤٥].

الْقُرْآنُ كِتَابٌ هِدَايَةٍ لِلْبَشَرِ

١١٣- ﴿وَكَذَلِكَ أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا وَصَرَّفْنَا فِيهِ مِنَ الْوَعِيدِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ أَوْ يُحْدِثُ لَهُمْ ذِكْرًا﴾

وبمثل هذه الآيات التي تصور مشاهد القيامة، وتذكر الأحكام والآداب والقصص، وتُرغِب أهل الإيمان في العمل الصالح، وتحذِر أهل الكفر من الاستمرار على كفرهم، كما تحذر أهل المعاصي من البقاء على معاصيهم.

بمثل ذلك أنزل الله القرآن على رسوله محمد ﷺ بلسان عربي مبين ليفهموه ويتدبروه ويعملوا. بما فيه، وقد صرّف الله فيه من الوعد والوعيد والترغيب والترهيب، والبشرى والإنذار. فقد فضّلنا فيه أنواعا من العذاب، لعل الخلق يتقون ربهم ويخافون يوم لقائه. وذكرنا فيه أسماء الله تعالى وصفاته الدالة على عدله ورضاه وغضبه.

وضربنا فيه الأمثلة بما حل بالأمم المكذبة لرسول الله، حتى تعتبر الأمم اللاحقة، وذكرنا أهوال يوم القيامة، وجهنم وما فيها من أنواع العقاب وأصناف العذاب، كل هذا رحمة بالعباد، لعلهم يتقون فيتركوا الذنوب والمعاصي.

ولعل هذا القرآن يُحْدِثُ في نفوسهم تذكرة، فيتعظوا ويعتبروا، ويعلموا أنه خارج عن طوق البشر، فيمتثلوا أمره ويجتنبوا نهيه.

وفي الآية تحذير من أمر الله تعالى وعقابه ووقائعه بالأمم.

مِنْ قَوَاعِدِ التَّلْقِي وَالْتَرْتِيلِ

١١٤ - ﴿فَنَعْلَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ وَلَا تَعْجَلْ بِالْقُرْآنِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يُقْضَىٰ^(١) إِلَيْكَ وَحْيُهُ وَقُلْ رَبِّ زِدْنِي عِلْمًا﴾

اشتملت هذه الآية على فقرات ثلاث، كلها متصلة بالقرآن، المذكور في الآية السابقة:
أولاهـا: ثناء على الله تعالى منزل هذا الكتاب؛ لتعليم العباد كيفية شكره تعالى، والثناء عليه.

والمعنى: تعالى الله وتمجّد، وتعاضم وارتفع، وتقدس عن كل نقص؛ فهو الذي عنت الوجوه لخشيته، وخضعت له رقاب الجبابرة والعظماء، وهو الملك الذي قهر سلطانه كل طاغية وجبار، المتصرف في كل شيء، فهو الحق، ووعدته حق، ووعيده حق، وكل ما يصدر عنه حق، وهو مالك يوم القيامة، ومالك الدنيا والدين، فهو ﴿الْمَلِكُ الْحَقُّ﴾ ملكه دائم وثابت، لا يتحول ولا ينقص، ولا يزول ولا يفنى.

ففي الحديث: عن أبي هريرة رضي الله عنه، عن النبي ﷺ قال: «إن الله تعالى يقول: أنا الملك، أين ملوك الأرض؟»^(٢) وهذا معنى: ﴿فَنَعْلَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ﴾.

وثانيئها: أن الرسول ﷺ كان يتعجل نزول الوحي، ويتلقف الآيات التي ينزل بها جبريل، ويسارعه في تلقي الآيات قبل أن يفرغ منها، ويُمليها على الكتبة، فأنزل الله تعالى على نبيه: ﴿وَلَا تَعْجَلْ بِالْقُرْآنِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يُقْضَىٰ إِلَيْكَ وَحْيُهُ﴾.

وبيّن الله ﷻ كيف أن النبي ﷺ كان يتلقف الوحي من جبريل عليه السلام على وجه السرعة، من باب الحرص، فطمأنه الله تعالى على تمام نزوله وجمعه له في صدره في قوله: ﴿إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ﴾ (٧) فَإِذَا قَرَأَهُ ﴿عَلَيْكَ بِقِرَاءَةِ جَبْرِيلَ﴾ ﴿فَالْيَعِزُّ قُوَّةً﴾ [القيامة ١٧، ١٨] أي: اقرأه كما قرأه لك، بالتلقي عليه.

كما ثبت في الصحيح عن ابن عباس رضي الله عنه أن النبي ﷺ كان يعالج من التنزيل شدة، وكان مما يحرك شفّيته فأنزل الله هذه الآية^(٣).

(١) قرأ يعقوب بنون مفتوحة وضاد مكسورة وياء مفتوحة من (نَقْضِي) ونصب (وحيه) بعدها، فعل مضارع منصوب بأن، ووحيه مفعول به، وقرأ الباقون بالبناء للمجهول في (يُقْضَى) ورفع (وحيه) نائب فاعل.

(٢) أخرجه البخاري ك (٩) ب (٩٢) قبل الحديث رقم (٧٤٨١).

(٣) «صحيح البخاري» برقم (٥) ومسلم (٤٤٨).

أي: أن النبي ﷺ كان كلما قرأ جبريل آية، قرأها معه، من شدة حرصه على تلقي الوحي، فأرشدته الله تعالى إلى ما هو أسهل وأخف عليه بأن يُنصت إلى قراءة جبريل حتى ينتهي، ثم يقرأ بعد ذلك، فإن الله تعالى يَسِّرُ له حفظه، وكان النبي ﷺ إذا تكلم جبريل يخاف أن ينسى أوله، ويأمر بكتابته، وربما أسرع في اتخاذ الحكم، فقد اشتكت له امرأة لَطَمَ زوجها لها، فقال: بينكما القصاص ثم نزلت ﴿الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ﴾^(١) [النساء: ٣٤].

ويؤخذ من هذا: الأدب في تلقي العلم، وأن المتعلم ينبغي له أن ينتظر حتى يفرغ المعلم من كلامه، فإذا فرغ منه سأل، ولا يقطع بسؤاله كلام المعلم، وينبغي على المسؤول أن يستوعب سؤال السائل، ويعرف مقصوده قبل الجواب حتى يصيب الحقيقة.

وثالثها: في الآية ما يشير إلى أن الباعث على استعجال النبي ﷺ في تلقي الوحي، أمر محمود، وهو الرغبة في طلب العلم، فأَتْبَعَ سبحانه النهي عن التعجل في متابعة جبريل، بأن أذن له في سؤال الزيادة من العلم، والقرآن رأس العلم وأساسه، فأمر الله نبيه أن يدعو ربه بالتزود من العلم في نهاية الآية.

وعن أبي هريرة ؓ أن النبي ﷺ كان يقول: «اللهم انفعني بما علمتني، وعلمي ما ينفعني، وزدني علماً، والحمد لله على كل حال»^(٢).

وهكذا نصح الله رسوله أن يدعو ربه بأن ينفعه بما علّمه، وأن يزيده من علمه.

نَسِيَانُ آدَمَ أَمْرٌ مُرَادٌ لِلَّهِ تَعَالَى

١١٥ - ﴿وَلَقَدْ عَهِدْنَا إِلَىٰ آدَمَ مِن قَبْلُ فَنَسِيَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْمًا﴾

لما عهد الله تعالى إلى نبيه محمدا ﷺ ألا يَعْجَلَ بالقرآن قبل فراغ جبريل منه، أتبع ذلك ببيان أن الله تعالى قد عهد قبله إلى أبيه آدم ألا يأكل من الشجرة فنسي وعوقب؛ ليكون ذلك أشد في التحذير، وأبلغ في العهد بالنسبة إلى محمد ﷺ، والعهد بالنسبة له

(١) يُنظَر: ابن جرير (٦/٦٨٨) وابن أبي حاتم (٣/٩٤٠) برقم (٥٢٤٦).

(٢) «سنن ابن ماجه» برقم (٢٥) (٣/١٣٣٢) والترمذي برقم (٣٥٩٩) وهو في «صحيح سنن الترمذي» برقم (٢٨٤٥) بدون: والحمد لله.

وَعَلَىٰ بَعْضِهِ: الوصية^(١).

أي ولقد وصينا آدم وأمرناه وعهدنا إليه عهدًا، فوطَّن نفسه على القيام به، إلا أنه نسي، فذهب عزمه، وعوقب على ذلك، فصار عبرة لذريته، وصارت طبيعتهم مثل طبيعته، نسي آدم فنسيت ذريته، وخطيء فخطئوا، ولم يثبت على العزم، وبادر بالتوبة فأقر واعترف، فغفر الله له، ومن يشابه أباه فما ظلم.

ونسيان آدم للعهد له معنيان:

أحدهما: بمعنى الترك، أي: ترك آدم الأمر والعهد، كما قال تعالى: ﴿سُئِلُوا اللَّهَ فَنَسِيَهُمْ﴾ [التوبة: ٦٧]. وهذا قول مجاهد وغيره.

وثانيهما: بمعنى السهو والنسيان، وهو قول ابن عباس.

وعلى هذا فيحتمل أن النسيان كان مؤاخذًا عليه في عهد آدم، وقد رفعه الله عن هذه الأمة^(٢).

وهذا المعنى هو المتبادر للذهن، ولعله المقصود في الآية، فقد أمر الله ﷻ آدم أن يأكل من ثمار الجنة، وأوصاه بألا يقرب شجرة معينة، وحذَّره من إغواء الشيطان له، وعهد إليه بذلك، ولكن آدم نسي عهد ربه، ووسوس له الشيطان فأطاعه، وما سُمِّيَ الإنسان إنسانًا إلا لأنه ينسى، كأن الله تعالى يقول: بنو آدم يُذنبون ويُفَرِّطون، وقد أخذنا العهد على أبيهم آدم ألا يقرب شجرة معينة ﴿فَنَسِيَ﴾، وأكل من تلك الشجرة، ولم نجد له تصميمًا وعزمًا قويًّا على مخالفة النهي، ولم يوطَّن نفسه على أن يأكل من الشجرة، ويخالف العهد، وكان هذا قبل أن يوحى إلى آدم، وقبل أن يكون نبيًّا يُعهد له بدعوة أبنائه وأهل بيته.

طَرَفٌ مِنْ قِصَّةِ آدَمَ وَإِبْلِيسَ

١١٦- ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَكَةِ^(٣) اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى﴾

يذكر الله سبحانه طرفًا من قصة آدم وإبليس، وهي القصة التي ذكرت في القرآن سبع

(١) يُنظَر: «تفسير ابن عطية» (٦٦/٤).

(٢) يُنظَر: «تفسير القرطبي» (٢٥١/١١).

(٣) قرأ ابن جماز بضم تاء (للملائكة اسجدوا) وصلًا، وقرأ ابن وردان بضم التاء، وبإشمام كسرتها الضم، وقرأ الباقون بالكسر.

مرات بأسلوب متنوع، تعليمًا لبني آدم؛ ليتخذوا الشيطان عدوًا لهم، وليحذروا منه ومن سطوته؛ حتى لا يفعل بهم كما فعل بآدم، فقد أمر الله الملائكة أن يسجدوا لآدم سجود تحية وإكرام، فأطاعوا وسجدوا، وكان إبليس حاضراً مع الملائكة يعبد الله معهم في الجنة، فامتنع من السجود؛ قائلاً: ﴿أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقَنِي مِنْ نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ﴾ [ص: ٧٦] لأنه كان من الجن ولم يكن من الملائكة، فهم ﴿لَا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ [التحریم: ٦]. ﴿فَسَجَدَ الْمَلَائِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ﴾ [ص: ٢٠]. ﴿إِلَّا إِبْلِيسَ ابْنِ وَاسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ﴾ [البقرة: ٣٤]. وبهذا حَقَّتْ عليه اللعنة والطرْد من رحمة الله تعالى.

وكان هذا الأمر بالسجود بعد أن أكمل الله خلق آدم بيده وعلمه الأسماء وفضله وكرمه، ولما امتنع إبليس من السجود لآدم، ظهرت عداوته لآدم وذريته، وظهر الحسد والحقد الذي أضمره في نفسه له، ولذا حذر الله آدم وذريته من عداوة إبليس.

تَحْذِيرُ الْإِنْسَانِ مِنْ عَدَاوَةِ الشَّيْطَانِ

١١٧ - ﴿فَقُلْنَا يَتَّعَدُمُ إِنَّ هَذَا عَدُوٌّ لَكَ وَلِزَوْجِكَ فَلَا يُخْرِجُكَ مِنَ الْجَنَّةِ فَتَشْقَى﴾ (١١٧)

حذر الله سبحانه آدم، ويُنْهَى له أن الشيطان عدو له ولزوجه، ولبني آدم جميعاً، فليحذر طاعته بمعصية الله، فإياك أن يتسبب في إخراجك من الجنة، فتشقى أنت وزوجك، ولقد شقياً في الدنيا بعد الخروج من الجنة بالكدح والتعب، والبحث عن الرزق.

والأحاديث الصحيحة تشير إلى أن قصة أكل آدم من الشجرة أمرٌ مُرَادٌ لله تعالى؛ لعمارة الأرض، والتحذير من طاعة الشيطان.

أخرج البخاري وغيره عن أبي هريرة ؓ أن النبي ﷺ قال: «حَاجَّ مُوسَى آدَمَ، فقال له: أنت الذي أخرجت الناس من الجنة بذنبك وأشقيتهم؟ قال: قال آدم: يا موسى، أنت الذي اصطفاك الله برسالاته وبكلامه، أتلومني على أمر كتبه الله عليّ قبل أن يخلقني، أو قدّره عليّ قبل أن يخلقني؟ قال رسول الله ﷺ: «فَحَجَّ آدَمُ مُوسَى»^(١).

(١) «صحيح البخاري» برقم (٤٧٣٨) وغيره و«صحيح مسلم» برقم (٢٦٥٢).

تَأْمِينُ الْمَأْكَلِ وَالْمَشْرَبِ وَالْمَسْكَنِ لِلْإِنْسَانِ

١١٨، ١١٩- ﴿إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَىٰ ﴿١١٨﴾ وَأَنَّكَ ﴿١١٩﴾ لَا تَضْمَأُ فِيهَا وَلَا تَصْحَىٰ﴾

ثم بيّن الله تعالى لآدم، أنه كفّل له في الجنة أشياء ضرورية لا بد منها للإنسان؛ لأنها أصول حياته، وهي: المأكل، والمشرب، والمسكن، والملبس؛ فالإنسان يسعى في هذه الحياة لهذه الضرورات الأربع، وقد ضمن الله تعالى لآدم في الجنة أن يأكل فيها فلا يجوع، وأن يلبس فلا يعرى، بلا كدّ ولا تعب، وقرن بينهما في الآية لأن الجوع عُرِي الباطن، وعدم اللباس عُرِي الظاهر.

ولك -يا آدم- ألا تعطش في الجنة وهي دار السرور والحبور، فلا يصيبك فيها حر الشمس ولا العطش، وفي العطش ألم الباطن، وفي حر الشمس ألم الظاهر، ولذا قرنت بينهما الآية، وهذه الأمور الأربعة مقومات الحياة فوق الأرض، واستدلّ بها بعض من يرى أن جنة آدم كانت في الأرض، وليست جنة الآخرة؛ ففيها ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر.

وهكذا ضمن الله للإنسان في الجنة: استمرار الطعام والشراب والكسوة والماء وعدم التعب والنصب، وهذه الأربعة هي مقومات الحياة الدنيا الضرورية.

مِنْ آثَارِ الْمَعَاصِي فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ

١٢٠- ﴿فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ الشَّيْطَانُ قَالَ يَتَذَكَّرُ هَلْ أَذُنُكَ عَلَى شَجَرَةِ الْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَّا يَبُلَىٰ ﴿١٢٠﴾﴾

فلما رأى الشيطان هذا التكرم قال لآدم مُوسِسًا: هل أرشدك إلى شجرة من أكل منها صار من الخالدين، وكان الله قد نهى آدم عن الأكل من هذه الشجرة فقال: ﴿وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ [الأعراف: ١٩].

والمعنى: فحدث إبليس آدم خفية؛ ليثنيه عن هذه النصائح، وقال له: إن الأكل من هذه الشجرة يجعلك خالدًا فلا تموت أبدًا، ويجعل لك مُلْكًا لا ينقضي ولا ينقطع، وجاء ذلك في قوله تعالى: ﴿وَقَالَ مَا نَهَكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَذِهِ الشَّجَرَةِ إِلَّا أَن تَكُونَا مَلَكَتَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ الْخَالِدِينَ ﴿١٢٠﴾ وَقَاسَمَهُمَا إِنِّي لَكُمَا لَنَاصِحٌ ﴿١٢١﴾﴾ [الأعراف: ٢١].

(١) قرأ نافع وشعبة بكسر همزة (وانك لا تظمأ) عطفًا على (إن لك) وهو من عطف الجمل، وقرأ الباقون بفتح الهمزة عطفًا على المصدر المنسبك من أن وما بعدها في (أن لا تجوع) وهو من عطف المفردات، أي: إن في ذلك عدم الجوع وعدم العرى وعدم الظمأ.

وناداه باسمه؛ ليكون أكثر إقبالاً عليه، وأمكن في الاستماع إليه.
فاغتر آدم بنصائح إبليس، وأكل هو وزوجه من الشجرة؛ فسقطت كسوتهما وظهرت عورتهم بعد أن كانا مستورين، فأصابهما من الخجل ما أصابهما وأخذ يسترانهما بأوراق الشجر.

١٢١- ﴿فَأَكَلَا مِنْهَا فَبَدَّتْ لَٰمًا سَوَاءً نُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِنْ وَرَقِ الْجَنَّةِ وَعَصَىٰ آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَىٰ﴾
فلما أكل آدم وحواء من الشجرة التي نهاهما الله عن الأكل منها، وكان ذلك نتيجة إغواء الشيطان ووسوسته، بدت لهما سواتهما، وانكشفت لهما عوراتهما، وكانت قبل ذلك مستورة لا يريانها، فكان آدم لا يرى عورة حواء، وكانت حواء لا ترى عورة آدم، فترتب على هذه المعصية رؤية السوء، وسميت العورة؛ سوءاً؛ لأن انكشافها يسوء صاحبها، ويحزنه، وينقّر الناس منه.

وكان إبليس قد أقسم أنه لهما من الناصحين، فأخذا يلصقان عليهما من أوراق أشجار الجنة؛ ليسترا ما انكشف من عوراتهما.

قال سبحانه: ﴿وَعَصَىٰ آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَىٰ﴾ أي: خالف أمر ربه، وضل الطريق، وأخطأ حين أكل من الشجرة التي نهى عن الاقتراب منها، وكان هذا قبل أن يجعله الله نبياً، والذي أغوى آدم في الأكل من الشجرة، هو إبليس، وليست حواء، ثم اصطفاه ربه وقرّبه، وتاب عليه.

وليس في الآية دليل على وقوع المعصية من آدم؛ لأن هذه القصة لم تقع في دار التكليف، بل وقعت في عالم آخر.

تَوْبَةُ اللَّهِ عَلَى آدَمَ

١٢٢- ﴿ثُمَّ أَجْنَبَهُ رَبُّهُ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَىٰ﴾

في هذه الآية بيان لفضل الله تعالى على آدم حيث قبل توبته، ورزقه المداومة عليها، وهدايه إلى الثبات والاستمرار على الطاعة، وبعد الأكل من الشجرة اصطفاه ربه، واختاره وقرّبه إليه وجعله نبياً.

وكان آدم قد اعترف هو وحواء بخطئهما ﴿قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنفُسَنَا وَإِن لَّا تَغْفِرَ لَنَا وَتَرْحَمَنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ [الأعراف].

وهذه الكلمات هي التي أوحى الله تعالى بها إلى آدم؛ لقبول توبته، وهي المشار إليها في قوله تعالى: ﴿فَلَقَّيْنَاهُ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَتَيْنِ فَنَابَغَا عَلَيْهِمَا إِنَّهُ هُوَ الْوَاوِي الرَّحِيمُ﴾ [البقرة].

وقد حذر الله بني آدم ألا يقعوا فيما وقع فيه آدم بطاعته في المعصية، فقال تعالى: ﴿يَبْنِيْءَ آدَمَ لَا يَفْنَيْنَكُمْ الشَّيْطَانُ كَمَا أَخْرَجَ أَبَوَيْكُمْ مِنَ الْجَنَّةِ يَنْزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوْآتِهِمَا﴾ [الأعراف]

هُبُوطُ آدَمَ وَحَوَاءَ مِنَ الْجَنَّةِ وَمَا تَرْتَبَ عَلَيْهِ

١٢٣- ﴿قَالَ أَهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ^(١) فَلَا يَضِلَّ وَلَا يُشَقِّقْ﴾ [١٢٣]

ونتج عن معصية آدم، أن ربه أخرجه من الجنة هو وحواء وإبليس ﴿قَالَ أَهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًا﴾ وفي آية أخرى: ﴿أَهْبِطُوا﴾ أي: ومعكما إبليس؛ فأنتما وهو أعداء ﴿بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ﴾ وذرية بني آدم بعضهم لبعض عدو؛ بسبب الكسب والمعاش، واختلاف الطبائع والرغبات، والتخاصم والتنازع على حطام الدنيا.

جنة الدنيا وجنة الآخرة:

هذا، والجنة تأتي في القرآن بمعنى: البستان العظيم.

كما قال تعالى: ﴿إِنَّا بَلَوْنَاهُمْ كَمَا بَلَوْنَا أَصْحَابَ الْجَنَّةِ﴾ [القلم: ١٧].

وقال: ﴿جَعَلْنَا لِأَحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ مِنْ أَعْنَابٍ﴾ [الكهف: ٣٢].

وقال: ﴿كَمْ مَثَلٍ جَعَلَكُمْ بِرَبْوَةٍ﴾ [البقرة: ٢٦٥].

وقال: ﴿أَيُّودُ أَحَدُكُمْ أَنْ تَكُونَ لَهُ جَنَّةٌ مِّنْ نَّخِيلٍ وَأَعْنَابٍ﴾ [البقرة: ٢٦٦].

والجنة في هذه الآيات بمعنى: البستان، والحديقة من بساتين الدنيا.

وتأتي الجنة، ويراد بها الجنة الأخروية:

كما في قوله تعالى: ﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ﴾ [الذاريات].

(١) لم يعد (مني هدي) آية، الكوفي والحمصي، وعدّها آية غيرهما.

وقوله: ﴿إِنَّ اللَّائِقِينَ فِي جَنَّتٍ وَنَهْرٍ﴾ [القمر].

وقوله: ﴿جَنَّاتُ عَدْنٍ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِنْ ذَهَبٍ﴾ [الكهف: ٣١].

في أي الجنة كان آدم: ولعل المراد: أن الله تعالى خلق آدم على الأرض في بستان عظيم؛ إذ القول بغير ذلك يشير إشكالات كثيرة، منها:

١- أن الله تعالى قال عن الجنة: ﴿وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ الْأَنْفُسُ وَتَلَذُّ الْأَعْيُنُ وَأَنْتُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ [الزخرف: ٧١].

وقد انتهى آدم وحواء الأكل من شجرة معينة، فكيف يُمنعان منها؟

٢- أن الله تعالى قال: ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ [البقرة: ٣٠]. ولم يقل جاعل في السماء.

٣- أن الله تعالى حرّم دخول الجنة على الكافرين، كما في قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَذَبُوا بِآيَاتِنَا وَاسْتَكْبَرُوا عَنْهَا لَا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَابُ السَّمَاءِ وَلَا يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ حَتَّى يَلِجَ الْجَمَلُ فِي سَمِّ الْخِيَاطِ﴾ [الأعراف: ٤٠]. فكيف يدخلها إبليس؟

٤- أن الله تعالى حرم نعيم الجنة من الأنهار، والمياه، والأرزاق، على الكافرين، فقال: ﴿وَنَادَى أَصْحَابُ النَّارِ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ أَنْ أَفِضُوا عَلَيْنَا مِنَ الْمَاءِ أَوْ مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ حَرَّمَهُمَا عَلَى الْكَافِرِينَ﴾ [الأعراف: ٥٥]. فكيف يتنعم فيها إبليس؟

٥- أن نعيم الجنة لا يحول ولا يزول، فالمؤمنون خالدون فيها أبداً، في جنات عدن، وإقامة دائمة ﴿خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ﴾ [هود: ١٠٨].

«يا أهل الجنة خلود بلا موت»^(١).

فكيف يُنعم فيها آدم وحواء وإبليس بعض الوقت، ثم يزول عنهم هذا النعيم؟!

٦- أن الجنة ليس فيها تكليف، ولا أوامر، ولا نواهي، والله تعالى نهى آدم وحواء،

(١) من حديث أبي هريرة وابن عمر وأبي سعيد في «المسند» (٥٩٩٣، ٨٥٣٥، ١١٠٦٦) وهو حديث صحيح بإسناد قوي ورجال ثقات وأخرجه البخاري (٦٥٤٨) ومسلم (٢٨٥٠) وابن حبان (٧٤٧٤) والبخاري في شرح السنة (٤٣٦٧) والطبراني في الكبير (١٣٣٧).

فقال: ﴿وَلَا نَقْرَأُ هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ [الأعراف: ١٩].

وهذا التكليف لا يكون في الجنة الأخروية.

أما الهبوط فيراد به في القرآن: الانتقال من مكان إلى مكان، كما قال تعالى: ﴿أَهْبِطُوا مِصْرًا فَإِنَّ لَكُمْ مِمَّا سَأَلْتُمْ﴾ [البقرة: ٦١] أي: انزلوا مدينة من المدن.

وقال تعالى عن الحجارة: ﴿وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ﴾ [البقرة: ٧٤].

ولعل هذا هو المراد في قوله تعالى لآدم وحواء: ﴿أَهْبِطَا﴾ [طه: ١٢٣].

أو ﴿أَهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ﴾ [الأعراف: ٢٤]. أي انزلوا وارتحلوا.

منهج الله في أرضه لآدم بعد هبوطه إلى الأرض:

وبعد أن هبط آدم وزوجه إلى الأرض أخبر الله سبحانه أنه سيرسل للبشر رسلاً، وسيُنزل عليهم كُتُباً، فيها بيان الحق من الباطل، والهدي من الضلال، فقال: ﴿فَإِنَّمَا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى﴾ أي: عن طريق الرسل والكتب، فإن من آمن بهما، وعمل بما جاءت به الرسل، فإنه في الدنيا لا يضل، وفي الآخرة لا يشقى، بل يرشد ويهتدي في دنياه، ولا يشقى في الآخرة بعقاب الله سبحانه ﴿فَمَنْ تَبَعَ هَذَايَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [البقرة: ٣٨]

قال ابن عباس رضي الله عنه: ضمن الله لمن قرأ القرآن وعمل بما فيه ألا يضل في الدنيا، ولا يشقى في الآخرة^(١).

ويشبه هذه الآية قوله تعالى: ﴿قُلْنَا أَهْبِطُوا مِنْهَا جَمِيعًا فَإِنَّمَا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى فَمَنْ تَبَعَ هَذَايَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [البقرة: ٣٨].

وقد بدأت الآية بضمير التثنية عن آدم وحواء في قوله تعالى: ﴿قَالَ أَهْبِطَا﴾

ثم انتقلت إلى ضمير الجمع في قوله تعالى: ﴿فَإِنَّمَا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى﴾.

(١) «تفسير القرطبي» (٢٥٨/١١) وقد أخرجه ابن أبي شيبة في «المصنف» برقم (١٦٦٣) وحسنه المحقق، وصححه الحاكم بموافقة الذهبي في «المستدرک» (٣٨١/٢) وأخرجه أبو الفضل الرازي في «فضائل القرآن» برقم (٨٤).

قال الزمخشري: لما كان آدم وحواء هما أصل البشر، جُعِلَا كأنهما البشر في أنفسهما، فخطوبيا مخاطبة البشر^(١). قال تعالى:

١٢٤- ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا^(٢) وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ أَعْمَى﴾

ومن تولى عن ذكرى الذي أذكّره به، فأنكره أو كفر به، ولم يتبع هداى فإن له في الحياة الدنيا عيشة شاقة ضيقة، وإن كان من أهل الغنى والجاه، وله معيشة ضنكاً في قبره، ومعيشة ضنكاً يوم لقاء ربه:

وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ أَمْرِ اللَّهِ تعالى وتناساه ولم يعمل به، فإن له كذلك في الدنيا معيشة قاسية، ولو كان عنده مال قارون، وزوجات الدنيا، وبنين شهودا، وجاهاً عريضاً، ومع هذا فلا يطمئن له بال، ولا ينشرح له صدر، بل يظل صدره ضيقاً وإن كان متنعماً في الظاهر.

وجاء في الأثر: إن هذه المعيشة الضنك هي قمة الكرب والعياذ بالله.

قال ابن عباس ؓ: من قرأ القرآن واتبع ما فيه هداه الله من الضلالة، ووقاه يوم القيامة سوء الحساب.

وقال أبو سعيد الخدري في المعيشة الضنك: هي عذاب القبر والعياذ بالله، فإنه يُضْغَطُ في القبر حتى تختلف ضلوعه، ولا يزال في عذاب حتى يُبعث.

أخرج ابن حبان عن أبي هريرة ؓ عن النبي ﷺ في قوله جلّ وعلا: ﴿فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا﴾ قال: «عذاب القبر»^(٣).

وأخرج ابن أبي حاتم، والطبراني، والبيهقي في كتاب «عذاب القبر» عن عبد الله بن مسعود ؓ قال: إذا حدثتكم بحديث، أنبئكم بصدق ذلك من كتاب الله: إن المؤمن إذا وُضِعَ في قبره أُجْلِسَ فيه، فيقال له: من ربك؟ وما دينك؟ ومن نبيك؟ فيُثَبِّتَ الله، فيقول:

(١) «تفسير الكشاف» (٩٣/٣).

(٢) عدّ الحمص (ضنكا) آية، وتركها غيره.

(٣) «صحيح ابن حبان» برقم (٣١١٩) الإحسان، وحسنه المحقق، و«المستدرک» (٣٨١/١) وصححه الحاكم ووافقه الذهبي، وقال ابن كثير: إسناده جيد (٣٢٤/٥).

ربي الله، وديني الإسلام، ونبيي محمد ﷺ؛ فَيُوسَعُ له في قبره، وَيُرَوِّحُ له فيه، ثم قرأ عبد الله: ﴿يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ﴾ [إبراهيم: ٢٧] فإذا مات الكافر، أُجْلِسَ في قبره، فيقال له: من ربك؟ وما دينك؟ ومن نبيك؟ فيقول: لا أدري؛ فَيُضَيَّقُ عليه قبره، وَيُعَذِّبُ فيه، ثم قرأ: ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا﴾^(١).

ومن أدلة عذاب القبر قوله تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَىٰ إِذِ الظَّالِمُونَ فِي غَمَرَاتِ الْمَوْتِ وَالْمَلَائِكَةُ بَاسِطُوا أَيْدِيهِمْ أَخْرِجُوا أَنفُسَكُمُ الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ﴾ [الأنعام: ٩٣]..

وقوله ﴿وَلَنُذِيقَنَّهُمْ مِنَ الْعَذَابِ الْأَدْنَىٰ دُونَ الْعَذَابِ الْأَكْبَرِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ [السجدة: ٢١].

وقوله: ﴿النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوا ءَالَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ﴾ [غافر: ٤٦] فهذه أربع آيات يستدل بها على عذاب القبر، والأحاديث في ذلك كثيرة.

والشقاء: شقاء الآخرة؛ لأنه إذا سَلِمَ من الضلال في الدنيا سَلِمَ من الشقاء في الآخرة. قال تعالى: ﴿وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ أَعْمَى﴾ البصر، أو أعمى الحجة. ﴿وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ عُمْيًا وَبُكْمًا وَصُمًّا مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ كُلَّمَا خَبَتْ زِدْنَاهُمْ سَعِيرًا﴾ [الإسراء: ٩٧]

والعمى عنوان على غضب الله تعالى وإقصائه من رحمته، وفي مقابله من كان مؤمناً عاملاً للصالحات، فإنه يحيا حياة طيبة يسعد بها في دنياه وأخراه، كما قال تعالى: ﴿وَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَٰئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ نَبْرًا﴾^(٢) [النساء: ١٢٤].

وهكذا فإن الله تعالى وضع للعبد قانون الجزاء في الدنيا وكشف له عن مصيره في أخراه.

١٢٥ - ﴿قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي^(٢) أَعْمَى وَقَدْ كُنْتُ بَصِيرًا﴾^(١٥)

(١) الطبراني برقم (٩١٤٥) والبيهقي برقم (٩) قال الهيثمي: إسناده حسن، «مجمع الزوائد» (٥٤/٣). وانظر حديث أنس في المسند (١٣٤٤٦، ١٣٤٤٧) حديث صحيح وإسناده قوي، وقد أخرجه أبو داود (٣٢٣١، ٤٧٥١) ومسلم (٧٢، ٢٨٧٠) وعبد الله بن أحمد في السنة (١٤٢٨، ١٤٢٧).

(٢) قرأ نافع وابن كثير وأبو جعفر بفتح ياء الإضافة وصلاً من (لم حشرتني أعمى)، والباقون بإسكانها.

أي: قال المُعْرِض عن ذكر الله تعالى وطاعته يوم القيامة: يا رب، لِمَ حشرتني أعمى وقد كنت في دنياي بصيراً؟ فما الذي صيرني إلى هذه الحالة؟

١٢٦- ﴿قَالَ كَذَلِكَ أَنتَكَ ءَايَتُنَا فَنَسِينَا ۖ وَكَذَلِكَ الْيَوْمَ نُنْشِئُ﴾

قال سبحانه: حشرتك أعمى؛ لأنك أنتك آياتنا والمعجزات المشاهدة، فأعرضت عنها، وتعاميت عنها، وتركتها ولم تؤمن بها، وكما تركت العمل بها في الدنيا فإنك اليوم تُترك في النار جزاء وفاقاً، فالجزاء من جنس العمل، وكما عميت في الدنيا عن ذكر ربك، تُحشر إلى النار أعمى، أصم، أبكم، وهذا من المعيشة الضنك في الآخرة.

وهذه الآية لا تشمل من نسي القرآن بعد حفظه، وإنما المراد: من لم يعمل بما في كتاب الله تعالى، فأعرض عنه ولم يؤمن به، وفيها دليل على أن الله تعالى حذر الإنسان في الدنيا من الضلال والشرك، وأن ذلك مستقر في فطرة الناس، وأن مخالفته موجبة للعقوبة في الآخرة.

١٢٧- ﴿وَكَذَلِكَ نَجْزِي مَنْ أَسْرَفَ وَلَمْ يُؤْمِنْ بِآيَاتِ رَبِّهِ ۚ وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَشَدُّ وَأَبْقَى﴾

وهكذا نعاقب من أسرف على نفسه بالمعاصي، ولم يؤمن بآيات الله، فعاقبه ربه بعقوبات في الدنيا، وهذا جزاء من أسرف على نفسه بالشهوات والمعاصي، ولم يتنفع بهدي القرآن ومواعظه، فالله لم يظلمه، ولم يضع العقوبة في غير موضعها، وإنما السبب هو الإسراف وعدم الإيمان.

أما عذاب الآخرة لهم، فهو أثبت وأدوم؛ لأنه لا ينقطع ولا ينقضي ﴿وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَشَدُّ وَأَبْقَى﴾. أي: أكثر وأشدّ ألماً لمن ماتوا على الكفر والشرك ممن أسرف على نفسه بالطغيان والمعاصي، كما قال تعالى: ﴿وَأَنْتَ الْمُسْرِفِينَ هُمْ أَصْحَابُ النَّارِ﴾ [غافر: ٤٣]. وقال سبحانه: ﴿وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَشَقُّ وَمَا لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ وَاقٍ﴾ [الرعد: ٣٤].

وُجُوبُ الْإِعْتِبَارِ بِهَلَاكِ الْعَصَاةِ

١٢٨- ﴿أَفَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنَ الْقُرُونِ يَمْشُونَ فِي مَسْجِدِهِمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّأُولِي الْأَلْبَانِ﴾

وبعد أن وضع الله لخلقه قانون الجزاء، بعدم شقاء من اتبع هداه، والمعيشة الضنك

لمن أعرض وكذب، بعد ذلك لفت سبحانه الأنظار إلى عقاب من كذب المرسلين، حتى لا يصيبنا ما أصابهم.

والآيات الثماني الأخيرة من سورة طه يبين الله ﷻ فيها عاقبة من كذب بخاتم المرسلين في كل زمان ومكان، من كل من لم يؤمن بمحمد ﷺ من اليهود، والنصارى، والعلمانيين، والشيوعيين، والملحدين، والسيخ، والبوذيين، وغيرهم من سائر الملل والنحل، من عهد النبوة وإلى أن تقوم الساعة.

والله تعالى يقول لهؤلاء جميعاً: ألم تقرأوا التاريخ؟ ألم تعرفوا ما حلّ بالأمم التي كذبت رسل الله؟ ألم تعرفوا ما حلّ بقوم عاد في جنوب الجزيرة؟ وقوم ثمود في شمالها؟ وقوم لوط في مكان البحر الميت في الأردن؟ وقوم مدين عند سيناء؟ وفرعون وقومه الذين أغرقهم الله في البحر الأحمر؟ وغير هؤلاء وأولئك

﴿فَكَلَّا أَخَذْنَا بِذُنُوبِهِ فَمِنْهُمْ مَن أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُمْ مَن أَخَذَتْهُ الصَّيْحَةُ وَمِنْهُمْ مَن خَسَفْنَا بِهِ الْأَرْضَ وَمِنْهُمْ مَن أَغْرَقْنَا وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُظْلِمَهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٤٠﴾﴾ [العنكبوت]. ﴿أَكْفَارُكُمْ خَيْرٌ مِّنْ أُولَئِكَ﴾ [القمر: ٤٣]

ويقول الله سبحانه: ﴿وَأَنذَرُكُمْ لَنُرْسِلَنَّ عَلَيْهِم مَّصِيبًا ۖ وَبِالْأَيْلِ﴾ [الصافات] أي: تمرون على هذه الديار، وتعرفون أخبارها وأماكنها، كما قال تعالى: ﴿فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةٌ بِمَا ظَلَمُوا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٥٧﴾﴾ [النمل].

وقال سبحانه: ﴿أَوَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّنَ الْقُرُونِ يَمْشُونَ فِي مَسْكِنِهِمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً أَفَلَا يَسْمَعُونَ ﴿٦١﴾﴾ [السجدة].

ألا يكفي أن تعرفوا هذه الأخبار وما حلّ بهذه الأمم، فيكون ذلك دليل هداية لكم؛ لتؤمنوا بخاتم النبيين محمد ﷺ؟

ألم يتبين للكفار المعاندين ما حدث لكثير من الأمم التي مضت، وهم يرون أماكنهم التي أهلكوا فيها، ممن خسف الله بهم الأرض، أو أتهم الصاعقة، أو الرجفة، أو الصيحة، أو قلبت بهم الأرض، أعلاها سافلها؟ ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّأُولِي الْأَلْبَانِ﴾.

ففي هذا عظة لذوي العقول، ممن تفيد فيهم الموعظة والذكرى.

أَمَّا مَنْ لَا عَقُولَ لَهُمْ فَقَدْ وَصَفَهُمُ اللَّهُ تَعَالَى بِأَنَّهُمْ كَالْأَنْعَامِ، بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا، كَمَا فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا﴾ وَعَلَيْهِمْ أَنْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ وَيَطَّلِعُوا عَلَى أَخْبَارِ الْأُمَمِ وَأَحْوَالِ الْمَكْذِبِينَ، قَالَ تَعَالَى: ﴿فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ﴾ [الحج: ٤٦]. إِنْ فِي تِلْكَ الْأُمَمِ الَّتِي أَهْلَكَهَا اللَّهُ تَعَالَى، وَفِي آثَارِ عَذَابِهِمْ، لَعِبْرًا وَعِظَاتٍ لِأَهْلِ الْعُقُولِ الْوَاعِيَةِ.

وَفِي الْآيَةِ تَوْيِيخٌ وَتَقْرِيعٌ لِكُلِّ مَنْ لَمْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ رَبًّا، وَبِالْإِسْلَامِ دِينًا، وَبِمُحَمَّدٍ ﷺ نَبِيًّا وَرَسُولًا، وَفِي مَعْرِفَةِ أَسْبَابِ إِهْلَاكِ الْأُمَمِ الْمَكْذِبَةِ لِرَسُولِ اللَّهِ آيَاتٌ وَعِبَرٌ تَأْخُذُ بِيَدِ الْعَاقِلِ إِلَى طَرِيقِ الْهَدَايَةِ وَالنَّجَاةِ.

عَذَابُ الْإِبَادَةِ لَا يُنَاسِبُ آخِرَ الْأُمَمِ

١٢٩- ﴿وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ لَكَانَ لِزِمَانٍ وَاَجَلٍ مُّسَمًّى﴾

وَقَدْ اقْتَضَتْ حِكْمَةُ اللَّهِ ﷻ أَلَّا يَعَذَّبَ بِالْإِبَادَةِ وَالِاسْتِئْصَالَ أُمَّةَ مُحَمَّدٍ ﷺ، كَرَامَةً لِلنَّبِيِّ ﷺ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَمَا كَانَتْ أَلَلَّةٌ لِّعَذَابِهِمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ وَمَا كَانَتْ أَلَلَّةٌ مُّعَذِّبُهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾ [الأنفال: ٣٣]. لِأَنَّهَا الْأُمَّةُ الْآخِرَةُ الَّتِي أَرَادَ اللَّهُ لَهَا الْبَقَاءَ إِلَى قِيَامِ السَّاعَةِ، وَرَسُولَهَا آخِرَ الرُّسُلِ، وَشَرِيعَتَهَا قَائِمَةٌ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ، وَلَوْلَا ذَلِكَ لَأَهْلَكَهُمُ اللَّهُ كَمَا فَعَلَ بِقَوْمِ عَادٍ وَثَمُودَ.

أَيُّ: وَلَوْلَا وَعَدَ اللَّهُ جَلَّ شَأْنُهُ، أَلَّا يَسْتَأْصِلَ هَذِهِ الْأُمَّةَ بِعَذَابٍ عَامٍ، وَلَوْلَا أَنَّ حِكْمَتَهُ تَعَالَى قَدْ اقْتَضَتْ أَلَّا يَسْتَأْصِلَهُمْ بِعَذَابٍ عَاجِلٍ فِي الدُّنْيَا؛ لِأَهْلَكِهِمُ اللَّهُ وَاسْتَأْصَلَهُمْ؛ لِأَنَّهُمْ مُسْتَحَقُّونَ لِذَلِكَ، وَلَكِنْ سَبَّحَانَهُ يُؤَخِّرُهُمْ حَتَّى يَأْتِيَ الْأَجَلَ الْمَضْرُوبَ، وَالْمَوْعِدَ الْمَحْدَدَ فِي الْآخِرَةِ.

وَالْمَعْنَى: وَلَوْلَا وَعَدَ اللَّهُ تَعَالَى وَقَضَاؤُهُ بِتَأْخِيرِ الْعَذَابِ الْمَدْمَرِ لِهَذِهِ الْأُمَّةِ، إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى هُوَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ، لِفَاجَأَتِهِمُ الْهَلَاكَ وَكَانَ مُلَازِمًا لَهُمْ فِي هَذِهِ الْحَيَاةِ كَالْأُمَمِ السَّابِقَةِ.

قَالَ الْفَرَاءُ: فِي الْآيَةِ تَقْدِيمٌ وَتَأْخِيرٌ، وَالْمَعْنَى: وَلَوْلَا كَلِمَةٌ وَأَجَلٌ مُّسَمًّى، لَكَانَ الْعَذَابُ لَزِمًا لَهُمْ، وَإِنَّمَا آخَرُهُ؛ لِتَعْتَدِلَ رِوَايَةُ الْآيَةِ (١).

(١) «زاد المسير» (٥/٣٣٣).

والكلمة: هي قضاء الله تعالى، ووعد السابِق بتأخير العذاب عن المكذِبين بدعوة محمد ﷺ ممن استبعدوا نزول العذاب بهم، وقالوا: متى هذا الوعد؟

والأجل المسمى: هو يوم القيامة حيث يحل العذاب بكل من مات على الكفر، ولولا ذلك لكان العذاب ملازمًا لهم لا ينفك عنهم.

وجاء اسم اللزَام لنوع من العذاب، توَعَّد الله به مَنْ كَذَبَ محمدًا ﷺ.

ففي صحيح البخاري وغيره: عن عبد الله بن مسعود ؓ قال: خمس قد مضين: الدخان، والقمر، والرُّومُ، والبطشة، واللزام ﴿فَسَوْفَ يَكُونُ لِزَامًا﴾^(١).

وفي حديث النبي ﷺ الذي رواه ابن مسعود ؓ: «... وقد مضت الدخان والبطشة واللزوم وآية الرُّوم»^(٢).

فتأخير العذاب المدمر إلى أجل مسمى هو يوم القيامة، وقد يكون هذا الأجل في الدنيا، كما حدث في يوم بدر لكفار قريش.

وقد صحَّ عن مجاهد في الطبري أن الأجل المسمى - المذكور في الآية - يكون في الدنيا.

قلت: ولعل هذا الأجل يكون إلى الدار الآخرة وهو الأصح؛ لأن الآية عامة.

ثَلَاثَةُ تَوْجِيهَاتٍ رَبَّانِيَّةٍ:

التَّوْجِيهُ الْأَوَّلُ: الصَّبْرُ عَلَى تَبْلِيغِ الدَّعْوَةِ مُسْتَعِينًا بِالْإِتِّصَالِ بِاللَّهِ

١٣٠ - ﴿فَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا وَمِنْ آنَاءِ اللَّيْلِ فَسَبِّحْ وَأَطْرَافَ النَّهَارِ لَعَلَّكَ تَرْضَىٰ﴾^(٣)

وما دام الأمر كذلك، بإمهال الله تعالى للمكذِبين وتأخير العذاب عنهم، فما عليك يا رسول الله، وما عليك يا من تدعو إلى الله في كل زمان ومكان، بعد أن تبدل الجهد في

(١) «صحيح البخاري» برقم (١٠٠٧، ٤٧٦٧) و«صحيح مسلم» برقم (٢٧٩٨).

(٢) «صحيح البخاري» برقم (١٠٠٧) من حديث طويل، وانظر: (١٠٢٠، ٤٦٩٣) ومسلم (٢٧٩٨).

(٣) قرأ شعبة والكسائي بضم التاء من (ترضى) فعل مضارع مبني للمجهول، من أَرْضَى، ونائب الفاعل ضمير المخاطب، وقرأ الباقر بفتح التاء مضارع مبني للمعلوم، من رضي الثلاثي، والفاعل ضمير المخاطب.

الدعوة إلى الله تعالى، إلا أن تصبر على ما يقوله المكذبون من أوصاف وأباطيل، وتحمل الأذى بالقول أو الفعل في سبيل الدعوة إلى الله سبحانه.

والأمر بالصبر على أذى المشركين، جاء في الآيات التي نزلت بمكة قبل أن يؤمر الرسول ﷺ بالقتال، أي قبل أن تكون للإسلام دولة وقوة وشوكة، وبعد أن أقيمت دولة الإسلام، أمر الله رسوله بقتال من حارب الإسلام، ووقف في وجه الدعوة.

فاستعن بالصبر على أمور أخرى كثيرة، وأول هذه الأمور: أن تُكثر من الصلاة والتسبيح، وأن تكون موصولاً بالله ﷻ آناء الليل وأطراف النهار، مجدداً صلّتك به تعالى، قبل طلوع الشمس في صلاة الفجر، وقبل غروبها في صلاة العصر، ومن آناء الليل سبّحه في صلاة العشاء، وسبّحه في أطراف النهار: الطرف الأول، صلاة الظهر والطرف الثاني صلاة المغرب، قال تعالى: ﴿وَأَقِمِ الصَّلَاةَ طَرَفِي النَّهَارِ وَزُلْفًا مِّنَ اللَّيْلِ﴾ [هود: ١١٤]. وقال سبحانه: ﴿أَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِكَ أَشْمَسَ إِلَيْكَ غَسَقِ اللَّيْلِ وَقُرْآنَ الْفَجْرِ﴾ [الإسراء: ٧٨].

وقد رتب الله جل شأنه على التسبيح المقرون بحمده، أن ينال العبد الثواب من الله تعالى، فترضى به نفسه، أى تنال ما يرضيك عند الله بمعنى: لعلك تُعطى ما يرضيك -أيها المسلم- فيكون التسبيح بحمد الله تعالى سبباً لإثابتك على هذه الأعمال بما ترضى به، ويكون سبباً في أمنك وطُمأننتك ورضاك، ويكون أيضاً سبباً لرضى رب العالمين عليك.

١- في الحديث القدسي: إن الله تبارك وتعالى يقول لأهل الجنة: «يا أهل الجنة، فيقولون: لبيك ربنا وسعديك، فيقول ﷻ: هل رضيتم؟ فيقولون: وما لنا لا نرضى، وقد أعطيتنا ما لم تُعطِ أحداً من خلقك، فيقول سبحانه: أنا أعطيتكم أفضل من ذلك، قالوا: يارب، وأي شيء أفضل من ذلك، فيقول: (أحل عليكم رضواني فلا أسخط عليكم بعده أبداً)»^(١).

٢- وفي صحيح مسلم وغيره: عن أبي بكر بن عمارة بن رُوَيْبَةَ عن أبيه أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: «لا يلج النار من صلى قبل طلوع الشمس وقبل غروبها» يعني: صلاتي الفجر والعصر، فقال رجل من أهل البصرة: أنت سمعت هذا من رسول الله ﷺ؟ قال:

(١) «صحيح البخاري» برقم (٦٥٤٩) من حديث أبي سعيد رضي الله عنه، ومسلم (٢٨٢٩).

نعم، قال الرجل: وأنا أشهد أنني سمعته أذناي، ووعاه قلبي^(١).

وفي ذلك دليل على وجوب المحافظة على صلاة الصبح وصلاة العصر.

٣- وفي الصحيحين وغيرهما: عن جرير بن عبد الله البجلي رضي الله عنه قال: كنا جلوساً عند رسول الله ﷺ فنظر إلى القمر ليلة البدر فقال: «إنكم سترون ربكم كما ترون هذا القمر، لا تضامون في رؤيته، فإن استطعتم ألا تغلبوا على صلاة قبل طلوع الشمس وقبل غروبها فافعلوا» ثم قرأ الآية ﴿فَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ الْغُرُوبِ﴾^(٢).

٤- فالمحافظة على صلاتي الفجر والعصر على وجه الخصوص، سبب للنظر إلى وجه الله الكريم يوم لقائه، كما جاء في حديث صهيب رضي الله عنه أنه يقال: «يا أهل الجنة، إن لكم عند الله موعداً يريد أن يُنجزكموه، فيقولون: وما هو؟ ألم يبيض وجوهنا، ويثقل موازيننا، ويؤخرنا عن النار، ويدخلنا الجنة؟ فيكشف الحجاب، فينظرون إليه، فوالله ما أعطاهم خيراً من النظر إليه، وهي الزيادة»^(٣).

أي: الزيادة الواردة في قوله تعالى: ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا لِمُتَىٰ وَزِيَادَةٌ﴾ [يونس: ٢٦].

التَّوْجِيهِ الثَّانِي: عَدَمُ التَّطَلُّعِ إِلَىٰ مَا عِنْدَ الْآخَرِينَ مِنْ مَتَاعِ الدُّنْيَا

١٣١- ﴿وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْهُمْ زَهْرَةَ^(٤) الْحَيَاةِ الدُّنْيَا^(٥) لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ﴾

أما التوجيه الثاني لرسول الله ﷺ ولكل مسلم، فهو أن يستعين بالصبر على عدم النظر

(١) «المسند» (١٣٦/٤) برقم (١٧٢٢٢، ١٧٢٢٣، ١٨٢٩٧) بإسناد صحيح على شرط مسلم ورجال ثقات، (محققوه) و«صحيح مسلم» برقم (٦٣٤) من حديث عمارة بن رؤبة وهذا لفظه، وابن أبي شيبة (٣٨٦/٢) وأبو داود (٤٢٧) والنسائي (٤٧٠)، وابن حبان (١٧٤٠) والبخاري برقم (٥٧٣، ٥٥٤) ومسلم برقم (٦٣٣) وأبو داود (٤٧٢٩) والترمذي (٢٥٥١) والنسائي في «الكبرى» (٧٧٦٢) وابن ماجه (١٧٧) وابن خزيمة (١١/٢٣٨) وابن حبان (٧٤٤٢) و«المسند» (١٩١٩٠)، بإسناد صحيح على شرط الشيخين.

(٣) يُنْظَرُ: «صحيح مسلم» برقم (١٨١).

(٤) قرأ يعقوب بفتح هاء (زهرة) والباقون بإسكانها، وهما لغتان.

(٥) لم يعد (الحياة الدنيا) آية، الكوفي والحمصي، وعدّها غيرهما.

إلى ما مَتَّعَ الله به بعض الناس من أنواع المتع، فإنها ظل زائل، وقد مَتَّعَهُمَ الله بها ليتليهم، وذلك أن الله تعالى بعدما وَبَّخَ المكذبين بخاتم المرسلين ﷺ على عدم الاعتبار بما حل بالأمم السابقة التي كذبت رسل الله، ثم تَوَعَّدَهُمَ بالعذاب المؤجل .
بعد ذلك أمرني به في هذه الآية، باحتقار شأن الأثرياء منهم، فهو متاع مؤقت وظل زائل .
فأصبر على أذاهم، ولا تتطلع إلى ما في أيديهم من مال ومتاع، وفي هذا نهى عن الإعجاب بالدنيا وزينتها، وعدم الاغترار بها .

قال تعالى: ﴿يَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُم بِهِ مِنْ مَّالٍ وَبَيْنٍ ۖ ﴿٥٥﴾ نَسَارُ لَّهُمْ فِي الْخَيْرَاتِ بَلْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٥٦﴾﴾ [المؤمنون].

وقال سبحانه: ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّمَا نُطَمِّلُ لَهُمْ خَيْرٌ لِّأَنفُسِهِمْ إِنَّمَا نُمَلِّ لَهُمْ لِيَزْدَادُوا إِثْمًا وَلَهُمْ عَذَابٌ ۖ﴾ [آل عمران: ١٧٨].

وقال أيضاً: ﴿لَا يَغْرَنَكْ ثَقَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي الْآلِدِ ﴿٧٦﴾ مَتَّعَ قَلِيلٌ ثُمَّ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمِهَادُ ﴿٧٧﴾﴾ [آل عمران]. ﴿قُلْ مَتَّعُ الدُّنْيَا قَلِيلٌ﴾ [النساء: ٧٧]. ﴿مَا عِنْدَكُمْ يَنْفَدُ وَمَا عِنْدَ اللَّهِ بَاقٍ﴾ [النحل: ٩٦].

فقد يكون العطاء والمتاع استدراجاً لهم لموافقة سجاياهم، حتى تقوم الحجة عليهم، ويستوجبوا عقاب الله تعالى، بالإضافة إلى أن متاعهم مقصور على الدنيا، ومنهم من يبرؤ والديه ويقوم بخدمات إنسانية، فيكون قد أخذ ثوابه في الدنيا بما أوتي فيها من مال ومتاع .
ومعنى الآية: لا تتطلع لما في أيدي غيرك من النساء والمال والمتاع؛ فإن ذلك زينة الدنيا بالنسبة للكافر والعاصي، وفتنة له، وهي ظل زائل فيها ابتلاء واختبار ﴿إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الْأَرْضِ زِينَةً لِّهَا لِنَبْلُوهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ﴿٧٦﴾﴾ وَإِنَّا لَجَاعِلُونَ مَا عَلَيْهَا صَعِيدًا جُرُزًا ﴿٧٧﴾﴾ [الكهف: ٧، ٨].
والإسلام يأمر بطلب الرزق وبذل الجهد فيه، ولا يرضى بالكسل، وإنما يأمر ببذل السبب، وسلوك الطرق المشروعة، وما يرزقك الله به بعد ذلك، عليك أن ترضى به، ولا تتطلع لما هو أعلى منك في الرزق؛ فالمؤمن ينبغي عليه أن ينظر لمن هو دونه في الرزق، فهو أجدر ألا يزدرى نعمة الله عليه، وألا يحتقر نفسه، وعليه لا يحسد غيره، والغنى غنى النفس، فكم من فقير مُعْدِم وهو عزيز في نفسه كريم على الناس، وكم من غني فقير النفس وهو ذليل عند الناس .

وهذه جملة من الأحاديث في معنى الآية:

- ١- دخل عمر رضي الله عنه على رسول الله ﷺ وهو مضطجع على حصير في الفترة التي اعتزل فيها نساءه، فدمعت عينا عمر رضي الله عنه، فقال له الرسول ﷺ: «ما يبكيك يا عمر؟» قال: يا رسول الله، إن كسرى وقيصر فيما هما فيه، وأنت رسول الله؟ فقال رسول الله ﷺ: «أما ترضى أن تكون لهم الدنيا ولنا الآخرة»^(١). فقد عجل الله لهم أرزاقهم ومتّعهم في الدنيا.
- ٢- والنبي ﷺ قد راودته جبال مكة أن تكون له ذهباً وفضة، وتسير معه أينما سار، فأرسل له الله تعالى الملك الموكل بالجبال ليأمره بذلك إن أراد، فقال ﷺ: «أجوع مرة فأشعر بأني محتاج إلى ربي فأسأله، وأشبع مرة فأشكر نعم الله وفضله عليّ». وكان من دعاء الرسول ﷺ: «اللهم اجعل رزق آل محمد كفافاً»^(٢).
- بحيث لا يحتاج الإنسان إلى غيره، ولا يطغى بكثرة ماله:
- ٣- وفي حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه: أن رسول الله ﷺ قال: «إنما أخشى عليكم من بعدي ما يفتح عليكم من بركات الأرض، ثم ذكر زهرة الدنيا»^(٣) الحديث.
- ٤- وعن زيد بن ثابت رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «من كانت الدنيا همه فَرَّقَ الله عليه أمره، وجعل فقره بين عينيه، ولم يأته من الدنيا إلا ما كُتِبَ له، ومن كانت الآخرة نيته جمع الله له أمره، وجعل غناه في قلبه، وأتته الدنيا وهي راغمة»^(٤).
- ٥- وعن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «يقول الله تعالى: يا بن آدم، تفرغ لعبادتي

(١) يُنظر: «صحيح البخاري» برقم (٤٩١٣) ومسلم (١٤٧٩).

(٢) عن أبي هريرة في صحيح ابن حبان (٢٥٤/١٤) برقم (٦٣٤٣) وهو في صحيح البخاري (٦٤٦٠) بلفظ (اللهم ارزق آل محمد قوتا) عن أبي هريرة وفي صحيح مسلم (١٠٥٥).

(٣) يُنظر: البخاري برقم (٢٨٤٢) ومسلم برقم (١٠٥٢). من حديث طويل.

(٤) ابن ماجه برقم (٤١٠٥) وقال البوصيري في الزوائد (٢٧١/٣) هذا إسناد صحيح، رجاله ثقات. وصحّحه الألباني في «صحيح ابن ماجه» (٣٩٣/٢) برقم (٣٣١٣) وعزاه الهيثمي إلى الطبراني في «الأوسط»، وقال: ورجاله وثقوا، «مجمع الزوائد» (٢٤٧/١٠) ورواه ابن حبان وأبو داود الطيالسي، وهو في السلسلة الصحيحة (٩٥٠).

أَمْ لَمْ يَكُنْ غَنِيًّا، وَأَسَدَّ فَرْكَ، وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ مَلَأْتُ صَدْرَكَ شَغْلًا، وَلَمْ أَسُدَّ فَرْكَ»^(١).

٦- وعن ابن مسعود رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «مَنْ جَعَلَ الْهَمُومَ هَمًّا وَاحِدًا، هَمَّ الْمَعَادِ، كَفَاهُ اللَّهُ هَمَّ دُنْيَاهُ، وَمَنْ تَشَعَّبَتْ بِهِ الْهَمُومُ فِي أَحْوَالِ الدُّنْيَا، لَمْ يَبَالِ اللَّهُ فِي أَيِّ أَوْدِيَّتِهِ هَلَكَ»^(٢).

فلا تتطلع -أيها المسلم- إلى أرزاق الناس، هذا يركب سيارة كذا، وهذا يسكن فيلا كذا، وهذا يلبس كذا، وهذا متزوج كذا، لا تتطلع إلى هذا ولا ذاك، واقنع بما أعطاك الله تعالى.

٧- لم يجد النبي ﷺ ذات يوم شيئًا يقدمه لضييفه، فأرسل (أبا رافع) ليهودي كان جاريًا له، يطلب منه أن يقرضه شيئًا من دقيق إلى هلال رجب؛ ليُكْرِمَ به ضيفه، فأبى أن يعطيه إلا برهن، فقال ﷺ لَمَّا بَلَغَهُ ذَلِكَ: «وَاللَّهِ إِنِّي لَأَمِينٌ فِي السَّمَاءِ، أَمِينٌ فِي الْأَرْضِ» فأرسل النبي ﷺ له درعه الحديد، فأنزل الله هذه الآية تعزية لرسول الله ﷺ^(٣).

قال تعالى: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الْأَرْضِ زِينَةً لَهَا لِنَبْلُوهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ ﴿٧﴾ [الكهف] أي: ليكون هذا الابتلاء سببًا للعذاب أو للتنعيم.

والله سبحانه قد يزيد للعبد في الرزق استدراجًا له؛ لِيُظْهِرَ في الوجود هل يكون من الشاكرين أم لا؟ وما عند الله خير وأبقى، فتواب الله دائم لا ينقطع، وما عنده خير مما في الدنيا، وما يعطيك إياه في الآخرة هو خير لك وأبقى، فهو دائم لا ينقطع، قال تعالى: ﴿بَلْ تُؤْثِرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ﴿١١﴾ وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَى ﴿١٢﴾﴾ [الأعلى]. فعلى المرء أن يوازن بين ما يبقى وما يغنى.

كان بعض السلف ومنهم عروة بن الزبير إذا دخل على السلاطين يقرأ: ﴿وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْهُمْ زَهْرَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ وَرَزَقُكَ رَبُّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَى ﴿١٣﴾﴾

(١) «سنن الترمذي» برقم (٢٤٦٦) و«سنن ابن ماجه» برقم (٤١٠٧) وقال الترمذي: هذا حديث حسن غريب، وصححه الألباني في صحيح ابن ماجه (٣٣١٥) والسلسلة الصحيحة (١٣٥٩).

(٢) «سنن ابن ماجه» برقم (٤١٠٦)، وحسنه الألباني في صحيح ابن ماجه (١٣١٤) ومشكاة المصابيح (٢٦٣) والتعليق الرغيب (٨٣/٤).

(٣) يُنَظَرُ: الطبري (٢٣٥/١٦) و«الدر المنثور» (٣١٢/٤) والسيوطي (١٨٢) و«زاد المسير» (٣٣٥) والقرطبي (٢٦٢/١١) والواحدي (٢٥٦) وقد أخرجه ابن أبي شيبة وابن راهويه وأبو يعلى، وهو في البزار (٣٨٦٣) وعند أبي نعيم في «المعرفة» (٨٦٥) وصححه الألباني في «صحيح الجامع» (١٣٤٩).

ثم يذهب إلى أهل بيته، ويقول لهم: الصلاة الصلاة، يرحمكم الله.

٨- قالت عائشة رضي الله عنها: والله يا بن أختي إنا كنا لننظر الهلال ثم الهلال، ثلاثة أهلة في شهرين ما يوقد في آيات رسول الله نار، وإن آياته آنذاك لتسع^(١) أي: ليس هناك من طيخ ولا إدام، قال ابن الزبير: فماذا كان طعامكم يا خالة؟ قالت: الأسودين: الماء، والتمر.

٩- ومن آثار العمل بهذه الآية، ما جاء في صحيح البخاري وغيره أن فاطمة رضي الله عنها بلغها أن سبياً جيء به إلى النبي صلى الله عليه وسلم فأنت تشتكي إليه ما تلقى من الرّحى، تسأله خادماً من السبى، فلم تجده، فأخبرت عائشة بذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم فجاءها النبي صلى الله عليه وسلم وقد أخذت هي وعليّ مضجعهما، فجلس في جانب الفراش، وقال لها ولعلي: «ألا أخبركما بخير لكما مما سألتما؟ تسبّحان وتُحَمَّدان وتُكَبِّران دبر كل صلاة ثلاثاً وثلاثين، فذلك خير لكما من خادم» قالت فاطمة: فلم أجد بعد ذلك ما كنتُ أجد من مشقة وتعب.

وقد ذكرت الآية أن علاج تكذيب المكذبين، وعناد المعاندين، وإيلام المخالفين، يكون بالصبر والاحتساب، وأن علاج التعب الجسمي والألم البدني يكون بكثرة التسبيح والاستغفار، ويكون بالتكبير والصلاة؛ فإن هذه العبادات علاج قوي للروح، ولها تأثير بالغ عليها، فإذا قويت الروح انعدم الإحساس بالألم البدن، وإلا فما علاقة التعب الجسماني بالتسبيح والتحميد والتكبير الذي أمر به الرسول صلى الله عليه وسلم فاطمة رضي الله عنها وهي تشتكي له ألم طحن الحبوب بالرحى، ونقل الماء من مكان إلى مكان، ما لم يكن هذا التسبيح غذاء للروح، وإذا قويت الروح لا يشعر الجسد بالتعب.

والآية لا تأمر بالكسل وعدم العمل، إنما تنهى عن التطلع لما في أيدي الناس من حُطام الدنيا، وأن يرضى الإنسان برزقه، ولا يحزن على ما فاتته، ولا يجعل الدنيا أكبر همه، ويستعين بالعبادة على طلب الرزق:

١- كما قال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ٥١﴾ مَا أُرِيدُ مِنْهُمْ مِنْ رِزْقٍ وَمَا أُرِيدُ أَنْ يُطْعَمُوا ٥٢ إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ ٥٣﴾ [الذاريات].

٢- وقال سبحانه: ﴿وَفِي السَّمَاءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ ٢٢﴾ قَرَّبَ السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ إِنَّهُ لَحَقٌّ مِثْلَ مَا أَنَّكُمْ

(١) الحديث في «صحيح البخاري» (٢٥٦٧، ٦٤٥٩) وفي «صحيح مسلم» (٢٩٧٢).

نُطْفَرُونَ ﴿١٣٢﴾ [الذاريات].

٣- وقال جلَّ شأنه: ﴿وَكَايْنٍ مِّنْ دَابَّةٍ لَا تَحْمِلُ رِزْقَهَا اللَّهُ يَرْزُقُهَا وَإِيَّاكُمْ﴾ [العنكبوت: ٦٠].

٤- وقال أيضًا: ﴿وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا﴾ [هود: ٦].

التَّوْجِيهُ الثَّالِثُ: الْأَسْتِعَانَةُ بِالصَّبْرِ عَلَى تَعْوِيدِ أَهْلِ بَيْتِهِ الصَّلَاةَ

١٣٢- ﴿وَأْمُرْ^(١) أَهْلَكَ بِالصَّلَاةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا لَا تَسْأَلُكَ رِزْقًا نَحْنُ نَرْزُقُكَ وَالْعَاقِبَةُ لِلتَّقْوَى﴾ ﴿١٣٢﴾

هذا توجيه لكل مسلم، فالمهمة الأولى للمسلم، أن يجعل بيته بيتًا مسلمًا، زوجته أو زوجاته وأولاده وأهل بيته جميعًا، يأمرهم بالصلاة؛ ليقبهم عذاب النار، وتكون صلتهم بالله تعالى قوية، يقول سبحانه: ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا قَوْمًا أَنفُسُهُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ﴾ [التحريم: ٦].

لا يكفي أن تصلي وحدك وتترك ولدك في البيت يلعب، أو في الشارع يلهو، أو يتفرج على مباراة أو تلفاز، أو يكون نائمًا، أو يذاكر دروسه، ونحو ذلك، الولد المميز مسؤولية، لا بد أن تحرص عليها-أيها المسلم- وتغرس في ولدك حب الصلاة والعبادة، وتوقظه فجرًا، وتأتي به إلى المسجد، ما دام قد بلغ الحُلُم، وتأمر أهلَكَ في بيتك بالصلاة، وتصبر عليها، وكان عليه الصلاة والسلام إذا حزبه أمر، أو أصابته فاقة أو خصاصة، فزع إلى الصلاة، ودعا أهله إليها.

وقد أمر الله رسوله بما هو أعظم مما يأمر به أهله، وهو أن يصطبر على الصلاة.

والاصطبار: هو حبس النفس على الطاعة. ومعنى ﴿وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا﴾: بالغ في الصبر وتحمل الأذى، وجاهد نفسك في المواظبة عليها سيما صلاة الفجر فإن من ضيع الصلاة كان لما سواها أضيع.

وإذا قابل بعض الناس مشقة في تعليم أهل بيوتهم الصلاة، فعليهم أن يتحللوا بالصبر، والاستمرار معهم دون يأس، ولتكن صلاتهم خشوعًا، مع المحافظة على ركوعها وسجودها.

(١) قرأ ورش وأبو عمرو بخلفه بإبدال همزة (وأمر) ألفًا، وكذا حمزة وقفًا، والباقيون بتحقيقها في الحالين.

أخرج ابن عساكر وغيره، عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: لما نزلت ﴿وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلَاةِ﴾ كان النبي ﷺ يجيء إلى باب عليّ صلاة الغداة، ثمانية أشهر، يقول: «الصلاة رحمكم الله ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا﴾»^(١) [الأحزاب: ٣٣].

ثم قال تعالى: ﴿لَا تَسْأَلُكَ رِزْقًا﴾ أي: لا نكلفك أن ترزق نفسك، ولا أن ترزق ولدك، فقد تكفل الله برزقك ورزق ولدك، ولن تموت نفس حتى تستكمل رزقها وأجلها، فاتقوا الله وأجملوا في الطلب.

﴿نَحْنُ رَزُقُكَ﴾ فلا تجعل طلب الرزق والمعيشة سبباً للتقصير في العبادة، أو في أداء حق الله تعالى.

﴿وَالْعَاقِبَةُ لِلتَّقْوَى﴾ فرزق الله جل شأنه يأتي للخلق جميعاً: للمؤمن والكافر، وللصالح والفاقد، ولكن العاقبة المحمودة يوم لقاء رب العالمين، هي لعباده المتقين.

الْقُرْآنُ هُوَ الْمُعْجَزَةُ الْكُبْرَى، وَالنَّارُ مَوْعِدُ مَنْ لَمْ يُؤْمِنْ بِهِ

١٣٣ - ﴿وَقَالُوا لَوْلَا يَأْتِينَا بِآيَةٍ مِنْ رَبِّهِءَ أُولَئِكَ تَأْتِيهِمْ^(٢) بَيِّنَةٌ مَا فِي الصُّحُفِ الْأُولَى﴾

وقال المكذبون: هلا يأتينا محمد بمعجزة تدل على صدقه وفي هذا تنويه بشأن لقرآن العظيم، وبيان أنه أعظم المعجزات، وفي هذا رد على ما يطلبه الكفار من الرسول ﷺ من الآيات الخارقة، كعصا موسى، أو ناقة صالح، وكعلاج الأكمه والأبرص، قال تعالى في الرد عليهم: ﴿أُولَئِكَ تَأْتِيهِمْ بَيِّنَةٌ مَا فِي الصُّحُفِ الْأُولَى﴾ والمراد بالبيينة في الآية: محمد ﷺ وكتابه القرآن، أي أولم يكفهم هذا القرآن وقد وعد الله به أهل الكتب السالفة في كتبهم، وهم يعرفون أن محمداً رسول الله، أكثر من معرفتهم لأبنائهم ﴿وَلَنْ فَرِيقًا مِنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ١٤٦].

(١) ابن عساكر (٤٢/١٣٦).

(٢) قرأ ابن كثير وابن عامر وشعبة وحمزة والكسائي وخلف وابن وردان بخلف عنه بالياء في (تأتهم) على التذكير، والباقون بياء التأنيث، ومعهم ابن وردان في وجهه الآخر، وجاز تذكير الفعل وتأنيثه؛ لأن الفاعل مؤنث غير حقيقي.

وقد بين سبحانه أن الكفار من أهل الكتاب والمشركون معاً، لن يفارقوا ما هم عليه من ديانة حتى تأتيهم البينة، وهي رسول الله ﷺ يقرأ هذا القرآن: ﴿لَمْ يَكُنِ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ مُنْفِكِينَ حَتَّى تَأْتِيَهُمُ الْبَيِّنَةُ ۖ رَسُولٌ مِّنَ اللَّهِ يَتْلُو صُحُفًا مُّطَهَّرَةً﴾ ﴿٢﴾ [البينة].

وهذه البينة يرُدُّ الله تعالى بها على من يتعللون لعدم إيمانهم يوم القيامة بعدم إرسال الرسول، أو إنزال الكتاب عليهم، فيقول سبحانه: ﴿فَقَدْ جَاءَكُمْ بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ ۖ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَذَبَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَصَدَفَ عَنْهَا﴾ [الأنعام: ١٥٧]. ومن لم يؤمن بخاتم الرسل من جميع البشر فالنار موعده.

في الصحيحين: عن أبي هريرة ؓ أن النبي ﷺ قال: «ما من الأنبياء نبي إلا أُعطي ما مثله آمن عليه البشر، وإنما كان الذي أوتيتُ وحياً أوحاه الله إليّ، فأرجو أن أكون أكثرهم تابِعاً يوم القيامة»^(١).

وعن أبي هريرة ؓ أن رسول الله ﷺ قال: «والذي نفس محمد بيده، لا يسمع بي أحد من هذه الأمة: يهودي، ولا نصراني، ثم يموت، ولم يؤمن بالذي أرسلت به، إلا كان من أصحاب النار»^(٢).

وفي الآية ردُّ على من لم يكتفِ بمعجزات محمد ﷺ وكتابه، ويطلب أدلة أخرى على رسالته ﷺ، ولم يؤمن بأن هذا القرآن قد سبق التبشير به في الكتب السابقة، وأنه أعظم المعجزات القائمة إلى يوم القيامة على تعاقب الأجيال، واختلاف ألوان الناس وألستهم.

أو لم يكفِ المكذبين بك -يا محمد- هذا القرآن المصدق لما في الكتب السابقة، وهو مشتمل على أخبار الأمم الماضية، وفيه بيان ما حلَّ بهذه الأمم، وفيه من أمور الغيب والتشريع والهدايات والحكم والمواعظ والآداب، ما يزيد على ما في الكتب السابقة، كما قال تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيَّنَّ يَدِيهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهِيمًا عَلَيْهِ﴾ [المائدة: ٤٨] أي: مشتملاً على ما في الكتب السابقة وزيادة.

وهذا القرآن معجز، وهو قائم بين أيديهم إلى قيام الساعة ﴿أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ

(١) «صحيح البخاري» برقم (٤٩٨١، ٧٢٧٤) و«صحيح مسلم» برقم (١٥٢).

(٢) «صحيح مسلم» برقم (١٥٣).

الْكِتَابَ يُتْلَى عَلَيْهِمْ ﴿[العنكبوت: ٥١].

و﴿الْصُّحُفِ الْأُولَى﴾ هي كتب الأنبياء السابقين، كالتوراة والإنجيل، وقد بينها الله تعالى في قوله: ﴿صُحُفَ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى﴾ [الأعلى]. وقوله: ﴿أَمْ لَمْ يُنَبِّأْ بِمَا فِي صُحُفِ مُوسَى﴾ [٣٦] وَإِبْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَّى ﴿[٣٧]﴾ [النجم]. وفي هذه الكتب، التصريح ببعثة محمد ﷺ، والتبصير به، ولكنهم لا يؤمنون بها عنادًا وجحودًا واستكبارًا.

أما الآيات الخارقة التي أشارت إليها الآية فقد جاء ذكرها في مواطن كثيرة من كتاب الله عز وجل، منها قوله ﴿وَقَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الْأَرْضِ يَنْبُوعًا﴾ الآيات ٩٠-٩٣ من سورة الإسراء وبين سبحانه السبب في عدم إجابتهم لما طلبوا في مثل قوله تعالى: ﴿وَمَا مَنَعَنَا أَنْ نُرْسِلَ بِالْآيَاتِ إِلَّا أَنْ كَذَّبَ بِهَا الْأُولُونَ﴾ [الإسراء: ٥٩]

وقوله ﴿وَنُقَلِّبُ أَفْعَادَهُمْ وَأَبْصَرَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ [الأنعام: ١١٠]

قال تعالى ﴿أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ يُتْلَى عَلَيْهِمْ﴾ [العنكبوت: ٥١]

وقال سبحانه: ﴿إِنَّ الَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [٩٦] وَلَوْ جَاءَتْهُمْ كُلُّ آيَةٍ حَتَّى يَرَوْا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ [يونس]

قَطْعُ أَعْذَارٍ مَنْ لَمْ يُؤْمِنْ بِخَاتَمِ النَّبِيِّينَ ﷺ

١٣٤- ﴿وَلَوْ أَنَا أَهْلَكْنَاهُمْ بِعَذَابٍ مِنْ قَبْلِهِ لَقَالُوا رَبَّنَا لَوْلَا أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ آيَاتِكَ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَذِلَّ وَنَخْزَى﴾ [١٣٤]

في هذه الآية قطع لأعذار كل من كذب برسالة محمد ﷺ، وبيان أن الله تعالى لو أهلكهم قبل أن يرسل إليهم محمدًا ﷺ لقامت لهم الحجة يوم القيامة. أي: ولو أنا أهلكنا المكذبين بخاتم النبيين بعذاب نزل عليهم قبل أن يرسل الله إليهم رسولًا، لقالوا على سبيل الاعتذار يوم القيامة: ربنا، لماذا لم ترسل إلينا رسولًا، أو كتابًا فنؤمن به ونتبعه؟! كما قال تعالى: ﴿وَلَوْلَا أَنْ تُصِيبَهُمْ مُصِيبَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَيَقُولُوا رَبَّنَا لَوْلَا أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ آيَاتِكَ وَكُنُوتَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الفصص].

وقد أرسل الله إليهم الرسل، وأنزل عليهم الكتب؛ ﴿لَعَلَّ يَكُونُ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ

﴿النساء: ١٦٥﴾ وقد أرسلهم الله تعالى لإيقاظ العقول والفطر؛ لأن الله تعالى لا يؤاخذ أهل الفترة حتى يبعث إليهم رسولاً، وإن قريشاً قبل بعثة محمد ﷺ كانوا أهل فترة ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولًا﴾ [الإسراء: ١٥].

خَتَامُ السُّورَةِ

١٣٥- ﴿قُلْ كُلُّ مُتَرَبِّصٍ فَتَرَبِّصُوا فَسَتَعْلَمُونَ مَنْ أَصْحَبُ الصِّرَاطِ^(١) السَّوِيِّ وَمَنِ اهْتَدَى ﴿١٣٥﴾﴾

هذا أمر من الله تعالى لنبیه محمداً ﷺ أن يقول لمن يقترحون عليه معجزات أخرى غير القرآن عناداً وتعتناً؛ ومن يتربصون به ريب المنون وأن يحل أجله، انتظروا وتربصوا، فأنا متربص ومنتظر معكم، وكانوا يتربصون برسول الله الموت، كما قال تعالى: ﴿أَمْ يَقُولُونَ شَاعِرٌ نَّبْرِصُ بِهِ رَبِّبَ الْمُنُونِ ﴿٢٠﴾﴾ [الطور].

والله تعالى يقول: ﴿قُلْ هَلْ تَرَبَّصُوتُنَا إِلَّا إِنْ أَخَذَى الْحُسَيْنِيُّ وَنَحْنُ نَتَرَبَّصُ بِكُمْ أَنْ يُصِيبَكُمُ اللَّهُ بِعَذَابٍ مِنْ عِنْدِهِ أَوْ بِأَيْدِينَا فَتَرَبَّصُوا إِنَّا مَعَكُمْ مُتَرَبِّصُونَ﴾ [التوبة: ٥٢].

والحُسنِيان: الشهادة، أو الجنة والنصر، فكل منّا ينتظر دوائر الزمان، لمن يكون النصر والفلاح؟ فانتظروا، فتعلمون يوم القيامة في الموقف العظيم من هو المهتدي منا للحق، نحن أم أنتم؟ ومن منا على الهدى، ومن منا على الضلال؟

قال تعالى: ﴿وَسَوْفَ يَعْلَمُونَ حَيْثُ يَرَوْنَ الْعَذَابَ مَنْ أَضَلُّ سَبِيلًا﴾ [الفرقان: ٤٢].

وقال سبحانه: ﴿سَيَعْلَمُونَ عَدَا مَنِ الْكَذَّابُ الْأَشِيرُ ﴿٢١﴾﴾ [القمر].

وقال جلَّ شأنه: ﴿فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَانظُرْ إِلَيْهِمْ مُنْتَظِرُونَ ﴿٢٢﴾﴾ [السجدة].

وفي النهاية ستعلمون من أصحاب الصراط السوي فاهتدى واستقام بسلوكه، أنحن أم أنتم فالمهتدي هو الفائز الناجي، والضال هو الخاسر الهالك، نعوذ بالله من الضلال والخسران.

تم تفسير (سورة طه) والله الحمد والمنة.

(١) قرأ رويس وقبل بخلف عنه بالسين في (الصراط) على الأصل، وهي لغة عامة العرب، وقرأ حمزة بخلف عن خلاد بإشمام الصاد صوت الزاي، وهي لغة قيس، وقرأ الباقون بالصاد الخالصة، وهو الوجه الثاني لخلاد وقبل، وهي لغة قريش.

الآية	فهرس الموضوعات	الصفحة
١	تفسير سورة الإسراء - مَقْدَمُ السُّورَةِ - موضوعات السورة - ١٤ أمرًا ونهيًا في الربع الثاني	٥
٢	تفسير السُّورَةِ - الإسراء والمُعْراج - متى كانا؟ ومن أي مكان؟ شق الصدر	١٣
٣	بناء المسجد الأقصى: - تخريب المسجد الأقصى ثلاث مرات - إيلياء:	١٦
٦-٤	أثر مربط البراق في زاوية المسجد الأقصى - من مشاهد ليلة العروج:	١٨
٧	الرسول يؤم الرسل في المسجد الأقصى - الإسراء والعروج كانا نقطة بالجسد والروح	٢١
٨	موقف المكذبين بالمعراج وتصديق الله له - مع آية الإسراء	٢٣
٩، ١٠	تَكْرِيمُ اللَّهِ تَعَالَى لِمُوسَى بِالتَّوْرَةِ كَمَا كَرَّمَ مُحَمَّدًا بِالإِسْرَاءِ	٢٧
١١	دَعْوَةُ الْأُمَّةِ إِلَى تَوْحِيدِ اللَّهِ تَعَالَى	٢٨
١٢	إِفْسَادُ بَنِي إِسْرَائِيلَ فِي الْأَرْضِ - الأسر البابلي لليهود ثلاث مرات (البعث الأول) - فوائد من الآية	٣٠
١٣	البعث الآخر	٣٧
١٤	وإن عدتم عدنا - آية يهودية لبناء الهيكل - عروبة فلسطين	٣٨
١٥	وقائع نهاية إسرائيل على مدى التاريخ القديم - أسباب الهزيمة أمام اليهود:	٤٠
١٦، ١٧	هَذَابُهُ الْقُرْآنَ لِلَّهِ هِيَ أَقْوَمُ	٤٤
١٨	الدُّعَاءُ الْمُمْتَوِعُ - في الدعاء وأحكامه	٤٥
١٩	مِنْ دَلَائِلِ التَّوْحِيدِ - فائدتان لمحو آية الليل وإبصار آية النهار	٤٩
٢٠	مُلَازِمَةُ الْإِنْسَانِ لِسَجَلِ أَعْمَالِهِ	٥١
٢١	ما يخاطب به الإنسان بعد فتح كتابه أمامه	٥٥
٢٢	مَسْئُولِيَّةُ الْإِنْسَانِ عَنْ نَفْسِهِ - بكاء أهل الميت عليه - بلوغ الدعوة شرط في العذاب - أطفال غير المسلمين	٥٦
٢٣، ٢٤	عَلَّةُ هَلَاكِ الْأُمَمِ: مُخَالَفَةُ الرُّسُلِ وَالتَّمَادِي فِي الْفَسَادِ	٦٠
٢٥-٢٦	مَصِيرُ مَنْ يَعْمَلُ لِلدُّنْيَا وَمَنْ يَعْمَلُ لِلْآخِرَةِ	٦٤
٢٧	وصايا سورة الإسراء الخمس عشرة - الوصية الأولى: النَّهْيُ عَنِ الشِّرْكِ	٦٩
٢٨-٢٩	الْوَصِيَّةُ الثَّانِيَّةُ: الْأَمْرُ بِالتَّوْحِيدِ - الوصية الثالثة: الْإِحْسَانُ إِلَى الْوَالِدَيْنِ - أحاديث	٧٠
٣٠	من أهداف بر الوالدين - بر الوالدين بعد موتهما: نهيان وثلاثة أوامر تخص الوالدين:	٧٥
٣١	النهي الأول: ﴿فَلَا تَقُلْ لِمَا أَقْبَى﴾، النهي الثاني: ﴿وَلَا تَنْهَرُهُمَا﴾ -	٧٨
٣٢	الأمر الأول: ﴿وَقُلْ لَهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا﴾ - الثاني: التَّذَلُّلُ وَالْخُضُوعُ لَهُمَا الثالث: ﴿وَقُلْ رَبِّ ارْحَمْهُمَا﴾ الأبواب	٧٩
٣٣	الْوَصِيَّةُ الرَّابِعَةُ: آدَاءُ حُقُوقِ الْأَقَارِبِ وَالْمَسَاكِينِ وَأَبْنَاءِ السَّبِيلِ - حكم النفقة على الأقارب	٨٢
٣٤	الوصية الخامسة: النهي عن التبذير - الْمُبْدَرُ قَرِينُ الشَّيْطَانِ	٨٦
٣٥	الْقَوْلُ الْمَمْسُورُ	٨٧
٣٦	الوصية السادسة: النَّهْيُ عَنِ الْإِسْرَافِ وَالتَّقْتِيرِ - أحاديث في المعنى	٨٨
٣٧	القصد والاعتدال في النفقة:	٩٠
٣٨	الْوَصِيَّةُ السَّابِعَةُ: النَّهْيُ عَنِ تَرْكِ الْإِنْتِجَابِ مَخَافَةَ الْفَقْرِ	٩١
٣٩	تنظيم النسل: - آيتا الأنعام والإسراء - التنظيم المؤقت والعزل	٩٢

الآية	فهرس الموضوعات	الصفحة
٣٢	الْوَصِيَّةُ الثَّامِنَةُ: النَّهْيُ عَنِ الزَّنى	٩٥
	الزنى والإيمان لا يجتمعان، من مفساد الزنى - من التدابير الوقائية لجريمة الزنى	٩٧
٣٣	الْوَصِيَّةُ الثَّاسِعَةُ: النَّهْيُ عَنِ قَتْلِ النَّفْسِ إِلَّا بِالْحَقِّ	١٠٠
٣٤	الْوَصِيَّةُ العَاشِرَةُ: النَّهْيُ عَنِ أَكْلِ مَالِ الْيَتِيمِ - الْوَصِيَّةُ الْحَادِيَّةُ عَشْرَةٌ: الْوَفَاءُ بِالْعَهْدِ	١٠٤
٣٥	الْوَصِيَّةُ الثَّانِيَّةُ عَشْرَةٌ: الْوَفَاءُ بِالْكَفْلِ وَالْمِيزَانِ - الفرق بين آية الأنعام وهذه الآية	١٠٧
٣٦	الْوَصِيَّةُ الثالثة عَشْرَةٌ: ائْتَمِمْهُمُ الْعَمَلُ لِيَسْتَقَامَ الْقَلْبُ وَالْعَقْلُ وَالْجَوَارِحُ - أحاديث في معنى الآية	١٠٩
٣٧	الْوَصِيَّةُ الرابعة عَشْرَةٌ: النَّهْيُ عَنِ الْكِبْرِ وَالْخِيَلَاءِ	١١٢
٣٩، ٣٨	التَّعْقِيبُ عَلَى مَجْمُوعِ الْوَصَايَا	١١٥
٤٠	التَّعْقِيبُ عَلَى وَجُوبِ وَحْدَانِيَّةِ اللَّهِ تَعَالَى وَتَنْزِيهِهِ عَنِ الشُّرْكِ	١١٧
٤١	تَنْوُوعُ آسَالِبِ دَلَائِلِ التَّوْحِيدِ فِي الْقُرْآنِ	١٢٠
٤٣، ٤٢	أربعة من البراهين العقلية والنقلية على وَحْدَانِيَّةِ اللَّهِ تَعَالَى	١٢١
٤٤	جَمِيعُ الْكَاتِبَاتِ تُسَبِّحُ بِحَمْدِ اللَّهِ تَعَالَى	١٢٣
	الماء ينبع من بين أصابع النبي ﷺ - الطعام والحصى يسبحان بين يديه ﷺ	١٢٥
	الحجر يسلم على النبي ﷺ - صوت الضفدع تسيح لله سبحانه - الضفدع يعبد الله تعالى	١٢٦
	جذع النخل يحن للنبي ﷺ ويسمع له صوت وأنين - جريد النخل يسبح بحمد الله:	١٢٦
	النمل يسبح بحمد الله - الدود يكثر من ذكر الله: - الغراب يستنكر عدم التسيح لله تعالى:	١٢٧
٤٥	عَدَمُ الْإِيمَانِ بِالْيَوْمِ الْآخِرِ يُسَدُّ مَفَاذَ الْهِدَايَةِ فِي وَجُوهِ أَهْلِ الضَّلَالِ	١٢٩
٤٦	حَجَبُ عُقُولِ الْكُفَّارِ عَنْ فَهْمِ الْقُرْآنِ	١٣١
٤٨، ٤٧	فَضَحُ أَسْرَارِ الْمُكْذِبِينَ بِالْقُرْآنِ - متى ندرك ذلك؟	١٣٣
٥١-٤٩	رَدُّ شُبُهَاتِ الْمُكْذِبِينَ بِالْبُعْثِ وَالنُّشُورِ	١٣٥
٥٢	الْأَسْتِجَابَةُ لِأَمْرِ اللَّهِ تَعَالَى وَفَتْهُنَّ النُّشُورِ	١٣٨
٥٤، ٥٣	الْكَلِمَةُ الطَّيِّبَةُ صَدَقَةٌ	١٣٩
٥٥	عِلْمُ اللَّهِ تَعَالَى مُحِيطٌ وَشَامِلٌ - نبي الله داود	١٤٣
٥٦	الْفَرْقُ بَيْنَ دَعْوَةِ الْحَقِّ وَدَعْوَةِ الْبَاطِلِ	١٤٦
٥٧	التَّوَسُّلُ الْمُنْتَوَعُ وَالْمَشْرُوعُ	١٤٧
٥٨	عِقَابُ الْأُمَمِ الْمُكْذِبَةِ لِرُسُلِ اللَّهِ تَعَالَى	١٤٩
٥٩	خَوَارِقُ الْعَادَاتِ لَا تَنْفَعُ ظَالِمِيهَا	١٥١
٦٠	إِحَاطَةُ عِلْمِ اللَّهِ تَعَالَى بِمَنْ يُؤْمِنُ وَمَنْ يَكْفُرُ - رؤيا الرسول ﷺ ليلة المعراج - الشجرة الملعونة	١٥٤
٦٣-٦١	تَكْبَرُ الشَّيْطَانِ وَتَصْدِيهِ لِإِغْوَاءِ بَنِي آدَمَ	١٥٨
٦٥، ٦٤	خمس من مكاييد الشيطان	١٦٠
٦٧، ٦٦	لَا يُنْجِي فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ إِلَّا اللَّهُ	١٦٥
٦٩، ٦٨	جَمِيعُ الْخَلْقِ فِي قَبْضَةِ اللَّهِ تَعَالَى وَهُمْ فِي الْبَرِّ أَوْ الْبَحْرِ أَوْ الْجَوْ	١٦٨

الآية	فهرس الموضوعات	الصفحة
٧٠	خَمْسٌ مِنْ نِعَمِ اللَّهِ تَعَالَى عَلَى بَنِي آدَمَ، أولاً: تكريم بني آدم: ثانياً: تسخير البر والبحر للإنسان	١٦٩
٧٢، ٧١	ثالثاً: الرزق من الطيبات - رابعاً: تفضيل بني آدم على كثير من المخلوقات	١٧١
٧٥-٧٣	مَصَائِرُ الْأُمَمِ وَالشُّعُوبِ يَوْمَ لِقَاءِ اللَّهِ تَعَالَى	١٧٢
٧٧، ٧٦	عِصْمَةُ النَّبِيِّ ﷺ فِي تَبْلِيغِ الدَّعْوَةِ	١٧٥
٧٨	وَعِيدٌ مَنْ هُمُوا بِإِخْرَاجِ الرَّسُولِ ﷺ مِنْ مَكَّةَ	١٨٠
٧٩	اللُّجُوءُ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى عَنْ طَرِيقِ آدَاءِ الصَّلَاةِ	١٨١
٨٠	صَلَاةُ التَّهَجُّدِ - أحاديث في المعنى - فضل قيام الليل	١٨٤
٨١	اللُّجُوءُ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى عَنْ طَرِيقِ الدُّعَاءِ - المراد بالسلطان النصير في الآية	١٨٩
٨٢	مَجِيءُ الْإِسْلَامِ بِالتَّوْحِيدِ وَإِزَالَةِ الشِّرْكِ	١٩٢
٨٣	الْقُرْآنُ شِفَاءٌ لِلْأَرْوَاحِ وَشِفَاءٌ لِلْأَبْدَانِ	١٩٣
٨٤	الْكَافِرُ لَا يَشْكُرُ فِي السَّرَّاءِ وَلَا يَضُرُّ عَلَى الصَّرَّاءِ	١٩٤
٨٥	كُلُّ إِنَاءٍ يَنْضَحُ بِمَا فِيهِ	١٩٥
٨٧، ٨٦	الرُّوحُ مِنْ أَسْرَارِ اللَّهِ تَعَالَى - المراد بالروح - معاني الروح	١٩٦
٨٩، ٨٨	مَانِعُ الْعِلْمِ قَادِرٌ عَلَى سَلْبِهِ، مِنْ أدلة انتزاع العلم:	٢٠٠
٩٠	التَّحْدِي بِإِعْجَازِ الْقُرْآنِ قَائِمٌ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ - مراحل التحدي أربعة	٢٠٢
٩١	إِجَابَةُ الْكُفَّارِ إِلَى مُفْتَرَحَاتِهِمْ لَا يُدْخِلُهُمْ فِي الْإِيمَانِ - كبار كفار قريش يُسامون النبي ﷺ:	٢٠٥
٩٢	الْأَفْتِرَاحُ الْأَوَّلُ: أَنْ يُخْرِجَ لَهُمْ مِنَ الْأَرْضِ أَنَهَارًا جَارِيَةً:	٢٠٨
٩٣	الْأَفْتِرَاحُ الثَّانِي: أَنْ تَكُونَ لَهُ حَديقَةٌ مَثْمَرَةٌ تَفْجُرُ فِيهَا الْأَنْهَارُ	٢٠٨
٩٤	الثَّالِثُ: أَنْ يَنْزِلَ عَلَيْهِمُ الْعَذَابُ الَّذِي تَوَعَّدَهُمْ بِهِ - الرَّابِعُ: أَنْ يَأْتِيَهُمُ بِاللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ عِيَانًا	٢٠٩
٩٥	الخَامِسُ: أَنْ يَكُونَ لَهُ قَصْرٌ مِنْ ذَهَبٍ - السَّادِسُ: أَنْ يَصْعَدَ إِلَى السَّمَاءِ وَيَأْتِيَهُمْ بِكِتَابٍ يَصْدَقُهُ ...	٢٠٩
٩٦	الرَّسُولُ يَكُونُ بِلِسَانِ قَوْمِهِ وَطَبِيعَتِهِمْ	٢١٠
٩٧	لَا بُدَّ لِلرَّسُولِ أَنْ يَكُونَ مِنْ جَنْسِ الْمُرْسَلِ إِلَيْهِمْ حَتَّى يُمَكِّنَهُ تَبْلِيغُ الرِّسَالَةِ	٢١١
٩٨، ٩٧	قَطَعَ الْحَوَارِ وَالْجَدَلِ مَعَ الْمُكَذِّبِينَ بِالْوَحْيِ وَالرِّسَالَةِ -	٢١٣
٩٩	صُورَةٌ مِنْ حَشْرِ الضَّالِّينَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ	٢١٣
١٠٠	الرَّدُّ عَلَى مُنْكَرِي الْبُعْثِ بِطَرِيقِ الْأَسْتِدْلَالِ الْعَقْلِيِّ	٢١٧
١٠١	الرَّدُّ عَلَى مُفْتَرِحِي الْمُعْجَزَاتِ	٢١٨
١٠٣	العبرة ليست بخوارق العادات بل بفتح القلوب واستعدادها لقبول الحق	٢١٩
١٠٤	عِقَابُ اللَّهِ لِلْفِرْعَوْنَ حِينَ عَزَمَ عَلَى إِخْرَاجِ مُوسَى وَقَوْمِهِ مِنْ مِصْرَ	٢٢٣
١٠٥	الْيَهُودُ شَعْبٌ بِلَا وَطَنِ	٢٢٤
١٠٦	الْقُرْآنُ يُرَبِّي أُمَّةً وَيُقِيمُ مِنْهَا	٢٢٦
١٠٩-١٠٧	إِقَامَةُ حُرُوفِ الْقُرْآنِ وَحِفْظُ حُدُودِهِ	٢٢٨
	صُورَةٌ مِنْ إِيْمَانٍ بَعْضُ أَهْلِ الْكِتَابِ بِالْقُرْآنِ	٢٢٩

الآية	فهرس الموضوعات	الصفحة
١١٠	الدُّعَاءُ بِأَسْمَاءِ اللَّهِ الْحُسْنَى	٢٣١
١١١	آية العز	٢٣٥
	تفسير سورة الكهف - مقدمة السورة - فضل سورة الكهف - سبب نزول السورة - أغراض السورة: ٢٤٠	
	موضوعات السورة - تقسيمها إلى ثمانية أقسام: ٢٤٤	
٥-١	التفسير - القرآن كتاب قيم يندُر ويُسَرُّ، وفيه علم الأولين والآخرين	٢٤٨
٦	جزء النبي ﷺ على هداية البشر	٢٥٢
٨، ٧	الدنيا ابتلاء ومصيرها إلى زوال	٢٥٤
١٢-٩	مُجْمَلُ قِصَّةِ أَصْحَابِ الْكَهْفِ فِي أَرْبَعِ آيَاتٍ - قِصَّةُ أَصْحَابِ الْكَهْفِ	٢٥٦
١٥-١٣	تفصيل قِصَّةِ أَصْحَابِ الْكَهْفِ عَلَى ضَوْءِ الْآيَاتِ الثَّالِثَةِ: ٢٦٢	
١٦	لُجُوءُ الْفِتْنَةِ إِلَى الْكَهْفِ فِرَارًا بِدِينِهِمْ	٢٦٦
١٨، ١٧	حِفْظُ أَبْدَانِ الْفِتْنَةِ فِي الْكَهْفِ	٢٦٨
٢٠، ١٩	خُرُوجُ الْفِتْنَةِ مِنَ الْكَهْفِ وَالتَّعَرُّفُ عَلَيْهِمْ	٢٧٢
٢١	الْعِلَّةُ مِنَ الْعُثُورِ عَلَى الْفِتْنَةِ بَعْدَ تَوَهُُّمِ الطَّوِيلِ - بناء المساجد على القبور	٢٧٤
٢٢	قِصَّةُ أَهْلِ الْكَهْفِ حَدِيثُ النَّاسِ فِي تَوَادِّيهِمْ وَمَجَالِسِهِمْ	٢٧٧
٢٤، ٢٣	وُجُوبُ تَغْلِيْقِ الْأَفْعَالِ وَالْأَقْوَالِ الْمُسْتَقْبَلَةِ بِمِثْقَلِ اللَّهِ تَعَالَى	٢٧٩
٢٦، ٢٥	مُدَّةُ مُكُثِ الْفِتْنَةِ فِي الْكَهْفِ	٢٨٢
٢٧	لَا مُبَدَّلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ تَعَالَى	٢٨٤
٢٨	فُقَرَاءُ الْمُؤْمِنِينَ أَوْلَى مِنْ غَيْرِهِمْ فِي قُرْبِ الدُّعَاءِ مِنْهُمْ - سبب النزول	٢٨٥
٢٩	وَعِيدُ الْكَافِرِينَ بِعَذَابٍ مُؤَلَّمٍ	٢٨٩
٣١، ٣٠	ثَوَابُ مَنْ آمَنَ وَأَحْسَنَ الْعَمَلِ	٢٩١
٣٣، ٣٢	أَصْحَابُ الْجَنَّةِ - وَصْفُ الْجَنَّةِ	٢٩٣
٣٨-٣٤	جَوَارِ الرُّجُلَيْنِ: الْمُؤْمِنِ وَالْكَافِرِ	٢٩٨
٤١-٣٩	قَوْلُ مَنْ نَظَرَ إِلَى شَيْءٍ فَأَعْجَبَهُ، وَنَهَايَةُ الْجَوَارِ	٣٠٢
٤٢	مَشْهُدُ الْبَوَارِ وَالْذَّمَارِ	٣٠٤
٤٤، ٤٣	التَّعْقِيبُ عَلَى الْقِصَّةِ	٣٠٥
٤٥	مَثَلُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا - الدُّنْيَا لَا تَطْلُقُ	٣٠٦
٤٦	الْبَقَايَاتُ الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ مِنَ الْمَالِ وَالنِّبْيَيْنِ - أحاديث في الباقيات الصالحات	٣٠٩
٤٧	مِنْ مَشَاهِدِ الْقِيَامَةِ تَسِيرُ الْجِبَالِ	٣١٢
٤٨	الْعَرَضُ فِي سَاحَةِ الْحَشْرِ	٣١٣
٤٩	نَشْرُ الصُّحُفِ	٣١٦
٥٠	عَدَاوَةُ الشَّيْطَانِ وَدُرَّتِيهِ لِنَبِيِّ آدَمَ	٣١٨
٥١	اللَّهُ تَعَالَى هُوَ الْمُتَقَرِّدُ بِالْخَلْقِ	٣٢٢

الآية	فهرس الموضوعات	الصفحة
٥٢	عَجَزُ الْآلِيَةِ عَنْ إِعَاثَةِ مَنْ عَبْدُوهُمْ	٣٢٣
٥٣	لَا يَدِيلُ لِأَهْلِ الْكُفْرِ مِنَ النَّارِ	٣٢٥
٥٥، ٥٤	الْكَافِرُ لَا يَتَّقِعُ بِهِذِي الْقُرْآنَ	٣٢٦
٥٦	وَرِظِمَةُ الرُّسُلِ صَلَوَاتُ اللَّهِ عَلَيْهِمْ وَسَلَامُهُ	٣٢٩
٥٧	قَوَارِعُ الْمُكَذِّبِينَ وَسُوءُ عَاقِبَتِهِمْ	٣٣١
٥٨	مِنْ سِعَةِ رَحْمَةِ اللَّهِ تَعَالَى وَعِظَمِ فَضْلِهِ	٣٣٣
٥٩	هَلَاكُ الْأُمَمِ الَّتِي كَذَّبَتْ رُسُلَ اللَّهِ تَعَالَى	٣٣٤
٦٠	قِصَّةُ مُوسَى وَالْخَضِرِ عَلَيْهِمَا السَّلَامُ	٣٣٥
٦٤-٦١	رِحْلَةُ مُوسَى وَيُوشَعَ	٣٣٧
٦٥	مُوسَى يَلْقَى الْخَضِرَ	٣٣٩
٧٠-٦٦	جَوَارِ مُوسَى وَالْخَضِرِ	٣٤١
٧٣-٧١	خَرْقُ السَّيْفَةِ فِي الرِّحْلَةِ الْأُولَى	٣٤٢
٧٦-٧٤	قَتْلُ الْعَلَامِ فِي الرِّحْلَةِ الثَّانِيَةِ	٣٤٤
٧٨، ٧٧	إِقَامَةُ الْجِدَارِ فِي الرِّحْلَةِ الثَّالِثَةِ	٣٤٦
٨٢-٧٩	الْخَضِرُ يُخْبِرُ مُوسَى بِأَسْبَابِ الْأَفْعَالِ الثَّلَاثَةِ الَّتِي أَنْكَرَهَا عَلَيْهِ	٣٤٧
٨٥-٨٣	قِصَّةُ ذِي الْقَرْنَيْنِ	٣٥١
٨٨-٨٦	رِحْلَةُ ذِي الْقَرْنَيْنِ الْأُولَى إِلَى أَقْصَى الْغَرْبِ	٣٥٤
٩١-٨٩	رِحْلَةُ ذِي الْقَرْنَيْنِ الثَّانِيَةِ إِلَى أَقْصَى الشَّرْقِ	٣٥٦
٩٢	رِحْلَةُ ذِي الْقَرْنَيْنِ الثَّالِثَةِ إِلَى شِمَالِ الْكُرَّةِ الْأَرْضِيَّةِ	٣٥٨
٩٤	يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ - من الأحاديث الواردة في ذلك - ظهور المسيح الدجال	٣٥٨
	نزول عيسى ونهاية يأجوج ومأجوج - موقع السد - من يأجوج ومأجوج؟	٣٦١
	من مفاصد المغول والتتار - وصف مكان السدين	٣٦٤
٩٥	بِنَاءُ الرَّدْمِ	٣٦٦
٩٧، ٩٦	آلِيَةُ الْعَمَلِ فِي بِنَاءِ الرَّدْمِ - عبقرية هندسية - باب الأبواب	٣٦٧
٩٨	تَوَاضُعُ الْحَاكِمِ الصَّالِحِ	٣٦٩
٩٩	النَّفْحُ فِي الصُّورِ	٣٧٠
١٠١، ١٠٠	أَهْلُ الْكُفْرِ يَرَوْنَ النَّارَ فِي سَاحَةِ الْغُرُصِ وَالْجِسَابِ	٣٧٢
١٠٢	التَّعْقِيبُ الْأَوَّلُ عَلَى مَا جَاءَ فِي السُّورَةِ	٣٧٣
١٠٣	أَخْسَرُ النَّاسِ لِدُنْيَاهُ وَأَخْرَاهُ	٣٧٥
١٠٥، ١٠٤	الْوُصْفُ الْأَوَّلُ لِلْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا - الوُصْفُ الْآخَرُ لِلْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا	٣٧٦
١٠٦	سَبَبُ عَذَابِ الْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا	٣٧٨
١٠٨، ١٠٧	أَسْعَدُ النَّاسِ فِي دُنْيَاهُمْ وَأَخْرَاهُمْ	٣٧٨

الآية	فهرس الموضوعات	الصفحة
١٠٩	التَّقْيُبُ الثَّانِي: شُمُولُ عِلْمِ اللَّهِ تَعَالَى وَإِحَاطَتُهُ	٣٨٠
١١٠	التَّقْيُبُ الْأَخِيرُ عَنِ الْإِخْلَاصِ وَالْمُتَابَعَةِ - أحاديث - فضل الآيات العشر الأخيرة وسورة الكهف ...	٣٨٢
	تَفْسِيرُ سُورَةِ مَرْيَمَ - مُقَدِّمَةُ السُّورَةِ - مقاطع السورة ثلاثة	٣٨٧
١	تَفْسِيرُ السُّورَةِ - فَاتِحَةُ السُّورَةِ - سبع قصص فيها	٣٩٢
٣، ٢	١- نَبِيُّ اللَّهِ زَكْرِيَّا يَسْأَلُ رَبَّهُ الْوَلَدَ	٣٩٣
٤	زَكْرِيَّا يَتَوَسَّلُ إِلَى رَبِّهِ بِثَلَاثَةِ أَشْيَاءَ	٣٩٥
٦، ٥	سَبَبُ إِنْجَاحِ زَكْرِيَّا فِي الدُّعَاءِ	٣٩٦
٧	إِجَابَةُ دُعَاءِ زَكْرِيَّا ﷺ	٣٩٨
٩، ٨	زَكْرِيَّا يَتَعَجَّبُ وَيُرِيدُ الْأَظْمِثَانِ	٣٩٩
١٠	زَكْرِيَّا يَطْلُبُ عَلَامَةً عَلَى حَمْلِ امْرَأَتِهِ	٤٠١
١١	زَكْرِيَّا يَمْنَعُ مِنْ كَلَامِ النَّاسِ	٤٠٢
١٥-١٢	٢- نَبِيُّ اللَّهِ يَحْيَى ﷺ - عشر خصائص مدح الله بها نبيه يحيى - اسْتِثْنَاءُ يَحْيَى ﷺ	٤٠٣
١٦	٣- وَلَادَةُ عِيسَى أَعْجَبُ مَا عَرَفَتْهُ الْبَشَرَةُ - وَلَادَةُ مَرْيَمَ - حَمْلُ مَرْيَمَ بِعِيسَى ﷺ	٤٠٧
١٩-١٧	جِبْرِيلُ يَخْتَرِقُ عَلَى مَرْيَمَ حِجَابَهَا وَيُشْرُهَا بِعِيسَى	٤١٠
٢١، ٢٠	مَرْيَمُ تَتَعَجَّبُ مِنْ بَشَارَتِهَا بِالْغُلَامِ	٤١٢
٢٢	قِصَّةُ حَمْلِ مَرْيَمَ بِعِيسَى وَوَلَادَتِهِ	٤١٤
٢٣	الْأُمُّ الْقَلْبِيَّةُ وَالْوَلَادَةُ	٤١٦
٢٦-٢٤	أَرْبَعُ خَوَارِقَ لِلْعَادَاتِ أَكْرَمَ اللَّهُ بِهَا مَرْيَمَ	٤١٧
٢٨، ٢٧	مَرْيَمُ تَضَعُ عِيسَى وَتُؤَاجِهْ اسْتِنْكَارَ قَوْمِهَا	٤٢٠
٢٩	عِيسَى يَتَكَلَّمُ فِي الْمَهْدِ	٤٢٢
٣٠	عِيسَى يَصِفُ نَفْسَهُ بِثِنْتَةِ أَوْصَافٍ - الْوُضْفُ الْأَوَّلُ: كونه عبدًا لله تعالى	٤٢٣
	الْوُضْفُ الثَّانِي: نزول الإنجيل عليه - الْوُضْفُ الثَّالِثُ: أنه نبي مرسل	٤٢٤
٣١	الْوُضْفُ الرَّابِعُ: أنه مبارك أينما حل - الْوُضْفُ الْخَامِسُ: أنه يقيم الصلاة ويخرج الزكاة	٤٢٤
٣٢	الْوُضْفُ السَّادِسُ: بره بأمه - الْوُضْفُ السَّابِعُ: ليس بجبار ولا متكبر	٤٢٥
٣٥-٣٣	الْوُضْفُ الثَّامِنُ: تحية عليه من الله عند الولادة وعند الموت ويوم البعث	٤٢٥
٣٦	الْوُضْفُ الثَّاسِعُ: نفى البُتُوَّةِ ونفى التثليث عنه	٤٢٧
٣٨، ٣٧	اِخْتِلَافُ أَهْلِ الْكِتَابِ فِي شَأْنِ عِيسَى ﷺ	٤٢٨
٤٠، ٣٩	دَبْحُ الْمَوْتِ - أحاديث في ذبح الموت	٤٣٣
٤١	٤- وَضْفُ إِبْرَاهِيمَ بِالصَّدِّيقِ	٤٣٤
٤٢	جَوَارِ إِبْرَاهِيمَ ﷺ مَعَ أَبِيهِ فِي أَرْبَعَةِ نِدَاءَاتٍ: الأول: تطفه مع أبيه لترك الأصنام	٤٣٦
٤٣	النداء الثاني: دعوته إلى طريق الحق	٤٣٨
٤٤	النداء الثالث: نهيه عن طاعة الشيطان	٤٣٨

الآية	فهرس الموضوعات	الصفحة
٤٥	النداء الرابع: تحذير إبراهيم لأبيه من سوء العاقبة	٤٣٩
٤٦	أَزْرُ يُهَذِّدُ إِبْرَاهِيمَ بِالرَّجْمِ وَيُظَرِّدُهُ	٤٣٩
٤٨، ٤٧	إِبْرَاهِيمَ يَعِدُ أَبَاهُ بِالْإِسْتِغْفَارِ وَالْدُّعَاءِ، وَيُقَارِفُهُ وَمَا يَعْبُدُ	٤٤٠
٥٠، ٤٩	آتَى اللَّهُ وَحْشَةً إِبْرَاهِيمَ بِأَنْ جَعَلَ فِي دُرَّتَيْهِ النَّبُوَّةَ	٤٤٢
٥٣-٥١	٥- نَبِيُّ اللَّهِ مُوسَى ﷺ	٤٤٥
٥٥، ٥٤	٦- نَبِيُّ اللَّهِ إِسْمَاعِيلُ ﷺ	٤٤٩
٥٧، ٥٦	٧- نَبِيُّ اللَّهِ إِدْرِيسُ ﷺ	٤٥٢
٥٨	الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَصَفَتْهُمْ - في سجود التلاوة	٤٥٣
٥٩	أَهْلُ الشَّقَاءِ وَتَصِيرُهُمْ - تارك الصلاة جحودًا - تارك الصلاة كسلًا- البكور إلى الجمعة	٤٥٧
٦٣-٦٠	التَّائِبُونَ لَهُمْ جَنَّاتُ النَّعِيمِ	٤٦١
٦٤	جِبْرِيلُ يَنْزِلُ بِالْوَحْيِ وَفَقْ مُقْتَضَى الْحِكْمَةِ الْإِلَهِيَّةِ	٤٦٥
٦٥	مُقْتَضَى اسْتِحْقَاقِ الْعِبَادَةِ	٤٦٧
٦٧، ٦٦	الْبُعْثُ وَالْحِسَابُ وَالْجَزَاءُ	٤٦٨
٦٨	مِنْ مَشَاهِدِ الْقِيَامَةِ: حَشْرُ الْكَافِرِينَ مَعَ الشَّيَاطِينِ	٤٧٠
٧٠، ٦٩	مَشْهُدٌ قَدْ ذُفِرَ الْأَعْيُنُ فَالْأَعْيُنُ فِي نَارِ جَهَنَّمَ	٤٧١
٧٢-٧١	وَرُودُ جَهَنَّمَ وَنَجَاةُ الْمُتَّقِينَ - أحاديث وآثار	٤٧٢
٧٣	متاع الكافر ظل زائل	٤٧٨
٧٤	كَمَا أَهْلَكَ اللَّهُ السَّابِقِينَ يُهْلِكُ الْآخِثِينَ	٤٨٠
٧٥	سُنَّةُ اللَّهِ فِي إِمْهَالِ الْكَافِرِينَ وَإِنَابَةِ الْمُهْتَدِينَ	٤٨١
٧٦	الْإِيمَانُ يَزِيدُ وَيَنْقُصُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَبْقَى	٤٨٣
٨٠-٧٧	مَتَاعُ الدُّنْيَا لَا يَسْتَلْزِمُ مَتَاعَ الْآخِرَةِ	٤٨٥
٨٤-٨١	تَنْصَلُ الْمُعْبُودُ بِالْبَاطِلِ مِمَّنْ عَبْدُهُ فِي سَاحَةِ الْحَشْرِ	٤٨٨
٨٦، ٨٥	الْمُتَّقُونَ وَالْمُجْرِمُونَ فِي طَرِيقِهِمْ إِلَى سَاحَةِ الْعَرْشِ	٤٩١
٨٧	شُرُوطُ الشَّفَاعَةِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ	٤٩٣
٩٥-٨٨	الْكُفْرُ كُلُّهُ يَفْرَعُ مِنْ شِرْكِ ابْنِ آدَمَ بِاللَّهِ تَعَالَى	٤٩٤
٩٦	مَنْ أَحَبَّهُمُ اللَّهُ حَبَبَ النَّاسِ فِيهِمْ	٥٩٧
٩٧	إِذْ بَانَ تَهْيَاءُ السُّورَةِ	٥٩٩
٩٨	خَتَامُ السُّورَةِ	٥٠٠
٣-١	تَفْسِيرُ سُورَةِ طه - مُقَدِّمَةُ السُّورَةِ - مقاطع السورة ثلاثة - قصة إسلام عمر رضي الله عنه	٥٠٦
٨-٤	تَفْسِيرُ السُّورَةِ - التَّوْبَةُ بِشَأْنِ الْقُرْآنِ وَالرَّسُولِ	٥٠٦
١٢-٩	مِنْ دَلَائِلِ التَّوْحِيدِ	٥١٠
	قِصَّةُ مُوسَى ﷺ: نُزُولُ الرِّسَالَةِ عَلَيْهِ	٥١٤

الآية	فهرس الموضع	الصفحة
١٤، ١٣	التَّوْحِيدُ وَابْتِغَاءُ غُفْرَانِ الرِّسَالَاتِ الْإِلَهِيَّةِ	٥١٨
١٦، ١٥	العنصر الثالث: الإيمان باليوم الآخر:	٥٢٠
٢١-١٧	مُعْجَزَةُ الْعَصَا	٥٢٣
٢٣، ٢٢	مُعْجَزَةُ الْيَدِ	٥٢٥
٢٤	مُوسَى يُوَاخِهُ أَكْثَمُ مُلُوكِ الْأَرْضِ	٥٢٦
٢٦، ٢٥	مُوسَى يَسْأَلُ رَبَّهُ أَرْبَعَةَ أُمُورٍ تُعَيِّنُهُ عَلَى مَهَامِ الرِّسَالَةِ - أَوَّلًا: شَرْحُ الصَّدْرِ - ثَانِيًا: تَيْسِيرُ الْأَمْرِ	٥٢٧
٢٨، ٢٧	ثَالِثًا: فَصَاحَةُ اللَّسَانِ	٥٢٧
٣٦-٢٩	رَابِعًا: الْوَزِيرُ الْمُعِينُ	٥٢٩
٣٧	سَبْعٌ مِنْ أُخْرَى أَمَنَّ اللَّهُ بِهَا عَلَى مُوسَى تَتَنَازَلُ حَيَاتُهُ كُلَّهَا	٥٣١
٣٩-٣٨	الأولى: نَجَاةُ مُوسَى مِنَ الْبَحْرِ، عَلَى يَدِ عَدُوِّهِ - الثَّانِيَّةُ: ﴿وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ حَبَّةً مِنْ بَيْنِ يَدَيَّ﴾ وَالثَّلَاثَةُ: ﴿وَلَمَّا سَمِعَ عَلَى عَيْنَيْهِ﴾	٥٣٣
٤٠	الرَّابِعَةُ: عَوْدَتُهُ إِلَى أَحْضَانِ أُمِّهِ - الْخَامِسَةُ: ﴿وَقُلْتُ نَفْسًا فَنَجَّيْتُكَ مِنَ الْغَمِّ﴾	٥٣٤
٤١	الرَّابِعَةُ: هَجْرَتُهُ إِلَى مَدِينٍ وَنَجَاتُهُ مِنَ الْفِتَنِ	٥٣٦
٤٢	الرَّابِعَةُ: اجْتِنَاءُ مُوسَى وَاصْطِفَاؤُهُ	٥٣٧
٤٣-٤٨	مُوسَى وَهَارُونُ رُسُلَانِ إِلَى فِرْعَوْنَ بِاللُّطْفِ وَاللِّينِ	٥٣٨
٥٢-٤٩	أَسْلُوبُ دَعْوَةِ الطَّغَاةِ وَإِعَانَةُ اللَّهِ لِلدَّعَاةِ	٥٣٩
٥٥-٥٣	جَانِبٌ مِنَ الْحَوَارِ بَيْنَ مُوسَى وَفِرْعَوْنَ	٥٤٣
٥٦	مِنْ آيَاتِ اللَّهِ فِي الْكُونِ لِهَذَا يَهْدِي مَنْ كَفَرَ بِهِ سُبْحَانَهُ	٥٤٥
٥٧-٦٩	آيَاتُ مُوسَى السَّحَرِ - أضراره، وعلاجه، وحكمه - هل سحر النبي ﷺ؟	٥٤٨
٧٠	الرسول بشر يعتره ما يعترى البشر بما لا يقدح في العصمة: - ليس من السحر: - حكم السحر والساحر:	٥٥١
٧١	قِصَّةُ السَّحَرَةِ	٥٥٢
٧٢-٧٣	سُبْحَانَ مَقْلَبِ الْقُلُوبِ	٥٦٠
٧٤-٧٦	فِرْعَوْنُ يَتَوَعَّدُ السَّحَرَةَ عَلَى إِيْمَانِهِمْ	٥٦٢
٧٧-٧٩	الْإِيْمَانُ الصَّادِقُ يَضَعُ الْعَجَائِبَ	٥٦٣
٨١، ٨٠	قَاعِدَةُ الْجَزَاءِ الْآخَرَوِيِّ	٥٦٥
٨٢	قِصَّةُ خُرُوجِ بَنِي إِسْرَائِيلَ مِنْ مِصْرَ	٥٦٧
٨٣، ٨٤	بَعْضُ نِعَمِ اللَّهِ تَعَالَى عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ - قصة المواعدة جانب الطور	٥٧١
٨٥، ٨٦	فَتَحَ بَابِ الرَّجَاءِ لِلثَّانِيَيْنِ	٥٧٣
٨٧-٨٩	مُوسَى يُسْرِعُ لِلِقَاءِ رَبِّهِ	٥٧٤
٩٠، ٩١	فَتَنَةُ قَوْمِ مُوسَى بِعِبَادَتِهِمْ لِلْعِجْلِ	٥٧٦
٩٢-٩٤	صِنَاعَةُ الْعِجْلِ الدَّهْيِيِّ	٥٧٨
	هَارُونُ يَنْهَى قَوْمَهُ عَنْ عِبَادَةِ الْعِجْلِ وَهُمْ يُصِرُّونَ عَلَى عِبَادَتِهِ	٥٨٠
	جَوَارِ عَنِيْفٍ بَيْنَ مُوسَى وَهَارُونِ	٥٨٢

الآية	فهرس الموضوعات	الصفحة
٩٦، ٩٥	الْجَوَارِ بَيْنَ مُوسَى وَالسَّامِرِيِّ	٥٨٣
٩٧	عُقُوبَةُ السَّامِرِيِّ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَنَهَايَةُ الْعَجَلِ الذَّهَبِيِّ	٥٨٤
٩٨-١٠١	التَّعْقِيبُ عَلَى قِصَّةِ مُوسَى وَفِرْعَوْنَ	٥٨٦
١٠٢-١٠٤	مِنْ أَهْوَالِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ	٥٨٧
١٠٥-١٠٧	مِنْ مَشَاهِدِ الْقِيَامَةِ: نَسْفُ الْجِبَالِ	٥٨٩
١٠٨	اتِّبَاعُ الدَّاعِي إِلَى سَاحَةِ الْعَرْضِ	٥٩٠
١٠٩، ١١٠	شُرُوطُ الشَّفَاعَةِ	٥٩١
١١١، ١١٢	فِي يَوْمِ الْحَشْرِ وَالنَّشْرِ يَذُلُّ الْكَافِرُ وَيُعَزُّ الْمُؤْمِنُ	٥٩٢
١١٣	الْقُرْآنُ كِتَابٌ هِدَايَةٍ لِلنَّشْرِ	٥٩٤
١١٤	مِنْ قَوَاعِدِ التَّلْقِي وَالتَّرْتِيلِ	٥٩٥
١١٥	نَسْيَانُ آدَمَ أَمْرٌ مَرَادٌ لِلَّهِ تَعَالَى	٥٩٦
١١٦	ظَرْفٌ مِنْ قِصَّةِ آدَمَ وَإِبْلِيسَ	٥٩٧
١١٧	تَحْذِيرُ الْإِنْسَانِ مِنْ عِدَاوَةِ الشَّيْطَانِ	٥٩٨
١١٨، ١١٩	تَأْيِينُ الْمَأْكَلِ وَالْمَشْرَبِ وَالْمَلْبَسِ وَالْمَسْكَنِ لِلْإِنْسَانِ	٥٩٩
١٢٠، ١٢١	مِنْ آثَارِ الْمَعَاصِي فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ	٥٩٩
١٢٢	تَوْبَةُ اللَّهِ عَلَى آدَمَ	٦٠٠
١٢٣	هُبُوطُ آدَمَ وَحَوَاءٍ مِنَ الْجَنَّةِ وَمَا تَرْتَّبَ عَلَيْهِ - جنة الدنيا وجنة الآخرة - في أي الجنتين كان آدم؟	٦٠١
١٢٤-١٢٧	منهج الله في أرضه لآدم بعد هبوطه إلى الأرض:	٦٠٣
١٢٨	وُجُوبُ الْأَعْتَابِ بِهَلَاكِ الْعَصَاةِ	٦٠٦
١٢٩	عَذَابُ الْإِبَادَةِ لَا يُنَاسِبُ آخِرَ الْأُمَمِ	٦٠٨
١٣٠	ثَلَاثَةُ تَوَجِّهَاتٍ رَبَّانِيَّةٍ - التَّوَجُّهُ الْأَوَّلُ: الصَّبْرُ عَلَى تَبْلِيغِ الدَّعْوَةِ مُسْتَعِينًا بِالِاتِّصَالِ بِاللَّهِ تَعَالَى	٦٠٩
١٣١	التَّوَجُّهُ الثَّانِي: عَدَمُ التَّطَلُّعِ إِلَى مَا عِنْدَ الْآخَرِينَ مِنْ مَتَاعِ الدُّنْيَا - جملة من الأحاديث في معنى الآية	٦١١
١٣٢	التَّوَجُّهُ الثَّالِثُ: الْأَسْتِعَانَةُ بِالصَّبْرِ عَلَى تَعْوِيدِ أَهْلِ بَيْتِهِ الصَّلَاةَ	٦١٦
١٣٣	الْقُرْآنُ هُوَ الْمُعْجِزَةُ الْكُبْرَى، وَالتَّارُ مَوْعِدٌ مَنْ لَمْ يُؤْمِنْ بِهِ	٦١٧
١٣٤، ١٣٥	قَطْعُ أَعْدَادٍ مَنْ لَمْ يُؤْمِنْ بِخَاتَمِ النَّبِيِّينَ ﷺ - خِتَامُ السُّورَةِ	٦١٩
	فهرس الموضوعات	٦٢١



فأحضر النفس

تأليف :

أحمد بن أحمد محمد عبد الله الطويل

عضو اللجنة العلمية لمراجعة مصحف المدينة النبوية
ولجنة الإشراف على التسجيلات القرآنية
بمجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف

قدم له : معالي الدكتور / عبد الله بن عبد المحسن الشري
والأستاذ الدكتور / صالح بن غانم السدлан
ونخبة من العلماء المتخصصين

المجلد التاسع

من أول الأنبياء إلى آخر الفرقان

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

تَفْسِيرُ سُورَةِ الْأَنْبِيَاءِ (٢١)

مُقَدِّمَةُ السُّورَةِ

سورة الأنبياء هي السورة الحادية والعشرون في ترتيب المصحف، والحادية والسبعون في ترتيب النزول، وهي سورة مكية نزلت بعد سورة السجدة، وقبل سورة النحل.

وعدد آياتها في المصحف الكوفي الذي هو على رواية حفص، اثنتا عشرة ومئة آية، وإحدى عشرة ومئة آية في بقية المصاحف.

وهي ألف ومئة وثمان وستون كلمة، وأربعة آلاف وثمان مئة وتسعون حرفاً.

وقد سماها الصحابة سورة الأنبياء، ولم يُعرف لها اسم آخر، كما جاء في صحيح البخاري عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: بني إسرائيل، والكهف، ومريم، وطه، والأنبياء، هُنَّ من العتاق الأول، وهُنَّ من تِلَادِي^(١).

وبنو إسرائيل: يعني سورة الإسراء، والعتاق الأول، أي: من السور العتيقة التي نزلت بمكة، وهُنَّ من تِلَادِي، أي: من أوائل ما نزل من القرآن.

وهي من أواخر السور النازلة بمكة قبل الهجرة.

وسُميت سورة الأنبياء؛ لأنه ذُكر فيها ستة عشر نبياً، بالإضافة إلى مريم، وهم: موسى وهارون، وإبراهيم، ولوط، وإسحاق، ويعقوب، ونوح، وأيوب، ودادود، وسليمان، وإسماعيل، وإدريس، ويونس، وزكريا، ويحيى، وذو الكفل.

ولم يُذكر في سورة من القرآن مثل هذا العدد من الأنبياء عدا سورة الأنعام، فقد جاء فيها ذكر ثمانية عشر نبياً في أربع آيات متوالية، وهي مجرد سرد للأسماء في قوله تعالى: ﴿وَتِلْكَ حُجَّتُنَا ءَاتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَىٰ قَوْمِهِ ۖ رَفَعْنَا دَرَجَتِهِ مِنۢ شَأْنِهِ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ۝٨٣ وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ ۚ كُلًّا هَدَيْنَا وَنُوحًا هَدَيْنَا مِنۢ قَبْلُ ۚ وَمِنۢ ذُرِّيَّتِهِ دَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَىٰ وَهَارُونَ ۚ وَكَذَٰلِكَ يَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ۝٨٤ وَزَكَرِيَّا وَيَحْيَىٰ وَعِيسَىٰ وَإِيلَاسَ ۚ كُلٌّ مِّن

(١) صحيح البخاري برقم (٤٧٠٨، ٤٧٣٩).

الضَّالِّينَ ﴿٨٥﴾ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيُوشَعَ وَلُوطًا وَكَوْنًا فَضَّلْنَا عَلَى الْعَالَمِينَ ﴿٨٦﴾ [الأنعام]

ونظراً لطول سورة الأنعام، وتفصيل أحكام الأنعام فيها، بما لم يذكر في غيرها، ولأن أسماء الأنبياء الذين ذُكروا فيها لم يصاحبهم قصة لكل منهم؛ لذلك سميت سورة الأنعام، كما أن عدد الأنبياء في سورتي: هود، والشعراء، أقل بكثير مما جاء في هذه السورة، لذا كانت هي الأجدر بتسميتها: سورة الأنبياء.

ولم تتبّع السورة في ذكر هؤلاء الأنبياء ترتيباً زمنياً، ولا تحديداً مكانياً، فقد بدأت بذكر موسى وهارون، وثنت بالكلام عن إبراهيم، وهما من ذريته، وهذا عكس ما جاء في سورة مريم؛ حيث ذُكرت إبراهيم أولاً، وأتبعته بموسى وإسماعيل وإدريس عليه السلام.

والجانب الذي فصلت فيه هذه السورة القول من قصة إبراهيم، هو ما يتعلق بتحطيم الأصنام، وهي أطول قصة في السورة من غيرها، وجاء ذكر لوط بعد إبراهيم؛ لأنه ابن أخيه، وشريك له في الهجرة من العراق إلى أرض الشام، ثم عاد الكلام إلى نوح، وتبعه الكلام عن داود، وسليمان، وهما من أنبياء بني إسرائيل، ثم ذُكرت السورة ابتلاء أيوب، وتلاه إسماعيل، وإدريس، وذو الكفل، ويونس، وزكريا، ويحيى صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين، وإلى جوار هؤلاء الرسل الكرام جاء ذكر مريم، كما ذُكرت أم موسى في سورة القصص.

وبيّنت سورة الأنبياء أن الله تعالى لم يرسل رسولاً إلا من الرجال؛ لأنهم أقدر على تحمل أعباء الرسالة، ومقارعة صناديد الكفر، فقال تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ إِلَّا رِجَالًا نُوْحِي إِلَيْهِمْ﴾ [٧].

«وأغلب الأنبياء الذين ذُكروا في القرآن الكريم، ظهوروا في شرق البحر المتوسط وجنوبه، في مناطق قامت بها أهم الحضارات القديمة، ويمكن وصفهم بأنهم أعضاء هيئة تدريس في معهد، عميده محمد بن عبد الله، وطلابه أهل الأرض كلهم»^(١).

ويلاحظ أن الحديث عن الأنبياء في السورة، سبقه حديث عن اليوم الآخر ﴿وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ

(١) يُنظر: الشيخ محمد الغزالي في كتابه: «نحو تفسير موضوعي لسور القرآن الكريم» ص ٢٥٦.

الْفِطْرَ لِيَوْمِ الْقِيَمَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا ﴿٤٧﴾ [٤٧] وأعقبه حديث مستفيض عن اليوم الآخر، كذلك بُدئ بقوله تعالى: ﴿وَتَقَطَّعُوا أَمْرَهُمْ بَيْنَهُمْ كُلُّ إِلَيْنَا رَجْعُونَ﴾ ﴿٩٣﴾.

والحديث عن هؤلاء الأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم جميعاً يُمثّل أحد جوانب ثلاثة هي موضوع السور المكية، بالإضافة إلى الشبهات التي يثيرها الكفار حول الرسالة والرسول، والتي تصدرت السورة؛ لتنفيذها وإبطالها.

وبيّنت السورة أن أمة الإسلام أمة واحدة، وربها واحد؛ فكل الأنبياء دَعَوْتُهُمْ هي التوحيد ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ﴾ ﴿٢٥﴾ ﴿قُلْ إِنَّمَا يُوحِي إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمُ إِلَهٌ وَاحِدٌ﴾.

أما الجانب الثاني للسور المكية: فهو أصل الشرائع، وأساس الرسالات، وهو جانب العقيدة، وتوحيد الله تبارك وتعالى، وقد أقامت السورة أدلة متعددة على ذلك، منها قول الله تعالى: ﴿أَمِرْ اتَّخَذُوا إِلَهًا مِنْ الْأَرْضِ هُمْ يُنشِرُونَ﴾ ﴿٢١﴾ لَوْ كَانَ فِيهِمَا إِلَهٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا فَسُبْحَانَ اللَّهِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾ ﴿٢٢﴾.

وقوله: ﴿أَمِرْ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ إِلَهًا قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ﴾ [٢٤].

وذكرت السورة عدداً من النعم والأدلة الكونية على وحدانية الخالق سبحانه، كالسموات، والأرض، والجبال، والماء، والطرق.

أما الجانب الثالث للسور المكية: فهو الحديث عن القيامة، والبعث والنشور، والحساب والجزاء، وهو الذي بدأت به السورة ﴿اقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ﴾ [١] ﴿وَأَقْرَبَ الْوَعْدُ الْحَقُّ﴾ [٩٧] ﴿يَوْمَ نَطْوِي السَّمَاءَ كَطَيِّ السِّجِلِ لِلْكِتَابِ﴾ [١٠٤].

وأرض الجنة يرثها عباد الله الصالحون، وهم أيضاً الذين يعملون الأرض في الدنيا، وذكّرت السورة من مقدمات يوم القيامة ظهور يأجوج ومأجوج.

وهذه العناصر الثلاثة للسورة جاءت على النحو التالي:

١- من أول السورة إلى نهاية الآية الثالثة والثلاثين، يتناول عنصر العقيدة، وردّ شبهات الملحدين، وذكر مصارع المكذبين.

٢- ومن الآية الرابعة والثلاثين إلى الآية الثانية والتسعين، يتناول عنصر الوحي والنبوة والرسالة.

٣- ومن الآية الثالثة والتسعين إلى نهاية السورة، يتناول عنصر البعث والشور والحساب والجزاء.

وتُخْتَم السورة ببيان أن رسالة النبي محمد ﷺ هي رسالة رحمة للعالمين جميعاً: الإنس، والجن، والملائكة، والحيوانات، والهوام، والطيور... إلخ.

وجاء بيان الحكم العدل، والقضاء الفصل في نهاية السورة: ﴿قُلْ رَبِّ أَحْكُم بِالْحَقِّ﴾ [١١٢] وهذا الحكم يكون في الحساب الذي اقترب مجيئه وافتتحت به السورة.



تَفْسِيرُ السُّورَةِ

غَفْلَةُ النَّاسِ وَإِعْرَاضُهُمْ عَنِ الدَّارِ الْآخِرَةِ

١- ﴿أَقْرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ مُّعْرِضُونَ﴾ (١)

افتتح الله سبحانه السورة بما يقطع الأطماع في الحياة، ويحدد الاتجاه الآخروي، ويبين قرب الوقت الذي يحاسب الله فيه العباد على أعمالهم، والحال أنهم في شغل ولهو، وإعراض عما فيه خيرهم وسعادتهم في الدارين؛ فقد دنا وقت حساب الناس على ما قدّموا من أقوال وأفعال في هذه الدنيا، واقتربت مجازاتهم عليه، وهم مستغرقون في الشهوات، غافلون عن العمل المنجّي من أهوال هذا اليوم، غير مستعدين للقاء ربهم إلا من رحم الله ممن آمن وعمل صالحًا.

عن عامر بن ربيعة أنه نزل عليه ضيف من العرب، فأكرمه وأحسن مثواه، وذكره لرسول الله ﷺ، ثم جاءه مرة أخرى، فقال الرجل (الضيف): إني استقطعتُ رسول الله ﷺ واديًا مّا في العرب، وادٍ أفضل منه - أي: أن النبي عليه الصلاة والسلام منحه أرضًا واسعة طيبة - قال: وقد أردت أن أقطع لك من هذا الوادي قطعة تكون لك ولذريتك من بعدك، فردّ عامر على الرجل قائلاً: لا حاجة لي في قطعتك، لقد نزلت علينا اليوم سورة أذهلتنا عن الدنيا وما فيها ﴿أَقْرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ مُّعْرِضُونَ﴾ (١) (١).

وورد أن رجلاً كان يبني جدارًا، فمرّ به رجل آخر في يوم نزول هذه الآية، فقال الرجل الذي يبني الجدار: ما نزل اليوم من القرآن؟ فقال الآخر: نزل اليوم: ﴿أَقْرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ مُّعْرِضُونَ﴾ (١) فنفض الرجل يده من البنيان، وقال: والله لا بنيتُ أبدًا وقد اقترب الحساب (٢)

فالله ﷻ يبيّن في مطلع سورة الأنبياء أن الحساب قد اقترب، وهذا القرب يعني أحد أمرين:

(١) يُنظر: أبو نعيم في «الحلية» ١/١٧٩ وابن عساكر ٢٥/٣٢٧ و«تفسير الألوسي» وابن كثير، وغيرهم.

(٢) تفسير ابن عطية (٥/٧٣).

المعنى الأول: أن أمة محمد ﷺ هي آخر الأمم، ورسولها آخر الرسل، وعلى أمته تقوم الساعة، فقد قُرب الحساب منها بالنسبة لما قبلها من الأمم، كما قال ﷺ فيما يرويه أنس بن مالك ؓ: «بعثت أنا والساعة كهاتين»^(١).

والقيامه تقوم على هذه الأمة، فمعنى ذلك: أن هذه الأمة أقرب أمة إلى قيام الساعة، بالنسبة إلى من سبقها من الأمم، وبالنسبة إلى ما بقي من عمر الدنيا وما مضى منها، وفي هذا يقول الله ﷻ: ﴿أَنَّىٰ أَمُرُّ اللَّهَ فَلَا تَسْعَىٰ لَهُ﴾ [النحل: ١].

وقال تعالى: ﴿أَقْرَبَ السَّاعَةُ وَأَسْفَلَ الْقَمَرُ﴾ [القمر] وغير ذلك من آيات القرآن الكريم.

والمعنى الآخر لقرب قيام الساعة: هو الموت؛ فكل إنسان يموت، تقوم قيامته، فقد اقتربت الساعة لكل من يموت، بمعنى: أنه إذا مات الإنسان دخل في دار الجزاء والحساب وابتداء السؤال، ومقدمات النعيم أو العذاب في البرزخ، وكل آت قريب.

وموقف عامر بن ربيعة والرجل الذي بيني الجدار، يفيد التأثر بالآية، ويقظة الضمير من الغفلة عن الدار الآخرة، ولا يعني ترك عمارة الدنيا؛ فقد جاء في الحديث عن أنس ؓ: «إن قامت الساعة وفي يد أحدكم فسيلة -أي: شتلة- فإن استطاع ألا يقوم حتى يغرسها فليغرسها»^(٢).

فالعمل للدنيا بما لا يلهي عن الآخرة مطلوب، وهذا يصور حال المسلم بالنسبة لقيام الساعة، فهو يُحاسب نفسه قبل أن يُحاسب، ويزن أعماله قبل أن توزن، ولا يركن إلى الدنيا ويجعلها أكبر همه، ولا يبيع الآخرة بالدنيا، فيشتغل بأمور دنياه عن آخرته، إنما يعمل لدنياه بالقدر الذي يتطلب معيشته فيها، ولا ينسى نصيبه منها، ويرغب فيما عند ربه، فيكثر من العمل الصالح للقاء ربه.

وفي الآية تعجب من حال كل غافل مُعرض عن اليوم الآخر؛ فقد اقترب للناس

(١) صحيح مسلم برقم (٢٩٥١).

(٢) مسند أحمد (١٢٩٨١، ١٢٩٠٢) بإسناد صحيح على شرط مسلم ورجال ثقات رجال الشيخين غير حماد بن سلمة فمن رجال مسلم، كما قال محققوه، وأخرجه الطيالسي (٢٠٦٨) والبخاري في الأدب المفرد (٤٧٩) والبخاري (١٢٥١) كشف الأستار.

حسابهم باقتراب موعد قيام الساعة، وهم عن هذا اليوم في غفلة غير مستعدين، فهم لا يتأهبون، ولا يتزود كثير منهم بالعمل الصالح للقاء ربهم.

٢- ﴿مَا يَأْتِيهِمْ^(١) مِنْ ذِكْرِ رَبِّهِمْ تُحَدِّثُ إِلَّا أَسْتَعْوَهُ وَهُمْ يَلْعَبُونَ ﴿٢﴾﴾

والقرآن يُتلى صباح مساء، ولكنه لا يجد آذاناً صاغية، مع كثرة سماعه وكثرة ترداده، فهم غافلون عن تدبر معانيه، وغافلون عن العمل بما فيه، ومعرضون عن امتثال أمره واجتناب نهيه، فحظّهم منه سماع ألفاظه.

وقد وصف الله تعالى قومًا بقوله: ﴿وَمَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا كَمَثَلِ الَّذِي يَنْوِي بِمَا لَا يَسْمَعُ إِلَّا دُعَاءً وَنِدَاءً صُمُّ بُكْمٌ عُمْى فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴿٣﴾﴾ [البقرة].

ونظير هذه الآية قوله تعالى: ﴿وَمَا يَأْتِيهِمْ مِنْ ذِكْرِ مِنَ الرَّحْمَنِ تُحَدِّثُ إِلَّا كَانُوا عَنْهُ مُقْرِضِينَ ﴿٥﴾﴾ [الشعراء].

وفي بدء الرسالة كان القرآن ينزل كل يوم، وآيات اليوم تختلف عن آيات الأمس، والسورة تنزل بعد السورة، والآية بعد الآية، والقرآن ينزل من عند الله ﴿تُحَدِّثُ﴾ أي: متجدد في تنزيله، وفي حلاله وحرامه، وأوامره ونواهيه، وآياته وسوره، ثم يصور القرآن حالهم بأنهم لا يستمعون إليه إلا وهم يلعبون.

لقد كان القرآن ينزل به جبريل عليه السلام على رسول الله ﷺ، وفق الحوادث والأحوال، وينزل ابتداءً؛ لإصلاح حال البشر، ثم يُتلى على مرّ الأزمان، يعظّمهم ويذكّرهم وهم -عن سماعه وعن العمل به- في لهو ولعب وهزل واستهتار، وكان ينبغي عليهم أن يُقبلوا بقلوبهم وجوارحهم على أمر الله تعالى ونهيه، ويجعلون القيامة والحساب والجزاء نصب أعينهم.

فمعنى أن القرآن مُحدّث، أي: متجدد في النزول؛ فقد نزل القرآن تباعاً على مدى ثلاثة وعشرين عاماً، فالحدوث يتعلق بالنزول ولا يتعلق بالقرآن نفسه.

والقرآن كلام الله القديم، وهو صفة قائمة بذات الله تعالى.

وليس معنى ﴿تُحَدِّثُ﴾ أن القرآن حادث أو مخلوق، كما قال بعض المبتدعة في

(١) قرأ ورش وأبو جعفر وأبو عمرو بخلف عنه بإبدال همزة (ما يأتيتهم) ألفاً في الحالين، وكذا حمزة عند الوقف، وقرأ يعقوب بضم الهاء، والباقون بكسرها.

عصور: المأمون، والمعتصم، والواثق، وضُرب بسببها عنق محمد بن نصر الخزاعي، وصارت فتنة عظيمة ابتلي بسببها الإمام أحمد فضرب وحُبس طويلاً^(١).

بَعْضُ شُبْهِ الْمُكَذِّبِينَ بِالرَّسَالَةِ وَالرَّدُّ عَلَيْهَا

٣- ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَالْغَوْ لِلنَّجْوَى الَّذِينَ ظَلَمُوا هَلْ هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ أَفَتَأْتُونَ السَّحَرَ وَأَنْتُمْ تَبْصُرُونَ﴾
وصف الله تعالى المعرضين عن القرآن بقوله: ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَالْغَوْ لِلنَّجْوَى﴾ أي: أن قلوبهم غافلة عن تدبر القرآن والعمل بما فيه، مشغولة بأباطيل الدنيا وشهواتها، فهم لا يعقلون ما فيه، إنهم في لهو عن الآخرة، وإعراض عنها، لا يتدبرون ولا يتأملون، وكم من مسلم يفتح المصحف ليقراً فيه، أو يستمع إليه من المذيع أو من غيره، ولكنه لا يتدبر، ولا يتأمل، ولا يعمل بما فيه؛ لأنه في لهو وإعراض، لا يلتزم بأمر القرآن، ولا ينتهي بنهي، فضلاً عما يحفظ القرآن ولا يعمل به، نسأل الله السلامة، وهذا لا ينفي وجود الخير الكثير في هذه الأمة.

من شبه المكذبين:

ثم تذكر سورة الأنبياء شبهتين، أو اعتراضين للمشركين، كثيراً ما يذكُرهما الله تعالى عن الكفار والمشركين في مواطن كثيرة من القرآن الكريم، ويردُّ القرآن على هذين الاعتراضين، ويذخضهما:

الشبهة الأولى: كون الرسول بشراً: وهي شبهة من المعادين للإسلام، الذين ينكرون أن يكون الرسول بشراً، ويزعمون أنه ينبغي أن يكون الرسول ملكاً من الملائكة؛ إذ كيف يكون الرسول بشراً، واحداً منهم، لا يتميز عنهم في شيء؟! إنهم يتناجون فيما بينهم، فيقولون: إن الرسول ينبغي أن يكون ملكاً، لا يأكل ولا يشرب، ولا يمشي في الأسواق، ولا ينكح، ولا يكون له ولد، وينبغي في زعمهم أن يكون الرسول مخلدًا لا يمرض ولا يموت.

فإذا جاء أحد من البشر مدَّعيًا أنه رسول من عند الله كذَّبوه، وقالوا: إنه ساحر، أو شاعر، أو كاهن، ونحو ذلك، فإذا جاء لهم بمعجزة من عند الله تعالى تدل على صدق

(١) يُنظر: «تفسير فتح القدير» للشوكاني (٣/٣٩٨).

رسالته، قالوا عن هذه المعجزة: إنها سحر، أو شعر، أو كهانة، أو أنه افترها واختلقها من عند نفسه، أو أنها منامات وأضغاث أحلام، وأوهام رآها في منامه، ثم توهم أنها وحي من الله تعالى أوجي إليه بها، هذه هي الشبهة الأولى، جاءت في قوله تعالى: ﴿وَأَسْرُوا النَّجْوَى الَّذِينَ ظَلَمُوا هَلْ هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ أَفَتَأْتُونَ السَّحَرَ وَأَنْتُمْ تَبْصُرُونَ﴾.

أما الرد على هذه الشبهة: فقد جاء في قوله تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ إِلَّا رِجَالًا نُوْحِي إِلَيْهِمْ﴾ [الأنبياء: ٧، ويوسف: ١٠٩].

وقد كان المشركون يبالغون في السر والتناجي بينهم فيما يتعلق بالمسلمين، كما قال تعالى: ﴿وَأَسْرُوا النَّجْوَى الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ أي: أن الكافرين اجتمعوا فيما بينهم على أمر خفي، وهو إشاعة أن محمداً بشر، لا يختلف عنهم في شيء، وأن ما جاء به من القرآن سحر، وذلك بقصد صد الناس عن اتباعه.

والنجوى لا تكون إلا سرا، ولكنهم يبالغون فيها، ويُجمعون على إخفائها، ولا يختلف منهم أحد في صد الناس عن الإيمان بمحمد ﷺ وإشاعة أن ما جاء به سحر.

وبعد أن تحدث القرآن إلى الناس جميعاً في مطلع سورة الأنبياء يخص المشركين بالذكر في هذه الآية، وهم الذين ظلموا أنفسهم بالكفر والشرك، وقالوا: ﴿هَلْ هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ؟﴾! محمد هذا بشر، لا يتميز عليكم بشيء، كيف تؤمنون به؟ وكيف تصدقونه وهو ساحر؟ وكل ما يظهر على يد مدعي النبوة سحر ﴿أَفَتَأْتُونَ السَّحَرَ وَأَنْتُمْ تَبْصُرُونَ؟﴾ أي: وأنتم ترون بأعينكم أنه بشر مثلكم، فما تصديقكم لنبوته إلا من أثر سحر سحركم به، فكيف تتبعونه وهو بشر مثلكم لا يختلف عنكم في شيء، والتصديق به تصديق بالسحر وإتيان له؟، وسيأتي هذا الرد بأكثر من هذا عند تفسير الآية السابعة.

والشبهة الثانية: طلبهم لخوارق العادات: وذلك أنهم كانوا يطعنون في القرآن ويطلبون من النبي ﷺ أن يؤيد بآيات حسية، أو خوارق للعادات يرونها بأعينهم، كما كانت للأنبياء السابقين، مثل: الناقة، معجزة صالح، أو العصا واليد وغيرهما، معجزة موسى، أو إبراء الأكهم والأبرص، وإحياء الموتى بإذن الله، معجزة عيسى، وغير ذلك، فكثيراً ما كانوا يطلبون مثل ذلك من النبي ﷺ، فيقولون: هلاً كان جبل الصفا لنا ذهباً؟

وقد حكى الله تعالى بعض اقتراحاتهم في قوله: ﴿وَقَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الْأَرْضِ يَنْبُوعًا ۖ أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِّنْ تَحِيلٍ وَعِنَبٌ فَتُفَجِّرَ الْأَنْهَارَ خَالِفًا تَفْجِيرًا ۝٩١﴾ أَوْ تُسْقِطَ السَّمَاءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسْفًا أَوْ تَأْتِيَ بَالَهُ وَالْمَلَائِكَةُ قِيَلًا ۝٩٢﴾ أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِّنْ زُخْرِفٍ أَوْ تَرْقَىٰ فِي السَّمَاءِ وَلَنْ نُؤْمِنَ لِرِيقِكَ حَتَّى تُنْزِلَ عَلَيْنَا كِنَبًا نَقْرُوهُ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّي هَلْ كُنْتُ إِلَّا بَشَرًا رَسُولًا ۝٩٣﴾ وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَنْ يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمُ الْهُدَىٰ إِلَّا أَنْ قَالُوا أَبَعَثَ اللَّهُ بَشَرًا رَسُولًا ۝٩٤﴾ [الإسراء].

وإلى هذه الشبهة الثانية يشير قوله تعالى: ﴿فَلْيَأْنِسْنَا إِنشَاءً ۖ كَمَا أَرْسَلْنَا الْأَوَّلُونَ﴾ [الأنبياء]: هـ بعد أن قالوا عن القرآن: أضغاث أحلام.

قال تعالى: ﴿وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَنْ يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمُ الْهُدَىٰ إِلَّا أَنْ قَالُوا أَبَعَثَ اللَّهُ بَشَرًا رَسُولًا ۝٩٤﴾؟ [الإسراء].

وقد جاء الرد على هذه الشبهة في قوله تعالى: ﴿مَا ءَامَنَتْ قَبْلَهُمْ مِّنْ قَرِيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا أَفَهُمْ يُؤْمِنُونَ ۝٩٥﴾ فالأمم الذين أجاب الله مطالبهم كذبوا، فأهلكهم الله، فهل ستؤمنون أنتم؟ وسيأتي هذا الرد بأكثر من هذا عند تفسير الآية السادسة.

وما دام الأمر كذلك، فسأمضي في طريقي مبلغًا رسالة ربي، وسترون عاقبة تكذيبكم.

٤- ﴿قَالَ^(١) رَبِّي يَعْلَمُ الْقَوْلَ فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ۝٩٦﴾

ثم إن النبي ﷺ رد الأمر إلى ربه؛ فهو الذي يعلم ما أسروه في أنفسهم، وما تناجوا به فيما بينهم، وهو سبحانه الذي أرسلني إلى الناس كافة لإخراجهم من الظلمات إلى النور، وفي القراءة الأخرى: ﴿قُلْ رَبِّي﴾ أي: قل لهم يا محمد، والقراءة التي في رسم المصحف برواية حفص: ﴿قَالَ رَبِّي﴾ أي: قال لهم محمد: ربي يعلم القول: السر والجهر، أي: يعلم ما تجهرون به، وما تخفونه في صدوركم ولا تتحدثون به، ويعلم جميع ما في هذا الكون ﴿لَا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ وَلَا أَصْغَرُ مِنْ

(١) قرأ حفص وحزمة والكسائي وخلف بألف بعد القاف في (قال) مع فتح القاف واللام، فعل ماضٍ مسند إلى ضمير الرسول ﷺ، وهو إخبار من الله تعالى عما أجاب به الرسول الكفار، وقرأ الباقر بدون ألف (قُلْ) وضم القاف وسكون اللام، فعل أمر من الله تعالى؛ ليجيب الطاعين في رسالته بذلك.

ذَلِكَ وَلَا أَكْبَرُ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ ﴿٣﴾ [سبا: ٣]. ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَخْفَى عَلَيْهِ شَيْءٌ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ﴾ [آل عمران: ٥]. ﴿رَبَّنَا إِنَّكَ تَعْلَمُ مَا نُخْفِي وَمَا نُعْلِنُ وَمَا يَخْفَى عَلَى اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ﴾ [إبراهيم: ٣٨]. وهو سبحانه السميع لأقوالكم العليم بأحوالكم.

جُحُودُ الْقُرْآنِ، وَعِقَابُ الْجَاهِدِينَ:

٥- ﴿بَلْ قَالُوا أَضْغَتْ أَحْلَامٌ بَلْ افْتَرَاهُ بَلْ هُوَ شَاعِرٌ فَلْيَأْنِتْ إِشَايَةً كَمَا أُرْسِلَ الْأَوَّلُونَ﴾
إن الكفار لم يكتفوا بإنكار أن يكون الرسول بشراً، بل جحدوا القرآن، وتخبطوا في هذا الجحود بأقاويل باطلة، انحصرت في هذه الآية في ثلاثة أقوال، أطلع الله نبيه عليها:
القول الأول: أنه أضغاث أحلام، أي: أن هذا القرآن الذي أتى به محمد ﷺ منامات تخيلها ورآها في نومه، وأخلاق، وأوهام لا حقيقة لها.
القول الثاني: أن هذا القرآن اختلاق وكذب وادعاء، أتى به محمد ﷺ وليس وحياً، بل إنه افتراه وأتى به من عند نفسه.

القول الثالث: أن محمداً شاعر، وما أتى به شعر.

والقرآن يرد على هذه الادعاءات الثلاثة في مواطن كثيرة، منها:

١- قوله تعالى: ﴿كَذَلِكَ مَا أَتَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا قَالُوا سَاحِرٌ أَوْ مُجْنُونٌ﴾ [٥٢] ﴿أَتَوَصَّوْا بِهِمْ بَلْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ﴾ [٥٢] [الذاريات].

٢- وقوله: ﴿وَمَا هُوَ يَقُولُ شَاعِرٌ قَلِيلًا مَّا تُؤْمِنُونَ﴾ [٤١] ﴿وَلَا يَقُولُ كَاهِنٌ قَلِيلًا مَّا تَذْكُرُونَ﴾ [٤٢] ﴿تَنْزِيلٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [٨٠] [الحاقة].

٣- وقوله: ﴿وَمَا عَلَّمْنَاهُ الشِّعْرَ وَمَا يَنْبَغِي لَهُ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْآنٌ مُبِينٌ﴾ [٦٩] [يس].

٤- وقوله: ﴿قُلْ أَنْزَلَهُ الَّذِي يَعْلَمُ السِّرَّ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ [الفرقان: ٦].

٥- وقوله: ﴿وَمَا كَانَ هَذَا الْقُرْآنُ أَنْ يَقْرَأَ مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ [يونس: ٣٧].

إذ لا يمكن لمحمد ﷺ أن يفتره أو يخلقه، فإن كان قد اختلقه فأتوا أنتم بمثل أقصر سورة منه، وأنتم أرباب الفصاحة والبلاغة، واختلقوا كما اختلق، وافتروا كما افترى ﴿أَمْ

يَقُولُونَ نَقُولُهُ بَلْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٣﴾ فَلْيَأْتُوا بِحَدِيثٍ مِثْلِهِ إِنْ كَانُوا صَادِقِينَ ﴿٣٤﴾ [الطور].

وهم ﴿الَّذِينَ جَعَلُوا الْقُرْآنَ عِضِينَ﴾ ﴿٩١﴾ [الحجر]

أي: أنهم اقتسموا القول فيه، فقال بعضهم: شعر. وقال بعضهم: سحر. وقال بعضهم: إنه كهانة، وقال آخرون: أضغاث أحلام، وقال آخرون: إن الذي أتى به مجنون.

وهكذا يتخبط المكذبون بنبي الإسلام ﷺ في حكمهم عليه، فتختلف أقوالهم وتعدد، وتضطرب كثيراً في وصفه ﷺ، شأن الحائر الذي لا يستطيع الثبات على قرار؛ لعدم وجود حجة صحيحة يحتج بها، كما قال تعالى: ﴿أَنْظِرْ كَيْفَ ضَرَبُوا لَكَ الْأَمْثَالَ فَضَلُّوا فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا﴾ ﴿٤٨﴾ [الإسراء]، و[الفرقان: ٩] والأمثال هي تعدد الأقوال فيه

قال تعالى في الرد عليهم وعلى أمثالهم: ﴿لَكِنَّ اللَّهَ يَشْهَدُ بِمَا أَنْزَلَ إِلَيْكَ أَنْزَلَهُ يَعْلَمُهُ وَالْمَلَائِكَةُ شَاهِدُونَ وَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا﴾ ﴿١١٦﴾ [النساء].

ثم يذكر القرآن الكريم الشبهة الثانية في هذه السورة التي يعترض بها المشركون على رسول الله ﷺ بعد هذا التخطب في وصف القرآن، فيقولون: إن كان محمد رسولاً حقاً ﴿فَلْيَأْتِنَا بِنَايَةٍ كَمَا أُرْسِلَ الْأَوَّلُونَ﴾ أي: فليأتنا بآية ومعجزة حسية نراها، كناقصة صالح، وعصا موسى، مثل الرسل السابقين.

يقول سبحانه في الرد على هذا الاعتراض، أنه قد أيد الرسل قبل محمد ﷺ بالآيات والخوارق التي طلبها القوم، ومع هذا فهم لم يؤمنوا، ولما أجابهم الله تعالى إلى مطلبهم كذبوا ولم يصدقوا؛ فأهلكهم الله وأبادهم.

قال تعالى في الرد على هذه الشبهة:

٦- ﴿مَا آمَنَتْ قَبْلَهُمْ مِنْ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا أَفَهُمْ يُؤْمِنُونَ﴾ ﴿٦١﴾

أخرج ابن جرير بسنده إلى قتادة قال: قال أهل مكة للنبي ﷺ: إن كان ما تقول حَقًّا، ويسرُّك أن نؤمن، فحول لنا الصفا ذهبًا، فأناه جبريل ﷺ، فقال: إن شئت كان الذي سألك قومك، - أي أجبتك إلى ما طلبوا - ولكنه إن كان - أي إن أجيبوا - ثم لم يؤمنوا، لم يُنظروا، وإن شئت استأنيت بقومك، - أي إن انتظرت

وتمهلت عليهم - فأنزل الله هذه الآية^(١).

وقد ذكر الله تعالى جانباً من مطالبهم واعتراضهم عليه في قوله تعالى حكاية عنهم: ﴿وَقَالُوا مَالِ هَذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ وَيَمْشِي فِي الْأَسْوَاقِ لَوْلَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونُ مَعَهُ نَذِيرًا ۝٧ أَوْ يُنْفَخَ إِلَيْهِ كَظَرٌ أَوْ تَكُونُ لَهُ جَنَّةٌ يَأْكُلُ مِنْهَا وَقَالَ الظَّالِمُونَ إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَسْحُورًا ۝٨﴾ [الفرقان].

وهكذا فإن جبريل عليه السلام أتى النبي ﷺ وخبره بين أن يجيب الله تعالى مطالب قريش ويؤيده بآية حسية كما يطلبون، فإن لم يؤمنوا أهلكتهم الله وأبادهم، كالأمم السابقة، وإن شاء انتظر وتمهل عليهم، فاختار النبي ﷺ الأمر الثاني^(٢).

يقول سبحانه ردًا على من يطلبون خوارق العادات: ﴿مَا آمَنَتْ قَبْلَهُمْ﴾ أي: ما صدق قبلهم من طلبوا الآيات الخارقة من الأمم السابقة الذين أرسل الله فيهم رسلًا، وقد أيد الله هؤلاء الرسل بالخوارق والمعجزات التي طلبوها ولكنهم لم يؤمنوا، فكانت النتيجة أن الله سبحانه أهلكتهم وأبادهم عن آخرهم، فهل هؤلاء سيؤمنون؟ أي: إنهم لن يؤمنوا.

يقول سبحانه مقررًا ذلك: ﴿وَمَا مَنَعَنَا أَنْ نُرْسِلَ بِالْآيَاتِ إِلَّا أَنْ كَذَّبَ بِهَا الْأَوَّلُونَ﴾ [الإسراء: ٥٩]. ويقول سبحانه: ﴿وَنُقَلِّبُ أَفْعَادَهُمْ وَأَبْصَرَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ [الأنعام: ١١٠]. أي: أن الله سبحانه يعلم حقيقة أمرهم، وأنه جل شأنه لو أنزل عليهم الملائكة، وأخرج لهم الموتى من قبورهم أحياء، فكلموهم، ورأوا الله عيانًا، ما كانوا ليؤمنوا إلا أن يشاء الله، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا عَنْهُمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ ۝٩٦ وَلَوْ جَاءَتْهُمْ كُلُّ آيَةٍ حَتَّى يَرَوْا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ ۝٩٧﴾ [يونس] والقرية في القرآن هي المدينة العظمى.

والمعنى: إن الأمم الذين أرسل الله لهم رسلًا قبلك يا محمد، وطلب أهلها المعجزات من رسلهم، قد تحققت لهم هذه المعجزات وأجابهم الله إليها، ولكن هذه الأمم لم تؤمن بل كذبوا؛ فأبادهم الله تعالى، ولذلك فإن الله تعالى يقول: إِنَّ مَنْ كَذَبَ

(١) «تفسير الطبري» ١٧/ ٤.

(٢) يُنظر هذا المعنى في: النسائي في التفسير برقم (٣٥١) عن قتادة.

من أمتك يا محمد، وطلب منك مثل هذه المعجزات الحسية لو أُجيب إليها فإنه لن يؤمن، ولو أعطيناه جميع ما طلب من اقتراحات.

وقد جاء هذا المعنى في صورة الاستفهام على وجه الإنكار والاستبعاد: ﴿أَفَهُمْ يُؤْمِنُونَ﴾؟ الجواب: كلاً، لا يؤمنون، ولكن سَيُخْرَجُ من أصلابهم قوم مؤمنون، ولذا فإن الله تعالى أمهلهم ولم يستأصلهم.

٧- ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ إِلَّا رِجَالًا نُوْحِي إِلَيْهِمْ﴾^(١) فَسَلُّوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٧﴾ هذا هو الرد على الشبهة الأولى، أو الاعتراض الأول: بأن الرسول لا يكون بشراً.

لقد كانت عقولهم القاصرة تُنكِرُ خصائص الإنسانية، وعوارض البشرية، على الرسول ﷺ، ولا يتصورون أن يكون الرسول بشراً يأكل ويشرب، وينام ويتزوج، ويطوف في الأسواق، واستبعدوا أن يكون الرسول بشراً يوحي إليه، مع أن إبراهيم عليه السلام بشر، وقد أقرت جميع الطوائف برسالته، فلماذا تقام هذه الشبهة الباطلة على محمد ﷺ، وهي موجودة في إخوانه من المرسلين، فردَّ الله تعالى عليهم بقوله: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ إِلَّا رِجَالًا نُوْحِي إِلَيْهِمْ﴾ أي: أننا لم نرسل ملكاً من الملائكة فيما سبق من تاريخ الأمم والشعوب؛ لأن البشر لا يطيقون رؤية الملك، ولا يمكنهم فهم الخطاب أو التلقّي عنه.

ولابد أن يكون الرسول بشراً؛ كي تكون لهم قدرة على رؤيته والتفاهم معه، ويمكنه أن يُطبّق شرع الله فيهم، بطبيعة البشر الذي يأكل ويشرب، ويمرض ويموت، ويتزوج وتكون له ذرية.

فالرسول لا يكون إلا رجلاً؛ لأننا لم نرسل نساء، ولم نرسل ملائكة، ولا جنّاً، إنما أرسلنا رجالاً من البشر، فإن كنتم في شك من ذلك ﴿فَسَلُّوا أَهْلَ الذِّكْرِ﴾ ممن لهم خبرة بالرسالات السابقة ﴿إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ أننا لا نرسل إلا رجالاً في تاريخ الأمم كلها، اسألوا مَنْ لهم علم ممن سبق أن أنزلت عليهم الكتب، وأُرسلت فيهم الرسل، كأخبار اليهود،

(١) قرأ حفص (نوحى إليهم) بنون العظمة، وكسر الحاء، مبنياً للفاعل؛ لمناسبة أول الآية، والفاعل ضمير تقديره: نحن، و(إليهم) متعلق بـ(نوحى)، والباقون (يُوحى إليهم) بالياء وفتح الحاء، مبنياً للمفعول و (إليهم) نائب فاعل.

ورهبان النصرى، وكان المشركون يسألونهم ويصدقونهم؛ لأن لهم علمًا بالكتب المنزلة. وسُمُّوا أهل ذكر؛ لأنهم يذكرون خبر الأنبياء ويعرفونهم، ولم تكن العرب تعرفهم، والقرآن يسمى ذكراً.

وليس المراد بالآية حقيقة السؤال، وإنما المراد تقرير وتأكيد المعنى المقصود من السؤال، وهو أن الرسول -أي رسول- لا يكون إلا بشراً من الرجال، في جميع الأمم السابقة، فلا وجه لاعتراض المكذبين.

وأهل الذكر، كلمة تطلق على كل صاحب علم، فالمرضى يسأل الطبيب، والطالب يسأل المدرس، ومن يرد إصلاح آلة يسأل من له خبرة وعلم بها.

والآية عامة تشمل كل شيء، فليسأل الجاهل العالم فيما لا يعلم، وأهل القرآن والعلم: من أهل الذكر، وفي الآية نهى عن سؤال من لا علم لهم، وأمر بسؤال أهل العلم في أصول الدين وفروعه.

ومثل هذه الآية قوله تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُوحِيَ إِلَيْهِمْ مِنْ أَهْلِ الْقُرَى﴾ [يوسف: ١٠٩]. وشأن النبي ﷺ شأن غيره من الرسل ﴿قُلْ مَا كُنْتُ بِدَعَا مِنَ الرُّسُلِ﴾ [الأحقاف: ٩] فهو رجل من الرجال، وبشر من البشر.

٨- ﴿وَمَا جَعَلْنَاهُمْ جَسَداً لَّا يَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَمَا كَانُوا خَالِدِينَ﴾ (٨)

هذه الآية من تنمة الرد على القائلين بأن الرسول لا يكون بشراً، أي: إننا لم نجعل المرسلين قبلك -يا محمد- أجساداً بلا أرواح، تنتفي عنهم صفات البشرية. ولم نجعلهم أجساداً كالملائكة، أو أنواعاً من الآدميين خارجين عن طباع البشر، لا يأكلون، ولا يشربون، ولا يتناكحون، ولا يتناسلون، ولا يعترهم ما يعترى البشر، من: العواطف، والانفعالات، والآلام، والآمال.

وما جعلناهم خالدين في الدنيا، وإنما هم بشر يموتون كغيرهم، ولا يُخلَّدون في الدنيا، فقد جعلنا لأعمارهم أوقاً محددة تنتهي عندها آجالهم، شأن كل محدث مخلوق.

١- كما قال تعالى لنبيه: ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَلِإِنتِهِمْ مَّيِّتُونَ﴾ (٣٠) ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ عِنْدَ رَبِّكُمْ تَخَصِّصُونَ ﴿٣١﴾ [الزمر].

٢- وقال: ﴿وَمَا جَعَلْنَا لِشَرِّ مِنْ قَبْلِكَ الْخَلْدَ أَفَإِنْ مِتَّ فَهُمْ الْخَالِدُونَ﴾ [الأنبياء].

٣- وقال جل شأنه: ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ﴾ [آل عمران: ١٨٥].

٤- وقال أيضًا: ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ﴾ [الرحمن].

٥- وقال سبحانه: ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ﴾ [القصص: ٨٨]. قال تعالى:

٩- ﴿ثُمَّ صَدَقْنَاهُمُ الْوَعْدَ فَأَنْجَيْنَاهُمْ وَمَنْ نَشَاءُ وَأَهْلَكْنَا الْمُسْرِفِينَ﴾ [٩]

لقد وعد الله رسله بالنصر والغلبة، ووعدهم جل شأنه أن ينجيهم ويهلك أعداءهم، وقد أنجز الله لهم ما وعد، فأهلك المسرفين من المكذبين المشركين.

وكما صدق الله وعده مع رسله السابقين، يصدق وعده كذلك مع خاتم المرسلين بعلو شأنه وظهور دعوته، وإعلاء كلمته ولو كره المشركون والكافرون، ويصدق وعد الله لرسوله بعذاب المكذبين به، كما أهلك من كذبوا رسل الله في الأمم السابقة.

والمسرفون: هم المفرطون، المجاوزون الحد في التكذيب، المستمرون عليه.

شَرَفُ الْأُمَّةِ فِي كِتَابِ رَبِّهَا

١٠- ﴿لَقَدْ أَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ كِتَابًا فِيهِ ذِكْرُكُمْ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ [١٠]

بيّن سبحانه في هذه الآية أن القرآن هو أعظم المعجزات التي أنزلها الله على البشر، وأن المعجزات التي يطلبها المكذبون المعاندون لا تدانيه في الشرف والعزة والمكانة، فقد أنزلنا إليكم يا معشر المسلمين -والعرب خصوصًا- قرآنًا فيه شرفكم وعزكم، إن عملتم بما فيه من الأخبار الصادقة فاعتقدتموها، وامتلئتم ما فيه من الأوامر واجتنبتم ما فيه من النواهي، فإن فعلتم ذلك ارتفع قدركم، وعظم شأنكم.

وهذا الكتاب بلسان عربي مبين، فهو الآية الدالة على رسالة محمد ﷺ، وهو معجزة

قائمة صالحة إلى قيام الساعة، بخلاف المعجزات التي يطلبها المكذبون، فإنه يراها جيل دون جيل، فهذه ناقة صالح رآها قوم صالح ثم ماتوا، ومن جاء بعدهم لم يراها، وهكذا عصا موسى، ومعجزات عيسى وغيرهم.

أما القرآن فهو معجزة ماثلة قائمة بين أيديكم، وهو كتاب فيه هدايتكم وصلاحكم وشرفكم ومجدكم وعزّتكم ونصركم إن أنتم تمسكتكم به وعملتكم بما فيه، قال تعالى عن القرآن: ﴿وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ﴾ [الزخرف: ٤٤] يُذَكِّرُكُمْ أمر دينكم ودنياكم، ويُذَكِّرُكُمْ أحكام شرعكم، وجزاء أعمالكم وأقوالكم، فكلمة (ذكر) يُقصد بها معنيان: الأول: القرآن المشتمل على الهدى والعظة والتذكير.

الثاني: الشرف والعزة والمكانة حتى آخر الدنيا، وكلاهما مراد في الآية.

وقد فرّع الله تعالى على المعنيين معاً قوله سبحانه: ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾؛ لأن مَنْ جاءه هذا القرآن ولم يهتد به يُنكر عليه سوء عقله، ومن جاءه ما فيه مجده وسمعته ولم يعبأ به، ينكر عليه سوء تقديره للأمور.

وأيضاً فإن القرآن معجزة تفوق كل الآيات التي يطلبها المكذبون، كما قال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَىٰ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ [العنكبوت].

ولم يكن للعرب ذكرٌ في العالمين، ولا شرفٌ، ولا مجدٌ يُذكر، قبل نزول هذا القرآن. ومصداق هذه الآية أن من اهتدى بالقرآن من السلف الصالح، ومن سار على منهجهم حصل له من الفخر، والرفعة، والشرف ما زاد على ملوك الدنيا، ومن لم يرفع بالقرآن رأساً فلا سبيل إلى سعادته في الدنيا والآخرة، إلا بالاعتاض والاهتداء بهذا الكتاب.

هَلَاكُ الْأُمَمِ الَّتِي كَذَبَتْ رُسُلَ اللَّهِ

١١- ﴿وَكَمْ قَصَمْنَا مِنْ قَبْلِكَ كَانَتْ ظَالِمَةً وَأَنشَأْنَا بَعْدَهَا قَوْمًا آخَرِينَ﴾ [١١]

ولما ذكر سبحانه صدق وعده لرسله ومن تبعهم بنصر المؤمنين ونجاتهم، أعقب ذلك بيان إهلاك أمم كثيرة من الظالمين لأنفسهم بالكفر والشرك، ووصف ما حلّ بهم من العذاب؛ ليكون فيه العبرة والعظة لمن تجاوز حدود الله تعالى، وفي هذا تهديد ووعيد للمكذبين الكافرين بإهلاكهم، وإنشاء أمة مؤمنة بعدهم، كما قال تعالى: ﴿إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ﴾ [١٩] وَمَا ذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ بِعَزِيزٍ [٢٠] [إبراهيم].

وقال: ﴿إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ أَيُّهَا النَّاسُ وَيَأْتِ إِخَارِيَّتٌ وَكَانَ اللَّهُ عَلَى ذَلِكَ قَدِيرًا﴾ [النساء].

والقرية المشار إليها في الآية ليست قرية بعينها، إنما هو مثل مضروب؛ لبيان مصير الأمم التي كذبت رسلها.

ويقال: إنها مدينة في اليمن، يقال لها: حضوراء، أو حضور، من أعمال زيد.

هذه القرية أرسل الله فيها نبياً اسمه شعيب بن ذي مهديم في زمن أرمياء، نبي بني إسرائيل، فكذبوه وقتلوه، وقبره في جبل من جبال اليمن، يقال له: حنين، وهو غير شعيب نبي مدين، فسلط الله على أهل حضوراء بختنصر فهزموا جيشه مرتين، فسار إليهم بنفسه فسباهم وقتلهم، ولما استمر فيهم القتل تركوا قريتهم وفروا هاربين منها، وأهل هذه القرية ممن شملتهم الآية^(١).

وفي هذه الآية بيّن سبحانه أنه كم من قرية كذبت رسولها، فأتينا عليها واستأصلناها، وأنشأنا على أنقاضها قوماً آخرين.

والمعنى: إن كثيراً من القرى التي تجاوز أهلها حدود الحق، ومردوا على الضلال والكفر، أهلكهم الله بعذاب أبادهم جميعاً، وأوجد الله بعدهم قوماً آخرين سواهم.

والقصم: هو أشد حركات القطع؛ فالدمار يحل بالديار القائمة، والإنشاء يبدأ بالديار اللاحقة.

١- كما قال تعالى: ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنَ الْقُرُونِ مِنْ بَعْدِ نُوحٍ﴾ [الإسراء: ١٧].

٢- وقال عز وجل: ﴿فَكَأَيِّنْ مِنْ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ فِيهَا خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا وَيَبْنَؤُا مَظْلَمَةً وَقَصِرَ مَسِيدُهَا﴾ [الحج: ١٥].

٣- وقال سبحانه: ﴿أَلَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ قَرْنٍ مَكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ مَا لَمْ تُمَكِّنْ لَكُمْ﴾ [الأنعام: ٦].

٤- وقال جل شأنه: ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنْ قَرْنٍ هُمْ أَشَدُّ مِنْهُمْ بَطْشًا﴾ [ق: ٣٦].

٥- وقال أيضاً: ﴿أَلَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنَ الْقُرُونِ أَنَّهُمْ إِلَيْهِمْ لَا يَرْجِعُونَ﴾ [يس: ٣٦].

(١) يُنظر: «فتح القدير» للشوكاني (٣، ٤)، و«فتح الباري» (٨/٤٣٦)، وقد أخرجه ابن مردويه عن ابن عباس، وأخرجه ابن أبي حاتم عن مجاهد كما في «الدر المنثور» (١٠/٢٧٤).

٦- والقرية التي أهلكها الله لا تعود إلى الوجود مرة أخرى، كما قال تعالى:
﴿وَحَرَّمْ عَلَى قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا أَنَّهُمْ لَا يَرْجِعُونَ﴾ (٩٥) [الأنبياء] قال تعالى:

١٢- ﴿فَلَمَّا أَحَسُّوا بَأْسَنَا إِذَا هُمْ مِنْهَا يَرْكُضُونَ﴾ (١٢)

يصور القرآن حال هؤلاء الظالمين عندما أدركتهم مقدمة العذاب، وشاهدوا بوادره، ورأوا بأعينهم هلاك غيرهم، وتيقنوا نزول العذاب الشديد بهم، عندئذ أسرعوا هاربين ﴿فَلَمَّا أَحَسُّوا بَأْسَنَا﴾ ورأوا بأعينهم العذاب النازل بهم، والقتل المستمر فيهم ﴿إِذَا هُمْ مِنْهَا يَرْكُضُونَ﴾ أي: يفرون من القرية مسرعين هاربين.

وهذا شأن كل قوم كذبوا رسولهم، وقاوموا شرع الله تعالى وأحكامه، يقول سبحانه:

١٣، ١٤- ﴿لَا تَرْكُضُوا وَارْجِعُوا إِلَى مَا أُتْرِفْتُمْ فِيهِ وَمَسْكِنِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَسْأَلُونَ﴾ (١٣) ﴿قَالُوا يَبُولْنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ﴾

أي: ويقال لهؤلاء المكذبين المترفين، بعد أن حلَّ بهم الهلاك والدمار: الركض والندم لا يفيدكم، ولكن إن كان لكم قدرة على العودة، فارجعوا إلى ما أترفتم فيه من الشهوات والملذات، ارجعوا إلى دنياكم وآهتكم، فاستمتعوا بها، حتى يأتي أمر الله، ولعلكم تسألون، لماذا فررتما وما الذي دهاكم؟ والقائل هم الملائكة، استهزاء وسخرية، أو هم المؤمنون الناجون من الهلاك، وهيئات أن يعود بهم الحال، فإن الوقت قد فات، والعقاب قد حل، وذهب العز والشرف وما كانوا فيه من النعيم والشهوات والمساكن الفخمة. وعلى أن الآية نزلت في أهل قرية حَضُوراء، فالمعنى أن رجال بختنصر قالوا لأهل القرية الهاربين منها على وجه التَّهْكُم: لا تَفِرُّوا وارجعوا إلى ما كنتم فيه من النعيم، وعودوا إلى لذائذكم، ومساكنكم المشيدة، وقصوركم العالية، ومعيشتكم السعيدة ﴿لَعَلَّكُمْ تَسْأَلُونَ﴾ شيئاً من دنياكم، وذلك على سبيل الاستهزاء والسخرية أو لعلكم تسألون عما جرى لكم من الأهوال.

أي: ارجعوا إلى ما كنتم فيه من النعيم؛ لتروا حال البلاد التي تركتموها في غنى ورخاء، لعل سائلاً يسألكم شيئاً من هذا النعيم فتُعْطُوهُ، ولعل سائلاً يسألكم عما أصابكم فتُجِيبُوهُ، يقال لهم ذلك على وجه التهكم.

والترف المذموم: هو الخالي من الإيمان والعمل الصالح؛ لأنه يؤدي بأصحابه إلى هذه النتيجة.

فلم يكن لهم من جواب حين رأوا العذاب إلا أن اعترفوا وأقروا بذنوبهم، فقالوا: يا هلاكنا لقد ظلمنا أنفسنا بالكفر، وعدم الشكر والغفلة عن الذكر، فندموا واعترفوا في وقت لا ينفع فيه الندم. قال تعالى:

١٥- ﴿فَمَا زَالَتْ تِلْكَ دَعْوَتُهُمْ حَتَّىٰ جَعَلْنَاهُمْ حَصِيدًا خِلِيفِينَ﴾ ﴿١٥﴾

أي: فما زالت تلك المقالة، وهي دعاؤهم على أنفسهم بالهلاك والويل والثبور، حين قالوا: ﴿يَوَيْلَنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ﴾ حتى جعلناهم كالزرع الذي تم حصده بالمنجل ولم يبق له أثر، أي: ما زالوا يكررون مقالتهم بالدعاء على أنفسهم حتى هلكوا عن آخرهم، وأصبحوا كالنار الخامدة التي انطفأ لهيبها بعد اشتعالها، وهذا بيان لما صار إليه مآلهم، فقد خمدت أنفاسهم، وسكنت أصواتهم، وسكنت حركاتهم.

فاحذروا -أيها المخاطبون- أن تستمروا على تكذيب محمد ﷺ وعدم الإيمان بدعوته، فيحل بكم ما حلَّ بمن قبلكم، فهذه هي عاقبة الظالمين، وما ظلمهم الله شيئاً، ولكن كانوا أنفسهم يظلمون، قال تعالى: ﴿فَاعْتَرَفُوا بِذَنبِهِمْ فَسُحْقًا لِأَصْحَابِ السَّعِيرِ﴾ ﴿١١﴾ [الملك].

الْهَدَفُ وَالْغَايَةُ مِنْ خَلْقِ الْعِبَادِ

١٦- ﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لِعَيْنٍ﴾ ﴿١٦﴾

المقصود من هذه الآية: هو إيقاظ العقول إلى أن هذه الحياة ليست هي نهاية المطاف بالنسبة للخلق، حتى لا يستوي المحسن والمسيء، بل إن مقتضى العدل، أن يأتي يوم آخر يجازى فيه العباد بأعمالهم، ولذلك يكثر في القرآن ذكر البعث والنشور بعد ذكر خلق السموات والأرض ﴿رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَطْلًا سُبْحَنَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ﴾ [آل عمران: ١٩١] وذلك لأن خلق السموات والأرض يُستدل به على وجود الخالق المدبر، وأنه سبحانه مستحق للعبادة دون سواه، ولهذا فإن لفظ ﴿وَمَا بَيْنَهُمَا﴾ جاء مطرداً في القرآن بعد ذكر خلق السموات والأرض؛ للتنصيص على أشرف مخلوق بينهما وهو الإنسان المقصود بالحكمة التي خلقه الله من أجلها؛ إذ كيف يكفر العباد بربهم، وهو خالق هذا الكون بما فيه ومن فيه، وقد خلقه سبحانه لحكمة سامية، وغاية عظيمة هي معرفته سبحانه، من خلال استدلال الخلق بآيات الله الكونية، على أنه الخالق الرازق المدبر، القادر على

إعادة الأجساد بعد موتها، ومن ثم إلى عبادة الله تعالى، وهي الوظيفة الأولى التي خلق الخلق من أجلها، وبعدها يكون الثواب والعقاب في الآخرة، فهذا الكون لم يخلقه الله عبثاً لغير هدف، وإنما خلقه؛ ليعرف العباد ربهم ويعبدوه، ثم لا يستوي المحسن والمسيء يوم لقائه.

والقرآن الكريم يخاطب الناس كافة في شرق الأرض وغربها، وشمالها وجنوبها، يخاطب أمة التوحيد التي اهتدت، وأجابت دعوة رسول الله ﷺ فأمنت وحسن إسلامها، ويخاطب أيضاً أمة الدعوة في أرجاء المعمورة من: الوثنيين، واليهود، والنصارى وغيرهم للدخول في الإسلام.

وهكذا، يبين سبحانه في هذه الآية، أنه لم يخلق هذا الكون بسمائه، وأرضه، وما فيهما، وما بينهما من مخلوقات وكائنات لعباً ولا باطلاً، ولا لهواً ولا عبثاً، وإنما خلقه لحكمة عظيمة، وفائدة كبيرة هي أن يتعرف الخلق على ربهم، فإذا عرفوه عبدوه وذكروه وشكروه، كما أمرهم ربهم ونهاهم، فإذا جاء يوم الحساب والجزاء فإنهم يحاسبون على ما قدمت أيديهم، فمن أطاع الله ورسوله فله جنة عرضها السموات والأرض، ومن لم يجب دعوة محمد ﷺ ولم يدخل الإسلام، فهو من أهل النار المخلدين فيها، وكذا كل من مات على الكفر.

ومن ذلك أن الله سبحانه خلقهما لحكمة جليلة وغاية نبيلة، هي إقامة الحجة على العباد يوم القيامة على ما صدر منهم في الدنيا، وفق علم الله تعالى عنهم، لكي يعلموا أن الله تعالى لا ليس له شريك في ملكه، ولا تصلح العبادة إلا له.

١- وفي القرآن الكريم آيات كثيرة بهذا المعنى، كما في قوله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لِعِبَادٍ﴾ (٢٨) مَا خَلَقْنَاهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ ﴿[الدخان].

٢- وقوله: ﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَطْلًا﴾ أي: عبثاً ولهواً، وليس بالحق ﴿ذَلِكَ ظَنُّ الَّذِينَ كَفَرُوا فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنَ النَّارِ﴾ [ص: ٢٧].

٣- وقوله: ﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَإِنَّ السَّاعَةَ لَآتِيَةٌ﴾ [الحجر: ٨٥].

٤- وقوله: ﴿مَا خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَأَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ [الأحقاف: ٣].

هذا الحق، هو الحكمة والهدف والغاية التي من أجلها خلق الله البشر؛ ليتعرفوا على ربهم، فيعبده ويذكروه، ثم يحاسبهم ويجازيهم يوم القيامة وفق أعمالهم، كما في قوله تعالى: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ﴾ [المؤمنون]

وهذا الحق أيضًا هو المبين في قوله تعالى: ﴿لِيَجْزِيَ الَّذِينَ أَسْتَوُوا يَمَا عَمِلُوا وَيَجْزِيَ الَّذِينَ أَحْسَنُوا بِالْحَقِّ﴾ [النجم: ٣١].

اتِّخَاذُ الْوَلَدِ مُسْتَحِيلٌ عَلَى اللَّهِ تَعَالَى

١٧- ﴿لَوْ أَرَدْنَا أَنْ نَتَّخِذَ لَهَوًا لَّاتَّخَذْتُهُ مِنْ لَدُنَّا إِنْ كُنَّا فَاعِلِينَ﴾ [١٧]

ولأن اللعب واللهو ليس من شأن الله تعالى، فلو فرض أن الله تعالى أراد أن يتخذ لهوًا من الزوجة والولد، لاتخذهما من العوالم العليا التي لا ترونها، والله سبحانه يقول هذا على سبيل الفرض، وإلا فإن اللهو والباطل أمر مستحيل بالنسبة لله ﷻ، ولهذا فإن أهل اللغة يقولون: إنَّ (لو) حرف امتناع لامتناع، أي: أن الله تعالى علَّق أمرًا محالًا على أمر محال.

فيكون المعنى على سبيل الفرض والتقدير، أي: أنا لو أردنا أن نتخذ لهوًا لاتخذناه بعيدًا عن أعين الخلق بحيث لا يروننا، كالإنسان حين يفعل الشيء الذي يستحي منه بعيدًا عن أبصار الناس.

وفي التفسير المأثور: أن المراد باللهو: الزوجة والولد، كما قال بعض مشركي العرب: إن الله ﷻ تزوج من الجن فأنجب منهم الملائكة، فالملائكة بنات الله في زعمهم، وكما قال بعض اليهود: عزير ابن الله، فنسبوا له الولد، وكما قال فريق من النصارى: المسيح ابن الله.

واللهو: هو الولد بلغة أهل اليمن، والآية تردُّ عليهم جميعًا، كما قال تعالى: ﴿لَوْ أَرَادَ اللَّهُ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَدًا لَاصْطَفَىٰ مِمَّا يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ﴾ [الزمر: ٤]

واتخاذ الولد يستلزم اتخاذ الزوجة، ولهذا جاء تفسير اللهو: بالزوجة والولد.

ولو أراد الله اتخاذ الزوجة والولد من الأرض فإنه لن يتخذ مريم زوجة في الأرض، وإنما يتخذ الزوجة من الحور العين، ويتخذ من الملائكة ما يشاء من الأبناء، والرجل عادة يجعل ولده وزوجه عنده، ولا يجعلهما في مكان آخر بعيداً عنه، فكيف يتفق هذا؟ ﴿إِنْ كُنَّا فَعَلِينَ﴾ ولكننا لم نفعل ذلك لاستحالته على رب العالمين.

وهكذا: خلقُ السموات والأرض، لا يمكن أن يراد بهما العبث واللغو، ولو أردنا العبث لما أطلعناكم عليه، وكل هذا من باب التنزل مع العقول البشرية وإقناعها بجميع الوجوه. قال تعالى:

١٨- ﴿بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ وَلَكُمُ الْوَيْلُ مِمَّا نَصِفُونَ﴾

وما يصف به المشركون رب العالمين من اتخاذ الصاحبة والولد، كذب وباطل، والله ﷻ يعمد إلى باطلهم فيزيله ويدحضه، كأن الحق قذيفة تلقى على الباطل فتشده رأسه، أي: أن حجج القرآن وأدلته القوية الواضحة تبطل ما يقوله المشركون والكفار الكاذبون في دعواهم نسبة الولد والزوجة إلى الله ﷻ، وتمحق هذه الغرية التي يقول بها النصارى واليهود الوثنيون وغيرهم.

بل نقذف بالحق ونُبَيِّنُهُ، فيدحض الباطل فإذا هو ذاهب مضمحل، ويبقى الحق ثابتاً، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا﴾ [الإسراء: ٨١].

وقال سبحانه: ﴿فَأَمَّا الزُّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً وَأَمَّا مَا يَنْفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الْأَرْضِ﴾ [الرعد: ١٧].

ثم توعد الله المشركين على افتراءهم، فقال: ﴿وَلَكُمُ الْوَيْلُ مِمَّا نَصِفُونَ﴾ الله به من: الزوجة، والولد، والشريك، وما تصفون به رسول الله ﷺ من: السحر، والشعر، والكهانة.

وهذه الآية عامة في قهر الحق للباطل في جميع المسائل الدينية والدنيوية، ويدخل فيها دخولاً أولياً الذين يصفون الله تعالى بما لا يليق بجلاله، والذين يصفون رسول الله ﷺ بما يتنافى مع مقام النبوة.

الْمَلَائِكَةُ عِبَادٌ مُمَخْضُونَ لِلطَّاعَةِ

١٩- ﴿وَلَمْ يَكُنْ مِنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَنْ عِنْدَهُ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ وَلَا يَسْتَحْسِرُونَ﴾

ثم بيّن ﷺ أن اتخاذ الولد، والزوجة، والشريك، هو من شأن الخلق الفقراء إلى الله سبحانه، والله تعالى هو الغني عن خلقه جميعاً، فهو خالقهم، ومالكهم، ورازقهم، والكل مربوب لله ﷻ، فكيف يتخذ ولدًا وزوجة، وهذا الكون كله ملك له سبحانه، وهو صاحب الكلمة الحاسمة في الأرض والسماء، ما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن، والكل خاضع لجلاله؟!

وجاء مثل هذه الآية بلفظ (ما) في قوله تعالى: ﴿بَلْ لَّمْ يَأْتِكُمْ فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ﴾ [البقرة: ١١٦]، وآيات أخر.

وهنا جاء قوله تعالى: ﴿وَلَمْ يَأْتِكُمْ فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ﴾ وَمَنْ للعاقل، وما لغير العاقل، أي: أن جميع ما في هذا الكون سواء مَنْ يعقل وَمَنْ لا يعقل، الكل ملك لله سبحانه، خلقه وعبيده وملكه، يتصرف فيهم كيف يشاء.

ثم خصص الله هذا العموم بمن أراد تشريفه من الملائكة، فقال: ﴿وَمَنْ عِنْدَهُ﴾ أي: أن مَنْ عند الله ﷻ من المخلوقات، وهم الملائكة المقربون، يسبحون الله تعالى ويحمدونه ويكبرونه طوال ليلهم ونهارهم، وهم لا يملئون من العبادة، ولا يتعبون ولا يأنفون منها، ولا يحدث منهم فتور، ولا تراخ، ولا تقصير، وهم في عبادة دائمة مستمرة لا يشق عليهم ذلك، فكيف يجوز أن يشركوا بالله أحدًا من خلقه وعبيده؟

والاستحسار: هو الإعياء والتعب الشديد، جاء في الحديث عن حكيم بن حزام، أن النبي ﷺ قال لأصحابه: «هل تسمعون ما أسمع؟» قالوا: ما نسمع من شيء، فقال ﷺ: «إني لأسمع أطيب السماء، وما تلام أن تتط، وما فيها موضع شبر، إلا وعليه ملك ساجد أو قائم»^(١) فهم:

٢٠- ﴿يُسَبِّحُونَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لَا يَفْترُونَ﴾

وصف ﷻ الملائكة الكرام وعباده الطائعين بأنهم يُصلُّون ويذكرون الله دائماً ويُتزهونه،

(١) رواه الطبراني في «المعجم الكبير» (٢٠/١٣) عن حكيم بن حزام، وأخرجه الطحاوي في «مشكل الآثار» برقم: (١١٣٤) وله شاهد من حديث أبي ذر الغفاري أخرجه الترمذي في «السنن» برقم: (٢٣١٢) وقال: هذا حديث حسن غريب.

لا يَضْعُفُونَ ولا يَمْلُؤُونَ، ولا تنقطع عبادتهم، فهم في تسبيح الله وطاعته بصفة مستمرة، وراحتهم النفسية في ذلك.

سأل فتى من بني عبد المطلب، كعب الأحبار: كيف أن الملائكة تسبح لله بصفة دائمة لا يشغلها شاغل؟ فقال للسائل: أَلَسْتَ تَأْكُلُ وتشرب، وتقوم وتجلس، وتكلم وتنام، وتركب وتجيء، وتتحرك وتعمل، وأنت في جميع أحوالك تتنفس؟ قال: فكذلك جُعِلَ لهم التسبيح^(١).

فالتسبيح من الملائكة كالنفس من بني آدم، فكما أن الإنسان لا ينقطع نفسه إلا إذا مات، فهو يقوم ويجلس، وينام ويستيقظ، ويتحرك ويسكن، وهو يتنفس، فكذلك الملائكة أنفسهم هو التسبيح، فهو مستمر لا ينقطع؛ ذلك لأن تسبيح الملائكة يكون بأصوات مخلوقة فيهم، لا يعطّلها تبليغ الوحي ولا غيره من الأقوال، فهو يجري فيهم مجرى النفس

وفي مقدور البشر أن يكونوا كالملائكة في مواصلة الطاعة المستمرة لله ﷻ، ويتحقق هذا بالنية في جميع أقوالهم وأفعالهم، بحيث يجعل المسلم حركاته وسكناته، وعمله ونومه ويقظته، حتى قضاء شهوته لأهله، يجعل ذلك كله لله، فهو ينام، ونومه يكون عبادة، ويأتي أهله، ويكون ذلك عبادة، ويعمل، ويكون عمله عبادة، ويذهب ويجيء ويكون مشيه عبادة، ويتنظف ويغتسل، ويكون ذلك عبادة، وهكذا يتحول كل شيء في حياة الإنسان إلى طاعة، وذلك بالتوجه بالنية إلى الله ﷻ، فيكون كالملائكة.

والنية هي التي تفرّق بين العادة والعبادة، فإذا أكل الإنسان ليشبع حاجته من الطعام، فإن أكله قد يكون عادة، وقد يكون عبادة، وذلك أنه إذا نوى بأكله هذا التقوي على الطاعة وعلى طلب المعيشة، كان أكله عبادة يؤجر عليها، وإلا كان أكله عادة، وهكذا سائر الأقوال والأفعال.

قال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٢٢﴾ لَا شَرِيكَ لَهُ ۚ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ ﴿١٢٣﴾﴾ [الأنعام] أي: أن جميع حركاتي وسكناتي، حتى موتي وحياتي كلها

(١) يُنظَر: «تفسير ابن كثير» (٥/ ٣٣٥).

طاعة وعبادة لله تعالى، وبهذه الطريقة يكون العبد ربانياً، دائم الطاعة لله تعالى كالملائكة.

أَرْبَعَةُ أَدِلَّةٍ عَقْلِيَّةٍ وَنَفْصِيَّةٍ عَلَى وَحْدَانِيَةِ الْخَالِقِ سُبْحَانَهُ

وبعد أن بيّن سبحانه أن من مخلوقاته من يُسَبِّحُونَ الله تعالى ليلهم ونهارهم دون فتور، فإنه ﷺ يُوَيِّخُ المشركين على شُرْكِهِم بِاللَّهِ تعالى، وعدم توحيدهم له سبحانه، وعدم صرفهم العبادة له وحده دون سواه، فيقيم ثلاثة أدلة عقلية، ودليلاً رابعاً نقلياً على توحيدِهِ سبحانه.

وهؤلاء الذين أشركوا بالله تعالى ليسوا في وقت النبي ﷺ فحسب، بل هم في كل زمان ومكان، والقرآن لا يخاطب أهل الجزيرة فقط، ولا يخاطب العرب وحدهم، ولا يخاطب أهل التوحيد فحسب، إنما يخاطب البشر جميعاً: أمة الدعوة، وأمة الإجابة، ومنهم من يعبد الوثن، والبقر، وغيرها، فيخاطبهم الله جميعاً بهذه الأدلة:

الدَّلِيلُ الْأَوَّلُ: دَلِيلُ الْقُدْرَةِ

٢١- ﴿أَمِ اتَّخَذُوا إِلَهًا مِّنَ الْأَرْضِ هُمْ يُنْشِرُونَ﴾

أي: كيف يصحُّ للمشركين أن يعبدوا آلهة عاجزة، لا تُقَدِّرُ على إحياء الموتى؟! فهذه الآلهة التي اتخذوها من الأرض، وأشركوها مع الله ﷻ في عبادته، هي من الذهب، أو من الفضة، أو من الحجارة، أو من الخشب، أو من البشر، أو من الكواكب، وغيرها، وكلها لا تُحيي الموتى، ولا تُدَبِّرُ الأمر، ولا تَرْزُقُ الخلق.

ولا يكون إلهاً يستحق العبادة إلا من يقدر على الإحياء والإيجاد من العدم، ولا يقدر على الإعادة إلا الذي بدأ الحياة، وهذا معنى ﴿هُم يُنْشِرُونَ﴾ أي: يُحييُونَ الخلق بعد مماتهم.

ثم لماذا يخصُّ الله ﷻ البعث بالذكر في الاستدلال على نفي الألوهية؟

الجواب: لأن إحياء الموتى من خصائص الإله الحق، بل هو من أبرز وأخص الخصائص، والذي لا يحيي الموتى كيف يكون إلهاً؟!

فاستدلوا بعقولكم -أيها الكافرون- على وحدانية الله سبحانه، وهذا تهكم بالمشركين، كما قال إبراهيم لقومه: ﴿اتَّبِعُونِ مَا نُنْجِيكُمْ ۖ وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ﴾ (٩٦) [الصفات]. ومن كان مخلوقاً لا يكون معبوداً، وقد وصفهم الله بقوله: ﴿وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ لَا

يَخْلُقُونَ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ ﴿٢٠﴾ أَمْوَاتٌ غَيْرُ أَحْيَاءٍ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ ﴿٢١﴾ [النحل].

والاستفهام الذي في الآية، بمعنى النفي، أي أن هذه الآلهة لا تقدر على حشر العباد ونشرهم، كما قال تعالى: ﴿وَاتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ آلِهَةً لَعَلَّهُمْ يُنْصَرُونَ ﴿٧٤﴾ لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَهُمْ وَهُمْ لَهُمْ جُنْدٌ مُنْخَضَرُونَ﴾ [يس: ٧٤، ٧٥] وقال سبحانه: ﴿وَاتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ آلِهَةً لَا يَخْلُقُونَ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ وَلَا يَمْلِكُونَ أَنْفُسِهِمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا وَلَا يَمْلِكُونَ مَوْتًا وَلَا حَيَاةً وَلَا نُشُورًا﴾ [الفرقان: ٣] فكيف يعبد الإنسان مخلوقًا لا ينفع ولا يضر، ويترك من بيده النفع والضرر؟

الدَّلِيلُ الثَّانِي: دَلِيلُ التَّمَانُعِ

٢٢- ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا فَسَبِّحْنَا اللَّهَ رَبَّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿٢٢﴾﴾

يبيّن جلّ شأنه أنه لو كان في السموات والأرض آلهة غير الله تعالى لفسدتا في ذاتهما، وفسد من فيهما من المخلوقات، إذ لو كان لهذا الكون إلهين لتقوضت أركانه، لما بينهما من تعارض في تدبير الأمور إذا أراد أحدهما شيئًا وأراد الآخر شيئًا غيره، واتفاقهما في جميع الأمور غير ممكن، فلا بد لهذا الكون من إله قاهر بلا ممانع ولا مدافع، فسبحانه الواحد القهار.

وقال عبد الملك بن مروان حين قُتِلَ عمرو بن سعيد الأشدق: كان والله أعزّ عليّ من ناظري، ولكن لا يجتمع فحلان في شؤل -أي: في عدد من النياق- (١).

إذ لا بد للإله الواحد من الإرادة المطلقة، والقدرة التامة على التصرف، وتعدد الآلهة يقتضي الاختلاف كما يقال: إن المركب التي فيها قائدان تغرق.

فهذا الكون لو كان فيه آلهة غير الله تعالى لأراد كل منهم أمرًا غير الآخر، هذا يطلب شيئًا، وذاك يطلب شيئًا آخر، هذا يريد أن يحرك هذا الجرم وهذا يريد تسكينه، هذا يرى رأيًا وذاك يريد رأيًا آخر، فيحصل التنازع، ويحصل الاختلاف، ويفسد الكون ولا يستقيم، ومن المحال أن يتم الاتفاق بينهم، وإذا تمت إرادة أحدهم كان الآخرون

(١) «تفسير الكشاف» (١١١/٣).

عاجزين، فلا يكونون آلهة، وهكذا.

وأهل علم الكلام يسمُّون هذا: دليل التمانع، بمعنى: أن بعض الآلهة يمنع البعض الآخر من تنفيذ مراده، وهو دليل عقلي مقنع، والحكمة ضالة المؤمن، وقد تنزه الله وتقدَّس عما يصفه الجاحدون الكافرون من الكذب والافتراء وكل نقص، كما نزه الله نفسه؛ ليعلمنا كيف ننزهه سبحانه عن وجود إلهين في هذا الكون، فهو أمر محال؛ لأنه يُفضي إلى المحال، وهو وجود إلهين في الكون: أحدهما قادر، والآخر عاجز، أو يُفضي إلى وجود إلهين قادرين، كل منهما مستقل بالإنيجاد.

وهذا الدليل وأمثاله مسوق لإثبات وحدانية الله تعالى، لا لإثبات وجوده، ولا لإثبات انفراده بالخلق؛ إذ لا نزاع لدى المشركين المخاطبين في الآية على وجود الله تعالى، وأنه الخالق الرازق، كما قال تعالى: ﴿وَلَيْن سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ﴾ [الزمر: ٣٨].

وفي آية أخرى: ﴿لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ﴾ [الزخرف: ٩]. وغير ذلك من الآيات.

ويزعم بعض المشركين أن الله تعالى بعد أن خلق السموات والأرض، أقام في الأرض شركاء معه لتدبير شؤون الخلق، ولذلك فإنهم كانوا يقولون في التلبية في الحج: (لبيك لا شريك لك لبيك، إلا شريكاً هو لك، تملكه وما ملك) وهذا كلام مضطرب، فيه ضلال وتناقض، فما دام لا يملك شيئاً، وهو مملوك لله تعالى -كما يُقرُّرون- فكيف يكون شريكاً لله؟!.

١- يقول تعالى: ﴿أَفَمَنْ يَخْلُقُ كَمَنْ لَا يَخْلُقُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ [النحل: ١٧].

٢- ويقول سبحانه: ﴿قُلْ لَوْ كَانَ مَعَهُ آلِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ إِذَا لَأَبْتَعُوا إِلَىٰ ذِي الْعَرْشِ سَبِيلًا﴾ [الأنعام: ١٦] سُبْحَنَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يَقُولُونَ عُلُوًّا كَبِيرًا﴾ [الإسراء: ٢٣].

٣- ويقول تعالى: ﴿مَا أَخَذَ اللَّهُ مِنْ وَلِيٍّ وَمَا كُنَّا مَعَهُ مِنَ الْإِلَهِ إِذَا لَدَّهَبَ كُلُّ إِلَهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَّا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾ [المؤمنون: ٩١].

وفي نهاية الآية، وصَفَ الله نفسه بأنه رب العرش، إشارة إلى أن المشركين لا ينازعون في أن الله تعالى منفرد بخلق السموات والأرض.

وفي هذا الختام للآية، بيان أن الله تعالى خالق ما هو أعظم منهما، وهو العرش، وإذا لزم انفراد الله تعالى بخلق الكون، يلزم انتفاء الشركاء له سبحانه.

الدليل الثالث: أَنَّهُ سُبْحَانَهُ لَا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ

٢٣- ﴿لَا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ﴾ ﴿٣٣﴾

من دلائل وحدانيته سبحانه، ووجوب تفرده بالعبادة، أنه سبحانه لا يُسأل عن قضائه في خلقه، وجميع الخلق يُسألون عن أفعالهم وأقوالهم، وهذا من خصائص الإله الحق، أنه لا يسأله سائل عما يفعل، ولا يعترض عليه معترض، فهو سبحانه يجعل هذا صحيحاً وهذا مريضاً، هذا غنياً وهذا فقيراً، هذا عزيزاً وهذا ذليلاً، هذا مغلوباً وهذا منتصراً، هذا سعيداً وهذا شقيماً، هذا على هدى وهذا على ضلال ﴿لَا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ﴾ فهو سبحانه القاهر، الذي ليس في وسع أحد أن يسأله عن تصرفاته وحكمته سؤال محاسبة وبيان لسبب الفعل، والخلق جميعاً يسألون.

ويصح أن يكون المعنى: أنه سبحانه حكيم في أفعاله وتصرفاته، يضع كل شيء في موضعه، فليس في أفعاله ما هو محل سؤال ولا اعتراض، وهذا المعنى جيد، وهو لا يتعارض مع المعنى السابق؛ إذ لا يوجد في الوجود من يعترض على أفعال الخالق سبحانه.

فهذه الآية أيضاً من الأدلة العقلية التي يؤمن بها الكافر والمؤمن؛ لأنها منطق وعقل.

وبعض من يدعون الشريك لله تعالى من البشر، يزعمون تعدد الآلهة بتعدد القبائل، وكذا ما تُثبته فرقة المانوية، من وجود إلهين: أحدهما للخير والآخر للشر، أو أحدهما للنور والآخر للظلمة، وما يشبه ذلك، فهم يقولون: لا يمكن أن يصدر هذا من إله واحد؛ إذ يُسأل إله الخير: لم فعلت الشر وأنت إله الخير؟ فكان هذا الرد من الله تعالى: أن لهذا الكون إلهاً واحداً يصدر عنه كل شيء في الوجود، وهو لا يُسأل أبداً عن فعله، لِمَ فعلته؟ والخلائق جميعاً مسؤولون يوم القيامة عن أعمالهم، ومحاسبون ومجزئون عليها ﴿فَوَرَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ ﴿٩٢﴾ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [الحجر].

والذي يُسأل هو المخلوق، فهو مظنة المؤاخذه؛ لأنه يتعرض للخطأ في بعض ما يفعل، فمن اتبع الرسول فقد فاز وسعد، ومن أعرض عنه فقد شقي وهلك.

وإذا كان الطبيب وهو يصف العلاج للمريض، لا يُسأل لِمَ وصفت هذا؟ ورئيس الجهة، وحاكم الدولة، لا يُسأل عن تصرفاته في إدارته أو دَوْلَتِهِ، ولو ذبح الحاكم أبناء شعبه، فالآخرون يقولون: هذه مسائل داخلية، لا دخل لنا فيها، وإذا كان هذا يحدث بالنسبة للمخلوق الضعيف، فكيف بالخالق سبحانه؟!

الدَّلِيلُ الرَّابِعُ: أَنَّ الْكُتُبَ السَّمَاءِيَّةَ كُلَّهَا لَا يُوجَدُ فِيهَا غَيْرُ التَّوْحِيدِ

٢٤- ﴿أَمِ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ ءَالِهَةً قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ هَذَا ذِكْرٌ مِنْ مَعِيَ ^(١) وَذِكْرٌ مِنْ قَبْلِي بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ الْحَقَّ فَهُمْ مُعْرِضُونَ ﴿١٥﴾

وبعد أن ساقنا الآيات السابقة، ثلاثة أدلة عقلية منطقية على استحالة تعدد الآلهة في هذا الكون، أتت بدليل نقلي مبني على شهادة الشرائع السابقة، وهو دليل يعمُّ جميع الأمم، وجميع الكتب السابقة المعروفة: التوراة، والزيور، والإنجيل، وجميع الصحف والألواح المنزلة من عند الله تعالى، وكلها تنطق وتشهد بوحدانية الله تعالى، فجميع الكتب المنزلة من عند الله تعالى، قديمها وحديثها ليس فيها برهان على اتخاذ آلهة تُعبد من دون الله، كما قال سبحانه: ﴿شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُوا الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْغَيْرُ الْمُبِينُ ﴿١٨﴾﴾ [آل عمران].

ومعنى الآية: هل اتخذ المشركون من غير الله آلهة تنفع وتضر، وتحيي وتميت؟ وتصلح للعبادة والتعظيم قل لهم -يا محمد- هاتوا ما لديكم من الحجة والبرهان على ما اتخذتموه آلهة.

أما من جهة العقل فلن تجدوا دليلاً، كما سبق بيانه. وأما من جهة النقل فهذا هو القرآن الذي جئتُ به، المنزل على مَنْ مَعِيَ مِنْ هذه الأمة إلى قيام الساعة، وهذا ذكر مَنْ قَبْلِي مِنَ الْكُتُبِ الْمُنَزَّلَةِ عَلَى أَنْبِيَاءِ الْأُمَمِ السَّابِقَةِ؛ كالتوراة والإنجيل، كلها ناطقة بتوحيد الله سبحانه، وليس فيها دليل على ما ذهبتم إليه من الشرك، فمن أين أتيتم بهؤلاء الشركاء دون برهان من جهة العقل، ولا برهان من جهة النقل؟! فكأن الله سبحانه يقول لرسوله: هذا هو القرآن الذي بين يديك، وفيه أخبار الأولين

(١) قرأ حفص بفتح ياء الإضافة وصلًا من (من معي)، والباقون بإسكانها.

والآخرين، وهذه هي التوراة، والإنجيل، وغيرهما من الكتب الإلهية، وهي تحتوي على أخبار الأمم والشرائع، فهل في هذا القرآن، أو في جميع الكتب والصحف السابقة، من دعا إلى غير إله واحد؟ ابحثوا في الكتب السماوية كلها فلن تجدوا فيها غير التوحيد.

وفي نهاية الآية يبين الله ﷻ السبب في شركهم بالله تعالى، وأنه من الجهل والتقليد، فإنكارهم للحق ليس عن دليل ولا برهان ﴿بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ الْحَقَّ﴾ وإنما قلدوا من سبقهم في الباطل، وليس عن علم ولا دليل ﴿فَهُمْ مُّعْرِضُونَ﴾، ولو أنهم التفوتوا إليه لتبين لهم الحق من الباطل واضحاً جلياً.

التَّوْحِيدُ دَعْوَةُ جَمِيعِ الرُّسُلِ

٢٥- ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِيْٓ (١) إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ (٢)﴾

يَبِّنُ ﷻ خلاصة الرسالات الإلهية من لدن آدم إلى محمد، وأنها جميعاً تقوم على قاعدة التوحيد، كما جاء في قوله تعالى: ﴿وَسَلِّ مَنْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رُّسُلِنَا أَجْعَلْنَا مِنْ دُونِ الرَّحْمَنِ إِلَهًا يُعْبَدُونَ﴾ [الزخرف].

وفي قوله: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا﴾ ما مهمته؟ ﴿أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾ [النحل: ٣٦] وكذا في الآية التي معنا وغيرها، فلم يرسل الله رسولا قط إلا أوحى إليه أنه سبحانه واحد أحد، فرد صمد، هذه هي مهمة كل الرسل: أفراد الله تعالى بالعبادة، والأنبياء جميعاً دعاة توحيد، فكل رسول جاء يقول لقومه: ﴿اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ﴾ [هود: ٥٠] فمن أين أتيتم بهذا الشرك يا من أشركتم مع الله غيره؟ إذ ليس هناك دليل نقلي في الكتب السماوية، ولا دليل من العقل الصحيح، ولا من الفطرة السليمة على أن مع الله آلهة أخرى.

والتوحيد أمر عام في جميع الشرائع السماوية، وهو قاعدة العقيدة التي لا تبديل فيها،

(١) قرأ حفص وحزمة والكسائي وخلف بنون العظمة وكسر الحاء، على البناء للفاعل في (نوحى إليه)

والفاعل ضمير مستتر تقديره: نحن، بمعنى: إلا نوحى إليه كونه لا إله إلا أنا، وقرأ الباقون بالياء

المضمومة وفتح الحاء، مبنياً للمفعول، بمعنى: إلا يوحى إليه كونه لا إله إلا أنا.

(٢) قرأ يعقوب بإثبات الياء من (فاعبدون) وصلّاً ووقفاً، والباقون بحذفها في الحالين.

ولا تحويل عنها، جاء بها جميع الرسل مَنْ أُنزل عليه كتاب منهم، ومن لم يُنزل عليه كتاب، ليس في هذا خلاف بين النبوات، وإنما الخلاف جاء في الأحكام والتشريع، فلا معبود بحق إلا الله، فأخلصوا له العبادة.

رَدُّ شُبُهَاتٍ مَنْ نَسَبَ الْوَلَدَ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى

٢٦، ٢٧- ﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا سُبْحَنَهُ بَلْ عِبَادٌ مُكْرَمُونَ ﴿٢٦﴾ لَا يَسْـَٔفُونَ بِالْقَوْلِ وَهُمْ بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ ﴿٢٧﴾﴾

ولما أبطل سبحانه وجود الشريك معه، أعقب ذلك ببطلان اتخاذه ولداً، والولد يطلق على الذكر والأنثى، والنصارى في المشرق والمغرب يجعلون عيسى إلهاً، أو ابناً للإله، ويجعلون جبريل إلهاً، ولا يزال التثليث شعارهم إلى هذا اليوم . ودعوى اتخاذ الله الولد، وُجدت عند اليهود والنصارى، وُجدت أيضاً في حي من أحياء العرب لدى قبيلة خزاعة في ضواحي مكة؛ حيث قالوا: الملائكة بنات الله من سرّوات الجن، وشاركهم في هذا الزعم بعض من قريش.

والقرآن الكريم يردُّ على هذه الشبهة القائمة عند النصارى في قولهم: إن عيسى ابن الله، أو إن جبريل (روح القدس) هو الله، وهي أيضاً الشبهة القائمة عند اليهود في قولهم: عزيز ابن الله، وغيرهم.

واتخاذ الولد نقص في جانب خالق الوجود، تنزّه الله ﴿سُبْحَنَهُ﴾ عما لا يليق بجلاله.

وَصْفُ الْمَلَائِكَةِ بِسِتَّةِ أَوْصَافٍ

الْوَصْفُ الْأَوَّلُ: أَنَّهُمْ عِبَادٌ مُكْرَمُونَ

فالملائكة عباد مقربون مخصصون بالفضائل، والله سبحانه أفرد الملائكة بالذكر في قوله: ﴿بَلْ عِبَادٌ مُكْرَمُونَ﴾ أي: أكرمهم الله تعالى برضاه عنهم، وقُرْبهم إليه، وفضلهم على كثير من خلقه، فهم ﴿لَا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ [التحريم: ٦].

وهم في مقامات سامية، ومنازل عالية، وهم في غاية الخضوع والطاعة لله ﷻ.

أخرج ابن المنذر وابن أبي حاتم عن قتادة قال: قالت اليهود: إن الله ﷻ صاهر الجن،

فكان منهم الملائكة، فقال الله تكذيباً لهم: ﴿بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ﴾ أي: أن الملائكة ليسوا كما قالوا، بل هم عباد أكرمهم الله بعبادته فهم في غاية الطاعة وهم مكرمون عند الله في منازل عالية ﴿لَا يَسْأَلُونَكَ بِالْقَوْلِ﴾ ثناء عليهم ﴿وَلَا يَشْفَعُونَ﴾ قال: لا تشفع الملائكة يوم القيامة ﴿إِلَّا لِمَنِ ارْتَضَى﴾ قال: لأهل التوحيد^(١).

ويرى ابن عطية أن قوله تعالى: ﴿بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ﴾ عبارة تشمل: الملائكة، وعزيراً، وعيسى، وأن الأوصاف التي بعدها تشمل الجميع، ولا تخص الملائكة^(٢) قلت: وهو قول حسن، يشمل الملائكة وغيرهم.

والملائكة ليسوا بنات الله كما يزعم المشركون، بل هم عباد مَرْبُوبُونَ مُدَبَّرُونَ، ليس لهم من الأمر شيء، قد ميزهم الله وفضلهم وكرمهم، وطهرهم من الرذائل، وهم في غاية الأدب مع الله تعالى، يمثلون أمره ويجتنبون نهيه، ولا يتقدمون عليه بقول أو فعل، ولا يعصون الله طرفة عين، وعلم الله تعالى محيط بهم، لا يندّ عليه شيء منه لا في الماضي ولا في الحاضر ولا في المستقبل.

الْوَصْفُ الثَّانِي لِلْمَلَائِكَةِ: أَنَّهُمْ لَا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا بِمَا يَأْمُرُهُمْ بِهِ رَبُّهُمْ

والملائكة -في حسن طاعتهم لله تعالى- لا يتكلمون إلا بما يأمرهم به ربهم، ولا يتقدمون ربهم بقول أو فعل، فهم ﴿لَا يَسْأَلُونَكَ بِالْقَوْلِ﴾ فهم لا يقولون قولاً حتى يقول الله.

الْوَصْفُ الثَّالِثُ: أَنَّهُمْ لَا يَعْمَلُونَ عَمَلًا حَتَّى يُؤْذَنَ لَهُمْ

ولا يعملون عملاً حتى يؤذن لهم، وهم يمثلون أمر الله تعالى، ويجتنبون نهيه، ويقفون عند حدوده، ﴿وَهُمْ بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ﴾ إذ ليس في وسعهم مخالفة أمره أو نهيه سبحانه. قال تعالى:

٢٨- ﴿يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ارْتَضَىٰ وَهُمْ مِّنْ خَشْيَتِهِ مُشْفِقُونَ﴾

وهو جلّ شأنه يعلم ما هو أمامهم في المستقبل، وما تركوه خلفهم في الماضي، أي: يعلم الماضي والحاضر والمستقبل، يعلم أخبار الأمم السابقة، والأمم اللاحقة، وما من عمل من أعمال الملائكة وغيرهم، إلا يعلمه الله سبحانه، ويحصيه عليهم.

(١) «الدر المنثور» (١٠/٢٨٣).

(٢) «تفسير ابن عطية» (٥/٧٩).

الْوَصْفُ الرَّابِعُ لِلْمَلَائِكَةِ: أَنَّهُمْ لَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنْ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ

وكما أن الملائكة لا يتقدمون على الله تعالى بقول أو فعل، فهم لا يتقدمون عليه بالشفاعة إلا لمن ارتضى الله شفاعتهم لهم، فالملائكة تشفع يوم القيامة، ولكن هذه الشفاعة مشروطة بأمرين هما: الرضى من الله ﷻ عن المشفوع له من المؤمنين والإذن للشافع بالشفاعة فيه ﴿وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ارْتَضَى﴾.

الْوَصْفُ الْخَامِسُ: أَنَّهُمْ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ وَيُشْفِقُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ مِنْ بَأْسِ اللَّهِ

ومع أن الملائكة لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون، فهم من خوف الله تعالى حذرون، لا يأمنون مكره؛ لأنهم يعرفون عظمة ربهم، ويقدرونه حق قدره. ﴿وَهُمْ مِنْ خَشْيَتِهِ مُشْفِقُونَ﴾.

الْوَصْفُ السَّادِسُ لِلْمَلَائِكَةِ: أَنَّهُمْ لَا يَنْسُبُونَ لَأَنْفُسِهِمْ شَيْئًا مِنْ خَصَائِصِ الْأُلُوهِيَّةِ

٢٩- ﴿وَمَنْ يَقُلْ مِنْهُمْ إِنِّي إِلَهٌ مِنْ دُونِهِ فَلَذِكَ نَجْزِيهِ جَهَنَّمَ كَذَلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ﴾

والملائكة مع علو منزلتهم، وكرمهم على الله ﷻ، وعلو شرف مكانتهم، لو أن واحداً منهم ادعى منزلة فوق منزلته، أو نسب لنفسه شيئاً من خصائص الألوهية، فادعى لنفسه - على سبيل الفرض - أنه إله مع الله، فإن عقابه يكون شديداً، حيث يخلد في نار جهنم؛ لأنه ادعى ما يستوجب هذا العقاب.

كما قال تعالى مخاطباً رسوله ﷺ: ﴿وَلَقَدْ أَوْحَىٰ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكَتَ لَيَحْطَبُنَّ عَمَلُكَ وَلَيَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ [الزمر] وبمثل هذا الجزاء نجزي كل ظالم مشرك.

أخرج الطبري بسند حسن عن قتادة أن هذه الآية خاصة بعدو الله إبليس، لما قال ما قال لعنه الله وجعله رجيماً^(٢).

ولم يحدث أن أحداً من الملائكة ادعى لنفسه شيئاً من خصائص الألوهية، قال تعالى: ﴿مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُؤْتِيَهُ اللَّهُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُوا عِبَادًا لِي

(١) قرأ نافع وأبو عمرو وأبو جعفر بفتح ياء الإضافة وصلاً من (إني إله)، والباقون بإسكانها.

(٢) وبمثلته أخرج ابن أبي حاتم عن الضحاك.

مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَكِنْ كُونُوا رَبَّيْنَ بِمَا كُنْتُمْ تُكَلِّمُونَ الْكُتُبَ وَبِمَا كُنْتُمْ تَدْرُسُونَ ﴿٧٦﴾ وَلَا يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَتَّخِذُوا الْمَالِيَّةَ وَالنَّيِّعَ أَرْبَابًا أَيَأْمُرُكُمْ بِالْكَفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ ﴿٧٧﴾ [آل عمران].

وقال سبحانه: ﴿قُلْ يَتَّخِذِ الْكَافِرُونَ عِدَّةً إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴿٧٦﴾﴾ [آل عمران].

وفي الآيات دليل قاطع على أن العبادات حق خالص لله تعالى، لا تُصرف لنبى مرسل، ولا لملك مقرب، فضلاً عن أن تُصرف لأحد من خلق الله تعالى ميتاً أو حياً، فما بالكم بالجمادات، والكواكب، والجن، ونحوها؟!

عَشْرَةُ أَدِلَّةٍ حِسِّيَّةٍ عَلَى وَحْدَانِيَةِ الْخَالِقِ سُبْحَانَهُ

٣٠- ﴿أَوَلَمْ يَرِ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ كَانَتْا رَتْقًا فَفَتَقْنَاهُمَا وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٠﴾﴾

وبعد إقامة الأدلة العقلية والنقلية على وحدانية الله تعالى، وبيان وجوب التوجه بالعبادة إليه وحده، وإبطال مزاعم المشركين في تعدد الآلهة، وفي نسبة الشريك والولد إلى الله سبحانه.

بعد ذلك أقامت سورة الأنبياء عشرة أدلة مادية محسوسة -من هذا الكون الفسيح- كلها شاهدة وناطقة بوحداية الله تعالى وفيها توبيخ لمن لا ينتفعون بالأدلة الكونية:

الدَّلِيلُ الْأَوَّلُ: فَضْلُ السَّمَاءِ عَنِ الْأَرْضِ

إنه تعالى خلق السموات والأرض في أول الأمر شيئاً واحداً، ثم فصلهما عن بعضهما، والاستدلال بذلك على البعث والنشور، وهذا معنى ﴿كَانَتْا رَتْقًا فَفَتَقْنَاهُمَا﴾. والرتق: هو الاتصال والتلاصق بين أجزاء الشيء.

(١) قرأ ابن كثير بحذف الواو من (أو لم ير) كلام مستأنف، والهمزة للاستفهام التوبيخي على تقصيرهم في عدم عبادتهم الله تعالى وحده، بعد قيام الأدلة الواضحة على وحدانية الله تعالى، وقرأ الباقون بإثبات الواو، على أنها عاطفة، والمعطوف عليه مقدر بعد همزة الاستفهام الإنكاري، يدل عليه الكلام السابق، وتقديره: أأشركوا بالله ولم يتدبروا في خلق السموات والأرض؛ ليستدلوا بهما على وحدانية الله تعالى.

والفتق: هو الانفصال والتباعد بين الأجزاء.

وقد نتج عن هذا الفتق أن السماء أمطرت، وأن الأرض أنبتت، وقبل هذا الفتق لم يكن هناك مطر ولا نبات، فالفتق يعني نزول الماء من السماء وخروج النبات من الأرض. والآية تشير إلى أن العالمين العلوي والسفلي، كانا كتلة واحدة، أي: قطعة واحدة، وجسمًا واحدًا متلاصقًا بلا فاصل بينهما، فلا مطر من السماء، ولا نبات من الأرض، ففصل الله بينهما بقدرته على هذا النحو المشاهد، فرفع السماء إلى مكانها، وأنزل منها المطر، وأبقى الأرض في مقرها وأخرج منها النبات، وفصل بين السماء والأرض بالهواء، جاء هذا المعنى عن الحسن وقتادة، كما أخرجه الطبري بإسناد حسن.

ثم إن السماء صارت سبع سموات، بعضها فوق بعض، وزين الله السماء الأولى منها بالنجوم والكواكب، وجعلها رجومًا للشياطين الذين يسترقون السمع، وجعل الأرض طبقات، بعضها دون بعض، وقد كانت السماء صماء لا تُمطر، فأُمطرت بعد الفصل بينها وبين الأرض، وكانت الأرض هامدة يابسة لا تُنبِت، فأخرج الله منها النبات.

روى ابن أبي حاتم أن رجلاً سأل ابن عمر رضي الله عنهما عن هذه الآية، فقال: اذهب إلى ذلك الشيخ فاسأله -يعني: ابن عباس- فذهب إليه فسأله، فقال ابن عباس: نعم، كانت السموات رتقًا لا تمطر، وكانت الأرض رتقًا لا تنبت، فلما خلق الله تعالى للأرض أهلاً، فتق هذه بالمطر، وفتق هذه بالنبات، فرجع الرجل إلى ابن عمر فأخبره، فقال ابن عمر: الآن علمت أن ابن عباس قد أوتي في القرآن علمًا^(١).

ويحتمل أن يراد بالرتق والفتق: كلٌّ من السموات والأرض، أي: أن كلاً منهما كان كتلة واحدة، ثم فتق الله السموات وفتق الأرض، كلاً منهما على حدة.

ويشير إلى هذا المعنى قوله تعالى: ﴿قُلْ أَيْنَكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ﴾ فبين سبحانه أنه خلق الأرض في يومين، وخلق أقواتها في يومين، وبعد ذلك خلق السماء؛ حيث قال بعد ذلك: ﴿ثُمَّ أَسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ﴾.

(١) من «تفسير ابن كثير» للآية (٣٣٩/٥) ورواه أبو نعيم في «الحلية» (١/٣٢٠).

ثم قال سبحانه ﴿فَقَضَّاهُنَّ سَبْعَ سَمَوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ وَأَوْحَىٰ فِي كُلِّ سَمَاءٍ أَمْرَهَا﴾.

وقال جلَّ شأنه: ﴿وَرَزَيْنَا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصْبِيحٍ وَحِفْظًا﴾ [فصلت: ٩-١٢]. وقد نتج عن هذا الفتق الظلمة والنور، والليل والنهار، بعد أن كانتا رتقًا لا نور بينهما، أو يتخللُهما.

وهناك آيات أجملت هذا التفصيل كقوله تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ﴾ [هود: ٧]

وقد أوضح هذا المعنى قوله تعالى: ﴿وَالسَّمَاءَ ذَاتِ الرَّجْعِ﴾ [الطارق: ١١] أي: المطر الذي ينزل منها ﴿وَالْأَرْضَ ذَاتِ الصَّدْعِ﴾ [الطارق: ١٢] أي: أنها تتشقق؛ لإخراج النبات منها.

وقوله تعالى: ﴿فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ إِلَى طَعَامِهِ﴾ ١٤ ﴿أَنَا صَبَّيْنَا الْمَاءَ صَبًّا﴾ ٢٥ ﴿ثُمَّ شَفَقْنَا الْأَرْضَ شَفَاً﴾ ٢٦ ﴿فَأَلْبَنَّا فِيهَا حَبًّا﴾ ٢٧ ﴿وَعَبًّا وَقَضْبًا﴾ ٢٨ ﴿وَزَيْتُونًا وَنَخْلًا﴾ ٢٩ ﴿وَحَدَائِقَ غُلْبًا﴾ ٣٠ ﴿وَفَلَكْهًى وَآبَاً﴾ ٣١ ﴿مَنْعًا لِّكُرٍّ﴾ ٣٢ ﴿وَلَا تَعْمِكُ﴾ ٣٣ [عبس].

والنظرية العلمية تقول: إن المجموعة الشمسية المؤلفة من الشمس وتوابعها، ومنها الأرض والقمر، كانت سديمًا، ثم انفصلت، وأخذت أشكالها الكروية، وأن الأرض كانت قطعة من الشمس ثم انفصلت عنها وبردت، وهذه النظرية الفلكية لا تتعارض مع المفهوم الإجمالي للنص القرآني.

والمعنى: هل عمي الكفار فلم يشاهدوا ذلك بأبصارهم ويدركوه بعقولهم فيؤمنوا؟

الدليل الثاني: نعمة الماء

وقد جاء ذلك في قوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ﴾ أي: جعلنا من الماء النازل من السماء بعد فتقها، كل شيء حي من: الإنسان، والحيوان، والنبات، والشجر؛ لأنه يتغذى به ويحيا عليه، فالماء ضروري لحفظ كل كائن حي.

وجاء هذا في حديث أبي هريرة ؓ قال: قلت: يا رسول الله، إني إذا رأيتك طابت نفسي، وقرت عيني، أنبتني عن كل شيء، قال: «كل شيء خلق من الماء» فقلت: أخبرني بشيء إذا عملت به دخلت الجنة، قال: «أطعم الطعام، وأفش السلام، وصل

الأرحام، وقم الليل والناس نيام؛ تدخل الجنة بسلام»^(١).

وقد يفسر الماء بالنطفة؛ لأن الله تعالى يخلق منها الكائنات الحية، وعليه يُحمل قوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَابَّةٍ مِنْ مَّاءٍ فَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَى بَطْنِهِ وَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَى رِجْلَيْنِ وَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَى أَرْبَعٍ يَخْلُقُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [النور].

وعلى القول بأن المراد بالماء: النطفة، فإن هذا لا يشمل أنواعاً من الخلق؛ حيث:

- ١- يخرج منه آدم ﷺ فهو لم يُخلق من نطفة، وإنما خُلق من تراب.
 - ٢- ويخرج منه عيسى عليه السلام؛ فإنه قد خُلق بكلمة الله: (كن) فكان.
 - ٣- ويخرج منه الملائكة؛ فإنهم قد خُلقوا من نور، كما صح في الحديث.
 - ٤- ويخرج منه الجن؛ فإنهم خُلقوا من مارج من نار، كما نطق به القرآن ﴿وَالْبَنَ خَلَقْتُهُ مِنْ قَبْلُ مِنْ نَارِ السَّمُورِ﴾ [الحجر].
- جاء في صحيح مسلم من حديث عائشة رضي الله عنها أن رسول الله ﷺ قال: «خُلقت الملائكة من نور، وخُلقت الجن من مارج من نار، وخُلِق آدم مما وُصف لكم»^(٢).
- والقول بأن المراد بالماء: هو الماء المعروف لا يحتاج لهذه الاستثناءات.
- ثم ختم الله الآية بقوله: ﴿أَفَلَا يُؤْمِنُونَ﴾ أي: أفلا يصدق هؤلاء الجاحدون بما يشاهدونه، فيخلصوا العبادة لله وحده.

والقرآن بهذا يوجه أنظار الكفار في كل زمان ومكان إلى عجائب صنع الله تعالى في الكون، ويقودهم إلى التأمل وإعمال الفكر، ويستنكر عليهم عدم الإيمان، مع كثرة آيات

(١) «صحيح ابن حبان» برقم (٢٥٥٩) الإحسان، قال محققه: رجاله ثقات رجال الشيخين غير أبي ميمونة، وأخرجه أحمد في «المسند» عن جابر برقم (٧٩٣٢، ٨٢٩٥) عن يزيد عن همام بإسناد صحيح ورجال ثقات رجال الشيخين غير أبي ميمونة فقد روى له أصحاب السنن الأربعة، وهو ثقة، كما قال محققوه، والحاكم وصححه بموافقة الذهبي، «المستدرک» (٤/١٦٠) وقال الهيثمي: رجاله رجال الصحيح خلا أبا ميمونة وهو ثقة، «مجمع الزوائد» (٥/١٦) وصححه الألباني في «إرواء الغليل» (٣/٣٣٨).

(٢) من حديث عائشة في صحيح مسلم برقم (٢٩٩٦).

الله المبتوثة في الكون.

أليس الذي أوجد السحاب في السماء و أودع فيه الماء، ثم ساقه إلى الأرض الجافة اليابسة، فاهتزت وتحركت وأنبتت من كل زوج بهيج، مختلف الألوان، متعدد المنافع، أليس في هذا دليل على وحدانية الخالق، مما يوجب الإيمان به، وصرف العبادة له وحده.

الدليل الثالث: خلق الجبال

٣١- ﴿وَجَعَلْنَا فِي الْأَرْضِ رَوْسًا أَنْ تَمِيدَ بِهِمْ وَجَعَلْنَا فِيهَا فِجَاجًا سُبُلًا لَّعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ ﴿٣١﴾﴾

أي: وخلقنا في الأرض جبالاً شوامخ تثبتها؛ حتى لا تضطرب وتتحرك بهم، فلا يمكنهم السكنى فيها، ولا حرثها، ولا الاستقرار عليها، فأرساها بالجبال، ليحصل منها المنافع والمصالح، وهي تدور حول نفسها وحول الأرض؛ لحفظ التوازن بين الضغط الخارجي والضغط الداخلي في جوفها، وهو يختلف من بقعة إلى بقعة، حيث يكون بروز الجبال في موضع معادل لانخفاض الأرض في موضع آخر، وهذا من آثار فتق الأرض في حد ذاتها؛ إذ أخرج الله منها الجبال، وجعل في الأرض الطرق السهلة التي يمكن المشي عليها بخلاف الجبال.

والغريب أن باطن الأرض ملتهب، وأن القشرة الأرضية التي نعيش عليها، هي الإطار لذلك اللهب؛ هذه القشرة الأرضية، مليئة بالماء الذي يحيا به كل شيء.

ولما خلق الله الأرض كانت فوق الماء، فمادت الأرض، أي: اضطربت وتحركت فوق الماء، كما تضطرب السفينة في البحر، فثبتها الله تعالى بالجبال الرواسي؛ لئلا تميد بالخلق، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُمَسِّكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ أَنْ تَزُولَا وَلَئِنْ زَالَا إِنَّ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِنْ بَعْدِهِ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا ﴿٤١﴾﴾ [فاطر].

ويقرر العلماء أن نسبة المحيطات والبحار والأنهار ثلاثة أضعاف نسبة اليابسة من الأرض، فالأرض مغمورة بالماء، إلا نحو الثلث منها، فإنه ظاهر للهواء والشمس؛ يشاهد أهلها السماء وما فيها من الآيات الباهرات.

ألا يشاهد الجاحدون لتوحيد الله تعالى هذه الجبال بأعينهم فيؤمنوا ويوحداوا؟

الدليل الرابع: خَلَقُ الطُّرُقِ الْوَاسِعَةِ وَالْأَرْضِ السَّهْلَةَ

وقد جاء ذلك في قوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا فِيهَا فِجَاجًا سُبُلًا لَّعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ﴾ أي: جعلنا في الأرض طُرُقًا واسعة، وأودية، ومنافذ متعددة؛ رجاء اهتداء الخلق إلى معاشهم، وتوحيد خالقهم الذي وهبهم هذه النعم.

والفجاج: جمع فج، وهو الطريق الواسع، وهذه الفجاج قد تكون ثغرات في سلاسل الجبال، يسلكها الناس من قُطْرٍ إلى قُطْرٍ، ومن إقليم إلى إقليم، وهذه الجبال، وكذا الطرقات السهلة، من آثار فتق الأرض.

ومن حكمة الله تعالى ورحمته، أنه لم يجعل الجبال متصلة متلاصقة، حتى يمكن للناس والدواب والمراكب، التنقل بين البلاد والأماكن القريبة والبعيدة.

الدليل الخامس: حِفْظُ السَّمَاءِ أَنْ تَقَعَ بَعْضُ أَجْرَامِهَا عَلَى الْأَرْضِ

٣٢- ﴿وَجَعَلْنَا السَّمَاءَ سَقْفًا مَحْفُوظًا وَهُمْ عَنْ آيَاتِهَا مُعْرِضُونَ﴾ (٣٢)

وهذا الدليل من الأدلة العظيمة على وحدانية الله ﷻ، فلولا حِفْظُ الله للسماء أن تقع على الأرض، لَهْلَكَ الناس، وفسدت الأرض، فتعطلت منافعها...

وقد جعل الله السماء سَقْفًا للأرض، وهي مرفوعة بغير عمد، ومحفوظة عن السقوط على الأرض، ولا تخترقها الشياطين.

وكل ما علاك فهو سماء، ونحن نرى فوقنا ما يشبه السَّقْفَ، وسقف الأرض كسقف البيت، والسماء كالقبة فوق الأرض.

وقد حفظ الله السماء من التصدع والتشقق، فقال تعالى: ﴿الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَوَاتٍ طِبَاقًا مَّا تَرَىٰ فِي خَلْقِ الرَّحْمَنِ مِن تَفَوتٍ فَإِذْجَ الْبَصَرُ هَلْ تَرَىٰ مِن فُطُورٍ﴾ (٣) ثُمَّ أَتِجَ الْبَصَرَ كَرَيْنٍ يَنْقَلِبُ إِلَيْكَ الْبَصَرُ خَاسِئًا وَهُوَ حَسِيرٌ ﴿٤﴾ [الملك].

وقد حفظها الله تعالى في علوها، وارتفاعها بدون عمد ﴿اللَّهُ الَّذِي رَفَعَ السَّمَوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا﴾ [الرعد: ٢].

وَحَفِظَ اللَّهُ السَّمَاءَ مِنْ كُلِّ شَيْطَانٍ رَجِيمٍ، كما قال تعالى: ﴿وَحَفِظْنَا مِنْ كُلِّ شَيْطَانٍ مَارِدٍ﴾ [الصفات].

وهي في عناية الله تعالى ورعايته، لا يغفل عنها طرفة عين: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعَ طَرَائِقَ وَمَا كُنَّا عَنِ الْخَلْقِ غَافِلِينَ﴾ [المؤمنون].

ومع هذا فإن الناس لاهون غافلون عن الاعتبار والتفكير في آيات الله الكونية، ومنها: الشمس، والقمر، والنجوم.

والقرآن يوبّخهم على عدم التدبر والاعتبار: ﴿أَفَلَمْ يَنْظُرُوا إِلَى السَّمَاءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَاهَا وَزَيَّنَّاهَا وَمَا لَهَا مِنْ فُرُوجٍ﴾ [ق].

﴿وَكَايْنٍ مِّنْ آيَةٍ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ﴾ [يوسف].

ويدعوهم إلى النظر في آيات السماء على وجه الخصوص، وما فيها من كواكب ثابتة وسيارة، في ليلها ونهارها، وارتفاعها بغير عمد، واتساعها، قال تعالى: ﴿وَالسَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا بِأَيْدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ﴾ [الذاريات].

والقرآن يدعو أهل الغفلة إلى إعمال الفكر في الكون كله في كثير من آياته؛ كما في قوله تعالى: ﴿قُلْ أَنْظُرُوا مَاذَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا تُعْنِي الْآيَاتُ وَالنُّذُرُ عَنْ قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [يونس].

والتفكر في ملكوت الله عبادة أفضل من صلاة النافلة؛ لأنه يقوّي الإيمان، ويثبت العقيدة.

ذكر ابن أبي الدنيا في كتابه «التفكر والاعتبار» أن بعض عبّاد بني إسرائيل تعبّد لله تعالى ثلاثين سنة، وكان الرجل منهم إذا تعبّد ثلاثين سنة أظلمت غمامة، فلم ير ذلك الرجل شيئاً مما يراه غيره، فشكا ذلك إلى أمه، فقالت له: يا بني، لعلك أذنبت في مدة عبادتك هذه، فقال: لا، والله ما أعلم، قالت: فلعلك هممت، قال: لا، ولا هممت، قالت: فلعلك رفعت بصرك إلى السماء، ثم رددته بغير فكر؟ فقال: نعم، كثيراً، قالت: فمن ها هنا أتيت^(١).

(١) من «تفسير ابن كثير» للآية (٣٤١/٥).

أي: أن هذا هو السبب في أن الغمامة لم تُظَلَّك بعد عبادتك لله ثلاثين سنة، كما أظَلَّت غيرك.

ولما نزلت الآيات العشر الأواخر من سورة آل عمران، وفيها قوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ﴾ (٣٠) الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَطْلًا سُبْحَنَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ ﴿١٩﴾ [آل عمران] قال عليه الصلاة والسلام: «ويل لمن قرأها ولم يتدبر»^(١).

وجملة ﴿وَهُمْ عَنْ آيَاتِهَا مُعْرِضُونَ﴾ تشتمل على ما في السماء من آيات: كالشمس والقمر، وما يتولد عنهما من الليل والنهار، والفصول الأربعة، والكواكب الثوابت والسيارات، والشهب، وسير الشمس، وشروقها وغروبها، وظهورها وغيبها، وكلها سابحة في فلكها، واشتمال كل ذلك على حساب بديع وترتيب عجيب، وكذلك ما يبدو لنا من جهة السماء من: السحاب، والرعد، والبرق، وكلها دلائل على الحكمة البالغة، فلذا سماها الله سبحانه آيات، ودعا خلقه إلى التأمل فيها؛ ليعلموا أن لهذا الكون إلهاً يجب التوجه إليه وحده بالعبادة، ومن المستحيل أن يكون له شريك في ملكه.

وقد تضمنت هذه الآية ثلاث مسائل:

الأولى: أن الله تعالى جعل السماء سقفاً للأرض كالسقف للبيت.

الثانية: أنه سبحانه جعل هذا السقف محفوظاً.

الثالثة: أن الكفار مُعْرِضُونَ عما في السماء من آيات، لا يتعظون ولا يعتبرون.

بَقِيَّةُ الْأَدِلَّةِ الْعَشْرَةِ

٣٣- ﴿وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾ (٣٣)

وهذه خمسة أدلة من الأدلة الحسية على وحدانية الله سبحانه، من الدليل السادس إلى

(١) الترغيب والترهيب برقم (٦٦٦) وأخرجه ابن حبان في موارد الظمان (١٣٩) والإحسان (٦٢٠) قال محققه: إسناده قوي على شرط مسلم، وصححه الشيخ مقبل الوداعي في تحقيقه لتفسير ابن كثير عند الآية، وأخرجه أبو الشيخ في أخلاق النبي ﷺ بإسناد رجاله ثقات، ص ١٦٠.

الدليل العاشر، وهي: الليل، والنهار، والشمس، والقمر، والفلك الذي يضمها ﴿وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ﴾ أي: والله تعالى خلق الليل؛ ليسكن الناس فيه بظلامه وهدوئه، وخلق النهار؛ ليطلبوا فيه المعيش، مع ما فيه من ضوء وأنس، وكل من الليل والنهار يطول ويقصر.

وخلق الشمس آية للنهار بضوئها وفلكها وحرّك سِيرها؛ وذلك لأن خلق النهار يتبع خلق الشمس حين تتوجه بأشعتها إلى النصف المقابل للأشعة من الكرة الأرضية. كما أن خلق الليل يتبع خلق الظلمة؛ لأن وجود الظلمة سابق على وجود الأجرام النيرة، وخلق القمر آية الليل بنوره الخاص، وفلكه الخاص، وحركة سيره.

سئل ابن عباس: أيهما كان أولاً: الظلمة أم النور؟ الليل أم النهار؟ فاستدل بهذه الآيات على أن الليل سابق في خلقه على النهار؛ لأن السموات والأرض كانتا رتقا، ففتق الله الليل والنهار، والعدم يسبق الوجود.

وكلٌّ من الليل والنهار، والشمس والقمر يدور في فلك خاص به، كما يدور المغزل في الفلكة، ولا يحيد عن مجراه الذي يدور ويسبح فيه ﴿كُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾ فلا يتخلف عن الظهور في وقته المعلوم، ولا يصطدم مع غيره، وكل منها يسبح في فضاء لا يعلم حدوده إلا الله، ومع ذلك فإنه لا يلتقي مع فضاء غيره ومداره الخاص به ﴿فَاللَّيْلِ إِذَا يَجَاسَ وَجَعَلَ اللَّيْلَ سَكَنًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ حُسْبَانًا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ﴾ [الأنعام].

فكلٌّ من الشمس والقمر يسير في فلكه وطريقه المقدّر له بسرعة وانتظام، كالسباح في الماء. وقد جُمع الفعل (يسبح) جمع العقلاء ﴿يُسَبِّحُونَ﴾ ولم يقل: (يسبح)؛ لأنه يتضمن فعل العقلاء، وهو الجزي والسير بسرعة، ويتضمن السباحة في الماء وهو من فعل العقلاء.

فَنَاءُ الْعَالَمِ

٣٤- ﴿وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِّن قَبْلِكَ الْخُلْدَ أَفَإِنَّ مِتَ﴾ ^(١) ﴿فَهُمُ الْخَالِدُونَ﴾

(١) قرأ نافع وحفص وحمزة والكسائي وخلف العاشر بكسر الميم من (ميت) فهو من مات يمات، كخاف يخاف، وقرأ الباقر بضمها، وهو من مات يموت، كقام يقوم. والياء في (أفأين) زائدة للرسم العثماني، ولا تُنطق، وعلامة إهمالها في النطق، السكون الذي فوقها.

وكل هذه الكائنات والمخلوقات لها وقت معلوم، وأجل محتوم؛ كي يُقْضِيَ الله بين العباد بعد انتقال الناس من دار الدنيا إلى الدار الآخرة؛ ليجدوا جزاء أعمالهم كاملاً موفوراً، وبهذا يُعْلَم أن هذه الدنيا مزرعة لدار القرار، وليست محل إقامة، فكل حادث فأن، وكل ما له بدء له نهاية.

فما جعلنا لأحد قبلك -يا محمد- كائناً من كان، دوام البقاء في هذه الدنيا، وأنت إن مت، فهم أيضاً سيموتون في الوقت الذي حدده الله لهم؛ لانقضاء عمرك وأعمارهم، فلا ينبغي لأحد أن يؤمّل الخلود بعدك؛ فإن هذا لا يكون، فذرهم في جهالتهم يتخبطون، ولا تلتفت إلى شماتتهم فيك، ولا إلى ترَبُّصهم بك؛ فإنك ميت وإنهم ميتون، وكل شيء هالك إلا وجهه، له الحكم وإليه ترجعون.

وقد كان المشركون يتمنون موت النبي ﷺ ويؤمنون أنفسهم بذلك، ويتظنون موته، كما مات الشاعر الفلاني والفلاني؛ حتى يستريحوا منه، كما قال تعالى: ﴿أَمْ يَقُولُونَ شَاعِرٌ نَّتَرَبَّصُ بِهِ رَبِّهِ رَبِّ الْآلَمِينَ ﴿٢٠﴾ قُلْ تَرَبَّصُوا فَإِنِّي مَعَكُمْ مِنَ الْمُرْتَبِصِينَ ﴿٢١﴾﴾ [الطور].

وجميع الأنبياء والمرسلين قبلك -يا محمد- قد ماتوا، وكل مخلوق سيموت

فقل للشَّامِتِينَ بِنَا أَفِيقُوا سِيلَقِي الشَّامِتُونَ كَمَا لَقِينَا

فلا بد لكل حادث من الفناء:

كل ابن أنثى وإن طالت سلامته يوماً على آلة حديد محمول
وما المرء والأهلون إلا ودائع ولا بد يوماً أن تُرد الودائع

وهكذا: قال الله تعالى لمن كانوا ينتظرون موت النبي ﷺ: هذا طريق مسلك، ومعبد منهوك، فلم نجعل لبشر من قبلك الخلد، فهل إذا متَّ خلدوا بعدك؟

وقد استدل بعض العلماء بهذه الآية على أن الخضر قد مات؛ لأنه بشر، سواء أكان نبياً أم ولياً. قال تعالى:

٣٥- ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ وَنَبَلُّوكُم بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ﴾ (٢٥)

ثم أكد ﷺ عدم خلود البشر في هذه الحياة، فعمّم بعد أن خصّص، ويبيّن سبحانه أن الموت مكتوب على كل نفس إنسانية، والرسول ﷺ منهم ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ﴾.

وقد عرض لبعض المسلمين توهم أن محمداً ﷺ لا يموت، منهم عمر بن الخطاب رضي الله عنه، فقد قال يوم انتقال النبي ﷺ إلى الرفيق الأعلى: لَيَرْجِعَنَّ رسول الله، فيقطع أيدي قوم وأرجلهم، حتى حضر أبو بكر رضي الله عنه، فكشف عن وجه النبي ﷺ وقبله، وقال: طبت حياً وميتاً، والله لا يجمع الله عليك مؤتين.

أخرج ابن أبي شيبة وغيره عن ابن عمر رضي الله عنهما قال: لما قبض رسول الله ﷺ كان أبو بكر في ناحية المدينة، فجاء، فدخل على رسول الله ﷺ وهو مُسَجَّى، فوضع فاه على جبين رسول الله ﷺ فجعل يقبله ويكي، ويقول: بأبي وأمي، طبت حياً وطبت ميتاً، فلما خرج مرّ بعمر بن الخطاب وهو يقول: ما مات رسول الله ﷺ، ولا يموت حتى يقتل المنافقين، وحتى يخزي الله المنافقين، قال: وكانوا قد استبشروا بموت رسول الله ﷺ فرفعوا رؤوسهم، فقال أبو بكر: أيها الرجل - يقصد عمر رضي الله عنه - أربّع على نفسك، فإن رسول الله ﷺ قد مات، ألم تسمع الله يقول: ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُمْ مَيِّتُونَ﴾ (٢٥) [الزمر].

وقال: ﴿وَمَا جَعَلْنَا لِشَرٍّ مِنْ قَبْلِكَ الْخُلْدَ أَفَإِنْ مِتَّ فَهُمْ الْخَالِدُونَ﴾ (١٤) قال: ثم أتى المنبر، فصعده، فحمد الله وأثنى عليه، ثم قال: أيها الناس، إن كان محمد ﷺ إلهكم الذي تعبدون، فإن محمداً قد مات، وإن كان إلهكم الذي في السماء فإن إلهكم لم يمت، ثم تلا ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِنْ مَاتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ﴾ [آل عمران: ١٤٤] حتى ختم الآية، ثم نزل، وقد استبشر المسلمون بذلك، واشتد فرحهم، وأخذت المنافقين الكآبة، قال عبد الله بن عمر: فوالذي نفسي بيده، لكأنما كانت على وجوهنا أغطية فكشفت^(٢).

فكل نفس ستذوق مرارة الموت، وتفارق الروح الجسد، مهما عمّر العبد في الدنيا

(١) قرأ يعقوب بالبناء للفاعل في (ترجعون)، والباقون بالبناء للمفعول.

(٢) أخرجه ابن أبي شيبة (٥٥٢/١٤) والبيهقي مطولاً (٢١٣/٧).

فالموت نهاية كل حي، ولا يبقى إلا الحي القيوم الباقي بعد فناء خلقه.

ثم بيَّن ﷺ أن وجود الإنسان في هذه الحياة، ما هو إلا ابتلاء بالتكليف من الأوامر والنواهي، وتقلب الأحوال، فالحياة مشتملة على الخير والشر، والشدة والرخاء، والصحة والمرض، والنصر والهزيمة، والغنى والفقر، والعز والذل، والحياة والموت، والحلال والحرام، والطاعة والمعصية، والهدى والضلال.

وكل هذا من الشر والخير ﴿وَبَلَّوْكُمْ بِالْشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً﴾ أي: نختبركم في هذه الدنيا بألوان من النعم يجب الشكر عليها، وألوان من المحن يجب الصبر عليها؛ لينكشف حالكم، ويظهر شُكْرُكُمْ وَصَبْرُكُمْ، وكُفْرُكُمْ وَجَزَعُكُمْ، فتسجله الملائكة عليكم، ثم ترجعون إلينا في النهاية فنحاسبكم ونجازيكم على أقوالكم وأفعالكم ﴿وَالَّذِينَ تَرْجِعُونَ﴾. فالموت كأس لا بد من شربه وإن طال بالعبد المدى، وبعده يكون البعث والحساب والجزاء.

والابتلاء بالشر أهون بكثير من الابتلاء بالخير؛ لأنه أشد وطأة، فكثير من الناس يصمدون أمام الابتلاء بالشر، ولكنهم لا يصمدون أمام الابتلاء بالخير، فترى الإنسان يصبر على الفقر والجوع والحرمان، ولكنه إذا اغتنى وجاءته الدنيا أنزلت في الشهوات والملذات، واقترب المحرمات، وطغى وتجبر، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنَافٍ﴾ [العلق: ٧] فهو لا يحفظ نعمة الله عليه، ولا يستثمرها في طاعته، بل يستعملها في نزواته وشهواته، ولا يصبر على الغنى كما صبر على الفقر.

وهكذا... يصبر الإنسان على المرض، ولكنه لا يصبر على الصحة، فيبدد طاقاته ويستعملها في المعاصي، ويصبر على العمى، ولكنه لا يصبر على ترك النظرة المحرمة.

ويصبر على الهزائم، ولكن نشوة النصر تحدوه إلى الغرور والتعالي.

ويصبر على تدني الوضع الاجتماعي والمستوى الهابط، ولكنه لا يصبر على الإغراء بالمنصب والجاه والثراء، فيتحول إلى إنسان آخر ناسياً ما كان فيه.

إن الابتلاء بالشر، يثير الكبرياء غالباً، ويستحث المقاومة، ويجند الأعصاب لاستقبال الشدة.

أما الابتلاء بالخير فهو يُرخي الأعصاب، ويُفقد المقاومة إلا من عصم الله، قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَىٰ أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ فَآخَذْنَاهُمْ بِالْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ لَعَلَّهُمْ يَضُرَّعُونَ﴾ [٢٦] فَلَوْلَا إِذْ

جَاءَهُمْ بِأَسَنَّا تَصَرَّعُوا وَلَكِنْ قَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٤٣﴾ فَلَمَّا دَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّى إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً فَإِذَا هُمْ مُبْلِسُونَ ﴿٤٤﴾ فَقُطِعَ دَابِرُ الْقَوْمِ الَّذِينَ ظَلَمُوا وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٤٥﴾ [الأنعام].

وبين جل شأنه أن العبد يُتلى بالخير كما يتلى بالشر: ﴿وَبَلَوْنَاهُمْ بِالْحَسَنَاتِ وَالسَّيِّئَاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ [الأعراف: ١٦٨].

والحديث يبين أن كلاً الابتلاءين خير للمؤمن إن هو أحسن استقبال كل منهما: «عجبا لأمر المؤمن، إن أمره كله خير، وليس ذلك لأحد إلا للمؤمن، إن أصابته سراء شكر، فكان خيرا له، وإن أصابته ضراء صبر، فكان خيرا له»^(١).

كُفِّرَ مَنْ يُنْكِرُ رِسَالَةَ مُحَمَّدٍ ﷺ أَوْ يَسْخَرُ بِهِ

٣٦- ﴿وَإِذَا رَأَوْكَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِتَّخَذُواكَ إِلا هُزُوا^(٢) أَهَذَا الَّذِي يَذْكُرُ آلِهَتَكُمْ وَهُمْ بِذِكْرِ الرَّحْمَنِ هُمْ كَافِرُونَ ﴿٣٦﴾﴾

ذكر ﷺ في هذه الآية جانباً من سفاهات المشركين، بما يشمل كُفْرَ كُلِّ مَنْ يَسْخَرُ برسالة محمد ﷺ ولم يؤمن به، فقد قيل: إن النبي ﷺ مرَّ على أبي جهل فضحك، وقال: هذا نبي بني عبد مناف، وهو الذي يعيب آلهم، ويذكرها بسوء، فغضب أبو سفيان وقال: أنتكرون أن يكون لبني عبد مناف نبي؟ فسمعها النبي ﷺ فرجع إلى أبي جهل وخوفه، وقال: «ما أراك متتهياً حتى يصيبك ما أصاب عمك»، وقال لأبي سفيان: «لم تقل ما قلت إلا حمية»، فنزلت هذه الآية^(٣).

والآية عامة في كل من ينكر رسالة الإسلام، أو يهزأ ويسخر برسول الإسلام.

(١) من حديث صهيب في صحيح مسلم برقم (٢٩٩٩).

(٢) قرأ حفص بإبدال همزة (هزاً) واواً مع ضم الزاي وصلًا ووقفًا، وقرأ حمزة بالهمز مع إسكان الزاي وصلًا فقط، وقرأ خلف العاشر بالهمز مع إسكان الزاي وصلًا ووقفًا، وقرأ إدريس بالسكت على الساكن قبل الهمز وعدمه، وقرأ الباقر بالهمز مع ضم الزاي وصلًا ووقفًا، ويقف عليها حمزة بالنقل والإبدال.

(٣) أخرجه ابن أبي حاتم عن السُّدِّي، كما في «الدر المنثور» (١٠/٢٩٤) و«ازاد المسير» (٥/٣٥٠) و«تفسير ابن عطية» مختصرًا (٨١/٤) و«تفسير ابن كثير» (٥/٣٤٢).

ومراد الآية: أنه إذا أبصر الكفار -يا محمد- أشاروا إليك ساخرين منك ومستخفين بك، وقال بعضهم لبعض على سبيل التهوين والتتقيص من شأنك: أهذا الرجل هو الذي يَسُبُّ آلَهم، ويَذْكُرُها بسوء، وينفي شفاعتها لنا، وأنها تقربنا إلى الله زلفى، وأنها لا تنفع ولا تضر؟

ومثل ذلك من يهزؤ أو يسخر بالنبى ﷺ بعد موته، أو يسخر بكتابه، أو شريعته، أو يبغض شيئاً مما جاء به، ونحو ذلك.

ثم بين الله سبحانه أن الكفار عاكفون على ذكر آلهم، ويسوؤهم أن يذكرها أحد بسوء، ولكنهم لم يعيوا أنفسهم على كفرهم بخالقهم، فهم يذكرون آلهم بخير، وأما ذكر الله الواجب عليهم توحيده فهم به كافرون، وهذا معنى: ﴿وَهُمْ يَذْكُرِ الرَّحْمَنَ هُمْ كَافِرُونَ﴾ فهم أحق أن يتخذوا هزواً منك -أيها الرسول- لأنهم جاحدون للرحمن ونعمه وما أنزله على رسوله من القرآن والهدى.

فإيمانهم بالأوثان وكفرهم بالرحمن، مفارقة عجيبة، تكشف عن مدى الفساد الذي أصاب فطرتهم؛ حيث تأدّبوا مع الأوثان، وأساؤوا الأدب مع الرحمن، إنهم يعيرون من يجحد أصنامهم، ويجحدون أن يكون الرحمن إلهاً، فما أعجب حالهم!

وهكذا كان المشركون ينكرون على النبى ﷺ إذا سمعوه يذكر الرحمن في عبادته، وافتتاح الصلاة بالبسملة جهراً، يقولون: لا نعرف إلا رحمن اليمامة، يعنون: مسيلة الكذاب ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ اسْجُدُوا لِلرَّحْمَنِ قَالُوا وَمَا الرَّحْمَنُ أَنْسَجِدُ لِمَا تَأْمُرُنَا وَزَادَهُمْ نُفُورًا﴾ [الفرقان].

ويقولون: إن محمداً يدعونا إلى الإيمان بآله واحد وهو يعبد إلهين: الرحمن، الرحيم، فردّ الله عليهم بقوله: ﴿فَلِ ادْعُوا اللَّهَ أَوْ ادْعُوا الرَّحْمَنَ أَيًّا مَا تَدْعُوا فَلَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى﴾ [الإسراء: ١١٠].

العَجَلَةُ طَبَعٌ فِي الْإِنْسَانِ

٣٧- ﴿خُلِقَ الْإِنْسَانُ مِنْ عَجَلٍ سَأُورِيكُمْ آيَاتِي فَلَا تَسْتَعْجِلُونِ﴾ (٣٧)

هذه الآية توطئة للردّ على كل من يستعجل أمراً من الأمور؛ لأن العجلة في طبعه وجزء

(١) قرأ يعقوب بإثبات الباء من (تستعجلون) وصلاً ووقفًا، والباقيون بحذفها في الحالين.

من أخلاقه، وفي هذا تعجب من حال الإنسان .
وذلك أنه لما استهزأ المشركون برسول الله ﷺ اغتاظ المسلمون، وتمنّوا لو أن العذاب الذي أعده الله للمكذّبين نزل بهم، فاستبطّوه واستعجلوا وقوعه بهم .

كما أن الكفار كانوا يمعنون في تكذيب النبي ﷺ، ويطلبون منه سرعة نزول العذاب الذي يتوعّدهم ويهدّدهم به، كما حدث ذلك من النضر بن الحارث وغيره .

وقد أنزل الله تعالى في هذه الآية بيّن ما جُبِلَ عليه الإنسان من تسرّع وعجلة، حتى كأنه خُلِقَ من عجل، أي: خُلِقَ جنس الإنسان مجبّولاً على العجلة والتسرع، يبادر إلى الأشياء ويستعجل وقوعها، فالعجلة في طبيعته كأنه خُلِقَ منها، وذلك ناتج عن ضعف صفة الصبر في الإنسان .

فإذا فكّر الإنسان في شيء محبوب لديه استعجل وقوعه بدافع المحبة، وإذا فكّر في شيء مكروه لديه استعجل إزالته بدافع الكراهية، ولا يخلو حال الإنسان من هذين، فلا جرّم أن كان الإنسان عجولاً، مع تفاوت أفراد بني آدم في هذا الاستعجال حسب تفاوتهم في أعمال النظر والفكر، ولكنهم لا يخلو حالهم منه، وقد استعجل المسلمون سرعة الانتقام من المستهزئين برسول الله ﷺ، كما استعجلت قريش نزول العذاب بهم واستبطّأته .

ومن أجل هذا فإن الله تعالى خاطب الناس جميعاً بالترثيث، وحثهم على عدم استعجال الأمور؛ لأنه سبحانه أعلم بمصالح العباد، ومقتضى الحكمة في توقيت حلول الوعيد بهم، ومن ذلك أن الله تعالى يملئ للظالم ويمهله حتى إذا أخذه لم يفلته .

ولذا أنذر الله خلقه بأنه سيحل بهم ما استعجلوه إن عاجلاً أو آجلاً، فلا تسألوا الله تعجيله وسرعته؛ فإن الحلول والنتائج تأتي قريباً، وقد ردّ الله تعالى على من يستعجلون انتصار الإسلام وخذلان الجاحدين له بقوله: ﴿سَأُورِيكُمْ آيَاتِي﴾ أي: بنصر ديني، وحلول نقمتي بالمخالفين ﴿فَلَا تَسْتَعْجِلُون﴾ . وقوع العذاب، ولا حصول النصر أو الصحة أو الشراء، فكل شيء عند الله بمقدار .

وقد وردت روايات تفيد أن العجلة ظهرت على آدم ﷺ عند نفخ الروح فيه :

قال مجاهد: خلق الله آدم بعد خلق كل شيء من آخر النهار يوم خلق الخلائق، فلما

أجرى الروح في عينيه ولسانه ورأسه، ولم يبلغ أسفله، قال: يارب، استعجل بخلقى قبل غروب الشمس^(١).

وقيل: إن الروح لما تخللت رأس آدم وعينه، نظر إلى ثمار الجنة، فلما دخلت الروح في جوفه اشتهى الطعام، فوثب قبل أن تبلغ الروح إلى رجله -تعجلاً إلى ثمار الجنة- فوقع^(٢).

وأخرج سعيد بن منصور، وعبد بن حميد، وابن المنذر عن عكرمة قال: لما نُفخ في آدم الروح مارَ -أي: دار وتردد- في رأسه، فعطس، فقال: الحمد لله، فقالت الملائكة: يرحمك الله، فذهب لينهض، قبل أن تمر في رجله، فوقع، فقال الله تعالى: ﴿خُلِقَ الْإِنْسَانُ مِنْ عَجَلٍ﴾^(٣).

وقد أشار الله سبحانه إلى أن العجلة خلقت في الإنسان في آيات أخر منها قوله تعالى: ﴿وَكَانَ الْإِنْسَانُ عَجُولًا﴾ [الإسراء: ١١] وقوله: ﴿إِنَّ الْإِنْسَانَ خُلِقَ هَلُوعًا﴾ [المعارج]. قال تعالى:

٣٨- ﴿وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ (٤٨)

أكد ﷺ استعجال المشركين لنزول العذاب بهم في هذه الآية، أي: ويقول الكفار مستعجلين نزول العذاب بهم حال كونهم مستهزئين به، ويقولون: متى يحصل ما تعدنا به يا محمد، إن كنت من الصادقين فيما تقول؟ وهذا منتهى الجهل والطغيان؛ إذ كيف يتوعدهم الله تعالى على استمرارهم في الكفر، ثم يطلبون سرعة نزول هذا الوعيد بهم على سبيل التهكم والاستهزاء، بدلاً من أن يطلبوا الهداية من الله تعالى، ويبادروا إلى الدخول في الإسلام؟!!

ومن الوعيد الذي توعد الله به المكذبين، ما تحقق وقوعه يوم بدر، بمصرع كبار كفار قريش، حين وقف النبي ﷺ على القلب الذي دُفنت فيه جثث المشركين، وناداهم بأسمائهم قائلاً: «هل وجدتم ما وعد ربكم حقاً؟ فقد وجدنا ما وعدنا ربنا حقاً»^(٤).

(١) «تفسير ابن كثير» للآية (٣٤٢/٥) والطبري (٢٧٢/١٦) وابن أبي شيبة (١١٥/١٤) وأبو الشيخ (١٠٢٦).

(٢) «تفسير الخازن» (٢٦٠/٣) وبنحوه في «الدر المنثور» (٢٩٥/١٠) عن ابن المنذر عن جريح.

(٣) «الدر المنثور» (٢٩٤/١٠).

(٤) يُنظر الحديث عن عبدالله بن عمر رضي الله عنهما في صحيح البخاري برقم (٣٩٨٠، ٣٩٨١) وصحيح مسلم (٩٣٢).

وفي صحيح سنن النسائي برقم (٢٠٧٦).

وكان الله سبحانه قد وعد المؤمنين بالنصر، ووعد الكافرين بالهلاك وعذاب النار.

وقد بين سبحانه أن استعجال قيام الساعة من شأن غير المؤمنين، فقال تعالى: ﴿يَسْتَعْجِلُ بِهَا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِهَا وَالَّذِينَ آمَنُوا مُشْفِقُونَ مِنْهَا وَيَعْلَمُونَ أَنَّهَا الْحَقُّ﴾ [الشورى: ١٨].

واستعجال الساعة بما فيها من عذاب وعقاب شأن الجاهل الأحق، أما العاقل فإنه يستعجل الثواب والنعيم. وبين سبحانه أن لكل أجل وقت محدد ﴿فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِرُونَ﴾ [الأعراف: ٣٤].

النَّارُ تُحِيطُ بِالْكَافِرِ إِحَاطَةً السُّوَارِ بِالْمَعْصَمِ

٣٩- ﴿لَوْ يَعْلَمُ الَّذِينَ كَفَرُوا حِينَ لَا يَكْفُوتُ عَنْ وُجُوهِِهِمُ النَّارَ وَلَا عَنْ ظُهُورِهِمْ وَلَا هُمْ يُنْصَرُونَ﴾

ها هو القرآن يذكر مشهداً من مشاهد العذاب الذي يستعجله المشركون؛ ليستيقظوا من غفلتهم وسوء تفكيرهم، ويقفوا على حقيقة ما استعجلوه من العذاب؛ حتى يثوبوا ويثوبوا إلى رشدهم، فلو عرف الكفار ما يلاقونه من العذاب، عندما لا يمكنهم أن يدفعوا النار عن وجوههم، ولا عن ظهورهم، ولا يجدون لهم ناصراً ينصرهم ويمنع نزول العذاب بهم، لو يعلمون ذلك ما استمروا على كفرهم، ولما استعجلوا نزول العذاب بهم.

١- والضمير في ﴿لَا يَكْفُوتُ﴾ يرجع إلى الكفار المذكورين في الآية، وهو يفيد أن النار في الآخرة تحيط بالكفار إحاطة السُّوَارِ بِالْمَعْصَمِ.

والمعنى: أنهم لا يستطيعون أن يدفعوا النار عن وجوههم بأيديهم، ولا عن ظهورهم؛ إذ النار تحيط بهم من كل جانب، مُدْبِرَةٌ وَمُقْبِلَةٌ، وهذه الإحاطة من كل جهة، كما في قوله تعالى: ﴿إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا وَإِنْ يَسْتَغِيثُوا يُغَاثُوا بِمَاءٍ كَالْمُهْلِ يَشْوِي الْوُجُوهَ بِئْسَ الشَّرَابُ وَسَاءَتْ مُرْتَفَقًا﴾ [الكهف: ٢٩].

وقوله: ﴿لَهُمْ مِنْ قَوْفِهِمْ ظُلَلٌ مِنَ النَّارِ وَمِنْ تَحْتِهِمْ ظُلَلٌ ذَلِكَ يُخَوِّفُ اللَّهُ بِهِ عِبَادَهُ يَجْعَلُونَ فَنَقُونَ﴾ [الزمر: ١٦].

وقوله: ﴿لَهُمْ مِنْ جَهَنَّمَ مِهَادٌ وَمِنْ قَوْفِهِمْ غَوَاشٍ وَكَذَلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ﴾ [الأعراف: ٤١].

وقوله: ﴿سَرَابِيلُهُمْ مِنْ قَطَرَانٍ وَتَغْشَى وُجُوهُهُمُ النَّارُ﴾ [إبراهيم: ٥٠].

وقوله: ﴿فَالَّذِينَ كَفَرُوا قُطِعَتْ لَهُمْ نَارٌ يُصَبُّ مِنْ فَوْقِ رُءُوسِهِمُ الْحَمِيمُ لَا يُصْهَرُ بِهِ مَا فِي بُطُونِهِمْ وَالْجُلُودُ ۝٢٠ وَلَهُمْ مَقْلِعٌ مِنْ حَديدٍ ۝٢١ كُلَّمَا أَرَادُوا أَنْ يَخْرُجُوا مِنْهَا مِنْ غَمٍّ أُعِيدُوا فِيهَا وَذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ ۝٢٢﴾ [الحج].

فالعذاب يحيط بالكفار يوم القيامة من جميع الجهات، بحيث لا يستطيعون دفعه ولا رده.

في صحيح مسلم وغيره عن عدي بن حاتم رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «ما منكم من أحد إلا سيكلمه الله، ليس بينه وبينه ترجمان، فينظر أيمن منه فلا يرى إلا ما قدم، وينظر أشأم منه فلا يرى إلا ما قدم، وينظر بين يديه فلا يرى إلا النار تلقاء وجهه، فاتقوا النار ولو بشق تمرة»^(١).

٢- وقد يرجع الضمير إلى ملائكة العذاب، وهم لا يكفون اللعاب بالنار عن وجوه المشركين ولا عن ظهورهم، ويكون هذا عند خروج الروح من الكافر، وذلك في قوله تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَى إِذْ يَتَوَفَّى الَّذِينَ كَفَرُوا الْمَلَائِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَرَهُمْ وَذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ ۝٥٠﴾ [الأنفال].

وقوله: ﴿فَكَيْفَ إِذَا تَوَفَّتْهُمُ الْمَلَائِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَرَهُمْ ۝٧٧﴾ [محمد].

وقوله: ﴿وَلَوْ تَرَى إِذِ الظَّالِمُونَ فِي غَمَرَاتِ الْمَوْتِ وَالْمَلَائِكَةُ بَاسِطُوا أَيْدِيهِمْ ۝١٠١﴾ لهم بالعذاب ويقولون لهم: ﴿أَخْرِجُوا أَنْفُسَكُمْ ۝١٠٢﴾ مما أنتم فيه ﴿الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ بِمَا كُنْتُمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ وَكُنْتُمْ عَنْ آيَاتِهِ تَسْتَكْبِرُونَ ۝٩٣﴾ [الأنعام: ٩٣].

وذكر الوجه والأدبار؛ للتكيل والتخويف.

قِيَامُ السَّاعَةِ فَجَاءَ

٤٠- ﴿بَلْ تَأْتِيهِمْ بَغْتَةً فَتَبْهَتُهُمْ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ رَدَّهَا وَلَا هُمْ يُنْظَرُونَ ۝٤٠﴾

ثم بين سبحانه سرعة قيام الساعة، وأنها تفاجئ الناس بمجيئها من غير شعور منهم، أي: أنها تدهشهم وتحيرهم وتخوفهم، فلا تكون لهم حيلة في دفع العذاب عن أنفسهم، ولا يملكون رد الساعة ودفعها.

(١) صحيح مسلم برقم (١٠١٦) وصحيح البخاري برقم (٦٥٣٩، ٧٤٤٣) والترمذي برقم (٢٤١٥) وابن ماجه (١٨٥، ١٨٤٣) و«المسند» (١٨٠/٣٠) برقم (١٨٢٤٦، ١٩٣٧٣) بإسناد صحيح على شرط الشيخين.

ولست هناك من وسيلة للعودة إلى الدنيا أو الإمهال، أو استدراك ما مضى، فلا يُنظرون ولا يؤخّرون لتوبة أو معذرة، ولو علموا ذلك حق العلم، لما استعجلوا نزول العذاب بهم، وخافوا الله أشد الخوف.

عِقَابُ الْمُسْتَهْزِئِينَ بِالْإِسْلَامِ

٤١ - ﴿وَلَقَدْ أَتَيْنَاهُ بِبُرْهَانٍ مُّبِينٍ فَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَاسْتَهْزَؤُنَا﴾

وبعد أن ذكر سبحانه مشهداً من العذاب الأخروي الذي يستعجله المكذبون بالقرآن ورسول الإسلام، حذّر المستهزئين بالإسلام وبالرسول الخاتم، أن يصيبهم مثل ما أصاب من كذبوا رسل الله قبلهم من العذاب الدنيوي، فبيّن تعالى مواسياً رسوله ﷺ ومسلياً له: أَنَّ مَا جَرَى لَهُ مِنَ السَّخِرَةِ وَالِاسْتِهْزَاءِ - في مثل قولهم ﴿أَهَذَا الَّذِي يَذْكُرُ آلِهَتَكُمْ﴾ [الأنبياء: ٣٦] وما جرى في بعض دول العالم، قد جرى لسائر الأنبياء قبله، فحل بهم من العذاب ما كان مثار سخريتهم واستهزائهم.

ولا شك أن من المستهزئين في العصر النبوي أمثال: أبي جهل، وشيبة وعتبة ابني ربيعة، وأمّية بن خلف، من نزل بهم من سوء العاقبة يوم بدر ما هو معلوم، وهكذا كل من يسخر بنبي الإسلام، أو يكذب شيئاً مما جاء به، فإنه يجني ثمرة جحوده واستهزائه عذاباً وعقاباً في الدنيا والآخرة وهكذا يقسم سبحانه أن المكذبين من الأمم الماضية قد سخروا بالمرسلين قبل محمد فنزل بهم العقاب بسبب استهزائهم.

عِقَابُ اللَّهِ فِي الدُّنْيَا، لَا يَمْنَعُهُ إِلَّا مَنْ حَفِظَ عِبَادَهُ مِنْ جَمِيعِ الْمَضَارِّ

٤٢ - ﴿قُلْ مَنْ يَكْلُؤُكُمْ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ مِنَ الرَّحْمَنِ بَلْ هُمْ عَنْ ذِكْرِ رَبِّهِمْ مُعْرِضُونَ﴾

أي أن كل مخلوق، مسلم أو كافر، مضطر إلى رحمة ربه في ليله ونهاره، فقد شملت رحمته سبحانه، البر والفاجر، فهم بحاجة إلى من يحرسهم ويحفظهم بالليل وهم نائمون، وقد ذهبت حواسهم، وبالنهار وهم في حال انتشار وغفلة، فكيف يعرض عنه المعرضون،

(١) قرأ أبو عمرو وعاصم وحزمة ويعقوب بكسر الدال وصلّاً من (ولقد استهزئ)، والباقون بضمها، وكلاهما للتخلص من التقاء الساكنين، وقرأ أبو جعفر بإبدال الهمزة من (استهزئ) ياء مفتوحة وصلّاً، ووقف عليها حمزة وهشام بخلفٍ عنه بإبدال الهمزة ياء ساكنة للوقف.

ويكفر به المشركون؟

وبعد أن خفف الله عن رسوله ﷺ فيما يتعلق باستهزاء المشركين وإيذائهم له بيّن سبحانه أن إمهال المستهزين بالإسلام المستعجلين لنزول العذاب بهم، إنما هو رحمة من الله تعالى لهم، وأن هذه الرحمة تحيط بهم من كل جانب وفي كل وقت، فمن يرعاهم ويحفظهم بالليل والنهار غير الرحمن؟ ومن يمنعهم من نزول العذاب بهم في الدنيا والآخرة غير الله سبحانه؟

والمعنى: قل -يا محمد- لهؤلاء الساخرين بك وبما جئت به: من يحرسكم بعينه التي لا تنام في ليلكم إذا نمتم، وفي نهاركم إذا استيقظتم وتقلبتم في أمور الدنيا، وهذا يستغرق جميع الأوقات، ويستوعب جميع الأزمنة.

والله تعالى قد وُكِّل بكل إنسان ملائكة تحفظه من الهوام والسباع والوحوش، والإنس والجن، وتحفظ الناس من جميع المضار وهم نيام في فُرُشهم، وحواسهم غافلة، في الموتة الصغرى، لا يسمعون ولا يبصرون، ووُكِّل بهم من يحفظهم في يقظتهم وهم يسعون على معاشهم، ويتقلبون في أسفارهم وأعمالهم، كما قال تعالى: ﴿لَهُمْ مَعْشِرَتٌ مِّنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ﴾ [الرعد: ١١] أي: يحفظون العبد بأمر الله جل شأنه إن نزل به ما يسوؤه في الدنيا.

فمن يمنعكم من بأس الرحمن وعذابه إذا نزل بكم؟ الجواب: لا أحد غير الله سبحانه، فهو القائم على كل نفس بما كسبت، الحارس لها من الغوائل والنوازل والعوادي، وهذا سؤال إنكار وتوبيخ؛ إذ لا راعي لهم سوى الله سبحانه، ولا حافظ لهم غير الله.

وذكر ﴿الْحَمْدُ﴾ ألقى صفة بحفظ المخلوقات، فهو رحمة من الله بهم.

وجاء تقديم الليل على النهار؛ لأن الدواهي في الليل أكثر وأشد.

ثم أضرب ﷺ عن خطاب المشركين، وانتقل إلى ضمير الغيبة، فقال: ﴿بَلْ هُمْ عَنْ ذِكْرِ رَبِّهِمْ مُّعْرِضُونَ﴾ أي: وهم عن القرآن ومواعظ ربهم لاهون غافلون، فلا يرجي منهم الانتفاع بالقوارع، وهذا هو سبب عذابهم، ولو أقبلوا على ذكر ربهم وتلقوا نصائحه، لهدوا إلى رشدهم، ووفقوا في أمرهم.

عَذَابُ اللَّهِ فِي الْآخِرَةِ لَا يَمْنَعُهُ مَانِعٌ

٤٣- ﴿أَمَرَهُمُ إِلَهُهُ تَمْنَعُهُمْ مِنْ دُونِنَا لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَ أَنْفُسِهِمْ وَلَا هُمْ مِنَّا يُصْحَبُونَ﴾

وبعد أن بيّن سبحانه أنه لا يرعاهم ولا يمنعهم من بأس الله في الدنيا غير الله، بيّن جلّ شأنه أنه لا يدفع عنهم عذاب الله يوم لقائه غير الله، وأن الآلهة التي يتقربون بها إلى الله سبحانه لا تُغني عنهم شيئاً، ولأن المشركين يعتقدون أن الأصنام تنفعهم وتشفع لهم، فإن الله سبحانه قد أنكر عليهم مرة ثانية، أن بإمكانهم نصر أنفسهم ومنعها من عذاب الله، فأضرب عن كلامهم مرة أخرى بلفظ ﴿أَمَرَهُ﴾ المنقطعة التي هي أخت ﴿بَلَّ﴾ في الآية السابقة، وعدّل عنه إلى إثبات عجز آلهتهم - المزعومة - من كل وجه.

والمعنى: ألهؤلاء الجاحدين، آلهة أخرى تستطيع أن تحرسهم وترعاهم في الدنيا، أو تمنع عنهم العذاب في الآخرة؟ كلا، إن هذه الآلهة التي يزعمونها لا تقدر على دفع الغوائل والعذاب عن نفسها، فكيف بغيرها؟

وليس هناك من يُجيرهم، ولا يمنعهم من نزول الضر بهم غير الله تعالى؛ إذ كيف ينصرون غيرهم وهم لا يستطيعون نصر أنفسهم، ولا نصر غيرهم، لأنهم غير مؤيدين من الله بالقبول، وهذا معنى ﴿وَلَا هُمْ مِنَّا يُصْحَبُونَ﴾ أي: يُجارون ويمنعون؛ لسخط الله عليهم، تقول العرب: أنا لك صاحب وجار، وهذا كقوله تعالى: ﴿فَمَنْ يَنْصُرُنَا مِنْ بَأْسِ اللَّهِ إِنْ جَاءَنَا﴾ [غافر: ٣٨] إنهم لا يستطيعون نصر أنفسهم فكيف يستطيعون نصر من عبدوهم؟

وفي الآية التفات من الخطاب إلى الغيبة كقوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي يُسِرُّكُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ حَتَّى إِذَا كُنْتُمْ فِي الْفُلِكِ وَجَرَيْنَ بِهِمْ بِرِيحٍ طَبَئَةٍ وَفَرِحُوا بِهَا جَاءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ﴾ [يونس: ٢٢]. ولهذه الآية نظائر كثيرة، منها:

١- قوله تعالى: ﴿أَيَسْرِكُونَ مَا لَا يَخْلُقُ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلِقُونَ﴾ (١٩١) وَلَا يَسْتَطِيعُونَ لَهُمْ نَصْرًا وَلَا أَنْفُسُهُمْ يَنْصُرُونَ (١٩٢) وَإِنْ تَدْعُوهُمْ إِلَى الْهُدَى لَا يَسْتَجِيبُوا سَوَاءً عَلَيْكُمْ أَدَعَوْتُوهُمْ أَمْ أَنْتُمْ صَائِرُونَ (١٩٣) إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ عِبَادُ أَمْثَالِكُمْ فَادْعُوهُمْ فَلْيَسْتَجِيبُوا لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (١٩٤) [الأعراف].

٢- وقوله: ﴿ذَلِكَ كُفُّوا إِلَهُكُمْ إِلَهُ الْمَلِكِ وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ مَا يَمْلِكُونَ مِنْ قِطْمِيرٍ﴾ (١٣) إِنْ تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا دَعَاءَكُمْ وَلَوْ سَمِعُوا مَا اسْتَجَابُوا لَكُمْ وَيَوْمَ الْقِيَمَةِ يَكْفُرُونَ

بِشْرِكِكُمْ وَلَا يَبْنِيكَ مِثْلَ خَيْرٍ ﴿١٤٠﴾ [فاطر].

٣- وقوله: ﴿وَاتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ ءَالِهَةً لَا يَخْلُقُونَ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ وَلَا يَمْلِكُونَ لِأَنْفُسِهِمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا وَلَا يَمْلِكُونَ مَوْتًا وَلَا حَيَاةً وَلَا شُورًا﴾ ﴿١٤١﴾ [الفرقان]. وغير ذلك.

الْكُفَّارُ لَا يُحْسِنُونَ شُكْرَ النِّعْمَةِ

٤٤- ﴿بَلْ مَتَّعْنَا هَؤُلَاءِ وَءَابَاءَهُمْ حَتَّى طَالَ عَلَيْهِمُ الْعُمُرُ أَفَلَا يَرَوْنَ أَنَّا نَأْتِي الْأَرْضَ نَنْقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا أَفَهُمُ الْغَالِبُونَ﴾ ﴿١٤٢﴾

ثم بيّن سبحانه الباعث الذي حمل المكذبين لرسول الله على العناد والإصرار، فكشف سبحانه عن سبب غرورهم -في إضراب ثالث بلفظ ﴿بَلْ﴾ في هذه الآية- حيث حسبوا أنهم آمنون من عذاب الله، فجرّأهم هذا الظن على الاستهزاء بالوعد والوعيد، والرسالة والرسول، وظنوا أن ما متّعهم الله به من مال ونعيم لا يبيد ولا يقنى، فנסوا عقاب الله لهم.

لقد اغتر الكفار الجاحدون وآباؤهم، بإمهال الله إياهم نظرًا لما هم فيه من الرخاء والنعمة، وكثرة الأموال والمتاع والبنين، مع طول العمر، فحملهم هذا على ما هم فيه من الضلال والطغيان.

فلا يغرنكم -أيها المسلمون- تقلب الذين كفروا في النعيم، فإن ما هم فيه من ثراء وجاه متاع زائل: ﴿مَتَّعْ قَلِيلٌ ثُمَّ مَأْوَهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمِهَادُ﴾ ﴿١٤٣﴾ [آل عمران].

وما أعطاهم الله من نعم إنما هو على سبيل الاستدراج، واستيفاء الجزاء في الدنيا على ما قدّموا فيها من خيرات، وسيأخذهم أخذ عزيز مقتدر في الوقت الذي يريده، ثم يحاسبهم ويجازيهم بما يستحقون.

لقد متّعهم الله بالنعمة، وأمدهم بالمال والبنين؛ حتى تطول أعمارهم، وتقسو قلوبهم، وتسوء أعمالهم، ويكون حسابهم عند الله شديدًا، وجزاؤهم نارًا وحميمًا.

فترك عقابهم في الدنيا ليس عن عجز أو تقصير، بل لما سبق في علم الله تعالى أنهم أهل ضلال وانحراف عن الفطرة، فأعطاهم الله الدنيا وأمهلهم فيها، وأرسل إليهم الرسل، وأنزل عليهم الكتب، وبيّن لهم الهدى والضلال؛ لإقامة الحجة عليهم يوم لقاء

الله ﴿لَئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ﴾ [النساء: ١٦٥]

ولئلا يقولوا: ﴿مَا جَاءَنَا مِنْ بَشِيرٍ وَلَا نَذِيرٍ﴾ [المائدة: ١٩].

وقد أقام الكفار السابقون على كفرهم ولم يبرحوه حتى طالت أعمارهم في الرخاء والنعم، وظنوا أنهم لا يعذبون، وتحقق فيهم ما توعدهم الله به، فلم تُفدّهم هداية الرسل، ولا تعاليم الكتب، وظلّوا على كفرهم وطغيانهم، ويتحقق هذا في كل كافر إلى قيام الساعة.

والإشارة بـ﴿هَؤُلَاءِ﴾ في الآية؛ لعموم الكفار المكذّبين برسالة محمد ﷺ، وهي إشارة حاضرة في الذهن، يراد بها وقت التنزيل: المخاطبون بالقرآن، وهم كفار قریش وأمثالهم، وهي تعمُّ مَنْ بعدهم إلى قيام الساعة.

وإمهال الكفار بإغداق النعم عليهم جاء في آيات كثيرة، منها:

١- قوله تعالى: ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّمَا نُطَمِّلُ لَهُمْ خَيْرٌ لِّأَنفُسِهِمْ إِنَّمَا نُمَلِّي لَهُمْ لِيَزْدَادُوا إِثْمًا وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾ [آل عمران].

٢- وقوله: ﴿سَنَسْتَدْرِجُهُمْ مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [٤٤] ﴿وَأُمَلِّي لَهُمْ إِنَّا كِيدِي مَتِينٌ﴾ [القلم].

٣- وقوله سبحانه: ﴿قَالُوا سُبْحَنَكَ مَا كَانَ يَلْبِغِي لَنَا أَنْ نَتَّخِذَ مِنْ دُونِكَ مِنْ أَوْلِيَاءَ وَلَكِنْ مَتَّعْتَهُمْ وَعِبَاءَهُمْ حَتَّىٰ نَسُوا الذِّكْرَ وَكَانُوا قَوْمًا بُورًا﴾ [الفرقان].

٤- وقوله: ﴿بَلْ مَتَّعْتُ هَؤُلَاءِ وَعِبَاءَهُمْ حَتَّىٰ جَاءَهُمُ الْحَقُّ وَرَسُولٌ مُّبِينٌ﴾ [١٩] ﴿وَلَمَّا جَاءَهُمُ الْحَقُّ قَالُوا هَذَا سِحْرٌ وَإِنَّا بِهِ كَافِرُونَ﴾ [الزخرف].

نقصان الأرض من أطرافها:

ثم لفت ﷺ أنظار الخلق إلى الواقع المشاهد في هذه الحياة، بعد وعيد من طالت أعمارهم في الترف، فبيّن لهم أنهم ليسوا بأقوى من الذين أبادهم الله من الأمم السابقة، ولا من الذين هدامهم الله فدخلوا في الإسلام، ونقصت بهم أرض الكفر، وزادت بهم أرض الإسلام، فقال تعالى: ﴿أَفَلَا يَرَوْنَ أَنَّا نَأْتِي الْأَرْضَ نَنْقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا﴾.

١- ونقص الأرض يكون بالفتوحات الإسلامية، ويكون بتخريب المعمور من الأرض، أو بالموجات البحرية التي تغرق مساحات واسعة من الأرض.

أي: أَغْفَلُوا عَنْ سُنتِ اللَّهِ الماضية في هذا الكون، وغاب عنهم ما ينزله الله من بأس وانتقام بمن كَذَّبَ رسل الله، كقوم نوح، وعاد، وثمود، ولوط، وشعيب، وهم يمرون على ديارهم، ويرون آثارهم وهي خاوية على عروشها؛ بسبب ظلمهم وكفرهم بالله ورسله.

أفلا يرون ما حلَّ بأمثالهم، وكيف طوينا الأرض بهم، وجعلناهم أثرًا من الآثار؟! فيعتبرون بنصر الله لأوليائه المصدقين لرسله، ويعتبرون بإهلاك الأمم المكذبة والقرى الظالمة ﴿أَفَهُمْ أَغْلِبُونَ﴾ هل في وَسْطِ الكفار إلى يوم القيامة، ومنهم المخاطبون بهذا القرآن وقت نزوله، وهم كفار مكة، هل في وسعهم الخروج عن قدر الله تعالى، وأن تكون الغلبة لهم؟ وهل في وسعهم الامتناع عن الموت؟ وهل كفار اليوم والأمس والغد أشد وأقوى من عاد وثمود وسائر الأمم التي أبيدت؟ ممن قال الله فيهم:

﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ ﴿١﴾ إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ ﴿٢﴾ الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلَادِ ﴿٣﴾﴾ [الفجر].

وقال: ﴿أَهُمْ خَيْرٌ أَمْ قَوْمُ تُبَّعٍ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ أَهْلَكْنَاهُمْ﴾ [الدخان: ٣٧].

وقال أيضًا: ﴿أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَأَثَارُوا الْأَرْضَ وَعَمَرُوهَا أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا﴾ [الروم: ٩].

وفي إهلاك هؤلاء الأقوام وغيرهم يقول سبحانه: ﴿وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا مَا حَوْلَكُمْ مِنْ الْقُرَى وَصَرَفْنَا آيَاتِنَا لَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٧٧﴾ فَلَوْلَا نَصْرُهُمُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ قُرْبَانًا آلِهَةً بَلْ ضَلُّوا عَنْهُمْ وَذَلِكَ إِفْكُهُمْ وَمَا كَانُوا يَفْقَهُونَ ﴿٧٨﴾﴾ [الأحقاف].

وإهلاك المكذبين بالرسول يتضمن بالضرورة نقص الأرض التي هم عليها بموت أهلها وفنائهم. ولو أن غير المتبعين لرسول الإسلام محمد ﷺ عقلوا ذلك ما استمروا على ما هم فيه من ضلال، ولما اغتروا بطول البقاء، وكثرة المتاع والمال.

فكما لم تكن الغلبة والعاقبة في يوم من الأيام لمن كذبوا الرسل، فإن الغلبة والظفر وحسن العاقبة لن تكون لهم أبدًا في يوم من الأيام، لا في الدنيا ولا في الآخرة.

وإذا كانت ديار المكذبين لرسول الله في الأمم الماضية قد انتقصت من أرضهم، وانتقص من عليها من تعداد الناس، فإن أرض الإسلام قد اتسعت وكثر أهلها، وانتقصت أرض الكفر وأهله، بمجيء الإسلام عن طريق الغزوات والسرايا والفتوحات الإسلامية.

- ٢- ومع أن الآية مكية فإن صلاحية القرآن لا تقتصر على وقت دون وقت، ولا على مكان دون مكان، ولا على زمان دون زمان، ولا يمنع أن يراد بالآية: اعتبار ما سيكون.
- ٣- ولا يمنع أيضًا أن يخاطب المسلمون جميعًا بالمعنى نفسه، فبعد أن كانت دولة الإسلام واحدة، وكانت دولة غالبية، إذ بها تصير دويلات موزعة مغلوبة على أمرها، والعبرة تحصل بالمعنيين الأول والثاني.
- وحمل الآية على ظاهرها أولى، بمعنى النقص الحقيقي لمساحة الأرض اليابسة، بنقصان أطرافها في الشمال والجنوب.
- فالعلماء يقولون: إن الأرض ليست تامة التكوين والاستدارة، بل هي منبعجة الوسط، مفرطحة من جهة القطبين الشمالي والجنوبي، وهذه آية كونية يفسرها العلم الحديث.
- ٤- ومن أهل العلم من يرى أن النقصان يكون بموت أهلها وفنائهم شيئًا فشيئًا، حتى يرث الله الأرض ومن عليها.

الْإِنذَارُ الْحَاسِمُ مِنْ خَاتَمِ الرُّسُلِ إِلَى الْبَشَرِ جَمِيعًا

٤٥ - ﴿قُلْ إِنَّمَا أُنذِرُكُمْ بِالْوَحْيِ وَلَا يَسْمَعُ^(١) الصُّمُّ الدُّعَاءَ إِذَا مَا يُنذَرُونَ ﴿٥٥﴾﴾

ثم أمر الله رسوله ﷺ أن يوجه إنذارًا حاسمًا لمن أرسل إليهم في كل زمان ومكان، بما يشمل البشرية قاطبة من لدن بعثته ﷺ إلى قيام الساعة، فبيّن لهم أن ما يخوفهم به من عذاب الله تعالى، ليس إلا وحياً من عند الله؛ لمن كفر بالله وخاتم رسله، إنما أنا مبلغ عن ربي، ولا آتي بشيء من عندي، فأنا أنذركم بالقرآن المنزل عليّ عن طريق الوحي، وأبيّن لكم طريق الهدى والرشاد ولكن الكفار لا يسمعون البلاغ والإنذار ولا يستجيبون له.

(١) قرأ ابن عامر (ولا تُسمع) بقاء مضمومة وميم مكسورة، ونصب (الصم) على أنه فعل مضارع من أسمع، مسند على ضمير المخاطب وهو النبي ﷺ، و(الصم) مفعول أول، و(الدعاء) مفعول ثان، وقرأ الباقون (يَسْمَعُ) بياء مفتوحة، وفتح الميم، مع رفع (الصم) على أنه فعل مضارع من سمع، و(الصم) فاعل، و(الدعاء) مفعول به. وسهّل الهمزة الثانية من (الدعاء إذا) نافع وابن كثير وأبو عمرو وأبو جعفر ورويس، والباقيون بالتحقيق.

فَإِنْ اسْتَجَبْتُمْ فَسَيُثَبِّتُكُمْ اللَّهُ عَلَى ذَلِكَ، وَإِنْ أَعْرَضْتُمْ، فَلَيْسَ بِيَدِي مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ.

ولكن الكافر الذي ختم الله على قلبه وسمعه، وجعل على بصره غشاوة، كالأصم الذي لا يسمع دعاء من يدعوه، ولا يستجيب لندائه، ولا يقتنع بما جاء في القرآن من الهدى والإصلاح، فهو لا يستمع إلى ما ينفعه، ولا يلتفت إلى إنذار من ينذره؛ وذلك لشدة عناده وطُمُس بصيرته.

فهذا الوحي لا يُجْدِي عَمَّنْ أَعْمَى اللَّهُ بِصِيرَتِهِ وَخَتَمَ عَلَى سَمْعِهِ وَقَلْبِهِ، وَهَذَا مَعْنَى: ﴿وَلَا يَسْمَعُ الصُّمُّ الدُّعَاءَ إِذَا مَا يُنْذَرُونَ﴾.

والقراءة الأخرى تخاطب النبي ﷺ (وَلَا تُسْمِعُ الصُّمُّ الدُّعَاءَ إِذَا مَا يُنْذَرُونَ).

فليحذر غير المسلمين أن يكونوا من الصم الذين لا يسمعون سماع تدبر إذا أنذروا وحذروا؛ حتى لا تُطَوَّى رقعة الأرض تحت أقدامهم، ولا تأتي يد الله على أطرافهم، ولا على ما هم فيه من متاع ونعيم، ويوم القيامة سيجازى كل إنسان بما قدم من خير أو شر.

مَسَّةٌ خَفِيفَةٌ مِنْ نَارِ جَهَنَّمَ تُنْسِي الْعَبْدَ نِعَمَ الدُّنْيَا

٤٦- ﴿وَلَكِنْ مَسَّتْهُمْ نَفْحَةٌ مِنْ عَذَابِ رَبِّكَ لَيَقُولُنَّ يَوَلَيْنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ﴾ (٤٦)

ذكرت هذه الآية شيئاً سيراً مما أنذر به النبي ﷺ أهل الدنيا من العذاب الآخروي، فبيّنت أن الكفار يوم القيامة يندمون في وقت لا ينفع فيه الندم، ويعترفون بظلمهم لأنفسهم بعد فوات الأوان، حين يمسه شيء خفيف جداً من عذاب الله تعالى يوم القيامة.

﴿وَلَكِنْ مَسَّتْهُمْ نَفْحَةٌ﴾ أي: صدمة عذاب، أو مسة خفيفة، أو نفحة واحدة من النار، وهي أدنى شيء من العذاب، وأهون وأيسر ما يكون من لفح جهنم، تمسهم مجرد مس، فإن هذه النفحة من عذاب الله تعالى تنسيهم كل نعيم رأوه في الدنيا:

١- وقد بيّن النبي ﷺ كما في حديث النعمان بن بشير رضي الله عنه أن: «أهون أهل النار عذاباً يوم القيامة من له نعلان وشراكان من نار يغلي منهما دماغه كما يغلي المرجل، ما يرى أن أحداً أشد منه عذاباً، وإنه لأهونهم عذاباً»^(١).

(١) من حديث النعمان بن بشير في صحيح مسلم برقم (٢١٣).

٢- وفي حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «إن أدنى أهل النار عذاباً من يتعمل بنعلين من نار يغلي دماغه من حرارة نعليه»^(١).

٣- وقال النعمان بن بشير رضي الله عنه: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إن أهون أهل النار عذاباً يوم القيامة لرجُلٌ توضع في أخمص قدميه جمرتان يغلي منهما دماغه»^(٢).

٤- ويوم القيامة يؤتى بأكثر أهل الدنيا نعيماً، فيُغمس غمسة في النار، ثم يقال له: هل ذقت نعيماً قطُّ، فيقول: لا يارب، ما ذقت نعيماً قطُّ، ثم يؤتى بأشد أهل الدنيا بؤساً وفقراً، فيُغمس غمسة في الجنة، ثم يقال له: هل ذقت بؤساً قطُّ، فيقول: لا يا رب، ما ذقت بؤساً قطُّ.

إن غمسة واحدة في نار جهنم تُنسي العبد نعيم الدنيا وكأنه لم يذق نعيماً أبداً، وغمسة واحدة في نعيم الجنة تُنسي العبد فقر الدنيا وهمومها، كأنه لم ير بؤساً في حياته، فأين العقلاء؟ وأين المشمرون؟ وأين الباحثون عن السعادة الحقة والنعيم الذي لا يزول؟

وحين يصيب الكفار نصيب من عذاب الله تعالى يعلمون عاقبة تكذيبهم، ويقابلون ذلك بالدعاء على أنفسهم بالهلاك؛ بسبب ظلمهم لأنفسهم بعبادتهم غير الله تعالى، وحينئذ يعترفون بشركهم وجرمهم.

وهذا الاعتراف وهذا الندم قد فات أوانه، وجاء في وقت لا ينفع فيه الندم، وقد كان من الخير لهم أن يسمعوا نذير الوحي في الوقت المتسع، فإنه قد ذهب مع هذه النفحة اليسيرة كل نعيم تنعموا به في الدنيا.

وَزْنُ الْأَعْمَالِ فِي سَاحَةِ الْعَدْلِ الْإِلَهِيَّةِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ

٤٧- ﴿وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَمَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئاً وَإِنْ كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ أَلَيْنَا بِهَا وَكَفَى بِنَا حَاسِبِينَ﴾ (٤٧)

(١) صحيح مسلم برقم (٢١١).

(٢) صحيح مسلم برقم (٢١٣) و«صحيح البخاري» برقم: (٦٥٦١، ٦٥٦٢).

(٣) قرأ نافع وأبو جعفر برفع لام (مثنوياً) على أن (كان) تامة بمعنى: وجد، و(مثنوياً) فاعل، والباقون بنصبها على أنها خبر كان، واسمها ضمير يعود على العمل المفهوم من الآية؛ لأنه يدل على وزن الأعمال.

وفي ساحة العدل الإلهية، يوم لقاء رب العالمين، تُنصب الموازين لحساب العباد وهذا إخبار عن عدل الله تعالى وحكمه بين الناس بالقسط يوم لقائه، وأنه يضع لهم الموازين العادلة التي يُبين فيها مَثاقيل الذر.

وجمهور أهل العلم على أنه ميزان حقيقي، له لسان وكفتان، توزن فيه أعمال العباد يوم القيامة.

وهو ميزان واحد لجميع العباد بيد جبريل عليه السلام، وقيل: لكل واحد ميزان خاص به:

١- والذي يوزن، هو الأعمال ذاتها: الحسنات والسيئات؛ حيث تُجسّد الحسنات في صورة مشرقة نورانية، وتُجسّد السيئات في صورة مُظلمة.

وقد بيّن الله ﷻ أن الكفار يحملون أوزارهم على ظهورهم، أي: أن ذنوبهم تُجسّد لهم، ويحملونها فوق ظهورهم يوم القيامة، كما قال تعالى: ﴿لِيَحْمِلُوا أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ الْقِيَمَةِ وَمِنْ أَوْزَارِ الَّذِينَ يُضِلُّونَهُمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ [النحل: ٢٥].

قال أبو بكر بن العربي^(١): وانفرد القرآن بذكر الميزان، وانفردت الشّنة بذكر الصراط والحوض، فلما كان الأمر هكذا اختلف الناس في ذلك، فمنهم من قال: إن الأعمال توزن حقيقة في ميزان له كفتان وشاهد، وتُجعل في الكفتين صحائف الحسنات والسيئات، ويخلق الله الاعتماد فيها على حسب علمه بها.

ومنهم من قال: إنما يرجع الخبر عن الوزن، إلى تعريف الله العباد بمقادير أعمالهم.

فبعض أهل العلم يرى أن الميزان ليس ميزاناً حسيّاً على وجه الحقيقة.

ولكن إذا كان الله تعالى قد علّم الإنسان في الدنيا أن يزن نفسه، أو سلعته، أو يقيس الضغط أو الحرارة في جسده، وعلمه أن يقيس نبضات القلب وحركاته، وغيرها من الأمور العارضة، فإنه سبحانه قادر على وزن أعمال العباد دون ميزان حسي، ولكن العبد لا يقنع إلا بالمحسوسات.

وحمل الميزان على ظاهره أولى؛ فالله ﷻ يعلم نتيجة الموازين ومقاديرها سلفاً، ولكنه سبحانه يقيم الحجة على العباد بصورة محسوسة، فيأمر بتجسيد الحسنات والسيئات التي توزن.

(١) في كتابه: «العواصم من القواصم».

٢- وقيل: إن صحف الأعمال هي التي توزن، ويرجّح هذا حديث البطاقة الذي بين أن رجلاً من أمة محمد ﷺ يُنشر له تسعة وتسعون سجلاً، كل سجل منها مدّ البصر، ثم يُقرّ بذنوبه فيعترف بسيئاته، ثم يؤتّى له بسجل فيه بطاقة التوحيد: (أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمداً عبده ورسوله) فتوضع هذه البطاقة في كفة الحسنات، وتوضع السجلات الأخرى في كفة السيئات، فترجّح كفة الحسنات؛ لأنه لا يتّقل مع اسم الله شيء، أي: أن الصحيفة تطيش بـ(أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمداً رسول الله ﷺ) فتتقلّ حسناته على سيئاته^(١).

وبالميزان يتحقق العدل وعدم الظلم، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ وَإِنْ تَكَ حَسَنَةً يُّضَاعِفْهَا وَيُؤْتِ مِنْ لَدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ [النساء].

وعدم الظلم معناه: أن العبد لا يُزاد في سيئاته ولا يُنقص من حسناته:

أ- جاء رجل إلى النبي ﷺ يخبره: أن عبيدين مملوكين، يَخُونُونَهُ وَيَكْذِبُونَهُ وَيَعْصُونَهُ، وأنه يضربهم ويشتمهم، قال: فكيف أنا منهم؟ فقال النبي ﷺ: «إن كنت تسيء إليهم بمقدار ما يسيئون إليك، فهذا كفاف، لا لك ولا عليك، وهو جزاء عادل، وإن كنت تسيء إليهم أقل مما يسيئون إليك فأنت صاحب فضل عليهم، وإن كنت تسيء إليهم أكثر مما يسيئون إليك فإنه يُقتَصَرُ منك يوم القيامة»، فأخذ الرجل يبكي بين يدي النبي ﷺ، فقال الرسول ﷺ: «أما قرأت قول الله ﷻ: ﴿وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَمَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَإِنْ كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَى بِنَا حَاسِبِينَ﴾ (٢٧)؟» فقال الرجل: يا رسول الله، ما أجدر شيئاً خيراً من فراق هؤلاء، إني أشهدك أنهم أحرار كلهم^(٢).

(١) يُنظر: نص الحديث عن عبد الله بن عمرو بن العاص في «المسند» (٢/٢١٣) و«سنن الترمذي» برقم (٢٦٣٩) و«سنن ابن ماجه» برقم (٤٣٠٠) وصححه الألباني في صحيح ابن ماجه (٣٤٦٩) ومشكاة المصابيح (٥٥٥٩) والسلسلة الصحيحة (١٣٥) والتعليق الرغيب (٢/٢٤٠) وأوله في ابن ماجه (يصاح برجل من أمتي).

(٢) يُنظر: الحديث عن عائشة بنحوه في «المسند» (٦/٢٨٠) برقم (٢٦٤٠١) وهو حديث ضعيف كما قال محققوه والترمذي (٣١٦٥) وقال: هذا حديث غريب لا نعرفه إلا من حديث عبدالرحمن بن غزوان، والبيهقي في «الشعب» (٨٥٨٦) وصححه إسناده الألباني في «صحيح سنن الترمذي» (٢٥٣١)، ونسبه الهيثمي في المجتمع (١٠/٣٥٠) إلى أحمد وقال: رجاله رجال الصحيح ولم يقف على علته.

ب- وأخرج الحكيم الترمذي عن زياد بن أبي زياد قال: قال رجل: يا رسول الله، إن لي مالاً وإن لي خدماً، وإني أغضب فأعزم وأشتم وأضرب، فقال رسول الله ﷺ: «توزن ذنوبهم بعقوبتك، فإن كانت سواء، فلا لك ولا عليك، وإن كانت العقوبة أكثر، فإنما هو شيء يؤخذ من حسناتك يوم القيامة»، فقال الرجل: أوّاه أوّاه، تؤخذ من حسناتي! أشهدك يا رسول الله، أن ممالكي أحرار، أنا لا أمسك شيئاً يؤخذ من حسناتي له، قال ﷺ: «أفحسبت ماذا؟ ألم تسمع قول الله تعالى: ﴿وَنُضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ﴾؟»^(١).

ج- وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «كلمتان خفيفتان على اللسان، ثقيلتان في الميزان، حبيبتان إلى الرحمن: سبحان الله وبحمده، سبحان الله العظيم»^(٢).

وزن الذرة: وقد بين القرآن الكريم أن الله ﷻ لا يغيب عنه ما هو أصغر من الذرة؛ فحبة الخردل أصغر وأخف حبة عرفها العرب، وهي تُشبه حبة السمسّم في دقتها، وبُذُور شجر الخردل، تُنبَت في الهند، ومصر، وأوروبا، وهي ذات ساق دقيقة، ترتفع قدر متر، وأوراقها كبيرة^(٣)، وهي تُضْرَب مثلاً لمنتهى صغر الحجم، وعبر سبحانه عن الذرة بحبة الخردل؛ لأنها كانت أصغر شيء عند العرب، ولو قال الله لهم: إن حبة الخردل فيها آلاف الذرات، ما استوعبت عقولهم ذلك، فخطبهم القرآن بما يعرفون.

والمعنى: أن الله تعالى يضع الميزان العادل للحساب في يوم القيامة، ولا يظلم الكفار ولا غيرهم شيئاً، وإن كان عملهم في نهاية القلّة -قدّر ذرة من الخير أو الشر- فإنه معتبر في حساب صاحبه وميزان عمله، وهو تصوير لدقة الحساب مهما قل العمل أو كثر.

والله ﷻ لا يغيب عنه ما هو أصغر من الذرة، وما هو أكبر منها، كما قال تعالى: ﴿وَلَا أَصْغَرَ مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْبَرَ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ﴾ [سبأ: ٣].

وقال: ﴿وَإِنْ كَانَتْ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا﴾ من أي مكان في العالم سواء أكانت في صخرة، أو في السموات، أو في الأرض، فإن الله تعالى يأتي بها.

(١) الحكيم الترمذي (١/١١٤).

(٢) صحيح البخاري برقم: (٧٥٦٣) و«صحيح مسلم» برقم: (٢٦٩٤) واللفظ له.

(٣) يُنْظَر: «تفسير التحرير والتنوير» (١٦/٨٦).

فإذا أذنب الإنسان ذنبًا صغيرًا أو كبيرًا، أو فعل فعلًا حسنًا أو سيئًا مهما قل أو كثر؛ فإنه يؤتى به يوم القيامة، قال سبحانه: ﴿وَكَفَىٰ بِنَا حَسِيبِينَ﴾ وكفى بالله مُحْصِيًا أعمال العباد ومُجَازِيًا عليها.

١- ومن الموازين ما يثقل، وما يخف ﴿فَمَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ (٨) وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَٰئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ بِمَا كَانُوا بِآيَاتِنَا يَظْلِمُونَ ﴿٩﴾ [الأعراف].

٢- وفي الآية الأخرى: ﴿وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَٰئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ فِي جَهَنَّمَ خَالِدُونَ﴾ (١٠) تَلْفَحُ وُجُوهُهُمُ النَّارُ وَهُمْ فِيهَا كَالِحُونَ ﴿١١﴾ [المؤمنون].

٣- وقال تعالى: ﴿فَأَمَّا مَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ﴾ (١٢) فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَاضِيَةٍ ﴿١٣﴾ وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ ﴿١٤﴾ فَأُمُّهُ هَاوِيَةٌ ﴿١٥﴾ [القارعة].

٤- وقال جلَّ شأنه: ﴿فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ﴾ (١٦) وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ ﴿١٧﴾ [الزلزلة].

٥- وقال سبحانه على لسان لقمان: ﴿يَبْنِيْٓ إِنَّمَا إِن تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ فَتَكُنْ فِي صَخْرَةٍ أَوْ فِي السَّمَوَاتِ أَوْ فِي الْأَرْضِ يَأْتِ بِهَا اللَّهُ﴾ [لقمان: ١٦] أي: يأت بها يوم القيامة ويحاسب عليها، ويجازي بها.

٦- وقال تعالى: ﴿وَوَضَعَ الْكِتَابَ فَرَى الْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يُوَلِّئُنَا مَا لِهَذَا الْكِتَابِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا وَلَا يَظِلُّ رُكُوعًا﴾ [الكهف: ٤٩]

أقبل سائل على عائشة رضي الله عنها، ولم تجد شيئًا تعطيه إياه، إلا حبة واحدة من عنب كانت بيدها، فأعطته إياها، فأمسك الرجل حبة العنب وأخذ يقلبها بين أصابعه محتقرًا إياها، فقالت له عائشة: يا هذا، إن الله تعالى يقبل منا أعمال الخير، بدءًا من وزن الذرة - انظروا إلى هذا الفقه - فكم في حبة العنب من ذرات؟

«لا تحقرن من المعروف شيئًا ولو أن تلقى أخاك بوجه طلق». (١)

(١) يُنظر الحديث عن أبي ذر في صحيح مسلم برقم (٢٦٢٦).

قَصَصُ الْأَنْبِيَاءِ فِي السُّورَةِ

أَوَّلًا: الْإِشَارَةُ إِلَى مُوسَى وَهَارُونَ - عَلَيْهِمَا السَّلَام - وَكِتَابِهِمَا

٤٨- ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى وَهَارُونَ الْفُرْقَانَ وَضِيَاءً^(١) وَذَكَرْنَا لِلْمُتَّقِينَ ﴿٥٨﴾﴾

وبعد أن أقامت السورة الحجة على المشركين في كل زمان ومكان بالدلائل العقلية المقنعة الزاجرة، الدالة على وحدانية الله تعالى، أتت بشواهد من التاريخ ومن أحوال الأمم السابقة، فيها من الدلائل على وحدانية الله تعالى ما يُقنع الكافرين المكذبين لرسول الله، وفي هذا التاريخ من قصص الأنبياء تفصيل لما أجمل في قوله تعالى:

﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِيَ إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ ﴿٢٥﴾﴾.

وقوله: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ إِلَّا رِجَالًا نُوْحِيَ إِلَيْهِمْ﴾ [٧].

وقوله: ﴿قُلْ إِنَّمَا أُنْذِرُكُمْ بِالْوَحْيِ﴾ [٤٥].

وأعقب الإشارة الأولى ببيان أن القرآن ذكر مبارك أنزله الله تعالى هداية للخلق أجمعين، أفأنتم أيها الكفار له منكرون مع كل هذا البيان والأدلة؟

وابتدأت السورة بذكر موسى وأخيه هارون عليهما السلام؛ لأن أخبارهما كانت تصل إلى العرب عن طريق يهود المدينة، ولأن التوراة كانت أهم كتاب قبل القرآن؛ حيث اعتمد الإنجيل عليها في التشريع والأحكام.

وسورة الأنبياء سميت كذلك؛ لأنها تحدّثت عن عدد من أنبياء الله ورسله.

وقد بدأت الحديث عن هذا العدد من الأنبياء بموسى وهارون، والتوراة التي نزلت عليهما، ووصفها ربنا بثلاثة أوصاف، هي: الفرقان، والضياء، والذكر.

فهي الفارقة بين الحق والباطل، والحلال والحرام، والهدى والضلال، الجامعة لكل خير. وهي ضياء، فيها الهدى ليستنار بهداه، وليستضاء به، ويأتى به السالكون، وتُعرف به الأحكام، ويميز به بين الحلال والحرام، ويُدفع به الجهل والبدع والغواية، وهي ذُكر،

(١) قرأ قبل بهمزة مفتوحة بدل الياء في (وضياء)، والباقون بياء مفتوحة بدل الهمزة.

تُذَكِّرُهُمْ بِأوامر الله ونواهيه؛ وتُذَكِّرُهُمْ ما ينفعهم وما يضرهم، وتذكرهم الخير والشر.

فالتوراة كتاب جامع لصفات الخير، والكتب السماوية وحدة واحدة حتى في الاسم، فهذه الأوصاف الثلاثة للتوراة هي أيضًا من صفات القرآن، فالقرآن: هو الفرقان، وهو النور، وهو الذكر.

وَكُتِبَ اللهُ كُلَّهَا تفريق بين الحق والباطل، والهدى والضلال، وهي نور لأنها تُضيء ظلمات القلب والعقل، وتُبدد ظلمات الضلال والباطل، وتُنَوِّرُهُ بشعاع الإيمان والهدى، وكلها تُذَكِّرُ بالله تعالى، وتعظ القلب وتُثَبِّتُهُ وتقويه: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَا التَّوْرَةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ﴾ [المائدة: ٤٤].

وقد كانت التوراة فارقة بين الحق والباطل قبل أن تمتد إليها أيدي اليهود بالتحريف والتغيير والتبديل.

ويصح أن يراد بالفرقان: المعجزات التي أيد الله بها موسى ﷺ، فكانت فارقة بين المعجزة والسحر، كما قال تعالى: ﴿وَإِذْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَالْفُرْقَانَ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ [البقرة] فجاء عطف الفرقان على الكتاب بما يقتضي التغاير بينهما.

وقال سبحانه: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَى بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُبِينٍ﴾ [غافر].

والمتقون هم الذين ينتفعون بالذكرى، كما وصفهم الله ﷻ في أول سورة البقرة، فبيّن سبحانه أن هذا القرآن ﴿هُدًى لِلْمُتَّقِينَ﴾ أي: ينتفع به التقى، وهو بيث الهداية لجميع الناس، ولكن المؤمن التقى هو الذي يتعظ ويعتبر، وأما الكافر؛ فمهما أُنذرتَه لا ينتفع بالهدي القرآني، كما قال تعالى: ﴿سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنْذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنْذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [البقرة: ٦].

مِنْ أَوْصَافِ الْمُتَّقِينَ

٤٩- ﴿الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِالْغَيْبِ وَهُمْ مِنَ السَّاعَةِ مُشْفِقُونَ﴾

والمتقون هم الذين يخافون ربهم في السر والعلن، وهم لم يروه، ولم يروا حسابه وعقابه، وهم من عذاب يوم القيامة خائفون مشفقون، وجملة ﴿يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِالْغَيْبِ﴾ تحتمل ثلاثة معانٍ:

المعنى الأول: أنهم يخافون ربهم في خلواتهم وجلواتهم، وسرهم وعلايتهم، سيّما عندما لا يطّلع عليهم أحد من الناس، وقد عرفوا ربهم بالنظر والاستدلال ولم يروه سبحانه.
المعنى الثاني: أنهم يخافون أوامر الله تعالى ونواهيه، وقد علّموها بطريق البلاغ والاستدلال، وليس عن مشاهدة.

المعنى الثالث: أنهم يخشون ربهم فيما أعلمهم به من أمور الدنيا والآخرة، مما غاب عنهم ولم يروه، وهذا كقوله تعالى في وصف أهل الجنة: ﴿مَنْ خَشِيَ الرَّحْمَنَ بِالْغَيْبِ وَجَاءَ بِقَلْبٍ مُنِيبٍ﴾ [٣٣] [ق].

وقد بيّن تعالى ما أعدّه لهم من الأجر العظيم في مثل قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِالْغَيْبِ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ﴾ [١٢] [الملك].

وحصّت الآية ﴿السَّاعَةَ﴾ بالذكر، وهي من الغيب؛ لمزيد الاهتمام بها، ولأنها تشتمل على كثير من أمور الغيب.

ثَانِيَا: الْإِشَارَةُ إِلَى خَاتَمِ الرُّسُلِ ﷺ وَكِتَابِهِ

٥٠- ﴿وَهَذَا ذِكْرٌ مُبَارَكٌ أَنْزَلْنَاهُ أَفَأَنْتُمْ لَهُ مُنْكَرُونَ﴾ [٥٠]

وكما أنزل الله التوراة على موسى وهارون عليهما السلام، أنزل الفرقان على محمد ﷺ، وهو ذكر لمن تذكّر به، وعَمِلَ بأوامره واجتنب نواهيه، وهو كتاب كثير الخيرات والبركات، عظيم النفع لمن اتبع توجيهاته، وقد أنزلناه عليك -يا محمد- لتنذر به الناس، ولست بدعاً من الرسل؛ فالأنبياء قبلك كانت لهم كتب.

وهكذا وصفت الآية القرآن بوصفين:

كونه ذِكْرًا، يُذَكَّرُ بما ركز في الفطر والعقول الصحيحة، من التوحيد، وأحكام الشرع، والثواب والعقاب، والحلال والحرام، ونحو ذلك.

وكونه مباركًا، فيه خيرى الدنيا والآخرة، وهذا يوجب تلقّيه بالقبول والانقياد، والتسليم له، وامتنال أوامره واجتناب نواهيه، والعمل بكل ما فيه.

وفي هذا القرآن هدى وعلم ونور، وسعادة في الدنيا والآخرة، وعلاج لكل داء، ودواء لكل مرض.

أفأنتم لهذا القرآن منكرون بعد كل ما سبق، وهو في غاية الجلاء والظهور، وأنتم

تعترفون بنزول التوراة، إن هذا لأمر عجيب؟!

واسم الإشارة في أول الآية ﴿وَهَذَا ذِكْرٌ مُّبَارَكٌ﴾ يعود على القرآن الحاضر في الذهن وفي التلاوة، فكأنه حاضر بذاته أمام الناس، وهو استفهام للتوبيخ والتعجب.

ثَالِثًا: قِصَّةُ إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ مَعَ الْأَصْنَامِ

٥١- ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا إِبْرَاهِيمَ رُشْدَهُ مِنْ قَبْلُ وَكُنَّا بِهِ عَالِمِينَ ﴿٥١﴾﴾

وبعد هذه الإشارة الإجمالية إلى رسالة موسى وهارون ومحمد صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين، أعقب ذلك بقصة إبراهيم عليه السلام من زاوية مقاومة عبادة الأصنام بالحجة والقوة؛ لأن إبراهيم قبل مجيء الإسلام، كان هو المثل الأول لأهل مكة في إبطال الشرك، وإعلان التوحيد الخالص (الحنفية السمحة) وهو الذي بنى الكعبة، وبنى بيت المقدس؛ لقطع دابر الشرك وعبادة غير الله تعالى، وكانت شريعة إبراهيم عليه السلام أشهر شريعة بعد شريعة موسى عليه السلام.

وكان إبراهيم يسكن بلدًا يقال لها: (كوثر) بألف مقصورة، تسمى في التوراة (الكلدان)، ثم سكن هو وأبوه وأهله بلدة (حرّان) ومات أبوه فيها، وابتدأت دعوته منها، وقد اشتهرت هذه البلدة بأنها بلد الصابئة، وكان فيها هيكل عظيم لهم.

وقد خرج إبراهيم من (حرّان) إلى أرض كنعان مهاجرًا، وكان قومه يعبدون الكواكب ويجعلون لها صورًا مجسّمة، ومن أكبر أصنامهم صنم (بعل) الذي يرمز إلى الشمس، وكان مصوغًا من ذهب، وصنم (نسروخ) وهو (نسر) من أصنام قوم نوح، وكانوا يعبدون أصنامًا أخرى منها: ود، وسواع، ويغوث، ويعوق، ونسر.

ولفظ: الوثن أعم من لفظ: الصنم؛ حيث إن كل ما عُبد من دون الله فهو وثن من إنسان، أو حيوان، أو جماد، أو جن، أو كوكب، أو غير ذلك.

والصنم ما كان مصنوعًا من معدن، أو خشب أو حجر، أو غيرها. أما التمثال فهو كل ما أشبه الإنسان أو الحيوان.

والأوثان لم تكن فقط في عهد نوح، وإبراهيم، ومحمد صلوات الله وسلامه عليهم

وعلى رسل الله أجمعين، وإنما هي موجودة إلى وقتنا هذا في بعض من بلاد العالم، وهي تُعبد كما كانت تُعبد في عهد إبراهيم، وفي عهد نبينا محمد، وفي عهد نوح ﷺ.

وإبراهيم ﷺ كان أبوه نجارًا، يصنع الأصنام بيده ويعطيها لإبراهيم، يسوقها ويبيعها للناس، وأخذ إبراهيم ﷺ ينكر على أبيه عبادة الأصنام، وهو فتى صغير، ويحاوره بالحسنى قائلاً له: ﴿يَتَّبِعْتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِي عَنْكَ شَيْئًا لَا يَتَّبِعْتِ إِنِّي قَدْ جَاءَنِي مِنَ الْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَاتَّبِعْنِي أَهْدِكَ صِرَاطًا سَوِيًّا ﴿٤٣﴾ يَتَّبِعْتِ لَا تَعْبُدِ الشَّيْطَانَ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلرَّحْمَنِ عَصِيًّا ﴿٤٤﴾ يَتَّبِعْتِ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِنَ الرَّحْمَنِ فَتَكُونَ لِلشَّيْطَانِ وَلِيًّا ﴿٤٥﴾﴾ [مريم].

وأخذ إبراهيم ﷺ يحاور الملك الذي كان في وقته وهو النمرود، ويحاور المجتمع كله في عبادة الأصنام، فلما لم يفد إنكار المنكر باللسان وبالقول، انتقل إلى إنكار المنكر بالفعل والقوة، فكسّر الأصنام كما ذكرت ذلك سورة الأنبياء، وسورة الصافات.

وفي هذه الآيات يقول تعالى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا إِبْرَاهِيمَ رُشْدَهُ﴾ أي: آتيناه تمام العقل والعلم والهدى والصلاح والاتزان، آتيناه هداه ووفقناه للنظر والاستدلال على الحق ﴿مِنْ قَبْلُ﴾ أي من قبل أن يُبعث نبياً، وهو فتى يافع.

وتحطيمه للأصنام كان قبل أن يُبعث نبياً، وكانت سنّه إذ ذاك ستة عشر أو ستة وعشرين عاماً، وآتيناه رشدَه قبل أن يؤتى موسى وهارون الفرقان وضياء وذكرًا؛ لأن إبراهيم كان قبلهما، فقد أراه الله ملكوت السموات والأرض، وأعطاه من الرشد ما كملت به نفسه، وما أهله لدعوة الناس إلى دين ربهم، فهو أبو الأنبياء، وكُنّا بأهليته، وصلاحيته للرسالة واصطفائه، وجعله خليلاً للرحمن عالمين باستحقاقه لِمَا هو له أهل، فالله أعلم حيث يجعل رسالته، وقد شمل رُشد إبراهيم رَفْضُهُ لعبادة الأصنام، ورفضه لعبادة الكواكب والشمس والقمر، وتوفيقه للخير في صغره وكبره.

حَوَارُ إِبْرَاهِيمَ مَعَ قَوْمِهِ

٥٢، ٥٣- ﴿إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا هَذِهِ التَّمَاثِيلُ الَّتِي أَنْتُمْ لَهَا عَاكِفُونَ ﴿٥٢﴾ قَالُوا وَجَدْنَا ءَابَاءَنَا لَهَا عِبَادَةً﴾

أي: وكان الله عالمًا بإبراهيم وقت أن قال لأبيه مرشدًا ومحذرًا له: ما هذه الأصنام التي صنعتوها، ثم أقدمتم على عبادتها، ولازمتكم ذلك دون إنقطاع؟! فأين عقولكم،

حيث أفنيتهم أوقاتكم في عبادتها، مع أنكم قد نحتموها بأيديكم؟ إن هذا من أعظم العجائب، تعبدون ما تنحتون.

عن ميسرة النهدي قال: مر علي بن أبي طالب عليه السلام على قوم يلعبون بالشطرنج، فقال: ما هذه التماثيل التي أنتم لها عاكفون^(١).

فكان جواب قوم إبراهيم له يدل على تحجّر العقول وانطماس البصيرة؛ حيث لا حجة لهم إلا أنهم قلّدوا مَنْ سبقوهم من الآباء والأجداد دون تدبر ولا تفكر، قالوا: فاقنتينا بهم وعبدناهم.

ومشكلة التقليد مشكلة قائمة، يترتب عليها كثير من ارتكاب الأخطاء في العقيدة والعبادة والمعاملة والأخلاق، فإن أقمتَ لهم الدليل، قالوا: هكذا وجدنا آباءنا، وهذا فلان وفلان من الناس يفعل كذا وكذا، فكل ما لديهم من حجة أنهم وجدوا آباءهم يعبدونها، وما دام ذلك من عمل الآباء والأجداد فكيف يحدون عنه؟!

وهذه شبهة أعداء الرسل جميعاً، وهم بهذه الشبهة يصدّون الناس عن الحق، ويُبعدونهم عن الرشد، ويعطلّون عقولهم، ويعتمدون على عقول الآباء والأجداد، ويعوّلون على ما سمعوه عن السابقين المتقدمين، ومن المعلوم أن فعل أحد من الخلق سوى الرسل، ليس بحجة، ولا تجوز به القدوة، خصوصاً فيما يتعلق بالتوحيد وأصول الدين، وكأن الله تعالى قد خلق لهم عقولاً وأسماعاً وأبصاراً ليعطّلوها عن وظائفها، ويحولون بينها وبين أداء واجبها، وهي ممن يمتنُّ الله بها عليهم، فقد أخرجهم الله من بطون أمهاتهم لا يعلمون شيئاً، وجعل لهم السمع والأبصار والأفئدة، والذين يعطلون هذه الحواس عن أداء وظائفها هم أهل جهنم، ويوم القيامة يتحسرون ويندمون قائلين: ﴿لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ﴾ [الملك: ١٠].

ولهذه الآية نظائر في القرآن الكريم، منها قوله تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوَّلُوا كَانَتْ آبَاؤُهُمْ لَا يَفْقَهُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ﴾ [البقرة: ١٧٠]. وقوله: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَى مَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ قَالُوا حَسْبُنَا مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا

(١) أخرجه الضياء المقدسي في «المختارة» برقم (٧٤٤) وصححه محققه.

أُولَئِكَ كَانُوا آبَاءَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ شَيْئًا وَلَا يَسْتَدُونَ ﴿٥٤﴾ [المائدة].

وقوله: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أُولَئِكَ كَانُوا الشَّيْطَانُ يَدْعُوهُمْ إِلَىٰ عَذَابِ السَّعِيرِ ﴿٥٥﴾﴾ [لقمان].

والناس بحاجة إلى منهج دراسي يطبق في مراحل التعليم الأولى، يتعلمون منه كيف يستقلون بفكرهم وعقولهم في إطار الشرع وحدود النظر والدليل، ولذا فإن إبراهيم عليه السلام حكم على جميع المقلدين بالضلال:

٥٤، ٥٥- ﴿قَالَ لَقَدْ كُنْتُمْ أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿٥٤﴾ قَالُوا أَجِئْتَنَا بِالْحَقِّ أَمْ أَنْتَ مِنَ اللَّاعِينَ﴾

قال إبراهيم مجيباً لهم، ومتعجباً من حالهم: إنكم لا تعتمدون على دليل، بل على هوى متبع، وتقليد أعمى ﴿لَقَدْ كُنْتُمْ أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ﴾ في عبادتكم لهذه الأصنام ﴿فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ كنتم في فساد ظاهر، وباطل بين، وإلغاء لعقولكم، وعدول واضح عن طريق الحق؛ فكل عاقل يعلم أن الأصنام لا تستحق العبادة، والباطل لا يصير حقاً بفعل الآباء، وأي ضلال أبلغ من ضلالهم في عبادة الأوثان وترك التوحيد.

عجب قوم إبراهيم من صنيعه معهم، وظنوا أنه قال ما قال في ألهمهم على وجه المزاح والمداعبة لا على سبيل الجد، وذلك أنهم عندما واجههم إبراهيم بهذا البيان الواضح شكوا في حاله: هل هو جاد في اعتقاده هذا أم مزاح؟ فسألوه: أهذا القول الذي جئنا به حق وصدق، أم أن كلامك لنا كلام لاعب مستهزئ لا يدري ما يقول؟ فإننا لم نسمع به من قبل، فقد أنكروا ما قال واستبعدوه! وهذا يدل على تزعزع عقيدتهم وشكهم فيما هم فيه، إلا أن التقليد عطلَّ عقولهم فاستحبوا العمى على الهدى.

٥٦- ﴿قَالَ بَلْ رَبُّكُمْ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ الَّذِي فَطَرَهُمْ وَأَنَا عَلَىٰ ذَلِكُمْ مِنَ الشَّاهِدِينَ ﴿٥٦﴾﴾

ردَّ عليهم إبراهيم عليه السلام؛ ليبطل قولهم: ﴿أَمْ أَنْتَ مِنَ اللَّاعِينَ﴾ بإقامة الحجة والدليل على أن ما جاءهم به هو الحق الذي يجب عليهم اتباعه، فأجابهم في حسم وقوة يقين وثقة: أنا لست هازلاً فيما أقوله لكم، وإنما أنا جاد كل الجد في إخباركم أن الله وحده هو الذي خلق هذا الكون، وأنشأه بما فيه من مخلوقات عجيبة بقدرة فائقة لا يعجزها شيء.

﴿قَالَ لَهُمْ إِبْرَاهِيمُ عَلَيْهِ السَّلَامُ﴾ ﴿بِكُذُّبِكُمْ﴾ الذي أدعو لعبادته هو ﴿رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ الَّذِي فَطَرَهُنَّ﴾ أي: خلقهن وأبدعهن، وليست أصنامكم المزعومة ﴿وَأَنَا عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ مِنَ الشَّاهِدِينَ﴾ وفي هذا إعلام لهم بأنه مرسل من الله تعالى لإقامة دين التوحيد؛ لأن رسول كل أمة شاهد عليها، ولما لم يوجد في قومه من يشهد ببطلان عبادة الأصنام تعيّن أن يكون هو الذي يشهد بتوحيد الله تعالى، فكأنه يقول: وأنا شاهد على أن الله تعالى هو ربكم ورب كل شيء، وهذا العالم العلوي والسفلي برهان قاطع على وحدانيته سبحانه. وفي ردّ إبراهيم عليهم، تسفيه لعقولهم وعقول آبائهم في عبادتهم غير الله تعالى، وفيه دليل عقليّ ودليل سمعيّ على وحدانية الخالق سبحانه.

أما الدليل العقلي فيتمثل في قوله تعالى: ﴿بِكُذُّبِكُمْ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ الَّذِي فَطَرَهُنَّ﴾ فهو سبحانه رب الإنس والجن والملائكة والبهائم والحشرات والسموات والأرض، خالقها ومدبر أمرها، وغيره سبحانه لا يملك نفعا ولا ضرا ولا موتا ولا حياة ولا نشورا.

وأما الدليل السمعي، فهو في قول إبراهيم عليه السلام ﴿وَأَنَا عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ مِنَ الشَّاهِدِينَ﴾ فإبراهيم أبو الأنبياء، وما يشهد به منقول عن الرسل أجمعين، وهم لا يخبرون إلا بالحق، وكلهم يشهدون أن الله وحده هو المعبود، وعبادة ما سواه باطل.

تَحْطِيمُ الْأَصْنَامِ

أراد إبراهيم أن يُبين لقومه عجز الأصنام، بطريقة يحملهم فيها على الإقرار بأن عبادتها باطلة، فهي لا تحمي نفسها من العدوان فضلا عن حماية غيرها، فأقسم على تحطيم أصنامهم قائلا:

٥٧، ٥٨ - ﴿وَتَاللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَامَكُمْ بَعْدَ أَنْ تُولُوا مُدْبِرِينَ ﴿٥٧﴾ فَجَعَلَهُمْ جُذَاذًا ۖ ۝ إِلَّا كَبِيرًا لَهُمْ لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ ﴿٥٨﴾﴾

أضاف إبراهيم عليه السلام إلى التأكيد القولي السابق، التأكيد الفعلي في هذه الآية، فأتبع القول بالعمل، وانتقل من تغيير المنكر بالقول إلى تغييره باليد، فأقسم أن يمكر بأصنامهم ويكسرها بعد أن يذهبوا عنها.

(١) قرأ الكسائي بكسر الجيم من (جذاذا)، والباقون بضمها، وهما لغتان.

وكان لقوم إبراهيم يوم في العام يحتفلون به، ويخرجون فيه لعيدهم، ولا يبقى منهم أحد في المدينة، وكانوا إذا خرجوا تركوا الطعام عند الآلهة لتباركها، فإذا قضوا يوم العيد، ورجعوا إلى أصنامهم، أكلوا من الطعام بعد أن باركته الآلهة، ثم سجدوا عندها ورجعوا إلى منازلهم.

وقد أضمر إبراهيم في نفسه أن يُكسر هذه الأصنام التي بلغ تعدادها اثنين وسبعين صنمًا، أكبر، فكبیر، فأصغر، فأصغر منه، بعضها من ذهب، وبعضها من فضة، وبعضها من نحاس أو حديد، وبعضها من خشب أو حجارة، وغير ذلك.

قال آزر لإبراهيم: لو خرجت معنا في يوم عيدنا، فإن ديننا سيعجبك، وقال له قومه مثل ذلك، وخرج إبراهيم معهم يومًا طمعًا منه في أن يتعرف على أحوالهم، ومشى معهم وهو يضمّر حيلة لتكسير الأصنام، فلما كان في بعض الطريق قال لقومه: إني سقيم، وألقى بنفسه على الأرض، فتركوه وانصرفوا إلى عيدهم، ورجع إبراهيم وهو يشتكي رجله، وأقسم وهو في مؤخرة القوم أن يكسر أصنامهم بعد انصرافهم عنها، وسمعه أحدهم فأفشى ذلك في الناس، وهو الذي قال: ﴿سَمِعْنَا فَتَى يَذْكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُ: إِبْرَاهِيمُ﴾^(١).

ونفذ إبراهيم ما توعد به الأصنام؛ ليثبت لهم أن هذه الأصنام ليست آلهة، وأنها لا تملك الدفاع عن نفسها، وذلك أنه لما رجع إلى الأصنام دخل عليها وفي يده فأس، وأخذ يكسرها ويحطمها واحدًا تلو الآخر، فأضحت الآلهة المعبودة قطعًا صغيرة من الحجارة والأخشاب المهشمة، ثم علّق الفأس في عنق الصنم الأكبر، وأبقاه من غير تحطيم؛ كي يرجعوا إليه ويسألوه: من الذي كسر هذه الأصنام؟ لكي يقيم عليهم الحجة، ويظهر عجز آلهتهم التي يزعمونها، فجعلهم جذاذًا وقطعهم إربًا إربًا.

والضمير في ﴿لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ﴾ يعود على إبراهيم، وقال الكلبي: يعود على الصنم الكبير.

أخرج ابن أبي حاتم عن ابن مسعود رضي الله عنه قال: لما خرج قوم إبراهيم إلى عيدهم مروا عليه، فقالوا: يا إبراهيم، ألا تخرج معنا؟ قال: إني سقيم، وقد كان بالأمس قد قال:

(١) أخرجه الطبري عن مجاهد بسند صحيح.

﴿وَتَاللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَمَكُمْ بَعْدَ أَنْ تُولَّوْا مُدْبِرِينَ﴾ ﴿٥٧﴾ فسمعه ناس منهم، فلما خرجوا انطلق إلى أهله فأخذ طعامًا، ثم انطلق إلى آلهتهم فقرّبه إليهم، فقال: ألا تأكلون؟ فكسرها إلا كبيرهم، ثم ربط في يده ما كسّر به آلهتهم، فلما رجع القوم من عيدهم دخلوا عليها، فإذا بآلهتهم قد كُسّرت، وإذا كبيرهم في يده ما كُسّرت به الأصنام، قالوا: ﴿مَنْ فَعَلَ هَذَا بِآلِهَتِنَا؟﴾ فقال الذين سمعوا إبراهيم يقول: ﴿وَتَاللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَمَكُمْ﴾: ﴿سَمِعْنَا فَقَدْ يَذْكُرُهُمْ﴾ فجادلهم عند ذلك إبراهيم^(١).

٥٩، ٦٠- ﴿قَالُوا مَنْ فَعَلَ هَذَا بِآلِهَتِنَا إِنَّهُ لَمِنَ الظَّالِمِينَ﴾ ﴿٥٨﴾ قَالُوا سَمِعْنَا فَقَدْ يَذْكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُ: إِبْرَاهِيمُ ﴿٥٩﴾ فلما رجعوا من عيدهم، ورأوا أصنامهم مهانة محطمة، سأل بعضهم بعضًا: مَنْ كَسَّرَ الأصنام؟ إنه لظالم في جرّأته عليها وتكسيها، وهي تستحق التعظيم والتوقير. فقال الرجل الذي سمع إبراهيم وهو يقول: ﴿وَتَاللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَمَكُمْ﴾ قال: ﴿سَمِعْنَا فَقَدْ يَذْكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُ: إِبْرَاهِيمُ﴾، أي: يعيهم ويسبهم، ويعزم على أن يحتال في أذاها وتكسيها.

مُحَاكَمَةُ إِبْرَاهِيمَ عَلَى الْمَلَأِ

٦١، ٦٢- ﴿قَالُوا فَأْتُوا بِهِ عَلَى أَعْيُنِ النَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَشْهَدُونَ﴾ ﴿٦١﴾ قَالُوا ءَأَنْتَ فَعَلْتَ هَذَا بِآلِهَتِنَا يَا إِبْرَاهِيمُ ﴿٦٢﴾

عقدوا لإبراهيم محاكمة علنية، وجاء النمرود وحاشيته، وأتوا بإبراهيم على مرأى من الناس؛ كي يشهدوا على اعترافه بما قال؛ ليكون ذلك حجة عليه في إيقاع العقوبة به، بعد التشهير به وإعلان فعلته على رؤوس الأشهاد.

وجيء بإبراهيم، وسألوه على وجه التهديد والاستنكار، قالوا له: أنت الذي كسرت آلهتنا يا إبراهيم؟ وهذا استفهام تقرير، أي فما الذي جرّأك على هذا؟

هَلْ كَذَبَ إِبْرَاهِيمُ عَلَيْهِ السَّلَامُ؟

٦٣- ﴿قَالَ بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَذَا فَتَنُّوهُمْ^(١)﴾ إِنَّ كَانُوا يَنْطُقُونَ ﴿١٣﴾

وبعد أن تم لإبراهيم ما أراد من إظهار سفههم على مرأى منهم، قال محتجاً عليهم، ومتهكماً بهم، ومعرضاً بغباوتهم: بل فعله هذا الصنم الكبير، فأسألوه إن كان يجيب.

وليس هذا الكلام من باب الكذب، وإنما هو في صورة الكذب، وليس كذباً على الحقيقة، وتسميته كذباً في الحديث باعتبار الظاهر، والكذب مذموم منهى عنه، ولكنه يرخص فيه للضرورة بارتكاب أخف الضررين، فقد جاء الترخيص به في ثلاث حالات هي: حالة الحرب مع العدو؛ فإن الحرب خدعة، وحالة الصلح بين اثنين أو فريقين، بأن يقول المصلح كلاماً من شأنه إزالة أو تخفيف حدة التوتر وسوء العلاقة بين المتخاصمين، وإن كان كلامه مخالفاً للواقع.

والحالة الثالثة هي تطيب خاطر الزوجة بما يُديم العلاقة وحسن العشرة بين الزوجين، بكلام حسن جميل، وإن كان هذا في الظاهر فقط، كأن يقول لها: أنت أجمل النساء، وليست كذلك، ولا يتعدى الكذب بينهما أكثر من تطيب المشاعر وحسن المودة والمعاشرة، وهكذا الحديث الذي جاء فيه أن إبراهيم عليه السلام كذب ثلاث كذبات من هذا القبيل:

في الصحيحين عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «لَمْ يَكْذِبْ إِبْرَاهِيمُ النَّبِيُّ ﷺ قَطُّ، إِلَّا ثَلَاثَ كَذَبَاتٍ: اثْنَتَيْنِ فِي ذَاتِ اللَّهِ، قَوْلُهُ: ﴿إِنِّي سَقِيمٌ﴾ وقَوْلُهُ: ﴿بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَذَا﴾ وواحدة في شأن سارة، فإنه قَدِمَ أرضَ جَبَّارٍ ومعه سارة، وكانت أحسن الناس، فقال لها: إن هذا الجبار إن يعلم أنك امرأتي يغلبني عليك، فإن سألك فأخبريه أنك أختي؛ أي أختي في الإسلام، فإني لا أعلم في الأرض مسلماً غيري وغيرك، فلما دخل أرضه ورآها بعض أهل الجبار، أتاه فقال له: لقد قدم أرضك امرأة لا ينبغي لها أن تكون إلا لك، فأرسل إليها فأتى بها، فقام إبراهيم إلى الصلاة، فلما دخلت على هذا

(١) قرأ ابن كثير والكسائي وخلف العاشر بنقل حركة الهمزة إلى الساكن قبلها من (فَتَنُّوهُمْ) وصلاً ووقفاً، ومعهم حمزة عند الوقف، وقرأ الباقون بتحقيق الهمزة، ورسم الهمزة على كرسى، وعدم وجود ألف بعد الفاء، من خصائص الرسم العثماني.

الطاغية، لم يتمالك أن ييسط يده إليها، فقبضت يده قبضة شديدة، فقال لها: ادعي الله أن يُطلق يدي ولا أضرك، ففعلت، فعاد، فقبضت أشد من القبضة الأولى، فقال لها مثل ذلك، ففعلت، فعاد، فقبضت أشد من القبضتين الأولىين، فقال: ادعي الله أن يُطلق يدي، فلك الله ألا أضرك، ففعلت وأطلقت يده، ودعا الذي جاء بها فقال له: إنك إنما أتيتني بشيطان ولم تأتني بإنسان، فأخرجها من أرضي، وأعطها هاجر^(١).

والكذبات الثلاث كما جاءت في الحديث هي:

الأولى: قوله: ﴿إِنِّي سَقِيمٌ﴾ فإن المقصود بذلك هو تعليل سبب التخلف عن المسير مع القوم؛ ليرجع إلى تكسير الأصنام، أو أراد أنه سقيم القلب من ضلالهم، وهذه حيلة لخدمة الدين، وليس له فيها مصلحة أخرى.

والثانية: حين هاجر إلى مصر، وكان بها طاغية جبار لا يترك امرأة حسناء تصل إلى بلاده دون أن يمسه، فلما أخبر عن سارة، وسأل إبراهيم عنها، قال: هي أختي، وكانت زوجته كما هو معلوم، وقد فسر إبراهيم قوله هذا كما جاء في الحديث بأنها أخته في الإسلام، حيث قال لها: إنك أختي في الإسلام، وإنه ليس في الأرض مسلم غيري وغيرك.

ولما دخلت على الملك أخذ إبراهيم يصلي ويدعو ربه أن ينجيها من كيده، ولما رآها الملك مد يده إليها، فشلت وحبسها الله عنه، وكرر المحاولة ثلاث مرات، ومنع بقدرة الله تعالى، فطلب منها أن تدعو له أن يفك الله يده ولا يقربها بسوء، فدعت له، وفكت يده، فطلب حاجبه وقال له: إنك لم تأتني بإنسانة بل أتيتني بشيطانة، أخرجها، وأعطها هاجر، فخرجت ووهبها هاجر، فلما أحس بها إبراهيم أنهى صلاته ودعاه، فقالت له: كفاني الله كيد الكافر الفاجر، وأخدمني هاجر.

والثالثة: هي قوله: ﴿بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَذَا﴾

وهو كلام في صورة الكذب، يراد به: التهكم والتبكي، وقد أشفق النبي ﷺ على

(١) هذا لفظ مسلم برقم (٢٣٧١) وهو في «البخاري» بأرقام منها: (٢٢١٧، ٣٣٥٨، ٥٠٨٤، ٦٩٥٠) وفي «سنن أبي داود» برقم (٢٢١٢) من طريق عبد الوهاب الثقفي عن هشام بن حسان، و«سنن النسائي الكبرى» برقم (٨٣٧٤) من طريق أبي أسامة عن هشام بن حسان، وغيرهم.

إبراهيم بمؤاخذته عليها من ظاهر هذه الكلمات الثلاث، كما جاء في حديث الشفاعة.

قال البغوي: ويجوز أن الله تعالى قد أذن له في ذلك؛ لقصد إصلاحهم، وتوبيخهم وإقامة الحجة عليهم، كما أمر يوسف مناديه أن يقول: ﴿أَيُّهَا الْعَبْرُ إِنَّكُمْ لَسَرِقُونَ﴾ [يوسف: ٧٠].

وقال الفخر الرازي والزمخشري: الحديث محمول على المعارض؛ فإن فيها مندوحة عن الكذب.

قلت: وهو قول وجيه، فمقصد إبراهيم هو إلزام الخصم، وإقامة الحجة عليه.

ولذا: طلب منهم سؤال الصنم الأكبر إن كان ينطق حقيقة، فإبراهيم يقول لهم:

﴿بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَذَا فَسْأَلُوهُمْ إِنْ كَانُوا يَنْطِقُونَ﴾ أي: اسألوا آلهتكم المزعومة إن كانت تتكلم، وهكذا فإن إبراهيم عليه السلام يقول لهم: لا يوجد في المكان إلا أنا والأصنام، فإن كانت هذه الأصنام تنطق فهي التي فعلت، بمعنى: أن هذا الصنم الكبير قد غضب؛ لأن الأصنام الصغيرة تُعبد معه، فكسرها، فاسألوه إن كان ينطق فهو يقدر على الفعل.

وإبراهيم يريد التوصل إلى أن هذه الأصنام جماد لا تنفع ولا تضر، فكيف يعبدونها؟ وإن لم يكن الصنم الكبير ينطق فهو لا يقدر على شيء، فتكون النتيجة أنا الفاعل، فكان إبراهيم يُقرُّ على نفسه أنه الفاعل، ويقول لهم تهكمًا: إنه ما دامت الأصنام لا تنطق، فالنتيجة أنني أنا الذي كسرتها.

ومعلوم أن إبراهيم لم يقصد بقوله: ﴿فَسْأَلُوهُمْ إِنْ كَانُوا يَنْطِقُونَ﴾ أن يخبر أن كبير الأصنام هو الذي حطمها، أو أنهم يسألون الأصنام عمَّن حطمها، وإنما الذي يقصده هو الاستهزاء بهم، والسخرية بأفكارهم، فكأنه يقول: إن التماثيل التي تعبدونها من دون الله لا تدري إن كنت أنا الذي حطمتها أم هذا الصنم الكبير، وأنتم تعرفون أنني تخلَّيت عن المضيي معكم ورجعتُ إليها متوعدًا، فانظروا من الذي حطمها إن كانت لكم عقول تفكر! فهو يريد أن يُثبت تكسيرها لنفسه بأسلوب التعريض. قال تعالى:

٦٤، ٦٥- ﴿فَرَجَعُوا إِلَى أَنْفُسِهِمْ فَقَالُوا إِنَّكُمْ أَنْتُمُ الظَّالِمُونَ ﴿٦٤﴾ ثُمَّ نُكِسُوا عَلَى رُءُوسِهِمْ

لَقَدْ عَلِمْتُمْ مَا هَؤُلَاءِ يَنْطِقُونَ ﴿٦٥﴾﴾

ثم بيّن سبحانه الأثر الذي أحدثه ردُّ إبراهيم عليه السلام من أنهم أخذوا يفكرون ويتأملون، ويسأل بعضهم بعضاً، ويلومون أنفسهم: كيف يعبدون ما لا يستطيع الدفاع عن نفسه، ولا يجيب سائلاً؟! فأسقط في أيديهم وظهر لهم ضلالهم، وأقروا على أنفسهم بالظلم والشرك ﴿فَرَجَعُوا إِلَى أَنْفُسِهِمْ﴾ أي: أعملوا عقولهم وفكروا، وقالوا: ﴿إِنَّكُمْ أَنْتُمْ الظَّالِمُونَ﴾ كيف تعبدون آلهة لا تنطق، ولا تملك أن تدفع الأذى عن نفسها؟ لقد ظلمتم أنفسكم بعبادتها.

وسرعان ما تبدد هذا اللوم وعاد إليهم عنادهم، فرجعوا إلى باطلهم، واحتجوا على إبراهيم بما هو حجة له عليهم؛ حيث نكسوا على رؤوسهم، ورجعوا إلى الكفر مرة ثانية، وارتدوا على أعقابهم، وقالوا: لقد علمت يا إبراهيم أنهم لا ينطقون، فكيف نسألها؟

والنكس: هو قلب الشيء من حال إلى حال، وأصله أن يصير أعلى الشيء أسفله، أي: أن حالهم قد تغير، فبعد أن لاموا أنفسهم على كفرهم وضلالهم، وكادوا يعترفون بحجة إبراهيم، رجعوا إلى المكابرة والانتصار للأصنام، فقالوا لإبراهيم على سبيل التهديد: لقد علمت أن آلهتنا لا تنطق، فكيف تأمرنا بسؤالها؟ إنك تسخر بنا، وتهزأ بعقولنا، وسوف نُنزل بك العقاب الذي تستحقه.

إِبْرَاهِيمُ عَلَيْهِ السَّلَامُ يَدْعُو عَبْدَةَ الْأَصْنَامِ إِلَى التَّوْحِيدِ

٦٦، ٦٧- ﴿قَالَ أَتَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُكُمْ شَيْئًا وَلَا يَضُرُّكُمْ﴾ (١) ﴿أَفِ لَكُمْ﴾ (٢) ﴿وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ (٣)

انتهاز إبراهيم فرصة اعترافهم بأن هذه الآلهة المزعومة لا تحير جواباً، فأخذها حجة عليهم، وأخذ يُعَنِّفُهُمْ على عبادتهم للأصنام، ويُحَقِّرُ من شأنها، ويفضحهم على رؤوس الأشهاد، ويبين أنها لا تنفع إذا عُبدت، ولا تضر إذا تُركت، فأنتم تعبدون جمادات لا تضر ولا تنفع، ووجد إبراهيم أن هذا هو الظرف المناسب لدعوتهم إلى الله تعالى،

(١) عَدَّ هذه الآية (ولا يضركم) الكوفي وحده، وتركها الباقر فلم يعدوها آية.

(٢) قرأ نافع وحفص وأبو جعفر بكسر الفاء منونة من (أف) فالكسر لغة أهل الحجاز واليمن، والتنوين للتكثير، وقرأ ابن كثير وابن عامر ويعقوب بفتح الفاء بلا تنوين فالفَتْح لغة قيس، وترك التنوين، لقصد عدم التكثير، وقرأ الباقر بكسر الفاء بلا تنوين.

وتعريفهم بالإله الحق وإبطال ما هم عليه من ضلال.

واستطرد إبراهيم يوبخهم، ويقبّح آلهتهم المزعومة؛ إذ كيف يتركون عبادة الذي خلقهم، ويعبدون جمادات لا قيمة لها، فسحقاً وقبحاً لكم ولآلهتكم التي تعبدونها من دون الله، فقد بلغ السخف والجهل غايته ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ فتدركون ما أنتم فيه من ضلال واضح، وترجعون إلى عبادة الواحد الأحد.

خَلِيلُ الرَّحْمَنِ يُلْقَى فِي النَّارِ بِسَبَبِ الدَّعْوَةِ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى

٦٩، ٦٨- ﴿قَالُوا حَرِّقُوهُ وَانصُرُوا آلِهَتَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ فَاعِلِينَ﴾ ﴿١٨﴾ قُلْنَا يَنَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَامًا عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ﴾

ولما أفرجهم إبراهيم ﷺ وغلبهم بالحجة القاهرة، وعجز باطلهم عن مقارعة الحق، عدلوا عن أسلوب النقاش إلى استعمال العنف والقوة، كما فعل كفار قريش مع النبي ﷺ حين عجزوا عن معارضته، فلجؤوا إلى قتله ﷺ حرّاً بالنار، وهكذا لجأ قوم إبراهيم إلى أسلوب آخر غير أسلوب الحوار، وهو أسلوب القوة والبطش الذي يلجأ إليه عادة ضعيف الحجة، حينما يكون شديد البأس، بيده السلطة وإمكانية البطش، فأمر النمرود بأن يُحبس إبراهيم في قرية (كوثي) قيل: إن الذي أشار بحرقه رجل كُردي من أعراب فارس، وقد خسف الله به الأرض، واستحسن القوم ذلك.

أخرج ابن جرير عن مجاهد قال: تلوّث هذه الآية على عبد الله بن عمر رضي الله عنهما فقال: أتدري يا مجاهد من الذي أشار بتحريق إبراهيم بالنار؟ قلت: لا، قال: رجل من أعراب فارس، يعني: الأكراد^(١).

وعن شعيب الجبائي قال: الذي قال: حرقوه (هيئُزَن) فخسف الله به الأرض فهو يتجلجل فيها إلى يوم القيامة^(٢).

والذي أمر بحرقه هو النمرود، وهو من نسل كوش بن حام بن نوح بن كنعان، وأمر أن يُجمع له الحطب لمدة شهر كامل؛ لإحراقه.

فكانت المرأة الحامل تنذر إذا ولدت مولودها أن تجمع الحطب لإحراق إبراهيم، وكان

(١)، (٢) «تفسير ابن جرير» (١٦/٣٠٥).

المريض ينذر إذا هو شُفي أن يجمع الحطب لإبراهيم.

وهكذا كانت المرأة تغزل وتشتري الحطب بغزلها، والرجل يوصي بشراء الحطب من ماله بعد موته، وكأن حرق إبراهيم قربى إلى الله تعالى! وهكذا.

ثم أوقدوا النار على الحطب سبعة أيام، فلما أرادوا أن يلقوا بإبراهيم فيها تحيروا، كيف يلقونه في وسطها وهي ذات أبعاد واسعة مترامية، فصنعوا منجنيقاً ووضعوه فيه مقيداً مغلولاً، ورفعوه على رأس البنيان وقذفوه به، وتركوه فيها سبعة أيام. قيل: إن إبليس جاءهم في صورة شيخ فعلمهم صنعة المنجنيق.

قال كعب: ما أحرقت النار من إبراهيم إلا وثاقه، وبلغ من شدة وهج النار أن الطيور التي كانت تمر من فوقها تحترق.

ولما ألقى إبراهيم في النار قال الله تعالى لها: ﴿يَنَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَامًا عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ﴾

قالوا: إن نيران الدنيا قد أطفئت في هذه اللحظة، أي: أنه لم يُنتفع بها.

والله ﷻ قال للنار: كوني بردًا وسلامًا؛ لأنها لو كانت بردًا فقط لُقتل إبراهيم من شدة البرد، ولكنها كانت بردًا وسلامًا؛ حيث سلب الله منها خاصية الإحراق، كما سلب من السكين خاصية القطع حين وُضعت على عنق إسماعيل ﷺ، فلم ينله مكروه، ولم يُصَب بأذى.

قيل: تلقاه جبريل ﷺ حين ألقى به في النار وألبسه قميصًا، أي: درعًا واقيًا من النار، وهو القميص الذي ألبسه يوسف ﷺ فنجاه الله من الجب.

قال إبراهيم ﷺ: لم تكن أيامًا قطُّ أنعم عليَّ من هذه الأيام التي قضيتها في النار. وبقي إبراهيم فيها سبعة أيام، وقيل: أربعين، أو خمسين يومًا.

قيل: إن الملك بنى بناء واطَّلعه منه على النار، وأنه رأى جبريل، وهو يجاور إبراهيم في النار، ولما خرج منها دون إحراق، قال له النمرود: نِعَمَ الرب ربك يا إبراهيم، أريد أن أقرب لكم أربعة آلاف بقرة أذبها قربانًا إلى إلهك، قال له إبراهيم: لا يقبل الله منك ما دمت على الكفر حتى تفارقه وتؤمن بالله.

عن ابن عباس ؓ قال: (حسبنا الله ونعم الوكيل) قالها إبراهيم ﷺ حين ألقى في

النار، وقالها محمد ﷺ حين قالوا له: ﴿إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ لَا فَانْقَلِبُوا بِنِعْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ لَّمْ يَمَسَّهْمُ سُوءٌ﴾^(١).

وهكذا يفعل الله بكل مؤمن.

ورد أن جبريل عرض لإبراهيم عليهما السلام وهو في الهواء فقال: ألك حاجة يا إبراهيم؟ قال: أما إليك فلا، وأما من الله فبلى.

وفي بعض الروايات أنه قال: عَلَّمَهُ بِحَالِي يُغْنِي عَنْ سُؤَالِي. وقالوا: إن كثرة السؤال والإلحاح، لم يكن مشروعاً في عهد إبراهيم، ولكنه شرع في ملة محمد ﷺ.

وقيل: إنهم لما ربطوه وشدوا وثاقه قال: لا إله إلا أنت سبحانك، لك الحمد، ولك الملك، لا شريك لك^(٢).

وعن مولاة الفاكه بن المغيرة المخزومي أنها قالت: دخلتُ على عائشة فرأيت في بيتها رُمَحًا، فقلت: يا أم المؤمنين، ما تصنعين بهذا الرمح؟ فقالت: نقتل به هذه الأوزاغ، إن رسول الله ﷺ قال: «إن إبراهيم حين أُلقي في النار لم يكن في الأرض دابة لا تطفئ النار غير الوزغ، فإنه كان ينفخ على إبراهيم، فأمرنا رسول الله بقتله»^(٣).

وقد عَذَّبَ الله النمرود في الدنيا على ما فعله بإبراهيم، قيل: إن الله تعالى سلَّطَ على هذا الجبار الطاغية أضعف المخلوقات وهو (البعوض) فدخلت البعوضة من أنفه إلى دماغه حتى مات. قال تعالى:

٧٠- ﴿وَأَرَادُوا بِهِ كَيْدًا فَجَعَلْنَاهُمُ الْأَخْسَرِينَ﴾

(١) صحيح البخاري برقم (٤٥٦٣).

(٢) رواه الطبراني في تفسيره كما في «الدر المشور» عن أرقم (٦٤٢/٥).

(٣) رواه أحمد في «المسند» (٨٣/٦)، (١٠٩) برقم (٢٤٥٣٤، ٢٤٧٨٠، ٢٥٨٢٧) وفي «المحقق» (٨٠/٤١) بإسناد رجاله ثقات، وابن ماجه في السنن برقم (٣٢٣١) من طريق نافع عن سائبة مولاة الفاكه، وابن حبان (٥٦٣١) وأبو يعلى (٤٣٥٧) و«صحيح سنن ابن ماجه» (٢٦١٦) والطبراني في «الأوسط» (٦٩٧٣) وهو في «البخاري» عن أم شريك برقم (٣٣٥٩)، وابن أبي شيبة (٤٠٢/٥) ومصنف عبد الرزاق (٨٣٩٢) عن معمر عن الزهري، وهو في مسلم (٢٢٣٧) بدون ذكر إبراهيم.

وأراد القوم بإبراهيم الهلاك، حين عزموا على إحراقه، فأبطل الله كيدهم، وجعلهم الخاسرين في الدنيا والآخرة، فقد أهلك الله النمرود وقومه بعذاب من عنده، تختلف الروايات في تفصيله، ويبدو أن الله تعالى سلط عليهم الآشوريين فأخذوا بلادهم، وانقرض مثلهم، وصاروا خلفاء من بعدهم.

وقد أثبت التاريخ شيئاً من ذلك في حدود سنة ٢٢٨٦ قبل الميلاد، وإلى هذا العذاب يشير قول الله تعالى: ﴿قَامَلَيْتُ لِلْكَافِرِينَ ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ﴾ [الحج: ٤٤] فقد جاءت هذه الآية بعد ذكر قوم إبراهيم ضمن أقوام آخرين هم: قوم نوح، وعاد، وثمود، وأصحاب مدين، وقوم موسى، في الآيتين الثانية والأربعين والثالثة والأربعين، من سورة الحج. وتلك سنة الله مع الرسل جميعاً إذا حزبهم أمر وبلغت الشدة منهاها؛ خذل الله المستكبرين المعاندين ونجى المتقين ﴿حَقَّ إِذَا اسْتَيْسَسَ الرُّسُلُ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ قَدْ كُذِّبُوا جَاءَهُمْ نَصْرًا فَنَجَّى مَنِ كَشَاءَ وَلَا يَرُدُّ بَأْسُنَا عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ﴾ [يوسف]. وهكذا جعل الله تعالى إبراهيم عليه السلام من الرابحين المفلحين، وأهلك النمرود وحزبه.

هَجْرَةُ إِبْرَاهِيمَ مِنَ الْعِرَاقِ إِلَى فِلَسْطِينَ

٧٢، ٧١- ﴿وَبَخَيْنَاهُ لَوُطًا إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا لِلْعَالَمِينَ ﴿٧١﴾ وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ نَافِلَةً ۖ وَكُلًّا جَعَلْنَا صَالِحِينَ ﴿٧٢﴾﴾

أمر الله إبراهيم أن يهاجر من العراق فراراً بدينه، بعد أن نجّاه الله من الإحراق بالنار؛ ليُخْرِجَ من دار الشرك إلى أرض النبوات، فخرج من العراق هو وابن أخيه لوط الذي آمن به وبدعوته، كما قال تعالى: ﴿فَمَنْ لَّهُمْ لُوطٌ وَقَالَ إِنِّي مُهَاجِرٌ إِلَى رَبِّي﴾ [العنكبوت: ٢٦] وهي أول هجرة على وجه الأرض لأجل الدين، ونزل إبراهيم بفلسطين، ونزل لوط بالأردن، وهي الأرض التي بارك الله فيها بالشام: أرض النبوات، وأرض الرسالات، التي بارك الله فيها بالأشجار والثمار وغير ذلك، ومن بركة الشام أن كثيراً من الأنبياء كانوا فيها، وأن الله اختارها مهاجراً لخليله، وفيها أحد بيوته الثلاثة المقدسة.

قال ابن عطية: ورؤي أن إبراهيم ولوطاً هاجرا من (كوثي) ومراً بمصر، ولم تكن طريقاً لهما، ولكنهما غيرا الاتجاه، مخافة أن يتبعوهما، ثم جاءا إلى الشام فنزل إبراهيم بالسبع

من أرض فلسطين، وهي بريّة الشام، ونزل لوط بالمؤتفكة^(١).

هذا: وكان مع إبراهيم، سارة زوجته، وابنة عمه، وفي تلك السّفرة كان لقاءه بالملك الطاغية في مصر، وحدثت القصة السابق ذكرها بخصوص زوجته.

قال قتادة في ﴿وَجَنَّتْهُ وُلُوطًا﴾: كانا بأرض العراق، فأنجيا إلى أرض الشام، وكان يقال: الشام عماد دار الهجرة، وما نُقص من الأرض زيد في الشام، وما نُقص من الشام زيد في فلسطين، وكان يقال: أرض المحشر والمنشر، وبها ينزل عيسى ابن مريم، وبها يُهلك الله مسيخ الضلالة الدجال^(٢).

وقد عوّض الله إبراهيم وطنًا خيرًا من وطنه، وكان ذلك بعد أن نجّاه الله من النار، وعزم على الهجرة، وكان قد دعا ربه: ﴿وَقَالَ إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَى رَبِّ سَيِّدِينَ﴾ [الصافات] وعوّضه الله أهلًا خيرًا من أهله ﴿وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ﴾ لما دعا ربه قائلًا: ﴿رَبِّ هَبْ لِي مِنْ الصَّالِحِينَ﴾ [الصافات].

كما قال تعالى: ﴿فَبَشَّرْنَاهَا بِإِسْحَاقَ وَمِنْ وَرَاءِ إِسْحَاقَ يَعْقُوبَ﴾ [هود: ٧١]. حفيدًا له، نافلة من غير سؤال، ﴿وَكُلًّا﴾ من إبراهيم وإسحاق ويعقوب، ﴿جَعَلْنَا صَالِحِينَ﴾ أي: جعله الله صالحًا مطيعًا؛ حيث وفقهم الله لطاعته، وشرفهم بنبوّته. قال تعالى:

٧٣- ﴿وَجَعَلْنَاهُمْ أُمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِمْ فِعْلَ الْخَيْرَاتِ وَإِقَامَ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءَ الزَّكَاةِ وَكَانُوا لَنَا عَبِيدَ﴾ [٧٣]

وجعلنا إبراهيم وإسحاق ويعقوب قدوة للناس، يدعونهم إلى عبادة الله وطاعته، ويهدون الناس بأمر الله وإذنه.

وأمر الله تعالى: هو الوحي الذي أنزله على رسله، ومن نصّبه الله هاديًا للبشر فهو مأمور ألا يتهاون بأوامر الله أو يتشاغل عنها، ولا بد أن يكون مهتديًا في نفسه، قدوة لغيره.

وقد أوحى الله سبحانه إلى الرسل جميعًا أن يقيموا شرائع الدين بين الناس، من

(١) «تفسير ابن عطية» بتصرف (٩٠/٤).

(٢) أخرجه عبد بن حميد، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وابن عساكر عن قتادة كما في «الدر المنثور» (٣١٥/١٠).

العبادات والأخلاق والأحكام والمعاملات، ويأمروا الناس بفعلها، ذلكم قول الله تعالى: ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِمْ فِعْلَ الْخَيْرَاتِ﴾ أي: من العمل بشرائع الأنبياء، وأوحينا إليهم أيضاً أن يقيموا الصلاة ويؤتوا الزكاة، وهذا تخصيص بعد تعميم؛ فالصلاة والزكاة من الخيرات، ولكنهما أفضل العبادات البدنية والمالية، فمن ضيعهما كان لما سواهما أضيع، فامتثل هؤلاء الرسل ما أمروا به، وكانوا مطيعين لله وحده دون سواه، فهم من المصطفين الأخيار.

رَابِعًا: نَبِيُّ اللَّهِ لُوطٌ عَلَيْهِ السَّلَامُ

٧٤- ﴿وَلُوطًا ءَاتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْقَرْيَةِ الَّتِي كَانَتْ تَعْمَلُ الْفَبْثِثَ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمَ سَوْءٍ فَسَقِينَ ﴿٧٤﴾﴾

سورة الأنبياء، سُميت كذلك لذكر ستة عشر نبياً ورسولاً فيها. ذكر منهم خمسة بالاسم دون قصة لهم، وهم: موسى، وهارون، وإسماعيل، وإدريس، وذو الكفل. وذكرت قصة إبراهيم في تكسيره للأصنام على وجه التفصيل، وذكر عشرة منهم بمعدّل آيتين اثنتين لكل نبي ورسول؛ وذلك لأخذ العبرة والفائدة منها على وجه الإجمال والإيجاز.

وأول هؤلاء الرسل الذين تحدثت عنهم السورة في آيتين اثنتين لكل منهم، نبي الله لوط عليه السلام، فقد جاء ذكره في الآية الرابعة والسبعين والخامسة والسبعين من سورة الأنبياء؛ حيث تحدثنا عن نبي الله لوط عليه السلام استقلالاً بعد أن سبق ذكره في هجرته مع عمه إبراهيم من العراق إلى الشام، تنبيهاً على أنه ﷺ بُعث بشريعة خاصة إلى قوم غير قوم إبراهيم، في موطن غير الذي حلّ فيه إبراهيم، بخلاف إسحاق ويعقوب عليهم جميعاً الصلاة والسلام.

وقد أثنى الله تعالى على لوط عليه السلام بالعلم الشرعي، والحكم بالصواب بين الناس في قوله: ﴿ءَاتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا﴾ وأرسله إلى قومه يدعوهم إلى عبادة الله وترك الفاحشة.

وكان لوط قد هاجر مع عمه إبراهيم خليل الرحمن من العراق إلى الشام؛ حيث نزل إبراهيم بفلسطين، ونزل لوط بالموثقة. وقد نزل كل منهما في مكان قريب من الآخر بفلسطين والأردن؛ لتتسع الأرض لأغنام كل منهما. وكان لوط عليه السلام قد آمن بعمه نبياً ورسولاً قبل هجرته معه ﴿فَمَنْ لَّمْ يُؤْمَرْ بِاللَّهِ فَلْيَرْجِعْ إِلَىٰ رَبِّهِ﴾ [العنكبوت: ٢٦] فأوحى الله إلى لوط، وأعطاه النبوة وفضل القضاء بين الخصوم، وعلمه أوامره ونواهيه.

وكانت قرى المؤتفكة، وهي قرى سدوم وعمورة، أهل منكرا، يأتون فاحشة اللواط، ويأتون المنكر في مجالسهم العامة، ويقطعون الطريق على المارة، كما قال تعالى: ﴿أَيْنَكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ وَتَقْطَعُونَ السَّبِيلَ وَتَأْتُونَ فِي نَادِيَكُمُ الْمُنْكَرَ﴾ [العنكبوت: ٢٩] ذكر ابن عساكر وغيره عن الحسن أن قوم لوط كان فيهم عشر خصال هي:

- ١- إتيان الرجال بعضهم بعضًا.
- ٢- والرمي بالمقلع والحصى.
- ٣- واللعب بالحمام.
- ٤- والضرب بالدفوف.
- ٥- وشرب الخمر.
- ٦- وقصص اللحية.
- ٧- وطول الشارب.
- ٨- والصفير.
- ٩- والتصفيق.
- ١٠- ولباس الحرير.

وتزيد هذه الأمة: إتيان النساء بعضهن بعضًا^(١).

فأرسل الله تعالى لهم نبيه لوطًا عليه السلام يأمرهم أولاً بعبادة الله وتوحيده، ويأمرهم ثانيًا بأن يتركوا هذه الفاحشة، ويقلعوا عنها.

ولما لم يستجيبوا له وكذبوه وخالفوه؛ أهلكهم الله تعالى، فأمره أن يسرى بأهله ليلاً ليعبدوا عن القرية، حيث أرسل لهم جبريل فاقتلع قراهم ورفعها إلى أعلى، وجعل عاليها سافلها، وأنجى الله لوطًا وأهله إلا امرأته، إنهم كانوا بسبب الخبائث والمنكرات التي يأتونها أهل سوء وقبح، خارجين عن طاعة الله تعالى، وعلى رأسها الإشراك بالله سبحانه، وفاحشة اللواط التي لم يسبقهم إليها أحد، واشتهروا بها في العالمين. قال تعالى:

٧٥- ﴿وَأَدْخَلْنَاهُ فِي رَحْمَتِنَا إِنَّهُ مِنَ الصَّالِحِينَ﴾ ﴿٧٥﴾

أي وأتم الله على لوط النعمة، فأدخله في رحمته في دنياه حين نجاه مما حلَّ بقومه، ويدخله جنته في آخرته؛ لأنه كان من عباد الله المخلصين العاملين بطاعته، والصالح هو سبب دخول العباد في رحمة الله، والفساد سبب حرمانهم من الخير والرحمة، قال تعالى عن نبيه سليمان عليه السلام ﴿وَأَدْخَلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ الصَّالِحِينَ﴾ [النمل: ١٩]

(١) يُنظر: ابن عساكر (٥٠/٣٢٢).

خَامِسًا: نَبِيُّ اللَّهِ نُوحٌ عَلَيْهِ السَّلَامُ

٧٦- ﴿وَنُوحًا إِذْ نَادَىٰ مِنْ قَبْلُ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ فَنَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ ﴿٧٦﴾﴾

والنبي الذي جاء ذكره بعد لوط في سورة الأنبياء، هو أبو البشر الثاني نبي الله نوح عليه السلام، وكانت رسالته قبل إبراهيم ولوط عليهما السلام.

ومدة الرسالة التي مكثها نوح في قومه، كانت ألف سنة إلا خمسين عامًا، يدعوهم خلالها إلى توحيد الله ﷻ، سرًا وجهرًا، وليلاً ونهارًا، فلم يزدحم دعاءه لهم إلا فرارًا، والذين آمنوا بنوح في هذه المدة الطويلة كانوا على أوسع الأقوال: ثمانين رجلًا وامرأة، ولمَّا أخبره الله تعالى بأنه لن يؤمن من قومه إلا من قد آمن، دعا ربه عليهم فقال: ﴿رَبِّ لَا تَذَرْ عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا ﴿٧٧﴾ إِنَّكَ إِن تَذَرَهُمْ يُضِلُّوا عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوا إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا ﴿٧٨﴾﴾ [نوح].

ثم نادى ربه قائلاً: رَبِّ ﴿أَنِّي مَغْلُوبٌ﴾ فكان جواب الله تعالى بالانتصار له قائلاً: ﴿فَأَنْصِرْ﴾ [القمر: ١٠]. أو أن نوحًا سأل ربه أن ينتصر له من قومه.

وهذا النداء هو الذي جاء ذكره في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ نَادَيْنَا نُوْحًا فَلِنَعْمَ الْمُجِيبُونَ ﴿٧٥﴾ وَنَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ ﴿٧٦﴾﴾ [الصافات].

والكرب العظيم: هو الطوفان، أي ونصرنا نوحًا بنجاته من كيد الكافرين الأشرار ونجاته من الغرق بالطوفان، فقد أجاب الله سؤاله على كل ما سبق بيانه، بأن أمره ﷻ أن يصنع السفينة، وأن يركب فيها هو ومن آمن معه، وجاء الطوفان فنجَّى الله نوحًا والذين آمنوا معه، وأغرق الذين كفروا، ومنهم ابنه الكافر الذي لم يؤمن به، وقيل: بعدًا للقوم الظالمين، وجعل ذريته هم الباقين. قال تعالى:

٧٧- ﴿وَنَصَرْنَاهُ مِنَ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَبُوا بِآيَاتِنَا إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمَ سَوْءٍ فَأَغْرَقْنَاهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٧٧﴾﴾

أي: ونصرنا نوحًا من قومه الذين كذبوا بآياتنا الدالة على صدقه، فخلَّصناه منهم منتصرًا، ونجَّيناه من شرِّهم، إنهم كانوا أهل قُبْحٍ فأغرقناهم وأهلكناهم بالطوفان أجمعين، ولم يُبق منهم أحدًا على وجه الأرض عدا من آمن منهم وهم قليل.

سَادِسًا: نَبِيُّ اللَّهِ دَاوُدُ عَلَيْهِ السَّلَامُ

٧٨- ﴿وَدَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ إِذْ يَحْكُمَانِ فِي الْحَرْثِ إِذْ نَفَشَتْ فِيهِ غَنَمُ الْقَوْمِ وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ شَاهِدِينَ﴾

في هذه الآيات التي نحن بصدها ذكُرُ نبي الله داود وابنه سليمان عليهما وعلى نبينا أفضل الصلاة وأتم التسليم.

وداود وسليمان من نسل يعقوب عليه السلام، آتاها الله النبوة والملك والحكم، وقد مات كل من داود وسليمان قبل ميلاد عيسى عليه السلام بنحو ألف عام، وهما من أنبياء بني إسرائيل.

ولم يكن بعد موسى في بني إسرائيل، عصر له ميزة خاصة مثل عصر داود وسليمان عليهما السلام؛ فداود أول من جُمعت له النبوة والملك من أنبياء بني إسرائيل، وبلغ شأنهم في عهده حدًا عظيمًا من البأس والقوة.

وأعطى الله داود الزبور، فيه حكمة وعظة تكمل التوراة التي جاءت بالشرعة، فاستكمل الله له الحكمة ورقيق الكلام مع النبوة والملك.

ونكتفي بذكر قصة القضية التي نَبَّهت على أصل الاجتهاد، ودلت على فقه القضاء عند داود وسليمان عليهما السلام.

فقد حدث أن رجلًا كان له زرع، وهذا الزرع أو الحرث عبارة عن عنب تتدلى عناقيده، ورجلًا آخر له غنم، وهذه الغنم نفشت في هذا الزرع ليلاً فأكلته، فاحتكم صاحباها إلى داود عليه السلام، فحكم بأن يأخذ صاحب الحرث الغنم، نظرًا لتفريط أصحابها، مقابل أنها أكلت حرثه؛ لأنها تُساويها في القيمة في نظره عليه السلام.

وكان سليمان شابًا يافعًا يجلس خارج باب القضاء، فلما خرج الخصمان ذكرا قصتهما له، فقال: لو كنت قاضيًا لحكمتُ بغير هذا، فبلغ داود ذلك فأحضره، وقال له: بماذا كنت تقضي؟ فقال: إني رأيت ما هو أرفق من ذلك للجميع، قال: ماذا؟ قال: يأخذ صاحب الغنم الأرض فيزرعها ويصلحها، ويسقيها ويتعهدا، حتى يعود الزرع كما كان.

ويأخذ صاحب الأرض الغنم، فينتفع بالبانها وسمَنها ونسلها وأصوافها، وغير ذلك،

فإذا عاد الزرع كما كان، رُدَّ كل مال إلى صاحبه، فقال داود: القضاء ما قضيت^(١).

والمعنى: اذكر -يا محمد- نبي الله داود وابنه سليمان، إذ يحكمان في قضية، فعرض لهما خصمان، أحدهما: راعي غنم، وثانيهما: عامل حرث، حيث تعدَّت غنم أحدهما على زرع الآخر، وانتشرت فيه ليلاً، فأتلقت الزرع، فحكم داود بأن تكون الغنم لصاحب الزرع ملكاً له بما أتلقتَه، وحكم سليمان بأن ينتفع صاحب الغنم بالأرض، وينتفع صاحب الأرض بالغنم، حتى يعود الزرع كما كان، ثم يرد كل مال لصاحبه، وكان حكم داود يتجه إلى تعويض صاحب الحرث، وحكم سليمان يتجه إلى البناء والتعمير، والعدل حاصل على كلا الحكمين، وكان الله لحكمهم شاهداً ومطلعاً، لم يغب عنه شيء منه.

والضمير في ﴿لِحُكْمِهِمْ﴾ يعود على داود وسليمان، على أساس أن المثني أقل الجمع، وكان هذا الحكم -على ما عليه جمهور الفقهاء- باجتهاد من سليمان وداود، ولم يكن بوحى من الله تعالى.

وقد أعطى الله سليمان الحكمة، وعلم الصناعات والإبداع، وسخر له الإنس والجن، والشياطين، والرياح، والطيور، والدواب، فاستكملت بنو إسرائيل في عهده النظام والصناعة والتجارة والثروة والحكمة.

ولذا: كانت قصة داود وسليمان مثلاً يُضرب.

وقد جرى عُرْفُ الناس على أن أهل الزرع يحفظون زرعهم بالنهار، فلا ضمان على أصحاب الماشية إذا أكلته نهاراً؛ لأن هذا هو وقت رعيها وسراحها، أما إذا رعته ليلاً فإن صاحبها يضمن؛ لأنه مطالب بحفظ غنمه ليلاً.

ويدل على هذه المسألة ما رواه حرام بن سعد بن مَحِيصَةَ أن ناقة للبراء بن عازب رضي الله عنه دخلت حائط رجل من الأنصار فأفسدته، فقضى النبي ﷺ أن: «على أهل الأموال حفظها بالنهار، وعلى أهل المواشي حفظها بالليل»^(٢).

(١) تُنظَرُ القصة في «تفسير الطبري» (٣٢٠/١٦) والحاكم (٥٨٨/٢) والبيهقي (١١٨/١٠) وعبد الرزاق (٢/٢٦) برقم (١٨٤٣٥).

(٢) الحديث عن حرام بن مَحِيصَةَ عن أبيه في صحيح سنن أبي داود برقم (٣٠٤٨) وهو في السنن (٣٥٧٠).

زاد في رواية: «وأن على أهل الماشية ما أصابت ماشيتهم بالليل»^(١).

وذهب أصحاب الرأي إلى أن المالك إذا لم يكن مع ماشيته، فلا ضمان عليه فيما أتلفت ليلاً كان أو نهاراً.

قلت: وهذا كله في الأنعام السائمة وهي ترعى في الأرض الموات، أما الأنعام التي يقوم على غذائها ذُؤُوها، وهي تغدو وتروح برفقتهم، ولها حظائر خاصة بها، أو أماكن تُربط فيها، فلا تدخل في هذا، فإن رعت زرع الجار فعلى صاحبها الضمان ليلاً أو نهاراً.

وحُكِّم داود وسليمان في هذه القضية ليس عن وحي من الله تعالى على الصحيح، إنما هو عن اجتهاد وعلم وحكمة، وكلاهما كان على حق في قضائه، كما قال تعالى: ﴿وَكُلًّا آتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا﴾.

وفي الآية قرينتان تدلان على أن هذا القضاء كان باجتهاد منهما، ولم يكن بوحي من الله تعالى إليهما:

إحدهما: لفظ ﴿إِذْ يَحْكُمَانِ﴾ فهو يدل على أن الحكم في القضية كان من وراء داود وسليمان معاً، ولو كان وحياً ما ساغ الخلاف بين الحكمين.

وثانيتهما: أن الضمير في ﴿فَفَهَّمْنَاهَا﴾ يدل على فهم سليمان للقضية، من نصوص ما كان عندهم في الشرع، ولو كان الحكم بوحي من الله إليه لفهمه داود أيضاً، ولكن سليمان أصاب في اجتهاده، فاستحق الثناء باجتهاده وإصابته، وداود استحق الثناء باجتهاده، ولم يستوجب لوماً ولا ذمّاً لعدم إصابته.

وهذا تفاضل في مراتب الاجتهاد، فقد كان قضاء داود حقاً؛ لأنه مستند إلى تحمل غرم الإضرار على المتسببين في إهمال الغنم، وأصل الغرم أن يكون تعويضاً ناجزاً، فكان قضائه حقاً.

(١) يُنظر: أبو داود في صحيح سننه برقم: (٣٠٤٧) وعبد الرزاق في «المصنف» (١٨٤٣٧) و«المسند» (٣٩/٩٧) برقم (٢٣٦٩١) وسنن ابن ماجه (٢٣٣٢) والطبري (٦/٣٢٧). قال محققو المسند: إسناده مرسل صحيح، رجال ثقات، وهو في الموطأ (٧٤٧/٢) والحديث في مسند البراء (١٨٦٠٦).

وكان قضاء سليمان حقًّا؛ لأنه مستند إلى إعطاء الحق لذويه، مع استيفاء الآخرين مالهم بعد حين، فهو يشبه الصلح.

وقد كان الخَصْمان من أهل الإنصاف لا من أهل الاعتساف، فرضيًا بحكم سليمان.

وهذه الآية أصل في اختلاف الاجتهاد، وفي العمل بالراجح، وفي عذر المجتهد إذا أخطأ اجتهاده، ورجوع القاضي عن حكمه جائز إذا ظهر له الأرجح.

وفي الحديث عن بريدة أن رسول الله ﷺ قال: «القضاة ثلاثة: قاض في الجنة وقاضيان في النار: رجل علم الحق وقضى به فهو في الجنة، ورجل حكم بين الناس على جهل فهو في النار، ورجل علم الحق وقضى بخلافه فهو في النار»^(١).

قال الحسن: لولا هذه الآية لهلك الحكام -أي: القضاة- فإن الله تعالى قد حمد هذا بصوابه، وأثنى على هذا باجتهاده.

وفي الصحيحين عن عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا حكم الحاكم فاجتهد ثم أصاب، فله أجران، وإذا حكم فاجتهد ثم أخطأ، فله أجر»^(٢).

ومن أحكام داود وسليمان عليهما السلام ما رواه أبو هريرة رضي الله عنه أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: «كانت امرأتان معهما ابناهما، جاء الذئب فذهب بابن إحداهما، فقالت لصاحبتها: إنما ذهب بابنك، وقالت الأخرى: إنما ذهب بابنك، فتحاكما إلى داود، فقضى به للكبرى، فخرجتا على سليمان، فأخبرتا، فقال: اتئوني بالسكين أشقه بينهما، فقالت الصغرى: لا تفعل يرحمك الله، هو ابنتها، فقضى به للصغرى»^(٣).

(١) أخرجه أبو داود في «السنن» برقم (٣٥٧٣) و«سنن النسائي الكبرى» برقم (٥٩٢٢) و«سنن ابن ماجه» برقم (٢٣١٥) وصححه الألباني في صحيح ابن ماجه (١٨٧٣) وإرواء الغليل (٢٦١٤) والمشكاة (٣٧٣٥).

(٢) صحيح البخاري برقم (٧٣٥٢) و«صحيح مسلم» برقم (١٧١٦).

(٣) في «البخاري» برقم (٦٧٦٩) و«مسلم» برقم (١٧٢٠) و«سنن النسائي الكبرى» برقم (٥٩٥٨) و«المسند» (٣٢٢/٢).

سَابِعًا: نَبِيُّ اللَّهِ سُلَيْمَانُ عَلَيْهِ السَّلَامُ

٧٩- ﴿فَفَهَّمْنَهَا سُلَيْمَانٌ وَكُلًّا ءَاتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُدَ الْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَالطَّيْرَ وَكُنَّا فَاعِلِينَ ﴿٧٩﴾﴾

قال ﷺ مُثْنِيًا عَلَى حُكْمِ سُلَيْمَانَ: ﴿فَفَهَّمْنَهَا سُلَيْمَانٌ﴾ أي: فَهَّمْنَا سُلَيْمَانَ الْحُكْمَ بِمِرَاعَةِ مَصْلَحَةِ الطَّرَفَيْنِ مَعَ الْعَدْلِ، فَحَكَّمَ عَلَى صَاحِبِ الْغَنَمِ بِإِصْلَاحِ الزَّرْعِ التَّالِفِ، فِي فِتْرَةِ يُسْتَفِيدُ فِيهَا صَاحِبُ الزَّرْعِ بِمَنَافِعِ الْغَنَمِ مِنْ لَبْنٍ وَصُوفٍ وَنَحْوَهُمَا، ثُمَّ تَعُودُ الْغَنَمُ إِلَى صَاحِبِهَا، وَالزَّرْعُ إِلَى صَاحِبِهِ، وَذَلِكَ نَظَرًا لِمَسَاوَةِ قِيَمَةِ مَا تَلَفَ مِنَ الزَّرْعِ لِمَنْفَعَةِ الْغَنَمِ، وَأَعْطَيْنَا كُلًّا مِنْ دَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ حُكْمًا وَعِلْمًا.

وَمِنْ أَحْكَامِ دَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ، مَا وَرَدَ أَنَّ أَرْبَعَةَ مِنْ رُؤَسَاءِ بَنِي إِسْرَائِيلَ، قَدْ رَاوَدُوا امْرَأَةً حَسَنَاءَ عَنْ نَفْسِهَا، فَأَبَتْ وَتَعَفَّفَتْ، فَلَمَّا امْتَنَعَتْ شَهِدُوا عَلَيْهَا عِنْدَ دَاوُدَ أَنَّهَا قَدْ مَكَّنَتْ كَلْبَهَا مِنْ نَفْسِهَا وَعَوَّدَتْهُ عَلَى ذَلِكَ، فَحَكَّمَ عَلَيْهَا دَاوُدَ بِالرَّجْمِ.

فَلَمَّا عَلِمَ سُلَيْمَانُ بِذَلِكَ طَلَبَ الْأَرْبَعَةَ، وَسَأَلَ كُلَّ وَاحِدٍ مِنْهُمْ مِنْ وَرَاءِ الْآخَرِ: مَاذَا كَانَ لَوْنُ الْكَلْبِ؟

فَقَالَ الْأَوَّلُ: إِنَّهُ أَسْوَدُ. وَقَالَ الثَّانِي: إِنَّهُ أَحْمَرُ. وَقَالَ الثَّلَاثُ: إِنَّهُ أَغْبَشُ. وَقَالَ الرَّابِعُ: إِنَّهُ أَبْيَضُ. فَلَمَّا عَلِمَ دَاوُدَ بِذَلِكَ أَرْسَلَ فِي طَلَبِهِمْ مِنْ قَوْرِهِ، وَسَأَلَهُمْ مَتَفَرِّقِينَ، فَاخْتَلَفُوا فِي لَوْنِ الْكَلْبِ، فَأَمَرَ بِقَتْلِهِمْ جَمِيعًا^(١).

وَمَعْنَى ذَلِكَ: أَنَّهُمْ كَذَبُوا، وَأَنَّهُمْ مَدَّعَوْنَ، وَأَنَّهُ لَا بَدَ مِنَ الْقَرِينَةِ الَّتِي تُؤَيِّدُ الشَّاهِدَ، وَلَا بَدَ لِلْقَاضِي أَنْ يَكُونَ مَتَفَرِّسًا مَتَحَرِّيًا.

ثُمَّ ذَكَرَ اللَّهُ سُبْحَانَهُ مَا خَصَّ بِهِ كُلًّا مِنْ دَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ، فَقَالَ فِي شَأْنِ دَاوُدَ: ﴿وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُدَ الْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَالطَّيْرَ﴾ أي: مَنَّا عَلَى دَاوُدَ بِتَطْوِيعِ الْجِبَالِ وَالطَّيُورِ، تُسَبِّحُ مَعَهُ إِذَا سَبَّحَ، فَقَدْ كَانَتْ تُسَبِّحُ بِتَسْبِيحِهِ إِذَا سَمِعَتْهُ يُسَبِّحُ، وَمِنْ ذَلِكَ تَسْبِيحُ الْجِبَالِ وَالطَّيْرِ مَعَهُ

(١) ابن عساکر بإسناده عن قتادة عن مجاهد عن ابن عباس (٢٣٢/٢٢) ويُنظر مخطوط «مختصر تاريخ دمشق» (٥٦٥/٧).

بقدرتنا التي لا يُعجزها شيء، كما قال تعالى: ﴿يَجِئَالُ أَوِي مَعَهُ وَالطَّيْرُ﴾ [سبأ: ١٠]

أي: رجعي التسبيح مع داود.

وقال تعالى: ﴿إِنَّا سَخَرْنَا الْجِبَالَ مَعَهُ يُسَبِّحْنَ بِالْعُشِيِّ وَالْإِشْرَاقِ﴾ (٧٨) وَالطَّيْرَ مَحْشُورَةً كُلٌّ لَهُ أَوَّابٌ ﴿٧٩﴾ [ص: ص].

وقدّم سبحانه تسبيح الجبال على الطيور؛ لأنها أغرب وأعجب، وهو تسبيح حقيقي، كما قال تعالى: ﴿وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِنْ لَا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ﴾ [الإسراء: ٤٤].

وثبت أن النبي ﷺ أخبر أن حجراً في مكة كان إذا مر عليه الرسول ﷺ يُسَلِّم عليه، يقول: الصلاة والسلام عليك يا رسول الله، حين يمر به.

وثبت أن الجذع الذي كان يخطب عليه النبي ﷺ قد حنَّ وتألم حين خطب النبي عليه الصلاة والسلام على المنبر، بعد أن صُنع له ووقف عليه، فسمع للجذع حنين، وسمعه أصحاب رسول الله ﷺ.

وثبت أن الحصى كان يسبح في كف رسول الله ﷺ.

ومن ذلك تسبيح الجبال والطيور معه بقدرتنا التي لا يُعجزها شيء، وكان داود حسن الصوت كما قال النبي ﷺ حين سمع قراءة أبي موسى الأشعري ؓ: «لقد أوتيت زمزماً من مزامير آل داود» قال أبو موسى: يا رسول الله، لو علمت أنك تسمع لحبّرتك لك تحبيراً^(١).

وكان داود ؑ حسن الصوت، يترنّم وهو يرسل المزامير، ويُسَبِّح بحمد الله تعالى.

هذا: وفي الآية التالية بعض ما خصّ الله به داود ؑ، وفي الآيتين بعدها بعض ما خصّ الله به سليمان ؑ.

دَاوُدُ يَصْنَعُ الدَّرُوعَ الْحَدِيدِيَّةَ

٨٠- ﴿وَعَلَّمْنَاهُ صَنْعَةَ لَبُؤْسٍ لَكُمْ لِنُخْصِنَكُمْ^(٢) مِنْ بَأْسِكُمْ فَهَلْ أَنْتُمْ شَاكِرُونَ﴾ (٨١)

(١) الحديث أخرجه الشيخان كما في «اللؤلؤ والمرجان فيما اتفق عليه الشيخان» برقم (٤٥٦).

(٢) قرأ ابن عامر وحفص وأبو جعفر بقاء التأنيث في (لتخصنكم)؛ لأن (لبوس) مؤنث مجازي، وقرأ شعبة ورويس بالنون؛ لمناسبة (وعلمناه) وهو إسناد حقيقي إلى ضمير العظمة، وقرأ الباقر بالباء، مسند إلى ضمير اللبوس، من إسناد الفعل إلى سببه.

امتنَّ الله على داود ﷺ واختصه بأن علَّمه صناعة الدروع، يعملُها حلَقًا متشابكة، تُسهِّل حركة الجسم؛ ليتفَع بها الناس، وتحمي المحاربين من وُقْع السلاح عليهم، وقد ألان الله لداود الحديد من غير نار تُذِيبه، وكانت الدروع قبل ذلك صفائح من حديد جامدة، يثقل استعمالها، فكان داود أول من سردها حلَقًا بإتقان وإحكام، بحيث لا تكون الحلقة واسعة فتقلق المسمار، ولا يكون المسمار غليظًا فيقَدِّ الحلقة، كما قال تعالى: ﴿أَنْ أَعْمَلَ سَيِّئَةٍ وَقَدِّرَ فِي السَّرْدِ﴾ [سبأ: ١١] أي: اعمل دروعًا سابغات، وتقدير السرد: إحكامه وإتقانه.

وقد علَّم الله داود هذه الصناعة، لتجعل المحاربين في حرز ومأمن من الإصابة بآلة الحرب، وتقي بعضهم بأس بعض؛ لأن الدرع تقي صاحبها من ضربات السيوف، وطعن الرماح.

وصناعة الدروع نعمة من الله تعالى على خلقه لاستعمالها في طاعة الله تعالى ونشر كلمته، قال تعالى ﴿وَجَعَلَ لَكُم سُرِيرَ لَيْلٍ تَقِيَكُمُ الْحَرَّ وَسُرِيرَ نَهَارٍ تَقِيَكُمُ الْبَأْسَ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تُشْكُرُونَ﴾ [النحل: ٨١]

وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُدَ مِنَّا فَضْلًا يَجِبَالُ أَوِي مَعَهُ وَالطِّيرُ وَأَلْنَا لَهُ الْحَدِيدَ﴾ [سبأ: ١٠]

وهذه الآية أصل في اتخاذ الصنائع والأسباب، وأنه لا حياة لأمة الإسلام ما لم تكن لها قوة حربية تحميها وتدافع عنها ويهابها عدوها، ونحن في عالم تُسيطر عليه وتحكمه القوى العسكرية والاقتصادية بما لديها من قوة مادية وعلمية.

والإلانة الحديد لداود كالطين، والعجين، يحتمل أن يكون أمرا خارقًا للعادة، ويحتمل أن يكون تعليم الله له صناعة الحديد، أمر تجري به بالعادة، وهو الأظهر، وقد امتن الله على عباده بذلك وحثهم على شكره.

هذا: وقد كان داود إلى جوار ذلك يصنع الخوص، ويأكل من عمل يده، وكان آدم حرثًا، ونوح نجارًا، ولقمان خياطًا، وطالوت دباغًا، وما من نبي إلا رعى الغنم، وبالصنعة يكف الإنسان نفسه، ويدفع عنها الحاجة وذل السؤال.

وفي الحديث عن الزبير بن العوام ؓ أن النبي ﷺ قال: «لأن يأخذ أحدكم حبله فيأتي بحزمة الحطب على ظهره، فيبيعها فيكف الله بها وجهه، خير له من أن يسأل الناس

أعطوه أو منعوه»^(١).

وقال عمر رضي الله عنه: لا يقعد أحدكم عن طلب الرزق، ويقول: اللهم ارزقني؛ فإن السماء لا تمطر ذهبًا ولا فضة.

وجاء في الأثر: إن الله يحب المؤمن المحترف المتعفف، ويبغض السائل الملحف.

وفي الحديث عن أنس رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «إذا قامت الساعة وفي يد أحدكم فسيلة فإن استطاع ألا يقوم حتى يغرسها فليغرسها»^(٢).

وفي الحديث عنه أيضًا: «ما من مسلم يغرس غرسًا، أو يزرع زرعًا فيأكل منه طير، أو إنسان، أو بهيمة إلا كان له به صدقة»^(٣).

تَسْخِيرُ الرِّيحِ لِسُلَيْمَانَ عليه السلام

٨١- ﴿وَلِسُلَيْمَانَ الرِّيحَ^(٤) عَاصِفَةً تَجْرِي بِأَمْرِهِ إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا وَكُنَّا بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمِينَ﴾

وسخر الله لسليمان الريح، وهو جسم لطيف متحرك، يتمتع بلطفه من القبض عليه، ويظهر للحس بحركته، ويخفى عن البصر بلطفه، سخرها الله لسليمان لمنافع كثيرة، ومنها سير المراكب في البحر لمصالح ملكه، من غزو، أو تجارة، ونحوها، فتحمل الجنود، والبضائع، ومواد الصناعة، وأسلحة الجند، وتحمل سليمان وجنوده وحاشيته.

وهي ريح قوية شديدة الهبوب، تجري بأمر سليمان، وهي عائدة من الأقطار التي خرجت إليها، إلى بيت المقدس في أرض الشام التي بارك الله فيها، وبارك حولها بالخيرات الكثيرة، وهي تجري إلى غير الشام ذاهبة وآية إلى حيث أراد سليمان من أرض الله.

وقد صنع سليمان سريرًا يُحْمَلُ عليه عسكره وقواته، يُقَلُّه في الهواء، ويحمله حيث أراد.

ومن الآثار الواردة عن بساط الريح: ما رواه وهب، ومقاتل، والحسن، أن سليمان عليه السلام،

(١) من حديث الزبير بن العوام في «البخاري» برقم (١٤٧١).

(٢) «المسند» برقم (١٢٩٨١).

(٣) من حديث أنس في «البخاري» برقم (٢٣٢٠) و«مسلم» برقم (١٥٥٣).

(٤) قرأ أبو جعفر (الرياح) بالجمع؛ لاختلاف أنواعها في هبوبها وأوصافها، وقرأ الباقر (الريح) على الأفراد.

كان لا يسمع عن مَلِكٍ في ناحية من الأرض إلا غزاه، فكانت الريح تحمله، والطيور تحلق عليه وتظله من الشمس بأجنحتها، والإنس والجن حوله، قالوا: وكان البساط فرسخًا في فرسخ.

قال الحسن: إن الله تعالى عَوَّضه عن الخيل التي شَغَلْته عن صلاة العصر بالريح التي هي أسرع منها، فكان يخرج من إيلياء، وَيَقِيلُ بإصطخر، ثم يروح إلى بابل.

وقال وهب: ذُكر له أنه قد وُجد في دجلة؛ كتابة خَطَّها بعض صحابة سليمان، قال فيها: نحن نزلنا هذا المكان، وما بنيانه، وغدونا من إصطخر، ونحن راثون منه إن شاء الله إلى الشام.

وكان مستقر سليمان في مدينة (تدمر)، وكانت الريح إذا أقلتته بأمره تكون رخاء في غُدُوّه ورواحه، وكانت تَقْطَعُ مسافة السير على الإبل لمدة شهر كامل في لحظات يسيرة، كما قال تعالى: ﴿غُدُوها شَهْرٌ وَرَواحُها شَهْرٌ﴾ [سبأ: ١٢].

وهذا معنى: ﴿وَأَسْلَمَ نَ الْرِّيحَ عَاصِفَةً﴾ أي: شديدة الهبوب قوية.

وأنها رخاء في قوله تعالى: ﴿فَسَخَّرنا لَهُ الرِّيحَ تَجْري بِأَمْرِه رُخاءً حَيْثُ أَصابَ﴾ [ص: ١٦] إلى أي مكان أراد من أقطار العالم.

فهذه الريح تكون شديدة إذا أراد ذلك، وتكون رخاءً لَيِّنَةً إذا أراد ذلك، ثم ترجع به إلى الأرض التي بارك الله فيها.

كما سخر الله السلیمان النحاس المذاب، وقد جاء ذلك في قوله تعالى ﴿وَأَسْلَمنا لَهُ عَيْنَ الْفِطْرِ﴾ [سبأ: ١٢]

وقد أعطى الله سليمان مُلْكًا لا ينبغي لأحد من بعده، فسَخَّرَ له الريح والشياطين والطيور وغيرها، وكان سليمان مع ذلك إذا حملته الريح يطأطئ رأسه، ولا يلتفت يمينًا ولا شمالًا، تعظيمًا لله وشكرًا لأنعمه عليه، وكان يأكل خشن العيش، ويُطعم أبناءه أنعم منه، ويُطعم الضيوف الدقيق الفاخر شكرًا لله تعالى.

وقد ختم الله الآية بقوله: ﴿وَكَنا بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمِينَ﴾ قد أحاط علمنا بكل ما يجري في هذا الكون وفق مقتضى الحكمة الإلهية.

تَسْخِيرُ الشَّيَاطِينِ لِسُلَيْمَانَ

٨٢- ﴿وَمِنَ الشَّيَاطِينِ مَن يَغُوصُونَ لَهُ وَيَعْمَلُونَ عَمَلًا دُونَ ذَلِكَ وَكُنَّا لَهُمْ حَفِظِينَ﴾

ومن معجزات سليمان أن سخر الله له من الشياطين من يغوصون له، فيدخلون تحت الماء في قاع البحر، ويستخرجون منه الجواهر والمعادن، واللؤلؤ والمرجان، وغير ذلك، ويعملون أعمالاً هي دون الغوص في البحر، كما قال تعالى: ﴿يَعْمَلُونَ لَهُ مَا يَشَاءُ مِنْ مَّخْرِبٍ وَتَمَثِيلٍ وَحِفَانٍ كَالْجَوَابِ وَقُدُورٍ رَاسِيَتٍ﴾ [سبأ: ١٣]

وكما ألان الله لداود الحديد، فإن الشياطين تقوم لسليمان ببناء المدن والقصور، الشاهقة التي يعجز عنها البشر، والصناعات الثقيلة والخفيفة، وتقوم بصنع التماثيل والمحاريب، وقد سخر سليمان طائفة منهم لبناء بيت المقدس، كما قال تعالى: ﴿وَالشَّيَاطِينُ كُلٌّ بَنَاءٍ وَعَوَاصٍ ﴿٢٧﴾ وَآخَرِينَ مُقَرَّنِينَ فِي الْأَصْفَادِ ﴿٢٨﴾﴾ [ص: ١٣].

قال تعالى: ﴿وَمِنَ الْجِنِّ مَن يَعْمَلُ بَيْنَ يَدَيْهِ بِإِذْنِ رَبِّهِ وَمَن يَزِغْ مِنْهُمْ عَنْ أَمْرِنَا نُذِقْهُ مِنْ عَذَابِ السَّعِيرِ﴾ [سبأ: ١٢].

لقد سخر الله الجن والشياطين لسليمان، وعلمه كيف يحكمهم، ويستخدمهم ويطوِّعهم، ويجعلهم منقادين له قائمين بخدمته، دون أن يكون في ذلك عناء له، كما حال بينهم وبين الناس؛ لئلا يؤذوهم.

ولما مات سليمان لم يسخر الله الجن لغيره، استجابة لدعوته ﴿وَهَبْ لِي مُلْكًا لَا يَبْغِيَ لِأَحَدٍ مِنِّي بَعْدِي﴾ [ص: ٣٥].

ومات سليمان وهم يعملون في خدمته، وظلوا سنة كاملة مسخرين له بعد موته وهم لا يعلمون بموته، قال تعالى: ﴿فَلَمَّا قَضَيْنَا عَلَيْهِ الْمَوْتَ مَا دَلَّهُمْ عَلَى مَوْتِهِ إِلَّا دَابَّةُ الْأَرْضِ تَأْكُلُ مِنْسَاتِهِمْ فَلَمَّا خَرَ تَتَنَبَّأَ لِجُنِّ أَنْ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ الْغَيْبَ مَا لَبِثُوا فِي الْعَذَابِ الْمُهِينِ ﴿٤٤﴾﴾ [سبأ: ١٤].

وقد ختم الله الآية بقوله: ﴿وَكُنَّا لَهُمْ حَفِظِينَ﴾ أي: وكنا للشياطين حافظين أن يتعدوا حدود الله فيبدلوا أو يغيروا، أو يخرجوا عن طاعته سبحانه، ويُفسدوا ما عملوا، وذلك أنهم كانوا إذا عملوا عملاً بالنهار أفسدوه بالليل، فكان سليمان إذا فرغوا من عمل قبل

الليل يكلفهم بعمل آخر، وليس في قدرتهم الامتناع عما يريد منهم، وقد حرس الله سليمان من أن يناله أحد منهم بسوء، أو يتجاسر على الاقتراب منه، فكان يُطْلَق من يشاء ويحبس من يشاء، ويتصرف فيهم كيف يشاء.

ثَامِنًا: نَبِيُّ اللَّهِ أَيُّوبُ عَلَيْهِ السَّلَامُ

٨٣- ﴿وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الضُّرُّ وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾

أيوب عليه السلام من أنبياء بني إسرائيل، وهو من نسل إسحاق، كان أغنى القوم، رزقه الله أموالاً كثيرة، ورزقه أرضاً واسعة، ورزقه بنين وبنات، قيل: سبعة من البنين، وسبعاً من البنات^(٢).

وقد ابتلاه الله ﷻ ابتلاء شديداً، وسلط هذا البلاء على ماله، فأذهب الله أمواله كلها فصبر، وابتلاه بفقد أبنائه وبناته فصبر، ثم ابتلاه في جسده بأن مرض مرضاً شديداً غير منفر للناس منه فصبر، والأنبياء ﷺ منزهون عن الأمراض المعدية والمنفرة.

ولما ابتلاه الله بمرض في جسده حفظ عليه عقله وقلبه وسمعه وبصره، فصبر على كل ذلك، وهو يتהל إلى الله تعالى بالتمجيد والدعاء، ويسأله كشف الضر عنه، وأوحى الله إليه بمواعظ تزيد ثقته به تعالى، ثم أعاد الله عليه صحته، وعوّضه بأموال وبنين بعدد ما فُقد منه، وكانت زوجته إلى جواره تحنو عليه وتؤازره وتواسيه.

ومن الحكايات ما يسمى بصبر أيوب، من نسج أهل القصص والروايات، وهي خرافات لا تليق بنبي من أنبياء الله تعالى.

والقرآن الكريم يشير إلى أن الله ﷻ قد ابتلاه، وأنه دعا ربه بقوله: ﴿أَنِّي مَسَّنِيَ الضُّرُّ﴾ أي: مسني الضر في أهلي ومالي وولدي، ولم يشتك أيوب، ولم يجزع، ولم يطلب تغيير الحال، ولم يقترح شيئاً، وإنما يقول في أدب جم: يارب، أنت أهل لأن ترحم عبادك، وأنا عبد أستحق الرحمة، فارحمني بفضلك، فأنت أرحم الراحمين، فاستجاب الله له، وقال له ﴿أَكْضِ بِرِجْلِكَ هَذَا غُغْلٌ بَارِدٌ وَشَرَابٌ﴾ فضرب الأرض برجله، فنبعت عين ماء باردة،

(١) قرأ حمزة بإسكان ياء الإضافة وصلًا ووقفًا من (مسنى الضر)، والباقون بفتحها وصلًا وإسكانها وقفًا.

(٢) في السُّفَرُالخاص بأيوب من أسفار اليهود أن عدد بناته كان ثلاثاً.

فاغتسل منها وشرب، فأذهب الله ما به من أذى.

ومن المتفق عليه أن أيوب كان في غاية الصبر، وبه يُضرب المثل في الصبر، وقد ابتُلي في ماله وولده وجسده فصبر واحتسب، ولجأ إلى الله تعالى يسأله كُشف ما به من ضرر.

والله تعالى يخاطب خاتم الرسل ﷺ في هذه الآية، فيقول: واذكر -يا محمد- عبدنا أيوب، فقد ابتليناه بضر وسقم عظيم في جسده، وفقد أهله وماله وولده، فصبر واحتسب، ونادى ربه قائلاً: إني قد أصابني الضر، وأنت أرحم الراحمين، فأكشفه عني، فكشف الله عنه البلاء وأجزل له العطاء.

وفي الحديث عن سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «يُتلى الرجل على قدر دينه، فإن كان في دينه صلابة زيد في بلائه، وأشد الناس بلاء الأنبياء، ثم الصالحون، ثم الأمل فالأمل»^(١).

وأخرج أحمد والترمذي وغيرهما بسند صحيح إلى مصعب بن سعد عن أبيه رضي الله عنه قال: قلت: يا رسول الله، أي الناس أشد بلاء؟ قال: «الأنبياء، ثم الأمل فالأمل، فَيُتلى الرجل على حسب دينه، فإن كان دينه صلباً اشتد بلاؤه، وإن كان في دينه رقة ابتلي على حسب دينه، فما يبرح البلاء بالعبد حتى يتركه يمشي على الأرض ما عليه خطيئة»^(٢).

قيل: إن إبليس -وهو يسترق السمع- سمع تجاوب الملائكة بالصلاة على أيوب، وهو يذكر الله تعالى ويُثني عليه، فحسده، وسأل الله تعالى أن يبتليه؛ ليظهر صبره من عدمه.

وقيل: إن امرأته قالت له: يا أيوب، لو دعوت ربك يفرج عنك؟ فقال: قد عشت سبعين سنة صحيحاً، فعليّ أن أصبر سبعين سنة مثلها، فجزعت من ذلك، فقال: لئن

(١) «سنن الترمذي» برقم (٢٣٩٨) وقال: حديث حسن صحيح، وصحيح ابن ماجه برقم (٣٢٤٩) من حديث سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه و«سنن الدارمي» (٣٢٠/٢) والحاكم (٤١/١) وابن حبان في الإحسان برقم (٢٩١) والضياء المقدسي في «المختارة» برقم (١٠٥٦) قال محققه: إسناده صحيح، وصححه العراقي في «تخريج الإحياء» برقم (٣٣١٠)، وهو في السلسلة الصحيحة برقم (١٤٣) ومشكاة المصابيح (١٥٦٢).

(٢) رواه أحمد في «المسند» (١٧٢/١) برقم (١٤٨١، ١٥٥٥، ١٦٠٧) قال محققوه: وإسناده حسن من أجل عاصم بن أبي النجود وباقي رجاله ثقات رجال الشيخين، وأخرجه عبد بن حميد (١٤٦) والدارمي (٢٧٨٣) والطيالسي (٢١٥) وابن حبان (٢٩٠٠).

شفاني الله لأجلدك مئة جلدة.

وعن أنس بن مالك رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «إن نبي الله أيوب لبث به بلاؤه ثمانى عشرة سنة»^(١).

ولما سأل أيوب ربه أن يكشف ما به من ضر، أجاب دعاءه:

٨٤- ﴿فَاسْتَجَبْنَا لَهُ فَكَشَفْنَا مَا بِهِ مِنْ ضُرٍّ وَآتَيْنَاهُ أَهْلَهُ وَمِثْلَهُمْ مَعَهُمْ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا
وَذِكْرَىٰ لِّلْعَالَمِينَ﴾

دعا أيوب ربه، فاستجاب الله دعاءه، ورفع عنه البلاء الذي أصابه، وردَّ عليه ما فقده من أهل ومال وولد مضاعفًا، وقد أكرمه الله بذلك رحمة منه بعبده أيوب؛ ليكون عبرة وعظة وقدوة للصابرين على البلاء، الراجين رحمة ربهم، العابدين له، فقد كشف الله ما به من ضر، وأزال عنه ما به من مرض، وجعل لذلك سببًا حين قال له: اضرب الأرض برجلك فتنبع عين ماء تحت قدميك، فاغتسل من هذا الماء، فاغتسل منه، فذهب عنه كل ضر، وكل ألم في ظاهر بدنه.

ثم ضرب الأرض مرة ثانية، فنبعت عين ماء فشرب منها، فزال كل ألم في باطنه كما قال تعالى: ﴿ارْكُضْ بِرِجْلِكَ هَذَا مُغْتَسَلٌ بَارِدٌ وَشَرَابٌ﴾ [ص: ٤١] أي: اغتسل وتطهر واشرب، وقد طهر الله ظاهره وباطنه من المرض الذي ألمَّ به، ثم ردَّ عليه زوجته كما كانت، وزاد في شبابها، ورد عليه أبناءه وبناته في الدنيا.

وظاهر القرآن الكريم يفيد أن الله تعالى آتاه أهله وأولاده بذواتهم، ورزقه ذرية أخرى، أي: أن الله تعالى قد عوضه أهله وأبنائه وبناته بشكل مضاعف، وقد فعل الله ذلك رحمة منه بعبده أيوب، وجعل ذلك تذكرة وموعظة للمؤمنين.

(١) يُنظر الحديث في: «صحيح ابن حبان» برقم (٢٠٩١) في «موارد الظمان» من طريق حرملة ابن يحيى عن ابن وهب، وصححه الحاكم على شرط الشيخين (٥٨١/٢).

تَاسِعًا وَعَاشِرًا وَحَادِي عَشَرَ: أَنْبِيَاءُ اللَّهِ: إِسْمَاعِيلُ وَإِدْرِيسُ وَذُو الْكِفْلِ

٨٥، ٨٦- ﴿وَإِسْمَاعِيلَ وَإِدْرِيسَ وَذَا الْكِفْلِ كُلٌّ مِنَ الصَّابِرِينَ ﴿٨٥﴾ وَأَدْخَلْنَاهُمْ فِي رَحْمَتِنَا إِنَّهُمْ مِنَ الصَّالِحِينَ ﴿٨٦﴾﴾

ذكر الله تعالى في هذه الآية ثلاثة من رسل الله، اشتركوا جميعاً في خاصية الصبر بعد أيوب عليه السلام، فكلهم كانوا من الصابرين، وهؤلاء الثلاثة هم:

١- نبي الله إسماعيل بن إبراهيم الخليل، أبو العرب، وهو الذبيح، والابن الأكبر لإبراهيم وهو من زوجه هاجر، وقد صبر إسماعيل على أمر الذبح، وامثل أمر ربه لما قال له أبوه: ﴿إِنِّي أَرَى فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ﴾ فأجابه: ﴿يَا أَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمُرُ سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ ﴿٨٦﴾﴾ [الصافات].
فإسماعيل بن إبراهيم، أكبر أبنائه، وقد صبر على أمر الذبح، وكان صادق الوعد، ورسولاً نبياً.

٢- وإدريس أول الرسل، وهو أخنوخ، بُعث بعد آدم وبعد ابنه شيث، وهو جد نوح، وإدريس كان خياطاً، وهو أول من عَلِمَ فنون الصناعة وغيرها، وقد أنزل الله عليه صحفاً، وكان إدريس صديقاً نبياً، وقد صبر على تتبع الحكمة والعلوم، وما لقي في رحلاته من المتاعب. قيل: إنه كان يترك الطعام والنوم مدة طويلة؛ لتصفو نفسه ويهتدي إلى الحكمة والعلم، وعُدَّ من الصابرين على ذلك.

٣- وذو الكفل أحد أنبياء الله، ذُكر أكثر من مرة في سلسلة الأنبياء، وهو خليفة اليسع في النبوة، وله كتاب من كتب أنبياء اليهود؛ وسمي كذلك لأنه تكفل بثلاثة أشياء: أن يصوم النهار فلا يفطر، وأن يقوم الليل فلا يفتُر، وأن يقضي بين الناس فلا يغضب.

قيل: إن اليسع لما كبرت سنه قال: من يتكفل لي بثلاثة أستخلفه: أن يصوم النهار، ويقوم الليل، ولا يغضب، فلم يتكفل له بذلك إلا هذا النبي^(١).

(١) يُنظَر: «تفسير الطبري» (١٧/٥٩).

وقد ثبت على ما تكفل به، فكان من أفضل الصابرين، واسمه عند اليهود (عويديا)^(١)
 وقال مجاهد في ذي الكفل: رجل صالح غير نبي، تكفل لنبي قومه أن يكفيه أمر قومه،
 ويقيمه لهم، ويقضي بينهم بالعدل، ففعل ذلك، فسمي ذا الكفل^(٢).
 وقال بعدم نبوته أيضًا أبو موسى الأشعري رضي الله عنه، وعلى هذا فأمر نبوته مُخْتَلَفٌ فيه،
 والأرجح أنه نبي؛ لذكره في سلسلة الأنبياء في القرآن الكريم.
 والأرجح أيضًا أن ذا الكفل غير إلياس؛ لأن الله تعالى غاير بينهما في التسمية، واسمه
 «بشر» بن أيوب.

ومما ورد أن رجلًا من بني إسرائيل كان يسمى (الكفل)؛ وكان لا يتورع من ذنب
 عَمَلِهِ، فأتته امرأة، فأعطاه ستين دينارًا على أن يطأها، فلما قعد منها مقعد الرجل من
 المرأة، ارتعدت وبكت، فقال: ما يُكيكِ؟ أكرهتُكِ؟ قالت: لا، لكنني لم أعمل ذلك
 قَطُّ، وما حملني عليه إلا الحاجة، فقال لها: اذهبي فهي لك، والله لا أعصي الله أبدًا،
 فمات من ليلته، فأصبح مكتوبًا على بابه: إن الله قد غفر للكفل^(٣).

والظاهر: أن المراد شخص آخر يقال له: (الكفل)؛ من غير إضافة، وليس (ذو الكفل) النبي.

وقد صبر هؤلاء الثلاثة على طاعة الله وعن معاصيه، وعلى أقداره، فاستحقوا الذكر
 الحسن والثناء الجميل، ووصفهم ربنا بالصلاح، وهو يشمل صلاح القلوب، بمعرفة الله
 تعالى ومحبه، وصلاح اللسان، بأن يكون رطبًا بذكر الله، وصلاح الجوارح، باشتغالها
 في طاعة الله والكف عن معاصيه.

(١) كما في «سفر الملوك» الإصحاح ١٨ ص ٨٩١ من الكتاب المقدس.

(٢) أخرجه الطبري بسند صحيح عنه (٣٧١/١٦).

(٣) أخرجه أحمد عن ابن عمر بلفظ (كان الكفل من بني إسرائيل لا يتورع...) في «المسند» (٣٢/٢) برقم
 (٤٧٤٧) بإسناد ضعيف والترمذي في صفة القيامة برقم (٢٤٩٦) وقال حديث حسن، وابن حبان برقم
 (٣٨٨) والحاكم (٢٥٤/٤) وقال: صحيح الإسناد، ووافقه الذهبي، والبيهقي في «الشعب» (٧١٠٨)
 وقال ابن كثير في تفسيره للآية: هذا حديث غريب، وقد ضَعَّفَ الألباني في «ضعيف سنن الترمذي» برقم
 (٤٤٨) و«السلسلة الضعيفة» برقم (٤٠٨٣).

وقد حمل هؤلاء الرسل رسالة ربهم وبلغوها إلى أقوامهم بصدق وصبر وأمانة، فأدخلهم الله في رحمته وكانوا من عباده الصالحين؛ لأنهم ممن صلح باطنه وظاهره، فأطاع الله وعمل بما أمره به.

أخرج ابن سعد عن الكلبي قال: أول نبي بُعث: إدريس، ثم نوح، ثم إبراهيم، ثم إسماعيل وإسحاق، ثم يعقوب، ثم يوسف، ثم لوط، ثم هود، ثم صالح، ثم موسى وهارون، ثم إلياس، ثم اليسع، ثم يونس، ثم أيوب^(١).

ثَانِي عَشَرَ: نَبِيُّ اللَّهِ يُونُسُ عَلَيْهِ السَّلَامُ

٨٧- ﴿وَذَا النُّونِ إِذْ ذَهَبَ مُغْضِبًا فَظَنَّ أَنْ لَنْ نَقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَى فِي الظُّلُمَاتِ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ (٨٧)

أما ذو النون، فهو يونس بن متى عليه السلام، وقد ذكرت قصته مع الحوت هنا، وفي سورة الصافات [١٣٩-١٤٨]، وفي سورة القلم [٤٨-٥٠]، وذكرت قصته مع قومه في السورة التي سميت باسمه سورة يونس [٩٨].

ونون اسم من أسماء الحوت، وأضيف يونس للحوت الذي ابتلعه، ووصف بأنه صاحب النون أي الحوت.

وقد أرسله الله في قرية نينوى بأرض الموصل بالعراق، في القرن الثامن قبل الميلاد، أرسله الله إلى مئة ألف أو يزيدون، دعاهم إلى توحيد الله سبحانه، فلما لم يستجيبوا له خرج من بينهم غاضباً منهم؛ ليذهب إلى غيرهم، فوصل إلى شاطئ البحر وركب السفينة، ولما ثقلت بمن فيها قالوا: لئن يغرق واحد منا ويُلْقَى نفسه في البحر أولى من أن يغرق الجميع، وأرادوا أن تتخفف السفينة بإنزال واحد منهم، فافترعوا: من الذي يُلقى نفسه في البحر؟ فخرج السهم ثلاث مرات على يونس عليه السلام، فألقى بنفسه في البحر، وإذا بالبحر حوت، قد أعده الله ﷻ إليه فاغراً فاه ليلتقمه، وأوحى الله إلى هذا الحوت الذي التقم يونس: ألا تُهشِّم له عظماً، ولا تنهش له لحماً؛ فإن يونس ليس لك رزقاً، وإنما بطنك له سجن.

(١) «طبقات ابن سعد» (١/٥٤).

ثم نبذه الحوت إلى الساحل بعد وقت، وأرسله الله إلى قومه مرة أخرى فأمنوا، والمغاضبة التي في الآية: مفاعلة من الجانبين، أي: خرج وهو غضبان من قومه، وهم غاضبون منه، وقد ظنَّ يونس أن الله تعالى لن يُضَيِّقَ عليه في بطن الحوت؛ ليعيده إلى قومه مرة أخرى، ويُحَتِّمَ عليه الإقامة بينهم، فقد كان يظن أنه مخير إن شاء أقام بينهم وإن شاء خرج، وهذا معنى ﴿فَظَنَّ أَنْ لَنْ نَقْدِرَ عَلَيْهِ﴾ أي: لن نضيقَ عليه، فضيقَ الله عليه اختياره، وأعادته إلى قومه.

ولما كان يونس في أسفل البحر وهو في بطن الحوت، سمع تسبيح دواب البحر فسبح، فسمعتُه الملائكة، فقالوا: يا ربنا إنا نسمع صوتًا ضعيفًا بأرض غريبة، قال: ذلك عبدي يونس^(١).

وفي حديث سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «دعوة ذي النون إذ هو في بطن الحوت: ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ فإنه لم يدعُ بها مسلمٌ ربَّه في شيء قطُّ إلا استجاب له»^(٢).

والظلمات هي: ظلمة الليل، وظلمة البحر، وظلمة بطن الحوت، وهذا التسبيح في بطن الحوت كان سببًا في إنجاء الله له، ولو لم يسبح ربه لمكث في بطنه إلى يوم البعث، كما قال تعالى: ﴿فَلَوْلَا أَنْتُمْ كَانُوا مِنَ الْمَسْجُورِينَ ﴿١٤٣﴾ لَلَيْتَ فِي بَطْنِهِ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿١٤٤﴾﴾ [الصافات].

وكان يونس قد توعدَّ قومه أن عذاب الله تعالى نازل بهم بعد ثلاثة أيام، فلما أشرفت المدة على الانقضاء ولم يؤمنوا، خرج من بينهم، ولمَّا تحققوا أن العذاب نازل بهم لا محالة؛ خرجوا إلى الصحراء بأطفالهم ونسائهم ومواشيهم، وتضرعوا إلى الله تعالى، وتابوا وأنبأوا إليه، فرفع الله عنهم العذاب، كما قال تعالى: ﴿فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةً ءَامَنَتْ فَنَفَعَهَا إِيمَانُهَا إِلَّا قَوْمٌ يُوَسَّسُ لِمَا ءَامَنُوا كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَى حِينٍ ﴿١٧٠﴾﴾ [يونس].

(١) يُنْظَرُ هذا المعنى في: حديث ابن مسعود، وأبي هريرة، وابن عباس في «البخاري» برقم (٣٣٩٥) و«مسلم» برقم (٢٣٧٧) و«مسند البزار» برقم (٢٢٥٤) من كشف الأستار، والطبري في التفسير (٢٥/١٧).

(٢) «المسند» (١٧٠/١) برقم (١٤٦٢) من حديث طويل بإسناد حسن، والترمذي برقم (٣٥٠٥) والنسائي في «الكبرى» برقم (١٠٤٩١، ١٠٤٩٢) و«صحيح سنن الترمذي» (٢٧٨٥) والحاكم (٥٠٥/١، ٣٨٢/٢) والبزار (١١٦٣) والبيهقي (٦٢٠، ١٠٢٢٤) وابن جرير (٣٨٦/١٦) وأبو يعلى (٧٧٢).

ولم يسقط تبليغ الدعوة عن يونس عليه السلام؛ لأنه خرج من بين قومه، ولكنه عوتب على ذلك، وحلّ به ما حلّ، ورجع إليهم يدعوهم إلى توحيد الله، كما قال سبحانه: ﴿وَأَرْسَلْنَاهُ إِلَى مِائَةِ آلَافٍ أَوْ يَزِيدُونَ ﴿٤٧﴾ فَآمَنُوا فَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَى حِينٍ ﴿٤٨﴾﴾ [الصفات].

والله سبحانه يقول لرسوله محمد ﷺ: ﴿فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تَكُنْ كَصَاحِبِ الْحُوتِ إِذْ نَادَى وَهُوَ مَكْظُومٌ ﴿٤٨﴾﴾ [القلم].

وبين سبحانه أن الله تعالى قد تدارك يونس برحمته ولطفه فقال: ﴿لَوْلَا أَن تَدَارَكُوهُ نِعْمَةٌ مِّن رَّبِّهِ لَنُبِذَ بِالْعَرَاءِ وَهُوَ مَذْمُومٌ ﴿٤٩﴾ فَاجْنِبْهُ رَبُّهُ فَجَعَلَهُ مِنَ الصَّالِحِينَ ﴿٥٠﴾﴾ [القلم].

قال تعالى ﴿وَإِنَّ يُوسُفَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴿٣٩﴾ إِذْ أَبَقَ إِلَى الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ ﴿٤٠﴾ فَسَاهَمَ فَكَانَ مِنَ الْمُدْحَضِينَ ﴿٤١﴾ فَالْتَقَمَهُ الْحُوتُ وَهُوَ مُلِيمٌ ﴿٤٢﴾ فَلَوْلَا أَنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُسَبِّحِينَ ﴿٤٣﴾ لَلَبِثَ فِي بَطْنِهِ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿٤٤﴾ فَنَبَذْنَاهُ بِالْعَرَاءِ وَهُوَ سَقِيمٌ ﴿٤٥﴾ وَأَلْبَسْنَا عَلَيْهِ شَجَرَةً مِّنْ يَقْطِينٍ ﴿٤٦﴾ وَأَرْسَلْنَاهُ إِلَى مِائَةِ آلَافٍ أَوْ يَزِيدُونَ ﴿٤٧﴾ فَآمَنُوا فَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَى حِينٍ ﴿٤٨﴾﴾ [الصفات].

صحَّ عن ابن عباس رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال: «لا ينبغي لأحد أن يقول: أنا خير من يونس بن متى أصاب ذنبًا، ثم اجتباه ربه»^(١).

وقد اختلف أهل العلم: هل كانت رسالة يونس بعد أن خرج من بطن الحوت أم كانت قبله؟

١- فقال ابن عباس رضي الله عنهما: كانت رسالته بعد أن أخرجه الله من بطن الحوت، بدليل قوله تعالى بعد ذكر خروجه منه: ﴿وَأَرْسَلْنَاهُ إِلَى مِائَةِ آلَافٍ أَوْ يَزِيدُونَ ﴿٤٧﴾﴾ [الصفات]. فثبت بهذا أن خروج يونس من بين قومه مغاضبًا لهم كان قبل النبوة.

٢- وقيل: إن رسالته كانت قبل هذه الواقعة بدليل قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ يُوسُفَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴿٣٩﴾ إِذْ أَبَقَ إِلَى الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ ﴿٤٠﴾﴾ [الصفات]^(٢).

ولعل الأرجح أن قصة الحوت كانت بعد رسالة يونس؛ لأنه خرج من بينهم لما لم

(١) البخاري (٣٣٩٥) ومسلم (٢٣٧٧) وأبو داود (٤٦٦٩) عبد الرزاق (٢٩٩/١).

(٢) من «تفسير الخازن» للآية (٢٧٥/٣).

يستجيبوا له، ولما نَجَّاهُ الله من الحوت، رجع إليهم يدعوهم إلى الله من جديد، وعلى هذا يُحمل القول المنسوب إلى ابن عباس، فيُجمع بينهما بأن ما بعد قصة الحوت، كانت في فترة الرسالة الثانية، ومجموع الآيات يشير إلى هذا.

ورد أن ابن عباس دخل على معاوية، فقال له معاوية: لقد ضربتني أمواج القرآن البارحة، فغرقت، فلم أجد لنفسي خلاصًا إلا بك، قال: وما هي؟ فقرأ معاوية هذه الآية، وقال: أَوَ يَظُنُّ نَبِيَّ اللَّهِ، أَنَّ اللَّهَ لَا يَقْدِرُ عَلَيْهِ؟! قال ابن عباس: هذا من القدر، لا من القُدرة^(١) يعني: التضييق عليه، قال تعالى: ﴿وَمَنْ قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُ فَلْيُنْفِقْ مِمَّا آتَاهُ اللَّهُ﴾ [الطلاق: ٧]. قال تعالى:

٨٨- ﴿فَاسْتَجِبْنَا لَهُ وَبَجَيْنَاهُ مِنَ الْغَمِّ وَكَذَلِكَ نُخْرِجُ الْمُؤْمِنِينَ﴾

استجاب الله دعاء يونس عليه السلام، ونجَّاه من الغم الذي كان فيه، وخلصه من هذه الشدة؛ حيث نبذ الحوت، وألقاه على ساحل البحر، وأنبت الله عليه شجرة من يقطين، أي: من شجر القرع، تُظِلُّه ويستفح بها، وكما نجينا يونس من بطن الحوت ننجي المصدقين الصالحين، وننجي كل من يقع منهم في همٍّ وغمٍّ وكرب وضيق، ويدعو الله بهذا الدعاء فإنه يُستجاب له إن شاء الله.

قيل: إن في دعاء يونس ربه، الاسم الأعظم الذي إذا دُعي به أجاب، وإذا سئل به أعطى، كما جاء عن سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «اسم الله الذي إذا دُعي به أجاب، وإذا سئل به أعطى، دعوة يونس بن متى» قال: قلت: يا رسول الله، هي ليونس خاصة، أم لجماعة المسلمين؟ قال: «هي ليونس بن متى خاصة، وللمؤمنين عامة إذا دعوا بها، ألم تسمع قول الله ﷻ: ﴿فَنَادَى فِي الظُّلُمَاتِ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا﴾

(١) من «تفسير الكشاف» والنسفي للآية، وقد أخرجه الزبير بن بكار في «الموفقيات» من طريق الكلبي عن أبي صالح كما في «الدر المنثور» (٣٦١/١٠)، وقد ضعفه الألباني في ضعيف الجامع الصغير برقم (٨٥٤) وهو في تفسير الطبري للآية.

(٢) قرأ ابن عامر وشعبة بحذف إحدى التونين من (ننجي) وتشديد الجيم، مضارع نجَّى، والباقون بنونين وتخفيف الجيم، مضارع أنجى.

أَنْتَ سُبْحَنَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ ﴿٨٧﴾ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَجَعَلْنَاهُ مِنَ الْغَمِّ وَكَذَلِكَ نُشَجِّي الْمُؤْمِنِينَ ﴿٨٨﴾ ﴿٨٩﴾ فهو شرط من الله لمن دعاه به^(١)، وهكذا ورد عن الحسن وغيره.

ثَالِثَ عَشَرَ: نَبِيُّ اللَّهِ زَكَرِيَّا عَلَيْهِ السَّلَامُ

٨٩- ﴿وَزَكَرِيَّا إِذْ نَادَى رَبَّهُ رَبِّ لَا تَذَرْنِي فَرْدًا وَأَنْتَ خَيْرُ الْوَارِثِينَ﴾ ﴿٨٩﴾

أما زكريا عليه السلام فهو ابن آزن بن بركيا، يتصل نسبه بسليمان عليه السلام، وكان قريب العهد بعيسى عليه السلام؛ لأنه كفل مريم أم عيسى، وكان قد بلغ المئة من العمر، وامراته تقل عنه بعام واحد، وكانت امراته عقيماً، فدعا ربه أن يرزقه الولد في هذه الآية، وقد فهم من قوله ﴿رَبِّ لَا تَذَرْنِي فَرْدًا﴾ أنه لما تقارب أجله، خاف أن لا يقوم أحد من بعده بالدعوة إلى الله تعالى، وأن لا يخلفه أحد في ميراث النبوة، فسأل الله الولد، فأجاب الله دعاه.

المعنى: واذكر -يا رسولنا- قصة زكريا وقت أن دعا ربه وناداه نداء خفياً: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ الْعَظْمُ مِنِّي وَاشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْبًا وَلَمْ أَكُنْ بِدُعَائِكَ رَبِّ شَقِيًّا﴾ ﴿٩٠﴾ وَإِنِّي خِفْتُ الْمَوَالِيَ مِنْ وَرَائِي وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِرًا فَهَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ وَلِيًّا ﴿٩١﴾ يَرِثُنِي وَيَرِثْ مِنْ عَالِ يَعْقُوبَ وَاجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا ﴿٩٢﴾ [مريم].

يقول: لقد كبرت سني، ورق عظمي، وقد عودتني يا رب إجابة الدعاء، فلا تتركني وحيداً دون أن ترزقني عقباً لي، وهب لي وارثاً يقوم في الناس بأمر الدين بعدي، فأنت الباقي بعد فناء خلقك، وخير من يخلفني بخير، وأنت حسبي ونعم الوكيل.

رَابِعَ عَشَرَ: نَبِيُّ اللَّهِ يَحْيَى عَلَيْهِ السَّلَامُ

٩٠- ﴿فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَوَهَبْنَا لَهُ يَحْيَىٰ وَأَصْلَحْنَا لَهُ زَوْجَهُ إِنَّهُمْ كَانُوا يُسْكَرُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَا رَعَبًا وَرَهَبًا وَكَانُوا لَنَا خَشِيعِينَ﴾ ﴿٩٠﴾

استجاب الله ﷻ دعاء زكريا، وأصلح له زوجه، فولدت له بعد أن كانت عقيماً، ووهبنا له على الكبر ابنه يحيى، ولم يتسم أحد قبله بهذا الاسم، وجعلنا زوجته صالحة

(١) «تفسير الطبري» (١٧/٦٥).

(٢) قرأ حفص وحزمة والكسائي وخلف بدون همز في (زكريا)، والباقون بالهمز.

للحمل والولادة بعد أن كانت عاقراً، ولا عجب في هذا؛ فإن زكريا ويحيى وزوجة زكريا كانوا يبادرون إلى كل خير، مثل جميع الأنبياء والمرسلين السابقين فقد كانوا ممن قال الله فيهم: ﴿يَحْذَرُ الْآخِرَةَ وَيَرْجُوا رَحْمَةَ رَبِّهِ﴾ [الزمر: ٩]. وقوله: ﴿وَادْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا﴾ [الأعراف: ٥٦] أي: أنهم يدعوننا راغبين فيما عندنا من عظيم الثواب، ويدعوننا في الرخاء والشدّة، والمنشط والمكره، فكانوا لنا خاضعين متواضعين، خاشعين متضرعين، فاستحقوا أن ينالوا خيرنا وعطاءنا ورضانا، وكانوا خائفين من عذابنا ونقمتنا، لم يفارق الخوف قلوبهم، إن نزلت بهم رغبة، خافوا أن يكون ذلك استدراجاً من الله لهم، وإن نزلت بهم رهبة، خافوا أن يكون الله ﷻ قد أمر بأخذهم لبعض ما سلف منهم^(١).

وعن عبد الله بن عُكَيْم قال: خطبنا أبو بكر الصديق ﷺ، فحمد الله وأثنى عليه، ثم قال: أما بعد، فإني أوصيكم بتقوى الله، وأن تُثْنُوا عليه بما هو له أهل، وأن تخلطوا الرغبة بالرهبة؛ فإن الله أثنى على زكريا وأهل بيته فقال: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا يُسْئِرُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا وَكَانُوا لَنَا خَشِيعِينَ﴾^(٢).

وقد وصف الله تعالى رسله وأنبياءه في هذه الآية بثلاثة أوصاف، هي:

- ١- أنهم يسارعون في الخيرات.
- ٢- وأنهم يدعون ربهم خوفاً وطمعاً.
- ٣- وأنهم خاشعون خاضعون لله تعالى.

خَامِسَ عَشَرَ: نَبِيُّ اللَّهِ عِيسَى وَأُمُّهُ مَرْيَمُ

٩١- ﴿وَالَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهَا مِنْ رُوحِنَا وَجَعَلْنَاهَا وَابْنَهَا آيَةً لِلْعَالَمِينَ﴾

ختم الله سبحانه هذه السلسلة من الأنبياء والمرسلين بالإشارة إلى عيسى ﷺ وأمه مريم بنت عمران، ولم يصرح القرآن باسمها هنا، وإنما قال: ﴿وَالَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا﴾ أي

(١) أخرجه عبد بن حميد عن الحسن، «الدر المنثور» (٣٦٨/١٠).

(٢) ابن أبي شيبة (٢٥٨/١٣) وأبو نعيم في «الحلية» (٣٥/١) والحاكم (٣٨٣/٢) والبيهقي في «شعب الإيمان» (١٠٥٩٣، ١٠٥٩٤) وابن أبي حاتم.

حفظته من الحرام وقربانه، بل وحفظته من الحلال، فلم تتزوج لاشتغالها بالعبادة، واستغراق الوقت في خدمة البيت، وحين جاء إليها جبريل في صورة بشر، استعازت بالله منه ﴿قَالَتْ إِنَّهُ أَخَوُذُ بِالرَّحْمَنِ مِنْكَ إِنْ كُنْتَ نَقِيًّا﴾ [مريم: ١٨] وهذا من ورعها وتقواها وخوفها من الحرام، وقد كافأها الله تعالى بأن رزقها ولدا من غير أب.

وفي ذكر اسم مريم في القرآن ردُّ على اليهود الذين يقولون: إنها زنت مع يوسف النجار، وردُّ على النصارى الذين يقولون: عيسى ابن الله؛ لأن من عادة العظماء ألا تُذكر نساؤهم بأسمائهم المجردة، وكان هذا شائعاً عند العرب.

يقول الله تعالى: ﴿وَالَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهَا مِنْ رُوحِنَا﴾ كأنه سبحانه قال: والتي نفخنا فيها من روحنا، فعبّر عنها باسم الموصول؛ لأنها اشتهرت بين الناس.

وحقيقة النفخ: إخراج هواء الفم بتضييق الشفتين، والمراد هنا: إلقاء روح التكوين للنسل في الرحم دفعة واحدة، بدون الوسيلة المعتادة، تشبيهاً لهيئة التكوين بهيئة النفخ، أي: فنفخنا في بطنها.

والروح: هي القوة التي تحيا بها الأجسام وتوجد بها الحياة، كما قال تعالى: ﴿فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي﴾ [ص: ٧٢] أي: جعلت في آدم روحاً فصار حياً، وإضافة الروح إلى الله تعالى تشريف لها، ومريم البتول قد أحصنت فرجها وصانته من المباشرة، كما أن الزواج يُحصّن من الزنى، ويعفّ صاحبه.

وفي هذا ردُّ على اليهود مما رموها به إفكاً وكذباً، وهذه الآية كقوله تعالى: ﴿وَمَرْيَمُ ابْنَتْ عِمْرَانَ الَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهِ مِنْ رُوحِنَا﴾ [التحريم: ١٢].

والمعنى: واذكر -أيها الرسول- قصة مريم بنت عمران التي حفظت فرجها من الحرام، فأحصنته وصانته، ولم تأت فاحشة في حياتها، فأرسل الله إليها جبريل عليه السلام فنفخ في جيب قميصها، فوصلت النفخة إلى رحمها، فخلق الله بهذه النفخة، عيسى عليه السلام، فحملت به أمه من غير زوج، فكانت هي وابنها آية واضحة، وعلامة دالة على كمال قدرة الله تعالى، وعبرة قائمة للخلق أجمعين إلى قيام الساعة: ﴿وَجَعَلْنَاهَا وَابْنَهَا آيَةً لِلْعَالَمِينَ﴾ فمولد عيسى عليه السلام، آية من آيات الله، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَى عِنْدَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ

خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ ﴿٥٩﴾ [آل عمران: ٥٩] وحملُ مريم بعيسى آية، وأعجوبة من آيات الله ﷻ الدالة على كمال قدرته، كما قال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا ابْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ آيَةً﴾ [المؤمنون: ٥٠]. يتحدث بها الناس جيلاً بعد جيل، ويعتبر بها المعتبرون.

دِينُ الرُّسُلِ جَمِيعًا هُوَ الْإِسْلَامُ بِمَعْنَاهُ الْعَامُّ

٩٢- ﴿إِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ﴾ (٩٢)

وبعد أن تحدثت سورة الأنبياء عن ستة عشر نبياً من أنبياء الله ورسله، ووصفتهم في نهاية الآيات بأنهم كانوا يسارعون في الخيرات، ويدعون ربهم رغباً ورهباً، وكانوا له خاشعين، وبين سبحانه أن هؤلاء الرسل، هم أئمتكم، بهم تأتئون، ويهديهم تقفدون، ثم بين الله ﷻ أن ملة الرسل جميعاً من أولهم إلى خاتمهم، ملة واحدة، ودين الرسل جميعاً دين واحد، يتفق في العقائد والأصول، ويقوم على توحيد الله سبحانه، وتحريم المحرمات، وتحليل الحلال، وامتنال الأوامر، واجتناب النواهي.

جاء هذا على ألسنة الرسل جميعاً: ﴿إِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً﴾ رب واحد، ومعبود واحد، ودين واحد هو الإسلام الذي قال الله ﷻ عنه: ﴿إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ﴾ [آل عمران: ١٩] وهو الذي قال عنه خليل الرحمن، أبو الأنبياء: ﴿هُوَ سَمَنُكُمْ الْمُسْلِمِينَ مِنْ قَبْلُ وَفِي هَذَا﴾ أي: في هذا القرآن ﴿لِيَكُونَ الرَّسُولُ شَهِيداً عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ﴾ [الحج: ٧٨].

والمراد بالإسلام في الآية: التوحيد، الذي جاءت به الرسالات السماوية جميعاً ﴿قُلْ يَتَاهَلِ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئاً وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضاً أَرْبَاباً مِنْ دُونِ اللَّهِ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ٦٤].

ونظير هذه الآية في سورة (المؤمنون)، بعد أن ذكر الله سبحانه عدداً من الرسل والأنبياء، قال في نهايتهم أيضاً: ﴿يَتَأْتِيَ الرُّسُلَ كُلُّوا مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَاعْمَلُوا صَالِحاً إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ﴾ [المؤمنون: ٥٢].

(١) قرأ يعقوب بإثبات ياء (فاعبدون) وصلًا ووقفًا، وحذفها غيره في الحاليين.

وقال رسول الله ﷺ فيما يرويه أبو هريرة ؓ: «الأنبياء إخوة من عَلات، أمهاتهم شتى ودينهم واحد»^(١).

أي: أن عقيدتنا واحدة هي توحيد الله سبحانه، وإن تنوعت الشرائع بما يناسب حال الأمة. كما قال تعالى: ﴿لِكُلِّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا﴾ [المائدة: ٤٨] حسب نمو مدارك البشر، ونمو تجاربهم، واستعدادهم لأنماط من التكليف والتشريعات بقدر حاجاتهم التي تأهلوا لها، ولا يخرج عن هذا التوحيد إلا الكفرة والمشركون، فدين الأنبياء جميعاً هو الإسلام بمعنى: الاستسلام لله بالتوحيد، والانقياد له بالطاعة، وإفراده تعالى بالعبادة، فهو وحده لا شريك له، رب الخلق جميعاً، وهم يتفقون في العقيدة ويختلفون في الشريعة.

ولفظ الأمة له أربعة معانٍ:

- ١- فالمراد بالأمة في قوله تعالى: ﴿إِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً﴾ هو الدين والملة، كما قال تعالى حكاية عن بعض المشركين: ﴿إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ﴾ [الزخرف: ٢٣] أي: على دين وملة معينة.
- ٢- وقد يُراد بالأمة: الجماعة من الناس، كما قال تعالى: ﴿وَلَمَّا رَدَّ مَاءَ مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِّنَ النَّاسِ يَسْقُونَ﴾ [القصص: ٢٣] أي: جماعة من الناس.
- ٣- ويُطلق لفظ الأمة على الرجل الجامع لخصال الخير، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ إِتْرَاهِيمَ كَانَتْ أُمَّةً﴾ [النحل: ١٢٠].
- ٤- ويُطلق لفظ الأمة على الوقت والزمن، كما قال تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِي نَجَا مِنْهُمَا وَادَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ﴾ [يوسف: ٤٥] أي: تذكر بعد حين من الزمان.

الْاِخْتِلَافُ فِي الشَّرَائِعِ بَدْءًا مِنْ عَصْرِ نُوحٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ

٩٣- ﴿وَتَقَطَّعُوا أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ كُلُّ إِلَهِنَا رَجُوعٌ﴾ (٩٣)

ومع أن دين الله واحد، ومن الواجب الاجتماع على هذا الدين وعدم التفرق فيه، ومع

(١) أخرجه مسلم (٢٣٦٥) وابن حبان (٦١٩٤) والبيهقي (٣٦١٩) و«المسند» (٨٢٤٨، ١٠٢٥٨).

هذا فقد اختلف الناس فيه فرقاً متعددة، اختلفوا على رسلهم، وتفرق كثير منهم في دين الله شيعاً وأحزاباً، فعبدوا المخلوقين والأهواء، وكل يدّعي أنه على الحق، والباطل مع الفريق الآخر، وكلهم راجعون إلى الله، ومحاسبون على ما فعلوا حساباً دقيقاً، وسيظهر الحق واضحاً إذا انكشف الغطاء وحُشر الناس لفصل القضاء، وبسبب ذلك التفرق في الدين، فإن الأمم في مختلف الأجيال، ومع جميع الرسل اختلفوا، فكان منهم المصدق، ومنهم المكذب.

﴿وَقَطَّعُوا أَمْرَهُمْ بَيْنَهُمْ﴾ أي: اختلفوا على الرسل، فكان منهم من صدّق بهم وبدعوتهم، ومنهم من كذّبهم وكذّب دعوتهم، واختلفوا أيضاً في الرسالة الواحدة، فكانوا أحزاباً وفرقاً، كما اختلفت النصارى على فرق وأحزاب، واختلف اليهود والمسلمون كذلك. وفي حديث أنس بن مالك ؓ أن النبي ﷺ قال: «إن بني إسرائيل افترقت على ثنتين وسبعين فرقة وأنتم تفترون على مثلها، كلها في النار إلا فرقة»^(١).

قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيعاً لَسَتْ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ إِنَّمَا أَمْرُهُمْ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ﴾ [الأنعام].

وقال: ﴿فَقَطَّعُوا أَمْرَهُمْ بَيْنَهُمْ زُبُرًا كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ﴾ [المؤمنون].

فالدين واحد، والإسلام واحد، والإخلاص لله ﷻ لا يتجزأ ولا يتحزب ولا يوزع، وبهذا يتبين أن الناس اختلفوا في الدين الواحد العام، وهو الإسلام والتوحيد، فكان منهم اليهودي، والنصراني، وعابد الوثن، ومن لا دين له، ثم اختلفت كل أمة شيعاً وأحزاباً، واتبع الناس دين آبائهم، وخرجوا عن معالم الرسالة ﴿فَلَمَّا جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَرِحُوا بِمَا عِنْدَهُمْ مِنَ الْعِلْمِ﴾ [غافر: ٨٣].

(١) مسند أحمد (١٢٢٠٨) قال محققوه: حديث صحيح بشواهد، وهذا إسناد ضعيف لضعف الثُميري، وأخرجه ابن ماجه (٣٩٩٣) وابن أبي عاصم في السنة (٦٤) عن هشام بن عمار عن الوليد بن مسلم عن الأوزاعي عن قتادة عن أنس بلفظ (كلها في النار إلا واحدة) وهذا إسناد حسن في الشواهد، وصححه الألباني في صحيح ابن ماجه (٣٢٢٧) وفي السلسلة الصحيحة (٢٠٤) و(١٤٩٢) وظلال الجنة (٦٤) وقد جاء هذا الحديث عن أبي هريرة ؓ وعن عوف بن مالك بإسناد صحيح قال الألباني في صحيح ابن ماجه (٣٢٢٦، ٣٢٢٥) ولعله كما قال.

وقد كان في الكعبة عدة أصنام وتمثيل؛ لأن الكعبة مقصودة لجميع قبائل العرب، وكان عمرو بن لحي، الملقب بالخزاعي، هو الذي نقل الأصنام إلى بلاد العرب.

وكان حصين بن عبيد الخزاعي، والد عمران بن حصين، قد لقي رسول الله ﷺ فقال له النبي ﷺ: «يا حصين، ما تعبد؟» قال: عشرة آلهة! قال: «فمن لحاجتك؟» قال: الذي في السماء، قال: «فمن لطلبتك؟» قال: الذي في السماء، قال: «فمن لكذا؟ فمن لكذا؟» كل ذلك يقول: الذي في السماء، قال رسول الله ﷺ: «فألغ التسعة»^(١).

وقد كان الناس جميعاً على التوحيد إلى عهد نوح عليه السلام، ثم جاء الشرك والتفرق في الدين من عصر نوح لما عبد الناس وداً وسواً ويغوث ويعوق ونسراً، قال تعالى: ﴿كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً﴾ أي: على دين واحد فاختلفوا ﴿فَبَعَثَ اللَّهُ آلِيَّيْنِ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ﴾ [البقرة: ٢١٣].

وبعد أن طرأ الشرك على البشر، جاء الاختلاف والتفرق في الشريعة الواحدة، فصاروا شيعاً وأحزاباً، كما تشير الآية التي معنا، ومثلها آية (المؤمنون) وآية (الأنعام) السابق ذكرهما، قال تعالى: ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَا يَرَالُونَ تَخْلُفِينَ﴾ (١٨) إِلَّا مَنْ رَحِمَ رَبُّكَ وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ [هود].

قَاعِدَةُ الْجَزَاءِ الْآخِرِيِّ وَالْدُنْيَوِيِّ

٩٤- ﴿فَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا كُفْرَانَ لِسَعِيهِ، وَإِنَّا لَهُ كَافٍُونَ﴾ (٩٤)

ثم فصل ﷺ الجزاء الآخروي لعباد الله جميعاً، في منطوق هذه الآية ومفهومها، وبين أن قاعدة قبول العمل الصالح هي الإيمان، فالإيمان هو الأساس الذي لا يتقبل الله تعالى العمل إلا به، فمن التزم الإيمان، وعمل ما استطاع من الأعمال الصالحة فلا جحود لعمله ولا نكران له، وهو مثاب عليه، وهذا معنى: ﴿فَلَا كُفْرَانَ لِسَعِيهِ﴾ أي: أن الله تعالى لا يُضيع له ثواب عمله، ولا يبخسه ولا ينقصه شيئاً، بل يضاعفه له أضعافاً كثيرة، كما قال تعالى عن عباده الصالحين: ﴿وَمَا يَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَلَنْ يُكْفَرُوهُ﴾ [آل عمران: ١١٥]

(١) من «جمهرة الأنساب» لابن حزم، وضعفه الألباني بلفظ: (يا حصين كم تعبد) قال: سبعة.

أي: أن مَنْ يعمل الطاعات وأعمال الخير والبر، بشرط أن يكون مؤمناً، فلا بطلان لثواب عمله، ولا يضيع شيء من جزائه، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا﴾ [الكهف].

بل إن الملائكة تسجل له الأعمال الصالحة وتكتبها، ويجدّها بين يديه في صحيفة عمله يوم لقاء رب العالمين، وهذا معنى ﴿وَإِنَّا لَهُ كَنُيُونٌ﴾ أي: أنه سيجد ما عمله مكتوباً يوم يُبعث بعد موته، كما أن هذا العمل مثبت في اللوح المحفوظ، وفي صحف الحفظة. أما من لم يعمل الصالحات، أو عملها وهو ليس بمؤمن، فإنه محروم خاسر في دينه ودنياه، قال تعالى:

٩٥- ﴿وَحَرَّمَ^(١) عَلَىٰ قَرَبَةٍ أَهْلَكْنَاهَا أَنَّهُمْ لَا يَرْجِعُونَ﴾ (٩٥)

والكلام موصول عن الجزاء الأخروي يوم لقاء الله، فكل من مات أو هلك بالعذاب الدنيوي، ولقي الله تعالى، لا يمكنه أن يرجع إلى الدنيا مرة أخرى؛ ليستدرك ما فاتته فيها من التفریط في جنب الله، فيتوب ويرجع عما كان فيه.

وهذا معنى: ﴿وَحَرَّمَ﴾ أي: ممتنع منعاً باتاً ﴿عَلَىٰ﴾ أهل ﴿قَرَبَةٍ أَهْلَكْنَاهَا﴾ أي: استأصلنا شأفتهم، وأبدناهم في هذه الدنيا؛ بسبب كفرهم وتكذيبهم لرسول الله؛ كأقوام: نوح، وهود، وصالح، ولوط، وشعيب، يمتنع عليهم العودة إلى الدنيا مرة ثانية بعد استئصالهم، وهذا معنى ﴿أَنَّهُمْ لَا يَرْجِعُونَ﴾ إلى الدنيا مرة ثانية بل إنهم سيستمرون على هلاكهم حتى تقوم الساعة، ثم يرجعون إلينا للحساب والجزاء، فهم سيرجعون حتماً إلى الله تعالى؛ ليلْقُوا جزاءهم، وهلاكهم في الدنيا كان جُزْءاً من عقابهم، وليس نهاية لأمرهم، وقد كان معتقدتهم في الدنيا أنهم لا يُحْشَرُونَ ولا يرجعون إلى ربهم ولا يحاسبون على أعمالهم. وللعلماء في تفسير هذه الآية قولان:

القول الأول: إن من أهلكهم الله بعذاب في الدنيا، سيرجعون إليه سبحانه ولا بدّ في الدار الآخرة؛ ليحاسبهم ويجازيهم.

(١) قرأ شعبة وحزمة والكسائي بكسر الحاء وسكون الراء وحذف الألف من (وحرّم) فتقرأ هكذا (وحرّم)، وأثبت الباقون الألف مع فتح الحاء والراء.

ف (لا) نافية، والمراد بالرجوع: البعث بعد الموت، وليس كما زعموا أنهم لا يبعثون، فهلاكهم في الدنيا لا ينجيهم من الحساب يوم القيامة.

القول الآخر: إن المراد: امتناع رجوعهم إلى الدنيا بعد الموت مرة أخرى للتوبة والإنابة، فالرجوع إلى الدنيا يستلزم التوبة والعودة إلى الله تعالى، ولا سبيل لرجوع من هلك وعُذِّب، أي إنه يستحيل على من أهلكهم الله أن يعودوا إلى الدنيا قبل يوم القيامة ليتوبوا ويندموا على ما فعلوا.

ف (لا) زائدة مؤكدة للنفي المفهوم من لفظ: ﴿وَحَرَامٌ﴾ فهي بمعنى النفي، ونفي النفي إثبات. والآية تشمل المعنيين معاً، فهم لن يعودوا إلى الدنيا، وهم عائدون حتماً إلى الدار الآخرة، كما قال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ الْأَوَّلِينَ وَالْآخِرِينَ ﴿٤٩﴾ لَمَجْمُوعُونَ إِلَىٰ مِيقَاتِ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ ﴿٥٠﴾﴾ [الواقعة: ٤٩، ٥٠].

فليحذر - المخاطبون - أن يستمروا على ما يوجب الإهلاك، فيقع العذاب بهم، ولا يمكن رفعه بعد وقوعه، فليقلعوا عما هم فيه من الشرك والكفر والبدع والمعاصي، وهم في وقت المهلة، وسيظل الأمر كذلك حتى ظهور يأجوج ومأجوج.

يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ

٩٦- ﴿حَتَّىٰ إِذَا فُتِحَتْ ١) يَأْجُوجُ ٢) وَمَأْجُوجُ وَهُمْ مِّنْ كُلِّ حَدَبٍ يَنْسِلُونَ ﴿٩٦﴾﴾

إن امتناع عودة مَنْ أهلكهم الله في الدنيا سيظل قائماً، فلن يعودوا إلى ممارسة الحياة مرة ثانية، ولن يزول هلاكهم حتى اقتراب قيام الساعة، ومن علامات اقتراب يوم القيامة فتح السد الذي يحول دون انتشار يأجوج ومأجوج في الأرض، وقد عدّه بعضهم من الأشرار الصغرى لقيام الساعة، حتى إذا فُتح سد يأجوج ومأجوج، فانطلقوا من مرتفعات الأرض، وانتشروا في جنباتها مسرعين، يفسدون في الأرض، ويأتون على الأخضر واليابس، عندئذ يقترب قيام الساعة وتظهر أهوالها.

(١) قرأ ابن عامر وأبو جعفر ويعقوب بتشديد التاء من (فُتِحَتْ) للتكثير، وقرأ الباقر بالتخفيف.

(٢) قرأ عاصم بهمزة ساكنة في (يأجوج ومأجوج)، والباقر بإبدال الهمزة ألفاً.

وفي الآية تحذير للناس من الإقامة على الكفر والمعاصي، حتى ظهور علاقات الساعة، ومنها ظهور يأجوج ومأجوج:

في صحيح مسلم وغيره: عن حذيفة بن أسيد الغفاري رضي الله عنه قال: اطلع علينا النبي ﷺ ونحن نتذاكر، فقال: «ما تذكرون؟» قالوا: نذكر الساعة، قال: «إنها لن تقوم حتى ترون فيها عشر آيات» فذكر «الدخان، والدجال، والدابة، وطلوع الشمس من مغربها، ونزول عيسى ابن مريم، ويأجوج ومأجوج، وثلاثة خسوف: خسف بالمشرق، وخسف بالمغرب، وخسف بجزيرة العرب، وآخر ذلك نار تخرج من اليمن تطرد الناس إلى محشرهم»^(١).

ويأجوج ومأجوج: قبيلتان من بني آدم، من أولاد يافث بن نوح أبي الترك، والترك جماعة منهم، تركوا من وراء السد الذي بناه ذو القرنين في الجهة الشرقية من الأرض، ووردت بشأنهم أحاديث كثيرة في الصحاح والمسانيد والسنن.

ومن ذلك ما صحَّ عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ لقي إبراهيم وموسى وعيسى، ليلة الإسراء، فتذكروا الساعة، فذكر عيسى خروج الدجال، قال: فَأَنْزِلْ، فَأَقْتَلْهُ، فيرجع الناس إلى بلادهم، فيستقبلهم يأجوج ومأجوج، وهم من كل حذب ينسلون، فلا يمرون بماء إلا شربوه، ولا بشيء إلا أفسدوه، فيجأرون إلى الله، فادعوا الله أن يميتهم، فَتَنْتَنُ الأرض من ريحهم، فيجأرون إلى الله، فادعوا الله، فيرسل السماء بالماء، فيحملهم فيلقهم في البحر، ثم تُنسف الجبال، وتُمدُّ الأرض مدًّا الأديم، ومتى كان ذلك كانت الساعة من الناس، كالحامل التي لا يدري أهلها متى تفجؤهم بولادتها^(٢).

وفي الحديث الآخر: أنهم يملؤون الأرض، ويمرون بالنهر فيشربونه حتى لا يبقى منه شيء، ويمدُّ أحدهم حُرْبته إلى السماء فترجع مخضبة بالدم، فيقولون: قتلنا أهل السماء،

(١) صحيح مسلم برقم (٢٩٠١) و«المسند» برقم (١٦١٤١)، بإسناد صحيح ورجال ثقات، (محققوه) وأخرجه الحميدي (٨٢٧) والطبراني في الكبير (٣٠٣٣) والبيهقي في شرح السنة (٤٢٥٠) وأبو داود (٤٣١١) والترمذي (٢١٨٣) والنسائي في الكبرى (١١٣٨٠) والطيالسي (١٠٦٧).

(٢) يُنظَر: «سنن ابن ماجه» برقم (٤٠٨١) و«المسند» برقم (٣٥٥٦) بإسناد ضعيف لأن فيه مؤثر بن عَفَاة من المجاهيل، وباقي رجاله ثقات رجال الشيخين (محققوه) بنحوه، وأخرجه أبو يعلى (٥٢٩٤) وابن أبي شيبة (١٥٧/١٥). والطبري (٢٧/١٦) و«المستدرک» (٤/٤٨٨) وقد صححه الحاكم والذهبي والبوصيري.

فبيعث الله دوابًا كنغف الجراد، وهو دود يكون في أنوف الإبل والغنم فتأخذ بأعناقهم، فيموتون موت الجراد، يركب بعضهم بعضًا، فلا يسمع المسلمون لهم حسًا^(١).

ومن أوصافهم في بعض هذه الأحاديث:

- ١- أنهم يشربون أنهار الأرض حتى يتركوها يبسا، ولا يمرّون على ماء إلا شربوه.
 - ٢- وأن الله تعالى يبعث عليهم دودًا يخرج في أعناقهم فيصبحون موتى.
 - ٣- وأن الله تعالى يرسل عليهم طيرًا كأعناق البُخْت فتحملهم، فتطرّحهم حيث شاء الله.
 - ٤- وأنهم عراض الوجوه، صغار العيون، وأنهم لا يأتون على شيء إلا أهلكوه.
 - ٥- وأن رائجتهم بعد هلاكهم تفوح في الأرض، فيرسل الله عليهم مطرًا يجترف أجسادهم حتى يقذفهم في البحر^(٢).
- وفي البخاري وغيره: عن أبي سعيد رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «لِيَحْجَنَّ الْبَيْتَ، وَلِيُعْتَمَرَنَّ بعد خروج يأجوج ومأجوج»^(٣).
- وفي حديث زينب بنت جحش رضي الله عنها أن النبي ﷺ دخل عليها يومًا فرعًا وهو يقول: «لا إله إلا الله، ويلٌ للعرب من شرٍ قد اقترب، فُتِحَ اليوم من ردم يأجوج ومأجوج مثل هذا»^(٤) وحلّق بالإبهام والني تليها.

(١) يُنظَرُ الحديث في: «صحيح سنن ابن ماجه» (٣٨٨/٢) و«سنن ابن ماجه» برقم: (٤٠٧٩) و«المسند» (٣/٧٧) برقم: (١١٧٣١) بإسناد حسن، من أجل ابن إسحاق، وقد صرح بالتحديث، وبقيّة رجاله ثقات رجال الصحيح (محققوه) وابن حبان برقم: (٢٦٨٣) الإحسان و«مصباح الزجاجة» (٣١١/٢) وصححه البوصيري والألباني والحاكم (٢/٢٤٥).

(٢) يُنظَرُ بعض الأحاديث الواردة في ذلك في: «صحيح مسلم» برقم: (٢١٣٧) و«المسند» (١/٣٧٥)، (٧٧/٣، ١٨١/٤، ٤٠٧٥، ٤٠٧٩، ٤٠٨١) والبوصيري في «الزوائد» (٣/٢٦٠) وأبو داود برقم: (٤٣٢١) والترمذي برقم: (٢٢٤٠) والنسائي برقم: (١٠٧٨٣) وابن حبان (٦٨٣٠) الإحسان، و«صحيح ابن ماجه» (٢/٣٨٨).

(٣) البخاري برقم: (١٥٩٣) و«المسند» (٣/٢٧) برقم: (١١٢١٩، ١١٤٥٥، ١١٦١٧)، حديث صحيح وأخرجه أبو يعلى (١٠٣٠) وابن خزيمة (٢٥٠٧) وابن حبان (٦٨٣٢).

(٤) صحيح البخاري برقم: (٣٥٩٨، ٣٣٤٦) و«صحيح مسلم» برقم: (٢٨٨٠).

وهذا الاقتراب بالنسبة لما بقي من عمر الدنيا بالنظر إلى ما مضى منها، كما قال تعالى: ﴿أَقْرَبَتِ السَّاعَةُ﴾ [القمر: ١] وقال سبحانه: ﴿أَقْرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ﴾ [١].

وكأن الآية تصف انتشار المغول والتتار في الأرض قبل خروجهم بخمسة قرون، وهو من معجزات القرآن الغيبية والعلمية، ولعل في تخصيص هذا الحادث بالتوقيت دون غيره من علامات الساعة، أن فيه إنذاراً للعرب المخاطبين بالقرآن في بدء نزوله؛ ليكون ذلك نصب أعينهم تحذيراً لذرياتهم من كوارث ظهور يأجوج ومأجوج، فقد كان زوال مُلك العرب العتيد، وتدهور حضارتهم وقوتهم على أيدي المغول والتتار، كما بيّنه الحديث سالف الذكر^(١) ومن ذلك حديث أبي سعيد الخدري في صحيح ابن ماجه ٣٨٨/٢.

والظاهر أن خروج يأجوج ومأجوج يكون أكثر من مرة، حيث صحَّ في الحديث أن خروجهما يكون بعد نزول عيسى وقتله للمسيح الدجال.

ففي الحديث: عن النواس بن سمعان رضي الله عنه: «إن الله تعالى يوحى إلى عيسى بعد أن يقتل الدجال، أني قد أخرجت عبداً من عبادي، لا يدان لك بقتالهم، فحوّز عبادي إلى الطور، فيبعث الله يأجوج ومأجوج، كما قال سبحانه: ﴿مِنْ كُلِّ حِزْبٍ يَنْسِلُونَ﴾، ثم يرسل الله عليهم نغماً في رقابهم، فيصبحون موتى كموت نفس واحدة»^(٢).

والنغف: دود يكون في أنوف الإبل والغنم.

والحدب: هو المرتفع من الأرض كالجبل.

وينسلون: أي يسرعون في المشي مع تقارب الخطأ، وهو تصوير لحال خروجهم وانسياحهم في أرجاء الأرض.

ويأجوج ومأجوج من الكثرة بحيث قال فيهم النبي ﷺ فيما يرويه عن ربه ﷻ في الحديث القدسي برواية أبي سعيد رضي الله عنه: «يقول الله تعالى يوم القيامة لأدم: أخرج بعث النار

(١) يُنظَر: «تفسير التحرير والتنوير» (١٤٨/٨).

(٢) جزء من حديث طويل عن النواس بن سمعان في «المسند» (١٨١/٤) برقم (١٧٦٢٩) بإسناد صحيح على شرط مسلم و«سنن أبي داود» برقم (٤٣٢١) و«سنن الترمذي» برقم (٢٢٤٠) و«سنن النسائي الكبرى» برقم (١٠٧٨٣) و«سنن ابن ماجه» برقم (٤٠٧٥) و«صحيح مسلم» برقم (٢٩٣٧).

من ذريتك، فيُخرج من كل ألف، تسع مئة وتسعة وتسعين ، قال: ففزع الناس، فقال رسول الله ﷺ: إن منكم رجلاً ومن يأجوج ومأجوج ألف رجل»^(١).

وعن ذلك السد الذي يحجزهم يقول تعالى: ﴿فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ رَبِّي جَعَلَهُ دُكَّاءً وَكَانَ وَعْدُ رَبِّي حَقًّا ۖ وَتَرَكَنا بَعْضُهُمْ يَوْمَئِذٍ يَمُوجُ فِي بَعْضٍ وَتُفِخُ فِي الْأُصُورِ فَمَجَعْنَهُمْ جَمْعًا ۝٩٧﴾ [الكهف].

وفي الآية والأحاديث دلالة على كثرتهم، وانتشارهم في الأرض، وأنهم يقهرون الناس، وأنه لا قبل لأحد بقتالهم. قال تعالى:

٩٧- ﴿وَأَقْرَبَ الْوَعْدُ الْحَقُّ فَإِذَا هِيَ شَخِصَةٌ أَبْصَرُ الَّذِينَ كَفَرُوا يَتَوَلَّوْنَآ قَدْ كُنَّا فِي غَفْلَةٍ مِّنْ هَذَا بَلْ كُنَّا ظَالِمِينَ ۝٩٧﴾

وفُتِحَ سد يأجوج ومأجوج، ودنُّ يوم القيامة، هو الوعد الحق الذي وعد الله به عباده، كما قال تعالى: ﴿كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُعِيدُهُ وَعَدًا عَلَيْنَا إِنَّا كُنَّا فَاعِلِينَ﴾ [١٠٤] وعند إعادة الخلق تظهر أهوال ذلك اليوم، فإذا أبصار الكفار من شدة الفزع مفتوحة لا تكاد تطرف، وهم يَدْعُونَ على أنفسهم بالويل والثبور في حسرة وندامة قائلين: يا ويلنا قد كنا لاهين غافلين عن ذلك اليوم وعن الإعداد له.

وقد تحقق ما أخبر الله به من قرب قيام الساعة، ومجيء أماراتها، ومنها بعثة النبي ﷺ، ويتحقق عودة الخلق للحساب والجزاء، فكل ذلك حق وصدق، لقد أخبرتنا الرسل بذلك، ولكننا كنا في لهو وغفلة عن ذلك اليوم، وكنا ظالمين لأنفسنا؛ بالاستمرار في لهو الدنيا، حيث عَرَضْنَا لهذا العذاب الأليم، بعد أن أتانا اليقين ووردنا القيامة.

قال ابن مسعود ؓ: الساعة من الناس بعد يأجوج ومأجوج كالحامل المتمم، لا يدرى أهلها متى تفجؤهم بولدها ليلاً أو نهاراً^(٢).

(١) يُنظر: «صحيح البخاري» برقم (٤٧٤١، ٧٤٨٣، ٦٥٣٩٠) صحيح مسلم برقم (٢٢٢) و«المسند» برقم (١١٢٨٤). بإسناد صحيح على شرط الشيخين، وأخرجه النسائي في الكبرى (١١٣٣٩) والبيهقي في الشعب (٣٦١) وغيرهم.

(٢) «البحر المحيط» (٣٣٨/٦).

الْكُفْرَةُ مَعَ مَعْبُودَاتِهِمْ وَقُودُ جَهَنَّمَ

٩٨- ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ حَصْبُ جَهَنَّمَ أَنْتُمْ لَهَا وَرَدُونَ ﴿٩٨﴾﴾

ويوم القيامة في ساحة العرض والحساب، يقال لمن ظلموا أنفسهم بالكفر والشرك، وهم يرون بأعينهم أن وعد الله بالبعث والجزاء حق، ويعترفون بأنهم كانوا في غفلة عما جاءت به الرسل، حينئذ يقال لهم على سبيل التوبيخ والتقريع: إنكم -أيها الكفار- وما كنتم تعبدون من دون الله من الأصنام، وكل من رضي بعبادتكم إياهم من الجن والإنس، وقود جهنم وحطبها، أنتم وهم خالدون فيها.

إنه حكم قاطع لا مردّ له من الله، يصدر عليهم، ويُلَقَى على مسامعهم، وهم في ذهول المفاجأة لحظة الاعتراف والندم، حيث يرُدُّون جهنم هم وآلهتهم المزعومة.

والحصب: هو ما يُلقَى في النار؛ لتزداد به اشتعالاً، كالحطب، والخشب، والأصنام؛ حيث تُلقَى معهم في النار، مع أنها لا تعقل، وذلك زيادة في حسرتهم وتبكيتهم؛ حتى يروا بأعينهم مصير ما كانوا يتوهمون المنفعة من ورائه، ويروا كذب من اتخذها آلهة ﴿لَبِئْسَ لَهُمُ الَّذِي يُخْتَلَفُونَ فِيهِ وَلَيْعَلَّ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّهُمْ كَانُوا كَذِبِينَ﴾ [النحل: ٣٩]

ولفظ (ما) الموصولة هو في الأصل لما لا يعقل، ولكنه يطلق هنا على العاقل وغير العاقل من باب التغليب، أي: من الأصنام، أو الجن، أو الإنس، الذين عُبدوا من دون الله ورضوا بعبادتهم لهم؛ حيث يكون العابد والمعبود حطب جهنم ووقودها، وهم فيها خالدون، لا يخرجون منها ولا يتنقلون عنها. قال تعالى:

٩٩- ﴿لَوْ كَانَتْ هَؤُلَاءِ^(١) إِلَهَةً مَا وَرَدُّوهُمْ وَلَا يَخَافُ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٩٩﴾﴾

ثم ذكر سبحانه في هذه الآية الدليل على بطلان عبادة المشركين لكل ما عُبد من دون الله، بأنه لو كان هؤلاء الذين عبدتموهم من دون الله آلهة تستحق العبادة، فتنفع وتضر، وتحيي وتميت، لو كانوا كذلك ما دخلوا معكم النار أيها المشركون، وما قُذِفوا فيها كما يُقذف الحطب.

(١) قرأ نافع وابن كثير وأبو عمرو وأبو جعفر ورويس بإبدال الهمزة الثانية ياء مفتوحة من (هؤلاء آلهة)، وللأزرق فيها ثلاثة أوجه مد البدل، والباقيون بتحقيقها.

فثبت بهذا أنها آلهة مزعومة لا تملك الدفاع عن نفسها فضلاً عن غيرها.

ثم إن كلاً من العابدين والمعبودين باقون في هذه النار على سبيل التأييد والخلود. قال تعالى:

١٠٠- ﴿لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَهُمْ فِيهَا لَا يَسْمَعُونَ﴾ ﴿١٠٠﴾

بين سبحانه في هذه الآية حال الكافرين في نار جهنم، بأنهم يكونون في كرب وهم وغم وعذاب شديد، لهم أنين وضيق تنفس: زفير وشهيق.

والزفير: هو النفس الذي يخرج من أقصى الرئتين بضغط الهواء، من التأثر بالغم وشدة الهول.

والشهيق: هو النفس الذي يدخل إلى أقصى الرئتين بضغط الهواء، أي: أن لهؤلاء المعذبين في النار آلاماً ينبئ عنها زفيرهم وشهيقهم الذي يتردد في أنفاسهم.

وهم مع ذلك يفقدون حاسة السمع من شدة الهول، فقد بين الله سبحانه أنهم في النار لا يسمعون شيئاً من هول العذاب، فقال تعالى: ﴿وَهُمْ فِيهَا لَا يَسْمَعُونَ﴾. فهم لا يسمعون إلا صوت غليان جهنم وشدة زفيرها وتغيظها.

ومن شأن الزفير أنه لا يمنع من السمع، ولكن الله تعالى أخبر أنهم من شدة العذاب لا يسمعون.

كما أخبر سبحانه أن أهل النار يحشرون يوم القيامة على وجوههم عمياً وبكماً وصماً، فقال جلّ شأنه: ﴿وَتَحْشَرُهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ عَلَىٰ وَجُوهِهِمْ عُمياً وَبُكماً وَصْماً مَا وَنَهُمْ جَهَنَّمَ كُلَّمَا خَبَتْ زِدْنَاهُمْ سَعيراً﴾ [الإسراء: ٩٧].

جاء في الأثر عن ابن مسعود ؓ: أن أهل النار يُخلَّدون في توايت من حديد داخل توايت أخرى، عليها مسامير من حديد، ويُقَدَف بهم في أسفل جهنم، فلا يسمعون شيئاً، ولا يرى أحدهم أن أحداً يُعذب في النار غيره^(١). وهذه التوايت تجعلهم لا يسمعون شيئاً.

مَنْ لَمْ يَدْعُ إِلَىٰ عِبَادَةِ نَفْسِهِ، وَلَمْ يَرْضَ لَهَا ذَلِكَ، فَهُوَ مِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ

١٠١- ﴿إِنَّ الَّذِي سَبَقَتْ لَهُمْ مِنَّا الْحَسَنَةُ أُولَٰئِكَ عَنَّا مُبْعَدُونَ﴾ ﴿١٠١﴾

(١) أخرجه عبد بن حميد وابن أبي الدنيا في صفة النار، وابن جرير وابن أبي حاتم والطبراني والبيهقي في البعث، يُنظر: ابن أبي الدنيا (١٠٣) وابن جرير (٤١٥/١٦) والطبراني (٩٠٨٧) والبيهقي (٦٥٦).

وعادة القرآن الكريم أن يذكر الفريق المقابل لمن سبق الحديث عنهم، وقد تحدثت الآيات السابقة عن أهل الشقاء من المشركين الضالين، أهل جهنم، وهم أهل القرى الذين حرّم الله عليهم العودة إلى الدنيا؛ لتدارك ما فاتهم من تفريط في جنب الله، وهم ملاقو ربهم حتمًا، ومُوفّقون جزاءهم العادل، وأُتبعَت ذلك ببيان أن المشركين ومعبوداتهم من الأصنام، وكل من عُبد من دون الله وهو راض بعبادته، العابد والمعبود كلاهما حطب جهنم ووقودها.

ثم تحدثت هذه الآية وما بعدها عن المؤمنين الصالحين الموفّقين لِتَسْتَنِيهِمْ من وقود جهنم، فهم الذين حسنت أعمالهم في الدنيا بالإيمان والعمل الصالح، فحسُن جزاؤهم يوم لقاء رب العالمين، كما قال تعالى: ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا لَحُسًّا وَزِيَادَةٌ﴾ [يونس: ٢٦] لقد أحسن الله مآلهم وثوابهم في الآخرة؛ لأنهم أحسنوا القول والعمل في الدنيا، كما قال تعالى: ﴿لِّلَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمْ آلْحُسْنَى﴾ [الرعد: ١٨] وهذا حكم عام، وقاعدة مطردة في القرآن الكريم.

وهذه الآية عامة في كل من سبقت له السعادة في علم الله تعالى، ومن عبداهم المشركون من دون الله وهم من عباد الله الصالحين الذين لا يقبلون هذه العبادة: كالمسيح، وعزير، والملائكة، فهم ممن سبقت لهم السعادة في علم الله تعالى:

١- ويوضح ذلك ما جاء في أسباب النزول، من أن النبي ﷺ دخل المسجد، وصناديد قريش في الحطيم، وحول الكعبة ثلاث مئة وستون صنمًا، فكلّمهم النبي ﷺ فعرض له النضر بن الحارث، فكلّمه رسول الله ﷺ حتى أفحمه، ثم تلا عليه الآيات الثلاث: ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنْتُمْ لَهَا وَرَدُونَ ﴿٩٨﴾ لَوْ كَانَتْ هَتُولاَ ۖ إِلَٰهَةً مَّا وَرَدُوهَا وَكُلٌّ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٩٩﴾ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَهُمْ فِيهَا لَا يَسْمَعُونَ ﴿١٠٠﴾﴾.

ثم قام النبي ﷺ، فأقبل عبد الله بن الزُبَيْرِ السهمي، فأخبره الوليد بن المغيرة بما قال رسول الله ﷺ، فقال ابن الزُبَيْرِ: أما والله لو وجدته لَخَصَمْتُهُ -أي: لجادلته- فدعوا رسول الله ﷺ، فقال ابن الزُبَيْرِ: أأنت قلت: ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ﴾؟ قال: «نعم»، قال: أليست اليهود تعبد عزيرًا، والنصارى يعبدون المسيح، وبنو مدلج يعبدون الملائكة؟ فقال النبي ﷺ: «بل هم يعبدون الشيطان»، فأنزل

الله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُمْ مِنَّا الْحُسْنَىٰ أُولَٰئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ﴾.

والذين سبقت لهم الحسنى هم: عزيز، والمسيح، والملائكة.

ونزل في ابن الزبعرى: ﴿وَلَمَّا ضُرِبَ ابْنُ مَرْيَمَ مَثَلًا إِذَا قَوْمُكَ مِنْهُ يَصِدُّونَ﴾ (٥٧) وَقَالُوا: «إِلَهِنَا خَيْرٌ أَمْ هُوَ مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلًا بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ﴾ (٥٨) [الزخرف].

وقد ورد أن أهل مكة عجبوا من جدال ابن الزبعرى للنبي ﷺ، وقالوا: إن محمداً قد غلب.

فقال له النبي ﷺ: «ما أجهلك بلغة قومك، إني قلت: ﴿وَمَا تَعْبُدُونَ﴾».

وفي رواية ابن عباس ؓ أن ابن الزبعرى قال: قد عُبِدَت الشمس والقمر، والملائكة وعزيز وعيسى ابن مريم، كل هؤلاء في النار مع آلهتنا؟

وفي رواية ابن إسحاق أن النبي ﷺ قال: «كل من أحبَّ أن يُعبد من دون الله فهو مع عبده»^(١).

وقد أسلم ابن الزبعرى بعد ذلك، واعتذر عما هاجم به المسلمين أولاً.

٢- وورد أن علياً ؓ قرأ هذه الآية: ﴿إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُمْ مِنَّا الْحُسْنَىٰ﴾ فقال: أنا منهم، وأبو بكر، وعمر، وعثمان، وطلحة، والزبير، وسعد، وعبد الرحمن^(٢).

وقيل: إن ﴿إِنَّ﴾ في الآية بمعنى: إلا.

٣- وقال ابن كثير: إن الآية نزلت خطاباً لأهل مكة في عبادتهم الأصنام التي هي جمادات لا تعقل؛ ليكون ذلك تقريباً وتوبيخاً لعابديها، فكيف يُورد على هذا المسيح والعزيز ونحوهما ممن له عمل صالح، ولم يرضَ بعبادة من عبده؟!

ومعنى الآية: إن المؤمنين الصادقين الذين سبقت لهم السعادة في علم الله، والدرجة

(١) يُنظر حديث ابن الزبعرى هذا: في «السيرة النبوية» لابن هشام (٣٥٨/١) و«تفسير الطبري» (٧٦/١٧) و«الدر المنثور» (٣٣٨/٤) و«أسباب النزول» للواحدي (١٧٥) والحاكم (٣٨٤/٢) و«المعجم الكبير» للطبراني برقم: (١٢٧٣٩) والطحاوي في «شرح مشكل الآثار» برقم (٩٨٦).

(٢) رواه ابن أبي حاتم وغيره عن النعمان بن بشير، وأخرجه ابن أبي حاتم وابن مردويه كما في «الدر المنثور» (٣٩١/١٠) وابن عدي (٩٨٦/٣).

الحسنة العالية، يكونون من أهل الجنة مستقرين فيها بأمن واطمئنان، ولا يشعرون بحركة النار، ولا يرونها وهيها، ولا يكونون قرييين منها. قال تعالى:

١٠٢- ﴿لَا يَسْمَعُونَ حَسِيسَهَا وَهُمْ فِي مَا اشْتَهَتْ أَنْفُسُهُمْ خَالِدُونَ﴾ ﴿١٠٢﴾

أي: أن أهل الجنة لا يسمعون صوت لهب النار، ولا يرونها احتراق الأجساد فيها، فهم لا يقربون من النار، ولا تبلغ أسماعهم أصواتها، ولا يلفحهم حرها، ولا يروّعهم منظرها، وهم في لذة ونعيم يتمتعون بكل ما تمناه أنفسهم، وتشتهيه أفئدتهم، وتنشرح له صدورهم، من المأكّل والمشارب والملابس والمناظر والصور العين، والنعيم المقيم، وهم في هذا النعيم مخلدون دائماً وأبداً، كما قال تعالى: ﴿وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ الْأَنْفُسُ وَتَلَذُّ الْأَعْيُنُ وَأَنْتُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ [الزخرف: ٧١].

وقال سبحانه: ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُمْ مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [السجدة: ١٧]، وهم لا يفزعون إذا فزع الناس، وتلقاهم الملائكة عند البعث بالبشر والترحاب؛ قال تعالى:

١٠٣- ﴿لَا يَحْزَنُهُمُ^(١) الْفَزَعُ الْأَكْبَرُ وَتَلَقَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ هَذَا يَوْمُكُمْ الَّذِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ﴾

وأهل السعادة لا يُخيفهم الهول العظيم يوم القيامة، ولا يُحزنهم ما يُحزن غيرهم، فهم سالمون من الفزع المروّع حين يُدبّح الموت بين الجنة والنار، وحين يقال لأهل الجنة: خلود بلا موت، ولا يفزعون قبل ذلك من النفخة الأخيرة، حين يقوم الناس لرب العالمين ﴿لَا يَحْزَنُهُمُ الْفَزَعُ الْأَكْبَرُ﴾ من كل هول يكون يوم القيامة، بل إن الملائكة تحييهم وتبشرهم بالنعيم المقيم وهم يستقبلونهم عند خروجهم من القبور، وعند دخولهم الجنة مهتئين مبشرين لهم بتحقيق ما وعدهم الله به من الكرامة وجزيل الثواب.

وهذا كقوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَفْتَمُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ﴾ ﴿٣٥﴾ نَحْنُ أَوْلِيَائُكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِي أَنْفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدْعُونَ ﴿٣٦﴾ تَرْلَا مِنْ عَقُورٍ رَّحِيمٍ ﴿٣٧﴾ [فصلت].

(١) قرأ أبو جعفر بضم الياء وكسر الزاي من (لا يُحزنهم) من أحزن الرباعي، وقرأ الباقون بفتح الياء وضم الزاي، من حزن الثلاثي.

طِيَّ الصُّحُفِ يَوْمَ بَعَثَ الْخَلَائِقِ

١٠٤ - ﴿يَوْمَ نَطْوِي^(١) السَّمَاءَ كَطَيِّ السِّجِلِ لِلْكِتَابِ^(٢) كَمَا بَدَأْنَا^(٣) أَوَّلَ خَلْقٍ نُعِيدُهُ وَعَدًّا عَلَيْنَا^(٤) إِنَّا كُنَّا فَاعِلِينَ ﴿١٠٤﴾

يحدث الفزع للكافر وتحدث البشرى للمؤمن، يوم يُقضى الأمر، وتُطوى صفحة هذا الكون الذي يألفه الإنسان، ويؤتى بعالم جديد، والسماء تُطوى كما تُطوى الصحيفة على ما كُتب فيها، وكما يطوي الرجل صحائفه على ما كُتب فيها، إنه مشهد رهيب، يصور حال الكون الذي آل إليه في يوم القيامة، والهول آخذ بزمام القلوب في ذلك اليوم العصيب.

وحين نزلت هذه الآية لم تكن هناك صحف تُطوى، بل كانت الكتب تُلَفُّ لَفًّا، فلفت القرآن أنظار الناس إلى ما سيكون في المستقبل من طيِّ الصحف.

وفي هذا اليوم تُبعث الخلائق على هيئة خلق الله لهم أول مرة، كما ولدتهم أمهاتهم، قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرْدَى كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ [الأنعام: ٩٤].

وعن ابن عباس رضي الله عنه قال: قام فينا رسول الله ﷺ بموعظة فقال: «إنكم محشورون إلى الله ﷻ حفاة عراة غرلاً، كما بدأنا أول خلق نعيده وعدًّا علينا إنا كنا فاعلين» الحديث ^(٤).

وفي الصحيحين: من حديث عائشة رضي الله عنها قالت: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «يُحْشَرُ الناس يوم القيامة حفاة عراة غرلاً»، قلت: يا رسول الله، النساء والرجال جميعاً ينظر بعضهم إلى بعض؟! قال ﷺ: «يا عائشة، الأمر أشد من أن ينظر بعضهم إلى بعض» ^(٥).

(١) قرأ أبو جعفر بضم التاء على التانيث، مع فتح الواو من (تُطْوَى) مبني للمجهول و(السماء) نائب فاعل، وقرأ الباقون بنون مفتوحة وكسر الواو (نُطْوِي) مبني للمعلوم، و(السماء) مفعول به.

(٢) قرأ حفص وحزمة والكسائي وخلف بضم الكاف والتاء في (لِلْكِتَابِ) مع حذف الألف، جمع كتاب، بمعنى: الصحف، وقرأ الباقون بكسر الكاف وفتح التاء وإثبات الألف (لِلْكِتَابِ) على الأفراد.

(٣) قرأ الأصهباني عن ورش، وأبو جعفر، وأبو عمرو، بخلف عنه، بإبدال الهمزة ألفاً وصلّاً ووقفاً، وكذا حزمة عند الوقف، وقرأ الباقون بتحقيقها في الحالين.

(٤) أخرجه البخاري برقم (٣٣٤٩، ٤٦٢٥) ومسلم (٢٨٦٠) وأحمد في «المسند» (٢٣٥/١) برقم (٢٠٩٦، ٢٢٨١).

(٥) البخاري برقم (٦٥٢٧) ومسلم برقم (٢٨٥٩).

ويوم تُطوى الصحف نعيد خلقهم كما بدأناه من العدم ﴿وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَتْ عَلَيْهِ﴾ [الروم: ٢٧] وهذا معنى ﴿كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُعِيدُهُ﴾.

وإعادة الخلق يوم البعث وعُد قطعته الله على نفسه، ووعدته لا يتخلف ﴿وَعَدَّا عَلَيْنَا إِنَّا كُنَّا فَاعِلِينَ﴾ أي: قادرين على تحقيق وإنجاز ما نعد به، قال تعالى: ﴿وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ وَالسَّمَوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ﴾ [الزمر: ٦٧].

وعن نافع عن ابن عمر ؓ أن رسول الله ﷺ قال: «إن الله يقبض يوم القيامة الأرض، وتكون السموات بيمينه ثم يقول: أنا الملك»^(١).

وفي الصحيحين: عن ابن عباس ؓ قال: خطب النبي ﷺ فقال: «إنكم محشورون إلى الله حفاة عراة غرلاً» ﴿كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُعِيدُهُ وَعَدَّا عَلَيْنَا إِنَّا كُنَّا فَاعِلِينَ﴾ ثم إن أول من يُكسى يوم القيامة إبراهيم، إلا إنه يُجاء برجال من أمتي فيؤخذ بهم ذات الشمال، فأقول: يارب أصحابي، فيقال: لا تدري ما أحدثوا بعدك، فأقول كما قال العبد الصالح: ﴿وَكُنْتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَّا دُمْتُ فِيهِمْ﴾ إلى قوله: ﴿شَهِيدٌ﴾، فيقال: إن هؤلاء لم يزالوا مرتدين على أعقابهم منذ فارقتهم»^(٢).

وَرَاثَةُ أَرْضِ الْجَنَّةِ وَأَرْضِ الدُّنْيَا لِلصَّالِحِينَ بِإِيمَانِهِمْ وَخَيْرَتِهِمْ

١٠٥ - ﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ^(٣) مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ^(٤) الصَّالِحُونَ﴾

وفي سياق الحديث عن الدار الآخرة ونعيمها، بيّن ﷺ أن أرض الجنة يرثها عباد الله الصالحون، الذين قاموا بما أمروا به، واجتنبوا ما نهوا عنه من أمة محمد ﷺ، وهذا الإلارث يشمل أرض الجنة وأرض الدنيا.

١- ومعنى وراثة أرض الجنة: أن يأخذ المؤمنون أماكنهم التي أعدها الله لهم في الجنة، ويأخذوا إلى جوارها أماكن الكفار في الجنة التي كانت مُعدة لهم لو أنهم آمنوا،

(١) صحيح البخاري برقم (٧٤١٢).

(٢) صحيح البخاري برقم (٣٣٤٩، ٤٧٤٠) و«صحيح مسلم» برقم (٢٨٦٠).

(٣) قرأ حمزة وخلف العاشر بضم الزاي من (الزبور)، والباقون بفتحها، وهما لغتان.

(٤) قرأ حمزة بإسكان ياء الإضافة من (عبادي الصالحون) وصلًا ووقفًا، وقرأ الباقون بفتحها وصلًا وإسكانها وقفًا.

فالمؤمنون يرثون أماكنهم وأماكن أهل النار.

وإلى هذا المعنى يشير قوله تعالى: ﴿وَتِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [الزخرف: ٧٢].

وقوله: ﴿تِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي نُورِثُ مِنْ عِبَادِنَا مَنْ كَانَ تَقِيًّا﴾ [مريم: ٦٣].

وقوله تعالى على لسان أهل الجنة بعد أن يدخلوها: ﴿وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي صَدَقَنَا وَعْدَهُ وَأَوْرَثَنَا الْأَرْضَ نَبَوْا مِنْ الْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَاءُ﴾ [الزمر: ٧٤].

فالمتقون يرثون أرض الجنة بتقواهم، ويأخذون أرض أهل النار الخاصة بهم في الجنة فيما لو كانوا من المتقين، كما يرث الوارث مال المُتَوَفَّى، وهذا هو معنى الغبن الذي جاء في قوله تعالى: ﴿يَوْمَ يَجْمَعُكُمُ يَوْمَ الْجَمْعِ ذَلِكَ يَوْمُ الْتَغَابِنِ﴾ [التغابن: ٩].

أي: اليوم الذي يغبن فيه بعضكم بعضاً، فكل منكم يأخذ مكان الآخر ويرثه، أي: أن الكافر يرث نصيب المؤمن في النار فيما لو كان كافراً، والعكس صحيح، فالمؤمن يرث نصيب الكافر في الجنة لو كان مؤمناً.

وقد جاء في الحديث أن الإنسان يرى عند موته مقعده من الجنة ومقعده من النار.

٢- ومعنى وراثة المؤمنين لأرض الدنيا الصلاح لعمارة الأرض، وإصلاحها وتنميتها واستغلال ثرواتها، واستخراج كنوزها وطاقاتها، إن عباد الله الصالحين، هم أهل السعادة في الدنيا والآخرة، وهم ورثة الأرض في الدنيا والآخرة، فكما أنهم يرثون أرض الجنة، فإن الله تعالى قد وعدهم أن السعادة في الدنيا تكون لهم إذا تحقق فيهم شرط الصلاح.

فالصلاح شرط لوراثة أرض الجنة، وشرط لوراثة أرض الدنيا، والصلاح لوراثة أرض الجنة، يجمعه الإيمان والعمل الصالح، والصلاح لوراثة أرض الدنيا يجمعه أيضاً الإيمان والعمل الصالح.

فإطلاق اسم الأرض يصلح لأن يراد به: إن سلطان العالم سيكون بيد المسلمين ما استقاموا على الإيمان والصلاح.

فالمراد بالأرض في الآية: ما يشمل أرض الدنيا وأرض الآخرة، ووراثة غير المسلمين

لأرض الدنيا يقع على خلاف الأصل.

فقد يتغلب على أجزاء من الأرض في بعض الفترات من التاريخ، كفارًا فجارًا، أو جبارين ظلمة، وتكون لهم الغلبة، المادية عسكريًا واقتصاديًا في حقبة من الأحقاب؛ ويكون ذلك بسبب نقص في صلاح المؤمنين وخلل في صفوفهم، فإذا عاد التوازن إليهم بتحقيق منهج الله تعالى في القيام بالتكاليف الشرعية، والعمل على عمارة الأرض وإصلاحها، كانوا أهلًا لتملكها، ونفوذ سلطانهم فيها.

ويؤخذ من الآية: أن الأرض خلقها الله أصلًا لعباده المتقين، وأن غيرهم تبع لهم، كما أن الطيبات من الرزق خلقها الله أصلًا لعباده المؤمنين، وأن غيرهم تبع لهم، كما قال تعالى: ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا خَالِصَةٌ يَوْمَ الْقِيَمَةِ﴾ [الأعراف: ٣٢].

وفي الآية بشرى للمؤمنين بوراثتهم أرض الدنيا في النهاية، وفي هذا يقول ﷺ فيما يرويه ثوبان ؓ: «إن الله تعالى زوى لي الأرض، فرأيت مشارقها ومغاربها، وإن أمتي سيبلغ ملكها ما زوى لي منها، وأعطيتُ الكثرين: الأحمر والأبيض، وإنني سألت ربي لأمتي ألا يهلكها بسنة عامة، وألا يسلط عليهم عدوًا من سوى أنفسهم، فيستبيح بيضتهم، وإن ربي قال: يا محمد، إنني إذا قضيت قضاء فإنه لا يرد، وإنني أعطيتك لأمتك ألا أهلكهم بسنة عامة، وأن لا أسلط عليهم عدوًا من سوى أنفسهم، يستبيح بيضتهم، ولو اجتمع عليهم من بأقطارها- أو قال: من بين أقطارها- حتى يكون بعضهم يهلك بعضًا، ويسبي بعضهم بعضًا»^(١).

وفي وجوب تحقيق شرط الصلاح لعمارة الأرض بالقيام بالأوامر والنواهي الإلهية يقول سبحانه: ﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا أَصْلَحْنَا لَكَ الْأَرْضَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّن بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا﴾ [النور: ٥٥].

(١) أخرجه مسلم برقم (٢٨٨٩) وأبو داود (٤٢٥٢) وصحيح أبي داود (٣٥٧٧) وصحيح ابن ماجه (٣٩٥٢) والترمذي (٢٢٨١) وصحيح الترمذي (١٧٦٨) عن ثوبان ؓ.

والآية تشير إلى استخلاف المؤمنين في الأرض، وتمكينهم منها وولايتهم عليها، إذا هم حققوا الإيمان والعمل الصالح

فقد بينت الآية مَنْ هم أهل للاستخلاف في الأرض، والتمكين فيها، وتحقيق الأمن لهم، وأنهم: المؤمنون العاملون للصلاحات، المحققون للتوحيد الخالص.

وفي الآية الأخرى يقول سبحانه: ﴿الَّذِينَ إِنْ مَكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ وَاللَّهُ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ﴾ [الحج]

فإقامة الصلاة، وإخراج الزكاة، والأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، هي شروط أربعة، لمن يولّيه الله الحكم ويورثه الأرض، فإذا لم تتحقق هذه الشروط التي في الآيتين فليسوا أهلاً لوراثة الأرض، وهم غير صالحين للغلبة عليها، وهذا مقتضى ما أوحاه الله إلى رسله في قوله: ﴿فَأَوْحَىٰ إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ لَنُهْلِكَنَّ الظَّالِمِينَ﴾ [١٤] وَلَنُكِنَّكُمْ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِهِمْ ذَلِكَ لِمَنْ خَافَ مَقَامِي وَخَافَ وَعِيدِ﴾ [إبراهيم].

وقوله: ﴿إِنَّ الْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [الأعراف: ١٢٨].

ويدل على عموم الآية التي نحن بصددنا لوراثة أرض الدنيا والآخرة قوله تعالى: ﴿إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهُدُ﴾ [غافر].

ذلكم قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ﴾ والزبور: هو المزبور، أي: المكتوب، والذكر: هو اللوح المحفوظ، فالمراد بالمزبور إذن: جميع الكتب السماوية، أي: أن الله تعالى سجّل في كل الكتب - التوراة والإنجيل والزبور والقرآن - أن الأرض في الدنيا والآخرة، يرثها عباد الله الصالحون لسكنائها ولعمارتها، بتحقيقهم لمنهج الله في الأرض، وامثالهم للأوامر واجتنابهم للنواهي، والعمل على استغلال ثرواتها وخيراتها.

ويُحتمل أن يراد بالزبور: كتاب داود عليه السلام، وبالذكر: التوراة التي نزلت قبله.

قال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم: الزبور: الكتب التي نزلت على الأنبياء.

والذكر: أم الكتاب، الذي يُكتب فيه الأشياء قبل ذلك.

والمراد بالأرض: أرض الجنة، أو أرض الدنيا والآخرة.

والقوم الصالحون ليسوا إلا المسلمين من أمة محمد ﷺ، وهذا غير الوعد الذي وعد الله به بني إسرائيل على لسان موسى ﷺ، وغير الإرث الذي أورثه الله بني إسرائيل في قوله: ﴿وَأَوْزَنَّا الْقَوْمَ الَّذِينَ كَانُوا يُسْتَضَعُونَ مَشْرِكَ الْأَرْضِ وَمَعْرِبَهَا أَلَنِي بَنَرَكْنَا فِيهَا﴾ [الأعراف: ١٣٧] وقوله: ﴿وَنُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضِعُوا فِي الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ﴾ [القصص].

فالمراد فيهما: أرض خاصة، ومكان معين هو الأرض المقدسة، وذلك قبل أن يحرمها الله تعالى عليهم إلى الأبد، عقوبة لهم على تخاذلهم، ومخالفة نبيهم في قتال الجبارين.

ثَنَاءُ اللَّهِ تَعَالَى عَلَى كِتَابِهِ

١٠٦- ﴿إِنَّ فِي هَذَا لَبَلَاغًا لِقَوْمٍ عَكِيدِينَ﴾ (١٠٦)

بَيَّنَّ الله سبحانه أن ما سبق ذكره في هذه السورة وغيرها من القرآن المتلو، فيه من الموعظة عبرة كافية لمن يعبدون الله تعالى، فالعابدون الخاشعون هم المستفعدون بما في القرآن، وهم الجديرون بوعد الله تعالى، وبشارته لهم بميراث أرض الجنة، وأرض الكفر في الدنيا.

﴿إِنَّ فِي هَذَا﴾ إشارة إلى القرآن كله، سَيِّمَا ما ذُكِرَ منه في الآية الأخيرة ﴿لَبَلَاغًا﴾ أي: لكفاية من الأخبار التي فيها الوعد والوعيد، وفيها الموعظة البالغة ﴿لِقَوْمٍ عَكِيدِينَ﴾ مؤمنين بالله حق الإيمان، قائلين بالتكاليف الشرعية، آمرين بالمعروف، ناهين عن المنكر، مؤثرين طاعة الله تعالى على طاعة الهوى والشيطان.

وفي هذه الآية ثناء من الله تعالى على كتابه العزيز (القرآن) وبيان كفايته التامة عن كل شيء، فهو يُبَلِّغُ العباد ويوصلهم إلى ربهم وإلى دار كرامته، وهو الكفيل بمعرفة ربهم بأسمائه وصفاته وأفعاله، وإخباره بالغيب، وفيه المأمورات والمنهيات، والتحذير من الشيطان وكيده، فمن لم يُغْنِهِ القرآن، فلا غناء له، ومن لم يكفه القرآن فلا كفاية له.

رَحْمَةُ اللَّهِ لِلْعَالَمِينَ

١٠٧- ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾ (١٠٧)

تقوم سورة الأنبياء على إثبات الرسالة لمحمد ﷺ، وتردُّ على المنكرين لها القائلين: ﴿أَفَتَأْتُونَ السِّحْرَ وَأَنْتُمْ تُبْصِرُونَ﴾ [٣] وتذكر مناقب عدد من الرسل.

وفي ختام مناقب الأنبياء يأتي وصف جامع شامل لبعثة محمد ﷺ؛ لبيان مزية شريعته على سائر الشرائع في عمومها ويُسرها ودوامها، فقد أرسله تعالى رحمة لجميع الخلق، فمن آمن به سَعِدَ ونجا، ومن لم يؤمن به خاب وخسر.

والعالمين: كل ما عدا الله تعالى فهو عالم، فرسالة النبي ﷺ رحمة للإنس والجن وغيرهم، ﴿بَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا﴾ [الفرقان: ١]

وفي الآية مدح للرسول ﷺ، وثناء، عليه ومدح للرسالة وثناء عليها، فهو ﷺ رحمة الله المهداة لعباده، فالمؤمنون قبلوا هذه الرحمة وشكروها، وقاموا بواجبها، وغيرهم أبى هذه الرحمة، وبدّل نعمة الله كفرا.

إنما أنا رحمة مهداة:

أما وصف النبي ﷺ بالرحمة فهو وصف خاص به ﷺ، ولم يوصف به غيره من رسل الله جميعاً، ورحمة الرسول ﷺ منها ما يتعلق بشخصه الكريم، ومنها ما يتعلق برسالته وشريعته، وقد فطر النبي ﷺ على خُلُق الرحمة في جميع أحواله، كما قالت عائشة ؓ: كان خلقه القرآن، كان قرآناً يمشي بين الناس، وصورة عملية لما جاء فيه.

وقال ﷺ: «إنما أنا رحمة مهداة»^(١). وقد أعطاه الله تعالى صفتين من صفاته، فقال تعالى: ﴿بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ﴾ [التوبة: ١٢٨].

وبَيَّن سبحانه أن النبي ﷺ جُبل على خُلُق الرحمة، فكان ﷺ لِيِّن الجانب، كما قال تعالى: ﴿فِيمَا رَحَمَهُ مِنَ اللَّهِ لَئِنْ لَمْ يَكُنْ فَطْرَ غَلِيظَ الْقَلْبِ لَأَنْفَضُوهُ مِنْ حَوْلِكَ﴾ [آل عمران: ١٥٩].

ولما شَجَّ وجهه ﷺ يوم أُحُد قيل له: لو دعوت عليهم؟ فقال: «إني لم أبعث لَعَنًا، وإنما بُعثت رحمة»^(٢).

(١) أخرجه البيهقي في «الدلائل» عن أبي هريرة (١/١٥٨) وصححه الألباني في «السلسلة الصحيحة» برقم (٤٩٠).

(٢) يُنْظَر: صحيح مسلم برقم (٢٥١٩) عن أبي هريرة.

وقد كان الناس قبل الإسلام، أهل كفر وضلال، وكان أهل الكتاب في حيرة من أمرهم، فبعث الله محمداً ﷺ؛ لإخراج الناس من الظلمات إلى النور، ومن الضلال إلى الهدى. ومن رحمته ﷺ أنه نصر الضعيف، وأعان المظلوم، وسأوى بين الخصمين، وأمر بالعدل والإحسان وإيتاء ذي القربى، ونهى عن الفحشاء والمنكر.

الحنيفية السمحة:

أما كون الرسالة رحمة، فلأنها تقوم على السماحة والرفق واليسر، وهي أوسع الشرائع رحمة بالناس، فهي تقوم على التيسير ورفع الحرج، وهي رحمة عامة، ملازمة للناس جميعاً في سائر أحوالهم، قال تعالى: ﴿وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ﴾ [الحج: ٧٨]. وقال جل شأنه: ﴿يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمْ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمْ الْعُسْرَ﴾ [البقرة: ١٨٥]. وقال ﷺ: «بُعِثْتُ بِالْحَنِيفِيَّةِ السَّمْحَةِ»^(١).

وقد شملت هذه الرحمة مَنْ هُمْ تحت سلطان الإسلام من أهل الذمة، فلم يُرغمهم الإسلام على ترك دينهم، وأجرى العدل بينهم، وجعل لهم من الحقوق وعليهم من الواجبات كالمسلمين سواء بسواء، فدمائهم وأموالهم وأعراضهم معصومة. وهذه الرحمة شملت الكافر الذي استفاد ببعثة النبي ﷺ بدفع عذاب الاستئصال عنه بمقتضى قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانِ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ﴾ [الأنفال: ٣٤] وليست ببعثة النبي رحمة على الكفار في الآخرة.

قال ابن عباس ؓ في الآية: من آمن تَمَّتْ له الرحمة في الدنيا والآخرة، ومن لم يؤمن عُوفي مما كان يصيب الأمم في عاجل الدنيا من العذاب، من الخسف والمنح والقتل^(٢). أما من سمع برسالة محمد ﷺ ولم يؤمن به، من جميع الملل والنحل، فهو من أهل النار؛ لأنه مات كافراً بخاتم الرسل ﷺ.

ولأن هذه الرسالة رحمة الله للعالمين جميعاً، فقد حَرَّمَ الإسلام تعذيب الحيوان، وشرع

(١) الحديث بتمامه في سلسلة الأحاديث الصحيحة برقم (٢٩٢٤).

(٢) أخرجه الطبراني برقم (١٢٣٥٨) وابن جرير (٤٤٠/١٦) والبيهقي (٤٨٦/٥).

الإحسان في ذبحه، ورغب في الرحمة والرفق بالحيوان عموماً، فقد عذبت امرأة بالنار في هرة حبستها، لم تطعمها ولم تتركها تأكل من خشاش الأرض.

وغفر الله لرجل وجد كلباً يلهث من العطش، فنزل في بئر فملاً خفه ماء، وأمسكه بفمه حتى رقي، فسقى الكلب؛ فغفر الله له.

وقد شملت هذه الرحمة كل من شكر نعمة الله عليه؛ وقام بما وجب عليه تجاه هذه الرسالة، وكان ممن استجاب لله والرسول، فأطاع واستجاب، لأنه من أمة محمد ﷺ، أما من خالف ولم يؤمن بخاتم المرسلين، فقد ضيّع نفسه، وخسر دنياه وأخراه، واستبدل نعمة الله كفرًا، كما قال تعالى: ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَى الَّذِينَ بَدَلُوا نِعْمَتَ اللَّهِ كُفْرًا وَأَحَلُّوا قَوْمَهُمْ دَارَ الْبَوَارِ ۖ جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا وَيَنسَوْنَ أَلْقَارَهُمْ﴾ [إبراهيم: ٢٨].

وقد وصف الله تعالى القرآن بقوله: ﴿قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدًى وَشِفَاءٌ ۚ وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِي آذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى﴾ [فصلت: ٤٤].

وقوله: ﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلَّا خَسَارًا﴾ [الاسراء: ٨٢].

وقوله: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمْ مَوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَاءٌ لِّمَا فِي الصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ [يونس: ٥٧].

التَّوْحِيدُ هُوَ أَصْلُ الرِّسَالَةِ

١٠٨- ﴿قُلْ إِنَّمَا يُوحِي إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمُ اللَّهُ وَحْدٌ فَهَلْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ [١٧٨]

بعد أن وصفت الآيات السابقة القرآن، بأنه غاية البلاغ للعابدين، ووصفت الرسول ﷺ بأنه رحمة الله للعالمين.

وصفت دعوة الرسول ﷺ في هذه الآية بأنها الأصل الجامع للتوحيد، وإبطال إلهية ما سواه.

فكلّ متّبعٍ للدعوة الإسلامية، عليه أن يؤمن بوحداية الله تعالى، ويكفر بالشرك والطاغوت، ويعبد الله كما شرع.

(١) وقف يعقوب بهاء السكت على (إليّ) بخلف عنه.

فالتوحيد هو أصل الشريعة، وكل ما تشتمل عليه من أحكام وتكاليف متفرعة عليه.
 قل يا رسولنا: إن الذي أوحى إليّ، ويُعثُّ به إليكم أنّ إلهكم الذي يستحق العبادة هو
 الله وحده، وفي هذا قصر للصفة على الموصوف، أي: قصر الوحي على الوجدانية.
 وفيه أيضًا قصر الموصوف على الصفة، أي: قصر الله تعالى على الوجدانية، أي: ما
 يوحى إليّ إلا اختصاص الله تعالى بالوجدانية.

وكل التكاليف، والعبادات، والتشريعات، والهدايات، تدور حول وحدانية الله تعالى،
 فوجب عليكم -أيها المخاطبون- أن تُسلموا وتلقوا لله تعالى ﴿فَهَلْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾؟
 الاستفهام بمعنى الأمر، أي: أسلموا وانقادوا لما يوحى إليّ من إخلاص العبادة لله
 وحده، فإن فعلوا ذلك فليحمدوا الله على نعمة الإسلام، وإن أعرضوا عن الانقياد لعبودية
 ربهم، فحذرهم -أيها الرسول- من نزول العقاب بهم.

وقصر الدعوة على التوحيد يُبطل ما كان يلتبس على المشركين من أن محمدًا ﷺ يذكر
 إلهين هما: الله، والرحمن.

ويُبطل ما يصفون به النبي ﷺ من أنه ساحر يدعو لما لا يُعقل.

ويحسم الخلاف بين دعوة الإسلام، ودعاوى الشرك والوثنية التي أثارت عجب
 المشركين، في مثل قوله تعالى عنهم: ﴿أَجْعَلِ الْآلِهَةَ إِلَهًا وَاحِدًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ﴾ [ص].
 وقوله تعالى عنهم أيضًا: ﴿أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَا إِلَى رَجُلٍ مِنْهُمْ أَنْ أَنْذِرِ النَّاسَ وَبَشِّرِ
 الَّذِينَ ءَامَنُوا أَنَّ لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ عِنْدَ رَبِّهِمْ قَالَ الْكَافِرُونَ إِنَّ هَذَا لَسِحْرٌ مُبِينٌ﴾ [يونس].

والرسول ﷺ لم يكن بدعًا من الرسل، بل إن الرسل جميعًا كانت دعوتهم مقصورة على
 التوحيد، كما قال تعالى: ﴿وَسَلِّ مَنْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رُسُلِنَا أَجَعَلْنَا مِنْ دُونِ الرَّحْمَنِ ءَالِهَةً
 يُعْبَدُونَ﴾ [الزخرف].

وقال سبحانه: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوْحِيَ إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ

﴿١٥﴾ [الأنبياء].

مَوْقِفُ الدَّاعِيَةِ مِنْ إِعْرَاضِ الْمَدْعُوعِينَ

١٠٩- ﴿فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُلْ ءَاذَنْتُكُمْ عَلَىٰ سَوَاءٍ وَإِنْ أَدْرِي أَقْرَبُ أَم بَعِيدُ مَا تُوعَدُونَ﴾ ﴿١٠٩﴾

بلغهم دعوة التوحيد -أيها الرسول- فإن أعرضوا عن الإسلام ولم يتبعوك، فقل لهم: لقد أبلغتكم جميعاً ما أمرني به ربي، وما أوحى به إليّ، ولم أخص أحداً منكم بالدعوة دون أحد، فأنتم جميعاً على حد سواء في العلم والمعرفة بهذا التوحيد، وهذا كقوله تعالى على لسان هود عليه السلام: ﴿فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ مَا أُرْسِلْتُ بِهِ إِلَيْكُمْ﴾ [هود: ٥٧].

وبعد أن أبلغتكم ما أرسلت به إليكم، فقد انتهت مهمتي بذلك، وأنا وأنتم على حد سواء فيما يحدث لكم من العقاب في المستقبل القريب أو البعيد، فلا تقولوا إذا نزل بكم العذاب ﴿مَا جَاءَنَا مِنْ بَشِيرٍ وَلَا نَذِيرٍ فَقَدْ جَاءَكُمْ بَشِيرٌ وَنَذِيرٌ﴾ [المائدة: ١٩]

والإيذان الذي في قوله تعالى: ﴿فَقُلْ ءَاذَنْتُكُمْ عَلَىٰ سَوَاءٍ﴾ يكون عادة لإنهاء فترة السلم، وإعلان الطرف الآخر بالحرب، ويكون إعداراً لهم، وتسجيلاً عليهم، كما قال ﷺ: «ألا هل بلغت، اللهم فاشهد»، فقد استوى علمي وعلمكم بمآل الكفر والكافرين، ولم أكنم عنكم شيئاً.

قال أبو مسلم: الإيذان على السواء: الدعاء إلى الحرب مجاهرة؛ لقوله تعالى: ﴿وَأَمَّا تَخَافُ مِنْ قَوْمٍ خِيَانَةً فَانْذِرْ إِلَيْهِمْ عَلَىٰ سَوَاءٍ﴾ [الأنفال: ٥٨].

فيكون المعنى: وما أنذرتكم به من نزول العذاب، لست أعلم متى يحلّ بكم في الدنيا أو الآخرة، إن عشتم أو متم، فلا أدري أقرب أم بعيد ما توعدون به من العذاب؟! لأن علمه عند الله، وليس لي من الأمر شيء.

و(إن) بمعنى: (ما)، أي: وما أعرف أقرب أم بعيد ما توعدون به من حلول العذاب بكم؟ فهو غيب في علم الله تعالى، ولا أعلم متى قيام الساعة؟ ولا متى هزيمتكم وغلبة المسلمين عليكم؟ فما أنا إلا مبلغ عن ربي، وقد أعلمتكم ببراءتكم مني، وبراءتي منكم، قال تعالى: ﴿وَإِنْ كَذَّبُوكَ فَقُلْ لِي عَمَلِي وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ أَنْتُمْ بَرِيءُونَ مِمَّا أَعْمَلُ وَأَنَا بَرِيءٌ مِمَّا تَعْمَلُونَ﴾ ﴿١﴾ [يونس]. قال تعالى:

١١٠، ١١١ - ﴿إِنَّهُ يَعْلَمُ الْجَهْرَ مِنَ الْقَوْلِ وَيَعْلَمُ مَا تَكْتُمُونَ ﴿١١٠﴾ وَإِنْ أَدْرِى لَعَلَّهُ فِتْنَةً لَّكُمْ وَمَنْعٌ إِلَىٰ حِينٍ ﴿١١١﴾﴾

أي: وعدمُ عِلْمِ النبي ﷺ بموعد حلول العذاب بالمكذبين؛ لأن الله تعالى هو الذي يعلم السر والجهر من الأقوال والأفعال، ويعلم ما تُخفونه وما تكتُمونه في صدوركم، لا يغيب عنه شيء مما خفي عنكم ولا ما ظهر لكم، وهو الذي يحاسبكم ويؤاخذكم عليه، أما النبي ﷺ فلا علم له بما خفي عن العباد إلا ما يطلع الله عليه، كما قال تعالى: ﴿عَلِمَ الْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِ أَحَدًا ﴿١١٦﴾ إِلَّا مَن أَرَضَىٰ مِن رَّسُولٍ فَإِنَّهُ يَسْلُكُ مِن بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ رَصَدًا ﴿١١٧﴾﴾ [الجن].

وهذه الآية معترضة بين الآية التي قبلها والتي بعدها.

ثم عطف سبحانه على عدم عِلْمِ النبي ﷺ بموعد حلول العذاب بالمشركين المكذبين، بأنه ﷺ لا يعلم أيضًا الحكمة في تأخير عقابهم بعد إعراضهم عن الدعوة، فلعله يكون من باب الاختبار والابتلاء، أو من باب الاستدراج لهم؛ ليزدادوا في التكذيب والإعراض.

فالمعنى: وما أدري لعل تأخير نزول العذاب فتنة لكم، أي: استدراج وابتلاء؛ كي تتمتعوا في الدنيا إلى وقت معين، تزدادون فيه كفرًا، ثم تكون عقوبتكم أعظم.

وبهذا التجهيل، يترك القرآن نفوسهم في توجُّس وترقُّب وتخوُّف تنتظر ما ينزل بها في ظل هذا المتاع الخادع، ولا يكشف عن هذا الغيب المجهول إلا علام الغيوب.

قال الشعبي: لَمَّا سَلَّمَ الحسن بن عليٍّ الأمر إلى معاوية، قال له معاوية: قُمْ فتكلم، فحمد الله وأثنى عليه، ثم قال: إن هذا الأمر تركته لمعاوية لإرادة إصلاح المسلمين، وَحَقَّنْ دِمَائِهِمْ ﴿وَإِنْ أَدْرِى لَعَلَّهُ فِتْنَةً لَّكُمْ وَمَنْعٌ إِلَىٰ حِينٍ ﴿١١١﴾﴾ ثم استغفر ونزل^(١).

(١) رواه ابن أبي شيبة (١١/١٤٢، ١٥/١٠٠) والطبراني (٢٥٥٩) والبيهقي في (الدلائل) (٦/٤٤٤).

مِسْكُ الْخِتَامِ

١١٢- ﴿قُلْ^(١) رَبِّ^(٢) أَحْكُمْ بِالْحَقِّ وَرَبُّنَا الرَّحْمَنُ الْمُسْتَعَانُ عَلَى مَا تَصِفُونَ^(٣)﴾ ﴿١١٣﴾

أي: وبعد أن بلغ الرسول رسالة ربه، فأدى الأمانة، وأذنهم على سواء، وحذّرهم فتنة الابتلاء، تضرع النبي ﷺ إلى ربه يطلب منه القضاء الفصل، والحكم العدل، بينه وبين المكذبين المستهزئين.

﴿قَالَ﴾ أي: النبي ﷺ ممثلاً أمر الله له: ربّ افصل بيني وبين المكذبين بما يُظهر الحق للجميع، من نصر الحق وإزهاق الباطل وفي قراءة ﴿قُلْ رَبِّ أَحْكُمْ﴾ فعل أمر للنبي ﷺ أي يارب افصل بيني وبينهم بالقضاء العدل.

ولم يسأل النبي ﷺ ربه أن يُشدّد عليهم، إنما سأله بصفة الرحمن، فهو سبحانه كثير الرحمة، وهو الذي يُطلب منه العون على ما يصفونه بألستهم، من أنواع الكذب والزور والبهتان، ويُطلب منه الصبر على أذاهم، فالعبد لا يتكل على حوله وقوته، إنما يستعين بالرحمن في جميع أموره.

وختمت السورة بتفويض الأمر إلى الله تعالى، وتوقّع الفرج منه سبحانه، فهو نعم الناصر، ونعم المعين.

تم تفسير (سورة الأنبياء) والله الحمد والمنة



(١) قرأ حفص بلفظ الماضي في (قال) أي: بفتح القاف واللام بينهما ألف، مسنداً إلى ضمير الرسول ﷺ، وهو إخبار من الله تعالى عما قاله الرسول ﷺ للمعرضين عن دعوته، وقرأ الباقون بضم القاف وسكون اللام بدون ألف (قل) فعل أمر من الله تعالى لنبیه؛ ليجيب به المعرضين عن دعوته.

(٢) قرأ أبو جعفر بضم الباء من (رب) إحدى اللغات الجائزة في المنادى المضاف لياء المتكلم فهو مبني على الضم على نية الإضافة، وقرأ الباقون بالكسرة، منادى مضاف لياء المتكلم المحذوفة للتخفيف.

(٣) قرأ ابن ذكوان بياء الغيبة في (تصفون) على الالتفات، والباقون بقاء الخطاب؛ لمناسبة (آذنتكم) وهو الوجه الثاني لابن ذكوان.

تَفْسِيرُ سُورَةِ الْحَجِّ (٢٢)

مُقَدِّمَةُ السُّورَةِ

سورة الحج هي السورة الثانية والعشرون في ترتيب المصحف، والخامسة بعد المئة في ترتيب النزول، نزلت بعد سورة النور، وقبل سورة (المنافقون)، وعدد آياتها ثمان وتسعون آية في المصحف الكوفي^(١).

وهي ألف ومئتان وإحدى وتسعون كلمة، وخمسة آلاف ومئة وخمسة وسبعون حرفاً. وسميت سورة الحج؛ لأن الله تعالى أمر إبراهيم فيها بالدعوة إلى الحج، بالإضافة إلى ذكر بعض المناسك والفضائل والمنافع وذبح الهدي، وتقريع من يصدون المسلمين عن المسجد الحرام.

ونزول السورة كان قبل فرضية الحج بالاتفاق؛ فقد فرض الحج بآيات سورتي البقرة [١٩٦-٢٠٣] وآل عمران [٩٦، ٩٧].

وتسميتها بهذا الاسم توقيفي، فقد جاء في الحديث والآثار أن سورة (الحج) حُظِيت عن سائر سور القرآن الكريم بما فيها من سَجْدَتَيْنِ: السجدة الأولى في الآية الأخيرة من الربع الأول، والسجدة الثانية في الآية قبل الأخيرة من السورة.

سأل عقبة بن عامر رسول الله ﷺ قال: قلت: يا رسول الله، أَفُضِّلْتُ سورة (الحج) على سائر القرآن بسجْدَتَيْنِ؟ قال: «نعم، فمن لم يسجدهما فلا يقرأهما»^(٢).

وسورة (الحج) سورة مختلطة: مكية ومدنية، فالآيات التي تتحدث عن الحج والهذي والجهاد والتشريع، آيات مدنية، والآيات التي تتحدث عن التوحيد والبعث والجزاء

(١) وسبع وسبعون آية في العدد المكي، وأربع وسبعون آية عند أهل الشام، وخمس وسبعون آية عند أهل البصرة، وست وسبعون آية عند أهل المدينة.

(٢) رواه الترمذي (٥٧٨) وأبو داود (١٤٠٢) والحاكم (٣٩٠/٢) والبيهقي (٣١٧/٢) وأحمد (١٥١/٤) قال الشيخ أحمد شاكر: الحديث صحيح، يُنظر تحقيقه للدكتور عبد الرحمن عميرة، على «فتح القدير» للشوكاني (٤٣٣/٣).

ومشاهد القيامة، مكية.

ومن أعاجيب هذه السورة أن منها ما نزل ليلاً، ومنها ما نزل نهاراً، ومنها ما نزل في الحضر، ومنها ما نزل في السفر، ومنها ما نزل في الحرب، ومنها ما نزل في السلم، ومنها ما نزل في مكة، ومنها ما نزل في المدينة، ومنها ما نزل في غيرهما، ومنها الناسخ والمنسوخ، ومنها المحكم والمتشابه.

فالآيات الخمس الأول نزلت ليلاً، والأربع التي تليها نزلت نهاراً، والثلاث التي بعدها نزلت في السفر، ومن الآية الثالثة عشرة إلى الآية العشرين، نزلت في الحضر^(١).

ولأن السورة منها ما نزل قبل الهجرة، ومنها ما نزل بعدها، فقد تعددت موضوعاتها وتنوعت وفق خصائص القرآن المكي والمدني فمع أنها تتناول جوانب التشريع، كأنها سورة مدنية، إلا أن مشاهد القيامة وأحوالها عنصر بارز فيها، كأنها سورة مكية وقد اشتملت السورة على أربعة أشواط:

الشوط الأول منها: يتعلق بالبعث والنشور في مشاهد مُرعبة رهبة، ترتجف لها القلوب، وتطيش لهولها العقول: ﴿إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ﴾ [١].

﴿فَالَّذِينَ كَفَرُوا قُطِعَتْ لَهُمْ ثِيَابٌ مِّنْ نَّارٍ يُصَبُّ مِنْ فَوْقِ رُءُوسِهِمُ الْحَمِيمُ﴾ [١٩].

فالله تعالى يحيي الأرض بعد موتها، والساعة آتية لا ريب فيها، ومن الناس المجادل المكابر، ومنهم من يعبد الله على حرف ومنهم من يتبع كل شيطان مريد.

وبيّنت السورة مصير المؤمنين والكافرين، وقرّرت أن الهدى والضلال بيد الله تعالى، وأن الجدل والانحراف عن منهج الله طريق أهل الضلال، وينتهي هذا الشوط بالآية (٢٤) وهو أشبه ما يكون بالقرآن المكي.

والشوط الثاني من السورة: يتناول الحديث عن المسجد الحرام، وبناء البيت العتيق، وتعظيم حرّمات الله وشعائره، وتطهير البيت من رجس الشرك.

وفصّلت السورة القول في الهدى والأضاحي، وينتهي هذا الشوط بالإذن للمؤمنين

(١) «زاد المسير» لابن الجوزي (٤٠٢/٥).

الذين أخرجوا من ديارهم في القتال، وهي أول آية تأذن بالقتال بعد قيام دولة الإسلام في المدينة، وينتهي هذا الشوط بالآية (٤١) وهو أشبه ما يكون بالقرآن المدني.

أما الشوط الثالث من السورة: فيعرض أمثلة من مصارع المكذبين، ومشاهد القرى المدمرة ﴿فَكَانَ مِنْ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ فِيهَا خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا وَيَبْرِىٰ مُعْتَلَمَةٍ وَقَصْرِ مَشِيدٍ ﴿٤٥﴾﴾ وهو درس للمكذبين برسالة الإسلام في كل زمان ومكان، وفيه بيان لسنة الله في خلقه، وفيه أيضًا تسرية عن الرسول ﷺ، وهذا القسم أشبه ما يكون بالقرآن المكي وينتهي بنهاية الربع الثالث من السورة.

أما الربع الأخير: فهو يمثل الشوط الرابع في السورة، وهو يتناول جانب التوحيد وبطلان ما يُعبد من دون الله ﴿إِنَّ الَّذِي تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَنْ يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَلَوْ اجْتَمَعُوا لَهُ وَإِنْ يَسْلُبْهُمُ الذُّبَابُ شَيْئًا لَا يَسْتَنْقِذُوهُ مِنْهُ﴾ [٧٢]، إلى جوار دلائل القدرة في صفحات الكون، وفي بداية هذا الربع بيان وعد الله تعالى بنصر من يقع عليه البغي، ويدفع العدوان عن نفسه.

أبرز موضوعات السورة:

١- ومن أبرز ما تناولته السورة أنها أمرت الناس في بدايتها بتقوى الله تعالى، وخشية يوم الحساب والجزاء، ثم بيّنت أنواع الناس في هذه الحياة وعاقبة كل نوع: فمنهم من يجادل في الله بغير علم ويتبع كل شيطان مريد، ومنهم من يشك في البعث ويرتاب، ومنهم من يكابر ويجحد على غير علم ولا هدى ولا كتاب منير، ومنهم من يعبد الله على حرف، وفي خلال ذلك تنطق الآيات بدلائل التوحيد، والبعث، والنشور.

٢- ثم يعقّب هذا التنويع من اختلاف أحوال الناس، بشارة للمؤمنين بجنات تجري من تحتها الأنهار، وأن على غير المؤمن الذي يظن أن الله تعالى لن ينصر دينه وكتابه، أن يتحرق ويخُنق نفسه بحبل، فإن الله تعالى مُعلٍ كلمته، وناصرٌ نبيه لا محالة، وليذهب هو إلى دار الجحيم.

٣- وبعد أن بيّنت السورة انقياد جميع المخلوقات لله تعالى عقدت مقارنة بين خصوم الإسلام وأوليائه، وبيان ما أعده الله للفريقين من جزاء عادل، وذلك في قوله تعالى:

﴿هَٰذَا نِ حَصَمَانِ اَخَصَصُوا فِي رِبِّهِمْ﴾ إلى نهاية الآية الثالثة؛ فقد جاء في الصحيح: أنها نزلت في غزوة بدر في مبارزة حمزة وعلي وعبيدة بن الحارث، لشيبة وعتبة ابني ربيعة، والوليد بن عتبة، وكان أبو ذر يقسم على ذلك.

٤- ثم تحدثت السورة عن بناء البيت وفريضة الحج وأحكام البُدن، وذلك من الآية الخامسة والعشرين إلى الآية السابعة والثلاثين. والآيات الأربع بعد ذلك تحدثت عن مشروعية القتال في الإسلام، وأسباب التمكين للأمم الصالحة في الأرض. وفي عشر آيات بعد هذه الآيات الأربع بيان لمصير الأمم التي كذبت رُسل الله تعالى في وعيد صريح لكل من يكفر بخاتم المرسلين.

٥- وأعقب ذلك حديث عن قصة الغرانيق التي جاء ذكرها في سورة النجم، وهي هنا من الآية الثانية والخمسين إلى الآية السادسة والخمسين.

٦- وقبل الحديث عن الشرك بالله تعالى وضرب المثل له، تذكر السورة في مطلع الربع الأخير منها عشر من دلائل التوحيد وخصائص الإلهية، ومنها إيلاج كل من الليل والنهار في الآخر، وإمساك السماء أن تقع على الأرض إلا بإذن الله، وأن الإحياء والإماتة بيد الله تعالى إلخ.

٧- وختمت السورة بتذكير الناس بنعم الله عليهم، وبيان أن الله تعالى اصطفى من الملائكة رسلاً ومن الناس، وأنه سبحانه قد ارتضى لنا الإسلام ديناً، وأن إبراهيم عليه السلام سمانا المسلمين في هذا القرآن وقبلة، وأن الرسول سيشهد على هذه الأمة بالبلاغ، وقد اختار الله هذه الأمة لشهد على سائر الأمم أن رسلهم قد بلغتهم، فوجب عليها أن تؤثّق الصلة بالله، وأن تستمسك بحبله، وتستعين به في كل أمورها.



تَفْسِيرُ السُّورَةِ

فِي أَهْوَالِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ

١- ﴿يَأْتِيهَا النَّاسُ أَتْفُقًا رَبِّكُمْ إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ ۝﴾

ابتدأت السورة بنداء من الخالق إلى عموم الخلق، وهو نداء رهيب ترتجف له القلوب، مشير للذعر، يحمل في ثناياه بعض أهوال يوم القيامة، وقد بينت السُّنة أن الزلازل تهيج قبيل قيام الساعة، ومعها براكين تَلْفِظُ ما في الأرض من معادن يلتقطها الناس وهم زاهدون فيها، كأن هذه الزلزلة صحوة الموت، أو انتفاضة الوداع الأخير، ويومئذ تتفطر السماء، ويتكور الشمس والقمر، وتشتت النجوم، ويحدث من الأهوال والفرع ما تتصدع له القلوب، وتطير له الأفئدة، وتشيب منه الولدان، وتذوب منه الصُّلاب.

والآيات الخمس الأولى من سورة (الحج) نزلت على رسول الله ﷺ في السفر ليلاً في غزوة بني المصطلق) سنة أربع أو خمس من الهجرة؛ حيث تقدَّم بعض أصحابه على بعض في السير، فناداهم وجمعهم حوله، وقرأ عليهم الآيات الخمس الأول، فلم يُر أكثر بكاء من هذه الليلة، فلما أصبح أصحاب النبي ﷺ لم يحطوا بالرحال، ولم يضربوا الخيام، ولم ينصبوا القدور، ورآهم النبي ﷺ على هذه الحال حتى وقت الصباح، بين بالك وحزين متفكر، فقال عليه الصلاة والسلام: «أندرون أي يوم هذا؟» فقالوا: الله ورسوله أعلم، قال: «هذا يوم القيامة»، وذكر النبي عليه الصلاة والسلام الحديث الذي جاء بطرق وألفاظ متعددة:

١- منها رواية الصحيحين: عن أبي سعيد الخدري رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «يقول الله ﷻ يوم القيامة: يا آدم، فيقول: لبيك ربنا وسعديك، فينادي بصوت: إن الله يأمرك أن تخرج من ذريتك بعثاً إلى النار، قال: يارب، وما بعثُ النار؟ قال: من كل ألف تسع مئة وتسعة وتسعين، فحيثُ تضع الحامل حملها، ويشيب الوليد ﴿وَبَرَى النَّاسَ سُكْرَىٰ وَمَا هُمْ بِسُكْرَىٰ وَلَٰكِنَّ عَذَابَ اللَّهِ شَدِيدٌ﴾ فشقَّ ذلك على الناس حتى تغيرت وجوههم، فقال النبي ﷺ: «من يأجوج ومأجوج تسع مئة وتسعة وتسعين، ومنكم واحد، ثم أنتم في الناس كالشعرة السوداء في جنب الثور الأبيض، أو كالشعرة

البيضاء في جنب الثور الأسود، وإني لأرجو أن تكونوا ربع أهل الجنة، فكبرنا، ثم قال: ثلث أهل الجنة، فكبرنا، ثم قال: شطر أهل الجنة، فكبرنا»^(١).

٢- وفي حديث أنس بن مالك رضي الله عنه قال: نزلت ﴿يَأْتِيهَا النَّاسُ أَتْفُؤُا رَبِّكُمْ إِنَّكَ زَلْزَلَةٌ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ﴾ على النبي صلى الله عليه وسلم وهو في مسير له، فرفع صوته حتى ثاب إليه أصحابه، ثم قال: «أتدرون أي يوم هذا؟ يوم يقول الله جل وعلا لآدم: يا آدم، قم فابعث بعث النار، من كل ألف تسع مئة وتسعة وتسعين»، فكبر ذلك على المسلمين، فقال النبي صلى الله عليه وسلم: «سددوا وقاربوا وأبشروا، فوالذي نفسي بيده، ما أتم في الناس إلا كالشامة في جنب البعير، أو كالرقعة في ذراع الدابة، وإن معكم لخليقتين ما كانتا مع شيء قط إلا كثرناه: يأجوج ومأجوج، ومن هلك من كفرة الجن والإنس»^(٢).

٣- وفي الحديث عن ثوبان رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «يدخل الجنة سبعون ألفاً بدون حساب» قال عمر: يا رسول الله، سبعون ألفاً؟ قال عليه الصلاة والسلام: «ومع كل واحد منهم سبعون ألفاً يدخلون الجنة بغير حساب»^(٣).

﴿يَأْتِيهَا النَّاسُ﴾ هذا خطاب للناس كافة، المؤمن والكافر، العربي والعجمي، اليهودي والنصراني وغيرهم من سائر الملل والنحل، من وُجد منهم بالأمس في الأحقاب الماضية، ومن هم في هذا الزمن، ومن يوجد منهم إلى يوم القيامة.

﴿يَأْتِيهَا النَّاسُ أَتْفُؤُا رَبِّكُمْ﴾ الذي ربّاكم بنعمه الظاهرة والباطنة، اجعلوا بينكم وبين عذاب الله وقاية، بامثال أمره واجتناب نهيه، خافوا من الجليل، واعملوا بالتنزيل، واستعدوا ليوم الرحيل، واحذر - أيها العبد - أن يراك الله حيث نهاك، وأن يفتقدك حيث أمرك،

(١) يُنظر: «صحيح البخاري» (٣٣٤٨، ٤٧٤١، ٧٤٨٣) و«صحيح مسلم» برقم (٢٢٢) و«سنن النسائي الكبرى» برقم (١١٣٩) والبزار في «كشف الأستار» برقم (٢٢٣٥) و«المسند» (٤/٤٣٢، ٤٣٥) برقم (١١٢٨٤).

(٢) «صحيح ابن حبان»، الإحسان برقم (٧٣٥٤) قال محققه: صحيح على شرط الشيخين، و«المستدرک» (٥٦٦/٤) قال الحاكم: هذا إسناد صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه، وعزاه الهيثمي لأبي يعلى وقال: رجاله رجال الصحيح غير محمد بن مهدي وهو ثقة، «مجمع الزوائد» (١٠/٣٩٤).

(٣) ينظر الحديث بنحوه عن ثوبان في صحيح الجامع الصغير برقم (٥٣٦٦).

وسارع إلى فعل الخير، وضئ نفسك عن كل ما يغضب الله تعالى، واعمل بطاعة الله واحذر عقابه، واترك الشرك والفسوق والعصيان.

ثم ذكر سبحانه ما يعينهم على التقوى ويحذرهم من تركها، وهو الإخبار بأهوال القيامة.

﴿إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ﴾ إن ما يحدث عند قيام الساعة من أهوال وحركة شديدة للأرض تتصدع منها كل جوانبها فترجف، وتزلزل، وتتصدع، وتندك، وتكون كثيباً مهيلاً، ثم هباءً منثوراً، وعندئذ تنفطر السماء، وتكور الشمس والقمر، وتنتثر النجوم، ويحدث من الأهوال ما تنصدع له القلوب، وتشيب منه الولدان، وهذا شيء عظيم، لا يقدر قدره ولا يبلغ كنهه إلا الله سبحانه.

١- قال تعالى: ﴿إِذَا زُلْزِلَتِ الْأَرْضُ زِلْزَالَهَا ۖ وَأَخْرَجَتِ الْأَرْضُ أَثْقَالَهَا ۖ﴾ [الزلزلة] أي: حملها الذي في جوفها.

٢- وقال أيضاً: ﴿يَوْمَ تَرْجُفُ الرَّاجِفَةُ ۖ تَتَّبِعُهَا الرَّادِفَةُ ۖ﴾ [النازعات].

٣- وقال سبحانه: ﴿يَوْمَ تَرْجُفُ الْأَرْضُ وَالْجِبَالُ وَكَانَتِ الْجِبَالُ كَثِيبًا مَهِيلًا ۖ﴾ [المزمل].

٤- وقال تعالى: ﴿وَجُمِلَتِ الْأَرْضُ وَالْجِبَالُ فَدُكَّا ذَٰكَ ۖ وَجِدَّةً ۖ فَيَوْمَئِذٍ وَقَعَتِ الْوَاقِعَةُ ۖ﴾ [الحاقة].

٥- وقال سبحانه: ﴿إِذَا رُجَّتِ الْأَرْضُ رَجًا ۖ وَبُسَّتِ الْجِبَالُ بَسًا ۖ فَكَانَتْ هَبَاءً مُنْبَثًا ۖ﴾ [الواقعة].

هذه الرجفة شيء عظيم، تشيب منها رؤوس الأطفال، وفي هذا اليوم يحدث الانقلاب الكوني الهائل، فترى الأرض غير الأرض والسموات.

وهل هذه الزلزلة تكون قبل قيام الساعة، أو عند القيام من القبور؟ الله أعلم، والأصح أنها تكون مصاحبة لقيام الساعة، حين تُشرف الدنيا على الفناء، حيث يحدث هذا التغير في الكون، عند النفخ في الصور للمرة الثانية، فتبدل الأرض غير الأرض والسموات، وترج الأرض رجاً، وبُس الجبال بساً. قال تعالى:

٢- ﴿يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا

وَتَرَى النَّاسَ سُكَرَىٰ^(١) وَمَا هُمْ بِسُكَرَىٰ وَلَٰكِنَّ عَذَابَ اللَّهِ شَدِيدٌ ﴿٢﴾

ويمضي تفصيل هذا الهول بما يزيد شدة الرهبة، فتذكر هذه الآية ثلاث حالات من مظاهر الفرع والرعب:

الحالة الأولى: أن كل أم تغفل عن وليدها الذي أرضعته، فتنسى الوالدة رضيعها الذي ألقمته ثديها؛ لِمَا نزل بها من كرب، فهي تنظر إلى ولدها ولا تراه، كأنها لا تحس به ولا تعرفه، إنها تتحرك ولكنها لا تعي، مع أن الأم مجبولة على حب ولدها، خاصة وهو طفل رضيع، إن رهبة الموقف أذهلتها، كما قال تعالى: ﴿يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ ﴿٢٤﴾ وَأُمِّهِ وَأَبِيهِ ﴿٢٥﴾ وَصَاحِبِهِ وَبَنِيهِ ﴿٢٦﴾ لِكُلِّ امْرِئٍ مِنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ ﴿٢٧﴾﴾ [عبس] وذلك من الدهشة والحيرة والاضطراب.

الحالة الثانية: أن المرأة الحامل عند قيام الساعة تضع ما في بطنها قبل تمام مدة الحمل، وتُسقطه من شدة الخوف والفرع والهول.

الحالة الثالثة: أنك ترى الناس كأنهم سكارى من الحال الذي هم فيه وكأن عقولهم غائبة، فهم كالسكران الذي يترنح كأن عقله قد ذهب، وفكره قد سلب.

ويقرب من هذه الحالة، أنك إذا ذهبت إلى جهة قضائية، محكمة أو نحوها، والناس في انتظار الدخول على القاضي، فإنك تجد الخصوم في حالة ذهول، الوجوه مكفهرة، الجميع غارق في التفكير، ماذا يقول؟ بماذا يجيب؟ ينتظر ماذا سيصير في قضيته؟ وماذا سيقول للقاضي؟ وما حجة الخصم؟

إنه في هذه اللحظة لا يذكر أهله ولا ماله ولا ولده، وقضيته قد لا تكون لها أهمية كبيرة، وقد تكون القضية زورًا، ولكن الهم يشغله ويستولي على فكره.

وقل مثل ذلك قبيل دخول الطلاب صالة الامتحان، ونحو ذلك من أمور الحياة، وإذا كان الأمر كذلك في الدنيا، فما بالكم بهذا الموقف العظيم، حيث ترى الناس فيه سكارى من شدة الفرع والخوف والهلع، وليسوا بسكارى من الخمر أو السكر ونحوه، ولكن شدة العذاب أفقدتهم عقولهم وإدراكهم؟! فقد بلغت القلوب الحناجر، وشخصت

(١) قرأ حمزة والكسائي وخلف العاشر بفتح السين وإسكان الكاف وحذف الألف من (سكارى)، فتقرأ (سَكْرَى) والباقون (سُكَارَى) بضم السين وفتح الكاف وألف بعدها، وكلاهما جمع سكران.

الأبصار، وخشعت الأصوات، وذلة الوجوه، ونُصبت الموازين، ونشرت الصحف، ونُصب الصراط على متن جهنم، وأزلفت الجنة للمتقين وبرزت الجحيم للغاوين.

وعندئذ يندم الظالم، لأنه لم يسلك طريق النجاة، وسار في ركب الشيطان وحزبه، قال تعالى: ﴿وَيَوْمَ يَعْصُ الظَّالِمُ عَلَى يَدَيْهِ يَقُولُ يَلَيْتَنِي أَخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَبِيلًا ۝٧٧﴾ يَوَلَّىٰ لَيْتَنِي لَوْ أَخَذْتُ فَلَانًا خَلِيلًا ۝٧٨﴾ لَقَدْ أَضَلَّنِي عَنِ الذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَاءَنِي وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِلْإِنْسَانِ خَذُولًا ﴿[الفرقان] ويومئذ تسودّ وجوه وتبيض وجوه، ويُسمع لجهنم تغيط وزفير ﴿إِذَا رَأَتْهُمْ مِنْ مَّكَانٍ بَعِيدٍ سَمِعُوا لَهَا تَغِيْطًا وَزَفِيرًا ۝٧٩﴾ وَإِذَا أُلْقُوا مِنْهَا مَكَانًا ضَيِّقًا مُّقَرَّنَيْنِ دَعَوْا هُنَالِكَ ثُبُورًا ۝٨٠﴾ لَا نَدْعُوا الْيَوْمَ ثُبُورًا وَاحِدًا وَادْعُوا ثُبُورًا كَثِيرًا ﴿[الفرقان] ويومئذ يقال لأهل الشقاء: ﴿أَخْسَأُوا فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُون﴾ [المؤمنون: ١٠٨] والمتقون في روضات الجنات لهم ما يشاؤون عند ربهم.

عن عائشة ؓ قالت: قلت: يا رسول الله، هل يذكر الحبيب حبيبه يوم القيامة؟ قال: «يا عائشة، أما عند ثلاث فلا: أما عند الميزان حتى يثقل أو يخف فلا، وأما عند تطاير الكتب، فإذا أن يعطى بيمينه وإما أن يعطى بشماله فلا، وحين يخرج عُتْق من النار فينطوي عليهم، ويتغيظ عليهم، ويقول ذلك العتق: وَكُلْتُ بثلاثة، وَكُلْتُ بثلاثة، وَكُلْتُ بثلاثة، وَكُلْتُ بمن ادّعى مع الله إلهاً آخر، وَكُلْتُ بمن لا يؤمن بيوم الحساب، وَكُلْتُ بكل جبار عنيد، قال: فينطوي عليهم، ويرميهم في غمرات، ولجهنم جسر أدق من الشعر، وأحد من السيف، عليه كلاليب وحسك، يأخذن من شاء الله، والناس عليه كالطَّرف، وكالبرق، وكالريح، وكأجاويد الخيل، والركاب، والملائكة يقولون: رَبِّ سَلِّمْ سَلِّمْ، فَنَاجٍ مُسَلِّمٌ، ومخدوشٌ مُسَلِّمٌ، ومُكَوَّرٌ في النار على وجهه»^(١).

ومعنى (فينطوي) أي يحبط بهم، ومعنى (كالطرف) أي كرد الطرف، أي العين.

و (مسلم) أي سَلِّمْ من السقوط في النار.

(١) «المسند» (١١٠/٦) برقم (٢٤٧٩٣) بإسناد ضعيف وأورده الهيثمي في «مجمع الزوائد» (٣٥٨/١٠) وقال: فيه ابن لهيعة وهو ضعيف، وقد وثق، وبقي رجاله رجال الصحيح.

أَرْبَعَةُ أَصْنَافٍ مِنَ النَّاسِ: الصَّنْفُ الْأَوَّلُ: جَاهِلٌ مُقَلِّدٌ

٣- ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يُجَادِلُ فِي اللَّهِ يَغْيِرَ عَلَيْهِ وَيَتَّبِعُ كُلَّ شَيْطَانٍ مَّرِيدٍ﴾

ذكرت سورة (الحج) أربعة أصناف من الناس: صنفان من أهل الكفر - والعياذ بالله - وصنف منافق، وصنف من أهل الإيمان. وهذه الأصناف الأربعة ترجع إلى فريقين: فريق يؤمن بالله واليوم الآخر، وليس عنده ريب في البعث والنشور، وفريق كافر يجادل في أدلة البعث والنشور مكابرة وعنادًا.

وقد ذكرت السورة أن هذا الفريق الكافر ثلاثة أصناف، الصنف الأول جاء ذكره في هذه الآية، والصنف الثاني جاء في الآية الثامنة، والصنف الثالث جاء في الآية الحادية عشرة، وهو فريق منافق. أما الفريق المؤمن فقد جاء في الآية الرابعة عشرة، وهو الصنف الرابع من أصناف الناس:

والمعنى: أن الناس تجاه الأمر بتقوى الله تعالى فريقان: فريق امثل أمر الله سبحانه فخافه وخشي عذابه، وفريق عارض وجادل في وحدانية الله تعالى، وفي صدق رسالة محمد ﷺ، وهؤلاء هم أئمة الشرك وزعماء الكفر الذين ضلُّوا وأضلُّوا، فهم يُخَاصِمُونَ وَيُشَكِّكُونَ في قدرة الله تعالى على البعث والنشور، جهلاً منهم بحقيقة هذه القدرة، واتباعاً لأئمة الضلال، من كل شيطان متمرد على الله ورسوله.

والصَّنْفُ الْأَوَّلُ من أهل الكفر: ﴿مَنْ يُجَادِلُ فِي اللَّهِ يَغْيِرَ عَلَيْهِ﴾: وهم الذين يُقَلِّدُونَ غيرهم من قادة الكفر والبدع ويتبعونهم في الضلال، من شياطين الإنس والجن من غير نظر، ولا إعمال فكر، ولا بصيرة، فهم ينكرون البعث والدار الآخرة، وَيَطْعَنُونَ في القرآن الكريم، ويقولون: إنه أساطير الأولين، وينسبون إلى الله سبحانه الشريك والولد، وهم الذين وصفهم الله سبحانه في هذه الآية بأنهم يجادلون في الله بغير علم، ويتبعون كل شيطان مريد من كل مقلد تابع لغيره في الكفر والضلال، فهم يجادلون بالباطل، لإحقاق الباطل وإبطال الحق، والحال أنهم في غاية الجهل، يقلدون أئمة الضلال، وكل شيطان متمرد على الله وعلى رسوله.

وهكذا كل من أشرك بالله، أو كذب رسول الله، أو طعن في القرآن وصحيح السُّنَّةِ،

أو أنكر قدرة الله تعالى على إحياء الموتى، والبعث والنشور. سواء أكان ذلك في وقت نزول القرآن، أو في سائر الأزمنة والأمكنة.

ففي وقت النبي ﷺ كان منهم: النضر بن الحارث، والعاص بن وائل، وأبو جهل، وغيرهم، فقد كانوا يكذبون الرسول والقرآن، ويستبعدون إحياء الناس بعد مماتهم، وينكرون البعث والنشور، وينسبون لله البنات، ويقولون: القرآن أساطير الأولين، والأمثلة أكثر من أن تحصى.

وهذا أول صنف من الناس في هذه الآية: وهم من يجادل في الله بغير علم، سواء أكان هذا الجدل في وجود الله تعالى، أم في وحدانيته، أم في صفة من صفاته تعالى، أم في قدرته، أم في علمه، أم كان جدلاً في القرآن، أم في صاحب الرسالة ﷺ، فكله جدال بدون مستند شرعي، ولا دليل عقلي، وصاحبه مقلد، متبع لغيره، ومتبع لهواه وشيطانه، فهو متبع لكل شيطان مريد، قد شاق الله ورسوله.

والذي يتبع الهوى والشيطان كأنه اتخذ الهوى إلهه، واتخذهُ معبوداً له من دون الله، كما قال تعالى: ﴿أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهُهُ هَوَاهُ وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَىٰ عَمَلِهِ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِ وَقَلْبِهِ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِ غِشَاوَةً فَمَنْ يَهْدِيهِ مِنْ بَعْدِ اللَّهِ﴾ [الجاثية: ٢٣]. فهو متبع لهواه، ومقلد لأهل الضلال، يتبع شياطين الإنس والجن.

قال تعالى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَابٍ مُّنبِئٍ ۖ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَنبَغُ مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوَّلُوا كَانِ الشَّيْطَانُ يَدْعُوهُمْ إِلَىٰ عَذَابِ السَّعِيرِ﴾ [لقمان: ١٦].

ويدخل في هذا الوعيد والذم جميع أهل البدع والضلال، المعرضين عن الحق، المتبعين للباطل، ولأقوال وأفعال من سبقهم من أهل الضلال والبدع والأهواء:

١- ومن الآيات الدالة على ذلك، قوله تعالى: ﴿وَجَدَلُوا بِالْبَاطِلِ لِيُدْحِضُوا بِهِ الْحَقَّ﴾ [غافر: ٥].

٢- وقوله: ﴿وَالَّذِينَ يُجَاجِلُونَ فِي اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مَا اسْتُجِيبَ لَهُمْ جَحَنَّهُمْ دَاحِضَةً عِنْدَ رَبِّهِمْ وَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ﴾ [الشورى: ١٦].

٣- وقوله: ﴿وَإِنْ يَرَوْا كُفْرًا لَا يُؤْمِنُوا بِهِ حَتَّىٰ إِذَا جَاءُوكَ يُجَادِلُونَكَ يَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا

إِلَّا أَسْطِيزُ الْأَوَّلِينَ ﴿٢٥﴾ [الأنعام: ٢٥].

٤- وقوله: ﴿وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَنْ يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ﴾ [يس: ٢٥].

٥- وقوله: ﴿خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ نُطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُبِينٌ﴾ [النحل: ٤].

ومفهوم المخالفة في الآية، أَنَّ مَنْ جَادَلَ بِعِلْمٍ عَلَى ضَوْءِ هَذِي الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ لِيَحِقَّ الْحَقُّ أَوْ يَبْطُلَ الْبَاطِلُ، فَهُوَ جِدَالٌ مَحْمُودٌ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَجَدِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ [النحل: ١٢٥].

وَالْجِدَالُ: هُوَ الْمَنَازَعَةُ، وَالْمَخَاصِمَةُ، وَالْمَغَالِبَةُ. وَكُلٌّ مِنَ الطَّرَفَيْنِ يَحَاوُلُ أَنْ يَقْوِيَ رَأْيَهُ، وَيُضْعِفَ حُجَّةَ الْآخَرِ، وَالْجِدَالُ بَغِيرِ عِلْمٍ هُوَ الَّذِي يَغْلِبُ عَلَيْهِ الْعِنَادُ وَالْجَهْلُ. قَالَ تَعَالَى فِي وَصْفِ هَذَا الْجَاهِلِ الْمَجَادِلِ:

٤- ﴿كُتِبَ عَلَيْهِ أَنَّهُ مَنْ تَوَلَّاهُ فَأَنَّهُ يُضِلُّهُ وَيَهْدِيهِ إِلَى عَذَابِ السَّعِيرِ﴾ [٤].

بَيَّنَّ سَبْحَانَهُ سُوءَ عَاقِبَةِ الْمَجَادِلِ بِالْبَاطِلِ، الْمُتَّبِعِ لِشَيَاطِينِ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ، فَقَدْ قَضَى اللَّهُ وَقَدَّرَ عَلَى هَذَا الشَّيْطَانِ أَنَّهُ يُضِلُّ كُلَّ مَنْ اتَّبَعَهُ، وَلَا يَهْدِيهِ إِلَى الْحَقِّ، بَلْ يَسُوقُهُ إِلَى عَذَابِ جَهَنَّمَ الْمَوْقَدَةِ.

وهذه الآية فيها ضمائر ستة: الأول: فِي ﴿كُتِبَ عَلَيْهِ﴾ والثاني فِي: ﴿أَنَّهُ﴾ والثالث: فِي ﴿فَأَنَّهُ﴾ وهذه الضمائر الثلاثة تعود على الشيطان المذكور في نهاية الآية السابقة، أي: أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى كَتَبَ وَقَدَّرَ عَلَى الشَّيْطَانِ إِغْوَاءَ بَنِي آدَمَ وَإِضْلَالَهُمْ.

والضمير الرابع: فِي ﴿مَنْ تَوَلَّاهُ﴾، والضميران الخامس، والسادس فِي: ﴿يُضِلُّهُ وَيَهْدِيهِ﴾ وهذه الضمائر الثلاثة تعود على الاسم الموصول ﴿مَنْ﴾ فِي الْآيَةِ، وَهُوَ الَّذِي يَتَّخِذُ الشَّيْطَانُ وَلِيًّا، مِمَّنْ جَمَعَ بَيْنَ ضَلَالِهِ لِنَفْسِهِ، وَتَصْدِيهِ لِإِضْلَالِ غَيْرِهِ، وَهُوَ مُتَّبِعٌ وَمُقَلِّدٌ لِكُلِّ شَيْطَانٍ مُتَمَرِّدٍ، فَهِيَ ظُلُمَاتٌ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ.

وَقَدْ رَتَّبَ سَبْحَانَهُ اسْتِحْقَاقَ عَذَابِ السَّعِيرِ عَلَى مَنْ تَوَلَّى الشَّيْطَانِ وَاتَّبَعَ خَطَاةَ ﴿كُتِبَ عَلَيْهِ﴾ أَي: قَدَّرَ اللَّهُ عَلَى هَذَا الشَّيْطَانِ الْمُتَّبِعِ ﴿أَنَّهُ مَنْ تَوَلَّاهُ﴾ أَي: أَنَّ الَّذِي اتَّبَعَ الشَّيْطَانُ وَاتَّخَذَهُ وَلِيًّا وَقَدْوَةً لَهُ ﴿فَأَنَّهُ﴾ أَي: أَنَّ الشَّيْطَانِ ﴿يُضِلُّهُ﴾ أَي: يُضِلُّ مَنْ اتَّبَعَهُ

﴿يَهْدِيهِ إِلَى عَذَابِ السَّعِيرِ﴾ أي: ويقود من اتبعه إلى طريق النار المستعرة، فيبعده عن الحق، ويجنبه الصراط المستقيم، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا إِنَّمَا يَدْعُوا حِزْبَهُ لِيَكُونُوا مِنْ أَصْحَابِ السَّعِيرِ﴾ [فاطر: ٦]

وقضاء الله وقدره في الهدى والضلال معناه: حصول ووقوع علم الله السابق في الأزل، وانكشافه للخلق، وظهور أن هذا العبد سيختار بنفسه طريق الهدى، عندما يكون مكلفا وذلك العبد سيختار طريق الضلال، وأن علم الله تعالى بما كان وما سيكون قد سجل ذلك في أم الكتاب؛ لإقامة الحجة على العباد في يوم التناد.

دَلِيلُ إِمْكَانِيَّةِ الْبَعْثِ: فِي أَطْوَارِ خَلْقِ الْإِنْسَانِ وَإِخْرَاجِ النَّبَاتِ مِنَ الْأَرْضِ

٥- ﴿يَتَأْتِيهَا النَّاسُ إِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِّنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاهُ مِن تَرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِنْ مُّضْغَةٍ مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُّخَلَّقَةٍ لِّنُبَيِّنَ لَكُمْ وَنُقِرُّ فِي الْأَرْحَامِ مَا نَشَاءُ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ وَمِنْكُمْ مَّنْ يُؤْوَىٰ وَمِنْكُمْ مَّنْ يُرَدُّ إِلَىٰ أَرْدَلِ الْعُمُرِ لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِن بَعْدِ عِلْمٍ شَيْئًا وَتَرَىٰ الْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَا أَنزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ^(١) وَأَنْبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ ﴿٥﴾﴾

يقيم سبحانه في هذه الآية، الأدلة على أهم القضايا التي يجادل فيها المكذبون بغير علم، متبعين خطوات الشيطان، ممن أنذرهم الله بالزلزلة، وهي قضية البعث.

وللدين الإسلامي ركنان أساسيان، وعليهما تُبنى الفروع:

فالأساس الأول: هو توحيد الله تعالى.

والأساس الآخر: هو الإيمان باليوم الآخر.

ولأن قضية البعث هي الركن الثاني من أركان الإيمان، فالقرآن الكريم كثيرًا ما يركّز عليها ويذكر عليها الأدلة، ويضرب لها الأمثلة، ويقيم القرآن دائمًا في كثير من آياته دليلين عقليين على إمكانية البعث، يُصدّق بهما المؤمن والكافر:

(١) قرأ أبو جعفر (وربأت) بهزمة مفتوحة بعد الباء، يقال: فلان يربأ بنفسه، أي: يرتفع، وقرأ الباقر بدونها، من ربا يربو بمعنى: زاد.

أحدهما : الاستدلال بابتداء خلق الإنسان على إعادته وثانيهما : إحياء الأرض بعد موتها :

فقد يخاطب الداعية شخصًا لا يعترف بالقرآن ولا بالرسالة، وهذا الشخص يريد دليلًا منطقيًا عقليًا على إمكانية البعث؛ لأنه لا يؤمن بكتاب ولا سنة، ولذا فإن القرآن الكريم يأتي بالأدلة العقلية المنطقية، فيبين أن المنكر للبعث، عليه أن ينظر في أمرين، كي يستدل بهما على أن البعث أمر ممكن عقلاً :

ينظر أولاً : في نفسه، كيف خلق الله تعالى هذه الأجنة، التي تتكون في الأرحام في كل لحظة؟ من الذي خلقها؟ من الذي أوجدها من العدم، ثم طوّرها؟ وكيف تتحول من حال إلى حال، إلى أن يصير الإنسان بشراً سوياً؟ عليه أن ينظر في نفسه، كيف خُلِقَ؟ فيهتدي بهذا إلى معرفة الخالق سبحانه، ويهتدي أيضاً إلى الإيمان بالبعث والنشور، وأن الذي خلقه أولاً قادر على أن يعيده ثانية ﴿وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ﴾ [الروم: ٢٧].

والأمر الآخر: الذي يُستدل به على البعث والنشور، أن ينظر الإنسان في الأرض التي يقف عليها، ويأكل منها، ومنها طعامه وغذاؤه وشرابه، كيف يحيي الله الأرض بالماء بعد موتها فتخرج الزرع والثمر؟ وكيف أن هذه الأرض حملت البذور، وجذور النبات والزرع والشجر في جوفها، كما حَمَلَت المرأة بالجنين؟ وكيف أنها تَلَقَّحَتْ بالماء كما تَلَقَّحَ رَجُلُ المرأة بنطفة الرجل؟ وكيف أن النبات خرج من الأرض كما خرج الجنين من فرج المرأة؟ وأن القادر على إخراج النبات من الأرض قادر على إحياء الناس بعد موتهم.

فهذان مثالان يُقَرَّبُ بهما القرآن قضية البعث إلى أذهان البشر، ويذكرهما في كثير من مواضعه، وهما :

أولاً : الاستدلال بالخلق الأول على الإعادة؛ لقوله تعالى : ﴿أَفَعَيَيْنَا بِالْأَوَّلِ بَلْ هُمْ فِي لَبْسٍ مِّنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ﴾ (١٥) [ق].

ثانياً : الاستدلال بإحياء الأرض بعد موتها، وقد اشتملت الآية التي نحن بصددتها على الأمرين معاً :

﴿يَتَأْتِيهَا النَّاسُ﴾ : يا معاشر الجاحدين المنكرين للبعث، إن كنتم شاكِّين في قدرتنا على

البعث، فتأملوا وانظروا في أصل خَلَقَكُمْ ليزول شككم، ويذهب عن قلوبكم الريب. والشك في البعث أو جحوده، أساسه الغفلة الشديدة، والانغماس في لهو الدنيا، وسيطرة الماديات على حياة الناس، وانقطاع الصلة بين هذا الفريق من الناس وبين علاقتهم بربهم. إنه نداء يوقظ العقل الخامل، ويقتل الريبة التي تخامر العقل، فيقول تعالى لمنكري البعث: لا تذهبوا بعيداً، بل انظروا في أنفسكم فإننا خلقناكم من أطوار سبعة هي: التراب، والنطفة، والعلقة، والمضغة، والإخراج طفلاً، وبلوغ الأشد، والتَّوْفِي، أو الرُّدُّ إلى أرذل العمر.

وفي قوله تعالى: ﴿ثُمَّ لَتَكُونُوا شُيُوخًا﴾ [غافر: ٦٧]. وهو ما بعد الأشد ودون أرذل العمر؛ إذ يكون الإنسان شيخاً في الستين أو السبعين من العمر، وهو بكامل قوته العقلية، وقوته البدنية لا بأس بها، وها هي الأطوار السبعة:

الطور الأول: هو التراب: فأبوكم آدم خلقه الله من تراب، وخلق منه زوجه حواء، وخلق الذرية من التناسل بينهما، إلا عيسى عليه السلام، فقد خُلق كما خلق آدم، بكلمة (كن) والنفخ فيه من روح الله تعالى.

ومرجع خلق ذرية آدم إلى التراب؛ فقد خلقهم الله من النطفة، والنطفة من الغذاء، والغذاء من الأرض والتراب، فالنتيجة واحدة، وهذا معنى ﴿فَإِنَّا خَلَقْنَكُمْ﴾ أي: خلقنا أباكم آدم ﴿مِنْ تُرَابٍ﴾. فكيف تحوّل التراب إلى غذاء؟ وكيف تحوّل الغذاء إلى دم، وإلى ماء فيه حيوانات منوية؟!

الطور الثاني: هو النطفة: فقد خلق الله ذرية آدم من نطفة منيّ قدرة تسمّر النفس منها ومن رائجتها.

والنطفة: اسم لماء الرجل، وسميت كذلك لقلتها، كقطرة الماء، والمراد به هنا: الماء المختلط بين الرجل والمرأة عند الجماع، وهو ما يعبر عنه بالمني والبويضة، وهذا الاختلاط يحدث من التقاء ماء الرجل بماء المرأة بعد انتهاء مدة الحيض عند المرأة، فتمتزج النطفة بالبويضة، وتأخذ طريقها إلى رحم المرأة، حيث يتكون الجنين، وتستمر هذه النطفة، لمدة أربعين يوماً، كما جاء في حديث عبد الله بن مسعود الآتي ذكره.

كما قال تعالى: ﴿ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُ مِنْ سُلَالَةٍ مِّن مَّاءٍ مَّهِينٍ﴾ [السجدة].

وقال: ﴿أَلَمْ نَخْلُقْكُمْ مِنْ مَّاءٍ مَّهِينٍ ﴿٢٠﴾ فَجَعَلْنَاهُ فِي قَرَارٍ مَكِينٍ ﴿٢١﴾ إِلَيْنَا قَدَرٍ مَعْلُومٍ ﴿٢٢﴾﴾ [المرسلات].

الطور الثالث: هو العَلَقَة: حيث تتحول هذه النطفة إلى علقَة، وهي قطعة دم جامدة حمراء، كالدودة تلتصق بجدار رحم المرأة، وتعلق به، وتستمر العلقَة لمدة أربعين يومًا أيضًا.

الطور الرابع: هو المضغة: حيث تتحول هذه العلقَة في طورها التالي إلى مضغة، أي: قطعة من اللحم قدر ما يمضغه الإنسان، وهذه المضغة منها ما يُخلَق، يُنفخ فيه الروح، ويصير بشرًا سويًا، قد تشكّل وجهه وأطرافه، ومنها ما لا يُخلَق، فلا يكتمل نموه، وهذا معنى ﴿مُخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ﴾ لِنُبَيِّنَ لَكُمْ ﴿﴾ كمال قوتنا وقدرتنا وحكمتنا في هذا التدرج، ولنبين لكم أصل نشأتكم، مع قدرتنا على تمام هذه الأطوار في لحظة واحدة، والقادر على ذلك قادر من باب أولى على إعادة ما بداه.

والله تعالى يُثَبِّت في أرحام الأمهات، من هذه النطفة والعلقَة والمضغة ما يشاء، فمنها الذي يبقى، فلا يسقط من رحم المرأة، إلى أجل مسمى، هو وقت الولادة، بعد حَمْلِهِ تسعة أشهر غالبًا، ومنها الذي يسقط قبل الولادة، وقبل أن تظهر صورته الإنسانية.

الطور الخامس: هو الطفل: حيث يأتي الملك الموكّل بالأرحام إلى المضغة المخلّقة، فينفخ فيها الروح، وَيَكْتُبُ رزقه وأجله وعمله، وشقيًا أو سعيدًا، فنخرجكم من بطون أمهاتكم طفلًا سويًا كامل الخلق، يدين ورجلين، وسمع وبصر، وعقل، وغير ذلك، وقد سخّرنا لكم الأمهات وأجرينا الغذاء في ثدييها، وملأنا قلبها بالحب والحنان.

الطور السادس: بلوغ الأشد: وكمال النمو البدني والعقلي، حيث تنتقلون طورًا، بعد طور حتى تبلغوا أشدكم، وهو كمال العقل والقوة، بعد أن كنتم ضعافًا صغارًا لا تعلمون شيئًا.

الطور السابع: الوفاة: قد يكون ذلك في سن الصِّبَا أو الشباب قبل بلوغ الأشد، ومنكم من يهرم وتتقدم به السن حتى يصل إلى أرذل العمر وأخسّه، فيعود كما بدأ في طفولته؛ لكيلا يعلم من بعد علم شيئًا، فتضعف قواه العقلية، ويضعف بدنه، وتضعف ذاكرته، فيعثره النسيان والخلط بين المعلومات، ولا يقبل الجديد من المعارف والعلوم بيسر وسهولة، كما قال تعالى: ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا وَشَيْبَةً﴾ [الروم: ٥٤].

نسأل الله أن يحفظ علينا أسماعنا وأبصارنا وقواتنا، وألا نردَّ إلى أرذل العمر؛ لكيلا نعلم بعد علم شيئاً، وألا نكون ممن قال تعالى فيهم: ﴿وَمَنْ نُعَمِّرْهُ نُنَكِّسْهُ فِي الْخَلْقِ﴾ [يس: ٦٨].

١- وأطوار الجنين في بطن أمه قد جاءت في حديث ابن مسعود رضي الله عنه قال: حدثنا رسول الله ﷺ وهو الصادق المصدوق: «إن أحدكم يُجمع خلقه في بطن أمه أربعين يوماً نطفة، ثم يكون علقة مثل ذلك، ثم يكون مضغة مثل ذلك، ثم يُرسل الملك، فينفخ فيه الروح، ويؤمر بأربع كلمات: بكتب رزقه وأجله وعمله وشقي وسعيد، فالذي لا إله غيره إن أحدكم ليعمل بعمل أهل الجنة، حتى ما يكون بينه وبينها إلا ذراع، فيسبق عليه الكتاب فيعمل بعمل أهل الجنة فيدخلها»^(١).

ومعنى «فيسبق عليه الكتاب» أي: ينكشف للخلائق علم الله تعالى السابق في الأزل، بالنسبة لخاتمة هذا الإنسان.

ولذا أَسَنَدَ الحديث العمل إلى العبد، فقال: «فيعمل بعمل أهل الجنة»، أو «يعمل بعمل أهل النار».

٢- وفي حديث حذيفة بن أسيد الغفاري رضي الله عنه يبلغ به النبي ﷺ قال: «يدخل الملك على النطفة بعدما تستقر في الرحم بأربعين أو خمس وأربعين ليلة، فيقول: أي رب، أشقي أم سعيد؟ فيقول الله، ويكتبان، فيقول: أذكر أم أنثى؟ فيقول الله، ويكتبان، ويكتب عمله وأثره ورزقه وأجله، ثم تُطوى الصحف، فلا يُزاد على ما فيها ولا يُنقص»^(٢).

٣- وأخرج الطبري بسند صحيح إلى عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: «إذا وقعت النطفة في الرحم، بعث الله ملكاً فقال: يا رب مخلقة أو غير مخلقة؟ فإن قال: غير مخلقة؛ مجتئها

(١) يُنظر: «صحيح مسلم» برقم (٢٦٤٣) والبخاري برقم (٣٢٠٨، ٦٥٩٤، ٧٤٥٤) وأبو داود (٤٧٠٨) والترمذي (٢١٣٧) والنسائي في الكبرى (١١٢٤٦) وابن ماجه (٧٦) والبيهقي (١٨٧) و«المسند» (٦/ ١٢٥) برقم (٤٠٩١، ٣٦٢٤) بإسناد صحيح على شرط الشيخين.

(٢) أخرجه ابن أبي حاتم كما قال ابن كثير (٣٩٦/٥) وهو في «المسند» برقم (١٦١٤٢) بإسناد صحيح ورجال ثقات (محققوه) ورواه مسلم عن الطفيل بنحوه كما في «صحيح مسلم» برقم (٢٦٤٤) وأخرجه الحميدي (٨٢٦) والطبراني في الكبير (٣٠٣٩) وابن أبي عاصم في السنة (١٨٠).

الأرحام دماً، وإن قال: مخلقة؛ قال: يارب، فما صفة هذه النطفة: أذكر أم أنثى؟ ما رزقها؟ ما أجلها؟ أشقي أم سعيد؟ قال: فيقال له: انطلق إلى أم الكتاب، فاستنسخ منه صفة هذه النطفة، قال: فينطلق المليك، فينسخها، فلا تزال معه حتى يأتي على آخر صفتها^(١).

ومن الآيات الجامعة لأطوار خلق الإنسان، قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ سُلَالَةٍ مِّن طِينٍ ۖ ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَّكِينٍ ۚ ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظْمًا فَكَسَوْنَا الْعِظْمَ لَحْمًا ثُمَّ أَدْنَيْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ ۝١٧﴾ [المؤمنون].

وجاء بعض هذه الأطوار في قوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ يُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشْدَّكُمْ ثُمَّ لِيَتَّكُونُوا شُيُوخًا وَمِنْكُمْ مَّنْ يُؤْتِي مِنْ قَبْلِ وَبَلَّغُوا أَجَلًا مُّسَمًّى وَلَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ۝١٧﴾ [غافر].

وقال تعالى: ﴿يَخْلُقُكُمْ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ خَلْقًا مِّن بَعْدِ خَلْقٍ فِي ظُلُمَاتٍ ثَلَاثٍ ۝٦﴾ [الزمر: ٦]. هي: ظلمة البطن، وظلمة الرحم، وظلمة المشيمة.

والله ﷻ يدعونا إلى التأمل في خلق الإنسان، من خالق الحيوان المنوي؟ ومن الذي يحوِّله في أطواره المتتابعة حتى يكون جنيناً مكتمل الحواس؟ ومن الذي يخرج من بطن أمه بعد ذلك؛ لتتعامل رئاته مع هواء الدنيا، ولتتعامل عيناه مع الأشعة والأضواء؟ ومن الذي زوَّده بالخصائص الوراثية المؤهلة؟ وهذا حال الألف من الأجنة التي تأتي إلى الدنيا في كل ساعة من ليل أو نهار، لتبقى الحياة البشرية قائمة إلى أجل لا يعلمه إلا الله.

ثم يأتي الدليل الثاني على إمكانية البعث، وهو الاستدلال بهذه الأرض، كيف تنتقل من حال إلى حال؟ فانظر أيها المنكر للبعث في هذه الأرض، كما نظرت في نفسك، وتأمل، فأنت ترى الأرض يابسة قبل بذر النبات فيها، كرحم المرأة قبل وضع النطفة فيه، تراها جامدة ليس فيها شيء، بل هي خاوية هامة ميتة، فإذا أنزل الله عليها الماء -كما نزلت نطفة الرجل في رحم المرأة- اهتزت الأرض، فتحركت وارتفعت وزادت وأنبتت

(١) «تفسير الطبري» (١٧/١١٧) والحديث له حكم الرفع؛ إذ لا مدخل للرأي فيه، ويشهد له حديث ابن مسعود السابق في الصحيحين.

من كل زوج بهيج، حيث خرجت منها أصناف الزروع والخضراوات، والشجر، والنبات، ما يسر الناظرين ببهائه ورؤنقه، كما يخرج الأطفال من رحم المرأة.

واهتزاز الأرض تحركها إلى أعلى، وربت، أي: انتفخت من تفتق النبات والشجر.

فإحياء الأرض بعد موتها دليل على إحياء الناس بعد موتهم.

ولهذه الآية نظائر كثيرة في القرآن الكريم، منها قوله تعالى: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ تَرَى الْأَرْضَ خَاشِعَةً فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ إِنَّ الَّذِي أَحْيَاهَا لَمُحْيِي الْمَوْتِ﴾ [فصلت: ٣٩].

وقوله تعالى: ﴿فَانظُرْ إِلَى آثَارِ رَحْمَةِ اللَّهِ كَيْفَ يُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ ذَلِكَ لَمُحْيِي الْمَوْتِ﴾ [الروم: ٥٠].

أخرج الإمام أحمد عن أبي رزين العقيلي قال: أتيت رسول الله ﷺ فقلت: يا رسول الله، كيف يحيي الله الموتى؟ قال: «أَمَرْتُ بِأَرْضٍ مِنْ أَرْضِكَ مُجْدِبَةٍ، ثُمَّ مَرَرْتُ بِهَا مُخْصِبَةً»؟ قال: نعم، قال: «كَذَلِكَ النُّشُورُ» الحديث^(١).

إذ كيف ينشق الثرى عن الحبوب والفواكه؟ فلماذا نصدق هذا البعث بخروج النبات من الأرض، ونستبعد البعث الآخر؟ بخروج الإنسان من البرزخ فين هذا التراب الذي ندوسه بأقدامنا تخرج سنابل البرِّ والأرز حاملة للأغذية التي نعيش بها، وهي تحمل عناصر الحياة المختلفة للبدن.

هذا واقع لا يمكن إنكاره، كما لا يمكن إنكار الأجنة التي تقذف بها الأرحام في كل لحظة، والأجنة بعث، والنبات بعث، وكلاهما لا أثر فيه لقدرة بشر! فلم نؤمن بهما، ولا نؤمن ببعث الناس بعد الموت؟! وكثيراً ما استبعد بعض الخلق هذا البعث، فقالوا:

١- ﴿إِذَا مَرِئْتُمْ كُلَّ مُمَرِّقٍ إِنَّكُمْ لَعِىَ خَلْقٍ جَدِيدٍ﴾ [سبأ: ٧].

٢- وقالوا: ﴿أَءِذَا كُنَّا تُرَابًا أَءِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ﴾ [الرعد: ٥].

٣- وحكى الله تعالى قولهم في البعث: ﴿فَسَيَقُولُونَ مَنْ يُعِيدُنَا﴾ [الإسراء: ٥١].

(١) «المسند» (١١/٤). برقم (١٦١٩٤) من حديث طويل، قال محققوه: إسناده ضعيف، لأن الأشدق (سليمان بن موسى) لم يدرك أحداً من الصحابة، وبقية رجاله ثقات، وقال الهيثمي في مجمع الزوائد (٥٣/١): رواه أحمد، وفي إسناده سليمان بن موسى، وثقه ابن معين وأبو حاتم، وضعفه آخرون.

٤- ﴿وَقَالُوا لَوْ أَنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا﴾ [الإسراء].

٥- وقالوا: ﴿مَنْ يُحْيِ الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ﴾ [يس: ٧٨].

٦- وهم ينفون ذلك تمامًا قائلين: ﴿وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ﴾ [الأنعام: ٢٩].

٧- ﴿وَمَا نَحْنُ بِمُنشَرِينَ﴾ [الدخان: ٣٥].

فهذان الدليلان وهما: قياس الإعادة على البدء، وإحياء النبات بالماء، دليلان قطعان على خمسة مطالب جاء ذكرها في الآيتين التاليتين، وهي:

١- أن الله هو الإله الحق، وعبادة غيره باطلة ﴿ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْمُخْصِي﴾.

٢- وأنه كما ابتداء الخلق، وأحيا الأرض، فإنه يحيي الموتى ﴿وَأَنَّهُ يُحْيِي الْمَوْتَى﴾.

٣- وأنه قادر على كل شيء ﴿وَأَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾.

٤- وأن قيام الساعة أمر مؤكد لا وجه لاستبعاده ﴿وَأَنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ لَا رَيْبَ فِيهَا﴾.

٥- وأن الله يخرج من في القبور، ليحاسبهم ويجازيهم ﴿وَأَنَّ اللَّهَ يَبْعَثُ مَنْ فِي الْقُبُورِ﴾.

ومجمل معنى الآية: يأيها الناس إن كنتم في شك من أن الله يحيي الموتى، فإننا خلقنا أباكم آدم من تراب، ثم تناسلت ذريته من نطفة، وهي المنى، يقذفه الرجل في رحم المرأة، فيتحول بقدرة الله تعالى إلى علقة، وهي الدم الأحمر الغليظ، ثم إلى مضغة، وهي قطعة لحم صغيرة قدر ما يُمضغ، فتكون تارة مخلقة، أي: تامة الخلق تنتهي إلى خروج الجنين حيًا، وغير تامة الخلق تارة أخرى، فتسقط لغير تمام؛ لنبيّن لكم تمام قدرتنا بتصرف أطوار الخلق.

ونُبقّي في الأرحام ما نشاء، وهو المخلّق إلى وقت ولادته، وتكتمل الأطوار بولادة الأجنة أطفالًا صغارًا تكبر حتى تبلغ الأشد، وهو وقت الشباب والقوة واكتمال العقل، وبعض الأطفال قد يموت قبل ذلك، وبعضهم يكبر حتى يبلغ سن الهرم وضعف العقل، فلا يعلم هذا المعمّر شيئًا مما كان يعلمه قبل ذلك.

وترى الأرض يابسة ميتة لا نبات فيها، فإذا أنزلنا عليها الماء تحركت بالنبات، تفتتح عنه،

وارتفعت وزادت لارتوائها، وأنبئت من كل نوع من أنواع النبات الحسن ما يَسُرُّ الناظرين^(١).

خَمْسُ خَصَائِصَ لِلَّهِ تَعَالَى

٦- ﴿ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنْتُمْ يُحْيِ الْمَوْتِ وَأَنْتُمْ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٦﴾﴾

وبعد النداء العاطفي في بدء السورة للعمل بطاعة الله تعالى، واجتناب معاصيه، وبعد النداء العقلي بقيام الأدلة على البعث بعد الموت في الآية الخامسة، تأتي ثلاث خصائص لله تعالى في هذه الآية، ويأتي بعدها في الآية التي تليها نتيجتان حتميتان لما سبق ذكره، لا بد من التسليم بهما. وهذه الخصائص الخمس هي:

أولاً: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ﴾ أي: هو الموجود الثابت الذي لا مرأى فيه، فهو سبحانه لا يحول ولا يزول، وهو صاحب الوجود المطلق، والغنى المطلق، فالله وحده هو الخالق لكل شيء، فهو المعبود بحق، وعبادة غيره باطلة ﴿وَأَنْتُمْ مَا كُنْتُمْ مِنْ دُونِهِ هُوَ الْبَاطِلُ﴾ [الحج: ٦٢]

إن خلق الإنسان من تراب، ومراحل تكوين الجنين في بطن أمه، ومراحل تطور حياة الطفل بعد ذلك... كلها تشير إلى قدرة الله تبارك وتعالى، وتدل دلالة قاطعة على أن الله تعالى هو الذي يجب أن يتوجه إليه الخلق بالعبادة دون سواه.

وهذا الذي سبق بيانه من خلق الإنسان وفنائه، وإحياء الأرض بعد موتها بخروج النبات منها، هذا وغيره يحصل بسبب أن الله تعالى هو الإله الحق دون غيره، وهو الخالق المدبّر، الفعّال لما يريد، وفي هذا دليل واضح، وبرهان ساطع على وجوب إفراد الله تعالى بالعبادة.

ثانياً: ﴿وَأَنْتُمْ يُحْيِ الْمَوْتِ﴾ فهو وحده سبحانه الذي يعيد الحياة إلى الأموات، كما خلقهم أول مرة من العدم، وكما أحيا الأرض اليابسة فأنزل عليها الماء، وأخرج منها النبات والشجر، يُحْيِ من قُبْرٍ ومن يُقْبِر، ممن تقطّعت أوصاله، أو أُحرق وذُرِّي في الهواء، أو صار تراباً أو فحمًا، أو أغرق في البحر، أو أكلته السباع، أو تفجّر في عبوة ناسفة... الخ.

(١) «التفسير الميسر» ص ٣٣٢، نخبة من العلماء.

ثالثًا: ﴿وَأَنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ فهو القادر الذي لا يعجزه شيء، لا رادَّ لقضائه، ولا معقَّب لحكمه، وقدرته تعالى مطلقة، ومنها إعادة الحياة إلى الناس بعد موتهم، وإثابة المطيع منهم وعقاب العاصي. قال تعالى:

٧- ﴿وَأَنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ لَا رَيْبَ فِيهَا وَأَنَّ اللَّهَ يَبْعَثُ مَنْ فِي الْقُبُورِ﴾ ﴿٧﴾

رابعًا: ﴿وَأَنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ لَا رَيْبَ فِيهَا﴾ هذه نتيجة حتمية لا بد من الإقرار بها، وقد وعد الله بها، وهو سبحانه لا يُخلف وعده، فساعة البعث آتية، لا شك ولا مرية في هذا، وإن خفي علينا وقت قيامها لحكمة يعلمها الله تعالى.

خامسًا: ﴿وَأَنَّ اللَّهَ يَبْعَثُ مَنْ فِي الْقُبُورِ﴾ أي: أن الله تعالى يبعث الموتى من قبورهم للحساب والجزاء، ويحييهم من غير القبور كذلك، ممن هلك منهم بأية وسيلة من وسائل الفناء.

عن معاذ بن جبل ؓ قال: من عَلِمَ أن الله تعالى هو الحق المبين، وأن الساعة آتية لا ريب فيها، وأن الله يبعث من في القبور، دخل الجنة ^(١).

وجاء عن أنس ؓ قال: من قال في كل يوم أربع مرات: أشهد أن الله هو الحق المبين، وأنه يحيي الموتى، وأنه على كل شيء قدير، وأن الساعة آتية لا ريب فيها، وأن الله يبعث من في القبور، صُرف عنه سوء ^(٢).

وكثير من الناس يؤمن بالبعث والنشور، ولكنَّ فريقًا من الناس يرون أنهم جاؤوا إلى الحياة مصادفة، وأن مصيرهم مجهول، فلا آخرة عندهم ولا حساب ولا ثواب ولا عقاب، وهذا الكفر بالله تعالى جهل فاضح، ولا يستند إلى أساس علمي أبدًا.

الصَّنْفُ الثَّانِي مِنَ النَّاسِ: كَافِرٌ مُّكَابِّرٌ مُّعَانِدٌ

٨- ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَابٍ مُّنِيرٍ﴾ ﴿٨﴾

جاء ذكر الكافر الجاهل المجادل في هذه الآية، ممن لا يكتفون بأنهم كفرة، بل إنهم يَدْعُونَ غيرهم إلى الضلال والإلحاد والكفر، وعن هذا الصنف من أهل الكفر يقول الله

(١) أخرجه عبد الله بن أحمد في «زوائد الزهد» ص ١٨٠.

(٢) أخرجه الحاكم في تاريخه عن أنس يرفعه، كما في «الدر المنثور» (١٠/٤٢٥).

سبحانه: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَابٍ مُّنِيرٍ﴾ (٨) إذ ليس عندهم دليل عقلي صحيح، ولا مستند شرعي من كتاب ولا سنة على ما يزعمون من عدم البعث والنشور.

والكتاب المنير: هو كتب الشرائع: التوراة، والإنجيل، والزبور، والقرآن.

ومن هذا الصنف المنصرون الذين ينسبون إلى الله سبحانه الشريك والولد، ويدعون الناس إلى ذلك، فهم قادة وأئمة في الشرك والكفر.

وكذلك المبتدع الذي يدعو الناس لبدعته، ومنهم فرعون الذي يدعي الألوهية والربوبية ويدعو الناس إلى عبادته، والله ﷻ يبين أن فرعون يقدم قومه يوم القيامة ويؤمهم؛ لأنه كان إماماً وقائداً لهم في الدنيا، ولذا فهو يتقدمهم إلى النار يوم القيامة ﴿يَقْدُمُ قَوْمَهُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ فَأَوْرَدَهُمُ النَّارَ وَيُئْسَ أَلْوَرْدُ الْمَوْرُودُ﴾ (٩٨) [هود].

وعلى رأس هذين الصنفين مشركو أهل الجاهلية المعاصرون للنبي ﷺ أمثال: النضر بن الحارث، والعاص بن وائل، وأبي جهل، وأبي بن خلف، والأخنس بن شريق.

والآية وصف للكافر المجادل بالباطل في توحيد الله تعالى وتصديق رسوله، والإيمان بكتابه، وهو يجادل بغير علم ولا بيان ولا حجة ولا برهان.

فهذه الآية تتحدث عن الكافر المجادل المتكبر، الذي يدعو غيره إلى الضلال، فهو ﴿ثَانِي عَظِيمٍ﴾ أما الكافر الذي سبق ذكره في الآية الثالثة من هذه السورة، فهو الكافر المجادل المقلد لأئمة الضلال، هذا هو الفرق بينهما، وكلاهما في وصف الكافر.

مِنْ صِفَاتِ الْجَاهِلِ الْمُغْرُورِ

٩- ﴿ثَانِي عَظِيمٍ لِيُضِلَّ﴾^(١) عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ لَهُمْ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ وَنُذِيقُهُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ عَذَابَ الْحَرِيقِ ﴿وَلَاَنَّ الْمَجَادِلَ الْجَاهِلَ لَا يَسْتَدِلُّ إِلَى حَقِيقَةِ عَقْلِيَّةٍ أَوْ نَقْلِيَّةٍ فِي جَدَالِهِ، فَقَدْ أَثْبَتَ اللَّهُ لَهُ الْجَهَالَةَ مِنْ جَمِيعِ الْجِهَاتِ، فَهُوَ يَلْجَأُ إِلَى مَظْهَرِ الْكِبَرِ وَالصَّلَفِ وَالْإِعْجَابِ، وَهَذِهِ صُورَةُ

(١) قرأ ابن كثير وأبو عمرو ورويس بفتح الياء من (ليضل) مضارع ضل اللازم، أي: ليضل هو نفسه، والباقيون بضمها مضارع أضل المتعدي، والمفعول محذوف، أي: ليضل غيره.

الجاهل المغرور، يلوي عنقه كبراً وإعراضاً عن الحق، وهذا معنى: ﴿ثَانِيَ عِطْفِهِ﴾ أي: لا وياً عنقه في تكبر ﴿لِيُضِلَّ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ﴾ أي: ليمنع الناس من الدخول في الإسلام، ويمنعهم من قبول الهدى.

وقد وصف الله المعرض عن آياته بقوله: ﴿وَإِذَا نُتِلَّى عَلَيْهِ ءَايَاتُنَا وَلَّى مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا كَأَن فِي أُذُنِهِ وَقْرًا فَبَسَّرَهُ بِعَذَابِ أَلِيمٍ﴾ [لقمان].

ووصف فرعون حين أعرض عن رسالة ربه بقوله: ﴿فَتَوَلَّىٰ رُكُودَهُ وَقَالَ سِحْرٌ أَوْ مَجْنُونٌ﴾ [الذاريات].

ومن وصايا لقمان لابنه: ﴿وَلَا تُصَغِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ﴾ [لقمان: ١٨].

وتصغير الخد: هو الإشاحة بالوجه، والميل عن الناس تكبراً.

ثم بيّن سبحانه أن هذا المعاند المتكبر له عقاب في الدنيا وعقاب في الآخرة.

أما عقاب الدنيا فهو الخزي والهوان والصَّغار والذلة والإهانة، وقد تحقق هذا لرؤساء الكفر في يوم بدر، فكان مصرع أبي جهل على يد غلامين من الأنصار، هما ابنا عفراء، وعلا عبد الله بن مسعود على صدره وذبحه، ولم يكن يخطر على بال هؤلاء الثلاثة الاقتراب منه.

وهكذا أصاب الخزي النضر بن الحارث، فأسر، ثم قُتل هو وعقبة بن أبي معيط، وسقط كل منهم صريعاً في المكان الذي حدده النبي ﷺ قبل المعركة، وخاطبهم ﷺ بعد أن تم وضعهم في القليب الذي دُفِنوا فيه، وهو يقول: هل وجدتم ما وعد ربكم حقاً، فقد وجدتم ما وعدني ربي حقاً ﴿لَهُ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ﴾ أي: إن لكل من أنكر البعث، ولم يؤمن بالله ورسوله، ذلاً وهواناً يلحق به في الدنيا، كما حدث لهؤلاء من الاندحار والفضيحة بين الخلائق، أما عقاب الآخرة فهو الإحراق في نار جهنم والعياذ بالله ﴿وَنُذِيقُهُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ عَذَابَ الْحَرِيقِ﴾. قال تعالى:

١٠ - ﴿ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمْتَ يَدَاكَ وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَمٍ لِّلْعَبِيدِ﴾ [١٠]

أي ويقال للمجادل في الحق كبراً وعناداً: هذا الخزي في الدنيا، وهذا العذاب في

الآخرة؛ بسبب ما فعلت من المعاصي، واكتسبت من الآثام، وبسبب إصرارك على الجهل والعناد، والله تعالى لا يعذب أحداً بغير ذنب، ولا يعاقب بغير جرم، بل هو سبحانه عادل في حكمه، رحيم بخلقه، ومن مظاهر عدله ورحمته: أنه يضاعف الحسنات، ويعاقب على السيئات، ويعفو عن كثير من ذنوب عباده.

والقرآن الكريم يَسْنِدُ جميع الأعمال إلى اليد؛ لأنها الجارحة التي يُزاول بها أكثر الأعمال، فغلبت على غيرها، ويدخل في هذا عمل القلب واللسان وغيرهما، والكفر من عمل القلب وليس من عمل اليد. ويقال عن الكافر يوم القيامة:

﴿خُذُوهُ فَاعْتِلُوهُ إِلَى سَوَاءِ الْجَحِيمِ ۖ ثُمَّ صُبُّوا فَوْقَ رَأْسِهِ مِنْ عَذَابِ الْحَمِيمِ ۖ ذُقْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ ۖ إِنَّ هَذَا مَا كُنْتُمْ بِهِ تَمْتَرُونَ ۝﴾ [الدخان].

الصَّنْفُ الثَّالِثُ مِنَ النَّاسِ: مُنَافِقٌ مُذْبَذَبٌ يَعْبُدُ اللَّهَ عَلَى حَرْفٍ

١١- ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَعْبُدُ اللَّهَ عَلَى حَرْفٍ فَإِنْ أَصَابَهُ خَيْرٌ اطْمَأَنَّ^(١) بِهِ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ انْقَلَبَ عَلَى وَجْهِهِ خَسِرَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةَ ذَلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ ۝﴾

هذا نوع من الناس منافق، يربط إيمانه بما يصيبه من نفع وخير، فإن تحسنت أحواله المادية ولم يحصل له شيء من المكاره فهو مؤمن، وإلا أعلن تمرده وعصيانته، وهذا الصنف ربما يعاقبه الله، ولا يقيض له من الفتن ما يصرفه عن دينه.

ومعلوم أن حياة الإنسان في هذه الدنيا هي فترة اختبار وتمحيص، يتقلب فيما يحب ويكره، فإن أصابته سراء شكر، وإن أصابته ضراء صبر.

ومن هذا الصنف هؤلاء الأعراب الذين كانوا يُقَدِّمون إلى المدينة مهاجرين من ديارهم، فكان الواحد منهم يربط إيمانه بما يصيبه من أحوال.

وهكذا شأن أهل النفاق الذين يتظاهرون بالإيمان، وليسوا على عقيدة راسخة، ولا على إيمان ثابت، وإنما هم على حافة الهاوية، في شك وحيرة، ولا يوجد عندهم يقين في دينهم، كالذي يجلس على طرف الجبل، يوشك أن ينحدر أو يقع في أسفله، وهؤلاء

(١) قرأ الأصهباني بتسهيل الهمزة الثانية من (اطمأن) وصلاً ووقفًا، ومثله حمزة عند الوقف.

يعبدون الله سبحانه، وكأنهم في سوق تجاري أو في صفقة تجارية، إن أصابهم ربح ورزق واسع وخير كثير، فإنهم يتبعون هذا الدين ويستمرون فيه؛ نظرًا لما فيه من الخير الدنيوي الذي عاد عليهم، وإن أصابهم غير ذلك فإنهم يرددون على أعقابهم، كالذي ينقلب على قفاه، فهو بهذا خسر دنياه، لأن الردة لا تكشف كربته، ولا تفرج شدته، وخسر آخرته فهو يتقلب في نار جهنم.

وهذا يصور حال قوم كانوا يُقبلون على دعوة الإسلام ويدخلون فيه، ثم يترقبون ما يحدث لهم بعد الدخول فيه، ويربطونه بالإسلام، فإن صح جسم الواحد منهم، ورزق مألًا وولداً؛ رضي واطمأن، وأثنى على الإسلام، وإن أصابه ضيق واختبار في دينه؛ رجع إلى الكفر وترك دينه، وهذه طائفة من أسباب النزول:

١- أخرج البخاري عن ابن عباس رضي الله عنهما أن الرجل كان يقدّم إلى المدينة، فإن ولدت امرأته غلامًا، ونتجت خيله، قال: هذا دين صالح، وإن لم تلد امرأته، ولم تُنتج خيله، قال: هذا دين سوء^(١).

٢- ومن هذا الفريق (العُريثون) الذين أسلموا وهاجروا إلى المدينة، فاعتلت صحتهم، فأمرهم النبي ﷺ أن يلحقوا بالبادية فيشربوا من ألبان إبل الصدقة وأبوالها حتى يصحّوا، فلما صحّوا قتلوا الراعي، واستاقوا الإبل وفرّوا هارين، فأمر النبي ﷺ بالإتيان بهم، ثم أمر بقتلهم، وأن يفعل بهم كما فعلوا بالراعي.

٣- وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال في الآية: كان أحدهم إذا قدم المدينة، فإن صحّ بها جسمه، ونتجت فرسه مُهرًا حسنًا، وولدت امرأته غلامًا رضي به واطمأن إليه، وقال: ما أصبت منذ كنت على ديني هذا إلا خيرًا، وإن أصابه وجع المدينة، وولدت امرأته جارية، وتأخرت عنه الصدقة أتاها الشيطان فقال: والله ما أصبت منذ كنت على دينك هذا إلا شرًا، وتلك الفتنة^(٢).

٤- وعن الضحاك أن الآية نزلت في المؤلفة قلوبهم، منهم: عيينة بن حِصن، والأقرع

(١) يُنظر: البخاري برقم (٤٧٤٢).

(٢) «تفسير ابن جرير» (١٦/٤٧٢).

بن حابس، والعباس بن مرداس، قالوا: ندخل دين محمد، فإن أصبنا خيرًا عرفنا أنه حق، وإن أصبنا غير ذلك عرفنا أنه باطل.

٥- وعن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: أسلم رجل من اليهود، فذهب بصره وماله وولده، وتشاءم بالإسلام، فأتى النبي ﷺ فقال: أقلني، فقال: «إن الإسلام لا يُقال» فقال: إني لم أصب في ديني هذا خيرًا، أذهب بصري ومالي وولدي، فقال: «يا يهودي، إن الإسلام يسبك الرجال كما تسبك النار خبث الحديد والفضة والذهب»، ونزلت ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَعْبُدُ اللَّهَ عَلَى حَرْفٍ﴾ ^(١).

ومن المفروض أن يرضى العبد ويسلم بقضاء الله وقدره، فلا يجزع ولا يسخط على أقدار الله تعالى، فإن هذا مما ينافي الإيمان؛ فالإسلام انقياد لله تعالى، ورضى بحكمه فيما يسوء المرء أو يسره.

قال الحسن في معنى الآية: هذا هو المنافق، يعبد الله بلسانه دون قلبه. وهذا هو حال بعض الناس عندما يتفاهل أو يتشاءم؛ بسبب التزامه بصلاة الفجر مثلاً، أو بصدقته على فلان، فيمضي في ذلك أو يترك حسبما يصيبه من أحوال بعد ذلك.

يقول ﷺ عن هذا الصنف المنافق: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَعْبُدُ اللَّهَ عَلَى حَرْفٍ﴾ أي: على ضعف وشك وتردد، كمن يقف على طرف جبل، وهو غير ثابت في وقفته، فحاله كحال مزعزع الإيمان والعقيدة، ﴿فَإِنْ أَصَابَهُ خَيْرٌ اطْمَأَنَّ بِهِ﴾ إن عاش في سعادة من رزق ومال وصحة ونحو ذلك، رغب في هذا الدين، وبقي فيه، ﴿وَإِنْ أَصَابَهُ فِتْنَةٌ﴾ مصيبة وابتلاء، أو هزيمة أو فقر ﴿انْقَلَبَ عَلَى وَجْهِهِ﴾ وارتد عن دينه كمن ينقلب على وجهه بعد استقامته.

وهذا الإنسان قد خسر دنياه؛ لأن كُفِرَ لا يغير ما قُدِّرَ له، ولن يحصل على ما يريد، وخسر آخرته بدخوله النار؛ لأنه ارتد إلى الكفر، وهذا خسران بين واضح؛ إذ لا خسران أشد وأظهر ممن ضيَّع أولاه وأخراه، قال تعالى يصف هذا الخاسر:

١٢- ﴿يَدْعُوا مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَمَا لَا يَنْفَعُهُمْ ذَلِكَ هُوَ الضَّلَالُ الْبَعِيدُ﴾ ^(١٢)

(١) ابن مردويه كما في «الدر المنثور» (١٠/٤٢٨) وتخریج أحادیث «الكشاف» (٢/٣٧٩).

لقد ارتدَّ الكافر عن الإسلام؛ ليعبد أصنامًا لا تضره ولا تنفعه، فهو يدعو حجارة وأوثانًا أو آلهة لا تنفعه إن عبدها، ولا تضره إن لم يعبدها، وعبادة ما لا يضر ولا ينفع ضلالٌ عن الصواب، وبُعد عن الحق والرشد، وعبادة الأصنام والأوثان ضلال بعيد، وهذا وصف لكل معبود من دون الله.

وقد عبَّرت الآية عن المعبود بلفظ (ما) الذي هو لغير العاقل؛ لأن المراد بهذه الآية، عبادة الجمادات وهي لا تسمع ولا تعقل ﴿قَالَ هَلْ يَسْمَعُونَكَ إِذْ تَدْعُونَ ۖ ﴿٧٢﴾ أَوْ يَبْصُرُونَ ۖ ﴿٧٣﴾﴾ [الشعراء].

وقال سبحانه: ﴿إِنْ تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا دُعَاءَكُمْ وَلَوْ سَمِعُوا مَا اسْتَجَابُوا لَكُمْ﴾ [فاطر: ١٤].

ومن يدعو غير الله تعالى يحصل له ضد مقصوده فهو:

١٣ - ﴿يَدْعُوا لِمَنْ ضَرُّهُ أَقْرَبُ مِنْ نَفْعِهِۦ لَيْسَ الْمَوْلَىٰ وَلَيْسَ الْعَشِيرُ ۖ﴾

أما هذه الآية فإن فيها ذكر النصير؛ لأن المعبود فيها جاء بلفظ (مَنْ) مِنْ ﴿لِمَنْ﴾ إشارة إلى أن المقصود هم الطغاة من البشر الذين يدعون الناس لعبادتهم، كفرعون الذي قال لقومه: ﴿مَا عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلَهِ غَيْرِي﴾ [القصص: ٣٨].

وقال: ﴿أَنَا رَبُّكُمْ ۖ أَتَعْلَمُونَ﴾ [النازعات: ٢٤]. وكذلك كل من عبد من دون الله وهو راضٍ.

وكلُّ من يُذبح له، أو يُنذر له، أو يُطاف حول قبره، أو يُسأل دفع الضر أو جلب النفع، فهو يُعبد من دون الله.

وهؤلاء الذين يُتقرب بهم إلى الله تعالى قد يُغدقون على من عبدوهم شيئًا من حطام الدنيا، فهو نفع دنيوي زائل، ولكن عبادته لهم، ودعائه إياهم، والاستغاثة بهم، ضرر محض، وخروج على الإسلام، وليس بإمكانهم أن يدفعوا عنه عذاب الله، فينصروه مما ألم به، وقد قُبِّح هذا المعبود نصيرًا، وقُبِّح عشيرًا.

والمراد بالمولى والعشير: كل ما يُعبد من دون الله؛ لأن من شأن المولى جلب النفع لمولاه، وشأن العشير جلب الخير لعشيرته، فإذا تخلف ذلك منهما كان أمرًا قبيحًا مذمومًا.

وفي الآية تبكيت وتقريع لمن انقلب على وجهه فخرس دنياء وأخراه، وكانت عبادته لغير

الله سبباً في دخوله النار يوم القيامة، ولم يرَ منها نفعاً أصلاً.

وقوله تعالى: ﴿ضَرُّهُ أَقْرَبُ مِنْ نَفْعِهِ﴾ ترقُّ في الأسلوب، وترفع في الكلام كما قال تعالى: ﴿وَإِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًى أَوْ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ [سبأ: ٢٤]. فالمؤمنون ليسوا على شيء من الضلال أصلاً، وقد جيء به تدرُّجاً وتنزُّلاً لمجاراة الخصم.

وفي هذا ارتقاء في تضليل من عبد غير الله، فبعد أن بيَّن سبحانه في الآية السابقة أن عبادة غير الله تعالى لا تجلب لهم ضرراً ولا نفعاً زاد سبحانه في هذه الآية، فبيَّن أنهم يعبدون ما فيه ضرر محض، فهي تضرُّه في الدنيا؛ لأنه ضيَّع وقته في طلب ما لا يُحصَل، وتضره في آخرته بإلقائه في نار جهنم.

الصَّنْفُ الرَّابِعُ مِنَ النَّاسِ: مُؤْمِنٌ ثَابِتٌ عَلَى الْحَقِّ رَاسِخٌ فِي إِيْمَانِهِ:

١٤- ﴿إِنَّ اللَّهَ يَدْخُلُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ إِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ﴾

والله ﷻ بيَّن ما أعدَّه لهذا الصنف المختار من الناس جميعاً، وهم الذين آمنوا بالله ورسله وكتبه واليوم الآخر، وثبتوا على ذلك، وقَدَّموا جميع أنواع القربات، فعملوا الصالحات وتركوا المنكرات، هؤلاء أعدَّ الله لهم جنات تجري من تحتها أنهار: اللبن، والعسل، والخمر، والماء الذي لا يتغير طعمه.

وقد جاء بيان الثواب الذي أعدَّه الله للمؤمنين في الجنة في مقابل عقاب الكافرين الذي جاء في الآيات السابقة في قوله تعالى: ﴿وَنَذِيقُهُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ عَذَابَ الْحَرِيقِ﴾ وقوله: ﴿خَسِرَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةَ﴾.

ودخول المؤمنين الجنة يكون بفضل الله تعالى ورحمته، ودخول الكفار النار يكون بعدل الله وحكمته، والله تعالى يفعل ما يريد وفق حكمته ومشئته دون منازع ولا معارض، فيخلق الأسباب والمسببات، ويبين الخير والشر، ويكرم من أطاعه ويُهين من عصاه، فمن مسَّه الضر والفتن فليثبت، وليثق في عون الله ورحمته، وقُدْرته على كشف الضر عنه، وإثابته على صبره واحتسابه.

وهكذا ذكر الله تعالى من الآية الثالثة في السورة إلى هنا: المجادل بالباطل، ويبيِّن أنه

على قسمين: مقلد، وداع غيره إلى ضلال، ومنتسب إلى الإيمان، وهو على قسمين: منافق لم يثبت الإيمان في قلبه، ومؤمن على الحقيقة، قد صدق إيمانه بالعمل الصالح.

قَضَاءُ اللَّهِ نَافِذٌ لَا مَحَالَةَ

١٥- ﴿مَنْ كَانَتْ يَظُنُّ أَنَّ لَنْ يَنْصُرَهُ اللَّهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ فَلْيَمْدُدْ بِسَبَبٍ إِلَى السَّمَاءِ ثُمَّ لِيَقْطَعْ^(١) فَلْيَنْظُرْ هَلْ يُذْهِبَ كَيْدُهُ مَا يَعْبُطُ^(٢)﴾

هذه الآية فيها وعيد وتسفيه لمن خسر دنياه وآخرته، فعبد الله على حرف، وظن أن الله تعالى لن ينصر دينه وكتابه، وكذا كل من يفقد ثقته في نصر الله له، ويقنط من رحمة الله به، حين يقع في محنة، أو يمسه ضرر، فيشك في عون الله له، ورفع ما به من فتنة وابتلاء.

ومن كان يظن أن الله لن ينصر نبيه ودينه، ويتوقع أن هذا الدين سيضمحل: فليفعل بنفسه ما يشاء، وليستفرغ جهده في إزالة ما يغبطه، فإن ذلك لن يبدل حاله، ولن يغير ما به من ضرر، وهذا استفهام بمعنى النفي، والضمير في ﴿يَنْصُرُهُ﴾:

١- إما أن يعود على الذين يعبدون الله على حرف -السابق ذكرهم- فهم قد ظنوا أن الإسلام لن يفي بأغراضهم الدنيوية، فضاعت صدورهم، وكثر غمهم، وفقدوا الإيمان بالبعث والنشور، وهم بهذا قد خسروا دنياهم وأخراهم، وهذا مقتضى سياق الآيات، ويرشحه نهاية الآية السابقة ﴿إِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ﴾.

ويؤيد هذا المعنى ما جاء عن ابن عباس ومجاهد في الآية: من كان يظن أن لن يرزقه الله فليأخذ حبلاً فليربطه في سماء بيته فليختنق، فلينظر هل ينفعه ذلك، أو يأتيه برزق؟^(٢).

٢- وإما أن يعود الضمير في ﴿يَنْصُرُهُ﴾ على الرسول ﷺ على معنى: من كان يعتقد من الكفار أن الله تعالى لن يؤيد رسوله محمداً ﷺ بالنصر في الدنيا بإظهار دينه، وفي الآخرة بإعلاء كلمته ودرجته، وعذاب من كذبه؛ فليختنق وليقتل نفسه غيظاً، وقد جاءت روايات ترشح هذا المعنى:

(١) قرأ ورش وأبو عمرو وابن عامر ورويس بكسر اللام من (ثم ليقطع) وصلًا وبدءًا؛ لأن الأصل في لام الأمر هو الكسر، والباقون يأسكانها للتخفيف، وكسرها حالة البدء.

(٢) يُنْظَرُ: «تفسير الطبري» (١٦/٤٨٢).

من ذلك ما أخرجه الطبري بسنده إلى أبي إسحاق، عن التميمي قال: قلت لابن عباس رضي الله عنه: أرأيت قوله تعالى: ﴿مَنْ كَانَتْ يَظُنُّ أَنْ لَنْ يَنْصُرَهُ اللَّهُ﴾؟ قال: من كان يظن أن لن ينصر الله محمداً فليربط حبلاً في سقف، ثم ليختنق به حتى يموت^(١).

وأخرج الطبري وعبد الرزاق بسند صحيح عن قتادة قال: من كان يظن أن لن ينصر الله نبيه محمداً ﷺ ﴿فَلْيَمْدُدْ بِسَبَبٍ﴾ يقول: بحبل إلى سماء البيت ﴿ثُمَّ لِيَقْطَعْ﴾ يقول: ثم ليختنق، فلينظر هل يذهبن كيده ما يغيظ؟^(٢).

٣- وقيل: إن الضمير في ﴿يَنْصُرُهُ﴾ يعود على قوم من المسلمين استبطؤوا نصر الله لهم، بإنزاله العذاب بالمشركين.

ويذكر أن قبيلتي أسد وغطفان كان بينهما تحالف مع اليهود، فلما دعاهم النبي ﷺ إلى الإسلام قالوا: نحن لا نعلم هل سينصر الله هذا الدين؟ وهل سترفع كلمة محمد ﷺ ويكون له شأن حتى نتبعه؟ فنحن نخشى إن تبعناه ألا يظهر دينه، فنخسر تحالفنا مع اليهود، ولا ندري العاقبة لمن^(٣).

وكان بعض المسلمين يستعجل النصر للإسلام، ويستعجل نزول العذاب بالكفار. وبعض الناس لا يعتقد أن الله ﷻ سينصر محمداً ﷺ ويرفع شريعته على جميع الشرائع. كما أن بعض الناس قد يصاب بياس أو قنوط لسبب من الأسباب، وهذا اليأس يجعله يعتقد أنه لن يزول عنه الضيق أو الكرب.

والله ﷻ يقول عن هؤلاء وأولئك جميعاً، مبيناً هذه المعاني ونحوها في هذه الآية: إن من كان يظن أن الله لن ينصر دين محمد ﷺ ويرفع شأنه وشرعه فوق الشرائع. أو يظن أن لن يفرج الله كربته وغمه، ويرفع عنه الضيق الذي نزل به لسبب من الأسباب. أو يظن أن لن يرزقه الله رزقاً حسناً، ويخرجه من الفقر الذي هو فيه.

(١) «تفسير الطبري» (١٢٦/٧) والحاكم وصححه بموافقة الذهبي (٣٨٦/٢) عن أبي إسحاق مختصراً، وأخرجه عبد بن حميد كما في «فتح الباري» (٤٤١/٨) وابن أبي حاتم.

(٢) الطبري (٤٧٩/١٦) وعبد الرزاق (٣٣/٢).

(٣) يُنظر هذا المعنى في: «الطبري» (١٢٨/١٧) بدون سند، وفي «تفسير ابن عطية» (١١١/٤).

وهكذا كل من استولى عليه اليأس والقنوط، فليفعل بنفسه ما يشاء، فإن الله ﷻ أمره نافذ لا محالة.

وفي الآية وعد بنصر الله لدينه ولرسوله ولعباده المؤمنين، وفيها تيسر للكافرين الذين يريدون إطفاء نور الله بأفواههم، والله متم نوره ولو كره المشركون الكافرون.

والسبب المذكور في قوله تعالى: ﴿فَلْيَمْدُدْ سَبَبٌ إِلَى السَّمَاءِ ثُمَّ لَيَقْطَعْ﴾ يفسر بأحد معنيين: المعنى الأول: أنه الحبل المصنوع من ليف أو تيل أو سلك أو نحو ذلك، والسماء، بمعنى: كل ما علاك فهو سماء، فيكون سقف البيت سماء، وهذا هو المعنى الذي يذكره أكثر المفسرين، فيكون المراد: فعليه أن يعقد حبلاً أو يربطه في سقف بيته، ثم يدلّه ويضعه في عنقه، ثم يقطع الحبل ويشنق نفسه، وليمت كمدًا وغيظًا، فإن ذلك لن يزيل ما بنفسه من الكرب والضيق، ولن يتغير هذا الأمر الذي يغيظه.

والمعنى الثاني: أن المراد بالسبب: هو ما يتوصل به إلى السموات، أي: فليات بسبب يرفعه إلى السماء، وليصعد به إلى الفضاء. كما قال فرعون لهامان: ﴿يَهَيِّئْ لِي سَرَجًا لَعَلِّي أَبْلُغُ الْأَسْبَابَ لَا أَصْبَحَ السَّمَوَاتِ فَأَطْلُعَ إِلَيْكَ إِلَهَ مُوسَى﴾ [غافر: ٣٦، ٣٧].

وليمنع هذا الوحي بحيث لا ينزل إلى الأرض: فمن كان لا يعتقد أن دين الإسلام حق، فعليه أن يأتي بسبب يوصله إلى السماء، كالمعراج أو سفينة فضاء، أو صرحًا عاليًا، ثم يرفع هذا الوحي المنزل على محمد ﷺ، فهل بالإمكان أن يفعل ذلك، ويمنع الوحي من النزول عن رسول الله ﷺ؛ حتى يذهب ما به من غيظ.

إن من يفقد الثقة بنصر الله تعالى وعونه لكل مهموم مكروب، يفقد كل نافذة مضيئة، ويفقد كل رجاء في الفرج، ويستبد به الضيق والهم، ولا سبيل لتحمل البلاء والشدائد إلا بالرجاء في نصر الله، ولا سبيل إلى الفرج إلا بالتوجه إلى الله تعالى. قال سبحانه:

١٦- ﴿وَكَذَلِكَ أَرْسَلْنَاهُ ءَايَاتٍ بَيِّنَاتٍ وَأَنَّ اللَّهَ يَهْدِيَ مَن يُرِيدُ﴾

ولما بيّنت الآيات السابقة أحوال الناس تجاه دعوة الإسلام، نوّهت هذه الآية بشأن القرآن الكريم، فبيّنت أنه قد بلغ الغاية في الوضوح والدلالة على أنه الطريق الأوحى لهداية البشر، فكما أقام الله الأدلة على قدرته على البعث، فقد أنزل هذا القرآن، وجعل آياته واضحة في لفظها ومعناها، يهدي بها الله من أراد هدايته؛ إذ لا هادي سواه سبحانه،

ولم ينزل هذا القرآن لمن يقترح الآيات، ويستعجل القدر، فمن أراد الله هدايته بهذا القرآن اهتدى، ومن لم ير الله هدايته، فلو جاءته كل آية ما آمن، والقرآن يكون حجة عليه.

الشريعة القائمة والشرائع الباطلة

١٧- ﴿إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّٰدِقِينَ^(١) وَالصَّٰدِقَاتِ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا إِنَّ اللَّهَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴿١٧﴾﴾

ذكر الله سبحانه في هذه الآية ستة أصناف من عقائد البشر المختلفة لمن يسألون عن الدين الحق؛ لأن كل أمة تدّعي أنها على حق وغيرها على الباطل.

قال قتادة: الأديان ستة: واحد للرحمن، وخمسة للشيطان.

والله سبحانه سيجمع الكل يوم القيامة، ويفصل بينهم بحكمه العادل، ويجازيهم بأعمالهم وأقوالهم وعقائدهم.

أما الآية التي في سورة البقرة [٦٢]، والتي في سورة المائدة [٦٩] فليس فيهما ذكر للمجوس والمشركون؛ لأن سياقهما عن الإيمان بالله واليوم الآخر، وزيد في آية سورة الحج: المجوس والمشركون؛ لأن الآية هنا مسوقة في الفصل والحكم بين أهل الملل يوم القيامة، وتفويض الأمر إليه سبحانه في ذلك، والمجوس والمشركون ليسوا من أهل الإيمان بالله واليوم الآخر، ولذا ذكروا هنا، ولم يذكروا هناك، وآية سورة البقرة تشير إلى المرحلة الأولى من مراحل الدعوة في مكة، فترغب من يدخل في الإسلام بالأجر المضاعف، وتشير آية سورة المائدة إلى المرحلة الأخيرة من مراحل الدعوة، وأن مات على شريعته منهم قبل نسخها فلا يخاف من المستقبل ولا يحزن على الماضي.

وقد ذكر الله تعالى في هذه الآية ستاً من الديانات:

الفرقة الأولى: أهل الدين الحق: ﴿إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ وهم أهل الدين الحق، دين الإيمان بالله تعالى، وبرسوله محمد ﷺ، وبالقرآن كتاباً، وبالكعبة قبله، وبالإسلام ديناً، وآمنوا باليوم الآخر وما فيه من حساب وجزاء، ولا فضل لأمة على أمة إلا بالإيمان

(١) قرأ نافع وأبو جعفر بحذف الهمزة من (والصائبين)، والباقون بإثباتها، ولحمزة وفقاً: التسهيل والحذف.

والعمل الصالح، هذه هي الفرقة الأولى المؤمنة بالله وبرسوله محمد ﷺ:

الفرقة الثانية اليهود: ﴿وَالَّذِينَ هَادُوا﴾ وهم اليهود أتباع موسى ﷺ الذين نزلت عليهم التوراة فحرفوها وغيروها بعد موسى ﷺ، ويُقصد بهم في الآية: الذين آمنوا بموسى وعملوا بالتوراة الحقيقية، وماتوا قبل أن تُنسخ اليهودية، برسالة عيسى ورسالة محمد عليهما السلام. وسُمُّوا كذلك نسبة إلى أبيهم (يهوذا) من ذرية يعقوب، وخُفِّفَت الذال إلى دال، ف قيل: اليهودية، بدلًا من اليهودية، أو أنهم سُمُّوا يهودًا: من قولهم بعد عبادتهم العجل وتوبتهم منها: ﴿إِنَّا هَدَيْنَاكَ إِلَيْكَ﴾ [الأعراف: ١٥٦] أي: تبنّا، ورجعنا إليك.

وهذه الشريعة نسختها النصرانية، فمن ظل على يهوديته بعد بعثة عيسى عليه السلام فهو كافر بعيسى، ومن بقي عليها بعد بعثة محمد ﷺ فهو كافر برسولين، عيسى ومحمد عليهما السلام.

الفرقة الثالثة الصابئة: ﴿وَالصَّبِيَّانَ﴾: وهم في الأصل الخارجون من دين إلى آخر، وهذا وصف عام لكل من خرج من دين إلى غيره، فالصابئ لغة: هو المارق الخارج على الدين.

والصابئون في الآية: فرقة ينتسبون إلى صابئ بن شيث بن آدم، وكانوا على حق، ثم خرجوا علي دينهم وعبدوا الكواكب والملائكة، فقد جاء عن قتادة بسند صحيح قال: الصابئون قوم يعبدون الملائكة، ويصلُّون إلى القبلة، ويقرؤون الزبور.

وهذه الديانة موجودة ومعروفة في العراق إلى وقتنا الحالي^(١).

وقيل في الصابئة: هم قوم باقون على فطرتهم، ولا يتبعون نبيًا من الأنبياء، وليس لهم دين مقرر. والصواب: أنهم في الأصل حنفاء موحدون، سبقوا اليهود والنصارى، يعبدون الله وحده، ويؤمنون بأن الله محدث لهذا العالم، ويقرّون بمعاد الأبدان، ثم ارتبطت عقيدتهم بالكواكب والنجوم، حتى نُسبوا إلى الوثنية.

والصابئة طائفة كانت وماتزال تعيش في شمال العراق، حاضرتها (حَرَان) ومنها انتقلت إلى بغداد وغيرها منذ العصر العباسي، ومنهم من أسلم، وهم اليوم قلة تعيش في شمال العراق، تحيط عقيدتها بشيء من السرية، خشية أن تتحور وتتغير بمرور الزمن^(٢).

(١) يُنظر: تفسير آية سورة البقرة (٦٢)، والمائدة (٦٩).

(٢) أطلس القرآن د. شوقي أبو خليل ص ١٤٠ دار الفكر، طبعة سابعة.

وعن عكرمة قال: قالت اليهود: عزيز ابن الله، وقالت النصارى: المسيح ابن الله، وقالت الصابئة: نحن نعبد الشمس والقمر من دون الله، وقال المشركون: نحن نعبد الأوثان من دون الله، فأوحى الله إلى نبيه ليكذب قولهم ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ إلى آخر السورة، وأنزل: ﴿وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا﴾ [الإسراء: ١١١]. وأنزل الله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا﴾^(١).

الفرقة الرابعة: النصارى: ﴿وَالنَّصَارَى﴾ وهم أتباع عيسى عليه السلام، الذين أنزل الله عليهم الإنجيل فحرّفوه وجعلوه أناجيل متعددة.

وسُمُّوا نصارى؛ لأنهم ناصروا عيسى عليه السلام، أو نسبة إلى بلدة الناصرة التي وُلد فيها عيسى عليه السلام، وقد نسخت هذه الشريعة ببعثة محمد ﷺ فمن بقى عليها بعد مجيء خاتم النبيين ولم يؤمن به فهو كافر بمحمد.

الفرقة الخامسة: المجوس: ﴿وَالْمَجُوسَ﴾ وهم الذين عبدوا النار، وعبدوا الشمس والقمر، وعبدوا الكواكب، ويعتقدون أن في هذا الكون إلهين: إله للخير وإله للشر، إله للنور وإله للظلام.

وأصل المجوسية: ديانة تسمى (الزروانية) أسسها أحد ملوك فارس قبل زمن إبراهيم عليه السلام، وكان يلقب (جهان شاه) أي: ملك الأرض.

وأشهر نحل المجوسية (الزَرَادُشْتِيَّة) نسبة إلى (زَرَادُشت) الذي وُلد في مدينة بمدينة الرّي، وتجعله بعض المصادر نبياً، أصله من آذر بيجان، وقد ظهرت هذه الديانة في القرن السادس قبل الميلاد، وبه اشتهرت المجوسية، وقد وسّع (زَرَادُشت) شريعة المجوسية ووضع لها كتاباً سماه (الزُّند أُفتا) تنبأ فيه بظهور محمد ﷺ.

ومن أصول شريعته تجنب عبادة التماثيل، وكانت هذه الديانة هي الدين الرسمي للدولة الساسانية منذ منتصف القرن الثالث قبل الميلاد.

ثم ظهرت في المجوسية (المانوية) بين سنة ٢٣٨ وسنة ٢٧١م نسبة إلى (ماني).

ثم ظهرت فيها أيضاً (المزْدَكِّيَّة) نسبة إلى (مَزْدك) بين سنة ٤٨٧ وسنة ٥٢٣م وهي آخر ملة ظهرت للمجوسية قبل الفتح الإسلامي لبلاد الفرس.

(١) أخرجه ابن أبي حاتم (١٧٨٢/٦) برقم (١٠٠٤٦).

وفي المجوسية قُدّست النار التي كانوا يوقدونها تكريمًا (لأهور مزدا) وما زالت بعض بيوت النيران قائمة حتى اليوم، أشهرها وأهمها في باكوا عاصمة آذربيجان، ومعبد النار الذي على قمة تل بجوار أصفهان، وترك الفرس معبد نار في اليمن ومازال بناؤه قائمًا، وللزرادشتية بقايا في بومباي بالهند، و (يزد) و (كرمان) في وسط إيران.^(١)

وقد قال النبي ﷺ في المجوس: «سُنُّوا بِهِمْ سُنَّةَ أَهْلِ الْكِتَابِ»^(٢).

أي: في الاكتفاء بالجزية، دون الإكراه على الإسلام؛ لأنهم يخالفون المشركين في أن لهم كتابًا، ويمنعون عبادة الحجارة^(٣).

والمجوس يعبدون الشمس والقمر والنيران، والذين أشركوا يعبدون الأوثان.

الفرقة السادسة: عبدة الأوثان: ﴿وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا﴾ وهم عبدة الأوثان: الحجارة والأصنام، وكل من اتخذ مع الله إلهاً آخر فهو مشرك بالله تعالى، يقول الله سبحانه: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ﴾ أي: بين أهل هذه الديانات جميعًا فيظهر الدين الحق وأهله والديانات الباطلة وأهلها ﴿يَوْمَ الْقِيَمَةِ﴾ فيدخل المؤمنين الجنة، ويدخل الكافرين النار ﴿إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ وهو وحده عالم بما يستحقه كل منهم من جزاء، وفق أعمالهم التي حفظها وشهدا عليها بحكمه العادل وعلمه الشامل.

جَمِيعُ الْكَائِنَاتِ تَعْبُدُ اللَّهَ تَعَالَى

١٨ - ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَسْجُدُ لَهُ مَن فِي السَّمَوَاتِ وَمَن فِي الْأَرْضِ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالْجِبَالُ وَالشَّجَرُ وَالْدَّوَابُّ وَكَثِيرٌ مِّنَ النَّاسِ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ الْعَذَابُ وَمَن يُهِنِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِن مُّكْرَمٍ إِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ﴾ ﴿١٨﴾

ولأن الآيات السابقة فيها إبطال لكل ما يُعبد من دون الله، سواء أكان عاقلًا أم غير عاقل، كما جاء في الآيتين [١٢، ١٣]، فإن هذه الآية بيّنت أن جميع المخلوقات -عاقلها

(١) أطلس القرآن ص ١٤٤.

(٢) قال الحافظ ابن حجر في فتح الباري ٦/٢٦١: وهذا منقطع مع ثقة رجاله، وقال الألباني في إرواء الغليل ج ٥ برقم (١٢٤٨): ضعيف.

(٣) يُنظر في هذا: «تفسير التحرير والتنوير» (١٧/٢٢٣). وأطلس القرآن ص ١٤٤.

وجمادها- شاهدة بتفرد الله تعالى بالإلهية، وكلها تعبد الله تعالى ولا تعصاه، فقد بين سبحانه أن هذا الكون -بسمائه وأرضه، وشمس وقمره ونجومه، وجباله وأنهاره وبحاره وواديانه، وأشجاره، وإنسه وجنّه وملائكته- كله يخضع لسلطان الله تعالى، ويسبح بحمده، ويسجد له طوعاً وكرهاً

وأهل السُّنة على أن السجود: سجود حقيقي بالنسبة للإنسان، كسجود الصلاة.

والسجود في اللغة: هو التذلل والخضوع مع الانحناء ونحوه.

وهو في الشرع بالنسبة للإنسان: وضع الجبهة على الأرض بقصد العبادة، ولكن سجود الجبال والشجر ونحوهما يكون بكيفية يعلمها رب العالمين.

١- قيل: إن ظلالها هو السجود لله سبحانه، كما قال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى مَا خَلَقَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ يَنْفَعُهُمْ ظِلَالُهُ مِنَ الْيَمِينِ وَالْشَّمَائِلِ سُجَّدًا لِلَّهِ وَهُمْ دَاخِرُونَ﴾ [النحل]. فسجود الجبال والشجر يكون بفِيء ظلالهما عن اليمين والشمال كما تشير الآية.

وفي الحديث: عن ابن عباس رضي الله عنه قال: كنت عند النبي صلى الله عليه وسلم فأتاه رجل فقال: يا رسول الله، إني رأيتني الليلة وأنا نائم، كأني أصلي خلف شجرة، فسجدت، فسجدت الشجرة لسجودي، فسمعتها وهي تقول: اللهم اكتب لي بها عندك أجراً، وضع عني بها وزراً، واجعلها لي ذُخْراً، وتقبلها مني كما تقبلتها من عبدك داود، قال ابن عباس: فقرأ النبي صلى الله عليه وسلم سجدة، ثم سجد، فسمعتُه وهو يقول بمثل ما أخبره الرجل عن قول الشجرة^(١).

وفي الحديث عن معاذ بن أنس عن أبيه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «لا تتخذوا الدواب كراسي، فربَّ مركوبة عليها هي أكثرُ ذكراً لله تعالى من راکبها»^(٢).

٢- أو أن سجود الشجر بمعنى: أن تميل أغصانها جهة الكعبة في بعض الأوقات، وهذا شيء مرئي وظاهر للعيان، ونحو ذلك من كفيات لا يعلمها إلا رب العالمين.

(١) «سنن ابن ماجه» برقم (١٠٥٣) و«سنن الترمذي» برقم (٥٧٩) وقال: حديث غريب لا نعرفه إلا من هذا الوجه، وقد حسنه الألباني في صحيح ابن ماجه (٨٦٥) ومشكاة المصابيح (١٠٣٦) والسلسلة الصحيحة (٢٧١٠) وصحيح الترمذي (٤٧٣).

(٢) مسند أحمد (١٥٦٥٠) حديث حسن، دون قوله (فرب مركوبة..). وفيه ابن لهيعة وقد توبع.

هذه الكائنات جميعاً تسجد وتسبح بحمد الله تعالى، كما قال سبحانه: ﴿وَلَا يَسْبُحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِنْ لَا يَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ﴾ [الإسراء: ٤٤].

والتسبيح يكون في السجود، وهو أخص أركان الصلاة بالنسبة للإنسان، ويعبر عن الصلاة بالسجود، وهو حاصل من جميع الكائنات التي خلقها الله سبحانه في العالم العلوي والسفلي.

فالآية تشمل جميع المخلوقات في السموات وفي الأرض، ولكن الله سبحانه بعد أن عمّم، خصّص مخلوقات معينة، فبعدما ذكر سبحانه أن ﴿مَنْ فِي السَّمَوَاتِ﴾ من الملائكة يسجدون لله جميعاً، خصّص هذه الثلاثة: الشمس والقمر والنجوم بالذكر؛ لأن من البشر من عبدها من دون الله، فبيّن ﷺ على وجه الخصوص أن هذه المخلوقات التي عبدتموها هي نفسها تعبّد الله سبحانه، وتسجد له، وهي منقادة وخاضعة لله جلّ شأنه، فكيف تعبّدونها من دون الله؟ ولذلك خصصها الله سبحانه بالذكر بعد التعميم، وذكر السموات والأرض يستلزم ما بينهما، كالهواء والرياح، فهي تسجد لله تعالى بكيفية لا نعلمها.

قال تعالى: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَلْقَىٰ أَلْبُلَّ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ لَا تَسْجُدُوا لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ وَاسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَهُنَّ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ﴾ (٣٧) [فصلت].

وعن أبي ذر رضى الله عنه قال: دخلت المسجد ورسول الله ﷺ جالس، فلما غابت الشمس قال: «يا أبا ذر، هل تدري أين تذهب هذه؟» قلت: الله ورسوله أعلم، قال: «فإنها تذهب فتستأذن في السجود، فيؤذن لها، وكأنها قد قيل لها: ارجعي من حيث جئت فتطلع من مغربها»^(١).

وفي الحديث عن النعمان بن بشير وقبيصة البجلي رضى الله عنهما: «إن الشمس والقمر خلقان من خلق الله، وإنهما لا ينكسفان لموت أحد ولا لحياته، ولكن الله ﷻ إذا تجلّى لشيء من خلقه خشع له»^(٢).

(١) أخرجه البخاري برقم (٤٨٠٣) ومسلم برقم (١٥٩).

(٢) جاء نحوه في «المسند» (٢٦٧/٤) برقم (١٨٣٥١) عن النعمان بن بشير بسند ضعيف، وعن عائشة في أبي داود برقم (١١٩٣) وصحيح أبي داود (١٠٤٤) وعن جابر (١٠٤٥) والنسائي (١٤١١٣) وفي ط مؤسسة الرسالة (١٤٢٢) هـ برقم (١٨٨٣، ١٨٨٥) وابن ماجه (١٢٦٢). عن عائشة بتصحيح الألباني (١٠٤٤) في صحيح ابن ماجه.

وقال أبو العالية: ما في السماء نجم ولا شمس ولا قمر، إلا يقع لله ساجداً حين يغيب، ثم لا ينصرف حتى يؤذن له، فيأخذ ذات اليمين حتى يرجع إلى مطلعته^(١).

وقال ابن أبي مليكة: مرَّ رجل على عبد الله بن عمرو رضي الله عنه وهو ساجد في الحجر يبكي، فقال: أتعجب أن أبكي من خشية الله وهذا القمر يبكي من خشية الله.

وهكذا رأى عمرو بن دينار طاوس يطوف بالبيت ويبكي، فقال: أعجبت من بكائي؟ قال: نعم، فأقسم بالله إن القمر يبكي من خشية الله ولا ذنب له^(٢).

وقوله سبحانه: ﴿وَمَنْ فِي الْأَرْضِ﴾ شاملة لجميع المخلوقات في الأرض، ولكن الله سبحانه ذكر على وجه الخصوص الجبال والشجر والدواب ومنها البقر وهي تُعبد من دون الله، والديك الذي يعبد بعضهم.

وقد ذكر القرآن هذه المخلوقات؛ لأنها عُبدت من دون الله، أو عُبد ما يُصنع منها على هيئة الأصنام والأوثان وغير ذلك، فبين سبحانه أن هذه الكائنات التي عُبدت من دون الله هي نفسها تسجد لله وتخضع له، وهي مسخرة مذلة لله سبحانه.

وهذه الكائنات كلها تُطيع ربها وتسجد له بلا استثناء، لا يخرج منها واحد عن طاعته لله تعالى، أما الإنسان فممن من يسجد لله تعالى، ومنه من لا يسجد، منه من هو مطيع ومنقاد لله تعالى، ومنه العاصي المتمرد، ولذا قال تعالى: ﴿وَكَثِيرٌ مِّنَ النَّاسِ﴾ ولم يقل: والناس، كما قال: ﴿وَالشَّجَرُ وَالْدَّوَابُّ﴾ والكثير من الناس هم المؤمنون الذين يسجدون لله طاعة واختياراً ﴿وَكَثِيرٌ﴾ من الناس ﴿حَقَّ عَلَيْهِ الْعَذَابُ﴾ لعدم طاعته لله تعالى.

ثم قال تعالى: ﴿وَمَن يُؤْمِن بِاللَّهِ فَمَا لَهُ مِن مَّكْرَمٍ﴾ أي: أن من يُهتبه الله بالعذاب فليس له ناصر ولا شفيع؛ إذ ليس بعد عذاب الله إكرام، وقد ذلَّ وهان من دان لغير الله.

﴿إِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُشَاءُ﴾ أي: إن الله يفعل في خلقه ما يشاء وفق حكمته، فلا راد لقضاء الله، ولا معقب لحكمه، يفعل ما يشاء ويحكم ما يريد.

(١) من «تفسير ابن كثير» للآية (٤٠٣/٥) وهو في «تفسير الطبري» (٤٨٧/١٦).

(٢) أخرجه الإمام أحمد في «الزهد»، وأخرج الثاني ابن أبي حاتم، وكلاهما في «الدر المنثور» (٤٣٥/١٠).

قيل لعليّ عليه السلام: إن ها هنا رجلاً يتكلم في المشيئة، فقال له عليّ: يا عبد الله، الله سبحانه خلقك كما تشاء، أم خلقك كما يشاء؟ قال: بل كما شاء. قال: هل يمرضك إذا شاء أو إذا شئت؟ قال: بل إذا شاء، قال: فيشفيك إذا شاء أو إذا شئت؟ قال: بل إذا شاء. قال: فيدخلك الجنة حيث شئت أو حيث يشاء؟ قال: بل حيث يشاء، قال: والله لو قلت غير هذا لضربت الذي فيه عينك بالسيف^(١).

هذا: وفي هذه الآية سجدة من سجديات القرآن الكريم الخمس عشرة، كما جاء عن عمرو بن العاص عليه السلام أن رسول الله ﷺ أقرأه خمس عشرة سجدة في القرآن، منها: ثلاث في المفصل، وفي سورة الحج سجدتان^(٢).

وفي حديث أبي هريرة عليه السلام أن النبي ﷺ قال: «إذا قرأ ابن آدم السجدة اعتزل الشيطان يبكي، يقول: يا ويله، أمر ابن آدم بالسجود فسجد، فله الجنة، وأمرت بالسجود فأبيت، فلي النار»^(٣).

والسجود المثبت لكثير من الناس هو السجود الحقيقي، ولذا أثبتته الله لكثير من الناس لا لجميعهم، وقد حقت النار على من ترك السجود لله تعالى فأشرك معه غيره، وأعرض عن إفراده تعالى بالعبادة.

جَزَاءُ أَهْلِ الْكُفْرِ وَثَوَابُ أَهْلِ الْإِيمَانِ

١٩-٢١ ﴿هَٰذَا (٤) خَصْمَانِ اخْتَصَمُوا فِي رَبِّهِمْ فَالَّذِينَ كَفَرُوا قُطِعَتْ لَهُمْ نِيَابٌ مِّن نَّارٍ يُصَبُّ مِن فَوْقِ رُءُوسِهِمُ الْحَمِيمُ (٥) يُصْهَرُ بِهِ مَا فِي بُطُونِهِمْ وَالْجُلُودُ (٦) وَلَهُمْ مَقْلِعٌ مِّنْ حَدِيدٍ﴾
ولما قسم الله سبحانه الناس إلى فريقين في الآية السابقة، هما: أهل التوحيد، وأهل الشرك، فريق يسجد لله تعالى، وفريق يسجد لغير الله، كما يفيد ذلك قوله تعالى: ﴿وَكَثِيرٌ مِّنَ النَّاسِ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ الْعَذَابُ﴾.

(١) أورد هذا المعنى الإمام ابن كثير (٤٠٤/٥) عن ابن أبي حاتم بسنده، وهو في «الدر المنثور» (٤٣٥/١٠).

(٢) «سنن أبي داود» برقم (١٤٠١) وابن ماجه برقم (١٠٥٧).

(٣) رواه مسلم برقم (٨١).

(٤) قرأ ابن كثير بتشديد النون من (هذان) فتكون من قبيل المد اللازم، والباقون بتخفيفها.

(٥) انفرد الكوفي بعد لفظ (الحميم) ولفظ (الجلود) آية، وتركها غيره.

وكأنَّ سائلًا سأل عن تفصيل صفة العذاب الذي حَقَّ على كثير من الناس .

فكان من المناسب أن يذكر الله سبحانه مشهَدًا من مشاهد القيامة يتجلى فيه إهانة المشركين، وإكرام الموحدين؛ لبيان قوله تعالى: ﴿وَمَنْ يُهِنِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ مُكْرِمٍ﴾ فالمهان من أهانه الله، والمكرم من أكرمه الله، فقال تعالى: ﴿هَذَانِ خَصْمَانِ اخْتَصَمُوا فِي رَبِّهِمْ﴾ وقد نزلت هذه الآية في أول قتال بين فُرسان الحق وفُرسان الباطل، وهو قتال وقع بعد خمسة عشر عامًا من الملاينة، والمحاسنة، وتحمل المسلمين للأذى والضرر.

أي: هذان فريقان اختلفوا في دين الله، فاعتقد كل فريق منهم أنه على حق، وخصمه على باطل، وهم أهل الإيمان وأهل الكفر، فأنواع الديانات الست: الصابئون، والنصارى، واليهود، والمجوس، والمشركون، خِصْم، يجمعهم لفظ ﴿فَالَّذِينَ كَفَرُوا﴾ والمؤمنون بالإسلام خِصْم آخر، وقد جاء ذكرهم في أول الآية ١٧ والآية التالية ١٩ وهم المؤمنون، وهذا معلوم من مفهوم المخالفة، وكذلك أهل الإيمان وأهل الملل والنحل المختلفة، في كل زمان ومكان، وفي مقدمة هؤلاء: أصحاب رسول الله ﷺ، وكفار قريش.

سبب النزول:

١- جاء في الصحيحين وغيرهما، عن أبي ذر رضي الله عنه: أن هذه الآية نزلت في الذين تبارزوا يوم بدر، حيث خرج عتبة وشيبة ابنا ربيعة، والوليد بن عتبة، هؤلاء الثلاثة خرجوا للنبي ﷺ وطلبوا منه أن يُخرج لهم من يبارزهم، فانتدب النبي ﷺ لهم حمزة، وعليًا، وعبيدة ابن الحارث^(١) هذا خصم الإيمان، والذي قبله خصم الكفر.

٢- وأخرج ابن مردويه عن ابن عباس رضي الله عنه قال: لما بارز عليٌّ وحمزة وعبيدة، عتبة وشيبة والوليد، قالوا لهم: تكلموا نعرفكم. قال: أنا عليٌّ، وهذا حمزة، وهذا عبيدة، فقالوا: أكفأ كرامًا، فقال عليٌّ: أدعوكم إلى الله وإلى رسوله، قال عتبة: هلُمَّ للمبارزة، فبارز عليٌّ شيبة فلم يلبث أن قتله، وبارز حمزة عتبة فقتله، وبارز عبيدة الوليد، فضعف عليه، فأتى عليٌّ فقتله، فأنزل الله ﴿هَذَانِ خَصْمَانِ﴾ الآية^(٢).

(١) يُنظر: البخاري برقم (٤٧٤٣، ٤٧٤٤) ومسلم برقم (٣٠٣٣) وابن أبي شيبة (٤٦٥/١٤) وابن ماجه (٢٨٣٥) وغيرهم.

(٢) «الدر المنثور» (٤٣٧/١٠).

وفي هذا يقول عليٌّ ؑ: أنا أول من يجثو بين يدي الرحمن للخصومة يوم القيامة^(١).

والآية لم تنزل في يوم بدر، وإنما أشارت إليه؛ لاستحضار حالهم للمخاطبين.

٣- وعن قتادة قال: اختصم المسلمون وأهل الكتاب، فقال أهل الكتاب: نبينا قبل نبيكم، وكتابنا قبل كتابكم، فنحن أولى بالله منكم، وقال المسلمون: كتابنا يقضي على الكتب كلها، ونبينا خاتم الأنبياء، فنحن أولى بالله منكم^(٢).

٤- وقال مجاهد في الآية: إنها مثل الكافر والمؤمن اختصما في البعث.

واسم الخَصْم يطلق على الواحد وعلى الجماعة، كما قال تعالى: ﴿وَهَلْ أَتَاكَ نَبَأُ الْخَصْمِ إِذْ سَارُوا بِالْحَرَابِ﴾ ﴿٢١﴾ [ص].

والمعنى: هذان جمعان من الناس اختصموا في ربهم: المؤمنون والكفار، كلٌّ يدّعي أنه على حق، ثم بين سبحانه جزاء الكفار يوم لقاء رب العالمين ﴿فَالَّذِينَ كَفَرُوا قُطِعَتْ لَهُمْ ثِيَابٌ مِنْ نَارٍ﴾ أي: أن النار فصلت على قدر أجسادهم، في هيئة ثياب نارية يلبسونها فتشوي أجسادهم، وأحاطت بهم النار وأحذقت من كل جانب، كما قال تعالى: ﴿سَرَابِيلُهُمْ مِنْ قَطَرٍ وَتَغْشَىٰ وُجُوهَهُمُ النَّارُ﴾ ﴿٥٠﴾ [إبراهيم]. فهي ثياب من قطران تشتعل فيه النار، ليعمهم العذاب من كل جانب، ويصبُّ على رؤوسهم الماء متناهي الحرارة، ينزل إلى أجوافهم فيذيب ما فيها، وينفذ إلى جلودهم فتقلص وتنكمش، وهذا معنى: ﴿يُصْبُّ مِنْ فَوْقَ رُءُوسِهِمُ الْحَمِيمُ﴾ وهو الماء الحار المغلي الذي يشوي الوجه ويُقطع الأمعاء، نسأل الله العفو والعافية.

وهذا الماء البالغ الحرارة يُصهر ويذاب به ما في بطونهم من الأمعاء واللحم والأحشاء، من شدة حره وعظيم أمره كما قال تعالى: ﴿وَإِنْ يَسْتَغِيثُوا يُغَاثُوا بِمَاءٍ كَالْمُهْلِ يَشْوِي الْوُجُوهَ﴾ [الكهف: ٢٩]. وتقطع به الجلود والبطون، وعذاب النار يحيط بهم من كل جانب ﴿لَهُمْ مِنْ جَهَنَّمَ مِهَادٌ وَمِنْ فَوْقِهِمْ غَوَاشٍ﴾ [الأعراف: ٤١]. ﴿لَهُمْ مِنْ فَوْقِهِمْ ظُلَلٌ مِنَ

(١) «صحيح البخاري» برقم (٤٧٤٤) و«صحيح مسلم» برقم (٢٣٢٣).

(٢) أورده ابن كثير في تفسيره للآية (٤٠٦/٥) وهو في «تفسير الطبري» (٩٩/١٧) وعند النيسابوري ص

٢٥٨، والسيوطي ص ١٨٦.

النَّارِ وَمِنْ تَحْتِهِمُ ظُلُلٌ ﴿١٦﴾ [الزمر: ١٦].

عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «إن الحميم ليصب على رؤوسهم فينفذ إلى الجُمجمة، حتى يخلص إلى جوفه، فيسل ما في جوفه حتى يبلغ قدميه، وهو الصهر، ثم يعاد كما كان»^(١).

والمعنى: أن الحميم إذا صب على رؤوسهم، كان تأثيره في الباطن مثل تأثيره في الظاهر، فيذيب أمعاءهم وأحشاءهم وشحومهم ويحرق جلودهم فتنبض، وهو أبلغ من قوله تعالى: ﴿وَسُقُوا مَاءً حَمِيمًا فَقَطَّعَ أَمْعَاءَهُمْ﴾^(٢) [محمد: ١٥]. وعن هذا الماء الحار يقول ابن عباس رضي الله عنه: لو سقطت منه قطرة على جبال الدنيا لأذابتها.

وهذه المقامع هي الشياطين والمطارق من حديد، تضربهم بها الملائكة على رؤوسهم، جاء في الحديث عن أبي سعيد: لو أن مقمعا من حديد وُضع في الأرض فاجتمع له الثقلان ما أفلّوه من الأرض^(٣). وهذه المقامع بأيدي ملائكة العذاب الغلاظ الشداد، وهذا العذاب مستمر لا ينقطع.

٢٢- ﴿كُلَّمَا أَرَادُوا أَنْ يَخْرُجُوا مِنْهَا مِنْ غَمٍّ أُعِيدُوا فِيهَا وَذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ﴾

أي: وكلما حاولوا الخروج من النار؛ لشدة غمهم وكرهم، أعيدوا للعذاب فيها، ويقال لهم: ذوقوا عذاب النار المحرقة، وذلك أن لهب النار يرفعهم حتى يكاد يرميهم خارجها، فتضربهم الخزنة بمقامع الحديد فتردّهم، ثم إنهم يذهبون إلى خزنة النار ويطلبون منهم تخفيف العذاب عنهم دون جدوى، وكلما أرادوا أن يخرجوا من النار، ويصلوا إلى بابها، تضربهم خزنة النار بمطارق من حديد، فتعيدهم إليها مرة ثانية وثالثة ورابعة، وتقول لهم: ذوقوا عذاب النار الحارقة: ثياب من نار، وماء يغلي فوق الرؤوس، وسيات من حديد، وعنف وتأنيب.

قال تعالى: ﴿إِنَّ شَجَرَتَ الرَّقْمِ ﴿٤٣﴾ طَعَامُ الْآثِمِ ﴿٤٤﴾ كَالْمُهْلِ يَغْلِي فِي الْبُطُونِ ﴿٤٥﴾

(١) قال الترمذي: حديث حسن غريب صحيح، «سنن الترمذي» برقم (٢٥٨٢) و«تفسير الطبري» (١٧/١٠٠) وصححه الحاكم (٣٨٧/٢) ووافقه الذهبي وهو في «المسند» (٣٧٤/٢) وحسنه الشيخ أحمد شاكر في حاشية «المسند» برقم (٨٨٥١).

(٢) «تفسير الفخر الرازي» (٢٢/٢٣) بتصرف.

(٣) «المسند» (٢٩/٣) عن أبي سعيد يرفعه وهو برقم (١١٢٣٣).

كَغَلَى الْحَمِيمِ ﴿٤٦﴾ خُذُوهُ فَاعْتِلُوهُ إِلَى سَوَاءِ الْجَحِيمِ ﴿٤٧﴾ ثُمَّ صُبُّوا فَوْقَ رَأْسِهِ مِنْ عَذَابِ الْحَمِيمِ ﴿٤٨﴾ ذُقْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ ﴿٤٩﴾ [الدخان].

وكما قال تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ فِي النَّارِ لِخَزَنَةِ جَهَنَّمَ ادْعُوا رَبَّكُمْ يُخَفِّفْ عَنَّا يَوْمًا مِّنَ الْعَذَابِ﴾ [غافر].

ولمَّا لم يجدوا عند خزنة النار نتيجة، يذهبون إلى مالك، كبير الخزنة، يطلبون منه القضاء عليهم، كما قال تعالى: ﴿وَنَادُوا بِمَلِكٍ لِّقَضِّ عَلَيْنَا رَبِّكَ﴾.

أي: يمتينا مرة واحدة، فيجيبهم مالك بعد سنين طويلة ﴿إِنَّكُمْ مَكَثُونَ﴾ [الزخرف: ٧٧].
في عذاب مستمر متجدد ﴿كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُمْ بَدَّلْنَاهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا﴾ [النساء: ٥٦].

إنهم لا يموتون فيها ولا يحيون ﴿ثُمَّ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَى﴾ [الأعلى].

٢٣- ﴿إِنَّ اللَّهَ يَدْخُلُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ^(١) مِنْ ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ﴾ [٢٣]

هذه الآية عن المؤمنين في مقابلة أهل الكفر، فإذا كان أهل النار قُطِّعت لهم ثياب من النار، فإن أهل الجنة لباسهم فيها الحرير والذهب، كما قال تعالى: ﴿يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِنْ ذَهَبٍ وَيَلْبَسُونَ ثِيَابًا خُصْرًا مِنْ سُنْدُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ﴾ [الكهف: ٣١].

قال كعب الأحبار: إن في الجنة ملكًا لو شئت أن أسميه لسميته، يصوغ لأهل الجنة الحلبي منذ خلقه الله إلى يوم القيامة، لو أبرز منها سوار، لردَّ شعاع الشمس كما تردُّ الشمس نور القمر^(٢).

ويحرم لبس الحرير والذهب في الجنة على من لبسه في الدنيا إن كان من أهل الجنة، وذلك بالنسبة لمن مات مصرًّا على لبسها:

(١) قرأ نافع وعاصم وأبو جعفر ويعقوب بنصب الهمزة الثانية من (ولؤلؤًا) على أنه معطوف على محل (أساور)، أي: يحلَّون أساور ولؤلؤًا، ويجوز أن يكون مفعولًا لفعل محذوف يدل عليه المقام، أي: ويؤتون لؤلؤًا. وقرأ الباقر بخفضها، عطفًا على ذهب، أي: يحلون أساور من ذهب وأساور من لؤلؤ، وأبدل الهمزة الأولى واوًا: شعبة وأبو جعفر وأبو عمرو بخلف عنه.

(٢) من «تفسير ابن كثير» للآية (٤٠٨/٥).

وهذه جملة من الأحاديث في معنى الآية:

- ١- جاء عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «من لبس الحرير في الدنيا لم يلبسه في الآخرة، وإن دخل الجنة لبسه أهل الجنة ولم يلبسه»^(١).
- ٢- وفي الصحيحين: عن عمر رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «من لبس الحرير في الدنيا لم يلبسه في الآخرة»^(٢).
- ٣- وفيهما أيضًا: عن أبي موسى رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «جنتان من فضة آتيتهما وما فيهما، وجنتان من ذهب آتيتهما وما فيهما، وما بين القوم وبين أن ينظروا إلى ربهم، إلا رداء الكبرياء على وجهه في جنة عدن»^(٣).
- ٤- وعن أبي سعيد رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «إن عليهم التيجان، أدنى لؤلؤة منها نضيء ما بين المشرق والمغرب»^(٤).
- ٥- وفي الصحيحين: من حديث حذيفة رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «لا تلبسوا الحرير ولا الديباج، ولا تشربوا في آنية الذهب والفضة، ولا تأكلوا في صحافها، فإنها لهم في الدنيا ولنا في الآخرة»^(٥).
- ٦- وعن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «حُرِّم لباس الحرير والذهب على ذكور أمتي وأحل لإناثهم»^(٦) أما في الجنة فيلبسهما الرجال والنساء.

(١) أخرجه النسائي في «السنن الكبرى» (٩٦١١، ٩٦٠٧) وأحمد في المسند (١١١٧٩) حديث صحيح وفي سننه (داود السراج) متكلم فيه، (محققوه) وابن حبان (٥٤٣٧) قال محققه: رجال إسناده ثقات، وأخرجه الحاكم (١٩١/٤) والطحاوي (٢٤٦/٤). والطيالسي (٢٢١٧) وله شاهد في الصحيحين.

(٢) البخاري برقم (٥٨٣٤) ومسلم برقم (٢٠٦٩) وأحمد (٢٠/١) برقم (١٨١، ٢٥١) والبيهقي في «السنن» (٤٢٢/٢).

(٣) «صحيح البخاري» برقم (٧٤٤٤) وانظر: (٤٨٧٨) و«صحيح مسلم» (١٨٠).

(٤) أخرجه الترمذي وقال: حديث غريب.

(٥) البخاري برقم (٥٤٢٦) وانظر: (٥٨٣١، ٥٨٣٧) ومسلم برقم (٢٠٦٧) من حديث حذيفة رضي الله عنه.

(٦) أخرجه الترمذي وقال: حديث صحيح، وصححه الألباني في «صحيح سنن الترمذي» برقم (٢٠٧٨) وفي «مشكاة المصابيح» برقم (٥٦٥٠).

٧- وفي صحيح مسلم: عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: سمعت خليلي صلى الله عليه وسلم يقول: «تبلغ الحلية من المؤمن حيث يبلغ الوضوء»^(١).

قال تعالى: ﴿عَلَيْهِمْ ثِيَابٌ سُنْدُسٌ خُضْرٌ وَإِسْتَبْرَقٌ وَحُلُوءٌ مِثْلُ طَيْرِ فِصَّةٍ وَسِقَنُهُمْ زُهْرٌ سَرَابًا يَهُورٌ﴾ [٢١] إِنَّ هَذَا كَانَ لَكُم جَزَاءً وَكَانَ سَعْيُكُم مَّشْكُورًا ﴿٢٢﴾ [الإنسان].

وفي الحديث: عن معاوية رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «إن في الجنة بحر الماء، وبحر العسل، وبحر اللبن، وبحر الخمر، ثم تشقق الأنهار بعد»^(٢).

هذا: واللؤلؤ هو العقد من الدر ونحوه، ويسمى: الجواهر والجمان، وهو: حبوب بيضاء وصفراء، ذات بريق رقيق، تستخرج من أجواف حيوان مائي حلزوني، في غلاف مُغْلَقٍ يسمى: صدفاً، وهذه الحبوب تتفاوت في الكبر والصغر، وصفاء اللون وبياضه.

ويوجد اللؤلؤ في عدة بحار، منها: بحر العرب، وبحر الجابون، وأجوده عند مصب نهري دجلة والفرات يستخرجه الغواصون المدربون على استخراجهم من قاع البحر.

أما الحرير: فهو اسم لخيوط تفرزها دودة القز، قبل أن تتحول إلى فراشة ذات جناحين، ويؤخذ منها الخيوط التي نسجتها فتوضع في ماء حار؛ لتزول المادة الصمغية عنها، ومن هذا الخيط تنسج ثياب الحرير، وأكثر ما تكون في الصين، حيث يكثر شجر التوت.

ومن أنواع الحرير: السندس وهو الرقيق منه، والإستبرق وهو الديباج الغليظ^(٣). قال تعالى:

٢٤- ﴿وَهُدُّوْا إِلَى الطَّيِّبِ مِنَ الْقَوْلِ وَهْدُوْا إِلَى صِرَاطِ الْحَمِيدِ﴾ [٢٤]

لقد هدى الله أهل الجنة في الدنيا إلى القول الطيب من كلمة التوحيد، وحمد الله تعالى والثناء عليه، وسائر الأقوال الطيبة التي فيها ذكر الله تعالى والإحسان إلى عباده، وهداهم إلى طريق الإسلام الم محمود الموصِّل إلى الجنة.

كما هداهم في الآخرة إلى الكلام الطيب الذي يحمدون الله به على حُسن العاقبة.

(١) «صحيح مسلم» برقم (٢٥٠).

(٢) أخرجه الترمذي برقم (١٧٢٠) وصححه الألباني في «صحيح سنن الترمذي» برقم (١٤٠٤) و«صحيح سنن ابن ماجه» (٣٥٩٥).

(٣) «تفسير التحرير والتنوير» (١٧/٢٣٣).

﴿وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي صَدَقَنَا وَعْدَهُ وَأَوْرَثَنَا الْأَرْضَ نَتَبَوَّأُ مِنَ الْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَاءُ﴾ [الزمر: ٧٤].
ويقول أهل الجنة: ﴿وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَذْهَبَ عَنَّا الْحَزْنَ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ﴾ (٣٤) الَّذِي أَحَلَّنَا دَارَ الْمُقَامَةِ مِن فَضْلِهِ لَا يَمَسُّنَا فِيهَا نَصَبٌ وَلَا يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوبٌ ﴿٣٥﴾ [فاطر].

﴿وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هَدَانَا لِهَذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَوْلَا أَن هَدَانَا اللَّهُ﴾ [الأعراف: ٤٣]

وحين يطلب أحدهم شيئاً من الملائكة يقول: ﴿سُبْحَنَكَ اللَّهُمَّ﴾ فإذا فرغ من حاجته قال: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ ﴿٢﴾.

وتحتيهم في الجنة فيما بينهم هي السلام ﴿وَوَعِيْتُهُمْ فِيهَا سَلَامٌ﴾ [يونس: ١٠]. ﴿وَيَلْقَوْنَ فِيهَا نَحِيَّةً وَسَلَامًا﴾ [الفرقان: ٧٥]. وهي تحية الملائكة لهم ﴿سَلَامٌ عَلَيْكُمْ بِمَا صَبَرْتُمْ﴾ [الرعد: ٢٤].

وأهل الجنة ﴿لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا تَأْتِيًا﴾ (٢٥) إِلَّا قِيلًا سَلَامًا سَلَامًا ﴿٢٦﴾ [الواقعة] لقد أرشدهم الله إلى الطيب من القول وعلى رأسه كلمة التوحيد، وذكر الله تعالى وتسيحه وتقديسه، وهداهم إلى صراط الحميد، أي: الطريق المحمود، وهو طريق الرب الحميد في الدنيا، وهو طريق محمود في أفعاله وأقواله، إنه طريق الإسلام.

عُقُوبَةُ الْإِلْحَادِ فِي الْحَرَمِ وَكُفْرِ الصَّادِقِينَ عَنْهُ

٢٥- ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ الَّذِي جَعَلْنَاهُ لِلنَّاسِ سَوَاءً^(١) الْعَرِكَفِ فِيهِ وَالْبَادِ^(٢) وَمَن يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍ يُظْلَمِ نُزُفَةً مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ (٢٥)

وكما استحق المؤمنون نعيم الجنة لاتباعهم صراط الله المستقيم، فإن المشركين الكافرين المكذبين استحقوا العذاب لكفرهم بالله، وصددهم عن سبيله، فالمؤمنون هدوا إلى الطيب من القول، والمشركون كفروا بالله وصدوا الناس عن سبيله، والصد عن الوصول إلى المسجد الحرام، يدخل في الصد عن سبيل الله تعالى، فهم قد جمعوا بين

(١) قرأ حفص بنصب الهمزة من (سواء) على أنها مفعول ثانٍ لجعلنا، أي: صيرنا. والعاكف فاعل، أي: جعلناه مستويًا فيه العاكف والباد، وقرأ الباقون بالرفع، على أنها خبر مقدم، والعاكف مبتدأ مؤخر، والجملة في محل نصب مفعول ثانٍ لجعل.

(٢) قرأ ورش وأبو عمرو وأبو جعفر بإثبات الياء وصلًا وحذفها وقفًا من (والباد) وابن كثير ويعقوب بإثباتها وصلًا ووقفًا، والباقيون بحذفها في الحالين.

الكفر بالله ورسوله، وبين الصد عن سبيل الله، ومنه الصد عن المسجد الحرام؛ ومنع الناس من الإيمان.

والمسلمون في مكة كانوا ضعفاء مضطهدين، وقد خرج النبي ﷺ من مكة إلى المدينة مهاجرًا بعد أن تأمر المشركون على قتله، صلوات الله وسلامه عليه، وبعد سنوات ست من هذه الهجرة، قوّي الإسلام، وتكونت دولته، وأصبح المسلمون في عزة ومنعة، فجاء النبي ﷺ من المدينة ومعه جمع من الصحابة قاصدًا بيت الله الحرام لأداء مناسك العمرة، فصدّه المشركون، ومنعوه وأصحابه من الوصول إلى البيت الحرام.

وعند الحديبية على مشارف مكة، كانت مفاوضات بين النبي ﷺ ومشركي مكة، انتهت بما عُرف بشروط صلح الحديبية، وكان منها: أن يرجع النبي ﷺ من عامه هذا على أن يؤدي عُمره القضاء في العام المقبل، ورجع النبي ﷺ بعد أن تحلل ونحر الهدى، وكان هذا الصلح مقدمة للفتح الأكبر الذي تم بمكة بعد عامين اثنين من صلح الحديبية.

وإلى هذا المعنى تشير هذه الآية، وهي آية عامة، تتناول كل كافر وكل صاد عن سبيل الله، من المنصرين، والملحدّين، والعلمانيين، وغيرهم ممن يشككون المسلمين في عقيدتهم، ويحاولون إخراجهم منها.

وكذا كل من يعمل على منع الناس من الدخول في الإسلام، وكل من يحول بين المسلمين وبين وصولهم إلى المسجد الحرام، أو أداء المناسك من الطواف والسعي والوقوف بعرفة، والمبيت بمزدلفة ورمي الجمار، ولذا جاء الصدُّ بلفظ المضارع؛ ليشمل الحاضر والمستقبل، ويأخذ صفة الاستمرار.

وقد جمع الله في هذه الآية أوصافًا ثلاثة هي: الكفر، والصد عن دين الله، ومنع الناس من الوصول إلى المسجد الحرام: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ هذه واحدة، ﴿وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ﴾ هذه الثانية، ويصدون الناس بصفة خاصة عن ﴿وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ﴾ هذه هي الثالثة، ومثال هذا الترتيب في الآية قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ ءَامَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ اللَّهِ أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ﴾ [الرعد].

وقد جعل الله سبحانه المسجد الحرام قبلة للخلائق جميعاً، يتجهون إليها في صلاتهم، وجعل له منسكاً متعبداً للطائفين والعاكفين، وجميع الناس في هذا سواء، لا يُمنع من دخول الحرم إلا مَنْ منعه الشريعة، كالحائض والنفساء وغير المسلم، يستوي في ذلك من أتى من أقصى الغرب كأهل الأندلس، ومن أتى من أقصى الشرق كأهل أندونيسيا، يستوي فيه الخلق جميعاً، فلا يُمنع أحد من الوصول إلى البيت الحرام وأداء المناسك، سواء أكان من أهل مكة والجزيرة والحجاز، أم من سائر أقطار العالم، يستوي فيه العاكف وهو المقيم فيه، والباد، أي: من جاء من البادية، أو من مكان بعيد وهو المسافر إليه.

عن جبير بن مطعم رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «يا بني عبد مناف، لا تمنعوا أحداً طاف بهذا البيت وصلى، أي ساعة شاء من ليل أو نهار»^(١).

حكم بيع واستئجار بيوت مكة:

ولهذا فإن للفقهاء في هذا المقام أحكاماً تتناول بيوت أهل مكة أيام الحج والعمرة، وأنه لا ينبغي لأحد من ساكني مكة أن يمنع أحداً من دخولها لأداء النسك.

ولا يجوز لأصحاب البيوت أن يمنعوا الحجاج والمعتمرين من الإقامة في ديارهم لأداء المناسك، سيما ممن لا يملك الإقامة في الفنادق أو الشقق المفروشة، ونحوها.

وكانت مكة تدعى (السوائب) في زمن الرسول ﷺ، وأبي بكر، وعمر رضي الله عنهما، وقد كان عمر رضي الله عنه يمنع وضع الأبواب على دور مكة؛ لكي تكون مكاناً وملجأ يأوي إليها كل من جاء إلى بيت الله الحرام، غير أنه لا يُطْرَد أحد من بيته.

وأول من وضع باباً على داره: سهيل بن عمرو، فأرسل إليه عمر في ذلك، فقال: إني تاجر، وأريد أن أحمي بضاعتي، قال عمر: فذلك إذا.

كما تحدث الفقهاء عن ملكية دور مكة واستئجارها وتوريثها:

١- فأجاز ذلك مطلقاً مالك والشافعي أخذاً من أن عمر بن الخطاب اشترى بيتاً من

(١) أخرجه الترمذي (٨٦٨) وأبو داود (١٨٩٤) والنسائي في «السنن الكبرى» (١٥٧٤) وابن ماجه (١٢٥٤) و«المسند» (١٦٧٤٣) حديث صحيح، وابن حبان (١٥٥٢-١٥٥٤) وصححه الألباني في صحيح ابن ماجه (١٠٣٦) وفي الإرواء (٤٨١) والروض النضير (٤٧٢).

صفوان بن أمية بأربعة آلاف درهم، فجعلها سِجْنًا، وكان صفوان مشركًا، من أهل مكة.

٢- وأجاز بعض الفقهاء كإسحاق والإمام أحمد أن تورث دور مكة ولا تؤجر.

ولكل من هذه الأقوال الفقهية آثار وأدلة.

ونظير هذه الآية قوله تعالى: ﴿وَصَدُّ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَكُفْرًا بِهِ وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَإِخْرَاجِ أَهْلِهِ مِنْهُ أَكْبَرُ عِنْدَ اللَّهِ﴾ [البقرة: ٢١٧].

وقوله: ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ أَضَلَّ أَعْمَلُهُمْ﴾ [محمد].

والمعنى: إن الذين كفروا بالله، وكذبوا بما جاءهم به محمد ﷺ، ويمنعون غيرهم من الدخول في دين الله، وكذلك الذين صدوا رسول الله ﷺ والمؤمنين عام الحديبية عن المسجد الحرام الذي جعلناه لجميع المؤمنين، سواء، المقيم فيه والقادم إليه.

ومن بلاغة القرآن الكريم حذف خبر إن؛ للتهويل والترهيب، فليس في الآية بيان لعقوبة هؤلاء، كأن مجرد ذكر أوصافهم يُغني عن بيان عقوبتهم، ويتضح منه مصيرهم.

والتقدير: لهم عذاب أليم موجه، ويدل عليه نهاية الآية ﴿نَذَقَهُ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ﴾؛ وذلك لأن الصدَّ عن المسجد الحرام إلحاد في الحرم بظلم، ولهذا قال سبحانه: ﴿وَمَنْ يُرِدْ فِيهِ﴾ أي: في الحرم كله، ومنه المسجد الحرام.

معنى الإلحاد في الحرم وعقوبته:

والإلحاد في الأصل: هو الظلم، والميل عن العدل، وهو المعصية، وهو الشرك، وعبادة غير الله تعالى، والوقوع في محظور من محظورات الإحرام، وارتكاب أي قول أو فعل منهي عنه، فإن تاب من ذلك تاب الله عليه.

والإلحاد بالحرم يشمل جميع المعاصي والذنوب، بدءًا من الإشراك بالله سبحانه، ومرورًا بالقتل والسرقة، ووصولًا إلى احتكار الطعام في مكة، وإيذاء الناس في الطواف والسعي ورمي الجمار، ونحو ذلك، بحيث يشمل الإلحاد كل صغيرة وكبيرة من المعاصي والذنوب.

ومن الآثار الواردة في حكم الإلحاد بالحرم:

١- ما ورد أن عبد الله بن عمر رضي الله عنه كان له فسطاط خارج الحرم، وفسطاط آخر داخل الحرم، فكان إذا أراد أن يؤدب أهله أو خادمه يؤدبه في الفسطاط الذي هو خارج الحرم^(١).
٢- وقال مجاهد، وهو من كبار التابعين: إن السيئات في الحرم المكي تضاعف فيه كمضاعفة الحسنات.

٣- وسئل أحمد: هل تُكتب السيئة أكثر من واحدة؟ قال: لا، إلا بمكة لتعظيم البلد^(٢).

٤- ذكر ابن أبي حاتم عن ابن عباس رضي الله عنه أن النبي ﷺ أرسل عبد الله بن أنيس مع رجل من المهاجرين وآخر من الأنصار، فافتخر الرجلان بالأنساب، فغضب ابن أنيس وقتل الأنصاري، ثم ارتد عن الإسلام، وهرب إلى مكة، فأنزل الله فيه هذه الآية^(٣) بين أن الحرم لا يجير ظالمًا، ولا يجير قاتلاً، ولا يجير مرتدًا ولا مشركًا، وأن مجرد قصد الظلم فيه يفضي إلى العقاب الشديد.

٥- ولما أراد أصحاب الفيل أن يهدموا البيت أذاقهم الله العذاب الأليم، وأرسل عليهم طيرًا أبابيل.

وجاء عن رسول الله ﷺ أن جيشًا يغزو الكعبة، حتى إذا كانوا في بيداء من الأرض، خسف بأولهم وآخرهم^(٤).

٦- في صحيح مسلم: أن حفصة رضي الله عنها سمعت النبي ﷺ يقول: «لَيُؤْمَنَنَّ هذا البيت جيش يغزونه، حتى إذا كانوا ببيداء من الأرض يُخسف بأوسطهم، وينادي أولهم آخرهم، ثم يُخسف بهم، فلا يبقى إلا الشريد الذي يُخبر عنهم»^(٥).

٧- وعن أم سلمة رضي الله عنها أن رسول الله ﷺ قال: «يعوذ عائد بالبيت، فيُعْثُ إليه بعث،

(١) ابن أبي شيبه (٢٨٥/٤) و«المطالب العالية» (٤٠٤٧) والطبري (٥١٠/١٦).

(٢) «زاد المسير» (٤٢٣/٥).

(٣) «تفسير ابن كثير» (٤١١/٥) و«الدر المنثور» (٤٥٣/١٠).

(٤) الحديث رواه البخاري برقم (٢١٨٨) عن عائشة رضي الله عنها.

(٥) الروايتان في «صحيح مسلم» برقم (٢٨٨٢) وانظر حديث عائشة في: «البخاري» (٢١١٨).

فإذا كانوا ببیداء من الأرض خُسف بهم» فقلت: يا رسول الله، فكيف بمن كان كارهاً؟ قال: «يُخسف به معهم، ولكنه يبعث يوم القيامة على نيّته»^(٤).

وهذا كله من الإلحاد في الحرم، والهَمُّ بالمعصية وعقد النية على ارتكاب محظور والتصميم عليه، يدخل في الإلحاد.

٨- وعن ابن مسعود، وغيره رضي الله عنه: لو أن رجلاً في الحرم همّ بقتل رجل في عدن لأذاه الله من العذاب الأليم^(١).

٩- ومن ذلك حديث أبي بكرة رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «إذا التقى المسلمان بسيفيهما فالقاتل والمقتول في النار»، قيل: يا رسول الله، هذا القاتل، فما بال المقتول؟ قال: «لأنه كان حريصاً على قتل صاحبه»^(٢).

١٠- وعن ابن عباس رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «أبغض الناس إلى الله ثلاثة: مُلحدٌ في الحرم، ومُبتَغٍ في الإسلام سُنّة الجاهلية، ومُطْلَبٌ دم امرئٍ بغير حقٍ ليُهرق دمه»^(٣).

١١- أتى عبدُ الله بن عمر، عبدُ الله بن الزبير، فقال: يا بن الزبير، إياك والإلحاد في الحرم، فإني سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: «إنه سيُلحد فيه رجل من قريش، لو توزن ذنوبه بذنوب الثقلين لرجحت»، فانظر، لا تكن هو^(٤).

ويدخل في ذلك - دخولاً أولياً - من يأتي إلى الحرم في موسم الحج أو العمرة يقصد سرقة الناس، وهم يطوفون في بيت الله الحرام، ومثل ذلك السرقة في منى أثناء رمي

(١) إسناده صحيح على شرط البخاري، كما قال ابن كثير في تفسير الآية، وأخرجه البزار (٢٢٣٦) زوائد، وأبو يعلى (٥٣٨٤) والحاكم (٣٨٨/٢) يُنظر: «المسند» (٤٢٨/١) برقم (٤٠٧١، ٤٣١٦) إسناده حسن، وقد روى مرفوعاً وموقوفاً، والموقوف أصح، وأورد الهيثمي في مجمع الزوائد (٧٠/٧) وقال: رواه أحمد وأبو يعلى والبزار ورجال أحمد رجال الصحيح.

(٢) البخاري في الإيمان برقم (٦٨٧٥، ٧٠٨٣، ٣١) ومسلم (٢٨٨٨) و«المستدرک» (٣٨٨/٢) و«المسند» (١/٤٢٨) وصححه أحمد شاكر ومحققوه برقم (٢٠٤٩٣).

(٣) «صحيح البخاري» برقم (٦٨٨٢).

(٤) يُنظر: «المسند» (١٣٦/٢) ومثله عن عبد الله بن عمرو في «المسند» برقم (٦٢٠٠)، رجاله ثقات رجال الشيخين غير ابن كناسة فقد روى له النسائي، (محققوه) وانظر حديث عبد الله بن عمر في المسند (٦٨٤٧).

الجمار، فكل ذلك من أعظم الإلحاد في الحرم، فالحرم مكان آمن، يأمن فيه الإنسان والحيوان والشجر والنبات على نفسه من كل عدوان.

ولقد سبق الإسلام النظم الحديثة في إيجاد مكان أعزل من السلاح، يأمن فيه المتخاصمون، فجعل البيت الحرام مكاناً آمناً، يأمن فيه كل مخلوق على نفسه، من إنسان وحيوان وطيور وشجر... فلا يخشى شيئاً وهو في رحابه.

وهذه الآية تخصيص لعموم قول النبي ﷺ: «من همّ بسيئة فلم يعملها كتبت له حسنة»^(١) أي: إلا المسجد الحرام، فإن من همّ بسيئة في المسجد الحرام يُدْفَقه الله من العذاب الأليم.. ومجرد إرادة الإلحاد في الحرم موجب لعذاب الله تعالى، فكيف بمن ظلم فيه، أو أشرك فيه مع الله غيره.

تَارِيخُ بِنَاءِ الْكَعْبَةِ

٢٦- ﴿وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَاهِيمَ مَكَانَ الْبَيْتِ أَن لَّا تُشْرِكْ بِي شَيْئًا وَطَهِّرْ بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْقَائِمِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ ﴿٢٦﴾﴾

تحدث هذه الآية عن بناء البيت، أي: واذكر -يا محمد- وقت أن بيّنا لإبراهيم ﷺ مكان البيت الحرام وهيئناه له، وكان مندثراً غير معروف، فأرشدناه وأعلمناه موضع وجوده؛ ليكون مأوى للدين، ومعهداً لإقامة الشعائر.

جاء في الآثار: أرسل الله سبحانه ريحاً فكنست -أي: نظّفت- ما فوق أساس البيت، حتى أظهرت موضع الأساس الذي بنى إبراهيم عليه البيت^(٣).

وقيل: أرسل الله سحابة فأظلت فوق البيت على قدر مساحة البناء، حتى ظهر الأساس

(١) من حديث ابن عباس في المسند (٢٥١٩) بإسناد صحيح على شرط مسلم ورجال ثقات، وأخرجه مسلم (١٣١، ٢٠٨) والطبراني (١٢٧٦٠) والبيهقي في الشعب (٣٣٤).

(٢) قرأ نافع وهشام وحفص وأبو جعفر بفتح ياء الإضافة وصلاً من (بيتي للطائفين)، والباقون بإسكانها.

(٣) هذه الريح يقال لها: ريح الخُجُوج، وقد جاء ذلك عند الطبري (٥٥٧/٢) وابن أبي حاتم (٢٣٢/١) والبيهقي في «الدلائل» (٥٣/٢).

لإبراهيم، فرفع قواعد البيت.

أخرج الحاكم بسند صحيح عن عليّ عليه السلام قال: لَمَّا أُمِرَ إبراهيم عليه السلام ببناء البيت، خرج معه إسماعيل وهاجر، فلما قدم مكة رأى على رأسه في موضع البيت مثل الغمامة، فيه مثلُ الرأس، فكلَّمه فقال: يا إبراهيم، ابنِ على ظِلِّي -أو على قدري- ولا تزدد ولا تنقص، فلما بنى خرج، وخلف إسماعيل وهاجر، وذلك حيث يقول الله تعالى: ﴿وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَاهِيمَ مَكَانَ الْبَيْتِ﴾^(١).

ففي هذا السياق أنه بنى البيت قبل أن يفارقهما، ويحتمل أن يكون قد حوَّط المكان وحجَّر حوله، ولم يرتفع بالبنيان، حتى كبر إسماعيل فبنياه معاً^(٢).

فإبراهيم وإسماعيل عليهما السلام قد رفعوا القواعد من البيت، كما قال تعالى: ﴿وَرَفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ﴾ [البقرة: ١٢٧].

وفي هذا إشارة إلى أن هناك قواعد كانت موجودة قبل رفع إبراهيم لهذه القواعد.

ذكريات من البيت الحرام:

وهكذا: فإن إبراهيم عليه السلام حين جاء مكة لأول مرة قبل رفع القواعد بأعوام، ومعه ابنه الرضيع إسماعيل وأمه هاجر فوضعهما عند البيت وودَّعهما قائلاً: ﴿رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنْتُ مِنْ ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِنْدَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ﴾. ولم يكن إبراهيم قد رفع بناء البيت آنذاك، ثم قال: ﴿رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلَاةَ﴾ [إبراهيم: ٣٧] أي: في هذا المكان، ولعل إبراهيم قد أحاط مكان البيت بسور بعد أن حدَّده الله له في ذلك اليوم كما سيأتي.

١- وكانت هذه الذكرى تدور في خاطر إبراهيم عليه السلام فيما بعد، حين أُمِرَ ببناء البيت، حيث أودع ولده وزوجه هذا المكان لأول مرة، وكان مكان البيت مريض غنم لرجل من جرهم، وقتما أظهر الله مكان البيت لإبراهيم.

٢- ويدور بخاطره أيضاً حينما ترددت هاجر بين الصفا والمروة، وهي تسعى سعياً

(١) قال الحاكم: هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه، ووافقه الذهبي، «المستدرک» (٢/ ٥٥١) وكتاب «التاريخ» للطبري (٢/ ٥٦٠).

(٢) يُنظر: «تفسير ابن كثير» (١/ ٢٨٥).

حُثِيًّا بَحْثًا عَنِ الْمَاءِ؛ لَتَنْقُذَ وَلَدَهَا الَّذِي كَادَ يَمُوتُ ظَمًا، وَفَجَّرَ اللَّهُ لَهَا عَيْنَ زَمْزَمَ فِي هَذَا الْمَكَانِ الْمُبَارَكِ.

٣- ويدور بخاطر إبراهيم حينما أمره الله سبحانه في المنام أن يذبح ابنه إسماعيل، وكان قد تركه في مكة هو وأمه ويتردد عليهما بين الحين والآخر على البراق من فلسطين، ثم جاء إليه يقول له: ﴿إِنِّي أَرَى فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ فَانْظُرْ مَاذَا تَرَى﴾ وكانت سن إسماعيل آنذاك ثلاثة عشر عامًا، فيقول الابن: سَمْعًا وَطَاعَةً ﴿يَتَأْتِيَ أَفْعَلُ مَا تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ [الصافات: ١٠٢].

٤- وتدور الذكريات بهذا البيت العظيم، حينما أمر الله سبحانه عبد المطلب جدَّ النبي ﷺ وكان قد نذر إن رزقه الله عشرة من الأولاد أن يذبح أحدهم، وبعد أن رزقه الله عشرة أولاد، أراد أن يفني بنذره، فأقرع بين أبنائه، فخرجت القرعة على أصغرهم عبد الله والد النبي ﷺ ثم إنه أمر أن يفديه من الذبح بمئة من الإبل، فنحر هذه المئة، وافتدى بها عبد الله من الذبح.

٥- وتَمَرُ الذِّكْرَى أَيْضًا بِالنَّبِيِّ ﷺ مَعَ هَذِهِ الْآيَةِ لَمَّا كَانَ شَابًّا فِي الْخَامِسَةِ وَالثَّلَاثِينَ مِنْ عَمْرِهِ، حِينَ اخْتَلَفَتْ قَرِيشٌ قَبْلَ الْبُعْثَةِ وَقَتِ تَجْدِيدِ بِنَاءِ الْبَيْتِ، وَكَادُوا يَتَقَاتِلُونَ عَلَى رَفْعِ الْحَجَرِ الْأَسْوَدِ، مَنْ مِنَ الْقَبَائِلِ يَرْفَعُهُ وَيَضَعُهُ فِي مَكَانِهِ؟ فَرَفَعَهُ النَّبِيُّ ﷺ بِيَدِهِ الشَّرِيفَةِ وَوَضَعَهُ فِي مَكَانِهِ، بَعْدَ أَنْ جَعَلَ جَمِيعَ الْقَبَائِلِ تَشْتَرِكُ فِي رَفْعِهِ، وَهُوَ يَتَوَسَّطُ الرِّدَاءَ الَّذِي وُضِعَ فِيهِ الْحَجَرُ.

من الذي بنى البيت؟

١- والقرآن الكريم يتحدث عن بناء البيت من عهد إبراهيم عليه السلام، أما قبل ذلك فهو تاريخ وروايات وآثار، وظاهر القرآن يشهد لها كما سبق بيانه.

٢- من ذلك ما ورد أن آدم عليه السلام رأى البيت المعمور من السماء السابعة يطوف حوله كل يوم سبعون ألفاً من الملائكة لا يرجعون إليه مرة ثانية، فسأل ربه أن يجعل لذريته بيتاً في الأرض يطوفون حوله في محاذاة البيت المعمور، أو كالبيت المعمور الذي في

السماء، فأمر الله آدم ببناء البيت، فبناه آدم^(١).

٣- وقيل: إن الملائكة بثته قبل آدم في محاذاة البيت المعمور فوق السماء السابعة، قال تعالى: ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِلْعَالَمِينَ﴾ [آل عمران].

والآية بينت أن الكعبة هي أول متعبد للناس في الأرض، وليس فيها إشارة إلى من بناها، بل إن لفظ: ﴿وُضِعَ﴾ جاء مبنياً للمجهول.

وفي الصحيحين: أن أبا ذر رضي الله عنه قال: قلت: يا رسول الله، أي المساجد وضع في الأرض أولاً؟ قال: «المسجد الحرام»، قال: ثم أي؟ قال: «المسجد الأقصى»، قال: كم بينهما؟ قال: «أربعون سنة، ثم أينما أدركتك الصلاة بعدُ فصل، فإن الفضل فيه»^(٢).

وهذا الحديث يبين أن إبراهيم عليه السلام بنى البيت، وهذا يشمل بدء البناء، ويشمل رفع القواعد، ويشير إلى أن إبراهيم هو الذي بنى المسجد الحرام، وبنى أيضاً المسجد الأقصى، وبينهما أربعون عاماً، وبعد أن بناه قال الله تعالى له: لا تشرك بي شيئاً وطهر بيتي لجميع الناس من الشرك والوثنية، أي: أقم بناء هذا البيت على التوحيد.

وكان المشركون يعبدون الأوثان من دون الله، وكانت الأصنام توجد داخل الكعبة، فأمره الله أن يقيم بيته من أول لحظة على توحيد الله تعالى، وأن يطهره من الأرجاس والأدناس، والأنجاس، ومن الكفر والبدع، طهارة حسية وطهارة معنوية، أي: طهره من الأقدار ومن الدماء، والنجاسات والأصنام، وطهره من الإشراف بالله سبحانه، ومن الأصوات اللاغية والمرتفعة التي تشوش على المتعبدين.

وقد أخذ العلماء من هذه الآية أنه لا يجوز أن يترك عند البيت الحرام قذارة، ولا نجاسة معنوية ولا حسية، وكان أهل الجاهلية يطوفون حول أصنامهم كما يطوفون بالكعبة.

والمراد بالقائمين: الداعين الله تجاه الكعبة والمصلين عندها، وكان ولا يزال باب الملتزم موضعاً للدعاء.

(١) يُنظر: «مصنف عبد الرزاق» برقم (٩٠٩٠) وعبد بن حميد، والطبري، وابن المنذر، وابن أبي حاتم.

(٢) الحديث في «البخاري» برقم (٣٣٦٦) واللفظ له، وانظر: (٣٢٢٥)، ومسلم برقم (٥٢٠).

ثم ذكر الله تعالى المصلين في البيت الحرام في قوله: ﴿وَالرُّكَّعَ الشُّجُودَ﴾ وعبر عن الصلاة بأخص أركانها وهو الركوع والسجود.

والطواف عبادة قديمة، عرفه الأنبياء وغيرهم، فهما أكثر ما يتعلق بالبيت، أي: الطواف به والاتجاه إليه في الصلاة، وهذا كقوله تعالى: ﴿وَعَهْدَنَا إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ أَنَّ طَهْرًا بَيْتِي لِلطَّائِفِينَ وَالْعَاكِفِينَ وَالرُّكَّعِ الشُّجُودِ﴾ [البقرة: ١٢٥].

وجاءت الصلاة مقرونة بالطواف؛ لاشتراكهما في البيت: قبله، وطوافاً.

خَلِيلُ الرَّحْمَنِ يَدْعُو النَّاسَ لِحَجِّ بَيْتِ اللَّهِ الْحَرَامِ

٢٧- ﴿وَإِذْ فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَكَ مِنْ كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ﴾

ولما بنى إبراهيم البيت أمره ربه أن يؤذن في الناس بالحج، ويدعوهم إلى زيارة هذا البيت، قال إبراهيم: يارب، وماذا عسى أن يبلغ صوتي؟! قال الله تعالى: أَذِّنْ وَعَلَيَّ الْبَلَاغُ. قالوا: فوقف إبراهيم فوق الحجر الذي كان يقف عليه ليني البيت، أو فوق جبل أبي قبيس، أو وقف فوق الصفا، ونادى: أيها الناس، إن الله كتب عليكم الحج فحجوا، فتطامننت له الجبال وتواضعت -أي: انخفضت- حتى وصل صوته إلى أرجاء الأرض، فعمَّ الدنيا، وسَمِعَهُ كل شجر وحجر ومدر، وأجابه كل من كتب الله له أن يحج وهو في رحم أمه وُضِلَّ أبيه: لبيك اللهم لبيك^(١).

وكان إبراهيم رجلاً رجلاً، ينادي بالحج في كل مكان استجابة لأمر ربه: ﴿وَإِذْ فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا﴾ أي: مشاة لمن كان قريباً واستطاع المشي، ﴿وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ﴾ خفيف اللحم، متعب من العمل، مجهد من السفر، لمن كان أبعد قليلاً، ويأتوك بالطائرات لمن جاءك من بلاد بعيدة، وبالسفن والبواخر، ويأتوك بالسيارات الفارهة وعلى الدواب وغير ذلك ﴿يَأْتِينَكَ مِنْ كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ﴾.

وقد فعل إبراهيم فدعا الناس إلى الحج، وهكذا فعل محمد ﷺ، وقد حصل ما وعد الله به، فأتاه الناس ركباناً ومشاة من مشارق الأرض ومغاربها.

(١) جاءت الروايات بهذا المعنى عن ابن عباس ومجاهد وعكرمة وسعيد بن جبير وغيرهم.

والفج: هو الطريق المتسع، وأصله: الفجوة بين جبلين، والأذان هو الإعلام مع رفع الصوت. وقد أجاب الله سبحانه دعاء إبراهيم حين قال: ﴿فَاجْعَلْ أَفْعَدَةً مِّنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ﴾ [إبراهيم: ٣٧]. فالناس يقصدون الحرم من جميع الأقطار والجهات، وما من مسلم -ولو كان ضعيف الإيمان- إلا وهو يحنُّ إلى رؤية الكعبة، والطواف حولها، والعودة إليها مرة بعد مرة. أخرج ابن أبي حاتم عن عبيد بن عمير قال: لما أمر إبراهيم بدعاء الناس إلى الله، استقبل المشرق فدعا، ثم استقبل المغرب فدعا، ثم استقبل الشام فدعا، ثم استقبل اليمن فدعا، فأجيب: لبيك لبيك.

ومن هنا شرعت التلبية في الحج والعمرة.

وعن ابن عباس ؓ قال: لما أمر إبراهيم أن يؤذن في الناس بالحج تواضعت له الجبال، ورُفعت له الأرض، فقام فقال: يَا أَيُّهَا النَّاسُ، أَجْبِئُوا رَبَّكُمْ^(١).

ومعنى الآية: وأعلم يا إبراهيم الناس بوجوب الحج على المستطيع منهم، يأتوك مسرعين على مختلف أحوالهم: مشاة على أقدامهم، وركباً على وسائل النقل المختلفة، من كل مكان بعيد وقريب، وتلبية هذا النداء من إبراهيم لا تزال تتحقق، وإلى أن تقوم الساعة.

وقد فرض الحج بمقتضى قوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا﴾ [آل عمران: ٩٧].

ويقول النبي ﷺ من حديث أبي هريرة ؓ: «أَيُّهَا النَّاسُ: إِنَّ اللَّهَ قَدْ فَرَضَ عَلَيْكُمْ الْحَجَّ فُحِّجُوا...»^(٢)

وهو أحد الأركان الخمسة كما في الحديث: «بُنِيَ الْإِسْلَامُ عَلَى خَمْسٍ»^(٣).

وقد رَغِبَ الإسلام في الحج، وبيَّن فضله في مثل قوله ﷺ: «الحج المبرور ليس له

(١) الطبري (٥١٦/١٦) والطبراني (١٠٦٢٨) والبيهقي (٤٠٧٧) قال الهيثمي في «مجمع الزوائد» (٢٥٩/٣): ورجاله ثقات.

(٢) من حديث أبي هريرة في صحيح مسلم برقم (١٣٣٧).

(٣) حديث ابن عمر في البخاري برقم (٨، ٤٥١٤) ومسلم برقم (١٦).

جزاء إلا الجنة»^(١).

وقوله: «من حج فلم يرفث ولم يفسق رجع كيوم ولدته أمه»^(٢).

ويجب الحج على المسلم البالغ العاقل المستطيع، وهو أفضل الأعمال بعد الإيمان والجهاد.

مِنْ فَوَائِدِ الْحَجِّ

٢٨- ﴿لِيَشْهَدُوا مَنَفِعَ لَهُمْ وَيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ فِي أَيَّامٍ مَّعْلُومَاتٍ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُمْ مِنْ بَهِيمَةٍ
الَّتِي أَنْعَمَ فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطِيعُوا أَلْبَاسَ الْفَقِيرِ ۖ﴾

ثم علل سبحانه الأمر بإعلام الناس بفريضة الحج، بأنه كي يحصل كل واحد منهم ما ينفعه في دينه ودنياه، فقال تعالى: ﴿لِيَشْهَدُوا مَنَفِعَ لَهُمْ﴾.

وفي الحج منافع دينية: بغفران الذنوب، والثواب الأخروي، على أداء النسك، ورضوان الله تعالى، والعتق من النار، وإجابة الدعاء.

وفيه منافع دنيوية: بالتجارة، والتعاون، واللقاء بين الناس من مختلف الأجناس والألوان واللغات، كما قال تعالى: ﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَبْتَغُوا فَضْلًا مِّن رِّبِّكُمْ﴾ [البقرة: ١٩٨].

عشر ذي الحجة: وخص من هذه المنافع ذكر الله تعالى على ذبح الهدي في مواسم الحج، فقال: ﴿وَيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ﴾ أي: يذكروا اسمه وفضله ﴿فِي أَيَّامٍ مَّعْلُومَاتٍ﴾ هي عشر ذي الحجة وثلاثة أيام التشريق على ما تفضل الله به عليهم، وأنعم عليهم به من الصلاة والذكر والدعاء، فيقول الحاج: (باسم الله، الله أكبر) حين يذبح الهدي والأضحية والفدية والنذر وغير ذلك مما يتقرب به إلى الله تعالى في الحج وغيره، والأيام المعلومات هي التي أقسم الله بها في قوله: ﴿وَالْفَجْرِ ۝ وَلَيَالٍ عَشْرٍ﴾ [الفجر].

(١) من حديث أبي هريرة في صحيح مسلم (١٣٤٩) والمسند (٧٣٥٤، ٩٩٤١) بإسناد صحيح على شرط الشيخين وهو في صحيح الترغيب والترهيب (١١٠٤) وابن خزيمة (٢٥١٣) وعند الحميدي (١٠٠٢) والطالسي (٢٤٢٣) وعبد الرزاق (٨٧٩٩).

(٢) من حديث أبي هريرة في البخاري برقم (١٥٢١، ١٨٢٠) ومسلم برقم (١٣٥٠).

وقيل: هي المرادة في قوله تعالى: ﴿وَأَتَمَمْنَهَا بِعَشْرِ﴾ [الأعراف: ١٤٢].

وهي تشتمل على يوم عرفة، وقد سئل النبي ﷺ عن صيامه، فقال: «أحتسب على الله أن يكفر السنة الماضية»^(١).

وتشتمل أيضاً على يوم النحر، وقد ورد فيه أنه أفضل الأيام عند الله^(٢).

وهذه العشر أفضل أيام السنة؛ لحديث ابن عباس ؓ أن النبي ﷺ قال «ما من أيام العمل الصالح فيها أحب إلى الله تعالى من هذه الأيام» -يعني: العشر- قالوا: يا رسول الله، ولا الجهاد في سبيل الله؟ قال: «ولا الجهاد في سبيل الله، إلا رجل خرج بنفسه وماله فلم يرجع من ذلك بشيء»^(٣).

وعن ابن عمر ؓ أن النبي ﷺ قال: «ما من أيام أعظم عند الله، ولا أحب إليه العمل فيهن، من هذه الأيام العشر، فأكثروا فيهن من التهليل والتكبير والتحميد»^(٤).

وكان ابن عمر وأبو هريرة ؓ يخرجان إلى السوق في أيام العشر، فيكبران ويكبر الناس بتكبيرهما^(٥).

وكان ابن عمر ؓ يعد أيام التشريق من الأيام المعلومات.

والجمهور على أن الأيام المعدودات هي أيام التشريق الثلاثة التي قال الله فيها: ﴿وَأَذْكُرُوا اللَّهَ فِي أَيَّامٍ مَّعْدُودَاتٍ﴾ [البقرة: ٢٠٣]. والأيام المعلومات هي عشر ذي الحجة.

الهندي: ويتعين ذكر اسم الله تعالى على كل ما يذبحه المسلم؛ لورود النهي عن الأكل مما لم يذكر عليه اسم الله، قال تعالى: ﴿وَلَا تَأْكُلُوا مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ وَإِنَّهُ

(١) رواه مسلم عن قتادة برقم (١١٦٢) و«المسند» (٢٢٦٥٠، ٢٢٥٣٧) وفيهما أنه يكفر السنة الماضية والباقية، وهو عند أبي داود (٢٤٢٦) وابن ماجه (١٧١٣) والترمذي (٧٤٩) وإسناده صحيح على شرط مسلم.

(٢) من حديث عبد الله بن فرط، أخرجه أحمد في «المسند» (٣٥٠/٤) وأبو داود برقم (١٧٦٥).

(٣) «المسند» (٧٥/٢) برقم (١٩٦٨، ١٩٦٩) بإسناد صحيح على شرط الشيخين والبخاري برقم (٩٦٩).

(٤) رواه أبو عوانة كما في «إرواء الغليل» (٣٩٨١٣)، وهو في مسند أحمد (٥٤٤٦، ٦١٥٤) وهو حديث صحيح وفيه يزيد الهاشمي وباقي رجال إسناده ثقات رجال الشيخين (محققوه) وأخرجه البيهقي في الشعب (٣٧٥٠) وعبد بن حميد (٨٠٧) والطحاوي في شرح المشكل (٢٩٧١).

(٥) يُنظر الحديث في: «البخاري» برقم (٩٦٩) وأبي داود برقم (٢٨٣٨) واللفظ له، والترمذي برقم (٧٥٧) وابن ماجه برقم (١٧٢٧).

لَفَسَقٌ ﴿١﴾ [الأنعام: ١٢١].

فلا بد من ذكر اسم الله تعالى على كل ما يذبح ﴿مِنْ بَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ﴾ وهي الإبل، والبقر، والغنم.

ثم أمر سبحانه بالأكل منها، فقال: ﴿فَكُلُوا مِنْهَا﴾ وهذا الأمر للإباحة أو الاستحسان وليس للوجوب؛ لأن الأمر بعد النهي يقتضي الإباحة، وكان أهل الجاهلية لا يأكلون من لحوم هداياهم فأمرنا بمخالفتهم.

وفي حديث جابر رضي الله عنه: أن النبي ﷺ قال عن لحوم الأضاحي: «كلوا وتزودوا وأدخروا»^(١).

وكان النبي ﷺ قد نهى عن الأكل منها أكثر من ثلاثة أيام، ثم نُسِخ هذا.

واتفق أهل العلم على أن الهدي إذا كان تطوعاً فإنه يجوز للمهدي الأكل منه، وكذلك الأضحية؛ لما روي عن جابر رضي الله عنه في حجة الوداع قال: وقدم عليّ ببُذْنٍ من اليمن، وساق رسول الله ﷺ مئة بدنة، فنحر منها رسول الله ﷺ بيده ثلاثاً وستين بدنة، ونحر عليّ ما بقي، ثم أمر من كل بدنة ببُضْعَةٍ، فجُعِلَتْ في قِدْرٍ وطُبِخت، فأكل من لحمها وشرب من مرقها^(٢).

واختلفوا في دم التمتع والقران فأجاز الأكل منهما أبو حنيفة، وأحمد، ومالك، ومنعه الشافعي.

أما دم الفدية فلا يجوز الأكل منه عند جميعهم.

ثم أمر سبحانه بإطعام البائس الذي لا يجد شيئاً من شدة الحاجة وهو المسكين، فقال: ﴿وَأَطْعِمُوا الْبَائِسَ الْفَقِيرَ﴾ وهذا الأمر للوجوب لإطعام البائس الذي أصابه البؤس، فظهر في وجهه وفي ثيابه من ضيق المال، والفقر شديد الفقر والحاجة، وقد لا يظهر الفقر عليه، ويحسبه من يجهل حاله غنياً.

(١) مسلم برقم (١٩٧٢)، وفي البخاري عن سلمة بن الأكوع برقم (١٧١٩)، ٢٩٨٠، ٥٤٢٤، ٥٥٦٧، ٥٥٦٩.

(٢) من حديث طويل أخرجه مسلم برقم (١٢١٨).

مِنْ مَنَاسِكَ الْحَجِّ

٢٩- ﴿ثُمَّ لْيَقْضُوا^(١) تَفَثَهُمْ وَلْيُوفُوا^(٢) نُذُورَهُمْ وَلْيَطَّوَّفُوا بِالْبَيْتِ الْعَتِيقِ ﴿٢٩﴾

اشتملت هذه الآية على ثلاثة مناسك، هي: قضاء التفث، والوفاء بالنذر، وطواف الإفاضة، وذلك أن من جملة ما خاطب الله به إبراهيم ﷺ ثلاثة أشياء:

الأول: إزالة التفث:

وهو الحلق أو التقصير، بأن يكمل الحجاج ما بقي عليهم من النسك لخروجهم من إحرامهم ويزيلوا ما لحق بهم من وسخ وأذى كما قال سبحانه: ﴿ثُمَّ لْيَقْضُوا تَفَثَهُمْ﴾ أي: ليُزيلوا ما تراكم من وسخ في أبدانهم، والتفث من مناسك الحج وأفعاله.

قال الحريري في المقامة المكية: فلما قضيت بعون الله التفث: واستبحت الطيب والرفث. والنظافة وإزالة الأوساخ من مقدمات الإحرام أيضاً مثل: إزالة الشعر، وقص الشارب، وتقليم الأظفار، وكذلك الشأن في نهاية الإحرام؛ لإزالة الأوساخ بعد مدة الإحرام.

والمراد: الخروج من الإحرام بالحلق، أو التقصير، وتمام النظافة.

أخرج آدم بن أبي إياس بسند صحيح عن مجاهد قال في التفث: هو حلق الرأس، وحلق العانة، وقص الأظفار، وقص الشارب، ورمي الجمار.

وقال ابن عباس ؓ: التفث وضع إحرامهم من حلق الرأس، ولبس الثياب، وقص الأظفار، ونحو ذلك.

الثاني: الوفاء بالنذر:

فإن كان الحاج قد نذر عملاً زائداً على أعمال الحج المفروضة، بأن نذر طوافاً زائداً،

(١) قرأ ورش وقنبل وأبو عمرو وابن عامر ورويس بكسر لام (ليقضوا) وصلاً وبدءاً؛ لأن الأصل في لام الأمر هو الكسر، وقرأ الباقر بإسكانها وصلاً للتخفيف، وكسرهما بدءاً.

(٢) قرأ ابن ذكوان بكسر لام (وليوفوا وليطوفوا) وصلاً وبدءاً، والباقر بإسكانها وصلاً وكسرهما بدءاً. وقرأ شعبة بفتح الواو وتشديد الفاء من (وليوفوا) مضارع وقي، والباقر بإسكان الواو وتخفيف الفاء مضارع أوفى، وهو لغة في وقي.

أو اعتكافاً في المسجد الحرام، أو يذبح ذبيحة لله تعالى، أو يطعم فقيراً، ونحو ذلك، فعليه أن يفي بما نذر، ذلكم قول الله تعالى: ﴿وَلْيُؤْفُوا نَذْرَهُمْ﴾.

والنذر: التزام قرابة إلى الله تعالى غير واجبة على من التزمها.

وهذا يفيد أن النذر كان معروفاً في شريعة إبراهيم، وصيغة النذر أن يقول العبد: لله تعالى عليّ كذا. والنذر لغير الله معصية لا يوفى به، ولا يُذبح بمكان يُذبح فيه لغير الله، وصناديق النذور التي عند أضرحة بعض الأولياء وآل البيت في بعض بلاد المسلمين، أموالها ليست مشروعة؛ لأنها نذر لغير الله تعالى، وقد وضعت هذه الأموال في مكان يُنذر فيه لغير الله، والنذر إن كان فيه طاعة أو أمر مباح يلزم الوفاء به، وإن كان نذراً في معصية فلا يجوز الوفاء به.

في حديث عائشة ؓ أن رسول الله ﷺ قال «من نذر أن يطيع الله فليطعه، ومن نذر أن يعصيه فلا يعصه»^(١).

ولا ينذر الإنسان ما لا يملك، ولا ينذر ما وجب عليه، كأن ينذر صيام شهر رمضان، إذ لا أثر لنذره هذا، قال تعالى: ﴿وَمَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ نَفَقَةٍ أَوْ نَذَرْتُمْ مِنْ نَذْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ﴾ [البقرة: ٢٧٠].

وقال سبحانه: ﴿يُؤْفُونَ بِالنَّذْرِ وَيَخَافُونَ يَوْمًا كَانَ شَرُّهُ مُسْتَطِيراً﴾ [الإنسان].

وفي الحديث عن عمر ابن حصين ؓ أن النبي ﷺ قال: «لا وفاء لنذر في معصية، ولا فيما لا يملك العبد»^(٢).

والنذر يوفى إذا ألزم الإنسان نفسه به، وقبل النذر لم يكن ملزماً بشيء.

الثالث: الطواف بالبيت:

وفي ختام خطاب الله تعالى إلى إبراهيم ؑ، يأتي الأمر بالطواف بالبيت، تنبيهاً على أنه آخر أعمال الحج، وهو طواف الإفاضة الذي يأتي بعد الوقوف بعرفة، وبعد رمي

(١) «صحيح البخاري» برقم (٦٦٩٦، ٦٧٠٠).

(٢) يُنظر: «صحيح مسلم» برقم (١٦٤١) في آخر حديث طويل عن عمران بن حصين.

جمرة العقبة، قال تعالى: ﴿وَلْيَطَّوَّفُوا بِالْبَيْتِ الْعَتِيقِ﴾ وسمي البيت عتيقاً؛ لأن الله أعتقه من تسلط الجابرة عليه، وهو بمعنى القديم؛ لأنه أول بيت وُضع للناس متعبداً في الأرض، وهو عتيق لأن مكانه غير مملوك لأحد، وعتيق، لأن الله تعالى يعتق فيه رقاب المذنبين من العذاب، وعتيق، لأنه أقدم بيوت العبادة لله تعالى، وهو أفضل المساجد الإطلاق.

عن ابن عباس ؓ أنه قال: أمير الناس أن يكون آخر عهدهم بالبيت الطواف، إلا أنه خفف عن المرأة الحائض^(١).

وحجّز إسماعيل من البيت، فيلزم الطواف من ورائه.

قال ابن عباس: الحجّز من البيت؛ لأن رسول الله ﷺ طاف بالبيت من ورائه^(٢).

أنواع الطواف ثلاثة

١- طواف القدوم: وهو سنّة، ويُجزئ عنه طواف العمرة لمن كان متمتعاً، ويرمل المحرم في الأشواط الثلاثة الأولى منه.

٢- طواف الإفاضة: ويسمى طواف الحج والزيارة، ويكون يوم النحر وأيام التشريق.

٣- طواف الوداع: ويسقط عن الحائض والنفساء.

والرّمّل مختص بطواف القدوم أو العمرة، والعمرة ليس لها طواف وداع، إلا إذا أقام بمكة يوماً فأكثر بعد أداء العمرة.

تَعْظِيمُ حُرْمَاتِ اللَّهِ وَشَعَائِرِهِ

٣٠- ﴿ذَلِكَ وَمَنْ يُعْظِمِ حُرْمَتِ اللَّهِ فَهُوَ خَيْرٌ لَهُ عِنْدَ رَبِّهِ وَأُحِلَّتْ لَكُمْ الْآَنَظَمُ إِلَّا مَا يُتْلَى عَلَيْكُمْ فَاجْتَنِبُوا الرِّجْسَ مِنَ الْأَوْثَانِ وَاجْتَنِبُوا قَوْلَ الزُّورِ﴾

ذلك الذي أمر الله به من قضاء التفث، والوفاء بالنذور، والطواف بالبيت، هو ما أوجبه الله عليكم فعظموه، فإنّ ذكر الله تعالى في مناسك الحج، وإقامة الشعائر، ولُبس

(١) البخاري برقم (٣٢٩) وانظر: (١٧١٠، ١٧٥٥) ومسلم برقم (١٣٢٨).

(٢) «صحيح ابن خزيمة» برقم (٢٧٤٠) وصححه المحقق، وصححه الحاكم بموافقة الذهبي (١/٤٦٠) وسنن البيهقي (٩٠/٥).

التياب بعد خلْع ملابس الإحرام، وإزالة الشعر والأوساخ والأدران، وامتنال الأوامر، واجتناب النواهي، وأداء مناسك الحج والعمرة من الطواف والسعي، والوقوف بعرفة، والمبيت بمزدلفة، ورمي الجمار، والذبح، والحلق أو التقصير، وغيره، كل ذلك يطلق عليه حُرُمات الله، أي: كل ما حرم الله، وأمر بتعظيمه، وكل ماله حُرمة وأمر باحترامه، بعبادة أو غيرها.

﴿وَمَنْ يُعَظِّمْ حُرْمَتِ اللَّهِ﴾ في مناسك الحج سيِّمًا الدماء التي يتقربُ بها الحاج إلى ربه: ﴿فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُ عِنْدَ رَبِّهِ﴾ إذا أداها كاملة خالصة لوجه الله تعالى فهي خير له في الدنيا والآخرة، وله الأجر العظيم عند الله سبحانه، فإذا تركتم تعظيم حرَمات الله للحصول على منفعة دُنْيَوِيَّة، أو متاع زائل، أو شهوة عارضة، فإن التمسك بهذا التعظيم أفضل بكثير عند ربكم، فلا تستبدلوا الذي هو أدنى بالذي هو خير، وتعظيم الحرَمات يكون: بإجلالها واحترامها ومحبتها، وتكميلها، وعدم التهاون فيها أو التكاثر عنها، أو التثاقل لها.

ولما كان المشركون يُحرِّمون ما ليس من حرَمات الله في أمر الذبائح، قال جلَّ شأنه: ﴿وَأُحِلَّتْ لَكُمْ الْآَنَعَامُ إِلَّا مَا يَتْلَى عَلَيْكُمْ﴾ أي: إلا ما حرمه الله عليكم في كتابه، وقد كان أهل الجاهلية لا يأكلون من الهدي، فأمر الإسلام بمخالفتهم، وكانوا يُحرِّمون البحيرة، والسائبة، والوصيلة، والحام، فأمر الإسلام بمخالفة ذلك، ولم يحرم الإسلام إلا ما جاء النص بتحريمه.

وقد أحلَّ الله لكم الأنعام أن تأكلوها، وتستخدموها، وتشربوا ألبانها، إلا ما تُلَيَّ عليكم في القرآن، ومنه عَشْرُ محرمات حرَمها الله سبحانه في قوله: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ الْمَيْتَةُ وَالْدَّمُ وَلَحْمُ الْخَنَازِيرِ وَمَا أَهَلَ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ وَالْمُنْخَنِقَةُ وَالْمَوْقُوذَةُ وَالْمُتَرَدِّيَةُ وَالنَّطِيحَةُ وَمَا أَكَلَ السَّبْعُ إِلَّا مَا ذَكَّيْتُمْ وَمَا ذُبِحَ عَلَى النَّصَبِ﴾ [المائدة: ٨].

هذه عَشْرُ من الذبائح حرَمها الله في هذه الآية، وفي سورة الأنعام، وهي قبل سورة المائدة في النزول، وذلك في قوله تعالى: ﴿قُلْ لَا أَجِدُ فِي مَا أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا عَلَى طَاعِمٍ يَطْعَمُهُ إِلَّا أَنْ يَكُونَ مَيْتَةً أَوْ دَمًا مَسْفُوحًا أَوْ لَحْمَ خَنَازِيرٍ فَإِنَّهُ رِجْسٌ أَوْ فِسْقًا أُهْلَ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ﴾ [الأنعام: ١٤٥].

فالمعنى: وأُحِلَّتْ لكم الأنعام إلا ما يتلى عليكم في القرآن في مثل هذه الآيات.

والقرآن قال: ﴿يُنَالَى﴾ بالفعل المضارع؛ ليشمل المحرمات السابق نزولها على نزول (سورة الحج)، ويشمل ما ينزل بعدها؛ ليعم اللفظ كل ما في القرآن، فإن سورة (المائدة) نزلت بعد (سورة الحج) بكثير، فالإحالة تكون أولاً على سورة الأنعام، ثم المائدة، ثم الحج.

ولما كان المشركون يذبحون على الأوثان، فقد نبّه سبحانه على أن ذلك رجس وشرك يجب تركه، فقال تعالى: ﴿فَاجْتَنِبُوا الرِّجْسَ مِنَ الْأَوْثَانِ﴾ أي: ابتعدوا عن القذارة التي هي الأوثان، وابتعدوا عن الذبح عندها، واجتنبوا عبادة الأوثان فهي رجس، واجتنبوا الرجس الذي هو الأوثان، ولأن الشرك افتراء على الله تعالى، وقول الزور افتراء على الناس، فابتعدوا عن الكذب المفترى على الله، والكذب المفترى على الناس.

قال تعالى: ﴿وَاجْتَنِبُوا قَوْلَ الزُّورِ﴾ أي: اتركوا الكذب على الله، واتركوا نسبة الولد والشريك إلى الله، واجتنبوا وصف الله تعالى بما لا يليق به، وابتعدوا عن شهادة الزور، والكذب على الناس.

صلى النبي ﷺ صلاة الصبح يوماً، ثم توجه إلى الناس ووقف قائماً، فقال: «عدلت شهادة الزور لإشراك بالله ﷻ»، ثم قرأ هذه الآية: ﴿فَاجْتَنِبُوا الرِّجْسَ مِنَ الْأَوْثَانِ وَاجْتَنِبُوا قَوْلَ الزُّورِ﴾^(١).

وفي الحديث: عن أبي بكرة ؓ أن النبي ﷺ قال: «ألا أنبئكم بأكبر الكبائر؟ ثلاثاً، قلنا: بلى يا رسول الله، قال: «الإشراك بالله، وعقوق الوالدين» -مقروناً بالإشراك بالله- وكان متكئاً فجلس - للاهتمام وتعظيم الأمر الذي بعده - فقال: «ألا وقول الزور، ألا وشهادة الزور»، فما زال يكررها حتى قلنا: ليته سكت^(٢).

ولما نهى الله سبحانه عباده عن الشرك والرجس وقول الزور، أمرهم أن يكونوا:

(١) أخرجه الإمام أحمد بسنده عن خريم بن فاتك الأسدي: وله ضُحبة (٣٢١/٤) برقم (١٨٨٩٨) بسند ضعيف (محققه) ويُظنر: «تفسير الطبري» (١١٢/١٧) و«سنن الترمذي» برقم (٢٢٩٩)، وأبو داود (٣٥٩٩) وابن ماجه (٢٣٧٢) والطبراني في الكبير (٤١٦٢) وابن أبي شيبة (٢٥٧/٨).

(٢) أخرجه البخاري عن أبي بكرة برقم (٦٩١٩) و(٢٦٥٤) ومسلم برقم (٨٧) و«المسند» بإسناد صحيح على شرط الشيخين (٢٢/٣٤) برقم (٢٠٣٨٥، ٢٠٣٩٤) والترمذي (١٩٠١)، والبزار في مسند (٣٦٢٩٥).

٣١- ﴿حُفَاءَ لِلَّهِ غَيْرَ مُشْرِكِينَ بِهِ وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ السَّمَاءِ فَتَخْطَفُهُ^(١) الطَّيْرُ أَوْ تَهْوِي بِهِ الرِّيحُ^(٢) فِي مَكَانٍ سَجِيٍّ ۖ﴾

فإن اجتنبت عبادة الأوثان - أيها الناس - كنتم مخلصين لله العبادة، وكنتم على ملة إبراهيم حقاً ﴿حُفَاءَ لِلَّهِ﴾ مستقيمين على الحق، موحدين لله سبحانه، مائلين عن الشرك وعن كل دين باطل إلى التوحيد ﴿غَيْرَ مُشْرِكِينَ بِهِ﴾.

ثم ضرب القرآن الكريم المثل للمشرك بالله تعالى، بأنه يشبه شخصاً سقط على الأرض من مكان مرتفع جداً، ولما سقط قطعت الطير أوصاله ومزقته إرباً إرباً، وهذا الأخير مثل للمشرك المذبذب المتشكك في شركه.

أما مثل المشرك المصمم على شركه المتمسك به، فكأن الريح أهوت به إلى مكان بعيد جداً، حيث لا يُعثر له على جثة.

هذا هو مثل صاحب القدم الراسخة في الشرك فجاء في قوله تعالى: ﴿أَوْ تَهْوِي بِهِ الرِّيحُ فِي مَكَانٍ سَجِيٍّ﴾ هذه صفته في الدنيا، أما جزاؤه في الآخرة فهو كما قال الله سبحانه: ﴿إِنَّهُمْ مَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَهُ النَّارُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ﴾ [المائدة: ٧٢]. وهما صورتان تنخلع لهما القلوب. والأول يرجى توبته، بخلاف الآخر، فإن توبته بعيدة المنال، هذا معنى: ﴿وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ﴾ أي: سقط ﴿مِنَ السَّمَاءِ فَتَخْطَفُهُ الطَّيْرُ﴾ وتقطع جسده أشلاء، هذا حال المشرك المذبذب في شركه.

فالآية تدعو إلى الاستقامة على منهج الله تعالى، وإخلاص العمل له سبحانه، وإفراده بالطاعة، والإقبال عليه بالعبادة، وترك الشرك وأهله، فإن مات العبد على الشرك من غير توبة، فقد وقع في هلاك محقق لا نجاة له منه بحال، ومثله في البعد عن الهدى والتردى إلى حضيض الكفر كشخص سقط من السماء إلى الأرض فتمزقت أوصاله، وقطعت الطير أعضائه، وفرقته في حواصلها، أو مثله كمثل شخص حملته عاصفة شديدة من الريح،

(١) قرأ نافع وأبو جعفر بفتح الخاء والطاء مشددة من (فتخطفه) مضارع تخطف، حذفت منه إحدى التائين، والباقيون بسكون الخاء وفتح الطاء مخففة، مضارع خطف بالكسر.

(٢) قرأ أبو جعفر بخلف عنه (الرياح) بالجمع، والباقيون (الريح) بالإنفراد.

وألقت به في مكان بعيد لا خلاص له منه بوجه من الوجوه، وهذا هو الهلاك المحقق، نسأل الله السلامة والعافية.

قال عليٌّ ؑ: إذا حدثتكم عن رسول الله، فليكن آخر من السماء إلى الأرض، أهون عليّ من أن أكذب عليه^(١).

وقد ضرب الله سبحانه للمشرك مثلاً آخر في سورة الأنعام فقال: ﴿قُلْ أَدْعُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُنَا وَلَا يَضُرُّنَا وَنُرَدُّ عَلَىٰ أَعْقَابِنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْنَا اللَّهُ كَالَّذِي اسْتَهْوَتْهُ الشَّيَاطِينُ فِي الْأَرْضِ حَيْرَانًا لَهُ أَصْحَابٌ يَدْعُونَهُ إِلَى الْهُدَىٰ أَتَيْنَا قُلَّ لِرَبِّ هُدَىٰ اللَّهُ هُوَ الْهُدَىٰ وَأُمِرْنَا لِنُسْلِمَ لِرَبِّ الْغَلِيلِ ﴿٧﴾﴾ [الأنعام].

وهكذا: فإن الإيمان بمنزلة السماء، محفوظة مرفوعة، والمشرك بمنزلة الساقط من السماء، عرضة للآفات والقاذورات، فتخطفه الطير فتقطع أعضائه، وتخطفه الشياطين وتمزقه، وتذهب عنه دينه وديناه.

وعن تحريم الشرك، وقول الزور، وافتراء الكذب على الله تعالى، يقول سبحانه: ﴿قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّي الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَالْإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَأَنْ تُشْرِكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُزَلِّ بِهِ سُلْطَانًا وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا نَعْلَمُونَ ﴿٣٣﴾﴾ [الأعراف]. قال تعالى:

٣٢- ﴿ذَلِكَ وَمَنْ يُعْظِمِ شَعَائِرَ اللَّهِ فَإِنَّهَا مِنْ تَقْوَى الْقُلُوبِ ﴿٣٤﴾﴾

وبعد أن بيّن سبحانه أن تعظيم حرّامات الله بوجه عام خير للمؤمن في الدنيا والآخرة، خصص جلّ شأنه في هذه الآية من هذه المحرمات شعائر الله في الحج، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ الْأَصْفَا وَالْمَرْوَةَ مِنْ شَعَائِرِ اللَّهِ ﴿١٥٨﴾﴾ [البقرة: ١٥٨].

وقال: ﴿فَاذْكُرُوا اللَّهَ عِنْدَ الْمَشْعَرِ الْحَرَامِ ﴿١٩٨﴾﴾ [البقرة: ١٩٨].

وشعائر الله هي معالم الحج: الكعبة، والصفاء والمروة، وعرفة، والمشعر الحرام، ومنى، والجمرات، والمزدلفة.

وتطلق الشعيرة أيضاً على: (بدنة الهدي)، كما قال تعالى: ﴿وَالْبُدْنَ جَعَلْنَاهَا لَكُم مِّنْ

(١) «تفسير ابن عطية» (٤/ ١٢٠).

شَعَتِرِ اللَّهِ ﴿٣٦﴾. وهذا هو المراد هنا، وكانوا يَطْعُونُهَا في جنبها الأيمن، ويكون هذا علامة على أنها خُصِّصَتْ للهدْي.

والمعنى: ذلك الذي أمركم الله به من توحيدهِ وإخلاص العبادَةِ له، ومن يمثّل أمر الله ويجتنب نهيه، ومن يعظّم مناسك الحج وشعائره، ومنها الذبائح التي تُنحر فيه، وذلك بحسن اختيارها وتعظيم شأنها، فإن هذا التعظيم من أفعال أصحاب القلوب المتصفّة بتقوى الله وخشيته.

وقد ورد أن النبي ﷺ أهدى مئة بدنة، فيها جمل في أنفه حلقة من ذهب، لأبي جهل، وأهدى عمر نجبية -والناقة النجبية: هي القوة الخفيفة السريعة- فطلبت منه بثلاث مئة دينار، فسأل النبي ﷺ أن يبيعها ويشتري بثمانها بُدْنًا، فنهاه النبي ﷺ وقال له: «بل انحرها»^(١).

فإذا كان هذا هو هدي الإسلام في الهدية، فما بالكم بما يُهدى إلى الحرم في النسك. ﴿ذَلِكَ وَمَنْ يُعْظِمَ شَعَتِرَ اللَّهِ﴾ أوامره ونواهيه، ومعالم الدين الظاهرة، وتعاليم الإسلام كلها بشكل عام، ومنها مناسك الحج.

والمراد بالشعائر في هذه الآية: الهدْي والذبائح المعلّمة بعلامة يُفهم منها أنها من ذبائح الحرم، وتعظيمها حُسن اختيارها وعدم التعرض لها بأذى، وقد كانوا يُشْعِرُونَ الهدْي التي تذهب إلى مكة من المدينة أو من غيرها، وكانوا يضعون فيها قلادة، فتسرح وتمرح، ولا يتعرض لها أحد، حتى تصل إلى البيت المعمور؛ فالناس تَعْرِفُ بهذه العلامة أنها مُشْعَرَةٌ، وأنها في طريقها إلى المسجد الحرام.

ومن تعظيم شعائر الله في ذبح الأضحية، أو الهدْي، أو الفدية، أو النذر، أن يستسمنها المضحّي، ويختارها من أجود الذبائح؛ فإن هذا يدل على قوة الإيمان، ويدل على التقوى.

وفي حديث البراء بن عازب ؓ أن رسول الله ﷺ قال: «أربع لا تجوز في الأضاحي:

(١) «تفسير الألوسي» (١٧/١٥٠) و«المسند» (٢/١٤٥) عن ابن عباس برقم (٢٤٢٨) حديث حسن (محققه)، وانظر (٢٨٨٠، ٢٠٧٩) وعن ابن عمر (٦٣٢٥) بإسناد ضعيف و«سنن أبي داود» برقم (١٧٥٦) عن ابن عمر والبيهقي في السنن (٥/٢٤١) والبخاري في التاريخ الكبير (٢/٢٣٠).

العوراء البين عورها، والمريضة البين مرضها، والعرجاء البين عرجها، والكسيرة التي لا تُنقي^(١) فهذه العيوب لا تجعلها جائزة.

وعن محمد بن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه قال: الوقوف بعرفة من شعائر الله، وجمع من شعائر الله، والبدن من شعائر الله، ورمي الجمار من شعائر الله، والحلق من شعائر الله، فمن يعظمها فإنها من تقوى القلوب، لكم في كل منها منافع حتى تخرجوا منه إلى غيره، ومحل هذه الشعائر كلها الطواف بالبيت العتيق^(٢) قال تعالى عن الهدايا:

٣٣- ﴿لَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ مَحِلُّهَا إِلَىٰ الْبَيْتِ الْعَتِيقِ ﴿٣٣﴾﴾

أي لكم - أيها الناس - في هذه البدن والهدي منافع بالتجارة وطلب الرزق، ومنافع بكسب الأجر والمغفرة، ومنافع بأكل لحومها وشرب ألبانها، وركوبها، والانتفاع بصوفها، وغير ذلك، حتى تصل هذه البدن إلى البيت العتيق، وهو محل الذبح، ولا يكون ذبح الهدي ولا الفدية في غير مكة.

والنبي ﷺ حين حجّ أتى معه بمئة ناقة، ذبح منها بيده الشريفة ثلاثاً وستين ناقة، وأمر علياً رضي الله عنه أن يذبح البقية، وكان ذلك عند البيت العتيق، ووقت نحر الهدي يوم العيد وأيام التشريق، ومكان نحرها في البيت، أي: في مكة كلها.

وفي هذا تشريع لإباحة الانتفاع بالهدي انتفاعاً لا يتلفه، وفيه ردٌّ على المشركين الذين حرّموا على أنفسهم ركوب الهدي، والحمل عليه، وشرب لبنه.

في الحديث: عن أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي ﷺ رأى رجلاً يسوق بدنة، فقال: «اركبها»، قال: إنها بدنة، فقال: «اركبها»، قال: إنها بدنة، فقال: «اركبها، ويحك» في الثانية أو الثالثة^(٣).

رأى عليّ رجلاً يسوق بدنة ومعها ولدها، فقال: لا تشرب من لبنها إلا ما فضل عن

(١) «المسند» (٢٨٤/٤) برقم (١٨٦٦٧) بإسناد صحيح ورجال ثقات (محققوه) و«سنن أبي داود» (٢٨٠٢) والترمذي (١٤٩٧) وصححه النسائي (٢١٥/٧) وفي الكبرى (٤٤٦٠) وابن ماجه (٣١٤٤) وصححه الألباني في «الإرواء» (٣٦١/٤).

(٢) ابن أبي شيبه (٢٩٤/٤) وابن جرير (٥٤١/١٦).

(٣) الحديث في البخاري من رواية أنس برقم (١٦٩٠، ١٧٠٦، ٢٧٥٤، ٦١٥٩) ومسلم برقم (١٣٢٣).

ولدها، فإذا كان يوم النحر فاذبحها وولدها^(١).

وتشير الآية إلى أن من شعائر الحج الوقوف بعرفة، ورمي الجمار، والسعي، والوقوف بمزدلفة، والذبح، وطواف الإفاضة بالبيت العتيق.

مَشْرُوعِيَّةُ الذَّبَائِحِ فِي جَمِيعِ الْأُمَمِ

٣٤- ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنْسَكًا^(٢) لِيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُمْ مِنْ بَهِيمَةٍ الْأَنْعَامِ فَالْيَهُمُّ إِلَهُهُ وَحْدًا فَلَهُ أَسْلِمُوا وَبَشِّرِ الْمُخْبِتِينَ ﴿٢٤﴾﴾

ولكل أمة من الأمم السابقة جعلنا منسكاً لإقامة ذكر الله تعالى وشكره، فاستبقوا الخيرات، وسارعوا إليها، والمنسك هو المذبح، أي المكان الذي ينحر فيه الهدى ونحوه.

وهذه الذبائح، شعيرة معروفة في جميع الأمم، والإسلام يوجهها الوجهة الصحيحة، بحيث تُذبح لله وحده دون سواه، وما كان خاصاً منها بالحرم لا يُذبح إلا فيه؛ فالذبائح ليست خاصة بهذه الأمة، بل هي من شعائر الأمم التي سبقت ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ﴾ أي: وجعلنا لكل جماعة مؤمنة سلفت ﴿جَعَلْنَا مَنْسَكًا﴾ المنسك: مأخوذ من النسك الذي هو العبادة، والذبح عبادة، وقد يراد به: مكان العبادة أو زمانها.

وفسره مجاهد في هذه الآية بالذبح وإراقة الدماء تقريباً إلى الله تعالى.

وكان المشركون يجعلون لأصنامهم مناسك تشبه مناسك الحج، ويجعلون لها مواقيت ومذابح، مثل منحر العزى، واسمه (الغغب)، كما تُنحر الذبائح عند بعض الأضرحة والقبور، فبيّن الله سبحانه أنه لم يشرع لكل أمة إلا مكاناً واحداً للتقرب بالذبائح فيه إلى الله تعالى، فهو الذي رزقهم الأنعام التي يتقربون بها إليه سبحانه، فالذبح لا يكون إلا لمن خلق هذه الأنعام، ومن لا يرزق الناس لا يستحق أن يُجعل له منسك، فالمناسك لا تتعدد.

وقد أمر الله عباده بالذبح ليتعودوا المداومة على ذكر الله تعالى، وهذا معنى: ﴿لِيَذْكُرُوا﴾

(١) «تفسير ابن كثير» (٤٢٣/٥).

(٢) قرأ حمزة والكسائي وخلف العاشر بكسر السين من (منسكا)، والباقون بفتحها، وهما لغتان بمعنى واحد، والمنسك هو النسك نفسه، أو مكانه وزمانه ووقته.

أَسْمَ اللَّهِ عَلَى مَا رَزَقَهُمْ مِنْ بَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ ﴿٣٥﴾ فيشكروه على نعمه وفضله، ويُخلصوا له ويوحّدوه، فلا يذكروا غير اسم الله على ذبائهم.

وكما جعل الله لكم منسكاً واحداً، فإن إلهكم الذي تعبدوه واحد، وإن تعددت الشرائع، وإن تعددت الرسالات، وإن نسخ بعضها بعضاً ﴿فَالْهَكَرُ إِلَهُ وَحْدٌ﴾ هو الله سبحانه، فانقادوا لأمره وأمر رسوله، وأخلصوا له الطاعة والعبادة ﴿فَلَهُ أَسْلِمُوا﴾ وهكذا يربط القرآن بين العقيدة والشعائر، فهما وحدة واحدة، والعبادة تنبثق من العقيدة، فالذبح لله ينشأ من توحيد الله، وما أهل به لغير الله ينشأ من الشرك بالله.

ثم أمر الله نبيه أن يبشر المؤمنين بالأجر العظيم، فقال: ﴿وَبَشِّرِ﴾ -يا محمد- ﴿الْمُخْتَبِينَ﴾ المتواضعين الخاضعين لربهم بخيري الدنيا والآخرة، والخبث: هو ما انخفض من الأرض. والخبث: المتواضع المتطامن غير المتكبر، والمبشر به في الآية محذوف لتعظيم شأنه.

أَرْبَعُ صِفَاتٍ لِلْمُخْتَبِينَ

٣٥- ﴿الَّذِينَ إِذَا ذَكَرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَالصَّابِرِينَ عَلَى مَا أَصَابَهُمْ وَالْمُقِيمِي الصَّلَاةِ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ﴾

وقد وصف الله عباده التائبين الخاضعين المنقادين له سبحانه، المطمئنة قلوبهم بذكر الله جلّ شأنه، وصفهم بأربع صفات هي: وجلّ القلوب عند ذكر الله تعالى، والصبر على الأذى في سبيله، وإقامة الصلاة، والإنفاق في سبيل الله، وهي مظاهر التواضع، وكلها صفات تناقض صفات المتكبرين فُساءة القلوب، كما قال تعالى: ﴿كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَى كُلِّ قَلْبٍ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ﴾ [غافر: ٣٥].

الوصف الأول للمختبين: وَجِلُ الْقُلُوبِ عِنْدَ ذِكْرِ اللَّهِ تَعَالَى:

وقد جاء ذلك في قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ إِذَا ذَكَرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ فقلوبهم ليست قاسية، وإنما هي خائفة خاشعة، مستحضرة لعظمة الله تعالى، تطمئن قلوبهم بذكر الله ﴿وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا﴾ [الأنفال: ٢].

كما قال جلّ شأنه: ﴿اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُتَشَابِهًا مَثَانًى نَقَّصِرُ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ

يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلَّيْنُ جُلُودَهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ اللَّهِ ﴿٢٣﴾ [الزمر: ٢٣] أي: أنهم خافوا من عذاب الله وراقبوه، وحذروا مخالفته، وامثلوا أمره، واجتنبوا نهيه، فليست قلوبهم قاسية أو بعيدة من خشية الله سبحانه، بل إنها ترتعش وتُشفق من خشية الله تعالى، وهذا معنى ﴿وَجِلَّتْ قُلُوبُهُمْ﴾.

الوصف الثاني: الصبر على المكاره:

الصبر على طاعة الله وعن محارم الله، والصبر على الأذى في سبيل الله، والصبر على أقدار الله، وما ينزل بهم من المكاره، في البأس والشدة، فهم يصبرون بغية الثواب من الله تعالى على السراء والضراء، وعلى ما يصيبهم من البلايا والمحن، كما قال تعالى: ﴿وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ ﴿١٥٥﴾ الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُمُ مُصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ ﴿١٥٦﴾ أُولَٰئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُتَهَدُونَ ﴿١٥٧﴾﴾ [البقرة]. وهذا معنى ﴿وَالصَّابِرِينَ عَلَىٰ مَا أَصَابَهُمْ﴾.

الوصف الثالث: إقام الصلاة:

أي إنهم يقيمون الصلاة، فهم من المحافظين عليها، المؤدين لها في أوقاتها مع جماعة المسلمين، بخشوع وخضوع، وإسباغ للوضوء، وتمام لأقوالها وأفعالها، بحيث ينعكس أثرها على سلوك العبد مع ربه ومع الناس.

سئل النبي ﷺ عن أحب الأعمال إلى الله سبحانه فقال: «الصلاة لوقتها...»^(١). وهذا معنى ﴿وَالْمُقِيمِي الصَّلَاةِ﴾.

الوصف الرابع: النفقة في سبيل الله:

إنهم ينفقون أموال الصدقة والزكاة في وجوه الخير والبر، وفي طرق الجهاد، ومواساة المحتاجين والضعفاء، وصلة الأرحام والمشاريع الخيرية، وهذا معنى ﴿وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ﴾ وهذا شامل لجميع النفقات الواجبة كالزكاة والكفارات والنفقة على من تعول، وشامل للنفقة المستحبة، كالصدقة ووجوه البر والإحسان، فهذه الصفات الأربع مظاهر للتواضع والإخبات.

(١) من حديث عبدالله بن مسعود، كما في صحيح الجامع الصغير، برقم (١٦٤).

التَّقَرُّبُ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى بِإِرَاقَةِ الدِّمَاءِ فِي الْحَجِّ

٣٦- ﴿وَالْبُدْنَ جَعَلْنَاهَا لَكُم مِّنْ شَعَائِرِ اللَّهِ لَكُمْ فِيهَا خَيْرٌ فَاذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهَا صَوَافً فَإِذَا وَجِئَتْ جُنُوبُهَا فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطِيعُوا الْقَانِعَ وَالْمُعْتَرَّ كَذَلِكَ سَخَّرْنَاهَا لَكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٣٦﴾﴾
أي ومن جملة شعائر الله: البدن، فتعظم عند ذبحها، وتُستسمن وتُستحسن.

وهكذا، تحدثت الآية عن البدن، وقد خصها القرآن بالذكر؛ لأنها أضخم وأكبر ما يُذبح من أنواع الأنعام الثمانية، وهي الذكر والأنثى لكل من: الإبل، والبقر، والضأن، والمعز، وهي التي يكون بها الهدي، والتقرب إلى الله تعالى.

والبدن: اسم جنس يراد به العظيم السمين من الإبل والبقر؛ وسميت بذلك لضخامتها ولبدانتها، وقاسوا على الإبل، البقر، فهي أيضاً من البدن كما في حديث جابر بن عبد الله رضي الله عنه قال: نحرنا مع رسول الله ﷺ عام الحديبية البدنة عن سبعة، والبقرة عن سبعة^(١).

وفي رواية له قال: كنا نتمتع مع رسول الله ﷺ بالعمرة فنذبح البقرة عن سبعة نشترك فيها^(٢) فأفاد هذا صحة إطلاق البدنة على البقرة، وأنها تجزئ عن سبعة كالبعير.

﴿وَالْبُدْنَ جَعَلْنَاهَا لَكُم مِّنْ شَعَائِرِ اللَّهِ﴾ أعلام دين ﴿اللَّهُ﴾ ليتقربوا بها إلى الله تعالى، ﴿لَكُمْ فِيهَا خَيْرٌ﴾ في الدنيا بالمنافع، وفي الآخرة بالأجر والثوبة، منافع بالأكل منها والانتفاع بأصوافها وأوبارها وأشعارها.

فقولوا عند ذبحها، وعند أكل لحومها، والركوب عليها: باسم الله وعلى ملة رسول الله، باسم الله، الله أكبر. ولكم فيها خير في الآخرة بالصدقة والأجر والثوبة.

﴿فَاذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهَا صَوَافً﴾ أي: إذا أردتم ذبحها فاذبحوها وهي قائمة، قد صُفَّت قوائمها الثلاث وقُيِّدَت الرابعة. والأرجل الثلاث هي: رجلاها من الخلف واليمين من أمام، معقولة الرجل اليسرى وهي الرابعة.

عن ابن عمر رضي الله عنه أنه أتى على رجل قد أناخ بدنته ينحرها فقال له: ابعثها قياماً مقيدة،

(١)، (٢) «صحيح مسلم» برقم (١٣١٨).

سُنَّة أَبِي الْقَاسِمِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ^(١).

وعن جابر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وأصحابه كانوا ينحرون البدن معقولة اليسرى، قائمة على ما بقي من قوائمها ^(٢).

فإن هذه الذبائح خير للعبد في الدنيا بالانتفاع بألبانها ولحومها، وخير له في الآخرة بالأجر والثواب. فاذكروا اسم الله عليها عند ذبحها وهي قائمة، ﴿فَإِذَا وَجَبَتْ جُنُوبُهَا﴾، أي: سقطت ووقعت على الأرض بأن ذُبِحت وسُلِخت فقد حل أكلها ﴿فَكُلُوا مِنْهَا﴾ تعبداً، والأمر للإباحة.

﴿وَأَطْعِمُوا الْقَانِعَ وَالْمُعْتَرَّ﴾. القانع: هو الفقير الراضي بما عنده، المتعفف الذي لا يسأل الناس شيئاً. والمعتَرُّ: هو الذي يعرض نفسه للسؤال، أي: أطعموا منها السائل وغير السائل، فأحلَّ الله لكم ركوبها، وأكل لحومها، والانتفاع بأصوافها وأوبارها ﴿كَذَلِكَ سَخَرْنَاهَا لَكُمْ﴾ ومن هذا التسخير أن الطفل الصغير يسحبها فتكون منقادة له، وقد سخرها لكم ﴿لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ الله على تسخيرها لكم، ولولا ذلك لم يكن لكم بها طاقة، فكان هذا التسخير رحمة بكم فاحمدوا ربكم واشكروه.

وهذه البدن التي سخرها الله لنا هي الإبل، وألحق بها البقر والغنم، سميت هدياً بالنسبة لما يذبح منها في الحج، وسميت شعائر؛ لأنها معالم على الحج، وكانت تعلم للإشعار بأنها مسوقة للبيت.

كان عبد الله بن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا إذا أهدى هدياً من المدينة قلَّده وأشعره بذي الحليفة، وكان يقلَّده بنعلين، ويشعره بطعن في سنامه من الشق الأيسر ^(٣).

كما قال تعالى: ﴿يَتَأْتِيَ الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُحِلُّوا شَعَائِرَ اللَّهِ وَلَا الشَّهَرِ الْحَرَامَ وَلَا الْهَدْيَ وَلَا الْفَلَاحِيذَ وَلَا آمِينَ الْبَيْتِ الْحَرَامَ يَنْفَعُونَ فَضْلاً مِّن رَّبِّهِمْ وَرِضْوَاناً﴾ [المائدة: ٢].

واختلف الفقهاء في الأكل من لحوم الهدايا الواجبة:

(١) البخاري برقم (١٧١٣) ومسلم برقم (١٣٢٠).

(٢) «سنن أبي داود» برقم (١٧٦٧).

(٣) يُنْظَرُ: «موطأ الإمام مالك». وعن ابن عباس في صحيح أبي داود (١٥٤١) وهو في صحيح مسلم.

١- فقال مالك: يباح الأكل من لحوم الهدايا الواجبة، وهو عنده مستحب. ولا يؤكل من فدية الأذى، وجزاء الصيد، ونذر المساكين، والحجة لمالك صريح الآية فإنها عامة.

٢- وقال أبو حنيفة: يؤكل من هدي التمتع والقران.

٣- وقال الشافعي: لا يؤكل من لحوم الهدايا بحال.

٤- وقال أحمد: يؤكل من الهدايا الواجبة إلا جزاء الصيد والنذر.

الأضاحي: أما الأكل من لحوم الأضاحي فقد قال الفقهاء بثلاث الأضحية: يأكل الثلث، ويهدي الثلث لأرحامه وجيرانه وإن لم يكونوا فقراء، ويتصدق بالثلث على الفقراء والمساكين، وهذا التقسيم على وجه الاستحباب لا الوجوب.

وقد أكل النبي ﷺ من الأضحية وتصدق، وأعطى للمساكين من الأضحية التي ذبحها عن نفسه، وعن أهل بيته، والتي ذبحها عن أمته.

فقد صحَّ أن رسول الله ﷺ قال: «إني كنت نهيتكم عن ادخار لحوم الأضاحي فوق ثلاث، فكلوا وادخروا ما بدا لكم»^(١).

وفي رواية: «فكلوا وتصدقوا وادخروا»^(٢).

وفي رواية أخرى: «فكلوا وأطعموا وتصدقوا»^(٣).

ولفظ مسلم عن جابر «كلوا وتزودوا»

وعن أبي سعيد «كلوا وأطعموا واحبسوا وادخروا».

وهذه طائفة من الأحاديث تبين أحكام الأضحية:

١- في حديث أبي هريرة ؓ أن رسول الله ﷺ قال: «من كان له سعة، ولم يضحّ، فلا يقربن مصلانا»^(٤).

(١) يُنظر هذا المعنى من حديث بريدة بن الحصيب رضي الله عنه في «صحيح مسلم» برقم (٩٧٧) والمسند (٢٣٠٠٥) ومصنف عبد الرزاق (٦٧٠٨) والطبراني في الكبير (١١٥٢).

(٢) من حديث طويل عن عائشة كما في صحيح مسلم (١٩٧١) وصحيح أبي داود (٢٨١٢).

(٣) في مسلم (١٩٧٢) وعن أبي سعيد (١٩٧٣) من حديث جابر في «الموطأ» (٢/٢٨٢).

(٤) «صحيح سنن ابن ماجه» برقم (٢٥٣٢) بتحسين الألباني له، وفي تخريج مشكلة الفقر (١٠٢) وصحيح مسلم (١٩٧١) وهو في «المسند» (٢/٣٢١) و«المستدرک» (٢/٣٨٩) والبيهقي (٩/٢٦٠).

٢- وعن أنس رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ ضحّى بكبشين أملحين أقرنين، فسَمَّى وكَبَّرَ^(١).

٣- وفي حديث جابر بن عبد الله رضي الله عنه: أن رسول الله ﷺ صلى للناس يوم النحر، فلما فرغ من خطبته وصلاته دعا بكبش فذبحه هو بنفسه، وقال: «باسم الله، والله أكبر، اللهم هذا عني، وعمّن لم يُضَحَّ من أمتي»^(٢).

٤- وعن البراء بن عازب رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «إن أول ما نبدأ به في يومنا هذا نصلي، ثم نرجع فنتحر، فمن فعل ذلك فقد أصاب ستتنا، ومن ذبح قبل الصلاة فإنما هو لحم قدمه لأهله، ليس هو من النسك في شيء»^(٣).

٥- وعن شداد بن أوس رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «إن الله كتب الإحسان على كل شيء، فإذا قتلتم فأحسنوا القتلة، وإذا ذبحتم فأحسنوا الذبح، وليحد أحدكم شفرته، وليرح ذبيحته»^(٤).

وتجزئ الشاة الواحدة عن أهل البيت، والأضحية سنة مؤكدة عند الجمهور، وواجبة عند الأحناف، والمقصود من الذبح هو التعبد والاحتساب وصدق النية، وليس مجرد الذبح:

٣٧- ﴿لَنْ يَنَالَ^(٥) اللَّهُ لُحُومَهَا وَلَا دِمَآؤَهَا وَلَكِنَّ يَنَالُهُ^(٦) التَّقْوَى مِنْكُمْ كَذَلِكَ سَخَّرَهَا لَكُمْ لِشُكْرِ^(٧)كُمْ عَلَى مَا هَدَيْكُمْ^(٨) وَبَشِّرِ الْمُحْسِنِينَ ﴿٣٧﴾

وكان المشركون في الجاهلية إذا ذبحوا استقبلوا الكعبة بالدماء ينضحون بها الكعبة، فأراد المسلمون أن يفعلوا مثل ذلك، فأنزل الله تعالى هذه الآية^(٦).

وقال الحسن: كانوا يلطّخون بدماء القرابين، وكانوا يشرّحون لحوم الهدايا وينصبونها حول

(١) «المسند» (٢٤/١٠) «١١٩٦٠» بسناد صحيح على شرط الشيخين، والبخاري (٥٥٥٨) ومسلم (١٩٦٦) والنسائي (٤٣٩٧) وابن ماجه (٣١٢٠) وأبو يعلى (٣٠٧٦) والطيالسي (١٩٦٨) والدارمي (١٩٤٥).

(٢) «المسند» (١٣٤/٢٣) برقم (١٤٨٣٧) قال محققوه: صحيح لغيره وإسناده حسن، وأبو داود (٢٨١٠) والترمذي (١٥٢١) والحاكم (٢٢٩/٤) و«صحيح سنن أبي داود» (٢٤٣٦) وعبد بن حميد (١١٤٦).

(٣) «صحيح البخاري» برقم (٥٥٤٥) و«صحيح مسلم» برقم (١٩٦١) وهذا لفظه.

(٤) «صحيح مسلم» برقم (١٩٥٥).

(٥) قرأ يعقوب بقاء التأنيث في (ينال) و(يناله)، والباقون بياء التذكير؛ لأن الفاعل فيهما مؤنث مجازي.

(٦) ذكره السيوطي في «الدر المنثور» (٣٦٣/٤) من رواية ابن المنذر، وابن مردويه عن ابن عباس.

الكعبة قرباناً إلى الله تعالى، وهذه عقيدة وثنية قديمة، وللوثنيين في هذا توجهات عديدة:

(أ) فقد كانوا يرمون اللحم والطعام الذي يتقربون به، ولا يجعلون أحداً يأكله.

(ب) وكان أهل اليونان يشؤون لحم القرابين على النار، حتى تصير رماداً، ويتوهمون أن رائحة الشواء، تسرُّ الآلهة المتقرب إليها بهذه القرابين.

(ت) وكان المصريون يُلقون الطعام للتماشيح في نهر النيل؛ لأنها مقدسة عندهم، وقد حرم الإسلام كل ما كان من هذا القبيل.

فبيّن سبحانه أن الإخلاص في عبادة الذبح، بأن تكون الذبيحة لله وحده، ويذكر اسم الله عليها عند الذبح، والتصدق ببعضها على المحتاجين، وهذا ونحوه من التقوى التي تُرفع إلى الله تعالى؛ ليشيكم ويجازيكم عليها.

والمعنى: إن لحوم الهدايا والأضاحي ودماءها لا تُرفع إلى الله تعالى، ولا يُرفع إليه إلا العمل الصالح الذي يراد به وجهه سبحانه، كما قال تعالى: ﴿لَنْ نَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ﴾ [آل عمران: ٩٢]. فإراقة الدماء، وتقطيع اللحوم ليست مقصودة بذاتها للتعبد، وإنما هي وسيلة لنفع الفقراء والمحتاجين، ونفعكم أنتم أيضاً بالأكل منها، ولذلك نهى الله سبحانه المسلمين عن تقليد المشركين فيما كانوا يفعلونه، وبيّن جلّ شأنه أن اللحم والدم لا يُرفع إلى الله سبحانه، وأن الذي يُرفع إليه هو العمل الصالح والتقوى.

وإن الله تعالى لا يصل إليه شيء من الذبائح، وإنما يصل إليه التقوى منكم، لذلك شرعها لكم؛ لتكبروا الله عند ذبحها، وتشكروه على ما هداكم للحق، وذلّلها لكم أيها المتقون؛ لتكبروا الله عند ذبحها، وتعظموه، وتثنوا عليه سبحانه.

وفي ختام الآية أمر الله تعالى نبيه ﷺ أن يزف البشرى لعباده المحسنين في عبادتهم لله تعالى، والمحسنين إلى خلق الله بكل خير وعون، وأخذ من هذه الآية مشروعية التكبير في عيد الأضحى إلى نهاية أيام التشريق، كما شرع التكبير في عيد الفطر من قوله تعالى: ﴿وَلِتُكَبِّرُوا اللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَاكُمْ﴾ [البقرة: ١٨٥].

الإِسْلَامُ يَنْهَى عَنِ الْغَدْرِ وَالْخِيَانَةِ

٣٨- ﴿إِنَّ اللَّهَ يَدْفَعُ^(١) عَنِ الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٍ كَفُورٍ﴾

نزلت هذه الآية لما كثُر المسلمون بمكة، واشتد إيذاء الكفار لهم، وهاجر بعضهم إلى الحبشة، وأراد بعض المسلمين أن يقتل ما أمكنه من الكفار، فيغتال من يشاء ويغدر بمن يشاء، فنهاهم الله تعالى عن هذا، وطمأنهم بأنه يدفع عنهم السوء ويكفيهم شر أعدائهم، ولذا ختم الله ببيان أنه لا يحب كل خوان كفور.

ففي هذه الآية إخبار ووعد وبشارة من الله تعالى بأنه سبحانه يدفع عنهم كل مكروه، ويكفيهم شر عدوهم، وشر الشيطان، وشرور أنفسهم وسيئات أعمالهم، ويحمل عنهم عند نزول المكاره ما لا يتحملوه.

والمسلمون في مكة كانوا ضعفاء، ينالهم الأذى الشديد من المشركين، وكانوا يشتكون إلى النبي ﷺ ويأتون إليه بين مشجوج ومضروب ومجروح، فيأمرهم عليه الصلاة والسلام بالصبر، ويقول لهم: «إني لم أؤمر بقتال».

ولما أسلم أكثر من سبعين من الأنصار، وجأوا يبايعون النبي ﷺ عند العقبة، قالوا: يا رسول الله، ألا نذهب إلى مكة نقاتلهم؟ قال: «إني لم أؤمر بذلك»، ونزل في مكة أكثر من سبعين آية تنهى النبي ﷺ عن القتال في الفترة المكية.

وقبل الإذن بالجهاد طمأن الله سبحانه المؤمنين، وبيّن لهم أن عليهم أن يدفعوا عن أنفسهم، ويأخذوا بالأسباب المشروعة في قتال العدو دون غدر ولا عدوان، وأنه جل شأنه سيتولى الدفاع عنهم، ويتولى حمايتهم، فقال في هذه الآية: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَدْفَعُ عَنِ الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ وفي القراءة الأخرى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَدْفَعُ عَنِ الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ أي: يدفع عن الذين آمنوا غائلة المشركين وشرهم وبأسهم، وبيّن سبحانه أن الكفار خونة، خانوا الله والرسول، وجحدوا نعمته وكفروا به، والله سبحانه كافٍ عبده، وهو لا يحب الخائن الجحود،

(١) قرأ ابن كثير وأبو عمرو ويعقوب (يَدْفَعُ) بفتح الياء وسكون الدال وحذف الألف وفتح الفاء، مضارع دفع، وقرأ الباقون (بدافع) بضم الياء وفتح الدال بعدها ألف وكسر الفاء، مضارع دافع؛ للمبالغة في الدفع عن المؤمنين.

ومفهوم الآية أن الله تعالى يحب كل أمين شكور، ومن يأخذ بالأسباب ويتوكل على الله، فإن الله تعالى كافيه وناصره.

وفي الآية تقوية لعزائم المؤمنين حتى يقبلوا على الجهاد في سبيل الله بثبات وأمل كبير في نصر الله وتأييده، فإن دفاع الله عن المؤمنين لمحبتة لهم وبغض أعدائهم.

الإِذْنُ بِالْقِتَالِ لِرَدِّ الْعُدْوَانِ

٣٩- ﴿أُذِنَ^(١) لِلَّذِينَ يُقْتَلُونَ^(٢) بِأَنَّهُمْ ظَلَمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ ﴿٣٩﴾﴾

إن تأمين الطريق إلى الحج، وتأمين حرية الدعوة وانتشار الإسلام، وحماية المسلمين من الذين يصدونهم عن سبيل الله وعن المسجد الحرام، والدفاع عن النفس والمال والعرض، ونصرة المستضعفين، كل ذلك يحتاج إلى قوة، وإلى جهاد في سبيل الله.

ولما اشتدَّ ساعد المسلمين، وهاجر النبي ﷺ إلى المدينة، تكونت دولة الإسلام، فنزلت أول آية فيها الإذن للمؤمنين بالدفاع عن أنفسهم، وقد نزل الأمر بالقتال على وجه التدرج؛ لأن القتال شاقٌّ على النفس؛ لما فيه من احتمال الموت، كما قال تعالى: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهُ لَكُمْ﴾ [البقرة: ٢١٦].

وقد ذكر الله سبحانه قومًا فقال: ﴿وَقَالُوا رَبَّنَا لِمَ كُتِبَ عَلَيْنَا الْقِتَالُ لَوْلَا أَخَّرْنَا إِلَىٰ أَجَلٍ قَرِيبٍ﴾ [النساء: ٧٧].

وكانت أول آية نزلت تأمر المسلمين بالدفاع عن أنفسهم موصولة بالحج في الآيات قبلها؛ لبيان مشروعية القتال دفاعًا عن النفس، إنهم يدفعون عن أنفسهم الظلم إذ ليس لهم من جريرة ولا ذنب، إلا أنهم قالوا: ربنا الله، ولذا كانت مشروعية بدء الإذن في الجهاد للمسلمين، وأنها كانت بسبب أنهم ظلموا وأخرجوا من ديارهم وأموالهم.

(١) قرأ نافع وأبو عمرو وعاصم وأبو جعفر ويعقوب وإدريس بخلف عنه بضم همزة (أُذِنَ) مبني للمجهول، (الذين) نائب فاعل، والباقون بفتح الهمزة، مبني للمعلوم، والفاعل ضمير يعود على الله تعالى.

(٢) قرأ نافع وابن عامر وحفص وأبو جعفر بفتح التاء من (يقتلون) مبني للمجهول والواو نائب فاعل، والباقون بكسرها مبني للمعلوم والواو فاعل، والمفعول محذوف، أي: يقاتلون المشركين.

قال ابن عباس رضي الله عنه: لما أخرج رسول الله من مكة قال أبو بكر: إذا والله لنهلكن، فأنزل الله تعالى: ﴿أَذِّنْ لِلَّذِينَ يُقَتِّلُونَ﴾ قال أبو بكر: فعرفت أنه سيكون قتال وقال ابن عباس: هي أول آية نزلت في القتال^(١).

لقد كان المسلمون في أول أمرهم ممنوعين من قتال الكفار، مأمورين بالصبر على أذاهم، بأن قيل لهم ﴿كُفُّوا أَيْدِيَكُمْ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ﴾ [النساء: ٧٧]، فلما بلغ أذى المشركين مداه، وخرج النبي ﷺ مهاجرًا إلى المدينة، وأصبحت للإسلام قوة وشوكة، أذن الله للمسلمين في القتال بسبب ما وقع عليهم من الظلم والعدوان، ثم طمأنهم بأن نصر الله آتٍ لا محالة، فقال: ﴿وَلِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ﴾.

فهو سبحانه قادر على أن ينصرهم، ويخذل عدوهم من غير حرب ولا قتال، كما قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّا نَصْرُكُمْ وَلَيَبْلُوَنَّكُمْ أَقْدَامَكُمْ﴾ [محمد: ٧].

وقال: ﴿وَلَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَانْتَصَرَ مِنْهُمْ﴾ [محمد: ٤] أي: من غير حرب ولا قتال، بل ينتزل عليهم النصر سهلاً هيناً بلا عناء لمجرد أنهم مسلمون.

ولكن الله تعالى ربط الأسباب بالمسببات، والنتائج بالمقدمات، وشرع الجهاد لتمحيص المسلمين واتخاذ الشهداء منهم.

١- كما قال تعالى: ﴿وَلَكِنْ لِّيَبْلُوَ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ﴾ [محمد: ٤].

٢- وقال: ﴿وَلِيَبْلُوَكُمْ حَتَّىٰ تَعْلَمَ الْمُجَاهِدِينَ مِنْكُمْ وَالصَّادِقِينَ وَيَبْلُوَ أَخْبَارَكُمْ﴾ [محمد: ٦١].

٣- وقال: ﴿وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَتَّخِذَ مِنْكُمْ شُهَدَاءَ﴾ [آل عمران: ١٤٠].

٤- وقال: ﴿وَالَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَلَن يُضِلَّ أَعْمَالَهُمْ﴾ [محمد: ٤].

وقد مرَّ الجهاد في الإسلام بثلاث مراحل:

المرحلة الأولى: مجرد الإذن في القتال لدفع الصائل: وهذه أول آية نزلت تأذن بالقتال لدفع الظلم، ورد العدوان لمن يصلح منهم للقتال، واستثنى القرآن الكريم الأعمى،

(١) «سنن الترمذي» برقم (٣١٧١) والنيسابوري ص ٢٦٠ و«صحيح سنن الترمذي» (٢٥٢٥) والنسائي

(٣٠٨٥) ومسنند أحمد (١٨٦٥) بإسناد صحيح على شرط الشيخين، (محققوه) وابن حبان (٤٧١٠)

والحاكم (٧/٣) والطبراني (١٢٣٣٦).

والأعرج، والمريض، والضعيف، والعاجز عن السفر، والعاجز عن الأخذ بأساليب القتال، قال تعالى: ﴿لَيْسَ عَلَى الْأَعْمَى حَرْجٌ﴾ أي: في التخلف عن الجهاد ﴿وَلَا عَلَى الْأَعْرَجِ حَرْجٌ وَلَا عَلَى الْمَرِيضِ حَرْجٌ﴾ [الفتح: ١٧].

وقال سبحانه: ﴿لَيْسَ عَلَى الضُّعَفَاءِ وَلَا عَلَى الْمَرْضَى وَلَا عَلَى الَّذِينَ لَا يَحْدُونَ مَا يُنْفِقُونَ حَرْجٌ إِذَا نَصَحُوا لِلَّهِ وَرَسُولِهِ﴾ [التوبة: ٩١].

المرحلة الثانية: قتال من قاتل: وبعد الإذن بالقتال جاء الأمر بوجوبه بشروط ثلاثة هي:

الشرط الأول: أن يكون القتال في سبيل الله، لا لِحِمَّةٍ، ولا لعصية، ولا شجاعة ولا رياء، وإنما لنشر الدعوة، وتوسيع رقعة الإسلام، ورفع رايته.

الشرط الثاني: أن نقاتل من قاتلنا، ولا نتعرض لمن لم يقاتلنا، فإن قاتلنا نساء اليهود أو النصارى وهن مقاتلات حاملات للسلاح فإنهنَّ يُقاتَلْنَ، أما غير المقاتلات وغير المقاتلين من الشيوخ والصبيان والعجزة والرهبان والفلاحين فلا نقاتلهم.

الشرط الثالث: عدم البدء بعدوان، ويجمع هذه الشروط الثلاثة قوله تعالى: ﴿وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ﴾ [البقرة: ١٩٠].

المرحلة الثالثة: قتال من وقف في وجه الدعوة:

ثم إذا تماهأ أعداء الإسلام على الإسلام، فقد أمر الله تعالى بقتالهم جميعاً إذا قاتلونا جميعاً، فقال: ﴿وَقَاتِلُوا الْمُشْرِكِينَ كَافَّةً كَمَا يُقَاتِلُونَكُمْ كَافَّةً﴾ [التوبة: ٣٦].

وهذه الآية ناطقة بأن قتال عموم المشركين مشروط بما إذا قاتل المشركون عموم المسلمين، فقاتلوهم كافة إذا قاتلوكم كافة، وقال تعالى: ﴿فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ﴾ [التوبة: ٥]. وهذه الآية لتعقب المشركين في جزيرة العرب وقتالهم والترصد لهم في كل مكان، وحبسهم ومحاصرتهم، وذلك في حالة ما إذا نقضوا عهودهم، ونكثوا موافقهم مع المسلمين، وهذا هو مقتضى سياق الآية التي أولها ﴿فَإِذَا أَسْلَخَ الْأَشْهُرَ الْحُرُمَ﴾ وهي المدة التي أعطاهها الإسلام لهم مهلة للدخول في الإسلام، أو لكف أذاهم وعدم الوقوف في وجه الدعوة والحيلولة دون انتشارها.

وتجدر الإشارة إلى أن المراد بالمشركين في الآيتين: هم الوثنيون من عبَاد الأوثان

والأصنام، أو الجن، أو الكواكب، ونحو ذلك.

مَتَى يُقَاتِلُ أَهْلَ الْكِتَابِ؟

أما أهل الكتاب فلمهم آية أخرى تأمر بقتالهم في قوله تعالى: ﴿فَقَاتِلُوا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حَتَّى يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَنْ يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ﴾ [التوبة].

وهذا بالنسبة لأهل الكتاب غير المقيمين في بلاد المسلمين، فالإسلام لا يجبرهم على الدخول في الإسلام.

وإن كانوا من أهل جنسية البلد التي يعيشون فيها وينخرطون في جيشه، ويدفعون العدو عنها مع المسلمين، فلا جزية عليهم.

فإن لم يشتركوا في تحقيق الأمن للبلاد والأوطان فعليهم أن يدفعوا ما يُشبه الضريبة وهي الجزية مقابل حماية المسلمين لهم والدفاع عن الأرض التي يقيمون عليها، وتحقيق الأمن والأمان لهم، وتمتعهم بالمرافق العامة، كما يدفع المسلم الزكاة والضرائب.

ولفظ الشرك والكفر، يطلق على عبدة الأوثان، كما يطلق على من قالوا: عزيز ابن الله، والمسيح ابن الله، ولفظ الكفر يطلق على من لم يؤمن بوجود الله تعالى، وعلى من آمن بالله، ولكنه أشرك معه غيره في عبادته، فهو غير مؤمن بوحدانية الله تعالى، ويطلق أيضاً على من آمن بالله تعالى ولكنه جحد رسالة محمد ﷺ ولم يؤمن بها، فهو كافر بهذا المعنى.

وتعاليم الإسلام في البلدة التي يفتحها المسلمون تقضي بأن يبدأ المسلمون بدعوة أهلها للإسلام، فإن استجابوا فالحمد لله، وإن لم يستجيبوا وهم أهل كتاب يقيموا في ديار المسلمين، ويتنفعوا بمرافقها العامة، ويتمتعوا بأمن بلادها، ولهم ما للمسلمين من حقوق، وعليهم ما على المسلمين من واجبات، والمسلمون يدفعون زكاة أموالهم، فعليهم أن يدفعوا الجزية مقابل تمتعهم بحماية المسلمين لهم والانتفاع بالخدمات المشتركة، فإن أبوا دفع الجزية، ووقفوا حائلاً في وجه نشر الدعوة الإسلامية، فمنعوا وصولها للناس، ففي هذه الحالة يقاتلون، قال تعالى ﴿وَلَوْ لَا دَفَعُ اللَّهُ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَفَسَدَتِ الْأَرْضُ﴾ [البقرة: ٢٥١] ثم بين سبحانه سبب أمر المسلمين بقتال غيرهم فقال:

٤٠- ﴿الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّا أَنْ يَقُولُوا رَبُّنَا اللَّهُ وَلَوْلَا دَفْعُ^(١) اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَفَدَّمَتْ^(٢) صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيرًا وَلَيَنْصُرَنَّ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴿٤٠﴾

ثم بيّن ﷺ فضله على أهل مكة وغيرهم من المسلمين المضطهدين في كل زمان ومكان، ممن أُخرجوا من ديارهم بغير حق، فبيّن سبحانه أن الذين أُلجئوا إلى الخروج من ديارهم لا لشيء فعلوه، إلا لأنهم أسلموا وقالوا: ربنا الله وحده، ﴿وَمَا نَقَمُوا مِنْهُمْ إِلَّا أَنْ يُؤْمِنُوا بِاللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ﴾ [البروج: ٨] وهذا الإيمان ليس فيه اعتداء على أحد؛ فإيمانهم يخصهم، وليس فيه ضرر لغيرهم، ومن هنا فإن دفاعهم عن أنفسهم أمر مشروع.

ولولا ما شرعه الله من الجهاد، وأمره به كل نبي وكل رسول وكل أمة؛ لدفع الظلم والباطل، بالقتال، لولا هذا لاستولى غير المسلمين على المؤمنين في كل مكان وزمان، وهزموا الحق، وخربوا الأرض، وعطلوا أماكن العبادة وهدموها.

وهذا يدل على حكمة الجهاد، وأن المقصود منه هو إقامة الدين ورد العدوان.

والصوامع أماكن خاصة لعبادة رهبان النصارى.

والصومعة: بناء مرتفع لعبادة الراهب، وقيل: هي لعبادة الصابئين.

والبيع: هي الكنائس العامة للنصارى.

﴿وَصَلَوَاتٌ﴾ هي معابد اليهود ﴿وَمَسَاجِدُ﴾ المسلمين.

وأخر ذكر المساجد؛ لأنها أعم، وشأن العموم أن يعقب الخصوص.

أي: ولولا مشروعية الجهاد في كل أمة لهدمت المعابد في زمن موسى، وهدمت الكنائس في زمن عيسى، وهدمت المساجد في زمن محمد صلوات الله عليهم أجمعين،

(١) قرأ نافع وأبو جعفر ويعقوب (ولولا دَفَاعُ) مصدر دفع أو دافع، والباقون (ولولا دَفْعُ) مصدر دفع.

(٢) قرأ نافع وابن كثير وأبو جعفر بتخفيف الدال من (لهدمت)، فعل ثلاثي مجرد، والباقون بتشديدها، فعل مضارع العين؛ للمبالغة في التهديم، وأدغم التاء من (لهدمت) في صاد (صوامع) أبو عمرو وابن عامر بخلف عن هشام، وحمزة والكسائي وخلف، وأظهرها الباقر.

ودور العبادة هذه ﴿يُذَكِّرُ فِيهَا أَسْمُ اللَّهِ كَثِيرًا﴾ ولا يَعْرِفُ ذكر الله تعالى إلا أهل الشرائع، ولذا لم تذكر الآية أسماء أصنام أهل الشرك.

ويصح أن يكون المعنى: ولولا ما شرعه الله للأنبياء من قتال الأعداء لتجاوزَ المشركون مواضع العبادات واعتدوا على ما يجاور بلادهم، ولهدموا معابدهم بقصد محو دعوة الرسل ومعالم التوحيد، فالجهاد أمر متقدم في الأمم، وبه صلحت الشرائع.

المستحقون لنصر الله تعالى:

ثم ذكر ﷺ مَنْ وعدهم الله بالنصر، وشروط هذا النصر، فقال: ﴿وَلَيَنْصُرَنَّ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ﴾ أي: ومن اجتهد في نصر دين الله، فإن الله ناصره على عدوه، فقد أمر الله المسلمين بالدفاع عن دينهم، وضمن لهم النصر في ذلك الدفاع؛ لأنهم بدفاعهم عن دينهم وحسن إيمانهم ينصرون دين الله، فكأنهم نصرُوا الله، ومن بيده النصر ﷺ قادر عليه بالقوة والعزة والغلبة ﴿إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ﴾ لا يغالب ﴿عَزِيزٌ﴾ لا يرام، قد قهر العباد وأخذ بنواصيهم. قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِإِِبَادِنَا الرِّسَالَيْنِ﴾ ﴿١٧٦﴾ إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنْصُورُونَ ﴿١٧٧﴾ وَإِنَّ جُنَدَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ ﴿١٧٨﴾ [الصافات].

وقال سبحانه: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِن نُّصِرُوا اللَّهُ يَنْصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ﴾ [محمد: ٧]

وقال سبحانه: ﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا﴾ [النور: ٥٥].

أما شروط هذا النصر، فهو ثلاثة شروط ذكرتها هذه الآية:

٤١- ﴿الَّذِينَ إِنْ مَكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَءَاتَوْا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ﴾ ﴿٤١﴾.

أي: إن الذين يستحقون النصر على عدوهم هم الذين ينصرون دين الله تعالى بإقامة هذه الشروط الثلاثة المذكورة في الآية، والتي إذا تحققت فيهم جعل الله لهم الولاية والسيادة على الأرض، واستخلفهم فيها حكامًا ومحكومين، لأنهم أخذوا بأسباب النصر المادية فإن النتائج لا بد لها من مقدمات:

الشرط الأول: إقامة الصلاة ﴿الَّذِينَ إِن مَّكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ﴾ أي: أدوها تامة في أوقاتها، مع المحافظة على شروطها وأركانها، فهي دواء لكل داء، وهي تجديد مستمر للإسلام؛ لأنها الصلة بين العبد وربّه، ومن ضيعها كان لما سواها أضيع، ولأنها تنهى عن الفحشاء والمنكر، وتجدد العلاقة خمس مرات في اليوم واللييلة بين العباد وربهم.

الشرط الثاني: ﴿وَأَتُوا الزَّكَاةَ﴾ أي أدوها لمستحقيها؛ لكفاية المجتمع، وإقامة الروابط بين الغني والفقير، وتطهير المال ونمائه، ووقاية للنفس من الشحّ والبخل.

الشرط الثالث: ﴿وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ﴾ وإذا توقف معرفتهما على التعليم وجب القيام بذلك، وإذا توقف العمل بهما على التأديب وجب ذلك، فالأمة الإسلامية إذا تعطل فيها الأمر بالمعروف، وتعطل فيها النهي عن المنكر، وكان المنكر ظاهرًا معلنًا يُرتكب عيانًا، فهذه الأمة غير جديرة بنصر الله سبحانه، وغير مؤهلة للتمكين لها في الأرض، لأنها غير مطبوعة بالطابع الإسلامي.

أخرج الطبري بسند حسن عن أبي العالية قال: كان أمرهم بالمعروف أنهم دعوا إلى الإخلاص لله وحده لا شريك له، ونهّيهم عن المنكر أنهم نهوا عن عبادة الأوثان وعبادة الشيطان، قال: فمن دعا إلى الله من الناس كلهم فقد أمر بالمعروف، ومن نهى عن عبادة الأوثان وعبادة الشيطان فقد نهى عن المنكر.

والآية عامة في كل من مكّن الله لهم في الأرض، أن يقوموا بالعهد الذي أخذه عليهم في هذه الآية، فإن وفّوا به فهم جديرون بنصر الله لهم، قال تعالى: ﴿إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ ءَامَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ﴾ [غافر].

وقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِن تَصُورُوا اللَّهَ يَصْرُكُمُ وَيَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ﴾ [محمد].

والمعروف: كل ما هو معلوم من الدين بالضرورة، من الأحكام المتفق عليها، ويعلمها كل مسلم.

والمُنكر: كل ما لا يرضاه الله ورسوله من الأقوال والأفعال الظاهرة المخالفة لأحكام الشريعة.

فهذه الشروط الثلاثة أسس الخير، ودعائم الإصلاح، وما فرطت أمة في واحدة منها إلا ذلت، فإقامة صلاة الظهر مثلاً مسؤولية الأمة في دواوين الحكومة وسائر المؤسسات، يتقدمها المسؤول الأول فيها.

وجمع الزكاة من رعايا الدولة، وتوزيعها على المستحقين مسؤولية الأمة أيضًا.

وإيجاد المظهر الإسلامي في الشارع العام مسؤولية الدولة، وهكذا.

ومرجع الأمر في النهاية إلى الله تعالى ﴿وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ﴾ فإليه وحده مصير الأمور، والعاقبة للتقوى، فمن وَلِيَ أمر المسلمين وقام بأمر الله وعدله فيهم، فعاقبته محمودة، ومن أقام فيهم هوى نفسه كانت عاقبته ممقوتة.

من أسباب تأخر النصر:

١- هذا: وقد يتأخر نصر المسلمين؛ لكونهم غير مؤهلين للنصر في الوقت الحاضر لسبب من الأسباب، حتى تحشد الأمة طاقاتها، تُجند كل قواها، وتستعين بمن تشاء، بعد عودتها إلى الله تعالى وبعد الأخذ الجيد بأسباب النصر المعنوية والمادية.

٢- وقد يتأخر نصر الله للمسلمين حتى يشتد اتصالهم بالله ﷻ، ويتفقدوا جوانب التقصير في حق الله سبحانه، لتقوى الروابط والعلاقة بينهم وبين ربهم.

٣- وقد يتأخر النصر حتى يقاتل المسلمون في سبيل الله؛ لإعلاء كلمة الله، ويبدلوا كل غال ونفيس من أموالهم وأنفسهم؛ لرفع راية الإسلام، لا لعصية ولا لحماية، ولا رياء ولا شجاعة أو سمعة، ونحو ذلك.

٤- وقد يتأخر النصر على المسلمين حتى يتم الولاء والبراء لله تعالى، وليعلموا أن القوة بغير سند من الله سبحانه لا تؤدي إلى النصر، وإن كانت تعتمد على الشرق أو الغرب؛ فإن هذا لا يغني عنهم من الله شيئاً، ولا بد لهم من الاتصال بالله وحده، والاعتماد على أنفسهم بالاكْتفاء الذاتي في التصنيع الحربي والاقتصاد الوطني.

٥- وقد يكون المانع من النصر في زمن من الأزمان، أو في وقت من الأوقات -يعود لعدم الأخذ بأسباب النصر المادية بما يضارع قوة العدو.

والناظر في أحوال المسلمين يجد أن هذا حاصل لا محالة، وأن نقص الإيمان مع عدم الأخذ بالأسباب هو سبب تأخر النصر.

فالله تعالى لا يعطي النصر للمسلمين سهلاً بدون قتال، وبدون أخذ بالأسباب المادية

والمعنوية؛ لأن الأمة في هذه الحالة تكون غير مؤهلة لطلب النصر من الله تعالى.

ولكي تكون الأمة جديرة بنصر الله لها، وجديرة بالتمكين لها في الأرض بعد النصر، لابد لأهلها أن يقيموا الصلاة، ويؤتوا الزكاة، ويأمروا بالمعروف، وينهوا عن المنكر. وإلى جانب التعبئة الروحية المستمرة لابد من الإعداد المادي بالقوة العسكرية، على أحدث ما توصل إليه البشر جواً وبراً وبحراً؛ حتى يتأهلوا للنصر على العدو، وحتى تنضج الأمة، وتكتمل قواها المعنوية والمادية؛ لتكون جديرة بنصر الله ﷻ؛ إذ لا وعْد بالنصر لمن لم يكن من حزب الله ولا من أوليائه، فَمَثَلُهُمْ فِي هَذِهِ الْحَالَةِ كَمَثَلِ الْعَامِلِ الَّذِي يُطْلَبُ الْأَجْرَةُ دُونَ أَنْ يَقُومَ بِالْعَمَلِ.

وقد نصر الله تعالى الخلفاء الراشدين على أعدائهم؛ لأنهم نصروا دين الله، فمَكَّنَ الله لهم واستخلفهم في الأرض، وهكذا كل من قام بنصر دين الله على الوجه الأكمل، قال تعالى: ﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا أُسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا﴾ [النور: ٥٥].

سَبْعٌ مِنَ الْأُمَمِ كَذَبُوا سَبْعَةً مِنَ الرُّسُلِ

٤٢، ٤٣ - ﴿وَإِنْ يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَثَمُودٌ﴾ (١) ﴿وَقَوْمُ إِبْرَاهِيمَ وَقَوْمُ لُوطٍ﴾ (٢)

وبعد الإذن بالجهاد، ووعد الله للمؤمنين بالنصر والتمكين لهم في الأرض إذا حققوا منهج الله في أرضه، أخذ ﷺ يُطمئن رسوله ﷺ إلى نصرة أوليائه وخُذْلَانِ أعدائه، وما على المكذبين المخالفين إلا التأمل في مصارع الغابرين، وسنة الله في خلقه لا تتخلف.

والمكذبون بدعوة النبي ﷺ موجودون في كل وقت، وإلى أن تقوم الساعة، سواء أكانوا من أهل الكتاب: اليهود والنصارى، أم كانوا من غيرهم كالهندوس، والبوذيين، واللادينيين.

وقبل محمد ﷺ كثير من الأمم كذبوا رسلهم، كما قال تعالى: ﴿مَا يُقَالُ لَكَ إِلَّا مَا قَدْ

(١) قوله تعالى وعاد وثمود لم يعدها آية، الشامي، وعدها غيره.

(٢) لم يعد الشامي والبصري (وقوم لوط) آية، وعدها غيرهما.

قِيلَ لِلرُّسُلِ مِنْ قَبْلِكَ ﴿٤٣﴾ [فصلت: ٤٣].

وقال سبحانه: ﴿كَذَلِكَ مَا أَتَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا قَالُوا سَاحِرٌ أَوْ مُجُنٌّ ﴿٥٢﴾﴾ [الذاريات: ٥٢].

فالله ﷻ يسلي رسوله صلوات الله وسلامه عليه، ويقول له: اصبر ولا تحزن، فليس هذا التكذيب لك وحدك، وليس هذا شأنك فحسب، إنما هو شأن جميع الرسل من قبلك.

وفي هذه الآية والآيتين بعدها ذكر الله ﷻ أسماء سبع من الأمم كذبوا سبعة من رسل الله، وهم ﴿قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَثَمُودٌ﴾

١- وقوم نوح هم أول أمة كذبت نبيها، وقد جاء هذا التكذيب في آيات كثيرة، منها قوله تعالى: ﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ الْمُرْسَلِينَ ﴿١٥﴾﴾ [الشعراء: ١٥].

٢- أما تكذيب قوم عاد لنبيهم هودا فقد جاء في مثل قوله تعالى ﴿كَذَّبَتْ عَادُ الْمُرْسَلِينَ ﴿١٣﴾﴾ [الشعراء: ١٣].

٣- وقوم ثمود كذبوا نبيهم صالحا: ﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ الْمُرْسَلِينَ ﴿٦١﴾﴾ [الشعراء: ٦١].
والقرآن الكريم يعبر بصيغة الجمع؛ لأن من كذب رسولا واحدا فقد كذب جميع الرسل.

٤- أما تكذيب قوم إبراهيم ﷺ له فقد جاء في مثل قوله تعالى حكاية عن قومه: ﴿قَالُوا حَرِّقُوهُ وَانصُرُوا آلِهَتَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ فَاعِلِينَ ﴿٦٨﴾﴾ [الأنبياء: ٦٨].

وقوله: ﴿فَمَا كَانَتْ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قَالُوا اقْتُلُوهُ أَوْ حَرِّقُوهُ﴾ [العنكبوت: ٢٤].

٥- وقوم إبراهيم أقرب شبيها بمشركي قريش الذين كذبوا رسولهم، وآذوه، وألجؤوه إلى الخروج من موطنه، فقال: ﴿إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَى رَبِّي سَيِّدِينَ﴾

وجاء تكذيب قوم لوط ﷺ له في مثل قوله تعالى: ﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ الْمُرْسَلِينَ ﴿٦٦﴾﴾ [الشعراء: ٦٦]. وقولهم: ﴿أَخْرِجُوا آلَ لُوطٍ مِنْ قَرْيَتِكُمْ﴾ [النمل: ٥٦].

هؤلاء خمسة من رسل الله في آية واحدة، وفي الآية التالية رسولان:

٤٤- ﴿وَأَصْحَابُ مَدْيَنَ وَكُذِّبَ مُوسَى فَأَمَلَيْتُ لِلْكَافِرِينَ ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرٌ ﴿١﴾﴾

٦- وقد جاء تكذيب قوم مدين لنبيهم شعيبا ﷺ في مثل قوله تعالى حكاية عنهم:

(١) قرأ ورش بإثبات الياء وصلّا وحذفها وقفاً من (نكير) ويعقوب بإثباتها في الحالين، والباقون بحذفها في الحالين.

﴿قَالُوا يَشْعَبُ أَصْلَؤُكَ تَأْمُرُكَ أَنْ نَتْرَكَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا أَوْ أَنْ نَفْعَلَ فِي أَمْوَالِنَا مَا نَشَاءُ إِنَّكَ لَأَنْتَ الْحَلِيمُ الرَّشِيدُ﴾ [هود].

وقوله تعالى: ﴿قَالُوا يَشْعَبُ مَا نَفَقَهُ كَثِيرًا وَمَا تَقُولُ وَإِنَّا لَنَرُكَ فِيْنَا ضَعِيفًا وَلَوْلَا رَهْطُكَ لَرَجَمْنَاكَ﴾ [هود: ٩١].

وتكذيب أصحاب الأيكة لنبهم شعيباً ﷺ جاء في مثل قوله تعالى: ﴿كَذَبَ أَصْحَابُ نَيْكَةِ الْمُرْسَلِينَ﴾ [الشعراء].

٧- وأما تكذيب فرعون وملئه لموسى ﷺ فقد جاء في مثل قوله تعالى حكاية عنهم: ﴿وَقَالُوا مَهْمَا تَأْتِنَا بِهِ مِنْ آيَةٍ لِنَسْحَرَنَّ بِهَا فَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ﴾ [الأعراف].

وقال تعالى على لسان فرعون: ﴿إِنِّي لَأَظُنُّكَ يَمُوسَىٰ مَسْحُورًا﴾ [الإسراء: ١٠١].
فهؤلاء سبعة أقوام كذبوا رسلهم:

- ١- قوم نوح كذبوا نبهم نوحًا.
- ٢- وقوم عاد كذبوا نبهم هودًا.
- ٣- وقوم ثمود كذبوا نبهم صالحًا.
- ٤- وقوم إبراهيم كذبوا نبهم إبراهيم.
- ٥- وقوم لوط كذبوا نبهم لوطًا.

٦- وأصحاب مدين كذبوا شعيبًا، وكذلك أصحاب الأيكة، إلا أن قوم مدين هم قوم شعيب، فهو منهم، أخ لهم، بخلاف أصحاب الأيكة فليس منهم، وقوم مدين كانوا أسبق من أصحاب الأيكة في التكذيب، وكانت رسالة شعيب إليهما معًا.

وجاء ذكر موسى بهذه العبارة ﴿وَكُذِّبَ مُوسَىٰ﴾ ولم يقل قوم موسى؛ لأن الذين كذبوا موسى هم فرعون وقومه، وآمن به بنو إسرائيل، فجميع القوم لم يكذبوا موسى، بل كذبه فرعون وملؤه، مع وضوح الأدلة، والآيات الظاهرات، والمعجزات البينات التي جاء بها موسى من عند ربه.

قال سبحانه: ﴿فَأَمَلَيْتُ لِلْكَافِرِينَ﴾ أي: أمهلت هؤلاء الأمم جميعًا، فأخرت نزول العذاب بهم، ولما لم يؤمنوا أخذتهم.

قال بعض السلف: كان بين قول فرعون لقومه: ﴿فَقَالَ أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَىٰ﴾ [النازعات: ٢٤]

وبين نزول العذاب به حين أغرقه الله سبحانه : أربعون عامًا .

وفي الحديث عن أبي موسى رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال : «إن الله ليملي للظالم حتى إذا أخذه لم يفلته»

ثم قرأ : ﴿وَكَذَلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَىٰ وَهِيَ ظَالِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُ أَلَمٌ شَدِيدٌ﴾ (١٦٢) ﴿١﴾ [هود] .

وهذا معنى : ﴿ثُمَّ أَخَذْتُمُ﴾ كما قال تعالى : ﴿فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذُنُوبِهِ فَمِنْهُمْ مَن أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُمْ مَن أَخَذَتْهُ الصَّيْحَةُ وَمِنْهُمْ مَن خَسَفْنَا بِهِ الْأَرْضَ وَمِنْهُمْ مَن أَغْرَقْنَا وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُظْلِمَهُمْ وَلَكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ (٤٠) [العنكبوت] .

فقد عذَّب الله قوم نوح ، وقوم فرعون بالغرق ، وعذَّب قوم عاد بالريح الصرصر العاتية شديدة الهبوب ، وعذَّب قوم ثمود وأصحاب مدين بالصيحة ، وعذَّب قوم لوط بحجارة من سجيل ، وقلب الله ديارهم رأساً على عقب .

وعذَّب قوم إبراهيم - وهم الكلدان - بما جاء في قوله تعالى : ﴿قَدْ مَكَرَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَأَتَىٰ اللَّهُ بُيُوتَهُم مِّنَ الْقَوَاعِدِ فَخَرَّ عَلَيْهِمُ السَّقْفُ مِن فَوْقِهِمْ وَأَتَاهُمُ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ﴾ (٦١) [النحل] .

وقال تعالى في عذاب قوم إبراهيم : ﴿وَأَرَادُوا بِهِ كَيْدًا فَجَعَلْنَاهُمُ الْأَخْسَرِينَ﴾ (٧٠) [الأنبياء] .

وفي آية أخرى : ﴿فَجَعَلْنَاهُمُ الْأَسْفَلِينَ﴾ [الصافات : ٩٨] .

ثم ختم الله الآية بقوله : ﴿فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ﴾ أي : فكيف كان إنكاري عليهم كفرهم وتكذيبهم ، وتبديل ما كان بهم من نعمة ، إلا عقاب المكذبين لرسول الله جميعاً بالهلاك ، فإن هؤلاء الأقوام لم أعاجلهم بالعقوبة بل أمهلتهم ، وأمليت لهم ، ثم أخذتهم أخذ عزيز مقتدر ، فبدلت نعمتهم نقمة ، وكثرتهم قلة ، وأمنهم خوفاً ، وعمرانهم خراباً .

(١) حديث صحيح عن أبي موسى ، أخرجه البخاري برقم (٤٦٨٦) ومسلم برقم (٢٥٨٣) .

وَهَذَا مَصِيرُ كَثِيرٍ مِنَ الْأُمَمِ الظَّالِمَةِ

٤٥- ﴿فَكَأَيِّنْ (١) مِّنْ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا (٢) وَهِيَ ظَالِمَةٌ فَمِىْ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا وَيَبْرُ (٣) مُعْطَلَةٌ وَقَصْرٍ مَّشِيدٍ ﴿٤٥﴾﴾

ذكر سبحانه في هذه الآية كيف كان نكير الله وغضبه على الأمم المكذبة بعد أن أمهلها وأملى لها، فبعد أن ذكر الله تعالى سبعا من الأمم الذين كذبوا رسلهم، ذكر سبحانه حُكْمًا عامًا، فبين أن هذا هو حال أكثر البشرية، وأن كثيرا من المدن العظيمة، والقرى الكبيرة، من أهل الحضرة والبدو، أهلكتهم الله لتكذيبهم رسل الله، ولم يبق منهم لا أهل الحضرة ولا أهل البادية ﴿فَكَأَيِّنْ مِّنْ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ﴾ أي: مشركة مكذبة لرسل الله، فالشرك والكفر وتكذيب الرسل هو سبب الهلاك في الدنيا والعذاب في الآخرة.

﴿فَمِىْ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا﴾ قد هُدمت ديارهم، ولم يبق فيها سقف ولا جدار ﴿وَيَبْرُ مُعْطَلَةٌ وَقَصْرٍ مَّشِيدٍ﴾ أي: أن الله سبحانه بدل نعمتهم وحولها إلى نقمة، وغير حياتهم إلى هلاك ودمار، وبذل ما هم فيه من نعيم وعمران إلى شقاء وخراب.

وأهل المدن الذين أهلكتهم الله لظلمهم كثيرون، منهم من ذكر في القرآن، ومنهم من لم يذكر، مثل: طسم وجديس، وآثارهم باقية في اليمامة.

وكم من بئر كان يزدحم عليه الناس لشربهم وشرب مواشيهم قد فقد أهله، وعدم الصادر والوارد، بعد أن تعب عليه أهله فشيدوه وحصنوه، وحين جاء أمر الله، لم يُغن عنهم بنيانهم من الله شيئا، قد صار عبرة لمن يعتبر، ومثالا لمن ينظر ويفكر، وهذه البئر تضرب مثلا لكل عمران وكل مورد ماء وكل وسيلة إنتاجية.

(١) قرأ ابن كثير وأبو جعفر بألف بعد الكاف، بعدها همزة مكسورة في (فكأين) تقرأ هكذا (فكأين) ومثلها (وكأين) في الآية (٤٨) وهذه الهمزة حققها ابن كثير، وسهلها أبو جعفر مع المد والقصر، وقرأ الباقون بهمزة مفتوحة بعد الكاف وبعدها ياء مكسورة مشددة، ووقف أبو عمرو ويعقوب على الياء هكذا (وكأي)، والباقون وقفوا على النون (وكأين).

(٢) قرأ أبو عمرو ويعقوب (أهلكناها) على إسناد الفعل إلى ضمير المتكلم، وقرأ الباقون (أهلكناها) على إسناد الفعل إلى ضمير العظمة.

(٣) قرأ ورش وأبو جعفر وأبو عمرو بخلف عنه بإبدال همزة (بئر) ياء في الحالين، ومعهم حمزة عند الوقف، وحققتها بقية القراء.

وفي مسير الصحابة إلى تبوك مروا بديار ثمود، فنهاهم النبي ﷺ عن الشرب من آبارها إلا بئرًا واحدة هي التي شربت منها الناقة.

ويقال: إن المراد بالبئر في الآية: بئر الرس، والمراد بالقصر المشيد: القصر الذي بناه شداد بن عاد بن إرم.

وقال بعض المفسرين: إن هذه البئر المعطلة والقصر المشيد كانا في حضرموت، وإن نبي الله صالحًا بعد أن نجّاه الله ومن آمن معه من الصيحة أتوا إلى مدينة يقال لها: حضور -بفتح الحاء- ومات فيها صالح ﷺ، فسميت حضرموت؛ لأن صالحًا حضر إليها ومات فيها.

وأما قومه فقد كانوا عند هذه البئر، وطال بهم الوقت بعد نبي الله صالح، فعبدوا الأصنام، فأرسل الله إليهم نبيًا يقال له: (حنظلة بن صفوان) فنهاهم عن عبادة الصنم، فقتلوه، فغارت البئر، وهلكوا عطشًا.

وقوله سبحانه: ﴿وَبِئْرِ مُعَطَّلَةٍ﴾ إشارة إلى هلاك ملوك البدو والقرى.

أما القصر المشيد، فهو كل قصر خلفه أهله بعد هلاكهم؛ كقصر غمدان، وقصور الفراعنة في صعيد مصر، وغير ذلك من القصور العالية المشيدة التي لم تدفع عن أهلها سوء العذاب، وكثير من الأبراج في العالم ذاقت نفس المصير لفساد أهلها وظلمهم، وما أحداث الحادي عشر من سبتمبر في أمريكا عنا ببعيد، فقد قوضت أعلى المباني وأفخمها وأهلك الآلاف من البشر في لحظات!!

فكثير من القرى أهلك الله أهلها بسبب كفرهم وظلمهم، وإذا نظرت إليها وجدتها خالية من أهلها وقد سقطت سقوفها على جدرانها.

وكثير من الآبار التي كانت تتفجر منها تعطلت وصارت مهجورة.

وكثير من القصور الفخمة خلت من أهلها، فدمرهم الله تدميرًا؛ لما كذبوا رسل الله، قال تعالى: ﴿وَكَايْنِ مِّن قَرْيَةٍ عَنَّتْ عَنْ أَمْرِ رَبِّهَا وَرُسُلِهِ فَحَاسَبْنَاهَا حِسَابًا شَدِيدًا وَعَذَّبْنَاهَا عَذَابًا تَكَرَّرَ ﴿٨﴾ فَذَاقَتْ وَبَالَ أَمْرِهَا وَكَانَ عِقَبُهُ أَمْرًا خَسِرًا ﴿٩﴾﴾ [الطلاق].

وفي هذا إشارة إلى هلاك ملوك المدن ذات الحضارة العظيمة.

والقول بأن صالحًا عليه السلام مات في حضرموت قول غير دقيق، فإن بعض المحققين^(١) يذكر أن قبر صالح عليه السلام في عكا وليس في حضرموت.

التَّعَجُّبُ مِنْ غَفْلَةِ النَّاسِ

٤٦- ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ ﴿٤٦﴾﴾

هذا تعجب من غفلة الناس، وتوبيخ لهم على عدم الاستفادة من أحداث التاريخ، حيث قال سبحانه داعيًا هذه الأمة إلى النظر والسفر والتأمل، كما دعاهم للاعتبار بمصائر الأمم الغابرة، للتعجب من حالهم، وعدم الوقوع فيما وقعوا فيه: ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ﴾ يسافروا ويتنقلوا ليشاهدوا آثار المهلكين؛ فيفكروا بعقولهم، ويسمعوا أخبارهم بآذانهم، وينظروا إلى مدائن صالح، وإلى وادي الأحقاف، وإلى البحر الميت، وإلى آثار الأماكن التي دمر الله أهلها، فيعتبروا بما حدث لهم، فشأن المسافر أن يستفيد ويطلع على ما لم يطلع عليه المقيم.

وليس العمى عمى البصر، وإنما هو عمى البصيرة، عن الفهم وقبول الحق، وهذا كقوله تعالى: ﴿وَمَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا كَمَثَلِ الَّذِي يَنْعِقُ بِمَا لَا يَسْمَعُ إِلَّا دَعَاءً وَنِدَاءً صُمُّ بُكْمٌ عُمْىٰ فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴿١٧﴾﴾ [البقرة].

والأبصار والأسماع وسائل وطرق لتحصيل العلم، والإدراك يكون بالعقل، فإذا لم يكن في الدماغ عقل يعي، كان المبصر كالأعمى، والسامع كالأصم، بسبب اختلال العقل.

وقد بين الله سبحانه، أن موضع القلب في الصدر، وذكر الصدر من باب التأكيد.

ويوضح هذه الآية مثل قوله تعالى: ﴿ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْفُرْقَانِ نَقُصُّهُ عَلَيْكَ مِنْهَا قَائِمٌ وَحَصِيدٌ ﴿١٧﴾﴾ [هود].

وقوله تعالى: ﴿﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ دَمَّرَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلِلْكَافِرِينَ أَمْثَلُهَا ﴿١٧﴾﴾﴾ [محمد].

(١) هو الإمام أبو القاسم الأنصاري كما في «البحر المحيط»، قال: إنه رأى قبر صالح بالشام في عكا.

عَذَابُ اللَّهِ لِمَنْ كَذَبَ رُسُلَهُ آتٍ لَا مَحَالَةَ

٤٧- ﴿وَسْتَغْلِبُونَكَ بِالْعَذَابِ وَلَنْ يُخْلِفَ اللَّهُ وَعْدَهُ وَإِنَّ يَوْمًا عِنْدَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِمَّا تَعُدُّونَ^(١)﴾

وبدل أن يتأمل المكذبون في مصارع من سبقوهم، ويعتبروا بما حدث لهم، ويجنحوا إلى الإيمان خشية العقاب، فإنهم قالوا: لو كان محمد صادقاً في تهديده لنا بالعذاب إن لم نؤمن، لعجل لنا هذا العذاب، إنهم يستعجلون نزول العذاب الذي وعدهم به محمد ﷺ، وبدل أن يؤمنوا به، ويتوبوا من كفرهم وشركهم فإنهم يطلبون سرعة نزول العذاب بهم استهزاء وسخرية.

ولما كان استعجالهم للعذاب يدل على أنهم غير مصدقين بهذا الوعيد، فإن الله تعالى أعقب ذلك ببيان أن العذاب نازل بهم لا محالة؛ لأنه وعده من الله تعالى، ووعد الله لا يتخلف، فعذاب الله بالمكذبين سوف يحل بهم في الدنيا في صورة أو أخرى، ويحل بهم يوم القيامة في يوم عظيم الهول، يبلغ طوله ألف سنة من أيام الدنيا ﴿وَإِنَّ يَوْمًا عِنْدَ رَبِّكَ﴾ من أيام نزول العذاب بهم ﴿كَأَلْفِ سَنَةٍ مِمَّا تَعُدُّونَ﴾ من أيامكم التي تعيشونها، فما أجهل من يستعجل هذا!

لقد أعلمهم الله تعالى أنهم إذا استعجلوا العذاب في أيام قصيرة، فإنه سيأتيهم في أيام طويلة، وفي هذا وعيد لهم بامتداد العذاب بهم، ويقدر اليوم في الدنيا بأربع وعشرين ساعة.

١- واليوم عند رب العالمين بألف سنة، كما جاء في الآية التي معنا.

عن ابن عباس ؓ أنه أحد الأيام الستة التي خلق الله فيها السموات والأرض.

٢- أما قوله تعالى: ﴿يُدَبِّرُ الْأَمْرَ مِنَ السَّمَاءِ إِلَى الْأَرْضِ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ أَلْفَ سَنَةٍ مِمَّا تَعُدُّونَ﴾ [السجدة: ٥] فإن المراد اليوم الذي فيها، هو مقدار سير الأمر وعروجه إليه سبحانه من السماء إلى الأرض^(٢).

(١) قرأ ابن كثير وحزمة والكسائي وخلف بالياء في (تعدون)، على إسناد الفعل إلى ضمير الغائبين في (وستغلبونك)، والباقون بالتاء، والخطاب موجه للمسلمين وغيرهم.

(٢) أخرج هذا ابن أبي حاتم من طريق سماك عن عكرمة عن ابن عباس.

٣- أما يوم القيامة فمقداره خمسون ألف سنة، كما جاء في قوله تعالى: ﴿تَعْرُجُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ﴾ [المعارج].

فآيتا الحج والسجدة متوافقتان، أما آية المعارج فتزيد خمسين ضعفاً.

وقيل: إن اختلاف زمن اليوم في جميعها، باعتبار حال المؤمن وحال الكافر؛ حيث يطول هذا اليوم على الكافر، ويقصر على المؤمن، كما قال تعالى: ﴿فَذَلِكَ يَوْمٌ عَسِيرٌ ﴿٩﴾ عَلَى الْكَافِرِينَ غَيْرُ يَسِيرٍ﴾ [المدثر].

فهو يوم يطول على الكافر ويقصر على المؤمن؛ حيث يكون على المؤمن كمقدار الصلاة المكتوبة، جاء في الحديث: عن أبي سعيد الخدري ؓ أن النبي ﷺ قال: «أبشروا يا صعاليك المهاجرين بالنور التام يوم القيامة، تدخلون الجنة قبل أغنياء الناس بنصف يوم، وذلك مقدار خمس مئة سنة»^(١).

وذكرت الأحاديث أن الحساب يوم القيامة ينقضي في نصف نهار، ونصف النهار يقدر بخمس مئة عام، وهو وقت القيلولة والاستراحة؛ لقوله تعالى: ﴿أَصْحَابُ الْجَنَّةِ يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُسْتَقَرًّا وَأَحْسَنُ مَقِيلًا﴾ [الفرقان].

فعن أبي هريرة ؓ أن رسول الله ﷺ قال: «يدخل فقراء المسلمين الجنة قبل الأغنياء بمقدار نصف يوم»، قلت: وما مقدار نصف يوم؟ قال: «أو ما تقرأ القرآن؟» قلت: بلى، قال: ﴿وَإِنَّ يَوْمًا عِنْدَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ﴾^(٢).

وفي حديث آخر عن أبي هريرة ؓ أن رسول الله ﷺ قال: «يدخل فقراء المسلمين الجنة قبل الأغنياء بنصف يوم، خمس مئة عام» وعند أحمد «فقراء أمتي» قال: وتلا الآية:

(١) أخرجه أبو داود (٣٦٦٦) وانظر صحيح ابن ماجه (٣٣٢٧) والمسند (١١٦٠٤) بنحوه، قال محققوه: وهو حديث حسن بإسناد ضعيف، لجهالة العلاء بن بشير المزني، وأخرجه البغوي في شرح السنة (٣٩٩٢) وأبو يعلى (١١٥١) والترمذي (٢٣٥١) وابن ماجه (٤١٢٣) والطبراني في الأوسط (٨٤).

(٢) يُنظر الحديث في صحيح الترميز والترهيب برقم (٣١٨٩) وسنن الترميز برقم (٢٣٥٤) وقال: هذا حديث حسن صحيح وانظر صحيح ابن ماجه (٣٣٢٦).

وإن يوما . . .»^(١).

وعن سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه عن النبي ﷺ أنه سئل عن مقدار نصف اليوم، فقال: «خمس مئة عام»^(٢).

وفي معنى هذه الآية قوله تعالى: ﴿وَسْتَغْلِبُونَكَ بِالْعَذَابِ وَلَوْلَا أَجَلٌ مُّسَمًّى لِّجَاءِ هَؤُلَاءِ الْعَذَابِ وَلِيَأَيِّنَّهُمْ بَعَثَتْهُمْ لَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٥٣﴾ يَسْتَغْلِبُونَكَ بِالْعَذَابِ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ ﴿٥٤﴾ يَوْمَ يَغْشَاهُمْ الْعَذَابُ مِنْ فَوْقِهِمْ وَمِنْ تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ وَيَقُولُ ذُوقُوا مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٥٥﴾﴾ [العنكبوت]. قال تعالى:

٤٨- ﴿وَكَأَيِّنْ مِنْ قَرْيَةٍ أَمْلَيْتُ لَهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ ثُمَّ أَخَذْتُهَا وَإِلَى الْمَصِيرِ ﴿٥٨﴾﴾

ثم بين الله سبحانه أن كثيرا من القرى التي أهلها سبحانه، وأخر نزول العذاب بها، ولم يعاجل أهلها بالعقوبة في الدنيا على ظلمهم وكفرهم، أنهم لما اغتروا وتمادوا، ولم يرجعوا إلى الله سبحانه، أنزل بهم عقابه في الدنيا وأهلكهم، فضلا عما ينتظرهم في الآخرة من العذاب الذي يستحقونه.

فمعنى الآية: إن كثيرا من القرى أهملتها، ولم أعاجلها بالعقوبة، وهي مصرة على الكفر، ثم عاقبتها بالهلاك في الدنيا، وإليّ المرجع والمآب في الآخرة فأجازي كلّا بما يستحق.

وفي الآية السابقة بيان لكثرة الأمم التي أهلكها الله تعالى في الدنيا، وأنها لا تقتصر على قوم نوح، وقوم هود، وقوم صالح، وغيرهم ممن جاء ذكرهم في القرآن الكريم، بل هناك كثير غيرهم أهلكهم الله تعالى، ولم يرد ذكرهم في القرآن، والآية السابقة تقتصر كذلك على الإهلاك دون الإمهال. أما هذه الآية فإنها تقتصر على الإمهال دون الإهلاك؛ لبيان أن تأخير العذاب لا يقتضي عدم تحقيقه، فليحذر الظالمون من حلول عقاب الله بهم، ولا يغتروا بالإمهال.

(١) أخرجه النسائي في «السنن الكبرى» برقم (١٣٤٨) والترمذي برقم (٢٣٥٤) وقال: حسن صحيح و«صحيح سنن ابن ماجه» (٣٩٦/٢) عن أبي هريرة، وهو في ابن ماجه (٤١٢٢) والحديث في مسند أحمد (١٠٧٣٠) حديث صحيح، وفيه شئير ابن نهار متكلم فيه وانظر رقم (١٠٦٥٤) بإسناد صحيح على شرط البخاري ورقم (٧٩٤٦) (محققه) وابن أبي شيبة (٢٤٦/١٣).

(٢) من حديث أخرجه أبو داود في «السنن» برقم (٤٣٥٠).

رِسَالَةُ النَّبِيِّ ﷺ بُشْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ وَنَذِيرٌ لِلْكَافِرِينَ

٤٩، ٥٠- ﴿قُلْ يَتَّابِهَا النَّاسُ إِنَّمَا أَنَا لَكُمْ نَذِيرٌ مُبِينٌ ﴿٤٩﴾ فَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴿٥٠﴾﴾

ثم بيّن سبحانه أن صدّ الكفار وتكذيبهم لن يمنع النبي ﷺ من تبليغ رسالة ربه، وأن إعراضهم عنه لن يثنيه عن القيام بواجب الرسالة، فقال الله تعالى لرسوله: إن نزول العذاب ليس بيدك، وإنما أنت عبد مأمور، تبليّغهم وتنذرهم وتبشرهم، فقل لهم: - يا أيها الناس - ما أنا إلا منذر لكم، مبلغ عن الله رسالته، فلست طالب دنيا، ولا متقرباً إليكم، فمن أطاعني فلنفسه، ومن عصى فعليها، وأمركم إلى الله، إن شاء عجل لكم العذاب وإن شاء أخره عنكم، فهو الفعّال لما يريد.

ثم إن الناس في تلقّيهم لهذا الإنذار، بين مُصدّق ومُكذّب، وقد بيّن ﷺ حال الفريقين، وما ينتظر كلّاً منهما من مصير، فالذين آمنوا بالله ورسوله، واستقر الإيمان في قلوبهم، وعملوا الأعمال الصالحة، لهم عند الله مغفرة يستر بها ذنوبهم، ولهم رزق حسن لا ينقطع، في الجنة ونعيمها، وقد جمع الله لهم بين مغفرة الذنوب والرزق الكريم في جنات النعيم؛ لأنهم جمعوا في الدنيا بين الإيمان والعمل الصالح.

قال القرطبي: إذا سمعت الله تعالى يقول: ﴿وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾ فاعلم أنه الجنة، كما في قوله تعالى: ﴿لَيَجْزِيَ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَٰئِكَ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴿٤٩﴾﴾ [سبأ]. هذا جزاء المؤمنين، فما جزاء الكافرين؟ قال تعالى:

٥١- ﴿وَالَّذِينَ سَعَوْا فِيْٓ ءَايَاتِنَا مُعْجِزِينَ^(١) أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ ﴿٥١﴾﴾

أي: وأما الفريق المقابل لأهل الإيمان، فهم الذين استمروا على الكفر، واجتهدوا في الكيد لإبطال آيات القرآن، محاولين مشاقة الله ورسوله، ظانين أنهم نالوا مُرادهم في الدنيا، ولم يفكروا في سوء المصير، وقد كانوا باذلين جهدهم في الطعن في آيات القرآن

(١) قرأ ابن كثير وأبو عمرو (مُعْجِزِينَ) بحذف الألف وتشديد الجيم، اسم فاعل من عَجَزَ إذا ثَبَطَ، وقرأ الباقر (معاجزين) اسم فاعل من عاجزه إذا سبقه فسبقه، ثم استعمل في المتخاصمين؛ لأن كل واحد يحاول تعجيز الآخر وإبطال حجته، والكفار يحاولون إبطال ما نطقت به الآيات من الحجج.

وإطفاء نور الله، وتثبيط الناس عن اتباعه، معطلين وصولها إلى قلوبهم؛ حتى لا يعملوا بها، وهم الملازمون للنار الموقدة.

ومن أحسن ما يفسر هاتين الآيتين ما صحَّ عن النبي ﷺ من حديث أبي موسى رضي الله عنه قال: «إن مثلي ومثل ما بعثني الله به كمثل رجل أتى قومه فقال: يا قوم، إني رأيت الجيش بعيني، وإني أنا النذير العريان، فالنجاء النجاء، فأطاعه طائفة من قومه، فأدلجوا فانطلقوا على مَهْلَتِهِمْ، وكذبت طائفة منهم، فأصبحوا مكانهم، فصَبَّحَهُم الجيش، فأهلكهم واجتاحهم، فذلك مثل من أطاعني واتبع ما جئتُ به، ومثل من عصاني وكذَّب ما جئتُ به من الحق»^(١)

قال تعالى: ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ زِدْنَاهُمْ عَذَابًا فَوْقَ الْعَذَابِ بِمَا كَانُوا يُفْسِدُونَ﴾ [النحل: ٨٨]. وذلك لأنهم وقفوا حجر عثرة ضد الدعوة، يُبْطِطُونَ الهِمَمَ، ويمنعون الناس من الدخول في الإسلام، فَضَلُّوا في أنفسهم وأضلوا غيرهم، كما في قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ سَعَوْا فِي آيَاتِنَا مُعْجِزِينَ أُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مِّن رَّجَزٍ أَلِيمٍ﴾ [سبا].

ومعنى معاجزين: مشبطين غيرهم عن الإسلام، وظانين أنهم يُعْجِزُونَ ربهِم، وأنه لا يقدر على بعثهم بعد الموت، كما قال تعالى: ﴿زَعَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَن لَّنْ يُعْمَرُوا﴾ [التغابن: ٧]. وقال تعالى عن الجن: ﴿وَأَنَّا ظَنَنَّا أَن لَّنْ نُعْجِزَ اللَّهَ فِي الْأَرْضِ وَلَنْ نُعْجِزَهُ هَرَبًا﴾ [الجن: ٧]. أو أن الكفار يظنون أنهم سيفلتون من عقاب الله تعالى.

أو أنهم يحاولون منع الأنبياء من دعوتهم بقتالهم؛ لتعجيزهم عن تبليغ دعوة الله، وتثبيط من أراد الدخول في الإسلام عن اعتناقه وهم لن يفلتوا من عقاب الله تعالى على أي حال.

قِصَّةُ الْغُرَانِيقِ وَالْحِكْمَةِ مِنْهَا

٥٢- ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّا إِذَا تَمَنَّى أَلْقَى الشَّيْطَانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ^(٢) فَيَنسَخُ اللَّهُ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ ثُمَّ يُحْكِمُ اللَّهُ أَيْدِيَهُ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ [٥٢]

هذه الآيات لبيان ما لقيه النبي ﷺ من الظلم والتكذيب في صدر الدعوة، وهو امتداد

(١) «صحيح مسلم» برقم (٢٢٨٣) عن أبي موسى، و«صحيح البخاري» برقم (٦٤٨٢، ٧٢٨٣).

(٢) قرأ أبو جعفر بتخفيف ياء (أمنيته)، والباقون بتشديدها.

لأفعال الأمم الظالمة التي أمهلها الله تعالى ثم أهلكها.

ويراد بالغرانيق: الأصنام، والغرانيق في الأصل: هي الطيور البيضاء، يقال له: غرنوق، أي: طائر أبيض، والمشركون كانوا يشبهون أصنامهم بالغرانيق، ويعتقدون أنها ترتفع إلى الله سبحانه، وتطير كما تطير الطيور البيضاء فتشفع لهم عند الله تعالى.

وقد زلت قدم بعض الناس في قصة الغرانيق؛ لأنهم لم يفهموها على الوجه الصحيح، وهي تذكر عند الآية الثانية والخمسين في أربع آيات من سورة الحج، ويأتي ذكرها في قوله تعالى من سورة النجم: ﴿أَفَرَأَيْتُمُ اللَّكْتَ وَالْعُرَّىٰ ۖ ﴿١٩﴾ وَمَنْوَةَ الثَّالِثَةَ الْآخِرَىٰ ۖ ﴿٢٠﴾﴾ [النجم].

وهذه القصة سببها ما ورد أن سورة النجم لما نزلت على النبي ﷺ قرأها على مسمع من المسلمين والمشركين جميعاً في الكعبة حول البيت، فلما وصل إلى نهاية السورة وقرأ: ﴿فَاسْجُدُوا لِلَّهِ وَاعْبُدُوا ۖ ﴿٦٢﴾﴾ سجد سجود التلاوة، وسجد معه المسلمون والمشركون جميعاً، وهذا القدر هو الذي صحّت به الأحاديث.

ولكنّ الأفاكين قالوا: إن النبي ﷺ عندما وصل إلى قوله تعالى: ﴿أَفَرَأَيْتُمُ اللَّكْتَ وَالْعُرَّىٰ ۖ ﴿١٩﴾ وَمَنْوَةَ الثَّالِثَةَ الْآخِرَىٰ ۖ ﴿٢٠﴾﴾ ألقى الشيطان على مسامع المشركين بعدها: (تلك الغرانيق العلى وإن شفاعتهن لترتجى) ففرح المشركون بذلك أيما فرح.

هذا: ولما بين سبحانه في الآيات السابقة، أن من اتبع الرسول ﷺ فقد نجا واهتدى، وأن من كفر به فقد ضل وهلك، وأن مهمة الرسول ﷺ هي البلاغ والإعلام، ولما كان النبي ﷺ حريصاً على هداية قومه، شديد الرغبة في إيمانهم، يتمنى أن يؤمنوا جميعاً:

لما كان الأمر كذلك أراد الله سبحانه أن يبين لرسوله ﷺ أنه لم يسلم أحد من الرسل والأنبياء السابقين قبله، من محاولة الشيطان أن يفسد عليهم ما يجتهدون فيه من هدي الأمم، وأن جميع الرسل كان من أقوامهم مصدقون لهم، ومنهم مكذبون لما جاؤوا به. ولنا في هذه الآية أربع وقفات:

الوقفة الأولى: مع الرسول والنبي ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَّسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ﴾.

الرسول: هو الرجل الذي نزل عليه جبريل بوحى وشريعة من الله تعالى يبلغها إلى قومه، وقد ذكر القرآن بعض الرسل دون بعض، وقال: ﴿وَمِنْهُمْ مَنْ قَصَصْنَا عَلَيْكَ وَمِنْهُمْ

مَنْ لَمْ تَقْصُصْ عَلَيْكَ ﴿٧٨﴾ [غافر: ٧٨].

واشتمل القرآن على خمسة وعشرين نبياً ورسولاً.
ويبلغ عدد الرسل كما ذكرت بعض الآثار: ثلاث مئة وثلاثة عشر رسولاً.

والنبي: هو كل رجل أوحى إليه بهداية قوم، على ضوء كتاب وشريعة الرسول الذي سبقه، أو على ما هو مستقر في الشرائع الإلهية جميعاً، ولم ينزل عليه كتاب سماوي، ولكنه مأمور بتبليغ دعوة من سبقه.

والأنبياء كثيرون سيماً في بني إسرائيل، وقيل: إن عددهم مئة وأربعة وعشرون ألفاً.

الوقف الثانية: معنى ﴿إِلَّا إِذَا تَمَنَّى﴾

التمنى: كلمة مشهورة، معناها: طلب الشيء العسير حصوله.

وجميع الرسل والأنبياء، كانوا يتمنون أن يكون كل أقوامهم صالحين مهتدين، ومن ذلك حرص النبي ﷺ على هداية كبار كفار قريش، كما قال تعالى: ﴿فَلَعَلَّكَ بَنِيعٌ تَفْسَكَ عَلَى آثَرِهِمْ إِنْ لَمْ يُؤْمِنُوا بِهَذَا الْحَدِيثِ أَسَفًا﴾ [الكهف].

وكما في قصة عبد الله بن أم مكتوم، وسبب نزول سورة ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّى﴾.

وكما في قصة فقراء الصحابة حين طلب صناديد قريش من رسول الله ﷺ أن يطردهم عن مجلسه؛ حتى يتسنى لهم الجلوس معه، فأنزل الله تعالى: ﴿وَأَصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدْوَةِ وَالْعَشيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ﴾ [الكهف: ٢٨].

وقوله: ﴿وَلَا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدْوَةِ وَالْعَشيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ﴾ [الأنعام: ٥٢].

وكان النبي ﷺ يتمنى أن يُعزَّ الله الإسلام بأحد العُمَرَيْن: عمر بن الخطاب أو عمرو بن هشام (أبو جهل)، وهكذا.

والشيطان يتمنى صرف الناس عن دعوة الحق بإلقاء الوسوس والأباطيل في نفوس الناس، قال تعالى: ﴿وَإِنَّ الشَّيْطَانَ لِيَوْحُونَ إِلَىٰ أَوْلِيَائِهِمْ لِيُجِدَلُوا﴾ [الأنعام: ١٢١].

أما تفسير ﴿تَمَنَّى﴾ بمعنى: (قرأ، وتلا) فهذا لم ترد به اللغة، والقراءة لا يقال لها: أمنية، وقد أورده بعض المفسرين اعتماداً على أمرين:

أحدهما: أسانيد واهية مضطربة متنا وسندا، مطعون فيها، وهي من وضع الزنادقة، وأعلاها ما هو منسوب إلى ابن عباس من طريق الكلبي عن أبي صالح، وهو متروك باتفاق أهل العلم فلا يُحتج به.

وفي هذا الأثر أنه قال في: ﴿إِذَا تَمَنَّيَ الْوَيْلَ الشَّيْطَانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ﴾ أي: إذا حدث ألقى الشيطان في حديثه.

وثانيهما: شطر البيت المنسوب إلى حسان بن ثابت: تمنى كتاب الله أول ليله...

أي: تمنى أن يقرأ القرآن في أول الليل على عادته فلم يستطع، ولا يلزم من البيت أن يكون التمني بمعنى القراءة، فليس فيه مستند لغوي.

وإسناد التمني إلى الأنبياء يدل على أن المراد به: تمنى هداية أقوامهم بتبليغهم ما أنزل الله إليهم، وبموعظتهم وجدالهم بالتي هي أحسن؛ حتى يقترب القوم من الإيمان، وتنجح أمانى الرسل في دعوتهم، ومعنى تمنى: أراد وأحب.

الوقف الثالث: ما يلقيه الشيطان في أمانة الرسول ﴿الْوَيْلَ الشَّيْطَانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ﴾

وبعد أن يبذل الرسول جهده في هداية قومه، يأتي الشيطان إلى الناس فيضع الوسواس والشكوك والعقبات المانعة من تصديق الرسول وقبول ما جاء به، فيلقي عليهم أنه ساحر، أو شاعر، أو كاهن، وأن ما يأتي به هو من أساطير الأولين.

فإسناد الإلقاء إلى الشيطان يدل على أنه يلقي الضلال والفساد في نفوس الناس، سيما أئمة الكفر ورؤوس الطغيان؛ ليفسد ما يقوله الأنبياء من الهدى والرشاد، وكان الشيطان قد قطع على نفسه عهدا بذلك حين قال: ﴿لَأُعْزِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ (٨٦) إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمْ الْمُخْلَصِينَ (٨٧) [ص].

وقال: ﴿ثُمَّ لَآتِيَنَّهُمْ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَنِهِمْ وَعَنْ شَمَائِلِهِمْ وَلَا يَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ﴾ (٨٨) [الأعراف]. وقد حذرنا الله تعالى من فتنه وإغوائه في قوله: ﴿يَبْقَىٰ آدَمُ لَا يَفْتِنُكُمُ الشَّيْطَانُ كَمَا أَخْرَجَ أَبَوَيْكُمُ مِنَ الْجَنَّةِ﴾ [الأعراف].

أما أن يقال: إن ما ألقاه الشيطان هو إلقاءه على مسامع المشركين في سكتات النبي ﷺ وفصله بين الآيات، وهو يقرأ سورة النجم بعد قوله تعالى: ﴿أَفَرَأَيْتُمُ اللَّكْتَ وَالْعُزَّىٰ﴾ (٨٩)

وَمَنْوَةَ آلِثَالَةَ الْآخَرَى ﴿٢٠﴾ (تلك الغرائق العلى وإن شفاعتهن لترتجى) ففرح المشركون بذلك وسجدوا مع المسلمين، وأن بعض المهاجرين إلى الحبشة حين بلغهم ذلك رجعوا إلى عشائريهم ظناً منهم أن المشركين جميعاً قد أسلموا... إلخ.

فالجواب على ذلك، أن الأحاديث التي ذكر فيها هذا السجود، جاءت بدون ذكر هذه الجملة: (تلك الغرائق العلى...) .

١- فقد جاء في الصحيح: عن عبد الله بن مسعود ؓ أن النبي ﷺ قرأ: ﴿وَالنَّجْمِ﴾ فسجد فيها، وسجد من كان معه -يعني: سجود التلاوة الذي في آخر السورة- غير أن شيخاً من قريش -هو أمية بن خلف- أخذ كفاً من حصى أو تراب، فرفعه إلى جبهته وسجد عليه؛ لكبر سنه، قال عبد الله -أي: ابن مسعود-: فلقد رأيته بعد قتل كافراً^(١).

٢- وصحَّ من حديث ابن عباس ؓ من طريق عكرمة أن رسول الله ﷺ سجد بالنجم، وسجد معه المسلمون والمشركون والجن والإنس^(٢).

٣- وفي رواية في الصحيحين: أن زيد بن ثابت ؓ قرأ على النبي ﷺ سورة النجم فلم يسجد فيها^(٣).

فهذا الذي صحَّ عن رسول الله ﷺ لم يُذكر فيه أن النبي ﷺ ذكر تلك الألفاظ، فلا دليل في الآية من قريب ولا بعيد على قصة الغرائق المزعومة، ولم تُروَ من طريق متصل السند برسول الله ﷺ^(٤).

وآيات القرآن قاطعة باستحالة أن يجري على لسان رسول الله ﷺ شيء غير الوحي المنزل عليه في تبليغه دعوة ربه، قال تعالى: ﴿وَلَوْ نَفَّوْا عَلَيْنَا بَعْضَ الْأَقَاوِيلِ ﴿٤٤﴾ لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ ﴿٤٥﴾ ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ ﴿٤٦﴾ فَمَا يَنْكُرُ مِنْ أَحدٍ عَنْهُ حَبِيزِينَ ﴿٤٧﴾﴾ [الحاقة].

(١) أخرجه البخاري برقم (١٠٦٧، ١٠٧٠)، ومسلم برقم (٥٧٦، ٣٨٥٣، ٣٩٧٢).

(٢) رواه البخاري برقم (١٠٧١، ٤٨٦٢).

(٣) يُنظر: «صحيح البخاري» برقم (١٠٧٢، ١٠٧٣) و«صحيح مسلم» (٥٧٧) مطوَّلاً.

(٤) يُنظر: الإسرائيليات والموضوعات في كتب التفسير للشيخ محمد أبو شهبة ص ٣١٤، و«نصب المجانيق في نسف حديث الغرائق» للشيخ محمد ناصر الدين الألباني، والقاضي عياض في «الشفاء» (٢/٢٠٧)، والشيخ محمد عبده في تفسير «المنار» للآية، وغيرهم.

وِيرُدُّ قِصَّةَ الْغُرَانِيقِ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَإِنْ كَادُوا لَيَفْتِنُوكَ عَنِ الذِّئَىٰ أُوحِيَٰنَا إِلَيْكَ لَيَفْتَرِي عَلَيْكَ غَيْبٌ وَإِذَا لَا تَأْخُذُوكَ خَلِيلًا ۖ ﴿٧٣﴾ وَلَوْلَا أَن تَبْنَتَكَ لَقَدْ كِدْتَ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْئًا قَلِيلًا ۖ ﴿٧٤﴾ إِذَا لَأَذَقْنَاكَ ضِعْفَ الْحَيَاةِ وَضِعْفَ الْمَمَاتِ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ عَلَيْكَ نَصِيرًا ۖ ﴿٧٥﴾﴾ [الإسراء].

لقد كان الرسول ﷺ حريصًا على هداية القوم، يريد استمالة قلوبهم إلى الحق، وقد ثبت الله رسوله عن الركون إليهم واتباع أهوائهم، ولو حدث شيء من هذا القبيل لضاعف الله له العذاب في الدنيا والآخرة، وحاشا لرسول الله ﷺ أن يمدح آلهتهم، أو يتسور عليه الشيطان فيذكر على لسانه ما يشبه القرآن، فإن هذا ممتنع؛ لأن الله تعالى قد عصم رسوله من أن يفتري عليه، وحفظه من الركون إليهم قليلًا أو كثيرًا، كما قال تعالى: ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ وَرَحْمَتُهُ لَهَمَّتْ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ أَن يُضِلُّوكَ وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّا أَنفُسَهُمْ وَمَا يَضُرُّونَكَ مِن شَيْءٍ﴾ [النساء: ١١٣]

وهذا المعنى قاله المشركون تعليقًا على جهد الرسول ﷺ معهم في محاولة هداهم: ﴿إِنْ كَادَ لَيُضِلُّنَا عَنْ آلِهَتِنَا لَوْلَا أَن صَبَرْنَا عَلَيْهَا﴾ [الفرقان: ٤٢].

لقد أراد المشركون أن يُسلموا فصرفتهم الشياطين، كما قال تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَاطِينَ الْإِنسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُورًا﴾ [الأنعام: ١١٢]. وهذا القرآن ﴿لَا يَأْتِيهِ الْبَطْلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾ [فصلت].

وفي الرد على طلب الكفار من النبي ﷺ أن يأتي لهم بقرآن يحقق رغبتهم، يُلقن الله سبحانه رسوله ﷺ الجواب في قوله: ﴿قُلْ مَا يَكُونُ لِي أَن أُبَدِّلَهُ مِنْ تِلْقَآئِي نَفْسِي إِنْ أَتَيْتُ إِلَّا مَا يُوْحَىٰ إِلَيَّ﴾ [يونس: ١٥].

وفي قوله: ﴿وَمَا يَطِئُ عَنِ الْهَوَىٰ ۖ ﴿٢﴾ إِنَّهُ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ﴾ [النجم]. ولو جاز هذا القول لارتفع الأمان عن القرآن، ولم يكن هناك فرق بين الزيادة عليه، أو النقصان منه.

الوقفه الرابعة: مع قوله تعالى: ﴿فَيَنْسَخُ اللَّهُ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ﴾

أي: أن الله تعالى يزيل الشبهات والشكوك من نفوس المؤمنين ببيان الله الواضح، ويزيد دعوة الرسل بيانًا بإثبات مدلولها، وتوضيحها بما لا شبهة بعده إلا لمن زاغ قلبه.

ومعنى ﴿ثُمَّ يُخَيِّمُ اللَّهُ عَلَيْتِهِ﴾ أي: وكلما أفسد الشيطان دعوة الرسل أمر الله رسله

فعاودوا الإرشاد وكرروه بتكرار المواعظ والقصص في القرآن، ففي هذه المعاودة نسخ لما يُلقيه الشيطان، وتثبيت لآيات الله في قلوب عباده؛ وذلك لأن الشيطان داعية ضلال، والله تعالى ينسخ ما يلقيه في نفوس البشر بواسطة الرسل، كما قال تعالى حكاية عنه: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُبَدِّلَ دِينِي أَوْ أَنْ يُظْهِرَ فِي الْأَرْضِ الْفِرْكَاءَ وَيَذَرَنِي أَهْلَ الْبُيُوتِ لَا تُخَذِّلْنِي وَلَا تَكُنْ لِي وِصِيْرًا ۖ وَارْزُقْنِي يَا رَبِّي بِطَيِّبَاتِ الرِّزْقِ ۚ وَاتَّقِ اللَّهَ إِنَّهُ كَانَنَاجٍ ۚ﴾ (الحجر: ٩٢).

ويصح أن يكون المعنى: إن النبي ﷺ إذا تمنى إيمان قومه، وحرص على هدايتهم بكل وسيلة، ثم لقي منهم العناد، ألقى الشيطان في نفس النبي خاطر اليأس من هداهم، وهذا من الخواطر التي تعرض للنفس البشرية، ثم لا يلبث أن ينقشع هذا الخاطر بمقتضى عصمة الرسل، ويَرَسَخُ في قلب الرسول ما كُلف به من استمرار تبليغ الدعوة، والصبر على الأذى.

وفي هذا إشارة إلى قوله تعالى: ﴿وَإِنْ كَانَ كِبَرَ عَلَيْكَ إِعْرَاضُهُمْ فَإِنْ أُسْطَقَتْ أَنْ تَبْنِيَ نَفَقًا فِي الْأَرْضِ أَوْ سُلَّمًا فِي السَّمَاءِ فَتَأْتِيَهُمْ بِآيَةٍ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى الْهَدْيِ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْجَاهِلِينَ﴾ (الأنعام: ٢٥).

ثم ختم الله الآية بقوله: ﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ أي: عليم بما كان وما يكون، لا تخفى عليه خافية في الأرض ولا في السماء، حكيم في تقديره وأمره. قال تعالى:

فِتْنَةُ النَّاسِ بِقِصَّةِ الْغُرَانِيقِ

٥٣- ﴿لِيَجْعَلَ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ فِتْنَةً لِلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ وَالْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ وَإِنَّ الظَّالِمِينَ لَفِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ﴾ (٥٣)

ثم ذكر الله سبحانه في هذه الآية ثلاث فتن بسبب وسوسة الشيطان للناس في قصة الغرانيق: الأولى تتعلق بأهل القسوة والنفاق، والثانية تتعلق بأهل الإيمان، والثالثة تتعلق بأهل الكفر، فبيّن سبحانه أن المقصود من القصة امتحان الخلق جميعاً:

أولاً: فتنه المنافقين وقساة القلوب:

أما الفتن الأولى فقد جاءت في هذه الآية خاصة بالمنافقين وقساة القلوب، وهي أن ما

يلقيه الشيطان من وساوس إنما هي فتنة للذين في قلوبهم مرض، وما كانت وسوسة الشيطان وإلقاؤه الشبهات والشكوك في نفوس الناس، إلا ليجعلها الله اختباراً للذين في قلوبهم شك ونفاق، وهذا معنى ﴿لِيَجْعَلَ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ فِتْنَةً لِلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ﴾

وهو الشق الأول من الآية.

فالمرض يطلق في القرآن على النفاق، كما قال تعالى عن المنافقين: ﴿فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ﴾ وهم المترددون في قبول الإيمان، أي: في قلوبهم شك، ونفاق ﴿فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضًا﴾ [البقرة: ١٠].

كما يطلق المرض على حب الفاحشة، قال تعالى: ﴿فَلَا تَخْضَعْنَ بِالْقَوْلِ فَيَطْمَعَ الَّذِي فِي قَلْبِهِ مَرَضٌ﴾ [الأحزاب: ٣٢] أي: حب الزنى، والانحراف.

أما المشركون الممعنون في تكذيب الرسول ﷺ فإن قلوبهم قاسية وجافية عن قبول الحق.

﴿وَالْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ﴾ وهم الذين لا يؤثر فيهم الوعظ ولا الزجر، فقساة القلوب هم المصممون على النفاق وهم أهل الجحود والعناد، وهذا هو الشق الآخر في الآية.

﴿وَالَّذِينَ الظَّالِمِينَ﴾ من هؤلاء وأولئك ﴿لَنَى شِقَاقٍ بَعِيدٍ﴾ أي: في عداوة شديدة لله ورسوله، وفي بُعد عن الصواب والحق؛ حيث يجدون في مثل هذه الأحوال مادة للجدل، والللجاج، والشقاق.

ثَانِيًا: فِتْنَةُ الْمُؤْمِنِينَ:

٥٤- ﴿وَلْيَعْلَمَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَيُؤْمِنُوا بِهِ فَتُخْبِتَ لَهُمْ قُلُوبُهُمْ وَإِنَّ اللَّهَ لَهَادٍ^(١) الَّذِينَ ءَامَنُوا إِلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿٥٤﴾﴾

أما الفتنة الثانية من وسوسة الشيطان للناس فإنها تتعلق بالفريق المقابل لأهل الكفر والنفاق، وهم المؤمنون الذين أوتوا العلم بالوحي عن طريق الكتب التي بلغها لهم رسل الله، فأشرق نور النبوة في قلوبهم -وفي مقدمتهم أصحاب رسول الله ﷺ المعاصرون للتنزيل- فإن هؤلاء المؤمنين يزدادون يقيناً بأن الوحي الذي نزل على رسول الله هو الحق

(١) وقف يعقوب بالياء على (لهاد)، والباقون بحذفها في الحالين.

الثابت الذي لا يتطرق إليه الشك ولا الشبهة.

﴿وَلْيَعْلَمَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ﴾ فأهل العلم هم الذين يفرقون بعلمهم بين الحق والباطل، فيدركون أن القرآن هو الحق النازل من عند الله، ولا سبيل للشيطان إليه، فيزداد إيمانهم به، وتخضع له قلوبهم، هذا معنى: ﴿فَيُؤْمِنُوا بِهِ فَتُخْبِتَ لَهُ قُلُوبُهُمْ﴾ كما قال تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَالْإِيمَانَ لَقَدْ لَبِثْتُمْ فِي كِتَابِ اللَّهِ إِلَى يَوْمِ الْبَعْثِ فَهَكَذَا يَوْمَ الْبَعْثِ وَلَكِنَّكُمْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٥٦﴾﴾ [الروم].

ثم مدح الله أهل العلم الديني، وأشار إلى أن إيمانهم هو سبب هدايتهم، فقال: ﴿وَإِنَّ اللَّهَ لَهَادٍ الَّذِينَ ءَامَنُوا إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ وعكسُ هذا في قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ كَاذِبٌ كَفَّارٌ﴾ [الزمر: ٣]. في قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ الظَّالِمِينَ لَفِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ ﴿٥٧﴾﴾ [الحج] لقد قام رسول الله بدعوة أهل النفاق، وأهل الجحود والعدا، وهم الذين قست قلوبهم، كما دعا أيضًا أهل العلم اليقيني، فهداهم جميعًا بالدعوة والإرشاد إلى الطريق الواضح، المنقذ من الضلال، وهو الإسلام، فمنهم من آمن وهم أهل العلم الحق، ومنهم من كفر وهم أهل النفاق والجحود.

ثالثًا: فِتْنَةُ الْكَافِرِينَ:

٥٥- ﴿وَلَا يَزَالُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي مِرْيَةٍ مِنْهُ حَتَّى تَأْتِيَهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً أَوْ يَأْتِيَهُمْ عَذَابٌ يَوْمٍ عَقِيمٍ﴾ ثم خصَّ الله سبحانه الكفار المكذبين بالقرآن وبرسول الإسلام، بعد أن عمَّهم في جملة الظالمين، فبيَّن سبحانه أن هؤلاء الكفار سيستمرون على شكِّهم في القرآن، حتى تأتِيهم الساعة فجأة وهم على تكذيبهم، ﴿أَوْ يَأْتِيَهُمْ عَذَابٌ يَوْمٍ عَقِيمٍ﴾ لا خير فيه بالنسبة لهم، وهو يوم القيامة ﴿وَلَا يَزَالُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي مِرْيَةٍ مِنْهُ﴾ أي: في شك من هذا القرآن ﴿حَتَّى تَأْتِيَهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً أَوْ يَأْتِيَهُمْ عَذَابٌ يَوْمٍ عَقِيمٍ﴾ كالريح العقيم التي لا خير فيها، فيجازي الله الذين أسأؤا بما عملوا، ويجزي الذين أحسنوا بالحسنى، وعند قيام الساعة أو مجيء ذلك اليوم، يعلم الكفار أنهم كانوا كاذبين، ويندمون حين لا ينفع الندم، ويَسْأُوا من كل خير، ويتمنَّوا لو أنهم آمنوا بالرسول، واتخذوا معه سبيلًا، وفيَّ هذا تحذير لهم من الإقامة على الكفر.

وهكذا فقصة الغرائق فيها تمحيص وابتلاء للمنافقين قساة القلوب أهل الظلم والطغيان، وفيها ثبات ويقين لأهل العلم الحقيقي، وفيها إظهار الشك والارتياب لأهل الكفر.

فَصْلُ الْقَضَاءِ بَيْنَ الْخَلَائِقِ

أولاً: المؤمنون ونعيمهم:

٥٦- ﴿الْمَلِكُ يَوْمَئِذٍ لِلَّهِ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ﴾
وفي يوم القيامة يكون الملك والسلطان لله وحده، كما أن الملك في الدنيا لله وحده، لكن الدنيا فيها ملك ظاهري لعدد من الخلق، أما في يوم القيامة فلا يكون اسم الملك إلا لله وحده؛ حيث لا ملك لأحد من ملوك الدنيا: ﴿الْمَلِكُ يَوْمَئِذٍ لِلَّهِ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ﴾ أي: أن الله تعالى يقضي يوم القيامة بين المؤمنين والكافرين فيما اختلفوا فيه، وأدعى كل منهم أنه على الحق، وضده على الباطل، كما قال تعالى: ﴿الْمَلِكُ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ لِلرَّحْمَنِ﴾ [الفرقان: ٢٦]. وقال: ﴿لَمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ﴾ [غافر: ١٦].

ثم فصل سبحانه هذا الحكم الذي يكون بين الناس يوم القيامة، فذكر أن الناس ثلاثة أصناف:

أولهم: المؤمنون، الذين صدقوا بالله ورسوله، فأيقنوا واعتقدوا اعتقاداً جازماً بوحدانية الله تعالى، وصدق ما جاء محمد ﷺ، وعملوا الأعمال الصالحة، فهؤلاء لهم النعيم الدائم في جنة الخلد، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ جَنَّاتُ النَّعِيمِ﴾ ﴿٨﴾ [لقمان].

وقال تعالى عن عباده المقربين: ﴿فَأَمَّا إِنْ كَانَ مِنَ الْمُقَرَّبِينَ﴾ ﴿٨٨﴾ ﴿فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ وَجَنَّتُ نَعِيمٍ﴾ ﴿٨٩﴾ [الواقعة]، فيحصل لمن في الجنة: الراحة والرزق والنعيم المقيم.

ثانياً: الكُفَّارُ وَعَذَابُهُمْ:

٥٧- ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَأُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾ ﴿٥٧﴾

وثانيهم: الكافرون الذين جحدوا وحدانية الله تعالى وكذبوا رسوله، وأنكروا آيات القرآن، فأولئك لهم عذاب يخزيهم ويُهينهم في جهنم، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾ [غافر: ٦٠].

ثَالِثًا: مَنْ فُتِنُوا فِي دِينِهِمْ وَمَا أَعَدَّهُ اللَّهُ لَهُمْ:

٥٨- ﴿وَالَّذِينَ هَاجَرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ قُتِلُوا^(١) أَوْ مَاتُوا لَيَرْزُقَنَّهُمُ اللَّهُ رِزْقًا حَسَنًا وَإِنَّ اللَّهَ لَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ

وثالثهم: تخصيص لفريق من عموم الذين آمنوا وعملوا الصالحات، للمهاجرين المجاهدين، تنويهاً بفضل الجهاد في سبيل الله، وهم الذين خرجوا من ديارهم، طلباً لرضى الله تعالى، ونصرة لدينه، سواء من قُتل منهم وهو في جهاد مع الكفار، أو من مات منهم على نية الجهاد من غير قتال، فإن الله تعالى سيرزقهم جميعاً رزقاً حسناً هو الجنة، ونعيمها الذي لا ينقطع ولا يزول، وهذا كقوله تعالى: ﴿وَمَنْ يَخْرُجْ مِنْ بَيْتِهِ مُهَاجِرًا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ يُدْرِكُهُ الْوُتُّ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ﴾ [النساء: ١٠٠]. والله تعالى هو خير الرازقين، أي: أن الله تعالى هو الرازق في الواقع وحقيقة الأمر.

ومن قُتل في سبيل الله، مهاجرًا أو غير مهاجر، فهو حيٌّ يرزق عند ربه، كما قال تعالى: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ﴿١٦٩﴾ فَرِحِينَ بِمَا ءَاتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَسَيُنبِشِرُونَ بِالَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا بِهِمْ مِنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿١٧٠﴾﴾ [آل عمران]. وهذا من الرزق الحسن الذي وعدهم الله إياه، فهم يرزقون في البرزخ، ويرزقون يوم لقاء الله:

٥٩- ﴿لَيَدْخِلْنَهُمْ مُدْخَلَ^(٢) رِضْوَانِهِ وَإِنَّ اللَّهَ لَكَلِيمٌ حَلِيمٌ

ومن كرامة المهاجرين المجاهدين على الله، وحسن منزلتهم عنده، أنه سبحانه يُدخلهم مدخلاً حسناً يرضونه هو الجنة في الدار الآخرة، أما في الدنيا فإن الله تعالى سيفتح عليهم من البلاد ما يدخل به الفرح والسرور عليهم.

وعلم الله تعالى محيط بمن خرج من بيته مهاجرًا في سبيل الله، ومن خرج طلباً للدنيا، وهو سبحانه حلیم بمن عصاه فلا يعاجلهم بالعقوبة.

(١) قرأ ابن عامر بتشديد التاء من (قتلوا) للتكثير، والباقون بتخفيفها على الأصل.

(٢) قرأ نافع وأبو جعفر بفتح الميم من (مدخلا)، مصدر أو اسم مكان من دخل الثلاثي، والباقون بتشديدها من أدخل الرباعي.

وَعَدُ اللَّهِ تَعَالَى بِنُصْرَةِ الْمَظْلُومِ

٦٠- ﴿ذَٰلِكَ وَمَنْ عَاقَبَ بِمِثْلِ مَا عُوقِبَ بِهِ ثُمَّ بُغِيَ عَلَيْهِ لِيَنْصُرَهُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ﴾

لما ذكر الله تعالى الهجرة والجهاد في الآيات السابقة، بعد أن أذن سبحانه لعباده المظلومين بالدفاع عن أنفسهم في قوله تعالى: ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظَلَمُوا﴾ وعدهم هنا بالنصر على عدوهم، فمن عاقب الظالم بمثل ظلمه، ثم اعتدى الظالم مرة أخرى على المظلوم فإن الله تعالى ناصره.

أي: ومن ظلم وجنى عليه، فإنه يجوز له أن يقابل الجاني بمثل جنايته، فإن فعل ذلك فليس بملوم وليس عليه سبيل، فإن بُغِيَ عليه بعد ذلك فإن الله ينصره، لأنه مظلوم.

وكان المسلمون قد اعتدوا عليهم، وأخرجوا من ديارهم وأموالهم، فبين سبحانه أن دفع المعتدين الذين آذوا المسلمين وأرغموهم على مغادرة أوطانهم، هو من باب القانون العادل المماثل في رد العدوان.

وسُمِّي اعتداء غير المؤمنين على المؤمنين عقاباً في قوله تعالى: ﴿بِمِثْلِ مَا عُوقِبَ بِهِ﴾ لأن غير المسلمين كان قصدهم معاقبة المسلمين على خروجهم عن الشرك وعبادة الأوثان.

وقيل في أسباب النزول: إن قوماً من المسلمين لقوا جماعة من المشركين قبل نهاية شهر المحرم بيومين، فأراد المشركون أن يحملوا على المسلمين ويقاتلوهم، وقالوا: إن أصحاب محمد يحرمون القتال في الشهر الحرام، فناشدهم المسلمون ألا يقاتلوهم، وألا يتعرضوا لهم في الشهر الحرام، فأبى المشركون إلا أن يقاتلوا المسلمين، فقاتلوهم، فثبت الله المسلمين ونصرهم على المشركين، وحدث في نفوس المسلمين شيء من القتال في الشهر الحرام، فأنزل الله سبحانه الآية^(١).

والمعنى: إن ذلك الأمر الذي قصصناه عليك -يا رسولنا- من إدخال المهاجرين

(١) أخرجه ابن أبي حاتم عن مقاتل بسند مرسل في سرية بعثها النبي ﷺ في نهاية المحرم، ذكره السيوطي في «الدر المنثور» (١٠/٥٣٥) والقرطبي (٢/٩٠) وابن كثير (٥/٤٤٩).

الجنة، وحُسن منزلتهم عند الله تعالى، هو الجزاء العادل فإن المظلوم مأذون له في دفع العدوان بمثله.

﴿ذَلِكَ﴾ اسم إشارة يؤتى به للفصل بين كلامين، ولا يصلح أن يكون ما بعده خبراً عن اسم الإشارة، ويؤتى به لبيان أهمية ما سيأتي.

وهو أن مَنْ اعتَدَى عليه وظلم، ولو كان هذا الاعتداء في الشهر الحرام، ثم دافع عن نفسه، وجازى المعتدي بمثل ما فعل، فقابل السيئة بالسيئة، وانتصر لنفسه فلا شيء عليه؛ لأن الله تعالى قد أذن له أن يقابل الجاني بمثل فعلته، ولا حرج عليه في ذلك.

ثم إن اعتدَى أو بُعِيَ عليه مرة أخرى، فإن الله تعالى قد تعهد بنصرة المظلوم في مثل هذه الحالة أيضًا ﴿لَيَنْصُرَنَّ اللَّهُ﴾ إذ لا يجوز أن يُعتدى عليه بسبب انتصافه لنفسه، كما قال تعالى: ﴿إِنَّهُمْ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ﴾ وَلَمَنِ انْتَصَرَ بَعْدَ ظُلْمِهِ فَأُولَئِكَ مَا عَلَيْهِمْ مِنْ سَبِيلٍ ﴿٤١﴾ إِنَّمَا السَّبِيلُ عَلَى الَّذِينَ يَظْلِمُونَ النَّاسَ وَيَبْغُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٤٢﴾ [الشورى].

والآية تشير إلى أن الذين أخذوا حقهم قصاصاً ورداً للعدوان، فإن الله تعالى غفور لهم رحيم بهم، يتجاوز عنهم ولا يؤاخذهم ما داموا لم يعتدوا ابتداء، ولم يتجاوزوا الحد في القصاص، فإن اعتدَى عليهم بعد أن قابلوا العدوان بمثله فإن الله سينصرهم.

وهذا الجزاء المماثل في رد العدوان جاء في سياق الدفاع عن الوطن، وحمايته من المعتدي، وليس في مقام تعامل الأفراد، ولذا فإن آيات الترغيب في العفو لا مجال لها في هذا المقام أي في مقابلة السيئة بمثلها، ولكن العفو درجة أعلى من ذلك.

ولذلك ختم الله الآية بقوله ﴿إِنَّ اللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ﴾ يعفو عن المذنبين ويغفر ذنوبهم، وقد جُمع الأمران معاً قوله تعالى ﴿وَحَزُوا سِنَةً سِنَةٌ مَثَلًا فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ﴾ [الشورى: ٤٠]

سِتَّةُ أُدْلَةٍ عَلَى وَحْدَانِيَةِ الْخَالِقِ سُبْحَانَهُ

الدليل الأول: إدخال كل من الليل والنهار في الآخر:

٦١- ﴿ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَأَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ﴾

ثم بيّن سبحانه أنه لا عجب في النصر الذي وعد الله به المسلمين مع قلتهم؛ فإن

نُصْرَتَهُ تَعَالَى لِلْمَظْلُومِ مِنْ آثَارِ قُدْرَةِ اللَّهِ تَعَالَى، وَرَبِطَهَا بِسُنَنِهِ الْكُونِيَّةِ.

ومعناه: أن الله القادر على نُصْرَةِ المظلوم هو القادر على إدخال الليل في النهار، وإدخال النهار في الليل، فالليل يزيد والنهار ينقص، والنهار يزيد والليل ينقص، وظلمة الليل تدخل في ضوء النهار، وضوء النهار يدخل في ظلمة الليل، وهو الخالق المتصرف في خلقه بما يشاء.

قال تعالى: ﴿قُلِ اللَّهُمَّ مَلِكُ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَنْ تَشَاءُ وَتَنْزِعُ الْمُلْكَ مِمَّنْ تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَنْ تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَنْ تَشَاءُ يَبْدِكَ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٦٦﴾ تُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَتُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَتُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَتُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَتَرْزُقُ مَنْ تَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٦٧﴾﴾ [آل عمران].

والله تعالى سميع لكل صوت، بصير بكل فعل، لا يخفى عليه شيء، ﴿سَوَاءٌ مَنكُم مَّنْ أَسْرَأَ الْقَوْلَ وَمَنْ جَهَرَ بِهِ وَمَنْ هُوَ مُسْتَخَفٍ بِالنَّيْلِ وَسَارِبٌ بِالنَّهَارِ﴾ [الرعد: ١٠]

﴿أَمْ يَحْسِبُونَ أَنَّا لَا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُمْ بَلَىٰ وَرُسُلْنَا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ﴾ [الزخرف: ٨٠]

الدَّلِيلُ الثَّانِي: كُلُّ مَا عُبِدَ مِنْ دُونِ اللَّهِ فَهُوَ بَاطِلٌ:

٦٢- ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ هُوَ الْبَاطِلُ وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ ﴿٦٢﴾﴾

أي: أن الذي يفعل ذلك فيدخل النهار في الليل، ويدخل الليل في النهار، هو الإله الحق الثابت الذي لا يفنى، ولا يحول ولا يزول، ليس مثله شيء وليس بعده شيء. قوله حق، ووعدته حق، ودينه حق، وعبادته حق، ولقاؤه حق، فهو القادر على نصر المظلوم، وهو الذي تعنو الوجوه لعظمته، ولا تعنو لغيره، ولا تتجه لسواه، فكل ما سوى الله باطل، من سائر الآلهة التي تُعبد من دون الله في طول الأرض وعرضها، فلا تنبغي العبادة إلَّا له، وكل ما في الكون تحت قهره وسلطانه وعظمته، لا إله غيره ولا رب سواه، ما شاء الله كان، وما لم يشأ لم يكن، والله تعالى هو العلي الكبير، الكامل في أسمائه وصفاته وأفعاله، الأرض قبضته يوم القيامة، والسموات مطوياته بيمينه، نواصي العباد بيده، لا يسكنون ولا يتحركون إلَّا بمشيئته.

فمعنى الآية: ذلك بأن الله هو الواحد الأحد، الذي لا إله غيره ولا رب سواه، وأن ما

يعبده المشركون من دون الله هو الباطل الذي لا ينفع ولا يضر، وأن الله هو العلي على خلقه، المتعالي عن الأشباه والأنداد، الكبير الذي دونه كل شيء، ولا شيء أكبر منه، فهو صاحب صفات الكمال والجلال، والكبرياء والعظمة، كلها ثابتة له سبحانه، والمقصود من العبادات: تكبيره وتعظيمه، وإجلاله وإكرامه، ولذا كان التكبير شعار الصلاة.

والآية تشير إلى سبب آخر لنصر المؤمنين على عدوهم، وهو أن الله تعالى إذا أراد فعل وقدر، فهو سبحانه ينصر أوليائه، وما يعبده المشركون من دون الله لا يستطيعون نصر أنفسهم فضلاً عن غيرهم، كما قال تعالى: ﴿وَلَا يَسْتَطِيعُونَ لَهُمْ نَصْرًا وَلَا أَنْفُسُهُمْ يَنْصُرُونَ﴾ [الأعراف].

الدَّلِيلُ الثَّالِثُ: إِحْيَاءُ الْأَرْضِ بِالْمَاءِ

٦٣- ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَتُصْبِحُ الْأَرْضُ مُخْضَرَّةً إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ﴾

وبعد هذه الآيات الثلاث التي تُبين شيئاً من كمال قدرة الله ﷻ، ذكر جل شأنه بعض نعمه على الإنسان، الدالة على آثار قدرة الله سبحانه في الكون؛ كي يشكر العبد ربه، ويعلم أنه المستحق للعبادة دون سواه.

﴿أَلَمْ تَرَ﴾ والخطاب لرسول الله ﷺ ولكل مسلم يتأتى منه الخطاب، وهو يعلم قدرة الله بقلبه علم اليقين ويشاهدها ببصره، وفي هذا حث للعباد على التأمل والنظر في آيات الله الدالة على وحدانية وكمال قدرته.

والمعنى: ألم تعلم ببصيرتك، وتشاهد بعينيك آثار دلائل قدرة الله تعالى في الكون، ومنها نعمة الماء، فترى أن الله تعالى ينزل الماء من السحاب إلى الأرض اليابسة الجافة الميتة، فيُنبت به الزروع والثمار والأشجار بعد أن كانت الأرض هامدة جامدة؟! كما قال تعالى: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ تَرَى الْأَرْضَ خَاشِعَةً فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْزَلَّتْ وَرَبَتْ إِنَّ الَّذِي أَحْيَاهَا لَمُجِي الْمَوْتِ﴾ [فصلت: ٣٩].

وقال سبحانه: ﴿فَانظُرْ إِلَى آثَارِ رَحْمَتِ اللَّهِ كَيْفَ يُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا﴾ [الروم: ٥٠].

واخضرار الأرض بما ينبت فيها من نبات؛ بسبب سقيها بالماء، يكون بعد انتعاشها،

ومرور البذر فيها بمراحل التكوين؛ وهي تُشبه أطوار خلق الإنسان من نطفة، ثم علقه، ثم مضغة، ثم لحم وعظام، وهذا من أدلة قدرة الله تعالى على البعث والنشور بعد الموت والفناء.

إن الله تعالى لطيف بعباده، قدّر لهم أقواتهم وأرزاقهم من هذا النبات الذي يخرج من الأرض بأثر هذا الماء، خير بهم وبأحوالهم، لا يغيب عنه شيء، كما قال تعالى: ﴿وَمَا تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٌ فِي ظُلُمَاتِ الْأَرْضِ وَلَا رَطْبٌ وَلَا يَابِسٌ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ﴾ [الأنعام: ٥٩].

وقال لقمان لابنه: ﴿يَبْنَىٰ إِنَّمَا إِنْ تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ فَتَكُنْ فِي صَحْرَةٍ أَوْ فِي السَّمَوَاتِ أَوْ فِي الْأَرْضِ يَأْتِ بِهَا اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ﴾ [لقمان: ١٦].

وهو سبحانه لطيف، يدرك بواطن الأمور، وخفاياها وأسرارها، فهو يسوق الخير إلى العباد، ويدفع عنهم الشر بطرق لطيفة تخفى على العباد، ومن لطفه تعالى أنه يعلم مواقع القطر من الأرض، وبذور الحب في باطنها، فيسوق الماء إلى البذر الذي خفى عن علم الخلائق، فينبت منه النبات، وهو خير بسرائر الأمور وخبايا الصدور، وخفايا الأمور.

الدليل الرابع: الكون كله مربوب لله تعالى:

٦٤- ﴿لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَإِنَّ اللَّهَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَمِيدُ﴾ [٦٤]

وإنزال المطر من السماء، وإنبات العُشب من الأرض، ما هو إلا بعض ما في هذا الكون، فهو سبحانه ﴿لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾ ملكاً وخلقاً وعبودية، يتصرف فيهم كيف يشاء، والكل محتاج إلى فضله وتديره، والكون كله مخلوق ومربوب لله تعالى، والله جلّ شأنه يرزق من يشاء بقدرته وحكمته وعلمه، وهو الغني عن خلقه جميعاً، المستحق للحمد دون سواه، ومن غناه سبحانه أنه لا يحتاج إلى أحد من خلقه، ولم يتخذ له صاحبة ولا ولداً، وهو سبحانه صمد، لا يأكل ولا يشرب، ولا والد له ولا ولد، فغناه تام مطلق من جميع الوجوه، لا يحتاج إلى شيء، والخلق كلهم مفتقرون إليه في كل شيء، وهو سبحانه محمود في ذاته وأسمائه وصفاته وأفعاله، وكلها تدور بين العدل والإحسان والرحمة والحكمة، فهو يأمر بكل ما فيه مصلحة، وينهي عن كل ما فيه مفسدة، لا يُحصى العباد ثناء عليه، بل هو سبحانه كما أثنى على نفسه، فهو الغني في حمده، الحميد في غناه.

الدَّلِيلُ الْخَامِسُ: نِعْمَ اللَّهُ عَلَى الْإِنْسَانِ فِي الْأَرْضِ وَالْبَحْرِ وَالْجَوِّ

٦٥- ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِي الْأَرْضِ وَالْفُلْكَ تَجْرَى فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ وَيُمْسِكُ السَّمَاءَ أَنْ تَقَعَ عَلَى الْأَرْضِ إِلَّا بِإِذْنِهِ إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرُءُوفٌ^(١) رَحِيمٌ ﴿٦٥﴾

من نعم الله تعالى على الإنسان أن سَخَّرَ له كل ما في الأرض، وكل ما في البحر، وكل ما في الجو، فهذه نعم ثلاث، شملت هذا الكون بسمائه، وأرضه، وبره، وبحره، وكلها دالة على وحدانية الله تبارك وتعالى:

النعمة الأولى جاءت في قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِي الْأَرْضِ﴾.

أي: من دواب، وأشجار، وأنهار، وجبال، ومعادن، ونبات، وغير ذلك.

والتسخير: هو تسهيل الانتفاع بكل ما في الأرض، سَيِّمًا ما يصعب تذليله مما يماكانه أن يمتنع من التسخير، كتسهيل استخدام الحيوان الداجن من: الخيل، والإبل، والبقر، والغنم، ونحوها، بأن جعل الله فيها طبيعة الخوف من الإنسان، وإلفها له.

وكذلك تسهيل الانتفاع بما يتعذر تسخير، لولا أن الله تعالى يَسَّرَ وسائل التغلب عليه مثل: صيد الوحش، واستخراج اللؤلؤ والمرجان من البحر.

كما سَخَّرَ الله للإنسان ما هو تحت يده، من الحيوان والجماد، والزروع والثمار، ويسَّرَ له ركوب الدواب ووجود الطعام، واستغلال ثروات الأرض، وطاقاتها الظاهرة والكامنة، كما قال تعالى: ﴿وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ﴾ [البقرة: ١٣].

وقال تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُم مَّا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا﴾ [البقرة: ٢٩].

ومن هذه النعم: الهواء المحيط بأجواء الأرض، وبغير هذا الهواء لا يتنفس الإنسان، ولا يعيش كل كائن حي إلا به.

ومنها: الماء الذي خلق الله منه كل شيء حي: كالإنسان، والطير، والنبات،

(١) قرأ أبو عمرو وشعبة وحزمة والكسائي ويعقوب وخلف بقصر همزة (لرءوف) والباقون بمدّها، بمقدار مدّ البدل عند جميع القراء ما عد ورثًا وقرأ الأزرق عن ورش بتثني البدل، أي بمدّه حركتين، أو أربع حركات، أو ست حركات.

والشجر، والدواب.

لقد سخر الله للإنسان ما في الأرض، وما فوق ظهر الأرض، وما هو داخل في جوف الأرض من الكنوز والمعادن والبترو، وكل ما يتجدد ويظهر للناس من المنافع.

النعمة الثانية جاءت في قوله تعالى: ﴿وَالْفُلْكَ تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِأَمْرٍ﴾.

الفلك هي السفن، وقد عرفت السفن من عهد نوح عليه السلام، وهي تحمل الخلائق، وتنقلهم من مكان إلى مكان وتحمل الأرزاق، والتجارات، وآلات الحروب، وغيرها.

قال تعالى: ﴿وَمَا يَكُنْ أَنَّا حَمَلًا ذُرِّيَّتَهُمْ فِي الْفُلْكَ الْمَشْحُونِ ﴿٤١﴾ وَخَلَقْنَا لَهُمْ مِنْ مِثْلِهِ مَا يَرْكَبُونَ ﴿٤٢﴾ وَإِنْ نَشَأْ نُغْرِقْهُمْ فَلَا صَرِيحَ لَهُمْ وَلَا هُمْ يُقْدُونَ ﴿٤٣﴾ إِلَّا رَحْمَةً مِنَّا وَمَتَاعًا إِلَىٰ حِينٍ ﴿٤٤﴾﴾ [يس].

ويقاس عليها الطائرات، والغواصات، والدبابات، وكل ما جد واستحدث.

ويشبه هذه الآية قوله تعالى: ﴿وَالَّذِي سَخَّرَ لَكُمُ الْبَحْرَ لَتَجْرِيَ الْفُلْكَ فِيهِ بِأَمْرٍ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٢﴾﴾ وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ ﴿١٣﴾﴾ [الجاثية].

النعمة الثالثة جاءت في قوله تعالى: ﴿وَيُمَسِّكُ السَّمَاءَ أَنْ تَقَعَ عَلَى الْأَرْضِ إِلَّا بِإِذْنِهِ﴾.

فالله تعالى يحفظ السماء أن تسقط بما فيها من الأجرام والكواكب والأفلاك والنجوم؛ لأنها إذا وقعت على الأرض أهلكت ودمرت كل ما عليها، قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُمْسِكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ أَنْ تَزُولَا وَلَئِنْ زَالَتَا إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِّنْ بَعْدِهِ﴾ [فاطر: ٤١].

وقال تعالى: ﴿إِنْ نَشَأْ نُخَفِّفْ بِهِمُ الْأَرْضَ أَوْ نُسْقِطَ عَلَيْهِمْ كِسْفًا مِّنَ السَّمَاءِ﴾ [سبا: ٩].

ولفظ السماء: يتناول كل ما في العالم العلوي، ولفظ الأرض: يتناول كل ما في العالم الأرضي.

فلو شاء الله تعالى وأذن للسماء في الوقوع فسقطت على الأرض لأهلك كل من عليها، ولكن الله تعالى حفظ نظام الكون من الخلل والتصادم إلى نهاية هذه الحياة، ولا يحدث التغيير إلا عند قيام الساعة، حين يتغير هذا الكون بتشقق السماء وانفطارها، وتكوير الشمس، وتناثر النجوم، وتسيير الجبال، وتغيير الأرض غير الأرض والسموات، وبرزوا لله الواحد القهار.

فالله تعالى يمتن على الناس في هذه الآية بسلامتهم مما يفسد حياتهم.

والمخلوقات العلوية، والكواكب السيارة من شأنها التغلب على المخلوقات الأرضية وإمكانية تحطيمها، ولكن الله تعالى أودعها سُنتًا ونُظْمًا تسير في فلكه ﴿لَا الشَّمْسُ يَنْبَغِي لَهَا أَنْ تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلَا آتِلُ سَابِقُ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾ [يس] وإمساك السماء أن تقع على الأرض ضرب من تسخير الله لها لمصلحة البشر، وهي نعمة كبرى، ومنة عظيمة، يذكر الله تعالى بها الإنسان، ولذا خُتِمت الآية بقوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ بِالْكَاسِ لَرُءُوفٌ رَجِيمٌ﴾ أي: فيما سخر لهم من الأرض، والبحر، والسماء، وهو أرحم بهم من أنفسهم ومن والديهم، يسوق لهم الخير، ويدفع عنهم الشر.

أخرج الطبراني عن ابن عباس ؓ قال: إذا أُتيتَ سلطانًا مهيبًا تخاف أن يسْطُو بك فقل: الله أكبر، الله أكبر من خلقه جميعًا، الله أعزُّ مما أخاف وأحذر، أعوذ بالله الذي لا إله إلا هو، المُمْسِكُ السموات السبع أن يقعن على الأرض إلا بإذنه، من شر عبدك فلان وجنوده وأتباعه وأشياعه من الجن والإنس، إلهي كن لي جارًا من شرهم، جلَّ ثناؤك، وعزَّ جارك، وتبارك اسمك، ولا إله غيرك. ثلاث مرات^(١).

الدَّلِيلُ السَّادِسُ: الْإِحْيَاءُ وَالْإِمَاتَةُ

٦٦- ﴿وَهُوَ الَّذِي أَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ إِنَّ الْإِنْسَانَ لَكَفُورٌ﴾

ثم ختم الله تعالى هذه النعم، بما هو أجلُّ وأعظمها، نعمة الحياة والموت، ثم البعث والنشور، إن سر الموت وإمداد الجسد بالروح لا يعلمه إلا الله، والإنسان لم يتوصل إلى هذا السر العجيب إلى يومنا هذا؛ فالموت لا يعلمه إلا الله؛ إذ كيف تُسلب الروح من جسد الإنسان فيصبح جثه هامدة؟ ما الذي حدث؟

﴿فَلَوْلَا إِذَا بَلَغَتِ الْحُلُقُومَ ﴿٨٢﴾ وَأَنْتُمْ حِينِيذٍ نَنْظُرُونَ ﴿٨٣﴾ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْكُمْ وَلَكِنْ لَا تُبْصِرُونَ ﴿٨٥﴾ فَلَوْلَا إِنْ كُنْتُمْ غَيْرَ مَدِينِينَ ﴿٨٦﴾ تَرْجِعُونَهَا إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿٨٧﴾﴾ [الواقعة].

من يستطيع أن يتوصل إلى معرفة قدرة الله تعالى في الحياة والموت؟ من يستطيع إعادة الروح إلى الجسد؟ وقدرته سبحانه في الإماتة لا تقل عن قدرته في الإحياء، والحياة تتجدد كل يوم، والموت يحدث كل يوم.

(١) الطبراني (١٠٥٩٩) قال الهيثمي: رجاله رجال الصحيح، «مجمع الزوائد» (١٣٧/١٠).

﴿وَهُوَ الَّذِي أَحْيَاكُمْ﴾ من العدم ﴿ثُمَّ يُمِيتُكُمْ﴾ عند انقضاء آجالكم ﴿ثُمَّ يُحْيِيكُمْ﴾ بعد الموت للبعث والحساب والثواب والعقاب.

والإنسان - مع وجود هذه النعم التي لا تعد ولا تحصى - جحود بأنعم الله تعالى عليه، إلا من عصمه الله، ﴿إِنَّ الْإِنْسَانَ لَكَفُورٌ﴾، لنعم الله عليه، لا يعترف بإحسانه، وربما كفر بالبعث وقدرة الله عليه.

ومثل هذه الآية قوله تعالى: ﴿كَيْفَ نَكْفُرُكَ بِاللَّهِ وَكُنْتُمْ أَمْوَاتًا فَأَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ [البقرة].

وقوله: ﴿قُلِ اللَّهُ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يَجْعَلُكُمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ﴾ [الجاثية: ٢٦].

وقوله: ﴿قَالُوا رَبَّنَا آمَنَّا أَتَيْنَا أَثْلَتَيْنِ وَأَحْيَيْتَنَا أَثْلَتَيْنِ﴾ [غافر: ١١].

وقوله: ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ ثُمَّ رَزَقَكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ﴾ [الروم: ٤٠].

اِخْتِلَافُ الشَّرَائِعِ وَاتِّفَاقُ الْعُقَائِدِ فِي الرِّسَالَاتِ

٦٧- ﴿لِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنَسَكًا هُمْ نَاسِكُوهُ فَلَا يُنْزِعُ عَنْكَ فِي الْأَمْرِ وَاَدْعُ إِلَى رَبِّكَ إِنَّكَ لَعَلى هُدًى مُسْتَقِيمٍ﴾ [٧]

في هذا السياق العظيم بيّن الله ﷻ أن كل أمة من الأمم الماضية لها شريعة وعبادة، أمرهم الله تعالى بها، فهم عاملون بمقتضاها، وقد تختلف عن بعضها في بعض الأمور، مع اتفاقها في الأصول والعقائد ﴿لِكُلِّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِنْ لِيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ﴾ [المائدة: ٤٨].

ذلكم أن الله سبحانه ربّي الأجيال على أيدي الرسل، فانتقلت في مراحل الحياة من الطفولة إلى الشباب إلى الرجولة، وكانت مرحلة الطفولة والشباب على أيدي الرسل الأولين، بحيث يُنزل الله إليهم منهجاً وشريعة على قدر مستواهم من التكليف بالشريعة ومنهج الحياة المناسبة، ثم يكبرون شيئاً فشيئاً، فتزداد التكاليف الشرعية، دون خلاف في العقائد.

فليس بإمكان الطفل مثلاً أن يأكل الجزر أو الخبز اليابس، ولكنه يتناول أولاً ثدي أمه، ثم الحليب، ثم السوائل، ثم الأرز... وفي النهاية يُمَصُّ القصب، وقد اكتملت رجولة

الإنسان عند مبعث محمد ﷺ، فأتى الله سبحانه بالرسالة الخاتمة إلى يوم القيامة، ونسخت كل ما قبلها ﴿لِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنسَكًا هُمْ نَاسِكُوهُ﴾ أي: كلّفنا كل أمة بشريعة وعبادة، ومنهج حياة، على لسان رسول الأمة التي بُعث إليها.

فشريعة موسى عليه السلام جاءت بمنهج التوراة، واستمرت إلى مبعث عيسى عليه السلام، ثم جاء منهج عيسى عليه السلام في الإنجيل، واستمر إلى مبعث محمد ﷺ، ثم من بعثه رسول الله محمد ﷺ إلى يوم القيامة كان هذا القرآن.

وكل أمة من الأمم عليها أن تؤمن بمحمد ﷺ ويكتابه؛ لأن الرسالة الخاتمة نسخت ما قبلها، قال تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَا ءَاتَيْتُكُمْ مِنْ كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِءَ وَلَتَنْصُرُنَّهُ﴾ [آل عمران: ٨١]. وهي الرسالة الأخيرة التي تصلح لكل زمان ومكان إلى قيام الساعة.

وما دام الأمر كذلك ﴿فَلَا يَنْزِعُ عَنْكَ فِي الْآخِرَةِ﴾ وهو توحيد الله سبحانه، وما جئت به من عند الله تبارك وتعالى، فلا يكذبك المكذبون ولا يعترض عليك المعترضون بعقولهم الفاسدة، في مثل نزاعهم في حل الميتة بقياسهم الفاسد، فيقولون: تأكلون ما قتلتم ولا تأكلون ما قتل الله، ومثل قولهم ﴿إِنَّمَا أَلْبَسُوا بِكُفْرِهِمْ كِلَابًا﴾ [البقرة: ٢٧٥] وهم منكرون لأصل الرسالة، فنزاعهم من باب التعجيز والتعنت.

وهذا خطاب لرسول الله ﷺ، أي: لا تلتفت -يا رسولنا- إلى ما يقوله المشركون من تعدد الآلهة، ولا إلى ما يخاصمونك به، أو ينازعونك فيه، من اتخاذ الوسطاء إلى الله تعالى، وهذا نهى لغير المسلمين أن ينازعوا النبي ﷺ في التوحيد والتكاليف الشرعية، قال تعالى: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجًا مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾ [النساء: ٦٥].

وقال تعالى: ﴿وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ [آل عمران: ٨٥].

وقد أمر الله رسوله أن يدعو إلى دين ربه بالحكمة والموعظة الحسنة.

فامض - يا رسول الله - في طريق الدعوة إلى الله، إنك لعلي هدى مستقيم، أي: ادع إلى توحيد ربك، وإخلاص العبادة له، واتباع ما أمرك به من المناسك، ومختلف أنواع العبادات،

وادع إلى ربك إنك لعلی دين قويم، لا اعوجاج فيه، موصل إلى جنات النعيم.

وهذا كقوله تعالى: ﴿وَلَا يَصُدُّكَ عَنْ ءَايَاتِ اللَّهِ بَعْدَ إِذْ أُتِرْتَ بِهَا وَإِلَيْكَ وَإَدْعُ إِلَى رَبِّكَ﴾ [القصص: ٨٧].

وقوله تعالى: ﴿وَإِنْ كَذَّبُوكَ فَقُلْ لِي عَمَلٍ وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ أَنْتُمْ بَرِيءُونَ مِمَّا أَعْمَلُ وَأَنَا بِرِيءٌ مِمَّا تَعْمَلُونَ﴾ [يونس: ٤١].

وقوله تعالى: ﴿فَلِذَلِكَ فَادْعُ وَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتُ وَلَا تَلْبِغْ أَهْوَاءَهُمْ وَقُلْ ءَامَنْتُ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنْ كِتَابٍ وَأُمِرْتُ لِأَعْدِلَ بَيْنَكُمُ اللَّهُ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ لَا حُجَّةَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ اللَّهُ يَجْمَعُ بَيْنَنَا وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ﴾ [الشورى: ١٥].

فامض - أيها الداعي إلى الله - في طريق الدعوة فأنت على ثقة من أمرك، ويقين من دينك، ولست على أمر مشكوك فيه أو حديث مفترى ﴿فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّكَ عَلَى الْحَقِّ الْمُبِينِ﴾ [النمل: ٧٩] وقد وصف الله ما جاء به النبي ﷺ بأنه هدى تحصل به الهداية في أصول الدين وفروعه ﴿إِنَّكَ لَمَلَكٌ هُدًى مُسْتَقِيمٌ﴾.

هذا: ولفظ الْمَنَسْكَ بفتح الميم والسين: اسم للمكان الذي تُذبح فيه القرابين، وهي الذبائح، ويطلق التُّسْكُ على العبادة، ويطلق على أعمال الحج ومواضعها.

ومن المفسرين من يرى أن لهذه الآية ارتباطاً بنظيرتها السابقة [٢٤] ﴿وَلِكُلِّ أُمَةٍ جَعَلْنَا مَنَسَكًا لِّذِكْرِهِمْ أَسْمَ اللَّهِ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُمْ مِنْ بَهِيمَةٍ أَلْأَنْفُسِ﴾ وأن المراد بالمنسك في الآية السابقة: هو موضع ذبح القرбан، والمراد به هنا: نسك الحج من هدي وفدية، أو أن قریشاً في الجاهلية كانت تقف وحدها عند المشعر الحرام، ويقف سائر العرب في عرفة، وكانوا يتجادلون أيهما على صواب؟ فقال الله تعالى: ﴿لِكُلِّ أُمَةٍ جَعَلْنَا مَنَسَكًا هُمْ نَاسِكُوهُ﴾^(١).

ومعنى ﴿فَلَا يَنْزِعُ عَنْكَ﴾ على هذا، أي: في أمر الحج.

قلت: هذا الكلام يخصُّ الحجَّ، وهو يدخل في المعنى الأول، وأعمال الحج من العبادة التي يشملها لفظ النسك، فالتفسير الأول أعم وأشمل.

ورد أن هذه الآية نزلت بسبب جدال الكفار في أمر الذبائح، وقولهم للمؤمنين: تأكلون ما

(١) «تفسير التحرير والتنوير» (١٧/ ٢٣٠).

ذبحتم وهو من قتلكم، ولا تأكلون مما قتل الله من الميتة؟! فنزلت الآية بسبب هذه المنازعة^(١).
وأخرج ابن المنذر عن مجاهد: ﴿فَلَا يَنْزِعُ عَنْكَ فِي الْآثَرِ﴾ قول أهل الشرك: أمّا ما ذبح
الله يمينه فلا تأكلون، وأمّا ما ذبحتم بأيديكم فهو حلال^(٢).

حُسْنُ الْأَدَبِ فِي جِدَالِ الْمُعَانِدِ:

٦٨، ٦٩- ﴿وَإِنْ جَادَلُوكَ فَقُلِ اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ (٦٨) اللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ
فِيمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿٦٩﴾

وبعد أن بيّن سبحانه أنه لا نزاع ولا جدال في توحيد الله تعالى، وأنّ العبادة يجب أن
تُوجّه إليه وحده، من ذبح وحج وذكر ودعاء، وما إلى ذلك، يقول الله تعالى لرسوله: إن
تبيّن عدم اقتناعهم بالأدلة، وأصروا على مجادلتك بالباطل فيما تدعوهم إليه بعد ظهور
الحق وقيام الحجة، فلا تجادلهم، كما قال تعالى: ﴿فَاعْرِضْ عَنْهُمْ وَانْتَظِرْ إِنَّهُمْ مُنْتَضِرُونَ﴾
(٢٥) [السجدة]. وفوّض أمرهم إلى الله، وقل لهم: الله أعلم بما تعملونه من الكفر
والتكذيب، وهو أعلم بمقاصدكم ونياتكم فأنتم معاندون مكابرون، وفي هذا تهديد ووعد
على استمرارهم في الجدل والعناد.

فإذا كان يوم القيامة فإن الله يحكم بيني وبينكم، أي: يفصل بين المسلمين والكافرين،
وأمرني وأمركم إلى الله، ويوم القيامة سيتبيّن الحق من الباطل، ويظهر الاختلاف في
الدين، فمن وُفق إلى الصراط فهو من أهل النعيم، ومن زاغ عنه فهو من أهل الجحيم.

والآية تُعلّم حُسْنَ الْأَدَبِ في الرد على من جادل تعتّاً واستكباراً، والله تعالى لا يجادله
أحد، ولا نزاع في حكمه، وسوف يحاسبكم ويجازيكم على ما قدمت أيديكم.

عَلَّمَ اللَّهُ مُحِيطٌ بِمَا فِي الْكَوْنِ مِنْذُ الْأَزَلِ:

٧٠- ﴿أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِنَّ ذَلِكَ فِي كِتَابٍ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ﴾
وحُكِّمَ الله تعالى بين خلقه يوم القيامة يكون عن علم ويقين، فالله تعالى لا تخفى عليه

(١) «تفسير ابن عطية» (٤/١٣٢).

(٢) «الدر المنثور» (١٠/٥٣٧).

خافية، ولا يغيب عليه شيء من أعمال العباد، وسوف يجازى كلًّا بما عمل .
وكل ما يجري في هذا الكون كائن وثابت في اللوح المحفوظ ﴿إِنَّ ذَلِكَ فِي كِتَابٍ﴾^١.
والعلم بأحوال الخلق، وتسجيل أعمالهم، أمر سهل وهين على الله تعالى، فهو سبحانه لا يعجزه شيء ﴿إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ﴾^٢. ومن ذلك مطابقة الواقع لما في اللوح المحفوظ.

عن عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «كتب الله مقادير الخلائق قبل خلق السموات والأرض بخمسين ألف سنة، قال: وعرشه على الماء»^(١).

فقد علم الله كل شيء قبل أن يكون، وقدره وكتبه على الوجه الذي يقع عليه، فهذا يعصي الله باختياره، وهذا يطيعه باختياره، وكل ذلك مسطور في اللوح المحفوظ.

أَعْظَمُ الذُّنُوبِ عَلَى الْإِطْلَاقِ

٧١- ﴿وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَمْ يَنْزِلْ بِهِ سُلْطَانًا وَمَا لَيْسَ لَهُمْ بِهِ عِلْمٌ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ نَصِيرٍ﴾

أي: وهؤلاء الذين يجادلونك في الدين، مستمرّون على عبادة من لا يستحق العبادة، بعدما رأوا الدلائل الثقلية والعقلية، تاركين ما تدعوهم إليه -أيها الرسول- من عبادة الواحد الأحد؛ لأن قلوبهم قد أُشربت حب عبادة الأصنام، والتقرب بها إليه سبحانه، ولا مستند لهم في عبادتها إلا تقليد آبائهم الضالين، وليس لهم فيها من الله برهان، بل البراهين القاطعة تدل على فساد عبادتهم وبطلانها.

والناس في هذه الجزيرة وما حولها من البلاد الإسلامية لا تعرف غالباً عبادة الأوثان في الوقت الحاضر، ولهذا فالكلام على عبادة الأوثان والأصنام فيها قد يكون عجيباً عند أهل الإسلام، أو أهل الكتاب، والقرآن لم ينزل إلى هذه البقعة من العالم فحسب، وإنما نزل القرآن للبشر أجمعين، لأهل اليونان، ولأهل الصين، وللشيخ، وللبوديين، وغيرهم.

(١) «صحيح مسلم» برقم (٢٦٥٣).

(٢) قرأ ابن كثير وأبو عمرو ويعقوب بإسكان النون من (ينزل) مع تخفيف الزاي، مضارع أنزل، وقرأ الباقون بفتح النون وتشديد الزاي، مضارع نزل.

فعبادة الأصنام موجودة على وجه الأرض، والقرآن يخاطب الناس جميعاً، ولا يخاطب أهل هذه المنطقة من العالم، أو أهل الشرق أو الغرب فحسب، بل يخاطب العالم كله، ولذلك فالقرآن الكريم يتوجه إلى المشركين في كل زمان ومكان بقوله: ﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ﴾ أي: غير الله تعالى ﴿مَا لَمْ يُنَزَّلْ بِهِ سُلْطَانًا﴾.

السلطان: هو البرهان والحجة أينما وُجد في القرآن أو في صحيح السنة، أو فيهما معاً فهم يعبدون أصناماً وأوثاناً ليس لهم في عبادتها مستند شرعي، ولا حجة عقلية، وبطلان عبادتها أمر واضح، إنهم يعبدون آلهة لم يَرِدْ في كتاب الله تعالى بها برهان على أنها تصلح للعبادة؛ إذ لا علم لهم على وجه الحقيقة فيما اختلقوه وافتروه على الله تعالى، فليس لهم دليل عقلي ولا نقلي على عبادتها، وهذا معنى: ﴿وَمَا لَيْسَ لَهُمْ بِهِ عِلْمٌ﴾ إنما هم يقلدون من سبقهم، كما حكى الله تعالى عنهم في قوله: ﴿بَلْ قَالُوا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ آثَرِهِمْ مُّهْتَدُونَ﴾ [الزخرف].

فهم قد اتبعوا آباءهم بلا دليل نقلي ولا عقلي على عبادة غير الله سبحانه، فإذا كان يوم الحساب والجزاء فليس للمشركين ناصر ينصرهم، أو دافع يدفع عنهم العذاب؛ لأنهم قطعوا عن أنفسهم كل رحمة ومغفرة، والسبب في هذا هو كفرهم بالله، والأصنام لا تنصر عابديها. قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِ لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَكُمْ وَلَا أَنفُسَهُمْ يَصْرِفُونَ﴾ [الأعراف].

قال تعالى: ﴿وَمَن يَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ لَا بُرْهَانَ لَهُ بِهِ فَإِنَّمَا حِسَابُهُ عِندَ رَبِّهِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ﴾ [المؤمنون]. وقد توعدّهم الله تعالى بعدم النصر يوم لقائه في قوله ﴿وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِن نَّصِيرٍ﴾ ينصرهم من عذاب الله إذا حل بهم.

ثم إنهم يكرهون الذين يأمرون بالقسط من الناس، ويكادون يبطشون بهم:

٧٢- ﴿وَإِذَا نُنَادِي عَلَيْهِمْ ءَايَتُنَا بَيِّنَاتٍ نَعْرِفُ فِي وُجُوهِ الَّذِينَ كَفَرُوا الْمُنْكَرَ يَكَادُونَ يَسْطُونَ بِالَّذِينَ يَتْلُونَ عَلَيْهِمْ ءَايَتِنَا قُلْ أَفَأُنَبِّتُكُمْ بِشَرٍّ مِّنْ ذَٰلِكُمُ النَّارُ وَعَدَهَا اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا وَبَشِّرِ الْمَصِيرُ﴾ [٧٢]

يبيّن الله سبحانه موقف هذا الصنف من البشر، وهم مَنْ يعبدون غير الله تعالى، بأنهم

إذا نصحهم الناصحون أخذتهم العزة بالإثم، وإذا ثلّيت عليهم آيات الله الواضحة، وفيها دعاؤهم إلى التوحيد والإقرار بالعبودية لله وحده، وترك ما هم عليه من عبادة غير الله تعالى، فإن علامات الكراهية والمساءة، والعزم على فعل السوء بالدعاة إلى الله، تظهر على وجوههم، وهذا معنى ﴿تَعْرِفُ فِي وُجُوهِ الَّذِينَ كَفَرُوا الْمُنْكَرَ﴾.

كما قال تعالى عن المؤمنين: ﴿تَعْرِفُ فِي وُجُوهِهم نَضْرَةَ النَّعِيمِ﴾ [المطففين].

وقال عن الكفار: ﴿فَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ قُلُوبُهُم مُّنْكَرَةٌ وَهُمْ مُسْتَكْبِرُونَ﴾ [النحل: ٢٢].

أي: فإنهم يكرهون الدعوة إلى التوحيد، ويبدو الغيظ والغضب في تصرفاتهم، والحنق والحقّد على وجوههم، فهم لا يتأثرون به، بل يكادون يبطشون بمن يتلون عليهم آيات الله فيؤذونهم، ويسبونهم ﴿يَكَادُونَ أَنْ يَكُونُوا بِالَّذِينَ يَتْلُونَ عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا﴾ إنهم لا يقابلون الحجة بالحجة، إنما يلجؤون إلى العنف والبطش عند عجزهم وفقدانهم الدليل.

وقد حدث هذا البطش في صدر الإسلام بعد الله بن مسعود، وبلال، وخباب، وغيرهم، ونزل أبو بكر في جوار رجل يحميه، وأجار عمر، العاص بن وائل، وأبي ذر. ويحدث مثل هذا على مرّ العصور، والسجون أكبر شاهد على هذا.

يقول الله سبحانه لرسوله ﷺ: ﴿قُلْ لَهُمْ -يا محمد- أَفَأُنذِرُكُمْ بِشَرِّ مِنْ ذَلِكَُمْ﴾ أي: من هذا الذي تكرهونه، وهو سماع القرآن وبغض أهله، وأشدّ ألماً من غيظكم: ﴿النَّارُ وَعَذَابُ اللَّهِ الَّذِينَ كَفَرُوا وَلَيْسَ الْمَصِيرُ﴾ أي: المكان الذي يأوون إليه يوم القيامة، أشدّ ألماً وأقوى عذاباً هذا هو الرد المناسب، والعقاب الملائم لهم، كما قال تعالى: ﴿إِنَّهَا سَاءَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا﴾ [الفرقان].

أو يكون المعنى: أنه إذا كان بغضهم للحق وعداوتهم له شر في حد ذاته، فإن هناك ما هو أشر منه، وهو عذاب النار يوم القيامة.

ضَرْبُ الْمَثَلِ بِالذُّبَابِ:

٧٣- ﴿يَتَأْتِيهَا النَّاسُ ضَرْبَ مَثَلٍ فَاسْتَمِعُوا لَهُ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ^(١) مِنْ دُونِ اللَّهِ لَنْ يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَلَوْ اجْتَمَعُوا لَهُ وَإِنْ يَسْلُبْهُمُ الذُّبَابُ شَيْئًا لَا يَسْتَفِيدُوا مِنْهُ ضَعُفَ الطَّالِبُ وَالْمَطْلُوبُ﴾

(١) قرأ يعقوب بياء الغيبة في (تدعون) على الالتفات، والباقون بناء الخطاب لمناسبة أول الآية.

هذا خطاب للناس عامة، يبيّن خطأ من يعبد غير الله تعالى، حيث بيّن سبحانه أن ما يُعبد من دون الله أضعف من الضعف، فضرب له مثلاً تعجيزاً ينفي عنه صفة الخلق والاختراع، وهما من الصفات الثابتة المختصة بالإله الحق، وهو مثل مستغرب، وحالة عجيبة لمن يتدبر ويتأمل، وهو من أبلغ ما جهّل الله به من يعبد غير الله تعالى، وأكبر دليل على أن الشيطان قد ربطهم برباطه، فهو مثل ضربه الله تعالى لقبح عبادة الأوثان، وبيان نقص عقول من يعبدها، وبيان ضعف الجميع، وقد خاطب الله به الكفار لقيام الحجة عليهم، وخاطب المؤمنين ليزدادوا علماً وبصيرة:

والقرآن يضرب الأمثال المحسوسة؛ ليقرب المعاني المعقولة إلى الناس، فتأملوا هذا المثل وتدبروه:

إن هذه الآلهة مجتمعة لا تقدر على خلق ذبابة واحدة ولو تضافرت قواهم وجهودهم. إن خلق الجمل والفيل والبقرة على ضخامة أجسامها وكبر حجمها يستوي مع خلق الذباب، فمن يخلق الذباب يخلق الجمل والفيل والأسد، ولكن الله سبحانه لم يضرب المثل بهذه المخلوقات الكبيرة، وإنما يضربه بمخلوق ضعيف حقير. والذباب: حشرة معروفة بطيشها وضعفها وقذارتها.

وفي الحديث القدسي عن أبي هريرة رضي الله عنه فيما يرويه النبي ﷺ عن ربه ﷻ: «ومن أظلم ممن ذهب يخلق خلقاً كخلقي، فليخلقوا ذرة، أو ليخلقوا حبة، أو ليخلقوا شعيرة»^(١). وفي لفظ آخر عنه أيضاً: «ومن أظلم ممن خلق كخلقي، فليخلقوا مثل خلقي ذرة، أو ذبابة، أو حبة»^(٢).

وهذا في سياق التعجيز؛ لأن الحبة لا حياة فيها، والذرة فيها حياة ضعيفة. وأبرز صفات من يستحق العبادة: الخلق والرزق، فإذا عجزت هذه الآلهة عن خلق أضعف الكائنات، فكيف تكون آلهة؟ والله سبحانه يضرب المثل بالذباب لكثرته

(١) أخرجه البخاري برقم (٥٩٥٣، ٧٥٥٩) ومسلم برقم (٢١١١) عن أبي هريرة، واللفظ له.

(٢) أخرجه أحمد في «المسند» (٣٩/٢) عن أبي هريرة أيضاً برقم (٧٥٢١، ٩٨٢٤، ١٠٨١٩). قال محققوه: حديث صحيح، وإسناد حسن، لأن فيه ابن علقمة حسن الحديث، وبقيه رجاله ثقات.

وحقارته، وضعفه، وقذارته، ولم يضربه بما هو أكبر منه.

بل يذهب القرآن إلى ما هو أكثر من ذلك؛ حيث يُثبت أن البشر عاجزون عن مقاومة الذباب، والانتصار منه لأنفسهم عندما يسلب منهم شيئاً، فقد كان المشركون يَطْلُون الأصنام بالزعفران، فإذا جف استلبه الذباب، وكانوا يُطَيِّبون آلِهَتهم المزعومة، فيأتي الذباب، ويقع على هذا الطيب، أو يقع على الطعام والشراب الذي يضعونه للأصنام كي تباركه، أو يقع على فم الإنسان النائم، ونحو ذلك.

وكانت مسألة الذباب هذه أمراً محسوساً عند العرب يتألمون منه أشد الألم، فجعله الله مثلاً لهم؛ ليستدل بضعف الذباب على ضعف الأصنام، ويبيّن أنها أحط رتبة وأدنى منزلة، فآلَقُوا أَسْمَاعَكُمْ يَا مَنْ تَعْبُدُونَ غير الله، وتفهموا هذا المثل، ولا يلقي منكم قلباً لاهية، ولا أَسْمَاعاً معرضة، فإن من تعبدونهم من دون الله، لن يخلقوا أضعف المخلوقات وأحقرها، وَلَوْ تَمَالَوْا عَلَى ذَلِكَ واجتمعوا عليه.

والله تعالى قد خصَّ الذباب بالذكر؛ لأربعة أمور تخصه وهي: مهانته، وضعفه، واستقذاره، وكثرته، فإذا لم يقدر الذين عُبدوا من دون الله على خلق أضعف الحشرات وأحقرها، ولا على أذاها عنهم، فكيف تسوغ عبادتهم وطاعتهم؟

ثم تنزل الله سبحانه من العجز عن رتبة الخلق، إلى العجز عما دون ذلك، وهو ردُّ ما يأخذه الذباب منهم، فقال تعالى: ﴿وَإِنْ يَسْأَلُكُمْ الذُّبَابُ شَيْئًا﴾ أي: وإذا أخذ الذباب شيئاً مما وقع عليه من يد الإنسان، أو من الطيب، أو من المأكّل، أو المشرب، فإنهم لا يستنقذونه منه، أي: لا يمكن للناس أن يستخلصوا ما سلبه الذباب من الطعام أو الشراب ونحوهما، فهل بعد ذلك من عجز؟ فهما ضعيفان معاً، العابد والمعبود، فكيف يليق أن يُنَزَلَ هذا الضعيف منزلة رب العالمين؟

يقول سبحانه: ﴿ضَعُفَ الطَّالِبُ وَالْمَطْلُوبُ﴾ أي: العابد والمعبود، ضَعُفَ العابد غير الله أن يستنقذ ما أخذه الذباب منه، وضَعُفَ المعبود لعجزه عن نفع نفسه فضلاً عن نفع غيره، فكيف تُتخذ هذه الأصنام آلِهة وهي بهذا الهوان؟ ضعف الداعي والمدعو، أي: ضعف المشركون في دعوتهم غير الله، وضعفت الأصنام أن تكون لها صفات الإله، فالطالب هو العابد الذي يطلب الخير أو دفع الضر من معبوده، والمطلوب هو الآلهة

العاجزة المزعومة، وكلاهما ضعيف.

عن طارق بن شهاب قال: قال سلمان: دخل رجل الجنة في ذباب، ودخل رجل النار في ذباب، قالوا: وما الذباب؟ فرأى ذباباً على ثوب إنسان، فقال: هذا الذباب، قالوا: وكيف ذلك؟ قال: مرّ رجلان مسلمان على قوم يعكفون على صنم لهم لا يجوزه أحد حتى يقرب له شيئاً، فقالوا لهما: قربا لصنمكما قرباناً، قالا: لا نشرك بالله شيئاً، قالوا: قربا ما شئتما ولو ذباباً، فقال أحدهما لصاحبه: ما ترى؟ قال أحدهما: لا أشرك بالله شيئاً، فقتل، فدخل الجنة، فقال الآخر بيده على وجهه، فأخذ ذباباً فألقاه على الصنم، فخلوا سبيله، فدخل النار^(١).

هذا: والتسوية بين الفقير العاجز من جميع الوجوه، بالقوى الغنى من كل الوجوه، وتسوية من لا يملك لنفسه نفعا ولا ضرا ولا موتاً، ولا حياة ولا نشورا، بمن هو النافع الضار، المعطي المانع، مالك الملك، المدبر لكل الأمور، هذه التسوية فيها جهل بحق الله تعالى، وعدم تقديره قدره:

٧٤- ﴿مَا فَكَّرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾

أي: إن هؤلاء المشركين لم يعظموا الله حق تعظيمه، ولم يعرفوه حق معرفته، حيث تركوا عبادته، وعبدوا ما يعجز عن ردّ ما سلبه الذباب منه ﴿مَا فَكَّرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ﴾ حين سوّوه بالحجارة والخشب.

ثم أخبر تعالى بقوته وعزته، وهما صفتان مناقضتان لعجز الأصنام، وهدد الله العابدين بأنه سينتقم منهم، فقال: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ كما قال سبحانه: ﴿إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ﴾ [البروج]. فكيف يسوون بين القوي العزيز، والعاجز الحقير؟! والله تعالى كامل العزة والقوة، ومن قوته وعزته أن نواصي الخلق بيده، فلا يتحرك متحرك ولا يسكن ساكن إلا بإرادته ومشئته، فما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن، ومن كمال قوته أنه يُمسك السموات والأرض أن تزولا، وأنه يبعث الخلق كلهم بصيحة واحدة، وأنه أهلك الجبابرة والأمم العاتية بشيء يسير من عذابه.

(١) ابن أبي شيبة (٣٥٨/١٢) وأحمد في كتاب «الزهد» ص (١٥، ١٦) والبيهقي (٧٣٤٣).

تَوْبِيخٌ لِّلْمُكَذِّبِي الرُّسُولِ ﷺ

٧٥- ﴿اللَّهُ يَصْطَفِي مِنَ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا وَمِنَ النَّاسِ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ ﴿٧٥﴾﴾

في هذه الآية بيان لتمييز بعض الخلائق على بعض، لما خصهم الله به من الفضائل، فقد اختار الله من الملائكة رسلاً، واختار من الناس رسلاً، واصطفاهم ليكونوا صفوة الخلق، واصطفاهم الله لهم عن علم منه بهم ﴿اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ﴾ [الأنعام: ١٢٤] فهم أهل الاصطفاء.

وفي الآية توبيخ للمكذبين للرسول ﷺ، والمبغضين لمن يتلون كتاب الله تعالى، فينبىء جل شأنه أنه يختار من الملائكة رسلاً إلى أنبيائه: كجبريل، وميكائيل، وإسرافيل. ويختار من الناس رسلاً؛ لتبليغ دعوة ربهم إلى الخلق وإصلاح شؤونهم: كمحمد، وموسى، وعيسى، وإبراهيم، ونوح عليهم السلام.

﴿إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ﴾ لأقوال عباده ﴿بَصِيرٌ﴾ بجميع خلقه.

قيل: إن هذه الآية نزلت بسبب قول الوليد بن المغيرة: ﴿أَنْزَلَ عَلَيْهِ الذِّكْرَ مِنْ بَيْنِنَا﴾ [ص: ٨]. وكان من دواعي تكذيبهم أن استبعدوا أن يكون الرسول من البشر فقالوا: ﴿لَوْلَا أَنْزَلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونُ مَعَهُ نَذِيرًا﴾ [الفرقان: ٧]. قال سبحانه:

٧٦- ﴿يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ ﴿٧٦﴾﴾

يعلم ما سبق من أحوال وأعمال خلقه ورسله، ويعلم ما هو كائن بعد فنائهم، وعلمه تعالى محيط بكل شيء، لا يخفى عليه شيء من الماضي ولا الحاضر ولا المستقبل، من الأقوال والأفعال والأعمال، ما ظهر منها وما خفي، قال تعالى ﴿وَأَحْصَى كُلَّ شَيْءٍ عَدَدًا﴾ [الجن: ٢٨]. فهو سبحانه يعلم ما مضى، ويعلم ما هو آتٍ ﴿وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ﴾ في الآخرة فيقضي بين عباده، ويجازي كلًا بعمله، ممن استجاب منهم لدعوة الرسل، وممن نكل وكذب.

(١) قرأ ابن عامر وحمزة والكسائي ويعقوب وخلف بفتح التاء وكسر الجيم من (ترجع) مبنياً للمعلوم، وقرأ الباقون بالبناء للمجهول (ترجع).

خَلَاَصَةُ مَنْهَجِ الْمُؤْمِنِينَ فِي خَمْسَةِ أُمُورٍ

٧٧- ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَرْكَعُوا وَاسْجُدُوا وَاعْبُدُوا رَبَّكُمْ وَافْعَلُوا الْخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾

وفي نهاية سورة الحج يرسم الله سبحانه منهجًا للمؤمنين، بعد ندائه تعالى للمشركون أربع مرات في هذه السورة، ويتضمن هذا المنهج خمسة أوامر موجّهة للمؤمنين:

الأوّل، والثاني: ﴿أَرْكَعُوا وَاسْجُدُوا﴾ أي: يا من آمنتم بالله ربًّا، وبالإسلام دينًا، وبمحمد نبيًّا ورسولًا، إن أخصّ أعمالكم بعد التوحيد: الصلاة، فأكثرُوا من الركوع والسجود، وخصّ الركوع والسجود بالذكر تشريفًا لهما لفضلهما وأهميتهما في الصلاة، ففيهما يكون الخشوع والطمأنينة.

والصلاة أكبر أركان الإسلام بعد الشهادتين، فأدوها بخضوع وخشوع وإخلاص لله تعالى؛ فهي تنهاكم عن الفحشاء والمنكر، وترفع درجاتكم عند ربكم، وهي قرة العيون، وسلوة القلب المحزون، وقربة لعلام الغيوب.

الثالث: ﴿وَاعْبُدُوا رَبَّكُمْ﴾ الذي تولى خلقكم ورعايتكم، وهذا أمر بالعبادة عامة بعد الأمر بالصلاة، من باب التعميم بعد التخصيص، والعبادة اسم جامع لكل ما يحبه الله ويرضاه، من فعل الأوامر واجتناب النواهي لكل قول أو عمل، وهذا يقتضى الإخلاص في العبادة، وفعل الخيرات عمومًا، ويدخل فيها الصيام والزكاة والحج والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وأنواع البر والإحسان وشعب الإيمان.

الرابع: ﴿وَافْعَلُوا الْخَيْرَ﴾ إفعلوا الخير فيما بينكم وبين الناس، من الإحسان، والصلة، وحُسن الخلق، وما إلى ذلك، وافعلوا الخير فيما بينكم وبين الله، بالتقرب إليه بالطاعات وترك المعاصي والذنوب، وبهذا يكون الفلاح والنجاح، والفوز والسعادة في الدارين ﴿لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾، فتفوزون بالرضوان وجنة النعيم، ولا طريق للسعادة إلا بالإخلاص في عبادة الخالق والسعي في نفع المخلوقين.

سجود التلاوة: لم يختلف العلماء في السجدة الأولى من هذه السورة، واختلفوا في السجدة الثانية، وهي التي في هذه الآية:

١- فعدها سجدة: الشافعي، وأحمد، وإسحاق.

عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أنه قرأ سورة الحج فسجد فيها سجدتين، وقال: إن هذه السورة فُضِّلَت بسجدتين^(١).

وفي حديث عقبة بن عامر رضي الله عنه أنه قال: يا رسول الله، أفي (الحج) سجدتان؟ قال: «نعم، ومن لم يسجدهما فلا يقرأهما»^(٢).

٢- وعند أبي حنيفة ومالك أنها ليست بسجدة، ودليلهما: أن الله تعالى قرن هذا السجود بالركوع، فدلَّ على أنها سجدة صلاة، لا سجدة تلاوة.

قلت: ولعل الأول أرجح.

وجملة ما في القرآن من السجديات عند الشافعي أربع عشرة سجدة، وقد أسقط الشافعي سجدة سورة (ص) وأثبت في الحج سجدتين، وبه قال أحمد في إحدى الروايتين عنه، فعنده أن عدد السجديات خمس عشرة سجدة، وأثبت أبو حنيفة سجدة سورة (ص)، وسجدة واحدة في (الحج).

عن عمرو بن العاص رضي الله عنه قال: أقرأني رسول الله ﷺ في القرآن خمس عشرة سجدة، منها ثلاث في المفصل، وفي سورة الحج سجدتان^(٣).

وقد اشتملت هذه الآية على المنهاج الذي رسمه الله تعالى لهذه الأمة؛ لتنهض بتكاليف الدعوة الإسلامية، فذكرت منها بعد التوحيد والإيمان: الصلاة، والعبادة بشكل عام، ثم بيان فضل الخير في التعامل مع الناس، بعد التعامل مع الله تعالى بالصلاة والعبادة، ويُنْتِ أن العمل بهذا هو سبيل الفلاح في الدنيا والآخرة.

(١) أخرجه مالك في «الموطأ» من رواية أبي مصعب برقم (٢٦٠).

(٢) صححه الشيخ أحمد شاكر، ويُنظر تحقيق: «فتح القدير» للشوكاني (٤٣٣/٣) وقد أخرجه أبو داود برقم (١٤٠٢) والترمذي (٥٧٨) والحاكم (٣٩٠/٢).

(٣) أخرجه أبو داود برقم (١٤٠١) قال أبو داود: رواه أبو الدرداء بإحدى عشرة سجدة، وإسناده وإ.

الْأَمْرُ الْخَامِسُ: حَقُّ الْجِهَادِ

٧٨- ﴿وَجَاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ هُوَ اجْتَبَاكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ مِثْلَ مَا أَنِصَرُّكُمْ
إِذْ هَمَّ هُوَ سَمَنُكُمُ الْمُسْلِمِينَ^(١) مِنْ قَبْلُ وَفِي هَذَا لِيَكُونَ الرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى
النَّاسِ فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَاعْتَصِمُوا بِاللَّهِ هُوَ مَوْلَاكُمْ فَنِعْمَ الْمَوْلَى وَنِعْمَ النَّصِيرُ﴾

أكملت الآية الأخيرة من السورة منهج المؤمنين، فتحدثت عن الجهاد بشكل عام: جهاد النفس، والهوى، والشيطان، وجهاد أعداء الله من الكفار والمنافقين والظالمين، والمبتدعين في دين الله ما ليس منه، والجهاد لإعلاء كلمة الله بنشر الدعوة، ولدفع العدو، وهذا أعظم الجهاد، وذروة سنام الإسلام، ولا بد أن يكون هذا الجهاد لله، وفي سبيل الله، كما قال ﷺ في حديث أبي موسى الأشعري ﷺ: «من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا فهو في سبيل الله»^(٢).

وهذا الجهاد يكون بالنفس والمال واللسان، كما جاء في حديث أنس ﷺ عن النبي ﷺ قال: «جاهدوا المشركين بأنفسكم وأموالكم وأستكم»^(٣).

ومن ذلك جهاد النفس والهوى والشيطان، فقد سمَّاه بعض الصحابة جهادًا أكبر؛ لمشاقته على النفس.

كما جاء في الأثر: «رجعنا من الجهاد الأصغر إلى الجهاد الأكبر»^(٤).

(١) انفرد المكي بعدد (سماكم المسلمين) آية، وتركها غيره من العدد.

(٢) من حديث أبي موسى الأشعري في البخاري (١٢٣، ٢٨١٠، ٧٤٥٨) ومسلم (١٩٠٤) والطيالسي (٤٨٨) وابن أبي عاصم في الجهاد (٢٤٣) «المسند» (١٩٤٩٣، ١٩٥٤٣) وغيرهما.

(٣) «المسند» (١٢٢٤٦، ١٢٥٥٥، ١٣٦٣٨) قال محققوه: إسناده صحيح على شرط مسلم ورجاله ثقات رجال الشيخين غير ابن سلمة فمن رجال مسلم وأبو داود (٢٥٠٤) والنسائي (٣٠٩٦، ٣١٩٢) والحاكم (٨١/٢) وصححه على شرط مسلم، ووافقه الذهبي، وهو في «صحيح سنن أبي داود» (٢١٨٦).

(٤) ينسب هذا بسند ضعيف إلى النبي ﷺ: «رجعنا من الجهاد الأصغر إلى الجهاد الأكبر» والصحيح أنه من قول أحد الصحابة.

فجاهدوا الكفار والظلمة، وجاهدوا النفس والشیطان جهادًا عظيمًا، مخلصين فيه النية لله تعالى، مسلمين له قلوبكم وجوارحكم، جاهدوا أعداءكم، وجاهدوا أنفسكم، وجاهدوا أهواءكم، وجاهدوا شيطانكم، وجاهدوا المنكر والشر والفساد.

والجهاد هو است فراغ الطاقة وبذل الوسع في حصول الغرض المطلوب، وأكثر ما يطلق على جهاد العدو؛ وذلك لأن الله تعالى قد اجتباكم بأن فضّل هذه الأمة على سائر الأمم، كما قال تعالى: ﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾ [آل عمران: ١١٠]. وقد اصطفاكم الله واختاركم من بين عباده للقيام بتبعة الجهاد في سبيل الله، وتحمل أعباء الرسالة الأخيرة إلى البشر كافة، واختار لكم أفضل الرسل وأنزل عليه أفضل الكتب، فقابلوا هذه النعمة بالجهاد فيه حق الجهاد.

وحق الجهاد هو القيام التام بأمر الله تعالى، ودعوة الخلق إليه بكل طريق يوصل إليه، من نصيحة وتعليم وقتال وأدب وزجر ووعظ وترغيب وترهيب.

ثم بين سبحانه مزية هذا الدين في يسره وسماحته، ورفع الحرج عن الأمة، وأن الله سبحانه لم يكلفنا ما لا نطيق، فالصلاة وهي أعظم أركان الإسلام تجب أربعًا في الحضر، وتُقتصر في السفر إلى اثنتين، وفي شدة الخوف تصل إلى ركعة واحدة، وتؤدّى على أي حال، ومن لم يستطع الصلاة قائمًا صلى قاعدًا، وإلا فمضطجعًا، أو بالإشارة، ومن لم يجد الماء يتيّم، وهكذا في سائر العبادات، وهذا من رحمة الله تعالى بعباده.

ورفع الحرج يكون بالنسبة لمن استقام على منهج الله وشرعه، أما أهل كبائر الذنوب فهم الذين جلبوا الحرج لأنفسهم بارتكابهم لها ﴿يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمْ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمْ الْعُسْرَ﴾ [البقرة: ١٨٥]. ﴿لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ [البقرة: ٢٨٦].

وما خيّر الرسول ﷺ بين أمرين إلا اختار أيسرهما ما لم يكن فيه إثمًا.

والتوبة شرّعها الله سبحانه من الصغائر والكبائر، ومن الشرك والكفر، وقد شرع الإسلام الكفارة لبعض الذنوب تيسيرًا على المسلمين، وغير ذلك من مواطن رفع الحرج، فالمشفقة تجلب التيسير، والضرورات تبيح المحظورات.

وهذه هي ﴿قَوْلَهُ أَيْبُكُمْ إِلَهِكُمْ﴾ الحنيفية السمحة فالتزموها، فإن الإسلام قد حوى ملة

إبراهيم، كما قال تعالى: ﴿قُلْ إِنِّي هَدَيْتَنِي رَبِّيَ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ دِينًا قِيَمًا مِثْلَهُ بِإِبْرَاهِيمَ خَنِيفًا﴾ [الأنعام: ١٦١].

عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «يدعى نوح عليه السلام يوم القيامة، فيقول: لبيك وسعديك يا رب، فيقال له: هل بلغت ما أرسلت به؟ فيقول: نعم، فيقال لأُمته: هل بلغكم؟ فيقولون: ما أئانا من نذير، فيقال له: من يشهد لك؟ فيقول: محمد ﷺ وأُمته، فيشهدون أنه قد بلغ»^(١).

وإبراهيم هو الذي دعا ربه قائلاً: ﴿رَبَّنَا وَأَبْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ﴾ [البقرة: ١٢٩].

وروى عن العرياض بن سارية رضي الله عنه: «أنا دعوة أبي إبراهيم، وبشرى أخى عيسى»^(٢).

والله سبحانه هو الذي سمّاكم المسلمين في الكتب السابقة، وفي هذا القرآن.

في حديث الحارث الأشعري رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «من دعا بدعوى الجاهلية فإنه من جُثا جهنم» قال رجل: يا رسول الله، وإن صام وصلى؟ قال: «نعم، فادعوه بدعوة الله التي سمّاكم بها المسلمين، والمؤمنين عباد الله»^(٣).

ويصحّ عود الضمير من ﴿هُوَ سَمَّكُمْ﴾ إلى إبراهيم عليه السلام؛ لقوله تعالى على لسانه: ﴿رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمِينَ لَكَ وَمِنْ دُرَيْتِنَا أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ﴾ [البقرة: ١٢٨].

وقد خصّكم الله -أيها المسلمون- بهذا الاختيار؛ ليكون الرسول شهيداً على هذه الأمة يوم القيامة أنه بلغها رسالة ربه، وتكونوا أنتم شهداء على الأمم أن الرسل بلغوا أممهم رسالة ربهم كما أخبركم بذلك نبيكم، وكما جاء في كتاب ربكم: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾ [البقرة: ١٤٣].

فاعرفوا لهذه النعمة قدرها؛ لتشكروها وتحافظوا على معالم دينكم، وقابلوها بأداء ما

(١) «صحيح البخاري» برقم (٤٤٨٧) وانظر: (٣٣٣٩، ٧٣٤٩).

(٢) من حديث العرياض بن سارية، وقد ضعفه الألباني في ضعيف الجامع الصغير برقم (٢٠٩١).

(٣) «مسند الطيالسي» (١٢٥٨) و«صحيح سنن الترمذي» (٢٢٩٨) والترمذي (٢٨٦٣) وأحمد (٤٠٤/٢٨).

(١٧١٧٠) و(١٧٨٠٠) من حديث صحيح طويل برجال ثقات وأبو يعلى (١٥٧١) والطبراني في الكبير

(٣٤٢٨) وابن حبان (٦٢٣٣) و«السنن الكبرى» للنسائي (٨٨٦٦) وصحيح ابن خزيمة (١٨٩٥) وغيرهم.

فرضه الله عليكم ﴿فَاقِيمُوا الصَّلَاةَ﴾ المفروضة بأركانها وواجباتها وشروطها وسننها ﴿وَأَتُوا الزَّكَاةَ﴾ المفروضة لمستحقها شكرا لله تعالى ﴿وَأَعْتَصِمُوا بِاللهِ هُوَ مَوْلَاكُمْ﴾ أي: التجئوا إليه، وتوكلوا عليه، واطلبوا النجاة منه، واستعينوا به في كل أموركم، فهو نعم المولى لمن تولاه، ونعم النصير لمن استنصر به.

وقدّمت شهادة الرسول على شهادة الأمة يوم القيامة في هذه الآية؛ لأنها في مقام التنويه بهذا الدين الذي جاء به الرسول ﷺ.

وفي آية سورة (البقرة) قدّمت شهادة الأمة على شهادة الرسول؛ لأنها بصدد الثناء على الأمة، فقدّمت شهادة الأمة هناك، لأن المقام يتطلب ذلك.

وبهذا المنهج الذي جاء في الآيتين الأخيرتين تنهض الأمة، وتتفّع بمواردها وطاقاتها المادية، وتملك القوة الحربية والمعنوية التي تنتصر بها على عدوها، وتدخل بها جنة ربها.

تم تفسير (سورة الحج) والله الحمد والمنة.



تفسير سورة المؤمنون (٢٣)

مقدمة السورة

سورة المؤمنون هي السورة الثالثة والعشرون في ترتيب المصحف، والسادسة والسبعون في ترتيب النزول، نزلت بعد سورة الطور، وقبل سورة الملك.

وهي ألف وثمان مئة وأربعون كلمة، وأربعة آلاف وثمان مئة حرف، وحرفان.

وسورة المؤمنون نزلت على رسول الله ﷺ في مكة المكرمة.

وهي ثمان مئة وعشرة ومئة آية في العدد الكوفي والحمصى، ومئة وتسع عشرة آية عند غيرهم، فقد أسقطوا ﴿الْوَرِثُونَ﴾ من العدد.

عن عمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنه بإسناد فيه مقال، أن النبي ﷺ كان إذا أنزل عليه الوحي يُسمع عند وجهه دَوِيٌّ كدَوِيِّ النحل، قال: فأنزل الله عليه يومًا، فمكثنا ساعة، ثم سُرِّي عنه فاستقبل القبلة، ورفع يديه إلى السماء، وقال: «اللهم زدنا ولا تنقصنا، وأعطنا ولا تحرمنا، وأكرمنا ولا تهنأ، وآثرنا ولا تؤثر علينا، وأرضنا وارض عنا»، ثم قال ﷺ: «لقد أنزلت عليّ عشرة آيات من أقامهن - أي: من عمل بما في هذه الآيات العشر - دخل الجنة».

وقرأ ﷺ: ﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ ۝١﴾ الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَشِعُونَ ۝٢﴾ إلى آخر الآيات العشر الأولى من سورة المؤمنون^(١).

وأخرج النسائي وغيره أن أم المؤمنين عائشة ؓ سئلت عن خلق رسول الله ﷺ فقالت: كان خلقه القرآن.

وقرأت: ﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ ۝١﴾ الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَشِعُونَ ۝٢﴾ إلى قوله تعالى:

(١) يُنظر طرق الحديث في: «المسند» (٣٤/١) برقم (٢٢٣) قال محققوه: وإسناده ضعيف لجهالة يونس بن سليم، وهو في «سنن الترمذي» برقم (٣١٧٣) و«سنن النسائي الكبرى» برقم (١٤٣٩) والحاكم (٣٩٢/٢) و«مصنف عبد الرزاق» (٣٨٦٠) والبزار (٣٠١). والبغوي في شرح السنة (١٣٧٦) وعبد بن حميد (١٥).

﴿وَالَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ﴾ قالت: هكذا كان خلق رسول الله ﷺ^(١).

وجاءت آثار من طرق عدة، فيها أن الله ﷻ لَمَّا خلق الجنة، وفيها ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر، نظر الله تبارك وتعالى إليها، ثم قال لها: تكلمي، فقالت: ﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ﴾ الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَشِعُونَ^(٢).

وقد ابتدأت السورة بذكر صفات المؤمنين الذين تحقق لهم الفوز بالجنة والنجاة من النار، ثم ذكرت أدلة الإيمان في الأنفس، وفي الكون والآفاق، وأتبع ذلك بذكر مصائر بعض الأمم التي كذبت دعوة الرسل؛ كقوم نوح، وقوم هود، وقوم موسى، وتحدثت عن أدلة التوحيد، وعن البعث واليوم الآخر، ومصير الكفار الأشقياء في الدار الآخرة، وهذه هي موضوعات القرآن المكي.

وتسميتها بهذا الاسم، جاءت بها السُّنَّة، وسماها بعضهم سورة ﴿قَدْ أَفْلَحَ﴾.

عن عبد الله بن السائب ؓ قال: صلى بنا رسول الله ﷺ الصبح بمكة، فاستفتح سورة المؤمنون، حتى إذا جاء ذكر موسى وهارون، أو ذكر عيسى، أخذت النبي سَعْلَةً، فركع^(٣). والسَعْلَةُ: هي السعال، فعيي فركع.

ولفظ النسائي عنه أيضًا قال: حضرت رسول الله ﷺ يوم الفتح، فصلَّى في قِبَل الكعبة، فخلع نعليه فوضعهما عن يساره، فافتتح سورة المؤمنون، فلما جاء ذكر موسى أو عيسى أخذته سَعْلَةً فركع.

(١) البخاري في «الأدب المفرد» (٣٠٨) و«سنن النسائي الكبرى» برقم (١١٣٥، ١١٢٨٧) والحاكم (٢/٣٩٢) والبيهقي (٣٠٩/١) و«صحيح الأدب المفرد» (٢٣٤)، والحديث بدون الآيات في المسند (٢٥٣٠٢) بإسناد صحيح على شرط الشيخين كما قال محققوه.

(٢) رُوي مرفوعًا وموقوفًا على أبي سعيد، وابن عباس، وغيرهما، والموقوف أصح، يُنظر: مسند البزار برقم (٣٥٠٨) «كشف الأستار» قال الهيثمي في «مجمع الزوائد» (٣٩٧/١٠): رجال الموقوف رجال الصحيح.

(٣) أخرجه أحمد (٤١١/٤) برقم (١٥٣٩٣، ١٥٣٩٥، ١٥٣٩٧) حديث صحيح بإسناد صحيح على شرط مسلم، وهو في مسلم في الصلاة (١٦٣/٤٥٥) برقم (٤٥٥) وأبو داود في الصلاة (٦٤٩) وابن ماجه (٨٢٠) وابن خزيمة (٥٤٦) وعبد الرزاق (٢٧٠٧) وابن أبي شيبة (٥٠٥/١٤) وابن حبان (١٨١٥)، (٢١٨٩) والبيهقي في «السنن» (٣٨٩) والشافعي في «شفاء العي» (٢٤١) والبخاري في تاريخه (٨/٥، ١٥٢).

ولفظ (سورة) مضاف إلى المؤمنين، ويقال: سورة المؤمنون، على حكاية اللفظ القرآني، وهكذا في سائر السور، إما أن تُجرَّ على الإضافة، وإما أن تبقى على حكاية اللفظ القرآني.

محتويات السورة: وسورة المؤمنون تربط بين الجزاء والعمل، فتعلّق أبصار عباد الله الصالحين بالآخرة، وتطمئنهم إلى مستقبلهم الطيب، ولو كانت حياتهم قاسية.

وفي مقابل ذلك تذكّر السورة في نهايتها؛ مستقبل الأشرار السيئ الذي ينتظرهم، وإن كانت حياتهم في بحبوحة من العيش، فهو سراب خادع، صرفهم عن المستقبل المُشرق، وحجّب أبصارهم عن الحق.

وذكرت السورة مصائر الأمم المكذبة لرسول الله، مع المناقشة والتوبيخ لكل من كان مثلهم إلى يوم القيامة.

وقد تكررت صفات المؤمنين في السورة في ثوب آخر؛ لتوضيح جانب من سيرتهم، ولونٍ من شمائلهم التي استحقوا بها النجاة والفلاح ﴿إِنَّ الَّذِينَ هُمْ مِنْ خَشْيَةِ رَبِّهِمْ مُشْفِقُونَ ﴿٥٧﴾ وَالَّذِينَ هُمْ بِرَبِّهِمْ يَأْتُونَ ﴿٥٨﴾ وَالَّذِينَ هُمْ بِرَبِّهِمْ لَا يَشْكُونَ ﴿٥٩﴾ وَالَّذِينَ يَأْتُونَ ﴿٦٠﴾ أُولَئِكَ يُسْرِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَهُمْ لَهَا سَابِقُونَ ﴿٦١﴾﴾.

وقد وصفهم الله تعالى وصفاً يبعث على الإيمان، ويصرّح بعظمة الخالق سبحانه.

أما الذين هم في غفلة عن ربهم ممن جحدوا رسالاته، وكفروا بالرسول الخاتم، فإن مصيرهم كالح.

إن البلاد العربية كانت أقرب من غيرها لرسالات الله، وأكثر وعياً بحقائق الوحي؛ فقد كان نوح في شمالي العراق، وهبط إبراهيم من العراق إلى الحجاز، ومرّ بمصر، واستقر في الشام، وخرج موسى من وادي النيل يريد الفرار بقومه، ومات بالتيه، وولد عيسى بفلسطين، وزار مصر.

وكان صالح وشعيب في شمال الجزيرة العربية، وكان هود بالأحقاف في الربع الخالي من المملكة العربية السعودية.. الخ.

ولم يكلف هؤلاء الرسل أقوامهم ما لا يطيقون، بل كلفهم أن يدعوا الخبيث، ويفعلوا

الطيب، ويدأوموا على العمل الصالح: ﴿يَأْتِيهَا الرُّسُلُ كُلُّوا مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَاعْمَلُوا صَالِحًا﴾ [٥١].

وجاءت الرسالة العالمية بعد الرسالات المحلية؛ ليشوق للبشر خلاصة الوحي الإلهي كله في هذا القرآن، فشريعة الأنبياء جميعاً شريعة واحدة في أصولها وعقائدها، ولكن كثيراً من الناس أغمض عينيه، وصمّ أذنيه ﴿أَفَلَمْ يَذَبُّوا أَلْقَوْلَ أَمْ جَاءَهُمْ مَا لَمْ يَأْتِ آبَاءَهُمْ الْأَوَّلِينَ﴾ (٦٨) أَمْ لَمْ يَعْرِفُوا رَسُولَهُمْ فَهُمْ لَمْ يُنْكِرُوا (٦٩) أَمْ يَقُولُونَ بِهِ جِنَّةٌ بَلْ جَاءَهُم بِالْحَقِّ وَكَثُرُوا لِلْحَقِّ كَرِهُونَ (٧٠) ﴿

ورفضهم للحق يكلفهم ثمناً باهظاً يوم لقاء الله ﴿حَتَّىٰ إِذَا أَخَذْنَا مُتْرَفِيهِم بِالْعَذَابِ إِذَا هُمْ يَجْتَرُونَ﴾ (٧٢) لَا تَجْعَلُوا الْيَوْمَ لَكُمْ بُعْدًا ﴿إِنْ كُنْتُمْ لَا تَنْصُرُونَ﴾ (٧٣) قَدْ كَانَتْ آيَاتِي تُنْزَلُ عَلَيْكُمْ فَكُنْتُمْ عَلَىٰ آعْقَابِكُمْ تُنْكِرُونَ (٧٤) ﴿

لقد دعا محمد ﷺ البشر قاطبة إلى الإيمان بالله ورسوله الخاتم، فكان منهم من آمن ومنهم من كفر، وبيّن الله تعالى في السورة مصير الجميع يوم القيامة، وردّ على شبهات الكفار ودعائهم الفاسدة، ولكنهم تنكبوا الطريق ﴿وَلَيْكَ لَدَعْوُهُمْ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ (٧٦) وَإِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ عَنِ الصِّرَاطِ لَنُكْبِتُونَ ﴿٧٤﴾ .

لقد عرضت السورة لدلائل القدرة والوحدانية في هذا الكون العجيب، فبدأت بالإنسان، وانتقلت إلى خلق السموات، ثم لفتت الأنظار إلى مخلوقات الله التي تحيا بالماء من الحيوان، والأنعام، والنبات، والأشجار، وكيف أن الله تعالى سخرها لنفع الإنسان.

وبعد نحو ثلاثين آية من أول السورة تعرضت لجوانب من قصص نوح، وهود، وموسى، ومريم البتول، وعيسى ابن مريم، ثم وجّهت نداءً عاماً إلى الرسل جميعاً تأمرهم بالمواظبة على أكل الحلال الطيب، والمداومة على العمل الصالح، ومن ثم بيّنت أن دعوة الرسل جميعاً واحدة في أصولها وعقائدها ﴿وَلِإِنَّ هَذِهِ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاتَّقُونِ﴾ (٥٦) ﴿

وذكر سبحانه وتعالى في السورة ألواناً من الأدلة على وحدانية الله تعالى، وهو موضوع السورة الأساس ﴿قُلْ لِمَنِ الْأَرْضُ وَمَنْ فِيهَا إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ (٨٤) ﴿

وصوّرت السورة حال الكفار يوم القيامة وهم يتمنون العودة إلى الدنيا مرتين: مرة عند

سكرات الموت، ومرة عند الحساب لتدارك ما فاتهم، دون جدوى، مع توبيخهم على سخريتهم من الإسلام والمسلمين.

وُخِّمَتِ السُّورَةُ بِأَمْرِ النَّبِيِّ ﷺ أَنْ يَغْضُ الطَّرْفَ عَنْ سُوءِ مُعَامَلَةِ الْأَشْرَارِ، وَيَسْأَلَ رَبَّهُ الْمَغْفِرَةَ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿وَقُلْ رَبِّ اغْفِرْ وَارْحَمْ وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّحِيمِينَ﴾.

هذا: ويمكن تقسيم السورة إلى أربعة مقاطع:

المقطع الأول: يتضمن صفات المؤمنين، أهل الفوز والفلاح والنجاح، ثم بيان أطوار خلق الإنسان ونهايته، والاستدلال على البعث والنشور بخلق السموات، وما ينتج عن نعمة الماء من إخراج الفواكه والبساتين والأشجار والتخيل من الأرض، وبخلق الأنعام وما فيها من ألبان ومنافع، وتسخير السفن لحمل الناس والمتاع، وجاء هذا من أول السورة إلى الآية الثانية والعشرين منها.

المقطع الثاني: يتناول جوانب من قصص أنبياء الله تعالى، وهم: نوح، وهود، وصالح، ﷺ، وبعدهم عدد آخر من الرسل، ذكر إجمالاً، ثم إشارة إلى أنبياء الله: موسى، وهارون، وعيسى ﷺ، وقد جعلهم الله أمة واحدة، فاختلف الناس بعدهم وتنازعوا، وهذا المقطع من الآية الثالثة والعشرين إلى الآية السادسة والخمسين.

المقطع الثالث: يتضمن أوصافاً لفريقين من الناس:

أحدهما: المؤمنون المشفقون من عذاب ربهم. **وثانيهما:** المغرورون الغافلون عن ربهم، المفتونون بما هم فيه من ترف ومتاع، فُتِنَ مصير الفريقين، وتستنكر على الفريق الثاني موقفهم العجيب من صاحب الرسالة العالمية، فتردُّ على شُبُههم بالعقل والمنطق، وتضرب لهم مثلاً بمصير من كذبوا رسول الله ﷺ، وتقيم مجموعة من الأدلة الكونية على وحدانية الخالق سبحانه، ويستغرق هذا المقطع من الآية السابعة والخمسين إلى الآية الثانية والتسعين.

المقطع الرابع والأخير: يوجه الخطاب للنبي ﷺ ولكل داعٍ إلى الله تعالى على بصيرة، أن يدفع السيئة بالحسنة، وألاً يغضب ولا يضيّق صدره.

ويتناول حال المكذبين عند الاحتضار، إلى البرزخ، إلى النفخ في الصور، إلى خفة

الميزان وثقله، مع التركيز على حال الأشقياء يوم لقاء الله، وأنهم عند الحساب ينسون الماضي ويذهب الزمن من عقولهم، فلا تتماسك الحياة الأولى في ذاكرتهم إلا للحظات قصيرة مبهمة، وهذا المقطع من الآية الثالثة والتسعين إلى نهاية السورة.

وقد ذكرت السورة عشرة أوصاف للمؤمنين: ستة في أولها، وأربعة في وسطها من الآية السابعة والخمسين إلى الآية الحادية والستين.

كما ذكرت أحد عشر دليلاً على وحدانية الله تعالى من الآية الثانية عشرة إلى الآية الثانية والعشرين، ومن الآية الثامنة والسبعين إلى الآية التاسعة والثمانين.

وتفصيل ذلك كله واضح في فهرس السورة.



تَفْسِيرُ السُّورَةِ

ثمانية أوصافٍ لأهل السَّعادةِ

الوصف الأول: الإيمان ﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ﴾

في هذه الآية تنويه من الله تعالى بشأن عباده المؤمنين، وبيان فلاحهم وسعادتهم في الدارين، وبأي شيء وصلوا إلى ذلك، وفي هذا حث على الاتصاف بصفاتهم، والتأسي بفعالهم، وما على المرء إلا أن يزن نفسه بهذه الآيات، ليتبين له نسبة الإيمان الذي لديه حتى يعمل على تحقيق ما تبقى من هذه الصفات.

وهكذا، فقد فاز وسعد المصدقون بالله ورسوله، وظفروا بالجنة والنعيم الدائم، وفازوا بكل ما رغبوا؛ لأن همتهم انصرفت إلى تمكين الإيمان والعمل الصالح من نفوسهم، وفي هذا بشرى لهم برضوان الله عليهم، وأن هذا أمر محقق ومؤكد، وهو قريب المنال منهم.

وسورة المؤمنون تبين أن هؤلاء المؤمنين العاملين قد ضمن الله ﷻ لهم وثيقة الفلاح والنجاح في الدار الآخرة، وضمنها الله كتابه العزيز، فنالوا بغيتهم، وأحرزوا البقاء الدائم والنعيم المقيم، وكل صفة من هذه الصفات تدل على رسوخ الإيمان، وهي سبب للفلاح والفوز بالنجاة.

وهؤلاء المؤمنون هم من وُصفوا بصفات سبع، جاء ذكرها في الآيات الأولى من السورة، معرّفة باسم الموصول في كل منها؛ للدلالة على رسوخ الإيمان في قلوبهم، وأن هذه الخصال هي سبب فلاحهم، وهذه الصفات أولها يتحدث عن الصلاة، وآخرها يتحدث عن الصلاة؛ لأهمية الصلاة في الإسلام.

الوصف الثاني: الخُشوعُ في الصَّلَاةِ

٢- ﴿الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ﴾

الخشوع في الصلاة: حضور القلب بين يدي الله تبارك وتعالى، مستحضراً عظمته، متدبراً لكل ما يقول ويفعل، واضعاً بصره محل سجوده، وحينئذ يطمئن القلب وتسكن

الجوارح، وتذهب الأفكار والوساوس، ويُقبل العبد على ربه بالكلية.

والخشوع هو التطامن والوقار، وسكون الأعضاء، وهو خوف يوجب تعظيم الله تعالى، ويظهر على من في قلبه خوف واستكانة، ومحله القلب، يتجلى على العبد في صلاته، فيشعر أنه بين يدي ربه، فيخضع ويذل له.

ولأن الخشوع في الصلاة أهم صفة للمؤمن قدّم الله تعالى هذا الوصف على غيره، وجعله تاليًا للإيمان، فقد أثنى سبحانه على عباده المؤمنين، وبين أنهم يخشعون ربهم في صلاتهم ويراقبونه، فلا ينشغلون إلا به، ولا تتعلق قلوبهم بغيره.

والخشوع في الصلاة له باطن وظاهر، فالخشوع الباطني هو خشوع القلب، وإذا خشع القلب وسكن، اطمأن العبد، وعلم أنه مع الله تعالى في صلاته، وأدرك أنه قد وقف بين يدي العليّ الأكبر حين قال: الله أكبر، فكل ما عدا الله فهو صغير، لا ينبغي التفكير فيه، من المال والولد والمنصب والجاه والشهوات، وغير ذلك من مشاغل الحياة، لأن كل ما دون الله تعالى فهو صغير.

وإذا سكن القلب سكنت الجوارح، وهذا هو الخشوع الظاهر، ولذا: ورد أن بعض السلف رأى رجلًا يعث بلحيته في الصلاة، فقال: لو خشع قلب هذا لخشعت جوارحه^(١).

فهذه الجوارح: اليد، والرجل، والعين وغيرها، إذا سكنت في الصلاة دلت على الخشوع الباطني، أما إذا تحركت اليد مثلاً لتُصلح الثياب أو أي شيء يلبسه الإنسان فقد ذهب الخشوع.

والعين حين تنظر في الساعة، وحين تعرف مَنْ على اليمين والشمال، وحين ترتفع وتنخفض فإنها تذهب بالخشوع، وأيضًا حين ترتفع الرُّجل وتتحرك يمنة ويسرة فإنها تذهب بالخشوع.

وهكذا سائر أنواع العبث والحركات في الصلاة، فإن هذا كله يدل على عدم خشوع الباطن، وعدم خشوع القلب، ولو خشع القلب لخشعت الجوارح والأعضاء.

قال محمد بن سيرين: كان أصحاب النبي ﷺ يرفعون أبصارهم إلى السماء، ويلتفتون

(١) ولا يصح رفعه إلى النبي ﷺ كما هو عند الحكيم الترمذي عن أبي هريرة (٢١٠/٣) حيث قال الألباني في السلسلة الضعيفة (١١٠): موضوع.

يَمِينًا وَشِمَالًا، فَأَنْزَلَ اللَّهُ سُبْحَانَهُ ﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ﴾ الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ ﴿٢﴾ فلم يرفعوا أبصارهم بعد ذلك في الصلاة، ولم يلتفتوا يمينًا ولا شمالًا^(١).

وهكذا قال علي، وأبو هريرة، وعبد الله بن عمر، والحسن عليه السلام: إن أصحاب رسول الله ﷺ كانوا يرفعون أبصارهم إلى السماء في الصلاة، فلما نزلت هذه الآية، خفضوا رؤوسهم، وأخذوا ينظرون إلى مواضع سجودهم^(٢).

وإن مما يعين العبد على الخشوع في الصلاة أن ينظر إلى موضع السجود، وأن يتأمل ويتدبر فيما يقرأ: في معاني الفاتحة، وفي الآيات التي يقرأها بعدها، ويُسرَّع له أن يقرأ بصوت يُسمع به نفسه إن كان منفردًا؛ فإن ذلك يصرف عنه وساوس الشيطان.

عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: إن الله لا يزال مقبلًا على العبد ما دام في صلاته ما لم يُحدث ولا يلتفت^(٣). وفي رواية: فإذا التفت أعرض عنه^(٤).

ولما سألت عائشة رضي الله عنها رسول الله ﷺ عن الالتفات في الصلاة، قال: «هو اختلاس يختلسه الشيطان من صلاة العبد»^(٥) أي: سرقة يسرقها الشيطان من الصلاة؛ فهو يريد أن يضيع عليه الأجر، ويفوت عليه المثوبة، وينقص من أجر الصلاة.

والمؤمن الحق هو الذي يتغلب على وساوس الشيطان، وهو الذي يركّز في صلاته، ويكون خاشعًا بقلبه وجوارحه لله ﷻ.

في البخاري وغيره عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «ما بال أقوام يرفعون أبصارهم إلى السماء في صلاتهم» فاشتدّ قوله في ذلك، حتى قال: «ليتنهن عن ذلك أو لتُخطفن أبصارهم»^(٦).

(١) الطبري (٧/١٧) عن عبد بن حميد وابن المنذر وابن أبي حاتم.

(٢) رُوي هذا مرفوعًا وموقوفًا، يُنظر: الحاكم (٣/٢) والبيهقي (٢/٢٨٣) وابن جرير (٩/١٧) وعبد الرزاق (٤٣/٢).

(٣) «مصنف ابن أبي شيبة» (٤٠/٢).

(٤) عن عبد الله بن سعد عند ابن أبي شيبة (٤١/٢).

(٥) البخاري (٧٥١، ٣٢٩١) وأبو داود (٩١٠) والنسائي (١١٩٥) وابن أبي شيبة (٤٠/٢).

(٦) البخاري (٧٥٠) وأبو داود (٩١٣) والنسائي (١١٩٢) وابن ماجه (١٠٤٤) وابن خزيمة (٤٧٥) وغيرهم.

فالخشوع في الصلاة: خوف القلب، وسكون الجوارح، وجمع الهمة في الصلاة، والإعراض عما سواها، وألا يجاوز بصره مُصلَّاه، وألا يلتفت، ولا يفرقع أصابعه، ولا يعبث بشيء من جسده أو لحيته، أو مصلَّاه في صلاته.

وفي حديث أنس رضي الله عنه عن النبي ﷺ: «وَجُعِلَتْ قُرَّةُ عَيْنِي فِي الصَّلَاةِ»^(١).

وفيها راحة النفس، كما كان النبي ﷺ يقول: «يا بلال، أرحنا بالصلاة»^(٢).

وفي حديث عبدالعزيز بن اليمان أخى حذيفة بن اليمان رضي الله عنه قال: كان رسول الله ﷺ إذا حزبه أمر فزع إلى الصلاة^(٣).

والخشوع في الصلاة أولى صفات المؤمنين، أهل الفلاح الذين يرثون الفردوس، ومن لم يكن خاشعاً في صلاته تصعب عليه الصلاة، وتكون شاقة على نفسه، كما قال تعالى: ﴿وَأَسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى الْخَاشِعِينَ﴾ [البقرة].

وهكذا فإن منزلة الخشوع من الصلاة منزلة الروح من الجسد، ولا يكتب للعبد من صلاته إلا ما عقل، أي إلا ما كان مع الله فيها بقلبه وقالبه، فيُرفع له منها نصفها أو ثلثها أو عشرها، ويُلف بعضها كما يُلف الثوب الخلق، فيضرب بها وجه صاحبها، وهل إذا وقف العبد بين يدي حاكم أو مسؤول، يمكنه أن يسرح عنه وهو يحادثه؟ أو يمكنه أن يعبث ويتحرك، ويقفل الهاتف أو يتناول منديلاً أو يخرج من جيبه ليتنظف به؟ فإذا كان هذا لا يليق مع المخلوق فكيف يليق مع الخالق؟!

(١) في «المسند» (١٢٨/٣) برقم (١٢٢٩٣، ١٣٠٥٧، ١٤٠٣٧) قال محققوه: إسناده حسن ورجاله ثقات و«سنن النسائي» (٦١١٧) وأبو يعلى (٣٤٨٢) والطبراني في الأوسط (٥١٩٩) وغيرهم.

(٢) عن سالم بن أبي الجعد عن رجل من أسلم في «المسند» (٣٦٤/٥) برقم (٢٣٠٨٨) ورجاله ثقات، وعن محمد ابن الحنفية عن علي في «المسند» (٣٧١/٥) برقم (٢٣١٥٤) ورجاله ثقات، (محققوه) وأخرجه أبو داود (٤٩٨٥) والطبراني في «الكبير» (٦٢١٤) والدارقطني في «العلل» (١٢٢/٤) ورجاله ثقات.

(٣) أخرجه ابن حبان في الثقات (١٦٨/٨) برقم (١٢٧٩٢) وهو في فتح الباري (٢١١/١) ورواه أبو داود برقم (١٣١٩) عن حذيفة، وحسنه الألباني بلفظ (كان النبي ﷺ إذا حزبه أمر صلى) وهو في مسند أحمد (٢٣٢٩٩) بإسناد ضعيف. كما قال محققوه.

الْوَصْفُ الثَّالِثُ: الْإِعْرَاضُ عَنِ اللَّغْوِ فِي الْقَوْلِ وَالْفِعْلِ

٣- ﴿وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ﴾ (٣)

الكلام اللغو، هو الذي لا خير فيه ولا فائدة منه، ومن صفات المؤمنين أنهم يترفعون عنه، تنزيهاً لأنفسهم، وصيانة لها عن فضول الكلام، ووقاية لها من الوقوع في الحرام، فإذا ملك العبد لسانه، ملك زمام نفسه، وأصبح أمره بيده، ومثلُ اللغو في القول، اللغو في الفعل.

ولما كانت الصلاة دعاءً وأفعالاً وأقوالاً صالحة، وكان اللغو عبثاً وباطلاً يخطر ببال المصلي، أعقب الله سبحانه صفة الخشوع بصفة الإعراض عن اللغو، فمن اعتاد القول الصالح تجنب القول الباطل، ومن اعتاد الخشوع لله تعالى تجنب قول الزور، والمؤمنون يُعرضون عن كل ما لا فائدة فيه مما يشغلهم عن ذكر الله تعالى، وعن شؤون دينهم ودنياهم.

واللغو: هو الباطل والهزل واللعب واللهو، وكل ما لا يليق بمروءة المسلم وآدابه، فعليه أن يترفع عنه.

ويشمل الإعراض عن اللغو الإعراض عن سماعه، وفي مقدمة ذلك الإعراض عن لغو المكذابين للقرآن ولرسول الإسلام ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَسْمَعُوا لِهَذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَعْلَمُونَ﴾ (٦١) [فصلت: ٢٦].

ومنه: الإعراض عن مجالس اللهو، وعن مجالسة من يقدح في الإسلام، ويذم أهله ﴿وَإِذَا رَأَيْتَ الَّذِينَ يَخُوضُونَ فِي آيَاتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّى يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ﴾ [الأنعام: ٦٨].

ومن صفات المؤمنين - عباد الرحمن - أنهم إذا مروا باللغو مروا كراماً، ولا يخوضون مع الخائضين، ولا يكونون معهم، فاللغو لا فائدة فيه، ولا يعود على الإنسان بفائدة في دينه ولا دنياه.

وقد وصف الله المؤمنين بقوله: ﴿وَإِذَا سَمِعُوا اللَّغْوَ أَعْرَضُوا عَنْهُ وَقَالُوا لَنَا أَعْمَلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَلُكُمْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ لَا تَبْغَى الْجَاهِلِينَ﴾ (٥٥) [القصص].

والجنة لا يُسمع فيها لغو ولا تأثيم إلا قِيلاً سلاماً سلاماً.

وفي الحديث: عن أبي هريرة ؓ أن رسول الله ﷺ قال: «إن العبد ليتكلم بالكلمة من

رضوان الله، لا يُلقِي لها بالاً يرفعه الله بها درجات، وإن العبد ليتكلم بالكلمة من سخط الله لا يلقى لها بالاً يهوي بها في جهنم»^(١).

وفي وصية النبي ﷺ إلى معاذ بن جبل ؓ، قال له: «ألا أخبرك بملاك، ذلك كله؟ قلت: بلى يا رسول الله، قال: كف عليك هذا، قلت: بلى يا رسول، وأنا لمؤاخذون بما نتكلم به؟ قال: ثكلتك أمك يا معاذ، وهل بكف الناس في النار على وجوههم أو قال: على مناخرهم إلا حصائد ألسنتهم؟»^(٢).

وقول الزور وحضور أعياد المشركين الدينية، أعظم اللغو، وقد وصف الله تعالى عباد الرحمن بقوله: ﴿وَالَّذِينَ لَا يَشْهَدُونَ الزُّورَ وَإِذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ مَرُّوا كِرَامًا﴾ [الفرقان: ٦٣]. كما أن الله تعالى وصفهم بقوله: ﴿وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا﴾ [الفرقان: ٦٣].

وإذا كان الإسلام يدعونا إلى ترك اللغو الباطل، وترك ما لا نفع فيه، ولا فائدة منه من الأقوال والأفعال، فهو من باب أولى يدعونا إلى ترك سائر المحرمات والمعاصي والآثام والذنوب، والإعراض عن اللغو يتضمن ترك اللغو من باب أولى.

الْوَصْفُ الرَّابِعُ: إِخْرَاجُ الزَّكَاةِ وَالصَّدَقَةِ

٤- ﴿وَالَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَاةِ فَاعِلُونَ﴾ [٤]

من صفات المؤمنين أنهم يؤتون زكاة أموالهم المفروضة، على اختلاف أجناس الأموال، وينفقون نفقة التطوع في سبيل الله بصفة عامة، كما قال تعالى: ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا﴾ [التوبة: ١٠٣]، والمؤمنون يزكون أنفسهم، ويطهرونها من الشح والبخل ونحوهما، كما قال تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّى﴾ [الأعلى: ١٤].

وقال: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا﴾ [الشمس: ٩].

(١) من حديث أبي هريرة في البخاري (٦٤٧٧، ٦٤٧٨) ومسلم (٢٩٨٨) مختصراً.

(٢) مسند أحمد (٢٢٠١٦) قال منحه: صحيح بطرقه وشواهد، وهذا إسناد منقطع، أبووائل - وهو شقيق ابن سلمة - لم يسمع من معاذ، وعاصم بن أبي النجود، صدوق حسن الحديث، وباقي رجاله ثقات رجال الشيخين، وهو في مصنف عبدالرزاق (٢٠٣٠٣) وابن ماجه (٣٩٧٣) والترمذي (٢٦١٦) وغيرهم.

أي: زكّى نفسه وطهّرها من أدناس الأخلاق ومساوئ الأعمال، التي تزكو النفس بتركها وتجنبها، وزكّى ماله وطهّره من حق الفقير، فهؤلاء قد جمعوا بين عبادة الخالق، بالخشوع في الصلاة، وبين الإحسان إلى خلق الله بأداء الزكاة.

والزكاة المفروضة، فُرِضَتْ بمكة قبل الهجرة، ولكن مقاديرها ومصارفها وتفصيل أحكامها شرعت بالمدينة في السنة الثانية من الهجرة.

وهذه السورة مكية، وقد جاء ذكر الزكاة غير محددة المقادير في كثير من السور المكية، كقوله تعالى: ﴿وَمَا تَأْتُوا حَقَّهُ يَوْمَ حَصَادِهِ﴾ [الأنعام: ١٤١].

وقوله: ﴿وَفِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ لِّلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ﴾ [الذاريات].

والتزكية تشمل: زكاة النفس، وزكاة المال، والآية تشمل الأمرين معاً؛ فالمؤمنون يطهّرون أنفسهم بحسن أخلاقهم، ويطهّرون أموالهم بإخراج زكاة أموالهم على اختلاف أجناسها.

ولأن عدم الإشراك بالله تعالى من طهارة القلب، فقد وصف الله سبحانه المشركين بأنهم يمنعون الزكاة، ففَرَنَ بين الشرك بالله ومنع الزكاة في قوله تعالى: ﴿وَوَيْلٌ لِّلْمُشْرِكِينَ الَّذِينَ لَا يُؤْتُونَ الزَّكَاةَ﴾ [فصلت].

الوصف الخامس: حفظ الفروج

٦٠، ٥ - ﴿وَالَّذِينَ هُمْ لِأُفْوَاجِهِمْ حَافِظُونَ ﴿٥﴾ إِلَّا عَلَىٰ أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ﴾

إن المؤمنين يحفظون أنفسهم مما حرّم الله، يحفظونها من الزنى واللواط وسائر الفواحش، فهم يحفظون فروجهم من الحرام، رجالاً ونساءً، ومن تمام حفظها تجنّب النظر والمصافحة واللمس والمحادثة ونحو ذلك.

ولما كانت الآية السابقة تنهى عن اللغو، وتأمّر بالإعراض عنه، وفي هذا حفظ للسمع واللسان، فقد بيّن سبحانه بعد ذلك أن حفظ الفرج صنو حفظ اللسان والسمع؛ لأن العبد قد ينفلت لسانه، وقد تغلبه شهوته، ولذا: وضع الإسلام ضوابط شرعية لاستعمالهما في الحلال دون الحرام.

جاء في حديث سهل بن سعد ؓ أن رسول الله ﷺ قال: «من يضمن لي ما بين لحيّيه

وما بين رجله أضمن له الجنة»^(١).

فمن شأن المؤمن أنه عفيف، مُمسك لشهوته. والأمة المؤمنة هي التي تُصان فيها الأعراض، ويحافظ فيها على الأنساب، ويُعْضُ فيها الرجال والنساء أبصارهم عن بريد الزنى، ولا يضعون شهواتهم إلا فيما شرع الله، وما انتشرت الفاحشة في أمة إلا خابت وخسرت في دنياها وأخرها، وضاعت أنسابها، وانتشر فيها الأمراض، والفرج يطلق على فرج الرجل والمرأة.

فالمؤمنون حافظون لفروجهم من كل أحد، إلا على الزوجة وملك اليمين، فهم ممسكون لشهواتهم لا يستعملونها إلا فيما أحلَّ الله، وهم يصونون أعراضهم، ويحفظون أنسابهم، فلا لوم عليهم ولا حرج في جماع ملك اليمين والاستمتاع بهن؛ لأن الله تعالى أحلَّهن، وهم غير مؤاخذين على ذلك، فقد أحلَّ الله هذين الصنفين من بقية أصناف النساء، والمؤمنات حافظات لفروجهن إلا من أزواجهن.

والإسلام لم يُجزِ الرِّقَّ إلا في الحرب المشروعة، بين المسلمين وغيرهم، لردِّ عدوان، أو إزالة للعوائق من طريق الدعوة، وتقسيم النساء الأسيرات من الكفار على المحاربين المسلمين فيه إكرام وصيانة لهن، وحفاظ عليهن.

ولما جاء الإسلام وجد الرق نظامًا عالميًا، فجفف منابعه بكل طريق، ولم يُبقِ إلا على التعامل بالمثل مع الكفار.

وملك اليمين: هو المرأة الكافرة التي تؤخذ أسيرة في حرب مشروعة بين المسلمين والكفار، فإن هذه المرأة التي تؤسر في الحرب، وتُصبح من حق زيد من الناس، يصح له الاستمتاع بها، هذا هو ملك اليمين، وكذا المرأة الرقيقة المملوكة، وهذا الحكم خاص بالرجل.

فالمرأة إذا ملكَتْ رجلاً فإنه لا يجوز لها أن تستمتع بفرج مملوكها، وهو حُكْم متفق عليه بين أهل العلم^(٢).

(١) «صحيح البخاري» برقم (٦٤٧٤، ٦٨٠٧).

(٢) يُنظر في ذلك: ما أخرجه عبد الرزاق عن عمر بن الخطاب وعمر بن عبد العزيز في «مصنف عبد الرزاق» (١٢٨١٨، ١٢٨٢١) وابن أبي شيبة (٣٣٨/٤).

كما حَرَّمَ الإسلام موطوءة الأب؛ فإنها لا تحل بملك اليمين إجماعًا، وهذا من عموم قوله تعالى: ﴿وَلَا تَنْكِحُوا مَا نَكَحَ آبَاؤُكُمْ مِنَ النِّسَاءِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ﴾ [النساء: ٢٢].

وحَرَّمَ الإسلام الجمع بين الأختين في قوله تعالى: ﴿وَأَنْ تَجْمَعُوا بَيْنَ الْأُخْتَيْنِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ﴾ [النساء: ٢٣].

كما حَرَّمَ الجمع بين المرأة وعمتها، وبين المرأة وخالتها في الأحاديث النبوية^(١).

وقد حرم الإسلام إتيان الشهوة فيما عد الزوجة وملك اليمين، قال تعالى:

٧- ﴿فَمَنْ أَبْغَىٰ وَرَاءَ ذَلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْعَادُونَ﴾

أي فمن طلب التمتع بغير الزوجة وملك اليمين، من كل ما حرم الله، كالزنى، واللواط، والسحاق، والاستمناء باليد، وإتيان البهائم ﴿فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْعَادُونَ﴾ أي هم الذين تجاوزوا الحلال إلى الحرام، ومن ذلك نكاح المتعة على الصحيح، ونكاح المحلل، والاستمناء واللواط والسحاق وإتيان البهائم.

وقد أخذ الإمام الشافعي من هذه الآية أن الاستمناء باليد هو من قضاء الشهوة فيما عدا الزوجة وملك اليمين^(٢).

جاء في الأثر عن أنس رضي الله عنه: «سبعة لا ينظر الله إليهم يوم القيامة، ولا يزكيهم، ولا يجمعهم مع العاملين، ويدخلهم النار أول الداخلين: الناكح يده، والفاعل والمفعول - جريمة اللواط - ومدمن خمر، والضارب والديه حتى يستغيثا، والمؤذي جيرانه حتى يلعنوه، والناكح حليمة جاره»^(٣) أي: زوجة جاره.

فالزنى حرام، وأفجره أن يزني الإنسان بامرأة جاره، والذين يقعون في شيء من ذلك يكونون قد عرَّضوا أنفسهم لعقاب الله تعالى وسخطه؛ لأنهم وقعوا في الحرام الذي نُهوا عنه، فلم يحفظوا فروجهم عن غير الزوجة والأمة المملوكة.

(١) ينظر تفسير آية المحرمات في سورة النساء.

(٢) «تفسير ابن كثير» (٥/٤٦٣).

(٣) رواه الإمام الحسن بن عرفة في جزئه المشهور برقم (٤١) وفي إسناده من لا يُعرف، وهو في خلاصة البدر المنير لابن الملقن برقم (١٩٩٦) عن أنس مرفوعًا، وفي مسند الفردوس (٢/٣٣٢)، فهو حديث ضعيف.

قال عطاء: سمعت أن قومًا يحشرون وأيديهم حبالى، فأظن أنهم هؤلاء، أي: الذين يفعلون ما يسمى بالعادة السرية.

وقال سعيد بن جبير: عذَّب الله أمة كانوا يعبثون بمذاكيرهم، أي: يفعلون اللواط، وهم قوم لوط.

الْوَصْفُ السَّادِسُ وَالسَّابِعُ: حِفْظُ الْأَمَانَاتِ وَالْعُهُودِ

٨- ﴿وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمْتِنَتِهِمْ^(١) وَعَهْدِهِمْ رَعُونَ ﴿٨﴾

الأمانة: لفظ عام يدخل فيه كل ما ائتمن الله عليه العبد من قول أو فعل أو اعتقاد، وما اؤتمن الإنسان عليه من الودائع والأسرار وغيرها.

والعهد: كل ما طُلب من الإنسان الوفاء به، من حقوق الله تعالى ومن حقوق الناس.

وشأن المؤمن أن يحفظ كل ما استودعه الله إياه من العبادات التي بينه وبين ربه، والمعاملات التي بينه وبين الناس، ومما استأمنه الله عليه: الغسل من الجنابة ونحوها، فهو أمر لا يطلع عليه الناس، والصيام سرٌّ بين العبد وربّه، فهو أمانة استودعه الله إياها، وهكذا كل أمانة.

وفي مقدمة ذلك: حفظ أمانة ميثاق الفطرة والتوحيد بين العبد وربّه، والقيام بحقوق الله سبحانه، وكذا القيام بالحقوق التي بين العبد والعباد من أمانات وحقوق وواجبات، ومنها الودائع، سيّما إذا كانت هذه الودائع ليس عليها دليل، كشخص ائتمن شخصاً على ماله، ولم يأخذ عليه أوراقاً أو مستندات، وأمانة المؤمن تظهر في مثل هذه الحالة؛ إذ لا يوجد من يشهد بذلك إلا رب العالمين، ومثله شخص استودع شخصاً سرّاً فهو أمانة، أو حضر مجلساً يقال فيه كلام سر، فالمجلس أمانة. ﴿إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ﴾ [الأحزاب: ٧٢]

وكذلك يجب حفظ العقود التي تُبرم بين الإنسان وغيره، ويجب عليه الوفاء بكل ما هو

(١) قرأ ابن كثير بحذف الألف بعد النون من (لأماناتهم)، على الأفراد لإرادة الجنس، والباقون بإثبات الألف، على الجمع، لإرادة أنواع الأمانات.

مشروع منها: ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَخُونُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ وَتَخُونُوا أَمْنَكُمْ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [الأنفال: ١]. ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَوْفُوا بِالْعُقُودِ﴾ [المائدة: ١].

وقد جمعت هذه الآية صفتين وفضيلتين، هما: فضيلة أداء الأمانة، وفضيلة الوفاء بالعهد، وقد تكون الأمانة على انفراد بين الأمين والمؤمن، وقد تكون الأمانة من النفائس التي تغري المؤمن فيجحدوها ولا يردّها، ولذلك فقد جعل الله ردها من شعب الإيمان، وخيانتها نفاقاً، ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا﴾ [النساء: ٥٨]:

١- جاء في الحديث عن حذيفة بن اليمان ؓ قال: حدثنا رسول الله ﷺ أن الأمانة نزلت في جذر قلوب الرجال، ثم علموا من القرآن، وعلموا من السنة، قال حذيفة: وحدثنا عن رفعها قال: «ينام الرجل النومة فتقبض الأمانة من قلبه، فيظل أثرها مثل الوكت، ثم ينام النومة فتقبض، فيبقى أثرها مثل المجل، كجمر دخرجته على رجلك، فنقط، فتراه مُبْتَرِئاً، وليس فيه شيء، فيصبح الناس يتبايعون، فلا يكاد أحد يؤدي الأمانة، فيقال: إن في بني فلان رجلاً أميناً، ويقال للرجل: ما أعقله! وما أظرفه! وما أجلده! وما في قلبه مثقال حبة من خردل من إيمان»^(١).

والوكت: هو قشر التمرة، والمجل: انتفاخ في الجلد الرقيق، أي: أن الأمانة حين تقبض - أولاً - من قلب الرجل يبقى أثرها في قلب العبد كقشرة التمرة، وحين تقبض - ثانياً - تترك أثراً كالجلد الرقيق المنفوخ.

٢- وعن أبي هريرة ؓ أن رسول الله ﷺ قال: «إِذَا ضُبِعتِ الأمانة فانتظر الساعة»، قال: كيف إضاعتها يا رسول الله؟ قال: «إِذَا أُسند الأمر إلى غير أهله فانتظر الساعة»^(٢).

٣- وخيانة الأمانة من صفات المنافقين، كما جاء في حديث أبي هريرة ؓ أن رسول الله ﷺ قال: «آية المنافق ثلاث: إِذَا حَدَّثَ كَذَبَ، وَإِذَا وَعَدَ أَخْلَفَ، وَإِذَا أُؤْتِمِنَ خَانَ» زاد في رواية: «وإن صام وصلى وزعم أنه مسلم»^(٣).

(١) في «صحيح البخاري» برقم (٦٤٩٧) و«صحيح مسلم» برقم (١٤٣).

(٢) «صحيح البخاري» برقم (٥٩، ٦٤٦٩).

(٣) «صحيح البخاري» (٣٣، ٢٦٨٢، ٢٧٤٩، ٦٠٩٥) و«صحيح مسلم» (٥٩).

٤- وفي حديث عبد الله بن عمرو رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «أربع من كنَّ فيه كان منافقًا خالصًا، ومن كانت فيه خصلة منهن كانت فيه خصلة من النفاق حتى يدعها: إذا حدَّث كذب، وإذا عاهد غدر، وإذا وعد أخلف، وإذا خاصم فجر»^(١).

والأمانات: تشمل جميع التكاليف التي كلفنا الله بأدائها فيما بين العبد وربّه، وفيما بينه وبين الناس، فهي تشمل: الودائع، والأيمان، والنذور، والعقود، والمواعيد قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمْتِنَتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رِعُونَ﴾ (٨) [المؤمنون].

والعهود: تشمل كل ما طُلب من العبد الوفاء به من حقوق الله وحقوق الناس، والأمانة أعم من العهد، فكل عهد أمانة، وقد جاء الأمر بالوفاء بالعهد في آيات كثيرة، منها قوله تعالى: ﴿وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ إِنَّ الْعَهْدَ كَانَ مَسْئُولًا﴾ [الإسراء: ٣٤].

وقوله: ﴿وَأَوْفُوا بِعَهْدِ اللَّهِ إِذَا عَاهَدْتُمْ﴾ [النحل: ٩١].

فالأمانة والعهد تجمعان كل ما تحمّله الإنسان من أمر دينه ودنياه، قولًا وفعلًا، وهذا يعمُّ معاشرّة الناس، والمواعيد التي تكون بين الإنسان وغيره، ونحو ذلك.

الْوَصْفُ الثَّامِنُ وَالْأَخِيرُ: الْمُحَافَظَةُ عَلَى الصَّلَاةِ

٩- ﴿وَالَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَوَاتِهِمْ^(٢) يُحَافِظُونَ﴾ (٩)

والمحافظة على الصلاة تشمل الخشوع فيها، بالإضافة إلى المحافظة على أدائها في أوقاتها، وعلى أركانها ووضوئها، وسجودها، والاطمئنان فيها، والمحافظة على أدائها مع الجماعة، وعدم تأخيرها عن وقتها، فالمحافظة على الصلاة والخشوع فيها متلازمان، فمن يداوم على الصلاة من غير خشوع، أو على الخشوع من غير محافظة عليها، مذموم وصلاته ناقصة، فقد أنذر الله سبحانه متوعدًا من يؤخرون الصلاة عن وقتها، أو يضعونها حتى يخرج وقتها، فقال سبحانه: ﴿خَلَفَ مِنْ بَإِذِنِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا الصَّلَاةَ وَاتَّبَعُوا الشَّهْوَاتِ فَسُوفَ يَلْقَوْنَ غِيًّا﴾ (٩) [إِلَّا مَنْ تَابَ] [مريم].

(١) البخاري (٣٤، ٢٤٥٩، ٣١٧٨) ومسلم (٥٨).

(٢) قرأ حمزة والكسائي وخلف (صلاتهم)، على الأفراد لإرادة الجنس، وقرأ الباقون (صلواتهم) بالجمع لإرادة الفرائض، أو الفرائض والنوافل.

وقد ذمَّ الله سبحانه المنافقين؛ ووصفهم بأوصاف، منها: التكاثر عن أداء الصلاة، فقال: ﴿وَإِذَا قَامُوا إِلَى الصَّلَاةِ قَامُوا كَسَالَى يُرَاءُونَ النَّاسَ وَلَا يَذْكُرُونَ اللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [النساء: ١٤٢]، وسئل النبي ﷺ عن أحب الأعمال إلى الله ﷻ، كما في حديث عبد الله بن مسعود ؓ قال: سألت النبي ﷺ: أي العمل أحب إلى الله؟ قال: «الصلاة على وقتها»، قلت: ثم أي؟ قال: «ثم بر الوالدين»، قلت: ثم أي؟ قال: «الجهاد في سبيل الله»^(١).

فقد جاءت الصلاة في المرتبة الأولى، وبر الوالدين في المرتبة الثانية، ثم الجهاد في سبيل الله، وهو ذروة سنام الإسلام، وقد يختلف هذا الترتيب باعتبار ما هو الأهم بالنسبة لحال السائل، كما في الأحاديث الأخرى.

فالمسلم لا يفوت الصلاة إهمالاً، ولا يضيعها كسلاً، ولا يقصر في إقامتها على الوجه الأكمل، مستوفاة الأركان والسُنن والآداب، حتى يعرج العبد إلى ربه، ويتصل به سبحانه خمس مرات في اليوم، فيؤثر ذلك فيه بالانتهاء عن الفحشاء والمنكر.

مُجْمَل الصفات الثمان: وقد بدأت هذه الصفات الثمان بالخشوع في الصلاة، وخُتِمت بالمحافظة عليها، وفي هذا تنويه بعظم شأن الصلاة، ورد للعجز على الصدر، وقد جَمَعَت هذه الصفات أصول التقوى؛ لأنها اشتملت على أعمال القلب والجوارح.

١- فبدأت بوصف الإيمان وهو أساس التقوى.

٢- ثم ذُكِرَت الخشوع في الصلاة وهي عماد التقوى؛ لما فيها من استحضار الوقوف بين يدي الله تعالى ومناجاته، والخشوع تمام الطاعة، وشدة المراقبة لله تعالى، وامثال أمره واجتناب نهيه.

٣- ثم ذكرت السورة الإعراض عن اللغو، وهو من سوء الخلق المتعلق باللسان الذي يعسر إمساكه، فإن أعرض الإنسان عن سماع اللغو، وأعرض عن الخوض فيه، فقد سهّل عليه الإعراض عن غيره.

٤- ثم ذكرت إعطاء الصدقات ودفع الزكاة لمن يستحقها، وفي هذا مقاومة لداء الشح

(١) «صحيح البخاري» برقم (٥٩٧٠) وانظر: (٥٢٧)، و«صحيح مسلم» برقم (٨٥).

والبخل ﴿وَمَنْ يُوقِ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [الحشر: ٩].

٥- ثم ذكرت الآيات حفظ الفروج، وفي هذا مقاومة لغريزة الشهوة وتعديل لمسارها، وكبح لجماحها، وترفع عن مشابهة البهائم.

٦- ثم ذكرت صفة الأمانة، وهي مظهر الإنصاف، وإعطاء الحقوق، ومغالبة شهوة النفس في متاع الدنيا.

٧- وذكرت الوفاء بالعهد، وهو العدل في التعامل، بأن يحب العبد للناس ما يحبه لنفسه.

٨- وخُتِمت هذه الصفات بالمحافظة على الصلاة، وفيها التزام بالمواعيد، ووقوف عند الحدود.

وفي هذه الصفات أمر بحفظ ما من شأن الناس إهماله، وبذل ما من شأن الناس إمساكه، وهو جماع حفظ الأوامر وترك النواهي، ومنبع الأخلاق الفاضلة.

الْجَنَّةُ أَكْثَرُ مِيرَاثٍ

١٠، ١١- ﴿أُولَٰئِكَ هُمُ الْوَارِثُونَ﴾ ﴿الَّذِينَ يَرِثُونَ الْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ ﴿١١﴾

هؤلاء المؤمنون الموصوفون بهذه الصفات الثمان ﴿هُمُ الْوَارِثُونَ﴾ ولكن ماذا يرثون؟ الجواب: يرثون الجنة، أعلاها وأوسطها وأفضلها، لأنهم تحلّوا بأعلى صفات الخير وذروتها، ويدخل في ذلك عموم أهل الجنة على اختلاف مراتبهم، كما قال تعالى: ﴿وَتِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [الزخرف: ٧٢].

ولكل أحد من خلق الله مسكن في الجنة ومسكن في النار، فإذا كان الإنسان من أهل النار فإن مكانه في الجنة يأخذه أهل الجنة، حيث يرث أهل الجنة مكان الكافر الذي كان مُعدًّا له في الجنة لو كان مؤمنًا، فالمؤمنون وارثون لهم بهذا المعنى.

وكذلك إذا كان الإنسان من أهل الجنة، فإنه يأخذ مكانه من الجنة، ويؤول إليه مكان الكافر الذي كان مُعدًّا له في الجنة لو كان مؤمنًا، فيرثونه إلى جوار مساكنهم فيها.

كما جاء في الحديث: عن أبي هريرة ؓ أن رسول الله ﷺ قال: «ما منكم من أحد إلا وله منزلان: منزل في الجنة، ومنزل في النار، فإذا مات فدخل النار ورث أهل الجنة منزله»

وذلك قوله تعالى: ﴿أُولَئِكَ هُمُ الْوَارِثُونَ﴾^(١).

وذلك لأن الله تعالى خلق الخلق لعبادته، فإذا لم يعبدوه، فإنهم لم يقوموا بما وجب عليهم، ولمّا قام به المؤمنون، فإنهم يستحقون نصيب من لم يقيم بما وجب عليه، وترك ما أمر به، وهذا أحد معنيين في تفسير الآية.

والمعنى الآخر: أن معنى الوراثة هو أن يؤول أمر المؤمنين إلى الجنة، وينالوها بأعمالهم الصالحة، كما يؤول أمر الميراث إلى الوارث.

قال تعالى: ﴿تِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي نُورِثُ مِنْ عِبَادِنَا مَنْ كَانَ تَقِيًّا﴾ [مريم: ٦٣].

وقال: ﴿وَنُودُوا أَنْ تِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [الأعراف: ٤٣].

وقال سبحانه على لسان أهل الجنة: ﴿وَأُورِثْنَا الْأَرْضَ نَتَبَوَّأُ مِنَ الْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَاءُ﴾ [الزمر: ٤٧].

والفردوس: أعلى منازل الجنة وأفضلها، وهو اسم لأشرف الجنات.

جاء عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «إن في الجنة مئة درجة، أعدها الله للمجاهدين في سبيله، كل درجتين ما بينهما كما بين السماء والأرض، فإذا سألت الله فاسأله الفردوس، فإنه أوسط الجنة، وأعلى الجنة، وفوقه عرش الرحمن، ومنه تفتجر أنهار الجنة»^(٢).

وسألت أم حارثة رضي الله عنها رسول الله ﷺ عن ولدها، وكان قد استشهد يوم بدر، قالت: يا رسول الله، أخبرني إن كان هو في الجنة أصبر وأحتسب، وإن كان غير ذلك بكيت عليه، فقال: «يا أم حارثة، إنها جنان في الجنة، وإن ابنك أصاب الفردوس الأعلى»^(٣).

وأهل الجنة لا يخرجون منها أبداً، ولا ييغون عنها جَوْلاً، ففيها أكمل النعيم وأتمّه دون مكدر ولا منغص.

(١) «تفسير الطبري» (٦٠٥/١٨) ورواه ابن ماجه في «السنن» برقم (٤٣٤١) من طريق آخر، قال البوصيري في الزوائد: (٣٢٧/٣) هذا إسناد صحيح على شرط الشيخين، وصححه الألباني في «السلسلة الصحيحة» برقم (٢٢٧٩) وصححه ابن حجر في «الفتح» (٤٤٢/١١) وهو في «صحيح سنن ابن ماجه» (٣٥٠٣).

(٢) من حديث أبي هريرة في البخاري برقم (٢٧٩٠، ٧٤٢٣).

(٣) من حديث أنس في البخاري برقم (٢٨٠٩) وهو في «سنن الترمذي» برقم (٣١٧٤).

أَرْبَعَةُ أَدِلَّةٍ تَبَعَتْ عَلَى الْإِيمَانِ وَالتَّوْحِيدِ الدَّلِيلُ الْأَوَّلُ: أَطْوَارُ خَلْقِ الْإِنْسَانِ

١٢، ١٣ - ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ سُلَالَةٍ مِّن طِينٍ ﴿١٢﴾ ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَّكِينٍ ﴿١٣﴾﴾

بعد أن ذكر الله سبحانه صفات المؤمنين ذكر أطوار خلق الإنسان، من ابتداء خلقه إلى موته ومبعثه، وفيه امتنان على الناس بأنه سبحانه أخرجهم من العدم إلى الوجود؛ ثم أمرهم ونهاهم ليظهر الفرق بين المؤمنين وغيرهم، حيث يتم الاختبار والابتلاء في هذه الحياة، ثم يأتي البعث والحساب والجزاء.

وقد بدأت هذه الرحلة بخلق الإنسان الأول، وأنه خلق ﴿مِّن سُلَالَةٍ مِّن طِينٍ﴾، والسلالة: اسم لما سُئِلَ من الشيء واستخرج منه، والإنسان سُئِلَ من الأرض وأخذ منها، أي: ولقد خلقنا أباكم آدم من جزء مستخرج من الطين، وهذه السلالة كانت أولاً تراباً، ثم جاءت مرحلة الطين بعد أن بُلَّ التراب بالماء، ثم تخمَّر الماء والتراب حتى صار طيناً لازباً، أي: يلتصق باليد، ثم تحوَّل الطين إلى حمأ مسنون، أي: طين أسود، ثم إلى صلصال كالفخار، ثم نفخ الله فيه من روحه فصار بشراً سوياً.

وَخَلَقَ آدَمَ مِنْ تَرَابٍ جَاءَ فِي آيَاتٍ كَثِيرَةٍ، منها قوله تعالى: ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِنْدَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ﴾ [آل عمران: ٥٩].

وقوله سبحانه: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ إِذَا أَنْتُمْ بَشَرٌ تَنْتَشِرُونَ﴾ [الروم: ٢٠].

وفي الحديث: عن أبي موسى رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «إن الله خلق آدم من قبضة قبضها من جميع الأرض، فجاء بنو آدم على قدر الأرض، جاء منهم الأحمر والأسود والأبيض وبين ذلك، والخبيث والطيب وبين ذلك والسهل والحزن وبين ذلك»^(١).

وقال ابن عباس رضي الله عنهما: السلالة: صَفْوَةُ الماء الرقيق الذي يكون منه الولد^(٢).

(١) «المسند» (٤٠٠/٤) برقم (١٩٥٨٢) قال محققوه: إسناده صحيح ورجال ثقات، والطبري في التفسير

(٦٤٥) وابن حبان (٦١٨١) وأبو داود (٤٦٩٣) والترمذي (٢٩٥٥) وأبو الشيخ (١٠١٨).

(٢) الطبري (١٩/١٧).

ويراد بهذه السلالة التي يُخلق منها أبناء آدم، وهي مجموع ماء الذكر والأنثى المسلول من دمهما. وهذه السلالة، هي ما يفرزه جهاز الهضم من الغذاء حين يكون دمًا، فإن هذا الدم يمرُّ على غُدَّتَي التناسل (الأنثيين) فتُفرز منه مادة دُهنيَّة شحميَّة تحتفظ بها، وهي التي تتحول إلى منيٍّ عند الجماع.

وهذه السلالة مستخرجة في الأصل من الطين؛ لأنها من الأغذية، والغذاء يخرج من الأرض. ودم المرأة يمرُّ على قناة في رحمها، ويترك فيه بُويضات دقيقة هي بذر الأجنة، ومن اجتماع منيِّ الرجل وبُويضة الأنثى، يتكوَّن الجنين، فلا جرم أن يكون بنو آدم مخلوقين من سلالة من طين^(١).

ثم خلق الله من آدم، حواء، كما قال تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا﴾ [الأعراف: ١٨٩]

وقال ﴿خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا﴾ [الزمر: ٦] وقال: ﴿يَتَأْتِيهَا النَّاسُ أَنْفُؤًا رِجَالًا مِمَّنْ خَلَقْتُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً﴾ [النساء: ١]

جاء في الأثر: أنها خلقت من ضلعه.

وحُلق من آدم وحواء البشر جميعًا، من سلالة تعود إلى آدم وإلى الأرض التي تُقبر فيها هذه السلالة، وهي تتكون من الغذاء الذي يتكون منه الدم، ومنه يكون المنى الذي يُخلق منه الإنسان، فالنطفة هي الطور الأول، وهي الماء الدافق الذي يخرج من الرجل والمرأة، والقرار المكين هو موضع الولد في رحم المرأة، وعن استكمال مراحل خلق الإنسان يقول تعالى:

١٤- ﴿ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا أَلَمَلَقَةً مُضْغَةً فَخَلَقْنَا أَلْمُضْغَةَ عِظْمًا^(٢) فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْمًا ثُمَّ أَنشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ ﴿٧﴾﴾

(١) يُنظر: «تفسير التحرير والتنوير» (٢٢/١٨).

(٢) قرأ ابن عامر وشعبة بفتح العين وسكون الظاء بدون ألف من (عظاما) و(العظام)، على الأفراد لإرادة الجنس، وقرأ الباقون بكسر العين وفتح الظاء بعدها ألف؛ لأنها عظام دقيقة وغليلة ومستديرة ومستطيلة، فهي أنواع.

والعَلَقَةُ هي الطور الثاني في خلق الإنسان، وهي دم أحمر غليظ مختلط كالوددة، وسميت كذلك لأنها تَعْلَقُ في جدار رحم المرأة.

ثم تكون هذه العلقة في طورها الثالث مُضْغَةً، أي: قطعة لحم قَدْر ما يمضغه الإنسان لا شكل فيها ولا تخطيط، ثم تكون هذه المضغة عظامًا مشكَّلاً ذا رأس ويدَين ورجلَين بعظامها، وعصبيها، وعروقهها، والقرآن يقرر أن خلايا العظم تُخلق أولاً قبل خلايا اللحم، حيث تُكسى العظام باللحم.

وفي حديث أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «كل ابن آدم يأكله التراب إلا عَجَبَ الذَّنْبِ منه خُلِقَ، وفيه يَرْكَبُ».

وفي لفظ آخر: «إن في الإنسان عظمًا لا تأكله الأرض أبدًا، فيه يُركَبُ يوم القيامة»، قالوا: أي عَظْمٌ هو يا رسول الله؟ قال: «عَجَبُ الذَّنْبِ»^(١).

ثم ينفخ الله فيه الروح فيصير بشرًا سويًا، خلقًا آخر، يسمع ويبصر، ويتحرك ويتكلم، ويكون طفلًا، ثم صبيًا، ثم غلامًا محتلمًا، ثم شابًا، ثم كهلاً، ثم شيخًا، ثم هرمًا، ثم يصير إلى الموت، كما في حديث ابن مسعود رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال:

«إن أحدكم يجمع خلقه في بطن أمه أربعين يومًا نطفة، ثم يكون علقة مثل ذلك، ثم يكون مضغة مثل ذلك، ثم يرسل الملك، فينفخ فيه الروح، ويؤمر بأربع كلمات: بكتب رزقه، وأجله، وعمله، وشقي أو سعيد»^(٢).

وفي صحيح مسلم عن أبي الزبير المكي، أن عامر بن وائلة، حدثه أنه سمع عبد الله بن مسعود رضي الله عنه يقول: الشقي من شَقِيَ في بطن أمه، والسعيد من وُعِظَ بغيره، فأتى رجلًا من أصحاب رسول الله ﷺ يقال له: حذيفة بن أسيد الغفاري، فحدثه بذلك من قول ابن مسعود فقال: وكيف يشقى رجل بغير عمل؟ فقال له الرجل: أتعجب من ذلك؟ فإني سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إذا مرَّ بالنطفة اثنتان وأربعون ليلة، بعث الله إليها مَلَكًا،

(١) «صحيح البخاري» برقم (٤٩٣٥) و«صحيح مسلم» برقم (٢٩٥٥) من حديث ابن مسعود.

(٢) يُنْظَر: حديث ابن مسعود في البخاري (٦٥٩٤) ومسلم (٢٦٤٣)، و«المسند» (٣٨٢/١) (٤٠٩١، ٣٦٢٤).

بإسناد صحيح على شرط الشيخين وأبو داود (٣٢٠٨) والنسائي في الكبرى (١١٢٤٦) وابن ماجه (٧٦).

فصوّرها، وخلق سمعها وبصرها، وجلّدها ولحمها، وعظامها، ثم قال: يا رب، أذكر أم أنثى؟ فيقضي ربك ما شاء، ويكتب الملك، ثم يقول: يارب، أجله، فيقول ربك ما شاء، ويكتب الملك، ثم يقول: يارب، رزقه، فيقضي ربك ما شاء، ويكتب الملك، ثم يخرج الملك بالصحيفة في يده، فلا يزيد على ما أمر، ولا ينقص^(١).

قلت: المراد بالشقاء الذي في الحديث، هو باعتبار ما سيكون عليه العبد عندما يكون عبداً مكلفاً حراً مختاراً، وهو أمر سبق في علم الله تعالى وكشفه للناس بعد ما خلق الإنسان.

وهذه الجملة: ﴿فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ﴾ من موافقات عمر رضي الله عنه، فإنه لما سمع هذه الآية نطق بما أنزله الله سبحانه.

عن أنس قال: قال عمر: وافقت ربي في أربع: قلت: يا رسول الله، لو صلينا خلف المقام؟ فأنزل الله ﴿وَاتَّخِذُوا مِنْ مَّقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى﴾ [البقرة: ١٢٥].

وقلت: يا رسول الله، لو اتخذت على نسائك حجاباً؟ فإنه يدخل عليك البر والفاجر؟ فأنزل الله ﴿وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَاعًا فَسَلُوهُنَّ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ﴾ [الأحزاب: ٥٣].

وقلت لأزواج النبي صلى الله عليه وسلم: لتنتهن أو لبيدلن الله أزواجاً خيراً منكن، فنزلت ﴿عَسَىٰ رَبُّهُ إِنْ طَلَّقَكُنَّ﴾ [التحريم: ٥].

ونزلت ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ سُلَالَةٍ مِّن طِينٍ﴾ (١١) إلى قوله: ﴿ثُمَّ أَنشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ﴾؛ فقلت أنا: فتبارك الله أحسن الخالقين، فنزلت ﴿فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ﴾ (٢).

وقيل: إن قائل ذلك أيضاً هو عبد الله بن أبي سرح، وأنه أراد بهذا أن يقول: أنا آتي بمثل ما يأتي به محمد، وفيه نزل قوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ قَالَ أُوحِيَ إِلَيَّ وَلَمْ يُوحَ إِلَيْهِ شَيْءٌ وَمَنْ قَالَ سَأُنْزِلُ مِثْلَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ﴾ [الأنعام: ٩٣].

وقد سأل عمر رضي الله عنه، جمعا من الصحابة رضي الله عنهم، عن ليلة القدر، فقالوا: الله أعلم، فقال

(١) «صحيح مسلم» برقم (٢٦٤٥).

(٢) في البخاري (٤٤٨٣) بدون ذكر (فتبارك الله أحسن الخالقين) أخرجه الطيالسي (٤١) وابن عساكر (١١٣/٤٤).

عمر: ما تقول يا ابن عباس؟ فقال: يا أمير المؤمنين، إن الله خلق السموات سبعا، والأرض سبعا، وخلق ابن آدم من سبع، وجعل رزقه في سبع، فأراها في ليلة سبع وعشرين، فقال: أعجزكم أن تأتوا بمثل ما أتى به هذا الغلام الذي لم تجتمع شؤون رأسه؟

وأراد ابن عباس عليه السلام بخلق ابن آدم من سبع، هذه الآية التي معنا، وأراد بقوله: وجعل رزقه في سبع قوله تعالى: ﴿فَأَبْتَنَّا فِيهَا حَبًّا ۝٢٧ وَعِنَّا وَقُضِيَ ۝٢٨ وَزَيَّوْنَا وَنَحْلًا ۝٢٩ وَحَدَّيْقَ غُلًّا ۝٣٠ وَفَكَهَمَ ۝٣١ وَأَنَا ۝٣٢﴾ ^(١) [عبس].

والأب ما تأكله الأنعام، وهو حشائش الأرض، والقضب قيل: هو البقول؛ لأنها تقضب.

وعن هذه الأطوار التي يمر بها الإنسان في مراحل الخلق، يقول علي بن أبي طالب عليه السلام: إذا أتممت النطفة أربعة أشهر، بُعث إليها ملك، فنفخ فيها الروح في الظلمات الثلاث، فذلك قوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَنشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ﴾ يعني: نفخنا فيه الروح، فانتقل من كونه جمادًا إلى أن صار حيوانًا.

وعن ابن عباس عليه السلام في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَنشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ﴾ قال: يعني تنقله من حال إلى حال، إلى أن خرج طفلاً، ثم نشأ صغيراً، ثم احتلم، ثم صار شاباً، ثم كهلاً، ثم شيخاً، ثم هرمًا.

ومما رُوي أن يهوديًا مرَّ برسول الله ﷺ وهو يحدث أصحابه، فقالت قريش: يا يهودي، إن هذا يزعم أنه نبي، فقال: لأسأله عن شيء لا يعلمه إلا نبي، قال: فجاءه حتى جلس، فقال: يا محمد، مم يُخلق الإنسان؟ فقال: «يا يهودي، من كلُّ يُخلق، من نطفة الرجل ومن نطفة المرأة، فأما نطفة الرجل فنطفة غليظة، منها العظم والعصب، وأما نطفة المرأة فنطفة رقيقة، منها اللحم والدم»، فقام اليهودي فقال: هكذا كان يقول من قبلك ^(٢).

وفي هذا يقول سبحانه: ﴿الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ وَبَدَأَ خَلْقَ الْإِنْسَانِ مِنْ طِينٍ ۝٧ ثُمَّ

(١) «تفسير ابن عطية» (١٣٨/٤).

(٢) رواه أحمد بسنده، «المسند» (٤٦٥/١) عن عبد الله بن مسعود، برقم (٤٤٣٨) بإسناد ضعيف (محققه) وأخرجه البزار (٢٣٧٧) والطبراني في الكبير (١٠٣٦٠) وأبو الشيخ في العظمة (١٠٨٨) وانظر مجمع الزوائد (٢٤١/٨).

جَعَلَ نَسْلَهُ مِنْ سُلَالَةٍ مِّن مَّاءٍ مَّهِينٍ ﴿٨﴾ ثُمَّ سَوَّاهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِن رُّوحِهِ وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ﴿٩﴾ [السجدة].

فخلقه كله حسن، والإنسان من أحسن مخلوقاته، بل هو أحسنها على الإطلاق، كما قال تعالى: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾ [التين: ٣] ولهذا فإن خواص الإنسان أفضل المخلوقات وأكملها.

وهذه الآية - آية السجدة - مفسرة للآية التي معنا، في سورة (المؤمنون) وهي دالة على أن المراد بالإنسان الذي خلقه الله من طين: هو آدم، وأن نسله خلقه الله من ماء مهين، كما قال تعالى: ﴿فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ يَوْمَ يُخْلَقُ ﴿٥﴾ خُلِقَ مِنْ مَّاءٍ دَافِقٍ ﴿٦﴾ يَخْرُجُ مِنْ بَيْنِ الصُّلْبِ وَالتَّرَائِبِ ﴿٧﴾﴾ [الطارق].

وقال: ﴿أَلَمْ نَخْلُقْكُمْ مِنْ مَّاءٍ مَّهِينٍ ﴿٢٥﴾ فَجَعَلْنَاهُ فِي قَرَارٍ مَّكِينٍ ﴿٢٦﴾ إِنَّ قَدْرَ مَعْلُومٍ ﴿٢٧﴾﴾ [المرسلات].

وعن مراحل خلق الإنسان يقول سبحانه: ﴿مَّا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا ﴿٣٢﴾ وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا ﴿٣٤﴾﴾ [نوح].

وقال: ﴿يَخْلُقُكُمْ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ خَلْقًا مِّن بَعْدِ خَلْقٍ فِي ظُلُمَاتٍ ثَلَاثٍ ﴿٦﴾﴾ [الزمر: ٦].

هي ظلمة البطن، وظلمة الرحم، وظلمة المشيمة، وكثيراً ما يجمع الله سبحانه بين خلق الإنسان الأول وذريته، كما في قوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ رَّبِّكُمْ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ يُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ ثُمَّ لِتَكُونُوا شُيُوخًا وَمِنْكُمْ مَّن يُتَوَفَّى مِنْ قَبْلٍ وَلِتَبْلُغُوا أَجَلًا مُّسَمًّى وَلَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٧﴾﴾ [غافر].

وعن أطوار خلق الإنسان السبعة، بما يشمل الموت والبعث، ورد أن رجلين تناجيا في مجلس عمر، وكان عليٌّ حاضراً، فقال لهما عمر: ما هذه المناجاة؟ فقال أحدهما: إن اليهود يزعمون أن العزل هو الموءودة الصغرى، فقال عليٌّ: لا تكون موءودة حتى تمر عليها التارات السبع، وقرأ الآيات: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ سُلَالَةٍ مِّن طِينٍ ﴿١٣﴾﴾.

فقال عمر لعليٍّ: أطل الله بقاءك^(١) قيل: إن عمر أول من قالها.

(١) هذا الأثر عند الطبراني برقم (٤٥٣٦) وهو عند أحمد عن حكم الغسل من النقاء الختانيين دون قضية العزل، وصححه محققو المسند (٢١/٣٥) ورقمه: (٢١٠٩٦) وبنحوه عن مجاهد عن ابن عباس في «مصنف عبد الرزاق» برقم (١٢٥٧٠)، وأخرجه مالك في الموطأ (٤٧/١).

١٥، ١٦- ﴿ثُمَّ إِنَّكُمْ بَعْدَ ذَلِكَ لَمَعْتُونَ ﴿١٥﴾ ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ تُبْعَثُونَ ﴿١٦﴾﴾

ثم إن المصير بعد ذلك إلى الموت والتراب، ولا مفر لكم منه، ولا مهرب لكم عنه عندما تنقضي أعماركم، وكثيراً ما يربط الله سبحانه بين المبدأ والمعاد؛ ليستدل بالخلق الأول على البعث والنشور، كما قال سبحانه:

﴿أَبْخَسِبَ الْإِنْسَانُ أَنْ يُدْرِكَ سُدًى ﴿٣٦﴾ أَلَمْ يَكُ نَظْفَةً مِنْ مَنِيٍّ يُمْتَنَى ﴿٣٧﴾ ثُمَّ كَانَ عَلَقَةً فَخَلَقَ فَسَوَّى ﴿٣٨﴾ فَعَمَلَ مِنْهُ الذَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالْأُنْثَى ﴿٣٩﴾ أَلَيْسَ ذَلِكَ بِقَدِيرٍ عَلَيَّ أَنْ يُحْيِيَ الْمَوْتَ ﴿٤٠﴾﴾ [القيامة].

وبعد الموت وانقضاء الدنيا تُبعثون من قبوركم للحساب والجزاء، حيث تُوفى كل نفس جزاء ما عملت، إن خيراً فخير، وإن شراً فشر، وهذه هي النشأة الآخرة التي قال الله عنها: ﴿ثُمَّ اللَّهُ يُنْفِثُ النَّشْأَةَ الْآخِرَةَ﴾ [العنكبوت: ٢٠].

الدليل الثاني: خَلْقُ السَّمَوَاتِ

١٧- ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعَ طَرَائِقَ وَمَا كُنَّا عَنِ الْخَلْقِ غَافِلِينَ ﴿١٧﴾﴾

وبعد أن ذكر الله سبحانه ما يدلُّ على قدرته تعالى في خلق الإنسان أتبع ذلك بما هو أعظم وأكبر من خلق الناس، وهو خلق السموات، وهي من نعم الله على الإنسان، ذكرها سبحانه وذكر بعدها الماء والنبات والأرض والحدائق والفواكه والنخيل والأعشاب والزيتون والأشجار والجنات والأنعام والسفن، وكل ذلك لبيان مسكن الإنسان وتوافر هذه النعم عليه في هذه الأرض التي يسكنها بعد خلق الله له من نطفة، فهذه النعم وسائل معيشته في هذه الحياة، وأولها خلق السموات. ﴿أَلَمْ تَرَوْا كَيْفَ خَلَقَ اللَّهُ سَبْعَ سَمَوَاتٍ طِبَاقًا ﴿١٥﴾ وَجَعَلَ الْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا وَجَعَلَ الشَّمْسَ سِرَاجًا ﴿١٦﴾﴾ [نوح].

والقرآن الكريم يذكر دائماً خلق السموات بعد خلق الإنسان، ويبين سبحانه أن خلق السموات أكبر من خلق الناس، ولكن أكثر الناس لا يعلمون.

والسما في القرآن الكريم ذات شُموك وجُرم ومادة وبناء، قال تعالى: ﴿وَالسَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا بِأَيْدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ ﴿٤٧﴾﴾ [الذاريات].

وقال سبحانه: ﴿الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ فِرَاشًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً﴾ [البقرة: ٢٢].

وقال جل شأنه: ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ﴾ [الطلاق: ١٢].

والسمااء عند علماء الفلك: هي الأفلاك التي تسير فيها المجموعة الشمسية، أي الشمس وما ينجذب إليها، ويدور حولها من الكواكب، وقد خلق الله هذه السماوات بعضها فوق بعض، وجعلها الله ﷻ طُرُقًا للملائكة تعرج فيها وتَنَزَّل، فهي ﴿سَبْعَ طَرَائِقَ﴾ أي: سبع سماوات يعلو بعضها بعضًا، وهي طرق للملائكة، وهو سبحانه يمسك السمااء أن تقع على الأرض إلا بإذنه، وهو سبحانه قَدَّر الأرزاق والمعاش لعباده، ودبَّر أمورهم، ويسر حياتهم، ولا يغفل عن مخلوقاته في السماوات ولا في الأرض لحظة من اللحظات؛ حتى لا يختل نظام هذا الكون، ولا ينساه، ولا يشغله أمر عن أمر.

الدِّلِيلُ الثَّالِثُ: مَا يَنْتُجُ عَنِ الْمَاءِ النَّازِلِ مِنَ السَّمَاءِ

١٨- ﴿وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً يَقْدَرُ فَأَسْكَنَتْهُ فِي الْأَرْضِ وَإِنَّا عَلَىٰ ذَهَابٍ بِهِمْ لَقَادِرُونَ﴾ (١٨)

أي: أنزلنا من السماء ماء بقدر حاجة الخلائق، لكم ولأنعامكم وزرعكم، وجعلنا الأرض مستقرًا لهذا الماء؛ لتنتفعوا به وقت الحاجة إليه، وفجّرنا منه العيون والأنهار.

وإنزال الماء هو: إسقاطه من السحب ماء، وتلجًا، وبردًا على السهول والجبال، ويراد بإسكانه في الأرض: إقراره فيها، وهذا الإقرار على نوعين:

النوع الأول: إقراره لمدة قصيرة في القشرة الظاهرة من الأرض، بمقدار ما ينبت النبات من بذور البقل، وبمقدار ما تمتص أصول الأشجار وعروقها؛ لإخراج الثمار والعروق.

والنوع الآخر: إقرار طويل للمياه في الأرض، تنشأ منه العيون، وتتفجر منه الآبار، وذلك بعد تسرب الماء إلى داخل الأرض^(١).

والقرآن الكريم يقرر أن الماء الجوفي الذي في باطن الأرض، هو في الأصل نازل من ماء المطر من السحاب، وقد أنزله الله سبحانه بقدر معلوم ﴿وَلَيْنَ مِن شَيْءٍ إِلَّا عِنْدَنَا خَزَائِنُهُ وَمَا نُنَزِّلُهُ إِلَّا بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ﴾ [الحجر]

أي: بما يحقق منفعة العباد، ولا يضرهم، فلا يكون طوفانًا فيغرقهم، ولا يكون قليلًا

(١) يُنظَر: «تفسير التحرير والتنوير» (٣٧/١٨).

فيحصل لهم الجذب والعطش، وقد أنزله الله في وقت الحاجة ورفع عند الضرر.

قال تعالى: ﴿وَلِنَّا عَلَىٰ ذَهَابٍ بِهِ لَقْدِيرُونَ﴾ أي: والله سبحانه قادر على أن يتسرب هذا الماء من جوف الأرض، فلا يصل إليه الإنسان، ولا ينتفع به ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَصْبَحَ مَاؤُكُمْ غَوْرًا فَنَنُيِّنُكُمْ بِمَاءٍ مَّعِينٍ﴾ [٢٠] [الملك]. وفي هذا تهديد ووعيد للظالمين بسلب تلك النعمة عنهم، فالقادر على إنزاله قادر على إزالته وإذبابه، وقد أشارت هذه الآية إلى ثلاثة أشياء:

أولها: أن الله تعالى أنزل هذا الماء بمقدار معلوم، بقدر حاجة العباد والبلاد.

وثانيها: أن هذا الماء المنزل من السماء، أسكنه الله في الأرض، كما أسكن النطفة رحم المرأة في قرار مكين منه، وجعله مستقرًا لها، إلى انتهاء مدة الحمل ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَلَكَهُ يَنبِيعَ فِي الْأَرْضِ ثُمَّ يُخْرِجُ بِهِ زَرْعًا مُّخْتَلِفًا أَلْوَنُهُ﴾ [الزمر: ٢١]
وقال: ﴿فَأَنزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنبَتْنَا كُنُوزًا﴾ [الحجر: ٢٢].

وثالثها: أن الله تعالى قادر على الذهاب به وعلى عدم إنزاله، وقادر على إفساده وعدم الانتفاع به، كما قال تعالى: ﴿لَوْ نَشَاءُ جَعَلْنَاهُ أُجَاجًا فَلَوْلَا تَشْكُرُونَ﴾ [الواقعة].

فالله تعالى يجمع الماء في السماء، ثم يُخرجه من ثُقوب السماء وفُروجها، فيُنزله على قوم، ويَصْرِفُهُ عن آخرين وفق حكمته سبحانه ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُرْسِلُ سَحَابًا ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُ ثُمَّ يَجْعَلُهُ رُكَامًا فَتَرَى الْوَدَّكَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَالِهِ وَيُنَزِّلُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ جِبَالٍ فِيهَا مِنْ بَرَدٍ فَيُصِيبُ بِهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَصْرِفُهُ عَنِ مَنْ يَشَاءُ يَكَاذِبُونَ سَاءَ بَرَقِهِ يَذْهَبُ بِالْأَبْصَرِ﴾ [النور].

والمؤمن ينسب هذا الماء إلى الله تعالى، وغير المؤمن ينسبه إلى الأنواء والكواكب، قال تعالى: ﴿وَيَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ﴾ [الواقعة].

وقال سبحانه: ﴿وَأَنزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً طَهُورًا﴾ [٥٨] لِنُحْيِيَ بِهِ بَلْدَةً مِّيتًا وَنُسْقِيَهُ مِمَّا خَلَقْنَا أَنْعَامًا وَأَنَاسِيَّ كَثِيرًا ﴿٥٩﴾ وَلَقَدْ صَرَّفْنَاهُ بَيْنَهُمْ لِيَذَكَّرُوا فَأَبَىٰ أَكْثَرُ النَّاسِ إِلَّا كُفُورًا﴾ [الفرقان].

وقد خلق الله من هذا الماء بساتين النخيل والأعناب وسائر الفواكه؛ قال تعالى:

١٩- ﴿فَأَنشَأْنَا لَكُمْ بِهِ جَنَّاتٍ مِّنْ نَّخِيلٍ وَأَعْنَابٍ لَّكُم فِيهَا فَوَاكِهِ كَثِيرَةٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ﴾ [١٩]

ومن الماء تنشأ الحياة، ومن آثار الماء هذه النعم الذي خلقها الله لنا من الزرع

والثمار، وجنات من حدائق وبساتين ونخيل وأعناب.

والقرآن الكريم يخص النخيل والأعناب بالذكر؛ لكثرة وجودهما في الجزيرة العربية والحجاز، خاصة وقت نزول القرآن، فقد كانت المدينة النبوية يكثر فيها النخيل، والطائف يكثر فيها الأعناب، ولكثرة منافع هاتين الشجرتين وفضلهما، خصهما الله تعالى في كتابه بالذكر، لأنهما طعام وفاكهة، وفيهما أصناف كثيرة مختلفة، فمن التمر: البُسْر والرطب والبلح، ومن العنب: الزبيب والعصير، لكم فيها فواكه أخرى مختلفة الأنواع والأشكال، ومنها تأكلون، كما قال تعالى: ﴿يُنْبِتُ لَكُمْ بِهِ الزَّرْعَ وَالزَّيْتُونَ وَالنَّخِيلَ وَالْأَعْنَابَ وَمِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ﴾ [النحل: ١١]. وهكذا؛ كما قال تعالى:

٢٠- ﴿وَشَجَرَةً تَخْرُجُ مِنْ طُورِ سَيْنَاءَ^(١) تَنْبُتُ^(٢) بِالدَّهْنِ وَصَنِيعَ^(٣) لِلْأَكْلِينَ

ومن الماء خلق الله سبحانه شجرة الزيتون، وقد خصها ﷺ بالذكر؛ لكثرة فوائدها، بزيتها وطعامها وخشبها، وهي شجرة مباركة تخرج غالباً في جبل الطور بصحراء سيناء.

ونسبت شجرة الزيتون إلى هذا المكان، قيل: لأنها تكثر فيه عن غيره، أو لأن أول شجرة من شجر الزيتون نبتت في جبل الطور الذي كلم الله فيه موسى، فجميع الأجناس وأنواع الثمار الموجودة على ظهر الأرض، لا بد لها من موطن ابتداء وجودها فيه، وبعض المناطق يكون أكثر ملاءمة للحيوان والنبات، فلعل الله تعالى خصَّ جبل طور سيناء بشجر الزيتون؛ لأنه يتوسط بين المناطق الحارة والباردة، ولأنه يتوسط بين ارتفاع الجبال وانخفاض السهول، كما قال تعالى: ﴿زَيْتُونَةٍ لَا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ﴾ [النور: ٣٥].

وقد عرف نوح ورقة الزيتون، وعُرفت كذلك في عهد موسى عليهما السلام.

ففي التوراة أن شجرة الزيتون كانت موجودة قبل الطوفان وبعده^(٣).

(١) قرأ نافع وابن كثير وأبو عمرو وأبو جعفر بكسر السين من (سيناء) لغة بني كنانة، والباقون بفتحها لغة أكثر العرب.

(٢) قرأ ابن كثير وأبو عمرو ورويس بضم الناء وكسر الباء من (تَنْبُتُ) مضارع أنبت، وقرأ الباقيون بفتح الناء وضم الباء مضارع نبت.

(٣) يُنْظَرُ: الإصحاح الثاني من سفر التكوين.

فطور سيناء هو منبتها الأصلي الذي ابتداء الله خلقها فيه .

وشجرة الزيتون يخرج منها الزيت للدهن ، حيث يُدهن به الجسد للتداوي ويُرجل به الشعر ، وفيها الزيت الذي إذا غُمس الخبز فيه فإنه يُصبغ ويتغير لونه ، وهذا معنى : ﴿ وَصَبِغْ لِّلْأَكْلِينَ ﴾ .
وفي الحديث: عن أبي أسيد بن ثابت الأنصاري ؓ أن رسول الله ﷺ قال : «كلوا الزيت وادّهنوا به فإنه من شجرة مباركة»^(١) وفيها الزيتون ، طعام وغذاء .

الدَّلِيلُ الرَّابِعُ عَلَى تَوْحِيدِ اللَّهِ سُبْحَانَهُ: خَلْقُ الْأَنْعَامِ

٢١- ﴿وَإِنَّ لَكُمْ فِي الْأَنْعَامِ لَعِبْرَةً لِّتُنْقِضُوا بِهَا مَنَافِعَهَا وَلَكُمْ فِيهَا مَنَافِعٌ كَثِيرَةٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ﴾

ومن دلائل قدرته تعالى أن خلق وسخر لنا بهيمة الأنعام: الإبل ، والبقر ، والغنم من الضأن والمعز؛ لتأكل من لحومها ، ونشرب من ألبانها ، ونستفيع بأصوافها ، وأوبارها ، وأشعارها ، لعلكم تتأملون كيف أن الله سبحانه أخرج من بين الفرث والدم لبنًا خالصًا نقيًا سائغًا للشاربين لا تشوبه قذارة .

إن هذا الغذاء الذي يأكله الحيوان ، يتحول بقدرة الله ﷻ إلى دم ، وإلى لبن ، وإلى براز ، ويخرج اللبن من بين الفرث والدم ، لا يشوبه لون الدم ، ولا رائحة الفرث ، كما قال تعالى : ﴿وَإِنَّ لَكُمْ فِي الْأَنْعَامِ لَعِبْرَةً لِّتُنْقِضُوا بِهَا مَنَافِعَهَا مِنْ بَيْنِ فَرْثٍ وَدَمٍ لِّبَنًا خَالِصًا سَائِغًا لِلشَّارِبِينَ﴾ ﴿٦٦﴾ [النحل] .

وقال تعالى : ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا خَلَقْنَا لَهُمْ مِنَّا عَمَلَاتٍ أَيْدِيًا أَنْعَمَّا فَهُم لَهَا مَلِكُونَ﴾ ﴿٦٦﴾ وَذَلَّلْنَاهَا لَهُمْ فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ ﴿٦٧﴾ وَلَهُمْ فِيهَا مَنَافِعٌ وَمَشَارِبٌ أَفَلَا يَشْكُرُونَ﴾ ﴿٧٣﴾ [يس] .

وقد جعل الله هذه الأنعام سُفْنًا لكم في البر ، تحملون عليها أثقالكم إلى بلد لم تكونوا

(١) «المسند» (٤٩٧/٣) عن أبي أسيد ، مالك بن ربيعة الأنصاري ، ورقمه (١٦٠٥٥ ، ١٦٠٥٤) قال محققوه : وإسناده ضعيف لجهالة عطاء الشامي وباقي رجال الإسناد ثقات ، وأخرجه النسائي في الكبرى (٦٧٠٢) والترمذي (١٨٥٢) والبخاري في شرح السنة (٢٨٧١) والطبراني في الكبير (٥٩٦)١٩ .

(٢) قرأ نافع وابن عامر وشعبة ويعقوب بنون مفتوحة في (نَسْقِيم) مضارع سقى ، وقرأ أبو جعفر بالتاء المفتوحة ، على التأنيث ، وقرأ الباقون بالنون المضمومة ، مضارع أسقى .

بالغية إلا بشق الأنفس، كما جعل لكم السفن في البحر تحملكم وتحمل متاعكم - قليلاً أو كثيراً - إلى هنا وهناك.

٢٢- ﴿وَعَلَيْهَا وَعَلَى الْفُلْكِ تُحْمَلُونَ﴾

يربط الله سبحانه بين حمل الإنسان على الأنعام، وحمله على الفلك، فكلاهما مسخر لخدمة الإنسان، فقال سبحانه: ﴿وَعَلَيْهَا﴾ أي: وعلى الأنعام من الإبل ونحوها تحمّلون في البر ﴿وَعَلَى الْفُلْكِ﴾ وهي السفن تجرى في البحر ﴿تُحْمَلُونَ﴾ عليها بقدرة الله ومثته، فهذه أربع منافع من الأنعام، وهي الانتفاع بالألبان، وبالصوف، وبالحوم، وبالركوب.

١- كما قال تعالى: ﴿وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ الْفُلْكِ وَالْأَنْعَامِ مَا تَرْكَبُونَ﴾ [الزخرف: ١٢].

٢- وقال أيضاً: ﴿اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَنْعَامَ لِتَرْكَبُوا مِنْهَا وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ﴾ ﴿٧٦﴾ وَلَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ وَلِتَبَلَّغُوا عَلَيْهَا حَاجَةً فِي صُدُورِكُمْ وَعَلَيْهَا وَعَلَى الْفُلْكِ تُحْمَلُونَ﴾ [غافر].

٣- وقال تعالى: ﴿وَأَيُّ لَهْمٍ لَّمَّا حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُم فِي الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ﴾ ﴿٤١﴾ وَخَلَقْنَا لَهُم مِّن مِّثْلِهِ مَا يَرْكَبُونَ﴾ ﴿٤٢﴾ وَإِنْ نَشَأْ نُغْرِقْهُمْ فَلَا صَرِيحَ لَهُمْ وَلَا هُمْ يُنْقَذُونَ﴾ ﴿٤٣﴾ إِلَّا رَحْمَةً مِنَّا وَمَتَاعًا إِلَىٰ حِينٍ﴾ ﴿٤٤﴾ [يس].

٤- وقال سبحانه: ﴿اللَّهُ الَّذِي سَخَّرَ لَكُمُ الْيَمْرَ لِتَجْرِيَ الْفُلُكُ فِيهِ بِأَمْرِهِ﴾ [البجانبية: ١٢].

وهكذا: فإن من أنعم علينا بهذه النعم، وأغدق علينا هذه الخيرات، هو وحده الذي يستحق الشكر وعظيم الشناء، وإخلاص العبادة له، وألا يُستعان بنعمه على معاصيه.

مِنْ قِصَصِ الْأَنْبِيَاءِ فِي السُّورَةِ: أَوَّلًا: قِصَّةُ نُوحٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ

٢٣- ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ فَقَالَ يَتَّقُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِّنْ إِلَهِ غَيْرُهُ أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾

وبعد أن ذكرت السورة هذه الأدلة الإيمانية الأربعة تحدثت عن حقيقة التوحيد الذي جاء به الرسل جميعاً، وبدأت الحديث عن نوح عليه السلام أول رسل الله بعد نبي الله إدريس عليه السلام، وختمت الحديث عن عيسى عليه السلام، وهو الرسول الأخير قبل محمد عليه السلام، فابتدأت السورة بأول رسول، واختتمت بالنقطة الأخيرة قبل مجيء النبي محمد صلوات الله وسلامه عليه؛ حيث تحدثت بشيء من التفصيل عن قصة نوح، وقصة هود عليهما السلام،

ثم أجملت بقية الرسل، وذكرت منهم النبي قبل الأخير، وهو موسى ثم عيسى عليهما السلام بمجرد ذكر الاسم وذكر القوم، وبيّنت السورة كيف استقبل القوم من جميع الأمم كلمة التوحيد، وكيف كانت استجابتهم لرسل الله.

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا﴾ أي: أرسلناه بدعوة التوحيد، وهي التي يقولها جميع الرسل إلى جميع الأقوام في كل أمة، وأنه ليس لهم إله يُعبد بحق غير الله سبحانه، قال لهم نوح: يا أهلي، ويا عشيرتي، إنه ليسرني ما يسركم، ويؤذيني ما يؤذيكم، فاقبلوا دعوتي وأنا لكم ناصح أمين، أفلا تخافون الله حين تعبدون هذه الأوثان والأصنام التي أقبلتم عليها، وهي: ودّ، وسواع ويغوث ويعوق ونسر؟!

فأخلصوا العبادة لله، واتركوا ما أنتم عليه من عبادة الأصنام، وقد استمر نوح عليه السلام يدعو قومه إلى توحيد الله تعالى ألف سنة إلا خمسين عامًا، يدعوهم سرا وجهارا، وليلاً ونهاراً فلم يزدادوا إلا عُتُوًّا ونُفُورًا:

٢٤- ﴿فَقَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ مَا هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُرِيدُ أَنْ يَفْضَلَ عَلَيْكُمْ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَأَنْزَلَ مَلَائِكَةً مَا سَمِعْنَا بِهَذَا فِي آبَائِنَا الْأَوَّلِينَ﴾ (٢٤)

أي فكانت النتيجة أن كذّبه كبار القوم والأشراف، والأثرياء، وقالوا لعامتهم على سبيل التحذير من أتباعه: إنه إنسان مثلكم، لا يتميز عليكم بشيء، ولا فرق بينكم وبينه، ولا يريد بقوله هذا إلا رئاسة وفضلاً عليكم، فكيف يكون نبياً؟ هذا هو الاعتراض، وهذه هي الشبهة المتكررة من جميع الأمم على جميع الرسل؛ إذ كيف يكون الرسول بشراً؟ والذين يقولون هذا، هم في نفس الوقت يعبدون آلهة من حجر ونحوه، فهم لا يستغربون أن يكون الإله وثناً أو صنماً أو حجراً، ويستغربون أن يكون النبي بشراً.

وهم يزعمون أن الله سبحانه لو أراد أن يُرسل رسولاً لكان هذا الرسول ملكاً، فقالوا عن نوح عليه السلام: ﴿مَا هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ﴾ وقد ردّ الله تعالى على هذه الشبهة في سورة الأنعام [٨، ٩] وفيها أن الله تعالى لو أجابهم إلى مطلبهم، ثم لم يؤمنوا لاستأصلهم العذاب، ولو كان الرسول ملكاً لجعله الله بشراً؛ حتى يمكنهم رؤيته ومحادثته، والتبس عليهم الأمر أيضاً.

فقالوا: ما هذا إلا بشر يريد أن يتميز، ويتفضل علينا، ولو شاء الله أن يرسل إلينا رسولاً لم يرسله من البشر، وإنما يرسله من الملائكة، ما سمعنا في الأمم السابقة، ولا فيمن سبقنا من الآباء والأجداد أن الله تعالى أرسل بشراً، ولا سمعنا أن الإله يكون واحداً ﴿قَالُوا إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا تُرِيدُونَ أَنْ تَصُدُّونَا عَمَّا كَانَتْ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا فَأَتُونَا بِسُلْطَانٍ مُبِينٍ﴾ (١١) قَالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ إِنْ نَحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَمُنُّ عَلَىٰ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ ﴿إِبْرَاهِيمَ﴾

ولما قالوا: ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَأَنْزَلَ مَلَائِكَةً﴾ أخبرهم الله تعالى أن هذا فضل الله يؤتيه من يشاء. وهذا اعتراض باطل على مشيئة الله، ولو شاء الله لأنزل ملائكة كما طلبوا، ولكنهم لا طاقة لهم على رؤية الملك ومخاطبته، وكون هذا لم يحدث في آبائهم السابقين، ليس فيه حجة لهم، بل هو حجة عليهم بجهلهم وتقليد أهل الضلال.

وجملة: ﴿يُرِيدُ أَنْ يَنْفَضَلَ عَلَيْكُمْ﴾ جاءت في هذه السورة دون غيرها؛ وذلك لأن سادة القوم ظنوا أن نوحاً جاء بتلك الدعوة حياً في الرئاسة، فخافوا على سيادتهم وزعامتهم، وكانت عبادة الأصنام قد بدأت في عهده بسبب غلو الناس في محبة الصالحين الذين ماتوا، فأرادوا أن يقلدوهم في عبادتهم، ثم تغيرت الأجيال، فعبدهم الناس من دون الله، وكانوا قبل ذلك على التوحيد من لدن آدم ﷺ.

ومن الكفر وشدة العناد، ومن الجهل والضلال أن يصفوا نبيهم بالجنون فقالوا:

٢٥، ٢٦ - ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا رَجُلٌ بِهِ جِنَّةٌ فَبَرِّضُوا بِهِ حَتَّىٰ حِينٍ﴾ (٢٥) قَالَ رَبِّ انصُرْنِي بِمَا كَذَّبُونِ ﴿١﴾

ثم اتهموا نوحاً ﷺ بالجنون، فقالوا: إن به مساً من جنون، فانتظروا حتى يفيق من جنونه، فيترك دعوته، أو حتى يموت هذا الرجل المجنون فنستريح منه.

وقولهم هذا فيه تناقض فقد أثبتوا أن له عقلاً راجحاً يكيدهم به، ويريد أن يتفضل عليهم، فكيف يستقيم هذا؟

لقد أعلم الله نوحاً ﷺ بعد أن استمر يدعو قومه ألف سنة إلا خمسين عاماً، وكان قد

(١) قرأ يعقوب بإثبات الباء في (كذبون) وصلاً ووقفاً، والباقون بحذفها في الحالين.

مضى عليه قبل البعثة أربعون عامًا، وعاش بعد الطوفان ستين عامًا، فعاش نوح ألفًا وخمسين عامًا، أعلمه الله -بعد هذه المدة الطويلة من عمر الرسالة- أنه لن يؤمن من قومه إلا من قد آمن، فدعا ربه واستنصره عليهم كما جاء في سورة القمر، وقال: ﴿أَنِّي مَغْلُوبٌ﴾ فأجابه ربه بقوله: ﴿فَأَنْصِرْ﴾ [القمر: ١٠]. وفي هذه السورة سأل نوح ربه أن ينصره على قومه؛ بسبب تكذيبهم له فيما بلغهم به من رسالة ربه، فأجابه ربه: ﴿وَلَقَدْ نَادَيْنَا نُوْحًا فَلْيَنْعَمْ الْمُجِيبُوْنَ﴾ [الصافات: ٧٥] وأمره أن يصنع سفينة النجاة:

٢٧- ﴿فَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ أَنْ اصْنَعْ الْفُلَکَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحِّينَا فَإِذَا جَاءَ أَمْرُنَا وَفَارَ التَّنُّورُ فَاسْلُكْ فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَآثِنٍ وَأَهْلَکَ إِلَّا مَنْ سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ مِنْهُمْ وَلَا تُخَاطَبُنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُمْ مُّعْرِضُونَ﴾ (٧)

أمر الله نوحًا أن يصنع السفينة بتعليم جبريل له، أي: اصنع سفينة بأمرنا ومعونتنا، وأنت في حفظنا وتحت رعايتنا -وفي الآية إثبات صفة العين لله سبحانه بما يليق بجلاله، دون تشبيه ولا تكييف ولا تعطيل- فإذا فرغت من صنع السفينة وبدأ الطوفان، وجاء أمرنا بعذاب قومك بالغرق - وكان الله قد جعل لنوح علامة على بدء الطوفان، وهي أن يفور الماء ويخرج من موقد النار، وهو التَّنُّور، الذي يُقَدَح فيه الخبز، فإن اقترب وقت هلاكهم، فاركب السفينة يا نوح أنت ومن آمن معك، وخذ معك من أصناف المخلوقات جميعًا، من كل صنف: ذكرًا وأنثى؛ ليبقى النسل، وليركب معك أهلك الذين آمنوا معك، ما عدا زوجتك الكافرة، وما عدا ابنك كنعان، الذي لم يؤمن بك، فقد استثنى الله تعالى من استحق العذاب من أهله لِكُفْرِهِ، فقال: ﴿إِلَّا مَنْ سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ مِنْهُمْ﴾. بالهلاك، كابنه الكافر.

ثم إن الله سبحانه قطع عليه الخط، ونهاه عن المراجعة في شأنهم، فقال له: ﴿وَلَا تُخَاطَبُنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ أي: لا تشفع لهم، ولا تدعو لهم، وهذا نهى من الله تعالى أن يشفع لابنه، أو لزوجته، أو لغيرهم ممن أراد الله هلاكهم؛ لكفرهم بدعوة نوح ﷺ ﴿إِنَّهُمْ مُّعْرِضُونَ﴾ لا محالة، فإن القضاء والقدر قد حتم ذلك، قال تعالى:

(١) قرأ حفص بالتونين في (كل) عوضًا عن المضاف إليه، أي: من كل ذكر وأنثى (وزوجين) مفعول به، وقرأ الباقون بترك التنوين، على إضافة كل إلى زوجين، و(اثنين) مفعول به.

٢٨- ﴿فَإِذَا اسْتَوَيْتَ أَنْتَ وَمَنْ مَعَكَ عَلَى الْفَلَكَ فَقُلْ أَلْحَدُ لِلَّهِ الَّذِي نَجَّيْنَا مِنَ الْقَوَمِ الظَّالِمِينَ﴾ ﴿٢٨﴾

ثم علّمه ربه ماذا يقول إذا ركب السفينة، أي: إذا علّوت السفينة مستقرًا عليها أنت ومن آمن معك، فاحمد الله تعالى على نجاتك أنت وأهلك من الغرق قائلًا: ﴿أَلْحَدُ لِلَّهِ الَّذِي نَجَّيْنَا مِنَ الْقَوَمِ الظَّالِمِينَ﴾، وفي موضع آخر قال تعالى: ﴿وَقَالَ ارْكَبُوا فِيهَا بِسْمِ اللَّهِ جَعَدْنَا لَهَا مَمرَسَهَا إِنَّ رَبِّي لَغَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ ﴿٤١﴾ [هود].

وعلمنا ربنا إذا ركبنا السيارة أو الدابة ونحوهما، أن ندعو بهذا الدعاء، الذي جاء في قوله تعالى: ﴿سُبْحَنَ الَّذِي سَخَّرَ لَنَا هَذَا وَمَا كُنَّا لَهُ مُقْرِنِينَ لَا إِلَهَ إِلَّا رَبُّنَا مُنْقِلُونُ﴾ ﴿١٤﴾ [الزخرف].

كما علمنا ربنا أن ندعوه ونطلب منه التيسير وسلامة الأسفار عند النزول في الديار:

٢٩، ٣٠- ﴿وَقُلْ رَبِّ أُنزِلْنِي مُنزَلًا^(١) مُبَارَكًا وَأَنْتَ خَيْرُ الْمُنزِلِينَ﴾ ﴿٢٩﴾ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ وَإِنْ كُنَّا لَمُبْتَلِينَ﴾

ثم علّمه ربه إذا نزل من السفينة ورسث على جبل الجودي، أن يدعو بهذا الدعاء: ﴿رَبِّ أُنزِلْنِي مُنزَلًا مُبَارَكًا وَأَنْتَ خَيْرُ الْمُنزِلِينَ﴾ رب يسّر لي النزول المبارك الآمن، فأنت خير المنزلين، وفي هذا تعليم من الله تعالى لعباده أن يقولوا هذا عندما ينزلون من السفن، وقد استجاب الله دعاء نوح ﴿وَقِيلَ بُعْدًا لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ [هود: ٤٤]. و ﴿قِيلَ يَتُوجْ أَهْبِطْ بِسَلَامٍ مِنَّا وَبَرَكَاتٍ عَلَيْكَ وَعَلَى أُمَمٍ مِمَّنْ مَعَكَ﴾ [هود: ٤٨].

ثم يُعَقِّبُ الله سبحانه في نهاية القصة على أن في نجاة المؤمنين وهلاك الكافرين دلالات واضحة على صدق رسل الله بما جاؤوا به من عند الله تعالى، وعلى رأسهم خاتم النبيين، وإن كنا لمُختبرين الأمم بإرسال الرسل إليهم قبل وقوع العقاب بهم، ومن ذلك ما أهلك الله به قوم نوح، وفيه بيان أن العاقبة للمؤمنين، وسوء المنقلب للكافرين، قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ تَرَكْنَاهَا آيَةً فَهَلْ مِنْ مُدَكِّرٍ﴾ ﴿١٥﴾ [القمر].

وقد جمّع الله لفظ (آية)، في سورة المؤمنون، فقال: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ﴾ وأفردها في سورة القمر، لأن (آية) في سورة القمر، تشير إلى السفينة وحدها، وهي هنا تشير إلى صدق نوح وكذب قومه، وتشير إلى رحمة الله بهم حين حملهم في الفلك وأغرق أهل الأرض.

(١) قرأ شعبة بفتح الميم وكسر الزاي من (منزلاً) اسم مكان من نزل، وقرأ الباقون بضم الميم وفتح الزاي، اسم مكان من أنزل.

وما تقدم من تكذيب قوم نوح وإيذائهم له، كان ابتلاء من الله تعالى لنوح عليه السلام، وهذا الابتلاء سُنَّةُ الله في خلقه، ولو شاء الله لآمن قوم نوح، ولو شاء لنصره عليهم من أول يوم، ولكن الله تعالى يميز الخبيث من الطيب، وفي هذا تسلية للنبي صلى الله عليه وسلم وتعريض بكل من كَذَّب دعوة الإسلام.

ومما جاء في هذا المعنى ما جاء في حديث أبي سفيان أن هرقل قال له: وكذلك الأنبياء تُبْتَلَى، ثم تكون لهم العاقبة.

ثَانِيًا: قِصَّةُ هُودٍ عليه السلام

٣١- ﴿ثُمَّ أَنشَأْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ قَوْمًا آخَرِينَ﴾ (٣١)

ثم أرسل الله صلى الله عليه وسلم بعد نوح نبيه هودًا إلى قوم عاد، وقد جاءت الإشارة إلى ذلك بقوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَنشَأْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ﴾ أي: من بعد قوم نوح الذين نَجَوْا من الغرق، أنشأنا من بعدهم ﴿قَوْمًا آخَرِينَ﴾ هم أمة هود عليه السلام قوم عاد، وهذه الآية كقوله تعالى: ﴿وَأَذْكُرُوا إِذْ جَعَلْنَا خُلَفَاءَ مِنْ بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ﴾ [الأعراف: ٦٩].

٣٢- ﴿فَارْسَلْنَا فِيهِمْ رَسُولًا مِنْهُمْ أَنْ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَهِ غَيْرُهُ أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾ (٣٢)

فأرسلنا في قوم عاد رجلاً منهم هو نبيهم هود عليه السلام، قال لهم ما يقوله جميع الرسل: ليس لكم معبود بحق غير الله، أفلا تخافون عقاب الله إن عبدتم غيره؟ ولكن هذه الدعوة لم ترق للرؤساء وكبار القوم، لأنها ستذهب بجاههم ومنافعهم.

٣٣، ٣٤- ﴿وَقَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِهِ الَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِإِيمَانِ الْآخِرَةِ وَأُتْرَقَتْهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا مَا هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يَأْكُلُ مِمَّا تَأْكُلُونَ مِنْهُ وَيَشْرَبُ مِمَّا تَشْرَبُونَ﴾ (٣٣) وَلَئِنْ أَطَعْتُمْ بَشَرًا مِّثْلَكُمْ إِنَّكُمْ إِذَا لَخَسِرُونَ ﴿٣٤﴾

أي فاعترض الأشراف والوجهاء من قوم عاد، الذين كفروا بالله، وكذبوا رسول الله هودًا عليه السلام، وأنكروا الدار الآخرة، وأطغاهم ما هم فيه من النعم وترف العيش، وقالوا: ما هذا الذي يدعوكم إلى. توحيد الله، ويزعم أنه رسول، إلا بشر مثلكم، يأكل من جنس طعامكم، ويشرب من جنس شرابكم، فما الذي فضله عليكم؟ فهلاً كان ملكاً لا يأكل ولا يشرب؟ أي: أنهم قالوا لمن أرسل فيهم ما قاله قوم نوح لنبيهم: كيف يكون

نبيًا وهو بشر لا يتميز علينا في شيء!؟

ولئن اتبعتم بشرا مثلكم، وجعلتموه نبيًا لكم، إنكم لنادمون خاسرون، ناقدون لعقولكم وهذا كقوله تعالى بالنسبة لقوم ثمود: ﴿فَقَالُوا أَشْرَكَ مِنَّا وَحِدًا نَتَّبِعُهُ إِنَّآ إِذَا لَفَى ضَلَالٍ وَسُعُرٍ ﴿٣٦﴾ أَلْفَى الذِّكْرَ عَلَيْهِ مِن بَيْنِنَا بَلْ هُوَ كَذَابٌ أَشْرٌ﴾ [القمر].

وقد وصف الله قوم هود في هذه الآية بثلاثة أوصاف هي: الكفر بالله، والتكذيب بالبعث والحساب والجزاء، وأنهم مترفون في الحياة الدنيا.

قال الأشراف للعامّة مشيرين لهم شبهتين لصدهم عن الإيمان به:

الشبهة الأولى: أن هودًا واحد منكم، لا يختلف عنكم في شيء، فكيف تُطيعون بشرًا مثلكم، يأكل مثلكم، ويشرب مثلكم؟ هذه شبهة، فإن أطمعتموه وصدقتموه فإنكم خاسرون؛ حيث أذللتم أنفسكم باتباعه.

قال أبو السعود: انظر كيف جعلوا اتباع الرسول الحق الذي يوصلهم إلى سعادة الدارين خسرانًا، دون عبادة الأصنام التي لا خسران وراءها، -في زعمهم- قاتلهم الله أنى يؤفكون^(١).

وبعد أن أنكروا رسالة نبيهم أنكروا البعث بعد الموت، فقالوا:

٣٥، ٣٦- ﴿أَيُّدُّكُمْ أَتُكْرَمُ إِذَا مِتُّمُ^(٢) وَكُنْتُمْ تُرَابًا وَعِظْمًا أَتُكْرَمُ تُخْرَجُونَ ﴿٣٥﴾ هِيَآت^(٣) هِيَآت لِمَا تُوعَدُونَ﴾

والشبهة الثانية: أن هودًا يقول لكم: إنكم إذا فارقتم الحياة، وتمزقتم كل ممزق، وتفتتت أجسامكم فصار بعضها ترابًا وبعضها عظامًا، فإنكم ستخرجون للبعث بعد الموت! فكيف تصدقون ما يعدكم به هود من أنكم إذا متم وصرتم ترابًا وعظامًا مُفْتَتَّة

(١) تفسير أبي السعود «إرشاد العقل السليم» (٣١/٤).

(٢) قرأ نافع وحفص وحزمة والكسائي وخلف بكسر الميم من (متم)، والباقون بضمها، وهما لغتان.

(٣) قرأ أبو جعفر بكسر التاء من (هيئات) معًا وهي لغة تميم وأسد، والباقون بفتحها وهي لغة أهل الحجاز، وهي اسم فعل بمعنى: بُعِدَ، ووقف عليها البزي والكسائي وقنبل بخلف عنه بالهاء، والباقون بالتاء، وهو الوجه الثاني لقنبل.

أنكم تخرجون من قبوركم أحياء؟! وهكذا قال الكفار لمحمد ﷺ: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا هَلْ نَدُلُّكُمْ عَلَى رَجُلٍ يُنْبِئُكُمْ إِذَا مُرِّقَتُمْ كُلَّ مُمَرِّقٍ إِنَّكُمْ لَعِنَى خَلْقٍ جَدِيدٍ ۝٧﴾ أَفَتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَمْ بِهِ جِنَّةٌ ۝ [سبأ].

لقد قاس الكفار قدرة الخالق بقدرتهم، فأنكروا قدرته تعالى على إحياء الموتى، ونسوا خلقهم أول مرة، وكان عليهم أن ينكروا وجودهم المحسوس حتى يسلم لهم إنكارهم للبعث، فلم لم ينكروا خلقهم ويكابروا في المحسوسات؟ والقادر على البدء قادر على الإعادة من باب أولى، وعليهم أن ينظروا في دليل آخر، وهو إحياء الأرض بعد موتها، وقد أجاب الله به المنكرين للبعث في قوله تعالى: ﴿بَلْ عَجِبُوا أَنْ جَاءَهُمْ مُنْذِرٌ مِنْهُمْ فَقَالَ الْكَافِرُونَ هَذَا شَيْءٌ عَجِيبٌ ۝٢١ أَءَدَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا ذَلِكَ رَجْعٌ بَعِيدٌ ۝٢٢﴾ قال تعالى ردًا عليهم ﴿فَدَعَلْنَا مَا نَنْقُصُ الْأَرْضُ مِنْهُمْ ۝٢٣﴾ وهم في جوف الأرض ﴿وَعَدْنَا كَنْتَبٌ حَفِيطٌ ۝٢٤﴾ [ن: ٢-٤]

وأكثر ما تستعمل ﴿هَيَاتَ﴾ في الأمر البعيد الذي يستحيل حصوله، وقد استعملت في هذه الآية مرتين، أي: أن هذا أمر بعيد جدًا، أن تَحْيُوا بعد أن تموتوا أيها القوم، وهذا على حد زعمهم:

٣٧- ﴿إِنْ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ ۝٣٧﴾

أي: ما هي إلا هذه الحياة التي نعيشها، يموت فيها الآباء ويحيا الأبناء، فالأحياء يموتون ولا عودة لهم ﴿وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ﴾ بل يموت قوم ويولد غيرهم، وهكذا قال أهل الكفر في كل زمان ومكان ﴿وَقَالُوا مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلَّا الدَّهْرُ ۝٢٤﴾ [الباقية: ٢٤]. فلا وجود - في زعمهم - غير هذا الوجود، تموت طائفة وتأتي طائفة أخرى إلى أن ينقرض العصر، فلا بعث ولا نشور ﴿إِنْ هِيَ إِلَّا مَوْتُنَا الْأُولَىٰ وَمَا نَحْنُ بِمُنْشَرِينَ ۝٢٥﴾ فَأَتُوا بِآيَاتِنَا إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿٣٦﴾ [الدخان]. وبعد أن كذبوا بالبعث، كذبوا رسولهم مرة أخرى فقالوا:

٣٨- ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا رَجُلٌ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا وَمَا نَحْنُ لَهُ بِمُؤْمِنِينَ ۝٣٨﴾

قال قوم عاد: هذا رجل افتري على الله كذبًا بدعواه النبوة، ودعوتكم إلى التوحيد، وإثبات المعاد، وهؤلاء هم الذين قالوا لهود عليه السلام: ﴿إِنَّا لَنَرُوكَ فِي سَفَاهَةٍ وَإِنَّا لَنُظُنُّكَ مِنَ الْكَاذِبِينَ ۝٦٦﴾ [الأعراف: ٦٦]. وهم الذين قالوا له: ﴿إِنْ نَقُولُ إِلَّا اعْتَرَاكَ بَعْضُ آلِهَتِنَا بِسُوءٍ ۝٥٤﴾ [هود: ٥٤]. ويقولون عنه هنا: إنه رجل اختلق الكذب على الله بقوله: إنا نبعث

بعد الموت، ولسنا بمصدقين قوله في دعواه النبوة، ولا في دعوى البعث بعد الموت، ولا في وحدانية الله تبارك تعالى.

فما عليكم إلا أن تتربصوا به الموت، ولا تعاقبوه بالقتل ونحوه، فإنه مجنون غير مؤاخذ بما يتكلم به، ولما اشتد كفرهم ولم ينفع فيهم الإنذار دعا عليهم وسأل ربه النصرة:

٣٩، ٤٠- ﴿قَالَ رَبِّ انصُرْنِي بِمَا كَذَّبُونَ ﴿٣٩﴾ قَالَ عَمَّا قَلِيلٍ لَيُصْحَحَنَّ نَدِيرِينَ ﴿٤٠﴾﴾

دعا هود ربه أن ينصره عليهم بسبب تكذيبهم له، فطلب وقوع العقاب بهم، بعد أن تأكد له إصرارهم على الكفر والجحود.

قال سبحانه مجيباً دعوته: ﴿عَمَّا قَلِيلٍ﴾ أي: بعد وقت قريب جداً ليندمن أشد الندم على كفرهم، وتكذيبهم لك، وستنزل بهم العقوبة الصارمة:

٤١- ﴿فَلَاخَذَتْهُمْ الصَّيْحَةُ بِالْحَقِّ فَجَعَلْنَاهُمْ غُثَاءً فَبُعْدًا لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿٤١﴾﴾

فصاح بهم جبريل، فارتجفت الأرض من تحتهم، فجاءتهم صيحة شديدة مع ريح عاتية، كانت سبب هلاكهم، وهي صيحة حق لا اعتداء ولا ظلم عليهم فيها، بل هم مستحقون لها، فأصبحوا غثاء كغثاء السيل والورق وعيدان الحطب التي تطفو فوق الماء كالزبد، وهذا معنى: ﴿فَجَعَلْنَاهُمْ غُثَاءً﴾ أي: أهلكهم الله سبحانه، فبعداً وهلاكاً لهؤلاء الظالمين، وبعداً لهم من رحمة الله تعالى، فليحذر جميع المكذبين لرسول الله أن يحلّ بهم ما حلّ بمن سبقهم ﴿وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا هُمُ الظَّالِمِينَ ﴿٧٦﴾﴾ [الزخرف].

﴿فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ وَمَا كَانُوا مُنْظَرِينَ﴾^(١) [الدخان: ٢٩].

(١) نظرًا لأن هذه القصة التي سبق ذكرها، لم يصرح القرآن فيها بذكر اسم النبي المعنى بها، فقد ذهب بعض المفسرين كالطبري وابن عاشور وابن سعدي إلى أن المراد بهذه القصة هم قوم ثمود؛ نبيهم صالحاً عليه السلام، لأن هلاكهم كان بالصيحة في الصباح الباكر، كما ذكر الله تعالى عنهم في سورتي الحجر والقمr وغيرهما، ولعل ما أثبتناه هو الأرجح، فقصة هود تلى قصة نوح في القرآن كله، وقد تعدد ذكر اسم العذاب للأمة الواحدة، فتارة تذكر الرجفة، وتارة تُذكر الصيحة، أو الطاغية، أو الصاعقة، وهكذا.

ثَالِثًا: الْإِشَارَةُ إِلَى الْأُمَمِ الَّتِي تَلَتْ قَوْمَ عَادٍ

٤٢، ٤٣ - ﴿ثُمَّ أَنْشَأْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ قَوْمًا آخَرِينَ ﴿٤٢﴾ مَا تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ أَجَلَهَا وَمَا يَسْتَفْزِحُونَ﴾

ثم أنشأنا من بعد هلاك قوم هود أممًا كثيرة، لكل أمة أجل لا تتعداه، ولم يذكر الله سبحانه الرسل لهذه الأمم؛ لأن قصص هذه السورة مجرد بيان لموقف الأمم من الرسل، وكيف استقبلوا حقيقة التوحيد.

والمعنى: إن هذه القرون الخالية لم يرسل الله إليهم رسلًا، وظلُّوا متبعين شريعة مَنْ قبلهم من الرسل، كنوح، وهود، وصالح، ولم يؤمروا بشرع آخر، ولذا: فقد اقتصرَت الآية على ذكر الأمم دون الرسل، وجاء ذكر الرسل مجملًا بعد ذلك.

ثم بيَّن سبحانه أن كل قرن من القرون بما فيه من رسول وأمة، يستوفي أجله ويمضي، وهي سُنَّة الله في خلقه، أي: أن كل أمة كذَّبت رسولها، أهلكها الله سبحانه في وقت محدد، لا يتقدم ولا يتأخر، مع أن كل رسول معه من الآيات ما يؤمن على مثله البشر.

رَابِعًا: رُسُلٌ طَوَى السِّيَاقُ ذِكْرَهُمْ

٤٤ - ﴿ثُمَّ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا ﴿١﴾ تَتَرَا ﴿٢﴾ كُلَّ مَا جَاءَ أُمَّةً رُسُلُهُمْ كَذَّبُوهُ فَاتَّبَعْنَا بِعَصَا بَعْضِهِمْ وَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ فَبُعْدًا لِقَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٤٤﴾﴾

وبعد هذه القرون أرسل الله رسلًا، وهؤلاء الرسل جاؤوا تباغًا مع وجود فترة من الزمن بين كلٍّ منهم، يتبع بعضهم بعضًا، منهم: إبراهيم، ولوط، ويوسف، وشعيب، وأيوب، ويونس، أرسلناهم إلى أمم أخرى؛ لأن إرسال الرسول يستلزم وجود أمة.

﴿ثُمَّ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا تَتَرَا﴾ رسولًا بعد رسول، وأمة بعد أمة، وكل أمة كذَّبت رسولها أهلكها الله، بعد أن سخروا منه واستهزؤوا به؛ كما قال تعالى: ﴿كَذَلِكَ مَا أَتَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ

(١) قرأ أبو عمرو بإسكان السين من (رسلنا)، والباقون بضمها.

(٢) قرأ ابن كثير وأبو عمرو وأبو جعفر بالتثنية في (تترا) وصلًا ويأيداه ألفًا وقفًا، والألف مبدلة من التثنية، أو هي للإلحاق، وقرأ الباقر بالألف بلا تنوين وصلًا ووقفًا على أنه مصدر على وزن فعلى وألفه للتأنيث.

رَسُولٍ إِلَّا قَالُوا سَالِحٌ أَوْ جَحُونٌ ﴿٥٦﴾ [الذاريات].

وقال سبحانه: ﴿يَحْزَنُ عَلَى الْعِبَادِ مَا يَأْتِيهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾ ﴿٣٠﴾ [يس].

ومهمة الرسل تبليغ دعوة الله إلى الأمم أن يعبدوا الله ويوحده سواء تبعه القوم أم كذبوه، قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾ [النحل: ٣٦]. فأتبع الله بعضهم بعضًا في الهلاك والتدمير بسبب تكذيبهم، ولم يبق إلا أخبار هلاكهم يتناقلها الناس بينهم؛ حيث جعلهم الله أحاديث يتحدث الناس عنهم بما جرى لهم على سبيل التعجب، أمة بعد أمة، فبعدًا وهلاكًا وسحقًا لقوم لا يصدقون الرسل، ولا يطيعونهم.

خَامِسًا: مُوسَى وَهَارُونُ عَلَيْهِمَا السَّلَامُ

٤٥، ٤٦- ﴿ثُمَّ أَرْسَلْنَا مُوسَى وَأَخَاهُ هَارُونَ^(١) بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُبِينٍ ﴿٤٥﴾ إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا عَالِينَ ﴿٤٦﴾﴾

وبعد أن أهلك الله قوم نوح، وقوم هود ومن بعدهم، أرسل الله موسى وهارون إلى فرعون وملئه بالآيات والمعجزات التي أيد الله بها موسى، وهي العصا واليد، وهما المعجزتان اللتان اقترن بهما تحدي فرعون، فهما السلطان المبين والحجة الظاهرة بالنسبة له، أما بقية المعجزات فقد كانت بعد الخروج من البحر، وهي خاصة ببني إسرائيل، وهي: السنون، ونقص الثمرات، والجراد، والقمل، والضفادع، والدم، وفلق البحر، وانفجار الحجر، ونتق الجبل، قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى تِسْعَ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ﴾ [الإسراء: ١٠١] وقال: ﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الطُّوفَانَ وَالْجَرَادَ وَالْقُمَّلَ وَالضَّفَادِعَ وَالْدَّمَ آيَاتٍ مُفَصَّلَاتٍ﴾ [الأعراف: ١٣٣] بعد ذكر السنين ونقص الثمرات في الآية ١٣٠ الأعراف.

وأرسلنا موسى أيضًا بالسلطان المبين، وهو الحجة القوية الواضحة، التي تحمل كل عاقل على الإيمان بموسى والاستجابة لدعوته، فقد أتى الله موسى التوراة إلى جوار هذه المعجزات، ولكنها نزلت بعد هلاك فرعون وقومه، وهي حجة بينة تقهر القلوب، فتتقاد

(١) لم يعد الكوفي والحمصي (وأخاه هارون) آية، وعدّها غيرهما.

لها، وتقوم بها الحجة على المعارضين المعاندين وقد جاء هذا أيضًا في قوله تعالى ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُّبِينٍ﴾ [غافر: ٢٣].

وكانت مهمة موسى وهارون كما جاءت في قوله تعالى: ﴿فَأَنبَاهُ فَقَوْلًا إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِي إِسْرَءِيلَ وَلَا تَعْذِيبَهُمْ﴾ [طه: ٤٧]. فقد أرسلنا بالتوحيد، ولتخليص بني إسرائيل من ظلم فرعون.

ومع هذه الحجج الدامغة، والبراهين القاطعة، فإن فرعون وقومه استكبروا عن اتباع موسى وهارون، وامتنعوا عن الانقياد لأمرهما، فكانوا بهذا قومًا متطاولين على الناس، قاهرين لهم بالظلم، فقد تجبروا وطغوا، وكانوا قومًا طاغين متعاليين على الناس، ظالمين لهم، وادّعى فرعون إلى جوار ذلك الربوبية والألوهية.

قال تعالى مقررا موقف المكذبين برسالة موسى ﷺ:

٤٧، ٤٨ - ﴿فَقَالُوا أَتُؤْمِنُ لِبَشَرَيْنِ مِثْلِكَ وَقَوْمُهُمَا لَنَا عِيدُونَ﴾ (٤٧) ﴿كَذَّبُوهُمَا فَكَانُوا مِنَ الْمُهْلَكِينَ﴾

أي: فأنكر فرعون وملاه على موسى وهارون أن يكونا بشرين، كما أنكر ذلك من قبلهم من الأمم على رسل الله، واعترضوا نفس الاعتراض، فقالوا وهم مغترون متكبرون: أنصدق رجلين من الناس مثلنا من البشر - يعنون: موسى وهارون - وقومهما من بني إسرائيل لنا عابدون؟ أي: تحت إمرتنا، طائعون لأمرنا، مطيعون لنا، فهم خدم لنا، يُسَخِّرُهُم فرعون، فيذبح أبناءهم ويستحيي نساءهم، ويستضعف فريقًا منهم في الأعمال الشاقة، ﴿وَإِذْ أَتَيْنَاكُم مِّنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ يُقِيلُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ﴾ [الأعراف: ١٤١] وهكذا أعرض فرعون وقومه عن الإيمان بموسى وهارون، بزعمهم أن الرسول لا يكون بشرًا، وأن بني إسرائيل ومنهم موسى وهارون، بمنزلة الخدم لفرعون وحاشيته، فلا يليق بهم اتباعهما، وهذا كقول قوم نوح له ﴿أَتُؤْمِنُ لَكَ وَاتَّبَعَكَ الْأَرْذَالُونَ﴾ [الشعراء: ١١١] وقولهم ﴿إِلَّا الَّذِينَ هُمْ أَرَادُوا بِادِّىَ الرَّأْيِ﴾ [هود: ٢٧].

فكذب فرعون وحاشيته موسى وهارون فيما جاء به من عند الله، فكانت النتيجة أن أغرق الله فرعون ومن كان معه، وفي هذا بيان لعاقبة فرعون وقومه لما كذبوا موسى وأخاه هارون، فقد أهلكهم الله بالغرق في البحر في يوم واحد ﴿فَأَخَذْنَاهُ وَجُودُودُ

فَسَبِّدْنَهُمْ فِي آيَةٍ فَأَنْظُرْ كَيْفَ كَانَتْ عَاقِبَةُ الظَّالِمِينَ ﴿٤٩﴾ [القصص]. قال تعالى:

٤٩- ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ ﴿٤٩﴾﴾

أُعِيد ذكر موسى في هذه الآية؛ لبيان نزول التوراة عليه بعد هلاك فرعون وقومه، أي: وبعد غرق فرعون وإهلاكه، أنزل الله التوراة على موسى؛ ليهتدي بها قومه إلى الحق، وفيها أحكام الله وأوامره ونواهيها، وقد فعل الله ذلك؛ كي يهتدي بها بنو إسرائيل ويؤمنوا بنبينهم.

وبعد أن أنزل الله التوراة، لم يهلك أمة بعذاب الاستئصال، بل أمر المؤمنين بقتال الكافرين، وذلك لأن الله تعالى ذكر الأمم المتتابة في الهلاك، ثم أخبر أنه أرسل موسى بعدهم، وأنزل عليه التوراة لهداية الناس، كما قال سبحانه: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ مِنْ بَعْدِ مَا أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ الْأُولَى بَصَائِرَ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٤٩﴾﴾ [القصص]. وكان إهلاك فرعون قبل نزول التوراة، وقد صرحت آية سورة القصص، أن نزول التوراة كان بعد هلاك الأمم المكذبة لرسل الله، وأن التوراة نزلت بصائر للناس وهدى ورحمة.

ويشبه هذا المعنى ما جاء في سورة يونس ٧٥ في قوله تعالى ﴿ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ بَعْدِهِم مُوسَى وَهَارُونَ إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ بِآيَاتِنَا﴾.

وجاء في سورة الأعراف ١٠٣ ﴿ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ بَعْدِهِم مُوسَى بِآيَاتِنَا إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ﴾.

واقصر الكلام في هذه الآية على موسى لأن التوراة نزلت عليه، ولأن هارون قد انتهت مهمته بتبليغ الدعوة لفرعون وملئه، وكان موسى قد سأل ربه إشراك أخيه هارون معه في تبليغها له؛ لأنه أفصح منه لساناً في بيان الحجة والبرهان، وكانت لفرعون يد على موسى بتربيته في بيته.

وقد أهلك الله فرعون، وخلّص بني إسرائيل من عذابه، ونجاهم مع موسى ﷺ وتمكن من إقامة أمر الله فيهم، ووعد الله أن ينزل عليه التوراة بعد أربعين يوماً ﴿وَكَتَبْنَا لَهُ فِي الْأَلْوَاكِ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ مَوْعِظَةً وَتَفْصِيلاً لِكُلِّ شَيْءٍ﴾ [الأعراف: ١٤٥]، وقال الله تعالى هنا ﴿لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ﴾ أي يثوبون إلى رشدهم ويرجعون إلى ربهم، فيعقلوا عنه أمره ونهيه وثوابه وعقابه، فيعبدوه ويطيعوه، وقد فصلت سورة الأعراف وغيرها ما كان منهم من مخالفة أوامر الله عز وجل.

سَادِسًا: نَبِيُّ اللَّهِ عِيسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ

٥٠- ﴿وَجَعَلْنَا ابْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ آيَةً وَآوَيْنَهُمَا إِلَىٰ رَبْوَةٍ^(١) ذَاتِ قَرَارٍ وَمَعِينٍ ﴿٥٠﴾﴾

وتأتي النقطة الأخيرة قبل رسالة محمد ﷺ في سلسلة رسل الله جميعاً، عن نبي الله عيسى عليه السلام، ولما كانت ولادته ﷺ معجزة دالة على قدرة الله سبحانه، كان الاهتمام بذكر ميلاده هنا دون ذكر الرسالة، لأنها دالة على صدق رسالته؛ إذ كيف حملت مريم بعيسى؟! وكيف ولدته بغير أب، كما خلق الله آدم من غير أب ولا أم، وكما خلق حواء من غير أم؟! وكانت ولادة عيسى من غير أب معجزة عظيمة دالة على قدرته تعالى، وقد أُلجأه الله هو وأمه ﴿إِلَىٰ رَبْوَةٍ﴾ أي: إلى مكان مرتفع في بيت المقدس فيه راحة ومياه جارية، حيث أوحى الله لمريم أن تنزل بعيسى من قومها مكاناً بعيداً حين اقترب مخاض ولادته، فقال تعالى: ﴿فَحَمَلَتْهُ فَانْتَبَذَتْ بِهِ مَكَانًا قَصِيًّا﴾ [مريم]. وفي هذا منة من الله تعالى على عيسى وأمه.

والقرار: هو المكان المستوي الصالح للاستقرار عليه، فيه خصوبة من الحبوب والثمار، وفيه مياه جارية ظاهرة للعيون، وقد اكتملت فيه كل الخصائص، وهو أهل لأن يُستقرَّ فيه، ويرجع أن هذا المكان هو بيت لحم في فلسطين؛ لأن ولادة عيسى كانت فيه، والمعين هو النهر الجاري الذي فجّره الله من تحتها، وهو وارد في قوله تعالى: ﴿فَنَادَاهَا مِن تَحْتِهَا أَلَّا تَحْزَنِي قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا﴾ [مريم]. وهناك أماكن أخرى ذهبت به مريم إليها في طفولته وصباه وهي: دمشق ومصر.

وفي ذكر أم عيسى في الآية رد على اليهود وتسفيه لهم فيما رموها به من إفك.

ويقال: إن الملك الحاكم آنذاك أراد أن يُخرج عيسى وأمه، ففرت به أمه، وذهبت به إلى مصر، وإلى غوطة دمشق، وإلى أماكن أخرى متفرقة، واستمر ذلك قرابة اثني عشر عاماً، ثم رجعت به إلى مكانها بعد أن مات هذا الملك.

(١) قرأ ابن عامر وعاصم بفتح الراء من (رَبْوَةٍ)، والباقون بضمها، وهما لغتان.

سَابِعًا: نِدَاءُ إِلَى رُسُلِ اللَّهِ جَمِيعًا

٥١- ﴿يَا أَيُّهَا الرُّسُلُ كُلُّوا مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَاعْمَلُوا صَالِحًا إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ ﴿٥١﴾﴾

تحدثت سورة المؤمنون - كما أسلفنا - عن رسل الله الكرام من لدن نوح عليه السلام، وذكرت قبله آدم في قصة الخلق، وطوّفت بنا حتى وصلت إلى عيسى صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين، وفي نهاية هذا الحديث وجّه الله ﷻ النداء إلى الرسل جميعًا بما يُشعر أن هذا النداء وجّه إلى كل رسول في زمانه، والموجود منهم وقت نزول هذه الآية هو النبي محمد ﷺ المنزل عليه هذا القرآن العظيم، ومنه هذه الآية، وفيها يأمر الله ﷻ رسله جميعًا أن يأكلوا من الحلال الطيب الذي لا شبهة فيه، ولا تشوبه شائبة، ويأمرهم سبحانه أن يشكروا الله تعالى بقلوبهم وجوارحهم على هذا الرزق الحلال، ويتزودوا بالعمل الصالح، فيعملوا الصالحات من الفرائض والنوافل، والإكثار من أعمال الخير والبر.

والله ﷻ عليم بما يعملون، فهو جلّ شأنه يحاسبهم ويجازيهم يوم القيامة على ما قدمت أيديهم، وجميع الرسل متفقون على إباحة الطيبات وتحريم الخبائث، كما اتفقوا على توحيد الله تعالى ومحبته، وأن محمداً ﷺ هو خاتم الرسل والأنبياء.

والأكل من الحلال له أثر في قبول العمل الصالح، فاللحم الطيب يَنْبُتُ مِنْ تَحَرِّيِ الحلال في المطعم والمشرب، والأكل من الحلال الطيب يجعل الأنفاس مباركة، والدعاء مقبولاً، والعبادة مقبولة.

واللحم الخبيث الذي يَنْبُتُ من أكل الحرام، تكون أنفاس صاحبه خبيثة، وعمله وقوله مردودين عليه؛ وقد جاء في الحديث ما يفسر هذه الآية:

١- عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «يا أيها الناس، إن الله تعالى طيب لا يقبل إلا طيباً، وإن الله تعالى أمر المؤمنين بما أمر به المرسلين، فقال: ﴿يَا أَيُّهَا الرُّسُلُ كُلُّوا مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَاعْمَلُوا صَالِحًا إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ ﴿٥١﴾﴾ وقال: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُلُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَاشْكُرُوا لِلَّهِ إِنَّ كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴿١٣١﴾﴾ [البقرة]. ثم ذكر: «الرجل يطيل السفر، أشعث أغبر، يمد يديه إلى السماء، يارب يارب، ومطعمه حرام، ومشربه حرام،

وملبسه حرام، وغُذِّي بالحرام، فأنتى يستجاب لذلك»^(١).

٢- وعن أم عبد الله أخت شداد بن أوس، أنها أرسلت إلى النبي ﷺ بقَدَحٍ مِنْ لبن، عند فطره وهو صائم، وذلك في أول النهار وشدة الحر، فردَّ إليها رسولها: «أنتى كانت لك الشاة؟» فقالت: اشتريتها من مالي، فشرب منه. فلما كان الغد أتته، فقالت: يا رسول الله، بَعَثْتُ إليك بلبن، مُرْتِيَةً لك من طول النهار وشدة الحر، فرددت إليَّ الرسول فيه؟ فقال لها: «بذلك أُمِرت الرسل، ألا تأكل إلا طَيِّبًا، ولا تعمل إلا صَالِحًا»^(٢).

ومعنى قولها: رددت إليَّ فيه، أي أنه سألها عن مصدر اللبن، ومن أين آلت لها الشاة التي حلبتها، وهكذا بقية الرسل، ومنهم نبي الله داود ﷺ.

٣- فقد أخرج البيهقي في شعب الإيمان عن جعفر بن سليمان، وعبد الوهاب بن أبي حفص قال: أمسى داود ﷺ صائماً، فلما كان عند إفطاره أُتِيَ بِشَرْبَةٍ لبِن، فقال: من أين لكم هذا اللبن؟ قالوا: مِنْ شَاتِنَا، قال: ومن أين ثمنها؟ قالوا: يا نبي الله، من أين تسأل؟ قال: إنا معاشر الرسل أُمِرْنَا أَنْ نَأْكُلَ مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَنَعْمَلَ صَالِحًا^(٣).

وفي الآية رد على من زعم أن الرسل لا ينبغي أن يكونوا بشرًا يأكلون ويشربون، فبيَّن سبحانه بقوله: ﴿كُلُوا﴾ أن الأكل لا ينافي الرسالة، وأن الذي أرسلهم أباح لهم الأكل.

وفي الأمر لهم بأكل الطيبات، إشارة إلى أن الرسل من شأنهم اجتناب الخبائث والمحرمات والمكروهات، وهمة الرسل تنصرف إلى العمل الصالح أكثر مما تتوجه إلى مُتَعِ الحياة، كما قال تعالى: ﴿لَيْسَ عَلَى الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جُنَاحٌ فِيمَا طَعِمُوا إِذَا مَا اتَّقَوْا وَءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ [المائدة: ٩٣].

(١) أخرجه مسلم برقم (١٠١٥) والبخاري في رفع اليدين (٩٤) والترمذي برقم (٢٩٨٩) وأحمد (٨٩/١٤) برقم (٨٣٤٨)، والدارمي (٢٧١٧) والبيهقي (٣/٣٤٦) وفي إسناده فضيل بن مرزوق، صدوق، حسن الحديث.
(٢) رواه الحاكم في «المستدرک» (٤/١٢٥) من طريق المعافى بن عمران عن أبي بكر بن أبي مريم به نحوه، وقال: هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه، وتعقبه الذهبي بقوله: قلت: وابن أبي مريم وإوه، وأخرجه أحمد في «الزهد» ص ٣٩٨ وغيرهما.
(٣) البيهقي في الشعب (٥٧٦٩).

وقد أوصى الله تعالى كل رسول بالأكل من الطيبات، والإكثار من العمل الصالح إرشاداً لأمته وتحذيراً لهم من المحرمات، يدل عليه نهاية الآية ﴿إِنِّي يَمَّا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ﴾ أي: لا يخفى عليه شيء من أمركم، وسيوفيكم جزاءكم.

وفي الآية دليل على أن أكل الحلال عون على العمل الصالح، وأن عاقبة الحرام وخيمة، ومنها ردُّ الدعاء.

دِينُ اللَّهِ وَاحِدٌ

٥٢- ﴿وَإِنْ^(١) هَذِهِ أُمَّةٌ أُفْتِكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاتَّقُونِ^(٢)﴾

بَيَّنَّ اللَّهُ ﷻ أَنَّ مِلَّةَ الْإِسْلَامِ دِينُهَا وَاحِدٌ مِنْ لَدُنْ آدَمَ إِلَى مُحَمَّدٍ، وَهُوَ التَّوْحِيدُ. فَأَصُولُ الشَّرَائِعِ وَاحِدَةٌ، وَالْعَقِيدَةُ وَاحِدَةٌ، وَأَسَاسُ مَا جَاءَ بِهِ الرِّسَالُ جَمِيعًا وَاحِدٌ، وَهُوَ التَّوْحِيدُ الَّذِي بَعَثَ اللَّهُ بِهِ رُسُلَهُ، وَأَنْزَلَ بِهِ كِتَابَهُ، وَأَصُولُ الْعِبَادَاتِ لَا تَخْتَلِفُ فِي جَمِيعِ الشَّرَائِعِ السَّمَاوِيَّةِ، وَإِنْ اخْتَلَفَتْ فِي الْفُرُوعِ بِمَا يَنَاسِبُ مَرَاحِلَ تَكَالِيفِ الْأُمَمِ، أُمَّةٌ بَعْدَ أُمَّةٍ، فَأَمَّتْكُمْ -مَعَشَرَ الْأَنْبِيَاءِ- أُمَّةٌ وَاحِدَةٌ، وَشَرِيعَتُكُمْ وَاحِدَةٌ، وَدِينُكُمْ وَاحِدٌ، وَهُوَ الْإِسْلَامُ ﴿إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ﴾ [آل عمران: ١٩]، وَرَبُّكُمْ وَاحِدٌ، فَامْتَثِلُوا مَا أَمَرَكُمْ بِهِ، وَاجْتَنِبُوا مَا نَهَاكُمْ عَنْهُ.

وَقَدْ خُتِمَتْ هَذِهِ الْآيَةُ بِالْأَمْرِ بِالتَّقْوَى؛ لِأَنَّهَا جَاءَتْ بَعْدَ إِسْرَالِ الرِّسَالِ إِلَى أَقْوَامِهِمْ بِالتَّوْحِيدِ وَتَرْكِ الشِّرْكِ، فَكَانَ ذِكْرُ الْأَمْرِ بِالتَّقْوَى هُنَا أَنْسَبَ بِالْمَقَامِ؛ لِأَنَّ الرِّسَالَ الْمُخَاطَبِينَ فِي الْآيَاتِ مَأْمُورُونَ بِالتَّقْوَى وَبِالزِّيَادَةِ عَلَيْهَا، فَقَدْ قَالَ تَعَالَى فِي حَقِّ رَسُولِهِ مُحَمَّدٍ ﷺ: ﴿يَا أَيُّهَا الْمَرْمِلُ ۖ قُرْ آلِيلَ إِلَّا قَلِيلًا ۖ يَصْفَهُ ۖ أَوْ أَنْقِصْ مِنْهُ قَلِيلًا ۖ﴾ [المزمل: ٢٠]. وَقَالَ فِي حَقِّ الْأُمَّةِ: ﴿فَاقْرَأْ وَما يَكْسِرُ مِنَ الْقُرْآنِ﴾ [المزمل: ٢٠].

(١) قرأ نافع وابن كثير وأبو عمرو وأبو جعفر ويعقوب بفتح الهمزة وتشديد النون من (وإن هذه) على تقدير حرف الجر قبلها، أي ولأن، وهذه اسمها، وأمتكم خبرها، وقرأ ابن عامر بفتح الهمزة وتخفيف النون على أنها مخففة من الثقيلة، واسمها ضمير الشأن محذوف، واللام مقدرة قبلها، وهذه مبتدأ، وأمتكم خبر، والجملة خبر إن، وقرأ الباقر بكسر الهمزة وتشديد النون على الاستئناف، وهذه اسمها، وأمتكم خبرها.

(٢) قرأ يعقوب بإثبات الباء وصلًا ووقفًا من (فاتقون)، والباقر بحذفها.

أما آية سورة الأنبياء فقد خُتِمت بالأمر بالعبادة؛ لأن المقصود منها هناك تبليغ الرسل إلى أقوامهم، فكان ذكر العبادة أنسب؛ لأن حظ الأمم منها أكثر.

اِخْتِلَافُ الْأُمَمِ فِي الدِّينِ الْوَاحِدِ

٥٣- ﴿فَتَقَطَّعُوا أَمْرَهُمْ بَيْنَهُمْ زُبُرًا كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ ^(١) فَرِحُونَ ﴿٥٣﴾

ومع أن الرسل جميعًا جاؤوا بالتوحيد من عند الله تعالى، إلا أن الأمم اختلفوا وتفرقوا في هذا التوحيد، فتعدد المعبود، كما قال تعالى: ﴿كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً﴾ أي على دين واحد هو التوحيد، فاختلَفوا وأشركوا مع الله غيره ﴿فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ﴾ [البقرة: ٢١٣] أي: حين اختلفوا وتفسى فيهم الشرك ﴿فَتَقَطَّعُوا أَمْرَهُمْ بَيْنَهُمْ زُبُرًا﴾ أي: أصبحوا متفرقين في دينهم، وصاروا أحزابًا وفرقًا وشيعًا، منهم من اتبع التوراة، ومنهم من اتبع الإنجيل، ومنهم الملحد والعلماني، ومنهم المسلم، ومنهم عبدة الأوثان وهكذا، فكان منهم الكافر ومنهم المؤمن.

وأهل الديانة الواحدة تفرقوا، فاليهود تفرقوا فرقًا، والنصارى كذلك، وأمة محمد أيضًا ظهرت فيهم الفرق والأحزاب، فالإنجيل الواحد المنزل على عيسى أصبح أناجيل، واليهود يقولون: عزيز ابن الله، والنصارى يقولون: المسيح ابن الله، وكلاهما حَرَفَ وبَدَّلَ في دين الله وفي كتاب الله، والوثنيون عُباد الأصنام مختلفون، وكذا غيرهم ممن لا دين لهم، كلهم ملل ونحل مختلفة، قد تعددت معبوداتهم.

والمفروض أن يكون الناس جميعًا أمة واحدة، يؤمنون برب واحد، ودين واحد، ويؤمنون بالرسول الخاتم، وبالقرآن الذي نزل عليه، كما قال تعالى: ﴿وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ ﴿٨٥﴾ [آل عمران]. ولكن الأمة تفرقت، وتنازعت أمر التوحيد بينها، حتى مزَّقته وقطَّعته، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيعًا أَلَسَتْ مِنْهُمْ فِي سَرَىٰ إِنَّمَا أَمْرُهُمْ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ يُنَبِّئُهُمْ بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ﴾ ﴿١٥٩﴾ [الأنعام].

وأهل كل حزب، وكل فرقة، وكل شيعة، وكل فئة، قد أوصدوا الباب على أنفسهم،

(١) قرأ حمزة ويعقوب بضم الهاء من (لديهم)، والباقيون بكسرها.

فأصموا آذانهم على ما ورثوه ودرسوه، ولم يتجردوا من الهوى والتعصب، ولم يستمعوا لغيرهم، ولم يناقشوا الحق من حيث هو، ولم يتحرروا من ربة ما ورثوه وتعلموه، ولم يبحثوا عن الحقيقة، وإنما أغلقوا الباب والنوافذ على أنفسهم، وكل حزب منهم فرح بما هو عليه، من غير تبصّر ولا مناقشة، فعكف على ما هو عليه، وذمّ غيره، وكفر به، من غير برهان ساطع، والدين الواحد صار ديانات، ويزعم كل فريق منهم أنه على حق، وغيره على باطل، ﴿كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ﴾ والآية تحذر من التحزب والتفرق في الدين، وتأمّر باتباع الشريعة التي ختم الله بها رسالاته.

وَجُوبُ تَرْكِ الْفِرْقِ الضَّالَّةِ

٥٤- ﴿ذَرَّهُمْ فِي غَمَرَتِهِمْ حَتَّىٰ حِينٍ﴾ ﴿٥٤﴾

والله ﷻ يقول لنبيه ﷺ: دع هذه الفرق الضالة، من الذين خرجوا على ملة التوحيد، واتركهم في ضلالهم، وفي جهلهم وغيّهم وفسادهم، فليسوا أهلاً للهداية، فاتركهم حتى ينقضي أجلهم، ويفاجئهم المصير، وحتى ينالوا جزاءهم يوم لقاء رب العالمين.

قال تعالى: ﴿ذَرَّهُمْ يَأْكُلُوا وَيَمْتَعُوا وَيُلْهِمُ الْأَمَلُ فَسَوْفَ يَعْمَلُونَ﴾ ﴿٥٤﴾ [الحجر]. وقال سبحانه: ﴿فَهَلِ الْكَافِرِينَ مِنْهُمْ رُؤُفًا﴾ ﴿٥٥﴾ [الطارق].

وقال تعالى: ﴿إِنَّمَا نُمَلِّ لَهُمْ لِيَزْدَادُوا إِثْمًا﴾ [آل عمران: ١٧٨]. وقال سبحانه:

﴿وَمَا أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ بِالَّتِي تُفَرِّقُكُمْ عِنْدَنَا زُلْفَىٰ إِلَّا مَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا﴾ [سبا: ٣٧].

والغمرة: هي الشيء الذي يغمر الإنسان فيغطي عقله، ويصمّ أذنه، ويعمي عينه عن النظر الصحيح، فهو مغمور فيه، كالذي يغمره الماء، ويغطي قامته كلها.

كَثْرَةُ النِّعَمِ لَيْسَتْ دَلِيلًا عَلَى رِضَى اللَّهِ تَعَالَى

٥٦، ٥٥- ﴿يَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُم بِهِ مِنْ مَّالٍ وَبَيْنَ ﴿٥٥﴾ شَارِعٍ لَهُمْ فِي الْخَيْرَاتِ بَلْ لَا يَشْعُرُونَ﴾

وغير المسلمين يأخذون نصيبهم في الحياة الدنيا أوفى وأكثر من المسلمين، فهم أكثر أموالاً، وأكثر جاهاً، وأكثر متاعاً، وأقوى جنداً، وسياسة واقتصاداً.

فلا تظن - أيها المخاطب - أن ما يعطيهم الله من الخيرات، دليل على أنهم من أهل

السعادة في الدنيا والآخرة، فليس الأمر كذلك، لأن الله تعالى يمهلهم ويزيدهم ليزدادوا إثماً وليغتبطوا بما أوتوا ﴿حَتَّىٰ إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَهُمْ بَغْتَةً﴾ [الأنعام: ٤٤]

والله ﷻ يبين أن كثرة المال والمتاع والولد، ليست علامة على رضى الله سبحانه، وإنما قد تكون الأموال استدراجاً للعبد؛ ليستمر في طريق الخطأ، والكفر والضلال، فلا يظن غير المسلمين في كل زمان ومكان أن ما نَعِدُهُ عليهم من صنوف النعم، وكثرة الأموال والمتاع، وما هم فيه من التقدم العلمي في العلوم التجريبية، لا يظنون أن هذا مسارعة من الله ﷻ إليهم في الخيرات لأنهم يستحقونها، أو أن هذا دليل رضوانه تعالى عليهم! كلا، بل هم لا يعلمون أننا نعجل لهم الخير في الدنيا فتنة واستدراجاً؛ لكي تسجل عليهم الملائكة نتيجة اختبارهم، وتقوم عليهم الحجة يوم القيامة.

فلا تغتر -أيها المسلم- بما هم فيه من ظهور على الساحة العالمية، فإن مصيرهم إلى زوال وعاقبتهم إلى خسران، قال تعالى: ﴿لَا يَغْنَزُكَ تَقْلُبُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي الْإِلْدَادِ﴾ (١٩٦) مَتَّعٌ قَلِيلٌ ثُمَّ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمِهَادُ ﴿١٩٧﴾ [آل عمران].

عن يزيد بن مسيرة قال: أجد فيما أنزل الله على موسى: أيفرح عبدي المؤمن أن أبسط له الدنيا وهو أبعد له مني؟ أو يجزع عبدي المؤمن أن أقبض عنه الدنيا وهو أقرب له مني؟ ثم تلا الآيات^(١).

ولما جيء لعمر بن الخطاب ﷺ بِثُرَّةٍ كَسْرَى، وفيها سواره، خشي على نفسه أن يكون هذا استدراجاً له، ومكرًا من الله به، وقرأ هاتين الآيتين^(٢).

أخرج الإمام أحمد وغيره عن ابن مسعود ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الله قسم بينكم أخلاقكم، كما قسم بينكم أرزاقكم، وإن الله يعطي الدنيا لمن يحب ومن لا يحب، ولا يعطي الدين إلا لمن أحب، فمن أعطاه الله الدين فقد أحبه، والذي نفسي بيده، لا يسلم عبد حتى يسلم قلبه ولسانه، ولا يؤمن حتى يأمن جاره بوائقه»، قالوا: وما بوائقه يا نبي الله؟ قال: «غشمه وظلمه، ولا يكسب عبد مالا من حرام فينفق منه فيبارك له فيه، ولا

(١) يُنْظَرُ: «الدر المثور» (١٠/٥٩٩) عن ابن أبي حاتم بتصرف.

(٢) يُنْظَرُ: البيهقي (٦/٣٥٨).

يتصدق به فيقبل منه، ولا يتركه خلف ظهره إلا كان زاده إلى النار، إن الله لا يمحو السيئ بالسيئ، ولكن يمحو السيئ بالحسن، إن الخبيث لا يمحو الخبيث»^(١).

وقال سبحانه: ﴿فَذَرْنِي وَمَنْ يُكَذِّبُ هَذَا الْحَدِيثَ سَلَسْتَهُمْ مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٥٨﴾ وَأُمْلِي لَهُمْ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ ﴿٥٩﴾﴾ [الْقَلَم]. فهو ابتلاء وامتحان؛ كي يظهر في عالم الوجود ما علمه الله سبحانه عنهم أزلاً، فتسجله عليهم الملائكة في صحف أعمالهم؛ ليكون حجة عليهم يوم الحساب والجزاء.

أَرْبَعُ صِفَاتٍ لِلْمُؤْمِنِينَ فِي ثَوْبٍ آخَرَ

بعد الحديث عن الكفار ناسب المقام أن يبين سبحانه أوصاف عباده المؤمنين الذين ذكروا في أول السورة؛ حيث جاء وصفهم بأربعة أوصاف في هذه الآيات:

الْوَصْفُ الْأَوَّلُ: شِدَّةُ الْخَوْفِ مِنَ اللَّهِ تَعَالَى

٥٧- ﴿إِنَّ الَّذِينَ هُمْ مِّنْ خَشْيَةِ رَبِّهِمْ تُشْفِقُونَ ﴿٥٧﴾﴾

إنهم شديداً الخشية والخوف من عقاب الله تعالى، مع إيمانهم وإحسانهم، وعملهم الصالح، ورقة قلوبهم، فهم يعبدون ربهم رغباً ورهباً، ويدعونه تضرعاً وخفية، ويتوجهون إليه بقلوبهم وعقولهم آناء الليل وأطراف النهار.

قال الحسن البصري: المؤمن جمع إحساناً وخشية، والمنافق جمع إساءة وأمناً.

الْوَصْفُ الثَّانِي: التَّصَدِّيقُ بِآيَاتِ اللَّهِ تَعَالَى

٥٨- ﴿وَالَّذِينَ هُمْ بِآيَاتِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٨﴾﴾

أي: أنهم يُصدِّقون بآيات الله القرآنية، وآياته المنزلّة على سائر رسله، وكذا آياته الكونية التي تدعو إلى توحيد الله ﷻ، وتدل على آثار قدرته تعالى في هذا الكون العظيم،

(١) «المسند» (٣٨٧/١) برقم (٣٦٧٢) بإسناد ضعيف، لضعف ابن حازم البجلي، وبقية رجاله ثقات، (محققه) وأخرجه أبو نعيم في الحلية (١٦٦/٤) والبخاري في الزوائد (٣٥٦٢) والبيهقي في الشعب (٥٥٢٤) والبخاري في التاريخ (٣١٣/٤).

فهم يؤمنون إيمانًا راسخًا بآيات الله الشرعية والكونية، ويعملون بمقتضاها، طلبًا لمرضاته، وابتغاء وجهه، وإذا تليت عليهم آياته زادتهم إيمانًا، ويتفكرون في آيات الله القرآنية فيتدبرونها ويعملون بما فيها، ويتفكرون في آيات الله الكونية فيقولون: ﴿رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَطْلًا سُبْحَنَكَ﴾ [آل عمران: ١٩١].

الْوَصْفُ الثَّالِثُ: الْإِيمَانُ الرَّاسِخُ

٥٩- ﴿وَالَّذِينَ هُمْ بِرَبِّهِمْ لَا يُشْرِكُونَ﴾ (٥٩)

إن إيمانهم بالله ورسله إيمان خالص راسخ لا يشوبه نفاق، ولا رياء، ولا شرك خفي، بل يوحّدونه، ويخلصون له العبادة وحده، فهم لا يشركون مع الله تعالى غيره في عبادتهم ولا في دعائهم ولا نذرهم ولا ذبحهم، ولا يطلبون العون والمدد إلا منه سبحانه، فهم لا يحلفون إلا به، ولا يستعينون إلا به سبحانه، ولا يسألون غيره جلب خير ولا دفع ضرر.

الْوَصْفُ الرَّابِعُ: بَذْلُ الْجَهْدِ فِي الطَّاعَةِ

٦٠، ٦١- ﴿وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوْا وَقُلُوبُهُمْ وَجَلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَاجِعُونَ﴾ (٦٠) أُولَٰئِكَ يُسْرِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَهُمْ لَهَا سَافِقُونَ﴾ (٦١)

إنهم يبذلون الجهد والطاقة في عبادة الله ﷻ، من صلاة وصيام وزكاة وحج، سِيمًا بذل الأموال في وجوه الخير، والبر، والصدقة، والصلة، والنفقة، وكل أصناف العطاء وأعمال البر بصفة عامة، ومع ذلك فهم يرجون رحمة الله، ويخشون عذابه، ويخافون من الله تعالى ألا يقبل منهم طاعتهم، فهم يتصدقون ويصومون ويصلُّون ويفعلون الخيرات والمبرات، وهم مع هذا قلوبهم خائفة من الحساب والجزاء، يفعلون الصالحات بقلوبهم وجوارحهم، ويخافون ألا يكون الله راضيًا عنهم، ويظنون أن ذلك لا ينجيهم من عذاب الله تعالى، ولديهم إحساس بالتقصير، وأن هذه الأعمال قد لا تنجيهم من عذاب الله تعالى لعلمهم بعظم حق الله عليهم.

وقد لا يجد بعضهم ما يتصدق به، مع حرصه الشديد على المسارعة في الخيرات، كما جاء في الحديث عن أبي هريرة ؓ، أن أهل الصُّفَّة قالوا: يا رسول الله، ذهب أهل الدثور بالأجور، يصلون كما نصلي، ويصومون كما نصوم، ويتصدقون بفضول أموالهم،

قال ﷺ: «أوليس الله قد جعل لكم ما تصدقون به، إن لكم بكل تسبيحة صدقة، وكل تحميدة صدقة، وكل تكبيرة صدقة، وأمر بالمعروف صدقة، ونهي عن المنكر صدقة»^(١).

وقال أبو مسعود الأنصاري: لما أمرنا بالصدقة، كنا نحاول، فيصيب أحدنا المذ، فيتصدق به.

ومما يشير إلى معنى هذه الآية قوله تعالى: ﴿وَيُطْعَمُونَ الْطَّعَامَ عَلَى حَيْثُ مَسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا﴾ (٨) إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنْكُمْ جَزَاءً وَلَا شُكْرًا (٩) إِنَّا نَخَافُ مِنْ رَبِّنَا يَوْمًا عَبُوسًا قَتَطِيرًا (١٠) فَوَقَّهَهُمُ اللَّهُ سَرَ ذَلِكَ الْيَوْمِ وَلَقَّهْمُ نَصْرَهُ وَرُؤُوسًا (١١) ﴿[الإنسان].

وهؤلاء المؤمنون يخشون هذا اليوم الذي يلقون فيه ربهم، إنهم يخافون من يوم يعرضون فيه على رب العالمين، ويرجعون فيه إلى الله ﷻ، فيحاسبهم ربهم على ما قدمت أيديهم.

سألت أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها رسول الله ﷺ عن هذه الآيات فقالت: أهو الذي يسرق ويزني ويشرب الخمر، وهو يخاف الله ﷻ قال: «لا يا ابنة الصديق، ولكنه الذي يصلي ويصوم ويتصدق، وهو يخاف الله ﷻ»^(٢).

فهو الذي يفعل الخيرات، ويخاف رب العالمين.

وهؤلاء المسارعون في الخيرات، المجتهدون في الطاعات، دأبهم المبادرة إلى كل عمل صالح، والتنافس في الإكثار من عمل الصالحات، فهم سابقون إليها، عاملون بقوله تعالى: ﴿سَاقِبُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أُعِدَّتْ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ﴾ [الحديد: ٢١]، وقوله: ﴿وَسَارِعُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ﴾ (١٣٣) ﴿[آل عمران].

قال الفخر الرازي: واعلم أن ترتيب هذه الصفات في نهاية الحُسن.

(١) يُنْظَرُ الحديث في «صحيح البخاري» (٨٤٣) و«صحيح مسلم» (٥٩٥) وغيرهما.

(٢) رواه أحمد في «المسند» (١٥٦/٤٢) برقم (٢٥٢٦٣، ٢٥٧٠٥) وفي إسناده ضعف لأن عبدالرحمن بن سعيد لم يدرك عائشة، وبقية رجال الإسناد ثقات رجال الشيخين كما قال محققوه، والترمذي برقم (٣١٧٥) وحسنه الألباني في «صحيح سنن ابن ماجه» برقم (٣٣٨٤) وهو في ابن جرير (٧٠/١٧) و«المستدرک» (٣٩٣/٢)، والطبراني في الأوسط (٣٩٧٧) والحميدي (٢٧٥).

فالصفة الأولى: دلت على حصول الخوف الشديد، الموجب للاحتراز عما لا ينبغي.

والثانية: دلت على التصديق بوحداية الله تعالى.

والثالثة: دلت على ترك الرياء في الطاعات.

والرابعة: دلت على أن المستجمع لتلك الصفات الثلاث يأتي بالطاعات مع الوجل والخوف من التقصير، وذلك هو نهاية مقامات الصديقين، رزقنا الله الوصول إليها^(١).

تَكَالِيفُ الشَّرْعِ لَيْسَتْ فَوْقَ طَاقَةِ الْبَشَرِ

٦٢- ﴿وَلَا تُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا وَلَدَيْنَا كِتَابٌ يَنْطِقُ بِالْحَقِّ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ (٦٢)

يَبَيِّنُ جَلَّ شَأْنُهُ أَنَّ مَا أَمَرَ بِهِ الْمُتَّقِينَ مِنَ الطَّاعَاتِ وَالْخَيْرَاتِ، وَجَمِيعِ مَا وَرَدَ فِي الشَّرْعِ مِنْ تَكَالِيفٍ، لَيْسَ أَمْرًا فَوْقَ طَاقَةِ النَّاسِ؛ فَاللَّهُ سَبْحَانَهُ لَا يَكُلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا، وَقَدْ رَفَعَ اللَّهُ جَلَّ شَأْنُهُ الْحَرَجَ عَنْ هَذِهِ الْأُمَّةِ، وَيسَّرَ عَلَيْهَا فِي التَّكَالِيفِ بِشَكْلِ عَامٍ، وَخَاصَّةً عَلَى الْمَرِيضِ وَالْمَسَافِرِ وَنَحْوِهِمَا، وَلَمْ يَكُلِّفْ عَبْدًا مِنْ عِبَادِهِ إِلَّا بِمَا يَسَعُهُ الْعَمَلُ بِهِ، فَلَمْ يَكُلِّفْهُمْ فَوْقَ الطَّاقَةِ، وَلَا مَا يَشُقُّ عَلَيْهِمْ.

وَعَلَّمَ اللَّهُ تَعَالَى مُحِيطٌ بِأَحْوَالِهِمْ وَنَوَايَاهُمْ، وَأَعْمَالِهِمْ مُسْطَرَّةً فِي صَحِيفَةِ الْأَعْمَالِ الَّتِي تَسْجُلُهَا عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ، وَتَنْشُرُهَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ، وَشَأْنُهُمْ مُسْجَلٌ فِي الْكِتَابِ الْأَوَّلِ الَّذِي فِيهِ كُلُّ شَيْءٍ، وَهُوَ يَطَابِقُ كُلَّ وَاقِعٍ يَكُونُ.

وصحف الأعمال تنطق بالحق، وكلها حق وصدق، فيها جميع أقوالكم وأفعالكم في الدنيا، ليس فيها زيادة ولا نقصان، والناس لا يُزَادُونَ فِي السَّيِّئَاتِ، بَلْ يَعْفُو سَبْحَانَهُ وَيَصْفَحُ، وَلَا يُنْقِصُونَ مِنَ الْحَسَنَاتِ، بَلْ يَزِيدُ وَيَضَاعِفُ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿هَذَا كِتَابُنَا يَنْطِقُ عَلَيْكُمْ بِالْحَقِّ إِنَّا كُنَّا نَسْتَنْسِخُ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ (٦٩) [الجاثية].

وقال: ﴿وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَمَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَإِنْ كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَى بِنَا حَاسِبِينَ﴾ (٤٧) [الأنبياء].

(١) «التفسير الكبير» (٢٣/١٠٧).

وقال جلّ شأنه: ﴿وَوُضِعَ الْكِتَابُ فَتَرَى الْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ﴾ [الكهف: ٤٩].

وقال تعالى: ﴿وَنُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ كِتَابًا يَلْقَاهُ مَنشُورًا﴾ [الإسراء: ١٣].

٦٣- ﴿بَلْ قُلُوبُهُمْ فِي غَمَرٍ مِّنْ هَذَا وَلَهُمْ أَعْمَلٌ مِّنْ دُونِ ذَلِكَ هُمْ لَهَا عَمِلُونَ﴾ ﴿١٣﴾

يصف القرآن الكريم قلوب الكفار المكذبين بأنها في جهالة وفي ضلالة، مهما مرّت بهم آيات الهداية، فإن الغفلة والإعراض تمنع وصول الهداية إليهم ﴿وَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ حِجَابًا مَّسْتُورًا﴾ ﴿٥٠﴾ وَجَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا﴾ [الإسراء] ولهم أعمال أخرى دون الكفر والشرك، وهي أعمال سيئة كثيرة . جمعوا فيها بين الكفر وسوء العمل ﴿هُمْ لَهَا عَمِلُونَ﴾ .

أي: سوف يعملونها في المستقبل، وإذا عملوها استحقوا غضب الله وعقابه، فالله جلّ شأنه يخبر عما حدث وعما سيحدث منهم .

وفي حديث ابن مسعود ؓ أن رسول الله ﷺ قال: «... فوالذي لا إله غيره، إن الرجل ليعمل بعمل أهل الجنة حتى ما يكون بينه وبينها إلا ذراع، فيسبق عليه الكتاب فيعمل بعمل أهل النار فيدخلها، وإن أحدكم ليعمل بعمل أهل النار حتى ما يكون بينه وبينها إلا ذراع، فيسبق عليه الكتاب فيعمل بعمل أهل الجنة فيدخلها»^(١).

الاستغاثة عند نزول العذاب لا تُفيد

٦٤، ٦٥- ﴿حَتَّىٰ إِذَا أَخَذْنَا مُتَفِيقِهِمْ بِالْعَذَابِ إِذَا هُمْ يَخِرُّونَ﴾ ﴿٦٤﴾ لَا تَجْعَلُوا الْيَوْمَ إِنَّكُم مِّنَّا لَا تَضُرُّونَ﴾

أي: حتى إذا أخذنا بالعداب المباغت المفاجئ، أكثر الناس استغراقاً في المتاع والانحراف، والذهول عن المصير الآخروي، من أهل البطر والكبر، إذا هم يرفعون أصواتهم ويصيحون متضرعين، ومستغيثين كي يرفع الله عنهم العذاب، والمترفون هم أشد الناس إحساساً بالعداب؛ لأنهم لم يعتادوا مسّ الضر والألم .

والمترف: هو الزائد في النعم، البطر، الأشر، الذي يبطره الغنى، ويلهيه عن طاعة الله تعالى وذكره .

(١) حديث ابن مسعود في صحيح مسلم برقم (٢٦٤٣) وصحيح البخاري برقم (٣٢٠٨) وغيرهما .

أما الذي عنده أموال من حلال، ويُخرج الزكاة عنها، وينفع المسلمين، ولا تُلهيه ولا تُنسيه طاعة ربه، ولا يستعملها فيما حرم الله، فهو رجل صالح، وفيه نفع كبير للمسلمين، وخيره يعم، ونفعه لا يقتصر عليه، إنما يتعداه إلى غيره.

إنما المترف المذموم، هو البطر الأشر، الذي يطغى ويتجبر ويفسُق ويعصى، وهو ممن قال الله عنه: ﴿كَلَّا إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَآفٍ كَرَّ ۖ أَن يَرَاهُ اسْتَغْنَىٰ ۚ﴾ [العلق].

وهو الذي يمنع زكاة ماله، ويأخذ نصيبه الوافي من المتع والرفاهية في الدنيا، ثم يُعذب يوم القيامة، وهو الذي عتته هذه الآية ممن يجأرون ويضجون من العذاب الذي لحق بهم في دنياهم، وهم الذين قال الله فيهم: ﴿وَذَرْنِي وَالْمُكَذِّبِينَ أُولِيَ النَّعْمَةِ وَمَهَلْهُمْ قَلِيلًا ۝﴾ [المزمل].

فتقول لهم الملائكة عند حلول العذاب بهم: لا تجأروا اليوم، لا تضجوا ولا تستغيثوا؛ فليس هناك من مغيث، ولا دافع يدفع عنكم العذاب، ولا يوجد من يمنعكم من دون الله تعالى.

والجوار: هو النداء والدعاء على النفس بالويل والهلاك، كما قال تعالى: ﴿فَنَادَا وَلَاتَ حِينَ مَنَاصٍ﴾ [ص: ٣].

وقال: ﴿وَإِذَا أَلْفَاوُا مِّنْهَا مَكَانًا ضَيِّقًا مُّقْرَنَيْنِ دَعَوْا هُنَالِكَ ثُبُورًا ۝﴾ [الفرقان].

وهذا الجوار الذي يكون يوم حلول العذاب بهم، يحكيه الله تعالى عنهم ويُعلمهم به مُسبقًا؛ ليخوفهم منه قبل أن ينزل بهم؛ إذ عند نزوله لا يفيدهم نداء ولا استغاثة، ولا صراخ ولا عويل، فلا يطمع أحد في كشفه عنه.

ثم بين سبحانه في الآية التالية السبب الذي أوصل المترف إلى هذه الحال:

الإِعْرَاضُ عَنِ الْقُرْآنِ مِنْ أَسْبَابِ الْعَذَابِ

٦٦، ٦٧ - ﴿قَدْ كَانَتْ آيَاتِي تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فَكُنْتُمْ عَلَىٰٰ أَعْقَابِكُمْ تَنكِصُونَ ۝ مُسْتَكْبِرِينَ بِهِ سِمَرَ تَٰهْجُرُونَ ۝﴾ .

(١) قرأ نافع بضم التاء وكسر الجيم من (تُهجرون) مضارع أهجر، وقرأ الباقون بفتح التاء وضم الجيم مضارع هجر، يقال: هجر في القول، إذا هذى فيه، وأهجر في القول، إذا أفحش فيه.

بَيَّن سبحانه في هذه الآية الأسباب التي أفضت بالمترفين إلى العذاب، بأنهم كانوا في الدنيا معرضين وغافلين عن آيات الله تعالى، وعن هذا الكتاب الذي يتلى بين أظهرهم؛ فقد كان القرآن يتلى عليكم لتؤمنوا به، وتعملوا بما فيه، فكنتم تنفرون من سماعه ومن التصديق به، والعمل بما فيه، وكنتم في غفلة وإعراض وذهول عنه، وكنتم ﴿عَلَىٰ أَعْقَابِكُمُ نَنكَصُونَ﴾ أي: ترجعون إلى الخلف، كما يفعل الناكص على عقبيه برجوعه إلى الوراء، فتكبرون وتعرضون عن آيات الله بما أوتيتم من مال ومنصب وجاه، فإذا دُعيتم إليه وحده أيتم، وإن وجدتم الشرك أسرعتم إليه، كما قال تعالى: ﴿ذَلِكُمْ بِأَنَّهُ إِذَا دُعِيَ اللَّهُ وَحْدَهُ كَفَرْتُمْ وَإِنْ يُشْرَكَ بِهِ تُؤْمِنُوا﴾ [غافر: ١٢].

أخرج ابن أبي حاتم، عن سعيد بن جبیر قال: كانت قريش تسمُر حول الكعبة، ولا تطوف بها، ويفتخرون بها، فأنزل الله هذه الآية^(١).

أي أنكم كنتم تُعرضون عن آيات الله وأنتم مستمرون في اللهو والبطر والشهوة والشبهات، وتفعلون ذلك مستكبرين على الناس بغير الحق، كما جاء في أسباب نزول الآية أن المشركين كانوا يجلسون في بيت الله الحرام حول الكعبة ليلاً، يَسْمُرُونَ فيسخرُونَ من القرآن، ويخوضون فيه، ويسخرُونَ من النبي ﷺ، كما قال تعالى: ﴿أَفِنَّ هَذَا الْحَدِيثَ تَعْجَبُونَ ۖ وَنَضْحَكُمْ وَلَا تَبْكُونَ ۖ وَأَنْتُمْ سَمِيدُونَ﴾ [النجم].

وكانوا يحاولون أن يُلْهَوْا المؤمنين ويصرفوهم عن سماع القرآن، وَلُغَوْا فيه، كما قال تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَسْمَعُوا لِهَذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَعْلُونَ﴾ [فصلت].

وهؤلاء المشركون الذين كانوا وقت التنزيل وكذا أمثالهم إلى يوم القيامة، وصفهم ربنا في الآية السابقة بأنهم كانوا مستكبرين بسبب خدمة الحرم، فيعتقدون أنهم أكبر الناس منزلة، وأن لهم أعظم الحقوق عليهم، يقولون: [نحن أهل الحرم، ولا ينبغي لأحد أن يظهر علينا، ونحن فوق الناس، نتميز عنهم بمجاورة بيت الله الحرام، ويقولون: نحن لا نخاف أحداً، ونحن أهل بيت الله ووُلاته، فهم يستكبرون بخدمتهم وراثتهم لبيت الله الحرام في الجاهلية قبل الإسلام، وكان مجلسهم عند الكعبة يسخرُونَ فيه من الإسلام،

(١) «أسباب النزول» للسيوطي ص ٢٦١، و«زاد المسير» (٤٨٢/٥)، و«تفسير القرطبي» (١٣٧/١).

ومن رسول الإسلام، وهذا لا يستقيم ولا يناسب القائمين على بيت الله الحرام! فكيف تقولون إنكم أهل بيته وأنتم تتسامرون حوله بسيئ القول والكفر والباطل وهجر الحق؟!

فالضمير في ﴿مُسْتَكْبِرِينَ بِهِ﴾ يعود على الحرم المعهود للمخاطبين، أي: أنهم بسبب الحرم وخدمتهم له، ودعواهم أنهم أهله، يتكبرون على الناس ويرتفعون عليهم، ويفعلون موجبات الكفر والفجور. ومعنى: ﴿سَمِرًا﴾ أي جماعة من المعاندين المكذبين، يتحدثون بالليل حول البيت يقولون كلامًا فيه هجر وقبح يتعلق بالقرآن، ولذا استحقوا العقوبة وعدم النصرة، والتوبيخ على قبيح أفعالهم وأقوالهم.

تَفْصِيلُ خَمْسَةِ مِنْ شُبهِ الْمُكَذِّبِينَ بِخَاتَمِ الْمُرْسَلِينَ ﷺ

٦٨، ٦٩- ﴿أَفَلَمْ يَذَّبَرُوا أَلْفَوْا أَمْ جَاءَهُمْ مَا لَمْ يَأْتِ آبَاءَهُمُ الْأَوَّلِينَ﴾ (٦٨) أَمْ لَمْ يَعْرِفُوا رَسُولَهُمْ فَهُمْ لَمْ مُنْكَرُونَ ﴿٦٩﴾

يقول الله ﷻ منكرًا على المكذبين تكذيبهم في خمس نقاط، هي استفهامات عن سبب إغراضهم، واستمرار قلوبهم في جهل وغمرة، إلى أن حلَّ بهم عذاب الله تعالى، وفي هذه الآيات إحصاء لأنواع ضلالهم وخطئهم، وقَطْعٌ لِحُجَجِهِمْ ومعاذيرهم، وتنبية لهم بأن صفات الرسول ﷺ كلها تدل على صدق دعوته، فجاء الإنكار عليهم بخمسة أمور في صورة استفهام:

الإنكار الأول: عدم تدبر القرآن

وقد جاء هذا في قوله تعالى ﴿أَفَلَمْ يَذَّبَرُوا أَلْفَوْا﴾ أي أفلَمْ يتدبروا هذا القرآن الذي يدعوهم إلى الإيمان بالله ورسوله، فاتفكروا فيه ويتأملوه، ولو أنهم فعلوا ذلك لأوجب لهم الإيمان ولمنعهم من الكفر، ولكنهم أعرضوا، فأصابهم ما أصابهم، وذلك لأن تدبر القرآن يدعو إلى كل خير ويعصم من كل شر، ويؤدي إلى الاعتبار بما فيه من الحق المبين، والدلائل الواضحة على صدق محمد ﷺ. ويأخذ بأيديهم إلى طريق الهدى والرشاد.

وفي هذا الاستفهام، إنكار عليهم لعدم تفهّمهم ما يتلى عليهم من القرآن، ومقابلة النعمة التي أسداها الله إليهم بعدم قبولها، وعدم القيام بشكرها، والعمل بمقتضاها، ولو أنهم تدبروا القرآن ونظروا في معجزاته وصحة أغراضه لعلموا أنه الحق.

والتدبر: إعمال النظر العقلي في الدلائل التي لا تظهر للمتأمل بادئ الأمر. ولو أنهم تدبروا القرآن لوجدوا فيه من العظات والآداب، والأحكام والقصص، والعقائد والتشريعات، ما يسعدهم ويهديهم إلى الصراط المستقيم، ويجنبهم ما نزل بمن قبلهم من المكذبين، قال تعالى: ﴿أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا﴾ [النساء: ٨٢]. وقال: ﴿أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا﴾ [محمد: ٢٤].

فاستمرارهم في العناد بسبب عدم تدبرهم للقرآن، هو إحدى العلل التي غمرت قلوبهم بالكفر.

الإنكار الثاني: أن ما جاءهم به محمد ﷺ ليس بدعاً من الرسل

وقد جاء هذا في قوله تعالى: ﴿أَمْ جَاءَهُمْ مَا لَمْ يَأْتِ آبَاءَهُمُ الْأَوَّلِينَ﴾ أي أكذبوا رسولهم؛ لأنه جاءهم بما لم يأت به الرسل السابقون لأبائهم وأسلافهم، فاستبعدوه وكفروا به؟ أي: أم أن هذا النبي قد جاءهم بشيء مبتدع. لم ينزل به رسول من قبل، فجاءهم بشيء غير مألوف لهم ولآبائهم، فلذلك أنكروه واستبعدوه، ومنعهم من الإيمان بمحمد ﷺ، كما قال تعالى عنهم: ﴿إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ آثَرِهِمْ مُّهْتَدُونَ﴾ [الزخرف: ٢٢].

وفي الآية الأخرى: ﴿وَإِنَّا عَلَىٰ آثَرِهِمْ مُّقْتَدُونَ﴾ ﴿٢٣﴾ ﴿قُلْ أُولَٰئِكَ جُنُودٌ لِّمَنَآءَ هَدَىٰ مِمَّا وَجَدْتُمْ عَلَيْهِ آبَاءَكُمْ قَالُوا إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ﴾ [الزخرف: ٢٤].

والجواب: إن ما جاء به محمد ﷺ من الإيمان بالله واليوم الآخر، وغير ذلك من أصول التشريع هو الذي جاء به كل رسول من عند الله، كما قال تعالى: ﴿شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰ أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ﴾ [الشورى: ١٣].

وقال سبحانه وتعالى لرسوله ﷺ: ﴿قُلْ مَا كُنْتُ بِدْعًا مِّنَ الرُّسُلِ وَمَا أَدْرَىٰ مَا يَفْعَلُ بِي وَلَا بِكُمْ﴾ [الأحقاف: ٩]. فلا وجه لكفرهم وتكذيبهم.

الإنكار الثالث: أن محمداً ﷺ لم يكن مجهولاً لديهم

وقد جاء هذا في قوله تعالى: ﴿أَمْ لَمْ يَعْرِفُوا رَسُولَهُمْ فَهُمْ لَمْ يَكُونُوا﴾ أي أم أن السبب الذي منعهم من اتباع الحق أنهم لم يعرفوا محمداً ﷺ حق المعرفة، فلذا أنكروا رسالته؟ مع أنه ﷺ قد وُلد ونشأ وبُعث بينهم، فهم يعرفون أصله وفصله، وحسبه ونسبه، وكانوا

يلقبونه بالصادق الأمين قبل بعثته، ولذا أنكر الله عليهم ذلك في قوله تعالى على لسان نبيه ﷺ: ﴿فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِّن قَبْلِهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ [يونس: ١٦].

ولهذا قال جعفر بن أبي طالب للنجاشي ملك الحبشة: أيها الملك، إن الله بعث إلينا رسولاً ممّا نعرف نسبه وصدقه، وأمانته وعفافه، وبمثل هذا قال المغيرة بن شعبه لنائب كسرى.

وهكذا قال أبو سفيان لهرقل ملك الروم حين سأله عن صفات النبي ﷺ، وكان المغيرة وأبو سفيان - في ذلك الوقت - كافرين. فهل كان محمد ﷺ رجلاً غريباً عليهم لم يعرفوه؟ والجواب: إنهم يعرفون حسبه ونسبه، وصدقه وأمانته، ووفاءه بالعهود قبل أن يكون نبياً ورسولاً.

الإنكار الرابع: أن محمداً ﷺ كان أكمل الناس عقلاً وأرجحهم فكراً: وقد جاء هذا في قوله تعالى:

٧٠- ﴿أَمْ يَقُولُونَ بِهِ جِنَّةٌ بَلْ جَاءَهُم بِالْحَقِّ وَكَثُرُوا لِلْحَقِّ كَرِهُونَ﴾ (٧٠)

أي أم أن سبب إصرارهم على الكفر هو اتهامهم للرسول ﷺ بالجنون؟ فلهذا قال ما قال، ولا عبرة بكلام المجنون، فإن الإنسان قد يعرض له اختلال العقل، فلعلهم ادّعوا أن رسول الله ﷺ الذي يعرفونه قد أصيب بالجنون، فانقلب صدقه كذباً، وكانوا يعتقدون أن ما يصيب الإنسان من خلل عقلي، هو من مسّ الجن، وهذا معنى: ﴿أَمْ يَقُولُونَ بِهِ جِنَّةٌ﴾ أي: بل أحسبوه مجنوناً؟

لقد كذبوا في زعمهم، فالنبي ﷺ هو أكمل الناس عقلاً، وأرجحهم فكراً، وأتقنهم رأياً. إنما جاءهم بالقرآن والتوحيد، والدين الحق، وإثبات البعث، والمساواة، ومنع الفواحش، وتحقيق الأخوة، ومنع وأد البنات، وجاءهم بالأخبار الصادقة، والأوامر والنواهي، وجاءهم بالصلاة والزكاة وصلة الرحم، وعدم الاعتداء على مال اليتيم، ونحو ذلك من كل ما فيه صلاح النفس والمجتمع، وإبطال ما كان عليه أهل الجاهلية من العقائد الباطلة والأخلاق الذميمة، وليس فيما جاء به اختلاف ولا تناقض، فكيف يكون به جنّة؟ فبطل ما قالوه في الرسول والقرآن، وثبت أن كل ما جاء به الرسول ﷺ هو الحق الذي خلق الله له هذا العالم ﴿مَا خَلَقْتَهُمْ إِلَّا بِالْحَقِّ﴾ [الدخان: ٣٩].

﴿أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا مَا بِصَاحِبِهِمْ مِّن جِنَّةٍ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾ (الأعراف).

ولكن طبع الكافر المكذب إنكار الحق وكراهيته، ولذا قال تعالى: ﴿وَأَكْثَرُهُمْ لِلْحَقِّ كَرِهُونَ﴾ وقليل منهم يجنحون إلى الحق، ولكنهم يتابعون أقوامهم مصانعة لهم، كأبي طالب، والوليد بن المغيرة، وغيرهما ممن كانوا يحبون الدخول في الإسلام، ولكنهم يخافون من تعيير قومهم لهم بمخالفة آبائهم وأجدادهم، فليست هناك شبهة في هذه الإنكارات الأربعة التي سبق ذكرها، وليست لها حقيقة في الأصل، ولكن السبب هو كراهية أكثرهم للحق، وأعظم الحق الذي جاءهم به هو التوحيد، وترك كل ما يعبد من دون الله، وهذا سبب تكذيبهم عنادًا ومكابرة واتباعًا للهوى قال تعالى: ﴿فَأَنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَٰكِنَّ الظَّالِمِينَ بِآيَاتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ﴾ [الأنعام: ٢٣]

عن أنس ؓ ذكر لنا أن النبي ﷺ لقي رجلاً، فقال له: «أسلم» فقال الرجل: إنك لتدعوني إلى أمر أنا له كاره، فقال نبي الله ﷺ: «وإن كنت كارها»^(١).

قال قتادة: وذكر لنا أنه ﷺ لقي رجلاً فقال له: «أسلم» فكبر ذلك عليه، فقال له نبي الله ﷺ: «لو كنت في طريق وعير، فلقيت رجلاً تعرف وجهه، وتعرف نسبه، فدعاك إلى طريق واسع سهل، أكنت متبعه؟» قال: نعم، قال: «فوالذي نفس محمد بيده، إنك لفي أوعر من ذلك الطريق، وإني لأدعوك إلى أسهل من ذلك»^(٢).

لَا يُصْلِحُ الْعَالَمَ إِلَّا خَالِقُهُ

٧١- ﴿وَلَوْ أَتَّبَعَ الْحَقُّ أَهْوَاءَهُمْ لَفَسَدَتِ السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ بَلْ أَلَيْنَهُمْ بِذِكْرِهِمْ فَهُمْ عَنْ ذِكْرِهِمْ مُعْرِضُونَ﴾ (٧١)

أي: ولو شرع الله للكافرين ما يوافق أهواءهم واتباع مرادهم لفسد نظام العالم، واختلت الموازين والمقاييس؛ لأن الحق واحد ثابت، والأهواء كثيرة متقلبة ﴿وَلَوْ أَتَّبَعَ الْحَقُّ أَهْوَاءَهُمْ﴾ وأغراضهم الفاسدة لفسد هذا الكون، لفساد التصرف والتدبير المبني على الظلم وعدم العدل، واتباع الأهواء وتباين الآراء.

(١) مسند أحمد (١٢٨٦٨، ١٢٠٦١) بإسناد صحيح على شرط الشيخين، (محققوه) وأخرجه الضياء في المختارة (١٩٩٠، ١٩٩١) وأبو يعلى (٣٧٦٥) وهو في الأحاديث المختارة (١٩٨٩).

(٢) من «تفسير ابن كثير» للآية، بتصرف، وقد ذكره بدون سند عن قتادة (٤٨٤/٥) وذكره السيوطي في «الدر المنثور» (٦٠٩/١٠).

ولفظ: ﴿الْحَقُّ﴾ يراد به: الله سبحانه، فهو من أسمائه الحسنی، كما قال تعالى: ﴿ذَلِكَ يَأْنَّ لِلَّهِ هُوَ الْحَقُّ﴾ [الحج: ٦٢]. ويراد به أيضاً: ما يقابل الباطل.

والحق هنا هو الحق المتقدم ذكره في قوله تعالى: ﴿بَلْ جَاءَهُم بِالْحَقِّ وَكَثُرُوا لِلْحَقِّ كِرْهُونَ﴾ فالمراد به ما يوافق الوجود الواقعي، وما يوافق حقائق الأشياء، والأصول المتقررة، وذلك مثل تقرير أن الإله واحد، وأنه سبحانه لم يلد ولم يولد، وأن البعث والحساب حق واقع للجزاء على الأعمال والأقوال.

ومن الحقائق الثابتة كون الوأد ظلماً، والقتل عدواناً، والقمار أكلاً للمال بالباطل، والزنى خلطاً للنسب، والخمر تغطية للعقل... وهكذا.

ولو كان الحق في ضد هذه الأشياء لفسد من في السموات ومن في الأرض من الناس وغيرهم، ولو أن الآلهة تعددت لفسد العالم، كما قال تعالى: ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا﴾ [الأنبياء: ٢٢]، وقال: ﴿مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِنْ وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَهٍ إِذَا لَذَهَبَ كُلُّ إِلَهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَّ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ﴾ [٩١].

ولو لم يكن هناك بعث وحساب، لما كان هناك جزاء عادل على الأعمال، ولا استوى فاعل الخير وفاعل الشر، ولم يكن هناك خوف ولا رجاء، ولكان خلق هذا العالم عبثاً، والله تعالى منزّه عن العبث! ولهذا قال تعالى: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ﴾ (١١٥)، وهذا هو مقتضى الحق الذي خلق الله الكون به في قوله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لِعَيْبٍ﴾ (٢٨) مَا خَلَقْنَاهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَكِنْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢٩﴾ [الدخان].

ومن أهواء المشركين زعمهم أن الملائكة بنات الله، ولو كان هذا حقاً لأفضى إلى آلهة تتولد؛ لأن الولد من جنس أبيه، ولم تكن الملائكة مسخرة لطاعة الله تعالى وتنفيذ أمره، وهذا من فساد من في السموات، فالأهواء الفاسدة والشهوات الباطلة لا يمكن أن تقوم عليها السموات والأرض؛ لاختلافها وتناقضها، فكيف يكرهون الحق مع أن محمداً ﷺ جاءهم بهذا القرآن، وفيه ما يصلح أحوال البشر إلى قيام الساعة؟! فالسموات والأرض ما استقامتا إلا بالحق والعدل، وهذا معنى:

﴿بَلْ أَلِينَهُمْ بِذِكْرِهِمْ﴾ وهو القرآن والإسلام، فيه شرفهم وعزهم، ومجدهم وفخرهم، وأرسلنا إليهم محمداً ﷺ ليدكرهم بالقرآن، ويعظهم به، فوجب عليهم ألا يعرضوا عنه.

وقد كان العرب قبل مجيء الإسلام لا وزن لهم، ولا قيمة لهم في تاريخ العالم، والإسلام هو الذي رفع مكانتهم، ورسول الإسلام الذي خرج من بين أظهرهم هو الذي أخرجهم من الظلمات إلى النور، ولكنهم مع هذا معرضون عن الحق وعن اتباعه ﴿سَوُوا اللَّهَ فَتَنِيهِمْ﴾ التوبة: ٦٧ ﴿سَوُوا اللَّهَ فَأَنسَهُمْ أَنفُسَهُمْ﴾ [الحشر: ١٩].

الإنكار الخامس: أن النبي لم يطلب منهم أجراً على تبليغ الدعوة، فقد جاء في قوله تعالى:

٧٢- ﴿أَمْ تَسْأَلُهُمْ خَرْجًا﴾^(١) فَخَرَجَ رِبِّكَ خَيْرٌ وَهُوَ خَيْرُ الرَّزِقِينَ ﴿٧٢﴾

أي بل، أمتعهم من الإيمان أن محمداً ﷺ يسألهم على تبليغ الدعوة أجراً؟ فهل يطلب منكم ما لا فبخلتكم به، فلذلك لم تؤمنوا؟

والجواب: أن محمداً ﷺ لم يفعل ذلك، فلماذا تكذبونه وتعادونه؟ وهو لا يطلب الأجر إلا من الله تعالى، ويعلم أن ما عند الله من الثواب والعطاء خير من عطائكم، وهذا توبيخ لهم على عدم إيمانهم.

والآية فيها استفهام عن دواعي إعراض المكذبين عن رسول الله ﷺ واستمرار قلوبهم في غمرة.

والخراج: قيل: هو العطاء الذي يلزم أداؤه كالأتاوة، ودعوة الرسل ليست طمعاً في دنيا، إنما تبليغاً عن الله ونصحاً للأمة.

أي: إن محمداً ﷺ لم يطلب منهم أجراً على تبليغ الرسالة المتضمنة لخيري الدنيا والآخرة؛ حتى يكون هذا سبباً مانعاً من إيمانهم؛ فالرسل لا يأخذون الأجرة على تبليغ الدعوة، كما قال تعالى عن نوح ﷺ: ﴿وَيَقُولُوا لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مَالًا إِنَّ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى اللَّهِ﴾ [هود: ٢٩].

(١) قرأ ابن عامر بإسكان الراء وحذف الألف من كلمة (خَرْجًا) وكلمة (فخراج) هكذا: (أم تسألهم خَرْجًا فخرج ربك خير) وقرأ حمزة والكسائي وخلف بفتح الراء وألف بعدها في الموضعين (خراجا فخراج)، وقرأ الباقون بإسكان الراء وحذف الألف في الأول، وفتح الراء بعدها ألف في الثانية هكذا (خَرْجًا فخراج) قيل: إن المقصور مصدر، والممدود: اسم لما يكثر إخراجه من المال، والخرج اسم لما يخرج مرة واحدة، وقيل: هما لغتان.

وقال تعالى عن قوم هود عليه السلام: ﴿يَقَوْمِ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى الَّذِي فَطَرَنِي أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٥١﴾﴾ [هود].

وقال تعالى عن محمد عليه السلام: ﴿قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَىٰ﴾ [الشورى: ٢٣].

وقال ﴿أَمْ سَأَلْتَهُمُ أَجْرًا فَهُمْ مِنْ مَغْرَمٍ مُثْقَلُونَ﴾ [الطور: ٤٠]

وليس في استطاعة أحد أن يرزق أحداً، أو يعطيه أجراً مثل رزق الله سبحانه وعطائه له، فهو خير الرازقين.

ولما ذكر سبحانه ما يوجب الإيمان بالله ورسوله وكتابه، ومنه تدبر القرآن، واشتعار الرسول عليه السلام بالصدق والأمانة، وأنه لا يسألهم أجراً على تبليغ الرسالة، وذكر كذلك موانع الإيمان، ومنها: أن قلوبهم في غمرة، وأنهم لم يتدبروا القرآن، وأنهم قلدوا آبائهم، ووصفوا الرسول عليه السلام بالجنون، وقد بينت الآيات فساد هذه الموانع واحداً تلو الآخر، بعد ذلك بين سبحانه أن ما يدعو إليه الرسول عليه السلام هو الحق الذي يأخذ بأيديهم إلى سعادة الدارين، ولكن المنحرفين عن الحق هم أهل الضلال، فقال تعالى:

٧٣، ٧٤- ﴿وَإِنَّكَ لَتَدْعُوهُمْ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿٧٣﴾ وَإِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ عَنِ الصِّرَاطِ لَنُكَوِّنُ﴾

ختم الله هذه الآيات، ببيان أن الرسول عليه السلام لا يدعو إلا إلى الحق، وأن المعرضين عن دعوته خارجون على الحق، وإنك -أيها الرسول الكريم- لتدعوهم إلى طريق الحق الواضح والدين القويم، وهو دين الإسلام الموصل إلى جنات النعيم.

ولكن الكفار المكذبين بالبعث والحساب لا يصدقون بهما، ولا يعملون لهما، ولذلك فهم يميلون ويرجعون عن طريق الحق إلى غيره، ولا يهتدون إليه؛ لأنهم لم يطلبوا طريق النجاة، بل عدلوا عنه إلى غيره، وسبب ذلك عدم إيمانهم بالدار الآخرة، فالرسول عليه السلام يأخذ بأيدينا إلى النجاة، وهؤلاء يلقون بأنفسهم في الهاوية، قال تعالى ﴿فَإِنْ لَّمْ يَسْتَجِيبُوا لَكَ فَاعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَاءَهُمْ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ اتَّبَعَ هَوَاهُ بِغَيْرِ هُدًى مِنَ اللَّهِ﴾ [القصص: ٥٠]

الْعِنَادُ وَالطُّغْيَانُ هُمَا سَبَبُ الْكُفْرِ بِاللَّهِ تَعَالَى

٧٥- ﴿وَلَوْ رَحَّمْنَاهُمْ وَكَشَفْنَا مَا بِهِمْ مِنْ ضُرٍّ لَلْجُؤُا فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿٧٥﴾﴾

وبعد أن ذكر الله سبحانه في الآيات السابقة، إعراض المكذبين عن دعوة الإسلام، بيّن في هذه الآية وما بعدها، سبب هذا الإعراض، وأتبعه بأدلة التوحيد، ثم ذكر أحوال السعداء والأشقياء، وختم هذا الربع ببيان الحكمة من الحشر والحساب، وأنه لولا ذلك لما تميز الطائع من العاصي.

وفي هذه الآية بيان شدة تمردهم وعنادهم، وأنهم إذا أصابهم الضر سألوا الله أن يكشفه عنهم، فإذا كشفه عنهم استمروا في طغيانهم يترددون، كحالهم عند ركوب البحر، يدعون الله مخلصين له الدين عند تلاطم الأمواج واضطراب السفينة، فإذا أنجاهم الله أشركوا معه غيره ونسوا ما كانوا فيه.

وفي هذه الآية أيضاً بيّن سبحانه وتعالى أن الكافرين الذين تنكبوا الصراط قد قست قلوبهم، وفسدت نفوسهم، وماتت ضمائرهم، فلا يؤثر فيهم الابتلاء بالخير أو الشر، وكفار اليوم هم كفار الأمس، وهم كفار الغد.

والقرآن الكريم يخاطب في هذه الآية، أمة الدعوة المطالبين بالدخول في الإسلام إلى يوم القيامة، فيبيّن لهم في أكثر من آية، أن الكافر إذا أنعم الله عليه بكثير من النعم، فإنه يظن أن ذلك مسارعة من الله تعالى له في الخيرات، ورضى عنه، وإذا ابتلاه بالنقم، فإنه لا يرجع إلى الله ﷻ ويتوب إليه من شركه وكفره، وهذه الآيات آتية في سياق الحديث عن الكفار.

ومعنى الآية: ولو رحم الله الكفار، وأزال ما بهم من ضر وسوء حال، لاستمروا في عنادهم وضلالهم يتخبطون، ولو رفع الله تعالى عنهم الجوع والقحط، والمحن والمصائب، لتمادوا في طغيانهم واستمروا في كفرهم وعنادهم.

وعن ابن عباس ؓ قال: نزلت هذه الآية في ثُمّامة بن أُثال، لما أسرته السرية وأسلم، وخلّى رسول الله ﷺ سبيله، فحال بين مكة وبين الميرة، وقال: والله لا يأتيكم من اليمامة حبة حنطة حتى يأذن فيها رسول الله ﷺ، وأخذ الله قريشاً بالقحط والجوع، حتى أكلوا الميتة والكلاب والعِلهز، قيل: وما العِلهز؟ قال: كانوا يأخذون الصوف والوبر فيبلونه بالدم، ثم يشوونه ويأكلونه، فقال أبو سفيان: أنشدك الله والرحم، أليس تزعم أن الله بعثك رحمة للعالمين؟ قال: «بلى»، قال: فوالله ما أراك إلا قتلت الآباء بالسيف،

وقتل الأبناء بالجوع، فنزل قوله تعالى: ﴿وَلَوْ رَحَّمْنَهُمْ وَكَشَفْنَا مَا بِهِمْ مِنْ ضُرٍّ لَلْجُؤُا فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ (٧٥)^(١). قال تعالى:

٧٦- ﴿وَلَقَدْ أَخَذْنَاهُمْ بِالْعَذَابِ فَمَا اسْتَكَانُوا لِرَبِّهِمْ وَمَا يَضُرُّعُونَ﴾ (٧٦)

المراد بالعذاب هو الجوع، وفي وقت التنزيل ابتلى الله أهل مكة بالجوع والقحط لَمَّا لم يصدقوا نبيهم كي يتوبوا إلى الله ويرجعوا إليه.

وهذا إخبار من الله تعالى عن استكبار المكذبين وطغيانهم بعدما نزل بهم بأس الله وعقابه، فأخبر سبحانه أنه قد ابتلاهم بالنقم والمحن وابتلاهم بالمصائب فما خضعوا لربهم، وما تضرعوا له بالدعاء لرفع العذاب عنهم بل ظلوا في عنادهم وجحودهم؛ وذلك لأن الاستكانة والتضرع عند مس الضر دليل الرجوع إلى الله تعالى.

وفي عصر التنزيل دعا ﷺ على كفار قريش لما أبطؤوا عليه بالإسلام، فقال: «اللهم اجعلها عليهم سنين كسني يوسف» فأصابهم الله بالقحط، والجوع، والجذب سبع سنوات، فذهب أبو سفيان إلى النبي ﷺ يقول له: لقد بُعثت رحمة للعالمين، فادع الله تعالى أن يكشف عنا هذا الضر، فدعا النبي ﷺ ربه، فرفع عنهم ما بهم من ضر وجوع وجذب استمر لمدة سبع سنوات^(٢).

وفي البخاري وغيره: عن ابن مسعود ؓ أن النبي ﷺ قال: «اللهم اكفنيهم سبع كسب يوسف»، فأصابهم سنة أتت كل شيء حتى أكلوا العظام، حتى جعل الرجل ينظر إلى السماء فيرى بينه وبينها مثل الدخان، قال الله: ﴿فَارْتَقِبْ يَوْمَ تَأْتِي السَّمَاءُ بِدُحَانٍ مُّبِينٍ﴾ (٧٧) [الدخان].

وقال الله تعالى: ﴿إِنَّا كَاشِفُو الْعَذَابِ قَلِيلًا إِنَّكُمْ عَائِدُونَ﴾ (٧٥) [الدخان]

أفيكشف عنهم العذاب يوم القيامة وقد مضت آية الدخان، ومضت البطشة؟^(٣).

(١) «البحر المحيط» (٤١٥/٦) والطبري (٣٤/١٨) و«أسباب النزول» للسيوطي ص ١٩١، والواحد ص ٢٦٢، وانظر: ابن حبان برقم (٩٦٧) الإحسان، والحاكم (٣٩٤/٢) وصححه، وحسنه ابن حجر في «الفتح» (٥١٠/٦).

(٢) يُنظر: «سنن النسائي» برقم (١١٣٥٢) و«صحيح البخاري» برقم (١٠٠٧).

(٣) يُنظر «صحيح البخاري» برقم (٤٦٩٣) و«صحيح مسلم» برقم (٢٧٩٨).

ولكنهم مع ذلك لم يعودوا إلى الله سبحانه، ولم يعتبروا.

وَرَدَّ عَنْ الْحَسَنِ عليه السلام أَنَّهُ قَالَ: إِذَا أَصَابَ النَّاسَ مِنْ قِبَلِ السُّلْطَانِ بَلَاءٌ، فَإِنَّمَا هِيَ نَقْمَةٌ، فَلَا تَسْتَقْبِلُوهَا نَقْمَةَ اللَّهِ بِالْحَمِيَّةِ، وَلَكِنْ اسْتَقْبِلُوهَا بِالِاسْتِغْفَارِ، وَاسْتَكِينُوا وَتَضَرَّعُوا إِلَى اللَّهِ، وَقَرَأْ هَذِهِ الْآيَةَ: ﴿وَلَقَدْ أَخَذْنَاهُمْ بِالْعَذَابِ﴾ ^(١).

١- والمراد بهذا العذاب: عذاب دنيوي يحل بهم في صورة من الصور، كما حدث لأهل مكة حين عذبهم الله تعالى بالجوع والقحط الشديد، لما دعا عليهم النبي ﷺ فقال: «اللهم اشدد وطأتك على مُضَرٍّ، اللهم اجعلها عليهم سنين كسني يوسف» ^(٢).

فأصابهم جوع شديد وعذاب أليم؛ بسبب دعوة النبي ﷺ.

وكان هذا الجوع قد أصاب أهل مكة مرتين:

مرة والنبي ﷺ بين أظهرهم، وقد كشف الله هذا الجوع لما دعوا ربهم قائلين: ﴿رَبَّنَا اكْشِفْ عَنَّا الْعَذَابَ إِنَّا مُؤْمِنُونَ﴾ ^(٣) [الدخان].

أما الجوع الثاني فقد كان بعد هجرة النبي ﷺ؛ بسبب دعائه عليهم، وذلك أنه لما أسلم ثُمَامَةُ بْنُ أُثَالِ الْحَنْفِيِّ، عَقِبَ سَرِيَّةِ خَالِدِ بْنِ الْوَلِيدِ إِلَى بَنِي كَلْبٍ، الَّتِي أَخَذَ فِيهَا (ثُمَامَةُ) أَسِيرًا وَأَسْلَمَ، فَمَنَعَ تَصْدِيرَ الطَّعَامِ مِنْ أَرْضِ قَوْمِهِ بِالْيَمَامَةِ، إِلَى أَهْلِ مَكَّةَ إِلَّا بِإِذْنِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَكَانَتِ الْيَمَامَةُ مَصْدَرِ أَقْوَاتِهِمْ، فَأَصَابَهُمْ جُوعٌ حَتَّى أَكَلُوا الْجِيفَ وَنَحْوَهَا سَبْعَ سَنِينَ ^(٤).

وفي هذا يقول تعالى: ﴿وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ ءَامِنَةً مُطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِنْ كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللَّهِ فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ﴾ ^(٥) [النحل].
وكان أهل مكة قبل هذا الجوع في ترف ودعة سالمين من الحروب؛ لأنهم أهل الحرم الآمن، تُجَبَّى إِلَيْهِ ثَمَرَاتُ كُلِّ شَيْءٍ، وَكَانُوا مَكْرَمِينَ مِنْ جَمِيعِ الْقَبَائِلِ، وَتَأْتِيهِمْ أَرْزَاقُهُمْ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ.

(١) «تفسير ابن عطية» (١٥٢/٤).

(٢) يُنْظَرُ: صَحِيحُ الْبُخَارِيِّ (١٠٠٧) وَسُنَنِ النَّسَائِيِّ (١١٣٥٢) وَصَحِيحُ مُسْلِمٍ (٢٧٩٨).

(٣) يُنْظَرُ نَصُّهُ وَتَخْرِيجُهُ فِي الْآيَةِ (٧٥) مِنْ هَذِهِ السُّورَةِ.

٢- أما عذاب ما قبل الموت فإن الآيات تحدثت عنه بعد ذلك في مثل قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ارْجِعُونِ﴾ (٩٩). كما حلَّ العذاب بالمترفين منهم خاصة، حين قُتل صناديد قريش وكبرائهم في يوم بدر، ويحل بأمثالهم من أهل الترف والطغيان إلى يوم القيامة.

وهذا العذاب هو الذي نزل بهم في دنياهم فلم يحصل منهم رجوع إلى الله تعالى في الماضي، ولا التجاء إليه في المستقبل.

والاستكانة: هي الرجوع والخضوع إلى الله ﷻ.

والتضرع: هو الدعاء واللجوء إلى الله جلَّ شأنه، ولكنهم لم يعتبروا، فلم يرجعوا ولم يتوبوا إلى الله تعالى، ولم يسألوه رفع ما بهم من ضرٍّ، كما قال جلَّ شأنه: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَىٰ أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ فَأَخَذْنَاهُم بِالْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ لَعَالَهُمْ بِضَرَرُونَ﴾ (٤١) فَلَوْلَا إِذْ جَاءَهُمْ بَأْسُنَا تَضَرَّعُوا؟ أَيْ: هَلَّا إِذَا نَزَلَتْ بِهِمْ نَقْمَةُ اللَّهِ وَبَاسُهُ، تَضَرَّعُوا وَسَأَلُوهُ. قال تعالى: ﴿وَلَكِنْ قَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [الأنعام: ٤٢، ٤٣].

وما نزل بهم من عذاب دنيوي كان عقوبة لهم على ما كسبته أيديهم، وهذا تأديب من الله تعالى للعصاة في كل زمان ومكان ﴿ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْوَرْدِ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُمْ بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَالَهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ [الروم: ٤١]

٧٧- ﴿حَتَّىٰ إِذَا فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَابًا ذَا عَذَابٍ شَدِيدٍ إِذَا هُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ﴾ (٧٧)

أخبر سبحانه أنهم سيستمرون على جحودهم وعنادهم، ويُضَرَّون على كفرهم، بدل أن يرجعوا إلى ربهم، حتى يأتيهم العذاب الشديد يوم لقاء رب العالمين فيصيبيهم اليأس.

﴿حَتَّىٰ إِذَا فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَابًا﴾ من أبواب العذاب الشديد المُعَدُّ لهم في نار جهنم يوم القيامة ﴿إِذَا هُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ﴾ آيسون من كل خير؛ حيث ينظر المرء يوم القيامة يمينًا فلا يرى إلا ما قَدَّمَ، وينظر شمالًا فلا يرى إلا ما قَدَّمَ، وينظر أمامه فلا يرى إلا ما قَدَّمَ، وينظر خلفه فلا يرى إلا ما قَدَّمَ، يقول النبي ﷺ فيما يرويه عدي بن حاتم ؓ: «فاتقوا النار ولو بشق تمر»^(١).

وقريب من هذا المعنى قوله تعالى: ﴿وَلَوْ عَلِمَ اللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَّأَسْمَعَهُمْ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوْا

(١) يُنظر حديث طويل في صحيح البخاري (١٤١٣، ٣٥٩٥) وصحيح مسلم (١٠١٦).

وَهُمْ مُعْرِضُونَ ﴿٧٣﴾ [الأفقال].

وقال: ﴿بَلْ بَدَأَهُمْ مَّا كَانُوا يُخْفُونَ مِنْ قَبْلُ وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴿٧٤﴾﴾ [الأنعام: ٢٨]. فليحذر مكذبوا الرسالة أن ينزل بهم ما نزل بأسلافهم.

سَبْعَةُ أَدْلَةٍ فِي ثَوْبٍ جَدِيدٍ عَلَى وَحْدَانِيَّةِ اللَّهِ تَعَالَى الدَّلِيلُ الْأَوَّلُ: خَلْقُ السَّمْعِ وَالْبَصَرِ وَالْفَوَادِ

٧٨- ﴿وَهُوَ الَّذِي أَنشَأَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْأَفْئِدَةَ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ﴿٧٨﴾﴾

عادت الآيات للاستدلال على وحدانية الله تعالى وعظيم قدرته بما منح خلقه من نعم؛ ليشكروه بإفراده بالعبادة، فذكرت سبعة أدلة من نعم الله جلَّ شأنه في مقام الامتنان بها على خلقه، وأنَّ خالق هذه النعم هو الذي يستحق الشكر، ويستحق العبادة دون سواه.

ومن هذه النعم: السمع، والبصر، والفؤاد، حيث يخصُّ الله سبحانه بالذكر هذه النعم الثلاث: ولو تأمل العبد هذه النعم، لاهتدى بها إلى معرفة الحق سبحانه، ولكنه لا يشكر ربه، ولا يصرف هذه النعم فيما خلقت من أجله، فقد خلقت للطاعة، ولكنه يستعملها في معصية الله ﷻ.

ولما كان البصر يتعلق بكثير من المرئيات، والسمع يتعلق بالأصوات فحسب، أفرد السمع وجمع الأبصار، والسمع مصدر، والمصدر يأتي مفردًا، ولأنَّ الفؤاد يُدرك كثيرًا من الأجناس والأنواع، فقد جاء بصيغة الجمع، وقد يكون جمع البصر والفؤاد باعتبار تعدد الأفراد:

فهو سبحانه خلق لكم السمع لإدراك المسموعات، فتتفَعَّوْا بها في دينكم ودنياكم.

وخلق لكم الأبصار لإدراك المرئيات، فتتفَعَّوْا بها في مصالحكم.

وخلق لكم الأفئدة وهي العقول لتتفَقَّهوا بها، وتُمَيِّزُوا بين الأشياء.

ومع هذا فشركم لهذه النعم المتوالية قليل لا يذكر، والخالق لهذه الحواس هو الواحد القهار.

وفي هذا تعريض بمن يصرف هذه النعم في غير مصارفها، وكان ممن قال الله فيهم:

﴿فَمَا أَغْنَىٰ عَنْهُمْ سَعَتُهُمْ وَلَا أَبْصَرُهُمْ وَلَا أَفْئِدَتُهُمْ مِنْ شَيْءٍ إِذْ كَانُوا يَجْحَدُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾ [الأحقاف: ٢٦].

وماذا لو عدتم السمع والأبصار والعقول، بأن كنتم ضماً غمياً بكمًا، فماذا تكون حالكم؟ أفلا تشكرون الذي منّ عليكم بهذه النعم، فتقومون بتوحيده وطاعته؟ ولكن شكركم قليل، مع توالي النعم عليكم.

الدليل الثاني: نعمة خلق الإنسان والتمكين له في الأرض

٧٩- ﴿وَهُوَ الَّذِي ذَرَأَكُمْ فِي الْأَرْضِ وَإِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾ (٧٩)

لقد منّ الله تعالى على عباده بنعمة الإيجاد والحياة، ويسّر لهم التمكّن في الأرض، والإكثار من الحرث والنسل، وبثهم في أقطار الأرض وجوانبها، وسخر لهم ما فيها من مصالح ومنافع، وجعلها كافية لمعايشهم ومساكنهم، ويوم القيامة يحشرهم بعد موتهم؛ ليُجازيهم على ما قدّموه من خير أو شر، فهو الذي أوجدكم - أيها الناس - من الأرض، حيث خلقكم وبثكم فيها، وجعلكم تنتشرون عن طريق التناسل، ويوم القيامة يجمعكم بعد تفرق أجسادكم وانتشارها في الأرض للبعث والحساب والجزاء.

الدليل الثالث: نعمة الحياة والموت

٨٠- ﴿وَهُوَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ وَلَهُ اخْتِلَافُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ (٨٠)

امتنّ الله سبحانه على عباده بالحياة والموت، والإيجاد والبعث والحشر، فهو الذي يحيي من العدم، ويحيي بالبعث بعد الموت، وهو الذي يميت بعد الحياة، ولا يفعل ذلك إلا رب العالمين.

الدليل الرابع: اختلاف الليل والنهار

وبقدرته تعالى يُصَرِّف الليل والنهار، وهذا أمر مشاهد ومكرر، نراه كل يوم في حياتنا صباحًا ومساءً، نعمة نتقلب فيها، ونلهو عنها، ولا نفكر في تعاقب الليل والنهار، واختلافهما في البياض والسواد، كلٌّ منهما يخلف الآخر، فالظلمة تخلف النور، والنور يخلف الظلمة، ويتفاوتان بالزيادة والنقصان، هذا هو اختلاف الليل والنهار، ولو شاء الله

لجعل كلا من الليل والنهار سرمدًا إلى يوم القيامة، فمن إله غير الله يأتيكم بليل تسكنون فيه، ومن إله غير الله يأتيكم بضياء ﴿وَمِنْ رَحْمَتِهِ جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [القصص: ٧٣]

ولما كانت هذه الأدلة من شأنها أن تفيد مَنْ نظر فيها بأدنى تأمل، فيدرك أن الله تعالى واحد، مستحق للعبادة دون سواه، وأن البعث والنشور حق، وأن من لم يهتد بهذه الأدلة فهو بمنزلة غير العقلاء.

لذا: ختم الله هذه الآية بقوله: ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ وتذكرون ما في هذا الكون من دلائل على وحدانية الخالق المدبر، المالك المتصرف، فتعبدوه وحده، ولا تشركوا معه غيره.

مَوْقِفُ غَيْرِ الْمُسْلِمِينَ مِنَ الْبَعْثِ

٨١، ٨٢- ﴿بَلْ قَالُوا مِثْلَ مَا قَالَ الْأَوَّلُونَ ﴿٨١﴾ قَالُوا أَإِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظْمًا إِذَا لَمَبَعُوثُونَ﴾

لقد سلك المكذبون بالبعث في العصور المتوالية ما سلكه الأولون الذين استنكروا البعث واستبعدوه، فقالوا: هذا أمر مستبعد لا يدخل في العقل - بزعمهم - مع أن خلق السموات والأرض أكبر من خلق الناس، وبعثهم أهون - في نظر الناس - من بدأ خلقهم.

ولكن الكفار - مع وجود هذه الدلائل وهذه النعم - ينكرون البعث والنشور، ويقولون ما قاله آباؤهم الأولون على سبيل التعجب والإنكار:

١- ﴿قَالُوا أَإِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظْمًا إِذَا لَمَبَعُوثُونَ ﴿٨٢﴾﴾ فقد ردّدوا ما قاله أسلافهم.

٢- كما قال تعالى مخبرًا عنهم: ﴿إِذَا كُنَّا عِظْمًا تَخِرَّةً ﴿١١﴾ قَالُوا تِلْكَ إِذَا كَرُهُ خَاسِرَةٌ ﴿١٢﴾ فَإِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ ﴿١٣﴾ فَإِذَا هُمْ بِالسَّاهِرَةِ ﴿١٤﴾﴾ [النازعات].

٣- وقال سبحانه: ﴿أَوَلَمْ يَرِ الْإِنْسَانُ أَنَّا خَلَقْتَهُ مِنْ نُطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُبِينٌ ﴿٧٧﴾ وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَنْ يُحْيِي الْعِظْمَ وَهِيَ رَمِيمٌ ﴿٧٨﴾ قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ ﴿٧٩﴾﴾ [يس].

٤- وقال أيضًا: ﴿وَإِنْ تَعَجَّبَ فَعَجَبٌ قَوْلُهُمْ إِذَا كُنَّا تُرَابًا إِنْ لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٌ أُولَئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ وَأُولَئِكَ الْأَغْلُلُ فِي أَعْنَاقِهِمْ وَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٥﴾﴾ [الرعد].

٥- وقال عز وجل ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ تَرَى الْأَرْضَ خَاشِعَةً فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ إِنَّ الَّذِي أَحْيَاهَا لَمُحْيِي الْمَوْتِ إِنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٨٣﴾﴾ [فصلت].

والذي أحياها الأرض بعد موتها يحيي الخلق بعد موتهم، والآيات بهذا المعنى كثيرة. قال آباؤهم على وجه الاستنكار والاستبعاد: إذا تحللت أجسامنا في تراب الأرض، أعود للحياة مرة أخرى؟ هذا لا يكون ولا يتصور!!

لقد وعد آباؤنا بمثل ما وعدنا به من البعث والنشور، ولكن شيئاً من ذلك لم يكن؟

٨٣- ﴿لَقَدْ وَعَدْنَا نَحْنُ وَآبَاؤُنَا هَذَا مِنْ قَبْلُ إِنْ هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ ﴿٨٤﴾﴾

إنهم لم يكتفوا بإنكار البعث، بل سخروا ممن يؤمن بالبعث والنشور، وأسأوا الأدب مع رب العالمين، ومع رسل الله أجمعين، وقالوا: هذا الكلام قد قيل لآبائنا من قبل، فهو وعد قديم وعد به آباؤنا الأولون على ألسنة الرسل في الأمم السابقة، ومحمد ﷺ وَعَدْنَا ذَلِكَ أَيْضًا، ولم نر هذا البعث الذي وَعَدُوا به آبائنا قبل محمد ﷺ ولا بعده فأين هو؟ أي: ما هذا البعث إلا خرافة وأكذوبة، سطروها في كتبهم من عند أنفسهم. ونظير هذه الآية في سورة النمل [٦٨] بتقديم لفظ (هذا) فيها، وتأخيرها في هذه السورة.

الدَّلِيلُ الْخَامِسُ: خَلْقُ الْأَرْضِ وَمَنْ فِيهَا

٨٤، ٨٥- ﴿قُلْ لِمَنِ الْأَرْضُ وَمَنْ فِيهَا إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨٤﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٨٥﴾﴾

وهذه ثلاثة أدلة أخرى - بعد الاعتراض بذكر منكري البعث، بالإضافة إلى أربعة أدلة في الآيات السابقة؛ - للدلالة على وحدانية الله ﷻ، وللدلالة على البعث والنشور يوم القيامة، وهي أدلة ترد في صورة ثلاثة أسئلة، على طريقة الترقى من الأدنى إلى الأعلى.

ومجملها: سؤال عن ملكية الأرض ومن فيها، وسؤال عن ملكية السموات والعرش العظيم، وسؤال عن الهيمنة الكاملة على كل شيء في هذا الكون.

وفي الجواب عن ذلك كله، يقيم سبحانه وتعالى الحجة على المكذبين المعاندين، بما أثبتوه

(١) قرأ حفص وحزمة والكسائي وخلف بتخفيف الذال من (تذكرون)، والباقون بتشديدها.

وأقروا به من توحيد الربوبية على ما أنكروه من توحيد الإلهية والعبادة، وبما أثبتوه من تفرد سبحانه بالخلق، على ما أنكروه من البعث والنشور.

وبيان ذلك، أنه سبحانه صاحب النفوذ المطلق في كل شيء، فيأمر الله رسوله ﷺ أن يسأل المشركين مع الله غيره، ويقول لهم: انظروا وتأملوا في هذه الأرض، من يملكها؟ ومن يملك المخلوقات التي فيها؟ من يملك السموات السبع ومن فيهن؟ ومن يملك العرش العظيم؟ ومن بيده ملكوت كل شيء؟ وجوابهم في هذا كله: إنه الله وحده.

وفي هذه الآية أمر الله تعالى رسوله ﷺ أن يرُدَّ على منكري البعث، بأن يسألهم عن هذه الأرض ومن فيها من الكائنات، ومنها الحيوان والنبات والجماد والبحار والأنهار والجبال، يسألهم: لمن هذه الأرض ومن فيها من المخلوقات؟ من صاحب الملك والخلق والتدبير والتصرف فيها؟ ولفظ (مَنْ) يشمل العاقل وغير العاقل.

ف ﴿إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ خالقها ومالكها، وكنتم من أهل العلم والفهم فأجيبوني، وهو شرط حذف جوابه، لدلالة الاستفهام عليه، إذ لا بد لهم أن يقولوا: الله وحده خالقها ومدير أمرها، وفي هذا توجيه لعقولهم أن يتأملوا، أي: إن كان لديكم علم فأجيبوني.

وهكذا: ثم أخبر سبحانه أن الجواب سيكون حتماً بالاعتراف بأن الله تعالى خالق هذه الأرض ومن فيها وما فيها ﴿سَيَقُولُونَ لِلَّهِ﴾ أي: إن الكون وما فيه، ملك لله تعالى، فالكافر يعترف بتوحيد الربوبية، ولكنه لا يفرد الله تعالى في العبادة، بل يتقرب إليه بغيره، ويدعو معه غيره، فهو ينذر لغير الله، ويدبح لغير الله، ويستعين بغير الله، ويلجأ إلى غير الله.

فإذا أقروا بوجود الخالق ولم يتوجهوا له بالعبادة، فقل لهم:

﴿أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾؟ فتعلمون أن من قدر على خلق الأرض ومن فيها من العدم، قادر على إحيائكم بعد الموت، أفلا تتعظون بخلق هذه الأرض ومن فيها وما فيها، فتؤمنوا بالله وتوحدوه؟ وتعلموا أن القادر على ذلك قادر على إعادة الناس بعد موتهم؟ أفلا ترجعون إلى ما هو معلوم لديكم، مستقر في فطركم، فتعلمون أن الخالق الرازق هو المستحق للعبادة دون سواه.

ثم انتقل سبحانه إلى ما هو أعظم في الخلق من الأرض ومن فيها وهو خلق السموات والعرش فاستدل بهما على وحدانية الله تعالى وعلى البعث والنشور:

الدَّلِيلُ السَّادِسُ: عَلَى وَحْدَانِيَةِ اللَّهِ تَعَالَى خَلْقُ السَّمَوَاتِ وَالْعَرْشِ الْعَظِيمِ

٨٦، ٨٧- ﴿قُلْ مَنْ رَبُّ السَّمَوَاتِ السَّبْعِ وَرَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ﴾ (٨٦) سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ^(١) قُلْ أَفَلَا نُنْقِطُ

قُلْ مَنْ خَالَقُ الْعَالَمِ الْعُلُويِّ وَمَا فِيهِ مِنَ الْأَفْلَاقِ وَالْكَوَاكِبِ السَّيَّارَاتِ وَالْثَوَابِتِ، وَمَنْ خَالَقُ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ الَّذِي تَحْمِلُهُ الْمَلَائِكَةُ؟ وَهُوَ أَعْلَى الْمَخْلُوقَاتِ وَأَعْظَمُهَا وَأَوْسَعُهَا:

جاء في الحديث: عن أبي ذر، وعن جبير بن مطعم رضي الله عنه، أن النبي ﷺ قال: «ما السموات السبع والأرضون السبع وما بينهما في الكرسي إلا كحلقة ملقاة بأرض فلاة، وإن الكرسي بما فيه بالنسبة إلى العرش كتلك الحلقة في تلك الفلاة» ^(٢).

أي: أن السموات السبع والأرضين السبع بالنسبة للكرسي مثل الريال الفضي يُلقى في صحراء واسعة.

وما هذا الكرسي بالنسبة لعرش الرحمن، إلا كحلقة صغيرة، أُلقيت في أرض فضاء، أي: في صحراء واسعة.

والسموات والكرسي والعرش أعظم المخلوقات وأعلاها، وهذا يدل على سعة مُلك الله العظيم، وأن السموات أكبر من الأرض.

فمن الذي خلق هذه الكائنات ودبّر أمورها وصرفه بأنواع التدبير:

﴿سَيَقُولُونَ لِلَّهِ﴾ قُلْ لَهُمْ حِينَ يَقْرَءُوا بِذَلِكَ ﴿قُلْ أَفَلَا نُنْقِطُ﴾ (٨٧). الله، وتتركون عبادة المخلوقات العاجزة.

(١) قرأ أبو عمرو ويعقوب بإثبات همزة الوصل وفتح لام لفظ الجلالة وتفخيمه ورفع الهاء من (سيقولون لله) في الموضعين الأخيرين، على أنه مبتدأ والخبر محذوف تقديره: (الله ربها) في الأول، و(الله بيده ملكوت كل شيء) في الثاني، فالجواب مطابق للسؤال، وقرأ الباقون بحذف همزة الوصل، ولأمين: الأولى مكسورة، والثانية مفتوحة مرققة، وخفض الهاء، جار ومجرور خبر لمبتدأ محذوف. أما الموضع الأول فلا خلاف في أنه بلامين.

(٢) رواء الطبري في تفسيره بسنده عن أبي ذر رضي الله عنه (٣٩٩/٥) وانظر: «سنن أبي داود» برقم (٤٧٢٦) عن جبير بن مطعم.

والجواب الحتمي على سؤالهم، أنهم سيقولون: الكون كله مخلوق لله تعالى، ومملوك له سبحانه، قل لهم: أفلا تخافون عذاب الله فتؤمنوا به وتوحده، قبل أن يأتي يوم لا ينفع فيه مال ولا بنون، إلا من أتى الله بقلب سليم.

لقد اعترفوا بربوبية الله تعالى للأرض ومن فيها، ثم بربوبيته للسموات ومن فيها وهي أعظم من الأرض، فناسب هذا حثهم على طاعة الله ورسوله، ولزم إقامة الحجة على من جعل مع الله أرباباً في السموات سواء من عبدوا الملائكة، أو من قالوا: الملائكة بنات الله، أو من قالوا: لبيك لا شريك لك لبيك، إلا شريكاً هو لك، تملكه وما ملك ولزم إقامة الحجة أيضاً على من أشركوا بالله تعالى من أهل الأرض.

الدَّلِيلُ السَّابِعُ مِنْ أَدَلَّةِ التَّوْحِيدِ: تَضْرِيفُ الْكَوْنِ وَتَدْبِيرُ شُؤْنِهِ

٨٨، ٨٩ - ﴿قُلْ مَنْ يَدْبِرُ^(١) مَلَكُوتَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ يُخْبِرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ إِنْ كُنْتُمْ

تَعْمَلُونَ ﴿٨٨﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ فَأَنَّى تُسْحَرُونَ ﴿٨٩﴾﴾

قل للمكذبين بوحدانية الخالق سبحانه: مَنْ مُصَرِّفُ هذا الكون، ومدير أمره، ومالك جميع المخلوقات؟ في العالم العلوي والسفلي، ما نبصره وما لا نبصره، وهو جل شأنه يحيي ويميت، ويحفظ من يشاء، فيمنع عنه سوء والأذى، بمشيئته تعالى وإرادته، وليس في مقدور أحد من خلق الله أن يمنع سوء أو العقاب الذي ينزل من الله تعالى بأحد من خلقه، وهو سبحانه يؤمّن من يشاء من عباده مما يخاف، وليس في وسع أحد أن يؤمّن أحداً من عذاب الله، فإن كنتم من أهل العلم والفهم فأجيبوني.

وهم سيجيبون بأن ذلك كله لله، ﴿سَيَقُولُونَ لِلَّهِ﴾ فهم معترفون حتماً بأن الملك كله، والسلطان كله لله، قل لهم: ﴿فَأَنَّى تُسْحَرُونَ﴾ فكيف تُخْبَلُونَ وتُخْتَلُ عقولكم؟ وكيف يخيل لكم الحق باطلاً، والباطل حقاً؟ وكيف تُخدعون وتصرفون إلى غيره، فتعبدوا غير الله، وتكذبوا بالبعث والحساب والجزاء؟ إن العقول التي دلتكم على ذلك عقول مسحورة، زين لها الشيطان قلب الحقائق.

والملكوت: صيغة مبالغة بمعنى الملك ﴿وَهُوَ يُخْبِرُ﴾ عباده من الشر ويدفع عنهم المكاره

(١) قرأ رويس باختلاس كسرة الهاء من (يده)، وأشبعها الباقون من باب الصلة القصيرة.

ويحفظهم مما يضرهم، ولا يقدر أحد أن يجير على الله، ولا يدفع الشر الذي قدره، بل ولا يشفع أحد عنده إلا بإذنه.

وقد دلت هذه الآيات على جواز جدال الكفار وإقامة الحجة عليهم، ونبّهت على أن من ابتدأ الخلق والإيجاد، هو المستحق للألوهية والعبادة، وهو قادر من باب أولى على البعث والنشور.

وقد رُتبت هذه التوبيخات الثلاثة بالتدرّج، فقوله تعالى: ﴿أَفَلَا نُنْقِذُ﴾ أبلغ من ﴿أَفَلَا نَذْكُرُ﴾ (١٥٥)؛ لما فيها من زيادة التخويف من الله تعالى، وقوله: ﴿فَأَنَّى تُسْحَرُونَ﴾ أبلغ في التوبيخ والتأنيب مما قبله في جانب التذكير وفي جانب التقوى.

مَا جَاءَ بِهِ مُحَمَّدٌ ﷺ هُوَ الْحَقُّ وَمَا يَقُولُهُ الْمُكَذِّبُونَ هُوَ الْبَاطِلُ

٩٠- ﴿بَلْ أَتَيْنَهُم بِالْحَقِّ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾ (٩٠)

أضرب الله سبحانه عن وصف المكذبين للبعث والنشور، وإنكارهم له، ويبيّن أن ما يقولونه خرافة وأكذوبة، وقرر سبحانه حقيقة ما جاء به الرسول ﷺ من التوحيد والبعث، وأبطل ما نسبوه إلى الله تعالى من الشريك والولد.

أضرب سبحانه عن هذه الأباطيل، ويبيّن جلّ شأنه أن الحق هو التوحيد الذي جاء به محمد ﷺ في هذا القرآن، وأنهم كاذبون فيما يصفون الله به من الشريك والولد. وكاذبون في وصفهم صاحب الرسالة محمداً ﷺ بأنه ساحر، أو شاعر، أو كاهن. وكاذبون في قولهم: إن القرآن سحر، أو شعر، أو كهانة.

وكاذبون في إنكارهم البعث، والنشور، والثواب، والعقاب، بل إن القرآن صادق في أخباره وأوامره ونواهيه، فما بالهم لا يعترفون به، وهو أحق أن يتّبع، وما عداه كذب وباطل.

نَفْيُ الشَّرِيكِ وَالْوَلَدِ عَنِ اللَّهِ تَعَالَى بِالذَّلِيلِ الْعَقْلِيِّ

٩١، ٩٢- ﴿مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِنْ وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَهٍ إِذَا لَدَّهَبَ كُلُّ إِلَهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَّ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ سُبْحَنَ اللَّهِ عَمَّا يُصِفُونَ﴾ (٩١) عَلِيمٌ (٩٢) الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَتَعَلَّى عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾

(١) قرأ نافع وشعبة وحزمة والكسائي وأبو جعفر وخلف برفع الميم من (عالم)، على القطع، وهو خبر لمبتدأ محذوف، أي: هو عالم، وقرأ ابن كثير وأبو عمرو وابن عامر وحفص وروح بالخفض، على أنه بدل من لفظ الجلالة، وقرأ رويس بالخفض وصلًا، وله حالة البدء الرفع والخفض.

وبعد الاستدلال على وحدانية الله تعالى، يأتي الاستدلال على نفي الولد والشريك عن الله تعالى، فالله تعالى لم يجعل لنفسه ولداً، وليس معه معبود آخر؛ لأنه لو كان هناك أكثر من معبود، لانفرد كل معبود بمخلوقاته، ولكان بينهم خلاف في توزيع الملك، كملوك الدنيا؛ فيختل نظام الكون، وقد تنزه سبحانه وتقدس عما وصفه به المشركون.

وهذه الآية فيها ثلاث مسائل عظام يقررها الله ﷻ:

فُيِّنَ في المسألة الأولى: أنه جلَّ شأنه لم يتخذ ولداً، وحاشاه أن يكون له ولد، فهو الغني عن خلقه ﴿مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِنْ وَلَدٍ﴾ وإنما قدَّم نفي الولد على نفي الشريك، مع أن أكثر المشركين عبدة أصنام لا عبدة ملائكة؛ لأن شبهة عبدة الملائكة أقوى من شبهة عبدة الأصنام؛ فالملائكة غير مشاهدين، ولأن الذين زعموا أن الملائكة بنات الله أقرب للتمويه من الذين زعموا أن الحجارة شركاء لله تعالى^(١).

المسألة الثانية: ﴿وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَهٍ﴾ أي: ليس له جلَّ شأنه شريك معه في الوهيته ولا في ربوبيته، كما يزعم الجاهلون، وقد جاء هذا النفي بإخبار الله تعالى وإخبار رُسله ودلالة العقل السليم، ولهذا امتنع وجود إلهين بالدليل العقلي.

المسألة الثالثة: أنه سبحانه أقام الدليل العقلي والمنطقي على استحالة وجود إله معه سبحانه، فقال: ﴿إِذَا لَدَّهَبَ كُلُّ إِلَهٍ بِمَا خَلَقَ﴾؛ أي انفرد واستقل به، لأن الآلهة لا تتوارد على مخلوق واحد، فكل إله يريد أن يستقل بمخلوقاته التي خلقها دون الآخر، وينفرد هو بالزعامة، ويترفع عليه، فهذا يريد أمراً، وذاك يريد أمراً آخر، وكل إله يختص بمخلوقات لا يتصرف فيها غيره، ومخلوقات بعض الآلهة قد تكون أقوى من بعض بما أودع فيها من خصائص، وهكذا، فيختل نظام الكون، لوجود التنازع والمغالبة، وهذا معنى:

﴿وَلَعَلَّآ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ﴾ أي: لعلب القوي منهم الضعيف، والغالب يكون هو الإله، ولهذا نزه الله نفسه عما يصفه الظالمون في نهاية الآية.

ومن تمام الاستدلال على نفي الشريك عن الله تعالى، أنه جلَّ شأنه عالم ما ظهر وما

(١) من «تفسير التحرير والتنوير» بتصرف (١١٤/٩).

بطن، وهو وحده يعلم ما غاب وما حضر، وصفة العلم لا تتداخل، وهي من خصائص الإله الحق؛ فهو الذي يعلم ما يغيب عن عقول الناس ومداركهم، وهو العليم أيضًا بما يشاهدونه بأبصارهم وحواسهم، وهذا دليل على نفي الشريك عن الله تعالى وإحاطة علمه بكل شيء.

مَشْرُوعِيَّةُ الدُّعَاءِ عِنْدَ حُلُولِ الْبَلَاءِ

٩٣، ٩٤ - ﴿قُلْ رَبِّ إِنَّمَا تُرِيدُنِي مَا يُوعَدُونَكَ ﴿٩٣﴾ رَبِّ فَلَا تَجْعَلْنِي فِي الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾

في هذه الآية أمر الله نبيه ﷺ أن يدعو لنفسه بالنجاة من عذاب الظلمة إن أراه الله عذابهم، فقد أعلم الله رسوله بأنه مُنْزَلُ عَذَابِهِ بِالْمَكْذِبِينَ إن عاجلاً أو آجلاً، في حياته أو بعد مماته، وعلمه أن يسأل ربه أن يخلصه من عذابهم.

وذلك بعد أن بيّنت الآيات السابقة ذروة ضلال المشركين، وانتفاء عُذْرِهِمْ، وغضبُ الله عليهم، وأنهم مع الأمم التي عَجَّلَ الله لها العذاب في الدنيا مع ما يدخره لهم من العذاب الآخروي.

فيا رب، إن أطلت في عمري حتى أرى نزول العذاب بالكافرين كما وعدت، فلا تجعلني في جملتهم، ونجني مما تُهْلِكُكم به، لأن العقوبة العامة، تعم - عند نزولها - العاصي وغيره ﴿وَاتَّقُوا فِتْنَةً لَا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ خَاصَّةً﴾ [الأنفال: ٢٥].

قل - يا رسولنا - يارب إن أريتي وأنا حي، ما ينزل بالمكذبين من عذاب فلا تجعلني معهم، وهذا إن عاش النبي ﷺ وشاهد العذاب الذي ينزل بالكفار، وهو حيٌّ بين أظهرهم، وقد أعلمه ربه أن يدعو بهذا الدعاء في هذه الحالة: ﴿رَبِّ فَلَا تَجْعَلْنِي فِي الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ ﴿٩٤﴾ أي: يارب أبعدني عن هذا العذاب ولا تهلكني بما تهلكهم به، ولا تجعلني مع الظالمين، ونجني من عذابك وسخطك، واجعلني ممن رضيت عنهم، والنبي ﷺ لن يكون معهم حين نزول العذاب بهم بطبيعة الحال؛ لأن الله تعالى قد عصمه من مثل ذلك، وإنما يعلمنا الله سبحانه أن الدعاء عبادة، وأن المؤمن عليه أن يهضم نفسه، وأن يسأل ربه في كل شيء، كما في الحديث عن معاذ ؓ أن النبي ﷺ قال: «وإذا أردت

بقوم فتنة فتوفني إليك غير مفتون»^(١).

٩٥ - ﴿وَإِنَّا عَلَىٰ أَنْ نُزِيكَ مَا نَعِدُهُمْ لَقَدِيرُونَ﴾

أخبر الله تعالى رسوله ﷺ في هذه الآية، بأنه جل شأنه قادر على أن يريه في حياته ما يعدهم به من العذاب، ولكنه أخر ذلك لحكمة، وهذا بيان لكمال قدرة الله تعالى التي لا يُعجزها شيء، ولكن العذاب العاجل مؤخر عن هذه الأمة إلى يوم القيامة، كما قال تعالى: ﴿وَمَا كَانَتْ أَلَهَ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ﴾ [الأنفال: ٣٣] أي: إنه بسبب وجود النبي ﷺ في هذه الأمة رفع الله عنهم عذاب الاستئصال، ولأن الله تعالى قد علم أن منهم مستغفرين لذنوبهم، فرفع عنهم العذاب.

ويحتمل أنه سبحانه قد أطلع رسوله على عذابهم في حياته، وجعله يُشاهد ما نزل بالمشركين من عذاب في وقته.

ففي الآية إشارة إلى أن الله تعالى سيُري نبيه حلول العذاب ببعض من كذّبوه في حياته، وقد تحقق هذا في مصرع صناديد قريش يوم بدر، حين وقف النبي ﷺ على القلب الذي دُفِنوا فيه، وناداهم بأسمائهم واحداً واحداً، وقال لهم: «فإنا قد وجدنا ما وعدنا ربنا حقاً، فهل وجدتم ما وعد ربكم حقاً»^(٢)؟

وكذلك شاهد النبي ﷺ ما حلّ بمكذبيه في حياته يوم حنين، ويوم الفتح الأكبر، وهذا بخلاف ما حلّ ويحلّ بكل من كذّب ويكذّب بالنبي الخاتم ﷺ إلى يوم الساعة.

وفي الآية أيضاً تحذير من السبب المعذب من أجله، بالنسبة لسائر الأمم، وهو الشرك بالله تعالى، وعدم الإيمان بخاتم النبيين ﷺ.

(١) رواه أحمد في «المسند» (٢٤٣/٥) برقم (٢٢١٠٩) والترمذي برقم (٣٢٣٥) من حديث طويل، عن معاذ بن جبل ؓ، وقال الترمذي: حسن صحيح وأوله (عَلَىٰ مَصَافِقُكُمْ كَمَا أَنْتُمْ) وصححه الألباني في صحيح الترمذي (٢٥٨٢) وفي مختصر العلو (٨٠/١١٩) وظلال الجنة (٣٨٨) وأخرجه البزار (٢٦٦٨) والحاكم (٥٢١/١) وقال محققو المسند: إن مداره على عبدالرحمن بن عائش، وقد اختلف فيه عليه، فأعلوه بالاضطراب.

(٢) يُنظر: صحيح البخاري برقم (٣٩٧٦) عن أبي طلحة وصحيح مسلم (٢٨٧٥) من حديث طويل.

الْأَمْرُ بِمَكَارِمِ الْأَخْلَاقِ

٩٦- ﴿ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ السَّيِّئَةِ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَصِفُونَ﴾ ﴿٩٦﴾

أمر الله رسوله أن يدفع مُكذِّبِهِ بالتي هي أحسن، وألَّا يَضِيق صدره بتكذيبهم، وأن يصبر على سوء أخلاقهم، ويدفع إساءتهم بالعفو عنهم، وهكذا أرشد الله نبيه إلى الترياق النافع في مخالطة الناس، وهو الإحسان إلى من يسيء بالقول أو الفعل، فلا تقابلهم بالإساءة، وادفع إساءتهم بالإحسان، فإن ذلك فضل منك عليهم، وفيه أجر عظيم ﴿وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِثْلُهَا فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ﴾ [الشورى: ٤٠] وذلك ليستجلب خاطره، فتحوّل عداوته صداقة، وبغضه محبة، كما قال تعالى: ﴿ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ﴾ [فصلت: ٣٤]. وما يُلْهِم هذه الصفة ويعمل بها إلا الصابرون على أذى الناس، أهل الحظ العظيم في الدنيا والآخرة، كما قال تعالى: ﴿وَمَا يُلْقِيهَا إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُلْقِيهَا إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ﴾ [فصلت].

وكان الله تعالى يقول لنبيه ﷺ: إذا أساء إليك أعداؤك بالقول أو الفعل فلا تقابلهم بالإساءة، ولكن ادفع إساءتهم بالإحسان منك إليهم، والصبر على أذى الكفار، والصفح عنهم، ولين الجانب لهم، وقد كان الأمر بذلك للنبي ﷺ قبل نزول آيات القتال.

وبعد أن قامت دولة الإسلام، وصدر أمرُ الله لنبيه بقتال المشركين، فإن آيات القرآن التي نزلت بعد ذلك للأمر بالصفح واللين، تخص المؤمنين، كما قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ﴾ [التحريم: ٩]، ووصف الله أصحاب رسول الله ﷺ بأنهم ﴿أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ﴾ [الفتح: ٢٩].

وفي نهاية الآية يخبر الله تعالى رسوله ﷺ بأن علمه محيط بما يصفه به المشركون من الشرك والتكذيب، وسوف يجازيهم على ذلك.

والآية عامة لكل مسلم أن يدفع السيئة بالحسنة، وأن يتحلّى بالصفح ومكارم الأخلاق، فيعفو عمن ظلمه، ويعطي من حرمه، ويحسن إلى من أساء إليه، كما قال تعالى: ﴿خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ﴾ [الأعراف: ١٩٩].

والمسلم لا ينتقم لنفسه، ولا يغضب إلا إذا انتهكت حرمت الله.

قال أنس رضي الله عنه في قول الرجل لأخيه ما ليس فيه أن يقول له: إن كنت كاذبًا فأنا أسأل الله أن يغفر لك، وإن كنت صادقًا فأنا أسأل الله أن يغفر لي^(١).

وعن أبي هريرة رضي الله عنه أن رجلاً قال: يا رسول الله، إن لي قرابة أصلهم ويقطعونني، وأحسن إليهم ويسيئون إليّ، وأحلم عنهم ويجهلون عليّ، فقال صلى الله عليه وسلم: «لئن كنت كما قلت، فكأنما تسفهم الملّ، ولا يزال معك من الله ظهير عليهم ما دمت على ذلك»^(٢).

وإذا كان الله تعالى يعلم ما يصفه به المشركون من اتخاذ الشريك والولد، فيصبر عليهم ويحلّم عليهم ويمهلهم، فإن في هذا دعوة لعباده أن يقابلوا السيئة بالحسنة ويعفو عمن أساء إليهم، ويعرضوا عن الجاهلين.

التَّحَصُّنُ بِاللَّهِ تَعَالَى مِنْ نَزَغَاتِ الشَّيَاطِينِ

٩٧، ٩٨ - ﴿وَقُلْ رَبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزَاتِ الشَّيَاطِينِ ﴿٩٧﴾ وَأَعُوذُ بِكَ رَبِّ أَنْ يَحْضُرُونِ ﴿٩٨﴾﴾

أمر الله نبيه صلى الله عليه وسلم أن يستجير به ويعتصم من إغواء الشياطين ووسوستهم التي تُغري بالباطل وتصد عن الحق، وأن يستعذ بالله من شرورهم، ويلجأ إليه سبحانه في كل أموره، ويتبرأ إليه من حوله وقوته.

وهكذا: أمر الله نبيه صلى الله عليه وسلم أن يستعذ بالله من مجرد قرب الشياطين وحضورهم في أيّ أمر من أمور الدين أو الدنيا، فهو وحده القادر على دفع أذاهم وحمايتهم منهم، سيّما في وقت الوفاة وحضور الأجل:

وفي هذا تعليم للأمة للاقتداء والتأسي به صلى الله عليه وسلم في التحصّن من نزغات الشياطين، وفيه زيادة في التوقّي وشدة الحرص في اللجوء إلى الله تعالى في كل حين، وإلا فالنبي صلى الله عليه وسلم معصوم من تأثير الشياطين.

ونزغات الشيطان: هي ثورات الغضب التي لا يملك فيها الإنسان نفسه.

والهمز: هو الضغط باليد. والظعن: هو الطعن بالإصبع ونحوه، ويستعمل في الأذى بالقول وبالإشارة، ومنه قوله تعالى: ﴿هَمَزَ مَشَامَ بَنِيهِ ﴿١١﴾﴾ [القلم].

وقوله: ﴿وَبَلَّ لِكُلِّ هُمَزَةٍ لُّمَزَةً ﴿١٢﴾﴾ [الهمزة].

(١) أخرجه أبو نعيم في «الحلية» (٢٥٣/٨).

(٢) «صحيح مسلم» برقم (٢٥٥٨) والبخاري في «الأدب المفرد» برقم (٥٢).

وهمزات الشياطين: وساوسهم لبني آدم، وحضورهم عند ارتكاب ما نهى الله عنه، وتكون هذه الوسوس بتحرك القوى في الإنسان لعمل الأمر المخالف.

١- كان النبي ﷺ يقول كما في حديث أبي سعيد رضي الله عنه: «أعوذ بالله السميع العليم من الشيطان الرجيم، من همزه ونفخه ونفثه»^(١).

وكان ﷺ يأمر بذكر الله تعالى في كل حال، فإن ذلك مَطْرَدَةٌ للشياطين، سَيِّمًا عند الأكل والجماع والذبح.

٢- وكان ﷺ يقول كما في حديث أبي اليسر: «اللهم إني أعوذ بك من الهذم، وأعوذ بك من التردّي، وأعوذ بك من الغرق، والحرق، والهرم، وأعوذ بك أن يتخبطني الشيطان عند الموت، وأعوذ بك أن أموت في سبيلك مدبرًا، وأعوذ بك أن أموت لديفا»^(٢).

٣- وعن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده قال: كان رسول الله ﷺ يعلمنا كلمات يقولهن عند النوم، من الفزع: «باسم الله، أعوذ بكلمات الله التامة، من غضبه وعقابه، ومن شر عباده، ومن همزات الشياطين وأن يحضرون».

قال: فكان عبد الله بن عمرو يعلمها من بلغ من ولده أن يقولها عند نومه، ومن كان منهم صغيرًا لا يعقل أن يحفظها، كتبها له وعلّقها في عنقه^(٣).

(١) من حديث أبي سعيد في سنن الترمذي (٢٤٢) وصحيح سنن أبي داود (٧٠١) وانظر إرواء الغليل (٣٤٢) وفي المسند (١١٤٧٣) وأعلّه محققوه بأن فيه جعفر بن سليمان الضبعي، تفرد بهذا الحديث، وهو مختلف فيه، وأخرجه عبدالرزاق في المصنف (٢٥٥٤) وابن خزيمة (٤٦٧) وأبو يعلى (١١٠٨).

(٢) «سنن أبي داود» برقم (١٥٥٢)، والمسند (١٥٥٢٣، ١٥٥٢٤) بإسناد ضعيف، لأن ابن أبي هند مختلف فيه.

(٣) «المسند» (١٨١/٢) عن عبد الله بن عمرو برقم (٦٦٩٦) وفيه محمد بن إسحاق، فهو يحتمل التحسين، (محققوه) وأبو دادو برقم (٣٨٩٣) والترمذي برقم (٣٥٢٨) والنسائي برقم (١٠٦٠١) وابن أبي شبة (٨/٣٩) والطبراني في الدعاء (١٠٨٦) وقد حسنه الألباني في صحيح أبي داود (٣٢٩٤) وهو عند الترمذي (٣٧٧٠) وفي صحيح الترمذي (٢٧٩٣).

٤- أخرج أحمد وغيره عن الوليد بن الوليد أنه قال: يا رسول الله، إني أجد وحشة، قال: «إذا أخذت مضجعتك فقل: أعوذ بكلمات الله التامة من غضبه وعقابه وشر عباده، ومن همزات الشياطين وأن يحضرون، فإنه لا يضررك»^(١).

٥- وفي حديث عبد الله بن مسعود رضي الله عنه أن النبي ﷺ كان يقول: «اللهم إني أعوذ بك من الشيطان: همزه ونفخه ونفثه»^(٢).

قال أبو داود: همزه: الموتة، وهي الجنون. ونفخه: الكبر. ونفثه: السم. فأستعذ بك يارب أن يكون الشيطان معي في صلاتي، وفي قراءتي للقرآن، وعند حضور أجلي، وفي كل أمر من أموري.

وإذا أعاذ الله عبده من الشرور، وأجاب دعاءه، سلم من كل شر، ووفق لكل خير.

الْكَافِرُ يَتَمَنَّى الْعُودَةَ إِلَى الدُّنْيَا كَيْ يُسَلِّمَ

٩٩، ١٠٠ - ﴿حَقَّقْ إِذَا جَاءَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ارْجِعُونِ ﴿٩٩﴾ لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحًا فِيمَا تَرَكْتُ كَلَّا إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَائِلُهَا وَمِنْ وَرَائِهِمْ بَرْزَخٌ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿١٠٠﴾﴾

وبعد ذكر العذاب الدنيوي للمكذبين بالرسالة الخاتمة يأتي شيء من التفصيل لوصف ما يلقونه من مقدمات عذاب الآخرة.

فالكافر الذي يظل على كفره حتى يفاجئه الموت، ويرى مقعده من النار، يسأل الله الرجعة عند الاحتضار.

والكافر إذا حضرته الوفاة، ورأى ملائكة العذاب، فإنه يسأل الله الرجعة إلى الدنيا؛ لكي يتدارك ما فاتته فيها من الإيمان والعمل الصالح، وفي مقدمة ذلك ترك الشرك بالله

(١) «المسند» برقم (١٦٥٧٣، ٢٣٨٣٩) قال محققوه: محتمل للتحسين بشواهد، ويُنظر: «مجمع الزوائد» (١٢٣/١٠)، وفيه محمد بن حبان، لم يدرك الوليد بن الوليد، وبقية رجاله ثقات رجال الشيخين.

(٢) مسند أحمد (٣٨٣٠، ٢٨٢٨) قال محققوه: صحيح لغيره، وإسناده يحتمل التحسين، لأن محمد بن فضيل سمع من عطاء بن السائب بعد الاختلاط، وبقية رجاله ثقات، وأخرجه بن أبي شيبه (١٨٥/١٠) وأبو يعلى (٤٩٩٤) وابن ماجه (٨٠٨) ابن خزيمة (٤٧٢) والبيهقي في السنن (٣٦/٢).

(٣) قرأ نافع وابن كثير وأبو عمرو وابن عامر وأبو جعفر بفتح ياء الإضافة وصلًا من (لعلني أعمل)، والباقون بإسكانها.

وتوحيده سبحانه، فيقول: يا رب، أرجعني إلى الدنيا حتى أستدرك ما فاتني منها، وما ضيعت فيها.

أما المؤمن حين يرى ملائكة الرحمة، ويرى مقعده من الجنة، فإن الملائكة تقول له: نُرجعك إلى الدنيا؟ فيقول: إلى دار الهموم والأحزان...، إلى رب العالمين قُدُماً، إلى رب العالمين^(١).

ويقال للكافر النادم الذي يتمنى العودة إلى الدنيا: كلا، لا رجوع إلى الدنيا، وفي هذا ردع وزجر له عن طلبه.

فالكافر يتمنى العودة إلى الدنيا كي يُسَلِّم، ويتدارك ما فاتته يقول الله سبحانه رَدًّا عليه: ﴿كَلَّا﴾ لا رجعة ولا إمهال، فقد قضى الله أنهم لا يرجعون ﴿إِنَّهَا كَلِمَةٌ﴾ أي: إنَّ طلب الرجعة إلى الدنيا مجرد كلمة قيلت، ليس لها جدوى ولا فائدة منها، وأمامهم برزخ إلى يوم البعث.

والبرزخ: هو المدة الفاصلة والحاجزة بين الدنيا والآخرة، بالنسبة لمن فارق الدنيا، سواء أكان ذلك في القبر أم في غيره، وهذا البرزخ يتنعم فيه المطيعون، ويعذب فيه العاصون، من يوم موتهم إلى يوم يبعثون، فليُعدُّوا له العدة، وليتزوّدوا في دار المهلة.

مواطن تمني العودة إلى الدنيا:

وتدل آيات القرآن الكريم على أن الكافر يسأل الله العودة إلى الدنيا؛ كي يرجع عما أصرَّ عليه من الكفر إلى الإسلام، أو يتدارك ما فاتته فيها من العمل الصالح.

وتمني العودة إلى الدنيا يكون في أربعة مواطن: عند الاحتضار، وعند العرض على النار، وعند العرض على الجبار، وبعدها يُقذف في النار، وأنه لا يجاب إلى شيء من ذلك في المواطن الأربعة:

١- أما عند حضور الأجل، فمن ذلك قوله تعالى: ﴿وَأَنْفَقُوا مِنْ مَّا رَزَقْنَاهُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ فَيَقُولَ رَبِّ لَوْلَا أَخَّرْتَنِي إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ فَأَصْدَقَ وَأَكُنْ مِنَ الصَّالِحِينَ﴾ [المنافقون].

(١) تُنظر رواية عائشة من طريق ابن جريج، ورواية جابر بن عبد الله في: «تفسير الطبري» (١٧/١٠٧).

٢- وعند العرض على النار، يقول تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ وَقَعُوا عَلَى النَّارِ فَقَالُوا يَلَيْتُنَا نَرُدُّ وَلَا نَكْذِبُ بِكَ رَبَّنَا وَنَكُونُ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الأنعام].

وقد قال تعالى في جوابهم: ﴿وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾ [الأنعام: ٢٨].

وقال أيضًا: ﴿وَتَرَى الْأَظْلَمِينَ لَمَّا رَأَوْا الْعَذَابَ يَقُولُونَ هَلْ إِلَىٰ مَرَدٍّ مِّن سَبِيلٍ﴾ [الشورى: ٤٤].

٣- وعند العرض على رب العالمين، يقول تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَىٰ إِذِ الْمُجْرِمُونَ نَاكِسُوا رُءُوسِهِمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ رَبَّنَا أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَارْجِعْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا إِنَّا مُوقِنُونَ﴾ [السجدة].

٤- وبعدها يُقذفون في النار، وهم في حمأة الهول والعيول، يقول تعالى: ﴿وَهُمْ يَصْطَرِحُونَ فِيهَا رَبَّنَا أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ﴾.

وقد قال تعالى في الرد عليهم: ﴿أَوَلَمْ نَعْمَرْكُمْ مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ وَجَاءَكُمُ النَّذِيرُ فَذُوقُوا فَمَا لِلظَّالِمِينَ مِن نَّصِيرٍ﴾ [فاطر: ٣٧]. وغير ذلك من الآيات.

أخرج ابن أبي حاتم عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: «إذا وُضع الكافر في قبره، فيرى مقعده من النار» قال: «فيقول: رب ارجعون، أتوب وأعمل صالحًا»، قال: «فيقال: قد عَمَرْتَ ما كنت معمراً»، قال: «فيضيق عليه قبره»^(١).

وقال قتادة: والله ما تمنى أن يرجع إلى أهل ولا إلى عشيرة، ولكن تمنى أن يرجع فيعمل بطاعة الله، فانظروا أُمْنِيَةَ الكافر المفرط، فاعملوا بها، ولا قوة إلا بالله^(٢).

الإِيمَانُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ هُمَا الْحَسَبُ وَالنَّسَبُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ

١٠١- ﴿فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ فَلَا أَنْسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَاءَلُونَ﴾ [الأنعام: ١٠١]

يخبر سبحانه وتعالى عن أهوال يوم القيامة ومنها النفخ في الصور للبعث والنشور.

أي: إذا كان يوم القيامة فإنه يُنفخ في الصور، وهو القرن أو البوق، يُنفخ فيه إسرافيل للتجمع والنفير، وذلك عند النفخة الثانية للبعث حيث لا نسب ولا حسب ولا جاه، بل إيمان وعمل؛ إذ ليس هناك أحد يفخر على أحد بحسبه، أو نسبه، أو أصله، أو قبيلته،

(١)، (٢) من «تفسير ابن كثير» للآية (٥/٤٩٤).

فالحسب والنسب في هذا اليوم هو ما قَدَّمَ العبد من العمل.

يقول النبي ﷺ من حديث عمر، وابن عمر، والمِسْوَر بن مَخْرمة ؓ:

«كل نسب وصهر ينقطع يوم القيامة إلا نسبي وصهري»^(١).

فلا أنساب بينهم ولا تفاخر، كما كانوا يتفاخرون في الدنيا، فالأنساب يومئذ لا تنفع، والقريب لا ينفع قريبه، وهو يراه بعينه، ولو كان عليه من الأوزار ما يُثقل ظهره، ما حمل عنه شيئاً، ولو كان أقرب الناس وأعزهم إليه، قال تعالى: ﴿وَلَا يَسْتُلْ حِمِيًّا حِمِيًّا﴾ [المعارج] فلا أحد ينصر أحداً، ولا يشفع لأحد، ولا ينقذه مما هو فيه.

قال تعالى: ﴿يَوْمَ يَفِرُّ الْكَافِرُ مِنْ أَخِيهِ ۚ وَأُنْذِرُ وَأَبِيهِ ۚ وَصَاحِبِيهِ وَبَنِيهِ ۚ لِكُلِّ أُمَرٍ مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ﴾ [عبس].

تسأل عائشة ؓ رسول الله ﷺ عن يوم القيامة: هل يذكر الناس أهلهم يوم القيامة؟ فيقول ﷺ: «أما في ثلاثة مواطن فلا: حين تتطاير الصحف، وحين يُوضع الميزان، وحين يُنصب الصراط»^(٢).

فهذه ثلاثة مواطن يفر فيها المرء من أخيه، وأمه وأبيه، وصاحبه وبنيه، لقد أنساهم هول الموقف ما بينهم من تراحم وتعاطف.

لكل منهم يومئذ شأن يغنيه، فلا يتذكر أحد أحداً في هذه المواطن، ولا يسأل أحد عن أحد: «حين تتطاير الصحف» فيأخذ كل منهم صحيفته التي فيها مصيره؛ ليقراً كتابه بنفسه، «وحين يوضع الميزان، حيث تُرَجَّح كفة الحسنات أو السيئات، وحين يُنصب الصراط» للمشي عليه على متن جهنم، فيسقط فيها الكافر، وينجو المؤمن. كما قال تعالى: ﴿يَوْمَ يَقُولُ الْمُنِفِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ لِلَّذِينَ آمَنُوا انظُرُونَا نَقْتِسِسْ مِنْ تُورِكُمْ قِيلَ ارْجِعُوا وَرَاءَكُمْ فَالْتَمِسُوا نُورًا فَضُرِبَ بَيْنَهُمْ

(١) الطبراني في «الأوسط» برقم (٣٩٦٣) و«الكبير» (٤٥١٣) وينحوه في «المستد» (٣٢٣/٤) برقم (١٨٩٣٠) و(١٨٩٠٧) والحاكم (٥٨/٣) و«مستد البزار» (٢٤٤٥) «كشف الأستار» والضياء المقدسي في «المختارة» (٢٨١) وهو حديث حسن بشواهد، وانظر: «السلسلة الصحيحة» (٢٠٣٦) وألفاظه متقاربة.

(٢) مستد الإمام أحمد برقم (٢٤٧٩٣) بنحوه مطولاً وفيه ابن لهيعة، وأورده الهيثمي في مجمع الزوائد (١٠/٣٥٨) وقال: رواه أحمد وفيه ابن لهيعة، وهو ضعيف، وفد وثق، وبقيّة رجاله رجال الصحيح.

سُورَ لَمْ يَبْ بَابُ بَاطِنُهُ فِيهِ الرَّحْمَةُ وَظَاهِرُهُ مِنْ قِبَلِهِ الْعَذَابُ ﴿١٣﴾ . يقولون لهم: ﴿أَلَمْ تَكُنْ مَعَكُمْ﴾ أي في الدنيا ﴿قَالُوا بَلَىٰ وَلَكِنَّكُمْ فَتَنْتُمْ أَنْفُسَكُمْ﴾ بالشهوات والملذات ﴿وَتَرَبَّصْتُمْ وَارْتَبْتُمْ وَغَرَّتْكُمُ الْأَمَانُ﴾ أي: الدنيا وما فيها، وخدعكم الشيطان ﴿وَعَزَّكُمُ اللَّهُ الْغُرُورُ﴾ [الحديد: ١٣، ١٤].

إثبات السؤال ونفيه يوم القيامة

قال ابن عباس رضي الله عنه: إن للقيامة أحوالاً ومواطن، ففي موطن يشتد عليهم الخوف، فيشغلهم عظم الأمر عن التساؤل فلا يتساءلون، وفي موطن يُفَيِّقون إفاقة فيتساءلون^(١).

ومن هنا أثبت القرآن السؤال في موطن، ونفاه في موطن أخرى، أما إثبات السؤال ففي مثل قوله تعالى: ﴿وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ﴾ ﴿٧٧﴾ قَالُوا إِنَّا كُنْمْ تَأْتُونَنَا عَنِ الْيَمِينِ ﴿٧٨﴾ قَالُوا بَلْ لَمْ تَكُونُوا مُؤْمِنِينَ ﴿٧٩﴾ [الصافات]. وقوله: ﴿وَقَفَّوهُمْ إِنَّهُمْ مَسْئُولُونَ﴾ ﴿٢٤﴾ [الصافات].

وقوله: ﴿فَلَنَسْأَلَنَّ الَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْأَلَنَّ الْمُرْسَلِينَ﴾ ﴿٦﴾ [الأعراف].

وأما نفي السؤال ففي مثل قوله تعالى: ﴿يَوْمَئِذٍ لَا يُسْأَلُ عَنْ ذَنْبِهِ إِنْسٌ وَلَا جَانٌّ﴾ ﴿٣٩﴾ [الرحمن]، وقوله: ﴿وَلَا يُسْأَلُ عَنْ ذُنُوبِهِمُ الْمُجْرِمُونَ﴾ [القصص: ٧٨].

وقوله: ﴿فَعَمِيَّتْ عَلَيْهِمُ الْأَنْبَاءُ يَوْمَئِذٍ فَهُمْ لَا يَتَسَاءَلُونَ﴾ ﴿٦٦﴾ [القصص].

إنهم لا يتكلمون ولا ينطقون إلا من أذن له الرحمن وقال صواباً.

وعن ابن عباس رضي الله عنه في البخاري: أن عدم السؤال عند النفخة الأولى والسؤال عند النفخة الثانية.

والمجرمون لا يتساءلون يوم القيامة عن ذنوبهم إنما يُقَذَّفون في النار قذفاً، حيث ﴿يُعَرَّفُ الْمَجْرِمُونَ بِسَمِهِمْ فَيُؤْخَذُ بِالنَّوَصِي وَالْأَقْدَامِ﴾ ﴿٤١﴾ [الرحمن].

ويوم القيامة يوم طويل، وفيه عدة مواقف، تارة يُسألون، وتارة لا يسألون، وذلك في مواطن دون مواطن، وبالنسبة لقوم دون آخرين.

وفي يوم القيامة مواطن يشتد الكرب فيها، ويعظم الخطب، منها ما يكون عند وزن الأعمال، حتى يتبين مثاقيل الذر من الخير والشر:

(١) يُنْظَرُ: «الدر المشثور» (١٠/٦٢٠) والطبري (١٧/١١٣).

ثَقُلُ الْمِيزَانِ وَخِفَّتُهُ، عَلَامَةُ السَّعَادَةِ أَوِ الشَّقَاءِ

١٠٢، ١٠٣ - ﴿فَمَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿١٠٢﴾ وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ فِي جَهَنَّمَ خَالِدُونَ ﴿١٠٣﴾﴾

ينوّه الله سبحانه بالمؤمنين، ويبين أن غيرهم لا يجدون في موازين أعمالهم شيئاً؛ لأن الأصل - وهو الإيمان - منتفٍ، فأعمالهم الخيرية تصير هباءً منثوراً، فمن ثقلت موازين أعماله ولو بحسنة، فقد فاز ونجا.

وأبواب الأعمال الصالحة كثيرة، كل خطوة يخطوها المؤمن إلى المسجد يرفعه الله بها درجة، ويمحو عنه بها سيئة، وصلاة الجمعة تزيد سبعا وعشرين، أو خمسا وعشرين درجة عن صلاة المنفرد، وكل كلمة طيبة صدقة، وتبسمك في وجه أخيك صدقة، وهكذا، فمن رجحت حسناتهم على سيئاتهم فهم السعداء، أهل الجنة، ومن زادت سيئاتهم ورجحت على حسناتهم فهم الأشقياء الذين خسروا السعادة الأبدية، وهم في نار جهنم خالدون، وهذه هي الخسارة الكبرى، والخسارة الحقيقية ليست خسارة المال ولا التجارة، ولا الأولاد، ولا المنصب، ولا الجاه، إنها خسارة صعبة، لا يُجبر مصابها، ولا يستدرك ما فات منها، إنها خسارة أبدية، وشقاوة سرمدية، خسر فيها الإنسان نفسه، وحرّمها دار النعيم، فهو في جهنم لا يخرج منها أبد الآبدين، وهذا بالنسبة لمن مات على الكفر والشرك، وهو لا يحاسب محاسبة من توزن حسناته وسيئاته، فهؤلاء لا حسنة لهم، ولكن أعمالهم تحصى عليهم، فيقرون بها ويجزون عليها، أما من كان معه أصل الإيمان، فإن رجحت سيئاته، فإنه وإن دخل النار، لا يخلد فيها وإنما يجزى بمقدار عمله، كما دلت عليه نصوص الكتاب والسنة.

وهذا كقوله تعالى: ﴿وَالْوِزْنُ يُوَمِّدُ الْحَقَّ فَمَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿٨﴾ وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ بِمَا كَانُوا بِآيَاتِنَا يَظْلِمُونَ ﴿٩﴾﴾ [الأعراف]

والموزون هو أعمال العبد؛ لإقامة الحجة عليه بالطريقة المحسوسة كما اعتاد وعرف.

ووزن الكافر على أحد وجهين:

١- إما أن يوضع كُفْرُهُ في كفة، فلا يجد شيئاً يعدله في الكفة الأخرى.

٢- وإما أن توضع أعماله من صلة رحم وبرٍّ ومنفعة في كفة الحسنات، ثم يوضع كُفْرُه في الكفة الأخرى، فتخف أعماله^(١). ثم ذكر سبحانه مصير الكافرين في الآيات التالية:

مِنْ أَحْوَالِ الْكَافِرِينَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ

١٠٤، ١٠٥- ﴿تَلْفَحُ وُجُوهُهُمُ النَّارُ وَهُمْ فِيهَا كَالِحُونَ ﴿١٠٤﴾ أَلَمْ تَكُنْ ءَايَتِي تُلَىٰ عَلَيْكُمْ فَكُنْتُمْ بِهَا تُكَذِّبُونَ﴾

أي: إن هؤلاء الذين خسروا أنفسهم في جهنم خالدون، تحرق النار وجوههم، فتقلص الشفتان، وتظهر الأسنان، بسبب تقطُّب أعصاب الوجه من شدة الألم، كما يشاهد الإنسان رأس الشاة بعد شيِّها - والعياذ بالله - وهم في جهنم كالحنون.

والكالح: هو الذي تشمَّرت شفته، فتقلصت وارتفعت عن أسنانه، وأصبح منظره بشعاً، حيث إن الكالح تشويه النار فتقلص شفته العليا حتى تبلغ وسط رأسه، وتسترخي شفته السفلى حتى تضرب سرتة. وهم في النار عابسون قانطون، وهو عذاب حسي، كأن القارئ للقرآن أو المستمع له يراه بعينه، وهو أشد فظاعة من التأنيب والخزي الوارد في الآيات السابقة.

وقد جاء هذا المعنى موضحاً في آيات كثيرة، منها قوله تعالى:

١- ﴿وَمَنْ جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَكُبَّتْ وُجُوهُهُمْ فِي النَّارِ﴾ [النمل: ٩٠]

٢- وقوله: ﴿يَوْمَ ثَقُلَتْ وُجُوهُهُمْ فِي النَّارِ﴾ [الأحزاب: ٦٦].

٣- وقوله: ﴿يَوْمَ يَغْشَاهُمُ الْعَذَابُ مِنْ فَوْقِهِمْ وَمِنْ تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ﴾ [العنكبوت: ٥٥].

٤- وقوله: ﴿لَهُمْ مِنْ جَهَنَّمَ مِهَادٌ وَمِنْ فَوْقِهِمْ غَوَاشٍ﴾ [الأعراف: ٤١].

إنه عذاب ترتجف له القلوب، وتهتز منه النفوس، وتقشعر من هول الأبدان.

ويقال لأهل النار على سبيل التأنيب والتوبيخ: ألم تكن آيات القرآن - وفيها القوارع والزواجر التي تُخَوِّفكم - تُقرأ عليكم في الدنيا؛ لتقيم الحجة عليكم، وتُزيل كل شبهة لديكم، فكذبتم بها، ولم تعملوا بما فيها، قال تعالى: ﴿كُلَّمَا أَلْقَىٰ فِيهَا فَوْجٌ سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ بِالْبَيِّنَاتِ وَالْحِكْمِ وَالْزُكْرِ فَلَمْ يَكُونُوا بِهِ خَالِدِينَ﴾ [الأنعام: ١١١].

(١) «تفسير ابن عطية» (٤/١٥٦).

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا بَلَىٰ قَدْ جَاءَنَا نَذِيرٌ فَكَذَّبْنَا وَقُلْنَا مَا نَزَّلَ اللَّهُ مِن شَيْءٍ ﴿٨﴾ [الملك].

فإذا سمعوا هذا التقرير أذعنوا فأقروا واعترفوا على أنفسهم بأن الله تعالى قد أزال عنهم كل شبهة، فأرسل إليهم الرسل، وأنزل عليهم الكتب، ولم يُبق لهم حجة.

وقال تعالى على لسانهم: ﴿فَاعْتَرَفْنَا بِذُنُوبِنَا فَهَلْ إِلَىٰ خُرُوجٍ مِّن سَبِيلٍ﴾ [غافر: ١١].

فإذا اعترفوا أقروا بظلمهم حيث لا ينفع الإقرار:

١٠٦- ﴿قَالُوا رَبَّنَا غَلَبَتْ عَلَيْنَا شِقْوَتُنَا^(١) وَكُنَّا قَوْمًا ضَالِّينَ﴾ ﴿١٠٦﴾

وحين تُقام الحجة على أهل النار، وتُقطع أعمارهم، بأن رسل الله قد أُنذرتهم، وأن آيات ربهم قد تُليت عليهم، فإنهم يعترفون اعترافاً فيه مرارة، بأنهم أساءوا الأدب مع ربهم، وتجاوزوا حدودهم، فغلبت شقاوتهم سعادتهم، واستولى الهوى والشيطان على قلوبهم، فقهرها وغلبها، فكانوا في أقوالهم وأفعالهم من الضالين عن الهوى، وفق ما سبق في علم الله تعالى عنهم.

حيث قالوا وهم في نار جهنم: ربنا غلبت علينا شهواتنا وملذاتنا، وغلب علينا الشيطان والنفس الأمارة، حتى حقَّ علينا ما علمه الله عنا أننا من أهل الشقاء، لقد اعترفوا في الوقت الذي لا ينفع فيه الاعتراف، ولا يفيد فيه الندم، وذلك أنهم كانوا قوماً ضالين في عملهم، فكانوا من أصحاب السعير ﴿وَقَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ﴾ [الملك: ١٠] وعندئذ يقولون:

١٠٧، ١٠٨- ﴿رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْهَا فَإِنْ عُدْنَا فَإِنَّا ظَالِمُونَ﴾ ﴿١٠٧﴾ قَالَ أَخْسُوا فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ ﴿١٠٨﴾

أي: إن أهل النار بعد أن أقروا بذنوبهم، وتنصلوا منها - انتقلوا من الاعتراف بذنوبهم، إلى الرغبة والتضرع إلى الله تعالى أن يُخرجهم من النار؛ وذلك لأنهم ظنوا أن في وسعهم أن يزيدوا في السؤال، فطلبوا الخروج من النار للرجوع إلى الإيمان.

وطلبُ العودة إلى الدنيا يكون في أربعة مواقف:

١- وقت خروج الروح من البدن، فيتمنؤن الرجعة إلى الدنيا.

(١) قرأ حمزة والكسائي وخلف بفتح الشين وإثبات ألف بعد القاف هكذا (شقاوتنا)، وقرأ الباقون كقراءة حفص هكذا (شِقْوَتُنَا) وهو سوء العاقبة أو الهوى والملذات.

٢- ويكون أيضًا عند عرضهم على النار.

٣- ويكون عند رؤية النار، فيقولون: ﴿يَلَيْسَ لَنَا نَرْدٌ وَلَا نَكْذِبُ بِآيَاتِ رَبِّنَا وَنَكُونُ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الأنعام: ٢٧]،

وقال تعالى: ﴿وَقَرَى الْقَلِيلِينَ لَمَّا رَأَوْا الْعَذَابَ يَقُولُوكَ هَلْ إِلَى مَرَدٍّ مِنْ سَبِيلٍ﴾ [الشورى: ٤٤].

٤- ويطلبون الرجعة إلى الدنيا أيضًا حين يُعرضون على رب العالمين كما قال تعالى:

﴿وَلَوْ تَرَى إِذْ تُفْعَلُونَ عَلَىٰ رَبِّهِمْ قَالَ أَلَيْسَ هَذَا بِالْحَقِّ قَالُوا بَلَىٰ وَرَبِّنَا قَالَ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ﴾ [الأنعام: ٩٣]

ثم إن أهل النار ظنوا أنهم إن عادوا إلى الدنيا بعد خروجهم من النار، فإنهم سيرجعون إلى الإيمان والعمل الصالح، فألزموا أنفسهم بأنهم لا يعودون إلى الكفر والتكذيب، حيث قالوا: ﴿فَإِنْ عُدْنَا فَنَا ظِلْمُوكَ﴾ أي: إن رجعنا إلى الضلال فإننا ظالمون نستحق العقوبة؛ لأننا تجاوزنا الحد في الظلم والعدوان.

قال تعالى: ﴿وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾ [الأنعام: ٢٨]

وعندما يطلب أهل النار الخروج من النار للعودة إلى الدنيا يقول الله تعالى لهم: ﴿أَخْسَأُوا فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُون﴾ هذا هو الجواب على طلبهم الخروج من النار، والعودة إلى الدنيا، وفيه تيسر وزجر لهم بعدم استجابة طلبهم، ونهيهم عن الاستمرار في الخطاب مع الله تعالى، وهو غاية الذل والمهانة، حيث يقال لهم: اخسؤوا في جهنم، أي: امكثوا في النار صاغرين أذلاء، ولا تخاطبوني؛ فإنكم تستحقون ما أنتم فيه، فانقطع عند ذلك دعائهم ورجاؤهم.

جاء في الأثر: ^(١) أن أهل النار يسألون الخزنة في النار أن يُخفف الله عنهم العذاب ولو يومًا واحدًا، كما قال تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ فِي النَّارِ لِخَزَنَةِ جَهَنَّمَ ادْعُوا رَبَّكُمْ يُخَفِّفْ عَنَّا يَوْمًا مِّنَ الْعَذَابِ﴾ [غافر: ٦٩]. أسأله يخفف عنا ولو يومًا واحدًا، ولما لم يجدوا إجابة أخذوا يسألون خازن النار (مالكًا) أن يموتوا مودة واحدة، كما قال تعالى: ﴿وَنَادَوْا بِمَلَائِكَةٍ لِّقِصَّ عَلَيْنَا رُبُّكَ﴾ جملة واحدة، بدلًا من هذا العذاب المتجدد، فيجيهم مالك بعد أربعين عامًا: ﴿إِنَّكُمْ مَنكُوثُونَ﴾ [الزخرف: ٧٧].

(١) رُوي موقوفًا على عبد الله بن عمر، كما ذكره البغوي في تفسير الآية.

وفي الآية التي معنا يسألون رب العالمين أن يخفف عنهم عذاب النار فيقولون يا ربنا: ﴿أَخْرِجْنَا مِنْهَا﴾ فيجيبهم بعد مقدار عمر الدنيا: ﴿أَخْسِئُوا فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُون﴾ وهذا مبالغة في المنع من الكلام، فإذا سمعوها يشعرون، فتطبق عليهم النار ويبقون فيها، ينعى بعضهم بعضاً.

قال الحسن: هو آخر ما يتكلم به أهل النار، ثم لا يتكلمون بعد ذلك، وما هو إلا الزفير والشهيق، وعواء كعواء الكلاب، لا يفهمون ولا يفهمون^(١).

ولفظ: ﴿أَخْسِئُوا﴾ كلمة فيها شتم وزجر وعدم استجابة، ويراد بها: التحقير، والإذلال، والإهانة، والتوبيخ، والتأيس من كل خير.

عدم خروج الكافر من النار:

وعدم الخروج من النار تدل عليه آيات كثيرة، منها قوله تعالى: ﴿يُرِيدُونَ أَن يُخْرِجُوا مِن النَّارِ وَمَا هُمْ بِخَارِجِينَ مِنْهَا وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّقِيمٌ﴾ [المائدة].

وقوله: ﴿كَذَلِكَ يُرِيدُهُمُ اللَّهُ أَغْمَلَهُمْ حَسْرَتٍ عَلَيْهِمْ وَمَا هُمْ بِخَارِجِينَ مِنَ النَّارِ﴾ [البقرة: ١٦٧]، وقوله: ﴿كُلَّمَا أَرَادُوا أَن يُخْرِجُوا مِنْهَا أُعِيدُوا فِيهَا﴾ [السجدة: ٢٠].

قال محمد بن كعب القرظي: لأهل النار خمس دعوات يجيبهم الله في أربع، فإذا كانت الخامسة لم يكلموا بعدها أبداً:

١- ﴿قَالُوا رَبَّنَا آمَنَّا أَثْنَيْنِ وَأَحْيَيْنَا أَثْنَتَيْنِ فَاعْتَرْفَنَا بِذُنُوبِنَا فَهَلْ إِلَى خُرُوجٍ مِّن سَبِيلٍ﴾ [غافر] فيجيبهم الله: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُ إِذَا دُعِيَ اللَّهُ وَحْدَهُ كَفَرْتُمْ وَإِنْ يُشْرَكَ بِهِ تُؤْمِنُوا فَالْحُكْمُ لِلَّهِ الْعَلِيِّ الْكَبِيرِ﴾ [غافر].

٢- ثم يقولون: ﴿وَلَوْ تَرَىٰ إِذِ الْمُجْرِمُونَ نَاكِسُوا رُءُوسِهِمْ عِندَ رَبِّهِمْ رَبَّنَا أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَارْجِعْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا إِنَّا مُوقِنُونَ﴾ [السجدة].

فيجيبهم الله: ﴿فَذُوقُوا بِمَا نَسِيتُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا إِنَّا نَسِينَاكُمْ وَذُوقُوا عَذَابَ الْخُلْدِ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [السجدة].

(١) من «تفسير الخازن» (٣/٣١٢) وابن أبي شيبه (١٣/١٥٢) والحاكم (٢/٣٩٥) و«مجمع الزوائد» (١٠/٣٩٦).

٣- ثم يقولون: ﴿رَبَّنَا أَخْرِجْنَا إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ نَجِبْ دَعْوَتَكَ وَتَسْمِعِ الرَّسُلَ﴾

فيجيئهم الله: ﴿أَوَلَمْ تَكُونُوا أَقْسَمْتُمْ مِّنْ قَبْلُ مَا لَكُم مِّن زَوَالٍ﴾ [إبراهيم: ٤٤].

٤- ثم يقولون: ﴿وَهُمْ يَصْطَرِّحُونَ فِيهَا رَبَّنَا أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ﴾؛ فيجيئهم الله: ﴿أَوَلَمْ نَعْمَرْكُمْ مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ وَجَاءَكُمُ النَّذِيرُ فَذُوقُوا فَمَا لِلظَّالِمِينَ مِن نَّصِيرٍ﴾ [فاطر: ٣٧].

٥- ثم يقولون: ﴿رَبَّنَا غَلَبَتْ عَلَيْنَا شِقْوَتُنَا وَكُنَّا قَوْمًا ضَالِّينَ ﴿١٠٦﴾ رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْهَا فَإِنَّا عِندَنَا فَإِنَّا ظَالِمُونَ ﴿١٠٧﴾﴾، فيجيئهم الله: ﴿أَخْسَأُوا فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ﴾.

مِنْ أَسْبَابِ عَذَابِ أَهْلِ النَّارِ .

١٠٩- ﴿إِنَّهُ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْ عِبَادِي يَقُولُونَ رَبَّنَا ءَامَنَّا فَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّحِيمِينَ﴾

هذه الآية تعليل لزجر الكفار عن طلب الخروج من النار، وذکر الحال التي أوصلتهم إلى العذاب، وقطعت عنهم وسائل الرحمة، وإخبار عن حال الذين أنعم الله عليهم من فقراء المسلمين .

أي: يقال لأهل النار يوم القيامة على وجه التوبيخ: إنكم سخرتم من عبادي الصالحين الضعفاء وداوتم على ذلك حتى نسيتم ذكر الله، وهكذا فإن من أسباب عذابهم يوم القيامة أنهم كانوا يهزؤون ويسخرون من فقراء المسلمين وضعفائهم في الدنيا، وهذا يحدث في كل زمان ومكان؛ حيث يحتقر القوي الضعيف، ويحتقر الغني الفقير .

والفريق المشار إليه في الآية هو كل مستضعف من المؤمنين، ومن هذا الفريق في صدر الإسلام مَنْ كانوا يرفعون أكفَّ الضراعة إلى الله تعالى، فيتوسلون إليه بإيمانهم به أن يغفر لهم ذنوبهم، ويستر عليهم عيوبهم، ويدخلهم في رحمته .

فجمعوا بين الإيمان والعمل الصالح، والدعاء بالمغفرة والرحمة، والتوسل إلى الله تعالى بربوبيته لهم، ومنه عليهم بالإيمان، والإخبار بسعة رحمته وعموم إحسانه، وهذا يتضمن خضوعهم وخشوعهم لله، وخوفهم منه " ورجاءهم له، وهم بهذا سادات الناس وفضلاؤهم، ومنهم بلال وصهيب وعمار وخبيب وغيرهم . قال تعالى:

١١٠ - ﴿فَاتَّخَذْتُمُوهُمْ سُخْرِيًّا^(١) حَتَّىٰ آتَيْنَاكُمْ ذِكْرِي وَكُنْتُمْ مِنْهُمْ تَضْحَكُونَ ﴿١١٠﴾﴾

أي: ومن الأسباب التي أدخلت أهل النار النار: استهزاءهم وسخريتهم من ضعفاء المؤمنين في الدنيا حتى أنساهم ذلك ذكر الله تعالى والإيمان به.

فكان حالكم -أيها الكافرون- أنكم اشتغلتم بالسخرية بهم، والاستهزاء منهم، وبقيتم على تكذيبكم، حتى نسيتم ذكر الله، وكنتم منهم تضحكون سخرية واستهزاء، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ أَجْرَمُوا كَانُوا مِنَ الَّذِينَ ءَامَنُوا يَضْحَكُونَ ﴿٢٩﴾ وَإِذَا مَرُّوا بِهِمْ يَتَغَامِرُونَ ﴿٣٠﴾﴾ [المطففين]. أي: يغمز بعضهم بعضاً استخفافاً بهم.

وقال سبحانه: ﴿فَحَاقَ بِالَّذِينَ سَخِرُوا مِنْهُمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ﴾ [الأنعام: ١٠].

وقال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ لَا يَجِدُونَ إِلَّا جُهْدَهُمْ فَيَسْخَرُونَ مِنْهُمْ سَخِرَ اللَّهُ مِنْهُمْ﴾ [التوبة: ٧٩].

فاشتغال أهل الترف والعناد، بالاستهزاء بضعفاء المسلمين وفقرائهم، أنساهم ذكر الله، كما أن نسيانهم للذكر شجعهم على الاستهزاء بهم، فكلاً منهما يمد الآخر. قال تعالى:

١١١ - ﴿إِنِّي جَزَيْتُهُمُ الْيَوْمَ بِمَا صَبَرُوا أَنَّهُمْ^(٢) هُمُ الْفَائِزُونَ ﴿١١١﴾﴾

أي: يقول سبحانه للكفار يوم القيامة: إني جزيت هؤلاء الضعفاء اليوم برحمتي ورضواني وجنتي أحسن الجزاء؛ بسبب طاعتهم وصبرهم على الأذى، وذلك مثل: بلال، وعمار، وصُهَيْب، وخبَّاب، من فقراء المسلمين الذين كان يسخر منهم كفار قريش، وأمثال هؤلاء في كل زمان ومكان هم الفائزون برضوان الله وجنته.

ويشهد لهذه الآية قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا ﴿٣٠﴾﴾ [الكهف].

(١) قرأ نافع وحزمة والكسائي وأبو جعفر وخلف بضم السين من (سخرية)، والباقون بكسرها، وهما لغتان بمعنى: الاستهزاء، وقيل: الضم بمعنى الاستخدام، والكسر بمعنى الاستهزاء.

(٢) قرأ حمزة والكسائي بكسر الهمزة من (أنهم هم)، على الاستثناء، وثاني مفعولي (جزيتهم) محذوف تقديره: الخير والنعيم في الجنة، وقرأ الباقون بفتحها على أنه المفعول الثاني لجزيتهم، أي: جزيتهم فوزهم، أو على تقدير حرف الجر، أي: لأنهم أو بأنهم.

قِصْرُ عُمْرِ الْكَافِرِ بِالنَّسْبَةِ إِلَى طَوْلِ عَذَابِهِ

١١٢، ١١٣ - ﴿قُلْ^(١) كَمْ لَبِئْتُمْ فِي الْأَرْضِ عَدَدَ سِنِينَ ﴿١١٢﴾ قَالُوا لَبِئْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ فَسَعَلَ^(٢) الْعَادِينَ ﴿١١٣﴾﴾

يُبين الله سبحانه قِصْرَ عُمْرِ الدُّنْيَا فِي طَاعَةِ اللَّهِ وَعِبَادَتِهِ، بِالنَّسْبَةِ إِلَى عُمْرِ الْآخِرَةِ، فَقَدْ رَجَحَ وَفَازَ أَهْلُ الْجَنَّةِ، وَخَابَ وَخَسِرَ أَهْلُ النَّارِ؛ ذَلِكَ أَنَّهُ عِنْدَ، النَّفْخَةِ الثَّانِيَةِ لَخُرُوجِ الْأَمْوَاتِ مِنَ الْأَرْضِ، يَكُونُ السُّؤَالُ عَنْ مَدَّةِ مَكثِ الْأَمْوَاتِ فِي الْأَرْضِ، سَيِّمًا الْكَافِرَ مِنْهُمْ؛ لِإثْبَاتِ خُرُوجِهِمْ مِنَ الْأَرْضِ أَحْيَاءَ، وَإِقْفَاهُمْ عَلَى ضَلَالِ اعْتِقَادِهِمْ فِي إِنْكَارِهِمُ الْبَعْثَ بِالْدَّلِيلِ الْعَمَلِيِّ، وَإِبْطَالِ اعْتِقَادِهِمْ بِاسْتِحَالَةِ رَجُوعِ الْحَيَاةِ إِلَى الْعِظَامِ وَالرِّفَاتِ .

وهو بعث يعمُّ كلَّ من مات: سواء من مضى على موته يوم، أو عام، أو قرن، أو قرون متطاولة .

والله سبحانه يعلم مقدار الزمن الذي لبثوه في الدنيا، والذي مكثوه في قبورهم، ولكنه سبحانه يسألهم ليبيِّن لهم قِصْرَ أَيَّامِ الدُّنْيَا بِالنَّسْبَةِ لِلْعَذَابِ الْمُقِيمِ فِي الْآخِرَةِ، وَلِيُزِيدَ فِي حَسْرَتِهِمْ وَتَوْبِيخِهِمْ، فَيَسْأَلُهُمْ رَبُّهُمْ عَلَى وَجْهِ اللُّومِ: كم بقيتم في الدنيا من السنين؟ وكم ضيَّعتم من طاعة الله؟ فقد اكتسبتم في هذه المدة اليسيرة كلَّ شرٍّ أوصلكم إلى مقت الله وغضبه .

فيكون جواب الذين نهوا عن الكلام، وقيل لهم: ﴿أَحْسَبُوا فِيهَا وَلَا تَكْفُرُونَ ﴿١١٣﴾﴾ [المؤمنون] . حين يُسألون عن مدة لبثهم في الدنيا.

لبثنا يومًا أو بعض يوم؛ وذلك لأنهم لما وجدوا أنفسهم أَحْيَاءَ كَحَيَاتِهِمُ الْأُولَى، أَوْهَمَهُمْ كَمَالُ أَجْسَادِهِمْ أَنَّهُمْ مَا مَكثُوا فِي الْأَرْضِ إِلَّا زَمَنًا يَسِيرًا، لَا يَتَغَيَّرُ مَعَهُ هَيْكَلُ أَجْسَادِهِمْ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَهَا لَمْ يَلْبَثُوا إِلَّا عَشِيَّةً أَوْ ضُحًى ﴿١١٤﴾﴾ [النازعات] .

وقال: ﴿كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَهَا لَمْ يُعَدُّوا إِلَّا سَاعَةً مِّنْ نَّهَارٍ ﴿١١٥﴾﴾ [الأحفاف]

وهذا شأن الإنسان وهو ينظر إلى الدنيا خَلْفَهُ، أَوْ يَنْظُرُ إِلَى مَا مَضَى مِنْ عَمْرِهِ، كَمَا

(١) قرأ ابن كثير وحزمة والكسائي (قل) فعل أمر، والمخاطب بهذا الأمر هو المَلَكُ الموكَلُ بِهِمْ، وقرأ الباقر (قال) فعل ماضٍ، والفاعل ضمير يعود على الله أو على المَلَكِ .

(٢) قرأ ابن كثير والكسائي وخلف بنقل حركة همزة (فاسأل) إلى السين هكذا: (فسل)، وكذا حمزة عند الوقف، وحققها الآخرون .

حدث لأصحاب الكهف، وللذي مرَّ على قرية وهي خاوية على عروشها، وغيرهم. وفي غمرة الدهول من شدة الموقف، يعترفون بأنهم لم يَضْبُطُوا مدة مكثهم، فأحالوا السؤال على من يضبط ذلك من الملائكة الذين يسجلون عمل ابن آدم ويُحصونه عليهم، أو على الحُساب الضابطين الذين يعدُّون الأيام والشهور والأعوام؛ ﴿فَسْئَلِ الْعَاдِیْنَ﴾ ذلك لأن الميت أو النائم ليس من شأنه أن يقدر الزمن، وأن يعدَّ الحركة، وإنما هذا شأن الحي الذي يُحصي الزمن ويحسب الوقت، وكأنهم حسبوا أنهم قاموا من قبورهم، وأن الدنيا باقية بمن فيها.

ويتفاوت تقدير الكافر لهذه المدة، كما قال تعالى: ﴿يَتَخَفَتُونَ بَيْنَهُمْ إِنْ لَبِثْتُمْ إِلَّا عَشْرًا ۖ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ إِذْ يَقُولُ أَمْثَلُهُمْ طَرِيقَةً إِنْ لَبِثْتُمْ إِلَّا يَوْمًا﴾ ﴿١١٤﴾ [طه]. وكما جاء في قوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُقْسِرُ الْمُجْرِمُونَ مَا لَبِثُوا غَيْرَ سَاعَةٍ﴾ [الروم]. أما جواب المؤمن فقد علَّمنا الله إياه في قوله: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَالْإِيمَانَ لَقَدْ لَبِثْتُمْ فِي كِتَابِ اللَّهِ إِلَى يَوْمِ الْبَعْثِ فَهَذَا يَوْمُ الْبَعْثِ وَلَكِنَّكُمْ كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ ﴿٥١﴾ [الروم]. أما أهل النار فهم في عذاب مذهل وشغل شاغل عن معرفة العدد، ثم يأتي جواب الله تعالى عن المدة التي مكثوها، وأنها وقت لا يذكر، بالقياس إلى عمر الدنيا:

١١٤- ﴿قُلْ﴾ ^(١) إِنْ لَبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا لَوْ أَنَّكُمْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١١٤﴾

يرد الله تعالى، عليهم بأنكم ما لبثتم في الدنيا إلا وقتًا قليلًا، سواء عرفتكم عدده أم لا؛ فإن يومًا عند ربك كآلف سنة مما تعدون، ولو صبرتم فيه على طاعة الله لفزتم بالجنة، ولو كان عندكم علم لعلمتم أنكم ما لبثتم إلا قليلًا؛ وذلك لأن مدة مكثكم في الدنيا قليل جدًا بالنسبة إلى طول المدة في الآخرة، والخلود في النار.

فمدة مكث الإنسان في الدنيا وفي البرزخ، بالقياس إلى مدة العذاب أو النعيم في الآخرة، مدة قليلة جدًا، ولو علم الناس ذلك لآثروا الباقي على الفاني، وصبروا على طاعة الله وعن معاصيه، وفي هذا من الترهيب والترغيب ما فيه.

(١) قرأ حمزة والكسائي (قل)، والباقون (قال).

الْحِكْمَةُ مِنَ الْبَعْثِ وَالثَّوَابِ وَالْعِقَابِ

١١٥- ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ﴾ (١١٥)

لو الله تعالى، خلق الخلق، فأحسن المحسن وأساء المسيء، ولم يلق كل منهم جزاءه، لكان ذلك إضاعة لحق المحسن، وغَضًا للطرف عن إساءة المسيء، ولكان خلق البشر، عبثًا لا فائدة فيه، وكان وجود الناس في الدنيا مجرد لعب ولهو وباطل، والعباد لم يُخلَقوا كالبهائم بلا ثواب ولا عقاب، وإنما خُلِقوا للعبادة، وإقامة أوامر الله تعالى ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا﴾ مهملين، تأكلون وتشربون وتمرحون وتلعبون، وتركون هكذا بلا أمر ولا نهى، ولا عذاب ولا نعيم ﴿وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ﴾ للحساب والجزاء في الدار الآخرة؟ لا يخطر هذا ببالكم، فالله تعالى منزّه عن الظلم.

والمعنى: أغرّتكم الدنيا وغفلتم عن مصيركم، فحسبتم أنا خلقناكم عبثًا بلا ثواب ولا عقاب، كما خُلِقت البهائم، وليس لحكمة تقتضيها إرادتنا من خلقكم؟ إنما خلقناكم للطاعة والعبادة، ثم الرجوع إلى دار الجزاء؛ لنجزى الذين أساءوا بما عملوا ونجزى الذين أحسنوا بالحسنى، وهذا كقوله تعالى: ﴿يَحْسَبُ الْإِنْسَانُ أَن يُتْرَكَ سُدًى﴾ (٣١) [القيامة]، وقوله: ﴿وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ لِيَجْزِيَ الَّذِينَ أَسْتَوُوا بِمَا عَمِلُوا وَيَجْزِيَ الَّذِينَ أَحْسَنُوا بِالْحُسْنَى﴾ (٣١) [النجم].

ومن توهم أنه خلق لغير غاية، وأنه لا بعث ولا حساب ولا جزاء، فمصيره مُهين في نار جهنم، يصطلي بعذابها ولهيبها.

خطب عمر بن عبد العزيز - رحمه الله - فحمد الله تعالى وأثنى عليه، ثم قال: أما بعد: فإنكم لم تُخلَقوا عبثًا، ولن تُتركوا سدى، وإن لكم معادًا، ينزل الله فيه للحكم والفصل بينكم، فخاب وخسر من خرج من رحمة الله، وحُرِمَ جنة عرضها السموات والأرض.

ألم تعلموا أنه لا يأمن غداً إلا مَنْ حذر هذا اليوم وخافه، وباع نافعاً بياقٍ، وقليلًا

(١) قرأ حمزة والكسائي ويعقوب وخلف بالبناء للمعلوم في (لا ترجعون)، والباقون بالبناء للمجهول.

بكثير، وخوفًا بأمان؟ ألا ترون أنكم من أصلاب الهالكين، وسيكون من بعدكم الباقون، حتى تُردُّوا إلى خير الوارثين؟

ثم إنكم في كل يوم تُشيِّعون غاديًا ورائحًا إلى الله ﷻ، قد قضى نحبه، وانقضى أجله، حتى تُعيَّبوه في صدع من الأرض، في بطن صدع غير ممهد ولا موسد، قد فارق الأحباب، وياشر التراب، وواجه الحساب، مُرتَهَن بعمله، غني عما ترك، فقير إلى ما قدَّم، فاتقوا الله عباد الله قبل انقضاء موثيقه، ونزول الموت بكم، ثم جعل طرف ردائه على وجهه، فبكى وأبكى من حوله^(١).

١١٦ - ﴿فَتَعَلَى اللَّهِ الْمَلِكُ الْحَقُّ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْكَرِيمِ﴾

فتعاضم رب العزة، وتقدس مالك الملك، أن يخلق شيئًا عبثًا بلا حكمة ولا فائدة، ولا غرض صحيح، فملكه تعالى مُلك حقيقي، لا يحول ولا يزول، وكل من ملك شيئًا من عرض الدنيا فهو مالك من جهة، ومملوك من جهة أخرى، ففيه نقص واحتياج، وهو مُلك باطل زائل بموت صاحبه أو بالخروج عليه.

والله سبحانه مالك أعظم المخلوقات وهو العرش، وهو دليل على عظمة قدرة الله تعالى، فهو صاحب السلطان المطلق، المتصرف في ملكه بالإيجاد والإعدام، والإحياء والإفناء، وقد تنزَّه عن العبث والتفانص، سبحانه لا رب غيره ولا خالق سواه، وهو حق في وعده ووعيده وإلهيته لخلقه، وهو خالق العرش والكرسي والكون كله، الموصوف بكل كمال، والمنزه عن كل نقص، وهو صاحب الرحمة والخير والبركة، وهو سبحانه أكرم الأكرمين.

التَّعْقِيبُ عَلَى مَا جَاءَ فِي السُّورَةِ

١١٧ - ﴿وَمَنْ يَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ لَا بُرْهَانَ لَهُ بِهِ فَإِنَّمَا حِسَابُهُ عِنْدَ رَبِّهِ إِنَّهُمْ لَا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ﴾

لما كان أعظم ما دعا الله إليه هو التوحيد، وكان أصل الضلال هو الشرك بالله تعالى، أتبع ذلك بأن العقاب الذي ينال الناس في الدار الآخرة، إنما هو بسبب الشرك بالله تعالى، وأن هذا الشرك ليس عليه دليل ولا برهان من عقل أو نقل.

(١) من «تفسير ابن كثير» (٤/٥٠١).

وكل من دعا غير الله تعالى، ليس له برهان ولا حجة على عبادته، بل دلت الأدلة على بطلان عبادته، سوف يُقدّم على ربه فيجازيه بأعماله، ولا يناله من الفلاح شيء، لأن الكفر منعه من ذلك.

هذا: ولما كان موضوع سورة (المؤمنون) هو إثبات توحيد الله تعالى، وإقامة الأدلة على ضلال المشركين، جاء هذا التعقيب مهذّباً كل من يعبد غير الله تعالى، ومبيناً لما حوته السورة من جدل وحجج ودلائل؛ لتنزيه الله تعالى عما يقولون. فكل دعوى بالوهمية أحد مع الله تعالى دعوى باطلة، ليس لها حجة من عقل ولا نقل. ومن يعبد مع الله الواحد إلهاً آخر، لا حجة له على استحقاقه هذه العبادة؛ فإنما جزاؤه على عمله السيئ عند ربه في الآخرة، إذ لا فلاح ولا نجاح للكافرين يوم القيامة.

وهذا ردٌّ لعجز السورة على صدها، فقد افتتحت السورة بإثبات فلاح المؤمنين، وخُتمت بنفي فلاح الكافرين، وما يراه الناس من نعمة الكافر ومتاعه وقوته وسلطانه في الدنيا، ليس فلاحاً في حقيقته، بل هو فتنة واستدراج، ينتهي بالوبال في الدنيا والعقاب في الآخرة.

ثم أرشدنا جل شأنه أن نُخلص له العبادة والدعاء فقال:

١١٨ - ﴿وَقُلْ رَبِّ اغْفِرْ وَارْحَمْ وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّاحِمِينَ﴾

علّمنا سبحانه في ختام السورة أن ندعوه بالغفران والرحمة، وتجاوز الذنوب والسيئات، فيا رب اغفر للمؤمنين ذنوبهم، وارحم العصاة منهم، وأنت يا مولانا خير من يرحم، وخير من يغفر، فسدد أقوالنا وأفعالنا يا رب العالمين، فأنت أرحم الراحمين، وأنت سبحانه خير من رَحِمَ صاحب ذنب وقَبِلَ توبته، وأنت أرحم من الوالدة بولدها، وأرحم بالإنسان من نفسه.

وقد علّم النبي ﷺ أبا بكر ﷺ أن يقول ذلك في صلاته، فقد أخرج الشيخان وغيرهما، عن أبي بكر ﷺ أنه قال: يا رسول الله، علّمني دعاء أدعوه به في صلاتي، فقال له:

«قل: اللهم إني ظلمت نفسي ظلماً كثيراً، وإنه لا يغفر الذنوب إلا أنت، فاغفر لي مغفرة

من عندك، وارحمني إنك أنت الغفور الرحيم»^(١).

وورد أن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قرأ هذه الآيات: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا﴾ إلى آخر السورة في أذن رجل، فبرئ بإذن الله سبحانه، فلما علم النبي ﷺ بهذا الخبر، قال: بماذا قرأت؟ فأخبره، فقال ﷺ: «والذي نفسي بيده، لو قرأها رجل موقنًا بها على جبل لأزال الله هذا الجبل»^(٢).

وعن إبراهيم التيمي عن أبيه قال: بعثنا رسول الله ﷺ في سرية، وأمرنا أن نقول إذا أصبحنا وأمسينا: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ﴾ ﴿١١٥﴾ فقرأناها؛ فغَنِمْنَا وسلمنا^(٣).

تم تفسير (سورة المؤمنون) والله الحمد والمنة



-
- (١) البخاري برقم (٨٣٤، ٦٣٢٦، ٧٣٨٧) ومسلم برقم (٢٧٠٥) والترمذي برقم (٣٥٣١) والنسائي برقم (١٣٠١) وابن ماجه برقم (٣٨٣٥) وابن أبي شيبة (٢٦٩/١٠) وغيرهم.
- (٢) رواه أبو يعلى برقم (٥٠٤٥) بإسناد ضعيف كما قال محققه، وهو عند الحكيم الترمذي (١٠٤/٢) وأبي نعيم (٧/١) وغيرهم.
- (٣) قال محقق «عمل اليوم والليلة»: فيه يزيد بن يوسف وعمرو بن يزيد، وهما ضعيفان، وهو عند ابن السني (٧٧) وأبي نعيم (٢٠٨/١) وفي «أسد الغابة» (٥١/١) و«الإصابة» (١٩/١).

تَفْسِيرُ سُورَةِ النُّورِ (٢٤)

مُقَدِّمَةُ السُّورَةِ

سورة النور هي السورة الرابعة والعشرون في ترتيب المصحف، والمئة في ترتيب النزول، نزلت بعد سورة الحشر، وقبل سورة الحج، ونزلت قبلها سورة الأحزاب وهي سورة مدنية، وعدد آياتها أربع وستون آية في العدد الكوفي والبصري والشامي، واثنان وستون آية في عدد أهل مكة والمدينة وثلاث وستون آية في العدد الحمصي.

وهي ألف وثلاث مئة وست عشرة كلمة، وخمسة آلاف وست مئة وثمانون حرفاً.

وقد نزلت آيات أحداث غزوة بني المصطلق، بعد شهر شعبان من السنة السادسة للهجرة، ونزل بعض أوائل السورة قبل ذلك بثلاث سنوات، أيام أن كان المسلمون يتلاحقون في الهجرة، ويأسر المشركون بعضهم بعضاً.

وسميت بسورة النور أخذاً من قول الله سبحانه: ﴿اللَّهُ نُورُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ [٣٥]. وهذه التسمية من عهد النبي ﷺ، ولم يُعرف لها اسم آخر.

عن حارثة بن مضرب قال: كتب إلينا عمر بن الخطاب: أن تعلّموا سورة النساء، والأحزاب، والنور^(١).

وهذا النور مادي ومعنوي، وهو من أسماء الله الحسنى.

ومما روى في دعاء النبي ﷺ يوم آذاه المشركون بالطائف: «أعوذ بنور وجهك الذي أشرقت له الظلمات، وصلح عليه أمر الدنيا والآخرة، أن يحلّ بي غضبك، أو ينزل بي سخطك، لك العتبى حتى ترضى، ولا حول ولا قوة إلا بالله»^(٢).

ومن دعائه ﷺ وهو يقوم الليل: «اللهم لك الحمد، أنت نور السموات والأرض ومن

(١) أخرجه أبو عبيدة في «الفضائل» ص ١٢٨.

(٢) يُذكر هذا من دعاء النبي ﷺ حين رجع من الطائف، وانظر: الطبراني في «الكبير» (١٠٦٠٠) بنحوه، وهو في السلسلة الضعيفة للألباني عن عائشة برقم (٢٩٣٣).

فيهن، ولك الحمد، أنت قيوم السموات والأرض ومن فيهن»^(١).

ومن دعاء النبي ﷺ إذا خرج إلى الصلاة: «اللهم اجعل لي في قلبي نورًا، وفي لساني نورًا، واجعل لي في سمعي نورًا، واجعل لي في بصري نورًا، واجعل لي من خلفي نورًا، ومن أمامي نورًا، واجعل من فوقني نورًا، ومن تحتي نورًا، اللهم أعطني نورًا»^(٢).

وعن ابن مسعود ؓ: إن ربكم ليس عنده ليل ولا نهار، نور العرش من نور وجهه...

وقد صَدَّرَ الله سبحانه سورة النور بهذا العنوان ﴿سُورَةُ﴾ وكل سورة في القرآن اسمها سورة، ولكن لم تحظ سورة سواها بهذا التصدير؛ وذلك لبيان فضلها وعِظَمَ ما فيها من الأوامر والنواهي، والأحكام، والحلال والحرام، ولكي يتبَه المسلم لما في هذه السورة من الأحكام والآداب.

ويبين الله جلَّ شأنه أن من هذه الأحكام: العقوبة للزاني، وللقاذف، وآداب الاستئذان والسلام، وغض البصر، وكلها فرائض وحدود، وسبل لوقاية المسلم من الوقوع في جريمة الزنى.

وقد تكرر لفت النظر إلى ما أتت به السورة من أحكام مرتين: في قوله تعالى:

﴿وَلَقَدْ أَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ آيَاتٍ مُبَيِّنَاتٍ وَمَثَلًا مِّنَ الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلِكُمْ وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ﴾^(٣).

وفي قوله جلَّ شأنه: ﴿لَقَدْ أَنْزَلْنَا آيَاتٍ مُبَيِّنَاتٍ وَاللَّهُ يَهْدِي مَن يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾^(٤). بالإضافة إلى الآية الأولى في بدء السورة، فتكون ثلاثاً.

وذكر تبين الآيات في سبع مواضع منها.

وبهذا فإن السورة أقامت تنظيمًا كاملاً لبناء المجتمع الإسلامي على الفقه والطهارة، وأقامت سياجاً منيعاً حول المحارم التي يخاف المسلم من الوقوع فيها.

(١) من حديث ابن عباس في البخاري: برقم (٦٣١٧) ومسلم برقم (٧٦٩).

(٢) من حديث طويل لابن عباس في البخاري (٦٣١٦) ومسلم (٧٦٣) و«المسند» (٢٥٦٧) و(٣١٩٤) وأبي داود (١٣٥٣) والترمذي (٣٤١٩)، وأخرجه الطيالسي (٢٧٠٦) وابن ماجه (٥٠٨) وابن خزيمة (١٢٧) وابن حبان (١٤٤٥).

وسورة النور تتحدث أساسًا عن جريمة الزنى والقذف به، بمناسبة قصة الإفك الذي رُميت به أم المؤمنين عائشة رضي الله تعالى عنها.

فالسورة تبدأ بالحديث عن الزنى وحدّه المقرر شرعًا، وتذكر بعده حدّ القذف والملاعنة بين الرجل والمرأة، وكأن هذا بمثابة المقدمة أو التوطئة لذكر حادثة الإفك، ثم تذكر حادثة الإفك في عشر آيات، وجاء التعقيب عليها في ست آيات بعد ذلك.

وتتناول آيات السورة الوسائل التي تقي المسلم من الوقوع في جريمة الزنى، سواء أكانت آدابًا أم أخلاقًا، ونحو ذلك، فتتحدث عن صيانة البيوت وحرمانها، وأنه لا يجوز الاطلاع على ما في داخلها، ويشرع الله سبحانه في السورة: الإذن والسلام قبل الدخول في البيوت، ويوجب غضّ البصر من الرجل والمرأة على حد سواء؛ لأن النظر بريد الزنى، وسهم مسموم من سهام إبليس، وهو مقدمة الزنى وأوله.

ثم تتحدث السورة عن حدود إبداء المرأة لزيئها عند المحارم وعند غير المحارم، وتبين أن الطريق الوحيد المشروع للغريزة الجنسية وإشباعها في الإنسان، هو الزواج المشروع.

وتتحدث السورة بعد ذلك عن تعليم الأطفال -وهم صبية قبل سن البلوغ- ألا يدخلوا على آبائهم وأمهاتهم في وقت النوم والخلوة والراحة إلا بإذن؛ حتى لا تقع أعينهم على عوراتهم، أو على ما لا يجوز لهم الاطلاع عليه.

ويشرع الله سبحانه الإذن في الدخول للأبناء على الآباء بعد سن البلوغ، وأنه يجب عليهم أن يستأذنوا كغيرهم عند إرادة الدخول على الأمهات والآباء.

ويخفف الله سبحانه في السورة -أي: يرفع الحرج- عن المرأة الكبيرة المُسِنَّة، في وضع الحجاب عنهامع عدم إظهار الزينة، فلها أن تخفف من ملابسها الخارجية في بيتها، وألا تتبرج بزينة، وتبين السورة مَنْ يجوز للمسلم أن يتناول معه الأكل من الأقارب والأصدقاء.

وفي منتصف السورة تُربط كل هذه الأحكام بنور الإيمان الذي يقذفه الله سبحانه في قلب المؤمن، وتضرب المثل لهذا النور في قلب المؤمن، وتذكر أنه ظلمة في قلب الكافر، وتبين مجافاة المنافقين لهذه الأحكام التي نزلت على رسول الله ﷺ وجاءت في

كتابه الكريم، وفي ثنايا هذه الأحكام يربط الله سبحانه العبد بربه ربطاً إيمانياً، فيبين عاقبة المؤمنين والكافرين.

وتتحدث الآيات في السورة عن جانب من مظاهر قدرة الله تعالى في الكون، وأنه يقلّب الليل والنهار، ويحوّل السحاب إلى مطر لا غنى للخلق عنه، وهو جلّ شأنه خلق كل دابة من ماء: فمنهم من يمشي على بطنه، ومنهم من يمشي على رجلين، ومنهم من يمشي على أربع، ويَعُدُّ الله عباده المؤمنين المقيمين لمنهج الله تعالى أن يمكن لهم في الأرض، وأن يبدّل خوفهم أمناً، كما ذكرت السورة صفات المؤمن الحق في نهايتها.

هذا: ويمكن تقسيم السورة إلى خمسة مقاطع:

المقطع الأول: يتناول العلاقة الخاصة بين الرجال والنساء، والعقوبات على الجرائم الجنسية، والوقاية من الزنى بتشريع الحد فيه، وتحريم نكاح الزانية التي لم تتب، وحدّ القذف، وتشريع اللعان، وعدم اتباع خطوات الشيطان، ويتناول هذا المقطع، حديث الإفك، ومشكلة الخبيثين للخبيثات، والطيبين للطيبات، وينتهي هذا المقطع بالآية السادسة والعشرين من السورة.

المقطع الثاني: يتناول وسائل الوقاية من جريمة الزنى، والآداب الخاصة بدخول البيوت، ومنها: الأمر بغضّ البصر، والنهي عن إبداء زينة المرأة لغير محارمها، والحضّ على إحصان الفرج بالزواج، وهذا المقطع من الآية السابعة والعشرين إلى الآية الرابعة والثلاثين من السورة.

المقطع الثالث: يتناول جانب الربط بين تشريع الأحكام ودلائل وحدانية الله تعالى، ويظهر أثر ذلك على المعمّرين لبيوت الله تعالى بإقام الصلاة وإيتاء الزكاة، ويقابل مثل النور للمؤمنين بمثل الظلمات للكافرين في ثنايا الأدلة على وحدانية الله تعالى، من تسبيح الخلائق بحمده، وتقلّب الليل والنهار، وإزجاء السحاب، وخلق الدواب على اختلاف أنواعها وأشكالها، وهذا المقطع من الآية الخامسة والثلاثين إلى الآية السادسة والأربعين من السورة.

المقطع الرابع: يتحدث عن مسلك المنافقين الرافضين لحكم الله ورسوله ﷺ، المتقولّين بالإفك على أم المؤمنين عائشة ؓ، وفي مقابلهم المؤمنون المطيعون لله

والرسول، أهل الاستخلاف في الأرض والتمكين فيها، والنصر على غير المسلمين، وهذا المقطع من الآية السابعة والأربعين إلى الآية السابعة والخمسين من السورة.

المقطع الخامس: يتحدث عن آداب الاستئذان بالنسبة للصبيان والبالغين وأحكام الضيافة، وحكم القواعد من النساء.

وتختتم السورة بوصفٍ جامعٍ للمؤمنين، والنهي عن نداء النبي ﷺ باسمه المجرد، وإعلان أن الله تعالى هو مالك هذا الكون بما فيه، وهذا المقطع من الآية الثامنة والخمسين إلى نهاية السورة.



تَفْسِيرُ السُّورَةِ

افْتِتَاحُ فَرِيدٌ لَا نَظِيرَ لَهُ فِي بَقِيَّةِ السُّورِ

١- ﴿سُورَةُ أَنْزَلْنَاهَا وَفَرَضْنَاهَا^(١) وَأَنْزَلْنَا فِيهَا آيَاتٍ يَبَيِّنُ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ^(٢)﴾

كَأَنَّ اللَّهَ سَبَّحَانَهُ يَقُولُ: فِي هَذِهِ السُّورَةِ مَرَاسِيمٌ إِلَهِيَّةٌ فَانْتَبِهُوا لَهَا، وَفِيهَا آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ فاعملوا بها، واتعظوا واعتبروا لعلكم تذكرون.

والمعنى: هذه سورة عظيمة من القرآن؛ أنزلناها رحمة بالعباد، وقدرنا فيها ما قدرنا من الحدود والشهادات والأحكام والآداب، يجب الاعتناء بها، والعمل بما فيها على وجه الإيجاب القطعي، من أحكام الحلال والحرام، والأمر والنهي، والحدود، والآداب والأخلاق، وقد شرعنا فيها أحكاماً مفسّرات، واضحات الدلالة، أوجبنا الأخذ بها، والعمل بمقتضاها.

ومن الآيات البينات: اشتمالها على التوحيد، وحقيقة الإسلام، ودلائل قدرة الله تعالى، وعلمه وحكمته.

ومن الآيات البينات: إطلاع الله رسوله ﷺ على دخائل بعض الناس مما كتموه في نفوسهم من النفاق، وما أظهروه من الإيمان، وما كادوا به للإسلام وأهله، سَيِّمًا النَّيْلَ من أم المؤمنين عائشة ؓ.

وهذه الآيات مظنة التذكر؛ لتذكروا -أيها المؤمنون- ما في هذه السورة من الآيات البينات، وتعملوا بما فيها.

والسورة: جزء من القرآن، فيها عدد من الآيات، لها بداية ونهاية.

وقد ذكرت سورة النور عشرة من الوسائل التي تؤدي إلى حفظ المجتمع من فاحشة

(١) قرأ ابن كثير وأبو عمرو بتشديد الراء من (فَرَضْنَاهَا) إشارة إلى الإلزام والإيجاب، أو إلى كثرة الأحكام المفروضة في السورة، وقرأ الباقر بتخفيفها، أي: أوجبنا ما فيها من الأحكام إيجاباً قطعياً.

(٢) قرأ حفص وحزمة والكسائي وخلف بتخفيف الذال من (تَذَكَّرُونَ)، والباقر بتشديدها.

الزنى وهي في النصف الأول منها، بالإضافة إلى أدب الأبناء والخدم في الاستئذان، وقد جاء ذكره قرب نهاية السورة، وهو أيضًا من وسائل صيانة المجتمع المسلم من الرذيلة:

التدابير الواقية من الوقوع في الزنى أولاً: تشريع حد الزنى

٢- ﴿الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا مِائَةً (١) جَلْدًا وَلَا تَأْخُذْكُمْ بِهِمَا رَأْفَةٌ (٢) فِي دِينِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلَشَهِدَ عَدَاهُمَا طَائِفَةٌ مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٢﴾﴾

وتبدأ السورة بعد هذا الاستهلال بذكر الوسيلة الأولى لحفظ المجتمع من الفاحشة وهي الأمر بإقامة حد الزاني، أو عقوبة الزاني والزانية البكرين، وهي أن يُجلد كُلًّا منهما مئة جلدة، أما الثيب فقد دلت الستة الصحيحة على أنه يرجم حتى الموت.

والزنى: هو ما يكون بين الرجل والمرأة - غير الزوجة - من إدخال حشفة الذكر في فرج المرأة، بدون نكاح صحيح وبدون عَوْض، فإن كان بعوض فهو بغاء.

فكنَّ يجهن به في الجاهلية بين الإماء، فكانت البغايا يجعلن رايات على بيوتهن.

وكان أهل الجاهلية لا يعاقبون على الزنى إذا كان بالتراضي بين الرجل والمرأة، وبحكم أهل الجاهلية تحكم القوانين الوضعية في بعض الدول الإسلامية وغيرها، ومن هنا تجرأت الحضارة المعاصرة على المنكرات فاستباحتها، وأصبح الزنى حبًّا وصدقة، وارتكابه أخف بكثير من تعدد الزوجات! فوجدنا من يعاقب على الزواج الثاني، ولا يعاقب على ارتكاب الفواحش، ووجدنا من يعدُّ أبناء السفاح مواليد شرعيين ترعاهم الدولة!

وتقديم المرأة الزانية على الرجل في الآية؛ لأن المرأة لها الضلع الأكبر في ارتكاب هذه الجريمة.

(١) قرأ أبو جعفر بإبدال همزة (مائة) ياء وصلًا ووقفًا، وكذا حمزة عند الوقف.

(٢) قرأ ابن كثير بخلف عن البزي بفتح همزة (رأفة)، والباقون بإسكانها، وهو الوجه الثاني للبزي، وهما لغتان، وقرأ الأصبهاني عن ورش، وأبو جعفر وأبو عمرو بخلفه بإبدال الهمزة ألفًا وصلًا ووقفًا، وكذا حمزة عند الوقف.

فهي التي تَظْهَرُ سافرة متعطرة، وهي التي تخضع بالقول، وتجعل الرجل يطعم فيها، وهي التي تمكّن الرجل من نفسها، ولولا ذلك ما حدثت جريمة الزنى، وهي التي تُلْحَقُ العار بأهلها وبيتها وقومها وعشيرتها، وتُدَنَسُ فراشها وفراش أهلها وفراش زوجها، وهي التي تتسبب في خلط الأنساب، فيولد بعض الأطفال من غير آبائهم، ويُنسَبون إليهم، فتتسبب في فساد الأنساب وخلطها، ولو منعت المرأة نفسها لم يجد الرجل إلى الزنى سبيلاً، ولذلك قُدِّمَت المرأة على الرجل في أمر الزنى، فقال تعالى:

﴿الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي﴾.

أما في السرقة، فالرجل أقوى وأجراً من المرأة على ارتكاب هذه الجريمة، ولذا قُدِّمَ الرجل على المرأة في قوله تعالى: ﴿وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا﴾ [المائدة: ٣٨].

وقد شرّع الله سبحانه في أول سورة النور عقوبة الجلد بالنسبة للزاني البكر الحر الذي لم يسبق له الزواج، وهو بالغ عاقل، فجعل عقوبته مئة جلدة بالسوط، في ضرب موجه مؤلم ﴿فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا مِائَةً جَلْدَةً﴾ بالنسبة للحرّة، والجارية وهي الأمة، تُجلد خمسين جلدة، كما جلد عبد الله بن عمر رضي الله عنه جارية كانت عنده زنت، فأمر الجَلَادَ فجلدها على ظهرها ورجليها، فقال له ابنه: ﴿وَلَا تَأْخُذْكُمْ بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ اللَّهِ﴾، فقال: يا بني، أرايتني أخذتني بها رأفة؟ إن الله لم يأمرني أن أقتلها، وقد ضربت فأوجعت^(١).

والحكم قائم في حالة وجود الرق في أي مكان من العالم، قال تعالى:

﴿وَمَنْ لَّمْ يَسْتَطِعْ مِنْكُمْ طَوْلاً أَنْ يَنْكِحَ الْمُحْصَنَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ فَمِنْ مَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ فَمَنِ اتَّقَى اللَّهَ وَلَمْ يَجِدْ لَهُ مَلَأً فَانكِحْهُنَّ ذَلِكُمْ زَوَاجُهُمْ لَمَّا خَفَ سَمِيتُهُمْ عَلَىٰ نَفْسِهِمْ وَمَنْ لَّمْ يَجِدْ فَالزَّانِيَةُ وَالزَّانِي فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا مِائَةً جَلْدَةً بَالِغَةَ الْإِحْصَانِ وَالزَّانِيَةُ وَالزَّانِي فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا مِائَةً جَلْدَةً بَالِغَةَ الْإِحْصَانِ﴾ [النساء: ٢٥].

وبيّنت السُّنَّةُ الصحيحة الثابتة عن رسول الله ﷺ أن الزاني غير المحصن والزانية غير المحصنة -أي: اللّذين لم يسبق لهما الزواج- عقوبة كل منهما الجلد، بالضرب بالسوط، وهو السَّيْر من الجلد.

ويضاف إلى هذه العقوبة من السُّنَّة: الإبعاد والطرْد، وفي معناه: الحبس أو السجن والنفي عامّاً كاملاً عند جمهور الفقهاء، خلافاً لأبي حنيفة، كما جاء في حديث عبادة بن

(١) «مصنف عبد الرزاق» (١٣٥٣٧) و«تفسير الطبري» (١٧/١٤٠) وابن أبي حاتم (٨/٢٥١٨).

الصامت ﷺ أن النبي ﷺ قال: «خذوا عني، خذوا عني، قد جعل الله لهن سبيلاً، البكر بالبكر جلد مئة وتغريب عام، والثيب بالثيب جلد مئة والرجم»^(١).

فغير المحصن، رجلاً كان أو امرأة، يُجلد مئة جلدة، كما جاء في كتاب الله، ويُنفى عن بلده، أي: يحبس ويسجن عامًا كاملاً، أخذًا من سنة المصطفى ﷺ ويُقام الحدُّ عليهما بلا هوادة، ولا تسامح، ولا رحمة، ولا شفقة، ولا وساطة، ولا عاطفة، فإن كنتم ممن يؤمن بالله حقًا وصدقًا، وممن يُصدَّق باليوم الآخر وما فيه من ثواب وعقاب، فلا تأخذكم بهما رحمة في إقامة حدود الله، لا رافة قرابة ولا رافة عاطفة، والإيمان بالله، يوجب انتفاء هذه الرافة المانعة من إقامة حدود الله.

ثم ليكن هذا الجلد بحضور جماعة من المؤمنين وليس سرًّا؛ للتشهير والتشنيع، ولردع والزجر، والاعتبار، وللتحقق من إقامة الحدِّ على الوجه الشرعي، وهذه الجماعة تختلف في العدد من المدينة إلى القرية، إلى ما هو دون ذلك، ولكن ذَكَر بعض أهل العلم أن أقله أربعة، يروْن إقامة الحد رأي العين، وهو العدد الذي يثبت به حد الزنى، قال تعالى: ﴿وَلْيَشْهَدْ عَذَابُهُمَا طَائِفَةٌ﴾ أي: جمع من المؤمنين، تختلف قلته وكثرته من مكان إلى مكان، ومشاهدة إقامة الحدود يقوي العلم بها ويستقر بها الفهم.

أما حد الزاني المحصن، أي: الذي سبق له الزواج، ووطئ في نكاح صحيح، وكان بالغًا عاقلًا، فهو الرجم حتى الموت، وقد أخذ هذا الحكم من الكتاب والسنة، أما الكتاب فبأيتين: آية منسوخة التلاوة، باقية الحكم، وهي قوله تعالى: (الشيخ والشيخة إذا زنيا فارجموهما البتة نكالا من الله والله عزيز حكيم).

في الصحيحين وغيرهما عن ابن عباس ؓ قال: قال عمر ؓ وهو جالس على منبر رسول الله ﷺ: إن الله قد بعث محمدًا ﷺ بالحق، وأنزل عليه الكتاب، فكان مما أنزل عليه آية الرجم، قرأناها، ووعيناها، وعقلناها، فرَجَم رسول الله ﷺ، ورجمنا بعده، فأخشى إن طال بالناس زمان، أن يقول قائل: ما نجد الرجم في كتاب الله، فيصلوا بترك

(١) «صحيح مسلم» برقم (١٦٩٠) وأخرجه أحمد في «المسند» (٣١٧/٥) برقم (٢٢٧٨٠، ٢٢٧٠٣، ٢٢٦٦٦) بإسناد صحيح على شرط مسلم ورجال ثقات (محققوه) و«سنن أبي داود» برقم (٤٤١٦) و«سنن الترمذي» برقم (١٤٣٤) و«السنن الكبرى» للنسائي برقم (١١٠٩٢) وابن ماجه برقم (٢٥٥٠).

فريضة أنزلها الله، وإن الرجم في كتاب الله حق على من زنى إذا أحصن، من الرجال والنساء إذا قامت البيّنة، أو كان الحبل، أو الاعتراف^(١).

وأخرج الإمام أحمد وغيره بسنده إلى كثير بن الصلت قال: كان سعيد بن العاص وزيد بن ثابت، يكتبان المصاحف، فمرّا على هذه الآية، فقال زيد: سمعت رسول الله ﷺ يقول: (الشيخ والشيخة إذا زنيا فارجموهما البتة) فقال عمر: لما أنزلت هذه أتيت رسول الله ﷺ فقلت: أكتنيتها قال شعبة: فكأنه كره كذلك، فقال عمر: ألا ترى أن الشيخ إذا لم يُحصن جلد؟ وأن الشاب إذا زنى وقد أحصن رُجم^(٢).

وقد رفع الإمام مالك هذا الإشكال، فبيّن أن المراد بالشيخ والشيخة: الثيّب والثيّبة سواء أكانا شابّين أم شيخين^(٣).

فهذا الحديث دليل صريح على أن الرجم ثابت بآية من كتاب الله، أنزلت على رسول الله ﷺ، وقرأها الصحابة، ووعّوها وعقلوها، ثم نسخت، وأن حكمها باقٍ؛ لأن النبي ﷺ قد فعله، والصحابة رضوا عنه قد فعلوه من بعده، كما جاء في الصحيحين.

ولكن ما الحكمة في نسخ تلاوتها وبقاء حكمها؟ قالوا: لأن الله سبحانه لم يُرد التعبد بهذه الآية، ولم يُرد تلاوتها، إنما أراد بقاء حكمها فحسب، فأُنزلها الله تعالى بعض الوقت، حتى فهمها الصحابة وأدركوها وعملوا بما فيها، وفهمتها الأمة، ثم نسخها الله سبحانه.

وقد فسّر الإمام مالك الشيخ والشيخة: بالثيّب والثيّبة اللذين سبق لهما الإحصان والزواج كما سبق بيانه.

(١) يُنظر: البخاري برقم (٦٨٢٩، ٦٨٣٠) وصحيح مسلم برقم (١٦٩١) من حديث ابن شهاب الزهري عن ابن عباس واللفظ له وهو جزء من حديث (٦٨٣٠) في البخاري وانظر: «المسند» (٢٩/١) (٢١٥٩٦) والنسائي برقم (٧١٥٤) و«الموطأ» (٨٢٢/٢).

(٢) «المسند» (١٨٢/٥) برقم (٢١٥٩٦) قال محققوه: رجاله ثقات رجال الشيخين غير كثير بن الصلت فقد روى له النسائي وهو ثقة، و«سنن الدارمي» (١٧٩/٢) (٢٣٢٣) و«المستدرک» (٣٦٠/٤) وصححه الحاكم ووافقه الذهبي، وصححه ابن حجر في «الفتح» (٦٥/٩) وأخرجه النسائي في الكبرى (٧١٤٥) والبيهقي (٢١١/٨).

(٣) يُنظر: تحقيق مسند الإمام أحمد (٤٧٣/٣٥) بإشراف الدكتور عبدالله التركي.

أما الآية الثانية الدالة على حكم الرجم في التوراة، وهي باقية الحكم والتلاوة معاً، فهي الآية الثالثة والعشرون من سورة آل عمران ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيحًا مِّنَ الْكِتَابِ يُدْعَوْنَ إِلَى كِتَابِ اللَّهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ يَتَوَلَّى فَرِيقٌ مِّنْهُمْ وَهُمْ مُّعْرِضُونَ﴾ (٢٣).

هذه الآية نزلت في شأن يهوديين زنيا بعد إحصان، وجاء إلى النبي ﷺ فحكم عليهما بالرجم، كما في التوراة، وقصتهما في الصحيحين معروفة مشهورة، وقد حكم النبي ﷺ عليهما بالرجم، وجاء وصف اليهود الذين أوتوا نصيباً من الكتاب بأنهم ﴿يُدْعَوْنَ إِلَى كِتَابِ اللَّهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ يَتَوَلَّى فَرِيقٌ مِّنْهُمْ﴾ أي: إن هذين اليهوديين أعرضوا ولم يريدوا ما في التوراة، فثبت بهذا أن الرجم في الإسلام ثابت ضمناً بمقتضى هذه الآية أيضاً، وشرع من قبلنا شرع لنا ما لم يرد ناسخ، وهي آية ثابتة التلاوة والحكم، وهو حدٌ باقٍ ولم يُنسخ.

ومن الأحاديث الصحيحة في هذا المقام ما جاء في الصحيحين عن أبي هريرة وزيد بن خالد أن أعرابيين قدما على النبي ﷺ قال أحدهما: يا رسول الله، إن ابني هذا كان عسيفاً -أي: أجيئاً أو مزارعاً- عند هذا الأعرابي، فزنى بامرأته، فافتديت منه بمئة شاة، ووليدة -أي: جارية- ثم سألت أهل العلم، فقالوا لي: إن على زوجة هذا الرجم، وعلى ابنك جلد مئة وتغريب عام، فقال ﷺ: «والذي نفسي بيده لأقضين بينكما بكتاب الله، الغنم والوليدة ردُّ عليك» -أي مردودة لك- «وعلى ابنك جلد مائة وتغريب عام، واغْدُ يا أنيس» وهو رجل من الصحابة، قال له النبي ﷺ: «اذهب إلى امرأة هذا فاسألها، فإن اعترفت فارجمها». فغدا إليها فأقرت واعترفت؛ فرجمها.

وهذا الحديث ثابت في البخاري ومسلم، وغيرهما^(١).

وهذا الافتداء المذكور في الحديث هو الذي كان معمولاً به في الجاهلية، ثم فرض الإسلام عقوبة الزاني، بإيذاء الرجل وحبس المرأة، على رأى في الآيتين كما جاء في قوله تعالى: ﴿وَالَّذِي يَأْتِيكَ الْفَحْشَةُ مِن نِّسَائِكُمْ فَاسْتَشِيرُوا عَلَيْهِنَّ أَرَزَعْتُمْ مِّنْكُمْ فَإِنْ شَهِدُوا أَنَّمَا كُفِّرَتْ فِي الْبَيُوتِ حَتَّى يَتَوَفَّيَهُنَّ الْمَوْتُ أَوْ يَجْعَلَ اللَّهُ لَهُنَّ سَبِيلًا ﴿١٥﴾ وَالَّذَانِ يَأْتِيَنِهَا مِنْكُمْ فَأَتَاهُمَا فَإِنْ تَابَا وَأَصْلَحَا فَأَعْرِضُوا عَنْهُمَا إِنَّ اللَّهَ كَانَ تَوَّابًا رَّحِيمًا ﴿١٦﴾﴾ [النساء].

(١) «صحيح البخاري» برقم (٢٣١٤، ٦٦٣٣) و«صحيح مسلم» برقم (١٦٩٧، ١٦٩٨).

وكان ذلك حكماً مؤقتاً، ثم فُرض حد الزاني بما في هذه السورة.

وقد ثبت الرجم للزاني المحصن بالسُّنة المتواترة من أقوال الرسول وأفعاله، وأنه ﷺ رجم ماعزاً، ورجم المرأة الغامدية، والمرأة التي من جهينة، كما جاء في صحيح مسلم: عن عمران بن حصين أن امرأة من جهينة أتت نبي الله ﷺ وهي حُبْلَى من الزنا، فقالت: يا نبي الله، أصبت حَدْداً فأقمه عليّ، فدعا نبي الله ﷺ وليّها فقال: «أحسن إليها، فإذا وضعتُ فَأُتِي بها»، ففعل، فأمر بها نبي الله ﷺ فشدّت عليها ثيابها، ثم أمر بها فُرْجمت، ثم صلّى عليها، فقال له عمر: تصلي عليها يا نبي الله وقد زنت؟! فقال: «لقد تابت توبة لو قُسمت بين سبعين من أهل المدينة لوسعتهم، وهل وجدتُ توبة أفضل من أنْ جادت بنفسها لله تعالى»^(١).

وعن جابر بن عبد الله رضي الله عنه أن رجلاً من أسلم أتى رسول الله ﷺ فحدثه أنه قد زنى، فشهد على نفسه أربع شهادات، فأمر به رسول الله ﷺ، فُرْجِم، وكان قد أُحصن^(٢).

وهذا كله ثابت من فعل الرسول ﷺ، فُرْجُم الزاني المحصن من الرجال والنساء، ثابت بالكتاب والسُّنة وإجماع أهل العلم الشرعي.

وما جاء عن الإمام أحمد من أنه يجب أن يُجمع على الزاني المحصن بين الجلد والرجم أخذاً من الآية، ومن حديث عبادة السابق، وفيه: «... والثيب بالثيب، جلد مئة والرجم».

ولأن عليّاً رضي الله عنه جلد امرأة من أهل الكوفة مُحْصنة قد زنت يقال لها: شُرَاحَة، جلدّها يوم الخميس، ورجمها يوم الجمعة، ثم قال: جلدتها بكتاب الله، ورجمها بسُّنة رسول الله ﷺ^(٣).

فقد قال الإمام النووي في الإجابة على الجمع بين الرجم والجلد بالنسبة للزاني المحصن: وحديث الجمع بين الجلد والرجم منسوخ؛ لأنه كان أول الأمر، وقال جماهير

(١) «صحيح مسلم» برقم (١٦٩٦).

(٢) «صحيح البخاري» برقم (٥٢٧٠، ٦٨١٤) و«صحيح مسلم» برقم (١٦٩١).

(٣) في «صحيح البخاري» برقم (٦٨١٢) ورواه أحمد في «المسند» برقم (٧١٦) وعند النسائي في الكبرى (٧١٤) وأبو نعيم في الحلية (٣٢٩/٤) والحاكم (٣٦٥/٤).

العلماء: الواجب الرجم وحده^(١).

وقد وردت الأحاديث الصحيحة متعددة الطرق بالاعتصار على الرجم، وليس فيه ذكر الجلد، ولم يُنقل عن رسول الله ﷺ أنه جلد قبل الرجم ماعزًا، أو الغامدية، أو الجهنية، وقد فُرض حد الزنى بالجلد في الآية الثانية من هذه السورة، وهي آية عامة، تشمل المحصن وغيره، ثم خصصت الشَّنة هذا العموم بغير المحصن من الرجال والنساء.

ويتولى أمر الرجم أو الجلد، مَنْ يتولَّى أمر المسلمين من الأمراء، والقضاة، والحكام، ومن ينيونهم في ذلك، ولا يتولاه غيرهم، كصاحب الشأن أو عامة الناس.

تحريم الشفاعة في الحدود:

وتحرُّم الشفاعة لمنع إقامة الحد عليهما، وهي الشفاعة السيئة التي جاءت في قوله تعالى: ﴿وَمَنْ يَشْفَعْ شَفْعَةً سَيِّئَةً يَكُنْ لَهُ كِفْلٌ مِنْهَا﴾ [النساء: ٨٥].

وهي الشفاعة لتعطيل حدود الله؛ إذ إنه بعد وصول الأمر إلى القاضي لا شفاعة في الحدود.

جاء في الحديث عن عمرو بن شعيب، عن أبيه، عن جده أن النبي ﷺ قال: «تعافوا الحدود فيما بينكم، فما بلغني من حدٍّ فقد وجب»^(٢).

وفي الحديث: عن أبي هريرة ؓ أن رسول الله ﷺ قال: «حدٌّ يُعمل به في الأرض، خير لأهلها من أن يمطروا أربعين صباحًا»^(٣).

وجاء عن رسول الله ﷺ من حديث ابن عمر ؓ: «من حالت شفاعته دون حدٍّ من

(١) «شرح مسلم» (١١/١٨٩).

(٢) أبو داود برقم (٤٣٧٦) وصحيح أبي داود (٣٦٨٠) والنسائي في «السنن» (٨/٧٠) وصحيح النسائي (٤٨٨٥) بتصحیح الألباني من حديث عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده، هو في «صحيح الجامع» برقم (٢٩٥١).

(٣) «المسند» (٢/٣٦٢) برقم (٨٧٣٨، ٩٢٢٦) قال محققوه: إسناده ضعيف، لضعف جرير بن يزيد، وابن حبان (٤٣٩٨) والنسائي في «السنن» (٨/٧٥) من حديث أبي هريرة، وفي «السنن الكبرى» (٧٣٥٠) وابن ماجه (٢٥٣٨) ورواية «أربعين صباحًا» أصح من «رواية ثلاثين»، صباحًا كما قال النسائي في «السنن الكبرى».

حدود الله فقد ضادَّ الله في ملكه» وفي رواية: «في أمره»^(١).

أي: مَنْ حالت شفاعته دون إقامة حدٍّ من حدود الله، فقد ضادَّ الله في أمره، وذلك حين يشفع لقريب أو صهر أو صديق، ونحو ذلك، سواء أكانت هذه الشفاعة السيئة مقابل منفعة، أم حَمِيَّة وعصبية، أم لجأه ومكانته بين الناس، أم غير ذلك.

ولا تُعْطَل الحدود، ولا يُخَفَّف منها، ولا تُنْقَص، سَيِّمًا إذا كان المُقَام عليه الحد صاحب جاه، أو منصب ونحو ذلك؛ فإن تعطيل حدود الله أمر عظيم في الإسلام، والرافة لتعطيل حدود الله، ومنع إقامة دينه، رافة غير محمودة، والله الذي شرع الحد أرأف بعباده من رافة بعضهم لبعض.

في مسند أبي يعلى عن حذيفة: «ويؤتى بالذي ضَرَبَ فوق الحدِّ، فيقول الله له: عبي، لَمْ ضَرَبْتَ فوق الحدِّ؟ فيقول: غَضِبْتُ لك، فيقول الله: أكان غضبك أشد من غضبي؟ ويؤتى بالذي قَصَّرَ فيقول: عبي لِمَ قَصَّرت؟ فيقول: رَحِمْتُه، فيقول: أكانت رحمتك أشد من رحمتي»^(٢).

ثَانِيًا: النَّهْيُ عَنِ زَوَاجِ الزَّانِي وَالزَّانِيَةِ مَا لَمْ يَتُوبَا

٣- ﴿الزَّانِي لَا يَنْكِحُ إِلَّا زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً وَالزَّانِيَةُ لَا يَنْكِحُهَا إِلَّا زَانٍ أَوْ مُشْرِكٌ وَحُرِّمَ ذَلِكَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ﴾

هذه الآية تنهي عن التزوج بالزاني أو الزانية حتى يتوبا من الزنى، وهذه هي الوسيلة الثانية لحفظ المجتمع من الفاحشة، وتنهي كذلك عن التزوج بالمشرك والمشركة حتى يتوبا من الشرك، فالمشرك لا يعترف بحرمة الزنى، وقد حرم الله تعالى زواج من اتصف بالزنى أو الشرك على المؤمنين قبل التوبة، وفي هذا بيان لرذيلة الزنى، وأنه يندس عرض

(١) صححه الألباني عن أحمد وأبي داود في «السلسلة الصحيحة» برقم (٤٣٨) من حديث ابن عمر، وأخرجه الحاكم وابن أبي شيبه والطبراني في «الأوسط»، يُنْظَرُ: «نيل الأوطار» (٢٧٤/٧) وهو في «المسند» برقم (٥٣٨٥، ٥٥٤٤)، بإسناد صحيح ورجال ثقات، وعند الحاكم (٢٧/٢) والبيهقي في السنن (٨٢/٦) وفي الشعب (٧٦٧٣) وأبي داود (٣٥٩٧).

(٢) الأثر في كنز العمال للمتقي الهندي برقم (١٤٧٦٩) وأوله: (يؤتى بالولاء يوم القيامة عادلهم وجائرهم...).

صاحبه وعرض من يقترون به قال تعالى : ﴿أَخْشَرُوا الَّذِينَ ظَلَمُوا وَأَزْوَاجَهُمْ﴾ [الصفافات : ٢٢]

وفي الحديث : « لا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمن » فالزاني والسارق وشارب الخمر، يتنفى عنهم صفة الإيمان حال ارتكاب أحد هذه الجرائم الثلاث .

وقد نزلت هذه الآية جواباً لمن سأل عن الزواج من البغايا، بقصد التشجيع وتبشيع أمره، وبيان أنه محرم على المؤمنين، وكان من أصحاب النبي ﷺ من هاجر إلى المدينة، وترك في مكة امرأته وأولاده وأمواله ودياره، وأصبح في المدينة فقيراً لا يجد شيئاً، فوجد بعض هؤلاء الفقراء من المهاجرين بعض النسوة في المدينة من البغايا، وهن من أغنى القوم، فذكر بعضهم للنبي ﷺ أنه يريد الزواج من بعض هؤلاء البغايا .

ومن ذلك أن امرأة جميلة كانت تُدعى أم جميل، وكانت من البغايا، وكان رجل يريد أن يتزوجها ؛ لتنفق عليه من كسبها، فنهى الله سبحانه أن يتزوج المسلم من هؤلاء البغايا^(١) .

ووردت روايات كثيرة في أسباب نزول هذه الآية بهذا المعنى، منها أن نسوة من البغايا يرذن الزواج من هؤلاء الفقراء، منهن تسع في مكة، وأخريات في المدينة .

وكانت المرأة البغي لها راية تضعها فوق بيتها ؛ للإشعار أن من يُرد الزنى يدخل هذا المكان، وتسمى هذه البيوت بالمواخير، ومنهن امرأة يقال لها : أم مهزول، وكانت هذه المرأة جارية عند السائب بن أبي السائب المخزومي، وكانت تسافح الرجال، وتشرط على من يتزوجها أن تنفق عليه، فتقدم رجل من المسلمين إلى النبي ﷺ يريد أن يتزوجها، فأنزل الله سبحانه : ﴿الزَّانِي لَا يَنْكِحُ إِلَّا زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً﴾^(٢) .

قال عكرمة : نزلت هذه الآية في نساء بغايا بمكة والمدينة -وكن كثيرات- ومنهن تسع، صواحب رايات، لهن رايات كرايات البيطار يعرفونها، وهن :

١- (أم مهزول) جارية السائب بن أبي السائب المخزومي .

(١) أخرجه ابن أبي شيبة (٢٧٣/٤) عن مجاهد مرسلًا وأخرجه عبد بن حميد وغيره .

(٢) يُنْظَرُ : «المسند» (١٥٩/٢) برقم (٦٤٨٠) قال محققوه : وهو حديث حسن، وفي إسناده ضعف لجهالة الحضرمي، والنسائي في «السنن الكبرى» برقم (١١٣٥٩) من حديث عبد الله بن عمرو، والطبراني في الأوسط، (١٨١٩) والطبري في تفسيره (٧١/١٨٥) والبيهقي في السنن (١٥٣/٧) .

- ٢- و(أم غليظ) جارية صفوان بن أمية.
- ٣- و(حنة القبطية) جارية العاص بن وائل.
- ٤- و(مزنة) جارية مالك بن عمثلة بن سباق.
- ٥- و(خلالة) جارية سهيل بن عمرو.
- ٦- و(أم سويد) جارية عمرو بن عثمان المخزومي.
- ٧- و(شريفة) جارية زمعة بن الأسود.
- ٨- و(قرينة) جارية هشام بن ربيعة.
- ٩- و(فرتنا) جارية هلال بن أنس.

وكانت بيوتهن تسمى المواخير، لا يدخل عليهن ولا يأتين إلا زانٍ من أهل القبيلة، أو مشركٌ من أهل الأوثان، فأراد ناس من المسلمين نكاحهن؛ ليتخذوهن مأكلة، فأنزل الله الآية، ونهى المؤمنين عن ذلك وحرّمه عليهم^(١).

كما كان بالمدينة إماء لعبد الله بن أبي بن سلول وغيره مشهورات.

ومن ذلك أن مرثد بن أبي مرثد الغنوي أسلم وهاجر إلى المدينة، وكان قبل إسلامه، له خلية في مكة: امرأة من البغايا يقال لها: (عناق)، فلما أسلم الرجل، وهاجر إلى المدينة كان يأتي مكة بين الحين والآخر؛ كي يحمل الأسرى من المسلمين الذين حبسهم المشركون فيها؛ لأنهم أسلموا، ولم يتركوهم ليهاجروا، وهم من ضعفاء المسلمين الذين لم يتمكنوا من الهجرة، فكان مرثد يأخذ الأسير منهم ليلاً، ويذهب به إلى المدينة.

فجاء ذات ليلة -وكانت ليلة مقمرة- فرأته (عناق) فجاءت إليه، وقالت له: أهلاً ومرحباً بك يا مرثد، هلاً، بئ عندنا هذه الليلة. قال: يا عناق، إن الله قد حرم الزنى، فلما امتنع منها حرّضت عليه الكفار، وقالت: يا أهل الخيام هذا الرجل يحمل أشراكم إلى المدينة، فتبعه ثمانية منهم، فدخل مرثد في غار بجبل، ووصلوا إليه حتى قاموا على رأسه، ولكن الله أعمى أبصارهم فلم يروه.

(١) «أسباب النزول» للواحدي ص ٢٦٢. والسيوطي ص ١٩٢، و«الدر المنثور» (١٩/٥).

فلما رجعوا حمل مرثد أسيره، وذهب به إلى المدينة وكان رجلاً ثقیلاً الوزن.

وفي رواية أن المرأة لما قال لها: إن الله حرم الزنى، قالت له: تزوجني، فذكر ذلك للنبي ﷺ: أأنكحها؟ أي: هل أتزوجها يا رسول الله؟ فسكت النبي ﷺ، ثم ذكره مرثد مرة ثانية، فسكت النبي ﷺ حتى أنزل الله الآية: ﴿الزَّانِي لَا يَنْكِحُ إِلَّا زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً﴾ فقال: «يا مرثد، لا تنكحها»^(١).

أي: إن الزاني لا يليق به أن يتزوج إلا من كان على شاكلته، وهو بطبيعته لا يألف المرأة العفيفة المثناة، فالطيور على أشكالها تقع، فالخبيثات للخبيثين، والخبيثون للخبيثات، والطيبات للطيبين، والطيبون للطيبات، فالزاني لا يألف إلا مثله، والزانية لا تحب أن تتزوج من رجل ملتزم طاهر عفيف، والزاني رجل ذئب، لا يليق به أن يقترن بالمرأة العفيفة، لأنه لن يحفظ لها حقها، وكذلك المرأة الزانية لا تليق بالرجل العفيف، لأنها ستفسد عليه دينه، وتدنس عرضه وفراشه، وتخلط عليه نسبه!!

في حديث أبي هريرة ؓ: أن النبي ﷺ قال: «لا ينكح الزاني المجلود إلا مثله»^(٢).

وعن ابن عمر ؓ قال: قال رسول الله ﷺ: «ثلاثة لا يدخلون الجنة، ولا ينظر الله إليهم يوم القيامة: العاق والديه، والمرأة المترجلة، والدثوث»^(٣).

والمعنى: أن من كان الزنى دأباً له، وخُلُقاً قد تخلَّق به، ولازمه ولم يتب منه، ولم يُقر بحرمته، فإنه لا يجوز الزواج منه، رجلاً كان أو امرأة؛ لأنه لا يرغب في معاشرة الزانية إلا من تروق له أخلاقها، والعكس صحيح.

(١) يُنظر حديث عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده في «سنن الترمذي» برقم (٣١٧٧) وأبو داود برقم (٢٠٥١) و«سنن النسائي» (٦٦/٦) وحسن إسناده الألباني في «صحيح سنن الترمذي» برقم (٢٥٣٨) وصححه الحاكم ووافقه الذهبي، «المستدرک» (١٦٦/٢).

(٢) «صحيح سنن أبي داود» برقم (١٨٠٧) وصححه الحاكم ووافقه الذهبي في «المستدرک» (١٩٣/٢) وأخرجه ابن أبي حاتم في التفسير برقم (٥٩).

(٣) «المسند» (٣٢١/١٠) برقم (٥٣٧٢، ٦١١٣) والنسائي (٢٥٦١) و«صحيح سنن النسائي» (٢٤٠٢) والنسائي في «السنن الكبرى» (٢٣٥٤) والبخاري (١٨٧٥) وأبو يعلى (٥٥٥٦) والطبراني في «الكبير» (١٣١٨٠، ١٣٤٤٢) وابن حبان (٧٣٤٠) والبيهقي في «السنن» (٢٨٨/٨) و«الشعب» (٧٨٠٣).

وقد ابتدأ سبحانه هذه الآية بذكر الزاني قبل الزانية؛ لأنه هو الخاطب، ومنه يبدأ الطلب؛ ولأن سبب النزول كان رغبة رجل في الزواج من امرأة تعودت الزنى، ولم تثب منه، فاقضى المقام مذمة أمثال هذا الرجل؛ لأن المؤمن الصالح لا يتزوج الزانية، وحُرِّم نكاح الزانية التي لم تثب منه على المؤمنين.

وجمهور أهل العلم على أن المراد بالتحريم في الآية: هو كراهة التنزيه، وبهذا قال الأئمة الثلاثة: أبو حنيفة، ومالك، والشافعي، وقال بعضهم، ومنهم الإمام أحمد: إن التحريم على ظاهره.

قال سبحانه: ﴿وَحَرِّمَ ذَلِكَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ﴾ أي: حرم الله الزنا، أو حرم الزواج بين الزاني المشرک والعفيفة، وبالعكس، وهؤلاء البغايا كُنَّ مشركات، ولذلك قال تعالى: ﴿لَا يَنْكِحُ إِلَّا زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً﴾ فالمرأة كانت مشركة بطبيعة الحال، أما إن تابت ورجعت إلى الله سبحانه وأتابت إليه؛ فإنه يجوز الزواج منها، ولفظ النكاح في الآية يشمل العقد والجماع معاً.

ثَالِثًا: تَشْرِيعُ حَدِّ الْقَذْفِ

٤- ﴿وَالَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ﴾^(١) ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ فَاجْلِدُوهُمْ ثَمَانِينَ جَلْدَةً وَلَا تَقْبَلُوا لَهُمْ شَهَادَةً أَبَدًا وَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴿٤﴾

يَبَيِّنُ سبحانه أن الذين يتهمون النساء الحرائر العفيفات، وكذا الرجال، بدون بَيِّنَةٍ، لهم ثلاث عقوبات هي:

١- الجلد ثمانين جلدة. ٢- ورد شهادتهم حتى يتوبوا.

٣- والحكم عليهم بالفسق حتى يتوبوا.

فإن كان المقدوف غير محصن عفيف، فعقوبته التعزير.

وقد نزلت هذه الآية في حد القذف، ورمي النساء عمومًا بالفاحشة، وقذف الرجال يدخل في الحكم، بالإجماع، وهذه هي الوسيلة الثالثة من وسائل حفظ المجتمع من الوقوع في الفاحشة.

(١) قرأ الكسائي بكسر الصاد من (المحصنات)، والباقون بفتحها.

والمراد بالإحصان: العفة، ويخرج من هذا الوصف من ثبت عليها الزنى، ويُجلد القاذف ثمانين جلدة.

بم يثبت الزنى :

ويثبت الزنى بالإقرار، أو بشهادة أربعة شهود عدول، أو بالحمل ممن قُذفت به، فإن ثبت هذا رُدَّ عن القاذف حد القذف، وإلا أقيم عليه الحد، وكل واقعة في الإسلام جنائية كانت، أو جريمة مالية، أو بدنية، تكفي فيها شهادة: رجلين، وفي جرائم الأموال: رجل وامرأتان، أما الزنى فهو الجريمة الوحيدة التي لا تثبت إلا بالإقرار، أو بشهادة أربعة رجال عدول، يشهد كل منهم شهادة مستقلة لا تختلف عن الآخرين، يشهدون أنهم رأوا بأعينهم الذكر داخل الفرج، ويجوز في هذه الحالة الاطلاع على العورة لإثبات الجريمة، وإقامة حدود الله، فلا تثبت الجريمة إلا بأربعة شهود، فإن كانوا ثلاثة فإنهم قَذَفَ، يقام عليهم الحدُّ.

ففي حديث جابر بن عبد الله رضي الله عنه قال: جاءت اليهود برجل وامرأة منهم زنيا، فدعا رسول الله ﷺ بالشهود، فجاءوا بأربعة، فشهدوا بأنهم رأوا ذكره في فرجها، مثل المروء في المكحلة، فأمر رسول الله ﷺ برجمهما^(١).

ويُسأل كل واحد من الشهود على انفراد دون حضور الآخرين، فيشهد كل واحد منهم أنه رأى الرجل قد أدخل فرجه في فرجها، كدخول المروء في المكحلة، أي: أولجَه فيه، فإن اختلفوا في شهادتهم، أو كانوا أقل من أربعة، فلا يجوز لهم النظر إلى عورة الزاني؛ لأنه لا فائدة في شهادتهم، فإن شهد اثنان أن الرجل زنى بالمرأة وهي مكرهة ومجبرة، وشهد اثنان أنه زنى بها وهي مطاوعة، أو موافقة، فلا حدٌّ على المرأة إجماعاً؛ إذ لا بد من تطابق الشهادة في كل الأحوال.

ولذلك فإنه في عهد عمر رضي الله عنه اتهم ثلاثة، المغيرة بن شعبة بالزنى، وهناك شخص رابع نكل في شهادته، فأقام عمر الحدَّ على الثلاثة^(٢)؛ لأنه لا بد من شهادة أربعة لإثبات هذه الجريمة.

(١) أخرجه أبو داود في «السنن» برقم (٤٤٥٢) وصححه الألباني في صحيح أبي داود (٣٧٤٠).

(٢) يُنظر الأثر في «تفسير عبد الرزاق» (٥٢/٢) و«المصنف» برقم (١٣٥٦٤).

والله سبحانه حكيم عليم بشؤون خلقه، وما يُصلح أحوالهم، فالنفوس ضعيفة، ولولا ذلك لقال كل إنسان ما شاء فيمن شاء، إذا أراد أن يَفْضَحَ غيره، أو أن يُشَهِّرَ به، أو يتشَفَّى فيه، ولذلك كانت جريمة الزنى لا تثبت إلَّا بشهود أربعة دون بقية الجرائم، بما في ذلك جريمة القتل؛ لأن ترك الألسنة تُلقِي التُّهم على العفيفات الحرائر -ثييات وأبكارًا- بدون دليل قاطع، يجعل المجال فسيحًا لكل من شاء أن يقذف بريئًا أو بريئة؛ ليلوِّث سُمعته، ويُفْشِي في المجتمع قالة السوء.

وقد يقتفي أثرها بعض من في قلوبهم مرض؛ لذلك شَدَّدَ الإسلام في صيانة الأعراض، فجعل عقوبة القذف قريبة من عقوبة الزنى -ثمانين جلدة- هذه هي العقوبة الأولى وزاد على الجلد: رد شهادة القاذف ﴿وَلَا تَقْبَلُوا لَهُمْ شَهَادَةً أَبَدًا﴾ هذه هي العقوبة الثانية، أي: أن شهادتهم مردودة، وهي عقوبة معنوية قائمة، ما دام مصرًّا على الذنب ولم يتب. والعقوبة الثالثة: الحكم عليه بالفسق وهي عقوبة دينية، قال تعالى: ﴿وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ الخارجون على حدود طاعة الله ورسوله، المحبون لإشاعة الفاحشة بين الناس، المنتهكون لأعراض الناس.

وفي هذا دليل على أن القذف من كبائر الذنوب، وقد جاء هذا صريحًا في حديث «اجتنبوا السبع الموبقات» وذكر منهم «وقذف المحصنات الغافلات المؤمنات». قال تعالى:

٥- ﴿إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَأَصْلَحُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ (٨٩)

توبة القاذف أن يكذب نفسه، ويُقرَّ أنه كاذب فيما قال، ولو كان قوله صحيحًا، لكنه لم يأت بأربعة شهود، في أحد القولين، فإن تاب وبَدَّلَ إساءته إحسانًا، زال عنه الفسق وقُبلت شهادته، بهذا قال جمع من الصحابة والتابعين كما سيأتي.

وهذا الاستثناء لا يشمل الجلد بعد وصول الأمر إلى القاضي، فيقام عليه حدُّ القذف وإن تاب، والتوبة تكون بقبول شهادته بعد التوبة، وزوال صفة الفسق عنه عند جمهور الفقهاء؛ وذلك لأن الحدود الشرعية لا تسقط بالتوبة.

والتوبة: هي الإقلاع والندم، والعزم على عدم العودة، وليس من شروط التوبة أن يكذب الإنسان نفسه فيما قذف به غيره عند الجمهور، إن كان صادقًا فيما قال، ولكنه عجز عن إثبات ذلك بأربعة شهداء، فتوبته في هذه الحالة أن يُصلح نفسه، ويُحسِّنَ حاله، ويثبت على التوبة والاستقامة، هذا قول.

وقال عمر رضي الله عنه: التوبة في هذه الحالة: هي الرجوع عن القول، يعني: أن يعترف اعترافاً واضحاً صريحاً بأنه كان كاذباً فيما ادعاه، وفيما رمى به هذه المرأة أو هذا الرجل من الزنى، فمن التوبة أن يُصلح ما قال ما دام كاذباً فيه، بأن يرجع في قوله أمام من تكلم عندهم، وقال بذلك ابن عمر، وعطاء، والشعبي، والزهري، وطاوس، ومسروق^(١).

قلت: ولعل هذا هو الأصح، ويشير إليه قوله تعالى: ﴿وَأَصْلَحُوا﴾ فإن تاب وأصلح ما قاله، قُبلت شهادته، وخرج من فسقه، فالله سبحانه تواب عليه رحيم به، والتائب من الذنب كمن لا ذنب له.

هذا: ويجلد القاذف إذا لم يأت بأربعة شهداء ما لم يكن زوجاً، فإن كان زوجاً، فالحكم بينهما هو الملاعة:

رَابِعًا: تَشْرِيعُ حَدِّ اللَّعَانِ

٦- ﴿وَالَّذِينَ يَزْمُونَ زَوْجَهُمْ وَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ شَهَادَةٌ إِلَّا أَنْفُسُهُمْ فَشَهَدُوا بِحَبْرٍ أَرْبَعٍ^(٢)﴾ شَهَدَاتٍ بِاللَّهِ إِنَّهُمْ لَمِنَ الصَّادِقِينَ

أي: والرجال الذين يتهمون زوجاتهم بالزنى وليس معهم شهداء عدول على اتهامهم لزوجاتهم بالزنى، فعلى الزوج أن يشهد أمام القاضي أربع مرات على أنه صادق فيما رماها به من الزنى.

وهذه وسيلة رابعة من وسائل حفظ المجتمع من الوقوع في الزنى وصيانة الأسرة من الشكوك والظنون والاتهامات.

وهذه الآية تخصُّ الزوجة من بين المحصنات في الآية السابقة، أي: أن الرجل لو وجد امرأته متلبسة بالزنى، فعليه أيضاً أن يأتي بأربعة شهود؛ لإثبات الحد عليها، وإلا كان قاذفاً لها، ويقام عليه الحد، والزوج لا يرمى زوجته بالزنى - غالباً - إلا إذا كان صادقاً،

(١) يُنْظَرُ «الدر المثور» عن عبد بن حميد وابن مردويه وغيرهما (١٠/٦٤٦، ٦٤٧).

(٢) قرأ حفص وحزمة والكسائي وخلف العاشر، برفع العين من (أربع) على أنه خبر المبتدأ، وهو (فشهادة) أي: شهادة أحدهم المعتبرة لدرء الحد عنه أربع شهادات بالله، وقرأ الباقر بنصب العين، على أنه مفعول مطلق، وناصبه (فشهادة) وحينئذ: شهادة مبتدأ، والخبر محذوف، والتقدير: شهادة أحدهم أربع شهادات بالله واجبة، أو خبر لمبتدأ محذوف، والتقدير: فالواجب شهادة أحدهم.

ولذا فإن شهادته عليها تدرأ عنه الحدّ.

ولذلك فإن سعد بن عبادة رضي الله عنه لما سمع هذه الآية، قال: يا رسول الله، هكذا أنزلت؟ أيجد الرجل منا عند امرأته -إذا كانت خبيثة فاجرة- رجلاً قد تفخذها، ثم لا يُحرّكه ولا يُهيّجه، أي: يتركه على حاله، ويذهب ليلتمس شهوداً أربعة، فوالله ما كنت لآتي بأربعة حتى يكون قد قضى حاجته وذهب، ثم يُقام عليّ الحدّ، فقال النبي ﷺ: «أسمعتُم ما يقوله سيدكم؟» قال سعد: والله يا رسول الله، إني لأعلم أنها حق، وأنها من الله، ولكنني عجبتُ من ذلك، وفي ذلك يقول سعد بن عبادة: لو وجدتُ رجلاً مع امرأتي لضربتُه بالسيف غير مُضَفِّح.

وقد كانت هذه عاداتهم في الجاهلية، فمَنع الإسلام ذلك، وجعل إقامة الحد من حق الحاكم؛ حتى لا يُقتل بريء أو بريئة، وتكون أرواح الناس خاضعة لمختلف النفسيات، وقد قال ﷺ فيما يرويه المغيرة بن شعبة رضي الله عنه: «أتعجبون من غيرة سعد، لأنا أغير منه، والله أغير مني»^(١).

والرجل في العادة ليس من مصلحته أن يتهم امرأته؛ لأن هذا تدنيس لفراشه ولعرضه، وتلوّث لأبنائه وذريته، فلا يتهمها ولا يذكرها بذلك في العادة إلا إن كان صادقاً.

وكان عويمر العجلاني قد قال: إذا رأى الرجل على امرأته رجلاً فقتله قُتل، وإن تكلم ضُرب -أي: جُلد وأقيم عليه حد القذف- وإن سكت سكت على غيظ^(٢).

ولم يلبثوا إلا زمناً يسيراً حتى جاء هلال بن أمية -وهلال من الثلاثة الذين خُلّفوا- جاء إلى النبي ﷺ يقول: يا رسول الله، جئتُ عِشاءً، فوجدتُ شريك بن سحماء البلوي على بطن امرأتي، رأْتُ عيناها، وسمعتُ أذناها، فقال النبي ﷺ: «البينة، أو حدٌّ في ظهرك»، قال: يا رسول الله، أيجد الواحد منا الرجل على امرأته ثم يذهب يلتمس البينة؟ قال: «البينة، أو حدٌّ في ظهرك»، قال: يا رسول الله، والله إني لصادق، وما قلتُ إلا حقاً،

(١) يُنظر: «صحيح مسلم» برقم (١٤٩٨) عن أبي هريرة، و(١٤٩٩) عن المغيرة والبخاري (٦٨٤٦، ٧٤١٦) ورواه أحمد في المسند برقم (٢١٣١) وعبد الرزاق (١٢٤٤٤) والطيالسي (٢٧٨٩) وأبو داود (١٢٢٥٦) وغيرهم.

(٢) تنظر قصته في البخاري برقم (٤٧٤٥) ومسلم برقم (١٤٩٢) و«المسند» برقم (٢٢٨٣٠) وغيرهم.

وَلَيُنْزِلَنَّ اللَّهُ مَا يَبْهَرُ بِهِ ظَهْرِي مِنَ الْحَدِّ، وَكَانَ النَّبِيُّ ﷺ قَدْ عَزَمَ عَلَى جُلْدِ هِلَالٍ، وَإِقَامَةِ حَدِّ الْقَذْفِ عَلَيْهِ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ الْآيَةَ، فَجَمَعَهُمَا وَتَلَاعَنَا^(١).

وقد أنزل الله هذه الآيات التي تسمى بآيات الملاعة، وذلك عند تعذر إحضار الشهود الأربعة، فقال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يَرْمُونَ أَزْوَاجَهُمْ﴾ أي: يقدفونهم بالزنى ﴿وَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ شُهَدَاءُ إِلَّا أَنْفُسُهُمْ﴾ أي: ليس هناك شهداء على اتهامهم لهم بالزنى إلا أنفسهم ﴿فَشَهَدَةُ أَحَدِهِمْ أَرْبَعُ شَهَدَاتٍ بِاللَّهِ﴾ يشهدا أمام القاضي، ويقرره أمام مجتمع من الناس، وهذه الشهادات الأربع تقوم مقام الشهود الأربعة على الزنى، فيشهد أربع شهادات بالله إنه صادق فيما رماها به، بأن يقول: (أشهد بالله أنني لمن الصادقين فيما رميتها به). قال تعالى:

٧- ﴿وَالْخَافِئَةُ أَنْ^(٢) لَعَنَتَ اللَّهُ عَلَيْهِ إِنْ كَانَ مِنَ الْكَذِبِينَ﴾

أي: ويؤكد الشهادات الأربع بشهادة خامسة، فيدعو فيها على نفسه باللعة إن كان كاذباً فيما يقول، فإن تم لعانه سقط عنه حد القذف، وهذا يقال له: الملاعة، أو اللعان بين الزوجين، فإن سكنت المرأة فهذا في حكم الاعتراف والإقرار منها، فيقام عليها حد الرجم حتى الموت، وإن لم تسكت وردت شهادته، فإن لها حق الدفاع عن نفسها بشهادة مماثلة، وأمرهما إلى الله، قال تعالى:

٨- ﴿وَيَذَرُوهَا عَنْهَا الْعَذَابَ أَنْ تَشْهَدَ أَرْبَعَ شَهَدَاتٍ بِاللَّهِ إِنَّهُ لَمِنَ الْكَذِبِينَ﴾

أي: فإن هي كذبت، وقالت: إنه كاذب فيما ادعاه، فعليها أن تدرأ العذاب، أي: تدرأ الحد والعقوبة عن نفسها في الدنيا، بأن تشهد مقابل شهاداته أربع شهادات هي الأخرى، إنه كاذب فيما رماها به. قال تعالى:

(١) تُنْظَرُ قِصَّتُهُ فِي: البخاري (٢٦٧١، ٤٧٤٧) والترمذي (٣١٧٩) وابن ماجه (٢٠٦٧).

(٢) قرأ نافع ويعقوب بإسكان نون (أن) على أنها مخففة من الثقيلة، واسمها ضمير الشأن محذوف، و(لعنة) بالرفع مبتدأ، والجار والمجرور بعده خبر، والجملة خبر (أن) المخففة، وقرأ الباقر بتشديد نون (أن) ونصب (لعنة) على أنها اسم (أن) والجار والمجرور بعده خبر (أن)، ووقف ابن كثير وأبو عمرو والكسائي على (لعنة) بالهاء، والباقر بالتاء وأمالها الكسائي وفقاً.

٩- ﴿وَالْخِيسَةَ﴾^(١) أَنْ^(٢) غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهَا إِنْ كَانَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿٩﴾

أي: وتشهد في المرة الخامسة، فتدعو على نفسها بغضب من الله عليها إن كان صادقاً فيما قال، فإذا فعلت ذلك لا يقام عليها الحدُّ. وقطعاً فإن أحدهما كاذب، وحسابه على الله. فإن تم اللعان على هذا النحو، فُرق بينهما إلى الأبد، وانتفى الولد الملاعن عنه. والولد في هذه الحالة لا يَنْتسب للرجل ولا يرثه، إنما يلتحق بأمه.

واللعان مختص بالرجل إذا رمى امرأته بالزنى، والعكس لا يصح، وإنما تدفع المرأة عن نفسها فقط.

وسُمِّي اليمين شهادة، لأنه يكون بدلاً منها، ولأن صيغة الشهادة تستعمل في الحلف كثيراً، وتُسمى أيضاً: أيمان اللعان.

والزوج وهو يلاعن إن سَمَّى رجلاً مُعَيَّناً زنى بامرأته، فإنه يكون قاذفاً له، زيادة على قذفه المرأة، فإذا لاعن امرأته سقط عنه حد القذف بالنسبة لها، أما بالنسبة للرجل ففي إسقاط حد القذف عن المُلاعن خلاف فقهي، فقال مالك وأبو حنيفة: لا يسقط، وقال الشافعي: يسقط.

وصيغة اللعان: أن يُبدأ بالزوج، فيقول أمام القاضي أربع مرات: أشهد بالله إنني لمن الصادقين فيما رَمَيْتُ به زوجتي، وفي المرة الخامسة يقول: لعنة الله عليه إن كان من الكاذبين.

(١) قرأ حفص بنصب (والخامسة أن غضب) على أنها مفعول مطلق لفعل محذوف، تقديره: ويشهد الشهادة الخامسة. وقرأ الباقر برفعها على أنها مبتدأ، وما بعدها خبر.

(٢) وقرأ نافع بتخفيف نون (أَنْ غضب) على أنها مخففة من الثقيلة، واسمها ضمير الشأن محذوف، (وَالْخِيسَةَ) بكسر الضاد وفتح الباء، على أنه فعل ماضٍ، ولفظ الجلالة (الله) بالرفع فاعل غضب، والجملة من الفعل والفاعل في محل رفع خبر إن.

وقرأ يعقوب بتخفيف (أَنْ) مثل قراءة نافع إلا أنه قرأ بفتح الضاد ورفع الباء من (غضب) ولفظ الجلالة مضاف إليه، و(عليها) في محل رفع خبر (إن).

وقرأ الباقر بتشديد (أَنْ) وفتح الضاد ونصب الباء من (غضب) ولفظ الجلالة مضاف إليه، فهذه ثلاث قراءات فيها، واتفق القراء على رفع تاء (والخامسة) من (والخامسة أن لعنة الله عليها).

ثم تُلاعِن المرأة -إن أرادت اللعان- فتقول أربع مرات: أشهد بالله إنه لمن الكاذبين فيما رمانني به، وتقول في الخامسة: غضبُ الله عليها إن كان من الصادقين، والظاهر أن ألفاظ اللعان لا يزداد عليها ولا يُنقص منها، ولا يبدل بها غيرها عما جاءت في الآية، وتكون بالترتيب المذكور فيها أيضًا، ويسقط الحد عنهما حينئذ، ويُفَرَّق القاضي بينهما فُرقة أبدية، فلا يحل له مراجعتها أبدًا، لا قبل زواج بغيره ولا بعده، وهي فُرقة فُسِّخ بين الزوجين المتلاعنين، وليست فُرقة طلاق، فلا رجعة لهما بعد اللعان.

وقد ورد في اللعان أحاديث كثيرة، منها:

١- حديث أنس بن مالك رضي الله عنه قال: لأوَّلُ لِعَانٍ كان في الإسلام أن شَرِيكَ بن سَحْمَاء قَذَفَهُ هلال بن أمية بامرأته، فرفعه إلى رسول الله ﷺ، فقال ﷺ: «أربعة شهود، وإلا فحدُّ في ظهرك»، فقال: يا رسول الله، إن الله يَعْلَمُ إني لصادق، ولَيُنزِلَنَّ الله عليك ما يُبَيِّنُ به ظهري من الجلد، فأنزل الله آية اللعان... فدعاه النبي ﷺ فقال: «اشهدُ بالله إنك لمن الصادقين فيما رميتها به من الزنى»، فشهد بذلك أربع مرات شهادات، ثم قال له في الخامسة: «ولعنةُ الله عليك إن كنت من الكاذبين فيما رميتها به من الزنى»، ففعل.

ثم دعاها رسول الله ﷺ فقال: «قومي فاشهدي بالله إنه لمن الكاذبين فيما رماك به من الزنى»، فشهدت بذلك أربع شهادات، ثم قال لها في الخامسة: «وغضب الله عليك إن كان من الصادقين فيما رماك به من الزنى»، فلما كانت الرابعة أو الخامسة سكنت سكتة، حتى ظنوا أنها ستعترف، ثم قالت: لا أفصح قومي سائر اليوم، فمضت على القول، ففرق رسول الله ﷺ بينهما، وقال: «انظروه، فإن جاءت به جَعْدًا حَمَشَ الساقين، فهو لشريك بن سحماء، وإن جاءت به أبيض سبطًا، قَضِيءُ العينين، فهو لهلال بن أمية»، فجاءت به آدم، جَعْدًا، حَمَشَ الساقين كأنه جمل أورق، فقال رسول الله ﷺ: «لولا ما نزل فيهما من كتاب الله لكان لي ولها شأن»^(١).

ويؤخذ من هذا أن الشَّبه في الولد مع اللعان لا عبرة به، كما لا يعتبر مع الفراش، لأن

(١) رواه أبو يعلى (٢٠٧/٥) وأصله عند مسلم برقم (١٤٩٦) من طريق هشام عن محمد، والحديث في «البخاري» عن ابن عباس برقم (٢٦٧١، ٤٧٤٧) والترمذي (٣١٧٩) وابن ماجه (٢٠٦٧).

الولد للفراش، أي يُنسب للزوج، وللعاهر الحجر، أي الرجم، وإنما يُعتبر الشبه إذا لم يوجد مرجح غيره.

وكان هذا المولود أمير مصر فيما بعد، وهو لا يُعرف له اسم فيما أعلم.

ومعنى حَمَش الساقين: دقيقتها، والسبط: ممتد الأعضاء، وقَضِيء العينين: فاسدهما بكثرة دمع، أو حُمرة، أو غير ذلك.

٢- وعن نافع عن ابن عمر رضي الله عنهما أن رجلاً رمى امرأته، فانتفى من ولدها في زمان رسول الله ﷺ فأمر بهما رسول الله ﷺ فتلاعنا كما قال الله، ثم قضى بالولد للمرأة، وفرّق بين المتلاعنين^(١).

٣- وعن سهل بن سعد رضي الله عنه أن رجلاً أتى رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله، أرايت رجلاً رأى مع امرأته رجلاً، أيقّله فتقتلوه، أم كيف يفعل؟ فأنزل الله فيهما ما ذُكر في القرآن من التلاعن، فقال له رسول الله ﷺ: «قد قُضِيَ فيك وفي امرأتك» قال سهل: فتلاعنا، وأنا شاهد عند رسول الله ﷺ ففارقها، فكانت سُنَّة أن يُفرّق بين المتلاعنين، وكانت حاملاً، فأنكر حملها وكان ابنها يُدعى إليها^(٢).

٤- وعن سعيد بن جبير عن ابن عمر رضي الله عنهما قال: جاء رجل إلى رسول الله ﷺ فقال: إن امرأتي زنت، وسكت رسول الله ﷺ كأنه ينكث في الأرض، ثم رفع رأسه فقال: «قد أنزل الله فيك وفي صاحبك فائت بها»، فجاءت، فقال: «قم فاشهد أربع شهادات»، فقام فشهد أربع شهادات بالله إنه لمن الصادقين، فقال له: «ويلك -أو قال: ويحك- إنها موجبة» فشهد الخامسة أن لعنة الله عليه إن كان من الكاذبين.

ثم قامت امرأته فشهدت أربع شهادات بالله إنه لمن الكاذبين، ثم قال: (ويلك -أو قال: ويحك- إنها موجبة» فشهدت الخامسة أن غضب الله عليها إن كان من الصادقين، ثم قال له: «اذهب، لاسبيل لك عليها»، فقال: يا رسول الله، مالي، قال: «لا مال لك، إن كنت صدّقت فهو بما استحلتت من فرجها، وإن كنت كذبت

(١) «صحيح البخاري» برقم (١٤٧٤٨) وانظر: (٥٣٠٦، ٥٣١٣، ٥٣١٤) وأخرجه مسلم (١٤٩٤).

(٢) «صحيح البخاري» برقم (٤٢٣، ٤٧٤٦) و«صحيح مسلم» (١٤٩٢).

فيها فذاك أبعَدُ لك منها»^(١).

٥- وفي حديث سعيد بن جبير: أن النبي ﷺ بدأ بالرجل فوعظه وذكره، وأخبره أن عذاب الدنيا أهون من عذاب الآخرة، فقال: والذي بعثك بالحق ما كذبتك، ثم ثنى بالمرأة فوعظها وذكرها، وأخبرها أن عذاب الدنيا أهون من عذاب الآخرة، فقالت: والذي بعثك بالحق إنه لكاذب^(٢).

قال القرطبي: قال مالك وأصحابه: وبتمام اللعان تقع الفُرقة بين المتلاعنين، فلا يجتمعان أبدًا، ولا يتوارثان، ولا يحل له مراجعتها أبدًا، لا قبل الزواج ولا بعده، وقال أبو حنيفة وغيره: لا تقع الفُرقة بعد فراغهما من اللعان، حتى يفرق الحاكم بينهما. وقال الشافعي: إذا أكمل الزوج الشهادة والالتعان، فقد زال فراش امرأته، التَّعَنَّتْ أو لم تَلْتَعِنْ؛ لأن لعانها إنما هو لدرء الحد عنها لا غير^(٣). قال تعالى:

١٠- ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ وَأَنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ حَكِيمٌ﴾

بَيَّن سبحانه في هذه الآية أنه لولا تفضل الله على المؤمنين بهذا التشريع لفُضِّح الكاذب، وأقيم عليه الحد والعقوبة، ولكن الله تعالى لم يُعَجِّلْ لكم العقوبة في الدنيا؛ حتى يتوب من يتوب، ويستر عليكم، ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ﴾ لعاجلكم بالعقوبة، ولكن الله ستر على الكاذب ليتوب، والله تعالى يتوب على من شاء، وهو سبحانه حكيم في شرعه وتدبيره.

وجواب الشرط في الآية محذوف، يدل عليه سياق الكلام، أي ولولا فضل الله لأُحِلَّ بالكاذب من المتلاعنين ما دعا به على نفسه، ومن فضل الله ورحمته أن جعل هذا اللعان خاص بالزوجين لشدة الحاجة إليه، ومن فضله ورحمته أن شرع التوبة لعباده من كبائر الذنوب.

(١) البخاري (٥٣٤٩، ٥٣٥٠) ومسلم (١٤٩٣).

(٢) صحيح مسلم (١٤٩٣) و«المستند» برقم (٤٦٩٣، ٥٠٠٩) وإسناده صحيح على شرط مسلم ورجاله ثقات (محققوه) و«صحيح سنن الترمذي» (٩٦٠) وأبو يعلى (٥٦٥٦) وابن حبان (٤٢٨٦) والنسائي (٣٤٧٣) وغيرهم.

(٣) «تفسير القرطبي» (١٢/١٩٣).

حَادِثَةُ الْإِفْكِ

١١- ﴿إِنَّ الَّذِينَ جَاءُوا بِالْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِّنْكُمْ لَا تَحْسَبُوهُ^(١) شَرًّا لَّكُمْ بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ لِكُلِّ امْرِئٍ مِّنْهُمْ مَا أَكْتَسَبَ مِنَ الْإِثْمِ وَالَّذِي تَوَلَّى كِبْرَهُ^(٢) مِنْهُمْ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١١﴾﴾

هذه الآية وما بعدها إلى ست عشرة آية، نزلت في أم المؤمنين عائشة ؓ؛ لتبرئ ساحتها مما اتهمها به المنافقون، وقد وقعت هذه القصة في غزوة بني المصطلق.

وبنو المصطلق: بطن من خزاعة، كانوا يقيمون على ماء قُرب المريسيع على ساحل البحر الأحمر، بين جدة ورايح. بلغ النبي ﷺ أن هؤلاء القوم يُعدُّون له العدة، ويستنصرون بالقبائل المجاورة؛ لقتاله، فأراد عليه الصلاة والسلام أن يباغتهم ويبادرهم بقطع دابر الفتنة، فخرج إليهم في شهر شعبان من السنة السادسة للهجرة، وقيل: سنة أربع، وخرج مع رسول الله ﷺ عدد كبير من المنافقين، على رأسهم كبير المنافقين عبد الله بن أبي بن سلول الذي مات على الكفر والنفاق.

وكان من عادة النبي ﷺ أنه إذا خرج إلى غزوة أن يُقرع بين نسائه، فمن خرجت عليها القرعة ذهب معه ﷺ في هذا السفر، وقد خرجت قرعة عائشة ؓ في هذه الغزوة.

وهذه الغزوة لم تكن في الإسلام من الغزوات الكبار، ولكن الذي جعل لها أهمية وشأنًا ما حدث فيها من المنافقين من فئتين كبيرتين:

إحدهما: إثارة الفتنة والخلاف والوقعة بين المهاجرين والأنصار، بسبب غلام من المهاجرين وآخر من الأنصار، اقتتلا على الماء، فقال عبد الله بن أبي بن سلول: أوقد فعلوها، لقد قاسمونا -يريد المهاجرين- ديارنا وأموالنا، وما مثْلُهُم إلا كالمثل القائل: سمن كلبك يأكلك، أما والله لئن رجعنا إلى المدينة، ليخرجن الأعز منها الأذل، وهي فتنة عظيمة حدثت من المنافقين في هذه الغزوة، وهي قصة مشهورة معروفة توضحها سورة المنافقون.

والفتنة الأخرى: هي حادثة الإفك، أي: اتهام أم المؤمنين عائشة ؓ بالفاحشة.

(١) قرأ ابن عامر وعاصم وحزمة وأبو جعفر بفتح السين من (لا تحسبوه) و(تحسبونه)، والباقون بكسرها.

(٢) قرأ يعقوب بضم الكاف (كُبره)، والباقون بكسرها، وهما لغتان.

وذلك: أنها لما خرجت مع رسول الله ﷺ كانت تُحْمَلُ في هَوْدَج، ويوضع هذا الهودج فوق البعير، ويقودها أحد القوم، وكانت سُنُّها آنذاك نحو السادسة عشرة، وكانت خفيفة الوزن في هذا الوقت.

وفي عودة النبي ﷺ من الغزوة، نزل بمكان قريب من المدينة؛ وكان من تخطيط النبي ﷺ في سفره أنه يُخَلَّفُ على القوم رجلاً، تكون مهمته أن يَتَفَقَّدَ المكان بعد أن يرحل منه الجيش، لعله يجد جندياً ضائعاً، أو شيئاً قد تُرِكَ، أو صبيّاً، أو رجلاً، أو امرأة، ونحو ذلك، فكانت هذه مهمة صفوان بن أمية السُّلَمي في هذه الغزوة.

وكانت عائشة ؓ أرادت أن تقضي حاجتها أثناء راحتهم في الطريق، فذهبت إلى الخلاء بعيداً عن مكان الجيش، ولم يَعْلَمْ بها رسول الله ﷺ؛ لكونه مشغولاً مع الرجال، وأُذِّنَ في الناس برحيل الجيش، فذهبوا ولم يَعْلَمُوا أن عائشة ؓ في الخلاء، وقد حَمَلُوا هَوْدَجها وَوَضَعُ على البعير، واقتادوا البعير دون أن يشعروا بعدم وجود عائشة ؓ في الهودج؛ لأنه يشبه خيمة مغلقة لا يرى أحد ما فيها، وكان وَزْنُ عائشة خفيفاً لم يميزه من يقود الجمل الذي تركب عليه.

ولأن هذه الغزوة، ونزول سورة النور، كان بعد نزول سورة الأحزاب، وبعد نزول آيات الحجاب، فَكُنَّ يحتجبن، ثم إنها بعد أن قضت حاجتها تَلَمَّسَتْ صدرها وعُنُقُها، وكان فيه عُقْدٌ من خَرَزٍ صغير، فلم تجد فيه العقد، فرجعت إلى المكان الذي كانت تتخلى فيه، ووجدت العقد قد انفرط، فأخذت تجمعه حبة حبة، وفي هذه الأثناء كان الجيش قد ذهب، ثم أتت مكان قومها فلم تجد أحداً، فجلست في مكانها مختبئة في عباءتها، حتى يأتي إليها أحد، أو يعود إليها أحد.

فجاء صفوان -المكلف بتفقد المكان بعد رحيل الجيش- ورأى من على بُعد سواد إنسان نائم، وكان يراها قبل الحجاب ويعرف حجمها، فعرفها، واسترجع قائلاً: إنا لله وإنا إليه راجعون، فلما سمعت صوته استيقظت وانتبهت وخمرت وجهها بجللباها، فأتى ببعيره وأناخه، وتنحى بعيداً حتى ركبت، ثم قاد البعير، وانصرف بها يلحق بالقوم، فلما لحق بالجيش في نحر الظهيرة، ورآه عبد الله بن أبيّ، قال: مَنْ هذه؟ قالوا: عائشة، قال: ومن هذا؟ قالوا: صفوان، قال: والله ما نجت منه ولا نجا منها، امرأة نبيكم بات

عند رجل حتى أصبحت، ثم جاء يقودها.

فابن أبيّ هذا، هو الذي تولى كبره، وهو الذي بدأ هذه المقالة الشنيعة.

وسمع هذه المقالة أصحاب رسول الله ﷺ فكان منهم من أنكر، ومنهم من سكت، وقد شايع عبد الله بن أبيّ على هذه المقولة خمسة أشخاص: امرأة، وأربعة رجال.

أما المرأة فهي حُمّة بنت جحش، أخت زينب بنت جحش، زوج النبي ﷺ، وكأنها كانت تريد أن تكيد بضرة أختها، مع أن زينب ؓ لما سألتها النبي ﷺ أن تشهد شهادتها في ضرّتها عائشة قالت: يا رسول الله، والله ما رأيت إلا خيراً، وما علمت إلا خيراً.

ومع هذا فإن أختها هلكت مع من هلك في شأن عائشة ؓ.

وأما الرجال الأربعة، فهم اثنان من المنافقين، وهما: عبد الله بن أبيّ رأس النفاق، ورأس الكيد للإسلام، والرجل الثاني هو: زيد بن رفاعه، وهو يهودي أسلم نفاقاً، هؤلاء اثنان من المنافقين.

واثنان آخران هما: مسطح بن أثاثه، ابن خالة أبي بكر ؓ، وكان رجلاً مسكيناً، ينفق عليه وعلى عياله أبو بكر ؓ.

والشخص الرابع هو: حسان بن ثابت الشاعر المعروف.

وكانت عائشة ؓ قد مرضت من أثر السفر، وظلّت شهراً في بيت رسول الله ﷺ وهي لا تعلم شيئاً عما يقال، وكان النبي ﷺ طيلة هذا الشهر في ضيق وكرب وقلق، ولم ينزل عليه الوحي في هذا الشأن شهراً كاملاً، وهو يسأل أسامة بن زيد، ويسأل علي بن أبي طالب وغيرهما، عما حدث.

ولما برئت عائشة ؓ من مرضها خرجت إلى الخلاء، وخرجت معها أم مسطح، فلما تعرّثت قدمها قالت: تعس مسطح، فقالت عائشة: لماذا تدعين عليه، وهو ممن شهد بدراً؟ قالت أم مسطح: أما علمت ما يقول؟ قالت: لا، فأخبرتها بما يقوله الناس ومنهم مسطح، فمرضت عائشة ؓ. قالت: وكنت أرى من رسول الله ﷺ جفوة، ولم أدر من أي شيء، فلما حدثتني أم مسطح علمت سبب هذه الجفوة، فاستأذنت رسول الله ﷺ في الذهاب إلى بيت أبي في هذه الفترة، ولم تعد تجد الملاطفة من النبي ﷺ وحسن العشرة

التي اعتادتها منه، فكان ﷺ يسأل عليها وهي مريضة ويقول: «كيف تيكمن؟» يعني بهذا: عائشة، يسأل عنها بالإشارة، واستمر الأمر كذلك طيلة شهر كامل، لا تكتحل بنوم، ولا يرقأ لها دمع، حتى أنزل الله سبحانه براءة عائشة من فوق سبع سموات في ست عشرة آية من كتاب الله في سورة النور، تُتلى إلى يوم القيامة^(١).

وقدّمت سورة (النور) لحديث الإفك بيان حدّ الزنى وجُرمه، وبيان حدّ القذف وأثره، وهؤلاء قذفوا أم المؤمنين عائشة . ﷺ

ولما نزلت هذه الآيات أقام النبي ﷺ الحدّ على حسان، ومسطح، وحمّنة، وهم المسلمون الذين اتهموها بالإفك، كما جاء في الحديث عن عائشة ؓ قالت: لما نزل عُذري، قام النبي ﷺ فذكر ذلك وتلا القرآن، فلمّا نزل من المنبر، أمر بالرجلين والمرأة فضربوا حدّهم، وسماهم: حسان، ومسطح بن أثاثة، وحمّنة بنت جحش^(٢) جلد كل منهم ثمانين جلدة، ولم يُقَمْ الحدّ على المنافقين، وهما: عبد الله بن أبيّ، وزيد بن رفاعة؛ قيل: لأنهما في الدرك الأسفل من النار، ولأن الله تعالى قد توعدّهما بالعذاب العظيم، ولأنه لم يثبت منهما إقرار بالمقولة.

وقد نزلت آيات حدّ القذف، وآيات حدّ الزنى واللعان في أول السورة، وكأن ذكر هذه الحدود بمثابة مقدمة لقصة الإفك.

والإفك: هو البهتان الذي لا شبهة في أنه حديث اختلقه المنافقون، وراج بينهم وبين نفر من سدّج المسلمين، وهذا البهتان يَظْهَرُ جليّاً في أحداث القصة:

١- فهذه زينب بنت جحش ؓ، يروي محمد بن عبد الله بن جحش، قال: تفاخرت

(١) تُنظَرُ القصة في: «صحيح البخاري» برقم (٤٧٥٠) و«صحيح مسلم» برقم (٢٧٧٠) و«المسند» برقم (٢٥٦٢٣) وعبد الرزاق برقم (٩٧٤٨) والطبري (١٧/١٩٧) والبيهقي (٧٠٢٨) وغيرهم.

(٢) أخرجه أبو داود في الحدود برقم (٤٤٧٤) و«المسند» (٣٠/٦) برقم (٢٤٠٦٦) دون ذكر الأسماء، قال محققوه: وهو حديث حسن، لأن فيه محمد بن إسحاق وبقية رجاله ثقات رجال الشيخين، و«سنن الترمذي» (١٦٢/٤) برقم (٣١٨١) و«السنن الكبرى» للبيهقي (٢٥٠/٨) وابن ماجه (٢٥٦٧) وحسنه الألباني في «صحيح سنن ابن ماجه» (٨٤/٢) وهو في «فتح الباري» (٣٥٣/١٣) ط الريان، و«سنن النسائي الكبرى» (٧٣١١).

عائشة وزينب رضي الله عنهما، فقالت زينب: أنا التي نزل تزوّجي من السماء، وقالت عائشة: أنا التي نزل عذري في كتابه، حين حملني ابن المعطل على الراحلة، فقالت لها زينب: يا عائشة، ما قلت حين رَكَبْتُهَا؟ قالت: قلتُ: حسبي الله ونعم الوكيل. قالت زينب: قلت كلمة المؤمنين، ولما سألهما النبي ﷺ عما يقال في شأن عائشة قالت: يا رسول الله، أحمي سمعي وبصري، ما علمتُ إلا خيراً، وهي التي كانت تُساميني من أزواج رسول الله ﷺ، فعصمها الله بالورع، وطفقت أختها حمّة بنت جحش، تحارب لها، فهلكت فيمن هلك ^(١).

٢- وها هي عائشة رضي الله عنها تقول عن القرآن الذي نزل ببراءتها: وأنا والله أعلم أنني بريئة، وأن الله تعالى مُبرِّئِي، ولكنني ما كنت أظن أن يُنزل الله تعالى في شأني وحياً يُتلى، ولشأني في نفسي كان أحقر من أن يتكلم الله فيّ بأمر يُتلى، ولكن كنت أرجو أن يرى رسول الله ﷺ في النوم رؤيا يبرئني الله تعالى بها.

وكانت رضي الله عنها قبل نزول آيات البراءة تقول: والله ما أجد لي ولا لكم مثلاً إلا أبا يوسف، قال: ﴿فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَى مَا تَصِفُونَ﴾ ^(٢).

٣- وهذا حسان بن ثابت، فسبب العقاب الذي لحق به في الدنيا، أذهب الله بصره. قال مسروق: كنت عند عائشة رضي الله عنها، فدخل حسان بن ثابت، فأمرت له عائشة بوسادة، فلما خرج قلت لعائشة: أتأذنين لهذا يدخل عليك وقد قال الله تعالى: ﴿وَالَّذِي تَوَلَّى كِبْرُهُ مِنْهُمْ لَهُ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾؟ قالت: وأيّ عذاب أشد من العمى؟ لعل الله أن يجعل ذلك هو العذاب العظيم، ثم قالت: إنه كان ينافح عن رسول الله ﷺ، ثم أنشد حسان شعراً يمتدحها به ^(٣).

٤ - وهذا أبو بكر رضي الله عنه يقول: والله ما رُمينا بهذا في جاهلية، أفترضى به في الإسلام؟

(١) البخاري (٤٧٥٠) ومسلم (٢٧٧٠) و«المسند» (٢٥٦٢٣) بإسناد صحيح على شرط الشيخين ومصنف عبدالرزاق (٩٧٤٨) وابن حبان (٤٢١٢) والنسائي في الكبرى (١١٣٦٠) وأبويعلی (٤٩٢٧) و«تفسير الطبري» (٧٠/١٨).

(٢) يُنظر في هذا والذي قبله: سبب النزول عن ابن شهاب في الصحيحين وغيرهما، «البخاري» في حديث الإفك الطويل برقم (٤٧٥٠) (٤٧٥٧) و«المسند» (٢٤٣١٧).

(٣) يُنظر: «صحيح البخاري» برقم (٤١٤٦) و«صحيح مسلم» برقم (٢٤٨٨).

٥- وهذه أم رومان، زوج أبي بكر ﷺ تقول لابتها عائشة ؓ: يا بُنَيَّة، هَوْنِي على نفسك، فوالله لقلَّما كانت امرأة قط وضيئة، عند رجل يحبها ولها ضرائر، إلا أكثرن عليها.

٦- وهذا صفوان بن المعطل، يقول حين فوجئ بالاتهام الظالم: سبحان الله! والله ما كشفتُ سترَ أنثى قط، ولم يملك نفسه حين علم أن حَسَّان يروِّج لهذا الإفك، إلا أن ضربه بالسيف على رأسه ضربة كادت تودي بحياته.

٧- وهذا عمر ﷺ يقول لرسول الله ﷺ: أنا قاطع بكذب المنافقين؛ لأن الله تعالى قد عصمك من وقوع الذباب على جلدك؛ لأنه يقع على النجاسات فيتلطَّخ بها، فكيف لا يعصمك من صحبة مَنْ تكون صحبتهم متلخطة بمثل هذه الفاحشة؟

٨- وهذا عثمان ﷺ يقول للنبي ﷺ: إن الله تعالى ما أوقع ظلك على الأرض؛ لئلا يضع إنسان قدمه عليه، فكيف يمكن أحداً من تلويث عرض زوجتك؟

٩- وهذا عليّ ﷺ يقول للنبي ﷺ: إن الله أمرك بإخراجها إن كانت متلخطة بشيء من الفواحش، أي وهي غير متلخطة بشيء من الفواحش.

١٠- وهذا أبو أيوب الأنصاري ﷺ يقول لامرأته: ألا ترين ما يقال؟ فقالت: لو كنت بدل صفوان، أكنت تظن بحرم رسول الله ﷺ سوءاً؟ فقال: لا، قالت: ولو كنتُ أنا بدل عائشة ما خنتُ رسول الله، فعائشة خيرٌ مني وصفوان خير منك^(١).

١١- وهذا ابن عباس ﷺ دخل على عائشة وهي في مرض الموت، فقال لها: أبشري فإنك زوج رسول الله، وكان يحبك، ولم يتزوج بكراً غيرك، ونزلت براءتك من السماء^(٢).

١٢- وهذه بَريرة ﷺ تقول: والله يا رسول الله، ما علمتُ على أهلك إلا خيراً، إلا أنها امرأة تنام حتى تجيء الداجن فتأكل عجينها، وإن كان شيء من هذا ليخبرنك الله.

١٣- وهذا أسامة بن زيد ﷺ يقول: سبحان الله ما يحل لنا أن نتكلم بهذا، سبحانك هذا بهتان عظيم.

(١) يُنظر في: الفقرات الأربع الأخيرة من «تفسير النسفي» للآيات.

(٢) يُنظر المعنى في: مسند أحمد (٣٢٦٢) بإسناد قوي على شرط مسلم، رجاله ثقات رجال الشيخين غير ابن خيثم فمن رجال مسلم، وانظر أيضاً (٢٤٩٦). (محققوه).

أخرج ابن سعد أن عائشة رضي الله عنها قالت: فَضِّلْتُ على نساء النبي ﷺ بعشر، قيل: وما هن يا أم المؤمنين؟ قالت:

- ١- لم ينكح بكراً قط غيري.
- ٢- ولم ينكح امرأة أبواها مهاجران غيري.
- ٣- وأنزل براءتي من السماء.
- ٤- وجاءه جبريل بصورتني من السماء في حريرة، وقال: تزوجها؛ فإنها امرأتك.
- ٥- وكنت أغتسل أنا وهو من إماء واحد، ولم يكن يصنع ذلك بأحد من نسائه غيري.
- ٦- وكان يصلي وأنا معترضة بين يديه، ولم يكن يفعل ذلك بأحد من نسائه غيري.
- ٧- وكان ينزل عليه الوحي وهو معي، ولم يكن ينزل عليه وهو مع أحد من نسائه غيري.
- ٨- وقبض الله نفسه وهو بين سحري ونخري.
- ٩- ومات في الليلة التي كان يدور عليّ فيها.
- ١٠- ودُفِن في بيتي^(١).

ونمضي مع الآيات: إن الذين جاؤوا بأشنع وأشد أنواع الكذب وأسوئه باتهام أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها بالفاحشة جماعة منكم، يتسبون إليكم -أيها المسلمون- وكلمة عُصبة للإشعار بأنهم جماعة هدفهم خبيث ومكرهم سيئ، وهم هؤلاء الخمسة السابق ذكرهم، والعُصبة: العدد من الناس.

لا تظنوا أن هذا القذف لعائشة وصفوان شرٌّ لكم -والخطاب للمؤمنين، ولآل أبي بكر خاصة- بل هو خير لكم، فيه فتنة وابتلاء وامتحان من الله تعالى، ومثوبة لكم عند الله، ولتظهر براءة عائشة في كتاب الله، والتنويه بذكرها وشأنها، فهذا الخير من خمسة أوجه:

- ١- ففيه تبرئة لعائشة رضي الله عنها.
- ٢- وفيه كرامة من الله لها بإنزال الوحي في شأنها.

(١) «طبقات ابن سعد» (٦٣/٨) وأخرج الحاكم تسعة منها، وصححه في «المستدرک» (١٠/٤).

٣- وفيه أجر عظيم لها على ما ارتكبه في شأنها من إفك وكذب.

٤- وفيه موعظة للمؤمنين وعبرة لهم.

٥- وفيه الانتقام في الدنيا والآخرة من الذين افتروا الكذب على أم المؤمنين ﷺ.

لكل من الذين اتهموا عائشة أن يعاقب بمقدار ما تكلم بالإفك جزاء فعله من الذنب، أي: عقوبة على قدر جرمه، والذي تحمّل مُعْظَمَه -وهو رئيس المنافقين منهم- له عذاب عظيم في الآخرة، وهو الخلود في الدرك الأسفل من النار.

مَوْقِفُ الْمُؤْمِنِ مِنَ الشَّائِعَاتِ

١٢- ﴿لَوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ الْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بِأَنفُسِهِمْ خَيْرًا وَقَالُوا هَذَا إِفْكٌ مُّبِينٌ﴾

في هذه الآية تأديب من الله تعالى للأمة، بعدم تصديق الشائعات، وعدم نشرها في المجتمع؛ حيث توجّهت الآيات تُعَاتِبُ أهل الإيمان وتُلَوِّمُهُمْ، وتعلّمهم كيف يتعاملون مع إشاعة الفاحشة بين الناس؛ فلا ينشروها ويظنوا خيرا ببعضهم، ويتبرؤوا إلى الله مما يقوله المروّجون، وذلك ليكون المجتمع الإيماني مجتمعاً نظيفاً لا تشوبه هذه الشوائب، فتقول الآية:

هَلَّا حِينَ سَمِعْتُمْ مِثْلَ هَذَا الْكَلَامِ الَّذِي فِيهِ اتِّهَامٌ وَقَذْفٌ لِلْآخَرِينَ، ظَنَّ الْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ بَعْضًا خَيْرًا عِنْدَ سَمَاعِهِمْ هَذَا الْإِفْكَ، وَهُوَ السَّلَامَةُ مِمَّا رُمُوا بِهِ، وَقَالُوا: هَذَا كَذِبٌ ظَاهِرٌ عَلَى عَائِشَةَ ﷺ، وَسَارَعُوا إِلَى نَفْيِ التَّهْمَةِ عَمَّنْ عَرَفُوا فِيهَا التَّرَاهَةَ وَالطَّهَارَةَ؛ فَإِنْ مَقْتَضَى الْإِيمَانُ، أَلَّا يُصَدَّقَ مُؤْمِنٌ مَا يُقَالُ مِنْ شَائِعَاتٍ فِي شَأْنِ أَخِيهِ الْمُؤْمِنِ، وَأَنْ يَذَبَّ عَنْ عَرْضِهِ بِالْغَيْبِ، فَإِنْ مَجَى عَائِشَةَ ﷺ عَلَى رَاحِلَةٍ صَفْوَانٍ، كَانَ وَقْتُ الظَّهِيرَةِ أَمَامَ الْجَيْشِ كُلِّهِ، وَرَسُولُ اللَّهِ ﷺ بَيْنَهُمْ يَشْهَدُ بِنَفْيِ الرِّيبَةِ، وَشَأْنُ الْمَخْطِئِ أَلَّا يَأْتِيَ عَلَى رُؤُوسِ الْأَشْهَادِ، بَلْ يَحَاوِلُ التَّخْفِيَّ بَعِيدًا عَنِ الْأَنْظَارِ، كَأَنَّ الْمُسْلِمِينَ فِي الدُّوْدِ عَنْ بَعْضِهِمْ جَسَدٌ وَاحِدٌ، وَنَفْسٌ وَاحِدَةٌ، بِحَيْثُ يُقَيِّسُ الْإِنْسَانُ غَيْرَهُ عَلَى نَفْسِهِ، فَإِذَا كَانَ لَا يَرْضَى لِنَفْسِهِ أَنْ يُرْمَى بِمِثْلِ هَذِهِ الْفَاحِشَةِ، فَإِنْ بَرَاءَةُ أُمِّ الْمُؤْمِنِينَ مِنْهَا مِنْ بَابٍ أَوَّلَى.

ولذلك فإن عمر بن الخطاب ﷺ قال: يا رسول الله، إن الله قد حفظك أن يقع الذباب على جسمك؛ حتى لا تُلوث بالقذارة، أفلا يحفظك من صحبة من تُلطخت بالفاحشة؟

وقال عثمان رضي الله عنه: يا رسول الله، إن الله تعالى لم يُمكن أحدًا أن يظأ ظلك على الأرض بقدمه، فكيف لا يحمي عرضك؟

وفي أثناء ذلك دار حديث بين أبي أيوب وأم أيوب، قالت أم أيوب لزوجها: لو كنت مكان صفوان، أكنّت تظن بحُرمة رسول الله سوءًا؟ قال: لا والله، قالت: ولو كنت أنا مكان عائشة ما خنتُ رسول الله ﷺ، ثم قالت: وصفوان خير منك، وعائشة خير مني، أي: أن أم أيوب أثبتت لنفسها ولزوجها البراءة أولًا، ثم أثبتت ذلك من باب أولى لعائشة وصفوان، فإذا كان هذا لا يليق بأم أيوب وأبي أيوب، فإنه لا يليق بعائشة وبصفوان من باب أولى، وفي هذا توبيخ وتعنيف للذين سمعوا الإفك ولم ينكروه لأول وهلة. قال تعالى:

١٣- ﴿لَوْلَا جَاءُو عَلَيْهِ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ فَإِذْ لَمْ يَأْتُوا بِالشُّهَدَاءِ فَأُولَٰئِكَ عِنْدَ اللَّهِ هُمُ الْكَذِبُونَ﴾

في هذه الآية بيان لطريقة ثبوت جريمة الزنى، وهي أن القائل بها يجب عليه أن يستند إلى شهود أربعة - كما سبق بيانه - فيمن يقدفون المحصنات؛ حيث يخاطب الله سبحانه الذين اتهموا عائشة بالفاحشة من هؤلاء الكذبة، فيقول: هَلَّا أَتَوْا عَلَى دَعْوَاهُمْ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ يشهدون على ما قالوا، فإن البينة على من ادعى، فإذا لم يفعلوا ذلك فهم الكاذبون على الحقيقة في علم الله تعالى، وكأن الكذب قد انحصر بينهم؛ لشناعة وفضاعة ما قالوه. قال تعالى:

١٤- ﴿لَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ لَمَسَّكُمْ فِي مَا أَفَضْتُمْ فِيهِ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾

هذا عتاب من الله تعالى يبين فيه جانبًا من مظاهر فضله ورحمته بالمؤمنين، وأن الله سبحانه قد شملهم بإحسانه، ولم يعاجلهم بالعقوبة، فلولا أن تفضل الله عليكم في دينكم ودنياكم؛ ليدخل في رحمته من يشاء، وليتوب على من يشاء، لولا ذلك لمَسَّكُمْ فيما خُضِّمَ فيه في شأن صفوان وعائشة عذاب عظيم، لاستحقاقكم ذلك بما قلتم، ومن رحمة الله بكم أن شرع لكم التوبة، وجعل العقوبة مطهرة للذنوب.

قال تعالى يصور حال من خاضوا في حادثة الإفك عند تلقى الخبر:

١٥- ﴿إِذْ تَلَقَّوْنَهُ بِأَلْسِنَتِكُمْ وَتَقُولُونَ بِأَفْوَاهِكُمْ مَا لَيْسَ لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ وَتَحْسَبُونَهُ هَيِّنًا وَهُوَ عِنْدَ اللَّهِ عَظِيمٌ﴾

أي: إن العذاب العظيم المشار إليه في نهاية الآية السابقة، يصيبكم -أيها المنافقون-

حين تتلقفون الإفاك، وتتناقلونه بينكم بألستكم، فاللسان يتلقف القول عن طريق السؤال والترويج وكثرة المخاطبة، ويتقوّل على الناس دون بينة ودون علم، ولا تعقل ولا تروّ، فتقولون على الله ما لا تعلمون، والقول على الله بغير علم، والتكلم بالباطل، كلاهما محظور على العبد، تظنونهم أمراً هيئاً وهو عند الله كبير وعظيم، وفي هذا زجر عظيم عن التهاون في إشاعة الباطل على وجه العموم، فكيف لو كان في زوجة خاتم النبيين والمرسلين؟

جاء في الحديث عن أبي هريرة رضي الله عنه: «إن العبد ليتكلم بالكلمة من سخط الله، لا يدرى ما تبلغ، يهوي بها في النار أبعد ما بين السماء والأرض»^(١)

ولا يعظم عند الله إلا الأمر الجليل الذي تُرزلُ له الجبال.

وفي قوله تعالى: ﴿بِالْأَلْسِنَةِ﴾ وقوله: ﴿بِأَفْوَاهِكُمْ﴾ ما يشير إلى أن الحديث كان باللسان دون القلب، وقد عاتبهم الله تعالى على ثلاثة أشياء:

١- تلقيه بالألسنة والسؤال عنه. ٢- التكلم به.

٣- استصغاره؛ حيث حسبه هيئاً، وهو عظيم عند الله. قال تعالى:

١٦- ﴿وَلَوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ قُلْتُمْ مَا يَكُونُ لَنَا أَنْ نَتَكَلَّمَ بِهَذَا سُبْحَنَكَ هَذَا بُهْتَنٌ عَظِيمٌ﴾

يؤدب الله جميع المؤمنين في هذه الآية، ويعلمهم ماذا يكون موقفهم من قول السوء، وأنه كان يجب عليهم أن يُنزهوا أسماعهم عن مجرد الاستماع، فضلاً عن النطق به، فهو كذب فاضح، وأمر عجيب مستبعد، والمسلم عندما يرى الأمر العجيب يسبح الله تعالى، فهلاً قلتم عند سماعكم هذا البهتان: ما يحل لنا الكلام بهذا الكذب، تنزيهاً لك يا رب، من قول ذلك على زوجة رسول الله ﷺ فهو كذب عظيم في الوزر واستحقاق الذنب.

وهذا مسوق للتوبيخ على تناقلهم الخبر الكاذب، وفي قوله تعالى: ﴿سُبْحَنَكَ﴾ إشعار بغضب الله تعالى على كل من خاض في حادثة الإفاك، وأن عليه التوجه إلى الله تعالى بالتوبة، وفيه تعجب من شناعة الخبر، ولهذا جاز أن تكون زوجة النبي كافرة، كامراً نوح، وامراً لوط، ولم يجز أن تكون فاجرة. قال تعالى:

(١) من حديث أبي هريرة في البخاري برقم (٦٤٧٨) وانظر: (٦٤٧٧) ومسلم برقم (٢٩٨٨).

١٧، ١٨ - ﴿يَعْظُمُ اللَّهُ أَنْ تَعُودُوا لِمِثْلِهِ أَبَدًا إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿١٧﴾ وَيَنْذِرُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿١٨﴾﴾

أي: إن الله تعالى يذكركم، وينهاكم عن مخالفة أمره ونهيه، ويعظكم بما يرقى قلوبكم، ويحذركم من العودة لمثل هذا الفعل من الاتهام الكاذب، وما يشبهه من الأحاديث الباطلة، فلا تعودوا لمثله أبدًا إن كنتم مؤمنين بالله تعالى إيمانًا كاملاً.

والوعظ: هو الكلام الذي يُطلب به تجنبُ المخاطب به أمرًا قبيحًا، أو فعل أمر محمود.

والأبد: هو الزمان المستقبل كله، فلو تكلم أحد بالإفك بعد هذه الآية معتقدًا وقوعه، فمقتضى الشرط أن يكون كافرًا، وبذلك قال مالك، رحمه الله.

قال ابن العربي: قال هشام بن عمار^(١): من سبَّ أبا بكر وعمر أدب، ومن سبَّ عائشة قُتِل؛ لأن الله تعالى يقول: ﴿يَعْظُمُ اللَّهُ﴾ أي: ينهاكم ﴿أَنْ تَعُودُوا لِمِثْلِهِ أَبَدًا إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ فمن سبَّ عائشة فقد خالف القرآن، ومن خالف القرآن قُتِل، ومعنى المخالفة: إنكار ما جاء به القرآن نصًّا؛ لأن الله تعالى برأ عائشة بنصوص لا تقبل التأويل.

وذكر ابن العربي عن الشافعية أن سبَّ عائشة ﷺ بغير الإفك مُساوٍ لسبِّ غيرها من الصحابة^(٢).

ويوضح الله لكم الآيات المشتملة على الأحكام الشرعية والمواعظ ومحاسن الأخلاق، ويجعلها واضحة الدلالة على المقصود، وفيها ما يسعدكم في دنياكم وأخراكم، متى تمسكنم بها، والله عليم بأفعالكم وأقوالكم وما يصلح أحوالكم، حكيم في شرعه وتدبيره بما يعود عليكم بالنفع والفائدة.

خَامِسًا: عُقُوبَةُ حُبِّ إِشَاعَةِ الْفَاحِشَةِ

١٩ - ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُحِبُّونَ أَنْ تَشِيعَ الْفَاحِشَةُ فِي الَّذِينَ ءَامَنُوا لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿١٩﴾﴾

(١) هشام بن عمار السلمي الدمشقي، الحافظ، المقرئ، الخطيب، سمع مالكا وغيره، وثقه ابن معين، توفي سنة (٢٣٥) هـ عاش اثنتين وتسعين سنة، ذكره الذهبي في «الكاشف» والمزي في «تهذيب الكمال».

(٢) يُنْظَرُ «تفسير ابن عاشور» (١٨/١٨٣).

تشير الآية إلى أن عدم إشاعة الفاحشة بين الناس، وسيلة من وسائل حفظ المجتمع من الوقوع في الرذيلة، وفيها وعيد شديد بالعذاب الأليم في الدنيا والآخرة معاً لمن يحب ذلك، والله يعلم ما يصلح شؤون خلقه وما فيه سعادتهم في الدارين، وهذا خلق رفيع من أخلاق الإسلام.

هذا: وفي مقام التربية الإيمانية أدب الإسلام أبناءه في هذه الآية وما سبقها من آيات: فأمرهم أولاً أن يظنوا خيراً ببعضهم في الآية الثانية عشرة: ﴿لَوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ الْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بِأَنفُسِهِمْ خَيْرًا﴾.

وأمرهم فيها ثانياً بأنه إن حدث في أنفسهم شيء من الظن، فلا ينبغي لهم أن يتكلموا به، كما جاء في الحديث: عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «إن الله تجاوز لأمتي عما وسوست أو حدثت به أنفسها، ما لم تعمل به أو تكلم»^(١).

ثم أمرهم ثالثاً في الآية السادسة عشرة بأنهم إن سمعوا شيئاً من الكلام السيئ ألا يتكلموا به، وأن يقولوا: ﴿مَا يَكُونُ لَنَا أَنْ نَتَكَلَّمَ بِهَذَا﴾.

ثم أدبهم رابعاً في هذه الآية ببيان أن من أحب ذبوع الخبر السيئ وانتشاره فقد شارك في الإلثم، وهو متوعد بالعذاب في الدنيا بإقامة حد القذف عليه، ومتوعد بالعذاب في الآخرة بما هو أشد وأبقى، فمن شأن المؤمن أن يحب لإخوانه ما يحب لنفسه، وفي إشاعة أخبار الفواحش ونشرها في وسائل الإعلام ونحوها، مفسد أخلاقية، تُجرئ الناس على ارتكابها وتُعلمهم الوسائل المفضية إليها، ومحبة انتشار الفواحش بين صفوف المؤمنين ذنب عظيم يؤدي إلى العذاب في الدارين.

جاء في الحديث عن أبي برزة الأسلمي ؓ أن رسول الله ﷺ قال: «يا معشر من آمن بلسانه ولم يدخل الإيمان، لا تغتابوا المسلمين ولا تتبعوا عوراتهم؛ فإن من تتبع عورة أخيه تتبع الله عورته حتى يفضحها في جوف بيته»^(٢).

(١) البخاري (٦٦٦٤) وهذا لفظه (٢٥٢٨٢) ومسلم (١٢٧).

(٢) من حديث أبي برزة عند أحمد (١٩٧٧٦) قال محققوه: صحيح لغيره، وهذا إسناد حسن، وأخرجه أبو داود (٤٨٨٠) وأبو يعلى (٧٤٢٤) والبيهقي في السنن (٢٤٧/١٠) وفي الشعب (٦٧٠٤).

والإسلام دين يحب الستر، والحياء شعبة من الإيمان، والإسلام يدعو إلى الستر ما لم تصل الجريمة إلى الحاكم، «... ومن ستر مسلمًا ستره الله في الدنيا والآخرة»^(١).

وما عز الأسلمي الذي جاء مقرًا بذنبه إلى النبي ﷺ قال عنه رجل: أنا الذي حملته يا رسول الله على أن يأتي ويعترف، فقال له النبي ﷺ: «هَلَّا سترته بثوبك»^(٢).

وهكذا يطلب الإسلام ممن رأى الجريمة أن يسترها قبل أن يُرفع الأمر إلى القاضي؛ لأنه لا يحب انتشار الفاحشة بين الناس.

إن الزنى محرم في النصرانية، وفي اليهودية، وفي الإسلام، وغيرها من سائر الشرائع الإلهية، وعجبًا لزمان ترى فيه الجريمة تتلقفها أجهزة الإعلام المختلفة، وتشيعها بين الناس، وتبثها في العلن أجهزة مسموعة ومرئية ومقروءة، وتكتب المؤلفات في ذلك، وتستخدم المرأة لأغراض سياسية واقتصادية وغير ذلك،

ومجرد حب إشاعة الفاحشة بين المؤمنين، فضلًا عمَّن يتكلم بها، قد توعد الله عليه بعذاب أليم في الدنيا يوجع القلب والبدن، وما يتبع ذلك من البلايا الدنيوية، ولهم عذاب أليم في الآخرة بعذاب النار إن لم يتوبوا.

والله يعلم ما خفي وما ظهر، وأنتم لا تعلمون إلا ظواهر الأمور، فكيف يتحدث الناس عن الجرائم ويفشونها فيما بينهم؟! وكيف تتناقلها الصحف، والإذاعات والتلفاز، وغيرها؟! أين الحياء؟ أين التعاليم السماوية؟

إن النصرانية في أصلها، تقول ما يقوله الإسلام، وتحرم ما يحرمه الإسلام، واليهودية كذلك، والذين يُشيعون الفاحشة بين الناس يَخْرُجُونَ عن تعاليم الشرائع الإلهية جميعًا، وينطبق عليهم حديث النبي ﷺ فيما يرويه أبو هريرة ؓ: «كل أمتي معافى إلا المجاهرين، وإن من المجاهرة أن يعمل العبد بالليل عملاً، ثم يصبح قد ستره ربه، فيقول: يا فلان، قد عملت البارحة كذا وكذا، وقد بات يستره ربه، ويصبح يكشف ستر الله عنه»^(٣).

(١) من حديث طويل لأبي هريرة في مسلم برقم (٢٦٩٩).

(٢) يُنظر: تلخيص الحبير برقم (١٧٧٩) وقصة ماعز في الصحاح والسنن والمسائيد.

(٣) من حديث أبي هريرة في «صحيح مسلم» برقم (٢٩٩٠) والبخاري برقم (٦٠٦٩).

ومن ذلك الذي يحب إشاعة الفاحشة في المجتمع، فهو وإن بالغ في إخفاء ما هو كامن في نفسه من ذلك، فإن الله تعالى يعلم ذلك منه، وسوف يحاسبه ويجازيه بمقدار علمه عنه، وإن خفي ذلك على الناس. قال تعالى:

٢٠- ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ وَأَنَّ اللَّهَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ﴾

للمرة الثالثة يمتنُّ الله على عباده بفضلِهِ ورحمته، وأنه لولا ذلك لفضحكم بذنوبكم، ولعذبكم بما أفضتم فيه من قول الباطل والبهتان، ولعاجلكم بالعقوبة في الدنيا، ولكن الله رؤوف بعباده رحيم بهم، يبين لهم أحكامه وحكمه.

وفي المرة الأولى خُتِمت الآية بأنه سبحانه تواب حكيم؛ لمناسبة الكلام قبلها عن الملاعنة التي تكون بين الزوجين (وَأَنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ حَكِيمٌ).

وختمت الآية الثانية بالتهديد والوعيد لمن خاض في حديث الإفك (لَمَسَّكُمْ فِيمَا أَفْضَمَ فِيهِ عَذَابٌ عَظِيمٌ).

وختمت هذه الآية بوصف الرأفة من العذاب والرحمة بالشواب، ﴿وَأَنَّ اللَّهَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ﴾ وحذف جواب ﴿لَوْلَا﴾ في الأولى والثانية؛ لتذهب النفس فيه كل مذهب في التهويل والتخويف، أي: لولا فضل الله ورحمته لعذبهم وأهلكهم.

وبهذه الآية تنتهي الآيات العشر التي نزلت متتابعة على النبي ﷺ في أصحاب الإفك، وقرأها عليه الصلاة والسلام حين نزولها في بيته.

سادسا: التَّحْذِيرُ مِنْ فِتْنَةِ الشَّيْطَانِ

٢١- ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّبِعُوا خُطُوبَ^(١) الشَّيْطَانِ وَمَنْ يَتَّبِعْ خُطُوبَ الشَّيْطَانِ فَإِنَّهُ يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ مَا زَكَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ أَبَدًا وَلَكِنَّ اللَّهَ يُزَكِّي مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾

وبعد أن نهى الله سبحانه عن إشاعة الفاحشة بين الناس، نهى عن الذنوب عموماً، فقد

(١) قرأ نافع وأبو عمرو وشعبة وحزمة وخلف والبيزي بخلف عنه بإسكان الطاء من (خطوات)، والباقون بضمها، ومعهم البيزي في وجهه الثاني.

وَجَّهَ سبحانه وتعالى في هذه الآية خطابه إلى المؤمنين، فنهاهم عن اتباع طرق الشيطان ومسالكه ووساوسه، والتحذير من فتنة الشيطان وسيلة من وسائل حفظ المجتمع وصيانه من الوقوع في جريمة الزنى ونحوها، ويأتي هذا تعقيماً على آيات الإفاك العشر؛ كي تشير هذه الآية إلى أن ظن السوء، ومحبة شيوع الفاحشة من وساوس الشيطان، ومن شأنه أن يأمر بالفحشاء، وهي كل قول وفعل قبيح، مما تستفحشه العقول السليمة، والشرائع السماوية، من الذنوب والمعاصي الكبيرة، وتطلق الفاحشة على خصوص الزنى واللواط.

ومن شأن الشيطان أن يأمر بالمنكر أيضاً، وهو ما أنكره الشرع والفطرة السليمة، وكل معصية هي من خطوات الشيطان؛ فهو عدو لكم، يأخذ بأيديكم إلى الفاحشة، ومقدماتها، وأسبابها، ونتائجها، ومن يتبع مسالكه وطرقه فإنه يأمر بقبيح الأقوال، والأفعال، ومنكراتها.

وهذه هي المرة الرابعة خلال اثنتي عشرة آية، يمتن الله تعالى فيها على عباده بفضلته ورحمته، وأنه لولا ذلك ما تطهر أحد من دنس ذنبه أبداً، وما اهتدى أحد من الخلائق أبداً، ولكن الله يطهر من يشاء بفضلته ومَنَّه، ويهدي من يشاء، ممن علم منه سلامة الفطرة والاستجابة للحق، والله سميع لأقوالكم، عليم بنياتكم وأفعالكم، وكان من دعاء النبي ﷺ (اللهم آت نفسي تقواها، وزكّها، أنت خير من زكاها، أنت وليها ومولاها) والله سبحانه أعلم بمن هو أهل للتزكية، وهو يزكي من يشاء، ممن علم منه أنه يُزَكَّى.

مِسْطَحُ بْنُ أَثَاثَةَ الْمُطَّلِبِيُّ

٢٢- ﴿وَلَا يَأْتِلُ^(١) أُولُوا الْفَضْلِ مِنْكُمْ وَالسَّعَةِ أَنْ يُؤْتُوا أُولَى الْقُرْبَى وَالْمَسْكِينِ وَالْمُهَاجِرِينَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوا أَلَا تُحِبُّونَ أَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾

كان أبو بكر رضي الله عنه ينفق على مسطح ابن خالته، وهو الذي تكلم مع من تكلموا بشأن عائشة رضي الله عنها، فلما حدث هذا قطع عنه النفقة وأقسم على ذلك، فأنزل الله تعالى يعاتب أبا بكر بقوله: ﴿وَلَا يَأْتِلُ﴾ أي: ولا يحلف ﴿أُولُوا الْفَضْلِ مِنْكُمْ﴾ أبو بكر وأمثاله من أهل

(١) قرأ أبو جعفر (ولا يتأل) بوزن يَفْعَلُ، والباقون (يأتل) بوزن يَفْعَلُ، وكلاهما بمعنى: الحلف.

الإيمان وأهل المال، فيتركون النفقة على أقربائهم الفقراء، من المحتاجين والمهاجرين، - فقد كان مسطح، ابن خالته، وكان مسكيناً مهاجراً، ومن أهل بدر، واسمه عوف، ومسطح لقبه - ولتجاوزوا عن إساءتهم لهم، ولا يعاقبوه على ما فعلوا، وهذه دعوة من الله تعالى إلى العفو والصفح عن ظلم وأساء، وكان مسطح قد اعتذر وقال: إنه كان يغشى مجلس حسان، فيسمع ولا يتكلم.

ولما نزلت هذه الآية، كان بعض الصحابة قد قطع نفقته عنَّ تحدث في شأن عائشة رضي الله عنها، ففعلوا مثل ما فعل أبو بكر، ولما نزلت هذه الآية كفروا عن أيمانهم، كما كفر أبو بكر عن يمينه، وأخذوا يُنفقون عليهم.

وفي الآية دليل على أن النفقة لا تترك بسبب المعصية، وفيها حث على العفو والصفح. ولما قال تعالى: ﴿أَلَا تُحِبُّونَ أَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ﴾ قال أبو بكر: بلى، أحب أن يغفر الله لي، ففي الحديث أنَّ مَنْ حلف على يمين فرأى غيرها خيراً منها فليكفر عن يمينه، وليأت الذي هو خير.

عن أبي ماجد الحنفي قال: رأيت عبد الله أتاه رجلٌ برجلٍ نَشَوَان، فأقام عليه الحد، ثم قال للرجل الذي جاء به: ما أنت منه؟ قال: عمه، قال: ما أحسنت الأدب ولا سترت، ثم قال عبد الله: إني لأذكر أول رجل قطعهُ النبي ﷺ أني به، فلما أمر به لَتُقَطَّعَ يده، كأنما سُفِّ - أي: تغيَّر وجهه رماداً - فقيل: يا رسول الله، كأن هذا شقَّ عليك، قال: «لا ينبغي أن تكونوا للشيطان عوناً على أخيك، فإنه لا ينبغي للحاكم إذا انتهى إليه حدٌ إلا أن يقيمه، وإن الله عفوٌ يحب العفو»، ثم قرأ: ﴿وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوا أَلَا تُحِبُّونَ أَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ﴾^(١).

وكان حسان بن ثابت ممن رمى عائشة رضي الله عنها، وقد فقد بصره فيما بعد وعمي، ولما دخل على عائشة أكرمتها، وأمرت الخادم أن يضع له وسادةً، فقيل لها: هذا حسان، قالت: وأي عذاب أكبر من فقد بصره؟! فقد عمي، لقد كان ينافح عن رسول الله ﷺ فتذكرت منه الحسنه، وتركت السيئة.

(١) عبد الرزاق (١٣٥١٩) والطبراني في الكبير (٨٥٧٢) والحاكم (٣٨٢/٤) و«المسند» برقم (٣٩٧٧) قال محققوه: حسن بشواهد وانظر صحيح البخاري (٦٧٨١) عن أبي هريرة والبيهقي في السنن (٣٣١/٨).

قَذَفَ أَمْهَاتِ الْمُؤْمِنِينَ يُوْجِبُ اللَّعْنَةَ وَشِدَّةَ الْعَذَابِ

٢٣- ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَزْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ الْغَافِلَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ لَعُنُوا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾

هذه أوصاف ثلاثة: محصنات، غافلات، مؤمنات، والمتصفات بهذه الصفات الثلاث، لا عِلْمَ لَهُنَّ بما زُمن به من الزنى، ولم يخطر بقلوبهن ارتكاب الفاحشة.

قال سعيد بن جبیر: هذا اللعن يخص من قذف عائشة . ﷺ

وقال ابن عباس والضحاك، وغيرهما: بل هو لجميع أزواج النبي ﷺ.

وقيل: إن الآية عامة، ويدخل فيها أمهات المؤمنين من ياب أولى.

ولم يذكر الله تعالى لمن قذف أمهات المؤمنين توبة، أما ما يتعلق بقذف بقية المؤمنات فقد ذكره الله في أول السورة في قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يَزْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ﴾ فوصفتهم الآية بوصف واحد فقط هو الإحصان، أي: العفاف ﴿ثُمَّ لَوْ يَأْتُوا بَأْرَ بَعْضِ شُهَدَاءٍ فَأَجِدُوهُمْ ثَلَاثِينَ جَلْدَةً﴾ [٤]. وأعقب الله ذلك بالتوبة في قوله: ﴿إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا﴾. وبالنسبة لزوجات النبي ﷺ فقد وصفتهم الآية بثلاثة أوصاف هي: الإحصان، والغفلة، والإيمان. ولم يذكر للقاذفين توبة، والمرأة المحصنة هي التي تمنع نفسها من كل سوء، ويُطلق الإحصان على الرجل والمرأة إذا توفرت فيهما صفات: العفاف، والإسلام، والحرية، والزواج.

قرأ ابن عباس سورة النور ففسرها، فلما أتى على هذه الآية قال: هذه في عائشة وأزواج النبي ﷺ، ولم يجعل لمن يفعل ذلك توبة، وجعل لمن رمى امرأة من المؤمنات من غير أزواج النبي ﷺ التوبة، ثم قرأ: ﴿وَالَّذِينَ يَزْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ ثُمَّ لَوْ يَأْتُوا بَأْرَ بَعْضِ شُهَدَاءٍ﴾ إلى ﴿إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا﴾ فجعل لمن قذف امرأة من المؤمنين التوبة، ولم يجعل لمن قذف امرأة من أزواج النبي ﷺ توبة، ثم تلا هذه الآية: ﴿لَعُنُوا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ فهم بعض القوم أن يقوموا إلى ابن عباس، فيقبلوا رأسه لحسن ما فُسِّرَ^(١).

واللعن في الدنيا: يشمل الحكم عليهم بالفسق، وسلب أهلية الشهادة عنهم، وإقامة حد

(١) «تفسير الطبري» (٢٢٨/١٧) والطبراني (٢٣٤) قال الهيثمي في «مجمع الزوائد» (٨٠/٧): رواه الطبراني بأسانيد، وفي هذا الإسناد راوٍ لم يُسمَّ، وبقيّة رجاله ثقات.

الْقَذْفَ عَلَيْهِمْ، وَنَبَذَ الْمُؤْمِنِينَ لَهُمْ.

واللعن في الآخرة: هو الطرد والإبعاد من رحمة الله تعالى، والعذاب العظيم في نار جهنم، ولا شك أن قصة عائشة رضي الله عنها هي سبب النزول.

ذكر ابن جرير بسنده عن عائشة رضي الله عنها قالت: رُميت بما رُميت به وأنا غافلة، فبلغني بعد ذلك، قالت: فبينما رسول الله صلى الله عليه وسلم جالس عندي إذ أوحى إلي، قالت: وكان إذا أوحى إليه أخذه كهيئة السُّبَاتِ، وإنه أوحى إليه وهو جالس عندي، ثم استوى جالسًا يمسح على وجهه، وقال: أبشري يا عائشة، قالت: قلت: بحمد الله لا بحمدك، فقرأ: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ الْفَاضِلَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ﴾^(١).

وفي الحديث: عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «اجتنبوا السبع الموبقات»، قيل: يا رسول الله، وما هن؟ قال: «الشرك بالله، والسحر، وقتل النفس التي حرم الله إلا بالحق، وأكل الربا، وأكل مال اليتيم، والتولي يوم الزحف، وقذف المحصنات الغافلات المؤمنات»^(٢).

وبعد أن بيّن الله سبحانه أن القاذفين للمحصنات الغافلات المؤمنات ملعونون في الدارين، زاد على ذلك بيان أنهم معذبون يوم القيامة في نار جهنم، فقال تعالى: ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ وفي هذا دليل على عظم ذنب من سبَّ أو اتهم زوجة من زوجات النبي صلى الله عليه وسلم، وفي الآية التالية بيان لعذاب يوم القيامة:

شَهَادَةُ الْجَوَارِحِ عَلَى الْعَاصِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ:

٢٤ - ﴿يَوْمَ تَشْهَدُ^(٣) عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾

بيّن سبحانه في هذه الآية وقت حلول العذاب بمن قذف المحصنات الغافلات المؤمنات، أي: أن للقاذفين عذاباً عظيماً يوم القيامة، حين يقفون بين يدي الله تعالى للحساب، فتشهد

(١) «تفسير الطبري» (١٧/٢٢٧).

(٢) من حديث أبي هريرة في البخاري برقم (٢٧٦٦، ٥٧٦٤، ٦٨٥٧) ومسلم برقم (٨٩).

(٣) قرأ حمزة والكسائي وخلف بالياء (يشهد)، والباقون بالياء، وجاز تذكير الفعل وتأنيثه لأن الفاعل جمع تكسير.

عليهم أَلَسْتُهُمْ بما نطقت من أقوال قبيحة، وتكلم أيديهم وأرجلهم بما عملت في الدنيا من أعمال سيئة، وكل جارحة تشهد بما عملته، يُنطقها الله جل شأنه، فلا يمكنه الإنكار، لقد عدل الله سبحانه بين العباد، حيث جعل الشهود عليهم من أنفسهم، وهذا من أعظم الخزي والتنكيل، والمراد بذلك: إخبار الجوارح، ونُطقها بما كان يقوله العبد ويفعله في الدنيا.

فَمَنْ أَفْلَتَ من العقاب في الدنيا ممن خاضوا في حادثة الإفك، كعبد الله بن أبي بن سلول؛ الذي لم يُقَمَّ عليه حد القذف؛ لعدم وجود الشهود، فإن عذاب الله تعالى ينتظره في الدار الآخرة، ويومها لن يحتاج الأمر إلى شهود.

ويوم القيامة يشهد اللسان عندما يجحد الإنسان، ويُنكر قوله وفعله السيئ، فإذا كَذَبَ في الشهادة بلسانه فإنه يُخْتَمَ على فمه فلا يتكلم، وتنطق الجوارح الأخرى بالشهادة، وهذا ما يشير إليه قوله تعالى: ﴿الْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَىٰ أَفْوَاهِهِمْ وَتُكَلِّمُنَا أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ [يس].

١- عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس ؓ أن المشركين إذا رأوا يوم القيامة أنه لن يدخل الجنة إلا المؤمنون المصلون، قالوا: تعالوا حتى نجحد، فيجحدون أنهم كانوا مشركين، فيختم الله على أفواههم، وتشهد أيديهم وأرجلهم، ولا يكتُمون الله حديثًا.

٢- وفي آخر حديث أبي هريرة ؓ عن رؤية الله تعالى يوم القيامة: «ثم يقال له: الآن نَبِّئْ شَاهِدَنَا عَلَيْكَ، ويتفكر في نفسه: من ذا الذي يشهد عليّ؟ فيُخْتَمَ على فيه، ويقال لفخذه، وَلَحْمِهِ، وَعَظَامِهِ: انطقي، فتتطق فخذه ولحمه وعظامه بعمله، وذلك لِيُعَذَّرَ من نفسه، وذلك المنافق الذي يسخط الله عليه»^(١).

٣- وفي حديث بهز بن حكيم، عن أبيه، عن جده: أن أول ما يشهد على الإنسان بعد أن يُخْتَمَ على فمه: فَرْجُهُ وَكُفُّهُ^(٢).

(١) «صحيح مسلم» برقم (٢٩٦٨).

(٢) ينظر: «المسند» (٢٢٩/٣٣) برقم (٢٠٠٤٣) من حديث طويل قال محققوه: إسناده حسن، وهو حديث صحيح لغيره، وحديث معاوية بن حيدة (٢٠٠٢٦) بإسناد حسن، وانظر في المسند أيضًا (٢٠١١)، وأخرجه الطبري في تفسيره (١٠٧/٢٤) وابن أبي عاصم في الأحاد والمثاني (١٤٧٦) والطبراني في الكبير ١٩ (١٠٣١).

٤- وعن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: كنا عند رسول الله ﷺ فضحك، فقال: «أتدرون مم أضحك؟» قلنا: الله ورسوله أعلم، قال: «من مخاطبة العبد ربه، يقول: يا رب، ألم تُجِرْني من الظلم؟ قال: يقول: بلى. قال: فيقول: إني لا أجيز على نفسي إلا شاهداً مني، قال: فيقول: كفى بنفسك اليوم عليك شهيداً، وبالكرام الكاتبين شهوداً، قال: فيُخْتَم على فيه، فيقال لأركانه: انطقي، قال: فتنتطق بأعماله، قال: ثم يخلّى بينه وبين الكلام، قال: فيقول: بُعِدًا لَكُنَّ وَسُحْقًا، فعنكُنَّ كنت أناضل»^(١).

وهذا كقوله تعالى: ﴿حَقَّ إِذَا مَا جَاءُوهَا شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَرُهُمْ وَجُلُودُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٢٠﴾ وَقَالُوا لِمَ لُجُودُهُمْ لِمَ شَهِدْتُمْ عَلَيْنَا قَالُوا أَنْطَقَنَا اللَّهُ الَّذِي أَنْطَقَ كُلَّ شَيْءٍ﴾ [فصلت: ٢٠، ٢١].

والآية عامة فيمن قذف المحصنات الغافلات المؤمنات، وفي غيرهم من كل من مات على نفاقه وكفره. قال تعالى:

٢٥- ﴿يَوْمَذِ يُوفِّيهِمُ اللَّهُ دِينَهُمُ الْحَقَّ وَيَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ الْمُبِينُ ﴿٢٥﴾﴾

وفي يوم القيامة يوفيهم الله جزاءهم كاملاً على أعمالهم بالعدل الذي يستحقونه، ويعلمون في ذلك الموقف العظيم أن الله هو الحق في ذاته وصفاته وأفعاله، وأنه ﷻ هو المظهر لما أبطنته النفوس، وخبائث الضمائر، وهو القادر على مجازاة الذين أساءوا بما عملوا، والذين أحسنوا بالحسنى، ولا يظلم أحداً مثقال ذرة، كما قال تعالى:

﴿وَيَقُولُونَ يَوْمَئِذٍ إِنَّ هَذَا الْكِتَابَ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا﴾ [الكهف: ٤٩]

و(الحق) من أسماء الله الحسنى، ومعناه: الثابت، واجب الوجود، الذي لم يسبقه عدم، ولم يلحقه فناء، والحق أيضاً بمعنى: العدل، فهم يتحققون يوم القيامة -بعلم قطعي لا يقبل الخفاء ولا التردد- أن الله هو الحق المبين فيما كذبهم فيه من حديث الإفك، فأوصافه حق، وأفعاله حق، ولقاؤه حق، ووعدته ووعيدته حق، وحكمه حق، وتشريعه حق، وجزاؤه حق، ورسله حق، وفي يوم الموقف العظيم يعلم المنافقون أن الله هو الحق المبين، وأن الحق المبين منحصر في الله تعالى، وكانوا قبل ذلك في الدنيا يُبْطِنُونَ الشرك مع الله تعالى، فيجعلون الحق ثابتاً لأصنامهم.

(١) «صحيح مسلم» برقم (٢٩٦٩).

شَبِيهُ الشَّيْءِ مُنْجَذِبٌ إِلَيْهِ

٢٦- ﴿الْخَبِيثَاتُ لِلْخَبِيثِينَ وَالْخَبِيثُونَ لِلْخَبِيثَاتِ وَالطَّيِّبَاتُ لِلطَّيِّبِينَ وَالطَّيِّبُونَ لِلطَّيِّبَاتِ أُولَئِكَ مُبَرَّءُونَ مِمَّا يَقُولُونَ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴿٢٦﴾﴾

الموصوف بالخبيث والطيب في الآية، قيل: هو الأقوال والأفعال، وقيل: هو النساء والرجال.

فقد ختم الله سبحانه حديث الإفك بتقرير سُنَّةِ إلهية يشاهدها الناس في الواقع، وهي أن شبيه الشيء منجذب إليه، وأن الأرواح جنود مجندة، ما تعارف منها ائتلف، وما تناكر منها اختلف، وأن الطيوز على أشكالها تقع.

ولا يمكن أن تكون زوجات النبي ﷺ -وعلى رأسهن عائشة ؓ- إلا من أطيب الطيبات من النساء، وأطهر الطاهرات منهن.

جاء في الأثر: مثلُ الذي يسمع الحكمة ثم لا يُحدث إلا بشرًّا ما سمع، كمثُل رجل جاء إلى صاحب غنم، فقال: أجزرني شاة، فقال: اذهب فخذ بأذنِ أيها شئت، فذهب فأخذ بأذن كَلْبِ الغنم^(١).

﴿الْخَبِيثَاتُ﴾ أي: كل خبيث من النساء والرجال، ومن الأقوال والأفعال مناسب ﴿لِلْخَبِيثِينَ﴾ ممن هم على شاكلتهم مفتونون بهم، ممن يوافقونهم في طبعهم.

﴿وَالْخَبِيثُونَ﴾ من الرجال والنساء والأقوال والأفعال ﴿لِلْخَبِيثَاتِ﴾ ممن هم على شاكلتهم، موافقون لهم، ومفتونون بهم، وعبد الله بن أبيّ، هو الخبيث، فكان الأولى أن تكون الكلمة الخبيثة له.

﴿وَالطَّيِّبَاتُ﴾ أي: وكل طيّب من الرجال والنساء، ومن الأقوال والأفعال مناسب ﴿لِلطَّيِّبِينَ﴾ مثل: عائشة، وصفوان، وكان الأولى أن يكون الكلام الطيب لهم.

(١) حديث ضعيف، أخرجه الترمذي في «السنن» برقم (٢٦٨٧) وابن ماجه برقم (٤١٦٩) عن أبي هريرة، ورواه أيضًا أحمد في «المسند» برقم (٩٢٦٠) بإسناد ضعيف، قال محققوه: لضعف ابن جدعان وجهالة أوس بن خالد، وانظر (٨٦٣٩) وبنحوه في الطيالسي (٢٥٦٣) وأبي يعلى (٦٣٨٨) والبيهقي في الشعب (١٧٨٨) من طرق أخرى...

ثم تأتي شهادة الله تعالى ببراءة عائشة عليها السلام بما يغني عن كل شهادة، فيقول تعالى: ﴿أُولَٰئِكَ مُبَرَّءُونَ مِمَّا يَقُولُونَ﴾ قال ابن زيد: ها هنا برئت عائشة.

﴿لَهُمْ﴾ أي: لكل طيب وطيبة، ولعائشة عليها السلام، وللمحصنات الغافلات المؤمنات، لهم يوم لقاء رب العالمين ﴿مَغْفِرَةً﴾ لذنوبهم ﴿وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾ هو الجنة.

دخل عبد الله بن عباس عليهما السلام على عائشة وهي في مرضها فقالت: إنها خائفة من لقاء ربها، قال لها: إنك تلاقين أمامك مغفرة ورزقاً كريماً، وعدك الله بها في هذه الآية.

﴿لَهُمْ مَغْفِرَةٌ﴾ من سائر الذنوب ﴿وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾ هو الجنة يوم لقاء رب العالمين. وَرَدَّ أَنَّ عَائِشَةَ عليها السلام كَانَتْ تَفْتَحُزُ بِأَشْيَاءَ لَمْ تُعْطَهَا امْرَأَةٌ غَيْرَهَا ^(١).

منها: أن جبريل عليه السلام أتى بصورتها للنبي ﷺ في قطعة من حرير، وقال: هذه زوجتك، فقد ورد أن جبريل أتى بصورتها للنبي ﷺ في راحته، أي: كفه.

ومنها: أن النبي ﷺ لم يتزوج بكراً غيرها، وقُبِضَ رسول الله ﷺ وهو في حجرها، وفي بيتها. وكان ينزل عليه الوحي وهي معه في اللحاف، ونزلت براءتها من السماء.

وهي ابنة الصديق خليفة رسول الله ﷺ، خُلِقَتْ طَيِّبَةً، ووُعِدَتْ مغفرة ورزقاً كريماً.

وكان مسروق إذا حَدَّثَ عَنْ عَائِشَةَ عليها السلام قَالَ: حَدَّثَنِي الصَّدِيقَةُ بِنْتُ الصَّدِيقِ، حَبِيبَةُ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، الْمُبْرَأَةُ مِنَ السَّمَاءِ.

فالقُدْحُ فِي عَائِشَةَ عليها السلام قُدْحٌ فِي النَّبِيِّ ﷺ، وبمجرد كونها زوجة للرسول ﷺ يُعْلَمُ أَنَّهَا لَا تَكُونُ إِلَّا طَيِّبَةً طَاهِرَةً، فَكَيْفَ وَهِيَ صَدِيقَةُ النِّسَاءِ، وَأَفْضَلُهُنَّ وَأَعْلَمُهُنَّ وَأَطْيَبُهُنَّ، وَقَدْ تَرَبَّتْ فِي بَيْتِ النَّبَوَةِ.

وبهذا تنتهي قصة الإفك والتعقيب عليها، وفيها إرشاد المؤمنين إلى أنجع الوسائل في محاربة الشائعات، ومنها إحسان الظن من الناس بعضهم ببعض، وكتمان الشائعات، والتحذير من إفشائها، وتوجيه المؤمنين إلى العفو والصفح والتسامح، وتكريم أم المؤمنين عائشة عليها السلام.

(١) سبق ذكرها في تفسير الآية العاشرة.

سَابِعًا: الاسْتِئْذَانُ: أَحْكَامُهُ وَأَدَابُهُ

٢٧- ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّى تَسْتَأْذِنُوا وَتُسَلِّمُوا عَلَى أَهْلِهَا ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٢٧﴾﴾

وبعد أن تحدثت سورة النور عن عقوبة الزنى والقذف، تحدثت عن الأسباب والوسائل التي تؤدي إليه؛ لأن الإسلام يحرص على الوقاية قبل أن تقع الجريمة، ويبين القرآن الكريم في هذه الآية وما بعدها، أن من الطرق التي تؤدي إلى الزنى أربعة:

الأول: دخول بيوت الآخرين بدون إذن.

والثاني: عدم غض البصر عن النساء المحرمات.

والثالث: خروج المرأة سافرة متبرجة.

والرابع: عدم الزواج والإحصان للأعزب من الرجال أو النساء.

والإسلام إذا حرّم شيئاً، حرّم أسبابه ووسائله ودواعيه وبواعثه ومقدماته.

دُخُولُ بُيُوتِ الْآخَرِينَ بِإِذْنٍ

تبدأ هذه الأمور الأربعة بوجوب الإذن عند إرادة دخول بيوت الآخرين. وهي تدابير وقائية تقي الإنسان من الوقوع في الزنى عند الالتزام بها.

وقد جاء في أسباب النزول عن عدي بن ثابت أن امرأة من الأنصار قالت: يا رسول الله، إني أكون في بيتي على حال لا أحب أن يراني عليها أحد، لا والد ولا ولد، وإنه لا يزال الرجل يدخل عليّ من أهلي وأنا على تلك الحال، فكيف أصنع؟ فأنزل الله سبحانه هذه الآية^(١).

وكان الاستئذان معروفاً في الجاهلية وصدر الإسلام، وكان يختلف شكله باختلاف حال المستأذن عليه من الملوك فمنّ دونهم من عامة الناس.

وقد اتخذ الناس البيوت للاستتار، فوجب الاستئذان من أجل البصر.

(١) «تفسير الطبري» (١٧/٢٤٢).

قال أبو بكر وبعض الصحابة ﷺ لما نزلت هذه الآية: أَرَأَيْتَ يَا رَسُولَ اللَّهِ، البيوت والحانات التي على الطرق بين مكة والمدينة والشام وبيت المقدس، ليس فيها ساكن، فأنزل الله سبحانه: ﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ مَسْكُونَةٍ فِيهَا مَتَعٌ لَكُمْ﴾^(١). وكان بعض الناس في الجاهلية يدخل أحدكم بيت غيره، فيهجم عليه بدون إذن، ولم تكن للبيوت آنذاك أبواب ولا ستائر ونحوها، بل كانت الأبواب مفتوحة، فكان الرجل يدخل البيت مباشرة، ويقول لأهله: حُيِّتُمْ صباحًا، أو حُيِّتُمْ مساءً^(٢).

والظاهر من الآية أن الاستئذان لا يكون إذا دخل الإنسان بيته على أهله، أي: على زوجته؛ لأن الله ﷻ يقول: ﴿لَا تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ﴾ فإذا دخل الإنسان بيت نفسه، فإنه لا يجب عليه أن يستأذن على وزوجه؛ لأن بين الرجل والمرأة ما بينهما من عدم الحشمة وعدم الكلفة، بما لا يوجد بين رجل آخر وامرأة أخرى.

ولكن النبي ﷺ نهى إذا قَدِمَ الإنسان من سفر أن يَطْرُقَ أهله ليلاً بدون أن يعلمهم، فيدخل عليهم فجأة؛ لأنه قد تكون المرأة رثّة الثياب، أو في منظر كرهه ونحو ذلك، ولا تحب أن يراها الرجل على هذه الحالة؛ فتهيأ لاستقباله، كما جاء في الحديث عن جابر ﷺ: أن النبي ﷺ نهى أن يطرق الرجل أهله ليلاً يتخونهم، فقد سمع جابر رسول الله ﷺ يقول: «إذا أطال أحدكم الغيبة فلا يطرق أهله ليلاً»^(٣).

والله سبحانه يبيّن أنه إذا قيل لمن يريدون الدخول: ارجعوا فليرجعوا، هو أذكى لهم؛ إذ ليس هنالك من حرج ولا غضاضة إذا جاء الإنسان على غير موعد، أو اتصال سابق، ولم يجد أهل البيت على استعداد لاستقباله، فلا جناح عليه أن يرجع من حيث أتى، وقبل أن يرجع الإنسان يكرر الاستئذان ثلاث مرات.

جاء في الحديث الآتي ذكره: «الاستئذان ثلاث، فإن أذن لك وإلا فارجع» والمرة الأولى واجبة، وما بعدها هو حق للمستأذن، إن شاء أكمله، وإن شاء اقتصر على مرة أو مرتين، ويكون بين الأولى والثانية فاصل، وبين الثانية والثالثة فاصل، حتى تُعطى الفرصة لأهل البيت أن يتهيؤوا لاستقبال الضيف، أو يغيروا من الوضع الذي لا يُحبّون أن يراهم عليه أحد.

(١) «تفسير الطبري» (٨٧/١٨) و«أسباب النزول» للواحدي (٢٧٢) و«زاد المسير» (٧٧/٦).

(٢) ابن أبي حاتم عن مقاتل بن حيان (٢٥٦٥/٨).

(٣) من حديث جابر في البخاري برقم (٥٢٤٣، ٥٢٤٤) وانظر: «صحيح مسلم» برقم (٧١٥).

آثار وأحاديث في الاستئذان:

١- جاء رجل من بني عامر يريد الاستئذان على النبي ﷺ وهو في بيته، ولم يكونوا يعرفون آداب الاستئذان قبل ذلك، فوقف الرجل على باب النبي ﷺ يقول: أألج؟ أي: أَدْخُل؟ فقال النبي ﷺ لخدام عنده: «قُمْ إِلَى هَذَا فَعَلِّمَهُ الْاِسْتِذَانَ، قُلْ لَهُ يَقُولُ: السَّلَامُ عَلَيْكُمْ، أَدْخُل؟» فسمعها الرجل فقال: السَّلَامُ عَلَيْكُمْ، أَدْخُل؟ فَأَذِنَ لَهُ النَّبِيُّ ﷺ بِالْاِدْخُولِ^(١).

٢- وفي الصحيحين: أن أبا موسى الأشعري ﷺ استأذن باسمه الصريح على عمر بن الخطاب ﷺ ثلاثاً، فقال: السَّلَامُ عَلَيْكُمْ، هَذَا عَبْدُ اللَّهِ بْنُ قَيْسٍ، فَلَمْ يَأْذِنْ لَهُ، وَقَالَ فِي الثَّانِيَةِ: السَّلَامُ عَلَيْكُمْ، هَذَا أَبُو مُوسَى، وَقَالَ فِي الثَّالِثَةِ: السَّلَامُ عَلَيْكُمْ، هَذَا الْأَشْعَرِيُّ، وَلَمَّا لَمْ يُؤْذِنْ لَهُ انصرف، فقال عمر: رُدُّوهُ عَلَيَّ، فجاء، فقال عمر: يَا أَبَا مُوسَى، كُنَّا فِي شُغْلٍ، فَقَالَ أَبُو مُوسَى: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: «الْاِسْتِذَانَ ثَلَاثَ، فَإِنْ أْذِنَ لَكَ وَإِلَّا فَارْجِعْ»^(٢).

٣- وعن أبي أيوب ﷺ قال: قلت: يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَرَأَيْتَ قَوْلَ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿حَتَّىٰ تَسْتَأْذِنُوا وَتُسَلِّمُوا عَلَىٰ أَهْلِهَا﴾ هَذَا التَّسْلِيمُ قَدْ عَرَفْنَاهُ، فَمَا الْاِسْتِذَانُ؟ قَالَ: «يَتَكَلَّمُ الرَّجُلُ بِتَسْبِيحِهِ، وَتَكْبِيرِهِ، وَتَحْمِيدِهِ، وَيَتَنَحَّنِحُ، فَيُؤْذِنُ أَهْلَ الْبَيْتِ»^(٣).

٤- وثبت في حديث أبي موسى أيضاً أن عمر ﷺ استأذن على النبي ﷺ مرتين فلم يُؤْذِنْ لَهُ، فَرَجَعَ، فَتَبِعَهُ غُلَامٌ فَقَالَ لَهُ: ادْخُلْ، فَقَدْ أْذِنَ لَكَ النَّبِيُّ ﷺ^(٤).

٥- وليس هنالك أفضل من سيد الخلق ﷺ؛ حيث حدث له مثل ذلك، فقد جاء ﷺ إلى بيت سعد بن عبادَةَ، فقال: «السَّلَامُ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَةُ اللَّهِ»، فَرَدَّ سَعْدٌ رَدًّا خَفِيًّا، لَمْ

(١) يُنْظَرُ الْحَدِيثُ فِي: «سَنَنِ أَبِي دَاوُدَ» بِرَقْم (٥١٧٧) وَصَحَّحَهُ الْأَلْبَانِيُّ فِي «صَحِيحِ سَنَنِ أَبِي دَاوُدَ» بِرَقْم (٤٣١٢) وَهُوَ فِي «الْمُسْنَدِ» (٣٦٨/٥) بِرَقْم (٢٣١٢٧) بَنَحْوِهِ، مِنْ حَدِيثِ طَوِيلٍ صَحِيحٍ لَغَيْرِهِ، وَإِسْنَادُ

رِجَالُهُ ثِقَاتٌ، وَأَخْرَجَهُ النَّسَائِيُّ فِي عَمَلِ الْيَوْمِ وَاللَّيْلَةِ (٣١٦) وَابْنُ قَيِّمٍ (٣٤٠/٨).

(٢) يُنْظَرُ: «صَحِيحُ مُسْلِمٍ» بِرَقْم (٢١٥٤) وَ«صَحِيحُ الْبُخَارِيِّ» بِرَقْم (٦٢٤٥) وَانْظُرْ: (٢٠٦٢، ٧٣٥٣).

(٣) ابْنُ أَبِي شَيْبَةَ (٤١٩١٨) وَابْنُ أَبِي حَاتِمٍ (٢٥٦٧/٨) وَالحَاكِمُ، وَالتِّرْمِذِيُّ (٨٩/٢) قَالَ ابْنُ كَثِيرٍ (٦/

٤٠): حَدِيثٌ غَرِيبٌ.

(٤) «صَحِيحُ مُسْلِمٍ (١٨٠/٦) وَصَحِيحُ سَنَنِ أَبِي دَاوُدَ (٤٣١٤) وَابْنُ عَبْدِ الْبَرِّ فِي «الْتَمْهِيدِ» (٢٠٢/٣).

يسمع به النبي ﷺ ويقصد من ذلك أن يستزيد من سلام النبي ﷺ، والرسول ﷺ لم يستمع إلى رد السلام من سعد، قال قيس: أحد الحاضرين في المجلس: ألا تأذن لرسول الله؟ قال: نريد أن نستزيد من سلامه.

قال ﷺ مرة ثانية: «السلام عليكم ورحمة الله وبركاته»، فرد سعد ردًا خفيًا لم يسمعه الرسول ﷺ، ثم قال الرسول مرة ثالثة: «السلام عليكم ورحمة الله وبركاته»، وانصرف لَمَّا لم يؤذن له، فلم يدخل النبي ﷺ مع استئذانه ثلاث مرات، فتبعه سعد، وقال: يا رسول الله، إني كنت أستمع إليك، ولكنني كنت أرد ردًا خفيًا؛ لِكُثْرِ علينا من السلام، ثم أتى به إلى بيته، فاستضافه وأكرم وفادته ﷺ، وصلوات الله وسلامه على رسول الله ﷺ ورضي الله عن سعد بن عباد^(١).

٦- وقد كره النبي ﷺ ألا يُفصح الإنسان عن نفسه، وألا يُصرِّح باسمه عند إرادة الاستئذان، فلا يقول: أنا، إنما يذكر المستأذن اسمه صريحًا، كما كان عمر ﷺ يستأذن على رسول الله ﷺ فيقول: السلام عليك يا رسول الله، أيدخل عمر؟ هكذا يصرِّح باسمه.

٧- وكان أبو موسى الأشعري ﷺ يقف على الباب ويقول: السلام عليك يا رسول الله، هذا أبو موسى هذا الأشعري، أي: يعلن عن اسمه صراحة.

٨- وجاء جابر ﷺ إلى رسول الله ﷺ في دين كان على أبيه، قال: فددقتُ الباب، فقال ﷺ: «من ذا؟» قال: أنا، فقال ﷺ: «أنا، أنا»، كأنه كرهها^(٢).

أي: كره أن يقول الإنسان: أنا، ولا يصرح باسمه.

(١) يُنظر: أبو داود برقم (٥١٨٥) والنسائي في «السنن الكبرى» برقم (١٠١٥٧) (٥٠١٥٩) و«المسند» (٣/ ١٣٨) برقم (١٢٤٠٦) عن أنس بإسناد صحيح على شرط الشيخين (محققه) و(١٥٤٧٦) عن قيس بن سعد بن عباد، وهو مصنف عبدالرزاق (١٩٤٢٥، ٧٩٠٧) والطبراني في الدعاء (٩٢٤) والبغوي (٣٣٢٠) والترمذي (٢٦٩٦) والضياء في المختارة (١٧٨٣) والبخاري (٢٠٠٧).

(٢) من حديث جابر في «البخاري» برقم (٦٢٥٠) وهذا لفظه، وانظر: (٢١٢٧) ومسلم برقم (٢١٥٥) وأبو داود برقم (٥١٨٧) والترمذي برقم (٢٧١١) والنسائي في «السنن الكبرى» برقم (١٠١٦٠) و«سنن ابن ماجه» برقم (٣٧٠٩).

٩- وفي حديث آخر عن جابر أيضًا: أن النبي ﷺ قدم المدينة نهارًا فأناخ بظاهرها، وقال: انتظروا حتى ندخل عشاء -آخر النهار- حتى تمتشط الشَّعْثَةُ، وتستحدَّ الْمُغِيْبَةُ»^(١)

١٠- وقال الإمام أحمد: إذا دخل الرجل بيته استحب له أن يتنحج، أو يحرك نعليه، كما كان النبي ﷺ يفعل ذلك، وكذا إذا أراد الإنسان الدخول على أمه، أو على أخته، أو ابنته أو بنيه، البالغين، فإنه يجب عليه الاستئذان.

١١- ومن ذلك أن رجلاً قال للنبي ﷺ: أأستأذن على أمي؟ قال ﷺ: «نعم» قال: يا رسول الله، ليس لها خادم غيري، أأستأذن كلما أردت الدخول عليها؟ قال ﷺ: «أتحب أن تراها عريانة؟» قال: لا، قال: «فاستأذن عليها»^(٢).

أي: استأذن عند إرادتك الدخول على أمك، وعلى محارمك من باب أولى.

وينبغي للمستأذن ألا يستقبل الباب بوجهه، وإنما يقف عن يمينه أو يساره.

١٢- عن عبد الله بن بسر ؓ قال: كان رسول الله ﷺ إذا أتى باب قوم لم يستقبل الباب من تلقاء وجهه، ولكن من رُكْنِهِ الأيمن أو الأيسر، ويقول: «السلام عليكم، السلام عليكم»، وذلك أن الدور لم يكن عليها يومئذ ستور^(٣).

وعدم الاستئذان يوجب الريبة ويتهم فاعله بالشر كالسرقة والخيانة ونحوهما.

وإنما جعل الاستئذان من أجل البصر:

فبسبب وقوع البصر على العورات التي داخل البيوت، فالإنسان يستتر في بيته كما يستتر في ثوبه.

١٣- فقد ثبت عن رسول الله ﷺ من حديث سهل بن سعد الساعدي ؓ أنه قال: «لو

(١) من حديث طويل عن جابر في البخاري (٥٢٤٧) وانظر: (٤٤٣).

(٢) أخرجه مالك في «الموطأ» عن عطاء بن يسار مرسلاً، وهو برقم (٢٠٢٨) من رواية أبي مصعب.

(٣) «سنن أبي داود» برقم (٥١٨٦) و«صحيح سنن أبي داود» برقم (٤٣١٨) والبخاري في «الأدب المفرد» (١٠٧٨)، وصححه الألباني أيضًا في مشكاة المصابيح (٤٦٧٣).

أن امرأاً اطلع عليك بغير إذن، فحذفته بحصاة، ففقت عينه لم يكن عليك جناح»^(١).

١٤ - وفي لفظ آخر عن أبي هريرة رضي الله عنه: «من اطلع في بيت قوم بغير إذنهم، فقد حلّ لهم أن يفقؤوا عينيه»^(٢).

١٥ - وفي حديث سهل بن سعد الأنصاري رضي الله عنه: أن رجلاً اطلع في باب رسول الله صلى الله عليه وسلم ومع رسول الله صلى الله عليه وسلم مِذْرَى يُرَجِّلُ به رأسه، فقال صلى الله عليه وسلم: «لو أعلم أنك تنظر، طعنْتُ به في عينيك، إنما جعل الله الإذن من أجل البصر»^(٣).

والراجع أن السلام يكون قبل الاستئذان

١٦ - لِمَا ورد عن جابر رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «السلام قبل الكلام»^(٤).

١٧ - قال صفوان بن أمية: دخلتُ على النبي صلى الله عليه وسلم، ولم أُسلم، ولم أستاذن، فقال صلى الله عليه وسلم: «ارجع فقل: السلام عليكم، أأدخل؟» وذلك بعدما أسلم صفوان^(٥).

ويرى بعض العلماء أن القادم إن كان يرى أحداً من أهل البيت سلّم أوّلاً، ثم استأذن في الدخول، وإن كان لا يرى أحداً منهم، قدّم الاستئذان على السلام.

١٨ - عن مالك، عن زيد بن أسلم أنه استأذن على عبد الله بن عمر رضي الله عنه فقال: أألج؟ فأذن له ابن عمر، فلما دخل، قال له ابن عمر: ما لك واستئذان العرب؟ يريد أهل الجاهلية. إذا استأذنت فقل: السلام عليكم، فإن رُدَّ عليك السلام، فقل: أأدخل؟ فإن أذن لك فادخل، وغير ذلك من الأدلة

ومعنى الآية: يأيها الذين صدقوا وآمنوا بالله وبرسوله، لا تدخلوا بيوتاً غير بيوتكم التي

(١) من حديث سعد في البخاري برقم (٦٩٠١، ٦٩٠٢) ومسلم برقم (٢١٥٦، ٢١٥٨).

(٢) أخرجه مسلم عن أبي هريرة برقم (٢١٥٨).

(٣) «صحيح مسلم» برقم (٢١٥٦).

(٤) «سنن الترمذي» برقم (٢٦٩٩)، وحسنه الألباني في صحيح الترمذي (٢١٧٠) وهو في السلسلة الصحيحة (٨١٦).

(٥) «المسند» (٤١٤/٣) برقم (١٥٤٢٥) عن كُلدَةَ بن الحنبل، قال محققوه: إسناده صحيح ورجاله ثقات

وأخرجه الطبراني في الكبير والترمذي (٢٧١٠) وقال: حديث حسن غريب، والنسائي في الكبرى

(٢٧٣٥) وفي عمل اليوم والليلة (٣١٥).

تسكنونها، وهي مسكونة لسواكم، حتى تستأذنوا أهلها في الدخول عليهم، وتطلبوا أن يأنس بكم صاحب البيت بانتفاء الوحشة والكرهية، وتسلموا على أهلها، وصفة السلام من السنة: «السلام عليكم، أَدْخِلْ؟» ذلكم الاستئذان خير لكم، لعلكم تذكرن بفعلكم له أوامر الله فتطيعوه، فإن الاستئذان والتسليم خير لكم من الهجوم بدون إذن، ومن الدخول على الناس فجأة، ومن تحية أهل الجاهلية. قال تعالى:

٢٨- ﴿إِنْ لَمْ تَحْدُوا فِيهَا أَحَدًا فَلَا تَدْخُلُوهَا حَتَّى يُؤْذَنَ لَكُمْ وَإِنْ قِيلَ لَكُمْ ارْجِعُوا فَارْجِعُوا هُوَ أَزْكَى لَكُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ﴾

بَيَّنَّ الله سبحانه أنه إذا لم يكن في البيت المأهول بالسكان أحد في هذا الوقت يأذن بالدخول، فلا تمتنعوا من الرجوع، ولا تغضبوا من صاحب المنزل، فإنه لم يمنعكم حقاً واجباً لكم، وإنما هو متبرع، فإن شاء أذن لكم، وإن شاء منع، فإنه لا يجوز لك أن تدخل بدون إذن، فإن لم يأذن صاحب البيت وطلب منكم الرجوع فارجعوا، ولا تُلْحُوا في طلب الدخول، فإن هذا أظهر لكم وأحفظ لمروءتكم؛ لأن للإنسان أحوالاً يكره الاطلاع عليها من أحد من الناس، فلا يأخذكم الكبر ولا الاشتزاز في هذه الحالة.

ثم توعد الله سبحانه أهل التجسس الذين يدخلون بيوت الناس على غفلة؛ حتى ينظروا إلى ما لا يحل لهم، فقال: ﴿وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ﴾ فيجازي كل عامل بعمله.

قال قتادة: قال رجل من المهاجرين: لقد طلبتُ عمري كله هذه الآية فما أدركتها، أن أستاذن على بعض إخواني، فيقول لي: ارجع، فأرجع وأنا مغتبط؛ لقوله تعالى: ﴿هُوَ أَزْكَى لَكُمْ﴾^(١).

هذا الحكم في الأماكن المسكونة، فما هو حكم الأماكن غير المسكونة قال تعالى:

٢٩- ﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ مَسْكُونَةٍ فِيهَا مَتَاعٌ لَكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا تَكْتُمُونَ﴾

ولما نهى سبحانه وتعالى عن دخول كل بيت ليس ملكاً للإنسان، أخرج منه البيوت التي ليست ملكاً للإنسان، وفيها متاع له، أي قضاء حاجات كبيع وشراء أو سكن أو استراحة أو

(١) «تفسير ابن عطية» (٤/١٧٦).

علاج أو مراجعة، ونحو ذلك، وليس فيها ساكن فأسقط سبحانه الحرج في الدخول إليها.

فهذه الآية لعموم الاستئذان، وذلك أنه لما نزلت آية الاستئذان تعمَّق بعض الناس، فكان لا يأتي على موضع خرب وغير مسكون إلا سلَّم واستأذن، فنزلت هذه الآية لرفع الحرج عن الأماكن العامة، والأماكن غير المسكونة، وذلك مثل: الفنادق، والمحلات التجارية، والدكاكين، والاستراحات التي في الطرقات السريعة للمسافرين بين بلاد العالم، وكذا الأماكن العامة التي فيها منفعة للناس، وليس فيها سكان يختصون بها، فلا مانع من أن يدخلها الإنسان بدون إذن؛ لأن العلة في الاستئذان: عدم كشف العورات، فإذا زالت العلة زال الحكم، وهذه الأماكن غير مخصصة للسكنى، بل فيها منافع، ومرافق، وحاجة لمن يدخلها، وفي الاستئذان فيها مشقة.

وكان أبو بكر رضي الله عنه قد سأل النبي ﷺ عن البيوت التي بين مكة والمدينة والشام وبيت المقدس، وهي على ظهر الطريق وليست مسكونة، فأَنزل الله الآية.

والله تعالى لا يخفى عليه شيء من أحوالكم الظاهرة والباطنة، وهذا تحذير آخر لمن يتلصَّصون على بيوت الناس، ويتخوَّلون النظر خلسة، علَّهم يطلعون على ما فيها من عورات. والله يعلم ما تسرون وما تعلنون، وهو عليم بذات الصدور، فلذلك شرع لكم ما يلزمكم ويصلح أحوالكم من أحكام.

ثَامِنًا وَتَاسِعًا: غَضُّ الْبَصَرِ وَحِفْظُ الْفَرْجِ

٣٠- ﴿قُلْ لِّلْمُؤْمِنِيْنَ يَغْضُّوْنَ مِنْ اَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوْنَ اَفْوَاجَهُمْ ذٰلِكَ اَزْكٰى لَهُمْ اِنَّ اللّٰهَ خَبِيْرٌۢ بِمَا يَصْنَعُوْنَ﴾

الأمر الثاني من الأمور الأربعة السابق ذكرها في أول آية الاستئذان، مما بقي من الوقوع في الزنى، ويعمل على إقامة مجتمع نظيف طاهر، لا تُهَيِّج فيه الشهوات، هو غَضُّ البصر.

والأمر الثالث هو حفظ الفرج، وهما أمران متلازمان، وقد أمرنا بحفظ الفرج كله، ولكن البصر كله لا يُغَضُّ، فالإنسان لن يسير في الشارع مُقْفَل العينين، ولكنه مأمور أن يصرف بصره حال نظرة الفجاءة، وألَّا يُطِيل النظر، ولا يسترسل، ولا يختلس، ولا يعاود ولا يكرِّر، لك الأولى وعليك الثانية، فلا تتبع خطوات الشيطان.

وقد جاء الأمر في الآية بحفظ الفرج مطلقاً بدون لفظ ﴿مِنْ﴾ فلم يقل الله تعالى: (ويحفظوا من فروجهم)، كما قال تعالى: ﴿يَغْضُوا مِنْ أَبْصَرِهِمْ﴾.

وحفظ الفرج: يكون بعدم كشف العورة للآخرين، بحيث لا يطلع عليها أحد، وكذا حفظه من الزنى، ومن اللواط، ومن السحاق، والاستمناء وغير ذلك، قال تعالى في وصف عباده المؤمنين ﴿وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ﴾ ٥٠ إِلَّا عَلَىٰ أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ ٥١ فَمَنْ ابْتَغَىٰ وَرَاءَ ذَلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْعَادُونَ ٥٢ [المؤمنون] والمعارج ٢٩-٣١ والعادون: هم المتجاوزون الحلال إلى الحرام، والحلال في الآية، هو قضاء الشهوة في زواج مشروع، أو في مملوكة بطريق شرعي، وما عدا ذلك فهو حرام.

وحفظ البصر: غَضُّهُ عما حرم الله عليه النظر إليه؛ لأن هناك بصراً يجوز، كالنظر إلى المحارم، والنظر إلى التي يريد خُطْبَتَهَا، ونظر الطبيب إلى موضع المرض من المريض، والنظر الذي تتحقق به الشخصية في الأحوال الجنائية، وغير هذا من الأمور الجائزة، ولذلك فإن الله تعالى مَنَعَ النظرة المحرمة للمرأة الأجنبية، والإنسان بعد ذلك لن يسير في الطريق مقلّة عيناه.

وتشير الآية إلى أن غض البصر سبب لحفظ الفرج وعدم غض البصر سبب لعدم حفظ الفرج، وأن الإنسان إذا أطلق بصره تعلّق قلبه بالنساء، والنظرة بريد الزنى، وهي سهم مسموم من سهام إبليس، فمن تركها خوفاً من الله تعالى رزقه الله إيماناً يجد حلاوته في قلبه، ومن الصبر على محارم الله، أن يصبر الإنسان على حبس بصره عما حرم الله، ومن الناس من لا يصبر على ترك نظرة محرمة، وهذا ضعف بالغ في الإيمان، قال تعالى: ﴿إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَٰئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا﴾ [الإسراء: ٣٦].

وقال جل شأنه ﴿إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾ [آل عمران: ١١٩] يعلم سبحانه مسارقة النظر، والتلصص به من طرف خفي، والسعادة في حفظ البصر وليس في إطلاقه.

أحاديث في غض البصر:

١- وقد بيّن الإسلام أن النظرة الفجائية لا يُسأل عنها المرء؛ فقد سأل جرير بن عبد

الله ﷻ رسول الله ﷺ عن نظرة الفجاءة، فقال: «اصرف بصرك»^(١).

أي: إذا وقع بصرك على مُحرم فاضرفه فوراً، ولا تعتمد النظرة الأولى، ولا تُتبع النظرة النظرة، أي: لا تكررهما، بل اصرف بصرك.

٢- وفي الحديث: عن بريدة الأسلمي ﷺ أن النبي ﷺ قال: «يا علي، لا تُتبع النظرة النظرة؛ فإنما لك الأولى، وعليك الثانية»^(٢).

والذي يجلس في الطرق العامة عليه أن يغضَّ بصره، فقد بينَّ النبي ﷺ أن أول حق من حقوق الطريق غض البصر.

٣- وعن أبي سعيد الخدري ﷺ أن النبي ﷺ قال: «إياكم والجلوس في الطرقات»، فقالوا: ما لنا بدُّ، إنما هي مجالسنا نتحدث فيها، قال: «فإذا أبيتم إلا المجالس فأعطوا الطريق حقها»، قالوا: وما حق الطريق؟ قال: «غض البصر، وكف الأذى، ورد السلام، وأمر بالمعروف، ونهي عن المنكر»^(٣).

وكفه عن النظرة إلى ما حرم الله تعالى، لأن النظرة بريد الزنا، وهي سهم مسموم من سهام إبليس، ومن ترك النظرة خوفاً من الله تعالى رزقه إيماناً يجد حلاوته في قلبه، والعين تزني وزناها النظر.

٤- فعن ابن عباس ﷺ قال: ما رأيت شيئاً أشبه باللمم، مما قال أبو هريرة ﷺ عن النبي ﷺ: «إن الله عز وجل كتب على ابن آدم حفظه من الزنى، أدرك ذلك لا محالة، فزنى العينين:

(١) من حديث عبد الله البجلي في «صحيح مسلم» برقم (٢١٥٩) و«المسند» (٣٦/٤) برقم (١٩١٩٧) بإسناد صحيح على شرط مسلم وأبي داود برقم (٢١٤٨) والترمذي برقم (٢٧٧٦) وقال: هذا حديث حسن صحيح والنسائي برقم (٩٢٣٣).

(٢) من حديث عبد الله بن بريدة عن أبيه عند أبي داود برقم (٢١٤٩) والنسائي في الكبرى (١١٥٤٤) وابن حبان (٤٤٢٠) والترمذي برقم (٢٧٧٧) ومسنده أحمد (٢٢٩٩١، ٢٣٠٢١، ٢٢٩٧٤) قال محققوه: وهو حديث حسن لغيره وفيه أبو ربيعة متكلم فيه، وأخرجه الطحاوي في شرح معاني الآثار (١٥/٣) وشرح مشكل الآثار (١٨٦٦) والحاكم (١٩٤/٢) والبيهقي في السنن (٩٠/٧) وفي الشعب (٥٤٢١).

(٣) «صحيح البخاري» برقم (٢٤٦٥) و«صحيح مسلم» برقم (٢١٢١).

النظر، وزنى اللسان النطق، والنفس تمنى وتشتهي، والفرج يصدق ذلك أو يكذبه»^(١).

٥- وفي صحيح مسلم وغيره: عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «لا ينظر الرجل إلى عورة الرجل، ولا المرأة إلى عورة المرأة، ولا يُفضي الرجل إلى الرجل في ثوب واحد، ولا تُفضي المرأة إلى المرأة في الثوب الواحد»^(٢).

٦- وعن بهز بن حكيم، عن أبيه، عن جده قال: قلت: يا رسول الله، عوراتنا ما نأتي منها وما نذر؟ قال: «احفظ عورتك إلا من زوجتك، أو مما ملكت يمينك»، فقال: الرجل يكون مع الرجل؟ قال: «إن استطعت ألا يراها أحد فافعل» قلت: والرجل يكون خاليًا؟ قال: «فأله أحق أن يُستخلى منه»^(٣).

قال تعالى: ﴿يَعْلَمُ خَائِنَةَ الْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ﴾ [غافر: ١٩].

وهكذا: فإن في حفظ الفروج من الحرام وغض البصر عما حرم الله، طهارة من الخبائث التي يتدنس بها أهل الفواحش، وتزكية لعمل الإنسان بترك المحرم، ومن ترك شيئاً لله، عوّضه الله خيراً منه، ومن غض بصره عن المحرم أنار الله بصيرته.

والجمع بين غضّ البصر وحفظ الفرج، جمع بين السبب والنتيجة؛ لأن عدم غضّ البصر كثيراً ما يؤدي إلى الوقوع في الفواحش، ولذا قدّم الله الأمر بغض البصر على الأمر بحفظ الفرج، وجعل ذلك من آداب المجالسة سبباً بعد الدخول إلى بيوت الناس؛ حيث جاء الأمر بغض البصر عقب بيان حكم الاستئذان؛ لكيلا يكون الداخل إلى البيت محدقاً بصره في جوانب ونوافذ البيت وخبائياه، فلا ينظر إلا إلى ما يعسر صرف نظره عنه.

(١) البخاري وعلقه برقم (٦٢٤٣، ٦٦٦٢) ومسلم برقم (٢٦٥٧) وأبو داود (٢١٥٢) و«المسند» برقم (٧٧١٩، ٨٢١٥) إسناده صحيح على شرط الشيخين.

(٢) «صحيح مسلم» برقم (٣٣٨).

(٣) أحمد (٣/٥) برقم (٢٠٠٣٤، ٢٠٠٤٠) بإسناد حسن وعلقه البخاري كما في «الفتح» (٣٨٥/١) أخرجه أبو داود برقم (٤٠١٧) والترمذي برقم (٢٧٦٩) وحسنه الألباني في «صحيح الترمذي» برقم (٢٢٢٢) وهذا لفظ، وحسنه أيضاً في «صحيح سنن أبي داود» برقم (٣٣٩١) وابن ماجه (١٩٢٠) والحاكم (٤/١٧٩) وصححه، ووافقه الذهبي، و«السنن الكبرى» للنسائي (٨٩٧٢)، والطبراني في الكبير ١٩ (٩٩٠) والبيهقي في السنن (٩٤/٧) وفي الشعب (٧٧٥٣).

وقد صرّف النبي ﷺ وجه الفضل بن العباس عن النظر إلى المرأة الخثعمية، فدلّ ذلك على عدم جواز النظر إلى المرأة، سيّما إذا كانت وضيئة.

فغض البصر يكون عن العورات، وعما لا يحل من النساء، وحفظ الفرج يكون عما حرم الله من: الزنا، واللواط، والسحاق، والعورات المكشوفة، ونحو ذلك؛ فإن هذا أزكى وأطهر للنفس، والله يعلم أحوالكم الظاهرة والباطنة.

لِمَنْ تُبْدِي الْمَرْأَةُ زِينَتَهَا؟

٣١- ﴿وَقُلْ لِلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَرِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَى جُيُوبِهِنَّ^(١) وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ أَوْ آبَائِهِنَّ أَوْ آبَاءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ أَبْنَاءِهِنَّ أَوْ أَبْنَاءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ إِخْوَانِهِنَّ أَوْ بَنَاتِ إِخْوَانِهِنَّ أَوْ بَنَاتِ أَخْوَانِهِنَّ أَوْ نِسَائِهِنَّ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُنَّ أَوْ التِّلَاعِ غَيْرِ^(٢) أُولَى الْأَرْبَةِ مِنَ الرِّجَالِ أَوْ الْطِفْلِ الَّذِي لَمْ يَظْهَرُوا عَلَى عَوْرَاتِ النِّسَاءِ وَلَا يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِنْ زِينَتِهِنَّ وَتَوْبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهُ الْمُؤْمِنُونَ^(٣) لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٣١﴾

وكما أمر القرآن الكريم الرجل بحفظ بصره وفرجه، أمر المرأة كذلك بحفظ بصرها وفرجها في هذه الآية، ولكن الإسلام لم يشدد في ذلك على النساء كما شدد على الرجال، فالإسلام لم يأمر الرجل أن يلبس نقاباً؛ كي لا تنظر إليه المرأة، ولم يأمره أن يحتجب؛ حتى لا تنظر إليه المرأة، كما أمر المرأة أن تُخمر رأسها وصدرها وعنقها، ولم يَنْهَ الإسلام الرجل عن الخروج إلى الأسواق وقضاء الحاجات ونحو ذلك، إنما نهى عن الخلوة، كما في الحديث عن ابن عباس ؓ أن النبي ﷺ قال: «لا يخلون رجل بامرأة إلا

(١) قرأ ابن كثير وابن ذكوان وحمزة والكسائي وشعبة بخُلف عنه، بكسر الجيم من (جيوهين)، والباقون بضمها، وهو الوجه الثاني لشعبة.

(٢) قرأ ابن عامر وشعبة وأبو جعفر بنصب الراء من (غير) على الاستثناء، والباقون بالجر نعتاً للمؤمنين، أو بدلاً، أو عطف بيان.

(٣) قرأ ابن عامر بضم الهاء وصلّاً من (أيُّه المؤمنين) وإسكانها وقفاً، وذلك أن الألف لما حُذفت لالتقاء الساكنين، ضُمَّت الهاء تبعاً لضمة الياء، وقرأ الباقر بفتح الهاء وحذف الألف وصلّاً، ووقف عليها بالألف بعد الهاء أبو عمرو والكسائي ويعقوب، ووقف الباقر بسكون الهاء مع حذف الألف.

ومعها ذو محرم، ولا تسافر المرأة إلا مع ذي محرم...»^(١).

ولا يجوز أن تجلس المرأة إلى جوار الرجل أو في مقابلته وجهًا لوجه، يحدّق النظر فيها، وتحّدّق النظر فيه، هذا ليس من خُلق الإسلام، ولا من خُلق الأولين، وليس من عادات العرب، فقد مرّت امرأة عربية على مجلس من بني نُمَيْر، فوجدتهم يحدّقون النظر فيها، فقالت لهم: أنتم لم تأخذوا بقول الله تعالى: ﴿قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ﴾، ولم تأخذوا بقول الشاعر:

فَغُضُّ الطَّرْفِ إِنَّكَ مِنْ نُمَيْرٍ فلا كُفْبًا بَلَفْتَ ولا كِلَابًا

ويقول عنترة في الجاهلية:

وَأَغْضُ طَرْفِي إِنْ بَدَثَ لِي جَارَتِي حَتَّى يُوَارِيَ جَارَتِي مَأْوَاهَا

هذا هو الخُلق العربي الأصيل، يغض الرجل طرفه إن ظهرت له جارته فجأة، حتى يوارى جارته مأواها، فأين هذا ممن يختلس النظر إليها؟!

ومن سبل الوقاية من الزنى: أن الإسلام حرّم أن يمس الرجل أي موضع من جسد المرأة الأجنبية، لا بالمصافحة ولا غيرها، فالمصافحة بين الرجال والنساء الأجانب نهى عنها النبي ﷺ، ولم تصافح يده ﷺ يد امرأة أجنبية قط، ولا مسّت يده يد امرأة قط، ولمّا بايع ﷺ النسوة يوم الفتح بايعهن كلامًا، ولم يضع يده في يد امرأة، كما في الحديث: «لأن يُطعن أحدكم بمخيطٍ في رأسه خير له أن يمسّ امرأة لا تحلّ له»^(٢).

وقد حرّم الإسلام أن تسافر المرأة إلا مع ذي محرم، وغير ذلك من وسائل الوقوع في الزنى؛ فقد أمر الإسلام النساء أن يغضّضن من أبصارهن عما لا يحلّ لهن من العورات، فلا يحلّ للمرأة أن تنظر إلى ما بين السرة والركبة من الرجل الأجنبي، ولا تنظر إلى مثل ذلك من المرأة، لا في حلّبات المصارعة، ولا في المباريات الرياضية، ولا في الأفلام

(١) من حديث ابن عباس في «صحيح مسلم» برقم (١٣٤١) و«صحيح البخاري» برقم (١٨٦٢)، ٣٠٠٦، (٣٠٦١) وغيره.

(٢) أخرجه الطبراني كما في «صحيح الترغيب والترهيب».

السينمائية، ولا على شواطئ البحار والأنهار والمسابع، ولا غير ذلك، على أن المجتمعات التي ليس فيها قيود على كشف العورات، ولا على الخلوة والاختلاط، لم يؤد هذا فيها إلى تهذيب الدوافع الجنسية، إنما انتهت إلى سُعار مجنون، لا يرتوي ولا يهدأ، بل أدى إلى الشذوذ الجنسي بكل أنواعه.

وهكذا يأمر الله سبحانه المرأة بحفظ فرجها كما أمر الرجل، فقال سبحانه: ﴿وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ﴾ عما حَرَّمَ الله عليهن من الزنى، وكشف العورة لغير أزواجهن، ومن التمكين من جماعها، أو مسّها، أو النظر المحرم لها.

زينة المرأة الظاهرة: ﴿وَلَا يَبْدِينَ زِينَتَهُنَّ﴾.

أخرج ابن أبي حاتم عن مقاتل قال: بلغنا -والله أعلم- أن جابر بن عبد الله الأنصاري حدّث أن أسماء بنت مُرْشِدَة، كانت في نخل لها في بني حارثة، فجعل النساء يَدْخُلْنَ عليها غير مؤتزرات، فيبدو ما في أرجلهن -يعني: الخلاخل- ويبدو ما في صدورهن وذوائبهن، فقالت أسماء: ما أقبح هذا؟ فأنزل الله هذه الآية^(١).

فما هذه الزينة التي تظهر من المرأة؟ قالوا: إنها ثلاثة أشياء هي:

١- الملابس الجميلة. ٢- الحلي والقرط والخاتم.

٣- الخضاب في الكف، والكحل في العين.

قال تعالى: ﴿إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا﴾.

١- وقد فسرهما ابن مسعود رضي الله عنه، بالثياب الظاهرة، كالملاءة، والعباءة، وبهذا أخذ الإمام أحمد.

٢- وفسرها سعيد بن جبیر، والضحاك، والأوزاعي، بأنها الوجه والكفان.

٣- وفسرها ابن عباس رضي الله عنه، بأنها الكحل في العين، والخاتم، والخضاب في اليد.

لأن الزينة ليست جزءاً من جسد المرأة، وإنما الزينة شيء مكتسب، وليست من البدن، وهي شيء تتجمل به المرأة كالحلي، والخضاب، ونحو ذلك.

(١) ابن أبي حاتم (٢٥٢٣/٨).

أخرج الطبري بسند حسن: عن علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس رضي الله عنه قال: والزينة الظاهرة: الوجه، وكحل العين، وخضاب الكف، والخاتم، فهذه تظهر في بيتها لمن دخل من الناس عليها.

وقال ابن عباس أيضاً: الزينة التي تبديها المرأة لمحارمها: قرطها، وقلادتها، وسوادها، والخلخال والنحر، والشعر، فلا تبديه إلا لزوجها.

والزينة الظاهرة يراها كل من دخل على المرأة من الناس، أما الزينة الباطنة فلا يراها إلا محارمها، والزوج يرى كل شيء.

وقد أطلق اسم الزينة في القرآن على اللباس في قوله تعالى: ﴿يَبْنَىْ ءَادَمَ خُذُوْا زِيْنَتَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ﴾ [الأعراف: ٣١].

وقال: ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِيْنَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ﴾ [الأعراف: ٣٢].

وأطلقه أيضاً على التجميل واللباس الحسن في قوله تعالى: ﴿قَالَ مَوْعِدُكُمْ يَوْمَ الزِّيْنَةِ﴾ [طه: ٥٩].

والتزين يزيد المرأة حُسْنًا، ويُلَفَت الأنظار إليها، فَتُهِتِ المرأة عن إظهار زينتها إلا لزوجها ومحارمها، ومن ليس عندهم شهوة تتحرك من الرجال أو الطفل.

ومن الزينة: الملابس المُرَكَّشة، واللامعة، والمطرزة، وفاقعة الألوان؛ لأنها مجلبة للنظر.

وقد قسَّم بعض العلماء الزينة إلى قسمين: زينة خَلْقِيَّة وهي جسد المرأة كله، وما ظهر من هذه الزينة: هو الوجه والكفان، قيل: والقدمان عند أبي حنيفة وغيره.

وزينة مكتسبة مصطنعة، كالقُرط في الأذن، والخاتم في الإصبع، والخضاب في اليد والقدم، والكحل في العين، وهذه الزينة يتضمن إبداءها بالضرورة رؤية شيء من البدن؛ فإن رؤية الخاتم والقرط تستلزم رؤية اليد والأذن، ورؤية الكحل تستلزم رؤية العين، ورؤية الخضاب تستلزم رؤية الكف، وهكذا.

وعلى هذا فظهور هذه الزينة يتطلب بالضرورة ظهور الوجه والكفين.

وعلى تفسير ابن مسعود رضي الله عنه للآية، فإن المراد بالزينة الظاهرة: هي الثياب الخارجية، الساترة الفضفاضة، التي لا تصف جسد المرأة ولا تحدده، ولا تُظهر ما تحتها، وهذه

التياب الخارجية: كالملاءة والعباءة، إذ ليس في إمكان المرأة ستر المستور.

ومن المتفق عليه أن وجه المرأة إن كان فاتناً مثيراً للانتباه فإنه يجب ستره، وكذا لو كان هذا الجمال مصطنعاً بأدوات التجميل.

ومن المتفق عليه أيضاً: أن ستر الوجه أفضل وأولى من كشفه، وفيما عدا ذلك من الأحوال العادية فإن قضية كشف الوجه واليدين مسألة خلافية فقهية، وفيها أدلة لكلا الطرفين، وتجدر الإشارة إلى ضعف حديث ابن أم مكتوم، وفيه أن النبي ﷺ قال لأم سلمة وميمونة ؓ: «احتجبا منه»، فقالتا: إنه أعمى لا يبصر، فقال ﷺ: «أفعميا وان أنتما! ألستما تُبصرانه؟»^(١).

المرأة تغطي وجهها وهي محرمة، للحاجة:

وستر الوجه لا يشمل الصلاة والحج والعمرة؛ لأن إحرام المرأة في وجهها وكفيها، والمحرم في المناسك لا يجد في طوافه أو سعيه أو في الوقوف بعرفة، أو عند رمي الجمرات، قيد أنملة تخلو من وجود رجال أجانب، ومن الزحام تجد المنكب في المنكب، واليد تلمس اليد، والوجه في الوجه، في أداء جميع الشعائر؛ فالناس قد كثرت عما قبل، ولذا فلا يتسنى للمرأة أن تغطي وجهها وتكشفه ثم تغطيه وتكشفه وهكذا.

والحديث المنسوب إلى عائشة ؓ من أن إحداهن كانت تسدل جلبابها على وجهها إذا مرَّ بهنَّ الركب من الرجال الأجانب في الحج، في سنده مقال، ونص الحديث عن مجاهد عن عائشة ؓ قالت: «كان الركبان يمرون بنا ونحن مع رسول الله ﷺ محرمات، فإذا حاذوا بنا

(١) يُنظر: «ضعيف سنن أبي داود» برقم (٨٨٧) وهو في أبي داود برقم (٤١١٢) والترمذي (٢٧٧٨) و«المسند» (٢٦٥٣٧) والنسائي في «السنن الكبرى» (٩١٩٧، ٩١٩٨) و«شرح مشكل الآثار» للطحاوي (٢٨٨، ٥٥٧٥)، قال محققو المسند: إسناده ضعيف لجهالة حال نبهان - مولى أم سلمة - وبقية رجاله ثقات رجال الشيخين، والحديث معارض بأحاديث صحاح، منها حديث عائشة في المسند برقم (٢٤٥٤١) وفيه أن النبي ﷺ أذن لها أن تنظر إلى رجال الحبشة وهم يلعبون في المسجد، والحديث في البخاري (٩٤٩) ومسلم (٨٩٢). وحديث فاطمة بنت قيس في المسند أيضاً برقم (٢٧٣٢٧) وفيه أن النبي ﷺ أمرها أن تعتد في بيت ابن أم مكتوم لأنه رجل أعمى. والحديث إسناده صحيح على شرط الشيخين وهو في صحيح مسلم (١٤٨٠) والموطأ (٥٨٠/٢).

أَسْدَلْتُ إِحْدَانَا جَلْبَابَهَا مِنْ رَأْسِهَا عَلَى وَجْهِهَا، فَإِذَا جَاوَزُونَا كَشَفْنَاهُ»^(١).

وقد كانت الناس تطوف وهي على الدواب ركباناً، وكانت الفجوات التي تخلو من الناس حول الكعبة كثيرة، لقلّة أعداد الطائفين، بخلاف وقتنا هذا فالناس فيه متلاصقين.

وقد حرم الإسلام النقاب على المرأة وهي محرمة كما في حديث ابن عمر رضي الله عنهما أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: «وَلَا تَنْتَقِبِ الْمَرْأَةُ الْحَرَامَ وَلَا تَلْبِسِ الْقَفَازِينَ»^(٢).

ولكنه أجاز لها إسدال الغطاء عليه دون ملاسة:

فقد أخرج البيهقي بسنده في السنن (٤٧/٥) عن معاذة عن عائشة رضي الله عنها قالت: «الْمَحْرَمَةُ تَلْبِسُ مِنَ الثِّيَابِ مَا شَاءَتْ إِلَّا ثَوْبًا مَسَّهُ وَرَسٌ أَوْ زَعْفَرَانٌ، وَلَا تَتَبَرَّقِعَ، وَلَا تَلْتَمِّمْ، وَتَسْدِلُ الثَّوْبَ عَلَى وَجْهِهَا إِنْ شَاءَتْ»^(٣) وهذا إسناده صحيح.

وفي حديث أسماء بنت أبي بكر في الموطأ (٣٢٨/١) عن هشام بن عروة، عن فاطمة بنت المنذر أنها قالت: كنا نخمر وجوهنا ونحن محرمات، ونحن مع أسماء بنت أبي بكر الصديق^(٤).

قال ابن عبد البر في التمهيد ج ١٥: أجمعوا أن لها أن تسدل الثوب على وجهها من فوق رأسها سداً خفيفاً تستتر به عن الرجال، ولم يجيزوا لها تغطية وجهها.

وقال الخطابي في معالم السنن (١٧٩/٢): قد ثبت عن النبي ﷺ أنه نهى المحرمة عن النقاب، أما سدل الثوب على وجهها فقد رخص فيه غير واحد من الفقهاء، ومنعوها

(١) مسند أحمد (٢٤٠٢١) قال محققوه: إسناده ضعيف لضعف يزيد أبي زياد، وهو القرشي، وبقيّة رجاله ثقات رجال الشيخين، ورواية مجاهد بن جبر عن عائشة في الصحيحين، وقد أنكر يحيى بن سعيد القطان سماعه منها فيما ذكر ابن معين. وأخرجه أبو داود (١٨٣٣) وابن خزيمة (٢٦٩١) وابن ماجه (٢٩٣٥) والدارقطني في السنن (٢٩٥/٢) والبيهقي في السنن (٨٥/٥) وغيرهم، والحديث عن أبي داود وابن ماجه عن مجاهد عن عائشة، ومجاهد لم يسمع من عائشة، قال أبو حاتم الرازي: مجاهد عن عائشة: مرسل، انظر تحقيق أحمد شاکر ومحمد حامد الفقي، على مختصر سنن أبي داود ٣٥٤/٢ قلت: وأقل درجات هذا الحديث أنه موقوف على عائشة.

(٢) مسند أحمد (٦٠٠٣) من حديث طويل، والبخاري (١٨٣٨) وأبو داود (١٨٢٥) والترمذي (٨٣٣).

(٣) ينظر تحقيق مسند أحمد (٢٢/٤٠) قال محققوه: إسناده صحيح.

(٤) قال محققوه المسند: إسناده صحيح (٢٣/٤٠).

أن تلف الثوب أو الخمار على وجهها، أو تشد النقاب، أو تلتئم، أو تبرقع، وممن قال بأن للمرأة أن تسدل الثوب على وجهها من فوق رأسها: عطاء ومالك وسفيان الثوري وأحمد بن حنبل وإسحاق، وهو قول محمد بن الحسن، وقد علق الشافعي القول فيه.

وقد أوجب فقهاء الحنفية والمالكية على المحرمة بحج أو عمرة ستر وجهها بغير البرقع والنقاب، عند وجود الرجال الأجانب، وأجاز ذلك الشافعية والحنابلة^(١).

ضرب الخمار على الوجه: قال تعالى: ﴿وَلْيَضْرِبْنَ خُمُرَهُنَّ عَلَى جُيُوبِهِنَّ﴾ الخمار: هو الغطاء الذي يكون فوق الرأس؛ لستر الشعر والأذنين والعنق.

والجيب: هو فتحة الصدر التي يظهر منها العنق والنحر.

والمعنى: وليلقين بأغطية رؤوسهن على فتحات صدورهن، بحيث لا يظهر شيء من الجيد وفتحة الصدر، وقد كانت المرأة في الجاهلية تضع خمارها خلفها، وتظهر من صدرها فتحة واسعة، فيبدو العنق والقلادة، ويبدو النحر والجيد والأذن، فيتعرض لها الفساق، ولذلك أمرهن الله سبحانه أن يغطين شعورهن، وصدورهن، وأعناقهن، ونحورهن:

١- قالت عائشة ؓ: يرحم الله نساء المهاجرات الأول؛ لما أنزل الله ﴿وَلْيَضْرِبْنَ خُمُرَهُنَّ عَلَى جُيُوبِهِنَّ﴾ شققن رؤوسهن فاختمرن بها^(٢).

٢- وحديث أم سلمة ؓ قالت: لما نزلت ﴿يُذْنِبْنَ عَلَيْكَ عَنِّيَّ مِنْ جَلْبِيهِنَّ﴾ [الأحزاب: ٥٩] خرج نساء الأنصار كأن على رؤوسهن الغربان من الأكسية^(٣).

٣- وحديث عائشة ؓ قالت: ما رأيت أفضل من نساء الأنصار، لما نزلت هذه الآية، وقرأها كل رجل على أهل بيته -أي: على زوجته، وأمه، وأخته، وابنته- عمدن إلى رؤوسهن فاختمرن بها، فأصبحن خلف رسول الله ﷺ في صلاة الصبح كأن على رؤوسهن

(١) ينظر: المبدع شرح المقنع (١٦٨/٣) ونهاية المحتاج إلى شرح المنهاج ٣/٣٣٣ والشرح الكبير بحاشية الدسوقي ٥٤/٢ وحاشية ابن عابدين على الدر المختار (١٨٩/٢).

(٢) «صحيح البخاري» برقم (٤٧٥٩) وأبو داود (٤١٠٢) والنسائي في «السنن الكبرى» (١١٣٦٣) وغيرهم.

(٣) سنن أبي داود (٤١٠١) وهو في صحيح أبي داود (٣٤٥٦) وفي حجاب المرأة المسلمة ص (٣٨).

الغربان^(١)، هذه هي الزينة الظاهرة بالنسبة للأجانب، ثم تحدث القرآن عن إبداء الزينة الخفية.

زينة المرأة الخفية: أما الزينة الخفية كالرأس، والشعر، والعنق، وأطراف اليدين والرجلين التي تظهر من المرأة عادة داخل بيتها، فقد ذكر الله سبحانه اثني عشر نوعاً من الرجال يجوز للمرأة إظهار الزينة الخفية لهم، فقال تعالى: ﴿وَلَا يُبْدِيَنَّ زِينَتَهُنَّ﴾.

أي: ولا يُظهَرْنَ الزينة الخفية الباطنة إلا لمن يأتي ذكرهم في الآية، وهم:

١- البعل: وهو الزوج، وله أن ينظر إلى كل موضع في جسد المرأة، ويكره النظر إلى الفرج.

ثم ذكرت الآية بعده أحد عشر صنفًا من الأقارب، وهم:

٢- الأب. ٣- وأبو الزوج. ٤- والابن.

٥- وابن الزوج. ٦- والأخ. ٧- وابن الأخ.

٨- وابن الأخت. ٩- والنسوة المختصات بالصُّحبة من المسلمات، غير الكافرات.

١٠- والأمة مِلْكُ اليمين للمرأة.

١١- والتابعون من الرجال، مثل: الخادم، وكبير السن الذي ليست له حاجة في النساء، كالعُتَيْنِ، والمُخْصِي الذي لا يشتهي المرأة، وهو يَشُبُّ أهل البيت على ملء بطنه، من الرجال وهو المراد في قوله تعالى: ﴿غَيْرِ أُولَى الْأَرْبَةِ﴾ أي: الذين ليست لهم حاجة في النساء.

١٢- ومثلهم الأطفال الذين لا يعرفون شيئاً، ولم يَطَّلَعُوا على عورات النساء.

وكل هؤلاء ممن لهم صلة شديدة بالمرأة، ولذا: أباح الله تعالى أن تضع المرأة خمارها عندهم، وتبدي زينتها الخفية عند هؤلاء من ذوي محارمها من النسب أو الصهر.

وقد ذكرت الآية سبعة أصناف من المحارم بعد الزوج، كلهم لا يجوز للمرأة الزواج

(١) يُنظر هذا المعنى في سنن أبي داود (٤١٠٠) وعبدالرزاق في المصنف (١٢٠٨) والحاكم (٣٩٧/٢) وقال: هذا حديث صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه، وتفسير الطبري (١٢٠/١٨) والبيهقي في السنن (٨٨/٧) ومسنَد أحمد (٢٥٥٥١) من حديث صحيح طويل.

بواحد منهم، ويلحق بهؤلاء المحارم:

(أ) الأعمام. (ب) والأخوال، ولم يرد ذكرهما في الآية، وجاءت بهما السُّنَّة.

ويحرم على المرأة كذلك:

(ت) المحارم من الرضاع. (ث) والأصول وإن علوا. (ج) والفروع وإن سفلوا.

وقد ذكرت الآية الأفراد الذين يجوز للمرأة أن تبدي زينتها الخفية أمامهم، في قوله تعالى: ﴿وَلَا يُبْدِيَنَّ زِينَتَهُنَّ إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ أَوْ آبَائِهِنَّ أَوْ آبَاءَ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ أَبْنَاءِهِنَّ أَوْ أَبْنَاءَ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ إِخْوَانَهُنَّ أَوْ بَنِي إِخْوَانِهِنَّ أَوْ خَوَاتِمَهُنَّ أَوْ نِسَائِهِنَّ﴾ المسلمات دون الكافرات، أي: إنه لا يجوز للمرأة أن تنظر إلى المرأة فيما بين السرة والركبة، ولا يجوز للمرأة أن تتجرد من ثيابها أمام النساء غير المسلمات؛ لأنها أجنبية عنهن، وليست من ﴿نِسَائِهِنَّ﴾ المسلمات، فالضمير للمؤمنات، والكافرة ليست من نساء المؤمنين.

قال مجاهد: لا تضع المسلمة خمارها عند مشركة، ولا تقبلها -أي: لا تكون قابلة لها- لأن الله تعالى يقول: ﴿أَوْ نِسَائِهِنَّ﴾ فليست من نسائهن^(١).

وكتب عمر بن الخطاب إلى أبي عبيدة: أما بعد، فإنه بلغني أن نساء من نساء المسلمين يدخلن الحمامات مع نساء أهل الشرك، فإنه من قبلك، فلا يحل لامرأة تؤمن بالله واليوم الآخر أن ينظر إلى عورتها إلا أهل ملتها^(٢).

ومن المحظور على المرأة أن تنعت المرأة لزوجها، سيما لغير المسلمين فهو أشد؛ لأنهم غير مؤتمنين، وفي الحديث عن ابن مسعود رضي الله عنه: «لا تباشر المرأة المرأة، تنعتها لزوجها كأنه ينظر إليها»^(٣).

أما ملك اليمين الوارد في قوله تعالى: ﴿أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُنَّ﴾ فقد قال سعيد بن المسيب: المراد من الآية: الإماء دون العبيد، أي: النساء الرقيقات المشركات.

(١) أخرجه سعيد بن منصور وابن المنذر كما في «الدر المنثور» (٣٠/١١) والبيهقي (٩٥/٧).

(٢) رواه البيهقي في «السنن الكبرى» من طريق سعيد بن منصور (٩٥/٧).

(٣) من حديث ابن مسعود في البخاري برقم (٥٢٤١) و(٥٢٤٠).

وظاهر الآية يشمل العبيد والإماء، دون تفرقة بين المسلم والكافر.
والمملوك من شأنه ألا تمتد عينه إلى مالكة، وألاً يصف المرأة لغيره.
وظاهر الآية يفيد أنه يجوز للمملوك أن ينظر إلى سيده إذا كانت تملكه كله.
وكان النبي ﷺ قد وهب فاطمة عبداً، وكانت عليها ثياب إذا سترت رأسها لم تستر قدميها، فلما رأى النبي ﷺ ما تلقى قال: «إنه ليس عليك بأس، إنما هو أبوك وغلارك»^(١).
ثم قال تعالى: ﴿أَوِ التَّائِبِينَ غَيْرِ أُولَى الْأَرْبَةِ مِنَ الرِّجَالِ﴾ وهم صنف من الرجال اجتمع فيهم وصفان:

الوصف الأول: أنهم يتبعون المرأة لأخذ الصدقة، أو للخدمة.

والوصف الثاني: أنهم لا حاجة لهم في النساء، كالمحبوب، والعين، والمعتوه، والشيخ الهرم، فرخص الله في إبداء الزينة لهم؛ لرفع المشقة والخرج عن النساء، ولانتفاء الشهوة عند هؤلاء.

والنوع الثاني عشر: هم الأطفال الذين لا يعرفون شيئاً عن مفاتن المرأة ﴿أَوِ الْطِفْلِ الَّذِينَ لَمْ يَظْهَرُوا عَلَى عَوْرَاتِ النِّسَاءِ﴾ أي: قبل سن المراهقة، فإن اقترب الطفل من سن المراهقة، فلا يجوز له الدخول على النساء، سيما إن كان من الأقارب، أو الجيران، أو العمال غير المحارم، فإن الخوف منه أكثر من غيره، والفتنة أشد، لتمكّنه من الوصول إلى المرأة والخلوة بها.

وقد جاء في الحديث عن عقبة بن عامر ؓ: «إياكم والدخول على النساء»، قالوا: يا رسول الله، أفرأيت الحمو؟ قال: «الحمو: الموت»^(٢).

والحمو: أقارب الزوج غير آبائه وأبنائه كالأخ والعم وأبنائهما.

ثم نهى الله سبحانه النساء أن يضربن الأرض بأرجلهن عند سيرهن؛ لئلا يظهر ما خفي

(١) «سنن أبي داود» برقم (٤٦٠٦) و«صحيح سنن أبي داود» (٣٤٦٠) وإرواء الغليل (١٧٩٩)، والبيهقي (٩٥/٧).

(٢) البخاري (٥٢٣٢) ومسلم (٢١٧٢) والترمذي (١١٧١) وابن حبان (٥٥٨٨) و«سنن النسائي الكبرى» (٩١٧٢)

وابن أبي شيبة (٤٠٩/٤) و«المسند» (١٧٣٤٧، ١٧٣٩٦).

من زينتهن كالخلخال ونحوه، وحتى لا يؤدي صوت أقدامهن إلى انتباه الرجال، ولفت أنظارهم إليهن، كما كانت المرأة تفعل في الجاهلية.

أسند الطبري عن المعتمر عن أبيه قال: زعم حضرمي أن امرأة اتخذت برّتين من فضة، واتخذت جزعًا، فجعلت في ساقها، فمرت على القوم، فضربت برجليها الأرض فوق الخلخال على الجزع فصوّت، فنزلت الآية^(١).

وسماع الزينة أشد تحريكًا للشهوة من إبدائها، وهو أدنى بكثير مما تفعله المرأة في الوقت الحاضر، بعد أن تفتّن الناس في أنواع الأحذية، والكعب العالي المدبب المنتهي بقطعة صلبة حديدية، ونحوها.

وكانت الأرض قديمًا من تراب، وهي اليوم من الرخام والبلاط الرّنان.

وكانت المرأة لا تعمل بين صفوف الرجال، وهي اليوم تختلط بهم، وترفّل في زينتها في غير أهلها، وتفتنّ في لفت الأنظار إليها.

وكانت المرأة تسير على حافة الطريق تلتصق بالجدار حتى إنّ ثوبها ليتعلّق به من شدة حيائها وبُعدها عن الرجال، على عكس ما عليه أغلب نساء اليوم.

وفي معنى ضرب الأرض بأرجلهن: خروج المرأة متعطرة متطيّبة؛ فإن رائحة العطر تثير كوامن الرجال، وتهيج غرائزهم.

فعن أبي موسى رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وآله قال: «كل عين زانية، والمرأة إذا تعطرت فمرت بالمجلس فهي كذا وكذا» يعني: زانية^(٢).

والمقصود: نهى المرأة عن أي حركة أو فعل من شأنه إثارة الشهوة أو الفتنة، كالتعطر،

(١) «تفسير ابن عطية» (٤/ ١٨٠).

(٢) قال الترمذي: حديث حسن صحيح، برقم (٢٧٨٦) وهذا لفظه، وحسنه الألباني في صحيح الترمذي (٢٢٣٧) والمشكاة (٦٥) وحجاب المرأة المسلمة (٦٤) وأخرجه أبو داود برقم (٤١٧٣) وفي «سنن النسائي» (١٥٣/٨) و«المسند» (١٩٥١٣، ١٩٦٤٦)، بإسناد جيد عدا ذكر المرأة، وجاء ذكرها في حديث أبي موسى (١٩٥٧٨) بإسناد جيد أيضًا.

والمِشْيَةِ المتكَلِّفَةِ، وَرِقَّةُ الْكَلَامِ، وَنَحْوُ ذَلِكَ.

لقد نهى الإسلام المرأة أن تضرب الأرض برجلها، وفي معنى هذا ألا تفعل حركة مثيرة، أو صوتاً مسموعاً، أو تلبس ملابس تثير الانتباه، وتثير الغرائز.

ثم أمر الله تعالى جميع المؤمنين بالتوبة؛ ليردّهم إليه ردّاً جميلاً، أي: ارجعوا إلى طاعة الله فيما أمركم به من الصفات الجميلة والأخلاق الحميدة، واتركوا الأخلاق الرذيلة والصفات القبيحة؛ رجاء أن تفوزوا بخيري الدنيا والآخرة.

وفي الحديث عن ابن مسعود رضي الله عنه: «الندم توبة»^(١).

ويؤخذ من الآية أن الأمر إذا كان مباحاً ولكنه يُفَضَى إلى محرم فإنه يُمنع منه، ولما كان الإنسان عرضة لأن يقصّر في شيء مما ذكرته الآية، فقد أمر الله سبحانه في نهايتها جميع المؤمنين بالتوبة، ورتب عليها الفلاح في الدنيا والآخرة، فكل مؤمن يحتاج إلى الرجوع إلى الله تعالى ظاهراً وباطناً، ليسلم من آفات الدنيا وعذاب الآخرة.

عَاشِرًا: تَشْرِيعُ الزَّوْاجِ

٣٢- ﴿وَأَنكِحُوا الْأَيْمَىٰ مِنكُمُ وَالصَّالِحِينَ مِن عِبَادِكُمُ وَإِمَائِكُمُ إِن يَكُونُوا فُقَرَاءَ يُغْنِهِمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ ۗ وَاللَّهُ وَسِعُ عِلْمِهِ ۝٣٢﴾

أردف الله سبحانه بيان ما يعفُّ المؤمنون والمؤمنات به أنفسهم، فيغضون به أبصارهم، ويحفظون فروجهم، وهو الزواج، فهو أعظم وسيلة من وسائل حفظ المجتمع ووقايته من الوقوع في الفاحشة، بل إن الزواج يكون سبباً من أسباب الغنى والثراء.

﴿إِن يَكُونُوا فُقَرَاءَ يُغْنِهِمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ ۗ﴾.

والزواج قد يكون واجباً، وذلك إذا كان الإنسان عنده القدرة المالية على النفقة، والقدرة البدنية على الزواج، وكان يخشى على نفسه الوقوع في الزنى، فإن الزواج يجب

(١) «صحيح سنن ابن ماجه» (٣٤٢٩) عن ابن مسعود و«المسند» (٤٣٣/١) برقم (٣٥٦٨، ٤٠١٢، ٤٠١٦)

قال محققوه: حديث صحيح، بإسناد حسن، لأن فيه زياد بن أبي مريم مختلف فيه، وهو في «المستدرک»

(٢٤٣/٤) وابن حبان (٦١٢) الإحسان، وأبو يعلى (٤٩٦٩) والحاكم (٢٤٣/٤) وصححه ووافقه الذهبي.

عليه في هذه الحالة.

فإذا كان لا يخشى على نفسه الفتنة، ولا يخشى الوقوع في الزنى، ولم تكن عنده القدرة المالية أو البدنية، فإن الزواج حيثئذ يكون أمراً مستحباً ومندوباً إليه.

وقد أمر الله جماعة المسلمين وأولياء الأمور أن يزوجوا الأيامي، ممن تجب نفقتهم عليهم فقال: ﴿وَأَنْكِحُوا الْأَيَمَّ يَنْكَرُ﴾ أي: زوّجوا من يحتاجون إلى الزواج من الأحرار والأيامي ممن لا زوج لهم، ولا زوج لهم.

والأيم: هو الرجل الذي لا زوج له، سواء أكان ثيباً أم عزباً، سبق له أن تزوج أم لا، وكذلك المرأة التي لا زوج لها يقال لها: أيم.

وأنكحوا أيضاً الصالحين منكم ومن عبيدكم وإمائكم، أي: زوّجوا المرأة أو الرجل من الأرقاء، ويراد بالصلاح: الصلاح في الدين، والصلاح للزواج، وخص العبيد والإماء بالذكر لكثرة وجود الفساد فيهما.

والأيم في الأصل: من أوصاف النساء، وإطلاقه على الرجل للمشاركة والمشكلة.

١- صحّ عن أبي هريرة ؓ أن رسول الله ﷺ قال: «لا تُنكح الأيم حتى تُستأمر، ولا تُنكح البكر حتى تُستأذن»، قالوا: يا رسول الله، وكيف إذنها؟ قال: «أن تسكت»^(١)

ويُقصد بالأيامي أيضاً: الحرائر؛ ووصف الله تعالى العبيد والإماء بالصالحين، ورغب في تزويجهم؛ فزوّجهم دفعاً لمشقة العنت عنهم، وهذا يفيد أنهم لو كانوا غير صالحين صلاحاً دينياً فإن تزويجهم لا يكون مستحباً.

٢- وجاء في حديث ابن مسعود ؓ أن رسول الله ﷺ قال: «يا معشر الشباب، من استطاع منكم الباءة فليتزوج؛ فإنه أغض للبصر، وأحصن للفرج، ومن لم يستطع فعليه بالصوم فإنه له وجاء»^(٢).

والوجاء بكسر الواو: رضّ الأنثيين، نوع من الخصاء، شُبّه الصوم في قَطْعِهِ للشهوة

(١) «صحيح البخاري» برقم (٥١٣٦) وانظر: (٦٩٦٨، ٦٩٧٠) و«صحيح مسلم» برقم (١٤١٩).

(٢) من حديث ابن مسعود في البخاري برقم (٥٠٦٦) وانظر: (١٠٩٥) ومسلم برقم (١٤٠٠).

بالوجاء في قطعه للنسل.

٣- وعن معقل بن يسار رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «تزوجوا الودود الولود؛ فإني مكاثر بكم الأمم يوم القيامة»^(١).

٤- وفي صحيح مسلم وغيره، عن عبد الله بن عمرو رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «الدنيا متاع، وخير متاعها المرأة الصالحة»^(٢).

لا نكاح إلا بولي:

والزواج هو الطريق المشروع للتناسل، وحفظ الشهوة، وصيانة الأنساب.

وفي قوله تعالى: ﴿وَأَنْكِحُوا﴾ دليل على أن المرأة يزوّجها وليّها، ولا تزوّج نفسها؛ سواء أكانت بكرًا أم ثيبًا، فإن الخطاب موجه إلى الأولياء، ولذا قال ﷺ في الحديث الذي يرويه أبو موسى رضي الله عنه: «لا نكاح إلا بولي»^(٣).

والقول بغير هذا قول مرجوح ليس فيه نص صحيح صريح.

وعن عائشة رضي الله عنها أن رسول الله ﷺ قال: «أيما امرأة نكحت بغير إذن وليها فنكاحها باطل فنكاحها باطل فنكاحها باطل، فإن دخل بها فلها المهر بما استحل من فرجها، فإن اشتجروا فالسلطان ولي من لا ولي له»^(٤)، فإن لم يوجد لها وليّ فالقاضي وليّ من لا وليّ له.

(١) «المستدرک» (١٦٢/٢) بتصحیح الحاكم وموافقة الذهبي، والطبراني في الأوسط (٥٠٩٥) وسعيد بن منصور في سننه (٤٩٠) والبخاري (١٤٠٠) كشف، وصححه الألباني بشواهد في «الإرواء» برقم (٧٨٤) وصححه العراقي في تخريج «الإحياء» (٩٧٠/٢) وهو في «المسند» عن أنس (١٨٥/٣) برقم (١٢٦١٣)، (١٣٥٦٩) صحيح لغيره وإسناده قوي (محققوه) وابن حبان (٤٠٢٨) الإحسان، وحسنه الهيثمي في المجمع (٢٥٨/٤).

(٢) «صحيح مسلم» برقم (١٤٦٧).

(٣) أخرجه أبو داود برقم (٢٠٨٥) والترمذي برقم (١١٠١) عن أبي موسى، وهو في «المسند» برقم (١٩٥١٨، ١٩٧١٠، ١٩٧٤٦)، حديث صحيح، وإسناده اختلف فيه على أبي إسحاق في وصله وإرساله ووضله أصح، كما قال محققوه. وابن حبان (٤٠٧٧) والطبراني في الأوسط (٦٨٠٥) وغيرهم.

(٤) أخرجه أبو داود برقم (٢٠٨٣) والترمذي برقم (١١٠٢) وهذا لفظه، وأحمد في المسند (٢٤٣٧٢) بنحوه، حديث صحيح، وفي إسناده ابن لهيعة، - ضعيف - وبقية رجاله ثقات رجال الشيخين (محققوه) وأخرجه أبو يعلى (٤٨٣٧) وابن عبد البر في التمهيد (٨٧/١٩) والبيهقي في السنن (١٠٦/٧). وغيرهم.

الزواج من أسباب الثراء :

ثم إن الراغب في زواج المرأة الأيم قد يكون فقيراً، فهل يرده الولي؟ الجواب: لا يرده فإن الله تعالى قد وعد الفقير بالغنى وسعة الرزق، فليس الفقر حائلاً دون إتمام الزواج؛ لأن الأرزاق بيد الله، وكم من أناس كانوا فقراء قبل الزواج، ثم صاروا أغنياء بعده، وكم من زوجين بدأت حياتهما صفراً، ولما كثرت أولادهما كثرت أرزاقهما.

قال ابن مسعود رضي الله عنه: التمسوا الغنى في النكاح.

وقال ابن عباس رضي الله عنه: أمر الله سبحانه بالنكاح ورغبهم فيه، وأمرهم أن يزوجوا أحرارهم وعبيدهم، ووعدهم في ذلك الغنى^(١).

وقال أبو بكر رضي الله عنه: أطيعوا الله فيما أمركم به من النكاح؛ ينجز لكم ما وعدكم من الغنى^(٢).

وقال عمر رضي الله عنه: ابتغوا الغنى في الباءة^(٣).

وقد أخذ الله سبحانه عهداً على نفسه -فضلاً منه وكرماً- أن يُعين الفقير الذي يريد العفة بالزواج.

وكذا الرقيق الذي يريد أن يكون حراً، فيتفق مع سيده على مبلغ من المال يدفعه له أقساطاً؛ ليكون حراً في نهاية المدة، وأيضاً المجاهد في سبيل الله.

كما في حديث أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «ثلاثة حق على الله عونهم: الناكح يريد العفاف، والمكاتب يريد الأداء، والغازي في سبيل الله»^(٤).

(١) «تفسير الطبري» (٢٧٤/١٧) وابن أبي حاتم (٢٥٨١/٨).

(٢) ابن أبي حاتم (٢٥٨٢/١٨).

(٣) عبد الرزاق (١٠٣٨٥).

(٤) «المسند» (٢٥١/٢) برقم (٧٤١٦) بإسناد قوي ورجال ثقات (محققوه) والترمذي برقم (١٦٥٥) و«سنن النسائي» (٦١/٦) برقم (٣١٢٠، ٣٢١٨) وابن ماجه برقم (٢٥١٨) و«صحيح سنن ابن ماجه» (٢٠٤١) والحاكم (١٦٠/٢) وابن حبان (٤٠٣٠) والإحسان، وحسنه الألباني في «صحيح سنن الترمذي» (١٣٥٢) وهو في البيهقي (٧٨١٧) وعبد الرزاق (٩٥٤٢) وصححه إسناده أحمد شاكر في حاشية «المسند» (٤٩/١٣) وحسنه البغوي في «شرح السنة» (٧/٩).

وقد زوّج النبي ﷺ رجلاً لم يجد شيئاً يدفعه مهراً، زوّجه بخاتم من حديد، وزوّج آخر بما معه من القرآن.

قال عمر بن الخطاب ؓ: عجبْتُ لمن يبتغي الغنى بغير النكاح، والله تعالى يقول: ﴿إِنْ يَكُونُوا فُقَرَاءَ يُغْنِهِمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ﴾.

وقد بيّن سبحانه أن فقر الرجل لا ينبغي أن يكون سبباً مانعاً من قبول تزويجه ما دام رجلاً صالحاً على خُلُق، فإن كان مُعْسِراً فقد تكفل الله له ولغيره بالرزق كما في حديث أبي حاتم المزي: «إذا جاءكم من ترضون دينه وخلقه فأنكحوه إلا تفعلوا تكن فتنة في الأرض وفساد قالوا يا رسول الله وإن كان فيه؟ قال: إذا جاءكم من ترضون دينه وخلقه فأنكحوه، ثلاث مرات»^(١).

وفي حديث أبي هريرة ؓ أن النبي ﷺ قال «إذا خطب إليكم من ترضون دينه وخلقه فزوجوه، إلا تفعلوا تكن فتنة في الأرض وفساد عريض»^(٢).

فلا تنظروا إلى فقرهم، بل انظروا إلى دينهم واستقامتهم.

وأما الذي لا يملك نفقة الزواج، ولا يملك النفقة على الزوجة، فعليه أن يصبر، وعليه بالصيام كما بيّن النبي ﷺ، فإن الصيام أغض للبصر، وأحصن للفرج، وهو له وجاء ووقاية من الوقوع في الزنى.

ثم ختم الله الآية ببيان أن الله تعالى واسع الغنى لا تنفذ خزائنه، ولا ينتهي ما عنده من خير، ولا يعزب عن علمه مثقال ذرة في الأرض ولا في السماء.

وقد قرّن وصف الواسع بالعلم في هذه الآية، وقرن بالحكمة في قوله تعالى: ﴿وَإِنْ يَنْفَرَقَا يُغْنِ اللَّهُ كُلًّا مِنْ سَعَتِهِ وَكَانَ اللَّهُ وَاسِعًا حَكِيمًا﴾ [النساء].

(١) قال الترمذي: حديث حسن غريب، وأبو حاتم المزي له صحة، ولا نعرف له عن النبي ﷺ غير هذا الحديث، جامع الترمذي برقم (١٠٨٥) وقد حسنه الألباني برقم (٨٦٦) في صحيح الترمذي.

(٢) جامع الترمذي (١٠٩٦) وحسنه الألباني برقم (٨٦٥) في صحيح الترمذي، وفي الإرواء (١٦٦٨) والسلسلة الصحيحة (١٠٢٢).

ثَلَاثَةُ أَحْكَامٍ فِي هَذِهِ الْآيَةِ

٣٣- ﴿وَلْيَسْتَغْفِرِ الَّذِينَ لَا يَجِدُونَ نِكَاحًا حَتَّى يُغْنِيَهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَالَّذِينَ يَبْتَغُونَ الْكَذِبَ مِمَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ فَكَاتَبُوهُمْ إِنْ عَلِمْتُمْ فِيهِمْ خَيْرًا وَءَاتُوهُمْ مِنْ مَالِ اللَّهِ الَّذِي ءَاتَاكُمْ وَلَا تُكْرِهُوا فَتِيْنَكُمْ عَلَى الْإِغْيَاءِ إِنْ أَرَدْتُمْ نَحْصًا لِلْبَنُوْغِ عَرَضَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَنْ يُكْرِهِنَّ فَإِنَّ اللَّهَ مِنْ بَعْدِ إِكْرَاهِهِنَّ غَفُوْرٌ رَّحِيْمٌ﴾

اشتملت هذه الآية على ثلاثة أحكام هي:

- ١- أمر العزب بالعفة. ٢- إعانة المكاتب. ٣- إكراه الإماء على البغاء.

الْحُكْمُ الْأَوَّلُ: أَمْرُ الْعَزْبِ بِالْعِفَّةِ

وقد جاء هذا في قوله تعالى ﴿وَلْيَسْتَغْفِرِ الَّذِينَ لَا يَجِدُونَ نِكَاحًا حَتَّى يُغْنِيَهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ﴾.

فقد أمر سبحانه في هذه الآية غير القادرين على الزواج، أن يلازموا العفاف وقمع الشهوة مدة انتظارهم تيسير الزواج لهم، ويصونوا أنفسهم عن الفواحش، ويجتهدوا في عفتها، ويسلكوا طريق الفضيلة، ويستمروا على ذلك حتى يرزقهم الله ما يستعينون به على إتمام الزواج، وهذا وعد من الله تعالى أنه سيعينهم بما يُيسّر لهم العفاف والإحصان، فالذين لا يستطيعون الزواج لفقر أو غيره عليهم أن يطلبوا العفة عما حرم الله، حتى يغنيهم الله ويسر لهم الزواج.

وفي الحديث عن ابن مسعود رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «يا معشر الشباب من استطاع منكم الباءة فليتزوج ومن لم يستطع فعليه بالصوم فإنه له وجاء»^(١).

وفسر عكرمة الآية بالرجل يرى امرأة فيشتهيها، فإن كانت له زوجة فليذهب إليها وليقض حاجته منها، وإن لم تكن له زوجة فلينظر في ملكوت الله، حتى يغنيه الله، ولا بأس من حمل الآية على المعنيين معاً.

وجواب الأمر في الآية ﴿وَلْيَسْتَغْفِرِ﴾ محذوف، بمعنى لا يجدون نكاحاً لفقرهم أو لفقر أوليائهم، أو امتناعهم عن تزويجهم، فعليهم أن ينتظروا فرج الله تعالى وتيسيره عليهم.

(١) الحديث متفق عليه البخاري (٥٠٦٥ و ٥٠٦٦) ومسلم (١٤٠٠) وهو في صحيح الترمذي (٨٦٢) وصحيح ابن ماجه (١٨٤٥).

الْحُكْمُ الثَّانِي: إِعَانَةُ الْمُكَاتَبِ

وقد جاء هذا الحكم في قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يَبِغُونَ الْكِتَابَ مِمَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ فَكَاتِبُوهُمْ إِنْ عَلِمْتُمْ فِيهِمْ خَيْرًا وَآتُوهُمْ مِّن مَّالِ اللَّهِ الَّذِي آتَاكُمْ﴾.

وهكذا ذكرت الآية حكمًا ثانيًا يتعلق بمن يرغب في الحرية من الموالى والإماء بمكاتبة سيدة على مال يعطيه له ويعتقه، وهذا يتعلق، بالمكاتب.

والمكاتب: هو العبد الرقيق الذي يريد أن يكون حرًا، فيتفق مع سيده على أن يعطيه قدرًا من المال على أقساط، وأوقات مختلفة، وبعد أن يدفع له هذا القدر من المال يعتقه.

وسُمِّي مكاتبًا، لأنهم كانوا يسجلونه في عقد أقساط عوض الحرية، بصك يكتبه كاتب بينهما، وكان هذا معروفًا في الجاهلية، وهذه المكاتب كانت باختيار السيد، فجاءت هذه الآية لتأمر به أمرًا، فإن عرض العبد شراء نفسه من سيده وجب عليه تلييته، وهذا الأمر محمول على الندب عند الجمهور، وأوجه بعضهم.

ومفهوم الآية: أن العبد إذا لم يطلب الكتابة: لا يبتديء سيده بكتابته، وأن سيده إذا لم يعلم فيه خيرًا فلا يأمر بكتابته.

ويراد بالخير: ما هو أخروي وما هو دنيوي، من صلاح وتقوى، وقدرة على الكسب وأخذ بالأسباب، وأدب وحسن خلق، وحسن تعامل مع الآخرين.

وسبب نزول هذه الآية: أن عبدًا لحويطب بن عبد العزى يقال له: صبيح، سألته الكتابة، فأبى، فأنزل الله الآية، فكاتبه على مئة دينار، ووهب له منها عشرين دينارًا فأداها، وقُتل يوم حنين في الحرب^(١).

وأول عبد كُتب في الإسلام هو أبو أمية، كان عبدًا عند عمر رضي الله عنه فكاتبه وأعتقه، وهذا معنى: ﴿فَكَاتِبُوهُمْ إِنْ عَلِمْتُمْ فِيهِمْ خَيْرًا﴾.

وهذا أمر من الله تعالى لمن يملكون العبيد أن يكاتبوهم، ويزوِّجهم إن علموا فيهم الفلاح والرشد والعقل الصحيح، وأنهم قادرون على سداد ما اتفقوا عليه، ليحرِّروا أنفسهم من الرق بكسب أيديهم، وعلى أسيادهم أن يتنازلوا عن جزء من هذه الأقساط، وأن يدفعوا

(١) «زاد المسير» (٣٧/٦).

إليهم من الصدقة ومن الزكاة؛ ليعينوهم على الخلاص من الرق، كما قال تعالى في مصارف الزكاة: ﴿وَفِي الرِّقَابِ﴾ [التوبة: ٦٠]. وهي الزكاة تُعطى لهؤلاء المكاتبين.

في صحيح البخاري وغيره: أن بريرة دخلت على عائشة رضي الله عنها تستعين بها على دفع خمس أواق، فُسِّطت عليها خمس سنوات مقابل عتقها من الرق، فعرضت عليها عائشة أن تدفع لها المبلغ كله مرة واحدة، ويكون لها الولاء عليها، فلم يقبل أهلها إلا أن يكون الولاء لهم، فذكرت ذلك للنبي ﷺ فقال: «اشترى بها فأعتقها، فإنما الولاء لمن أعتق» ثم قام رسول الله ﷺ فقال: «ما بال رجال يشترطون شروطاً ليست في كتاب الله، من اشترط شرطاً ليس في كتاب الله فهو باطل، شَرَطَ الله أحق وأوثق»^(١).

وفي حديث علي بن أبي طالب رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال في قوله تعالى: ﴿وَأَتَوْهُمْ مِنْ مَالِ اللَّهِ الَّذِي آتَيْنَاكُمْ﴾ قال: «يُتْرَكُ للمكاتب الربع»^(٢).

وقال تعالى عن المكاتبين: ﴿وَأَتَوْهُمْ مِنْ مَالِ اللَّهِ الَّذِي آتَيْنَاكُمْ﴾.

جاء في الحديث عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «ثلاثة حقٌّ على الله عونهم: الناكح يريد العفاف، والمكاتب يريد الأداء، والمجاهد في سبيل الله»^(٣).

والمكاتب: هو الذي يريد أن يتحرر. والغازي: هو المجاهد في سبيل الله.

والناكح: هو الذي يريد الزواج، وهؤلاء الثلاثة وجب عليكم أن تعينوهم كما جاء في أول هذا الحديث، وتعطوهم من مال الله الذي آتاكم، كما جاء في الآية السابقة.

الْحُكْمُ الثَّالِثُ: الْإِكْرَاهُ عَلَى الْبِغَاءِ

وقد جاء هذا الحكم في قوله تعالى: ﴿وَلَا تُكْرِهُوا فَتِيَّتَكُمْ عَلَى الْبِغَاءِ إِنْ أَرَدْنَ تَحَصُّنًا لِنَبْلَغُوا عَرْضَ الْحَيَوةِ الدُّنْيَا﴾.

(١) «صحيح البخاري» برقم (٢٥٦٠) وانظر: (٤٥٦) و«صحيح مسلم» (١٠٧٥) وبنحوه (٦، ١٥٤٠).

(٢) صححه الحاكم (٣٩٧/٢) وأقره الذهبي وقال: رُوي موقوفاً. وأخرجه الضياء المقدسي في «المختارة»

(٥٧٦) وعبد الرزاق (٥٧٧) والصحيح وقفه على عليٍّ وله حكم الرفع.

(٣) سبق تخريجه في الآية السابقة.

هذا: وبمناسبة ذكر العبيد والإماء فقد ذكرت الآية حكمًا ثالثًا يتعلق بهم، وهو أن الرجل قد تكون عنده إماء فيكرهن على الزنى؛ لتأتين له بالمال، وقد تكون الجارية تريد العفة وسيدها يأبى ذلك؟

وكان لعبد الله بن أبي بن سلول جوارٍ ست، يكرهن على الزنى، فأسلمت منهن ثلاث: مُعَاذَة، ومُسيكة، وأميمة، فجاءت مُعَاذَة ومُسيكة إلى الرسول ﷺ تشكوان له ذلك، فأنزل الله الآية ﴿وَلَا تُكْرِهُوا فَتِيَّتَكُمْ عَلَى الْبَغَاءِ﴾.

وهؤلاء البغايا الست هن: مُعَاذَة ومُسيكة وأميمة، وعمرة، وأزوى، وقتيلة.

وكان عبد الله بن أبي يكرهن على البغاء بعد الإسلام^(١).

وكان قد أعد مُعَاذَة لإكرام ضيوفه، فإذا نزل عليه ضيف أرسلها إليه ليوافعها، فشكت مُعَاذَة ذلك إلى أبي بكر ﷺ، فأمر النبي ﷺ أبا بكر أن يعتقها، فصاح عبد الله: مَنْ يَعْذِرُنَا مِنْ مُحَمَّدٍ، يَغْلِبُنَا عَلَى مَمَالِكِنَا؟ وكان هذا قبل أن يتظاهر عبد الله بالإسلام.

وكان أهل الجاهلية إذا كان لأحدهم أمة أرسلها تزني، وجعل عليها ضريبة يأخذها منها كل وقت.

فلما جاء الإسلام نهى الله المسلمين عن ذلك، فقالت مُعَاذَة لمُسيكة: إن هذا الأمر الذي نحن فيه لا يخلو من وجهين، فإن يك خيرًا فقد استكثرنا منه، وإن يك شرًا، فقد آن لنا أن ندعه.

ورد أن إحدى الجاريتين أتت لسيدها (عبد الله) بِبُرٍّ، وجاءت الأخرى بدينار، فقال لهما: ارجعا فازنيا، فقالتا: والله لا نزني، فقد جاء الإسلام وحرم الزنى، وشكتا ذلك إلى رسول الله ﷺ فأنزل الله الآية^(٢).

والأصل في المملوكة أن يُحصن سيدها، ويأمرها بالعفة، أما أن يأمرها بالزنى وهي

(١) «أسباب النزول» للنيسابوري ص ٢٧٤ و«الدر المنثور» (٥٠/١١) وما بعدها.

(٢) يُنظر: أبو داود الطيالسي، والبخاري (٢٢٣٩) والطبراني (١١٧٤٧) قال الهيثمي في المجمع (٨٢/٧): رجاله رجال الصحيح.

تمتنع وتريد العفة فذلك منتهى الخسة والدناءة، والبغاء اسم للمرأة المحترفة للزنى.

روى مالك عن الزهري أن رجلاً من أسرى قريش، قد جعل عند عبد الله بن أبي في يوم بدر، وكان هذا الأسير يراود مُعَاذَةَ عن نفسها، وكانت تمتنع منه؛ لأنها أسلمت، وكان عبد الله بن أبي يضربها على امتناعها منه، رجاء أن تحمل من الأسير القرشي، فيطلب فداء رقه من ابن أبي، وكان الزاني بالأمّة يفتدي ولده بمئة من الإبل، يدفعها لسيد الأمّة، فشكته إلى النبي ﷺ فنزلت الآية^(١).

أما في مكة فقد كان فيها تسع بغايا شهيرات وَضَعْنَ على بيوتهن رايات؛ ليُعرفهن الرجال.

وهن كما ذكر الواحدي: أم مهزول، جارية السائب المخزومي، وأم غليظ، جارية صفوان بن أمية، وحنة القبطية، جارية العاص بن وائل، ومزنة، جارية مالك بن عميلة بن السباق، وجلّالة، جارية سهيل بن عمرة، وأم سويد، جارية عمرو بن عثمان المخزومي، وشريفة، جارية ربيعة بن أسود، وقريبة، جارية هشام بن ربيعة، وقرينة، جارية هلال بن أنس، وكانت بيوتهن تسمى المواخير.

وكان البغاء في الجاهلية من أصناف النكاح، ففي الصحيح من حديث عائشة: أن النكاح في الجاهلية كان على أربعة أنحاء، وبيان هذه الأربع فيما يأتي:

(أ) النكاح العادي المعروف عن طريق الخطبة، والمهر، والولي، والشاهدين.

(ب) ونكاح الاستبضاع: وكانوا يفعلونه رغبة في نجابة الولد، فيرسل الرجل زوجته إلى فلان بعد طهورها من الحيض؛ لتحمل منه، ولا يأتيها زوجها إلا إذا تبين حملها منه.

(ج) ونكاح الرهط: وهو أن المرأة ينكحها نحو عشرة رجال، فإذا وضعت اختارت أحدهم، وقالت له: هذا ولدك، وليس في وسعه أن يمتنع من ذلك.

(د) نكاح البغايا: ممن يَنْصِبْنَ رايات على أبوابهن، فمن أراد الزنى دخل عليها، فإذا وضعت حملها أتوا بالقافة، الذين يعرفون نسبة الولد إلى أبيه، فيُلْحِقُونَهُ به.

فلما بُعث محمد ﷺ هَدَمَ هذه الأنواع من نكاح الجاهلية، إلا النكاح المعروف اليوم.

(١) «تفسير الطبري» (١٧/٢٩٢) وعبد الرزاق (٢/٥٩) وابن أبي حاتم (٨/٢٥٨٩).

وكان البغاء بعد ذلك باختيار المرأة، لأخذ الأجرة عليه، وكان الناس يتخذون الإماء للخدمة والتسرّي بهن، وبعض الناس يتخذونهنّ للاكتساب عن طريقهن، وكانوا يسمون أجر البغي: مهرًا.

ومن هنا جاء في الحديث: عن رافع بن خديج رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «مهر البغي خبيث، وكسب الحجام خبيث، وثمر الكلب خبيث»^(١).

وفي حديث أبي مسعود الأنصاري رضي الله عنه: أن النبي ﷺ نهى عن ثمن الكلب، ومهر البغي، وحلوان الكاهن^(٢)، أي: كسبه.

وبهذا يُعلم أن البغاء كان منتشرًا معمولًا به قبل الإسلام، وأن الإسلام هو الذي حرّمه وعده من الزنى.

فقد جاء في سفر التكوين في الإصحاح الثامن والثلاثين: فخلعت عنها ثياب ترمّلها، وتغطّت بوبرق، وتلففت وجلست في مدخل (عينائم) الذي على الطريق، ثم قال: فنظرها يهوذا وحسبها زانية؛ لأنها كانت قد غطت وجهها، فمال إليها على الطريق، وقال: هاتي أدخل عليك، فقالت: ماذا تعطيني؟ فقال: أرسل لك جدي معزى من الغنم، ثم قال: ودخل عليها فحبلت منه.

والخطاب في قوله تعالى: ﴿وَلَا تُكْرَهُوا قِيَتَكُمْ عَلَى الْبِغَاءِ﴾ موجه إلى المسلمين، وكان العمل بالبغاء عند أهل الجاهلية قد استمر إلى السنة الأولى بعد الهجرة مع تحريم الإسلام له منذ اللحظة الأولى.

وكان عبد الله بن أبيّ قد تردد زمنًا في الدخول في الإسلام، ولما رأى قومه قد دخلوا في الإسلام دخل فيه كارهاً، وهو مُصرٌّ على النفاق، وقد أظهر إسلامه في السنة الثانية للهجرة، ونزل أوائل سورة النور في حدود السنة الثانية للهجرة، وفيها تأكيد على تحريم

(١) من حديث رافع بن خديج في «المسند» (٤٦٤/٣) برقم (١٥٨٢٧، ١٧٢٧٠، ١٨٥١٢)، بإسناد صحيح على شرط مسلم ورجال ثقات، وأخرجه مسلم (١٥٦٨) والترمذي (١٢٧٥) والطبراني في الكبير (٤٢٥٨) وابن أبي شيبة (٣٧٥/٤) وابن حبان (٥١٥٢) وأبو داود (٣٤٢١).

(٢) البخاري برقم (٢٢٣٧، ٢٢٨٢، ٥٣٤٦، ٥٧٦١) ومسلم برقم (١٥٦٧).

البغاء بشكل عام، وتدخل فيها قصة إمام عبد الله بن أبيّ، سواء أكان إسلامه قبل نزول هذه الآية أم بعده.

وكان الإسلام قد حرّم الزنى تحريمًا قاطعًا من مبدأ ظهوره، وفُرضت عقوبته في أول سورة النور، وأبطل الإسلام الأنكحة الجاهلية الثلاثة، ومنها البغاء وهو نوع من الزنى، إلا أن الزنى يكون سرًا، والبغاء يكون علنًا.

وفي البغاء يُلْحِقُونَ الأبناء بأبائهم على وجه التقريب، فهو شبيه بالاستلحاق، وفي الزنا خلط للأنساب.

أما قوله تعالى: ﴿إِنْ أَرَدْنَ تَحَصُّنًا﴾ فهو بيان للواقع الذي نزلت فيه الآية، وهو إكراه المملوكة على الزنى مع نفورها منه، أي: لا تُجْبِرُوا إماءكم على الزنى وهُنَّ يُرْذَنّ العفة، فالإكراه لا يكون إلا مع عدم الرضى، وإرادة التحصن هي غالب أحوال الإماء البغايا اللاتي أسلمن.

والشرط الذي في الآية دليل على تحريم الإكراه على البغاء؛ لأن الإماء المسلمات يَكْرَهُنَّ ذلك، فهو شرط خرج مخرج الغالب.

وكان الله تعالى يقول: كيف يقع منكم إكراههن على البغاء، وهُنَّ يُرْذَنّ العفة، ألم يكن الأولى بكم والأليق بكرامتكم، أن تعينوهن على العفاف والطهر، بدل أن تُكرهوهن على ارتكاب الفاحشة من أجل عَرَض من أعراض الحياة الدنيا؟ ولهذا قال تعالى: ﴿لِيَتَّقُوا عَرَضَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ فتحصلوا على المال عن طريق الفاحشة والرذيلة.

وعَرَضُ الحياة الدنيا: هو الأجر الذي تكتسبه الإماء من البغاء، وهو ما كان يسمى بالمهر، أي: لا تجبروهن على البغاء طلبًا للمال، وهن يُرْذَنّ العفة وأنتم تأبونها، وفي هذا غاية التشنيع لفعلمهم القبيح، ﴿وَمَنْ يَكْرِهِنَّ﴾ على الزنى ﴿فَإِنَّ اللَّهَ مِنْ بَعْدِ إِكْرَاهِهِنَّ غَفُورٌ﴾ لهن ﴿رَجِيمٌ﴾ بهن.

وهذا كقوله تعالى: ﴿فَمَنْ أَضْطَرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَاكِفٍ﴾ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَجِيمٌ [النحل: ١١٥] والإثم على من أكرههن.

وفي الآية جانب: (مكره) بفتح الراء، وهو الإماء المكرهات، وقد وعدهن الله تعالى مغفرته ورحمته.

والجانب الآخر: (مكره) بكسر الراء، وهم مَنْ يُكْرَهُونَ الإماء على الزنى، ولا يخطر بالبال أن الله تعالى غفور رحيم بهم، بعد أن نهاهم الله تعالى عن الإكراه.

وفي الآية تعريض بالوعيد للذين يُكرهون الإماء على البغاء.

آية سورة النساء [٢٥] مخصصة لعموم هذه الآية:

بقي أن نشير إلى أن قوله تعالى: ﴿وَمَنْ لَّمْ يَسْتَطِعْ مِنْكُمْ طَوْلاً أَنْ يَنْكِحَ الْمُخَصَّنَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ فَمِنْ مَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ مِّنْ فِتْيَتِكُمُ الْمُؤْمِنَاتِ﴾ [النساء: ٢٥]. تخصيص لعموم آية سورة النور التي نحن بصدددها.

فقد دلت آية سورة (النساء) على أن الحرَّ لا يتزوج المملوكة المؤمنة، إلا إذا كان لا يستطيع الزواج من الحرة لعدم وجود المهر معه، وهو يخاف الزنى على نفسه، فله حينئذ أن يتزوج الأمة بإذن أهلها المالكين لها إذا كانت مؤمنة عفيفة، وليست زانية، ولا متخذةً صديقاً لها، ويلزمه دفع مهرها، ومع هذا كله فالصبر وعدم الزواج منها خير له.

فهذه شروط أربعة هي: ١- الإيمان. ٢- العفة ظاهراً وباطناً. ٣- عدم استطاعة زواج الحرة. ٤- خوف العنت.

والعلة في منع تزويج الحر من الأمة، أنها إن وَلَدَتْ منه وَلَداً كان ولدها مملوكاً؛ لأن المولود يأخذ حكم الأم، وعلى الأب ألا يتسبب في رقِّ أولاده ما استطاع.

وفي آية سورة النور أمرٌ من الله تعالى بالزواج من العبيد والإماء الصالحين على فقرهم، ووعد من الله تعالى بأن يغنيهم إن كانوا فقراء، وجاء هذا عطفًا على الأمر بإنكاح الأيامي ﴿وَالصَّالِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ وَإِمَائِكُمْ إِنْ يَكُونُوا فُقَرَاءَ يُغْنِهِمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ﴾.

وهذا العموم الذي في هذه الآية يخصه ما جاء في سورة النساء من شروط، ويرغب في زواج الحر من الأمة العفيفة حال وجودها في المجتمع المسلم.

ولا تخلو الأرض من بقايا الإماء هنا وهناك، مع أن الإسلام سلك كل طريق لجعلهنَّ وجعل العبيد أحراراً، وكان الإسلام قد جاء ووجد الرق متفشياً في العالم، فعمل على عتقهم بطرق متعددة ورغب فيها، حيث جعله قربى إلى الله تعالى، وجعله كفارة للظهار والأيمان والقتل الخطأ، وغير ذلك. قال تعالى:

٣٤- ﴿وَلَقَدْ أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ آيَاتٍ مُبَيِّنَاتٍ^(١) وَمَثَلًا مِّنَ الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلِكَ وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ﴾

وكما وُصفت السورة في أولها بثلاثة أوصاف هي أنها منزلة من عند الله تعالى، وأنها مفروضة، وأنها: مشتملة على الهدى والتوحيد، وحقيقة الإسلام، فقد خُتمت هذه المواعظ والأحكام في منتصف السورة بثلاثة أوصاف أيضًا:

الوصف الأول: أنها آيات بينات وعظات بالغات، فهي لكمال بلاغتها وإعجازها دلائل واضحات على الحق، فيها ما تحتاجون إليه من الأصول والفروع، بحيث لا يبقى فيها إشكال ولا شبهة. أي: أنها آيات واضحة الدلالة والإفادة، أبانت المقاصد التي أنزلت من أجلها.

الوصف الثاني: أن هذه الآيات تشتمل على أخبار الأمم السابقة، الصالح منها والطالح، وتشتمل على صفة أعمالهم وما جرى لهم وجرى عليهم، وهو مثال لمن فعل مثل أفعالهم، كى لا يُجازى بمثل ما جوزوا به، فهي تصور المعاني بنظائرها كشفًا للحقائق، وهذا المثل المذكور في قوله تعالى: ﴿وَمَثَلًا مِّنَ الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلِكَ﴾ هو قصة الإفك المماثلة لقصة يوسف وقصة مريم في تقول البهتان على الصالحين الأبرياء.

الوصف الثالث: أن هذه الآيات يتعظ بها من يتقي الله تعالى، ويخاف عذابه، فيمتثلون أوامر الله تعالى، ويجتنبون نواهيه.

(١) قرأ نافع وابن كثير وأبو عمرو وشعبة وأبو جعفر ويعقوب بفتح الياء من (مبيِّنات) اسم مفعول، والباقون بالكسر، اسم فاعل، ومثلها الآية (٤٦).

اللَّهُ تَعَالَى هَادِي أَهْلَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمُدَبِّرُ الْأَمْرِ فِيهِمَا

٣٥- ﴿اللَّهُ نُورُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ مِثْلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ الْمِصْبَاحُ فِي زُجَاجَةٍ الزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ﴾^(١) يُوقَدُ^(٢) مِنْ شَجَرَةٍ مُبَارَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لَا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ نُورٌ عَلَى نُورٍ يَهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَلَ لِلنَّاسِ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿

نور الله تعالى بمعنى: هدايته لخلقه، وتصريفه لشؤونهم، وأنه تعالى منور هذا الكون بالنور الحسي، والنور المعنوي، ومثل نور، أي: مثل نور الله تعالى في قلب المؤمن، كمشكاة فيها مصباح. . الخ، فهو سبحانه نور، وحجابه نور، وبه استنار العرش والكرسي والشمس والقمر، وبه استنارت الجنة، وكل هذا من النور الحسي، أما النور المعنوي فكله من الله تعالى أيضاً، فكتابه نور، وشرعه نور، وإيمان نور، والعلم نور، ولولا نور الله تعالى لتراكت الظلمات وعم الضلال.

وذلكم أنه بعد أن امتنَّ الله تعالى على عباده ببيان أحكام سورة النور، وتشريع حدود الزنى، والقذف واللعان، وأحكام الاستئذان، وحدود إبداء زينة المرأة للمحارم وغيرهم، والترغيب في الزواج، وأنه من أسباب الثراء، وتحريم البغاء، وأن ذلك كله كان في آيات واضحة، فيها الموعظة وضرب المثل.

بعد ذلك امتنَّ الله تعالى على عباده بالهداية العامة عن طريق إرسال الرسل، وإنزال الكتب، وهو سبحانه خالق هذا الكون، ومدبر أمره، وممده بالنور المادي والمعنوي، وبقدرته تعالى أنار الوجود، واستقامت أموره، وصلاح شأنه، وقد عبَّر الله سبحانه عن ذلك

(١) قرأ أبو عمرو والكسائي بكسر الدال من (دري) وبعد الراء ياء مدَّية وبعدها همزة هكذا (دُرِّيٌّ) صفة لكوكب، وقرأ شعبة وحمزة مثلهما إلا أنهما ضمما الدال هكذا (دُرِّيٌّ) صفة أيضاً، وهما من الدرء بمعنى: الدفع، أي: يدفع ضوؤه ظلمة الليل، وقرأ الباقر بضم الدال وياء مشددة بعد الراء هكذا (دُرِّيٌّ) نسبة إلى الدر؛ لشدة ضوئه ولمعانه.

(٢) قرأ شعبة وحمزة والكسائي وخلف (تُوقَدُ) مضارع مبني للمجهول، ونائب الفاعل ضمير يعود على الزجاج، وقرأ ابن كثير وأبو عمرو وأبو جعفر ويعقوب (تُوقَدُ) فعل ماضٍ على وزن تَفَعَّلَ، والفاعل ضمير يعود على الزجاج، وقرأ الباقر وهم نافع وابن عامر وحفص (يُوقَدُ) ونائب الفاعل ضمير مستتر يعود على المصباح.

بالنور؛ لأن النور تنكشف به الأشياء.

وقد أطلق لفظ النور في القرآن الكريم على ما هو أعم من الهدى:

قال تعالى: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَا التَّوْرَةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ﴾ [المائدة: ٤٤].

وقال: ﴿قُلْ مَنْ أَنْزَلَ الْكِتَابَ الَّذِي جَاءَ بِهِ مُوسَى نُورًا وَهُدًى لِلنَّاسِ﴾ [الأنعام: ٩١].

فعطف أحدهما على الآخر يقتضي المغايرة.

والله تعالى مُوجد كل ما يعبر عنه بالنور، لاسيما أسباب الهداية والمعرفة.

والنور: اسم من أسماء الله الحسنى، فقد سَمَّى الله نفسه نورًا، فلا يمنع أن يكون الله تعالى نورًا في ذاته، وسَمَّى رسوله نورًا، وسَمَّى كتابه نورًا، وسَمَّى دينه نورًا، وسَمَّى حجابَه نورًا.

قال ابن القيم: سَمَّى الله تعالى نفسه نورًا، وجعل كتابه نورًا، ورسوله ﷺ نورًا، ودينه نورًا، واحتجب عن خلقه بالنور، وجعل دار أوليائه نورًا يتلأأ، فقال: ﴿اللَّهُ نُورُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾.

وقد فسر النور بكونه تعالى مُنَوَّرُ السموات والأرض، وهادي أهل السموات والأرض، فبنوره اهتدى أهل السموات وأهل الأرض، وهذا النور مِنْ فِعْله سبحانه، فالنور الذي هو من أوصافه تعالى، نور قائم به، ومنه اشتق اسم النور الذي هو أحد الأسماء الحسنى.

وكان النبي ﷺ إذا قام من الليل يتهجّد قال: «اللهم لك الحمد أنت نور السموات والأرض، ولك الحمد أنت قيّوم السموات والأرض ومن فيهن، أنت الحق، ووعدك حق، وقولك الحق، ولقاؤك حق، والجنة حق، والنار حق، والساعة حق، اللهم لك أسلمت، وبك آمنت، وعليك توكلت، وإليك أنبت، وبك خاصمت، وإليك حاكمت، فاغفر لي ما قدمت وما أخرت، وما أسررت وما أعلنت، أنت إلهي، لا إله إلا أنت»^(١).

وكان ﷺ إذا اشتدَّ به ألم يدعو الله تعالى، ويقول: «أعوذ بنور وجهك الذي أشرقت له

(١) البخاري برقم (١١٠٢)، ٧٣٨٥، ٧٤٤٢، ٧٤٩٩ ومسلم برقم (٧٦٩) من حديث ابن عباس واللفظ له والنسائي (١٦١٨) وابن ماجه (١٣٥٥).

الظلمات، وصلح عليه أمر الدنيا والآخرة أن يحلّ بي غضبك، أو أن ينزل عليّ سخطك، لك العُتْبَى حتى ترضى، ولا حول ولا قوة إلا بك»^(١).

وهذه الآية من سورة (النور) هي الآية التي سُمّيت السورة باسمها؛ فالله تعالى خالق هذا الكون، ومدبر أمره، قد نوره بنور حسي، ونور معنوي ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسُ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُورًا﴾ [يونس: ٥]. نور الأرض بالرسل والكتب والشرائع، وهو سبحانه بهذا النور يهدي من عباده من يشاء ﴿اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَوْلِيَائُهُمُ الظُّلُمَاتُ يُخْرِجُونَهُم مِّنَ النُّورِ إِلَى الظُّلُمَاتِ﴾ [البقرة: ٢٥٧].

فالله تعالى يدبر الأمر في السموات والأرض، ويهدي من فيهما.

وهو سبحانه نور، وحجابه نور، به استنار هذا الكون وما فيه، ولولا نوره لتراكمت الظلمات بعضها فوق بعض، ومن نوره سبحانه: القرآن والإيمان، فالإيمان نور، والقرآن نور. وقد ضرب الله سبحانه مثلاً حسياً لنور القرآن والإيمان فقال: ﴿مَثَلُ نُورِهِ﴾ كمثل مشكاة، المشكاة هي: الطاقة التي تكون في الحائط، ولا تنفذ إلى الجهة المقابلة، فإن نفدت فهي الكؤة، وهي تجمع نور المصباح بحيث لا يتفرق.

ومثل نوره في أرجاء الكون، وفي قلب المؤمن خاصة، كمثل مصباح داخل طاقة استجمع نوره فيها، فهو ﴿كَمِشْكَاةٍ﴾ أي: تجويف في الحائط غير نافذ ﴿فِيهَا مِصْبَاحٌ﴾ وهذا ﴿الْمِصْبَاحُ﴾ لا يتفرق نوره داخل المشكاة، وهي التجويف في الجدار غير النافذ، وهذا المصباح ﴿فِي زُجَاجَةٍ﴾ وهذه ﴿الزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا﴾ في صفائها ﴿كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ﴾ أي: مضيء غاية الإضاءة، وهذا النور ﴿يُوقَدُ مِنْ شَجَرَةٍ مُّبَارَكَةٍ﴾ هو زيت الزيتون.

في حديث أبي أسيد الساعدي رضي الله عنه: أن رسول الله ﷺ قال: «كلوا الزيت وادهنوا به، فإنه من شجرة مباركة»^(٢).

(١) عن ابن إسحاق في «سيرة ابن هشام» (٤٥/١) وقد سبق بيان ضعفه في أول المقدمة.

(٢) صححه الحاكم وأقره الذهبي (٥٩٧/٢) وهو في «السلسلة الصحيحة» للألباني برقم (٣٧٩) وصحيح الترمذي (١٥٠٨) و«المختارة» للضياء المقدسي برقم (٨٢، ٨٣)، والمسند (١٦٠٥٤، ١٦٠٥٥) وفي إسناده عطاء الشامي، متكلم فيه، وباقي رجال الإسناد ثقات (محققوه)، وأخرجه الترمذي (١٨٥٢) والبخاري في شرح السنة (٢٨٧١) وصحيح ابن ماجه (١٣١٩).

والناس قديماً يعرفون أن النور يكون من زيت الزيتون، وهي شجرة مباركة، وهذه الشجرة تخرج في صحراء واسعة، وهي ليست في جهة الشرق بحيث لا تشرق عليها الشمس في آخر النهار، ولا في جهة الغرب بحيث لا ترى الشمس أول النهار، إنما هي في مكان متوسط ﴿لَا شَرْقِيَّةَ وَلَا غَرْبِيَّةَ﴾ وإذا انتفى الأمران معاً كانت في مكان متوسط من الأرض كزيتون الشام تصيبه الشمس أول النهار وآخره فيكون زيتها أصفى.

قال ابن عباس ؓ: شجرة بالصحراء، لا يُظللها كهف ولا جبل، ولا يوارىها شيء، وهو أجود لزيتها.

﴿يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ﴾ من ذاته وصفاته ﴿وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ﴾ فإذا مسته النار صار نوراً على نور: نور الزيت، ونور النار، فيضيء إضاءة بليغة.

﴿يَهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ مَن يَشَاءُ﴾ وهو نور الإيمان، والقرآن، والعلم، لمن يأخذ بأسباب الهداية ﴿وَيَضْرِبُ اللَّهُ﴾ هذه ﴿الْأَمْثَالَ﴾ الحسية ﴿لِلنَّاسِ﴾ كي يتعظوا ويعتبروا فيهدوا ﴿وَاللَّهُ يَكُلِّ شَيْءً عَلِيمٌ﴾. يعلم من سينتفع بهذه الأمثال فيهدي، ويعلم من لا ينتفع فلا يهدي.

قال الطبري: ذلك مثل ضربه الله تعالى، للقرآن في قلب أهل الإيمان، فقال: مثل نور الله الذي أنار به لعباده سبيل الرشاد الذي أنزله إليهم، فأمنوا به وصدّقوا بما فيه، كمثل مشكاة، وهي عمود القنديل الذي فيه الفتيلة.

وأساس هذا النور أن القلب العارف يُرزق بصيرة تُميّز الصواب من الخطأ، والبر من الإثم، ويمشي بين الناس ثابت الخطو، مُسدّد الهدف، قال تعالى: ﴿فَقَامُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَالنُّورِ الَّذِي أَنْزَلْنَا﴾ [التغابن: ٨].

وقال تعالى: ﴿يَأْتِيهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَهُم بُرْهَانٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ نُورًا مُبِينًا﴾ [النساء: ١٧٤].

وأخرج الطبري بسند حسن عن علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس ؓ قال: مثل هداية في قلب المؤمن، كما يكاد الزيت الصافي يضيء قبل أن تمسه النار، فإذا مسته النار ازداد ضوءاً على ضوء، كذلك يكون قلب المؤمن، يعمل بالهدى قبل أن يأتيه العلم، فإذا جاءه العلم ازداد هدى على هدى، ونوراً على نور، كما قال إبراهيم ؑ قبل أن تجيئه المعرفة: ﴿هَذَا رَبِّي﴾ حين رأى الكوكب، من غير أن يخبره أحد أن له رباً، فلما أخبره الله أنه ربه

ازداد هدى على هدى .

وقال أبي بن كعب رضي الله عنه: مثل نوره، أي: المؤمن الذي قد جعل الإيمان والقرآن في صدره، فضرَب الله مثله، فبدأ بنور نفسه، ثم ذكر نور المؤمن، فقال: مثل نور من آمن به .

قال أبي: فصَدُرُ المؤمن هو المشكاة، والمصباح هو القرآن والإيمان الذي جعل في صدره، والزجاجة قلبه، وحين يستنير القلب بالإيمان والقرآن، يكون كالكوكب المضيء، فمثله كمثل شجرة التفَّ بها الشجر، فهي خضراء ناعمة، لا تصيبها الشمس على أيِّ حال، فكذلك المؤمن قد أُجبر من أن يمسَّه شيء من الفتن، وإن ابتلي بها ثَبَّتَه الله، فهو: إن قال صدق، وإن حكم عدل، وإن ابتلي صبر، وإن أُعطي شكر، وهو في الناس كالرجل الحيّ يمشي بين قبور الأموات، يتقلب في خمسة من النور: كلامه نور، وعمله نور، ومدخله نور، ومخرجه نور، ومصيره إلى النور يوم القيامة، وهو الجنة^(١).

فنور الله تعالى في قلب المؤمن، هو الفطرة التي فطره الله عليها، وهي مستعدة لقبول التعاليم الإلهية، فإذا وصل إليه العلم والإيمان، اشتعل ذلك في قلبه كما تشتعل النار في فتيل المصباح ذي الزيت الصافي الخالي من الكدر، فيجتمع في القلب نور الفطرة ونور الإيمان، ونور العلم والمعرفة فهو نور على نور .

فذلك مثل الهدى يضيئه الله في قلب عبده المؤمن، والله يهدي ويوفق لاتباع القرآن من يشاء من عباده، ويضرب الأمثال للناس ليعرفوا عنه أمثاله وحكمه، فاشتغلوا بتدبرها وتعللها، والعمل بمقتضاها، لا بالاعتراض عليها، ولا بمعارضتها، فإنه سبحانه يعلم وأنتم لا تعلمون، والله تعالى لا يخفى عليه شيء .

بُيُوتُ اللَّهِ تَعَالَى هِيَ مَصْدَرُ النُّورِ

٣٦- ﴿فِي بُيُوتٍ أَذْنُ اللَّهِ أَنْ تَرْفَعَ وَيُذَكَّرَ فِيهَا أَسْمُؤُا يُسَبِّحُ﴾^(٢) لَمْ فِيهَا بِالْعُدُوِّ وَالْأَصَالِ^(٣) ﴿

(١) يُنْظَرُ: «تفسير الطبري» (٢٩٨/١٧) بتصرف، وابن أبي حاتم (٢٥٩٣/٨) والحاكم (٣٩٩/٢).

(٢) قرأ ابن عامر وشعبة بالبناء للمجهول في (يُسَبِّحُ) و(له) نائب فاعل، و(رجال) فاعل لفعل محذوف، يدل عليه المقام، والباقون بالبناء للمعلوم، و(له) متعلق به، و(رجال) فاعل .

(٣) عَدَّ (والأصاال) آية الشامى والبصرى والكوفى، ولم يعدها آية المدينى والمكى .

هذا النور، وهذه الإضاءة، مصدرهما بيوت الله في الأرض، وهي المساجد، وبيوت العبادة لأهل الكتاب قبلنا، فهذه الأماكن وَمَنْ فيها هم الأكثر انتفاعاً بنور الله، ولعل المراد بالبيوت أماكن العبادة قبل الإسلام وبعده؛ إذ إنه وقت نزول هذه الآية لم تكن المساجد منتشرة في الأرض، ولم تكن المصاييح موجودة، فقد أُحدثت إضاءة المساجد في عهد عمر رضي الله عنه، فقال له علي رضي الله عنه: نَوَّرَ الله مضجعك يا ابن الخطاب كما نَوَّرَ مسجدنا.

وَرُوي أن تميم الداري أسرج المسجد النبوي بمصاييح جاء بها من الشام، والمساجد التي كانت موجودة وقت نزول هذه الآية هي: المسجد الحرام، والمسجد النبوي، والمسجد الأقصى، ومسجد قباء، ولعل مساجد أخرى قد أقيمت في هذه الفترة ولم تكن مشهورة.

وقال كعب: إن في التوراة مكتوباً: ألا إن بيوتي في الأرض المساجد، وإنه من توضع فأحسن وضوءه، ثم زارني في بيتي أكرمتي، وحق على المزور كرامة الزائر.

فضل بناء المساجد واحترامها: وجاءت أحاديث كثيرة ترغّب في بناء المساجد، واحترامها، وتوقيرها، وتطيبها، وتبخيرها، فعمارة المساجد، منها: بنيانها وصيانتها، ومنها: ذكر الله تعالى فيها بالصلاة وغيرها، ومن تعظيم المساجد، ورفعها: بناؤها وكنسها ونظافتها من الأذى والنجاسة، وصونها عن المجانين والصبيان الذين لا يتحرزون عن النجاسة، وصونها عن الكفار، وعن اللغو فيها.

ومما ورد في بناء المساجد قول النبي ﷺ من حديث عثمان رضي الله عنه: «من بنى مسجداً يبتغي به وجه الله، بنى الله له مثله في الجنة»^(١).

وقوله ﷺ من حديث عمر رضي الله عنه: «من بنى مسجداً يُذكر فيه اسم الله، بنى الله له بيتاً في الجنة»^(٢).

(١) البخاري برقم (٤٥٠) ومسلم برقم (٥٣٣) والترمذي (٣١٨) من حديث عثمان بن عفان رضي الله عنه ومسنّد أحمد (٤٣٤، ٥٠٦) وابن ماجه (٧٣٦).

(٢) رواه ابن ماجه عن عمر رضي الله عنه برقم (٧٣٥) وصححه الألباني في صحيح ابن ماجه (٦٠١) وهو في مسنّد أحمد (٣٧٦، ١٢٦) حديث صحيح، وأخرجه ابن أبي شيبة (٣١٠/١) والبخاري (٣٠٤) وابن حبان (١٦٠٨) وأبو يعلى (٢٥٣)، وقول البوصيري في الزوائد (٧/١): إسناده مرسل، مردود عليه بأن عثمان بن عبد الله بن سراقه - ابن بنت عمر - ثقة من رجال البخاري، وأنه قد أدرك جده وسمع منه كما قال ابن حجر، فهو على هذا متصل، وبإيادي رجال السند ثقات.

ومهمة المساجد أن يُعبد الله تعالى فيها بشتى ألوان العبادة، وما يتبع ذلك من دراسة العلم، وتنظيم شؤون المسلمين، وليست المساجد للدعاية والإعلان ونشد الضالة.

رأى النبي ﷺ من ينشد ضالته في المسجد، فقال: «إنما بُنيت المساجد لما بُنيت له»^(١).

وعن أبي هريرة ؓ أن النبي ﷺ قال: «إذا رأيتم من يبيع أو يبتاع في المسجد، فقولوا:

لا أربح الله تجارتك، وإذا رأيتم من ينشد ضالة في المسجد، فقولوا: لا ردّها الله عليك»^(٢).

والعمل على هذا عند أهل العلم، وأنهم كرهوا البيع والشراء في المسجد.

ولا يجوز رفع الصوت في المساجد، فعن السائب بن يزيد الكندي قال: كنت قائماً في المسجد فحصبني رجل، فنظرت فإذا عمر بن الخطاب، فقال: اذهب فائتني بهذين، فجئت بهما، فقال: من أنتما؟ أو من أين أنتما؟ قالاً: من أهل الطائف، قال: لو كنتما من أهل هذه البلد لأوجعتكما، ترفعان أصواتكما في مسجد رسول الله ﷺ^(٣).

وسمع عمر صوت رجل في المسجد، فقال: أتدري أين أنت؟^(٤).

وكان عمر يجمر مسجد رسول الله ﷺ كل جمعة^(٥).

صلاة الجماعة: وجاء في الحديث عن أبي هريرة ؓ: «صلاة الرجل في الجماعة تُضعف على صلاته في بيته وفي سوقه خمساً وعشرين ضعفاً، وذلك أنه إذا توضأ فأحسن الوضوء، ثم خرج إلى المسجد، لا يخرج به إلا الصلاة، لم يخط خطوة إلا رُفع له بها درجة، وحُطّ عنه بها خطيئة، فإذا صلى لم تزل الملائكة تصلي عليه ما دام في مصلاه: اللهم صلّ عليه، اللهم ارحمه، ولا يزال في صلاة ما انتظر الصلاة»^(٦).

(١) «صحيح مسلم» برقم (٥٦٩) من حديث بريدة.

(٢) «سنن الترمذي» برقم (٣١٢١) وقال: حسن غريب وصححه الألباني في صحيح الترمذي (١٠٦٦) وفي مشكاة المصابيح (٧٣٣) وإرواء الغليل (١٤٩٥).

(٣) البخاري برقم (٤٧٠).

(٤) «تحفة الأشراف» (٤/٨) منسوبة للنسائي.

(٥) ابن أبي شيبة (٣٦٣/٢) و«مسند أبي يعلى» (١٧٠/١) برقم (١٩٠) وضعفه محقق أبي يعلى.

(٦) من حديث أبي هريرة في البخاري (٦٤٧) ومسلم (٦٤٩).

دعاء دخول المسجد والخروج منه:

وكان النبي ﷺ يقول إذا دخل المسجد: «أعوذ بالله العظيم، وبوجهه الكريم، وسلطانه القديم من الشيطان الرجيم». . . فإذا قال ذلك، قال الشيطان: حُفَظَ مِنِّي سائر اليوم^(١).

وقال ﷺ فيما يرويه أبو حميد، أو أبو أسيد: «إذا دخل أحدكم المسجد فليقل: اللهم افتح لي أبواب رحمتك، وإذا خرج فليقل: اللهم إني أسألك من فضلك»^(٢).

وعن فاطمة بنت رسول الله ﷺ قالت: كان رسول الله ﷺ إذا دخل المسجد يقول: «بسم الله، والسلام على رسول الله، اللهم اغفر لي ذنوبي، وافتح لي أبواب رحمتك».

وإذا خرج قال: «بسم الله، والسلام على رسول الله، اللهم اغفر لي ذنوبي، وافتح لي أبواب فضلك»^(٣).

تحية المسجد: وعن أبي قتادة ؓ أن النبي ﷺ قال: «أعطوا المساجد حقها»، قيل: وما حقها؟ قال: «ركعتان قبل أن تجلس»^(٤).

آداب خروج المرأة إلى المسجد:

ويجوز للمرأة أن تشهد الجماعة مع الرجال، على ألا تتزين ولا تتطيب.

١- فعن عبد الله بن عمر ؓ أن رسول الله ﷺ قال: «لا تمنعوا إماء الله مساجد الله»^(٥)، وزاد في رواية: «وبيوتهن خير لهن»^(٦). وفي لفظ «لا تمنعوا نساءكم المساجد».

٢- وعن زينب امرأة ابن مسعود ؓ قالت: قال لنا رسول الله ﷺ: «إذا شهدت

(١) أبو داود برقم (٤٦٦)، وصححه الألباني في صحيح أبي داود (٤٤١).

(٢) مسلم برقم (٧١٣) و«سنن النسائي» (٥٣/٢) عن أبي حميد أو أبي أسيد.

(٣) أخرجه ابن أبي شيبة (٣٨٨/١)، (٤٠٥/١٠) والترمذي (٣١٤) وابن ماجه (٧٧١) و«صحيح سنن ابن ماجه» (٦٢٥).

(٤) ابن أبي شيبة (٣٤٠/١). وصحيح ابن خزيمة برقم (١٨٢٤).

(٥) البخاري برقم (٩٠٠) وانظر: (٨٦٥) ومسلم برقم (٤٤٢) و«المسند» (٧٦/٢) برقم (٤٦٥٥) بإسناد صحيح على شرط الشيخين. (محققه).

(٦) وأبو داود برقم (٥٦٧) وصحيح أبي داود (٥٣٠).

إحداكن المسجد فلا تمس طيباً»^(١). وفي لفظ (العشاء) بدل (المسجد).

٣- وفي حديث أبي هريرة رضي الله عنه: «و لكن ليخرجن تفلات»^(٢).

أي: غير متطيبات، لا ريح لهن.

٤- وعن عائشة رضي الله عنها قالت: كانت نساء المؤمنين يشهدن الفجر مع رسول الله ﷺ، ثم يرجعن متلفعات بمروطهن ما يُعرفن من الغلس^(٣).

٥- وجاءت أم حميد، امرأة أبي حميد الساعدي رضي الله عنه إلى النبي ﷺ فقالت: يا رسول الله، إني أحب الصلاة معك، قال: «قد علمتُ أنك تُحبين الصلاة معي، وصلاتك في بيتك خير من صلاتك في حجرتك، وصلاتك في حجرتك خير من صلاتك في دارك، وصلاتك في دارك خير من صلاتك في مسجد قومك، وصلاتك في مسجد قومك خير من صلاتك في مسجدك».

قال عبد الله بن سويد الأنصاري: فأمرت فَبَنِي لها مسجد في أقصى شيء من بيتها وأظلمه، فكانت تصلي فيه حتى لَقِيَ الله ﷻ^(٤).

وقد بَيَّنَّتِ السُّنَّةُ مفهوم المخالفة في الآية، وأن النساء لَسْنَ كالرجال في حكم الخروج إلى المساجد، وأوضحت أن صلاتهن في بيوتهن أفضل لهن من الخروج إلى المساجد والصلاة فيها مع الجماعة، بخلاف الرجال.

٦- وعن أم سلمة رضي الله عنها أن النبي ﷺ قال: «خير مساجد النساء قعر بيوتهن»^(٥).

(١) مسلم برقم (٤٤٣)، و«المسند» (٤٣٨/٢) برقم (٢٧٠٤٦)، (٢٧٠٤٧) والنسائي في الكبرى (٩٤٢٦)

وابن أبي شيبة (٢٦/٩) والطبراني في الكبير (٧١٨) وابن خزيمة (١٦٨٠).

(٢) أبو داود (٥٦٥) قال الألباني في صحيح أبي داود (٥٢٩): حسن صحيح.

(٣) البخاري برقم (٥٧٨) ومسلم برقم (٦٤٥).

(٤) «المسند» (٣٧١/٦) برقم (٢٧٠٩٠) حديث حسن، وقال ابن حجر: إسناده حسن، وأخرجه ابن خزيمة

(١٦٨٩) قال الألباني: حديث حسن، وأخرجه ابن حبان (٢٢١٧) الإحسان، قال محققه: قوي.

(٥) «المسند» (٢٩٧/٦) برقم (٢٦٥٧٠) حسن بشواهد ابن خزيمة (١٦٨٣) وأبو يعلى (٧٠٢٥) والحاكم

(٢٠٩/١) و«صحيح الجامع» (٣٣٢٧) وحسنه السيوطي في «فيض القدير» (٤٠٨٧).

٧- وعن ابن مسعود رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «صلاة المرأة في بيتها أفضل من صلاتها في حُجرتها، وصلاتها في مَخْدَعها أفضل من صلاتها في بيتها»^(١).

وبَيَّن أهل العلم شروط خروج المرأة إلى المسجد، وهي: ألا تكون متطيبة، ولا متزينة، ولا متبرجة، وألا يكون في يديها أو رجليها شيء من الحلي ونحوه مما يُسمع له صوت، ولا تلبس ثيابًا فاقعة اللون، ولا مزركشة، أو مزينة، ولا تختلط بالرجال، وألا تكون شابة فاتنة الجمال تُخشى منها مفسدة، وألا يكون في الطريق ما تخاف منه^(٢). والثابت من ذلك هو التطيب.

٨- كما في حديث أبي هريرة رضي الله عنه في صحيح مسلم أن رسول الله ﷺ قال: «أَيُّما امرأة أصابت بخورًا فلا تشهدنَّ معنا العشاء الآخرة»^(٣).

وذلك لأن المرأة تُحرك شهوة الرجال بريح طيبها، وقد ألحق أهل العلم بذلك كل ما هو سبب للفتنة بتحريك شهوة الرجال، كالزينة الظاهرة، والثياب الفاخرة.

وإذا استأذنت المرأة زوجها في الخروج إلى المسجد، وكانت غير متطيبة، وليس فيها ما يستوجب الفتنة، فإن على زوجها أن يأذن لها، ولا يجوز له منعها من ذلك ما دامت غير متطيبة ولا متبرجة.

٩- لَمَّا ثَبَتَ عن رسول الله ﷺ أنه قال: «إذا استأذنت امرأة أحدكم إلى المسجد فلا يمنعها»^(٤).

١٠- وفي حديث ابن عمر رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «إذا استأذنتكم نساؤكم بالليل إلى المسجد فأذنوا لهن»^(٥).

١١- وفي لفظ مسلم عنه ﷺ: «لا تمنعوا نساءكم المساجد إذا استأذنتكم إليها»^(٦).

(١) أبو داود برقم (٥٧٠)، بتصحیح الألباني له وإسناده جيد، وهو في صحيح ابن خزيمة (١٦٩٠).

(٢) قاله النووي في شرح «صحيح مسلم» على حديث: «لا تمنعوا إماء الله من المساجد».

(٣) «صحيح مسلم» برقم (٤٤٤).

(٤) من حديث سالم بن عبد الله عن أبيه في البخاري برقم (٥٢٣٨) ومسلم (٤٤٢).

(٥) البخاري برقم (٨٦٥)، (٥٢٣٨).

(٦) «صحيح مسلم» برقم (٤٤٢) عن ابن عمر.

وغير ذلك من الأحاديث.

ذِكْرُ اللَّهِ فِي الْمَسَاجِدِ: من ذكر الله تعالى في بيوته: أداء الصلوات كلها، فرضها ونفلها، وقراءة القرآن، والتسبيح والتحميد والتهليل والتكبير، وحلق العلم، ومدارسة القرآن والحديث والسيرة، والاعتكاف، وغير ذلك من تسبيح الله تعالى بالغدو والآصال، وهما أشرف الأوقات، ولذا: شُرِعَ فيهما أذكار الصباح والمساء، يُسَبِّحُ فيهما الله تعالى رجال لا يؤثر عليهم ما في الدنيا من متاع وشهوات وتجارات ومكاسب، ويرجون ما عند الله من تجارة لن تبور، ونعيم لا يزول.

عُمَارُ الْمَسَاجِدِ

٣٧- ﴿رَجُلٌ لَا لُئْلِيهِمْ تَحَرُّوْا وَلَا يَبِيعُ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَإِقَامِ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ الْقُلُوبُ وَالْأَبْصَارُ﴾ (٣٧)

وعُمَارُ المساجد على رأس الذين اهتمدوا بنور الله، فهداهم الله إلى ما يحبه ويرضاه، وهم رجال يعبدون الله تعالى، ويقدّسونه في تلك المساجد التي أمر سبحانه بتشبيدها وتعظيمها وصيانتها من كل سوء ونجس.

وهؤلاء الرجال يسبّحون الله تعالى وينزّهونه عن كل نقص، ويتقربون إليه بالطاعات والصلوات، سيّما في أول النهار وآخره.

عن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «من صلى البردئين دخل الجنة»^(١) والبردان: صلاة الصبح وصلاة العصر.

وأخرج أبو داود عن أبي أمامة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «من خرج من بيته متطهراً إلى صلاة مكتوبة، كان أجره كأجر الحاج المخرم، ومن خرج إلى المسجد إلى تسبيح الضحى، لا يعنيه إلا ذاك، كان أجره كأجر المعتمر، وصلاة على إثر صلاة، لا لغو بينهما، كُتِبَ في عليين»^(٢).

(١) «صحيح مسلم» برقم (٦٣٥) و«صحيح البخاري» برقم (٥٧٤).

(٢) «صحيح سنن أبي داود» برقم (٥٢٢) بإسناد حسن، كما قال الألباني، وهو في سنن أبي داود (٥٥٨) باب فضل المشي إلى الصلاة.

وقد وصف الله سبحانه عُمَار بيوته بأنهم رجال لا تشغلهم تجارة ولا مكاسب ولا بيع عن أداء الصلاة في أوقاتها في المساجد.

وقد خَصَّ الله تعالى الرجال بالذكر في الآية دون النساء؛ لأن النساء ليس عليهن حضور في المساجد لجمعة ولا جماعة، على وجه الوجوب.

وخصَّ الله تعالى التجارة بالذكر من بين الأعمال؛ لأنها أعظم ما يُشغل الإنسان عن الصلاة والطاعات، والتجارة جُلِب السَّلْع للربح في بيعها، والبيع أعم منها.

وذكرُ الله تعالى يكون بالقلب واللسان، وهو أعم من الصلاة.

وإقام الصلاة: عدم تأخيرها عن وقتها، إنهم في بيوت أذن الله أن يُرفع شأنها، ويُرفع بناؤها، ويذكر فيها اسم الله في الصلاة، والإقامة، والدعاء، والتسبيح، وقراءة القرآن في الأوقات الخمسة، وكل ذلك من قبل رجال لا يلهيهم العمل، ولا يلهيهم الجاه، ولا المنصب، ولا التجارة عن ذكر الله تعالى، وهذه الأمور ليس فيها محذور، إنما المحذور في كونها تلهي صاحبها وتجعله يؤثر الدنيا على الآخرة.

كان عبد الله بن عمر رضي الله عنه في السوق، فأقيمت الصلاة، فرأى التجار قد أغلقوا محلاتهم وتوجهوا للصلاة في المسجد، فقال: فيهم نزلت هذه الآية^(١).

وهكذا قال ابن مسعود، وغيره.

والآية أصل في وجوب إغلاق المحلات التجارية وغيرها، وتوقف الأعمال في الدواوين ونحوها في أوقات الصلاة؛ لأدائها مع الجماعة.

وهؤلاء الرجال الذين وصفتهم الآية، يؤدون الزكاة لمستحقها.

ولمّا كان متاع الدنيا وحب المكاسب، محبباً إلى النفوس، يشق عليها تركه، فقد ذكر سبحانه ما يدعوهم إلى ذلك من الترغيب والترهيب، وهو أن هؤلاء الرجال يخافون يوم القيامة، وهو يوم تتقلب فيه القلوب، حيث تكون بين الخوف والرجاء، ترجو رحمة الله، وتخشى عذابه، وذلك حين تشخص الأبصار من هول ذلك اليوم، وتترقب إلى أيِّ مصير تكون.

(١) «تفسير الطبري» (٣٢١/١٧) وعبد الرزاق (٦١/٢) وابن أبي حاتم (٢٦٠٧/٨).

وفي هذا بيان لشدة هول القيامة، كما قال تعالى في وصف الصالحين: ﴿إِنَّا نَخَافُ مِنْ رَبِّنَا يَوْمًا عَبُوسًا قَتَطِيرًا﴾ ﴿١٠﴾ [الإنسان].

وقال في وصف الظالمين: ﴿إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الْأَبْصَارُ﴾ [إبراهيم: ٤٢].

وقال عنهم أيضاً: ﴿وَأَنذَرَهُمْ يَوْمَ الْأَرْزَاقِ إِذِ الْقُلُوبُ لَدَى الْحَنَاجِرِ كَظْمِينَ﴾ [غافر: ١٨].

وهكذا: فقد أثر هؤلاء الرجال الآخرة على الدنيا: قال تعالى:

٣٨- ﴿لِيَجْزِيََهُمُ اللَّهُ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِ وَاللَّهُ يَرْزُقُ مَن يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ ﴿٣٨﴾

فقد بين سبحانه أن سبب إكثار هؤلاء الرجال من الطاعات؛ كي يجازيهم الله يوم القيامة أحسن الجزاء على أعمالهم، ويزيدهم من فضله وإحسانه أضعافاً مضاعفة للحسنات، فالمراد بأحسن ما عملوا، أعمالهم الحسنة الصالحة، لأنها أحسن ما عملوا أما السيئات فإنه يغفرها لهم، أو يعاقبهم عليها، والله يعطي من يشاء من خلقه عطاءً واسعاً، أي: يعطيهم من الأجر ما لا يبلغه عملهم، بلا كد ولا عدد ولا حد ولا تعب، قال تعالى: ﴿وَإِن تَكُ حَسَنَةً يُضْعِفْهَا وَيُؤْتِ مِن لَّدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ [النساء: ٤٠].

وقال سبحانه: ﴿وَاللَّهُ يُضْعِفُ لِمَن يَشَاءُ﴾ [البقرة: ٢٦١].

وقال جل شأنه: ﴿مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضْعِفُهُ لَهُ أَضْعَافًا كَثِيرَةً﴾ [البقرة: ٢٤٥].

وقال سبحانه ﴿لِيُكَفِّرَ عَنْهُمْ أَسْوَأَ الَّذِي عَمِلُوا وَيَجْزِيَهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [الزمر: ٣٥]

مَثَلُ ظُلْمَةِ الْكَافِرِ وَبُطْلَانِ عَمَلِهِ

٣٩- ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَلُهُمْ كَسَرَابٍ يَفْبِقُهُ يَحْسَبُهُ^(١) الظَّمْآنُ مَاءً حَتَّى إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ

شَيْئًا وَوَجَدَ اللَّهَ عِنْدَهُ فَوَفَّيْتُهُ حِسَابَهُ وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾ ﴿٣٩﴾

ذكر سبحانه في أوائل سورة البقرة مثلاً للكافر، بالذي ينقو بما لا يسمع إلا دعاء ونداء، ومثلاً للمنافق بالماء والنار، وذكر في هذه السورة مثلين:

(١) قرأ ابن عامر وعاصم وحزمة وأبو جعفر بفتح السين من (يحسبه)، والباقيون بكسرها.

الْمَثَلُ الْأَوَّلُ: تَشْبِيهُ عَمَلِ الْكَافِرِ بِالسَّرَابِ

وذلك أنه بعدما ضرب الله سبحانه مثلاً لنور المؤمن، ضرب مثلاً آخر لظلمة الكافر الذي لا يتنفع بنور الله، ولا يهتدي بهدي الله تعالى، فبين سبحانه أن الذين كفروا وكذبوا رسل الله، أعمالهم التي ظنوها نافعة لهم في الآخرة، كسراب الماء الذي يرى في القيعان من ضوء الشمس في الهجيرة.

والسراب معروف، وهو الذي يكون على الأرض المستوية في وقت الظهيرة، شعاع أبيض يظنه الإنسان ماءً مِنْ عَلَى بُعْدٍ، لشدة ما به من ظمأ، فيقصد هذا السراب ليزيل ظمأه، فلم يجده شيئاً، فيندم ندماً شديداً بسبب انقطاع رجائه، وهكذا، فالكافر يشبه الظمآن في الاحتياج إلى الانتفاع بعمله، حتى إذا قَدِمَ على أعماله يوم الحساب والجزاء، وجدها ضائعة، ولم يجدها شيئاً.

وعمل الكافر الذي يعمل في الدنيا، كإحسان في القول، والمعاملة الحسنة، وصلة الرحم، وفك الأسرى، والصدقة، وغير ذلك، كل هذا لا ينفعه يوم القيامة؛ لأن الأصل وهو الإيمان غير موجود، والكافر لا يُقبل له عمل؛ فأعماله شبيهة بالسراب في أن لها صورة الماء وليست بماء، والكافر يَخِيبُ رجاءه حين يفاجأ بأنه لا أجر له على عمله، كما قال تعالى: ﴿وَقَدِمْنَا إِلَىٰ مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَّنْثُورًا﴾ [الفرقان]. وقال سبحانه: ﴿مَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ أَعْمَالُهُمْ كَرَمَادٍ اشْتَدَّتْ بِهِ الرِّيحُ فِي يَوْمٍ عَاصِفٍ﴾ [إبراهيم: ١٨]. قال ابن عباس ؓ: وكذلك الكافر يجيء يوم القيامة وهو يحسب أن له عند الله خيراً فلا يجده، ويدخله الله النار^(١).

وقال ابن عباس ؓ أيضاً: هو مثل ضربه الله لرجل عطش فاشتد عطشه، فرأى سراباً فحسبه ماءً فطلبه، فظن أنه قادر عليه، فلما أتاه لم يجده شيئاً^(٢).

وهذا الكافر يوفى حسابه يوم القيامة، فيحاسب على النقيير والقطمير، ولن يعدم منه قليلاً ولا كثيراً.

وقد كان المشركون إذا سمعوا ما أعدّه الله تعالى للمؤمن من الجزاء على الأعمال

(١)، (٢) يُنظر: ابن جرير (٢٩٨/١٧، ٣٢٨) وابن أبي حاتم (٢٥٩٣/٨، ٢٦١١).

الصالحة قالوا: ونحن نعمر البيت، ونطوف به، ونطعم المسكين، ونسقي الحاج، ونقري الضيف، فكانت هذه الآية وأمثالها إبطالاً لحُسابانهم.

وشُبّه ذلك بحالة ظمآن يرى السراب، فيحسبه ماء، فيسعى إليه، فإذا بلغ المكان الذي فيه السراب لم يجد ماء، ووجد غريماً عنده يأسره، ويحاسبه على ما قدم.

وهكذا الكافر يَخِيبُ أمله، وتشتد حسرته عندما لا يجد ماءً في موضع السراب، ووجد الله له بالمرصاد، يوفيه حقه كاملاً غير منقوص.

فلا يستبطئ الجاهلون وعد الله تعالى؛ فإنه آتٍ لا محالة.

المَثَلُ الثَّانِي لِذَوِي الْجَهْلِ الْمُرَكَّبِ

٤٠- ﴿أَوْ كَظُلُمَاتٍ فِي بَحْرٍ لُّجِّيٍّ يَغْشَاهُ مَوْجٌ مِّنْ فَوْقِهِ مَوْجٌ مِّنْ فَوْقِهِ سَحَابٌ^(١)﴾ ظُلُمَاتٌ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ إِذَا أَخْرَجَ يَكَدُهُ لَمْ يَكْدِ يَرَهَا وَمَنْ لَّمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُورًا فَمَا لَهُ مِن نُّورٍ ﴿٥٠﴾

وعمل الكافر إن كان عملاً نافعاً في الدنيا فهو كسراب ببيعة، وإن كان عملاً ضاراً سيئاً فهو كظلمات متراكمة بعضها فوق بعض.

أو أنَّ المَثَلُ الأول، هو مثلُ عمل الكافر، وهذا المَثَل، مثلُ عقيدته، فهي كظلمات بعضها فوق بعض في عمق البحر، يعلوها موج متلاطم، ومن فوق هذا الموج، موج آخر يُغَطِّيهِ، ومن فوق الموج الآخر سحب كثيف، وهذا السحاب الكثيف مليء بالظلمات: ظلمة الموج، وظلمة البحر، وظلمة السحاب، وظلمة الليل، وهذا يعني نفي الرؤية جملة وتفصيلاً، وهكذا ظلمات الشرك والكفر والضلال وفساد الأعمال.

وهذا الكافر له ظلمات: ظلمة الاعتقاد، وظلمة العمل، وظلمة القول، وظلمة الجهل، وظلمة الكفر، فهم في ظلمات يعمهون، وفي غيٍّ وضلال يترددون، وعن الصراط ناكبون.

قال أبيُّ بن كعب: الكافر يتقلَّب في خمس من الظُّلَم: كلامه ظلمة، وعمله ظلمة، ومدخله ظلمة، ومخرجه ظلمة، ومصيره إلى الظلمات يوم القيامة في النار ﴿وَمَنْ لَّمْ يَجْعَلِ

(١) قرأ البيزي بعدم التنوين في (سحاب) وجر (ظلمات) على الإضافة، وقرأ الباقون بتنوين (سحاب) ورفع (ظلمات) على أنها خبر لمبتدأ محذوف تقديره: هذه أو تلك ظلمات.

اللَّهُ لَهُ نُورٌ ﴿٧﴾ مِنَ الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ ﴿٨﴾ فَمَا لَهُ مِنْ نُورٍ ﴿٩﴾ . يوم لقاء ربه .

ومن لم يأخذ بأسباب الهداية، فما له من هادٍ، ومن لم يرحمه الله، وينور حاله بالعفو والمغفرة، فلا رحمة له . والظلمة التي تغشاهم: هي ظلمة القلب، والسمع، والبصر، كما قال تعالى: ﴿خَتَمَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَعَلَى سَمْعِهِمْ وَعَلَى أَبْصَارِهِمْ غِشْوَةً وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ [البقرة].

وقال سبحانه: ﴿أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَٰهَهُ هَوَاهُ وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِ وَغَلَّبَ عَلَيْهِ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِ غِشْوَةً فَمَنْ يَهْدِيهِ مِنْ بَعْدِ اللَّهِ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ [الجاثية].

سمع بعض علماء الطبيعة من غير المسلمين هذه الآية، فسأل: هل ركب محمد البحر؟ قالوا: لا، فقال: أشهد أنه رسول الله، قالوا: كيف عرفت؟ قال: إن هذا الوصف للبحر لا يعرفه إلا من عاش عمره في البحار، ورأى الأحوال والأخطار، فلما أُخبرت أنه لم يركب البحر عرفت أنه كلام الله تعالى^(١).

خَمْسَةُ أَدِلَّةٍ عَلَى وَحْدَانِيَةِ الْخَالِقِ سُبْحَانَهُ

الدَّلِيلُ الْأَوَّلُ: جَمِيعُ الْكَائِنَاتِ تُنَزِّهُهُ اللَّهُ تَعَالَى وَتَعْبُدُهُ

٤١- ﴿أَلَمْ نَرِ أَنَّ اللَّهَ يُسَبِّحُ لَهُ مِنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالطَّيْرِ صَفَفَتٍ كُلُّ قَدْ عَلِمَ صَلَاتُهُمْ وَتَسْبِيحُهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ﴾ [٤١]

ذكر الله سبحانه في هذه الآية وما بعدها خمسة أدلة عظام على وحدانية الخالق سبحانه، وبيّن جلّ شأنه كيف أنه هدى كثيراً من أهل السموات والأرض إلى توحيده الذي حُرِمَ منه أهل الضلال، فجميع من في الكون يعبد الله تعالى ويقدسه وينزهه، حتى الكافر يسبح بلسان حاله، والطير لها أجنحة منبسطة في السماء، ما يمسكها إلا الله، وهي تسبح بحمد الله، وهكذا جميع المخلوقات أرشدها ربّها، وعرفت كيف تسبحه وتصلي له، وكل من الإنس، والجن، والملّك، والحيوان، والطير، والجمادات قد علم الله صلاته وتسبيحه بلسان حاله ومقاله، فالإنس يعرف لغة الإنس، والطير تعرف لغة بعضها،

(١) ذكره الشيخ محمد علي الصابوني في تفسيره «صفوة التفاسير»، عند هذه الآية.

والدواب تعرف لغة بعضها، وهكذا.

والطيور مندرجة تحت جملة ﴿مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾، ولكن الله تعالى خصها بالذكر؛ لأنها حين تطير لا تكون في الأرض ولا في السماء، بل تكون بينهما، ولذلك ذكرها سبحانه؛ ليشمل حال بسطها لأجنحتها بدون تحريك، وحال قبضها لأجنحتها وهي في الجو، وذلك أعجب أحوالها، قال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ فَوْقَهُمْ صَفَائِرٍ وَيَقْبِضْنَ مَا يُمَسِّكُهُنَّ إِلَّا الرِّحْمَنُ﴾ [الملك: ١٩].

والاستفهام في قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُسَبِّحُ لَهُ﴾ للتعجب من حال فريق من أصحاب العقول الذين حرموا الهدى، مع أنه سبحانه هدى العجاوات، وجبلها على فهم نعمة الوجود والرزق، قال تعالى في وصف هؤلاء: ﴿إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا﴾ [الفرقان: ٤٤]. والرؤية في الآية رؤية بصرية.

وقد ألهم الله تعالى كل مخلوق من هذه المخلوقات كيفية التسبيح لخالقه، وعرف كيف يسبح ويدعو الله تعالى، إما بواسطة الرسل، كالجن والإنس والملائكة، وإما بالإلهام كسائر المخلوقات.

١- والضمير في ﴿عَلِمَ﴾ إما أن يعود على المخلوقات التي في السموات والأرض، أي: إن كلاً منها قد علم معنى صلاة نفسه وتسبيحها، فضمير الفاعل المحذوف يعود على المصلين والمُسَبِّحين.

٢- وإما أن يعود الضمير على الله سبحانه، فيكون المعنى: كل واحد منهم قد علم الله صلاته وتسبيحه.

والجملة بعد ذلك ﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ﴾ للتأكيد اللفظي، وهي للتأسيس على المعنى الأول، والتأسيس للأحكام أولى من التأكيد.

والمعنى الثاني هو الأرجح؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِنْ لَا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ﴾^(١) [الإسراء: ٤٤].

(١) يُنْظَرُ: «أضواء البيان» للشيخ الشقيطي (٢٤٥/٦).

كما بيّن سبحانه أن غير العقلاء من المخلوقات، لها إدراك خاص يَعْلَمُهُ الله سبحانه، فقال في الحجارة: ﴿وَلَا مِنْهَا لَمَّا يَحِيطُ مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ﴾ [البقرة: ٧٤].

وقال جلّ شأنه: ﴿لَوْ أَرْزَلْنَا هَذَا الْقُرْآنَ عَلَى جَبَلٍ لَرَأَيْنَاهُ خَشَعًا مُتَصَدِّعًا مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ﴾ [الحشر: ٢١]. وليس هناك ما يمنع من أن تكون صلاتها وتسبيحها شيئاً حقيقياً.

ولسنا نرى أن الصلاة من خصائص العقلاء، وأن التسبيح لغير العقلاء، ونرى أن الآية على ظاهرها، وأن المراد بالصلاة في الآية: الصلاة المعروفة، وليس الدعاء، ولا حاجة إلى القول بالمجاز، وقد جاء هذا مصرحاً به في آية سورة الحج ١٨ والسجود أخص أركان الصلاة وأبرزها، وفيها أن كل الكائنات تسجد لله.

وقد بيّن الله سبحانه في نهاية الآية أنه مُطَّلِعٌ على ما يفعله كل عابد ومسبح، لا يخفى عليه منها شيء، ومن ذلك صلاة الطيور وتسبيحها، وسوف يجازى كلّاً بما عمل.

ولما بيّن سبحانه افتقار الخلق إليه من ناحية العبادة والتوحيد، بيّن في الآية التالية افتقارهم إليه من جهة الملك والتربية والتدبير:

الدِّلِيلُ الثَّانِي: اللَّهُ سُبْحَانَهُ خَالِقُ هَذَا الْكَوْنِ وَمَالِكُهُ

٤٢- ﴿وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ﴾ (٤٢)

والله سبحانه خالق هذا الكون ومالكه ومدبر أمره، وإليه المرجع والمصير يوم القيامة، حيث يحاسبكم ويجازيكم على أعمالكم بما تستحقون من ثواب وعقاب.

وفي هذا وعيد شديد لمن كذّب الله تعالى، ولم يؤمن بخاتم النبيين ﷺ.

الدِّلِيلُ الثَّالِثُ: لَفَتْ أَنْظَارِ الْعِبَادِ إِلَى بَعْضِ الْمَظَاهِرِ الْكَوْنِيَّةِ

٤٣- ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُزْجِي سَحَابًا ثُمَّ يُؤَلِّفُ^(١) بَيْنَهُ ثُمَّ يَجْعَلُهُ رُكَّامًا فَتَرَى الْوَدَّكَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَالِهِ وَيُنَزَّلُ مِنْ

(١) قرأ ورش وأبو جعفر بإبدال همزة (يؤلف) واوا في الوصل والوقف، وكذا حمزة عند الوقف، والباقون بتحقيقها في الحالين.

السَّمَاءِ مِنْ جِبَالٍ فِيهَا مِنْ بَرَدٍ فَيُصِيبُ بِهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَصْرِفُهُ عَنْ مَنْ يَشَاءُ يَكَادُ سَنَا بَرْقِهِ يَذْهَبُ ^(١) بِالْأَبْصَرِ ^(٢)

ذكر الله سبحانه آية ثالثة لَفَتَ فيها أنظار عباده إلى مظاهر قدرته في هذا الكون، وتفرّده بالخلق والوحدانية: إن الله تعالى يسوق السحاب من مكان إلى مكان، ثم يجمعه بعد تفرّق، ثم يجعله متراكماً بعضه فوق بعض، فيكون كالجبال، ينزل من بينه المطر، وينزل من السحاب الذي يشبه الجبال برّد، فيصيب بذلك البرّد من يشاء من عباده، فيضره في زرع وثمره وماشيته، ويدفعه عمن يشاء فلا يضره، بل ينتفع به بحسب حكمته تعالى وتقديره، يكاد ضوء ذلك البرق في السحاب من شدته ولمعانه يخطف الأبصار، قال تعالى: ﴿يَكَادُ الْبَرْقُ يَخْطُفُ أَبْصَارَهُمْ كُلَّمَا أَضَاءَ لَهُمْ مَشَوْا فِيهِ وَإِذَا أَظْلَمَ عَلَيْهِمْ قَامُوا﴾ [البقرة: ٢٠].

أليس الذي أنشأ هذا السحاب، وساقه لعباده، وأنزله على وجه يحصل به النفع ويندفع به الضرر، كامل القدرة، نافذ المشيئة، واسع الرحمة؟

الدَّلِيلُ الرَّابِعُ: تَعَاقُبُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ

٤٤ - ﴿يَقْلَبُ اللَّهُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لَأُولِي الْأَبْصَارِ ^(٣)﴾

وبعد أن أقام سبحانه أدلة غلويّة على وحدانيته تعالى وقدرته، أتبع ذلك بدليل زمنيّ مشاهد، وهو تعاقب الليل والنهار؛ حيث قلب الله كلاّ منهما، فيأتي النهار ويذهب الليل، ويأتي الليل ويذهب النهار، ويزيد هذا وينقص ذاك، وينتج عن ذلك الفصول الأربعة: الصيف والشتاء والربيع والخريف، كما ينتج عنه الحر والبرد وبين ذلك، وقد جعل الله الليل والنهار وقتاً لنزول نعمته وحلول نعمته.

في الصحيحين عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «قال الله تعالى: يؤذيني ابن

(١) قرأ أبو جعفر (يُذْهَبُ) مضارع أذهب، والأبصار مفعول به، وقرأ الباقر (يَذْهَبُ) مضارع ذهب، والأبصار مفعول، والفاعل على القراءتين ضمير محذوف، تقديره: هو، يعود على (سنا برقه).

(٢) عدّ قوله تعالى (يذهب بالأبصار) آية، الشامي والبصري، والكوفي، وأسقطها من العدد المدني الأول والأخير والمكي.

(٣) لم يعد (لأولي الأبصار) آية، الحمصي، وعدّها آية ما عدا الحمصي من أهل العدد.

آدم، يسبُّ الدهر، وأنا الدهر، بيدي الأمر، أُقَلِّبُ الليل والنهار»^(١).

وهذا ردُّ على نسبة الحوادث والنوازل إلى الدهر، على أن المراد بالدهر: الزمن، أي ﴿أَلَيْلَ وَالنَّهَارَ﴾ وهم يسبون ويذمون لهذا، فبيّن سبحانه أنه هو الدهر، فلا يجوز نسبة الحوادث إليه، ويحرم ذمه وسبه، والدهر ليس من أسماء الله الحسنى.

فالله تعالى هو الفاعل، والزمن ظرف لما يقع فيه من النوازل، وفي ذلك دلالة يُعتبر بها كل من له بصيرة، فيتعظ ويسلم بوحداية الخالق سبحانه، ويستدلُّ بها أهل العقول النافذة والبصائر النيرة على عظم قدرة الله تعالى وبديع صنعته، كما تنفذ الأبصار إلى الأمور المشاهدة المحسوسة، فالعاقل يتأمل ويتدبر ويعتبر، والجاهل في ظلمات وغفلة كما قال تعالى: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَكَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ أَلْيَلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِأُولِي الْأَلْبَابِ﴾ [آل عمران]. وقد خصَّهم الله بالذكر؛ لأنهم المتفكرون بالتأمل والتدبر.

الدَّلِيلُ الْخَامِسُ: خَلْقُ الدَّوَابِّ مِنْ مَاءٍ

٤٥ - ﴿وَاللَّهُ خَلَقَ^(٢) كُلَّ دَابَّةٍ مِنْ مَّاءٍ فَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَى بَطْنِهِ وَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَى رِجْلَيْنِ وَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَى أَرْبَعٍ يَخْلُقُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾

بعد أن استدللَّ سبحانه على وحدانيته تعالى وقدرته بتسييح أهل السموات والأرض، ثم بتصريف السحاب وإنزال المطر وتعاقب الليل والنهار، أتبع ذلك بدليل خامس، فيه بيان قدرته التامة وسلطانه العظيم في خلق جميع ما يدبُّ على وجه الأرض، على اختلاف الحركات والسكنات، والأشكال والألوان من ماء واحد، فالحيوانات التي تتوالد، مادتها ماء النطفة حين يُلقَّح الذكر الأنثى، والحيوانات التي تتولد من الأرض كالحشرات، مادتها الرطوبة المائية، فالمادة واحدة، والحلقة مختلفة.

والدابة: اسم لكل حيوان ذي روح، سواء أكان من العقلاء أم من غيرهم، والدابة في عُزْفِ الناس هي ذوات الأربع، والمراد هنا: ما هو أعم من ذلك.

(١) «صحيح مسلم» برقم (٢٢٤٦) و«صحيح البخاري» برقم (٤٨٢٦، ٧٤٩١).

(٢) قرأ حمزة والكسائي وخلف (خالق كل) من إضافة اسم الفاعل إلى مفعوله. وقرأ الباقون (خلق كل) فعل ماضٍ، و(كل) مفعول به.

وخلق كل دابة من ماء يعني: وحدة العنصر الأساس في تركيب الأحياء جميعاً، وهو الماء، فهي ذات أصل واحد، أي: إن الله تعالى خلق كل دابة من نوع من أنواع الماء يختص بتلك الدابة، أو خلقها من ماء مخصوص هو النطفة، ثم خالف سبحانه بين المخلوقات من هذه النطفة، فمنها هوام، ومنها بهائم، ومنها الإنسان، كما قال تعالى عن الأشجار والثمار: ﴿يُسْقَى بِمَاءٍ وَاحِدٍ وَنُفِضَ لُبُّ بَعْضٍ فِي الْآكُلِ﴾ [الرعد: ٤]. فهي واحدة في أصلها، متعددة في أجناسها وألوانها وأشكالها، وفي هذا دليل على أن لها خالقاً مدبراً.

وبعض الحيوانات يتولد من غير نطفة، وهو ولا بد مخلوق من شيء، وهذا الشيء أصله الماء، فكلها متساوية في أصل التكوين، وهو ماء التناسل مع الاختلاف في أحوال أجناسها. وهذا بخلاف قوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ﴾ [الأنبياء: ٣٠]. فإن لفظ ﴿الْمَاءِ﴾ في هذه الآية جاء معرّفاً، إشارة إلى أن أجناس الحيوانات كلها مخلوقة من جنس الماء، وهو جنس واحد اختلفت أنواعه، فالحيوان كله مخلوق في أصوله من نطفة.

وتنكير الماء هنا ﴿مِنْ مَّاءٍ﴾ لإرادة نوعية الماء، واختلاف صفاته لكل نوع من الدواب باختلاف النطفة.

وليس من بين هذه المخلوقات الملائكة والجن؛ لورود النص بخلق الملائكة من نور، والجن من نار.

والماء هو أصل الخلق، سواء أكان نطفة أم غيرها، فقد خلق منه كل شيء يدب على وجه الأرض.

وبعض هذه الدواب تمشي على بطنها: كالزواحف، والحيات، والحيتان، والديدان ﴿وَمِنْهُمْ مَّنْ يَمْشِي عَلَى رِجْلَيْنِ﴾ كالإنسان والطيور ﴿وَمِنْهُمْ مَّنْ يَمْشِي عَلَى أَرْبَعٍ﴾ كالأنعام والوحوش، ومنهم من يزيد على أربع ﴿يَخْلُقُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ﴾ مما يعقل، ومما لا يعقل ﴿إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ لا يتعذر عليه شيء.

قال أبو حيان: قدّم ما هو أظهر في القدرة وأعجب، وهو الماشي بغير آلة من رجل وقوائم، ثم الماشي على رجلين، ثم الماشي على أربع^(١).

(١) «البحر المحيط» (٦/٤٦٦).

وهكذا: فقد أنزل الله المطر على الأرض، وهو لقاح واحد، والأم واحدة، وهي الأرض، والأولاد مختلفوا الأصناف والأوصاف، كما قال تعالى: ﴿وَفِي الْأَرْضِ قِطْعٌ مُتَجَوِّرَاتٌ وَجَنَّتْ مِنْ أَعْتَابٍ وَزَرَعَ وَنَحِيلٌ صِنَوَانٌ وَغَيْرُ صِنَوَانٍ يُسْقَى بِمَاءٍ وَاحِدٍ وَنُفِضِلُ بَعْضَهَا عَلَى بَعْضٍ فِي الْأَكْلِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ [الرعد: ٤]

وقال الفخر الرازي: واعلم أن العقول قاصرة عن الإحاطة بأحوال أصغر الحيوانات على الكمال، والاستدلال بها على الصانع أمر ظاهر؛ لأنه لو كان الأمر بتركيب الطبائع الأربع لكان في الكل على السوية؛ فاختصاص كل واحد من هذه الحيوانات بأعضائها، وأعمارها، ومقادير أبدانها لا بد وأن يكون بتدبير قاهر حكيم، ﷻ عما يقول الجاحدون^(١). قال تعالى:

٤٦- ﴿لَقَدْ أَنْزَلْنَا آيَاتٍ مُبِينَاتٍ وَاللَّهُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾

يخبر سبحانه أنه أنزل في هذا القرآن علامات بيّنة، ودلائل واضحة، وأمثلة محكمات، ظاهرات الدلالة على جميع المقاصد الشرعية والآداب المحموده، كلها ترشد إلى الحق وطريق الاستقامة، وتبين الهدى من الضلال، والرشد من الغي، حتى لا يبقى أدنى شبهة لمبطل أوضاع، والله يهدي إلى الإسلام مَنْ عِلِمَ منه سلامة الفطرة، ومن لم يهتد بتلك الآيات من الضلال فلا هادي له، وقد عمم الله البيان لجميع خلقه، وخصص الهداية بمن يشاء، ممن علم الله منه قبول الهوى فأراد له.

ولما كان المراد بالآيات في الآية السابقة: هو القرآن، قيدها سبحانه بأنها ﴿وَمَوْعِظَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ﴾ فهم الذين يتفحون بالقرآن، وفيه امتنان بها، ولكن هذه الآية ليست في معرض الامتنان، وإنما هي لإقامة الحجة على الكافرين، ولذا لم تُقَيَّدْ بإيمان ولا إسلام.

مِنْ أَحْوَالِ الْمُتَنَافِقِينَ

٤٧- ﴿وَيَقُولُونَ آمَنَّا بِاللَّهِ وَبِالرَّسُولِ وَأَطَعْنَا ثُمَّ يَتَوَلَّى فَرِيقٌ مِّنْهُمْ مِّنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَمَا أُولَئِكَ بِالْمُؤْمِنِينَ﴾

وبعد أن ذكر سبحانه المؤمنين الذين اهتدوا بنور الله، وأتبعهم بذكر الكافرين، وبين

(١) «التفسير الكبير» (١٤/١٩).

سبحانه أن عملهم كالسراب، وأنهم يتخبطون في الظلمات، ذكر ثالثاً المنافقين، وبين أحوالهم، وأنهم ممن لم يهتدوا بهدي الله تعالى، وكان حظهم من الإيمان مجرد القول دون الاعتقاد، فلم يدخل الإيمان في قلوبهم، ويُعرض فريق منهم عن الطاعة إعراضاً عظيماً، وهذا حال من يدعى الإيمان وهو لا يقوم بكثير من العبادات التي تشق على النفوس كصلاة الفجر، وإنفاق المال في الواجبات والمستحبات، والجهاد في سبيل الله، ونحو ذلك.

ومما ورد في أسباب النزول أنه كان من بين المنافقين رجل اسمه (بشر)، كان بينه وبين يهودي خُصومة، فقال اليهودي: نحتكم إلى محمد، وقال المنافق: بل نحتكم إلى كعب بن الأشرف اليهودي، وأخذ كلُّ منهما يجرُّ الآخر، فجرَّه اليهودي إلى الرسول ﷺ، وكان الحق لليهودي، فحكم له الرسول ﷺ فلم يرُضَ المنافق، ورضي اليهودي.

ثم احتكما لعمر رضي الله عنه، فقال اليهودي لعمر: لقد تحاكمنا إلى رسول الله ﷺ وحكم إليّ (لي) فقال له عمر: أيها المنافق، لم تقبل حكم الله ورسوله؟ فقال: نعم، قال: مكانكما حتى آتيكما، ودخل بيته، فأخرج سيفه، وقتل (بشراً)، وقال: هذا جزاء من يرفض حكم الله ورسوله.

وفي هذا يقول تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ ءَامَنُوا بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِنْ قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَنْ يَتَحَكَّمُوا إِلَى الظَّالِمِينَ وَقَدْ أُمرُوا أَنْ يَكْفُرُوا بِهِ وَيُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُضِلَّهُمْ ضَلَالًا بَعِيدًا﴾ [النساء: ٦٠].

وفي (بشر) المنافق وأمثاله من كل من لم يرُضَ بحكم الله ورسوله، نزلت هذه الآيات التي نحن بصددتها إلى الآية [٥٤]، وقد ورد أن النبي ﷺ لُقّب (عمر) يومئذ بالفاروق؛ لأنه فرّق بين الحق والباطل^(١).

وقيل: إن أحد المنافقين، واسمه المغيرة بن وائل من بني أمية، تخاصم مع عليّ رضي الله عنه في أرض اقتسماها، ثم إن (المغيرة) لم يقبل القسمة التي أخذها، وأراد أن ينقضها، فدعاه (عليّ) رضي الله عنه إلى الاحتكام إلى النبي ﷺ، فأبى، وقال: إنه يَبْغُضُنِي، وأنا أخاف أن

(١) هذه رواية ضعيفة، نقلها الكلبي عن أبي صالح عن ابن عباس، كما في أسباب النزول للواحدي النيسابوري عند تفسير الآية (٦٠) من سورة النساء، وفيها رفض المنافق لحكم الله ورسوله كما تشير إليه الآية.

يخيف عليّ، فنزلت هذه الآية فيه وفي أمثاله.

ومعنى الآية: إن المنافقين يقولون بألسنتهم: صدّقنا بالله تعالى، وبما جاء به الرسول ﷺ وأطعنا أمرهما، ثم بينّ تعالى أنهم كاذبون في دعواهم؛ حيث تُعرض طوائف منهم عن حكم رسول الله ﷺ فلا تقبله.

ثم نفى الله عنهم الإيمان جملة وتفصيلاً، ووبّخهم على أقوالهم التي يكذبها الواقع، فقال: وما أولئك المنافقون بالمؤمنين على الحقيقة؛ لأنهم لو كانوا مؤمنين حقاً ما أعرضوا عن حكم الله تعالى وطاعة رسوله ﷺ، كما قال تعالى: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾ [النساء: ٦٥].

ومن شأن هؤلاء المنافقين، أنهم يرفضون حكم الله ورسوله، كما سبق بيانه، قال تعالى:

٤٨ - ﴿وَإِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ^(١) بَيْنَهُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُمْ مُّعْرِضُونَ﴾ [٤٨]

أي: وهؤلاء المنافقون من صفاتهم أنهم إذا دعاهم داعٍ إلى تحكيم شرع الله فيما يحدث بينهم من خصومات، إذا فريق كبير منهم يُعرض عن الداعي، ويُسرّع إلى التحاكم إلى غير الله ورسوله، ومن أحكام الجاهلية والقوانين الوضعية المخالفة لشرع الله تعالى، والداعي في الأصل هو رسول الله ﷺ، ولكن الآية ذكرت أن الداعي هو الله ورسوله معاً؛ لأن حكم الرسول ﷺ حُكم الله عز وجل، لأنه لا يحكم إلا عن وحي من الله، سبحانه، والآية عامة في كل من يدعو إلى تحكيم كتاب الله وسنة رسوله:

قال الحسن: إن الرجل يكون بينه وبين الرجل خصومة، أو منازعة، على عهد رسول الله ﷺ فإذا دُعي إلى النبي ﷺ وهو مُحِقٌّ أَدْعَنَ وعلم أن النبي ﷺ سيقضي له بالحق، وإذا أراد أن يظلم، فدُعي إلى النبي ﷺ أعرض، وقال: انطلق إلى فلان، فأنزل الله هذه الآية، فقال ﷺ: «من كان بينه وبين أخيه شيء، فدعاه إلى حَكَمٍ من حُكَّام المسلمين، فلم يُجب؛ فهو ظالم لا حق له»^(٢).

(١) قرأ أبو جعفر بضم الباء وفتح الكاف من (لِيُحْكَمْ)، على البناء للمفعول، والباقون بالبناء للفاعل.

(٢) ابن أبي حاتم (٢٦٢٢/٨) وقال ابن كثير (٧٤/٦): هذا حديث غريب مرسل.

قال الشيخ محمد الغزالي، رحمه الله: إن رباط الشريعة بالعقيدة وثيق قائم، وفي عصرنا يوجد مارقون يريدون أن يجعلوا للشرائع مصدرًا غير الإسلام، وللحكم أسسًا غير الوحي، وهم ينظرون إلى سورة النور خاصة بضيق شديد؛ لأنها حرّمت الزنى، والتبرج، والانحلال، ولذلك شرحت السورة موقف هؤلاء، وبيّنت براءة الدين منهم، وقد تبعتُ موقف هؤلاء الرافضين لحكم الله ورسوله، فوجدتُ جَهرتهم لا تحترم لله فريضة، ولا تعرف طريقها إلى مسجد! وهم يتظاهرون بالإسلام، ويشدُّ بعضهم أزر بعض؛ حتى لا يقوم للإسلام حُكم، وغرضهم القريب والبعيد ألا يقوم للإسلام كيان عبادي، أو خلقي، وأن تعم العالمين جاهلية حديثة^(١).

وفي الآية التالية بيان أن هؤلاء المنافقين إذا كان الحكم في صالحهم، أقبلوا عليه مسرعين عند أي حاكم، قال تعالى.

٤٩- ﴿وَإِنْ يَكُنْ لَهُمُ الْحَقُّ يَأْتُوا إِلَيْهِ مُذْعِنِينَ﴾

أي: وإن عرف المنافق يقينًا أنه صاحب حق فإنه لا يُعرض عن حكم رسول الله ﷺ، بل يسارع ويبادر إلى النبي ﷺ طائعًا متقادًا لحكمه ﷺ؛ لعلمه أنه على حق، وأنه سيقضي له به، وإن لم يكن على حق في دعواه فإنه لا يأتي إلى الرسول ﷺ حين يُدعى إلى التحاكم إليه؛ لأن المبطل يأبى الحق، وهذا هو مفهوم المخالفة، فهم يُعرضون عن حكم الإسلام إذا كان الحق لغيرهم، ويُقبلون عليه إذا كان الحق لهم؛ لعلمهم أنه سيحكم به.

قال تعالى يلوم المنافقين المعرضين عن حكم الله ورسوله، ويوبخهم على صنيعهم:

٥٠- ﴿أَفِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ أَمْ ارْتَابُوا أَمْ يَخَافُونَ أَنْ يَحِيفَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَرَسُولُهُ بَلْ أُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾

يُعقَّب القرآن على تصرفات المنافقين القبيحة، ويتعجب من ترددهم وخُلُقهم الذميم:

١- فهل سبب عدم قبولهم حكم الله ورسوله أنهم مرضى القلوب بالنفاق وضعف الإيمان؟ فصاروا بمنزلة المريض الذي يعرض عما ينفعه، ويُقبل على ما يضره.

٢- أم سبب ذلك أنهم يشكون في صدق نبوته ﷺ؟ فاتهموه بأنه لا يحكم بالحق؟

(١) «نحو تفسير موضوعي لسور القرآن» سورة النور.

٣- أم سببه أنهم يخافون من وقوع الظلم عليهم، فهم يخافون أن يحكم الله عليهم ورسوله زورًا وجورًا؟

وفي هذا الانتقال والتدرج في أخلاقهم ما يشير إلى أن فريقًا منهم يُظهر الإيمان ويبطن الكفر، وفريقًا آخر آمن إيمانًا ضعيفًا، فهم يَطْعَنُونَ في الحُكْم وفي الحاكم؛ وما ذلك إلا لأنهم غير مؤمنين ﴿بَلْ أُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾.

والسؤال الأول: لإثبات مرض قلوبهم، وبيان أن حكم الله تعالى في غاية القسط والعدالة والحكمة ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾ [المائدة: ٥٠]

والسؤال الثاني: للتعجب من حالهم، فهم يشكُّون في حُكْم رسول الله ﷺ ويدَّعون الإيمان، والإيمان لا يُعتد به حتى يقترن بالعمل، ولهذا نفى الله الإيمان عن تولى عن الطاعة.

والسؤال الثالث: للإنكار عليهم؛ إذ كيف يخافون من ظلم رسول الله ﷺ لهم؟

قال سبحانه في الإجابة على هذه الحالات الثلاث: ليس الأمر كذلك؛ فالرسول لا يظلم، بل هم الظالمون المنافقون، فلا شك أن قلوبهم قد امتلأت بهذه الأسباب الفاسدة وغيرها، فلا أَشَدُّ ولا أعظم من حرصهم على الظلم، ووضع الأمور في غير نصابها، وقبولهم حكم الطواغيت عن حكم الله ورسوله.

ولما ذكر سبحانه حال المعرضين عن حكم الله ورسوله، ذكر حال المؤمنين فقال:

٥١- ﴿إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ الْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَنْ يَقُولُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾

بَيَّنَّ جَلَّ شأنه في هذه الآية ما يميز المؤمن الحق من المنافق المرائي، فالمؤمن لا يرتاب في حكم الله ورسوله، بل يسمع ويطيع عندما يُدعى إلى الله ورسوله في الحكم والطاعة والعبادة بدون تردد ولا تباطؤ، سواء أوافق هواه أم خالفه، لاسيما في مجال التحاكم في خصوماتهم إلى كتاب الله وسُنَّة رسوله، ولو كان هؤلاء مؤمنون حقًا لفعلوا ذلك؛ فإن المسارعين إلى حكم الله ورسوله هم الفائزون بسعادة الدارين، وقد حصر الله الفلاح فيهم، لأنه لا يفلح إلا من حَكَّم الله ورسوله، وأطاع الله ورسوله و لما ذكر سبحانه فضل الطاعة في الحكم خاصة، أعقب ذلك ببيان فضل الطاعة عمومًا فقال:

٥٢- ﴿وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَخَشِ اللَّهَ وَيَتَّقْهُ^(١) فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ

في هذه الآية بيان ما يترتب على طاعة الله والرسول في الأوامر والنواهي، ومخافة عواقب العصيان، والحذر من عذاب الله تعالى، وهو الفوز والفلاح في جنات النعيم.

ويدخل في الطاعة تصديق الأخبار، وامثال الأوامر.

والخشية هي الخوف المقرون بالمعرفة، ويدخل فيها: اجتناب المنهيات، وكف النفس عن اتباع الهوى.

والتقوى، يدخل فيها فعل المأمورات وترك المنهيات، وعند ما تُقترن بالطاعة تُفسَّر بأن يجعل العبد بينه وبين عذاب الله وقاية، بترك المعاصي.

والذين جمعوا بين طاعة الله وطاعة الرسول، وخشية الله وتقواه، هم الفائزون بنجاتهم من العذاب وحصولهم على عظيم الثواب، ومن فاته شيء من هذه الأوصاف: الطاعة والخشية والتقوى، يفوته من الفوز بمقدار ما قصر فيه.

سأل بعض الملوك عن آية واحدة من كتاب الله تكفيه، فُقرئت عليه هذه الآية؛ لأنها آية جامعة لأسباب الفوز والفلاح، وقد جمعت ثلاثة عناصر هي أسباب الفوز والسعادة في الدنيا والآخرة، وهذه العناصر هي:

أولاً: امتثال الأوامر، واجتناب النواهي، وطاعة الله ورسوله في كل قول وعمل.

ثانياً: خشية الله تعالى والخوف منه من اقرار كل ذنب، أو تفريط في جنب الله تعالى، أو تعدُّ على حدوده، وتجاوز أحكامه وشرعه.

(١) في لفظ: (ويتقّه) سبع قراءات:

الأولى: قرأ قالون ويعقوب بكسر القاف واختلاس كسرة الهاء.

الثانية: قرأ حفص بإسكان القاف واختلاس كسرة الهاء، ولم يسكن القاف أحد غيره.

الثالثة: قرأ أبو عمرو وشعبة بكسر القاف وإسكان الهاء.

الرابعة: قرأ ورش وابن كثير وخلف عن حمزة والكسائي وخلف العاشر بكسر القاف وإشباع كسرة الهاء هكذا (ويتقّي).

الخامسة: قرأ ابن ذكوان وابن جمار بكسر القاف، ولهما في الهاء: اختلاس كسرتها وإشباعها.

السادسة: قرأ خلاد وابن وردان بكسر القاف، ولهما في الهاء: الإسكان والإشباع.

السابعة: قرأ هشام بكسر القاف، وله في الهاء ثلاثة أوجه هي: الاختلاس والإسكان والإشباع. والاختلاس يُعرف بالتلقي والمشافهة؛ حيث تحذف فيه ثلث الحركة.

ثَالِثًا: تقوى الله تعالى في السر والعلن، والحذر من مخالفة أمره ونهيه.
وكل من استجمع هذه العناصر فهو من السعداء الناجين من عذاب الله تعالى في الآخرة، وهم الفائزون بمطلوبهم في جنات النعيم.

الْمُنَافِقُ يَتَسَتَّرُ بِالْيَمِينِ الْكَاذِبَةِ

٥٣- ﴿وَاقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِنْ أَمَرْتَهُمْ لَيَخْرُجُنَّ قُلْ لَا تُقْسِمُوا طَاعَةٌ مَعْرُوفَةٌ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿٥٣﴾﴾

لما نزلت هذه الآيات جاء المنافقون يحلفون الأيمان المؤكدة، لو أن الرسول ﷺ طلب منهم أن يخرجوا من ديارهم وأموالهم ونسائهم؛ لخرجوا معه، فكيف لا يرضون بحكمه؟ ولو طلب منهم أن يخرجوا للجهاد لجاهدوا معه، فكذبهم الله تعالى في قولهم، وكشف عن مكنون صدورهم، وما تنطوي عليه نفوسهم من المكر والاحتيا، والحلف الكاذب بأغلظ الأيمان الموثقة، أنهم لو أمروا بالجهاد لسارعوا وبادروا إلى الخروج إليه.

يقول الله سبحانه لرسوله: ﴿قُلْ﴾ لهم - يا رسولنا - ﴿لَا تُقْسِمُوا﴾ لتأكيد الكلام، فطاعتكم ﴿طَاعَةٌ مَعْرُوفَةٌ﴾ وقد نبأنا الله من أخباركم، فلا حاجة إلى اعتذاركم، فإنكم معروفون بالتناقل والكسل، وأحوالكم لا تخفى علينا، فليس هناك من عقيدة صحيحة، ولكنها طاعة باللسان دون القلب، وبالقول دون العمل، والله تعالى يعلم ظواهركم وبواطنكم، وهذا هو شأن المنافقين في كل زمان ومكان، كما أخبر عنهم القرآن الكريم في قوله:

١- ﴿وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَكَاذِبُونَ ﴿١﴾ اتَّخَذُوا أَيْمَانَهُمْ جُنَّةً فَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٢﴾﴾ [المنافقون].

٢- وقوله تعالى ﴿وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾ [الحشر: ١١].

٣- وقوله تعالى عنهم: ﴿وَيَحْلِفُونَ عَلَى الْكَذِبِ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ [المجادلة: ١٤].

٤- وقوله: ﴿يَحْلِفُونَ لَكُمْ لِيَرْضَوْا عَنْهُمْ فَإِنْ تَرْضَوْا عَنْهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَرْضَىٰ عَنِ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ ﴿٩٦﴾﴾ [التوبة].

٥- وقوله: ﴿يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ لِيَرْضَوْكُمْ وَاللَّهُ وَرَسُولُهُ أَحَقُّ أَنْ يُرْضَوْهُ إِنْ كَانُوا مُؤْمِنِينَ ﴿١٢﴾﴾ [التوبة].

فاسمعوا واطيعوا حتى لا يحل بكم بأس الله ونقمته، والله خير بأعمالكم، وسوف يجازيكم على ما قدمت أيديكم، أما الرسول ﷺ فوظيفته أن يأمركم وينهاكم.

وَإِنْ تُطِيعُوهُ تَهْتَدُوا

٥٤- ﴿قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ فَإِنْ تَوَلَّوْا^(١) فَإِنَّمَا عَلَيْهِ مَا حُمِّلَ وَعَلَيْكُمْ مَا حُمِّلْتُمْ وَإِنْ تُطِيعُوهُ تَهْتَدُوا وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلْغُ الْمُبِينُ﴾

لَقَنَّ الله رسوله أن يُرشد الناس سِيِّمًا المنافقين منهم إلى الطاعة الصادقة، ويقتصروا عليها، وألا يكثرث بأقوالهم ومواعيدهم الكاذبة، فإن أعرضوا ولم يطيعوا فعلى الرسول ما أمر به من تبليغ الرسالة التي حَمَلَهُ الله إياها، وقد أداها، وعلى الناس فِعْلُ ما كُلَّفُوهُ، وما حُمِّلُوهُ من تبعة التكليف والامتثال، وعليهم أن يعلموا أنهم بإعراضهم عن دعوة الرسول ﷺ لا يضررون إلا أنفسهم.

ثم أرشدهم سبحانه إلى طريق الفوز والفلاح، فقال: ﴿وَإِنْ تُطِيعُوهُ تَهْتَدُوا﴾ أي: وإن أطعتموه فيما يأمركم به، وينهاكم عنه، أصبتم الهدى والرشاد.

ومهمة الرسول ﷺ تقتصر على النصيح، والبلاغ الواضح، فالذي حُمِّلَهُ الرسول ﷺ هو التبليغ، وإبلاغ الناس بالرسالة، وبذل الجهد في إنذارهم.

والذي حُمِّلَهُ الناس هو السمع، والطاعة، واتباع الحق.

وفي الآية وعيد وتبكيث للمنافقين، وإعلام لهم أنهم لا يضررون بتوَلَّيْهِمْ إلا أنفسهم.

وهذا كقوله تعالى: ﴿قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْكَافِرِينَ﴾ [آل عمران].

وقوله: ﴿وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأَحْذَرُوا فَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ فَأَعْلَمُوا أَنَّمَا عَلَى رَسُولِنَا الْبَلْغُ الْمُبِينُ

﴾ [المائدة].

فالرسول ليس له من الأمر شيء، والذي يحاسبكم ويجازيكم هو الله سبحانه.

في صحيح مسلم وغيره: أن سلمة بن يزيد الجعفي سأل رسول الله ﷺ فقال: يا نبي

(١) قرأ البري بتشديد التاء وصلًا من (فإن تولوا) بخلف عنه.

الله، أَرَأَيْتَ إِنْ قَامَتْ عَلَيْنَا أُمَرَاءُ يَسْأَلُونَ حَقَّهُمْ وَيَمْنَعُونَ حَقَّنَا، فَمَا تَأْمُرُنَا؟ فَأَعْرَضَ عَنْهُ، ثُمَّ سَأَلَهُ فَأَعْرَضَ عَنْهُ، ثُمَّ سَأَلَهُ فِي الثَّانِيَةِ أَوْ فِي الثَّالِثَةِ فَجَذَبَهُ الْأَشْعَثُ بْنُ قَيْسٍ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «اسْمَعُوا وَأَطِيعُوا، فَإِنَّمَا عَلَيْهِمْ مَا حُمِّلُوا، وَعَلَيْكُمْ مَا حُمِّلْتُمْ»^(١).

شَرُطُ التَّمَكِينِ فِي الْأَرْضِ

٥٥- ﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ^(٢) الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ^(٣) مِن بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴿٥٥﴾﴾

يختتم الله سبحانه هذه الآيات في شأن المنافقين بذكر بشارة وأمل للمسلمين، فيه وعد صادق، أن يُمَكِّنَ الله لهم دينهم الذي ارتضى لهم، ويجعلهم مأكثين في أرض الله، بأن يورثهم الأرض، ويُمَكِّنَ لهم فيها، كي يتمكنوا من إقامة شرائعه وإظهار دينه.

وإذا تحقق الشرط وهو الإيمان والعمل الصالح، وإخلاص العبادة لله، وعدم الإشراك به، تحقق المشروط وهو التمكين في الأرض، وإقامة السلطة التامة لهم، وتحقيق الأمن والأمان، والنصر على عدوهم، فَيُمَلِّكُهُمُ الْبِلَادَ، ويجعلهم أهلها، كما جرى في البلاد التي فتحها الإسلام مثل: الشام، والعراق، ومصر، وإيران، والمغرب، فقد سادها الأمن التام، والتمكين الكامل، والوعد قائم إلى يوم الساعة، متى كان الشرط قائماً من الإيمان والعمل الصالح وعبادة الله وحده.

وهكذا أصحاب رسول الله ﷺ ظلُّوا في مكة خائفين أكثر من عشر سنين، ولما قدموا المدينة أخذوا يحملون السلاح في ليلهم ونهارهم غير آمنين على أنفسهم، فقال أحدهم: متى نضع هذا السلاح ونأمن؟ فأنزل الله هذه الآية، ووعدهم فيها أن يجعلهم خلفاء في الأرض لمن قبلهم حين يقومون بأمر الله فيها، وحينئذ يجعل الله لهم الإسلام ديناً عزيزاً

(١) «صحيح مسلم» برقم (١٨٤٦) والترمذي (٢١٩٩) وابن أبي شيبة (٨٥/١٥).

(٢) قرأ شعبة بالبناء للمجهول في (كما استخلف) و(الذين) نائب فاعل، ويُبدَأُ (استخلف) بهمزة وصل مضمومة لضم ثالثه، وقرأ الباقر بالبناء للفاعل، و(الذين) مفعول به، والفاعل ضمير يعود على الله تعالى.

(٣) قرأ ابن كثير وشعبة ويعقوب بإسكان الباء من (ولَيُبَدِّلَنَّهُمْ) مع تخفيف الدال، مضارع أبدله، وقرأ الباقر بفتح الباء وتشديد الدال مضارع بَدَّلَ.

مكيّنًا، ويبدّل حالهم من الخوف إلى الأمن، إذا عبدوا الله تعالى واستقاموا على طاعته .

عن أبي العالية قال: كان النبي ﷺ، وأصحابه بمكة نحوًا من عشر سنين، يدعون إلى دين الله سرًّا وهم خائفون، ثم أمروا بالهجرة إلى المدينة، فأمرهم الله بالقتال، فكانوا يُمسّون في السلاح، ويضربون في السلاح، فقال رجل: أما يأتي يوم نأمن فيه ونضع السلاح؟! قال: فأنزل الله هذه الآية، وأظهر ﷺ دينه، ووضعوا السلاح، وقبض الله نبيه ﷺ، فكانوا آمنين في إمارة أبي بكر، وعمر، وعثمان، حتى وقعوا فيما وقعوا، فأدخل الله عليهم الخوف، واتخذوا الحُجْرَ والشُّرَطَ، وغيروا فغيّر الله ما بهم .

هذا: وحالة المسلمين في هذا العصر رديئة، والهزائم المادية والمعنوية تحيط بهم من كل جانب، والحرب ناشبة بينهم وبين غيرهم من قديم، ويريد العدو إسقاط راية الإسلام بكل وسيلة، وقد فتح الله باب الأمل للمسلمين بمثل هذه الآية، إذا حققوا مراد الله تعالى في أرضه .

والتمكين في الأرض وتوطيد المُلك فيها يحتاج إلى مقدمات طويلة، وجهود مضنية متواصلة، فإن للقيادة والسيادة مؤهلات لا بد من تحصيلها .

لقد مكث الرسول ﷺ قرابة ربع قرن من الزمان حتى هزم الوثنية بعد صراع طويل، وجهاد مرير، لقد تحوّل رجل واحد إلى أمة قوية بسطت سلطانها على العالمين .

إن الوسائل التي نهضت بها هذه الأمة، وقهرت بها جيروت العالم، لا يفهمها إلا رجال فقهوا سياسة الدنيا والآخرة، وخرجوا من سلطان الشهوة وحب النفوذ والتملك، وارتفعوا إلى سيرة محمد ﷺ وأصحابه، فأمنوا بالله ورسوله، وأقاموا الصلاة وآتوا الزكاة، وعبدوا الله ولم يشركوا معه أحدًا، وأعدّوا للعدو كل ما استطاعوا من قوة، فوجّهوا طاقاتهم إلى التسليح والتصنيع الحربي، ولم يبددوها في سُبُل الهوى والشيطان!

لقد امتنّ الله على المسلمين الأوّل فأعزّهم بعد ضعف، وأمّنهم بعد خوف، فقال تعالى: ﴿وَأَذْكُرُوا إِذْ أَنْتُمْ قَلِيلٌ مُسْتَضْعَفُونَ فِي الْأَرْضِ تَخَافُونَ أَنْ يَخَطَفَكُمْ الْإِنْسُ فَتَأْتِيَكُمْ وَيَدْرِكُمْ بِصَرْيِهِ وَرَزَقَكُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ﴾ [الأنفال: ٢٦] .

فهل نحن أسوأ من هذه الحالة التي وصفها الله في الآية لمن كانوا قبلنا؟

وهل نحن أسوأ حالًا من بني إسرائيل حين كانوا أذلاء تحت إمرة فرعون، فوعدهم الله

بنصره واستخلافهم في الأرض في قوله تعالى: ﴿عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُهْلِكَ عُدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ﴾ [الأعراف: ١٢٩].

وقد تحقق لهم هذا، كما قال تعالى عنهم: ﴿وَأَوْزَنَّا الْقَوْمَ الَّذِينَ كَانُوا يُسْتَضَعُونَ مَشْرِقَ الْأَرْضِ وَمَغْرِبِهَا الَّتِي بَرَكْنَا فِيهَا وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ الْحُسْنَىٰ عَلَىٰ بَنِي إِسْرَءِيلَ بِمَا صَبَرُوا وَدَمَرْنَا مَا كَانَتْ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُ وَمَا كَانُوا يَعْرِشُونَ﴾ [الأعراف: ١٣٧].

وقال سبحانه ﴿وَرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضِعُوا فِي الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ﴾ [٥] وَنُكِّنَ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ ﴿[القصاص]

وَوَعَدَ اللَّهُ تَعَالَىٰ يَتَحَقَّقُ فِي كُلِّ زَمَانٍ وَمَكَانٍ مَتَىٰ كَانَ النَّاسُ أَهْلًا لَهُ، وَقَدْ تَحَقَّقَ هَذَا الْوَعْدُ فِي عَهْدِ الْخُلَفَاءِ، فَفَتَحُوا بِلَادَ الرُّومِ وَالْفَرَسِ، وَأَمِنُوا فِي أَوْطَانِهِمْ، وَمَكَّنَ اللَّهُ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ.

وهكذا يَمَكِّنُ اللَّهُ لِعِبَادِهِ فِي كُلِّ زَمَانٍ وَمَكَانٍ إِذَا تَحَقَّقَتِ هَذِهِ الشَّرُوطُ الَّتِي ذَكَرَهَا اللَّهُ سُبْحَانَهُ، وَمِمَّنْ مَكَّنَ اللَّهُ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ عَلَىٰ مَدَى التَّارِيخِ: يَوْسُفَ، وَدَاوُدَ، وَسُلَيْمَانَ عَلَيْهِ السَّلَامُ، وَالنَّجَاشِي، وَحُمُورَابِي، وَالْإِسْكَندَرُ ذُو الْقَرْنَيْنِ.

عن عدي بن حاتم رضي الله عنه قال: بينا أنا عند النبي صلى الله عليه وسلم إذ أتاه رجل فشكا إليه، ثم أتاه آخر فشكا إليه قطع السبيل، فقال: «يا عدي، هل رأيت الحيرة؟» قلت: لم أرها، وقد أنبئت عنها، قال: «فإن طالت بك حياة لترين الظعينة تزحُل من الحيرة حتى تطوف بالكعبة، لا تخاف أحداً إلا الله».

قلتُ فيما بيني وبين نفسي: فأين دُعَارُ طِيءِ الَّذِينَ قَدْ سَعَرُوا الْبِلَادَ؟ قال: «ولئن طالت بك حياة لتفتحن كنوز كسرى بن هرمز» قلت: كسرى بن هرمز؟ قال: «كسرى بن هرمز، ولئن طالت بك حياة لترين الرجل يُخْرِجُ مَلَأَ كَفِّهِ مِنْ ذَهَبٍ أَوْ فِضَّةٍ، يُطَلِّبُ مَنْ يَقْبَلُهُ مِنْهُ فَلَا يَجِدُ أَحَدًا يَقْبَلُهُ مِنْهُ، وَلَيَلْقِيَنَّ اللَّهُ أَحَدَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلَيْسَ بَيْنَهُ وَبَيْنَهُ تُرْجَمَانٌ، فليقولن: أَلَمْ أبعث إليك رسولا فيبلغك؟ فيقول: بلى، فيقول: أَلَمْ أُعْطِكَ مَا لَا وَأَفْضَلُ عَلَيْكَ؟ فيقول: بلى، فينظر عن يمينه فلا يرى إلا جهنم، وينظر عن شماله فلا يرى إلا جهنم».

قال عدي: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «اتقوا النار ولو بشق تمرة، فمن لم يجد تمرة فبكلمة طيبة».

قال عدي: فرأيت الظعينة ترحل من الحيرة حتى تطوف بالكعبة لا تخاف إلا الله، وكنتُ فيمن افتتح كنوز كسرى بن هرمز، ولئن طالت بكم حياة لتروُنَّ ما قال أبو القاسم ﷺ يُخْرِجُ مَلَأَ كَفَّهُ^(١).

وفي الآية دليل على صحة خلافة أبي بكر الصديق والخلفاء الراشدين الثلاثة من بعده؛ لأن الفتوحات العظيمة كانت في زمانهم، فقد تم لهم فتح كنوز كسرى وقيصر وغيرهما من الملوك، وحصل الأمن والتمكين وظهور الدين، ودامت هذه الخلافة ثلاثين عامًا، وكانوا مؤمنين عاملين للصالحات، ثم صارت بعد ذلك ملكًا عضوضًا.

فمن أسباب نزول هذه الآية أن المنافقين كانوا يُظهرون الإسلام خوفًا من ظهوره، وخوفًا من التمكين له في الأرض، وكانوا يبتغون الكفر إبقاء على مودة المشركين، وتَحَسُّبًا لظهورهم على المسلمين؛ حتى لا يقال لهم: إنهم بدلوا دينهم، فكانوا يخشون ألا يتم الأمر للمسلمين، وألا يستقر المقام لهم بالمدينة، فيخرجهم المشركون منها حين يجدون الفرصة سانحة لذلك، كما حكى القرآن الكريم عن عبد الله بن أبي قولة: ﴿لَئِنْ رَجَعْنَا إِلَى الْمَدِينَةِ لِيُخْرِجَنَّ الْأَعَزُّ مِنْهَا الْأَذَلَّ﴾ [المنافقون: ٨].

فكانت هذه الأحوال سببًا لنزول الآية، بما اشتملت عليه من وعد المسلمين بإظهار دينهم، واستخلافهم في الأرض، وتبديل خوفهم أمانًا.

لقد كان المسلمون واثقين بالأمن، ولكن الله تعالى قَدَّمَ على هذا الأمن وغَدَّهم بالاستخلاف في الأرض، وظهور الدين، وتمكينهم منه، تنبيهًا على أن سُنَّةَ الله تعالى تقتضي ألا تأمن أمة بأس أمة، حتى تكون هذه الأمة قوية مُهابة مهيمنة على أصقاعها.

وفي هذا الوعد إشارة إلى أنه لا بد من بذل أسباب النصر؛ لضمان التوفيق والنجاح والتمكين في الأرض، وأن أساس ذلك هو طاعة الله والرسول ﴿وَإِنْ تُطِيعُوهُ تَهْتَدُوا﴾

(١) رواه البخاري برقم (١٤١٣)، ٣٥٩٥ وأخرجه مسلم مختصرًا برقم (١٠١٦)، وهو في مشكاة المصابيح برقم (٢٨٥٧).

أي: تُنصَرُوا على عدوكم، وتأمِنُوا على أنفسكم، وتهتَدُوا في أنفسكم، وإذا حَلَّ الاهتداء في النفوس نشأت عنه الأعمال الصالحة، وأقبلت مسبباتها تنهال على الأمة، فأسباب النصر على العدو هي الإيمان والعمل الصالح، وإخلاص العمل والعبادة لله وحده لا شريك له.

كما في حديث أنس رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال لمعاذ: «يا معاذ»، قال: لبيك يا رسول الله وسعديك -وكررها ثلاثاً- ثم قال ﷺ: «هل تدري ما حق الله على العباد؟» قلت: الله ورسوله أعلم، قال: «فإن حق الله على العباد أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئاً، قال: فهل تدري ما حق العباد على الله إذا فعلوا ذلك؟» قال: قلت: الله ورسوله أعلم، قال: «فإن حق العباد على الله ألا يعذبهم»^(١).

وبهذه العبادة الخالصة لله تعالى، مع الأخذ بأسباب النصر المادية نصّر الله سلف هذه الأمة.

عن سَفِينَةَ، مولى رسول الله ﷺ قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «الخلافة ثلاثون عاماً، ثم يكون بعد ذلك الملك»^(٢).

ثم قال: أُمِّسِكْ: خلافة أبي بكر ستان، وخلافة عمر عشر سنين، وخلافة عثمان اثنتا عشرة سنة، وعليّ ست^(٣).

وفي رواية: إن خلافة أبي بكر كانت ستين وثلاثة أشهر، وخلافة عمر كانت عشر سنين وستة أشهر، وخلافة عثمان كانت اثنتي عشرة سنة، وخلافة عليّ أربع سنين وتسعة أشهر، فعلى هذا تكون مدة خلافة الأئمة الأربعة تسعاً وعشرين سنة وستة أشهر، وكُمِلَتْ ثلاثين سنة بخلافة الحسن رضي الله عنه؛ حيث كانت ستة أشهر^(٤):

(١) «صحيح البخاري» (٥٩٦٧) و«صحيح مسلم» (٣٠). وعند عبد بن حميد (١١٩٩) وأبي يعلى (٣٢٢٨) والبلغوي في شرح السنة (٤٩) و«المسند» (٢٤٢/٥) برقم (١٣٧٤٢) من حديث طويل.

(٢) ينظر: «المسند» (٢٢٠/٥) برقم (٢١٩٢٣، ٢١٩٢٨، ٢١٩٢٨) نحوه، بإسناد حسن ورجال ثقات (محققوه) والنسائي في «السنن الكبرى» برقم (٨١٥٥) وابن أبي عاصم في السنة (١١٨١) والبخاري في مسنده (٣٨٢٨) والسلسلة الصحيحة (٤٥٩، ١٥٣٤، ١٥٣٥).

(٣) يُنظَر: أبو داود برقم (٤٦٤٦) وصحيح أبي داود (٣٨٨٣، ٣٨٨٢) والحاكم (١٤٥/٣) وابن حبان (٦٦٥٧) الإحسان.

(٤) يُنظَر: الترمذي برقم (٢٢٣٦) و«صحيح الترمذي» برقم (١٨١٣) و«الجامع الصغير» (٤١٤٧).

١- ولم يمت النبي ﷺ حتى فتح الله عليه مكة، وخيبر، والبحرين (الأحساء)، وسائر جزيرة العرب، وأرض اليمن بكاملها، وأخذ الجزية من مجوس هَجَر، ومن بعض أطراف الشام، وأهداه ملوك الروم ومصر والإسكندرية وعمان والحبشة هدايا؛ ليُصالحوه بها.

٢- ثم بعث أبو بكر خالد بن الوليد إلى فارس، وأبا عبيدة إلى الشام، وعمرو بن العاص إلى فلسطين، وفتح في عهده طرف من بلاد فارس، وفتحت بَصْرَى ودمشق وغيرهما.

٣- وتم في خلافة عمر الفاروق فتح البلاد الشامية والمصرية بتمامها، وأكثر بلاد فارس، وأذلَّ الله كسرى وقيصر.

٤- وفي خلافة عثمان امتدت الممالك الإسلامية إلى أقصى مشارق الأرض ومغاربها، ففتحت بلاد المغرب والأندلس، وقبرص والقيروان وبلاد سبته مما يلي البحر المتوسط إلى أقصى بلاد الصين في المشرق، وفتحت مدائن العراق، وخراسان، والأهواز، وغيرها.

جاء في الحديث: عن ثوبان ؓ أن رسول الله ﷺ قال: «إن الله تعالى زوى لي الأرض، فرأيت مشارقها ومغاربها، وإن أمتي سيلبغ ملكها ما زوى لي منها»^(١).

وعن جابر بن سمرة ؓ قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «لا يزال أمر الناس ماضياً ما وليهم اثنا عشر رجلاً» قال جابر: ثم تكلم النبي ﷺ بكلمة خفيت عني، فسألت أبي: ماذا قال رسول الله ﷺ؟ فقال: «كلهم من قريش»^(٢).

وليس المراد بهؤلاء الأئمة: أئمة الشيعة الاثني عشر، بل يكونون متتابعين ومتفرقين، ووجد منهم أربعة متوالون هم: أبو بكر، وعمر، وعثمان، وعلي، ووجد غيرهم، وقد يوجد منهم آخرون، ومنهم المهدي الذي يطابق اسمه اسم الرسول ﷺ وكنيته كنيته، وهم يملؤون الأرض قسطاً وعدلاً، كما ملئت جوراً وظلماً^(٣).

هذا وقد وعد الله المؤمنين العاملين للصالحات في هذه الآية ثلاثة وعود:

الوعد الأول: الاستخلاف في الأرض، بأن يجعلهم سبحانه خلفاء في الأرض، يخلف

(١) من حديث ثوبان في «صحيح مسلم» برقم (٢٨٨٩).

(٢) «صحيح مسلم» برقم (١٨٢١) والبخاري برقم (٧٢٢٢).

(٣) يُنظر: «تفسير ابن كثير» للآية (٧٧/٦).

بعضهم بعضًا فيها ويسكنوها ويعمروها، ويكونوا أهلها، وقيموا منهاج الله فيها، كما جعل عباده الصالحين قبلهم خلفاء لغيرهم، فأورثهم أرض الكفار وديارهم وأموالهم، وجعلهم خلفاء من قبلهم.

الوعد الثاني: أن يجعل الله دين الإسلام الذي ارتضاه لهم ثابتًا في قلوبهم، راسخًا في نفوسهم، باسطًا سلطانه على أعدائهم، له الكلمة العليا، ولمخالفه الكلمة السفلى.

الوعد الثالث: يبدل الله خوفهم الذي كانوا يعيشون فيه أمنًا وطمأنينة، وراحة بال، وهدوءًا في الحال.

ثم بيّن سبحانه الطريق إلى تحقيق هذه الوعود الثلاثة، وهو أن يعبدوا الله تعالى عبادة خالصة لا يشوبها شك، ولا رياء، ولا نفاق، وألا يشركوا معه غيره -كائنًا من كان- في طاعته وعبادته، وحكمه ومنهجه.

عن أبي بن كعب رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال لما نزلت هذه الآية: «بَشِّرْ هَذِهِ الْأُمَّةَ بِالسَّعَةِ، وَالرَّفْعَةِ، وَالدِّينِ، وَالنَّصْرِ، وَالتَّمَكِينِ فِي الْأَرْضِ، فَمَنْ عَمِلَ مِنْهُمْ عَمَلِ الْآخِرَةِ لِلدُّنْيَا، لَمْ يَكُنْ لَهُ فِي الْآخِرَةِ نَصِيبٌ»^(١).

هذا هو وعد الله لعباده الذين أخلصوا له الطاعة والعبادة، وامتلوا أمر الله تعالى، واجتنبوا نهيه، أما من انحرف عن طريق الحق، وجحد نعمة الله تعالى، واستعمل هذه النعم في غير ما خلقت له، فهم الجاحدون لأنعم الله عليهم، الخارجون على أمر الله ونهيه، وليسوا أهلًا للخير ولا للاستخلاف والتكمين في الأرض.

٥٦ - ﴿وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ (٥٦)

ولما أمر الله عباده بالطاعة، بيّن لهم أهم أركان العبادة، فأمرهم في هذه الآية بثلاثة أشياء، هي:

١- المواظبة على أداء الصلاة في أوقاتها بشروطها وأركانها وسننها وواجباتها.

(١) «المسند» (١٤٤/٣٥) برقم (٢١٢٢٠) قال محققوه: إسناده قوي. وأخرجه البيهقي في دلائل النبوة (٦/٣١٨)، وفي الشعب (٦٨٣٤) والحاكم (٣١١/٤) والبخاري في شرح السنة (٤١٤٥).

٢- إعطاء الزكاة لمستحقيها مما استخلفهم الله فيه من أموال وغيرها.

وفي هاتين العبادتين قيام بحق الله تعالى وحقوق العباد.

٣- طاعة الرسول ﷺ فيما أمر ونهى، ﴿مَنْ يُطِيعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ﴾ [النساء: ٨٠].

ثم رتب سبحانه على هذه الثلاثة حصول ما وعدهم الله به من الرحمة، ومنها الأمن في الدنيا، والدرجات العلا في الآخرة، وقد جمعت هذه الآية جميع الأعمال الصالحة، فمن أرادها فهذا طريقها، ومن أرادها بدون هذه الثلاث، فهو يُمْنى نفسه بالأمانى الكاذبة.

٥٧- ﴿لَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهَا أَلَمٌ لِّئَلَّا يُخَذَّ لِلَّذِينَ آمَنُوا مِمَّا كَسَبُوا فِيهَا وَلَئِنَّمَا تُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا فَاعْلَمْ﴾

ثم ثبت الله المؤمنين، وهون من شأن عدوهم في هذه الآية؛ لكيلا يرهبوا قوتهم، فلا تظن -أيها المسلم- أن الكفار مهما كان لديهم من قوة أنهم غالبون، أو أن الله تعالى يُعجزه إهلاكهم في الدنيا، فضلاً عن المصير المحتوم لهم في الآخرة، إنهم في قبضة الله تعالى وتحت تصرفه، فإن الله تعالى قادر على إهلاكهم، ومرجعهم في الآخرة إلى النار، وقبح هذا المرجع والمصير.

فلا تغتر -أيها المسلم- بما مُتّع به غير المسلمين في الدنيا، فإن الله تعالى وإن أمهلهم فإنه لا يهملهم قال تعالى ﴿نُؤَمِّنُهُمْ قَلِيلًا ثُمَّ نَضْطَرُّهُمْ إِلَىٰ عَذَابٍ غَلِيظٍ﴾ [لقمان: ٢٤].

آدَابُ اسْتِئْذَانِ الْأَطْفَالِ وَالْخَدَمِ دَاخِلِ الْبَيْتِ

٥٨- ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِيَسْتَأْذِنَكُمْ الَّذِينَ مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ وَالَّذِينَ لَمْ يَبْلُغُوا الْحُلُمَ مِنْكُمْ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ مِنْ قَبْلِ صَلَاةِ الْفَجْرِ وَحِينَ تَضَعُونَ ثِيَابَكُمْ مِنَ الظَّهِيرَةِ وَمِنْ بَعْدِ صَلَاةِ الْعِشَاءِ ثَلَاثُ عَوْرَاتٍ لَكُمْ لَيْسَ عَلَيْكُمْ وَلَا عَلَيْهِمْ جُنَاحٌ بَعْدَهُنَّ طَوَفَاتٌ عَلَيْكُمْ بَعْضُكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الْآيَاتِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾

عادت السورة لأحكام الاستئذان السابق ذكرها في الآية السابعة والعشرين من هذه السورة، فشرعت الاستئذان لأتباع العائلة، ممن هم شديداً الاختلاط بالبيت، بعد أن

(١) قرأ شعبة وحمزة والكسائي وخلف بنصب (ثلاث) الثانية على أنه بدل من (ثلاث مرات) الأولى، وقرأ الباقر بالرفع، على أنه خبر لمبتدأ محذوف تقديره: هي، أي: الأوقات السابقة عورات لكم.

قُطِعَ الحديث عن أحكام التشريع في السورة من الآية الرابعة والثلاثين إلى هنا.

فذكر سبحانه في هذه الآية حكم استئذان الأقارب والمملوكين، بعد أن ذكر حكم استئذان الأجانب فيما سبق، فأمر المؤمنين أن يستأذنهم ممالئكم والذين لم يبلغوا سن الحلم من الأطفال في أوقات ثلاث: قبل الفجر، وفي وقت القيلولة، وبعد صلاة العشاء، فهي عورات ثلاث.

والإسلام ينظم حياة المسلمين في جميع مراحلها، وأطوار حياتها، ومن ذلك ما ذكرته سورة النور من أحكام الاستئذان لمن أراد دخول بيت غيره، ومن آداب الاستئذان داخل البيت بين الخدم والأطفال، الذين لم يبلغوا سن الحلم وبين ذويهم، وتحدثت قرب نهايتها عن أحكام وآداب الاستئذان عند إرادة الخروج من مجلس النبي ﷺ في حياته، أو الخروج من مجلس العلم والدعوة، والأمور العامة بعد مماته صلوات الله وسلامه عليه.

سبب النزول:

ومما جاء في أسباب النزول: أن النبي ﷺ أرسل في وقت الظهيرة غلامًا يقال له: مُذْلَج بن عمرو إلى عمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنه؛ ليأتي به، فدخل الغلام على عمر وكان نائمًا، فلما استيقظ من نومه انكشف منه شيء، وكره عمر ذلك، فقال: وددت لو أن الله تعالى منع غلماننا وخدمنا من الدخول علينا في مثل هذه الساعة، فلما وصل عمر بن الخطاب إلى النبي ﷺ وجد الآية الخاصة بهذا الأمر قد نزلت على رسول الله ﷺ وهي هذه الآية فخر ساجدًا لله تعالى^(١).

وعن مقاتل بن حيان أن رجلًا من الأنصار وامرأته أسماء بنت مُرْشِدَة صنعا طعامًا للنبي ﷺ، فجعل الناس يدخلون بغير إذن، فقالت: ما أقبح هذا! وكان لها غلام كبير، فدخل عليها في وقت كرهت دخوله عليها فيه، فأتت النبي ﷺ وقالت: يا رسول الله، إن غلماننا وخدمنا يدخلون علينا في حالة نكرها؛ فأنزل الله تعالى هذه الآيات^(٢).

﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لِيَسْتَأْذِنَ الَّذِينَ مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ﴾. يعني: من العبيد والإماء، ذكورًا وإناثًا، وفي معنى ذلك الخدم والحشم، وكل من هم داخل البيت، وليستأذنكم أيضًا

(١) يُنْظَرُ هذا المعنى في: «زاد المسير» (٦٠/٦) و«تفسير الألوسي» (٢١٠/١٨).

(٢) يُنْظَرُ: النيسابوري (٢٧٦) وابن أبي حاتم (٢٦٢٣/٨) وابن كثير (٨٣/٦).

الذين لم يبلغوا الحلم منكم، وهم الصبية من أبنائكم وبناتكم الذين لم يصلوا إلى سن البلوغ، وهو خمسة عشر عاماً للذكر، وتسع سنوات للأنثى، أو الاحتلام للذكر، ونزول الحيض للأنثى، يستأذنون حين إرادة الدخول على آبائهم وأمهاتهم في هذه الأوقات الثلاثة، وهي:

١- من قبل صلاة الفجر، حين يتهيأ المسلم وينتبه لأداء الصلاة، ويخلع ملابس النوم الرقيقة وغير الساترة غالباً.

٢- وفي وقت الظهيرة، حين تضعون ثيابكم للراحة والاسترخاء، وتلبسون ما هو دونها في الستر والحشمة في وقت القيلولة.

٣- ومن بعد صلاة العشاء، حين يأوي المسلم إلى فراشه، ويخلع ملابس اليقظة، ويرتدي ملابس النوم؛ حيث يكون فيها ملازمة الراحة في المضاجع.

﴿ثَلَاثُ عَوْرَاتٍ لَكُمْ﴾ أي: أن هذه الأوقات الثلاثة هي التي تتكشف فيها عورة المسلم، فأوجب الإسلام على الأطفال الذين لم يبلغوا سن الحلم، وعلى مَنْ هُمْ داخل البيت من الخدم وغيرهم ألا يدخلوا على مَنْ في البيت من الرجال والنساء في هذه الأوقات إلا بإذن:

(أ) عن ابن عباس رضي الله عنه قال: إذا خلا الرجل بأهله بعد العشاء، فلا يدخل عليه خادم ولا صبي إلا بإذنه، حتى يصلي الغداة -أي الفجر- وإذا خلا بأهله عند الظهيرة فمثل ذلك. ورُخص لهم في الدخول بين ذلك، فأما من بلغ الحلم، فإنه لا يدخل على الرجل وأهله إلا بإذن على كل حال^(١).

(ب) وعن عكرمة، عن ابن عباس رضي الله عنه أن رجلين سألاه عن الاستئذان في العورات الثلاث التي أمر الله بها في القرآن، فقال ابن عباس: إن الله سِتّر يحب الستر، وكان الناس ليست لهم ستور على أبوابهم، ولا حجاب في بيوتهم، فربما فاجأ الرجل خادمه أو ولده، أو يتيّمه في حجره وهو على أهله، فأمرهم الله أن يستأذنوا في تلك العورات التي سَمّى الله، ثم جاء الله بعدُ بالسُّتور، وبسط عليهم في الرزق، فاتخذوا السُّتور،

(١) يُنظر: ابن أبي حاتم (٢٦٣٤/٨) والبيهقي (٩٦/٧).

واتخذوا الحجاب، فرأى الناس أن ذلك قد كفاهم من الاستئذان الذي أمروا به^(١) بمعنى: أنه يلزم على الرجل والمرأة قفل الباب والنوافذ عليهما، فيتعيّن على من أرادهما أن يطرق عليهما الباب، وإلا كانا آثمين.

(ج) وعن عطاء أن رجلاً سأل ابن عباس عليه السلام: أأستأذن على أختي؟ قال: نعم، قال: إنها في حجري، وإني أنفق عليها، وإنها معي في البيت، أأستأذن عليها؟ قال: نعم^(٢).

(د) وعن عطاء بن يسار أن رجلاً قال: يا رسول الله، أأستأذن على أُمي؟ قال: «نعم»، قال: إني معها في البيت، قال: «أستأذن عليها»، قال: إني خادمها، أأستأذن عليها كلما دخلت؟ قال: «أتحب أن تراها عريانة؟» قال: لا، قال: «فأستأذن عليها»^(٣).

والإسلام يعلمنا أن المسلم من شأنه أن ينام بعد العشاء، وأن يستيقظ قبل صلاة الفجر، وليس من شأنه أن يبدد طاقته في السهر، وأن يكون مهتماً بوقت العمل، ومُصِراً على ترك صلاة الفجر، وإنما ينام بعد العشاء، ويستيقظ عند صلاة الفجر، ويكره السهر إلا لحاجة، وليس منها متابعة الأفلام والتمثيلات، ونحوها.

قال سبحانه: ﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ وَلَا عَلَيْهِمْ جُنَاحٌ بَعْدَهُنَّ﴾ أي: ليس على الأطفال، ولا على الخدم، ولا عليكم إثم ولا حرج بعد هذه الأوقات الثلاثة، أن يدخل بعضكم على بعض بغير استئذان، يطوفون عليكم في الخدمة وغيرها.

عن سعيد بن جبير أن ابن عباس عليه السلام قال: ترك الناس ثلاث آيات فلم يعملوا بهن: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لِيَسْتَأْذِنَكُمْ الَّذِينَ مَلَكَتْ أَيْمَنُكُمْ وَالَّذِينَ لَمْ يَبْلُغُوا الْحُلُمَ مِنْكُمْ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ﴾.

وقوله تعالى: ﴿وَإِذَا حَضَرَ الْقِسْمَةَ أُولُو الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالسَّكِينُ فَارْزُقُوهُمْ مِنْهُ﴾ [النساء: ٨].

وقوله سبحانه: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ﴾ [الحجرات: ١٣].

(١) يُنظر: أبو داود (٥١٩٢) وابن أبي حاتم برقم (٧٨٧) والبيهقي (٩٧/٧) و«صحيح سنن أبي داود» (٤٣٢٤). بإسناد حسن موقوف على ابن عباس.

(٢) «صحيح الأدب المفرد» (٨١١).

(٣) «تفسير الطبري» (٢٤٤/١٧) والبيهقي (٩٧/٧). وهو في تحفة الأحوزي بأسانيد صحيحة (٤٦٧٤) ج ٣ وفي الموطأ برقم (٢٠٢٨) من رواية أبي مصعب الزهري المدني.

قلت: إن ابن عباس رضي الله عنه أصاب كبد الحقيقة، في أن الناس غالبًا لا يعملون بهذه الآيات، فإن أهل البيت لا يتحفظون من دخول الأطفال عليهم قبل سن الحلم، وكذا الخدم والحشم فيما عدا وقت الجماع بين الزوجين، ووقت قضاء الحاجة، وفيما عدا ذلك قد تلبس سيدة البيت ما هو قريب من العُري، وتزين غاية التزين أمام أبنائها وبناتها البالغين والبالغات، فضلًا عن الأطفال والخدم، رجالًا ونساء!! وهذا من الخطأ البين.

وقد يُظهر الأب ساقه وفخذه، وصدره وذراعيه، ويُجسّد عورته أمام الجميع، وفي هذا قدوة سيئة، وتفتيح للنزوات والشهوات.

ولم أر أهل الميراث يطيّبون خاطر الأقارب من غير الورثة، كاليتامى والمساكين، بشيء من ميراث المُتوفَّى كما تشير آية سورة النساء [٨]، لكان خيرا لهم بل يتكالبون على التركة، ويودّ كلّ منهم أن يحظى منها بنصيب الأسد.

أما قدّر الناس وقيمتهم في نظر غيرهم، كما أشارت آية سورة الحجرات [١٣] - فهو المنصب، والمال، والجاه، والمؤهل، والعائلة، وكذا المظهر في الملبس، والمسكن والمركب...، ومقياس التقوى والصلاح لا يُقدّر إلا بين أهله.

والحكمة من تعيين الاستئذان في هذه الأوقات الثلاثة؛ أنها أوقات خلوة للرجال والنساء، وأوقات التخفّف من الثياب، وهي أوقات نوم.

وما بعد صلاة العشاء يستغرق الليل كله حتى الاستيقاظ إلى صلاة الفجر.

والأمر باستئذان الخدم والعبيد ذكورًا وإناثًا على أهل البيت، يقتضي أمر أهل البيت بالاستئذان في الدخول على هؤلاء الخدم في تلك الأوقات أيضًا، كما قال تعالى: ﴿ثَلُثُ عَوْرَاتٍ لَكُمْ﴾. وقال: ﴿طَوَّافُونَ عَلَيْكُمْ بَعْضُكُمْ عَلَى بَعْضٍ﴾.

والعادة جرت بأن أهل البيت يستدعونهم عند الحاجة إليهم دون العكس، ولذا وُجّه الخطاب إلى الأبناء، والخدم، والعبيد، ولم يوجّه إلى أهل البيت، ولأن أهل البيت هم الذين يُعلّمون أتباعهم، ويؤدّبونهم، وهو لا يمنع أن الحكم سواء.

فيأبها الذين صدّقوا الله، واتبعوا رسوله، مروا أطفالكم وخدمكم أن يستأذنوا عند الدخول عليكم في أوقات العورات؛ حيث يقل التستر والاحتشام، أما فيما عداها فلا

حرج إذا دخلوا عليكم للخدمة ونحوها بغير إذن.

ولعل هذه الآية تكون مخصصة لعموم قوله تعالى: ﴿أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُنَّ أَوْ التَّبَعِينَ غَيْرَ أُولَى الْأَرْبَةِ مِنَ الرِّجَالِ أَوْ الطِّفْلِ الَّذِينَ لَمْ يَظْهَرُوا عَلَى عَوْرَتِ النِّسَاءِ﴾، في الآية الحادية والثلاثين من هذه السورة، من حيث إبداء زينة المرأة الخفية لهؤلاء الأصناف الثلاثة.

وسبب نزول الآية يوضح ذلك، وكما بين الله أحكام الاستئذان بين آياته وأحكامه، وحججه وشرائع دينه، وهو سبحانه عليم بما يصلح شؤون العباد، حكيم في تشريعه لهم، وتدبير أمورهم، وبهذا يجمع الإسلام بين التستر والاحتشام والتأدب بأدابه القويمة، وبين السماحة ورفع الحرج والمشقة.

الْأَبْنَاءُ كَالْأَجَانِبِ فِي الْإِسْتِئْذَانِ عَلَى آبَائِهِمْ إِذَا بَلَغُوا سِنَّ الْحُلُمِ

٥٩- ﴿وَإِذَا بَلَغَ الْأَطْفَالُ مِنْكُمُ الْحُلُمَ فَلْيَسْتَأْذِنُوا كَمَا اسْتَأْذَنَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ ءَايَاتِهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾

فإذا بلغ الأطفال الذين هم داخل البيت من الأبناء، الذكور والإناث، سن الحُلُم، ووصلوا إلى سن التكليف، فليستأذنوا في جميع الأوقات إذا أرادوا الدخول على آبائهم، كما استأذن الكبار من الأجانب الذين جاء ذكرهم في قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّى تَسْتَأْذِنُوا وَسَلِّمُوا عَلَى أَهْلِهَا﴾ [٢٧]. وذلك بأن يعلمهم آبائهم تغيير هذه العادة التي اعتادوها وهم صغار، فيقطعوا عن تلك العادة، كما قطعوا عن نُدِّي الأم من قبل، وبيّن لهم أنهم قد بلغوا سنّاً توجب ذلك.

قال ابن مسعود ؓ: عليكم أن تستأذنوا على آبائكم وأمهاتكم وإخوانكم.

وقال سعيد بن المسيب: يستأذن الرجل على أمه؛ فإنما أنزلت هذه الآية في ذلك.

وسئل حذيفة ؓ: أيستأذن الرجل على والدته؟ قال: نعم، إن لم تفعل رأيت منها ما تكره.

فوجب على الأبناء إذا بلغوا سن الحُلُم أن يستأذنوا في الدخول على آبائهم، كما هو حال الإناث والرجال الأجانب، والله سبحانه عليم بدخائل نفوس خلقه، وعليم بما يصلحها ويهذبها، وهو سبحانه حكيم في كل ما يشرعه لخلقه من أحكام.

وهكذا يؤدب الإسلام أبناءه صغاراً، وكباراً، أقرباء وأجانب، ذكوراً وإناثاً، ويعلمهم الحياء والعفاف، وترك كل ما يجرح الشعور.

ويؤخذ من هاتين الآيتين: أن أولياء الأمور عليهم تعليم مَنْ هم تحت أيديهم تعاليم الشرع وآدابه، وأنه يجب حفظ العورات، ويجوز كشفها عند الحاجة المشروعة، ولا يجوز للصغير أن يطلع على العورة ولا المملوك.

حُكْمُ الْقَوَاعِدِ مِنَ النِّسَاءِ فِي إِبْدَاءِ الزِّينَةِ

٦٠- ﴿وَالْقَوَاعِدُ مِنَ النِّسَاءِ الَّتِي لَا يَرْجُونَ نِكَاحًا فَلَيْسَ عَلَيْهِنَّ جُنَاحٌ أَنْ يَضَعْنَ ثِيَابَهُنَّ غَيْرَ مُتَبَرِّجَاتٍ بِزِينَةٍ وَأَنْ يَسْتَعْفِفْنَ خَيْرٌ لَهُنَّ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٦٠﴾﴾

وبعد أن أمر سبحانه بالاستئذان في الأوقات التي يضع فيها الرجال والنساء ثيابهم العادية عن أجسادهم، استثنى من عموم النساء: العجائز اللاتي بلغن سن اليأس، وقعدن عن التصرف، وعن الولادة والحيض، فرخص الإسلام لهن ألا يضربن بخمرهن على جيوبهن، استثناء من قوله تعالى: ﴿وَلَا يَبْذِيْنَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَى جُيُوبِهِنَّ﴾ [٣١]، واستثناء من قوله تعالى: ﴿يَذَرِيْنَ عَلَيْهِنَّ مِنْ جَلَابِيبِهِنَّ﴾ [الأحزاب: ٥٩]. كما قال ابن مسعود، وابن عباس رضي الله عنهما: الثياب: الجلباب، أي: الرداء الخارجي، والمقنعة التي فوق الخمار.

والكلام معطوف على وضع الثياب عن لابسها؛ وذلك لأن رغبة الرجال تقل بالنسبة للقواعد من النساء؛ لكبر السن، فلا حرج عليهن في خلع الثياب الظاهرة، غير قاصدات للتبرج، وكشف ما أمر الله بستره.

وكما ذكرت سورة النور أحكام النساء في إظهار الزينة الظاهرة للأجانب، وإظهار الزينة الخفية للمحارم، فإنها تحدثت هنا عن أن المرأة التي بلغت سن اليأس، وانقطع عنها الحيض، ولم يبقَ لها في الرجال مأرب، ولا للرجال فيها مأرب، فهي لا تطمع في الزواج، ولا يطمع أحد في الزواج منها؛ فقد انقطع حيضها، وبلغت سن اليأس، وقلَّت الشهوة فيها، وأصبحت عجوزاً لا تُشتهى، فلا حرج عليها حينئذ من وضع الثياب الظاهرة، كالرداء، والعباءة، والخمار، والقناع، وأن تتخفف من ملابسها داخل بيتها، بحيث لا

يظهر شيء من عورتها ولا زينتها الخفية، فلا ترتدي ملابس فاتنة، ولا لافتة للأنظار، ولا تترزين وتتجمل بوضع أدوات الزينة ونحوها بما يلفت الانتباه لها، ولا تبدي ذهبها إن كان في معصمها وجيدها ونحوه، وهذا معنى ﴿عَرَّ مَتَّبِعَاتِ رَيْبَةٍ﴾ أي غير مظهرات للناس زينة، كالتجمل بثياب ظاهرة مع ستر وجهها، أو ضرب الأرض برجلها وهي تلبس كعب عالي مدبب بحديدة ونحو ذلك فتلفت الأنظار إليها قال سبحانه: ﴿وَأَنْ يَسْتَعْفِفْنَ﴾ بعدم خلع ملابسهن الظاهرة ﴿خَيْرٌ لَّهُنَّ﴾ من إبدائها.

فإن كانت في المرأة بقية من جمال وهي في سن الخمسين ونحو ذلك، فإنها لا تدخل في حكم هذه الآية؛ لأنها تخص اللاتي قعدن في البيوت، ولم تعد لهن رغبة في الرجال، وذلك لأن المرأة من شأنها أن تخفي زينتها إلا عن زوجها، فإذا أظهرت زينتها فكأنها تستجلب الرجال، وتثير رغبتهم فيها، وهذا يخالف أحكام الشرع، سيما إن كانت المرأة بعد الخمسين من عمرها، فهذا لا يتناسب مع سنها، وقد يرغب فيها بعض أهل الشهوات لما فيها من التبرج بالزينة، وإبراز محاسنها بما يُشغل عن عيوبها.

وقد سئلت عائشة رضي الله عنها عن الخضاب، والصباغ، والقرطين، والخلخال، وخاتم الذهب، ورقاق الثوب، فقالت: أحل الله لكُنَّ الزينة غير متبرجات، لمن لا يحلُّ لهن أن يروا منكنَّ مُحَرَّمًا، فيكون التبرج بظهور ما كان يحجبه الثوب المطروح عنها.

وفي الموطأ: دخلت حفصة بنت عبد الرحمن بن أبي بكر على عائشة أم المؤمنين - رضي الله عن الجميع - وعلى حفصة خمار رقيق، فشقَّتْ عائشة، وكسَتْها خمارًا كثيفًا، أي: شقَّتْه لئلا تختمر به فيما بعد؛ لرقته.

فإذا خرجت المرأة العجوز من بيتها فلا يحل لها ترك جلبابها الظاهر، ولا يجوز للعجائز إظهار شعورهن، ولا نُحُورهن، ولا سُوقهن، ولا أذرعهن للأجانب، فقد حدَّد ابن عباس معنى الآية في قوله عن القواعد: هي المرأة لا جناح عليها أن تجلس في بيتها بدُرْع وخمار، وتضع عنها الجلباب، ما لم تتبرَّج لما يكرهه الله^(١).

(١) ابن أبي حاتم (٢٦٤١/٨) والبيهقي (٩٣/٧) وأخرجه الطبري بسند حسن عن علي بن أبي طلحة عن ابن عباس.

وقال عاصم الأحول: دخلت على حفصة بنت سيرين، وقد ألفت عليها ثيابها، فقلت: يقول الله: ﴿وَالْقَوَاعِدُ مِنَ النِّسَاءِ الَّتِي لَا يَرْجُونَ نِكَاحًا فَلَيْسَ عَلَيْهِنَّ جُنَاحٌ أَنْ يَضَعْنَ ثِيَابَهُنَّ﴾ قالت: اقرأ ما بعده ﴿وَأَنْ يَسْتَغْفِرْنَ خَيْرٌ لَهُنَّ﴾ وهو ثياب الجلباب^(١).

أي: ثياب الخروج. والاستغفار: طلب العفة بفعل الأسباب المقتضية لذلك، من تزوج، وترك ما فيه فتنه، والله أعلم بالنيات والمقاصد، فلتحذر كل مسلمة من كل قول وقصد فاسد، وتعلم أن الله تعالى مجازيها عليه.

رَفْعُ الْحَرَجِ فِي الْأَكْلِ مِنْ بُيُوتِ الْآخَرِينَ

٦١- ﴿لَيْسَ عَلَى الْأَعْمَى حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْمَرِيضِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى أَنْفُسِكُمْ أَنْ تَأْكُلُوا مِنْ بُيُوتِكُمْ^(٢) أَوْ بُيُوتِ آبَائِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أُمَّهَاتِكُمْ^(٣) أَوْ بُيُوتِ إِخْوَانِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَخَوَاتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَعْمَامِكُمْ أَوْ بُيُوتِ عَمَّاتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَخْوَالِكُمْ أَوْ بُيُوتِ خَالَاتِكُمْ أَوْ مَا مَلَكَتْهُمُ مِفْتَاحُهُ أَوْ صَدِيقِكُمْ لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَأْكُلُوا جَمِيعًا أَوْ أَشْتَاتًا فَإِذَا دَخَلْتُمْ بُيُوتًا فَسَلِّمُوا عَلَى أَنْفُسِكُمْ تَحِيَّةٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ مُبْرَكَةٌ طَيِّبَةٌ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿١١﴾﴾

هذه الآية ترفع الحرج عن العجزة، والمرضى بأمراض مزمنة كالأعمى والأعرج، وسائر أصحاب العاهات، ومن لا يُرجى برؤهم من المرضى، وهم فقراء لا يجدون شيئاً، ولا يستطيعون العمل والكسب بوجه من الوجوه، فلا حرج عليهم في دخول بيوت الناس بدون دعوة للأكل منها، وملء بطونهم.

وكان الناس قبل البعثة يتخرجون من الأكل مع الأعمى لأنه لا يرى الطعام، فربما سبقه غيره إلى الطيب منه، ولا مع الأعرج لأنه لا يتمكن من الجلوس فيفتات عليه جليسه،

(١) البيهقي (٩٣/٧).

(٢) قرأ قالون وابن كثير وابن عامر وشعبة وحزمة والكسائي وخلف بكسر الباء في لفظ (بيوتكم) ولفظ (بيوت)، والباقون بضمها.

(٣) قرأ حمزة بكسر الهمزة والميم وصلًا من (أمهاتكم) وقرأ الكسائي بكسر الهمزة وفتح الميم، والباقون بضم الهمزة وفتح الميم.

والمريض لا يستوفى حقه من الطعام كغيره، فكرهوا أن يأكلوا معهم لئلا يظلموهم^(١).

هذا: ويدخل في رفع الحرج: ترك الأمور الواجبة، كالجهاد ونحوه مما يتوقف على بصر الأعمى، وسلامة الأعرج، وصحة المريض.

هذا هو معنى الشق الأول من الآية ﴿لَيْسَ عَلَى الْأَعْمَى حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْمَرِيضِ حَرَجٌ﴾ ويوضح هذا المعنى عطف رفع الحرج عن الأصناف الاثني عشر المذكورين في بقية الآية بعدها، بأن يأكل كلٌ منهم من بيت غيره، سواء دُعي إلى تناول الطعام أم لا.

أما الشق الآخر من الآية، فهو يبين أن الأكل يكون بعد الاستئذان في دخول بيوت الآخرين بمقتضى قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّى تَسْتَأْذِنُوا وَتُسَلِّمُوا عَلَى أَهْلِهَا﴾ [٢٧]. فإذا دخل الإنسان المنزل بالوجه المباح له، صحَّ له بعد ذلك الأكل فيه.

أما أكل أموال الناس بالباطل وهو ما يكون عن طريق السرقة، أو الرشوة، أو القمار، أو الغش، أو الخداع، أو التعدي ونحو ذلك، فلا علاقة له بالآية، والمقطع الأول منها يشبه آية سورة الفتح [١٧]، وآيتي سورة التوبة [٩٢، ٩١]؛ إلا أن المقام فيهما يتناول الحديث عن الجهاد والغزو في سبيل الله، فلا جناح عليهم في التخلف عنه لعذرهم.

أما في هذه الآية فهو يتعلق بالاستئذان في دخول بيوت الناس للأكل فيها، وعلى هذا فالمعنى متصل بقوله تعالى بعدها: ﴿وَلَا عَلَى أَنْفُسِكُمْ أَنْ تَأْكُلُوا﴾ أي: لا حرج عليكم كذلك في أن تأكلوا من بيوتكم... إلخ.

أي: كما رخص الله للأعمى والأعرج، والمريض والزمنى والعجزة في عدم الاستئذان في الزيارة للأكل من بيوت الآخرين؛ لعدم استطاعتهم التكسب، ولفقرهم وحاجتهم إلى الطعام، فإنه سبحانه رخص لكم كذلك أن تأكلوا عند كل من جاء ذكرهم في الآية.

وعلى هذا فقد جاءت هذه الآية عطفًا على أحكام الاستئذان، ورفعًا للحرج عند دخول البيوت، سواء أكان الدخول للزيارة والمودة، أم كان لغرض تناول الطعام فيها، بدعوة أو بغير دعوة، فالكُل يشترك في رفع الحرج المذكور في الآية، وقد أذن الله للأعمى والأعرج والمريض أن يدخلوا بيوت المسلمين ليأكلوا فيها؛ لأنهم محابو ج غالبًا، ولا

(١) قال بذلك سعيد بن جبير ومقسم كما في تفسير ابن كثير للآية.

يستطيعون التكسب، والخرج مرفوع عنهم في كل ما تضطروهم إليه أعذارهم، مرفوع عن الأعمى في التكليف الذي يُشترط فيه البصر، وعن الأعرج فيما يُشترط فيه المشي والركوب، وعن المريض فيما يتأثر به ويشق عليه.

وقد أحدث الإسلام في قلوب الناس تغييرًا كبيرًا في نفوسهم وأوضاعهم، وأصبح عندهم حسنٌ مُرَهَفٌ، فكان أصحاب النبي ﷺ يسألونه عن كل شيء، والإسلام يعلمهم كل شيء، حتى إنه ليعلمهم كيف يقضي الإنسان حاجته، وكيف يستنجي، وكيف يأتي أهله! وهكذا كل صغيرة وكبيرة، فكانوا يريدون معرفة الحلال والحرام، والجائز وغير الجائز:

١- فلما نزلت هذه الآية قال الصحابة: أفضل الأموال هو الطعام الذي نأكله، فمنه نبت اللحم والعظم، والدم الذي يجري في العروق، والمريض حين نأكل معه لا يستوفي حاجته من الطعام كالصحيح، والأعمى لا يُبصر الطيب من الطعام؛ ليتناوله بيده، والأعرج لا يتمكن من الجلوس والمزاحمة، فلا يأخذ حاجته من الطعام كالصحيح، فلا ينبغي لنا أن نأكل مع المرضى وذوي العاهات مخافة أن نظلمهم، أو تمتد أيدينا قبلهم إلى ما لهم فيه رغبة، ويكون فيه أكل لأموالهم بالباطل، فتحرّجوا من ذلك^(١).

٢- وأيضًا فإن بعض المسلمين كانوا يخرجون للغزو مع رسول الله ﷺ، وكانوا يتركون مفاتيح بيوتهم مع الأعمى والأعرج والمريض، ويأذنون لهم في أن يأكلوا من بيوتهم، فكانوا مع هذا الإذن يتخرجون أن يأكلوا من بيوتهم.

عن عائشة رضي الله عنها قالت: كان المسلمون يرغبون في النفير مع رسول الله ﷺ فيدفعون مفاتيحهم إلى ضُمنائهم، ويقولون: قد أحللنا لكم أن تأكلوا مما احتجتم إليه، وكانوا يقولون: إنه لا يحل لنا أن نأكل، إنهم أذنوا لنا عن غير طيب نفس، وإنما نحن أمناء، فأنزل الله الآية إلى قوله: ﴿أَوْ مَا مَلَكَتْهُ مَفَاحِهُ﴾^(٢).

(١) ورد هذا المعنى عن سعيد بن جبير عند ابن أبي حاتم (٢٦٤٣/٨، ٢٦٤٨) وابن جرير (٣١٦/١٧) والبيهقي (٢٧٤/٧).

(٢) «تفسير ابن أبي حاتم» برقم (٨٩٤) و«تفسير الطبري» (١٢٩/١٨) وعزاه الهيثمي إلى البزار وقال: رجاله رجال الصحيح، «مجمع الزوائد» (٨٣/٧) وحسن إسناده محقق ابن أبي حاتم، وصححه ابن حجر في «مختصر زوائد البزار» (١١٨/٣) وأخرجه عبد بن حميد عن سعيد بن المسيب.

وقال ابن عباس رضي الله عنه: نزلت في الحارث بن عمرو خرج غازيًا مع رسول الله ﷺ وخلف مالك بن زيد على أهله، فلما رجع وجده مجهودًا، فسأله عن حاله، فقال: تخرجت أن أكل من طعامك، فأنزل الله هذه الآية.

٣- وربما كان الفقير من هؤلاء المرضى وذوي العاهات يدخل على الرجل فلا يجد في بيته شيئًا، فيأخذه إلى بيت أبيه، أو أخيه، أو صديقه، ونحو ذلك، فيرى الفقير أن في هذا حرجًا له؛ لأنه قد أخذه إلى بيت غيره، فكيف يأكل من مال غيره؟^(١).

٤- وربما كان بعض الأصحاء يتقززون من الأكل مع المرضى وغيرهم، فأنزل الله سبحانه هذه الآية؛ لرفع الحرج في هذا كله، مبيّنًا أن أصحاب العاهات ليس عليهم حرج ولا إثم في أن يأكلوا مع الأصحاء، ولا أن يأكل الأصحاء معهم. وليس هناك من حرج بشكل عام في أن يأكل الإنسان من بيت أقاربه وأصدقائه.

وعدّد الله سبحانه في هذه الآية اثني عشر صنفًا من الناس لا حرج ولا إثم عليهم في أن يأكل الإنسان من بيوتهم بغير إذن، إلا إذا علم أنه لا يرضى بذلك، أو أن هذا يضره، فإنه لا ينبغي له أن يأكل من بيت غيره إلا بإذنه.

وقد قدّم الله سبحانه في الآية رفع الحرج عن أصحاب الأعذار، فبيّن تعالى أنه كما رفع الحرج عن أصحاب الأعذار الثلاثة من فاقد البصر، وذوي العرج، والمرضى، في ترك الأمور الواجبة كالجهاد، ونحوه من الأعمال التي تتوقف على الرؤية، وسلامة الأعضاء، والحواس، والصحة، فليس عليهم حرج ولا إثم في الأكل من بيوت الآخرين. وليس عليكم -أيها المؤمنون- عامة إثم ولا حرج في الأكل ممن سماهم الله في الآية، من الاثني عشر صنفًا من الناس، وهم:

١- لا حرج عليكم أن تأكلوا من بيوت أنفسكم من الحلال الطيب، كما قال تعالى: ﴿وَلَا عَلَىٰ أَنْفُسِكُمْ أَنْ تَأْكُلُوا مِنْ بُيُوتِكُمْ﴾، فيأكل الرجل من بيته وزوجته غائبة أو العكس، وهذا أمر معلوم لا يحتاج إلى بيان، ولكنه ذكر استفتاحًا.

(١) ورد هذا المعنى عن مجاهد وغيره عند الطبري (٣٦٧/١٧) وعبد الرزاق (٦٤/٢) وغيرهما.

٢- ولا حرج عليكم أن تأكلوا من بيوت أبنائكم، وإن نزلوا، أي: ابن الابن، أو ابن البنت فمن دونهم، وقد ذكرت الآية بيوت الآباء ولم تذكر بيوت الأبناء؛ لأن بيت الابن معلوم أنه كبيت الأب، فلا فرق بينهما، ولأن الأكل من بيت الابن بمثابة الأكل من بيت الإنسان نفسه؛ لأن الولد من كسب أبيه.

عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده قال: أتى أعرابي رسول الله ﷺ فقال: إن أبي يريد أن يجتاح مالي؟ قال: «أنت ومالك لوالدك، إن أطيب ما أكلتم من كسبكم، وإن أموال أولادكم من كسبكم، فكلوه هنيئاً»^(١) وفي حكم الولد ولد الولد، وهكذا.

وقوله تعالى: ﴿وَلَا عَلَىٰ أَنْفُسِكُمْ أَنْ تَأْكُلُوا مِنْ بُيُوتِكُمْ﴾. يشمل بيت الإنسان الذي يسكنه، وفيه عياله وأهله، ويشمل بيوت الأبناء الذكور، وأبنائهم، وكذا البنات، إن كان لهن ذمة مالية مستقلة.

٣- وليس هناك حرج في الأكل من بيت الأب وإن علا كالجد وأبيه؛ لقوله تعالى: ﴿أَوْ بُيُوتِ آبَائِكُمْ﴾.

٤- وكذا الأم وإن علت، كالجدة وأمها...؛ لقوله تعالى: ﴿أَوْ بُيُوتِ أُمَّهَاتِكُمْ﴾.

٥- ولا حرج عليكم أن تأكلوا من بيت الأخ مطلقاً، سواء أكان شقيقاً، أم لأب، أم لأم؛ لقوله تعالى: ﴿أَوْ بُيُوتِ إِخْوَانِكُمْ﴾.

٦- ولا حرج عليكم أن تأكلوا من بيوت الأخوات مطلقاً، سواء أكن شقيقات، أم من الأب، أم من الأم؛ لقوله تعالى: ﴿أَوْ بُيُوتِ أَخَوَاتِكُمْ﴾.

٧- ولا حرج عليكم أن تأكلوا من بيوت الأعمام الأشقاء أو لأب؛ لقوله تعالى: ﴿أَوْ بُيُوتِ أَعْمَامِكُمْ﴾.

(١) من حديث عبد الله بن عمرو في «المسند» (١٧٩/٢) برقم (٦٦٧٨، ٧٠٠١) وأبي داود (٣٥٣٠) وابن ماجه (٢٢٩٢). قال محققوه: وهو حديث صحيح لغيره، وإسناده حسن وأخرجه البيهقي في السنن (٧/٤٨٠) وفي الدلائل (٣٠٤/٦) والطحاوي في شرح مشكل الآثار (١٥٩٨) والطبراني في الكبير (١٠٠١٩) والبراز (١٢٦٠) وأبو يعلى وقد صححه الألباني في صحيح ابن ماجه (١٨٥٤) عن عائشة و (١٨٥٥) عن جابر، و (١٨٥٦) عن عبد الله بن عمرو، وفي الإرواء والمشكاة والروض النضر وغيرها.

- ٨- ولا حرج عليكم أن تأكلوا من بيوت العمات؛ لقوله تعالى: ﴿أَوْ بُيُوتِ عَمَتِكُمْ﴾.
- ٩- ولا حرج عليكم أن تأكلوا من بيوت الأخوال؛ لقوله تعالى: ﴿أَوْ بُيُوتِ أَخْوَالِكُمْ﴾.
- ١٠- ولا حرج عليكم أن تأكلوا من بيوت الخالات؛ لقوله تعالى: ﴿أَوْ بُيُوتِ خَالَاتِكُمْ﴾.
- ١١- ولا حرج عليكم أن تأكلوا من البيوت التي وُكِّلتم بها في غيبة أصحابها، ممن يملكون التصرف في أموالهم، كالخادم، والحارس، والوكيل، وأن يكون ذلك بإذنهم، مع عدم تجاوز شيع البطن؛ لقوله تعالى: ﴿أَوْ مَا مَلَكَتْهُ مَفَاحِشُهُ﴾.
- ١٢- ولا حرج عليكم أن تأكلوا من بيوت الأصدقاء؛ لقوله تعالى: ﴿أَوْ صَدِيقِكُمْ﴾.
- قال السدي: كان الرجل يدخل بيت أبيه، أو أخيه، أو ابنه، فَتَحْفَه المرأة بالشيء من الطعام فلا يأكل؛ من أجل أن رب البيت ليس ثَمَّ، فنزلت الآية^(١).
- وَرَدَّ أن الحسن دخل داره فوجد عددًا من أصحابه منكبين على أطايب الطعام في بيته يأكلون، فتهلَّلت أسارير وجهه سرورًا، فضحك وقال: هكذا وجدناهم، هكذا وجدناهم، يريد أكابر الصحابة عليهم السلام، ومن لقيهم من البدرين.
- وكان الرجل منهم يدخل دار صديقه وهو غائب، فيسأل جاريته كيسه، فيأخذ منه ما شاء، فإذا حضر مولاها وأخبرته أعتقها سرورًا بذلك^(٢).
- والمعنى: ليس عليكم جناح أن تأكلوا من منازل هؤلاء جميعًا إذا دخلتموها، من غير أن تتزوّدوا أو تحمّلوا، والمعدودون في الآية بينهم من القرابة، أو الولاية، أو الصداقة ما هو سبب للتسامح بينهم في الحضور بغير دعوة، ولا يتخرج أحد منهم من ذلك غالبًا.
- ولا إثم عليكم أن تأكلوا مجتمعين أو منفردين، بأن يأكل الواحد منكم مع جماعة جاؤوا للأكل مثله، أو تأكلوا متفرقين، بأن يأكل أحدكم وحده ليس معه مشارك، وكان من عادة بعضهم ألا يأكل منفردًا، ويتحرّج من الأكل وحده، فرفع الله هذا الحرج بقوله: ﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَأْكُلُوا جَمِيعًا أَوْ أَشْتَاتًا﴾.

(١) «تفسير ابن كثير» (٦/٨٥).

(٢) من «تفسير الكشاف» للآية (٣/٢٥٧).

وكان نفر من بني كنانة، يقال لهم: بنو ليث، يتخرج المرء منهم أن يأكل وحده، وربما ينتظر يومًا بلا طعام حتى يأتيه ضيف فيأكل معه، فرفع الله الحرج في ذلك^(١).

أي: كُلْ وحدك، أو كُلْ مع غيرك، ليس هناك حرج في ذلك، بل إن الأكل مع الجماعة أفضل.

عن وحشي أن بعض الناس قال للنبي ﷺ: إنا نأكل ولا نشبع، فقال: «لعلكم تأكلون متفرقين؟ كلوا مجتمعين، واذكروا اسم الله عليه، يبارك لكم في طعامكم»^(٢).

في حديث عمر بن الخطاب ؓ أن النبي ﷺ قال: «كلوا جميعًا ولا تفرقوا»^(٣)

إلقاء السلام على من في هذه البيوت:

ثم إن الله تعالى ذكّرهم بآداب الدخول إلى بيوت الأهل، والأقارب، والأصدقاء؛ للأكل فيها أو لغير الأكل، بأن يبدأ الداخل بإلقاء السلام على من في هذه البيوت، وليست القرابة، أو الصداقة، أو المخالطة، مُسْقِطَةً لهذه الآداب؛ فملازمة الآداب تكون مع القريب والبعيد، ﴿فَإِذَا دَخَلْتُمْ بُيُوتًا فَسَلِّمُوا عَلَى أَنْفُسِكُمْ﴾ أي: إذا دخلتم بيوتكم فسلموا على أهليكم، وإذا دخلتم بيوتًا غير بيوتكم وهي مسكونة، فقولوا لهم: السلام عليكم ورحمة الله وبركاته، فإذا دخلتم بيوتًا غير مسكونة، أو دخلتم المسجد وليس فيه أحد، فقولوا: السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين ﴿تَحِيَّةٌ مِّنْ عِندِ اللَّهِ﴾ شرعها لعباده ﴿مُبْرَكَةً طَيِّبَةً﴾ تُنَمِّي المودة والمحبة بينكم، وهي محبوبة للسامع، وبمثل هذا التّبيين يُبَيِّنُ الله لكم معالم دينه وآياته؛ لتعقلوها وتعملوا بها، والسلام المذكور في الآية هو سلام التحية، بحيث يدخل الإنسان على غيره فيؤانسه بالأمان إن كان لا يعرفه، وباللطف إن كان يعرفه، ويتضمن السلام: الاستئناس، والاستئذان في الدخول، كما أنه ينبغي عليه أن يُسَلِّمَ أيضًا عند الانصراف.

(١) «تفسير الطبري» (٣٧٦/١٧) وابن أبي حاتم (٢٦٤٩/٨).

(٢) من حديث عبد الله بن عمر في «سنن ابن ماجه» (٣٢٨٧) بإسناد ضعيف، كما قال البوصيري في الزوائد برقم (١٨٣). وقد حسنه الألباني في صحيح ابن ماجه برقم (٢٦٥٧) وفي السلسلة الصحيحة (٦٦٤).

(٣) صحيح سنن ابن ماجه (٢٦٥٨) والسلسلة الصحيحة (٢٦٩١).

الاستِئْذَانُ مِنْ مَجَالِسِ مَصَالِحِ الْأُمَّةِ لَا يَجُوزُ إِلَّا لِعُذْرٍ

٦٢- ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَإِذَا كَانُوا مَعَهُ عَلَى أَمْرٍ جَامِعٍ لَمْ يَذْهَبُوا حَتَّى يَسْتَأْذِنُوا إِنْ الَّذِينَ يَسْتَأْذِنُكَ أُولَئِكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ فَإِذَا أَسْتَأْذَنُوكَ لِبَعْضِ شَأْنِهِمْ فَأَذَنْ لِمَنْ شِئْتَ مِنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٦٢﴾﴾

هذه الآية تتحدث عن نوع ثالث من أنواع الاستئذان يتعلق بالإذن للاعتذار من المجالس الجامعة التي تكون في حضور ولي الأمر، أو بإذنه .

وكما بيّنت سورة النور آداب الاستئذان عند إرادة الدخول لبيوت الآخرين، بيّنت كذلك آداب الاستئذان عند الخروج من بيوتهم، أو الخروج من مجالس العلم ونحوها، سيّما إذا كان أحدهم في مجلس رسول الله ﷺ، أو في مجلس الحاكم ولي أمر المسلمين، أو رئيس مصلحة، أو وزارة، أو إدارة، ونحو ذلك من كل جمع يجمع المعنيين بأمر هام، يتعلق بأحوال الناس وأمورهم، وكما يكون السلام عند الدخول يَكُونُ أيضاً عند الخروج، فقد جاء في الحديث عن أبي هريرة ؓ: «إذا انتهى أحدكم إلى المجلس فليسلم، فإذا أراد أن يقوم فليسلم، فليست الأولى بأحق من الآخرة»^(١)، والاستئذان عند الخروج كالاستئذان عند الدخول.

١- وقد ورد أن النبي ﷺ ومعه أصحابه كانوا أثناء حفر الخندق، إذا عرض لأحدهم أمر ضروري يريد أن يذهب لأجله فإنه يستأذن من الرسول ﷺ فيأذن له الرسول ﷺ، فيقضي حاجته، ثم يعود إلى عمله الذي كان فيه، وكان المنافقون يخرجون خفية متسللين - بعضهم في محاذاة الآخر - من مجلس الرسول ﷺ أو من موقع حفر الخندق^(٢).

٢- وقد حدث مثل هذا في صلاة الجمعة، فكان النبي ﷺ إذا صعد المنبر وأراد الرجل أن يخرج من المسجد لحاجة أو عذر، لم يخرج حتى يقوم في مواجهة النبي ﷺ ويراه، فيعرف أنه إنما قام ليستأذن، فيأذن لمن شاء منهم.

(١) من حديث أبي هريرة في «سنن أبي داود» برقم (٥٢٠٨) والترمذي برقم (٢٧٠٦) و«سنن النسائي الكبرى» برقم (١٠٢٠١). قال الألباني في صحيح أبي داود (٤٣٤٠) وصحيح الترمذي (٢٨٦١): حسن صحيح.

(٢) «السيرة النبوية» لابن إسحاق (٣/ ٢٣٠) و«تفسير القرطبي» (١٢/ ٣٢١) والبيهقي (٣/ ٤٠٩).

قال مجاهد: وإذن الإمام يوم الجمعة أن يشير بيده^(١).

قال ابن سيرين: كان الناس يستأذنون في الجمعة ويقولون هكذا، ويشيرون بثلاثة أصابع، فلما كان عهد (زياد) كثر عليه فاغتم، فقال: من أمسك عن أنفه فهو إذنه^(٢).

وكانت خطبة الجمعة تثقل على المنافقين، فيلوذ بعضهم ببعض، ويخرجون من المسجد وكان أحدهم إذا أراد الخروج أشار بأصبعه إلى النبي ﷺ فيأذن له من غير كلام؛ لأن من تكلم في أثناء الخطبة بطلت صلاته^(٣).

٣- وهكذا كانوا يفرّون من ساحات الجهاد، ويعتذرون بالمعاذير الباطلة.

والآية تصوّر خبث نفوس المنافقين، والتواء طباعهم، وجُبْن قلوبهم، أبلغ تصوير.

٤- قال أهل العلم: وكذلك كل أمر اجتمع عليه المسلمون مع ولي الأمر لا يخالفونه، ولا يرجعون عنه إلا بإذن، والإمام -أي: الحاكم- مخير بين أن يأذن له أو لا.

فإن حدث للمأموم في الصلاة أمر عارض يمنعه من القيام للاستئذان، فإن الاستئذان يسقط عنه.

وكان المنافقون إذا سمعوا الحديث عن النفاق والمنافقين، ألمهم ذلك، فيخرجون لوداً، بعضهم يلوذ ببعض، ويتسللون خفية من مجلس رسول الله ﷺ تفادياً للعمل الذي يشقّ عليهم، أو يتسللون سامة من سماع كلام لا يريدونه، فنفى الله عنهم وصف الإيمان، وأعلمهم بأن هذا العمل من علامات النفاق، وأنه منافٍ للإيمان، كما قال تعالى: ﴿وَإِذَا مَا أَنْزَلَتْ سُورَةٌ نَظَرَ بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ هَلْ يَرَيْنَا مِنْ أَحَدٍ ثُمَّ انْصَرَفُوا صَرَفَ آلِهَةٍ قُلُوبُهُمْ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَفْقَهُونَ﴾ [التوبة].

وهذه السورة تزيد المؤمن إيماناً، وتزيد المنافق رجساً إلى رجسه، وقد اعتنى سبحانه بذكر أوصاف المؤمنين؛ ليُعلم أن ضدها من صفات المنافقين، وأعرض سبحانه عن

(١) يُنظر: ابن أبي شيبة (١١٦/٢) وعبد الرزاق برقم (٥٥١١) وابن أبي حاتم (٢٦٥٢/٨).

(٢) يُنظر: ابن أبي شيبة (١١٦/٢) وهو في «مراسيل أبي داود» ص ٩٥.

(٣) يُنظر هذا المعنى في: ابن أبي حاتم، عن مقاتل بن حيان (٢٦٥٦/٨).

ذكرها احتقاراً لهم.

وقد وصف الله أهل الإيمان بأوصاف ثلاثة، هي: أنهم آمنوا بالله، وآمنوا برسول الله، وأنهم لم ينصرفوا عن مجلس رسول الله.

وفي معناه: مجالس القرآن والعلم والذكر، فجعل هذا الاستئذان علامة مميزة للمؤمنين عن المنافقين.

والله سبحانه يبين موقف المؤمنين في هذه الآية، ويشي عليهم، ويبين موقف المنافقين أيضاً، ويلومهم عليه.

والآية تشمل كل من ولي أمراً من أمور المسلمين، وكل حاكم للمسلمين في الدولة التي يحكمها، وأنه يجب على من وصفهم الله تعالى بالإيمان بالله والرسول، والعمل بشرع الله سبحانه، أنهم إذا كانوا مع الحاكم المسلم - أو من ينيه - على أمر جمعه في مصلحة المسلمين، لم ينصرف منهم أحد بدون إذن.

والأمر الجامع: كأمر الحرب، وأمر الشورى، أو صلاة الجمعة، أو الجماعة، أو العيدين، ونحو ذلك من سائر مجالس شؤون المسلمين في دنياهم وأخراهم، فليس لهم أن يخرجوا منه حتى يستأذنه، إن الذين يستأذنونك - يا محمد - في الخروج لحاجتهم هم المؤمنون حقاً، فإذا استأذونك في الانصراف لقضاء بعض أمورهم من كل أمر مباح، ضروري لهم ﴿فَأَذِنَ لِمَن شِئْتَ مِنْهُمْ﴾ هذا خطاب للنبي ﷺ، ولأمر جماعة المسلمين من بعده، وأنه مخير بين الإذن وعدمه.

والاستئذان عند وجود العذر يرفع سوء الظن عن المستأذن، وقد خير الله نبيه ﷺ أن يأذن لمن علم منه صدق العذر، وأن يستغفر لهم الله، لأن الخروج بغير إذن لا ينبغي، وربما يكون فيه إثم، وفي هذا إشارة إلى أن عدم الاستئذان أولى.

﴿إِنَّ اللَّهَ عَفُورٌ﴾ لذنوب عباده ﴿رَحِيمٌ﴾ واسع الرحمة بهم.

تَعْظِيمُ النَّبِيِّ ﷺ وَعَدَمُ مُخَالَفَةِ أَمْرِهِ

٦٣ - ﴿لَا تَجْعَلُوا دُعَاءَ الرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَاءِ بَعْضِكُمْ بَعْضاً قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الَّذِينَ

يَسْأَلُونَ مِنْكُمْ لَوْ آدَاءٌ فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَنْ تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٤﴾

هذه الآية تحذر المؤمنين أن يكونوا كالمنافقين في أمرين:

أحدهما: عدم امتثال أمر النبي ﷺ، وعدم اجتناب نهيه.

وثانيهما: ابتذال اسم النبي ﷺ فيما بينهم، وعدم إعطائه حقه من التبجيل والاحترام.

فقد بين الله سبحانه أن الرسول ﷺ إذا دعا أمته لأمر من الأمور، فإن تلبية هذه الدعوة أمر واجب، وكذا لو دعا النبي ﷺ في حياته شخصاً بعينه فإنه يجب عليه تلبية النداء حتى لو كان هذا المدعو في الصلاة، كما قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾ [الأنفال: ٢٤].

وقال تعالى: ﴿مَا كَانَ لِأَهْلِ الْمَدِينَةِ وَمَنْ حَوْلَهُ مِنَ الْأَعْرَابِ أَنْ يَتَخَلَّفُوا عَنْ رَسُولِ اللَّهِ وَلَا يَرْغَبُوا بِأَنفُسِهِمْ عَنْ نَفْسِهِ﴾ [التوبة: ١٢٠].

فإن امتثال أمر الرسول ﷺ، واجتناب نهيه أمر واجب لا بد من تليته.

وهذا يختلف عما إذا دعا بعضنا بعضاً، فإن كان في الصلاة فلا يردُّ عليه، وإن كان في غيرها فإن شاء أجاب، وإن شاء لم يجب.

فإذا دعاكم الرسول ﷺ لأمر جامع، أو مهمة من المهام، فإنه يجب عليكم أن تلبُّوا أمره دون تقاعس أو تباطؤ، بخلاف دعاء بعضكم بعضاً فإن الأمر يختلف.

ولا يوجد أحد من الخلق تجب إجابته أثناء الصلاة إلا النبي ﷺ، ولا يوجد أحد يجب قبول قوله والعمل به إلا الرسول ﷺ.

وقيل في تفسير الآية: إننا إذا نادينا النبي ﷺ في حياته أو بعد مماته، فلا نذكر اسمه مفرداً مجرداً، لا نقل: (محمد)، ولا نقل: (يا محمد بن عبد الله)، ونحو ذلك، كما يدعو بعضنا بعضاً؛ فإن في هذا سوء أدب مع النبي ﷺ، وليس فيه وقار، ولا تعظيم له ﷺ. إنما قولوا: يا نبي الله، يا رسول الله.

أخرج أبو نعيم وغيره، من طريق الضحاك، عن ابن عباس ؓ قال: كانوا يقولون: يا محمد، يا أبا القاسم، فأنزل الله: ﴿لَا تَجْعَلُوا دُعَاءَ الرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَاءِ بَعْضِكُمْ بَعْضًا﴾

فقالوا: يا نبي الله، يا رسول الله^(١).

وقال قتادة في الآية: أمر الله أن يُهاب نبيُّه، وأن يُجَلَّ، وأن يعظَّم، وأن يُفخَّم ويُشَرَّف^(٢). وكانت الناس تتنادى بالأسماء في غاية من البداوة وقلة الاهتمام، فأدب الله الأمة، مَنْ كان معاصراً منهم للنبي ﷺ ومن هو بعد ذلك إلى قيام الساعة، أن يكونوا في غاية الأدب مع مقام النبي ﷺ فيجلُّوه، ويحترمونه، ويقابلوا أمره ونهيه بالاستجابة الكاملة، وإلا كانوا ممن توعدهم الله تعالى بسوء المصير.

والله سبحانه حين ينادي رسوله ﷺ في القرآن لم يقل: يا محمد أبداً، إنما يقول: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ﴾ ﴿يَا أَيُّهَا الرُّسُولُ﴾ ولفظ محمد الوارد في القرآن صريحاً ليس في مقام النداء، إنما هو في مقام الإخبار مثل: ﴿مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ﴾ [الفتح: ٢٩]. ﴿مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ﴾ [الأحزاب: ٤٠]. وحين اقتضى الأمر أن يذكر الله سبحانه اسم رسوله ﷺ صريحاً لم يصرح الله تعالى به صراحة، وإنما قال: ﴿إِنَّ أَوَّلَى النَّاسِ بِإِبْرَاهِيمَ لِلَّذِينَ اتَّبَعُوهُ﴾ [آل عمران: ٦٨]. ولم يقل محمداً، وإنما قال: ﴿وَهَذَا النَّبِيُّ﴾ تعظيماً لشأن رسول الله ﷺ.

والله سبحانه يعلمنا الأدب في التعامل مع النبي ﷺ فيقول: ﴿وَلَا تَجْهَرُوا لَهُ لَمَّا يَقُولُ﴾ كَجَهْرٍ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ أَن تَحْبَطَ أَعْمَلُكُمْ﴾ [الحجرات: ٢]. كحال الأعراب الذين كانوا ينادون النبي ﷺ من وراء الحجرات باسمه، لا تفعلوا هكذا، بل عظموه ووقروه.

وفي الحديث عن أبي سعيد أن النبي ﷺ قال: «أنا سيد ولد آدم يوم القيامة ولا فخر، وأنا أول من تشق عنه الأرض يوم القيامة ولا فخر، وأنا أول شافع وأول مشفع ولا فخر، ولواء الحمد بيدي يوم القيامة ولا فخر»^(٣) ومعنى ولا فخر، أي لا يليق بي أن أقول ذلك افتخاراً، فالجملة لدفع توهم أنه قال ذلك افتخاراً.

(١) أبو نعيم ص ٤، وابن أبي حاتم (٢٦٥٤/٨) و«أسباب النزول» للسيوطي ص ٢٠٤ و«زاد المسير» (٦٨/١).

(٢) عبد الرزاق (٦٦/٢) وابن أبي حاتم (٢٦٥٥/٨).

(٣) صحيح الجامع الصغير برقم (٤٦٨) عند الترمذي (٣٦١٥) وابن ماجه (٤٣٠٨) واللفظ له، وله شاهد في صحيح مسلم برقم (٢٢٧٨) عن أبي هريرة بدون (ولا فخر) وفي المسند (١٠٩٨٧) قال محققوه: حديث صحيح لغیره، وفيه ابن جُدعان متكلم فيه، وصححه الألباني في صحيح ابن ماجه (٣٤٧٧) والسلسلة الصحيحة (١٥٧١).

وقد نُهينا عن تعظيم النبي ﷺ في الصلاة وأُمور العبادة فحسب، وما عدا ذلك فليس فيه حرج، وتعظيم النبي ليس فيه بدعة ولا شرك، ولا نحو ذلك.

وكان النبي ﷺ يُسَيِّد مَنْ هو أدنى منه من الصحابة، كسعد بن معاذ، وبلال.

وهكذا فإن عمر رضي الله عنه كان يقول عن أبي بكر: «سيدنا، وأعتق سيدنا»^(١). عن بلال رضي الله عنه.

ويقول ﷺ عن سعد بن معاذ رضي الله عنه: «قوموا لسيدكم»^(٢). وعلى هذا فإن للآية معنيين:

أحدهما: لا تقولوا -أيها المؤمنون- إذا ناديتُم رسول الله: يا محمد، يا ابن عبد الله، كما يقول ذلك بعضكم لبعض، ولكن شرفوه وعظموه ووقّروه، وقولوا: يا نبي الله، يا رسول الله.

وعلى هذا فهو من باب إضافة المصدر لمفعوله، والمصدر هو لفظ (دعاء)، والرسول ﷺ هو المدعو.

والمعنى الآخر: أنه يجب عليكم أن تُلبوا أمر رسول الله ﷺ دون تأخير، إذا دعاكم لأمر من الأمور، ولو كنتم في الصلاة، ولا تقيسوا دعاءه إياكم وأمره لكم على دعاء بعضكم لبعض، وهذا من باب إضافة المصدر لفاعله، فالرسول ﷺ داع.

وعلى كلا التفسيرين فالآية تنهى عن مخالفة أمر النبي ﷺ، كما تنهى عن تداول اسمه الشريف دون احترام وتبجيل وتوقير.

ومن مخالفة دعاء الرسول ﷺ الخروج من مجلسه في خفاء واستتار، وكان المنافقون يخرجون من الجماعة قليلاً قليلاً، يستتر بعضهم ببعض حتى يخرجوا جميعاً، وكانوا إذا صعد النبي ﷺ المنبر ينظرون يميناً وشمالاً، ثم يخرجون واحداً واحداً، وتارة يفرون من الجهاد معتذرين بالمعاذير الباطلة.

وهذا ينطبق على من يضيق صدره من المساجد، ومجالس القرآن، ومجالس العلم، وساحة الجهاد، وصلاة الجماعة، وخطبة الجمعة، ونحو ذلك، ذلكم قول الله تعالى:

(١) من حديث جابر بن عبد الله عن عمر رضي الله عنه في صحيح البخاري برقم (٣٧٥٤).

(٢) يُنظر: صحيح البخاري بعد الحديث رقم (٢٥٤٩) ك (٤٩) ب (١٧) وعن أبي سعيد الخدري برقم (٤١٢١، ٦٢٦٢، ٣٠٤٣) وصحيح مسلم (٢٤٨٦).

﴿قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الَّذِينَ يَتَسَلَّلُونَ مِنْكُمْ لِوَاذًا﴾ أي: إن الله تعالى علّمه محيط بمن يخرجون من مجلس الرسول ﷺ خفية، يلوذ بعضهم ببعض، فليحذر الذين يخالفون عن أمر النبي ﷺ، ويصدون الناس عن دعوته، ويتباعدون عن هديه أن يصيبهم بلاء وكرب يفضح شأنهم في الدنيا، ويسومهم سوء العذاب في الآخرة، وفي هذا وعيد وتحذير شديد

قال جعفر الصادق في تفسير الفتنة: أن يُسلط الله عليهم سلطانًا جائرًا، فإذا خالفوا أمر الله وأمر رسول الله، سلط الله عليهم من الحكام من لا يرحمهم، وجعل بأسهم بينهم، وجعل بينهم حروبًا، وفرّق كلمتهم، وفرّق جمعهم، وسلط عليهم عدوهم، ونزلت بهم المحن والشور في الدنيا، ولهم في الآخرة عذاب موجه.

ولفظ (الفتنة) أطلق في القرآن الكريم على أربعة معانٍ:

الأول: أن يراد به: الإحراق بالنار، كما قال تعالى: ﴿يَوْمَ هُمْ عَلَى النَّارِ يُفَنَّنُونَ ﴿١٣﴾ ذُوقُوا فِتْنَتَكُمْ هَذَا الَّذِي كُنْتُمْ بِهِ تَسْتَعِجِلُونَ ﴿١٤﴾﴾ [الذاريات].

الثاني: أن يراد به: الاختبار، كما قال تعالى: ﴿وَبَلَّوْكُمْ بِالْخَيْرِ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً﴾ [الأنبياء: ٣٥].

الثالث: أن يراد به: نتيجة الاختبار السيئة، كما قال تعالى: ﴿وَقَتِّلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةً﴾ [البقرة: ١٩٣]. أي: حتى لا يبقى شرك.

الرابع: أن يراد به: الحجة، كما قال تعالى: ﴿ثُمَّ لَمْ تَكُنْ فِتْنَتُهُمْ إِلَّا أَنْ قَالُوا وَاللَّهُ رَبُّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ ﴿١٣﴾﴾ [الأنعام]. والفتنة المرادة في الآية التي معنا من النوع الثالث، على معنى: أن يفتنهم الله، أي: يزيدهم ضلالًا؛ بسبب مخالفتهم عن أمره^(١).

فليحذر من يخالف أمر الرسول ﷺ وشريعته أن تصيبه فتنة من الله بأن يطبع على قلبه، فيكفر بالله تعالى.

وأمر الرسول ﷺ هو: سبيله، ومنهاجه، وطريقته، وستته، وشريعته، فتوزن الأقوال والأعمال بأقواله وأعماله ﷺ، فما وافق ذلك قُبل، وما خالفه فهو مردود على قائله وفاعله، كائنًا من كان^(٢).

(١) يُنظر: «أضواء البيان» للشيخ الشنقيطي (٦/ ٢٥٤).

(٢) من «تفسير ابن كثير» للآية (٩٠/ ٦).

وعن جابر رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «مثلي ومثلكم كمثل رجل أوقد نارًا، فجعل الجنادب والفراش يقعن فيها وهو يذبهن عنها، وأنا أخذ بحجزكم عن النار وأنتم تفلتون من يدي»^(١).

وقد استدلل الأصوليون بهذه الآية على أن الأمر المجرد عن القرائن يقتضي الوجوب؛ لأن الله تعالى توعد المخالفين بالفتنة والعذاب الأليم، فالأمر إذا كان أمرًا مطلقًا فهو يقتضي الوجوب، ما لم يصرفه صارف عنه إلى الندب والاستحباب.

خَتَامُ السُّورَةِ

٦٤- ﴿الْأَلِفَ إِنَّكَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ قَدْ يَعْلَمُ مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ وَيَوْمَ يُرْجَعُونَ^(٢) إِلَيْهِ فَيُنَبِّئُهُمْ بِمَا عَمِلُوا وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ^(٣)﴾

ختم الله السورة ببيان أن كل ما في هذا الكون مملوك لله تعالى، وهو يجازي عباده بما يستحقون، فإن لله ما في السموات وما في الأرض، ملكًا وخلقًا وتصرفًا وإيجادًا وعبادًا.

﴿قَدْ يَعْلَمُ مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ﴾ قد للتحقيق، أي: إنه سبحانه يحيط علمه بكل صغيرة وكبيرة، ويعلم ما عليه العباد من طاعة أو معصية، واستجابة لأمره أو عدم استجابة.

﴿وَيَوْمَ يُرْجَعُونَ إِلَيْهِ﴾ أي: يخبرهم يوم القيامة بجميع أعمالهم، دقيقها وجليلها، إخبارًا مطابقًا لما وقع منهم، ويستشهد عليهم بأعضائهم، وهو سبحانه يعلم يوم يرجع العبد إلى ربه ﴿فَيُنَبِّئُهُمْ بِمَا عَمِلُوا﴾ أي: يخبرهم بجميع أعمالهم، ويجازي كل إنسان بعمله من خير، أو شر، أو ثواب، أو عقاب.

﴿وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ لا يخفى عليه شيء في الأرض ولا في السماء، وهذا من باب العموم بعد الخصوص، ومن ذلك أعمال الخلق وأحوالهم، كما قال تعالى: ﴿يُنَبِّئُ الْإِنْسَانَ يَوْمَئِذٍ بِمَا قَدَّمَ وَأَخَّرَ^(٤)﴾ [القيامة].

(١) أخرجه مسلم (١٧٩٠/٤) برقم (٢٢٨٥).

(٢) قرأ يعقوب بفتح الياء وكسر الجيم من (يرجعون)، على البناء للفاعل. وقرأ الباقر بضم الياء وفتح الجيم، على البناء للمفعول.

وقال جلّ شأنه: ﴿يَعْلَمُ مَا تُسْرُوتَ وَمَا يُعْلِنُونَ إِنَّهُمْ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾ [هود: ٥].
 وقال سبحانه: ﴿وَمَا تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٌ فِي ظُلْمَةٍ الْأَرْضِ وَلَا رَطْبٌ وَلَا
 يَأْسٌ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ﴾ [الأنعام: ٥٩]. ويوم القيامة يجد كتاب أعماله لم يترك صغيرة ولا
 كبيرة إلا أحصاها، فيحاسب ويجازى على ما قدمت يداه.

تم تفسير (سورة النور) والله الحمد والمنة.



تَفْسِيرُ سُورَةِ الْفُرْقَانِ (٢٥)

مُقَدِّمَةُ السُّورَةِ

سورة (الفرقان) هي السورة الخامسة والعشرون في ترتيب المصحف، والثانية والأربعون في ترتيب النزول، نزلت بعد سورة (يس)، وقبل سورة (فاطر).

وآياتها سبع وسبعون آية باتفاق أهل العدد، وثمان مئة واثنان وتسعون كلمة، وثلاثة آلاف وسبع مئة وثلاثة وثمانون حرفاً، وهي سورة مكية.

وسميت سورة (الفرقان)؛ لوقوع لفظ الفرقان فيها ثلاث مرات: في أولها، ووسطها، وآخرها، وهي تسمية توفيقية أقرها النبي ﷺ، كما جاء في حديث عمر بن الخطاب رضي الله عنه أنه قال: سمعت هشام بن حكيم بن حزام يقرأ سورة الفرقان على غير ما أقرؤها، وكان رسول الله ﷺ أقرأنيها، وكدت أن أعجل عليه، ثم أمهله حتى انصرف، ثم لبثته بردائه، فجئت به رسول الله ﷺ، فقلت: إني سمعت هذا، يقرأ على غير ما أقرأتها، فقال لي: «أرسله»، ثم قال له: «اقرأ»، فقرأ، فقال: «هكذا أنزلت»، ثم قال لي: «اقرأ» فقرأت، فقال: «هكذا أنزلت، إن القرآن أنزل على سبعة أحرف، فاقرؤوا ما تيسر منه»^(١). ولم يُعرف لها اسم غير هذا.

عناصر القرآن المكي:

والقرآن الكريم الذي نزل على رسول الله ﷺ بمكة المكرمة، كان يخاطب في الغالب أقواماً كفّاراً مشركين بالله سبحانه، ولذلك فإن القرآن المكي الذي نزل في نحو ثلاثة عشر عاماً كان يتكوّن من ثلاثة عناصر:

العنصر الأول: غرسُ الإيمان والتوحيد في نفوس الكفار المشركين؛ لأنهم كانوا يشركون بالله - سبحانه - في عبادتهم، ويتقربون إليه بالأوثان والأصنام، وكانوا يكفرون

(١) «صحيح البخاري» برقم (٢٤١٩) وهذا لفظه، وانظر: أرقام (٤٩٩٢، ٥٠٤١، ٦٢٣٦، ٧٥٥٠) و«صحيح مسلم» برقم (٨١٨).

بمحمد ﷺ، وبالوحي الذي جاء به من عند الله، ويكفرون باليوم الآخر، فكان العنصر الأول في السور المكية هو عنصر التوحيد، أي: إفراد الله سبحانه بالعبادة، وإخلاص التوجه له وحده.

والعنصر الثاني: هو الإيمان بمحمد ﷺ، وبالقرآن الذي جاء به من عند الله، وبالوحي الذي حمّله إليه، وهو نفس الوحي الذي نزل على سائر الرسل.

والعنصر الثالث: هو الإيمان باليوم الآخر، وما فيه من بعث، وحساب، وجزاء على الأعمال. وسورة (الفرقان) من هذا القبيل، من القرآن المكي الذي خاطب المشركين والكفار في وقت النبي ﷺ، ويخاطب المشركين والكفار في يومنا، وإلى أن يرث الله الأرض ومن عليها، وهو يطالبهم بإفراد العبادة لله وحده.

ويطالبهم بالإيمان برسول الله ﷺ، وبالقرآن الذي نزل عليه من عند الله.

كما يطالبهم بالإيمان باليوم الآخر، وما فيه من بعث، وحساب، وجزاء على الأعمال.

عناصر السورة

١- وهكذا أثبتت السورة أن القرآن منزل من عند الله تعالى، ونوّهت بشأن الرسول ﷺ، فأقامت دلائل صدّقه، وبيّنت أنه على طريقة الرسل السابقين، وأنه فوق حظوظ الدنيا، وأن قومه كذّبوه، وضربت على ذلك الأمثلة ببعثة الرسل السابقين، وتكذيب أقوامهم لهم، مثل: قوم موسى، ونوح، وهود، وصالح، وأصحاب الرس، وقوم لوط، وقد افتتحت هذه الجولة برسالة محمد ﷺ في أول آية من السورة: ﴿تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا﴾ ﴿١﴾ وهذا هو عنصر الوحي والرسالة من عناصر القرآن المكي.

٢- وأثبتت السورة بعد ذلك البعث والحساب والجزاء، وبشّرت الصالحين بالثواب، وأنذرت المشركين والمكذّبين بسوء المصير، وبيّنت ندمهم وتحشرهم على شركهم، وتكذيبهم للرسول ﷺ.

وقد ابتدأت هذه الجولة بقوله تعالى: ﴿تَبَارَكَ الَّذِي إِن شَاءَ جَعَلَ لَكَ خَيْرًا مِّنْ ذَلِكَ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَيجْعَل لَّكَ قُصُورًا﴾ ﴿١٠﴾. وهذا هو عنصر الإيمان باليوم الآخر.

٣- ثم استدلت السورة على وحدانية الله تعالى، وتفرّده بالخلق، وتنزهه سبحانه أن يكون له شريك، أو ولد، وقد ابتدأت هذه الجولة بقوله تعالى:

﴿بَارَكَ الَّذِي جَعَلَ فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا وَجَعَلَ فِيهَا سِرَاجًا وَقَمَرًا مُنِيرًا﴾ (١١).

فكل عنصر منها ابتداءً بجملة ﴿بَارَكَ الَّذِي﴾ وهذا هو عنصر التوحيد ونبد الشرك.

شبهات المكذبين بالقرآن:

وفي سورة (الفرقان) إحصاء لشبهات خصوم الإسلام فيما يأتي ذكرها:

١- منها: تكذيب أعداء الإسلام بالوحي المنزل على محمد ﷺ ودعوته إلى التوحيد، فقالوا في شبهتهم الأولى: ما هذا القرآن إلا كذب ملفّق، اختلقه محمد ﷺ، وأعانه على افتراءه قوم آخرون.

وقالوا أيضًا: هذا القرآن من أساطير الأولين التي أُملِيت على محمد ﷺ.

وتكذيب الرسل من أقوامهم أمر شائع في الناس من قديم، فلا غرابة في هذا.

٢- وقالوا في شبهتهم الثانية: هذا الرسول بشر، يأكل الطعام ويمشي في الأسواق. وهذه شبهة قالتها جميع الأمم لجميع الرسل.

٣- وقالوا في شبهتهم الثالثة: إن تتبعون إلا رجلاً مسحوراً.

واتهام الرسل بالسحر أمر شائع من قديم، فهكذا قال قوم نوح، وقوم هود، وقوم صالح، وقوم موسى لرسولهم.

٤- وقالوا في شبهتهم الرابعة: لولا أنزل علينا الملائكة أو نرى ربنا؟

وقد ردّت سورة (الأنعام) في آياتها [٧-١٠]، وسورة (الاسراء) في آياتها [٥٩، ٩٣-٩٦]، وغيرهما، على هذه الشبهة بما مفاده أن الله تعالى لو فعل لهم ما أرادوا ما لانت قلوبهم، ولا آمنوا بدعوة خاتم الرسل ﷺ.

٥- وقالوا في شبهتهم الخامسة: لولا نزل هذا القرآن على محمد جملة واحدة؟

وقد غاب عنهم أن لكل حادث حديثًا، ولكل سؤال جوابًا يأتي في وقته، وأن نزوله

منجماً أثبت لفؤاد النبي ﷺ.

٦- واعترفوا في شبهتهم السادسة بأن القرآن قد زلزل معتقداتهم، وكشف زيفها، وأن باطلهم قد اتضح، وأنهم كادوا يعترفون بالحق فقالوا:

﴿إِنْ كَادَ لَيُضِلَّنَا عَنْ إِلَهِنَا لَوْلَا أَنْ صَبَرْنَا عَلَيْهَا﴾ [الآية ٤٢].

٧- لقد عزَّ على المشركين أن يطلب منهم الرسول ﷺ السجود لإله واحد، ويتركوا أوثانهم التي ألفوها، فأنكروا السجود للواحد الأحد، وقالوا للرسول ﷺ: ما نُطيع أمرك، وانصرفوا عنه في نفور شديد.

وسورة (الفرقان) تعرض على المكذبين بالقرآن، مصارع الأمم التي كذبت رسلها، فتحذرهم وتخوفهم أن يحقق بهم مصير الفراعنة، ومصير عاد وثمود، وأصحاب الرس، وما حدث لقوم لوط.

وتعرض عليهم سلسلة من مشاهد القيامة، كالذين يُحشرون على وجوههم إلى جهنم، والذين يدعون على أنفسهم بالثبور والهلاك، وبالذي يعرض على يديه، يقول:

﴿يَلَيْتَنِي أَخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَيْلًا﴾ [الآية: ٢٧].

وتعرض السورة سوء مصير الذين استهزؤوا بخاتم الرسل ﷺ في الدنيا، حين يرون العذاب بأعينهم، ويقال لهم: من أضل سبيلاً؟ أنتم أم هم؟ إلى جوار ما يسلي الله به نبيه بأن شأنه شأن الرسل السابقين قبله، يأكلون ويمشون في الأسواق، ويكلفه ربه في النهاية بأن يصبر ويجاهد، ويتحمل مشاق الدعوة، ويتوكل على مولاه وخالقه.

وبعد تخويف المكذبين بخاتم المرسلين بذكر أمثلة من مصارع السابقين، تتجه السورة إلى أسلوب آخر في علاجهم، وهو إعمال العقل والفكر في آثار قدرة الله تعالى، فهو - سبحانه - مرسل الرسل، ومنزل الكتب، ولذلك فإن السورة تهيئ بالعقل أن يفكر في ملكوت السموات والأرض.

دعوة إلى النظر والتأمل في ملكوت الله:

١- ينظر العبد أولاً كيف مدَّ الله الظل، ولو شاء لجعله ساكناً لا يتحرك، ولكنه يمتد

ويتقلّص، فيكون أمام وخلف، ويقع تحت قدم الإنسان، إن قدرة الله تعالى تفعل ذلك دون جهد ولا تكلف.

٢- وينظر الإنسان ثانيًا في حركتي الليل والنهار، كيف يسكن الليل ويهدأ، فيغمض جفن الإنسان، ولكن قلبه ينبض وصدره يعلو ويهبط، وجهازه الهضمي في شغل موصول، وسرعان ما يأتي النهار لمواصلة أعباء الحياة، ومواجهة مشكلاتها.

٣- وينظر المرء ثالثًا إلى السحب وهي تحمل الرياح، وتوزعها شرقًا وغربًا، وشمالًا وجنوبًا، وتحمل الغيث لتأمين حاجتنا، وحاجات الأرض الهامدة، وحاجات الحيوان والطيور وسائر الدواب ﴿لِنُخَيِّ بِهٖ بَلَدَةً مَّيْمَنًا وَشَقِيَّةً مِمَّا خَلَقْنَا أَنْعَمًا وَنَاسِيًّا كَثِيرًا ۖ وَلَقَدْ صَرَّفْنَاهُ بَيْنَهُمْ لِيَذَكَّرُوا﴾ [٤٩، ٥٠].

﴿وَهُوَ الَّذِي مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ هَذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ وَهَذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ﴾ [الآية: ٥٣].

٤- وينظر رابعًا كيف خلق الله من الماء بشرًا فجعله نسبًا وصهرًا، ومع ذلك فإن كثيرًا من الخلق يعبدون من دون الله ما لا ينفعهم ولا يضرهم.

٥- وينظر المرء خامسًا كيف خلق الله هذا الكون بعالميه العلوي والسفلي، وخلق ما هو أعظم منهما وهو العرش ﴿الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ﴾ [الآية: ٥٩].

٦- وينظر المرء سادسًا إلى آيات الله في الآفاق فهو ﴿الَّذِي جَعَلَ فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا وَجَعَلَ فِيهَا سِرَاجًا وَقَمَرًا مُنِيرًا﴾ [٦١]. وهو الذي جعل كلاً من الليل والنهار يخلف الآخر في حركة متواصلة متعاقبة ﴿لَا الشَّمْسُ يَنْبَغِي لَهَا أَنْ تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلَا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ﴾ [يس: ٤٠]. والمنتفعون بذلك هم عباد الرحمن الذين ذكر الله تعالى لهم عشر خصائص في هذه السورة، استحقوا بها المنزلة الرفيعة في الجنة، ويلقون فيها تحية وسلامًا.

موضوعات السورة:

هذا: ويمكن تقسيم السورة إلى ثلاثة مقاطع:

المقطع الأول: من أولها إلى الآية الثانية والعشرين، وهذا المقطع يتضمن غالبًا مزاعم الطاعنين في القرآن، فيفندّها ويردّها عليها بالبرهان القاطع، والحجة الدامغة، ويتخلل ذلك

الثناء على الرسالة، وعلى صاحب الرسالة، وعلى القرآن الذي نزل عليه من عند الله تعالى .

المقطع الثاني: من الآية الثالثة والعشرين إلى الآية الثانية والستين، وهذه الجولة تبدأ بالحديث عن مشاهد القيامة، وهو يوم عسير على الكافر، تشقق فيه السماء، ويعض الظالم فيه على يديه حسرة وندماً، ويشكو الرسول إلى ربه هجر أُمته للقرآن، والعمل لهذا اليوم يقتضي التذكير بمصير الأمم الغابرة، ويقتضي التأمل في آيات الله الكونية؛ كي يستعدَّ المرء لهذا اليوم.

أما المقطع الثالث فهو من الآية الثالثة والستين إلى نهاية السورة، وهو يتناول أوصاف عباد الرحمن، وما أكرمهم الله به من التوحيد الخالص، والأخلاق الحميدة التي استحقوا بها الأجر العظيم في جنات النعيم.

وتختتم السورة بتقرير هوان البشرية على الله تعالى، لولا القلوب الطائعة المستجيبة لربها، فإن هي جحدت وكذبت فإن عذاب الله تعالى سيكون ملازماً لها لا ينفك عنها.



تَفْسِيرُ السُّورَةِ

بَرَاةُ الْاِسْتِهْلَالِ

١- ﴿بَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا﴾ ﴿١﴾

تعظيم وكثر خير الله الذي نزل القرآن على عبده محمد ﷺ لينذر العالمين جميعًا بأس الله وغضبه ومواقع رضاه وسخطه، وما أعظم نعمة؛ فيها فَرْقُ الحرام من الحلال والهدى من الضلال، وأهل السعادة من أهل الشقاء:

أخرج ابن أبي شيبة في المصنف، وابن جرير، وابن أبي حاتم عن خيشمة، قال: قيل للنبي ﷺ: إن شئت أعطيناك مفاتيح الأرض وخزائنها، لا يُنْقَضُ ذلك عندنا شيئًا في الآخرة، وإن شئت جمعتها لك في الآخرة، قال: «بل اجمعها لي في الآخرة» فنزلت هذه الآية^(١) الجامعة بين التنويه بشأن القرآن، وأنه منزل من عند الله، وبين التنويه بشأن النبي ﷺ، ورفع منزلته عند الله تعالى، وعموم رسالته.

وفي هذه الآية ردٌّ على المكذبين بالقرآن، القائلين بأن محمدًا افتراه، أو أنه أساطير الأولين، وقد اشتملت الآية على الإنذار المحذّر من تكذيب الرسالة والرسول.

ولذا: فقد ابتدأت سورة (الفرقان) ببيان كثرة خيرات الله سبحانه ﴿بَارَكَ﴾ أي: كثرت خيرات الله، وعظمت نعمه، ومن نعمه -جلّ شأنه- ومن كثرة خيراته نزول هذا القرآن الفارق بين الحق والباطل، والهدى والضلال، والحلال والحرام، على عبده ورسوله محمد ﷺ خاتم النبيين، وأشرف المرسلين؛ ليكون هذا القرآن، ويكون هذا الرسول، نذيرًا للعالمين، بمن فيهم الإنس والجن، يخوفهم سوء المصير إن استمروا على شركهم وكفرهم، فالقرآن يبيّن للناس أن هذه الرسالة عامة للبشر جميعًا، وليست للعرب وحدهم، بل وليست للإنس وحدهم، وإنما هي للعالمين: الإنس والجن، والأحمر والأبيض والأسود، وقيل: إنها رسالة تشريف للملائكة؛ لأنهم غير مكلفين بالعبادة.

(١) «تفسير الطبري» (١٨/ ١٤٠).

جاء في الحديث عن جابر بن عبد الله رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «أُعْطِيتُ خَمْسًا لَمْ يُعْطَ أَحَدٌ مِنَ الْأَنْبِيَاءِ قَبْلِي»، وذكر منها: «وكان النبي يبعث إلى قومه خاصة، وبعث إلى الناس عامة»^(١) قال تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾ [الأنبياء].

وقال جلَّ شأنه: ﴿قُلْ يَتَّخِذُهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا﴾ [الأعراف: ١٥٨]. وقال سبحانه: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا﴾ [سبأ: ٢٨].

والمقام هنا يقتضي الاختصار على الإنذار دون التبشير، وقرب نهاية السورة جاء قوله تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا﴾ [٥٦]. وقد وصف الله سبحانه رسوله ﷺ بالعبودية تشريفًا له وتكريماً.

خَمْسَةُ أَوْصَافٍ لِّمُبْدِعِ هَذَا الْكَوْنِ

٢- ﴿الَّذِي لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ وَالْعَرْشِ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ وَالْعَرْشِ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ وَالْعَرْشِ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ وَالْعَرْشِ﴾

أي: والذي أرسل محمداً ﷺ هو خالق السموات والأرض، وهو الذي يقول للشيء: كن فيكون، رب كل شيء ومليكه، والكل تحت قهره وسلطانه، وقد وصف الله - سبحانه - ذاته بخمسة أوصاف بعد الآية الأولى من هذه السورة، وهذه الأوصاف تدل على وجوب تعظيمه وتوحيده وإفراده - جلَّ شأنه - بالعبادة؛ فإن من حق الله علينا أن نعرفه، وأن نهتدي إليه بعقولنا، وبفطرنا التي أوجدها فينا سبحانه، وأن نهتدي إلى معرفة الله - جلَّ شأنه - من تلقاء أنفسنا، دون أن يرسل إلينا رسلاً، أو ينزل علينا كتباً، ولكن الله - سبحانه - من رحمته بعباده أنه لم يتركهم لعقولهم، ولا إلى فطرهم، وإنما أرسل لهم رسلاً، وأنزل عليهم كتباً، وجعل خاتمهم محمداً ﷺ يقود العالمين بهذه الرسالة، وبهذا القرآن الذي نزل عليه إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها.

وآثار الله في هذا الكون تدل عليه - جلَّ شأنه - وتأخذ بيد الإنسان العاقل إلى توحيد الله سبحانه.

(١) من حديث جابر بن عبد الله في «صحيح مسلم» برقم (٥٢١) و«صحيح البخاري» برقم (٣٣٥، ٤٣٨).

ومع هذا فإن الله جلَّ شأنه يقيم لنا الأدلة على وحدانية تعالى؛ في هذه الآية ونحوها ليأخذ بأيدينا إلى طريق الهداية.

وهي أنه - سبحانه - مالك هذا الكون، وخالقه، ومدبر أمره، هذه الأوصاف الثلاثة لا يماري فيها المشركون؛ فهم مقرون بذلك ﴿وَلَيْنَ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ﴾ [الزمر: ٣٨].

﴿قُلْ مَنْ بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ ﴿٣٨﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ﴾ [المؤمنون].

ولكنهم يمترون في الوصفين الثاني والثالث وهما في قوله: سبحانه ﴿وَلَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُنْ لَهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ﴾ وقد جعل الله سبحانه الوصف الأول مقدمة، والوصف الرابع نتيجة؛ لبيان أنه - سبحانه - لا يليق به أن يتخذ ولدًا، ولا شريكًا له في ملكه ولا في عبادته؛ وبيان هذه الأوصاف فيما يأتي:

الوصف الأول: جاء في قوله تعالى: ﴿الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ فهو سبحانه خالق كل شيء في هذا الوجود، ومالك هذا الكون بما فيه ومن فيه، والمتصرف فيه كيفما شاء، وكل ما فيه خاضع لعظمته، فقير إلى رحمته.

الوصف الثاني: أنه جلَّ شأنه لا والد له ولا ولد ﴿وَلَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا﴾ أي: ليس كما يزعم اليهود والنصارى، الذين يقولون: عزيز ابن الله، والمسيح ابن الله.

والله - سبحانه - يرد عليهم بأنه ليس في حاجة إلى ذلك؛ فهو الغني عن خلقه، فكيف يتخذ ولدًا؟! وقد جعل الله سبحانه التناسل لامتداد الحياة، وهو تعالى باقٍ لا يفنى، غني لا يحتاج، والذي له ملك السموات والأرض لا يليق به أن يتخذ ولدًا، ولا أن يتخذ له شريكًا، وكيف يكون له ولد، وهو المالك لجميع خلقه، الغني بذاته، والكل مفتقر إليه.

والوصف الثالث: جاء في قوله تعالى: ﴿وَلَمْ يَكُنْ لَهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ﴾ أي: إنه ليس هناك منازع لله - سبحانه - في هذا الكون يشاركه فيه، حتى يُعبد مع الله جلَّ شأنه؛ فالكل خلق الله وعبيده، وكيف يكون له شريك ونواصي العباد كلهم بيديه، فلا يتحركون ولا يسكنون ولا يتصرفون إلا بإذنه.

والوصف الرابع: قوله تعالى: ﴿وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ﴾ أي: أوجد كل مخلوق، وأبدع صنعه، من

عظيم الأشياء وحقيرها في العالم العلوي والسفلي، من حيوان ونبات وجماد، وما إلى ذلك.

والوصف الخامس: قوله تعالى: ﴿فَقَدَرَهُ نَقْدِيرًا﴾ أي: إن كل مخلوق خلقه الله سبحانه على هيئة وصورة معينة غاية في الضبط والإتقان؛ كي يؤدي بها الوظيفة والمهمة التي خلق من أجلها بلا تفاوت، ولا خلل: قال تعالى: ﴿الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ﴾ [السجدة: ٧]. وقال سبحانه: ﴿صَنَعَ اللَّهُ الَّذِي أَنْفَقَ كُلَّ شَيْءٍ﴾ [النمل: ٨٨]. وقال جل شأنه: ﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ﴾ [القمر: ٤٩].

وقال عز وجل ﴿الَّذِي خَلَقَ فَسَوَّىٰ ۖ وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَىٰ﴾ [الأعل]

وقال تعالى على لسان موسى عليه السلام ﴿قَالَ رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَىٰ كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَىٰ﴾ [طه: ٥٠]

فالطير خلقه الله على صورة وشكل معين تمكنه من الطيران في جو السماء.

والسمك خلقه الله سبحانه على هيئة معينة تمكنه من السباحة في الماء.

والإنسان خلقه الله سبحانه معتدل القامة، بخلاف الحيوان، فقد خلقه الله على النحو المعروف؛ ليؤدي وظيفته، وهكذا خلق الله كل شيء فسوّاه بما يناسبه من الخلق وفق ما تقتضيه حكمته تعالى دون نقص أو خلل.

والخلق: هو الإيجاد من العدم.

والتقدير: هو إتقان الصنعة، وتخصيص كل مخلوق لما خلق له.

قال الرازي: وصف - سبحانه - ذاته بأربعة أنواع من صفات الكبرياء:

الأول: أنه المالك للسموات والأرض، وهذا كالتنبيه على وجوده.

الثاني: أنه هو المعبود أبداً.

الثالث: أنه المنفرد بالألوهية.

الرابع: أنه الخالق لجميع الأشياء مع الحكمة والتدبير^(١).

(١) «التفسير الكبير» (٤٦/٢٤).

سَبْعُ صِفَاتٍ مِنْ خَصَائِصِ الْإِلَهِ الْحَقِّ

٣- ﴿وَاتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ ءَالِهَةً لَا يَخْلُقُونَ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ وَلَا يَمْلِكُونَ أَنْفُسَهُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا وَلَا يَمْلِكُونَ مَوْتًا وَلَا حَيَاةً وَلَا نُشُورًا﴾ ﴿٣﴾

أي: ومع هذه البراهين الساطعة، والأدلة القاطعة على توحيد الله تعالى وعظمته، فإن من بين خلق الله تعالى من يتخذ أندادًا من دون الله، وهي معبودات باطلة لا تقدر على شيء ﴿وَاتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ ءَالِهَةً﴾ أي: إنه مع قيام الأدلة على أن الله تعالى هو الواحد الأحد، المتفرد بالخلق والتدبير، فإن المشركين اتخذوا آلهة من دون الله، حيث قابلوا إنزال الفرقان بالجحود والطغيان، واتخذوا معبودات من دون الله، لا تستطيع خلق شيء، والله خلقها وخلقهم، ولا يوجد عند هذه الآلهة أدنى خصائص الإلهية، فאלله - جلّ وعلا - جرّدهم في هذه الآية من جميع خصائص الإلهية في سبع صفات، وهي:

الصفة الأولى: هي الخلق، فهم ﴿لَا يَخْلُقُونَ شَيْئًا﴾ بل هم مخلوقون، وبعض آلهتهم من صنع أيديهم، وكيف يكون إلها من لا يخلق شيئًا، حتى ولا ذبابة ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَنْ يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَلَوْ اجْتَمَعُوا لَهُ﴾ [الحج: ٧٣].

الصفة الثانية: ﴿وَهُمْ يُخْلَقُونَ﴾ فالبشر كلهم مخلوقون، ومنهم: عيسى، وعزير، والملائكة، والجن كلهم عباد لله، قال تعالى: ﴿قُلْ فَمَنْ يَمْلِكُ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا إِنْ أَرَادَ أَنْ يُهْلِكَ الْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا﴾ [المائدة: ١٧].

والبشر يصنعون الأوثان التي تُعبد من دون الله، فهم يُنحتونها ويعبدونها، ومن عجب أنهم يُنكرون أن يكون النبي بشراً، ولا ينكرون أن يكون الإله حجراً أو صنماً يُعبد من دون الله، قال إبراهيم عليه السلام لقومه: ﴿أَعْبُدُون مَا نَنحِتُونَ لَا وَاللَّهِ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ﴾ [الصافات].

الصفتان الثالثة والرابعة: ﴿وَلَا يَمْلِكُونَ أَنْفُسَهُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا﴾ أي: إن هذه الأصنام ونحوها من الآلهة المزعومة، لا يستطيعون أن يدفعوا الضر عن أنفسهم، ولا أن يجلبوا الخير لأنفسهم، فضلاً عن غيرهم، ولا يملكون التصرف بحال من الأحوال، قال تعالى: ﴿قُلْ أَعْبُدُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا﴾ [المائدة: ٧٦].

وقال تعالى: ﴿وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُهُمْ وَلَا يَضُرُّهُمْ﴾ [٥٥].

وقال إبراهيم لقومه: ﴿أَفَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكُمْ شَيْئًا وَلَا يَضُرُّكُمْ لَا أَفِي لَكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ (٧) [الأنبياء].

والصفات الثلاث المتبقيات: ﴿وَلَا يَمْلِكُونَ مَوْتًا وَلَا حَيَاةً وَلَا نُشُورًا﴾ أي: إنهم لا يملكون من خصائص الإله: الموت، ولا الحياة، ولا النشور، فهم لا يستطيعون أن يُميتوا أحدًا من الأحياء، ولا أن يُحيوا ميتًا، ولا أن يبعثوه بعد موته، وهذا أعظم خصائص الإله، قال تعالى: ﴿مَا خَلَقَكُمْ وَلَا يَعْثُكُمْ إِلَّا كَفْئِيسٌ وَاحِدٌ﴾ [لقمان: ٢٨]. وقال سبحانه: ﴿وَمَا أَمْرُنَا إِلَّا وَاحِدَةٌ كَلَمْحٍ بِالْبَصَرِ﴾ (٥١) [القمر].

فهذه سبع صفات، كل صفة منها كفيلة بسلب صفة الإلهية عن كل ما يُعبد من دون الله، ومع هذا فقد أثر بعض الناس عبادة المخلوق على عبادة الخالق، وإذا كان المعبود عاجزًا عن جلب النفع ودفع الضرر، فهو أشد عجزًا عن الموت والحياة والنشور؛ إذ لا يقدر على ذلك إلا الله.

وجُمِلَ هذه الآية جاءت في مقابلة الجمل الموصوف بها الله - سبحانه - في الآية السابقة:

- ١- فجملة ﴿لَا يَخْلُقُونَ شَيْئًا﴾ تقابل جملة ﴿الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾.
 - ٢- وجملة ﴿وَهُمْ يُخْلَقُونَ﴾ تقابل جملة ﴿وَلَمْ يَخْذْ وَلَدًا﴾؛ لأن ولد الخالق يجب أن يكون متوالدًا منه، فلا يكون مخلوقًا.
 - ٣- وجملة ﴿وَلَا يَمْلِكُونَ لِأَنفُسِهِمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا﴾ تقابل جملة ﴿وَلَمْ يَكُنْ لَهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ﴾؛ لأن الشركة في الملك تقتضي الشركة في التصرف.
 - ٤- وجملة ﴿وَلَا يَمْلِكُونَ مَوْتًا وَلَا حَيَاةً وَلَا نُشُورًا﴾ تقابل جملة ﴿وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدْ رَمَقَهُ﴾.
- وهذه الصفات أصل الكفر ومادته، وفي هذه المقابلة بين الجمل، اهتمام بإبطال كفرهم، واجتثاث لجذور الكفر والوثنية.
- وقد جعل الله للناس دارين في الآخرة: دار الشقاء والخزي والنكال لمن اتخذ آلهة من دون الله، ودار الفوز والسعادة والنعيم لمن عبد الله وحده.

شُبُهَاتُ الْمُكَذِّبِينَ بِالْقُرْآنِ:

أَوَّلًا: شُبُهَةُ افْتِرَاءِ الْقُرْآنِ

٤- ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنَّ هَذَا إِلَّا افْتِرَاءُكَ عَلَيْنَا وَإِنَّا لَنَظُنُّكَ مِنَ الْكَاذِبِينَ﴾

وبعد الآية السابقة يأتي الحديث عن الوحي المنزل من عند الله، المشار إليه في قوله تعالى: ﴿تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ﴾ وقدَّم عليه ﴿وَأَخَذُوا مِنْ دُونِهِ إِلهَةً﴾ اهتماماً بإبطال الكفر المتعلق بصفات الله تعالى.

وفي هذه الآية بيان لما قاله الكفار عن القرآن، ويقولونه في كل زمان ومكان، قالوا: ما هذا القرآن الذي جاء به محمد إلا أسوأ الكذب والبهتان، اختلقه محمد ﷺ، وافتراه على الله، وأعانه على ذلك قوم آخرون.

والقائل بهذا: هو النضر بن الحارث، وعبد الله بن أمية، ونوفل بن خويلد، وأُسند القول إلى جميع الكفار؛ لأنه قيل بينهم، وهم يتناقلونه، وأعان محمدًا على خلقه وافترائه قوم آخرون، وهم أفراد مخصوصون، يُعَيِّنُونَهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ مِنْ عبيد أهل الكتاب: حبشي، ورومي، ومجوسي، ممن لا ينطقون العربية.

وهم: عدَّاس مولى حويطب بن عبد العزَّى، ويسار أبو فكيهة الرومي، مولى العلاء بن الحضرمي، أو صفوان بن أمية، وجبر مولى عامر.

وهؤلاء ممن دانوا بالنصرانية، وكانوا يعرفون شيئاً من التوراة والإنجيل، ثم أسلموا، فزعم المشركون أن الرسول ﷺ كان يتردد عليهم سرًّا، ويستمدُّ منهم ما في التوراة والإنجيل، وضمَّنهما هذا القرآن، فقالوا: إن محمدًا افترى بعض هذا القرآن من نفسه، وأعانه قوم على بعضه، كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ﴾ فقال تعالى مجيباً لهم: ﴿لَسَاتُ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجِبِي﴾ [النحل: ١٠٣]. وهؤلاء الثلاثة كانوا بمكة من أهل الكتاب الأعاجم من العبيد الأرقاء، فقالوا: إن محمدًا أخذ عنهم وتعلَّم منهم هذا القرآن.

وقد بيَّن - سبحانه - في هذه الآية أنهم كابروا وأقدموا على الظلم، و ارتكبوا بقولهم

هذا زورًا وبهتانًا؛ حيث إنهم يعرفون محمدًا ﷺ من مولده، إلى بعثته، إلى موته، لقد وُلد بينهم، ونشأ وتربى أمام أعينهم، وما جلس إلى معلم قطُّ، وكانوا يصفونه قبل بعثته ﷺ بالصدق والأمانة، ولا يتهمونهم بالكذب، ويقولون: ما جَرَّبنا عليك من كذب، وهم يعرفون في قرارة أنفسهم أنَّ هذا القرآن ليس من قول البشر، فقد كانوا لا يملكون أنفسهم من التأثير به، وكانوا يختبئون سرًّا، كل واحد منهم وراء الآخر حتى لا يراه؛ ليستمعوا إلى القرآن، والنبى ﷺ يتلوهُ في صلاته ليلاً، ثم يكابرون ويعاندون، ولا يؤمنون به، كما قال رب العالمين: ﴿وَحَمَدُوا بِهَا وَاسْتَفْتَنَّا أَنْفُسَهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا﴾ [النمل: ١٤].

فالمانع من إيمانهم هو الكبر والجحود، والخوف على جاههم وسلطانهم، ولهذا فهم يقولون في القرآن ما لا يعتقدونه.

ثانيًا: شبهة أنَّ القرآن أساطيرُ الأولين

٥- ﴿وَقَالُوا أَأَسْطِيرُ الْأَوَّلِينَ اكْتَتَبَهَا فَهِيَ تُمْلَى عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا﴾

أي: إن الكفار بخاتم المرسلين قالوا: هذا القرآن أساطير الأولين، وأحاديث السابقين، استنسخها محمد ﷺ، فهي تُقرأ عليه صباحًا ومساءً.

وقد كان النبي ﷺ يتلو القرآن على أهل مكة، ويخبرهم بأخبار الأمم السابقة، ويحذِّرهم من أن يقعوا فيما وقعوا فيه من عدم الإيمان بالله، وتكذيب الرسول ﷺ، والتكذيب باليوم الآخر.

وكان النضر بن الحارث تاجرًا، يسافر إلى الحيرة وغيرها، ويتنقل بين بلاد فارس والروم، ويحفظ قصص ملوك الفرس، وأحاديث رُستم، فكان إذا ذهب النبي ﷺ جلس النضر مكانه، وقال: سأقصُّ عليكم أحسن مما يقصُّه محمد، فما هذا الذي يقوله إلا خرافات وأساطير الأولين، استمع إليها، وسأل من يكتبها له، فهو ينقلها منهم ثم ينسبها إلى ربه، وهي تُملَى وتُقرأ عليه في الصباح والمساء.

قال ابن عباس ؓ: كل ما في القرآن من أساطير الأولين، فالمقصود منه قول النضر بن الحارث.

وهذا القول فيه اتهام النبي ﷺ بالكذب، وفيه وصف القرآن بأنه كذب، وفيه أنهم قادرون على أن يأتوا بمثله، وفيه زعمهم أن الرسول ﷺ يكتب، مع علمهم بأنه لا يكتب.

الرَّدُّ عَلَى الشُّبْهَاتَيْنِ

٦- ﴿قُلْ أَنْزَلَهُ الَّذِي يَعْلَمُ السِّرَّ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ كَانَ غَفُورًا رَحِيمًا﴾ (٦)

أمر الله رسوله ﷺ أن يرد عليهم قائلًا: لقد أنزل هذا القرآن، الذي يعلم الغيب والشهادة، يعلم السر والنجوى، ويعلم ما هو أخفى من السر، وعلمه محيط بكل صغيرة وكبيرة.

إنه - سبحانه - كان غفورًا لمن تاب من الذنوب والمعاصي، ومنها الكفر والشرك والقول بالتثليث والبنوة، وهو - سبحانه - رحيم بهم؛ حيث لم يعاجلهم بالعقوبة.

فالمعنى: قل - يا محمد - لمن زعموا أن القرآن خرافات وأباطيل، أو أنك اختلقته من عندك، وساعدك عليه أناس غيرك، قل لهم: كذبتهم أشنع الكذب وأقبحه، فأنتم أول من يعلم أن هذا القرآن لا يمكن لبشر أن يخلقه، وتعلمون أن له حلاوة وطلاوة، وتأثيرًا على القلوب باعتراف زعمائكم، فالذي أنزله هو من لا يَغُزُبُ عن علمه شيء، ويعلم ما خفي وما ظهر، فقد أخبركم بالماضي والحاضر والمستقبل، وأعجزكم بفصاحته وبلاغته، قال تعالى ﴿وَإِنَّهُ لَنَزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ (٩٢) نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ ﴿٩٣﴾ عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنذِرِينَ ﴿٩٤﴾ بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ ﴿الشعراء﴾.

ولو أن هؤلاء المكذبين، تدبروا القرآن وتأملوا ما فيه من علوم الأولين والآخرين، لكان في هذا دلالة قاطعة لهم على أنه لا يكون إلا من عالم الغيب والشهادة، ومع إنكارهم للتوحيد والرسالة، فإن الله تعالى دعاهم إلى التوبة والرجوع إليه، ووعدهم بالمغفرة والرحمة.

ثَالِثًا: مُقْتَرَحَاتٌ عَلَى صَاحِبِ الرِّسَالَةِ ﷺ

٧، ٨- ﴿وَقَالُوا مَالِ هَذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ^(٢) الطَّعَامَ وَيَتَشَبَّهِ فِي الْأَشْوَاقِ لَوْلَا أَنْزَلَ إِلَيْهِ

(١) يجوز الوقف اختبارًا أو اضطرارًا على (ما) أو اللام من لفظ (مال) لجميع القراء، ويبدأ بأول الكلمة، ولا يوقف عليهما اختيارًا.

(٢) قرأ حمزة والكسائي وخلف بالنون في (يأكل) والفاعل ضمير يعود على الواو في (وقالوا)، وقرأ الباقون بالياء، والفاعل ضمير يعود على الرسول.

مَلَكٌ فَيَكُونُ مَعَهُ نَذِيرًا ﴿٧﴾ أَوْ يُنْفَخُ إِلَيْهِ كَافُرٌ أَوْ تَكُونُ لَهُ جَنَّةٌ يَأْكُلُ مِنْهَا وَقَالَ
الظَّالِمُونَ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَسْحُورًا ﴿٨﴾ ﴿٨﴾

أي: إن المشركين والملحدين يطعنون في القرآن -موضوع الرسالة- ويطعنون في صاحب الرسالة ﷺ.

فهم يقولون أولًا: إن محمدًا قد افترى هذا القرآن.

ويقولون ثانيًا: إن القرآن أساطير الأولين.

ثم يقولون ثالثًا على سبيل السخرية والتهكم والإنكار: كيف يكون محمد رسولًا وهو يأكل الطعام مثلنا، ويمشي في الأسواق طلبًا للرزق مثلنا؟

فهل أرسل الله إليه ملكًا يشهد على صدقه، ويبلغ معه رسالة ربه؟

والمعنى: أن المكذبين بالرسالة، قالوا تهكمًا: ما لهذا الذي ادعى الرسالة، يأكل الطعام ويبيع ويشترى، فهل أنزل مع الرسول ملك يعاونه ويساعده، أو يكون معه مال كثير يأتيه من غير تعب، أو تكون له حديقة مثمرة يستغني بها عن المشي في الأسواق.

ثم بين سبحانه، أن الذي حملهم على هذا، هو الظلم، ووصفهم النبي ﷺ بالسحر، مع علمهم بكمال عقله وسداد رأيه.

جاء في أسباب النزول: أن كبار قريش اجتمعوا، ومنهم: أبو سفيان، وأبو جهل، والوليد بن المغيرة، والعاص بن وائل وغيرهم... فأرسلوا إلى النبي ﷺ، وقالوا له: إن كنت تريد مالًا جمعنا لك من المال حتى تكون أكثرنا ثراء، وإن كنت تريد ملكًا ملئناك علينا، وإن كنت تريد الشرف سؤدناك علينا، فقال عليه الصلاة والسلام: ما أريد شيئًا مما تقولون، وإنما بعثني الله إليكم رسولًا وأنزل عليّ كتابًا، وأنا نذير وبشير إليكم، فإن أطمعتموني دخلتم الجنة، وإن عصيتموني فقد أبلغتكم ما أرسلت به إليكم، ونصحت

(١) قرأ أبو عمرو وعاصم وحمة ويعقوب وابن ذكوان بخلف عنه بكسر التنوين وصلًا من (مسحورا) حال وصله بـ (انظر) بعدها، والباقون بضم التنوين وصلًا أيضًا، وهو الوجه الثاني لابن ذكوان، ويبدأ للجميع بضم همزة الوصل في (انظر).

لكم، فإن تقبلوا مني ما جئتكم به فهو حظكم في الدنيا والآخرة، وإن تردوه عليّ أصبر لأمر الله تعالى، حتى يحكم بيني وبينكم، فقالوا له: فإن كنت غير قابل شيئاً مما عرضنا عليك، فسل ربك أن يبعث معك ملكاً يصدقك، ويشهد لك بأنك رسول من عند الله، وسله أن يجعل لك جنات وقصوراً تغنيك؛ فإنك تقوم بالأسواق وتلتبس المعاش كما تلتبس؛ حتى نعرف فضلك ومزلتك فقال لهم: ما أنا بفاعل، وما أنا بالذي يسأل ربه هذا، وما بُعثت إليكم بهذا، ولكن الله تعالى بعثني بشيراً ونذيراً، فأنزل الله تعالى هذه الآيات^(١).

فكانت شبهة المشركين أن قالوا للنبي ﷺ: أنت لم ينزل عليك كنز من المال؛ حتى تنفق وتعيش منه، وأنت لست بملك؛ لأنك تسعى على كسب قوتك وعيشك، وتمشي في الأسواق، ولأنك تأكل كما نأكل، والملائكة لا يأكلون، فسل ربك أن يغنيك وينزل عليك كنزاً بحيث لا تفتقر إلى الناس، أو تكون لك جنة من نخيل وأعناب وحدائق مثمرة تأكل منها، أو تكون لك قصور من ذهب وفضة؛ حتى تتميز عن الناس، ويعرفوك بغناك، ثم اتهموه في النهاية بالسحر والجنون.

لقد خير الله - سبحانه - بين أن يكون عبداً رسولاً، أو نبياً ملكاً، فاختر أن يكون عبداً رسولاً، وأرسل له الملك الموكل بالجبال يعطيه مفاتيح خزائن الأرض، أو يدخرها له عند ربه، فقال: «بل أجوع يوماً فأسأل الله من فضله، وأشبع يوماً فأشكر الله على نعمه»^(٢).

ويواصل المكذبون تعشّتهم وتكذيبهم للحق بلا حجة ولا دليل، فيقترحون على النبي ﷺ أن يهبط عليه من السماء كنز من مال، يأتيه بلا تعب ولا مشقة، كمن يجد كنزاً صدفة، أو تكون له حديقة عظيمة يأكل من ثمرها، بجانب ما قالوه من قبل، من نزول ملك معه، فهذه أمور ثلاثة اقترحها الكفار تعنتاً وعناداً، وهذه الأمور الثلاثة كثيراً ما تحدّث عنها القرآن الكريم، كقوله تعالى: ﴿فَلَعَلَّكَ تَارِكٌ بَعْضَ مَا يُوحَىٰ إِلَيْكَ وَضَائِقٌ بِهِ صَدْرُكَ أَنْ يَقُولُوا لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْهِ كَنْزٌ أَوْ جَاءَ مَعَهُ مَلَكٌ﴾ [هود: ١٢].

وقوله تعالى: ﴿وَقَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ بِكَ حَتَّىٰ تُفَجِّرَ لَنَا مِنَ الْأَرْضِ يَبُوعًا﴾ ﴿٩٠﴾ أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ

(١) يُنظر: «سيرة ابن هشام» (٣٢٤/١) وابن جرير (١٣٨/١٨) وابن أبي شيبه (١١٨٤/٩) و«تفسير الألوسي» (٢٣٧/١٨) وابن إسحاق (٢٩٥/١).

(٢) ينظر حديث أبي أمامة في تفسير الآية العاشرة.

مِّنْ تَخِيلٍ وَعَنْبٍ ﴿٢٠﴾ [الإسراء].

فهم يعيرون على الرسول ﷺ أن يأكل الطعام كما يأكل سائر الناس، ويعيرون عليه أن يمشي في الأسواق ويتردد فيها، كما يتردد سائر الناس سعيًا وراء أمور المعيشة، فأحواله مماثلة لأحوال الناس، وهم يزعمون أن الرسول لا يكون بشرًا من الناس، وخصوا هاتين الحالتين: الأكل، والمشي في الأسواق، بالذكر؛ لأنهما من المشاهد المكررة.

وقد ردَّ الله عليهم قولهم هذا بقوله: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَيَمْشُونَ فِي الْأَسْوَاقِ﴾ [٢٠].

ثم يختم المكذبون قولهم بتوجيه الخطاب للمؤمنين قائلين لهم: ما هذا الذي تتبعونه - أيها المؤمنون- إلا رجل ساحر، غلب عليه عقله، فزعم أنه رسول الله، وفي هاتين الآيتين نرى أن المشركين قد اقترحوا على النبي ﷺ اقتراحات ستة، جاءت على وجه التدرج والتنزل، فقالوا: إن النبي ﷺ غير مستغنى عن:

١- الأكل كسائر الناس.

٢- وعن طلب المعيشة وتحصيل الرزق.

٣- وأن يكون معه ملك يسانده في التبليغ والإنذار.

٤- وألا يحتاج إلى طلب المعاش، بأن ينزل عليه كنز من السماء.

٥- أو على الأقل يكون له في الأرض بستان يأكل منه.

٦- ثم رموه بالسحر في نهاية الأمر.

وقد وصفهم القرآن بالظلم حيث طلبوا هذه المقترحات وكذبوا رسول الله ﷺ.

ولما كانت هذه الأقوال عجيبة جدًا فقد قال تعالى:

٩- ﴿أَنْظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا لَكَ الْأَمْثَالَ فَضَلُّوا فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا﴾ ﴿٢١﴾

أي: إن الله تعالى ردَّ عليهم اقتراحاتهم الفاسدة، ومطالبهم القبيحة، فصرف سبحانه الأنظار إلى التعجب من سوء أقاويلهم؛ حيث ضلوا الطريق في كل ما وصفوا به النبي

ﷺ، فانظر -يا محمد- ما قاله المكذبون في حقك من الأقوال العجيبة التي تشبه الأمثال لغرابتها: كالشعر والكهانة والسحر ليتوصلوا بها إلى تكذيبك! والذي ابتكر اتهام النبي ﷺ بالسحر هو عبد الله بن الزُّبيري.

فقالوا عن النبي ﷺ: مرة مسحور، ومرة شاعر، ومرة كاهن، وقالوا عن القرآن: مرة أساطير الأولين، ومرة إفك افتراه وأعانه عليه قوم آخرون، فَبَعَدُوا بِذَلِكَ عَنِ الْحَقِّ، ولم يجدوا سبيلاً يصححون به ما قالوه فيك -أيها الرسول- من الكذب والبهتان، وكله متناقض فيه جهل وضلال وسفه، والعاقل يجزم بطلانها بمجرد النظر فيها، ولذا افتتح الله الآية بالدعوة إلى النظر والتأمل.

الرَّدُّ عَلَى مُقْتَرَحَاتِهِمْ

١٠- ﴿تَبَارَكَ الَّذِي إِنْ شَاءَ جَعَلَ لَكَ خَيْرًا مِنْ ذَلِكَ جَنَّتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَيَجْعَلُ^(١) لَكَ قُصُورًا﴾

أي: إن الله تعالى بعد أن تعجب من أقوالهم، ذكر أنه قادر على أن يعطي رسوله أفضل مما يطلبه المكذبون مما اقترحوه عليه من:

١- أن ينزل عليه كنز من السماء.

٢- أو تكون له حديقة يأكل منها؛ حتى لا يحتاج إلى تحصيل الرزق كسائر الناس.

٣- أو ينزل عليه ملك من السماء يعضده في أعباء الرسالة - على حد زعمهم.

فأخبر أنه - سبحانه - قادر على أن يجعل له في الدنيا حدائق كثيرة تتخللها الأنهار، ويجعل له فيها قصوراً عظيمة، ويعطيه من الأموال ما لا يوجد عند بشر؛ فخزائن الله لا تنفذ، وخيراته كثيرة، وبركاته عظيمة.

عن أبي أمامة رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «عَرَضَ عَلَيَّ رَبِّي لِيَجْعَلَ لِي بِطْحَاءَ مَكَّةَ ذَهَبًا، قُلْتُ: لَا يَا رَبِّ، وَلَكِنْ أَشْعِيعَ يَوْمًا وَأَجُوعَ يَوْمًا، فَإِذَا جُعْتُ تَضَرَّعْتُ إِلَيْكَ وَذَكَرْتُكَ، وَإِذَا

(١) قرأ نافع وأبو عمرو وحفص وحمة والكسائي وأبو جعفر ويعقوب وخلف بجزم اللام من (ويجعل لك) جواباً للشرط، ويلزم إدغامها في اللام بعدها، وقرأ الباقر بالرفع وعدم الإدغام على الاستئناف، أي: وهو يجعل، أو سيجعل.

شعبتُ حمدتُك وشكرتُك»^(١).

وعن عائشة رضي الله عنها أن رسول الله ﷺ قال: «لو شئتُ لسارتُ معي جبال مكة ذهبًا، جاءني ملك -إن حجزته لتساوي الكعبة- فقال: يا محمد، إن ربك يقرئك السلام، ويقول: إن شئتُ نبيًّا عبدًا، وإن شئتُ نبيًّا ملكًا، فنظرتُ إلى جبريل، فأشار لي أن ضع نفسك، فقلت: نبيًّا عبدًا»، قالت: فكان رسول الله ﷺ بعد ذلك لا يأكل متكئًا، يقول: «أنا عبد، أكل كما يأكل العبد، وأجلس كما يجلس العبد»^(٢).

وجاء توضيح هذا الخبر عن الضحاك، عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: لما عيّر المشركون رسول الله ﷺ بالفاقة، حزن ﷺ، فنزل جبريل عليه السلام معزيًا له، فبينما النبي وجبريل عليهما السلام يتحدثان، إذ فُتح باب من السماء، فقال جبريل: أبشر يا محمد، هذا رضوان خازن الجنة، قد أتاك بالرضى من ربك، فسلم عليه، وقال: ربك يُخَيِّرُك بين أن تكون نبيًّا ملكًا، وبين أن تكون نبيًّا عبدًا - ومعه سقط من نور يتلألأ - ثم قال: هذه مفاتيح خزائن الأرض، فنظر رسول الله ﷺ إلى جبريل كالمستشير، فأومأ بيده أن تواضع، فقال ﷺ: «بل نبيًّا عبدًا» فكان ﷺ بعد ذلك لا يأكل متكئًا حتى فارق الدنيا^(٣).

وقال سفيان الثوري، عن حبيب بن أبي ثابت، عن خيثمة، قيل للنبي ﷺ: إن شئتُ أن نعطيك خزائن الأرض ومفاتيحها ما لم يُعطَ نبي قبلك، ولا يُعطى أحد من بعدك، ولا ينقص ذلك مما لك عند الله، فقال ﷺ: «اجمعوها لي في الآخرة»، فأنزل الله الآية^(٤).

ومع ذلك فبعد الفتوحات الإسلامية في العهد النبوي جاءت الأموال وفيرة إلى النبي ﷺ، جاءه من البحرين الأموال الكثيرة، فوضعها في المسجد، ولم يأخذ إلى بيته منها

(١) ذكر هذا الحديث البغوي بسنده في «شرح السنة» بعد الحديث (٤٠٤٤) والطبراني في «الكبير» (٧٨٣٥) والبيهقي (١٠٤١٠) و«المسند» (٢٢١٩٠) وقال محققوه: إسناده ضعيف جدًا.

(٢) تفسير البغوي، والخازن للآية، والحديث في السلسلة الصحيحة (١٠٠٢) وانظر السلسلة الضعيفة (٢٠٤٥).

(٣) «حاشية زاده على البيضاوي» (٤٤٤/٣) وبزيادة على هذا في «أسباب النزول» للواحي ص ٢٥٠ وعند ابن عساكر كذلك، وانظر ضعيف الترغيب والترهيب برقم (١٩٠٨).

(٤) «تفسير الطبري» (١٤٠/١٨) وابن أبي شيبه (٥٠٩/١١) وابن أبي حاتم (٢٦٦٦/٨).

درهماً، وكان يعطي الرجل المال حتى لا يستطيع أن يقوم به من مقامه، وقد امتلأ حجره بالذهب والفضة.

ولما جاء المال الكثير إلى النبي ﷺ ووزعه بين أصحابه، سألته ابنته وقرّة عينه فاطمة رضي الله عنها من هذا الفيء الذي أفاء الله عليه به، فأبى ونصحها هي وعلياً رضي الله عنها أن يكثر من: التسبيح والتحميد والتكبير والتهليل، وقال: «إن هذا خير لكما من خادم»^(١).

ومعنى الآية: جلّ شأن الله، وعظمت بركاته، وكثرت خيراته، فهو إن شاء أعطاك خيراً مما اقترحوه عليك من الكنوز والبساتين، ويجعل لك مع ذلك قصوراً رفيعة مشيدة. ف قدرة الله ومشيتته فوق ذلك، ولكنه سبحانه أعطى أوليائه من الدنيا ما اقتضته حكمته تعالى.

لقد ابتدأت السورة بتعظيم الله تعالى والثناء على أنه - سبحانه - أنزل الفرقان على رسوله ﷺ، وأعقب ذلك بما قابل به المشركون هذه النعمة من جحود وإنكار واتخاذهم معبودات من دون الله، ثم طعنهم في القرآن ورسول الإسلام، فلما أراد الله تعالى أن يُعرض عن باطلهم، ويُقبل على الرسول ﷺ بتبشّيته وتثبيت المؤمنين أعاد الله - سبحانه - اللفظ الذي بدأ به السورة على طريقة وصل الكلام^(٢).

ولما كانت مقرحات المكذبين للرسالة، مجرد تعنت وظلم وتكذيب بالحق، فقد بيّن سبحانه أن الذي حملهم على هذا هو عدم الإيمان باليوم الآخر، فقال:

١١ - ﴿بَلْ كَذَّبُوا بِالسَّاعَةِ وَأَعْتَدْنَا لِمَنْ كَذَّبَ بِالسَّاعَةِ سَعِيرًا﴾

بيّن - سبحانه - في هذه الآية أنهم لم يكذبوا الرسول ﷺ؛ لأنه يأكل الطعام، ويمشي في الأسواق فحسب، وإنما كذبوا بيوم القيامة، وما فيه من بعث وحساب وجزاء، ولذلك فهم لا يقرون بأن ما ادخره الله لرسوله ﷺ في الآخرة، نعيم لا يتناهى، فليس الأمر إذن

(١) صحيح مسلم (٢٧٢٧) وصحيح البخاري (١٣١٣، ٣٧٠٥) متفق عليه وينظر: مشكاة المصابيح (٢٣٨٧) وهو في صحيح سنن أبي داود برقم (٤٢٣٢).

(٢) يُنظر هذا الربط في «تفسير التحرير والتنوير» لابن عاشور (١٨/ ٣٣٠).

أنهم يُكذِّبون رسول الله ﷺ؛ لأنهم يعرفون صدقه وأمانته، ولكن الأمر أنهم يكذبون يوم القيامة، كما أنكروا وحدانية الله تعالى، وطعنوا في شخصية رسول الله ﷺ، والوحي المنزل عليه، ولذا فإن الله تعالى أعدَّ لهم في الآخرة نارًا ملتهبة ﴿كُلَّمَا حَبَّتْ ذُرَّتُهُمْ سَعِيرًا﴾ [الإسراء: ٩٧]. وكذا كل من كذَّب باليوم الآخر فإنه يخلد في النار يوم القيامة.

مِنْ أَوْصَافِ جَهَنَّمَ، وَالْعِيَاذُ بِاللَّهِ

١٢- ﴿إِذَا رَأَوْهُمْ مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ سَمِعُوا لَهَا تَغَيُّظًا وَزَفِيرًا﴾ (١٢)

وصف الله - سبحانه - في هذه الآية نار السعير التي أُعدت للمكذبين برسل الله، كما وصف حال الكافرين حين يُعرضون على النار في ساحة المحشر، ووصف هلعهم حين يُلْقَى بهم في النار.

فبين - سبحانه - أن النار إذا رأت الكافر يوم القيامة من مكان بعيد وهو في عرصات المحشر، اشتد لهبها على من كفر بربها، وسمعوا صوت غليانها وزفيرها من شدة تغيطها منهم. والزفير: امتداد النفس من الغيظ وضيق الصدر.

وقد بين - سبحانه - أن أهل النار يسمعون لها شهيقًا مع الزفير، كما قال تعالى: ﴿إِذَا أُلْقُوا فِيهَا سَمِعُوا لَهَا شَهِيقًا وَهِيَ تَفُورُ﴾ (٧) تَكَادُ تَمَيِّزُ مِنَ الْغَيْظِ ﴿[الملك: ٧، ٨]

أي: يكاد بعضها يتقطع وينفصل عن بعض، من شدة غيظها على من كفر بالله تعالى. وظاهر الآية يفيد أن النار تُبصر الكفار يوم القيامة، وتراهم رؤية حقيقية، كما أنها تتكلم وتنطق:

١- جاء في الأثر: «يَخْرُجُ عَنْقُ مِنَ النَّارِ لَهُ عَيْنَانِ تُبْصِرَانِ، وَلِسَانٌ يَنْطِقُ فَيَقُولُ: وَكُلْتُ بِكُلِّ مَنْ جَعَلَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ، فَهُوَ أَبْصَرَ بِهِمْ مِنَ الطَّيْرِ بِحَبِّ السَّمْسِمِ فَيَلْتَقِطُهُ».

وفي لفظ: «يَخْرُجُ عَنْقُ مِنَ النَّارِ فَيَلْتَقِطُ الْكَفَّارَ لَقَطَ الطَّائِرِ حَبَّ السَّمْسِمِ»^(١).

ويشهد لهذا الأثر، الحديث الآتي:

(١) رواه رُزَيْقٌ وصححه ابن العربي.

٢- عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «يُخرج عُنُقُ من النار يوم القيامة، له عينان تُبصران، وأذنان تسمعان، ولسان ينطق فيقول: إني وُكِّلْتُ بثلاث: بكل جبار عنيد، وبكل من دعا مع الله إلهاً آخر، وبالمصورين»^(١).

٣- وعن مجاهد، عن ابن عباس رضي الله عنه قال: (إن العبد ليجرُّ إلى النار فتتزوَّى وتنقبِض بعضها إلى بعض، فيقول لها الرحمن: ما لك؟ قالت: إنه يستجير مني، فيقول: أرسلوا عبدي، وإن الرجل ليجرُّ إلى النار فيقول: يارب، ما كان هذا الظن بك؟ فيقول: فما كان ظنك؟ فيقول: أن تَسْعَنِي رحمتك، فيقول: أرسلوا عبدي، وإن الرجل ليجرُّ إلى النار، فتشهوq إليه النار شهوق البغلة إلى الشعير، وتزفر زفرة لا يبقى أحد إلا خاف»^(٢).

٤- وأخرج ابن جرير أن الربيع بن خيثم كان في صحبة عبد الله بن مسعود رضي الله عنه، فمرَّ على حدَّاد فأخذ ينظر إلى حديدة في النار، فتمايل ليسقط، ثم مرَّ وهو على شاطئ الفرات بفُرن تلتهب النار في جوفه، فقرأ ابن مسعود: ﴿إِذَا رَأَتْهُمْ مِّن مَّكَانٍ بَعِيدٍ سَعُواْ لَهَا تَغَيُّطًا وَزَفِيرًا﴾ (١٢) فضُعن الربيع، فحملوه إلى بيته فلم يُفق^(٣).

٥- وعن مجاهد، عن عبيد بن عمير قال: إن جهنم تزفر زفرة، لا يبقى ملك ولا نبي إلا خرَّ ترعداً فرائصه، حتى إن إبراهيم عليه السلام ليجثو على ركبتيه، ويقول: رب لا أسألك اليوم إلا نفسي^(٤).

٦- وفي الحديث: عن أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «اشتكت النار إلى ربها، وقالت: أكل بعضي بعضاً، فجعل لها نفْسَيْن: نفْسًا في الشتاء، ونفْسًا في الصيف، فأما

(١) أخرجه الترمذي (٢٥٧٤) وقال: هذا حديث حسن غريب، والبيهقي في الشعب (٦٣١٧) وفي البعث والنشور (٥٢٤) وصححه الألباني في «صحيح الترمذي» برقم (٢٠٨٣) وفي «السلسلة الصحيحة» برقم (٥١٢) وهو في «المسند» برقم (٨٤٣٠)، وإسناده صحيح على شرط الشيخين.

(٢) قال ابن كثير في تفسيره للآية: وهذا إسناد صحيح (٩٧/٦) وانظر: «تفسير الطبري» (٤١٠/١٧) وابن أبي حاتم (٢٦٦٨).

(٣) يُنظَر: «تفسير ابن كثير» (٩٦/٦).

(٤) «تفسير عبد الرزاق» (٥٦/٢) والطبري (٤٠٩/١٧) وابن أبي حاتم (٢٦٦٨/٨) وابن عطية (٢٠٢/٤).

نَفْسَهَا فِي الشِّتَاءِ فَرْمَهْرِيرَ، وَأَمَّا نَفْسُهَا فِي الصَّيْفِ فَسُمُومٌ»^(١).

٧- وفي رواية مسلم: «فما وجدتم من برد أو زمهرير، فمن نفس جهنم، وما وجدتم من حر أو حرور فمن نفس جهنم»^(٢).

قال تعالى: ﴿يَوْمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ هَلِ امْتَلَأَتْ وَنَقُولُ هَلْ مِنْ مَزِيدٍ﴾ [ق: ٣٠].

وإذا رأت النار أهلها قبل أن يدخلوها فإنها تفرح بلقائهم، ويشد حنقها وغضبها عليهم، فيسمع لها تغيظ من الغليان وزفير، هذا وهم خارج النار.

ثم يصور القرآن حالهم حين يُلقى بهم فيها، فيقول تعالى:

١٣- ﴿وَإِذَا أُلْقُوا مِنْهَا مَكَانًا ضَيِّقًا^(٣) مُقَرَّنِينَ دَعَوْا هُنَالِكَ ثُبُورًا^(٤)﴾

أي: فإذا أُلْقُوا في جهنم -والعياذ بالله- وكانوا في مكان شديد الضيق كنهاية الحديد التي في آخر الرمح، وهو مكان ضيق جدًا، كما قال تعالى: ﴿إِنَّهَا عَلَيْهِمْ مُّوَصَّدَةٌ^(٥)﴾ مغلقة ومطبقة ﴿فِي عَذَابٍ مُّتَدَدٍ^(٦)﴾ [الهمزة]. فيلقون فيه وأيديهم مغلولة إلى أعناقهم بالسلاسل -والعياذ بالله- كحال الأسرى والمساجين حين يُقرن عدد منهم في وثاق واحد، كما قال تعالى: ﴿وَأَخْرَجَ مُقَرَّنِينَ فِي الْأَصْفَادِ^(٧)﴾ [ص].

وقال سبحانه: ﴿وَتَرَى الْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ مُّقَرَّنِينَ فِي الْأَصْفَادِ^(٨)﴾ سَرَابِلُهُمْ مِّنْ قَطِرَانٍ وَتَغْشَىٰ وُجُوهَهُمُ النَّارُ^(٩)﴾ [إبراهيم].

وقال أيضًا: ﴿ثُمَّ فِي سِلْسِلَةٍ ذَرْعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعًا فَاسْلُكُوهُ^(١٠)﴾ إِنَّكُمْ كَانُوا بِآيَاتِهِ الْأَعْلَىٰ غَافِلِينَ^(١١)﴾ [الحاقة].

وحينئذ فإنهم يتمنون الهلاك مرة واحدة؛ للاستراحة من العذاب، ويدعون على أنفسهم بالهلاك الدائم، وبالويل والخسران؛ للخلاص من نار جهنم. فيقال لهم تبيسًا:

(١) البخاري (٥٣٧) ومسلم (٦١٧) و«صحيح سنن الترمذي» برقم (٢٠٩٠) و«صحيح سنن ابن ماجه» برقم (٤٣١٩). ومسند أحمد (٧٢٤٧) بإسناد صحيح على شرط الشيخين، والنسائي في الكبرى (١٤٨٨) وأبي يعلى (٥٨٧١) وابن خزيمة (٣٢٩).

(٢) صحيح مسلم (٦١٧) وانظر صحيح ابن ماجه (٤٣١٩) والسلسلة الصحيحة (١٤٥٧).

(٣) قرأ ابن كثير بسكون الياء من (ضيِّقًا) والباقون بتشديدها، وهما لغتان، وقيل: التشديد في الأجرام، والتخفيف في المعاني.

١٤- ﴿لَا تَدْعُوا الْيَوْمَ ثُبُورًا وَاحِدًا وَادْعُوا ثُبُورًا كَثِيرًا﴾

لا تدعوا على أنفسكم بالهلاك مرة واحدة، بل ادعوا مرات كثيرة، فلن يزيدكم ذلك إلا غمًا وحُزنًا حيث لا خلاص لكم من عذاب الله، وكل نوع منه له ثبور؛ لشدة وفظاعته، وهو عذاب متنوع متجدد ومتكرر لا ينتهي ﴿كَمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُمْ بَدَلْنَهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا الْعَذَابَ﴾ [النساء: ٥٦]. وفي هذا إقناط لهم من إجابة الدعاء.

مَصِيرُ أَهْلِ الشَّقَاءِ وَأَهْلِ السَّعَادَةِ

١٥- ﴿قُلْ أَذَلِكَ خَيْرٌ أَمِ جَنَّةُ الْخُلْدِ الَّتِي وُعدَ الْمُتَّقُونَ كَانَتْ لَهُمْ جَزَاءً وَمَصِيرًا﴾

هذه مقابلة بين نعيم الجنة وعذاب النار، فيأمر الله تعالى رسوله ﷺ أن يوجه الخطاب إلى المؤمنين والمشركون معًا، على سبيل التقريع والوعيد للكافرين، وإظهار المنة وحفز الهممة للمؤمنين.

قل -يا محمد- لأمتك: أهذه النار التي وصفت لكم من أنها تتلقى الأشقياء بوجه عبوس وتغيظ وزفير، خير، أم جنة الخلد والنعيم الدائم الذي وعد الله به المتقين الخائفين من عذاب الله؟ كانت لهم ثوابًا على أعمالهم ومصيرًا يرجعون إليه في الآخرة، كما قال تعالى: ﴿نِعْمَ الثَّوَابُ وَحَسُنَتْ مُرْتَفَقًا﴾ [الكهف: ٣١].

وقال في مقابل ذلك: ﴿بئسَ الشَّرَابُ وَسَاءَتْ مُرْتَفَقًا﴾ [الكهف: ٢٩].

ومثل هذه الآية من ذكر أهل النار وما فيها من الويل والثبور، مع ذكر أهل الجنة وما فيها من النضرة والحبور، قوله تعالى: ﴿أَذَلِكَ خَيْرٌ نُزْلًا أَمْ شَجَرَةُ الزَّاقِمِ﴾ (١٦) إِنَّا جَعَلْنَاهَا فِتْنَةً لِلظَّالِمِينَ (١٧) إِنَّهَا شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِي أَصْلِ الْجَحِيمِ (١٨) طَلْعُهَا كَأَنَّهُ رِئَاسُ الشَّيْطَانِ (١٩) فَإِنَّهُمْ لَكَالُونَ مِنْهَا فَمَالُونَ مِنْهَا الْبُطُونَ (٢٠) ثُمَّ إِنَّ لَهُمْ عَلَيْهَا لَشَوْبًا مِنْ حِمِيمٍ (٢١) ثُمَّ إِنَّ مَرِجَهُمْ لَكَالِي الْجَحِيمِ (٢٢) إِنَّهُمْ أَقْبَاءُ مُرِضَالِينِ (٢٣) فَهُمْ عَلَىٰ عَذَابٍ يُنْزِلُونَ (٢٤) [الصافات].

وليس هناك أفضلية بين نعيم الجنة وعذاب النار، وإنما المقصود بيان خصوصية الجنة بالفضل عن طريق الاستفهام، لبيان الصواب من الخطأ، دون مقابلة بينهما. قال تعالى عن نعيم أهل الجنة:

١٦ - ﴿لَهُمْ فِيهَا مَا يَشَاءُونَ خَالِدِينَ ۖ كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ وَعْدًا مَسْئُولًا﴾ ﴿١٦﴾

أي: لهؤلاء المطيعين في الجنة ما يشتهون من ملاذ النعيم؛ فمتاعهم فيها دائم، كما وعدهم ربهم، أي: ولهم في الجنة ما تشتهي الأنفس، وتلذ الأعين، من المطاعم والمشارب والملابس، والحدائق والحدائق والفواكه، وأنهار اللبن والعسل والخمر والماء، والروائح الطيبة، والمسكن المزخرفة، والأصوات الشجية، والتمتع بالأهل والأحباب، والسعادة برضى الله سبحانه، وهم فيها خالدون، وقد كانوا في الدنيا يطلبون ذلك ويقولون: ﴿رَبَّنَا وَءَاتِنَا مَا وَعَدْتَنَا عَلَىٰ رُسُلِكَ وَلَا تُخْزِنَا يَوْمَ الْقِيَمَةِ﴾ [آل عمران: ١٩٤].

وكانت الملائكة تسأل ذلك لهم فتقول: ﴿رَبَّنَا وَأَدْخِلْهُمْ جَنَّاتٍ عَدْنٍ الَّتِي وَعَدْتَهُمْ وَمَنْ صَلَحَ مِنْ آبَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّتِهِمْ﴾ [غافر: ٨].

هذا هو وعد الله، والله لا يخلف الميعاد، وقد وعدهم الله في الدنيا بالجنة، والله لا يخلف وعده، وهو وعد يسأله عباد الله المتقون، كأنهم يقولون: ربنا عملنا ما أمرتنا، فأنجز لنا ما وعدتنا، فيجيبهم الله بما وعدهم به من النعيم المقيم، وهذا معنى ﴿كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ وَعْدًا مَسْئُولًا﴾ يسأل هذا الوعد، عباد الله المتقون، بلسان حالهم ولسان مقالهم، وتسأله لهم الملائكة، وقد حقق الله وعده وأجاب سؤاله.

مُحَاكَمَةٌ فِي عَرَصَاتِ الْقِيَامَةِ بَيْنَ الْمُشْرِكِ وَمَعْبُودِهِ

١٧ - ﴿وَيَوْمَ يُحْشَرُهُمْ^(١) وَمَا يَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ فَيَقُولُ^(٢) ءَأَنْتُمْ أَضَلَلْتُمْ عِبَادِي هَؤُلَاءِ^(٣) أَمْ هُمْ ضَلُّوا السَّبِيلَ﴾ ﴿١٧﴾

(١) قرأ ابن كثير وأبو جعفر ويعقوب بالياء في (يحشرهم) والفاعل ضمير يعود على (ربك) في الآية السابقة، وقرأ الباقر بنون العظمة، على الالتفات من الغيبة إلى التكلم، وهو موافق لقوله تعالى: (وأعتدنا لمن كذب بالساعة سعيراً).

(٢) قرأ ابن عامر بنون العظمة في (فيقول)، والباقر بنون بالياء.

(٣) قرأ نافع وابن كثير وأبو عمرو وأبو جعفر ورويس بإبدال الهمزة الثانية من (هؤلاء) ياء مكسورة، والباقر بنون بتحقيقها.

ويوم القيامة يحشر الله الأولين والآخرين، ويجمع العابدين من المشركين، والمعبودين من الأوثان والأصنام، وكل من عبد من دون الله: كالملائكة، والجن، وعزير، والمسيح، فيحشر العباد والخلق جميعاً، ثم يوجه هذا الاستجواب للمعبودين: أنتم أضللتم عبادي عن طريق الحق فدعوتموهم إلى عبادتكم؟ أكنتم السبب في ضلالهم ودعوتموهم إلى عبادتكم؟ ﴿أَمْ هُمْ ضَلُّوا السَّبِيلَ﴾ فعبدوكم من تلقاء أنفسهم، من غير أن تُغُووهم وتُرشدوهم إلى ذلك؟

والمشركون الذين كانوا في عصر التنزيل موجودون في وقتنا، فالشرك في هذه المعمورة موجود في: عبَاد البقر، وعبَاد الوثن، وعبَاد الشيطان، وعبَاد القبور، ونحو ذلك.

وفي هذه الآية يبيّن الله ﷻ أنه إذا كان يوم الحشر يجمع المعبودين الذين عبدوا من دونه، ويجمع الكفار الذين عبدوهم، يجمعهم جميعاً في ساحة العدل الإلهية، ويكون هناك استجواب من الله - سبحانه -، يسأل فيه الذين عبدوا من دون الله، أنتم أضللتم هؤلاء المشركين؟ فيكون جوابهم بالتبرؤ من عبادتهم، ويقع الخزي على من عبدوهم.

١٨ - ﴿قَالُوا سُبْحَنَكَ مَا كَانَ يَنْبَغِي لَنَا أَنْ نَتَّخِذَ^(١) مِنْ دُونِكَ مِنْ أَوْلِيَاءَ وَلَكِنْ مَتَّعْتَهُمْ وَآبَاءَهُمْ حَتَّى نَسُوا الذِّكْرَ وَكَانُوا قَوْمًا بُورًا﴾

هذا الجواب يكون من المعبودين العقلاء: كعيسى، والملائكة، والجن على وجه التعجب والإنكار على العابدين؛ حيث يقولون: تنزيهاً لك يارب عن الشركاء، وعن كل ما لا يليق بجلالك، فلا ينبغي ولا يصح لأحد من خلق الله جميعاً أن يعبد سواك، ولا يصح لنا أن نوالي أو نعبد غيرك، ولا ندعو أحداً سواك.

وفي هذا تسفيه للذين عبدوهم من دون الله واتخذوهم أولياء، وهذا الجواب كجواب الملائكة الذي جاء في سورة (سبا) في قوله سبحانه: ﴿وَيَوْمَ يُحْشَرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلَكَةِ

(١) قرأ أبو جعفر بضم النون وفتح الخاء من (نتخذ)، على البناء للمفعول، ونائب الفاعل ضمير تقديره (نحن) يعود على الواو في (قالوا) و(من دونك) متعلق بـ(نتخذ) و(من) لتأكيد النفي، و(أولياء) حال، وقرأ الباوق بالبناء للفاعل، والفاعل مستتر تقديره (نحن)، و(أولياء) مفعول به.

أَهْوَلَاءَ بِآثَمُ كَانُوا يَعْبُدُونَ ﴿١٩﴾ قَالُوا سُبْحَنَكَ أَنْتَ وَلِئِنَّا مِنْ دُونِهِمْ بَلْ كَانُوا يَعْبُدُونَ الْجِنَّ أَكْثَرَهُمْ بِهِمْ مُؤْمِنُونَ ﴿٢٠﴾ [سبأ].

وهذا الاستجواب يكون أيضاً لعيسى عليه السلام وقد عبد من دون الله، ولا يزال النصراري يؤلهونه؛ حيث يقول الله له: ﴿أَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُتَى إِلَهِينَ مِنْ دُونِ اللَّهِ قَالَ سُبْحَنَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ إِنْ كُنْتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتُمْ تَعْلَمَ مَا فِي نَفْسِي وَلَا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ إِنَّكَ أَنْتَ عَْلَمُ الْغُيُوبِ ﴿٢١﴾ مَا قُلْتَ لَهُمْ إِلَّا مَا أَمَرْتَنِي بِهِ أَنْ أَعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ﴾ [المائدة].

أما غير العاقلين، كالأصنام ونحوها، فإن الله تعالى يجعل فيهم نطقاً يسمعه عبدتها.

وفي يوم القيامة يتبرأ المعبود من العابد، ويقول: ما دعوناهم لعبادتنا، وإنما هم ضلوا السبيل، وعبدوا غير الله من تلقاء أنفسهم. ﴿وَإِذَا حُشِرَ النَّاسُ كَانُوا لَهُمْ أَعْدَاءً وَكَانُوا بِعِبَادَتِهِمْ كَافِرِينَ﴾ [الأحقاف: ٦] ﴿ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ وَلَيَعَنُ بَعْضُكُم بَعْضًا﴾ [العنكبوت: ٢٥]

وهكذا الذين عبدوا من دون الله في جوابهم على سؤال الله لهم يوم القيامة ﴿أَنْتُمْ أَضَلَلْتُمْ عِبَادِي هَؤُلَاءِ﴾ فيقول الملائكة، وعيسى، وعزير: إن هؤلاء المشركين قد قابلوا النعمة بالكفران، فقد أطلت - يارب - أعمارهم هم وآبائهم، وأغدقت عليهم من فضلك وإحسانك ونعمائك، حتى نسوا التوحيد الذي جاءت به الرسل، وكانوا بذلك قوماً هلكي خاسرين، غلب عليهم الشقاء والخذلان، وأحلوا قومهم دار البوار، وهو الموت والهلاك؛ بسبب أنهم قابلوا نعمة الله بالكفران.

تُوبِيخٌ مِنَ اللَّهِ تَعَالَى لِكُلِّ مُشْرِكٍ فِي سَاحَةِ الْحَشْرِ

١٩ - ﴿فَقَدْ كَذَّبَكُمْ بِمَا تَقُولُونَ^(١) فَمَا تَسْتَطِيعُونَ^(٢) صَرَفًا وَلَا نَصْرًا وَمَنْ يَظْلِمِ مِنْكُمْ

(١) قرأ قبل بخلف عنه بياء الغيبة في (بما تقولون) على أن الكاف في (كذبكم) للمشركين، والواو فيها وفي (يقولون) للمعبودين من دون الله، والمعنى: فقد كذبكم - أيها المشركون - المعبودون بقولهم: (سبحانك ما كان ينبغي لنا)، وقرأ الباقون بقاء الخطاب، وهو الوجه الثاني لقبل، بمعنى: فقد كذبكم - أيها المشركون - المعبودون في قولكم: إنهم أضلوكم.

(٢) قرأ حفص بقاء الخطاب في (فما تستطيعون) والمخاطب هم المشركون، والباقون بياء الغيبة على إسناد الفعل للمعبودين.

نَذِقُهُ عَذَابًا كَبِيرًا ﴿١٦﴾

هذا خطاب من الله - تعالى - إلى الكفار على سبيل التقرير والتبكيث؛ حيث يقول لهم: ها قد كذَّبكم الذين عبدتموهم من دون الله بما تقولون، في أنهم دعوكم إلى عبادتهم، فقد تبرؤوا منكم اليوم، وكفروا بعبادتكم، وها هو العذاب قد حلَّ بكم، وأنتم لا تملكون دفعه عنكم، ولا تستطيعون نصر أنفسكم، ولا يوجد من يحول بينكم وبينه، فلا فكاك لكم منه، كما قال تعالى: ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ مَنْ لَا يَسْتَجِيبُ لَهُ إِلَى يَوْمِ الْقِيَمَةِ وَهُمْ عَنِ دُعَائِهِمْ غَافِلُونَ ﴿٥﴾ وَإِذَا حُشِرَ النَّاسُ كَانُوا لَهُمْ أَعْدَاءً وَكَانُوا بِعِبَادَتِهِمْ كَافِرِينَ ﴿٦﴾﴾ [الأحقاف].

فهؤلاء هم الذين عبدتموهم من دون الله؛ قد كذبوكم في زعمكم أنهم أولياؤكم، وأنهم شفعاء ووسطاء لكم عند الله تعالى.

ثم يأسهم الله بأنهم لا يملكون دفع الضر عنهم يوم القيامة ولا ينفعونهم في شيء، ولا يستطيعون نصر أنفسهم، ولا نصر غيرهم، والصرف: هو دفع العذاب.

ثم وجَّه - سبحانه - الخطاب لخلق الله جميعاً بأن من يظلم نفسه بالشرك فيعبد غير الله، ويمت على ذلك، نذقه عذاباً شديداً في نار جهنم، فالظلم أنواع، وأعظم الظلم هو الشرك، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ [لقمان: ١٣].

وبهذا فقد أقام الله الحجة عليهم، فأخرس ألسنتهم وجعلهم أهلاً لنزول العذاب.

أما المعاند منهم الذي عرف الحق ولم يعمل به، فقد قال تعالى في حقه ﴿وَمَنْ يَظْلِمِ مَنكُم﴾ فيترك الحق عناداً وتكبراً ﴿نَذِقُهُ عَذَابًا كَبِيرًا﴾ لا يحيط به وصف.

جَمِيعُ الرُّسُلِ يَأْكُلُونَ، وَيَقْضُونَ حَاجَاتِهِمْ بِأَنْفُسِهِمْ

٢٠- ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَيَمْشُونَ فِي الْأَسْوَاقِ وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً أَنْتَصِرُونَ وَكَانَ رَبُّكَ بَصِيرًا ﴿٢٠﴾﴾

يردُّ الله - سبحانه - على شبهة الذين قالوا في أول السورة: ﴿مَالِ هَذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ وَيَمْشِي فِي الْأَسْوَاقِ﴾ ببيان أنك - أيها الرسول الكريم - لست بدعاً من الرسل ﴿وَمَا يَقَالُ لَكَ إِلَّا مَا قَدْ قِيلَ لِلرُّسُلِ مِنْ قَبْلِكَ﴾ [فصلت: ٤٣]. فما من رسول أرسله الله قبلك -

أيها الرسول - إلا وهو بشر يأكل الطعام، ويمشي في الأسواق؛ ليكتسب، ويتاجر، ويقضي حاجته، فلست وحدك هكذا، إنما هي سُنَّةُ الله في رسله جميعًا، فجميع الرسل متصفون بصفات البشر، والمشركون لم ينكروا وجود الرسل قبل محمد ﷺ، كما قال تعالى على لسانهم: ﴿فَلْيَاُنَا بِبَيِّنَةٍ كَمَا أُرْسِلَ الْأَوَّلُونَ﴾ [الأنبياء: ٥].

وما داموا معترفين فهم بالضرورة من البشر، يأكلون الطعام ويمشون في أسواق المدن والبادية، ويحضرون مجامع الناس ونواذيرهم؛ إذ لا حاجة إلى تغيير نمط حياتهم المادية

قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِّن قَبْلِكَ وَجَعَلْنَا لَهُمْ أَزْوَاجًا وَذُرِّيَّةً﴾ [الرعد: ٣٨].

وقال سبحانه: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلَّا رَجُلًا نُوحِيَ إِلَيْهِم مِّن أَهْلِ الْقُرَىٰ﴾ [يوسف: ١٠٩].

وقال أيضًا: ﴿وَمَا جَعَلْنَاهُمْ جَسَدًا لَا يَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَمَا كَانُوا خَالِدِينَ﴾ [الأنبياء: ٨].

والحكمة تقتضي إعدادهم نفسيًا لتلقي الفيوضات الإلهية، وهذه سُنَّةٌ مستمرة في الرسل جميعًا، فلا وجه للطعن فيها، ولا وجه للاعتراض على سُنَّةٍ من سنن الله تعالى. ولذا قال سبحانه: ﴿وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً﴾ أي أن القصد من هذه الفتنة، وهي اصطفاء الله تعالى بعض خلقه للرسالة، وكون بعض الناس غنيًا وبعضهم فقيرًا، وبعضهم صحيحًا وبعضهم مريضًا، وبعضهم طائعًا وبعضهم عاصيًا، وبعضهم رسولًا وبعضهم مرسل إليهم، فالدنيا دار ابتلاء واختبار، والقصد من هذا هو الابتلاء بالصبر ﴿أَتَصْبِرُونَ﴾ وذلك، ليعترض من لا يدرك حكمة الله تعالى وتدبيره، وليصبر من يثق بحكمة الله في سنته، فالفقير مبتلى بالغني، والمريض مبتلى بالصحيح، والضعيف مبتلى بالقوي، وهكذا، كلُّ يقول: ليتني مثل الآخر، وقد تكون الفتنة عكسية.

جاء في الأثر عن الحسن: لو شاء الله لجعلكم أغنياء كلكم لا فقير فيكم، ولو شاء الله لجعلكم فقراء كلكم لا غني فيكم، ولكن ابتلى بعضكم ببعض^(١).

وقد مرَّ بنا أن النبي ﷺ لو شاء لأجرى الله له جبال مكة ذهبًا، وقد حسده كبار قريش على نعمة النبوة، وهذه فتنة لهم، قال تعالى: ﴿أَمْ يَحْسُدُونَ النَّاسَ عَلَىٰ مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ﴾ [النساء: ٥٤]. وقال سبحانه: ﴿وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ الْفَرِيقَيْنِ عَظِيمٍ﴾ [الزخرف: ٦١].

(١) ابن أبي شيبة (٢٢٦/١٣) مختصرًا.

فهم يقولون: فلان وفلان، هم كبار الناس، فلماذا لا تنزل عليهم الرسالة، ونزلت على هذا اليتيم الضعيف؟ فكان حال الرسول هذا فتنة للمشركين، ﴿وَاللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ﴾ [الأنعام: ١٢٤].

ولما أسلم: عَمَّار، وبلال، وصُهَيْب، وسلمان، وغيرهم من ضعفاء المسلمين، نظر إليهم: أبو جهل، والعاص، والوليد، وغيرهم من كبار الكفار، فقالوا: أنؤمن فنكون مثل هؤلاء؟ لو كان هذا الإيمان خيراً ما سبقونا إليه، فكان هذا فتنة لهم، وسبباً في بقائهم على الكفر؛ لأنهم يأنفون أن يدخلوا في الإسلام، فيكونوا مثل هؤلاء الضعفاء، كما قال تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لِّيَقُولُوا أَهَؤُلَاءِ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنْ بَيْنِنَا﴾ [الأنعام: ٥٣].

وهذه الأنفة، وهذا الكبر يحصل على مرّ الأزمنة، وفي جميع الأمكنة من كبار القوم بالنسبة لضعفائهم، سيما في طرق الهداية والدعوة؛ ليتلي صبرهم وجزعهم، ولو شاء الله لجعل الدنيا في أيدي الرسل فلا يخالفهم أحد، ولكنه سبحانه أراد أن يتلي عباده بالرسول؛ ليظهر إيمانهم بهم من عدمه.

والله - سبحانه - جعل رسالة الرسل اختباراً وابتلاءً مقصوداً؛ لتصبروا.

وجعل الله الأمر بالصبر في الآية في صورة الاستفهام ﴿أَتَصْبِرُونَ﴾ أي: اصبروا، كما قال تعالى في تحريم الخمر: ﴿فَهَلْ أَنْتُمْ مُنْتَهُونَ﴾ [المائدة: ٩١] أي: انتهوا، ثم حثهم على الصبر بالمأمور به في نهاية الآية، فقال: ﴿وَكَانَ رَبُّكَ بَصِيرًا﴾ أي: عالماً بمن يشكر ويصبر فيثيبه، ومن يكفر ويجزع فيعاقبه.

وقيل: إن الآية نزلت في ابتلاء فقراء المسلمين بالمستهزئين من قریش، كانوا يقولون: انظروا إلى هؤلاء الذين تبعوا محمداً ﷺ من موالينا وأراذلنا، فقال الله تعالى للمؤمنين: أتصبرون على هذه الحالة من الفقر والشدة والأذى؟

وفي الصحيحين: عن أبي هريرة ؓ أن النبي ﷺ قال: «إذا نظر أحدكم إلى من فُضِّل عليه في المال والخلق، فليُنظر إلى من هو أسفل منه ممن فُضِّل عليه»^(١).

(١) هذا لفظ البخاري برقم (٦٤٩٠) ومسلم برقم (٢٩٦٣).

وفي رواية له أيضًا: «انظروا إلى من هو أسفل منكم ولا تنظروا إلى من هو فوقكم، فهو أجدر ألا تزدروا نعمة الله عليكم»^(١).

وعن عياض بن حمار رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «يقول الله تعالى: ... إنما بعثتك لأبتيك وأبتي بك...»^(٢).

وكان ﷺ قد خيّر بين أن يكون نبيًا ملكًا، أو عبدًا رسولًا، فاختار أن يكون عبدًا رسولًا.

جَوَابُ الشُّبْهَةِ الرَّابِعَةِ: ﴿لَوْلَا أَنْزَلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ﴾

٢١- ﴿وَقَالَ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْنَا الْمَلَكُ أَوْ نَرَى رَبَّنَا لَقَدْ اسْتَكْبَرُوا فِي أَنْفُسِهِمْ وَعَتَوْا عُتُوًّا كَبِيرًا﴾^(٣)

يجيب القرآن الكريم على الشبهة الرابعة التي قالها المشركون للنبي ﷺ: ﴿لَوْلَا أَنْزَلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونُ مَعَهُ نَذِيرًا﴾ أي: لماذا لم يُنزل الله عليه الملائكة؛ حتى يشهدوا له أنه محق في دعواه، أو يخبرنا ربنا بذلك؟

وقد جاء هذا القول ممن نفى الله عنهم الخوف والرجاء؛ لعدم إيمانهم بالبعث، وهم الكفار، فهم لا يؤمنون بلقاء الله، ولا يخافون عذابه يوم القيامة، وينكرون ما فيه: من البعث والنشور، والحساب والجزاء، يقولون: ﴿لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْنَا الْمَلَكُ﴾ أي: لتشهد بصدق محمد ﷺ، أو ليكونوا رسلًا بدلًا من البشر، أو نرى ربنا ليخبرنا أنك رسول الله، إنهم يطلبون رؤية الله في الدنيا عيانًا، كما اقترح بنو إسرائيل وقالوا لموسى: ﴿أَرِنَا اللَّهَ جَهْرَةً﴾ [النساء: ١٥٣]. وهؤلاء يقولون: لو نرى ربنا ليشهد بصدق محمد ﷺ، وهم يتوهمون أن شبهتهم هذه أقوى حجة لتكذيب الرسل، كما قال تعالى: ﴿وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالَ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا أَتَنْتِ بِقُرْآنٍ غَيْرِ هَذَا أَوْ بَدِّلَهُ﴾ [يونس: ١٥].

فمن أنتم - أيها الضعفاء المساكين - حتى تطلبوا رؤية الله تعالى، وتزعمون أن الرسالة يتوقف ثبوتها على ما تطلبون من اقتراحات؟

(١) وهذا لفظ مسلم برقم (٢٩٦٣) أيضًا.

(٢) من حديث طويل في «صحيح مسلم» برقم (٢٨٦٥).

والجواب: أن هذا طغيان زائد، ومبالغة في الكفر؛ ﴿لَقَدْ اسْتَكْبَرُوا فِي أَنْفُسِهِمْ وَعَتَوْ عُتُوًّا كَبِيرًا﴾ حيث طلبوا نزول الملائكة عليهم، وطلبوا رؤية الله - سبحانه - ، لقد أعجبوا بأنفسهم، فاجترؤوا على هذا القول، وتجاوزوا الحد في طغيانهم وكُفْرهم، فأضمرُوا في أنفسهم الاستكبار عن الحق، وطلبوا مطالب هي أبعد مما بين الأرض والسماء، ومن ذلك قوله تعالى عنهم: ﴿أَو تَأْتِي بِاللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ قِيلًا﴾ [الإسراء: ٩٢].

فقلوب هؤلاء أشد من الحجارة وأصلب من الحديد، لا تلين للحق، ولا تصغي للناصحين، ولذا: لم ينجع فيهم وعظ ولا تذكير:

يقول - جلَّ شأنه - في الرد عليهم: ﴿وَلَوْ أَنَّا زَلَلْنَا إِلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةَ وَكَلَّمَهُمُ الْمَوْتُ وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَيْءٍ قُبُلًا مَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ وَلَكِنْ أَكْثَرُهُمْ يَجْهَلُونَ﴾ [الأنعام].

نُزُولُ الْمَلَائِكَةِ لِبُشْرَى الْمُؤْمِنِينَ وَعَذَابِ الْكَافِرِينَ

٢٢- ﴿يَوْمَ يَرَوْنَ الْمَلَائِكَةَ لَا بُشْرَى يَوْمَئِذٍ لِلْمُجْرِمِينَ يَقُولُونَ حِجْرًا مَحْجُورًا﴾

يُن - سبحانه - في هذه الآية أن المشركين لا يرون الملائكة إلا في يوم عاصيب، حين ينزل بهم العذاب الذي لا نجاة لهم منه، فيخبر - جلَّ شأنه - أن الملائكة ستنزل على الكفار، لا لتشهد بصدق الرسول ﷺ، ولا لتبشرهم بالجنة، وإنما تنزل لعذابهم، فيوم القيامة يرون الملائكة - كما طلبوا - ، ويتحقق اقتراحهم الذي اقترحوه في الدنيا، ولكنها تنزل عليهم لتقول لهم: إن الجنة حرام عليكم، إنهم سيرون الملائكة، ولكنها رؤية تَسْوُؤُهُمْ، حين يرون زبانية العذاب يسوقونهم إلى النار، ويرونهم قبل ذلك حين تقبض أرواحهم وقت الاحتضار، وتبشرهم بالخيبة والخسران، وتبشرهم بالنار، فتقول للكافر حين خروج روحه: «اخرجي أيتها النفس الخبيثة كانت في الجسد الخبيث، اخرجي ذميمة وأبشري بحميم وغساق، وآخر من شكله أزواج، فيستفتح لها فيقال: من هذا؟ فيقال: فلان فيقال: لامر حبًا بالنفس الخبيثة كانت في الجسد الخبيث، ارجعي ذميمة، فإنه لا يفتح لك أبواب السماء، ثم تصير إلى القبر...»^(١).

(١) يُنظَرُ في هذا: حديث أبي هريرة في «المسند» برقم (٨٧٦٩) بإسناد صحيح على شرط الشيخين (محققوه) والنسائي في الكبرى (١١٤٤٢) وابن ماجه (٤٢٦٢، ٤٢٦٨) وابن حبان (٣٠١٤).

إنها بشرى بأحوال شنيعة، كما تجاوزوا الحد والطغيان، وطلبوا ما ليس من حقهم، ولم تبق لهم بارقة أمل في زحزحة ما نزل بهم حالاً أو مآلاً.

إن الملائكة تنزل لا لتبشر المجرمين، ولكن لتبشر المتقين بالجنة عند خروج الروح، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَمُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ﴾ [فصلت: ٣٠].

هذا هو نزول الملائكة بالنسبة للمؤمنين عند قبض أرواحهم.

أما نزول الملائكة للكفار فإنه يكون لإذاقتهم العذاب في حالات خمس:

١- يكون عند قبض أرواحهم؛ لضرب الوجوه والأدبار منهم، كما قال سبحانه: ﴿كَفَيْكَ إِذَا نَفَتْهُمْ الْمَلَائِكَةُ بَصَرِيَّتُ وَجُوهَهُمْ وَأَدْبَارَهُمْ﴾ [محمد].

٢- ويكون لبسط أيديهم لهم بالعذاب وهم في سكرات الموت، كما قال تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَىٰ إِذِ الظَّالِمُونَ فِي غَمَرَاتِ الْمَوْتِ وَالْمَلَائِكَةُ بَاسِطُوا أَيْدِيَهُمْ﴾ -أي: بالعذاب- يقولون لهم: ﴿أَخْرِجُوا أَنْفُسَكُمْ﴾ مما أنتم فيه ﴿الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ بِمَا كُنْتُمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ وَكُنْتُمْ عَنْ آيَاتِهِ تَسْتَكْبِرُونَ﴾ [الأنعام: ٩٣].

٣- وتأتيهم الملائكة مرة أخرى في القبر؛ لتسألهم عن ربهم ونبئهم ودينهم، كما صح بذلك الخبر^(١).

٤- وتأتيهم الملائكة يوم القيامة؛ لتسوقهم إلى أرض المحشر، كما قال تعالى: ﴿يَوْمَ نَحْشُرُ الْمُتَّقِينَ إِلَى الرَّحْمَنِ وَفْدًا﴾ ﴿٨٥﴾ ﴿وَنَسُوقُ الْمُجْرِمِينَ﴾ أي: تسوقهم الملائكة إلى جهنم، كما تساق الإبل العطشى إلى موارد الماء ﴿إِلَىٰ جَهَنَّمَ وَرِثًا﴾ [مريم: ٨٥، ٨٦].

٥- وتتولى الملائكة عذابهم في جهنم والعياذ بالله، كما قال تعالى: ﴿وَمَا جَعَلْنَا أَصْحَابَ النَّارِ إِلَّا مَلَائِكَةً﴾ [المدثر: ٣١]. وقال سبحانه: ﴿عَلَيْهَا مَلَائِكَةٌ غُلَاطٌ شِدَادٌ لَا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ [التحریم: ٦].

(١) من حديث البراء بن عازب في «صحيح مسلم» (٢٨٧١) والبخاري (١٣٦٩، ٤٦٩٩) وحديث أنس في «صحيح مسلم» (٢٨٧٠) و«صحيح البخاري» (١٣٣٨، ١٤٧٤)، وحديث أبي هريرة في صحيح ابن ماجه (٣٤٤٤، ٣٤٤٣)

وهذا بخلاف حال المؤمن فإنه يُبشر بالجنة، والخيرات، والمسرات:

عن أبي هريرة رضي الله عنه أن الملائكة تقول لروح المؤمن: «اخرجني أيتها النفس الطيبة كانت في الجسد الطيب، اخرجني حميدة، وأبشري بروحٍ وريحان، ورب غير غضبان»^(١).

أما الكفار فإن الملائكة لا تبشرهم بالجنة، ولكن تقول لهم: لقد جعل الله الجنة مكاناً محرماً عليكم، وهذا معنى ﴿حِجْرًا مَّحْجُورًا﴾ أي: حراماً محرماً عليكم أن نبشركم بما نبشر به المتقين.

ولكن من القائل لهذه الجملة؟ هل هم الكفار، أم الملائكة؟

اختار الإمامان ابن جرير وابن كثير، وغيرهما: أنها من كلام الملائكة، كما قال ابن عباس رضي الله عنه: تقول الملائكة للكفار: حراماً محرماً عليكم أن تكون لكم البشري، أو مغفرة الذنوب، أو دخول الجنة، قلت: ولعله الأرجح.

واختار الشيخ الشنقيطي في «أضواء البيان» وغيره، أن هذا من قول الكفار؛ حيث يقولون للملائكة: حراماً محرماً عليكم أن تمسونا بسوء؛ لأننا لم نرتكب ما يستوجب ذلك، كما قال تعالى: ﴿الَّذِينَ تَوَفَّيْنَاهُمُ الْمَلَائِكَةُ ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ فَأَلْقَوْا السَّلَامَ مَا كُنَّا نَعْمَلُ مِنْ سُوءٍ﴾ فقولهم: ﴿مَا كُنَّا نَعْمَلُ مِنْ سُوءٍ﴾ أي: إننا لم نفعل ذنباً نعذب عليه، فتعذينا حرام محرّم عليكم، فردّ الله عليهم وكذبهم في دعواهم بقوله: ﴿بَلَىٰ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ لَا تَدْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا﴾ [النحل: ٢٨، ٢٩].

وكانت العرب إذا نزل بهم شدة أو شيء يكرهونه يقولون: ﴿حِجْرًا مَّحْجُورًا﴾.

والكفار يقولون ذلك أيضاً إذا رأوا الملائكة، وكان الرجل إذا لقي من يخافه في الشهر الحرام يقول له: حجراً، أي: حرام عليك أن تؤذيني.

وهكذا يظن المشركون أن هذا القول ينفعهم في الآخرة، كما كان ينفعهم في الدنيا.

(١) «المسند» (٨٧٦٩) وهو حديث صحيح على شرط الشيخين (محققه)، وابن ماجه (٤٢٦٢) وصحيح ابن ماجه (٣٤٣٧) وهذا لفظه و«سنن النسائي الكبرى» (١١٣٧٨).

الْعَمَلُ الصَّالِحُ مِنَ الْكَافِرِ مَرْدُودٌ عَلَيْهِ

٢٣- ﴿وَقَدِمْنَا إِلَىٰ مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَنْثُورًا﴾

قد يظن غير المسلمين أن العمل الصالح يجلب لهم الخير في الدنيا، فيزيدهم الله من نعمه، وهم في الوقت ذاته لا يؤمنون بالله ورسوله، ولا يصدقون بالبعث والنشور، ويقولون: إن كان البعث حقًا فستكون أعمالنا من البر، وصنوف الخير - كإطعام المساكين، وصلة الرحم، وإكرام الضيف، ومساعدة الضعفاء - سببًا لنجاتنا.

فأخبر الله - سبحانه - بأن هذه الأعمال كالعدم؛ لأن القلب غير موصول بالله تعالى، والعمل غير قائم على الإيمان، فهو عمل باطل لا ينفع، كالهباء المنثور، وهو الغبار الخفيف الذي يرى في شعاع الشمس؛ إذ لا ينفع من الأعمال في الآخرة إلا ما توافر في صاحبه:

١- إخلاص الإيمان بالله تعالى، وعدم الشرك به.

٢- الموافقة لهدي رسول الله ﷺ وعدم الابتداع في الدين.

فالأعمال التي عملها غير المسلمين في الدنيا من أعمال البر والخير لا قيمة لها، ولا وزن لها؛ لأن شرط الإيمان مع الإخلاص فيه لله - سبحانه -، وشرط المتابعة لرسول الله ﷺ غير متحقق، ولذلك كان عملهم هباء منثورًا، والهباء لا يرى في الظلام، ولا تمسه الأيدي، ولا يقبض باليد لخفته، ولا يوزن ولا يُكال.

وعمل الكافر هكذا لا قيمة له، ولا وزن له، فقد خسروه وحُرموا أجره.

وهذا كقوله تعالى: ﴿مَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ أَعْمَالُهُمْ كَرَمَادٍ اشْتَدَّتْ بِهِ الرِّيحُ فِي يَوْمٍ عَاصِفٍ﴾ [إبراهيم: ١٨].

وقوله جلَّ شأنه: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ مَاءً حَتَّىٰ إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا﴾ [النور: ٣٩].

وقوله - سبحانه - عن المنان المؤذي المرائي بصدقته: ﴿فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ صَفْوَانٍ عَلَيْهِ تُرَابٌ فَأَصَابُهُ وَابِلٌ فَتَرَكَهُ صَلْدًا﴾ [البقرة: ٢٦٤].

نَعِيمُ أَهْلِ الْجَنَّةِ

٢٤- ﴿أَصْحَابُ الْجَنَّةِ يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُّسْتَقَرًّا وَأَحْسَنُ مَقِيلًا ۝٢٤﴾

يلتفت السياق إلى الجانب الآخر المقابل لأهل النار؛ ليتم التقابل بين أهل الشقاء، وأهل النعيم، وبضدها تميز الأشياء، فالمؤمنون في السعادة والنعيم المقيم، وهم في الجنة مستقرون مستريحون، ناعمون في الظلال الوارفة، والقصور العالية، راحتهم تامة، ونعيمهم لا يشوبه كدر.

والكفار في دركات الجحيم، والمستقر: هو مكان الإقامة الدائم. والمقبل: هو المكان الذي يأوي إليه الإنسان للاستراحة من الحر في وقت القيلولة.

أي: إن أهل الجنة الذين عملوا لها في الدنيا يكونون يوم القيامة خيرًا من غير المسلمين مكانًا واستقرارًا، ومنزلة ينزلون فيها، ويكونون أحسن منهم في وقت القيلولة، فهم في مقام أمين، حسن المنظر، طيب المقام، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي مَقَامٍ أَمِينٍ ۝٥١﴾ في جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ [الدخان]. وهم في الغرفات ودرجات الجنات آمنون، كما بين ﴿أَن مِّنْ أَمْنٍ وَعَمَلٍ صَالِحًا فِي غُرَفَاتِ الْجَنَّةِ آمَنُونَ ۝٣٧﴾ فَأُولَٰئِكَ لَهُمْ جَزَاءُ الْوَعْدِ بِمَا عَمِلُوا وَهُمْ فِي الْغُرَفَاتِ آمِنُونَ [سبأ: ٣٧].

فأهل الجنة يقول الله تعالى عنهم: ﴿خَالِدِينَ فِيهَا حَسُنَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا ۝٧١﴾.

وفي مقابلهم يقول تعالى عن أهل النار: ﴿إِنَّهَا سَاءَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا ۝١١﴾.

يقول عبد الله بن مسعود رضي الله عنه: إن الله تعالى يحاسب الخلق في مقدار نصف يوم، فلا يتصف النهار يوم القيامة حتى يقلل أهل الجنة في الجنة، وأهل النار في النار^(١).

وقد استنبط بعض العلماء من هذه الآية أن حساب أهل الجنة يسير، وأنه ينتهي في وقت قصير، لا يتجاوز نصف النهار؛ لأن وقت القيلولة الذي يستريح فيه أهل الإيمان يكون في نصف النهار.

قال تعالى: ﴿فَأَمَّا مَنْ أَوْفَىٰ كَتَبَهُ بِيَمِينِهِ ۝٧﴾ فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا ۝٨ وَيَنْقَلِبُ إِلَىٰ أَهْلِهِ

(١) «تفسير الطبري» (١٧/٤٣٤) وابن أبي حاتم (٨/٢٦٨٠) والحاكم (٢/٤٠٢).

مَسْرُورًا ﴿٩﴾ [الانشقاق].

قال ابن عباس : الحساب اليسير : أن يُعْرَضُوا على ربهم عَرَضَةً واحدة .

وقال سعيد الصواف : بلغني أن يوم القيامة يقصّر على المؤمن ، حتى يكون كما بين العصر إلى غروب الشمس ، وإنهم لَيَقِيلُونَ في رياض الجنة ، حتى يفرغ الناس من الحساب ^(١) .

وأخرج ابن أبي حاتم ، عن عكرمة أنه قال : إني لأعرف الساعة التي يدخل فيها أهل الجنة الجنة ، وأهل النار النار ، هي الساعة التي يكون فيها ارتفاع الضحى الأكبر ، إذا انقلب الناس إلى أهلهم للقلولة ، فينصرف أهل النار إلى النار ، ويقبل أهل الجنة في الجنة ، وَيُطْعَمُونَ كبد الحوت فيشبعهم ^(٢) .

وإن هذا اليوم ليخفّ على المؤمن حتى يكون أخف عليه من صلاة مكتوبة يصليها في الدنيا ، ويثقل على الكافر حتى يكون كألف سنة مما تعدون .

مِنْ مَشَاهِدِ الْقِيَامَةِ

٢٥- ﴿وَيَوْمَ تَشَقَّقُ السَّمَاءُ بِالْغَمِّمْ وَنُزِّلُ الْمَلَائِكَةُ تَنْزِيلًا﴾ ﴿١٥﴾

أي : إن يوم القيامة يوم تُفتَح فيه الحدود ، وتزول فيه الحواجز التي كانت تمنع الملائكة من مبارحة سمواتهم ، إلا لمن يؤذن له بذلك ، كما قال تعالى : ﴿وَفُتِحَتِ السَّمَاءُ فَكَانَتْ أَبْوَابًا﴾ ﴿١٦﴾ [النبأ] .

فتشقق السموات وتفتق ، ويكون هذا بمثابة الإذن للملائكة بالحضور إلى موقع الحشر والحساب .

وآيات القرآن الكريم تشير إلى أن نهاية هذا العالم ستكون مُرَوِّعَةً ، تنبئ عن أحداث فلكية ضخمة ، فالأرض ترجف وتُدك ، والجبال تُنسف وتُسَيَّر ، والبحار تُفَجَّر وتُسَجَّر ،

(١) «تفسير الطبري» (١٧/٤٣٥) .

(٢) ابن أبي حاتم (٨/٢٦٨١) .

(٣) قرأ أبو عمرو وعاصم وحزمة والكسائي وخلف بتخفيف الشين من (تشقق) مضارع أصله تشقق ، والباقون بتشديدها على الإدغام .

(٤) قرأ ابن كثير بنون مضمومة بعدها نون ساكنة مع تخفيف الزاي من (ونزل) مضارع أنزل ، والملائكة مفعول به ، والباقون بنون واحدة مضمومة وزاي مشددة ، والملائكة نائب فاعل .

فتصبح نارًا، والنجوم تُطمس وتتكدر، والكواكب تتناثر وتتحطم، والسماء تُشقق وتنفطر، وتختل المسافات، فيُجمع الشمس والقمر، وتبدو السماء مرة كالدخان، ومرة حمراء ملتهبة، وفي هذه الآية يخوف الله تعالى الخلائق بثلاثة أمور:

الأول: تشقق السماء يوم القيامة، فتصدع وتنفطر، وتكون طرقات وأبوابا، كما قال تعالى: ﴿فَإِذَا انشَقَّتِ السَّمَاءُ فَكَانَتْ وَرْدَةً كَالدِّهَانِ﴾ (١٧) [الرحمن].

وقال: ﴿وَأَنشَقَّتِ السَّمَاءُ فِي يَوْمٍ ذِي وَهْيَةٍ﴾ (١٦) [الحاقة].

وقال: ﴿إِذَا السَّمَاءُ انشَقَّتْ﴾ (١١) [الانشقاق].

وانشقاق السماء يكون بسبب نزول الغمام، وانبثاقها عنه في ساحة العرض والحساب.

الثاني: يخلق الله غمامًا فيه قوة، تشق به السماء لنزول الملائكة، كقوة البرق الذي يشق السحاب، وهذا الغمام: سحاب رقيق، يغطي مكان الحساب في أرض المحشر، فيستره الله ويغطيه، وهو سحاب يعمُّ الجوَّ ويظلمه، وتُغمُّ القلوب من رؤيته وشدة ظلمته، بما يشبه الضباب الكثيف، وهو الذي أظل الله به بني إسرائيل في التيه.

الثالث: نزول الملائكة من السموات، وفي أيديهم صُحف أعمال العباد، فتحيط بالخلائق صفوفًا في أرض المحشر، فتشق السماء الدنيا، ويخرج أهلها وهم أكثر ممن في الأرض من الإنس والجن، قال تعالى: ﴿هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ يَأْتِيَهُمُ اللَّهُ فِي ظُلَلٍ مِّنَ الْغَمَامِ وَالْمَلَائِكَةُ وَقُضِيَ الْأَمْرُ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ﴾ (٣٠) [البقرة].

وهكذا في هذه الآية يبيِّن - جلَّ شأنه - ما يحدث يوم القيامة من الانقلاب الهائل الذي تشقق فيه السماء، وتتناثر فيه النجوم، وتُسَيَّر فيه الجبال، وتُسَجَّر فيه البحار، وتُبْعَث في القبور، فيظهر من فتحاتها سحاب أبيض دقيق، كالضباب المظلم الذي نزل على بني إسرائيل، يظللهم من وهج الشمس، وهذا الغمام تتفتح بسببه السماء يوم القيامة، فينزل معه ملائكة الرحمن، ومعهم صُحف أعمال العباد بأيديهم، فيحيطون بالخلق جميعًا في أرض المحشر، ويكونون صفًا واحدًا محيطًا بالخلائق، أو أن أهل كل سماء يكونون في صف واحد محيط بالخلائق، كما قال تعالى: ﴿وَجَاءَ رَبُّكَ وَالْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا﴾ (٢٢) [الفجر].

ولمجيء الله - سبحانه - يوم القيامة للفصل بين العباد، تشقق السماء الدنيا فينزل

أهلها، ثم أهل السماء الثانية، وهم أكثر من أهل السماء التي دونها وهكذا، حتى ينزل حملة العرش والكرسي، كما ورد بذلك الخبر عن ابن عباس رضي الله عنه.

مَالِكُ الْمَلِكِ فِي الْأُولَى وَالْآخِرَةِ

٢٦- ﴿الْمَلِكُ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ لِلرَّحْمَنِ وَكَانَ يَوْمًا عَلَى الْكَافِرِينَ عَسِيرًا﴾

وفي هذا اليوم الذي تنزل فيه الملائكة، وتحيط بالخلائق في أرض المحشر، فإن الملك - الحقيقي الثابت الذي لا يحول ولا يزول - لله سبحانه .
والمُلك الذي يكون في الدنيا لزيد أو لعمرو، أو يكون لملك أو لرئيس أو أمير أو حاكم، هو مُلك مؤقت، كالكرسي المؤقت، وهو ليس بملك على الحقيقة؛ لأن ماله لا يملك موتًا ولا حياة ولا رزقًا، ولا إخراج النبات من الأرض، ولا إنزال الماء من السحاب ...، ومن لا يملك تدبير الأمور في مُلكه فليس بملك على الحقيقة.

أما الملك الدائم الذي لا يشارك فيه أحد، فهو لله - سبحانه - في الدنيا والآخرة، وخصَّ الآخرة بالذكر، مع أنه - جلَّ شأنه - مالك لهذا الكون بما فيه ومن فيه، في الدنيا والآخرة؛ لأن في ذلك ردًا على الكافرين الذين زعموا أن أصنامهم ستشفع لهم يوم القيامة، وليبان أن الملك الحقيقي يكون لله الواحد القهار الذي تخضع له الملوك، وتعنو له الوجوه.

وقد نُسب المُلك للرحمن الذي سبق غضبه رحمته، والذي وسعت رحمته كل شيء، ولم ينسبه للجبار، وكلاهما من أسماء الله جلَّ شأنه

ويوم القيامة يوم عسير، على الكافرين غير يسير، قال تعالى: ﴿فَإِذَا نُفِرَ فِي النَّافِرِ ۝ فَذَلِكَ يَوْمَئِذٍ يَوْمٌ عَسِيرٌ ۝ عَلَى الْكَافِرِينَ غَيْرُ يَسِيرٍ ۝﴾ [المدرثر]. وقد ورد أن هذا اليوم على المؤمن أخف من صلاة مكتوبة، كما بين صلاتي العصر والمغرب.

وفي الآية الأخرى قال تعالى: ﴿لِمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ﴾ [غافر: ١٦].

وفي الحديث: عن عبد الله بن عمر رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «يطوي الله ﷻ يوم القيامة السموات بيمينه، ثم يأخذهن بيده اليمنى، ثم يقول: أنا الملك، أين الجبارون؟

أين المتكبرون؟»^(١).

النَّهْيُ عَنْ جَلِيسِ السُّوءِ

٢٧، ٢٨ - ﴿وَيَوْمَ يَعْصُ الظَّالِمُ عَلَى يَدَيْهِ يَقُولُ يَلْتَمِسْنِي^(٢) أَخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَيْلًا ﴿٢٧﴾ يَوَيْلَ لِيَتَنَّى لَمْ أَخَذْ فَلَانًا خَلِيلًا ﴿٢٨﴾﴾

بَيَّنَّ ﷺ في هذه الآية ما سيكون عليه الكافر يوم القيامة من حَسْرَةٍ وندامة، وهو مشاهد من مشاهد القيامة، يبين الله تعالى فيه أثر الجلوس الصالح، والجلوس السوء في الدنيا، وذلك أن عقبة بن أبي معيط صنع وليمة، ودعا لها كبار قريش، ودعا النبي ﷺ، فأبى - عليه الصلاة والسلام - أن يأكل من طعامه حتى يُسَلِّمَ، فأسلم الرجل، ونطق بالشهادتين، فبلغ ذلك صديقه وخليله أبي بن خلف، فقال له: أصبأت عن دين قومك؟ قال: لا، ولكنني استحييت؛ فقد أبى الرجل أن يأكل من طعامي حتى أنطق بالشهادتين فنطقت بهما، قال أبي لعقبة: ما أنا بالذي يرضى عنك أبداً إلا أن تأتيه، فتبصق في وجهه، فكان من عقبة أن رجع إلى الكفر، وأذى النبي ﷺ وهو ساجد، وارتد عن الإسلام، فقال ﷺ لعقبة بن أبي معيط: «لا أراك خارجاً من مكة إلا علوث رأسك بالسيف»، فقتل عقبة يوم بدر صبراً، وأما أبي بن خلف فقتله النبي ﷺ بيده يوم أحد.

وفي بعض الروايات أنه لما أسلم عقبة قال له: وجهي من وجهك حرام إن تابعت محمداً، فكفر عقبة وارتد^(٣)، وحدث مثل ذلك مع أمية بن خلف.

والحكم في الآية عام يشمل كل صديق أضلَّ صديقه، وكان سبباً في صدّه عن متابعة الإسلام، كما يشمل كل من تأثر بغيره، فكم من صديق يكون سبباً في ضلال صديقه، وكم من صديق يأخذ بيد صديقه إلى النار، وهذا حال الجلوس السوء، وهو يشبه نافخ الكير إما أن يحرقك، وإما أن تشم منه رائحة متنتة.

(١) من حديث عبد الله بن عمر في «صحيح مسلم» برقم (٢٧٨٨) وهذا لفظه وهو في البخاري برقم (٤٨١٢، ٦٥١٩، ٧٣٨٢).

(٢) قرأ أبو عمرو بفتح ياء الإضافة من (يا ليتني اتخذت)، والباقون بإسكانها.

(٣) وردت هذه القصة ونحوها من عدة طرق، يُنظر: «تفسير الطبري» (٨/١٩) و«الدر المنثور» (٦٩/٥) وأبو نعيم (٤٠١) وابن أبي حاتم (٢٦٨٣/٨) وغيرهم.

وفي سورة (الصافات) [٥١-٥٧] يُقسم صديق يوم القيامة أن صديقه في الدنيا كاد أن يضلّه ويغويه، ويأخذ بيده إلى النار: ﴿قَالَ قَائِلٌ مِّنْهُمْ﴾ -أي: من أهل الجنة- ﴿إِنِّي كَانَ لِي صَدِيقٌ﴾ -أي: صديق في الدنيا- ﴿يَقُولُ أَأَنْتَ لِمَنِ الْمَصْدِقُ﴾ ﴿٥١﴾ إنه يدعو إلى الكفر ويقول له: إنك لمن المصدقين بالبعث والحساب والجنة والنار؟ ﴿أَوَدَا مِنَّا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظْمًا أَهْنًا لَمَدِينُونَ﴾ ﴿٥٢﴾ ومجزئون بأعمالنا ﴿قَالَ﴾: لمن معه من أهل الجنة بعد دخولها: ﴿هَلْ أَنْتُمْ مُّطْلِعُونَ﴾ معي؟ تعالوا ننظر إليه ﴿فَاطْلَعُوا﴾، واطلعوا معه ﴿فَرَأَاهُ﴾ ورأوه ﴿فِي سَوَاءٍ الْجَحِيمِ﴾ أي: في وسط جهنم ﴿قَالَ﴾ له: ﴿تَاللَّهِ إِنْ كِدْتَ لَتُرْدِينَ﴾ أي: لقد قاربت أن تهلكني معك يا غواثك وإضلالك ﴿وَلَوْلَا نِعْمَةُ رَبِّي لَكُنْتُ مِنَ الْمُخْضَرِّينَ﴾ ﴿٥٧﴾ معك الآن في النار.

فلا ينبغي للمرء أن يتخذ له خليلاً، إلا ممن يأمن السلامة من جانبه، وعدم الوقوع فيما يحمله على سوء الأفعال والأقوال، كما قال تعالى: ﴿يَتَأَيَّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَتَّخِذُوا بِطَانَةً مِّن دُونِكُمْ لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالًا﴾ [آل عمران: ١١٨].

ولما كان مقام النبوة يستدعي من الأخلاق ما هو فوق مكارم الأخلاق، قالت عائشة رضي الله عنها عن النبي ﷺ: كان خلقه القرآن.

ولما كان أفضل الأمة بعد الأنبياء والمرسلين هو أبو بكر رضي الله عنه، فإن النبي ﷺ قال فيما يرويه عبد الله بن مسعود رضي الله عنه: «ولو كنت متخذاً من الناس خليلاً لاتخذت أبا بكر خليلاً»^(١).

وندّم الظالم الذي فارق طريق الحق بسبب المجلس السوء، وعضّه على يديه حسرة وأسفاً يوم القيامة، يكون ذلك في وقت لا ينفع فيه الندم، وهو يقول: يا ليتني لم أتخذ الكافر صديقاً أتبعه، وأقتدي به.

وكل خارج عن طاعة الله يندم غاية الندم يوم القيامة، ويعضّ على يديه، سواء في ذلك أبي بن خلف، أو أخوه أمية بن خلف، أو عقبة بن أبي معيط، أو غيرهم، فالكلام عام، كما قال تعالى: ﴿يَوْمَ ثَقُلَتْ وُجُوهُهُمْ فِي النَّارِ يَقُولُونَ يَلَيْتَنَّا أَطَعْنَا اللَّهَ وَأَطَعْنَا الرَّسُولَ﴾ ﴿٦٦﴾ وَقَالُوا رَبَّنَا إِنَّا أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكِبَرَاءَنَا فَأَضَلُّنَا السَّبِيلَ﴾ ﴿٦٧﴾ رَبَّنَا ءَاتِهِمْ ضِعْفَيْنِ مِنَ الْعَذَابِ وَالْعَنَتْهُمْ لَعْنًا

(١) من حديث ابن مسعود في «المسند» (٢٤٣٢، ٣٥٨٠، ٣٩٠٩، ٤١٢١) بإسناد صحيح، رجاله ثقات رجال الصحيح، وأخرجه البخاري (٤٦٧) وأبو يعلى (٢٥٨٤) وابن حبان (٦٨٦٠) والطبراني (١١٩٣٨) وابن أبي عاصم في السنة (١٤٦٣).

كَبِيرًا ﴿٢٨﴾ [الأحزاب].

فاذكر -يا محمد- يوم يعرضُ الظالم على يديه ندامة وتحسراً وحُزناً وأسفاً قائلاً: يا ليتني صاحبُ رسول الله محمداً ﷺ، واتبعتُه في اتخاذ الإسلام طريقاً إلى الجنة. وهكذا يندم الظالم الذي أشرك بالله، أو فرط في جنب الله، ويعرضُ كلنا يديه ندماً وحسرة، يقول: يا ليتني، سلكت طريق الهداية التي جاء بها محمد ﷺ.

ثم: إن الظالم يدعو على نفسه بالويل والهلاك، ويقول: يا ليتني، لم أصاحب فلاناً، ولم أسلك طريق الضلال معه. وسواء أكان سبب نزول الآية هو قصة إسلام عقبة بن أبي معيط ثم رده أم غير ذلك، فإن المعنى عام يشمل كل صديق سيئ، وقرين ظالم.

ثم ذكر الصديق سبب هذا الندم وهذه الحسرة فقال:

٢٩- ﴿لَقَدْ أَضَلَّنِي عَنِ الذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَاءَنِي وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِلْإِنْسَانِ خَذُولًا﴾ ﴿٢٩﴾

لقد أضلني هذا الصديق عن الهداية والإيمان، والتوحيد والقرآن بعد أن هداني الله إلى طريق الرسل والكتب، والدعاة إلى الله الذين بلغوني إياه.

وكان الشيطان صارفاً للإنسان عن الحق، مُحَرِّضاً له على الباطل، فإذا احتاج إليه الإنسان لنصره ودفع العذاب عنه خذله وتركه، وفرَّ عنه يوم القيامة، فهو عدو مضل له، يورطه في الدنيا، ولا ينصره يوم لقاء رب العالمين، حين يقول الشيطان وهو يخطب في الناس: ﴿إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ وَوَعَدْتُكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ وَمَا كَانَ لِي عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ إِلَّا أَنْ دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي فَلَا تَلُمُونِي وَلُومُوا أَنْفُسَكُمْ﴾ [إبراهيم: ٢٢].

وهكذا شأن من يتبعون الشيطان، وشأن أصدقاء السوء، قال تعالى: ﴿الْأَخِلَاءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا الْمُتَّقِينَ﴾ ﴿٢٧﴾ [الزخرف].

وقد أرشد الإسلام المسلمين إلى اتخاذ الصديق الصالح، ونهاهم عن اتخاذ صديق السوء.

عن أبي موسى الأشعري ؓ أن رسول الله ﷺ قال: «مثل المجلس الصالح وجليس السوء، كحامل المسك ونافع الكير، فحامل المسك إما أن يحذيك، وإما أن تبتاع منه، وإما أن تجد منه ريحاً طيبة، ونافع الكير إما أن يحرق ثيابك، وإما أن تجد منه ريحاً

خبیثة»^(١). فلینظر العبد من یجالس؟ ولیتدارك نفسه فی وقت المهلة، ولیصادق الصالحین، ویترك من تضره صداقتهم.

هَجْرُ الْقُرْآنِ

٣٠- ﴿وَقَالَ الرَّسُولُ يَرْبِّ إِنَّ قَوْمِي اتَّخَذُوا هَذَا الْقُرْآنَ مَهْجُورًا﴾ ﴿٣٠﴾

أي: ومن ضلال بعض الناس نبذ القرآن حفظًا وتلاوة، وعلمًا وعملاً، وتدبرًا واتعاظًا، وهداية واستشفاءً، ومن ثم يشتكي النبي ﷺ إلى ربه هجر قومه للقرآن بإعراضهم عنه، وعدم سماعهم له.

والكفار لا يصفون للقرآن، ويكثر من اللغو فيه، كما قال تعالى عنهم: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَسْمَعُوا لِهَذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَعْلَمُونَ﴾ ﴿٢٦﴾ [فصلت: ٢٦].

والمقصود من الآية: التحريض على تلاوة القرآن، والاستماع إليه، وتدبره، والعمل بما فيه، والتحذير من هجره كما فعل هؤلاء الذين تمادوا في الإعراض عنه، هجروا قراءته، أو هجروا سماعه، أو هجروا تدبره، أو هجروا العمل بما فيه، أو هجروا حلاله وحرامه، أو هجروا تحكيمه والتحاكم إليه، أو هجروا التداوي والاستشفاء به، وبعض الهجر أهون من بعض، وفي هذا تخويف عظيم لمن هجر القرآن ولم يعمل به.

وفي الآية التالية تسلية للنبي ﷺ ببيان أن المكذبين للنبي ﷺ لهم نظائر في الأمم السابقة، فقال تعالى:

٣١- ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا مِنَ الْمُجْرِمِينَ وَكَفَى بِرَبِّكَ هَادِيًا وَنَصِيرًا﴾ ﴿٣١﴾

أي: وكما حصل لك -أيها الرسول- من الذين هجروا القرآن، فعادوك وأذوك، حصل مثل ذلك في الأمم الماضية، وهكذا بين - سبحانه - في هذه الآية أن ما لقيه الرسول ﷺ من أذى قومه له إنما هو سنة في الأمم مع أنبيائهم؛ حيث يقول - سبحانه - مسليًا رسوله ﷺ ومبنيًا له: إنه كما جعلنا لكل نبي سبقك عدوًا من المجرمين، جعلنا لك أعداء من قومك، وحالك معهم كحال من كذبوا قوم: نوح، وعاد، وثمود.

(١) «صحيح مسلم» برقم (٢٦٢٨) و«صحيح البخاري» برقم (٥٥٣٤) وانظر: (٢١٠١).

وأعداء الأنبياء من جملة المجرمين، فاصبر كما صبر من سبقك من الرسل؛ فإن الله هاديك، وناصرك عليهم

وفي هذا بيان أن الله تعالى كافٍ في هداية قومه الذين أعرضوا عنه، وأصرُّوا على عداوته، ولو شاء الله لهداهم أجمعين، وهو - سبحانه - كافٍ في نصر من يريد أن ينصره على عدوه، ولو شاء - سبحانه - لاستأصلهم وأهلكهم أجمعين، ولكن كما قال ﷺ في حديث عائشة ؓ: «بل أرجو أن الله يُخْرِجَ مِنْ أَصْلَابِهِمْ مَنْ يَعْبُدُ اللَّهَ»^(١).

ولله الحكمة البالغة في تصدِّي المجرمين لعداوة الأنبياء والدعاة إلى الله تعالى؛ كي يقوى عُود الدعوة ويستدَّ، وتتميز الدعوات الحقَّة من الدعاوى الكاذبة، فتنتشر الدعوة الحقَّة وتعمُّ، وتمضي في اجتياز امتحانها وبلائها، وهي تشق طريقها بين الأشواك والصخور في خطوات ثابتة وثيدة.

من أجل هذا جعل الله لكل نبي عدوًّا من المجرمين يقفون في وجه الدعوة، ويكافحهم الدعاة، مستميتين في نُصرتها، حتى تنتهي المسيرة بالهداية الحقَّة، ونصر الله لهم، وهذا كقوله تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيْطَانِ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُورًا﴾ [الأنعام: ١١٢].

وفي هذا بيان أن الحق يعلو على الباطل، وأن الحق يتبين ويتضح كاملاً بمعارضة الباطل له، فلا تحزن - أيها الرسول - ولا تذهب نفسك عليهم حسرات، فكفى بربك هادياً ونصيراً.

طَلَبُهُمْ نَزُولَ الْقُرْآنِ جُمْلَةً وَاحِدَةً وَالرَّدُّ عَلَيْهَا

٣٢- ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً كَذَلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلًا﴾

أي: ومن جملة مقترحات المكذبين بالرسالة أنهم يطلبون نزول القرآن على صاحب الرسالة جملة واحدة، فرد الله عليهم بأن القرآن نزل هكذا مفرقا لتثبيت قلب النبي ﷺ وليكون أعون على فهمه مع أسباب النزول، وعلى حفظه وترتيبه شيئاً فشيئاً.

(١) يُنظر: صحيح البخاري برقم (٣٢٣١) عن عائشة وصحيح مسلم (١٧٩٥).

جاء في أسباب النزول عن ابن عباس رضي الله عنه أن المشركين قالوا: إن كان محمد نبياً كما يزعم، فلم يُعَذِّبه ربه؟ ألا يُنزل عليه القرآن جملة واحدة؟ بدل أن ينزل عليه الآية والآيتين، فأُنزل الله هذه الآية^(١).

ومن الشُّبه التي أوردوها أنهم قالوا للنبي ﷺ: هَلَّا نزل عليك القرآن دفعة واحدة، كما نزلت الكتب السابقة على مَنْ قبلك من الرسل؟ وهذا حسب زعمهم، وإلا فهم جاهلون لا يدرون كيفية نزول كتب الله على أنبيائه، فكتابا العهدين القديم والجديد استغرقا قروناً طويلة، ولم ينزل شيء من كتب الله جملة واحدة على رسول من رسله، وإنما كان وحياً مفرقاً، فقد نزلت التوراة على موسى ﷺ في الألواح، عشر كلمات، بمقدار سورة (الليل) من القرآن. وإنجيل عيسى ﷺ ليس إلا أقوالاً نطق بها في الملأ، ثم كتب الحواريون من حفظهم أناجيل عدة في أزمنة لاحقة، وزبور داود نزل قطعاً كثيرة، ولم تنزل هذه الكتب أسفاراً تامة.

والذين قالوا هذا من المشركين أو اليهود، قالوه: جهلاً، أو عناداً، أو بهتاناً، أو نسياناً، واعتراضهم هذا أو سؤالهم، فيه سوء أدب، فقد طلبوا ما لا يعينهم، واقترحوا ما لا مدخل لهم فيه، ولا علم لهم بحكمته.

وإذن فمن الأمور الشائعة أن الكتب السابقة: التوراة، والإنجيل، والزبور، نزلت دفعة واحدة، والصحيح أنها نزلت مفرقة كالقرآن، ولم تنزل جملة واحدة.

قال الإمام الشوكاني في «فتح القدير»: هذا زعم باطل، ودعوى داحضة، فإن هذه الكتب نزلت مفرقة.

ويقول - جلَّ شأنه - في بيان الحكمة من إنزال القرآن مفرقاً في ثلاث وعشرين سنة على النبي ﷺ وفق الحوادث، والوقائع، والأحوال: ﴿كَذَلِكَ﴾ أي: أنزلناه في هذه المدة ﴿لِنُنَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ﴾ أي: ليقوى قلبك فتعيه، وتحفظه شيئاً فشيئاً، وتثبت الفؤاد فيه خير النفس وسكونها واطمئنانها، وعدم اضطرابها وقلقها، وقد كان النبي ﷺ أمياً فكيف

(١) «أسباب النزول» للسيوطي (٢٠٦) و«تفسير القرطبي» (٢٨/١٣).

يحفظ القرآن دفعة واحدة؟

والقرآن نزل مفرقاً ليسهل استيعابه وحفظه، قال تعالى: ﴿وَقَرَأْنَا لَهُ الْفُرْقَانَ عَلَى الْنَّاسِ عَلَى مَكِّنٍ وَمَزَّلْنَاهُ لَنَزِيلًا﴾ [الإسراء: ١٠٦].

أخرج الحاكم بسند صحيح عن سعيد بن جبير عن ابن عباس ؓ قال: فصل القرآن من الذكر، فوضع في بيت العزة في السماء الدنيا، فجعل جبريل ؑ ينزله على النبي ﷺ، ويرتله ترتيلاً^(١). وهذا القول موقوف على ابن عباس ؓ.

وأخبر عبد الرزاق عن معمر عن الحسن بسند صحيح قال: كان القرآن ينزل آية وآيتين وآيات، جواباً لهم، ورداً عن النبي فيما يتكلمون به، وكان بين أوله وآخره نحو من عشرين سنة^(٢).

وكان الصحابة ينزل عليهم عشر آيات، فلا ينتقلوا إلى غيرها حتى يحفظوها ويفهموها ويعملوا بما فيها. ولو لم ينزل القرآن مفرقاً على حسب الحوادث لما ظهر في كثير من آياته مطابقتها لمقتضى الحال ومناسبتها للمقام، وهذا من إعجاز القرآن.

لقد نزل القرآن ليُرَبِّي أمة تُنشئ مجتمعاً، وتُقيم نظاماً، فيه تشريع للحياة، وتربية بالقرآن، فهو ليس كتاب ثقافة، ولا كتاب معرفة، إنه كتاب هداية وتشريع، ومنهج حياة، وتربية، وهذا المنهج يحتاج إلى تدرج في التشريع، ولذلك كان من حكمة نزول القرآن مفرقاً، ووجود الناسخ والمنسوخ، وتدرج التشريع بالنسبة للخمر، وبالنسبة للربا وغيرهما؛ تربية الأمة، وإقامة المجتمع المثالي.

ومع أن القرآن لم ينزل دفعة واحدة، فإنه بعد تمام نزوله جاء مرتباً مفصلاً واضحاً، متناسباً متناسقاً، كأنه نزل جملة واحدة، وقد أمرنا بقراءته بتمهل وتبيين وثبوت؛ ليقوى القلب، ويزداد طمأنينة، فأمر الله سبحانه بترتيل القرآن، والترتيل هو التتابع، بعضه يتلو بعضاً، مع التؤدة والتدبر، فقال تعالى: ﴿وَرَقَّلْنَاهُ تَرْتِيلًا﴾. وقال: ﴿وَرَقَّلَ الْقُرْآنَ تَرْتِيلًا﴾ [المزمل: ٤].

(١) «المستدرک» (٢٢٣/٢) صححه الحاكم، ووافقه الذهبي.

(٢) وأخرجه ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم، انظر: عبد الرزاق (٦٩/٢) والطبري (٤٤٧/١٧) وابن أبي حاتم (٢٦٩٠/٨).

ومن الترتيل: عدم اللحن في الحركات والحروف والأداء المنقول إلينا بالتواتر عن رسول الله ﷺ بالمد والغنة والإظهار والإدغام وما إلى ذلك، ونحن متعبدون بإقامة الألفاظ وسلامتها كما نحن متعبدون بالتدبر والعمل بما فيه.

واللحن في القرآن محرم وإن لم يغير المعنى، لأن الكلمة، في هذه الحالة لا تكون قرآناً، ويكون فيها تغيير وتحريف وهذا ينافي حفظ الله لكتابه قال تعالى في الرد على أهل الشبه.

٣٣- ﴿وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا﴾ ﴿٣٣﴾

يخبر - سبحانه - أن الكفار لا يأتون بشبهة يعارضون فيها صاحب الرسالة، إلا جئناك - يا محمد - بالحجة الدامغة، والرد القاطع؛ فأعداء الإسلام في كل زمان ومكان يجادلون بالباطل، والله تعالى يردُّ عليهم باطلهم بالحق الذي يدمغه، وقد طمأن الله تعالى رسوله ﷺ بإمداده بالحجة البالغة كلما فتحوا باباً للجدل، وكلما اقترحوا اقتراحاً، أو اعترضوا اعتراضاً.

وقد ذكرت هذه السورة جملة من شبههم وشكوكهم في مثل قوله تعالى حكاية عنهم:

(أ) ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنَّ هَذَا إِلَّا إِفْكُ افْتَرَاهُ وَأَعَانَهُ قَوْمٌ أَخْرَجُوا﴾ [٤].

(ب) ﴿وَقَالُوا أَتُطِيرُ الْأَوْلِيَاءَ أَكُتِّبَ فِيهَا فَيُثَمِّلَ عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا﴾ ﴿٥﴾.

(ج) ﴿وَقَالُوا مَا هَذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ وَيَمَشِي فِي الْأَسْوَاقِ لَوْلَا أَنْزَلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُوتُ مَعَهُ نَذِيرًا﴾ ﴿٧﴾.

(د) ﴿وَقَالَ الظَّالِمُونَ إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَسْحُورًا﴾ [٨].

(هـ) ﴿وَقَالَ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْنَا الْمَلَتِكَةُ أَوْ نَرَى رَبَّنَا﴾ [٢١].

(و) ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً﴾ [٣٢].

وهكذا قال تعالى لرسوله: ﴿أَنْظِرْ كَيْفَ ضَرَبُوا لَكَ الْأَمْثَالَ فَضَلُّوا فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا﴾ ﴿٤٨﴾.

وقال في الآية التي معنا: ﴿وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ﴾ أي: بحجة أو شبهة يواجهونك بها على وجه المعارضة منهم مما سبق ذكره ﴿إِلَّا جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ﴾ الذي يُبطل شبهتهم ويُدحضها، وذلك كقوله تعالى: ﴿قُلْ أَنْزَلَهُ الَّذِي يَعْلَمُ السِّرَّ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ [٦].

وقوله: ﴿تَبَارَكَ الَّذِي إِن شَاءَ جَعَلَ لَكَ خَيْرًا مِّنْ ذَلِكَ﴾ [١٠].

وقوله تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَيَمْشُونَ فِي الْأَسْوَاقِ﴾ [٢٠].

وإبطال حججهم يكون بكشف الحجة، وبيان المعنى بما هو أحق في الاستدلال، ولذا قال تعالى: ﴿وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا﴾ أي: أفضل بياناً وتفصيلاً، فمعانيه كلها حق وصدق، لا يشوبها باطل ولا شبهة، وألفاظه واضحة فصيحة، مينة للمعاني.

سُوءُ مَصِيرِ الْكُفَّارِ

٣٤- ﴿الَّذِينَ يُحْشَرُونَ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ إِلَىٰ جَهَنَّمَ أُولَٰئِكَ شَرٌّ مَّكَانًا وَأَضَلُّ سَبِيلًا﴾ [٢٤]

وتنتهي هذه الجولة في السورة ببيان سوء مصير الكفار حين يُحشرون على وجوههم يوم القيامة بسبب أقوالهم الباطلة، وأفعالهم القبيحة، وفي هذا إهانة وتحقير لهم مقابل كبرهم وإعراضهم عن الحق.

قال - سبحانه - مبيناً مصير أعداء الإسلام في الآخرة: ﴿الَّذِينَ يُحْشَرُونَ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ﴾ في أبشع منظر وأقبح صورة تسحبهم ملائكة العذاب وتجرحهم -نعوذ بالله- ﴿إِلَىٰ جَهَنَّمَ أُولَٰئِكَ شَرٌّ مَّكَانًا﴾ أي: شر الناس منزلة ﴿وَأَضَلُّ سَبِيلًا﴾ وأبعدهم طريقاً عن الحق.

وقد بين النبي ﷺ أن الناس يوم القيامة أصناف ثلاثة: منهم من يحشر راكباً، وهم وفود الرحمن، ومنهم من يحشر ماشياً، ومنهم من يحشر على وجهه.

وفي حديث أنس ؓ: أن رجلاً قال: يا رسول الله، كيف يحشر الكافر على وجهه؟ قال عليه الصلاة والسلام: «أليس الذي أمشاه على رجليه في الدنيا قادراً على أن يمشيه على وجهه يوم القيامة؟»^(١)، زاد في رواية: أما إنه يتقي بوجهه كل حذب وصوب.

قال تعالى: ﴿يَوْمَ يُحْشَرُونَ فِي النَّارِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ ذُقُوا مَسَّ سَقَرٍ﴾ [القمر].

وقال تعالى: ﴿وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ عُمِيَٰ وَيَكْمَأُ وَصُمًّا مَّا وَنَهُمْ جَهَنَّمَ كَلَّمَا حَبَتَ زِدْنَاهُمْ سَعِيرًا﴾ [الإسراء: ٩٧].

(١) يُنظر: «صحيح البخاري» رقم (٤٧٦٠، ٦٥٢٣) و«صحيح مسلم» رقم (٢٨٠٦).

وقال سبحانه: ﴿سَرَابِلُهُمْ مِّنْ قَطِرَانٍ وَتَغْشَىٰ وُجُوهُهُمُ النَّارُ﴾ [إبراهيم].

وقال جلَّ شأنه: ﴿أَفَمَن يَتَّقِي بِوَجْهِهِ سُوءَ الْعَذَابِ يَوْمَ الْقِيَمَةِ﴾ [الزمر: ٢٤].

وقال ﷻ: ﴿وَمَن جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَكُبَّتْ وُجُوهُهُمْ فِي النَّارِ﴾ [النمل: ٩٠].

سِتُّ أُمَمٍ أَهْلَكَهَا اللَّهُ تَعَالَى لِتَكْذِيبِ رُسُلِهِ أَوَّلًا: فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُ

٣٥- ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَجَعَلْنَا مَعَهُ أَخَاهُ هَارُونَ وَزِيرًا﴾ [٢٥]

وبعد بيان مصير المكذبين المعاندين لرسول الله ﷺ يبيِّن ﷻ مصارع المكذبين لرسول الله في الأمم السابقة، والكفار الذين كانوا في زمن رسول الله ﷺ هم: كفار اليوم، وكفار الغد، وكفار الأمس، وهم الذين اقترحوا على النبي ﷺ جملة من الاقتراحات، واعترضوا على أن يكون الرسول من البشر، يأكل الطعام ويأتي النساء، واعترضوا على وضعه المالي، فاقترحوا أن ينزل عليه كنز من السماء؛ حتى لا يحتاج إلى أحد من البشر، وطلبوا أن ينزل عليه ملك من السماء يصدِّقه في دعواه، أو أن يروا ربهم عياناً فيخبرهم بصدق رسوله عليه الصلاة والسلام.

وعلى ضوء ما جاء في سورة (الفرقان)، فإن القرآن الكريم يسلك مع الكفار مسلكين:

المسلك الأول: يبيِّن لهم مصارع الأمم التي كذَّبت رسل الله: كالفرعنة، وقوم عاد، وثمود، وقوم نوح، وأصحاب الرس، وقوم لوط؛ كي يعتبروا ويتعظوا، بما حلَّ بهذه الأمم التي كذَّبت رسلها؛ لئلا يصيبهم ما أصاب من قبلهم.

والمسلك الآخر: عليهم أن يُعْمِلُوا العقل والفكر والنظر، ويتأملوا في خالق هذا الكون، ومبدعه ومدبِّر أموره وأحواله؛ فإن الله ﷻ قد أرسل موسى ﷺ، وأنزل عليه التوراة، وأيده بتسع آيات بيِّنات، وأرسل معه أخاه هارون وزيراً ومعيناً ومقوِّياً له، أرسله إلى فرعون وملئه، فلما كذبوا موسى ﷻ أغرق الله فرعون ومن معه، كما قال تعالى: ﴿فَغَشَّيْهِمْ مِّنَ اللَّيْلِ مَا غَشَّيْهِمْ﴾ [طه: ٧٨].

وسورة (الفرقان) وهي تعرض لمصير ستَّ من الأمم الماضية لا تُفَصِّلُ قصتهم تفصيلاً،

وإنما تُعنى فقط بأخذ العبرة والعظة منها، وتُجمل القول فيهم إجمالاً، وتبيّن في هذه الآية أن الله تعالى أرسل موسى بالوحي المنزل، وأرسل معه أخاه هارون وزيراً ومعيناً له، كما طلب من ربه. قال تعالى:

﴿فَقُلْنَا أَهْبَا إِلَى الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَبُوا بِآيَاتِنَا فَدَمَرْنَاهُمْ تَدْمِيرًا﴾ (٣٦)

أي: فقلنا لموسى وهارون: اذهبا إلى فرعون وقومه الذين كذبوا بدلائل ربوبيتنا وألوهيتنا، وكذبوا بما أيد الله به موسى من المعجزات والآيات التسع، فذهبا إليهم، وبلغوهم دعوة الله، فكذبوهما وأعرضوا عن دعوتهما، وتمادوا في طغيانهم، فأهلكهم الله، قال سبحانه: ﴿فَدَمَرْنَاهُمْ تَدْمِيرًا﴾.

وهذا إجمال للقصة؛ لبيان العبرة والعظة، وكان ابتداء القصص في هذه السورة بذكر موسى وقومه؛ لأنه أقرب زمناً من الذين ذكروا بعده، ولأن بقايا شرعه وأمته كانت معروفة لدى العرب، ونزول الألواح التي كُتِب فيها التوراة كان قبل ذهاب موسى وهارون إلى فرعون، فالمراد بالكتاب هنا: الوحي الذي يُكتب ويُحفظ.

ثَانِيًا: قَوْمُ نُوحٍ

﴿وَقَوْمَ نُوحٍ لَمَّا كَذَبُوا الرُّسُلَ أَغْرَقْنَاهُمْ وَجَعَلْنَاهُمْ لِلنَّاسِ آيَةً وَأَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ عَذَابًا أَلِيمًا﴾

أما قوم نوح، فقد أرسل الله إليهم نوحاً مدة ألف سنة إلا خمسين عاماً، يدعوهم إلى التوحيد الذي جاء به رسل الله جميعاً، فكذبوه ولم يؤمن به بعد هذه المدة الطويلة إلا نحو ثمانين ما بين ذكر وأنثى، فكان عاقبة ذلك أن أغرقهم الله بالطوفان حين كذبوه، ومن كذب رسولاً فقد كذب الرسل جميعاً.

وقوم نوح أول قوم كذبوا رسولهم، فكانوا قدوة لمن كذب الرسل بعدهم، وقدوة لمن اعترض على بشرية الرسول، حيث قالوا: ﴿مَا هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُرِيدُ أَنْ يَفْضَلَ عَلَيْكُمْ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَأَنْزَلَ مَلَائِكَةً مَا سَمِعْنَا بِهَذَا فِي آبَائِنَا الْأَوَّلِينَ﴾ [المؤمنون: ٢٤].

وقد جعل الله مصيرهم علامة دالة على تكذيبهم، وجعلهم دليلاً على سطوة الله تعالى بكل كافر بأنبيائه، وجعل غرقهم عبرة للناس إلى يوم الساعة.

ثم يبين - سبحانه - سوء مصير كل ظالم وكافر بالله ورسله، فقال: ﴿وَأَعْتَدْنَا لِلْظَّالِمِينَ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ في الآخرة، فضلًا عما لحق بهم في الدنيا، وهذا العذاب الموجه لكل من سلك طريقهم في الإشراك بالله تعالى وتكذيب رسله.

ثَالِثًا وَرَابِعًا وَخَامِسًا: قَوْمُ عَادٍ وَثَمُودَ وَأَصْحَابُ الرِّسِّ

٣٨، ٣٩- ﴿وَعَادًا وَثَمُودًا وَأَصْحَابَ الرِّسِّ وَقُرُونًا بَيْنَ ذَلِكَ كَثِيرًا﴾ ﴿٣٨﴾ وَكَأَلَّا صَبْرًا تَتَرَّبَعُونَ ﴿٣٩﴾

أي: وأهلك الله قوم عاد، ودمرهم تدميرًا كسائر الأمم الذين كذبوا رسل الله، وقوم عاد نبيهم هود، وقوم ثمود نبيهم صالح، وأصحاب الرس، وهي البئر المطوية غير المبنية، والقرآن الكريم لم يبين من هم أصحاب الرس، ولذلك فإن المفسرين أكثروا الحديث عنهم، واجتهدوا في بيان من هم:

(أ) فمنهم من قال: إنهم أهل أنطاكية، التي تقع على نهر العاصي قبيل مصبه في البحر المتوسط، قرب اللاذقية بسوريا، وهم الذين قتلوا حبيبا النجار، وألقوه في البئر بعد أن بعثه الله إليهم، وهم الذين ذكرهم الله تعالى في قوله: ﴿يَنْقُورُ أَتَّبِعُوا الْمُرْسَلِينَ﴾ ﴿٧٢﴾ أَتَّبِعُوا مَنْ لَا يَسْتَلْكَ أَجْرًا وَهُمْ مُهْتَدُونَ ﴿٧٣﴾ [يس]. إلى آخر الآيات.

(ب) ومنهم من قال: إنهم أصحاب الأخدود، قرب نجران، وهم الذين جاء ذكرهم في قوله تعالى: ﴿قُلْ أَصْحَابُ الْأَخْدُودِ﴾ ﴿١﴾ النَّارِ ذَاتِ الْوُقُودِ ﴿٢﴾ إِذْ هُمْ عَلَيْهَا قُعُودٌ ﴿٣﴾ [البروج].

(ج) ومن المفسرين من قال: إنهم من بقايا ثمود في مدائن صالح بالحجر، وهم الذين كانوا يعبدون الأصنام أو الأشجار، وبينما كانوا يجلسون حول هذه البئر إذ انهارت بهم، وخسف الله بهم الأرض فأهلكهم.

(د) ومنهم من قال: إنهم قوم في عدن، كانوا يعبدون الأصنام، وقد أرسل الله فيهم نبيا يقال له: حنظلة بن صفوان، فقتلوه وألقوه في هذه البئر، فأهلكهم الله تعالى.

(هـ) ومنهم من قال: إنهم قوم مدين وهي تقع شرق خليج العقبة، كانوا يعبدون الأصنام فأرسل الله إليهم شعبيا، فبينما هم حول البئر انهارت بهم وخسف الله بهم. فهذه خمسة أقوال في المراد بأصحاب الرس.

وأيما كان الأمر، فإن الله تعالى قد أهلك أصحاب الرس، والرس هي البئر المطوية بالحجارة وقيل: إنها بئر معينة كانت لبطن من قبيلة ثمود، فعرفوا بأصحاب الرأس، وقيل: إنهم قوم القوا نبيهم في رسّ أي في بئر.

وأهلك الله أمما كثيرة غير هؤلاء، لا يعلمهم إلا هو سبحانه، كما قال تعالى: ﴿وَقُرُونًا بَيْنَ ذَلِكَ كَثِيرًا﴾ أي: بين كل أمة وأمة، من قوم: نوح، وعاد، وثمود، وأصحاب الرس، وغيرهم.

ولم يأت ذكر لأصحاب الرس بالنص، في آية سورة إبراهيم، من قوله تعالى: ﴿يَأْتِكُمْ نَبُؤُا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ﴾ [إبراهيم: ٩].

وهم داخلون في عمومها؛ لقوله تعالى فيها: ﴿وَالَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ لَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا اللَّهُ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ﴾.

وقد ذكر الله في هذه الآية كثيرا من الخلق والأمم دون تحديد، قال تعالى:

﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنَ الْقُرُونِ مِنْ بَعْدِ نُوحٍ﴾ [الإسراء: ١٧].

وقال تعالى: ﴿ثُمَّ أَنشَأْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ قَرْنًا آخَرِينَ﴾ [المؤمنون]، وغيرهم.

والقرن: هو الأمة من الناس الذين عاشوا في عصر واحد، وزمن واحد، ويقدر بنحو مئة عام غالباً، فإذا ذهب هذا الجيل، وجاء جيل آخر فهو قرن آخر، وهكذا.

وفي الحديث: عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «خير الناس قرني، ثم الذين يلونهم، ثم الذين يلونهم»^(١).

وجميع الأمم التي كذبت رسلها أهلكها الله تعالى، ولم يخرج من هذا العموم إلا قوم يونس، فقد رفع الله عنهم العذاب بعد أن آمنوا عند رؤيته، قال تعالى: ﴿فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ ءَامَنَتْ فَنَفَعَهَا إِيمَانُهَا إِلَّا قَوْمٌ يُوَسَّسَ لَمَّا ءَامَنُوا كَشَفْنَا عَنْهُمْ ءَدَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَىٰ حِينٍ﴾ [يونس: ٩٨].

وكل أمة من هذه الأمم ضرب الله لها الأمثال، وبيّن لها الحجج الدامغة، ووضّح لها الأدلة، وشبّه لهم الأمور المعقولة بالأمثلة المحسوسة؛ كي يفهموها، ولا يبقى لهم عذر،

(١) من حديث عبد الله بن مسعود في البخاري برقم (٢٦٥٢) ومسلم برقم (٢٥٣٣).

ومع ذلك لم يؤمنوا فأهلكهم الله، وكلّ منهم دمره الله وأهلكه، كما قال تعالى: ﴿وَتَبَيَّنَ لَكُم كَيْفَ فَعَلْنَا بِهِمْ وَضَرَبْنَا لَكُمُ الْأَمْثَالَ﴾ [إبراهيم: ٤٥].

سادساً: قوم لوط

٤٠- ﴿وَلَقَدْ آتَوْنَا عَلَى الْقَرْيَةِ الَّتِي أَمْطَرْنَا مَطَرًا السَّوَّىٰ أَفْكَمَ يَكُونُوا يَكُونُهَا بَلْ كَانُوا لَا يَرْجُونَ شَوْرًا﴾ (٤١)

والأمة السادسة التي أهلكها الله تعالى: هم قوم لوط الذين كذبوا نبيهم لوطاً، وهم يمرون على ديارهم التي أهلكها الله، أثناء أسفارهم، كما قال تعالى: ﴿وَأَنذَرُ لَنُزَوِّنَ عَلَيْهِمْ مُّصِيبِينَ﴾ (١٢٧) ﴿وَبِالْأَيْلِ﴾ [الصافات]. وقال تعالى: ﴿وَأَنهَا لَيْسَبِيلُ مُّقْبِرٍ﴾ (٧١) [الحجر].

وقال جلّ شأنه: ﴿وَمَا هِيَ مِنَ الظَّالِمِينَ بِعِيدٍ﴾ [هود: ٨٣]. وهما قريتان في الأردن، قرية (سدوم وعامورة)، وقد أهلكهما الله تعالى، وهي التي كانت تعمل الخبائث، ومكانها بحيرة لوط أو البحر الميت. والقرية الصغرى الثالثة نجّأها الله تعالى؛ وهر قرية (صُوغَر) حيث التّجأ قوم لوط إليها، لأنها لم تفعل فاحشة اللواط، وقد أمطرت هذه القرى بحجارة متتابعة مُعلّمة، عليها أسماء مستحقيها، وهي حجارة مطبوخة بالنار.

يقول سبحانه مستنكراً: ﴿أَفْكَمَ يَكُونُوا يَكُونُهَا﴾ فيعتبروا بعواقب سخط الله تعالى، كما قال سبحانه: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّمُتَرَسِّينَ﴾ (٧٥) [الحجر].

لقد أهلك الله هذه الأمم الست، وهم ليسوا شرّاً ممن يكذبون رسول الله ﷺ في كل عصر ومصر، فهم مستحقون أيضاً لنزول العذاب بهم، فليس كفار اليوم خير من كفار الأمس، وليس كفار العصر النبوي خير من هذه الأمم التي أهلها الله ﴿أَكْفَارُكُمْ خَيْرٌ مِّنْ أُولَئِكَ﴾ [القمر: ٤٣] ولكنه سبحانه يمهّل ولا يمهّل.

ثم أضرب الله - سبحانه - عن ذلك، ويبيّن أن سبب عدم إيمان من لم يؤمن، مع ما شاهد من آيات الله البينات، أنهم كانوا لا يخافون لقاء الله تعالى فقال: ﴿بَلْ كَانُوا لَا يَرْجُونَ شَوْرًا﴾ أي: فالسبب في عدم الاعتبار أنهم كانوا لا يؤمنون بالبعث، ولا باليوم الآخر وما فيه من حساب وجزاء على الأعمال، ولمّا لم يؤمنوا بالبعث لم يكن عندهم استعداد للاعتبار؛ لأن الاعتبار ينشأ عن المراقبة ومحاسبة النفس؛ لطلب النجاة، وهم لم

يهتموا إلا بالدنيا وما فيها .

وأصل ذلك هو الضلال الذي قادهم إلى سوء المصير، وهذه عاقبة الذين لا يُعملون عقولهم فلا يتّعظون، ولا يعتبرون .

عَاقِبَةُ الْمُسْتَهْزِئِينَ بِالْإِسْلَامِ وَأَهْلِهِ

٤١ - ﴿وَإِذَا رَأَوْكَ إِن يَخِذُّوكَ إِلَّا هُزُؤًا أَهَذَا الَّذِي بَعَثَ اللَّهُ رَسُولًا ﴿٤١﴾﴾

وبعد أن طيّب الله تعالى خاطر رسوله ﷺ باستعراض سريع لمصارع المكذبين لرسول الله، أعقب ذلك بخبر استهزاء المكذبين بالرسول الخاتم ﷺ، مع أنهم كانوا يلقبونه قبل البعثة بالصادق الأمين .

وغير المسلمين يهزؤون من الإسلام، ومن رسول الإسلام في القديم والحديث، أي: وإذا رآك - يا محمد - المكذبون لك، استهزؤوا بك واحتقروك، وقالوا: هذا الرجل غير مناسب، أما وجد الله غيره يرسله، وهذا القدح في النبي ﷺ لا يقتصر على وقت بعثته، بل قائم إلى قيام الساعة .

وكان النبي ﷺ إذا مرَّ على أبي جهل يقول أبو جهل لمن حوله مستخفًا ومستهزئًا بالنبي ﷺ: ﴿أَهَذَا الَّذِي بَعَثَ اللَّهُ رَسُولًا﴾ كما قال تعالى في آية أخرى: ﴿وَإِذَا رَأَاكَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِن يَخِذُّوكَ إِلَّا هُزُؤًا أَهَذَا الَّذِي يَذْكُرُ آلِهَتَكُمْ﴾ [الأنبياء: ٣٦] .

وفي عاقبة المستهزين برسل الله يقول سبحانه: ﴿وَلَقَدْ أَسْتَهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَأَمَلَيْتُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا ثُمَّ أَخَذْتَهُمْ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ ﴿٣٢﴾﴾ [الرعد]. ويقول أيضًا: ﴿وَلَقَدْ أَسْتَهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَكَانَ بِالَّذِينَ سَخِرُوا مِنْهُمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ﴿١٠﴾﴾ [الأنعام] .

ومن ذلك قولهم ﴿وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَى رَجُلٍ مِّنَ الْفَرِيقَيْنِ عَظِيمٍ﴾ [الزخرف]

وكان المشركون يعلمون في قرارة أنفسهم أنهم كذبة، وأن رسول الله ﷺ صادق، فهو عليه الصلاة والسلام منهم ملء السمع والبصر، يحترمونه ويضعون عنده أماناتهم، ويلقبونه بالصادق الأمين، ولكنه ﷺ لما بُعث رسولاً خافوا على مراكزهم الاجتماعية، فلم يؤمنوا به عنادًا وجحودًا وكبرًا وطغيانًا. وكانوا يَعْقِدُونَ المؤتمرات، ويدبرون

المؤامرات لوقف مسيرة الدعوة.

ومن ذلك أن الوليد بن المغيرة -وكان رجلاً مستأ- جمع نفرًا من قريش قرب موسم الحج وقال لهم: هذا موسم الحج قد حضر، وقد عرف القبائل أمر محمد ﷺ فأجمعوا رأيكم فيه، ولا تختلفوا فيكذب بعضكم بعضًا، قولوا فيه قولة واحدة، قالوا: قل أنت، قال: بل قولوا وأنا أسمع.

قالوا: نقول: إنه كاهن، قال: والله ما هو بكاهن، نحن نعرف الكهنة.

قالوا: نقول: إنه مجنون، قال: والله ما به من جنون، نحن نعرف الجنون ودرؤبه.

قالوا: نقول: إنه شاعر، قال: والله إنه لا يقول الشعر، نحن أرباب الفصاحة والبلاغة، ونعرف الشعر.

قالوا: نقول: إنه ساحر، قال: ما هو بساحر، لقد رأينا السحر والسحرة، فما هو منهم.

قالوا: فما تقول يا أبا عبد شمس؟ قال: والله إن لقوله لطلاوة، وإن أصله لعذق، وإن فرعه لحفاة، وما أنتم بقائلين من هذا شيئًا إلا عُرف أنه باطل.

ثم قال: أقرب شيء فيه أن نقول: إنه ساحر، يفرق بين الرجل وأبيه، وبين المرء وأخيه، وبين المرء وزوجه.

فلما جاء موسم الحج، جلسوا في مداخل مكة، يحذرون كل من دخل إليها أن يشبع محمدًا ﷺ^(١).

ومع هذا فهم يعلمون أن محمدًا ﷺ أرجحهم في العقل والعلم والرزانة ومكارم الأخلاق، ومحاسن الشيم، والعفة والشجاعة، والكرم، ولكن القصد من قذحهم هو العناد والمكابرة والحسد أن أعطاه الله الرسالة دونهم، ولهذا قالوا:

٤٢- ﴿إِنْ كَادَ لَيُضِلَّنَا عَنْ إِلَهِنَا لَوْلَا أَنْ صَبَرْنَا عَلَيْهَا وَسَوْفَ يَعْلَمُونَ حَيْثُ يَرَوْنَ
الْعَذَابَ مَنْ أَضَلُّ سَبِيلًا﴾ ﴿٤٢﴾

(١) يُنظَر: ابن إسحاق وابن هشام في «السيرة».

أي إن هذا الرجل كاد يضلنا ويجعل الآلهة إلهاً واحداً، فهم يجعلون التوحيد ضلالاً، والشرك هدى، ولهذا تواصلوا بالصبر عليه فقالوا: ﴿لَوْلَا أَنْ صَبَرْنَا عَلَيْهَا﴾ وهذا صبر مذموم، فقد أمرنا أن نتواصى بالحق - لا بالباطل - ونتواصى بالصبر على الحق - لا على الباطل - وهذا كقوله تعالى عنهم ﴿أَجْعَلِ الْأَلَمَةَ إِلَهًا وَاحِدًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ ﴿٥﴾ وَأَنْطَلِقَ الْأُمَلَأُ مِنْهُمْ أَنْ آمَنُوا وَاصْبِرُوا عَلَىٰ آلِهَتِكُمْ إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ يُرَادُ﴾ [ص: ٥-٦]

ومع أن أعداء الإسلام ينالون من قدر الرسول ﷺ، ويظهرون الاستخفاف به، فإن أقوالهم وأفعالهم تشير إلى ما تكنه نفوسهم من الاعتراف بهذا الرسول الخاتم، وأنهم يكادون يتبعون دعوته، ويتركون ما هم عليه من عدم الإيمان به، فالقرآن يزلزل قلوبهم بأسلوبه المقتنع، وهو ملء أسماعهم وأبصارهم، وهم يتأثرون به، ولكنهم يكابرون.

وقد استطاع النبي ﷺ أن يصرف الوثنيين في عصره عن آلهتهم التي ورثوها وعبدوها قروناً، حتى إنهم يُسمُّون عبادتهم للأوثان (هذى) ويُسمُّون التوحيد (ضلالة)، فيقولون: ﴿إِنْ كَادَ لَيُضِلَّنَا عَنْ آلِهَتِنَا﴾ أي: إن محمداً قارب أن يصرفنا عن تمسكنا بعبادة الأصنام، وثباتنا على عبادتها لولا أننا صبرنا وقاومنا وجالدنا في عبادتها، فقد كاد يصرفنا عنها لولا ذلك.

قال سبحانه متوعداً ومهدداً لهم: ﴿وَسَوْفَ يَعْلَمُونَ حَيْثُ يَرَوْنَ الْعَذَابَ﴾ أي: حين ينزل بهم عذابنا في الدنيا، أو يرون عذاب الآخرة ماثلاً أمام أعينهم ﴿مَنْ أَضَلُّ سَبِيلًا﴾ أي: من هو أشد ضلالاً من الفريقين؟ هل الذي جاء به محمد هو الهدى، أم هو الضلال؟ وسوف يظهر ذلك في المستقبل، سواء أكان في الدنيا أم في الآخرة.

خَطَرُ اتِّبَاعِ الْهَوَى

٤٣ - ﴿أَرَأَيْتَ مَنِ اخْتَذَ إِلَٰهَهُ هَوَاهُ أَفَأَنْتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلًا ﴿١٣﴾﴾

أعلم الله رسوله بأن المكذبيين لا يُرجى اهتداؤهم؛ لأنهم جعلوا هواهم إلههم، لقد كان الواحد منهم يعبد حجراً مدة طويلة، فإذا رأى حجراً أبيض منه، أو أحسن منه منظرًا ترك الإله الأول، وعبد الثاني، فإذا فقد هذا الإله وضع من صاحبه نادى منادٍ: أيها الناس، إن إلهكم قد ضلَّ فالتمسوه، التمسوا إلهكم! إنهم يعبدون الهوى وما

تأمرهم به نفوسهم من دون الله، كما قال تعالى: ﴿أَفَرَأَيْتَ مَنْ اتَّخَذَ إِلَهُهُ هَوْنَهُ وَأَصْلَهُ اللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِ وَقَلْبِهِ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِ غِشًّا فَمَنْ يَهْدِيهِ مِنْ بَعْدِ اللَّهِ﴾ [الجاثية: ٢٣].

فانظر -يا رسولنا- متعجبًا إلى حال من أطاع هواه كطاعة الله، وانظر إلى ما هو فيه من ضلال، ومع هذا فهو يحكم على نفسه بأنه صاحب منزلة رفيعة، أفأنت تكون عليه حفيظًا، تحفظه وتهديه، وتخرجه مما هو فيه؛ حتى تردّه إلى الإيمان، بعد أن اتخذ هواه قدوة له في أعماله، فلا يأتي عملاً إلا إذا كان موافقاً لشهوته، فكأنّ هواه إلهه، وهذا يشمل عبادة الأوثان، ويشمل من كان أسير الفواحش والمنكرات.

لقد قمت -أيها الرسول - بوظيفتك، وحسابك على الله، فلست عليهم بمسيطر.

فيجوز أن يكون المعنى: أرايت من جعل إلهه الشيء الذي يهوى عبادته، أي: ما يُحِبُّ أن يكون إلهاً له لمجرد الشهوة، وليس لأنه مستحق للعبادة، فالذين عبدوا الأصنام كانت شهوتهم أن يعبدوها، وليس عندهم حجة في أنها تستحق العبادة^(١).

وهذا المعنى أشمل في الذم؛ لأنه يشمل عبادة الأصنام، ويشمل حب الفواحش والمنكرات، فكلا المعنيين ينبغي أن يكون مَحْمَلًا للآية.

والناس بالنسبة لاتباع الهوى على ثلاثة أصناف:

الصنف الأول: منهم من تغلب عقله على هواه، فليس للهوى عليه سبيل، وهذا النوع من الناس شبيهه بالملائكة؛ حيث رغب الله فيهم عقولاً، وليست لهم شهوة.

ومن هذا الصنف: رسول الله ﷺ، كما جاء في الحديث عن عبد الله بن مسعود ؓ أن رسول الله ﷺ قال: «ما منكم من أحد إلا وقد وكل به قرينه من الجن، قالوا: وأنت يا رسول الله؟ قال: وأنا إلا أن الله أعاني عليه فأسلم، فلا يأمرني إلا بخير».

(١) قال الشيخ محمد الطاهر بن عاشور في تفسيره: وهذا المعنى منقول عن سعيد بن جبير، واختاره ابن عرفة وابن عطية والزمخشري، وجزم بأنه الصواب (٣٥/١٩).

وفي لفظ وقد وُكل به قرينه من الجن وقرينه من الملائكة»^(١).

وقوله «فأسلم» أي أجد السلامة منه .

وورد «فأسلم» من الإسلام، أي أنه دخل في الإسلام .

وصاحب الإيمان القوي لا يستطيع الشيطان أن يضلّه أو يغويه، ومنهم عمر رضي الله عنه، كما قال رضي الله عنه: «والذي نفسي بيده، ما سلك عمر فجًا إلا وسلك الشيطان فجًا سواه»^(٢).

وهؤلاء هم من قال الله تعالى فيهم: ﴿إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ﴾ [الحجر: ٤٢].

وهم من استثناهم الشيطان بقوله: ﴿إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ﴾ [الحجر].

والصنف الثاني: قوم تغلبت شهواتهم على عقولهم، فتحكّم فيهم الهوى والشيطان والنفس الأمّارة، وهؤلاء أشبه ما يكونون بالبهايم، فقد ركب الله فيهم شهوة وليست لهم عقول، وهذا الصنف هم الذين تنطبق عليهم الآية: ﴿أَرَأَيْتَ مَنْ أَخَذَ إِلَهُهُ هَوْنَهُ﴾.

والصنف الثالث: قوم في جهاد مستمر بين العقل والشهوة، فتارة تغلب عقولهم، وتارة تغلبهم شهواتهم، وهؤلاء إن ماتوا على ذلك فهم مجاهدون لهواهم، وقد جاء في الأثر: جاهدوا أهواءكم كما تجاهدوا أعداءكم.

وقال بعض الصحابة بعد عودتهم من ساحة الجهاد: رجعنا من الجهاد الأصغر إلى الجهاد الأكبر.

وجهاد العدو هو ذروة سنام الإسلام، وإذا لم يهضم الإنسان نفسه، ويتغلب على هواه، فلن يستطيع جهاد عدوه.

(١) يُنظر حديث ابن مسعود في صحيح مسلم (٢٨١٤) و«المسند» (٤٣٩٢) قال محققوه: حديث صحيح بإسناد حسن لأن فيه زياد بن عبدالله البكائي، مختلف فيه، وبقية رجاله ثقات رجال الشيخين، وهو في المسند أيضًا (٣٦٤٨، ٣٧٧٩) وغيرهما بإسناد صحيح على شرط مسلم وعند أبي يعلى (٥١٤٣) وابن حبان (٦٤١٧) والطبراني في الكبير (١٠٥٢٢) والطحاوي في شرح المشكل (٢٩/١).

(٢) مصنف ابن أبي شيبة (٣١٩٩٩) وهو في صحيح البخاري عن محمد بن سعد بن أبي وقاص برقم (٦٠٨٥، ٣٢٩٤، ٣٦٨٣)، ومسلم (٢٣٩٦) ولفظ البخاري «إيه يا ابن الخطاب، ما لقيك الشيطان سالكا فجًا إلا سلك فجًا غير فجك».

والصنف الأول هم أصحاب النفس المطمئنة، والصنف الثاني هم أصحاب النفس الأمارة، والصنف الثالث هم أصحاب النفس اللوامة، وهم أكثر الخلق.

الْكَافِرُ لَا يَنْتَفِعُ بِمَا يَسْمَعُ أَوْ يَقْرَأُ

٤٤- ﴿أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا﴾
يَبَيِّنُ - سبحانه - في هذه الآية أن أكثر الكفار لا يسمعون الحق سماع تعقل وتدبر، ولذا فهم لا ينتفعون بما يسمعون ولا يتأثرون به، إنهم لا يسمعون سماع قبول، ولا يتدبرون فيما يسمعون من الحجج والبراهين الدالة على وحدانية الله تعالى.

ثم يَبَيِّنُ سبحانه أنهم أبشع حالًا، وأسوأ مآلًا من الأنعام في عدم انتفاعهم بما يسمعون، بل هم أشد ضلالًا من الأنعام؛ فالأنعام من الإبل والبقر والغنم تؤدي الوظيفة التي خلقت من أجلها، وتسجد لله تعالى، وتسبح بحمده كما في آية سورة الحج [١٨]، وآية سورة الإسراء [٤٤]، وغيرهما.

والكافر خلق للعبادة، فهو من الإنس الذين قال الله فيهم: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات: ٥٦]. ولكنه لا يؤدي هذه الوظيفة التي خلق من أجلها، ولذلك كانت الأنعام خيرًا منه؛ لأنها تستجيب لصاحبها وراعيا حين يناديها، وهؤلاء لا يستجيبون لداعي الحق.

والأنعام تعرف مرعاها ومشربها، وتعرف ما يضرها فتجتنبه، وتعرف على من يحسن إليها فتتقاد إليه، وهؤلاء لا يفعلون ذلك فهم أضل سبيلًا من الأنعام.

ولمَّا قابل الكفار نعمة الله تعالى بالكفر والجحود، شبههم الله بالأنعام السائمة التي لا تسمع إلا دعاء ونداء، صم بكم عمي، فهم لا يعقلون، بل هم أضل من الأنعام، لأن الأنعام يهديها راعيها فتهتدي، وتعرف طريق هلاكها فتجتنبه، وهؤلاء لا يتعظون لأنهم لا يتدبرون ما يسمعون، ولا ينتفعون به، كما قال تعالى عنهم: ﴿إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللَّهِ الصُّمُّ الْبُكْمُ الَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ﴾ [٢٢] وَلَوْ عَلِمَ اللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَأَسْمَعَهُمْ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوْا وَهُمْ مُعْرِضُونَ ﴿٢٣﴾ [الأنفال].

وقال سبحانه عنهم: ﴿لَهُمْ قُلُوبٌ لَا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لَا يَسْمَعُونَ بِهَا أُولَٰئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ﴾ [الأعراف].

سِتَّةُ أَدِلَّةٍ عَلَى وَحْدَانِيَةِ الْخَالِقِ سُبْحَانَهُ

٤٦، ٤٥ ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ الظِّلَّ وَلَوْ شَاءَ لَجَعَلَهُ سَاكِنًا ثُمَّ جَعَلْنَا الشَّمْسُ عَلَيْهِ دَلِيلًا ﴿٤٥﴾ ثُمَّ قَبَضْنَاهُ إِلَيْنَا قَبْضًا يَسِيرًا ﴿٤٦﴾﴾

يسلك القرآن الكريم مع الكفار مسلماً آخر رجاء إيمانهم، فيذكر أدلة ستة من هذا الكون الفسيح على بطلان شركهم، وإثبات الوحداية لله تعالى وكمال قدرته.

الدَّلِيلُ الْأَوَّلُ: مَشْهَدُ الظِّلِّ الْوَارِفِ

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ الظِّلَّ﴾، أي لقد رأيت بعينيك -أيها المخاطب- وتأملت بعقلك وبصيرتك، كيف بسط الله الظل على العباد قبل طلوع الشمس، وأثناء دورانها، وجعله واسعاً متحرّكاً مع حركة الأرض في مواجهة الشمس، وجعله مكاناً يستظل فيه الناس من وهج الشمس، ولولا الظل في وقت النهار لكدرت الشمس حياة الإنسان، ولولا وجود الشمس لَمَا عُرف الظل، فإن الضد بالضد يُعرف، ألم تشاهد بعينيك كمال قدرة الله وسعة رحمته، فتستدل بها على وحدانية الخالق واستحقاقه للعبادة دون سواه.

وهذا الظل يكون من طلوع الفجر الصادق إلى طلوع الشمس، ثم يقل مع طلوع الشمس، وكلما ارتفعت يتقلص الظل وينكمش، فإذا كانت الشمس في كبد السماء صار ظلُّ كل شيء تحته، فإذا زالت الشمس عن وسط السماء فإن هذا الظل يتحرك حتى يصير ظلُّ كل شيء مثليه -أي: ضعفه مرتين- وكلما ازداد ارتفاع الشمس ازداد نقصان الظل.

والظل الممدود، هو ما يكون من أول الإسفار إلى بزوغ الشمس، وبعد مغيب الشمس مدة يسيرة، ففي هذين الوقتين يكون الظل على الأرض كلها على أنها نهار، ولعل هذا الظل هو ظل الجنة الوارد في قوله تعالى: ﴿وَوَيْلٌ لِلْمُصَدِّقِينَ﴾ [الواقعة]؛ لأن الآخرة لا شمس فيها، فيكون ظلها ممدوداً.

أما الظل الذي يكون من طلوع الشمس إلى غروبها فهو ظل متقطع، والمد والقبض فيه مطرد^(١).

قال أبو عبيدة: كل ما كانت عليه الشمس فزالت عنه فهو فيء وظل، وما لم تكن عليه

(١) يُنظر: «تفسير ابن عطية» (٤/٢١٢).

الشمس فهو ظل^(١).

ويحصل الظل من حيلولة جسم بين شعاع الشمس وبين المكان أو الشيء الذي يقع عليه الشعاع، ويكون قدر هذا الظل على قدر الجسم الحائل بين الشعاع والمكان الذي وقع عليه، وتكون هيئة هذا الظل واتجاهه وتفاوته وفق هيئة الجسم الحائل، ثم تنسخه الشمس شيئاً فشيئاً إلى الزوال، ثم ينسخ الظل ضوء الشمس من وقت الزوال إلى الغروب^(٢) فمن الذي حرّكه؟ ومن الذي جعله يسير بهذا الشكل، وبهذا النظام، وبهذه السرعة، بحيث لا يتخلّف ولا يختلف؟!

ثم إن ظل الطائرة يسبقها وهي تطير، وظل الشمس والقمر في دورتهما، هو الكسوف والخسوف، وينظر الإنسان إلى ظله أحياناً فيجده ضعف قامته، وينكمش أحياناً فيجده تحت قدميه، وكل ذلك آية من آيات الله، ولو شاء الله لجعل الظل ثابتاً لا يزول ولا يحول ولا يتغير، ولكنه يتنقل بقدرة الله تعالى من مكان إلى مكان، ومن جهة إلى جهة، شرقاً وغرباً، وشمالاً وجنوباً. ووجود الشمس هو علة وجود الظل للأجسام التي على الأرض.

فالشمس مبيّنة لوجود الظل ولوجه العبرة فيه، ولولا الشمس ما عُرف الظل المتقطع؛ فإن الضد يعرف بضده، والله تعالى مدّ الظل، بأن جعل الشمس دليلاً على مقدار امتداده، فتحرك الظل وتغيّره وتقلّبه من مكان إلى مكان دليل على تحرك الشمس وتنقلها، وقبض الظل من آثار جعل الشمس دليلاً على الظل.

ثم إن الظل ينكمش شيئاً فشيئاً، ولو قبضه الله دفعة واحدة لتعطلت أكثر مرافق الناس بالظل والشمس جميعاً، وفي مدّ الظل وقبضه معرفة أوقات النهار للصلوات، والأعمال اليومية، وانتفاع الناس بشعاع الشمس وفيّته.

وحركة الأرض حول الشمس يترتب عليها الظلمة والنور، فالظلمة هي الأصل، ثم انبثق النور بالشمس.

ونشأ عن الظلمة والنور: الليل والنهار، وفصول السنة: الصيف، والشتاء، والربيع،

(١) «تفسير القرطبي» (٣٦/١٣).

(٢) يُنْظَر: «تفسير التحرير والتنوير» (٤٠/١٩).

والخريف، وخطوط العرض والطول للكرة الأرضية، وبها عُرفت مناطق الحرارة والبرودة. وفي هذا إشارة إلى أصل المخلوقات، كيف طرأ عليها الوجود بعد أن كانت عدمًا؟! وكيف امتد وجودها وتطور نماؤها؟! ثم كيف تعود تدريجيًا إلى العدم؟! وكما مدَّ الله الظل، ثم قبضه إليه قبضًا يسيرًا، فالإنسان يكون طفلًا ثم شابًا ثم شيخًا، ثم يموت، ثم يعود إلى البعث والنشور، فكانت أحوال الظل وقبضه مثلًا مضروبًا لمصير الناس وعودتهم إلى ربهم حين يحشرهم إليه حشرًا يسيرًا. وفي الآية إشارة أخرى، حيث تُشَبَّه حالة الناس في الضلال قبل نزول القرآن بامتداد ظلمة الظل.

ونزول القرآن يشبه ظهور الشمس في أماكن الظل، وتنزيل القرآن منجمًا شبيهه بهيئة مدَّ الظل تدرُّجًا.

ففيه تشبيه الهداية بنور الشمس، وتقلُّص ضلال الكفر بانقباض الظل، بعد أن كان ممتدًا قبل طلوع الشمس.

هذا هو الدليل الأول في هذا السياق؛ لبيان عظيم صنع الله تعالى في هذا الكون ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ اللَّيْلَ سَرْمَدًا إِلَى يَوْمِ الْقِيَمَةِ مَنْ إِلَهُ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيَكُمُ بَصِيرَةٌ أَفَلَا تَسْمَعُونَ﴾ (٧١) قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ النَّهَارَ سَرْمَدًا إِلَى يَوْمِ الْقِيَمَةِ مَنْ إِلَهُ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيَكُمُ لَيْلٌ تَكُونُونَ فِيهِ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٧٢﴾ [القصص].

ووجه الاستدلال بالظل على وجود الخالق - سبحانه - أن وجود الظل بعد العدم، وعدمه بعد الوجود، وتغيُّر أحواله بالزيادة والنقصان، والانبساط والتقلُّص، على الوجه النافع للعباد، لا بدَّ له من صانع قادر، مدبر حكيم، يحرك الأجرام العلوية، ويدبر الأجسام الفلكية، ويرتّبها على أكمل وجه وأفضل وصف، وهو رب العالمين^(١). المستحق للعبادة دون سواه.

(١) يُنظَر: «تفسير الفخر الرازي» (٨٨/٢٤).

الدِّلِيلُ الثَّانِي: تَعَاقُبُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ

٤٧- ﴿وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِبَاسًا وَالنَّوْمَ سُبَاتًا وَجَعَلَ النَّهَارَ نُشُورًا﴾ ﴿٤٧﴾

ينتقل القرآن الكريم من الظل إلى حركة الليل والنهار، فقد جعل الله لكم الليل لباساً يستركم بظلامه، كما يُسْتَرُ الإنسان في ثيابه، وجعل النوم فيه راحة لأبدانكم، وفي النوم يموت الإنسان مودة صغرى، ويكون في نومه كالجثة الهامدة، ولكن القلب ينبض ويدق، وصاحبه في غفلة لا يدري مَنْ حوله، وصدر الإنسان يعلو ويهبط، وجهاز الهضم مستمر، في شغل متواصل، وهو في نوم وسبات عميق، كما قال تعالى: ﴿اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا﴾ [الزمر: ٤٢].

ولولا الليل لما سكن العباد، ولتعطلت مصالحهم ومعايشهم، هذا هو الأصل، وقد يتطلب الأمر، العمل ليلاً على ضوء التيار الكهربائي، وينبغي أن يكون هذا بمقدار الضرورة، ولا يعمم في اللهو والسمر، فيصبح النهار لباساً والليل معاشاً ولعباً ولهواً، قال تعالى ﴿وَجَعَلَ النَّهَارَ نُشُورًا﴾.

أي: فإذا جاء النهار ابتعثك الله - أيها الإنسان - من الموت؛ لتنتشر في هذه الحياة، ولتسعى على رزقك، وقوتك وقوت أولادك.

وتقديم الليل على النهار هنا؛ لمناسبة الظل قبله، وفي موضع آخر قدم النوم على الليل؛ لأن نعمة النوم أهم من نعمة الستر: ﴿وَجَعَلْنَا نَوْمَكُمْ سُبَاتًا﴾ ﴿٩﴾ وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ لِبَاسًا ﴿١٠﴾ وَجَعَلْنَا النَّهَارَ مَعَاشًا ﴿١١﴾ [النبا]. ولأن المناسبة بين خلق الأزواج والنوم أشد.

وقد جمعت الآية بين الاستدلال على عظيم قدرة الخالق - سبحانه - ، والامتنان والتذكير بنعمة الله تعالى في اختلاف الليل والنهار، وما يترتب على ذلك من فوائد نور الشمس بتجدد نشاط الإنسان للعمل في ميدان الحياة، ومن فوائد الظلمة: التستر، وحدوث النوم.

والسُّبَات: هو الانقطاع عن الحركة مع وجود الروح في البدن.

والنشور: هو الانتشار والحركة والسير في مناكب الأرض، سعيًا على طلب الرزق، وهو نشور من الموت الصغير، وهناك نشور آخر حين البعث من القبور، يوم يقوم الناس لرب العالمين.

الدَّلِيلُ الثَّالِثُ: نِعْمَةُ الرِّيحِ الْمُبَشِّرَةِ بِالْمَطَرِ

٤٨- ﴿وَهُوَ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيحَ^(١) بُشْرًا^(٢) بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً طَهُورًا﴾

ومن نعمة الله تعالى على خلقه أن أرسل الرياح مبشرة بنزول الغيث والمطر، فتلقح السحب، ثم يتجمع ويصير كسفاً، ثم ينزل المطر بإذن الله تعالى، قال سبحانه ﴿وَأَرْسَلْنَا الرِّيحَ لَوَاحٍ فَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَسْقَيْنَاكُمُوهُ وَمَا أَنْتُمْ لَهُ بِخَازِنِينَ﴾ [الحجر: ٢٢]

وقال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُرْسِلُ سَحَابًا ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُ ثُمَّ يَجْعَلُهُ رُكَامًا فَتَرَى الْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَالِهِ وَيُنَزِّلُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ جِبَالٍ فِيهَا مِنْ بَرَدٍ فَيُصِيبُ بِهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَصْرِفُهُ عَنِ مَنْ يَشَاءُ يَكَادُ سَنَا بَرْقُهُ يَذْهَبُ بِالْأَبْصَرِ^(٤٣)﴾ [النور]

وقال أيضاً: ﴿اللَّهُ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَيَبْسُطُهُ فِي السَّمَاءِ كَيْفَ يَشَاءُ وَيَجْعَلُهُ كِسْفًا فَتَرَى الْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَالِهِ فَإِذَا أَصَابَ بِهِ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ^(٤٨) وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلِ أَنْ يُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ مِنْ قَبْلِهِ لَمُبْلِسِينَ^(٤٩) فَاَنْظُرْ إِلَى ءَاثِرِ رَحْمَتِ اللَّهِ كَيْفَ يُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ ذَلِكَ لَمُحْيِي الْمَوْتِ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [الروم].

وماء المطر يبلغ منتهى الطهارة إذ لم يختلط به شيء يُكدره، وهو أنقى المياه لخلوه من الجراثيم، وقد وصفه الله تعالى بالطهور -بفتح الطاء- أي: إنه بالغ نهاية الطهارة، فهو طاهر في ذاته مطهر لغيره.

والرياح هي المبررات، وتسمى الصَّبا، وتأتي من جهة مطلع الشمس، ومن الجنوب والشمال، والدُّبور تأتي من جهة مغرب الشمس.

ومتى جاءت الريح مفردة فهي للعذاب، كما قال تعالى: ﴿رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾

(١) قرأ ابن كثير بالافراد في (الرياح)، والباقون بالجمع نظراً لاختلاف أنواع الرياح في هبوبها جنوباً وشمالاً، وصباً ودبوراً، وفي أوصافها حارة وباردة.

(٢) قرأ عاصم (بشراً) بالباء جمع بشير، وقرأ حمزة والكسائي وخلف (نُشراً) بنون مفتوحة وشين ساكنة، بمعنى: منشورة، وقرأ ابن عامر بضم النون والشين معاً. وقرأ ابن كثير وأبو عمرو وأبو جعفر ويعقوب بنون مضمومة وشين ساكنة.

[الأحقاف: ٢٤]. ومتى جاءت مجموعة فهي للمطر والرحمة؛ لأن ريح المطر تشعب وتتفرق، قال تعالى: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ يُرْسِلَ الرِّيحَ مُبَشِّرَاتٍ﴾ [الروم: ٤٦]. وريح العذاب تأتي جسداً واحداً؛ لأنها تحطم وتهدم، ولا تلقح الشجر ولا النبات، وتسمى الدبور.

أما رياح الرحمة فهي ثلاثة: الجنوب، والصبا، والشمال.

ومن الدعاء المأثور إذا هبت الريح: «اللهم اجعلها رياحاً ولا تجعلها ريحاً»^(١).

وقد تُقرأ الرياح المبشرة بالافراد، ويراد بها - حيثئذ - : جنس الريح، واختلاف أنواعها وأصنافها.

أخرج ابن أبي حاتم بسند حسن عن السُّدِّي قال: الله ﷻ يرسل الرياح فتأتي بالسحاب من بين الخافقين - طرفا السماء والأرض - حيث يلتقيان، فيخرجه من ثمَّ وينشره، فيسطه في السماء كيف يشاء، ثم يفتح أبواب السماء؛ ليسيل الماء على السحاب، ثم تمطر السحاب بعد ذلك.

والرياح منها ما يسوق السحاب، ومنها ما يُلْقِح السحاب، ومنها ما يحمل المطر، ومنها ما يبشر بنزوله، وهكذا أنواع كثيرة، وكلها مسخرة بإرادة الله تعالى وقدرته.

وتشير الآية إلى أن الله تعالى هو الذي أرسل الرياح التي تحمل السحاب، وتبشر الناس بنزول المطر، وهو نوع من أنواع الرياح، يرسله الله تعالى قبل نزول الغيث مبشراً به.

وهذا الماء الذي هو في جوف الأرض، أنزله الله من السماء ماء طهوراً طاهراً في نفسه، مطهراً لغيره، كمياء الأنهار والعيون والآبار، وهو سائغ في شربه، نافع للإنسان والحيوان، والنبات والطيور، وسائر الكائنات الحية.

فالحياة التي على سطح الأرض، كلها تعيش على ماء المطر إما مباشرة، وإما من الميائ الجوفية المتسربة في جوف الأرض، ولكن الذين يعيشون على ماء المطر مباشرة هم الذين يشعرون بالحاجة إليه عند انقطاعه، ويستشعرون رحمة الله تعالى بنزوله فتشرح صدورهم له ومن تتوافر لديهم الميائ الجارية كنهر النيل أو الميائ المخزنة في صهاريج وخزانات كبيرة أو صغيرة، لا يستشعرون هذه النعمة العظيمة، ولذا فإن صلاة الاستسقاء تكثر في البلاد التي

(١) حديث ضعيف كما قال الألباني في ضعيف الجامع الصغير (٤٤٦١).

تعيش بواديهها على المطر، أما البلاد الأخرى فقد لا يعرف عامة أهلها، صلاة الاستسقاء.
قال تعالى مبينا آثار المطر:

٤٩- ﴿لَنُخِصِّيَ بِهِ بَلَدَهُ مَيْتًا^(١) وَنُسْقِيَهُ مِمَّا خَلَقْنَا أَنْعَمًا وَأَنْاسِيًا كَثِيرًا ۝﴾

في هذه الآية بيان ما يترتب على الرياح من نزول المطر، وهو حياة النبات والحيوان والإنسان.

فالله تعالى يسوق هذا الماء إلى الأرض الجدباء، التي لا نبات فيها، فتخرج النبات بإذن الله تعالى؛ ليُحيي بهذه المياه أرضًا ميتة لا نبات فيها، فتحيا الأرض الجدباء بعد موت، وكذلك يُحيي الله الخلق بعد موتهم، حين يسقى بهذا الماء البهائم والبشر، قال تعالى: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْكَ تَرَى الْأَرْضَ خَاشِعَةً فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ إِنَّ الَّذِينَ أَحْيَاَهَا لَكُنَّ الْمَوْتَىٰ ۝﴾ [فصلت: ٣٩].

وقال تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي يُنْزِلُ الْغَيْثَ مِنْ بَعْدِ مَا قَنَطُوا وَيَنْشُرُ رَحْمَتَهُ وَهُوَ الْوَلِيُّ الْحَمِيدُ ۝﴾ [الشورى: ٢٨].

وقال تعالى: ﴿فَانْظُرْ إِلَىٰ آثَرِ رَحْمَةِ اللَّهِ كَيْفَ يُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ ذَلِكَ لَمُحْيٍ الْمَوْتَىٰ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ۝﴾ [الروم: ٥٠].

وقال تعالى: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ يُرْسِلَ الرِّيحَ مُبَشِّرَاتٍ وَلِيَذِيقَكُمْ مِنْ رَحْمَتِهِ وَلِتَجْرِيَ الْفُلُكُ بِأَمْرِهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ۝﴾ [الروم: ٤٦].

وقال سبحانه ﴿وَنَزَّلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً مُبَارَكًا فَأَنْبَتْنَا بِهِ جَنَّاتٍ وَحَبَّ الْحَصِيدِ ۝﴾ [ق] ﴿وَالنَّخْلَ بَاسِقَاتٍ لَهَا طَلْعٌ نَضِيدٌ ۝﴾ [ق] ﴿رِزْقًا لِلْعِبَادِ وَأَحْيَيْنَا بِهِ بَلَدَةً مَيْتًا كَذَلِكَ الْخُرُوجُ ۝﴾ [ق]

فهو رزق للإنسان ورزق للحيوانات والنبات والشجر، أنزله الذي يستحق العبادة دون سواه، ومع ذلك فإن كثيرا من الناس يكفرون بنعم الله عليهم، قال تعالى:

(١) قرأ أبو جعفر بتشديد الياء من (ميتا) مع كسرهما، وقرأ غيره بتخفيفها ساكنة.

٥٠- ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَاهُ بَيْنَهُمْ لِيَذَكَّرُوا^(١) فَأَبَتْ أَكْثَرُ النَّاسِ إِلَّا كُفُورًا^(٢)﴾

الضمير في ﴿صَرَّفْنَاهُ﴾ يعود على المطر على الأرجح، وليس عائداً على السحاب، أو القرآن، كما قال بعضهم.

أي: ولقد أنزلنا هذا المطر في بلد دون بلد؛ ليذكر الذين أنزلنا عليهم المطر نعمة الله عليهم فيشكروه، وليعتبر الذين مُنعوا منه فيسارعوا بالتوبة إلى الله تعالى؛ ليرحمهم ويسقيهم.

عن ابن مسعود رضي الله عنه قال: ما من سنة بأَمْطَر من سنة أخرى، ولكن الله تعالى قَسَمَ الأرزاق، فجعلها في السماء الدنيا، وفي هذا القطر ينزل منه كل سنة بكيل معلوم ووزن معلوم، وإذا عمل قوم بالمعاصي حوّل الله ذلك إلى غيرهم، وإذا عصوا جميعاً صرف الله ذلك المطر إلى الفياضي والقفار^(٣).

وقال ابن عباس رضي الله عنه: ما من عام أقل مطراً من عام، ولكن الله يصرفه حيث يشاء، وقرأ الآية^(٣).

وهذا المطر الذي ينزل من السماء لا ينقطع، ولكنه ينزل في مكان دون غيره، ويقل في مكان ويكثر في غيره، ولقد صرّفنا هذه المياه التي تنزل من السماء بقدرة الله - سبحانه - ، وحوّلنا المطر هنا أو هناك، وهو هنا كثرة وهناك قلة؛ ليشكروا فضل الله عليهم، ويسألوه من فضله، وليعتبروا ويدركوا أن من يُحيي الأرض بعد موتها يحيي الناس بعد موتهم، ولكن أكثرهم يجهلون نعمة الله عليهم، وينسبون المطر إلى العوامل الجوية ونحوها، فمنهم من قال: مُطرنا بفضل الله ورحمته، ومنهم من يقول: مطرنا بنوء كذا وكذا، أي: بالنجم الفلاني، ونحو ذلك، وكله من مظاهر الكفر.

في الحديث: عن زيد بن خالد الجهني رضي الله عنه أنه قال: صلّى بنا رسول الله ﷺ صلاة الصبح بالحديبية في أثر سماء من الليل، فلما انصرف أقبل على الناس، فقال: «هل تدرون ماذا قال

(١) قرأ حمزة والكسائي وخلف بإسكان الذال وضم الكاف مخففة، في (ليذكروا) من الذكر ضد النسيان، وقرأ الباقون بفتح الذال والكاف مع تشديدهما من تذكر، أي: انتبه.

(٢) أخرجه أبو نعيم في «الحلية» (٢٠٨/٧) والبيهقي في «السنن» (٣٦٣/٣) موقوفاً على ابن مسعود.

(٣) أخرجه الطبري بسند صحيح ورجاله ثقات عن سعيد بن جبير عن ابن عباس في التفسير (٢٢/١٩) وصححه الحاكم والذهبي في «المستدرک» (٤٠٣/٢) والبيهقي في سننه (٣٦٣/٣).

ربكم؟ قالوا: الله ورسوله أعلم، قال: «أصبح من عبادي مؤمن بي وكافر، فأما من قال: مُطِرْنَا بفضل الله ورحمته، فذلك مؤمن بي كافر بالكواكب، وأما من قال: مُطِرْنَا بنوء كذا وكذا، فذلك كافر بي مؤمن بالكواكب»^(١).

وكما صرّف الله الماء النازل من السماء صرّف القول، وضرب المثل وكرره ونوّعه في إنشاء السحاب ونزول المطر.

الدليل الرابع: عموم الرسالة الخاتمة

٥١، ٥٢ - ﴿وَلَوْ شِئْنَا لَبعَثْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ نَذِيرًا ﴿٥١﴾ فَلَا تَطِيعُ الْكَافِرِينَ وَجَاهِدْهُمْ بِهِ جِهَادًا كَبِيرًا ﴿٥٢﴾﴾

والله ﷻ في ثنانيا هذه الآيات يبين لرسوله ﷺ أنه - جلّ شأنه - لو أراد أن يبعث في كل قرية رسولاً في هذه الأمة يخفف أعباء الرسالة عن محمد ﷺ لفعل، ولكنه سبحانه قَصَرَ الأمر عليه تعظيماً له؛ ليكون رسولاً إلى الناس كافة، وليكون هو النبي الخاتم إلى يوم القيامة الذي خُتم به الرسل، وخُتمت به النبوة، وخُتم بكتابه الكتب، ولو أن الله تعالى بعث في كل قرية رسولاً لقال المكذبون: لو أن الله تعالى أرسل رسولاً واحداً إلى الناس كافة لكان ذلك أولى! فإن مطاعنهم لا تقف عند حد.

وما دام الأمر كذلك فلا تطع الكافرين فيما يطلبونه منك، ويدعونك إليه، وجاهدهم بهذا القرآن وهذه الرسالة، وقاومهم بصبرك وعزمك ما استطعت إلى ذلك سبيلاً، قال تعالى: ﴿يَتَأْتِيَ النَّبِيَّ جَهْدُ الْكُفَّارِ وَالْمُنَافِقِينَ وَأَغْلَظَ عَلَيْهِمْ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَيَسَّرُ الْمَصِيرُ ﴿٧١﴾﴾ [التوبة، والتحريم: ٩].

فابذل جهدك في نصرة الحق وقمع الباطل، ولو رأيت منهم من التكذيب ما رأيت، ولا تيأس من هدايتهم، ففعل الله أن يهديهم.

(١) «صحيح مسلم» برقم (٧١) والبخاري بأرقام: (٨٤٦، ١٠٣٨، ٤١٤٧، ٧٥٠٣).

الدَّلِيلُ الْخَامِسُ: مَشْهَدُ الْمِيَاهِ الْعَذْبَةِ وَالْمَالِحَةِ وَمَا بَيْنَهُمَا مِنْ حَاجِزٍ

٥٣- ﴿وَهُوَ^(١) الَّذِي مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ هَذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ وَهَذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ وَجَعَلَ بَيْنَهُمَا بَرْزَخًا وَحِجْرًا مَحْجُورًا﴾

أي: وهو تعالى بقدرته خلط البحرين -البحر والنهر-: العذب السائغ الشراب، والملح الشديد الملوحة، وجعل بينهما حاجزًا بمنع كل واحد منهما من إفساد الآخر، ومانعًا من أن يصل أحدهما إلى الآخر، فلا يختلطان ولا يمتزجان، والنهر العذب يصبُّ في البحر الملح، ومع أن البحر أضخم وأغزر، فهو لا يطغى على النهر الذي منه حياة الناس والحيوان والنبات، فالبحر المحيط، والبحر الأحمر، وبحر الصين والهند، وبحر العرب، وغيرها من البحار والمحيطات لا تطغى على الأنهار وهي صغيرة وقليلة بالنسبة لها، حتى في حالات المد وارتفاع المياه ارتفاعًا عظيمًا في النصف الأول من الشهر القمري، وكذا حالات الجزر، ونقص المياه في النصف الثاني من الشهر القمري.

ومن آيات الله - سبحانه - أنه خلط الماء الملح بالماء العذب.

لقد جعل الله بينهما حاجزًا حصينًا، وهذا الحاجز من الأرض اليابسة، أو هو من قدرة الله - سبحانه -، بحيث لا تراه العين، فماء الأنهار يسير جنبًا إلى جنب إلى ماء البحار والمحيطات، ويختلط كل منهما بالآخر، وبينهما فاصل وحاجز من قدرة الله - سبحانه -، كما قال تعالى: ﴿مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ ﴿١٩﴾ يَبْتَهُمَا بَرْزَخٌ لَا يَبْغِيَانِ ﴿٢٠﴾﴾ [الرحمن] أي: لا يبغي أحدهما على الآخر.

ويقال للنهر بحرًا، كما يقال للشروق والغروب: مشرقان أو مغربان، من باب التغليب، وقد سمى الله تعالى البحر والنهر: بحرين، في كثير من آياته، منها هذه الآية وآية سورة الرحمن ١٩ وفاطر ١٢ وغيرها.

يذكر الشيخ الشنقيطي رحمته الله في (أضواء البيان) أنه زار مدينة (سانلويس) سنة ست وستين وثلاث مئة وألف هجرية، واغتسل في نهر السنغال، وفي المحيط الأطلسي، ثم حدثه رجل ثقة أنه وصل إلى نقطة التقاء بين مياه المحيط الأطلسي وبين نهر السنغال، وأخذ

(١) قرأ قالون وأبو عمرو والكسائي وأبو جعفر بإسكان هاء (وهو)، والباقون بضمها.

يغرف بإحدى يديه من المحيط الأطلسي ماءً مِلْحًا أجاجًا، ويغرف باليد الأخرى من نهر السنغال ماءً عَذْبًا فَرَاتًا، هذا إلى جوار هذا، والجميع في مجرى واحد، لا يختلط أحدهما بالآخر!

والحاجز بينهما لا يراه أحد، ولا ينهار، ولا يقلّ مفعوله، بل كما وصفه ربنا بقوله: ﴿وَجَجْرًا تَحْجُورًا﴾ أي: حرام محرّم أن يختلط أحدهما بالآخر، قال تعالى: ﴿وَمَا يَسْتَوِي الْبَحْرَانِ هَذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ سَائِغٌ شَرَابُهُ وَهَذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ﴾ [فاطر: ١٢]. وقال تعالى: ﴿أَمَّنْ جَعَلَ الْأَرْضَ قَرَارًا وَجَعَلَ خِلَالَهَا أَنْهَارًا وَجَعَلَ لَهَا رَوَاسِيَ وَجَعَلَ بَيْنَ الْبَحْرَيْنِ حَاجِزًا﴾ [النمل: ٦١]. سبحان الخلاق العليم!

قال الرازي: ووجه الاستدلال هنا بيّن؛ لأن الحلاوة والملوحة إن كانت بسبب طبيعة الأرض أو الماء فلا بد من الاستواء، وإن لم يكن كذلك فلا بد من قادر حكيم يخصص كل واحد بصفة معينة^(١).

وقال مجاهد في البرزخ الحاجز: هو حاجز لا يراه أحد، لا يختلط العذب بالبحر، ولا يختلط بحر الروم وفارس، وبحر الروم ملح.

وقال ابن جريج: فلم أجد بحرًا عَذْبًا إلا الأنهار العذاب؛ فإن دجلة تقع في البحر، فلا تمر فيه، ويَجْعَلُ فيه بينهما مثل الخيط الأبيض، فإذا رجعت لم يرجع في طريقها من البحر شيء، والنيل زعموا أنه ينصبُّ في البحر^(٢).

وقال قتادة: إن الله حجز الملح عن العذب، والعذب عن الملح أن يختلط بلطفه وقدرته^(٣). وكما أن الله تعالى جعل بين البحرين حاجزًا يحفظ به الماء العذب أن يكدر صفوه الماء الأجاج.

كذلك حجز الله بين المسلمين والمشركين، فلا يستطيع المشركون أن يدشّوا كفرهم بين المسلمين.

(١) «التفسير الكبير» (١٠١/٢٤).

(٢) «تفسير الطبري» (٤٧٤/١٧) وابن أبي حاتم (٢٧٠٩/٨).

(٣) ابن أبي حاتم (٢٧٠٩/٨) معلقًا.

والصهر: اسم لما بين الرجل وأقارب وزوجه وأقاربه من العلاقة الأسرية.

والمصاهرة: تكون من الجهتين، فصهر الرجل قرابة امرأته، وصهر المرأة قرابة زوجها، ولكنه يطلق في الأكثر على أقارب امرأة الرجل، أما أقارب الزوج بالنسبة للمرأة فيقال لهم: **خِثْن**، أو **حَمَّ**.

وسمى ابن عباس رضي الله عنه، الرضاع صهرًا، وهم هؤلاء السبع، ومن قال: إن الصهر خمس أسقط منه الجمع بين الأختين، والمحصنات ذوات الأزواج.

وكان ربك قديرًا على خلق ما يشاء؛ حيث خلق من النطفة ذكرًا وأنثى، وجعل منه قرابة ومصاهرة.

أخرج الإمام أحمد وغيره: أن مبارك الخياط سأل ثمامة بن عبد الله بن أنس عن العزل، فقال: سمعت أنس بن مالك يقول: لو أن الماء الذي يكون منه الولد أهرقته على صخرة لأخرج الله ﷻ منها، أو لخرج منها -الشك من الراوي- ولدًا وليخلقن الله نفسًا هو خالقها^(١).

على أن الماء المذكور في الآية إما أن يراد به: النطفة، وهو الأنسب، وإما أن يراد به: أصل الخلقة باعتبار أن كل حي مخلوق من ماء، والقادر على هذا الخلق هو المستحق للعبادة دون سواه.

عِبَادَةُ اللَّهِ وَحْدَهُ هِيَ مَقْصُودُ هَذِهِ الْأَدِلَّةِ

٥٥- ﴿وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُهُمْ وَلَا يَضُرُّهُمْ وَكَانَ الْكَافِرُ عَلَى رَبِّهِ ظَهِيرًا﴾

وبعد قيام هذه الأدلة الحسية على وحدانية الله تعالى وقدرته، وهي:

- ١- الظلال قبضًا وبسطًا.
- ٢- الليل والنهار راحة ونشورًا.
- ٣- والرياح بشرًا بين يدي رحمته.
- ٤- والأمطار حياة للناس والدواب والنبات.

(١) «المسند» (١٤٠/٣) برقم (١٢٤٢٠) بإسناد ضعيف، لجهالة أبي عمرو والخياط، (محققوه) وأخرجه البزار برقم (٢١٦٣) والضياء في المختارة (١٨٢٠) وابن أبي عاصم في السنة (٣٦٦) وابن أبي حاتم (١٣٣٠) وحسن إسناده الهيثمي في «مجمع الزوائد» (٢٩٦/٤) والألباني في «السلسلة الصحيحة» برقم (١٣٣٣) وصححه السيوطي في «الجامع الصغير» مع «فيض القدير» برقم (٧٤٠٠)، وللحديث طرق وشواهد حسنة.

٥- وعدم خلط مياه البحر المالح بمياه النهر العذب.

٦- وخلق الإنسان من ماء مهين، من الذكر والأنثى.

بعد ذلك بيّن سبحانه أنه مع كل هذه الدلائل على قدرة الله تعالى، وإنعامه على خلقه، فإن الكفار يعبدون من دون الله ما لا ينفعهم إن عبدوه، ولا يضرهم إن تركوا عبادته، من أصنام أو أموات أو كائنات أخرى لا تنفع ولا تضر، ولا تملك موتاً ولا حياة نشوراً، فموجب العبادة إما رجاء نفع المعبود، وإما اتقاء ضره، وكان الكافر في عبادته لغير الله عوناً للشيطان وحزبه على معصية الله سبحانه، والواجب عليه أن يعبد الله وحده ولا يشرك به أحداً.

الرَّسُولُ مُبَلِّغٌ عَنْ رَبِّهِ وَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ

٥٦- ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا﴾

بيّن الله ﷻ في هذه الآية مهمة رسوله ﷺ، فما عليك -يا محمد- إلا البلاغ، ولا تهتم بمن كفر، ولا تذهب نفسك عليهم حسرات حرصاً على هدايتهم، فأنت مبشر للمؤمن بالجنة، ومنذر للكافر بالنار ﴿وَقُلِ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيُكْفُرْ﴾ [الكهف: ٢٩]. وهذه الآية تجمع بين إبطال المكذبين لدعوة النبي ﷺ في قولهم عن القرآن: ﴿إِنْكَ أَقْرَبُهُ﴾، أو ﴿أَسْطَرُ الْأَوَّلِينَ﴾، أو أن الرسول ﷺ ساحر، أو شاعر، أو كاهن، فهي ترد عليهم بأن الله تعالى قد أرسل رسوله مبشراً لمن أطاعه بدخول الجنة، ونذيراً لمن عصاه بدخول النار، وفيها مؤانسة له بآلآ يحزن من تكذيبهم، والرسول ﷺ لا يسأل الناس أجراً على تبليغ الرسالة حتى يمنعهم ذلك من اتباعه، لما يتكلفونه من الغرامة:

٥٧- ﴿قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِلَّا مَنْ شَاءَ أَنْ يَتَّخِذَ إِلَىٰ رَبِّهِ سَبِيلًا﴾ (٥٧)

أي: فأنت -يا محمد- لا تسألهم أجراً على تبليغ الدعوة، ولا تبتغ إلا مرضاة ربك، فمن أراد أن يهتدي بنفسه باتباع دين الإسلام، ويتخذ طريقاً إلى الله بالإيمان، والعمل الصالح، -فليفعل، ومن أراد أن يُنْفَق من ماله في سبيل الله من تلقاء نفسه ابتغاء مرضاة

الله، فليفعل؛ فهو خير له، ولستُ أجبره عليه، وهو من الأجر الذي أريده لكم وأثيبكم عليه، وباب الصدقة والإحسان إلى الناس مفتوح، وأنا لا أمنعكم منه.

وقد ذكر الله - سبحانه - أن جميع الأنبياء لا يسألون الناس أجراً على تبليغ دعوتهم.

قال تعالى عن: نوح، وهود، وصالح، ولوط، وشعيب عليهم الصلاة والسلام:

﴿وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجَرِيَ إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [الشعراء: ١٢٩].

وقال تعالى عن محمد ﷺ: ﴿قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُتَكَلِّفِينَ﴾ [ص: ٨٦].

وقال سبحانه: ﴿قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَىٰ﴾ [الشورى: ٣٣].

شَحَذُ هِمَّةِ الرَّسُولِ ﷺ فِي تَبْلِيغِ الدَّعْوَةِ

٥٨- ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى الْحَيِّ الَّذِي لَا يَمُوتُ وَسَبِّحْ بِحَمْدِهِ وَكَفَىٰ بِهِ بُذُوبَ عِبَادِهِ خَبِيرًا﴾ [٥٨]

أمر الله تعالى رسوله ﷺ أن يجتهد في تبليغ الرسالة معتمداً على الله، ومتوكلاً عليه وحده، فيقول سبحانه لنبيه: امض في سبيل الله على طريق الدعوة إليه، ولا تلتفت إلى دنيا الناس، ولا تتوكل على أحد من خلقه، فهو حسبك، وكافيك، وناصرك، ومظهر دينك على سائر الأديان؛ فإنك إن توكلت على أحد من البشر مات، وتوكلت عليه ينتهي بموته، ولكن الباري سبحانه لا يموت، فمن توكل عليه توكل على حيٍّ لا يموت، ولا ينقطع عنه هذا التوكل.

﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِهِ﴾ أي: صلِّ، واذكر اسم الله تعالى في صلاتك، ونزهه عن الإشراك به، وعن كل ما لا يليق بجلاله، واجمع بين حمده وتسبيحه، كما جاء في الحديث عن أبي هريرة ؓ: «من قال سبحان الله وبحمده في كل يوم مائة مرة، حُطَّتْ خطاياہ ولو كانت مثل زبد البحر»^(١).

وكان ﷺ يقول: «سبحانك اللهم ربنا وبحمدك، اللهم اغفر لي، يتأَوَّل القرآن»^(٢).

(١) من حديث أبي هريرة في «صحيح البخاري» برقم (٦٤٠٥) و«صحيح مسلم» مطوَّلاً برقم (٢٦٩١).

(٢) من حديث عائشة في البخاري برقم (٧٩٤، ٨١٧) ومسلم برقم (٤٨٤).

وفي حديث أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «كلمتان خفيفتان على اللسان، ثقيلتان في الميزان، حبيبتان إلى الرحمن، سبحان الله وبحمده سبحان الله العظيم»^(١).

وفي هذا أمر للأمة بالتخلية قبل التحلية، ومن أراد الإصلاح فليبدأ بإزالة النقص، قال تعالى: ﴿فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ﴾ [هود: ١٢٣].

وقال تعالى: ﴿قُلْ هُوَ الرَّحْمَنُ ءَامَنَّا بِهِ وَعَلَيْهِ تَوَكَّلْنَا﴾ [الملك: ٢٩].

وقال تعالى: ﴿فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ﴾ [آل عمران: ١٥٩].

وهو سبحانه مطلع على أسرار خلقه، وخبير بأحوالهم، وقادر على مجازاتهم، يحاسبهم ويجازيهم يوم القيامة على ذنوبهم، والشرك في مقدمة الذنوب، قال تعالى:

٥٩- ﴿الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ الرَّحْمَنُ فَسَّخَّلَ بِهِ خَيْرًا﴾^(٢)

بين سبحانه في هذه الآية، صفة الإله الذي ينبغي التوكل عليه في سعة علمه، وآثار قدرته، وعظيم مجده، وأنه وحده الجدير بأن يتوكل عليه، ويُفَوِّض الأمر إليه، فهو سبحانه خلق هذا الكون، وقدر في الأرض أقواتها، وخلق ما فيهما وما بينهما من العوالم والمخلوقات في ستة أيام، أي: في مقدار هذا العدد من أيام الدنيا؛ لأنه لم يكن ثمَّ ليل ولا نهار.

وجاء عن مجاهد: أولها يوم الأحد وآخرها يوم الجمعة، وهو سبحانه قادر على أن يخلقها في لحظة، ولكنه - جلَّ شأنه - يعلم خلقه الفرق والتبث.

﴿ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ﴾ أي: علا وارتفع على عرشه، - وهو سقف المخلوقات وأعلاها وأوسعها - استواء يليق بجلاله، بلا كيف، ولا تشبيه، ولا تمثيل، والاستواء على العرش معلوم، والكيف مجهول، والإيمان به واجب، والسؤال عنه فوق العقول. ولا ترجع في طلب العلم إلا إلى الله تعالى، مع بذل الأسباب وعوامل التحصيل،

(١) «صحيح مسلم» برقم (٢٦٩٤) و«صحيح البخاري» برقم (٦٤٠٦) وانظر (٦٦٨٢، ٧٥٦٣).

(٢) قرأ ابن كثير والكسائي وخلف العاشر بنقل حركة الهمزة إلى السين في (فسأل) وصلاً ووقفًا، وكذا حمزة وقفًا، والباقون بالتحقيق.

وهو سبحانه ﴿الرَّحْمَنُ فَسَلِّ بِهِ خَيْرًا﴾ يعرفه.

فإذا أخبرتك -أيها الرسول- بشيء، فاعلم أنه كما أخبرتك؛ فأنا الخبير العالم بصفاتي وعظمتي وجلالي، وإذا سألت الله شيئًا فإنك تسأل خيرًا لا يخفى عليه شيء، وما أخبر به فهو حق وصدق.

وهو سبحانه الحكم، أي: المحكم الذي يرجع الخلق إليه عند تنازعهم ﴿فَإِنْ نُنَزِّلْهُ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ﴾ [النساء: ٥٩]. ﴿وَمَا أَخْلَفْتُمْ فِيهِ مِنْ شَيْءٍ فَحُكْمُهُ إِلَى اللَّهِ﴾ [الشورى: ١٠]. ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا﴾ [الأنعام: ١١٥]. صدقًا في الأخبار، وعدلًا في الأوامر والنواهي، وهو سبحانه الخبير بخلق هذا العالم.

وقد أثبت الله في هذه الآية خلقه للمخلوقات، وعُلوّه فوق عرشه، وإطلاعه على ظواهر الخلق وبواطنهم.

ذَاتُ اللَّهِ وَاحِدَةٌ وَأَسْمَاؤُهُ مُتَعَدِّدَةٌ

٦٠- ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ اسْجُدُوا لِلرَّحْمَنِ قَالُوا وَمَا الرَّحْمَنُ أَنَسْجُدُ لِمَا تَأْمُرُنَا^(١) وَزَادَهُمُ غُورًا ۖ﴾

أي: وإذا طُلب من غير المسلم أن يسجد للرحمن، نفر واستكبر، وازداد هربًا من الحق إلى الباطل، وازداد كفرا وشقاءً، وأنكر لفظ الرحمن وقال: إنه لا يعرفه، وأنتم تُعبدون الآلهة فتقولون: الله والرحمن، فلا نسجد لمجرد أمرك لنا بالسجود.

هذا: ولما وصف الله نفسه بالرحمن في الآية السابقة، بيّن سبحانه في هذه الآية، كُفر المشركين بهذا الوصف، فوصف ﴿الرَّحْمَنُ﴾ من وضع القرآن، ولم يكن معهودًا عند العرب، ولما سمعوه من القرآن أنكروه، وقالوا: نحن لا نعرف إلا رحمن اليمامة: أي: مُسَيَّلَمَةَ الكَذَّاب، بزعمهم.

ولما أملى النبي ﷺ في صلح الحديبية: «باسم الله الرحمن الرحيم» أنكروا ذلك، وقالوا: اكتب اسمك واسم أبيك.

ولما طلب منهم النبي ﷺ السجود للرحمن بتوحيده، وترك عبادة الأوثان، قالوا:

(١) قرأ حمزة والكسائي بياء الغيبة في (تأمرنا)، والباقون بالتاء، والفعل مسند إلى الرسول ﷺ على القراءتين.

أنسجد لما تأمرنا بالسجود له وهو الرحمن؟ فكانوا يقولون: انظروا إلى هذا الصابغ، لقد نهانا أن ندعو إلهين، وهو يدعو الله ويدعو الرحمن، وزادهم هذا القول نفورًا وإعراضًا، وفي هذا قال الله تعالى: ﴿قُلِ ادْعُوا اللَّهَ أَوْ ادْعُوا الرَّحْمَنَ أَيًّا مَا تَدْعُوا فَلَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ﴾ [الإسراء: ١١٠].

وكان المشركون يطوفون بالكعبة، ولما أمروا بإفراد الله تعالى بالعبادة دون غيره أبوا وازدادوا بُعدًا عن الإيمان!

والسجود الذي أمر به المشركون هو شعار الإسلام بالاعتراف له سبحانه بالتوحيد؛ إذ لا فائدة من تكليفهم بسجود الصلاة قبل أن يُسلموا.

ويوم القيامة يُطلب ممن امتنع من السجود لله تعالى في الدنيا أن يسجد في الآخرة، فلا تطاوعه فقرات ظهره، ولا يمكنه السجود؛ حيث يصير ظهره طبقًا واحدًا كصياصي البقر، وهذا من مظاهر عقابه تعالى لهم في الآخرة، كما قال تعالى: ﴿يَوْمَ يُكْشَفُ عَنْ سَاقٍ وَيُدْعَوْنَ إِلَى السُّجُودِ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ﴾ ١٦ خَشَعَةً أَبْصَرُهُمْ رَهَقَهُمْ ذُلٌّ وَقَدْ كَانُوا يَدْعُونَ إِلَى السُّجُودِ وَهُمْ سَلِيمُونَ ﴿١٧﴾ [القلم].

وفي حديث معاذ ؓ لما أرسله النبي ﷺ إلى اليمن قال له: «... فليكن أول ما تدعوهم إليه شهادة أن لا إله إلا الله، وأن محمدًا رسول الله»، ثم قال: «فإن هم أطاعوك لذلك، فأعلمهم أن الله قد افترض عليهم خمس صلوات في اليوم والليلة...» الحديث. ^(١)

وسجود المسلم للتلاوة عند هذه الآية، فيه إظهار المخالفة للمشركين حين أبوا السجود للرحمن.

خَمْسَةٌ مِنْ آثَارِ قُدْرَةِ اللَّهِ تَعَالَى فِي الْكُونِ

٦١- ﴿نَبَارَكُ الَّذِي جَعَلَ فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا وَجَعَلَ فِيهَا سِرَاجًا﴾ ^(٢) وَقَمَرًا مُنِيرًا ﴿١١﴾

هذه خمسة براهين على كمال قدرة الله تعالى في العالمين: العلوي، والسفلي، وهي:

(١) الحديث في البخاري (١٣٩٥، ١٤٩٦) ومسلم (٣١، ١٩) وهو في البخاري أيضًا عن معاذ (١٤٥٨)

عن ابن عباس في صحيح سنن أبي داود (١٥٨٤) ومسلم (١٩).

(٢) قرأ حمزة والكسائي وخلف بجمع (سراجا)، أي: بضم السين والراء من غير ألف، والمراد بها: الشمس والنجوم، والباقون بكسر السين وفتح الراء بعد ألف على الأفراد، والمراد به: الشمس.

البروج الاثنا عشر، والشمس والقمر، والليل والنهار، اشتملت عليها الدعامة الأخيرة من الدعائم الثلاث التي قامت عليها السورة، وافتتح كل منها بقوله تعالى: ﴿تَبَارَكَ الَّذِي﴾.

وقد ذكرت في مقدمة السورة أنها تقوم على ثلاثة دعائم أو عناصر:

الأولى: تتعلق بالوحي والرسالة في قوله تعالى: ﴿تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ﴾ أول السورة.

والدعامة الثانية تتعلق بالبعث والحساب في قوله تعالى: ﴿تَبَارَكَ الَّذِي إِنْ شَاءَ جَعَلَ لَكَ خَيْرًا مِنْ ذَلِكَ﴾.

ومُحْصَل الدعامة الثالثة هي أوصاف عباد الرحمن، ﴿تَبَارَكَ الَّذِي جَعَلَ فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا﴾ وافتتح القرآن ذلك بالثناء على الله تعالى بالخير والبركة؛ لِمَا جعله لخلقه من المنافع في العالم العلوي، والعالم السفلي.

جلّ خير الله، وعظمت بركاته، فهو سبحانه الذي جعل في السماء بروجاً هي: البروج الاثنا عشر التي هي منازل الكواكب السبعة السيارة، ومداراتها الفلكية.

قال ابن عباس ؓ في الآية: هذه الاثنا عشر بُرْجًا أولها: الْحَمَلُ، ثم الثَّوْرُ، ثم الْجُوزَاءُ، ثم السَّرَطَانُ، ثم الْأَسَدُ، ثم السَّنْبَلَةُ، ثم الميزان، ثم العقرب، ثم القوس، ثم الجدي، ثم الدلو، ثم الحوت^(١).

وجعل فيها سراجاً هو الشمس، وقمرًا منيرًا، فالبروج هي الكواكب العظام، والسراج هو الشمس المتوهجة في النهار، والقمر هو المضيء بالليل، قال تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسُ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُورًا﴾ [يونس: ٥].

وقال سبحانه: ﴿أَلَمْ تَرَوْا كَيْفَ خَلَقَ اللَّهُ سَبْعَ سَمَوَاتٍ طِبَاقًا ۖ ﴿١٥﴾ وَجَعَلَ الْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا وَجَعَلَ الشَّمْسُ سِرَاجًا ۖ ﴿١٦﴾﴾ [نوح]. ولكل كوكب بيتان يَتَوَيَّ حاله فيهما:

- ١- بيت الحمل والعقرب: المريخ
- ٢- بيت الثور والميزان: الزهرة.
- ٣- بيت الجوزاء والسنبلة: عطارد
- ٤- بيت القوس والحوت: المشتري.
- ٥- بيت الجدي والدلو: زُحل
- ٦- وللشمس بيت واحد: هو الأسد.

(١) أخرجه الخطيب في كتاب «النجوم» ص ١٤٠.

٧- وللقمر بيت واحد: هو السرطان. والطبائع الأربع مقسومة على هذه البروج:

فالأسد، والحمل، والقوس: نارية - والثور، والسنبلة، والجدي: ترابية.

والجوزاء، والميزان، والدلو: هوائية - والسرطان، والعقرب، والحوت: مائية^(١).

٦٢- ﴿وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ خِلْفَةً لِّمَنۡ أَرَادَ أَن يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ شُكُورًا﴾

وهو سبحانه جعل كلاً من الليل والنهار يخلف الآخر، فلا يجتمعان ولا يرتفعان، وقد جعل الله ذلك لمن أراد أن يتذكر ويعتبر، فيشكر الله تعالى أن جعل له الليل لباساً والنهار معاشاً، ليسكنوا في الليل وليبتغوا من فضله في النهار.

هذا هو مشهد تعاقب الليل والنهار، وهما آيتان ينسأهما الناس؛ لتكرهما كل يوم، وفيهما الكفاية لمن أراد أن يتذكر ويعتبر، أو أراد أن يشكر الله تعالى على نعمه وآلائه، ولولا الليل والنهار، ما أمكنت الحياة على وجه هذه الأرض للإنسان، والحيوان، والنبات.

والكرة الأرضية تدور حول محورها في كل أربع وعشرين ساعة، ولو اختلف تعاقب الليل والنهار، أو زاد طولهما لتعذرت الحياة فوق هذه الأرض، فهو سبحانه جعل كلاً منهما يخلف الآخر، ويكون عوضاً عنه، وفي تعاقبهما تأتي الظلمة والنور، والزيادة والنقصان.

قال شقيق: جاء رجل إلى عمر رضي الله عنه قال: فاتتني الصلاة الليلة، قال: أدرك ما فاتك من ليلتك في نهارك؛ فإن الله تعالى جعل الليل والنهار خلفاً لمن أراد أن يذكر.

فالمعنى: ليتدارك الناس ما فاتهم في الليل؛ بسبب غلبة النوم، أو التعب بالنهار، أو يقضيه بالليل إن شغله عنه شاغل بالنهار.

ورد أن عمر رضي الله عنه أطال صلاة الضحى يوماً، فقليل له: صنعت شيئاً لم تكن تصنعه؟ فقال: إنه بقى عليّ من وردي شيء فأحببت أن أتمّه، أو قال: أقضيه، وتلا الآية ﴿وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ خِلْفَةً﴾^(٢)

أي: كل منهما يخلف الآخر، فهما يتعاقبان في الظلمة والنور، والزيادة والنقصان،

(١) من «تفسير النسفي» للآية بتصرف.

(٢) «مسند الطيالسي»، وابن أبي حاتم (٢٧١٨/٨).

ومن فاته شيء من عمل النهار عمله بالليل، والعكس صحيح، وفي ذلك عبرة وعظة لمن أراد أن يشكر الله سبحانه، ويتقرب إليه بصلاة أو صيام، فيسعد الليل بعمل النهار، ويسعد النهار بعمل الليل.

قال تعالى: ﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ دَائِبَيْنِ وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ﴾ [إبراهيم].

وقال ﷺ في حديث أبي موسى رضي الله عنه: «إن الله ييسط يده بالليل ليتوب مسيء النهار، وييسط يده بالنهار ليتوب مسيء الليل، حتى تطلع الشمس من مغربها»^(١).

ثم امتنَّ الله على عباده الصالحين، فذكر لهم ثلاثة عشر وصفاً، خصَّهم بها ووفقهم إليها، وهي التي أكسبتهم المنازل العالية في غرف الجنات:

صِفَاتُ عِبَادِ الرَّحْمَنِ الثَّلَاثَةُ عَشَرَ

٦٣- ﴿وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا﴾ [الأنعام]

ذكرت السورة في الآيات التالية خصال من يريد أن يذكَّر، فيعتبر ويتعظ من عباد الله المؤمنين، وهم عباد الرحمن، وفي مقدمتهم أصحاب رسول الله ﷺ. والعبودية لله - سبحانه - على نوعين:

عبودية الربوبية: بمعنى أن جميع الخلق مسلمهم وكافرهم، برَّهم وفاجرهم، مربوب لله سبحانه -أي: مخلوق له جلَّ شأنه- وأن الله سبحانه يرزقه ويدبر أمره، فجميع الخلق في هذه العبودية يستوون. ﴿إِنْ كُلُّ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا آتَى الرَّحْمَنِ عَبْدًا﴾ [مریم: ٩٣].

وعبودية الإلهية: بمعنى إفراد العبادة لله وحده، وهي عبودية الأنبياء والأولياء والصالحين من عباد الله.

ومن العبادة: الدعاء، والاستعانة، والاستغاثة، والاستجارة، والذبح، والنذر، وطلب المَدَد، واعتقاد النفع والضرر، وغير ذلك.

وقد شَرَّفَ الله المؤمنين بأن أضافهم إليه وجعلهم عباده، واختار سبحانه لهم اسم

(١) رواه مسلم في صحيحه برقم (٢٧٥٩) من حديث أبي موسى الأشعري.

﴿الَّذِينَ﴾ الذي قال عنه المشركون: وما الرحمن؟ فذكر سبحانه عباد الرحمن، ثم عطف أوصافهم وصفاً بعد وصف، على الابتداء، وجاء الخبر بعد استكمال هذه الأوصاف قرب نهاية السورة، في قوله تعالى: ﴿أُولَٰئِكَ يُجْزَوْنَ الْغُرْفَةَ بِمَا صَبَرُوا﴾ [٧٥]. وهذه الصفات جاءت على أربعة أقسام:

(أ) قسم من التحلي بالكمالات الدينية، وذلك في قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا﴾.

(ب) وقسم من الاستقامة على شرائع الإسلام، وهو قوله تعالى:

﴿وَالَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَمًا﴾ [٦٤]. وقوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ إِذَا أَنْفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا﴾ [٦٧].

(ج) وقسم من التخلي عن ضلالات أهل الشرك، وذلك في قوله تعالى:

﴿وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ﴾ [٦٨].

(د) وقسم من طلب الزيادة في هذه الدنيا، وذلك في قوله تعالى:

﴿وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا فُرَّةً أَعْيُنَ﴾ [٧٤].

وسورة (الفرقان) ذكرت في أولها شبه المشركين على القرآن الكريم، وعلى صاحب الرسالة صلوات الله وسلامه عليه، وأعقبت ذلك بأمثلة من مصارع المكذبين. وفي نهاية السورة ذكرت أوصاف عباد الرحمن، في ثلاث عشرة صفة:

الصفة الأولى: التواضع:

﴿وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا﴾

أي: إنهم متواضعون لله ولخلقه، فهم أهل وقار وسكينة، غير متكبرين، يمشون على الأرض، أو في مراكبهم التي يركبونها من مختلف وسائل المواصلات: سيارات أو قطارات أو دراجات أو غير ذلك، فهم يمشون على الأرض في رفق ولين، من غير تكبر، ومن غير تكلف ولا تصنع، ولا فخر، ولا خيلاء، ويمشون في قوة من غير صلَف ولا تبختر، فقد كان النبي ﷺ يمشي كأنه ينحط من صَبَب، أي ينحدر من مكان مرتفع، وكان عليه الصلاة والسلام يمشي في سرعة، كأن الأرض تُطوى له - صلوات الله وسلامه عليه - وقد رأى عمر رضي الله عنه رجلاً يتبختر في مشيته فقال: إن البختره مشية تُكره إلا في سبيل الله.

وقال لقمان لابنه: ﴿وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ﴾ (١٩) وَأَقْصِدْ فِي مَشْيِكَ ﴿[لقمان: ١٩، ١٨]

كن متوسطا سواء أكنت على قدميك أم في سيارة أم على دراجة أو دابة ونحو ذلك .
والمشي الهون هو الذي ليس فيه ضرب بالأقدام، أو خفق بالنعال، فهو مخالف لمشي الجبارين المعجبين بأنفسهم وقوتهم، وهذا الهون ناشئ عن التواضع وحسن الخلق، والحلم والوقار، ليس فيه ثقيل أو تصنع كالمرضى، وذلك بالنسبة للشخص العادي، وليس فيه إسراع حثيث يُخل بالوقار، ويذهب بهاء الوجه، بل يكون رفقا وقصداً، من غير استكبار ولا مرح ولا أشر ولا بطر

وقد كره الإسلام الإسراع في المشي حتى لمن أقدم على صلاة الجماعة، ففي الحديث عن أبي قتادة عن أبيه قال: بينما نحن نصلي مع النبي ﷺ إذ سمع جلبة رجال، فلما صلى قال: «ما شأنكم؟» قالوا: استعجلنا إلى الصلاة، قال: «فلا تفعلوا، إذا أتيتم الصلاة فعليكم بالسكينة، فما أدركتم فصلوا، وما فاتكم فأتموا»^(١)

والتحلي بخلق التواضع في المشي مظهر من مظاهر التخلق بالرحمة؛ لأن الرحمة ضد الشدة، والهون يناسب عباد الرحمن من غير تباطؤ أو تمارض.

رأى عمر رضي الله عنه رجلاً، أو شاباً يمشي رويداً، أي: قليلاً بطيئاً، فسأله: أأنت مريض؟ قال: لا، فعلاه بالدرة، وقال له: امش بقوة، أي: في رفق ولين من غير تكبر.

وفي الحديث: عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «بينما رجل يمشي في حلة، تعجبه نفسه، مرجل جُمته؛ إذ خسف الله به، فهو يتجلجل إلى يوم القيامة»^(٢).

فلا تضرب الأرض بقدميك إن كنت راجلاً، ولا (تفحط) بسيارتك إن كنت راكباً ﴿وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا إِنَّكَ لَن تَخْرِقَ الْأَرْضَ وَلَن تَبْلُغَ الْجِبَالَ طُولًا﴾ (٢٧) [إسراء].

ولا تخرق صفوف الناس، ولا تتقدم على من هو أكبر منك سناً، سيما والدك ومعلمك، وراعي العجزة والمرضى، ولا تغتر بشبابك وقوتك وصحتك، فالأيام دول.

(١) أخرجه البخاري برقم (٦٣٥) ومسلم برقم (٦٠٣).

(٢) من حديث أبي هريرة في البخاري (٥٧٨٩) ومسلم (٢٠٨٨).

الْصِّفَةُ الثَّانِيَّةُ مِنْ صِفَاتِ عِبَادِ الرَّحْمَنِ: الْحِلْمُ

﴿وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا﴾

أي: إنهم إذا جَهِل عليهم سفيه أو جاهل لا يُقابِلون السيئة بمثلها، وإنما يقابلونها بالإحسان والمعروف من القول، ويردُّون عليها بقول لا إثم فيه، فهم لا يجهلون على أحد، وإن جهل عليهم أحد لا يجهلون عليه، ويقولون له قولاً يَسْلَمُونَ فيه من الإثم، كما قال تعالى: ﴿وَإِذَا سَمِعُوا اللَّغْوَ أَعْرَضُوا عَنْهُ وَقَالُوا لَنَا أَعْمَلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَلُكُمْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ لَا نَبْنِئُ الْجَاهِلِينَ﴾ (٥٥) [القصص].

والجهل هنا: ضد الحلم، وعدم التناول على الناس، فإن كان الذي يسبُّه أو يشتمُّه غير سفيه، أو غير جاهل، أو غير ضعيف، وكان يفعل ذلك من منطلق القوة، فإن الإسلام لا يؤاخذه في هذه الحالة أن ينتصر لنفسه، قال تعالى: ﴿وَلَمَنْ أَتَصَرَّ بَعْدَ ظُلْمِهِ فَأُولَئِكَ مَا عَلَيْهِمْ مِنْ سَبِيلٍ﴾ (١) ﴿إِنَّمَا السَّبِيلُ عَلَى الَّذِينَ يَظْلِمُونَ النَّاسَ وَيَبْغُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ (٢) [الشورى].

فالإسلام لا يرضى قبول الضيم أو الذل من الآخرين، وإنما يشرع للمسلم أن يدفع هذا الذل وهذا الضيم عن نفسه، وقد بيَّن النبي ﷺ أن الملك يردُّ على من شتم قائلاً: «بل أنت، وأنت أحق به»^(١)، فإذا ردَّ عليه المظلوم تخلَّى عنه الملك. والرجل المسبوب هو أبو بكر .

كما جاء في مصنف عبدالرزاق (٢٠٢٥٥) وفي مسند أحمد (٩٦٢٤) عن أبي هريرة ؓ وفيه أن رجلاً شتم أبا بكر ؓ والنبي ﷺ جالس، فجعل النبي ﷺ يعجب ويتسم، فلما أكثر، رد عليه بعض قوله، فغضب النبي ﷺ وقام، فلحقه أبو بكر وسأله، فقال له: «إنه كان معك ملك يردُّ عليه، فلما رددت عليه وقع الشيطان، فلم أكن لأفُعد مع الشيطان» وهو حديث حسن لغيره.

وفي كلام جميل للحسن البصري: إن المؤمنين قوم ذلَّتْ منهم الأسماع والأبصار

(١) راجع الحديث في «المسند» عن النعمان بن مقرن المُرْزِي قال: قال رسول الله ﷺ وسب رجل رجلاً عنده ... الحديث (٤٤٥/٥) قال الهيثمي في «مجمع الزوائد» (٧٥/٨): رجاله رجال الصحيح غير أبي خالد الوالي وهو ثقة، وقال محققو «المسند» (٢٣٧٤٥): حسن لغيره، وحسنه ابن كثير في تفسيره (١٣٢/٦).

والجوارح، تحسبهم مرضى وهم أصحاب، ولكن الخوف من الله قد دخل قلوبهم، ومنعهم من الدنيا علمهم بالآخرة، فقالوا: الحمد لله الذي أذهب عنا الحزن، والذي أحزنهم هو ما تعظم في نفوسهم من طلب الجنة، والبكاء من خوف النار، فإن من لم يتعزَّ بعزاء الله تقطعت نفسه على الدنيا حسرات، ومن لم يعرف نعمة الله إلا في مطعمه وشربه فقد قل علمه، وحضر عذابه^(١).

عباد الرحمن يخاطبون غيرهم بخطاب يَسْلَمُونَ فيه من الإثم، ويسلمون من مقابلة الجاهل بجهله، ويقابلون القول السيء بالقول الحسن.

الصفة الثالثة: قيام الليل

٦٤- ﴿وَالَّذِينَ يَسْتَوُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَامًا﴾

وعباد الرحمن لا يقضون ليلهم في سمر ولغو وعبث، إنما يقضونه سُجَّدًا وقِيَامًا لله ﷻ في ذكر وتسييح وعبادة ﴿نَتَجَافَى جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا﴾ [السجدة: ١٦].

﴿كَانُوا قَلِيلًا مِّنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ﴾ ٧٧ ﴿وَبِالْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾ ٧٨ [الذاريات].

﴿أَمَّنْ هُوَ قَنِيتٌ ءَانَاءَ اللَّيْلِ سَاجِدًا وَقَائِمًا يَحْذَرُ الْآخِرَةَ وَيَرْجُوا رَحْمَةَ رَبِّهِ﴾ يخاف من عذاب الله، ويرجو رحمة ربه، هل يستوي هذا مع غيره؟ ﴿هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُوا الْأَلْبَابِ﴾ [الزمر: ٩].

ذكر ابن عباس ؓ أن المرء إذا صلى ركعتين فأكثر، بعد العشاء، فقد بات ساجدًا قائمًا لله تعالى، ومن قرأ شيئًا من القرآن في صلاة وإن قل، فقد بات ساجدًا قائمًا، سواء أ نام قبل الصلاة أم لا.

وجاء في صحيح مسلم، وغيره: عن عثمان بن عفان ؓ أن النبي ﷺ قال: «من صلى العشاء في جماعة كان كقيام نصف الليل، ومن صلى الصبح في جماعة فكأنما صلى الليل كله»^(٢).

(١) يُنظَر هذا المعنى في: «تفسير ابن كثير» (١٢٢/٦).

(٢) «صحيح مسلم» برقم (٦٥٦) وعبد بن حميد (٥٠) والترمذي (٢٢١) والبيهقي (٤٠٣) وابن خزيمة (١٤٧٣) و«المسند» (٤٠٨) وإسناده صحيح على شرط مسلم، ورجاله ثقات. (محققه).

فالذي يصلي العشاء والفجر في جماعة كأنما قام الليل كله، ومن صلى الصبح في جماعة فهو في ذمة الله حتى يُمسي.

وفي حديث جُنْدُب بن عبد الله رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «من صلى الصبح فهو في ذمة الله، فلا يطلبنكم الله من ذمته بشيء، فيُدرکه، فيکبه في نار جهنم»^(١).

والمراد: صلى الصبح في وقتها مع الجماعة.

قال الحسن: لما فرغ من وُضْعِ نهارهم، وُصِفَ في هذه الآية ليلهم.

وقال الفخر الرازي: لما ذكر سيرتهم في النهار من وجهين: ترك الإيذاء، وتحمل الأذى، بين هنا سيرتهم في الليل، وهو اشتغالهم بخدمة الخالق^(٢).

والخلاصة: أن من صلى العشاء، والشفع، والوتر، فهو داخل في عموم الآية.

وفي الحديث عن أبي هريرة رضي الله عنه: «أقرب ما يكون العبد من ربه وهو ساجد فأكثرُوا من الدعاء»^(٣).

الصِّفَةُ الرَّابِعَةُ: الْخَوْفُ مِنَ النَّارِ

٦٥، ٦٦ - ﴿وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ إِنَّكَ عَذَابُهَا كَانَ غَرَامًا ﴿٦٥﴾ إِنَّهَا سَاءَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا ﴿٦٦﴾﴾

وعباد الرحمن مع كثرة عبادتهم وقيامهم الليل، فإنهم يخافون عذاب الآخرة، ويسألون ربهم أن يصرف عنهم عذابها، ويدفعه عنهم بالعصمة من أسبابه، ومغفرة ما وقع منهم مما يقتضي العذاب، ويدعون تضرعا وخفية أن يبعدهم عنها، فهم -مع طاعتهم- خائفون من عذابها ﴿إِنَّكَ عَذَابُهَا كَانَ غَرَامًا﴾ أي: ملازمًا للإنسان الكافر، مهلكًا له، وهو شر قرار وشر إقامة؛ لأنه يلزم صاحبه، ولا ينفك عنه، كما قال تعالى: ﴿كَلَّمَاجَبَّتْ زِدْنَهُمْ سَعِيرًا﴾ [الإسراء: ٩٧].

(١) «صحيح مسلم» برقم (٦٥٧).

(٢) «التفسير الكبير» (١٠٨/٢٤).

(٣) «صحيح مسلم» (٤٨٢) وأبو داود (٨٧٥) و«المسند» (٩٤٦١) إسناده صحيح على شرط مسلم، ورجاله ثقات، وابن حبان (١٩٢٨) و«السنن الكبرى» للنسائي (٧٢٧)، والطبراني في الدعاء (٦١٣) والبغوي (٦٥٨).

وقال: ﴿فَذُوقُوا فَلَنْ نَزِيدَكُمْ إِلَّا عَذَابًا﴾ [النبا: ٣٠]. والمراد بصرف العذاب عنهم: إنجاؤهم منه بتوفيقهم للعمل الصالح، وتوفير أسبابه، واجتناب السيئات، كما قال تعالى: ﴿فَمَنْ رُحِنَ عَنِ الْكَارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ﴾ [آل عمران: ١٨٥].

قال محمد بن كعب القرظي: إن الله تعالى سأل الكفار ثمن نعمته فلم يؤدوه، فأغرهم الله بالبقاء في النار.

وعقب التشهد في كل صلاة يسأل المسلم ربه، ويدعوه مبتهلاً إليه أن يصرف عنه عذاب جهنم، وعذاب القبر: «اللهم إني أعوذ بك من عذاب جهنم، ومن عذاب القبر، ومن فتنه المحيا. وفتنة الممات، وفتنة المسيح الدجال»^(١).

قال الحسن: خشعوا بالنهار، وتعبوا بالليل فرقاً -أي: خوفاً- من عذاب جهنم، لقد علموا أن كل غريم يفارق غريمه إلا غريم جهنم.

ثم ذمَّ الله تعالى جهنم بأنها بُسِّتَ مقامًا ومستقرًا لمن يقيم فيها، من المكذبين لرسول الله، ويحتمل أن يكون هذا من كلامهم، وهو تعليل آخر من عباد الرحمن في دعائهم، وفي تضرعهم لله تعالى أن يصرف عنهم عذاب جهنم، لأنه ليس في طاقتهم تحمُّل عذابها، وهل هناك أسوأ من جهنم مكانًا يقيم فيه الإنسان، ثم أين الإقامة، وأين الاستقرار، وهو يتقلب في نار جهنم ليل نهار؟! ﴿كُلَّمَا نَفِخَتْ جُلُودُهُمْ بِدَلَنَهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا الْعَذَابَ﴾ [النساء: ٥٦]. وقال تعالى: ﴿الَّذِي يَصِلُ النَّارَ الْكُبْرَى﴾ (١٧) ثُمَّ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَى ﴿[الأعلى].

وصرف هذا العذاب عن عباد الرحمن، فيه منة من الله تعالى عليهم ورحمة بهم.

الْصِّفَةُ الْخَامِسَةُ مِنْ صِفَاتِ عِبَادِ الرَّحْمَنِ الْقَصْدُ وَالْأَعْتِدَالُ فِي النِّفَقَةِ

٦٧- ﴿وَالَّذِينَ إِذَا أَنْفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا﴾^(٢) وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَامًا ﴿٦٧﴾

(١) ينظر حديث ابن عباس في سنن أبي داود (١٥٤٢) وهو في صحيح مسلم (٥٩٠) والترمذي (٣٤٩٤) والنسائي (٤/١٠٤) وابن حبان (٩٩٩) وابن ماجه (٣٨٤٠) والمسند (٢١٦٨) بإسناد صحيح على شرط مسلم. (محققه).

(٢) قرأ نافع وابن عامر وأبو جعفر بضم الياء وكسر التاء من (يقتروا) مضارع أقتر، وقرأ عاصم وحمزة والكسائي وخلف بفتح الياء وضم التاء، مضارع قتر، وقرأ الباقون وهم ابن كثير وأبو عمرو ويعقوب بفتح الياء وكسر التاء.

من أوصاف عباد الرحمن: أنهم لا يتجاوزون في النفقة الواجبة والمستحبة، فيكونون من أهل التبذير والإسراف، ولا ييخلون فيها فيكونون من أهل التقدير والشح، وخير الأمور الوسط.

وذلك أن النفقة في الأمور المحرمة مذمومة مطلقاً، ولو كانت قرشاً واحداً، ومن ذلك التدخين ونحوه. أمّا النفقة الواجبة على: الأهل، والأبناء، والآباء، والضيوف، ومنها النفقة الواجبة في الزكاة والكفارات والنذور ونحوها، وكذا النفقة المستحبة في أبواب البر والخير، فالمطلوب فيها هو: الاعتدال والتوسط، فلا يزيد المسلم عن مستواه الاجتماعي، ودخله الذي يملكه، فلا يكن شحيحاً بخيلاً مقتراً على نفسه وأهل بيته، ولا مسرفاً مبدراً زائداً عن الحد.

فعباد الرحمن يضعون النفقات في مواضعها الصالحة، كما أمرهم ربهم؛ حتى يدوم حاله ومستواه.

فالإسراف: هو تجاوز الحد في النفقة، ولو في وجوه الحلال، بحسب حال المنفق إنفاقهم، فخير الأمور أدومها وإن قل، وتوسط كل إنسان في النفقة بحسب وحال المنفق عليه. قال عمر رضي الله عنه: كفى بالمرء سرفاً أن يأكل كل ما يشتهي.

وكان أصحاب النبي ﷺ يأكلون لسدّ جوعتهم، ويلبسون لستر عورتهم، ولا يأكلون تلذذاً وتنعمًا، ولا يلبسون تجملاً وتزيئاً، مع وجود الإمكانات، وحسن الحال عند كثير منهم.

ولمّا سأل عبد الملك بن مروان، عمر بن عبد العزيز - رحمهما الله - وهو يزوجه ابنته، سألته عن نفقته - أي: كيف يُنفق - فقال: السيئة بين الحسنتين، يعني: أنه متوسط، فعرف عبد الملك أنّ عمر أراد معنى هذه الآية ﴿لَمْ يَسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا﴾ وكان الإنفاق بين ذلك حدّاً وسطاً، كما قال تعالى: ﴿وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَّحْسُورًا﴾ [الإسراء: ٢٩].

والتقدير: هو التضييق في النفقة الواجبة، كالذي يُضيق على نفسه وعلى أهله في الضرورات، وهذا الإنفاق يختلف باختلاف أحوال الناس، كما قال تعالى: ﴿لِيُنْفِقْ ذُو سَعَةٍ مِّن سَعَتِهِ﴾ أي: كلٌّ على قدر ما أعطاه الله وقال سبحانه: ﴿وَمَن قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُ فَلْيُنْفِقْ

مِمَّا عَاتَنَهُ اللَّهُ لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا مَّا عَاتَنَهَا ﴿٧﴾ [الطلاق: ٧].

وخص بعضهم الإسراف بالنفقة في المعصية، والتقتير بمنع حق الله في الزكاة والصدقة.
قال مجاهد: لو أنفقت مثل جبل - أبي قبيس - ذهباً في طاعة الله ما كان سرفاً، ولو أنفقت صاعاً في معصية الله كان سرفاً^(١).

وقال قتادة: الإسراف: النفقة في معصية الله، والإقتار: الإمساك عن حق الله. وأظهر الأقوال في ذلك أن عباد الرحمن ليسوا بمبذرين في إنفاقهم، فيصرفون فوق الحاجة، ولا بخلاء على أهلهم، فيقصرّون في حقهم، فلا يكفونهم، بل عدلاً خياراً، وخير الأمور أوسطها، لا هذا ولا هذا^(٢).

والإنفاق الواجب، لا يُذمّ التوسع فيه، والإنفاق الحرام، لا يُحمد مطلقاً. فالمسلم متوسط في النفقة المشروعة، لا يُسرف ويتجاوز، ولا يبخل ويقتّر، بل يكون وسطاً بينهما، وهذا في نفقة الطاعات والمباحات، أما نفقة المعاصي فقد حظر الشرع قليلها وكثيرها.

الصِّفَةُ السَّادِسَةُ: حِفْظُ الدِّينِ

٦٨، ٦٩ - ﴿وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ يَلْقَ أَثَامًا ﴿٦٨﴾ يُضَاعَفُ^(٣) لَهُ الْعَذَابُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ وَيَخْلُدُ فِيهِ^(٤) مُهَانًا ﴿٦٩﴾﴾

يُبين سبحانه أن من شأن عباد الرحمن التخلي عن المعاصي والمفاسد التي هي ملازمة

(١) «تفسير الطبري» (٢٣/١٩).

(٢) «تفسير ابن كثير» (١٢٣/٦).

(٣) قرأ ابن عامر وشعبة برفع الفاء من (يضاعف) والدال من (يخلد) على الاستئناف أو الحال من فاعل (يلق)، وقرأ الباقر بالجزم فيهما، على أن (يضاعف) بدل اشتغال من (يلق) و(يخلد) معطوف عليه، وقرأ ابن كثير وابن عامر وأبو جعفر ويعقوب (يضعّف) بتشديد العين وحذف الألف، وقرأ الباقر بتخفيف العين وإثبات الألف.

(٤) قرأ ابن كثير وحفص بصلة هاء الضمير من (فيه مهانا) وقد خالف حفص أصله في هذا الموضع فقط في القرآن، حيث يقرأ بعدم الصلة فيما سواه كبقية القراء عدا ابن كثير.

لأهل الكفر، ولمّا كان الشرك بالله تعالى، وقتل النفس، والزنى أقبح خصال الناس، فقد تخلّى عنها أهل الإيمان كما تحلّوا بالطاعات.

وفي هذه الآية إخراج لعباد الرحمن من صفات الكفرة، في عبادتهم للأوثان، وقتل النفس، والزنى، ويدخل فيها عصاة المؤمنين الذين يرتكبون بعض الكبائر، ثم يتوبون.

ومن صفات عباد الرحمن: أنهم يتوجهون إلى الله وحده بالعبادة، ولا يشركون معه غيره، ولا يتوسطون إليه بأحد من خلقه حيّاً أو ميتاً، فهم يوحدون الله تعالى، ولا يعبدون إلهاً غيره، ويسلمون وجوههم إليه سبحانه في عقيدتهم وعبادتهم.

الصفة السابعة: حفظ النفس

﴿وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ﴾

إن عباد الرحمن يجتنبون كبائر الذنوب، وفي مقدمتها قتل النفس التي حرم الله قتلها إلا بالحق، وهذا الحق بيّنه النبي ﷺ في الحديث الصحيح: عن ابن مسعود ؓ أن رسول الله ﷺ قال: «لا يحل دم امرئ مسلم يشهد أن لا إله إلا الله، وأني رسول الله إلا بإحدى ثلاث: الثيب الزاني» وهو الذي زنى بعد أن سبق له الزواج، سواء أكان متزوجاً حال الزنى أم لا، أي: زنى بعد زواج وإحصان «والنفس بالنفس» أي: الذي قتل غيره متعمداً فإنه يُقتل قصاصاً «والتارك لدينه» وهو المرتد «المفارق للجماعة»^(١).

والقصاص في هذه الأحوال وغيرها يكون لولي الأمر، وليس لأفراد الناس، ولا لصاحب الحق، إنما ولي الأمر، أو من ينوبه، هو الذي يتولى التنفيذ، فالحق الموجب للقتل هو: كفر بعد إيمان، أو زنى بعد زواج، أو قتل نفس عدواناً، أو سعى في الأرض بالفساد بالنسبة لحد الحراة.

وصحّ عن رسول الله ﷺ فيما يرويه عبد الله بن مسعود ؓ أنه سُئل: أي الذنب أكبر؟ فقال عليه الصلاة والسلام: «أن تجعل لله نداً وهو خلقك»، قيل: ثم أي؟ قال: «أن تقتل ولدك مخافة أن يطعم معك» ومنه تحديد النسل، أو تنظيمه خوف الفقر، قيل: ثم أي؟

(١) «صحيح مسلم» برقم (١٦٧٦) و«صحيح البخاري» برقم (٦٨٧٨).

قال: «أن تزاني حليلة جارك»^(١) أي: زوجة جارك، ونزلت هذه الآية تصديقًا لقول الرسول ﷺ.

الصفة الثامنة: حفظ النسل

﴿وَلَا يَزْنُونَ﴾

ومن أوصاف عباد الرحمن أنهم يحفظون فروجهم من الزنى إلا من أزواجهم، أو ما ملكت أيماهم، ولا يرتكبون جريمة الزنى؛ فإن من أفحش الذنوب أن يستحل العبد فرجًا حرمه الله عليه، ونهاه عنه، فقال: ﴿وَلَا تَقْرُبُوا الزِّنَىٰ إِنَّهُ كَانَ فَحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلًا﴾ [الإسراء: ٣٢]. فهم يحفظون فروجهم إلا على أزواجهم أو ما ملكت أيماهم.

عن سلمة بن قيس رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ في حجة الوداع: «ألا إنما هن أربع: أن لا تشركوا بالله شيئًا، ولا تقتلوا النفس التي حرم الله إلا بالحق، ولا تنزوا، ولا تسرقوا»^(٢). فما أنا اليوم بأشح مني يوم سمعتهن من رسول الله ﷺ.

وجاء في الأثر: إن الله ينهك أن تعبد المخلوق وتدع الخالق، وينهك أن تقتل ولدك وتغزو كلبك، وينهك أن تزني بحليلة جارك. قال سفيان: وهو قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ﴾^(٣).

والزنى ذنب عظيم، ولكنه يكون أعظم إذا كان بزوجة الجار، أو الصديق، أو المؤتمن على بيته.

فقد سأل النبي ﷺ أصحابه يومًا كما جاء في حديث المقداد بن الأسود رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «ماذا تقولون في الزنى؟» قالوا: حرمه الله ورسوله، فهو حرام إلى يوم القيامة، فقال رسول الله ﷺ لأصحابه: «لأن يزني الرجل بعشر نسوة أيسر من أن يزني بامرأة

(١) انظر: البخاري برقم (٤٤٧٧، ٤٧٦١، ٦٨١١) ومسلم برقم (٨٦) و«المسند» (٣٨٠/١) ورقم (٣٦١٢)، في المحقق، بإسناد صحيح على شرط الشيخين (محققه) والنسائي في «السنن الكبرى» برقم (١١٣٦٨) (٤١٣١) والترمذي (٣١٨٣). وسعيد بن منصور في سننه (٢٣٠٢).

(٢) النسائي في «السنن الكبرى» برقم (١١٣٠٩) وابن أبي عاصم في السنة (٩٧٠) والطبراني (٦٣١٦)، (٦٣١٧) والحاكم (٣٥١/٤) وقال: صحيح على شرط الشيخين، ووافقه الذهبي، و«المسند» (١٨٩٨٩)، (١٨٩٩٠) إسناده صحيح ورجاله ثقات.

(٣) ذكره ابن أبي حاتم عن أبي فاختة، وفي بعض النسخ عن أبي قتادة، وقد روي مرفوعًا ومرسلًا (٢٧٢٨/٨).

جاره»، قال: «ما تقولون في السرقة»، قالوا: حرّمها الله ورسوله، فهي حرام، قال: «لأن يسرق الرجل من عشرة أبيات أيسر عليه من أن يسرق جاره»^(١).

وتعظيم حرمة الجار لأنه مؤتمن على جاره، قال الشاعر العربي:

وأغضّ طرفي إن بدت لي جارتني حتى يوارى جارتني مأواها
وهذا لا يغض طرفه، وإنما يعتدي على محارم الله، وعلى زوجة جاره.

جاء في أسباب النزول: عن ابن عباس رضي الله عنه: أن ناسًا من أهل الشرك قتلوا فأكثروا، وزنوا فأكثروا، ثم جاؤوا لرسول الله صلى الله عليه وسلم قالوا له: يا محمد، إن ما تقول وتدعو إليه لَحَسَن، أي: إن هذه الدعوة وهذه الرسالة والوحي الذي تدعو إليه أمر حَسَن، لو كان لِمَا فعلناه في الماضي من القتل والزنى كفارة؟ فأنزل الله الآية: ﴿وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ﴾ إلى آخرها، ونزل: ﴿قُلْ يَعْبادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا﴾ [الزمر: ٥٣].

وبعد ذكر هذه القبائح الثلاث، قال تعالى: ﴿وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ يَلْقَ أَثَامًا﴾.

أي: ومن يرتكب شيئًا من هذه الكبائر الثلاث يلق في الآخرة عقابًا مناسبًا له.

جاء في الأثر: إن الغيِّ والآثام بثران في جهنم، يسيل فيهما قبح وصيد أهل النار^(٢).

والمشار إليه في الآية: مَنْ يفعل مجموع هذه الثلاثة، وهي: الشرك، والقتل، والزنى ومات دون توبة.

ثم فسر سبحانه هذه العقوبة، وبيّن أن سبب تضعيف العذاب أنه تعالى يعاقب على الشرك، ويعاقب على ارتكاب القتل، وعلى ارتكاب الزنى، فهو عذاب مضاعف؛ لأنه يُعذب على كل ذنب.

(١) «المسند» (٨/٦) عن المقداد بن الأسود، قال الهيثمي في «مجمع الزوائد» (١٦٨/٨): رجاله ثقات ورقمه في المسند (٢٣٨٥) بإسناد جيد، وأخرجه البخاري في الأدب المفرد (١٠٣) وفي التاريخ الكبير (٥٤/٨) والطبراني في الكبير ٢٠ (٦٠٥) وفي الأوسط (٦٣٢٩) واستدل به الحافظ في الفتح، وقد صححه الألباني في صحيح الترغيب والترهيب برقم (٢٤٠٤).

(٢) يُنظر: «تفسير الطبري» (٥١٣/١٧).

أما الخلود في جهنم فهو خاص بمن مات على الشرك، وهذا الخلود مصحوب بالذل والهوان، وما عدا الكفر من المعاصي لا يوجب الخلود في النار؛ وهذا ما يدل عليه النصوص القرآنية والسنة النبوية، وأن جميع المؤمنين يخرجون من النار، ولا يخلد فيها مؤمن، مهما فعل من المعاصي، فالمشرك يعذب على شركه، ويُعذب على كل ذنب آخر اقترفه عذاباً يناسب ذنبه، ولا يكتفي بالعذاب الأكبر؛ لأن الإسلام يدعو الناس إلى الإقلاع عن الشرك، وعن جميع المعاصي، وهذا معنى أن الكفار مخاطبون بفروع الشريعة، أي: معاقبون على ما ارتكبه من النواهي، وعلى القول بأنهم غير مخاطبين بفروع الشريعة، فإن من مات منهم على الكفر يخلد في النار لكفره.

قال تعالى: ﴿وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ﴾ أي: من يفعل هذه الثلاث: الشرك، والقتل، والزنى، وهي أمهات الكبائر، فإنه يلقى عقوبة صارمة.

وقيل: إن (آثام) اسم لواذ في جهنم يضاعف له العذاب فيه يوم القيامة.

وكانت مضاعفة العذاب لأنه ضمَّ إلى الشرك: القتل، أو الزنى، أو كليهما، ولكل منهما عقوبة مستقلة، ويخلد في العذاب، لأنه مشرك، وقد قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ﴾ [النساء: ٤٨، ١١٦] إذا مات على شركه، فإذا تاب من شركه قبل الموت فإن الله يتوب عليه ﴿قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ يَنْتَهُوا يُغْفَرْ لَهُمْ مَا قَدْ سَلَفَ﴾ [الأنفال: ٣٨].

وقد خصت هذه الثلاث بالذكر، لأن في الشرك فساد الأديان، وفي القتل فساد الأبدان، وفي الزنى فساد الأعراض.

التَّوْبَةُ مِنَ الْكَبَائِرِ

٧٠- ﴿إِلَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَالِحًا فَأُولَٰئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا﴾ (٧٠)

استثنى الله - سبحانه - من مضاعفة العذاب، ومن الخلود في نار جهنم، مَنْ تاب إلى الله تعالى قبل موته، وآمن بالله سبحانه، وأكثر من العمل الصالح، فهؤلاء الذين اجتمع فيهم هذه الصفات يبدل الله سيئاتهم حسنات.

قال ابن عباس رضي الله عنه: ﴿وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ

وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ يَلْقَ أَثَامًا ﴿٧٨﴾ يُضَاعَفْ لَهُ
الْكَذَابُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ وَيُخْلَدْ فِيهِ مُهَانًا ﴿٧٩﴾ حتى نزل بعد مدة طويلة: ﴿إِلَّا مَنْ تَابَ﴾.
قال ابن عباس ؓ: فما رأيتُ رسول الله ﷺ فرح بشيء كفرحه بها، وفرحه بقوله تعالى:
﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُبِينًا ﴿١﴾ لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَيَهْدِيكَ صِرَاطًا
مُسْتَقِيمًا ﴿٢﴾ وَيُصْرِكَ اللَّهُ نَصْرًا عَزِيزًا ﴿٣﴾﴾^(١) [الفتح].

فالله سبحانه يقبل التوبة حتى من الكافر، قال تعالى عمن أشركوا بالله، فقالوا: عزيز
ابن الله، ومن قالوا: المسيح ابن الله، حاثًا لهم على التوبة: ﴿أَفَلَا يَتُوبُونَ إِلَى اللَّهِ
وَسْتَغْفِرُونَ﴾ [المائدة: ٧٤].

عن سعيد بن جبير قال: قال ابن أبيزى: سأل ابن عباس عن قوله تعالى: ﴿وَمَنْ يَقْتُلْ
مُؤْمِنًا مُتَعَمِّدًا﴾ وقوله: ﴿وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ﴾ حتى بلغ ﴿إِلَّا مَنْ تَابَ﴾ فقال: لما
نزلت، قال أهل مكة: فقد عدلنا بالله -أي: أشركنا به- وقتلنا النفس التي حرم الله إلا
بالحق، وأتيننا الفواحش، فأنزل الله ﴿إِلَّا مَنْ تَابَ﴾^(٢).

أما المؤمن الذي مات على الإسلام والإيمان وهو مرتكب لبعض الكبائر، فإنه يُعَذَّب
بكبيرته، ثم يكون مصيره إلى الجنة.

في صحيح مسلم وغيره: عن أبي ذر ؓ أن النبي ﷺ قال: «إني لأعلم آخر أهل الجنة
دخولًا، وآخر أهل النار خروجًا منها: رجل يؤتى به يوم القيامة، فيقال: اعرضوا عليه صغار
ذنوبه، وارفعوا عنه كبارها، فتعرض عليه صغارها، فيقال له: عملت يوم كذا: كذا وكذا،
وعملت يوم كذا: كذا وكذا، فيقول: نعم -لا يستطيع أن ينكر من ذلك شيئًا- وهو مشفق
من كبائر ذنوبه أن تعرض عليه، فيقال: إن لك مكان كل سيئة حسنة، فيقول: يارب، قد
عملت أشياء، لا أراها هاهنا»، قال: فلقد ضحك رسول الله ﷺ حتى بدت نواجذه^(٣).

(١) الطبراني في «الكبير» (١٢٩٣٥) وفي «الأوسط» (٥٥٧٩) قال الهيثمي في «مجمع الزوائد» (٧/٧٤):
رواه الطبراني من رواية علي بن زيد عن يوسف بن مهران، وقد وثَّقا، وفيهما ضعف، وبقية رجاله ثقات.

(٢) «صحيح البخاري» برقم (٤٧٦٥)، وصحيح مسلم (١٢٢، ٣٠٢٣).

(٣) «صحيح مسلم» برقم (١٩٠) و(٣١٥) و«المسند» (١٧٠/٥) برقم (٢١٣٩٣، ٢١٤٩٢) بإسناد صحيح
على شرط الشيخين والترمذي (٢٥٩٦) وفي الشماثل (٢٢٩) وأبو عوانة (٤٣٤) والبيهقي في السنن (١٠/
١٩٠) وفي البعث والنشور (٩٨) وفي الأسماء والصفات ص(٥٤).

وتبديل السيئات حسنات يكون في الدنيا بمعنى: أن الله - سبحانه - يغيّر أحواله ويبدّلها، فيبدّل الشرك إيمانًا، ويبدّل النفاق إخلاصًا، ويبدّل الزنى عفة وإحصانًا، ويبدّل المعصية طاعة.

أو يكون في الآخرة بأن يبدّل الله سيئاتهم حسنات، أي: أن يجعل مكان كل سيئة حسنة حين يغفرها له، ويثيبه على السيئة بالجزاء الحسن؛ بسبب توبته النصوح، فيمحو السيئات ويبدّلها حسنات، ويعفيهم من عذاب الذنوب التي تابوا منها؛ فالإسلام يجب ما قبله، والتوبة تجب ما قبلها.

وعطفُ العمل الصالح على الإيمان، إشارة إلى أنه لا يعتد بالأعمال الصالحة إلا مع الإيمان. وكان الله غفورًا لمن تاب وأناب، رحيمًا لعباده، حيث دعاهم إلى التوبة بعد أن بارزوه بأكبر المعاصي.

جاء شيخ هرم قد سقط حاجباه على عينيه فقال: يا رسول الله، رجل غدر وفجر، لم يدع حاجة ولا داجة، إلا اقتطعها بيمينه -أي: أنه لم يترك ذنبًا من الذنوب إلا اقتطفه- ثم قال: لو قُسمت خطيئته بين أهل الأرض لأوبقتهم، فهل له من توبة؟ قال ﷺ «أأسلمت؟» قال: أمّا أنا، فأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأن محمدًا عبده ورسوله، قال ﷺ: «فإن الله غافر لك ما كنت كذلك، ومبدل سيئاتك حسنات» قال الرجل: وغدراتي وفجراتي يا رسول الله؟ قال ﷺ: «وغدراتك وفجراتك» فولى الرجل وهو يهلل ويكبر^(١) وفي رواية: فلم يزل يهلل ويكبر حتى توارى^(٢).

قال ابن كثير: ولا تعارض بين هذه الآية وبين آية سورة النساء: ﴿وَمَنْ يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُتَعَمِّدًا فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِدًا فِيهَا وَعَذِبُ اللَّهِ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُ وَأَعَدَّ لَهُ عَذَابًا عَظِيمًا﴾ [النساء: ٩٣]. فإن آية سورة (النساء) وإن كانت مدنية، إلا أنها مطلقة، فتحمل على من لم يتب؛ لأن هذه مقيّدة بالتوبة، ثم قد قال الله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ

(١) رواه الإمام أحمد عن مكحول عن عمرو بن عبسة بسند فيه مقال، «المسند» (٣٨٤/٤) «مجمع الزوائد»

(٣٢/١). وقد حسنه الألباني في صحيح الترغيب والترهيب برقم (٣١٦٤).

(٢) وهي في «المعجم الكبير» للطبراني (٣١٤/٧) برقم (٦٣٦١) وابن أبي حاتم (٢٧٣٥/٨).

مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ ﴿١١٦﴾ [النساء: ٤٨، ١١٦].

وقد ثبت بالسُّنة الصحيحة صحة توبة القاتل، كما جاء في قصة الرجل الذي قتل مئة نفس ثم تاب، وقبل الله توبته، وغيرها من الأحاديث^(١).

قلت: ويراد بآية سورة النساء: ومن يقتل مؤمناً متعمداً مستحلاً للقتل، فهو يخلد في النار لاستحلاله القتل، وكل من استحل ما هو معلوم من الدين بالضرورة فهو كافر، والكافر يخلد في النار إن مات على كفره.

وقد دلَّت هذه الآية على أن التوبة تمحو آثام كل ذنب من الذنوب المعدودة فيها، ومنها من قتل مؤمناً متعمداً ثم تاب، وليست منسوخة على الصحيح.

ومن أهل العلم من قال: إن هذه الآية من سورة الفرقان، نزلت بالمدينة، فعن سعيد بن جبیر قال: نزلت آية من ﴿تَبَارَكَ﴾ بالمدينة في شأن قاتل حمزة (وحشي) وأصحابه، كانوا يقولون: إنا لنعرف الإسلام وفضله، فكيف لنا بالتوبة وقد عبدنا الأوثان، وقتلنا أصحاب محمد، وشربنا الخمر، ونكحنا المشركات؟! فأنزل الله فيهم: ﴿وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ﴾، ثم أنزلت توبتهم في ﴿إِلَّا مَنْ تَابَ﴾ فأبدلهم الله بقتال المسلمين قتال المشركين، وبنكاح المشركات نكاح المؤمنات، وعبادة الأوثان عبادة الله^(٢). قال تعالى:

٧١- ﴿وَمَنْ تَابَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَإِنَّهُ يَتُوبُ إِلَى اللَّهِ مَتَابًا﴾ ﴿١١٦﴾

أي: ومن تاب من الشرك وآمن، وأدى الفرائض والنوافل، وداوم على العمل الصالح لتدارك ما فاتته، وكانت توبته توبة صادقة، خالصة، نصوحاً، فإن هذه التوبة الكاملة المقبولة التي ازدان فيها الإيمان بالعمل الصالح، يقبلها الله تعالى ويرضى عن صاحبها، ويكفر عنه ذنوبه، وهي توبة في غاية الكمال، لأنها رجوع إلى الطريق الموصل إلى الله تعالى وهكذا فإن رحمة الله تعالى تحيط بالعبد من كل جانب؛ لتحمله على التوبة والطاعة. قال تعالى: ﴿وَمَنْ يَعْمَلْ سُوءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ اللَّهَ يَجِدِ اللَّهَ غَفُورًا رَحِيمًا﴾ ﴿١١٦﴾ [النساء].

(١) «تفسير ابن كثير» (١٢٦/٦). والحديث في صحيح مسلم عن أبي سعيد برقم (٢٧٦٦) وصحيح البخاري (٣٤٧٠).

(٢) أخرجه ابن جرير (٥١٧/١٧) وابن أبي حاتم (٢٧٣١/٨) وغيرهما.

والمقصود من الآية: الحث على التوبة النصوح، والإتيان بها على أكمل الوجوه.

الصفة التاسعة من صفات عباد الرحمن: أَنَّهُمْ لَا يَشْهَدُونَ الزُّورَ

٧٢- ﴿وَالَّذِينَ لَا يَشْهَدُونَ الزُّورَ وَإِذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ مَرُّوا كِرَامًا ۖ﴾

أي: إن الله تعالى بعد أن بيّن أن من قوام الإيمان عدم الشرك بالله تعالى، وترك القتل، والزنى، أتبع ذلك بذكر خصال أخرى بها يكمل الإيمان، ويكون التحلي بمكارم الأخلاق، ومنها: عدم حضور مجالس الباطل.

وبيان ذلك: أَنَّ (شَهِدَ) تأتي بمعنى: حضر، كقوله تعالى: ﴿فَمَنْ شَهِدَ مِنْكُمُ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ﴾ [البقرة: ١٨٥]. وتأتي (شَهِدَ) بمعنى: الشهادة، كقوله تعالى: ﴿وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنْ أَهْلِهَا﴾ [يوسف: ٢٦].

والزور: هو الباطل من الأقوال والأفعال، ويغلب استعماله في الكذب، والآية تشمل المعنيين معاً.

وعباد الرحمن لا يكذبون، ولا يشهدون شهادة الكذب، ولا يشهدون شهادة مبنية على كذب الآخرين، ويجتنبون مجالس الخوض في آيات الله، والتنقيص من شأن رسوله ﷺ والجدال بالباطل ولا يحضرون الأقوال والأفعال المحرمة، وهم أيضاً لا يحضرون مجالس الزور وما فيها: من لغو، وباطل، وسب، وغيبة، ونميمة، ومن ذلك مجالس: الغناء والموسيقى واللغو، ولا يحضرون أعياد المشركين؛ لأن في ذلك اعترافاً بباطلهم وإقراراً له، فضلاً عن تهنتهم، والإهداء إليهم، وفيه مساعدة لأهل الباطل على باطلهم، ولا يحضرون المجالس التي يُعصى فيها رب العالمين، كما في الحديث عن جابر ؓ: «من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فلا يجلس على مائدة يشرب عليها الخمر»^(١)

قال تعالى: ﴿وَإِذَا رَأَيْتَ الَّذِينَ يَخُوضُونَ فِي آيَاتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّى يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ وَإِمَّا

(١) رواه الترمذي في «السنن» برقم (٢٨٠١) عن جابر بسند حسن لغيره، وعند الحاكم (٢٨٨/٤) وهو في مسند أحمد ١٤٦٥١ وعن عمر برقم (١٢٥) بلفظ (يدار عليها) وهو حديث حسن لغيره، لجهالة قاص الأجناد، وبقية رجاله ثقات (محققوه)، وأخرجه أبو يعلى (٢٥١) والبيهقي (٢٦٦/٧) وعن ابن عمر عند أبي داود (٣٧٧٥).

يُسَيِّئُكَ الشَّيْطَانُ فَلَا تَقْعُدْ بَعْدَ الذِّكْرِى مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿٦٨﴾ [الأنعام].

وجملة: ﴿لَا يَشْهَدُونَ الزُّورَ﴾ تختلف عن جملة: لا يشهدون بالزور؛ فالأول بمعنى: الحضور، والثاني بمعنى: الشهادة بالكذب، فهم لا يحضرون المجالس التي فيها أفعال الزور، ولا شهادة الزور.

وعلى القول بأن المراد: شهادة الزور (الكذب) فقد أخبر النبي ﷺ أنها من أكبر الكبائر، كما جاء في حديث أبي بكرة ؓ قال: قال رسول الله ﷺ: «ألا أنبئكم بأكبر الكبائر؟ ثلاثاً. قلنا: بلى، يا رسول الله، قال: «الإشراك بالله، وعقوق الوالدين»، وكان متكئاً فجلس، فقال: «ألا وقول الزور، وشهادة الزور»، فما زال يكررها حتى قلنا: ليته سكت^(١).

وكان عمر بن الخطاب ؓ يجلد شاهد الزور أربعين جلدة، ويُسَخَّم وجهه، ويطوف به في الأسواق.

وأصل الزور: تحسين الشيء، ووصفه بغير صفته، ووضعه في غير موضعه.

الصِّفَةُ الْعَاشِرَةُ: الْإِعْرَاضُ عَنِ الْجَاهِلِينَ

أي: إن عباد الرحمن إذا مروا بأهل الباطل، واللغو من الأقوال والأفعال، كان مرورهم عليهم مصادفة من غير قصد، فهم لا يركنون إليهم، ولا يخالطونهم، ولا يجالسونهم، إكراماً لأنفسهم، وصوناً لكرامتهم، وحفاظاً على دينهم ومروءتهم، إنهم لا يقصدون هذه المجالس ويغشونها، بل يُعرضون عنها، ويُنكرون قولهم أو فعلهم، ويتنزهون عن مجالستهم، ولا يرضونه لغيرهم إلا إذا نصحوهم فأمرهم بالمعروف، ونهوه عن المنكر.

واللغو: هو كل كلام أو فعل لا خير فيه ولا فائدة منه، فهو وإن كان لا إثم فيه، إلا أنه سفه ونقص وإخلال بالمروءة، فضلاً عن الخوض في كل قبيح، مثل: الشتم، والأذى، ومجالس اللهو، والمعاصي، والباطل.

وعباد الرحمن لا يركنون إلى الظلمة، ولا إلى أهل المعصية إلا وهم مسرعون معرضون

(١) «صحيح البخاري» برقم (٢٦٥٤) و«صحيح مسلم» برقم (٨٧).

عنهم، كما قال تعالى: ﴿وَإِذَا سَمِعُوا اللَّغْوَ أَعْرَضُوا عَنْهُ وَقَالُوا لَنَا أَعْمَلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَلُكُمْ﴾ [القصص: ٥٥]. وقال تعالى: ﴿وَذَرِ الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَهُمْ لَعِبًا وَلَهْوًا﴾ [الأنعام: ٧٠].

الصِّفَةُ الْحَادِيَّةُ عَشْرَةٌ: التَّأَثُّرُ بِالْقُرْآنِ

٧٣- ﴿وَالَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ لَمْ يَخِرُّوا عَلَيْهَا صُمًّا وَعُمْيَانًا﴾ (٧٣)

أي: إن عباد الرحمن إذا سمعوا القرآن تدبروه، وعملوا به، وأثر في نفوسهم بما فيه من مواعظ وعبر، وهدايات، وأحكام، وقصص، وتشريع، وإيمان بالغيب، وثواب وعقاب، وغير من أحوالهم، وخرُّوا لآياته سجَّدًا وبكيتًا، فهم لم يتغافلوا أو يعرضوا عما فيه من دلائل التوحيد، والوعظ، والتذكير بآيات القرآن، كأنهم صمُّ لم يسمعوها، وعُميُّ لم يبصروها كالكفار، بل وعثها قلوبهم، وتفتحت لها بصائرهم، فخرُّوا لله ساجدين مطيعين، ولم يكونوا ممن قال الله فيهم: ﴿وَبَلَّ لِكُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ﴾ (٧) يَسْمَعُ آيَاتِ اللَّهِ تُنْثَىٰ عَلَيْهِ ثُمَّ يَصِرُّ مُسْتَكْبِرًا كَانَ لَمْ يَسْمَعْهَا [الجاثية].

وإنما كانوا ممن قال الله فيهم: ﴿وَإِذَا مَا أُنْزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُمْ مَّن يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَذِهِ إِيمَانًا فَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا فَزَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ﴾ (١١٤) وَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَىٰ رِجْسِهِمْ وَمَاتُوا وَهُمْ كَافِرُونَ﴾ (١١٥) [التوبة].

فهذه الآية تمدح المؤمنين، وتذم الكافرين، وحال المؤمنين أنهم يقابلون آيات الله بالقبول والافتقار إليها، والانقياد والتسليم، فتجد منهم آذانًا سامعة وقلوبًا واعية، فيزداد إيمانهم ويقوي يقينهم، كما قال تعالى ﴿إِنَّمَا يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا الَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِهَا خَرُّوا سُجَّدًا وَسَبَّحُوا بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ﴾ [السجدة: ١٥].

وقال سبحانه ﴿إِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مِنْ قَبْلِهِ إِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا﴾ (١٧) وَيَقُولُونَ سُبْحَانَ رَبِّنَا إِنْ كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا﴾ (١٨) وَيَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ يَسْكُوتُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا﴾ [الإسراء].

وقال أيضًا ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ [الأنفال: ٢].

الصِّفَةُ الثَّانِيَّةُ عَشْرَةٌ: سُؤَالُ الذَّرِّيَّةِ الصَّالِحَةِ وَ الزَّوْجَةِ الصَّالِحَةِ

٧٤- ﴿وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا^(١) فُرَّةً أَعْيُنَ وَاجْعَلْ لَنَا لِمُنْفِقِينَ إِمَامًا﴾

أي: إن عباد الرحمن يسألون الله تعالى أن يرزقهم ذرية صالحة، وزوجة صالحة تقرُّ بهما أعينهم، وأفضل ما تقرُّ به العين بعد توحيد الله تعالى وطاعته، أن يرزق الله المسلم زوجة صالحة مطيعة، وذرية مطيعة لله ورسوله.

وإذا كانت الذرية صالحة فإنهم لا يعقون آباءهم، ولا يعصونهم، ما داموا مطيعين لأمر الله سبحانه.

وعندما تكون المرأة صالحة، فإنها تحفظ دينها وعرضها، وشرف زوجها وماله، وليس أقرَّ لعين المؤمن من أن يرى زوجته وأولاده مطيعين لله ورسوله، وفي هذا انتشار للإسلام، وتكثير من أتباعه.

على أن المسلم لن ينال شيئاً من أبنائه بعد موته إلا دعوة صالحة إن كانوا صالحين.

وفي حديث أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «إذا مات ابن آدم انقطع عمله إلا من ثلاث: صدقة جارية، أو علم ينتفع به، أو ولد صالح يدعو له»^(٢).

ولما سُئِلَ الحسن عن هذه الآية: هل قرّة عين في الدنيا أم الآخرة؟ قال: ما من شيء أحب إلى المرء المسلم من أن يرى والدًا، أو ولدًا، أو حميمًا، أو أخًا مطيعًا لله^(٣).

ومن ذلك أن رجلاً مرَّ بالمقداد بن الأسود رضي الله عنه فقال: «طوبى لهاتين العينين اللتين رأتا رسول الله ﷺ، والله لوددنا أننا رأينا ما رأيت، وشهدنا ما شهدت...» ثم ذكر أن الله تعالى

(١) قرأ أبو عمرو وشعبة وحمزة والكسائي وخلف بحذف ألف (وذرياتنا)، على الأفراد؛ لإرادة الجنس، وقرأ الباقر بالجمع.

(٢) «صحيح مسلم» برقم (١٦٣١)، ومسند أحمد (٨٨٤٤) بإسناد صحيح، والدارمي (٥٥٩) والبخاري في الأدب المفرد (٣٨) والترمذي (١٣٧٣) وأبو يعلى (٦٤٥٧) وابن خزيمة (٢٤٩٤) وابن حبان (٣٠١٦) والبيهقي (١٣٩).

(٣) يُنظَر: «فتح الباري» (٤٩١/٨) والطبري (٥٣٠/١٧) والبيهقي (٨٦٦٨) وابن أبي حاتم (٨/٢٧٤٢).

بعث محمداً ﷺ إلى قوم كانوا يرون أن عبادة الأوثان أفضل دين، فجاء الله بهذا القرآن، فرّق فيه بين الحق والباطل، وفرّق بين الوالد وولده الكافر، وقد فتح الله به قلوباً غُلُفاً.

ولما كان المسلم يعلم أنه لن تفر عينه إذا كان حبيب في النار، سأل ربه أن يهب له أزواجاً، وذرية تقرّ بهم عينه في الجنة^(١).

الْصِّفَةُ الثَّالِثَةُ عَشْرَةَ: الْقُدْوَةُ الْحَسَنَةُ

إن عباد الرحمن يسألون ربهم أن يجعلهم قدوة حسنة، وأئمة يُهتدى بهم، ﴿وَجَعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا﴾ وذلك أنهم لما سألوا الخير والتوفيق لأزواجهم وذرياتهم، سألوا لأنفسهم أن يجعلهم الله قدوة يقتدي بهم المتقون، فهم يسألون لأنفسهم بلوغ الدرجة العالية من التقوى؛ فإنه لا يصلح للقدوة إلا مَنْ بَلَغَ الغاية في الكمال، وهم يسألون الله تعالى أن يجعلهم دعاة للإسلام، يهتدي الناس عن طريقهم إلى الله تعالى، وأن يجعلهم هداة مهتدين، دعاة إلى الخير، وأئمة يُقتدى بهم أينما حلّوا، وأينما ساروا، وألا يجعلهم من دعاة الضلال الذين قال فيهم: ﴿وَجَعَلْنَاهُمْ أَيْمَةً يَذْعُبُونَ إِلَى الْتَّكَارِ﴾ [القصص: ٤١]. ويجعلهم ممن قال فيهم: ﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَيْمَةً يَهْدُونَ يَأْتِرْنَا لَمَّا صَبَرُوا﴾ [السجدة: ٢٤]. فأوصلنا يا ربنا إلى هذه الدرجة العالية، درجة الصديقين والصالحين من عباد الله، وهي درجة الإمامة في الدين، وأن يكونوا قدوة للمتمتقين في أقوالهم وأفعالهم، فيُهتدى بهديهم، ودرجة الإمامة في الدين لا تحصل إلا بالصبر واليقين، كما في آية سورة السجدة السابقة، فهم يصبرون على طاعة الله، ويصبرون عن معاصي الله، وعلى أقداره المؤلمة، وعندهم من العلم التام الذي يوصل إلى درجة اليقين، وأهل الهمم العالية يكون جزاؤهم من جنس العمل، فهم في المنازل الرفيعة والدرجات العالية.

(١) انظر هذا المعنى في: البخاري في الأدب المفرد برقم (٨٧) وهو في «صحيح الأدب المفرد» (٦٤) وفي «المسند» برقم (٢٣٨١٠) قال محققوه: إسناده صحيح ورجاله ثقات، والطبراني (٦٠٠) وابن حبان (٤٩٠) الإحسان، وغيرهم.

جَزَاءُ عِبَادِ الرَّحْمَنِ

٧٥، ٧٦- ﴿أُولَٰئِكَ يُجْزَوْنَ الْغُرَّةَ بِمَا صَبَرُوا وَيَلْقَوْنَ^(١) فِيهَا تَحِيَّةً وَسَلَامًا ﴿٧٥﴾
خَالِدِينَ فِيهَا حَسُنَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا ﴿٧٦﴾﴾

وبعد أن ذكر - سبحانه - أوصاف عباد الرحمن الثلاثة عشر، وهي:

- ١- السكينة والوقار والتواضع.
 - ٢- والحلم، وحسن الأدب، وسعة الخلق، والعفو عن الجاهلين، والإعراض عنهم، ومقابلة إساءتهم بالإحسان.
 - ٣- والتهجد.
 - ٤- والخوف من النار، والتضرع إلى الله تعالى أن ينجيهم منها.
 - ٥- وإخراج الواجب والمستحب في النفقات، وحسن الاقتصاد بعدم الإفراط أو التفريط، وترك الإسراف، وترك الإقتار.
 - ٦- والتزهر عن الشرك.
 - ٧- وترك قتل النفس.
 - ٨- وترك الزنى، والسلامة من كبائر الذنوب عمومًا، ومنها العفة عن الدماء والأعراض، وإخلاص التوحيد لله تعالى، والتوبة.
 - ٩- وترك الكذب.
 - ١٠- والعفو عن المسيء.
 - ١١- وقبول دعوة الحق والمواعظ.
 - ١٢- وإظهار الحاجة إلى الله تعالى بسؤال الزوجة الصالحة والذرية الصالحة.
 - ١٣- وأن يجعلهم أئمة يقتدى بهم.
- بعد ذلك بين سبحانه أنهم يُجزون في الآخرة نعيمًا لا ينفذ، ومنزلة عالية، وأمنًا واستقرارًا.
- وقد ابتدأت هذه الصفات بقوله تعالى: ﴿وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ﴾ وهنا - في هذه الآية - يأتي الخبر بالإشارة إلى أن من اتصفوا بهذه الصفات، يُثابون يوم القيامة بأعلى منازل الجنة، فضلًا من الله وكرمًا، وكان ذلك بسبب صبرهم على مشقة الطاعات، وترك المعاصي، وكبح الشهوات، ومغريات الحياة.

(١) قرأ نافع وابن كثير وأبو عمرو وابن عامر وحفص وأبو جعفر ويعقوب بضم الياء وفتح اللام من (يلقون) مبيّنًا للمجهول من لقي، وقرأ الباقر بفتح الياء وسكون اللام وتخفيف القاف من يلقى.

والغرفة: هي الدرجة العالية الرفيعة في الجنة. قال تعالى: ﴿وَهُمْ فِي الْغُرَفَاتِ ءَامِنُونَ﴾ [سبأ: ٣٧]. وقال: ﴿لَكِنَّ الَّذِينَ أَتَقَوْا رَبَّهُمْ هُمْ غُرُوفٌ مِّنْ فَوْقَهَا غُرُوفٌ مَّيْنَةٌ﴾ [الزمر: ٢٠].

عن مالك الأشعري رحمه الله قال: قال رسول الله ﷺ: «إن في الجنة غرفة يُرى ظاهرها من باطنها، وباطنها من ظاهرها، أعدها الله لمن أطعم الطعام، وألان الكلام، وتابع الصيام، وصلى والناس نيام»^(١).

وهؤلاء الذين وُصفوا بالأوصاف السابقة يُجزون يوم القيامة الغرفة في الجنة، فيتبوؤون المكان الخاص والمنزلة العالية، ويلقون التحية في الجنة، وتُسَلَّم عليهم الملائكة، حين يدخلون عليهم من كل باب قائلين: ﴿سَلَامٌ عَلَيْكُمْ بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعَمَ عُقْبَى الَّذِينَ﴾ [الرعد: ٢٤]. ويسلّم بعضهم على بعض فيها، وهم مع ذلك سالمون من الآفات والعلل، يحيون في الجنة حياة طيبة، ليس فيها ما يكدر الصّفو، أو يُنغص الحياة.

وعباد الرحمن يُخلّدون في الجنة خلودًا أبدًا من غير مرض ولا موت، لا يرحدون منها، ولا يزولون عنها، ولا ييغون عنها حولًا، كما قال تعالى: ﴿وَأَمَّا الَّذِينَ سُعِدُوا فَنُفِيَ الْجَنَّةِ خُلْدٌ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ عَطَاءٌ غَيْرَ مَجْدُودٍ﴾ [هود: ١٠٨]. أي: غير مقطوع ولا ممنوع، وقد حُسِنَ مكانهم في الجنة، وحُسِنَت إقامتهم ومستقرهم فيها، فلا يرضون بها بديلاً، وهذا في مقابل سوء مصير أهل النار، وهم يسألون الله أن يصرفهم عنها: ﴿إِنَّهَا سَاءَتْ مُسَقَّرًا وَمَقَامًا﴾ [١١٦].

فاللهم لا تكلنا إلى أنفسنا طرفة عين، واصرف عنا جميع النقم، وارحمنا رحمة تغنيننا عن سواك، فلا حول ولا قوة إلا بك.

خَتَامُ السُّورَةِ

٧٧- ﴿قُلْ مَا يَعْبُدُونَ إِلَّا رَبِّي لَوْلَا دُعَاؤُكُمْ فَقَدْ كَذَّبْتُمْ فَسَوْفَ يَكُونُ لِزَامًا﴾ [٧٧]

وفي ختام السورة التي ذُكرت شُبُهَاتُ المشركين وأبطلتها، وبشّرتُ عباد الرحمن بأرفع المنازل، يوجه الله - سبحانه - للناس جميعًا خلاصة شافية للسورة، يوضح فيها هوان

(١) «المسند» برقم (٢٢٩٠٥) قال محققوه: إسناده حسن إن كان ابن معانق سمعه من أبي مالك، وهو في مصنف عبدالرزاق (٢٠٨٨٣) وابن خزيمة (٢١٣٧) وابن حبان (٥٠٩) والطبراني (٣٤٦٦) والبخاري (٩٢٧).

البشرية على الله تعالى لولا عبادة العابدين، وطاعتهم لرب العالمين، أما المكذبون بدعوة الرسل فإن العذاب حتمٌ لازمٌ بالنسبة لهم.

وقد جاء هذا البلاغ عن طريق الرسول ﷺ موجَّهًا إلى الناس جميعًا الذين شملتهم السورة -مؤمنهم وكافرهم- فالله تعالى لا يكثرث ولا ييالي بالناس لولا دعاؤهم إياه، دعاء العبادة ودعاء المسألة، ولولا استجابتهم له، كما في هذه الصفات لعباد الرحمن، ولولا امثالهم أمر الله تعالى في دعائهم وعبادتهم له؛ لأن الله تعالى خلق الخلق لوظيفة معينة، هي أداء العبادة، فإن لم يؤدوا هذه المهمة فإن الله تعالى لا ييالي بهم، ولا يعبا بهم ﴿قُلْ مَا يَعْبُؤُا بِكُمْ رَبِّي لَوْلَا دُعَاؤُكُمْ﴾ أي: لولا إجابتكم لدعوة الإسلام، ولولا إيمانكم به سبحانه، ولولا سؤالكم له وإظهار الحاجة والتذلل له، وأنكم تعبدون الله بما افترضه عليكم، وتسألونه كشف الضر عنكم، وتؤدون المهمة المنوطة بكم في دعائكم وعبادتكم له، لولا ذلك فإنكم لا تهتمون الله تعالى في شيء؛ فالله تعالى لا ينتفع بعبادتكم له، ولا تزيد العبادة في ملكه شيئًا، ولا ترفع من شأنه؛ لأنه تعالى لم يخلقنا لحاجة له فينا، وإنما خلقنا لنعبده ونسأله، فيغفر لنا ويعطينا، فإذا كذبتكم الرسل فإن العذاب يكون ملازمًا لكم يوم القيامة، كما قال تعالى: ﴿مَا يَفْعَلُ اللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِن شَكَرْتُمْ وَءَامَنْتُمْ وَكَانَ اللَّهُ شَاكِرًا عَلِيمًا﴾ [النساء].

وقد اكثرث الله بعباد الرحمن فأعلى ذكرهم بسبب عبادتهم، ودعائهم لربهم، وأمر الله تعالى رسوله ﷺ أن يصرح بذلك للناس جميعًا، ويجزم لهم بأنه أعلى قدرهم عند الله بسبب عبادتهم له.

وإذا علمتم ذلك فسوف يلزمكم -يا من كفرتم بالله ورسوله- أثرٌ تكذيبكم، وعدم طاعتكم له حتى يكبكم الله في النار، فيكون تكذيبكم للداعي وهو محمد ﷺ مُقْضِيًا لعذابكم، يلزمكم هذا العذاب لزوم الغريم لغريمه، ويهلككم الله به في الدنيا والآخرة، فاللهم حبِّبْ إلينا الإيمان، وزينّه في قلوبنا، وكره إلينا الكفر والفسوق والعصيان، واجعلنا من الراشدين.

تم تفسير (سورة الفرقان) والله الحمد والمنة

الآية	فهرس الم	وحدات	الصفحة
٥	تفسير سورة الأنبياء - مقدمة السورة وموضوعاتها		٥
٢٠١	تفسير السورة - غفلة الناس وإغراضهم عن الدار الآخرة		٩
٤٠٣	بعض شبه المكدبين بالرسالة والرد عليها		١٢
٩-٥	جحد القرآن وعقاب الجاحدين:		١٥
١٠	شرف الأمة في كتاب ربها		٢٠
١٥-١١	هلاك الأمم التي كذبت رسل الله		٢١
١٦	الهدف والغاية من خلق العباد		٢٤
١٨، ١٧	اتخاذ الولد مستجيب على الله تعالى		٢٦
٢٠، ١٩	الملائكة عباد مخلصون للطاعة		٢٨
٢١	أربعة أدلة عقلية ونقلية على وحدانية الخالق سبحانه - الدليل الأول: دليل القدرة		٣٠
٢٢	الدليل الثاني: دليل التمايز		٣١
٢٣	الدليل الثالث: أنه سبحانه لا يسأل عما يفعل		٣٣
٢٤	الدليل الرابع: أن الكتب السماوية كلها لا يوجد فيها غير التوحيد		٣٤
٢٥	التوحيد دعوة جميع الرسل		٣٥
٢٨-٢٦	رد شبهات من نسب الولد لله تعالى - وصف الملائكة بسنة أوصاف - الأول: أنهم عباد مكرمون		٣٦
٣٧	الثاني أنهم لا يتكلمون إلا بما يأمرهم به ربهم - الثالث: أنهم لا يعملون عملاً حتى يؤذن لهم		٣٧
٣٨	الرابع أنهم لا يشفعون إلا لمن رضي الله عنه		٣٨
٣٨	الخامس: أنهم يخشون ربهم ويشفقون على أنفسهم من بأس الله		٣٨
٢٩	السادس: أنهم لا ينسبون لأنفسهم شيئاً من خصائص الألوهية		٣٨
٣٠	عشرة أدلة حجية على وحدانية الخالق - الدليل الأول: فضل السماء عن الأرض - الدليل الثاني: نعمة الماء		٣٩
٣١	الدليل الثالث: خلق الجبال - الدليل الرابع: خلق الطرق الواسعة والأرض السهلة		٤٣
٣٢	الدليل الخامس: حفظ السماء أن تقع بعض أجرامها على الأرض		٤٤
٣٣	بقية الأدلة العشرة		٤٦
٣٥، ٣٤	فتاء العالم		٤٧
٣٦	كفر من ينكر رسالة محمد ﷺ أو يسخر به		٥١
٣٨، ٣٧	العجلة طبع في الإنسان		٥٢
٣٩	النار تحيط بالكافر إحاطة السوار بالمغصم		٥٥
٤٠	قيام الساعة فجأة		٥٦
٤١	عقاب المستهزئين بالإسلام		٥٧
٤٢	عقاب الله في الدنيا لا يمنع إلا من حفظ عبادة من جميع المصار		٥٧
٤٣	عذاب الله في الآخرة لا يمنع مانع		٥٩
٤٤	الكفار لا يحسنون شكر النعمة - نقصان الأرض من أطرافها		٦٠

الآية	فهرس المـ ووجـ وعات	الصفحة
١٠٤	طِي الصُّحُفِ يَوْمَ بَعَثَ الْخَلَائِقِ	١٢٩
١٠٥	وِرَاثَةُ أَرْضِ الْجَنَّةِ وَأَرْضِ الدُّنْيَا لِلصَّالِحِينَ بِإِيمَانِهِمْ وَخَيْرَتِهِمْ	١٣٠
١٠٦	ثَنَاءُ اللَّهِ تَعَالَى عَلَى كِتَابِهِ	١٣٤
١٠٧	رَحْمَةُ اللَّهِ لِلْعَالَمِينَ - إِنَّمَا أَنَا رَحْمَةٌ مَهْدَاةٌ - الْحَنِيفِيَّةُ السَّمْحَةُ	١٣٤
١٠٨	التَّوْحِيدُ هُوَ أَصْلُ الرِّسَالَةِ :	١٣٧
١١١-١٠٩	مَوْقِفُ الدَّاعِيَةِ مِنْ إِغْرَاضِ الْمَدْعُوعِينَ	١٣٩
١١٢	مِنْكَ الْخِتَامُ	١٤١
٢٠١	تَفْسِيرُ سُورَةِ الْحَجِّ - مَقْدَمَةُ السُّورَةِ - أَيْزُ مَوْضُوعَاتِ السُّورَةِ	١٤٢
٤٠٣	تَفْسِيرُ السُّورَةِ - فِي أَهْوَالِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ	١٤٦
٥	أَرْبَعَةُ أَصْنَافٍ مِنَ النَّاسِ - الصَّنْفُ الْأَوَّلُ : جَاهِلٌ مُقَلَّدٌ	١٥١
٧٠٦	دَلِيلُ إِمْتِنَانِ الْبَعْثِ فِي أَطْوَارِ خَلْقِ الْإِنْسَانِ وَإِخْرَاجِ النَّبَاتِ مِنَ الْأَرْضِ	١٥٤
٨	خَمْسُ خَصَائِصٍ لِلَّهِ تَعَالَى	١٦٢
١٠٠٩	الصَّنْفُ الثَّانِي مِنَ النَّاسِ كَافِرٌ مُكَابِرٌ مُعَانِدٌ	١٦٣
١٣-١١	مِنْ صِفَاتِ الْجَاهِلِ الْمَعْرُورِ	١٦٤
١٤	الصَّنْفُ الثَّلَاثُ مِنَ النَّاسِ مُتَأَفِّقٌ مُدْبَذٌ يَتَعَبَّدُ لِلَّهِ عَلَى حَرْفٍ	١٦٦
١٦٠	الصَّنْفُ الرَّابِعُ مِنَ النَّاسِ : مُؤْمِنٌ ثَابِتٌ عَلَى الْحَقِّ رَاسِخٌ فِي إِيْمَانِهِ :	١٧٠
١٦٠١٥	قَضَاءُ اللَّهِ نَافِذٌ لَا مَحَالَةَ	١٧١
١٧	الشَّرِيعَةُ الْقَائِمَةُ وَالشَّرَائِعُ الْبَاطِلَةُ	١٧٤
١٧٤	الْفِرْقَةُ الْأُولَى : أَهْلُ الدِّينِ الْحَقِّ - الْفِرْقَةُ الثَّانِيَةُ الْيَهُودُ - الْفِرْقَةُ الثَّلَاثَةُ الصَّابِتُونَ	١٧٤
١٧٦	الْفِرْقَةُ الرَّابِعَةُ : النَّصَارَى - الْفِرْقَةُ الْخَامِسَةُ : الْمَجُوسُ - الْفِرْقَةُ السَّادِسَةُ : عِبَادَةُ الْأَوْثَانِ	١٧٦
١٨	جَمِيعُ الْكَائِنَاتِ تَعْبُدُ اللَّهَ تَعَالَى	١٧٧
٢٤-١٩	جَزَاءُ أَهْلِ الْكُفْرِ وَتَوَابُ أَهْلِ الْإِيْمَانِ - وَهَذِهِ جُمْلَةٌ مِنَ الْأَحَادِيثِ فِي مَعْنَى الْآيَةِ	١٨١
٢٥	عُقُوبَةُ الْإِلْحَادِ فِي الْحَرَمِ وَكُفْرُ الصَّادِقِينَ عَنْهُ - حُكْمُ بَيْعِ وَاسْتِجَارَةِ بَيْتِ مَكَّةَ	١٨٨
١٩٣	مَعْنَى الْإِلْحَادِ فِي الْحَرَمِ وَعُقُوبَتُهُ - مِنْ الْأَثَارِ الْوَارِدَةِ فِي حُكْمِ الْإِلْحَادِ بِالْحَرَمِ - أَحَادِيثُ :	١٩٣
٢٦	تَارِيخُ بِنَاءِ الْكَعْبَةِ - ذِكْرِيَاتُ مِنَ الْبَيْتِ الْحَرَامِ - مِنَ الَّذِي بَنَى الْبَيْتَ ؟	١٩٦
٢٧	خَلِيلُ الرَّحْمَنِ يَدْعُو النَّاسَ لِحَجِّ بَيْتِ اللَّهِ الْحَرَامِ	١٩٨
٢٨	مِنْ قَوَائِدِ الْحَجِّ - عَشْرُ ذِي الْحِجَّةِ - الْهَدْيُ :	٢٠٠
٢٩	مِنْ مَنَاسِكَ الْحَجِّ - الْوَفَاءُ بِالنَّذْرِ	٢٠٣
٣٣-٣٠	تَعْظِيمُ حُرُمَاتِ اللَّهِ وَشَعَائِرِهِ	٢٠٥
٣٤	مَشْرُوعِيَّةُ الذَّبَائِحِ فِي جَمِيعِ الْأُمَمِ	٢١٢
٣٥	أَرْبَعُ صِفَاتٍ لِلْمُخْتَبِينَ - الْأَوَّلُ وَجَلُّ الْقُلُوبِ عِنْدَ ذِكْرِ اللَّهِ تَعَالَى	٢١٣
٢١٤	الثَّانِي : الصَّبْرُ عَلَى الْمَكَارِهِ : الْوَصْفُ الثَّلَاثُ : إِقَامُ الصَّلَاةِ الرَّابِعُ : النِّفَاقَةُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ :	٢١٤

الآية	فهرس المـ ووجـ وعات	الصفحة
٢٠١	تَفْسِيرُ السُّورَةِ - ثمانية أَوْصَافٍ لِأَهْلِ السَّعَادَةِ - الأول: الإيمان - و الثاني: الخُشُوعُ فِي الصَّلَاةِ	٢٨٢
٣	الْوُضْفُ الثَّلَاثُ: الْإِغْرَاضُ عَنِ اللَّغْوِ فِي الْقَوْلِ وَالْفِعْلِ	٢٨٦
٤	الْوُضْفُ الرَّابِعُ: إِخْرَاجُ الرِّكَائَةِ وَالصَّدَقَةِ	٢٨٧
٧-٥	الْوُضْفُ الْخَامِسُ: حِفْظُ الْفُرُوجِ - ملك اليمين	٢٨٨
٨	الْوُضْفُ السَّادِسُ وَالسَّابِعُ: حِفْظُ الْأَمَانَاتِ وَالْمُهْرِدِ	٢٩١
٩	الْوُضْفُ الثَّامِنُ وَالْأَخِيرُ: الْمُحَافَظَةُ عَلَى الصَّلَاةِ - الصفات الثمان	٢٩٣
١١، ١٠	الْجَنَّةُ أَعْظَمُ مِيرَاثٍ	٢٩٥
١٦-١٢	أَرْبَعَةُ أَدِلَّةٍ تَبَيَّنَتْ عَلَى الْإِيمَانِ وَالتَّوْحِيدِ - الدَّلِيلُ الْأَوَّلُ: أَطْوَارُ خَلْقِ الْإِنْسَانِ	٢٩٧
١٧	الدَّلِيلُ الثَّانِي: خَلْقُ السَّمَوَاتِ	٣٠٣
٢٠-١٨	الدَّلِيلُ الثَّلَاثُ: مَا يَنْتُجُ عَنِ الْمَاءِ النَّازِلِ مِنَ السَّمَاءِ	٣٠٤
٢٢، ٢١	الدَّلِيلُ الرَّابِعُ عَلَى تَوْحِيدِ اللَّهِ سُبْحَانَهُ خَلْقُ الْأَنْعَامِ	٣٠٧
٣٠-٢٣	القصص: أولا : قِصَّةُ نُوحٍ ﷺ	٣٠٨
٤١-٣١	ثانياً: قِصَّةُ هُودٍ ﷺ	٣١٣
٤٣، ٤٢	ثالثاً: الْإِشَارَةُ إِلَى الْأُمَمِ الَّتِي تَلَتْ قَوْمَ عَادٍ	٣١٧
٤٤	رابعاً: رُسُلُ طَوًى السِّيَاقِ ذِكْرُهُمْ	٣١٧
٤٩-٤٥	خامساً: مُوسَى وَهَارُونُ عَلَيْهِمَا السَّلَامُ	٣١٨
٥٠	سادساً: نَبِيُّ اللَّهِ عِيسَى ﷺ	٣٢١
٥١	سابعاً: يَدَاؤُ إِلَى رُسُلِ اللَّهِ جَمِيعاً	٣٢٢
٥٢	دينُ اللَّهِ وَاحِدٌ	٣٢٤
٥٣	اِخْتِلَافُ الْأُمَمِ فِي الدِّينِ الْوَاحِدِ	٣٢٥
٥٤	وَجُوبُ تَرْكِ الْفِرْقِ الضَّالَّةِ	٣٢٦
٥٦، ٥٥	كَثْرَةُ النِّعَمِ لَيْسَتْ دَلِيلًا عَلَى رِضَا اللَّهِ تَعَالَى	٣٢٦
٥٨، ٥٧	أَرْبَعُ صِفَاتٍ لِلْمُؤْمِنِينَ فِي نَوْبٍ آخَرَ - الْأَوَّلُ: شِدَّةُ الْخَوْفِ مِنَ اللَّهِ تَعَالَى - الثَّانِي: التَّصْدِيقُ بِآيَاتِ اللَّهِ تَعَالَى	٣٢٨
٦١-٥٩	الْوُضْفُ الثَّلَاثُ: الْإِيمَانُ الرَّاسِخُ - الْوُضْفُ الرَّابِعُ: بَذَلُ الْجُهْدِ فِي الطَّاعَةِ	٣٢٩
٦٣، ٦٢	تَكَالُفُ الشَّرْعِ لَيْسَتْ فَوْقَ طَاقَةِ الْبَشَرِ	٣٣١
٦٥، ٦٤	الْإِسْتِغَاثَةُ عِنْدَ نَزُولِ الْعَذَابِ لَا تُفِيدُ	٣٣٢
٦٧، ٦٦	الْإِغْرَاضُ عَنِ الْقُرْآنِ مِنْ أَسْبَابِ الْعَذَابِ	٣٣٣
٧٠، ٦٨	تَفْنِيدُ خَمْسَةِ مِنْ شُبُهَةِ الْمُكْذِبِينَ بِخَاتَمِ الْمُرْسَلِينَ	٣٣٥
٧٤-٧١	لَا يُضْلِحُ الْعَالَمُ إِلَّا خَالِقُهُ	٣٣٨
٧٧-٧٥	الْعِبَادَةُ وَالطُّغْيَانُ هُمَا سَبَبُ الْكُفْرِ بِاللَّهِ تَعَالَى	٣٤١
٧٨	سَبْعَةُ أَدِلَّةٍ فِي نَوْبٍ جَدِيدٍ عَلَى وَحْدَانِيَّةِ اللَّهِ تَعَالَى - الدَّلِيلُ الْأَوَّلُ: خَلْقُ السَّمْعِ وَالْبَصَرِ وَالْقَوَادِ ...	٣٤٦
٧٩	الدَّلِيلُ الثَّانِي: نِعْمَةُ خَلْقِ الْإِنْسَانِ وَالتَّمَكُّنِ لَهُ فِي الْأَرْضِ	٣٤٧

الآية	فهرس الم	ووات	الصفحة
٢٩-٣٧	سابعاً: الاستئذان: أحكامه وآدابه - دُخُولُ يَتِيمٍ الْآخِرِينَ يَذْنِ - آثار وأحاديث في الاستئذان ...	٤٢٧	
٣٠	ثامناً وتاسعاً: غَضُّ الْبَصَرِ وَحِفْظُ الْفَرْجِ - أحاديث في غَضِّ الْبَصَرِ	٤٣٤	
٣١	لِمَنْ تُبَدِّي الْمَرْأَةَ زِينَتَهَا؟ - المرأة تغطي وجهها وهي محرمة، للحاجة - زينة المرأة الخفية	٤٣٨	
٣٢	عاشراً: تَشْرِيعُ الزَّوَاجِ - لا نكاح إلا بولي	٤٤٩	
٣٣	ثلاثة أحكام في الآية: الْحُكْمُ الْأَوَّلُ: أَمْرُ الْعَرَبِ بِالْعَقَّةِ - الْحُكْمُ الثَّانِي: إِعَانَةُ الْمُكَاتِبِ	٤٥٤	
٣٤	الْحُكْمُ الثَّالِثُ: الْإِكْرَاءُ عَلَى الْيَقَاءِ - أنواع النكاح في الجاهلية	٤٥٦	
٣٥	اللَّهُ تَعَالَى هَادِي أَهْلَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمُدَبِّرُ الْأَمْرِ فِيهِمَا	٤٦٣	
٣٦	يُؤْتِ اللَّهُ تَعَالَى هِيَ مَصْدَرُ النُّورِ - فضل بناء المساجد واحترامها - صلاة الجماعة	٤٦٧	
٤٧٠	دعاء دخول المسجد والخروج منه - تحية المسجد - آداب خروج المرأة إلى المسجد	٤٧٠	
٣٨، ٣٧	عَمَّارُ الْمَسَاجِدِ	٤٧٣	
٣٩	مَثَلُ ظُلْمَةِ الْكَافِرِ وَظُلْمَانِ عَمَلِهِ - الْمَثَلُ الْأَوَّلُ: تَشْبِيهُ عَمَلِ الْكَافِرِ بِالسَّرَابِ	٤٧٥	
٤٠	الْمَثَلُ الثَّانِي لِذَوِي الْجَهْلِ الْمُرْكَبِ	٤٧٧	
٤١	خَمْسَةُ أَدْلَةٍ عَلَى وَحْدَانِيَةِ الْخَالِقِ سُبْحَانَهُ - الدَّلِيلُ الْأَوَّلُ: جَمِيعُ الْكَائِنَاتِ تَنْزِعُهُ اللَّهُ تَعَالَى وَتَعْبُدُهُ	٤٧٨	
٤٢	الدَّلِيلُ الثَّانِي: اللَّهُ سُبْحَانَهُ خَالِقُ هَذَا الْكَوْنِ وَمَالِكُهُ	٤٨٠	
٤٣	الدَّلِيلُ الثَّالِثُ: لَقَدْ أَنْظَرَ الْعِبَادَ إِلَى بَعْضِ أَمْظَاهِرِ الْكُوفَةِ	٤٨٠	
٤٤	الدَّلِيلُ الرَّابِعُ: تَعَاقُبُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ	٤٨١	
٤٦، ٤٥	الدَّلِيلُ الْخَامِسُ: خَلَقَ الدَّوَابَّ مِنْ مَاءٍ	٤٨٢	
٥٢-٤٧	مِنْ أَحْوَالِ الْمُتَافِقِينَ	٤٨٤	
٥٣	الْمُتَافِقُ يَسْتَرُّ بِالْيَمِينِ الْكَادِبَةَ	٤٩٠	
٥٤	وَإِنْ تُطِيعُوهُ تَهْتَدُوا	٤٩١	
٥٧-٥٥	شَرْطُ التَّمَكُّنِ فِي الْأَرْضِ - سبب النزول	٤٩٢	
٥٨	آدَابُ اسْتِئْذَانِ الْأَطْفَالِ وَالْخَدَمِ دَاخِلِ الْبَيْتِ	٤٩٩	
٥٩	الْأَبْنَاءُ كَأَلْجَانِبٍ فِي الْإِسْتِئْذَانِ عَلَى آبَائِهِمْ إِذَا بَلَّغُوا سِنَّ الْحُلُمِ	٥٠٤	
٦٠	حُكْمُ الْقَوَاعِدِ مِنَ النِّسَاءِ فِي إِذَاءِ الزَّيْنَةِ	٥٠٥	
٦١	رَفْعُ الْحَرَجِ فِي الْأَكْلِ مِنْ يَتِيمِ الْآخِرِينَ - إلقاء السلام على من في البيوت	٥٠٧	
٦٢	الْإِسْتِئْذَانُ مِنْ مَجَالِسِ مَصَالِحِ الْأُمَّةِ لَا يَجُوزُ إِلَّا لِعُذْرٍ	٥١٤	
٦٣	تَعْظِيمُ النَّبِيِّ ﷺ وَعَدَمُ مُخَالَفَةِ أَمْرِهِ - معنى الفتنة	٥١٦	
٦٤	خِتَامُ السُّورَةِ	٥٢١	
٥٢٣	تَفْسِيرُ سُورَةِ الْفُرْقَانِ - مَقْدَمَةُ السُّورَةِ - عناصر القرآن المكي - عناصر السورة	٥٢٣	
٥٢٥	شبهات المكذبين بالقرآن - دعوة إلى النظر والتأمل في ملكوت الله - موضوعات السورة ومقاطعها ...	٥٢٥	
١	تَفْسِيرُ السُّورَةِ - بَرَاءَةُ الْإِسْتِهْلَالِ	٥٢٩	
٢	خَمْسَةُ أَوصَافٍ لِمُنْذِعِ هَذَا الْكَوْنِ	٥٣٠	

الآية	فهرس المـ ووجـ وعات	الصفحة
٣	سَبْعُ صِفَاتٍ مِنْ خَصَائِصِ الْإِلَهِ الْحَقِّ	٥٣٣
٤	شُبُهَاتُ الْمُكْذِبِينَ بِالْقُرْآنِ: أَوَّلًا: شُبُهَةُ افْتِرَاءِ الْقُرْآنِ	٥٣٥
٥	ثَانِيًا: شُبُهَةُ أَنَّ الْقُرْآنَ أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ	٥٣٦
٦	الرَّدُّ عَلَى الشُّبُهَتَيْنِ	٥٣٧
٩-٧	ثَالِثًا: مُفْتَرَحَاتٌ عَلَى صَاحِبِ الرِّسَالَةِ ﷺ	٥٣٧
١١، ١٠	الرَّدُّ عَلَى مُفْتَرَحَاتِهِمْ	٥٤١
١٤-١٢	مِنْ أَوْصَافِ جَهَنَّمَ، وَالْعِبَادُ بِاللَّهِ - أَحَادِيثُ	٥٤٤
١٦، ١٥	مَصِيرُ أَهْلِ الشَّقَاءِ وَأَهْلِ السَّعَادَةِ	٥٤٧
١٨، ١٧	مُحَاكَمَةٌ فِي عَرَصَاتِ الْقِيَامَةِ بَيْنَ الْمُشْرِكِ وَمَعْبُودِهِ	٥٤٨
١٩	تَوْبِيخٌ مِنَ اللَّهِ تَعَالَى لِكُلِّ مُشْرِكٍ فِي سَاحَةِ الْحَشْرِ	٥٥٠
٢٠	جَمِيعُ الرُّسُلِ يَأْكُلُونَ، وَيَقْضُونَ حَاجَاتِهِمْ بِأَنْفُسِهِمْ	٥٥١
٢١	جَوَابُ الشُّبُهَةِ الرَّابِعَةِ: ﴿لَوْلَا أَنْزِلَ إِلَيْنَا مَلَكٌ﴾	٥٥٤
٢٢	نُزُولُ الْمَلَائِكَةِ لِشُغْرَى الْمُؤْمِنِينَ وَعَذَابِ الْكَافِرِينَ	٥٥٥
٢٣	الْعَمَلُ الصَّالِحُ مِنَ الْكَافِرِ مَرْذُودٌ عَلَيْهِ	٥٥٨
٢٤	نَعِيمُ أَهْلِ الْجَنَّةِ	٥٥٩
٢٥	مِنْ مَشَاهِدِ الْقِيَامَةِ	٥٦٠
٢٦	مَالِكُ الْمَلِكِ فِي الْأُولَى وَالْآخِرَةِ	٥٦٢
٢٩-٢٧	التَّهْنِئَةُ عَنْ جَلِيسِ الشُّوْءِ	٥٦٣
٣١، ٣٠	هَجْرُ الْقُرْآنِ	٥٦٦
٣٣، ٣٢	طَلِبُهُمْ نُزُولُ الْقُرْآنِ جُمْلَةً وَاحِدَةً وَالرَّدُّ عَلَيْهَا	٥٦٧
٣٤	سُوءُ مَصِيرِ الْكُفَّارِ	٥٧١
٣٦، ٣٥	سَيِّئُ أَمْرٍ أَهْلَكَهَا اللَّهُ تَعَالَى لِتَكْذِيبِ رُسُلِهِ - أَوَّلًا: فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُ	٥٧٢
٣٧	ثَانِيًا: قَوْمُ نُوحٍ	٥٧٣
٣٩، ٣٨	ثَالِثًا وَرَابِعًا وَخَامِسًا: قَوْمُ عَادٍ وَثَمُودَ وَأَصْحَابِ الرَّسِّ	٥٧٤
٤٠	سَادِسًا: قَوْمُ لُوطٍ	٥٧٦
٤٢، ٤١	عَاقِبَةُ الْمُسْتَهْزِئِينَ بِالْإِسْلَامِ وَأَهْلِهِ	٥٧٧
٤٣	خَطَرُ اتِّبَاعِ الْهَوَى	٥٧٩
٤٤	الْكَافِرُ لَا يَنْتَفِعُ بِمَا يَسْمَعُ أَوْ يَرَى	٥٨٢
٤٥	سِتَّةُ أُدْلَةٍ عَلَى وَحْدَانِيَّةِ الْخَالِقِ سُبْحَانَهُ - الدَّلِيلُ الْأَوَّلُ: مَشْهُدُ الظِّلِّ الْوَارِفِ	٥٨٣
٤٧	الدَّلِيلُ الثَّانِي: تَعَاقُبُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ	٥٨٦
٥٠-٤٨	الدَّلِيلُ الثَّالِثُ - نِعْمَةُ الرِّيحِ الْمُبَشِّرَةِ بِالْمَطَرِ	٥٨٧
٥٢، ٥١	الدَّلِيلُ الرَّابِعُ: عُمُومُ الرِّسَالَةِ الْجَامِعَةِ	٥٩١

الآية	فهرس المـ ووجـ وعات	الصفحة
٥٣	الدَّلِيلُ الْخَامِسُ - مَشْهُدُ الْوَيْاءِ الْعَذْبَةِ وَالْمَالِحَةِ وَمَا بَيْنَهُمَا مِنْ حَاجِزٍ	٥٩٢
٥٤	الدَّلِيلُ السَّادِسُ ماءُ التَّلَطُّفِ الَّذِي تَنْشَأُ مِنْهُ الْحَيَاءُ الْبَشْرِئَةُ	٥٩٤
٥٥	عِبَادَةُ اللَّهِ وَخَدُّهُ هِيَ مَقْصُودُ هَذِهِ الْأَدِلَّةِ	٥٩٥
٥٧، ٥٦	الرَّسُولُ مُبَلِّغٌ عَنْ رَبِّهِ وَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ	٥٩٦
٥٨	شَحَذُ هِمَّةِ الرَّسُولِ ﷺ فِي تَبْلِيغِ الدَّعْوَةِ	٥٩٧
٦٠	ذَاتُ اللَّهِ وَاحِدَةٌ وَأَسْمَاؤُهُ مُتَعَدِّدَةٌ	٥٩٩
٦٢، ٦١	خَمْسَةٌ مِنْ آثَارِ قُدْرَةِ اللَّهِ تَعَالَى فِي الْكُؤْنِ	٦٠٠
٦٣	أَوْصَافُ عِبَادِ الرَّحْمَنِ الثَّلَاثَةِ عَشَرَ - الصِّفَةُ الْأُولَى: التَّوَاضُّعُ - الصِّفَةُ الثَّانِيَةُ الْجُلُومُ	٦٠٣
٦٣	الصِّفَةُ الثَّالِثَةُ: قِيَامُ اللَّيْلِ	٦٠٧
٦٦، ٦٥	الصِّفَةُ الرَّابِعَةُ: الْخَوْفُ مِنَ النَّارِ	٦٠٨
٦٧	الصِّفَةُ الْخَامِسَةُ مِنْ صِفَاتِ عِبَادِ الرَّحْمَنِ الْقَصْدُ وَالْإِعْتِدَالُ فِي التَّفَقُّهِ	٦٠٩
٦٩، ٦٨	الصِّفَةُ السَّادِسَةُ: حِفْظُ الدِّينِ الصِّفَةُ السَّابِعَةُ: حِفْظُ النَّفْسِ - الصِّفَةُ الثَّامِنَةُ: حِفْظُ النَّسْلِ	٦١١
٧١، ٧٠	التَّوْبَةُ مِنَ الْكِبَايِرِ	٦١٥
٧٢	الصِّفَةُ الثَّاسِعَةُ أَنَّهُمْ لَا يَشْهَدُونَ الزُّورَ - الصِّفَةُ الْعَاشِرَةُ: الْإِعْرَاضُ عَنِ الْجَاهِلِينَ	٦١٩
٧٣	الصِّفَةُ الْحَادِيَةَ عَشْرَةَ: التَّائِبُ بِالْقُرْآنِ	٦٢١
٧٤	الصِّفَةُ الثَّانِيَةَ عَشْرَةَ: سُؤَالُ الذَّرِّيَةِ الصَّالِحَةِ وَ الزَّوْجَةِ الصَّالِحَةِ الصِّفَةُ الثَّالِثَةَ عَشْرَةَ: الْقُدْرَةُ الْحَسَنَةُ	٦٢٢
٧٦، ٧٥	جَزَاءُ عِبَادِ الرَّحْمَنِ	٦٢٤
٧٧	خِتَامُ السُّورَةِ	٦٢٥
	فهرس الموضوعات	٦٢٧



فَأَحْزَنَ النَّفْسَ

تأليف :

أَحْمَدُ بْنُ أَحْمَدَ مُحَمَّدَ عَبْدَ اللَّهِ الطَّوِيلَ

عُضُو الدَّجَنَةِ الْعِلْمِيَّةِ لِمُرَاجَعَةِ مُصْحَفِ الْمَدِينَةِ النَّبَوِيَّةِ
وَلَجَنَةِ الإِشْرَافِ عَلَى التَّشْجِيلَاتِ الْقُرْآنِيَّةِ
بِمُجْتَمَعِ الْمَلِكِ فَهْدٍ لَطِبَاعَةِ الْمُصْحَفِ الشَّرِيفِ

قَدَّمَ لَهُ : مَعَالِي الدُّكْتُورُ / عَبْدُ اللَّهِ بْنُ عَبْدِ الْمُحْسِنِ الشُّرَيْكِي
وَالْأَسْتَاذُ الدُّكْتُورُ / صَالِحُ بْنُ غَانِمِ السَّدْلَانِ
وَنُحْبَةُ مِنَ الْعُلَمَاءِ الْمُتَخَصِّصِينَ

المجلد العاشر

من أول الشعراء إلى آخر الأحراب

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

تَفْسِيرُ سُورَةِ الشُّعَرَاءِ (٢٦)

مُقَدِّمَةُ السُّورَةِ

سورة (الشعراء) هي السورة السادسة والعشرون في ترتيب المصحف، والسادسة والأربعون في ترتيب النزول، نزلت بعد سورة (الواقعة)، وقبل سورة (النمل).

وهي مئتان وسبع وعشرون آية في العدد الكوفي^(١).

وهي ألف ومئتان وتسع وسبعون كلمة، وخمسة آلاف وخمسة مئة وأربعون حرفاً.

وسُمِّيت سورة (الشعراء)؛ لأنها تفرَّدت بذكر كلمة (الشعراء)، وقد كان شعراء مكة: كالنضر بن الحارث، والعوراء بنت حرب، زوج أبي لهب، يهجون النبي ﷺ وهم المعنئون - وقت التنزيل بآية: ﴿وَالشُّعْرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ الْفَأْوَنُ﴾ (٢٦) وكان في مكة شعراء مسلمون من الذين هاجروا إلى الحبشة، أما شعراء المدينة فقد أسلموا قبل الهجرة، ومنهم: حسان بن ثابت، وعبد الله بن رواحة، وكعب بن مالك، وهم المعنئون - وقت التنزيل - بالذين آمنوا وعملوا الصالحات في آخر السورة.

وشأن علماء بني إسرائيل كان مشهوراً بمكة، وكان لأهل مكة صلات ومراجعة مع اليهود بالمدينة في شأن بعثة محمد ﷺ.

نزلت سورة (الشعراء) على رسول الله ﷺ بمكة المكرمة، وهو مُهْتَمٌّ بأمر المشركين، يُجْهِدُ نفسه في إيمانهم، وكان ﷺ يَلْقَى مِنْهُمْ الْعِنْتَ، والتكذيب، والأذى في صباحه ومساءه، فنزلت سورة (الشعراء) كغيرها من السور المكية التي تُعْزِي الرُّسُولَ ﷺ وتُطَيِّبُ خاطره من تكذيب المشركين له وللقرآن.

فهي تقصُّ على رسول الله ﷺ سبع قصص من قصص الأنبياء والمرسلين على غير ترتيبهم التاريخي، كما جاء في السورة: موسى، وإبراهيم، ونوح، وهود، وصالح، ولوط، وشعيب صلوات الله عليهم أجمعين.

(١) والشامي والمدني الأول، ومئتان وست وعشرون آية في العدد المكي والبصري والمدني الأخير.

وكل رسول منهم جاء ليقول لقومه ما قاله نوح ﷺ كما ذكرت السورة: ﴿أَلَا نُنْفِئُكَ﴾ (١٧) ﴿إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ﴾ (١٧) ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا﴾ (١٨) ﴿وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجَرْتُ إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ (١٩). فكل رسول لا يطلب من قومه إلا الإيمان والتقوى، وإفراد الله تعالى بالعبادة، وأنه لا يطلب منهم أجراً على تبليغ الرسالة، ومع ذلك فقد قبلوا بالرفض، وعوملوا بغلظة، وقُتِل بعضهم وهو يبلغ رسالة ربه، فكانت عاقبتهم ما نطقت به الآية: ﴿وَمَا أَهْلَكْنَا مِنْ قَرِيَةٍ إِلَّا لَهَا مُنْذِرُونَ﴾ (٢٨) ﴿ذَكَرْنَاهَا وَمَا كُنَّا ظَالِمِينَ﴾ (٢٩).

وكل قصة من هذه القصص انتهت بما يُلفت الانتباه إلى أخذ الموعظة والعبرة مما لحق بهذه الأمة، جرّاء تكذيبها لرسول من رسل الله، صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين، فانتهت كل قصة بقوله سبحانه: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ (٨) ﴿وَلِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ﴾ (٩)، تعقيباً على أحداثها.

وقد تكرر هذا التعقيب ثماني مرات في السورة: سبع مرات منها بعد ذكر أحوال الأمم الماضية، ومرة واحدة في أول السورة بعد ذكر الأرض التي نعيش فوقها، ومنها بدأنا، وإليها نعود.

وشأن سورة (الشعراء) شأن السور المكية في عناصرها الأساسية، فقد عالجت أصول الدين من إخلاص التوحيد، وعدم الشرك بالله تعالى، في مثل قوله جلّ شأنه: ﴿فَلَا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَتَكُونَ مِنَ الْمُعَذَّبِينَ﴾ (١٦٢).

وعالجت قضية البعث والحساب والجزاء، في مثل قوله تعالى: ﴿وَلَا تُخْزِي يَوْمَ يُبْعَثُونَ﴾ (٨٧) ﴿يَوْمَ لَا يَنْفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ﴾ (٨٨) ﴿إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾ (٨٩).

وعالجت قضية الوحي والرسالة في مثل قوله تعالى: ﴿وَلَنَزِّلُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ (١٨٢) ﴿نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ﴾ (١٨٣) ﴿عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنْذِرِينَ﴾ (١٨٤) ﴿بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ﴾ (١٨٥).

وخوّفت من عاقبة التكذيب بالله ورسله بعذاب يدمر المكذبين ويهلكهم في الدنيا، أو بعذاب ينتظرهم في الآخرة ﴿فَقَدْ كَذَّبُوا فَسَيَأْتِيهِمْ أَنْبَاءُ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ﴾ (٦).

والدعوة الإسلامية تلقى مقاومة شديدة من أعداء الإسلام في كل زمان ومكان؛ فهم لا يُصدّقون بالآخرة، ولا يُصدّقون بالوحي المنزل على رسول الله ﷺ.

ولذا: أعرضوا عن الإيمان بالرسالة الخاتمة، ومنهم من جعل الإسلام رسالة خاصة بالعرب، وبمقدار ما يحرص الإسلام على دعوتهم وإيمانهم بمقدار ما يُكذَّبون ويُكابرون. وقد اقتضت حكمة الله تعالى أن تكون معجزة محمد ﷺ الدالة على رسالته وحيًا يُتلى، حيث تستمع الأجيال المتقدمة والمتأخرة إلى هذا القرآن الذي يخاطب العقول، ويهاجم الخرافات الشائعة.

وتنقسم آيات سورة (الشعراء) إلى ثلاثة أقسام، وهي:

١- مقدمة السورة التي جاءت في تسع آيات من أولها.

٢- ثم موضوع السورة الذي اشتمل على سبع قصص من الأمم القديمة مع أصحاب الشرائع السماوية، وهي: قصة موسى مع فرعون، وإبراهيم مع قومه، ونوح مع قومه، وقصص: عاد، وثمود، وقوم لوط، وأصحاب الأيكة.

وقد استغرقت هذه القصص السبع من الآية العاشرة إلى الآية الحادية والتسعين بعد المئة.

٣- أما القسم الثالث فهو التعقيب على ما جاء في السورة، من الآية الثانية والتسعين بعد المئة إلى نهاية السورة، الآية السابعة والعشرين بعد المئتين، وهو يتضمن حال المتقين والغاوين، والسعداء والأشقياء، ومصير كلٍّ من الفريقين يوم الدين، بالإضافة إلى التنويه بشأن القرآن ونزوله بلغة العرب.



تَفْسِيرُ السُّورَةِ

حُرُوفُ الْهَجَاءِ فِي فَوَاتِحِ السُّورِ

١- ﴿طس﴾^(١)

ابتدأت سورة (الشعراء) بحروف ثلاثة من حروف الهجاء هي: الطاء، والسين، والميم.

وهذه الحروف الله ﷻ أعلم بمراده منها، فهي من المتشابه في القرآن الكريم.

ولعلها تشير إلى أن القرآن الذي عجز أرباب الفصاحة والبلاغة عن الإتيان بمثل أقصر سورة منه، مكوّن من هذه الحروف: الطاء والسين والميم، ومن الألف واللام والراء، وغير ذلك.

وفيها إيقاظ وتنبيه للعقول والأفهام لتأمل ما فيه وتدبره، وكأن الله تعالى يقول لمن ينكرون أن القرآن من عند الله: هذا هو القرآن مكوّن من حروف وألفاظ تعرفونها، وتنطقون بها، فإن كنتم في شك في أنه من عند الله فأتوا بمثله، فإن عجزتم فأتوا بمثل عشر سور منه، فإن عجزتم فأتوا بمثل أقصر سورة منه، فإن عجزتم ﴿فَاعْلَمُوا أَنَّمَا أُنْزِلَ بِعِلْمِ اللَّهِ وَأَنَّ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَهَلْ أُنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾ [هود: ١٤].

التَّنْوِيهِ بِشَأْنِ الْقُرْآنِ

٢- ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾

تشير هذه الآية إلى تعظيم القرآن الكريم وما اشتمل عليه من المقاصد الشرعية والأخبار الغيبية بلا أدنى شك ولا شبهة فيما أخبر به وما شرعه للناس، وما بشرهم وأنذرهم به.

أي: ومما يدل على أن هذه الحروف نزلت للإعجاز والتحدي، ولَقَفَتْ أنظار المكذابين إلى الاستماع إليه والتأمل فيه، أن الآية التالية لحروف الهجاء في أكثر السور التي افتتحت

(١) قرأ أبو جعفر بالسكت على حروف الهجاء الثلاثة من (طسم) بدون تنفس، وقرأ بإمالة الطاء شعبة وحمزة والكسائي وخلف، وفتحها الباقون.

هذا: وقد عدّ المصحف الكوفي (طسم) آية، ولم يعدّها غيره.

بجروف التهجي، تشير إلى القرآن الكريم ﴿تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ﴾، ﴿ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ﴾ [البقرة: ٢]. ﴿وَالْكِتَابِ الْمُبِينِ﴾ [الدخان] أي: هذه هي آيات القرآن تُقرأ عليكم بلغتكم، وهذه حروف هجائها، فأتوا بسورة من مثلها، فهي تشير إلى أن القرآن مكوّن من هذه الحروف، وهذه هي آيات القرآن التي فضّل الله فيها أحكام التشريع، وأوضح الهدى من الضلال، والحلال من الحرام، والحق من الباطل، وهي آيات دالة على صدق محمد ﷺ، ولا يجدها إلا مكابر، فأمنوا بها واتقوا لعلكم ترحمون.

وقد كان النبي ﷺ يحرص على هداية الناس ويحزن على عدم إيمانهم.

حَرْصُ النَّبِيِّ ﷺ عَلَى هِدَايَةِ النَّاسِ

٣- ﴿لَعَلَّكَ بَنِيعٌ نَفْسَكَ أَلَّا يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ﴾

توجّهت السورة إلى مرادها، فوجّهت الخطاب إلى رسول الله ﷺ: لعلك -أيها النبي الكريم- مهلك نفسك بسبب عدم إيمان المكذّبين بك، ولعلك من شدة حرصك على هداية قومك ﴿بَنِيعٌ نَفْسَكَ﴾ أي: مهلكها ومجهّدها بسبب عدم إيمانهم في الحاضر والمستقبل؛ لأنهم لم يصدقوا بك، ولم يعملوا بدعوتك، ولم يهتدوا بهديك، فلا تُتعب نفسك، ولا تحزن على عدم إيمانهم، فإن ذلك بيد الله.

قال تعالى: ﴿فَلَا تَذَهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسْرَتٍ﴾ [فاطر: ٨]. لعدم تصديقهم بالقرآن، وما فيه من: التوحيد، والبعث، والنشور والحساب والجزاء.

ولفظ: ﴿أَلَّا يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ﴾ يفيد تأكيد واستمرار عدم إيمان من لم يؤمن من الكفار إلى يوم القيامة.

ولأن سورة (الكهف) متأخرة في النزول عن سورة (الشعراء)، فقد جاء في سورة (الكهف) بلفظ الماضي ﴿لَمْ﴾ في قوله تعالى: ﴿فَلَعَلَّكَ بَنِيعٌ نَفْسَكَ عَلَىٰ ءَاثَرِهِمْ إِنْ لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِذَآ الْحَدِيثِ أَسَفًا﴾ [الكهف]. وجاء هنا بلفظ: ﴿أَلَّا﴾ وفي هذا تسليّة للنبي ﷺ لما كان فيه من القلق، والحرص على إيمان الناس، أي: فلا تفعل ولا تحزن، فإن الهداية بيد الله، وقد أديت ما عليك، فليس بعد القرآن المبين شيء يُنزل عليهم حتى يؤمنوا، فإن فيه الكفاية لمن أراد الهداية.

الْإِنْسَانُ حُرٌّ مُّخْتَارٌ

٤- ﴿إِنْ شَأْ نُزِّلَ^(١) عَلَيْهِمْ مِنَ السَّمَاءِ آيَةٌ^(٢) فَظَلَّتْ أَعْنَاقُهُمْ لَهَا خَاضِعِينَ ﴿٤﴾﴾

قال الله تعالى لرسوله ﷺ: لا تحزن على تكذيبهم لك، ولا تقتل نفسك همًّا وغمًّا؛ فإنما عليك البلاغ وعلينا الحساب، وإنك لا تستطيع أن تهدي أحداً ولكن الله يهدي من يشاء، فلو أردنا أن ننزل على المكذبين بك آية مادية قاهرة من السماء تلوي أعناقهم، وتضطرهم إلى التسليم والإذعان، فيلجؤون إلى الإيمان قسراً، وتصير أعناقهم خاضعة ذليلة لفعلنا، ولكننا لم نشأ ذلك، فإن الإيمان النافع هو الإيمان الاختياري بالغيب والرسالة.

وقد أراد الله تعالى لهذه الرسالة أن تكون رسالة مفتوحة لجميع الأجيال إلى يوم القيامة، وليست رسالة مغلقة لأهل زمان أو مكان، فناسب ذلك أن تكون معجزته مفتوحة للقريب والبعيد، ولكل أمة وجيل، فإن الخوارق القاهرة لا تلوي إلا أعناق من يشاهدها، ثم تبقى بعد ذلك قصة تُروى، والقرآن يهدد المكذبين، بالهلاك المحسوس، كما قال تعالى: ﴿وَإِنْ كَانَ كَبُرَ عَلَيْكَ إِعْرَاضُهُمْ فَإِنْ اسْتَطَعْتَ أَنْ تَبْتَغِيَ نَفَقًا فِي الْأَرْضِ أَوْ سُلَّمًا فِي السَّمَاءِ فَتَأْتِيَهُمْ بِآيَةٍ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى الْهَدْيِ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْجَاهِلِينَ ﴿٣٥﴾﴾ [الأنعام].

وليس المراد بقوله تعالى: ﴿فَتَأْتِيَهُمْ بَيِّنَةٌ﴾ آيات القرآن؛ لأنهم لم يقتنعوا بها، ولكن المراد آية كآية بني إسرائيل حين لم يعملوا بالتوراة، فرفع الله جبل طور سيناء فوقهم كأنه ظلّة، فأمّنوا تحت وطأة التهديد.

والآيات المعرّضة للنظر والفكر: كالسّموات والأرض، والليل والنهار، وكذا آيات القرآن الكريم فإنه يهتدي بها من سبق في علم الله هداه، ويضل من سبق في علم الله ضلاله، فيكون لهذا النظر والفكر ثواب أو عقاب يترتب عليه.

أما الآيات التي تضطر الإنسان إلى الإيمان، كما حدث لبني إسرائيل لما آمنوا إيمان

(١) قرأ ابن كثير وأبو عمرو ويعقوب بسكون النون الثانية وتخفيف الزاي من (نزل)، والباقون بفتح النون الثانية وتشديد الزاي.

(٢) قرأ نافع وابن كثير وأبو عمرو وأبو جعفر ورويس بإبدال الهمزة الثانية من (السماء آية) ياء، والباقون بتحقيقها.

المضطر، حين رُفِعَ الجبل فوقهم، فهذه الآيات القاهرة تدفع ذلك الإيمان وتُبلغه حال حصولها ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً﴾ أي: على دين واحد ﴿وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ﴾ ١٨٨ ﴿إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ﴾ [هود].

فقد اقتضت حكمة الله تعالى أن يكون الإنسان حرًا مختارًا، وأن يدخل الإنسان في الإسلام عن طريق الاختيار والرغبة والافتناع، وليس عن طريق القسر والإلجاء.

ولو أراد الله - سبحانه - أن يقهر هذه الأمة على الإيمان، بأن يُنزل عليهم آية خارقة تضطرهم إلى الإيمان، فيؤمنون تحت التهديد والتخويف، كأن يرفع الله فوقهم جبلاً ويهددهم به حتى يؤمنوا، أو يسقطه فوقهم، أو ينزل الله عليهم ملكاً من السماء يجبرهم على الإيمان، لو شاء الله ذلك لفعل، ولكنه - جلَّ شأنه - يريد من عباده أن يؤمنوا باختيارهم، وليس تحت وطأة التخويف والتهديد.

قال تعالى ﴿هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ تَأْتِيَهُمُ الْمَلَائِكَةُ أَوْ يَأْتِيَ رَبُّكَ أَوْ يَأْتِيَ بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ يَوْمَ يَأْتِي بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ لَا يَنْفَعُ نَفْسًا إِيْتَابُهَا لَمْ تَكُنْ ءَامَنَتْ مِن قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِي إِيمَانِهَا خَيْرًا قُلِ انظُرُوا إِنَّا مُنظِرُونَ﴾ [الأنعام: ١٥٨]

فإن الإيمان الاختياري هو الذي ينفع العبد، وهو الذي يثاب عليه المرء يوم القيامة، وليس الإيمان القهري ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَأَمَنَّ مِنَ فِي الْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا﴾ [يونس: ٩٩].

﴿وَقُلِ الْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَمَن شَاءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَاءَ فَلْيُكْفِرْ﴾ [الكهف: ٢٩].

﴿قَدْ جَاءَكُمْ بَصَائِرُ مِن رَّبِّكُمْ فَمَن أَبْصَرَ فَلِنَفْسِهِ وَمَن عَمِيَ فَلِنَافِثِهِ﴾ [الأنعام: ١٠٤].

وَعِيدُ الْمُعْرِضِينَ عَنِ الْقُرْآنِ

٥، ٦ - ﴿وَمَا يَأْتِيهِمْ مِّن ذِكْرٍ مِّنَ الرَّحْمَنِ مُحَدِّثٍ إِلَّا كَانُوا عَنْهُ مُعْرِضِينَ﴾ ٥ ﴿فَقَدْ كَذَّبُوا فَسَيَأْتِيهِمْ أَنبَاءُ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ﴾ ٦

أي: ومع أن هذا القرآن معجزة قائمة إلى يوم الساعة، فهو أيضًا منهج حياة، يستمد منه البشر ما يُقوِّم حياتهم، وهو كتاب هداية للثقلين، ولكن المعارضين للدعوة بلغ من جحودهم أنه كلما نزلت من عند الله تعالى آية بعد آية، أو سورة بعد سورة، في صورة

متجددة يوماً بعد يوم، وحدثاً بعد حدث، كانوا عن هذه الآيات معرضين، ومكذبين بما نزل على محمد ﷺ.

والمعنى: ما ينزل من القرآن محدث، شيئاً فشيئاً، يأمرهم وينهاهم، ويذگرهم بالدين الحق إلا أعرضوا عنه ولم يقبلوه.

والقرآن المحدث: هو حديث النزول، أي: جديد في نزوله، واستهزأؤهم به يتجدد بتجدد نزوله، أما إعراضهم عنه فهو متمكن من قلوبهم.

كما في قوله تعالى: ﴿مَا يَأْتِيهِمْ مِّن ذِكْرٍ مِّن رَّبِّهِمْ تُحْدِثُ إِلَّا اسْتَمَعُوهُ وَهُمْ يَلْعَبُونَ ﴿٦﴾ لَاهِيَةً قُلُوبُهُمْ﴾ [الأنبياء].

ويتضح من الآيتين أن الله تعالى ذكر لفظ: ﴿رَبِّهِمْ﴾ في سورة (الأنبياء)، ولفظ ﴿الرَّحْمَنُ﴾ هنا؛ لأن السياق هنا في مقام إعراض المكذبين عما فيه رحمة لهم وهو القرآن، وإذا كانوا لا يدركون ما فيه صلاحهم فلا تذهب نفسك عليهم حسرات.

أما في سورة (الأنبياء) فإن الآية في سياق الحديث عن يوم القيامة، وغفلة الناس عنه.

ونظير ذلك أيضاً في قوله سبحانه: ﴿وَمَا تَأْتِيهِمْ مِّنْ آيَةٍ مِّنْ آيَاتِ رَبِّهِمْ إِلَّا كَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ ﴿١٠١﴾﴾ [الأنعام].

ثم يأتي إخبار بالوعيد بعد الإخبار بالتكذيب، وفيه بيان لعاقبة المعرضين عن ذكر الله ورحمته، فهددهم بعذابه وعقابه كما حدث قبلهم للأمم المكذبة، فقد كذبوا بالقرآن واستهزؤوا به، وكذبوا بالرسالة وبرسولها، فسوف يأتيهم مصداق ما كانوا به يستهزئون، أي: سيأتيهم أخبار ما كذبوا به وسخروا منه، وسيحلُّ بهم العذاب لا محالة، جزاء تمردهم على ربهم، فيعلمون علم اليقين ويرون بأعينهم نتيجة هذا التكذيب بما يلحق بهم من العذاب يوم لقاء رب العالمين، وبما يلحقهم في الدنيا من ألوان العذاب الدنيوي، وسوف يستمعون إلى أخبار الأمم التي كذبت رسلها كيف أهلكهم الله وأبادهم!!

ونظير هذه الآية في قوله تعالى: ﴿فَقَدْ كَذَّبُوا بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ فَسَوْفَ يَأْتِيهِمْ أَنبُؤًا مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ﴿٥﴾﴾ [الأنعام] وفيها التعبير بلفظ ﴿فَسَوْفَ يَأْتِيهِمْ﴾، وفي هذه السورة بلفظ ﴿فَسَيَأْتِيهِمْ﴾ فكان الوعيد هنا أشد؛ لأن السين للمستقبل القريب.

وَجُوبُ النَّظَرِ فِي آيَاتِ اللَّهِ الْكُونِيَّةِ

٧- ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى الْأَرْضِ كَرَّمْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ ذَوْجٍ كَرِيمٍ ﴿٧﴾﴾

ومن آيات التنزيل، إلى آيات الله في الكون، فالآيات في السموات والأرض متضافرة وكثيرة على صحة ما يدعوهم إليه القرآن من التوحيد والإيمان بالبعث، ولكنهم عموا عنها، فأشركوا بالله، وكذبوا بآياته، فلا عجب بعد ذلك أن يضلوا عن التصديق بخاتم الرسل، ويضلوا عن كون القرآن منزلاً من عند الله، ولو أنهم كانوا من الباحثين عن الحق لكان لهم في الآيات التي ذكرهم الله بها كفاية وقناعة، ولآمنوا بما أنزله الله على رسوله.

وقد أمرهم ربهم بالنظر في الكون، فقال: ﴿أَوَلَمْ يَنْظُرُوا فِي مَلَكُوتِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ [الأعراف: ١٨٥].

وقال أيضاً: ﴿قُلْ أَنْظَرُوا مَاذَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا تُعْنِي الْآلِئَةُ وَالنُّذُرُ عَنْ قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [يونس: ١١].

إن القرآن الكريم في هذه الآية يُلَفِّت انتباه الملحدين في أرجاء الدنيا إلى آية كونية واحدة من آيات الله العظام، فهي تكفي لوجود الإيمان في قلب مَنْ عنده استعداد لقبوله.

فهذه الأرض كيف يُخرج الله منها النبات أصنافاً وأزواجاً متنوعة، حسنة المنظر، متعددة المنافع، ونحن نتقلب فيها، ونمشي في جوانبها، ونعيش على خيراتها، إنها آية كافية على توحيد الله سبحانه، وعلى تقوية الإيمان في قلب العبد.

والمعنى: أغفل هؤلاء المكابرون، ولم ينظروا إلى الأرض التي أنبت الله فيها من كل نوع حسن نافع من النبات، ذكراً وأنثى، لا يقدر على إنباته إلا رب العالمين.

فإخراج النبات بأنواعه من الأرض آية دالة على وحدانية الله تعالى، ولا تصدر هذه الآية إلا عن واحد لا شريك له، وهي أيضاً آية دالة على إمكانية البعث بعد الموت؛ لأن الإنبات بعد الجفاف كإحياء بعد الموت، كما قال تعالى: ﴿وَأَيُّ لَّهُمُ الْأَرْضُ الْمَيْتَةُ أَحْيَيْتَهَا وَأَخْرَجْنَا مِنْهَا حَبًّا فَمِنْهُ يَأْكُلُونَ﴾ [يس: ٣٣].

فهل عمي الجاحدون عن مظاهر قدرة الله تعالى ورحمته بهم، ولم يروا بأعينهم كيف

أخرجنا النبات من الأرض، وجعلنا فيها أصنافاً وأنواعاً لا تُحصى من النباتات الجميلة المشتملة على الذكر والأنثى؟

قال مجاهد في معنى ﴿أَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ﴾ أي: من نبات الأرض مما يأكل الناس والأنعام^(١).

وقال الشعبي: الناس من نبات الأرض، فمن دخل الجنة فهو كريم، ومن دخل النار فهو لثيم^(٢).

فالزوج هو النوع والصف من الأغذية والنباتات، كما أن الحيوان والإنسان ينبت من الأرض؛ لأن حياته تقوم على ما يخرج منها، ولذا قال تعالى: ﴿وَاللَّهُ أَنْبَتَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ نَبَاتًا﴾ [نوح].

وفي الآية توبيخ للمعرضين عن النظر في آيات الله الكونية، وتحريض لهم على التأمل فيما يخرج من الأرض، بعد أن وبَّخهم على إعراضهم عن آيات الله المنزلة.

آيَاتُ التَّعْقِيبِ عَلَى كُلِّ قِصَّةٍ فِي السُّورَةِ

٨، ٩ - ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ (٨) وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴿٩﴾

إن في إخراج النبات من الأرض لدلالة واضحة على كمال قدرة الله تعالى، وهؤلاء يصرون على الكفر مع قيام الدليل الواضح على وحدانية الخالق، وصدق الرسالة، وما كان أكثر القوم مؤمنين كما قال تعالى: ﴿وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ﴾ [يوسف].

وقال سبحانه: ﴿يَحْزَنُهُ عَلَى الْعِبَادِ مَا يَأْتِيهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾ [يس].

وفي الآية إخبار من الله تعالى بعدم إيمان من سبق في علم الله تعالى أنه لن يؤمن، ممن هو مطبوع على الكفر؛ بسبب فساد فطرته وسوء توجهه.

وإن الله تعالى هو القوي الغالب الذي يقهر كل مخلوق، وهو الرحيم الذي وسعت رحمته كل شيء، ووصل جوده إلى كل حي، فلا يعجل بعقوبة من عصاه، بل يمهله

(١) «تفسير الطبري» (١٧/٥٥٠) وابن أبي حاتم (٨/٢٧٥٠).

(٢) ابن أبي حاتم (٨/٢٧٥٠).

وَيُنْظَرُهُ، ثم يأخذه أخذ عزيز مقتدر.

قال تعالى: ﴿وَرَبُّكَ الْعَقُورُ ذُو الرَّحْمَةِ لَوْ يُؤَاخِذُهُمْ بِمَا كَسَبُوا لَعَجَلَّ لَهُمُ الْعَذَابُ﴾ [الكهف: ٥٨].

وقد قُدِّمَ العزيز على الرحيم في الآية؛ لبيان قدرة الله الكاملة على عقوبتهم، ومع ذلك فقد رحمهم الله فضلاً منه وكرماً.

وهاتان الآيتان جاءتا تعقيماً على كل قصة في هذه السورة، فذكرتا سبع مرات بعد هذه المرة؛ لبيان أن الله تعالى عزيز، فقد أهلك مَنْ مضى من الأمم، وانتقم من أعدائه، وهو سبحانه رحيم بالمؤمنين حين أنجاهم مما أهلك به أعداءه.

فِي سُورَةِ الشُّعَرَاءِ سَبْعُ مِنْ قِصَصِ الْمُرْسَلِينَ الْقِصَّةُ الْأُولَى: قِصَّةُ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ

١٠، ١١- ﴿وَإِذْ نَادَى رَبُّكَ مُوسَىٰ أَنْ أَنْتَ الْفَقِيرُ الْظَّالِمِينَ﴾ قَوْمَ فِرْعَوْنَ ۖ أَلَا يَنْتَقُونَ ﴿١١﴾

بدأت السورة في الحديث عن أول قصة فيها، وهي قصة نبي الله موسى عليه السلام، وقد ذُكرت هذه القصة سبع مرات قبل هذه السورة في سبع سور، وذكُرت بعد هذه السورة ثلاث مرات؛ ليكتمل العدد إلى إحدى عشرة سورة ذُكرت فيها قصة موسى، وفي كل سورة منها تُذكر حلقة من حلقاتها حتى يكتمل بعضها بعضاً في مجموع السور، وليس هناك تكرار بينها، وإنما هو تنوع أسلوب يناسب مقام السورة، وما أنزلت من أجله.

وموسى عليه السلام هو ابن عمران، ينتهي نسبه إلى يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم عليه السلام.

ويُرجَّح المؤرخون أن ولادته كانت في القرن الثالث عشر قبل ميلاد عيسى عليه السلام، وأن بعثته كانت في عهد منفتح الثاني بن رمسيس الثاني من ملوك العائلة التاسعة عشرة من عائلات فراعنة مصر، في أواسط القرن الخامس عشر قبل الميلاد.

وقد رُبِّيَ موسى عليه السلام في بيت رمسيس الثاني، فكان مع منفتح كالأخ.

وقد ذُكرت قصة موسى مع فرعون وملئه في سور: البقرة، والأعراف، ويونس، وهود،

وإبراهيم، والإسراء، وطه، والشعراء، والنمل، والقصص، وغافر، والسجدة، والزخرف، والذاريات، والنازعاتن بأساليب مختلفة.

عناصر قصة موسى في سور القرآن:

وقد اشتملت هذه القصة على ثلاثة عشر عنصرًا، موزعة بين هذه السور على النحو التالي:

- ١- فولادة موسى ورضاعه: جاءتا في سورتي: طه، والقصص.
- ٢- وتربية موسى في بيت فرعون: جاءت في سورة الشعراء.
- ٣- وخروج موسى من مصر إلى مدين: جاء في سورتي: طه، والقصص.
- ٤- ونزول موسى أرض مدين، وعمله عند الرجل الصالح: جاء في سورة القصص.
- ٥- وعندما كان موسى في وادي طوى: جاء في سور: طه، والنمل، والقصص، والنازعات.
- ٦- وبعثه موسى ﷺ: جاءت في سور: طه، والشعراء، والنازعات.
- ٧- وعودة موسى إلى مصر، ودعوته فرعون: جاءت في سورتي: الأعراف، والشعراء.
- ٨- ومحااجة موسى لفرعون في وحدانية الله تعالى: جاءت في سور: طه، والشعراء، والقصص، وغافر.
- ٩- ومعجزة العصا، واليد، وأمر السحرة: جاء في سور: الأعراف، ويونس، وطه، والشعراء.
- ١٠- وإيذاء فرعون لبني إسرائيل: جاء في سور: الأعراف، وإبراهيم، والقصص.
- ١١- والتأمر على قتل موسى ﷺ: جاء في سورة غافر.
- ١٢- والمعجزات التي أيد الله بها موسى ﷺ: جاءت في سور: الأعراف، والإسراء، والنمل، والقصص، والزخرف، والنازعات.
- ١٣- وخروج بني إسرائيل من مصر، وغرق فرعون وموته: جاء في سور: الأعراف، ويونس، والإسراء، وطه، والشعراء، والدخان.

وقد ذكرت القصة بأساليب مختلفة في الإجمال والتفصيل، مع الاشتراك في بعض العناصر بما يناسب سياق السورة والغرض المقصود منها، فقد يكون الهدف هو العبرة من

هلاك فرعون وقومه وسوء مصيرهم، وقد يكون الهدف هو استعباد فرعون لبني إسرائيل، أو معجزات موسى، أو حوارهم مع فرعون.. وهكذا.

والحلقة المذكورة في هذه السورة تحتوي على أربعة عناصر:

الأول: تكليف موسى بمواجهة فرعون، وما حدث بينهما من حوار.

الثاني: معجزة موسى، وسحرة فرعون، وإيمان السحرة.

الثالث: خروج بني إسرائيل من مصر، وملاحقة فرعون وقومه لهم.

الرابع: انفلاق البحر، وغرق الظالمين، ونجاة المؤمنين.

وقد ذكرت هذه العناصر في سور: الأعراف، ويونس، وطه من الجانب الذي يناسب السورة.

الْعُنْصُرُ الْأَوَّلُ: تَكْلِيفُ اللَّهِ لِمُوسَى بِمُؤَاجَهَةِ فِرْعَوْنَ

بدأت القصة في سورة الشعراء بإرسال موسى نبياً، وأمر الله له أن يذهب لتبليغ الرسالة إلى فرعون، حين ناداه الله ناداءً مباشراً بكلام سمعه من غير واسطة ملك.

فالمعنى: واذكر -يا محمد- لقومك وقت أن نادى ربك موسى من جبل الطور، عند الشجرة المباركة، حيث ناداه الله وكلمه، وأرسله إلى بني إسرائيل، وأنزل عليه التوراة، وجعله نبياً ورسولاً، وأمره أن يذهب إلى فرعون؛ ليلغيه رسالة ربه، لعله يقلع عن ظلمه، وكان هذا النداء بالوادي المقدس في طور سيناء، كما جاء في قوله تعالى: ﴿إِنِّي أَنَا رَبُّكَ فَاخْلَعْ نَعْلَيْكَ إِنَّكَ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى﴾ [طه]، وما بعدها.

والمقام هناك مقام إطناب؛ لبيان كرامة موسى عند ربه ورسالته معاً.

أما هنا فإن المقام يقتصر على دعوة قوم فرعون وإعراضهم عنها؛ للاتعاظ بعاقبتهم حين قال الله له: ﴿أَنْ أَتَى آلَ فِرْعَوْنَ الظَّالِمِينَ﴾ أي: اذهب يا موسى، إلى القوم الظالمين، وهم فرعون وملؤه الذين ظلموا أنفسهم بالكفر والشرك والضلال، وظلموا بني إسرائيل بالقتل والتعذيب والاستعباد، وهؤلاء الظالمون، هم قوم فرعون.

وفي قوله تعالى: ﴿أَلَا يَنْقُوتُونَ﴾ نفى التقوى عنهم، وأمرهم بها في الوقت نفسه، أي:

قل لهم، بلين قول ولطف عبارة: ألا تخافون عقاب الله، الذي خلقكم ورزقكم، وتتركون ما أنتم عليه من الكفر والضلال؟ وقد كان موسى ﷺ مطلعاً عليهم لنشأته بينهم، ويرى ظلمهم لأنفسهم بالكفر، وظلمهم لبني إسرائيل بالقتل والتعذيب.

مُوسَى يَعْتَذِرُ إِلَى رَبِّهِ بِأَرْبَعَةِ أَعْدَارٍ

١٢، ١٣ - ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي^(١) أَخَافُ أَنْ يُكَذِّبُونِ^(٢)﴾ ﴿وَيَضِيقُ^(٣) صَدْرِي وَلَا يَبْسُطُ^(٤) لِسَانِي فَأَرْسِلْ إِلَيَّ هَرُونَ﴾ ﴿١٣﴾

اعتذر موسى إلى ربه بأربعة أعذار، هي:

خوف التكذيب، وضيق الصدر، وعدم طلاقة اللسان، وقلته القبطي.

أ- فالتكذيب سبب لضيق الصدر، وضيق الصدر سبب لتعسر الكلام، وهو يخاف أن يكذبه في تبليغ الرسالة، قال موسى ذلك لعلمه أن المرسل إليهم يكذبون الرسل عادة، ولأنه حريص على نجاح دعوته، ويخاف من التكذيب، ويخشى من قتلهم له على وجه القصاص للقبطي.

ب - قال موسى معتذراً إلى ربه، وهو يسأله المعونة على الحمل الثقيل: ﴿رَبِّ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُكَذِّبُونِ﴾: ويمتلئ قلبي غمًا بتكذيبهم إِيَّايَ، ولذا سأل موسى ربه قائلاً: ﴿رَبِّ أَسْرِحْ لِي صَدْرِي﴾ ﴿١٥﴾ وَيَسِّرْ لِي أَمْرِي ﴿١٦﴾ [طه].

ج: وأنا أخشى - يا رب - من عدم طلاقة لساني بالدعوة، بسبب هذا الضيق، وبسبب الخوف من تكذبي، وبسبب العقدة التي في لساني من جمرة النار التي لمستني في طفولتي، وبسبب أنني نسيت اللهجة المصرية في السنوات التي عشتها في مدين، وهي فترة طويلة.

فَأَرْسِلْ - يارب - جبريل بالوحي إلى أخي هارون؛ ليكون معيلاً ووزيراً لي؛ لأنه أقدر مني على الاستدلال والخطابة، كما في قوله تعالى: ﴿وَإِخِي هَارُونَ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّي لِسَانًا

(١) قرأ نافع وابن كثير وأبو عمرو وأبو جعفر بفتح ياء الإضافة وصلًا من (إني أخاف)، والباقون بإسكانها.

(٢) قرأ يعقوب بإثبات الباء وقفًا ووصلًا في (يكذبون)، والباقون بحذفها في الحالين، ومثلها (يقتلون) في الآية [١٤].

(٣) قرأ يعقوب بنصب القاف من (يضيق) و (ينطلق) عطفًا على يكذبون، والباقون يرفعهما على الاستئناف.

فَأَرْسَلَهُ مَعِيَ رِدْءًا يُصَدِّقُنِي إِنْ أَخَافُ أَنْ يُكَذِّبُونِ ﴿٣٤﴾ [القصص]. فأجاب الله سؤاله: ﴿قَالَ سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ وَنَجْعَلُ لَكُمَا سُلْطَانًا فَلَا يَصِلُونَ إِلَيْكُمَا﴾ [القصص: ٣٥].

وهارون في هذا الوقت كان في مصر، وموسى كان في سيناء، وأجاب الله سؤال موسى فأرسل جبريل إلى هارون بالوحي، وجعله رسولاً ونبياً يعين موسى في تبليغ رسالته.

د- وأنا أخاف - يا رب - أن يقتلوني بسبب قتل القبطي قبل أن أكون نبياً:

١٤- ﴿وَلَهُمْ عَلَى ذَنْبٍ فَأَخَافُ أَنْ يَقْتُلُونِ﴾ ﴿١٤﴾

هذا هو العذر الرابع من موسى عليه السلام؛ لبيان ذنبه حين دفع القبطي الذي كان يتقاتل مع الإسرائيليين فأدّت هذه الدفعة إلى قتله خطأ، فإن لهم حق المطالبة بدم القتل الذي وكزه موسى ففضى عليه، كما جاء في قوله تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي قَتَلْتُ مِنْهُمْ نَفْسًا فَأَخَافُ أَنْ يَقْتُلُونِ﴾ [القصص: ٢٣] وفي قوله تعالى: ﴿وَقَتَلْتُ نَفْسًا فَتَجَنَّبَكِ مِنَ الْغَيْرِ﴾ [طه: ٤٠]

فالذنب الذي ذكره هنا بيّنه الله تعالى في قوله: ﴿وَدَخَلَ الْمَدِينَةَ عَلَى حِينٍ غَفْلَةٍ مِّنْ أَهْلِهَا﴾ [القصص: ١٥، ١٦].

وسماه ذنباً على أساس أن من قتل بغير قصاص ولا دفاع عن النفس، فإن هذا يعدّ جرماً في قوانين البشر من عهد قتل ابن آدم لأخيه.

وقد كان هذا القتل خطأ؛ لأن موسى دفع القبطي عن الإسرائيليين، فأدّت هذه الدفعة إلى قتله دون قصد متعمّد منه، وقال جلّ شأنه على لسانه: ﴿قَالَ هَذَا مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ﴾.

وهو يخاف من ملاحقتهم له، ولذا قال: ﴿فَأَخَافُ أَنْ يَقْتُلُونِ﴾ قبل أن أتمّ ما عهد ربي إليّ به من أعباء الرسالة، فأحرّم جزيل الثواب، والدرجة العالية.

وموسى بهذا لم يمتنع عن القيام بأعباء الرسالة، ولم يعتذر عن تبليغها، وإنما يطلب العون من ربه على تحمّل هذا الأمر، ويلتمس منه الإذن في إرسال هارون معه؛ ليكون عوناً له في مهمته، كما قال: ﴿وَأَجْعَلْ لِّي وَزيراً مِّنْ أَهْلِي﴾ ﴿٢٩﴾ هَرُونَ أَخِي ﴿٣٠﴾ أَشَدُّ بِهٖ أَرْزَى ﴿٣١﴾ وَأَشْرِكُهُ فِي أَمْرِي ﴿٣٢﴾ [طه].

طَمَأْنَنَةُ اللَّهِ لِمُوسَى وَإِسْرَائِيلَ إِلَى فِرْعَوْنَ

١٥- ﴿قَالَ كَلَّا فَادْهَبَا بِأَيَّتِنَا إِنَّهُمَا مَعَكُمْ مُسْتَعِينُونَ﴾ (١٥)

أي: قال الله - سبحانه - مطمئنًا موسى: كَلَّا، لا تخف، لن يقتلوك، ولن يضيق صدرك، وسأشرح لك صدرك، وأرسل معك أخاك هارون، وقد جعل الله لموسى سلطانًا فلم يتمكن فرعون من قتله، مع شدة عداوته له وحرصه على إبعاده من طريقه.

وأوحى الله إلى هارون أن يتلقى أخاه في (حوريب)، أي في جبل طور سيناء، وقال لهما: لا عذر لكما في التأخر عن دعوة فرعون بعد أن آتيتك سؤلك يا موسى، فاستعينا بالله واذهبا إليه؛ فإنني معكما -بعوني ونصري- أسمع وأرى، وأحفظك وأكلؤك، وقد أيدتك بالعصا واليد آية بينة على صدق دعواك.

والضمير في ﴿مَعَكُمْ﴾ يعود على موسى وهارون وفرعون وقومه.

١٦، ١٧- ﴿فَأْتِيَا فِرْعَوْنَ فَقُولَا إِنَّا رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ (١٦) ﴿أَنْ أَرْسِلَ مَعَنَا بَنِي إِسْرَءِيلَ﴾ (١٧)

أمر الله موسى أن يذهب إلى فرعون بصحبة هارون ويبلغاه أنهما رسولان من عند الله، وأن الله تعالى قد أرسلهما إليه لمهتين:

الأولى: دعوته إلى التوحيد وعبادة الله وحده.

والثانية: تخليص بني إسرائيل من بطشه وقهره.

ذهب موسى إلى مصر ومعه عصاه يضع في طرفها المكنى، وعليه جبة من صوف، ودخل بيته، وبلغ هارون أنه مرسل من ربه، واستمعت الأم إلى كلام الأخوين، فصاحت: إن فرعون يطلبك ليقتلك، فلا تذهب إليه، فلم يمتنع لكلام أمه.

وأخذ هارون وذهبا إلى فرعون، وقالا للبواب: إنهما يستأذنان في الدخول عليه قائلين له: إنا رسول رب العالمين، قال البواب لفرعون: بالبواب رجل مجنون يقول: إنه رسول رب العالمين.

(١) قرأ أبو جعفر بتشهيل همزة (إسرائيل) الثانية مع المد والقصر وصلًا ووقفًا، ومثله حمزة عند الوقف، وقرأ الأزرق بثلاثة، المد فيها.

عرف فرعون أنه موسى، فأرجأه إلى الصباح، وكان موسى قد وصل ليلاً، فلما أصبح أدخله عليه، أخذ فرعون ينظر إلى موسى، ويجادله في ملاً من قومه يَبْلُغُونَ خمس مئة رجل.

وقد جاء في سورة طه في قوله تعالى: ﴿فَقُولَا إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ﴾ [طه: ٤٧]. بضمير الشنية مطابقاً للموصوف (موسى وهارون).

وجاء هنا ﴿فَقُولَا إِنَّا رَسُولَا رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ بمعنى اسم المفعول؛ لأنهما ذهبا برسالة واحدة، في مهمة واحدة، ولأن اسم المصدر يأتي تارة ملازماً للإفراد والتذكير، وتارة مطابقاً لموصوفه.

وفي مخاطبة موسى وهارون لفرعون في بادئ الأمر، أنهما رسولا رب العالمين ما ثبت أن فرعون مربوب، وليس رباً، وفيه مجابهة له بما يجب اعتقاده من وحدانية الله تعالى؛ لأن ﴿الْعَالَمِينَ﴾ يشمل جميع الكائنات بمن فيها فرعون وسائر معبوداتهم كالشمس وغيرها.

أرسل الله موسى إلى فرعون يأمره أولاً بتوحيد الله رب العالمين، وكان فرعون قد ادّعى الربوبية لقومه، وقال: ﴿أَنَا رَبُّكُمْ الْأَعْلَى﴾ [النازعات: ٢٤]. كما ادعى الألوهية وقال: ﴿مَا عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرِي﴾ [القصص: ٣٨]. وهذا هو مقتضى ما بعث الله به موسى وهارون إلى فرعون في الآية السابقة: ﴿فَأْتِيَا فِرْعَوْنَ فَقُولَا إِنَّا رَسُولَا رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾.

والأمر الثاني الذي أرسل الله به موسى إلى فرعون: هو أن يُخرج بني إسرائيل من أرض مصر؛ لتحريرهم من ذلّ فرعون، واستعباده لهم، ويتركهم يذهبون معه إلى أرض الله الواسعة؛ كي يعبدوه وحده.

وكان بنو إسرائيل أهل دين صحيح منذ أبيهم يعقوب عليه السلام، ولما فسدت عقائدهم بمخالطة الفراعنة، أرسل الله إليهم موسى عليه السلام ليصحح عقيدتهم، ويعيد تربيتهم على التوحيد، وينقذهم من ظلم فرعون وبغيه، وجاءت هذه المهمة الثانية في تلك الآية التي معنا ﴿أَنْ أَرْسِلَ مَعَا بَنِي إِسْرَءِيلَ﴾.

وكان فرعون قد استعبدهم أربع مئة سنة، وكان عددهم - آنئذٍ - ست مئة وثلاثين ألفاً، فانطلق موسى برسالته إلى مصر وكان هارون بها فأخبره بذلك، وذهب إلى فرعون كما سبق بيانه. **فالخلاصة:** أن موسى أُرسِلَ إلى فرعون لمهمتين:

الأولى: أن يهتدي فرعون ويؤمن بالله تعالى .

والثانية: أن يخلص بني إسرائيل من ذل العبودية والقهر .

فِرْعَوْنُ يَمْتَنُّ عَلَى مُوسَى بِتَرْبِيَّتِهِ وَقَتْلِهِ الْمِصْرِيِّ:

١٨ - ﴿قَالَ أَلَمْ تُرَبِّكُ فِينَا وَلِيدًا وَلِئْتَ فِينَا مِنْ عُمَرِكَ سِنَّينَ ﴿١٨﴾﴾

عرف فرعون من خلال موسى وهارون أن موسى هو الرسول بالأصالة، وأن هارون كان عوناً له على تبليغ الدعوة، فلم يُشغل نفسه بالكلام مع هارون، ووجّه خطابه إلى موسى وحده، كما أن فرعون لم يُشغل نفسه بإبطال دعوة موسى، وعدل عن ذلك إلى تذكيره بنعمه عليه، وتخويفه بقتل المصري ظناً منه أن ذلك سيفجّم موسى ويؤثني عن دعوته، ويتلّعث في كلامه خوفاً من فرعون وبطشه .

قال فرعون لموسى ممّناً عليه بعد أن بلغه رسالة ربه: ألم يسبق لك أنك عشت في منازلنا، ورعيناك وأنت طفل صغير؟ فقد مكثت في رعايتنا سنين من عمرك وصلت إلى نحو ثلاثين سنة، قمنا خلالها بتربيتك منذ كنت وليداً في مهدك إلى أن اشتد عودك وصرت رجلاً .

لقد رأى فرعون أن في كلام موسى جرأة عليه، فأراد أن يُرخي له العنان في أن يجحد أو يُقرّ أنه قد تربى في بيته، فإذا أقرّ ولم يُنكر كان الإقرار سالماً من الضغط عليه، وكان على موسى أن يقابل هذا بالبر والطاعة، وليس بالجفاء .

وهذه منة ثانية يمن بها فرعون على موسى فيقول له:

١٩ ، ٢٠ - ﴿وَفَعَلْتَ فَعَلْتَكِ الْتِي فَعَلْتَ وَأَنْتَ مِنَ الْكَافِرِينَ ﴿١٩﴾﴾ قَالَ فَعَلْنَاهَا إِذَا وَأَنَا مِنَ الضَّالِّينَ ﴿٢٠﴾﴾

قال فرعون لموسى: لقد ارتكبت جناية حين دفعت رجلاً من قومي وضربته، فترتب على ذلك قتله، وأنت من الجاحدين نعمتي، المنكرين ربوبيتي .

وجّه فرعون إلى موسى هذه الأسئلة على وجه الاستنكار، متوهماً أنه قطع عليه طريق الإجابة .

قال موسى مجيباً فرعون في رباطة جأش، واعتراف بفعلته وهو غير خائف من هذا الإقرار: فعلت ما ذكرت حين كنت في بيتكم قبل أن يوحى الله إليّ، وبيعني رسولا،

لأن الرسول قبل أن يوحى إليه ضالٌّ، كما قال تعالى: ﴿وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَىٰ﴾ (٧) [الضحى]. وكنت من المخطئين الناسين، البعيدين عن الصواب، كما قال تعالى: ﴿أَن تَصِلَ إِحْدَهُمَا فَتُكْرَمَ إِحْدَهُمَا الْأُخْرَىٰ﴾ [البقرة: ٢٨٢].

فكان موسى يقول: أنا لا أنكر هذه الفعلة، ولكني فعلتها قبل أن يشرفني الله بالرسالة، وفضلاً عن ذلك، فأنا كنت أجهل أن هذه الوكزة ستؤدي إلى قتله، فلم أكن أقصد قتله، ولكني قصدت تأديبه ومنعه من الظلم.

٢١- ﴿فَفَرَرْتُ مِنْكُمْ لَمَّا خِفْتُكُمْ فَوَهَبَ لِي رَبِّي حُكْمًا وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾ (١١)

بين موسى في هذه الآية ما ترتب على قتل المصري بأنه لما توقع الشر منهم، وخشي على نفسه من القتل، خرج من بينهم فاراً إلى أرض مدين، ففررت منكم لما خفت أن تقتلونني، فكان نتيجة فراري أن أنعم الله عليّ -تفضلاً منه- بالنبوة والعلم والرسالة، والله أعلم حيث يجعل رسالته، فالإنسان ابن يومه، وليس ابن أمسه، والأحوال بأواخرها، فوجود فضل عليّ في الصغر، لا يقدر في رسالتي، ولا يمنعني من تبليغها إليكم.

وهكذا: فإن اعتراض فرعون على موسى غير صحيح، لأنه جعل المانع من كونه رسولاً، قتله المصري، فأجابه موسى مصححاً له اعتراضه، بأن قتله كان خطأ، وأنه لم يكن يقصد ذلك، وفضل الله غير ممنوع على أحد.

وكان هذا الحوار بعد أن أظهر موسى لفرعون المعجزة التي أيده الله بها، وبعد أن قال الله له: ﴿إِنِّي أَصْطَفَيْتُكَ عَلَى النَّاسِ بِرِسَالَتِي وَبِكَلِمِي﴾ [الأعراف: ١٤٤] وبعد أن أرسله ربه إلى فرعون بقوله: ﴿أَذْهَبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَىٰ﴾ (٢٤) [النازعات].

ويمضي موسى في رده على فرعون، فيقول:

٢٢- ﴿وَتِلْكَ نِعْمَةٌ تَمُنَّا عَلَىٰ أَن عَبَدْتَ بَنِي إِسْرَءِيلَ﴾ (١٢)

كان موسى قد قدّم الجواب على قتل المصري؛ ليُظهر لفرعون أنه لا يخشى من ذلك، ثقةً منه بأن الله تعالى سينجيّه من عداوتهم.

ثم أجاب بعد ذلك على امتنان فرعون عليه بالتربية في بيته، فقال: وتلك التربية التي

كانت في بيتكم تُعْدها نعمة منك عليّ، وقد جعلت من بني إسرائيل عبيداً لك، تُدَبِّحُ أبناءهم، وتستحيي نساءهم.

وقد كانت تربيتي في بيتك وليداً بسبب استعبادك لبني إسرائيل، مما اضطر أُمِّي أن تضعني في التابوت، وتُلْقِيَنِي فِي الْيَمِّ، ونتج عن ذلك عدم تربيتي في بيت أبي، فما تمنُّ به عليّ في الحقيقة ما هو إلا نعمة، فأُثِي نعمة في استعبادك لقومي، وأنا واحد منهم، وتربيتي في بيتك كانت لأسباب خارجة عن قدرتك، فهل تمنُّ عليّ أن اتخذت بني إسرائيل عبيداً لك؟

فالحقيقة أنك ظلمت هذا الشعب الذي عَذَّبْتَهُ وَسَخَّرْتَهُ فِي الْأَعْمَالِ الشَّاقَّةِ، وأنا قد سلَّمَنِي اللَّهُ مِنْكَ، فما هذه المنة التي تمتن بها عليّ؟

ثم إن تربيتي في بيتك في الصغر لا تمنعني من تبليغ رسالة ربي، ولا من دعوتي لك إلى الإيمان بالله تعالى.

وبهذا الجواب أفحم موسى فرعون، وجعله يحوّل الحديث إلى شيء آخر.

حَوَارُ بَيْنَ مُوسَى وَفِرْعَوْنَ حَوْلَ تَوْحِيدِ الرُّبُوبِيَّةِ

٢٣، ٢٤- ﴿قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴿٢٣﴾ قَالَ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِنْ كُنْتُمْ مُوقِنِينَ﴾

عدل فرعون عن هذه المسألة المتعلقة بتربية موسى وقتله للقبطي، وشرع يسأله عن صميم دعوته في تجاهل واستخفاف، فقال مستنكراً مستهزئاً: ما رب العالمين الذي تدعو إليه، ألك رب غيري؟ وقد أقام موسى ثلاثة أدلة على توحيد الربوبية:

أولها: أنه سبحانه رب العالم العلوي والسفلي وما فيهما وما بينهما:

ولما كان حرف (ما) للسؤال عن حقيقة الشيء وماهيته، وهذا لا يناسب الذات العليّة، فإن موسى عدل عن جواب فرعون، وأجابه بذكر أفعاله وآثاره سبحانه، وفرعون يدّعي أنه إله شعب واحد، هو شعب مصر، وأنه يمتلك جزءاً من وادي النيل ﴿أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ وَهَذِهِ الْأَنْهَارُ تَجْرِي مِنْ تَحْتِي﴾ [الزخرف: ٥١]. وهذه الملكية التي يدّعيها فرعون على افتراض أنها له، ماذا تساوي بالنسبة للعالم العلوي والعالم السفلي وما فيهما وما بينهما،

لذا: كان جواب موسى تعريفاً بخصائص رب العالمين، حين قال مخاطباً لجموع الحاضرين مع فرعون: ﴿رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا﴾ المتصرف فيهما بالإحياء والإماتة، والخلق والتدبير، من: بحار وقفار، وجبال وأشجار، ونبات وثمار، وإنسان وحيوان، وغير ذلك، فإن كنتم تعرفون مثل هذه الأدلة، فإن هذا يؤدي بكم إلى الإيمان بالله تعالى: وما مصر وشعبها، وما وادي النيل وما حوله إلا جزءٌ من ذرة في هذا الكون العظيم، الذي هو مربوب ومملوك لرب العالمين.

وهذا كقوله تعالى: ﴿قَالَ فَمَنْ رَبُّكُمَا يَمُوسَىٰ﴾ ﴿٢٥﴾ قَالَ رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَىٰ كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَىٰ ﴿٢٦﴾ [طه].

وكانت عقائد القبط؛ تقول بوجود آلهة متعددة، تقتسم التصرف في العالم وما فيه من موجودات، وهنا أثار فرعون انتباه الحضور لجواب موسى له:

٢٥، ٢٦- ﴿قَالَ لِمَنْ حَوْلَهُ أَلَا تَسْمَعُونَ﴾ ﴿٢٥﴾ قَالَ رَبُّكُمْ وَرَبُّ آبَائِكُمُ الْأَوَّلِينَ ﴿٢٦﴾

قال فرعون لمن حوله متعجباً متهكماً، معرضاً عن خطاب موسى، ومستثيراً لنفوس الملائكة تهيجاً لهم: ألا تسمعون إلى هذا الذي يدعي أن له رباً غيري يدعو إلى عبادته من دوني، وكانوا يعتقدون أن فرعون إلههم ومعبودهم، وكان هذا الضلال سائداً فيهم، ولذا فإن موسى زاد في إجابته دليلاً ثانياً على توحيد الربوبية بقوله: ﴿رَبُّكُمْ وَرَبُّ آبَائِكُمُ الْأَوَّلِينَ﴾، سواء تعجبتم واستكبرتم أم لا. وسواء أصدقتم وأدعتم أم لا.

لم يمهل موسى قوم فرعون أن يردوا عليه، بل أكد لهم وحدانية الله تعالى، وهيمنته على هذا الكون.

ولما كان فرعون قد أعرض عن مخاطبة موسى، وتجاوزته إلى مخاطبة مَنْ حوله، فإن موسى وجّه جوابه إلى الملائكة، حيث لم يهتدوا جميعاً إلى أن الله تعالى خالق هذا الكون بما فيه ومن فيه.

فزاد موسى جواباً ثانياً على جوابه الأول حيث قال لهم: الرب الذي أدعوكم إليه هو الذي خلقكم، وخلق آبائكم الأولين، فكيف تعبدون مَنْ هو مخلوق مثلكم، وله آباء قد دُفِنوا كآبائكم؟! والله هو ربي وربك يا فرعون، ورب آبائكم - أيها الناس - الذين ماتوا

وسبقوا، وأنت -يا فرعون- واحد منهم، وإلهه هو الرب الذي يحيي ويميت، ويخلق ويرزق، وأنت لست كذلك، وهنا لجأ فرعون إلى أسلوب الإفلاس في المناظرة:

٢٧، ٢٨ -﴿قَالَ إِنَّ رَسُولَكُمْ الَّذِي أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ﴾ (٢٧) قَالَ رَبِّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَا
إِنْ كُنْتُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٢٨﴾

احتد فرعون لما سمع موسى يذكر آباءه المقدسين عنده، فلجأ إلى الرد الذي يدل على العجز والإفلاس، وقال لخاصة قومه يستثير غضبهم: إن رسولكم يتكلم كلاماً لا يعقل، ففرعون يزعم أن هذا كلام من اختل إدراكه، فوصفه بالجنون للتشكيك في أمره، وقد خاطب فرعون قومه بأن موسى رسولهم ليهيجهم عليه، وليربأ بنفسه عن أن يكون رسولاً له.

قال موسى مجيباً لإنكار فرعون، في ثالث دليل له يظهر فيه عجز فرعون، وأنه في غاية البعد عن دعوى الربوبية، وهو أخص من الدليلين الأول والثاني، ولا سبيل إلى إنكاره، فشروق الشمس وغروبها يشاهد كل يوم مرتين، كما انتقل إبراهيم من الاستدلال بالإحياء والإماتة إلى الاستدلال بشروق الشمس وغروبها وجهة كل منهما، فهو سبحانه رب المشرق والمغرب وما بينهما، وما فيهما، وما بينهما من نور وظلمة.

وهذه الآية لم يدعها أحد من الطغاة الذين ادّعوا الربوبية أو الألوهية.

فالنمرود حين حاجه إبراهيم قال له: ربي الذي يحيي ويميت، قال النمرود: أنا أحيي وأميت، فأحضر رجلين فقتل أحدهما وترك الآخر، عندئذ قال إبراهيم: ﴿فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالسَّمَسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأَتِي بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ﴾ [البقرة: ٢٥٨].

ولما كان طلوع الشمس وغروبها آية ظاهرة لا يمكن لأحد أن يجحدها، ولا أن يدعيها لغير الله، فإن موسى ﷺ أقام الحجة على فرعون بذلك، فهل ذهبت عقولكم حتى تنكروا خالق السموات والأرض وما بينهما، فإذا جحدتم ذلك، فبأي شيء تؤمنون؟.

وإذا كان الله تعالى هو الذي يدبرهما ويصرفهما فاجعل أنت -يا فرعون- المشرق مغرباً والعكس، فإن عجز فرعون عن ذلك -وهو عاجز لا محالة- فاعلموا أن ذلك مما يستوجب الإيمان بالله تعالى، فإن كنتم من أهل العقل والتدبر فأخلصوا له العبادة، فإن ذلك من أوضح الأدلة على وحدانية الله تعالى وقدرته.

الْعُنْصُرُ الثَّانِي: مُعْجَزَةُ مُوسَى وَسَحَرَةُ فِرْعَوْنَ

٢٩- ﴿قَالَ لَئِنْ أَخَذْتُ إِلَهًا غَيْرِي لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ الْمَسْجُونِينَ﴾ ﴿٢٩﴾

ولما انقطعت الحجة على فرعون، ولم يستطع الحوار والمناظرة -لجأ إلى القوة، وهذا شأن الطغاة دائماً، يلجؤون إلى القوة عند العجز عن دفع الحجة بالحجة في مثل هذه الحال، ولذا قال فرعون لموسى مهدداً له وطامعاً في أن يتخذه إلهاً: ﴿لَئِنْ أَخَذْتُ إِلَهًا غَيْرِي لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ الْمَسْجُونِينَ﴾ وكان سجن فرعون أشد من القتل؛ لأنه كان يُلقى المسجون وحده في هوة بعيدة القعر، بحيث لا يسمع ولا يبصر حتى يموت، وفي هذا تخويف لقومه كي يبقوا على ما هم عليه.

وهكذا لم يقف فرعون عند تحذير قومه من اتباع موسى وتخويفهم من الاستماع إليه، بل طمع في أن يتخذه موسى إلهاً، وتوعده بالسجن إن لم يفعل، وهذا ضعف وإفلاس في الحجة والمناظرة، وهنا جاء دور الحديث عن المعجزات التي أيد الله بها موسى ﷺ:

٣٠، ٣١- ﴿قَالَ أُولَوْ جِئْتُكَ بِشَيْءٍ مُّبِينٍ﴾ ﴿٣٠﴾ قَالَ فَأْتِ بِهِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصّٰدِقِينَ ﴿٣١﴾

ردّ موسى في رباطة جأش على فرعون دون خوف من وعيده وتهديده قائلاً له في تلمظ وطمع في إيمانه: أأتسجنني ولو جئتكم بدليل بيّن واضح، ومعجزة ظاهرة على صدق دعواي؟ فلما سمع فرعون ذلك طمع أن يجد في هذا الشيء معارضة لموسى، قال: فأْت بهذا الشيء البين إن كنت صادقاً في دعواك، وقد أراد موسى أن يصرف فرعون عن التهديد بالقوة المادية، ويلجئه إلى رؤية المعجزات والاطلاع عليها لعله يهتدي.

٣٢، ٣٣- ﴿فَأَلْقَى عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ﴾ ﴿٣٢﴾ وَنَزَعَ يَدَهُ فَإِذَا هِيَ بَيْضَاءُ لِلنَّظَرِ ﴿٣٣﴾

فألقي موسى العصا التي في يده، فارتفعت إلى أعلى قليلاً، وانقلبت حية حقيقية عظيمة، تدبّ فيها الروح وهي تسعى، وتوجهت نحو فرعون فامتلكه الرعب، واستغاث بموسى أن يأخذ عنه هذا الثعبان العظيم، ويروى أن هذه العصا كانت عند شعيب، فأعطاها لموسى ليرعى بها الغنم، وكان في رأسها شعبتان، وهي من جملة عصيّ الأنبياء.

قال فرعون: أو غير ذلك؟ أعندك شيء آخر؟

فقال موسى لفرعون وهو يمدُّ يده نحوه: ما هذه؟

قال: يدك، وكان موسى ﷺ أسمر اللون، ويده كذلك، فوضع يده تحت إبطه ثم أخرجها، فإذا هي بيضاء كالثلج، لها شعاع كشعاع الشمس يسد الأفق، من غير برص ولا مرض. وهنا لجأ فرعون إلى اتهام موسى بالسحر:

٣٤، ٣٥ - ﴿قَالَ لِلْمَلَإِ حَوْلَهُ إِنَّ هَذَا لَسِحْرٌ عَلِيمٌ ۖ ﴿٣٤﴾ يُرِيدُ أَنْ يُخْرِجَكُمْ مِنْ أَرْضِكُمْ بِسِحْرِهِ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ ۖ ﴿٣٥﴾﴾

قال فرعون لأشرف قومه الذين حوله، خشية أن يؤمنوا، بعد أن زلزلته معجزة موسى، ولم يجد فرعون شيئاً يعارض به موسى غير رمية بالسحر، فقال: إن هذا لساحر بارع في فن السحر، والسحرة يأتون من العجائب ما لا يقدر عليه الناس، وخوفهم أن يتوصل موسى بذلك إلى إخراجهم من وطنهم، كي يجدوا في معاداته وخذلانه.

وفي موضع من سورة الأعراف آخر: ﴿قَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِ فِرْعَوْنَ إِنَّ هَذَا لَسِحْرٌ عَلِيمٌ ۖ ﴿١٠٩﴾﴾ [الأعراف].

لقد أراد فرعون أن يرمي موسى بالسحر خشية أن يتأثروا به، وحتى يغطي على معجزته، وأراد كذلك أن يستفز قومه ضد موسى، فأخذ يؤلبهم عليه قائلاً: إن موسى يريد أن يستولي على بلادكم بسحره العظيم، بعد أن يجمع الناس حوله؛ حتى يكثر أتباعه وأعوانه، فيأخذ البلاد منكم، فبماذا تشيرون عليّ؟ وهي كلمة تشير إلى ضعف فرعون وخذلانه أمام قوة الدليل والبرهان.

وهذا هو حال الطغاة: يتذللون ويتباكون عندما يضيق الخناق حول رقابهم، فإذا انفك الخناق عنهم عادوا إلى فجورهم وطغيانهم.

لقد تحير فرعون عندما أبصر معجزتي موسى، فحطَّ عنه كبرياء الربوبية والإلهية، وارتعدت فرائضه، وبلغت به الاستكانة أن يستشير عبيده رغم أنه إلههم كما يزعم! قائلاً لهم: ﴿فَمَاذَا تَأْمُرُونَ﴾ أن نفعل به؟

٣٦، ٣٧- ﴿قَالُوا أَرْجِهْ^(١) وَأَخَاهُ وَأَبْعَثْ فِي الدَّائِنِ خَشِيرِينَ ﴿٣٦﴾ يَأْتُونَكَ بِكُلِّ سِحَارٍ عَلِيمٍ﴾

أشار قوم فرعون عليه بتأخير أمره وأمر أخيه حتى يجمعوا سحرة البلاد لمقاومته، حتى نغلبه بسحر مماثل له، ونصرف عنه عوام الناس.

وكان فرعون قد عزم على قتل موسى بعد أن عجز عن مقاومة معجزته، فقال له قومه حين استشارهم: لا تفعل، فإنك إن فعلت أدخلت على الناس شبهة في قتله، ولكن أمهل موسى وأخاه إلى أجل، حتى تجمع له السحرة فيقاوموه، ولا تكون له عليك حجة، وهذا معنى ﴿أَرْجِهْ وَأَخَاهُ﴾ أي: أخر موسى وهارون إلى أن تجمع لهما السحرة، ولا تقتلها، وأرسل جنودك إلى جميع المدن كي يجمعوا لك السحرة من شتى الأرجاء في بلاد مصر، ويجمعوا لك كل ساحر فائق في سحره، عليم بفنون السحر ومداخله، متفوق فيه، فإن الساحر يقابل بسحر من جنس سحره، ومناظرة السحرة لموسى، من تدبير الله تعالى كي يظهر الحق على الباطل، ويُقر أهل الصنعة بصحة ما جاء به موسى، وأنه ليس بسحر، فأرسل فرعون بجمع السحرة من أرجاء البلاد، وجدّ واجتهد في ذلك:

٣٨-٤٠- ﴿فَجَمَعَ السَّحَرَةَ لِمِيقَاتِ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ ﴿٣٨﴾ وَقِيلَ لِلنَّاسِ هَلْ أَنْتُمْ مُجْتَمِعُونَ ﴿٣٩﴾ لَعَلَّنَا نَبْنِئَ

السَّحَرَةَ إِنْ كَانُوا هُمْ أَفْغَلِينَ ﴿٤٠﴾﴾

واستجاب فرعون لرأي مستشاريه فجمع السحرة، وحُدّد لهم وقت معلوم للاجتماع بموسى، وهو وقت الضحى من يوم الزينة (العيد) الذي يتفرغون فيه من أشغالهم، ويتزينون فيه احتفالاً بعيدهم.

(١) في كلمة (أرجه) ست قراءات على النحو التالي:

- (أ) (أَرْجِهْ) بكسر الهاء من غير صلة، لقالون وابن وردان بخلف عنه.
- (ب) (أَرْجِهي) لورش والكسائي وابن جمّاز وخلف العاشر وابن وردان في وجهه الثاني.
- (ج) (أَرْجِهْ) لحفص وحمزة وشعبة بخلف عنه.
- (د) (أَرْجِهُو) لابن كثير وهشام بخلف عنه.
- (هـ) (أَرْجِئْهُ) بضم الهاء من غير صلة لأبي عمرو ويعقوب وهشام وشعبة في وجههما الثاني.
- (و) (أَرْجِئْهُ) بكسر الهاء من غير صلة لابن ذكوان.

وفي موضع آخر من سورة طه: ﴿قَالَ مَوْعِدُكُمْ يَوْمَ الزَّيْنَةِ وَأَنْ يُحْشَرَ النَّاسُ ضُحًى﴾ [طه]. وجمع الناس في صعيد واحد من تسخير الله تعالى له؛ لتظهر حجة موسى وبرهانه على صدق رسالته، فيظهر الحق ويذهب الباطل على رؤوس الأشهاد.

وأخذ أعوان فرعون يحضون الناس على حضور المباراة، ويحثونهم على عدم التخلف في ذلك اليوم المعلوم الذي يلتقي فيه موسى بالسحرة، وفيه حضُّ للسحرة أن يبذلوا أقصى جهدهم للتغلب على موسى، وكان في هذا أمل منهم أن تكون الغلبة للسحرة.

قال أعوان فرعون للناس: بادروا إلى اجتماع السحرة بموسى؛ لكي تثبت على ديننا إن كانت الغلبة للسحرة، فعهذوا العزم على اتباع السحرة، وليس على اتباع الحق.

ووصل السحرة إلى ساحة المناظرة من أرجاء مصر:

٤١، ٤٢ - ﴿فَلَمَّا جَاءَ السَّحَرَةُ قَالُوا لِفِرْعَوْنَ أَإِنَّا لَمَّا لَأَجْرًا إِن كُنَّا نَحْنُ الْغَالِبِينَ﴾ [٤١] قَالَ نَعَمْ (٢) وَإِنَّكُمْ إِذَا لَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ﴾ [٤٢]

ولما جاء السحرة، وعلموا حرص فرعون على غلبة موسى، وخافوا أن يسخرهم فرعون بدون أجر، اشترطوا عليه أجرهم قبل البدء في العمل؛ ليقيدوه بوعده، فقالوا له: إن غلبنا بسحرنا موسى، فهل تكرمنا بالمال والأجر الجزيل؟

قال لهم فرعون: نعم أعطيكم ما تريدون من الأجر الذي يرضيكم، وفضلاً عن ذلك فستكونون عندي من المقربين، وسأخصكم بعناتي ورعايتي، وأخذ يعدهم ويمنيهم، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿وَجَاءَ السَّحَرَةُ فِرْعَوْنَ قَالُوا إِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِن كُنَّا نَحْنُ الْغَالِبِينَ﴾ [١٣٣] قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ لَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ﴾ [١٣٤]. وهو تفنُّن في العبارة من أساليب البلاغة، فلما اجتمعوا في الموعد وعظهم موسى وذكرهم وقال لهم: ﴿وَلَكُمْ لَا تَفْقَرُوا عَلَى اللَّهِ كَذِبًا فَيُسْحِتَكُمْ بِعَذَابٍ وَقَدْ خَابَ مَنِ افْتَرَى﴾ [طه: ٦١]. فتنازعوا وتخاصموا وشجعهم فرعون

(١) قرأ قالون وأبو عمرو وأبو جعفر بتسهيل همزة (أئن) مع إدخال ألف بين الهمزتين، وقرأ ورش وابن كثير ورويس بالتسهيل بدون إدخال، وقرأ هشام بالتحقيق مع الإدخال وعدمه، والباقون بالتحقيق مع عدم الإدخال.

(٢) قرأ الكسائي بكسر العين من (نعم) وهي لغة كنانة وهذيل، والباقون بفتحها، وهي لغة باقي العرب.

وشجع بعضهم بعضًا .

وكان السحر هو العلم المعتقد به في هذا الوقت، وكانوا قد جمعوا السحرة من مختلف مدن مصر، وقُدِّر عددهم في أقل الأقوال باثني عشر ألف ساحر، وفي أكثرها بثمانين ألف ساحر، وحددوا زمانًا ومكانًا في وقت الضحى يوم عيدهم، وهو يوم الزينة حين يجتمع المصريون كلهم . وهنا طلب منهم موسى أن يُلقُوا ما بأيديهم :

٤٣، ٤٤ - ﴿قَالَ لَهُم مُوسَى أَلْقُوا مَا أَنْتُمْ مُلْقُونَ﴾ ﴿٤٣﴾ ﴿فَالْقُوا جَاهِلْتُمْ وَعَصَيْتُهُمْ وَقَالُوا يِعِزُّوهُ فِرْعَوْنَ إِنَّا لَنَحْنُ الْغَالِبُونَ﴾ ﴿٤٤﴾

والتقى الفريقان، وقال موسى للسحرة بعد أن أعدوا له العدة لمنازلته، ومن خلفهم فرعون وقومه، يشد أزرهم ويشجعهم على الفوز، وموسى يريد إبطال سحرهم وإظهار أن ما جاء به ليس سحرًا، فقال لهم: ألقوا ما تريدون إلقاءه من السحر، من كل ما عندكم، وكل ما في خواطركم، فسوف ترون عاقبة ذلك، وتعلمون علم اليقين أن ما جئت به ليس سحرًا، وأنكم لا تنزلون ساحرًا، وإنما تواجهون رسولاً مُؤَيَّدًا بمعجزات ربه .

وكلام موسى يشير إلى عدم مبالاته بسحرهم وحشودهم، فهو مطمئن إلى نصر الله تعالى له، لجزمه ببطلان ما جاؤوا به .

وقد اقتصر السياق هنا على طلب موسى منهم البدء بالإلقاء، وجاء في موضع آخر تخييرهم لموسى بين الإلقاء وعدمه: ﴿قَالُوا يَكُومُوسَىٰ إِمَّا أَن تُلْفَىٰ وَإِمَّا أَن نَّكُونَ نَحْنُ الْمُلْفَيْنَ﴾ ﴿١١٥﴾ [الأعراف] .

وعندئذ ألقى السحرة الحبال والعصي، وقد خُيِّل للناس أنها حيات تسعى، وأقسموا بجبروت فرعون وسلطانه أنهم سيغلبون موسى، وهو قسَم جاهلي، وكانت حبالهم تقدر بالآلاف المؤلفة .

وأوجس موسى في نفسه خيفة مما خُيِّل للناس أنه سحر، فقال الله تعالى له: ﴿لَا تَخَفْ إِنَّكَ أَنْتَ الْأَعْلَىٰ﴾ ﴿١١٦﴾ وَأَلْقِ مَا فِي يَمِينِكَ تَلَقَّ مَا صَعَوْا إِنَّمَّا صَعَوْا كِيدٌ سَحِرٍ﴾ [طه] .

٤٥- ﴿قَالَ قَتَلْتُمْ نَفْسًا فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ﴾ (١) تَلْقَفُ (٢) مَا يَأْكُونُ ﴿٤٥﴾

أي: فألقى موسى العصا فابتلعت هذه الآلاف المؤلفة من العصي والحبال، ولم يبق لها أثر على الأرض، فقد ابتلعها العصا، وسمى الله الحبال والعصي إفكًا؛ لأنها كذب وزور. ولما رأى السحرة ما جاء به موسى، تيقنوا أن هذا ليس بسحر، وإنما هو معجزة خارقة ليست في طوق البشر، فهم سحرة يميزون السحر من غيره.

ولم تُفصل السورة ما فصلته سورة (الأعراف) من أنهم حين ألقوا حبالهم وعصيهم، سحروا أعين الناس واسترهبوهم وجاؤوا بسحر عظيم، وما وضحته سورة (طه) من أنهم حين ألقوا حبالهم أوجس موسى في نفسه خيفة منهم.

إِيمَانُ السَّحَرَةِ وَتَهْدِيدُ فِرْعَوْنَ لَهُمْ

٤٦-٤٨- ﴿قَالَ قَتَلْتُمْ نَفْسًا فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ﴾ (١) تَلْقَفُ (٢) مَا يَأْكُونُ ﴿٤٦﴾ رَّبِّ مُوسَى وَهَارُونَ ﴿٤٨﴾

أي: ولما شاهد السحرة ما جاء به موسى، أيقنوا أنه من عند الله؛ فخرُّوا لله ساجدين، وذلك أن السحرة أهل علم بالسحر، وحدود السحر حدود بشرية، وقد علموا أن ما يفعله موسى ليس سحرًا، وإنما هو شيء فوق طاقتهم، فأدركوا أن هذا أمر معجز من رب العالمين، لا قدرة لهم به، ولم يملك السحرة أنفسهم حين رأوا معجزة موسى إلا أن آمنوا به وبدعوته، وكان الله قد كشف الغطاء عن قلوبهم، وأزال الكفر عن نفوسهم، فلم يتمالكوا إلا أن خرُّوا لله ساجدين بعدما شاهدوا البرهان الساطع، والمعجزة الباهرة. وكانوا قد جرَّبوا موسى ليلة اللقاء، وأرادوا أن يسرقوا عصاه فلم يستطيعوا، قالوا: إن سرقناها فهو كذاب وساحر، وإن لم نستطع فهو مُؤَيَّد بقوة إلهية.

وعندئذ آمن السحرة بالله رب العالمين الذي خلق موسى وهارون، وقالوا عند

(١) وقف يعقوب بهاء السكت على (هي)، والباقون بياء مدية ساكنة عند الوقف، وهي مفتوحة وصلًا للجميع.

(٢) قرأ البيزي في حالة وصل (هي) بـ (تَلْقَفُ) بتشديد التاء وفتح اللام وتشديد القاف، بخلف عنه، وعند

الابتداء بـ (تلقف) بفتح التاء مخففة وكذا اللام، ويشدد القاف، وقرأ حفص (تَلْقَفُ)، والباقون (تَلْقَفُ)

وهو الوجه الثاني للبيزي.

سجودهم: آمناً بالله العزيز الكبير الذي يدعوننا إليه موسى وهارون.

قال الطبري: لما تبين للسحرة أن الذي جاءهم به موسى حق لا سحر، وأنه مما لا يقدر عليه غير الله الذي فطر السموات والأرض، خروا لوجوههم سُجَّدًا لله، مذعنين له بالطاعة، قائلين: آمنا برب العالمين الذي دعانا موسى لعبادته دون فرعون وملئه^(١).

وموقف هؤلاء السحرة يثير العجب، فقد انتقلوا في لحظة قصيرة من الضلال إلى الهدى، ومن مُمالة فرعون والتكسب منه إلى قمة التضحية بحياتهم في ذات الله، فسبقوا سبقاً بعيداً. وهنا هددهم فرعون وتوعدهم:

٤٩، ٥٠ - ﴿قَالَ ءَامَنْتُمْ لَمْ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ إِنَّكُمْ لَكَبِيرُكُمُ الَّذِي عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ فَلَسَوْفَ نَقَاتُكُمْ^(٢) أَفَطَعْنَ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلُكُمْ مِنْ خِلَافٍ وَأَلْصَقْنَكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٤٩﴾ قَالُوا لَا ضَرَرَ لَنَا إِلَى رَبِّنَا مُنْقَلِبُونَ﴾
أي: إن فرعون بقي على غروره وعناده، فتساءل: كيف يؤمن السحرة بموسى دون أن يأخذوا مني إذناً؟! وكأنه يملك قلوبهم وضمايرهم، قال فرعون للسحرة بعدما رأى ما حطّمه وزلّزله: آمنتم لموسى قبل أن تستأذنوني؟! إنه رئيسكم ومُعَلِّمكم الذي تعلّمتم منه السحر، وتواطأتم معه لإظهار أمره.

وقد أراد فرعون بهذه المكابرة أن يُلبّس على قومه أن يكون السحرة قد آمنوا به عن بصيرة وقناعة، ويبن لهم أن ما جاء به موسى هو السحر بعينه، وأنه أستاذهم فيه.

والسحرة يعلمون يقيناً أنهم لم يروا موسى ولم يجتمعوا به قبل هذا اليوم، ويعلمون أنهم على باطل، وأن موسى جاء بالحق الواضح الذي لا يمكن إنكاره.

ثم هددهم فرعون وتوعدهم بتقطيع أيديهم وأرجلهم من خلاف، وتصليهم على جذوع النخل، كما في سورة طه ﴿وَأَلْصَقْنَكُمْ فِي جُذُوعِ النَّخْلِ﴾ ولكن الإيمان قد دخل قلوبهم، فَضَحُّوا بحياتهم، وقالوا له: ﴿فَاقْضِ مَا أَنْتَ قَاضٍ إِنَّمَا تَقْضِي هَذِهِ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا﴾ ﴿٧٦﴾ إِنَّا ءَامَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا خَطَلَيْنَا وَمَا أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ السِّحْرِ وَاللَّهُ خَبِيرٌ وَبَقِي ﴿٧٧﴾﴾ [طه].

(١) «تفسير الطبري» (١٩/٤٦).

(٢) لم يعد (فلسوف تعلمون) آية، المصحف الكوفي، وعدّها غيره.

قال عكرمة: إن هؤلاء السحرة كانوا صباحًا سحرة وأمساء شهداء بررة، لقد توعدّهم فرعون بتقطيع اليد اليمنى والرجل اليسرى، والعكس، مع تصليهم في جذوع النخل.

لم يبال السحرة بما هددهم به فرعون بعد أن قر الإيمان في قلوبهم، فقالوا: لا ضرر علينا فيما يلحقنا من عذاب الدنيا، فستحمّله صابرين في سبيل الحق الذي آمنّا به، إنا راجعون إلى ربنا مؤملين أن يجزينا على صبرنا.

جاء في الحديث: عن النّوّاس بن سميان رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «ما من قلب إلا وهو بين أصبعين من أصابع رب العالمين، إن شاء أن يقيمه أقامه، وإن شاء أن يزيغه أزاغه» فقد يصبح العبد كافرًا ويمسي مؤمنًا، والعكس صحيح.

وكان ﷺ يقول «يا مقلب القلوب ثبت قلوبنا على دينك» والميزان بيد الرحمن يخفضه ويرفعه^(١). قال السحرة:

٥١- ﴿إِنَّا نَطْمَعُ أَنْ يَغْفِرَ لَنَا رَبُّنَا خَطِيئَتَنَا أَنْ كُنَّا أَوَّلَ الْمُؤْمِنِينَ﴾

إنا نرجو أن يغفر الله لنا ذنوبنا التي سلفت منا قبل إيماننا، كتعظيم فرعون، والشرك بالله، وتعاطي السحر؛ بسبب مبادرتنا بالرجوع إلى الحق، وأن كنا أول المؤمنين بموسى من قومنا، وهل نفذ فرعون ما توعدّ به السحرة؟ قولان لأهل العلم، فيحتمل أن فرعون فعل بهم ما توعدّهم به لقدرته على ذلك، ويحتمل أن الله منعه من ذلك، وظل فرعون على كفره، وكلما جاءه موسى بآية بيّنة، وعد موسى وعاهده لئن كشف الله عنه وعن قومه ما هم فيه ليؤمننّ به وليرسلنّ معه بني إسرائيل، فيكشف الله عنهم، ثم ينكثون في وعدهم وعهدهم، فلما يؤس موسى من إيمانهم حقت عليهم كلمة العذاب، فأذن الله لموسى أن يخرج من مصر كي يلحق به فرعون ويكون في هذا هلاكه:

(١) «المستد» (١٧٦٣٠)، وصحيح سنن ابن ماجه (١٩٩) والحديث إسناده صحيح على شرط الشيخين وأخرجه الطبراني في الدعاء (١٢٦٢) وابن حبان (٩٤٣) والحاكم (٥٢٥/١) وقال: صحيح على شرط مسلم ولم يخرجاه وقال في موضع آخر (٨٩/٢) على شرط الشيخين.

الْعُنْصُرُ الثَّالِثُ: خُرُوجُ بَنِي إِسْرَائِيلَ مِنْ مِصْرَ

٥٢- ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ مُوسَىٰ أَمْرًا (١) بِعِبَادِي (٢) إِنَّا كَرِهَ الْمُتَكَبِّرِينَ﴾

بعد أن انتصر موسى على السحرة، وأسفر ذلك عن إيمانهم بالله تعالى، وكانوا أول من آمن بموسى من قوم فرعون، مكث موسى في مصر زمناً يطالب فرعون بإطلاق سراح بني إسرائيل؛ ليخرج بهم من مصر، وفرعون يماطل، حتى رأى الآيات التسع التي أيد الله بها موسى.

وهنا فجوة في القصة لم تذكر في هذه السورة، وذكرت في سورتي: الأعراف وطه، فقد بقي موسى ﷺ في أرض مصر سنوات يدعو إلى الله - سبحانه -، وأيده الله ببقية الآيات أو المعجزات التسع، التي جاء ذكرها في قوله تعالى: ﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الطُّوفَانَ وَالْجَرَادَ وَالْقُمَّلَ وَالضَّفَادِعَ وَالْدَّمَ﴾ [الأعراف: ١٣٣]. وقوله: ﴿وَلَقَدْ أَخَذْنَا آلَ فِرْعَوْنَ بِالسِّنِينَ وَنَقْصِ مَنَ الشُّمَرِ﴾ [الأعراف: ١٣٠]. وقوله: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَىٰ سِتْرًا لِّبَسَ بِهِ﴾ [الأعراف: ١٠١].

وهذه المعجزات والبراهين لم تُفد فرعون وملأه، ولم تؤثر فيهم، فلم يبق لهم إلا العذاب والنكال، بعد أن رفضوا دعوة موسى وكذبوه، ولذلك أوحى الله تعالى إلى موسى أن يخرج بني إسرائيل ليلاً، وألهى الله - سبحانه - فرعون وملأه في أنفسهم هذه الليلة. قيل: إن الله تعالى جعل في كل أسرة منهم ميتاً يموت في هذه الليلة وينشغلون به.

وخرج موسى ببني إسرائيل من أرض مصر، وكان فرعون قد استعبد القوم أكثر من أربع مئة عام، يُدَبِّحُ أبناءهم ويستحيي نساءهم.

فقرر موسى بوحى من الله تعالى أن يخرج من مصر مع قومه فراراً من ذل العبودية، وقد سماهم الله في الآية عباده؛ لأنهم آمنوا بموسى.

ولما خرج بنو إسرائيل مع موسى من مصر بلغ تعدادهم ست مئة وسبعين ألفاً، وكانوا

(١) قرأ نافع وابن كثير وأبو جعفر بوصل همزة (أسر) مع كسر نون (أن) قبلها، فإذا وقف على (أن) وابتدأ بما بعدها فإنه يبدأ بهمزة قطع مفتوحة، والباقون بهمزة قطع مفتوحة وصلاً ووقفاً.

(٢) قرأ نافع وأبو جعفر بفتح ياء الإضافة من (بعبادي إنكم)، والباقون بإسكانها.

وقت مباراة السحرة ست مئة وثلاثين ألفاً، وكانوا قد دخلوا مصر في عهد أخيهم يوسف
عليه السلام بأسرة واحدة، هي أسرة يعقوب وأبنائه.

وبيان هذه الآية في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِي فَاصْرَبْ لَهُمْ طَرِيقًا فِي
الْبَحْرِ يَبَسًا لَا تَخَفُ دَرَكًا وَلَا مَخْشَى ۚ فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ بِجُنُودِهِ فَغَشِيَهُمْ مِنَ الْيَمِّ مَا غَشِيَهُمْ ۚ﴾ [طه].

وقبل خروجهم من مصر استعاروا ذهباً كثيراً من نساء أهل مصر، ووُرد أن القمر قد
كُشف في تلك الليلة، وأن موسى سأل عن قبر يوسف فدلّته عليه امرأة عجوز، فحمّله
موسى معه في تابوت، وكان يوسف قد أوصى بذلك، كما في الحديث عن أبي موسى عليه
السلام ما معناه: أن النبي ﷺ نزل ضيفاً على أعرابي فأكرمه، وطلب منه النبي ﷺ أن يزوره ليردّ
له الجميل، فلما أتاه قال له النبي ﷺ: «ماذا تطلب؟» قال: ناقة أو عنزة يحتلبها أهلي،
فقال ﷺ: «أعجزت أن تكون مثل عجوز بني إسرائيل؟» فسأل الصحابة رسول الله ﷺ عن
قصتها، فقال: «إن موسى لما سار بيني إسرائيل ضلّ الطريق، فقال له علماءهم: إن
يوسف عليه السلام لما حضره الموت أخذ علينا موثقاً من الله ألا نخرج من مصر حتى ننقل تابوته
معنا، قال لهم موسى: فأياكم يدري أين قبره؟ قالوا: لا يعرفه إلا امرأة عجوز، فأرسل
إليها، وطلب منها أن تدلّه عليه، فقالت: والله لا أفعل حتى أكون معك في الجنة،
فانطلقت معهم إلى مستنقع ماء (بحيرة) وقالت لهم: انزحوا هذا الماء، فنزحوه؛ فقالت:
احفروا، فلما حفروا استخرجوا قبر يوسف، فلما حملوا يوسف إذا بالطريق كضوء النهار»^(١).

وعند خروج بني إسرائيل مع موسى عليه السلام، أعلم الله موسى -عليه السلام- أن فرعون سيتبعهم
وسيلحق بهم بجنوده عند وصولهم إلى البحر الأحمر، وقد تحقق ما وعد الله به، فعندما
أصبح فرعون وقومه لم يجدوا أحداً من بني إسرائيل في مصر، فأرسل يجمع الناس من
كل مكان ليلحقوا بموسى وقومه:

٥٣-٥٦ - ﴿فَأَرْسَلَ فِرْعَوْنُ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ ﴿٥٣﴾ إِنَّ هَؤُلَاءِ لَشِرْذِمَةٌ قَلِيلُونَ ﴿٥٤﴾ وَإِنَّهُمْ لَنَا لَغَائِطُونَ

(١) رواه أبو يعلى في مسنده: (٢٣٦/١٣) وابن حبان في «موارد الظمآن» برقم (٢٤٣٥) والحاكم في
«المستدرک» (٥٧١/٢) وقال الهيثمي في «مجمع الزوائد» (١٧٠/١٠): رجال أبي يعلى رجال الصحيح،
وقال ابن كثير: هذا حديث غريب جداً، والأقرب أنه موقوف.

﴿٥٥﴾ وَإِنَّا لَجَمِيعٌ حَاذِرُونَ ﴿٥٦﴾

أي: ولما أصبح فرعون وعلم بخروج موسى وقومه أعلن التعبئة العامة في جميع البلاد، وجمعوا أعدادًا مهولة أضعاف عدد بني إسرائيل، حتى إنهم قالوا عن بني إسرائيل وهم ست مئة وسبعون ألفًا، قالوا عنهم: ﴿إِنَّ هَؤُلَاءَ لَشِرْذِمَةٌ قَلِيلُونَ﴾ ﴿٥٥﴾ لقد خشي فرعون على مُلكه، أن ينتشر بنو إسرائيل في مدن مصر ويستولوا عليها، فأرسل في المدائن شُرطًا يحشرون الناس من المدن الهامة يومئذ: مدينة (ممفيس) وتسمى اليوم (ميت رهينة) بالجيزة، ومدينة (طيبة) بالأقصر، وأرمنت، وإسنا، وأسيوط، وبهنسا، وسخا، وأبو قير، والفيوم، وقُفط؛ ليلحقوا ببني إسرائيل فيردوهم إلى العاصمة.

ولما لم يجدوا أحدًا من بني إسرائيل في أقطار مصر، جمعوا جيشًا جرارًا ولحقوا بموسى بعد أن علم فرعون بخروجه مع بني إسرائيل، متوجهين نحو البحر الأحمر، وبعد أن اكتمل عدد الجيش أخذ فرعون يُهوّن من شأن موسى ومن معه، فقال: إن هؤلاء الذين خرجوا بدون إذن، هم طائفة قليلة من الخدم والعبيد، لا وزن لهم.

وهم مع قلة عددهم، وضعف شأنهم، يغيظوننا بأقوالهم وأفعالهم، فيطلبون منا أن نترك ديننا، ونتبع موسى وهارون.

ونحن متيقظون لهم، محتاطون لمكرهم، مُمَسِّكُونَ بزمام الأمور، وخداعهم لا يؤثر فينا، فهم أعداء للجميع، والمصلحة مشتركة.

وفرعون بهذا الكلام يستر هُلعَهُ وخوفه، ويظهر أمام قومه في مدائن مصر أن سلطانه لم يُكسر، وأنه مستعد لمقاومة الأخطار، وعقوبة المتمردين عليه كما يزعم، فخرج فرعون وجنوده في جيش عظيم ونفير عام، لم يتخلف منهم إلا أهل الأعدار.

٥٧-٥٩- ﴿فَأَخْرَجْنَاهُمْ مِنْ جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ﴾ ﴿٥٧﴾ وَكُنُوزٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ ﴿٥٨﴾ كَذَلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا بَنِي إِسْرَءِيلَ ﴿٥٩﴾

أي: فأخرج الله فرعون وجنده من بساتين مصر، بحدائقها الغناء، وجناتها الفيحاء

(١) قرأ ابن ذكوان وعاصم وحمزة والكسائي وخلف وهشام بخلف عنه، بألف بعد الحاء من (حاذرون) اسم فاعل، أي: خائفون، وقرأ الباقون بحذف الألف صفة مشبهة بمعنى: متيقظون، وهو الوجه الثاني لهشام.

(٢) قرأ ابن كثير وابن ذكوان وشعبة وحمزة والكسائي بكسر العين من (وعيون)، والباقون بضمها.

وعيون مياها المتدفقة، وزروعهم المخضرة، وأخرجناهم من المساكن التي تعجب الناظرين، وترك فرعون خلفه خزائن الذهب وقد تمتعوا بها دهرًا طويلاً، وأورثنا هذه البساتين والعيون والزروع؛ بني إسرائيل الذين كانوا مسخرين لفرعون وملئه في الأعمال الشاقة، فضلاً عن ذبح الرجال واستبقاء الإناث، فسبحان مالك الملك، يؤتي الملك من يشاء، وينزعه ممن يشاء، ويعز من يشاء بطاعته، ويذل من يشاء بمعصيته.

كان فرعون وقومه يعيشون في مصر، في بساتين ونخيل على ضفاف النيل، ومنابع من العيون والآبار تُحفر على خلجان النيل، وأموال كثيرة مدخرة، ومنازل حسان، فكانوا في أمن وثروة ورفاهية، فأخرجهم الله من أرض مصر بقدرته ومشئته؛ لتركوا هذا النعيم، وليلقوا مصيرهم المحتوم بالغرق في البحر، جزاء كفرهم وطغيانهم، فخرجوا ولم ينتفعوا بما كانوا فيه من نعيم، وكان ذلك إجابة لدعوة نبي الله موسى عليهم حين قال: ﴿وَقَالَ مُوسَى رَبَّنَا إِنَّكَ آتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلَأُوهُ زِينَةً وَأَمْوَالًا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا رَبَّنَا لِيُضِلُّوا عَنْ سَبِيلِكَ رَبَّنَا اطْمِسْ عَلَى أَمْوَالِهِمْ وَاشْدُدْ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُوا حَتَّى يَرَوُا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ﴾ [يونس].

وإذا خرج الإنسان من ماله وحُرم منه، فإن هذا طمس له، ولم ينطق فرعون بالشهادة إلا بعد أن رأى العذاب الأليم، وهو يلفظ أنفاسه الأخيرة في أمواج البحر وظلماته، تاركًا وراءه ما كان فيه هو وقومه من جنات وعيون، وكنوز ومقام كريم.

والمقام الكريم: هو موضع الإقامة في القصور الفخمة، والكنوز هي الأموال المكدسة، كل ذلك تركه فرعون وجنوده، حين خرجوا لمطاردة بني إسرائيل، فأهلكهم الله بالغرق، ولم يرجعوا إلى شيء منه.

كما في قوله تعالى: ﴿كَمْ تَرَكُوا مِنْ جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ﴿٢٥﴾ وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ ﴿٢٦﴾ وَنَعْمَ كَانُوا فِيهَا فَكِهِينَ ﴿٢٧﴾﴾ [الدخان].

وهذه الجنات والعيون، والزروع والكنوز، والمنازل الحسان - قد أعطى الله مثلها لبني إسرائيل، مما ورثوه من الكتانين، حين تغلبوا عليهم في (فلسطين)، فآل إليهم مثل ما خلفه فرعون وقومه وراءهم، وأورثها الله بني إسرائيل، كما في قوله جلَّ شأنه:

﴿كَذَلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا قَوْمًا آخَرِينَ﴾ [الدخان].

ومن الثابت تاريخياً أن بني إسرائيل لم يرجعوا إلى (مصر) بعد خروجهم منها بقية الدهر، فليس المراد أنهم ورثوا هذه الأشياء بعينها، وإنما المراد أن الله تعالى أعطاهم مثلها، أو أن المراد أنه بمثل ما أخرجناهم من أرض مصر جعلنا هذه الديار إرثاً لبني إسرائيل، وفي آية الدخان ﴿كَذَلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا قَوْمًا آخَرِينَ﴾ (٦٨) [الدخان] أى أورثنا ملكهم وديارهم قوماً من بني إسرائيل والإرث يطلق على مال الميت، ويطلق على ما كان ملكاً لغير المعطى -بفتح الطاء- كما قال تعالى: ﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا﴾ [فاطر: ٣٢].
وقال سبحانه: ﴿وَأَوْرَثْنَا الْقَوْمَ الَّذِينَ كَانُوا يُسْتَضَعُونَ مَشْرِقَ الْأَرْضِ وَمِغْرِبَهَا﴾ [الأعراف: ١٣٧].
وقال ﷻ: ﴿وَأَوْرَثْنَا بَنِي إِسْرَءِيلَ الْكِتَابَ﴾ [غافر: ٥٣].

والمعنى: إن الله تعالى أرزأ أعداء موسى ﷺ ما كانوا فيه من نعيم حين أهلكهم، وأعطى بني إسرائيل مثل ما كان عند فرعون وقومه من الجنات والعيون، والكنوز والمساكن، فهي وراثه لنوع ما كان فيه فرعون وقومه من البساتين والمياه، والمساكن والأموال، وليست وراثه لهذا النعيم بعينه. قال تعالى:
٦٠، ٦١ - ﴿فَاتَّبَعُوهُمْ مُشْرِقِينَ﴾ (٦٠) فَلَمَّا تَرَاهُ الْجَنَانِ قَالِ أَصْحَابُ مُوسَى إِنَّا لَمَذْكُونٌ ﴿٦١﴾

أي فلاحق فرعون وجنده، موسى ومن معه، حين خرجوا متوجهين جهة الشرق من أرض مصر، فأدركوا موسى وبني إسرائيل عند شروق الشمس بعد أن قضوا ليالي السفر في الطريق.
لاحق فرعون بموسى، فأدركه عند خليج السويس، وفي هذا المكان وقف موسى، فالبهر أمامه والعدو وراءه، ولما وصل فرعون وجنوده قريباً من مكان جموع بني إسرائيل، وكانوا بحيث يرى كلُّ منهم الفريق الآخر، نظر بنو إسرائيل إلى فرعون وملئه فوجدوهم قد لحقوا بهم، وعندئذ قال اليهود: إنا لمذكركون، أي: إن جمع فرعون مذكرنا ومُهلِكُنَا لا محالة، ولا طاقة لنا بهم، ولكن موسى ﷺ يثق في معية الله وهدايته.

(١) قرأ حفص بفتح الباء من لفظ: (معى) في (معى ربي)، والباقون بإسكانها.

(٢) أثبت يعقوب ياءً وصلًا ووقفًا في هذه الكلمات: سيهدين، يهدين، يسقين، يشفين، يحيين، أطيعون، في كل ما في السورة، والباقون بحذف الباء وصلًا ووقفًا.

٦٢- ﴿قَالَ كَلَّا إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ﴾^(١)

ذكرت التوراة ما أصاب اليهود من الخوف والجزع والصياح، حين رأوا فرعون وجنده على مدِّ البصر، لولا أن موسى ردَّ عليهم بثقة وثبات قائلاً: لا تخافوا إن معي ربي بالعون والنصر والتأييد، وهو سيهديني إلى طريق النجاة، وهداية موسى هداية لقومه، ومعية الله لموسى معية لقومه أيضاً، وهي تقطع دابر العدو بقوة خارقة.

قال الفخر الرازي: قوَّى الله نفوسهم بأمرين:

الأول: أن ربه معه، وهذا دلالة النصر، والتكفل بالمعونة.

والآخر: قوله: ﴿سَيَهْدِينِ﴾ أي: إلى طريق النجاة والخلاص، وإذا دلَّه على طريق نجاته وهلاك أعدائه فقد بلغ النهاية في النصرة^(١).

العُنْصُرُ الرَّابِعُ: انْفِلَاقُ الْبَحْرِ وَغَرَقُ فِرْعَوْنَ

٦٣- ﴿فَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنْ أَضْرِبْ بِعَصَاكَ الْبَحْرَ فَانْفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَالطَّوْدِ الْعَظِيمِ﴾

كان هارون ويوشع بن نون في المقدمة، وموسى ومؤمن آل فرعون في الساقة، وقد وقفوا حيث البحر أمامهم، والعدو وراءهم، لا يدرون ماذا يصنعون، ولمَّا لم يبق على اقتراب فرعون وجنوده منهم إلا القليل، تدخلت العناية الإلهية، حيث أوحى الله إلى موسى أن اضرب البحر بعصاك.

ما هذا؟ عصاً تضرب البحر؟ وماذا عسى أن تفعل العصا في البحر؟! ضرب موسى البحر بعصاه، فانفلق اثني عشر طريقاً بعدد قبائل بني إسرائيل، كل طريق منها قد يبس فيه الماء وتجمَّد، ووقف كالجبل، وأصبح الطريق في البحر يابساً، فكان كل طريق منه كالجبل الشامخ الأشم.

أخرج ابن أبي حاتم، عن محمد بن حمزة بن يوسف بن عبد الله بن سلام، أن موسى عليه السلام لما انتهى إلى البحر قال: يا من كان قبل كل شيء، والمُكُونُ لكل شيء، والكائن

(١) «التفسير الكبير» (١٣٨/٢٤).

(٢) لجمع القراء في (فرق) وجهان: تخفيف الراء؛ لوقوع حرف استعلاء بعدها، وترقيقها لأن حرف الاستعلاء مكسور.

بعد كل شيء، اجعل لنا مخرجًا. فأوحى الله إليه: ﴿أَنْ أَضْرِبَ بِعَصَاكَ الْبَحْرَ﴾^(١).

وأخرج ابن أبي حاتم، عن سعيد بن جبير قال: كان البحر ساكنًا لا يتحرك، فلما كان ليلة ضربته موسى بالعصا، صار يَمُدُّ وَيَجْزُرُ^(٢).

والمدُّ: هو ارتفاع نسبة ماء البحر على الشاطئ.

والجزرُ: هو انحسار ماء البحر عن الشاطئ. قال تعالى:

٦٤-٦٦ - ﴿وَأَرْزَقْنَا ثَمَّ الْآخِرِينَ ﴿٦٤﴾ وَأَنْجَيْنَا مُوسَى وَمَنْ مَعَهُ أَجْمَعِينَ ﴿٦٥﴾ ثُمَّ أَغْرَقْنَا الْآخِرِينَ﴾

قَرَّبَ الله فرعون وجنوده هناك عند خليج السويس، فأدنى بعضهم من بعض، حتى دخلوا البحر على إثر دخول بني إسرائيل، وكان موسى وبنو إسرائيل قد عبروا البحر، وخرج منه آخرهم، ثم وصل فرعون إليهم فرأى البحر يبسا، والماء متجمداً، والطريق ممهدة، فقال: لألحقنَّ بعدوي فأقتله.

ولما رأى موسى أن فرعون وجنوده قد نزلوا البحر وراءهم، أراد أن يضربه بعصاه ليعود كما كان، فقال الله تعالى له: ﴿وَأَتْرِكُ الْبَحْرَ رَهَوًا﴾ أتركه ساكنًا كما هو ﴿إِنَّهُمْ جُنْدٌ مُّغْرَقُونَ﴾ [الدخان: ٢٤] فانطبق البحر عليهم.

وكان فرعون قد تخوَّف من إيلاج البحر حين هاجت الرياح، وارتفعت الأمواج كالجبال، فأراد الله تعالى أن يرغبهم في دخول البحر حتى يلقي فرعون جزاءه، فأرسل الله جبريل على فرسه ليدخل البحر أمامهم، فلحقوه، ولذلك يقول رب العالمين: ﴿وَأَرْزَقْنَا ثَمَّ الْآخِرِينَ﴾^(٣) أي: قَرَّبْنَا فرعون وملأه من البحر حتى لا ينجو منهم أحد، فاقترحموه وهو على حاله اثنا عشر طريقًا يبسا، ولما تكامل جند فرعون في البحر وهو في مقدمتهم انطبق عليهم البحر.

ولفظ فرعون أنفاسه بين الماء والطين، وانتهت قصة ألوهية كاذبة.

ولأنه قد آمن بلسانه في وقت (الغرغرة) أنجى الله جثته؛ لتكون آية وعبرة على مدى التاريخ لمن يدَّعي الألوهية أو الربوبية، وهو (منفتح بن رمسيس الثاني)، وكان بعض

(١)، (٢) ابن أبي حاتم (٢٧٧/٨).

أصحاب موسى قالوا: إن فرعون لم يغرق، فنبذ الله جثته على ساحل البحر حتى نظروا إليه، ولنا عبرة معاصرة في (شارون) رئيس وزراء الكيان الصهيوني الأسبق، فقد مضى عليه عدة أعوام وحتى هذه اللحظة، في ربيع الآخر عام ١٤٣١ هـ وهو جثة هامة مكبلة في الأجهزة الطبية، فاقد الوعي والإحساس، ميّت دماغياً، وقد جعله الله عبرة وعظة لغيره، جرّاء ما فعل بأهل فلسطين وغيرهم من القتل والتشريد، وجرّاء ما دّس بأقدامه أرض المسجد الأقصى متحديا العرب والمسلمين، وصدق عليه ما قاله الله تعالى عن فرعون: ﴿فَالْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلَقَكَ آيَةً﴾ [يونس: ٩٢].

وأنجى الله موسى ومن معه من الغرق، ومن لحاق فرعون بهم، بقدرته تعالى وحكمته، فاستمر البحر على انفلاقه حتى عبروا إلى البر.

وأغرق الله فرعون وقومه، وذلك أنهم لما تكاملوا في البحر متبعين موسى ومن معه انطبق البحر عليهم فأغرقهم أجمعين، وكان ذلك في يوم عاشوراء. قال تعالى:

٦٧، ٦٨ - ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ (٨) وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴿٩﴾

إن في ذلك الذي قصصناه عليك -يا محمد- لعبرة عجيبة، دالة على قدرة الله تعالى، تدعو إلى الإيمان بالله، وإخلاص العبادة له، ومع ذلك فلم يؤمن من قوم فرعون بما جاء به موسى إلا عدد قليل، مع هذه العلامة الباهرة، حيث لم يؤمن من قوم فرعون إلا زوجه (آسية)، ومامشطة آل فرعون، و(حزقيل) مؤمن آل فرعون، وآمنت (مريم) العجوز التي دلت على قبر يوسف عليه السلام.

وإن ربك -أيها الرسول الكريم- لهو الغالب المنتقم من أعدائه، واسع الرحمة بأوليائه.

وبعزته سبحانه أهلك الكافرين المكذبين، وبرحمته -جل شأنه- نجى موسى ومن معه أجمعين، وفي هذا تسلية للنبي ﷺ، ووعد لمن عصاه.

الْقِصَّةُ الثَّانِيَّةُ: قِصَّةُ إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ

٦٩-٧١ - ﴿وَأَنْتَ عَلَيْهِمْ نَبَأُ إِبْرَاهِيمَ﴾ (٦٩) إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا تَعْبُدُونَ ﴿٧٠﴾ قَالُوا نَعْبُدُ أَصْنَامًا

فَنَظَّلْ لَهَا عَنكِينَ ﴿٧١﴾

قُدِّمَت قصة إبراهيم على قصة نوح في هذه السورة؛ لشدة الشبه بين قوم إبراهيم، ومشركي العرب في عبادة الأصنام، وتمشُّكهم بضلال آبائهم.

وقوم إبراهيم لم يُسلَّط عليهم من عذاب الدنيا، مثل ما سلَّط على قوم نوح.

ورسالتا محمد وإبراهيم -عليه الصلاة والسلام- تقومان على الفطرة في الاعتقاد والتشريع، ولم يجعل الله هذه الفطرة في الإنسان ليهملها أو يضيعها، بل ليقيمها ويعمل بها.

والمقصود من القصص هنا: هو أخذ العبرة المستفادة من القصة، بخلاف سورة الأعراف فإنها تعرض لورثة الأرض، وتتابع الرسل من آدم فما بعده.

وقد وردت حلقات من قصة إبراهيم في سور: البقرة، والأنعام، وهود، وإبراهيم، والحجر، ومريم، والأنبياء، والحج، وفي كل منها ما يناسب موضوع السورة وجوَّها.

ففي سور البقرة، وإبراهيم، والحج: تتناول القصة جانب بناء البيت، وإسكان إبراهيم بعض ذريته عنده، والتأذين في الناس بالحج.

وفي سورة الأنعام: يقيم إبراهيم أدلة التوحيد عن طريق التأمل في مشاهد الكون.

وفي سورتي هود والحجر: بشارته بإسحاق، وضيافته للملائكة، وحواره معهم.

وفي سورة مريم: دعوته لأبيه برفق ولين.

وفي سورة الأنبياء: تحطيم الأصنام، وإلقاؤه في النار.

قال الفخر الرازي: ذكر تعالى في أول السورة حُزْنَ النبي ﷺ بسبب كُفْر قومه، ثم ذَكَر قصة موسى؛ ليعرِفَ محمد أن مِثْلَ تلك المحنة كانت حاصلة لموسى، ثم ذكر عقبها قصة إبراهيم؛ ليعرِفَ محمد أيضًا أن حُزْنَ إبراهيم بهذا السبب كان أشد من حزنه؛ لأن من عظيم المحنة على إبراهيم أن يَرَى أباه وقومه في النار، وهو لا يتمكن من إنقاذهم إلا بالدعاء والتنبية^(١).

وقصة أبي الأنبياء وخليل الرحمن، إبراهيم عليه الصلاة والسلام في سورة الشعراء،

(١) «التفسير الكبير» (١٤٢/٢٤).

تُمثِّل حلقة من حلقات الدعوة إلى الله ﷻ، ومحاورته لقومه في عبادة الأصنام من دون الله سبحانه، حيث يوجّه الله ﷻ الخطاب إلى نبيه محمد ﷺ أن يتلو هذه القصة على أهل مكة، الذين يعبدون الأصنام وقت التنزيل، ويتلوها كذلك على أهل الشرك من عبدة الأوثان في كل زمان ومكان في بقاع كثيرة من الأرض.

أي: اقصص -يا رسولنا- على الكافرين، خبر إبراهيم الذي يزعم قومك أنهم ورثته، وأنهم يتبعونه في شريعته، مع أن إبراهيم بريء منهم ومن شركهم، فما أرسل إبراهيم ﷺ إلا لنهي أمثالهم عن الشرك بالله تعالى، فنبأ إبراهيم، أي: قصته في دعوته أباه وقومه إلى توحيد الله تعالى، ولإبراهيم أنباء كثيرة، ولكن هذا النبأ، وهو عبادة قومه للأصنام، من أعجب الأنباء، لأنه يتضمن دعوته قومه، ومحاجته إياهم، لإبطال ما هم عليه من شرك.

وذلك حين قال لأبيه وعشيرته: ما هذه الأصنام التي تعبدونها من دون الله؟ يسألهم إبراهيم ﷺ، وهو يعلم ماذا يعبدون من دون الله، فهو لا يسألهم سؤال مستفهم أو مستخبر، وإنما يسألهم ليقررهم بالعبادة التي يعبدونها، ويبين لهم سفاهة عقولهم، ومنهم أبوه وقومه، أي: أهله وعشيرته.

وقوم الرجل هم الذين ينتسبون معه في جدٍّ واحد، ويبدو أن إبراهيم ﷺ دعا أباه أولاً إلى توحيد الله تعالى وترك عبادة الأصنام، كما جاء في سورتي: الأنعام ومريم، ثم دعا أباه وعشيرته في ملاً واحد، كما جاء في قوله تعالى على لسان إبراهيم:

﴿إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَاذَا تَعْبُدُونَ ﴿٨٥﴾ أَفَكَاةً إِلَهَةٌ دُونَ اللَّهِ تُرِيدُونَ ﴿٨٦﴾﴾ [الصافات].

وفي قوله تعالى: ﴿إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا هَذِهِ التَّمَاثِيلُ الَّتِي أَنْتُمْ لَهَا عَاكِفُونَ ﴿٥٢﴾﴾ [الأنبياء]. وفي هذه السورة دعاهما معاً.

وحرف (ما) يفيد الاستفهام، وكلمة ﴿ذَا﴾ تفيد التعجب، وتكون بمعنى اسم الموصول، إذا وقعت بعد (ما).

قال قوم إبراهيم مقرين ومعترفين بأنهم يعبدون أصناماً لا تنفع ولا تضر من دون الله، وبأنهم مقيمون على عبادتها طوال النهار، عاكفون عليها بصفة دائمة، وكان يكفيهم أن يقولوا: نعبد أصناماً، ولكنهم أرادوا التفاخر بعبادة آلهتهم التي ينحتونها ويصنعونها، ثم

يعبدونها، فأرادا إبراهيم عليه السلام أن يبين لهم عدم استحقاقها للعبادة:

٧٢-٧٤- ﴿قَالَ هَلْ يَسْمَعُونَكَ إِذْ تَدْعُونَ ۖ (٧٢) أَوْ يَنْفَعُونَكَ أَوْ يَضُرُّونَ ۖ (٧٣) قَالُوا بَلْ وَجَدْنَا آبَاءَنَا كَذَلِكَ يَفْعَلُونَ ۖ (٧٤)﴾

ردَّ عليهم إبراهيم: بعد أن أقروا بعبادة الأصنام، مبيِّناً لهم بطلان وفساد عبادتها؛ ليوَقظ غفلتهم، ويؤنبهم، فقال لهم: هل تسمعونكم هذه الأصنام إذا دعوتموها ولجأتكم إليها؟ هل تستجيب لكم؟ هل تدفع عنكم ضرراً أو تجلب لكم نفعاً؟ أو تفرج عنكم كرباً، أو تزيل عنكم مكروهاً؟ وقد أراد إبراهيم بهذا أن يفتح باب المناقشة معهم؛ ليثبت لهم أن هذه الأصنام لا تسمع ولا تعقل، ولا تقدم لهم نفعاً إذا هم عبدوها، ولا تصيهم بضرراً إذا هم تركوا عبادتها، كما قال تعالى: ﴿وَيَقْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُهُمْ وَلَا يَنْفَعُهُمْ﴾ [يونس: ١٨]. وقال سبحانه: ﴿يَدْعُوا لِمَنْ ضَرَّهُ أَوْ قُرْبٌ مِنْ نَفْعٍ﴾ [الحج: ١٣].

قال قوم إبراهيم وهم مقرون بأن هذه الأصنام لا تنفع ولا تضر، ولا تسمع ولا تجيب: إن هذه الآلهة كما قلت يا إبراهيم، لا تسمع ولا تعقل، ولا تنفع ولا تضر، ولهذا لما كسرها إبراهيم ﴿قَالَ بَلْ فَعَلَهُمُ كَيْدُهُمْ هَذَا فَتَوَلَّوْهُمْ إِنْ كَانُوا يَنْظُرُونَ﴾ [الأنبياء: ٦٢] فردوا عليه قائلين: ﴿لَقَدْ عَلِمْتَ مَا هَؤُلَاءِ يَنْظُرُونَ﴾ [الأنبياء: ٦٥] أي: أن هذا أمر لا يقبل الشك ولا إشكال فيه، ثم لجؤوا إلى الاحتجاج بتقليد آبائهم الضالين، فقالوا: ولكننا وجدنا آبائنا يعبدونها ففعلنا مثلهم.

أي: إنهم لما لم يستطيعوا الإجابة، ولم تكن لهم حجة في عبادتها، قالوا: نحن مُقلِّدون لمن سبقنا. وتقليد الآباء والأجداد إجابة كثير من الناس حين تسألهم لماذا يصنعون الشيء الفلاني، فيقولون: هذا ما وجدنا عليه آبائنا، وهكذا يقول بعض الناس عندما تسألهم: لماذا يطوفون حول المقابر مثلاً؟ لماذا يندرون لغير الله؟ لماذا يذبحون لغير الله؟ لماذا يدعون غير الله؟ فيكون جوابهم: وجدنا آبائنا هكذا يفعلون فنحن مقلِّدون لهم، ويمضي إبراهيم في حوار قومه، فيعلن براءته من عبادة أصنامهم، وتوجُّهه بالعبادة إلى الله وحده:

٧٥-٧٧- ﴿قَالَ أَفَرَأَيْتُمْ مَا كُنْتُمْ تَعْبُدُونَ ﴿٧٥﴾ أَنْتُمْ وَأَبَاؤُكُمْ الْأَقْدَمُونَ ﴿٧٦﴾ فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِّي ﴿٧٧﴾ إِلَّا رَبَّ الْعَالَمِينَ ﴿٧٨﴾﴾

قال إبراهيم متعجباً من أحوالهم، ومنبهاً لهم على ما يجب معرفته: ما دمتم قد أبصرتهم وشاهدتم أنتم ومن سلف من آبائكم الأولين أن هذه الأصنام لا تنفع ولا تضر، فاعلموا أنني أبغضها، وأنها عدو لي، وأن رب العالمين هو وليي في الدنيا والآخرة، فهي عبادة باطلة يجب اجتنابها، وإيثار عبادة رب العالمين.

قال إبراهيم: وكل معبود من دون الله أنا عدوه؛ لأنه إذا كان يوم القيامة فإن العابد والمعبود يتنازعان في النار ويختصمان، وكل منهما يُلقَى باللائمة على الآخر، كما قال تعالى: ﴿وَإِذَا حُشِرَ النَّاسُ كَانُوا لَهُمْ أَعْدَاءً وَكَانُوا بِعِبَادَتِهِمْ كَافِرِينَ ﴿٦١﴾﴾ [الأحقاف].

وكل معبود يتبرأ ممن عبده يوم القيامة، ويكفر بعبادته، قال تعالى: ﴿كَلَّا سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا ﴿٨٢﴾﴾ [مريم].

وقال تعالى: ﴿ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُم بَعْضًا وَمَأْوَاكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُم مِّنْ نَّصِيرِينَ ﴿٢٥﴾﴾ [العنكبوت].

ونظرا لأن بعض أهل الشرك يعبدون الله - سبحانه -، ويشركون معه عبادة الأصنام، فإن إبراهيم قال لقومه: إن هذه الآلهة التي تعبدونها من دون الله عدو لي، أي: إنها كالعدو لي، أسند العداوة لنفسه تعريضاً بهم، وهو أبلغ في النصيحة من التصريح، وهذا من قبيل التشبيه البليغ؛ لأن الأصنام لا إدراك لها، فلا توصف بالعداوة، وهذا كقوله تعالى: ﴿إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا ﴿٦٦﴾﴾ [فاطر: ٦٦] أي: عاملوه معاملة العدو.

أما رب العالمين، خالقكم ومالك أمركم، فهو المستحق للعبادة وحده، وهو معبودي بحق، كما قال سبحانه على لسان إبراهيم ﷺ: ﴿إِنَّا بُرَءَاؤُكُمْ مِنْكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاءُ أَبَدًا حَتَّى تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَحْدَهُ ﴿٤﴾﴾ [الممتحنة: ٤].

وقال جلَّ شأنه على لسان هود ﷺ: ﴿إِنِّي أَشْهَدُ اللَّهَ وَأَشْهَدُوا أَنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴿٥٤﴾﴾ [هود: ٥٤].

(١) فتح ياء الإضافة وصلًا من (عدولي إلا) نافع وأبو عمرو وأبو جعفر، والباقون بإسكانها، ومثلها (لأبي إنه).

خَمْسُ خَصَائِصَ لِلِإِلَهِ الْحَقِّ

٧٨- ﴿الَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ﴾ ﴿٧٨﴾

بَيْنَ إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ فِي هَذِهِ الْآيَةِ وَمَا بَعْدَهَا صِفَاتُ الْإِلَهِ الْحَقِّ الْمُسْتَحَقِّ لِلْعِبَادَةِ دُونَ سِوَاهُ، مَبْنِيًّا لَهُمْ أَنَّ الْأَصْنَامَ لَا تَفْعَلُ شَيْئًا مِنْ هَذِهِ الْخَصَائِصِ الْإِلَهِيَّةِ، وَأَنَّ مَنْ لَمْ يَتَصِفَ بِهَذِهِ الصِّفَاتِ الْخَمْسِ لَا يَنْبَغِي أَنْ يَكُونَ إِلَهًا يُعْبَدُ.

الْوَصْفُ الْأَوَّلُ: الْخَلْقُ وَالْهُدَايَةُ

﴿الَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ﴾ إِنَّ الْإِلَهِ هُوَ الَّذِي يَخْلُقُ مِنَ الْعَدَمِ، وَاللَّهُ - سُبْحَانَهُ - قَدْ خَلَقَنِي وَأَوْجَدَنِي، وَصَوَّرَنِي فَأَحْسَنَ صَوْرَتِي، وَهَدَانِي إِلَى طَرِيقِ الرِّشَادِ، فَهُوَ سُبْحَانَهُ قَدْ هَدَانِي بِمَقْتَضَى الْفِطْرَةِ الَّتِي أَوْدَعَهَا فِي الْإِنْسَانِ؛ كَيْ يَخْتَارَ الْإِيمَانَ، وَيَقْتَرِبَ مِنَ الْخَيْرِ، وَيَبْتَعدَ عَنِ الشَّرِّ.

وَاللَّهُ تَعَالَى قَدْ هَدَانِي بِأَنْ جَعَلَ لِي: السَّمْعَ، وَالْبَصَرَ، وَالْعَقْلَ، أَهْتَدِي بِهَا إِلَى التَّوْحِيدِ، وَالنُّورِ، وَالْهُدَى، وَأَتْرَكَ الشَّرْكَ وَالضَّلَالَ.

وَهَدَانِي عَنْ طَرِيقِ الرِّسْلِ وَإِنْزَالِ الْكُتُبِ إِلَى سَعَادَةِ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ.

فَكُلْ هَذَا مِنْ خَصَائِصِ الْإِلَهِ الْحَقِّ، فَهَلْ أَلْهَتَكُمْ مَتَصِفَةً بِهَذَا؟ هَلْ هِيَ تَخْلُقُ؟ هَلْ هِيَ تَهْدِي؟

الْوَصْفُ الثَّانِي: الطَّعَامُ وَالشَّرَابُ

٧٩- ﴿وَالَّذِي هُوَ يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِ﴾ ﴿٧٩﴾

وَاللَّهُ سُبْحَانَهُ هُوَ الَّذِي هَيَّأَ لِي أَسْبَابَ الرِّزْقِ وَالْمَعِيشَةِ، وَأَنْعَمَ عَلَيَّ بِالطَّعَامِ وَالشَّرَابِ، فَأَنْزَلَ الْمَطَرَ وَأَخْرَجَ النَّبَاتَ، وَهُوَ الْقَادِرُ عَلَى إِمْسَاكِ رِزْقِهِ إِنْ شَاءَ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿أَمْنَ هَذَا الَّذِي يَرْزُقُكُمْ إِنْ أَمْسَكَ رِزْقَكُمْ﴾ [الملك: ٢١]. وَالْقَادِرُ عَلَى تَجْفِيفِ مَنَابِعِ الْمِيَاهِ، وَالذَّهَابِ بِهَا ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَصْبَحَ مَاؤُكُمْ غَوْرًا فَمَنْ يَأْتِيكُمْ بِمَاءٍ مَعِينٍ﴾ [الملك: ٢٠].

فَهَلْ مِنْ أَلْهَتَكُمْ مَنْ يُنْزِلُ الْمَطَرَ، وَيُخْرِجُ النَّبَاتَ؟

الْوَصْفُ الثَّالِثُ: الْمَرَضُ وَالشِّفَاءُ

٨٠- ﴿وَإِذَا مَرَضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ﴾ (٨٠)

إنه سبحانه هو الذي يشفي ويعافي من المرض، فإذا أصيب العبد بمرض فلا يقدر على شفاؤه إلا الله، والعبد ينسب المرض إلى نفسه تأدباً مع الله - سبحانه -، وينسب الشفاء إلى الله - جلّ شأنه -، كما في هذه الآية، وهو مطالب بالأخذ بأسباب الشفاء.

فهل الأصنام تشفي من المرض، وتفرّج الكرب والغم؟

الْوَصْفُ الرَّابِعُ: الْمَوْتُ وَالْحَيَاةُ

٨١- ﴿وَالَّذِي يُبَيِّنُ لِي ثُمَّ يُخَيِّبُنِي﴾ (٨١)

والله - سبحانه - الذي يميّتي بعد انقضاء أجلي في الدنيا، ويحييني يوم القيامة للبعث، والحساب، والجزاء، كما بدأ خلقي من ماء مهين، وأوجدني من العدم.

والإحياء والإماتة من خصائص الإله المستحق للعبادة، ولا يقدر عليهما إلا الله سبحانه ﴿وَهُوَ الَّذِي يَدْعُوا الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَبُ عَلَيْهِ﴾ [الروم: ٢٧] ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ ثُمَّ رَزَقَكُمْ ثُمَّ يُبَيِّنُ لَكُمْ ثُمَّ يُخَيِّبُكُمْ هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ مَنْ يَفْعَلُ مِنْ ذَلِكَمْ مِثْلَ شَيْءٍ﴾ [الروم: ٤٠]

الْوَصْفُ الْخَامِسُ: غُفْرَانُ الذُّنُوبِ

٨٢- ﴿وَالَّذِي أَطْمَعُ أَنْ يَغْفِرَ لِي خَطِيئَتِي يَوْمَ الذِّكْرِ﴾ (٨٢)

وهو - جلّ شأنه - الذي أرجو وأطمع أن يغفر لي ذنوبي، ويستر عيوبي يوم الحساب والجزاء حين يجازي العباد بأعمالهم، وفي هذا تعليم للأمة أن يُقروا بذنوبهم ويستغفروا ربهم.

يقول إبراهيم ذلك تواضعاً وهضمًا للنفس، فالأنبياء معصومون من كبار الذنوب، وقد كان النبي ﷺ يستغفر الله تعالى في اليوم الواحد من سبعين إلى مئة مرة.

قيل: إن طلب إبراهيم المغفرة كان بسبب المعارض الثلاثة التي عرّض بها إبراهيم ﷺ، وظهرها الكذب، وليست من باب الكذب، وذلك:

١- حين قال إبراهيم لقومه من عبدة الأصنام: ﴿بَلْ فَعَلَكُمْ كَبِيرُهُمْ هَذَا فَتَكُونُوا مِنْهُمْ بِطِلَانٍ عِبَادَةَ الْأَصْنَامِ فَيَقْرَؤُوا وَيَعْتَرِفُوا﴾ [الأنبياء: ٦٣]. وكان هذا في سبيل الدعوة إلى الله سبحانه؛ ليستتج منهم بطلان عبادة الأصنام فيقرؤوا ويعترفوا.

ومثل ذلك حين قال لقومه: ﴿إِنِّي سَقِيمٌ﴾ [الصافات: ٨٩].

٢- وحين قال وهو يحاور قومه عبدة الكواكب؛ ليأخذ بأيديهم إلى عبادة الواحد الأحد، فقال عن الكوكب: ﴿هَذَا رَبِّي﴾ [الأنعام: ٧٦].

٣- وحين قال عن زوجته سارة لطاغية مصر: إنها أختي؛ حتى لا يعتدي عليها.

هذه المعارض الثلاثة ظاهرها الكذب، وليست كذباً، بل هي من باب التعريض، وإن في المعارض مندوحة عن الكذب، ومع ذلك فقد سماها إبراهيم خطيئة، وهذا هو الذي عناه إبراهيم في هذه الآية.

ورد في صحيح مسلم وغيره: عن عائشة -رضي الله عنها- أنها قالت: يا رسول الله، إن ابن جدعان كان في الجاهلية يصل الرحم، ويطعم المسكين، فهل ذاك نافعه؟ قال عليه الصلاة والسلام: «لا ينفعه، إنه لم يقل يوماً: رب اغفر لي خطيئتي يوم الدين»^(١).

وفي صحيح البخاري: عن أبي هريرة -رضي الله عنه- أن رسول الله عليه الصلاة والسلام قال: «يُلْقَى إِبْرَاهِيمُ أَبَاهُ آزَرَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، وَعَلَى وَجْهِهِ آزَرٌ غَبَرَةٌ وَقْتَرَةٌ، فَيَقُولُ لَهُ إِبْرَاهِيمُ: أَلَمْ أَقُلْ لَكَ لَا تَعْصِنِي؟ فَيَقُولُ أَبُوهُ: فَالْيَوْمَ لَا أَعْصِيكَ، فَيَقُولُ إِبْرَاهِيمُ: يَا رَبِّ، إِنَّكَ وَعَدْتَنِي أَلَّا تُخْزِنِي يَوْمَ يُبْعَثُونَ، فَأَيُّ خَزْيٍ أَخْزَى مِنْ أَبِي، الْأَبْعَدُ؟ فَيَقُولُ اللَّهُ تَعَالَى: إِنِّي حَرَمْتُ الْجَنَّةَ عَلَى الْكَافِرِينَ، ثُمَّ يَقَالُ: يَا إِبْرَاهِيمُ، مَا تَحْتَ رَجْلِكَ؟ فَيَنْظُرُ فَإِذَا هُوَ بِذِيخٍ مُتَلَطِّخٍ، فَيُؤْخَذُ بِقَوَائِمِهِ فَيُلْقَى فِي النَّارِ»^(٢).

كأن الله سبحانه صَوَّرَ لإبراهيم أباه آزراً في هذه الصورة؛ لأنه كان يصنع الأصنام بيديه، وكان يصورها، ويصدِّرها للناس، وكان يعبدها وينشرها في قومه، فكان هذا مصيره، ولم يشفع له أن ابنه خليل الرحمن، وأبو الأنبياء.

(١) «صحيح مسلم» برقم (٢١٤) والحاكم (٤٠٥/٢) والطبري (٥٦٦/٢٤).

(٢) «صحيح البخاري» برقم (٣٣٥٠، ٤٧٦٨، ٤٧٦٩).

وفي هذه الصفات الخمس التي وصف بها إبراهيم ربه دلالة على انفراد الله تعالى بالخلق والتدبير، وقد جمعت أصول النعم من أول خلق الإنسان إلى مبعثه بعد مماته، وما يتخلل ذلك من خلق الإنسان جسداً وروحاً وعقلاً، وإمداده بما تقوم به حياته من الغذاء والماء، وما يعتريه من المرض والشفاء، فهو وحده الذي يجب إفراده بالعبادة، لأن الأصنام، لا تخلق، ولا تهدي، ولا تُمرض، ولا تُشفى، ولا تُطعم، ولا تُسقى، ولا تُحي ولا تميت، ولا تنفع ولا تضر، ولا تكشف الكروب، ولا تغفر الذنوب.

فهذه أدلة قاطعة لا تعارض فيها، وهي توجب عبادة الله وحده، فأنتم بعبادتكم للأصنام - يا قوم إبراهيم - مشتركون مع آبائكم في الضلال، قال تعالى: ﴿وَحَاجُّهُ قَوْمٌ قَالُوا لَا تَحْجُوهُ فِي اللَّهِ وَقَدْ هَدَيْنَا﴾ [الأنعام: ٨٠]

إِبْرَاهِيمُ يَتَوَجَّهُ إِلَى رَبِّهِ بِسِتِّ دَعَوَاتٍ

٨٣، ٨٤- ﴿رَبِّ هَبْ لِي حُكْمًا وَالْحَقِّنِي بِالصَّلَاحِينَ﴾ (٨٣) وَاجْعَلْ لِي لِسَانَ صِدْقٍ فِي الْآخِرِينَ ﴿ بعد أن وصف إبراهيم ربه بجليل الصفات، وتضمنت الصفة الخامسة الدعاء بطلب المغفرة من الله تعالى توجه إلى ربه بهذه الدعوات الخمس:

الدَّعْوَةُ الْأُولَى وَالثَّانِيَةُ ﴿رَبِّ هَبْ لِي حُكْمًا وَالْحَقِّنِي بِالصَّلَاحِينَ﴾

يا رب، هب لي العلم النافع، والفهم، والحكمة، والنبوة، والرسالة، والحُكم، والجاه في الدنيا، كي أعرف الحلال من الحرام، وأحكم بالحق بين العباد، وألحقني يوم القيامة بعبادك الصالحين مع إخواني من الأنبياء والمرسلين، الذين رضيت عنهم، ألحقني بهم في الجنة، كما قال النبي ﷺ عند الاحتضار: «اللهم الرفيق الأعلى»^(١).

وكما جاء في الحديث عن عبد الله الزُّرقي: «اللهم توفنا مسلمين، وأحينا مسلمين، وألحقنا بالصالحين غير خزايا ولا مفتونين»^(٢).

(١) من حديث عائشة في البخاري برقم (٤٤٣٥، ٦٥٠٩) ومسلم برقم (٢٤٤٤).

(٢) من حديث طويل عن عبد الله الزُّرقي في «المسند» (٤٢٤/٣) برقم (١٥٤٩٢) ورجاله ثقات، وأخرجه البخاري في الأدب المفرد (٦٩٩) والنسائي في الكبرى (١٠٤٤٥) والبيزار (١٨٠٠) زوائد، والطبراني في الكبير (٤٥٤٩) وابن أبي عاصم في السنة (٣٨١).

الدعوة الثالثة ﴿وَجَعَلْ لِي لِسَانَ صِدْقٍ فِي الْآخِرِينَ﴾

واجعل لي يا رب ذكراً حسناً، وسمعة طيبة، وأثراً كريماً في الأمم التي تأتي بعدي بالثناء العطر، والذكر الجميل في الدنيا، إلى يوم لقاءك، واجعلني في الآخرة من الصالحين، كما قال تعالى عنه: ﴿وَأَيَّتُهُ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ﴾ [النحل].

وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَصْطَفَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ﴾ [١٣٠] إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمْتُ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٣١﴾ [البقرة].

وقد أجاب الله دعاء إبراهيم، فجعل أثره خالداً، ووهب له من العلم والحكمة، ما جعله من أفضل المرسلين، وألحقه بأخوانه المرسلين، وجعل الأنبياء من ذريته، وعلى رأسهم محمد ﷺ، وقد تم له الثناء الحسن لدى اليهود والنصارى والمسلمين، فإبراهيم أبو الجميع، واليهود يقولون: إبراهيم يهودي، والنصارى يقولون: إنه نصراني، ورب العالمين يقول: ﴿مَا كَانَ إِبْرَاهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَكِنْ كَانَ حَنِيفًا مُسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ [٦٧] إِنَّ أَوَّلَى النَّاسِ بِإِبْرَاهِيمَ لِلَّذِينَ اتَّبَعُوهُ ﴿٦٨﴾ [آل عمران].

أي: إن الذين اتبعوا إبراهيم على الحنيفية السمحة، دين التوحيد والبراءة من الشرك وأهله.

وما من أحد في الأولين والآخرين إلا وهو يثني على إبراهيم، ويتشرف بالانتساب إليه.

وأنت -أيها المسلم- في كل صلاة تصلي وتسلم وتُبارك على محمد ﷺ، وتُثني، فتصلي وتسلم وتُبارك على إبراهيم في كل ركعتين من صلاتك، وهذا ثناء حسن، وذكر جميل، استجابة لدعاء إبراهيم ﷺ. قال تعالى ﴿وَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ﴾ [١١٨] سَلَّمَ عَلَى إِبْرَاهِيمَ ﴿١١٩﴾ كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴿١٢٠﴾ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٢١﴾ [الصافات].

الدعوة الرابعة:

٨٥- ﴿وَجَعَلْ لِي مِنْ وَرَثَةٍ جَنَّةَ النَّعِيمِ﴾ [٨٥]

واجعلني يا رب، في الآخرة -عندما ألقاك- من عبادك الذين أكرمهم بدخول الجنة، وأسعدتهم يوم لقاءك، ففازوا بالدرجات العلى، والنعيم المقيم، وقد أجاب الله دعاءه، فرفع منزلته في جنات النعيم، وجعله من ورثة الجنة في مقعد صدق عند مليك مقتدر.

الدَّعْوَةُ الْخَامِسَةُ

٨٦- ﴿وَاعْفِرْ لِيَّ إِنِّي كَانُ مِنَ الضَّالِّينَ﴾ ﴿٨٦﴾

واصفح يا رب عن شرك أبي ولا تعاقبه، فقد كان من الضالين عن طريق الهداية وسبيل الرشاد، وكان إبراهيم يطمع في إسلام أبيه، فكان يتألفه ويتودد إليه.

وهذا الدعاء بطلب المغفرة من إبراهيم لآزر، كان قبل أن ينهائ رب العالمين عن ذلك، كما قال تعالى: ﴿وَمَا كَانَتْ أَسْتَغْفَارُ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَنْ مَوْعِدَةٍ وَعَدَهَا إِيَّاهُ﴾ [التوبة: ١١٤]. وهذه الموعدة جاء ذكرها حين قال إبراهيم لأبيه مودعاً: ﴿سَلِّمْ عَلَيْكَ سَأَسْتَغْفِرَ لَكَ رَبِّي﴾ [مريم: ٤٧]. بعد الحوار الطويل، والنصائح المتوالية، المشحونة بعاطفته نحو أبيه، وهو يناديه مستدراً عطفه قائلاً: يا أبت، يا أبت، ثم وعده في النهاية بالاستغفار له، فكان استغفار إبراهيم لأبيه بناء على هذا الوعد.

قال القرطبي: كان أبوه وَعَدَهُ أَنْ يُؤْمِنَ بِهِ، فلذلك استغفر له، فلمَّا بان له أنه لا يفي تبرأ منه^(١).

قال تعالى: ﴿فَلَمَّا بَيَّنَّ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَأَوَّاهٌ حَلِيمٌ﴾ [التوبة: ١١٤].

الدَّعْوَةُ السَّادِسَةُ

٨٧-٨٩- ﴿وَلَا تُخْزِنِي يَوْمَ يُبْعَثُونَ﴾ ﴿٨٧﴾ يَوْمَ لَا يَنْفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ﴿٨٨﴾ إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴿٨٩﴾

ويا رب، لا تفضحني، ولا تخذلني، ولا تذلني يوم القيامة، يوم تبعث عبادك للحساب، بل استرني وأجرني وتجاوز عن تقصيري، وهذا تواضع من إبراهيم ﷺ، وإلا فقد أثنى الله عليه بمثل قوله تعالى: ﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَتْ أُمَّةً﴾ [النحل: ١٢٠].

وقوله سبحانه: ﴿وَلَقَدْ أَصْطَفَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ﴾ [البقرة: ١٣٠].

وإذا كان إبراهيم خليل الرحمن يطلب من ربه ألا يفضحه في الآخرة، فما بالكم بنا ونحن الفقراء إلى رب العالمين، وقد أثقلتنا الذنوب والمعاصي؟

(١) «تفسير القرطبي» (١٣/١١٤).

وفي هذا اليوم لا ينفع أحد أحدًا، ولا ينفع مال ولا جاء ولا ولد، ولكنهم ينتفعون بإخلاص قلوبهم وسلامتها، وصيانتها من الرذائل وقبائح الأقوال والأفعال، ومهما أوتي الإنسان من المال والبنين فإن ذلك لا ينفعه في يوم القيامة، إلا من لقي ربه بقلب مؤمن سليم، أي: خالص من الشرك، والشك، والشقاق، والنفاق؛ فإن هذا هو الذي يأخذ بيد صاحبه إلى الجنة، والقلب السليم، هو الذي سلم من الشرك والشك، ومحبة الشر، والإصرار على البدعة والذنوب، والقلب السليم، متصف بالإخلاص والعلم واليقين وحب الخير، ومحبة تابعة لمحبة الله عز وجل.

آلية دعوة إبراهيم لأبيه وقومه:

وهكذا فإن إبراهيم عليه السلام وصفَ ربه أولاً بما يدلُّ على انفراده سبحانه بالتصرف في هذا الكون، بدءًا بأطوار الخلق الأول للإنسان، وانتهاءً بالخلق الثاني وهو البعث.

فذكر خلق الجسد، وخلق العقل، وذكر الغذاء والماء، وبهما حياة الإنسان والحيوان.

وذكر ما يعتري الإنسان من المرض والشفاء، وذكر الموت الذي هو نهاية الحياة الأولى.

وأعقبه بذكر الحياة الثانية، وختم ذلك بطمعه في مغفرة الله تعالى ورضوانه يوم تزلُّ الأقدام.

ثم أعقب إبراهيم هذه النعم الخمس بسؤاله ربه ستَّ نعمٍ أخرى، ابتدأها بطلب الحكمة والنبوة، وأعقبها بطلب اللحاق بالصالحين في درجة أولي العزم من الرسل، ثم سأله سبحانه الثناء الحسن في الأمم والأجيال المتعاقبة.

وسأل ربه المغفرة لأبيه قبل سؤاله ألا يخزيه يوم القيامة، وليس في دعوات إبراهيم طلب لعرض من أعراض الدنيا، ولا صحة البدن.

وقد استجاب الله دعوات إبراهيم عدا سؤاله المغفرة لأبيه، ومنها ما تحقق بعد مئات السنين، فرسالة محمد ﷺ داخلة في دعائه، وقد صرح بهذا الدعاء عقب بنائه للبيت الحرام في قوله: ﴿رَبَّنَا وَأَبْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ﴾ [البقرة: ١٢٩].

وفي الحديث عن أبي أمامة رضي الله عنه قال: قلت: يا رسول الله، ما كان بدء أمرِك؟ قال: «دعوة

أبي إبراهيم، وبشرى عيسى، ورأت أمي أنه يخرج منها نور أضاءت منه قصور الشام»^(١).

مِنْ مَشَاهِدِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ

٩٠، ٩١- ﴿وَأَزَلَّتِ الْجَنَّةُ لِلْمُنْفِقِينَ ۖ وَبُرْزَتِ الْجَحِيمُ لِلْغَاوِينَ ۖ﴾

هذا مشهد من مشاهد القيامة، بَيَّنَّ ﷺ فيه ما أعدَّه لأهل التوحيد من النعيم المقيم، وما أعدَّه لأهل الشرك من العذاب الأليم في يوم القيامة، ففي أرض المحشر يرى كل فريق مصيره المحتوم، حيث تُقَرَّبُ الجنة للمتقين الذين اجتنبوا الكفر والمعاصي في الدنيا، وأقبلوا على الله بالطاعة، يرونها بأعينهم لتزداد بهجتهم وسرورهم، كما قال تعالى: ﴿وَأَزَلَّتِ الْجَنَّةُ لِلْمُنْفِقِينَ غَيْرَ بَعِيدٍ﴾ [ق].

وتظهر النار للكافرين، كما قال تعالى: ﴿وَبُرْزَتِ الْجَحِيمُ لِمَنْ بَرَى﴾ [النازعات]. فالمؤمنون يروُنُ الجنة فيفرحون ويستبشرون، والغاؤون يرون النار أمامهم مكشوفة ظاهرة للعيان، يرونها بأعينهم في أرض المحشر، يؤتى بها ولها سبعون ألف زمام، مع كل زمام سبعون ألف ملك يجرونها.

والغاؤون هم الطغاة الذين ضلُّوا عن الهدى، وتجروُّوا على محارم الله، وكذَّبوا رسله، وهم يسألون يوم القيامة عما كانوا يعبدونهم من دون الله، أين هم؟

٩٢، ٩٣- ﴿وَقِيلَ لَهُمْ أَتَىٰ مَا كُنْتُمْ تَعْبُدُونَ﴾^(٢) ﴿٩٢﴾ مِنْ دُونِ اللَّهِ هَلْ يَصْرِفُهُمْ أَوْ يَنْتَصِرُونَ﴾

ويقال لأهل النار يوم القيامة توبيخاً لهم: أين شركاؤكم وأصنامكم التي كنتم تعبدونها من دون الله، وتزعمون أنها تشفع لكم اليوم؟ هل تنفعكم هذه الأصنام في هذا الموقف؟ هل تستجيب لكم، أو تدفع عنكم العذاب؟ هل تنصركم، أو تنتصرون أنتم لأنفسكم؟ الجواب: لا شيء من ذلك، فقد ظهر كذبهم وخزيهم، ولاحت خسارتهم وفضيحتهم، وبيان ندمهم، وضل سعيهم:

(١) «المسند» (٢٢٢٦١) قال محققوه: صحيح لغيره، لضعف فوج بن فضالة، وأخرجه ابن سعد (١/١٤٨) والطبراني في «الكبير» (٧٧٢٩) والبيهقي في الدلائل (١/٨٤) وصححه الألباني في «السلسلة الصحيحة» (١٩٢٥)، وأخرجه الطيالسي (١١٤٠).

(٢) انفرد البصري بعدم عدّ (ما كنتم تعبدون) وعدّها غيره آية.

٩٤، ٩٥- ﴿فَكَبِّكُوا فِيهَا هُمْ وَالْغَاوُونَ ﴿٩٤﴾ وَجُنُودُ إِبْلِيسَ أَجْمَعُونَ ﴿٩٥﴾﴾

هذا بيان ما يحلُّ بالأشقياء يوم القيامة، حيث يُجمعون جميعاً، ويُلقى بهم في جهنم، العابد والمعبود، ومن زين لهم العبادة من شياطين الإنس والجن.

والكبكة: هي التدحرج والإلقاء على الرأس، أو على الوجه في النار مرة تلو مرة، فيُقدف بهم في النار، ويتركون فيها، ويكَبِّك في جهنم أيضاً الطغاة الغاؤون الذين كانوا سبباً في كفرهم وشركهم، وهم العابدون والمعبودون، فتساقطوا في النار هم وأعوان إبليس الذين حسَّنوا لهم الشر، لم يُقِلَّت منهم أحد؛ حيث يُطرح بعضهم على بعض في النار منكبين على وجوههم.

٩٦-٩٨- ﴿قَالُوا وَهُمْ فِيهَا يَخْتَصِمُونَ ﴿٩٦﴾ تَاللَّهِ إِنْ كُنَّا لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ﴿٩٧﴾ إِذْ سَأَلْتُمْ رَبِّيَ الْعَالَمِينَ ﴿٩٨﴾﴾

هذا اعتراف من أهل النار بخطئهم في عبادة غير الله تعالى؛ حيث يتحاور الضالون والمضلون في النار، وهم يتنازعون فيها، ويقول العابدون للمعبودين: لقد كنا في بُعد واضح عن الحق حين عبدناكم وسويناكم برب العالمين في استحقاق العبادة، وجعلناكم معادلين ومماثلين له سبحانه فأشركناكم معه، وهذا ندم منهم، ومبالغة في توبيخ أنفسهم، لقد تبين لهم ضلالهم، وأقروا بعدل الله فيهم، حيث سَوَّوا معبوداتهم برب العالمين في العبادة، مع إقرارهم بأن الله تعالى هو الخالق الرازق، وهو الذي خلقهم وخلق ما يعبدون، وهذا بدليل قولهم ﴿إِذْ سَأَلْتُمْ رَبِّيَ الْعَالَمِينَ﴾ فهم يعترفون بالرب سبحانه، ولذا فإنهم قالوا:

٩٩-١٠٢- ﴿وَمَا أَضَلَّنَا إِلَّا الْمُجْرِمُونَ ﴿٩٩﴾ فَمَا لَنَا مِنْ شَافِعِينَ ﴿١٠٠﴾ وَلَا صَدِيقٍ حَمِيمٍ ﴿١٠١﴾ قُلُوا أَنْ

لَنَا كَرَّةٌ فَنَكُونُ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٠٢﴾﴾

أي ويوم القيامة يقول أهل النار: وما أبعدنا عن رحمة الله، وعن طريق الحق والهدى، وما أوقعنا في طريق الغي والضلال، وهذا المصير السيئ، إلا المجرمون الذين دَعَوْنَا إلى عبادة غير الله، من السادة والكبراء الذين زينوا لنا الكفر والمعاصي.

فالكافر ليس له شفيع من الملائكة، ولا من الأنبياء، ولا من المؤمنين يشفع له عند

الله؛ لينجو من أهوال هذا اليوم، وليس له صديق حميم مقرب يخلصه مما هو فيه، فقد تبرأ منهم جميع الخلق لَمَّا عرفوا الحق، وخلَّت الساحة ممن يُشْفِق عليهم، أو يَصْدُق في مودته لهم، كما قال تعالى: ﴿وَرَأَوْا الْكُذَّابَ وَنَقَطَتْ بِهُمْ الْأَسْبَابُ﴾ [البقرة: ١٦٦].

وقال سبحانه: ﴿الْأَخْلَاءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا الْمُتَّقِينَ﴾ [الزخرف].

ثم إن أهل النار يندمون حين لا ينفع الندم، ويتمنون العودة إلى الدنيا ليتداركوا ما فاتهم، ويتمنون كذلك لو أن لهم رجعة إلى الدنيا مرة ثانية، قائلين: لو رجعنا لَأَمَنَّا وأَحْسَنَّا العمل، فنصير من جملة المؤمنين الناجين، وهيئات هيئات أن يحدث هذا، فقد حيل بينهم وبين ما يشتهون، وبهذا تؤذَنُ القصة بالانتهاء:

١٠٣، ١٠٤- ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ (٨) وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴿٩﴾

إن في هذه القصة من خبر إبراهيم وقومه لعبرة وعظة يتعظ بها من يتعظ، ومع ذلك فإن أكثر قوم إبراهيم ما كانوا مؤمنين، وإن ربك لهو المنتقم من أعدائه، الرحيم بأوليائه.

الْقِصَّةُ الثَّالِثَةُ: قِصَّةُ نُوحٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ

١٠٥-١٠٧- ﴿كَذَّبَ قَوْمُ نُوحٍ الْمُرْسَلِينَ﴾ (١٠٥) إِذْ قَالَ لَهُمُّ أَخُوهُمْ نُوحٌ أَلَا نَنْفُونَ ﴿١٠٦﴾ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٠٧﴾

القصص القرآني في سورة (الشعراء) يسير على غير ترتيب الزمن التاريخي؛ لأن المقصود من القصص فيها هو بيان العبرة من الأمم التي كذبت رسلها، سيمًا عاقبة أهل الشرك التي وقعت في كل منها.

وأشد الأمم في الشرك -حسب ترتيب القصص في السورة- هم قوم موسى عليه السلام، فالشرك قد وقع في أمته بعبادة العجل، وبقولهم: ﴿عَزَّزْتُ أَبْنُ اللَّهَ﴾ وغير ذلك، ولم يزل الشرك قائمًا لدى اليهود إلى اليوم، فهم من أكثر الشعوب في ذلك.

وبعد ذكر بني إسرائيل في السورة يأتي قوم إبراهيم، ثم قوم نوح، وإن كان نوح عليه السلام هو أول رسول أرسله الله تعالى إلى الخلق، بعدما عُبِدَت الأصنام في عهده، والناس قبله كانوا على التوحيد فاختلفوا، وكان منهم من أشرك، ومنهم من وُحِدَ، فأرسل الله الأنبياء مبشرين ومنذرين.

وقد ذُكرت قصة نوح في سور: الأعراف، ويونس، وهود، والمؤمنون، ونوح، بأساليب مختلفة، وذُكر (نوح) في القرآن في ثلاثة وأربعين موضعاً.

ومعنى الآية: إن من يكذب رسولاً من رسل الله فقد كذب المرسلين جميعاً؛ لأن كل رسول أمر بتصديق مَنْ قبله، ولأن الرسل دَعَوْهُمْ واحدة، فالأصل واحد، وطريقهم واحد، كلهم جاؤوا بالتوحيد، وكلهم يصدق بعضهم بعضاً، وكلهم يأمرون الخلق بعبادة الله وحده، ويأمرونهم بتقوى الله وطاعته.

ولذلك يقول سبحانه: ﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ الْمُرْسَلِينَ ﴿١٠٥﴾ وَلَمْ يَقْلْ كَذَّبُوا رَسُولَهُمْ نُوحًا، كأنهم لما كَذَّبُوا نُوحًا كَذَّبُوا الرسل جميعاً، وكان نوح ﷺ قد دعاهم ليلاً ونهاراً، وسراً وجهاً لمدة ألف سنة إلا خمسين عاماً، فلم يؤمن به على أوسع الأقوال إلا ثمانون شخصاً في تسع مئة وخمسين عاماً.

ونوح أول المرسلين وأول المكذَّبين، فقد كَذَّبُوهُ؛ لكونه رسولاً من البشر، ولأنه عاب أصنامهم، واتبعه ضعاف الناس، وهكذا المكذَّبون مع كل رسول، فكان تكذيبه تكذيباً لكل رسول.

وقد كان نوح أخاً لقومه في النسب والعشيرة، فإنه كان منهم، وليس أخاهم في الدين، وقد أمرهم نوح بتقوى الله تعالى ثلاث مرات في هذه القصة من السورة، وحثهم على عبادة الله تعالى وترك عبادة الأصنام، فقال لهم: أَلَا تَتَّقُونَ اللَّهَ، فتركوا ما أُنتم عليه من عبادة الأوثان، وتخلصون العبادة لله وحده، أَلَا تَخْشَوْنَ عِقَابَ اللَّهِ إِيَّاكُمْ عَلَى أَنْ جَعَلْتُمْ مَعَهُ شُرَكَاءَ، وهو الذي خلقكم ورزقكم، فَأَخْلَصُوا لَهُ الطاعة والعبادة، واجعلوا بينكم وبين عذابه وقاية بامتنال أمره واجتناب نهيه.

وكان نوح مشتهراً بين أهله وعشيرته بالصدق والأمانة، فهم يعرفون حسبه ونسبه ونشأته بينهم، وأنه أمين على تبليغ الوحي، ناصح لهم بما هم فيه من عبادة الأصنام، فهو موصوف بينهم بالأمانة، غير متهم في قومه بالخيانة أو الكذب أو غيرهما، كما كان النبي ﷺ موصوفاً في قومه بالصادق الأمين، وكون نوح كان أميناً فإن هذا يقتضي أنه لا يتقول على الله، ولا يزيد ولا ينقص في الوحي، وهذا يوجب الإيمان به عليه السلام. قال لهم نوح:

١٠٨-١١٠ - ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا ٱلْعَلَمِينَ ۝ وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنۢ بَأْسٍۭ إِنۢ أَجْرِي ۙ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلْعَلَمِينَ ۝ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا ۝﴾

أكد نوح أمر قومه بالتقوى والطاعة قائلاً لهم: اجعلوا الإيمان وقاية لكم من عذاب الله، وأطيعوني فيما أمركم به من عبادة الله وحده؛ وأنهاكم عنه من عبادة الأوثان، وهذا التأكيد لأنه توقع عدم الاستجابة منهم لما أمرهم به من تقوى الله تعالى وخشيته.

وقد ذكر نوح لقومه أنه لا يسألهم على تبليغ الدعوة أجراً، إنما أجره على رب العالمين، وهذا شأن رسل الله جميعاً، لا يطلبون أجراً من الناس على رسالتهم، وإنما يبتغون المثوبة من الله تعالى.

ثم أمر نوح قومه مرة ثالثة بتقوى الله تعالى، وقد كرر نوح ذلك، لطول مكثه في قومه، وتكرار دعوته لهم ليلاً ونهاراً وسراً وجهاراً، فلا بد إذن أن يعاود نصيحتهم بين الحين والآخر، فقال لهم: احذروا عقاب الله، وأطيعوه بامثال أمره واجتناب نهيه.

وهكذا حثهم على تقوى الله تعالى أولاً بعد أن بيّن لهم أنه أخوهم، فكأنه يقول: ألا تتقون الله في مخالفتي، وأنا واحد منكم، ورسول الله إليكم؟ وهذا في الآية السادسة بعد المئة.

ثم أمرهم ثانياً بالتقوى بعد أن بيّن لهم أنه أمين على الرسالة والتبليغ كما هو معروف عنه لديهم، وذلك في الآية الثامنة بعد المئة.

ثم أمرهم ثالثاً بالتقوى بعد أن بيّن لهم تغففه عن أخذ الأجر منهم مقابل الدعوة، وتصريحه بأن أجره من الله وليس منهم، وذلك في الآية العاشرة بعد المئة.

فيكون نوح قد افتتح دعوته لقومه بأمره لهم بتقوى الله تعالى، ثم علل لذلك بأنه أمين على وحي الله سبحانه.

ثم عاد فأمرهم بالتقوى، وعلل لذلك بأنه لا يطلب منهم أجراً.

ثم أتى في آخر كلامه بالنتيجة المطلوبة من دعوته لهم وهي تقوى الله تعالى، فليس هذا

(١) قرأ نافع وأبو عمرو وابن عامر وحفص وأبو جعفر بفتح ياء الإضافة من (أجري إلا)، والباقون بإسكانها، وهكذا بقية المواضع في السورة.

من باب التكرار، وإنما لكل منها موقعه ومعناه الذي لا غنى عنه في أسلوب الترغيب والترهيب، وهنا رد عليه قومه معارضين دعوته:

١١١، ١١٢ - ﴿قَالُوا أَتُؤْمِنُ لَكَ وَاتَّبَعَكَ^(١) الْأَرْدَلُونَ﴾ قَالَ وَمَا عَلَيَّ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١١٢﴾

وبعد دعوة نوح لقومه، وبيان شدة حرصه على هدايتهم، وتحذيرهم من عقاب الله تعالى إن لم يستجيبوا لدعوته، تبين هاتان الآيتان وما بعدهما ما دار بين نوح وقومه من حوار وجدال، فماذا كان موقف القوم وردهم على نوح ﷺ؟

قال الأشراف والكبار من قوم نوح: كيف نصدقك ونتبعك، وضعاف الناس وفقراؤهم من أهل الحرف والصناعات الدنيئة - ويسمونهم أراذل، أي: أسافل الناس - هم الذين اتبعوك؟ فكيف نجلس معهم في مجلس واحد؟ يقولون ذلك من باب التعالي والكبرياء، ويبدو أن مسألة الطبقة، واحتقار القوي للضعيف، واحتقار الغني للفقير، واحتقار الأمم القوية للأمم النامية، يبدو أن هذا أمر قديم!

قال نوح لقومه مستنكراً وصف أتباعه بالأراذل: إِنَّ صَنَاعَتَهُمْ وَحِرْفَتَهُمْ، وضعفهم وفقرهم أمر آخر، لست مكلفاً به، ولا مسؤولاً عنه، فإن خفاياهم وظواهرهم عند رب العالمين، والميزان عند الله تعالى ليس: بالصنعة، ولا بالحرفة، ولا بالثراء، ولا بالفقر، ولا بالقوة، ولا بالضعف، إنما هو بالتقوى ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاهُمْ﴾ [الحجرات: ١٣]، فأنا لا أهتم إلا بإيمانهم، ولا أعني بظواهرهم وأعمالهم الدنيوية، ثم إن حجتهم هذه لا تصلح للمعارضة، إذ أن هؤلاء الذين تصفونهم بالأراذل، هم أرجحكم عقلاً وأفضلكم خلقاً، فهم قد عبدوا الواحد القهار، أما أنتم فاستحسنتم عبادة الحجارة، ورضيتم بالسجود لها، فمن هم الأراذل؟ ومن هم السفهاء، أنتم أم هم؟ قال نوح ﷺ:

١١٣-١١٥ - ﴿إِنْ حِسَابُهُمْ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّي لَو تَشْعُرُونَ﴾ وَمَا أَنَا بِطَارِدِ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١١٤﴾ إِنْ أَنَا^(٢)

(١) قرأ يعقوب (وأتباعك) جمع تابع، وهو مبتدأ، والأردلون خبر، والجملة حال من الكاف، وقرأ الباقر (واتبعك) فعل ماض، والأردلون فاعل، والجملة حال من الكاف أيضاً.

(٢) قرأ قالون بخلف عنه بإثبات ألف (أنا) وصلأ، فيصير من قبيل المد المنفصل، والباقر بحذفها، وهو الوجه الثاني لقالون، وفي حالة الوقف تثبت الألف لجميع القراء.

إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿١١٥﴾

قال نوح لأشراف قومه عن الضعفاء منهم: وأنا مُكَلَّفٌ بدعوتهم إلى الله سبحانه، والاهتمام بما يصدر عنهم من إيمان، ولست مهتمًا بالحسب والنسب، ولا بالجِرف والمهن، وأمرهم إلى الله، فهو الذي يعلم نواياهم وضمايرهم، وهو الذي يحاسبهم ويجازيهم، فهو المطلع على سرائرهم وظواهرهم، ولو كنتم تعلمون ذلك ما قلتم هذا الكلام، وهذا كقول النبي محمد ﷺ: «فإن قالوها -أي: لا إله إلا الله- عصموا مني دماءهم وأموالهم إلا بحق الإسلام وحسابهم على الله»^(١).

قال نوح: ولست بطارد هؤلاء المؤمنين الفقراء عن مجلسي، وهم الذين اتبعوني من ضعفاء الناس، ممن أنقذتم أن تجلسوا معهم، فأنا لست بطاردهم، وحسابهم على الله، ﴿وَإِذَا جَاءَكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِنَا فَقُلْ سَلَمٌ عَلَيْكُمْ كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ﴾ [الأنعام: ٥٤] فهو الذي يكافئهم ويجازيهم، وأنا رسول الله لكم جميعًا أخوفكم بأس الله وعقابه، فمن أطاع الله فقد نجا، وليس هناك فرق بين غني وفقير، ولا كبير وصغير، وهكذا طلب مشركو مكة من رسول الله ﷺ أن يطرد عن مجلسه ضعفاء المسلمين: كصهيب، وبلال، وعمار، وخباب، والفقراء في كل أمة يسارعون إلى اتباع الرسل؛ لأنهم يلتصقون لديهم الإنصاف والكرامة، وهذا لا يعجب كبار القوم ويصادم سطوتهم وتسلطهم.

١١٦، ١١٧ - ﴿قَالُوا لَئِنْ لَمْ تَنْتَهِ يَنُوحُ لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمَرْجُومِينَ﴾ ﴿١١٦﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّي قَوْمِي كَذِبُونَ

عدل قوم نوح عن الحوار معه، ولجؤوا إلى القوة والتهديد، وهذا شأن الطغاة حين تنقطع بهم الحجة فإنهم يلجؤون إلى: البطش من الضرب، والسجن، والقتل، قالوا: لئن لم تنته يا نوح، وترجع عن دعوتك لنا لتكونن من المقتولين رميًا بالحجارة.

لجأ نوح إلى ربه بعد أن سمع منهم ما يدلُّ على رسوخهم في الكفر والضلال، وبعد أن هدَّده بالقتل رجماً بالحجارة، وعندئذ فقد نوح الأمل في استمالتهم إلى الإيمان، فقال: يا رب، إن قومي استمروا في تكذبي، وأصروا على ذلك قرونًا متطاولة، فقد لبثتُ فيهم

(١) الحديث عن ابن عمر في البخاري (٢٥) بلفظ (فإذا فعلوا ذلك) ومسلم (٢١، ٢٢) وغيرهما وهو في مشكاة المصابيح (١٢) وغيرها.

ألف سنة إلا خمسين عامًا، أدعوهم إلى توحيد الله تعالى وإخلاص العبادة له، فلم يزددهم ذلك إلا عُتُورًا واستكبارًا:

١١٨- ﴿فَافْتَحْ بَيْنِي وَبَيْنَهُمْ فَتْحًا وَنَجِّنِي وَمَنْ مَعِيَ ^(١) مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١١٨﴾﴾

لم يكن لنوح ﷺ بعد أن أعذر قومه، وبشر وأنذر إلا أن يرجع إلى ربه، ويطلب منه أن يفتح بينه وبينهم فتحًا لا استغلاق بعده، فينتصر لعباده الصالحين، ويُخزي أعداءه المستكبرين، فقد لجأ إلى ربه قائلًا: اقض بيني وبينهم يا رب العالمين بقدرتك العادلة، واحكم بيني وبينهم حكمًا تُهلك به من جحد توحيديك وكذب رسولك، وافصل بيني وبينهم بالحق.

فدعا نوح ربه قائلًا: ربِّ إني مغلوب فانتصر لي يا الله، فنصره رب العالمين، وأمره أن يصنع السفينة ويركب فيها هو ومن معه، وأنجي الله نوحًا ومن آمن معه، وأنقذه من كيدهم ومكرهم استجابة لدعوته، وأغرق الله الظالمين، وكان هذا عبرة إلى يوم الدين، قال تعالى:

١١٩، ١٢٠- ﴿فَأَنجَيْنَاهُ وَمَنْ مَعَهُ فِي الْفُلِّ الْمَشْحُونِ ﴿١١٩﴾ ثُمَّ أَغْرَقْنَا بَعْدَ الْبَاقِينَ ﴿١٢٠﴾﴾

أي: فأنجينا نوحًا ومن معه في السفينة المملوءة بصنوف المخلوقات التي حملها من: الرجال والنساء والحيوان والطيور والوحوش، قال تعالى: ﴿فَأَنجَيْنَاهُ وَأَصْحَبَ السَّفِينَةَ وَجَعَلْنَاهَا آيَةً لِلْعَالَمِينَ ﴿١٢٠﴾﴾ [العنكبوت].

وبعد نجاة نوح ومن آمن به، أغرق الله الباقيين الذين ردُّوا عليه النصيحة، ولم يؤمنوا به من الذين كذبوا نبي الله نوحًا ﷺ. قال تعالى في نهاية القصة:

١٢١، ١٢٢- ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿١٢١﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴿١٢٢﴾﴾

إن في هذه القصة، وما تشتمل عليه من نجاة المؤمنين وهلاك المكذبين، لعلامة وعبرة -وأي عبرة- للبشر على مدى التاريخ.

لقد آمن بنوح قلة قليلة على مدى ألف سنة إلا خمسين عامًا، وأكثر قومه لم يكونوا من المؤمنين، وهكذا قال الله تعالى: ﴿وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ ﴿١٢٢﴾﴾ [يوسف]. فما أصبر الدعاة إلى الله!!

(١) قرأ ورش وحفص بفتح ياء الإضافة وصلًا من (ومن معي)، والباقيون بإسكانها.

وإن ربك هو الغالب على أمره، المنتقم ممن كفر به وخالف حكمه، وهو سبحانه رحيم بعباده المؤمنين، ورحيم بالتائبين فلا يعاقبهم بعد توبتهم، ولا يعاجل بالعقوبة من عصاه.

الْقِصَّةُ الرَّابِعَةُ: قِصَّةُ هُودٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ

١٢٣-١٢٥- ﴿كَذَّبَ عَادُ الْمُرْسَلِينَ ﴿١٢٣﴾ إِذْ قَالَ لَهُمُ أَخُوهُمْ هُودٌ أَلَا نُنْفِقُ ﴿١٢٤﴾ إِنَّ لَكُمْ رَسُولًا أَمِينًا ﴿١٢٥﴾

أرسل الله هودًا عليه السلام إلى قوم (عاد)، وعاد اسم لجذهم، وقد سميت القبيلة باسمه، وكانوا قومًا يسكنون (الأحقاف)، وهي جبال رملية في الربع الخالي قرب حضرموت، وهم أول من عبد أصنامًا ثلاثة بعد قوم نوح، فأرسل الله تعالى إليهم نبيهم هودًا عليه السلام، يدعوهم إلى توحيد الله سبحانه.

وقد جاءت قصة هود في سور: الأعراف، وهود، والمؤمنون، وفصلت، والأحقاف، والقمر، والذاريات.

ويتهيئ نسب هود إلى نوح عليهما السلام، وهو ممن أرسل في جزيرة العرب: كصالح، وشعيب، ومحمد صلوات الله عليهم أجمعين.

وقد بين سبحانه أن قبيلة عاد كذبوا رسولهم هودًا، وأن من كذب رسولًا واحدًا من رسل الله فقد كذب الرسل جميعًا؛ لاتحاد دعوتهم في أصولها وغايتها.

افتتح هود دعوته لقومه بحضهم على عبادة الله تعالى، وإخلاص العبادة له، وكان هود أخًا لهم في النسب لا في الدين، فقال لهم: ألا تخشون الله، وتخافون عقابه وانتقامه منكم لأنكم عبدتم غيره؟

بين هود عليه السلام لقومه أنه مرسل من الله تعالى لهدايتهم وإرشادهم، وهو حفيظ وأمين على رسالة الله تعالى، يبلغها لهم كما أمره ربه، لا يكذب عليهم ولا يخدعهم، فهو لهم ناصح وأمين على تبليغ الوحي من ربه، ثم أمرهم بتقوى الله وطاعته:

١٢٦، ١٢٧- ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا ﴿١٢٦﴾ وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجَرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٢٧﴾

أي قال نوح لهم: فخافوا يا قوم، عقاب الله يوم لقائه، وأطيعوني واتبعوا دعوتي، وما جئتكم به من عند الله تعالى، وأخلصوا له الطاعة والعبادة.

وأنا لا أسألكم مالاً ولا جاهاً على تبليغ الدعوة، ولا أطلب منكم غير توحيد الله - سبحانه -، فليس لي هدف مادي، ولا أدبي أسعى إليه من وراء دعوتي لكم.

وقد تكررت هذه الآية في كل قصة من قصص السورة؛ للتنبيه على أن دعوة الرسل واحدة، وهدفهم واحد، وغايتهم واحدة.

ثم وصف هود قومه بثلاثة أوصاف، كما جاء في قوله تعالى على لسان نبيه ﷺ:

١٢٨-١٣٠- ﴿اتَّبِنُونَ كُلِّ رِيعٍ مَّيَّةً تَعْبَثُونَ ﴿١٢٨﴾ وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ ﴿١٢٩﴾ وَإِذَا بَطِشْتُمْ بَطِشْتُمْ جَبَّارِينَ ﴿١٣٠﴾﴾

كان قوم عاد: طوال الأجسام، أقوياء وأشداء، عضلاتهم مفتولة، وصحتهم قوية، وكانوا إلى جوار ذلك أهل ذهاء وذكاء، وقد أعطاهم الله أموالاً فأساءوا استخدامها.

وهذه الآية وما بعدها، تذكر الجديد في هذه السورة، من قصة هود ﷺ، بعد دعوته لهم بتقوى الله تعالى وإخلاص العبادة له، وهذا الجديد هو بناء ما يشبه في العصر الحاضر، ناطحات السحاب، وأنهم كانوا يتناولون في البنيان، ويسعون وراء شهواتهم، وينسون ربهم، وقد أبطرتهم التفوق المادي والأدبي ﴿فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَقَالُوا مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً﴾ [فصلت: ١٥]. فاستعملوا قوتهم في معاصي الله، وفي العبث والسفه.

وهكذا يفعل طغاة العصر، فيقولون جهاراً نهاراً: ﴿مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً؟!﴾ ويقلّمون أظافر كل قُوّة بإجهاضها في مهدها؛ حتى ينفردوا بما في الأرض، وكل من خرج عليهم يجب اجتثاثه، وعلى: وسائل الإعلام، ومناهج التعليم، والمؤتمرات الدولية، والسياسة العامة أن تسير في هذا الإطار، وإلا فالعقاب في انتظارها، ومن لم يكن معهم فهو ضدهم، ولا ينبغي أن تكون هناك ترسانة نووية لغيرهم، ومن نبغ في علم الذرة ونحوها يجب اغتياله.

وقد وصف الله تعالى قوم عاد في هذه الآيات الثلاث بثلاثة أوصاف:

الوصف الأول: أنهم كانوا يبنون المباني المرتفعة: كأبراج الحمام، والقصور المشيدة، والحصون المنيعة، وأحواض المياه، والسدود، يبنون في كل مرتفع من الأرض بناء شامخاً لم يُخلق مثله في البلاد، وهذا البناء لا يُقصد به منفعة الناس، وإنما هو للعبث واللهو، فكانوا يُشرفون على الناس من هذا البناء المرتفع، فيستخرون منهم، ويؤذونهم،

كما قال رب العالمين: ﴿أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ﴾ أي: بكل مرتفع من الأرض، وكل جبل شاهق، بناءً عاليًا ﴿ءَايَةً﴾ في البناء الشامخ المرتفع على الطرق الواسعة، والميادين الفسححية العامة التي يتنافس البشر على البنيان فيها، لا لمنفعة الناس، وإنما للعبث والإسراف وإظهار القوة، حيث ﴿تَقْبَتُونَ﴾ وتسخرون بالمارة، ولا تعود عليكم منه فائدة في الدنيا ولا في الدين، وإنما هو للترف والطغيان، واللهو واللعب، وهذا تضييع للأموال، وإتاعاب للأبدان، واشتغال بما لا يُجدي ولا ينفع، وفيه تبديد للأموال والطاقات.

الوصف الثاني: أنهم يقيمون المصانع للكبر والتفاخر، قيل عن هذه المصانع: هي قصور مشيدة، وحصون منيعة، وقيل: هي حياض أو صهاريج للمياه، كالخزانات والسدود العالية.

وهذه المصانع ليست لفائدة الناس، وإنما هي للكبر وللتفاخر، وكأنهم يعتقدون أنهم مخلّدون في الدنيا ولا يموتون.

لقد كان قوم عاد مشركين بالله، كافرين به، معرضين عن الدار الآخرة، والنظر في العاقبة، منصرفين عن عبادة الله تعالى، منغمسين في الشهوات والتعاطف على الناس، والتفاخر بما هم عليه من حضارة مادية، مشغولين بما هم عليه من اللهو واللعب، قد بلغوا مبلغًا كبيرًا من البأس، والتغلب على العباد والبلاد، فطال عليهم الأمد، واشتد غرورهم، فأرضوا أهواءهم، وأقبلوا على ملذاتهم، وأضاعوا جانب العقل والروح وزكاة النفس، فعبدوا الأصنام، ووبّخوا مَنْ نصّحهم، ونبذوا شرع الله، وكذبوا رسله.

والحضارة المادية التي شيدها جديرة بالثناء العاجل، والثواب الآجل، لو أُريد بها وجه الله ونفع العباد، ولكنها خلّت من المقاصد الحسنة، وأُريد بها الخلود في الدنيا.

والوصف الثالث: أنهم إذا بطشوا بغيرهم انتقموا منهم وأهانوهم، وتسلبوا عليهم ظلماً وعدوانًا بغير حق، فهم قساة، جابرة، شأنهم شأن القوة الوحيدة في الأرض في عالم اليوم، مع بُعد الزمان والمكان، إذا حاربوا أهلكوا الحرث والنسل، وإذا خاصموا لم يبالوا بما يلقون من ذلّ وهوان.

وهود عليه السلام لم ينكر على قومه مجرد اتخاذ المباني، والقصور العالية، وحفظ المياه في

السدود، ونحو ذلك من الحضارة المادية، وإنما أنكر عليهم جبروتهم وطغيانهم، ونسيانهم الموت، والتعالي على الناس، والعبث بتلك المباني، والبطش والتسلط على من هم دونهم في القوة.

وهذا هو شأن المحتلّين في زماننا، ممن يتسلّطون على الشعوب، فيسلبونهم أرضهم وديارهم، ويسومونهم سوء العذاب.

وهذا الوصف لقوم عاد يتمثل في كل زمان ومكان بالذين يبنون الأبراج العالية، وناطحات السحاب، وهم مقطوعو الصلة بالله ﷻ، لا يقصدون نفع الناس، وإذا ظفروا بغيرهم بطشوا بهم بطش الجابرة، قتلاً وضرباً وأخذ أموال، فيتمّوا الأطفال، ورمّوا النساء، وهتكوا الحرمات.

قال الفخر الرازي: وصفهم ربنا بثلاثة أوصاف: اتخاذ الأبنية العالية، وهو يدلُّ على السرف، وحب العلو.

واتخاذ المصانع -القصور المشيدة والحصون- وهو يدلُّ على حب البقاء، والخلود، والجباريّة، وهي تدلُّ على حب التفرد بالعلو.

وكل ذلك يشير إلى أن حب الدنيا قد استولى عليهم بحيث استغرقوا فيه، حتى خرجوا عن حد العبودية، وحاموا حول ادعاء الربوبية، وحب الدنيا رأس كل خطيئة^(١).

وقوم عاد هم الذين قال الله تعالى فيهم: ﴿فَأَمَّا عَادٌ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَقَالُوا مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً﴾ فقال سبحانه ردّاً عليهم: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً﴾ [فصلت: ١٥].

وقد غضب الله على قوم عاد وأشباههم ممن جهلوا حق الله عليهم، فنسوا لقاءه، وتجرؤوا عليه، وتطاولوا على خلق الله سبحانه، فنهاهم عن ذلك هود عليه السلام وقال لهم:

١٣١-١٣٤ - ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا ٱلرَّسُولَ ۚ وَٱلَّذِى أَمَدَّكُمْ بِمَا تَعْمَلُونَ ۖ ٱمْدُدُّوا لَهُم بِأَنفُسِكُمْ ۖ إِنَّكُمْ عَلَىٰ غَيْرِ لَدُنِّهِ مُوقِنُونَ ۝

۝ وَجَنَّتْ وَعْيُونُ ۚ﴾

(١) يُنظر: «التفسير الكبير» (١٢٤/١٥٧).

ذَكَرَهُمْ هُودٌ عَلَيْهِ السَّلَامُ بِتَقْوَى اللَّهِ تَعَالَى، وَخَوْفِهِمْ مِنْ عَذَابِهِ، وَحَذَرِهِمْ عَاقِبَةَ طُغْيَانِهِمْ، وَرَغْبَتِهِمْ وَرَهْبَتِهِمْ، وَقَالَ لَهُمْ: خَافُوا اللَّهَ، وَامْتَثِلُوا أَمْرَهُ فَإِنَّهُ أَنْفَعُ لَكُمْ.

وفي الآية الثانية والثلاثين بعد المئة تذكير لقوم هود بنعم الله تعالى عليهم على وجه الإجمال؛ حيث ذَكَرَهُمُ اللَّهُ سبحانه بكل نعمة يعرفونها.

فاخشوا الله -أيها الناس- الذي أمدكم بهذه النعم التي تعلمونها، مما هو بين أيديكم من النعم التي لا تحصى.

وفي الآية الثالثة والثلاثين بعد المئة وما بعدها، ذَكَرَ اللَّهُ تعالى قوم عاد بنعم أربع على وجه الخصوص، أعطاكم الله إياها يا قوم عاد، وهذه إشارة مجملة إلى هذه النعم:

أربع من نعم الله على قوم عاد:

- ١- الأنعام من الإبل، والبقر، والغنم، وكانت الأنعام، هي أنفُسُ الأموال لديهم.
 - ٢- وأعطاكم الأولاد، فمتَّعكم بالبنين والبنات؛ ليكونوا لكم عزة وقوة، وقرة عين في الدنيا.
 - ٣- وأعطاكم البساتين المثمرة بما فيها من: زروع، ونخيل، ونبات، وفواكه، وأشجار، متاعاً لكم ولأنعامكم.
 - ٤- وفَجَّرَ لكم الماء العذب من العيون الجارية لنفْعكم وقوام حياتكم.
- فقد أعطاكم الله - سبحانه - أصول الخيرات، وأغدق عليكم ما لا يُحصى من النعم، فهو الذي يجب أن يُعبد ويُحمد، ويُشكر ولا يُكفر.

ثم ذَكَرَ هُودٌ عَلَيْهِ السَّلَامُ قوم عاد بحلول عذاب الله تعالى بهم إن لم يؤمنوا، فقال:

١٣٦، ١٣٥ - ﴿إِنِّي^(١) أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٣٥﴾ قَالُوا سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَوَعَضْتَ أَمْ لَمْ تَكُنْ مِنَ الْوَاعِظِينَ ﴿١٣٦﴾﴾

ختم هود عَلَيْهِ السَّلَامُ إرشاده لقومه، ببيان أنه حريص على مصلحتهم، وأنه يخشى عليهم -إن لم يؤمنوا- عذاب الله في يوم تشتدُّ أهواله، فلا تنفعهم أموالهم ولا أولادهم ولا

(١) قرأ نافع وابن كثير وأبو عمرو وأبو جعفر بفتح ياء الإضافة وصلًا من (إني أخاف)، والباقون بإسكانها.

متاعهم، فقال لهم: إني أخشى وأخاف عليكم العذاب يوم لقاء رب العالمين، إن بقيتم على إصراركم، واستمريتكم على كفركم وبغيتكم.

فما كان من قوم عاد إلا أن قالوا لنبیهم هود: سواء أوعظت أم لم تعظ، فإن كلامك من التخويف وعدمه يستوي، فلن نؤمن لك، ولن نتبعك، ولا فائدة فيما تقول، وقد سموا كلامه وعظاً استخفافاً بما خوفهم به؛ حيث لم يعتقدوا صحته، وقالوا: إنه كاذب في دعواه. كما قالوا له: ﴿وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِي آلِهَتِنَا عَنْ قَوْلِكَ وَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ﴾ (١٣٧) إِنْ نَقُولُ إِلَّا أَعْرَبْنَاكَ بَعْضَ آلِهَتِنَا بِسُوِّهِ [هود]. واتهموه بالسفه والجنون، فقالوا: ﴿إِنَّا لَنَرُّكَ فِي سَفَاهَةٍ وَإِنَّا لَنُظُنُّكَ مِنَ الْكَاذِبِينَ﴾ [الأعراف: ٦٦]. فلا جدوى في وعظك وتذكيرك إيانا، فإننا لا نبالي بما تقول، ولن نترك ما نحن عليه، فنحن لا نعتقد صحة ما جئت به، وأنت كاذب فيما تدّعيه.

وهذا الكلام غاية في العتوّ، حيث بلغت بهم الحال إلى أن مواعظ الله تعالى التي تذيب الجبال، وتتصدع لها الأفئدة، وجودها وعدمها سواء، ثم أضافوا قائلين:

١٣٧، ١٣٨ - ﴿إِنْ هَذَا إِلَّا خُلُقٌ^(١) الْأَوَّلِينَ﴾ (١٣٧) وَمَا نَحْنُ بِمُعَذِّبِينَ﴾ (١٣٨)

إِنَّ ما نحن عليه من التناول في البنيان، واتخاذ القصور المشيدة، ما هو إلا حال آبائنا الأولين، ومنهج حياتهم، ونحن على آثارهم سائرون، وما تأمرنا به كذب وخرافات، هو من افتراءك وادعائك.

ثم تمادى قوم عاد في غرورهم، فقالوا لنبیهم هود: إننا لن نعذب على هذه الأعمال التي نعملها، والتي حذرتنا منها؛ فليس هناك بعث، ولا حساب، ولا جزاء كما تقول. وكأنهم بهذا يضمنون لأنفسهم النجاة من العذاب، وفي هذا تهكم بنبيهم، وإنكار للبعث، وادعاء أنهم لو بُعثوا - جدلاً - فإن نعم الدنيا ستكون معهم في الآخرة. قال تعالى مبيناً عقوبة تكذيب الرسل:

١٣٩، ١٤٠ - ﴿فَكَذَّبُوهُ فَأَهْلَكْنَاهُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ (١٣٩) وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ

(١) قرأ نافع وابن عامر وعاصم وحمة وخلف بضم الخاء واللام من (خُلُق) بمعنى: العادة، وقرأ الباقون بفتح الخاء وسكون اللام، بمعنى: الكذب والاختلاق.

الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴿١٤١﴾

لقد كان عقاب الله تعالى لقوم عاد سريعاً وحاسماً؛ لتكذيبهم نبي الله هوداً ﴿١٤١﴾، فأهلكهم الله ﴿بِرِيحٍ صَارَ صَرْصَرٍ عَلَيْهِ﴾ ﴿١٤٢﴾ سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَتَمَنِيَةً أَيَّامٍ حُسُومًا فَتَرَى الْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَى كَأَنَّهُمْ أُعْجَازٌ نَحْلٍ خَاوِيَةٌ ﴿١٤٣﴾ [الحاقة]. فلم تنفعهم أموالهم، ولا أولادهم، ولا حضارتهم، ولا قوتهم، حين قالوا: ﴿مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً﴾ ولم يعترفوا أن رب العالمين هو أشد منهم قوة.

وقد كان عذابهم وهلاكهم من جنس ما تفاخروا به؛ حيث سلَّط الله عليهم ما هو أعتى منهم وأشد، فكان إهلاكهم بالريح الشديدة الهبوب، ذات البرد القارس، تقتلع الرجل من فوق الأرض، وترفعه في الهواء، ثم تُنكسه على أم رأسه، فتشدخ رأسه ودماغه، وكان هلاكهم بما هو أشد من عتوهم؛ حيث أرسل الله عليهم الريح الصرصر العاتية، سبع ليالٍ وثمانية أيام ﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِي أَيَّامٍ نَحْسَاتٍ لِنَدِفَهُمْ﴾ عَذَابُ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَخْرَى وَهُمْ لَا يُصْرُونَ ﴿١٤٤﴾ [فصلت]. وهي الريح العقيم التي قال الله فيها: ﴿مَا تَدْرُ مِنْ شَيْءٍ أَنْتَ عَلَيْهِ إِلَّا جَعَلْنَاهُ كَالرَّيْرِ﴾ [الذاريات]. وهي ﴿تُدْمِرُ كُلَّ شَيْءٍ بِأَمْرِ رَبِّهَا﴾ [الأحاف: ٢٥].

وفي هذا الهلاك عبرة وعظة لمن جاء بعدهم، وأكثر قوم هود لم يؤمنوا، مع رؤيتهم للآيات الظاهرات، الدالة على رسالته لهم.

وربك هو الغالب على أمره، لا يفلت من يده ظالم، ولا يعجزه متكبر، وهو سبحانه رحيم بالناس في عقوبتهم، لطيف بهم في معاملتهم، وسعت رحمته كل شيء، وسبق غضبه رحمته.

الْقِصَّةُ الْخَامِسَةُ: قِصَّةُ نَبِيِّ اللَّهِ صَالِحٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ

١٤١-١٤٤ - ﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ الْمُرْسَلِينَ ﴿١٤١﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ صَالِحٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٤٢﴾ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ

أَمِينٌ ﴿١٤٣﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا

ذُكِرَتْ قِصَّةُ صَالِحٍ مَعَ قَوْمِهِ فِي سُورَةِ الْأَعْرَافِ، وَهُودٍ، وَالنَّمْلِ، وَالْقَمَرِ، وَقَدْ أَرْسَلَهُ اللَّهُ تَعَالَى لِقَوْمِ ثَمُودَ، وَالثَّمُدُ: هُوَ الْمَاءُ الْقَلِيلُ. وَكَانُوا قَوْمًا يَعْبُدُونَ الْأَصْنَامَ، وَدِيَارَهُمْ تَقَعُ بَيْنَ الْمَدِينَةِ وَالشَّامِ، تَسْمَى بِالْحِجْرِ، وَهِيَ مَعْرُوفَةٌ بِمَدَائِنِ صَالِحٍ، وَقَدْ مَرَّ عَلَيْهَا النَّبِيُّ

ﷺ وهو في طريقه إلى غزوة تبوك.

وقد أرسل الله صالحًا إلى قوم ثمود، وهو أخوهم في النسب من قبيلتهم، فأمرهم صالح ﷺ بتوحيد الله تعالى، ونهاهم عن عبادة الأصنام؛ فكذبوه في رسالته ودعوته إلى توحيد الله - جلَّ شأنه -، فكانوا بهذا مكذبين لجميع رسل الله تعالى؛ لأنهم جميعًا يدعون إلى التوحيد.

وقد وعظ صالح قومه بما وعظ به هود قومه فقال: ﴿وَاذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِنْ بَعْدِ عَادٍ﴾ [الأعراف: ٧٤] كما أن هودًا نصح قومه بما نصح به نوح قومه، فقال: ﴿وَاذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِنْ بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ﴾ [الأعراف: ٦٩].

قال صالح لقومه: ألا تخشون عقاب الله وانتقامه منكم إن عبدتم غير الله، ولم تُفردوه بالعبادة؟ فيا قوم، إني مرسل إليكم من عند الله، حفيظ على تبليغ هذه الرسالة كما تلقيتها عن الله، وكان صالح معروفًا عند قومه بالأمانة؛ لأن الله تعالى لم يرسل رسولًا إلا وهو معروف بالفضائل، وقد دلَّ على هذا ما جاء في سورة هود: ﴿قَالُوا يَصْلِحْ فَمَا نَكُنْ مِنْكُمْ مَرْجُوعًا قَبْلَ هَذَا﴾ [هود: ٦٢] أي: أن صالحًا قد اختلف - في زعمهم - عما كان يعرفه عنه قومه قبل أن يكون رسولًا.

فاحذروا عقاب الله، - يا قوم - وامثلوا دعوتي إليكم فيما جئكم به من عند الله، فأنا لم أطلب منكم أجرا على دعوتي لكم حتى يمنعكم ذلك من اتباعي، ولا أطلب الثواب إلا من الله:

١٤٥ - ﴿وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجَرِيَ إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ ﴿١٤٥﴾

يقول نبي الله صالح ﷺ لقومه: إني لا أطلب منكم أيَّ جزاء على نُصْحِي وإرشادي لكم، وما جزائي إلا على الله، فهو الذي كلّفني بذلك، وهو الذي يكافئني عليه.

وقد ذُكرت هذه الآية في نهاية كل قصة؛ للتنبيه على وحدة الهدف، ووحدة الغاية في رسالة الرسل جميعًا. ثم حذرهم صالح ﷺ من عدم شكر نعم الله تعالى عليهم فقال:

١٤٦-١٤٩ ﴿أَتُنْكِرُونَ فِي مَا هُمْ بِءَامِنِينَ﴾ ﴿١٤٦﴾ فِي جَنَّتٍ وَعُيُونٍ ﴿١٤٧﴾ وَزُرُوعٍ وَنَخْلٍ طَلْعُهَا

هَٰؤُلَاءِ ﴿١٤٩﴾ وَنَحْنُ مِنْ أَجْبَالٍ يُؤْتَا فَرِهِنَ ﴿١٥٠﴾ ﴿١٤٩﴾

أي: أتحسبون أنكم تتركون في هذه الخيرات والنعمة سُدى، دون أن تؤمروا وتُنهَوْا؟ وأنتم تستعينون بهذه النعمة على معاصي الله، إن هذا لن يكون، فاتقوا الله واستجيبوا لدعوتي لكم، ولا تسيروا في ركاب المفسدين في الأرض، حتى تكونوا من الناجين يوم لقاء رب العالمين.

كان قوم ثمود قد أعرضوا عن عبادة الله تعالى، وأنكروا البعث والنشور، فأرسل الله إليهم نبيه صالحاً عليه السلام يدعوهم إلى توحيد الله تعالى، والإيمان باليوم الآخر وما فيه من بعث، وحساب، وجزاء، فوعظهم بما يرقق قلوبهم، ويحملهم على شكر نعم الله عليهم.

فقد كانت أرض ثمود كثيرة البساتين، والماء، والنخل، فذكّرهم صالح عليه السلام بنعم الله الجليلة عليهم، من إنبات البساتين والجنت، وتفجير العيون الجاريات، وإخراج الزروع والثمار.

وقد وبّخهم صالح عليه السلام على إعراضهم عن عبادة الله تعالى، وإنكار البعث والنشور، وعدم شكرهم نعم الله عليهم، فقوم ثمود يُشبهون قوم عاد في بعض حالات التمتع بالحضارة والنعيم في الدنيا، فقد كانوا ينحتون من الجبال بيوتاً فارهين، وأعطاهم الله زُرُوعاً ونخلًا طلعها مثمر.

فكان الله ﷻ يقول لهم: أظنون أن الله تارككم فيما أنتم فيه من نعيم في الدنيا تتقلبون فيه صباح مساء، مع عدم إيمانكم بأن هناك بعثاً ولا حساباً ولا جزاء يوم لقاء رب العالمين، فهل يترككم ريكهم على ما أنتم عليه من استقرار ومتاع في الدنيا، ومأمن من العذاب والزوال، كأنكم باقون مخلدون فيها، وقد تحقق لكم الأمن ورفاهية العيش، والتمتع في حدائق مثمرة، وعيون جارية، وزروع كثيرة، ونخل ثمرها يانع لين ناضج.

وإلى جوار ما سبق فأنتم ماهرون في نحت البيوت في الصخر، مع الإسراف والبطر والأشر، وعدم الشكر لأنعم الله عليكم.

(١) قرأ ابن عامر وعاصم وحزمة والكسائي وخلف بإثبات ألف بعد الفاء من (فارهين) اسم فاعل، بمعنى: حاذقين. والباقون بدون ألف، صفة مشبهة، بمعنى: شرهين.

قال الفخر الرازي: وظاهر هذه الآيات يدلُّ على أن الغالب على قوم هود، هو اللذات الخياليَّة، وهي الاستعلاء، والبقاء، والتجبر.

والغالب على قوم صالح هو اللذات الحسيَّة، وهي طلب المأكول، والمشروب، والمساكن الطيبة^(١).

١٥٠ - - ١٥٢ ﴿فَأَتَقُوا اللَّهَ وَاطِيعُونَ ﴿٥٠﴾ وَلَا تُطِيعُوا أَمْرَ الْمُسْرِفِينَ ﴿٥١﴾ الَّذِينَ يَفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ ﴿٥٢﴾﴾

أي: فخافوا عقاب الله -أيها القوم- واقبلوا نُصْحي، بصفتي رسول الله إليكم، ولا تنقادوا لأمر من أسرفوا على أنفسهم بالمعاصي، فأشركوا معه غيره، وعاثوا في الأرض فسادًا. ولا تطيعوا أمر المشركين الكافرين، ومنهم التسعة الذين عقروا الناقة، وهم الرهط الذين قال الله فيهم: ﴿وَكَاثٌ فِي الْمَدِينَةِ شَيْعَةٌ رَهْطٌ يُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ ﴿٤٨﴾﴾ [النمل: ٤٨] وعلى رأسهم (قُدار بن سالف) الذي عقر ناقة صالح ﷺ ﴿فَاذْكُرُوا آلَاءَ اللَّهِ وَلَا تَعْتُوا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾ [الأعراف: ٧٤].

وبعد أن نهاهم الله - سبحانه - عن طاعة المسرفين، وصفهم بأنهم قوم متمادون في المعصية، دائمون على الإفساد في الأرض وعدم الإصلاح فيها، وهم غالبًا أئمة الضلال وأساطين الكفر. والمراد بهم هنا: الملأ والأشراف من قوم ثمود، وهكذا لم يُفد الوعظ والإرشاد فيهم، فاتهموا نبهم بالسحر، وطلبوا منه آية خارقة تدل على أنه رسول من عند الله، فالبشر لا يكونون رسلاً - على حد زعمهم -:

١٥٣، ١٥٤ ﴿قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ مِنَ الْمُسَحَّرِينَ ﴿٥٣﴾ مَا أَنْتَ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا فَأْتِ بِآيَةٍ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾

اتهم قوم ثمود صالحًا بأميرين، وطلبوا منه برهانًا على صدق رسالته، والأمران هما: السحر، وكونه بشرًا، كما اتهم جميع الأقوام رسلهم بهذين الأمرين.

فقالوا له أولًا: أنت مسحور، قد غلب عليك السحر، فقد كنت فينا -قبل أن تدَّعي الرسالة- ذا عقل راجح وصدق وأمانة، ولكن أوضاعك قد اختلفت بعد ذلك، وصرت تهذى.

واتهموه ثانيًا بأنه بشر، فقالوا: كيف تكون رسولاً وأنت بشر مثلنا، تأكل مما نأكل، وتشرب مما نشرب، فأنت من بني آدم، لا تختلف عنا في شيء، فإن كنت رسولاً حقًا

(١) «التفسير الكبير» (٢٤/١٥٩).

فَأْتِ بآيَةٍ خارقة تدلُّ على صدق زعمك في أنك رسول من عند الله، وهذا كقولهم عنه في موضع آخر: ﴿أَتَأْتِيَ الذِّكْرَ عَلَيْهِ مِنْ بَيْنِنَا بَلْ هُوَ كَذَّابٌ أَشِرٌّ﴾ [١٥٥] [القمر].

وطلبهم للمعجزة من باب التعنت والتعجيز، وليس من باب الاسترشاد، ومع هذا فإن الله تعالى أجابهم إلى ما طلبوا:

١٥٥، ١٥٦- ﴿قَالَ هَذِهِ نَاقَةٌ لَهَا شِرْبٌ وَلَكُمْ شِرْبُ يَوْمٍ مَعْلُومٍ﴾ [١٥٥] وَلَا تَمْسُوهَا إِسْوَاءَ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ يَوْمٍ عَظِيمٍ [١٥٦]

كان قوم ثمود قد تحدّوا نبيهم صالحًا قائلين: أخرج لنا من هذه الصخرة -وعينوا صخرة بذاتها- ناقة عُشراء، أي: حامل، فإن فعلت ذلك آما بك واتبعناك.

وهنا جاء جبريل عليه السلام إلى صالح عليه السلام وقال له: صلِّ ركعتين واسأل ربك، فصلى ودعا ربه، فإذا هم ينظرون إلى الصخرة وهي تتمخض عن ناقة عُشراء، تخرج من صخرة صماء ملساء، ثم ينظرون مرة ثانية فإذا هي تتمخض عن خروج المولود الذي في بطنها.

أخرج البستي بسند صحيح عن أبي الطفيل -عامر بن واثلة- قال: قالت ثمود لصالح: اتنا ﴿بَيَّاتَةٍ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ قال: اخرجوا، فخرجوا إلى هضبة من الأرض، فإذا هي تتمخض كما تتمخض الحامل، ثم إنها انفرجت، فخرجت الناقة من وسطها، فقال لهم صالح: ﴿هَذِهِ نَاقَةُ اللَّهِ لَكُمْ آيَةٌ﴾.

وهي ناقة عظيمة ليست كنياق الدنيا، ومن خصائص هذه الناقة أن ماء القبيلة ينقسم بينها وبين القوم، فالماء قسمة بينهم، القوم كلهم يشربونه في يوم، والناقة وحدها تشربه في يوم، وفي اليوم الذي تشرب فيه الناقة تُعطيه من الحليب ما يكفي القوم جميعاً عوضاً عن الماء الذي يفقدونه في ذلك اليوم.

وقال صالح لقومه: لا تتعرضوا لها بسوء، لا في جسمها، ولا في مأكليها، ولا في مشربها، فيهلككم الله بعذاب من عنده، ومكثت الناقة بين أظهرهم حيناً من الدهر، فلما طال عليهم الأمد، تمالؤوا على قتلها.

١٥٧-١٥٩- ﴿فَعَقَرُوهَا فَاصْبَحُوا سَاقِيَةً﴾ [١٥٧] فَأَخَذَهُمُ الْعَذَابُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ [١٥٨] وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ [١٥٩]

أي: عقرها الرهط التسعة، وكان في مقدمتهم رجل يقال له: قُدار بن سالف، استأجرته امرأة لعقر الناقة، على أن تُزوَّجه ابنتها، ولما نحروها أصبحوا متحسرين على ما فعلوا، وأيقنوا أن العذاب نازل بهم، فلم ينفعهم الندم، وأخذهم العذاب في أعقاب عقرهم للناقة دون تراخٍ ولا إمهال.

وهذا كقوله تعالى: ﴿فَادَاوَا صَاحِبَهُمْ فَطَعْنُوهُ فَعَقَرَ ٢٩﴾ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذْرٍ ﴿٣٠﴾ [القمر].

وقوله: ﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِطَغْوَاهَا ١١﴾ إِذْ أُنْبِئَتْ أَشْقَاهَا ﴿١٢﴾ فَقَالَ لَهُمْ رَسُولُ اللَّهِ نَاقَةَ اللَّهِ وَسُقْيَاهَا ﴿١٣﴾ فَكَذَّبُوهُ فَعَقَرُوهَا فَدَمْدَمَ عَلَيْهِمْ رَبُّهُمْ بِذُنُوبِهِمْ فَسَوَّاهَا ﴿١٤﴾ وَلَا يَخَافُ عُقْبَاهَا ﴿١٥﴾ [الشمس].

فأنظرهم الله سبحانه ثلاثة أيام، يأتيهم العذاب بعدها، وقد تغيرت وجوههم في هذه الأيام الثلاثة، من مُصْفَرَّةٍ إلى مُحْمَرَّةٍ إلى مُسْوَدَّةٍ، وهم في انتظار العذاب، فأرسل الله عليهم الصيحة، بعد أن زلزلت الأرض تحت أقدامهم، فتزل بهم عذاب الله الذي توعدهم به صالح، فأهلكهم.

قال تعالى: ﴿وَفِي ثَمُودَ إِذْ قِيلَ لَهُمْ تَمَنَّوْا حَتَّىٰ حِينٍ ﴿٤٣﴾ فَعَتَوْا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْقَةُ وَهُمْ يَمْطُرُونَ ﴿٤٤﴾ فَمَا أَصْطَلَعُوا مِنْ فَيٍّ وَمَا كَانُوا مُنْصَرِّينَ ﴿٤٥﴾ [الذاريات].

وقال تعالى: ﴿فَإِنَّكَ بِؤُسُوتُهُمْ خَاوِيَةٌ بِمَا ظَلَمُوا﴾ [النمل: ٥٢].

إن في إهلاك قوم ثمود لعبرة لمن اعتبر بهذا المصير، وما كان أكثر قوم ثمود بمؤمنين، وإلا لما حَقَّ العذاب عليهم، وإن ربك هو القاهر المنتقم من أعدائه المكذبين، الرحيم بمن آمن به مِنْ خَلْقِهِ وَاتَّبَعَ هَدَاهُ.

الْقِصَّةُ السَّادِسَةُ: قِصَّةُ نَبِيِّ اللَّهِ لُوطٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ

١٦٠-١٦٢- ﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ الْمُرْسَلِينَ ﴿١٦٠﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ لُوطُ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٦١﴾ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٦٢﴾

لوط بن هاران -عليه السلام- عمه إبراهيم، خليل الرحمن، آمن لوط بعمه وبدعوته، وهاجر معه من بابل بالعراق إلى أرض الشام، نزل إبراهيم بفلسطين، ونزل لوط بقرية المؤتفكة (سدوم) وهي قرية في وادي الأردن؛ لِتَسَّعَ الْأَرْضَ لِأَغْنَامِ كُلِّ مِنْهُمَا.

وكان قوم لوط يأتون الذكران من العالمين، فأرسل الله إليهم نبيه لوطاً، يدعوهم إلى

توحيد الله - سبحانه - ، فهذه هي المهمة الأساس للدعوة ، وهي الأصل الذي يتفق عليه جميع الرسل ، ثم يعالج كل رسول منهم ما يوجد في قومه من أخلاق وعادات رذيلة .

وكان لوط عليه السلام غريباً بين أهل المؤتفكة ، فقد وفد من العراق مع عمه إبراهيم ، حين اعتزل أباه وقومه ، وترك وطنه وأرضه ، وعبر الأردن مع عمه إبراهيم ، وكذا القلة التي آمنت به ، ثم عاش وحده مع هؤلاء القوم ، حتى أرسله الله إليهم ، ليردّهم عما هم فيه من رذائل ، فإذا بهم يُهدّدونه بالإخراج من بينهم إن لم ينته عن دعوته .

وتبدأ القصة وتنتهي بنفس الكلمات والألفاظ التي قالها من قبل أنبياء الله : نوح ، وهود ، وصالح صلوات الله عليهم أجمعين ؛ لتأكيد أن دعوة الرسل واحدة ، وغايتها واحدة ، ومشأها واحد .

ولما كان تكذيب رسول واحد تكذيباً لسائر الرسل ، لاتحادهم في دعوى التوحيد وأصول الشرائع ، ذكر سبحانه أن قوم لوط كذبوا رسل الله جميعاً بتكذيبهم لنبي الله لوط عليه السلام .

وقوم لوط من الكنعانيين ، أهل فلسطين ، ولم يكن لوط منهم ، بل كان عبرانياً نزيلاً فيهم كما سبق بيانه ، ولكنه لما استوطن بلادهم فعاشهم وحالفهم وظاهرهم ، جعل أخوا لهم ، كما جاء في الآية ، فهو أخ لهم في الوطن ، وعن هذه الأخوة يقول تعالى : ﴿وَإِخْوَنُ لُوطٍ﴾ [ق: ١٣] .

وقد تُطلق الأخوة على ملازمة الشيء وممارسته ، كما قال سبحانه ﴿إِنَّ الْمُبْدِرِينَ كَانُوا إِخْوَنَ الشَّيَاطِينِ﴾ [الإسراء: ٢٧] .

دعاهم لوط إلى تقوى الله تعالى وطاعته ، وحثهم على ذلك قائلاً : ألا تخافون عقاب الله إن لم تؤمنوا وتقلعوا عما أنتم عليه من فواحش الذنوب .

قال لهم لوط : إني رسول من ربكم ، وأمين على تبليغ رسالته إليكم .

١٦٣ ، ١٦٤ - ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا ٱلرَّسُولَ وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنۢ أَجْرٍۭ إِنۢ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلْعَالَمِينَ﴾

فاحذروا عقاب الله على تكذيبكم رسوله ، واتبعوني فيما أدعوكم إليه ، وأنا لا أسألكم على دعوتي لهدايتكم أيّ أجر ، فأجري على الله وحده .

١٦٥، ١٦٦ - ﴿أَتَأْتُونَ الذُّكْرَانَ مِنَ الْعَالَمِينَ ﴿١٦٥﴾ وَتَذَرُونَ مَا خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ إِنَّكُمْ عَلَىٰ أَعْيُنٍ مُّصِيبَةٍ ﴿١٦٦﴾﴾ قَوْمٌ عَادُونَ ﴿١٦٧﴾

شرح لوط عليه السلام في الإنكار على قومه بتوبيخهم وتقريعهم على ما انفردوا به من بين سائر الخلق بالفعل الشنيع، فقال لهم: أتنكحون الذكور من بني آدم، وتتركون ما خلق الله لاستمتاعكم وتناسلكم من أزواجكم، إنكم بهذا عكستم الفطرة، وانتكستم عن جبلّة البشر، فخرجتم عن حدود الإنسانية إلى أدنى من مرتبة البهائم، فالذكر من الحيوان يأنف من إتيان الذكر مثله، وأنتم قد فعلتم ما يتورع عنه الحيوان، وتجاوزتم الحد في الفساد والإجرام بجريمتكم الشنيعة، فكنتم بهذا قوماً مسرفين، تجهلون سنة الله في خلقه، وأنتم بفعلتكم هذه قد ارتكبتم جنايتين:

الجناية الأولى: إفسادكم للذكوران، والقضاء على رجولتهم وشهامتهم، وكسر ما فيهم من إباء وشمم.

قال مجاهد في معنى الآية: تركتم أقبال النساء إلى أدبار الرجال وأدبار النساء.

الجناية الثانية: تعطيلكم النساء عن التمتع بهن، وقد خلقهن الله لذلك، ويتبع ذلك تعريضهن للزنى، وتعطيل النسل، وهو المقصود الأسمى من العلاقة الزوجية، وفي هذا هدم لكيان المجتمع، ومُضارّة لسنة الحياة، وقد قال الله عنهم: بل أنتم قوم قد تجاوزتم الحلال إلى الحرام، وبلغتم أقصى الحدود في الإجرام والفساد.

١٦٧، ١٦٨ - ﴿قَالُوا لَيْنَ لَّمْ تَنْتَه يَلُوطُ لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمُخْرَجِينَ ﴿١٦٧﴾ قَالَ إِنِّي لِعَمَلِكُمْ مِنَ الْقَالِينَ ﴿١٦٨﴾﴾

ونظراً لأن لوطاً عليه السلام لم يكن من القوم، فقد هدّده بالطرد، وقالوا له: لئن لم تنته يا لوط، عن تقبيح فعلنا ونهينا عن إتيان الذكور فسنخرجك من هذه البلاد، ونطردك منها.

وكان قوم لوط يسخرون من نهيه لهم عن جريمة اللواط، إذ يقولون: ﴿أَخْرِجُوا آلَ لُوطٍ مِّنْ قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أَنَاسٌ يَّظْهَرُونَ﴾ [النمل: ٥٦].

وهكذا فإن نبي الله لوطاً عليه السلام يدعوهم إلى الطهر والعفاف، فيهددونه بالنفي من البلاد ويتهكمون به وبدعوته، ويقولون عنه وعمن آمن به ولم يفعل الفاحشة: ﴿إِنَّهُمْ أَنَاسٌ يَّظْهَرُونَ﴾ أي: يترفعون عن إتيان الذكور، ويعدّون ذلك عيباً وخُلُقاً ذميماً.

ونظرًا لأن نوحًا عليه السلام كان من قومه نسبًا، فلم يهددوه بالإبعاد عن البلاد، وإنما هددوه بالضرب والرجم ﴿قَالُوا لَيْنَ لَمْ تَنْتَهِ يَنْتُحِ لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمَرْجُومِينَ﴾ (١٦٦).

وهكذا قال قوم شعيب له: ﴿لَنُخْرِجَنَّكَ بِشَعِيبٍ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَكَ مِنْ قَرْيَتِنَا أَوْ لَتَعُوذُنَّ فِي مِلَّتِنَا﴾ [الأعراف: ٨٨].

وقال جميع الأقوام لرسولهم: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِرُسُلِهِمْ لَنُخْرِجَنَّكُمْ مِنْ أَرْضِنَا أَوْ لَتَعُوذُنَّ فِي مِلَّتِنَا﴾ [إبراهيم: ١٣].

قال لهم لوط عليه السلام: إن هذا العمل الذي تفعلونه -من جريمة اللواط- أنا مبغض له بغضًا شديدًا، ومُنْكَرٌ لجريمتكم النكراء التي تُغضب رب العالمين، وأنا بريء منكم ومن عملكم القبيح، ثم سأل ربه أن ينجيّه وأهله مما يعملهم قومه فقال:

١٦٩-١٧١- ﴿رَبِّ نَجِّنِي وَأَهْلِي مِمَّا يَعْمَلُونَ﴾ (١٦٩) فَجَعَلْنَاهُ وَأَهْلَهُ أَجْمَعِينَ (١٧٠) إِلَّا عَجُوزًا فِي الْغَابِرِينَ ﴿

دعا لوط ربه ليلاً أن ينجيّه وأهله الذين آمنوا به من العذاب الذي يستحقه هؤلاء القوم بعملهم القبيح، وذلك بعد أن يؤس من إجابتهم له، وكان لوط يتوقع أن يحلّ بهم عذاب الله.

استجاب الله لنيه لوط، فنجاه وأهل بيته -إلا امرأته- من العذاب الذي نزل بالبقية، حيث أمطر الله عليهم حجارة مطبوخة بالنار في الصباح الباكر، ونجّى الله لوطاً وأهله -إلا امرأته العجوز- فقد كانت كافرة تُعين عليه قومه، فأصابها حَجَرٌ فهلكت مع من هلك حين أمر الله لوطاً أن يسري بأهله إلا امرأته. قال تعالى:

١٧٢، ١٧٣- ﴿ثُمَّ دَمَرْنَا الْأَخْرِينَ﴾ (١٧٢) وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ مَطَرًا فَسَاءَ مَطَرُ الْمُنْذَرِينَ ﴿ (١٧٣)

أي وأهلك الله قومه الكفرة، أشد الهلاك؛ لإصرارهم على الكفر وعلى إتيان المنكر، فأبادهم الله عن آخرهم، ولم يبق لهم أثر.

ثم فصل سبحانه شيئاً من هلاكهم، حيث أمطر الله عليهم حجارة من السماء كالمطر أهلكتهم، وذلك بعد أن أمر الله تعالى جبريل عليه السلام فاقطلع قُوم لوط ورفعها إلى عنان السماء ثم قلبها، كما قال تعالى: ﴿فَجَعَلْنَا عَلَيْهَا سَافِلَهَا﴾ [الحجر: ٧٤].

ومكان هذه القرى هو بحيرة لوط (البحر الميت) في الأردن، قال تعالى: ﴿وَأَنذَرْتَهُمْ لَشُرِّ نَارٍ أُظْلِمَتْ فِيهَا أَعْيُنُهُمْ فَوَافُوا فِيهَا بِمَا كَانُوا عَلَىٰ فِتْنَتِهِمْ لِيَحْتَمِلُوا غَازٍ﴾ [الصافات].

وبعد اقتلاع قرى قوم لوط، وقلبيها رأسًا على عقب، أُتبعوا بحجارة معلّمة على كلّ منها اسم صاحبها، فأمطرتهم مطرًا حتى أهلكتهم، ثم دَمَّ الله عقوبتهم في قوله: ﴿فَسَاءَ مَطَرُ الْمُنْذَرِينَ﴾ أي: قُبِحَ المطر الذي أمطر به مَنْ أُنذَرهم لوط ﷺ ولم يستجيبوا له، فقد أنزل الله بهم أشد أنواع الهلاك والتدمير.

١٧٤، ١٧٥- ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُّؤْمِنِينَ﴾ (٨) وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ

إن في ذلك العقاب الذي نزل بقوم لوط لعلهم يتعظ بها المكذبون، وما كان أكثر قوم لوط بمؤمنين، وإن ربك هو الغالب الذي يقهر المكذبين وغيرهم، الرحيم بعباده المؤمنين.

الْقِصَّةُ السَّابِعَةُ: قِصَّةُ نَبِيِّ اللَّهِ شُعَيْبٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ

١٧٦-١٧٨- ﴿كَذَّبَ أَصْحَابُ لَيْكَةِ^(١) الْمُرْسَلِينَ﴾ (١٧٦) إِذْ قَالَ لَهُمْ شُعَيْبٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٧٧﴾ إِنَّ لَكُمْ رَسُولًا أَمِينًا ﴿١٧٨﴾

القصة الأخيرة في سورة (الشعراء)، هي قصة خطيب الأنبياء شعيب -عليه السلام- وقد أرسل أولاً في أهل مدين وكان من قبيلتهم، كما قال القرآن: ﴿وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا﴾ [هود: ٨٤] أي: إنه أخوهم في النسب، وفي الوطن واللغة.

ثم أرسل ثانياً إلى أصحاب الأيكة، والأيكة: وهي بادية مدين، شجرة أو شجر ملتف بعضه حول بعض، يسمى غيضة، من شجر النبق، كانوا يعبدونه أصناماً من دون الله.

مدين والأيكة: ومدين والأيكة، مكانان قريبان جغرافياً يقعان في شرق خليج العقبة.

(١) قرأ نافع وابن كثير وابن عامر وأبو جعفر (ليكة) على وزن ليلة، اسم ممنوع من الصرف للعلمية والتأنيث، وقرأ الباقون بهمزة قطع بعد (ال) هكذا (الأيكة) ورسمت في المصحف بما يحتمل القراءتين معاً، ومثلها التي في سورة (ص)، أما التي في سورة (الحجر) وسورة (ق) فليس فيها خلاف بين القراء وكلهم يقرؤونها فيهما كحفص.

ولما كان أصحاب الأيكة يعبدون الأصنام من دون الله، نَزَّهَ الله شعبيًّا أن يكون أخًا لهم. وقد كانت آفة هؤلاء القوم واحدة، سواء أهل مدين أم أصحاب الأيكة، وهي تطفيف الكيل والميزان.

وأصحاب مدين هم أهل الحضر، وأصحاب الأيكة هم أهل البادية. روى ابن جريج عن ابن عباس رضي الله عنه أن أصحاب الأيكة هم أهل مدين. بمعنى أن قبيلة مدين هم ذرية (مدين) بن إبراهيم عليه السلام، وهم أصل نسب شعيب من زوجه (قطورة) وأن أصحاب الأيكة هم سكان الغيضة، أهل البادية وأن مدين وبنيه، قد تركوها لأهلها، وبنوا مدينة سموها باسم (رب العائلة) في شرق بلد الخليل، ولذا نُسب شعيب إلى مدين ولم يُنسب إلى الأيكة. ولهذا قال جابر بن زيد: أرسل شعيب إلى قومه أهل مدين، وإلى أهل البادية وهم أصحاب الأيكة.

ولما كانت مدين والأيكة، مكانان متجاوران، ورسولهما واحد، هو شعيب عليه السلام، قيل: إنهما أمتان.

كما روى عبد الله بن وهب، عن جبير بن حازم، عن قتادة قال: أرسل شعيب إلى أمتين: إلى قومه من أهل مدين، وإلى أصحاب الأيكة.

وَوَرَدَ هذا المعنى عن عبد الله بن عمر رضي الله عنه، كما ورد أثرًا آخر عن عكرمة.

لفظ (الأيكة) في الرسم العثماني:

وعن كتابة لفظ (الأيكة) في المصحف، قال أبو عبيد: رأيتها في مصحف الإمام -أي: مصحف عثمان الذي اتخذه لنفسه- في سورة (الحجر)، وسورة (ق) هكذا: (الأيكة)، وفي سورة (الشعراء)، وسورة (ص) هكذا: (لَيْكَة).

قلت: وذلك لأن التي في سورة (الحجر) وسورة (ق) ليس فيها خلاف بين القراء، بخلاف التي في سورة (الشعراء) وسورة (ص) فقد قُرئت بالهمز هكذا: (الأيكة) وبدون

الهمز هكذا: (لَيْكَة) على وزن ليلة، فكان هذا الرسم (ليكة) في السورتين لاحتمال القراءة الأخرى الواردة فيها.

ومعنى الآية: كَذَّبَ أصحاب الأرض ذات الشجر الملتف، رسولهم شعيباً في رسالته لهم، فكانوا بهذا مكذبين لجميع الرسائل.

دعا شعيب قومه إلى توحيد الله تعالى، وحذَّره من عقابه سبحانه على معاصيه ومخالفة أمره ونهيه، وعدم خوفهم من لقائه، ثم بيَّن لهم أنه مرسل إليهم من عند الله تعالى لهدايتهم، وهو حفيظ أمين على ما أوحى الله به إليه، يبلغهم رسالة ربه وهو لهم من الناصحين، قال شعيب لأصحاب الأيكة:

١٧٩، ١٨٠- ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا ٱلرَّسُولَ ۚ وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنۢ أَجْرٍۭ إِنۢ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلْعَالَمِينَ﴾

أي فخافوا عقاب الله -أيها الناس- واتبعوا ما دعوتكم إليه من توحيد الله وهدايته، وتركوا ما نهيتكم عنه من نقص الكيل والميزان في التعامل مع الناس.

ولا أطلب منكم أيَّ جزاء على دعوتكم إلى الإيمان بالله وحسن التعامل مع الناس؛ فأجري على الله وحده، وهذا شأن الصادق في دعواه، المؤمن بما يدعو إليه من الخير، لا يسأل الناس أجراً على تبليغهم دعوة ربه. ثم قال لهم شعيب:

١٨١، ١٨٢- ﴿أَوْفُوا ٱلْكَيْلَ وَلَا تَكُونُوا مِنَ ٱلْمُخْسِرِينَ ۝ ١٨١ وَزِنُوا بِٱلْقِسَاسِ ۝ ١٨٢ ٱلْمُسْتَقِيمَ ۝ ١٨٣﴾

شرع شعيب ﷺ بعد دعوة قومه إلى تقوى الله تعالى وطاعة رسوله، يعالج القضية المهمة في حياتهم، وكان كلُّ من أصحاب الأيكة وأهل مدين يتقصون حقوق الناس في الكيل والميزان، وهي أفحش الرذائل التي كانت منتشرة فيهم، فأمرهم أن يتموا الكيل للناس وافيًا، وأن يزنوا لهم بالميزان العدل المستقيم، وألا يكونوا ممن قال الله فيهم: ﴿وَيْلٌۭ لِّلْمُطَفِّفِينَ ۝ ١ ٱلَّذِينَ إِذَا أَكَالُوا عَلَى النَّاسِ يَسْتَوْفُونَ ۝ ٢ وَإِذَا كَالُوهُمْ أَوْ وَزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ ۝ ٣﴾ [المطففين].

والقرآن الكريم يولي هذه الأمور الاقتصادية، أهمية وعناية في قصة شعيب، وقصة هود، وقصة صالح، وغيرها، وتُعَدُّ هذه المسألة - أي تطفيف الكيل والميزان - من كبائر الذنوب؛

(١) قرأ حفص وحمزة والكسائي وخلف بكسر القاف من (القِسَاس)، والباقون بضمها، وهما لغتان.

لما يترتب عليها من إضرار بالناس وغبنهم وأكل أموالهم بالباطل، ثم قال لهم شعيب:

١٨٣، ١٨٤ - ﴿وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تَعْتُوا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ۖ﴾ (١٨٣) وَأَتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالْجِلَّةَ الْأُولَى (١٨٤)

أي: وبعد أن أمر شعيب قومه بوفاء الكيل والميزان، وإتمامه على الوجه الأكمل، نهاهم أن ينقصوا الناس شيئاً من حقوقهم في كيل أو وزن، أو غيرهما.

وَمِنْ بَخْسِ الْأَشْيَاءِ، أن يقول المشتري للبائع عن سلعته السليمة: إن سلعتك رديئة؛ ليصرف الناس عنها فيشتريها بأقل من ثمنها، ونحو ذلك من طرق الغبن.

ثم نهاهم عن الإفساد في الأرض بأي نوع من أنواع الفساد: كقطع الطريق، والقتل، والسلب، والنصب، والنهب، وتخويف الناس، وارتكاب سائر المعاصي.

ذَكَرَ شعيب قومه بأحوال الأمم السابقة، الذين كانوا أشد منهم قوة وأكثر جمعا، فأهلكهم الله بسبب كفرهم وبغيهم، وأمرهم أن يتقوا الله الذي خلقهم وخلق الأمم قبلهم، فيمثلوا أمره ويجتنبوا نهيه.

والمراد بالجيلة: المخلوقات السابقة التي خلقها الله قبلهم، كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَضَلَّ مِنْكُمْ جِيلًا كَثِيرًا أَفَلَمْ تَكُونُوا تَعْقِلُونَ﴾ (١٦٢) [يس].

فقوله: ﴿جِيلًا كَثِيرًا﴾ أي: خلقاً كثيراً ممن كان قبلكم.

١٨٥، ١٨٦ - ﴿قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ مِنَ الْمُسَحَّرِينَ﴾ (١٥٦) وَمَا أَنْتَ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا وَإِنْ نَظُنُّكَ لَمِنَ الْكَاذِبِينَ

استمع قوم شعيب إلى تلك النصائح الحكيمة، ولكنهم لم يتأثروا بها، واتهموه بثلاثة أشياء وهي: أنه مسحور، وأنه بشر مثلهم، وأنه كاذب في دعواه.

حيث اتهموه أولاً بأنه مختل في عقله، فرموه بالسحر، كما حدث لكثير من الرسل، حيث قالوا له: أنت يا شعيب، من الذين أصابهم السحر، فأنت مختل العقل، فما نَسَبَتْهُ إلى الله باطل لذهاب عقلك، وهل من يدعو الناس إلى إعطاء كل ذي حق حقه، ويرشددهم إلى استيفاء الحقوق وإعطائها يُعَدُّ مسحوراً؟ إن هذا شيء عجاب!!

واتهموه ثانياً بأن الرسول لا يكون من بني آدم، فكذبوه وتحذَّوه في رسالته بما كُذِّبَ به

غيره من رسل الله، فهم يعتقدون أن الرسول لا يكون بشراً، وإنما يكون من الملائكة في زعمهم، وقد أجاب الرسل عن هذه الدعوى في قوله ﴿قَالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ إِنْ نَحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَمُنُّ عَلَىٰ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ﴾ [إبراهيم: ١١] فهم ينكرون أن يختص شعيب بالرسالة من دونهم، فبعد أن اتهموه بالسحر، وقالوا له: أنت واحد منا لا تتميز علينا في شيء، قالوا له: وأكبر الظن أنك كاذب فيما تدّعيه من الرسالة، وهذه جرأة منهم وظلم وزور، فهم يعلمون أنه ما من رسول إلا وقد أيده الله بآية تدل على صدقه وأمانته.

وقد كان شعيب خطيب الأنبياء، حسن الجدل والمراجعة، فهم متيقنون أنه صادق وأن ما جاء به حق، ولكنهم يجادلون ويعاندون، ومن العجيب أنهم يعرفون أن شعيباً لم يكذب عليهم في أمور الدنيا، ثم يتهمونه بالكذب على ربه في أمور الدين، فإذا كان لا يستحل الكذب على الناس، فكيف يكذب على الله؟ وإذا كان هذا أسلوب الكاذب، فكيف يكون أسلوب الصادق؟ وإذا كانت هذه دعوة المسحور، فكيف تكون دعوة العقلاء؟ ولماذا إذن توعدوه بالنفي والطرْد؟ وهل مختل العقل أو الكاذب يشكّل خطراً عليهم؟ إن جنونه وكذبه سيفضح شأنه ولا يحتاج الأمر إلى إبعاده أو تهديده ووعيده.

وهكذا قالوا له: إن وصفاً واحداً كافٍ لتجريدك من نبوتك، فكيف وقد جمعت بين أمرين ينفيان دعواك النبوة، وهما كونك مسحوراً، وكونك بشراً، وهكذا قالوا له كما قال قوم ثمود لصالح: ﴿إِنَّمَا أَنْتَ مِنَ الْمُسَحَّرِينَ﴾ ﴿١٥٦﴾ مَا أَنْتَ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا﴾ ومن الأمور العجيبة أنهم يُنكرون أن يكون الرسول بشراً، ولا يُنكرون أن يكون الإله حجراً، ثم طلب أصحاب الأيكة من شعيب عليه السلام أن ينزل عليهم العذاب الذي توعدهم به، حيث قالوا:

١٨٧، ١٨٨ - ﴿فَأَسْقِطْ عَلَيْنَا كِسَفًا^(١) مِّنَ السَّمَاءِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ ﴿١٨٧﴾ قَالَ رَبِّ^(٢) أَعْلَمُ بِمَا نَعْمَلُونَ ﴿١٨٨﴾

أي: إنهم تحدّوا شعيباً، فقالوا له: إن كنت نبياً حقاً، فادعُ الله أن يُسقط علينا قطعاً من عذاب النار تستأصلنا، وقد طلبوا ذلك على وجه الاستبعاد، فظنوا أنه إذا لم يقع بهم

(١) قرأ حفص بفتح السين من (كسفاً)، والباقون بإسكانها.

(٢) قرأ نافع وابن كثير وأبو عمرو وأبو جعفر بفتح ياء الإضافة وصلاً من (ربي أعلم)، والباقون بإسكانها.

العذاب ظهر كَذِبِ شَعِيبَ . ﷺ

وهذا كقول قوم نوح له: ﴿فَأَنبَأْ بِمَا نَعُدُّكَ إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ [هود: ٣٢].

وقول قوم عاد لهود ﷺ: ﴿فَأَنبَأْ بِمَا نَعُدُّكَ إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ [الأعراف: ٧٠].

وقول قوم ثمود لنبى الله صالح ﷺ: ﴿يَصْلَحْ أَتَيْنَا بِمَا نَعُدُّكَ إِن كُنتَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾ [الأعراف: ٧٧]. وهذا يشبه قول بعض كفار قريش للنبى ﷺ: ﴿اللَّهُمَّ إِن كَانَتْ هَذِهِ هُوَ الْحَقُّ مِن عِنْدِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَابًا مِّنَ السَّمَاءِ أَوْ أَتَيْنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [الأنفال: ٣٢]. وهذا شأن الجاحدين لرسالة الرسل في كل زمان ومكان.

قال لهم شعيب ﷺ: العذاب يأتي به رب العالمين، وأنا عليّ أن أبلغكم دعوة ربي، وهو سبحانه أعلم بما تعملون من الشرك والمعاصي، والأقوال والأفعال، ويعلم ما تستحقونه من العذاب، فإن كنتم تستحقونه جازاكم به، وهو غير ظالم لكم، وإن كنتم تستحقون عقاباً آخر فإليه الحكم والمشئّة، ونظير ذلك قول نوح ﷺ لقومه: ﴿إِنَّمَا يَأْتِيكُمْ بِهِ اللَّهُ إِن شَاءَ وَمَا أَنتُمْ بِمُعْجِزِينَ﴾ [هود: ٣٣]. قال تعالى مُبَيَّنًّا عذاب أصحاب الأيكة:

١٨٩- ﴿فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمُ عَذَابٌ يَوْمِ الظُّلَّةِ إِنَّهُ كَانَ عَذَابٌ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ (١٨٩)

أي: فاستمروا على تكذيب نبيّ الله شعيب، فعجّل الله لهم العقوبة في الدنيا، حيث أرسل عليهم حرّاً شديداً يكتّم أنفاسهم لمدة سبعة أيام لا ينفعهم فيها ظل ولا ماء، ولا غير ذلك، فخرجوا من البيوت هرباً، فأرسل الله عليهم سحابة يستظلون تحتها فيها برودة ولذة ونسيم، فنادى بعضهم بعضاً، فلما تكاملوا واجتمعوا تحت هذه المظلة رجفت بهم الأرض من تحتهم، وجاءتهم الصيحة من فوقهم، وأسقطت هذه المظلة عليهم ناراً وشرراً فأهلكتهم واحترقوا جميعاً، وكان ذلك من أعظم العذاب.

أخرج البسّيّ بسند صحيح عن الضحاك قال: حبس الله الظل والريح عن قوم شعيب فأصابهم حرٌّ شديد، ثم بعث الله - سحابة - فيها العذاب، فلما رأوا السحابة انطلقوا يستظلون بها، فاضطربت عليهم فأهلكتهم^(١).

وأخرج ابن المنذر، وابن أبي حاتم، عن الحسن قال: سلّط الله الحرّ على قوم شعيب

(١) ابن أبي حاتم (٢٨١٦/٩).

سبعة أيام ولياليهن، حتى لا يتفجعون بظل بيت ولا ببرد ماء، ثم رُفعت لهم سحابة في البرية، فوجدوا تحتها الروح، فجعلوا يدعون بعضهم بعضاً، حتى إذا اجتمعوا تحتها أشعلها الله عليهم ناراً، فذلك قوله: ﴿فَأَخَذَهُم عَذَابُ يَوْمِ الظُّلَّةِ﴾^(١).

وهذا العذاب هو الذي طلبوه حين قالوا: ﴿فَأَسْقِطْ عَلَيْنَا كِسَفًا مِّنَ السَّمَاءِ إِن كُنتَ مِن الصَّادِقِينَ﴾^(٢)، فكان العذاب من جنس ما طلبوا.

وقد ذكر الله - سبحانه - صفة إهلاكهم في ثلاثة مواطن من كتابه، كل موطن منها مناسب لسياق الآيات قبله:

١- فقال سبحانه في سورة الأعراف بالنسبة لقوم مدين: ﴿فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جِثِيمِينَ﴾^(٣). وكان ذلك عقب تهديدهم لشعيب ﷺ بإخراجه من قريتهم، أو العدول عن دينه إلى دينهم، كما قال تعالى: ﴿قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِن قَوْمِهِ لَنُخْرِجَنَّكَ يَشْعَبُ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَكَ مِن قَرْبَتِنَا أَوْ لَنُعَوِّدَنَّ فِي مَلَّتِنَا﴾^(٤) [الأعراف: ٨٨].

٢- وجاء في سورة هود في قوله تعالى بالنسبة لقوم مدين أيضاً: ﴿وَأَخَذَتِ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةَ فَأَصْبَحُوا فِي دِئَرِهِمْ جِثِيمِينَ﴾^(٥) [هود: ٩٤، ٩٥]. وكان هذا بعد أن سخروا من شعيب، وتهكموا عليه بأن رسالته تأمره أن يتركوا عبادة آبائهم الأولين، وألا يتصرفوا في أموالهم كما يشاؤون.

٣- وفي هذه السورة قال تعالى بالنسبة لأصحاب الأيكة: ﴿فَأَخَذَهُم عَذَابُ يَوْمِ الظُّلَّةِ﴾^(٦) وكان هذا العذاب بعد أن طلبوا منه على وجه التعنت والعناد أن يُنزل عليهم العذاب قطعاً من السماء، إن كان صادقاً في دعواه، ولذلك وُصِفَ عذابهم: بالرجفة، وبالصيحة، وبعذاب يوم الظلة، وقد اشتمل هلاكهم على هذه الثلاثة، حيث صاح بهم جبريل من فوقهم، فرجفت الأرض من تحتهم، وتساقطت عليهم قطع النار من السماء.

قال عبد الله بن عمرو، وعكرمة، وغيرهما ﷺ: إن الله تعالى سلط عليهم الحرَّ سبعة أيام، لا يظلمهم ظل، ولا ينفعهم شيء، ثم أنشأ لهم سحابة، فانطلق إليها احدهم واستظلَّ بها، فأصاب تحتها برداً وراحة، فأعلم بذلك قومه، فأَتَوْها جميعاً، فاستظلوا تحتها فأُجِّجت عليهم ناراً^(٧).

(١) يُنظر: «تفسير الطبري» (١٩/٦٧).

(٢) يُنظر: ابن أبي حاتم (٩/٢٨١٥).

وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم: بعث الله إليهم الظلة، حتى إذا اجتمعوا كلهم كشف الله عنهم الظلة، وأحمى عليهم الشمس، فاحترقوا كما يحترق الجراد في المقلَى^(١).

وهذا العذاب شامل لأصحاب الأيكة وأهل مدين جميعاً.

كما قال محمد بن كعب القرظي: إن أهل مدين عذبوا بثلاثة أصناف من العذاب: وذكر الرجفة، والصيحة، ويوم الظلة^(٢).

قلت: وعلى التفرقة بين أهل مدين وأصحاب الأيكة فإن وصف العذاب المذكور في هذه السورة، يخص أصحاب الأيكة، وما جاء في سورتي الأعراف وهود يخص أهل مدين. قال سبحانه معقّباً على عذاب أصحاب الأيكة:

١٩٠، ١٩١ - ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ (١٩٠) وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴿١٩١﴾

يقول سبحانه: إن في ذلك العقاب الذي نزل بأصحاب الأيكة، عبرة ودلالة واضحة على قدرة الله تعالى في مؤاخذه المكذبين في الدنيا والآخرة، في كل الأزمنة والأمكنة، وما كان أكثرهم متعظين بما حدث، وإن ربك -يا محمد- لهو العزيز في انتقامه من أعدائه، الرحيم بعباده الموحدين المصدقين برسله.

وإلى هنا تنتهي القصص السبع التي أوحى الله بها إلى رسوله ﷺ؛ ليخفف عنه أحزانه وآلامه وشدة حرصه على إسلام قومه، كما قال تعالى في أول السورة: ﴿لَعَلَّكَ بَنِيعٌ نَّفْسَكَ أَلَّا يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ﴾ (٣) حتى يمضي في تبليغ الدعوة، ولا يتحسر على من لم يؤمن منهم، ويعلم أن الله تعالى هو القاهر فوق عباده، لا يغلبه شيء، ولولا رحمته سبحانه لعجل العذاب لأمته، كما فعل بهذه الأمم.

مِسْكُ الْخِتَامِ: التَّعْرِيفُ بِالْقُرْآنِ الْكَرِيمِ: أَوَّلًا: إِنَّهُ أَعْظَمُ الْكُتُبِ

١٩٢ - ﴿وَإِنَّهُ لَنَزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ (١٩٢)

بعد الفراغ من قصص الأنبياء يأتي تعقيب السورة عوداً على بدء، فقد تحدثت سورة

(١) أخرجه الحاكم (٢/٥٦٩).

(٢) يُنْظَرُ: ابن أبي حاتم (٢٨٥٩).

(الشعراء) في أولها عن القرآن الكريم، وحرّص رسول الله ﷺ على هداية القوم وعلى إيمانهم، وبيّنت أن الله - سبحانه - قادر على أن ينزل على المكذبين بالقرآن وبرسوله ﷺ آية تخضع لها أعناقهم فيؤمنوا به قسرًا.

وبيّنت السورة أن المكذبين بالنبي ﷺ كلما استمعوا إلى آية من القرآن الكريم أعرضوا عنها، كما بيّنت أنه - جلّ شأنه - سوف يقصّ على المكذبين بالوحي والرسالة أخبار بعض الأمم السابقة التي كذبت رسل الله؛ ليكون ذلك عبرة وعظة لهم في مصير القوم الظالمين.

وتحدثت السورة بعد ذلك - وهي تتناول جانب التكذيب من الأمم - عن قصة سبعة من رسل الله، وهم: موسى، وإبراهيم، ونوح، وهود، وصالح، وشعيب، ولوط، عليهم وعلى نبينا أفضل الصلاة وأتم التسليم.

ثم ربطت السورة أولها بآخرها في هذه الآية وما يليها؛ فبعد أن تحدثت عن القصص السبع، عادت في نهايتها للحديث عن القرآن الكريم؛ لتبيّن أن هذا القرآن لم يأت به بشر، وما تنزّلت به الشياطين على كاهن، وليس هو من قول شاعر، وإنما نزل من عند الله، مشتملاً على أخبار الأمم الماضية، وعلى أمور الغيب في المستقبل، وعلى ما يُصلح أحوال البشر في دنياهم وأخراهم.

ومع ذلك فقد أتى به رجل أمي لا يكتب، كما قال تعالى: ﴿وَمَا كُنْتَ تَتْلُوا مِنْ قَبْلِهِ مِنْ كِتَابٍ وَلَا تَخُطُّهُمْ بِيَمِينِكَ إِذَا لَارْتَابَ الْمُبْطِلُونَ﴾ [العنكبوت].

وقال تعالى: ﴿قُلْ لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا تَلَوْتُمْ عَلَيْكُمْ وَلَا أَدْرَاكُمْ بِهِ فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِنْ قَبْلِهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ [يونس].

وهذا العمر مدته أربعون سنة مكثها النبي ﷺ فيهم قبل أن يحدثهم بالقرآن.

فهذا القرآن - إذن - ليس من قول بشر، ولا من قول كاهن، ولا من قول شاعر، وإنما هو تنزيل من رب العالمين، وهذا القرآن المعجز، الذي ذُكرت فيه هذه القصص الصادقة منزّل من خالق الخلق، ومالك الأمر، ومدير الكون، ورب الأرباب، كما قال تعالى: ﴿تَنْزِيلًا مِمَّنْ خَلَقَ الْأَرْضَ وَالسَّمَوَاتِ الْأَعْلَى﴾ [طه]. فيه أخبار: الرسل والأمم، وأحوال العباد والبلاد، والذي أنزله فاطر الأرض والسماء، المربي لجميع العالم تربية بدنية وتربية

روحية، ومن أعظم ماربًا هم به: إنزال الكتاب الكريم، فيه خيرهم وصلاحهم وسعادتهم في الدنيا والآخرة.

ثَانِيًا: مَعْنَى نَزُولِ الْقُرْآنِ عَلَى قَلْبِ الرَّسُولِ ﷺ

١٩٣، ١٩٤ - ﴿نَزَلَ^(١) بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ ﴿١٩٣﴾ عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنذِرِينَ ﴿١٩٤﴾﴾

أي: نزل بهذا القرآن، جبريل الأمين، على رسول الله ﷺ، ويسمى جبريل روحًا؛ قيل: لأنه خُلِقَ من الروح، فالملائكة عالم الروحانيات، أو لأن الوحي الذي يأتي به من عند الله هو للبشر بمثابة الروح للجسد.

أخرج أبو الشيخ وابن مردويه عن ابن عباس ؓ مرفوعًا قال: الروح الأمين جبريل، رأيتُ به ست مئة جناح من لؤلؤ، قد نشرها، وفيها مثل ريش الطواويس^(٢).

وفي الحديث عن ابن مسعود ؓ أن رسول الله ﷺ قال: «إن روح القدس نفث في روعي أنه لن تموت نفس حتى تستوفي رزقها وأجلها، فاتقوا الله وأجملوا في الطلب، ولا يحملنكم استبطاء الرزق على أن تطلبوه بمعاصي الله، فإنه لا يُنال ما عند الله إلا بطاعته»^(٣).

وقد سَمَى الله الوحي روحًا في قوله: ﴿وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا﴾ [الشورى: ٥٢].

وفي الصحيحين وغيرهما: عن عائشة ؓ أن الحارث بن هشام سأل النبي ﷺ: كيف يأتيك الوحي؟ فقال ﷺ: «أحيانًا يأتيني مثل صلصلة الجرس، فيفصم عني وقد وعيتُ عنه ما قال، وأحيانًا يتمثل لي الملك رجلًا فيكلمني فأعي ما يقول»^(٤).

(١) قرأ نافع وابن كثير وأبو عمرو وحفص وأبو جعفر بتخفيف الزاي من (نزل) ورفع (الروح) و(الأمين) على أن نزل فعل ماضٍ، والروح فاعل، والأمين صفة، والباقون بتشديد الزاي ونصب (الروح) و(الأمين)، على أن فاعل نزل ضمير يعود على الله تعالى، والروح مفعول به، والأمين صفة.

(٢) أبو الشيخ (٣٧٦).

(٣) من حديث ابن مسعود عند ابن أبي شيبة (٢٢٧/١٣) وابن حبان كما في «الدر الثمور» (١/٤٦٠). وانظر تخريجه في آخر سورة الشورى.

(٤) يُنْظَرُ «البخاري» (٣٢١٥) ومسلم (٢٣٣٣) والنسائي في «الكبرى» (١٠٠٥) و«المسند» (٢٥٢٥٢) والحميدي (٢٥٦) والطبراني في «الكبير» (٣٣٤٦).

وقد يكون الوحي رؤيا منامية، وقد يكون كلامًا مباشرًا كما كلم الله موسى ﷺ.

وقد جمع الله أنواع الوحي في قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِنَشْرِ أَنْ يُكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِنْ وَرَآئِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِ مَا يَشَاءُ﴾ [الشورى: ٥١].

وجبريل هو الأمين على وحي الله - سبحانه - ، فالأمانة وصف مميز لجبريل ﷺ؛ لأنه ينزل بالوحي على جميع الرسل وهو مؤتمن عليه، وقد نزل جبريل بالوحي مباشرة على قلب النبي ﷺ فألقاه فيه بألفاظه، ولكن لماذا القلب؟

والجواب: لأن القلب هو ملك الحواس، وملك الأعضاء في الجسم، ومركز الحس والإحساس.

والقلب هو موضع التمييز، وسائر الأعضاء مسخرة له، والقلب إذا غشي عليه ذهب عنه الشعور، وإذا أفاق شعر بكل شيء، وسلمت جميع الأعضاء، قال تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرًا لِمَنْ كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ﴾ [ق].

وكون القلب مَصْحَةً للدم في الجسم، وإذا توقف عن هذا الضخ مات الإنسان، فهذا يشير إلى أن القلب ملك الجسم، وهو الذي يُغذي العقل، فيسلم التفكير ويسلم التلقي والتلقين، ولذلك يقول الرسول ﷺ في الحديث الذي يرويه النعمان بن بشير ؓ: «ألا وإن في الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله، وإذا فسد فسد الجسد كله، ألا وهي القلب»^(١).

وقد نزل هذا القرآن على النبي ﷺ من أجل أن ينذر به الإنس والجن، ويخوفهم سوء المصير إذا استمروا على كفرهم، فقد أنزله الله تعالى على قلبه ليحفظه، وينذر به المكذبين، وليخوف به من لم يؤمن.

ثالثًا: اللسان المختار للرسالة الخاتمة

١٩٥ - ﴿يَلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ﴾

نزل القرآن على قلب النبي ﷺ مباشرة، فوعاه وحفظه وفهمه، وتدبره وعمل بما فيه، وبلغه للإنس والجن بلسان عربي واضح المعنى، ظاهر الدلالة في إصلاح شؤون دينهم

(١) البخاري (٥٢) ومسلم (١٠٧، ١٥٩٩) و«المسند» (١٨٣٧٤) وأوله: «إن الحلال بين». وأخرجه ابن أبي شيبة (٥٦٠/٦) وأبو داود (٣٣٣٠) وابن ماجه (٩٨٤).

ودنياهم، كتاب فصيح قاطع للعدر، مقيم للحُجَّة، نزل بلغة عربيَّة واضحة ﴿لِنُبَشِّرَ بِهِ الْمُتَّقِينَ وَنُنذِرَ بِهِ قَوْمًا لَّدَا﴾ [مريم: ٩٧].

ولو نزل القرآن بلغة أخرى غير العربية، لم يكن نازلاً على قلب النبي ﷺ، بمعنى: أنه يسمع أصوات الحروف وأجراسها، ولا يُدركُ لها معنى، فلم يكن القرآن في هذه الحالة نازلاً على قلبه، وإنما يكون نازلاً على سمعه فقط؛ لأنه لا يفهم له معنى، ولا يمكنه أن يبلغه لغيره، فيتعذر الإنذار به.

وذلك أنه إذا كان الإنسان يعرف عدة لغات، فإنه حينما يُخاطَبُ بِلُغَتِهِ التي وُلِدَ ونشأ فيها، فإنه يفكر في المعنى ولا يفكر في اللفظ.

أما إذا كان يُخاطَبُ بلغة غير لغته الأصلية، فهو وإن كان يعرفها ويجيدها لكنه لا يفكر في المعاني مباشرة، وإنما يفكر في الألفاظ أولاً، ثم يفكر فيما تشير إليه هذه الألفاظ من معنى، فيكون نزول الكلام على السمع، وليس على القلب.

لذلك: نزل هذا القرآن بلسان عربي مبين؛ ليبشِّر به الرسول ﷺ من آمن، وينذر به من كفر.

وقد أنزل الله قبل القرآن بعضاً من الرسائل بلغة العرب على بعض الأنبياء، وهم: هود، وصالح، وشعيب، وإسماعيل، فهؤلاء الرسل الأربعة كانت رسالتهم بالعربية في جزيرة العرب، وكذلك الرسول محمد ﷺ كان ينذر الناس بلسان عربي بين.

فاللسان العربي هو أفضل الألسنة، والقرآن الكريم أفضل كتاب نزل من عند الله، وجبريل الذي نزل به من عند الله هو أفضل الملائكة، ومحمد الذي نزل عليه القرآن هو أفضل رسول، والأمة التي أنزل عليها القرآن هي أفضل أمة أُخرجت للناس، إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها.

رَابِعًا: تَصْدِيقُ الرُّسُلِ السَّابِقِينَ لِلْقُرْآنِ

١٩٦- ﴿وَإِنَّهُ لَفِي زُبُرِ الْأَوَّلِينَ﴾

يبيِّن سبحانه في هذه الآية أن هذا القرآن موجود ذُكِّره وخبره في كتب الأنبياء السابقين في قديم الدهر وحديثه، فقد صدَّقته هذه الكتب، وبشَّرت به، كما قال تعالى: ﴿الَّذِي

يَحْدُوثُهُ مَكْنُوءًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ ﴿[الأعراف: ١٥٧].

وهذا معنى: وإنه -أي: هذا القرآن- لفي زبر الأولين، أي: في الكتب السابقة، مثل: التوراة، والإنجيل، والزبور، وفي سائر كتب الأنبياء التي نعلمها إجمالاً.

وليس معناه: أن ذات القرآن بسوره، وآياته، وألفاظه ثابت في كتب الأنبياء السابقين، وإنما المعنى أن اسمه، ووصفه، ومعانيه، وذُكر خبره موجود في كتب الأولين، فقد جاءت البشارات بالرسول، والقرآن فيها:

قال موسى ﷺ: قال لي الرب: أقيم لهم نبياً من وسط إخوتك مثلك، وأجعل كلامي في فمه، فيكلمهم بكل ما أوصيه به^(١).

وقال عيسى ﷺ: (ويقوم أنبياء كذبة كثيرون، ويضلُّون كثيراً، ولكن الذي يصبر إلى المنتهى) أي: إلى آخر الدنيا (فهذا يخلص ويكرز) أي: يدعو (بشارة الملكوت هذه في كل المسكونة) أي: الأرض كلها (شهادة لجميع الأمم) أي: رسالة عامة (ثم يأتي المنتهى)^(٢) أي: نهاية العالم.

فنعتُ القرآن، ونعتُ الرسول ﷺ موجود في الكتب السماوية السابقة.

قال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ بَنِي إِسْرَءِيلَ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَةِ وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنْ بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدٌ﴾ [الصف: ٦].

خَامِسًا: شَهَادَةُ عُلَمَاءِ بَنِي إِسْرَءِيلَ لِلْقُرْآنِ

١٩٧- ﴿أَوَلَمْ يَكُنْ^(٣) لَهُمْ ءَايَةٌ أَنْ يَأْتِيَ بِبَنِي إِسْرَءِيلَ

أولم يكف في الدلالة على أنك رسول الله، وأن القرآن حق من عند الله، أولم يكفهم في ذلك علمُ علماء بني إسرائيل، وصحة ذلك لدى من أسلم منهم؟

(١) سفر التكوين، الإصحاح الثامن عشر.

(٢) إنجيل متى، الإصحاح الرابع والعشرون.

(٣) قرأ ابن عامر (يكن) بناء التأنيث، و (آية) بالرفع، على أن كان تامة، وآية فاعل، و (لهم) متعلق بيكن، وقرأ الباقون بياء التذكير وآية بالنصب، على أن كان ناقصة، وآية خبر مقدم.

قال ابن عباس رضي الله عنه: بَعَثَ أَهْلَ مَكَّةَ إِلَى الْيَهُودِ وَهُمْ بِالْمَدِينَةِ يَسْأَلُونَهُمْ عَنْ مُحَمَّدٍ ﷺ، فَقَالُوا: إِنْ هَذَا لَزَمَانُهُ، وَإِنَّا نَجِدُ فِي التَّوْرَةِ نَعْتَهُ وَصِفَتَهُ، فَكَانَ ذَلِكَ آيَةً عَلَى صَدَقِهِ ﷺ.

قيل: إِنْ هَؤُلَاءِ الْيَهُودُ كَانُوا خَمْسَةً: عَبْدُ اللَّهِ بْنُ سَلَامٍ، وَابْنُ يَامِينَ، وَثَعْلَبَةُ، وَأَسَدٌ، وَأَسِيدٌ^(١).

وهذا مصداق قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا جَاءَهُمْ كِتَابٌ مِّنْ عِندِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَمَّا جَاءَهُمْ مَا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ﴾ [البقرة: ٨٩].

وأهل الكتاب كانوا أعلم الناس قبل الإسلام، إليهم انتهى العلم، فكانوا أهل الخبرة والدراية، وقولهم حجة على غيرهم، فهم أهل رسالة، وسواهم وثنيون.

سَادِسًا: لِمَاذَا لَمْ يُنَزَّلِ الْقُرْآنُ عَلَى رَجُلٍ غَيْرِ عَرَبِيٍّ؟

١٩٨، ١٩٩ - ﴿وَلَوْ نَزَّلْنَاهُ عَلَى بَعْضِ الْأَعْجَمِينَ ﴿١٩٨﴾ فَقَرَأَهُ عَلَيْهِمْ مَا كَانُوا بِهِ مُؤْمِنِينَ﴾

بَيَّنَّ سَبْحَانَهُ فِي هَذِهِ الْآيَةِ أَنَّ هَذَا الْقُرْآنَ لَوْ نَزَلَ عَلَى رَسُولٍ أَعْجَمِيٍّ لَا يَعْرِفُ الْعَرَبِيَّةَ، فَقَرَأَهُ عَلَى الْمَكْذِبِينَ بِهِ مِنَ الْعَرَبِ قِرَاءَةً صَحِيحَةً فَصِيحَةً، لَمَا آمَنُوا بِأَنَّهُ رَسُولُ اللَّهِ، وَلَا آمَنُوا بِأَنَّ الْقُرْآنَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ، وَذَلِكَ عِنَادًا مِنْهُمْ وَجُحُودًا، وَلَا لَتَمْسُوا لِحُجُودِهِمْ عَذْرًا، وَكَانُوا أَخْسَرَ النَّاسِ بِهِ؛ لِأَنَّهُمْ لَا يَعْرِفُونَ الْعَجْمِيَّةَ.

ولو نزل القرآن بالفرنسية مثلاً لقالوا: لِمَ لَا يَنْزِلُ بِالتركية مثلاً؟ ولو نزل بالتركية لقالوا: لِمَ لَا يَنْزِلُ بِالْأُرْدِيَّةِ؟ وهكذا يدور السؤال.

ولو اختار الله نبيًّا آخر، أو شَعْبًا آخر ينزل عليهم الكتاب الخاتم، لَدَارَ السُّؤَالِ أَيْضًا.

وقد اقتضت حكمة الله تعالى أن ينزل القرآن بلسان العرب، على رسول من العرب، في مكان يتوسط العالم عند بيته الحرام، والله أعلم حيث يجعل رسالته.

الْمُكَذِّبُ بِالْقُرْآنِ لَا يُؤْمِنُ بِهِ وَلَوْ عَرَفَ صِدْقَهُ وَإِعْجَازَهُ

٢٠٠-٢٠٣ - ﴿كَذَلِكَ سَلَكْنَاهُ فِي قُلُوبِ الْمُجْرِمِينَ ﴿٢٠٠﴾ لَا يُؤْمِنُونَ بِهِ حَتَّى يَرَوْا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ

﴿٢٠١﴾ فَيَأْتِيَهُمْ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٢٠٢﴾ فَيَقُولُوا هَلْ نَحْنُ مُنْظَرُونَ ﴿٢٠٣﴾﴾

(١) يُنْظَرُ: عَبْدُ الرَّزَاقِ (٧٦/٢) وَالتَّبْرِي (٦٤٧/١٧).

يُبَيِّنُ سبحانه أنه كما فهم المؤمنون القرآن، وعرفوا أنه كتاب معجز مُنَزَّل من عند الله، فقد فهمه - أيضًا - المجرمون، وعرفوا فصاحته وبلاغته، وتحققوا من إعجازه، ثم لم يؤمنوا به، وهذا معنى ﴿سَلَكَنَهُ فِي قُلُوبِ الْمُجْرِمِينَ﴾ أي: أدخلنا القرآن في قلوبهم، ففهموه وأدركوه، ثم كذبوا به وجحدوه ولم يؤمنوا به، وذلك بسبب ظلمهم وإجرامهم، فلا سبيل إلى أن يتغيروا عما هم عليه من الإنكار حتى يشاهدوا العذاب الذي وُعدوا به.

ومثل ذلك في قوله تعالى: ﴿كَذَلِكَ نَسْلُكُهُ فِي قُلُوبِ الْمُجْرِمِينَ﴾ [الحجر]. والمعنى واحد، وإن كان السلوك في قلوب المؤمنين يختلف عنه في قلوب المجرمين، فالأول يُسفر عن الإيمان به، والثاني لا يكون معه إيمان به، ولذا قال تعالى: ﴿لَا يُؤْمِنُونَ بِهِ﴾ مع تصديقهم، واعترافهم بالرسول والقرآن، وسيظلون كذلك ﴿حَتَّى يَرَوْا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ﴾ فلا ينفعهم الإيمان عند نزوله بهم، وهذا تهديد لهم بأن العذاب سيحل بهم، وهذا العقاب يَصْدُق على عذاب الدنيا، ويصدق على عذاب الآخرة، فهم لا يؤمنون بالقرآن ويستمرون على تكذيبهم له حتى يروا العذاب بأعينهم في الدنيا أو الآخرة، أو فيهما معًا فيأتيهم بغتة، قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٩٦﴾ وَلَوْ جَاءَتْهُمْ كُلُّ آيَةٍ حَتَّى يَرَوْا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ ﴿٩٧﴾﴾ [يونس].

وقال سبحانه: ﴿فَلَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا قَالُوا ءَأَمَّا بِاللَّهِ وَحَدُّهُ وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِ مُشْرِكِينَ ﴿٩٨﴾ فَلَمْ يَكُ يَنْفَعُهُمْ إِيمَانُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بَأْسًا﴾ [غافر].

وكما أن الموت يأتي فجأة، والناس لا يعرفون له موعدًا، والساعة تأتي فجأة، فكذلك العذاب يأتي بغتة، وهم لا يعلمون بمجيئه قبل حلوله، وعندما يفاجأ الكفار بالعذاب، يتحسرون على ما فاتهم من الإيمان، ويسألون النظرة والتأجيل، ويتمنون أن يُمهَّلوا ويتأخروا في الدنيا، حتى يتوبوا من شركهم، وحتى يراجعوا أنفسهم فيستدركوا ما فاتهم، وهذا كقوله تعالى: ﴿يَقُولُ الَّذِينَ ظَلَمُوا رَبَّنَا آخِرْنَا إِلَيْكَ أَجَلٍ قَرِيبٍ نَحْبُ دَعْوَتِكَ وَتَشِيعَ الرُّسُلُ﴾ [إبراهيم: ٤٤]. ولكن الوقت قد فات، وحل عليهم العذاب.

وهذا مثل قوله سبحانه عن الكافر: ﴿يَقُولُ رَبِّ لَوْلَا أَخَّرْتَنِي إِلَيْكَ أَجَلٍ قَرِيبٍ فَأَصَّدَقَ وَأَكُن مِّنَ الصَّالِحِينَ﴾ [المنافقون: ١٠]. ثم يأتي:

إِنْكَارٌ وَتَوْبِيخٌ لِمَنْ يَسْتَعْجِلُونَ نَزُولَ الْعَذَابِ بِهِمْ فِي الدُّنْيَا

٢٠٤- ﴿أَفِعَذَابِنَا يَسْتَعْجِلُونَ﴾ (٢٠٤)

يقول ﷺ مذكراً للمكذبين بالسخرية والاستهزاء من النبي ﷺ وهو يتوعدهم في الدنيا بنزول العذاب بهم يوم لقاء ربهم في مثل قوله تعالى: ﴿وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ (٤٨) [يس]. وقوله تعالى: ﴿وَقَالُوا رَبَّنَا عَجِّلْ لَنَا فِطْنًا قَبْلَ يَوْمِ الْحِسَابِ﴾ (١١) [ص]. وقوله: ﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَلَوْلَا أَجَلٌ مُسَمًّى لَجَاءَهُمُ الْعَذَابُ﴾ [العنكبوت: ٥٣].

قال مقاتل: قال المشركون للنبي ﷺ: يا محمد، إلى متى تعدنا بالعذاب ولا تأتي به؟! فنزل قوله سبحانه موبخاً لهم: ﴿أَفِعَذَابِنَا يَسْتَعْجِلُونَ﴾ (٢٠٤) أي: هذا هو العذاب الذي كانوا يستعجلونه في الدنيا، إن من يستعجل هلاك نفسه، ويسعى إلى حتفها، لا يُعد من العقلاء أبداً.

غَمْسَةٌ لِلْكَافِرِ فِي النَّارِ تَذْهَبُ بِنَعِيمِ الدُّنْيَا

٢٠٥-٢٠٧- ﴿أَفَرَأَيْتَ إِنْ مَتَّعْنَاهُمْ سِنِينَ﴾ (٢٠٥) ثُمَّ جَاءَهُمْ مَا كَانُوا يُوعَدُونَ ﴿٢٠٦﴾ مَا أَغْنَىٰ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يُمَتَّعُونَ ﴿٢٠٧﴾

بين سبحانه أن ما فيه المجرمون المكذبون بالله واليوم الآخر من متاع ونعيم في الدنيا -مهما بلغ- فإنهم سينسونه نسياناً تاماً عندما يمسيهم شيء يسير من العذاب الذي أعدّه الله لهم يوم لقاءه، فلا يبقى لهذا النعيم الذي كان في الدنيا أثر، أو بقية من لذة، وكأنهم لم يروا متاعاً قط، ولا عاشوا لحظة سعادة أبداً.

صحّ عن رسول الله ﷺ: من حديث أنس بن مالك أنه قال: «يؤتى بأنعم أهل الدنيا من الكفار فيغمس في النار غمسة، ثم يقال له: هل رأيت خيراً قط؟ هل رأيت نعيماً قط؟ فيقول: لا، والله يارب، ويؤتى بأشد الناس بؤساً كان في الدنيا، فيصبغ في الجنة صبغة، ثم يقال له: هل رأيت بؤساً قط؟ فيقول: لا والله يارب»^(١).

(١) من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه في «المسند» (٢٠٣/٣). وهو في صحيح الجامع الصغير برقم (٨٠٠) عن أحمد، ومسلم برقم (٢٨٠٧) بنحوه، والنسائي، وابن ماجه (٤٣٢١) وصحيح ابن ماجه (٣٤٨٨) وصححه الألباني أيضاً في السلسلة الصحيحة (١١٦٧).

وكذلك الأمر لو أن الله تعالى مَنَّ الكافرين بالحياة سنين طويلة، فأطال في أعمارهم، وأسبغ عليهم نعمه ظاهرة وباطنة، وأخر نزول العذاب بهم في الدنيا، ثم جاءهم العذاب في الآخرة، فإن هذا النعيم لن يغني عنهم شيئاً، وكأنهم لم يروا نعيمًا قط في دنياهم.

قال تعالى: ﴿وَلَكِنْ مَسَّتْهُمْ نَفْحَةٌ مِّنْ عَذَابِ رَبِّكَ لَيَقُولُنَّ يَنُوحِلْنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ ﴿٢٠٨﴾﴾ [الأنبياء].

وقال تعالى: ﴿وَلَكِنْ أَخْرَأْنَا عَنْهُمْ الْعَذَابَ إِلَّا أَتَمَّةً مَّعْدُودَةً﴾ أي: أجل مسمى ﴿لَيَقُولُنَّ مَا يَحْبِسُهُ﴾ فعقَّب الله تعالى عليهم بقوله: ﴿أَلَا يَوْمَ يَأْتِيهِمْ لَيْسَ مَصْرُوفًا عَنْهُمْ وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾ [هود: ٨].

والمعنى: أفعلت -أيها المخاطب- إن مَدَّ الله للكفار في أعمارهم، مع وفور الصحة، وسعة الرزق، ومتَّعهم بالأرزاق والأموال، والترف والشهوات، ثم جاءهم بعد هذا العمر الطويل العذاب الذي وُعدوا به، فماذا يغني عنهم هذا العمر؟ وماذا تغني عنهم هذه المتع والشهوات إن لم يؤمنوا ويتوبوا من كفرهم وشركهم؟ وهل هذا النعيم السابق سينفعهم في تخفيف أحزانهم، أو دفع العذاب عنهم؟ ولو شاء الله لأمهلهم، ولكن ذلك لا يفيدهم شيئاً عند حلول العذاب بهم، فهو واقع بهم لا محالة، إن عاجلاً أو آجلاً.

هَلَاكُ الْأُمَمِ يَكُونُ بَعْدَ إِعْدَارِهِمْ وَإِنذَارِهِمْ

٢٠٨، ٢٠٩- ﴿وَمَا أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ إِلَّا لَهَا مُنْذِرُونَ ﴿٢٠٨﴾ ذَكَرْنَاهَا وَمَا كُنَّا ظَالِمِينَ ﴿٢٠٩﴾﴾

بيَّن سبحانه في هذه الآية أن سنته في خلقه لا تتخلف، وأن المكذبين برسالة محمد ﷺ في طول الأرض وعرضها عليهم أن يقيسوا حالهم بحال الأمم التي سبق ذكرها في السورة، فقد أهلكهم الله بسبب تكذيبهم لرسول الله، فما من قرية من القرى، ولا أمة من الأمم أهلكها الله تعالى في حال من الأحوال، إلا وقد أرسل لها رسلاً وأنزل عليها كتباً، وأخذ العهد والميثاق عليهم بالتوحيد وهم في أصلاب آبائهم، ولَفَتْ أنظارهم إلى أدلة الكون العظيمة الدالة على الواحد القهار.

وهذه الآية كقوله تعالى: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولًا﴾ [إسراء: ١٥].

وقوله ﴿رُسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ﴾ [النساء: ١٦٥]

وقوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرَىٰ حَتَّىٰ يَبْعَثَ فِي أُمِّهَا رَسُولًا يَتْلُوا عَلَيْهِمْ ؕ إِنَّا إِنَّا وَمَا كُنَّا مُهْلِكِي الْقُرَىٰ إِلَّا وَأَهْلُهَا ظَالِمُونَ﴾ [الفصص].

وهؤلاء الرسل يمشرون من آمن بدخول الجنة، وينذرون من كفر بعذاب النار، وفي هذا إقامة للحجة عليهم، وفيه دلالة على كمال عدل الله تعالى، وأنه لم يوقع عذاباً بأمة إلا بعد أن أعذرهم وأنذرهم، وبعث إليهم الرسل يرشدونهم إلى طريق السعادة.

ويختتم الحق ﷻ هذا الشطر المتكامل من الآيات بقوله سبحانه: ﴿ذِكْرَىٰ﴾ أي: أن في إهلاك الأمم المكذبة لرسول الله ذكرى لكم - أيها المكذبون بالقرآن - فهو خبر لمبتدأ محذوف، كما قال تعالى: ﴿هَذَا ذِكْرٌ﴾ [ص: ٤٩]. ومثله قوله تعالى: ﴿بَلَّغْ﴾ [الأحقاف: ٣٥] أي: هذا إيلاغ للناس.

فلفظ: ﴿ذِكْرَىٰ﴾ إما أن يكون بمعنى: تذكرة، أي: من الرسل المنذرين، وهو الأقرب، وإما أن يكون بمعنى: عبرة وعظة، أي: من القرى المهلكة.

ويصح أن يكون قوله تعالى: ﴿ذِكْرَىٰ﴾ مفعولاً لأجله، فيكون المعنى: إن الله تعالى لم يهلك أمة من الأمم إلا بعد أن يرسل إليهم رسلاً ينذرونهم ويذكرونهم بالدين الحق؛ ليكون في هذا تذكرة لهم، وتنبهها على ما فيه نجاتهم، وليكون في هلاك الأمم المكذبة تذكرة وعبرة لغيرهم، فلا يعصون ربهم، وفي هذا تحقيق للعدل والإنصاف؛ إذ ليس الظلم من شأن الله تعالى، قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ﴾ [النساء: ٤٠].

وقال سبحانه: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ النَّاسَ شَيْئًا وَلَكِنَّ النَّاسَ أَنْفُسُهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ [يونس].

وبعد هذا الإعذار بالقرآن والإنذار به، فلا ظلم في تعذيبهم إذا لم يؤمنوا، والله تعالى لا يظلم الناس شيئاً، ولكن الناس أنفسهم يظلمون، وهذا معنى: ﴿وَمَا كُنَّا ظَالِمِينَ﴾ أي في تعذيبهم؛ فقد أقمنا الحجة عليهم وأعذرناهم.

الْقُرْآنُ فَوْقَ قُدْرَةِ الشَّيَاطِينِ

٢١٠-٢١٢- ﴿وَمَا نَزَّلَتْ بِهِ الشَّيَاطِينُ﴾^(١) ﴿وَمَا يَنْبَغِي لَهُمْ وَمَا يَسْتَطِيعُونَ﴾ [٢١١] إِنَّهُمْ عَنِ

السَّمْعِ لَمَعَزُولُونَ ﴿٢١٢﴾

(١) لم يعد (وما نزلت به الشياطين) آية، المدني الأخير والمكي، وعدّها غيره.

ولما بين سبحانه كمال القرآن وعظمته، نزهه عن كل نقص، وحماه وقت نزوله وبعد نزوله من شياطين الإنس والجن، فقد أبعد الله الشياطين عنه، وأعد لهم الرجوم لحفظه، نزل به جبريل أقوى الملائكة، ولا يمكن للشيطان أن يقربه أو يحوم حول ساحته ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُمُ حَافِظُونَ﴾ [الحجر: ٩]

وفي هذه الآية ردٌّ على من قال: إن القرآن من إلقاء الجن والشياطين، وهو مثل ما ينزل على الكهنة.

فقد أخرج ابن أبي حاتم، عن ابن زيد قال: زعموا أن الشياطين تنزلت به على محمد ﷺ، فأخبرهم الله أنها لا تقدر على ذلك ولا تستطيعه، وما ينبغي لهم أن ينزلوا بهذا، وهو معجوز عليهم^(١).

وقد ملئت السماء حرًا شديدًا وشهبًا في مدة إنزال القرآن على رسوله، فلم يخلص أحد من الشياطين إلى استماع حرف واحد منه؛ لأنها عُزلت عن مقاعدها التي كانت تسترق منها السمع منذ بعثه النبي ﷺ.

والحق ﷻ في هذه الآيات يوضح لنا حقيقة الجن قبل عهد النبي ﷺ، وما وهبه الله لهم من القدرة على استراق السمع في الملاء الأعلى، وأنهم كانوا يأتون بالخبر الواحد صدقًا، ويضيفون عليه تسعًا وتسعين كذبة، ينزلون بها على الكهنة، وهم الذين يستعملون الشياطين ويستخدمونهم، حيث ﴿يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ زُخْرَفَ الْقَوْلِ غُرُورًا﴾ [الأنعام: ١١٢].

وهذه الآية عطف على قوله تعالى: ﴿وَإِنَّهُ لَنَزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾^(٢). وذلك أنه بعد أن بين سبحانه أن هذا القرآن نزل به جبريل الأمين بلسان عربي مبين، على قلب رسول الله ﷺ، ونظرًا لأن المكذبين بالقرآن كثيرًا ما يرمونه بالسحر والشعر والكهانة، فقد بين سبحانه هنا حقيقة التكهن ودور الشياطين فيه، وأنه ليس في وسعهم أن يأتوا بشيء منه؛ لأنهم قد مُنعوا استراق السمع بعد بعثه النبي ﷺ، كما قال تعالى على لسان الجن: ﴿وَأَنَّا لَمَسْنَا السَّمَاءَ فَوَجَدْنَاهَا مُلْتَأَتْ حَرًّا شَدِيدًا وَشُهْبًا﴾^(٣) وَأَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقْعَدًا لِّلسَّمْعِ فَمَن يَسْمَعُ آلَانَ يَجِدُ لَهَا شِهَابًا رَّصَدًا﴾^(٤) [الجن: ٩].

(١) ابن أبي حاتم (٢٨٢٤/٩).

وكانت هند بنت عتبة قبل أن تتزوج بأبي سفيان قد رماها زوجها الأول بالزنى، فذهب أبوها إلى الكاهن، فقال له: إنها ليست بزانية، وإنها سوف تلد ولدًا يكون ملكًا ويُسمى معاوية، فأراد زوجها أن يستعيدها فأبّت، وتزوجها أبو سفيان، وولدت له معاوية، فكان هذا سبب قولهم: إن محمدًا كاهن يتلقى الأخبار من السماء، ويتلقفها من الشياطين.

وكانت العوراء بنت حرب امرأة أبي لهب، لَمَّا تخَلَّفَ رسول الله ﷺ عن قيام الليل لمرض أصابه، قالت: أرجو أن يكون شيطانك قد تركك.

وكان المشركون قد نفّوا أن يكون النبي ﷺ ساحرًا أو شاعرًا أو كاهنًا، حين شاوروا الوليد بن المغيرة فيما يصفون به النبي ﷺ، قال تعالى: ﴿فَذَكِّرْ مَا أَنْتَ بِنِعْمَتِ رَبِّكَ يَكَاهِنُ وَلَا مَجْنُونٍ﴾ (٢٩) [الطور].

فمعنى الآية: لا يصح، ولا يستقيم، ولا يمكن أن تنتزل الشياطين بهذا القرآن كما يزعمون، فهو يدعو إلى الهدى والشياطين تدعو إلى الضلال، فضلًا عن أنهم لا يستطيعون ذلك أصلًا، والشياطين محجوبون، ومغزولون عزلاً تامًّا عن سماع القرآن، ولو حاولوا ذلك -أثناء التنزيل- لأحرقتهم الشهب، فقد صان الله كتابه صيانة تامة، وحفظه عن عبث الشياطين، فهو كتاب لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، والشياطين ممنوعون من استراق السمع، ومن يحاول ذلك منهم فإنه يُرجم بالشهب.

كما قال تعالى: ﴿إِنَّا زَيْنًا أَلَمَاءَ الدُّنْيَا بَرِينَ الْكُوكَبِ﴾ (٦) وَحَفَظًا مِنْ كُلِّ شَيْطَانٍ مَّارِدٍ ﴿٧﴾ [الصافات].

وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ زَيْنَّا أَلَمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصْنُوعٍ وَجَعَلْنَاهَا رُجُومًا لِلشَّيَاطِينِ وَأَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابَ السَّعِيرِ﴾ (٥) [الملك].

قال ابن كثير: ذكر تعالى أنه يمتنع ذلك عليهم من ثلاثة أوجه:

الأول: أنه ما ينبغي لهم؛ لأن سجايهم الفساد وإضلال العباد، والقرآن فيه نور وهدى وبرهان عظيم.

الثاني: أنه لو انبغى لهم لَمَّا استطاعوا ذلك، وهذا من حفظ الله لكتابه، وتأنيده لشرعه.

الثالث: أنه لو انبغى لهم واستطاعوا حمله وتأديته، لَمَّا وصلوا إلى ذلك؛ لأنهم بمعزل عن استماع القرآن؛ لأن السماء ملئت حرًّا شديدًا وشُهْبًا، فلم يخلص أحد من الشياطين

لا استماع حرف واحد منه؛ لئلا يشتهب الأمر^(١).

وقد أخبر الله - سبحانه - أن الوحي المنزل من السماء يُحاط بسياج مانع من بين يديه ومن خلفه يمنع وصول أي كائن إليه، فيبقى الوحي محفوظاً حتى يصل إلى النبي ﷺ، كما قال تعالى: ﴿عَلِمُ الْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَى غَيْبِهِ أَحَدًا﴾ [الجن: ٢٦] أي: مما يتنزل به الوحي من الأمور المستقبلية التي لا علم لأحد بها، قال تعالى: ﴿إِلَّا مَن أَرَضَىٰ مِن رَّسُولٍ فَإِنَّهُ يَسْلُكُ مِن بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ رَصَدًا﴾ [الجن: ٢٧].

الشُّرْكُ بِاللَّهِ تَعَالَىٰ أَكْثَرُ الذُّنُوبِ

٢١٣- ﴿فَلَا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَتَكُونَ مِنَ الْمُعَذَّبِينَ﴾ [الزمر: ٢١]

ولأن الشرك بالله تعالى أقبح الذنوب وأكبرها، فقد خاطب الله - سبحانه - الخلق جميعاً في هذه الآية إلى يوم القيامة، خطاباً ممثلاً في شخص رسولها ﷺ؛ لأنه المبلغ عن الله، خطاباً ينهيه الله فيه وينهى أمته عن دعاء غير الله وأن ذلك يوجب العذاب الدائم يوم لقاء الله، والخطاب في الآية لغير معين، وقد ثبت أن القرآن منزل من عند الله تعالى، بشهادة الكتب السابقة، وشهادة علماء بني إسرائيل، وقد أمر الله تعالى الجميع أن يخلصوا له العبادة وألا يعبدوا معه غيره؛ لئلا يقع بهم ما وقع بالذين عبدوا مع الله إلهاً غيره، ممن سبق ذكرهم في السورة.

قال ابن عباس ؓ في توجيه النهي عن الشرك في الآية للنبي ﷺ: يحذر به غيره يقول: أنت أكرم الخلق عليّ، ولو اتخذت إلهاً غيري لعذبتك^(٢).

وهذا كقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَوْحَىٰ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكَتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ [الزمر: ٢٥].

وقوله: ﴿لَا تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَتَقْعُدَ مَذْمُومًا مَّخْذُولًا﴾ [الإسراء: ٢٢].

وقوله: ﴿وَلَا تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَتُلْقَىٰ فِي جَهَنَّمَ مَلُومًا مَّدْحُورًا﴾ [الإسراء: ٢٩].

(١) «تفسير ابن كثير» (٦/ ١٦٥).

(٢) «زاد المسير» (٦/ ١٤٧).

وقوله ﴿إِنَّهُمْ مَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَاهُ النَّارُ﴾ [المائدة: ٧٢]
وفي الآية تعريض بالمشركون أنهم سيُعَذَّبون؛ لأن النبي ﷺ وأصحابه غير مشركين.
والمعنى: فأخلص العبادة لله، واحذر أن تشرك معه غيره في عبادتك، فيحبط عملك،
وتخسر دنياك وآخرتك.

أَمْرُ الرَّسُولِ بِتَبْلِيغِ الدَّعْوَةِ لِأَهْلِهِ وَعَشِيرَتِهِ

٢١٤- ﴿وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ﴾ ﴿٢١٤﴾

أعلم الله رسوله بأنه ﴿مِنَ الْمُنْذِرِينَ﴾ في قوله تعالى: ﴿نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ﴾ ﴿١٩٣﴾ عَلَى قَلْبِكَ
لِتَكُونَ مِنَ الْمُنْذِرِينَ ﴿٢١٤﴾ أي: من المبلِّغين رسالة الله إلى الناس بصفة عامة.

١- قال تعالى: ﴿وَأَوْحَىٰ إِلَيْكَ هَٰذَا الْقُرْآنَ لِأَنْذِرْكُمْ بِهِ وَمَنْ بَلَغَ﴾ [الأنعام: ١٩].

٢- وقال تعالى: ﴿فَإِنَّمَا يَسَّرْنَاهُ بِلِسَانِكَ لِتُبَشِّرَ بِهِ الْمُتَّقِينَ وَتُنذِرَ بِهِ قَوْمًا لَّدَا﴾ ﴿٩٧﴾ [مريم].

٣- وقال تعالى: ﴿إِنَّمَا أَنْتَ مُنْذِرٌ وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ﴾ [الرعد: ٧].

٤- وقال تعالى: ﴿إِنْ أَنْتَ إِلَّا نَذِيرٌ﴾ ﴿٢٣﴾ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَإِنْ مِنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا
فِيهَا نَذِيرٌ ﴿٢٤﴾ [فاطر].

٥- وقال تعالى: ﴿تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا﴾ ﴿١﴾ [الفرقان].

٦- وقال تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا﴾ [سبا: ٢٨].

وبعد هذا الأمر العام بتبليغ الرسالة في هذه الآيات، ذكرت هذه السورة أمر الله تعالى
لرسوله ﷺ أن يبدأ دعوته بأقرب الناس إليه وأحقهم بإحسانه، وذلك أن يبلغ رسالته إلى
أهله وعشيرته وأقاربه على وجه الخصوص؛ فهم أولى الناس بقبول دعوته وتعزيها، ولئلا
يسبق إلى أذهان الناس أن التخويف والوعيد لمن لم يمثل أمر الله تعالى، ولم يستجب
لرسوله ﷺ لا يعم الجميع، القريب والبعيد، ولأن الأهل والعشيرة هم أولى الناس بالاهتمام،
لهذا وغيره نزل الأمر الخاص بدعوتهم إلى الإسلام أولاً في هذه الآية، ثم يدعوا سائر الناس
بعد ذلك، وقد امتثل النبي ﷺ أمر ربه فدعا سائر بطون قريش، فعمّ وخصّص، وذكرهم
ووعظهم، وبذل جهده في نصحتهم وهدايتهم، فاهتدي من اهتدى وأعرض من أعرض.

والمعنى: حذر - يا محمد - الأقرب فالأقرب من قومك، حذرهم من عذابنا أن ينزل بهم إن لم يؤمنوا بك وبدعوتك، وفي معنى هذه الآية وردت أحاديث وروايات كثيرة نكتفي باثنين منها:

١- عن ابن عباس رضي الله عنه لما نزلت هذه الآية صعد النبي ﷺ على الصفا، فجعل ينادي: يا بني فهر، يا بني عدي، لبطون من قريش حتى اجتمعوا، فجعل الذي لم يستطع أن يخرج أرسل رسولاً؛ لينظر ما هو، فجاء أبو لهب وقريش، فقال ﷺ: «أرأيتم لو أخبرتم أن خيلاً بالوادي تريد أن تغير عليكم أكنتم مصدقي؟» قالوا: نعم، ما جربنا عليك إلا صدقاً، قال: «فإني نذير لكم بين يدي عذاب شديد»، فقال أبو لهب: تباً لك سائر اليوم، ألهذا جمعتنا؟ فأنزل الله تعالى: ﴿تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ ۝^(١)﴾.

ومقتضى هذا الحديث أن سورة (الشعراء) نزلت قبل سورة (أبي لهب)، مع أن سورة (أبي لهب) هي السادسة في ترتيب النزول، وسورة (الشعراء) هي السابعة والأربعين، ويجب على هذا ما جاء في صحيح مسلم، عن ابن عباس رضي الله عنه: لما نزلت: (وأندرك عشيرتك الأقربين ورهطك منهم المخلصين)^(٢) خرج رسول الله حتى صعد الصفا، فهتف: «يا صباحاه»، فقالوا: من هذا؟ واجتمعوا إليه، وذكر نحوه^(٣).

فيبدو أن هذه الآية نزلت مع الزيادة المذكورة، قبل سورة أبي لهب، ثم نسخت، وأعيد نزول بعضها في سورة الشعراء بعد ذلك.

٢- وفي الصحيحين: ع: أبس هـ ية ﷺ: أنه لما نزلت الآية قام ﷺ، وقال: «يا معشر - (١) يُنظر: البخاري برقم (٤٧٧٠، ٤٨٠١) ومسلم برقم (٢٠٨) و«السنن الكبرى» برقم (١١٧١٤) والترمذي برقم (٣٣٦٣).

(٢) هذه الجملة لم ترد عند البخاري، قال القرطبي: وظاهر هذا أنه كان قرأناً يتلى، ثم نسخ، إذ لم يثبت نقله في المصحف ولا تواتر، ويلزم على ثبوته إشكال، وهو أنه كان يلزم ألا يُنذر إلا من آمن من عشيرته، والنبي ﷺ دعا عشيرته كلهم، مؤمنهم وكافرهم. القرطبي (٣/١٤٣).

قلت: إن الرهط المخلص يمكن تفسيره بأنهم الأقارب المحبون له، الذين يرجى إيمانهم، بخلاف غير المخلصين منهم كأبي لهب، ولا دخل لهذا بالإيمان والكفر، فهذا كان في بدء الدعوة، وجملة (ورهطك منهم المخلصين) ليست قرأناً بالإجماع، وهي تخالف رسم المصحف، وهو من أركان صحة القراءة ولعلها كانت قرأناً ثم نسخت كما قال القرطبي.

(٣) الحديث في «صحيح مسلم» برقم (٢٠٨).

قريش»، أو كلمة نحوها «اشتروا أنفسكم، لا أغني عنكم من الله شيئاً، يا بني عبد المطلب، لا أغني عنكم من الله شيئاً، يا عباس بن عبد المطلب، لا أغني عنك من الله شيئاً، يا صفية عمة رسول الله، لا أغني عنك من الله شيئاً، يا فاطمة بنت رسول الله، سليني ما شئت من مالي، لا أغني عنك من الله شيئاً»^(١).

وجاءت طرق متعددة لرواية هذا الحديث عن عليٍّ عليه السلام، وفيها أن النبي ﷺ لما نزلت عليه هذه الآية، أخبر عليّاً عليه السلام أنه يخشى إن بدأ قومه بالدعوة أن يجد منهم ما يكره، فطلب من عليٍّ أن يصنع له طعاماً، وجمعهم وهم أربعون رجلاً، يزيدون رجلاً أو ينقصون رجلاً، فيهم أعمامه: أبو طالب، وحمة، والعباس، وأبو لهب فأخذ رسول الله ﷺ قطعة وشقها بأسنانه، ونثرها في جوانب الجفنة، وقال: «كلوا باسم الله» فأكلوا وشربوا، وبقي الطعام والشراب كأن لم يُمسَّ، ولما أراد أن يُكلّمهم صدّه (أبو لهب) قائلاً: سَحَرُكُمْ صاحبُكم، وتكرر ذلك، وفي المرة الثالثة تكلم رسول الله ﷺ، فقال: «يا بني عبد المطلب، قد جئتكم بخيري الدنيا والآخرة، وقد أمرني الله - جلّ شأنه - أن أدعوكم إليه»، وطلب منهم أن يسمعوا، ويطيعوا، ويؤازروه في دعوته، وطلب منهم أن يقضوا دينه، وأن يخلّفوه في أهله بخير إن قُتل في سبيل الله^(٢).

والظاهر من مجموع الروايات أن النبي ﷺ لما نزلت عليه هذه الآية ﴿وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ﴾ دعا قومه عدة مرات في صور مختلفة، مرة من فوق جبل أبي قبيس، ومرة من على الصفا، ودعاهم إلى الطعام في بيته أكثر من مرة.

والإيمان بدعوة خاتم المرسلين لا بدّ منه لكل إنسان منذ بعثته ﷺ.

جاء في صحيح مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «والذي نفس محمد بيده،

(١) يُنظر: البخاري برقم (٢٧٥٣، ٤٧٧١) ومسلم برقم (٢٠٦).

(٢) يُنظر «مسند الإمام أحمد» (١/١١١) و (١/١٥٩) وقال الهيثمي في «مجمع الزوائد» (٨/٣٠٢): رجاله ثقات، وفي بعض طرق هذا الحديث عند الطبري وابن إسحاق وغيرهما عبد الغفار بن القاسم بن أبي مريم، وهو منهم بالوضع، ويُنظر: البيهقي في «دلائل النبوة» (٢/١٧٨) و«تفسير الطبري» (١٩/٤٠) ورواه محمد بن إسحاق ص (١٢٦) عن عليٍّ عليه السلام.

لا يسمع بي أحد من هذه الأمة، يهودي ولا نصراني، ثم يموت ولم يؤمن بالذي أرسلت به إلا كان من أصحاب النار»^(١).

الْأَمْرُ بِلَيْنِ الْجَانِبِ لِكُلِّ مُؤْمِنٍ

٢١٥، ٢١٦- ﴿وَخَفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ (١٦٥) فَإِنْ عَصَوْكَ فَقُلْ إِنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تَعْمَلُونَ ﴿

وبعد أن أمر الله تعالى رسوله ﷺ أن يبدأ بدعوة الأقرب فالأقرب من عشيرته؛ حتى لا يظن به أحد المحاباة واللفظ معهم، أمره بعد ذلك بخفض الجناح ولين الجانب لجميع المؤمنين.

أي: ألن جانبك وكلامك تواضعاً ورحمة لمن ظهرت لك منه بوادر إجابة دعوتك.

وخفض الجناح مَثَلٌ يُضْرَبُ للمعاملة باللين والتواضع.

وقد جاء الأمر به بالنسبة للوالدين في قوله تعالى: ﴿وَخَفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ﴾ [الإسراء: ٢٤].

وجاء أيضاً بالنسبة للمؤمنين بصفة عامة في قوله سبحانه: ﴿وَخَفِضْ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الحجر: ٨٨] أي: اخفض جناحك لهم لأجل إيمانهم، كما وصف الله سبحانه أصحاب النبي ﷺ بأنهم ﴿أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ﴾ [الفتح: ٢٩].

ووصف الله به رسوله في قوله ﴿فِيمَا رَحِمَهُ مِنَ اللَّهِ لَئِنْ لَمْ يَأْمُرْ بِهِ لَكُنَّا مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ [آل عمران: ١٥٩]

وهنا يقول تعالى لنبيه ﷺ: إذا دعوت عشيرتك الأقربين وأنذرتهم فاخفض جناحك وتواضع وألن جانبك لمن يدخل منهم في حظيرة الإيمان، وتودّد إليه وتحبّب.

أما من عصاك منهم، وخالف أمرك، ولم يطعك فتبرأ من شركه وعمله.

قال أبو حيان: لما كان الإنذار تترتب عليه الطاعة أو العصيان - جاء التقسيم عليهما، فكان المعنى: من اتبعك مؤمناً فتواضع له، ومن عصاك فتبرأ منهم ومن أعمالهم^(٢).

(١) «صحيح مسلم» برقم (١٥٣).

(٢) «البحر المحيط» (٤٦/٧).

والمعنى: فإن عصاك أهلك وعشيرتك فتبراً منهم، وأعلن عداوتك ومجافاتك لهم.

وبهذه الأخلاق تحصيل المنافع، وتُدفع المضار، فلا يليق بالمؤمن أن يكون شرس الأخلاق، غليظ القلب، فظ القول، فإن وَجَدَ من يخالفه في بعض الأمور فلا يتبرأ منه ولا يترك معاملته، وإنما يتبرأ من عمله، فيعظه وينصحه، ويبدل جهده في رده إلى الحق، وخفض الجناح للمؤمنين ليس معناه الرضى بكل ما يصدر منهم، بل المعنى حسن التعامل ولين الجانب ولو كانوا مخالفين لك.

تَقْوِيَةُ عَزْمِ الرَّسُولِ ﷺ

٢١٧-٢٢٠- ﴿وَتَوَكَّلْ﴾^(١) عَلَى الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ ﴿٢١٧﴾ الَّذِي يَرِنَكَ حِينَ تَقُومُ ﴿٢١٨﴾ وَتَقْلِبَكَ فِي السَّجِدِينَ ﴿٢١٩﴾ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿٢٢٠﴾

التوكل هو اعتماد القلب على الله في جلب المنافع ودفع المضار، مع الأخذ بالأسباب والثقة فيما عند الله تعالى، وحسن الظن بحصول المطلوب، وهذه الاستعانة بالله تعالى بمنزلة الإحسان، فالله تعالى يراك ويطلع عليك في جميع أحوالك، فأنت تعبد الله حال التوكل عليه كأنه يراك ويطلع عليك.

أي: وامض -أيها الرسول- في طريق الدعوة إلى الله، ولا تخش عداوتهم وتبرأ منهم متوكلاً على ربك، ومفوضاً أمرك إليه، فهو العزيز الذي لا يُقهر، صاحب العزة والغلبة، الرحيم بمن آمن به من عباده فينصرهم ولا يخذلهم.

١- وهو سبحانه: ﴿الَّذِي يَرِنَكَ حِينَ تَقُومُ﴾ ﴿٢١٨﴾ من فراشك، أو من مجلسك، أو من نومك، وحين تقوم إلى صلاتك وعبادتك، ويراك حين تتقلب بين أظهر الراكعين والساجدين وأنت تصلي وحدك أو تصلي مع غيرك، يراك في كل حال منفرداً ومع الجماعة، ويراك في سائر تصرفاتك.

٢- قال مقاتل لأبي حنيفة: هل تجد صلاة الجماعة في القرآن؟ فقال: لا يحضرني، فتلا

(١) قرأ نافع وابن عامر وأبو جعفر بالقاء في (وتوكل) جواب شرط مقدر يُعلم من السياق، أي: فإذا أنذرت عشيرتك فعصوك فتوكل، وقرأ الباقون بالواو عطفًا على (ولا تدع).

مقاتل هذه الآية .

وأقرب ما يكون العبد من ربه وهو ساجد، عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «هل ترون قبلي ههنا؟ فوالله ما يخفى عليّ خشوعكم ولا ركوعكم، إني لأراكم من وراء ظهري»^(١).
قال تعالى: ﴿وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا تَتْلُوا مِنْهُ مِنْ قُرْآنٍ وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ﴾ [يونس: ٦١].

قال عكرمة: يراه في قيامه، وركوعه، وسجوده، وجلوسه.
وقال قتادة: يراك في صلاتك وحدك، ويراك في الجميع، ويراك قائماً وقاعداً، وعلى كل حالاتك.
٣- وورد أن المراد ب﴿وَتَقَبَّلْكَ﴾ أي: في أصلاب آبائك من الأنبياء والمرسلين من لدن آدم إلى إبراهيم، ثم إسماعيل، كما قال ﷺ: «أنا خيار من خيار من خيار».
وعن ابن عباس رضي الله عنه قال: مازال النبي ﷺ يتقلب في أصلاب الأنبياء حتى ولدته أمه^(٢).

وهو سبحانه السميع لتلاوتك وذكرك في الصلاة وخارجها، العليم بنيةك وعملك، وما تبديه وما تخفيه، يسمع قولك، ويعلم عزمك، لا يخفى عليه شيء في الأرض ولا في السماء.
فالمعنى: يراك في جميع أحوالك، ويراك في صلاة الجماعة ويراك في أصلاب آبائك.

إِبْطَالُ وَصْفِ النَّبِيِّ ﷺ بِالْكَهَانَةِ

٢٢١-٢٢٣- ﴿هَلْ أَنتُمْ عَلَىٰ مَن تَنَزَّلُ^(٣) الشَّيَاطِينُ ﴿٢٢٣﴾ تَنَزَّلُ عَلَىٰ كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ ﴿٢٢٤﴾ يُلْقُونَ السَّمْعَ وَأَكْتُرُهُمْ كَذِبًا ﴿٢٢٥﴾﴾

تعود الآيات إلى ما كانت تتحدث عنه قبل قليل، عن الشياطين، وأنهم كانوا يسترقون السمع، وليس بإمكانهم الإتيان بشيء يماثل هذا القرآن، فبيّنت بعد ذلك كيفية نزول الشياطين على الكهنة وجاء ذلك في صورة الاستفهام:

(١) «صحيح البخاري» برقم (٤١٨، ٧٤١) و«صحيح مسلم» برقم (٤٢٤، ٤٢٥) ومالك (١/١٦٧).

(٢) ابن أبي حاتم (٩/٢٨٢٨) وأبو نعيم (١٧).

(٣) قرأ البزي في أحد وجهيه بتشديد التاء وصلّاً من (على من تنزل)، والباقون بتخفيفها ومعهم البزي في وجهه الآخر، وكلهم يبدأ بقاء مفتوحة مخففة.

أتريدون -أيها الناس- أن أخبركم الخبر الحقيقي الذي لاشك فيه ولا شبهة، فأخبركم على مَنْ مِنَ الخلق تنزَّل الشياطين؟ وهذا رد على قول الكفار: إنما يأتيه الشياطين بالقرآن. قال تعالى في الردِّ على هذا التساؤل: إن الشياطين تنزَّل على كل كذاب فاجر كثير الآثام؛ مبالغ في الكذب والعدوان من الكهنة، لأنه يضلِّل الناس أنه لا يقول إلا صدقًا، مع أكله أموال الناس بالباطل، وزعمه أن الشياطين تنزل على سيد الخلق، فالمنهج متعارض، إن محمدًا ﷺ يدعو إلى الحق والهدى، وهم يدعون إلى الباطل والضلال.

ثم وصف الله - سبحانه - الشياطين بأنهم يُلقون ما استرقوه من السمع إلى أوليائهم الكهنة، وهذا وصف لهم قبل منعهم من استراق السمع، ورجمهم بالشبه.

كما وصف سبحانه الأفَّاكين الآثمين من الكهنة بأنهم يُنصِتون إنصاتًا شديدًا إلى الشياطين؛ ليتلقفوا منهم ما يُلقونه إليهم مما يتخطفونه من الملائكة الأعلى.

وأكثر الشياطين كذبة، يَصْدُق أحدهم في كلمة واحدة، فيزيد فيها أكثر من مئة كذبة.

كما أن أكثر الكهنة كاذبون فيما يزعمون أنهم تلقَّوه من الشياطين وهم لم يتلقوا شيئًا، أو يزدون عليه أضعافًا.

عن عائشة رضي الله عنها أن ناسًا سألوا النبي ﷺ عن الكهان، فقال: «إنهم ليسوا بشيء» قالوا: يارسول الله، فإنهم يُحدِّثون بالشيء يكون حقًّا؟ فقال النبي ﷺ: «تلك الكلمة من الحق يخطفها الجنِّي، فيُقرِّقُها في أذن وليه، كقرقرة الدجاجة، فيخلطون معها أكثر من مئة كذبة»^(١).

فالكهنة يبالغون في الإنصات إلى الشياطين، وأكثرهم كاذبون، وإلقاء السمع: شدة الإنصات، كما قال تعالى: ﴿أَوَ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ﴾ [ق: ٣٧]. فهم أفَّاكون متفاوتون في الكذب، فمنهم أفَّاكون فيما يزدونه على خبر الجن، ومنهم أفَّاكون في أصل التلقِّي عن الجن.

وقد أطنب القرآن في هذا لبيان حال الكهنة، وبيان توقف الشياطين عن استراق السمع منذ بعثة النبي ﷺ.

والمقصود من هذه الآيات: إبطال ما زعمه المشركون من أن الرسول ﷺ قد تلقى هذا

(١) «صحيح البخاري» برقم (٣٢١٠، ٧٥٦١) و«صحيح مسلم» برقم (٢٢٢٨).

القرآن عن الشياطين أو عن غيرهم، وإثبات أن القرآن نزل من عند الله بواسطة الروح الأمين، مشتملا على الصدق الذي لا شبهة فيه، محروسًا من الشياطين ومحفوظًا بحفظ الله.

إِبْطَالُ وَصْفِ النَّبِيِّ ﷺ بِأَنَّهُ شَاعِرٌ

٢٢٤-٢٢٦- ﴿وَالشُّعْرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ﴾ (٢٢٤) أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِي كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ ﴿٢٢٥﴾ وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ ﴿٢٢٦﴾

ولما نزه الله رسوله عن نزول الشياطين عليه، برأه أيضًا من قول الشعر، وأخبر أن الشعراء يسلك طريقهم المقبلون على طريق الغي والضلال، وأنهم يهيمون في أودية الشعر، بين مدح وقبح، وصدق وكذب، وغزل وعشق، وسخرية، وفرح وحزن، ولا يثبتون على حال، وأقوالهم تخالف أفعالهم، وهذه الصفات والأخلاق لا تطابق حال الرسول ﷺ، فهو لا يقول إلا صدقًا، ولا يأمر إلا بخير، ولا ينهي إلا عن شر، وهو لا يخالف قوله فعله.

وبعد أن أبطل القرآن الكريم شبهة المكذبين في وصفهم للرسول ﷺ بأنه كاهن، ووصفهم للقرآن بأنه كهانة، انتقل إلى إبطال شبهة أخرى تصف النبي ﷺ بأنه شاعر، وتصف القرآن بأنه شعر، وقد ذمَّ الله شعراء الباطل، وبين أن شعرهم يقوم على الكذب والزور، وأن الذين يُجارُونهم ويتبعونهم هم الضالون الزائغون عن جادة الحق والصواب، وليس أهل الرشاد والبصيرة.

وأحوال الشعراء تخالف أحوال الأنبياء؛ فإن الأنبياء لا يتبعهم إلا الراشدون المهتدون، وكانوا يزعمون أن للشاعر شيطانًا يُملِي عليه الشعر.

وكثيرًا ما نفى القرآن هذين الوصفين عن الرسول ﷺ وعن الرسالة، في مثل قوله تعالى: ﴿وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ قَلِيلًا مَّا تُؤْمِنُونَ﴾ (٤١) وَلَا يَقُولُ كَافٍ قَلِيلًا مَّا تَذْكُرُونَ ﴿٤٢﴾ تَنْزِيلٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٨٠﴾ [الحاقة].

وقوله تعالى: ﴿وَمَا عَلَّمْنَاهُ الشِّعْرَ وَمَا يَنْبَغِي لَهُ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْآنٌ مُّبِينٌ﴾ (١٩) [يس].

(١) قرأ نافع بإسكان التاء وفتح الباء من (يَتَّبِعُهُمُ)، والباقون بتشديد التاء مفتوحة وكسر الباء، وهما لغتان.

وقد كان نفر من شعراء مكة يهجون النبي ﷺ، وكان المشركون يعمدون إلى مجالسهم يستمعون إليهم، كما كان يعمد إليهم الأعراب من خارج مكة يستمعون إلى أشعارهم وهجائهم في النبي ﷺ، وقد أدمجت الآية من يستمع إلى الشعر بمن يقوله.

ومن هؤلاء الشعراء: النضر بن الحارث، وهبيرة بن أبي وهب، ومُسافح بن عبد مناف، وأبو عزة الجُمحي، وابن الزُّبَيْري، وأمّية بن أبي الصلت، وأبو سفيان بن الحارث، وأم جميل العوراء بنت حرب زوج أبي لهب.

وكان هؤلاء الشعراء يقولون الكذب والباطل، ويقولون: نحن نقول مثل ما يقول محمد؛ فذمهم الله تعالى في هذه الآية.

والمراد بالشعراء في الآية: الذين يقوم شعرهم على الكذب والباطل، بدليل الاستثناء الآتي، وفي حكم هؤلاء الشعراء من يجاريهم من الضالين الفسقة الذين يزيغون عن الحق، ويتبعون الباطل، ويروّجون له.

وفي الآية ذمٌ لمن يقول الشعر الكاذب مِمَّنْ شغلهم الشعر عن سماع القرآن، ومتابعة النبي ﷺ، وفيها ذمٌ لأتباعهم المجالسين لهم، السالكين طريقهم، وفي الآية تنزيه لأصحاب النبي ﷺ أن يكونوا مثل هؤلاء الشعراء، وفيها أيضاً تنزيه للقرآن عن أن يكون شعراً.

ومن الشعر ما هو محمود، ومنه ما هو مذموم:

فإذا كان الشعر يُقال في نُصرة الإسلام، والدعوة إلى مكارم الأخلاق وفضائلها، ومحاسن الإسلام، ونحو ذلك -فهو شعر محمود، فقد قال النبي ﷺ كما في حديث كعب بن مالك: «إن المؤمن ليجاهد بالسيف واللسان»^(١).

أما إن كان الشعر في الغزل والعشق ووصف النساء، أو شرب الخمر، أو الثناء على الباطل، أو في الرياء والنفاق، أو في قلب الحق باطلاً والباطل حقاً، ونحو ذلك، فإن هؤلاء الشعراء هم الذين ذمهم الآية، فأنت تراهم كالهائم على وجهه يخوض في كل فن من فنون الكذب والزور، وتمزيق الأعراض، والطعن في النسب، وتجريح النساء العفيفات.

(١) يُنظر: «المسند» (٦٣/٢٥) (١٥٧٨٥) قال محققوه: إسناده صحيح على شرط الشيخين، عن كعب بن مالك، وهو في «المطالب العالية» عن أبي يعلى (٤٠٥٤) والبيهقي في السنن (٢٣٩/١٠).

وهم في كل واد يهيمنون، مرة هنا ومرة هناك، تتغير أحوالهم، فيسلكون في المديح والهجاء كل طريق، يمدحون الشخص بعد أن ذمّوه، ويُعظمون الشيء بعد أن احتقروه، وهكذا يقولون الشيء وضده، ومن شأنهم مخالفة أقوالهم لأفعالهم كحال المنافقين، وهم يبالغون في مدح الباطل وأهله، ويُنقصون من الحق وأهله.

في خلافة عمر رضي الله عنه أنشد النعمان بن عدي أبياتاً يتغزل فيها بالمرأة، ويتحدث فيها عن الخمر، فبلغت هذه الأبيات عمر، وكان الرجل قد قال: لعل أمير المؤمنين يسوؤه ما نقول، فأرسل إليه عمر يطلبه، وقال له: والله إنه ليسوؤني ذلك، وقد وجب عليك الحد، فقال: يا أمير المؤمنين، والله ما فعلت شيئاً مما قلت، وإنما كان فضلة من القول، وقد قال الله تعالى: ﴿وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ﴾ (٣٣) فقال له عمر: إنَّ عُذْرَكَ قد رَفَعَ الحدَّ عنك، ولكن لا تعمل لي عملاً أبداً، وقد قلت ما قلت.

ولما أنشد الفرزدق أبياتاً عند سليمان بن عبد الملك يصف فيها النساء العذارى، قال له سليمان: قد وجب عليك الحد، فقال: يا أمير المؤمنين، إن الله قد درأ عني الحد بقوله: ﴿وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ﴾ (٣٣)؛ فعفا عنه.

إن الشاعر الذي يُنشد في الخمر، ويتغزل في النساء والعشق، فيصف المرأة وضفاً دقيقاً كأنها سلعة تباع وتُشتري، ويُعلم الناس الغزل، ويبث فيهم الأخلاق الفاسدة، ويعلم الشباب طرق الحب والعشق، والتأوهات، هو ممن قال فيهم النبي ﷺ: «لأن يمتلئ جوف أحدكم قبحاً خيراً من أن يمتلئ شعراً» ^(١) وذلك لما يقوم عليه هذا الشعر من: الكذب، والخيال، وقلب الحقائق، ولهذا قال ابن عباس رضي الله عنه: أكثر قولهم يكذبون فيه، فهم يتبجحون بأقوال وأفعال لم تصدر منهم ولا عنهم.

الشعر المحمود

٢٢٧- ﴿إِلَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَذَكَرُوا اللَّهَ كَثِيرًا وَانصَرُوا مِنْ بَعْدِ مَا ظَلَمُوا وَسِعِلُوا

(١) من حديث أبي هريرة وأبي سعيد الخدري في «صحيح مسلم» برقم (٢٢٥٧) و (٢٢٧٩) والبيهقي في السنن (١٠/ ٢٤٤) وابن أبي شيبة (٥٣٢/ ٨) و«المسند» (١١١/ ١٧) (١١٠٥٧)، و (١١٣٦٨) بإسناد صحيح على شرط مسلم، ورجال ثقات. (محققوه).

الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيْ مُنْقَلَبٍ يَنْقَلِبُونَ ﴿٢٢٧﴾

استثنى الله - جلَّ شأنه - من الشعراء: الذين اهتدوا بالإيمان وعملوا الصالحات، وأكثروا من ذكر الله تعالى والثناء عليه - جلَّ ذكره -، ودافعوا عن رسول الله ﷺ، وعن الدعوة الإسلامية، ونطقوا بالحكمة والموعظة الحسنة، والآداب الكريمة، والأخلاق الفاضلة، وانتصروا للإسلام، يهجون من يهجوهم، ومن يهجو رسوله ﷺ، ويردون على الشعراء الكاذبين، فصار شعرهم من أعمالهم الصالحة، ومن آثار إيمانهم، لاشتماله على مدح الإيمان والانتصار من أهل الشرك، والذب عن دين الله، والحث على الأخلاق الفاضلة.

قال قتادة: نزلت هذه الآية في رهط من الأنصار، هاجوا عن رسول الله ﷺ، منهم: كعب بن مالك، وعبد الله بن رواحة، وحسان بن ثابت^(١).

وهذه ثلة من الآثار الواردة في هذا المقام:

١- روى ابن أبي حاتم، وابن إسحاق، وغيرهما أنه لما نزل قوله تعالى: ﴿وَالشُّعْرَاءُ يَنْتَعِمُهُمْ أَفْعَاوُنَ﴾ ﴿٢٢٨﴾ جاء حسان بن ثابت، وعبد الله بن رواحة، وكعب بن مالك إلى النبي ﷺ وهم ييكون، فقالوا: قد علم الله حين أنزل هذه الآية أننا شعراء، هلكنا، فأنزل الله ﴿إِلَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ فدعاهم رسول الله ﷺ فتلاها عليهم^(٢).

٢- وعن عبد الرحمن بن كعب بن مالك، عن أبيه أنه قال للنبي ﷺ: إن الله جلَّ شأنه قد أنزل في الشعر ما أنزل، فقال ﷺ: «إن المؤمن يجاهد بسيفه ولسانه، والذي نفسي بيده، لكان ما ترمونهم به نضح النبل»^(٣).

٣- وكان أبو سفيان بن الحارث ابن عم النبي ﷺ من أشد الناس عداوة للنبي ﷺ، وكثيراً ما كان يهجوهم، فلما أسلم لم يكن أحد أحب إليه من رسول الله ﷺ، فكان يمدحه

(١) يُنْظَرُ: «ابن أبي حاتم» (٢٨٣٥/٩).

(٢) رواه الحاكم في «المستدرک» من طريق أبي أمامة (٤٨٨/٣) وانظر: «تفسير الطبري» (٧٩/١٩) و«أسباب النزول» للسيوطي (٢٠٨) و«زاد المسير» (١٥١/٦).

(٣) «المسند» (٣٨٧/٦) برقم (١٥٧٨٥) بإسناد صحيح على شرط الشيخين (محققه) وأخرجه الطبراني في «المعجم الكبير» برقم (١٥٣) وابن حبان (٤٧٠٧) «الإحسان» بتصحيح الأرناؤوط، وصححه الألباني في «السلسلة الصحيحة» برقم (١٦٣١).

بعدما كان يهجو^(١).

٤- وثبت في الصحيح عن البراء بن عازب رضي الله عنه: أن النبي ﷺ قال لحسان بن ثابت: «اهجهم - أو هاجهم - وجبريل معك»^(٢).

٥- وكان الرسول ﷺ يضع منبرًا لحسان بن ثابت في المسجد لهجاء المشركين، ويفاخر وينافح عن رسول الله ﷺ.

والشعر كالنثر، فإذا كان الشعر في الجهاد مثلاً، لحث المجاهدين على حسن البلاء في ملاقات العدو فلا بأس بذلك.

أما إذا كان يدعو إلى رذيلة من الرذائل فهذا مما يبغضه الله - جل شأنه - ، كما جاء في الآية التي ذم الله فيها الشعراء الكاذبين.

فدل هذا ونحوه على أن للشعر حالتين: حالة مذمومة، وحالة محمودة، وقد أثنى النبي ﷺ على الشعر المحمود، وأنصت الصحابة لشعر كعب بن زهير، وعبد الله بن رواحة، وسُحيم عبد بني الحساس، وكعب بن مالك، وغيرهم، وأذن لحسان في هجاء المشركين، وقال له: «كلامك أشد عليهم من وقع النبل»^(٣).

وقال ﷺ لحسان: «اهج المشركين ومعك روح القدس»^(٤).

٦- وقال أبو هريرة رضي الله عنه: سمعت رسول الله ﷺ يقول على المنبر: «أصدق كلمة، أو أشعر كلمة قالتها العرب، كلمة ليُبد:

ألا كُلُّ شيء ما خلا الله باطل وكل نعيم لا محالة زائل»^(٥)

٧- وفي البخاري وغيره: عن أبي بن كعب رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «إن من الشعر حكمة»^(٦).

(١) يُنظر: «طبقات ابن سعد» (٣/٥٢٨).

(٢) يُنظر: البخاري برقم (٣٢١٣، ٦١٥٣) ومسلم برقم (٢٤٨٦) وابن أبي شيبة (٨/٥١٩) عن البراء بن عازب،

(٣) من حديث أنس في صحيح سنن النسائي برقم (٩٨٢٣) بتصحیح الألباني .

(٤) من حديث البراء عند أحمد برقم (١٨٦٤٢، ١٨٥٢٦) بإسناد صحيح على شرط الشيخين، والنسائي في الكبرى

(٨٢٩٥) والطبراني في الصغير (٩٩٤) والبيهقي بتصحیح الألباني في صحيح الجامع الصغير برقم (٢٥٢٢).

(٥) متفق عليه كما في البخاري (٦٤٨٩، ٣٨٤١، ٦١٤٧) ومسلم (٢٢٠٦، ٢٢٥٦) وفي مشكاة المصابيح

برقم (٤٧٨٦) ج٢.

(٦) «صحيح البخاري» برقم (٦١٤٥)، وصحيح أبي داود (٤١٨٩) وصحيح الجامع (٢٢١٩) والمشكاة (٤٧٨٤).

٨- وعن ابن عباس ؓ قال: جاء أعرابي إلى النبي ﷺ فجعل يتكلم بكلام، فقال: «إن من البيان سحراً، وإن من الشعر حكمة»^(١).

٩- واستمع النبي ﷺ إلى شعر أمية بن أبي الصلت، ثم قال: «لقد كاد يُسلم في شعره».

١٠- وقالت عائشة ؓ: الشعر كلام، فمنه حسن، ومنه قبيح، فخذ منه الحسن، ودع منه القبيح.

١١- وقال الشعبي: كان أبو بكر يقول الشعر، وكان عمر يقول الشعر، وكان عليٌّ أشعر منهما، وهذا كله في الشعر المحمود الوارد في هذه الآية.

أما الشعر المذموم فهو داخل في عموم قوله تعالى: ﴿وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنْقَلَبٍ يَنْقَلِبُونَ﴾.

ومن عموم الآية ما رواه ابن أبي حاتم عن عائشة ؓ قالت: كتب أبي وصيته في سطرين: بسم الله الرحمن الرحيم، هذا ما أوصى به أبو بكر بن أبي قحافة، عند خروجه من الدنيا، حين يؤمن الكافر، وينتهي الفاجر، ويصدق الكاذب: إني استخلفت عليكم عمر بن الخطاب، فإن يعدل فذلك ظني به، ورجائي فيه، وإن يجُر ويُبذل، فلا أعلم الغيب ﴿وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنْقَلَبٍ يَنْقَلِبُونَ﴾^(٢).

أي: سوف يأتيهم العقاب في الدنيا بغيض الناس لهم؛ بسبب إفكهم وكذبهم، ويوم القيامة سوف يُجزَوْنَ جزاء جُرمهم وكذبهم، وهذا جزاء كل من ظلم، فالله من ورائهم محيط.

وفي هذا تهديد لهم بسوء العاقبة، وسوء المصير والمرجع، كما قال تعالى: ﴿كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿[التكاثر].

ثم توعد الله سبحانه في نهاية السورة، الذين ظلموا أنفسهم بالشرك والمعاصي، وظلموا غيرهم بأكل أموالهم وغمط حقوقهم، أو الانتقاص منهم، أو الاعتداء عليهم، توعدهم بسوء العاقبة والمصير، يوم لقاء رب العالمين، وسيعلم الظالمون أي مرجع من مراجع الشر والهلاك يرجعون إليه، فبئس المآل والمنقلب، نسأل الله السلامة والعافية.

تم تفسير (سورة الشعراء) والله الحمد والمنة.

(١) يُنْظَر: «صحيح سنن أبي داود» (٤١٩٠) و«صحيح سنن الترمذي» عن ابن مسعود (٢٢٨٠) وابن أبي شيبة

(٨/٥٠٥)، وهو في السلسلة الصحيحة (١٧٣١) وصحيح الجامع (٢٢١٥) ومشكاة المصابيح (٤٧٨٣).

(٢) ابن أبي حاتم (٢٨٣٦/٩).

تَفْسِيرُ سُورَةِ النَّملِ (٢٧)

مُقَدِّمَةُ السُّورَةِ

سور: الشعراء، والنمل، والقصص، هذه السور الثلاث سور مكية، نزلت متتابعة - كترتيبها في المصحف - وموضوعها واحد، وأسلوبها واحد، ومنهجها واحد، فهي تهتم بأصول العقيدة: التوحيد، والرسالة، والبعث، وكلُّ منها يشتمل على مقدمة وتعقيب، وبينهما موضوع السورة.

وكلها تبدأ بمقدمة عن القرآن الكريم، تتناولها في بضع آيات، ثم تذكر عددًا من قصص الأنبياء والمرسلين، فقد ذكرت سورة (الشعراء) سبع قصص، وذكرت سورة النمل أربع قصص عن: موسى، وسليمان، وصالح، ولوط عليهم السلام، وانفردت سورة القصص بقصة واحدة هي قصة موسى عليه السلام، وهي القصة الأولى في السور الثلاث، فكل سورة منها تتناول حلقة منها، وبعد نهاية القصص القرآني يأتي التعقيب في نهاية السورة.

وسورة (النمل) هي السورة السابعة والعشرون في ترتيب المصحف، والثامنة والأربعون في ترتيب النزول، نزلت بعد سورة (الشعراء)، وقبل سورة (القصص).

وهي ألف وثلاث مئة وسبع عشرة كلمة، وأربعة آلاف وسبع مئة وتسعة وتسعون حرفًا. وعدد آياتها عند الكوفيين ثلاث وتسعون آية^(١).

وتسمى سورة (النمل)، كما في صحيح البخاري، وجامع الترمذي، ولفظ النمل لم يذكر إلا في هذه السورة، وذكر أبو بكر بن العربي في أحكام القرآن أنها تسمى سورة (الهدهد)، ولفظ سليمان ذكر في عدة سور، ومع ذلك فقد ذكر بعضهم أنه يسميها سورة (سليمان)؛ لأن ما ذكر فيها عنه لم يُذكر في سورة أخرى.

وقد حوت سورة (النمل) المكية عجائب عن عالم الحيوان، بما في ذلك كلام النمل والهدهد، وتفريقه بين التوحيد والشرك في شهادته على (بلقيس) وقومها، وأنهم يسجدون

(١) وأربع وتسعون آية في العدد الشامي والبصري، وخمس وتسعون آية في العدد المدني والمكي.

للشمس من دون الله، وهذا مما يشير إليه قوله تعالى في آخر السورة: ﴿سَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ فَتَعْرِفُونَهَا﴾ [٩٣]. فربما يكشف المستقبل عن منطق: الطير، والدواب، والهوام.

موضوعات السورة:

وفي صدر السورة بيان موجز لمصائر المؤمنين والكافرين، فالهدى والبشرى للمؤمنين، والضياع والهلاك والخسران للكافرين، وقد أشارت السورة إلى هداية المؤمنين، وضلال الكافرين في أولها. وفي قصص: موسى وفرعون، وسليمان وبلقيس، وصالح مع قوم ثمود، ولوط مع أهل المؤتفة، ذكر الله لنا مصائر هذه الأمم التي كذبت رسلها؛ ليكون لنا فيها عبرة وعظة، فنؤمن بخاتم المرسلين ﷺ، ولا تبقى ديانة أخرى على وجه الأرض إلا انضوت تحت لوائه. ثم وجهت السورة خمسة أسئلة تُرسي فيها قواعد التوحيد، وتشرحها لكل ذي لب وبصيرة. وعلى هذا يمكن تقسيم السورة إلى:

مقدمة: وهي الآيات الست الأولى منها.

وموضوع: وهو أربع قصص لأنبياء الله ورسله، وهم: موسى وسليمان وصالح ولوط عليهم السلام، وهذا من الآية السابعة إلى الآية الثامنة والخمسين منها.

وتعقيب: وهو من الآية التاسعة والخمسين إلى الآية الثالثة والتسعين، وهي نهاية السورة.

وقد تضمنت المقدمة خلاصة لمصير كل من المؤمنين والكافرين، وتضمن التعقيب تفصيلاً لهذه الخلاصة، بدأها بخمسة أدلة تقرر وحدانية الخالق سبحانه. وثبتتها ببيان أن علم قيام الساعة عند الله وحده، وأن هذا القرآن يقص على بني إسرائيل أكثر الذي هم فيه يختلفون.

وساقت بعض المشاهد والأحوال التي يراها الناس يوم الحشر الأكبر حين يفزعون ويرهبون، ويكونون على قسمين: السعداء الأبرار، والذين يُكَبُّون في النار على وجوههم.

وبيّنت السورة في آخرها أن لواء الدعوة في آخر الدهر معقود لصاحب الرسالة العظمى الذي صنع بالقرآن أمة، وظيفتها أن تُبلغ الدعوة، وتصنع به أمماً على غرارها.

وسيكشف المستقبل الكثير عن مستقبل الإسلام، ومستقبل الكفر في هذه الدنيا وما بعدها.

أما القصص الأربع:

فأولها: طرف من قصة موسى ﷺ يتعلق ببدء نزول الوحي عليه في طور سيناء، ومن ثم تكليفه بالرسالة إلى فرعون وملئه، ثم تكذيبهم له، وهم على يقين بصدقه، مع الإشارة إلى سوء عاقبتهم، كما قال تعالى: ﴿وَحَدِّثُوا يُحَاكِمُ﴾ أي: برسالة موسى ﴿وَأَسْتَفْتِيهَا أَنفُسُهم ظُلُمًا وَعُلوًّا فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ﴾ وهذه الآية هي نهاية قصة موسى ﷺ في هذه السورة.

وثانيها: وراثة نبي الله سليمان للملك من أبيه، وتعليم الله له لغة: الطيور، والحشرات، والحيوانات، وقصته مع النملة، ومع بلقيس ملكة سبأ، وإسلامها على يديه في نهاية الأمر، بعد أن كانت تعبد الشمس من دون الله، وهي قصة لأصحاب الملك والجاه، فقد استخدم سليمان سلطانه في الدعوة إلى الله تعالى، ولم يترك حاكمًا حائرًا إلا دعاه إلى الله، وانتهت هذه القصة بالآية الرابعة والأربعين من السورة.

وثالثها: طرف من قصة نبي الله صالح ﷺ، فقد أرسله الله إلى قوم ثمود، فمنهم من آمن، ومنهم من كفر، وتأمرؤا على قتله، ولكنهم بدل أن يقتلوه قتلوا الناقة، فأذاقهم الله العذاب الأليم ﴿فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ مُكْرِهِم أَنَّا دَمَرْنَاهُمْ وَقَوْمَهُم أَجْمَعِينَ﴾. وانتهت هذه القصة بالآية الثالثة والخمسين.

والقصة الأخيرة: هي قصة نبي الله لوط ﷺ، مع أهل مدينة (سدوم) الفسقة الذين استمرؤوا الشذوذ الجنسي علنًا في مجالسهم ونواديهم، ولما دعاهم لوط ﷺ، لترك هذا الفجور همؤا بإخراجه ونفيه من البلاد، فدمر الله القرية وجعل عاليها سافلها، وانتهت هذه القصة بالآية الثامنة والخمسين، وجاء التعقيب على هذا القصص بقوله تعالى:

﴿قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَامٌ عَلَى عِبَادِهِ الَّذِينَ اصْطَفَى﴾ [٥٩].

وخُتمت السورة بالحديث عن الآخرة والحساب، ومن ذلك خروج الدابة التي تكلم الناس قرب قيام الساعة.

وتبيّن السورة في النهاية أن المستقبل سيكون للإسلام، وأن مستقبل الكفر محدود في الدنيا بمعرفة ظواهر الأمور، والغفلة عن العلم الحقيقي الموصّل إلى سعادة الدارين.

تُفْسِيرُ السُّورَةِ

دَلَالَةُ افْتِتَاحِ السُّورَةِ بِحَرْفِي الْهَجَاءِ

٢، ١ - ﴿طس^(١) تِلْكَ ءَايَاتُ الْقُرْآنِ وَكِتَابٍ مُبِينٍ ﴿١﴾ هُدًى وَبُشْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢﴾﴾

بدأت سورة (النمل) كغيرها من بعض السور المفتحة بحروف الهجاء، بدأت بحرفين من الحروف الهجائية، هما الطاء والسين، وهذه الحروف تُنطق كاملة، حرف الطاء مكون من حرفين، وحرف السين مكون من ثلاثة أحرف، وتأخذ حقها من أحكام التجويد، بمد الطاء حركتين، والسين ستاً.

وعند وصل (طس) بما بعدها تكون من باب الإخفاء الحقيقي، وهو مصحوب بالغنة.

وتُكتب في المصحف حروفاً على غير نطقها ولا يمكن تصحيح تلاوتها إلا بالتلقّي والمشافهة.

وهذه الحروف من المتشابه الذي لا يعلم حقيقة تأويله إلا الله.

ومما يقال في معنى هذه الحروف: إنها نزلت لِّلْفَتِ أَنْظَارِ الْمَكْذِبِينَ بِالْقُرْآنِ؛ حَتَّى يَسْتَمِعُوا إِلَيْهِ، فهو يوقظ انتباههم بالألفاظ عجيبة غريبة عنهم، حتى يسمعوا ويُصتوا، ويفكروا في معنى هذه الألفاظ، وقد كان المشركون يقول بعضهم لبعض: ﴿لَا تَسْمَعُوا لِهَذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا فِيهِ﴾ [فصلت: ٢٦].

وقيل أيضاً في معنى هذه الحروف: إنها نزلت للإعجاز، وليبين أن البشر لا يستطيعون أن يأتوا بمثل أقصر سورة من هذا القرآن، وكأن الله تعالى يقول لمن يقول: إن القرآن ليس من عند الله: هذا هو القرآن الذي عجزتم عن معارضته، فهو مكوّن من الحروف التي تتكلمون بها، وهذا يدل على أنه ليس من قول بشر، ويشهد لذلك أن الآية التالية لهذه الحروف المقطعة في أكثر السور المفتحة بها، فيها إشارة إلى هذا القرآن المكوّن من هذه الحروف التي نستعملها في كلامنا؛ لِيَبَيِّنَ لَهُمْ وَجْهَ الإعجاز البلاغي فيه، فليأتوا بمثله، أو بمثل عشر سور منه، أو بمثل أقصر سورة منه.

(١) سكت أبو جعفر على الطاء والسين سكتة لطيفة بدون تنفس، على أنها حروف مستقلة، والباقيون بعدم السكت.

﴿تِلْكَ آيَاتُ الْقُرْآنِ وَكِتَابٍ مُبِينٍ﴾ أي: هذه هي الآيات الواضحات البينات، بما فيها من العلوم والحكم والشرائع، لا لبس فيها ولا غموض، وهي تدل على الأخبار الصادقة، تأمر بكل خير وتنهي عن كل شر، تدعو إلى توحيد الله وصدق اليقين، وتخبر عن الأمور الغيبية في الماضي والمستقبل، وتهدي للتي هي أقوم، وقد اهتدى بهذا القرآن من اهتدى وأعرض عنه من أعرض.

والقرآن هو الاسم العلم على الكتاب المنزل على محمد ﷺ للإعجاز والهدى.

والكتاب اسم آخر مرادف له، وهو علم على القرآن بالغلبة، مع ما فيه من تشريع، ومواعظ، وأحكام، وافعل ولا تفعل، وغير ذلك.

وفي أول سورة الحجر جاء لفظ الكتاب معرّفًا، إشارة إلى أن القرآن المنزل على رسول الله ﷺ يوصف بأنه كتاب، ويوصف بأنه قرآن، وجاء لفظ الكتاب منكرًا هنا من باب عطف الصفات بعضها على بعض؛ لأنه يُقرأ ويكتب، وحيث جاء التعريف فهو العلم، وحيث جاء التنكير فهو الوصف.

وقُدِّم القرآن على الكتاب هنا؛ لأن المقام مقام تنويه بالقرآن وأتباعه المؤمنين، وجاء عكس ذلك في سورة (الحجر)؛ لأن المقام هناك مقام تحسّر للكافرين جزاء إعراضهم عن الإسلام.

وهذا الكتاب المبين فيه الهداية إلى الفوز بسعادة الدارين، والبشارة بحسن الثواب، لمن في قلوبهم الاستعداد للإيمان بما فيه، والاهتداء بهديه، ممن أراد الاتباع والتصديق به، وعَمِلَ بما فيه، فأقام الصلاة بأركانها وشروطها، وآتى الزكاة المفروضة لمستحقها، وصدّق بالبعث واليوم الآخر، وما فيه من عقاب وثواب تصديقًا جازمًا لا يخالجه شك، فهو كتاب فيه هدى وبشرى، كما قال تعالى: ﴿قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدًى وَشِفَاءً﴾ [فصلت: ٤٤].

أَوْصَافُ الْمُؤْمِنِينَ وَأَوْصَافُ الْكَافِرِينَ

٣- ﴿الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ﴾

وصف الله - سبحانه - المؤمنين في هذه الآية بثلاثة أوصاف هي:

أ- إقامة الصلاة فرضها ونفلها، بأدائها في أوقاتها، بشروطها وأركانها وواجباتها ومستحباتها والخشوع فيها، وتدبر أقوالها وأفعالها.

ب- وإخراج الزكاة المفروضة لمستحقيها، وقد يراد بالزكاة: الطهارة من النقائص وملازمة مكارم الأخلاق، والمراد بها في هذه الآية: الصدقة، أو الزكاة غير المقدرة بالنصاب والمقدار؛ لأن السورة مكية، وقد فرضت أنصبة الزكاة ومقاديرها في المدينة.

ج - والوصف الثالث في الآية هو الإيمان اليقيني بالبعث والنشور، ولا يوقن بالآخرة حق اليقين، إلا من جمّع بين الإيمان والعمل الصالح، وبلغ به الإيمان درجة اليقين، وهو العلم التام، المقرون بالعمل والسعي للدار الآخرة. قال تعالى:

٤- ﴿إِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ زَيَّنَّا لَهُمْ أَعْمَالَهُمْ فَهُمْ يَعْمَهُونَ ﴿١﴾﴾

أما غير المؤمنين الذين ليس في قلوبهم رغبة الإيمان، فهم كما يقول الله تعالى فيهم: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٦﴾﴾ [البقرة]. وذلك لأنهم اختاروا طريق الهلاك، وآثروا طريق الزيغ والضلال ﴿فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاعَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ﴾ [الصف: ٥].

وسنة الله في خلقه أن من يختار طريق الضلال والغواية يضلّه الله، ومن يختار طريق الهدى والرشاد يوفقه الله - سبحانه -، فالذين لا يؤمنون بالآخرة، ولا يعملون لها، حسناً لهم أعمالهم القبيحة فأروها حسنة، بسبب اختيارهم طريق الضلال، وتركهم طريق الهدى والرشاد، كما قال تعالى: ﴿وَمَا يُضِلُّ بِهِ إِلَّا الْفَاسِقِينَ﴾ [البقرة: ٢٦]. وقال: ﴿قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا هُدًى وَشِفَاءٌ وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِي ءَاذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى﴾ [فصلت: ٤٤]. وقال: ﴿إِنبَشِرْ بِهِ الْمُتَّقِينَ وَنَذِرْ بِهِ قَوْمًا لَّدَا﴾ [مريم: ٩٧].

فتزيّن الأعمال للكافرين معناه: أن الله تعالى جعل عقابهم على كفرهم أن حتمّ عليهم الكفر، وحبب إليهم الشرك، وزيّنه لهم، بأن جعله في نفوسهم، جزاء كسبهم له وحِرصهم عليه.

إن المؤمن يرجو لقاء الله، ويخاف عذابه، ويعمل للثواب والحساب، والكافر لا يخشى الله، ولا يعمل لليوم الآخر، ولذلك فإن أعمالهم السيئة التي يفعلونها يرونها في أعينهم حسنة، كما قال تعالى: ﴿أَفَمَنْ زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ فَرَآهُ حَسَنًا﴾ [فاطر: ٨].

فهم يتخبطون ويترددون، لا يميزون بين الحسن والقيح، ويتحiron في ضلال وغواية

مع شياطينهم، وقد علم الله خُبث طواياهم، فحرّمهم التوفيق؛ وذلك لأن تفاوت الناس في قبول الخير يكون بمقدار رسوخ الشر في نفوسهم، وتعلّق فطرتهم به، بسبب ما يطرأ على سلامة الفطرة من الفساد.

فمبادرة أبو بكر -مثلاً- إلى الإيمان بالنبى ﷺ دلالة على أن الله تعالى فطره بنفس وعقل بريئين من التعلّق بالشر، واشتياق إلى الخير، فإذا لاح لهما تقبّلاه، وبالمقابل فإن وسوسة الشيطان تجد في نفوس ضعفاء سلامة الفطرة مرتعاً خصباً، ومنبتاً لا يقحل، كما قال تعالى: ﴿وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ فَهُمْ لَا يَهْتَدُونَ﴾ [٢٤]. وهؤلاء الذين انقلبت عليهم الحقائق، فرأوا الحق باطلاً والباطل، لهم مصير سيء يوم لقاء الله:

٥- ﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ لَهُمْ سُوءُ الْعَذَابِ وَهُمْ فِي الْآخِرَةِ هُمْ الْآخَسُونَ﴾ (٥)

أي وهؤلاء القوم لهم سوء العذاب في الدنيا، فهم في قلق واضطراب، وحيرة وعذاب نفسي، أو في قتل وأسر، وذل وهزيمة، وهم عند موتهم تضرب منهم الملائكة الوجوه والأدبار، وهم في الآخرة أشد خسراناً مهما كانوا في ترف ونعمة؛ لأن مصيرهم إلى النار المؤبدة، فهم قد خسروا أنفسهم وأهلهم يوم القيامة ﴿أَلَا ذَٰلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ﴾ [الزمر: ١٥]. وخسروا الإيمان الذي دعتهم إليه الرسل.

الْقُرْآنُ فَيُضُّ مِنَ اللَّهِ عَلَى رَسُولِهِ

٦- ﴿وَإِنَّكَ لَتَلْقَى الْقُرْآنَ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ عَلِيمٍ﴾ (٦)

ختم الله سبحانه هذه المقدمة لسورة (النمل) ببيان أن الله تعالى قد أفاض هذا القرآن على قلب رسوله ﷺ، فهو من عند الله تعالى، ولم يأت به محمد ﷺ من تلقاء نفسه.

وفي هذا انتقال من التنويه بالقرآن، إلى التنويه بمن أنزل عليه القرآن، وانتقال من كون القرآن آيات دالة على أنه كتاب مبین، إلى أنه آية دالة على صدق من أنزل عليه.

والمعنى: وإنك -يا محمد- لتلقى القرآن من عند الله الحكيم في خلقه وتديره، الذي أحاط بكل شيء علماً، يستوي عنده علم السرائر والظواهر، حيث يضع الأمور في مواضعها.

والرسول ﷺ كان يتلقى القرآن من جبريل الأمين عن رب العالمين، وفيه قصص

الأولين والآخرين، وهو الوحي المنزل على رسول الله ﷺ وهذا الوحي نفسه، هو الذي نزل على موسى عليه السلام.

وهذا التلقى يشمل طريقة التلاوة والأداء التي علّمها جبريل للنبي عليهما ووصلت إلينا بطريق التواتر العملي، وطريقة الأداء العربية، وهي تكون بإقامة الألفاظ، وصحة مخارج الحروف وصفاتها، والإظهار والإدغام والغنة والمد، والوقف والبدء، وما إلى ذلك.

فِي سُورَةِ النَّملِ أَرْبَعٌ مِنْ قِصَصِ النَّبِيِّينَ

الْقِصَّةُ الْأُولَى: قِصَّةُ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ

مُوسَى فِي طَرِيقِهِ مِنْ مَدْيَنَ إِلَى مِصْرَ

٧- ﴿إِذْ قَالَ مُوسَى لِأَهْلِهِ إِنِّي^(١) آنَسْتُ نَارًا سَائِغًا مِنهَا يُخْبِرُ أَوْ أَنِيكُمْ بِشَهَابٍ^(٢) فَبَسَّ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ﴾

تحدث هذه الآيات عن كيفية تنزل الوحي على نبي الله موسى عليه السلام، وكيف تلقى التكليف من ربه، كما تلقاها محمد ﷺ ﴿وَكَلَّا فَقُصَّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الرُّسُلِ مَا نُثِثُ بِهِ فُؤَادَكَ﴾ [هود: ١٢٠]. وهذه الأنباء بدأت هنا بتلقي موسى للوحي.

فاذكر - يا محمد - حينما رجع موسى من مدين وهو في طريقه إلى مصر، وقد اقتربت نبوته، بعد أن قضى في مدين أكثر من عشر سنوات، وتزوج بنت الشيخ الكبير، وأخذها معه هي وابنين صغيرين لهما، وكانت حاملاً في شهر الولادة، وبينما هو في طور سيناء ضل الطريق في ليلة باردة مظلمة، فأبصر ناراً من بعيد، وهذه النار رآها موسى وحده، وزوجته لم ترها، وهي ليست ناراً في الحقيقة، ولكنها نور، فقال لأهله: انتظروا في هذا المكان إني أبصرت ناراً، سأتيكم منها بخبر يرشدنا إلى الطريق، ويدلنا عليه، ولعلي أجد أهل بيت يستضيئوننا، أو آتيكم بشعلة أو جمرة من هذه النار، فتشعلون بها حطباً تستدفئون به في هذه الليلة الباردة، كما في قوله تعالى: ﴿لَعَلَّيْ أَنِيكُمْ مِنْهَا يُخْبِرُ أَوْ جَذَوْقٍ مِنَ النَّارِ﴾

(١) قرأ نافع وابن كثير وأبو عمرو وأبو جعفر بفتح ياء الإضافة وصلّاً من (إني آنست)، والباقون بإسكانها.

(٢) قرأ عاصم وحزمة والكسائي ويعقوب وخلف بتونين (شهاب)، على القطع عن الإضافة، و(قبس) بدل

منه أو صفة له، والباقون بترك التونين، على الإضافة وهي بمعنى: من.

[القصص: ٢٩]. وفي قوله: ﴿لَعَلَّيْنا بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ النَّارِ هُدًى﴾ [طه: ١٠].

مُنَاجَاةُ اللَّهِ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ

٩، ٨- ﴿فَلَمَّا جَاءَهَا نُودِيَ أَنْ بُورِكَ مَنْ فِي النَّارِ وَمَنْ حَوْلَهَا وَسُبِّحَنَ اللَّهُ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٨﴾ يَمْوَسَّىٰ إِنَّهُ أَنَا اللَّهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٩﴾﴾

أي: فلما اقترب موسى من هذه النار، وجدها تشتعل في شجرة خضراء وهي لا تحرقها، ولا تزداد هذه النار إلا توقُّدًا، ولا تزداد الشجرة إلا خُضرة ونُضرة، فلما اقترب منها بُعِدَتْ عنه، ثم نظر إلى أعلى متعجبًا مما رأى، فوجد هذا النور متصلًا بعنان السماء، فهي نور ظنَّها موسى نارًا، وجاءه النداء الإلهي من جهة الشجرة، فسمعه موسى، كما في قوله جَلَّ شأنه: ﴿إِنِّي أَنَا رَبُّكَ فَاخْلَعْ نَعْلَيْكَ إِنَّكَ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى ﴿١٢﴾ وَأَنَا اخْتَرْتُكَ فَاسْتَمِعْ لِمَا يُوحَىٰ ﴿١٣﴾ إِنَّنِي أَنَا اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدْنِي وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي﴾ [طه].

والذي في النار، تشير إليه الآية في قوله تعالى: ﴿أَنْ بُورِكَ مَنْ فِي النَّارِ وَمَنْ حَوْلَهَا﴾ وهو موسى عليه السلام؛ لأنه قد حلَّ في موضع النور، وصار محيطًا به من كل جانب، فأخبره الله تعالى أن هذا مكان مقدس مبارك، ومن بركته أن جعله الله مكانًا لتكليم موسى وندائه واصطفائه لرسالته.

والذي حول النار هو جبريل أمين الوحي، وكذا الملائكة الذين وُكِّلَ إليهم إنارة المكان وتقديسه.

ولفظ: ﴿أَنْ بُورِكَ﴾ تحية من الله تعالى إلى موسى عليه السلام، فقد بارك الله مَنْ في النار وهو موسى، وبارك مَنْ حول النار وهم الملائكة، وبارك المكان والبقعة التي كلَّم الله فيها موسى، وهكذا بارك الله أرض الشام بقوله: ﴿وَجَعَلْنَاهُ لُوطًا إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا لِلْعَالَمِينَ ﴿٦١﴾﴾ [الأنبياء]. وهذه التحية من الله تعالى لموسى عليه السلام، كما حيَّت الملائكة إبراهيم عليه السلام بقولها: ﴿رَحِمْتُ اللَّهَ وَبَرَكَتُهُ عَلَيْكُمْ أَهْلَ الْبَيْتِ﴾ [هود: ٧٣]. وفي تحية موسى عليه السلام مؤانسة وبشارة له، ومقدمة لمناجاته.

وأما طهارة المكان وتقديسه؛ فذلك لاختياره موضعًا لنزول الوحي والرسالة على موسى

ﷺ، وظهور معجزاته فيه.

قيل: كان في داخل هذا النور ملائكة، يقدسون الله ﷻ، ويسبحون بحمده، ولهم أصوات مسموعة، فنودي أن بوركت يا موسى، وبوركت الملائكة الذين هم داخل هذا النور، وبورك من حول هذا النور من الملائكة المكرمين؛ إذ حدث أمر عظيم هذه الليلة، هو تكليم الله تعالى لموسى ﷺ؛ ليكون نبيًا رسولًا.

قال تعالى: ﴿فَلَمَّا أَتَاهَا نُودِيَ مِنْ شَاطِئِ الْوَادِ الْأَيْمَنِ فِي الْبُقْعَةِ الْمُبَارَكَةِ مِنَ الشَّجَرَةِ أَنْ يَكُونِي مِنْكُمْ فَأَنذَرْتَهُمْ أَنَّهُمْ أَكْثَرُ الْكَافِرِينَ﴾ [القصص].

والمعنى: أن الله تعالى نادى موسى، وأخبره أن هذا مكان قدسه الله وباركه، وجعله موضعًا لكلامك وإرسالك، وأن الله تعالى بارك مَنْ في النار، ومن حولها.

وقيل: كانت النار التي رآها موسى هي النار بعينها، وهي إحدى عجائب الله ﷻ.

كما جاء عن أبي موسى الأشعري ؓ قال: قام فينا رسول الله ﷺ، فقال: «إن الله عز وجل لا ينام، ولا ينبغي له أن ينام، يخفض القسط ويرفعه، يُرفع إليه عمل الليل قبل النهار، وعمل النهار قبل الليل، حجابه النور، لو رفع الحجاب لأُحرقت سُبحات وجهه كل شيء أدركه بصره». ثم قرأ أبو عبيدة: ﴿أَنْ بُورِكَ مَنْ فِي النَّارِ وَمَنْ حَوْلَهَا﴾^(١).

وصحَّ في رواية أبي بكر ؓ: «حجابه النار لو كشفها لأُحرقت سُبحات وجهه ما انتهى إليه بصره من خلقه»^(٢). وفي بعض الروايات (حجابه النور).

والمراد بالحجاب: الحائل المانع من رؤيته تعالى في الدنيا دون الآخرة، فهو سبحانه محتجب عن خلقه بأنوار عزه وجلاله، وهو حجاب يختلف عن الحجب المعهودة، ولو كشف الله ذلك الحجاب لم يبق مخلوق إلا احترق.

(١) البيهقي في «الأسماء والصفات» (٣٩١) وفي مسند أحمد (١٩٥٨٧) بإسناد صحيح (محققوه) والطيالسي (٤٩١) وأبو الشيخ في «العظمة» (١١٩) وابن ماجه (١٩٥) وابن أبي حاتم (٢٨٤٤/٩) وهو في «صحيح سنن ابن ماجه» (١٦١، ١٦٢) بسند صحيح وفي «ظلال الجنة» (٦١٤) و«تخريج شرح الطحاوية» (٥٢) و (١٧١) وثلاثتها للألباني.

(٢) «صحيح مسلم» برقم: (١٧٩).

وَالسُّبْحَات: أضواء الوجه أو محاسنه، وهو سبحانه محيط بجميع الكائنات مع وجود الحجاب.

وفي التوراة: جاء الله من سيناء، وأشرف من ساعير، واستعلى من جبال فاران.

ومعنى مجيئه تعالى من سيناء: بعثه موسى ﷺ، ومعنى مجيئه من ساعير: بعثه عيسى ﷺ، ومجيئه تعالى من جبال فاران معناه: بعثه محمد ﷺ.

وفي آخر الآية ينزه الله - سبحانه - نفسه، بأنه لا يشبهه شيء في ذاته ولا في صفاته، وفي هذا إعلام لموسى أن كلام الله له لا يشبهه كلام المخلوقين، ويعلمنا سبحانه كيف ننزه ربنا عما لا يليق بجلاله.

وبين يدي ما سئلني إلى موسى ﷺ من وحي، أعلمه الله تعالى أمرًا يجب العلم به أولًا، وهو أن الله تعالى لا يصعب عليه شيء، ولا يغلبه أمر، فاعلم يا موسى، أنني موح إليك، وأني اصطفتك لرسالتي، وفي هذا تثبيت له ﷺ، ورباط لجأشه؛ ليعلم أن النبوة قد خلعت عليه، وليعلم أنه سيتعرض لأذى، وأن الله تعالى مؤيده وناصره، وأن ما شاهده من النار، وما سيشاهده من قلب العصا حية، ليس بعجيب على قدرة الله تعالى.

مُعْجَزَةُ الْعَصَا وَقَتْلُ الْمِصْرِيِّ

١١، ١٠ - ﴿وَأَلْقِ عَصَاكَ فَلَمَّا رَآهَا^(١) تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَانٌّ وَلَّى مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ يَمُوسَى لَا تَخَفْ إِنِّي لَا يَخَافُ لَدَيَّ^(٢) الْمُرْسَلُونَ ﴿١٠﴾ إِلَّا مَنْ ظَلَمَ ثُمَّ بَدَّلْ حُسْنًا بَعْدَ سُوءٍ فَإِنِّي غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿١١﴾﴾

كان موسى يلبس جبة، أو درعًا من صوف ليس له أكمام، ولا أزرار، وكان يحمل عصاه على كتفه فيها حبل ماشيته (دابته) وهي عصا، كان صهره شعيب ﷺ قد أعطاها له عند خروجه من مدين، فأراد الله سبحانه أن يظهر لموسى ﷺ دلالة على أنه رسول مصطفى من عند الله تعالى، فقال له: ألق عصاك، وقد خلق الله في هذه العصا حياة، وغير أوصافها وأغراضها، فصارت حية، فألقاها فإذا هي كالجان، أي: الحية الصغيرة، كثيرة الحركة، وسريعة خفيفة، فلما رآها تهتز كأنها جانٌّ، تعجّب موسى كيف تحولت

(١) قرأ الأصهباني بتسهيل همزة (رأها) وصلًا ووقفًا، وكذا حمزة عند الوقف.

(٢) وقف يعقوب على (لدي) بهاء السكت بخلف عنه، ومثلها (عليّ) و (لديّ) في الآية التاسعة عشرة.

العصا إلى حية؟! فولّى راجعاً ولم يتردد، ولم يلتفت خلفه؛ لأنه لم يخطر بباله أن عصاه تتحول إلى حية تسعى وتحرك، حينئذ طمأنه ربه، وناداه ﷺ قائلاً: ﴿يَمُوسَى لَا تَخَفْ إِنِّي لَا يَخَافُ لَدَى الْمُرْسَلُونَ﴾ وأخذ موسى الحية فرجعت عصا، والخوف الذي حصل لموسى هو الرعب من انقلاب العصا حية، وليس خوفاً من شيء آخر.

واستثناء الظلم في هذه الآية عام، ويدخل فيه قصة قتل موسى للقبطي، فقد استثنى الله - سبحانه - مَنْ ظلم نفسه بذنب ارتكبه ثم تاب، فبدّل قُبْح الذنب بِحُسْن التوبة، وهذا معنى ﴿ثُمَّ بَدَّلْ حُسْنًا بَعْدَ سُوءٍ﴾ أي: لجأ إلى الله تعالى فرجع إليه وأتاب، وبدّل السيئات بعمل الحسنات، فإن الله تعالى غفور له رحيم به، فلا ييأس أحد من رحمة الله ومغفرته، ولذلك قال الحق سبحانه: ﴿وَمَنْ يَعْمَلْ سُوءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ اللَّهَ يَجِدِ اللَّهَ غَفُورًا رَحِيمًا﴾ [النساء].

وقال: ﴿وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِمَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا ثُمَّ اهْتَدَى﴾ [طه]. هذا هو المعنى العام. وقالوا: في هذا الاستثناء ﴿إِلَّا مَنْ ظَلَمَ﴾ أنه إشارة إلى القبطي الذي قتله موسى خطأ بوكّزه إياه قبل اصطفائه للرسالة، وأن الله تعالى قد غفر لموسى قتل خصمه في مصر، وكان موسى ﷺ قد أناب إلى الله تعالى، واستغفره قائلاً: ﴿رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَاغْفِرْ لِي فَغَفَرَ لَهُ﴾ [القصص: ١٦]. فالله ﷻ يطمئنه في هذه الآية بأن من ظلم نفسه قبل أن يرسل نبياً بذنب ارتكبه كما حدث لك، فإن الله غفور لك رحيم بك.

وعلى المعنى الأول يكون الاستثناء منقطعاً، وعلى المعنى الثاني، يكون الاستثناء متصلاً. وعلى كلا الاحتمالين فيؤخذ من الآية: أن الرسل لا يخافون شيئاً من المخلوقات؛ لأن الله تعالى قد تكفّل لهم بالسلامة، ولا يخافون الذنوب؛ فإن الله تعالى قد تكفّل لهم بالعصمة من الصغائر والكبائر، ولا يخافون عقاباً على الذنوب؛ لأنهم لا يقربونها، وأن مَنْ عداهم إن ظلم نفسه ثم بدّل حُسناً بعد سوء آمن من العقاب؛ لأنه قد تدارك ظُلْمه بالتوبة، وإن ظلم نفسه ولم يتب فإنه يخاف من عقوبة الذنب؛ لأن من لم يظلم نفسه فلا خوف عليه، فهذه معاني دل عليها الاستثناء باحتماليه^(١).

(١) يُنظر: «تفسير ابن عاشور» للآية.

مُعْجَزَةُ الْيَدِ وَبَقِيَّةُ الْمُعْجَزَاتِ التَّسْعِ

١٢، ١٣ - ﴿وَأَدْخَلَ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجُ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوِّ فِي تِسْعِ آيَاتٍ إِلَى فِرْعَوْنَ وَقَوْمِهِ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ﴾ (١٢) فَلَمَّا جَاءَتْهُمْ آيَاتُنَا مُبْصِرَةً قَالُوا هَذَا سِحْرٌ مُبِينٌ ﴿١٣﴾

وبعد أن أرى الله موسى انقلاب العصا حية، أراه آية أخرى؛ ليطمئن قلبه عند لقاء فرعون بتأييد الله له، فلفت الله - سبحانه - نظره إلى معجزة أخرى بقوله: ﴿وَأَدْخَلَ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ﴾ الجيب: هو فتحة الثياب من أعلى، وهي التي يدخل فيها الرأس مع فتحة الصدر.

وضع موسى يده تحت إبطه من فتحة الصدر وأخرجها، وكان رجلاً أسمر اللون، فإذا هي بيضاء كالثلج، لها شعاع كشعاع الشمس، من غير برص ولا مرض.

وهذه اليد آية، ضمن معجزات تسع، أيّد الله بها موسى؛ لتكون برهاناً له على رسالته أمام فرعون وقومه.

والآيات التسع هي: العصا، واليد، والطوفان، والجراد، والقمل، والضفادع، والدم، والقحط، وانفلاق البحر وهو أعظمها، وقد جمعها الفيروز أبادي في القاموس - مادة تسع - في قوله: عصا، سنّة، بحر، جراد، وقمل، يد، ودم، بعد الضفادع، طوفان.

وتحديد الآيات بالتسع لا ينفي أن لموسى ﷺ معجزات أخرى مثل: تنق الجبل فوق بني إسرائيل، وضرب الحجر بالعصا، ونبع الماء منه، واليمن والسلوى، وتظليل الغمام، والطمس، وغير ذلك آيات كثيرة أيّد الله بها موسى ﷺ، وأرسله إلى فرعون وقومه أكبر طاغية في الأرض، ثم علل الله - سبحانه - كثرة هذه المعجزات، بأنهم كانوا قوماً خارجين عن شرع الله، عابدين لغيره، فكانت هذه المعجزات حجة عليهم، فقد ذهب موسى ﷺ إلى فرعون وملئه، وأطلعهم على هذه الآيات، ودعاهم إلى الإيمان بالله تعالى، فما كان منهم إلا أنقالوا ﴿هَذَا سِحْرٌ مُبِينٌ﴾ أي سحر ظاهر لكل أحد.

لقد كان موقف فرعون وقومه بعد أن جاءتهم آياتنا مبصرة بهذه المعجزات، واضحة ظاهرة، يُبصر بها مَنْ نظر إليها حقيقة ما دلّت عليه، ومع ذلك فقد أنكروها، وزعموا أنها سحر بين.

إِنْكَارُ التَّوْحِيدِ مُخَالَفَةٌ لِلْفِطْرَةِ

١٤- ﴿وَحَمِّدُوا بِهَا وَاسْتَيْقِنَتْهَا أَنْفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ ﴿١٤﴾﴾

أي: إن الفراعنة لما رأوا الآيات التي أيد الله بها موسى، كفروا بها عن إصرار وعمد، وهم يعرفون أن موسى عليه السلام على حق، وليس لهم عذر في حربه، ومع ذلك أنكروها في ظاهر الأمر، وقلوبهم تصدّقتها، ولكن الاستكبار والاستعلاء، والعناد والحسد، والتمسك بما عليه الآباء، هو الذي جعلهم يُكذِّبون بمعجزات موسى التسع، الدالة على صدقه في دعوى النبوة، فأنكروها بالستتهم، واستيقنوها بقلوبهم، حتى لا يعترفوا به، ولا يؤمنوا برسالته.

قال قتادة في الآيات التسع: يدّ موسى، وعصاه، والطوفان، والجراد، والقمل، والضفادع، والسنين في بواديهم ومواشيهم، ونقص من الثمرات في أمصارهم. ثم قال في ﴿وَحَمِّدُوا بِهَا﴾: كذبت القوم بآيات الله بعد ما استيقنتها أنفسهم أنها حق، والجحود لا يكون إلا من بعد المعرفة^(١).

فانظر -يا رسولنا- كيف كان عاقبة الذين كفروا بآيات الله، وأفسدوا في الأرض، إذ أغرق الله فرعون وقومه، وجعله عبرة على مدى الأزمنة والأمكنة لمن يعتبر ويتعظ.

فاحذروا -أيها المكذبون لرسالة محمد عليه السلام - أن تكونوا مثلهم، فيصيبكم ما أصابهم.

وقد طوي بساط قصة موسى عليه السلام، فانتقل إلى العبرة منها، والاكتفاء بذلك، بما يتناسب مع هدف السورة وأسلوبها، ومن ثم لبسط قصة داود وسليمان في هذه السورة.

الْقِصَّةُ الثَّانِيَّةُ: قِصَّةُ دَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ عَلَيْهِمَا السَّلَامُ

١٥- ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ عِلْمًا وَقَالَا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي فَضَّلَنَا عَلَى كَثِيرٍ مِّنْ عِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٥﴾﴾

هذه الآية وما بعدها لبيان قصة داود وسليمان عليهما السلام، وداود بن يسى، من سبط يهوذا، من بني إسرائيل.

وقد وُلد (داود) سنة خمس وثمانين وألف قبل الميلاد، في (بيت لحم)، وكان يرعى

(١) ابن أبي حاتم (٩/٢٨٥١).

غنم أبيه (يسى) فأمر الله النبي (شمويل) أن يجعل داود ملكاً مدة ملك طالوت، وظل داود ملكاً ونبيّاً على بني إسرائيل مدة أربعين سنة، وهو الذي قتل جالوت، وتوفي داود عليه السلام سنة ألف قبل الميلاد.

وولد ابنه (سليمان عليه السلام) سنة ثلاثة وأربعين وألف قبل الميلاد (بأورشليم)، وتوفي سنة خمس وسبعين وتسع مئة قبل الميلاد، وقد آتاهما الله علماً واسعاً من علوم الدنيا والدين، وآتاهما النبوة والعلم، والحكمة، والقضاء والسياسة، والفصل بين الناس، وتكليم الشياطين والطير والدواب، وغير ذلك، مما خصهما الله به، وكل منهما شكر ربه على فضله وإنعامه، وفي هذا إشارة إلى فضل العلم وشرف أهله، وقد أنزل الله الزبور على داود، وكان يقرؤه بصوت جميل، كما علّمه الله صناعة الدروع، وكانت الجبال والطير تسبح الله معه، قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا دَاوُدَ مِنَّا فَضْلًا يَجَالُ أَوْبِي مَعَهُ وَالطَّيْرُ وَأَلْنَا لَهُ الْحَدِيدَ﴾ [سبأ].

وقال: ﴿وَعَلَّمْنَاهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَّكُمْ لِنُخْصِنَكُمْ مِنْ بَأْسِكُمْ فَهَلْ أَنْتُمْ شَاكِرُونَ﴾ [الأنبياء].

وقال: ﴿وَأَذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُدَ ذَا الْأَيْدِ إِنَّهُ أَوَّابٌ﴾ (٧) ﴿إِنَّا سَخَرْنَا الْجِبَالَ مَعَهُ يُسَبِّحْنَ بِالْعَشِيِّ وَالْإِشْرَاقِ﴾ (٨) ﴿وَالطَّيْرَ مَحْشُورَةً كُلٌّ لَهُ أَوَّابٌ﴾ (٩) ﴿وَسَدَدْنَا مُلْكَهُ وَءَاتَيْنَاهُ الْحِكْمَةَ وَفَصَّلَ الْخُطَابِ﴾ [ص].

وقال تعالى عن داود وسليمان عليهما السلام: ﴿وَكَلَّأْنَا هُكْمًا وَعِلْمًا﴾ [الأنبياء: ٧٩].

وقد حمد داود ربه أن جعلهما من خواص المؤمنين أهل السعادة، فالمؤمنون أربع درجات: النبيون ثم الصديقون ثم الشهداء ثم الصالحون، وداود وسليمان من خواص الرسل، وقد مدحهما الله تعالى في كتابه مدحاً عظيماً، وهذا عنوان السعادة، فلما مدحهما معاً، خص سليمان بالذكر، فقد أعطاه الله نبوة وملكاً لا ينبغي لأحد من بعده.

سُلَيْمَانُ يَعْلَمُ مَنْطِقَ الطَّيْرِ

١٦- ﴿وَوَرِثَ سُلَيْمَنُ دَاوُدَ وَقَالَ يَتَاءَتِيهَا النَّاسُ عِلْمَنَا مَنْطِقَ الطَّيْرِ وَأُوتِينَا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْفَضْلُ الْمُبِينُ﴾ (١١)

وبعد هذه الإشارة إلى نبي الله داود عليه السلام، انفردت الآيات التالية بقصة سليمان عليه السلام ﴿وَوَرِثَ سُلَيْمَنُ دَاوُدَ﴾ هذه الوراثة وراثة نبوة وملك، وراثة في العلم والحكمة، وليست

كما يرث أولياء الدم آباءهم في الملك، ولا في المال؛ لأن الأنبياء لا تورث، وقد ورث سليمان علم أبيه وبُنوته إلى جوار علمه وبُنوته.

في الحديث: عن عائشة رضي الله عنها أن رسول الله ﷺ قال: «لا نورث ما تركناه صدقة»^(١).

ولو كان هذا الميراث في المال لكانت القسمة بين أبناء داود الأحد عشر جميعاً، ولكن سليمان هو الابن الوحيد الذي ورث أباه في النبوة والعلم، وفي الملك أيضاً، مع أنه ليس أكبر إخوانه.

ويبدو أن مُلك سليمان لم يكن شاملاً للأرض كلها بما فيها من: إنس، وجن، وطيور؛ بدليل وجود مملكة بلقيس في اليمن، ومملكة مصر، والأظهر أن مملكة سليمان كانت تشمل: فلسطين، والأردن، ولبنان، وسوريا، وتخوم مصر، وبحر الروم، والعراق إلى ضفة الفرات^(٢).

عَلَّمَ الله سليمان لغة الطير والدواب وسخرها له

وقد سَخَّرَ الله لسليمان طائفة من كل أمة، في عالم الإنس والجن والطيور، ثم شكر سليمان ربه على ما منحه من علم ومُلك ﴿وَقَالَ يَتْلِيَهَا أَلْأَنَاسُ عَلَّمْنَا مَطَاقَ الطَّيْرِ﴾ عن طريق الوحي، بمعرفة دلالة أصوات الطيور على ما في ضمائرها، وهذه خاصية لسليمان ﷺ أن عَلَّمَهُ الله لغة الطير، ولغة الدواب، كما يفهم الإنسان لغة أخيه الإنسان، واقتصرت الآية على ذكر الطير؛ لأنها أسرع من غيرها نفوراً عن الإنسان، فنفور غيرها يكون من باب أولى.

وقد ذكر القرآن الكريم أن سليمان فَهِمَ ما قالته النملة وتبسم ضاحكاً من قولها، وأنه فَهِمَ ما قاله الهدهد، وأرسل معه رسالة إلى بلقيس ملكة سبأ.

وجاء عن كعب الأحبار، وابن عباس، ومكحول:

١- أن سليمان ﷺ سمع صوت طائر، فقال: إنه يقول: لِدُوا للموت، وابْنُوا للخراب.

٢- وسمع صوت طاووس، فقال: إنه يقول: كما تدين تُدان.

(١) من حديث عائشة في «البخاري» برقم: (٦٧٢٧) وانظر: (٤٠٣٤) وفي «مسلم» مطولاً (١٧٥٨) وذلك دون لفظ: (نحن معاشر الأنبياء) فهو غير صحيح بهذا اللفظ كما في «فتح الباري» (٨/١٢).

(٢) يُنْظَرُ: الإصحاح الرابع من سفر الملوك الأول.

- ٣- وسمع صوت هدهد، فقال: إنه يقول: من لا يرحم لا يُرحم.
- ٤- وسمع البلبل يقول: أكلت نصف مرة، فعلى الدنيا العفاء.
- ٥- وصاح جرد، فقال: إنه يقول: استغفروا ربكم يا مذبذبين.
- ٦- وسمع صوت الحداة، فقال: إنها تقول: كل شيء هالك إلا وجهه.
- ٧- وسمع نقيع الضفدع، فقال: إنها تقول: سبحان الملك القدوس.
- ٨- وسمع هديل الحمامة، فقال: إنها تقول: سبحان ربي الأعلى ملء سماواته، وملء أرضه.
- ٩- وصاحت طيطوى، فقال: إنها تقول: كل حي ميت، وكل جديد بال.
- ١٠- والديك يقول: اذكروا الله يا غافلين.
- ١١- والنسر يقول: يابن آدم عش ماشئت فإن آخرك الموت.
- ١٢- والفرس يقول: سبوح قدوس رب الملائكة والروح.
- ١٣- والزرزور يقول: أسألك قوت يوم بيوم يا رزاق.
- وهكذا علّم الله سليمان منطق الطير والدواب، مع أن أصواتها تختلف من حال إلى حال:
- فصهيل الفرس حينما تريد الطعام، غير صهيلها حينما تريد ذكرها.
- وصوتها حينما تُضرب وتألّم، غير صوتها حينما تُنادي على رضيعها ليرضع.
- ومواء القط يختلف حينما يُحبس عنه الطعام.
- وأكمل سليمان كلامه تحدثاً بنعمة الله عليه، فقال: ﴿وَأَوْتَيْنَا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ﴾ أي: أعطانا الله من كل ما هو نافع، فيه خير الدنيا والآخرة، وهو فضل واضح يميزنا عن سوانا ﴿إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْفَضْلُ الْمُبِينُ﴾.
- ومثل ذلك أن النبي ﷺ كان يسمع أصوات الحجارة وهي تسلم عليه، وسمع حنين الجذع له، وسمع شكوى البعير الذي يضربه صاحبه، وهكذا. قال تعالى:

مُلْكٌ لَا يَنْبَغِي لِأَحَدٍ قَبْلَ سُلَيْمَانَ وَلَا بَعْدَهُ

١٧- ﴿وَحِشْرَ لِسُلَيْمَانَ جُنُودُهُ مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ وَالطَّيْرِ فَهُمْ يُوزَعُونَ﴾ (١٧)

وهب الله سليمان مُلْكًا لا ينبغي لأحد من بعده، فسخر له ثلاثة أصناف من المخلوقات هي: الجن لتوجيه القوى الخفية، والتأثير في الأمور الروحية، والإنس لتنفيذ أوامره، وحراسة مملكته ومحاربة عدوه، كما سخر الله له الطير لتوجيه الأخبار والرسائل إلى قواده وأمرائه.

واكتفت الآية بهذه الثلاثة الرئيسة دون ذكر الخيل والريح، وغيرهما.

وجُمع لسليمان عساكره وجنوده، وأُحضرت له في مسيرة كبيرة، فيها هذه الطوائف الثلاث، يتقدمهم سليمان وهم في صفوف منتظمة، على كل صف منها نقيب يرُدُّون أولاها على أخراها، بحيث لا يتقدمون في المسير عليه، فهم على كثرتهم غير مهملين، وهذا معنى ﴿فَهُمْ يُوزَعُونَ﴾ أي: يمنعون من التقدم بين يديه في المسير، فهم يسيرون في أسراب منتظمة، كل جنس مع بعضه، آخرهم لا يتقدم على أولهم، وهم منظمون في سيرهم ونزولهم وحلهم وترحالهم، وكلها مؤتمرة بأمر سليمان ليس في وسعها أن تعصاه.

وعن كعب الأحبار: أن سليمان مرَّ ضمن ما مرَّ على مدينة الرسول ﷺ، فقال: هذه دار هجرة نبي يكون في آخر الزمان، طوبى لمن آمن به، وطوبى لمن اتبعه.

قِصَّةُ النَّمْلِ

١٨- ﴿حَتَّىٰ إِذَا أَتَوْا عَلَىٰ وَادِ النَّمْلِ قَالَتْ نَمْلَةٌ يَأَيُّهَا النَّمْلُ ادْخُلُوا مَسَكِنَكُمْ لَا يَحْطُمَنَّكُمْ﴾ (١)

سُلَيْمَانُ وَجُنُودُهُ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ (١٨)

يذكر القرآن قصة النمل من بين هذا الفضل الذي أُعطي لسليمان، حتى إذا وصل سليمان إلى وادي النمل وهو يقع بظاهر عسقلان في فلسطين، بين غزة وأسدود^(٢).

(١) قرأ رويس بإسكان النون من (لا يحطمنكم) على أنها تأكيد خفيفة، والباقون بتشديدها.

(٢) اطلس القرآن، قصة سليمان عليه السلام.

والنمل: اسم جنس لحشرات صغيرة، ذات ستة أرجل، تسكن في شقوق من الأرض، وهي متفاوتة في الحجم، ومفردها نملة، وتاء التأنيث علامة الوحدة، ولا تدل على تذكير أو تأنيث، ومثلها: حمامة وشاة.

ثم كيف عرفت النملة سليمان وجنوده؟ وكيف فهم سليمان لغة النملة؟ وكيف وجَّهت أخواتها من النمل أن ادخلوا مساكنكم حتى لا يطأكم سليمان وجنوده فيهلكوكم بأقدامهم وهم لا يروؤنكم، ولا يشعرون بكم، ولا يعلمون عنكم شيئاً؟

علم ذلك عند الله، فهو أمر من أعجب العجائب، ولفظ ﴿لَا يَحِطُّ بِكُمْ﴾ من النملة، يفيد أن النمل على صغر حجمه لا يقتل بسهولة، وأن الإنسان إذا داس عليه بقدمه فإنه لا يموت، إلا إذا استعمل معه قوة أخرى كالحرق أو الفرك الشديد المتتابع، وهذا من فقه النملة، فإن التحطيم لا يكون إلا في الزجاج، والأشياء الصلبة المماثلة، وقد سمع سليمان قولها وفهمه.

لقد رفضت النملة أن تدخل مسكنها قبل أن تنصح قومها ليدخلوا معها، فتخلَّت عن الأنانية، ونادت ونبَّهت النمل، وخاطبته امرأة له ألا يُعرِّض نفسه للخطر، فحذَّرتُه من سليمان وخصصت جنوده بالذكر، ونصَّت على نوع الخطر المحدق بهم، ثم اعتذرت عن الجنود بأنهم لا يشعرون، وخاطبت قومها خطاب العقلاء الذين يسمعون فيفهمون، ويفهمون فيميزون ويستجيبون، ولو أنها درست وأوتيت كل بلاغة، ما قالت ما قالته، فسبحانك اللهم خير معلم.

١٩- ﴿فَتَبَسَّ ضَاحِكًا مِّن قَوْلِهَا وَقَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي^(١) أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَلَدَيْكَ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ وَأَدْخِلْنِي رَحِمَتَكَ فِي عِبَادِكَ الصَّالِحِينَ﴾

تبسم سليمان ضاحكاً من قول النملة، واهتزت نفسه لفهمها واهتدائها إلى تحذير النمل، والتبسم أضعف حالات الضحك، وضحك الأنبياء هو التبسم، وأما القهقهة فليست لهم، وكان تبسم سليمان سروراً من نعمة الله عليه أن أسمعته صوت النملة، وأفهمه معنى كلامها، وتبسم سليمان كذلك من ثناء النملة عليه وعلى جنوده، في كونها نفت عنهم تعمد الفعل القبيح، والتمست لهم العذر، وأنهم لا يشعرون بذلك.

(١) قرأ الأزرق والبزي بفتح ياء الإضافة من (أوزعني أن) وصلًا، والباقيون بإسكانها.

واستشعر سليمان نعمة الله عليه، فأخذ يحمد الله تعالى، ويشكره على هذه النعمة، ويقول: رب وفقني واجعلني ملازمًا شكر نعمتك التي أنعمت عليّ وعلى والدي، وذكر الوالدين في الآية؛ لأن صلاح الولد نعمة على الوالدين.

ثم دعا سليمان ربه أن يوفقه للعمل الصالح الذي يحبه ويرضاه، فقال: ﴿وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا﴾ واسترسل سليمان في دعائه قائلاً: ﴿وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ الصَّالِحِينَ﴾ الذين ارتضيت أعمالهم ورضيت عنهم.

ورد أن سليمان عليه السلام خرج يستسقي، فوجد نملة قد استلقت على ظهرها، ورفعت قوائمها إلى السماء وهي تقول: اللهم إنا خلق من خلقك، ولاغنى بنا عن رزقك، فإما أن تسقينا، وإما أن تهلكنا، فقال سليمان للناس: ارجعوا فقد سقيتم بدعوة غيركم^(١).

وفي الحديث: عن أبي هريرة رضي الله عنه، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «قرصت نملة نبياً من الأنبياء، فأمر بقرية النمل فأحرقت، فأوحى الله إليه: أَمِنْ أَجْلِ نَمْلَةٍ قَرَصَتْكَ، أَهْلَكْتَ أُمَّةً مِنَ الْأُمَمِ تُسَبِّحُ؟ فَهَلَّا نَمْلَةٌ وَاحِدَةٌ»^(٢).

قال تعالى: ﴿وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّا أُمَمٌ أَمْثَلُكُمْ﴾ [الأنعام: ٣٨]. وأخرج ابن أبي حاتم عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: كنت عند عمر بن الخطاب، فدخل علينا كعب الجبري، فقال: يا أمير المؤمنين، ألا أخبرك بأغرب شيء قرأت في كتب الأنبياء؟! إن هامة -أي: طائر، قيل: هي البومة- جاءت إلى سليمان، فقالت: السلام عليك يا نبي الله، فقال: وعليك السلام يا هأم، أخبريني كيف لا تأكلين الزرع؟ فقالت: يا نبي الله؛ لأن آدم عصى ربه بسببه، لذلك لا آكله، قال: فكيف لا تشربين الماء؟ قالت: يا نبي الله؛ لأن الله أغرق بالماء قوم نوح، من أجل ذلك تركت شربه، قال: فكيف تركت العمران وسكنت الخراب؟ قالت: لأن الخراب ميراث الله، وأنا أسكن في ميراث الله، وقد ذكر الله ذلك في كتابه، فقال: ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَرَبٍ بِطَرَتْ مَعِيشَتَهَا﴾ إلى قوله: ﴿وَكُنَّا نَحْنُ الْوَرِثِيُّنَ﴾ [القصص: ٥٨].

(١) أخرجه أحمد في «الزهد» ص ٨٧، وابن أبي شيبة (٣١٢/١٠) وابن أبي حاتم (٢٨٥٨/٩).

(٢) رواية مسلم في صحيحه برقم: (٢٢٤١) والبخاري برقم: (٣٠١٩، ٣٣١٩).

قِصَّةُ الْهُدْهِدِ

٢٠، ٢١- ﴿وَتَفَقَّدَ الطَّيْرَ فَقَالَ مَا لِيَ لَا أَرَى الْهُدْهُدَ أَمْ كَانَ مِنَ الْغَائِبِينَ ﴿٢٠﴾ لَأُعَذِّبَنَّهُ عَذَابًا شَدِيدًا أَوْ لَأَذْبَحَنَّهُ أَوْ لَيَأْتِيَنِي ﴿٢١﴾ بِسُلْطَانٍ مُبِينٍ ﴾

وهذا نموذج آخر من مخاطبة سليمان للطيور، وتعامله معها، ذلكم أن الله ﷻ عندما سخر الطيور لسليمان ﷺ، وعلمه لغتها وفهمه كلامها، وكان الهدهد من جملة جنوده كالحمام الزاجل، والبزاة، والصقور، وتفقد الرعية من واجبات الملوك والأمراء.

ومن حسن تنظيم سليمان لجنوده: تفقد الطيور، لينظر الحاضر منها والغائب، ولزوم كل منها المكان الذي عيّنه لها، وهل هي موجودة كلها أم فقد منها شيء؟

قيل: إنه لما ذهب سليمان من وادي النمل نزل في مكان قفر، وعطش الجيش فنظر، فلم يجد الهدهد في جملة ما تفقد، وكان يدلهم على مكان وجود الماء.

وقيل: إن الشمس دخلت من موضع الهدهد حين غاب، فكان ذلك سبب تفقد سليمان للطيور؛ ليتبين من أين دخلت الشمس^(٢).

فقد كان من جند سليمان هدهد معين له مهمة خاصة؛ حيث كانوا إذا نزلوا بمكان قفر ليس فيه ماء، فإن هذا الهدهد يدُلُّهم بمنقاره على أقرب مكان فيه ماء من هذه الأرض، وكان يدلهم أيضًا عن المسافة التي بين الماء وسطح الأرض، فيستخرجون الماء عن طريق الشياطين، حيث تشق الأرض، وتُفجّر العيون.

وبينما كانت الطيور تُظِلُّ سليمان بأجنحتها أصاب سليمان شيء من حرِّ الشمس، واحتاج الماء، فسأل عن الهدهد.

قلت: ولعل هذا من الإسرائيليات إذ ليس في ذلك خبر صحيح من كتاب ولا سنة، ويستأنس لذكره بما ورد عن ابن عباس رضي الله عنهما.

(١) قرأ ابن كثير بفك النون المشددة من (أو ليأتيني) هكذا (أو ليأتيني) فالتون الأولى للتوكيد والثانية للوقاية، والباقيون بنون واحدة مشددة، على أنها نون التوكيد، وحذفت نون الوقاية للتخفيف.

(٢) «تفسير ابن عطية» (٤/٢٥٥).

فقد سئل ابن عباس رضي الله عنه: كيف تفقّد سليمان الهدهد من بين الطير؟ قال: إن سليمان نزل منزلاً، فلم يدر ما بُعِدَ الماء، وكان الهدهد يدل سليمان على الماء، فأراد أن يسأله عنه ففقده، قيل: كيف ذاك، والهدهد يُنصَّبُ له الفخُّ يُلقى عليه التراب، ويضع له الصبيُّ الحبالَ فيُغيِّبها، فيصيده؟! فقال: إذا جاء القضاء ذهب البصر^(١).

وعند تفقّد سليمان للطير وجد الهدهد - المتميز المعروف - غائباً، فلمّا لم يجده قال: ما لي لا أرى الهدهد الذي أعهد، أم كان من الغائبين؟ أسّره عني سائر، أم غاب عني، فلم أره لغيبته؟ وكيف يذهب من غير إذن؟ إن هذا عصيان يقتضي العقوبة، لأعذّبَنه لتأديبه بنتف ريشه الذي أعهد، أو بسجنه، أو بإلقائه في الشمس، أو نحو ذلك، أو لأذبحَنه عقوبة له بقطع عنقه، أو ليأتيني بحجة قوية، أو بعذر واضح يدفع عنه العقاب عن تخلفه عن موكب الطير، وهذا ثالث الأمور.

قال سفيان بن عيينة، وعبد الله بن شداد: لما قدم الهدهد، قال له الطير: ما خلّفك، فقد أهدر سليمان دمك، فقال: هل استثنى؟ فقالوا: نعم، قال: ﴿لَأُعَذِّبَنَّهُ عَذَابًا شَدِيدًا أَوْ لَأَذْبَحَنَّهُ أَوْ لِيَأْتِيَنِّي سُلْطَانٌ مُّبِينٌ﴾ فقال: نجوت إذا^(٢).

قَبِيلَةُ سَبَأٍ

٢٢- ﴿فَمَكَثَ^(٣) غَيْرَ بَعِيدٍ فَقَالَ أَحَطْتُ بِمَا لَمْ نَحْطَ بِهِ وَجِئْتُكَ مِنْ سَبَإٍ^(٤) بِنَايَ يَقِينٍ﴾

بعد تهديد سليمان، تغيب الهدهد زمناً يسيراً غير بعيد، ثم حضر، فعاتبه سليمان على تغيبه وتخلّفه، وكان الهدهد قد تجول في الفضاء، ووصل إلى بلاد اليمن، فنزل فيها، ولما رجع قال لسليمان: وقد رفع رأسه، وأرخى ذنبه وجناحيه يجرهما على الأرض

(١) ابن أبي حاتم (٢٨٥٩/٩) والحاكم (٤٠٥/٢) وأخرجه ابن أبي شيبة وعبد بن حميد وابن المنذر كما في «الدر المنثور» (٣٤٧/١١).

(٢) «تفسير ابن كثير» (١٨٥/٦).

(٣) قرأ عاصم وروح بفتح الكاف من (فمكث)، والباقون بضمها.

(٤) قرأ البزي وأبو عمرو بفتح همزة (سبأ) من غير تنوين، على أنه ممنوع من الصرف للعلمية والتأنيث، وقرأ قبل بسكون الهمزة، إجراء للوصل مجرى الوقف، والباقون بالكسر والتنوين، على معنى الحيي.

تواضعًا لسليمان، فقال: يا نبي الله، أحطت بما لم تُحط به؛ ففي الأرض من مخلوقات الله، ملوك وممالك لا تعلمها، وقد علمتُ أشياء لا تعلمها، فقد جئتكَ من مدينة (سبأ) بخبر يقين.

وسبأ في الأصل اسم لسبأ بن يشجب بن يعرب بن قحطان، ثم أُطلق هذا الاسم على المدينة المعروفة باليمن، مدينة (مأرب)، وسُمِّي سبأ؛ لأنه أول من سُبي في غزوة، و يشجب هو الذي بنى مدينة (صنعاء)، وابنه عبشمس، أي: ضوء الشمس، أما ابن سبأ فهو حمير.

وقد قُسمت اليمن في السابق إلى ثلاث قبائل هي: اليمنية، والسبئية، والحميرية، وكان على كل قبيلة منهم ملك، وانفردت سبأ بالملك في القرن السابع عشر قبل الهجرة، وكان أهل اليونان يلقَّبون مملكة اليمن باليمن، السعيدة، أخذًا من اليُمن في العربية، وكان عرب اليمن يومئذ صابئة يعبدون الشمس، ثم دخلت فيهم اليهودية زمن بُع من ملوك حمير.

ونعود إلى ما قاله الهدهد لسليمان، قال: وجئتكَ من سبأ بخبر صادق، وأمر هام خطير الشأن، وأنا على ثقة منه.

قِصَّةُ (بَلْقِيسَ) مَلِكَةُ سَبَأَ

٢٣- ﴿إِنِّي وَجَدْتُ امْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ وَأُوتِيَتْ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ﴾

قال الهدهد مفسِّرًا هذا النبأ الذي جاء به:

ومن أعجب ما رأيْتُ في رحلتي، أن امرأة تُسمى بلقيس وهي ملكة لأهل سبأ، وهم يدينون لها بالطاعة، وهي تملكهم وتحكمهم، ولها عرش هائل وكُرسي عظيم تجلس عليه، وعظم العرش يدل على عظمة المملكة وقوة السلطان، وكثرة رجال الشورى.

وقد أُعطيت هذه المرأة من كل شيء من مقتضيات الملك، وأسباب المتاع في الدنيا، ولها عرش عظيم القدر، هو كرسي المملكة الذي تجلس عليه لإدارة مُلكها حين الاجتماع برعيتهما.

وبلقيس كان أبوها شرحبيل، من نسل يعرب بن قحطان، وكان ملكًا على اليمن، ولم يُنجب ذكورًا، فاستولت هي على الملك، إرثًا عن والدها، وكانت هي وقومها مجوسًا

يعبدون الشمس.

وأم بلقيس: ريحانة بنت السكن ابنة ملك الجن، كان قد تزوجها أبوها لما لم يجد أحداً كفواً له من الإنس.

جاء في الأثر: أن أحد أبوي بلقيس كان جنياً^(١) فلما مات أبوها طمعت في الملك، وطلبت من قومها أن يبايعوها، فأطاعها قوم وأبى آخرون.

وفي البخاري: عن أبي بكرة رضي الله عنه أن النبي ﷺ لما بلغه أن أهل فارس قد ملكوا عليهم بنت كسرى قال: «لن يفلح قوم ولوا أمرهم امرأة»^(٢).

الْهْدُودُ يُوحِدُ اللَّهَ وَيُنْكِرُ الشِّرْكَ

٢٤- ﴿وَجَدْتَهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّيْثِ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَزَيْنَ لَهُمْ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ فَهُمْ لَا يَهْتَدُونَ﴾^(١٤)

الهدهد يعرف التوحيد من الشرك، فقد عرف أن القوم مشركون بالله، يعبدون الشمس من دون الله، وقد زين لهم الشيطان ما هم عليه من باطل فأرأوه حقاً

يقول الهدهد لسليمان: وجدتُ بلقيس وقومها معرضين عن عبادة الله تعالى، وحسن لهم الشيطان أعمالهم السيئة بشركهم ومعصيتهم، وكفرهم بخالقهم، فعبدوا الشمس من دون الله، وصرفهم ذلك عن الإيمان بالله وتوحيده؛ فهم بسبب ذلك لا يهتدون إلى معرفة الله تعالى وعبادته وحده، ثم قال الهدهد:

(١) ورد هذا في حديث أبي هريرة بسند ضعيف عند ابن جرير (٨٣/١٨) وأبي الشيخ (١١٠٨) وابن مردويه،

وابن عساكر (٦٧/٦٩) وضعفه الألباني في «سلسلة الأحاديث الضعيفة» برقم: (١٨١٨).

(٢) «صحيح البخاري» برقم: (٤٤٢٥، ٧٠٩٩).

٢٥-٢٧- ﴿الَّا^(١) يَسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي يُخْرِجُ الْخَبْءَ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ^(٢) وَمَا تَعْلَمُونَ^(٣)﴾ ٢٥ ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ﴾ ٢٦ قَالَ سَنُنْظُرُ أَصَدَقْتَ أَمْ كُنْتَ مِنَ الْكَاذِبِينَ ﴿

لقد زين لهم الشيطان أعمالهم؛ لئلا يسجدوا لله الذي يخرج المخبوء في السماء كالمطر، ويخرج المخبوء في الأرض: كالنبات والكنوز والمعادن والماء، ويعلم السر والعلن، وما ظهر وما بطن، وهو سبحانه يخرج خبء الأرض عند النفخ في الصور، وإخراج الأموات من الأرض ليجازيهم بأعمالهم، ﴿اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ﴾، والعرش هو سقف المخلوقات، وسِعَ الأرض والسموات، وهو سبحانه لا رب غيره، ولا معبود بحق سواه، وهو سبحانه المتفرد بالعظمة والجلال، فهو - جلَّ شأنه - المستحق للعبادة دون سواه، فاجعلوا سجودكم -أيها الناس- لله وحده، واتركوا السجود لغيره، وهنا موضع سجود التلاوة في نهاية الآية السادسة والعشرين.

وقد سلّم الهدهد حين ألقى إلى سليمان هذا النبأ، وتعجب سليمان كيف خفي عليه هذا الأمر.

وإلى هنا ينتهي كلام الهدهد، وهو يدل على أنه يقر بالتوحيد، ويدعو إليه، ويندد بالشرك ويبغض فيه.

قال سليمان للهدهد: سننظر، وستأمل، فيما جئتنا به من الخبر، ونثبت من قولك، ونعرف أصدقت، أم كنت من المنخرطين في سلك الكذب؟ وهو أبلغ من أم كذبت.

(١) قرأ الكسائي وأبو جعفر ورويس بتخفيف اللام من (ألا) للاستفتاح، و (يا) حرف نداء، والمنادى محذوف، أي: يا هؤلاء، أو يا قوم، اسجدوا فعل أمر، ويجوز لهم الوقف -اختياراً- على (ألا)، و(يا) معاً، ويبدأ بـ (اسجدوا)، بهمزة وصل مضمومة لضم ثالث الفعل، ويجوز أيضاً الوقف اختياراً على (ألا) وحدها، و (يا) وحدها، والابتداء بما بعدهما، أما في حالة الاختيار فلا يجوز الوقف على ألا، ولا على (يا)، بل يتعين وصلهما بما بعدهما، وقرأ الباقر بتشديد اللام، على أن أصلها (أن لا) فأدغمت النون في اللام، ويسجدوا فعل مضارع منصوب بأن المصدرية.

(٢) قرأ حفص والكسائي بتاء الخطاب في (تخفون) و (تعلمون)، على الالتفات، والباقر بياء الغيبة جرياً على نسق الآية.

رِسَالَةٌ سُلَيْمَانَ إِلَىٰ بَلْقِيسَ يَحْمِلُهَا الْهُدُودُ

٢٨- ﴿أَذْهَبْ بِكِتَابِي هَذَا فَأَلِّقْهُ^(١) إِلَيْهِمْ ثُمَّ تَوَلَّ عَنْهُمْ فَأَنْظُرْ مَاذَا يَرْجِعُونَ ﴿٢٨﴾﴾

أَلهم الله سليمان أن يتصل ببلاد اليمن عن طريق المراسلة؛ ليدخلها في حيز نفوذه، ويتنفع بخيراتها عن طريق التجارة، فكتب إلى ملكة سبأ لتأتي إليه، وتُصلح ديارها، وتدخل تحت طاعته، وقد أراد الله ذلك؛ لكي يتبين له أنَّ على وجه الأرض ملكاً غيره، وأن هناك من يعبد غير الله تعالى، فكتب كتاباً، وطبعه بالمسك، وختمه بخاتمه، قال فيه: بسم الله الرحمن الرحيم ﴿أَلَّا تَعْلَمُوا عَلَيَّ وَأَتُونِي مُسْلِمِينَ ﴿٢٩﴾﴾ أي اخضعوا وانقادوا لي، وأقبلوا إليّ مسلمين، وبمثل هذه العبارات الموجزة، بليغة اللفظ والمعنى، كان الأنبياء والرسل يكتبون كتبهم ورسائلهم إلى الملوك والرؤساء في نواحي الأرض؛ لنشر كلمة التوحيد، وبمثل ذلك كتب النبي ﷺ إلى: كسرى، وقيصر، والنجاشي يدعوهم للإسلام، وهذه الكتب في غاية الوجازة مع البيان التام.

قال سليمان للهدود: خذ هذا الكتاب، واذهب به إلى بلقيس وقومها، وأوصله إليهم، ثم تنحَّ عنهم قليلاً، وكن قريباً منهم، واستمع إلى كلامهم، والحديث الذي يدور بينهم، فانظر وتأمل ما يتردد بينهم من كلام، فكان من حزم بلقيس ورجاحة عقلها أن جمعت كبار دولتها ورجال مملكتها لتستشيرهم:

(١) في لفظ: (أَلِّقْهُ) ست قراءات، وكلها من لغات العرب، وهي:

الأولى: بإسكان الهاء، لأبي عمرو وعاصم وحمزة.

الثانية: باختلاس كسرة الهاء، لقالون ويعقوب.

الثالثة: بإشباع كسرة الهاء، لورش وابن كثير والكسائي وخلف.

الرابعة: باختلاس كسرة الهاء وإشباعها، لابن ذكوان.

الخامسة: بإسكان الهاء واختلاس حركتها، لأبي جعفر.

السادسة: بإسكان واختلاس وإشباع، لهشام عن ابن عامر.

بَلْقِيسُ تَسْتَشِيرُ قَوْمَهَا فِي شَأْنِ سُلَيْمَانَ عَلَيْهِ السَّلَامُ

٢٩-٣١- ﴿قَالَتْ يَأْأَيُّهَا الْمَلَأُ^(١) إِنِّي^(٢) أُلْقِيَ إِلَيَّ كِتَابٌ كَرِيمٌ ﴿٢٩﴾ إِنَّكُمْ مِنْ سُلَيْمَانَ وَإِنَّهُ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ﴿٣٠﴾ أَلَّا تَعْلَمُوا عَلَيَّ وَأُتُونِي مُسْلِمِينَ ﴿٣١﴾﴾

قالوا: إن الهدهد ألقى الخطاب على نحر بلقيس وهي نائمة مستلقية، وقالوا: إنها كانت تُحَكِّم إغلاق القصر، ولم تكن متزوجة، ولم يكن عندها إلا كُوة، أي: فتحة في جهة المشرق تدخل منها الشمس، فإذا دخلت عليها الشمس سجدت لها من دون الله، فجاء الهدهد، وأغلق هذه الفتحة، فلم تدخل الشمس عليها في ذلك اليوم، فنظرَتْ فوجدت الهدهد، فألقى الخطاب في حجرها بعد أن أخذ يرفرف فوق رأسها نحو ساعة من الزمن^(٣).

ثم تأخر قليلاً فقرأت الخطاب، ثم جمعت أهل الرأي والمشورة، وقالت: يا أيها الملأ، إني وصل إليّ كتاب جليل المقدار من شخص عظيم الشأن، ثم بيّنت ما فيه، فقالت: ﴿إِنَّكُمْ مِنْ سُلَيْمَانَ وَإِنَّهُ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ﴿٣٠﴾﴾ وقد ابتدأ سليمان كتابه بالبسملة، أما ﴿إِنَّكُمْ مِنْ سُلَيْمَانَ وَإِنَّهُ﴾ فهذا من كلام بلقيس.

قال مجاهد: إن سليمان كتب إلى ملكة سبأ: بسم الله الرحمن الرحيم، من عبد الله سليمان بن داود إلى بلقيس ملكة سبأ، السلام على من اتبع الهدى، أما بعد: فلا تعلموا عليّ وأتوني مسلمين^(٤)، أي: لا تتكبروا، ولا تتعاضموا عما دعوتكم إليه، وأقبلوا إليّ منقادين لله بالوحدانية والطاعة، مسلمين له، فلا تمتنعوا من الإجابة، فإن ترك الإجابة من العلوّ والتكبر، وفي كتاب سليمان نهى لهم عن العلوّ عليه، وأمر بالدخول تحت طاعته، وطلب مجيئهم إليه، ودعوتهم إلى السلام، وفيه استحباب بدء الكتب بالبسملة كاملة، وذكر اسم المرسل في بدء الرسالة.

(١) قرأ نافع وابن كثير وأبو عمرو وأبو جعفر ورويس بتسهيل الهمزة الثانية من (الملأ إني) بَيْنَ بَيْنَ، وبإبدالها واوًا مكسورة، والباقون بتحقيقها ومثلها (الملأ أيكم) من الآية الثامنة والثلاثين.

(٢) قرأ نافع وأبو جعفر بفتح ياء الإضافة وصلًا من (إني ألقى)، والباقون بإسكانها.

(٣) يُنْظَرُ: الطبري (٤٧/١٨) وابن أبي حاتم (٩/٢٨٧٠).

(٤) أخرجه عبد بن حميد، وابن المنذر، كما في «الدر المنثور» (١١/٣٥٩).

٣٢- ﴿قَالَتْ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ^(١) أَفْتُونِي فِي أَمْرِي مَا كُنتُ قَاطِعَةً أَمْرًا حَتَّى تَشْهَدُونِ^(٢)﴾

قالت الملكة مستشارة قومها، وكانت امرأة عاقلة غير مستبدة برأيها: يا أيها الملأ أفتونني، وأشيروا عليّ ماذا أصنع؟ هل ندخل تحت طاعته وننقادله، أم ماذا نفعل؟ وما كان لي أن أقطع أمرًا دونكم، حتى تُشيروا عليّ، ولا أفصل في أمر إلا بمحضركم ومشورتكم، وهذا من حسن الأدب، وكذلك كان ردُّهم مما تقر به العين؛ حيث أعلموها بقوتهم، وسلّموا الأمر لها.

٣٣- ﴿قَالُوا نَحْنُ أَوْلُوا قُوَّةٍ وَأُولُوا بَأْسٍ شَدِيدٍ^(٣) وَالْأَمْرُ إِلَيْكِ فَانْظُرِي مَاذَا تَأْمُرِينَ^(٤)﴾

قالوا مجيبين لها: نحن أصحاب قوة جسدية وعدد كبير، وأصحاب النجدة والشجاعة في شدة الحرب، فإن رددت عليه، قوله، ولم تدخلي تحت طاعته، فإننا أقوياء على القتال، والأمر موكلوك إليك، وأنت صاحبة الرأي فيه، فتأملي ماذا تأمرين به، ونحن طوع أمرك، وذلك لعلمهم بعقلها وحزمها وسداد رأيها.

قال الحسن البصري: فوضوا أمرهم إلى عِلْجة، يضطرب ثدياها.

قالت لهم مبينة مساويء القتال، ومثنية لهم عن رأيهم:

٣٤- ﴿قَالَتْ إِنَّ الْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوا أَعِزَّةَ أَهْلِهَا أَذِلَّةً وَكَذَلِكَ يَفْعَلُونَ﴾

أي قالت بلقيس وهي تُعدُّ رأيًا، وتحذّر قومها من عاقبة مواجهة سليمان بالعداوة، وتبيّن لهم سوء مغبة القتال، وما يترتب عليه من النتائج: إن الملوك إذا دخلوا قرية خربوها، وسفكوا الدماء فيها بجيوشهم، واستلبوا ما فيها غنوة وقهراً، وجعلوا أعزة أهلها أذلة، أي جعلوا كبار الناس ورؤساءهم من الأذلين، فأهانوهم وأذلوا أشرافهم بالتشريد والأسر والقتل، وهذه عادتهم المستمرة؛ لحمل الناس على أن يهابوهم، فهي تلوّح لهم بأن السلم أجدي من الحرب، وأن الملاينة مع سليمان أفضل من المجابهة، والمواجهة بالقوة.

(١) قرأ نافع وابن كثير وأبو عمرو وأبو جعفر ورويس بإبدال الهمزة الثانية واوًا مفتوحة من (الملأ أفتونني)، والباقون بتحقيقها.

(٢) قرأ يعقوب بإثبات ياء وصلًا ووقفًا من (تشهدون)، والباقون بحذفها.

(٣) قوله تعالى (بأس شديد) عدّها آية، المديان والمكي، ولم يعدّها غيرهم.

وإني لست مطيعة لكم حتى أرسل من يكشف عن أحواله، ونكون على بصيرة من أمرنا.

بَلْقِيسُ تُصَانِعُ سُلَيْمَانَ

٣٥- ﴿وَإِنِّي مُرْسِلَةٌ إِلَيْهِمْ بِهَدِيَّةٍ فَنَاظِرَةٌ بِمَ يَرْجِعُ الْمُرْسَلُونَ ﴿٣٥﴾﴾

قالت بلقيس: ولكنني سأشير عليكم برأي آخر، لعله الأصوب، سوف أرسل إلى سليمان بكتاب، ووفد، مصحوب بهديّة، حيث سأبعث إليه بهدية عظيمة تليق بمثله، هدية الملوك للملوك، فأنظر ما هو رد فعل هذه الهدية على سليمان؟ هل سيستمر على قوله أم ستخدعه الهدية وتبدل فكره، وما موقفه منها؟ هل يقبلها أم يردّها؟ وقالت لقومها: إن قبل الهدية، فهو ملك، فقاتلوه، وإن لم يقبلها فهو نبي فاتبعوه، فقد علمت أن الهدية تقع موقعًا من الناس.

أرادت الملكة أن تستميل قلب سليمان بهذه الهدية، فإن كان ملكًا كُفيت شره وسوء لقائه، وإن كان نبيًا، فسيرد الهدية، ولا يُرضيه إلا الدخول في دين الله، وإني متظرة ما يرجع به الرسل، فأرسلت إليه بهدية مع رسل قومها.

سُلَيْمَانُ يَرُدُّ الْهَدِيَّةَ وَيَتَوَعَّدُهُمْ

٣٦- ﴿فَلَمَّا جَاءَ سُلَيْمَانُ قَالَ أَتُمْدُونَنِي ﴿٣٦﴾ بِمَالٍ فَمَا ءَاتَيْنِ اللَّهَ خَيْرٌ مِّمَّا ءَاتَكُمُ بَلْ أَنْتُمْ مَبْذُورُونَ﴾

فلما وصل أمير الوفد (المنذر بن عمرو) بصحبة الوفد الذي معه، من طرف بلقيس إلى سليمان -أبى أن يقبل الهدية؛ لأنها أرسلتها بعد وصول كتابه إليها، فعرف أن قصدها من الهدية أن تصرفه عما تضمنه الكتاب من الدعوة إلى توحيد الله تعالى، فكانت الهدية بمثابة الرشوة، ويظهر أن هذه الهدية كانت ذهبًا ومالًا.

(١) وقف البري ويعقوب بخلف عنهما بهاء السكت على (بم). وسكن الباقون الميم عند الوقف عليها اضطراباً أو اختصاراً.

(٢) قرأ نافع وأبو عمرو وأبو جعفر بإثبات الياء وصلًا في (أتمدونن)، وقرأ ابن كثير وحزمة ويعقوب بإثبات الياء في الحالين، والباقون بحذفها وصلًا. أما في الوقف فحذفها قالون والبري وأبو عمرو وحفص، ولهم أيضًا إثباتها ساكنة، أما يعقوب فأثبتها ساكنة قولًا واحدًا، والباقون بحذفها.

قال سليمان: أتمدوني بالمال لأترككم على كفركم ومُلْكِكُمْ، وما أنتم عليه؟ فما آتاني الله من العلم، والملك، والنبوة، والشيء الكثير، خيرًا مما آتاكم من زخارف الدنيا، وقد أعطاني الله من الدنيا ما لا يُستزاد عليه، فكيف أَرْضَى بقبول هديتكم؟! فلا حاجة لي في هديتكم، وأنتم الذين تفرحون بالهدايا، وهذا يعني رد الهدية، فانتفعوا أنتم بهديتكم وافرحوا بها، لحبكم الدنيا وقلة ما بأيديكم بالنسبة لما أعطاني الله، قال سليمان منكراً عليهم:

٣٧- ﴿اتَّجِعْ إِلَيْهِمْ فَلَنَأْتِيَنَّهُمْ بِجُنُودٍ لَا قِبَلَ لَهُمْ بِهَا وَلَنُخْرِجَنَّهُمْ مِنْهَا أَذِلَّةً وَهُمْ صَاغِرُونَ ﴿٣٧﴾﴾

أي قال سليمان لأmir الوفد (المنذر بن عمرو): ارجع أنت ومن معك، فوالله لأتينيهم بجنود لا طاقة لهم بها، ولا قدرة لهم عليها، ولنخرجنهم من سبأ أذلة، وهم خاضعون مهانون، إن لم ينقادوا لدين الله وحده، ويتركوا عبادة غيره، وعاد الرسل بهديتهم إلى الملكة، ولم يهتم القرآن بما جرى لهم بعد ذلك.

قال ابن عباس: لما رجعت رسل بلقيس إليها من عند سليمان، وأخبروها الخبر، قالت: قد عرفت ما هذا بملك، وما لنا به من طاقة، وبعثت إلى سليمان إني قادمة إليك بملوك قومي حتى أنظر ما أمرك، وما تدعو إليه من دينك، ثم ارتحلت إلى سليمان في اثني عشر ألف قائد^(١).

أدرك سليمان أن جيش بلقيس لا بد أنهم سائرون إليه، فأمر من حوله أن يحضروا له عرشها:

إِحْضَارُ عَرْشِ بَلْقِيسَ مِنَ الْيَمَنِ إِلَى فِلَسْطِينَ فِي طَرْفَةِ عَيْنٍ

٣٨- ﴿قَالَ يَتَابِعَا أَمَلَاؤُكُمْ يَأْتِينِي بِعَرْشِيَ قَبْلَ أَنْ يَأْتُونِي مُسْلِمِينَ ﴿٣٨﴾﴾

جمع سليمان الجن والإنس؛ ليظهر كل منهم منتهى علمه وقدرته، وقال لهم: أيكم يأتيني بكرسي الملكة التي تجلس عليه قبل أن يأتوني مستسلمين لله، مذعنين طائعين منقادين لأمره؟ أي: قبل أن يدخلوا في الإسلام؛ لأنه لا يحق له أن يأخذ شيئاً من أموالهم، وتحرم عليه دماؤهم بعد الدخول في الإسلام.

(١) «حاشية زاده على البيضاوي» (٤٩٣/٣) وانظر: «تفسير البغوي» وابن كثير وغيرهما للآية.

٣٩- ﴿قَالَ عَفَرْتُ مَنِ الْجِنِّ أَنَا^(١) ءَاتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ تَقُومَ مِنْ مَقَامِكَ وَإِنِّي عَلَيْهِ لَقَوِيٌّ أَمِينٌ ﴿٣٩﴾﴾

أي: قال عفريت من الجن، وهو المارد النشيط جداً، القوي الشديد، الذي لا يُصاب ولا يُنال، ويُتقى لشره، وهو من عُتاة الجن، قال لسليمان: أنا آتيك بهذا العرش قبل أن تقوم من مجلس القضاء في أقل من نصف النهار، وكان سليمان يجلس للقضاء من الصبح إلى الظهيرة^(٢).

أي: سوف آتيك به في هذه الفترة من الصبح إلى الظهر، وإني لقوي على حمله، أمين على ما فيه، آتي به كما هو، لا أنقص منه شيئاً، ولا أبدله.

قُوَّةُ الْعِلْمِ تَفُوقُ قُدْرَةَ الْجِنِّ

٤٠- ﴿قَالَ الَّذِي عِنْدَهُ عِلْمٌ مِّنَ الْكِتَابِ أَنَا ءَاتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ فَلَمَّا رَآهُ مُسْتَقِرًّا عِنْدَهُ قَالَ هَذَا مِنْ فَضْلِ رَبِّي لِيَبْلُوَنَ^(٣) ءَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ رَّبِّي عَنِّي كَرِيمٌ ﴿٤٠﴾﴾

قال الرجل الذي عنده علم من كتاب الله: أنا آتيك بعرش بلقيس قبل أن تغمض عينيك وتفتحها، وهذه المناظرة بين العفريت والذي عنده علم من الكتاب، تدل على أن العلم والحكمة يفعلان ما لا تفعله القوة، وأن الإنسان بعلمه يفوق قدرة الجن، والمسافة بين الشام وبين اليمن، تستغرق شهران ذهاباً وإياباً، بوسائل المواصلات المتاحة آنذاك على الإبل ونحوها، ومع هذا فإن الذي عنده علم من الكتاب سيأتي به في غمضة عين، والعفريت يأتي به في نحو ثلث يوم، وهو نهاية الوقت المعتاد للمجالس الطويلة حيث يجلس سليمان.

والذي عنده علم من الكتاب لم يوضحه القرآن، وأرجح ما قيل فيه: إنه (أصف بن برخيا)، كان وزيراً لسليمان وعنده علم التوراة، وعنده علم باسم الله الأعظم الذي إذا

(١) قرأ نافع وأبو جعفر بإثبات ألف (أنا آتيك) وصلّاً ووقفّاً، والباقون بحذفها وصلّاً وإثباتها وقفّاً.

(٢) جاء ذلك عند أبي شيبة (٥٣٨/١١) وابن أبي حاتم (٢٨٨٤/٩).

(٣) قرأ نافع وأبو جعفر بفتح ياء الإضافة من (ليبلوني أشكر)، والباقون بإسكانها.

دُعِي به أجاب، وهذا العلم وصل إليه (أصف) بالطاعة لله ﷻ، والاجتهاد في العبادة، حتى أوصلته إلى مرتبة الصديقين، فقال آصف لسليمان: أنا آتيك به في غمضة عين، أي: قبل أن يرتد جفن العين إليها عند تحركها للنظر في شيء ما، فأذن له في الإتيان به، فنظر سليمان وإذ بعرش بلقيس بين يديه، كأنه جاء بسرعة الضوء.

فلما رأى سليمان العرش حاضرًا بين يديه، حمد الله تعالى وأثنى عليه، وقال: هذا من فضل ربي الذي خلقني، وخلق الكون كله؛ ليختبرني أشكره سبحانه، معترفًا بنعمته عليّ، أم أكفره بترك الشكر وجحود النعمة؟ ومن شكر الله تعالى على نعمه؛ فإن نفع ذلك يرجع إليه، فهو يستزيد من فضل الله تعالى، كما قال تعالى: ﴿لَئِنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ﴾ وَمَنْ جحد النعمة وترك الشكر فإن الله غني عن شكره؛ وذلك لأن نعم الله تعالى، وفضله في الدنيا تشمل المؤمن والكافر، ثم يحاسبهم الله ويجازيهم في الآخرة، قال تعالى: ﴿وَلَئِنْ كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ﴾ [إبراهيم: ٧].

لم يغتر سليمان بملكه وسلطانه، كما هو دأب بعض الملوك، بل علم أن ذلك اختبار من الله تعالى، فخاف ألا يقوم بواجب الشكر، ثم بين أن الشكر يعود على من شكر، والله تعالى لا ينتفع بشكره.

فكل متقرب إلى الله تعالى بعمل صالح، فعمله لنفسه، يرجو به ثواب الله ورضاه في الآخرة، ويرجو دوام فضله عليه في الدنيا، فالنفع حاصل له في الدارين.

وفي الحديث القدسي: من رواية أبي ذر رضي الله عنه، عن النبي ﷺ: «يقول الله تعالى: يا عبادي، لو أن أولكم وآخركم، وإنسكم وجنكم كانوا على أتقى قلب رجل واحد منكم ما زاد ذلك في ملكي شيئًا.

يا عبادي، لو أن أولكم وآخركم، وإنسكم وجنكم كانوا على أفجر قلب رجل منكم ما نقص ذلك من ملكي شيئًا.

يا عبادي، إنما هي أعمالكم أحصيها لكم، ثم أوفيكم إياها، فمن وجد خيرًا فليحمد الله، ومن وجد غير ذلك فلا يلومنَّ إلا نفسه»^(١).

ثم أمر سليمان من عنده أن يغيّر لبلقيس معالم كُرسِي مملكتها.

(١) من حديث أبي ذر في «صحيح مسلم» برقم: (٢٥٧٧).

سُلَيْمَانُ يَخْتَبِرُ ذَكَاءَ بَلْقِيسَ

٤١- ﴿قَالَ نَكِّرُوا لَهَا عَرْشَهَا نَنْظُرْ أَتَهْدِيْ أَمْ تَكُونُ مِنَ الَّذِينَ لَا يَهْتَدُونَ﴾ ﴿٤١﴾

ولما جاء عرش بلقيس بسرعة فائقة من اليمن إلى فلسطين، واقترب وصول ملكة سبأ، أمر سليمان بتغيير بعض معالم عرشها امتحاناً لها، كأن يُجعل مؤخرته في مقدمته، أو أعلاه في أسفله، ونحو ذلك، فقال سليمان لمن عنده: غَيِّروا سرير مُلْكِهَا الذي تجلس عليه إلى حال تُنْكِرُهُ إذا رآته؛ حتى ننظر هل تتعرف عليه، وتهتدي إلى معرفته، أم لا؟ وذلك لكي يختبر عقلها، وقوة ذكائها، وحصافة رأيها.

٤٢- ﴿فَلَمَّا جَاءَتْ قِيلَ أَهَكَذَا عَرْشُكَ قَالَتْ كَأَنَّهُ هُوَ وَأُوتِينَا الْعِلْمَ مِنْ قَبْلِهَا وَكُنَّا مُسْلِمِينَ﴾ ﴿٤٢﴾

أخرجت بلقيس أشراف قومها، وتوجهت بهم مستسلمة منقادة إلى سليمان ﷺ، وعزمت على الحضور عنده استجابة لدعوته لها ولقومها في قوله: ﴿وَأُوتِينَا مُسْلِمِينَ﴾ وبعثت إلى سليمان تقول له: إني قادمة إليك؛ لأنظر ما الذي تدعو إليه من دينك، خرجت من سبأ وحرطت برحالها في مدينة (أورشليم)، فلما بلغ سليمان أنها قد نزلت بهذا المكان على بُعد فرسخ منه، أراد أن يُحضر لها عرشها قبل أن تدخل عليه؛ ليربها مقدرة أهل دولته، ويبهتها بإحضار عرشها الذي تفتخر به، وتُعدُّه نادرة الدنيا، وليختبر عقلها وفطنتها، أتعرفه أم تنكره؟ وليربها قدرة الله تعالى وعظم سلطانه، وليطلعها على معجزة خصه الله بها؛ حتى تؤمن بالله وحده من خلال ذلك، وتُصدِّق بنبوة سليمان ﷺ.

فلما وصلت ملكة سبأ إلى سليمان في مجلسه، أراد أن يختبر ذكاءها، فقال لها: أهكذا عرشك؟ قالت: إنه يشبهه ﴿كَأَنَّهُ هُوَ﴾ فهي لم تقل: نعم، خوفاً من الكذب، ولم تقل: لا، خوفاً من التكذيب، بل قاربت الأمر، وكما شبه سليمان بقوله: ﴿أَهَكَذَا﴾؟ شبهت هي أيضاً، وقالت: ﴿كَأَنَّهُ هُوَ﴾، وهذا من ذكائها وفطنتها، فهي لم تنف أن يكون العرش هو، لأنها عرفته، ولم تثبت أنه هو، لوجود التغيير فيه، وأتت بلفظ يحتمل الأمرين.

ولاشك أن سؤال سليمان، يدعو إلى الدهشة والمفاجأة بما لم يكن في حسابها، وإلا فأين هي من عرشها الذي تركته خلفها على مسافة بعيدة؟ فلما ظهر لسليمان أنها أصابت

في جوابها، وعلمت قدرة الله تعالى وصحة نبوة سليمان، قال: لقد أصابت بلقيس في الجواب، وعرفت الحق، ولكننا أوتينا العلم أي العقل والحزم والهداية من قبل الملكة بحول الله وقوته، وكنا منقادين لأمره سبحانه، متبعين لدين الإسلام. قال تعالى:

تَأْثِيرُ الْبَيْئَةِ عَلَى الْعَقَائِدِ

٤٣- ﴿وَصَدَّهَا مَا كَانَتْ تَعْبُدُ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنَّهَا كَانَتْ مِنْ قَوْمٍ كَافِرِينَ﴾ (٤٣)

أي: ولقد صدّها عن الإيمان بالله تعالى أنها كانت في مجتمع كافر بالله ﷻ؛ فقد نشأت بين قوم يعبدون الشمس من دون الله، واستمرت على ذلك إلى هذا الوقت، وإلا فإن لها من الفطنة والذكاء ما تعرف به الحق من الباطل، ولكن العقائد الباطلة تذهب بصيرة القلب، إنها كانت من قوم كافرين، واستمرت على دينها، ثم إن سليمان، أراد أن ترى بلقيس ما يبهر العقول، فبنى لها صرحاً من زجاج وجعل تحته ماء، كي تخوضه وهي قادمة عليه:

بَلْقِيسُ تَغْلِبُ إِسْلَامَهَا

٤٤- ﴿قِيلَ لَهَا ادْخُلِي الصَّرْحَ فَلَمَّا رَأَتْهُ حَسِبَتْهُ لُجَّةً وَكَشَفَتْ عَنْ سَاقِهَا^(١) قَالَ إِنَّهُ صَرْحٌ مُّمَرَّدٌ مِّن قَوَارِيرَ^(٢) قَالَتْ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَانَ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ (٤٤)

قيل: إن بلقيس كانت أمها جنية، فخشيت الشياطين أن يتزوجها سليمان، فتفشي إليه أسرار الجن، وإذا ولدت ولداً فإنهم لن ينفكوا من تسخير سليمان وذريته لهم، فأرادوا أن يزهّدوه فيها، ويعيىوها عنده، فقالوا له: إن عقلها لا يميز، ورجلها كحافر الدابة، وإنها شعراء الساقين، وهذا كلام ليس عليه دليل صحيح.

وفي هذه الآية بيان لما فاجأها به سليمان، فقد أراد أن يريها أثراً من آثار الصناعة والحضارة، فصنع لها قصرًا عظيمًا، وهو صحن من غير سقف، يشبه الصهاريج المملوءة بالماء، وفيها سمك وضفادع، وعليها طبق من الزجاج الأبيض الشفاف، وذلك في بيت

(١) قرأ قبل بهمزة ساكنة في (ساقها)، والباقون بألف مدّية، وهما لغتان.

(٢) انفرد الكوفي بعدم عدّ (من قوارير) آية، وعدّها غيره.

وعر، كان يجلس فيه سليمان للقضاء بين الناس، وكان صحن القصر مبلط وممرد بزجاج شفاف، والله أعلم بصحة هذا.

فالطريق الذي مشت عليه بلقيس من الزجاج، وهذا الزجاج تحته ماء، وقيل: كان فيه أنواع الاسماك، ولما وصلت بلقيس إلى القصر، ورأت اللُّجة فزعت وظنت أنها قُصد بها الغرق، وعجبت من كون كرسيه على الماء، وهالها ما رأت، فلم يكن لها بد من أن كشفت عن ساقها وخلعت نعلها، وشمرت ثوبها؛ حتى لا تبتل ملابسها من هذا الذي تظنه ماء، ولم تمتنع بلقيس من الدخول، لعلمها أنها لم تُستدع إلا للإكرام، وأن سليمان قد بنى ملكه بحكمة، وليس في قلبها أدنى شك في السوء، وهنا قال لها سليمان: إنه صرح مملس بالبلُّور، لا يحجُّب ما وراءه، وهو صحن أملس من زجاج صاف، والماء تحته.

وهنا ينطق اللسان بالحق، ويهيم القلب في آفاق الحقيقة، فتخلع الملكة ما كانت عليه من الشرك، وتنقاد لله تعالى، داخله في دين رب العالمين أجمعين، إذ قالت بلقيس: رب إني ظلمت نفسي، لقد اعترفتُ بأنها ظلمتُ نفسها في اتباعها الضلال بعبادة الشمس، وهذا بمثابة التخلي عن عبادة غير الله، وشرح الله صدرها للإسلام، فتحلَّت بالدخول في الإسلام، وإعلان التوحيد لله وحده؛ حيث قالت: ﴿وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَانَ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾.

ومع علو شأن ملكة سبأ، وعظم سلطانها، لم تمتنع من النظر في دلائل صدق التوحيد والداعي إليه، مع التيقُّن من فساد الشرك وأهله.

فإصرار المشركين على شركهم بعد بلوغهم أدلة التوحيد إنما هو بسبب سخافة عقولهم، وتمسكهم بالباطل.

ذكر بعض المفسرين أن سليمان قد تزوجها، وأسكنها الشام، أو ردَّها إلى اليمن، وكان يأتيها على الريح كل يوم مرة، فولدت له ولد أسماه داود مات في حياته.

وقيل: إنه لم يتزوجها، بل زوجها تبَّع همدان.

والقرآن الكريم لم يتطرق إلى هذا الموضوع، إنما توقف عند إسلامها، ودخولها في دين سليمان، وهو دين التوحيد لله رب العالمين.

الْقِصَّةُ الثَّالِثَةُ فِي سُورَةِ النَّمْلِ قِصَّةُ صَالِحٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ

٤٥- ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَى ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ فَإِذَا هُمْ فَرِيقَانِ يَخْتَصِمُونَ﴾

ينتقل السياق القرآني إلى قصة قوم آخرين، أرسل الله لهم رسولاً منهم، وبين الحق سبحانه في هذه الآيات طرفاً من قصة صالح عليه السلام لم يُذكر في غير هذه السورة، وقد ركزت سورة (النمل) على قصص بني إسرائيل غالباً، فذكرت جانباً من قصة موسى، وأتبعها بقصة سليمان، ثم ذكرت حلقة من قصة صالح، وأتبعها بإيجاز لقصة لوط عليهم جميعاً صلوات الله وسلامه، وكأن القرآن الكريم في هذه السورة، راعى مناسبة جوار البلاد، فديار ثمود بمذائن صالح، على تخوم مملكة سليمان في الطريق من سبأ إلى فلسطين، وديار قوم لوط بالأردن، أقرب ما يكون إلى فلسطين، ولم تذكر السورة قصة: نوح، ولا هود، ولا إبراهيم، ولا شعيب، كما هو شأن بعض سور القرآن الكريم.

وقد لخصت رسالة صالح عليه السلام في هذه السورة القاعدة الكبرى التي تقوم عليها جميع الشرائع الإلهية، وهي عبادة الله تعالى، وإنقاذ الناس من الشرك، وانفردت سورة (النمل) بذكر التآمر على قتل صالح عليه السلام ممن عقروا الناقة، كما تأمرت قريش على قتل النبي ﷺ، وانفردت كذلك بذكر عدد من تأمروا على عقر الناقة، وأتبع ذلك بيان موقف قوم ثمود من دعوته، فكان منهم المكذب، ومنهم المصدق.

والمعنى: والله لقد أرسلنا إلى قبيلة ثمود أخاهم صالحاً؛ ليقول لهم: وحّدوا الله، ولا تجعلوا معه إلهاً آخر.

فلما أتاهم صالح داعياً إلى توحيد الله تعالى وعبادته وحده فاجأه بأن كان القوم فريقين: مؤمناً وكافراً، وصالح أخوهم في النسب وليس في الدين، وهم قوم عاد الآخرة، أما عاد الأولى فبنيهم هود عليه السلام، وبينهما نحو مئة عام، وقد أشار القرآن إلى من آمن، ومن كفر من قوم ثمود في قوله تعالى: ﴿قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِن قَوْمِهِ لِلَّذِينَ اسْتُضِعُوا لِمَنْ ءَامَنَ مِنْهُمْ أَتَعْلَمُونَ أَنَّ صَالِحًا مُّرْسَلٌ مِّن رَّبِّهِ قَالُوا إِنَّا بِمَا أُرْسِلَ بِهِ مُؤْمِنُونَ ﴿٧٥﴾ قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا بِالَّذِي ءَامَنْتُمْ بِهِ كَفِرُونَ ﴿٧٦﴾﴾ [الأعراف]. ويمضي نبي الله صالح في دعوة

(١) قرأ أبو عمرو وعاصم وحزمة ويعقوب بكسر نون (أن اعبدوا الله) وصلأ، والباقون بضمها.

قومه إلى وحدانية الله تعالى وعدم الإشراك به؛ ودعوتهم إلى الإيمان به وعدم تكذيبه.

٤٦- ﴿قَالَ يَنْفَوْرٍ لِمَ تَسْتَعْجِلُونَ بِالسَّيِّئَةِ قَبْلَ الْحَسَنَةِ لَوْلَا تَسْتَغْفِرُونَ اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾

تلطف صالح عليه السلام وترفق بقومه في دعوته لهم، فأوقفهم على خطئهم في استعجال العذاب قبل الرحمة، والمعصية قبل الطاعة، ثم حضهم على الإيمان وطلب المغفرة، رجاء رحمة الله تعالى بهم.

قال صالح للفريق الكافر: يا قوم، لم تبادرون بالكفر وعمل السيئات، وهو يجلب لكم العذاب، ولم تؤخروا الإيمان وعمل الصالحات وهو يجلب لكم الثواب؟ ولم تتعجلون نزول العذاب بكم؟

فالمراد بالسيئة: تكذيبهم إياه، وعدم الإيمان بدعوته، وطلبهم نزول العذاب الذي توعدهم به. والمراد بالحسنة: الإيمان به والتصديق برسالته عليه السلام، فهو ينكر على من كفر به تكذيبهم له، وعدم التدبر في دلائل صدقه.

وكان الفريق الكافر يطلب من صالح عليه السلام أن يأتيهم بعذاب الله الذي يتوعدهم به إن كان صادقاً، كما قال تعالى حكاية عنهم: ﴿وَقَالُوا يَنْصَلِحُ أَخْنَانَا بِمَا عَدَدْنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾ [الأعراف: ٧٧].

فاعتبروا أن تأخير نزول العذاب بهم أمانة على كذبه، فنبههم نبي الله صالح على خطئهم، وأنه كان الأجدر بهم أن يبادروا إلى تصديقه بدل المبادرة إلى تكذيبه، ولا يستعجلون بأسباب العذاب قبل أسباب الرحمة.

ثم حثهم على التوبة من شركهم وكفرهم قائلاً: لولا تتوبون إلى الله وتستغفرونه؟ وهلاً تطلبون المغفرة من ربكم، وترجعون إليه رجاء أن يرحمكم فلا يعذبكم، فإن رحمة الله قريب من المحسنين، ولكنهم كذبوا صالحاً وعارضوه وآذوه:

٤٧- ﴿قَالُوا أَطِيعْنَا بِكَ وَيَمْنُ مَعَكَ قَالَ طَاعَتُكُمْ عِنْدَ اللَّهِ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ مُفْسِدُونَ﴾

قالوا: يا صالح، قد تشاءمنا بك، وبمن آمن بدعوتك، ودخل في دينك، فالمر لا يأتيانا، وأرزاقنا في نقصان، وأنت سبب ما حلّ بنا، وكان القحط والجوع قد نزل بهم.

والتطير هو: التشاؤم، وكان التطير من أوهام العرب، وقبيلة ثمود منهم، فكانوا إذا

خرجوا للسفر، ورأوا طائرًا قد مرَّ بهم من اليمين إلى الشمال تفاءلوا، وإن مرَّ بهم من الشمال إلى اليمين تشاءموا، فينسبون الخير والشر إلى الطائر.

قال لهم صالح في الرد عليهم: ما أصابكم من مصيبة فيما كسبت أيديكم، وهو أمر قدَّره الله عليكم، وهو مجازيكم به، فإن شؤمكم عند الله، ولكنكم قوم تفتنون بكفركم بنبي الله صالح ﷺ، وأنتم تُختبرون بالسراء والضراء، والخير والشر.

وبمثل هذا قال قوم فرعون لموسى ﷺ: ﴿فَإِذَا جَاءَهُمْ الْحَسَنَةُ قَالُوا لَنَا هَذِهِ وَإِنْ تُصِيبُهُمْ سَيِّئَةٌ يَطَّيَّرُوا بِمُوسَىٰ وَمَنْ مَعَهُ أَلَا إِنَّمَا طَّيَّرَهُمْ عِنْدَ اللَّهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الأعراف].

وهكذا أخبر الله عن أهل القرية؛ إذ جاءها المرسلون ﴿قَالُوا إِنَّا تَطَيَّرْنَا بِكُمْ لَئِنْ لَمْ تَنْتَهُوا لَنَجْجَنَّكُمْ وَلَيَمَسَّنَّكُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ ٨ قَالُوا طَيَّرَكُم مَّعَكُمْ أَئِنْ ذُكِّرْتُمْ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ ﴿٩﴾ [يس].

التَّأْمُرُ عَلَى قَتْلِ صَالِحٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ وَعَقْرِ النَّاقَةِ

٤٨- ﴿وَكَانَ فِي الْمَدِينَةِ تِسْعَةُ رَهْطٍ يُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ﴾ ٤٨

المراد بالمدينة في الآية: المدينة التي كان يسكنها صالح ﷺ من مدائن الحجر، الواقعة في شمال غرب جزيرة العرب، بين الحجاز والشام، جنوب شرق أرض مدين، وقد مر بها النبي ﷺ والمسلمون معه، وهم في طريقهم إلى غزوة تبوك، ورأوا فيها آبارًا، وقد نهاهم النبي ﷺ عن الشرب والوضوء منها، إلا بئرًا واحدة أمرهم بالشرب والوضوء منها، وقال: «إنها البئر التي كانت تشرب منها ناقة صالح»، وكان في هذه المدينة تسعة رهط، والرهط: في الأصل، يطلق على الجماعة من الناس، نحو عشرة، وكذلك لفظ نفر: يطلق على عدد من الناس دون العشرة، وهؤلاء الرهط كانوا تسعة رجال من عتاة القوم.

قال ابن عباس ؓ: كانت أساميهم: رُعَمَى، وَرُعَيْمٌ، وَهَرَمِيٌّ، وَهَرِيمٌ، وَدَابٌّ، وَصَوَابٌ، وَرَثَابٌ، وَمِسْطَحٌ، وَقُدَارٌ بن سالف، عاقر الناقة^(١).

فهم تسعة أفراد، وليسوا تسع جماعات، كأن الواحد منهم في عناده وكفره يساوي

(١) ابن أبي حاتم (٩/٢٩٠٠).

جماعة من الناس، وهذا دلالة على شدة تعنتهم وكفرهم، وكان هؤلاء الرهط يفسدون في الأرض، فشأنهم الإفساد وإيذاء العباد بكل طريق ووسيلة، وهم الذين عقروا الناقة، وعلى رأسهم (قدار بن سالف)، وهو الذي قال الله عنه: ﴿فَادَاوْا صَاحِبَهُمْ فَتَعَاطَى فَعَقَرَ﴾ (١٩) [القمر]. وقال عنه على لسان صالح عليه السلام: ﴿إِذْ أُنَبِّئَتْ أَشَقُّهَا﴾ (٢٠) [الشمس]. وقال تعالى ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا أَمْرَ الْمُتَرَفِّعِينَ﴾ (٢١) الَّذِينَ يُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ ﴿ وبعد عقرهم للناقة أرادوا أن يقتلوا صالحًا عليه السلام.

٤٩ - ﴿قَالُوا تَقَاسَمُوا بِاللَّهِ لَنُبَيِّتَنَّهُ﴾ (١) وَأَهْلَهُ ثُمَّ لَنَقُولَ لِوَلِيِّهِ مَا شَهِدْنَا مَهْلِكَ أَهْلِهِ وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ ﴿ قال هؤلاء التسعة بعضهم لبعض: احلفوا بالله لنقتلن صالحًا وأهله ليلاً، وحلفهم بالله يدل على أنهم كانوا يؤمنون بالله، ولكنهم يشركون معه غيره، قالوا تقاسموا بالله، بأن يحلف كل واحد منكم للآخرين، وعقدوا العزم على أن يقتلوا صالحًا ليلاً بغتة في الليل، فنقتله ونقتل أهله، ثم لنقولن لولي دمه من قرايته: ما حضرنا قتلهم، وإنا لصادقون فيما قلناه، فتواطؤوا على قتله:

عِقَابُ اللَّهِ تَعَالَى لِقَوْمٍ ثُمُودَ

٥٠ - ﴿وَمَكْرُؤًا مَكْرًا وَمَكْرًا مَكْرًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ (٢)

لقد اختبؤوا في ليلة مظلمة، في كهف تحت دار نبي الله صالح عليه السلام، أو قرب مسجده الذي كان يصلي فيه؛ ليتربوا خروجه منه، فأطبق الله عليهم الصخرة وأهلكهم ﴿وَمَكْرُؤًا مَكْرًا﴾ أي: دبوا حيلة لإهلاك صالح وأهله، وأخفوا طريقة الفتك به، وسمى الله تأمرهم مكرًا؛ لأنه كان تدبيرًا في خفاء ﴿وَمَكْرًا مَكْرًا﴾ أي: جازيناهم على مكرهم بتعجيل العقوبة لهم في الدنيا، وأخذناهم على غرة ﴿وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ أي: لا يتوقعون كيدنا لهم جزاءً على كيدهم، فمكر الله تعالى بهم معناه: مبادرته باستئصالهم قبل أن يتمكنوا من قتل صالح وأهله.

(١) قرأ حمزة والكسائي وخلف (لُبَيِّتَنَّهُ) (لَتَقُولُنَّ)، وقرأ الباقون (لُبَيِّتَنَّهُ) (لَتَقُولُنَّ).

(٢) قرأ شعبة بفتح اللام والميم من (مَهْلِكُ) مصدر ميمي قياسي، وقرأ حفص بفتح الميم وكسر اللام (مَهْلِكُ) مصدر ميمي سماعي، وقرأ الباقون بضم الميم وفتح اللام (مَهْلِكُ) مصدر ميمي، من أهلك.

وَرَدَ أَنَّهُمْ لَمَّا عَقَرُوا النَّاقَةَ أَخْبَرَهُمْ صَالِحٌ بِنَزُولِ الْعَذَابِ بِهِمْ، فَقَالَ لَهُمْ: ﴿تَمَتَّعُوا فِي دَارِكُمْ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ ذَلِكَ وَعْدٌ غَيْرُ مَكْذُوبٍ﴾ [هود: ٦٥]. وعندئذ قالوا: زعم صالح أنه يفرغ منا في ثلاثة أيام، فنحن نفرغ منه وأهله قبل ثلاث، فتحالفوا على أن يأتوا دار صالح ليلاً فيقتلوه وأهله، قالوا: فإن كان كاذباً في وعده فقد أنزلنا به ما يستحق، وإن كان صادقاً عجلنا به وشفيئنا ما بنفوسنا، فاختموا في غار قريب من داره، فانحدرت عليهم صخرة فأهلكتهم، وقيل: إن الغار انطبق عليهم فهلكوا فيه.

وسمى الله عقوبتهم باسم ذنوبهم، والمكر هو الخديعة ﴿وَلَا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِ﴾ [فاطر: ٤٣]. قال تعالى:

٥١- ﴿فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَتْ عَاقِبَةُ مَكْرِهِمْ أَنَا^(١) دَمَرْنَاهُمْ وَقَوْمَهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٥١﴾

خاطب الله تعالى رسوله محمداً ﷺ بأن يتأمل في هلاك قوم ثمود، وينظر نظرة اعتبار من هذه القصة، وهل حصل مقصودهم وأدركوا مطلوبهم، أم أن الأمر انقلب عليهم؟ وفيها بيان عاقبة غدر الرهط الذين بيتوا النية لقتل نبي الله صالح وأهله، وكيف نصره الله عليهم، وأهلكهم على غرة، هم وقومهم أجمعين، حيث جاءتهم صيحة عذاب، فأهلكوا عن آخرهم. واستأصل الله شأفتهم، وكان مآلهم الخراب والدمار، قال تعالى:

٥٢، ٥٣- ﴿فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةٌ بِمَا ظَلَمُوا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٥٢﴾ وَأَنْجَيْنَا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَكَانُوا يَنْقُوتُونَ ﴿٥٣﴾

ديار ثمود في مدائن صالح بين المدينة والشام، يمرُّ عليها الجميع، ويرون آثارهم بعد أن أهلكهم الله، فمساكنهم ودورهم خالية، ليس فيها منهم أحد، وهي ساقطة ومتهدمة على عروشها؛ بسبب ظلمهم لأنفسهم بالشرك والكفر، وبسبب تكذيبهم لنبينهم صالح ﷺ، وفي ذلك التدمير والإهلاك لعظة وعبرة لقوم يعلمون أن ما فعلناه بهم هو سنتنا فيمن يكذب رسل الله تعالى، فيعتبروا بذلك، ويعلموا أن ذلك عاقبة الظلم والدمار، حتى لا

(١) قرأ عاصم وحمزة والكسائي ويعقوب وخلف بفتح همزة (أنا دمرناهم) على تقدير حرف الجر، وكان: تامة، وعاقبة: فاعلها، وأنا دمرناها في تأويل مصدر: بدل من عاقبة، وقرأ الباقون بكسر الهمزة، على الاستئناف، وكان: ناقصة، وعاقبة: اسمها، وأنا دمرناها: خبرها.

يصيبهم مثل ما أصاب قوم ثمود.

وفي ظلم النفس بالشرك والمعاصي، وظلم الناس بالتعدي على حقوقهم وحرّماتهم أثر كبير في خراب البلاد.

قال ابن عباس رضي الله عنه: أجد في كتاب الله تعالى، أن الظلم يخرب البيوت، وتلا هذه الآية.

وفي الحديث: عن ابن عمر رضي الله عنه: «لا تدخلوا على هؤلاء القوم إلا أن تكونوا باكين، فإن لم تكونوا باكين، فلا تدخلوا عليهم أن يصيبكم مثل ما أصابهم»^(١).

وقال عبد الله بن عمر رضي الله عنه: مررنا مع رسول الله ﷺ على الحجر، فقال لنا رسول الله ﷺ: «لا تدخلوا مساكن الذين ظلموا أنفسهم إلا أن تكونوا باكين، أن يصيبكم مثل ما أصابهم» ثم زجر فأسرع حتى خلفها^(٢).

قيل: إن الذين آمنوا بصالح عليه السلام كانوا أربعة آلاف، فلما أراد الله إهلاك قوم ثمود أوحى إلى صالح أن يخرج هو ومن آمن معه؛ حتى لا يصيبهم ما يحل بشمود من الهلاك، فخرجوا، وقال صالح للمكذبين به: ﴿تَمَتُّعُوا فِي دَارِكُمْ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ ذَلِكَ وَعْدٌ غَيْرُ مَكْذُوبٍ﴾ [هود: ٦٥].

وجاء ذكر هلاكهم في مثل قوله تعالى: ﴿فَأَمَّا ثَمُودُ فَأَمْلَكُوا بِطَاغِيَةِ ٱلْعَيْنِ ۖ﴾ [الحاقة].

وقوله: ﴿فَأَخَذَتْهُمُ صَٰعِقَةٌ ٱلْعَذَابِ ٱلْهُونِ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ [فصلت: ١٧].

وقوله: ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ صَٰحِحَةً وَّجَدَةً فَكَانُوا كَهَشِيرِ ٱلْخُنَٰظِرِ ۖ﴾ [القمر].

وأنجى الله صالحًا ومن معه من عذاب الله تعالى، وكان خروج صالح ومن آمن معه وهم الذين نجاهم الله من الهلاك، قيل: كان إلى الرسّ، فكان أصحاب الرسّ من ذريتهم، وقيل: نزلوا بشاطئ اليمن، وبنوا مدينة حضرموت، وفي بعض الروايات أن صالحًا نزل بفلسطين، وقيل: إنهم ذهبوا إلى مكة وأقاموا بها إلى أن ماتوا فيها وقيورهم غربي الكعبة، والله أعلم.

(١) من حديث ابن عمر في «البخاري» برقم: (٤٣٣، ٤٧٠٢) ومسلم (٢٩٨٠).

(٢) «صحيح مسلم» برقم: (٢٩٨٠) والبخاري برقم: (٣٣٨٠، ٤٤١٩).

الْقِصَّةُ الرَّابِعَةُ وَالْأَخِيرَةُ قِصَّةُ لُوطٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ

٥٤- ﴿وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ وَأَنْتُمْ تُبْصِرُونَ﴾ (٥٤)

أرسل الله تعالى لوطاً عليه السلام إلى قومه يدعوهم - أولاً - لعبادة الله وتوحيده.

وبيناهم - ثانياً - عن الفاحشة المنكرة، وهي جريمة اللواط.

ولوط عليه السلام هو ابن هاران بن آزر، عمه إبراهيم عليهما السلام، وكان لوط قد آمن بإبراهيم، وهاجر معه من العراق إلى الشام، فبعثه الله إلى أهل سدوم وما حولها من القرى، يدعوهم إلى عبادة الله وحده، وبيناهم عما يرتكبونه من الفواحش التي لم يسبقهم إليها أحد.

وقد وجه الله تعالى الخطاب إلى رسوله محمد ﷺ بأن يذكر لقومه قصة رسوله لوط عليه السلام حين قال لأهل المؤتفكة: أتأتون الفعلة المتناهية في القبح، وهي فاحشة اللواط، وأنتم تعلمون علم اليقين أنها عمل قبيح؟ فما أعجب العقول عندما تنتكس!! وما أعجب النفوس عندما ترتكس!! ويزين لهم الشيطان أعمالهم! قال لوط لقومه:

٥٥- ﴿أَيُنْظَرُ لَنَاؤُنَ الرِّجَالِ شَهْوَةً مِّنْ دُونِ النِّسَاءِ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ بِجَهْلُونَ﴾ (٥٥)

كرر الله - سبحانه - توبيخ قوم لوط قائلاً: أيها الممسوخون في فطرتكم وطبائعكم، إنكم لتضبون شهوتكم - التي رغبها الله فيكم - في أدبار الرجال دون فروج النساء عوضاً عنهن، فيكتفي الرجال بالرجال بفعل هذه الفاحشة القبيحة.

ثم أخبر سبحانه عن الأسباب التي جعلتهم يرتكبون هذه القبائح التي تستفحشها العقول والفطر وتستقبحها الشرائع، وهي أنكم قوم تجهلون حق الله عليكم، فخالفتكم بذلك أمره، وعصيتكم رسوله، بفعلتكم الشنيعة التي لم يسبقكم إليها أحد من العالمين، كما قال تعالى: ﴿أَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ مَا سَبَقَكُمْ بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ الْعَالَمِينَ﴾ [الأعراف: ٨٠].

وختم الآية في مواطن أخرى بقوله تعالى: ﴿بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ﴾ [الأعراف:

١٨١]. وقوله: ﴿بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ عَادُونَ﴾ [الشعراء: ١٦٦]. وهنا ﴿بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ بِجَهْلُونَ﴾، متجاوزون لحدود الله، متجرؤون على محارمه.

هذا: وإن الفاحشة القديمة أصبحت فاحشة معاصرة معلنة، حيث يريد بعض الناس أن يجعلوا الشذوذ الجنسي مُقَنَّناً، وحقاً من حقوق الإنسان؛ كي يهبط الإنسان الذي كرمه الله ﷻ على سائر مخلوقاته في قوله: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ﴾ [الإسراء: ٧٠]، إلى المرتبة الحيوانية حين يجعل الشذوذ حقاً من حقوقه.

٥٦- ﴿فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قَالُوا أَخْرِجُوا آلَ لُوطٍ مِنْ قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أَنْأَسُ يَنْطَهَرُونَ﴾

فما كان الجواب من قوم لوط حين نهاهم نبیهم عن فاحشة اللواط، إلا أن هددوه وتوعده، وقال بعضهم لبعض: اطرّدوا لوطاً وأهله من بلدتكم، إنهم قوم يدعون الطهر من الأعمال التي يقومون بها، وهذا دليل منهم على أن الذي يقومون به من أعمال سيئة أنها فحشاء ومنكر؛ حيث قالوا للوط ﷺ وقومه: ﴿إِنَّهُمْ أَنْأَسُ يَنْطَهَرُونَ﴾ أي: يتنزهون عن الفعل الذي نفعله، فهم يسخرون منهم؛ لبعدهم عن هذه الفاحشة، ويفتخرون بما هم عليه من المنكر، ويجعلون أفضل الحسنات بمنزلة أقبح السيئات.

أمر الله لوطاً أن يخرج بأهله المؤمنين به ليلاً، فإن عذاب الاستئصال واقع بقومه في الصباح الباكر، وقد بين الله عقوبة قوم لوط، بأن جعل أعلى ديارهم أسفلها، وأمطر عليها حجارة من سجيل، قال تعالى: ﴿فَجَعَلْنَا عَلَيْهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِنْ سِجِيلٍ﴾ [الحجر].

وعن عقوبة اللواط في الدنيا: جاء في الأثر فيما يرويه ابن عباس ﷺ: «اقتلوا الفاعل والمفعول به في عمل قوم لوط والبهيمة والواقع على البهيمة، ومن وقع على ذات محرم فاقتلوه»^(١).

٥٧، ٥٨- ﴿فَأَنْجَيْنَاهُ وَأَهْلَهُ إِلَّا امْرَأَتَهُ قَدَرْنَاهَا^(٢) مِنْ الْغَايِبِينَ

﴿٥٧﴾ وَمَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ مَطَرًا فَسَاءَ مَطَرُ الْمُنْذَرِينَ﴾ [٥٨]

أي: وبعد أن أهلكهم الله بعذاب من عنده، نجى الله لوطاً وأهله إلا امرأته كانت من الهالكين؛ لأنها لم تؤمن به، فهي لم تكن زانية، أو لوطيَّة؛ إذ لا يوجد امرأة نبي توصف بهذا الوصف، ولكنها كانت تدل وتُرشد مَنْ يريدون عمل الفاحشة، فأنجينا لوطاً وأهله من العذاب الذي

(١) «المسند» (٢٧٢٧، ٢٧٣٢، ٢٧٣٣) قال محققوه: إسناده ضعيف، لضعف ابن أبي حبيبة، وأخرجه عبدالرزاق (١٣٤٩٢) والطبراني (١١٥٦٩) والخرائطي في مساويء الأخلاق (٤٣٦، ٥٧٢) وغيرهم.

(٢) قرأ شعبة بتخفيف الدال من (قدرنا)، والباقون بتشديدها، وهما لغتان.

نزل بقومه ﴿إِلَّا أَمْرَاتُهُ قَدَرْنَهَا مِنَ الْغَنِيِّتِ﴾ أي: كانت في علمنا وتقديرنا من الباقين في العذاب لتهلك مع الهالكين؛ لأنها كانت عوناً لقومها على أفعالهم القبيحة راضية بها، وكانت الملائكة قد جاؤوا إلى لوط عليه السلام، في صورة ضيوف، فلما علم شباب القرية بهم جاؤوا إليهم يريدون فعل الفاحشة، فأغلق لوط الباب دونهم، فأخبرته الملائكة أنهم رسل الله، وأنه لن يصل إليهم منهم أذى، وأنهم جاؤوا لإهلاكهم، وأن موعدهم الصبح، وأمره أن يسري بأهله ليلاً إلا امرأته، إنه مصيها ما أصابهم، فخرجوا ليلاً، فقلب جبريل القرية، وأنزل الله عليهم من السماء حجارة، قيل: إن هذه الحجارة التي أمطرهم كانت قد نزلت بهم في الصباح الباكر، ومن لم يكن منهم في مكانه، يذهب إليه حجره مُصَوَّباً عليه في المكان الذي هو فيه ليقتله، فهي حجارة مسومة، أي: مُعلَّمة وموجهة، وعليها اسم من يُرمى بها، وبش هذا العذاب الذي أهلكوا به ﴿فَسَاءَ مَطَرُ الْمُنْذِرِينَ﴾ أي: قُبْح عذاب من قامت عليهم الحجة فلم يؤمنوا، ولم ينتهوا عما نهاهم الله عنه.

وديار قوم لوط التي أهلكت معلومة للجميع، يقول الله تعالى عنها: ﴿وَمَا هِيَ مِنَ الظَّالِمِينَ بِبَعِيدٍ﴾ [هود: ٨٣]. ويقول: ﴿وَإِنَّا لَنَسِيلٌ مُّقِيمٌ﴾ [الحجر: ٧٦].
ويقول أيضاً: ﴿وَلَكُمْ لَنُورُونَ عَلَيْهِمْ مُصْحِحِينَ﴾ [الصافات: ١٢٧] وَبِالْبَلِّ [الصافات: ١٢٧].

وإلى هنا ينتهي الحديث عن قصص الأنبياء في السورة، وينبغي التنبيه على أن قوله تعالى: ﴿فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ﴾ من تنمة قصة لوط عليه السلام، وهي قصة قصيرة، فالأولى بالقاريء أن يتمها، ويبدأ تلاوته بالآية ٥٩ ولا يبدأها بالآية ٥٦ مراعاة للمعنى، أو يبدأ بأول قصة لوط عليه السلام.

خَمْسَةُ بَرَاهِينٍ مِنْ أَدِلَّةِ التَّوْحِيدِ وَآثَارِ الْقُدْرَةِ

٥٩- ﴿قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَامٌ عَلَى عِبَادِهِ الَّذِينَ اصْطَفَى﴾ ^(١) ۚ اللَّهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ ^(٢) ﴿٥٩﴾

إن سورة (النمل) كسائر السور المكية، تغرس عقيدة التوحيد في قلوب المشركين،

(١) لجميع القراء في (الله) وجهان: الأول: إبدال همزة الوصل ألفاً مع المد المشبع. الثاني: تسهيلها بين الهمزة والألف، ويتعين الوجه الأول على قصر المد المنفصل.

(٢) قرأ أبو عمرو وعاصم ويعقوب بياء الغيبة في (يشركون)، والباقون بالناء.

وُتَرَسِّخَ فِيهِمْ عَقِيدَةُ الْإِيمَانِ بِاللَّهِ وَبِالْيَوْمِ الْآخِرِ، وَمَا فِيهِ مِنْ بَعَثٍ وَحْشَرٍ، وَنَشْرٍ وَحِسَابٍ، وَجَنَّةٍ وَنَارٍ، كَمَا تَتَحَدَّثُ عَنْ صَدَقِ رِسَالَةِ النَّبِيِّ ﷺ.

وَفِي النِّصْفِ الْأَوَّلِ مِنَ السُّورَةِ، قِصَصٌ، لْخَمْسَةِ مِنَ الْأَنْبِيَاءِ وَالْمُرْسَلِينَ، دَعَوْا قَوْمَهُمْ إِلَى التَّوْحِيدِ، وَنَهَوْهُمْ عَنِ الشِّرْكِ، وَلَمَّا كَذَّبُوا رُسُلَهُمْ كَانَتْ عَاقِبَتُهُمْ كَمَا قَالَ الْحَقُّ سُبْحَانَهُ: ﴿فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَتْ عَاقِبَةُ مَكْرِهِمْ أَنَّا دَمَّرْنَاهُمْ وَقَوْمَهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٥١﴾ فَبَلَكَ يُؤْتِيهِمْ حَاوِيَةً بِمَا ظَلَمُوا﴾.

وَبَعْدَ هَذَا الْقِصَصِ الْقِرْآنِيِّ تُوجَّهُ السُّورَةُ الْخُطَابَ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ أَنْ يَحْمَدَ رَبَّهُ عَلَى جَمِيعِ نِعَمِهِ، وَمِنْهَا هَلَاكُ كُفَّارِ الْأُمَمِ الَّذِينَ سَبَقَ ذِكْرُهُمْ؛ بِسَبَبِ عَدَمِ تَوْحِيدِهِمْ لِلَّهِ تَعَالَى، وَعَدَمِ طَاعَتِهِمْ لِرُسُلِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ.

ثُمَّ أَمْرُهُ رَبَّهُ أَنْ يَتْلُو عَلَى أُمَّتِهِ هَذِهِ الْآيَاتِ النَّاطِقَةَ بِالْبَرَاهِينِ الْحُسْنَى الْمَشْتَمِلَةَ عَلَى خَمْسَةِ أَنْوَاعٍ مِنْ أَدَلَّةِ التَّوْحِيدِ وَأَثَارِ الْقُدْرَةِ الْإِلَهِيَّةِ فِي الْكُونِ تَتَضَمَّنُهَا خَمْسُ آيَاتٍ مِنَ السُّورَةِ.

وَتَبْدَأُهَا بِتَعْلِيمِ الْعِبَادِ أَنْ يَبْدُؤُوا حَدِيثَهُمْ بِحَمْدِ اللَّهِ ﷻ، ثُمَّ بِالصَّلَاةِ وَالسَّلَامِ عَلَى رَسُولِهِ ﷺ، وَكَأَنَّ هَذِهِ الْآيَاتِ صَدْرُ خُطْبَةٍ مَفْتُوحَةٍ بِالْحَمْدِ وَالسَّلَامِ عَلَى مَنْ اصْطَفَاهُمُ اللَّهُ مِنْ عِبَادِهِ.

﴿قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ أَيُّ: قُلْ يَا مُحَمَّدُ: الشَّاءُ وَالشُّكْرُ لِلَّهِ، فَهُوَ الَّذِي يَسْتَحِقُّ كِمَالِ الْحَمْدِ وَالْمَدْحِ، لِكِمَالِ أَوْصَافِهِ وَجَمِيلِ مَعْرُوفِهِ، وَسَلَامٍ مِنْهُ عَلَى عِبَادِهِ الَّذِينَ اخْتَارَهُمْ لِرِسَالَتِهِ، وَاصْطَفَاهُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ مِنَ الْأَنْبِيَاءِ وَالْمُرْسَلِينَ.

فِي حَدِيثِ أَبِي هُرَيْرَةَ ؓ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «كُلُّ أَمْرٍ ذِي بَالٍ لَا يَبْدَأُ فِيهِ بِحَمْدِ اللَّهِ فَهُوَ أَجْزَمٌ»، وَفِي لَفْظٍ: «أَقْطَعُ»^(١).

وَيَنْتَهِي الْحَدِيثُ بِالصَّلَاةِ وَالسَّلَامِ عَلَى مَنْ اصْطَفَاهُمُ اللَّهُ مِنْ بَيْنِ خَلْقِهِ، وَهُمْ رُسُلُ اللَّهِ وَأَوْلِيَائِهِ وَالْمَلَائِكَةُ الْكَرَامُ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿اللَّهُ يَصْطَفِي مِنَ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا وَمِنَ النَّاسِ﴾ [الحج: ٧٥]. ﴿وَسَلَّمْ عَلَى الْمُرْسَلِينَ﴾ [الصافات: ٢١].

(١) «سنن النسائي الكبرى» (١٠٢٥٥-١٠٢٥٨) وأبو داود (٤٨٤٠) وابن ماجه (١٨٩٤) و«المسند» بنحوه (٨٧١٢) قال محققوه: وإسناده ضعيف، لضعف قرة بن عبد الرحمن، وفي متنه وسنده اضطراب، وابن حبان (١، ٢). وضعفه الألباني في ضعيف سنن أبي داود برقم (١٠٣١).

قال الزمخشري: أمر الله رسوله ﷺ أن يتلو هذه الآيات الدالة على وحدانيته تعالى، الناطقة بالبراهين على قدرته وحكمته، وأن يستفتح بتحميده والسلام على أنبيائه، وفيه تعليم حسن، وتوقيف على أدب جميل، وهو حمد الله، والصلاة على رسله، ولقد توارث العلماء والخطباء والوعاظ كابراً عن كابر هذا الأدب، فحمدوا الله وصلوا على رسوله أمام كل علم، وقبل كل عظة وتذكرة.

وتوجه السورة السؤال إلى غير المؤمنين ﴿إِنَّ اللَّهَ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ هل عبادة الله ﷻ، الذي يملك النفع والضرر، والخير والشر خير، أم عبادة ما لا يملك شيئاً؟ وهل عبادة موجد الرزق خير، أم عبادة الأصنام والأوثان وغيرهما من الطواغيت التي لا تملك نفعا ولا ضرراً، ولا تملك لنفسها ولا لعبديها مثقال ذرة من الخير، فهي ناقصة من كل وجه.

وفي هذا تبكيت للمشركين وإلزام لهم بالحجة، وفيه توطئة للآيات الدالة على وحدانية الله تعالى وقدرته، وبيان أنه لا خير أصلاً فيما أشركوه مع الله تعالى؛ حتى يوازن بينه وبين خالق الكون، وكان النبي ﷺ إذا قرأها قال: «بل الله خير، وأبقى، وأجل، وأكرم».

وما سبق من الآية، تمهيد لما أمر الله تعالى به رسوله ﷺ أن يقوله للناس من البراهين الخمسة الدالة على وحدانية الله تعالى وكمال قدرته، ومجملها:

الدَّلِيلُ الْأَوَّلُ: مُكُونُ مِنَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْمَاءِ وَالنَّبَاتِ

٦٠- ﴿أَمَّنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَأَنْزَلَ لَكُمْ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنْبَتْنَا بِهِ حَدَائِقَ ذَاتٍ^(١) بَهْجَةٍ مَا كَانَ لَكُمْ أَنْ تُنْبِتُوا شَجَرَهَا أَوَلَمْ يَكُنْ مَعَهُ اللَّهُ بِأَنَّ هُمْ قَوْمٌ يَعِدُونَ﴾

أقامت السورة خمس جمل من البراهين في خمس آيات، فيها بعض آثار القدرة الإلهية:

البرهان الأول: وفيه أعظم خلق الله، وأكبر المخلوقات المشاهدة، وهو دليل مكون من أربعة أشياء: هي السموات والأرض، والماء والنبات، وهي نعم يتقلب فيها العبد صباحاً ومساءً في جميع أحواله، وهو يغض الطرف عنها، ولا يلتفت لها؛ لأنه يألفها في غدوة ورواحه وصباحه ومساءه. والمعنى:

(١) وقف الكسائي على (ذات) بالهاء والباقون بالناء.

- ١- اسألهم -يا رسولنا- مَنْ الذي خلق السموات، وما فيها من الآيات والكواكب العظيمة، كالشمس والقمر والأفلاك والنجوم والملائكة، الدالة على وحدة الخالق سبحانه؟
- ٢- وَمَنْ الذي خلق الأرض، وما فيها من زروع وثمار، وبحار وأنهار، وجبال وأشجار؟
- ٣- ومن خلق مقومات الحياة عليها، كالماء والهواء؟

٤- ومن أنزل من السماء ماء فأنبثنا بهذا الماء نباتاً ذا بهجة، وخُضرة، ومنظر حسن ؟

ولما كان الإنسان هو الذي يُلقى البذرة في الأرض، ويسقيها بالماء، فإن الله تعالى أسند إخراج النبات إلى نفسه، مع أن الله تعالى هو خالق السبب والمسبب، وليس في استطاعتكم -أيها الناس- أن تخلقوا هذا النبات، ولا تخرجوه من الأرض، لولا الله سبحانه.

والآية فيها امتنان من الله تعالى بنعمة الخلق والإيجاد، وما به قوام شؤون الحياة.

وقد فصل الله - سبحانه - ذلك في مثل قوله تعالى: ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ ثُمَّ رَزَقَكُمْ ثُمَّ يُعِيدُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ مَنْ يَفْعَلُ مِنْ ذَلِكَُمْ مِنْ شَيْءٍ سُبْحَنَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [الروم].

والآيات ناطقة بالبراهين المحسوسة الدالة على انفراد الله تعالى بالخلق والتدبير، والمشركون معترفون بذلك، ولكنهم معرضون إعراض مكابرة، وعدول عن الحق الواضح، قال تعالى: ﴿وَلَيْن سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ﴾ [العنكبوت: ٦١].

ثم يسألهم القرآن على وجه التوبيخ؛ ليقدر أن عبادته سبحانه هي الحق، وعبادة ما سواه هي الباطل ﴿أَلَمْ يَكُنْ مَعَ اللَّهِ﴾ فَعَلَ هذه الأشياء حتى يُعبد معه ويشرك به؟ فكيف تعبدون معه غيره، وهو المتفرد بالخلق والرزق؟ ﴿أَفَمَنْ يَخْلُقُ كَمَنْ لَا يَخْلُقُ﴾ [النحل: ١٧]. بل هم قوم يحدون عن الحق، وينحرفون عن الإيمان إلى الباطل والكفر، فيُسَوُّون مع الله غيره.

ولا يستطيع أحد القول بأن خالق السماء، ومنزل الماء، ومنبت الحقائق الغنَّاء، حجرٌ أو بشرٌ، فلا مجال لمثل هذا الادعاء، ولا مفر من الإقرار والإذعان بأن خالق هذا الكون هو الله - سبحانه - كما قال تعالى: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ ثُمَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ﴾ [الأنعام].

فيستوون به غيره، مع علمهم بأنه سبحانه خالق العالم العلوي والسفلي، ومنزّل الرزق ومدير الأمر. إن استقرار الأرض بمن عليها دون حركة، ولا اهتزاز، ولا اضطراب، أمر مدهش، فالإنسان لا يرى كُوب ماء يهتز في يده فوق سطح هذه الأرض، وهي تدور في حركة مزدوجة ليل نهار، لقد جعلها الله مستقرًا صالحًا للحياة فوقها، وكلما اتسع علم البشر على توالي الأزمان أدركوا ما ينطوي عليه مدلول الآية.

الدليل الثاني: مُكَوّنٌ مِنْ أَرْبَعِ نِعَمٍ أَيْضًا

٦١- ﴿أَمَّنْ جَعَلَ الْأَرْضَ قَرَارًا وَجَعَلَ خِلَالَهَا أَنْهَارًا وَجَعَلَ لَهَا رَوَاسِيَ وَجَعَلَ بَيْنَ الْبَحْرَيْنِ حَاجِزًا إِنْ إِلَهُ مَعَ اللَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾

هذا هو البرهان الثاني: وفيه أيضًا أربعة أنواع من النعم، وهي: استقرار الأرض، وشق الأنهار فيها، ووجود الجبال فيها، وفضل ما بين الماء العذب والمالح.

١- فاسألهم -أيها الرسول- عن عظيم قدرة الله تعالى في هذه المخلوقات: أعبادة ما تشركونه مع الله خير، أم عبادة الذي جعل لكم الأرض مستقرًا صالحًا للسكنى والحرث والبناء والذهاب والإياب، إنه سؤال استفهام على وجه التبكيت والتقريع من الله تعالى للضالين عن طريق الحق، وكيف أن الله سبحانه دحا الأرض وسواها، وهي لا تميد بأهلها، مع أنها تدور حول نفسها وحول الشمس، ونحن نعيش عليها، ولا نحس بحركتها.

مَنْ الذي جعل الأرض ساكنة مع كرويتها، صالحة للمعيشة فوقها؟ ﴿إِنَّ اللَّهَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ الْأَرْضَ قَرَارًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً﴾ [غافر: ٦٤].

والزلازل والبراكين التي تحدث فيها، إنما هي دلالة على عظيم قدرة الله تعالى، وعلى نعمه على بني البشر، وتذكرة للإنسان على نعمة الاستقرار فوق هذه الأرض، ماذا لو لم يأمن الإنسان هذا الاضطراب؟ كيف تطيب له الحياة؟ وكيف يتقلب في الأرض؟

٢- ومن قدرته تعالى أنه جعل الأنهار تنفجر من وسط الأرض بمياه عذبة طيبة، تسير في شعابها وأوديتها شرقًا وغربًا وشمالًا وجنوبًا لسقيا العباد والبلاد.

٣- ومن قدرته تعالى أنه جعل الجبال أوتادًا؛ لئلا تميد الأرض وتضطرب بمن عليها،

فجعل الجبال رواسي للأرض؛ لئلا تتحرك بالناس.

٤- ومن قدرته تعالى أنه جعل بين الماء العذب، والماء الملح، فاصلاً وحاجزاً من قدرة الله - سبحانه - أو حاجزاً من اليابس؛ لئلا يختلط الماء الملح بالعذب؛ حتى لا يُفسد أحدهما الآخر، وتنفوت المصلحة المقصودة من كل منهما.

قال تعالى: ﴿مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ (١٩) بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لَا يَبْغِيَانِ (٢٠)﴾ [الرحمن]. وقال: ﴿وَهُوَ الَّذِي مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ هَذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ وَهَذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ وَجَعَلَ بَيْنَهُمَا بَرْزَخًا وَحِجْرًا مَحْجُورًا (٥٣)﴾ [الفرقان].

فالماء العذب لسقي الإنسان والحيوان، والزرع والثمار، أما البحار المالحة المحيطة بالأرجاء والأقطار من كل جانب فقد جعلها الله أجاجاً؛ لئلا يُفسد الهواء ريحها.

ثم يسأل الحق ﷻ مقررًا ومُوقفاً عباده على مَنْ فَعَلَ هذه الأمور الأربعة، فقال: ﴿أَلَمْ يَكُنْ مَعَ اللَّهِ﴾ أمعبود مع الله فعل ذلك، حتى تشركوه معه في عبادتكم؟ بل أكثر المشركين بالله تعالى لا يعلمون قدر عظمة الله - سبحانه - فهم يشركون معه غيره ظلمًا لأنفسهم، وتقليدًا لغيرهم.

الدَّلِيلُ الثَّالِثُ: إِجَابَةُ الْمُضْطَرِّ وَالْأَسْتِخْلَافُ فِي الْأَرْضِ

٦٢- ﴿أَمَّنْ يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاءَ الْأَرْضِ أَأَلَا لَهُ مَعَ اللَّهِ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ (٦٢)﴾

هذا هو البرهان الثالث: وفيه أمران، حيث ينتقل السياق من آيات الله تعالى في الكون الفسيح، إلى آياته في الأنفس.

الأمر الأول: إجابة المضطر: وذلك حين يقع الإنسان في غم وكرب، فلمن يلجأ؟ ومن يدعو؟ ومن يسأل؟ ومن الذي يضرع إليه فيستجيب دعاءه؟ وينجيه مما هو فيه؟ من الذي يغيّر الأحوال، فيكشف سوء الضر، ويبدّل حالة الإنسان من مرض إلى صحة، ومن فقر إلى غنى، ومن معاصٍ إلى طاعة، ومن هزيمة إلى نصر؟ من الذي يجيب دعوة المكروب الذي نزلت به المحن والرزاياء، فيكشف عنه سوء والبلاء؟ والجواب هو الله سبحانه.

(١) قرأ أبو عمرو وهشام وروح بياء الغيبة في (تذكرون) على الالتفات، والباقون بتاء الخطاب لمناسبة (ويجعلكم)، وقرأ حفص وحزمة والكسائي وخلف بتخفيف الدال، والباقون بتشديدها.

الأمر الثاني: الاستخلاف في الأرض، أي: وقولوا لنا أيضًا: من الذي استخلفكم في الأرض، فجعل بعضكم يخلف بعضًا، قرنًا بعد قرن، بما تقتضيه الخلافة من تجدد الأبناء عقب الآباء، وما يستلزم ذلك من كثرة الداعين اللاجئين إلى الله؟ فمن الذي جعلكم تراثون الأرض وتعمرونها، وتسكنونها جيلًا بعد جيل؟ ﴿أَوَلَمْ مَعَ اللَّهِ﴾ هل هناك إله آخر مع الله - سبحانه - فَعَلَّ هذا؟ والجواب: لا أحد غير الله. قال تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْآرْضَ وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ﴾ [الأنعام: ١٦٥].

وقال: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ [البقرة: ٣٠].

أمة بعد أمة، وجيلًا بعد جيل، ولو شاء لأوجدكم كلكم في وقت واحد، ولكنه سبحانه يميّتكم ويأتي بقوم بعدكم، ويمدكم بالرزق وسائر النعم.

ولو نظر المسلم إلى السياق القرآني البديع، لوجد أن آخر كل آية يناسب جوهرها، ومن ذلك هذه الآية؛ فالإنسان وهو في حالة الرخاء ينسى حالة الضيق والشدة، ولذا تختم الآية بقوله تعالى: ﴿قَلِيلًا مَّا تَذْكُرُونَ﴾ أي: قليلًا ما تتعظون وتعتبرون، فتذكرون ما كنتم فيه وقت الشدة، ولكن يغلب عليكم الإعراض والغفلة.

وهذا كقوله تعالى: ﴿وَإِذَا أَنْعَمْنَا عَلَى الْإِنْسَانِ أَعْرَضَ وَنَسَى بِجَانِبِهِ وَإِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ فَذُو دُعَاءٍ عَرِيضٍ﴾ [فصلت].

وقوله: ﴿وَإِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فِي الْبَحْرِ ضَلَّ مَنْ تَدْعُونَ إِلَّا إِلَهُهُ فَلَمَّا بَلَغَكُمُ الْبَرْ أَعْرَضْتُمْ وَكَانَ الْإِنْسَانُ كَفُورًا﴾ [الإسراء].

سأل رجل رسول الله ﷺ قال: يا رسول الله، إلام تدعو؟ قال: «أدعو إلى الله وحده، الذي إن مسك ضر فدعوته كشفه عنك، والذي إن أضللت بأرض قفر فدعوته ردها عليك، والذي إن أصابك سنة فدعوته أنبتها لك»^(١).

(١) من حديث طويل بنحوه في «المسند» عن رجل (٦٤/٥) برقم: (١٦٦١٦) و(٢٣٢٠٥) وهو حديث صحيح وإسناده لئین والطبرانی (٦٣٨٣-٦٣٩٠) و«صحيح سنن أبي داود» (٣٤٤٢) عن جابر بن سليم، وصحيح الترمذي (٢٨٧٧) وقال الهيثمي في مجمع الزوائد (٧٢/٨): رواه أحمد، وفيه الحكم بن فضيل، وثقه أبو داود وغيره، وضعفه أبو زرعة وغيره، وبقي رجاله رجال الصحيح.

وأخرج ابن أبي شيبة عن سُحَيْمِ بْنِ نُوْفَلٍ قَالَ: بينما نحن عند عبد الله، إذ جاءت وليدة إلى سيدها، فقالت: ما يَحْسِبُكَ وَقَدْ لَفَعَ فُلَانٌ مُهْرَكَ بَعِينِهِ، فتركه يدور في الدار كأنه في فلك؟ قالت: قم فابتغي راقياً.

فقال عبد الله: لا تبغ راقياً، وانفث في مَنْخَرِهِ الأيمن أربعاً، وفي الأيسر ثلاثاً، وقل: لا بأس، أذهب البأس رب الناس، اشف أنت الشافي، لا يكشف الضر إلا أنت، قال: فذهب، ثم رجع إلينا، فقال: فَعَلْتُ ما أَمَرْتَنِي، فما جئت حتى راث وبال وأكل^(١).

الدَّلِيلُ الرَّابِعُ: التَّصَرُّفُ فِي أَحْوَالِ النَّاسِ وَأَحْوَالِ الرِّيَّاحِ

٦٣- ﴿أَمَّنْ يَهْدِيكُمْ فِي ظُلُمَاتِ اللَّيْلِ وَالْبَحْرِ وَمَنْ يُرْسِلُ الرِّيَّاحَ^(٢) بُشْرًا^(٣) بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ^٥ أَلَيْسَ اللَّهُ تَعَالَى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿١٣﴾﴾

هذا هو البرهان الرابع على وحدانية الله تعالى في سورة النمل، وفيه أمران:

أحدهما: التصرف في أحوال الناس: وذلك أنه لا يستوي عبادة ما يشركه المشركون مع الله تعالى، بمن يرشدهم في الظلام الدامس إذا ضلوا في أسفارهم، وهم في أماكن مظلمة.

﴿أَمَّنْ يَهْدِيكُمْ فِي ظُلُمَاتِ اللَّيْلِ وَالْبَحْرِ﴾ أي: إذا أردتم الانتقال من مكان إلى مكان، حين تختلط عليكم السبل في البر، وحين تلبس عليكم الطرق في الجو الملبد بالغيوم، وخلال أمواج البحر الهائج.

ومن غير الله - سبحانه - يدلکم ويرشدکم إلى الطريق المستقيم، ويخرجكم من ظلمات الجهل إلى نور الهدى؟ والجواب: لا أحد غير الله. سبحانه.

وثانيهما: إثارة الرياح وإرسالها: أي: ومن يرسل الرياح بين يدي المطر فتثير السحاب مبشرات بما يرحم الله به عباده من غيث يغيث به العباد والبلاد، ويرسل الرياح تدفع

(١) ابن أبي شيبة (١٠/ ٢٨٠).

(٢) قرأ ابن كثير وحزمة والكسائي وخلف بإفراد (الرياح)، والباقون بالجمع.

(٣) قرأ عاصم (بُشْرًا) وقرأ حمزة والكسائي وخلف (نُشْرًا) وقرأ نافع وابن كثير وأبو عمرو وأبو جعفر ويعقوب (نُشْرًا) وقرأ ابن عامر (نُشْرًا).

السفن، وتُلَقَّح الزرع والنبات والنخيل، مَنْ يفعل ذلك؟ ﴿أَلَيْسَ مَعَ اللَّهِ﴾ أمعبود مع الله يفعل بكم شيئاً من ذلك فتدعونونه من دون الله؟ تنزه الله وتقدّس عما يشركون به غيره.

الدَّلِيلُ الْخَامِسُ: نِعْمَةُ الْخَلْقِ وَالرِّزْقِ

٦٤- ﴿أَمَّنْ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَمَنْ يَرْزُقُكَ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أَلَيْسَ مَعَ اللَّهِ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ﴾
 إِنَّ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿١٤﴾

أما البرهان الخامس: فهو يذكر بنعمة الإيجاد والإمداد، وهذا البرهان يتناول أمرين أيضاً:

الأول: بدء الخلق وإعادته، إنه سبحانه هو الذي ينشئ المخلوقات، ثم يعيدهم يوم البعث والنشور، ونظراً لأن المشركين لا ينكرون أن الله تعالى هو الخالق الرازق، فقد أدمج سبحانه بينهما إعادة الخلق، إيقاظاً وتذكيراً لمن أنكر البعث والنشور، فمن الذي أوجد هذا العالم من العدم؟ ومن الذي حوّل النطفة إلى علقة، ثم إلى مضغة، ثم إلى إنسان سويّ يسمع ويبصر ويعقل، ثم يميّتكم ثم يحييكم مرة ثانية بالبعث والنشور ﴿إِنَّهُ هُوَ بَدِئُ وَبُعِيدُ﴾ ﴿١٣﴾ [البروج].

الأمر الثاني: رزق العباد: وهو أمر مقرر لبدء الخلق وملازم له، ولذا عطف عليه - في آيات آخر - بإنزال الماء، وإخراج الزرع والنبات، وغير ذلك من كل ما فيه رزق الإنسان والحيوان: ﴿أَلَيْسَ مَعَ اللَّهِ﴾ أمعبود سوى الله تعالى يفعل ذلك؟ قل هاتوا دليلكم وحجتكم على ذلك، إن كنتم صادقين في زعمكم أن لله تعالى شريكاً في ملكه وعبادته، وإلا فأنتم مبطلون لاحجة لكم، فارجعوا إلى الأدلة اليقينية والبراهين القطعية، الدالة على أن الله تعالى هو المدبر لهذا الكون، المستحق للعبادة دون سواه.

وبهذا نرى أن هذه الآيات الست، أقامت أوضح الأدلة وأقواها على وحدانية الله تعالى، وعلى كمال قدرته، وشمول علمه، وانفراده بالخلق والتدبير:

١- فأجملت أولاً الاستدلال على أن الله تعالى هو الواحد الأحد ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ﴾ أما يُشْرِكُونَ؟

٢- ثم فصلت ذلك، فبدأت بأكبر مخلوق مشاهد، وهو السموات والأرض، وختمت هذه الآية، بما لا يسع الخلق إلا الإقرار به.

٣- وأتبع ذلك بما يلحقهما من خَلْقِ لِكْرَةِ الأرض، وما على وجهها.
 وخُتِمت هذه الآية بنفي صفة العلم عن المشرك بالله تعالى؛ لقلة نظره في دقائق الكون وخصائصه.
 ٤- ثم ذكرت الآيات اللجوء إلى الله تعالى عند الاضطراب، وجعل البشر خلفاء في الأرض.
 وخُتِمت هذه الآية بقلة الاتعاظ والاعتبار في الحل والارتحال، والغزو والتجارة ونحو ذلك.
 ٥- ثم ذكرت هداية الناس في أسفارهم، وبيّنت أن من فوائد السحاب نزول المطر.
 وخُتِمت هذه الآية بما يقطع نزاع المشركين في تصرفات الله سبحانه، وأنه الذي تفرد بالخلق والتدبير.

٦- ثم ذكرت الآيات نعمة الخلق، والرزق، والبعث بعد الموت.
 وختمت هذه الآية بتعجيز منكري البعث أن يأتوا ببرهان على عدم البعث.
 وختمت الآيات الأخيرة بكلمة جامعة لنعمتي: الإيجاد، والإمداد، وطلب إقامة الدليل على منازعة الله تعالى في كل ما ذكرته الآيات، وفي معنى ذلك قوله تعالى: ﴿وَمَنْ يَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ لَا بُرْهَانَ لَهُ بِهِ فَإِنَّمَا حِسَابُهُ عِنْدَ رَبِّهِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ﴾ [المؤمنون].
 قال أبو حيان: وناسب ختم كل استفهام بما تقدمه، فلما ذكر خلق العالم العلوي والسفلي، وما امتنَّ به من إنزال المطر، ختمه بقوله: ﴿بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعِدُونَ﴾ أي: يعدلون به غيره مما هو مخلوق.

ولما ذكر سبحانه جعل الأرض مستقرًا، وذكر تفجير الأنهار، وكان فيهما التنبيه على عدم الكفر، ووجوب التعقل، ختمه بقوله: ﴿بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾.
 ولما ذكر سبحانه إجابة المضطر وكشف سوء، ختمه بقوله: ﴿قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ﴾
 لأن الإنسان يتوالى عليه النسيان عندما يزول عنه اضطرابه.

ولما ذكر الهداية في الظلمات، وإرسال الرياح مبشرات، وأن معبوداتهم لا تهدي ولا تسعف، ومع ذلك فهم يشركونها مع الله تعالى، ختم ذلك بقوله: ﴿تَعَلَّى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾^(١).

(١) «تفسير البحر المحيط» (٩١/٧).

لَا يَعْلَمُ الْغَيْبَ إِلَّا اللَّهُ وَمِنْهُ قِيَامُ السَّاعَةِ

٦٥- ﴿قُلْ لَا يَعْلَمُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ الْغَيْبَ إِلَّا اللَّهُ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ﴾ (١٥)

وبعد أن قطعت الآيات السابقة دابر الشرك بإقامة أدلة التوحيد، أتبع ذلك بذكر أثر من آثار الشرك، وهو ادعاء علم الغيب عن طريق الكهانة، وإخبار الجن، كما يزعم بعضهم.

وقد ورد أن المشركين ألحوا في سؤالهم رسول الله ﷺ عن معرفة وقت قيام الساعة، فأنزل الله الآية؛ للتسليم بها، وترك التحديد فيها إلى الله تعالى.

أي قل -يا محمد- لكل من سألك عن قيام الساعة، لا يعلم أحد في السموات، ولا في الأرض، ما استأثر الله بعلمه من المغيبات إلا الله، والساعة من أكبر مسائل الغيب.

في حديث عمر رضي الله عنه: لما سئل الرسول ﷺ عن قيام الساعة قال: «ما المسؤول عنها بأعلم من السائل»^(١).

وعن عائشة رضي الله عنها قالت: ومن زعم أنه يعلم ما في غد، فقد أعظم على الله الفرية^(٢).

والخلاصة جميعاً لا يعلمون الوقت الذي يبعثون فيه، ولا يدرون متى يخرجون من قبورهم عند قيام الساعة؛ فإنَّ عِلْمَ ذلك عند الله وحده.

قال تعالى: ﴿بَلْ تَأْتِيهِمْ بَغْةٌ فَتَبَهُتْهُمْ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ رَدَّهَا وَلَا هُمْ يُنْظَرُونَ﴾ (٤٠) [الأنبياء].

وقال: ﴿إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ﴾ [لقمان: ٣٤]. وقال: ﴿لَا تَأْتِيكُمْ إِلَّا بَغْةٌ﴾ [الأعراف: ١٨٧].

فلا يعلم أحد الغيب، لا نبي مرسل، ولا ملك مقرب ﴿وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ﴾ [الأنعام: ٥٩]. إلا مَنْ يتفضل الله عليه بأن يطلعه على شيء من علم الغيب، فهو داخل في علم الله تعالى، كما قال: ﴿عَلِمَ الْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَى غَيْبِهِ أَحَدًا﴾ (٦٦) إِلَّا مَنْ أَرَادَ مِنْ رَسُولٍ فَإِنَّهُ يَسْلُكُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ رَصَدًا ﴿[الجن: ٧٧].

فعلم الساعة من الغيوب التي اختص الله بها، فلم يعلمها ملك مقرب ولا بني مرسل،

(١) «صحيح مسلم» برقم: (٨).

(٢) يُنْظَرُ «البخاري» برقم: (٤٢٣٥، ٤٨٥٥، ٧٥٣١) ومسلم برقم: (١٧٧) وهذا جزء منه والترمذي (٣٠٦٨، ٣٢٧٨) والنسائي في «السنن الكبرى» (١١١٤٧، ١١٥٣٢) وغيرهم.

وإذا كان سبحانه هو المحيط بالسرائر والبواطن، فهو الذي لا تُصرف العبادة إلا له.

أَرْبَعُ حَالَاتٍ تَعْتَرِي الْمُكَذِّبَ يَوْمَ الدِّينِ

٦٦- ﴿بَلْ أَدْرَكَ^(١) عِلْمُهُمْ فِي الْآخِرَةِ بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ مِنْهَا بَلْ هُمْ مِنْهَا عَمُونَ ﴿٦٦﴾﴾

بَيِّنَ ﷻ في هذه الآية أن منكري البعث من مُدَّعي علم الغيب، يتنقلون من حالة إلى حالة:

١- الجهل بيوم البعث. ٢- إلى حالة الشك والارتياب فيه.

٣- إلى حالة جحودهم وإنكارهم له.

٤- ثم ينتهي الأمر إلى العلم اليقيني به بعد رؤية العذاب بأعينهم، فهذه أربع حالات تعتر بهم.

والحالة الأولى هي أضعف وأدنى درجات العلم، إذ ليس دون الجهل شيء، فهو الصُّفْر.

والحالة الثانية شنيعة لأن فيها شك في البعث والنشور.

والحالة الثالثة أشد شناعة، لأنها جحود وإنكار.

وبعد هذه المراحل الثلاث تأتي مرحلة اليقين بعد معاينة الحقيقية ومشاهدة العذاب.

وبيان ذلك: أَنَّ مَنْ كانوا في الدنيا من أهل الكفر والضلال، يشكُّون في البعث بعد الموت، وكذا مَنْ كانوا يزعمون معرفة علم الغيب، وهم لا يعرفون متى يبعثون؛ فَإِنَّ عِلْمَ بعضهم لِحَقِّ عِلْمٍ بعضٍ في الآخرة، فتداركت علومهم بعضها بعضاً.

قال تعالى بعد أن وصف الذين يدَّعون عِلْمَ الغيب بأنهم لا يشعرون بوقت البعث: ﴿بَلْ أَدْرَكَ عِلْمُهُمْ فِي الْآخِرَةِ﴾ أي: أدرك عِلْمُ بعضهم بعضاً، فتلاحق وتتابع في شأن الآخرة، وتلقَّى بعضهم عن بعض ما اشتهر لديهم من إنكار الحياة الآخرة، فكان علماً مضطرباً، فيه تخبط وجهل مدة حياتهم في الدنيا، ثم تكامل هذا العلم في الآخرة، فظهر لهم حقيقة ما كانوا يجهلون في الدنيا، وأيقنوا بالدار الآخرة بعد ما عاينوا العذاب فيها، كما قال تعالى: ﴿أَسْمِعْ بِهِمْ وَأَبْصِرْ يَوْمَ يَأْتُوتَنَّا﴾ [مريم: ٣٨]. وقد كانوا وهم في الدنيا في شك من

(١) قرأ نافع وابن عامر وعاصم وحزمة والكسائي وخلف (بل أدرك) أصلها تدارك أبدلت التاء دالاً وأدغمت الدال في الدال، بمعنى: تتابع وتلاحق. وقرأ غيرهم (بل أدرك) بمعنى: بلغ وانتهى.

الآخرة، كما قال تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَالسَّاعَةُ لَا رَيْبَ فِيهَا قُلْتُمْ مَا نَدْرِي مَا السَّاعَةُ إِنْ نُنْظَنُ إِلَّا ظَنًّا وَمَا نَحْنُ بِمُستَيْقِينَ﴾ [البجائية].

ثم بين سبحانه ما هو أشد من الشك في الآخرة، فقال تعالى مُضْرِبًا عما سبق: ﴿بَلْ هُمْ مِّنْهَا عَمُونَ﴾ أي: أنهم كانوا في عمى عنها وهم في الدنيا، لا يفكرون فيها، ولا يؤمنون بها، فلم يهتدوا إليها.

وهكذا بعد أن وصف الله تعالى المكذبين بالدار الآخرة في الآية السابقة بأنهم لا يشعرون بمجيء البعث والحساب، ذكر في هذه الآية ثلاثة إضرابات:

الأول: يتعلق بالآخرة، وهو تيقنهم بالبعث عند مشاهدتهم له، بعد تخطبهم فيه في الدنيا، وهذا مستفاد من قوله تعالى ﴿بَلْ أَدْرَاكَ عِلْمُهُمْ فِي الْآخِرَةِ﴾.

والثاني: يتعلق بالدنيا، فيقرر أنهم كانوا في الدنيا في شك من البعث، وهذا مستفاد من قوله تعالى ﴿بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ مِّنْهَا﴾.

الثالث: أن منكري البعث كانوا في الدنيا في ضلال وغفلة عن الحياة الآخرة، وهذا معنى قوله تعالى ﴿بَلْ هُمْ مِّنْهَا عَمُونَ﴾.

ويقرر هذا الإضراب، أنهم كانوا في حالة أسوأ من الشك، وهي الضلال والعمى عن معرفته، كحال البهيمة التي لا تفكر في عواقب الأمور، ولا تعرف حقًا من باطل، وتعكف على إشباع رغبة البطن والفرج.

وهكذا وصف الله سبحانه الكافر بقوله: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا يَتَمَنَّوْنَ وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ الْأَنْعَامُ وَالنَّارُ مَثْوًى لَّهُمْ﴾ [محمد: ١٢]. وبقوله: ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [١] يَعْلَمُونَ ظَنَّهُمْ مِّنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ الْآخِرَةِ هُمْ غَفْلُونَ﴾ [الروم].

فإذا جاء يوم القيامة، ورأى المنكرون البعث الذي كذبوا به في الدنيا، فإن علمهم به يتكامل في الآخرة، ويتحقق حين يرونه بأعينهم، فيصدقون آنذاك، ويوقنون به وبما فيه من الأهوال، وقد كانوا في الدنيا في شك منه، بل عميت عنه بصائرهم فلم يهتدوا لمعرفة، فإن ما كانوا ينكرونه سابقًا أيقنوا به عندما شاهدوه، وتكامل علمهم به بعد اضمحلاله، كما قال تعالى: ﴿لَقَدْ كُنْتُمْ فِي غَفْلَةٍ مِّنْ هَذَا فَكَشَفْنَا عَنْكَ غِطَاءَكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ﴾ [ق]. قال تعالى:

تَكْذِيبُ الْكَافِرِ بِالْبَعْثِ وَالنُّشُورِ

٦٧، ٦٨ - ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَءِذَا كُنَّا تُرَابًا وَءِآبَاؤُنَا أَنِنَا لَمُخْرَجٍ ﴿٦٧﴾ لَقَدْ وَعَدْنَا هَذَا نَحْنُ وَءِآبَاؤُنَا مِنْ قَبْلُ إِنْ هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ ﴿٦٨﴾﴾

أي: إن الكفار جحدوا وحدانية الله تعالى، وأنكروا البعث والنشور، وقالوا على سبيل الإنكار للبعث والحساب: أئذا متنا فأصبحنا رفاتًا وعظامًا بالية، أُنْبِعث نحن وآباؤنا أحياء، ونعود للعنزة مرة ثانية بعد أن صرنا ترابًا؟

هذا أمر غير ممكن، وذلك لانهم قاسوا قدرة الله تعالى على قدرتهم، ثم أتبعوا قولهم هذا بما هو أشد في الإنكار والتهكم، فقالوا: لقد وَعَدْنَا محمد بالبعث، كما وَعَدَ آباؤُنَا مَنْ كانوا قبله من الرسل بالبعث كذلك، ولم نر لهذا البعث حقيقة، ولو كان حقًا لحصل، وما هذا الذي نسمعه من محمد ﷺ، وسمعه آباؤنا من الرسل السابقين في شأن البعث والحساب، إلا خرافات وأكاذيب مما سطره الأولون، وافتروه في كتبهم.

وهكذا فقد ردُّوا على جميع الرسل بإنكار البعث، وجعلوا ذلك من أساطير الأولين، ومثل هذه الآية في موضع آخر بفارق تقديم ﴿نَحْنُ﴾ على ﴿هَذَا﴾ في قوله تعالى في سورة (المؤمنون) ﴿لَقَدْ وَعَدْنَا نَحْنُ وَءِآبَاؤُنَا هَذَا مِنْ قَبْلُ إِنْ هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ ﴿٨٣﴾﴾. وهذا التقديم على معنى: أن أنفسهم أصبحت ترابًا وعظامًا، أما هنا فالمعنى أن أنفسهم وآباءهم صارت ترابًا، وهذا أوغل في إنكار الحساب واستبعاد البعث:

١- وقد جاء هذا المعنى في مثل قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا أَءِذَا كُنَّا عِظَامًا وَرُفُنًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا ﴿٢٩﴾﴾ [الإسراء].

٢- وفي قوله جلَّ شأنه: ﴿أَءِذَا كُنَّا تُرَابًا أَءِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ ﴿٥﴾﴾ [الرعد: ٥].

٣- وفي قوله تعالى: ﴿أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ ﴿١١﴾﴾ أَوْ ءِآبَاؤُنَا الْأَوَّلُونَ ﴿١٧﴾﴾ [الصافات].

٤- وفي قوله جلَّ شأنه: ﴿يَقُولُونَ أَءِنَّا لَمَرْدُودُونَ فِي الْحَفَرَةِ ﴿١٠﴾﴾ أَءِذَا كُنَّا عِظَامًا نَحِرَةً ﴿١١﴾﴾ [النازعات].

وهكذا حكى كل آية أسلوبًا من مقال منكري البعث والنشور.

مَغَبَّةُ إِنْكَارِ الْبَعْثِ

٦٩- ﴿قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُجْرِمِينَ﴾

أمر الله رسوله أن يقول للمنكرين بالبعث، المكذبين لرسالته ﷺ على سبيل الاتعاظ بحال من سبقهم، والتحذير من أن يصيبهم مثل ما أصاب السابقين: قل لهم -يا محمد- سيروا في الأرض؛ لتروا بأعينكم مصارع المكذبين بما جاءت به الرسل قبلكم؛ لتعتبروا بما أصابهم، تأملوا ديار قوم ثمود، وقوم لوط، وغيرهم، فقد أهلكهم الله واستأصلهم، لقد كان عاقبتهم الهلاك، وهكذا يفعل سبحانه بالمجرمين المكذبين في كل زمان ومكان، والله تعالى فاعل ذلك بكم إن لم تؤمنوا به وبرسوله، وبالبعث، والحساب والجزاء.

٧٠، ٧١- ﴿وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُنْ فِي ضَيْقٍ^(١) مِمَّا يَمْكُرُونَ﴾ ﴿٧٠﴾ وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ

إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿٧١﴾

ولما أُنذر الله سبحانه المكذبين بهذا الوعيد، تحركت الرحمة والشفقة على الأمة في نفس الرسول ﷺ، فربط الله على قلبه بهذا التشجيع قائلاً له: لا تحزن على إعراض المعرضين وتكذيبهم لك، فإنهم لا يصلحون للخير، ولا تأسف على عدم إيمانهم، ولا يضق صدرك من عدم إيمانهم وإصرارهم على الكفر والجحود، فيمتلئ صدرك همًا وغمًا بسبب مكرهم بك؛ فإن الله تعالى مؤيدك وناصرك عليهم.

ثم يأتي تجديد لمقالة المكذبين بالبعث والنشور، في استعجالهم نزول العقاب الذي أنذرهم به محمد ﷺ، واستفهامهم عن وقت مجيئه، من باب التهكم والسخرية قائلين: ﴿مَتَى هَذَا الْوَعْدُ﴾ الذي تعدنا به أنت وأتباعك ﴿إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ في وعدكم لنا بالعذاب، فقد طال انتظارنا له؟! قال تعالى في الرد عليهم:

٧٢- ﴿قُلْ عَسَى أَنْ يَكُونَ رَدِفٌ لَكُمْ بَعْضُ الَّذِي سْتَعْجِلُونَ﴾ ﴿٧٢﴾

أمر الله نبيه أن يتوعدهم على طلبهم سرعة نزول العذاب بهم، فيُعلمهم بأن هذا من علم الغيب الذي لا يعلمه إلا الله، ولعل نزوله بكم يكون قريبًا، ويأتي هذا الوعيد؛

(١) قرأ ابن كثير بكسر الضاد من (ضيق)، والباقون بفتحها، وهما لغتان في المصدر.

ليحمل في طياته مقدمات العذاب الشديد لهم، وأن عسى أن يكون ردف، أي: اقترب لكم بعض الذي تستعجلونه من عذاب الله، فلا تتعجلوه، فعسى ما تستعجلونه يكون في طريقه إليكم وأنتم لا تشعرون، وهكذا كقوله تعالى: ﴿وَيَقُولُونَ مَتَى هُوَ قُلْ عَسَى أَنْ يَكُونَ قَرِيبًا﴾ [إسراء: ٥١].

وقوله: ﴿يَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ﴾ [٥٤] [العنكبوت].

وفي الآية تهديد ووعد لهم على إنكارهم وتكذيبهم للحياة الآخرة.

فَضْلُ اللَّهِ تَعَالَى وَإِحَاطَةُ عِلْمِهِ

٧٣- ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَشْكُرُونَ﴾ [٧٣]

بَيِّنَ ﷺ في هذه الآية أن تأخير العذاب عنهم هو محض فضل من الله تعالى عليهم، وأن هذا التأخير من آثار رحمة الله تعالى بهم، بترك معاجلتهم بالعقوبة على كفرهم ومعاصيهم، حتى يتوبوا ويثوبوا إلى رشدهم، ولكن أكثر الناس لا يشكرون الله تعالى على نعمه عليهم، فيؤمنون به، ويخلصون له العبادة، ويصدقون رسله. قال تعالى:

٧٤، ٧٥- ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ وَمَا يُعْلِنُونَ﴾ [٧٤] وَمَا مِنْ غَائِبَةٍ فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ

إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ [٧٥]

أي: أن الله - سبحانه - الذي أمهل عقوبة المكذبين، يعلم ما أضمره في نفوسهم من المكر، وما أعلنوه من الاستهزاء، وعلمه سبحانه محيط وشامل لكل ما في الكون.

ومما تكنه صدورهم للنبي ﷺ والمؤمنين، أنهم يتربصون بهم الدوائر، ويودون إخراجهم من بين أظهرهم، ويودون ألا تقوم للإسلام قائمة، وهو - سبحانه - يعلم علمًا تامًا ما تخفيه صدور خلقه، وتستره من الأسرار، وما تظهره من الأقوال والأفعال، يعلم السرائر كما يعلم الظواهر ﴿سَوَاءٌ مِنْكَ مَنْ أَسَرَ الْقَوْلَ وَمَنْ جَهَرَ بِهِ﴾ [الرعد: ١٠] ﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُسْرُوكُمْ وَمَا تُعْلِنُونَ﴾ [النحل: ١٩] ﴿يَعْلَمُ خَائِنَةَ الْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ﴾ [١٩] [غافر].

وعلم الله تعالى بالضمائر، وإحاطته بما في الصدور من علم الغيب، والله تعالى لا تخفى عليه خافية، فما من شيء غاب عن أبصار الخلق في السماء والأرض، إلا وهو

واضح عند الله تعالى، مُثَبَّت في اللوح المحفوظ، وعلم الله تعالى قد أحاط بما كان وما يكون ﴿أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِنَّ ذَلِكَ فِي كِتَابٍ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ﴾ (٧٦) [الحج]. فما من شيء هو غاية في الخفاء والاستتار إلا وقد علمه الله تعالى، وأحاط به، فليحذروا من عالم السرائر والظواهر، وليراقبوه في السر والعلن.

فَصْلُ الْخِطَابِ فِيَمَا اخْتَلَفَ فِيهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ

٧٦، ٧٧ - ﴿إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَفُضُّ عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ أَكْثَرَ الَّذِي هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ (٧٦) وَإِنَّهُ لَهْدَى وَرَحْمَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٧٧﴾

بعد أن ذكر الله - سبحانه - أمر المبدأ والمعاد والنبوة، أعقب ذلك بالحديث عن أوصاف القرآن الكريم، فهو أعظم البراهين على صدق محمد ﷺ، ولما قال المكذبون بالوحي والرسالة والبعث والنشور ﴿إِنَّ هَذَا إِلَّا آسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ﴾ أبطل الله سبحانه قولهم فيما سبق بيانه، وبيّن أن هذا القرآن وحي من عند الله تعالى إلى رسوله محمد ﷺ، وهو مشتمل على ما في الكتب السابقة، ومهيمن عليها، ومفصل وموضح لما فيه اختلاف عند بني إسرائيل.

ومما اشتمل عليه القرآن: علم الشرائع الماضية، وأخبار الأمم الغابرة، مما تخبطت فيه كتب بني إسرائيل، حيث رفع الإشكال عنها وبيّن الصواب فيها.

وقد قصّ القرآن على الناس أكثر ما اختلفوا فيه، مما فيه نفع لهم، وأعرض عما لا يفيدهم بشيء، وهذا أعظم الدلائل والبراهين على صدق محمد ﷺ.

ولما تفرق أهل الكتاب من اليهود والنصارى فرقاً مختلفة، وتحزبوا أحزاباً يطعن بعضهم في بعض، ويتبرأ بعضهم من بعض، جاء القرآن مبيّناً لما اختلفوا فيه، ولو أخذوا به لوجدوا فيه ما يرفع اختلافهم ويدفع تفرقهم.

ومن ذلك ما يتعلق بهذه السورة في قصة سليمان وملكة سبأ؛ حيث قصّ القرآن الكريم قصتهما، كما سبق بيانهما من رب العالمين، ولكن أيدي بني إسرائيل قد امتدت إلى التوراة والإنجيل، فحرّفوا وغيروا وبدّلوا فيهما وفي غيرهما، ومن هنا جاءت المخالفة بين الكتب المنزلة:

١- ففي كتاب الملوك الأول، وكتاب الأيام الثاني: أن بلقيس جاءت إلى أورشليم من تلقاء

نفسها، رغبة منها في الاطلاع على مُلك سليمان، وبعد استضافته لها رجعت إلى مملكتها.

وليس فيهما أن سليمان دعاها إلى التوحيد، وبهذا يكون قد أقرها على شركها^(١).

٢- ومن ذلك اختلاف بني إسرائيل في شأن عيسى عليه السلام، كما قال تعالى: ﴿ثَامَتَ طَائِفَةٌ مِّنْ بَنِي إِسْرَءِيلَ وَكَفَرَتْ طَائِفَةٌ﴾ [الصف: ١٤].

فاليهود كذبوه، وكفروا به، ورموا أمه بالزنى، وحاولوا قتله وصلّبه.

والنصارى صدّقوه واختلفوا فيه، ففريق منهم عظّموه ورفعوه فوق منزلة البشرية، حتى وصلت هذه المنزلة عندهم إلى الإلهية والعباد بالله:

فجعلهم إلهًا، وبعضهم جعله جزءًا من الإله، المكوّن عندهم من الأب والابن والروح القدس، وجعله آخرون ابن الله، وبعضهم جعله إنسانًا نبيا ورسولا.

فنزل القرآن الكريم؛ ليفصل في هذا الخلاف، وليوضح للناس عامة، ولأهل الكتاب خاصة أن عيسى رسول الله وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه، ومثله عند الله كمثّل آدم خلقه من تراب ﴿ذَلِكَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ قَوْلَ الْحَقِّ الَّذِي فِيهِ يَمْتَرُونَ﴾ [مريم: ٣٤].

٣- ومما اختلفوا فيه دعوى الصّلب التي فصل الله تعالى فيها بقوله: ﴿وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَٰكِن شُبِّهَ لَهُمْ﴾ [النساء: ١٥٧]. وكان من النصارى من قال: إن عيسى قد صُلب حتى مات ودُفن، ثم قام من قبره بعد ثلاثة أيام، وارتفع إلى السماء.

ومنهم من قال: إن تلميذه يهوذا قد خانته، ودلّ عليه، فألقى الله عليه شبه عيسى فصّلب، ومنهم من قال: ألقى الله شبهه على حواربي آخر.

٤- ومن ذلك أن اليهود حرّفوا التوراة، وغيروا شرع الله فيها حسب أهوائهم، ومنه القصاص، فنزل القرآن وبيّن حقيقة هذا في قوله: ﴿وَكُنَّا عَلَيْهِمْ فِيهَا أَنَّ النَّفْسَ بِالنَّفْسِ وَالْعَيْنَ بِالْعَيْنِ وَالْأَنفَ بِالْأَنفِ وَالْأُذُنَ بِالْأُذُنِ وَالسِّنَّ بِالسِّنِّ وَالْجُرُوحَ قِصَاصٌ﴾ [المائدة: ٤٥]. ومن ذلك تغييرهم حكم رجم الزاني المحصن.

٥- ولما قالت اليهود: إن إبراهيم عليه السلام كان يهوديًا، وقالت النصارى: إنه كان نصرانيًا،

(١) يُنظَر: تفسير «التحرير والتنوير» (٣١/١٠).

نزل القرآن يفصل في دعواهما ﴿مَا كَانَ إِبْرَاهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَكِنْ كَانَ حَنِيفًا مُّسْلِمًا﴾ [آل عمران: ٦٧].

٦- ولما طعن اليهود في رسل الله صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين، حتى في إبراهيم خليل الرحمن، وفي أبيهم يعقوب عليه السلام ورموهما بالتحايل والكذب، وقالوا أكثر من ذلك في نبي الله لوط، وداود، عليهما السلام، جاء القرآن يقول كلمة الفصل في هذا، كما جاء في قصة كل منهم.

فالقرآن الكريم هو كتاب الله العزيز الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، تنزيل من حكيم حميد، من ابتغى الهدى في غيره أضله الله، من قال به صدق، ومن عمل به أجر، ومن حكم به عدل، ومن دعا إليه هُدي إلى صراط مستقيم، وهو الذكر الحكيم، والنور المبين، والصراط المستقيم، فيه خبر من قبلكم، ونبا من بعدكم، وحكم ما بينكم، وهو الفصل ليس بالهزل.

وإن هذا القرآن ينفع من كان في قلبه استعداد للهدى، ففيه هدى لهم من الضلالة، ورحمة بهم من العذاب، وغير المؤمنين لا ينتفعون بما فيه؛ لإعراضهم عنه، وعدم استعدادهم للعمل بما فيه، فلا يزدادون إلا خساراً ﴿وَإِنْ تَدْعُهُمْ إِلَى الْهُدَى فَلَنْ يَهْتَدُوا إِذًا أَبَدًا﴾ [الكهف: ٥٧]. قال تعالى:

٧٨، ٧٩- ﴿إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ بِحُكْمِهِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ ﴿٧٨﴾ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّكَ عَلَى الْحَقِّ الْمُبِينِ ﴿٧٩﴾﴾

ولما ذكرت سورة (النمل) مطاعن المشركين في القرآن وتكذيبهم بوعيده في قوله تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَءِذَا كُنَّا تُرَابًا وَءَابَاؤُنَا أَبْنَاءُ لَمُخْرَجُونَ ﴿٧٧﴾﴾ وما بعدها.

وذكرت مخالفة بني إسرائيل للحق الذي جاءت به الرسل في قوله تعالى: ﴿إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَفُصِّلُ عَلَى بَنِي إِسْرَءِيلَ أَكْثَرَ الَّذِي هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿٧٦﴾﴾.

وذكرت السورة أن المؤمنين هم الذين هداهم الله للحق، وأن الناس في هذه الأمة فريقان: فريق مؤمن بما في القرآن، وفريق يطعن فيه، وقد اقتضى ذلك بيان الحكم الفصل بين المؤمنين بالقرآن، وبين الطاعنين فيه في هذه الآية؛ فالخطاب فيها موجه إلى النبي

ﷺ، والقضاء مسند إلى الله تعالى .

والمعنى: إن ربك -يا محمد- يفصل بين المختلفين من بني إسرائيل وغيرهم بحكمه العادل، وقضائه المبرم، فيجازي الذين أساءوا بما عملوا، ويجزي الذين أحسنوا بالحسنى، وهو سبحانه الغالب الذي لا يقهر، فلا يُردُّ قضاؤه، العليم بأحوال العباد، فلا يلتبس عليه الحق بالباطل، ولا يخفى عليه شيء من شؤونهم.

وما دام الله - سبحانه - سيقضي بين المختلفين في شأن القرآن يوم القيامة، فاطمئن يارسول الله، وامض في طريق الدعوة إلى الله، واثبت على ما أنت عليه، وفوض أمرك إلى الله، واعتمد عليه في جميع شؤونك؛ فإنه ناصرك، وبلغ رسالة ربك دون أن تخشى أحداً؛ فإنه كافيك، ومظهر دينك، كما قال تعالى: ﴿فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ﴾ [آل عمران: ١٥٩]. وقال: ﴿وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾ [إبراهيم: ١١].

وقد أخبر الله رسوله أنه على الحق المبين، أي: على الدين الواضح الثابت الذي لا يُشك فيه، وهذه شهادة من الله لرسوله ﷺ، وكتاباه الواضح المنير، فلا يضرك ضلال من ضل، إذ ليس عليك هداهم ولكن الله يهدي من يشاء.

الْكَافِرُ يُشْبِهُ الْمَيِّتَ وَالْأَصَمَّ وَالْأَعْمَى

٨٠- ﴿إِنَّكَ لَا تَسْمَعُ الْكَلِمَ وَلَا تَسْمَعُ^(١) الدُّعَاءَ^(٢) إِذَا وَلَّوْا مُدْبِرِينَ^(٣)﴾

أي: أن الحق المبين لا يسمعه، ولا يستفيد منه إلا أحياء القلوب، فيقبلون عليه، ويعملون بما فيه، أما الذين ماتت قلوبهم، وعميت أبصارهم عن دلائل الهدى والإيمان، فليس لك -يا محمد- فيهم حيلة، ولا ضير عليك من ضلالهم ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ﴾ [القصص: ٥٦] ﴿إِنَّكَ لَا تَسْمَعُ الْكَلِمَ الَّذِينَ لَا حَسَّ لَهُمْ، وَلَا عقل عندهم، فهم لا يتأملون ما فيه، ولا يتدبرونه، ولا يؤمنون به، فليس في استطاعتك أن تسمع الحق من طبع الله على قلبه فأعمى بصيرته، كما أنه ليس في وسعك أن تسمع من أصم الله سمعه عن سماع الحق حال إدباره معرضاً عنك؛ فإن الأصم إذا ناديته بعد

(١) قرأ ابن كثير (ولا يسمع الضم)، وقرأ الباقون (ولا تسمع الضم).

(٢) قرأ نافع وابن كثير وأبو عمرو وأبو جعفر ورويس بتشهيل الهمزة الثانية من (الدعاء إذا)، وحققها غيرهم.

أن أدبر عنك، يكون قد انضم إلى صممه بُعد المسافة، فيكون أبعد عن الإجابة، وأوغل في انتفاء السمع عنه.

هذا: والقرآن الكريم معجز في معانيه، ومعجز في ألفاظه.

والإعجاز اللفظي في نظم القرآن وبلاغته موجه بالدرجة الأولى إلى من ينطقون باللسان العربي. والإعجاز المتعلق بالمعاني -ولو عن طريق الترجمة- يستوي في إدراكه العربي والعجمي. والمشركون شُبِّهوا بالموتى بالنظر إلى انتفاء إدراك المعاني، وشُبِّهوا بالصُّم بالنظر إلى انتفاء إدراك بلاغة الكلام.

قال قتادة في معنى الآية: هذا مثل ضربه الله للكافر، فكما لا يسمع الميت، كذلك لا يسمع الكافر ولا ينتفع به، ولو أنه أصمٌ ولَّى مدبراً، ثم إذا ناديته لم يسمع، كذلك الكافر لا يسمع، ولا ينتفع بما يسمع^(١).

فالمراد بالموتى في الآية: الكفار الذين أُمات الله قلوبهم، وكتب عليهم الشقاء في سابق علمه، فهم لا ينتفعون بما يسمعون، فكأنهم لا يسمعون كحال الموتى الذين لا يسمعون. وقد يراد بالموتى: الذين ماتوا بالفعل، فهم لا يسمعون السماع الذي ينفع صاحبه.

وهو مثل مضروب للكافر الذي يسمع الصوت، ولكنه لا ينتفع به، وقد صور الله تعالى هذه الحالة في قوله: ﴿وَمَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا كَمَثَلِ الَّذِي يَنْعِقُ بِمَا لَا يَسْمَعُ إِلَّا دُعَاءً وَنِدَاءً صُمُّكُمْ عُمْيٌ فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾ [البقرة: ١٧١]. قال تعالى:

٨١- ﴿وَمَا أَنْتَ بِهَادٍ الْعُمِّيِّ عَنْ ضَلَالَتِهِمْ إِنْ تُسْمِعُ إِلَّا مَنْ يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا فَهُمْ مُسْلِمُونَ﴾

ولمَّا شَبَّه الله تعالى المكذِبين بالرسول والرسالة، بالموتى، وبالصُّم، في الآية السابقة؛ لعدم الانتفاع بهما، شبههم مرة ثالثة في هذه الآية بالعمي في انتفاء التمييز بين طريق الحق وطريق الضلال؛ حيث لم يتبعوا دين الإسلام.

(١) ابن أبي حاتم (٢٩٢١/٩).

(٢) قرأ حمزة (تَهْدِي الْعُمِّيِّ) مفعول به، والباقون (بِهَادِي الْعُمِّيِّ) من إضافة اسم الفاعل لمفعوله.

والأعمى مطموس البصيرة غير قابل للهداية.

والمعنى: وما أنت -يا محمد- بهادٍ عن الضلالة من أعماه الله عن الهدى والرشاد، فليس بوسعك أن تصرفهم عن الكفر والضلال؛ لأن الهداية إلى طريق الحق مردها إلى الله وحده ﴿مَنْ يُضِلِلِ اللَّهُ فَكَلاَ هَادِيَ لَهُ﴾ [الأعراف: ١٨٦]

وإذا كان الأمر كذلك فَمَنْ يهتدي بالقرآن؟ ومن ينتفع بالاستماع إليه؟ لقد أجاب الله سبحانه على هذا التساؤل بقوله: ﴿إِنْ تُسْمِعْ إِلَّا مَنْ يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا﴾ أي: لا يمكنك -يا محمد- أن تُسمع الهدى والرشاد إلا من يصدق بآياتنا، ويعمل بمقتضاها، فهم مطيعون لله تعالى، منقادون إليه، مستجيبون لما تدعوهم إليه، فلا يسمع سماع تدبر وإفهام إلا المؤمنون، ولا يستجيب لدعوتك إلا أهل الإيمان. ﴿إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ الَّذِينَ يَسْمَعُونَ﴾ [الأنعام: ٣٦]

والغرض من الآيتين تشبيه الكفار بالموتى، وبالصم، وبالعُمى وإن كانوا سليمي الحواس، فهم لا يفهمون ولا يسمعون ولا يبصرون ما ينفعهم، وإن كانت حواسهم سليمة، وهم لا يلتفتون إلى شيء من الدلائل الكونية، أو الآيات القرآنية، وهم الذين كتب الله عليهم الشقاء في سابق علمه، ومن كتب الله عليه الشقاء فقد طبع على قلبه وعلى سمعه، وجعل على بصره غشاوة، وفي آذانه قر ﴿وَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ فِتْنَتَهُ فَلَن تَمْلِكَ لَهُ مِنْ اللَّهِ شَيْئاً﴾ [المائدة: ٤١]. وهو ممن قال الله فيهم: ﴿وَجَعَلْنَا لَهُمْ سَمْعًا وَأَبْصَرًا وَأَفْئِدَةً فَمَا أَغْنَى عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَلَا أَبْصَرُهُمْ وَلَا أَفْئِدَتُهُمْ مِنْ شَيْءٍ﴾ [الأحقاف: ٢٦]. وهم ﴿صُمٌّ بُكْمٌ عُمَىٰ فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾ [البقرة: ١٧١].

ومثل الآية التي نحن بصدها قوله تعالى: ﴿فَإِنَّكَ لَا تُسْمِعُ الْمَوْتَىٰ وَلَا تُسْمِعُ الصُّمَّ الدُّعَاءَ إِذَا وَلَّوْا مُدْبِرِينَ﴾ [٥٦] وَمَا أَنْتَ بِهَادٍ الْعُمَىٰ عَنْ ضَلَالَتِهِمْ إِنْ تُسْمِعْ إِلَّا مَنْ يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا فَهُمْ مُسْلِمُونَ ﴿٥٧﴾ [الروم]. وقوله: ﴿وَمَا أَنْتَ بِمُسْمِعٍ مَنْ فِي الْقُبُورِ﴾ [فاطر: ٢٢].

هذا: وآيات القرآن الواردة في عدم سماع الموتى لا تخالف ما صحَّ عن رسول الله ﷺ من أن الموتى يسمعون في قبورهم كلام من يكلمهم؛ لأن المنفي هو السماع الذي ينفع صاحبه، والميت قد أفضى إلى ما قدم، فهو لا يسمع السماع المعتاد في الدنيا الذي يترتب عليه الهدى والضلال.

وقد جاء في حديث أبي طلحة رضي الله عنه: أنه لما خاطب النبي ﷺ أربعة عشر رجلاً من صناديد قريش، وكانوا قد قُتلوا يوم بدر، فقال عمر رضي الله عنه: إنك تكلم أجساداً بلا روح، فقال ﷺ: «والذي نفس محمد بيده ما أنتم أسمع لما أقول منهم غير أنهم لا يقدرون أن يجيبوا»^(١).

وما جاء عن أنس رضي الله عنه: أن النبي ﷺ قال: «إن الميت إذا وضع في قبره إنه؛ ليسمع خفق نعالهم إذا انصرفوا»^(٢).

وفي الحديث الذي صححه ابن عبد البر: أن النبي ﷺ قال: «ما من رجل يمر بقبر الرجل الذي كان يعرفه في الدنيا فيسلم عليه، إلا ردَّ الله عليه روحه حتى يردَّ عليه السلام»^(٣). وما وردَ عن عائشة رضي الله عنها في نفي ذلك، فمن المرجح أنها رجعت عنه^(٤).

خُرُوجُ الدَّابَّةِ أَوَّلُ أَشْرَاطِ السَّاعَةِ

٨٢- ﴿وَإِذَا وَقَعَ الْقَوْلُ عَلَيْهِمْ أَخْرَجْنَا لَهُمْ دَابَّةً مِّنَ الْأَرْضِ تُكَلِّمُهُمْ أَنَّ^(٥) النَّاسَ كَانُوا بِآيَاتِنَا لَا يُوقِنُونَ﴾

بعد أن بيَّن سبحانه أن الكفار كالموتى، لا ينتفعون بشيء من هُدى الله تعالى، ووصفهم بالصمم والعمى.

وبعد أن بيَّن - جل شأنه - تكذيبهم، وتهكمهم باستبطاء نزول العذاب الذي وعدهم به الرسول الخاتم ﷺ، كما حكى الله تعالى عنهم في قوله: ﴿وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِن كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾^(٤٨).

بعد ذلك تشير هذه الآية إلى شيء من علامات حلول الوعيد الذي أنذرهم به محمد ﷺ، فقال تعالى: ﴿وَإِذَا وَقَعَ الْقَوْلُ عَلَيْهِمْ﴾ أي: إذا حلَّ وحان وتحتَّم وقت نزول العذاب

(١) «صحيح البخاري» برقم: (٣٠٦٥، ٣٩٧٦) و«صحيح مسلم» برقم: (٢٨٧٥).

(٢) البخاري برقم: (١٣٣٨، ١٣٧٤) ومسلم برقم: (٢٨٧٠) وهذا لفظه.

(٣) «مجموع الفتاوى» لابن تيمية (٢٩٥/٤). وقد ضعفه الألباني في ضعيف الجامع برقم (٥٢٠٨) وهو عند الخطيب وابن عساكر.

(٤) يُنظر في هذا بحث للشيخ الشنقيطي في: «أضواء البيان» (٤٢٠/٦) وما بعدها.

(٥) قرأ عاصم وحمة والكسائي ويعقوب وخلف بفتح همزة (أن الناس) على تقدير حرف الجر قبلها، أي: تكلمهم بأن الناس، أو تكلمهم بسبب أن الناس، وقرأ الباقون بكسر الهمزة على الاستئناف.

بالكفار، الموصوفين في الآيتين الأخيرتين بأنهم موتى، وصمٌّ، وعُميٌّ؛ لتماديهم في العصيان والطغيان، وإعراضهم عن شرع الله تعالى وحُكمه، حتى صاروا من شرار خلق الله، وهذا قرب قيام الساعة عند ظُهور أشراطها الكبرى، وعندئذ ﴿أَخْرَجْنَا لَهُمْ دَابَّةً مِّنَ الْأَرْضِ تُكَلِّمُهُمْ﴾ أي: تحدث الناس وتحاورهم، وتبيِّن لهم أن منكري البعث كانوا لا يصدقون بمحمد ﷺ، ولا يعملون بالقرآن المنزل عليه، وهذه الدابة تخرج من الأرض، وهي من دواب الأرض وليست من السماء، وهي من الآيات الخارقة للعادة، ومن دلائل صدق محمد ﷺ.

فالمراد بوقوع القول: قرب قيام الساعة، وانتهاء الوقت الذي يُقبل فيه الإيمان من الكافر، وهو الوقت الذي لا تنفع فيه التوبة، فإذا أراد الله تعالى أن يُنفذ في الكافر سابق علمه أخرج لهم دابة من الأرض، وذلك حين لا يؤمر بمعروف ولا يُنهى عن منكر، ولا يبقى منيب ولا تائب، كما أوحى الله تعالى إلى نوح أنه لن يؤمن من قومك إلا من قد آمن.

وهذه الدابة تخرج في آخر الزمان عند فساد الناس، وضعف يقينهم وإيمانهم، وتركهم أوامر الله تعالى، وتبديلهم الدين الحق، فتكلم الناس وتخاطبهم مخاطبة شفوية.

ومن جملة كلامها: ألا لعنة الله على الظالمين الذين لا يصدقون، ولا يؤمنون بآيات الله.

وهذه جملة من الأحاديث في دابة الأرض:

١- أخرج الإمام أحمد وغيره عن أبي أمامة ؓ أن النبي ﷺ قال: «تخرج الدابة، فتسِمُ الناس على خراطيمهم، ثم يُعمَّرون فيكم حتى يشتري الرجل البعير، فيقال: ممن اشتريته؟ فيقول: اشتريته من أحد المُخطئين»^(١).

٢- وفي حديث حذيفة بن أسيد الغفاري ؓ قال: أشرف علينا رسول الله ﷺ من عُرفته ونحن نتذاكر أمر الساعة، فقال: «لا تقوم الساعة حتى تروا عشر آيات: طلوع الشمس من مغربها، والدخان، والدابة، وخروج يأجوج ومأجوج، ونزول عيسى ابن مريم ؑ، والدجال، وثلاثة خسوف: خسف بالمغرب، وخسف بالشرق، وخسف بجزيرة العرب،

(١) «المسند» (٦٤٦/٣٦) (٢٢٣٠٨) قال محققوه: إسناده صحيح، وأخرجه البخاري في التاريخ الكبير (٦/

١٧٢) وأبو نعيم في أخبار أصبهان (٢/١٤٢).

ونار تخرج من قعر عدن تسوق الناس إلى أرض المحشر، تبيت معهم حيث باتوا، وتقبل معهم حيث قالوا»^(١).

٣- وعن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «لا تقوم الساعة حتى تطلع الشمس من مغربها، فإذا طلعت ورأها الناس آمنوا أجمعون، فذلك حين لا ينفع نفسًا إيمانها لم تكن آمنت من قبل.

ولتقومن الساعة وقد نشر الرجلان ثوبهما بينهما فلا يتبايعانه ولا يطويانه.

ولتقومن الساعة وقد انصرف الرجل بلبن لقحته فلا يطعمه»^(٢).

ولتقومن الساعة وهو يلبط حوضه فلا يسقى فيه»^(٣).

ولتقومن الساعة وقد رفع أحدكم أكلته إلى فيه فلا يطعمها»^(٤).

وهذا قوله ﷺ: ﴿مَا يَنْظُرُونَ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً تَأْخُذُهُمْ وَهُمْ يَخِصِّمُونَ﴾ [يس].

أي: وهم يتحاورون في البيع والشراء، فتقوم الساعة ولا يعود الرجل إلى بيته، ولا يتم شراءه ولا بيعه.

٤- وعن عبد الله بن عمرو رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «إن أول الآيات خروجا طلوع الشمس من مغربها، وخروج الدابة على الناس ضحى، وأيتها كانت قبل صاحبها، فالأخرى على أثرها قريباً»^(٥).

٥- وعن أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «بادروا بالأعمال ستاً: الدجال، والدخان، ودابة الأرض، وطلوع الشمس من مغربها، وأمر العامة، وخويصة أحدكم»^(٦).

(١) أخرجه ابن أبي شيبة مختصراً (١٣١/١٥) وابن أبي عاصم في الآحاد والمثاني (١٠١/٢) والطبراني في الكبير (٣٠٣١) وهو في «صحيح مسلم» برقم: (٢٩٠١) و«سنن أبي داود» برقم: (٤٣١١) و«سنن الترمذي» برقم: (٢١٨٣) و«سنن ابن ماجه» برقم: (٤٠٤١) و«المسند»: (٧-٦/٤). برقم (١٦١٤٤) بإسناد صحيح، واختلف في رفعه ووقفه. (محققه)

(٢) أي: أنه يحلب الشاة والحليب بين يديه فلا يطعمه.

(٣) أي: أن المزارع يصلح حوض الماء، وقبل أن يستعمله تقوم الساعة.

(٤) «صحيح البخاري» برقم: (٨٥٠، ٦٥٠٦) و«صحيح مسلم» برقم: (١٥٧، ٢٩٥٤) مختصراً.

(٥) «صحيح مسلم» برقم: (٢٩٤١).

(٦) «صحيح مسلم» برقم: (٢٩٤٧).

عن علامات الساعة: ويؤخذ من مجموع الأخبار والأحاديث، أن خروج الدجال هو أول الآيات العظام المؤذنة بتغيير أحوال العالم الأرضي، وينتهي ذلك بموت عيسى عليه السلام. وأن طلوع الشمس من مغربها هو أول الآيات العظام المؤذنة بتغيير أحوال العالم العلوي، وينتهي ذلك بقيام الساعة.

ولعل خروج الدابة يكون في نفس اليوم التي تطلع فيه الشمس من مغربها. فإذا طلعت الشمس من مغربها أغلق باب التوبة فتخرج الدابة، وينادي مناد: يا أيها الذين آمنوا قد قُبل منكم، ويا أيها الذين كفروا قد أغلق عنكم باب التوبة، وجفت الأقلام وطُويت الصحف.

فإذا حدث ذلك خرجت الدابة على الناس تُميز المؤمن من الكافر، وينتهي ذلك بقيام الساعة. والآية المؤذنة بقيام الساعة هي النار التي تخرج من قعر عدن تسوق الناس إلى أرض المحشر. فإذا اقترب وقت وجوب العذاب على الجاحدين لوحداية الله تعالى، المكذبين لرسول الله ﷺ، المنكرين للحساب والجزاء -أخرجنا لهم دابة تكلم الناس بلغة يفهمونها، كما جاء في أول السورة: أن سليمان عليه السلام يفهم لغة الطير، ولغة الجن والبهائم، كذلك الدابة تكلم الناس بلغة يفهمونها.

وقيل: إنها تعلم من تكلم، وتميز المؤمن من الكافر بوشمه، ووضع علامة عليه. ومما قيل في وصف هذه الدابة: أن طولها ستون ذراعاً، وعينها عين خنزير، وصورتها صورة أسد، وغير ذلك، والله أعلم بصحة هذا.

وقيل: إنها تخرج من مكة شرفها الله، تخرج من الصفا، أو من بين الركن والمقام، أو غير ذلك. وورد عن حذيفة بن اليمان أنها تخرج ثلاث مرات.

وقيل: إن هذه الدابة من فصيل ناقة سيدنا صالح عليه السلام.

وقيل: إنها الجساسة، وهي دابة على صورة الإنسان، رأسها في السحاب وقوائمها في الأرض. وهذه أخبار لم تثبت عن رسول الله ﷺ، ولا يعيننا منها شيء، ولا يترتب على معرفتها شيء.

وما ورد من ذلك في بعض كتب التفسير هو من باب الإسرائيليات، وليس هناك ما يدل على صحته، وعلمها لا ينفع، وجهلها لا يضر، فلسنا مطالبين بمعرفتها.

ويكفي ما أخبر الله به من أنها دابة تكلم الناس، وتخبر أنهم لا يؤمنون بالقرآن، ولا يؤمنون بالبعث، ولا بدين الإسلام، ولا برسالة محمد ﷺ.

يقول الشيخ محمد الغزالي رحمه الله: وإني أتصور هذه الدابة، وهي تعترض ذوي الألقاب، وأصحاب المناصب؛ لتقول لهم: عالم الحيوان أسعد منكم حظًا، فهو لم يحظ بعلمكم، ومن ثم لا يلام على غباء، أما أنتم فقد منحكم الله الذكاء، فحاربتموه به، فُبِحتُم من بشر!!^(١).

فتكليم الدابة للناس فيه تحقير لهم؛ لأنهم لما أعرضوا عن كلام الرسول الكريم خوطبوا على لسان حيوان بهيم؛ ليكون هذا خزيًا لهم، يعيرون به في يوم الحشر، وعند قيام الساعة تنزل الريح الباردة التي تقبض أرواح المؤمنين، وتقبض روح كل من كان في قلبه مثقال ذرة من الإيمان، فلا يبقى إلا شرار الخلق، ممن لا يُرجى إصلاحهم، ولا يبقى من يأمر بالمعروف، ولا من ينهى عن المنكر.

حَشْرُ الْمُكَذِّبِينَ بِآيَاتِ اللَّهِ

٨٣- ﴿وَيَوْمَ نَحْشُرُ مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ فَوْجًا مِمَّنْ يُكَذِّبُ بِآيَاتِنَا فَهُمْ يُوزَعُونَ﴾ (٨٣)

تحدث هذه الآية عن يوم الحشر بمناسبة ذكر الدابة، وهي من علامات الساعة الكبرى.

١- وفي القرآن الكريم آيات تشير إلى حشر عموم الخلائق كقول الله تعالى: ﴿وَحَشَرْنَاهُمْ فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَدًا﴾ [الكهف: ٤٧]. وقوله: ﴿وَكُلُّ أُنثَى ذَاخِرِينَ﴾ [٨٧]. وقوله: ﴿وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا﴾ [يونس: ٢٨].

٢- وهناك حشر خاص لقادة الضلال والكفر؛ لأجل التوبيخ والتأنيب، وهو حشر يخص الأفواج المكذبة بآيات الله ورسله، كما قال تعالى: ﴿أَحْشَرُوا الَّذِينَ ظَلَمُوا وَأَزْوَاجَهُمْ وَمَا كَانُوا يَعْبُدُونَ﴾ (٢٢) مِنْ دُونِ اللَّهِ [الصافات]. فهذا حشر يخص كل أمة من الأمم، وهذا معنى ﴿وَيَوْمَ نَحْشُرُ مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ فَوْجًا مِمَّنْ يُكَذِّبُ بِآيَاتِنَا﴾.

(١) «نحو تفسير موضوعي لسور القرآن الكريم» ص ٢٩٥.

أي: اذكر - أيها المخاطب - يوم نحشر من كل أمة فوجًا من المكذبين، وكل أمة لا تخلو من كفرة بالله من لدن آدم إلى قيام الساعة، وهم رؤساء الكفر والضلال وزعمائهم، فيحشر الله من الأمة كفارها، ويبقى صالحوها، ويساق أمام كل طائفة من طوائف الكفر زعمائوها، كما بين تعالى أن فرعون ﴿يَقْدُمُ قَوْمَهُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ فَأَوْرَدَهُمُ النَّارَ﴾ [هود: ٩٨].

ثم يقفون أمام الحق سبحانه، يقف أولهم حتى يأتي آخرهم ويتكاملون، وهذا معنى ﴿فَهُمْ يُوزَعُونَ﴾ أي: يقف أولهم حتى يأتي آخرهم، فإذا اجتمعوا جميعًا ساقتهم الملائكة إلى النار، كما قال تعالى: ﴿وَسَوْفَ الْمُجْرِمِينَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ وَرِدًا﴾ [مريم].

٣- ومن الناس من يكون حشرهم على هيئة خاصة، كما قال تعالى: ﴿وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ عُمًى وَبِكَمَا وَصَّيْنَا﴾ [الإسراء: ٩٧].

وقال: ﴿الَّذِينَ يُحْشَرُونَ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ إِلَىٰ جَهَنَّمَ أُولَٰئِكَ شَرٌّ مَّكَانًا وَأَضَلُّ سَبِيلًا﴾ [الفرقان].

والمعنى: وفي يوم الحشر نحشر من كل أمة جماعة ممن يكذب بآياتنا وحججنا، يُحبس أولهم على آخرهم؛ ليجتمعوا كلهم، ثم يساقون إلى الحساب، ويعمهم السؤال واللوم والتوبيخ كما قال تعالى:

٨٤- ﴿حَتَّىٰ إِذَا جَاءُوا قَالَ أَكَذَّبْتُمْ بِآيَاتِي وَلَمْ تُحِيطُوا بِهَا عِلْمًا أَمَآذَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [٨٤]

فإذا جاء من كل أمة فوج من المكذبين بآيات الله، ووقفوا بين يدي الله ﷻ في هذا اليوم العظيم، يسألهم ربهم سؤالين: سؤالًا يتعلق بالعقيدة، وسؤالًا يتعلق بالعمل.

١- أما السؤال المتعلق بالعقيدة فهو في شطر الآية الأول ﴿حَتَّىٰ إِذَا جَاءُوا قَالَ أَكَذَّبْتُمْ بِآيَاتِي وَلَمْ تُحِيطُوا بِهَا عِلْمًا﴾ أي: دون أن تفكروا فيها، ودون أن يكون عندكم دليل على صحة هذا التكذيب؛ لأن التصديق بآيات القرآن من عقائد الإيمان، أي: أكذبتُم بآياتي التي أنزلتها على رسلي؟ وبآياتي الدالة على توحيدي؟ وآياتي الدالة على البعث، وما فيها من الثواب والعقاب؟ أكذبتُم بها دون أن تحيطوا علمًا بدلائل الآيات، وينكشف لكم الحق؟ وكان من الواجب عليكم التوقف وعدم الكلام إلا بعلم.

٢- أما سؤال العمل ففي قوله تعالى: ﴿أَمَآذَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ أي: في دنياكم، فلماذا لم تكونوا من أهل السعادة؟ قولوا لنا: هل قضيتُم أوقاتكم في الصلاة، والزكاة، والطاعة،

والعمل الصالح، أم قضيتموها في الضلال، والكفر، واتباع الشيطان؟ فكذبتهم بالحق وعملتم لغير الله، أو على غير سنة رسول الله؟

خَمْسُ حَالَاتٍ لِغَيْرِ الْمُؤْمِنِينَ فِي سَاحَةِ الْعَرْضِ

٨٥- ﴿وَوَقَعَ الْقَوْلُ عَلَيْهِمْ بِمَا ظَلَمُوا فَهُمْ لَا يَنْطِقُونَ﴾ (٨٥)

ولما لم يجدوا جوابًا على هذين السؤالين كانت النتيجة عملية، وهي أن العذاب الذي وُعدوا به في الدنيا قد حل بهم الآن في الدار الآخرة، وكان ذلك بسبب ظلمهم وجحودهم، وفي هذا توبيخ وتقريع لهم على فساد الاعتقاد وفساد الأعمال؛ فهم قد كذبوا بآيات الله دون أن يفكروا فيها، أو يحيطوا علمًا ببطلانها، فقيموا دليلًا على صحتها، فليس عندهم حجة ولا عذر يعتذرون به، فهم لا ينطقون لأنه لا حجة لهم.

١- ثم يمضي على هذا وقت طويل وهم في صمت رهيب، وليس لهم مجير إلا الله، فلا ينطقون بحجة تدفع عنهم العذاب، وكانوا في الدنيا، كما قال الله فيهم:

﴿فَلَا صَدَقَ وَلَا صَلَّى﴾ (٦٦) وَلَكِنْ كَذَّبَ وَقَتَّلَ ﴿٦٧﴾ [القيامة].

٢- ثم يُؤذَن لهم في النطق؛ ليدافعوا عن أنفسهم، وعندما يؤذن لهم في الاعتذار يكذبون، كما أخبر سبحانه على لسانهم بنفي وقوع الشرك منهم في قوله تعالى:

﴿ثُمَّ لَمْ تَكُنْ فِتْنَتُهُمْ إِلَّا أَنْ قَالُوا وَاللَّهِ رَبَّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾ (٧٣) [الأنعام].

٣- ثم يُمنعون من الكلام بعد أن كذبوا في الاعتذار، كما قال تعالى:

﴿هَذَا يَوْمٌ لَا يَنْطِقُونَ﴾ (٣٥) وَلَا يُؤذَنُ لَهُمْ فَيَعْتَذِرُونَ ﴿٣٦﴾ [المرسلات].

فهم قد تكلموا في موطن، وسكتت ألسنتهم في موطن أخرى.

٤- وعند الحساب يُخْتَم على أفواههم، وتنطق جوارحهم بما كانوا يعملون، كما قال

تعالى: ﴿الْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَى أَفْوَاهِهِمْ وَتُكَلِّمُنَا أَيْدِيهِمْ وَنَشْهَدُ أَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ (٦٥) [يس].

٥- وبعد أن يدخل الأشقياء النار، يعتذرون بقولهم: ﴿رَبَّنَا غَلَبَتْ عَلَيْنَا شِقْوَتُنَا وَكُنَّا

قَوْمًا ضَالِّينَ﴾ [المؤمنون: ١٠٦]. فلا يقبل منهم اعتذار، ويقال لهم: ﴿أَخْشَوْا فِيهَا وَلَا

تُكَلِّمُونِ﴾ [المؤمنون: ١٠٨].

مَنْ دَلَائِلِ الْبَعْثِ وَالنُّشُورِ

٨٦- ﴿أَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا آلِيلَ لَيْسَكُنُوا فِيهِ وَالنَّهَارَ مُبْصِرًا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾

في هذه الآية استدلال على إمكانية البعث والنشور، بأن جعل الله الليل للسكن والراحة بظلمته، وجعل النهار للعمل والسعي على المعاش بضياءه، وكأن الله سبحانه يقول: كيف تكذبون بالبعث؟ انظروا إلى حياتكم اليومية، فأنتم تنامون، فإذا نمت قبض الله أرواحكم في الليل الهادئ الساكن، كما قال تعالى: ﴿اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا﴾ [الزمر: ٤٢].

ثم إذا انبعث النهار قمتم إلى أعمالكم، ورجعت لكم حواسكم، وهذا بمثابة البعث، ففي النوم واليقظة مثل الموت والحياة.

وهكذا ذكّرهم سبحانه بأظهر دلائل التوحيد، وأكثرها تكراراً، وأجدرها بالإقناع، وهي آية تمر بهم كل يوم مرتين، وتلازمهم طول حياتهم.

والمعنى: ألم ير المكذبون بآياتنا أنا جعلنا الليل لهم راحة يستقرون فيه وينامون، والنهار ينصرفون فيه لمعاشهم، كما قال تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ آيِلَ لَيْسَكُنُوا فِيهِ وَالنَّهَارَ مُبْصِرًا﴾ [يونس: ٦٧]. وقوله: ﴿وَجَعَلْنَا آيِلَ وَالنَّهَارَ آيَاتٍ فَحَوًّا آيَةَ اللَّيْلِ وَجَعَلْنَا آيَةَ النَّهَارِ مُبْصِرَةً لِّتَبْتَغُوا فَضلاً مِّن رَّبِّكُمْ وَلِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابِ﴾ [الإسراء: ١٢]. وقوله: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَخْتِلَافِ آيِلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ﴾ [آل عمران].

فهل بلغت الغفلة والجهالة بهؤلاء المكذبين أنهم يعيشون في هذا الكون، يأكلون ويشربون ويتمتعون، دون أن يعتبروا أو يتفكروا، لقد أوجدنا لهم ليلاً ليسكنوا فيه، وأوجدنا لهم نهاراً ليسعوا فيه على أرزاقهم؛ لتيسر أسباب الحياة والراحة لهم، فكيف لا يهتدون إلى أن لهذا الكون خالقاً حكيماً قادراً.

إن في ذلك الليل والنهار لدلالات بيّنة واضحات على وحدانيتنا وقدرتنا لقوم ينتفعون بأدلتنا، ويعترفون بإقامة الحجة عليهم، فمن تأمل في تعاقب الليل والنهار، واختلافهما طولاً وقصرًا، وظلمة وضياء، أيقن أن لهذا الكون إلهاً واحداً قادراً على إعادة الحياة إلى الأموات؛ ليحاسبهم على أقوالهم وأعمالهم، ويجازيهم بما يستحقون.

النَّفْخُ فِي الصُّورِ

٨٧- ﴿وَيَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ فَفَزِعَ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَنْ شَاءَ اللَّهُ وَكُلُّ أَتَوٍّ^(١) ذَخِيرٍ﴾

بعد أن ذكّر الله العباد بيوم الحشر، ذكّرهم بيوم النفخ في الصور، أي: اذكر يا محمد، يوم يُنفخ المَلَكُ، وهو إسرافيل في القرن أو البوق، نفخة الفزع فيفزع العالم كله من الخوف والرعب، فينزعجوا ويرتاعوا، ويموج بعضهم في بعض.

والمعني بهذه النفخة هم الأحياء، حيث يصابون بالفزع الشديد من هول هذه النفخة ومن خوف المصير- وهذا هو الفزع الأكبر يوم القيامة- ثم تمتد هذه النفخة، حيث يطولها إسرافيل بأمر الله تعالى، فتتصل بنفخة الصعق، أي: الموت، حيث تنقضي الحياة الدنيا، وتنتهي الآجال.

ثم تأتي النفخة الثانية، وهي نفخة البعث، حيث تعود الأرواح إلى الأجساد، ويقوم الناس لرب العالمين، وعن هاتين النفختين يقول تعالى: ﴿وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَعِقَ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَنْ شَاءَ اللَّهُ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنْظُرُونَ﴾ [الزمر].

وقد جاءت آثار تفيد أن النفخ في الصور يكون ثلاث مرات: نفخة الفزع في الحياة الدنيا، تلوها نفخة الصعق أي: الموت، ثم نفخة الخروج من القبور (البعث).

والتحقيق أن نفخة الفزع يطولها إسرافيل فتتصل بنفخة الصعق، أي: الموت، ثم تأتي نفخة البعث فهما نفختان.

أما الاستثناء في قوله سبحانه: ﴿إِلَّا مَنْ شَاءَ اللَّهُ﴾ فهو استثناء من هذا الفزع الدنيوي: وهو يخص الأنبياء والشهداء والملائكة، لاسيما الأربعة الكبار: جبريل، وميكائيل، وإسرافيل، وملك الموت، وحملة العرش ونحوهم، وهؤلاء جميعاً يموتون في النهاية.

وآخر من يموت من الخلق، قيل: إنه ملك الموت، وقيل: إنه جبريل. ثم تُطوى

(١) قرأ حفص وحزمة وخلف بقصر همزة (أتوه) وفتح التاء، على أنه فعل ماضٍ مسند إلى واو الجماعة، والهاء مفعول به، وقرأ الباقون بمد الهمزة وضم التاء، على أنه اسم فاعل والواو علامة الرفع، وحذفت النون للإضافة، والهاء مضاف إليه.

السماء كطي السجل للكتاب، ولا يبقى إلا الواحد الديان، فيقول سبحانه: ﴿لَمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ؟﴾ فيكون الجواب: ﴿لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ ﴿١٦﴾﴾ الْيَوْمَ تُجْزَى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ لَا ظُلْمَ الْيَوْمَ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴿١٧﴾﴾ [غافر].

في حديث أبي هريرة ؓ أن رسول الله ﷺ قال: «ينفخ في الصور، فيصعق من في السموات ومن في الأرض، إلا من شاء الله، ثم ينفخ فيه أخرى، فأكون أول من رفع رأسه، فإذا موسى أخذ بقائمة من قوائم العرش، فلا أدري أكان ممن استثنى الله ﷻ، أم رفع رأسه قبلي، ومن قال: أنا خير من يونس بن متى فقد كذب»^(١).

ثم إن جميع الأموات الذين أحياهم الله تعالى يأتون ربهم صاغرين لا يتخلف منهم أحد ﴿وَكُلُّ أَوَّاهٍ مُّخِرٍ﴾ الجميع يحشرون إلى الله تعالى وهم منقادون مطيعون لله ﷻ، لا يتخلف منهم أحد، وهذا كقوله تعالى: ﴿يَوْمَ يَدْعُوكُمْ فَتَسْتَجِيبُونَ بِحَمْدِهِ وَتَظُنُّونَ إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٥٦﴾﴾ [إسراء]. وقوله: ﴿وَمَنْ ءَايَلَهُ أَنْ تَقُومَ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ بِأَمْرِهِ ثُمَّ إِذَا دَعَاكُمْ دَعْوَةً مِّنَ الْأَرْضِ إِذَا أَنْتُمْ تَخْرُجُونَ ﴿٥٥﴾﴾ [الروم].

وقوله: ﴿يَوْمَ يَخْرُجُونَ مِنَ الْأَجْدَاثِ سِرَاجًا كَأَنَّهُمْ إِلَىٰ نُصُبٍ يُوفِضُونَ ﴿٤٣﴾﴾ [المعارج].

وجميع الخلق متساوون في الذل والخضوع لرب العالمين، الحاكم والمحكوم، القوي والضعيف، الغني والفقير ﴿إِنْ كُلُّ مَن فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا ءَاتِي الرَّحْمَنِ عَبْدًا﴾ [مريم: ٩٣]

الْجِبَالُ تَمُوتُ مَرَّةً السَّحَابُ فِي الدُّنْيَا

٨٨- ﴿وَنَرَى الْجِبَالَ تَحْسَبُهَا^(٢) جَامِدَةً وَهِيَ تَمُوتُ مَرَّةً السَّحَابِ صَنَّ اللَّهُ الَّذِي آفَقَنَ كُلَّ شَيْءٍ إِنَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَفْعَلُونَ^(٣)﴾ ﴿٨٨﴾

بعد ما ذكر ﷻ آيتي الليل والنهار، وما يترتب عليهما من تكوين النور والظلمة؛ بسبب

(١) أخرجه البخاري (٣٤١٤، ٦٥١٨) ومسلم (٢٣٧٣) و«المسند» (٩٨٢١) والترمذي (٣٢٤٥) وابن ماجه (٤٢٧٤)، والبيهقي (٤٣٠١) وابن أبي شيبة (٤٥٥/١١).

(٢) قرأ ابن عامر وعاصم وحزمة وأبو جعفر بفتح السين من (تحسبها) والباقون بكسرها، وهما لغتان.

(٣) قرأ ابن كثير وأبو عمرو ويعقوب وابن عامر وشعبة بخلف عنهما بياء الغيبة في (تفعلون) على الأصل، وقرأ الباقر بناء الخطاب على الالتفات، وهو الوجه الثاني لابن عامر وشعبة.

دوران الأرض حول الشمس دورة كاملة كل يوم وليلة، فالجِرم الصغير يدور حول الجرم الكبير، ويترتب على ذلك ظلام نصف الكرة الأرضية، وإنارة النصف الآخر تقريباً، وهذا ما يسمى بالليل والنهار.

والجبال هي الأجزاء الناتئة من الكرة الأرضية، وإذا تحركت الأرض فإن الجبال تتحرك بتحريكها؛ لأن الجبال جزء من الأرض، ويظهر هذا في تحرك ظلال الجبال بالنقص قبل الزوال، وبالزيادة بعد الزوال.

وحركة الجسم الكبير لا تظهر للرائي، مع أنها سريعة الحركة، كما أن قمم الجبال تتحرك أمام قرص الشمس في الصباح والمساء، مع ثبوت الشمس في مقرها، وقد أطلع الله نبيه، وأطلع أهل العلم من أمته على هذه الحقيقة، وعلى هذا السر العجيب في نظام الأرض، كما أطلع إبراهيم عليه السلام على كيفية إحياء الموتى.

ولأن سير الجبال لا يظهر للرائي من أول وهلة، وإنما يراها في هيئتها الساكنة، فإن الله تعالى قال: ﴿تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ السَّحَابِ﴾. أي تظنها باقية على حالها، ولكنها تفتت وتناثرت، وصارت من خفتها هباء منثورا يتطاير ويتنقل.

١- ومَرُّ الجبال يعني: تنقلها من جهة إلى جهة أخرى، مع أن الرائي يراها ثابتة، كما ينظر الرائي إلى السحاب حين يعمُّ الأفق، وهو ينتقل من صوب إلى صوب، ويمطر من مكان إلى آخر، فلا يشعر به الناظر إلا وقد غاب عنه.

٢- ومن هنا فإن مَرَّ الجبال يختلف عن سيرها الوارد في قوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ نُسِيرُ الْجِبَالَ وَتَرَى الْأَرْضَ بَارِزَةً وَحَشَرْنَاهُمْ فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَدًا﴾ [الكهف]. وقوله: ﴿وَنُسِيرُ الْجِبَالَ سِيرًا﴾ [الطور]. وقوله: ﴿وَسِيرَتِ الْجِبَالُ فَكَانَتْ سَرَابًا﴾ [النبا]. وقوله: ﴿وَإِذَا الْجِبَالُ سُيِّرَتْ﴾ [التكوير: ٣].

٣- ويختلف أيضاً عن نفس الجبال الوارد في قوله تعالى: ﴿وَإِذَا الْجِبَالُ سُفَّتْ﴾ [المرسلات]. وقوله: ﴿وَتَكُونُ الْجِبَالُ كَالْعِهْنِ الْمَنْفُوشِ﴾ [القارعة].

فإن هذا السير، وهذا النسف الوارد في هذه الآيات يكون يوم القيامة عند تغيير وتبديل الأرض ﴿يَوْمَ يُبَدَّلُ الْأَرْضُ غَيْرَ الْأَرْضِ وَالسَّمَوَاتُ وَبَرَزُوا لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ﴾ [إبراهيم: ٤٨].

بخلاف مرّ الجبال مرّ السحاب؛ فإنه مصاحب لحركة الأرض في الدنيا، ولأن السير والنسف ليس فيهما الصنع والإتقان الذي حُتِمت به الآية.

ومعنى الآية: وترى الجبال الشم الرواسي تظنها واقفة مستقرة، وهي تسير سيرا حثيثا فتزول عن أماكنها كسير السحاب الذي تُسيره الرياح، وهذا من صنع الله الذي أحسن كل شيء خلقه وأتقنه، إن الله خبير بما يفعل عباده من خير وشر، وسيجازيهم على ذلك.

وعلى هذا فإن آية ﴿وَيَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ﴾ معترضة بين آية ﴿أَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا آلِيلَ﴾ وآية ﴿وَنَرَى الْجِبَالَ﴾ لمناسبة ما في المعطوف عليه من الإشارة إلى تمثيل الحياة بعد الموت. أو أن ﴿وَنَرَى الْجِبَالَ﴾ مبيّنة لمجمل ﴿أَلَمْ يَرَوْا﴾ وما بعدهما وهو ﴿وَيَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ﴾ اعتراض.

ثَوَابُ الْمُحْسِنِينَ وَعِقَابُ الْمُسِيئِينَ

٨٩- ﴿مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ خَيْرٌ مِنْهَا وَهُمْ مِّنْ فَزَعٍ ^(١) يَوْمَئِذٍ ^(٢) ءَامِنُونَ ﴿٨٩﴾﴾

ولمناسبة الفزع الذي ذكر في الآية قبل السابقة، وهو يقتضي حشر الخلائق، وحضورهم للحساب والجزاء يوم القيامة، بين تعالى حال السعداء وحال الأشقياء في هذا اليوم، وأن من جاء يوم القيامة من أهل السعادة، وهو فاعل للحسنة، بالإيمان والتوحيد، والعمل الصالح، فحسناته مضاعفة بعشر أمثالها إلى سبع مئة ضعف، فله عند الله الأجر العظيم، مع ما هو خير منها وأفضل، وهو الجنة، وهو في مأمن من الفزع الأكبر يوم لقاء الله ﷻ فهم ﴿لَا يَحْزَنُهُمُ الْفَزَعُ الْأَكْبَرُ﴾ [الأنبياء: ١٠٣].

قال تعالى: ﴿أَفَنَ يُلْقَى فِي النَّارِ خَيْرٌ أَمْ مَّنْ يَأْتِي ءَامِنًا يَوْمَ الْقِيَمَةِ﴾ [فصلت: ٤٠].

والمراد بالحسنة: اسم جنس، يشمل كل ما يقوله المسلم أو يفعله من كل قول طيب وعمل صالح، ويبدأ ذلك بالنطق بالشهادتين، ثم بأداء ما أمر به المسلم من فرائض

(١) قرأ عاصم وحمزة والكسائي وخلف بتنوين (فزع) على إعمال المصدر في الظرف وهو (يومئذ)، وقرأ الباقر بعدم التنوين على الإضافة.

(٢) قرأ نافع وعاصم وحمزة والكسائي وأبو جعفر وخلف بفتح الميم من (يومئذ) وهي فتحة بناء، وقرأ الباقر بكسرها وهي كسرة إعراب.

وواجبات، واجتناب ما نُهي عنه من سيئات، كما تشمل الحسنة النوافل وجميع أعمال الخير والبر، والباقيات الصالحات، ففاعل الحسنة مبشر بمضاعفة الأجر، وبالآمان والاطمئنان يوم تزل الأقدام، وتشيب الولدان.

في صحيح مسلم: عن جابر رضي الله عنه قال: أتى النبي ﷺ رجل، فقال: يا رسول الله، ما الموجبتان؟ فقال: «من مات لا يشرك بالله شيئاً دخل الجنة، ومن مات يشرك بالله شيئاً دخل النار»^(١).

ووردت آثار تفيد: أن الإيمان والشرك يجثوان بين يدي الله تعالى، فيقول الله تعالى للإيمان: انطلق أنت وأهلك إلى الجنة، ويقول للشرك: انطلق أنت وأهلك إلى النار.

٩٠- ﴿وَمَنْ جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَكُبَّتْ وُجُوهُهُمْ فِي النَّارِ هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾^(٩٠)

ومن جاء بالسيئة وهي اسم جنس، يشمل كل قول أو فعل سيء، وفي مقدمتها الشرك بالله تعالى، ثم سائر الأعمال والأقوال المنكرة، فجزاؤهم أن يكبهم الله على وجوههم في النار يوم القيامة، ويقال لهم توبيخاً: هذا جزاء ما كنتم تعملون به في الدنيا من الشرك والمعاصي، كما قال تعالى: ﴿مَنْ يَعْمَلْ سُوْءًا يُجْزَ بِهِ وَلَا يُجِدْ لَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا﴾ [النساء: ١٢٣].

وقال سبحانه: ﴿إِنَّهُمْ مَنْ يَأْتِ رَبَّهُمْ مَجْرِمًا فَإِنَّ لَهُمْ جَهَنَّمَ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَىٰ﴾^(٧٦) وَمَنْ يَأْتِهِ مُؤْمِنًا قَدْ عَمِلَ الصَّالِحَاتِ فَأُولَٰئِكَ لَهُمُ الدَّرَجَاتُ الْعُلَىٰ^(٧٥)﴾ [طه].

والأصل في السيئة أنها لا تضاعف، ولكن حرمتها تعظم بسبب حرمة المكان كفعالها في الحرم، أو حرمة الزمان كفعالها في الأشهر الحرم، كما قال تعالى: ﴿فَلَا تَطْلُبُوا فِيهِنَّ أَنْفُسَكُمْ﴾ [التوبة: ٣٦].

مَنْهَجُ الرُّسُولِ ﷺ فِي الدَّعْوَةِ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى

٩١- ﴿إِنَّمَا أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ رَبَّ هَذِهِ الْبَلَدَةِ الَّذِي حَرَّمَهَا وَلَهُ كُلُّ شَيْءٍ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾

(١) «صحيح مسلم» برقم: (٩٣).

وبعد أن استعرضت السورة كثيرًا من مطاعن المكذبين بالقرآن وبرسول الإسلام، وذكرت مطاعنهم في البعث والحساب والجزاء، وأمرت الرسول ﷺ أن يثبت، ويمضي في طريق دعوته متوكلاً على الله - سبحانه - فهو على الحق المبين.

بعد ذلك يأمر الله تعالى رسوله ﷺ أن يعلن للناس منهجه في الدعوة إلى الله تعالى، ويقول لهم:

ما أمرت بشيء من إنكار البعث والنشور، ولا من تعجيل نزول العذاب بكم، ولا ما هو نحو ذلك، إنما أمرت أن أثبت على إخلاصي في عبادتي، وأن أخص الله وحده بالعبادة، كما قال تعالى: ﴿قُلْ يَتَّيِبُهَا النَّاسُ إِنْ كُنْتُمْ فِي شَكٍّ مِنْ رَبِّي فَلَا أَعْبُدُ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَكِنْ أَعْبُدُ اللَّهَ الَّذِي يَتَوَفَّنَكُمْ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [يونس].

وقال: ﴿إِنْ حَاجُّوكَ فَقُلْ أَسْلَمْتُ وَجْهِيَ لِلَّهِ وَمَنِ اتَّبَعْتُ﴾ [آل عمران: ٢٠].

وفي ذلك تطمين للرسول ﷺ بأنه أرضى ربه بأداء أمانة التبليغ.

ولأن مكة المكرمة هي مركز انطلاق الدعوة، فقد تضمنت الآية تنويهاً بشأنها، وتعريضاً بدم من كفر من أهلها، ومن كان على شاكلتهم في أرجاء المعمورة، على مر الأزمنة واختلاف الأمكنة، فإن كفار مكة لم يتنفعوا بتحريم الله لها، وهو سبحانه ﷻ الذي حرّمها ﷻ على خلقه، وأمرهم ألا يسفكوا فيها دمًا حرامًا، ولا يظلموا فيها أحدًا، ولا يصطادوا صيدها، ولا يقطعوا شجرها.

وهذا يشمل مكة وما حولها إلى نهاية حدود الحرم، ويدخل في ذلك منع غزو أهلها، وعدم الاعتداء عليهم، وظلمهم وإخافتهم، وتحريم كل ما هو ضد صلاحها وصلاح ما بها من دابة وإنسان وشجر.

وهذا التحريم مما أوحى الله به إلى إبراهيم ﷺ في قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا الْبَلَدَ آمِنًا﴾ [إبراهيم: ٣٥].

وقوله: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا بَلَدًا آمِنًا﴾ [البقرة: ١٢٦].

صح عن ابن عباس ؓ أن رسول الله ﷺ قال يوم فتح مكة: «إن هذا البلد حرمة الله يوم خلق السموات والأرض، فهو حرام بحرمة الله إلى يوم القيامة، لا يُعضد شوكة، ولا

يَنْفَرُ صَيْدِهِ، وَلَا يَلْتَقِطُ لِقْطَتَهُ إِلَّا لِمَنْ عَرَفَهَا، وَلَا يَخْتَلِي خِلَاهَا...»^(١) الحديث.

وقد شَرَّفَ الله مكة بإضافتها إلى نفسه في مثل قوله تعالى: ﴿فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَذَا الْبَيْتِ ۖ﴾^(٢) **الَّذِي أَطْعَمَهُمْ مِنْ جُوعٍ وَآمَنَهُمْ مِنْ خَوْفٍ** ﴿٣﴾ [قريش].

وقد قال سبحانه: ﴿الَّذِي حَرَّمَهَا﴾ ولم يقل: التي حرّمها الله؛ لأن في هذا تذكير لأهلها بهذه النعم.

ومعنى ﴿رَبِّ هَذِهِ الْبَلَدَةِ﴾ أي: أنه - سبحانه - رب مكة، ورب ما حولها، ورب ما نعلمه من الكون وما لا نعلمه، ولكنه - جلّ شأنه - خص مكة بعينها؛ لأنها أحب بلاد الله إلى الله ورسوله، وفيها بيت الله الحرام، فهو - سبحانه - رب هذه البلدة التي حرّمها الله إلى يوم القيامة، بحيث لا يسيل فيها دم، ولا يظلم فيها أحد، ويصان فيها الشجر والطير والصيد والإنسان، وكل شيء فيها آمن على نفسه، كما أنه سبحانه رب غيرها من البلاد.

وقد أشعر الله - سبحانه - أهل مكة أنهم لا يملكون شيئاً من أمر تلك البلدة، فكاشفهم الله تعالى بما تكنه صدورهم من خواطر في إخراج الرسول ﷺ، والمؤمنين منها.

وهذا من جملة ما اقتضاه قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ وَمَا يُعْلِنُونَ﴾^(٤).

ولذا قال تعالى: ﴿وَلَمْ يَكُنْ لَكُمْ شَيْءٌ﴾^(٥) فهو سبحانه المالك لمكة ولغيرها من سائر البلاد، وله جميع ما في الكون خلقاً وملكاً وتصرفاً، فليست مكة ملكاً لهم حتى ينفردوا بالبقاء فيها، وقد أمر الرسول ﷺ أن يكون من المسلمين المطيعين، المنقادين لله ﷻ، وبذلك أيضاً أمر كل مسلم.

ثَمَرَةُ الدَّعْوَةِ تَعُودُ عَلَى الْمَدْعُودِ

٩٢- ﴿وَأَنْ أَتَلَوْا الْقُرْآنَ فَمَنْ أَهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَنْ ضَلَّ فَقُلْ إِنَّمَا أَنَا مِنَ الْمُنذِرِينَ﴾

(١) في «البخاري» برقم: (١٥٨٧، ١٨٣٤) ومسلم برقم: (١٣٥٣) وأبي داود برقم: (٢٠١٨) والترمذي برقم: (١٥٩٠) والنسائي (٢٠٣/٥) و«المسنَد» (٢٥٩/١) برقم (٢٣٥٣) بإسناد صحيح على شرط البخاري وغيرهم.

أي: وكما أمرت أن أعبد رب مكة، وأمرت أن أكون من المسلمين، أمرت أيضًا أن أتلو القرآن على الناس؛ ليهتدوا به، وأبلغهم حلاله وحرامه، وكل ما فيه من تشريع وأحكام، وعبادات وعقائد، وليتعلموا ألفاظه وطريقة أدائه.

ثم فرّع - سبحانه وتعالى - على تلاوة القرآن ما يقتضي انقسام الناس إلى مهتدٍ وضالٍّ، أي: منتفع بالتلاوة، وغير منتفع بها، فمن اهتدى بما جاء في القرآن، واتبع ما فيه، فإن خير ذلك يعود عليه، ومن ضل عن اتباع الحق فقل - يا محمد - إنما أنا من الذين أنذروا قومهم، وليس على الرسول إلا البلاغ المبين، وليس بيدي من الهداية شيء، فثمرة الهدى أو الضلال تعود على من أقبل أو أعرض، فهو المكتسب لما يقول أو يفعل.

الْمُسْتَقْبَلُ لِلْإِسْلَامِ

٩٣- ﴿وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ سِرِّيكُمْ ءَايَتُهُ فَتَعْرِفُونَهَا وَمَا رَبُّكَ بِغَفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ (٩٣)

يختم الحق ﷺ هذا الموكب العظيم من الحديث عن الأنبياء، وعن صدقهم في التبليغ، وعن القيامة وما فيها من وعد ووعد، فيأمر رسوله ﷺ أن يحمد ربه الذي له الحمد في الأولى والآخرة؛ لأن جعله من الرسل المبلّغين أقوامهم دعوة ربهم؛ فإن هذا من أعظم النعم التي استحق بها الثناء الجميل على ما خصّه الله به من شرف النبوة والرسالة، وما أكرمه به من المقام الرفيع، والمنزلة العالية، والخطاب في الآية موجه إلى النبي ﷺ لتأسي به الأمة، فيكثرون من حمده سبحانه وتعالى، لا سيما الصفوة من عباد الله تعالى.

ثم ختم الله - سبحانه - السورة ببيان أن عدم معرفة الغيب لا يطعن في مقام الرسالة، وأن ما غاب عن العباد من دلائل التوحيد، وصدق الرسول والرسالة - سيظهر ويتجلى لهم في المستقبل ﴿سِرِّيكُمْ ءَايَتُهُ فَتَعْرِفُونَهَا﴾ أي: سيطلعكم على آياته الباهرة الدالة على عظيم قدرته في أنفسكم، وفي السماء والأرض والفضاء، والبحار والأشجار والآفاق، فتعرفونها معرفة تدلكم على الحق والباطل، وتكشف لكم لهم عن بعض أسرار هذا الكون، كما قال تعالى: ﴿سَرِّبِهِمْ ءَايَتَنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَبَيِّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ﴾ [فصلت: ٥٣].

(١) قرأ نافع وابن عامر وحفص وأبو جعفر ويعقوب بناء الخطاب في (تعملون) على نسق الآية، والباقون بياء الغيبة على الالتفات.

وسيكشف المستقبل؛ الكثير من حقائق الإسلام، ومن مستقبل الكفر في كل يوم .
وفي كل ساعة يظهر للبشر من الآيات في الأنفس والآفاق الدالة على وحدانية الله تعالى، وعلى صدق هذا القرآن، وعالمية الرسالة .

فَإِذَا فِي طَرِيقِكَ -أيها الرسول- وَبَلَغَ دَعْوَةَ رَبِّكَ ؛ فَإِنَّ الْعَاقِبَةَ لَكَ وَلِاتِّبَاعِكَ الْمُؤْمِنِينَ ،
أَمَّا الْكَافِرُونَ وَالْمُنَافِقُونَ فَنَحْنُ الَّذِينَ سَتُولِي حِسَابَهُمْ ، وَهَذَا مُصَدِّقُ قَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ غَافِلًا عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الْأَبْصَارُ﴾ [٤١] ﴿إبراهيم﴾ .
وربك مطلع على أعمال العباد، وهو على كل شيء شهيد، وسيحكم بينكم بعد له،
ويحاسبكم بفضلله، ويجازيكم على أقوالكم وأفعالكم .

تم تفسير (سورة النمل) والله الحمد والمنة



تَفْسِيرُ سُورَةِ الْقَصَصِ (٢٨)

مُقَدِّمَةُ السُّورَةِ

سورة (القصص) هي السورة الثامنة والعشرون في ترتيب المصحف، والتاسعة والأربعون في ترتيب النزول، نزلت بعد سورة النمل، وقبل سورة الإسراء. وهي ثمانٍ وثمانون آيةً باتفاق، وألف وأربع مئة وإحدى وأربعون كلمة. وخمسة آلاف وثمان مئة حرف.

وهي سورة مكية إلا قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِي فَرَضَ عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لَرَأْدُكَ إِلَىٰ مَعَادٍ﴾ [٨٥]. فقد نزلت بالجحفة والنبي ﷺ في طريقه إلى المدينة مهاجرًا.

عن يحيى بن سلام قال: بلغني أن النبي ﷺ حين هاجر، نزل عليه جبريل بالجحفة، وهو متوجه من مكة إلى المدينة، فقال له: أشتاق يا محمد إلى بلدك التي وُلدت فيها؟ قال: «نعم»، فقرأ عليه الآية^(١).

قيل: وقوله تعالى: ﴿الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ﴾ إلى ﴿لَا يَنْبَغِي الْجَاهِلِينَ﴾ الآيتان [٥٢، ٥٣]. فقد نزلتا مع آخر سورة (الحديد) في أصحاب النجاشي حين قدموا المدينة، وشهدوا وقعة أحد.

ولا يُعرف للسورة اسم آخر، وهو مأخوذ من قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا جَاءَهُ وَقَصَّ عَلَيْهِ الْقَصَصَ﴾ الآية [٢٥].

والطواسين الثلاثة، نزلت متتابعة، كترتيبها في المصحف، وهي متماثلة في أن القصة الأولى في كل منها، هي قصة موسى ﷺ.

وقد نزلت سورة (القصص) والمسلمون في مكة قلة مستضعفة، والمشركون هم أصحاب الجاه والقوة والسلطان؛ نزلت لترفع من معنويات المسلمين، وتطمئنهم على مستقبلهم، فكما من الله على الذين استضعفوا في الأرض، ووعدهم بأن يجعلهم أئمة ويجعلهم الوارثين، طمأن الله رسوله ﷺ أن يعود إلى مكة بعد أن خرج منها مكرهاً مطارداً.

(١) «تفسير الألوسي» (٢٠/٤١).

وقد عاد المهاجرون إليها فاتحين بعد أن خرجوا منها مقهورين مكسورين، وهكذا فميزان القوة عند الله تعالى هو الإيمان، فمن كانت قوة الله معه فلا خوف عليه، وإن خذله أهل الأرض جميعاً.

ولذا اهتمت السورة بثبيت قلوب المؤمنين وتقوية عزائمهم، وتبشيرهم بأن العاقبة لهم، وأن الله تعالى سيجعل من ضعفهم قوة، ومن قلتهم كثرة، كما جعل من موسى وقومه. واهتمت السورة ببيان مظاهر قدرة الله تعالى في الكون، ومنها إهلاك الظالمين ولو ساندتهم جميع قوى الأرض.

وسُنن الله تعالى لا تتخلف ولا تتبدل على مدار الزمان، فقد اعتذر المشركون لرسول الله ﷺ عن اتباع الهدى بخوفهم من تخطُّف الناس لهم لو تركوا عقائدهم القديمة، فساق الله لهم قصة موسى وفرعون؛ لتبين أن الأمن من المخاوف يكون في جوار الله تعالى. ثم ساق لهم قصة قارون في صورة أخرى تؤكد هذا المعنى، وعقَّب الله سبحانه على ذلك بقوله: ﴿أَوَلَمْ نُمْكِنْ لَهُمْ حَرَمًا ءَامِنًا يُجِئُ إِلَيْهِ ثَمَرَاتُ كُلِّ شَيْءٍ رِزْقًا مِّنْ لَّدُنَّا﴾ الآية [٥٧]. وسُنَّ الله تعالى في إهلاك الطاغين لا تكون إلا بعد إعدارهم وإنذارهم.

﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهِمًّا لَّكَ الْفَرَىٰ حَتَّىٰ يَبْعَثَ فِي أُمَمٍ رَسُولًا يَنْلُوا عَلَيْهِمْ ءَايَاتِنَا﴾ الآية [٥٩].

فسورة (القصص) اشتملت على قصتين هما: قصة موسى وفرعون، وقصة قارون، وبينهما حثٌّ على الاعتبار والاتعاظ بما جاء في القرآن من قصص، وبما لحق بالأمم المكذبة لرسول الله من مصير مؤلم، وفي السورة لفت الأنظار إلى آثار قدرة الله تعالى في الكون بما يستلزم توحيده سبحانه، وعدم تقليد من أشركوا مع الله غيره. وقد بدئت السورة بالإشارة إلى أن هذا القرآن مُنزل لتوحيد الخالق سبحانه، وخُتمت بالنهاية عن الإشراك بالله تعالى.

فالتوحيد الخالص، وتصديق الوحي المنزل، والإيمان بالبعث واليوم الآخر، هو موضوع السورة الذي بدئت وختمت به في قوله تعالى: ﴿وَلَا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا ءَاخَرَ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ لَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ الآية.

والقصة الأولى في سورة القصص: هي قصة موسى وفرعون، وفيها خمس حلقات لم تذكر إلا في هذه السورة، وكأن المسلمين ودُّوا أن تُفصّل لهم قصة موسى ﷺ التي جاء ذكرها في سورتي: الشعراء، والنمل، فكانت هذه الحلقات الخمس:

وأولها: حلقة ولادة موسى، ونشأته، وتربيته في قصر فرعون؛ ليكون هلاكه على يديه.

وثانيها: حلقة وكز موسى للقبطي وكزة أدت إلى قتله خطأ، وهو يدفع العدوان عن الإسرائيليين.

وثالثها: حلقة هجرة موسى إلى مدين، وزواجه من ابنة الرجل الصالح، وعودته إلى مصر بعد أكثر من عشرة أعوام.

ورابعها: نزول الرسالة عليه، وإرسال هارون معه، ودعوتهما فرعون وملاه ودعواه الألوهية. وخامسها: ثلاث تعقيبات على قصة موسى.

وهكذا ذكرت السورة نبوة موسى وموقف فرعون من دعوته، وبيان عاقبة ظلمه وتكذيبه ﴿فَأَخَذْنَاهُ وَخُودَهُ فَنَبَذْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ فَاَنْظُرْ كَيْفَ كُنَّا عَنِقَةَ الظَّالِمِينَ ﴿٤٠﴾ وَجَعَلْنَاهُمْ أَيْمَةً يَكْفُورُونَ إِلَى الْكَارِ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ لَا يُنصَرُونَ ﴿٤١﴾ وَاتَّبَعْنَاهُمْ فِي هَٰذِهِ الدُّنْيَا لَعَنََّا وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ هُمْ مِنَ الْمَقْبُوحِينَ ﴿٤٢﴾﴾.

وهذه القصة تمثل قصة حاكم جائر يدّعي الربوبية والألوهية، فيقول للناس: ﴿أَنَا رَبُّكُمْ الْأَعْلَىٰ﴾ [النازعات: ٢٤]. ويقول لهم: ﴿مَا عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلَٰهٍ غَيْرِي﴾ [٣٨].

وهذا الحاكم الطاغية يواجه بجبروته طفلاً رضيعاً لا حول له ولا قوة، ولكن هذه القوة وهذا الجبروت لم يغنيا عنه من الله شيئاً، فيترى الطفل في حجر عدوه بأمواله وتحت رعايته، ورعاية امرأته التي انفتحت قلبها له.

ولمّا كان موسى في حراسة العناية الإلهية، والقوة القاهرة، فقد كانت نهاية فرعون على يد هذا الرضيع الذي نشأ في بيت عدوه.

وهكذا ربطت السورة بين هذه القصة، وبين عودة النبي ﷺ إلى مكة فاتحاً منتصراً، بعد أن خرج منها نتيجة التآمر على قتله ﴿إِنَّ الَّذِي فَرَضَ عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لَرَادُّكَ إِلَىٰ مَعَادٍ﴾ الآية [٨٥].

وفي كل زمن يوجد فراعنة يظلمون الناس، ويستعبدونهم، ويكون لهم أعوان وبطانات سوء، فإذا استكان الناس للظلم، وقبلوا الضيم، وشاع المنكر بينهم، وارتضوا حياة الذل والمسكنة، فإن الله تعالى يسلط الظلم وأهله عليهم حتى تستيقظ ضمائرهم، ويأخذوا بأسباب الخلاص، وحينئذ يحل بهم نصر الله وتأييده، فيجعلهم سادة بعد أن كانوا عبيدًا، وحاكمين بعد أن كانوا محكومين، ويسلط الله على الطاغية من ينغص عليه عيشه، ويقض مضجعه ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُعْزِرُوا مَا يَأْتُسِيهِمْ﴾ [الرعد: ١١].

ومحور قصة موسى مع فرعون يدور حول الحق والباطل، والخير والشر، وجند الرحمن وجند الشيطان، وتبين أن عاقبة الظلم وخيمة، وأن عاقبة الصبر والتقوى جميلة، وتبين أن المستضعفين في الأرض ستنكسر قيودهم، ويستردون حرياتهم ما داموا يأخذون بالأسباب، ويفضلون الموت على الحياة، ولم يكونوا عبيدًا لثرواتهم، أو نزواتهم، أو مناصبهم، أو شهواتهم.

ولذا: فإن القصة الثانية في سورة (القصص)، تمثل طغيان الثروة والمال، وادعاء أن قارون قد أوتي المال عن جدارة، أو خبرة، أو وراثة، وأنه مستحق له، نظرًا لما أوتي من علم ودراية، هذا هو قارون وأشباهه في طول الأرض وعرضها.

لقد بغى فرعون وتطاول بجبروته وحُكمه وسلطانه، وبغى قارون وتطاول بعلمه وماله، وكانت النهاية واحدة، ففرعون أغرقه الله في اليمِّ وهو مليم، وقارون خسف الله به وبداره الأرض، ولم توجد قوة على وجه الأرض حالت بينهما وبين هذا المصير الذي وضع حدًا للبغي والفساد في الأرض.

وقد استغرقت قصة موسى وفرعون خمسين آية من السورة، وجاء التعقيب عليها في خمس وعشرين آية، واستغرقت قصة قارون ثماني آيات، وجاء التعقيب عليها في خمس آيات.



تَفْسِيرُ السُّورَةِ

التَّنْوِيهِ بِشَأْنِ الْقُرْآنِ

١-٣- ﴿طس﴾ (١) تِلْكَ ءَايَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ ﴿٢﴾ تَتْلُوهُ عَلَيْكَ مِنْ نَحْيِ مُوسَى وَفِرْعَوْنَ
بِالْحَقِّ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٣﴾

ابتدأت السورة بثلاثة أحرف من حروف الهجاء، هي: الطاء، والسين، والميم؛ إشارة إلى أن هذا القرآن المعجز مكون من هذه الحروف التي تنطقونها، ومع ذلك فقد عجزتم - أيها المكذبون - عن الإتيان بمثل أقصر سورة منه.

ولأن هذه الحروف تسترعي انتباه المستمع، فيجد نفسه مشتاقاً إلى سماع هذا الكلام المعجز، فتتأثر نفسه، وينفذ القرآن إلى قلبه، فيهتدي بإذن الله تعالى، وهذا هو ما حدث للمشركين وقت التنزيل، فقد كانوا يخافون من تأثير القرآن في نفوسهم، فينهى بعضهم بعضاً عن استماعه، ويأمره بالتشويش عليه، كما قال تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَسْمَعُوا لِهَذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [فصلت].

ولأن قلوب المكذبين بالقرآن في غطاء عن ذكر الله تعالى، فإنهم لم يؤمنوا به مع اعتقادهم بصدق محمد ﷺ، وانجذابهم للقرآن، وشهادتهم له، فالكبرياء والجحود، والخوف على الجاه والمنصب، هو الذي منعهم من الإيمان به.

كما قال تعالى: ﴿فَأَنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَكِنَّ الظَّالِمِينَ بِآيَاتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ﴾ [الأنعام: ٣٣].

وقال سبحانه: ﴿وَمِنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ وَجَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا﴾ [الأنعام: ٢٥].

وقال جل شأنه: ﴿وَهُمْ يَنْهَوْنَ عَنْهُ وَيَنْتَوُونَ عَنْهُ وَإِنْ يُهْلِكُونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ﴾ [الأنعام].

(١) سكت أبو جعفر على: طاء، وسين، وميم، سكتة يسيرة بدون تنفس، ويلزم منها إظهار نون (طس)، وعدم إدغامها في الميم بعدها، والباقون بدون هذا السكت. هذا: وقد عد (طسم) آية، الكوفي وحده وتركها غيره.

ثم إن الآية التالية لحروف الهجاء في أغلب فواتح السور المفتحة بها، تشير إلى أن هذا القرآن مكون من هذه الحروف، كما في هذه السورة: ﴿تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ﴾ أي: هذا هو القرآن الذي نزلناه عليك -يا محمد- وهو وحي يُتلى من عند الله، وليس من صنع البشر، وهو كتاب مبين لكل ما يحتاجه العباد في دينهم ودنياهم، موضح للحق من الباطل، والهدى من الضلال، ومنه يعرف العبد حق ربه وحق عباده، ويعرف أولياء الله وأعداءه، ويعرف أيامه ووقائعه، ويعرف الثواب والعقاب، ومكارم الأخلاق، وما إلى ذلك. وفيه بيان لما سيقضه الله على رسوله في هذه السورة من قصة موسى بن عمران مع فرعون الطاغية.

ولما كان المؤمن العاقل -دون غيره- هو الذي يتأثر ويتنفع ويعتبر بما في هذا القرآن، فإن الله تعالى خصّه بالذكر، في مثل قوله تعالى: ﴿لَقَدْ كُنَّا فِي فَصْصِهِمْ عِبْرَةً لِّأُولِي الْأَلْبَابِ﴾ [يوسف: ١١١].

وقوله تعالى: ﴿ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ﴾ [البقرة].

أما غير المؤمنين وغير المتقين من غير أولي الأبواب والبصائر فهو عليهم عَمَى، ولا يزيدهم إلا خساراً. ﴿قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدًى وَشَفَاءٌ وَلِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِي آذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى﴾ [فصلت: ٤٤].

ولذا: فإن الله تعالى بين أنه سبحانه سيقصُّ على خاتم الرسل ﷺ -بواسطة جبريل عليه السلام- ما فيه العبرة من قصة موسى وفرعون لقوم يؤمنون، أي: لمن كان في قلبه استعداد للإيمان، وانتفاع بهذا القصص ممن سبق في علم الله تعالى أنه يتنفع بما يتلى عليه، فيتلقاه بالقبول والاهتداء، ويزداد إيماناً و يقيناً، أما غير المؤمن فهو لا يتنفع ولا يعتبر، ولا يستفيد إلا بإقامة الحجة عليه.

ومن شأن المؤمنين أن يثبتوا على إيمانهم، ويرفعوا راية الجهاد في سبيل الله، ويؤثروا الشهادة على الحياة، حتى ينصرهم الله بعد خذلان، ويبدل ضعفهم قوة، وخوفهم أمناً كما فعل بأسلافهم، ومنهم فرعون مع بني إسرائيل، فقد نجّاهم الله من القتل والعذاب على يد نبيهم موسى عليه السلام، وهكذا كان المؤمنون المهاجرون من مكة، وهكذا ينصر الله

المسلمين على اليهود في القريب العاجل إن شاء الله، وهذا بسط لقصة موسى مع فرعون:

قِصَّةُ فِرْعَوْنَ مَعَ بَنِي إِسْرَائِيلَ

٤- ﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضِعُّ طَائِفَةً مِنْهُمْ يُذِيحُ أَبْنَاءَهُمْ وَيَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ إِنَّهُمْ كَانُوا مِنَ الْمُفْسِدِينَ ﴿٤﴾﴾

يبدو أن فرعون الذي كان في زمن موسى ﷺ، أي: في القرن الثالث عشر قبل الميلاد غالبًا، هو (رئيس الثاني)، وهو الملك الثالث من ملوك العائلة التاسعة عشرة، كما هو معروف في تاريخ الفراعنة.

ويذكر أن اسمه (الوليد بن الريان) الذي امتد ملكه من نهر الكنج إلى نهر الدانوب، واتسع سلطانه من بلاد الهند إلى أوربا، وبلغ شأواً من العلو مما أغراه بالألوهية والاستبداد في الأرض، واستعباد من فيها، وكان من شأن الرعية في ذلك الوقت أن يؤلّوها ملكهم، ويطيعوه فيما يُحلّل ويحرم، قال تعالى: ﴿فَاسْتَحَفَّ قَوْمُهُ فَأَطَاعُوهُ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَتْسِقِينَ ﴿٥﴾﴾ [الزخرف].

وكان من شأن فرعون -كما جاء في الآية- أنه متصف بالفساد في خمسة أمور:

أولها: أنه علا في الأرض، في ملكه وسلطانه وجبروته وجنوده، فكان مثلاً للاستبداد، وعنواناً للظلم، وقدوة في الشر، وآية في الطغيان والتكبر، وتجاوز الحد، والاستخفاف بالناس واحتقارهم، وسوء عشرتهم، وبث عداوته فيهم.

ثانيها: أن فرعون جعل أهل مصر فرقاً وشيعةً وأحزاباً، يتصرف فيهم كما يشاء، وينفذ فيهم ما يريد، فقسّم بلادهم إلى ستة وثلاثين إقليمًا، وجعل على كل إقليم أميرًا؛ ليتسنى له إحكام القبضة على البلاد ومن فيها، ولكي يستعين ببعضهم على بعض، فيذلّ بكل حزب ما عداه، ويشير بينهم التحاسد والتباغض، وإلقاء النيمة والوشايات الكاذبة، وإفساد ما بينهم، وكان يكرم طائفة، ويهين طائفة، يكرم أهل مصر، ويهين بني إسرائيل الذين دخلوا مصر أيام أخيهم يوسف ﷺ، وكانوا أفرادًا قلائل، وخرجوا منها في عهد موسى ﷺ وهم ألوف بعد أن مكثوا في مصر أربع مئة سنة، فكان يسخر بني إسرائيل في أنواع الخدمة والأعمال الشاقة، وكانوا يطيعونه، ولا يملك أحد منهم أن يعصي له أمرًا.

ويبدو أن فرعون كان إمامًا للطغاة، وقدوة للجبارين خارجًا على الدستور الإلهي، والحكم بما أنزل الله، فهم يترسمون خطاه، وينسجون على منواله.

ومصارع الظلمة واحدة في كل زمان ومكان، وكل ظالم يبلى بأظلم، والندم لا ينفع في الساعات الأخيرة من حياة الإنسان، كما أن إيمان فرعون لم ينفعه وقت الغرق. ﴿قَالِ يَوْمَ تَنْجِيكَ يَدُكَ إِنْ كُنْتَ لِمَنْ خَلَقَكَ آيَةً﴾ [يونس: ٩٢].

وثالثها: أن فرعون كان يستضعف طائفة من رعاياه، هم بنو إسرائيل، فكان لا يساوي بينهم وبين المصريين، ولا يعدل في التعامل بينهم، ولم تكن لديهم مناعة تحول بينهم وبين الطاغية المستبد، فلم يقفوا في وجهه، ولم يأخذوا على يديه، ولم يقضوا مضجعه؛ حتى يعيش الناس في أمن وأمان، وحتى لا يتسرب الظلم إلى فئات أخرى، فيصبح الداء عضالاً^(١).

ورابعها: أنه كان من بطش فرعون وجبروته أنه يقتل أبناءهم وهم أطفال، خوفًا من تكاثرهم، ويستبقي نساءهم لاستعمالهن في البغاء؛ إذ ليس لهن أزواج، وكل هذا اعتداء على الحق، واستضعاف لهم، لَمَّا عجزوا أن يدفعوا الظلم عن أنفسهم، وفي قتل الذكور فناء للرجال، وقطع للتناسل، وإبقاء للإناث بدون رجال.

وفي ذلك مفاسد كبيرة؛ حيث تتحمل المرأة الكد والمشقة في أمر المعيشة، وتكون فريسة للعدو، وفيه قتل لجنينها بعد الحمل الطويل والمعاناة فيه، وفي هذا ذلٌّ وهوان.

قال ابن عباس رضي الله عنه: إن بني إسرائيل لما كثروا بمصر استطالوا على الناس، وعملوا بالمعاصي، ولم يأمرؤا بالمعروف، ولم ينهوا عن المنكر، فسلب الله عليهم القبط فاستضعفهم، إلى أن نجّاهم الله على يد نبيه موسى عليه الصلاة والسلام.

والقبط: كلمة تطلق قديمًا على المصريين جميعًا، فالقبطي هو المصري بغض النظر عن ديانته وهي في الأصل لا تخص طائفة من المصريين، وإنما يستغلها النصارى لخدمة قضيتهم الوطنية.

قال السُّدِّي: كان من شأن فرعون أنه رأى في منامه أن نارًا أقبلت من بيت المقدس،

(١) يُنظَر: الشيخ/ محمد أحمد العدوي، «دعوة الرسل إلى الله تعالى» ص ٢٦٣، والشيخ ابن عاشور «تفسير التحرير والتنوير» (٢٠/٦٨).

حتى أتت بيوت مصر، فأحرقت القبط، وترك بني إسرائيل، فدعا الكهنة والعرافين، فقالوا: إن مولودًا يولد في بني إسرائيل يكون ذهاب ملكك على يديه^(١).

وقال الزجّاج: والعجب من حُمو فرعون، أنه إن كان الكاهن صادقًا فما ينفع القتل؟ وإن كان كاذبًا فلا معنى للقتل^(٢).

ومن المعلوم: أن المنجمين لا يعلمون شيئًا من الغيب، ولا يجوز في الإسلام التصديق بمثل هذه الأخبار، فقد «كذب المنجمون ولو صدقوا»، وفي الحديث عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «من أتى كاهنًا أو عرافًا فصدقه بما يقول فقد كفر بما أنزل على محمد»^(٣).

وعن بعض أزواج النبي ﷺ عن النبي ﷺ قال: «من أتى عرافًا فصدقه بما يقول لم تقبل له صلاة أربعين يومًا»^(٤).

ولعل هذا كان جائزًا عندهم، كيف وفرعون يرتكب ما هو أكبر من تصديق العرافين، ويدّعي ما لم يدّعه بشر؟! وليس بعد الكفر ذنب، ويمكن أن يكون الخبر من الإسرائيليات.

ولعل الصحيح أن فرعون كان يقتل الذكور لمجرد الاستعباد، وحتى لا يظهر منهم من ينافسه في ملكه، وشأن الطغاة أن يقضوا على من يظهر من أبناء شعبهم؛ حتى لا يرفع رأسه، ولا يكون مناهضًا له.

ولعل هناك أخبارًا تناقلها الإسرائيليون عن أنبيائهم بظهور موسى ﷺ، ولا عجب أن يصنع فرعون ما صنع؛ لأن من كان خلقه الإفساد في الأرض لا يُستغرب منه هذا العمل. واستبقاء النساء بعد قتل الذكور حتى لا تكون لهنّ عزوة، ويستسلمن لما يراد بهن، وهذه فتنة كبرى.

(١) تُنظر القصة كاملة في: مواطن عدة، عند الطبري منها (١/٦٤٨)، (١٨/١٥١) وابن أبي حاتم (٩/٢٣٨). وغيرهما.

(٢) «فتح القدير» للشوكاني (٤/١٥٤) بتصرف.

(٣) «المسند» (٩٥٣٦، ١٠١٦٧). قال محققوه: حديث حسن، رجاله ثقات رجال الصحيح، وأخرجه الحاكم (٨/١) وقد صححه الألباني كما في صحيح الجامع الصغير برقم (٥٩٣٩).

(٤) «المسند» (١٦٦٣٨، ٢٣٢٢٢) وإسناده صحيح على شرط مسلم. كما قال محققوه.

وخامسها: أنه كان من المفسدين في الأرض، لا يُرجى منه إصلاح في الدين، ولا إصلاح في الدنيا، وأي إفساد أعظم من دعواه الألوهية والربوبية، واستعباد الناس وقتلهم؟!

بَنُو إِسْرَائِيلَ هُمْ الْمُسْتَضْعَفُونَ فِي الْأَرْضِ

٥، ٦- ﴿وَزَيْدُ أَنْ تَمَنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتَضَعُّوا فِي الْأَرْضِ وَتَجْعَلَهُمْ أَيْمَةً^(١) وَتَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ ﴿٥﴾ وَتَمَكِّنَ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَنَرَى^(٢) فِرْعَوْنَ وَهَمَانَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُمْ مَا كَانُوا يَحْذَرُونَ﴾

أي: هل يبقى الذل والاستعباد ملازمين للمستضعفين في الأرض؟ كلاً، لا بد لليل أن ينجلي؛ فالأيام دُول، والله يقلب الليل والنهار، والفلك يدور، ودوام الحال من المحال؛ فالضعيف قد يتحول إلى قوي، والقوي يتحول إلى ضعيف، كما يتحول الحاكم إلى محكوم، والمحكوم إلى حاكم.

وفي قصة فرعون عبرة لشعوب وحكام الأرض، فكم من عروش ثلّت، وكم من ممالك قُوضت، وما نزل بفرعون من عقوبة، تذكّر بعرشه الذي قُوضَ، ومُلْكِهِ الذي ذهب، بعد أن كان له من الحول والطول ما كان: ﴿قُلِ اللَّهُمَّ مَلِكُ الْمَلِكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَنْ تَشَاءُ وَتَنْزِعُ الْمُلْكَ مِنْ مَن تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَنْ تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَنْ تَشَاءُ يَدُكَ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [آل عمران].

والتاريخ الماضي يُلقَى بظلاله في نفوس المسلمين -الذين يعانون من ظلم اليهود، والنصارى، وغيرهم- إلى أن يتعلّقوا بغدٍ أفضل، كما جاء في آخر سورة القصص أن المطاردة التي أكرهت المسلمين على ترك مكة سوف تتلاشى، ويرجع المهاجرون إلى وطنهم قريباً ﴿إِنَّ الَّذِي فَرَضَ عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لَرَأْدُكَ إِلَيْنَا مَعَادٌ﴾ [٨٥].

وكان الله تعالى يقول لفرعون: لقد كان منك ما كان، وكان منا أن نمنّ على الشعب

(١) قرأ نافع وابن كثير وأبو عمرو ورويس بتسهيل الهمزة الثانية من (أئمة) وإبدالها ياء خالصة مع عدم الإدخال، وأبو جعفر بتسهيلها مع الإدخال وإبدالها ياء مع الإدخال، وهشام بالتحقيق مع الإدخال وعدمه، والباقون بالتحقيق مع عدم الإدخال.

(٢) قرأ حمزة والكسائي وخلف (وَيَرَى) بالياء مفتوحة وفتح الراء بعدها ألف مماله، و (فرعون، وهامان، وجنودهما) بالرفع، فرعون فاعل وما بعده عطف، وقرأ الباقون (وَنَرَى) بالنون مضمومة وكسر الراء بعدها ياء مفتوحة، وما بعدها بالنصب، ففرعون مفعول وما بعده عطف.

الذي استضعفته، وأذقته العذاب ألوانًا، فنتفضّل عليهم، ونجعلهم قادة وولاة وملوكًا، ونجعل فيهم أنبياء يُقتدى بهم في الخير، فنبدل ضعفهم قوة، ودلّهم عزًّا، واستعبادهم ملكًا، ونجعلهم يرثون الأرض بعد هلاك فرعون وقومه، ونمكن لهم فيها، ويرى فرعون وهامان وجنودهما ما كانوا يخافون من ذهاب ملكهم، وهلاكهم على يد مولود منهم.

ويشير إلى هذا قول الله تعالى: ﴿وَأَوْرَثْنَا الْقَوْمَ الَّذِينَ كَانُوا يُسْتَضْعَفُونَ مَشْرِقَ الْأَرْضِ وَمَغْرِبَهَا أَلَنِي بَرَكَاتٍ فِيهَا وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ الْحُسْنَىٰ عَلَىٰ بَنِي إِسْرَءِيلَ بِمَا صَبَرُوا وَدَمَرْنَا مَا كَانَتْ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُ وَمَا كَانُوا يَعْرِشُونَ ﴿١٧﴾﴾ [الأعراف]. و﴿كَلِمَتُ رَبِّكَ الْحُسْنَىٰ﴾ هي قوله تعالى في هذه السورة: ﴿وَنُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الْأَرْضِ﴾ الآيتان.

مِنْ مَنِ اللَّهِ تَعَالَىٰ عَلَىٰ بَنِي إِسْرَءِيلَ:

وفي هاتين الآيتين أربع ممن امتنَّ الله بها على بني إسرائيل من بين نعم كثيرة ذكّرتها سورة البقرة، وهذه المنن الأربع هي:

أولًا: جعلهم أحرارًا وأئمة، لهم شريعة مستقلة، وقوة يدفعون بها أعداءهم، بعد أن كانوا في ذل العبودية.

ثانيًا: جعلهم الوارثين لأرض الجبارين، وإرث السلطة منهم بعدما كان من قبلهم أهل السلطان فيها، وقد نزع الله منهم هذه الوراثة، وجعلهم شعبًا بلا وطن، لما تقاعسوا عن قتال الجبارين وقالوا لنبیهم ﴿فَاذْهَبْ أَنْتَ وَرَبُّكَ فَقَتِلَا إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ ﴿٢٤﴾﴾ [المائدة]

ثالثًا: التمكين لهم في الأرض المقدسة بفلسطين إلى انتهاء رسالة نبیهم موسى ﷺ، حيث تؤول بعد ذلك إلى أهل الديانة التي تليها، كما هي سُنَّة الله في خلقه.

رابعًا: زوال مُلك فرعون على أيديهم، بعد أن كان يحذّر ظهور رجل من بني إسرائيل يقوِّض عرشه.

وكان فرعون الذي أراه ذلك هو (منفتح الثالث) الذي جاء بعد رمسيس الثاني الذي كانت ولادة موسى في زمانه، وكان وزير فرعون يلقب بهامان، قيل: وكان اسمه أحشوبروس.

وخصَّ (هامان) بالذكر لمكانته في الكفر، وهذا التخصيص لعنة وصغار له، وليس شرقًا.

وهكذا خاطب الله بني إسرائيل ممتناً عليهم بكثير من النعم في آيات كثيرة، منها قوله تعالى:

﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يَنْقُورُ أَذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَعَلَ فِيكُمْ أَنْبِيَاءَ وَجَعَلَكُمْ مُلُوكًا وَآتَاكُمْ مَا لَمْ يُؤْتِ أَحَدًا مِّنَ الْعَالَمِينَ ﴿٢٠﴾﴾ [المائدة].

هذا: وقد أيد الله تعالى موسى بالمعجزات، فجمع له فرعون السحرة رجاء أن يبتلوا معجزته، فانقلبوا حرباً على فرعون وملكه، فأذن الله لموسى في الهجرة، فأتبعه فرعون بجنوده، فحلَّ به الغرق، وذهب سلطانه، وانتهى ملكه.

مُوسَى فِي نَهْرِ النَّيْلِ

٧، ٨- ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَيْكَ أَمْرَ مُوسَى أَنِ أَضْمِعِيهِ^(١) فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي الْيَمِّ وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحْزَنِي إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكَ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴿٧﴾﴾ فَأَلْقَطَهُ^(٢) ءَالُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَرْنًا^(٣) إِنَّ فِرْعَوْنَ وَهَمَّانَ وَجُنُودَهُمَا كَانُوا خَاطِعِينَ^(٤) ﴿٨﴾﴾

نجاة موسى ﷺ من الذبح، ونسب والديه:

أَلْهَمَ الله أم موسى -حين ولدته وخشيئ أن يذبحه فرعون- أن ترضعه وهي مطمئنة، فإذا خِفَتْ أن يُعرف أمره فضعيه في صندوق، وألقيه في النيل، دون خوف عليه، ولا حُزْنٍ على فراقه؛ فإننا سنرده إليك ونجعله رسولاً، وهذه بشارة عظيمة لأم موسى كي يطمئن قلبها، ويسكن روعها، وقد خافت عليه وفعلت ما أمرت به، وألقت في اليم.

وأم موسى اسمها (يوكابد)، أو (يوحاند) وهي من نسل لاوي بن يعقوب.

وموسى هو ابن عمران بن يصهر بن ماهيت بن لاوي بن يعقوب ﷺ، وكان الله تعالى قد أمر أم موسى، وكلفها أن تُلقيه في اليم إذا خافت عليه، وهو تكليف بشيء عظيم شاق على نفس الأم، ولكنها فعلت ما أمرت به ثقة في الله تعالى، ونهاها سبحانه أن تخاف عليه من

(١) قرأ ابن كثير بصللة هاء الضمير بحرف مد في هذه الكلمات: (أرضعيه، عليه، فألقيه، رادوه، جاعلوه)، والباقون بترك الصلة.

(٢) قرأ حمزة والكسائي وخلف بضم الحاء وإسكان الزاي من (حُزْنَا)، والباقون بفتح الحاء والزاي.

(٣) قرأ أبو جعفر بحذف همزة (خاطئين) وصلًا ووقفًا، ولحمزة وقفًا: الحذف والتسهيل بَيْنَ بَيْنَ.

الغرق أو الضياع، وبشرها بعودته إليها، وبُعْثَ نَبِيًّا وَرَسُولًا كَمَا فِي هَذِهِ الْآيَةِ.

قالوا: مَدَحَ الْأَصْمَعِيُّ امْرَأَةً لِإِنْشَادِهَا شِعْرًا حَسَنًا، فَقَرَأَتْ هَذِهِ الْآيَةَ، ثُمَّ قَالَتْ لَهُ: أَبْعُدْ هَذِهِ الْآيَةَ فَصَاحَةً؟ لَقَدْ اشْتَمَلَتْ عَلَى أَمْرَيْنِ، وَهُمَا: ﴿أَرْضِعِيَّ﴾ وَ ﴿فَكَأَلْفِيهِ﴾ وَنَهَيْتَيْنِ، وَهُمَا: ﴿وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحْزَنِي﴾ وَخَبْرَيْنِ، وَهُمَا: ﴿إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكَ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾ وَبِشَارَتَيْنِ، ضَمِنَ الْخَبْرَيْنِ، وَهُمَا: الرَّدُّ، وَالْجَعْلُ الْمَذْكُورَانِ.

والخوف: غَمٌّ يَلْحَقُ الْإِنْسَانَ مِنْ شَيْءٍ مُتَوَقَّعٍ. **والحزن:** غَمٌّ يَلْحَقُ الْإِنْسَانَ مِنْ شَيْءٍ وَقَعَ.

رَوَى قَتَادَةُ عَنِ السُّدِّيِّ: أَنَّ الْقَتْلَ لَمَّا كَثُرَ فِي بَنِي إِسْرَائِيلَ، خَافَ أَهْلُ مِصْرَ أَنْ يَفْنَى بَنُو إِسْرَائِيلَ، فَتَوَلَّى الْأَعْمَالُ الشَّاقَّةَ إِلَيْهِمْ، فَقَالُوا لِفِرْعَوْنَ: إِنْ الْغُلَّامَانِ يُقْتَلُونَ، وَالشُّيُوخُ يَمُوتُونَ، وَالنِّسَاءُ لَا يَقُومْنَ بِمَا يَقُومُ بِهِ الرِّجَالُ، فَخَشِيَ أَنْ تَتَوَلَّى نَحْنُ هَذِهِ الْأَعْمَالُ، فَأَمَرَ فِرْعَوْنَ بِقَتْلِ الذَّكَورِ عَامًّا، وَتَرْكِهِمْ عَامًّا، فَوُلِدَ هَارُونَ فِي الْعَامِ الَّذِي يُتْرَكُ فِيهِ الْقَتْلُ، وَوُلِدَ مُوسَى فِي الْعَامِ الَّذِي يَتِمُّ فِيهِ الْقَتْلُ، وَكَانَ لِفِرْعَوْنَ جُنُودٌ يَقُومُونَ بِقَتْلِ الْمَوَالِدِ الذَّكَورِ، وَقَوَابِلُ يَبْلُغْنَ عَنْ كُلِّ حَالَةٍ وَلَادَةٍ^(١).

وَنُقِلَ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ رضي الله عنه: أَنَّ أُمَّ مُوسَى لَمَّا قَرُبَ وَقْتُ وَلادَتِهَا، كَانَتْ لَهَا صَدِيقَةٌ مِنَ الْقَوَابِلِ فَأَرْسَلَتْ إِلَيْهَا، فَلَمَّا وَلَدَتْهَا، وَنَظَرَتْ إِلَى مُوسَى وَقَعَ حَبَهُ فِي قَلْبِهَا، فَقَالَتْ: مَا جِئْتُ إِلَّا وَمُرَادِي قَتْلُ وَلَدِكَ، وَلَكِنْ لَمْ أَجِدْ فِي نَفْسِي حَبًّا مِثْلَ حَبِي لِابْنِكَ حِينَ رَأَيْتَهُ، فَاحْتَفَظِي بِهِ، وَلَمَّا خَرَجْتُ مِنْ بَيْتِهَا أَبْصَرْتُهَا الْعَيُونَ، فَجَاءَ الْحَرَسُ، فَلَفَّتَهُ فِي خَرْقَةٍ وَوَضَعَتْهُ فِي الثَّنُورِ دُونَ وَغِيٍّ مِنْهَا، وَكَانَ الثَّنُورُ عَلَيْهِ بَرْدًا وَسَلَامًا.

وَهَكَذَا فَإِنَّ اللَّهَ تَعَالَى أَلْهَمَهَا وَقَذَفَ فِي قَلْبِهَا أَنْ تَضَعَهُ فِي تَابُوتٍ، وَتُلْقِيَهُ فِي نَهْرِ النَّيْلِ، فَفَعَلَتْ مَا أَمَرَتْ بِهِ، فَأَرْضَعَتْهُ وَأَلْقَتْهُ فِي الْيَمِّ حِينَ خَافَتْ عَلَيْهِ الْقَتْلَ، وَتَكَلَّفَ أُمُّ مُوسَى أَنْ تُلْقِيَهُ فِي الْبَحْرِ شَيْءٍ عَظِيمٍ، وَلَكِنْ ثَقَّتْهَا فِي وَعْدِ اللَّهِ تَعَالَى جَعَلْتُهَا تَفْعَلُ مَا أَمَرْتُ بِهِ، فَاشْتَرَتْ تَابُوتًا مِنْ نَجَارٍ، فَاَنْطَلَقَ النِّجَارُ إِلَى الذَّبَّاحِينَ لِيُخْبِرَهُمْ، فَأَمْسَكَ اللَّهُ لِسَانَهُ، وَتَكَرَّرَ ذَلِكَ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ، وَفِي كُلِّ مَرَّةٍ يَنْطَلِقُ لِسَانُهُ بَعْدَ خُرُوجِهِ مِنْ عِنْدِ الذَّبَّاحِينَ، فَخَرَّ

(١) يُنْظَرُ: «تفسير الخازن» باختصار وابن كثير و«زاد المسير» لابن الجوزي والبنغوي والتسفي وفتح القدير، وغيرهم في تفسيرهم للآية.

لله ساجداً، وآمن بموسى وصدقته^(١).

قال ابن كثير: فوضعت في التابوت، بعد أن جعلت فيه مهذاً وسيّرت في البحر، وربطته بحبل عندها، فكانت ترضعه، فإذا خافت عليه ألقته في النهر، وأمسكت الحبل بيدها، وذُهِلَتْ ذات يوم أن تربيته، فسار مع الماء بعد أن أرضعته ثلاثة أشهر، وقيل أكثر، وكان بيتها وبيت فرعون على حافة النيل.

وهذا التفصيل ذكرته كتب التفسير، ولكنه لم يرد في خبر صحيح.

انطلق التابوت بوديعة الثمينة، ورمت به الأمواج أمام قصر فرعون، فرأته آسية بنت مزاحم يعوم في الماء، فأمرت بسوقه وفتحه، فرأت فيه صبياً صغيراً، فرحمته وأحبته.

وكانت (آسية) من خيار النساء، ترحم المساكين، وتتصدق عليهم، وقد أثنى الله عليها في قوله: ﴿وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِلَّذِينَ آمَنُوا امْرَأَتَ فِرْعَوْنَ إِذْ قَالَتْ رَبِّ ابْنِي لِي عِنْدَكَ بَيْتًا فِي الْجَنَّةِ وَنَجِّنِي مِنْ فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِ وَنَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ [التحریم].

وفي الحديث: عن أبي موسى رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «كُمِّلْ من الرجال كثير، ولم يكمل من النساء إلا مريم بنت عمران، وآسية امرأة فرعون»^(٢).

وقال السُّدِّي: إن جوارى آسية كان لهن في القصر على النيل فرع يدخل الماء فيه إلى القصر، فيأخذن منه ويتنفعن به، فبينما هن يغسلن إذ جاء التابوت فحملته إلى مولاتهن. وقيل: إن الذي رأى التابوت هو فرعون فأمر بسوقه وفتحه.

ويبدو من مجموع الروايات أن فرعون وآل بيته جميعاً رأوا التابوت، فالتقطه آل فرعون من اليم؛ ليكون موسى لهم عدواً وحزناً، وليعلموا أن ما أَرَادَهُ الله تعالى لا بد أن يتم مهما احتاطوا، ومهما اتخذوا من حراسات وأسباب حذر، فما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن.

وقد فعل الله ما فعل؛ لأن فرعون ووزيره هامان وجنودهما الذين كانوا يناصرونهما -

(١) المصادر السابقة.

(٢) البخاري (٣٤١١، ٣٤٢٣، ٣٧٦٩، ٥٤١٨)، ومسلم (٢٤٣١) وابن ماجه (٣٢٨٠) والترمذي (١٨٣٤) والسنائي في «الكبرى» (٨٢٩٥، ٨٢٩٨، ٨٨٤٤) و«المسند» (١٩٥٢٣) وابن حبان (٧١١٤).

كانوا مرتكبين للذنوب العظيمة في كل ما يفعلون ويتركون، ومن ذلك قتل ذكور بني إسرائيل وهم أطفال، وإبقاء الإناث.

مُوسَى فِي بَيْتِ فِرْعَوْنَ

٩- ﴿وَقَالَتِ امْرَأَتُ^(١) فِرْعَوْنَ قُرْتُ عَيْنٍ لِي وَلَكَّ لَا تَقْتُلُوهُ عَسَىٰ أَنْ يَنْفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾

بعد أن خرج موسى من التابوت، ورأته آسية بين يدي فرعون وآله قالت: هذا الطفل هو محل السرور والفرح لعيني ولعينك يا فرعون، ثم خاطبت فرعون وجنده قائلة: لا تقتله يا فرعون، فعسى أن ينفعنا في الكبر ومستقبل حياتنا، فتجني الخير من ورائه، أو أن نتبناه فنجعله ولداً لنا تقرُّ به أعيننا.

قيل: إنها كانت لا تلد، فاستوهبته من فرعون، فوهبه لها، وهم لا يشعرون أن هلاك فرعون وحاشيته سيكون على يديه وبسببه.

نُقل عن ابن عباس وغيره: أن فرعون كانت له ابنة وحيدة، وكان بها برص، فقال له السحرة: إنها لا تبرأ إلا من قِبَل البحر، وبينما كان فرعون وأهل بيته يجلسون على شفير النيل إذ أقبل التابوت تضربُه الأمواج، وقد تعلق التابوت بالشجر في الماء، فأمر فرعون أن يؤتى بالتابوت، وتم فتحه، فإذا فيه غلام، جعل الله في عينيه ملوحة، لا ينظر إليه أحد إلا أحبه، ذلكم قول الله تعالى: ﴿وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّنِّي وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِي﴾ [طه: ٣٩]. قالوا: فظفرت بنت فرعون البرصاء إلى وجه موسى فبرئت، وقيل: إنه أخذ من ريقه، ووضَّع على برصها - كما قال له الكهنة - فبرئت^(٢).

فقال الغواة من قوم فرعون: هذا الذي تُحذِّر منه، فأذن لنا بقتله، فقالت آسية: ﴿قُرْتُ عَيْنٍ لِي وَلَكَّ لَا تَقْتُلُوهُ عَسَىٰ أَنْ يَنْفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا﴾ وكانت لا تلد، قال فرعون: أما أنا فلا حاجة لي فيه.

قال محمد بن قيس يرفعه: «لو قال فرعون يومئذ قره عين لي ولك، لكان لهما جميعاً»^(٣).

(١) وقف ابن كثير وأبو عمرو والكسائي ويعقوب بالهاء على (امرات) و (قوت)، والباقون بالتاء.

(٢) أخرجه ابن أبي حاتم (٢٩٤١/٩) عن أبي عبد الرحمن الحُبَلِيِّ.

(٣) يُنْظَر: ابن جرير (١٦٣/١٨) عن محمد بن قيس.

ثم قيل لآسية: سَمِيه، قالت: سَمِيته موسى؛ لأننا وجدناه في الماء والشجر، ولأن (مو) هو الماء، و (سا) هو الشجر، بعد تخفيف الشين وجعلها سينًا.

وقيل: إن فرعون همّ بقتله لما تعلق موسى به، وנתف شعرات من لحيته، فتشاءم فرعون، وأمر بقتله فاعتذرت عنه آسية، وقالت: طفل رضيع، لا يفرق بين التمرة والجمرة.

قيل: ووضعوا له تمرًا وجمرًا، فأراد أن يمدّ يده على التمر، فحوّل جبريل يده إلى الجمر، فبلغ لسانه به، فذلكم قول الله تعالى: ﴿وَأَحْلَلْ عُقْدَةً مِنْ لِسَانِي ﴿٢٧﴾ يَفْقَهُوا قَوْلِي ﴿٢٨﴾﴾ [طه].

وقوله تعالى: ﴿وَأَخِي هَارُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّي لِسَانًا فَأَرْسَلْهُ مَعِيَ رِدْءًا يُصَدِّقُنِي إِنْ أَحَافُ أَنْ يُكَذِّبُونِ ﴿٢٩﴾﴾.

قِصَّةُ إِرْضَاعِ مُوسَى وَعَوْدَتِهِ إِلَى أُمِّهِ

١٠- ﴿وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَى فَزَعًا إِنْ كَادَتْ لَتُبْدِي بِهِ لَوْلَا أَنْ رَبَّنَا عَلَى قَلْبِهَا لَتَكُونُ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٣٠﴾﴾

لما أَلْقَتْ أُمُّ مُوسَى بَابْنِهَا فِي نَهْرِ النَّيْلِ - كما ألهمها الله تعالى - زال عنها ما كانت تخافه من ظهور أمره وقتله؛ حيث إنه نجا من القتل بإلقائه في اليم، وكادت قبل ذلك تبدي خبره من شدة الخوف والإشفاق عليه من القتل، فأصبح فؤادها فارغًا من هذا الجزع ومن القلق الذي أزعجها، بمقتضى الطبيعة البشرية.

وقال مجاهد: لما رأت الأمواج حملت التابوت، كادت تصيح.

والمعنى: لقد كاد فؤاد أُمِّ مُوسَى يطير فزعًا، عند ما رمت الأمواج بالتابوت أمام قصر فرعون، وكادت تصيح قائلة: والبناه!! شفقة وخوفًا عليه، ولكنها تطلّعت إلى ربها في أمل ويقين، وقد خلا فؤادها من كل شيء إلا من ذكر موسى، لولا أن ثبت الله قلبها، وربط عليه بالصبر تقوية لإيمانها وتشديدًا لقلبها؛ لتكون من المصدقين بوعد الله تعالى، الموقنين به، ولكي يتربى موسى في بيت فرعون؛ حتى يقوِّض عرش مُلْكِهِ، ويكون لهم عدوًّا وحزنًا، فيهلك فرعون على يد موسى ﷺ، وهم لا يدرون حكمة الله العظيمة، ومحبتة البالغة، وسنته في أرضه. قال تعالى:

١١- ﴿وَقَالَتْ لِأُخْتِهِ قُصِّيهِ فَبَصُرَتْ بِهِ عَنْ جُنْبٍ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾

أي ولما ألقته أمه في النهر، قالت لأخته (مريم): تتبعي أثره، فانظري أين يُلقيه اليم، ومتى يُستخرج منه، وقد علمت أن اليم لا يُلقيه بعيداً عنها بمقتضى وعد الله تعالى برده إليها، فأبصرته عن بُعد، وقوم فرعون لا يعرفون أنها أخته، وأنها تتبع أثره، فتقدمت إلى بيت فرعون تعرض عليهم أن تأتي له بمرضعة، بعد أن امتنع من قبول جميع المرضعات، وكانوا قد عرضوا عليه المرضع اللاتي في دارهم، فلم يقبل منها ثدياً، فخرجوا به إلى السوق لعلهم يجدون امرأة تصلح لرضاعته، فلما رآته أخته بأيديهم عرفته، ولم تُظهر ذلك، لأنهم لو عرفوا أنها أخته وأنها جاءت إليهم قاصدة، لقالوا: إنها هي التي ألقته في اليم، وربما أقدموا على قتله عقوبة لأهله، وقد جعل الله ذلك سبباً لرجوعه إلى أمه لترضعه وهي آمنة بعد أن كانت خائفة، وكان قد بقي أياماً كلما أتى له بمرضعة لم يقبل ثديها، فأهمهم ذلك واشتد عليهم الأمر.

١٢- ﴿وَحَرَمْنَا عَلَيْهِ الْمَرَاضِعَ مِنْ قَبْلُ فَقَالَتْ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ يَتِيمٍ يَكْفُلُونَهُ لَكُمْ وَهُمْ لَهُ نَصِيبٌ﴾

ولما استقر موسى بدار فرعون، وأحبته امرأة الملك، وكان الله قد منعه أن يقبل ثدياً غير ثدي أمه، فقالت لهم أخته وهي تقتص أثره: ﴿هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ يَتِيمٍ يَكْفُلُونَهُ لَكُمْ﴾ ويقومون بإرضاعه، وكفالته، وحضائته ﴿وَهُمْ لَهُ نَصِيبٌ﴾ فيخلصون في تربيته وغذائه، وكان هذا موضع اهتمامهم، فقد أحبوه حباً شديداً، وقد منعه الله من المرضع فخافوا عليه من الموت، ولذا فإنهم أجابوها إلى طلبها، فأعلمتهم ودلّتهم على أهل البيت.

قيل: إنها لما قالت: ﴿وَهُمْ لَهُ نَصِيبٌ﴾ قال هامان: إنها تعرفه وتعرف أهله، فخذوها حتى تخبر بقصته، فقالت: إنما أردت: وهم للملك ناصحون، فانطلقت إلى أمها، فأنت بها، فأقبل عليها، والتقم ثديها، فقال لها فرعون: مَنْ أَنْتِ منه؟ قالت: إني امرأة طيبة الريح، طيبة اللبن، لا يأتيني صبي إلا أقبل عليّ، ففرحوا بذلك، وأحسنوا إليها، وأجزلوا لها العطاء، ثم سألتها آسية بنت مزاحم أن تقيم عندهم لترضعه، فقالت: إن لي بعلاً وأولاداً، ولا أستطيع مفارقة بيتي، ولكن إن أحببت أن أرضعه في بيتي، فأجابتها امرأة فرعون إلى ذلك، وأجرت عليها النفقات والكسوة والصلوات.

وكان من عادتهم أن يُسلم الطفل الرضيع إلى المرأة التي ترضعه يكون عندها، كما

كانت عادة العرب؛ لأن النساء الحرائر لم يكن يتركن بيوتهن، وينتقلن إلى بيوت الأطفال الرضع، كما جاء في خبر إرضاع حليلة السعدية للنبي ﷺ، ولذا: دفعه فرعون إليها، وأجزل لها العطاء، وذهبت به إلى بيتها، وتحقق وعد الله لها: قال تعالى:

١٣- ﴿فَرَدَدْنَاهُ إِلَىٰ أُمِّهِ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ وَلِتَعْلَمَ أَنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ (١٣)

عاد موسى إلى حضن أمه سليماً معافى من أن يمسه أذى من فرعون، كما وعدا ربها، ورجعت أم موسى بولدها، وقد بذل الله خوفها أمناً، وحزنها فرجاً، فاطمأن قلبها، وازداد إيمانها، فضلاً عما تتقاضاه من أجر كبير، جاء في الأثر: «مثل الذي يعمل ويحسب في صناعته الخير كمثل أم موسى، ترضع ولدها وتأخذ أجرها»^(١).

ولم يكن بين الشدة والفرج إلا يوم وليلة، فسبحان من بيده الأمر، الذي يجعل من كل ضيق فرجاً، ومن كل همٍّ مخرجاً، وتحقق بذلك وعد الله تعالى لأمه فيما وعدا به من رده إليها، وجعله من المرسلين ﴿كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ وَلِتَعْلَمَ أَنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ﴾. واستمر موسى عند آل فرعون، يتربى في سلطانهم، ويركب مراكبهم، ويلبس ملابسهم، وكان يقال له (ابن فرعون).

الْعِنَايَةُ الْإِلَهِيَّةُ تُعِدُّ مُوسَى لِحَمَلِ مِشْعَلِ الْهِدَايَةِ لِبَنِي إِسْرَائِيلَ

١٤- ﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَاسْتَوَىٰ ءَاتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ﴾ (١٤)

لَمَّا تحدثت الآيات عن ولادة موسى وإلقائه في نهر النيل، وعودته إلى أمه كي تقر عينها ولا تحزن، بينت ماذا كان من شأن هذا الطفل بعد أن تمت مدة رضاعه، لقد عاد موسى إلى القصر الملكي، وتربى في قصر فرعون، ونشأ وترعرع فيه، حتى بلغ نحو الثلاثين من عمره، فأعطاه الله رجاحة في العقل يميز بها بين الخير والشر، والخبيث والطيب، وأعطاه القوة البدنية البالغة، وآتاه حُكْمًا لفصل القضاء بين الناس، وآتاه علماً يعرف به الأحكام الشرعية، والحلال من الحرام، وكان ذلك تمهيداً لرسالته ونبوته، وكما جزينا موسى على طاعته وإحسانه نجزي من أحسن مَنْ عبادنا.

(١) أخرجه أبو داود في المراسيل ص ١٨٢ عن جبير بن نفير.

وهكذا يسر الله لموسى هذه التربية، وهذه العزة والكرامة؛ حتى لا ينشأ ذليلاً -كبقية بني إسرائيل- تحت قهر فرعون وظلمه.

وهكذا تعهده العناية الإلهية بالحفظ وحسن التربية؛ لأن الله تعالى يُعده لأمر خطير، ومستقبل عظيم، وهو حمل مشعل الهداية، ونور الرسالة؛ ليكون من أولي العزم من الرسل، وبمثل هذا الجزاء الحسن أكرم الله موسى وأمه، يجازي الله الذين يحسنون أداء ما كلفهم الله به من الأقوال والأفعال.

قِصَّةُ قَتْلِ مُوسَى لِلْقَبْطِيِّ

١٥- ﴿وَدَخَلَ الْمَدِينَةَ عَلَى حِينٍ غَفْلَةٍ مِّنْ أَهْلِهَا فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلَانِ هَٰذَا مِنْ شِيعَةِ هَٰذَا وَمِنَ الْغَوَّاتِ فَاسْتَعْتَنَهُ الَّذِي مِّنْ شِيعَتِهِ عَلَى الَّذِي مِّنْ عَدُوِّهِ فَوَكَرَهُ مُوسَى فَقَضَىٰ عَلَيْهِ هَٰذَا مِّنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ عَدُوٌّ مُّضِلٌّ مُّبِينٌ﴾

أراد الله سبحانه أن يجعل سبباً لخروج موسى من مصر وهجرته إلى أرض مدين، شرق خليج العقبة، فحدثت قصة قتل المصري، وذلك أنه في أثناء فترة الشباب من حياة موسى ﷺ عرضت له حادثة عكّرت عليه مقامه بمصر، وكانت هذه الحادثة سبباً لانتقاله من مصر إلى المكان الذي قدر الله له أن ينزل عليه الوحي فيه بالنبوة والرسالة.

قال ابن إسحاق: لما بلغ موسى أشده واستوى آتاه الله حكماً وعِلْماً، فكان له شيعه من بني إسرائيل يسمعون منه، ويقتدون به، فلما عرف ما عليه من الحق خالف فرعون وقومه في دينه، حتى خافوه وخافهم، فكان لا يدخل قرية إلا مستخفياً على حين غفلة من أهلها^(١).

قال السُّدِّي: كان موسى يسمّى ابن فرعون، فكان يركب مراكبه ويلبس ملابسه، فركب موسى يوماً مراكبه، وكان فرعون غائباً، فلما جاء قيل له: إن فرعون قد خرج، فركب في أثره، فأدركه المقليل بأرض (منف)، فدخلها نصف النهار وليس في طرفها أحد^(٢).

وكان لفرعون قصر في (منف) وتسمى الآن (ميت رهينة) على بعد ثلاثين ميلاً من

(١) «توفيق الرحمن في دروس القرآن» للشيخ / فيصل بن عبد العزيز آل مبارك.

(٢) «مختصر تفسير البغوي» (٧٠٠/٢) و«الخازن» (٣٩٩/٣) و«جريد» (١٨٣/١٨) وابن أبي حاتم (٩/٩).

(الفسطاط) غربًا، وقصر آخر في (عين شمس) شرقًا، وكان موكبه إذا خرج من أحدهما يُرى لأهل القصر الآخر.

فدخل موسى يومًا مدينة منف، أو عين شمس، مستخفياً وقت راحة الناس في بيوتهم، وخلو الطريق منهم في وقت القيلولة، وقيل: بين المغرب والعشاء، فوجد فيها رجلين يقتتلان:

أحدهما: إسرائيلي من قوم موسى وعلى دينه ولغته.

وثانيهما: قبطي على دين فرعون، من أهل مصر.

وكان القبطي طبّاخاً في قصر فرعون، وقد طلب من الإسرائيلي أن يحمل حطباً إلى مطبخ فرعون فأبى وتشاجرا، فاستغاث الإسرائيلي بموسى، وطلب منه أن يخلصه من المصري، وكان موسى قد نشأ على محبة بني إسرائيل، وعداوة الفراعنة.

قال موسى للمصري: خلّ سبيله، قال: إنما أخذته ليحمل الحطب إلى مطبخ أبيك فناقشه، فقال المصري: لقد هممت أن أحمله عليك، فلکمه موسى بجُمع كفيه، بقصد دفع العدوان عن الإسرائيلي المعتدى عليه، وكان موسى على درجة بالغة من القوة البدنية، ولم يكن يدري أن لکمه قاتلة، فمات الرجل وواراه التراب، فندم موسى على ما حدث؛ إذ لم يكن قصده القتل ﴿قَالَ هَذَا مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ﴾ فجعل قتل الكافر من عمل الشيطان، وسماه ظلماً لنفسه، واستغفر الله منه؛ لأنه كان كالمستأمن فيهم، ولا يحل إلا قتل الكافر الحربي، أما قتل المستأمن ففيه مخالفة لله ورسوله، كما في الحديث عن عبد الله بن عمرو ؓ أن رسول الله ﷺ قال: «من قتل قتيلاً من أهل الذمة لم يجد ريح الجنة، وإن ريحها ليوجد من مسيرة أربعين عاماً»^(١).

وهو عمل خطأ، والخطأ من الشيطان وهو عدو لابن آدم، مضل له عن سبيل الرشاد، ظاهر العداوة، فهو الذي نزع في نفسي، وهيج غضبي حتى ضربتُ هذا، فأدّت الضربة إلى موته خطأ، وهذه الفعلة كانت قبل أن يبعث الله موسى نبياً ورسولاً.

(١) في البخاري (٣١٦٦، ٦٩١٤) وابن ماجه (٢٦٨٦) و«المسند» (٢، ٣٧٧، ٦٧٤٥) بإسناد صحيح (محققه) وابن حبان (٤٨٨١) والنسائي في «الكبرى» (٦٩٢٤، ٦٩٢٦) والحاكم (١٢٦/٢) وابن أبي شيبه (٤٢٦/٩) والبيهقي في السنن (٢٠٥/٩). وألفاظه متقاربة شملت الذمي والمعاهد.

ففي سورة الشعراء لما ذُكر فرعون موسى بقتل القبطي، ووصفه بالكفر بنعمته عليه، قال موسى: ﴿فَعَلَّهَا إِذَا وَاَنَا مِنَ الضَّالِّينَ﴾ أي: قد فعلتها قبل أن أكون نبياً ورسولاً ﴿فَفَرَزْتُ مِنْكُمْ لَمَّا خِفْتُكُمْ فَوَهَبَ لِي رَبِّي حُكْمًا وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾ [الشعراء].

والآية نص صريح على أن قتل القبطي كان خطأ قبل الرسالة؛ لأن موسى قد عَقِبَ على فراره منهم لما خافهم بأن الله تعالى وهب له الحكم، وجعله من المرسلين، وسمّى هذه الفعلة ضللاً، كما قال تعالى عن محمد ﷺ: ﴿وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَى﴾ [الضحى]. ندم موسى على ما جرى منه واستغفر ربه:

١٦- ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَاغْفِرْ لِي فَغَفَرَ لَهُ إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾

قال موسى: يا رب إني ظلمت نفسي بقتل القبطي من غير استحقاقه للقتل، وأنا معترف ومقر بذنبي، فاغفر لي هذا التقصير، وهذا الخطأ الذي وقعت فيه، فغفر الله له ذنبه وستره عن فرعون، إنه سبحانه هو الغفور لذنوب عباده، الرحيم بهم جميعاً.

١٧- ﴿قَالَ رَبِّ بِمَا أَنْعَمْتَ عَلَيَّ فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيراً لِلْمُجْرِمِينَ﴾

قال موسى: رب بسبب ما أنعمت عليّ بالمغفرة والتوبة، وستر الذنب، ومنحي النعم الكثيرة، ومنها قوة البدن، فلن أكون معيماً لأحد على معصيته وإجرامه، وفي لفظ: ﴿لِلْمُجْرِمِينَ﴾ دليل على أن المصري كان كافراً.

أخرج الإمام أحمد في كتاب «الزهد» عن وهب قال: قال الله ﷻ: بعزتي يابن عمران، لو أن هذه النفس التي وكزت فقتلت؛ اعترفت لي ساعة من ليل أو نهار، بأني لها خالق أو رازق، لأذقنك فيها طعم العذاب، ولكنني عفوٌ عنك^(١).

ومع هذا فقد طلب موسى من ربه أن يغفر ذنبه؛ لأنه هو الذي أخذ في أسباب القتل ومقدماته، وأخذ يبرأ إلى الله تعالى من أن ينصر أحداً على إجرامه بعد اليوم، وهذا وغد من موسى عليه السلام أن لا يعين مجرمًا، فقد أمر الله سبحانه بالتعاون على البر والتقوى، ونهى عن التعاون على الإثم والعدوان، كما نهانا سبحانه أن نجادل عن الذين يختانون أنفسهم

(١) كتاب «الزهد» ص ٧٥ .

بمعصية الله تعالى .

وفي هذا نهى لمن يدافعون عن المجرمين، وَيَتَّبِعُونَ قَضَايَاهُمْ الْآثِمَةَ، كبعض المحامين .
وفي الأثر: من مشى مع مظلوم ليعينه ثبته الله على الصراط يوم تزل الأقدام. ^(١) قال تعالى:

١٨ - ﴿فَاصْبِرْ فِي الْمَدِينَةِ حَافِيًا يَتَرَقَّبْ فَإِذَا الَّذِي اَسْتَصِرَّ بِالْأَمْسِ يَسْتَصْرِخُ قَالَ لِمُوسَى إِنَّكَ لَنَوِي مُبِينٌ﴾

أصبح موسى خائفًا من المطالبة بدم المصري الذي قتله، يتربص ما يقال في شأنه، وهل شعر به آل فرعون أم لا؟ وأخذ يتحفظ للاختفاء، أو الخروج من المدينة؛ لأن قتل القبطي لم يكن قد انتشر في المدينة بعد.

قال ابن عباس رضي الله عنه: لما قال موسى: ﴿فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيرًا لِلْمُجْرِمِينَ﴾ لم يستثن، أي: لم يقل: إن شاء الله، فابتلاه الله في اليوم التالي ^(٢) بالإسرائيلي نفسه الذي خلّصه بالأمس من القبطي وهو يقاتل قبطيًا آخر، فلما رأى موسى أخذ يصيح مستغيثًا به لنصره من عدوه.

قال موسى للإسرائيلي: إنك لكثير الغواية، ظاهر الضلال؛ فقد تسببت في قتل رجل بالأمس، وتقاتل اليوم رجلًا آخر، وموسى بهذا ينكر على الإسرائيلي أن يعينه مرة أخرى على ضلالة. قال تعالى:

١٩ - ﴿فَلَمَّا أَنْ أَرَادَ أَنْ يَبْطِشَ ^(٣) بِالَّذِي هُوَ عَدُوٌّ لَهُمَا قَالَ يَمْوَسَّى أَرِيدُ أَنْ تَقْتُلَنِي كَمَا قَتَلْتَ نَفْسًا بِالْأَمْسِ إِنْ تُرِيدُ إِلَّا أَنْ تَكُونَ جَبَّارًا فِي الْأَرْضِ وَمَا تُرِيدُ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْمُصْلِحِينَ ﴿١٩﴾﴾

أي: فلما أخذت موسى الرأفة بالإسرائيلي مد يده ليدفع عنه القبطي، وكان مشهد الأمس لم يزل عالقًا في ذهن الإسرائيلي، وقد هاله ما رأى من قوة موسى، حين بطش بقبطي الأمس.

ونظرًا لأن موسى أخذ يلوم الإسرائيلي على موقفه أمس واليوم، فقد ظن الرجل أن موسى سوف يوجه يده إليه، فقال: ﴿أَرِيدُ أَنْ تَقْتُلَنِي كَمَا قَتَلْتَ نَفْسًا بِالْأَمْسِ﴾ وما هكذا يكون

(١) ينظر: مسند الفردوس عن أنس (٥٤٦/٣) وفيه (حيث يثبت له حقه).

(٢) «الخازن» ٤٠٠/٣ و«مختصر البغوي» ٧٠٠/٢

(٣) قرأ أبو جعفر بضم الطاء من (يبطش)، والباقون بكسرها، وهما لغتان.

الإصلاح بين الناس، فلو أردت الإصلاح، لَحَلَّتْ بيني وبينه من غير قتل أحد، تأثر موسى بكلام الرجل فتركه، وشاع الخبر بين الناس بما جرى من موسى في هاتين القضيتين.

ويرى بعضهم: أن الذي أراد أن يبطش بالقبطي في المرة الثانية هو الإسرائيلي، وليس موسى، والقبطي عدو لموسى وللإسرائيلي معاً، والأول أرجح^(١).

مُؤْمِنٌ آلِ فِرْعَوْنَ يَنْصَحُ مُوسَى بِالْخُرُوجِ مِنَ الْمَدِينَةِ

٢٠- ﴿وَجَاءَ رَجُلٌ مِّنْ أَقْصَا الْمَدِينَةِ يَسْعَىٰ قَالَ يَمُوسَىٰ إِنَّكَ الْأَمَلَاءُ يَأْتِمُرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ فَاخْرُجْ إِلَىٰ لَكَ مِنَ النَّاصِحِينَ ﴿٢٠﴾﴾

وانتشر الخبر بين الناس، وشاع أن موسى قتل القبطي بالأمس، فاجتمعوا في قصر فرعون برئاسة، يتشاورون في شأن موسى، حيث أصدر فرعون أمراً بقتله، فخرج الجنود يبحثون عنه، وكان من بين الحاضرين (حزقييل) مؤمن آل فرعون، وهو ابن عم فرعون، فجاء من طرف المدينة مسرعاً ركضاً على قدميه، مختصراً للطريق، قال: يا موسى، إن أشرف القوم يتآمرون على قتلك ويتشاورون في ذلك، فخرج من هذه المدينة، ولا تعرض نفسك للخطر، إني لك من الناصحين، المشفقين عليك.

مُوسَى يَتَوَجَّهُ إِلَى مَدِينٍ

٢١- ﴿فَرَجَّ مِنْهَا خَائِفًا يَتَرَقَّبُ قَالَ رَبِّ نَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿٢١﴾﴾

فخرج موسى من مصر متوجهاً إلى مدين، جنوب فلسطين، خائفاً من ملاحقة فرعون له، يترقب التعرض له في الطريق، وقد لجأ موسى إلى ربه، وسأله أن ينجيه من فرعون وقومه، فأفلت منهم ولم يجده أحد، وكانت هذه المسألة فتنة لموسى ابتلاه الله بها، كما قال تعالى: ﴿وَقُلْتَ نَفْسًا فَتَنَّاكَ مِنَ الْغَمْرِ وَفَنَّكَ قُوْنًا﴾ [طه: ٤٠]. فهذا أمرُ الله، وقضاؤه وقدره.

٢٢- ﴿وَلَمَّا تَوَجَّهَ تِلْقَاءَ مَدْيَنَ قَالَ عَسَىٰ رَبِّي أَن يَهْدِيَنِي سَوَاءَ السَّبِيلِ ﴿٢٢﴾﴾

(١) «زاد المسير» (٦/ ٢١٠).

(٢) قرأ نافع وابن كثير وأبو عمرو وأبو جعفر بفتح ياء الإضافة من (رَبِّيْ أَنْ) وصلأ، وسكنها الباقون.

أي: ولما أراد موسى أن يخرج من مصر اختار التوجه إلى مكان خارج ملك فرعون - ليس له عليه نفوذ- هو (مَدْيَن) وهو في الوقت نفسه بلد له فيه قرابة ونسب؛ فموسى من ولد إبراهيم، ومدين هو ابن إبراهيم، وقد سُمِّي المكان باسمه، وسُميت القبيلة باسمه، وهي بلاد في جنوب فلسطين وشمال الحجاز شرق خليج العقبة، وهي تبعد عن (منفيس)، نحو ثمان مئة وخمسين ميلاً، وقد سلك موسى في رحلته من مصر إلى مدين الطريق الصحراوي، وكان رجلاً جلدًا قويًا، فوصل إليها بعد ثمانية أيام بالمشي الحثيث.

وقد خرج موسى من مصر ليس معه زاد، ولا رفيق، ولا دابة يركبها، ولا درهم ولا دينار، وليس في رجليه حذاء، ولم يكن له علم بالطريق، فسأل ربه أن يرشده إليه، وأن يسهل له الطريق المختصر الذي يوصله إلى مدين بسهولة ويُسر.

قال السُّدِّي: بعث الله له ملكًا فدلَّه^(١)؛ وذلك لأنه قد عرضت له أربعة طرق وهو في مسيره، فلم يدر أيها يسلك، فقال: ﴿عَنِّي رَفِيتَ أَنْ يَهْدِيَنِي سَوَاءَ السَّبِيلِ﴾ فأخذ طريق مدين^(٢)، وقد هداه الله سواء السبيل، فوصل إلى مدين.

قالوا: ولم يكن لموسى في طريقه طعام إلا ورق الشجر ونبات الأرض، فورد ماء مدين، وخُضِرَةُ البقل تترأى في بطنه، وما أن وصل أرض مدين حتى وقع خُفُّ قدميه، بعد أن تشقق ويس من طول الطريق الذي قطعه حافي القدمين، وكان بطنه لاصقًا بظهره من الجوع وجلس في الظل وهو صفوة الله من خلقه.

قال ابن عباس رضي الله عنهما: خرج موسى من مصر إلى مدين، وبينه وبينها ثمان ليالٍ، ولم يكن طعامه إلا ورق الشجر، وخرج إليها حافيًا، فما وصل إليها حتى وقع خف قدمه^(٣). وقال عكرمة: كان مسيره خمسة وثلاثين يومًا^(٤).

(١) يُنْظَر: «زاد المسير» (٢/٢/٦) والطبري (١٨/١٩٩) وابن أبي حاتم (٩/٢٩٥٨).

(٢) ابن جرير (١٨/٢٠٤) وابن أبي حاتم (٩/٢٩٦١).

(٣) ابن أبي حاتم (٩/٢٩٦١) وابن المنذر.

(٤) أخرجه عبد بن حميد كما في «الدر المنثور» (١١/٤٥٠).

قِصَّةُ زَوَاجِ مُوسَى مِنْ ابْنَةِ الرَّجُلِ الصَّالِحِ

٢٣، ٢٤ - ﴿وَلَمَّا وَرَدَ مَاءَ مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةٌ مِنَ النَّاسِ يَسْقُونَ^(١) وَوَجَدَ مِنْ دُونِهِمْ^(٢) امْرَأَتَيْنِ تَذُودَانِ قَالَ مَا خَطْبُكُمَا قَالَتَا لَا سَقَى حَتَّى يُصْدِرَ^(٣) الرِّعَاءَ وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ فَسَقَى لَهُمَا ثُمَّ تَوَلَّى إِلَى الظِّلِّ فَقَالَ رَبِّ إِنِّي لِمَا أَنْزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ^(٤)﴾

وصل موسى إلى بئر مدين التي يسقي الناس منها مواشيهم، وكانوا أهل ما شية كثيرة، فوجد جماعة من الناس يسقون مواشيهم، ووجد من دون تلك الجماعة امرأتين تقفان بعيداً عن الناس تمنعان أغنامهما عن الماء؛ لعجزهما عن مزاحمة الرجال، فسألهما، قالتا: نحن ننتظر حتى يفرغ الرجال؛ لأننا لا نستطيع المزاحمة، والذي حملنا على هذا أن أبانا شيخ كبير ضعيف، لا يقوى على سقي ماشيته.

قال أبو حيان: فيه اعتذار لموسى عن مباشرتهما السقي بأنفسهما، وتنبية على أن أباهما لا يقدر على السقي لشيخوخته وكبره، واستعطاف لموسى في إعانتها^(٤).

والدين لا يأبى أن تقوم المرأة بمثل هذا، فهو أمر غير محظور شرعاً، وعادات الناس ومروءاتهم في هذا تختلف من العرب إلى غيرهم، ومن الحضر إلى البدو، ومن مستوى اجتماعي إلى غيره، والضرورات تبيح المحظورات.

عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال: إن موسى عليه السلام لما ورد ماء مدين وجد عليه أُمَّةٌ من الناس يسقون، فلما فرغوا أعادوا الصخرة على البئر، ولا يطبق رفعها إلا عشرة رجال^(٥)، نظر

(١) انفرد الكوفي بعدم عدّ (من الناس يسقون) آية، وعدّها غيره.

(٢) قرأ أبو عمرو ويعقوب بكسر الهاء والميم من (من دونهم امرأتين) وحمزة والكسائي وخلف بضمهما، والباقون بكسر الهاء وضم الميم.

(٣) قرأ أبو عمرو وابن عامر وأبو جعفر بفتح الياء وضم الدال من (يُصْدِرُ) أي: حين يرجع الرعاء بمواشيهم، وقرأ الباقون بضم الياء وكسر الدال، أي: حتى ترد الرعاء مواشيهم، وقرأ حمزة والكسائي ورويس وخلف بإشمام الصاد صوت الزاي، والباقون بالصاد الخالصة.

(٤) «البحر المحيط» (١١٣/٧).

(٥) في حديث عمر هذا ردٌّ على من قال: إن البئر كانت مكشوفة، وهو في «مصنف ابن أبي شيبة» (١١/٥٣٠) والحاكم (٤٠٧/٢).

موسى فإذا هو بامرأتين، قال: ما خطبكما؟ فحدثناه، فأتى الصخرة، فرفعها وحده، ثم استقى لهما، فلم يستقي إلا دلوًا واحدًا حتى روت الغنم، وبعد أن سقى لهما أعرض عنهما متجهًا إلى الظل الذي كان قريبًا منه في ذلك المكان.

وكان وصول موسى إلى مدين في منتصف النهار، بدليل ﴿ثُمَّ تَوَلَّى إِلَى الظِّلِّ﴾ فلما سقى لهما انصرف إلى ظل شجرة يجلس تحتها من شدة الحر وهو جائع، بحاجة إلى كسرة خبز، أو شق تمر، فقال: ﴿رَبِّ إِنِّي لِمَا أَنْزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ﴾ أي: يا رب إني محتاج إلى أدنى طعام يقيم صليبي، وكان موسى لم يذق طعامًا منذ سبعة أيام، فلم يزل كذلك يدعوه ربه، حتى جاءته إحدى المرأتين، بعد أن ذهبتا إلى أبيهما، وأخبرتاه بما جرى، وأرسل إحداهما إلى موسى عليه السلام:

٢٥- ﴿فَجَاءَتْهُ إِحْدَاهُمَا تَمْشِي عَلَى اسْتِحْيَاءٍ قَالَتْ إِنَّكِ أَنْتِ مُدْعَوَةٌ لِجِزْيِكَ أَخْرَجَ مَا سَقَيْتَ لَنَا فَلَمَّا جَاءَهُ وَقَصَّ عَلَيْهِ الْقَصَصَ قَالَ لَا تَخَفْ نَجَوْتَ مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ (١٥)

أي: فلما رجعت المرأتان إلى أبيهما سريعتين على غير العادة، قال: ما أعجلكما؟! قالتا: وجدنا رجلًا صالحًا رحمنًا، فسقى لنا أغنامنا، فقال لإحداهما: اذهبي فادعيه إليّ، فجاءته إحداهما، قيل: هي الكبرى، واسمها: صافوراء، وقيل: هي الصغرى، واسمها: ليا^(١) جاءت مستترة، قد وضعت كمّ درعها على وجهها استحياء، ووضعت يدها على جبينها، وأبلغته دعوة أبيها له، فمضى موسى معها إلى أبيها، وكان قد كره أن يمشي معها لَمَّا سمع منها: ﴿لِجِزْيِكَ أَخْرَجَ مَا سَقَيْتَ لَنَا﴾ ولم يكن موسى بما فعله من السقي لهما بمنزلة الأجير أو الخادم الذي لا يُستحى منه عادة، إنما هو عزيز النفس، جم الأدب، حَسَنُ الخلق، مما جعلها تستحي منه، وقد قالت له: إن أبي يريد أن يكافئك على ما قدمت لنا من إحسان، لا لِيُؤْمِنَ عليك.

ولَمَّا كان موسى شديد الجوع، فلم يجد بُدًّا من الذهاب معها، ثم طلب منها أن تمشي خلفه لئلا تنكشف منها قدمها، أو يلتصق الثوب ببدنها، ونحو ذلك.

وقد وُصفت هذه البنت بأنها كانت واضحة ثوبها على وجهها، ليست بِسَلْفَعٍ من الناس،

(١) أخرجه ابن المنذر عن مجاهد وابن جريج كما «في الدر المنثور» (١١/٤٥٠).

ولست خَرَّاجَةً وَلَا جَةً، قالت: إن أبي يدعوكم ليجزيكم أجر ما سقيت لنا، فقام معها موسى ﷺ، وقال لها: امشي خلفي، وانعتي لي الطريق، فإني أكره أن تصيب الريح ثيابك، فتصف جسدك^(١). إلخ.

والمرأة السلفع: هي الجريئة، السليطة. والوَلَّاجَةُ الخَرَّاجَةُ: كثيرة الدخول والخروج.

هل الرجل الكبير، هو شعيب عليه السلام؟

وأكثر المفسرين على أن الشيخ الكبير هو شعيب عليه السلام؛ لأنه هو الذي أُرسِلَ إلى أهل مدين، قاله الحسن البصري وغيره.

وقال ابن جريج: هو ابن أخي شعيب واسمه رعاويل، وكان حبر مدين، واسمه عند أهل الكتاب يثرون^(٢).

قلت: وقد جاء ذكر قصة موسى في القرآن تلو قصة شعيب، مما يدل على قرب الزمن بينهما، وعدم ورود النص في هذا لا ينفيه.

وهكذا استجاب الله لدعاء موسى ﷺ، وأرسل له الفرج السريع، حيث عادت بنتا شعيب إلى أبيهما في وقت أقل بكثير مما كانتا ترجعان فيه عادة، وحَدَّثناه بأمر الرجل الذي سقى لهما غنمهما، فألهم الله شعيباً أن يرسل إلى موسى لينزله عنده، ويزوجه ابنته.

فلما دخل موسى على أبيها إذا هو بالعشاء مهياً، فقال: اجلس يا فتى، فتعشَّ معنا، قال موسى: إني من أهل بيت لا يطلبون على عمل الخير أجراً، قال الرجل: ليس هذا بأجر لك على سقيك، وإنما من عادتنا أن نقري الضيف، ونطعم الطعام، فجلس وأكل، وقصَّ عليه قصته، وذكر له سبب خروجه من مصر، فقال له: ﴿لَا تَخَفْ نَجَوْتَ مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ فأنَّت في بلد آمن، لا سلطان لفرعون عليه، وقد نَجَّاكَ الله منه، فلست في مملكة فرعون^(٣). وقد نجاك الله منهم حيث وصلت إلى هذا المحل الذي ليس له عليه سلطان.

(١) انظر: ابن أبي شيبة مختصراً إلى (.. خَرَّاجَةً وَلَا جَةً) (٥٣٠/١١) والطبراني في الكبير عن ابن مسعود ؓ (٨٨٢٩، ٨٨٣٠) وابن أبي حاتم (٢٩٦٤/٩) والحاكم (٤٠٧/٢).

(٢) أخرجه ابن المنذر كما في «الدر المنثور» (٤٥٥/١١).

(٣) يُنْظَرُ: ابن عساكر عن أبي حازم (٧٨/٢٣).

الْقَوِيُّ الْأَمِينُ

٢٦- ﴿قَالَتْ إِحْدَاهُمَا يَبَاطُيُ (١) اسْتَجِرْهُ إِنَّ خَيْرَ مَنِ اسْتَجَرْتَ الْقَوِيُّ الْأَمِينُ﴾

كان الشيخ الكبير بحاجة إلى فتى يرعى غنمه، ويقضي حاجته، وقد أنست ابتناه في موسى الكفاءة والقدرة، والقوة والأمانة، فما الذي يمنع من أن تُعرضا على أبيهما استجاره؛ ليكفيهما مؤونة الجهد والمشقة، قالت إحداهما: يا أبت، اتخذه أجيراً لرعي الغنم؛ فإننا نحتاج لمثله.

قال عمر، وابن عباس، وغيرهما^(٢): لما قالت: ﴿إِنَّ خَيْرَ مَنِ اسْتَجَرْتَ الْقَوِيُّ الْأَمِينُ﴾ قال لها أبوها: وما علّمك بذلك؟ قالت: إنه رفع الصخرة التي لا يطيق حملها إلا عشرة رجال، وإني لما جئتُ معه تقدمتُ أمامه، فقال لي: كوني من ورائي، فإذا اختلف عليّ الطريق، فاحذفي لي بحصاة أعلم بها كيف الطريق لأهتدي إليه.

والنساء تعرف أمانة الرجل من غضّ بصره وأدبه عند ملاقاتها، وكان موسى قد طلب منها أن تمشي خلفه، وتنعت له الطريق بعدما تبعها أولاً، ولما ألزقت الريح ثوبها بجسدها، أو انكشفت قدمها طلب منها أن تتبعه، وتدله على الطريق.

وعن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: أفرس الناس ثلاثة: أبو بكر حين تفرّس في عمر، وصاحب يوسف حين قال: أكرمي مثواه، وصاحبة موسى حين قالت: ﴿يَبَاطُيُ اسْتَجِرْهُ إِنَّ خَيْرَ مَنِ اسْتَجَرْتَ الْقَوِيُّ الْأَمِينُ﴾^(٣).

وهكذا وَرَدَ أنها قالت لأبيها: ولما أتيت خفض بصره فلم ينظر إليّ، فرغب الرجل في تزويجه ومصاهرته؛ لما بلغه أنه صوّب رأسه فلم يرفعها، وأنه قال لها: امشي خلفي، وانعتي لي الطريق، ولا يفعل هذا إلا أمين، إلى جوار قوة بدنه؛ حيث رفع الصخرة التي لا يرفعها

(١) قرأ ابن عامر وأبو جعفر بفتح التاء من (يا أبت)، والباقون بكسرها، ووقف عليها بالهاء ابن كثير وابن عامر وأبو جعفر ويعقوب، ووقف الباقون بالتاء.

(٢) كشريح القاضي وأبو مالك، وقتادة، وابن إسحاق، وغيرهم، يُنظر: ابن كثير والطبري وغيرهما في تفسير الآية.

(٣) ابن أبي شيبة (١٤/٥٧٤).

إلا عشرة من الرجال .

وصِفَتا القوة والأمانة إذا اجتمعتا في إنسان فهو أولى الناس بالقيام بالعمل المطلوب، سواء أكان أجيرًا، أم وكيلًا، أم موظفًا، أم غير ذلك :

الأولى : الأمانة، فلا يخون فيما وُكِّل إليه مما يملكه غيره .

والثانية : القوة على ذلك العمل .

والقوة تشمل : الخبرة فيه، والهمة الدافعة لأدائه، والقدرة البدنية .

وكل ذلك كان في موسى ﷺ .

وإذا لم يكن مع موسى إلا هذه المرشحات - وهى : القوة والأمانة - فإنه أهل لأن يُخطب، وبفقدتهما (أى الأمانة والقوة)، أو بفقد أحدهما، يكون هناك خلل في الشخصية، تجعل صاحبها فاقداً الأهلية للقيام بعمل من الأعمال .

ومشروعية عرض وليّ أمر المرأة زواجها على الرجل الكفء الصالح، سُنّة ثابتة في الإسلام، كما ثبت من عَرَضَ عمر رضي الله عنه لابنته حفصة على أبي بكر وعثمان رضي الله عنهما، فسكت أبو بكر، واعتذر عثمان، فلما علم النبي ﷺ بذلك طيَّب خاطره وتزوجها، وهكذا عرض الرجل الكبير على موسى ﷺ أن يزوجه ابنته :

وَلِيُّ الْأَمْرِ يَخْطُبُ لَابْنَتِهِ الرَّجُلَ الصَّالِحَ

٢٧- ﴿قَالَ إِنِّي^(١) أُرِيدُ أَنْ أُنكِحَكَ إِحْدَى ابْنَتَيَّ هَاتَيْنِ^(٢) عَلَى أَنْ تَأْجُرَنِي ثَمَنِي حِجًّا فَإِنْ اتَّمَمْتَ عَشْرًا فَمِنْ عِنْدِكَ وَمَا أُرِيدُ أَنْ أَمْلِكَ عَلَيْكَ سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّالِحِينَ﴾

وللمرأة الرشيدة البالغة أن تعرض نفسها على الرجل الصالح، كما رغبت (خديجة) رضي الله عنها في الزواج من النبي ﷺ، فكلفت غلامها (ميسرة) للقيام بهذه المهمة، وكذا المرأة التي عرضت نفسها على النبي ﷺ فاعتذر لها، فجعلته وليّ أمرها يزوجه من يشاء، فزوجه رجلاً لا

(١) قرأ نافع وأبو جعفر بفتح باء الإضافة وصلًا من (إني أريد)، والباقون بإسكانها .

(٢) قرأ ابن كثير بتشديد النون من (هاتين) مع القصر والتوسط والمد وصلًا ووقفًا، والباقون بتخفيفها وعدم المد .

يملك إلا سورتين من القرآن، وكان هذا صداقها، وغير ذلك مما وقع أيام النبوة وبعدها. فالرجل العاقل يهتم بأن يخطب لابنته أكثر من اهتمامه أن يخطب لابنه، وليس في هذا حياء ولا خجل، بل هو من محاسن الإسلام.

وهكذا خطب رجل مدين، موسى عليه السلام لإحدى ابنتيه، وهذه الخطبة تعطينا درسًا آخر في تزويج الرجل ابنته للشاب الصالح ولو كان معدمًا، وترك الرجل الفاسق وإن كان ثريًا، أو ذا منصب أو جاه.

لقد وجد الشيخ الكبير أن موسى عليه السلام رجل مُعَدِّم، فلم يطالبه بشيء من المال، وقال له: أزوجك ابنتي على أن تكون أجيرًا عندي لرعي الغنم ثماني سنوات، مهرًا لابنتي، ﴿وَمَا أُرِيدُ أَنْ أَمْلِكَ عَلَيْكَ﴾ فالزمتك بعشر سنوات، أو ما أريد أن أكلفك أعمالًا شاقة. وكانت هذه الطريقة متبعة في القرى والبدو، في القديم والحاضر، ولم يزل العمل بها في بعض بلاد المسلمين.

وهل تزوج موسى البنت الصغرى أم الكبرى؟ وردت آثار بكل منهما^(١).

قال شعيب لموسى: فإن أكملت عشر سنوات، فهو إحسان من عندك، وتبرّع منك، ولا أريد أن ألزمتك بالعشر، وستجدني إن شاء الله محسنًا لك في المعاملة، وفيًا بعهدي معك، لئن الجانب، وفي هذا ترغيب لموسى عليه السلام بسهولة العمل وحسن المعاملة.

٢٨- ﴿قَالَ ذَلِكَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ أَيَّمَا الْأَجَلَيْنِ قَضَيْتُ فَلَا عُدْوَانَ عَلَيَّ^(٢) وَاللَّهُ عَلَى مَا نَقُولُ وَكِيلٌ﴾

قال موسى عليه السلام: هذا العهد أمر متفق عليه بيني وبينك، وأي المدينتين قضيت، أكون قد وفيت، والله وكيل على ما نقول، يراقبنا ويعلم ما تعاقدنا عليه وتعاهدنا، فلا عدوان عليّ إذا قضيت الثماني سنوات الواجبة، أم تبرعت بالزائد عليها.

(١) فعن أبي هريرة رضي الله عنه وأبي ذر أنها الصغرى كما في «فتح الباري» (٢٩١/٥) والطبري في الأوسط (٨٣٧٢) و«مجمع الزوائد» (٢٠٤/٧) و«علل ابن أبي حاتم» (٨٣/٢) وقد أعله بالإرسال و«تاريخ الخطيب» (٢/١٢٨) وأخرج ابن المنذر عن ابن جريج أنها البنت الكبرى.

(٢) وقف يعقوب بهاء السكت على (عليّ) بخلف عنه، والباقون بسكون الياء المشددة ومعهم يعقوب في وجهه الثاني.

جاء في الحديث إخباراً عن موسى عليه السلام: أنه أجر نفسه بعفة فرجه، وطعمة بطنه^(١).

وروى البخاري وغيره: عن سعيد بن جبير قال: سألتني يهودي من أهل الحيرة: أيّ الأجلين قضى موسى؟ فقلت: لا أدري، حتى أقدم على حبر الأمة فأسأله، فقدمتُ على ابن عباس، فسألته: فقال: قضى أكثرهما وأطيبهما، إن رسول الله إذا قال فعل^(٢).

وهكذا انتقل موسى من أمير في قصر ملكي إلى راعي غنم؛ ليعدّه ربه لتحمل أعباء الرسالة.

قِصَّةُ النَّارِ وَالْعَصَا وَالْيَدِ

٢٩- ﴿فَلَمَّا قَضَىٰ مُوسَى الْأَجَلَ وَسَارَ بِأَهْلِهِ آنَسَ مِنْ جَانِبِ الطُّورِ نَارًا قَالَ لِأَهْلِهِ^(٣) امْكُثُوا إِنِّي آنَسْتُ نَارًا لَّعَلِّي^(٤) آتِيكُمْ مِنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ جَذْوَةٍ^(٥) مِنْ النَّارِ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ^(٦)﴾

الرسالة ذات تكاليف ضخمة وشاقة، متعددة الجوانب والتبعات، تحتاج مع الوحي الإلهي إلى زاد من التجارب وكثرة المواهب، لاسيّما النبي المرسل إلى شعب بني إسرائيل، هذا الشعب الموصوف بقسوة القلب، ونقض العقود، ونكث العهود، بعد أن استمرّ حياة الذل والاستعباد على يد فرعون وجنده.

وتجربة السنوات العشر لموسى جاءت لتُفَصِّلَ بين حياة القصور، وحياة الجهد ومشاق الدعوة؛ فقد انتقل موسى من حياة البزخ والترف إلى مجتمع الرعاة الكادحين، مع استشعار نعمة الأمن بعد الخوف والمطاردة.

(١) أخرجه البزار برقم (١٤٩٥) عن عتبة بن المنذر السلمي وفي سنده ابن لهيعة، كما في «فتح القدير» (١٦٦/٤).

(٢) البخاري برقم (٢٦٨٤) و«فتح الباري» (٣٤٢/٥) وابن أبي شيبة (٥٣٣/١١).

(٣) قرأ حمزة بضم الهاء وصلّاً من (لأهله امكثوا) تبعاً لضم ثالث الفعل، والباقون بكسرها على الأصل في التخلص من التقاء الساكنين.

(٤) قرأ نافع وابن كثير وأبو عمرو وأبو جعفر بفتح ياء الإضافة وصلّاً من (إني آنست) و (إني أنا الله) في الآية الثلاثين، و(إني أخاف) في الآية الرابعة والثلاثين و (ربي أعلم) في الآية الحادية والثلاثين، وسكنها الآخرون سكوناً مدّياً.

(٥) قرأ بفتح ياء الإضافة وصلّاً من (لعلّي آتيكم) نافع وابن كثير وأبو عمرو وابن عامر وأبو جعفر، وسكنها مع المد الباقون.

(٦) قرأ حمزة وخلف بضم الجيم من (جذوة) وعاصم بفتحها، والباقون بالكسر، وكلها لغات.

والرجال العظام لا يزيدهم المال شيئاً، ولا ترفع المناصب من قدرهم، ولا يزيدهم الجاه شرفاً، وإنما يزدانون بالمروءة والشهامة والرجولة، وتركية النفس.

لقد كانت هذه الفترة من حياة موسى ﷺ تهيئة واستعداداً للأعباء التي ستلقى على كاهله في المستقبل القريب، وهذا من تربية الله تعالى لموسى، وصنعه على عينه سبحانه.

فالعناية الإلهية هي التي جعلته يتربى في قصر فرعون، ويخرج إلى مدين، ثم يعود إلى مصر مزوداً بالوحي الإلهي، والرسالة إلى بني إسرائيل وفرعون وقومه.

وهكذا يتحول الراعي إلى رسول كريم، مكلف بتحرير شعب، وتبليغ رسالة، وذلك من تقدير الله تعالى وتدبيره، كما قال تعالى: ﴿فَلَبِثْتَ سِنِينَ فِي أَهْلِ مَدْيَنَ ثُمَّ جِئْتَ عَلَى قَدَرٍ﴾ [طه: ٤٠].

ورسالة موسى هي أضخم رسالة بعد رسالة محمد عليهما السلام، فموسى نبي مرسل لتخليص شعبه من حياة الذل والمسكنة، ومرسل إلى أعنى الملوك، وأقدمهم عرشاً، وأشدّهم طغياناً، وأكثهم استعباداً للخلق.

ولأول مرة يصبح بنو إسرائيل شعباً مستقلاً له حياة خاصة، متحرراً من رواسب عمياء، وعقيدة ضالة منحرفة، في ظل اليهودية الصحيحة قبل تحريفها ونسخها.

وفى موسى أطول الأجلين -عشر سنوات- واشتاق إلى أمه وأخته، وبلاده وأهله، فعزم على زيارتهم وخرج بأهله، وكان قد دخل بها من ستين، وكانت حاملاً، ومعها ولد، فخرج بزوجه وولده، وما كان معه من الغنم، وسار بهم في ليلة مظلمة باردة ممطرة، فنزل وادياً، وكلما أورى زنده لا يضيء، فتعجب، وبينما هو في شاطئ الوادي من ناحية الغرب إلى جوار جبل الطور، والوادي عن يمينه، وقد ضل الطريق، إذ رأى على بُعد؛ نوراً ظنه ناراً، فقال لأهله: انتظروا هنا لعلني آتيكم من هذه النار بشعلة نستدفئ بها من البرد، ونهتدي بها إلى معرفة الطريق.

لقد خرج موسى ليقبس لأهله ناراً، فأخرجه الله إلى ما هو خير من ذلك؛ حيث كلمه ربه، ورجع بالنبوة:

٣٠- ﴿فَلَمَّا أَتَاهَا نُورٌ مِّنْ شَلْطِيِّ الْوَادِ الْأَيْمَنِ فِي الْبُقْعَةِ الْمُبْرَكَةِ مِنَ الشَّجَرَةِ أَن يَمُوسَىٰ

إِفْتِ أَنَا اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴿٣٠﴾

فلما أتى موسى النار، وجدها تضطرم في شجرة خضراء، وناداه الله تعالى من جانب الوادي الأيمن في البقعة المباركة من جانب الشجرة: ﴿أَنْ يَكْمُوسَىٰ إِنْتَ أَنَا اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ أي: إن الذي يكلمك ويخاطبك هو الله رب العالمين، الفعال لما يريد، وقد سمع موسى ما سمع من جهة الشجرة، وأدرك ما سمعه من غير تكليف، ولا تحديد للجهة التي سمع منها النداء، وهذا هو بدء الرسالة، وبدء نزول الوحي على موسى ﷺ.

عن عبد الله بن مسعود ؓ قال: ذكرت لي الشجرة التي آوى إليها موسى، فسرْتُ إليها يومي وليلتي حتى صَبَحْتُهَا، فإذا هي سَمرة خضراء تَرِفُ، فصلَّيتُ على النبي ﷺ وسلَّمْتُ، فأهوى إليها بعيري وهو جائع، فأخذ منها ملء فيه، فلاكهُ فلم يستطع أن يُسيغه فلفظه، فصلَّيتُ على النبي وسلَّمْتُ، ثم انصرفت^(١).

وقال تعالى: ﴿إِنِّي أَنَا رَبُّكَ فَاخْلَعْ نَعْلَيْكَ إِنَّكَ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى ۚ وَأَنَا أَخَذْتُكَ فَاسْتَمِعْ لِمَا يُوحَىٰ ۚ إِنِّي أَنَا اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدْنِي وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي ۚ﴾ [طه].

وهكذا، أخبر الله تعالى موسى ﷺ بالوهيته وربوبيته، وأمره بعبادته، ثم لفت نظره إلى ما سيؤيده الله به من معجزتي العصا واليد، فقال:

٣١- ﴿وَأَنْ أَلْقِ عَصَاكَ فَلَمَّا رَآهَا تُهَنَّرُ كَأَنَّهُا جَانٌّ وَلَىٰ مُدِيرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ يَكْمُوسَىٰ أَقْبَلَ وَلَا تَخَفْ إِنَّكَ مِنَ الْآمِنِينَ﴾ ﴿٣١﴾

كان شعيب قد أعطى موسى عصا يدفع بها السباع عن غنمه، قيل: إنها كانت من آس الجنة، حملها آدم معه، فتوارثها الأنبياء، وكان لا يأخذها إلا نبي، فصارت من آدم إلى نوح، إلى إبراهيم، إلى شعيب، فأعطاها لموسى لما قضى المدة المتعاقد عليها بينهما، وأعطاه ما ولدته بعض أغنامه في العام الأخير.

وقيل: إن شعيباً قال لموسى: خذ عصا من هذا البيت، وكان الوقت ليلاً، فأخذ عصا، فمسّها شعيب بيده، ثم قال له: خذ غيرها، فما وقع في يده إلهي، سبع مرات، فعلم أن موسى سيكون له شأن، فأعطاهما له، وقال: إذا بلغت مفرق الطريق فلا تأخذ على يمينك؛

(١) أخرجه عبد بن حميد وابن جرير (٢٤٣/١٨) وابن المنذر والحاكم وصححه (٥٧٧/٢) وقال الذهبي: على شرط الشيخين.

لأن بها تبييناً أحشاه عليك وعلى الغنم، ولكن الغنم أخذت جانب اليمين، ولم يستطع موسى ردها فمشى في أثرها، ولما نام موسى جاء الثنين فحاربته العصا حتى قتله^(١). وربما تكون قصة الثنين من الإسرائيليات التي لا تُصدّق ولا تُكذّب، ولكنها لا تخلو من موعظة.

فلما كلم الله موسى أراد أن يلفت نظره إلى معجزتين يؤيده بهما، ويُمِرُّه على استعمالهما:

أما المعجزة الأولى: فهي هذه العصا التي في يده، قال الله تعالى له: ﴿وَأَنْ أَلْقِ عَصَاكَ﴾ فألقاها موسى، فقلبها الله حية صغيرة، سريعة الحركة، تتلوى كأنها جانٌّ خفيف الحركة، وحيث ولي موسى هارباً، ولم يلتفت إليها من الخوف، فناداه الله قائلاً: يا موسى، أقبل ولا تخف من أيّ مكروه، فأت مؤمّن بتأمين الله لك، وكيف لا يأمن من ترعاه عين الله؟ إنك من الأمنين المطمئنين.

كما قال تعالى: ﴿يُمَوِّسِي لَا تَخَفْ إِنِّي لَا يَخَافُ لَدَيَّ الْمُرْسَلُونَ﴾ [النمل: ١٠].

وقال سبحانه لموسى: ﴿خُذْهَا وَلَا تَخَفْ سَنُعِيدُهَا سِيرَتَهَا الْأُولَى﴾ [طه: ٢١].

ولن ينالك مكروه من هذا الجان، فوقف موسى في مكانه الأول، هذه هي العصا، فماذا عن اليد؟ قال الله تعالى له لموسى عليه السلام:

٣٢- ﴿أَسْلَكَ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخَرَّجَ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ وَاضْمُمُ إِلَيْكَ جَنَاحَكَ مِنَ الرَّهْبِ^(٢) فَذَانِكَ^(٣) بَاهَتَانِ مِنْ رَبِّكَ إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ^(٤) إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَسِيقِينَ﴾ (٣٢)

أما المعجزة الثانية: فهي اليد، حيث لفت الله سبحانه نظر موسى عليه السلام إلى يده التي بين جنبيه، فقال له: أدخل يدك في فتحة قميصك، وهي فتحة في أعلى الثوب، مكان دخول الرأس، ثم أمره الله أن يضم يده إليه؛ للتجلّد وضبط النفس، وعدم الخوف عند انقلاب العصا حية.

(١) يُنظر في قصة العصا: «تفسير الخازن» (٤٠٣/٣)، والنسفي بحاشيته، وغيرهما.

(٢) قرأ ابن عامر وشعبة وحمزة والكسائي وخلف بضم الراء وإسكان الهاء من (الرّهْب) وقرأ حفص بفتح الراء وسكون الهاء، والباقون بفتحهما، وكلها لغات.

(٣) قرأ ابن كثير وأبو عمرو ورويس بتشديد النون مع المد المشبع في (فذانك) والباقون بتحقيقها.

فأدخل موسى يده اليمنى تحت عضده اليسرى، وضم جناحه إليه ثم أخرجها، فإذا هي بيضاء مضيئة، كأنها قطعة قمر، من غير برص ولا مرض، وكان موسى ﷺ أسمر اللون، كما جاء في البخاري أنه كان آدم.

فإذا هَالَكَ الأمر يا موسى، وَأَفْرَعَكَ تَغْيِيرَ لَوْنِ الْيَدِ فَأَدْخِلْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ مَرَّةً أُخْرَى تَرْجِعَ الْيَدَ إِلَيْكَ كَحَالَتِهَا الْأُولَى ﴿وَأَضْمُكُمْ يَدَكُمْ إِلَى جَنَاحِكُمْ تَخْرُجُ بَيَّضًا مِنْ غَيْرِ سَوْءٍ ءَايَةٍ أُخْرَى﴾ ﴿٢٢﴾ [طه].

قال الله تعالى لموسى: فهذان -العصا واليد- معجزتان وحجتان واضحتان تدلان على صدقك، وهما آيتان إلى فرعون وكبار قومه إنهم كانوا قومًا كافرين، خارجين على الحق، وعلى طريق الهدى والإرشاد، فلا يكفيهم مجرد الإنذار، بل لابد من الآيات الخارقة، إن نفعت فيهم! ثم سأل موسى ربه أن يعينه على مهام الدعوة، وذكر الموانع منها، لينذرها الله له. ويزيل عنه ما يخافه من تكذيب قومه له:

مُوسَى يَعْتَذِرُ إِلَى رَبِّهِ بِأَمْرَيْنِ

٣٣- ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي قَتَلْتُ مِنْهُمْ نَفْسًا فَأَخَافُ أَنْ يَقْتُلُونِ﴾ ﴿٢٣﴾

أراد موسى ﷺ أن يطمئن على نجاح دعوته من أمرين، يخاف منهما على تعثر مهمته: أحدهما: قتله للقبطي، قال موسى: يا رب، إني قتل من قوم فرعون نفسًا -وهو المصري الذي وكزه ففضى عليه- فأخاف أن يثأروا مني ويقتلوني. وكان موسى قد ابتلي بمخاوف وفتون، فأراد أن يطمئن على شد أزره، وإعانتته على مهمته، بوجود من يساعده في القيام بواجب الدعوة.

قال مجاهد: كان موسى ﷺ قد ملئ قلبه رُعبًا من فرعون، فكان إذا رآه قال: اللهم إني أذراً بك في نحره، وأعوذ بك من شره، ففرغ الله تعالى ما كان في قلب موسى، وجعله في قلب فرعون، فكان إذا رآه بال كما يبول الحمار^(٢). قال موسى ﷺ:

(١) قرأ يعقوب بإثبات الياء وصلًا ووقفًا (يقتلون)، والباقون بحذفها.

هذا: وقد انفرد الحمصي بعدم عدّ (يقتلون) آية، وعدّها غيره.

(٢) أخرجه ابن أبي حاتم (٢٩٧٨/٩).

٣٤- ﴿وَأَخِي هَارُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّي لِسَانًا فَأَرْسَلْهُ مَعِيَ^(١) رِدْءًا^(٢) يُصَدِّقُنِي^(٣) إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُكَذِّبُونِ^(٤)﴾

هذا هو الأمر الثاني الذي طلب موسى من ربه أن يعينه به؛ ليزداد قوة في مواجهة فرعون وقومه، وهو عدم فصاحة لسانه بسبب اختلاط لهجته في مدين، أو بسبب الجمرة التي وضعها على لسانه حين خُير وهو في المهد بين التمرة والجمرة.

طلب موسى من ربه أن يعينه على أعباء الرسالة، وعلى مواجهة فرعون، بأخيه هارون، فهو أكبر منه سنًا، وعنده مقدرة على تلخيص الأدلة، ومجادلة الكفار، والإجابة عن الشبهات، فأرسله معي يا رب وزيرًا يقويني ويعينني ويصدقني، فخير الواحد ليس كخير الاثنين، وهارون أعرف مني بلغة القوم، وأفصح مني بلهجة بني إسرائيل؛ لوجوده بينهم، ولأن مدة إقامتي في مدين أثرت في لغتي بعض الشيء، فأرسل معي أخي هارون يوضح لهم الحجج والبراهين، إني أخاف إن لم يكن معي وزير معين أن يكذبوني في قولي لهم: إني رسول الله، فأجاب الله سؤاله في الأمرين معًا:

٣٥- ﴿قَالَ سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ وََجَعَلُ لَكُمَا سُلْطَانًا فَلَا يَصِلُونَ إِلَيْكُمَا بِآيَاتِنَا أَنْتُمْ وَمَنِ اتَّبَعَكُمَا الْغَالِبُونَ^(٥)﴾

قال تعالى إجابة لموسى على العذر الثاني: سنقويك ونشد أزرك بإرسال هارون معك، كما قال تعالى: ﴿قَدْ أَوْتَيْتَ سُؤْلَكَ يَمُوسَى﴾ [طه: ٣٦].

وكما قال سبحانه: ﴿وَوَهَبْنَا لَهُ مِنْ رَحْمَتِنَا أَخَاهُ هَارُونَ نَبِيًّا^(٦)﴾ [مريم].

وكان هارون بمصر، فأوحى الله إليه بالنبوة والرسالة في نفس الوقت واللحظة التي طلب فيها موسى من ربه أن يشد أزره بأخيه، ولما وصل موسى إلى مصر وجد هارون في

(١) قرأ حفص بفتح ياء الإضافة من (معي)، والباقون بإسكانها.

(٢) قرأ نافع وأبو جعفر بنقل حركة الهمزة من (ردء) إلى الدال مع حذف الهمزة إلا أن أبا جعفر أبدل التنوين ألفًا وصلًا ووقفًا، ونافع أبدله وقفًا، ووقف حمزة بالنقل.

(٣) قرأ عاصم وحمزة برفع القاف من (يصدقني) على الاستئناف، أو صفة لرداء، أو حال من الضمير في أرسله، والباقون بالجزم في جواب الأمر، أو جواب لفعل مقدر، دل عليه (أرسله).

(٤) قرأ ورش بإثبات الياء وصلًا من (يكذبون) ويعقوب بإثباتها وصلًا ووقفًا، والباقون بحذفها في الحالين.

استقباله نبياً رسولاً .

قال بعض السلف: ليس أحد أعظم منة على أخيه من موسى على هارون عليهما السلام، فهي أعظم وأنفع دعوة من أخ لأخيه .

وعن العذر الأول طمأن الله موسى ﷺ بأنه جل شأنه سيجعل لهما حجة وبرهاناً على فرعون وقومه، ويجعل لهما غلبة وقوة رهيبة في قلوب الأعداء، فلا يصل لكما منهم قتل ولا أذى، ولا أدنى سوء، بسبب إيلاغكما آيات الله، أنتما ومن آمن بكما من المنتصرين على فرعون وقومه؛ وذلك بسبب تأييدي لكما بالمعجزات الباهرات، والآيات الدالة على الحق، وبسبب حمايتي ونصرتي لكما .

وعلى هذا: فيصح الوقف على ﴿يَا أَيُّهَا الْمَلَأَى الْأَعْيُنَ عَنَّا قُدَّهَا﴾ على معنى: نجعل لكما قوة وتسليطاً فلا يصلون إلى أذاكما بسبب حمايتنا لكم .

ويصح الوقف على ﴿إِلَيْكُمَا﴾ قبلها، على معنى: اذهبا بآياتنا الدالة على صدقكما - كالعصا واليد - إلى فرعون وقومه، فالعاقبة لكما ولمن اتبعكما من المؤمنين في الدنيا والآخرة .

ويشهد للمعنى الأول قوله تعالى في شأن محمد ﷺ: ﴿يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَغْتَ رِسَالَتَهُ وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ﴾ [المائدة: ٦٧] .

ويشهد له أيضاً قوله تعالى: ﴿كَتَبَ اللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ [المجادلة] .

وقوله تعالى: ﴿إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ نَقُومُ الْأَشْهَادُ﴾ [غافر] .

ولعله هو الأولى؛ لأن المقام مقام طلب العون والنصرة من الله تعالى، ولذلك فإن الله تعالى قال: ﴿فَلَا يَصِلُونَ إِلَيْكُمَا﴾ أي: إن فرعون وقومه لن يصلوا إلى موسى وهارون بأذى، أو قتل، أو مضرة، أو سوء .

ويشهد للمعنى الثاني قوله تعالى: ﴿أَذْهَبَ أَنتَ وَلَوْ كُنتَ إِلَّا نِيَّا فِي ذِكْرِي﴾ [٢٦] أذهباً إلى فرعون إنه طغى ﴿٢٧﴾ [طه] . ونحوها من الآيات .

وفي هذا وعد من الله تعالى لموسى ﷺ، قبل أن يلتقي بفرعون، ويواجه ملاءه، وقد أنجز الله له وعده، ومكّنه من العباد والبلاد، وصار له ولمن آمن به الغلبة والظهور، بعد

أن كان وحيداً فريداً شريداً طريداً .

ويؤخذ من قصة رسالة موسى ﷺ: أن الرسالة فيض من الله تعالى على من اصطفاه من عباده، وأن رسالة محمد ﷺ كرسالة موسى ﷺ؛ حيث جاءت الرسالة بغتةً، فنودي محمد في جبل غار حراء، كما نودي موسى في جانب جبل الطور، وأن الخوف قد اعترى كلا منهما، وأن الله تعالى قد ثبت كلا منهما، وكفاه شر أعدائه .

مُوسَى يُوَاكِهُ فِرْعَوْنَ بِمَا أَيْدَهُ اللَّهُ مِنْ مُعْجَزَاتِ

٣٦- ﴿فَلَمَّا جَاءَهُمْ مُوسَى بِآيَاتِنَا بَيِّنَاتٍ قَالُوا مَا هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُقَرَّرٌ وَمَا سَمِعْنَا بِهَذَا فِي آبَائِنَا الْأَوَّلِينَ ﴿٣٦﴾﴾

وتطوي السورة الزمان والمكان واللقاء؛ لتنتقل مباشرة إلى مواجهة موسى وهارون لفرعون بآيات الله البينات، والحوار السريع بين الهدى والضلال، والنهاية الحاسمة لفرعون وملئه، وهذا الاختصار في الآيات لم يقف عند العقوبة الدنيوية لهم، بل تابعه إلى الدار الآخرة؛ لتمام العبرة والاتعاظ لكل طاغية جبار منازع لله تعالى في ملكوته .

وصل موسى إلى مصر، وصحب أخاه وتوجَّها إلى فرعون، وأخبراه بوجوب توحيد الله سبحانه، وامثال أمره واجتناب نهيه، وعرضاً عليه ما أيدهما الله به من معجزتي العصا واليد، فقال فرعون ومن معه: ما هذا الذي جئت به يا موسى إلا سحر افتريته كذباً وباطلاً، وما سمعنا بهذا الذي تدعوننا إليه من التوحيد فيمن مضوا قبلنا من الأمم، ولا في أجدادنا وآبائنا السابقين، وقد كذبوا في هذا، فقد أرسل الله يوسف عليه السلام بالتوحيد قبل موسى، كما قال تعالى ﴿وَلَقَدْ جَاءَكُمْ يُوسُفُ مِنْ قَبْلُ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا زِلْتُمْ فِي شَكٍّ مِمَّا جَاءَكُمْ بِهِ حَتَّىٰ إِذَا هَلَكَ قُلْتُمْ لَن يَبْعَثَ اللَّهُ مِنْ بَعْدِهِ رَسُولًا كَذَلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ مَن هُوَ مُسْرِفٌ مُّرْتَابٌ ﴿٣٦﴾﴾ [غافر] وما جاء به موسى حق من عند الله وليس سحراً ولا مكراً ولا خداعاً ﴿قَالَ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا أَنْزَلَ هَؤُلَاءَ إِلَّا رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ [الإسراء: ١٠٢] وقد ظهر الحق وزهق الباطل، فاعترف أهل الصنعة بأن ما جاء به موسى ليس في قدرة البشر، وهكذا يقرر موسى عليه السلام أن ما جاء به من عند الله هو التوحيد والهدى وعليهما يترتب الفلاح في الآخرة:

٣٧- ﴿وَقَالَ^(١) مُوسَىٰ رَبِّيَ^(٢) أَعْلَمُ بِمَن جَاءَ بِالْهُدَىٰ مِن عِندِهِ وَمَن تَكُونُ^(٣) لَهُمْ عَاقِبَةُ الدَّارِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ ﴿٣٧﴾

قال موسى لفرعون: إن ما جئتُ به من التوحيد والهدى يعلمه الله، فما قيمة علم آبائكم في جانب علم الله؟! وهكذا لما تمسك قوم فرعون بعلم آبائهم تمسك موسى ﷺ بعلم الله تعالى، فقال: ربي الذي خلقتني وخلقكم أعلم بمن هو على حق متاً، ومن جاء بالفلاح والرشاد، ومن هو أهلٌ لحسن العاقبة في الدنيا والآخرة، وأهلٌ للنصرة والظفر والتأييد، وسيحكم الله بيني وبينكم بحكمه العادل؛ إنه لا يفلح الكافرون المشركون الذين يكذبون على الله تعالى، ولا يظفرون بمطلوبهم، وإنما يفوز بالعاقبة الحميدة الذين قالوا: ربنا الله، ثم استقاموا، ولم يصرح موسى ﷺ بأنه هو الذي جاء بالهدى من عند الله؛ ليرخي لهم حبل المناقشة، وليكف عنادهم وغرورهم، وكأنه يقول لهم: ﴿وَإِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًى أَوْ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ [سبأ: ٢٤].

وقد ختمت الآية بيان أن عاقبة الدار والفوز والفلاح لموسى ﷺ، هو ومن آمن به، وأن الخسارة والهلاك وسوء العاقبة لمن كفر بموسى ﷺ.

فِرْعَوْنُ يَدْعِي الْإِلَهِيَّةَ وَيَأْمُرُ بِنَاءِ الصَّرْحِ

٣٨- ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَأْتِيَهَا الْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَهِ غَيْرِي فَأَوْفِدْ لِي يَهَنَتُنْ عَلَى الطِّينِ^(٤) فَاجْعَلْ لِّي صَرْحًا لَّعَلِّي^(٥) أَطْلُعَ إِلَىٰ إِلَهِ مُوسَىٰ وَإِنِّي لَأَظُنُّهُ مِنَ الْكَاذِبِينَ ﴿٣٨﴾

طوت السورة قصة حشد السحرة وإيمانهم بموسى ﷺ اكتفاء بذكرها في سور: الأعراف، ويونس، وطه، والشعراء.

(١) قرأ ابن كثير بحذف الواو من (قال موسى) على الاستئناف، والباقون بإثبات الواو عطفًا على ما قبلها.

(٢) فتح نافع وابن كثير وأبو عمرو وأبو جعفر باء الإضافة من (ربي أعلم)، وسكنها غيرهم.

(٣) قرأ حمزة والكسائي وخلف بياء التذكير في (ومن تكون)، والباقون بتاء التأنيت، وجاز تذكير الفعل وتأنيته لأن الفاعل مؤنث مجازي.

(٤) انفرد العدد الحمصي بعد (على الطين) آية، ولم يعدها غيره.

(٥) فتح باء الإضافة من (لعلي أطلع) نافع وابن كثير وأبو عمرو وابن عامر وأبو جعفر، وسكنها مدية الباقون.

وجاء ردُّ فرعون بنفي علمه عن وجود إله غيره، وأنه لو كان هناك إله سواه لعلمه.

لقد كان فرعون يعتقد أنه إله لقومه، بناءً على الأساطير الفرعونية السائدة في مصر وقتئذٍ بجعل الملوك آلهة للناس، ولقهرهم وطاعتهم له.

ومن هنا فقد توجه فرعون إلى أشرف قومه لبيطل قول موسى، ويشتهم على اعتقاد الإلهية فيه قائلاً: ﴿يَتَذَكَّرُ أَلَمْ لَا مَا عَلَّمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلَهِ﴾ يستحق العبادة والطاعة ﴿غَيْرِي﴾ فأنا وحدي إلهكم ومعبودكم، ولو كان لكم إلهٌ غيري لعلمته، فقد نفى فرعون علمه بأن يكون هناك إلهٌ غيره، فهو الإله الوحيد - على حد زعمه -.

وكان فرعون قد جمع أشرف قومه، ونادى فيهم بأعلى صوته، مصرِّحاً لهم بربوبيته ﴿فَحَشَرَ فَنَادَى﴾ (٢٣) فَقَالَ أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَى ﴿٢٤﴾ [النازعات].

ودعاهم أيضاً إلى الاعتراف بألوهيته قائلاً: ﴿أَلَيْسَ لِي مُلْكٌ مِصْرَ وَهَذِهِ الْأَنْهَارُ تَجْرِي مِنْ تَحْتِي﴾ [الزخرف: ٥١]. فأجابوه سامعين مطيعين، وسكتوا وسلّموا شأن الجبناء الجهلاء ﴿فَاسْتَحَفَّ قَوْمُهُ فَاطَاعُوهُ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ﴾ (٥١) [الزخرف].

ثم أخذ فرعون يتظاهر بالجد في طلب الحقيقة، والبحث عن إله موسى، ليؤكد لهم نفى احتمال وجود إله غيره، فقال لوزيره: أوقد لي يا هامان على الطين، أي: اللبن النقي، واصنع لي الحجارة الموقد عليها بالنار، فاجعل لي بناء شامخاً عالياً عليّ أصعد فوق هذا الصرح، فانظر إلى إله موسى الذي يدعو إليه، وإني لأظن أن موسى كاذباً في دعواه أن له إلهاً غيري.

وفي هذا تناقض؛ إذ كيف يكون فرعون إلهاً ويستعين بوزيره هامان، ويظهر حاجته إليه في بناء الصرح!!

وكلامه فيه إثبات أن لموسى إلهاً، وأنه غير متيقن من كذبه.

وعن هذا الصرح يقول تعالى: ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَتْلُمَنُّ آيُنِي صَرَحًا لَعَلِّي أَتْلُجُ الْأَسْبَبَ﴾ (٣١) أَسْبَبَ السَّمَوَاتِ فَاطْلُجَ إِلَى إِلَهِ مُوسَى وَإِنِّي لأظنُّهُ كَذِباً [غافر: ٣٦، ٣٧]. وفرعون بهذا يُظهر تكذيبه لموسى في دعواه أن له إلهاً غير فرعون؛ لأنه لم يكن يعترف بوجود الله تعالى، كما يظهر ذلك في حوارهِ مع موسى ﷺ قائلاً: ﴿وَمَا رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ [الشعراء: ٢٣].

وقال لموسى: ﴿لَئِنْ أَخَذْتَ إِلَهًا غَيْرِي لَأَجْعَلَكَ مِنَ الْمَسْجُونِينَ﴾ [الشعراء: ٢٩].

رُوي أن هامان جمع خمسين ألف بَنَاء، وبنى صرْحًا لم يبلغه بناء أحد من الناس، فضرب جبريل الصرح بجناحه، فقطعه ثلاث قطع . . . ، ولم يبق أحد من عماله إلا هلك^(١).
والقرآن الكريم لم يصرِّح بأنه قد بُني، وليس هو أحد الأهرامات الموجودة؛ فهي مدافن لهم.

إن فرعون بعزمه على بناء الصرح، ظنَّ أن الله تعالى مع الطيور في الجو، أو لعله جالس على السحاب، وقد تكررت هذه الحماقة في عصرنا، فإن واحدًا من رواد الفضاء الروس زعم أنه بحث عن الله تعالى في جو السماء فلم يجده، بل وجد فقط أحد زملائه الرواد. وشاء الله أن يحترق ثلاثة من الرواد، وهم يهبطون إلى الأرض اختناقًا من قلة الهواء في الجهاز الذي طاروا فيه.

إن الكفر ضلال بعيد، ولست أدري كيف يُبحث عن الله في الجو، وهو مُنبت الغذاء في الأرض، وصانع الهواء الذي نستنشقه، ومُنزل الماء وعليه تقوم حياة الأحياء، وآيات الله في الأرض أقرب إلينا من آياته في السماء؟! ولكنه العمى الذي طمس الأفئدة^(٢).
وهكذا، تجرأ فرعون على ربه، فكذب موسى، وادّعى الألوهية، ونفى أن يكون له علم بالإله الحق، وفعل الأسباب ليتوصل بها إلى إله موسى، وقد لعب فرعون بعقول قومه فتابعوه على ذلك.

سَبَبُ طُغْيَانِ فِرْعَوْنَ وَنَتَائِجُ ذَلِكَ

٣٩- ﴿وَأَسْتَكْبَرَ هُوَ وَجُنُودُهُ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَظَنُّوا أَنَّهُم إِلَيْنَا لَا يُرْجَعُونَ﴾

في هذه الآية ذكر الله تعالى السبب الذي حمل فرعون على ادعاء الربوبية وعلى تكذيب دعوة موسى ﷺ، وبيّن أنه الاستعلاء والتكبر وعدم الانقياد للحق، والتعاضم عن الإيمان بالله تعالى، والتكذيب برسل الله وآياته، وتوهم عدم الرجعة إلى الله تعالى في الآخرة للثواب والعقاب، هذا هو السبب في موقف فرعون.

(١) من «تفسير النسفي» والخازن للآية.

(٢) الشيخ محمد الغزالي، «نحو تفسير موضوعي لسور القرآن» ص ٣٠٠.

لقد زعم فرعون أنه لا بعث ولا نشور، ولا رجوع في الآخرة لمن كفر به، وظن أنه في منعة من عذاب الله، فتعالى وتطاول، وتجراً على الله تعالى، وطمع في الوصول إلى درجة الربوبية والإلهية، فكانت عاقبته وخيمة ونهايته أليمة. قال تعالى:

٤٠- ﴿فَأَخَذْنَاهُ وَجُودَهُ فَنَبَذْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ فَاَنْظُرْ كَيْفَ كَانَتْ عَاقِبَةُ الظَّالِمِينَ ﴿٤٠﴾﴾

وفي هذه الآية بيان نتيجة التطاول والغرور، والتكذيب بالبعث والحساب والعجزاء؛ حيث ينتقل السياق القرآني متجاوزاً ما فصله في سور أخرى، من خروج بني إسرائيل من مصر وعبورهم البحر، ينتقل مباشرة إلى نهاية فرعون وقومه، وأنه نُبذ في البحر الأحمر، كما يُرمى الحجر، أو كما تُقذف الحصاة ﴿فَأَخَذْنَاهُ وَجُودَهُ فَنَبَذْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ﴾ وهي نهاية كل ظالم متكبر، مُكذِّبٍ لله ورسوله، ومصير كل ظالم بلغ من الكفر والطغيان مداه؛ لينظر كيف تم استئصال باطلهم وإزهاق أرواحهم، فيعتبر بسوء عاقبتهم.

وهذا هو موضع الفائدة من سَوْق هذه القصة؛ ليعتبر مُكذِّبو خاتم المرسلين ﷺ، فيقيسوا حالهم بحال فرعون وقومه، ويوقنوا أن ما أصاب المكذبين السابقين من عقاب سيصيهم لا محالة إن عاجلاً أو آجلاً، فيدفعهم ذلك إلى تدارك ما بقي من أعمارهم قبل أن يموتوا على الكفر.

لقد دعا فرعون قومه إلى الكفر - وهو في الدنيا - فعاقبه الله على ذلك بأن جعله إماماً لقومه في نار جهنم يوم لقائه، قال تعالى:

٤١- ﴿وَجَعَلْنَاهُمْ أَيْمَةً يَكْعُونَ إِلَى الْكَاكِيبِ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ لَا يُنصَرُونَ ﴿٤١﴾﴾

أي: وكما كانوا في الدنيا قادة يدعون الناس إلى الكفر والضلال، فإنهم يكونون قادة إلى النار يوم القيامة كذلك، قال تعالى عن فرعون: ﴿يَقْدُمُ قَوْمَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَأَوْرَدَهُمُ النَّارَ﴾ [هود: ٩٨]. وهم لا يمنعون من عذاب الله تعالى، ولا يجدون من ينصرهم من الله.

والمعنى: أن الله تعالى كما جعل فرعون وقومه قادة في الكفر والفسوق والعصيان، يقتدي بهم أهل النار في الدنيا، جعلهم كذلك قادة إلى النار، يمشي خلفهم من اتبعوهم في الدنيا، ويوم القيامة لا يجدون من يدفع عنهم عذاب الله تعالى بأية صورة من الصور؛ وذلك بسبب إصرارهم على الكفر بالله تعالى، وتكذيبهم رسول الله تعالى، وزيادة في عقوبتهم،

فإنهم ملعونون في الدنيا، ومبعدون من رحمة الله في الآخرة، قال تعالى :

٤٢- ﴿وَاتَّبَعْنَاهُمْ فِي هَذِهِ الدُّنْيَا لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيَمَةِ هُمْ مِنَ الْمَقْبُوحِينَ﴾ (٤٢)

أي: ولعنة الله تلحقهم في الدنيا والآخرة على ألسنة خلقه ورسله، كما قال تعالى: ﴿وَاتَّبِعُوا فِي هَذِهِ لَعْنَةً﴾ فهم في الدنيا في خزي وذل وعذاب، ﴿وَيَوْمَ الْقِيَمَةِ هُمْ مِنَ الْمَقْبُوحِينَ﴾ وهم يوم القيامة من المبعدين المطرودين الهالكين، المذمومين بين الناس، مقابل استعلائهم وتجبرهم وتطاولهم على الله تعالى، وعلى عباد الله، فهم في ذم ومقت وغضب من الله، ومن خلق الله، ومن أنفسهم.

لقد كان فرعون وقومه؛ آخر من أهلكهم الله بعذاب عام، وبعد نزول التوراة انقطع هذا الإهلاك العام، وشرع جهاد الكفار بالسيف:

الْعِبْرَةُ مِنْ قِصَّةِ مُوسَى وَفِرْعَوْنَ

٤٣- ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ مِنْ بَعْدِ مَا أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ الْأُولَىٰ بَصَائِرَ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لَّعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ (٤٣)

وتأتي آخر آية من قصة موسى ﷺ في هذه السورة؛ لتعجّل بحظ موسى العظيم، وعاقبته الكريمة بعد بيان مصير فرعون الأليم، وعاقبته الوحشية.

فتبين أن الله تعالى أنزل التوراة على موسى من بعد ما أهلك الأمم التي كذبت رسلها قبله، فأبادهم الله واستأصل شأفة الكفار منهم، كأقوام نوح، وعاد، وثمود، ولوط، وغيرهم.

وتفيد هذه الآية، أن الله تعالى رفع عذاب الاستئصال عن خلقه بعد نزول التوراة، فلم يعذب الله بعدها في الدنيا أمة أنزل لها كتاباً تهتدي به، وإنما أمر المؤمنين من كل أمة أن يقاتلوا أعداء الله من المشركين والمكذبين، ونزلت التوراة لتبصر بني إسرائيل بما ينفعهم وما يضرهم، ويميزوا بها بين الحق والباطل، والهدى من الضلالة، وهي -أي التوراة الحقيقية - رحمة لمن آمن وعمل بها، ممن لم يحرفوا ويغيروا فيها، فهم المنتفعون بها، أما من كذب بها في عصر موسى ﷺ، وعصى الله سبحانه، فإنها تكون حجة عليه، وقد أنزل الله عليهم التوراة لعلهم يتذكرون نعم الله عليهم، فيشكروه عليها، ولا يكفروها.

عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «ما أهلك الله قوماً، ولا قرناً، ولا أمة، ولا أهل قرية، بعذاب من السماء، منذ أنزل التوراة على وجه الأرض، غير القرية التي مسخت قردة»^(١).

وفي لفظ لأبي سعيد أيضاً يرفعه إلى النبي ﷺ: «ما أهلك الله قوما بعذاب من السماء ولا من الأرض إلا قبل موسى»، ثم قرأ الآية^(٢).

وهكذا تُبين قصة موسى وفرعون أن الأمن لا يكون إلا في جانب الله تعالى، وأن الخوف لا يكون إلا في البعد عن منهج الله تعالى، وهكذا كان المسلمون المستضعفون في مكة، وهم بحاجة إلى الأمن والاطمئنان، وكان المشركون المستكبرون في تجبر وطغيان، وهي معاني متجددة دائماً في كل زمان ومكان.

وهذه الآية ردٌ على من كذب رسالة موسى ﷺ وغيره، فقال: ﴿مَا سَمِعْنَا بِهَذَا فِي آبَائِنَا الْأَوَّلِينَ﴾ [٣٦، والمؤمنون: ٢٤].

وردّ على من قالوا عن النبي ﷺ بتلقين من اليهود: ﴿لَوْلَا أَوْفَىٰ مِثْلَ مَا أُوفِيَٰ مُوسَىٰ﴾ [٤٨]. وردّ على من قال: ﴿مَا أَنزَلَ اللَّهُ عَلَىٰ بَشَرٍ مِّن شَيْءٍ﴾ [الأنعام: ٩١].

والقرآن بهذه الآية التي نحن بصدها يدمغ باطلهم بإلزامهم نقيض قولهم، وإقامة الحجة عليهم.

وهكذا يقول المكذبون بخاتم الرسل ﷺ؛ لإبطال رسالة محمد ﷺ، وقد خاطب الله محمداً بما خاطب به موسى، وردّ على من كذبوا محمداً كما ردّ على من كذب موسى ﷺ، قال تعالى: ﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيرًا مِّمَّا كُنْتُمْ تُخْفُونَ مِنَ الْكِتَابِ وَيَعْفُو عَنْ كَثِيرٍ قَدْ جَاءَكُمْ مِنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُبِينٌ ﴿١٥﴾ يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانُكُ سُبُلَ السَّلَامِ وَيُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ وَيَهْدِيهِمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿١٦﴾﴾ [المائدة].

(١) قال الهيثمي في «مجمع الزوائد» (٩١/٧): رواه البزار مرفوعاً وموقوفاً، ورجالهما رجال الصحيح، وهو في «كشف الأستار» للبزار برقم (٢٢٤٨) والحاكم (٤٠٨/٢) والطبري (٢٥٩/١٨).

(٢) «مسند البزار» برقم (٢٢٤٨) «كشف الأستار»، قال الهيثمي في «مجمع الزوائد» (٨٨/٧): رواه البزار موقوفاً ومرفوعاً، ورجالهما رجال الصحيح، ورواه أيضاً ابن أبي حاتم (٣٩٨١/٩).

وقال تعالى: ﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ عَلَى فَتْرَةٍ مِّنَ الرُّسُلِ أَن تَقُولُوا مَا جَاءَنَا مِن بَشِيرٍ وَلَا نَذِيرٍ فَقَدْ جَاءَكُمْ بَشِيرٌ وَنَذِيرٌ﴾ [المائدة: ١٩].

وإلى هنا تكون السورة قد تحدثت عن ولادة موسى عليه السلام ووجوده في قصر فرعون، وعودته إلى أمه، وبلوغه سن الأشد، وقتله لواحد من أهل مصر خطأ، وخروجه من مصر إلى مدين، وعودته بأهله إلى مصر بعد عشر سنوات، ونزول الوحي عليه وهو في طريق العودة إلى مصر، وتبليغه الرسالة إلى فرعون وقومه، ونهاية فرعون وعاقبته القبيحة.

ولما قص الله تعالى على نبيه محمداً ﷺ قصة موسى عليه السلام، وفيها من أخبار الغيب، بين الله سبحانه أن هذا خبر إلهي ليس للرسول طريق إلى معرفته إلا عن طريق الوحي.

ثَلَاثَةُ تَعْقِيَّاتٍ عَلَى قِصَّةِ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ

التَّعْقِيبُ الْأَوَّلُ: كَيْفَ عَرَفَ مُحَمَّدٌ ﷺ جَانِبَ الطُّورِ الْغَرْبِيِّ

٤٤- ﴿وَمَا كُنْتَ بِجَانِبِ الْغَرْبِيِّ إِذْ قَضَيْنَا إِلَىٰ مُوسَى الْأَمْرَ وَمَا كُنْتَ مِنَ الشَّاهِدِينَ﴾ ﴿٤٤﴾

ثم توجهت السورة بعد قصة موسى إلى صاحب الرسالة الخاتمة، وكتابه المنزل من عند الله، وشبهات المشركين والمكذابين في ذلك، فمن الذي أعلم محمداً ﷺ ما حدث لموسى؟

هل كان محمد عند الجانب الغربي من جبل الطور حين كلّف الله موسى بالرسالة؟

أو هل كان محمد ﷺ عند جبل الطور حين نادى الله موسى وأنزل عليه التوراة؟

أو هل كان محمد مقيماً في أهل مدين حين تزوج موسى ﷺ، وقضى الأجل

المضروب بينه وبين شعيب ﷺ؟

والجواب: إنه الوحي المنزل على خاتم الرسل ﷺ.

فبعد نهاية قصة موسى وفرعون يأتي التعقيب عليها؛ ليدل على صدق الوحي المنزل على رسول الله ﷺ، ويبرهن على صدق نبوته ﷺ؛ حيث أخبر عن الغيب الماضي، كأنه شاهد عيان، مع أنه رجل أُمي، نشأ في بيئة وثنية لا يقرأ ولا يكتب، ونشأ في أمة أُمية لا تعرف شيئاً، ولم ينزل عليها كتاب سماوي قبل القرآن، فمن أين جاءته هذه الأنباء؟

وما كُنْتَ -أيها الرسول الكريم- بجانب الجبل الغربي، في المكان الذي كلّم الله فيه

موسى، وأوحى إليه بالنبوة والرسالة، ما كنت حاضراً في هذا المكان حين كلفناه، فأمرناه ونهيناه، حتى يقال: إن هذه المعلومات وصلت إليك من هذا الطريق، فالآية تنفي وجود النبي ﷺ، وحضوره في الزمان والمكان الذي قضى الله فيه أمر النبوة لموسى حين تلقاها من ربه بجانب الطور الأيمن.

إن تحديد المكان الذي نزلت فيه الرسالة على موسى ﷺ من أقوى الأدلة على صدق محمد ﷺ.

التَّعْقِيبُ الثَّانِي:

لَمْ يَكُنْ مُحَمَّدٌ ﷺ مُقِيمًا بَيْنَ أَهْلِ مَدْيَنَ مُعَاصِرًا لِأَحْدَاثِهَا

٤٥- ﴿وَلَكِنَّا أَنشَأْنَا قُرُونًا فَتَطَاوَلَ عَلَيْهِمُ الْعُمُرُ وَمَا كُنْتَ ثَاوِيًا فِي أَهْلِ مَدْيَنَ تَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا وَلَكِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ ﴿٤٥﴾﴾

هذه الآية لبيان أن معالم الرسالة قد اندثرت بين كثير من الرسالات، فكان لابد من تجديد الوحي وتصحيح المفاهيم التي اختلفت وتبدلت؛ بسبب طول المدة بين رسالة موسى ورسالة محمد.

أي: ولكننا خلقنا بعد زمانك وزمان موسى، أمماً وقرونًا كثيرة، فطال عليهم الزمن؛ حيث كانت الفترة بين إسماعيل ومحمد تزيد على ألفي سنة اندرست فيها معالم رسالة إسماعيل ﷺ، فكانت الحكمة تقتضي إرسال محمد ﷺ؛ ليحذر الناس من عاقبة الشرك، كما كانت الفترة طويلة بين كثير من رسل الله، فنسي الخلق عهد الله، وتركوا أمره ونهيه، واقتضى الأمر تجديد الرسالة.

قال الشوكاني والبغوي في تفسيرهما: وقد استُبدِلَ بهذا على أن الله تعالى قد عهد إلى موسى عهداً في شأن محمد ﷺ والإيمان به، فلما طال عليهم العمر، ومضت القرون بعد القرون، نسي بنو إسرائيل تلك العهود، وتركوا الوفاء بها. ١ هـ

ولما طالت الفترة التي بين الرسل، ونسيت الأمم تعاليم الوحي، وغيروا وبدّلوا شرائع الله وأحكامه، لزم تجديد الوحي، بعد أن عميت عليهم الأنبياء، فأرسلنا محمداً ﷺ.

وقد أنزل الله تعالى على محمد ﷺ يحذر أمته أن لا يتشبهوا بأهل الكتاب في قسوة

القلب بعد طول الأمد، فقال تعالى: ﴿وَلَا يَكُونُوا كَالَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ الْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فَسِقُونَ﴾ [الحديد: ١٦].

وقال تعالى في شأن اليهود الذين حرّفوا كلام الله، وتركوا كثيراً منه:

﴿يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ وَنَسُوا حَظًّا مِمَّا ذُكِّرُوا بِهِ﴾ [المائدة: ١٣].

وهكذا فقد أرسل الله موسى بعد فترة من الرسل، كما أرسل محمداً بعد فترة من الرسل، فنسي المشركون والمكذّبون رسالة موسى، كما نسوا رسالة محمد لما تطاول الزمن بعدهما.

فالسبب الذي من أجله قصّ الله على نبيه محمد أخبار الأمم السابقة: أن بين موسى ومحمد أزماناً طويلة، تغيّرت فيها الشرائع والأحكام، فافتضى الأمر تجديد الوحي وتصحيح المفاهيم.

والمعنى: وما كنت -أيها الرسول الكريم- مقيماً بين أهل مدين معاصراً لتلك الأحداث، فتعلّم منهم خبر موسى وشعيب وابنتيه، وتتلو قصتهم على أهل مكة، ولكنّا أخبرناك بذلك عن طريق الوحي والرسالة، ولا سبيل لك إلى علمه بدون الوحي.

التَّغْيِيبُ الثَّالِثُ:

لَمْ يَكُنْ مُحَمَّدٌ ﷺ حَاضِرًا وَقْتَ نِدَاءِ اللَّهِ لِمُوسَى وَتَكْلِيمِهِ إِيَّاهُ

٤٦- ﴿وَمَا كُنْتَ بِجَانِبِ الطُّورِ إِذْ نَادَيْنَا وَلَكِنْ رَحِمَهُ مِنْ رَبِّكَ لِتُنْذِرَ قَوْمًا مَّا أَتَتْهُمْ مِنْ نَذِيرٍ مِنْ قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ (٤١)

في هذه الآية نفي لمشاهدة النبي ﷺ للمكان الذي نزلت فيه التوراة على موسى ﷺ، ولكنه عرف ذلك عن طريق الوحي الذي أنزله الله تعالى عليه رحمة للمؤمنين، وإنذاراً لقوم أصرّوا على تكذيبهم وشركهم الذي كانوا عليه قبل بعثتك، أي: في الفترة بين عيسى ومحمد عليهما السلام.

أي: وما كنت -أيها الرسول الكريم- بجانب طور سيناء وقت ندائنا لموسى، وتكليمنا إياه، حين أتى إلى الميقات ومعه السبعون من قومه لإنزال التوراة عليه، كما قال تعالى:

﴿وَأَخْتَارَ مُوسَىٰ قَوْمَهُ سَبْعِينَ رَجُلًا لِّمِيقَاتٍ﴾ [الأعراف: ١٥٥].

وقال: ﴿إِذْ نَادَاهُ رَبُّهُ بِالْوَادِ الْقَدَسِ طُوًى﴾ [النازعات].

وقال تعالى: ﴿وَنَادَيْنَاهُ مِنْ جَانِبِ الطُّورِ الْأَيْمَنِ وَفَرْنَهُ نَجَّيَا﴾ [مريم].

وقال تعالى: ﴿يَبْنَويَ إِشْرَءِيلَ قَدْ أَبْجَيْنَاكَ مِنْ عَدُوِّكَ وَوَعَدْنَاكَ جَانِبَ الطُّورِ الْأَيْمَنِ﴾ [طه: ٨٠].

وهو نفس المكان الذي نودي فيه موسى في رجوعه من ديار مدين.

فالمعنى: إنك -أيها الرسول- لم تشهد شيئاً من ذلك حتى تعلمه، فتخبر قومك به، ولكننا أوحيناه إليك، وقصصناه عليك؛ لتخوِّف بذلك قومًا لم يأتهم رسول قبلك؛ حتى يؤمنوا بك، ويدخلوا في دينك.

والمراد بهم: أهل الفترة بين عيسى ومحمد عليهما السلام، وهي قرابة ستة قرون ﴿وَمَا كُنْتَ بِجَانِبِ الطُّورِ إِذْ نَادَيْنَا﴾ موسى لميقات ربه، وإنزال ألواح التوراة عليه.

وقيل: إن المنادى هو أمة محمد ﷺ، كما ورد عن أبي هريرة ؓ قال: نُودُوا أَنْ يَا أُمَّةَ مُحَمَّدٍ، أُعْطِيتُكُمْ قَبْلَ أَنْ تَسْأَلُونِي، وَاسْتَجِبْتَ لَكُمْ قَبْلَ أَنْ تَدْعُونِي^(١).

قال وهب: وذلك لما ذكر الله تعالى لموسى فضل محمد وأمه، قال: يارب أرينهم، فقال الله تعالى: إنك لن تدركهم، وإن شئت ناديتهم فأسمعتك صوتهم، قال: بلى يارب^(٢).

ثم بيّن سبحانه أن ما أوحى به إلى محمد ﷺ وما قصّه عليه من أخبار الرسل والأمم -إنما هو رحمة من الله تعالى؛ لينذر قومًا لم يأتهم نذير قبلك -أيها الرسول- في الفترة ما بين عيسى ومحمد، أو ما بين إسماعيل ومحمد لعلمهم يتذكرون ما جئت به من خير فيتبعوه، ويتعدوا عن الشر الذي نهيتهم عنه.

ونظير هذه الآيات المعقّبة على قصة موسى ﷺ ما ختم الله به قصة نوح ﷺ في سورة هود في قوله تعالى: ﴿تِلْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهَا إِلَيْكَ مَا كُنْتَ تَعْلَمُهَا أَنْتَ وَلَا قَوْمُكَ مِنْ قَبْلِ هَذَا فَاصْبِرْ إِنَّ الْعَقِيبَ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [هود].

(١) أخرجه النسائي في التفسير (٤٠٢) بتصحيح محققه، وابن جرير (٨١/٢٠) وصححه الحاكم (٤٠٨/٢)

على شرط مسلم، وسكت عنه الذهبي، وصححه ابن أبي حاتم برقم (٢٣٥).

(٢) «فتح القدير للشوكاني» (١٧١/٤) بتحقيق الدكتور/ عبد الرحمن عميرة.

وما ختم الله به قصة يوسف عليه السلام في قوله: ﴿ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ أَجْمَعُوا أَمْرَهُمْ وَهُمْ يَمْكُرُونَ﴾ [يوسف].

وما ختم الله به قصة موسى في سورة (هود) عليهما السلام في قوله تعالى: ﴿ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْفُرْقَانِ نَقُصُّهُ عَلَيْكَ مِنْهَا قَائِمٌ وَحَصِيدٌ﴾ [هود].

وما ختم الله به قصة مريم في سورة آل عمران في قوله سبحانه: ﴿ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَقُولُ أَفْلَهِمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ﴾ [آل عمران] وهكذا، ثبت بالدليل القطعي أن محمداً عليه السلام قد علم قصة موسى وغيرها عن طريق الوحي، وأن الرسول عليه السلام لم يذهب إلى أماكن هؤلاء الرسل، ويشاهد أحداثها أو يحضر مشاهدتها.

وقد جمع الله تعالى لرسوله محمداً عليه السلام في التعقيب على قصة موسى عليه الصلاة والسلام بين ثلاثة أحوال عظيمة، وهي:

أولاً: كانت بداية أمر موسى عليه السلام بإعدادة لتلقي الوحي بين أهل مدين.

ثانياً: ومناجاة موسى واصطفاه، وتكليم الله تعالى له في جبل الطور.

ثالثاً: ثم إنزال التوراة عليه حتى تكامل الدين واستقر الشرع في عهده.

إِرْسَالُ الرُّسُلِ لِإِقَامَةِ الْحُجَّةِ وَقَطْعِ الْمَحْجَةِ

٤٧- ﴿وَلَوْلَا أَنْ تُصِيبَهُمْ مُصِيبَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَيَقُولُوا رَبَّنَا لَوْلَا أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ آيَاتِكَ وَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [٤٧]

هذه الآية تشير إلى أنَّ من رحمة الله تعالى بعباده ورأفته بهم، أنَّ يتعهدهم ببعثة الرسل؛ لتذكيرهم بعهد الفطرة المأخوذ عليهم، وتشريع ما فيه صلاحهم وسعادتهم، كلما طالت السنون، وانقضت القرون، ولولا هذه الرحمة بتذكيرهم وإنذارهم لكانوا مستحقين لحلول المصائب بهم، وذلك أنه لما بين عليه السلام أن رسالة محمد عليه السلام رحمة للناس؛ لتبليغهم ما كلف الله به عباده، بين كذلك أن هذه الرسالة لإقامة الحجة على الناس في الدنيا؛ حتى ينقطع عذرهم إذا نزلت بهم مصيبة، وعندما يحاسبون يوم القيامة، ويُنزل الله بهم

عذابه بسبب كفرهم؛ لئلا يقولوا: ربنا هلاً أرسلت إلينا رسولاً يبلغنا آياتك فتتبعها، ونكون من المصدقين بها العاملين بمقتضاها، ولو لم يحتجوا بعدم الإرسال إليهم لعاجلناهم بالعقوبة في الدنيا على كفرهم، ولما بعثناك إليهم رسولاً، ولكننا بعثناك إليهم لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل، كما قال تعالى: ﴿أَنْ تَقُولُوا إِنَّمَا أُنْزِلَ الْكِتَابُ عَلَى طَائِفَتَيْنِ مِنْ قَبْلِنَا وَإِنْ كُنَّا عَنْ دِرَاسَتِهِمْ لَغَافِلِينَ ﴿١٦١﴾ أَوْ تَقُولُوا لَوْ أَنَّا أُنْزِلَ عَلَيْنَا الْكِتَابُ لَكُنَّا أَهْدَى مِنْهُمْ فَقَدْ جَاءَكُمْ بَيِّنَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ ﴿١٦٢﴾﴾ [الأنعام].

وكما قال سبحانه: ﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ عَلَى فَتْرَةٍ مِنَ الرُّسُلِ أَنْ تَقُولُوا مَا جَاءَنَا مِنْ بَشِيرٍ وَلَا نَذِيرٍ فَقَدْ جَاءَكُمْ بَشِيرٌ وَنَذِيرٌ ﴿١٦٣﴾﴾ [المائدة: ١٦٣].

وهذا البشير النذير أرسله الله تعالى لإقامة الحجة وقطع المحجة؛ حتى لا يقول الكفار عند نزول العذاب بهم: ربنا هلاً أرسلت إلينا رسولاً من قبل أن ينزل بنا عذابك، فتتبع آياتك المنزلة في كتابك، والدالة على صدق نبيك، ونكون من المؤمنين بك.

الْيَهُودُ وَالْمُشْرِكُونَ يُكَذِّبُونَ التَّوْرَةَ وَالْقُرْآنَ، وَالرَّدُّ عَلَيْهِمُ

٤٨- ﴿فَلَمَّا جَاءَهُمُ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِنَا قَالُوا لَوْلَا أُوتِيَ مَثَلُ مَا أُوتِيَ مُوسَىٰ أَوَّلَهُمْ يَكْفُرُوا بِمَا أُوتِيَ مُوسَىٰ مِنْ قَبْلُ قَالُوا سِحْرَانِ (١) تَظَاهَرَا وَقَالُوا إِنَّا بِكُلِّ كَفْرٍ مِنْهُمَا وَكَافِرُونَ ﴿٤٨﴾﴾

أي: ولما جاءهم محمد ﷺ بالحق الذي لا مزية فيه، ومعه من المعجزات والآيات ما يُلزِمهم الحجة، قال المكذِّبون به على وجه العناد والتعنت والجحود: ﴿لَوْلَا أُوتِيَ مَثَلُ مَا أُوتِيَ مُوسَىٰ﴾ أي: هلاً أوتي محمد من المعجزات الحسية، مثل ما أوتي موسى من:

العصا، واليد، والطوفان، والجراد، والقمل، والضفادع، والدم، ونقص الزروع والثمرات، وفتق البحر، وتظليل الغمام، وإنزال المن والسلوى، وغيرها من المعجزات الحسية، كما أيده الله بالتوراة التي نزلت عليه.

(١) قرأ عاصم وحمزة والكسائي وخلف (قالوا سحران) خبر لمبتدأ محذوف، أي: هما سحران، والضمير يعود على القرآن والتوراة، وقرأ الباقون (ساحران) تشية ساحر، خبر لمبتدأ محذوف أيضاً، أي: هما ساحران، أي: محمد وموسى عليهما السلام.

قيل: إن اليهود أرسلوا إلى قريش، أن يسألوا محمداً ﷺ مثل ما أوتي موسى من المعجزات الحسية، فقال تعالى في الرد عليهم: ﴿أَوَلَمْ يَكْفُرُوا بِمَا أُوتِيَ مُوسَى مِنْ قَبْلُ﴾ أي: أو لم يكفر اليهود بما أنزله الله على موسى، ولم تنجع فيهم هذه المعجزات؟ كما قال تعالى عنهم: ﴿قَالُوا أَجِئْنَا لِنُلْفِنَا عَمَّا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا وَتَكُونَ لَكُمُ الْكِرْبَاءُ فِي الْأَرْضِ وَمَا نَحْنُ لَكُمُ بِمُؤْمِنِينَ﴾ ﴿٧٨﴾ [يونس].

كيف يطلبونها وقد كفروا بمثلها من قبل، مما أيدنا به موسى ﷺ، وهذا تناقض وإبطال للحق بغير دليل.

ومن مظاهر كفر بني إسرائيل أن الذين نجوا من الغرق منهم طلبوا من موسى ﷺ -بعد نجاتهم مباشرة- أن يصنع لهم وثناً يعبدونه كسائر الوثنيين، قال تعالى: ﴿وَجَوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَءِيلَ الْبَحْرَ فَأَتَوْا عَلَى قَوْمٍ يَعْكُفُونَ عَلَى أَصْنَانٍ لَهُمْ قَالُوا يَمُوسَى اجْعَلْ لَنَا إِلَهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ﴾ [الأعراف: ١٣٨].

ثم قال تعالى مخبراً عن قول اليهود والمشركين عن موسى ومحمد عليهما السلام: ﴿قَالُوا سِحْرَانِ تَظَاهَرَا﴾ يعني: أن التوراة والقرآن من قبيل السحر، تعاون كل منهما على تصديق الآخر.

وفي القراءة الأخرى: ﴿قَالُوا سَاحِرَانِ تَظَاهَرَا﴾، والمراد: محمد وموسى عليهما السلام. ويصح أن يكون القائل هم المشركون وحدهم، وأنهم قد أعلنوا كفرهم بالتوراة؛ لأنها تصدق القرآن.

وَرَدَ أن مشركي مكة بعثوا إلى رؤساء اليهود بالمدينة، يسألونهم عن محمد ﷺ فأخبروهم أن نعته موجود في التوراة، فلما أخبر المشركون بقول اليهود قالوا: ﴿سِحْرَانِ تَظَاهَرَا وَقَالُوا إِنَّا بِكُلِّ﴾ أي: بالتوراة والقرآن، وبمحمد وبموسى ﴿كَفِرُونَ﴾ وهذا تصريح منهم بالكفر والإصرار على الطغيان والجحود.

وقال سعيد بن جبير، وأبو رزين في: (سَاحِرَانِ تَظَاهَرَا) هما: موسى وهارون.

قال ابن كثير: وهذا قول جيد قوي.

قلت: فيكون هذا من كلام مَنْ كفر بموسى، كفرعون وقومه.

والأولى حملة على من كفر برسالة موسى ورسالة محمد، فقد وصفوهما بالسحر؛ لأن سياق الآية في اليهود والمكذبين بخاتم المرسلين ﷺ.

ولكن هل كفرهم هذا طلبًا لما هو خير منهما، أم هو مجرد هوى، فإن كان الأمر كذلك، فليأتوا بما هو أهدى من القرآن كي نتبعه معهم! وهذا معنى قوله تعالى:

٤٩- ﴿قُلْ فَأْتُوا بِكِتَابٍ مِّنْ عِندِ اللَّهِ هُوَ أَهْدَىٰ مِمَّا أُتِيَ بِهِمَا إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿٤٩﴾﴾

أمر الله سبحانه رسوله محمدًا ﷺ أن يتحدى المكذبين بالتوراة والقرآن، ويُفحمهم بما يُخرس ألسنتهم، فيقول لهم: إن كنتم قد كفرتم بهذين الكتابين مع ما فيهما من الشرائع، والأحكام، ومكارم الأخلاق، فأتوا بكتاب مُنزل من عند الله هو أهدى وأقوم من التوراة والقرآن أتبعه، إن كنتم صادقين في زعمكم أنهما سحران، أو أن محمدًا وموسى ساحران، وليس في وسعهم أن يأتوا بمثلهما، فوجب الإيمان بهما والعمل بما فيهما، أي العمل بالتوراة مدة صلاحيتها في عهد موسى عليه السلام.

ومن المعلوم بالضرورة أن الله تعالى لم يُنزل كتابًا هو أكمل، ولا أشمل، ولا أفصح من القرآن الكريم، كما قال تعالى: ﴿وَهَذَا كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ فَاتَّبِعُوهُ وَاتَّقُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿١٥٥﴾﴾ [الأنعام].

ويليه في الشرف، الكتاب الذي أنزله الله على موسى، وهو الكتاب الذي قال الله فيه: ﴿إِنَّا أَنزَلْنَا التَّوْرَةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ ﴿٤٤﴾﴾ [المائدة: ٤٤].

وقد نزل الإنجيل معتمدًا على ما في التوراة من التشريع، ومتممًا لها، ومُجَلًّا لبعض ما حَرَّمَ الله على بني إسرائيل من الطيبات عقوبة لهم، قال تعالى: ﴿وَأَنبِئْنَاهُ بِالنَّبِيِّ فِيهِ هُدًى وَنُورٌ وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَةِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٤٦﴾﴾ [المائدة: ٤٦].

وبعد الإنجيل أيد الله نبيه محمدًا ﷺ بكتاب جَدَّد فيه الرسالات الأولى، وصحح فيه ما امتدت إليه أيدي البشر بالتحريف والتغيير في الكتب السابقة، كما قال تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيِّمًا عَلَيْهِ﴾ [المائدة: ٤٨].

٥٠- ﴿فَإِنْ لَّمْ يَسْتَجِيبُوا لَكَ فَاعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَاءَهُمْ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ اتَّبَعَ هَوَاهُ يَغْيِرْ هُدًى مِنَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ ﴿٥٠﴾

فإذا لم يأت هؤلاء المكذبون بكتاب هو أهدى من التوراة والإنجيل، فهم إذن متبعون لأهوائهم، ولا يوجد أضل ممن اتبع هواه بغير هدى من الله ﴿أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهُهُ هَوَاهُ وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَى عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَى سَمْعِهِ وَغَلَلَ عَلَى بَصَرِهِ غِشًوَةً فَمَنْ يَهْدِيهِ مِنْ بَعْدِ اللَّهِ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ [الجاثية ٢٣] قال تعالى:

أي: والذين تدبروا القرآن، وانتفعت أفئدتهم بالوحي، هدموا الأصنام، وحاربوا ألوان الشرك بالله، وأناروا بالتوحيد مشارق الأرض ومغاربها، ومن يكابر ولم يجنح إلى الحق من الكفار الجاحدين فهو متبع لهواه، ولا يستند إلى دليل ولا برهان.

والمعنى: فإن لم يجيبوك -يا محمد- إلى ما طلبت منهم من الإتيان بكتاب هو أهدى من الكتابين: التوراة والقرآن، فاعلم أنه إنما نزل بعلم الله، ولا حجة لهم في كفرهم، وإنما هم قوم اتبعوا أهواءهم، فهما طريقتان لا ثالث لهما: إما إيماناً، وإما كفراً وتكذيباً وشقاقاً، ولا أحد أكثر ضللاً ممن اتبع هواه بغير هدى من الله، والله تعالى لا يهدي القوم الظالمين، فلا يوفقهم للحق؛ لأنهم خالفوا أمر الله، وتجاوزوا حدوده، وكذبوا رسله وكتبه، وعرض عليهم الهدى فلم يقبلوه، فسدوا على أنفسهم أبواب الخير، وفتحوا عليها أبواب الغواية، وصار الظلم والعناد وصفاً لهم، والظالم في شقاء وهلاك، بعيد عن الهداية، وبعيد عن الطرق الموصلة إلى رضوان الله تعالى.

صِلَةُ الْقُرْآنِ بِمَا قَبْلَهُ مِنْ الْكُتُبِ

٥١- ﴿وَلَقَدْ وَصَّلْنَا لَهُمُ الْقَوْلَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ ﴿٥١﴾

أي: وهذا القرآن جاء موصولاً بما قبله من الكتب السماوية؛ لبيان أخبار الأمم الماضية، وقد أقام الله الحجة على كل من لم يؤمن بمحمد ﷺ، وقطع عذره بوصول هذا القرآن إليه، وأكد سبحانه في هذه الآية أنه قد أنزل هذا القرآن كما أنزل التوراة والإنجيل قبله، ووصل كلاً منها بالآخر، وأتبع بعضها بعضاً، وبيّن فيها أخبار الأمم الخالية، وبيّن كيف أن الله تعالى عذبهم بتكذيبهم، وأوصل لهم خبر الآخرة وهم في الدنيا، كأنهم عاينوا الآخرة في الدنيا، وقد فصّلنا ذلك، وبيّناه لعلهم يتعظون ويعتبرون.

﴿وَلَقَدْ وَصَّلْنَا لَهُمُ الْقَوْلَ﴾ في هذا القرآن ففصلناه وبيننا ما فيه من الوعد والوعيد، والقصص والعبر، والأحكام والتشريع، والمواعظ والنصائح؛ ليتعظوا ويتذكروا ما فيه.

أخرج ابن أبي حاتم بسنده إلى رفاة القرظي قال: نزلت ﴿وَلَقَدْ وَصَّلْنَا لَهُمُ الْقَوْلَ﴾ في عشرة أنا منهم^(١).

وما فضله الله تعالى من أخبار الأمم الماضية في كتابه، وما أنزله بمن كذب رسله موجه إلى الخلق جميعاً، وهم: أمة الدعوة من اليهود والنصارى، وسائر الملل والتحل من كل من يطلب منهم الدخول في الإسلام إلى يوم القيامة، ويشمل أيضاً أمة الإجابة الذين آمنوا برسالة محمد ﷺ.

والجميع مطالبون بالإيمان والعمل الصالح، والتخلي عن الشرك والكفر والمعاصي؛ للفوز بسعادة الدارين.

مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ دَخَلَ فِي الْإِسْلَامِ عَنْ قَنَاعَةٍ

٥٢- ﴿الَّذِينَ ءَاتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِهِ هُمْ بِهِ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٢﴾﴾

مدح ﷺ فريقاً من أهل الكتاب -اليهود والنصارى- آمنوا بالقرآن قبل نزوله من الذين لم يُبدّلوا ولم يُحرّفوا، آمنوا بالقرآن وبمحمد ﷺ، وصدقوا بهما فبينت هذه الآية أن الذين أعطاهم الله التوراة والإنجيل قبل القرآن -ممن أسلم من أهل الكتاب- هم بهذا القرآن يُصدّقون.

فالآية تعني: من آمن بمحمد ﷺ من أهل الكتاب بمقتضى ما بشرت به كتبهم.

وهذا كقوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مِنْ قَبْلِهِ إِذَا يُتْلَى عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا ﴿١٧﴾ وَيَقُولُونَ سُبْحَانَ رَبِّنَا إِنْ كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا ﴿١٨﴾ وَيَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ يَكُونُ وِزْرُهُمْ خُشُوعًا ﴿١٩﴾﴾ [إسراء].

وقوله تعالى: ﴿وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَمَنْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِمْ خَشِيعِينَ لِلَّهِ لَا يَسْتَرْوْنَ بِعَآيَتِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا أُولَٰئِكَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ﴾ [آل عمران: ١٩٩].

(١) «تفسير ابن أبي حاتم» برقم (٣٧٠) و«تفسير الطبري» (٦٥/٢٠) و«المعجم الكبير» للطبراني (٤٧/٥) قال الهيثمي في «مجمع الزوائد» (٨٨/٧): أخرجه الطبراني إلى رفاة بإسنادين، أحدهما متصل ورجاله ثقات، وصححه إسناده محقق ابن أبي حاتم.

وقوله تعالى: ﴿مِنَ أَهْلِ الْكِتَابِ أُمَّةٌ قَائِمَةٌ يَتْلُونَ آيَاتِ اللَّهِ آنَاءَ اللَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ ﴿١١٣﴾ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ أُولَٰئِكَ يُسْرِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَأُولَٰئِكَ مِنَ الصَّالِحِينَ ﴿١١٤﴾﴾ [آل عمران].

الْقُرْآنُ يَصِفُ مَنِ اعْتَنَقَ الْإِسْلَامَ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ بِسَبْعَةِ أَوْصَافٍ

الْوَصْفُ الْأَوَّلُ: الْإِيمَانُ وَالْإِسْلَامُ

٥٣- ﴿وَإِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ قَالُوا ءَأَمَنَّا بِهِ ؕ إِنَّهُ الْحَقُّ مِن رَّبِّنَا إِنَّنَا كُنَّا مِن قَبْلِهِ مُسْلِمِينَ ﴿٥٣﴾﴾

وقد حفل الإسلام بمن أسلم من أهل الكتاب، ورحَّب بهم أعظم ترحيب فوصفهم بأوصاف سبعة:

أولها: تصديقهم للقرآن عند استماعهم له، واعترافهم بأنه حق مُنزل من عند الله، وأنهم كانوا قبل التصديق به مسلمين موحدين لله ﷻ، وذلك أنهم إذا قرئ عليهم القرآن اطمأنوا له، وآمنوا به، وقالوا: هو من الوضوح بحيث لا يحتاج إلا لمجرد التلاوة؛ فهم قبل نزول القرآن كانوا مؤمنين بأن الله تعالى سيعث محمداً ﷺ، ويُنزل عليه القرآن، وكانوا مسلمين موحدين، فدين الله واحد، وهو الإسلام، ورأسه التوحيد.

فالمعنى: إن من اليهود والنصارى الذين نزل عليهم الكتاب قبل محمد ﷺ من إذا يُتلى عليهم القرآن قالوا: آمنا به وصدقناه؛ فهو الحق الذي لا باطل معه، لموافقته ما جاءت به الرسل، ومطابقته لما ذُكر في الكتب واشتماله على الأخبار الصادقة والأوامر والنواهي الموصلة لدار النعيم، وهو الهداية التي لا تشوبها ضلالة، وقد كنا قبله موحدين، مخلصين لله تعالى.

وَفِي هَذِهِ الْآيَةِ أَرْبَعَةُ أَوْصَافٍ لَهُمْ

الْوَصْفُ الثَّانِي: مُضَاعَفَةُ الْأَجْرِ لِمَنْ آمَنَ بِالرُّسُولَيْنِ: السَّابِقِ وَاللَّاحِقِ

٥٤- ﴿أُولَٰئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُم مَّرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُوا وَيَدْرَءُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٥٤﴾﴾

في هذه الآية أربعة أوصاف لمن دخل في الإسلام من أهل الكتاب، وهي:

١- أن الله تعالى يضاعف لهم الأجر.

٢- صبرهم على الطاعة وعلى الأذى الذي يلحقهم.

٣- مقابلة الشرك بالتوحيد والمعصية بالطاعة.

٤- إنفاق المال في الواجبات والمستحبات.

أي: وضمّن الحفاوة بمن آمن من أهل الكتاب بالرسالة الأخيرة، ما جاء في هذه الآية من بيان أنهم يؤتون أجرهم مرتين، أجرًا على الإيمان الأول، وأجرًا على الإيمان الثاني، وذلك بسبب صبرهم وثبوتهم على العمل، دون شك ولا شبهة.

إنهم يُعطون أجرهم مرتين على إيمانهم بالرسول السابق والرسول اللاحق؛ لأنهم آمنوا بكتابهم، ثم آمنوا بالقرآن، وذلك بالنسبة لمن أدرك رسالة محمد ﷺ من أهل الكتاب قبل موته.

ومن ذلك ما أخرجه الشيخان وغيرهما: من حديث أبي موسى الأشعري ؓ -واللفظ لمسلم- أن النبي ﷺ قال: «ثلاثة يُؤْتَوْنَ أجرهم مرتين: رجل من أهل الكتاب آمن بنبيه، وأدرك النبي ﷺ فآمن به واتبعه وصدّقه فله أجران، وعبد مملوك أدّى حق الله تعالى وحق سيده فله أجران، ورجل كانت له أمة فغداها فأحسن غذاها، ثم أدبها فأحسن أدبها، ثم أعتقها وتزوجها فله أجران»^(١).

فهم يُعطون أجر إيمانهم السابق وأجر إيمانهم اللاحق.

ومما قاله النبي ﷺ يوم الفتح من حديث أبي أمامة ؓ: «من أسلم من أهل الكتابين فله أجره مرتين، وله ما لنا، وعليه ما علينا، ومن أسلم من المشركين فله أجره، وله ما لنا وعليه ما علينا»^(٢).

فأهل الكتاب يُؤْتَوْنَ أجر إيمانهم برسولهم موسى أو عيسى عليهما السلام في مدة

(١) «صحيح مسلم» برقم (١٥٤) و«صحيح البخاري» برقم (٩٧، ٢٥٤٤، ٢٥٥١) والترمذي (١١١٦) والنسائي (٣٣٤٤) وابن ماجه (١٩٥٦) وأحمد (١٩٥٣٢).

(٢) أخرجه أحمد عن أبي أمامة، «المسند» (٢٥٩/٥) وهو برقم (٢٢٢٣٤) قال محققوه: صحيح، وفيه ابن لهيعة ضعيف، لكنه قد توبع، وأخرجه الطبراني في «المعجم الكبير» برقم (٧٧٨٦) والطحاوي في شرح مشكل الآثار (٢٥٧١) والطبري في التفسير (٢٧/٢٤٤).

صلاحية الرسالة، ويؤتون أجر إيمانهم بالرسول الخاتم إذا أدركوا رسالته.

الْوَصْفُ الثَّالِثُ: الصَّبْرُ

فهم يُعْطَوْنَ أجرهم مرتين؛ ﴿يَمَّا صَبَرُوا﴾ على أذى قومهم، وعلى أذى أهل ملتهم. والصبر من أعظم خصال البر وأجمعها للخيرات والمبرات، وأعونها على الزيادة من الصلاح والورع، فهم يصبرون على الإسلام الخالص، ويصبرون على تكاليف الدعوة. ويثبتون على هذا الإيمان دون زحزحة ولا ارتياب، وقد وصف الله أولي الألباب بأنهم يصبرون ابتغاء وجه ربهم كما جاء في آية سورة الرعد ٢٢ ﴿وَالَّذِينَ صَبَرُوا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ﴾ ووصف الله فريقاً من أهل الكتاب بقوله: ﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَيْمَةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِكَيْبِنَا يُوقِنُونَ﴾ [السجدة]

الْوَصْفُ الرَّابِعُ: ﴿وَيَذَرُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ﴾

أي: إن أهل الكتاب الذين أسلموا، يدفعون الشرك بالتوحيد، ويدفعون أذى المشركين بالعفو والصفح، ويدفعون المعصية بالطاعة، وهذا من سماحة النفوس بالإحسان، وفيه استعلاء على شهوة النفس؛ حيث لم يقابلوا السيئة بمثلاً، فهم يحسنون لكل أحد، حتى لمن أساء إليهم بالقول أو الفعل، ولا يوفق لهذا إلا ذو حظ عظيم. قال تعالى: ﴿وَلَا تَسْتَوِ الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ﴾ (٢٤) ﴿وَمَا يُلْقِهَا إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُلْقِهَا إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ﴾ (٢٥) [فصلت] ووصف الله أولي الألباب بقوله: ﴿وَيَذَرُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ﴾ [الرعد: ٢٢]

الْوَصْفُ الْخَامِسُ: ﴿وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ﴾

أي: إن أهل الكتاب الذين ملأ الإيمان قلوبهم يعملون بشرائع الإسلام، فهم يُخْرِجُونَ زكاة أموالهم، ويتصدقون على المحتاج بفضول أموالهم، ويبدلون في الطاعة وفي وجوه الخير، وهذا من سماحة النفوس بالمال، وفيه استعلاء على شهوة المال؛ حيث ينفقون مما رزقهم الله في سبيل الله من وجوه النفقة الواجبة والمستحبة.

وقد استحقوا الأجر مرتين؛ لأنهم خوطبوا أولاً من جهة نبيهم فآمنوا به، ثم خوطبوا

ثانيًا من جهة خاتم الرسل فآمنوا به، فلهم أجر الملتئين، ومن هؤلاء ورقة بن نوفل، وصهيب، وبعض يهود المدينة كعبد الله بن سلام، ورفاعة بن رفاع القرظي.

الْوَصْفُ السَّادِسُ: الْإِعْرَاضُ عَنِ اللَّغْوِ مِنَ الْقَوْلِ أَوْ الْفِعْلِ

٥٥- ﴿وَإِذَا سَمِعُوا اللَّغْوَ أَعْرَضُوا عَنْهُ وَقَالُوا لَنَا أَعْمَلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَلُكُمْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ لَا نَبْنِي الْجَهْلِينَ﴾

أي: إنهم إذا سمعوا القول الباطل، وساقط الكلام، وما لا فائدة فيه من جاهل خاطبهم به، أعرضوا عنه ولم يُصغوا إليه، وقالوا مقالة عباد الرحمن، في أدب جم، ورغبة في الهدى، ودعاء بالخير: نحن لا نشغل أنفسنا بالرد عليكم، وكلُّ منا يتحمل تبعات عمله، فأنتم لن تسمعوا منا إلا خيرًا، ولن نخاطبكم بمقتضى جهلكم، وهذا خير ما يقوله الدعاة إلى الله تعالى، فيتبرؤون مما عليه الجاهلون من اللغو والباطل، ويرفعون بأنفسهم عن هذا المستوى الهابط، قال تعالى في وصف المؤمنين ﴿وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ﴾ [المؤمنون] وقال تعالى في وصف عباد الرحمن ﴿وَالَّذِينَ لَا يَشْهَدُونَ الزُّورَ وَإِذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ مَرُّوا كِرَامًا﴾ [الفرقان]

قال الصاوي في شأن من دخلوا في الإسلام من أهل الكتاب: كان المشركون يسبون مؤمني أهل الكتاب ويقولون: تبتاً لكم، أعرضتم عن دينكم وتركتموه؟ فيعرضون عنهم، ويقولون: لنا أعمالنا ولكم أعمالكم^(١).

وهكذا مدح الله تعالى مؤمني أهل الكتاب بالإيمان، ثم مدحهم بالإحسان، ثم مدحهم بالعفو والصفح عن أهل العدوان.

الْوَصْفُ السَّابِعُ: عَدَمُ مَخَالَطَةِ الْجَاهِلِينَ إِلَّا لِحَاجَةٍ:

إن أهل الكتاب الذي حُسن إسلامهم لا يجبون مخالطة الجاهل بالله وبدينه الحق، وأنَّ مِنْ خَلْقِهِمْ طَلَبُ الْعِلْمِ وَمَكَارِمُ الْأَخْلَاقِ، فنحن ﴿لَا نَبْنِي الْجَهْلِينَ﴾. ولا نرضى لأنفسنا هذا المرتع اللئيم.

أسباب النزول: وهذه الآيات ذكر المفسرون في سبب نزولها روايات:

(١) «حاشية الصاوي على الجلالين» (٣/ ٢٢١).

١- منها: أنها نزلت في سبعين من القساوسة، بعثهم النجاشي إلى النبي ﷺ مع جعفر بن أبي طالب، فقرأ عليهم سورة يس، فبكوا وأسلموا، ثم عادوا، وأتوا بأموالهم لمواساة المسلمين الفقراء، قاله سعيد بن جبير.

٢- ومنها: أنها نزلت في وفد نصارى نجران، نحو عشرين رجلاً قدموا على النبي ﷺ بمكة حين بلغهم خبره، فكلموا النبي ﷺ وسألوه، ثم قرأ عليهم القرآن، ففاضت أعينهم بالدمع، واستجابوا لله والرسول، ثم اعترضهم أبو جهل ونفر من قريش، وعيروهم بتركهم دين من خلفهم، فقالوا: لنا أعمالنا ولكم أعمالكم، سلام عليكم، لا نبتغي الجاهلين^(١).

٣- وقال قتادة: نزلت في أناس من أهل الكتاب، كانوا على شريعة من الحق، يأخذون بها ويتنهون إليها، حتى بعث الله محمداً فآمنوا به وصدقوه، فأعطاهم الله أجرهم مرتين بما صبروا، وذكر منهم سلمان الفارسي، وعبد الله بن سلام^(٢).

٤- ومنهم وفد نصارى الحبشة، اثنا عشر رجلاً، بعثهم النجاشي ليستعلموا عن أمر النبي ﷺ بمكة، فلما جلسوا معه آمنوا به، وكان أبو جهل قريباً منهم يسمع ما يقولون، فلما خرجوا تبعهم، وقال لهم: خيبيكم الله من ركب، وقبحكم من وفد، لم تلبثوا أن صدقتموه؛ فقالوا: سلام عليكم، لنا أعمالنا ولكم أعمالكم، ولما رجعوا إلى النجاشي أسلم، وأسلم معه بعض نصارى الحبشة^(٣).

٥- وأخرج البخاري في تاريخه عن علي بن رفاعة قال: كان أبي من الذين آمنوا بالنبي ﷺ من أهل الكتاب، وكانوا عشرة، فلما جاؤوا جعل الناس يستهزئون بهم، ويضحكون منهم، فأنزل الله ﴿أُولَئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُمْ مَرَّتَيْنِ﴾^(٤).

٦- وقال الضحاك: ناس من أهل الكتاب آمنوا بالتوراة والإنجيل، ثم أدركوا محمداً ﷺ، فآمنوا به، فأتاهم الله أجرهم مرتين بما صبروا؛ بإيمانهم بمحمد ﷺ قبل أن يُبعث، وبتابعهم إياه حين بُعث، قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَءَامِنُوا بِرَسُولِهِ يُؤْتِكُمْ

(١) يُنْظَرُ: «سيرة ابن هشام» (٣٩٢/١).

(٢) الطبري (٥٦/٢٠).

(٣) يُنْظَرُ: «سيرة ابن هشام» (٣٩٢/١).

(٤) البخاري في التاريخ (٢٧٤/٦).

كَفَلَيْنِ مِنْ رَحْمَتِهِ وَجَعَلْ لَكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ﴿[الحديد: ٢٨].

وأياً ما كان السبب، فإن الآيات تمدح كل من أسلم من أهل الكتاب وغيرهم، وتذم كل من أعرض عن دعوة الإسلام، ومنهم مشركو مكة الذين لم يدخل بعضهم في الإسلام مع وجود الرسول ﷺ بين أظهرهم.

هذا: وقد دخل في الإسلام كثير من بلاد العالم عن طريق التجار المسلمين، بمجرد رؤية السلوك والقدوة في أبناء الإسلام.

إن الآلاف من الجاليات غير المسلمة التي تعمل في بلاد الإسلام في وقتنا الحاضر يدخلون في الإسلام من تلقاء أنفسهم يومياً، جماعات وأفراداً، وفي غير بلاد المسلمين كذلك.

إن الشمال الأفريقي وغرب آسيا كانا مليئين بأهل الكتاب في ظل الحكم الروماني، فدخلوا في الإسلام بمجرد تعرّفهم عليه، واطمئنّانهم إلى حقائقه، أما وثنيو الجزيرة العربية فقد صدوا عن السبيل أول أمرهم، وأعلنوا على الدين الجديد حرباً ضارية^(١).

حَرْصُ الرَّسُولِ ﷺ عَلَى إِسْلَامِ أَبِي طَالِبٍ

٥٦- ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ ﴿٥٦﴾﴾

إن أهل الكتاب الذين دخلوا في الإسلام في أول عهد الدعوة، لم يزد النبي ﷺ عن أن تلا عليهم آيات القرآن، أما من أحبّ الرسول دخوله في الإسلام، وكان حريصاً على هدايته، فقد استمر على كفره إلى أن اختطفه الموت.

وقد أجمع المفسرون على أن هذه الآية نزلت في شأن أبي طالب عم النبي ﷺ.

إن أبا طالب كان يحوط النبي ﷺ وينصره، ويقف معه في وجه قريش، ويحميه حتى يبلغ دعوته، وتحمل أبو طالب مقاطعة قريش الاقتصادية، ولكنه كان يفعل ذلك حباً لابن أخيه، وإباء ونخوة، فلما حضرته الوفاة دعاه النبي ﷺ إلى الإسلام فأبى، فتفجّع رسول الله ﷺ وخرج عنه، فمات على كفره.

(١) «نحو تفسير موضوعي لسور القرآن» ص ٣٠١.

وفي معنى هذه الآية قوله تعالى: ﴿إِنْ تَحَرَّصَ عَلَىٰ هُدَاهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ يُضِلُّ﴾ [النحل: ٣٧].

وقوله تعالى: ﴿وَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ فِتْنَتَهُ فَلَنْ تَمْلِكَ لَهُ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا﴾ [المائدة: ٤١].

والهداية المنفية في الآية هي خلق الهدى في قلب العبد، أما هداية الدلالة والإرشاد فهي التي قال الله فيها: ﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ [الشورى: ٥٢].

في صحيح مسلم وغيره: عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ﴾ نزلت في رسول الله ﷺ حيث راود عمه أبا طالب على الإسلام، وذلك أن النبي ﷺ قال لأبي طالب عند الموت: «يا عم، قل: لا إله إلا الله، أشهد لك بها يوم القيامة»، قال: لولا أن تعيرني قريش -وفي رواية: نساء قريش- يقولون: إنما حملته على ذلك الجزع، لأقررت بها عينك^(١)، ثم أنشد يقول:

ولقد علمت بأن دين محمد من خير أديان البرية دينا
لولا الملامة أو حذار مسبة لوجدتني سمحاً بذاك مبينا
ولكن على ملة الأشياخ: عبد المطلب، وعبد مناف، ثم مات، فأنزل الله الآية.

وفي صحيح البخاري وغيره، عن سعيد بن المسيب، عن أبيه، قال: لما حضرت أبا طالب الوفاة، جاء رسول الله ﷺ فوجد عنده أبا جهل، وعبد الله بن أبي أمية بن المغيرة، فقال: «أي عم، قل: لا إله إلا الله، كلمة أحاج لك بها عند الله»، فقال أبو جهل وعبد الله بن أبي أمية: أترغب عن ملة عبد المطلب؟

فلم يزل رسول الله ﷺ يعرضها عليه، ويعيد تلك المقالة، حتى قال أبو طالب آخر ما كلمهم: على ملة عبد المطلب، وأبى أن يقول: لا إله إلا الله، قال: فقال رسول الله ﷺ: «والله لأستغفرن لك، ما لم أنه عنك»، فأنزل الله ﴿مَا كَانَتْ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا أَنْ يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوا أُولَىٰ قُرْبَىٰ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ﴾ [التوبة: ١١٣].

وأنزل الله تعالى في أبي طالب، فقال لرسول الله ﷺ: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ

(١) «صحيح مسلم» برقم (٢٥).

اللَّهُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ ﴿١﴾ .

والمعنى: إنك -يا محمد- لا تهدي هداية توفيق من أحبت هدايته، ولكن ذلك بيد الله وفق علمه - سبحانه - بمن هو أهل للهداية ممن كان مستعداً لها .

أما هداية الإرشاد والدلالة فهي مهمتك ومهمة كل داعية إلى الله تعالى، أمراً بالمعروف ناهياً عن المنكر، وهو - سبحانه - أعلم بمن يصلح للهداية فيهديه، ولو كان الرسول قادراً على خلق الإيمان في القلب، لهدى مَنْ وَصَلَ إليه إحسانه، ونصره ومنعه من قومه عمه أبو طالب، ولكنه أرشده ونصحه دون جدوى .

قال سيد قطب رحمه الله: وإن الإنسان ليقف أمام هذا الخبر مأخوذاً بصرامة هذا الدين واستقامته، فهذا عمُّ رسول الله ﷺ وكافله وحاميه والذائد عنه، لا يكتب الله له الإيمان، على شدة حبه لرسول الله، وشدة حب رسول الله له أن يؤمن؛ لأن الله قد علم منه أنها محبة الأبوة، وعصبة القرابة (٢) .

والآية عامة، ويدخل فيها أبو طالب دخولاً أولياً .

مَغْبَةُ عَدَمِ اعْتِنَاقِ الْإِسْلَامِ مَخَافَةَ الْإِيزَاءِ وَالضَّرَرِ

٥٧- ﴿وَقَالُوا إِن نَّبِيعِ الْمَدْيَنَ مَعَكَ نُنْخِطِفُ مِنْ أَصْنَاءِ أَوْلَمَ ثُمَّ كُنْ لَهُمْ حَرَمًا ءَامِنًا يُجِئُ (٣) إِلَيْهِ نَمُرَتْ كُلِّ سَنَةٍ زَرْقًا مِّنْ لَّدُنَّا وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٥٧﴾﴾

أي: قال المكذبون للنبي ﷺ: إن نحن آمنّا بك، عادونا الناس وآذونا، فطمأنهم الله تعالى بأنهم في بلده الآمن، وأن أرزاقهم تأتي من كل مكان، فليحمدوا ربهم على ما هم فيه من نعمة، وأهل مكة هم المخاطبون بهذا وقت التنزيل، وأضرابهم كثير على مدى التاريخ، في كل زمان ومكان، ممن يخافون على أنفسهم وأموالهم من أعدائهم إن هم دخلوا في الإسلام، ومنهم أبناء غير المسلمين في بلاد الإسلام، ممن يريدون اعتناق

(١) «صحيح البخاري» برقم (٤٧٧٢) و«صحيح مسلم» برقم (٢٤) .

(٢) الظلال (٢٧٠٣/٥) بتصرف .

(٣) قرأ نافع وأبو جعفر ورويس بناء التأنيث في (يجي)، والباقون بياء التذكير، وجاز تذكير الفعل وتأنيثه لأن الفاعل مؤنث مجازياً .

الإسلام ويخافون من أهلهم!

فقد نزلت هذه الآية فيمن يعتذر عن اعتناق الإسلام بسبب الخوف على نفسه، أو الخوف على رزقه، أو الخوف من وقوع ضرر من الأضرار عليه.

وهكذا كان يعتذر بعضهم في العهد النبوي عن عدم الدخول في الإسلام، فيقول الحارث بن عثمان بن نوفل للنبي ﷺ: إنا لنعلم أن الذي تقول حق، ولكن إن اتبعناك على دينك خفنا أن تُخرجنا العرب من أرضنا؛ لإجماعهم على خوفنا، ولا طاقة لنا بهم^(١).

وذلك أن العرب كانوا في الجاهلية يُغير بعضهم على بعض، ويقتل بعضهم بعضاً، وأهل مكة آمنون حيث كانوا؛ لحرمة الحرم، ومن المعروف أن الحرم يأمن فيه الطباء من الذئاب، والحمام من الحداة^(٢).

فغير المسلمين يعتذرون عن عدم الدخول في الإسلام مخافة أن يتخطاهم أعداؤهم خارج الحرم.

ولما أنزل الله في (الحارث بن عثمان بن نوفل) وَمَنْ عَلَى شَاكِلَتِهِ هَذِهِ الْآيَةُ، بأنهم يخافون من إخراج قومهم لهم إن هم أسلموا، ألقمهم القرآن حجراً بأنه - سبحانه - مَكَّنْ لعباده في أرض الحرم، وجعلهم آمينين فيه؛ لحرمة بيته، فهم لا يخشون على أنفسهم قتلاً ولا أذى، ولا نقصاً في المواد الغذائية، مع أن مكة صحراء لا زرع فيها ولا ثمر.

أليس الذي آمَنَ لهم الحرم قادراً على أن يؤمِّنهم في كل مكان؟ لقد طمأنهم الله - سبحانه - بأن الثمرات والخيرات تجبى إليه من كل مكان: كالشام، ومصر، والعراق، واليمن، ومن غير بلاد المسلمين أيضاً، وأكثر الناس لا يعلمون - لجهلهم - أن الله هو الحافظ، وأن الأمن لا يكون إلا في جوار الله تعالى، وأن الخوف لا يكون إلا في البعد عن الله - سبحانه - وهو الذي منح الأمن لأهل الحرم ورزقهم.

فاعلموا - أيها الناس - أن الرزق من عند الله يأتيكم في أي مكان كنتم، وأن الله قد أمَّنكم في حرمة الأمن، ولو علم الخائفون على أنفسهم من اعتناق الإسلام أن الأمن

(١) «زاد المسير» (٢٣٢/٦) و«تفسير القرطبي» (٣٠٠/١٣) وغيرهما.

(٢) «زاد المسير» (٢٣٢/٦) و«تفسير الخازن» (٤٠٨/٣) و«السنن الكبرى» للنسائي (١١٣٨٥).

والخوف من عند الله، وأنهم آمنون أن يُتَخَطَّفُوا من أرضهم بالقتل، أو الأسر، أو النهب للأموال، لَدَخَلُوا في دين الله أفواجًا حيثما كانوا في أي مكان من العالم، فاشكروا الله على نعمة الأمن والأمان، الذي أطعمكم من جوع، وآمنكم من خوف.

ويشبه هذه الآية قوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا مَّأْمِنًا وَيُنْخَطِفُ النَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ﴾ [العنكبوت: ٦٧].

وقد امتنَّ الله على المسلمين بأن جعلهم أعزة بعد أن كانوا قلة مستضعفة، فقال سبحانه: ﴿وَأَذْكُرُوا إِذْ أَنْتُمْ قَلِيلٌ مُسْتَضْعَفُونَ فِي الْأَرْضِ تَخَافُونَ أَنْ يَنْخَطِفَكُمْ النَّاسُ فَأَوَانَكُمْ وَأَيْدِيكُمْ بِضُرِّهِمْ وَرَزَقَكُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [الأنفال].

وقد ردَّ الله سبحانه على هذه الشبهة التي قالوها: إننا نخشى إن اتبعنا ما جئت به من الهدى، وخالفنا مَنْ حوَّلنا من أحياء العرب، أن يؤذونا ويحاربونا.

ردَّ الله تعالى عليهم بهذا البيان الواضح، وأنه - سبحانه - قد عصم دماءهم وحرَّمها، وهم في بلد الله الأمن، والناس في غيره يتقاتلون، فكيف إذا آمنوا واهتدوا؟

قال قتادة: كان أهل الحرم آمنين يذهبون حيث شاؤوا، فإذا خرج أحدهم وقال: أنا من أهل الحرم، لم يعرض له أحد، وكان غيرهم من الناس إذا خرج أحدهم قُتل وسُلب^(١).

وكما تحقق رَغْد العيش والأمن من الخوف لمن دخل في الإسلام من جزيرة العرب، فقد تحقق لكل من دخل فيه من أرجاء المعمورة، وقد خصَّ الله أهل مكة بوفرة الرزق وتحقيق الأمن، والناس من حولهم لا ينعمون بهذا الأمن، ولا يرغد العيش الذي هم فيه.

عَوَاقِبُ الْكُفْرِ وَخِيَمَةُ

٥٨ - ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَرْيَةٍ بَطَرَتْ مَعِيشَتَهَا فَبَلَكَ مَسْكِنُهُمْ لَوْ تَشْكُرُونَ مِنْ بَعْدِهِمْ إِلَّا قَلِيلًا وَكُنَّا نَحْنُ الْوَارِثِينَ﴾ (٥٨)

ثم هدد القرآن غير المسلمين بعواقب الكفر، وبَيَّن لهم أنهم إن أرادوا اتقاء المهالك،

(١) عبد الرزاق (٩٦/٢) وابن أبي حاتم (٢٩٩٦/٩).

وأن يأمنوا على أنفسهم وعلى أموالهم عدم التخطف، فليحذروا بطر النعمة، وعدم الشكر عليها، وليحذروا التفاخر والاشتغال بلهو الدنيا.

ومقتضى ذلك هو الإيمان بالله وبالرسول، فإن عدم الإيمان، وعدم الشكر على النعم هو سبب الهلاك، كما قال تعالى: ﴿وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ ءَامِنَةً مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِنْ كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللَّهِ فَأَذَقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ﴾ [النحل].

وكثير من أهل القرى كانت أحوالهم كحال أهل مكة في أمن وسعة من الرزق، فلما طغوا وبغوا، ويطروا معيشتهم، واستعملوا نعم الله تعالى في الشر لا في الخير، وفي الفسق لا في الطاعة، أهلكهم الله تعالى، فأخذهم أخذ عزيز مقتدر، ودمر قراهم تدميرًا، فها هي مساكنهم ترونها -كعاد، وشمود، ولوط- خاوية، تتحدث عن مصارع أهلها، ولم يرثها بعدهم أحد.

قال ابن عباس ؓ: لم يسكنها إلا المسافرون سكونًا قليلًا، وقيل: لم يعمر منها إلا قليل، وأكثرها خراب.

لَا عُقُوبَةَ بِدُونِ إِقَامَةِ حُجَّةٍ

٥٩- ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرَى حَتَّى يَبْعَثَ فِي أُمَمٍ^(١) رَسُولًا يَتْلُوا عَلَيْهِمْ ءَايَاتِنَا وَمَا كُنَّا مُهْلِكِي الْقُرَى إِلَّا وَأَهْلُهَا ظَالِمُونَ﴾ [٥٩]

ومن رحمة الله تعالى بعباده أنه لا يعذب أحدا بمجرد كفره قبل إقامة الحجة عليه بإرسال الرسل وإنزال الكتب، وبيان الحق من الباطل، والهدى من الضلال.

وفي هذه الآية، يقيم الله تعالى الحجة على عباده بإرسال الرسل، يُبَيِّنُ أنه سبحانه لا يعذب أحدًا من خلقه إلا بعد إنذارهم، وتماديهم في الظلم والطغيان، وهذه سُنة الله تعالى في خلقه أن يرسل في كل أمة رسولًا؛ لإلزام الحجة، وقطع المَعذرة، فلا يهلك - سبحانه - أمة إلا بعد إذارها وإنذارها، ومن ذلك هذه الأمة، فقد أرسل الله في أم

(١) قرأ حمزة والكسائي بكسر الهمزة وصلًا من (في أمها)، والباقون بضمها، وجميع القراء يبدؤونها بهمزة مضمومة.

القرى رسولاً، هو محمد ﷺ، يتلو على الثقلين القرآن، يشرهم وينذرهم؛ ويدلهم على صدق ما جاء به من عند الله، فيبلغ قاصيهم ودانهم، لإقامة الحجة عليهم يوم لقاء الله، وهلاك الأمم لا يكون إلا بسبب الكفر والشرك، وما كان ربك مهلك القرى التي حول مكة في عصر التنزيل؛ حتى يرسل في مكة رسولاً يحذرهم وينذرهم.

وهذه الآية عامة لأهل الأرض كلهم، وقد كانت الرسالة الخاتمة من مكة؛ لأن الأرض دُحيت من تحتها، ولأن الكعبة في محاذة البيت المعمور، ولأنها تتوسط العالم، ورسالة النبي ﷺ عامة إلى الخلق جميعاً، وقائمة إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها.

في الصحيحين من حديث جابر رضي الله عنه: أن النبي ﷺ قال: «بعثت إلى الناس عامة»^(١).

وقال تعالى: ﴿مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَكِن رَّسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ﴾ [الأحزاب: ٤٠].

وقال سبحانه: ﴿قُلْ يَتَّيْنَاهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا﴾ [الأعراف: ١٥٨].

وقال سبحانه: ﴿بَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا﴾ [الفرقان: ١].

وهلاك الأمم لا يكون إلا بعد إصرارهم على الكفر مع إعذارهم وإنذارهم، وإقامة الحجة عليهم.

قال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ الْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلِهَا مُصْلِحُونَ﴾ [هود: ١٧].

ومادام الهلاك بسبب الكفر والمعاصي، فإن الركون إلى الدنيا ضلال وخسران.

مَتَاعُ الدُّنْيَا وَمَتَاعُ الْآخِرَةِ

٦٠- ﴿وَمَا أُوتِيتُمْ مِّن شَيْءٍ فَمَتَّعُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزَيَّنَّهَا وَمَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾^(٢)

في هذه الآية ترغيب في العمل للآخرة، وتزهيد في الدنيا وعدم الاغترار بما فيها، من: مال ومتاع ونساء وبنين ولذائذ ومساكن ومطاعم ومشارب، بحيث لا تلهيهم عما هو خير وأبقى، فإن العاقل يؤثر ما يبقى على ما يفنى.

(١) من حديث جابر في البخاري برقم (٣٣٥) ومسلم (٥٢١).

(٢) قرأ أبو عمرو بخلف عن السوسي بياء الغيب في (تعقلون) على الالتفات، والباقون بقاء الخطاب، وهو الوجه الثاني للسوسي.

وهكذا أخذت الآيات تُتابع النصائح؛ لثُرْغَب في اتباع الحق، وتُحذَر من شهوات الدنيا، فمتاع الحياة الدنيا بكامله شيء ضئيل بالنسبة لما عند الله، فلا تخشوا حرباً ولا تعطيلاً للتجارة، وما أُعْطِيتُم من الأموال والأولاد فإنما هو متاع تتمتعون به، وزينة تترنون بها في الدنيا، وما عند الله لأهل طاعته خير وأبقى، وكثير من الناس يبيع الحقيقة بضمن بخس، ولا يبالي بالعواقب، وإلا فما ضرَّ فرعون وأمثاله لو أنه عقل وعدل، بدل أن يستكبر ويظغى ويمشي مختالاً على رقاب العباد.

صحَّ في الحديث عن المستورد بن شداد رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «والله ما الدنيا في الآخرة إلا مثل ما يجعل أحدكم أصبعه هذه في اليم، فليُنظر بم ترجع»^(١).

قال تعالى: ﴿قُلْ مَنْعَ الدُّنْيَا قَلِيلٌ وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ لِمَنِ اتَّقَى وَلَا تُظْلَمُونَ فَتِيلًا﴾ [النساء: ٧٧]. وقال تعالى: ﴿مَا عِنْدَكُمْ يَفْءَدُ وَمَا عِنْدَ اللَّهِ بَاقٍ﴾ [النحل: ٩٦].

وفي الحديث: عن أنس بن مالك رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «يؤتى بأنعم أهل الدنيا من أهل النار يوم القيامة، فيُصبغ في النار صبغة، ثم يقال: يا بن آدم، هل رأيت خيراً قط؟ هل مرَّ بك نعيم قط؟ فيقول: لا والله يا رب، ويؤتى بأشد الناس بؤساً في الدنيا من أهل الجنة، فيصبغ صبغة في الجنة، ثم يقال: يا بن آدم، هل رأيت بؤساً قط؟ هل مرَّ بك شدة قط؟ فيقول: لا والله يا رب، ما مرَّ بي بؤس قط، ولا رأيت شدة قط»^(٢).

وفي هذا يقول سبحانه: ﴿وَلَكِنْ مَسَّتْهُمْ نَفْحَةٌ مِّنْ عَذَابِ رَبِّكَ لَيَقُولُنَّ إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ﴾ [الأنبياء: ٤٦].

أفلا تتدبرون -أيها الناس- فتعرفون الخير من الشر، وتُقدِّمون العمل للحياة الباقية على العمل للحياة الفانية، قال تعالى: ﴿بَلْ تُؤْثِرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ۖ وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ﴾ [الأعلى: ١٦]. وقال سبحانه: ﴿وَمَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ لِلَّازِرِينَ﴾ [آل عمران: ١٩٨].

قال الفخر الرازي: بيّن تعالى أن منافع الدنيا مشوبة بالمضار، بل المضار فيها أكثر، ومنافع الآخرة غير منقطعة، بينما منافع الدنيا منقطعة، ومتى قوبل المتناهي بغير المتناهي

(١) من حديث المستورد بن شداد في «صحيح مسلم» برقم (٢٨٥٨).

(٢) من حديث أنس بن مالك في «صحيح مسلم» برقم (٢٨٠٧).

كان عدماً، فكيف ونصيب كل أحد من الدنيا كالذرة بالقياس إلى البحر؟ فمن لم يرجح منافع الآخرة على منافع الدنيا يكون كأنه خارج عن حدّ العقل^(١).

وأصحاب العقول يوازنون بين السعي للدنيا والسعي للآخرة، كما قال تعالى:

٦١- ﴿أَفَنَ وَعَدَنَّهُ وَعْدًا حَسَنًا فَهُوَ لَاقِيهِ كَمَنْ مَنَعْنَاهُ مَنَعَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ هُوَ يَوْمَ الْقِيَمَةِ مِنَ الْمُحْضَرِينَ﴾

هذه الآية تنفي التسوية بين أهل الجنة وأهل النار، فلا يستوي الإيمان والكفر، ولا يستوي من صدّق بوعد الله تعالى من الثواب الحسن على الأعمال الصالحة، بمن هو كافر مُكذّب بقاء الله تعالى ووعدته ووعدته، فهل يستوي المؤمن والكافر؟ والمصدق والمكذب؟ وهل يستوي أبناء الدنيا وأبناء الآخرة؟

والجواب: لا يستوي المؤمن المطيع الذي يعمل لِلْجَنَّةِ، بمن أذهب طيباته في الحياة الدنيا واستمتع بها، فعُجِّلَتْ له لذته في الدنيا، ثم يحضر يوم القيامة للحساب والجزاء العادل.

﴿أَفَنَ وَعَدَنَّهُ وَعْدًا حَسَنًا فَهُوَ لَاقِيهِ﴾ هذا هو المؤمن، وعده الله الجنة، وهي داره ومسكنه في الآخرة، فهو مُلاقٍ ما وُعد به وصائر إليه يوم القيامة.

أما غير المؤمن فإن الدنيا جنته ينال فيها حظوظه، وليس له في الآخرة من نصيب، وهذا هو المراد بقوله تعالى في بقية الآية: ﴿كَمَنْ مَنَعْنَاهُ مَنَعَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ هُوَ يَوْمَ الْقِيَمَةِ مِنَ الْمُحْضَرِينَ﴾ وهو الكافر، يتمتع في الدنيا، ويأكل كما تأكل الأنعام، وقد نسي لقاء الله، فيلقى جزاءه المناسب يوم القيامة، ويذهب عنه ما كان يفخر به على الناس، فيقال لهم: ﴿وَارْجِعُوا إِلَى مَا أُتْرِفْتُمْ فِيهِ وَمَسْكَنُكُمْ﴾ [الأنبياء: ١٣].

والمؤمن يحمد الله يوم القيامة أنه من غير المحضرين إلى جهنم، فيقول:

﴿وَلَوْلَا نِعْمَةُ رَبِّي لَكُنْتُ مِنَ الْمُحْضَرِينَ﴾ [الصافات].

والجن والإنس يعلمون أنهم محضرون للحساب أمام رب العالمين يوم لقائه

﴿وَلَقَدْ عَلِمَتْ الْجِنَّةُ إِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ﴾ [الصافات: ١٥٨].

(١) «التفسير الكبير» (٢٥/٢٦).

(٢) قرأ الكسائي وقالون وأبو جعفر بخلف عنهما بإسكان الهاء من (ثم هو)، والباقون بضمها.

والكافر يدعو على نفسه بالويل، والنبور، والهلاك كما قال تعالى: ﴿وَأَعْتَدْنَا لِمَن كَذَّبَ بِالسَّاعَةِ سَعِيرًا ۝١١ إِذَا رَأَتْهُم مِّن مَّكَانٍ بَعِيدٍ سَمِعُوا لَهَا تَغَيُّطًا وَزَفِيرًا ۝١٢ وَإِذَا أُلْقُوا مِنْهَا مَكَانًا ضَيِّقًا مُّقَرَّبِينَ دَعَوْا هُنَالِكَ ثُبُورًا ۝١٣ لَا تَدْعُوا الْيَوْمَ ثُبُورًا وَاحِدًا وَادْعُوا ثُبُورًا كَثِيرًا ۝١٤﴾ [الفرقان].
لأنه قد أخذ حظه في الدنيا كاملاً ﴿وَيَوْمَ يُعْرَضُ الَّذِينَ كَفَرُوا عَلَى النَّارِ أَلْهَبْتُمْ طَيِّبَتَكُمْ فِي حَيَاتِكُمْ الدُّنْيَا وَاسْتَمْتَعْتُمْ بِهَا﴾ [الأحقاف: ٢٠]. فليختر العاقل لنفسه ما هو أولى بالنجاح والفلاح.

ثَلَاثَةُ أَسْئَلَةٍ لِلْمُشْرِكِينَ فِي سَاحَةِ الْعَرْضِ:

ويوم القيامة يُسأل المشرك عن شركه، ويسأل عن إجابته لرسول الله الذين أمروه بالتوحيد، ويُسأل عَمَّنْ أشركه مع الله تعالى في عبادته، أين هو في عرصات القيامة:

السُّؤَالُ الْأَوَّلُ عَنِ جَانِبِ التَّوْحِيدِ

٦٢- ﴿وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ^(١) يَقُولُ أَتِنَّ شُرَكَاءِيَ الَّذِينَ كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ ۝١٢﴾

وهذه ثلاثة أسئلة توجه إلى المشركين يوم القيامة، منها سؤالان عن التوحيد الذي جاء به الرسل، وسؤال عن إجابة خاتم المرسلين ﷺ: وذلك أنه حين يحضر العباد بين يدي ربهم للحساب والجزاء، يسأل الله تبارك وتعالى الذين لم يوحدوه، ولم يفردوه بالعبادة فأشركوا معه غيره، يسألهم ربهم ثلاثة أسئلة، للتأنيب، والتوبيخ، والتقريع، والتهديد:

السؤال الأول: يتعلق بالتوحيد، حيث يسأل الله المشركين عن وجود الشركاء معهم في ساحة العرض، هل هم متواجدون معهم الآن أم لا؟ والله تعالى يَعْلَمُ أنه لا وجود لهم، ولكنه الخزي والفضيحة على رؤوس الأشهاد، فيسألهم: ﴿أَتِنَّ شُرَكَاءِيَ الَّذِينَ كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ﴾ في الدنيا أنهم شركائي؛ لكي ينصروكم اليوم، أو يدفعوا عنكم العذاب، أو يشفعوا لكم عند الله كما كنتم تزعمون؟ ومفعول تزعمون محذوف اختصاراً، أي: ﴿تَزْعُمُونَ﴾ أنهم شركاء لله، أين هم بذواتهم، وأين نفعهم، وأين دفعهم العذاب عنكم؟ وهذا كقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرْدَىٰ كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَتَرْكُم مَّا خَوَّلْنَاكُمْ وَرَاءَ ظُهُورِكُمْ وَمَا نَرَىٰ مَعَكُمْ شُفَعَاءَكُمُ الَّذِينَ زَعَمْتُمْ أَنَّهُمْ فِيكُمْ شُرَكَاءُ لَقَدْ تَقَطَّعَ بَيْنَكُمْ وَضَلَّ عَنْكُمْ

(١) قرأ يعقوب بضم الهاء من (يناديهم)، والباقون بكسرها.

مَا كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ ﴿٦٤﴾ [الأنعام].

وليس المقصود الإجابة على هذا السؤال، فهو معلوم، وإنما المقصود إظهار براءة التابعين من المتبوعين.

تَبَرُّوْا الْمَعْبُودِينَ مِنَ الْعَابِدِينَ فِي عَرَصَاتِ الْقِيَامَةِ

٦٣- ﴿قَالَ الَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ رَبَّنَا هَؤُلَاءِ الَّذِينَ أَغْوَيْنَا أَغْوَيْنَاهُمْ كَمَا غَوَيْنَا تَبَرَّأْنَا إِلَيْكَ مَا كَانُوا إِيَّانَا يَعْبُدُونَ﴾ ﴿٦٣﴾

قال الذين وجب عليهم العذاب من رؤساء الكفر والضلال، من كل من رضي لنفسه العبادة والطاعة من دون الله: قال: ربنا هؤلاء أتباعنا الذين أضللناهم - كما ضللنا - حيث دعوناهم إلى الكفر الذي كنا عليه فأطاعونا، وإغواؤنا لهم لم يكن إلا مجرد وسوسة وتسويل، وليس فيه قسر ولا إكراه لهم، فلا فرق بين ضلالنا وضلالهم، وإن كنا دعوناهم إلى الكفر فقد دعوتهم إلى الإيمان، وأعطيتهم عقولاً، وأرسلت إليهم الرسل، وأنزلت عليهم الكتب، وهذا كقول الشيطان لَمَّا قَضَى الْأَمْرُ: ﴿إِنَّكَ اللَّهُ وَعَدَكُمْ وَعَدَ الْحَقُّ وَوَعَدْتُهُمْ فَأَخْلَفْتُهُمْ وَمَا كَانَ لِي عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ إِلَّا أَنْ دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي فَلَا تَلُمُونِي وَلَوْلَا أَنْفُسُكُمْ﴾ [إبراهيم: ٢٢].

ثم يحاولون أن يتبرؤوا من جريرة إغوائهم، فيقولون: ﴿تَبَرَّأْنَا إِلَيْكَ﴾ منهم ومن كفرهم، ومن ولايتهم ونصرتهم، فما كانوا يعبدوننا، بل عبدوا شهواتهم، وأطاعوا أهواءهم، فيتبرؤون منهم على الملأ، كما قال تعالى:

١- ﴿ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ وَلَيَعْلَنَ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ﴾ [العنكبوت: ٢٥].

٢- وقال سبحانه: ﴿إِنْ تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا دُعَاءَكُمْ وَلَوْ سَمِعُوا مَا اسْتَجَابُوا لَكُمْ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُونَ بَشِرِكِكُمْ﴾ [فاطر: ١٤].

٣- وقال تعالى عن كل ما عبد من دون الله: ﴿وَإِذَا حُشِرَ النَّاسُ كَانُوا لَهُمْ أَعْدَاءً وَكَانُوا بِعِبَادَتِهِمْ كُفْرِينَ﴾ [الأحقاف].

٤- وقال جل شأنه: ﴿كَلَّا سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا﴾ ﴿٨٢﴾ [مريم].

٥- وقال ﷻ: ﴿إِذْ تَبَرَّأَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا وَرَأَوْا الْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ الْأَسْبَابُ ۖ وَقَالَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا لَوْ أَنَّا كَرِهْنَا لَنَّا كَرِهْنَا مَنَّمْ كَمَا تَبَرَّأُوا مِنَّا كَذَلِكَ يُرِيهِمُ اللَّهُ أَعْمَلَهُمْ حَسَرَاتٍ عَلَيْهِمْ وَمَا هُمْ بِخَارِجِينَ مِنَ النَّارِ﴾ [البقرة].

وهكذا يتبرأ المعبودون ممن عبدوهم، ويتصلون منهم في ساحة العرض والحساب. والذي حملهم على هذا التنصل، ما شاهدوه من فظاعة عذاب الشركاء يوم القيامة، وحين يجدون قول الله تعالى: ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنتُمْ لَهَا وَرِدُّوكُمْ﴾ [الأنبياء] واقعاً مشاهداً، قال تعالى:

٦٤- ﴿وَقِيلَ ادْعُوا شُرَكَاءَكُمْ فَدَعَوْهُم فَذَرَوْهُم فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُمْ وَرَأَوُا الْعَذَابَ لَوْ أَنَّهُمْ كَانُوا يَهْتَدُونَ﴾ [٦٤] أي: يقال للمشركين يوم القيامة زيادة في التهكم والتبكيت: ﴿ادْعُوا شُرَكَاءَكُمْ﴾ الذين كنتم تعبدونهم من دون الله في الدنيا ليخلصوكم من العذاب، وينقذوكم مما أنتم فيه، فاستغاثوا بهم ودعوهم، فلم يجيبوهم، ولم ينفعوهم، ولم يلتفتوا إليهم، وقد فعلوا ذلك شدة حيرتهم، وسخافة عقولهم.

وتمنَّوا حين شاهدوا العذاب بأعينهم، وتيقنوا أنهم صائرون إلى النار لا محالة، لو أنهم كانوا في الدنيا من المهتدين، وهذا كقوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ يَقُولُ نَادُوا شُرَكَائِيَ الَّذِينَ زَعَمْتُمْ فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُمْ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُم مَّوْبِقًا ۖ وَرَأَى الْمُجْرِمُونَ النَّارَ فَظَنُّوا أَنَّهُم مُّوَاقِعُوهَا وَلَمْ يَجِدُوا عِنَّا مَصْرِفًا ۖ﴾ [الكهف]. وكل من التابع والمتبوع يتبرأ من الآخر في هذا اليوم العظيم.

السُّؤَالُ الثَّانِي فِي سَاحَةِ الْعَرَضِ: عَنِ الْإِيمَانِ بِالرَّسَالَةِ الْآخِرَةِ

٦٥، ٦٦- ﴿وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ مَاذَا أَجَبْتُمُ الْمُرْسَلِينَ ۖ﴾ [٦٥] فَعَمِيَتْ عَلَيْهِمُ الْأَنْبَاءُ يَوْمَئِذٍ فَهُمْ لَا يَتَسَاءَلُونَ﴾

هذا هو السؤال الثاني: وهو عن موقف المشركين من دعوة الرسل بأي شيء أجاب المكذبون للرسل في الدنيا عما أرسلناهم به؟ والمراد بالمرسلين في الآية: دعوة محمد ﷺ على وجه الخصوص، فهي الرسالة العامة والآخرية، وهذا كقوله تعالى: ﴿فَكَذَّبُوا رُسُلِي﴾ [سبا: ٤٥]. وكل من كذب رسولا فقد كذب الرسل، كما قال تعالى: ﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ الْمُرْسَلِينَ﴾ [الشعراء].

وقوم نوح لما كذبوا نوْحًا فقط، فكأنهم كذبوا جميع الرسل، وهكذا سائر الرسل.

فيسأل المكذبون من هذه الأمة: هل صدقتم محمدًا ﷺ، أم كذبتموه؟ وماذا كان جوابكم له؟ كيف كان حالكم معه؟ كما يسأل الإنسان في قبره عن ربه وعن دينه وعن نبيه، فيجيب المؤمن: ربي الله، وديني الإسلام، ومحمد نبيي، والكافر يقول: لا أدري، فلا جواب له غير السكوت؛ ولا يهتدى للصواب، لأنه لما كان في الدنيا أعمى كان في الآخرة أعمى وأضل سبيلاً، ومن المعلوم أنه لا ينجي في هذا الموقف إلا الجواب الصريح الصحيح المطابق للحال، وهو الإيمان والاتباع، ولكن المكذبين يعلمون أنهم كذبة معاندون، ولذا لم ينطقوا بشيء.

وعن إجابة الرسل يوم القيامة يقول تعالى: ﴿يَوْمَ يَجْمَعُ اللَّهُ الرُّسُلَ فَيَقُولُ مَاذَا أَجَبْتُمُ﴾ [المائدة: ١٠٩].

ويقول سبحانه: ﴿فَلَنَسْأَلَنَّ الَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْأَلَنَّ الْمُرْسَلِينَ﴾ [الأعراف].

والله تعالى يعلم الجواب، ولكنه سؤال للتأنيب والتفريع، ولذا: فإنهم يصابون بالذهول والصمت تجاه السؤال.

وقد خفيت عليهم الأدلة والبراهين، وقطعت عنهم الحجج، فلا يدرون ماذا يجيبون، ولا يهتدون إلى جواب، ولم يجدوا مغالطة ولا جواباً ملفقاً ينكرون به ما وجه إليهم من سؤال عن إثبات النبوة، بعد سؤالهم عن إثبات التوحيد، وقيل: هو عدم السؤال عن الأنساب.

وفي الآية بيان أن المشركين لا يسأل بعضهم بعضاً سؤال انتفاع يحتاجون به.

وفي يوم القيامة مواقف متعددة ومواطن مختلفة، فتارة يسأل المجرمون وتارة لا يسألون، كما قال تعالى: ﴿وَلَا يَسْأَلُ عَنْ ذُنُوبِهِ الْمُجْرِمُونَ﴾ [٧٨].

وقال: ﴿يَوْمَئِذٍ لَا يَسْأَلُ عَنْ ذُنُوبِهِ إِنْشٌ وَلَا جَانٌّ﴾ [٣٩] فَإِنِّي ءَالَاءُ رِيكُمَا تَكْذِبَانِ ﴿١٣﴾ يَعْرِفُ

الْمُجْرِمُونَ بِسِيمَاهُمْ فَيُوْخَذُ بِالنَّوَصِي وَالْأَقْدَامِ ﴿١٤﴾ [الرحمن].

عن عبد الله بن مسعود ؓ، عن النبي ﷺ قال: «ما من أحد إلا سيخلو الله به كما يخلو أحدكم بالقمر ليلة البدر، فيقول: يا بن آدم، ما غرَّكَ بي؟ يا بن آدم ماذا عملت فيما

علمت؟ يابن آدم، ماذا أجبت المرسلين؟^(١).

وهذا المشهد من مشاهد القيامة عَجَّلَ الله تعالى بعرضه للخلق في الدنيا؛ حتى لا ينخدع التابعون بالمتبوعين في الدنيا، وحتى لا يُفْتَنَ القوي بالضعيف، والفقير بالغني، والمحكوم بالحاكم، إن كان الأول منهم على ضلال أو كفر، أو لون من ألوان الشرك بالله تعالى.

اسْتِثْنَاءٌ مِمَّنْ حَقَّ عَلَيْهِمُ الْعَذَابُ

٦٧- ﴿فَأَمَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَغَسَّيْنَا أَنْ يَكُونَ مِنَ الْمُغْلَبِينَ﴾ (٦٧)

بعد المشهد الذي يصور كَرْبَ المشركين يوم القيامة وخزيهم وفضيحتهم، يأتي في مقابله بيان ما ينجو به العبد من لقاء ربه، وأنه لا نجاة إلا لمن اتصف بالتوبة والإيمان والعمل الصالح وهذا هو مشهد أهل الفلاح والنجاح، ممن آمن في الدنيا وعمل صالحًا، والترجي في القرآن بمنزلة التحقيق، وهو وعد من الله تعالى.

والمعنى: فمن تاب إلى الله تعالى من الشرك والكفر والمعاصي، وأخلص العمل لله واتبع رسوله، وأكثر من العمل الصالح فهو من الفائزين في الدارين.

ولا يستوي هذا بمن قبله ممن لم يُجب الرسل، ولم يتبع ما جاؤوا به، فإن الكفار قد أخذوا حظهم في الدنيا كاملاً، وعُجِّلَ لهم ثواب أعمالهم فيها، ونظير هذه الآية قوله تعالى: ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا بِاللَّهِ وَاعْتَصَمُوا بِهِ فَسُيِّدُوهُمْ فِي رَحْمَةِ مِّنْهُ وَفَضْلٍ﴾ [النساء: ١٧٥] أي: وأما الذين كفروا فهم على الضد من ذلك فليختر من شاء ما شاء، وفي الوقت فسحة، طالما أن الأرواح لم تُقَبَّضَ.

(١) الطبراني في «الأوسط» (٤٤٩) و«الكبير» (٨٨٩٩، ٨٩٠٠) قال الهيثمي في «مجمع الزوائد» (١٠/

٣٤٧): رجال الكبير رجال الصحيح، غير شريك بن عبد الله، وهو ثقة وفيه ضعف، ورجال الأوسط

فيهم شريك أيضاً، وإسحاق بن عبد الله التميمي وثقه ابن حبان، وبقيّة رجاله رجال الصحيح، وأخرجه

النسائي كما في «تحفة الأشراف» (٩٣٤٥).

أَرْبَعُ تَعْقِيَّاتٍ عَلَى السُّؤَالَيْنِ السَّابِقَيْنِ:

التَّعْقِيبُ الْأَوَّلُ: اخْتِيَارُ الرُّسُولِ اصْطِفَاءً مِنَ اللَّهِ تَعَالَى

٦٨- ﴿وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَيَخْتَارُ مَا كَانَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ سُبْحَنَ اللَّهِ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾

هذه أربعة تعقيبات على ما سبق من سؤال، أي: إن الله تعالى فاعل مختار، فمردُّ الأمر كله لله، خالق هذا الكون ومبدعه، ومنشئ الخصائص التي يتميز بها الخلق، وهو سبحانه يخلق ما يشاء، ويختار ما علم أنه الأفضل، مما فيه نفع العباد وخيرهم، وربك يخلق ما يشاء أن يخلقه، ويصطفي لرسالته من يشاء، وليس لأحد أن يقترح على الله شيئاً، أو يعدل عليه أمراً، أو يبدل شيئاً من خلقه، وكل ذلك إلى الله وحده؛ فالأمور كلها بيده، ومرجعها إليه، ما شاء الله كان، وما لم يشأ لم يكن، وهو - سبحانه - منزّه عن الشركاء، ومنزه عن أن يكون لأحد عليه اختيار، فهو العالم بما تكنه الصدور، وهو المعبود المحمود في الدنيا والآخرة، وهو الحاكم في الدارين، وهو المجازي كلاً بعمله. وهذا كقوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ﴾ [الأحزاب: ٣٦].

وقوله تعالى: ﴿وَإِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ [البقرة: ١١٧].

وقوله تعالى: ﴿لَا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ﴾ [الأنبياء: ٢٢].

فهو سبحانه يخلق ما يشاء، ويختار لرسالته من يريد.

ومن ذلك اختيار الله تعالى لرسله من بين خلقه، واصطفاهُ محمداً ﷺ ليكون خاتم الرسل.

جاء في أسباب النزول: أن هذه الآية نزلت جواباً للوليد بن المغيرة حين قال: ﴿لَوْلَا نَزَلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَى رَجُلٍ مِنَ الْقَرَرَيْنِ عَظِيمٍ﴾ [الزخرف: ٣١] يعني: الوليد بن المغيرة من أهل مكة، أو عروة بن مسعود الثقفي من أهل الطائف.

فأخبر الله تعالى أنه لا يبعث الرسل باختيارهم، وإنما يختار الأنسب من خلقه والأصلح، وما فيه الخير والنفع ﴿اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ﴾ [الأنعام: ١٢٤]. وأخذاً من هذه الآية شرعت:

صلاة الاستخارة، وذلك حينما يريد العبد أن يُقدِّم على أمر مهم، وهو لا يعلم هل هذا الأمر سيكون خيرًا أم شرًّا، فيفوض الأمر لله، ويسأله - سبحانه - أن يختار له الأصلح، وأن يرشده ويدله عليه، ويشرح صدره إليه، فيقول العبد: اللهم خِرْ لي واختر لي، ويصلي ركعتين من ليل أو نهار، بنية صلاة الاستخارة، يقرأ في الركعة الأولى بعد الفاتحة سورة (الكافرون)، وفي الركعة الثانية سورة (الإخلاص)، وعقب السلام مباشرة يدعو بهذا الدعاء: «اللهم إني أستخيرك بعلمك، وأستقدرك بقدرتك، وأسألك من فضلك العظيم؛ فإنك تقدر ولا أقدر، وتعلم ولا أعلم، وأنت علام الغيوب، اللهم إن كنت تعلم أن هذا الأمر خير لي في ديني ودنياي، وفي عاجل أمري وآجله، فاقدِّره لي، ويسره لي، ثم بارك لي فيه، وإن كنت تعلم أن هذا الأمر شر لي في ديني ودنياي، وفي عاجل أمري وآجله، فاصرفه عني، واصرفني عنه، واقدر لي الخير حيث كان، ثم رَضِّني به»^(١).

ويسمِّي حاجته التي ينشدها عند قوله: «هذا الأمر» في المرتين.

فإن انشرح صدره فليُقدِّم، وإن انقبض صدره فليترك، ولا يتخذ قرارًا معينًا داخل نفسه قبل الاستخارة، بل يترك الأمر لله، ويفوض حاله إليه؛ ليختار له ربه ما فيه الأصلح، ولا بأس من تكرار صلاة الاستخارة ودعائها، إن لم تنكشف له جلية الأمر من المرة الأولى أو الثانية.

ولا علاقة للاستخارة بالنوم، بمعنى: أنه سيرى في منامه ما يرشده إلى ما فيه الخير، إنما العلامة هي انشراح الصدر أو انقباضه.

التَّعْقِيبُ الثَّانِي: عِلْمُ اللَّهِ تَعَالَى مُحِيطٌ بِالظَّوَاهِرِ وَالْبَوَاطِنِ

٦٩- ﴿وَرَبُّكَ يَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ وَمَا يُعْلِنُونَ﴾

أي: إن الله تعالى يجازي العباد يوم القيامة على ما يقع منهم في الدنيا وفق علمه تعالى عنهم من اختيارهم للهدى أو الضلال بمحض إرادتهم، مع نهيهم لهم عن الشر وأمرهم لهم بالخير، فهو - سبحانه - يختار للعبد ما هو له أهل، ويعلم ظواهرهم وسرائرهم، ويختار لهم ما يصلح أحوالهم وفق ما يعلمه تعالى عنهم بما يناسب حالهم وتوجههم.

(١) يُنظَر: البخاري (١١٦٣، ٦٣٨٢) وأبو داود (١٥٣٨) والترمذي (٤٨٠) والنسائي (٣٢٥٣) وابن ماجه (١٣٨٣).

وهذا كقوله تعالى: ﴿سَوَاءٌ مِنْكُمْ مَنْ أَسْرَ الْقَوْلَ وَمَنْ جَهَرَ بِهِ وَمَنْ هُوَ مُسْتَخَفٌّ بِأَلِيلٍ وَسَارٍ بِالنَّهَارِ﴾ [الرعد].

وقوله سبحانه: ﴿أَمْ يَحْسِبُونَ أَنَّا لَا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُمْ بَلَىٰ وَرُسُلْنَا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ﴾ [الزخرف].

التَّعْقِيبُ الثَّالِثُ: اللَّهُ تَعَالَى هُوَ الْمُسْتَحِقُّ لِلْعِبَادَةِ دُونَ سِوَاهُ

٧٠- ﴿وَهُوَ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ لَهُ الْخِصْمُ فِي الْأُولَىٰ وَالْآخِرَةِ وَلَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾^(١)

أي: هو - سبحانه - المستحق للحمد والثناء في الدنيا والآخرة؛ لأنه جلَّ شأنه المتفرد بالألوهية والخلق والتدبير، وهو صاحب فضل القضاء يوم القيامة، وإليه المرجع والمصير، فهو الله الذي لا معبود بحق سواه، وإليه تُردون بعد مماتكم للحساب والجزاء، وسوف يجازي كل عامل بعمله من خير أو شر، ولا يخفى عليه شيء من أعمالكم الظاهرة والباطنة، فاعبدوه وحده ولا تشركوا معه غيره.

التَّعْقِيبُ الرَّابِعُ: النَّظَامُ الْكُونِي لَا يَتَخَلَّفُ عَنْ خِدْمَةِ الْإِنْسَانِ

٧١-٧٣- ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ اللَّيْلَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَمَةِ مَنْ إِلَهُ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُمْ بِضِيَاءٍ^(٢) أَفَلَا تَسْمَعُونَ ﴿٧١﴾ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ النَّهَارَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَمَةِ مَنْ إِلَهُ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُمْ بِاللَّيْلِ تَسْكُونُ فِيهِ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٧٢﴾ وَمِنْ رَحْمَتِهِ جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٧٣﴾﴾

هذا التعقيب يتحدث عن النظام الذي خطَّه الله سبحانه لهذا الكون الذي نحيا بين أرضه وسماؤه، فمن سنن الله في الكون أن محا آية الليل فجعله مظلمًا، وجعل آية النهار مبصرة، كما قال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ آيَاتَيْنِ فَمَحْوًا آيَةَ اللَّيْلِ وَجَعَلْنَا آيَةَ النَّهَارِ مُبْصِرَةً﴾ [الإسراء: ١٢].

وقال تعالى: ﴿وَأَيُّهُ لَهُمُ اللَّيْلُ تَسْلَخُ مِنْهُ النَّهَارَ فَإِذَا هُمْ مُظْلِمُونَ﴾ [يس].

(١) قرأ يعقوب بفتح التاء وكسر الجيم من (ترجعون)، وقرأ الباقون بضم التاء وفتح الجيم.

(٢) قرأ قبل بهمزة مفتوحة بعد الضاد من (بضياء)، والباقيون بياء مفتوحة مكان الهمزة.

وقال تعالى: ﴿لَا أَسْمَسُ يَبْغِي لَهَا أَنْ تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلَا أَلِيلُ سَابِقُ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾ [يس].

فماذا لو غير الله هذا النظام، فجعل الناس في ليل دائم، أو نهار دائم، كيف يستريحون؟! وكيف يعملون؟! ومن من الخلق يمكنه إعادة النظام إلى سابقه؟! فلو أن النهار كان دائماً لتعبت الأبدان وكلت من كثرة الحركة والأشغال، ولو أن الليل كان دائماً لسمت النفوس وملت.

ومن رحمة الله تعالى بعباده أن جعل كلاً من الليل والنهار يعقب الآخر؛ لتستقيم شؤون الحياة، وليكون في هذا عظة وعبرة للعباد ﴿وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ أَلِيلَ وَالنَّهَارَ خِلْفَةً لِمَنْ أَرَادَ أَنْ يَذْكُرَ أَوْ أَرَادَ شُكُورًا﴾ [الفرقان].

ومعلوم أن السكون والراحة يتم بالليل، وأن الإنسان المكلف مدفوع إلى التعب؛ ليحصل ما يحتاج إليه، وهذا يتم في ضوء النهار، ولو كان الليل دائماً ما استقامت الحياة، ولو نام الناس بالنهار؛ إذ نوم النهار لا يستوي مع نوم الليل.

وقد ختم الله - سبحانه - الآية الأولى بقوله: ﴿أَفَلَا تَسْمَعُونَ﴾ لأن حاسة السمع أكثر الحواس استعمالاً في الظلام، وسلطانها في الليل أبلغ من سلطان البصر.

وختم الآية الثانية بقوله سبحانه: ﴿أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾ لأن حاسة البصر أكثر الحواس استعمالاً في النهار، وسلطانها في النهار أبلغ من سلطان السمع.

فالليل والنهار نعمتان يتعاقبان على الزمان، والمرء مضطر إليهما في حياته، فلا بد له منهما، أما الجنة فلا نصب فيها ولا تعب، ولا حاجة لهم في الليل، ولذا يدوم لهم الضياء واللذات.

والمعنى: أخبروني -أيها الناس- إن جعل الله عليكم الليل دائماً مستمراً بلا انقطاع إلى يوم القيامة، من إله غير الله يأتيكم بنور تستضيئون به في حياتكم؟ أفلا تسمعون ما أرشدناكم إليه سماع فهم وقبول، فتستدلوا بذلك على وحدانية الله تعالى؟

وأخبروني إن جعل الله عليكم النهار دائماً بلا انقطاع إلى يوم القيامة، من إله غير الله يأتيكم بليل تستقرون فيه وتهدؤون من الحركة والتعب؟ أفلا ترون بأبصاركم اختلاف الليل

والنهار، فتعرفوا ما أنتم عليه من الضلال؟

ومن رحمته بكم أن جعل لكم الليل والنهار، فخالف بينهما، فجعل الليل ظلامًا؛ لتستقروا فيه، وترتاح أبدانكم، وجعل لكم النهار ضياءً؛ لتطلبوا فيه معاشكم، ولتشكروا الله على إنعامه عليكم بذلك، فإذا وازنتم بين حالة وجودها وحالة عدمها، تبين لكم منة الله عليكم، فبالعُثم بالثناء عليه، وأظهرتم الافتقار إليه.

السُّؤَالُ الثَّالِثُ فِي سَاحَةِ الْعَرْضِ: عَنِ الشُّرَكَاءِ وَالشُّهَدَاءِ

٧٤، ٧٥- ﴿وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَائِيَ الَّذِينَ كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ ﴿٧٤﴾ وَنَزَعْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا فَقُلْنَا هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ فَعَلِمُوا أَنَّ الْحَقَّ لِلَّهِ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴿٧٥﴾﴾

هذا تأكيد للسؤال الأول عن جانب التوحيد في ساحة العرض، جاء مقترنًا بإقامة شهيد على كل أمة -هو نبيها- يشهد عليها أنه بلغها رسالة ربه، ويشهد على أنه نهاها عن الشرك بالله، والتكذيب للرسول.

وفي هذا السؤال يطلب الله سبحانه من كل أمة أشركت بالله أن تأتي بحجتها على ما أشركته مع الله تعالى، وحينئذ يعلمون أن الحجة البالغة لله وحده، وأنه لا إله غيره، ولا معبود سواه، وأنه لم ينفعهم ما أشركوهم مع الله تعالى، بل إنهم أوردوهم نار جهنم، وغابوا عنهم في ساحة العرض، فلم يجدوهم ليشفعوا لهم كما كانوا يزعمون، ولا لينصروهم، أو يدفعوا عنهم عذاب الله، وذلك حين يقال للمشركين: أين شركائي الذين كنتم تزعمون أنهم شركائي، إنهم لا وجود لهم إلا في عقولكم الجاهلة، وأفكاركم الباطلة، وتقاليدهم السقيمة.

﴿أَلَا إِنَّ لِلَّهِ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ وَمَا يَتَّبِعُ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ شُرَكَاءَ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ﴾ [يونس: ٦٦].

فإذا حضر العابد والمعبود في ساحة الحشر والعرض، انتخب الله من كل أمة من الأمم المكذبة شهيدًا يشهد على شركهم وفساد اعتقادهم.

أي: ونزعنا من كل أمة من الأمم المكذبة لرسول الله شهيدًا عليها أنهم كفروا بالله، يشهد على ما جرى منهم في الدنيا من الشرك بالله تعالى، والتكذيب لرسول الله، فقلنا

لهؤلاء المشركين عندما يبرزون للمحاكمة، بعد أن شهد عليهم أنبياءهم بأنهم كذبوا رسل الله، وما جاؤوا به من عند الله: هاتوا برهانكم ودليلكم على صحة كُفركم وشرككم بالله، هل أمرناكم بذلك؟ هل وجدتم شيئاً من ذلك في كُتبي؟ هل في آلهتكم من يملك نفعا أو ضرراً؟ وهل فيها من يستحق العبادة؟.

ولمّا ظهر عجزهم عن إقامة الحجة على ما فعلوه في الدنيا من كُفر وشرك، أيقنوا أنهم لا حق لهم فيما افتروه على الله، وثبت لديهم أن الحق لله؛ حيث كان ينهاتهم عن الشرك بالله على ألسنة الرسل في الدنيا، وفي ساحة العرض غاب عنهم شركهم وما كانوا يفترونه على الله من كذب.

والقرآن الكريم لا يخاطب المجتمع المسلم وحده، إنما يخاطب العالم أجمع، أمة الدعوة وأمة الإجابة.

وأمة الدعوة، فيهم: الكافر والمشرِك، والوثني والملحد، والعلماني والشيوعي، ومثل هذا السؤال يوجّه إلى شريحة عريضة من بني البشر.

فالسؤال الأول من الأسئلة الثلاثة كان عن التوحيد، والسؤال الثاني كان عن النبوات، وهذا السؤال الثالث عن إشراكهم بالله تعالى بعد الإشهاد وإقامة الحجة عليهم، وفصل القضاء بينهم يوم لقاء الله، وهذا هو موضوع السور المكية: التوحيد، والرسالة، والبعث، والجزاء.

وقبل سؤال الحساب والجزاء، لفت - سبحانه - الأنظار إلى أفعال العباد، وإلى علم الله تعالى عنهم، وإلى شيء من أنعم الله تعالى عليهم.

قِصَّةُ قَارُونَ

٧٦- ﴿إِنَّ قَارُونَ كَانَ مِنْ قَوْمِ مِصْرَ فَبَغَىٰ عَلَيْهِمْ ۖ وَآتَيْنَاهُ مِنَ الْكُوزِ مَا إِنَّ مَفَاتِحَهُ لَتَنُوءُ بِالْعُصْبَةِ أُولَى الْقُوَّةِ إِذْ قَالَ لَهُ قَوْمُهُ لَا تَفْرَحْ ۖ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ ۖ﴾ (٧٦)

بعد أن تحدثت السورة عن الطغيان في الحكم، وعن جور السلطان، والاستبداد السياسي متمثلاً في قصة فرعون، وبيّنت كيف كانت نهاية الظلم والبغي، والكفر بالله تعالى، بدأت الحديث عن القصة الثانية في السورة وهي تمثّل الطغيان الرأسمالي، سلطان

المال والعلم، وكيف ينتهي هذا السلطان بالبوار والهلاك مع البطر والاستكبار، وجحود نعمة الخالق سبحانه؟

وتقرر القصة حقيقة القيم، وأنها لا تتمثل في المال والجاه، بل تكمن القيمة الحقيقية للإنسان في الإيمان والخلق والتقوى، والاعتدال في الاستمتاع بطيبات الحياة.

وهل كانت قصة قارون قبل خروج بني إسرائيل من مصر أم بعده، أم كانت في بني إسرائيل من بعد موسى؟ لم نقف على ما يحدد ذلك، ولا على تحديد زمان أو مكان القصة.

وقارون كان ابن عم موسى^(١) ولم يكن في بني إسرائيل أقرأ منه للتوراة، وكان أجملهم وأغناهم، وكان حسن الصوت، فطغى وبغى بما أوتي من مال وعلم.

وكان بنو إسرائيل يقدمون قرايئهم فتأكلها النار التي تنزل من السماء، فامتنع قارون من تقديم القربان، ووافق كما وافق السامري، وكفر بموسى ﷺ واستخف به.

وكان من بغيه أنه زاد في ثيابه شبراً على ثياب الناس، ومن بغيه أنه حرّض امرأةً بغياً أن تتهم موسى بالتحرش بها، فأنطقها الله ببراءته على الملأ.

وقيل: إنه كان عاملاً لفرعون على بني إسرائيل، فظلمهم وبغى عليهم، واغتر بكثرة ماله، وأعجب بعلمه، ومنع إخراج الزكاة، وترك أتباع موسى، وأخذ يداريه لما بينهما من قرابة، ويؤذيه في كل وقت ويعاديه، ويتكبر عليه، وجعل له باباً من ذهب، وتجاوز الحد في الكبر والتجبر عليهم.

وكان الله قد أعطاه أموالاً بلغت من الكثرة كنوزاً مدخرة فائضة عن الاستعمال والتداول، إلى درجة أن مفاتيح الكنوز وحدها يثقل حملها على العدد الكثير من الرجال الأقوياء.

والعُصبة: من العشرة إلى الخمسة عشر، من الرجال، وقيل: إلى الأربعين.

قيل: إن مفاتيح الكنوز كانت من الحديد، فلما ثقلت وكثرت جعلها من خشب فثقلت، فجعلها من جلود البقر، وكانت تُحمل معه أينما ذهب.

(١) جاء ذلك عن ابن جريج وقتادة وإبراهيم النخعي كما في «الطبري» (٣٠٩/١٨) وابن أبي حاتم (٩/٣٠٠٥).

لقد بلغ قارون من الثراء حدًا هائلًا، والمال الثابت أو المنقول، ليس خيرًا ولا شرًا في حد ذاته، إنما هو أداة ووسيلة تُحمد أو تُعاب وفق طريقة الاستعمال، فالسلاح في يد اللص أداة للقتل، وفي يد الجندي أداة للدفاع أو القصاص، ولذا فإن قوم قارون قالوا له لما طغى: إن للثراء أصولًا خمسة لابد أن تراعى:

الأصل الأول: ﴿لَا تَفْرَحْ﴾

أي: لا تفرح بدنياك فرح أشر وبطر وتكبر على الناس، فالدنيا عرض زائل، وعارية مستردة، يربح فيها من يربح، ويخسر فيها من يخسر ﴿لِكَيْلَا تَأْسَوْا عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ﴾ [الحديد: ٢٣].

وذلك لأن فرح البطر يُنسي العبد من أنعم عليه بهذه النعم، وينسيه الحمد والشكر لله ﷻ، وينسيه القيام بالواجبات المستحقة لله تعالى على هذه النعم، ويُلهي ويُطغي، والله تعالى لا يحب الفرحين المنكبين على حب الدنيا، الذين لا يشكرونه على ما أعطاهم، ويرون أن المال سبب استعلاء أو مصدر تطاول على الناس، قال تعالى: ﴿كَلَّا إِنَّ الْإِنْسَانَ لِبَطْشٍ ۚ أَن يَرَاهُ اسْتَعْتَصَ ۚ﴾ [العلق: ٧].

الأصل الثاني: ﴿وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ﴾

٧٧- ﴿وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا وَأَحْسِنْ كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ وَلَا تَبْغِ الْفُسَادَ فِي الْأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ﴾

أي التمس رضى الله تعالى، وثواب الدار الآخرة، وابتغ بها ما عند ربك، بما أعطاك من مال، فقد أعطاك الله من وسائل الآخرة، ما ليس عند غيرك من الأموال، فاجعل الدنيا في يدك، ولا تجعلها في قلبك، واجعل قلبك معلقًا بالله وبالدار الآخرة؛ فالدنيا مَعْبَرٌ للآخرة، ومزرعة لها، ومن زرع الخير حصد الخير، ومن أضاع عمره فيما لا يُرضي ربه نَدِمَ، والعاقل مَنْ طلب آخرته بديناه، ولا تكن ممن يحب مال وارثه أكثر من ماله، فإن ماله ما قدم لنفسه في الآخرة، ومال وارثه ما خلفه وراءه في الدنيا.

ويوم القيامة ينظر الإنسان أمامه فلا يرى إلا ما قدم، وينظر خلفه فلا يرى إلا ما قدم، وينظر عن يمينه فلا يرى إلا ما قدم، وينظر عن شماله فلا يرى إلا ما قدم، قال عليه

الصلاة والسلام: «فاتقوا النار ولو بشق تمره».

إن الثري الصالح يتعدى خيره إلى غيره، فهو يبذل ما لديه بسخاوة نفس، ويبحث عن كل ثغرة بحاجة إلى عون فيسدها، ويُعطي قبل أن يُسأل.

الأصل الثالث: ﴿وَلَا تَنسَ نَصِيكَ مِنَ الدُّنْيَا﴾

أي: لا تترك حظك من الدنيا، بل تمتع فيها بالحلال دون إسراف ولا تقتير، فلا نأمرك أن تتصدق بكل مالك، وتبقى بدون شيء، ولكن استمتع بدنياك استمتاعاً لا يفسد دينك ولا يضر آخرتك، وهذا يمثل المنهج الإلهي المعتدل، الذي يعلّق قلب العبد بالآخرة، ولا يحرّمه من أن يأخذ بقسط من متاع الحياة الدنيا، ولا يزهّد فيها ويطلقها، كما يطلقها بعضهم، بل يتمتع بالحلال الطيب بلا إسراف، ولا تقتير، ولا أشر، ولا بطر؛ فإن لربك عليك حقاً، ولنفسك عليك حقاً، ولأهلك عليك حقاً، فأعط كل ذي حق حقه.

الأصل الرابع: ﴿وَأَحْسِنَ كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ﴾

لقد أحسن الله إليك بهذه الأموال الكثيرة، فأحسن إلى الناس بإعطاء كل ذي حق حقه، وأحسن إليهم بالصدقة والمواساة، وأحسن إليهم بعدم التكبر، وعدم الترفع عليهم، وحسن التعامل معهم، وأحسن إلى من أنعم عليك بطاعته وحسن شكره، وإتقان العمل في كل أمورك.

الأصل الخامس: ﴿وَلَا تَبْغِ الْفَسَادَ فِي الْأَرْضِ﴾

أي: لا تلتمس ما حرّم الله عليك بالبغي والتكبير على قومك وظلمهم والتعسف معهم، والإضرار بهم، وكثرة المعاصي، ولا تشغل بالنعم عند المنعم، ولا تستعمل نعم الله في معاصيه ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ﴾ المجرمين العاصين لله، الباغين على الناس.

مَوْقِفُ قَارُونَ مِنَ النَّصَائِحِ الْخَمْسِ

٧٨- ﴿قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ عِنْدِي﴾^(١) أَوَلَمْ يَعْلَم أَنَّ اللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِن قَبْلِهِ مِن الْفُرُونِ مَنْ

هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرُ جَمْعًا وَلَا يُسْئَلُ عَنْ ذُنُوبِهِمُ الْمُجْرِمُونَ ﴿٧٨﴾

(١) قرأ نافع وأبو عمرو وأبو جعفر وابن كثير بخلف عنه بفتح ياء الإضافة من (عندي أو لم) والباقون بإسكانها.

أبى قارون أن يقبل النصيحة، وردَّ الأصول الخمسة السابقة بجملة واحدة فيها فخر وخيلاء وكفر بالنعمة ﴿قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ عِنْدِي﴾ أي: إنما أُعطيْتُ هذه الكنوز بما عندي من العلم والقدرة على جمع المال، والعبقرية والخبرة، لقد حُصِّلْتُ على هذا المال بجهدي وعريقي، وعلمي بوجوه كسب المال، وتجاربي في طرق تنميته، ولولا رضى الله عني وعلمه بحالي واستحقاقي لهذا المال ما أعطاني إياه، وهذا كقوله تعالى: ﴿فَإِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ ضُرٌّ دَعَاكَ ثُمَّ إِذَا خَوَّلَهُ نِعْمَةً مِّنَّا قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ﴾ قال تعالى: ﴿بَلْ هِيَ فِتْنَةٌ﴾ [الزمر: ٤٩].

وهكذا ادَّعى قارون علماً يستوجب به أن يكون صاحب مال ونعمة، وقال: إن من حقي أن أشمخ بأنفي بهذا المال، وأن أستعمله في وجوه الترف والملذات، كأنه ينكر فضل الله وإنعامه عليه، فلمَ تنصحوني على ما أعطاني الله من مال؟

وبمثل هذا القول المغرور يقول بعض الناس، فينسبون ما هم فيه من نعمة إلى جهودهم الخاصة، وتفوقهم على أقرانهم في الدراسة، أو الخبرة، أو الوراثة، وغير ذلك، فلسان حاله يقول: أنا أهل لذلك، ومستحق له.

وبمثل هذا فسر الآية عبد الرحمن بن زيد بن أسلم، قال في معناها: لولا رضى الله عني، ومعرفته بفضلي، ما أعطاني هذا المال^(١).

وهذا نفسه هو قول الكافر المترف عن الدار الآخرة: ﴿وَلَكِنْ رُجِعْتُ إِلَىٰ رَبِّي إِنَّ لِي عِنْدُكَ لَلْحُسْنَىٰ﴾ [فصلت: ٥٠]، فهو يعتقد أنه سعيد الدارين، إنه نموذج مكرر في البشر، فكم من الناس يظن أن علمه وكده وخُدهما، هما سبب غناه، فهو ينفق ويسرف من غير حساب لرضى الله تعالى وغضبه، إنها مقولة المغرور، مطموس البصيرة، الذي فتنه المال، وأعماه الثراء، وأنساه المنعم عليه بهذه النعم.

ثم جاء التهديد الإلهي على هذه المقولة الفاجرة، بأن الله تعالى قد أهلك كثيراً من القرون كانوا أشد من قارون قوة وأكثر جمعاً، لقد أهلك الله قبل قارون من الأفراد والجماعات من هو أغنى منه، وأكثر علماً وخبرة، وأهلك من هو أعتى وأقوى منه، وأشد بطشاً، وأكثر جمعاً للأموال.

(١) الطبري (١٩/٦٢٦).

وكان على قارون أن يعلم العلم النافع الذي يقي مصارع السوء.

١- فليعلم هو وأمثاله من المجرمين أنهم أهون على الله تعالى من أن يسألهم عن ذنوبهم يوم القيامة بل يعاقبهم ويعذبهم بمقتضى علمه تعالى عنهم ﴿وَلَا يُسْأَلُ عَنْ ذُنُوبِهِمُ الْمُجْرِمُونَ﴾؛ لأن الله تعالى يعلم أحوالهم وذنوبهم، فلا يسألون عنها، إنما يسألون سؤال تقيع وتوبيخ وتقرير، ويعاقبهم الله تعالى على ما علمه منهم، وعملوه في دنياهم، والمجرمون يُعرفون بسيماهم يوم القيامة، فيؤخذ بنواصيهم وأقدامهم، ويلقى بهم في النار بغير سؤال ولا حساب ﴿يَعْرِفُ الْمُجْرِمُونَ سِيمَهُمْ فَيُؤْخَذُ بِالنَّوَصِي وَالْأَقْدَامِ﴾ [الرحمن].

ويقال لهم: ﴿هَذِهِ جَهَنَّمُ الَّتِي يُكَذِّبُ بِهَا الْمُجْرِمُونَ﴾ ﴿يَطُوفُونَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ حَمِيرٍ ءَانِ﴾ [الرحمن].

٢- وفي يوم القيامة مواطن ومواقف مختلفة، فتارة يسأل العباد عن أعمالهم في الدنيا، كما قال تعالى: ﴿فَلَنَسْأَلَنَّ الَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْأَلَنَّ الْمُرْسَلِينَ﴾ [الأعراف: ٦]. وقال تعالى: ﴿وَقَفُّهُمْ لَهُمْ مَسْئُولُونَ﴾ [الصافات].

٣- وتارة لا يسألون عنها، كما قال تعالى: ﴿فَيَوْمَئِذٍ لَا يُسْأَلُ عَنْ ذَنْبِهِ إِنْسٌ وَلَا جَانٌّ﴾ [الرحمن].

وتارة تنطق الجوارح، وتشهد عليهم ﴿الْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَى أَفْوَاهِهِمْ وَتُكَلِّمُنَا أَيْدِيهِمْ وَنَشْهَدُ أَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ [يس].

هذا هو حال قارون في نفسه وماله، وردة على من نصحه، ولم يزل مستمرا على عناده وبغيه وعدم قبول النصيحة، وإعجابه بنفسه حتى عاقبه الله بما يناسب غروره، فخسف به الأرض.

فما هو حال قومه حين خرج عليهم يومًا وهو في قمة زيبته ومظهره وأبهته، متعاطفًا ومتفاخرًا بمراكبه وملابسه، وخدمه وحشمه، وزينة الدنيا وبهجتها؟

النَّاسُ أَمَامَ فِتْنَةِ الْمَالِ وَالْجَاهِ فَرِيقَانِ

٧٩- ﴿فَخَرَجَ عَلَى قَوْمِهِ فِي زِينَتِهِ قَالَ الَّذِينَ يُرِيدُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا يَلِيتَ لَنَا مِثْلَ مَا أُوتِيَ قُورُونُ إِنَّهُمْ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ﴾

لقد انقسم الناس إلى فريقين حينما رأوا قارون في أبهى حله؛ وأكمل زيبته، وقد استعدّ وتجمل بأعظم ما يمكنه، فظهرت عليه زينة الدنيا وزهرنها وبهجتها ونضارتها

وفخرها وخيلائها، فَرَمَقَتْهُ العيون، وَفُتِنَتْ به القلوب، فانقسم الناظرون إليه إلى قسمين، وتكَلَّم كل قسم بما عنده من الرغبة والهمة:

١- فريق انبهر بدُّنياً قارون وزخرفها، فمال إلى الدنيا وتمنَّاهَا، وافتتن بها، ووقف منها موقف المأخوذ المبهوت المتهافت، وهؤلاء هم الذين قالوا: ﴿بَلَّيْتَ لَنَا مِثْلَ مَا أُوتِيتُ قَدْرُونَ﴾. من الدنيا ومتاعها وزخرفها.

لقد نسي هؤلاء أن السعادة ليست في المال والجاه، فكم من صاحب مال وجاه وهو شقي تعيس، قلق حائر، وقد نسي أن السعادة في قربه من الله تعالى، واتصاله به سبحانه، ورضاه عنه، وقناعته بما رزقه الله.

وقد عالَج الإسلام هذا الداء علاجاً حاسماً في مثل قوله تعالى: ﴿وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْهُمْ﴾ أي: أصنافاً من الناس ﴿زَهْرَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ﴾ [طه: ١٣١].

وقوله جَلَّ شأنه: ﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَالَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ﴾ ﴿١٥﴾ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ إِلَّا النَّارُ﴾ [هود].

وفي الحديث: «من كانت الآخرة همه جعل الله غناه في قلبه، وجمع عليه شمله، وأتته الدنيا وهي راغمة، ومن كانت الدنيا همه جعل الله فقره بين عينيه، وفرَّق عليه شمله، ولم يأت من الدنيا إلا ما قدر له»^(١).

وقد وصف هذا الفريق قارون بأنه ذو حظ عظيم، وهذا الوصف بمقياسهم أنه أُعطي في الدنيا غاية النعيم، وأنه ليس وراء الدنيا داراً أخرى بحسب زعمهم!

٨٠- ﴿وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَيَلَكُمْ ثَوَابُ اللَّهِ خَيْرٌ لِّمَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا وَلَا يُفْقَدُهَا إِلَّا الصَّادِرُونَ﴾ ﴿٨٠﴾

٢- أما الفريق الثاني، وهم أهل العلم النافع، والإيمان الخالص، والعمل الصالح، المتصلون بالله جَلَّ وعلا، الذين عرفوا حقائق الأشياء، فلهم ميزان آخر للقيم، والتفاضل

(١) سبق تخريجه في الآية ١٥ من سورة هود.

والسعادة والنعيم، غير قيمة المال والزينة والمتاع، فنفسهم أعلى وأكبر من أن تستهويها الحياة، أو يتهافتوا عليها كتهافت الذباب، إنهم يرغبون فيما عند الله تعالى، ويعملون للحياة الدائمة، ولذا: فإنهم يتألمون ويتوجعون مما تمتّوه لأنفسهم، فإن ما عند الله خير وأبقى مما تشتهيهم أنفسهم.

وقد ردّ هذا الفريق على الفريق الأول، كما ذكر الله تعالى عنهم بقولهم: ﴿ثَوَابُ اللَّهِ الْعَاجِلِ مِنْ لَذَّةِ الْعِبَادَةِ، وَالْآجِلِ مِنَ الْجَنَّةِ وَنَعِيمِهَا﴾ ﴿خَيْرٌ﴾ من الذي رغبتم وتمنيتم ﴿لِمَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا﴾.

ولكن لا يقبل هذه النصيحة، ويوفق إليها ويعمل بها إلا من يجاهد نفسه، فيصبر على طاعة الله تعالى، ويجتنب ما حرّم الله، ويصبر على أقدار الله ﴿وَلَا يُلْقِنَهَا إِلَّا الْأَصْطِرُونَ﴾ أي: ولا يبلغ هذه المنزلة إلا من صبر على أوامر الله ونواهيه، ورضي بقضاء الله وقدره، فصبر على طاعة الله، وصبر عن شهوات النفس، وعلى ترك الشبهات، وصبر على قبول الحق من الناس، وآثر الآخرة على الدنيا.

فلما وصل قارون إلى غاية متاع الدنيا جاءه العذاب بغتة:

فَمَاذَا كَانَتْ نَهَايَةُ قَارُونِ؟

٨١- ﴿فَخَسَفْنَا بِهِ وَبِدَارِهِ الْأَرْضَ فَمَا كَانَ لَهُ مِنْ فِئَةٍ يَنْصُرُونَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ الْمُنْتَصِرِينَ﴾

إن فتنه الدنيا عندما تبلغ ذروتها، وتهافت النفوس عليها، فإن عناية الله تعالى تتدخل؛ لتضع حدًا لهذه الفتنة، وترحم ضعاف النفوس من هذا الإغراء، وتحطم كبرياء المغرورين.

وسنة الله في خلقه أن العقوبة تكون من جنس العمل، فكلما ترفع الإنسان على خلق الله، أنزله الله أسفل سافلين، وقد كان قارون متعاليًا متغطرسًا، منازعًا لله تعالى في صفة الكبرياء، وقد أشار الله - سبحانه - إلى عقوبته في جملة قصيرة ﴿فَخَسَفْنَا بِهِ وَبِدَارِهِ الْأَرْضَ﴾ أي أن هذه الأرض التي طالما استعلى فوق ظهرها، وتناول على الناس فيها، قد ابتلعته هو وداره وماله ومتاعه في جوفها، جزاءً وفاقًا لعمله، وأصبح في بطن الأرض عاجزًا، لا ينصره أحد، ولا ينفعه ماله ولا جاهه، ولا خدمه ولا حشمه، وكان قارون يفتخر على موسى بأتباعه الذين شايعوه وهم كثير، فما أعظم حكمة الله تعالى في إهلاك

الكافرين، وفي إمهاله لهم حتى يأخذهم أخذ عزيز مقتدر.

وَرَدَّ أَنْ اللَّهُ تَعَالَى أَوْحَى إِلَى مُوسَى: إِنِّي أَمَرْتُ الْأَرْضَ أَنْ تَطِيعَكَ فِي قَارُونَ وَأَهْلِهِ، وَخَاصَّتَهُ وَأَتْبَاعَهُ، فَقَالَ مُوسَى لِلْأَرْضِ: خُذِيهِمْ، فَأَخَذَتْ مِنْهُمْ إِلَى الرُّكْبِ، فَاسْتَغَاثُوا بِهِ فَلَمْ يُغْنِهِمْ، فَأَخَذَتْهُمْ شَيْئًا فَشَيْئًا، حَتَّى تَمَّ الْخُسْفُ بِهِمْ.

وَالْخُسْفُ: هُوَ انْقِلَابُ بَعْضِ ظَاهِرِ الْأَرْضِ إِلَى بَاطِنِهَا وَعَكْسُهُ، لَقَدْ ذَهَبَ الطَّاعِيَةُ، وَذَهَبَتْ أَمْوَالُهُ، وَمَصْدَرُ فِتْنَتِهِ، وَهَكَذَا نِهَايَةُ كُلِّ مُتَجَبِّرٍ وَمُتَكَبِّرٍ.

جاء في الإصحاح السادس عشر من سفر العدد أن موسى ﷺ قال: إِنْ مَاتَ هَؤُلَاءِ كَمُوتِ عَامَةِ النَّاسِ فَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ لَمْ يَرْسَلْنِي إِلَيْكُمْ، وَإِنْ ابْتَدَعَ اللَّهُ بَدْعَةً، فَفَتَحَتْ الْأَرْضُ فَاهَا، وَابْتَلَعَتْهُمْ وَكُلَّ مَالِهِمْ، فَهَبَطُوا أَحْيَاءَ إِلَى الْهَاطِيَةِ، تَعْلَمُونَ أَنَّ هَؤُلَاءِ قَدْ أَزْدَرَوْا الرَّبَّ، فَلَمَّا فَرَّغَ مُوسَى مِنْ كَلَامِهِ انْشَقَّتِ الْأَرْضُ الَّتِي هُمْ عَلَيْهَا وَابْتَلَعَتْهُمْ وَبَيَّوتَهُمْ، وَخَرَجَتْ نَارٌ مِنَ الْأَرْضِ أَهْلَكَتِ الْمُسْتَيْنَ وَالْخَمْسِينَ رَجُلًا.

عن أبي سعيد رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «بَيْنَمَا رَجُلٌ فِيمَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ خَرَجَ فِي بَرْدَيْنِ أَخْضَرَيْنِ يَخْتَالُ فِيهِمَا، أَمَرَ اللَّهُ الْأَرْضَ فَأَخَذَتْهُ، فَإِنَّهُ لَيَتَجَلَجَلُ فِيهَا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ»^(١).

وفي صحيح البخاري: عن سالم، أن أباه حدثه أن رسول الله ﷺ قال: «بَيْنَمَا رَجُلٌ يَجْرُ إِزَارُهُ مِنَ الْخِيَلَاءِ؛ إِذْ خُسِفَ بِهِ، فَهُوَ يَتَجَلَجَلُ فِي الْأَرْضِ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ»^(٢).

قيل: إنه لما كان يوم عيد بني إِسْرَائِيلَ قام موسى، فقال: يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ، مَنْ سَرَقَ قِطْعَنَاهُ، وَمَنْ افْتَرَى جِلْدَنَاهُ، وَمَنْ زَنَى وَهُوَ غَيْرُ مُحَصَّنٍ جِلْدَنَاهُ، وَإِنْ كَانَ مُحَصَّنًا رَجَمْنَاهُ، فَقَالَ قَارُونَ: وَإِنْ كُنْتُ أَنْتَ؟ قَالَ: وَإِنْ كُنْتُ أَنَا، قَالَ: فَإِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ يَزْعُمُونَ أَنَّكَ فَجَرْتَ بِفِلَانَةٍ، فَأَحْضَرُوهَا، فَنَاشَدَهَا مُوسَى بِالَّذِي فَلَقَ الْبَحْرَ، وَأَنْزَلَ التَّوْرَةَ أَنْ تَصْدُقِي، فَقَالَتْ: جَعَلَ لِي قَارُونَ جُعْلًا عَلَى أَنْ أَقْذِفَكَ بِنَفْسِي، فَخَرَّ مُوسَى سَاجِدًا وَهُوَ يَبْكِي، فَقَالَ: يَا رَبِّ، إِنْ كُنْتُ رَسُولُكَ فَاغْضَبْ لِي، فَأَوْحِ إِلَهُ إِلَيْهِ أَنْ مَرِ الْأَرْضُ بِمَا

(١) أخرجه أحمد بإسناد حسن (٤٠/٣) (٨١٧٧، ٧٦٣٠) وقد صححه الألباني في صحيح الترغيب والترهيب

برقم (٢٩١٤) عن أحمد والبخاري، وينحوه عن أبي هريرة في صحيح مسلم (٢٠٨٨).

(٢) «فتح الباري» (٢٦٩/١٠) ورقمه في البخاري (٣٤٨٥، ٥٧٩٠).

شئت؛ فإنها مطيعة لك، فقال: يا بني إسرائيل، إن الله تعالى بعثني إلى قارون، كما بعثني إلى فرعون ومن كان معه، فدعا موسى على قارون فانتقم الله منه.

وقد خسف الله بماله الأرض لما قال بنو إسرائيل: إن موسى دعا الله ليهلك قارون، ويرث ماله، فدعا موسى ربه حتى خسف بقارون وكنوزه الأرض، وفي بعض الآثار: لا أجعل الأرض بعدك طوعاً لأحد.

قال قتادة: خسف به الأرض، فهو يتجلجل فيها كل يوم قائمة، لا يبلغ قرارها إلى يوم القيامة، وبعد أن خسف الله الأرض بقارون ندم الذين حسدوه على ما كان فيه، وحمدوا الله على أنه لم يعاقبهم، وأدركوا أن سعة الرزق لا تدل على خير في الإنسان قال تعالى:

الْأَعْتَابُ بِنَهَايَةِ قَارُونَ

٨٢- ﴿وَأَصْبَحَ الَّذِينَ تَمَنَّوْا مَكَانَهُ بِالْأَمْسِ يَقُولُونَ وَيَكَاثُرُ اللَّهُ يَسْطُرُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَوْلَا أَنْ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا لَخَسَفَ^(١) بِنَّا وَيَكَاثُرُ لَا يَفْلَحُ الْكَافِرُونَ ﴿٨٢﴾﴾

أما الذين تمنوا أن يكونوا مثل قارون في كثرة المال والمتاع فحينما رأوا مصيره البائس الذي انتهى إليه، حمدوا الله تعالى أنه لم يستجب لهم ما تمنوه بالأمس، فقد أدركوا أن الثراء ليس علامة على رضى الله تعالى على خلقه، فهو سبحانه يعطي الدنيا لمن يحب ومن لا يحب، ولكنه لا يعطي الدين إلا لمن أحب، كما في المسند وغيره عن ابن مسعود رضي الله عنه مرفوعاً: «إن الله قسم بينكم أخلاقكم، كما قسم أرزاقكم، وإن الله عز وجل يعطي الدنيا من يحب ومن لا يحب، ولا يعطي الدين إلا من يحب»^(٢).

ومعنى ﴿وَيَكَاثُرُ﴾ اعلم أن، أو ألم تر أن، أو أعجب لأن.

فكان هؤلاء القوم لما رأوا نهاية قارون، قالوا معتبرين متعظين خائفين من نزول العذاب: إن الله تعالى يوسع رزقه لمن يشاء، ويضيقه على من يشاء، وتوسعته لا تدل

(١) قرأ حفص ويعقوب بالبناء للفاعل في (لخسف)، والباقون بالبناء للمفعول.

(٢) أخرجه أحمد (٣٨٧/١) من حديث طويل برقم (٣٦٧٢)، وقال محققوه: إسناده ضعيف، لضعف ابن أبي حازم البجلي، وقد حسنه الألباني في صحيح الترغيب والترهيب برقم (١٥٧١) وأخرجه البزار (٣٥٦٢) زوائد، والبيهقي في الشعب (٥٥٢٤) والبخاري (٢٠٣٠) والطبراني في الكبير (٨٩٩٠).

على محبته لعبده، وتضييقه لا يدل على غضبه، ولولا لطف الله ورحمته بنا لخسف بنا كما فعل بقارون، ولكنه سبحانه منّ علينا فلم يعاقبنا.

لقد كان قارون منافقًا كافرًا، ألم تعلم أن الله لا يفلح الكافرين في الدنيا ولا في الآخرة؛ فهم لا يفوزون بالسعادة في الدارين.

فصار هلاك قارون، عقوبة له، وعبرة وموعظة لغيره، حتى إن الذين غبطوه على ما هو فيه، ندموا، وتغيّر فكرهم الأول.

التَّعْقِيبُ عَلَى قِصَّةِ قَارُونَ

٨٣- ﴿تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُنْقِذِينَ﴾

في هذه الآية ترغيب في الدار الآخرة، وإخبار عن السبب الموصل إلى السعادة الأبدية، وهو عدم التكبر على الخلق، وعدم الإفساد في الأرض، وامتنال الأوامر واجتناب النواهي.

وبهذا تبين رجحان كفة الإيمان في الميزان، وخسران القيم المادية التي تكون سببًا في التكبر على الناس، فمتاع الدنيا يعطيه الله تعالى لمن يحب ومن لا يحب، يعطيه للمؤمن والكافر، والصالح والعاصي، وهو نعيم فاني، ومتاع مؤقت، حلاله حساب، وحرامه عذاب وعقاب، وإن نعيم الدار الآخرة لا يحول ولا يزول، وقد جعل الله هذا النعيم لعباده المتواضعين من خلق الله، الذين لا يفسدون في الأرض بالمعاصي والشرك، وكبائر الذنوب، ولا يتعالون على الناس استطالة وترفعًا، فهؤلاء لهم الدرجة العالية الرفيعة يرون فيها ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر، وهم أصحاب النعيم السرمدي الذي لا يحول ولا يزول.

عن عدي بن حاتم رضي الله عنه قال: لما دخل على النبي ﷺ ألقى إليه وسادة، فجلس على الأرض فقال: «أشهد أنك لا تبغي علوًّا في الأرض ولا فسادًا»^(١).

(١) أخرجه ابن مردويه، «فتح القدير» (٤/١٨٤). وهذا الجزء من حديث طويل عند الحاكم، والحكيم الترمذي وابن مندة والعسكري، وهو حديث ضعيف كما في كشف الخفا ومزيل الإلباس (٨٧/١) عن جرير بن عبدالله البجلي، وفي سنده جهالة.

والعاقبة المحمودة في الدنيا والآخرة لمن اتقى عذاب الله، وعمل الطاعات، وترك المحرمات.

كان عمر بن عبد العزيز - رحمه الله - يردد هذه الآية حتى قبُض، وقال عليّ ؓ: أنزلت في أهل التواضع من الؤلاة وأهل المقدرة.

إن رسل الله الكرام كان فيهم الثري والفقير، وفيهم من جمع الله له بين النبوة والملك، وفيهم من عاش على الكفاف، ولكن الثري فيهم لم يبخل ولم يطع، والفقير منهم لم يعجز ولم يهن.

ومحمد ﷺ كان مثلاً أعلى للتواضع ومعيشة الكفاف، مع أن الله تعالى أرسل له الملك الموكل بالجمال؛ ليعرض عليه أن تكون له جبال مكة ذهباً تسير معه أينما سار، فقال: أجوع مرة، فأشعر أني بحاجة إلى ربي فأسأله، وأشبع مرة، فأشكر نعمة الله عليّ.

وقد ثبت في الصحيح عن عياض بن حمار ؓ أن النبي ﷺ قال: «إن الله تعالى أوحى إليّ أن تواضعوا؛ حتى لا يفخر أحد على أحد، ولا يبغي أحد على أحد»^(١).

وفي الحديث عن أبي هريرة ؓ أن النبي ﷺ قال فيما يرويه عن ربه: عز وجل «الكبرياء والعظمة إزاري وردائي، فمن نازعني واحداً منهما قصمته ولا أبالي».

وفي لفظ «أدخلته النار» بدل «قصمته...» وفي رواية «قذفته في النار» و«أدخلته جهنم»^(٢).

وهذا الوعيد لمن أحب ذلك، أما من يتجمل ويتزين دون تكبر فلا حرج عليه، كما جاء في الحديث عن ابن مسعود ؓ أن النبي ﷺ قال: «لا يدخل الجنة من كان في قلبه مثقال ذرة من كبر»، فقال رجل: يا رسول الله، الرجل منا يحب أن يكون ثوبه حسناً ونعله حسناً، قال: «إن الله جميل يحب الجمال، الكبر بطر الحق وغمط الناس»^(٣).

(١) مسلم (٢١٩٩/٤) من حديث عياض بن حمار برقم (٢٨٦٥) في نهاية حديث طويل.

(٢) الحديث في صحيح مسلم، ينظر مشكاة المصابيح برقم (٥١١٠) ج ٣. و«المسند» (٨٨٩٤، ٩٧٠٣).

قال محققوه: حديث صحيح، وإسناده حسن، رجاله رجال الصحيح، غير عطاء بن السائب فقد روى له أصحاب السنن، وروى له البخاري حديثاً واحداً،

(٣) مسلم (٩١) وأبو داود (٤٠٩١) والترمذي (١٩٩٨) وابن ماجه (٥٩، ٤١٧٣) والبيهقي (٨١٥٢) وابن أبي شيبة (٨٩/٩) بالفاظ متقاربة.

وبهذا يتبين أن الذين يريدون العلو في الأرض، أو الفساد فيها، وعدم امتثال الأوامر واجتناب النواهي، ليس لهم نصيب في الدار الآخرة.

ثَوَابُ الْمُحْسِنِينَ وَجَزَاءُ الْمُسِيئِينَ

٨٤- ﴿مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ خَيْرٌ مِنْهَا وَمَنْ جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَى الَّذِينَ عَمِلُوا السَّيِّئَاتِ إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾

الحسنة، اسم جنس، يشمل جميع ما أمر الله به ورسوله من الأقوال والأعمال الظاهرة والباطنة المتعلقة بحق الله تعالى وحق عباده، والسيئة، كل ما نهى الشارع عنه نهى تحريم.

وما دامت العاقبة للمتقين، فإن ثوابهم يكون في الدار الآخرة التي يقع فيها الجزاء، كما كتب الله على نفسه الحسنة بعشر أمثالها وأكثر، ومضاعفة الحسنة يستلزم أن يقترن بها من الأسباب ما تزيد به المضاعفة، بحسب حال العامل وعمله ونفعه ومحلّه ومكانه، فالإخلاص في العمل مثلاً، يختلف عن الرياء، والفقير المتصدق يختلف عن الغني المتصدق، وهكذا، والسيئة يُجزى العبد بمثلها ولا يُضاعف جزاؤها، رحمة منه وفضلاً، فمن أخلص التوحيد والعمل لله تعالى وفق شرع الله سبحانه، فله الجنة والنعيم الدائم، ومن جاء بالشرك والكفر والأعمال السيئة فله جزاء عمله.

قال تعالى: ﴿مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا وَمَنْ جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَى إِلَّا بِمِثْلِهَا وَهُمْ لَا يَظْلَمُونَ﴾ [الأنعام: ١٦٠]

وفي الآية الأخرى: ﴿وَمَنْ جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَكُبَّتْ وُجُوهُهُمْ فِي النَّارِ هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [النمل: ٩٠].

تَعْقِيبُ السُّورَةِ عَلَى قِصَّتِي فِرْعَوْنَ وَقَارُونَ

وَعَدُ اللَّهِ لِرَسُولِهِ بِالْعُودَةِ إِلَى مَكَّةَ

٨٥- ﴿إِنَّ الَّذِي فَرَضَ عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لَرَأْدُكَ إِلَيْنَا فَإِنْ تَوَلَّيْنَاكَ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ فَاعْلَمْ أَنَّكَ بِأَعْيُنِنَا وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ﴾

فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ﴿٨٥﴾

وبعد التعقيبات المباشرة على قصتي فرعون وقارون، يأتي التعقيب الأخير ليخاطب النبي

وَيُعْلَمُهُ أَنَّ الضَّعِيفَ لَا يَبْقَى ضَعِيفًا، وَالْقَوِي لَا يَبْقَى قَوِيًّا، كَمَا اتَّضَحَ ذَلِكَ مَعَ الَّذِينَ اسْتَضَعَفُوا فِي الْأَرْضِ، فِي صَدْرِ السُّورَةِ، وَهَذِهِ السُّورَةُ نَزَلَتْ بِمَكَّةَ، وَالْقَلَّةُ الْمُسْلِمَةُ فِيهَا كَانُوا ضَعْفَاءَ، وَكَانُوا بِحَاجَةٍ إِلَى شَدِّ الْأَزْرِ، وَلِذَلِكَ فَقَدْ طَمَأْنَتْهُمْ هَذِهِ الْآيَةُ عَلَى الْمُسْتَقْبَلِ.

وَقَدْ انْتَهَتْ الْمُدَّةُ الْمَكِّيَّةُ بِالنَّأَمْرِ عَلَى قَتْلِ النَّبِيِّ ﷺ فَخَرَجَ مُهَاجِرًا إِلَى الْمَدِينَةِ، وَبَيْنَمَا هُوَ فِي الْجُحْفَةِ بَيْنَ مَكَّةَ وَالْمَدِينَةِ اشْتَأَقَ إِلَى مَكَّةَ، فَتَوَجَّهَ إِلَيْهَا قَائِلًا: «وَاللَّهِ إِنَّكَ لِأَحَبُّ بِلَادٍ لِلَّهِ إِلَى اللَّهِ، وَأَحَبُّ الْبِلَادِ إِلَى نَفْسِي، وَلَوْلَا أَنْ أَهْلَكَ أَخْرَجُونِي مِنْكَ مَا خَرَجْتُ»^(١).

فَأَنْزَلَ اللَّهُ عَلَيْهِ يُطَمِّئُهُ، وَيَبَيِّنُ لَهُ أَنَّ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنَ، وَفَرَضَ عَلَيْهِ تَبْلِيغَهُ وَتِلَاوَتَهُ وَالِدَعْوَةَ إِلَيْهِ، وَأَوْضَحَ لَهُ الْمَنْهَجَ، وَبَيَّنَّ فِيهِ الْحَلَالَ وَالْحَرَامَ، وَشَرَعَ لَهُ التَّكَالِيفَ، وَأَمَرَهُ بِالْتِمَسْكِ بِهِ، لَمْ يُرْجِعْهُ إِلَى مَكَّةَ الَّتِي خَرَجَ مِنْهَا فِي وَقْتٍ مُحَدَّدٍ، هُوَ يَوْمُ فَتْحِ مَكَّةَ، فَيَوْمُ الْفَتْحِ: هُوَ مَوْعِدُ عَوْدَتِهِ ﷺ إِلَى مَكَّةَ.

وهذا أولى من قول بعضهم: إن المعنى: لرادك إلى الموت، أو إلى يوم القيامة.

وبعد أن بيَّن النبي ﷺ طريق الهداية ورسم المنهج لعباده الله، بيَّن سبحانه أنهم إن اتبعوك - أيها الرسول - ففي ذلك سعاتهم في الدنيا والآخرة، وإن أبوا إلا العصيان والإعراض عن طريق الهدى، فلم يبق إلا الجزاء على الأعمال، وربك أعلم بأهل الهدى والضلال فيجازي كُلًّا بِعَمَلِهِ وَقَوْلِهِ.

قل - يا محمد - لمن قال عنك: إنك لفي ضلال مبين، مِنْ كُلِّ مَنْ لَمْ يُؤْمِنْ بِكَ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ: ربي أعلم بالمهتدي والضال، أنا أم أنتم، فينصر أهل الهدى ويؤيدهم، وتكون العاقبة لهم، ويخذل أهل الضلال والكفر، وتكون الدائرة عليهم.

خَمْسَةُ تَكَالِيفَ لِمَنْ شَرَّفَهُ اللَّهُ بِالرَّسَالَةِ الْعَالَمِيَّةِ، هِيَ خِتَامُ السُّورَةِ

٨٦- ﴿وَمَا كُنْتَ تَرْجُو أَنْ يُلْقَىٰ إِلَيْكَ الْكِتَابُ إِلَّا رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ ظَهِيرًا لِلْكَافِرِينَ﴾

بيَّن الله تعالى لرسوله ﷺ أنه لم يكن يتطلع إلى نزول الوحي عليه، ولم يكن يؤمل أن

(١) من حديث عبد الله بن عدي بن الحمراء، وأبي هريرة في «السنن الكبرى» للنسائي (٤٢٣٨-٤٢٤٠) وابن ماجه (٣١٠٨) والترمذي (٣٩٢٥) و«المستند» (١٨٧١٥، ١٨٧١٧) وابن حبان (٣٧٠٨).

يُنَزَّلُ عَلَيْهِ هَذَا الْقُرْآنَ، وَإِنَّمَا هُوَ اخْتِيَارَ اللَّهُ لَهُ وَرَحْمَتَهُ بِهِ، وَاصْطِفَاؤُهُ مِنْ بَيْنِ الْبَشَرِ.
وهكذا يذكّر الله تعالى رسوله ﷺ بنعمته عليه، بإنزال الوحي وعموم الرسالة، فضلاً
منه ورحمة، فأرسلك الله - أيها الرسول - بهذا الكتاب، رحمة للعالمين، وإن كانوا من
قبل لفي ضلال مبين.

وما دام الله قد منحك -أيها الرسول- هذه النعمة العظيمة، فإن عليك القيام بخمسة
تكاليف، يجب أن تحرص عليها؛ لأنها دعائم الفلاح في الدنيا والآخرة:

التكليف الأول: ﴿فَلَا تَكُونَنَّ ظَهيراً لِلْكَافِرِينَ﴾

أي: لا تكن عوناً لمشرك على شركه، ولا لكافر على كفره، ولا لضال على ضلاله،
ولا تشاركهم، ولا تعنهم، ولا تحضر مجالس أعياد كفرهم، ولا تُعِنْ عليها، ولا تُقْرِبها،
بل فارقهم وابذهم وخالفهم، واحذر موافقتهم، أو التشبه بهم، أو محبتهم وموالاتهم،
وكن عوناً للمسلمين، محباً لهم.

التكليف الثاني: ﴿وَلَا يَصُدُّكَ عَنْ ءَايَاتِ اللَّهِ بَعْدَ إِذْ أُنْزِلَتْ إِلَيْكَ﴾. قال تعالى:

٨٧- ﴿وَلَا يَصُدُّكَ عَنْ ءَايَاتِ اللَّهِ بَعْدَ إِذْ أُنْزِلَتْ إِلَيْكَ وَادْعُ إِلَى رَبِّكَ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمَشْرِكِينَ﴾

أي: لا يصرفك أعداء الإسلام عن الدعوة إلى الله تعالى، وتبليغ ما أنزل إليك من
ربك بما يصدر عنهم من كذب وأقوال وأفعال، وإيذاء لك، فلا تلتفت إليهم وامض
لشأنك، ولا يمنعك من ذلك مانع، ولا يحول بينك وبينه حائل مهما كان، بل بلغ رسالة
ربك ولا تتخضع بحالهم، ولا تتبع أهواءهم، واحذر من أهل ملة الكفر أن يُثْنُوكَ أو
يُصَدُّوكَ عن سبيل الله، مهما كان الصارف لك عن دين الله من تكذيب لك، أو شدة
إيذاء من الناس، فهو الذي فرض الله عليك هذا القرآن بإنزاله إليك، فبلغ رسالة ربك،
ولا تبال بمكرهم.

التكليف الثالث: ﴿وَادْعُ إِلَى رَبِّكَ﴾.

بكافة الطرق: بالحكمة، والموعظة الحسنة، ومجادلة أهل الكتاب بالحسنى، وكذا أهل اللجاج
والخصومة جادلهم بالتي هي أحسن، واجعل الدعوة إلى الله تعالى هي منتهى غايتك وقصدك.

وقطب الدين: هو التوحيد وعدم الإشراف بالله تعالى، ثم العبادة، وسائر التكليف الشرعية، والأخلاق والآداب، وامثال الأوامر واجتناب النواهي.

التكليف الرابع: ﴿وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾.

فالشرك هو أعظم الذنوب، فلا تكن من المشركين في شركهم، ولا في فروعه وشعبه التي هي جميع المعاصي، ومن لقي الله تعالى وهو يشرك به فإن ذنبه لا يغفر ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ﴾ [النساء: ٤٨، ١١٦].

التكليف الخامس: ﴿وَلَا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ﴾. قال تعالى:

٨٨- ﴿وَلَا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ لَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾^(١)

لا تشرك مع الله غيره، فتدعوه، أو تنذر له، أو تذبح له، أو تستغيث به، أو تطلب المدد منه، أو تستجير به، أو تعتقد فيه نفعاً أو ضرراً، فلا معبود بحق إلا الله، فأخلص له العبادة، فإنه لا يجب أن يُعبد ولا يُحب إلا الله، الباقي بعد فناء خلقه.

والمخاطب في ذلك كل مسلم، وكل من يدعو الناس إلى دين الله، ورسول الله ﷺ داخل في كل ذلك دخولاً أولياً.

وكيف يدعو العبد مع الله غيره، وكل شيء هالك وفانٍ إلا وجهه سبحانه، فهو وحده الدائم الباقي، بعد فناء جميع مخلوقاته ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ ﴿٦٧﴾ وَيَبْقَى وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ ﴿٦٨﴾﴾ [الرحمن]. وفي الآية إثبات الوجه لله سبحانه.

والله تعالى ليس كمثله شيء وهو السميع البصير، قال ليبيد:

ألا كل شيء ما عدا الله باطل وكل نعيم لا محالة زائل
وهي أصدق كلمة قالها شاعر^(٢).

(١) قرأ يعقوب بالبناء للفاعل في (ترجعون)، والباقون بالبناء للمفعول.

(٢) كما صح ذلك في حديث أبي هريرة في البخاري برقم (٣٨٤١) ومسلم (٢٢٥٦) بهذا فسرهما ابن عباس كما في «صحيح البخاري» في كتاب التفسير، «فتح الباري» (٣٦٩/٨) ورواه النسائي في التفسير (٦/٤٢٥) وبه قال مجاهد كما عند الطبري (٦٤١/١٩).

فكل شيء زائل من مال وجاه، وسلطان ومتاع، وحكم وقوة، وغير ذلك.
 جاء في الأثر: لما نزلت ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ﴾ [الرحمن]. قالت الملائكة: هلك أهل الأرض.
 فلما نزلت: ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ﴾ [آل عمران: ١٨٥]. قالت الملائكة: هلك كل نفس.
 فلما نزلت: ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ﴾ قالت الملائكة: هلك أهل السماء والأرض^(١).
 وله سبحانه فضل القضاء يوم القيامة، فلا راد لقضائه، ولا معقب لحكمه.
 وإليه وحده سبحانه المرجع والمصير بعد الموت؛ للحساب والجزاء، فيثيبكم أو يعاقبكم على ما قدمتم وما أخرتم، فحاسبوا أنفسكم قبل أن تحاسبوا، وزنوا أعمالكم قبل أن توزن عليكم.
 كان ابن عمر رضي الله عنهما إذا أراد أن يتعاهد قلبه يأتي الخربة، فيقف على بابها، فينادي بصوت حزين ويقول: أين أهلك؟ ثم يرجع على نفسه، ويقول: ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ﴾^(٢).

وهكذا تم تفسير (سورة القصص) والله الحمد والمنة.



(١) أخرجه ابن مردويه، «فتح القدير» (٤/١٨٤) وأخرجه ابن المنذر عن ابن جريج، «الدر المنثور» (١١/٥٢٤).

(٢) أخرجه ابن أبي الدنيا في كتاب «التفكير والاعتبار» عن عمر بن سليم الباهلي عن أبي الوليد عن ابن عمر به.

تَفْسِيرُ سُورَةِ الْعَنْكَبُوتِ (٢٩)

مُقَدِّمَةُ السُّورَةِ

سورة (العنكبوت) هي السورة التاسعة والعشرون في ترتيب المصحف، والخامسة والثمانون في ترتيب النزول، نزلت بعد سورة (الروم)، وقبل سورة (المطففين)، وهي من آخر ما نزل بمكة.

وعدد آياتها تسع وستون آية عند الجميع عدا الحمصى، وعددا الحمصى سبعون آية، وكلماتها تسع مئة وثمانون كلمة، وحروفها أربعة آلاف ومئة وخمسة وستون حرفاً، وسميت سورة (العنكبوت) لذكره فيها.

وهي سورة مكية على الأرجح، وقيل: ما عدا الآيات العشر الأول منها فإنها مدنية، وهي كالسور المكية تتناول العقيدة، والرسالة، والبعث:

١- أما جانب التوحيد فهو في بدء السورة، حيث الحديث عن الإيمان، وما يتعرض له المؤمنون من فتن. ﴿أَحْسِبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا ءَامَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ﴾ (٢).

٢- وأما جانب النبوة، والوحي، والرسالة فيشير إليه مثل قوله تعالى في السورة: ﴿وَإِنْ تُكَذِّبُوا فَقَدْ كَذَّبَ أُمَمٌ مِّن قَبْلِكُمْ وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا أَلْبَلُغُ الْبَيِّنَاتِ﴾ (١٨).

٣- وأما جانب البعث والحشر والنشر، والحساب والجزاء، فيشير إليه مثل قوله تعالى في السورة: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا كَيْفَ يُبْدِئُ اللَّهُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ﴾ (٦٩).
والجهاد الذي تتحدث عنه السورة هو جهاد النفس، وجهاد الدعوة، والصبر على الفتن وأذى أعداء الإسلام.

جاء في أول السورة قوله تعالى ﴿وَمَنْ جَاهَدْ فَإِنَّمَا يُجَاهِدُ لِنَفْسِهِ﴾ [٦٦]. وقد رُبط هذا الجهاد بآخر آية في السورة، وفيها وعد بجني ثمرة هذا الجهاد ﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا﴾ الآية [٦٩].

والجهاد في الآيتين: هو جهاد النفس والهوى والشيطان، وجهاد الدعوة والصبر على الأذى.

وهذا الجهاد هو المحور الذي تدور حوله السورة، وهو موضوعها الأصيل، وفي إطار هذا المحور تتكون السورة من ثلاثة عناصر:

العنصر الأول: عن حقيقة الإيمان، وجهاد النفس، وجهاد الدعوة، وسنة الابتلاء والفتنة، ومصير كلٍّ من: المؤمنين والمنافقين والكافرين، وهذا العنصر اشتملت عليه الثلاث عشرة آية التي في أول السورة.

العنصر الثاني: لمن يستعجل ثمرات الجهاد، ويستبطن مراحلها، ويتمثل هذا في جهاد الرسل الكرام، وصبرهم على أقوامهم، مع قلة الثمرة، وطول المدة، وهم: نوح، وإبراهيم، ولوط، وشعيب، وموسى، ومحمد، عليهم السلام.

وتشير السورة في هذا العنصر إلى بعض الطغاة، وهم: عاد، وثمود، وقارون، وفرعون، وهامان، فتبين ما لحق بمن كذب الرسل من هلاك، وتبين ضخامة جهد الأنبياء، وضآلة الحصيلة، وهذا العنصر من الآية الرابعة عشرة إلى الآية الخامسة والأربعين.

العنصر الثالث: يتناول أسلوب دعوة أهل الكتاب، ومجادلتهم بالحسنى إلا من ظلم منهم واعتدى.

ثم تربط السورة هذا كله بجملته من الآثار الكونية التي تدعم جانب التوحيد كخلق السموات والأرض، ونزول الماء من السماء، وتسخير السفن في البحار... إلخ، وهذا إلى نهاية السورة.

عن عائشة رضي الله عنها أن رسول الله ﷺ كان يصلي في كسوف الشمس والقمر أربع ركعات، وأربع سجعات، يقرأ في الركعة الأولى بالعنكبوت أو الروم، وفي الثانية بـ (يس) ^(١).

(١) أخرجه الدارقطني في «السنن» (٤١٨/٢) برقم (١٧٩٢) وفيه سعيد بن حفص النخيلي، قال ابن حجر في «تقريب التهذيب» (٢٩٣/١): صدوق تغير في آخر أيامه، وقال ابن القطان: لا أعرف حاله، وهو في «المسند» (١٩٧٥، ٣٢٣٦) وهو حديث ضعيف، ولكنه صحيح بدون ذكر هذه السور كما في حديث صفة صلاة الكسوف والخسوف في «سنن الدارقطني» برقم (٧٨٩).

تَفْسِيرُ السُّورَةِ

الْحِكْمَةُ مِنْ افْتِتَاحِ بَعْضِ السُّورِ بِحُرُوفِ الْهَجَاءِ

١- ﴿الْمَ (١)﴾

ثلاثة حروف هجائية مقطعة من بين تسع وعشرين سورة مفتوحة بمثل هذه الحروف، وهذه الحروف هي:

١- من المتشابه الذي استأثر الله بعلمه.

٢- وفي افتتاح السورة بحروف الهجاء إشارة إلى أن من أغراضها تحدي المكذبين بالقرآن، بالإتيان بمثل أقصر سورة منه، وأن من أغراضها تثبيت المسلمين حين يُفتنون في دينهم، وتثبيت الدعاة إلى الله تعالى حين يُضطهدون ويُعذبون.

ولعل حروف الهجاء تشير إلى إعجاز القرآن، وأنه مكوّن منها، مع عجز فصحاء العرب عن الإتيان بمثل أقصر سورة منه.

٣- ولعلها أيضًا تشير إلى بدء السورة بكلام عجيب غير مفهوم المعنى؛ حتى يثير ذلك انتباه القارئ والمستمع، ويوقظ قلبه وضميره، فيصغي إليه أيّما إصغاء، فلعله يصادف قلبه، فيزيده هدى إن كان مؤمنًا، أو يجعله يؤمن بعد غفلة وجحود وعناد، إن كان غير مؤمن.

٤- ولعل هذه الحروف تشير إلى ما يحمله القرآن من ثقل في التكاليف، ومن الأحكام والحكم، والحلال والحرام.

٥- والسور التي افتتحت بحروف الهجاء، ولا يَعُقِب هذه الحروف إشارة إلى القرآن،

(١) قرأ أبو جعفر بالسكت على حروف الهجاء الثلاثة، ألف، ولام، وميم، سكتة خفيفة بدون تنفس، وقرأ ورش بنقل حركة همزة (أحسب) إلى ميم (الم) عند الوصل، ويجوز له في الميم المد ست حركات نظرًا للأصل، والقصر اعتدًا بعارض النقل.

هذا: وقد انفرد المصحف الكوفي بعد (الم) آية، وتركها غيره.

كما في أول سور: مريم، والعنكبوت، والروم، لعل السبب في ذلك أنه يعقبها أمر هام خطير، احتاج إلى هذا الافتتاح وهذا التنبيه، كقصة زكريا ويحيى في أول سورة (مريم)، وابتلاء المؤمن وفتنته في أول سورة (العنكبوت)، والإخبار بأمر غيبي هو انتصار الروم على الفرس كما في أول سورة (الروم).

أَقْسَامُ النَّاسِ بِالنَّسْبَةِ لِلِابْتِلَاءِ وَالْفِتَنِ

٢- ﴿أَحْسَبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا ءَامَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ﴾ (٢)

بعد الافتتاح بحروف الهجاء تحدثت السورة عن حقيقة الإيمان والابتلاء، فقسّمت الناس إلى أقسام أربعة:

الْقِسْمُ الْأَوَّلُ: مُؤْمِنٌ ظَاهِرُ الْإِيمَانِ بِحُسْنِ عَقِيدَتِهِ مُبْتَلَى بِالْفِتَنِ

أي أَظَنَّ الناس حين قالوا: آمنا، أن يتركهم الله بدون ابتلاء ولا اختبار؟! فلا بد أن يتبلى الله عباده المؤمنين، كُلاً على قدر ما عنده من إيمان؛ فالابتلاء طبيعة هذه الدنيا، وهو يتفاوت شدة وضعفًا بحسب الأقدار والمهمات، وهذا من حكمة الله تعالى، فلولا هذا الابتلاء لم يتميز الصادق من الكاذب، والمحق من المبطل، ومن سنة الله تعالى أن يتبلى عباده بالسراء والضراء، والعسر واليسر، والمنشط والمكره، والثراء والفقر، والنصر والهزيمة.

سأل سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه رسول الله ﷺ قال: يا رسول الله، أي الناس أشد بلاء؟ قال: «الأنبياء، ثم الأمثل فالأمثل، يُبتلى الرجل على حسب دينه، فإن كان في دينه صلابة زيد له في البلاء، وإن كان في دينه رقة ابتلي على قدر دينه، فما يبرح البلاء بالعبد حتى يتركه يمشي على الأرض وما عليه خطيئة»^(١).

وفي لفظ الترمذي عن أبي هريرة رضي الله عنه: «وما يزال البلاء بالمؤمن في نفسه وماله وولده،

(١) حديث صحيح عن سعد بن أبي وقاص، أخرجه الترمذي كما في «تحفة الأحوذى» (٨٧/٧) وهو في «سنن الترمذي» برقم (٢٣٩٨) وقال: حديث حسن صحيح، وفي «المسند» (١٧٢/١). برقم (١٤٩٤، ١٦٠٧، ١٥٥٥) بإسناد حسن من أجل عاصم بن بهدلة (محققوه) وانظر (١٤٨١) وأخرجه الطيالسي (٢١٥) والبيهقي في السنن (٣٧٢/٣) والشعب (٩٧٧٥).

حتى يلقي الله وما عليه خطيئة»^(١).

وما أشد البلاء حينما يُكَلَّف رجل بإصلاح العالم وتغيير مساره، ودفع الناس جميعاً إلى طريق التوحيد وخصال البر، كرجال الدعوة، وعلى رأسهم سيد الدعاة محمد ﷺ؛ فإنه عليه الصلاة والسلام قد حمل عبئاً تنوء به الجبال، ولكنه اعتمد على الله تعالى ونهض به، وتعرّض للإيذاء القولي والفعل، كما تعرّض للغربة والشدة والمعارك المتواصلة، فظلاً يقاوم تقاليد راسخة، ودولاً عظمى، ولم يتقهقر ولم تلن له قناة، حتى دخل الناس في دين الله أفواجا.

وفي مثل هذه الدعوات الكبرى، وهذه التكاليف الشاقة يتراجع بعض الناس أمام الإهانات والمصائب؛ لتظهر نتائج هذا الابتلاء في عالم الوجود، فيتميز الصادق من المنافق. وكما يُبتلى الدعاة إلى الله تعالى بالمحن والشدائد، يُبتلى أهل الإيمان كذلك بالاضطهاد والتعذيب.

قال ابن جُزَي: نزلت هذه الآية في قوم من المؤمنين كانوا بمكة مستضعفين، منهم عمار بن ياسر وغيره، وكان كفار مكة يؤذونهم، ويعذبونهم على الإسلام، فضاقت صدورهم بذلك، فأنسهم الله بهذه الآية ووعظهم، وأخبرهم أن ذلك ابتلاء واختبار؛ ليوطّنوا أنفسهم على الصبر والثبات على الإيمان، وأعلمهم أن الله تعالى يُسلط الكافرين على المؤمنين ليمحّصهم، ويُظهر الصادق في إيمانه من الكاذب^(٢).

وقال القرطبي: المراد بالناس: قوم من المؤمنين كانوا بمكة، وكان الكفار يؤذونهم ويعذبونهم على الإسلام: كسلمة بن هشام، وعياش بن ربيعة، والوليد بن الوليد، فكانت صدورهم تضيق بذلك، وربما استنكروا أن يمكن الله الكفار من المؤمنين.

قال مجاهد وغيره: فنزلت هذه الآية مسلّية ومعلّمة أن هذه هي سيرة الله في عباده اختباراً للمؤمنين وفتنة^(٣). قال تعالى:

(١) من حديث أبي هريرة في «سنن الترمذي» (٢٣٩٩) قال أبو عيسى: هذا حديث حسن صحيح.

(٢) «التسهيل لعلوم التنزيل» (١١٣/٣).

(٣) «تفسير القرطبي» (٣٠٤/١٣).

٣- ﴿وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ﴾

وأشكال الفتن كثر، منها: الامتحان بشدة التكليف الشرعية وكثرتها، ومنها مجاهدة الهوى والشیطان، ومجاهدة المعاصي والنفس والشهوة، والقيام بالطاعات وترك المحرمات.

ومن الفتن: مفارقة الأهل والأحباب والأوطان، والابتلاء بالفقر والمرض، والمصائب في النفس والمال، ونقص الأرزاق، ومنها فتنة جهاد الأعداء، وإقبال الدنيا على الكفار، وعلى أهل الباطل مع غرقهم في الرذيلة، وهناك فتنة الغربة في الدين، والوحشة بالعقيدة، حيث يعيش المؤمن غرباً بدينه في بلده...، ومن ذلك فتنة السجن والتعذيب إلخ.

والفتن كلها ترجع إلى الشبهات وهي تعارض العقيدة، والشهوات وهي تعارض الإرادة، فمن كان إيمانه ثابتاً، رد الشبهات التي ترد على قلبه، فتصرفه عن المعاصي وتصده عن الواجب، وردّ الشهوات التي تدفعه إلى المعاصي والذنوب، وتصرفه عن أمر الله ورسوله، والناس في مجاهدة الهوى والشیطان مقامات ودرجات كثيرة.

وفي سبب نزول هذه الآية وما قبلها ثلاثة أقوال:

الأول: أنه لما أمر النبي ﷺ بالهجرة، كتب المسلمون الذين هاجروا بدينهم إلى إخوانهم بمكة، أنه لا يقبل منكم إسلامكم حتى تهاجروا، فخرجوا نحو المدينة، فأدركهم المشركون فردّوهم وأذوهم، فأنزل الله عشر آيات من أول السورة.

فلما علموا بنزولها خرجوا مهاجرين، فقتل بعضهم، ونجا بعضهم، فأنزل الله سبحانه: ﴿ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ هَاجَرُوا مِنْ بَعْدِ مَا فُتِنُوا ثُمَّ جَاءَهُمْ وَصَرُّوا إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ (١) [النحل].

الثاني: أنها نزلت في عمار بن ياسر حين كان يعذب في الله تعالى، ومثله عدد من الصحابة (٢).

الثالث: أنها نزلت في مهجع مولى عمر بن الخطاب، أول من قُتل يوم بدر، رماه عمرو بن

(١) «زاد المسير» (٦/٢٥٤) والطبري (١٨/٣٥٨) وابن أبي حاتم (٩/٣٠٣١).

(٢) يُنظر: ابن سعد (٣/٢٥٠) والطبري (١٨/٣٥٨) وابن أبي حاتم (٩/٣٠٣٢).

الحضرمي بسهم فقتله، فقال ﷺ: «سيد الشهداء مهجّع، وهو أول من يُدعى إلى باب الجنة من هذه الأمة، فجزع عليه أبواه وامراته»^(١) فأنزل الله الآية، وأخبر أنه لا بد لهم من البلاء والمشقة في ذات الله تعالى، وهذا على القول بأن الآيات العشر الأول من السورة مدنية.

عن ابن مسعود ؓ قال: أول من أظهر إسلامه سبعة: رسول الله ﷺ، وأبو بكر، وسمية، وعُمّار، وصهيب، وبلال، والمقداد.

فأما رسول الله ﷺ فمنعه الله بعمه أبي طالب، وأما أبو بكر فمنعه الله بقومه.

وأما سائرهم، فأخذهم المشركون فلبسوهم أدرع الحديد، وصهروهم في الشمس، فما منهم من أحد إلا وقد أتاهاهم على ما أرادوا إلا بلالاً، فإنه قد هانت عليه نفسه في الله، وهان على قومه، فأخذوه فأعطوه الولدان فجعلوا يطوفون به في شِعَاب مكة، وهو يقول: أحد، أحد^(٢).

ومثل هذه الآية قوله تعالى: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُمْ مَثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ مَسَّتْهُمُ الْبَأْسَاءُ وَالضَّرَاءُ وَزُلُّوا حَتَّى يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَهُ مَتَى نَصْرُ اللَّهِ أَلَا إِنَّ نَصْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ﴾ [البقرة].

وقوله تعالى: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ وَيَعْلَمَ الصَّادِقِينَ﴾ [آل عمران].

وقوله جلّ شأنه: ﴿مَا كَانَ اللَّهُ لِيَذَرَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ حَتَّى يَمِيزَ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ﴾ [آل عمران: ١٧٩]. وغيرها كثير.

قال ابن عطية: وهذه الآية وإن كانت نازلة في سبب خاص، فهي باقية في أمة محمد ﷺ، موجود حكمها بقية الدهر، وذلك أن الفتنة من الله باقية في ثغور المسلمين بالأسر، ونكاية العدو وغير ذلك^(٣).

(١) يُنظر: «حاشية زاد المسير» ٢٥٤/٦ و«أسباب النزول» للواحدي (١٩٥) عن مقاتل و«تخريج الكشاف» لابن حجر (١٢٧).

(٢) أخرجه ابن ماجه في المقدمة (١٥٠) قال في زوائده: وإسناده ثقات، وهو في «صحيح ابن ماجه» برقم (١٢٢) بإسناد حسن، وصححه الحاكم (٢٨٤/٣) ووافقه الذهبي وابن حبان (٧٠٤).

(٣) «تفسير ابن عطية» (٣٠٥/٤).

وهذه سُنَّةُ الله في عباده أن يختبر مؤمني هذه الأمة وسلفها، كما اختبر مَنْ قبلهم من الأمم. والمعنى: ولقد فتنَّا الذين قبلهم من الأمم واختبرناهم، ممن أرسلنا إليهم رسلنا، وأنزلنا عليهم كتبنا؛ ليميز الله الذين صدقوا في إيمانهم بتكليفهم وقيامهم بما كُلفوا به من الكاذبين منهم بعدم قيامهم بما كُلفوا به، والله سبحانه يعلم ما كان وما يكون، وما لم يكن، ويُظهر في عالم الوجود مَنْ صدق في إيمانه وَمَنْ كذب فيه، وتسجله عليهم الملائكة لإقامة الحجة عليهم، يوم لقاء الله تبارك وتعالى.

روى البخاري عن خباب بن الارت رضي الله عنه، قال: شكونا إلى رسول الله ﷺ وهو متوسد بردة له في ظل الكعبة، فقلنا له: ألا تستنصر لنا؟ ألا تدعو لنا؟ فقال: «قد كان مَنْ قبلكم يؤخذ فيُحفر له في الأرض، فيُجعل فيها، فيُجاء بالمنشار، فيوضع على رأسه، فيُجعل نصفين، ويمشط بأمشاط الحديد ما دون لحمه وعظمه، فما يصده ذلك عن دينه، والله ليتمنَّ الله هذا الأمر، حتى يسير الراكب من صنعاء إلى حضرموت لا يخاف إلا الله، والذئب على غنمه، ولكنكم تستعجلون»^(١).

فالابتلاء والامتحان للنفوس بمنزلة الكير، يُخرج خبثها وطبيها.

الْقِسْمُ الثَّانِي: كَافِرٌ مَجَاهِرٌ بِكُفْرِهِ وَعِنَادِهِ

٤- ﴿أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ أَنْ يَسْبِقُونَا سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾

هؤلاء هم الذين يفتنون المؤمنين ويعملون السيئات، ويرتكبون الجنايات، وعلى رأسها الشرك، فهم لن يُعجزونا، ولن يُهملوا، ولن نغفل عنهم، ولن يفلتوا من عقاب الله لهم، ووغد الله لا يتخلف.

والمعنى: أظنَّ من لم يدخلوا في الإيمان، وأشركوا بالله تعالى واقترفوا الموبقات والمعاصي، أظنوا أن أعمالهم ستُهمَل، فأقدموا عليها، وسهل عليهم ارتكابها.

أظن هؤلاء، أنهم يسبقوننا، أي: يفوتون من عذابنا، فلا نقدر عليهم؟ بشس الحكم حكمهم، الذي فيه إنكار قدرة الله وحكمته، وأن لديهم قدرة تمنعهم من عقاب الله لهم.

(١) «صحيح البخاري» برقم (٣٦١٢، ٦٩٤٣، ٣٨٥٢).

فإذا كانت الفتنة والابتلاء سنة جارية في الخلق، فإن عقاب المفسدين سنة جارية أيضًا لابد من وقوعها، وهم لن يتخلصوا أيضًا من الفتنة والابتلاء.

الْقِسْمُ الثَّالِثُ: مُحْسِنٌ يَرْجُو لِقَاءَ اللَّهِ وَيَعْمَلُ لَهُ

٥- ﴿مَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ اللَّهِ فَإِنَّ أَجَلَ اللَّهِ لَآتٍ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾

هذا هو العبد المؤمن الذي يأمل ثواب الله تعالى، ويخاف حسابه وعقابه، وقلبه موصول بالله تعالى، ويصبر على جهاد النفس، ومشقة العبادة، فهو يرجو لقاء الله، ويطمع في ثوابه، ويعمل للدار الآخرة، فإن من اعترف بالآخرة وعمل لها حتى يلقي الله؛ فإن الله تعالى سيجازيه خيرًا في دار النعيم.

فليطمئن هذا النوع من الناس إلى تحقيق ما يصبو إليه، وليستعد لما يؤمل، وليعمل لذلك اليوم، وليثبت على إيمانه، فإن أَجَلَ اللَّهِ الذي أَجَّله للبعث والحشر والنشور، والثواب والعقاب، لَآتٍ قريبًا لا محالة، فليبادر العبد لصالح العمل، فإن الله هو السميع لما يقوله العباد، العليم بأفعالهم الظاهرة والباطنة.

فيا أيها المحب لربه، المسارع في مرضاته، المشتاق لقربه ولقائه، أبشر بقرب لقاء الحبيب، فإنه آتٍ لا محالة، فتزود للقاءه، واستصحب الرجاء وتأمل الوصول، فإن الله سميع للأصوات، عليم بالنيات، فمن كان صادقًا في دعوى الإيمان، نال المطلوب، وفاز بالمرغوب، ومن كان كاذبًا في دعوى الإيمان لم تنفعه دعواه، ولم ينل ما تمناه.

فإن كنتم مؤمنين حقًا بالبعث والنشور، وبتحقيق وعد الله تعالى لمن يأمل في جزيل ثوابه فلا تستبطؤوا النصر والجزاء الذي وعدكم الله به، كما جاء ذلك في قول المؤمنين: ﴿مَتَى نَصْرُ اللَّهِ﴾ [البقرة: ٢١٤].

وكان جواب الله تعالى عليهم: ﴿أَلَا إِنَّ نَصْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ﴾ [البقرة: ٢١٤].

وكما كان النبي ﷺ يدعو ربه، ويقول: «اللهم أنج عياش بن أبي ربيعة، اللهم أنج سلمة بن هشام، اللهم أنج المستضعفين من المؤمنين، اللهم شدد وطأتك على مضر،

اللهم اجعلها عليهم سنين كسني يوسف، الله أكبر، ثم خر ساجدا»^(١).

الْقِسْمُ الرَّابِعُ: مُجَاهِدٌ يَقُومُ بِتَكَالِيفِ الْإِيمَانِ وَالصَّبْرِ عَلَى الْفِتَنِ

٦- ﴿وَمَنْ جَاهَدَ فَإِنَّمَا يُجَاهِدُ لِنَفْسِهِ إِنَّ اللَّهَ لَغَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ﴾

أي: إن الفتنة والابتلاء، لا بد معهما من احتمال المشاق، وجهاد النفس، والعدو، والهوى، والشيطان، والصبر على طاعة الله تعالى وعن معاصيه، ومن جاهد في سبيل إعلاء كلمة الله، وجاهد نفسه بحملها على الطاعة وترك المعاصي فإن نفع عمله هذا يعود عليه؛ لأنه يفعل ذلك طلباً للثواب الموعود به على جهاده، والله تعالى غني عن أعمالهم وعن عبادتهم ومجاهدتهم، ولو كانوا على قلب رجل واحد فيهم.

وفي هذا بشارة لمن يجاهد نفسه وهواه؛ والله تعالى لو أعطى كل ما في الدنيا لِعَبْدٍ من عباده، فلا حرج عليه، وفي الآية رجاء وتخويف للعبد؛ والله سبحانه إذا أهلك العباد بعذابه، فلا يسأل عما يفعل، وهو الغني عن جميع خلقه، الفعال لما يريد، وقد أمرنا الله تعالى بجهاد النفس والهوى والشيطان، لأنه يعلم أن الأوامر والنواهي تحتاج إلى جهاد، ولأن النفس تتأقل عن الخير، والشيطان ينهي عنه، والكافر يُمنع من إقامة الدين، وكل هذا يحتاج إلى جهاد وسعي ومكابدة، ولذا، سُمي جهاداً.

ثَلَاثَةُ أَمْثِلَةٍ لِفِتْنَةِ الْمُؤْمِنِينَ

٧- ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَحْسَنَ الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾

أخبر سبحانه في هذه الآية عن المؤمنين العاملين للصلاحات، بأنه جل شأنه -مع غناه عن الخلق أجمعين- فإنه يحسن إليهم أحسن الجزاء، ويكفر عنهم أسوأ الذي عملوا، ويجزيهم أجرهم بأحسن ما عملوا، من الواجبات والمستحبات فيقبل القليل من صالح

(١) من حديث أبي هريرة في البخاري (٨٠٤، ١٠٠٦، ٦٩٤٠) ومسلم (٢٩٤، ٦٧٥) وأبي داود (١٤٤٢) وابن ماجه (١٢٤٤) و«المسند» (١٠٥٢١)، وانظر (٧٢٦٠، ٧٤٦٥، ٩٤١٣)، في المسند أيضاً، وأخرجه ابن حبان (١٩٦٩، ١٩٨٦).

الأعمال، ويثيب عليه الكثير، فإن الحسنات يذهبن السيئات.

وفي مقدمة هذا الصنف، المهاجرون في سبيل الله في كل زمان ومكان، وهم الذين يذل الكفار في كل عصر ومصر جهداً في فتنهم عن دينهم، والله تعالى يعلم حالهم، وما تنطوي عليه نفوسهم من صدق الإيمان والإقبال عليه، فهم في أعلى رتبة البدار إلى الله تعالى.

وإذا فليطمئن المؤمنون على تكفير السيئات وجزاء الحسنات، وليصبروا على مشقة الجهاد، وليثبتوا على الفتنة والابتلاء، فإن المستقبل مشرق، والأمل متحقق.

والذين صدقوا الله ورسوله فجمعوا بين الإيمان والعمل الصالح؛ ليمحو الله عنهم سيئاتهم، وليجزينهم أجرهم بأحسن ما عملوا، فيثيبهم عليها الحسنة بعشر أمثالها إلى سبع مئة ضعف، ويجزي على السيئة بمثلها، أو يعفو ويصفح، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ وَإِنْ تَكُ حَسَنَةً يُضَاعِفْهَا وَيُؤْتِ مِنْ لَدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ [النساء].

الْفِتْنَةُ الْأُولَى: صَلَاحُ الْإِبْنِ وَفَسَادُ أَحَدِ الْوَالِدَيْنِ أَوْ كِلَيْهِمَا

٨- ﴿وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ حُسْنًا وَإِنْ جَاهَدَاكَ لِتُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾

هذا لون من ألوان الفتنة متمثلة في فتنة الأهل والأحباب، وهو مثال على صلاح الابن وفساد أحد الوالدين، ووصينا الإنسان بوالديه أن يبرهما، ويحسن إليهما بالقول والعمل غاية الإحسان؛ لأنهما سبب وجوده، ولهما عليه الفضل بعد الله تعالى، وبرُّهما يأتي في المرتبة الثانية بعد الأمر بتوحيد الله تعالى، وهذا كالمقدمة للنهي عن طاعتها في معصية الله تعالى.

فإن بذلاً كل ما في وسعهما، وحرصاً كل الحرص على أن تكفر بالله تعالى فلا تمثل أمرهما في الإشراك بالله تعالى، ولا في معصية الله ﷻ، إليّ مرجعكم ومصيركم يوم القيامة فأخبركم بما كنتم تعملون في الدنيا من صالح الأعمال وسيئها، وأجازيكم عنها.

سبب النزول:

١- قال البغوي وغيره: نزلت هذه الآية، والتي في سورة لقمان [١٤، ١٥]، والأحقاف [١٥]. في سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه، وأمه حمئة بنت أبي سفيان بن أمية بن عبد شمس، لما أسلم سعد، وكان من السابقين الأولين، وكان باراً بأمه، قالت له أمه: ما هذا الذي أحدثت؟ والله لا أكل ولا أشرب حتى ترجع إلى ما كنت عليه، أو أموت، فتعير بذلك أبد الدهر، فجاء سعد إليها، وقال: يا أماء، لو كان لك مئة نفسٍ، فخرجت نفساً نفساً، ما تركت ديني، فكلي إن شئت أو لا تأكلي^(١).

فأنزل الله تعالى يأمر ببر الوالدين والإحسان إليهما بالقول والعمل، وألا يعفهما ويسيء إليهما، وألا يطيعهما في الشرك بالله تعالى، ولا في معصيته سبحانه، إذ «لا طاعة لمخلوق في معصية الله ﷻ»^(٢).

فبرؤا والديكم، وقدموا طاعتهما إلا على طاعة الله ورسوله فإنها مقدمة على كل شيء.

وعن سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه قال: أنزلت في أربع آيات، فذكر قصته، وقالت أم سعد: ليس الله قد أمر بالبر، والله لا أطعم طعاماً، ولا أشرب شرباً، حتى أموت، أو تكفر، قال: فكانوا إذا أرادوا أن يطعموها شجروا فاهها، فنزلت الآية^(٣).

(١) «مختصر تفسير البغوي» (٧١٣/٢) ورواه الواحدي في «أسباب النزول» ص ١٩٥، وأصله في «صحيح مسلم» برقم (١٧٤٨) في كتاب «فضائل الصحابة»، باب فضل سعد بن أبي وقاص، و (٣٤) وفي «سنن الترمذي» برقم (٣٠٧٩) و«المسند» (١٨١/١) برقم (١٦١٤) بإسناد حسن من أجل سماك بن حرب، وهو من رجال مسلم، وبقية رجاله ثقات رجال الشيخين، (محققوه) وهو فقرة من الحديث بنحوه، وانظر (١٥٦٧) وقد أخرجه البزار (١١٤٩) وابن حبان (٦٩٩٢)، وأبي داود (٢٧٤٠) وذكره ابن كثير من رواية أبي القاسم الطبراني بسند فيه ضعف وانقطاع، قلت: صحت الرواية بنحوه عند مسلم والترمذي وغيرهما.

(٢) من حديث طويل بلفظ (إنما الطاعة في المعروف) عن علي، رواه أحمد (٦٦/٥) برقم (٦٢٢)، (١٠٩٥) بإسناد صحيح على شرط الشيخين، (محققوه) وصححه الحاكم (٤٤٣/٣) وأخرجه البغوي في «شرح السنة» (٤٤/١) وأصله في البخاري (٤٣٤٠)، (٧١٤٥) ومسلم (١٨٤٠) وأبي داود (٢٦٢٥) والنسائي في الكبرى (٧٧٨٠، ٨٦٦٨)، والبزار (٥٨٥) والطبراني (٨٩).

(٣) أخرجه الترمذي عند تفسير الآية (١٥٠/٢) برقم (٣١٨٩) وقال: حديث حسن صحيح، ورواه بنحوه مسلم برقم (١٧٤٨) (٣٣) (١٨٧٧/٤) وأحمد (١٥٦٧) وأبو داود الطيالسي (٢٠٨) والنسائي وغيرهم.

٢- هذا: ولَمَّا أسلم عياش بن أبي ربيعة المخزومي، وهاجر مع عمر بن الخطاب رضي الله عنه إلى المدينة قبل هجرة النبي ﷺ، خرج أبو جهل وأخوه الحارث، وكانا أخوي عياش لأمه، فنزلا بعياش، وقالوا له: إن محمداً يأمر ببر الوالدين، وقد تركت أمك، وأقْسَمْتُ ألا تطعم ولا تشرب، ولا تأوي بيتاً حتى تراك، وهي أشد حُباً لك منها لنا، فاخرج معنا، فاستشار عمر، فقال له: هما يخدعانك، فلم يزالا به حتى عصى نصيحة عمر، وخرج معهما، فلما انتهوا إلى البداء، قال أبو جهل: إن ناقتي كَلَّتْ، فاحملني معك. قال عياش: نعم، ونزل ليوطئ لنفسه ولأبي جهل، فأخذه وشده وثاقاً، وذهبا به إلى أمه، فقالت له: لا تزال بعذاب حتى ترجع عن دين محمد، وأوثقته عندها، فقيل: إن هذه الآية نزلت في شأنهما.

ففي حادثة سعد وعياش أن أمهما دعتهما إلى الكفر، وأن الله تعالى قد نهى عن طاعتهما في ذلك، ويحدث مثل هذا في كل زمان ومكان، سيِّماً ممن يدخلون في الإسلام وهم من أبوين غير مسلمين.

وفي هذا الصنف من الناس، نزلت هذه الآية؛ لتبيِّن أن الإحسان إلى الوالدين لا يقتضي طاعتهما في معصية، والشرك بالله تعالى على رأس المعاصي، فلا تعارض بين بر الوالدين وعدم طاعتهما في المعاصي.

والآية تقرر أن الإيمان قد انتصر على فتنة القرابة والرحم، مع الإبقاء على البر والإحسان للوالدين، والمؤمن معرَّض لمثل هذا في كل وقت. قال تعالى:

٩- ﴿وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُدْخِلَنَّهُمْ فِي الصَّالِحِينَ﴾

ثم أعاد الله تعالى ذكر حال المؤمنين لتحريك النفوس إلى نيل مراتبهم، وبيان أن المؤمن الذي يعمل الصالحات سيدخله الله الجنة في جملة عباده الصالحين، ويحشره في جملتهم وزمرتهم مع الأنبياء والأولياء، والشهداء والصديقين، كل على حسب درجته ومرتبته عند الله، فالإيمان الصحيح والعمل الصالح، عنوان السعادة والرضى.

والصلاح أبلغ صفات المؤمنين، كما قال تعالى على لسان سليمان ﷺ: ﴿وَأَدْخَلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ الصَّالِحِينَ﴾ [النمل: ١٩]. وكما قال سبحانه على لسان يوسف ﷺ: ﴿تَوْفَّنِي مُسْلِمًا وَالْحَقِّنِي بِالصَّالِحِينَ﴾ [يوسف: ١٠١].

الْفِتْنَةُ الثَّانِيَةُ: فِتْنَةُ الْأَذَى مِنَ النَّاسِ بِسَبَبِ الْإِيمَانِ

١٠- ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِاللّهِ فَإِذَا أُوذِيَ فِي اللّهِ جَعَلَ فِتْنَةَ النَّاسِ كَعَذَابِ اللّهِ وَلَئِن جَاءَ نَصْرٌ مِّن رَّبِّكَ لَيَقُولُنَّ إِنَّا كُنَّا مَعَكُمْ أَوْ لَيْسَ اللّهُ بِأَعْلَمَ بِمَا فِي صُدُورِ الْعَالَمِينَ ﴿١٠﴾﴾

وبعد ذكر حال المؤمنين الخُلص، يأتي ذكر حال المنافقين الخُلص، وبعد فتنة الوالدين تأتي فتنة الأذى من الناس بسبب الإيمان؛ إذ لا بد للإيمان من قوة وثبات، وتحمل مشاق الدعوة فوق منكب قوي، وعزم من حديد؛ فإن من الناس من يكون مؤمناً في الظاهر، فإذا أذاه أعداء الإسلام جزع من عذابهم وأذاهم كما يجزع من عذاب الله، ولا يصبر على الأذى في سبيل الله، وربما ارتد عن إيمانه، فكأنه جعل فتنة الناس مانعاً له من الإيمان بالله، وهذا كقول الله تعالى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَبْغِ اللّهُ عَلَىٰ حَرْفٍ فَإِنْ أَصَابَهُ خَيْرٌ اطْمَأَنَّ بِهِ وَإِنْ أَصَابَهُ فِتْنَةٌ أُنْقَلَبَ عَلَىٰ وَجْهِهِ خَسِرَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةَ ذَلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ ﴿١١﴾﴾ [الحج].

أي: ومن الناس فريقاً لا صبر له على المحن، ولا ثبات له على النوازل، فإن حُبس، أو استدعى للمسألة، أو ضرب أو أخذ شيء من ماله، صدته هذه الفتنة عن الثبات على الإيمان، وجعلها بمثابة عذاب الله له، فترزعزع إيمانه وقلّ يقينه، وفرط في شيء من دينه.

قال الضحاك: نزلت هذه الآية في أناس من المنافقين بمكة، كانوا يؤمنون، فإذا أودوا وأصابهم بلاء من المشركين رجعوا إلى الكفر والشرك مخافة من يؤذيهم، وجعلوا أذى الناس في الدنيا كعذاب الله^(١).

وكانوا يكتمون ذلك عن المسلمين، فكانوا من المنافقين، وكان ذلك قبل الهجرة، ومن هؤلاء: الحارث بن ربيعة بن الأسود، وأبو قيس بن الوليد بن المغيرة، وعلي بن أمية بن خلف، والعاص بن منبه بن الحجاج، فهؤلاء استرلّهم الشيطان فعادوا إلى الكفر؛ لضعف إيمانهم بسبب ما لحقهم من الأذى، وظلّوا يتظاهرون أنهم من المسلمين، وكانوا يأتون بأخبار المسلمين إلى المشركين بحكم مخالطتهم لهم، وقد رضي المشركون منهم هذه

(١) ابن جرير (١٨/٣٦٥).

المخالطة لهذه المصلحة، فعذَّهم الله منافقين بهذه الآية، وهم ممن قال الله فيهم: ﴿وَلَكِنْ مَنْ شَرَحَ بِالْكُفْرِ صَدْرًا فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِّنَ اللَّهِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ [النحل: ١٠٦]. ومع أن هؤلاء يؤمنون بالبعث والجزاء إلا أنهم يُسوُّون بين عذاب الدنيا وعذاب الآخرة، فخافوا عذاب الناس وأهملوا عذاب الله، فلم يكثرثوا به إثارًا للعاجل على الآجل، وكان الأجدر بهم أن يجعلوا عذاب الله أعظم من أذى الناس، ولكنهم جعلوه كعذاب الله وهم مصدقون بالبعث والجزاء^(١).

وقال ابن عطية: نزلت هذه الآية في قوم من المسلمين كانوا بمكة مختفين بإسلامهم.

قال ابن عباس رضي الله عنه: فلما خرج كفار قريش إلى بدر خرجوا في صفوفهم، فأصيب بعضهم، فقال المسلمون: كانوا أصحابنا وأكرهوا، فاستغفروا لهم، فنزلت ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّيْتُمُ الْمُؤْمِنِينَ ظَالِمِينَ أَنْفُسِهِمْ﴾ [النساء: ٩٧].

قال: فكتبت لمن كان بمكة بهذه الآية أنه لا عذر لهم، فخرجوا مهاجرين، فلحقهم المشركون ففتنهم وردوهم إلى مكة، فنزلت فيهم هذه الآية: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ﴾.

فكتب المسلمون بذلك إليهم فخرجوا، ويُسوا من كل خير، ثم نزلت فيهم: ﴿ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ هَاجَرُوا مِن بَعْدِ مَا فُتِنُوا ثُمَّ جَاهَدُوا وَصَبَرُوا إِنَّ رَبَّكَ مِن بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [النحل: ١١٠].

فكتب لهم بذلك أن الله قد جعل لكم مخرجًا، فخرجوا فلحقهم المشركون فقاتلوهم، فنجا من نجا، وقتل من قُتل^(٢).

وفي الآية تشبيه بين حال المؤمنين الذين منعهم عذاب الله لهم في الآخرة من الكفر في الدنيا، وحال المنافقين الذين منعهم إيذاء الكافرين لهم من الإيمان بالله تعالى، وفيها بيان أنهم لو كانوا مؤمنين حقًا لصبروا وتشجعوا، ورأوا في العذاب عذوبة، وفي المحنة منحة؛ فإن العاقبة للمتقين.

قال الفخر الرازي: أقسام المكلفين ثلاثة:

(١) يُنظر: «تفسير التحرير والتنوير» (٣١٥/٢٠).

(٢) يُنظر: «تفسير ابن عطية» (٣٠٨/٤).

١- مؤمن ظاهر بحسن اعتقاده. ٢- وكافر مجاهر بكفره وعناده.

٣- ومذبذب بينهما، يُظهر الإيمان بلسانه ويُضمّر الكفر في فؤاده.

فلما ذكر تعالى القسمين في قوله تعالى: ﴿فَلْيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلْيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ﴾^(١) ذكر القسم الثالث هنا في قوله سبحانه: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِاللَّهِ﴾.

واللطيفة في الآية أن الله تعالى أراد أن يبين شرف المؤمن الصابر، وخسة المنافق الكافر، فقال: هناك أودي المؤمن في سبيل الله ليرك إيمانه ولم يتركه، وأودي المنافق الكافر فترك الله بنفسه، وكان يمكنه أن يظهر موافقتهم، ويكون قلبه مطمئناً بالإيمان، ومع هذا لم يفعله، بل ترك الله بالكلية^(١).

ثم أخبر سبحانه أنه لو جاء نصر قريب من ربك بالفتح لأهل الإيمان بالنصر لهم على عدو لهم، لقال هؤلاء المذبذبون المرتدون عن الإيمان: إنا كنا معكم ننصركم على أعدائكم، ونتابعكم، فقاسمونا الغنائم، وأعطونا من ثمرات النصر على العدو.

ثم بين ﷺ أنه يعلم ما تنطوي عليه نفوسهم من الإيمان والنفاق، والخير والشر، فيجازيهم على أقوالهم وأفعالهم.

ولو كان يقينهم تاماً، وإسلامهم خالصاً لما توقفوا ساعة، ولركبوا كل هول في سبيل نصرة دينهم، قال تعالى: ﴿الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ بِكُمُ فَإِنْ كَانَ لَكُمْ فَتْحٌ مِّنَ اللَّهِ قَالُوا أَلَمْ نَكُنْ مَّعَكُمْ وَإِنْ كَانَ لِلْكَافِرِينَ نَصِيبٌ قَالُوا أَلَمْ نَسْتَحِذْ عَلَيْكُمْ وَنَمْنَعَكُم مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [النساء: ١٤١].

وقال سبحانه: ﴿فَعَسَىٰ اللَّهُ أَن يَأْتِيَ بِالْفَتْحِ أَوْ أَمْرٍ مِّنْ عِندِهِ فَيُصْبِحُوا عَلَىٰ مَا أَسْرُوا فِي أَنْفُسِهِمْ تَلِيمِينَ﴾ [المائدة: ٥٢].

ولما كان نزول هذه الآية قريباً من وقت الهجرة من مكة، فقد وعد الله المسلمين في هذه الآية بالنصر على عدوهم في الأعوام القادمة، وبين سبحانه أن المنافقين سيقولون: ﴿إِنَّا كُنَّا مَعَكُمْ﴾^(٢) ننصركم ونؤازكم، ومن ذلك ما حدث يوم فتح مكة، حيث قال ذلك من بقي حياً منهم؛ لينالوا مرتبة سبق إلى الإسلام.

(١) «التفسير الكبير» (٣٧/٢٥) بتصرف يسير.

فقد ذكر أن: الأقرع بن حابس، وعيينة بن حصن، وسهيل بن عمرو، وجماعة من وجهاء العرب، وقفوا على باب (عمر) ﷺ ينتظرون الإذن لهم بالدخول، وكان على الباب أيضًا سلمان وبلال وعمّار، فتمعّرت وجوه البقية، فقال لهم سهيل بن عمرو: لِمَ تتمعّر وجوهكم؟! دُعوا ودُعينا، فأسرعوا وأبطأنا، ولئن حسدتموهم على باب (عمر) فإن ما أعدّه الله لهم في الجنة أكثر^(١).

وعلى ضوء ما سبق، ففي سبب نزول هذه الآية أقوال:

الأول: أنها نزلت في عياش بن أبي ربيعة، كان قد أسلم، وخاف على نفسه من أهله وقومه، فخرج من مكة هاربًا إلى المدينة، قبل هجرة النبي ﷺ إليها، فأرسلت أمه في طلبه، وامتنعت عن الطعام والشراب حتى يعود، فلما جاء به قيّدته، وقالت: والله لا أحلك من وثاقتك حتى تكفر بمحمد، وأخذت تضربه بالسياط، وتعذبه حتى كفر بمحمد ﷺ، فنزلت فيه الآية، ثم هاجر بعد ذلك وحسن إسلامه.

الثاني: أنها نزلت في ناس من المنافقين بمكة كانوا يؤمنون، فإذا أودوا وأصابهم بلاء من المشركين رجعوا إلى الشرك^(٢).

الثالث: أنها نزلت في جماعة من المسلمين أجبرهم المشركون على الخروج معهم إلى بدر، فارتدوا^(٣).

قال ابن عباس ﷺ: وهم الذين نزلت فيهم: ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّيْنَاهُمُ الْمَلَائِكَةُ ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ قَالُوا فِيمَ كُنْتُمْ قَالُوا كُنَّا مُسْتَضْعِفِينَ فِي الْأَرْضِ قَالُوا أَلَمْ تَكُنْ أَرْضَ اللَّهِ وَاسِعَةً فَهَاجِرُوا فِيهَا فَأُولَٰئِكَ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا ﴿٩٧﴾ إِلَّا الْمُسْتَضْعِفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ لَا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَلَا يَهْتَدُونَ سَبِيلًا ﴿٩٨﴾﴾ [النساء]. قال تعالى:

١١ - ﴿وَلْيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَلْيَعْلَمَنَّ الْمُنَافِقِينَ ﴿١١﴾﴾

(١) يُنظَر: «تفسير التحرير والتنوير» (٣١٦/٢٠).

(٢) قاله الضحاك كما في الطبري (١٣٢/٢٠).

(٣) ذكره الواحدي ص ١٩٦ والطبري (١٣٣/٢٠) عن عكرمة عن ابن عباس، والسيوطي في «أسباب النزول» عن ابن المنذر وابن أبي حاتم والبيهقي وغيرهم، يُنظَر: «تحقيق زاد المسير» (٢٥٨/٦).

يبيّن سبحانه في هذه الآية أن هذه الفتنة في الدين، بالتعذيب والاضطهاد للخروج من الإسلام، إنما هي لتمييز المؤمنين من المنافقين، فيميز الله لعباده وللحفظه كل فريق من الآخر، كما قال تعالى: ﴿لِيَمِيزَ اللَّهُ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ وَيَجْعَلَ الْخَبِيثَ بَعْضُهُ عَلَى بَعْضٍ فَيَرْكُمَهُ جَمِيعًا فَيَجْعَلُهُ فِي جَهَنَّمَ﴾ [الأنفال: ٣٧].

وكما قال سبحانه: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّى نَعْلَمَ الْمُجْتَهِدِينَ مِنْكُمْ وَالصَّادِقِينَ وَنَبْلُوَ أَخْبَارَكُمْ﴾ [محمد]. وعلم الله تعالى شامل ومحيط بما كان وما يكون وما هو كائن، لا تخفى عليه خافية في الأرض ولا في السماء، وقد خصّ ﷺ من هذا العموم صنفين من الناس في هذه الآية، وهذان الصنفان هما: المؤمنون والمنافقون؛ لما يترتب عليهما من الجزاء الأخروي، وهذا من باب الترغيب والترهيب.

والمراد بالعلم في الآية: إظهار حال المؤمنين وحال المنافقين؛ ليظهر الله علمه فيهم ليطلع عليه العباد فيعتبروا ويتعظوا، ويطلع عليه الملائكة فيسجلوا عليهم أعمالهم وأقوالهم؛ لإقامة الحجة عليهم يوم الحساب والجزاء، فيجازيهم بما ظهر منهم، لا بما يعلمه عنهم، لأنهم قد يحتجون على الله تعالى بأنهم لو ابتلوا لثبتوا.

الْفِتْنَةُ الثَّالِثَةُ: فِتْنَةُ الْإِغْوَاءِ وَالْإِغْرَاءِ

١٢- ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا اتَّبِعُوا سَبِيلَنَا وَلْنَحْمِلْ خَطَايَكُمْ وَمَا هُمْ بِحَامِلِينَ مِنْ خَطَايَهُمْ مِنْ شَيْءٍ إِنَّهُمْ لَكَذِبُونَ﴾ [١٢]

ثم تأتي الفتنة الأخيرة، وهي فتنة الإغراء والإغواء، أي: إغراء غير المسلمين للمسلمين كي يتبعوهم، ويخرجوهم من دينهم، كما قال تعالى: ﴿وَلَنْ رَضَىٰ عَنْكَ الْيَهُودُ وَلَا النَّصْرَىٰ حَتَّىٰ تَبِيعَ مِلَّتَهُمْ﴾ [البقرة: ١٢٠]. وقال سبحانه: ﴿وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّوكُمْ مِّنْ بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّارًا﴾ [البقرة: ١٠٩].

وقال جلّ شأنه: ﴿وَدُّوا لَوْ تَكْفُرُونَ كَمَا كَفَرُوا فَتَكُونُونَ سَوَاءً﴾ [النساء: ٨٩].

وكما حدث في بدء الدعوة من إغواء غير المسلمين للمسلمين؛ حتى يخرجوا من دينهم، مع إيهامهم أنهم يتحملون عنهم التبعات، والأوزار، والخطايا التي تتكرر في كل يوم؛ فإنه لا يخلو زمن من مثل هذه المقولة، فيقال: افعل هذا وذنبك في رقبتي، أي: إن

كان هناك عقاب - كما يزعم - وكما يقال: إن المسيح يفدي ذنوب البشر بنفسه، ويتحمل عنهم أخطاءهم.

والمعنى: وقال الذين جحدوا توحيد الله تعالى، ولم يؤمنوا بوعده ووعيده، للذين صدّقوا الله ورسوله على سبيل الإغواء والتضليل: اتركوا دين محمد، واتبعوا ديننا، وسوف نتحمل عنكم آثام خطاياكم وتبعاتها.

ثم كذبهم الله سبحانه في مقولتهم، ويّين أنهم ليسوا بحاملين شيئاً من خطاياهم؛ لأن المسؤولية فردية، كما قال تعالى: ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ وَإِن تَدْعُ مُثْقَلَةٌ إِلَىٰ جِثْلِهَا لَا يَحْمِلُ مِنْهُ شَيْئًا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ﴾ [فاطر: ١٨]. وإنهم لكاذبون فيما قالوا وادّعوا.

عن ابن الحنفية قال: كان أبو جهل وصناديد قريش يتلقون الناس إذا جاؤوا إلى النبي ﷺ يسألون، يقولون: إنه يُحرّم الخمر، ويحرّم الزنى، ويحرّم ما كانت تصنع العرب، فارجعوا فنحن نحمل أوزاركم، فنزلت هذه الآية والتي بعدها^(١).

وأخرج الطبري بسند صحيح عن مجاهد قال في معنى الآية: هو قول كفار قريش لمن آمن منهم، يقول: قالوا: لا نبعث نحن ولا أنتم فاتبعونا، وإن كان عليكم شيء فهو علينا^(٢).

والمراد بالذين كفروا في الآية وقت التنزيل: أبو جهل، والوليد بن المغيرة، وأمّية بن خلف، وأبو سفيان بن حرب - قبل أن يسلم - فهم الذين قالوا للمسلمين، ومنهم عمر بن الخطاب: لا نبعث نحن ولا أنتم، فإن حدث هذا فنحن نتحمل عنكم أوزاركم.

وهكذا قال العاص بن وائل، لخبّاب بن الأرت: لئن بعثني الله ليكونن لي مال فأقضيك دينك، وهو الذي قال: ﴿لَأُوتِيَنَّكَ مَالًا وَّلَدًا﴾ [مريم: ٧٧].

ومثله قول بعضهم: ﴿وَلَكِنْ رُجِعْتُ إِلَىٰ رَبِّي إِنَّ لِي عِنْدَهُ لَلْحُسْنَىٰ﴾ [فصلت: ٥٠].

وهذا من باب المغالطة والجدال بالباطل، وأمثال هؤلاء الذين عتّهم الآيات من منكري البعث والمكذّبين بالرسالة الخاتمة، كثير، في طول الأرض وعرضها.

(١) أخرجه ابن المنذر، وابن أبي شيبة في «المصنف» (٣٠١/١٤).

(٢) الطبري (٣٦٨/١٨) وابن أبي حاتم (٣٠٣٩/٩).

الْإِنْسَانُ لَا يَتَحَمَّلُ وِزْرَ غَيْرِهِ

١٣- ﴿وَلِيَحْمِلُوا أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالًا مَعَ أَثْقَالِهِمْ وَلَيَسَّ لَّنْ يَوْمَ الْفَيْصَةِ عَمَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾ ﴿١٣﴾

وكل إنسان يتحمل إثم نفسه، وهؤلاء سيحملون أثقالهم، أي: أوزارهم وذنوبهم كاملة يوم القيامة، ويحملون -بالإضافة إلى حملهم الثقيل- أوزار الذين أضلوهم، وأغووهم، وكانوا دعاة لهم إلى الضلال، وسبباً في كفرهم أو معصيتهم، ويوم القيامة يُسألون عما اختلقوا وافتروا من الأكاذيب والأباطيل على الله تعالى سؤال توبيخ وتقريع، كما قال تعالى: ﴿لِيَحْمِلُوا أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ الْفَيْصَةِ وَمِنْ أَوْزَارِ الَّذِينَ يُضِلُّونَهُمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ [النحل: ٢٥].

١- جاء في الحديث الصحيح: عن جرير بن عبد الله رضي الله عنه، أن رسول الله ﷺ قال: «من سنَّ في الإسلام سنة حسنة فله أجرها وأجر من عمل بها بعده، من غير أن ينقص من أجورهم شيء، ومن سنَّ سنة سيئة فعليه وزرها ووزر من عمل بها من بعده، من غير أن ينقص من أوزارهم شيء»^(١).

ومعنى السنة الحسنة: أنه أحيا أمراً مشروعاً في الإسلام كان مندثراً، وسنَّه للناس، أي أحياه لهم، كمن يعمد مثلاً إلى مسجد لا يوجد فيه اعتكاف في العشر الأواخر من رمضان، فيشيع هذه السنة في الناس ليقصدوا به، فالاعتكاف مثلاً مشروع، ولكنه سنة شبه مهجورة في الغالب، فإذا عمد إنسان إلى إحياء هذه السنة في بلده، فيكون قد سنَّ للناس سنة حسنة، وليس معناه أنه ابتدع أو أحدث في دين الله ما ليس منه.

ومثل السنة السيئة، كمن يقلده الناس في التدخين، أو الكذب، أو الجهر بالمعصية.

٢- وفي الصحيح: عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «من دعا إلى هدى كان له من الأجر مثل أجور من تبعه، لا ينقص ذلك من أجورهم شيئاً، ومن دعا إلى ضلالة كان عليه من الإثم مثل آثام من تبعه لا ينقص ذلك من آثامهم شيئاً»^(٢).

٣- وفي الحديث عن ابن مسعود رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «لا تُقتل نفس ظلماً إلا كان

(١) يُنظر: الحديث بطوله في «صحيح مسلم» برقم (١٠١٧).

(٢) «صحيح مسلم» (٤/٢٠٦٠) برقم (٢٦٧٤).

على ابن آدم الأول كُفْلٌ من دمها؛ لأنه أول من سن القتل»^(١).

٤- وصَحَّ في الحديث أيضًا عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «أتدرون من المفلس؟» قالوا: المفلس فينا من لا درهم له ولا متاع، فقال ﷺ: «إن المفلس من أمتي من يأتي يوم القيامة بصلاة وصيام وزكاة، ويأتي وقد شتم هذا، وقذف هذا، وأكل مال هذا، وسفك دم هذا، وضرب هذا، فيُعْطَى هذا من حسناته، وهذا من حسناته، فإن فُتِنَتْ حسناته قبل أن يقضي ما عليه أخذ من خطاياهم فطرحت عليه، ثم طرح في النار»^(٢).

٥- وفي الحديث الصحيح: «إن الرجل ليأتي يوم القيامة بحسنات أمثال الجبال، وقد ظلم هذا، وأخذ مال هذا، وأخذ من عرض هذا، فيأخذ هذا من حسناته، وهذا من حسناته، فإذا لم يبق له حسنة أخذ من سيئاتهم فطرح عليه»^(٣).

فالإنسان إذا يتحمل أوزار مَنْ سَنَّ فيهم سنة سيئة، ويتحمل أوزار من ظلمهم بصورة من صور الظلم، ولا يتحمل شيئًا من أوزار غيره في غير هاتين الحالتين.

خَمْسَةُ أَمْثَلَةٍ مِنْ فِتْنَةِ الرُّسُلِ

١٤، ١٥- ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا فَأَخَذَهُمُ الطُّوفَانُ وَهُمْ ظَالِمُونَ﴾ (١٤) ﴿فَأَنجَيْنَاهُ وَأَصْحَبَ السَّفِينَةَ وَجَعَلْنَاهَا آيَةً لِلْعَالَمِينَ﴾ (١٥)

وبعد بيان فتنة المؤمنين تأتي فتنة الرسل، وهذه خمسة أمثلة لفتن اعترضت طريق الدعوة والدعاة، وهي تُمَثِّلُ العقبات التي ابتلي بها رسل الله: نوح، وإبراهيم، ولوط، وشعيب، وموسى صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين، ويأتي ذكرها هنا تسلياً لرسول الله ﷺ، واقتداء بهم في مسيرة الدعوة إلى الله تعالى، والصبر على أذى الأقوام.

والسورة ذكرت -من قصص هؤلاء الرسل- ما يتعلق فقط بجانب الفتنة والابتلاء الذي اعترض كل رسول منهم؛ لأن الابتلاء هو موضوع السورة.

(١) من حديث ابن مسعود في البخاري برقم (٣٣٣٥، ٦٨٦٧، ٧٣٢١) ومسلم برقم (١٦٧٧) والترمذي برقم (٢٦٧٣) و«السنن الكبرى» للنسائي برقم (٣٤٤٧) وابن ماجه برقم (٢٦١٦).

(٢) «صحيح مسلم» برقم (٢٥٨١).

(٣) «صحيح مسلم» (٤/١٩٩٧).

الْمِثَالُ الْأَوَّلُ: جِهَادٌ طَوِيلٌ وَثَمَارٌ قَلِيلَةٌ: فِتْنَةُ نُوحٍ مَعَ قَوْمِهِ

كان الناس قبل زمن نوح ﷺ على التوحيد، حتى مات خمسة رجال صالحين، فبنى الناس على قبورهم بناء، ووضعوا لهم تماثيل في مجالسهم؛ كي تُذكّرهم صورهم بالله تعالى، فيرغبون في الطاعة والعمل الصالح أسوة بهم، ثم تغيّر الجيل، وبسبب الغلو في محبتهم صُنعت لهم تماثيل، ومع مرور الزمن نُسي الأصل، وزين الشيطان للناس عبادتهم، فعبدوهم من دون الله، فبعث الله إليهم نوحًا يدعوهم إلى عبادة الله تعالى، وترك عبادة هذه الأصنام الخمسة: وُدّ، وسُواع، ويغوث، ويعوق، ونسرٍ.

أخذ يدعوهم ليلاً ونهاراً، وسراً وجهاً، فلم يهتدوا، واستمروا على كفرهم وطغيانهم، مع شدة صبر نوح وحلمه واحتماله، فلمّا لم يستجيبوا له، وأعلمه الله أنه لن يؤمن منهم إلا من قد آمن، بعد ألف سنة إلا خمسين عاماً، عندئذ دعا عليهم نوح ﷺ قائلاً ﴿رَبِّ لَا تَذَرْ عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ ذِيَّارًا﴾ [نوح: ٢٦] فأمره ربه بصنع السفينة التي نجا فيها هو ومن آمن به، وعم الطوفان الكافرين به جميعاً ﴿فَأَنجَيْنَاهُ وَأَصْحَابَ السَّفِينَةِ وَجَعَلْنَاهَا آيَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾.

وكان نوح ﷺ قد خلف ثلاثة أولاد هم: سام أبو العرب، وفارس، والروم (الجنس السامي)، وحام أبو القبط (مصر)، والسودان، والبربر، ويافث: أبو الترك، والصقالبة، ويأجوج ومأجوج، أما ابنه الرابع كنعان فقد كان مع الغرقى لكفره.

وقد بعث الله نوحًا نبيًا ورسولاً على سن الأربعين في أرجح الأقوال، ودعا قومه ألف سنة إلا خمسين عاماً، فأسلم ثمانون منهم على أوسع الأقوال في هذه المدة الطويلة، وعاش بعد الطوفان ستين سنة.

أخرج ابن أبي شيبة، والحاكم وصححه، وغيرهما، عن ابن عباس ؓ قال: بعث الله نوحًا وهو ابن أربعين سنة، ولبث فيهم ألف سنة إلا خمسين عاماً يدعوهم إلى الله تعالى، وعاش بعد الطوفان ستين سنة، حتى كثر الناس وفشوا^(١)، وقيل غير ذلك^(٢).

(١) ابن أبي شيبة (١٣/٦٠) وابن أبي حاتم (٩/٣٠٤١) والحاكم (٢/٥٤٥) مرفوعاً وغيرهم.

(٢) يُنظر: «زاد المسير» (٦/٢٦٢) وغيره.

وقيل: إن نوحًا عليه السلام كان أول رسول؛ لأنه أول من أرسل إلى عبدة أصنام، وقبله كان إدريس، وشيث، وآدم عليهم السلام، ولكن الشرك حدث بعدهم، أي: في زمن نوح عليه السلام.

وقيل: ألف سنة، ولم يقل تسع مئة وخمسين عامًا؛ لأن الألف أعظم العدد، وأكثر ما عرف العرب.

والاستثناء منه يدل على حقيقة العدد، أما ترك الاستثناء فإنه يدل على التقريب، أو يوهم بأقل منه.

وجاء ذكر القصة إجمالاً؛ لبيان فتنة نوح مع قومه وصبره على أذاهم، وابتلائه ومكابדתه لهم، كأن الله تعالى يقول لنبيه: لقد ابتلي قبلك الأنبياء -وعلى رأسهم نوح- فصبر وصابر، فكان ثمرة جهاده الطويل وجُهد الضخم، حصيلة ضئيلة ﴿وَمَا ءَامَنَ مَعَهُ إِلَّا قَلِيلٌ﴾ [هود: ٤٠]. فأنت -يا محمد- أولى بالصبر منه، لقلة مدتك وكثرة من آمن بك، لقد كذب قوم نوح نوحًا، وهددوه بالضرب، واتهموه بالجنون، فماذا كانت عاقبة المكذبين؟

دعا نوح ربه أن ينتصر له، وألا يدع أحدًا منهم على وجه الأرض، بعد أن أعلمه الله تعالى أنه لن يؤمن من قومه إلا من قد آمن، فأخذهم الطوفان وأغرقهم الله وهم ظالمون لأنفسهم بالكفر والطغيان.

وأنجى الله نوحًا ومن آمن به، وركب معه في السفينة من أهله وأولاده وأتباعه، قيل: كانوا ثمانية وسبعين ذكرًا وأنثى، منهم أولاد نوح: سام، وحام، ويافث، ونسأؤهم، وأغرق الله ابنه الكافر كنعان مع الغرقى.

وكان قوم نوح - وقتئذ - هم أهل الأرض جميعًا، وكانوا يسكنون في جنوبي العراق، حول مدينة الكوفة حاليًا، ورست السفينة على جبل (الجودي) بالعراق في جزيرة ابن عمر بالموصل، شرقي دجلة، قرب قرية (باقردي) وقد غمرتها الثلوج في الدولة العباسية، وآثارها باقية إلى يومنا، عبرة لمن يعتبر، وهي عند ملتقى الحدود السورية التركية حاليًا على الضفة الشرقية لنهر دجلة، ويرى جبل الجودي بوضوح من بلدة (عين ديوار) السورية^(١).

وكانت العراق وما حولها هي المنطقة الآهلة بالسكان - آنئذ - وقد غمر الطوفان بلاد

(١) ينظر: أطلس القرآن الكريم د/ شوقي أبو خليل (٢٤، ٢٥) وتفسير ابن عاشور للآية.

ما بين النهرين، وجعل الله هذه القصة عبرة وعظة لكل من يأتي بعدهم.

قال قتادة: إنها بقيت إلى أول الإسلام على جبل الجودي، حتى نظرتها هذه الأمة، وقد جعلها الله تذكرة لنعمه على خلقه، وكيف نجّاهم من الطوفان، كما قال تعالى: ﴿وَأَيُّ لَٰهُمۡ أَنَّا حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمۡ فِي الْفُلِكِ الْمَشْحُونِ ﴿٤١﴾ وَخَلَقْنَا لَهُمۡ مِنۡ مِّثْلِهِ مَا يَرْكَبُونَ ﴿٤٢﴾ وَإِنۡ نَّشَأۡ نُغْرِقَهُمۡ فَلَا صَرِيحَ لَهُمۡ وَلَا هُمْ يُقَدَّرُونَ ﴿٤٣﴾ إِلَّا رَحْمَةً مِنَّا وَمَتَاعًا إِلَىٰ حِينٍ ﴿٤٤﴾﴾ [يس].

وقال تعالى: ﴿إِنَّا لَمَّا طَغَا الْمَآءُ حَمَلَتُنَا فِي الْمَارِئِ ﴿١١﴾ لَنَجْجِلَهَا لَكَ نَذْرَةً وَنَعِيَّا أَذُنَّ وَعِيَّةً ﴿١٢﴾﴾ [الحاقة].

قال أنس بن مالك: جاء ملك الموت إلى نوح، فقال: يا أطول النبيين عمراً، كيف وجدت الدنيا ولذتها؟ قال: كرجل دخل بيتاً له بابان، فقال - أي نام - في وسط البيت هنيئة، ثم خرج من الباب الآخر^(١).

وهكذا جاءت فتنة نوح عليه السلام في هذه السورة في آيتين اثنتين لبيان العبرة منها.

الْمِثَالُ الثَّانِي: حَوَارُ الْحُجَّةِ وَالْمَنْطِقِ: فِتْنَةُ إِبْرَاهِيمَ مَعَ قَوْمِهِ

١٦- ﴿وَإِبْرَاهِيمَ إِذۡ قَالَ لِقَوْمِهِ أَعْبُدُوا اللَّهَ وَأَتَّقُوهُ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾

دعا إبراهيم قومه إلى توحيد الله تعالى بالعقل والحجة والبرهان، وقد كانوا عبّاد أصنام وكواكب، قال لهم: أخلصوا العبادة لله وحده، واتقوا سخط الله بأداء فرائضه واجتناب معاصيه، إن كنتم تعلمون ما هو خير لكم مما هو شر لكم.

فإن ترك عبادة الله، وترك تقواه لا خير فيه بوجه من الوجوه، ولا سبيل إلى الحصول على مرضاة الله تعالى، ونيل كرامته إلا بإخلاص عبادته وتحقيق تقواه.

وهكذا بدأ إبراهيم عليه السلام بدعوة قومه إلى أفراد الله تعالى بالعبادة، والخوف من عقابه، وإخلاص التقوى له، وطلب الرزق منه وحده، والشكر على نعمه.

ثم ثنى بتحييب الإيمان إلى قلوب قومه، وأنه خير لهم لو كانوا يعلمون، ثم ثلث بتهيج عواطفهم نحو العلم النافع الذي يتنافى مع الجهل.

(١) أخرجه ابن أبي الدنيا في كتاب «ذم الدنيا» ص ٢٢٩.

وفي هذه الآية وما بعدها سلك إبراهيم في دعوته لقومه أبلغ الأساليب وأحكمها؛ حيث أمرهم بعبادة الله وتقواه، وبيّن لهم منافع ذلك، ووجوب الحرص على سلوك طريق الحق والعلم، وترك طريق الضلال والجهل، ونفّرهم من عبادة الأوثان، وبيّن لهم تهايتها وعجزها، وحضّهم على طلب الرزق ممن يملكه، قال لهم إبراهيم:

١٧- ﴿إِنَّمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ أَوْثَانًا وَتَخْلُقُونَ إِفْكًا إِنَّ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ لَكُمْ رِزْقًا فَابْتَغُوا عِنْدَ اللَّهِ الرِّزْقَ وَاعْبُدُوهُ وَاشْكُرُوا لَهُ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿١٧﴾﴾

في هذه الآية تنفير لقوم إبراهيم، وبيان ما هم عليه من فساد الاعتقاد؛ حيث إن إبراهيم أقام لقومه أدلة كثيرة على وجوب التوحيد، منها أنه قال لهم: إنكم تعبدون أوثانًا: كواكبًا، وأفلاكًا، وأصنامًا من جماد، تخلقونها بأيديكم، وتسمونها آلهة، وهي مخلوقة مثلكم، لا تملك أدنى خصائص الألوهية، كالرزق ونحوه، فهي مخلوقة، ناقصة، لا تملك نفعًا ولا ضرًا، ولا موتًا ولا حياة ولا نشورًا، ومن كان كذلك فهو لا يستحق متقال ذرة من العبادة، فالله وحده هو المنعم على عباده، المستحق للشكر دون سواه، فاستعدوا للقائه بإخلاص التوحيد والعبادة له، واشكروه على أنعمه قبل أن يأتي يوم يجازي فيه كل إنسان على عمله، إن خيرًا فخير، وإن شرًا فشر.

فالمعنى: إنما تعبدون من دون الله أصنامًا تنتحونها بأيديكم، لا تضر ولا تنفع، وتخلقون أصنامًا تسمونها آلهة كذبًا وبهتانًا، وهذه الآلهة لا يمكنها أن ترزقكم، فالتمسوا الرزق من الله وحده، فهو الرزاق ذو القوة المتين، واعبدوه واشكروه على نعمه؛ فإنكم سترجعون إليه فيجازيكم على أعمالكم.

وقد وصف إبراهيم قومه بالشرك في قوله تعالى: ﴿قَالَ يَنْقُورُ إِنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ﴾ [الأنعام: ١٧٨]. فهم مثل مشركي العرب في عبادتهم أوثانًا وصورًا منحوتة يصنعونها بأيديهم، ويعتقدون أنها آلهة، كما جاء في قوله تعالى على لسان إبراهيم عليه السلام: ﴿قَالَ أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ ﴿٩٥﴾ وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ ﴿٩٦﴾﴾ [الصافات]. وكانت أصنام قوم إبراهيم صورًا.

والأوثان: جمع وثن، وهي صورة من حجر أو خشب مجسمة على صورة إنسان، أو حيوان.

والوثن أعم من الصنم؛ لأن الصنم يطلق على حجارة مصورة مثل أكثر أصنام العرب،

كصنم ذي الخُلصة، والوثن أعم من ذلك، فهو يشمل ما له صورة وماليس له صورة من كل ما عُبد من دون الله.

وكان قوم إبراهيم يعترفون لله تعالى بالإلهية، والخلق، والرزق، ولكنهم يجعلون له شركاء في العبادة؛ ليكونوا لهم شفعاء كحال مشركي العرب. قال تعالى:

١٨- ﴿وَإِنْ تُكَذِّبُوا فَقَدْ كَذَّبَ أُمَمٌ مِّن قَبْلِكُمْ وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا أَلْبَلُغُ أَلْمِثِّ ﴿١٨﴾﴾

قال لهم إبراهيم: إنكم إن تكذبوني فيما جئت به إليكم من التوحيد، والرسالة، والرجعة إلى الله تعالى للحساب والجزاء؛ فقد وقع ذلك لغيري، كأقوام: نوح، وعاد، وثمود، فأهلكهم الله وأبادهم، فاحذروا الوقوع في الشرك، وأخلصوا العبادة لله وحده، وارغبوا فيما عند الله، تظفروا بجنات النعيم.

وكل رسول مهمته البلاغ البين إلى قومه، فما عليّ ولا على غيري من رسل الله إلا البلاغ الواضح، وقد فعلت ذلك، وفعله كل رسول قبلي، فهذه هي وظيفة الرسل، وقد بينت لكم حقيقة الدعوة، وما تضمنته من الخير، وبيّنت لكم فساد ما أتم عليه من عقيدة، ووجوب توجّهمكم إلى الله وحده لطلب الرزق منه، وأعلمتكم أنه لا مفر من الله إلا إليه، وأخبرتكم بما حلّ بالأمم التي كذبت رسل الله من عذاب الله وسخطه، أما الحساب والجزاء فمرّده إلى الله وحده.

وَقَفَّةٌ مَعَ دَلَائِلِ التَّوْحِيدِ قَبْلَ نَهَايَةِ قِصَّةِ إِبْرَاهِيمَ

١٩- ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا^(١) كَيْفَ بَدَأَ^(٢) اللَّهُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ ﴿١٩﴾﴾

وبعد هذا البيان الساطع يقف القرآن وقفة قبل نهاية قصة إبراهيم؛ ليخاطب كل مُنكرٍ

(١) قرأ حمزة والكسائي وخلف وشعبة بخلف عنه بناء الخطاب في (أو لم يروا) لمناسبة (وإن تكذبوا)، والباقون بياء الغيب، وهو الوجه الثاني لشعبة، والضمير يعود على (فقد كذب أُمم).

(٢) وقف حمزة وهشام بخلف عنه على (يبدىء) و (ينشئ) بإبدال الهمزة حرف مد، ثم إبدالها بياء ساكنة للرسم، ثم تسكن للوقف، ويجوز عليه السكون المحض والروم والإشمام والتسهيل بالروم.

للإيمان، كافر بالله تعالى واليوم الآخر، وهي آيات معترضة في ثنايا القصة؛ لتسلية الرسول ﷺ، وبيان شأنه مع قريش وغيرهم.

ولعل الأرجح أن تكون هذه الآيات إلى ﴿فَمَا كَانَتْ جَوَابَ قَوْمِهِ﴾ من كلام الله تعالى، وهي أدلة ناطقة بالتوحيد، هادمة للشرك في رسالة كل رسول، فكأن إبراهيم عليه السلام يقول لقومه: وكيف تكذبوني في قلبي لكم: إنكم ستُبْعَثُونَ، وتُرْجَعُونَ إلى الله تعالى فيحاسبكم، ويجازيكم على عبادتكم للأصنام من دون الله، وهي لا تملك شيئاً. ومن أدلة البعث الذي تنكرونه ما جاء في هذه الآية:

أولم يعلم المنكرون للبعث، كيف ينشئ الله الخلق من العدم، ثم يعيده مرة ثانية، فلا يتعذر عليه شيء من ذلك؟ ﴿وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ﴾ [الروم: ٢٧]. وهذا البدء للخلق مشاهد صباح مساء، في جميع الكائنات الحية، في الإنسان والحيوان والنبات والأشجار والسحاب والرياح، بدء مستمر وإعادة مستمرة للإنسان وقت الموتة الصغرى، ولسائر الكائنات عندما يأتي عليهم الليل بظلامه، فتسكن الحركات وتنقطع الأصوات، وتصير كالموتى، ولم تزل كذلك حتى يُنْفَلَقَ الإصباح، فيتبهاوا من رقدتهم، ويُبْعَثُوا من موتهم قائلين (الحمد الذي أحيانا بعد ما أماتنا وإليه النشور).

آيَاتُ اللَّهِ فِي الْخَلْقِ وَالْبَعْثِ

٢٠، ٢١- ﴿قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ ثُمَّ اللَّهُ يُنشِئُ النَّشْأَةَ^(١) الْآخِرَةَ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٠﴾ يُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ وَيَرْحَمُ مَن يَشَاءُ وَإِلَيْهِ تُقْلَبُونَ ﴿٢١﴾﴾
فإن أنكرتم ذلك فسيروا في الأرض للتأمل، والتدبر، والاعتبار، وتبعوا صنع الله تعالى وآياته في الخلق والإنشاء.

والسير في الأرض يفتح العيون على غير ما أُلْفِئْتُمْ، فيثير انتباهها؛ لينظر كيف وُجد فيها أول كائن حي، انظروا كيف تبدأ حياة النبات والحيوان والإنسان لتروا كيف أن البدء

(١) قرأ ابن كثير وأبو عمرو بفتح الشين وألف بعدها من (النشأة)، والباقون بإسكان الشين وحذف الألف، وهما لغتان في مصدر نشأ.

والإعادة أمرهما يسير على الله تعالى، وهو سبحانه لا يعجزه شيء من ذلك.

وانظروا إلى من سبقكم من الأمم، أين ذهبوا؟!

انظروا إلى ديارهم ومساكنهم وآثارهم، وانظروا إلى اختلاف ألسنة الخلق وألوانهم وطبائعهم، واستدلوا بذلك على أن الذي لم يعجزه بدء الخلق لا تعجزه الإعادة، فالذي أنشأ النشأة الأولى، ينشئ النشأة الآخرة من باب أولى، وهي نشأة لا تقبل موتًا ولا نومًا، وإنما هو خلود دائم، في نعيم دائم، أو عذاب دائم.

وأهم ما تشتمل عليه النشأة الآخرة، هو الثواب والعقاب؛ فقد أوجدها الله تعالى لذلك، حيث يتحقق فيها ما أعده الله تعالى لأصحاب الوعد والوعيد، والترغيب والترهيب.

ومن قدرته تعالى أنه ﴿يُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ﴾ تعذيبه بِعَذْلِهِ؛ لأنه اختار طريق الضلال، ورَغِبَ عن طريق الهدى، فافتقر في دنياه ما أهله إلى هذا المصير.

﴿وَيَرْحَمُ مَنْ يَشَاءُ﴾ رحمته بفضله وإحسانه؛ فيثيبه على طاعته لأنه اختار طريق الهدى، وكان مستعدًا له، فأمن وعمل صالحًا، وعلم أنه عائد إلى ربه، ومَجْزِيٌّ على ما قَدَّمَ، وهو سبحانه الحاكم المتصرف لا رادَّ لقضائه، ولا معقب لحكمه، ولا يُسأل عما يفعل، له الخلق والأمر، لا يظلم الناس شيئًا، ولا يظلم مثقال ذرة، وإليه سبحانه ترجعون، ثم تحاسبون، وتجزون على ما اكتسبتم في الحياة الدنيا.

وليس لكم من قوة تمتنعون بها من العودة إلى الله تعالى في يوم البعث والنشور للحساب والجزاء، قال تعالى:

٢٢- ﴿وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾

أي: وليس هناك أنصار ولا أعوان لكم من الملائكة، أو الجن، أو ممن كنتم تعبدونهم من دون الله، يمنعونكم من لقاء الله، والانتقال إليه، والأموال والأولاد والجاه والملك لا تغني عنكم شيئًا، فلن تفوتوا الله تعالى، ولن تهربوا منه، ولن تفلتوا من عقابه، فلا تغتروا أيها المكذبون المرتكبون للمعاصي والذنوب، وتظنون أن الله غافل عنكم، أو أنه عاجز عن حسابكم وعقابكم.

فالله تعالى لا يعجزه أحد في الأرض ولا في السماء، أو لا يعجزه أحد حتى ولو كان في السماء.
وما لكم غير الله من ولي يلي أموركم، أو ينصركم من الله إن أراد بكم سوءًا. قال تعالى:

٢٣- ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا يَتَنَبَّأُ اللَّهُ وَلِقَائِهِ أُولَئِكَ يَئِسُوا مِنْ رَحْمَتِي وَأُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾

أي: والذين جحدوا القرآن وكذبوا بالبعث لا مطمع لهم في رحمتي يوم لقائي، حين يعاينون العذاب الموجه الذي أعد لهم، فبسبب كفرهم انقطع ما بيني وبينهم، واقدموا على ما أقدموا عليه من الكفر والمعاصي، لأنه ليس في قلوبهم ما يخوفهم من عقاب الله، واليأس من رحمة الله لا يكون إلا من الكافر، إذ ليس لديه سبب واحد يجعله يطمع في رحمة الله تعالى، ولو أنه طمع في رحمة الله تعالى لعمل لها، ولكن اليأس ملأ قلوبهم بسبب كثرة جانياتهم وذنوبهم التي أوبقتهم وأهلكتهم.

جَوَابُ قَوْمِ إِبْرَاهِيمَ لَهُ

٢٤- ﴿فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قَالُوا اقْتُلُوهُ أَوْ حَرِّقُوهُ فَأَنجَاهُ اللَّهُ مِنَ النَّارِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾

فما كان جواب قوم إبراهيم له بعد أن نصحهم، وظهرت حجته عليهم، إلا أن قال بعضهم لبعض: اقتلوا إبراهيم بالسيف، أو أحرقوه بالنار لتستريحوا منه.

وذلك أنه بعد الخطاب السابق الذي جاء موجهاً لكل منكر لدعوة الله تعالى، ويدخل فيهم قوم إبراهيم دخولاً أولياً؛ لأن سياق الحديث عنه ﷺ.

بعد هذا يبين القرآن جواب قوم إبراهيم له حين دعاهم إلى الله تعالى، حيث إن بعضهم قال لبعض، أو أن الرؤساء منهم قالوا للتابعين: اقتلوا إبراهيم أو حرقوه، فجمعوا له حطباً في مدة طويلة، وحوطوا حوله، وأضرموا فيه النار، فارتفع لهبها إلى عنان السماء، ثم قيدوا إبراهيم، ووضعوه في منجنيق، وقذفوه فيها، فسلبها الله خاصية الإحراق، وجعلها برداً وسلاماً عليه، بعدما مكث فيها أياماً.

وفي هذا عبرة وعظة لمن ينتفع بالعبرة، ممن هو مستعد للإيمان؛ فيعلم صدق ما جاءت به الرسل، فقد عجز الطغيان والجبروت كله عن إحراق رجل واحد بقدرة الله تعالى،

وجعل الله النار بردًا وسلامًا على إبراهيم، وعجز الأعداء أن يُلْحِقُوا به ضررًا، مع إصرارهم على الكفر، وبقاء قلوبهم على الجحود مع وجود المعجزات.

عِبَادَةُ الْأَوْثَانِ تَقْلِيدٌ لِلْأَبَاءِ وَمُجَامَلَةٌ لَهُمْ

٢٥- ﴿وَقَالَ إِنَّمَا اتَّخَذْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْثَانًا مَوَدَّةَ^(١) بَيْنِكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ وَلَيَعْلَمَنَّ بَعْضُكُمْ بَعْضًا وَمَأْوَنُكُمْ النَّارُ وَمَا لَكُمْ مِنْ نَاصِرِينَ﴾

ولما يشس إبراهيم من قومه، وانقطع رجاءه في إيمانهم، أراد أن يبين لهم حقيقة الأمر قبل أن يتركهم ويعتزلهم؛ حيث لم يتأثروا بمعجزة نجاته من النار، وهي معجزة ماثلة أمام أعينهم، فبين لهم إبراهيم ﷺ أن الأوثان التي عبدوها من دون الله ليست عن قناعة منهم، ولا عن اعتقاد باستحقاقها للعبادة، إنما عبدوها مجاملة من بعضهم لبعض، وتواصلًا ومودة فيما بينهم، وتحرجًا ألا يوافق بعضهم بعضًا، وأن يخالف ما عليه المجتمع، أو يخالف ما ورثوه عن سبوقهم، وهي آلهة باطلة.

ويوم القيامة يكفر بعضهم ببعض، ويلعن بعضهم بعضًا، ويتبرأ المعبود من العابد.

﴿وَإِذَا حُشِرَ النَّاسُ كَانُوا لَهُمْ أَعْدَاءً وَكَانُوا بِعِبَادَتِهِمْ كَافِرِينَ﴾ [الأحقاف: ٦]

قال تعالى: ﴿وَقَالَ إِنَّمَا اتَّخَذْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْثَانًا مَوَدَّةَ بَيْنِكُمْ﴾ وهذه المودة ستقطع وتزول ﴿فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ أو ﴿مَوَدَّةَ بَيْنِكُمْ﴾ بتكوين مودة، ونصب ﴿بَيْنِكُمْ﴾ في القراءة الأخرى، أي: من أجل المودة والصلة بينكم، ويكون مصيركم أنتم وهم إلى النار، وليس هناك من ينصركم، أو يمنعكم من عذاب الله.

(١) قرأ ابن كثير وأبو عمرو والكسائي ورويس برفع تاء (مودة) بلا تنوين، على أنها خبر لمبتدأ محذوف، وإنما كافة ومكفوفة، والتقدير: إنما اتخذتم من دون الله أوثانًا هي مودة، و(بينكم) بالخفض على الإضافة، وجملة المبتدأ والخبر صفة لأوثانًا.

وقرأ نافع وابن عامر وشعبة وأبو جعفر وخلف بنصب تاء (مودة) وتنوينه، ونصب (بينكم) على أن (مودة) مفعول لأجله، أو مفعول ثان للفظ (اتخذ).

وقرأ الباقون وهم حفص وحزمة وروح بنصب (مودة) بلا تنوين على أنها مفعول لأجله أو مفعول ثان ل(اتخذ) و(بينكم) بالخفض على الإضافة.

وفي قراءة ثالثة (مَوَدَّةٌ بَيْنَكُمْ) بمعنى: أنكم اتخذتم من دون الله أوثاناً هي مودة بينكم. ويوم القيامة تنقلب المودة والمحبة التي كانت بينكم في الدنيا لغير الله، إلى كُره وبغض، كما قال تعالى: ﴿الْأَخِلَاءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا الْمُتَّقِينَ﴾ (٧) [الزخرف]. وكل مقلد يلعن من قلده ﴿كُلَّمَا دَخَلَتْ أُمَّةٌ لَعَنَتْ أُخْتَهَا﴾ [الأعراف: ٣٨].

أما المؤمنون فإن حُبهم لله أشد من حُبكم لشركائكم ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ اللَّهِ إِندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِلَّهِ﴾ [البقرة: ١٦٥].

ولذا: فإن مصيرهم يوم القيامة مختلف؛ فالمؤمنون في جنات نعيم، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَنَهَرٍ ﴿٥٥﴾ فِي مَقْعَدٍ صِدْقٍ عِندَ مَلِكٍ مُّقْنَدٍ﴾ [القمر].

أما المجرمون فإنهم يُسحبون في النار على وجوههم، والعياذ بالله، قال تعالى: ﴿إِنَّ الْمُجْرِمِينَ فِي ضَلَالٍ وَسُعُرٍ ﴿٤٧﴾ يَوْمَ يُسْحَبُونَ فِي النَّارِ عَلَى وُجُوهِهِمْ ذُوقُوا مَسَّ سَقَرَ ﴿٤٨﴾﴾ [القمر]. ، فكيف تعبدون من يتبرأ ممن عبده وبلغه، ويُقرن معه في النار؟

هَجْرَةُ إِبْرَاهِيمَ مِنَ الْعِرَاقِ إِلَى فَلَسْطِينَ مُرُورًا بِمِصْرَ

٢٦- ﴿فَإِذَا لَوْ طُفَّ وَقَالَ إِنِّي مُهَاجِرٌ إِلَى رَبِّي﴾^(١) إِنَّهُ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٢٧﴾

كانت مُحَصِّلَةُ إبراهيم عليه السلام من دعوته لقومه في وطنه بالعراق، أقل من مُحَصِّلَةِ نوح عليه السلام بعد أن مكث فيهم مدة طويلة، وأقام لهم ألواناً مختلفة من أدلة التوحيد، وعلى صدق ما جاءهم به من عند الله، وبيان ما هم عليه من باطل، فكانت ثمرة هذه الدعوة، أن آمن به من قومه رجل واحد منفرد، هو لوط عليه السلام، كما آمن إبراهيم زوجته سارة، والدليل على إيمان سارة ما جاء في الحديث عن أبي هريرة عليه السلام: «إن إبراهيم حين مرَّ على جبار مصر، فسأل إبراهيم عن سارة، ما هي منه؟ قال: هي أختي، ثم جاء إليها، فقال لها: إني قلت له: إنك أختي، فلا تكذبيني، فإنه ليس على وجه الأرض أحد مؤمن غيري وغيرك»^(٢).

وقد حدثت هذه القصة أثناء هذه الهجرة، حيث كانت سارة في صحبة إبراهيم،

(١) قرأ نافع وأبو عمرو وأبو جعفر بفتح ياء الإضافة من (ربي إنه)، والباقون بإسكانها.

(٢) يُنْظَرُ الحديث في «صحيح مسلم» برقم (٢٣٧١) عن أبي هريرة.

واعتراهما أمرُ الملك، وآمن به ابن أخيه لوط حين رأى النار لم تحرقه.

وفي التوراة: إن إبراهيم كانت معه زوجته سارة، وزوج لوط، واسمها ملكة، ولوط هو ابن هاران أخي إبراهيم، فلوط - يومئذ - من أمة إبراهيم عليهما السلام، وكان لوط مؤمناً موحّداً قبل أن يصدّق بإبراهيم نبياً ورسولاً؛ لأن أنبياء الله تعالى لا يقع منهم الكفر أو الشرك. وخرج إبراهيم من العراق، وهو ابن خمس وسبعين سنة، ومعه من آمن به، وهما: زوجته سارة، وابن أخيه لوط.

﴿فَقَامَنَّ لَهُ لُوطٌ﴾ وهذا وقف تام، يبدأ القاريء بما بعده، حتى لا يلتبس المعنى. وقال إبراهيم: إني مهاجر من وطني إلى حيث أمرني ربي؛ لأبلغ دعوته، وأطلب مرضاته، فهاجر الثلاثة من (كوثي) بسواد الكوفة إلى الشام، ثم إلى فلسطين، وهو أول من هاجر إلى الله تعالى، وترك بلده فراراً بدينه لعبادة الله وحده ﴿وَقَالَ إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَى رَبِّي سَيِّدِينَ﴾ [الصافات: ١٩]. إنه هو العزيز الذي لا يُغلب، الحكيم في تدبير شؤون خلقه.

عن عبد الله بن عمرو رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «ستكون هجرة بعد هجرة، فخير الأرض إلى مهاجر إبراهيم»^(١). قال تعالى:

٢٧- ﴿وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِ النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ وَآتَيْنَاهُ أَجْرَهُ فِي الدُّنْيَا وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ﴾

ولما هاجر إبراهيم من وطنه، وترك أهله وقومه، عوّضه الله ذرية تمضي فيها الرسائل إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها ﴿وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ﴾ وكما في قوله تعالى: ﴿وَكَلَّا جَعَلْنَا نَبِيًّا﴾ [مريم: ٤٩]. ورزقه الله الزوجة الصالحة، فولدت له إسماعيل عليه السلام ورزقه الثناء الحسن بين الناس جميعاً في الدنيا والآخرة ﴿وَاتَّخَذَ اللَّهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلًا﴾ [النساء: ١٢٥]. وجعله إماماً للناس، وجعل النبوة في ذريته، فلم يوجد نبي بعد إبراهيم إلا

(١) أخرجه أبو داود بمعناه عن ابن حواله في كتاب الجهاد، باب سكنى الشام، برقم (٢٤٨٢). وتصحيح الألباني (٢١٦٩) وهو في صحيح الترغيب والترهيب برقم (٣٨١) وأخرجه الحاكم أيضاً ولفظه في مسند أحمد (٦٩٥٢) بإسناد ضعيف، لضعف شهر بن حوشب وفي مسند أبي داود الطيالسي (٢٢٩٣) وانظر (٦٨٧١) في مسند أحمد وهما عن عبدالله بن عمرو.

وهو من ذريته .

فالأنبياء في بني إسرائيل من ذرية يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم ، إلى عيسى عليهم السلام .
ومحمد ﷺ من سلالة إسماعيل بن إبراهيم عليهم جميعاً أفضل الصلاة وأتم التسليم ،
ولا يوجد نبي من سلالة إسماعيل غير محمد عليهما السلام .

والكتب التي نزلت من عند الله تعالى : كالنوراة والإنجيل والزيور والقرآن ، نزلت على
هؤلاء الرسل ، فالنبوة والكتب اجتمعت في نسل إبراهيم ، وهذا معنى ﴿وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِ
النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ﴾ وجمع الله لإبراهيم بين الثناء الحسن ، والذكر الجميل في الدنيا ، ذكره
ﷺ في التشهد في كل صلاة ، هو وآل بيته .

وإبراهيم في الآخرة من أهل الجنة ، قد أسند ظهره إلى البيت المعمور في أعلى الجنان
﴿وَمَا آتَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ﴾ [النحل : ١٢٢] .

وهكذا جمع الله لإبراهيم خيري الدنيا والآخرة جزاء إيمانه العميق ، وعمله الصالح ،
ووفائه في تبليغ رسالة ربه .

الْمِثَالُ الثَّالِثُ: فِتْنَةُ الرِّذِيلَةِ وَالشُّذُودِ الْجَنَسِيِّ: لُوطٌ مَعَ قَوْمِهِ

٢٨- ﴿وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ إِنَّكُمْ لَأَنَارٌ لِّأَعْيُنِنَا﴾ (١) لَتَأْتُونَ الْفَحْشَاءَ مَا سَكَبْكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِنْ أَعْلَمِينَ ﴿

هاجر لوط بن هاران مع عمه إبراهيم من سواد الكوفة بالعراق إلى الشام ، ولما كان
لكل منهما أغنام ، فقد نزل لوط بوادي الأردن مع إحدى القبائل على ضفاف البحر الميت
(بحيرة لوط) ، فعاشرهم وصاهرهم ، ونزل إبراهيم في مدينة الخليل بفلسطين ، وأرسل الله
لوطاً إلى أهل : سدوم ، وعمورية ، وقرى المؤتفكة ، وكانوا قومًا قد أسرفوا في الشهوات
الجنسية إسرافاً منكراً ، وشذُّوا عن الفطرة في الزواج المشروع ، ففشت فيهم فاحشة
اللواط لأول مرة في تاريخ البشرية ، فكانوا يفضلون إتيان الذكور على الإناث ، ولم يقع
هذا الشذوذ والانحراف الجنسي على وجه الأرض قبل قوم لوط عليه السلام ، وهذا إلى جوار ما

(١) قرأ نافع وابن كثير وابن عامر وحفص وأبو جعفر ويعقوب بالإخبار في (إنكم) والاستفهام في (أنكم) الثانية ،
في أول الآية ، التالية ، وقرأ الباقون بالاستفهام فيهما ، وكل منهم على أصله في التحقيق والتسهيل والإدخال .

هم فيه من شرك، فجمعوا بين الشرك واللواط، وتقطيع السبيل وفشو المنكرات في مجالسهم. يقول الوليد بن عبد الملك: لو لم يذكر الله تعالى قصة قوم لوط في القرآن لم يكن يُصدق أن رجلاً يعلو رجلاً، وبعد أن أنكر لوط على قومه فعل الفاحشة التي لم يُسبقوا إليها قال:

٣٠، ٢٩ - ﴿أَيْنَكُمْ^(١) لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ وَتَقْطَعُونَ السَّبِيلَ^(٢) وَتَأْتُونَ فِي نَادِيكُمْ الْمُنْكَرَ^(٣)﴾ فَمَا كَانَتْ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قَالُوا أَتَيْنَا بِعَذَابِ اللَّهِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿٢٩﴾ قَالَ رَبِّ انصُرْنِي عَلَى الْقَوْمِ الْمُفْسِدِينَ ﴿٣٠﴾

دعا لوط قومه إلى توحيد الله تعالى، وإلى ترك هذه الفعلة القبيحة التي لم يفعلها أحد قبلهم، وكانوا يفعلون فاحشة اللواط بمن مرَّ بهم من المسافرين، فترك الناس المرور بهم، وكانوا يخدفون عابري السبيل بالحصى، فأثَّهم أصابه الحصاة يقول من رماها: أنا أولى به، وكان بعضهم يجامع بعضاً في مجالسهم، ويتضارطون فيها، ويزق بعضهم على بعض، وينهبون مال المارة ويروعونهم، وكان مزاحهم فاحشاً، فيحلون الإزار، ويصفرون، ويفعلون المنكرات علناً.

وفي هذه الآية ثلاثة أوصاف لهم، وهي:

١ - إتيان الرجال. ٢ - وقطع الطريق على المارة. ٣ - إتيان المنكر في مجالسهم علناً.

عن أم هانئ، قالت: سألتُ رسول الله ﷺ عن ﴿وَتَأْتُونَ فِي نَادِيكُمْ الْمُنْكَرَ﴾ قال: «كانوا يخدفون أهل الأرض، ويستخرون منهم»^(٤).

(١) قرأ نافع وابن كثير وابن عامر وحفص وأبو جعفر ويعقوب بالإخبار في (إنكم) في الآية السابقة والاستفهام في (أنكم) الثانية، في هذه الآية وقرأ الباقر بالاستفهام فيهما، وكل منهما على أصله في التحقيق والتسهيل والإدخال.

(٢) قوله تعالى (وتقطعون السبيل) عذها آية، المديان والمكي والحمصى، وتركها غيرهم.

(٣) للمدني الأول قولان في عذ (وتأتون في ناديكم المنكر) وترك عده، ولا يوجد خلاف بين بقية المصاحف في عدم عذها.

(٤) الترمذي في تفسير سورة العنكبوت برقم (٣١٩٠)، قال أبو عيسى: هذا حديث حسن، إنما نعرفه من حديث حاتم بن أبي صغيرة عن سِمَاك، وهو في «المسند» (٣٤١/٦)، برقم (٢٦٨٩١، ٢٧٣٨٣) بإسناد ضعيف، لضعف أبي صالح مولى أم هانئ، وبقية رجال الإسناد ثقات رجال الشيخين غير سَمَاك بن حرب فقد روى له مسلم وهو صدوق (محققه) وأخرجه الطبراني في الكبير (٢٤/ ١٠٠١) والحاكم (٢/ ٤٠٩) وقال: صحيح الإسناد ولم يخرجاه، ووافقه الذهبي، والبيهقي في الشعب (٦٧٥٥).

والغريب أن المدنية الغربية المعاصرة سارت في الطريق نفسه، حذو النعل بالنعل، فهم يطالبون بتقنين اللواط، والاعتراف به على أساس أنه من الحرية الشخصية، مع ما يتعرضون له من الأمراض الفتاكة.

لقد رفضوا الإطار الذي وضعه الإسلام لقضاء الشهوة الجنسية في قنواته المشروعة (الزواج) وجعل هذا الزواج من طرق العفاف والإحصان، بل إن الرجل يأتي أهله ويكون له بقضاء شهوته وشهوتها أجر وصدقة.

وقد وضع الإسلام سدودًا وطرقًا وقائية أمام المثيرات والمغريات، فبيّنها وحذّر منها، كالخلوة والنظرة، وأعطى الشاب الأمر حُكْمًا خاصًا، وحرّم النظر للعورة وأمر بسترتها، وأمر بالتفريق في المضاجع بين الذكور والإناث من سن مبكرة، وهكذا.

فماذا كان موقف قوم لوط من دعوته لهم بترك هذه الفاحشة المنكرة؟

لقد قالوا: ﴿أَتَيْنَا بِعَذَابِ اللَّهِ﴾ حيث طلبوا من نبيهم إنزال العذاب الذي وعدهم به إن كان صادقًا فيما يقول، فلما كثر ذلك منه ولم يسكت عنهم، قالوا: ﴿أَخْرِجُوا آلَ لُوطٍ مِّن قَرْيَتِكُمْ﴾ [النمل: ٥٦].

فلما استهزؤوا به وتحذّوه؛ طلب لوط النصر من ربه على القوم المفسدين في الأرض بالمعاصي والفواحش، بتحقيق ما وعده به من نزول العذاب بهم؛ فإنهم سفهاء مفسدون لا يرجى صلاحهم، ولم يطلب نبي هلاك قومه إلا بعد أن علم أنه لا خير يرجى منهم، وعندئذ أرسل الله الملائكة لإهلاك قوم لوط، فمروا - أولًا - بإبراهيم، وبشروه بإسحاق وابنه يعقوب، ثم توجهوا إلى نبي الله لوط لإنزال العذاب بقومه، قال تعالى:

٣١- ﴿وَلَمَّا جَاءَتْ رُسُلُنَا إِبْرَاهِيمَ^(١) بِالْبَشْرِى قَالُوا إِنَّا مُهْلِكُوا أَهْلَ هَذِهِ الْقَرْيَةِ إِنَّ أَهْلَهَا

كَانُوا ظَالِمِينَ ﴿٣١﴾

أي: ولما استنصر لوط ربه، أرسل الله الملائكة لنصرته، لتمرّ أولًا بإبراهيم عليه السلام، فتبشّره بإسحاق ومن وراء إسحاق يعقوب؛ إذ لا يصح أن تنزل الملائكة في مكان يوجد

(١) قرأ ابن عامر بخلف عن ابن ذكوان (إبراهيم بالبشرى)، والباقون (إبراهيم) ومعهم ابن ذكوان في الوجه الثاني.

فيه أبو الأنبياء و خليل الرحمن، دون أن تنزل عليه أولاً فتسلم عليه وتُحييه، ثم تذهب إلى مهمتها التي نزلت من أجلها، ونزولها هذه المرة كان استجابة لدعوة لوط عليه السلام بهلاك قومه بعد أن يئس من إجابتهم له، وبعد أن أحسن إبراهيم استقبالهم، وبشروه بإسحاق ويعقوب نافلة، أخبروه بأنهم أرسلوا لهلاك قوم لوط.

راجع إبراهيم الملائكة في إهلاكهم، وجادلهم ودافع عن قوم لوط، وهم ليسوا قومه:

٣٢- ﴿قَالَ إِنِّي فِيهَا لُوطًا قَالُوا نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَن فِيهَا لَنَنْجِيَنَّهُ^(١) وَأَهْلَهُ إِلَّا أَمْرَأَتَهُ كَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ ﴿٣٢﴾﴾

وَرَدَ عن ابن عباس ؓ أن إبراهيم عليه السلام لَمَّا أَعْلَمْتُهُ الملائكة أنهم جاؤوا لإهلاك قرية قوم لوط، أخذ يجادلهم ويقول لهم: أَرَأَيْتُمْ إِنْ كَانَ فِيهِمْ مِئَةُ بَيْتٍ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَتَرْكُونَهُمْ؟ قَالُوا: لَيْسَ فِيهِمْ ذَلِكَ، فَجَعَلَ يَنْحَدِرُ حَتَّى انْتَهَى إِلَى عَشْرَةِ آيَاتٍ، فَقَالَتْ لَهُ الْمَلَائِكَةُ: لَيْسَ فِيهِمْ عَشْرَةٌ، وَلَا خَمْسَةٌ، وَلَا ثَلَاثَةٌ، وَلَا اثْنَانِ، وَعِنْدُذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ: إِنْ فِي هَذِهِ الْقَرْيَةِ لُوطًا، فَأَخْبِرُوهُ بِعِلْمِهِمْ بِذَلِكَ، وَأَنْ الْهَلَاكَ لَنْ يَشْمَلَهُ هُوَ وَأَهْلُهُ إِلَّا أَمْرَأَتُهُ؛ لَكُفْرَها وتعاونها في إرشاد القوم على مكان وجود الضيوف.

وَعِلْمُ الْمَلَائِكَةِ سَابِقٌ عَلَى عِلْمِ إِبْرَاهِيمَ؛ لِأَنَّ عِلْمَهُمْ مُتَلَقًى مِنْ وَحْيِ اللَّهِ لَهُمْ مَبَاشَرَةٌ، وَلَمْ يَكُنْ إِبْرَاهِيمُ قَدْ أُوحِيَ إِلَيْهِ بِشَيْءٍ فِي ذَلِكَ، وَلَا يَلْزَمُ مِنْهُ أَنَّ الْمَلَائِكَةَ أَعْلَمُ مِنْ إِبْرَاهِيمَ فِي كُلِّ شَيْءٍ، وَالْمَزِيَّةُ لَا تَقْتَضِي الْأَفْضَلِيَّةَ، فَلِكُلِّ فَرِيقٍ عِلْمٌ أَطْلَعَهُ اللَّهُ عَلَيْهِ، وَمِنْ ذَلِكَ مَا خَصَّ اللَّهُ بِهِ الْخَضِرَ، وَمَا خَصَّ بِهِ مُوسَى عَلَيْهِمَا السَّلَامُ. قَالَ تَعَالَى:

٣٣- ﴿وَلَمَّا أَن جَاءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِئًا^(٢) بِهِمْ وَضَافَكَ بِهِمْ ذَرْبًا وَقَالُوا لَا تَخَفْ وَلَا تَحْزَنْ إِنَّا مُنْجُونَكَ^(٣) وَأَهْلَكَ إِلَّا أَمْرَأَتَكَ كَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ ﴿٣٣﴾﴾

(١) قرأ حمزة والكسائي ويعقوب وخلف بإسكان النون الثانية وتخفيف الجيم من (لننجينه)، والباقون بفتح النون وتشديد الجيم.

(٢) قرأ نافع وابن عامر والكسائي وأبو جعفر ورويس بإشمام الكسرة للضمة في (سيء)، والباقون بالكسرة الخالصة، ووقف عليها حمزة وهشام بخلف عنه بالنقل والإدغام.

(٣) قرأ ابن كثير وشعبة وحمزة والكسائي ويعقوب وخلف بتخفيف الجيم وإسكان النون من (منجوك)، والباقون بتشديد الجيم وفتح النون.

وسارت الملائكة من عند إبراهيم حتى وصلت إلى لوط، وكانوا في صورة شباب حسان، فلما رآهم لوط ضاقت نفسه بهم خوفاً عليهم من القوم، فقد ظنوا أنهم من جملة أبناء السبيل الضيوف، فخاف عليهم، فقالوا له: لا تخف علينا؛ فنحن رسل ربك إلى قوم لوط، ولن يصل إليك منا أذى، أما امرأتك فهي هالكة مع الهالكين، فقد كفرت بدعوتك، كما فعلت امرأة نوح، وكانت امرأة لوط تخبر القوم عن الضيوف. وهنا قالت الملائكة لإبراهيم:

٣٤، ٣٥- ﴿إِنَّا مُنْزِلُونَ^(١) عَلَىٰ أَهْلِ هَذِهِ الْقَرْيَةِ رِجْزًا مِّنَ السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ ﴿٢٤﴾ وَلَقَدْ تَرَكْنَا مِنْهَا آيَةً بَيِّنَةً لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٢٥﴾﴾

واختصر السياق ما فصله القرآن في سورتي: هود والقمر وغيرهما، من هجوم القوم على الضيوف، ومن محاورة لوط لهم؛ ليصل السياق مباشرة إلى مشهد التدمير الذي أصاب القرية وأهلها، وذلك أن جبريل عليه السلام اقتلع قُراهم من قرار الأرض، ثم رفعها إلى عنان السماء وقلَّبها عليهم، ثم أرسل الله عليهم حجارة من جهنم، مُحمى عليها، متتابعة، معلَّمة، على كل منها اسم صاحبها، وجعل الله مكان هذه الأرض بُحيرة خبيثة مُتَنَّة هي بحيرة لوط بالأردن.

ولهذا كانت عقوبة اللواط قتل الفاعل والمفعول به، أو الفاعل فقط إذا كان مغتصباً للمفعول به.

ويرى بعض الفقهاء أن يُرمى اللائط من شاطئ، كما رفع جبريل قرى المؤتفكة ثم قلبها.

ولا تزال آثار هذا التدمير باقية، تتحدث عن آيات الله تعالى في خلقه، وتدبرها القرون عبر الأجيال، قال تعالى: ﴿وَلَنَكْرُ لَنَمُوتَ عَلَيْهِمْ مُّصْبِحِينَ^(٢٧) وَيَأْتِلُّ أَفْلاكًا تَعْقِلُونَ^(٢٨)﴾ [الصافات]. وقال سبحانه: ﴿وَمَا هِيَ مِنَ الظَّالِمِينَ بِبَعِيدٍ﴾ [هود: ٨٣]. وقال ﷻ: ﴿وَلَهَا لِسَبِيلٍ مُّقْبِرٍ^(٢٩)﴾ [الحجر].

(١) قرأ ابن عامر بفتح النون وتشديد الزاي من (منزلون) اسم فاعل من نَزَلَ، والباقون بإسكان النون وتخفيف الزاي اسم فاعل من أَنْزَلَ.

الْمِثَالُ الرَّابِعُ: فَتْنَةُ الْكَسْبِ الْحَرَامِ بِتَطْفِيفِ الْكِيلِ وَالْمِيزَانِ (شُعَيْبٌ مَعَ أَهْلِ مَدْيَنَ)

٣٦، ٣٧- ﴿وَالِئِنَّ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا فَقَالَ يَنْقَوِرَ اعْبُدُوا اللَّهَ وَارْجُوا الْيَوْمَ الْآخِرَ وَلَا تَعْتَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿٣٦﴾ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جِثِيمِينَ ﴿٣٧﴾﴾
من أولاد إبراهيم عليه السلام (مَدْيَنُ) وهو ليس بنبي، وقد سُمِّي المكان الواقع في شمال الجزيرة وجنوب فلسطين، شرق خليج العقبة، باسمه، كما سُمِّيت القبيلة باسمه.
وقد أرسل الله شعيبًا إلى أهل مدين، وكان أخًا لهم من قبيلتهم، كما أرسل شعيب أيضًا إلى أصحاب الأيكة، أي: الشجر الملتف حول بعضه، وهو مكان قريب من مدين، ولم يكن شعيب واحدًا منهم، وذلك أنه بالنسبة لأهل مدين، قال تعالى: ﴿وَالِئِنَّ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا﴾ [هود: ٨٤].

وفي أصحاب الأيكة قال تعالى: ﴿إِذْ قَالَ لَهُمْ شُعَيْبٌ﴾ [الشعراء: ١٧٧]. ولم يقل أخاهم، وأهل مدين هم أهل الحاضرة، وأصحاب الأيكة هم أهل البادية، ضاحية مدين.
وفي الأثر: (إن شعيبًا أخا مدين أرسل إليهم وإلى أصحاب الأيكة).
وكلتا القبيلتين كانت تطفف الكيل والميزان.

دعا شعيب قومه إلى توحيد الله، ووفاء الكيل والميزان، وأن يخافوا عذاب الله تعالى يوم لقائه، وألا يُكثروا في الأرض الفساد والمعاصي، ويتوبوا إلى الله تعالى مما هم فيه، فلم يستجيبوا له وكذبوه، فنزل بهم عذاب الله الذي أهلكهم.

ونوعية العذاب الذي نزل بأهل مدين كان بأن صاح بهم جبريل، فرجفت الأرض من تحتهم رجفة، فأصبحوا في ديارهم جاثمين، كما قال تعالى: ﴿وَأَخَذَتِ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةَ فَأَصْبَحُوا فِي دِيَارِهِمْ جِثِيمِينَ ﴿٤٦﴾ كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا فِيهَا﴾ [هود].

وأما عذاب أصحاب الأيكة فقد أصابهم حرٌّ شديد، فكانوا يدخلون الأسراب فيجدونها أشدَّ حرًّا فيخرجون منها، فأظلمت سحابة بعدما حُبست عنهم الريح، وعُذِّبوا بالحر سبعة أيام، فاجتمعوا تحت هذه السحابة، فأمرت عليهم نارًا فأحرقتهم.

ولعل هذا أرجح مما قاله بعضهم من أن أهل مدين هم أصحاب الأيكة، وأن عذاب يوم الظلة كان بعد أن صاح بهم جبريل، ورجفت الأرض بهم، فأزهقت الأرواح من مستقرها.

المَثَالُ الْخَامِسُ:

فِتْنَةُ طُغْيَانِ الْمَالِ وَاسْتِبْدَادِ الْحُكْمِ وَالْإِغْتِرَارِ بِالْقُوَّةِ وَبَطْرِ النِّعْمَةِ

٣٨، ٣٩- ﴿وَعَادًا وَثَمُودًا^(١) وَقَدْ تَبَيَّنَ لَكُمْ مِنْ مَسَكِنِهِمْ وَزَيْنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَلَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ وَكَانُوا مُسْتَبْصِرِينَ ﴿٢٨﴾ وَقُتِرُوا وَفِرْعَوْنُ وَهَمَانُ وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مُوسَى بِالْبَيِّنَاتِ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ وَمَا كَانُوا سَابِقِينَ ﴿٢٩﴾﴾

وتشير السورة إجمالاً إلى مصارع خمسة آخرين من رؤساء الكفر الذين فُتِنوا بما هم فيه من نعمة وقوة، أو مُلْك وجاه، أو مال ومتاع، فكذبوا رسل الله، فحلت بهم نقمة الله تعالى، واستأصل شأفتهم، كلًا بما يناسبه من عذاب، جزاء صده عن سبيل الله، وعن طريق الإيمان بالله ورسوله:

١- فعاد قوم هود: كانوا يسكنون الأحقاف في جنوب الجزيرة، بالربع الخالي من المملكة العربية السعودية، قرب حضرموت، اغتروا بقوتهم وقالوا: من أشد منا قوة؟ وكانوا أهل صناعة وحضارة، يبنون بكل مرتفع في الأرض آية في البناء لا يوجد مثلها في البلاد، فلما استكبروا وعتوا أهلكتهم الله بريح شديدة البرودة، عاتية الهبوب، حملت حصباء الأرض فقلبتها عليهم، واقتلعتهم من الأرض، فرفعت الرجل منهم شديد القوة إلى عنان السماء، ثم نكسته على أم رأسه فشدخته، فصار جسدًا بلا رأس ﴿كَانَهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ﴾ [الحاقة: ٧]. ﴿فَأَمَّا عَادٌ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَقَالُوا مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ ﴿٥٠﴾ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِي أَيَّامٍ نَحْسَاتٍ لِنَدْفِعَهُمْ عَذَابَ الْآخِرَةِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَخْزَىٰ وَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ ﴿٥١﴾﴾ [فصلت: ٥١].

٢- وثمود قوم صالح: كانت تسكن بالحجر، قرب وادي القرى في شمال الجزيرة، سألوا نبيهم صالحًا أن يخرج لهم ناقة من صخرة، فأيده الله بذلك، وانفلقت الصخرة

(١) قرأ حفص وحزمة ويعقوب بترك التنوين في (وتمود)، والباقون بتوניהا.

أمام أعينهم، تتمخض عن خروج ناقة عشراء منها، ومع هذا لم يؤمنوا، واستمروا على كفرهم، وتآمروا على قتل نبيهم، وعقروا الناقة، فأرسل الله عليهم صيحة زلزلتهم، وأخمدت أصواتهم، وأسكتت أنفاسهم، وبقيت آثارهم معروفة، يمرُّ الناس عليها، ويشهدون آثار التدمير بعد العزِّ ومشاهد الحضارة، فقد كانوا أهل زرع وضرع وثمر وبساتين وحقول وحفر في الصخور ﴿وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْتَهُمْ فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَىٰ عَلَى الْهُدَىٰ فَأَخَذَتْهُمُ صَاعِقَةُ الْعَذَابِ الْهَوْنِ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ ﴿٧﴾ وَجِئْنَا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَكَانُوا يَنْفُونَ ﴿٨﴾ [فصلت].

٣ - أما قارون: فقد طغى وبغى، ولم يستجب لنصح الناصحين، واعتقد أنه أفضل الناس بعلمه وخبرته، واختال وتجبر، فحسف الله به وبداره الأرض، فهو يتجلجل فيها إلى يوم القيامة.

٤ - أما فرعون: فقد كان طاغية ادعى الإلهية والربوبية، وكان يرتكب أشنع الجرائم، يسخر الناس ويفرق بينهم، ويذبح الذكور منهم، ويستبقي الإناث للخدمة، فأغرقه الله تعالى في البحر فأماته، وألقى بجثته خارج البحر؛ ليقى عبرة لغيره على مر الأزمان ﴿فَالْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدْنِكَ لَتَكُونَنَّ لِمَنْ خَلَقَكَ ءَايَةً﴾ [يونس: ٩٢].

٥ - وأما هامان: فقد كان وزيراً لفرعون، عوناً له على تدبير المكائد، ومنفذاً لأساليب الظلم والبطش، وهو الذي بنى الصرح لفرعون حتى يطلع إلى إله موسى - على حد زعمه -.

٦ - وقد أرسل الله موسى إلى فرعون وهامان وغيرهما، مؤيِّداً بالأدلة والبراهين، فكذبوه ورموه بالسحر، واستكبروا عن الإيمان به، وجحدوا رسالته، وكان هامان من جند فرعون الذين لم ينج منهم أحد من الغرق؛ وذلك لأنهم كانوا معجبين بعقولهم، يحسبون أنهم على هدى وبصيرة، وهم على ضلال وباطل، قد زين لهم الشيطان أعمالهم، حتى ظنوا أنهم على أفضل مما جاءت به الرسل، فلم ينقادوا واستكبروا في الأرض، حتى نزلت بهم العقوبة، وما كانوا بفاتنين من عذابنا، بل كنا قادرين عليهم، فسلموا واستسلموا.

أَرْبَعَةُ أُلُوتٍ مِنْ عَذَابِ الْمُكَذِّبِينَ

٤٠ - ﴿فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنبِهِ فَمِنْهُمْ مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُمْ مَّنْ أَخَذَتْهُ الصَّيْحَةُ وَمِنْهُمْ مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ الْأَرْضَ وَمِنْهُمْ مَّنْ أَغْرَقْنَا وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُظْلِمَهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾

فكل من سبق ذكرهم كانت عقوبته بما يناسبه:

١- ﴿فَمِنْهُمْ مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا﴾ وهم قوم لوط، أرسل الله عليهم حجارة من طين منضود، وهو عذاب قد أحصى بهم، أي رماهم بالحصى الذي أهلكتهم.

٢- كما أرسل الله على قوم عاد ريحاً صرصراً شديدة البرد، شديدة الهبوب، تحمل حصباء الأرض فتمطرهم به، وتدمر كل شيء بأمر ربها حتى خلت منهم مساكنهم.

فقوم لوط أرسل الله عليهم حاصباً من سجيل، وقوم عاد أرسل الله عليهم ريحاً صرصراً عاتية حملت حصباء الأرض وأمطرتهم فأخمدت أنفاسهم ﴿سَحَرَهَا عَلَيْهِمْ سَيَّحٌ لَّيَالٍ وَنُمُيَّةٌ أَيَّامٍ حُسُومًا فَفَرَّقَ الْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَى كَأَنَّهُمْ أُعِجَازٌ غَلَّ خَاوِيَةً﴾ [الحاقة: ٧].

٣- ﴿وَمِنْهُمْ مَّنْ أَخَذَتْهُ الصَّيْحَةُ﴾ وهم قوم صالح وقوم شعيب، قال تعالى عن قوم ثمود ﴿وَأَخَذَ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةَ فَأَصْبَحُوا فِي دِيرِهِمْ جَثِيصًا﴾ [هود: ٦٧].

وقال عن قوم مدين ﴿وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا بَجَّيْنَا شُعَبًا وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَأَخَذَتِ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةَ فَأَصْبَحُوا فِي دِيرِهِمْ جَثِيصًا ﴿٩٤﴾ كَأَن لَّهُم بَقَنًا فِيهَا﴾ [هود: ٩٤، ٩٥].
وقد صاح جبريل بكل منهما صيحة فأهلكهم الله وأتى عليهم.

٤- ﴿وَمِنْهُمْ مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ الْأَرْضَ﴾ وهو قارون، خسف الله به وبداره الأرض، فلم ينفعه ماله، ولم يجد من يحول بينه وبين عذاب الله تعالى.

٥- ﴿وَمِنْهُمْ مَّنْ أَغْرَقْنَا﴾ وهم قوم: نوح، وفرعون، وهامان، وجنودهما.
﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُظْلِمَهُمْ﴾ فيهلكهم بغير ذنب، أو بغير استحقاق ﴿وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ بالكفر والطغيان والشرك، والتمتع بنعم الله تعالى وعبادة غيره.

وقد خلقهم الله تعالى لعبادته، ولكنهم أشغلوا أنفسهم بالشهوات والمعاصي، فاستحقوا هذا العقاب، وهذه النهاية الأليمة.

مَنْ يَعْبُدُ غَيْرَ اللَّهِ تَعَالَى كَأَنَّمُتَّعَلَّقَ بِخَيْطِ الْعَنْكَبُوتِ

٤١، ٤٢- ﴿مَثَلُ الَّذِينَ أَخَذُوا مِنَ دُونِ اللَّهِ أَوْلِيَاءَ كَمَثَلِ الْعَنْكَبُوتِ اتَّخَذَتْ بَيْتًا وَإِنَّ أَوْهَنَ الْبُيُوتِ لَبَيْتُ الْعَنْكَبُوتِ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴿٤١﴾ إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُدْعُونَ مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٤٢﴾﴾

هذا مثل ضربه الله تعالى لمن عبد معه غيره، وبعد أن ذكرت السورة مصارع العتاة من الكفرة والظلمة؛ بسبب كفرهم بالله تعالى، واتخاذهم أندادًا وشركاء من دونه، يَبَيِّنُ ﷻ أن هذه القوى العاتية أمثال: قوة عاد، وطغيان فرعون، وأموال قارون... إلخ، لم تقف في وجه القوة الإلهية، حين نزل بكل منهم عقاب الله تعالى، بل عصفت بهم العقوبة، كما تعصف الريح بيت العنكبوت، عصفت بكيانهم كله فجعلته هباءً منثورًا.

وهكذا فإن من يعبد غير الله تعالى، كمن يتمسك بيت وإٍ ضعيف، لا يغني عنه شيئًا.

وهل هناك أضعف من بيت العنكبوت الذي ضربه الله تعالى مثلاً لمن يلتمس النصرة أو الرزق من غير الله تعالى؟

وما دام الأمر كذلك، فإن هناك قوة واحدة هي قوة الله تعالى، وما عداها من قوة الخلق، فهي هزيلة واهنة، من احتمى أو تمسك بها في الشدائد يكون كالعنكبوت حين تحتمي بيت مكوّن من خيوط واهية.

والعنكبوت، صنف من الحشرات، لها بطون وأرجل، ومنها ما يفترس الذباب، وتسمى: ليث العناكب، والعنكبوت، تتخذ لنفسها نسيجًا تنسجه من لعابها، يكون خيوطًا مشدودة بين طرفين من الشجر أو الجدران، وتجعل في وسط تلك الخيوط جانبًا أغلظ، تحتجب وتُفَرِّخ فيه.

وسُمِّيَ بيتًا لأنه يشبه الخيمة في نسجٍ وشدٍّ أطرافه، كبيت الشعر.

ولمّا كان عُشُّ العنكبوت قليل الجدوى، لا يثبت ولا يصمد لأدنى حركة، شبه الله تعالى به كل ما يُعَبَد من دونه في حقارته وضعفه، وبُعده عن الخير والرشد، ثم نفى سبحانه عن المشركين، العلم بما تضمّنه التمثيل من حقارة أصنامهم التي يعبدونها، وقلة

جدواها في قوله ﷻ: ﴿لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾.

وهكذا فالمسلم لا ينخدع بقوة المال، ولا بقوة الجاه أو الحكم أو السلطان، ولا بقوة العلم أو الحسب والنسب، فليس هناك مِنْ حِمَى إِلَّا حِمَى اللَّهِ، فهو الركن القوي المتين. والمعنى: مثل الذين اتخذوا من دون الله أوثانًا، أو أصنامًا، أو أيِّ معبودات أخرى يعبدونها من دون الله، ويرجون نفعها ونصرها، كمثل العنكبوت صَنَعَتْ لِنَفْسِهَا بَيْتًا تَأْوِي إِلَيْهِ مِنَ الْحَرِّ وَالْبَرْدِ، فكان هذا البيت في غاية الضعف والوهن، لا ينفعها ولا يُغني عنها شيئًا، فهو لا يقيها من حرٍّ ولا بردٍ، ولا مطرٍ ولا أذىٍ، فكذلك المشركون بالله لا يُغني عنهم شركاؤهم من دون الله شيئًا.

وكما أن العنكبوت لا يستقر لها بيت، ولا يَثْبُتُ لها مكان، فكذلك عبادة غير الله تعالى لا تضر ولا تنفع، ولو أنهم كانوا يعلمون أنها لا تنفع ولا تضر ما اتخذوهم أولياء، ولتبرؤوا منهم، وتوجهوا بعبادتهم إلى الواحد القهار.

والمقصود من الآية: تجهيل المشركين، وتوبيخهم على عبادة غير الله تعالى.

- ولما بَيَّنَّ سبحانه نهاية ضعف آلهة المشركين، وبيَّن أنها ليست إلا مجرد أسماء سُمُّوها وظنُّوا اعتقدها، وعند التحقيق يَتَبَيَّنُ للعاقل بطلانها وعدمها ﴿إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ﴾ فهو سبحانه يعلم الغيب والشهادة، ويعلم أنهم لا يدعون شيئًا موجودًا، ولا إلهاً له حقيقة ﴿إِنْ هِيَ إِلَّا أَسْمَاءٌ سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ﴾ [النجم: ٢٣] ﴿وَمَا يَتَّبِعُ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ شُرَكَاءَ إِنْ يَسْتَعِثُّوا إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ﴾ [يونس: ٦٦]

والله تعالى يعلم ما هم عليه من الشرك، وسوف يجازيهم على أقوالهم وأعمالهم، ومن ذلك ما يشركونه مع الله تعالى، وأنهم يعبدون عدماً لا وجود له، ولما كانت الأصنام موجودات كالعدم، ضرب الله لها مثلاً ولعابديها بيوت العنكبوت، وهو سبحانه العزيز في انتقامه بمن كفر به، الحكيم في تدبيره وصُنْعُهُ، قال تعالى:

٤٣- ﴿وَذَلِكَ الْأَمْثَلُ نَصْرُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا الْعَالِمُونَ﴾

لما ضرب الله المثل بالعنكبوت والذباب والبعوضة، سَخَّرَ سفهاء قريش، وقالوا: إن

رَبِّ مُحَمَّدٍ يَضْرِبُ الْمَثَلَ بِالذَّبَابِ وَالْعَنْكَبُوتِ، وَيُضْحِكُونَ مِنْ ذَلِكَ، فَبَيَّنَ ﷺ أَنَّ أَمْثَالَ الْقُرْآنِ تَوْضِيحُ وَجْهِ الشَّبْهِ بَيْنَ أَحْوَالِ الْكُفَّارِ مِنْ هَذِهِ الْأُمَّةِ، بِأَحْوَالِ كُفَّارِ الْأُمَمِ السَّابِقَةِ، وَتَقَرُّبُهَا مِنْ أَذْهَانِهِمْ، وَلَا يَعْقِلُ حُسْنُهَا وَصَحَّتْهَا، وَلَا يَفْهَمُ فَائِدَتَهَا، إِلَّا الْعَالِمُونَ بِاللَّهِ تَعَالَى وَآيَاتِهِ وَشَرْعِهِ، وَهَمَّ الْعُلَمَاءُ الَّذِينَ يَعْقِلُونَ عَنِ اللَّهِ أَمْرَهُ وَنَهْيَهُ.

روى البغوي في التفسير بإسناد الثعلبي عن جابر بن عبد الله رضي الله عنه، أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ تَلَا هَذِهِ الْآيَةَ، ثُمَّ قَالَ: «الْعَالِمُ مَنْ عَقَلَ عَنِ اللَّهِ، فَعَمِلَ بِطَاعَتِهِ وَاجْتَنَبَ سَخَطَهُ».

وفي الآية مدح لضرب الأمثال النافعة، وحث على تدبرها وتعقلها، ومدح لمن يعقلها، وذم لمن لا يعقلها.

رَبِّطُ الْمُسْلِمِ بِرَبِّهِ عَنْ طَرِيقِ النَّظَرِ فِي الْكَوْنِ وَطَرِيقِ الْعِبَادَةِ

٤٤- ﴿خَلَقَ اللَّهُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾

في نهاية هذه الأمثال يربط القرآن بينها وبين شعائر المسلم، بتوحيد الله تعالى، وعبادته، وتلاوة آياته، وإقامة الصلاة، والمداومة على ذكره سبحانه؛ ليكون المسلم موصولاً بربه، يلتمس منه العون والمدد في جميع أحواله.

أما جانب التوحيد، فيتمثل في التأمل في خلق هذا الكون، ونظامه الدقيق الذي لا يتخلف ولا يختلف، ولا يصطدم بعضه ببعض، فإله تعالى خلق السموات والأرض وما فيهما وما بينهما من الشمس والقمر والكواكب والملائكة، والأرض وما فيها من الإنسان والحيوان والجبال والبحار والنبات والأشجار وغيرها، وكل ذلك خلقه الله بالحق، ولم يخلق السموات والأرض باطلاً ولا عبثاً ولا لهواً، إنما خلقهما لإظهار الحق والعدل، ولتجزي كل نفس بما كسبت، وفيهما الحجة الناطقة بتوحيد الخالق سبحانه، فقد رفع الله سبحانه السماء بغير عمد، وفرش الأرض بنظام بديع، وفيهما من عجائب الله تعالى ما لا يُحْصِيهِ الْعَادُّونَ مِنَ الدَّلَائِلِ وَالنِّعَمِ، وفي ذلك عبرة وعظة للمؤمنين، فهم الذين تفتح قلوبهم على توحيد الله تعالى وقدرته وآثاره في الكون، قال تعالى:

٤٥- ﴿أَنلَ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَابِ وَأَقِمِ الصَّلَاةَ إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ

وَالْمُنْكَرِ وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ﴾

أما جانب تلاوة القرآن، وإقامة الصلاة فلأن كلاً منهما يربط المسلم بربه دائماً، فقد خصّهما القرآن بالذكر؛ لأن العبادة ثلاثة أنواع:

١- عبادة قلبية: تتمثل في الاعتقاد الحق، وهو هنا اعتقاد وحدانية الله تعالى، ونبذ الشرك وأهله.

٢- وعبادة لسانية: وهي الذكر الحسن، ورأس الذكر تلاوة القرآن، وتسبيح الله تعالى وتحميده وتهليله وتكبيره.

٣- وعبادة بدنية: وهي العمل الصالح بجميع أنواعه، وأولها على الإطلاق فريضة الصلاة، ثم بقية أركان الإسلام ونوافله، وأخلاقه وآدابه ومحاسنه وفضائله.

ولما كان الاعتقاد لا يتكرر، وإنما يدوم ويستمر، فلا يصلح أن يعتقد العبد شيئاً، ثم يعتقده مرة أخرى، ولما كان الذكر وتلاوة القرآن من العبادة اللسانية، وكانت الصلاة من العبادة البدنية، لذا أمر بهما في هذه الآية لأنهما يتكرران.

هذا: وقد ختم القرآن سلسلة الدعوة من لدن نوح إلى محمد عليهما السلام بالأمر بثلاثة أشياء، وهي: تلاوة القرآن، وإقامة الصلاة، وذكر الله تعالى.

وفي هذا اتصال بالله تعالى يجعل المسلم يخجل من أن يرتكب فاحشة أو منكراً، ومنّ داوم على الصلاة جرّه ذلك إلى ترك المعاصي والمنكرات.

روى أنس رضي الله عنه قال: كان فتى من الأنصار يصلي الصلوات الخمس مع الرسول ﷺ، ثم لم يدع شيئاً من الفواحش إلا ارتكبه، فذكر ذلك للنبي ﷺ فقال: «ستناه صلاته يوماً»، فلم يلبث أن تاب، وحسنت حاله^(١).

وتلاوة القرآن تؤدي بصاحبها إلى ترك الفواحش، وهي: الكبائر والقبائح من الذنوب.

والمنكرات هي: ما أنكره الشرع والعقل، والفطر السليمة والفواحش هي: كل ما فحش من الذنوب والمعاصي، مما يستقبحه الشرع والعقل والفطر السليمة.

(١) «تفسير ابن عطية» (٤/ ٣٢٠).

روى أبو هريرة رضي الله عنه قال: قال رجل لرسول الله ﷺ: إن فلاناً يُصلي بالليل، فإذا أصبح سرق، قال: «ستنهاه قراءته» أي: صلاته، والمراد أنه يقرأ القرآن في صلاته، كما جاء في لفظ آخر^(١).

فاقرأ -أيها الرسول- هذا القرآن الذي أوحاه الله إليك، بإقامة ألفاظه وحسن تلاوته، وتدبر معانيه، واعمل به وبلغه للناس، وقف عند أوامره ونواهيه، واحرص على تدبر معانيه والاعتبار بما فيه، فإن إقامة الدين كله تدخل في تلاوة القرآن، ومُر قومك باتباعه والعمل بأحكامه، ومحاسنه وآدابه، وأوامره ونواهيه.

وداوم على الصلاة بأركانها وشروطها وآدابها؛ فهي عماد الدين ورُكْنُهُ الركين، فإن الصلاة تنهى المواظب عليها عن الفحشاء والمنكر.

قال أبو العالية: إن في الصلاة ثلاث خصال، فكلُّ صلاة، لا يكون فيها شيء من هذه الخصال، فليست بصلاة: الإخلاص، والخشية، وذكر الله.

فالإخلاص يأمره بالمعروف، والخشية تنهاه عن المنكر، وذكر الله (القرآن) يأمره وينهاه^(٢).

وقال ابن عون الأنصاري: إذا كنت في صلاة، فأنت في معروف، وقد حجزتك عن الفحشاء والمنكر، والذي أنت فيه من ذكر الله أكبر^(٣). والمراد ذكر الله تعالى في الصلاة، بما تشتمل عليه من قراءة الفاتحة وتلاوة القرآن، والتهليل والتكبير والتسبيح والتحميد.

كان بعض السلف إذا قام إلى الصلاة ارتعد واصفرَّ لونه، فكُلَّم في ذلك، فقال: إني أقف بين يدي الله تعالى، وحُقَّ لي هذا مع ملوك الدنيا، فكيف مع ملك الملوك؟^(٤).

فالمحافظ على الصلاة، المقيم لها مع الجماعة، المتمم لأركانها وشروطها، يستنير قلبه، ويزداد إيمانه، وتقوى رغبته في الخير، وتقل أو تنعدم رغبته في الشر، فينتهي بالضرورة عن الفحشاء والمنكر.

(١) أخرجه أحمد (٩٧٧٨) بسند صحيح، ورجال ثقات رجال الشيخين (محققه) وابن حبان (٢٥٦٠) والبيهقي (٣٢٦١) والبزار (٧٢١) والطحاوي في شرح مشكل الآثار (٢٠٥٦).

(٢) أخرجه عبد بن حميد كما في «الدر المنثور» (٥٥٠/١١).

(٣) الطبري (٤١٠/١٨) وابن أبي حاتم (٣٠٦٦/٩).

(٤) «تفسير ابن عطية» (٣١٩/٤).

وَلَذِكُرُ الله في الصلاة أكبر من ذكره خارج الصلاة، ولهذه الجملة من الآية معنيان:
الأول: أن ذكر الله تعالى أعظم وأفضل من كل شيء؛ لاستمراره على لسان العبد وفي قلبه دائماً، أما الصلاة فإن لها أوقاتاً خاصة.

في صحيح مسلم: عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «سبق المفردون»، قالوا: وما المفردون؟ قال: «الذاكرون الله كثيراً والذاكرات»^(١).

وفي حديث أبي هريرة، وأبي سعيد رضي الله عنهما: أن رسول الله ﷺ قال: «لا يقعد قوم يذكرون الله تعالى إلا حفتهم الملائكة، وغشيتهم الرحمة، ونزلت عليهم السكينة، وذكرهم الله فيمن عنده»^(٢).

وعن أبي الدرداء رضي الله عنه قال: ألا أخبركم بخير أعمالكم، وأحبها إلى مليكم، وأنها في درجاتكم، وخير من أن تغزوا عدوكم، فيضربوا رقابكم وتضربوا رقابهم، وخير من إعطاء الدنانير والدرهم؟ قالوا: وما هو يا أبا الدرداء؟ قال: ذكر الله أكبر^(٣).

وذكر الله تعالى يكون بالتسبيح، والتحميد، والتهليل، والتكبير في القلب وعلى اللسان، مع الخشية، والخوف والرجاء.

وليس من الذكر ما يكون بالتمايل يميناً وشمالاً، والتفؤه بألفاظ غير كاملة، لا معنى لها، أو مع صحبة الأنعام والآلات، وليس من الذكر ألفاظ الإطراء والغلو في الأنبياء والأولياء الصالحين، والمحسوسين عليهم!!

فالخلاصة: أن ذكر الله تعالى: أكبر في النهي عن الفحشاء والمنكر، وأعظم أثراً من إقامة الصلاة؛ لأن الصلاة أثناء أدائها تكون مانعة للعبد، عاصمة له من الفحشاء

(١) «صحيح مسلم» برقم (٢٦٧٦).

(٢) «صحيح مسلم» (٢٧٠٠).

(٣) ابن أبي شيبة (٣٠٨/١٣) والترمذي (٣٣٧٧) وابن ماجه (٣٧٩٠) والبيهقي في الشعب (٥١٩) والبخاري في شرح السنة (١٢٤٤) وأحمد بن حنبل (٢١٧٠٢) وصححه محققوه، وفقاً على أبي الدرداء، فقد اختلف في رفعه ووقفه، وفي إرساله ووصله، وأخرجه موقوفاً مالك في الموطأ (٢١١/١) عن زياد بن أبي زياد، وصححه الألباني في صحيح ابن ماجه (٣٠٥٧) وفي المشكاة (٢٢٦٩) وصحيح الترمذي (٢٦٨٨) مرفوعاً.

والمنكر، وقد يضعف تأثيرها إذا خرج العبد منها.

أما المداومة على ذكر الله تعالى بالقلب واللسان في كل الأحوال والأحيان، فهو عاصم مانع من الفحشاء والمنكر على الدوام فلن تبقى معه معصية، كما قال ابن عطاء؛ ولأن الشيطان يخنس عند ذكر الله تعالى، وهذا يكون في جميع أحوال العبد: قائماً، وقاعداً، ومضطجعاً، ونائماً.

والمعنى الآخر لكون الذكر أكبر من الصلاة: هو أن ذكر الله تعالى للعبد في الملكوت الأعلى، أكبر من ذكر العبد لربه في ملكوت الأرض.

ويؤيده الحديث القدسي الصحيح، عن أنس رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: قال الله تعالى: «يا ابن آدم إن ذكرتني في نفسك ذكرتني في نفسي، وإن ذكرتني في ملأ ذكرتني في ملأ خير منهم، وإن دنوت مني شبرا دنوت منك ذراعاً، وإن دنوت مني ذراعاً دنوت منك باباً، وإن أتيتني تمشي أتيتك أهراً، قال قتادة: فالحق تعالى أسرع بالمغفرة»^(١).

فذكر الله تعالى عباده إذا ذكروه أكبر من ذكرهم إياه:

قال ابن عباس رضي الله عنه: ولذكر الله إياكم أفضل من ذكركم إياه.

وكما قال ابن مسعود رضي الله عنه: ولذكر الله العبد، أكبر من ذكر العبد لله.

وكما قال ابن عمر رضي الله عنه: ذكر الله إياكم، أكبر من ذكركم إياه.

وعن عبد الله بن ربيعة قال: سألتني ابن عباس رضي الله عنه عن قول الله تعالى: ﴿وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ﴾ فقلت: ذكر الله التسييح والتهيل والتكبير، قال: لا، ذكر الله إياكم، أكبر من ذكركم إياه، ثم قرأ: ﴿فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ﴾^(٢) [البقرة: ١٥٢].

وبهذا المعنى قال ابن مسعود، وابن عمر، ومجاهد، والحسن، وغيرهم^(٣).

(١) من حديث أنس، في المسند (١٢٤٠٥) بإسناد صحيح على شرط الشيخين (محققه) وهو في مصنف عبد الرزاق (٢٠٥٧٥) وعبد بن حميد (١١٦٩) والبيهقي (١٢٥٠)، وصححه الألباني في «صحيح الجامع» (٤٣٣٧) و«السلسلة الصحيحة» (٢٠١٣).

(٢) يُنظر: ابن جرير (١١٤/١٨) وابن أبي حاتم (٣٠٦٧/٩) والحاكم (٤٠٩/٢) والبيهقي (٦٧٤).

(٣) يُنظر: «الدر المنثور» (٥٥٤/١١).

قلت: لعل هذا المعنى أرجح من الأول، فاللهم اجعلنا من الذاكرين الشاكرين.
﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ﴾ من الخير والشر، فيثيبكم ويجازيكم عليه أكمل الجزاء وأوفاء.

دَعْوَةُ أَهْلِ الْكِتَابِ

٤٦- ﴿وَلَا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ وَقُولُوا ءَامَنَّا
بِالَّذِي أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَأَنْزَلَ إِلَيْكُمْ وَاللَّهُمَّ وَحِّدْ وَنَحْنُ لَكَ مُسْلِمُونَ﴾ (٤٦)

لما بين سبحانه ضلال من اتخذ معبودًا من دون الله، وضرب له المثل بيت العنكبوت، أمر في هذه الآية بالتلطف في دعوة أهل الكتاب.

فقد ربطت سورة العنكبوت بين رسل الله تعالى من نوح إلى محمد، وهو صاحب الرسالة الأخيرة، التي لا يصح لأحد على وجه الأرض أن يدين بغيرها.

وقد جاء الإسلام فوجد الوثنيين، وأهل الكتاب المشركين من اليهود والنصارى، فدعاهم إلى توحيد الله سبحانه.

وبعد أن تحدثت السورة عن المشركين الوثنيين في دعوتهم إلى الله تعالى، على السنة الرسل السابقين في القرون السابقة، وبيّنت مصير المخالفين منهم، ومنهم وثنيو أهل الجزيرة، تحدثت في هذه الآية وما بعدها عن دعوة أهل الكتاب.

ولما كان المسلمون مكلفين بنشر الدعوة، وتبليغها للجميع بعد موت رسول الله ﷺ، ومن ذلك الدعوة بالنسبة لأهل الكتاب؟ والعلاقة بين القرآن والكتب السابقة؟

إن الإسلام يؤمن بالرسالات السابقة، على أن كلاً منها قد أدى دوره في زمانه ومكانه، فدعوة الرسل كلها من عند إله واحد، ذات هدف واحد، هو رد البشرية إلى ربها؛ لتعبد إلهًا واحدًا، وتسلك طريقًا واحدًا، فوجب على كل من لم يؤمن بالرسول الخاتم إلى يوم القيامة أن يؤمن به وبكتابه.

والوحي الذي نزل على موسى وعيسى عليهما السلام، هو نفسه الوحي الذي نزل على محمد ﷺ، فلماذا التفرقة بين الوحيين؟! وكيف تكون دعوة أهل الكتاب إلى الله تعالى لإيمان بالرسالة الخاتمة؟! وقد وجب على العلماء والحكام تبليغهم دعوة الله ﷻ:

أهل الكتاب صنفان:

١- إن أهل الكتاب صنفان: صنف مسالم، لا يقف في وجه الدعوة، ولا يحارب المسلمين، ولا يغتصب أرضنا وديارنا ومقدساتنا، ولا يتعرض لنا بسوء، ولا ينقض لنا عهداً، ولا يخفر لنا ذمة، ولا يعين على حربنا واغتصاب أرضنا، سواء أكان من أهل الذمة المقيمين في بلاد الإسلام، أم كان في غير بلاد المسلمين، فهذا النوع من أهل الكتاب له ما لنا وعليه ما علينا.

ودعوة هذا الصنف من أهل الكتاب إلى الإسلام، تكون بالأسلوب الحسن والقول الجميل، واللطف واللين، والدعوة بأيسر الطرق المؤدية إلى الحق، وإبراز حجج القرآن ومحاسنه وآدابه، ويكون القصد من ذلك: رد الباطل والدعوة إلى الحق، بأقرب طريق يوصل إلى بيان الحق وهداية الخلق، وهذا معنى ﴿وَلَا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾.

والجدال بالحسنى أنجع في نجاح الدعوة، وقد أمر الله تعالى بذلك في قوله تعالى: ﴿ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَحَدِّثْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ﴾ [النحل].

وقال سبحانه لموسى وهارون عندما أرسلهما إلى أكبر طغاة الأرض: ﴿فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لِّئَلَّا يَعْلَمَ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى﴾ [طه].

وقد أوصى الإسلام بالحسنى في مجادلة أهل الكتاب؛ لأنهم في الأصل يؤمنون بالله واليوم الآخر، فهم مؤهلون لقبول الحجة من غير مكابرة، ولأن كتابهم قد أعلمهم أدب الحوار، فيقتصر في جدالهم على بيان الحجة دون إغلاظ، حذراً من تنفيرهم، بخلاف الوثنيين فإن فيهم صلف وجلافة، ولا يؤمنون بالوحي ولا باليوم الآخر.

وجدال أهل الكتاب يكون فيما يعتقدونه مما يخالف عقائد المسلمين، كما في قوله تعالى: ﴿يَتَأْهَلُ الْكِتَابُ تَمَلَّؤْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَامٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ [آل عمران: ٦٤].

وقوله سبحانه: ﴿يَتَأْهَلُ الْكِتَابُ لِمَ تُحَاجُّونَ فِي إِبْرَاهِيمَ وَمَا أُنْزِلَتِ التَّوْرَةُ وَالْإِنْجِيلُ إِلَّا مِنْ بَعْدِهِ﴾ [آل عمران: ٦٥].

٢- وهناك صنف آخر من أهل الكتاب، وهو صنف محارب: يضيق بالإسلام وأهله، ويأبى الاعتراف بالإسلام، ويعمل على التشكيك فيه، وإنقاص لبناته وتنكيس لوائه، فهم يقفون في وجه الدعوة، وينقضون العهد والوعد، ويصدون الناس عن الدخول في الإسلام.

ومنهم من اغتصب أرضنا وديارنا ومقدساتنا مباشرة، أو بالعمل على ذلك بالدعم المادي أو العسكري، وبالغوا في العناد والاعتداء، ومحاولة القضاء على عقيدتنا وتبديد طاقاتنا، ووآد كل نبوغ أو اختراع إسلامي في مهده.

وهذا الصنف من أهل الكتاب في عصر التنزيل يتمثل في بني قريظة وبني النضير، ويتمثل في الصليبية والصهيونية العالمية في وقتنا المعاصر، فهؤلاء هم الذين استنهم الله تعالى في قوله: ﴿إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ﴾ وهم الذين وقفوا في وجه الدعوة والدعاة، فعليكم أن تقاوموهم وتجاهدوهم.

فالمراد بالظلم في الآية: ظلمهم لغيرهم من المسلمين، أما ظلمهم لأنفسهم بالكفر والشرك فهو حاصل على الإطلاق.

هذا: وسورة العنكبوت سورة مكية على الأرجح عدا الآيات العشر الأول منها، فهي مدنية، ولم يكن القتال قد شرع للمسلمين وقت نزولها، وكان من اليهود من هو في مكة وما جاورها، فربما وقع بينهم وبين المسلمين جدال واحتجاج في أمر الدين، وتكذيب للرسول ﷺ، فأمر الله المؤمنين أن يجادلوهم بالحسنى، واستثنى من ظلم منهم المسلمين بقول، أو فعل، أو إيذاء للنبي ﷺ، أو إعلان كفر فاحش، كقول بعضهم: عزيز ابن الله، والمسيح ابن الله، وقولهم: يد الله مغلولة، أو إن الله فقير ونحن أغنياء، أو آذوا الإسلام وأهله في صورة من الصور، وهذا حكم عام يشمل أهل الكتاب السابقين والحاليين واللاحقين.

وفي حالة إعلان أهل الكتاب لكفرهم، يتصعد الجدال معهم إلى ما يردعهم ويمنعهم، فقد شرع الإسلام استعمال الأسلوب الأشد، عند عدم جدوى الأسلوب الحسن.

فيكون المعنى: ناقشوا أهل الكتاب بالحسنى، إلا من أظهر قسوة وحاله بعدم إرادة الحق، وأنه يجادل بالباطل للمغالبة، وإلا من أساء إليكم، ولم يستعمل الأدب في جداله، فقابلوه بما

يليق بحاله من الإغلاظ والتأديب بما يؤدي إلى رذعه وزجره، إذ لا فائدة في جداله.

والذين ظلموا هم الذين أظهروا العداوة للإسلام، وكابروا في قبول الحجة.

ولما كانت هذه الآية من آخر ما نزل بمكة فهي بمثابة التوطئة لما سيحدث بعد الهجرة من الأمر بقتال اليهود وأشباههم، وليس فيها أمر بقتال أهل الكتاب، فلا يقال: إن آية سورة التوبة [٢٩] نسختها أم بقي حكمها؟

واليهود هم المقصود الأكبر بأهل الكتاب في هذه الآية، فهم الذين كانوا يجاورون أهل مكة في المدينة وما حولها، وهي تشمل النصارى إذا عرضت مجادلتهم كما حدث مع وفد نصارى نجران، وكما يحدث في كل زمان ومكان.

وكان اليهود قبل هجرة النبي ﷺ إلى المدينة، مسالمين، يقولون: إن محمداً رسول الأميين، كما قال ابن صياد، لما قال له النبي ﷺ: «أتشهد أني رسول الله؟» فقال: أشهد أنك رسول الأميين، فلما هاجر النبي ﷺ إلى المدينة، ودعاهم إلى الإسلام، أسلم عبد الله بن سلام في أول يوم، وأخذ سائر اليهود ينكرون الإسلام بالكلية حسداً وبغضاً منهم؛ لأنه ينسخ شريعتهم، فأخذوا يكيدون للنبي ﷺ، ونشأ منهم المنافقون.

فلا تضعفوا وتهنوا وتدعوهم إلى السلم، ولا تُربُّوا أبناءكم على ولايتهم ومحبتهم، وعلى ترك الجهاد في سبيل الله.

فإن جنحوا للسلم ونشدوه، وكنتم في مركز قوة ويد عليا، ولم يعتدوا عليكم ويسلبوكم أرضكم، فاجنحوا له وتوكلوا على الله، والإسلام لم يكن معتدياً في يوم من الأيام. وإن كنتم في حالة ضعف كبير فهادنوهم، واقبلوا بعض الشروط حتى يقوى جانبكم، ويشدد عودكم.

إن الحروب الدائمة، يثيرها أهل الكتاب مع المسلمين في الماضي والحاضر، خصوصاً أثناء المدة، من زحف الرومان على العالم، ووقوع غرب آسيا وشمال أفريقيا في أيديهم. فهل كان الإسلام معتدياً حين حرر الأقطار من براثنهم؟ وهل كان معتدياً حين ردّ الصليبيين على أعقابهم بعد مئات السنين من الكرّ والفرّ؟

وفي العصر الأخير هاجم نابليون مصر، وموسوليني ليبيا والحبشة، واجتاح الفرنسيون دول المغرب، واجتاح الإنجليز وادي النيل، وسقطت القارة الإسلامية في أيدي أهل الكتاب، وها هي القدس في أيدي الصهاينة، وفلسطين التي افتتحها عمر، وحررها صلاح الدين، هي الآن في أيدي اليهود بحماية ودعم من النصارى، فمن لها الآن؟ فهل نكون ظالمين، أو إرهابيين حين نعمل على تحرير أرضنا ومقدساتنا وحماية عقيدتنا؟!!

وكل من أشرك بالله تعالى فهو ظالم، وكل من كفر بمحمد ﷺ فهو ظالم.

حكم الأخذ عن أهل الكتاب:

وفي الآية دليل على جواز المناظرة مع أهل الكتاب؛ لإبراز الحق ودحض الباطل، وهو لون من الدعوة إلى الله تعالى.

ونحن نؤمن بالقرآن، كما نؤمن بالتوراة قبل تحريفها، ونؤمن بالإنجيل قبل تحريفه، ونحن نؤمن بالرسالتين في مدة صلاحيتهما؛ فليكن الجدل بيننا مبنياً على الإيمان بما أنزل إلينا وأنزل إليكم، وعلى الإيمان برسولنا ورسولكم، فالوحي المنزل على رسل الله واحد، والتوحيد يجمعنا، والإسلام يجمعنا، وقد أمرنا الله بذلك في هذه الآية وغيرها، وما دمننا نؤمن بكتابكم - يا أهل الكتاب - فلا ينبغي لكم أن تنحرفوا عنا وتعتدوا علينا، كما قال تعالى: ﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ هَلْ تَقْتُمُونَ مِنَّآ إِلَآ أَنۢ ءَأْمَنَآ بِٱللّٰهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَآ أُنزِلَ مِنۢ قَبْلُ﴾ [المائدة: ٥٩].

فالقُدْح في شيء من الكتب الإلهية، قُدْح فيها كلها، والقُدْح في أحد الرسل، قُدْح في رسل الله جميعاً، وهكذا تكون مناظرة الجاهل عند مقارعة الخصوم، يُقْدَح في كل ما عندهم من حق وباطل، وهذا ظلم وخروج عن أدب المناظرة، إذ الواجب قبول ما عند الخصم من الحق ورد الباطل، بعين الإنصاف والتجرد ﴿وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَاٰنُ قَوْمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعْلَمُوْا﴾ [المائدة: ٨] ولو كان المناظر كافرًا.

ومناظرة أهل الكتاب على هذا الأساس، فيها إلزام لهم بالإقرار بالقرآن، والتسليم لرسول الإسلام، فهذا ما اتفقت عليه جميع الأنبياء والكتب الإلهية، وثبت ذلك لدى الرسل السابقين، وفي كتب الله كلها قبل التحريف والتبديل.

وبعد مجيء محمد ﷺ فإنه لا يُقبل من أحد كائناً من كان دين آخر، كما قال تعالى: ﴿وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ [آل عمران]:

١- روى البخاري وغيره، عن أبي هريرة ؓ قال: كان أهل الكتاب يقرؤون التوراة بالعبرانية، ويفسرونها بالعربية لأهل الإسلام، فقال رسول الله ﷺ: «لا تصدقوا أهل الكتاب ولا تكذبوهم، وقولوا آمنا بالذي أنزل إلينا وأنزل إليكم، وإلهنا وإلهكم واحد ونحن له مسلمون»^(١).

وهذا القول لمن لم يقل منهم إن مع الله إلهاً آخر، أو أن له ولداً، أو شريكاً، أو أن يد الله مغلولة، أو أن الله فقير، ولم يؤذ الإسلام وأهله، فهم بهذا قد آمنوا بما أنزل إلينا وما أنزل إليهم، أما من قال أو فعل شيئاً من ذلك، فلا ينطبق عليه الحديث.

٢- وروى البخاري عن ابن عباس ؓ قال: كيف تسألون أهل الكتاب عن شيء، وكتابكم الذي أنزل عليكم على رسول الله ﷺ أحدث؟! تقرأونه غصاً لم يشب، وقد حدثكم أن أهل الكتاب بدلوا كتاب الله وغيروه، وكتبوا بأيديهم الكتاب، وقالوا: هو من عند الله؛ ليشتروا به ثمناً قليلاً، ألا ينهاكم ما جاءكم من العلم عن مسألتهم؟ لا، والله، ما رأينا منهم رجلاً يسألكم عن الذي أنزل عليكم^(٢).

٣- وعن عبد الله بن مسعود ؓ أن رسول الله ﷺ قال: «لا تسألوا أهل الكتاب عن شيء فإنهم لن يهدوكم وقد ضلوا، فإنكم إما أن تكذبوا بحق، وإما أن تُصدّقوا بباطل، فإن كنتم سائلين لا محالة، فانظروا ما واطأ كتاب الله فخذوه، وما خالف كتاب الله فدعوه»^(٣).

(١) البخاري برقم (٤٤٨٥، ٧٣٦٢، ٧٥٤٢) و«فتح الباري» (٢٠/٨) و«السنن الكبرى» للنسائي (١١٣٨٧) وفي ط مؤسسة الرسالة (١١٣٢٣) والطبري (١٨، ٣٢٢) والبيهقي في «الشعب» (٥٢٠٧) والسنن (١٦٣/١٠).

(٢) صحيح البخاري (٧٥٢٢، ٧٣٦٣، ٢٦٨٥).

(٣) يُنظر: «تفسير الطبري» (٤/٢١) وابن عطية (٣٢١/٤) وعبد الرزاق (١٩٢١٢)، والحديث فيه جابر الجعفي، ضعيف، وله شواهد صحيحة من طريق عبد الله بن ثابت الأنصاري، وقد ذكره البخاري في ترجمة الباب، ينظر: فتح الباري (٣٣٤/١٣) والحديث في مسند أحمد (١٤٦٣١) عن جابر إلى (بباطل) بإسناد فيه ضعف لضعف مجالد. (محققوه)

٤- وعن عطاء بن يسار قال: كانت اليهود يحدثون أصحاب النبي ﷺ فيُسَبِّحون كأنهم يعجبون، فقال رسول الله ﷺ: «لا تصدقوهم ولا تكذبوهم، وقولوا: آمنا بالذي أنزل إلينا وأنزل إليكم وإلهنا وإلهكم واحد»^(١).

والسبب في عدم تصديقهم: أنه وقع خلط في كتبهم؛ لقلّة الحفّاظ المُتّقين فيهم، ولتحريفهم كلام الله تعالى، فكان فيه الوضع والخلط، ومن هنا: فإنه لو كان كلامهم باطلاً لم نصدقه، وإن كان حقاً لم نكذبه، وهذا ما يسمى بالإسرائيليات في التفسير والتاريخ وغيرهما. وهذا المبدأ نعمل به إذا أخبرونا بشيء لا يوجد في الإسلام ما يشبهه ولا ما ينفيه، وأدّعوا أنه موجود في كتبهم.

أما إن كان الخبر موجوداً في كتابنا، أو في صحيح سنة نبينا - فإننا نأخذه من مصادرها. ولهذه المعاني ختمت الآية بقوله تعالى ﴿وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾ أي منقادون مستسلمون لأمره، مؤمنون بجميع كتبه، متبعون لجميع رسله، ونُتَوَّج هذا بالإيمان بخاتم رسله ﷺ.

أَصْنَافُ النَّاسِ تَجَاهَ كِتَابِ اللَّهِ تَعَالَى ثَلَاثَةٌ

٤٧- ﴿وَكَذَلِكَ أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ فَالَّذِينَ ءَاتَيْنَهُمُ الْكِتَابَ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَمِنْ هَؤُلَاءِ مَنْ يُؤْمِنُ بِهِ وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلَّا الْكَافِرُونَ﴾ (١٧)

وكما أنزل الله الكتب على الأنبياء السابقين أنزل القرآن على محمد ﷺ، فكان الناس تجاه هذا الكتاب أصنافاً ثلاثة أهل الكتاب والوثنيون والجاحدون:

الصف الأول: صنف آمن بالقرآن، فعرفه حق المعرفة، ولم يداخله حسد ولا هوى، فأقرّ بالإسلام واتبعه، وهو من أهل الكتاب، كعبد الله بن سلام، وسلمان الفارسي، وتميم الداري، وغيرهم، ممن تيقن صدقه، وبما تميّزوا به من معرفة الحسن وغير الحسن، والصدق والكذب، فأمن به على بصيرة وعلم، وفيهم يقول تعالى: ﴿فَالَّذِينَ ءَاتَيْنَهُمُ الْكِتَابَ يُؤْمِنُونَ بِهِ﴾.

ويلحق بهم كل من دخل ويدخل في الإسلام من أهل الكتاب إلى آخر الدنيا.

(١) عبد الرزاق (١٠١٦١، ١٩٢١١) والطبري (٤٢٢/١٨). ومصف ابن أبي شيبة (٢٦٤٢٢).

الصف الثاني: من العرب المشركين الوثنيين، مَنْ آمَنَ بالقرآن أيضاً، وهم المشار إليهم بقوله تعالى: ﴿وَمِنْ هَؤُلَاءِ مَنْ يُؤْمِنُ بِهِ﴾ ولفظ: ﴿هَؤُلَاءِ﴾ إشارة إلى من نزل فيهم القرآن وهم العرب، ويلحق بهم كل من اعتنق الإسلام من عبدة الأصنام والأوثان في أرجاء الأرض إلى قيام الساعة.

أما الصف الثالث: فهم كل من كفر وكذب وجحد الحق، ولم يؤمن بالقرآن ورسول الإسلام ﷺ إلى قيام الساعة، ممن دأبه الجحود، وإنكار الحق والعناد، وهذا حصر لمن كفر بمحمد ﷺ، وهؤلاء هم من قال الله فيهم: ﴿وَمَا يَجْعَلُ يَتَابِعِينَ إِلَّا الْكَافِرُونَ﴾.

فلا ينكر القرآن ولا يتشكك فيه إلا كل جاحد معاند، أما من كان قصده صحيحاً فلا بد له أن يؤمن به لما اشتمل عليه من البينات.

وقد عرف اليهود والنصارى وصف محمد ﷺ في التوراة والإنجيل، وعرفوا أنه حق، وأن القرآن حق، فجحدوا ولم يؤمنوا به، والجحود يكون بعد المعرفة.

وفي الآية التالية دليل صحة رسالة محمد ﷺ الذي عرف القوم صدقه وأمانته، ومدخله ومخرجه، وسائر أحواله، ومنها أنه لم يكن يكتب ولا يقرأ ما هو مكتوب، وأنه أرسل في أمة أمية، لم ينزل عليها كتاب قبل القرآن، وهذا من أكبر الأدلة على صحة رسالته ﷺ.

ثَلَاثٌ مِنْ شُبِّهِ الْكُفَّارِ عَلَى الْوَحْيِ وَالرَّسَالَةِ

الشُّبْهَةُ الْأُولَى: دَعَاؤُهُمْ أَنَّ الْقُرْآنَ مِنْ عِنْدِ مُحَمَّدٍ ﷺ

٤٨- ﴿وَمَا كُنْتُمْ تَتْلُوا مِنْ قَبْلِهِ مِنْ كِتَابٍ وَلَا تَخُطُّوْنَ بِيَمِينِكُمْ إِذَا لَارْتَابَ الْمُبْطِلُونَ﴾

أخذ القرآن يفنّد شبه المكذّبين بالرسول والرسالة، ويقيم الحجة على المبطلين المرتابين، فرسول الله ﷺ عاش بين أظهرهم أربعين سنة من عمره، وهو أمّي لا يقرأ ولا يكتب، ثم جاءهم بهذا الكتاب المعجز، وكان قبل أن ينزل عليه القرآن، لم يقرأ كتاباً مثله، ولا أمسك قلمًا ولا خط حرفًا، ولو كان قارئًا كاتبًا قبل الوحي لارتابوا وشكّوا، وكان أهل الكتاب يجدون في كتبهم أن محمدًا لا يخط ولا يقرأ كتابًا، ومع هذا فقد قالوا: تعلّم من الكتب السابقة، فقال تعالى في الرد عليهم: ﴿قُلْ لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا تَلَوْتُمْ عَلَيْكُمْ وَلَا

أَذَرْنَاكُمْ بِهِ فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِّن قَبْلِهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١١﴾ [يونس].

وقال سبحانه: ﴿مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ وَلَكِن جَعَلْتَهُ نُورًا نَّهْدِي بِهِ مَن نَّشَاءُ مِّن عِبَادِنَا﴾ [الشورى: ٥٢].

ومعجزة النبي ﷺ في أميته، وهكذا وصفته الكتب السابقة، كما جاء في قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْنُوزًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ﴾ [الأعراف: ١٥٧]. وكان للنبي ﷺ كُتَابٌ يكتبون له الوحي والرسائل إلى الملوك والرؤساء.

والمبطلون كانوا يعلمون أن النبي ﷺ أميًّا، كما في قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ اكْتَتَبَهَا فَهِيَ تُمْلَى عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا﴾ [الفرقان].

فالمقصود من الآية: نَفْيُ صفة التعلُّم عن النبي ﷺ وإثبات أن القرآن وحي من عند الله، جاء متضمنًا لأخبار الأمم السابقة، والأمور الغيبية، وكل إنسان في مكة كان يعلم أن النبي ﷺ لم يجلس إلى معلم، ولم يخط بيده سطرًا واحدًا، ومع هذه الأمية فقد أتى ﷺ بهذا الكتاب المعجز!!

ومادام النبي ﷺ كان أميًّا، ومع هذا فقد جاء بكتاب عجز أرباب الفصاحة والبلاغة أن يأتوا بمثل أقصر سورة منه، ولم تحدثهم أنفسهم بالمعارضة، لعلمهم بأنه ليس من كلام البشر، قال تعالى في الرد على المكذبين:

٤٩- ﴿بَلْ هُوَ آيَاتٌ يِّنَّنَا فِي صُورِ الَّذِينَ أُوْتُوا الْعِلْمَ وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلَّا الظَّالِمُونَ﴾

أي ولو فرض أن محمدًا ﷺ كان يقرأ ويكتب قبل الوحي، ما جاز لهم أن يرتابوا، فهذا القرآن يشهد بذاته أنه ليس من صنْع البشر، وأنه فوق طاقتهم ومعرفتهم، فهو معجزة قائمة، ودلالة واضحة على صدق الرسالة، لا شبهة فيها لدى أهل العلم من هذه الأمة، وهذه الآيات يجدونها في صدورهم ثابتة ومستقرة لا تحتاج إلى دليل آخر؛ فهي آيات راسخات واضحات في صدور أهل العلم من علماء هذه الأمة وحُفَاطِهَا، وهم الذين حفظوه وتدبروه، وعملوا بما فيه، وإذا كان القرآن آيات بينات في صدور أمثال هؤلاء، كانوا حجة على غيرهم، وكان إنكار غيرهم عنادًا لا يضر، ولا يجحد هذا إلا ظالم جاهل يتكلم بغير علم ولا يقتدى بأهل العلم.

أي: ولا يُكذَّب بهذا القرآن إلا كل من تجاوز الحد في الكفر والطغيان، وهم المعاندون الذين يعلمون الحق ويحيدون عنه ﴿قُلْ أَنْزَلَهُ الَّذِي يَعْلَمُ السِّرَّ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ [الفرقان: ٦].

وفي التفسير المأثور: أن المراد بصدور الذين أتوا العلم: هم أهل الكتاب، والمراد بالآيات البينات: وصف النبي ﷺ بأنه أُمِّي في التوراة والإنجيل. قال ابن عباس ؓ: لم يكن رسول الله ﷺ يقرأ ولا يكتب وكان أُمِّيًّا.

وقال: كان الله قد أنزل شأن محمد ﷺ في التوراة والإنجيل لأهل العلم، وعلمه لهم، وجعل لهم آية، فقال لهم: إن آية نبوته أن يخرج حين يخرج، لا يعلم كتابًا، ولا يخطه بيمينه، وهي الآيات البينات التي ذكر الله تعالى^(١).

فالآيات البينات التي في صدور أولي العلم على الأرجح: هي نَعْتُهُ ﷺ في التوراة والإنجيل، أنه أُمِّي لا يقرأ ولا يكتب، وكان أهل الكتاب يعرفونه بهذه الصفة، وبهذا فسرهما الضحاك، وقتادة، والحسن، وغيرهم.

وفي البخاري، عن أبي هريرة أن النبي ﷺ قال: «ما من الأنبياء نبي إلا أُعطي من الآيات ما مثله آمن عليه البشر، وإنما كان الذي أوتيته وحياً أوحاه الله إليّ، فأرجو أن أكون أكثرهم تابعا يوم القيامة»^(٢).

وفي صحيح مسلم، عن عياض بن حمار ؓ أن رسول الله ﷺ قال: يقول الله تعالى: «إِنَّمَا بَعَثْنَاكَ لِأَبْتَلِكَ، وَأَبْتَلِي بِكَ، وَأَنْزَلْتُ عَلَيْكَ كِتَابًا، لَا يَفْهَمُهُ الْمَاءُ، تَقْرُوهُ نَائِمًا وَيَقْظَانًا»^(٣).

وذلك لأنه محفوظ في الصدور، مهيمن على القلوب، ميسر على الألسنة، معجز في لفظه ومعناه، وهو محفوظ في السطور إلى جوار حفظه في الصدور، بخلاف سائر الكتب

(١) الطبري (٤٢٤/١٨) وابن أبي حاتم (٣٠٧١/٩).

(٢) «فتح الباري» (٦١٩/٨) وفي البخاري برقم (٧٢٧٤) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٣) مسلم (٢٩٧/٤) برقم (٢٨٦٥) من حديث عياض بن حمار رضي الله عنه.

السماء في مكتوبة وغير محفوظة، ولهذا دخلها التحريف، وجاء في وصف هذه الأمة أن: «أناجيلهم في صدورهم»^(١).

الشُّبْهَةُ الثَّانِيَةُ: طَلَبُ الْجَاهِدِينَ أَنْ يُؤَيِّدَ النَّبِيَّ بِالْمُعْجَزَاتِ الْحَسِيَّةِ

٥٠- ﴿وَقَالُوا لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْهِ آيَاتٌ^(٢) مِنْ رَبِّهِ قُلْ إِنَّمَا الْآيَاتُ عِنْدَ اللَّهِ وَإِنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُبِينٌ﴾

تحدث هذه الآية عن طلب المكذبين للنبي ﷺ أن يأتي لهم بمعجزات حسية، مثل الخوارق التي نزلت على غيره من الرسل: كالعصا، واليد، والناقة، وإحياء الموتى، وإبراء الأكمه والأبرص، وجاء ذلك في مثل قوله تعالى ﴿وَقَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى تَفْجُرَ لَنَا مِنْ الْأَرْضِ يَنْبُوعًا﴾ [الآيات ٩٠-٩٥ من سورة الإسراء]

وقد وصف القرآن هؤلاء الجاحدين بأنهم كافرون ومبطلون وظالمون ومرتابون، وأنهم لا يتأثرون إلا بالمشاهد الحسية، فأخبر سبحانه عن قول المشركين: ﴿لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْهِ آيَاتٌ مِنْ رَبِّهِ﴾ كالناقة، والعصا، واليد، فكان الجواب مكتوناً من ثلاث نقاط:

الأولى: أن الآيات من الله تعالى إن شاء أنزلها، وإن شاء منعها، فهي من عند الله، وليست من عندي، وهو الذي يُنزلها على من يشاء من عباده وفق ما يناسب خلقه، ولو علم سبحانه أنكم ستهتدون بها لأجابكم إلى طلبكم، ولكن الله تعالى يعلم أن سؤالكم للتعنت والعناد، وأنكم لن تؤمنوا، كما قال تعالى: ﴿وَمَا مَنَعَنَا أَنْ نُرْسِلَ بِالْآيَاتِ إِلَّا أَنْ كَذَّبَ بِهَا الْأَوَّلُونَ﴾ [الإسراء: ٥٩].

وكما قال سبحانه: ﴿وَنُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ وَأَبْصَارَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ [الأنعام: ١١٠].

الثانية: أن مهمة الرسول ﷺ هي الإنذار، ولا نُسلم أن التبليغ يحتاج إلى خوارق العادات التي يطلبونها، وإنما حالهم يقتضي الإنذار بالدلائل العقلية الدالة على صدق البلاغ والإنذار ﴿وَأِنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُبِينٌ﴾ فمهمتي هي البلاغ والإنذار، وبعد الإنذار: ﴿فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيُكْفُرْ﴾ [الكهف: ٢٩].

(١) ضعفه الألباني عن ابن مسعود في ضعيف الجامع الصغير برقم (٣٤٧٣).

(٢) قرأ ابن كثير وشعبة وحمزة والكسائي وخلف (آية) بالإنفراد على إرادة الجنس، والباقون (آيات) بالجمع على إرادة الأنواع.

الثالثة: أن هذا القرآن معجزة قائمة إلى يوم القيامة، محفوظة في الصدور، ومكتوبة في السطور، وما تطلبونه من آيات يستمر ساعة لمن يراه، ثم يذهب.

ثم إن طلب الآيات الحسية، إن كان المقصود منه بيان الحق من الباطل، ونزلت هذه الآيات ولم يؤمنوا بها - كما أخبر رب العالمين - لم يكن لإنزالها فائدة، لأن في القرآن الكفاية لطالب الحق فضلاً عما يصيبهم من عذاب قال تعالى:

خَمْسُ مَزَايَا فِي الْمُعْجَزَةِ الْخَالِدَةِ

٥١- ﴿أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ^(١) أَنَّا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ يُتْلَى عَلَيْهِمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَى لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٥١﴾﴾

قال تعالى في جواب من يطلبون المعجزات الحسية: ﴿أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ يُتْلَى عَلَيْهِمْ﴾ فهو كتاب لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، وهو أعظم من كل معجزة، فهو متناسب مع الرسالة الخالدة، لا ينتهي بوقت معين، ولا يراه فقط أهل مكان معين، وقد عجز المعارضون له - مع فصاحتهم - عن معارضته بمثل أقصر سورة منه، وهو كتاب فيه نبأ من قبلكم، وخبر ما بعدكم، وحكم ما بينكم، مع أن المنزل عليه القرآن رجل أُمي لا يقرأ ولا يكتب، وهو باقٍ في صدورهم وبين أيديهم إلى قيام الساعة، بخلاف المعجزة الحسية فإنها تخص زمانها ومكانها.

والمعنى: هلاً يكفيهم من الآيات الدالة على صدق محمد ﷺ آيات هذا القرآن، فإن فيه زهاء ستة آلاف آية، وفي كل منها إعجاز لم يحصل لأحد من رسل الله، وفي هذا الإعجاز خمس مزايا:

المزية الأولى: كونه قرآنًا يتلى في مختلف المجامع والآفاق والأزمان، ولا يختص إعجازه بقوم دون قوم، ولا بزمان دون زمان، ولا بمكان دون مكان، كما في المعجزات الحسية، وقد تحدى الناس بمعارضته فعجزوا، فهو معجزة باقية، والمعجزات التي يقترحونها معجزات تزول.

المزية الثانية: أن ما يُدرك بالعقل والفكر أرفع وأعلى مما يدرك بالحس والمشاهدة،

(١) قرأ رويس بضم الهاء من (أو لم يكفهم) وصلاً ووقفًا، والباقيون بكسرها.

والقرآن يتلى ويدرك بالعقل.

المزية الثالثة: أن في تلاوة هذا الكتاب رحمة للناس وصلاحًا لدينهم ودنياهم بما اشتمل عليه من التشريع والهداية، والإرشاد والأخلاق، وتحصيل العلم والأحكام والآداب، وهذا يختلف عن المعجزات الحسية فإنها لا تفيد إلا تصديق الرسول.

المزية الرابعة: أن في القرآن تذكرة بخيري الدارين، تشتمل على المواعظ والنذر، والتذكير بعواقب الأمور، وفيه إعداد للحياة الأخرى الباقية، وهذا أفضل من المعجزات الصامته التي لا تدل إلا على صدق الرسول في زمن معين.

المزية الخامسة: أنه ليس في استطاعة أحد أن يزعم أن القرآن سحر وشعوذة، أو تخيلات وأوهام، كما قال المشركون عن معجزة انشقاق القمر، وكما قال فرعون وقومه لموسى ﴿يَأْتِيهِ السَّحَرُ﴾.

والقرآن كتاب يُغني عن كل الكتب، ولا تغني عنه كل الكتب.

جاء عن الزهري أن حفصة رضي الله عنها جاءت إلى النبي ﷺ بكتاب من قصص يوسف في كتف -أي: عظم عريض- فجعلت تقرأه عليه، والنبي ﷺ يتلوّن وجهه، فقال: «والذي نفسي بيده، لو أتاكم يوسف وأنا بينكم فاتبعتموه وتركتموني لضللتم»^(١).

وجاء نحو ذلك بالنسبة لعمر رضي الله عنه، أن النبي ﷺ قال: «والذي نفسي بيده، لو أصبح فيكم موسى فاتبعتموه وتركتموني لضللتم، إنكم حظي من الأمم وأنا حظكم من النبيين»^(٢). وفي لفظ «ما وسعه إلا اتباعي»

وهكذا جاءت آثار تنهى عن أخذ أقوال من أهل الكتاب بقصد العمل والاهتداء بها، فإنها لا تخلو من التحريف والتغيير، وقد نزلت لزمان معين ومكان معين، وقد جاء محمد ﷺ برسالة بيضاء نقية تصلح لكل زمان ومكان، ولا يزيغ عنها إلا هالك، وقد أُعطى

(١) أخرجه عبد الرزاق في «المصنف» برقم (١٠١٦٥) والبيهقي في «الشعب» برقم (٥٢٠٥) وقال الألباني: رجاله ثقات، لكنه منقطع، بل معضل، بين الزهري وحفصة، «الإرواء» (٣٧/٦).

(٢) وهذا إسناده ضعيف كما في «المسند» عن عبد الله بن ثابت برقم (١٥٨٦٤، ١٨٣٣٥) وفيه ابن يزيد الجعفي، (محققوه) قال الهيثمي في مجمع الزوائد (١٧٣/١): رواه أحمد والطبراني ورجال الصحيح إلا أن فيه جابرًا الجعفي وهو ضعيف، وهو عند عبد الرزاق (١٠١٦٤) والبيهقي في «الشعب» (٥٢٠١).

النبي ﷺ جوامع الكلم، واختَصِرَ له الحديث اختصارًا.

وقد خُصَّت الرحمة والذكرى في هذه الآية بالذين يؤمنون بهذا القرآن في كل زمان ومكان؛ لأنهم الذين ينتفعون بما فيه من العبر والأحكام والحكم.

كَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا عَلَى صِدْقِ خَاتَمِ الْمُرْسَلِينَ

٥٢- ﴿قُلْ كَفَى بِاللَّهِ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ شَهِيدًا يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالَّذِينَ آمَنُوا بِالْبَاطِلِ وَكَفَرُوا بِاللَّهِ أُولَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴿٥٢﴾﴾

ثم إن الله تعالى يقول لنبيه: لا تحزن على كفر هؤلاء بك وبكتابك؛ فإن شهادة الله تعالى كافية في أنك رسول الله وأن القرآن كتابك أوحاه الله إليك. وقل لهؤلاء المكذبين كفى بالله شهيدًا على أنني رسول الله، وكفى به شهيدًا على تكذيبكم ورفضكم للحق الذي جئت به من عند الله، فهو سبحانه شهيد بيني وبينكم.

وهو سبحانه يعلم صدق ما أقوله لكم، وأبلغه عن ربي، ولو كنت كاذبًا لانتقم مني، كما قال تعالى: ﴿وَلَوْ نَقُولُ عَلَيْنَا بَعْضُ الْأَقَابِلِ ﴿٥٤﴾ لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ ﴿٥٥﴾ ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ ﴿٥٦﴾﴾ [الحاقة]. فلتكفركم هذه الشهادة من الله، وهو سبحانه لا يخفى عليه شيء في الأرض ولا في السماء، فلا يسعكم إلا الإيمان بما جئت به.

أما من اشترى الكفر بالإيمان، والضلالة بالهدى، والظلمات بالنور، والباطل بالحق، فهو الذي خسر دنياه وأخراه، واستحب العمى على الهدى ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا بِالْبَاطِلِ وَكَفَرُوا بِاللَّهِ﴾ مع وضوح الدلائل والبراهين، أولئك هم الهالكون في الدنيا والآخرة، وستكون عاقبة أمرهم فرطًا، لأنهم خسروا الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر، وخسروا النعيم المقيم يوم لقاء رب العالمين في مقابلة العذاب الأليم والعقاب الشديد.

الشُّبْهَةُ الثَّالِثَةُ: اسْتِعْجَالُ الْمُكَذِّبِينَ لِنُزُولِ الْعَذَابِ بِهِمْ فِي الدُّنْيَا

٥٣- ﴿وَسْتَغْلِبُوكَ بِالْعَذَابِ وَلَوْلَا أَجَلٌ مُّسَمًّى لِّجَاءِ هَٰذَا الْعَذَابِ وَلِيُنْزِلَهُمْ بِعَتَّةٍ وَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ﴿٥٣﴾﴾

في القرآن الكريم وعيد وتهيب لمن لم يؤمن بما جاء به محمد ﷺ، وقد أخذ الجاحدون للرسالة يقولون: أين ما تهددنا به يا محمد؟ أين ما تعدنا به من العذاب؟

﴿وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ [الملك: ٢٥] قالوا ذلك استهزاء واستبعاداً لنزوله، وعدم فهمهم لوظيفة الرسول ﷺ، فهم بدل أن يؤمنوا به يتحدثونه أن ينزل بهم العذاب عاجلاً دون إبطاء ولا تأخير.

ورد أن النضر بن الحارث قال عن القرآن الكريم: ﴿اللَّهُمَّ إِن كَانَتْ هَذَا هُوَ الْحَقُّ مِن عِنْدِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَابَهُ مِنَ السَّمَاءِ أَوْ آتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [الأنفال: ٣٢].

وَوَرَدَ أَنَّ كَعْبَ بْنِ الْأَشْرَفِ وَأَصْحَابَهُ قَالُوا لِلنَّبِيِّ ﷺ: مَنْ يَشْهَدُ لَكَ بِأَنَّكَ رَسُولُ اللَّهِ؟.

وقد رفع الله عذاب الاستئصال عن هذه الأمة؛ لأنها الأمة الأخيرة، ورسولها هو النبي الخاتم، وكتابه باقٍ بين أيديهم إلى يوم القيامة، جاء هذا المعنى في قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَتْ أَلَلَةٌ لِّعَذَابِهِمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ وَمَا كَانَتْ أَلَلَةٌ لِّمُعَذِّبِهِمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾ [الأنفال: ٣٢]. فهذا أمانان لرفع عذاب الإبادة عن هذه الأمة، وهما: وجود النبي ﷺ بينهم حياً، وبقاء كتابه ورسالته فيهم بعد مماته، والأمان الثاني هو دوام الاستغفار من أبناء هذه الأمة.

ولولا أن الله تعالى قد قضى بتأجيل عذابهم إلى أجل مسمى، هو يوم القيامة، وهو يوم حلوله بهم - لولا ذلك لنزل بهم العذاب حالاً كما استعجلوه ﴿وَلَوْلَا أَجَلٌ مُّسَمًّى لِّجَاءِ هَؤُلَاءِ الْعَذَابُ﴾.

ثم أُنذِرهم الله تعالى وحذّرهم بأنه سوف يأتيهم العذاب في موعده فجأة وهم لا يشعرون به ﴿وَلَيَأْتِيَنَّهُمْ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾.

وقد وقع بالمكذبين ألوان من العذاب في الدنيا، كيومي: بدر والأحزاب في عهد النبي ﷺ، ويقع بأمثالهم أنواع من العذاب الدنيوي على مدى التاريخ، كإبادة عشرة أسباط ونصف من اليهود على يد (بختنصر) وغيره، وما لحق بالنصارى في الحروب الصليبية وغيرها.

وعدم وقوع العذاب ببعضهم في الدنيا، كيهود اليوم وغيرهم، هو استدراج لهم وإمهال دون إهمال، فيكون المراد بالعذاب في هذه الآية: العذاب الدنيوي، وها نحن نعيش عصر أزمة مالية عالمية، وانهيار في الاقتصاد، وغلاء في الأسعار، ونعيش عصر انفلونزا الطيور، وانفلونزا الخنازير، والجمرة الخبيثة، وكلها عقوبات من الله تعالى ﴿ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُمْ بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ [الروم: ٤١].

وفي الحديث عن أبي موسى رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «إن الله ليملي للظالم حتى إذا أخذه لم يفلته»^(١).

قال تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَىٰ وَهِيَ ظَالِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُ أَلَمٌ شَدِيدٌ﴾ ﴿١٧﴾ [هود].

وقال تعالى: ﴿وَلَوْ يُعَجِّلُ اللَّهُ لِلنَّاسِ الشَّرَّ اسْتِعْجَالَهُمْ بِالْخَيْرِ لَقُضِيَ إِلَيْهِمْ أَجْلُهُمْ﴾ [يونس: ١١].

وإذا لم ينزل العذاب بالظالمين في الدنيا، فإنه سينزل بهم حتماً في الآخرة، وهو عذاب لا مرد له: سواء عُجِّلَ لهم بعذاب الدنيا أو أمهلوا:

وَاسْتِعْجَالُهُمْ نَزُولَ الْعَذَابِ الْآخِرِيِّ بِهِمْ أَيْضًا

٥٤- ﴿يَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ﴾ ﴿٥٤﴾

المراد بالعذاب في هذه الآية: هو العذاب الآخروي، نظراً لورود جهنم فيها، وهو واقع بهم لا محالة، فليس بين هذه الآية والتي قبلها تكرار ولا تأكيد؛ لأن العذاب الثاني غير الأول، وهو عذاب لا معدل عنه ولا صارف له، يحيط بأهله من كل جانب، كما أحاطت بهم الذنوب من كل جانب.

وفي الآية تعجب من سوء تفكيرهم، ومن تعنتهم وعنادهم؛ إذ كيف يستعجلون العذاب والحال أن جهنم محيطة بهم يوم القيامة إحاطة السوار بالمعصم، لا مفر لهم منها؟! وعذاب الآخرة، عذاب شامل يأتي أهله من فوقهم ومن تحتهم والعياذ بالله. قال تعالى:

٥٥- ﴿يَوْمَ يَغْشَاهُمْ الْعَذَابُ مِنْ فَوْقِهِمْ وَمِنْ تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ وَيَقُولُ^(٢) ذُوقُوا مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ ﴿٥٥﴾

وهذه الآية، تصف عذاب الآخرة كأنه مشاهد للرائي؛ فإن العذاب يكون يوم القيامة من فوق رؤوس الكفار، ومن تحت أقدامهم، حيث تغشاهم النار من جميع الجهات، ويقال لهم: هذا جزاء أعمالكم في الدنيا من الشرك والكفر وارتكاب الآثام والجرائم:

قال تعالى: ﴿يَوْمَ يُدْعَوْنَ إِلَىٰ نَارِ جَهَنَّمَ دَعَاً﴾ ﴿١٣﴾ هَذِهِ النَّارُ الَّتِي كُنْتُمْ بِهَا تُكَذِّبُونَ ﴿١٤﴾

(١) من حديث أبي موسى الأشعري في صحيح البخاري برقم (٤٦٨٦) وصحيح مسلم (٢٥٨٣).

(٢) قرأ نافع وعاصم وحزمة والكسائي وخلف بالياء في (ويقول) عوداً على لفظ الجلالة في قوله تعالى: (وكفروا بالله)، وقرأ الباقون بالنون على الالتفات، وإسناد الفعل إلى ضمير العظمة.

أَفْسِحْ هَذَا أَمْ أَنْتَ لَا بُصْرُوكَ ﴿١٥﴾ أَصْلَوْهَا فَاصْبِرُوا أَوْ لَا تَصْبِرُوا سَوَاءٌ عَلَيْكُمْ إِنَّمَا تُجْرُونَ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٦﴾ [الطور].

وعن إحاطة العذاب بهم قال تعالى: ﴿لَهُمْ مِنْ جَهَنَّمَ مِهَادٌ وَمِنْ فَوْقِهِمْ غَوَاشٍ﴾ [الأعراف: ٤١]. فجهم محيطه بهم، هي لهم فراش وغطاء:

وقال تعالى: ﴿لَهُمْ مِنْ فَوْقِهِمْ ظُلَلٌ مِنَ النَّارِ وَمِنْ تَحْتِهِمْ ظُلَلٌ﴾ [الزمر: ١٦].

والكافر لا يستطيع رد النار عن وجهه ولا عن ظهره في هذا اليوم العصيب:
قال سبحانه: ﴿لَوْ يَعْلَمُ الَّذِينَ كَفَرُوا حِينَ لَا يَكْفُوتُ عَنْ وُجُوهِِهِمُ النَّارَ وَلَا عَنْ ظُهُورِهِمْ وَلَا هُمْ يُنْصَرُونَ﴾ [الأنبياء: ٣٩].

بل إنهم يسحبون على وجوههم في نار جهنم:

كما قال جلّ شأنه: ﴿يَوْمَ يُسْحَبُونَ فِي النَّارِ عَلَى وُجُوهِِهِمْ ذُوقُوا مَسَّ سَقَرَ﴾ [القمر].

والنار تلفح وجوههم، فتقلص شفاههم، وتعبس وجوههم ﴿تَلْفَحُ وُجُوَهُهُمُ النَّارُ وَهُمْ فِيهَا كَالِحُونَ﴾ [المؤمنون: ١٠٤] وهم في عذاب متجدد لا يفتّر عنهم ﴿كُلَّمَا نَفِثَتْ جُلُودُهُمْ بَدَّلْنَاهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا الْعَذَابَ﴾ [النساء: ٥٦] ثُمَّ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَى [الأعلى].

﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ نَارُ جَهَنَّمَ لَا يُقْضَىٰ عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ مِنْ عَذَابِهَا﴾ [فاطر: ٣٦].

﴿إِنَّهُمْ مِنْ يَأْتِ رَبِّهُمُ جُحْرًا فَإِنَّ لَهُمْ جَهَنَّمَ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَىٰ﴾ [طه: ٧٤].

وأعداء الإسلام هم الذين يتكلمون بالوعد والوعيد، ويستعجلون نزول العذاب، وهم الذين يضيّقون على الإسلام والمسلمين في كل زمان ومكان.

وأعداء الإسلام هم السابق ذكرهم في الآيات، المتوعدون فيها بالعذاب الدنيوي والأخروي.

التَّخْرِيطُ عَلَى الْهَجْرَةِ فِرَارًا بِالَّذِينَ

٥٦- ﴿يَعْبَادِي^(١) الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنَّ أَرْضِي^(٢) وَسِعَةٌ فَإِنِّي فَاعْبُدُونِ^(٣)﴾

هذه الآية لتحريض المؤمنين على الهجرة من أرض الكفر إلى أرض الإسلام؛ فإذا تعذرت عليكم عبادة ربكم في أرض، فارتحلوا عنها إلى أرض أخرى تتمكنون فيها من العبادة، فالموت نازل بكم لا محالة، حيث إن الله ﷻ يوجه عباده المستضعفين في الأرض في كل زمان ومكان إلى هجرة الأماكن التي لا يتمكنون فيها من عبادة الله تعالى، وتبليغ دعوته إلى الناس؛ حتى يتمكنوا من ذلك، وقد يحدث ذلك لبعض المسلمين في بعض بلاد الإسلام، كما يحدث في غير بلاد الإسلام أحياناً، وكما حدث للمسلمين في مكة في عهد النبي ﷺ.

فإن كنتم -أيها المسلمون- في ضيق من إظهار الإيمان، أو قلة العيش، ولا تستطيعون المقاومة، ولا الجهاد بالكلمة، فاخرجوا إلى أرض أخرى تتمكنون فيها من إظهار الإيمان، والقيام بتكاليف الدعوة، وتجدون سعة في الرزق فيها.

ولهذا خرج المسلمون المستضعفون من مكة إلى الحبشة؛ ليأمنوا على أنفسهم، فوجدوا بها مَنْ آواهم ونصرهم.

ولهذا أيضاً هاجر الرسول ﷺ وأصحابه إلى المدينة، فتكوّنت فيها دولة الإسلام، وصارت لهم قوة ومنعة، وذلك بعد أن تابعت الفتن على المسلمين في مكة، فقليل للتاجر الصغير: أغلق دكانك وهاجر؛ لتقيم دولة الإسلام في المدينة، واعبدوني - أيها الناس - في أي مكان من أرض المعمورة؛ إذ ليس هناك ما يجبركم على الإقامة في أرض لا قدرة لكم فيها على إظهار دينه، فإن أرض الله واسعة.

(١) قرأ نافع وابن كثير وابن عامر وعاصم وأبو جعفر بفتح ياء الإضافة من (يا عبادي الذين)، وقرأ الباقون بإسكانها.

(٢) قرأ ابن عامر بفتح ياء الإضافة من (أرضي واسعة)، والباقون بإسكانها.

(٣) قرأ يعقوب بإثبات ياء وصلًا ووقفًا في (فاعبدون)، والباقون بحذفها في الحالين.

ومن خرج مهاجرًا في سبيل الله لإعلاء كلمة الله، رزقه الله من حيث لا يحتسب، ﴿وَمَنْ يُهَاجِرْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يَجِدْ فِي الْأَرْضِ مُرْعًا كَثِيرًا وَسَعَةً﴾ [النساء: ١٠٠].

ولا تشرع الهجرة لمن كان له في محل إقامته تأثير في دفع الظلم، ونشر الدعوة دون أن يمس ضرر بالغ في نفسه أو أهله أو ماله.

هَاجِرُوا وَلَا تَخْشُوا الْمَوْتَ

٥٧- ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ ثُمَّ إِلَيْنَا تُرْجَعُونَ﴾ (٥٧)

هاجروا - أيها المسلمون المستضعفون - ولا تخشوا الموت؛ فإنه حتم في كل مكان، لا بد منه، ولا محيد عنه، فكونوا في طاعة الله حيث أمركم الله، فإليه المرجع والمآب، ومن تيقن بالموت سهل عليه مفارقة الأوطان، فلا تمتنعوا من الهجرة خوفًا من الموت، ولا تقيموا بدار الكفر خوفًا من الموت؛ لأنه ﴿أَيُّنَمَا تَكُونُوا يُدْرِكَكُمُ الْمَوْتُ وَلَوْ كُنْتُمْ فِي بُرُوجٍ مُشِيدَةٍ﴾ [النساء: ٧٨].

وفي الآية تحقير لأمر الدنيا ومخاوفها لئلا يلحق بالمهاجر بعد خروجه من وطنه موت أو جوع، فأنتم لا محالة ميتون ومحشورون إلى الله تعالى، فبادروا إلى طاعة الله تعالى بامثال أمره واجتناب نهيه، ومن ذلك الهجرة في سبيل الله تعالى.

فإن أماكن العبادة ومواضعها واسعة، والمعبود واحد، والموت لا بد أن ينزل بكم، ثم ترجعون إلى ربكم، فيجازى كُلًّا بعمله.

وقد ذمَّ الله قومًا قبلوا الضيم والظلم، واستكانوا للاضطهاد والذلة، وقعدوا عن الهجرة، فقال ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّيْنَاهُمُ الْفَالِغَةُ ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ قَالُوا فِيمَ كُنْتُمْ قَالُوا كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي الْأَرْضِ قَالُوا أَلَمْ تَكُنْ أَرْضَ اللَّهِ وَاسِعَةً فَهَاجِرُوا فِيهَا فَأُولَئِكَ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَسَاءَتْ مَصِيرًا﴾ [النساء: ٩٧].

(١) قرأ شعبة بياء الغيبة في (ترجعون) لمناسبة (كل نفس)، والباقون بناء الخطاب لمناسبة (يا عبادي).

عَظُمُ جَزَاءِ الْمُؤْمِنِينَ

٥٨، ٥٩- ﴿وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُؤْتِيَنَّهُمْ^(١) مِنَ الْجَنَّةِ غُرَفًا تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا نِعَمَ أَجْرَ الْعَامِلِينَ ﴿٥٨﴾ الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٥٩﴾﴾

أي وإذا كنتم -أيها الناس- سترجعون إلينا بعد الموت، فقد بينتُ لكم عذاب من كان كافراً، بأن النار تكون له فراشاً وغطاء، وتحيط به من جميع الجهات، فأما من كان مطيعاً في الدنيا فله أعظم الجزاء، فقد وعد الله المؤمنين العاملين للصالحات بسكنى الجنة، أي: إنهم سيسكنون جنات عالية، تجري من تحت أشجارها وقصورها أنهار العسل والخمر واللبن والماء، يصرفونها كيف شاؤوا، وهم ماكثون فيها لا يخرجون منها أبداً.

عن أبي مالك الأشعري رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «إن في الجنة غرفاً يرى ظاهرها من باطنها، وباطنها من ظاهرها، أعدّها الله لمن أطعم الطعام، وألان الكلام، وتابع الصيام، وصلى والناس نيام»^(٢).

وقد مدح الله تعالى هذه النعم وبيّن أنها لمن عمل لها في دنياه.

ثم وصف الله تعالى العاملين المستحقين لهذا النعيم بالصبر والتوكل، فهم قد صبروا على تكاليف دينهم، وعلى أذى أقوامهم، وعلى مفارقة الأهل والأوطان، وصبروا على فعل الطاعات، وترك المعاصي، وصبروا على الشدائد والمحن والمصائب، وصبروا على تبليغ الدعوة للخلق والأذى في سبيلها، واعتمدوا على الله في أرزاقهم وهجرتهم، وتوكلوا عليه حق توكله.

ففي الحديث عن عمر رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «لو أنكم تتوكلون على الله حق توكله

(١) قرأ حمزة والكسائي وخلف (لنؤتيَنَّهُم) بالثاء الساكنة، والباقون (لنؤتيَنَّهُم) بالباء المفتوحة.

(٢) «المسند» (٣٤٣/٥) برقم (٢٢٩٠٥) بإسناد حسن، والطبراني في «المعجم الكبير» (٤٣٦٦) و«صحيح ابن حبان» (٥٠٩) لإحسان، قال محققه: إسناده قوي، وقال الهيثمي: رجاله ثقات، وأخرجه الحاكم عن عبد الله بن عمرو (٣٢١/١) وصححه على شرط مسلم ووافقه الذهبي وهو في «مصنف عبد الرزاق» (٢٠٨٨٣) و«صحيح ابن خزيمة» (٢١٣٧).

لرزقكم كما يرزق الطير تغدو خماصًا وتروح بطانًا»^(١).

وفي الحديث عن ابن عباس رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «إن روح القدس نفث في روعي أنه لن تموت نفس حتى تستوفي رزقها وأجلها، فاتقوا الله وأجملوا في الطلب، ولا يحملنكم استبطاء الرزق أن تطلبوه بمعاصي الله؛ فإنه لا يدرك ما عند الله إلا بطاعته»^(٢).

الْمُؤْمِنُ لَا يَخَافُ الْفَقْرَ، وَعَلَيْهِ أَنْ يَبْذُلَ السَّبَبَ

٦٠- ﴿وَكَأَيِّنْ (٣) مِّن دَابَّةٍ لَا تَحْمِلُ رِزْقَهَا اللَّهُ يَرْزُقُهَا وَإِنَّهَا لَإِنَّكَمَّ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾

لَمَّا هَوَّنَ اللهُ تعالى من أمر الموت، سيما إذا كان في سبيل مرضات الله، بَيَّنَّ ﷺ أن المؤمن ليس من شأنه أن يخاف الفقر أو الضيعة، ولذلك طمأن الله العبد بأن الرزق على الله، مع ضرورة بذل أسباب تحصيله، وهو سبحانه لن يُضَيِّعَ أحَدًا من خلقه، ومن أمثلة ذلك أن الله تعالى يرزق الدواب، فكيف لا يرزق الإنسان؟! وكثير من الدواب لا تستطيع تحصيل قوتها لضعفها، ولا تدخر لها رزقًا، ويسخر الله لها رزقها كل وقت وبوقته، والله - جلَّ وعلا - يرزقها كما يرزقكم، فلا تخافوا الفقر إن هاجرتم في الأرض؛ فالله هو الرازق، وكما يرزق الحيوانات الضعيفة يرزقكم.

وقد كان فقراء المسلمين يخافون الفقر، ويتساءلون قبل الهجرة: كيف نعيش ونحن في دار الغربة؟ كيف نخرج إلى مكان ليس لنا فيه دار ولا مال؟ ومن يطعمنا ويسقينا؟

فكان الجواب في هذه الآية بأن الله تعالى هو الذي يتولى رزقكم، فكم من دابة ضعيفة

(١) «سنن الترمذي» (٢٣٤٤) و«المسند» (٣٠/١) برقم (٢٠٥، ٣٠٧، ٣٧٣) بإسناد قوي ورجال ثقات (محققوه) و«المستدرک» (٣١٨/٤) قال الترمذي: حسن صحيح، وقال الحاكم (٣١٨/٤) صحيح الإسناد ولم يخرجاه وهو في «صحيح ابن ماجه» (٤٠٢/٢) برقم (٤١٦٤) و«السلسلة الصحيحة» (٣١٠) والنسائي في «السنن الكبرى» (١١٨٠٥) وابن حبان (٧٣٠) وعبد بن حميد (١٠) وأبو يعلى (٢٤٧).

(٢) أخرجه ابن حبان في صحيحه كما في «الدر المنثور» (٤٦٠/١). وصححه الألباني عن أبي أمامة الباهلي في صحيح الجامع الصغير برقم (١٢٠٨٥).

(٣) قرأ ابن كثير وأبو جعفر والباقون (وَكَايِّنْ) وسهل أبو جعفر الهمزة وصلًا ووقفًا مع المد والقصر، وقرأ الباقون (وَكَايِّنْ) وسهل حمزة الهمزة وقفًا.

لا تقوى على تحصيله وجمعه، ولا على ادخاره لغد، والله تعالى هو الذي يرزقها على ضعفها وعجزها، ويرزقكم أيضًا كما رزق الطير في الهواء، والسماك في الماء، والبذر في جوف الأرض، وهو السميع لأقوالكم، العليم بأحوالكم، كما قال تعالى: ﴿وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا كُلٌّ فِي كِتَابٍ مُبِينٍ﴾ [هود].

عن ابن عباس رضي الله عنه: أن النبي ﷺ أمر المؤمنين بالهجرة حين آذاهم المشركون، فقال لهم: «اخرجوا إلى المدينة وهاجروا ولا تجاوروا الظلمة»، قالوا: ليس لنا بها دار ولا عمار، ولا من يطعمنا ويسقينا؛ فنزلت: ﴿وَكَايْنٍ مِّنْ دَابَّةٍ لَا تَحْمِلُ رِزْقَهَا اللَّهُ يَرْزُقُهَا وَإِيَّاكُمْ﴾^(١).

تَنَاقُضُ الْمُشْرِكِينَ فِي عِبَادَتِهِمْ لِغَيْرِ اللَّهِ تَعَالَى فِي خَمْسِ حُجَجٍ الْحُجَّةُ الْأُولَى: اعْتِرَافُ الْكُفَّارِ بِأَنَّ اللَّهَ تَعَالَى هُوَ الْخَالِقُ لِهَذَا الْكَوْنِ

٦١- ﴿وَلَيْنَ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ فَأَنَّى يُؤْفَكُونَ﴾

من العجيب أن أعداء الإسلام من الكفار والمشركين يعترفون بوجود إله لهذا الكون، ومع هذا فهم يعبدون غيره، ومن ثمّ تقيم السورة في هذه الآية وما بعدها خمس حجج على وجوب توحيد العبادة، وعدم صرفها إلا لله تعالى، فالسورة مكية وهي بصدد دعوة غير المسلمين للدخول في الإسلام.

وفي هذه الحجة تعجّب من تناقض المشركين في اعتقادهم بالله تعالى، وأنه الخالق الرازق المدبر، فهم مع كفرهم لا يُثبتون لأصنامهم شيئاً من الخلق، أو الرزق، أو التدبير، فلئن سألت المشركين -أيها الرسول- من الذي خلق هذا النظام البديع، وهذا الكون بما فيه، فإنهم معترفون بأن الله تعالى خالقه ومبدعه، وأنه الذي خلق العالمين العلوي والسفلي وما فيهما من العجائب والغرائب، وهو الذي ذلل الشمس والقمر، وسخرهما لمصالح العباد، يجريان بنظام دقيق، فكيف يُصرفون عن الإيمان بالله تعالى خالق كل شيء ومدبره، ويعبدون غيره، مع إقرارهم به؟! وكان عليهم أن يلتزموا بما ألزموا به أنفسهم، ويُثبتوا لها ما أثبتوه من توحيد الخالق سبحانه، والعدول عن أقروا بعجزه، وأنه لا ينفع ولا يضر.

(١) «تفسير القرطبي» (١٣/٢٦٠).

الْحُجَّةُ الثَّانِيَّةُ: اعْتِرَافُهُمْ بِأَنَّ اللَّهَ تَعَالَى هُوَ الرَّازِقُ لِعِبَادِهِ

٦٢- ﴿اللَّهُ يَسْطُرُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَهُ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ (٦٢)

وإذا كان الله تعالى هو الرازق لعباده فكيف تعبدون غيره وهو سبحانه المتفضل عليكم بالرزق، يوسّعه على من يشاء ويضيّقه على من يشاء، وفق علمه وحكمته بما يصلح شؤون العباد؟! قال تعالى: ﴿قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أَمَّنْ يَمْلِكُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَرَ وَمَنْ يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَمَنْ يُدِيرُ الْأَمْرَ فَسَيَقُولُونَ اللَّهُ﴾ [يونس: ٣١].

ونظير هذه الآية قوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ يَسْطُرُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ (٣٧) [الروم].

وقوله تعالى: ﴿اللَّهُ يَسْطُرُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ وَفَرِحُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا مَتَاعٌ﴾ (٦٦) [الرعد].

والله تعالى مطلع على خلقه جميعاً، يعلم القانعين، ويعلم أهل الجزع والهلع، ولا يخفى عليه شيء من أحوالكم وأموركم، وسوف يجازيكم عليها.

الْحُجَّةُ الثَّالِثَةُ: الْإِعْتِرَافُ بِأَنَّ اللَّهَ مُنْزِلُ الْمَاءِ، وَخَالِقُ النَّبَاتِ

٦٣- ﴿وَلَمَّا سَأَلْتَهُمْ مَنْ نَزَّلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِ مَوْتِهَا لَيَقُولُنَّ اللَّهُ قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾ (٦٣)

ثم ذكر سبحانه موجد سبب الرزق غالباً وهو الماء، ولئن سألت المشركين -أيها الرسول- من الذي نزل الماء من السحاب، فأثبت به الأرض بعد جفافها؟ ليقولن: الله؛ فهم مقرون ومعترفون بأن منزل الماء هو الله سبحانه، وأن محيي الأرض بإخراج الزرع والثمر والنبات منها هو الله سبحانه.

وبعد الاعتراف الواضح من المشركين بتوحيد الربوبية، يقول الله تعالى لنبیه:

﴿قُلْ﴾ يا أيها الرسول الكريم ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ على إقرارهم، ولزوم الحجة عليهم بأنه -جلّ شأنه- خالق كل شيء، ورازق كل دابة، ولكنهم مع إقرارهم بأنه سبحانه الواحد

في ملكه فإنهم لا يوحّدونه في عبادته ﴿بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾؛ لأنهم ينكرون توحيد العبادة، مع إقرارهم بتوحيد الخالق، كما كانوا يقولون في تلييتهم بالحج: لبيك لا شريك لك، إلا شريكاً هو لك، تملكه وما ملك، فهذه الصفات الأربع، هي من أفعال الله تعالى وحده، وهي: الخلق، والرزق، والإحياء والإماتة.

مَتَاعُ الدُّنْيَا ظِلٌّ زَائِلٌ وَنَعِيمُ الْآخِرَةِ لَا يَنْفَدُ

٦٤- ﴿وَمَا هَذِهِ الْحَيَوةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَهْوٌ وَلَعِبٌ وَإِنَّ الدَّارَ الْآخِرَةَ لَهِىَ الْحَيَوَانُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾

ثم بيّنت الآيات أن ميزان القيم عند الله تعالى ليس في المال والمتاع، ولا في تضيق الرزق وسعته، فهو ظل زائل، وغاية ما في الدنيا لهو ولعب، أما الآخرة فإن نعيمها لا ينفد، ومتاعها لا يزول، وهي الحياة الكاملة، ومن لوازم هذه الحياة، أن تكون أبدان أهلها في غاية القوة والشدة، تتمتع باللذائد والشهوات، وبكل ما خُلق للحياة.

وإذا كان هناك من يعبد الحياة بفلسفتها المادية وحضارتها الحديثة، وزخرفها وبهجتها، ويجحد ما بعد هذه الحياة، من الحياة الأبدية السرمدية، ونعيمها الذي لا يحول ولا ينقضي، إذا كان الأمر كذلك فإن هناك عبادة لله يعلمون أن الوجود في الدنيا موقوت، ومتاعها قليل، لا يزن عند الله جناح بعوضة، وهم يعملون للدار الآخرة، معتقدين أنها الحياة المستمرة الدائمة، لا موت فيها، ولا ابتلاء، فهي الحياة الكاملة الباقية الدائمة.

ولو كان الناس يعلمون فناء الدنيا وبقاء الآخرة ما آثروا دار الفناء على دار البقاء.

ولو كانوا يعقلون ما رغبوا في حياة اللهو واللعب، وتركوا دار الجنة والحبور.

واللهو: هو اشتغال الإنسان بما يلهيه ويشغله عما فيه نفع وفائدة، ومنه الاستغراق في متاع الدنيا وملذاتها.

واللعب: هو العبث والهزل، وقضاء الوقت فيما ليس فيه مقصد صحيح، وقَدَّم اللعب على اللهو في سورة الأنعام، من قوله تعالى: ﴿وَمَا الْحَيَوةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَهْوٌ وَلَلْآخِرَةُ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَ﴾ [الأنعام: ٣٢]؛ لأنها لم تشتمل على اسم الإشارة المفيد لحقارة الدنيا، فبدأ في آية سورة الأنعام باللعب، إشارة إلى تحقيرها؛ لأن اللعب أغرق في قلة

الجدوى من اللهو.

وقدّم اللهو على اللعب في هذه الآية التي نحن بصددّها؛ لأن اسم الإشارة يفيد تحقير الدنيا.

الْحُجَّةُ الرَّابِعَةُ: التَّعَرُّفُ عَلَى اللَّهِ فِي الشَّدَةِ فَقَطْ

٦٥ - ﴿فَإِذَا رَكِبُوا فِي الْفُلِّ دَعَوْا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ^(١) فَلَمَّا بَجَدْتُمْ إِلَى الْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ﴾

في هذه الآية، إلزام للمشرّكين بالتوحيد، لأنهم عندما يكونون في البحر وتلاطم بهم الأمواج، يخلصون له الدعاء، فإذا زالت عنهم الشدة رجعوا إلى شركهم ونسوا ما كانوا فيه من شدة، فُلُجُوءُهُمْ إلى الله تعالى في وقت الشدة يستلزم إقرارهم بالله تعالى، وأنه هو الذي ينجيهم ممّا هم فيه، ومن ثم يلزم صرف العبادة له دون غيره.

وذلك أن الكافر على ما به من عناد وشرك، إذا وقع في ضيق وشدة، فإنه لا يلجأ إلا إلى لله سبحانه، تاركاً وراءه ما كان يشركه مع الله تعالى في الرخاء.

وكان العرب وقت نزول القرآن عليهم لا يخافون من السفر في البر؛ لأنهم كانوا يسيرون قوافل، معهم سلاحهم، ويمرون في أسفارهم باستراحات يعرفونها، فلا يعتريهم الخوف أثناء التنقل في البر.

وكانوا يخافون من سفر البحر ولا يألفونه، فيضربون إلى الله تعالى إذا ركبوه، ويطلبون منه النجاة، ويخلصون له الدعاء أن يدفع عنهم ما هم فيه من شدة وهول، ﴿فَإِذَا رَكِبُوا فِي الْفُلِّ﴾ ووقعوا في شدة وكرب، وكان الموت والغرق ماثلاً أمامهم ﴿دَعَوْا اللَّهَ﴾ أن ينجيهم إلى البر، فإذا زال عنهم ما هم فيه من شدة رجعوا إلى شركهم، فهم يوحّدون الله تعالى في حالة الشدة، ويشركون به في حالة الرخاء، وهؤلاء القوم أفضل حالاً من مشركي زماننا، فهم لا يعرفون الله تعالى في شدة ولا في رخاء.

وكان أهل الجاهلية إذا ركبوا البحر حملوا الأصنام معهم، فإذا اشتدت الرياح ألقوها في البحر، وقالوا: يارب، يارب، وهذا كقوله تعالى: ﴿وَإِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فِي الْبَحْرِ ضَلَّ مَنْ

(١) قوله تعالى (مخلصين له الدين) معدود آية عند الدمشقي والبصري، ومتروك من العدد عند غيرهما.

تَدْعُونَ إِلَّا إِلَهًا فَلَمَّا نَجَّكُمْ إِلَى الْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ وَكَانَ الْإِنْسَانُ كَفُورًا ﴿١٧﴾ [الإسراء].

ولما فتح رسول الله ﷺ مكة، خرج منها عكرمة بن أبي جهل فارًّا، وكان كافرًا، فلما ركب في البحر ليذهب إلى الحبشة، اضطربت بهم السفينة، فقال أهلها: يا قوم، أخلصوا لربكم الدعاء؛ فإنه لا يُنَجِّي هنا إلا هو، فقال عكرمة: والله لئن كان لا يُنَجِّي في البحر غيره، فإنه لا يُنَجِّي في البر غيره، اللهم لك عهد لئن خرجتُ، لأذهبن فلاضعنَّ يدي في يد محمد، فلأجدنه رؤوفًا رحيمًا، فكان كذلك^(١).

قال تعالى معللاً كفر الكافرين بأنه للتمتع بلذائذ الحياة:

٦٦- ﴿لِيَكْفُرُوا بِمَا ءَاتَيْنَاهُمْ وَلِيَتَمَتَّعُوا﴾^(٢) فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿١١﴾

والمشركون يعودون إلى شركهم بعد نجاتهم من الشدة؛ ليكونوا يعودتهم إلى الشرك كافرين بنعمة الله عليهم، بعد أن نجَّاهم مما هم فيه، وليكون قصدهم هو التمتع بملذات الدنيا، ولهذا هددهم الله تعالى بقوله: ﴿فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾ أي: يعلمون عاقبة كفرهم، وفساد عملهم، بما أعده الله لهم في الآخرة من عذاب مقيم.

الْحُجَّةُ الْخَامِسَةُ: نِعْمَةُ الْأَمْنِ وَالْأَمَانِ فِي رِحَابِ الْإِسْلَامِ

٦٧- ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا مَّأْمُونًا وَمِنْ خِلْفِهِ نَسُفُّ النَّاسَ مِنْ حَوْلِهِمْ أَفْبَالًا لِّبَطِلٍ يُؤْمِنُونَ﴾^(٣) وَنِعْمَةَ اللَّهِ يَكْفُرُونَ ﴿١٢﴾

وهذه حجة خامسة على أهل الشرك، يمن الله عليهم فيها بحرمه الأمن، وأنهم في أمن ورغد من العيش، والناس حولهم يُتَخَفُّون، أفلا يعبدون الذي أطعمهم من جوع وآمنهم من خوف، ونعمتا الطعام والأمن، من أعظم النعم على الإنسان.

لقد كان -ولا يزال- أهل الحرم المكي يعيشون في أمن وأمان، والناس فيه تعظم من أجل جوار بيت الله الحرام، والقبائل حولهم تتناحر، فيقتل بعضهم بعضًا، ويسبي بعضهم

(١) ذكره محمد بن إسحاق، كما في الطبراني (١٧/٣٧٢).

(٢) قرأ قالون وابن كثير وحزمة والكسائي وخلف بإسكان اللام من (وليتمتعوا)، والباقون بكسرهما، وهما وجهان في لام الأمر.

(٣) انفرد العدد الحمصي يعد (أفبالباطل يؤمنون) آية، ولم يعدها غيره.

بعضاً، ولا يجدون الأمن والأمان إلا في ظلِّ حرم الله، فهو الذي أطعمهم من جوع وآمنهم من خوف، فلا يليق بهم أن يبدّلوا نعمة الله كفرًا، وكان الأجدر بهم أن يعبدوا الله ويوحّدوه، ويصدقوا رسوله، ولكنهم كذبوا، فأمنوا بباطلهم وكفروا بالله ورسوله، والباطل هو الشرك وعبادة غير الله تعالى.

ونعمة الله تشمل كل نعمة محسوسة أو خفية، وأهل مكة هم المخاطبون وقت التنزيل، والعبرة بالعموم، وكل من ينطبق عليه المعنى فهو داخل في عموم هذه الآية.

وفي عموم قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا إِن نَّبِيعِ الْهُدَىٰ مَعَكَ تُنْخَظِفُ مِنَّا أَرْضِنَا أَوْلَمَ تُمْكِنَ لَهُمْ حَرَمًا آمِنًا يُجِبِّي إِلَيْهِ ثَمَرَاتُ كُلِّ شَيْءٍ رِّزْقًا مِن لَّدُنَّا﴾ [القصص: ٥٧].

فكان أهل مكة في بحبوحة من العيش وسعادة من الأمن، والقبائل حولهم يتناحرون، ويُغيّر بعضهم على بعض، فذكّرهم الله تعالى بهذه النعمة، فأين ذهبت عقولهم، حيث آثروا الضلال على الهدى، والباطل على الحق، والشقاء على السعادة.

النَّاسُ أَمَامَ دَعْوَةِ الْإِسْلَامِ فَرِيقَانِ: ظَالِمٌ مُّكَذِّبٌ وَمُؤْمِنٌ مُّخْلِصٌ

٦٨- ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُ أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْكَافِرِينَ﴾

وفي ختام سورة الابتلاء والفتن، وبعد دعوة الوثنيين وأهل الكتاب إلى الإسلام، تبين السورة أن الناس أمام دعوة الإسلام فريقان:

١- فريق أشرك وكفر، وكذب وأنكر رسالة محمد ﷺ، وهؤلاء لا أحد أظلم منهم على وجه الأرض، فلا أحد أشد ظلمًا ممن افترى على الله كذبًا، فنسب إليه الشريك والولد، ونسب إليه ما هو عليه من الضلال والباطل.

ولا أحد أظلم ممن كذب بالحق لما جاءه، وهو محمد ﷺ، والقرآن الذي نزل عليه.

فالأول: مغترّ، والثاني: مكذب.

وأصل الظلم: الاعتداء على الآخر، لمنعه من حقه، وأشد منه أن يمنع الحق مستحقه، ويعطيه لمن لا يستحق، وأن يُلصق بأحد ما هو بريء منه، أو يقتطع مال أمرء بغير وجه حق، والظلم: وضع الشيء في غير موضعه.

والمشركون قد سلبوا عن الله تعالى صفة الإلهية، ومنحوها لآلهتهم، وأثبتوا له سبحانه كذبًا وبهتانًا ما هو منزّه عنه من الصاحبة والولد.

وإلى جوار ذلك فقد سلبوا عن النبي ﷺ صفة النبوة والرسالة، ونسبوا له الكذب والافتراء. فكانوا بمجموع هذه الأمور قد وضعوا الأشياء في غير موضعها، وكانوا بهذا أظلم الناس. وكل من أشرك بالله، أو كذب رسول الله فهو مُتَوَعَّد من الله تعالى بعذاب جهنم ﴿أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْكَافِرِينَ﴾ بلى، فيها إقامة دائمة لهم، وفيها مسكن لمن كفر بالله وجحد توحيده وكذب نبيه.

٦٩- ﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ﴾

٢- أما الفريق الثاني: فهم المؤمنون، المجاهدون لأنفسهم وأهوائهم وأعدائهم، الذين بذلوا مجهودهم في اتباع مرضاة الله تعالى، فصبروا وصابروا، وأقاموا السُّنة وقمعوا البدعة، وصبروا على الفتن والمحن والبلاء والأذى في سبيل الله، وهؤلاء سيهديهم الله وَيُسِّرْ لَهُم سَبِيلَ الْخَيْرِ، وَيُوضِّلُهُمْ طَرِيقَ الْجَنَّةِ، ويثبتهم على الصراط: ﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَنْصُرَهُمْ دِينَنَا طَلَبًا لِمَرْضَاةِ اللَّهِ، سيدخلهم الله في رحمته ويوفقهم إلى طريق السعادة.

قال أبو مسلم الداراني: ليس الجهاد في الآية قتال العدو فقط، بل هو نُصْرُ الدِّينِ، والرد على المبطلين، وقمع الظالمين، وأَعْظُمُهُ، الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ومنه مجاهدة النفس في طاعة الله تعالى، ومعنى ﴿لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا﴾ أي: نوفقهم إلى الطرق الموصلة إلى رضواننا؛ لأنهم علموا، وعملوا بما علموا.

﴿وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ﴾ بالنصر والعون في الدنيا، والمغفرة والثواب في الآخرة.

وكان سُكْنَاهُمُ الْجَنَّةَ لأنهم أحسنوا مع ربهم، حين أخلصوا له العمل، فإلحسان أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك، وقد أحسنوا إلى أنفسهم حين سلكوا بها سبيل النجاة، وأحسنوا إلى الناس بالنصر والتأييد والهداية، فكانت عاقبتهم مغفرة الله تعالى ورضوانه.

تم تفسير (سورة العنكبوت) والله الحمد والمنة.

تَفْسِيرُ سُورَةِ الرُّومِ (٣٠)

مُقَدِّمَةُ السُّورَةِ

سورة (الروم) هي السورة الثلاثون في ترتيب المصحف، والرابعة والثمانون في ترتيب النزول، نزلت بعد سورة (الانشقاق)، وقبل سورة (العنكبوت).

وهي تسع وخمسون آية في المصحف المكي والمدني الأخير، وستون آية عند غيرهما. وهي ثمان مئة وتسع عشرة كلمة، وثلاثة آلاف وخمسمئة وأربعة وثلاثون حرفاً.

وسميت سورة (الروم) في عهد النبي ﷺ، ولم يرد ذكر اسم الروم في غيرها من القرآن. وهي سورة مكية، قال ابن عباس: نزلت سورة الروم بمكة^(١).

وقد نزلت سنة إحدى عشرة من البعثة غالباً؛ لأن انتصار الروم على الفرس كان في عام بيعة الرضوان^(٢).

وكان هذا الانتصار بعد سبع سنوات من غلبة الفرس للروم، كما أشار القرآن الكريم.

وقال أبو سعيد الخدري رحمه الله: لما كان يوم بدر ظهرت الروم على فارس، فأعجب ذلك المؤمنين وفرحوا، فنزلت ﴿الْعَمَّ﴾ ﴿غَلَبَتِ الرُّومُ﴾ إلى قوله تعالى: ﴿يَنْصُرِ اللَّهُ﴾^(٣).

وهذه الرواية على قراءة فتح الغين من (غَلَبَتِ الروم)^(٤) وهي قراءة شاذة، والرواية التي قبلها على قراءة ضم الغين وهي القراءة المتواترة.

فيكون المعنى: وهم من بعد غلبهم فارس سيغلبهم المسلمون^(٥).

(١) أخرجه ابن الضريس ١٧ والنحاس ص ٦١١ والبيهقي (١٤٣/٧).

(٢) قاله قتادة وغيره، وقد استفاضت الروايات بهذا كما في «تفسير ابن عطية» (٣٢٨/٣) وغيره.

(٣) جاء هذا عند الترمذي برقم (٢٩٣٥) و«صحيح سنن الترمذي» برقم (٢٣٣٨) ورقم (٣٤٢٠) وهو حديث صحيح كما قال الألباني.

(٤) وهي قراءة شاذة وردت عن أبي سعيد، وعلي بن أبي طالب، ومعاوية بن قرة، وعبد الله بن عمر، يُنظر: «تفسير ابن عطية» (٣٢٧/٤).

(٥) يُنظر: «أسباب النزول» للسيوطي ٢١٦ و«تفسير الطبري» (١١/٢١).

فالأية تحتمل أن تكون بشارة للمؤمنين بالنصر على عدوهم، وقد تحقق هذا في يوم بدر، أو في بيعة الرضوان.

وتَحْتَمِلُ أن تكون بشارة للمؤمنين في صدق نبينهم من أن الروم ستغلب فارس. وجاء من عدة طرق، أن النبي ﷺ قرأ في صلاة الصبح بسورة الروم^(١).

وموضوع سورة (الروم) هو موضوع السور المكية، فهي تعالج قضايا العقيدة، والرسالة، والبعث والجزاء:

١- وقد ابتدأت السورة في موضوع العقيدة بالحديث عن قصة معينة، هي قصة الحرب التي دارت بين الفرس والروم، وانتهت في أول الأمر بانتصار الفرس، ثم كان النصر بعد ذلك للروم.

وكان ذلك في وقت قد احتدم فيه الجدل حول العقيدة، بين المسلمين السابقين إلى الإسلام في مكة قبل الهجرة، وبين المكذبين بالله ورسوله واليوم الآخر.

وكان الروم أهل كتاب، والفرس مجوساً يعبدون النار، وأهل الكتاب أقرب إلى المسلمين من المجوس، فنزلت هذه الآية لتبشر بنصر الروم على الفرس.

وفي هذا السياق ويخت السورة الكافرين؛ لعدم تفكيرهم في دلائل التوحيد، والبعث، والنشور.

وأول ذلك التفكير في الكون الصغير، وهو نفس الإنسان المليئة بدلائل التوحيد، ثم التفكير في الكون الكبير بسمواته وأرضه، وما فيهما، وما بينهما.

ومن الدعوة إلى التفكير في النفس والكون إلى وجوب التأمل والنظر في أحوال السابقين الذين كانوا أشد منهم قوة وأكثر جمعاً.

وفي هذا السياق تقيم السورة اثني عشر دليلاً على وحدانية الله تعالى في ست آيات منها، وهي من الآية الحادية والعشرين إلى الآية السادسة والعشرين، وتضرب السورة المثل بعد

(١) أخرجه عبد الرزاق برقم (٢٧٢٥) وأحمد في «المسند» برقم (١٥٨٧٣) قال محققوه: إسناده حسن ورجاله ثقات رجال الشيخين، غير أبي روح فهو حسن الحديث، وأخرجه البزار (٤٧٧) زوائد والطبراني في الكبير (٨٨١).

ذلك على التوحيد والشرك، ثم تأمر الناس باتباع الدين الحق، وإسلام الوجه لله تعالى .

وَتُخْتَمُ دلائل التوحيد هذه بالآية السابعة والعشرين من السورة ﴿وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ﴾ .

ومن دلائل التوحيد في السورة: أن الله تعالى يرسل الرياح مبشرات بالمطر، والسفن تمخر في عباب البحر بإذنه تعالى، وقد جاء ذلك في الآية [٤٦] حيث يرسل الله الرياح فتثير السحب مثقلة بالماء، فينشره في السماء، ويجعله قطعاً متفرقة فينزل المطر من بين السحاب، كما في الآية [٤٨]. ﴿فَانْظُرْ إِلَىٰ آثَرِ رَحْمَتِ اللَّهِ كَيْفَ يُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ ذَٰلِكَ لَمُنِجَىٰ الْمُؤْمِنِينَ﴾ الآية ٥٠ من سورة الروم .

٢- وموضوع البعث والنشور في السورة يتخلل دلائل التوحيد، وذلك من الآية الحادية عشرة إلى الآية السادسة عشرة، بالإضافة إلى الآيات [٥٥-٥٧] قرب نهاية السورة، وهو يوم لا ينفع فيه عذر، ولا تقبل فيه رجعة ﴿فَيَوْمَئِذٍ لَا يَنْفَعُ الَّذِينَ ظَلَمُوا مَعْذِرَتُهُمْ وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ﴾ (٥٧) .

وقد أفاضت السورة في الاستدلال على البعث؛ لإبطال مزاعم المشركين المنكرة للحساب والجزاء، ومن ذلك ما جاء مفصلاً في أربع استئنافات متماثلة الأسلوب، ابتداءً كلّ منها بلفظ الجلالة، وجاءت جارية مجرى الإخبار عن الحقائق التي لا قبل لهم بدحضها، ولا يسعهم إلا الإقرار بها مع العجز عن نقضها .

والاستئناف الأول: مبدوء بقوله تعالى: ﴿اللَّهُ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ﴾ [١١] .

ولا ينازع أحد في أن الله تعالى هو خالق الخلق، فالكفار يعترفون بهذا، وإذا سألتهم: من خلق السموات والأرض؟ فيكون جوابهم: هو الله .

قال تعالى: ﴿أَمْ جَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ خَلَقُوا كَخَلْقِهِ فَتَشَبَّهُ الْخَلْقَ عَلَيْهِمْ﴾ [الرعد: ١٦] .

والاستئناف الثاني: هو المبدوء باسم الجلالة، في قوله تعالى: ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ ثُمَّ رَزَقَكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ مَن يَفْعَلُ مِنْ ذَٰلِكُمْ مَن شَاءَ﴾ [٤] .

والاستئناف الثالث: قوله تعالى: ﴿اللَّهُ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَيَبْسُطُهُ فِي السَّمَاءِ كَيْفَ يَشَاءُ﴾ [٤٨] .

ويعقب الله تعالى على هذه الآية، فيقول: ﴿فَانْظُرْ إِلَىٰ آثَرِ رَحْمَتِ اللَّهِ كَيْفَ يُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ ذَٰلِكَ لَمُنِجِي الْمَوْتِ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ ﴿٥٥﴾ .

والاستئناف الرابع: جاء في قوله تعالى: ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِن ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِن بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً ثُمَّ جَعَلَ مِن بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا وَشَيْبَةً يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ﴾ ﴿٥٤﴾ .

٣- وقد أشارت السورة إلى العنصر الثالث من عناصر القرآن المكي، وهو عنصر الوحي والرسالة، وبدأت ذلك بالتنبؤ بحديث غيبي هام، وهو انتصار الروم على الفرس، وذلك من أظهر الدلائل على صدق محمد ﷺ فيما جاء به من الوحي، ومن ثمَّ إلى دمج الرسول ﷺ في موكب الرسالات الإلهية ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ رُسُلًا إِلَىٰ قَوْمِهِمْ فَجَاءَهُم بِالْبَيِّنَاتِ﴾ ﴿٤٧﴾ .

وتبيّن السورة أن الرسول ﷺ لا يملك إلا البلاغ، فهو لا يهدي العمى، ولا يُسمع الصم، والكفار كالموتى لا يسمعون ولا يُبصرون، ولا ينتفعون بالآيات الباهرة، والبراهين الساطعة، فاصبر -يا رسول الله- على أذى من لم يؤمن حتى يأتي نصر الله.

ويمكن تقسيم السورة على النحو التالي:

١- مقدمة تتناول غلبة الروم للفرس، وذلك في الآيات السبع الأولى.

٢- دعوة إلى النظر والتأمل في ملكوت الله، لغرس عقيدة التوحيد واقتلاع جذور الشرك، وقد استغرق هذا معظم السورة، من الآية الثامنة حتى الآية الثانية والثلاثين.

٣- جولة مع الإنسان حين يمسه الخير أو الضر، وبسط الرزق أو قبضة، وذلك من الآية الثالثة والثلاثين إلى الآية الرابعة والخمسين.

٤- حديث عن الساعة والاستعداد لها في الآيات الخمس الأخيرة.



تَفْسِيرُ السُّورَةِ

اِفْتِتَاحُ بَعْضِ السُّورِ بِحُرُوفِ الْهَجَاءِ

١- ﴿الْم (١)﴾

ابتدأت سورة (الروم) بثلاثة حروف من حروف الهجاء، هي: الألف، واللام، والميم، وهي من المتشابه الذي لا يعلم حقيقة معناه إلا ربُّ العالمين، ومن أرجح ما قيل فيها: إنها للإعجاز القرآني، وليبان أنه مكوّن من هذه الحروف التي تنطقونها، وقد عجز البشر عن الإتيان بمثل أقصر سورة منه.

وهي أيضًا لإثارة انتباه المشركين حين يستمعون إلى ألفاظ عجيبة لم يعرفوها فيتأملوها، ويجرّهم هذا إلى الاستماع إلى القرآن والتأثر به، ومن ثمَّ إلى الدخول في الإسلام، فكان هذا من أساليب الدعوة، بجذب المستمع، وشدَّ انتباهه؛ حتى يفكر ويعقل.

وسورة (الروم) ثالث سورة بعد سورتي: مريم، والعنكبوت، لم يقع بعد حروف الهجاء في أولها حديث عن القرآن الكريم، وإنما وقع بعدها إعجاز قرآني، هو هنا: الإخبار عن شيء غيبيٍّ مستقبليٍّ، هو نصر الروم على الفرس في المستقبل بعد بضع سنين من هزيمة الفرس لهم.

من معجزات النبي ﷺ

٢-٥- ﴿غُلِبَتِ الرُّومُ (٢)﴾ فِي آدَنَى الْأَرْضِ وَهُمْ مِنْ بَعْدِ غَلِبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ (٣) ﴿٢﴾ فِي بَضْعِ سِنِينَ (٤)

(١) قرأ أبو جعفر بالسكت على ألف، ولام، وميم، سكتة لطيفة خفيفة بدون تنفس، على أن كُلاً منها حرف مستقل، وقد انفرد الكوفي بعدّ (الم) آية، ولم يعدّها غيره.

(٢) لم يعد المدني الأخير والمكي (غلبت الروم) آية، وعدّها غيرهما.

(٣) ورد الخلاف عن المكي في (سيفلبون) والصحيح أنه معدود عنده آية كسائر أئمة العدد.

(٤) لم يعد المدني الأول والكوفي (في بضع سنين) آية، وعدّها غيرهما.

يَسْأَلُ وَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴿٥﴾ .

أي غلبت فارس الروم في أقرب أرض الروم إلى أرض فارس، بغور فلسطين، في أخفض نقطة على سطح الأرض، وهي البحر الميت، وسوف ينتصر الروم على الفرس قريباً، وهذا النصر سيقع في سنوات لا تزيد على العشر ولا تنقص عن ثلاث، والله وحده الأمر كله قبل انتصار فارس على الروم، وبعد انتصار الروم على الفرس، ويوم ينتصر الروم على الفرس يفرح المؤمنون بهذا النصر، لأن الروم أهل كتاب، وفارس وثنيون، فالروم أقرب إلى الحق، وكان نهاية ذلك سنة (٦٢٤)م زمن انتصار المسلمين في غزوة بدر على المشركين في السنة الثانية للهجرة^(١).

سبب النزول: مما ورد في أسباب نزول أول سورة الروم ما جاء عن نيار بن مكرم الأسلمي قال: لما نزلت ﴿الْمَ ﴿١﴾ غُلِبَتِ الرُّومُ ﴿٢﴾﴾ كانت فارس يوم نزلت هذه الآية قاهرين للروم، وكان المسلمون يحبون ظهور الروم عليهم؛ لأنهم وإياهم أهل كتاب، وفي ذلك يقول الله تعالى: ﴿وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ ﴿٤﴾ بِنَصْرِ اللَّهِ﴾ وكانت قريش تحب ظهور فارس؛ لأنهم وإياهم ليسوا أهل كتاب، ولا يؤمنون ببعث.

فلما أنزل الله هذه الآية خرج أبو بكر يصيح في نواحي مكة ﴿الْمَ ﴿١﴾ غُلِبَتِ الرُّومُ ﴿٢﴾﴾ في أدنى الأرض وهم من بعد غلبهم سيفلون ﴿٣﴾ في بضع سنين﴾ فقال ناس من قريش لأبي بكر: ذاك بيننا وبينكم، يزعم صاحبك أن الروم ستغلب فارس في بضع سنين، أفلا نراهنك على ذلك؟ قال: بلى -وذلك قبل تحريم الرهان- فارتهن أبو بكر والمشركون، وتواضعوا الرهان، وقالوا لأبي بكر: كم تجعل البضع ثلاث سنين إلى تسع سنين؟ فسم بيننا وبينك وسطاً ننتهي إليه، قال: فسموا بينهم ست سنين، فمضت الست قبل أن يظهروا، فأخذ المشركون رهن أبي بكر، فلما دخلت السنة السابعة ظهرت الروم على فارس، فعاب المسلمون على أبي بكر تسميته ست سنين، قال: لأن الله قال ﴿في بضع سنين﴾ فأسلم عند ذلك ناس كثير^(٢).

(١) ينظر: تفسير ابن سعدى للآيات.

(٢) «سنن الترمذي» (٣١٩٤) وقال: هذا حديث حسن صحيح، وحسنه الألباني في «صحيح سنن الترمذي» (٢٥٥٢) وهو عند الطبراني في الأوسط مختصراً (٧٢٦٦) والدارقطني، وأبو نعيم، والبيهقي، وابن مردويه كما في «تخريج الإحياء» (١٠٧٧/٢).

قتال فارس والروم: بعث كسرى جيشاً إلى الروم، واستعمل عليهم رجلاً يسمى (شهريران) فسار إلى الروم بأهل فارس، وظهر عليهم، فقتلهم وخرَّب مدائنهم، وقطع زيتونهم.

وكان قيصر قد بعث رجلاً يُدعى (يحنس)، فالتقى مع (شهريران) بأذرعات وبصرى، وهي أدنى الشام إلى أرض العرب، فغلبت فارس الروم، وبلغ ذلك النبي ﷺ وأصحابه بمكة، فشقَّ ذلك عليهم، وكان النبي ﷺ يكره أن يظهر الأميون من أهل المجوس على أهل الكتاب من الروم، وخرج كفار مكة وشمثوا، فلقوا أصحاب النبي ﷺ، فقالوا: إنكم أهل كتاب، والنصارى أهل كتاب، ونحن أميون وقد ظهر إخواننا من أهل فارس على إخوانكم من الروم، وإنكم إن قاتلتمونا لنظهرنَّ عليكم، فأنزل الله الآيات من أول سورة الروم^(١)

وكانت هزيمة الروم في الحرب التي جرت بدايتها بينهم وبين الفرس سنة ٦١٥ ميلادية.

ولما نزلت الآية، خرج أبو بكر إلى الكفار يقول: أفرحتم بظهور إخوانكم على إخواننا؟ فلا تفرحوا، ولا يُقرنَّ الله أعينكم، فوالله ليُظهرنَّ الله الروم على فارس، أخبرنا بذلك نبينا ﷺ، فكذَّبه أبيُّ بن خلف، وتراهنَّا على مئة قلووس، فظهرت الروم على فارس، فغلبهم المسلمون^(٢).

التعريف بالروم: الروم هم النصارى، وهو اسم غلب في كلام العرب على أمة مختلطة: من اليونان، والصقالبة، والرومان الذين هم من أصل إيطالي، وكانت هذه الأمة في أوروبا وآسيا الصغرى التي هي بلاد الأناضول، وأطلق العرب عليهم اسم الروم؛ للترفة بينهم وبين الرومان الإيطاليين.

وكانت (بيزنطة) من جملة مملكة (إسكندر المقدوني)، فلما مات، صارت مملكته داخلية تحت سلطة (روما)، فحكمها قياصرة الرومان، إلى أن صار (قسطنطين) قيصر روما، وانفرد بالسلطة في حدود سنة ٣٢٢ ميلادية، فجمع شتات المملكة، وجعل لها عاصمة غربية هي (روما)، وعاصمة شرقية على بقايا مدينة بيزنطة، وسماها (قسطنطينية).

وبعد موته سنة ٣٣٧ ميلادية قُسمت المملكة بين أولاده، وصارت مملكة شرقية ومملكة

(١) يُنظر: «أسباب النزول» للواحدى ٢٨٧ و«تفسير القرطبي» (١/١٤) و«تفسير ابن كثير» (٦/٢٩٩).

(٢) من رواية عكرمة كما في «تفسير الطبري» (١٨/٤٥٠) وغيره.

غربية، فاشتهرت المملكة الشرقية باسم بلاد الروم، وعاصمتها (القسطنطينية) ويُعرف الروم بالبيزنطيين نسبة إلى بيزنطة، اسم مدينة يونانية قديمة، وظلت المملكة الغربية في روما^(١).

وهم من سلالة العيص بن إسحاق بن إبراهيم، والعيص أخ ليعقوب، فهم أبناء عم اليهود نسبًا.

والنصارى يقال لهم: بنو الأصفر، نظرًا للونهم غالبًا، وكانوا على دين اليونان قبل النصرانية، واليونان، من سلالة يافث بن نوح، أبناء عم الترك، وكانوا يعبدون الأوثان والكواكب السبعة السيارة، وهم الذين أسسوا (دمشق)، وظلوا على ديانتهم إلى ما بعد المسيح بنحو ثلاث مئة عام.

ومنهم (قيصر) الذي ملك الشام والجزيرة، وأول من دخل في النصرانية.

أول من حرّف وغير دين النصارى: هو الملك (قسطنطين)، وكانت أمه قد تنصّرت قبله، ودعته إلى دينها، وكان فيلسوفًا فاجتمع حوله النصارى، ووضعوا له أمر العقيدة، وسموها (الأمانة الكبرى) كما فوضوا له أمر القوانين، أي: التحليل والتحريم، فغير دين المسيح، وزاد ونقص، وعبد الصليب، وأحل الخنزير، واتخذ أعيادًا، كعيد: الغطاس والقدّاس، والصليب، والشعائين، وحوّل القبلة من القطب الشمالي إلى الشرق، وابتدعوا الرهبانية، وبنوا الكنائس والمعابد، وبنوا مدينة القسطنطينية.

طوائف النصارى الثلاث:

١- وهؤلاء الذين غيّرُوا دين المسيح يُسمّون: طائفة المَلَكِيّة، أي الذين على دين الملك قسطنطين، وهم (البروتستانت) أصحاب الكنيسة الإنجيلية، وهم في: ألمانيا، وإنجلترا، والدانمارك، وهولندا، وسويسرا، والنرويج، وأمريكا الشمالية.

٢- ثم حدثت بعدهم طائفة اليعقوبية، أتباع يعقوب الإسكاف، وهم (الكاثوليك)، وهم في: إيطاليا، وفرنسا، وبلجيكا، وهم يقولون بأن للمسيح طبيعة واحدة هي التقاء اللاهوت بالناسوت، أي: الطبيعة الإلهية بالطبيعة الإنسانية، فاختلط كُلُّ منهما بالآخر،

(١) يُنظر: «تفسير التحرير والتنوير» (٤٣/٢١) بتصرف.

وَكُونُوا إِلَٰهًا وَاحِدًا فِي زَعْمِهِمْ.

٣- ثم جاءت طائفة النسطورية، أصحاب نسطورا، وهم (الأرثوذكس) أصحاب الكنائس الشرقية، ومنهم بابا الإسكندرية، وهم في: روسيا، والبلقان، واليونان، وهم يقولون بأن للمسيح طبيعتين (اللاهوت، والناسوت) واستمروا على النصرانية، كُلُّمَا هَلَكَ قيصِر، خلفه آخر، حتى كان آخرهم هرقل.

فالطوائف الثلاث تمثل الكاثوليك، والأرثوذكس، والبروتستانت، القائلين بالبنوة، والتثليث، وألوهية المسيح.

٤- وهناك مذهب المَوَّارنة: نسبة ليوحنا مارون، الذي ادَّعى أن للمسيح طبيعتين.

ومع أن الإسلام كان حَسَن الصلة بالنصارى من الناحية السياسية والاجتماعية، إلا أنه لم يداهن أو يجامل فيما يتعلق بالعقيدة، فقرر وحدانية الله سبحانه، ورفض البنوة والتثليث، فالله تعالى واحد أحد، وليس مُرَكَّبًا من عنصرين، كما يتركب الماء مثلاً من الأوكسجين والهيدروجين، ومقتضى ذلك أن الإلهين الثاني والثالث مخلوقان لله تعالى.

والنصرانية هي الديانة المسيحية التي أنزلت على عيسى ﷺ مكملًا لرسالة موسى ﷺ، ومتممة لما جاء في تعاليم التوراة.

وكان لعيسى حواريون اثنا عشر، مذكورون في إنجيل متى، ويقال: إن عيسى اختار سبعين من قومه، أرسلهم ليعلموا الناس المسيحية.

ومن الحواريين (يهوذا الإسخريوطي)، وقد اختير بالقرعة لينوب عن (بولس) الذي قال ببنوة عيسى ﷺ، وقال بالعشاء الرباني، وغُفران الذنوب، وقصة الغداء، ونادى بألوهية الروح القدس، وجعل النصرانية دينًا عامًا بدلًا من الدين الخاص بيني إسرائيل.

الأناجيل الأربعة: وبعد وفاة عيسى أو رَفْعِهِ كتب الحواريون أربعة أناجيل:

١- إنجيل (متى) نسبة لمن كتبه من الحواريين، تلاميذ عيسى ﷺ، وهو (متى).

٢- إنجيل (مرقص) كتبه (يوحنا) وهو من السبعين الذين أرسلهم عيسى ﷺ لتبليغ دعوته في البلاد.

٣- إنجيل (لوقا) وهو طيب من أصل يهودي، كان يرافق (بولس) في حله وترحاله، وليس من تلاميذ المسيح ﷺ.

٤- إنجيل (يوحنا) وهو ابن صياد، وقد انفرد بالقول بالتثليث، وألوهية المسيح. والأنجيل الأربعة ليست من إملاء المسيح، وتسمى بالعهد الجديد. وقبلها العهد القديم الذي هو التوراة.

٥- وهناك (إنجيل برنابا) سُمِّيَ باسم (برنابا) خال (مرقص)، وفيه توحيد الله تعالى، وفيه أن الذبيح هو إسماعيل عليه السلام، وهو يبشر بنبوة محمد ﷺ، ولا يقول بصلب المسيح، ويقول: إن الله تعالى ألقى الشبه على (يهوذا الإسخريوطي) فقتله اليهود، ويقول إنجيل برنابا بنبوة عيسى لا أكثر، وهذا ما يقرره الإسلام، وهذه الفرقة هم الموحدون من فرق النصراني، ولكنها فرقة مغمورة، وليست منتشرة انتشار الفرق الأخرى.

وتنقسم الكنائس في العصر الحاضر إلى قسمين:

١- الكنيسة الغربية اللاتينية، ورئيسها بابا روما.

٢- الكنيسة الشرقية اليونانية الأرثوذكسية، ورئيسها بطريرك القسطنطينية.

وسبب الانقسام هو: هل روح القدس منبثق عن الأب، أو عن الأب والابن معاً؟

الفرس: أما الفرس فقد كانت الدولة العظمى الأخرى في العالم، المناوئة للروم، وكانت مملكتهم أوسع وأقوى من الروم، وكانوا يعبدون النار والأصنام، ويجحدون البعث والنشور، وكان ملك الفرس يقال له: (كسرى)، وكان اسمه وقت أن غلبت الروم (سابور)، ونحمد الله تعالى أن أعزَّ هذه البلاد بالإسلام.

نتائج المعركة بين أقوى دَوْلَتَيْنِ في العالم القديم:

كانت الفرس والروم أقوى دَوْلَتَيْنِ في العالم، وكانتا تقسمان الأرض، إحداهما في الشرق وهي فارس، والأخرى في الغرب وهي الروم، وكانتا تتنازعان السيادة على بلاد الشام وما حولها، ولا تزال هذه المنطقة من العالم مطمع الغزاة في كل زمان.

وكان بين الفرس والروم من الحروب والقتال ما بين الدول المتوازنة عسكرياً، فبعث

كسرى جيشًا إلى الروم، وبعث قيصر جيشًا، والتقىا في أذرعات وبصرى بالشام، فغلبت فارس الروم في أدنى طرف الأرض بفلسطين من الشام، أي: أقربها إلى بلاد فارس مما يلي الحجاز، وذلك في أرض الجزيرة الواقعة بين نهري: دجلة والفرات، وخسرت الروم مصر والشام واليمن، وحاصر كسرى ملك الروم (هرقل) في القسطنطينية مدة طويلة، بعد أن اضطره لِلْجُوءِ إليها.

وكان الروم أهل كتاب، ينتسبون إلى التوراة والإنجيل، وهم أقرب إلى المسلمين من الفرس؛ لأنهم يؤمنون بالله واليوم الآخر في أصل ما جاء في كتبهم.

أما الفرس فكانوا يعبدون النار، وهم أقرب إلى المشركين عبدة الأوثان من الروم.

قال ابن عباس رضي الله عنه: كان المشركون يحبون أن تظهر فارس على الروم؛ لأنهم أهل أوثان، وكان المسلمون يحبون أن تظهر الروم على فارس؛ لأنهم أهل كتاب، فذكر ذلك لأبي بكر رضي الله عنه، فذكره لرسول الله ﷺ، فقال عليه الصلاة والسلام: أما أنهم سيغلبون، فراهن المشركون أبا بكر على أن الفرس ستغلب الروم، ولما انتصر الروم على الفرس أخذ منهم الرهان، وذلك قبل تحريمه في الإسلام^(١).

والغريب أن النصارى قالوا: إن محمدًا ﷺ قال ذلك لأنه يكره الفرس، ورفضوا التسليم بأن هذه معجزة تشهد لمحمد ﷺ بصدق الرسالة، والإسلام غني عن شهادتهم!! ولما غلبت فارس الروم، شقَّ ذلك على المسلمين لَمَّا بلغهم الخبر في مكة، وفرح به كفار مكة.

ولما انتصرت فارس على الروم اعتقد الناس جميعًا أن شمس الروم قد غربت، وأن

(١) أخرجه الإمام أحمد في «المسند» (٢٧٦/١) إلى (سيغلبون) كما صحح إسناده على شرط الشيخين أحمد شاكر في حاشية «المسند» برقم (٢٤٩٥) وأخرجه الترمذي، «تحفة الأحوذى» (٥١/٩) وهو في السنن برقم (٣١٩٣) وقال: هذا حديث حسن صحيح غريب، والنسائي في الكبرى برقم (١١٣٨٩) وفي كتاب «التفسير» برقم (٤٠٩) و«تفسير الطبري» (١٦/٢١) والطبراني في «المعجم الكبير» برقم (١٢٣٧٧) والحاكم في «المستدرک» (٤١٠/٢) وصححه ووافقه الذهبي، وصححه الألباني في «صحيح سنن الترمذي» برقم (٢٥٥١).

مستقبلهم قد ضاع، والإسلام هو الصوت الوحيد الذي عارض هذه النتائج، وأعلن في ثقة ويقين أن هذه الهزيمة عارضة، وأن هذا الواقع سيزول، وسوف تنتصر الروم على الفرس بعد سنوات تُعدُّ على الأصابع ﴿وَهُمْ مِنْ بَعْدِ عَلَيْهِمْ سَيِّئُونَ لَا فِي يَضِيعُ سِينٌ﴾.

وقد تحقق وعد الله تعالى بنصر الروم على فارس بعد سبع سنين، وظلت هذه المعركة آية تتحدى واقعاً عالمياً ذلَّ فيه المجوس وعزَّ فيه النصارى، ولم يشك أحد في ذلك.

ووصل خبر انتصار الروم إلى النبي ﷺ يوم أن نصر الله المسلمين على المشركين في غزوة بدر -عند أكثر أهل العلم- ففرح المسلمون بنصرهم على عدوهم، وفرحوا في الوقت نفسه بنصر الروم على الفرس.

وقيل: إن خبر نصرهم وصل إلى النبي ﷺ يوم الحديبية، والأول أصح.

قال ابن عباس ؓ: كان يوم بدر هزيمة عبدة الأوثان، وعبدة النيران.

عن أبي سعيد الخدري ؓ قال: لما كان يوم بدر ظهرت الروم على فارس، فأعجب ذلك المؤمنون وفرحوا به، وأنزل الله: ﴿وَيَوْمَئِذٍ يَقَرِّحُ الْمُؤْمِنُونَ لَا يَنْصُرِ اللَّهُ يَنْصُرُ مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ﴾ (١).

وقال الزبير الكلابي: رأيت غلبة فارس الروم، ثم رأيت غلبة الروم فارس، ثم رأيت غلبة المسلمين فارس والروم، وظهورهم على الشام والعراق (٢) كل ذلك في خمس عشرة سنة.

ويذكر بعض المؤرخين أن ملِك فارس، غزا بلاد الشام مرتين: مرة سنة ٦١٣م، ومرة سنة ٦١٤م، أي: قبل الهجرة بسبع سنين، ثم نُصرت الروم على الفرس سنة ٦٢١م، أي: قبل الهجرة بسنة (٣).

ويُجمع بين هذا وما قبله: بأن فرق العامين قد يكون بالنسبة لبدء المعركة ونهايتها، أو بين التاريخين الهجري والميلادي، فلا تعارض.

(١) «سنن الترمذي» برقم (٢٩٣٥، ٣١٩٢) و«تفسير الطبري» (١٦/٢١) وصححه الألباني في «صحيح سنن الترمذي» (٢٣٣٨، ٢٥٥٠) وهو عند ابن أبي حاتم.

(٢) البيهقي (٢/٢٣٤) وابن أبي حاتم كما في «تفسير ابن كثير» (٦/٣٠٤).

(٣) يُنظر: «تفسير القاسمي» (٢/٤٧٦٥).

ولما انتصر الروم على الفرس بنوا بالعراق مدينة (رومية).

أما قول الله تعالى: ﴿لَلَّهِ الْأَثَرُ مِنْ قَبْلُ وَمِنْ بَعْدُ﴾ فهي جملة معترضة، في ثنايا الحديث على نصر الله للروم بعد هزيمتهم، وجاء هذا الاعتراض قبل نهاية الآيات؛ للإسراع برد الأمر كله إلى الله تعالى في هذا الحادث وغيره، فكل ما يحدث في الكون مرده إلى الله تعالى، والأحداث كلها تجري وفق قدر مرسوم.

والمعنى: لله الأمر أولاً وآخرًا، من قبل الغلبة ومن بعد الغلبة، لأن النصر لا يكون لمجرد وجود الأسباب بل لا بد أن يقترن بها القضاء والقدر، فأمر الله تام نافذ في كل وقت وآن، وليس لأحد من الخلق أن يخرج عما قدره الله وأراده؛ فإن غلبة الغالب، وخُذْلان المغلوب بأمر الله تعالى وقضائه.

ويوم يهزم الرومُ الفرسَ، ويتغلبون عليهم يفرح المؤمنون بنصر الله تعالى لأهل الكتاب على المجوس؛ لأن أهل الكتاب أقرب إلى المؤمنين من المجوس. قال تعالى:

٦- ﴿وَعَدَ اللَّهُ لَا يُخْلِفُ اللَّهُ وَعْدَهُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾

وهذا النصر وعْد من الله تعالى، لا بد أن يتحقق وقوعه وفق النظام الذي أعده الله تعالى لهذا الكون، وطبق ارتباط الأسباب بالمسيبات، فهو وعد مؤكد لا يمكن أن يتخلف؛ لأن وعده تعالى حق، وكلامه صدق، وهو عين ما أخبر به محمد ﷺ من نصر الروم على فارس خلال مدة من ثلاث إلى تسع سنوات، وهو خبر صدق، ووعد حق، وأكثر الكفار لا يعلمون صدق وعد الله تعالى.

وهذا من الأمور الغيبية التي أطلع الله عليها رسوله قبل وقوعها، وهي من معجزاته ﷺ.

الْعِلْمُ الدُّنْيَوِيُّ وَالْعِلْمُ الْآخِرِيُّ

٧- ﴿يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِّنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ الْآخِرَةِ هُمْ غَفْلُونَ﴾

وعِلْمُ الكفار يختص بالدنيا وحدها، ويتعلق بالماديات والظواهر وعلوم الحياة، وسائر العلوم الدنيوية التجريبية، وهم في غفلة عن العمل لما بعد الموت.

ويدخل في قوله تعالى: ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ أهل العلوم الدنيوية دخولًا أوليًا

من سائر الذين لا يعلمون شيئًا عن خالقهم الذي أوجدهم من العدم، ورزقهم وأمدَّهم بسائر النعم، وهم لا يعلمون شيئًا عن مصيرهم الآخروي، الذي يقيمون فيه إقامة دائمة في عذاب فظيع دائم متجدد.

وَمَنْ غَفَلَ عَنْ ذَلِكَ وَلَمْ يَعْلَمْ مِنْهُ شَيْئًا، فَلَيْسَ مَعْدُودًا فِي جَنْس مَنْ يَعْلَمْ؛ لِأَنَّ هَذَا هُوَ الْعِلْمُ الصَّحِيحُ، وَالْجَهْلُ بِهِ هُوَ الْجَهْلُ الْحَقِيقِيُّ.

وإذا اقتصر علم الإنسان على علوم الدنيا، فهو علم ضيق المجال، ليس له غاية؛ لأنه سريع الزوال بزوال الدنيا.

وعلم الظاهر: هو متاع الدنيا، ولا يتجاوزها للآخرة.

وعلم الباطن: يتجاوز الدنيا لما بعد الموت، يتجاوزها للدار الآخرة بما يحقق لهم النفع والفائدة، والنجاة في الدار الآخرة.

والغفلة عن الآخرة تجعل المقاييس تختل، والأهداف تتغير، والغايات تختلف؛ لأن حساب الآخرة في حياة الإنسان، وفي ضميره وأعماله يغيّر ما يقع منه من أقوال وأفعال.

فالعمل لحياة قصيرة تنتهي بموت الإنسان، ليس كالعمل لحياة أبدية بعد الموت، يجني فيها ثمار ما قدم، ولا يلتقي إنسان يعمل للدنيا وحدها ولا يؤمن بالآخرة، بإنسان يعمل للآخرة ويؤمن بها.

والعلم نوعان: علم دنيوي ظاهر، يعمل فيه العبد للدنيا وحدها دون ربط بينها وبين الآخرة، ويتم تحصيل هذا العلم لمن يهدف إلى زخرف الدنيا ومتاعها، وهذا العلم يتمثل في: معرفة أمور المعاش، ووجوه الكسب، والتجارة، والعلوم المدمرة لحياة البشر، والعلوم التجريبية المادية، وأهل هذه العلوم قد عرفوا القشور دون اللباب.

وتنكير ﴿ظَاهِرًا﴾ يفيد أنهم لا يعلمون إلا ظاهرًا واحدًا من ظواهرها، فهو علم قليل.

قال ابن عباس ؓ: الكفار يعرفون عمران الدنيا، وهم في أمر الدين جهال^(١).

والعلم الآخر: علم أخروي باطني: يتجاوز فيه العبد عمله للدنيا إلى الآخرة، فيتزود لها

(١) «تفسير ابن كثير» (٦/٣٠٥).

بالطاعة والعمل الصالح، فهو يعمل للدنيا باعتبارها مزرعة للآخرة، يطلب العلم الآخروي، ولا ينسى حظه في الدنيا، ويستعين بعلوم الدنيا على إعلاء كلمة الله ﴿وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ﴾.

وبالنسبة يحوّل العبد العمل الدنيوي إلى عمل أخروي، في أكله، وعمله، ونومه، وسلوكه، حتى وجماعه أهله، ودراسته، وتجارته، وزراعته، وصناعته، وغير ذلك فيحصل بكل هذا مطلوب الدنيا، ويثاب عليه في الآخرة.

والعمل للدنيا وحدها، يجعل الإنسان يتمتع بها، ويحصل نصيبه منها، وليس له نصيب في الآخرة. أما من يجعل الدنيا مزرعة للآخرة، ودار عبور لها، فإنه يحصل حسنة الدنيا والآخرة: ﴿فَمَنْ الْكَاسِ مَنْ يَقُولُ رَبَّنَا آئِنَا فِي الدُّنْيَا وَمَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلْقٍ ۚ وَمَنْهُمْ مَنْ يَقُولُ رَبَّنَا آئِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ حَسَنَةٌ وَقَدْ آتَيْنَا لَكَ لَهُمْ نَصِيبٌ مِمَّا كَسَبُوا ۚ وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ ۝﴾ [البقرة].

والعمل للدنيا لا يتعارض مع العمل للآخرة، فما أجمل أن يجتمعا في العبد المؤمن! ومعرفة العلوم التجريبية لا بد منها لإقامة الحياة وتعميرها، وما أجمل أن يجمع العبد بين علوم الدنيا والدين! فيكون ممن حظي بنفع الناس ونفع نفسه، واجتمع له خيرا الدنيا والآخرة.

ومعنى الآيات [٧-٢] إجمالا: غلبت فارس الروم في أدنى أرض الشام، وسوف يغلب الروم الفرس في مدة من الزمن لا تزيد على سبع سنين، ولا تنقص عن ثلاث.

لله تعالى الأمر كله قبل انتصار الروم وبعده، ويوم ينتصر الروم على الفرس يفرح المؤمنون بنصر الله للروم على الفرس، والله ينصر من يشاء، ويخذل من يشاء، وهو العزيز الذي لا يغلب، الرحيم بمن شاء من خلقه.

وقد تحقق ذلك، فغلبت الروم الفرس بعد سبع سنين، وفرح المسلمون بذلك؛ لكون الروم أهل كتاب، وإن حرقوه.

وقد وعد الله المؤمنين وعدًا جازمًا لا يتخلف، بنصر الروم النصارى على الفرس الوثنيين، ولكن أكثر الكفار لا يعلمون أن ما وعد الله به حق، وإنما يعلمون ظواهر الدنيا

وزخرفها، وهم عن أمور الآخرة - وما ينفعهم فيها - غافلون لا يفكرون فيها^(١).

لقد توجهت قلوبهم وأهواءهم وإرادتهم إلى الدنيا وشهواتها وحطامها، فعملت لها، وغفلت عن الآخرة، فلا إلى الجنة اشتاقت، ولا من النار خافت، ولا من المقام بين يدي الله تعالى ولقائه ارتاعت، وهذا علامة الشقاء وعنوان الغفلة، وهم إلى جوار ذلك قد بلغوا في علوم الدنيا مبلغًا كبيرًا في مجال: الذرة والفضائيات والأقمار الصناعية، والصناعات النووية، والكهرباء والاتصالات، والمراكب البرية والجوية والبحرية... وكانوا أبلد الناس في أمور دينهم، وأشدهم غفلة عند ربهم وآخرتهم!!

خَمْسُ دَعَوَاتٍ لِدِرَاسَةِ أَسْرَارِ النَّفْسِ وَالْكَوْنِ وَالتَّارِيخِ وَالنَّشْأَةِ الْآخِرَةِ

٨ - ﴿أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا فِي أَنفُسِهِمْ مَا خَلَقَ اللَّهُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِأَجَلٍ مُّسَمًّى وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ بِلِقَآئِ رَبِّهِمْ لَكَفِرُونَ﴾^(٢)

ثم تمضي الآيات مع الذين يعلمون ظاهرًا من الحياة الدنيا، وهم الكفار في كل زمان ومكان، ممن لا يؤمنون بالآخرة ولا يعملون لها، مكتفين بالانهماك في طلب الدنيا والعمل لها، والسعي وراء ملذاتها وشهواتها.

تمضي الآيات لإقامة الربط بين الدنيا والآخرة، وبيان ضرورة العمل للآخرة، وذلك برد الكفار ودعوتهم إلى التأمل والنظر، وإعمال العقل والفكر في خمسة أمور؛ كي يقودهم ذلك إلى الإيمان بالله ورسوله، والعمل للدار الآخرة.

الدَّعْوَةُ الْأُولَى: دَعْوَةُ إِلَى التَّأَمُّلِ فِي النَّفْسِ ﴿أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا فِي أَنفُسِهِمْ﴾؟

كيف خلقها الله تعالى؟ وكيف كوَّنها، وأنشأها من العدم، وجعلها أطوارًا في الخلق، وأمدَّها بالروح التي تحيا بها، وأمدَّها بالسمع والبصر وسائر الجوارح؟ فيعلموا أنهم

(١) «التفسير الميسر» نخبة من العلماء بتصرف.

(٢) اختلف علماء الرسم في رسم همزة (ببقاء ربهم) و (لقاء الآخرة) فقبل برسمها على ياء، وقيل برسمها مفردة، والياء بعدها زائدة، ولحمزة فيها عند الوقف: الإبدال ألفًا مع ثلاثة المد، والتسهيل بالروم مع المد والقصر، وتُبدل ياء على الرسم مع ثلاثة أوجه المد ومثله هشام بخلف عنه.

سيعودون للحياة مرة أخرى، كي يُثابون ويُعاقبون.

فإن من فُكّر في نفسه عَلِمَ أن الله تعالى هو الخالق المبدع، ووقف على ذلك ببصيرة نفسه.

قال تعالى: ﴿وَفِي أَنْفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾ (١١) [الذاريات].

والنفس هي أول ما يجب النظر في أحوال خلقها.

فهل هذه النفس خلقها الله عبثاً، أم خلقها لهدف وغاية؟ والجواب: بل خلقها لتعرف ربها فتعبده، ولتُعمّر الأرض لمن يأتي بعدها، ومن ثمّ للبعث والحساب والجزاء: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ﴾ (١١٥) [المؤمنون].

قال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ (٥٦) [الذاريات].

فالآية تنعى على الأشقياء غفلتهم، وتحضهم على التفكير في أنفسهم؛ لتهتدي إلى الحق، وتعمل للدار الآخرة.

الدَّعْوَةُ الثَّانِيَّةُ دَعْوَةٌ إِلَى التَّأَمُّلِ فِي الْكَوْنِ

قال تعالى: ﴿مَا خَلَقَ اللَّهُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَأَجَلٍ مُّسَمًّى وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ بِلِقَائِ رَبِّهِمْ لَكَافِرُونَ﴾

أي: وعلى الذين يعلمون ظاهراً من الحياة الدنيا، التفكير في هذا الكون بعالميه: العلوي والسفلي، كما قال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَنْظُرُوا فِي مَلَكُوتِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ [الأعراف: ١٨٥]

أي: وما فيهما وما بينهما؛ ليُستدل بهما على توحيد الخالق جلّ وعلا، وعظيم قدرته، وأنهما آيتان من آيات الله تعالى، سخرهما سبحانه لصالح الإنسان ونفعه، ولم يخلقهما ليُخلدا، وإنما سوف تُطوى صفحتهما يوم لقاء الله تعالى ﴿يَوْمَ تُبَدَّلُ الْأَرْضُ غَيْرَ الْأَرْضِ وَالسَّمَوَاتُ﴾ [إبراهيم: ٤٨].

وذلك حين ينتهي عمر الدنيا، ويقوم الناس لرب العالمين، حيث يكون الحشر والنشر، والحساب والجزاء، فيقيم سبحانه العدل بين الناس، ويثيب المطيع، ويعاقب العاصي، وهذا هو الحق والعدل الذي قامت عليه السموات والأرض، وما فيهما وما بينهما.

وإذن فقد خلق الله السموات والأرض لحكمة بالغة، هي إقامة الحق والعدل بين الناس يوم القيامة، بعد أن ينتهي عمر هذه الدنيا، ويكون الحساب والثواب والعقاب.

وفي هذا تنبيه على فناء العالم، وعلى ثواب المحسن وعقاب المسيء.

وهذا كقول الله جلّ شأنه: ﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَطْلًا﴾ [ص: ٢٧]

أي: لم يخلقهما سبحانه لهواً، ولا عبثاً، ولا باطلاً بلا فائدة، وإنما خلقهما لعمارة الأرض، والاستدلال بهما على وجود الصانع سبحانه، فيوحده الناس ويعبدونه، ويعملون لدار البقاء، ولكن المكذبين بهذا اليوم، يُنكرون لقاء الله تعالى جحوداً منهم، وهم لا يعلمون أن مردّهم إلى الله تعالى بعد فنائهم، وغفلة منهم عن الدار الآخرة. ولذا لم يستعدوا للقاءه، ولم يصدقوا رسله ولا كتبه، وخلق السموات والأرض أعظم من خلق الإنسان، كما قال تعالى:

﴿لَخَلْقُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [غافر].

وإن كثيراً من الناس لفي اشتغال بديناهم عن آخرتهم، ولا يؤمنون بما فيها من حساب وثواب وعقاب، ويقولون: ما هي إلا حياتنا الدنيا نموت ونحيا، وما نحن بمبعوثين. وبعض الناس قد آمنوا بربهم، واستعدوا للقاء الله تعالى بالعمل الصالح الذي يُرضي ربهم.

الدَّعْوَةُ الثَّالِثَةُ: دَعْوَةٌ إِلَى دِرَاسَةِ التَّارِيخِ

٩- ﴿أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَأَثَارُوا الْأَرْضَ وَعَمَرُوهَا أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا وَجَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ^(١) بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانُوا لِيُظْلَمَهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ [٩]

في هذه الآية: الأمر بالسياحة في الأرض، ودراسة التاريخ؛ لمعرفة صدق الرسل فيما جاؤوا به من عند الله تعالى، والتعرف على مصائر الأمم المكذبة لرسول الله، الغافلة عن العمل للدار الآخرة، وما لحق بهم من عذاب استئصال وإبادة الأقوام: كقوم نوح، وقوم هود، وقوم صالح، وقوم لوط، وقوم شعيب... إلخ، لما كذبوا رسلهم.

فما على المكذبين إلا أن يسيروا في الأرض، ويشاهدوا عقاب الله لهذه الأمم المكذبة لرسول الله، وأمثالهم، ويتأملوا في مصائر الغابرين؛ لإدراك سُنة الله تعالى في خلقه،

(١) قرأ أبو عمرو بإسكان السين من (رسلهم)، والباقيون بضمها.

فالأجيال متواصلة، لا ينزل بعضها عن بعض.

وقد كان السابقون أكثر قوة، وأشد بطشاً، وأكثر مآلاً ومتاعاً، وأعرق حضارة، فقد شقُّوا عن باطن الأرض وزرعوها، وبنوا القصور وسكنوها، ونحتوا البيوت في الجبال، وكانوا أقدر على عمارة الأرض من غيرهم، وعاشوا مدة أطول ممن لحق بهم، فلم تنفعهم عمارة الأرض، ولا طول أعمارهم، ولا ضخامة أجسادهم، ومضت سنة الله فيهم حين كذبوا رسل الله، بعد أن جاؤهم بالحجج الظاهرة، والمعجزات الباهرة، ولم تنفعهم قوتهم ولا أموالهم، فأهلكهم الله، وكانوا أهلاً لهذا الهلاك؛ لأنهم ظلموا أنفسهم بالشرك والمعاصي، قال تعالى: ﴿قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ ثُمَّ أَنْظِرُوا كَيْفَ كَانَتْ عَاقِبَةُ الْمَكْذِبِينَ﴾ [الأنعام].

وقال سبحانه: ﴿قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ ثُمَّ اللَّهُ يُنشِئُ النَّشْأَةَ الْآخِرَةَ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [العنكبوت].

وعذاب الدنيا عذاب معجل، وهو عنوان على العذاب الآخروي.

أَسْوَأُ الْعِقَابِ فِي الْآخِرَةِ لِمَن كَفَرَ وَكَذَّبَ بِآيَاتِ اللَّهِ

١٠- ﴿ثُمَّ كَانَ عَاقِبَةُ^(١) الَّذِينَ اسْتَوُوا السُّوءَ أَنْ كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَكَانُوا بِهَا يَسْتَهْزِئُونَ^(٢)﴾

ثم كانت أسوأ العقوبات وأقبحها -وهي العذاب في نار جهنم- لمن كذب بآيات الله، وسخر بما أنزل الله على رسله من الكفرة والطغاة، فكان جزاؤهم موافقاً لكفرهم، كما قال تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ دَمَّرَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلِلْكَافِرِينَ أَمْتَالُهُمْ﴾ [محمد].

(١) قرأ نافع وابن كثير وأبو عمرو وأبو جعفر ويعقوب برفع التاء من (عاقبة) على أنها اسم كان، وخبرها (السوأي)، أي: كان عاقبة الذين أساءوا أسوأ عاقبة، وقرأ الباقون بنصب التاء على أنها خبر كان، واسمها (السوأي)، أي: كان أسوأ عاقبة الذين أساءوا.

(٢) قرأ أبو جعفر بحذف الهمزة وضم الزاي وصلًا ووقفًا من (يستَهزئون)، وفيها لحمزة عند الوقف ثلاثة أوجه: التسهيل بين بين، والإبدال ياء، والحذف مع ضم الهمزة.

الدَّعْوَةُ الرَّابِعَةُ: دَعْوَةٌ إِلَى التَّأْمُلِ فِي سِلْسِلَةِ نَشْأَةِ الْإِنْسَانِ

١١- ﴿اللَّهُ يَبْدَأُ^(١) الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ^(٢)﴾ (١١)

دعا الله سبحانه الناس إلى التأمل في بدء خلقهم، من أي شيء خلقوا؟ وكيف أوجدهم الله من العدم؛ ليعلموا أن الله تعالى القادر على البدء، قادر على الإعادة، وإليه يرجع الخلائق جميعاً، فيجازي المحسن على إحسانه، والمسيء بإساءته، وهي دعوة إلى التأمل في النشأة الأولى والنشأة الآخرة، بعد الدعوة إلى دراسة أغوار النفس والكون والتاريخ ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا كَيْفَ يُبْدِئُ اللَّهُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ﴾ (١٦) [العنكبوت].

فهو سبحانه المتفرد ببدء الخلق، ثم يعيده، ثم يرجعون إلى ربهم بعد عودتهم إلى الدنيا، ليحاسبهم ويجازيهم على ما قدمت أيديهم.

الدَّعْوَةُ الْخَامِسَةُ: دَعْوَةٌ إِلَى التَّأْمُلِ فِي مَشْهَدٍ مِنْ مَشَاهِدِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ

١٢، ١٣- ﴿وَيَوْمَ نَقُومُ السَّاعَةُ يُبْلِسُ الْمُجْرِمُونَ﴾ (١٢) وَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ مِنْ شُرَكَائِهِمْ شُفَعَاءُ^(٣)

وَكَانُوا بِشُرَكَائِهِمْ كَافِرِينَ﴾ (١٣)

لا بد للمرء من التأمل في أحوال القيامة على ضوء ما جاء في الكتاب والسنة؛ ليتبين من خلال ذلك مصائر المؤمنين والمكذبين، حين يرجع الخلق إلى الله تعالى، ويكونون صنفين: كفاراً، ومؤمنين، وذلك حين يئأس المجرمون من النجاة من النار، فيقلعون ويتحiron، ويصابون بالذهول والحيرة، وتقطع حجتهم، ويفتضح حالهم، وينقطع رجاؤهم وأملهم في النجاة من النار.

(١) وقف حمزة وهشام بخلفه على (يبدأ) بإبدال الهمزة ألفاً، ثم تسهيلها بالروم، ثم إبدالها واوًا على الرسم مع السكون المحض، والروم والإشمام، فهذه خمسة أوجه.

(٢) قرأ أبو عمرو وشعبة وروح بياء الغيبة في (ترجعون) لمناسبة السياق، وقرأ الباقر بناء الخطاب على الالتفات، وقرأ يعقوب بينائه للفاعل، والباقر بينائه للمفعول.

(٣) وقف حمزة وهشام بخلفه على (شَفَعَتُوا) بإبدال الهمزة ألفاً والتسهيل بالروم مع المد والقصر، وتبدل الهمزة واوًا على الرسم مع ثلاثة أوجه: المد بالسكون المحض، ومثلها مع الإشمام، والروم مع القصر، فهذه اثنا عشر وجهًا، خمسة قياسية، وسبعة للرسم.

ثم ذكر الله تعالى أعظم أسباب هذا اليأس والإبلاس، وهو الشرك بالله تعالى، وذلك حين ينكشف لهم عبث اتخاذ الشركاء والأنداد من دون الله في الدنيا، فلا ينفعوهم في الآخرة، ولا يشفعون فيهم -حسبما كانوا يزعمون- بل يتبرأ كل من العابد والمعبود من الآخر، وتكون الشفاعة لله وحده، ولا تطلب من غيره، وعندئذ تظهر الحقائق ويعلمون أن هؤلاء الشركاء لا يرجى منهم نفع، ولا يخشى منهم ضرر، وذلك أنهم لما قلبوا النظر، ولم يجدوا لهم شفعاء يوم القيامة، خاب أملهم، فأبلسوا وانقطع رجاؤهم فيمن كانوا يتقربون بهم إلى الله تعالى، فكفروا بهم وعبادتهم، كما قال تعالى: ﴿ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَمَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ وَلَيَعَنُ بَعْضُكُم بَعْضًا﴾ [العنكبوت: ٢٥].

وكقوله تعالى: ﴿وَإِذَا خَشِيَ النَّاسُ كَانُوا لَهُمْ أَعْدَاءً وَكَانُوا بِعِبَادَتِهِمْ كَافِرِينَ﴾ [الأحقاف].

وفي ساحة الحشر يتبرأ المعبودون من العابدين ويقولون ﴿تَبَرَّأْنَا إِلَيْكَ مَا كَانُوا إِيَّانَا يَعْبُدُونَ﴾ [القصص: ٦٣].

الْجَزَاءُ الْأُخْرَوِيُّ لِلْمُؤْمِنِ وَالْكَافِرِ

١٤-١٦ - ﴿وَيَوْمَ نَقُومُ السَّاعَةَ يُفَرَّقُونَ ۖ ﴿١٤﴾ فَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَهُمْ فِي رَوْضَةٍ يُحْبَرُونَ ۖ ﴿١٥﴾ وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَلِقَاءِ الْآخِرَةِ فَأُولَٰئِكَ فِي الْعَذَابِ مُحْضَرُونَ﴾

وفي يوم القيامة يفترق أهل الخير وأهل الشر، كما افترت أعمالهم في الدنيا، وهذا هو مفترق الطرق بين أهل الإيمان وأهل الكفر يوم القيامة، حيث يتميز أهل السعادة من أهل الشقاء، ويفترقون بعد البعث والحساب إلى الجنة أو النار، فلا يجتمعون ولا يلتقون أبداً، بعد أن يتفرقوا إلى الجهة التي يؤمرون بالتوجه إليها؛ لينال كل منهم جزاءه، ويكونوا على فريقين، حيث يحكم الله ﷻ بين خلقه، فيقول عن بعضهم: هؤلاء للجنة ولا أبالي، وهؤلاء للنار ولا أبالي، فريق في الجنة وفريق في السعير.

ثم فصلت الآية هذا التفريق:

١- فأما الذين آمنوا بالله ورسله، العاملون للصلاحات، فإنهم يكرّمون ويُنعمون ويُسرّون في بساتين من الجنة، وهم في غاية من النّصرة، والحبور والسرور والسعادة في جنات النعيم، فينعمون نعيمًا لا يحيط به الوصف.

وقد وردت آثار تفيد أن المراد بالحبور: هو ما يسمعه أهل الجنة من رياح يقال لها: الهفافة، يطرب لها أهل الجنة^(١).

وورد أن الحبور: هو صوت تسبيح الملائكة، كما جاء عن مجاهد، قال: ينادي مناد يوم القيامة: أين الذين كانوا يُنزهون أصواتهم وأسماعهم عن اللهو ومزامير الشيطان؟ فيُحلُّهم الله في رياض الجنة من مسك، فيقول للملائكة: أَسْمِعُوا عبادي تحميدِي وتمجيدِي، وأخبروهم أن لا خوف عليهم ولا هم يحزنون^(٢).

٢- وأما الكفار المكذبون للرسول، المنكرون للبعث بعد الموت، فهم في عذاب جهنم مخلدون فيها، جزاء تكذيبهم وكفرهم، ولا يستطيعون الخروج أو الهرب منها، حيث لا يُقضى عليهم فيموتوا، ولا يخفف عنهم من عذابها، وقد أحاطت بهم النار من كل جانب، واطلع العذاب على أفئدتهم، وشوى الحميم وجوههم، وقطع أمعاءهم.

عَشْرَةُ أَدَلَّةٍ لِلتَّعْرِفِ عَلَى وَحْدَانِيَةِ الْخَالِقِ سُبْحَانَهُ تُسْتَهْلُ بِتَسْبِيحِ اللَّهِ تَعَالَى وَحَمْدِهِ

١٧- ﴿فَسُبِّحْنَ اللَّهَ حِينَ تُسَوِّتُ وَحِينَ تَضْحَكُونَ﴾

والذين يعلمون ظاهراً من الحياة الدنيا، ولا يؤمنون بالحساب والجزاء في اليوم الآخر، بحاجة ماسة إلى التأمل والنظر في عجائب الخلق، وأسرار النفس ومشاهد الكون؛ للتعرف على وحدانية الخالق وقدرته، بما يستوجب العمل لما في اليوم الآخر من ثواب وعقاب، وهذا أمر من الله تعالى بتنزيهه عن كل نقص.

فذكر سبحانه في هذه الآية، وما بعدها عشرة أدلة على ذلك، بدأها بتسبيح الله تعالى وحمده في الإصباح والمساء والعشي والظهيرة، إشارة إلى تنزيه الخالق سبحانه عن الشرك، وإلى أنه المستحق للعبادة دون سواه، ولكنهم غافلون عن التنزيه اللائق بجلال الله سبحانه.

الآيات السابقة توطئة لما جاء في هذه الآيات العشر:

وقد بدأت هذه الآيات -الناطقة بوحدانية الله تعالى، الشاهدة بربوبيته سبحانه بعد هذا

(١) جاء ذلك عن الأوزاعي عند ابن عساكر (٣٤/٤١)، (٥٥/٧٠).

(٢) أخرجه الدِّيَنَوْرِيُّ في (المجالسة) كما في «الدر المنثور» (٥٨٩/١١).

الافتتاح - بخلق الإنسان، وعمارته للأرض، وبقائه فيها بالتناسل، ومن ثمَّ إلى مظاهر هذا الكون، ممثلة في خلق السماء والأرض.

ثم تحدثت الآيات عن لوازم الإنسان باختلاف ألسنته وألوانه، ثم ما يعرض له من النوم والسعي، كما ذكرت الآيات عوارض السماء من البرق والمطر، ولوازم قيامهما، فهذه الآيات العشر تبدأ - بعد التسبيح - بخلق الإنسان، وتنتهي بإعادته بعد الموت بالبعث والنشور في الدار الآخرة.

ويأتي تسبيح الله تعالى وحمده تعقيباً على مشهد القيامة، بعد بيان مصير أهل الإيمان وأهل الكفر، وبعد مقدمة لجولة من التفكير في ملكوت السموات والأرض، وأغوار النفس، وعجائب الخلق.

للتسبيح معنيان:

في رحاب التسبيح والتحميد

المعنى الأول، هو الإيمان، والمعنى الآخر، هو الصلاة

أ- فالتسبيح يكون بمعنى: الإيمان، وهو تنزيه الله تعالى بالجنان، وتوحيده باللسان، وعمل صالح بالجوارح، وهذا يشمل جميع الأركان.

وقد سبَّح الله تعالى نفسه في هذه الآية؛ ليرشد العباد إلى كيفية تسبيحه وتقديسه جلَّ وعلا في جميع الأوقات.

ومن شأن التسبيح أن يفتح القلب لتدبر الحياة والموت، ويربط العبد بربه في كل وقت وآن.

فسبَّحوا الله - أيها الخلق. - ونزَّهوه عن الشريك والولد والزوجة، وصِفُوهُ بصفات الكمال والجلال بألستكم وقلوبكم، في كل وقت وآن.

ب- ويكون التسبيح بمعنى: الصلاة، قيل لابن عباس رضي الله عنه: هل تجد الصلوات الخمس

في القرآن؟ قال: نعم، وقرأ الآيتين. ومما جاء في فضل التسبيح:

١- عن سهل بن معاذ بن أنس الجهني عن أبيه عن رسول الله ﷺ قال: «ألا أخبركم لم

سَمَّى الله إبراهيم خليله الذي وُفِّي؟ لأنه كان يقول كلما أصبح وأمسى: سبحان الله حين

تمسّون وحين تصبحون، وله الحمد في السموات والأرض وعشياً وحين تظهرون»^(١).

٢- وعن أبي سعيد الخدري وأبي هريرة رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال: «إن الله اصطفى من الكلام أربعاً: سبحان الله، والحمد لله، ولا إله إلا الله، والله أكبر، فمن قال سبحان الله، كتبت له عشرون حسنة، وحُطت عنه عشرون سيئة، ومن قال: الله أكبر، مثل ذلك، ومن قال: لا إله إلا الله، مثل ذلك، ومن قال: الحمد لله رب العالمين، من قِيلَ نفسه، كتبت له ثلاثون حسنة، وحُطت عنه ثلاثون سيئة»^(٢).

٣- وعن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «من قال سبحان الله وبحمده في يوم مئة مرة، حطت خطاياها وإن كانت مثل زبد البحر»^(٣).

٤- وعنه رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «من قال حين يصبح وحين يمسي: سبحان الله وبحمده مئة مرة، لم يأت أحد يوم القيامة بأفضل مما جاء به إلا أحد قال مثل ما قال، أو زاد عليه»^(٤).

٥- وفي الصحيحين: عن أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «كلمتان خفيفتان على اللسان، ثقيلتان في الميزان، حبيبتان إلى الرحمن: سبحان الله وبحمده، سبحان الله العظيم»^(٥).

٦- وعن جويرية بنت الحارث زوج النبي ﷺ أم المؤمنين رضي الله عنها أن النبي ﷺ خرج من عندها ذات غداة، وهي في مسجدتها، فرجع بعدما تعالى النهار، فقال: «ما زلت في مجلسك هذا مُدُّ خرجتُ بعد؟» قالت: نعم، فقال: «لقد قلتُ بعدك أربع كلمات ثلاث مرات، لو وُزنت بكلماتك لوزنتهن: سبحان الله وبحمده عدد خلقه، ورضاء نفسه، وزنة

(١) أخرجه أحمد (٤٣٩/٣) برقم (١٥٦٢٤) قال محققو «المسند»: حديث حسن، إسناده ضعيف، وأخرجه الطبراني (١٩٢/٢٠) برقم (٤٢٧، ٤٢٨) وقال إلهي في «المجمع» (١٢٠/١): وفيه ضعفاء وثقوا، يعني: ابن لهيعة، وأخرجه الطبري في التفسير (١٩٣٨).

(٢) أخرجه أحمد (٣٨٧/١٣)، برقم (٤٠٥/١٧)، (٨٠١٢، ٨٠٩٣) قال محققو «المسند»: إسناده صحيح على شرط مسلم، وأخرجه الحاكم (٥١٢/١) والنسائي في عمل اليوم والليلة (٨٤٠) والبخاري (٣٠٧٤) كشف الأستار - والبيهقي في الشعب (٥٧٦).

(٣) من حديث طويل في «صحيح مسلم» برقم (٢٦٩١) و«صحيح البخاري» برقم (٣٢٣٩، ٦٤٠٣، ٦٤٠٥).

(٤) «صحيح مسلم» برقم (٢٦٩٣).

(٥) «صحيح البخاري» برقم (٦٤٠٦، ٦٦٨٢) و«صحيح مسلم» برقم (٢٦٩٤).

عرشه، ومداد كلماته»^(١).

٧- وفي صحيح مسلم: عن سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه قال: كنا عند رسول الله ﷺ فقال: «أيعجز أحدكم أن يكتسب كل يوم ألف حسنة؟» فسأله سائل من جلسائه، قال: كيف يكتسب أحدنا ألف حسنة؟ قال: «يسبح مئة تسبيحة، فيكتب له ألف حسنة، أو يحط عنه ألف خطيئة»^(٢). قال تعالى:

١٨- ﴿وَلَهُ الْحَمْدُ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَعَشِيًّا وَحِينَ تُظْهِرُونَ﴾

أي: وله سبحانه الحمد والثناء في السموات والأرض، والليل والنهار، فهو المستحق لذلك من أهل السموات والأرض، وفوائد هذا الثناء تعود على الخلق وليس عليه سبحانه. ثم أخذت الآيات تبين دلائل القدرة، وتشهد بوحديته تعالى، وربوبيته سبحانه، واستحقاقه للحمد والثناء، وها هي الأدلة العشرة على وحدانية الله تبارك وتعالى:

الدَّلِيلُ الْأَوَّلُ: الْإِخْيَاءُ وَالْإِمَاتَةُ

١٩- ﴿يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ^(٣) وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَيُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَكَذَلِكَ تُخْرَجُونَ^(٤)﴾

فمن عظيم قدرة الله تعالى، ومن دلائل وحدانيته أنه يُخرج الحي من الميت، كخروج الإنسان من النطفة، والنبات من الأرض، والطيور من البيضة.

وفي النطفة حيوانات منوية تنمو، ولكن هذا النمو لا يتحقق إلا بالتفاعل الخاص بالرحم، ولذا صحَّ أن يقال لها: (ميتة) فهي تحمل مادة الحياة، كالحبة والنواة، ولكن هذه الحياة لا تنمو إلا بالتفاعل مع الأرض، فإن كان في النطفة والبيضة حياة تنمو، إلا أنها ليست كالحياة المعروفة.

(١) «صحيح مسلم» برقم (٢٧٢٦).

(٢) «صحيح مسلم» برقم (٢٦٩٨).

(٣) قرأ نافع وحفص وحمزة والكسائي وأبو جعفر ويعقوب وخلف بتشديد الياء من (الميت)، والباقون بالتخفيف.

(٤) قرأ حمزة والكسائي وخلف وابن ذكوان بخلف عنه بالبناء للفاعل في (تخرجون)، والباقون بالبناء للمفعول، وهو الوجه الثاني لابن ذكوان. أما الموضع الثاني وهو (إذا أنتم تخرجون) فليس فيه إلا البناء للفاعل لجميع القراء.

ولذا صح أن يقال: إن المؤمن يخرج من الكافر، كما أخرج الله خالد بن الوليد، من الوليد بن المغيرة، وأخرج هند بنت عتبة بن ربيعة، من أبيها، وأخرج أم كلثوم بنت عقبة، من أبيها، وهكذا .

ويُخرج سبحانه الميت من الحي، كالنواة من النخلة، والكافر من المؤمن.

ويحيي الأرض بعد موتها بإخراج الزرع منها بعد يُيسها وجفافها، قال تعالى: ﴿وَتَرَى الْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنْبَتَتْ مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ﴾ [الحج: ٥].

ومثل هذا الإحياء تخرجون من قبوركم؛ للبعث والنشور، والحساب والجزاء، قال تعالى: ﴿وَاللَّهُ أَنْبَتَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ نَبَاتًا ۖ ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيهَا وَيُخْرِجُكُمْ إِخْرَاجًا﴾ [نوح].

وقال تعالى: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ تَرَى الْأَرْضَ خَاشِعَةً فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ إِنَّ الَّذِي أَحْيَاهَا لَمُجِي الْمَوْتِ﴾ [فصلت: ٣٩].

فكما يُحيي الله الأرض بإخراج النبات منها، يُحيي الخلق بالبعث بعد الموت، فلا فرق بين الأمرين، ولا موجب لاستبعاد أحدهما مع مشاهدة الآخر.

الدليل الثاني: البَدْءُ وَالْإِعَادَةُ

٢٠- ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ إِذَا أَنْتُمْ بَشَرٌ تَنْشُرُونَ﴾ [١٠]

ومن دلائل وحدانيته تعالى وربوبيته، أن خلق أباكم آدم من تراب جاف يابس لا حركة فيه ولا نُمو، ثم جعله طيناً لازباً، ثم حمأ مسنوناً، ثم صلصالاً، ثم سَوَّاهُ ونفخ فيه من روحه، وخلق حواء منه .

ثم خلق ذريته من نطفة يعود أصلها إلى التراب والغذاء الذي خرج منه، ثم تحولت النطفة إلى علقة، ثم إلى مضغة، ثم صارت هيكلًا عَظْمِيًّا، ثم كسا الله العظام باللحم، ثم نفخ فيه من روحه، فصار إنساناً سميعاً بصيراً ﴿فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ﴾ [المؤمنون: ١٤].

ثم خرج من بطن أمه صغيراً ضعيف القوى والحركة، فلما تكاملت قُوَاهُ تحرَّك في الحياة يبني ويعمر، أو يخرب ويدمر، يعمل للدنيا، أو يعمل للدنيا والآخرة معاً، وهذا معنى: ثم إذا أنتم بشر تتناسلون وتنتشرون في الأرض، تبتغون من فضل الله، وتمشون

في مناكبها، وتتقلبون في أرجائها.

عن أبي موسى رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الله خلق آدم من قبضة قبضها من جميع الأرض، فجاء بنو آدم على قدر الأرض، جاء منهم الأبيض والأحمر والأسود، وبين ذلك، والخبيث والطيب، والسهل والحزن، وبين ذلك»^(١).

ووفقاً لاختلاف تربة الأرض، فإن ألوانهم مختلفة، وطباعهم مختلفة، وأخلاقهم مختلفة، واستعدادهم للإيمان والكفر مختلف.

الدليل الثالث: المودة والرحمة بين الزوجين

٢١- ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾

ومن آيات الله الدالة على كمال قدرته، أن خلق لكم من جنسكم ونوعكم أزواجاً، كما خلق حواء من آدم، فلفظ ﴿مِنْ أَنْفُسِكُمْ﴾ يحتمل خلق حواء من آدم، فهي مخلوقة من نفس آدم، أي: من ذات شخصه.

قال تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا﴾ [الأعراف: ١٨٩].

وقال سبحانه: ﴿يَأْتِيهَا النَّاسُ أَتَقُولُ رَبِّكُمْ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً﴾ [النساء: ١].

وفي صحيح البخاري وغيره: عن أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فلا يؤذي جاره، واستوصوا بالنساء خيراً، فإنهن خُلِقْنَ من ضلع، وإن أعوج شيء في الضلع أعلاه، فإن ذهبَتْ تقيمه كسرته، وإن تركته لم يزل أعوج، فاستوصوا بالنساء خيراً»^(٢).

(١) رواه أحمد (٤٠٠/٤) برقم (١٩٥٨٢، ١٩٦٤٢) قال محققوه: إسناده صحيح ورجاله ثقات، وأبو داود (٥/

٦٧) برقم (٣٦٩٣) والترمذي برقم (٢٩٥٥) وابن حبان (٦١٨١) والطبري في التفسير (٦٤٥).

(٢) «صحيح البخاري» برقم (٥١٨٥، ٥١٨٦) و«صحيح مسلم» برقم (١٤٦٨).

وفي لفظ له: «إن المرأة خلقت من ضلع، لن تستقيم لك على طريقة، فإن استمتعت بها استمتعت بها، وبها عوج، وإن ذهبَت تقيمها كسرتها، وكسرتها طلاقُها»^(١).

وهكذا صَحَّت الأحاديث بخلق حواء من ضلع آدم، ولا يلزم منه نقص ضلوع الذكر عن الأُنثى.

وقد أودع الله تعالى في كل من الزوجين عواطف ومشاعر ورغبة وميلاً تجاه الآخر بما يحقق سَكَنَ النفس، وراحة الجسم والقلب، واستقرار المعاش والحياة؛ وذلك لتطمئن نفوسكم إليها وتسكن بما جعل بينكما من المحبة والشفقة، والمودة والرحمة؛ حتى ينتج عن ذلك التناسل والذرية، ولم يكن بين الرجل والمرأة قبل الزواج سابق معرفة، ولا سبب يوجب التعاطف، ومع هذا فكل منهما بعد الزواج يكون أحب شيء للآخر، ويطلع كل منهما على عورات الآخر، بما لم يطلع عليه الأبوان، ولا إخوة الرحم!! ولو جعل الله بني آدم كلهم ذكوراً، وجعل الإناث من نوع آخر، كالجن أو الحيوان، لما حصل بينهم هذا الائتلاف والمودة والرحمة.

وفي هذا عبرة وعظة لمن يُعْمِل فكره؛ ويتدبر آيات الله لإدراك حكمة الخالق وكمال قدرته ﷻ.

الدَّلِيلُ الرَّابِعُ: خَلْقُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ

٢٢- ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَأَخْلَفَ الْمَنَاجِمَ وَالْوَنُكْمَ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّلْعَالَمِينَ﴾^(٢)

ومن دلائل القدرة الإلهية ما يلازمنا في حياتنا من نعم، صباحاً ومساءً، فنألفها ونمرُّ عليها سريعاً دون تأمل ولا نظر، كهذا الخلق الضخم العظيم (السماء) بما فيها من: أفلاك ومدارات، ونجوم وكواكب، مع أنها مرفوعة بلا عمد، وكذا (الأرض) وما فيها من: كنوز ومياه وثمرات، مع اتساعها وامتدادها، وما بينهما من مسافات وأبعاد، فلا تصادُم، ولا خلل، ولا اضطراب.

قال تعالى: ﴿وَيُمَسِّكُ السَّمَاءَ أَن تَقَعَ عَلَى الْأَرْضِ إِلَّا بِإِذْنِهِ﴾ [الحج: ٦٥].

(١) مسلم (١٤٦٨) والبخاري (٥١٨٤).

(٢) قرأ حفص بكسر اللام التي قبل الميم من (للعالمين) جمع عالم بكسر اللام، ضد الجاهل، والباقون بفتح اللام وهو كل موجود سوى الله تعالى.

وقال سبحانه: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُمْسِكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ أَنْ تَزُولَا﴾ [فاطر: ٤١].

وقال سبحانه: ﴿لَخَلْقُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ﴾ [غافر: ٥٧].

وخلق السموات والأرض وما فيهما آيات دالة على عظمة الخالق وكمال قدرته وحكمته وسعة علمه وعموم فضله ورحمته، وقد نبه الله العقول بذلك لتدرك أنه وحده الذي يستحق أن يُعبد ويوحّد.

الدليل الخامس: اختلاف الألسنة والألوان

﴿وَخَلَقْنَا أَلْسِنَتَكُمْ وَاللُّوْنَكُمْ﴾ يلتقي الإنسان بغيره من بني البشر ممن يخالفونه في اللغة، في موسم الحج وغيره، كل منهما له لسان وسمع وبصر... يتفقان في الخلق البشري، وكل منهما لا يفقه كلام الآخر، كأن أحدهما إنسان، والآخر من غير جنس الإنسان، فهذا عربي، وذاك أعجمي، أو تركي، أو روسي، أو فرنسي، أو ألماني، أو هندي، وما إلى ذلك، وكلها ألسنة ولغات متعددة، على كثرتها وتبايها، ووحدة مخارج الحروف، وهكذا يقف الأبيض إلى جوار الأسود، والأسمر، والأشقر، والأصفر، والأحمر، كأن كلّاً منهم مخلوق آخر.

والإسلام لم يفرق بين الناس على أساس اللون، أو الجنس، أو اللغة، بخلاف التفرقة عند بني البشر، وليس أدل على ذلك من التمييز العنصري، والتفرقة بين البيض والسود في أكبر البلاد التي تدّعي الحرية والمساواة، وترعى حقوق الإنسان، والجميع من أصل واحد، ومادة واحدة، وأب واحد، هو آدم «كلكم لآدم وآدم من تراب».

فما الذي فرّق بينهم في اللغات واللهجات والألوان؟! إنك لا تجد صورتين متفتقتين من كل وجه، ولا لونين متفتقين من كل وجه سبحانه الخلاق العظيم!!

ولو أن الأصوات والصور اتحدت لكانت ضرباً واحداً، ولوَقَعَ الالتباس بين الناس، وتعطل كثير من المصالح، ولَمَّا كان بعضهم مسخرًا في خدمة بعض؛ فاختلاف الأشكال والألسنة يميز بين الناس، ويُعرَف كلُّ منهم بلونه ولسانه وصورته وشكله.

وفي هذا آيات وعبر للعالمين، ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّلْعَالَمِينَ﴾ بكسر اللام، وهم أهل البصيرة والعلم والمعرفة، والعالمون هم أهل العلم الذين يفهمون العبر ويتدبرون الآيات.

وعلى القراءة الأخرى بفتح اللام، يكون المعنى: إن في هذا لعبرة وعظة للخلق جميعاً. واختلاف اللغات والألوان له علاقة بخلق السموات والأرض؛ بسبب اختلاف الأجواء والبيئات على سطح الأرض، وطبيعة الوضع الفلكي للأرض، ولذا جاء معها في آية واحدة.

الدَّلِيلُ السَّادِسُ: الرَّاحَةُ وَالْحَرَكَةُ فِي اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ

٢٣- ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ مَنَامُكُمْ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَابْتِغَاؤُكُمْ مِنْ فَضْلِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ﴾

خلق الله الإنسان متناسقاً مع الكون الذي يعيش فيه، فحاجته إلى العمل والكد والسعي تكون في ضوء النهار، وحاجته إلى النوم والراحة تكون مع ظلام الليل، وجميع الأحياء على وجه الأرض يجمعون بين الليل والنهار والنوم والنشاط بنسب متفاوتة، وهذا من أدلة قدرة الله تعالى، ففي النوم حصول الراحة وذهاب التعب، وفي الانتشار بالنهار طلب الرزق، وفي هذا نفوذ لمشيئة الله تعالى لمن يسمع الموعدة فيتأمل ويعتبر.

ومن رحمته تعالى بخلقه أن جعل لهم وقتاً للراحة والنوم ووقتاً للسعي والعمل، ولا يتم ذلك إلا بتعاقب الليل والنهار، قال تعالى: ﴿وَمِنْ رَحْمَتِهِ جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [القصص: ٧٣] وقد يصاب الإنسان في الليل بالأرق، وهنا علمنا النبي ﷺ دعاء ندعو به فيذهب هذا الأرق، وهو علاج نفسي عظيم.

ورد أن زيد بن ثابت ؓ قال: أصابني أرق من الليل، فشكوت ذلك للنبي ﷺ فقال: «قل: اللهم غارت النجوم، وهدأت العيون، وأنت حي قيوم، يا حي يا قيوم، أنم عيني، وأهدئ ليلي» فقلتها، فذهب عني^(١).

الدَّلِيلُ السَّابِعُ: الْبَرْقُ وَالْمَطَرُ

٢٤- ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ يُرِيكُمُ الْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنْزِلُ^(٢) مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَيُخْرِجُ بِهِ الْأَرْضَ

(١) الطبراني في «المعجم الكبير» (١٢٤/٥) وابن السني في «عمل اليوم والليلة» برقم (٧٤٥) وابن عدي في «الكامل» (١٥٠/٥) وله شاهد من حديث أنس، حسنه ابن حجر في «الفتوحات الربانية» (١٧٧/٣).

(٢) قرأ ابن كثير وأبو عمرو ويعقوب بتخفيف الزاي وإسكان النون (وينزل)، والباقون بتشديد الزاي وفتح النون.

بَعْدَ مَوْنِهَآ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوِّيرٍ يَعْقِلُونَ ﴿٢٤﴾

ومن عظيم قدرة الله تعالى أن يريكم البرق، ويُسمعكم الرعد الذي يعقبه، وغالبًا ما يصحبهما المطر، فتخافوا من الصواعق، وتطمعوا في الغيث، وينزل من السحاب مطرًا تحيا به الأرض بعد جفافها وجفافها، ويغيث الله به العباد والبلاد، ويريكُم مقدماته من الرعد والبرق قبل نزوله، فتارة ترجون الخير والنفع، وتارة تخافون الصواعق والسيول، والمؤمن يعيش بين الخوف والرجاء، فلا يبطر ولا ييأس، قال تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي يُرِيكُمُ الْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنْشِئُ السَّحَابَ الثِّقَالَ﴾ [الرعد].

وفي هذا مجال خصب للعقل؛ كي يتدبر ويتأمل، ويهتدي لتوحيد خالق هذا الكون.

الدليل الثامن: ثبوت السموات والأرض وبقاؤهما بانتظام واستقرار

٢٥- ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ تَقُومَ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ بِأَمْرِهِ ثُمَّ إِذَا دَعَاكُمْ دَعْوَةً مِّنَ الْأَرْضِ إِذَا أَنْتُمْ تَخْرُجُونَ﴾

أي: ومن آياته تعالى ثبوت السموات بلا عمد، واستقرار الأرض دون أن تميد، وقيامهما بواجبهما، وأداء مهمتهما، دون تلكؤ ولا انحراف ولا اضطراب، ولا تخلف عن نظام السير والحركة، ولا تزلزل للأرض، ولا سقوط للسماء على الأرض، ولا انجراف للأرض في الماء، كل ذلك آية دالة على كمال قدرة الله تعالى، كما قال سبحانه ﴿إِنَّ اللَّهَ يُمْسِكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ أَنْ تَزُولَا وَلَئِن زَالَا إِنَّ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِّنْ عِندِهِ﴾ [فاطر: ٤١]
وقال سبحانه: ﴿وَيُمْسِكُ السَّمَاءَ أَنْ تَقَعَ عَلَى الْأَرْضِ إِلَّا بِإِذْنِهِ﴾ [الحج: ٦٥].

كان عمر بن الخطاب ؓ إذا اجتهد في اليمين يقول: لا، والذي تقوم السماء والأرض بأمره، أي: وهي قائمة ثابتة بأمر الله تعالى لها، وتسخيره إياها.

هذا عن الشق الأول من الآية ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ تَقُومَ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ بِأَمْرِهِ﴾.

ويشير الشق الآخر منها وهو قوله ﴿ثُمَّ إِذَا دَعَاكُمْ دَعْوَةً مِّنَ الْأَرْضِ إِذَا أَنْتُمْ تَخْرُجُونَ﴾ أي: إلى البعث والنشور والحساب والجزاء.

فإذا كان يوم القيامة بُدِّلَت الأرض غير الأرض والسموات، وخرج الأموات من قبورهم أحياء بأمره تعالى وبدعائه إياهم، كما قال تعالى: ﴿يَوْمَ يَدْعُوكُمْ فَتَسْجُدُونَ بِحَمْدِهِ﴾ [الإسراء: ٥٢]. وقال جلَّ شأنه: ﴿إِنْ كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً فَإِذَا هُمْ جَمِيعٌ لَّدَيْنَا مُحْضَرُونَ﴾ [يس: ٥٢].

وكان مُنكرو البعث وهم في الدنيا يستبعدون ذلك، كما قال تعالى حكاية عنهم: ﴿وَقَالُوا أَإِذَا ضَلَلْنَا فِي الْأَرْضِ أَإِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ﴾ [السجدة: ١٠].

ومن ذلك قولهم: ﴿أَإِذَا كُنَّا تُرَابًا وَءَابَاؤُنَا أَنِينًا لَمُخْرَجُونَ﴾ [النمل: ٦٧].

وأيضاً: ﴿وَقَالُوا أَإِذَا كُنَّا عِظْمًا وَرُقْنًا إِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا﴾ [الإسراء: ٤٩].

وإذا كان هذا الكون يسير وفق نظام محكم دقيق، مليئاً بأمر الله تعالى، فإن البشر أدعى أن يمثلوا أمر الله سبحانه، إذا دعاهم للخروج من قبورهم للبعث، والحساب والعزاء، أن يخرجوا سراعاً، تلبية لنداء الله تعالى فوراً، حين ينفخ إسرافيل في الصور النفخة الثانية، ويقول: يا أهل القبور قوموا، فلا تبقى نسمة من الأولين والآخرين إلا قامت:

﴿يَوْمَ يُخْرِجُونَ مِنَ الْأَجْدَاثِ سِرَاعًا﴾ [المعارج: ٤٣]. ﴿يَوْمَ تَشَقُّقُ الْأَرْضُ عَنْهُمْ سِرَاعًا﴾ [ق: ٤٤].

الدليل التاسع: خُضُوعُ الْكَوْنِ كُلِّهِ لِلَّهِ تَعَالَى

٢٦- ﴿وَلَهُ مِنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ كُلُّ لُحٍ قَانِتُونَ﴾ ﴿٢٦﴾

وبعد هذا التفصيل لكثير من الكائنات، يأتي جماع الكون كله، ما ذكر منه وما لم يُذكر؛ ليقرر أن جميع الخلائق -في العالمين العلوي والسفلي- مطيعة لله تعالى، قانتة وخاضعة له سبحانه، من غير منازع ولا معاون ولا معارض، فالكل يسجد لله، والكل يسبح بحمد الله، والكل متقاد لله، مستجيب لأمره.

فمعنى القنوت في الآية: امتثال أمر الله تعالى، والانقياد له في الشهادة لله تعالى بالوحدانية، والاستجابة له حين أخذ عليهم ميثاق التوحيد وهم في أصلاب آبائهم، فاستمر على ذلك كثير منهم، وكثير منهم حق عليه العذاب، والجميع يطيع الله تعالى، وينقاد له بلسان الحال أو المقال، وكلهم يسجد لله تعالى طوعاً وكرهاً، وظلالهم بالغدو والآصال، مع أن الله تعالى قد خلقهم لطاعته، ولكنك قد تبري القلم للكتابة ولا تكتب به، فكان من المخلوقات الأرضية العاقلة مَنْ أطاع وامثل، ومنهم من انحرف عن الفطرة، فكفر بالله أو أشرك به، ومنهم من عصى الله تعالى وخالفه في بعض أوامره ونواهيه، وكل هذا وهم في الدنيا.

أما في الآخرة فليس في وسعهم إلا الخضوع والامتثال لما يأمر الله به في شأنهم .
﴿يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [النور]؛ لأن امتثال التكليف والطاعة قد انتهى في الدنيا، فتكون هذه الآية معطوفة على الآية قبلها وموضحة لها .
﴿ثُمَّ إِذَا دَعَاكُمْ دَعْوَةً مِّنَ الْأَرْضِ إِذَا أَنتُمْ تَخْرُجُونَ﴾ كما أن جميع الخلق قد انقاد لله تعالى، وامتثل أمره في الخلق والتكوين، حين قال له: كن؛ فكان .

الدَّلِيلُ الْعَاشِرُ: قَضِيَّةُ الْبَعْثِ وَالنُّشُورِ

٢٧- ﴿وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ وَلَهُ الْمَثَلُ الْأَعْلَىٰ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾
وفي ختام هذه الجولة في الأنفس والآفاق، تقرر الآية الأخيرة فيها ما بدأته في أولها، وهو حقيقة البعث والنشور التي ينكرها بعضهم، ويغفل عنها آخرون .

وليس هناك ما هو هيِّن وأهون بالنسبة لله تعالى، فكل شيء يسير على الله تعالى، يقول له: كن؛ فيكون، وإنما يخاطب الله تعالى الناس على قدر إدراكهم، فإذا كان البدء أصعب من الإعادة، فكيف يستبعد الكافر إحياء الخلق بعد موتهم؟!

قال تعالى: ﴿أَفَعَيَيْنَا بِالْخَلْقِ الْأَوَّلِ بَلْ هُمْ فِي لَبْسٍ مِّنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ﴾ [ق].

والاستدلال بهذا القياس لأنهم أنكروا الإعادة بعد الموت، واعترفوا بالخلق الأول .

﴿وَلَهُ الْمَثَلُ الْأَعْلَىٰ﴾ أي ولله تعالى الوصف الأعلى في كل ما يوصف به، فهو سبحانه ليس كمثله شيء، وهو العزيز الذي لا يغلب، الحكيم في أقواله وأفعاله، وتدير شؤون خلقه، فالمثل الأعلى: كل صفة كمال، وهو الأمر العظيم، والمطلب الكبير، فكل صفة كمال يوصف بها رب العالمين، وكل صفة نقص ينتزه عنها رب العالمين، ومن صفات الكمال: المحبة والإنابة والعبادة، ومن صفات النقص: الغفلة والنسيان .

روى البخاري وغيره، عن أبي هريرة رضي الله عنه، عن النبي ﷺ قال: «قال الله: كذَّبني ابن آدم ولم يكن له ذلك، وشتمني ولم يكن له ذلك، فأما تكذيبه إياي فقلوله: لن يعيدني كما

بدأني، وليس أول الخلق بأهون عليّ من إعادته، وأما شتمه إياي فقلوه: اتخذ الله ولدًا، وأنا الأحد الصمد، الذي لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد»^(١).

هذه عشرة أدلة على وحدانية الله تعالى، وعلى انفراده بالخلق، وعلى إمكانية البعث.

ومنها: خلق الإنسان من تراب، وتقلبه أطوارًا في بطن أمه حتى صار بشرًا سويًا، وخلق الذكور والإناث، واختلاف ألسنتهم وألوانهم، وجعل الليل منامًا لراحة الناس، والنهار معاشًا لابتغاء الرزق، وإنزال المطر من السماء لإحياء الأرض بالنبات، وثبات السموات والأرض واستقرارهما، وغير ذلك من الأدلة في الأنفس والآفاق.

مَثَلُ الْمُشْرِكِ بِاللَّهِ تَعَالَى

٢٨- ﴿ضَرَبَ لَكُمْ مَثَلًا مِّنْ أَنفُسِكُمْ هَلْ لَّكُمْ مِّنْ مَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ مِّنْ شُرَكَاءَ فِي مَا رَزَقْنَاكُمْ فَأَنتُمْ فِيهِ سَوَاءٌ تَخَافُونَهُمْ كَخِيفَتِكُمْ أَنفُسَكُمْ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٢٨﴾﴾

وبعد هذه الآيات الدالة على وحدانية الله تعالى، وعلى بعث الناس بعد موتهم، يضرب الله سبحانه مثلًا عقليًا للمشركين مع الله غيره في عبادته من الذين يعلمون ظاهرًا من الحياة الدنيا، وهو مثلٌ مضروب بالعبد الذي يشارك سيده في ماله أو ميراثه، فإذا كنتم لا ترضون أن يشارككم خدامكم في أموالكم، وأنتم أمام الله سواء في الرزق والعطاء، فكيف ترضون أن تكون آلهتكم التي تعبدونها شركاء مع الله؟ والكل عبيد الله، وهم أمام رزقه سواء؟

والمعنى: إنكم - أيها الناس - إذا كان لكم عبيد تملكونهم، فإنكم لا تشركونهم معكم في أموالكم ومهام أموركم، وليس من شأنكم أن تقاسموهم أموالكم في حياتكم، أو يرثوها بعد مماتكم، فهل لكم من عبيدكم وإمائكم من يشارككم في رزقكم وأموالكم مع أنكم متساوون في رزق الله؟ إنكم تخافون أن يشاركوك في أموالكم، كما يخاف الحرُّ من شريكه الحرِّ،

(١) البخاري برقم (٤٩٧٤، ٤٩٧٥) و«المسند» (٣٥٠/٢) برقم (٨٢٢٠) بإسناد صحيح على شرط الشيخين وابن حبان (٨٤٨) والبخاري (٤١).

فإذا كنتم لا تقبلون ذلك فكيف تقبلونه في جنب الله، بأن تجعلوا له شريكاً من خلقه؟ وكيف تقولون: إن من عبيد الله شركاء له في سلطانه وإلهيته، وتسألونهم جلب الخير ودفع الضر؟

قال قتادة: هذا مثلٌ ضرب به الله تعالى لمن عدل به شيئاً من خلقه، يقول: أكان أحدكم مشاركاً مملوكاً في ماله ونفسه وفراشه وزوجته؟ فكذلك لا يرضى الله تعالى أن يُعدل به أحد من خلقه.

وبمثل هذا البيان نوضح البراهين والحجج لأصحاب العقول السليمة الذين ينتفعون بها.

وكان أهل الشرك في الجاهلية إذا لبى أحدهم عند الكعبة يقول: لبيك اللهم لبيك، لبيك لا شريك لك، إلا شريكاً هو لك، تملكه وما ملك، فأنزل الله الآية^(١).

وإذا كان من اتخذ من دون الله شريكاً ليس معه شيء من الحق، فما الذي أوجب له الإقدام على أمر باطل؟ قال تعالى:

٢٩- ﴿بَلِ اتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَهْوَاءَهُمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ فَمَنْ يَهْدِي مَنْ أَضَلَّ اللَّهُ وَمَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ﴾

أي: ليس للمشركين حجة، ولا عذر فيما يفعلونه من الشرك بالله تعالى في عبادتهم، ودعائهم، وولائهم.

والسبب في الشرك: أن المشركين اتبعوا هواهم، وقلدوا آباءهم، فشاركوهم في الجهل والضلال الذي لا يُرجى معه هدى، وهو اختيارهم بمحض إرادتهم ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ اتَّبَعَ هَوَاهُ بِغَيْرِ هُدًى مِنَ اللَّهِ﴾ [القصص: ٥٠].

وليس في الآخرة من يخلصهم من عذاب الله، ولا من يشفع لهم عنده.

فلا تعجبوا من عدم هداية من أضل الله، فإن الله قد أضلهم بظلمهم، ولا طريق لهداية من أضل الله، إذا لا يوجد منازعاً ولا معارضاً لله تعالى في ملكه.

(١) رواه الطبراني في الكبير عن ابن عباس (٢٠/١٢) قال الهيثمي في «مجمع الزوائد» (٢٢٣/٣): فيه حماد بن سلمة، وهو ضعيف.

دِينُ الْفِطْرَةِ

٣٠- ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ (٣٠)

وما دام العقل والمنطق يرفضان الشريك لله تعالى فأخلص العبادة -أيها المخاطب- لله وحده، وتوجه إليه دون سواه، ولا تشرك معه غيره، واستمر على ما شرعه الله لك، واثبت على فطرة الله التي فطر الناس عليها، وخلقهم لها، وهي الإسلام والتوحيد، والدين الخالص الذي أخذه الله عهداً على بني آدم وهم أمثال الذر في أصلاب آبائهم ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى شَهِدْنَا﴾ [الأعراف: ١٧٢].

وقد خلق الله الأولين والآخرين على هذه الفطرة، ولا تبديل لدين الله.

وفي الحديث عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «ما من مولود إلا يولد على الفطرة، فأبواه يهودانه، أو ينصرانه، أو يمجسانه»^(٢).

زاد في رواية له في الصحيحين، قالوا: يا رسول الله، أفرأيت من يموت صغيراً؟ قال: «الله أعلم بما كانوا عاملين»^(٣).

ومن أمارات الشقاء للطفل أن يولد بين يهود أو نصارى أو عبدة أوثان، فيحملوه على اعتقاد دينهم، ولو أن الطفل ترك على الفطرة دون تأثير من الوالدين أو البيئة لتوجه بنفسه نحو التوحيد، واستمر عليه.

(١) رُسمت (فطرت) في المصحف بالتاء، ووقف عليها بالهاء ابن كثير وأبو عمرو والكسائي ويعقوب، ووقف الباقون بالتاء، وأمال الكسائي الهاء عند الوقف عليها بخلف عنه.

(٢) أخرجه الشيخان عن أبي هريرة، «فتح الباري» (٣٧٢/٨)، (٥١٢/١١) وهو في البخاري برقم (٤٧٧٥)، (٦٥٩٩) ومسلم (٢٠٤٧/٤) برقم (٢٦٥٨) و«صحيح سنن أبي داود» (٣٩٤٥) وابن حبان في الإحسان (١٣٢) والحاكم (١٢٣/٢).

(٣) من حديث ابن عباس في البخاري (١٣٨٣)، (٦٥٩٧) ومسلم (٢٦٦٠) و«المسند» (٣٢٨/١)، (٧٣/٥) برقم (٣٠٣٤) وعن أبي هريرة (٧٣٢٥) وغيره.

فالفطرة: هي الجبلة التي خُلِقوا عليها، وقد خلق الله الناس قابلين لأحكام الإسلام والدين الحق، والتوحيد الخالص، والحنيفية السمحة.

والمعتبر في ذلك هو القيام بالتكاليف الشرعية التي يكتسبها العبد بقوله وعمله، وإرادته وفعله بعد صحة الاعتقاد، فهذا هو الذي يؤاخذ عليه العبد.

أما الإيمان الفطري الذي لا يُترجم عنه عمل ولا سلوك، فهو غير معتبر في حكم الشرع؛ لأن الإنسان في هذه الحالة محكوم له بحُكم أبيه الكافرين، كما في الحديث عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «فأبواه يهودانه، أو ينصرانه، أو يمجسانه»^(١).

وقد نهى الإسلام عن قتل أولاد المشركين، فقد بعث النبي ﷺ سرية إلى خيبر، فقاتلوا المشركين، وقتلوا الذرية، فلما جاؤوا قال النبي ﷺ: «ما حملكم على قتل الذرية؟» قالوا: إنما كانوا أولاد المشركين، قال: «وهل خياركم إلا أولاد المشركين؟ والذي نفسي بيده ما من نسمة تولد إلا على الفطرة حتى يُعرب عنها لسانها»^(٢).

زاد في رواية: «فإذا عبّر عنه لسانه إما شاكراً، وإما كفوراً»^(٣).

وهذا ما يشير إليه الحديث عن عياض بن حمار رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال فيما يرويه عن ربه: «إني خلقت عبادي حنفاء كلهم، وإنهم أتتهم الشياطين فاجتالتهم عن دينهم، وحرمت عليهم ما أحللت لهم، وأمرتهم أن يشركوا بي ما لم أنزل به سلطاناً...»^(٤).

فمع أنهم خُلِقوا حنفاء موحدين، لكنهم انحرفوا عن الفطرة بإرادتهم وتأثير الهوى

(١) صحيح مسلم (٢٦٥٨) ومسنند أحمد (٧١٨١) بإسناد صحيح على شرط الشيخين، وأبو يعلى (٦٣٩٤) وابن حبان (١٢٨).

(٢) عبد الرزاق (٩٣٨٦) وابن أبي شيبه في الجهاد (١٤٠٧٧) وأحمد (٤٣٥/٣) برقم (١٥٥٨٨) والنسائي في الكبرى (٨٦١٦) والحاكم (١٢٣/٢) قال الذهبي: على شرط البخاري ومسلم، وقال محققو «المسنند» رجاله ثقات رجال الشيخين، إلا أن الحسن البصري لم يسمع من الأسود بن سريع.

(٣) قال الهيثمي في «المجمع» (٢٢١/٧): فيه أبو جعفر الرازي وهو ثقة، وفيه خلاف، وبقية رجاله ثقات.

(٤) من حديث طويل عن عياض بن حمار في «صحيح مسلم» برقم (٢٨٦٥) وفي «المسنند» (١٦٢/٤) برقم (١٧٤٨٤). بإسناد صحيح على شرط مسلم، وأخرجه أبو داود الطيالسي (١٠٧٩) والطبراني في الكبير ١٧/ (٩٩٥) والأوسط (٢٩٥٤).

والشيطان، فكانوا من أهل الشقاء، وخالفوا بذلك العهد الذي أخذه الله عليهم وهم في أصلاب آبائهم.

ولا تبديل للمعتقدات التي في الدين الحنيف، فإنها أصل كل شريعة، وأصل الاعتقاد جارٍ على مقتضى الفطرة العقلية، فالعقل يدركها ويشهد لها ولا يجافها، وكون الإسلام هو الفطرة صفة اختص بها من بين الديانات ﴿ذَلِكَ الَّذِي أَلْقَيْتُمُ﴾ المناسب لكل زمان ومكان، وهو الدين المهيمن على سائر الديانات.

معنى الفطرة: وقد اختلف السلف في المراد بالفطرة، وأشهر الأقوال أنها الإسلام^(١).

ويراد بها ابتداء الخلق، والإقرار بالله تعالى، والمعرفة بوحديته تعالى حين أخذهم من صلب آدم، ومنهم من جحد ذلك بعد إقراره، ولا يترتب على هذا الأمر ثواب ولا حكم شرعي، وإنما يترتب الثواب والعقاب على عمله واكتسابه.

وسبب الاختلاف في معنى الفطرة احتجاج القدرية على أن الكفر والمعصية ليسا بقضاء الله تعالى، بل بإحداث الناس، فحاول بعض أهل العلم مخالفتهم في التأويل.

هذا هو الطريق المستقيم الموصل إلى رضى الله تعالى وجمته، وأكثر الناس لا يعلمون أنه الحق من عند الله الذي نزل به الوحي على محمد ﷺ؛ لأنهم جهال لا علم لهم، أو عندهم علم ولكنهم ضلوا وأعرضوا عنه.

ومقصود الآية: أن الله تعالى يقول لنبيه: لا تهتم بإعراض المكذبين لك، وتوجه إلى الله بكليتك في صلاتك وصيامك وزكاتك وحجك، وسائر الشرائع الظاهرة، وتوجه إليه بكليتك في العبادات الباطنة كالمحبة والإنابة والخوف والرجاء، وكن محسناً في عبادتك الظاهرة والباطنة بأن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك، وهذا كقوله تعالى: ﴿إِنْ حَاجُّوكَ فَقُلْ أَسَمْتُ لِرَبِّيَ اللَّهِ وَمَنِ اتَّبَعَنِ﴾ [آل عمران: ٢٠].

وقوله سبحانه: ﴿فَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَمَنْ تَابَ مَعَكَ﴾ [هود: ١١٢].

وإقامة الوجه لله تعالى تعني: إخلاص التوحيد لله سبحانه، وخص الله إقامة الوجه،

(١) ابن حجر في «الفتح» (٣/ ١٩٧).

لأن إقبال الوجه يتبع إقبال القلب، ويترتب عليه سعى البدن، كما قال تعالى:

﴿وَأَقِيمُوا وُجُوهَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾ [الأعراف: ٢٩].

وقوله جل شأنه: ﴿إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ حَنِيفًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ [٧٩] [الأنعام].

وُجُوبُ الْإِسْتِقَامَةِ عَلَى مَنْهَجِ اللَّهِ، وَعَدَمُ الْإِخْتِلَافِ فِي الدِّينِ

٣٢، ٣١ - ﴿مُنِيبِينَ إِلَيْهِ وَاتَّقُوهُ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ [٣١] مِنَ الَّذِينَ فَرَّقُوا^(١) دِينَهُمْ وَكَانُوا شِبَعًا كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ ﴿٣٢﴾

في هذه الآية تفسير لإقامة الوجه للدين، فإن إنابة القلب تقود البدن إلى إقامة الشرائع الظاهرة والباطنة، وقد خصت الآية الصلاة بالذكر من بين الأمور، لأنها رأس الأمور، ولأنها تدعو إلى الإنابة والتقوى، كما خصت الشرك من بين المنهيات، لأنه أصل المنهيات، ولا يقبل معه عمل، والشرك ضد الإخلاص والإنابة.

وبعد أن تتهيأ القلوب مستقيمة على الفطرة لهذا الدين الذي يعصمها من الأهواء والزلل، يبين سبحانه معنى إقامة الوجه للدين، وأنه يتمثل في: الاستقامة على منهج الله، وإسلام الوجه له، والإنابة إلى الله وحده.

فارجعوا إليه -أيها الناس- وأخلصوا له العمل، وراقبوه في السر والعلن، وامثلوا الأوامر، واجتنبوا النواهي، فأقيموا وجوهكم لخالقكم مقبلين عليه بالاستغفار والإنابة، وأقيموا الصلاة، أي: حافظوا عليها في أوقاتها بأركانها، وواجباتها، وسننها، وشروطها، ولا تشركوا مع الله غيره في العقيدة، أو العبادة، أو القول، أو العمل.

وكما نهى سبحانه عن الشرك نهى عن التفرق في الدين وحذر منه.

أي: ولا تكونوا من أهل البدع والأهواء، أو أهل الشرك في عقيدتهم وعبادتهم، كاليهود والنصارى الذين بدلوا دينهم وغيروه وحرّفوه، فأخذوا بعضه وتركوا بعضه، تبعاً

(١) قرأ حمزة والكسائي (فارقوا) من المفارقة وهي الترك؛ لأن من آمن ببعض وكفر بالبعض ترك الدين القيم، وقرأ الباقون (فرّقوا) بتشديد الراء وحذف الألف.

لأهوائهم وتقليدًا لغيرهم، وصاروا فرقًا وشيعًا وأحزابًا يوافقون أهواءهم ورؤساءهم وأحزابهم في آرائهم، ويُعين بعضهم بعضًا على الباطل، وهم يظنون أنهم وحدهم على حق، وأن غيرهم على باطل، ويفرحون بما لديهم وإن كان باطلاً، ظنًا منهم أنهم على حق، وربما كانوا على باطل.

مرَّ عمر على معاذ بن جبل رضي الله عنه، فقال عمر: ما قوام هذه الأمة؟ قال معاذ: ثلاث، وهن المنجيات:

١ - الإخلاص، وهو فطرة الله التي فطر الناس عليها.

٢ - الصلاة، وهي الملة. ٣ - والطاعة، وهي العصمة.

فقال عمر: صدقت^(١).

والقراءة الأخرى: (مِنَ الَّذِينَ فَارَقُوا دِينَهُمْ)، أي: تركوه وراء ظهورهم، كأهل الديانات الباطلة، كما افترق اليهود والنصارى على فرق عديدة.

وقد سئل النبي ﷺ عن الفرقة الناجية فقال: «ما أنا عليه وأصحابي»^(٢).

وما عليه الرسول ﷺ وأصحابه هو الكتاب، وصحيح السنة.

قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيعًا لَسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ إِنَّمَا أَمْرُهُمْ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ﴾ (١٥٩) [الأنعام].

وقد ظلَّ الناس أمة واحدة على دين واحد هو التوحيد، من لدن آدم إلى نوح، ثم حدث الشرك في عهده، فاختلف الناس بين موحد ومشرك، ووثنى، ومؤمن ببعض الكتاب، وكافر ببعض، وهكذا ﴿كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً﴾ فاختلَفوا ﴿فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ﴾ [البقرة: ٢١٣].

وفي الآية نهى للمسلمين وتحذير لهم من التشتت والفرق، والتعصب لكل حزب، حتى

(١) الطبراني (٩٨/٢٠) والطبري (٢٦/٢١).

(٢) الحاكم (١٢٩/١) قال ابن حجر في «تخريج الكشاف» ص ٦٣: إسناده حسن، وقد حسنه الألباني من حديث عبد الله بن عمرو، في صحيح الجامع الصغير برقم (٥٣٤٣) وهو في سنن الترمذي أيضًا.

لا نشابه غيرنا في تفرُّقهم، فالدين واحد، والرسول واحد، والإله واحد، والكتاب واحد، والقبلة واحدة.

وقد أشارت الآيات إلى وجود إنابة اختيارية إلى الله تعالى تكون في حال العسر والعسر، والسعة والضيق، وذلك في قوله تعالى: ﴿مُنِيبِينَ إِلَيْهِ وَاتَّقُوهُ﴾.

ووجود إنابة اضطرارية لا تكون إلا في حاله الضيق والكرب، فإذا زال عن العبد ما هو فيه نسي ما كان فيه من قبل وإلى هذه الإنابة الاضطرارية تشير الآية التالية ﴿وَإِذَا مَسَّ النَّاسَ ضُرٌّ دَعَوْا رَبَّهُمْ مُنِيبِينَ إِلَيْهِ﴾ كما أن الآية السابقة (٣١) ذكرت الإنابة الاختيارية:

فِتْنَةُ السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ

أَوَّلًا: حَالُ الْإِنْسَانِ عِنْدَمَا تَأْتِيهِ النَّعْمَةُ بَعْدَ النَّعْمَةِ

٣٣، ٣٤- ﴿وَإِذَا مَسَّ النَّاسَ ضُرٌّ دَعَوْا رَبَّهُمْ مُنِيبِينَ إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَا آذَاهُمْ مِنْهُ رَحْمَةٌ إِذَا فَرِيقٌ مِنْهُمْ بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ ﴿٣٣﴾ لِيَكْفُرُوا بِمَا ءَانَسْتَهُمْ فَنَتَعَوَّاهُ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿٣٤﴾﴾

وعقب آيات الفطرة يأتي الحديث عن ثمارها التي تتجلى في ثبوت المؤمن الحق على إيمانه، مهما حدث له من تقلبات في صحته، أو ماله، أو ولده، أو جاهه، ... إلخ. فهو يشكر الله تعالى على السراء ويحمده عليها، ويصبر على الضراء، ويرضى بقضاء الله وقدره، وهو متواضع في جميع أحواله.

وقد صحَّ في حديث صهيب الرومي رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «عجباً لأمر المؤمن، إن أمره كله خير، وليس ذاك لأحد إلا للمؤمن، إن أصابته سراء شكر فكان خيراً له، وإن أصابته ضراء صبر فكان خيراً له»^(١).

أما من لا يستند إلى عقيدة صحيحة، فإنه يتأرجح عند تغير الأحداث، عندما يصاب: بمرض، أو فقر، أو هزيمة، أو فقد ولد، ونحو ذلك، حيث تقرُّبه هذه الأزمات من ربه، فيلجأ إليه سبحانه بالعبادة، ويُقبل على الدعاء والتضرع لله تعالى؛ ليكشف عنه هذا الضر، فإذا أرضاه ربه، وجاءه الرخاء بعد الشدة نسي ما كان فيه من ضر وجحد النعمة،

(١) «صحيح مسلم» (٢٢٩٥/٤) برقم (٢٩٩٩) من حديث صهيب الرومي رضي الله عنه.

ورجع إلى شركه وكفره، وفي هذا ذمٌ لهم على فعلهم، وتقبيحٌ لهم على سوء صنيعهم؛ لأن هذه النعمة التي كانوا فيها تقودهم إلى الكفر، أو تكون عاقبتها الكفر، فيكفرون بما آتيناهم من نعم، فاللام في (ليكفروا) لام العاقبة والضرورة.

وهكذا فإن العبد يلجأ إلى الله تعالى عندما يكون في شدة وبلاء، فينبى إليه سبحانه رغماً عنه، ثم يعود إلى شركه بعدما يُرفع عنه ما كان فيه من شدة.

وهذا كفر بما من الله عليهم به من زوال الشدة، فهلاً قابلوا هذه النعمة بدوام الإخلاص إلى الله تعالى؟

وفي هذا المقام يعاجلهم الله سبحانه بالتهديد، في قوله ﴿فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ إنه تهديد من رب العالمين، فتمتعوا بالرخاء والصحة، وهذا أمر يحيل الوعيد، أي: فسوف تعلمون عاقبة كفركم وبطركم.

والإنسان يخاف إذا هدده حاكم أو مسؤول، فكيف بتهديد خالق الكون؟!

الْكُفْرُ وَالشِّرْكُ لَيْسَ لَهُمَا مُسْتَنْدٌ عَقْلِيٌّ وَلَا شَرْعِيٌّ

٣٥- ﴿أَمْ أَرْزَأْنَا عَلَيْهِمْ سُلْطَانًا فَهُوَ يَتَكَلَّمُ بِمَا كَانُوا بِهِ يُشْرِكُونَ﴾ (٣٥)

هذا استفهام إنكاري، أي: ما هو سندهم في هذا الكفر أو الشرك؟ فهل عندهم من عذر أو حجة أو برهان، أو كتاب نزل عليهم، فهو ينطق ويظهر حجتهم بما يأمرهم به من شرك، أو كما قال تعالى: ﴿هَذَا كِتَابُنَا يُنْطَقُ عَلَيْكُمْ بِالْحَقِّ﴾ [الجاثية: ٢٩]. وهذا تهكم بهم؛ لسفاههم وجهلهم، وفيه نفي أن يكون شركهم مبنيًا على دليل، أو على حجة واضحة، أو على كتاب من الله ينطق ويشهد بشركهم، وهو يُثبت أنه لا يوجد إلا تقاليدهم الباطلة، وأهواؤهم الفاسدة، وأفكارهم الزائفة، فالله تعالى لم يُنزل عليهم ما يأمرهم بالكفر بنعم الله عليهم، ولا بما وقعوا فيه من كفر وشرك، إنما فعلوا ذلك تقليدًا لغيرهم دون علم، ولا هدى، ولا كتاب منير.

قال تعالى: ﴿أَمْ أَلَيْسَ لَهُمْ كِتَابٌ مِّن قَبْلِهِ فَهُمْ بِهِ مُسْتَمْسِكُونَ﴾ (٣٦) بَلْ قَالُوا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ آثَرِهِمْ مُّهْتَدُونَ ﴿٣٦﴾ [الزخرف].

ثَانِيًا: حَالُ الْإِنْسَانِ عِنْدَمَا يُصَابُ بِالنَّقْمَةِ بَعْدَ النِّعْمَةِ

٣٦- ﴿وَإِذَا أَذَقْنَا النَّاسَ رَحْمَةً فَرِحُوا بِهَا وَإِنْ تُصِيبَهُمْ سَيِّئَةٌ يِمَّا قَدَمَتْ أَيْدِيهِمْ إِذَا هُمْ يَقْنَطُونَ﴾^(١)

لَمَّا وصف الله سبحانه في الآية السابقة حال الناس إذا أتتهم النعمة بعد النعمة، وما يترتب على ذلك من أن بعض الناس يقلُّ شكره، وينغمس في شهواته وملذاته، بعد أن كان متضرعًا إلى ربه يلتمس فضل الله تعالى ورحمته.

بعد ذلك وصف الله سبحانه في هذه الآية الحالة المقابلة، وهي أن الإنسان إذا نزل به الضر بعد أن كان في نعمة، فإنه يقنط ويأس من رحمة الله، بعد أن كان في فرح ومَرَح، وهذا شأن كثير من الناس إلا من ربط الله على قلبه، فصبر على البلاء، وشكر على السراء، فلم تبطره النعمة، ولم يقنطه البلاء.

ونعم الله تعالى على الإنسان لا تُعدُّ ولا تُحصى، وقد يفرح الإنسان بالنعمة التي هو فيها، كالصحة والغنى والأمن والجاه، ثم يألفها، فينسى حقها بعد أن فرح بما أوتي فرحًا أشر وبطر، فإذا فقد ما هو فيه من: صحة، أو رخاء، أو جاه، لسبب من الأسباب، ومنها ارتكاب الذنوب، فإن اليأس يخامرهم، والقنوط يغلب عليه، فيفقد كل رجاء في كشف الغمة عنه.

والمراد بالرحمة في الآية: أثرها، وهو المنافع والأحوال الحسنة.

والمراد بالسيئة: كل ما يسوء الإنسان ويحزنه، وقد قُدمت الإصابة بالرحمة في هذه الآية، وأُخرت في الآية السابقة، لمناسبة غرض الآيتين، وهكذا يتجلى اليأس واضحًا بعد فقد العبد للنعمة، كما قال تعالى: ﴿وَلَيْنَ أَذَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنَّا رَحْمَةً ثُمَّ نَزَعْنَاهَا مِنْهُ إِنَّهُ لَيَكُونُ مِنَّا كَافِرًا﴾ [هود]. فهو لا يستشعر فضل النعمة إلا عند فقدانها، كما قيل: الصحة تاج على رؤوس الأصحاء لا يراه إلا المرضى.

والإنسان الهلوع هو الذي لا يشكر الله على النعمة، ولا يؤدي حق الله وحق الناس فيها، فيجحدّها وينكرها، ويمنع خيرها ومعروفه عن الناس، ثم هو يجزع ولا يصبر على الضر إذا

(١) قرأ أبو عمرو والكسائي ويعقوب وخلف بكسر النون من (يقنطون)، والباقون بفتحها.

أصابه، هذا هو وصف الإنسان الهلوع غير المؤمن، الذي قال الله فيه: ﴿إِنَّ الْإِنْسَانَ خُلِقَ هَلُوعًا ﴿١٩﴾ إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعًا ﴿٢٠﴾ وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعًا ﴿٢١﴾ إِلَّا الْمُصَلِّينَ ﴿٢٢﴾﴾ [المعارج].

فإذا أصابته النعمة مرة أخرى بعد أن فقدتها فإنه يفخر ويفرح، ويطغى وينسى ما كان فيه: ﴿وَلَكِنْ أَذَقْنَاهُ نِعَمَاءَ بَعْدَ ضَرَّاءَ مَسَّتَهُ لِيَقُولَنَّ ذَهَبَ السَّيِّئَاتُ عَنِّي إِنَّهُ لَفَرِحٌ فَخُورٌ ﴿١٩﴾ إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَٰئِكَ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ ﴿٢١﴾﴾ [هود].

وهذا هو ما تقرره الآيات في قوله تعالى: ﴿لَا يَسْتَمُ الْإِنْسَانُ مِنْ دُعَاءِ الْخَيْرِ وَلَٰنَ مَسَّهُ الشَّرُّ فَيَئُوسٌ قَنُوطٌ ﴿٢٩﴾ وَلَكِنْ أَذَقْنَاهُ رَحْمَةً مِنَّا مِنْ بَعْدِ ضَرَّاءَ مَسَّتَهُ لِيَقُولَنَّ هَٰذَا لِىَ وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً وَلَئِنْ رُجِعْتُ إِلَىٰ رَبِّي إِنَّ لِي عِنْدَهُ لَلْحُسْنَىٰ﴾ [فصلت].

شَأْنُ الْمُؤْمِنِ الشُّكْرُ فِي السَّرَّاءِ وَالصَّبْرُ عَلَى الْبَلَاءِ

٣٧- ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ وَيَقْدِرُ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٣٧﴾﴾

أي: وبدلاً من يأس العبد وقنوطه، كان عليه أن يدرك أن الله تعالى هو المعطي المانع، وهو القابض الباسط، يوسع على من يشاء، ويضيق على من يشاء، وفق علمه وحكمته، فهو الذي يُنعم بالرحمة ويتلى بالشدة، لا راد لقضائه ولا معقب لحكمه، ولا يُسأل عما يفعل، والاستفهام في معنى النفي.

على أن المؤمن مكلف بالشكر في السراء، والصبر على الضراء، والرضى بالقضاء.

والرؤية في الآية معناها: العلم والمعرفة، كما قال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ وَيَقْدِرُ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٢﴾﴾ [الزمر: ٥٢].

وعلى الإنسان أن يُبذل الأسباب في تحصيل الأرزاق، ويتكل على مسبب الأسباب.

وقد خُتِمت الآيتان بما يفيد أن المؤمن هو الذي يتتفع ويعتبر بما يُتلى عليه.

الْأَمْرُ بِالصَّدَقَةِ وَالصَّلَةِ

٣٨- ﴿فَإِذَا ذَا الْقُرْبَىٰ حَقُّهُ وَالْمَسْكِينُ وَابْنُ السَّبِيلِ ذَٰلِكَ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يُرِيدُونَ وَجْهَ اللَّهِ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿٣٨﴾﴾

أي: وما دام الله هو الذي يعطي ويمنع، فعلى المرء أن يعامل الناس على ضوء ما أُوتى،

ويعطي كل ذي حق حقه، ويصل بيره وعطفه أهل البر والصدقة من الأرحام والمساكين وابن السبيل، وهو الذي انقطع به الطريق بعيداً عن أهله، يعطيهم من الزكاة ومن الصدقة، والنفقة الواجبة والمستحبة، كل على حسب درجة قُربه وفقره وحاجته، وما تنزل به من جوائح ونوازل، فإن ذلك الإعطاء خير للذين يريدون بعملهم وجه الله تعالى.

فإن لم يرد المتصدق وجه الله تعالى، لم يكن خيراً للمعطي، وإن كان فيه نفعاً للمعطي، والذين يعملون هذه الأعمال الخيرة هم الفائزون بثواب الله لهم، الناجون من عقابه، ﴿لَا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِّنْ نَّجْوَاهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَاحٍ بَيْنَ النَّاسِ﴾ [النساء: ١١٤]

وقد سمي الله هذا البر وهذا العطاء حقاً؛ لأن المال مال الله، وقد استخلف خلقه فيه؛ ليعطيهم به.

ولما ذكر سبحانه ما يقصد به وجه الله تعالى من النفقات، أتبع ذلك بما يقصد به عرض الدنيا.

مِنْ مَّظَاهِرِ الرِّبَا

٣٩- ﴿وَمَا آتَيْتُم (١) مِّن رِّبَا لِّرَبُّوْا (٢) فِي أَمْوَالِ النَّاسِ فَلَا يَرِيوْا عِنْدَ اللَّهِ وَمَا آتَيْتُم مِّن ذَّكَوٰةٍ تَرِيدُوْنَ وَجْهَ اللَّهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُضْعِفُونَ﴾

أي وما أعطيتُم من أموال، طمعاً في أكثر منها عن طريق المعاوضة، فإن هذا المال لا يبارك فيه ولا يزيد عند الله، وما أعطيتُم من مال يطهركم من البخل ويظهر أموالكم، من حقوق الآخرين، وتريدون به وجه الله تعالى، فهو لاء يضاعف لهم الأجر والثوبة.

وهكذا: بيّن سبحانه في هذه الآية الطريق لربح الأموال ونمائها، وأن ذلك لا يكون بأخذ زيادة في القرض، فهو رباً محرم، وليس فيه زيادة للمال، وإنما هو محق له وخسران.

(١) قرأ ابن كثير بقصر همزة (وما آتيتُم من ربا) بمعنى: جتتم، والباقون بمدّها بمعنى: أعطيتُم، أما (وما آتيتُم من زكاة) فجميع القراء على مد همزتها.

(٢) قرأ نافع وأبو جعفر ويعقوب بالتاء في (لتربووا) مع إسكان الواو، مضارع أربى وهو منصوب بأن مضمرة بعد لام التعليل، وعلامة نصبه حذف النون، وقرأ الباقيون بالياء وفتح الواو، مضارع ربي، وهو منصوب بالفتحة الظاهرة، والفاعل في القراءة الأولى: ضمير المخاطبين، وهو ضمير يعود على الربا في القراءة الثانية.

ولا تكون زيادة المال بإعطاء هدية لشخص موسر، بغية ردها مضاعفة، فهو أمر جائز، ولكن لا أجر عليه.

وقد نهى الله رسوله أن يطلب أكثر مما يعطي، فقال تعالى: ﴿وَلَا تَمْنُنْ تَسْتَكْثِرُ﴾ [المدرثر]. وهذه حرمة خاصة بالنبي ﷺ.

أما الزيادة الحقيقية فهي التي تجعل المال يبارك فيه في الدنيا، وتجعل القليل منه يؤدي فوائد جمة، ويكون العبد فيه مسددًا، ويرفع الله عنه ما لا يعلم من الحوائج والابتلاءات التي تأكل الأموال، ومع كل هذا فهو مأجور عند الله تعالى، مضاعف له في الثواب.

وطلب الزيادة الحقيقية في الأموال تكون بإنفاق المال في وجوه الخير والصدقات، ابتغاء مرضاة الله تعالى وطلبًا لثوابه ﴿وَمَا أَتَيْتُم مِّن رَّبًّا﴾ أي: وما أعطيتم قرضًا من المال طلبًا للزيادة فيه؛ ليزيد وينمو في أموال الناس، فلا يربو ولا يزيد عند الله في الأجر، بل إنه يُمحق وتقل بركته، وإن كثر وازداد، كما قال تعالى: ﴿يَمْحُ اللَّهُ الرِّبَا وَيُزِيلُ الصَّدَقَاتِ﴾ [البقرة: ٢٧٦]. وهذا كمن يعطي هدية طمعًا في ردها أضعافًا ممن أهدها، فهي وإن زادت في الدنيا فإنها لا تزيد عند الله.

وما أعطيتم من صدقة أو زكاة تبتغون بها وجه الله تعالى ورضاه، فإن هذا العطاء هو الذي ينمو، ويضاعف عند الله تعالى.

أخرج ابن أبي حاتم عن محمد بن كعب القرظي، قال في معنى الآية: هو الرجل يعطي الشيء ليكافئه به، ويزداد عليه فلا يربو عند الله، والآخر يعطي الشيء لوجه الله، ولا يريد من صاحبه جزاء ولا مكافأة، فذلك الذي يضاعف عند الله^(١).

والآية عامة تشمل كل من يُقرض المال طلبًا للزيادة، وكل من يعطي هدية بقصد الزيادة في ردها، وتشمل كل ما هو بنحو ذلك.

ثم أرشد سبحانه إلى طريق النماء الحقيقي للأموال، فقال: ﴿وَمَا أَتَيْتُم مِّن زَكَاةٍ﴾ أي:

(١) «الدر المنثور» (١١/٦٠٤).

وما أعطيتم من زكاة واجبة، أو صدقة تطوع ﴿تُرِيدُونَ﴾ بنفقتكم هذه وجه الله، فإن هؤلاء هم الذين تضاعف لهم أموالهم حقيقة في الدنيا والآخرة. وقد شرعت الزكاة في مكة بشكل عام، ثم حُدِّدت أنصبتها ومقاديرها في المدينة.

صحَّ في الحديث عن أبي هريرة ؓ أن النبي ﷺ قال: «من تصدق بعِذْل تمر من كسب طيب -ولا يقبل الله إلا الطيب- وإن الله يتقبلها بيمينه ثم يربها لصاحبها، كما يربي أحدكم فلؤه حتى تكون مثل الجبل»^(١).

فالتمرة تبلغ حجم جبل أُحُد إذا كانت من حلال، وتم التصديق بها ابتغاء وجه الله تعالى، وهذا هو الطريق لنماء المال ومضاعفته.

التدرج في تحريم الربا:

١- وهذه الآية تشير إلى أولى مراحل التدرج في تحريم الربا.

٢- ثم كان النهي عن أكل الربا أضعافاً مضاعفة بقوله تعالى: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَأْكُلُوا الرِّبَا أَضْعَافًا مُّضَاعَفَةً﴾ [آل عمران: ١٣٠].

٣- ثم جاء النهي عن قليله وكثيره في قوله تعالى: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَذَرُوا مَا بَقِيَ مِنَ الرِّبَا إِن كُنْتُمْ مُّؤْمِنِينَ﴾ [البقرة: ٢٧٨].

وسبب هذا التدرج في التحريم: أن الربا كان فاشياً في الجاهلية وصدر الإسلام، وخاصة في قريش وثقيف، فلما أرشد الله المسلمين إلى مواساة الأغنياء للفقراء، أتبع ذلك بتهيئة النفوس للكف عن التعامل بالربا مع من يقترضون منهم الأموال.

مِنْ خَصَائِصِ الْإِلَهِ الْحَقِّ: الْخَلْقُ وَالرِّزْقُ وَالْإِحْيَاءُ وَالْإِمَاتَةُ

٤٠- ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ ثُمَّ رَزَقَكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ مَن يَفْعَلُ مِثْلَ ذَلِكَ مِنْ شَيْءٍ سُبْحَنَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾^(٢)

(١) «صحيح البخاري» برقم (١٤١٠) وهذا لفظه، وانظر: (٧٤٣٠) و«صحيح مسلم» برقم (١٠١٤).

(٢) قرأ نافع وابن كثير وأبو عمرو وابن عامر وعاصم وأبو جعفر ويعقوب بياء الغيب في (يشركون) على الالتفات، والباقون بياء الخطاب جرياً على نسق الآية.

الله وحده هو الذي يخلق، وهو الذي يرزق، وهو الذي يحيي ويميت، وليس بإمكان أحد -كائنًا من كان- أن يفعل شيئًا من هذه الأربع.

فإن الذي خلق الإنسان، وأخرجه عريانًا من بطن أمه، فأطعمه وكساه، وجعل له عرقين رقيقين في صدر أمه يجريان لبنًا خالصًا، حارًا في الشتاء باردًا في الصيف، وأمدّه بالسمع والبصر، والقوة والعلم والمعرفة، وهو الذي يرزقه طيلة عمره كما يرزق النملة في جحرها، وكما يرزق كل دابة لا تقوى على تحصيل قوتها، وما عليه إلا أن يأخذ بالأسباب.

هذا: وفتنة الفقر والغنى قد طحنت العالم بأسره منذ نشأ، فالخوف من الفقر هو هاجس الطبقة العظمى من الشعوب، ومقاومة الفقر تجري على قدم وساق.

فلا يزال التسابق على الاستثمار والانفتاح الاقتصادي يستولي على أفكار الحكّام، ولا تزال السوق المشتركة حلمًا يراود الكثير من المسؤولين، ولا تزال الرأسمالية يصفو لها الجو على أنقاض الاشتراكية، وقد مُنيت الرأسمالية أثناء كناية هذه السطور عام ١٤٣٠هـ بانتهاء اقتصادي عالمي لم يسبق له نظير، وهو انهيار منذر بإفلاسها وزوال مجدها، كما زال مجد الشيوعية الاشتراكية من قبل.

ولا يزال الخوف من كثرة النسل والعمل على تحديده، أو تنظيمه -هو الشغل الشاغل لبعض الحكّام، كأنه المسؤول عن رزق الخلق!! والواقع يُكذب ذلك، فأحوال العالم الاقتصادية في تحسن مستمر مضاعف عن السابق، وقد جاء في الحديث ما معناه:

«إن المال يفيض في آخر الزمان ولا يجد من يأخذه»^(١).

والناس في عصرنا يشكون التخمّة، والسمنة المفرطة، وكانوا في الماضي يُغْمى عليهم من الجوع، وهم في الحاضر يزخمون بكثرة الكماليات، وكانوا بالأمس يستضيئون بالقمر والمصباح، ويشربون من القرية، ويتبرّدون تحت الشجرة، ويتوسّدون حشو الليف، ويصنعون خبز وقتهم في التنور بعد طحنه بأيديهم على الرحى، ويذهب الرجل مسافرًا شهرًا إلى الشام على البعير، ويعود في مثله؛ ليأتي بخبر واحد من هناك، فأين هذا من

(١) جاء هذا في أحاديث أشراف الساعة.

مختلف وسائل الراحة والعيش، والتقنية والتقدم والرفاهية التي نعيشها اليوم؟!

وأين هذا من مظاهر كثرة الأموال والكماليات في عصرنا؟!

أما ما يُنفق من ميزانيات الدول على الحروب والدمار، والتدخين والمخدرات والمسكرات، وتبديد الأموال والطاقات فيما لا يعود على الأمة بفائدة، كالكرة والفن، فحدّث ولا حرج.

وكل هذا مع عدم استثمار الأرض الموات، وعدم التوجه إلى الصناعة لاسيّما التصنيع الحربي الذي به تحيا الأمة، وتأمين شر عدوها، والأخذ بالأسباب من نواميس الله في الكون، فلا تخشوا الفقر يا قوم، ولا تقلقوا ولا تهلعوا، ولا تضيّئوا بالمال، وأنفقوا منه في وجوه الخير.

وهو سبحانه الذي يميّتكم عند انتهاء آجالكم، وهو الذي يبعثكم يوم القيامة للحساب والجزاء.

وكل هذا من خصائص الله ﷻ، ولم يدع أحد أنه خلق شيئاً منها ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ﴾ بأن أوجدكم من العدم ﴿ثُمَّ رَزَقَكُمْ﴾ بما تنمو به أجسادكم، ويحفظ به حياتكم ﴿ثُمَّ يُمِيتُكُمْ﴾ عند انقضاء أعماركم ﴿ثُمَّ يُحْيِيكُمْ﴾ للبعث والحساب، والثواب والعقاب. هذه أربعة أشياء تكفل الله بها لعباده، وهي: الخلق، والرزق، والموت، والحياة بعد الموت.

فكيف يشركون مع من انفرد بهذه الأربع، من ليس له تصرف فيها بوجه من الوجوه؟

ثم يتوجه القرآن بالسؤال لغير المؤمنين بالله سبحانه، فيقول: ﴿هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ﴾ أي: الذين تشركونهم مع الله تعالى في عبادتكم، هل منهم من يخلق، أو يرزق، أو يحيي، أو يميت؟

ولما كان هذا السؤال لا يحتاج إلى جواب؛ لأن الجواب معلوم، فإن الله تعالى لم يذكر لهم جواباً؛ لأن السؤال معناه النفي، أي: ليس من شركائكم الذين عبدتموهم من دون الله، من يستطيع أن يفعل شيئاً من ذلك، فكيف أشركتموهم مع الله في عبادته وهو الخالق الرازق المحيي المميت؟

ولذا بادرت الآية بالتعقيب على هذا التساؤل، بتنزيه الله ﷻ عن الشرك، فتقدس سبحانه أن يكون له شريك أو مثيل، أو ولد أو والد، سبحانه وتعالى عما يقولون علواً كبيراً.

الْحَيَاةُ تَصْلُحُ بِالطَّاعَةِ وَتَفْسُدُ بِالْمَعْصِيَةِ

٤١- ﴿ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُمْ^(١) بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾

ذكر الله سبحانه في هذه الآية أن سبب ضيق العيش وحلول الأمراض والآفات والأوبئة ونزول البلاء بالناس؛ هو ما قدمته أيديهم من كثرة المعاصي والإفساد في الأرض، حيث نرى بعضهم تحت خط الفقر، والجهل، والتخلف، سيما المؤمنين منهم، فهم في ضنك وجذب، وهزائم من قبل الأعداء، وتأخر في الصناعة والتقنية.

وذلك بسبب شؤم المعاصي، وحب الدنيا والركون إليها، ووقوع ألوان من الشرك في الأمة، فكان ذلك عقوبة لما يقترفونه من الذنوب والآثام؛ كي يتوبوا إلى الله تعالى، ويرجعوا إليه، فتصلح أحوالهم وتستقيم أمورهم، قال تعالى: ﴿وَمَا أَصَابَكُمْ مِّنْ مُّصِيبَةٍ فِيمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُوا عَنْ كَثِيرٍ﴾ [الشورى].

وليعلموا أن الله يعجل لعباده بعض العقوبات في الدنيا على سوء أعمالهم، ولو أذاقهم الله عقوبة جميع ما كسبوا ما ترك على ظهرها من دابة ﴿وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِمَا كَسَبُوا مَا تَرَكَ عَلَى ظَهْرِهَا مِّنْ دَابَّةٍ﴾ [فاطر: ٤٥] ﴿وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِظُلْمِهِمْ مَا تَرَكَ عَلَيْهَا مِّنْ دَابَّةٍ﴾ [النحل: ٦١]

والله تعالى لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم، فحرمان الرزق بسبب التخلي عن منهج الله تعالى، وهو ترك لواجب الخلافة في الأرض، وإفساد فيها بمخالفة أمره تعالى، وتبديل هذا الحال مرتبط بإصلاح النفس وإصلاح الأمة.

وكل من عصى الله في الأرض فقد أفسد فيها؛ لأن صلاح الأرض وما فيها يكون بالطاعة وحسن العمل:

والمراد من الآية: ظهور الفساد بالهزائم والأمراض والنكبات وقلة الأرزاق بسبب ارتكاب المعاصي في كل زمان ومكان، وبما اقترفه الناس من المحرمات، وانتشار الظلم في أرجاء المعمورة.

(١) قرأ روح وقبيل بخلف عنه بنون العظمة في (ليذيقهم)، والباقون بالياء لإسناد الفعل إلى ضمير لفظ الجلالة، وهو الوجه الثاني لقبيل.

ومن مظاهر هذه المعاصي: انتشار الشرك، والظلم، وسفك الدماء، والزنى، وكثرة الأحقاد والعدوان، وجور الحكام، وتعطيل إقامة الحدود، فترتب على ذلك قلة الخيرات، ونقص الزروع والثمار، واحتلال بلاد المسلمين، وضعف شوكتهم، وما إلى ذلك.

ولهذا جاء في الحديث عن أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «حدُّ يقام في الأرض أحب إلى أهلها من أن يُمطروا أربعين صباحاً»^(١).

والسبب في هذا أن الحدود إذا أُقيمت ترك الناس ارتكاب المحرمات، وإذا تُركت المعاصي كان هذا سبباً في حصول الخير والبركة.

وحين يكثر الخير مع وجود المعاصي، فإن هذا يكون من باب الفتنة والاستدراج.

وقد ورد أنه عند نزول عيسى عليه السلام وبعد قتله للدجال، يقال للأرض: أخرجي بركاتك، فياكل من الرمانة الفثام -أي الجماعة- من الناس، ويستظلون بقحفها، ويكفي لبن اللقحة -الناقة- الجماعة من الناس، وذلك ببركة تنفيذ شريعة محمد ﷺ، فكلما أُقيم العدل كثر الخير والبركة.

ولهذا ثبت في الحديث عن أبي قتادة بن ربعي الأنصاري رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «العبد المؤمن يستريح من نَصَب الدنيا وأذاها إلى رحمة الله، والعبد الفاجر يستريح منه العباد والبلاد والشجر والدواب»^(٢).

فالله تعالى يتلي عباده بنقص الأموال والأنفس والثمرات في الدنيا بسبب الآثام والمعاصي، اختباراً ومجازاة لهم على صنيعهم ﴿وَلَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ إلى الله تعالى عن ذنوبهم، ويحكمون منهج الله في أرضه، قال تعالى: ﴿وَبَلَوْنَهُمْ بِالْحَسَنَاتِ وَالسَّيِّئَاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ [الأعراف: ١٦٨].

أما أهل الكفر والضلال فقد يكونون في رغد من العيش على كفرهم، وهذا إهمال لهم، لا إهمال، واستدراج لهم لا إنعام، ولأنهم قوم قد عُجِّلَتْ لهم طياتهم في الدنيا،

(١) النسائي (٧٥/٨) وفي الكبرى برقم (٧٣٥١) ويلفظ (ثلاثين صباحاً) برقم (٧٣٥٠) موقوفاً على أبي هريرة برقم (٢٥٣٨) وابن ماجه (٢٥٣٨) وابن حبان (٤٣٩٨٩) مرفوعاً و«المسند» (٣١٢/٢) من حديث أبي هريرة.

(٢) «صحيح البخاري» برقم (٦٥١٢، ٦٥١٣) و«صحيح مسلم» برقم (٩٥٠).

وَحُرِّمُوا مِنْهَا فِي الْآخِرَةِ، فالدنيا جنتهم، وهي سجن المؤمن، وجنة الكافر، فالموازنة بين المؤمن والكافر غير واردة.

وفي الآية تهديد للعصاة والمذنبين أن يُقلعوا عن سوء أعمالهم؛ حتى لا يصيبهم ما أصاب مَنْ سبقتهم، وعليهم أن يعتبروا بما حدث لغيرهم:

١- قال تعالى: ﴿وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِمَا كَسَبُوا مَا تَرَكْنَا عَلَى ظَهْرِهِمَا مِنْ ذَنْبٍ وَلَكِنْ يُؤَخِّرُهُمْ إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ [فاطر: ٤٥].

٢- قال تعالى: ﴿أَوَلَا يَرَوْنَ أَنَّهُمْ يُفْتَنُونَ فِي كُلِّ عَامٍ مَّرَّةً أَوْ مَرَّتَيْنِ ثُمَّ لَا يَتُوبُونَ وَلَا هُمْ يَذْكُرُونَ﴾ [التوبة].

٣- وقال سبحانه: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَىٰ ءَامَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ﴾ [الأعراف: ٩٦].

٤- وقال جلَّ شأنه: ﴿وَالْوِاسْتَقْمُوا عَلَى الطَّرِيقَةِ لَأَسْقِيَنَّهُمْ مَّاءً غَدَقًا﴾ [الجن].

وفي الآية التالية دعوة إلى دراسة التاريخ لمعرفة مصير أهل الضلال والشرك:

٤٢- ﴿قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلُ كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُّشْرِكِينَ﴾ [٤٢]

الأمر بالسير في الأرض يشمل التنقل بالأبدان، ويشمل التنقل بالقلوب والأبصار، للنظر والتأمل في عواقب الأمور، والاستفادة مما حدث للآخرين من عقوبات، بسبب انحرافهم عن طريق الهدى والرشاد.

أي: والذين خالفوا منهج الله من الأمم السابقة واللاحقة، حلت بهم عقوبة الله تعالى بسبب إفسادهم في الأرض، والله تعالى يحذرنا أن يصيبنا ما أصابهم، وعلينا أن ندرس التاريخ، ونتأمل آثارهم في الأرض، ونتدبر مصارع الظلمة، وإبادة الأمم بسبب كفرهم وشركهم، فاحذروا أن تكونوا مثلهم حتى لا ينزل بكم ما نزل بهم من شر العواقب وعذاب الاستئصال.

وقد كان عذاب الإبادة خاصًا بالأمم السابقة، أما أمة محمد ﷺ فقد رفع الله عنها عذاب الاستئصال؛ لأن هذه الأمة باقية ببقاء الرسالة إلى يوم الساعة.

فاعبدوا الله -أيها الناس- وتأملوا كيف عاقب الله مَنْ كان قبلكم من الأمم السابقة المكذبة لرسول الله تعالى، كقوم نوح، وقوم هود، وقوم صالح، فإنكم ستجدون عاقبتهم أشد عاقبة، ومصيرهم شرُّ مصير؛ لأن أكثرهم كان مشركًا بالله تعالى، فكانت نهايتهم جزاءً وفاقًا لأعمالهم، فلا تكونوا مثلهم، واعتبروا بما حدث لهم، واستقيموا على منهج الله، ولا تفسدوا في الأرض بالمعاصي، واعلموا أيها المؤمنون أنكم تختلفون عن غيركم من حيث التمحيص، وسعة الرزق وتقتيره.

الْأَمْرُ بِالتَّوْبَةِ عَلَى الْحَقِّ وَالتَّمَسُّكِ بِهِ قَبْلَ قِيَامِ السَّاعَةِ

٤٣- ﴿فَاقْمْ وَّجْهَكَ لِلدِّينِ الْقَاسِمِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لَا مَرَدَّ لَهُ مِنَ اللَّهِ يَوْمَئِذٍ يُصَدَّعُونَ﴾

أي: وإذا كان التوجه نحو المعاصي والذنوب، يُحْرِمُ العبد الرزق، ويكون سببًا للإفساد في الأرض، فما هو الطريق الذي لا يضل سالكوه، ولا يخيب قاصدوه؟ إنه التوجه بالقلب والقالب نحو دين الإسلام، بتنفيذ أوامره واجتناب نواهيه، وإسلام الوجه لله تعالى بتوحيد عبادته، والميل عن الشرك والشركاء، والتمسك بهذا التوجه والاستمرار عليه إلى يوم القيامة، فالإسلام هو الدين الأقوم، وحين تقوم الساعة لا يملك أحدٌ ردها، وهذا هو العاصم من فساد الأرض، وسبب مضاعفة الرزق.

﴿فَاقْمْ وَّجْهَكَ﴾ أي: توجّه إلى الله وحده، وأخلص له العمل، واثبت على الدين المستقيم، وهو الإسلام، واستقم على منهج الله، مغتنمًا حياتك قبل موتك، وشاباك قبل هرمك، وصحتك قبل مرضك، وفراغك قبل شغلك، وغناك قبل فقرك، قبل أن ينسبك الفقر، أو يطغيك الغني، أو يفسد المرض عليك حياتك، أو يُجهز عليك الموت، أو يأتي الدجال فشر غائب ينتظر، أو تقوم الساعة بغتة وهى أدهى وأمر.

وكن في كل ذلك، منفذًا أوامر الله تعالى، مجتنبًا نواهيه، قبل مجيء يوم القيامة، فإذا جاء هذا اليوم فليس في إمكان أحد أن يرده أو يدفعه، وهو يوم لا رجعة فيه.

وقد جاء الأمر بالتمسك بهذا الدين في هذه السورة مرتين: مرة بعد ذكر الأهواء والأحزاب كما سبق في الآية ٣٠، ومرة بعد ذكر الشركاء كما في هذه الآية.

ويوم القيامة يفرق الناس أشتاتًا موزعين؛ ليُروا أعمالهم، ﴿يَوْمَئِذٍ يُصَدَّعُونَ﴾ أى ينفردون،

فيكون الناس صنفين: مؤمنين وكفارًا، فريق في الجنة وفريق في السعير، وهذا كقوله تعالى: ﴿وَنُنَزِّلُ يَوْمَ الْجُمُعَةِ لَأَرْبَبَ فِيهِ فَرِيقٌ فِي الْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِي السَّعِيرِ﴾ [الشورى: ٧].

وقوله سبحانه: ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُنْفِرُونَ ﴿٤٤﴾ فَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَهُمْ فِي رَوْضَةٍ يُحْبَرُونَ ﴿٤٥﴾ وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَلِقَاءِ الْآخِرَةِ فَأُولَئِكَ فِي الْعَذَابِ مُحْضَرُونَ ﴿٤٦﴾﴾.

وقوله تعالى: ﴿لِيَجْزِيَ الَّذِينَ أَسْتَوُوا يَمَا عَمِلُوا وَبَجَرَى الَّذِينَ أَحْسَنُوا بِالْحَسَنَى﴾ [النجم: ٣١].

وقوله سبحانه: ﴿يَوْمَ يَأْتِ لَا تَكَلَّمُ نَفْسٌ إِلَّا بِإِذْنِهِ فَمِنْهُمْ سُقَىٰ وَسَعِيدٌ ﴿٤٧﴾﴾ [هود]. وفي هذا اليوم يصدر الناس أشتاتًا متفاوتتين ليرؤا أعمالهم من خير أو شر.

جَزَاءُ الْكُفَّارِ وَالْمُؤْمِنِينَ

٤٥، ٤٤ - ﴿مَنْ كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُ وَمَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلَا نَفْسَ لَهُمْ بِمَعْدُونَ ﴿٤٤﴾ لِيَجْزِيَ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْ فَضْلِهِ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْكَافِرِينَ ﴿٤٥﴾﴾

فأما الكفار فإنهم يخلدون في النار جزاء كفرهم، وكل منهم يتحمل وزره وعاقبته وجزاءه، فقد أبغضهم الله ومقتهم وعاقبهم على كفرهم ﴿إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْكَافِرِينَ﴾.

وأما هؤلاء المؤمنون العاملون للصلوات فإن الله تعالى سيجزيهم من فضله وإحسانه جزاء ما قدموا لأنفسهم في دنياهم، وما هيؤوه لمزلتهم في آخرهم، فقد هيؤوا لها طريق الراحة والسعادة بسبب تمسكهم بالطاعة، وقد أعدوا لأنفسهم المهد الذي يستريحون فيه من الفراش، والمسكن، والقرار بالعمل الصالح، واستعدوا للفوز بمنازل الجنة وغرفاتها، ولن يقتصر جزاؤهم على أعمالهم بل سيجزيهم الله من فضله الممدود وكرمه غير المحدود، وقد فعل الله ما فعل، فجعل الناس فريقين؛ ليجزي المؤمنين العاملين للصلوات الجزاء الحسن الذي أعده لهم بفضله وإحسانه، فهو ثوابٌ تفضل الله به على خلقه، الحسنة بعشر أمثالها لعباده المؤمنين الذين يحبهم ربهم، فالرحمة والفضل لمن يحبه الله تعالى بسبب طاعته وحسن عبادته.

والفريق الآخر، هم أهل السخط والغضب، ممن يكرهم الله تعالى بسبب كفرهم وعنادهم.

مِنْ دَلَائِلِ الْقُدْرَةِ الْإِلَهِيَّةِ: هُبُوبُ الرِّيَّاحِ لِتُبَشِّرَ بِنُزُولِ الْمَطَرِ

٤٦- ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ يُرْسِلَ الرِّيَّاحَ^(١) مُبَشِّرَاتٍ وَلِيُذِيقَكُمْ مِنْ رَحْمَتِهِ وَلِتَجْرِيَ الْفُلُكُ بِأَمْرِهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٤٦﴾﴾

أي: وكيف يكفر بعض الناس بربهم، ولا يقدرون بالعبادة ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ﴾ الدالة على بعث الموتى وعلى كمال قدرته ووحدانيته، وعلى أنه المستحق للعبادة دون سواه ﴿أَنْ يُرْسِلَ الرِّيَّاحَ مُبَشِّرَاتٍ﴾ بنزول المطر وإثارة السحاب، فيستبشر الناس بالمطر الذي يحيي الله به العباد والبلاد.

ونعمة المطر قد لا يشعر بها سكان المدن في هذا العصر؛ حيث تُخزَّن المياه وتساوق لهم في المواسير، فلا يستشعرون هذه النعمة مع أن حياتهم تتوقف على الزرع والضرع الذي يأتي من البادية، وهم الذين يشعرون بالحاجة إلى المطر؛ إذ يترتب على عدم نزوله هلاك زروعهم ومواشيهم وما يصيبهم من القحط والجذب، وقد لا يمكنهم استخراج المياه التي في جوف الأرض.

وحين ينزل المطر يُغاث الخلق، وتحيا الأرض، وتجود الأنعام بالخيرات، وتجري السفن بأمر الله، وتتعش التجارة، ولذا فقد سَمَّى الله المطر رحمة، فقال: ﴿وَلِيُذِيقَكُمْ مِنْ رَحْمَتِهِ﴾ مطراً تحيا به البلاد والعباد، فتعلمون أن رحمته بنزول الماء منقذة للعباد من القحط والجذب، وجالبة لأرزاقهم ﴿وَلِتَجْرِيَ الْفُلُكُ﴾ السفن في البحار ﴿بِأَمْرِهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ﴾ بالسعي على أرزاقكم، والتصرف في معاشكم.

فهذه ثلاث نعم هي: نزول المطر، وجري السفن، وطلب الرزق بالتجارة ونحوها، ورتب على ذلك مقابلة هذه النعم بشكر المنعم سبحانه، أما مقابلة النعم بالكفر والمعاصي فهو حال من بدل نعمة الله كفراً وعرض نعمة الله للزوال.

وكل نعمة منها تستوجب شكر الله تعالى بتوحيده وطاعته.

وفي الأثر عن ابن عباس ؓ: «اللهم اجعلها رحمة ولا تجعلها عذاباً، اللهم اجعلها رياحاً

(١) اتفق القراء على قراءة لفظ (الرياح) في هذه الآية بالجمع.

ولا تجعلها ريحاً» وفيه أن النبي ﷺ كان يجثو على ركبتيه حين تهب الريح^(١).

ومعلوم أن الرياح تأتي بالخير، وأن (الريح) يأتي بالشر.

قال الألوسي: ﴿وَمَنْ أَيْنِهْ أَنْ يُرْسِلَ الرِّيحَ﴾ .

أي: الجنوب، ومهبها من مطلع سهيل إلى مطلع الثريا.

والصَّبَا ومهبها من مطلع الثريا إلى بنات نعش.

والشمال ومهبها من بنات نعش إلى مسقط النسر الطائر، فإنها رياح الرحمة.

أما الدبور، ومهبها من مسقط النسر الطائر إلى مطلع سهل، فريح العذاب^(٢).

نَتَائِجُ دَعْوَةِ الرُّسُلِ

٤٧- ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ رُسُلًا إِلَى قَوْمِهِمْ فَجَاءَهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَأَنفَقْنَا مِنَ الَّذِينَ لَجَرُمُوا وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ (٤٧)

هذه آية معترضة بين الآيات المفصلة لأحكام الرياح؛ لتسلية النبي ﷺ، أي: وكما يحيي الله الأرض بوابل السماء، فإنه سبحانه يحيي القلوب بنور الحكمة عن طريق إرسال الرسل، وإنزال الكتب إلى الناس، مبشرة ومنذرة، تدعوهم إلى التوحيد، وتحذروهم من الشرك، وتبين لهم بطلان ما هم عليه من الكفر والضلال، وهم رسل كثيرون ﴿مِنْهُمْ مَّنْ قَصَصْنَا عَلَيْكَ وَمِنْهُمْ مَّنْ لَّمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ﴾ [غافر: ٧٨]. ﴿وَرُسُلًا قَدْ قَصَصْنَاهُمْ عَلَيْكَ مِنْ قَبْلُ وَرُسُلًا لَّمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ﴾ [النساء: ١٦٤].

وهم رسل مؤيدون من الله تعالى بالمعجزات والبراهين الساطعات، جاؤوا أقوامهم بالبينات وخوارق العادات الدالة على صدقهم، ولكن الناس لم تستقبل رحمة الله تعالى إليهم بالرسالة، بالانتفاع الكامل منها، كما استقبلوا رحمة الله إليهم بالمطر، بالانتفاع منه، بل كان الناس فريقين:

(١) الإمام النووي في «الأذكار» نقلاً عن «الأم» للشافعي من حديث ابن عباس، ومسند الشافعي (٤٧) بإسناد فيه نظر، وهو حديث ضعيف كما في «ضعيف الجامع» (٤٤٦١) وقد أخرجه الشافعي في (شفاء العي) (٥٠٢) وأبو الشيخ (٨٧٣) والبيهقي في «المعرفة» (٢٠٢٩).

(٢) «تفسير الألوسي» (٥١/٢١).

الفريق الأول: مجرم كافر معاند لم ينتفع بالرسالات، ولم يتدبر آيات الله، ولم يؤمن بها، وصدّ الناس عن سبيل الله، وهؤلاء انتقم الله منهم، وأهلكهم في الدنيا ﴿فَأَنقَمْنَا مِنَ الَّذِينَ أَجْرُمُوْا﴾ وكذلك يفعل الله بكل من كذب ولم يؤمن، ووقف في وجه الدعوة من أمة محمد ﷺ فيلقى جزاءه في الآخرة.

والفريق الثاني: مؤمن مصدق بكتب الله ورسله، وهؤلاء لهم العاقبة الحسنة، والنصر على عدوهم، والتأييد من الله تعالى ﴿وَكَاثَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ﴾.

وقد أوجب الله سبحانه على نفسه نصر المؤمنين في قوله تعالى: ﴿حَقًّا﴾ ووعد به، فضلاً منه سبحانه، وكرماً وإحساناً، كما قال تعالى: ﴿كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ﴾ [الأنعام: ٥٤]. وكما قال تعالى: ﴿كَتَبَ اللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي﴾ [المجادلة: ٢١].

فأنتم - أيها المكذبون - إن بقيتم على تكذيبكم حلت بكم العقوبة كما حدث لأسلافكم، ونصرنا دين الله ورفعنا لواءه.

عشرة من عوامل النصر على الأعداء:

ولكن نصر الله للمؤمنين قد يتأخر أحياناً لعدم أهلية المؤمنين للنصر؛ حتى يغيروا ما بأنفسهم،

وقد يكون لعدم الأخذ بأسباب النصر الواردة في قوله تعالى:

١- ﴿وَلَيَنْصُرَنَّ اللَّهُ مَن يَنْصُرُهُ إِنَّكَ اللَّهُ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ (٤٠) الَّذِينَ إِنْ مَكَّنَّهٗمُ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالْأُمُورِ ﴿٤١﴾ [الحج]

٢- والواردة في قوله سبحانه: ﴿وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ﴾ [الأنفال: ٦٠].

٣- وفي قوله تعالى: ﴿يَتْلُوهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا قُيُتِمَّتْ فِتْنَةُ فَاتَّبَتُوا وَآذَكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ (٤٥) وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَا تَتَزَوَّجُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ وَاصْبِرُوا إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾ (٤٦) [الأنفال].

فهذه عشرة أسباب للنصر، منها أربعة في آية سورة الحج ٤١، وهي: إقامة الصلاة، وإيتاء الزكاة، والأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، وهذه دعائم الإسلام الكبرى.

وفي سورة الأنفال الآية ٦٠: ضرورة إعداد القوة بما يناسب العصر: القوة الجوية، والبرية، والبحرية، وغيرها.

وفي سورة الأنفال أيضًا الآيتان ٤٥، ٤٦ خمسة من عوامل النصر، وهي:
الأول: الثبات، وعدم الفرار عند لقاء العدو.

الثاني: الإكثار من ذكر الله تعالى عند لقاء العدو، فإن فيه شحن القلوب بالإيمان، والتوكل على الله سبحانه.

والثالث: طاعة الله ورسوله في كل ما أمر به الشرع، أو نهى عنه.

والرابع: وحدة الأمة الإسلامية، وقاتلها للأعداء تحت راية واحدة مُسلمة، وعدم التنازع والاختلاف، فإن فيه تفرقة الأمة، وتمزيق صفوفها.

والخامس: الصبر في مواجهة العدو، والإقدام على المعركة، طلبًا للنصر أو الشهادة، كما قال تعالى: ﴿وَمَنْ يُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيُقْتَلْ أَوْ يَغْلِبْ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ [النساء: ٧٤].

فأين نحن من هؤلاء؟ وذلك أنه عندما كان المسلمون يُبادون في البوسنة والهرسك، ويُختطفون من أرضهم في فلسطين، ويدفنون أحياء في الشيشان، وتذك البيوت على من فيها في العراق، ويُقتلون يوميًا في أفغانستان، فإن الكثير من جماهير المسلمين في العالم يضحكون ملء أفواههم، ويغرقون إلى آذانهم في اللهو والشهوة.

وبينما كانت البنية التحتية تُدمر وتُحرق في لبنان، كان بعض الناس في رقص وشرب ومرح، وبعضهم يُعدُّ خيامًا راقصة للإفطار والسحور في شهر رمضان، وقضاء ليالي الشهر الفضيل!! ويقع مثل هذا هنا وهناك.

وإذا استوتينا مع عدونا في المعاصي غلبونا بقوة السلاح، فلا بد لنا من التمحيص لإخلاص الولاء لله تعالى، والنظر في عوامل النصر والهزيمة، ودراسة التاريخ للاستفادة منه، والأخذ بأسباب النصر ماديًا ومعنويًا.

لقد فرَّق الله شمل المتدينين من بني إسرائيل قديمًا، وسلَّط عليهم عبدة الأوثان؛ لأن التدين الفاسد ليس جديرًا بالنصر!! وعندما يُصلح المسلمون شؤونهم يقترب النصر منهم.

فوغد الله القاطع لعباده المؤمنين بالنصر واقع في النهاية بيقين، ولا بد لذلك من الأخذ بالأسباب المادية والمعنوية.

والدليل المعاصر على ذلك أنه لما أخلصت فئة من الناس في التوجه إلى الله تعالى، أيدهم الله بنصر من عنده، كما حدث في حرب العاشر من رمضان، وكما حدث في الجنوب اللبناني.

ونسأل الله تعالى أن يهيئ أسباب النصر في: فلسطين، والعراق، والشيشان، وسوريا ولبنان والسودان والصومال وأفغانستان وغيرها.

هذا: ومن نضر المؤمن أخاه أن يدفع عنه مئة سوء، ويردّ عنه غيته، كما جاء في الحديث عن أبي الدرداء رضي الله عنه: «ما من امرئ مسلم يردّ عن عرض أخيه إلا كان حقاً على الله أن يردّ عنه نار جهنم يوم القيامة»^(١).

مِنْ مَنَافِعِ الرِّيحِ

٤٨ - ﴿اللَّهُ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيحَ^(٢) فَتُثِيرُ سَحَابًا فَيَبْسُطُهُ فِي السَّمَاءِ كَيْفَ يَشَاءُ وَيَجْعَلُهُ كِسْفًا^(٣) فَرَقَى الْوَدَقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَالِهِ فَإِذَا أَصَابَ بِهِ^(٤) مِنْ يَسَاءٍ مِنْ عِبَادِهِ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ

ويمضي سياق آيات الرحمة المبيّنة لإثارة السحاب وإنزال المطر، بعد أن تخللتها رحمة الله تعالى بخلقه، وإغاثتهم بإرسال الرسل وإنزال الكتب؛ لتبيّن الآيات منافع الرياح، وكيف يخلق الله السحاب الذي ينزل به الماء ﴿اللَّهُ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيحَ﴾ بقدرته، وهي مختلفة جهات الهبوب بين جنوب، وشمال، وصبا، ودبور، بخلاف الريح المفردة،

(١) رواه ابن أبي حاتم عن أبي الدرداء، «الترغيب والترهيب» (٣/٣٠٢) والبخاري في «شرح السنة» (٣٥٢٨) وقال الترمذي: (١٩٣١) حديث حسن، وهو في «المسند» (٦/٤٤٨) من طريق إسماعيل المعروف بابن عُلَيَّة وابن أبي الدنيا من طريق جرير، كلاهما عن ليث، وهو ابن أبي سليم، قال محقق «المسند» (٢٧٥٣٦)، (٢٧٥٤٣) حسن بطرقه وشواهد، وفيه ليث وشهر بن حوشب، وبقية رجال الإسناد ثقات رجال الشيخين والحديث الثاني بإسناد آخر وهو حسن لغيره.

(٢) قرأ ابن كثير وحزمة والكسائي وخلف بإفراد لفظ (الريح) في هذه الآية، والباقون بالجمع.

(٣) قرأ ابن ذكوان وأبو جعفر وهشام بخلف عنه بإسكان السين من (كشفا)، والباقون بفتح السين، وهو الوجه الثاني لهشام.

فيغلب استعمالها في العذاب.

وبسط الريح، جعله ممتدًا عامًا في جو السماء ﴿فَنُفِثَ سَحَابًا﴾ مُثَقَّلًا بالمطر ﴿فَيَبْسُطُهُ﴾ أي: ينشر الله هذه الرياح فيوسعها ويمدها ﴿فِي السَّمَاءِ كَيْفَ يَشَاءُ﴾ فَتُحَرِّكُ السَّحَابَ وتسوقه أمامها وتملأ الأفق به في أي منطقة من العالم على أي حالة أرادها الله سبحانه.

﴿وَيَجْعَلُهُ﴾ أي يجعل ذلك السحاب تارة أخرى قطعًا متفرقة، بعضها فوق بعض، غير ممتد في جو السماء، وهذا معنى ﴿كِسْفًا﴾ أي: قطعًا متفرقة كالثلج والبرد، بعضه فوق بعض ﴿فَتَرَى الْوَدْقَ﴾ وهو البرق المصاحب للمطر ﴿يَخْرُجُ مِنْ خِلَالِهِ﴾ أي: من بين السحاب ﴿فَإِذَا أَصَابَ بِهِ﴾ أي بذلك المطر ﴿مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ﴾ أي: فإذا ساق الله الماء إلى من أراد من عباده في أرض دون أرض، وبلد دون بلد ﴿إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ﴾ يبشر بعضهم بعضا بنزوله، ويفرحون بأن الله تعالى أرسل المطر إليهم.

وهذا كقوله تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ﴾ [الأعراف: ٥٧]. وكانوا قبل نزول المطر عليهم في يأس من رحمة الله:

٤٩- ﴿وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ أَنْ يُزَلَّ^(١) عَلَيْهِمْ مِنْ قَبْلِهِ لَكِبْلِيسَ﴾

فقد قرر سبحانه في هذه الآية حال القوم من اليأس والشدة قبل نزول المطر بسبب احتباسه عنهم، بأنهم كانوا قبل نزوله عليهم آيسين من نزوله، بعد طول ترقب وكثرة انتظار، وأعرف الناس بنعمة المطر هم أهل البوادي، ومن تقوم حياتهم على الأمطار في كثير من بلاد العالم.

(١) قرأ ابن كثير وأبو عمرو ويعقوب بتخفيف الزاي وإسكان النون من (ينزل) مضارع أنزل، والباقون بتشديد الزاي وفتح النون، مضارع نزل.

دَلَالَةُ النَّبَاتِ عَلَى الْبَعْثِ وَالنُّشُورِ

٥٠- ﴿فَانْظُرْ إِلَىٰ ءَاثَرِ^(١) رَحْمَتِ^(٢) اللَّهِ كَيْفَ يُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ ذَٰلِكَ لَمُنْجَىٰ الْمُؤْمِنِينَ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٥٠﴾﴾

﴿فَانْظُرْ﴾ وتأمل وتدبر -أيها المشاهد- ما يترتب على نعمة المطر من آثار عظيمة نظرة تأمل واعتبار، وكيف تتحول النفوس من حالة الحزن إلى حالة الفرح والاستبشار، انظر ﴿إِلَىٰ ءَاثَرِ رَحْمَتِ اللَّهِ﴾ بإغاثته لخلقه: من الإنسان، والحيوان، والزرع، والنبات، والشجر، حين أنزل الله الماء من السماء ﴿كَيْفَ يُحْيِي﴾ بسببه ﴿الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا﴾؛ فاهتزت وربت وأنبتت من كل زوج بهيج لتخرج نباتها وعُشبها وزرعها، كما قال تعالى: ﴿وَتَرَىٰ الْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَا أَنزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنْبَتَتْ مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ﴾ [الحج: ٥].

وقال سبحانه: ﴿وَمِنْ ءَايَاتِهِ أَنَّا نَرَىٰ الْأَرْضَ خَاشِعَةً فَإِذَا أَنزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ إِنَّ الَّذِي أَحْيَاهَا لَمُنْجَىٰ الْمُؤْمِنِينَ إِنَّهُمْ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٣٩﴾﴾ [فصلت].

ثم استدل سبحانه بإخراج النبات من الأرض على إحياء الأجساد بعد موتها.

﴿إِنَّ ذَٰلِكَ﴾ الذي أحيا الأرض بعد موتها ﴿لَمُنْجَىٰ الْمُؤْمِنِينَ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾.

لا يعجزه شيء، فالقادر على شق الأرض اليابسة، وإخراج الزرع والكلاء منها، قادر من باب أولى على إعادة الحياة إليكم بعد موتكم، فاعتبروا يا أولي الأبصار.

جَا حِدُ النَّعْمَةِ يُرَاوِدُهُ الْكُفْرُ لِأَذْنَىٰ سَبَبٍ

٥١- ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رِيحًا فَرَأَوْهُ مُصْفَرًّا لَّظَلُّوا مِنْ بَعْدِهِ يَكْفُرُونَ ﴿٥١﴾﴾

وبعد أن صوّرت الآية السابقة حال الذين يستبشرون بنزول المطر، تُصوّر هذه الآية حالهم لو أنهم رأوا الريح مصفراً، مفسداً لزرعهم وضرعهم ونباتهم، فكان ريحاً مُهْلِكاً

(١) قرأ ابن عامر وحفص وحمزة والكسائي وخلف بجمع (آثار) بألف بعد التاء، والباقيون بالافراد (أثر) بدون ألف؛ لإرادة اسم الجنس.

(٢) رسمت (رحمت) بالتاء ووقف عليها بالهاء ابن كثير وأبو عمرو والكسائي ويعقوب، ووقف الباقيون بالتاء، ووقف عليها الكسائي بالإمالة.

أتى على الأخضر واليابس، فجعله حطامًا، لَمَكُثُوا بعد رؤيتهم له يكفرون بالله، ويجحدون نعمه، بدلًا من أن يتوجهوا إليه بالضراعة؛ ليرفع عنهم البلاء، ولكنهم إذا جاءتهم مصيبة جحدوا النعمة السابقة، فالكفر مطبوع في نفوسهم وهو يعاودهم لأدنى سبب، قال تعالى: ﴿أَفَرَأَيْتُمْ مَا تَحْرُثُونَ﴾ (١٣) ءَأَنْتُمْ تَزْرَعُونَهُ أَمْ نَحْنُ الزَّارِعُونَ ﴿١٤﴾ لَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَاهُ حُطًا فَظَلَمْتُمْ تَفَكَّهُونَ ﴿١٥﴾ إِنَّا لَمَغْرُمُونَ ﴿١٦﴾ بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ ﴿١٧﴾ [الواقعة].

وهذا الصنف من الناس لا ينفع فيه وعظ ولا زجر:

الْكَافِرُ لَا يَنْتَفِعُ بِمَوْعِظَةٍ

٥٢، ٥٣- ﴿إِنَّكَ لَا تَسْمِعُ الْمَوْتَى وَلَا تَسْمِعُ الدُّعَاءَ إِذَا﴾ (١) وَلَوْأَ مُدْبِرِينَ ﴿٢٠﴾ وَمَا أَنْتَ بِهَادِي (٢) الْعُمَى عَنْ ضَلَالَتِهِمْ إِنْ تُسْمِعُ إِلَّا مَنْ يُؤْمِنُ يَتَابِعُنَا فَهُمْ مُسْلِمُونَ ﴿٢١﴾

شبه الله سبحانه الكفار بالموتى، وبالصم والعمى، وكما أن الميت أو الأصم لا يسمع ولا يستجيب، ولا تفيد فيه الدعوة، فإذا ولّى عنك مدبرًا، ثم ناديته لم يسمع، فكذلك الكافر لا ينتفع بما يسمع، وكما أن الأعمى لا يرى الطريق، فكذلك الكافر لا يُبصر الحقيقة، ولا يستجيب لنداء الحق، وإنما ينتفع بذلك فقط قلب المؤمن.

لأن معه الداعي القوي لقبول النصيحة، وهو استعداده للإيمان، واستعداداه لتنفيذ ما أمر به أو نُهي عنه، فهو موافق للفطرة، مستعمل لجوارحه في طاعة الله.

ولذا: بيّن سبحانه في هذه الآية أن الكفار كالأموات، لا ينفع معهم نصيح ولا تذكير، إشارة إلى عدم انتفاعهم بما يشاهدونه من آيات دالة على توحيد الله تعالى.

فكما أنه ليس في قدرتك -أيها النبي- أن تُسمع الأموات، ولا أن يبلغ كلامك الصم، فأنت كذلك لا يمكنك أن تهدي العميان إلى الحق؛ لأنهم مُعْرِضُونَ عنك وعن دعوتك، وكذلك من مات قلبه، وسدّ أذنه عن سماع الحق، فإنه كالأصم والميت، الذي لا يسمع

(١) سهّل الهمزة الثانية من (الدعاء إذا) نافع وابن كثير وأبو عمرو وأبو جعفر ورويس، وحقّقها غيرهم.

(٢) قرأ حمزة (تَهْدِي الْعُمَى) على أن (تهدي) فعل مضارع، والفاعل ضمير مستتر، و (العمى) مفعول به، وقرأ الباقون (بِهَادِي الْعُمَى) على أن (هادي) اسم فاعل خبر ما، و (العمى) مضاف إليه، من إضافة اسم الفاعل لمفعوله، ووقف يعقوب وحمزة والكسائي بخُلف عنهما، بالياء على (بهادي)، والباقون بحذفها.

ولا يرى، فلا تجزع ولا تحزن على عدم إيمانهم.

وقد أخبرنا الله سبحانه عن عدم إيمانهم بمقتضى علمه الأزلي عمن يختار طريق الحق، ومن يختار طريق الضلال، فلا ينتفع بالحق إلا من هدى الله قلبه، فأمن به وامثل أمره واجتنب نهيه، فهم مطيعون مستجيبون لله تعالى، ينتفعون بالموعظة وتؤثر فيهم، وهذا هو حال المؤمن الذي عَلم الله منه استعدادة للهدى، كما قال تعالى: ﴿إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ الَّذِينَ يَسْمَعُونَ﴾ [الأنعام: ٣٦]. وهم المؤمنون، والمعنى: أن الكافر لا ينتفع بالموعظة.

وهذا لا ينافي سماع الأموات لكلام الأحياء، كما قال ﷺ في أهل القلب: «ما أنت بأسمع لما أقول منهم» وكان النبي ﷺ يخاطب قتلى غزوة بدر من الكفار.

وذلك أنه لما سمع عمر ؓ نداء النبي ﷺ لهم، قال: يا رسول الله، تناديهم بعد ثلاث، وهل يسمعون؟ فأجابه النبي ﷺ بما سبق.

عن أنس بن مالك ؓ أن رسول الله ﷺ ترك قتلى بدر ثلاثاً، ثم أتاهم فقام عليهم فناداهم فقال: «يا أبا جهل بن هشام، يا أمية بن خلف، يا عتبة بن ربيعة، يا شبة بن ربيعة، أليس قد وجدتم ما وعد ربكم حقاً؟ فإني قد وجدت ما وعدني ربي حقاً»، فسمع عمر قول النبي ﷺ فقال: يا رسول الله، كيف يسمعون، وأنى يجيبون وقد جُيِّفُوا؟ قال: «والذي نفسي بيده ما أنتم بأسمع لما أقول منهم، ولكنهم لا يقدر أن يجيبوا» ثم أمر بهم فسُجِبُوا فألقوا في قلب بدر^(١).

قُدْرَةُ اللَّهِ تَعَالَى فِي أَطْوَارِ حَيَاةِ الْإِنْسَانِ بَيْنَ الضَّعْفِ وَالْقُوَّةِ

٥٤- ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ ضَعْفٍ^(٢) ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ ضَعْفٍ^(٢) قُوَّةً ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا^(١) وَشَيْبَةً يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَهُوَ الْعَلِيمُ الْقَدِيرُ

وبعد أن جالت بنا سورة (الروم) في مشاهد الكون من حولنا، تجول بنا في أنفسنا

(١) «صحيح مسلم» برقم (٢٨٧٤) وانظر: «صحيح البخاري» برقم (٣٠٦٥، ٣٩٧٦).

(٢) قرأ شعبة وحفص بخلف عنه وحمزة بفتح الضاد في (ضعف) بالمواضع الثلاثة، والباقون بضم الضاد ومعهم حفص في وجهه الآخر، وهما لغتان، وقيل: إن ضم الضاد يكون في البدن، وفتحها يكون في العقل.

وأطوار نشأتنا على هذه الأرض، وهو استدلال آخر على كمال قدرة الله تعالى.

فالله تعالى بدأ خلق الإنسان من ماء مهين هو النطفة، ثم علقه، ثم مضغه، ثم كان جنيناً، ثم طفلاً، وهذه هي أحوال الضعف الأول.

ثم جعله شاباً قوياً بلغ أشده ورجولته، واستوت قوته، وكملت قواه الظاهرة والباطنة.

ثم صار شيبه شيخاً هرمًا ضعيفًا، خارت قواه وضعفت ذاكرته.

هذه ثلاثة أحوال من الضعف والقوة والشباب والشيبة، يتقلب العبد فيها بمشيئة الله تعالى، وهو العليم بشؤون خلقه، القدير على كل شيء.

ومن حكمة الله تعالى أن يرى العبد قوته محفوفة بضعفين، وليس له من نفسه إلا النقص، ولولا أن الله تعالى أمدّه بالقوة، لما انتقل من الضعف إلى القوة، ولو استمرت قوته في الزيادة لطمغى وبعغى.

والضعف يعتري البدن والقوة، ويعتري العقل والشهوة، والفكر والإرادة، ضعف في كل شيء، لا يقلت منه أحد، وهو ضعف يشمل التكوين الجسدي والعقلي، والعاطفي والنفسي، فالضعف هو المادة الأولى التي يتركب منها كيان الإنسان، قال تعالى: ﴿وَحُلِقَ الْإِنْسَانُ ضَعِيفًا﴾ [النساء: ٢٨]. إنه ضعف في الكيان الإنساني كله:

١- وعن الضعف الأول يقول سبحانه: ﴿أَلَمْ تَخْلُقْ مِنْ مَّاءٍ مَّهِينٍ﴾ [المرسلات].

ويقول تعالى: ﴿فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ مِمَّ خُلِقَ ۚ خُلِقَ مِنْ مَّاءٍ دَافِقٍ ۖ يَخْرُجُ مِنْ بَيْنِ الصُّلْبِ وَالتَّرَائِبِ ۚ﴾ [الطارق].

ويقول ﷻ: ﴿خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ نُطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُبِينٌ﴾ [النحل].

ويقول جلّ شأنه: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ طِينٍ ۖ ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَكِينٍ﴾ [المؤمنون].

٢- وعن الضعف الثاني يقول جلّ شأنه: ﴿وَمِنْكُمْ مَنْ يُرَدُّ إِلَىٰ أَرْدَلِ الْعُمُرِ لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِنْ بَعْدِ عِلْمٍ شَيْئًا﴾ [الحج: ٥].

ويقول سبحانه: ﴿وَمَنْ نُعَمِّرْهُ نُنَكِّسْهُ فِي الْخَلْقِ أَفَلَا يَعْقِلُونَ﴾ [يس].

ويقول أيضًا: ﴿ثُمَّ لَتَكُونُوا شُيُوخًا﴾ [غافر: ٦٧].

٣- وعن مرحلة القوة يقول سبحانه: ﴿ثُمَّ لَتَبْلُغُوا أَشَدَّكُمْ﴾ [الحج: ٥، وغافر: ٦٧].

وهكذا فإن هذه الآية جمعت مراحل الإنسان في صورها المختلفة، كي يعلم العبد أن قدرة الله تعالى لا يلحقها إعياء ولا ضعف ولا نقص بوجه من الوجوه.

وَصِفْ حَالِ الْمُجْرِمِينَ عِنْدَ قِيَامِ السَّاعَةِ

٥٥- ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُقْسِمُ الْمُجْرِمُونَ^(١) مَا لَنَا غَيْرَ سَاعَةٍ كَذَلِكَ كَانُوا يُؤْفَكُونَ ﴿٥٥﴾

ولكي تكتمل جوانب الصورة، بعد ذكر مشاهد الكون، ومشاهد النفس، فإن السورة تصل ذلك بمشاهد القيامة، للربط بين الدنيا والآخرة برباط وثيق، فتبين أن الأجل سريع الانتهاء، وأن الدنيا سريعة الزوال، وأن مدة البرزخ سرعان ما تمر، وأن الساعة تقوم على العباد، فينظرون إلى ما فات خلفهم من عُمرٍ مضى، كأنه ساعة من نهار، وكأنهم لم يقيموا في الدنيا إلا عشية أو ضحاها.

قال الربيع بن أنس في معنى الآية: لبثوا في علم الله في البرزخ إلى يوم القيامة؛ لأنه لا يعلم متى وقت الساعة إلا الله، وفي ذلك أنزل الله ﴿وَأَجَلٌ مُّسَمًّى عِنْدَهُ﴾ [الأنعام: ٢].

ويوم تجيء الساعة يُقسم المنكرون لها أنهم لم يمكثوا في الدنيا، أو لم يمكثوا في قبورهم، إلا وقتًا قصيرًا من الزمن، كأنه ساعة من نهار، وفي هذا اعتذار منهم لعله ينفعهم العذر، وفيه استقصار لمدة الدنيا، فاستقلُّوا أجل الدنيا لَمَّا عاينوا الآخرة، وخرجوا من قبورهم سراعًا للحساب.

وقد كذبوا في قولهم، كما كذبوا في الدنيا وحلفوا أنهم لن يُبعثوا، والله تعالى يفضحهم على كذبهم هذا، حين يتبين خلاف ما زعموا من عدم البعث، ومن تكذيب الرسل والكتب، وهذا قوله تعالى: ﴿كَذَلِكَ كَانُوا يُؤْفَكُونَ﴾ أي: بمثل هذا الكذب وهذه المغالطة والمكابرة كانوا يكذبون في الدنيا بإنكار البعث وتكذيب الرسل.

ففي الدنيا كذبوا بالحق الذي جاء به المرسلون، وفي الآخرة أنكروا المحسوس، وهو

(١) انفرد المدني الأول بعد (يقسم المجرمون) وتركها غيره.

اللبث الطويل في الدنيا، والعبد يبعث على ما مات عليه.

ويوضح هذا المعنى قوله تعالى على لسانهم: ﴿قَالُوا يَتَوَلَّيْنَا مِنْ بَعْثِنَا مِنْ مَرْفِدًا﴾ [يس: ٥٢]. وهذا بعد أن ينشئ الله أجسادهم، ويعيد إليهم عقولهم.

وهم بهذا يعتذرون عما كان منهم من إنكار البعث في الدنيا؛ إذ إنهم لو علموا أن البعث سيكون بعد ساعة من الحلول في القبر لأقروا به، ولكنهم كانوا يُنكرون البعث حتى أتاهم اليقين.

وقيام الساعة معناه: حصولها ووجودها وقيام الخلائق من قبورهم للحساب والجزاء.

أَهْلُ الْعِلْمِ يَرُدُّونَ عَلَى مُنْكَرِي الْبَعْثِ

٥٦- ﴿وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَالْإِيمَانَ لَقَدْ لَبِئْتُمْ فِي كِتَابِ اللَّهِ إِلَى يَوْمِ الْبَعْثِ فَهَذَا يَوْمُ الْبَعْثِ وَلَكِنَّكُمْ كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ (٥٦)

أي: إن أهل العلم يرُدُّون المَكذِبِينَ إلى التقدير الصحيح، ويصوِّبون ما قالوه، فيقول الذين آمنوا بالله وملائكته وكتبه ورسله، من الأنبياء والمؤمنين والملائكة: إنكم مكثتم في الدنيا، أو في قبوركم وفق ما كتبه الله لكم في سابق علمه إلى أن بُعثتم، وهذا معنى: ﴿لَقَدْ لَبِئْتُمْ فِي كِتَابِ اللَّهِ إِلَى يَوْمِ الْبَعْثِ﴾ فقد أعطاكم الله عمراً يتذكر فيه من تذكركم، حتى وصلتكم إلى هذه الحال، فهذا هو يوم البعث الذي كنتم تنكرونه في الدنيا، وأنتم لا تعلمون؛ فلم يزل الجهل شعاركم ولم تزل آثار الكذب تلازمكم، لأنكم لم تطلبوا الحق، ولم تفتحوا عقولكم وقلوبكم له فكذبتموه. قال تعالى:

٥٧- ﴿فَيَوْمَئِذٍ لَا يَنْفَعُ^(١) الَّذِينَ ظَلَمُوا مَعْذِرَتُهُمْ وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ﴾ (٥٧)

أي: إن يوم القيامة يوم لا يُقبل فيه من المَكذِبِينَ بالبعث والنشور اعتذار عما قالوه وفعلوه، وقد سمى الله قَسَمَهُمْ معذرة عما قالوه في الدنيا من إنكار البعث والنشور، وبين سبحانه أن هذه المعذرة لا تنفعهم في شيء، وذلك في قوله تعالى: ﴿فَيَوْمَئِذٍ لَا يَنْفَعُ الَّذِينَ ظَلَمُوا

(١) قرأ عاصم وحمزة والكسائي وخلف بالياء في (تنفع)، والباقون بالتاء.

مَعَذَرْتُهُمْ ﴿٥٨﴾ فهم يعتذرون عن مثل قولهم ﴿هَلْ نَدُلُّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ يُنْبِئُكُمْ إِذَا مُزِقْتُمْ كُلٌّ مِّنْكُمْ إِنِّكُمْ لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ﴾ [سبأ: ٧]. وأشباه ذلك كثير في القرآن.

ومن ذلك أنهم أقسموا على إنكار البعث كما قال تعالى: ﴿وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَنِهِمْ لَا يَبْعَثُ اللَّهُ مَن يَمُوتُ﴾. قال تعالى في تمة الآية: ﴿بَلَىٰ وَعَدًا عَلَيْهِ حَقًّا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [النحل: ٣٨].

فلا ينفعهم اعتذار، ولا إقرار بذنب، أو طلبُ عفو، ولا يُطلب منهم إرضاء الله تعالى بالتوبة والطاعة والندم، بل يُعاقبون بسيئاتهم ومعاصيهم، كما قال تعالى: ﴿وَإِن يَسْتَغِيثُوا فَمَا هُمْ مِنَ الْمُعْتَبِينَ﴾ [فصلت: ٢٤].

وهكذا: فإن كذبوا وزعموا أن الحجة لم تقم عليهم، أو لم يتمكنوا من الإيمان، ظهر كذبهم بشهادة أولى العلم والإيمان، وشهادة جلودهم وأيديهم وأرجلهم، وإن طلبوا العودة إلى الدنيا ليتداركوا ما فاتهم، لم يمكنوا، ولو رُدُّوا لعادوا لما نُهوا عنه، وإن فات وقت الإعذار لا تقبل معذرتهم.

الْإِخْبَارُ عَنْ قَسْوَةِ قُلُوبِ الْكُفَّارِ

٥٨، ٥٩ - ﴿وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَٰذَا الْقُرْآنِ مِن كُلِّ مَثَلٍ وَلَٰئِن جِئْتَهُمْ بِآيَةٍ لَّقِيلُوا لَٰكِنَّمَا هِيَ كُفْرُؤُا إِن أَنْتُمْ إِلَّا مُبْطِلُونَ﴾ ﴿٥٨﴾ كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٥٩﴾

بيَّن القرآن الكريم سبب ما أصاب الكفار من عذاب يوم القيامة، بأنهم لم يتفنعوا بهذا القرآن وما فيه من الأمثال والحكم والحجج، فقد بيَّنَّا لهم الحق، ووضحنا لهم، وضرَبنا لهم الأمثال؛ ليتبين لهم الحق فيتبعوه، ومع ذلك فقد ظلُّوا على كفرهم مكذِّبين معاندين، مع توافر الأدلة والبراهين على توحيد الله سبحانه.

والله تعالى قد ضرب للناس في هذا القرآن من كل مثل؛ ليعتبروا ويتعظوا فيؤمنوا، ولكنهم كانوا بعد هذا كله يجحدون كل آية، ويتناولون على أهل العلم الصحيح، ولو أن محمداً ﷺ جاءهم بكل آية أتى بها الرسل السابقون، كالعصا واليد والناقة، لكذبوا ولم يؤمنوا، وقالوا: ما أنتم إلا متبعون للباطل، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ ﴿٩٦﴾ وَلَوْ جَاءَتْهُمْ كُلُّ آيَةٍ حَتَّىٰ يَرَوْا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ ﴿٩٧﴾ [يونس].

فلو أنهم رأوا كل آية ما آمنوا، ولقالوا: إنها سحر وباطل، كما قالوا عن انشقاق القمر ونحوه. وبمثل هذه الطريقة، وبسبب ضلال القوم، الذي علمه الله منهم في الأزل، يختم الله على قلوب الكفار، فلا يعتبرون ولا ينتفعون بالآيات البينات.

الخطاب الأخير

٦٠- ﴿فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَلَا يَسْتَخِفَّنَكَ الَّذِينَ لَا يُوقِنُونَ﴾ ﴿٦٠﴾

توجه الآية الأخيرة في السورة بالخطاب إلى النبي ﷺ، وإلى كل داعية إلى الله تعالى في كل عصر ومصر، بأن يصبر على أذى قومه؛ فإن نصر الله له كائن لا محالة، ولا يستغربه تكذيب غير المصدقين بالبعث والحساب، فكأن الله تعالى يقول له: إذا كان الأمر كما وصفنا لك من أحوال المكذبين بالبعث والنشور، فاصبر على أذى قومك، ولا يحملوك -أيها الرسول- على الجهل، أو القلق، أو الاستفزاز، واصبر فالصبر، هو زاد العبد في الطريق الشاق، واثبت على ما بعثك الله به؛ فإنه الحق الذي لا مرية فيه، ولا معديل عنه؛ فإن الهدى منحصر فيه.

والخطاب الموجه للرسول ﷺ في القرآن، كهذه الآية ونحوها، مثل قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَوْحَىٰ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكَكَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ ﴿١٥﴾ [الزمر]. ومثل قوله سبحانه: ﴿وَلَا تَطْعَمْنَهُمْ إِنَّمَا آثِمًا أَوْ كَفُورًا﴾ [الإنسان: ٢٤].

يراد به التشريع للأمة؛ لأن النبي ﷺ معصوم من الشرك والكفر والجهل الذي يُنهي عنه.

ورد أن علي بن أبي طالب ؑ ناداه رجل من الخوارج في صلاة الفجر، فقال: ﴿وَلَقَدْ أَوْحَىٰ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكَكَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ﴾ [الزمر: ٦٥]. فعلم (علي) مقصده من هذا وتعرضه به، فأجابه (علي) وهو في الصلاة: ﴿فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَلَا يَسْتَخِفَّنَكَ الَّذِينَ لَا يُوقِنُونَ﴾ ﴿٦٠﴾^(١).

أي فاحذر أن يستخفك ضعاف الإيمان وقليلوا اليقين، ويحملوك على عدم الثبات على الأمر.

(١) أخرجه ابن أبي شيبة (٣٠٧/١٥) والطبري (٥٢٩/١٨) والحاكم (١٤٦/٣) والبيهقي (٢/٢٤٥).

وهكذا: بدأت سورة (الروم) ببيان صدق رسالة محمد ﷺ حين أخبر عن انتصار الروم على الفرس في وقت لاحق.

وثبتت بالحديث عن آثار الله تعالى الدالة على توحيده وقدرته في الكون والنفس.
وثلثت بالحديث عن القيامة وما فيها من جزاء للكافرين المكذبين بالله ورسله، وبالنعيم الذي أعدّه الله لعباده المؤمنين، وهذه العناصر الثلاثة هي:

١- الوحي والرسالة. ٢- التوحيد وعدم الشرك.

٣- الإيمان باليوم الآخر وما فيه من حشر ونشر، وحساب وجزاء على الأعمال والأقوال.
وهذا هو موضوع السور المكية، ومنها سورة (الروم).

تم تفسير (سورة الروم) والله الحمد والمنة.



فعل أبي؟ قال: مات، قال: الحمد لله، ملكْتُ أمري.

قال: ما فعلت أمي؟ قال: ماتت، قال: ذهب هَمِّي.

قال: ما فعلت امرأتي؟ قال: ماتت، قال: جُدَّد فرشي.

قال: ما فعل أخي؟ قال: مات، قال: انقطع ظهري^(١).

وقد شَرَّف الله تعالى لقمان، بأن عرض في القرآن ما جاء على لسانه، من قضية التوحيد والشرك، والوصايا الجامعة، وأمره سبحانه أن يشكر نعمة الله عليه؛ لِمَا آتاه من الحكمة التي جمع فيها بين العلم والعمل، وحكمة القول والفصل، وحُسن المعاشرة والصحبة.

والشكر يكون بالقلب واللسان والأعضاء:

فشكر القلب يكون بالعلم والمعرفة، والنظر الثاقب، والفكر والتأمل.

وشكر اللسان يكون بالحمد والثناء، والتعظيم والتقدس.

وشكر الجوارح يكون بالعمل والطاعة، وامتنال الأوامر واجتناب النواهي.

فإن رأى عجزه وتقصيره في الجميع، فهذا دليل القبول.

وإن اغترَّ بعمله، ورأى أنه على شيء، فهذا دليل النقص.

ومن يشكر ربه، فإنما يعود نفع ذلك عليه، ومن جحد فضل ربه عليه، فإن الله غني عن شكره، غير محتاج إليه، وله الحمد والثناء على كل حال؛ لأن الله تعالى مستغن عن العباد، فإن شَكَر فإن شُكْره يفتح له باب الزيادة، وإلا فما خسر إلا نفسه.

أما الله سبحانه فهو محمود على كل حال، مستحق للحمد لذاته وصفاته، لا يتضرر بكفر الكافر، ولا ينتفع بشكر الشاكر.

(١) أخرجه عبد الله بن الإمام أحمد في «الزوائد» ص ١٠٧.

مَوَاعِظُ لُقْمَانَ لِابْنِهِ: أَرْبَعُ وَصَايَا وَسَبْعَةُ تَكَالِيفٍ

١٣ - ﴿وَإِذْ قَالَ لُقْمَانُ لِابْنِهِ وَهُوَ يَعِظُهُ يَبْنَى^(١) لَا تَشْرِكْ بِاللَّهِ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾

أ- الوصايا الأربع:

أولاً: نهيه لابنه عن أعظم الذنوب، وهو الشرك بالله تعالى:

فقد بدأ لقمان وصايا لابنه بتعليمه أصول العقيدة، فقال: ﴿يَبْنَى لَا تَشْرِكْ بِاللَّهِ﴾ قيل: إن ابن لقمان كان اسمه (ثاران)، والوالد أشفق الناس على ولده، وهو حقيق أن يمنحه أفضل ما يعرف، وأن يقيه عذاب النار، ويخاف عليه من الهلاك، ولهذا فإن أول وصية من وصايا لقمان لابنه كانت بأن يعبد الله وحده، ولا يشرك به شيئاً، ثم قال لقمان لابنه محذراً له من الوقوع في الشرك: ﴿إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾.

ويُحتمل أن يكون هذا خبراً من الله سبحانه، وليس من كلام لقمان.

روى البخاري وغيره عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه، قال: لما نزلت ﴿الَّذِينَ ءَامَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ﴾ [الأنعام: ٨٢]. شق ذلك على أصحاب رسول الله ﷺ، وقالوا: أئنا لم يلبس إيمانه بظلم؟ فقال رسول الله ﷺ: «إنه ليس بذاك، ألا تسمع إلى قول لقمان»: ﴿يَبْنَى لَا تَشْرِكْ بِاللَّهِ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾^(٢).

قيل: إن ابن لقمان كان مشركاً، فلم يزل لقمان يعظه حتى آمن بالله وحده؛ فإن الوعظ زجر مقترن بالتحذير، قال تعالى: ﴿فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَعِظْهُمْ وَقُلْ لَهُمْ فِئْتَانُفُسِهِمْ قَوْلًا بَلِيغًا﴾ [النساء: ٦٣]. وكان زجر لقمان لابنه عن الإشراف بالله.

قال القرطبي: إن امرأة لقمان وابنه كانا مشركين، فلم يزل لقمان يعظهما حتى آمنا.

وقد جمع لقمان في هذه الموعظة أصول الشريعة، وهي: الاعتقادات، والأعمال، وأدب المعاملة، وأدب النفس.

(١) قرأ حفص بفتح الياء مع تشديدها في (يا بني لا تشرك) وقرأ ابن كثير بإسكانها مخففة، وقرأ الباقون بكسرها مشددة.

(٢) «فتح الباري» (٨/ ٣٧٢) وهو في البخاري برقم (٤٧٧٦) ومسلم برقم (١٢٤).

وقد أكد لقمان هذه الوصية، مرة بالنهاي، وفضل علته، ومرة بأن واللام.

والأمر بالتوحيد والنهي عن الشرك، قاعدة الإيمان الأولى التي يأتي بها كل رسول، وتُجادل فيها كل أمة، والنصيحة من الوالد لابنه مبرأة من كل شبهة، وبعيدة عن كل مظنة. فلا تسأل -أيها المسلم- إلا الله، ولا تعتقد النفع والضرر إلا في الله، ولا تنذر ولا تذبح إلا لله، ولا تطلب العون والمدد إلا من الله تعالى؛ حتى لا تكون من المشركين، فلا أفضع ولا أبشع ممن سوى بين المخلوق والخالق، وبين من لا يملك شيئاً ومن يملك كل شيء، وبين من يفتقر إلى غيره في كل شيء، ومن هو غني بذاته والكل مفتقر إليه، ولا يوجد أعظم ظلماً ممن خلقه الله لعبادته، فعبد مخلوقاً مثله، أو مخلوقاً صنعه بنفسه.

والشرك بالله أكبر الذنوب وأبشعها؛ لأنه وُضِعَ للعبادة في غير موضعها، وتسوية بين من يستحق العبادة ومن لا يستحقها، فهو ظلم للنفس عظيم، وأي ظلم؟!

والشرك هو الذنب الوحيد الذي لا يُغفر إذا مات العبد عليه ﴿إِنَّهُ مَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَاهُ النَّارُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ﴾ [المائدة: ٧٢].

وقد سئل النبي ﷺ: أي الذنب أكبر؟ قال: «أن تجعل لله نداً وهو خلقك»^(١).

أي: والحال أنه قد انفرد بخلقك، فكيف تتخذ له شريكاً؟

ثانياً: الوصية بالوالدين

١٤- ﴿وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهَنًا عَلَى وَهْنٍ وَفَصَّلَهُ فِي عَامَيْنِ أَنْ أَشْكُرَ لِي وَلِوَالِدَيْكَ إِلَى الْمَصِيرِ﴾ ﴿٤٦﴾

ولأن القرآن الكريم يقرن الأمر بعبادة الله وحده بالأمر ببر الوالدين، ولما نهى سبحانه عن الشرك، ومن لوازمه التوحيد، أمر بالقيام بحق الوالدين، كما جاء ذلك في سور: [النساء: ٣٦]، [الأنعام: ١٥١]، [الإسراء: ٢٣]، و[الأحقاف: ١٥].

(١) المسند (٢٦١٢، ٤١٠٢) بإسناد صحيح على شرط الشيخين (محققوه) وأخرجه النسائي في الكبرى (١١٣٦٨) وأبو يعلى (٥٠٩٨).

(٢) قرأ أبو عمرو وعاصم وحمة ويعقوب بكسر نون (أن اشكر)، للتخلص من التقاء الساكنين والباقون بضمها.

فإنه سبحانه في وصايا لقمان لابنه ثنى بالوصية بالوالدين، وعدّ أن عقوبتهما يحدث بمجرد التأفف منهما دون كلام، كما جاء ذلك في سورة الإسراء.

وجاءت هذه الوصية في سورة لقمان، في كلام معترض بين وصايا لقمان لابنه لأهمية البر بالوالدين؛ لما لهما من فضل -بعد الله تعالى- في إيجاد الإنسان؛ إذ الوصية بهما مسندة إلى الله تعالى في قوله: ﴿وَوَصَّيْنَا﴾ فأسلوب التخاطب مختلف، والأسلوب يشير إلى أن هذه الآية وما بعدها ليست مما حكاها الله تعالى عن لقمان، بل هي تفسير لقوله تعالى: ﴿أَنْ أَشْكُرَ لِي وَلَوْلَايَكَ﴾ أي: وصيناه بشكرنا، وبشكر الوالدين، وأمرناه بالقيام بعبوديتي، وألا يستعين بنعمي على معصيتي، كما أمرناه بالإحسان إلى الوالدين بالقول الطيب والكلام اللين، والفعل الجميل، والتواضع لهما وإكرامهما، وعدم الإساءة إليهما بالقول أو الفعل، وقد وصينا الإنسان بهذا وأخبرناه أن مصير الخلائق إلى الله الذي وصاهم بهذه الوصية، فيحاسبكم ويجازيهم على ما قدمت أيديهم.

وفي حديث أبي هريرة رضي الله عنه: أن النبي ﷺ قال: «لا يشكر الله من لا يشكر الناس»^(١).

وهكذا جاءت الوصية بالوالدين في المرتبة الثانية بعد الأمر بتوحيد الله سبحانه:

١- في قوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَءِيلَ لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا﴾ [البقرة: ٨٣].

٢- وفي قوله سبحانه: ﴿وَأَعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا﴾ [النساء: ٣٦].

٣- وفي قوله تعالى: ﴿قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبِّيَ عَلَيْهِمْ إِلَّا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا﴾ [الأنعام: ١٥١].

٤- وفي قوله جل شأنه: ﴿وَقَضَىٰ رَبِّيَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا﴾ [الإسراء: ٢٣].

والوصية بالوالدين تتكرر في القرآن دون الوصية للوالدين بالولد؛ لأن الفطرة تتكفل

(١) أبو داود (٤٨١١) و«صحيح سنن الترمذي» (١٥٩٢) و«السلسلة الصحيحة» للألباني (٤١٧) وابن حبان (٣٤٠٧) «الإحسان»، ومسنند أحمد (٨٠١٩، ٧٩٣٩) بإسناد صحيح على شرط مسلم ورجال ثقات رجال الشيخين غير الجمحي فمن رجال مسلم (محققوه).

وحدها برعاية الأبناء وهي لا تحتاج إلى وصية.

والفطرة تدفع إلى العناية بالجيل الناشئ لضمان امتداد الحياة؛ فالوالد يبذل كل ما يملك في فرح وسرور من غير ضجر، لأنه مدفوع إلى ذلك بالفطرة والغريزة والأبوة، وآدم كان له ابن، ولم يكن له أب.

أما الابن فهو في حاجة إلى تكرار النصيحة؛ ليلتفت إلى الجيل الذي ضحى، وسكب عُصارة عمره لمستقبل ولده، وهو الآن مُدبر عن الحياة، ولا يمكن للابن أن يعوض بعض ما بذله أبوه له، ولو وقف عمره عليه، ولذا كرّر القرآن الوصية بهما.

وبعد الوصية بالوالدين معاً، خصّ الأم بالذكر - كما جاء في سورة الأحقاف وغيرها - لتعبها ومشقتها في تربية الولد، فقد حملته أمه، وضعفها يتزايد كلما ثقل بطنها؛ إذ الحمل ضعف، والطلق ضعف، والوضع ضعف، والرضاعة ضعف، وكل هذا وهن على وهن، ولهذا جاءت الوصية ثلاثاً بالأم، في مقابل وصية واحدة للأب، وهي توحى بزيادة الاهتمام بالأم لضعفها، ولا تقلل من شأن الأب، ولا تُضعف من دوره الأساس، في الكد والنصب لتربية الابن وإطعامه وتعليمه، ولو حَرَم نفسه متع الحياة!!

وفي هذه الآية اختصّ الله الأم بدرجة ذُكر الحمل، ودرجة ذُكر الرضاع، بعد أن أشركها مع الأب في الوصية، فصار للأم ثلاث مراتب، وللأب مرتبة واحدة، وأشبه ذلك قول النبي ﷺ حين سأله رجل: من أحق الناس بحسن صحابتي؟ قال: «أُمك»، قال: ثم من؟ قال: «أُمك»، قال: ثم من؟ قال: «أُمك»، قال: ثم من؟ قال: «ثم أبوك»^(١).

فجعل له الربع من البر كالأية، ولأن الأم غالباً ما تكون لينة، وقد يؤدي هذا اللين إلى التفريط في حقها، لذا أكد الإسلام على الاهتمام بها.

عن بريدة عن أبيه: أن رجلاً كان يحمل أمه في الطواف ويطوف بها، فسأل النبي ﷺ: هل أدبْتُ حقَّها؟ قال: «لا، ولا بزفرة واحدة»^(٢).

(١) «صحيح البخاري» (٥٩٧١) و«صحيح مسلم» (٢٥٤٨) من حديث أبي هريرة.

(٢) أخرجه البزار بسنده، وهو في الأدب المفرد برقم (١١) ج ١ ص ١٨ وقد صححه الألباني من آثار ابن عمر.

وقد قرّرت الآية أن مدة الرضاع ستان كما قال تعالى: ﴿وَفَصْلُهُ﴾ أي: فطامه في نهاية الرضاعة ﴿فِي عَامَيْنِ﴾ وكما يقرّره قوله ﷺ: ﴿وَالْوَالِدَاتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَدَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ لِمَنْ أَرَادَ أَنْ يُنِمَّ الرِّضَاعَةَ﴾ [البقرة: ٢٣٣]. وهذه المدة تنقص من الثلاثين شهراً التي هي مدة الحمل والرضاعة معاً، كما جاء في قوله تعالى: ﴿وَحَمْلُهُ وَفَصْلُهُ ثَلَاثُونَ شَهْرًا﴾ [الأحقاف: ١٥].

وقد استنبط العلماء من هذه الآية: أن أقل مدة الحمل ستة أشهر، ويؤخذ منها أيضاً: أن أطول مدة الرضاعة عامان، كما صرّحت به آيتا سورتي (البقرة ولقمان) التي نحن بصدددها؛ إذ ليس فيهما ذكر للحمل، فمن أدخل فيهما مدة الحمل من المفسرين فهو مجانب للصواب؛ لأنها تصرح بالفطام.

ثم أمر سبحانه الإنسان أن يشكر الله تعالى؛ فهو الموجد الحقيقي للإنسان، وقرن تعالى شكره بشكر الوالدين؛ لأنهما السبب المباشر بعد الله تعالى في إيجاد الإنسان في الحياة، ثم يرجع الجميع إلى الله سبحانه في الآخرة فيجازي كلّاً بعمله.

ويؤخذ من الآية: أن نعمة الوالدين على الولد مختصة بالدنيا وحدها، أما نعمة الله تعالى على العبد فهي نعيم الدنيا والآخرة معاً، ونعيم الآخرة لا يدّ فيه لأحد من الخلق، بل هو محض فضل من الله تعالى.

وفي الحديث: عن أبي هريرة ؓ أن النبي ﷺ قال: «رغم أنفه» ثلاثاً، قيل: من يا رسول الله؟ قال: «من أدرك والديه، أو أحدهما، أو كليهما، ثم لم يدخل الجنة»^(١).

فهو مبعد من رحمة الله تعالى.

لَا طَاعَةَ لِمَخْلُوقٍ فِي مَعْصِيَةِ الْخَالِقِ

١٥- ﴿وَإِنْ جَاهِدَاكَ عَلَىٰ أَنْ تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا وَصَاحِبُهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفًا وَاتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَيَّ ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾

ومع هذه الكرامة والمنزلة للوالدين، فإن رابطة العقيدة مقدّمة على رابطة النسب، وأقوى من رابطة الأبوة والبنوة، فيسقط معها واجب الطاعة للوالدين إذا أمرا بشيء فيه معصية الله

(١) «صحيح مسلم» برقم (٢٥٥١).

تعالى، وفي مقدمة ذلك الإشراف بالله تعالى، فلا طاعة لمخلوق في معصية الخالق، ولكن هذا لا يُسقط حق الوالدين في حسن المعاملة في الأمور الدنيوية، وواجب الصحبة في الدنيا، وهي رحلة قصيرة لا تؤثر على الحق الأصيل لخالق الكون كله، فبعد أن أمرت الآية السابقة ببر الوالدين، بيّنت هذه الآية أن ذلك لا يكون في الكفر والمعاصي:

عن مصعب بن سعد عن أبيه: أنه نزل فيه آيات من القرآن قال: حلفتُ أم سعد ألا تكلمه أبداً؛ حتى يكفر بدينه، ولا تأكل ولا تشرب، قالت: زعمتُ أن الله وصّاك بوالديك، وأنا أمك، وأنا أمرك بهذا، قال: مكثتُ ثلاثاً حتى غشي عليها من الجهد، فقام ابن لها يقال له: عُمارة، فسقاها، فجعلتُ تدعو على سعد، فأنزل الله في القرآن هذه الآية: ﴿وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ حُسْنًا﴾ إلى ﴿وَإِنْ جَاهِدَاكَ عَلَى أَنْ تُشْرِكَ بِي﴾ وفيها: ﴿وَصَاحِبُهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفًا﴾^(١) وأم سعد هي: حمّة بنت أبي سفيان بن أمية.

وجاء في لفظ آخر: أن سعد بن مالك (ابن أبي وقاص) قال: أنزلت فيّ هذه الآية، قال: كنت رجلاً برّاً بأمي، فلما أسلمتُ قالت: يا سعد، ما هذا الذي أراك قد أحدثت، لتدعن دينك هذا، أو لا آكل ولا أشرب، حتى أموت فتُعيّر بي، فيقال: يا قاتل أمه، فقلت: لا تفعل بي يا أمه، فإني لا أدع ديني هذا لشيء، فمكثتُ يوماً وليلة لم تأكل، فأصبحتُ وقد جهدتُ، فمكثتُ يوماً وليلة أخرى لا تأكل، فأصبحتُ قد اشتدَّ جهدها، فلما رأيتُ ذلك قلت: يا أمه، تعلّمين والله لو كانت لك مئة نفس، فخرجت نفساً نفساً ما تركتُ ديني هذا لشيء، فإن شئت فكلّي، وإن شئت لا تأكلي، فأكلتُ ونزلت الآية^(٢).

ومدلول الآية عام في كل حال مماثلة، وهي تقرر أن حق الله تعالى هو الواجب الأول

(١) الحديث في «صحيح مسلم»، كتاب فضائل الصحابة برقم (١٧٤٨) باب في فضل سعد بن أبي وقاص و«سنن الترمذي» (٣٠٧٩) وأبي داود (٢٧٤٠)، وأخرجه أحمد ضمن حديث طويل بنحوه في المسند (١٥٦٧) بإسناد حسن، من أجل سماك بن حرب، وهو من رجال مسلم، وبقية رجاله ثقات رجال الشيخين، كما قال محققوه، وهو أيضاً في الحديث رقم (١٦١٤).

(٢) ذكره ابن الأثير في «أسد الغابة» (٢/٢١٦) وأبو يعلى (٧٨٢) وابن عساكر (٣٣١/٢٠) عن داود بن أبي هند وقد رواه الطبراني في كتاب العشرة (١٨/٥٥٣) وابن سعد (٤/١٢٣).

الذي يجب أن يستقر بلا شبهة ولا غموض، في وجدان كل مؤمن.

﴿وَإِنْ جَهَدَاكَ﴾ أي: وإن اجتهد والداك -أيها الولد المؤمن- ﴿عَلَى أَنْ تُشْرِكَ بِي﴾ غيري في عبادتك إياي ﴿مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ﴾ أي لو أن الوالدين اجتهدا وأمرأك بمعصية من معاصي الله، من كبائر الذنوب، أو ترك فريضة فرضها الإسلام ﴿فَلَا تُطِعْهُمَا﴾ في فعل أمر نهاك الله عنه، أو ترك واجب أوجبه الله عليك، وتلزم طاعتهما في المباحات، وتُستحسن في ترك الطاعات المندوبة، ومن ذلك الجهاد إن كان فرض كفاية، وصلُّهما بالمال والهدايا، وادعهما برفق، وعاملهما في الأمور الدنيوية بالمعروف فيما لا إثم فيه، ولا تظن أن طاعتهما في المعصية من الإحسان إليهما، لأن حق الله تعالى مقدم على كل حق، إذ لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق، واسلك -أيها الابن المؤمن- طريق من تاب من ذنبه وأتاب إلى الله تعالى، من الأنبياء والصالحين، وارجع إليّ، وآمن برسولي محمد ﷺ.

وهذه وصية لجميع الناس، قال تعالى: ﴿ثُمَّ إِلَىٰ مَرْجِعِكُمْ﴾ في اليوم الآخر ﴿فَأَنْتُمْ كَرُمٌ﴾ أي: أخبركم ﴿بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ في الدنيا، وأجازي كلًّا بعمله في الآخرة، دون أن يخفي عليه خافية.

قال ابن عباس ؓ: لَمَّا أَسْلَمَ أَبُو بَكْرٍ ؓ أَتَاهُ عَثْمَانُ، وَطَلْحَةُ، وَالزَّيْبِرُ، وَسَعْدُ بْنُ أَبِي وَقَاصٍ، وَعَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ عَوْفٍ، وَسَعِيدٌ، وَقَالُوا لَهُ: قَدْ صَدَّقْتَ هَذَا الرَّجُلَ وَأَمَنْتَ بِهِ؟ قَالَ: نَعَمْ، إِنَّهُ صَادِقٌ، فَأَمَّنُوا بِهِ، ثُمَّ حَمَلَهُمْ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ حَتَّى أَسْلَمُوا، فَهَؤُلَاءِ لَهُمْ سَابِقَةُ الْإِسْلَامِ، أَسْلَمُوا بِإِرْشَادِ أَبِي بَكْرٍ ؓ.

وفي إسلام أبي بكر نزل قوله تعالى: ﴿أَمَّنْ هُوَ قَنِتٌ ءَانَاءَ اللَّيْلِ سَاجِدًا وَقَائِمًا يَحْذَرُ الْآخِرَةَ وَيَرْجُوا رَحْمَةَ رَبِّهِ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الزمر: ٩].

فلما سمعها الستة آمنوا، فأنزل الله تعالى فيهم: ﴿وَالَّذِينَ اجْتَنَبُوا الطَّاغُوتَ أَنْ يَعْبُدُوهَا وَأَنَابُوا إِلَى اللَّهِ لَهُمُ الْبُشْرَى﴾ [الزمر: ١٧]. إلى قوله سبحانه: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَيْتُمْ اللَّهُ وَأُولَئِكَ هُمُ الْأَوَّلُونَ﴾ [الزمر: ١٨]. وهذا مما يدخل تحت قوله تعالى: ﴿وَأَتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَيَّ﴾.

وهو النبي ﷺ وأصحابه، وكل من سار على نهجه إلى يوم الدين.

وفي هذه الآية دليل على صلة الأيوين الكافرين بالمال إن كانا فقيرين، وبحسن التعامل

والصحبة في الأمور الدنيوية:

قالت أسماء بنت أبي بكر رضي الله عنه للنبي ﷺ، وقد قدمت عليها خالتها في المدينة، وقيل: أمها من الرضاعة، قالت: يا رسول الله، إن أُمِّي قدمت عليّ وهي راغبة، أفأصلها؟ قال: «نعم»^(١). وأم أسماء بنت عبد عزي بن عبد أسعد.

أما أم عائشة وعبد الرحمن، فهي أم رومان، وكانت قديمة في الإسلام.

ومعنى راغبة: أي معرضة عن الإسلام، أو راغبة في الصلة مني.

أين هذه التعاليم من الحضارة العالمية المعاصرة التي تودع الأبوين دور الرعاية للمسنيين عند شيخوختهما؟ إنها الحضارة التي تضيق بحقوق الله تعالى!!

ثَالِثًا: الْحِسَابُ الدَّقِيقُ وَالْجَزَاءُ الْعَادِلُ

١٦- ﴿يَبْقَىٰ إِنَّهَا إِن تَكُ مِثْقَالَ^(٢) حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ فَتَكُنْ فِي صَخْرَةٍ أَوْ فِي السَّمَوَاتِ أَوْ فِي الْأَرْضِ يَأْتِ بِهَا اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ

يعود السياق إلى الخبر، بعد الاعتراض بالوصية للوالدين؛ ليتناول -في هذا الخبر الثاني- تقرير عقيدة الإيمان باليوم الآخر، وما فيه من حساب دقيق، وجزاء عادل في صورة مؤثرة، يرتعش لها الوجدان، حين يُطالع علم الله تعالى الشامل والدقيق.

وقد أراد لقمان بهذه الوصية أن يُعلم ابنه، عظيم قدرة الله تعالى وشمول علمه، وبيان أن قدرته تعالى تنال الذرة التي بداخل صخرة صماء محصنة محجبة، أو غائرة وغائبة في أرجاء السَّمَوَاتِ والأرض؛ فإن عِلْمَ الله تعالى محيط بها، وقدرته تنالها.

يا بني، اعلم أن ما تفعله من السيئة أو الحسنة، أو الطاعة أو المعصية، مهما كانت متناهية في الصغر، وكانت على صغرها داخل صخرة صلبة لا يمكن رؤيتها، ولا التوصل إليها؛ لصغر حجمها، وخفة وزنها، وضآعتها في جوف الأرض، أو في باطن جبل، أو

(١) «تفسير القرطبي» (٦٥/١٤) وحديث أسماء في البخاري برقم (٢٦٢٠، ٥٩٧٩) ومسلم (١٠٠٣).

(٢) قرأ نافع وأبو جعفر برفع (مِثْقَالٌ) على أن كان تامة، ومثقال فاعل، وقرأ الباقر بالنصب على أن كان ناقصة ومثقال خبرها.

في أي مكان من العالم العلوي أو السفلي، فإن الله تعالى يأتي بها يوم القيامة، ويحاسب عليها، فهو سبحانه القادر على استخراجها، المحيط بكل صغيرة وكبيرة، لا يخفى عليه شيء مهما دق، ولطف، وتضاءل ﴿وَمَا يَعْزُبُ عَنْ رَبِّكَ مِنْ مِثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ وَلَا أَصْغَرَ مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْبَرَ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ﴾ [يونس: ٦١].

وجاء في سبب قول لقمان لابنه: ﴿يَبْنِيْ إِنَّهَا إِنْ تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ﴾

أن ابن لقمان قال لأبيه: أرايت لو كانت حبة في قعر البحر، أكان الله يعلمها؟ فأجابه بهذا.

وقيل: إنه قال له: أرايت إن عملت الخطيئة حتى لا يرى أحد، كيف يعلمها الله؟ فأجابه بهذا.

وقيل عن الصخرة: إنها سجين التي يكتب فيها أعمال الفجار، قيل: وهي تحت الأرضين السبع، والله أعلم.

وورد أن هذه آخر كلمة قالها لقمان، فانشقت مرارة ولده من هيبتها وعظمتها، فمات^(١).

وعن حفص بن عمر الكندي قال: وضع لقمان جراباً من خردل إلى جنبه، وجعل يعط ابنه موعظة، ويخرج خردلة، فنقد الخردل، فقال: يا بني، وعظتك موعظة لو وعظتها جبلاً لتفطر، فتفطر ابنه^(٢).

وهذه الآية كقوله تعالى: ﴿وَنَضْعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَمَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئاً وَإِنْ كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَى بِنَا حَاسِبِينَ﴾ [الأنبياء: ٢٧].

وقوله تعالى: ﴿فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ﴾ (٧) وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ ﴿٨﴾ [الزلزلة].

ويراد بمِثْقَالِ الذرة، أصغر الأشياء كالهباءة، التي تكون في شعاع الشمس الخارج من الكوة مثلاً، وقد لا تُرى الذرة بالعين المجردة وتدرّك بالميكروسكوب، وسواء أكانت هذه الذرة غائبة في جوف الأرض ونحوها، أم ظاهرة في مختلف أرجاء الأرض وجوانبها،

(١) «تفسير الخازن» للآية.

(٢) ابن أبي حاتم كما في «تفسير ابن كثير» (٦/٣٤٣).

فعلم الله محيط بها ويجازى عليها، وهو المحيط بالخفايا والسرائر.

ومما جاء في هذا أن عائشة ؓ أعطت سائلاً حبة واحدة من العنب، لم يكن أمامها سواها، فأخذ ينظر إليها باحتقار، فقالت: يا هذا، إن الله تعالى يقبل الحسنه بدءاً من وزن الذرة.

وعن أبي سعيد الخدري ؓ أن رسول الله ﷺ قال: «لو أن أحدكم يعمل في صخرة صماء ليس لها باب ولا كوة لخرج عمله للناس كائناً من كان»^(١).

قال تعالى: ﴿وَوُضِعَ الْكِتَابُ فَتَرَى الْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَوَلَّيْنَا مَا لِي هَذَا الْكِتَابِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا﴾ [الكهف: ٤٩].

والمقصود بالآية، الحث على مراقبة الله تعالى في السر والعلن، في كل شيء مهما صغر ودق.

رَابِعًا: الْوَصِيَّةُ بِسَبْعَةِ مِنَ التَّكَالِيفِ الشَّرْعِيَّةِ

١٧ - ﴿يَبْنِيْ أَقْرَ الصَّلَاةِ وَأَمْرٌ بِالْمَعْرُوفِ وَأَنَّهُ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأَصْبِرْ عَلَى مَا أَصَابَكَ إِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ﴾

وذلك أن لقمان انتقل من تعليم ولده أصول الاعتقاد من الإيمان بالله واليوم الآخر، إلى تعليمه أصول العبادات والأعمال الصالحة، وحسن التعامل مع الناس.

فابتدأها برأس العبادات، وهي الصلاة، ثم بركن الإسلام الأعظم، وهو الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ثم الصبر على ما يلقاه المرء من الأذى في سبيل الدعوة إلى الله تعالى، ومن ثم إلى تعليمه آداب التعامل مع الناس، بعدم احتقارهم، أو التفاخر عليهم، ثم بترويض النفس على خفض الصوت وعدم رفعه.

التَّكْلِيفُ الْأَوَّلُ: ﴿يَبْنِيْ أَقْرَ الصَّلَاةِ﴾

أمر من لقمان لولده بإقامة الصلاة في أوقاتها، مع الخشوع والخضوع، والمحافظة عليها، والقيام بأركانها، وشروطها، وواجباتها، وسننها، وآدابها، وما يتبعها من نوافل،

(١) أخرجه أحمد في «المستد» (٢٨/٣) برقم (١١٢٣٠) وحسنه الهيثمي في «مجمع الزوائد» (٢٢٥/١٠) وفيه ابن لهيعة عن دراج وهما ضعيفان وأخرجه أبو يعلى (١٣٧٨) وابن حبان (٥٦٧٨).

فهي رأس الطاعات، وأم العبادات، وعمود الدين، وهي فرق المسلم من الكافر.

التَّكْلِيفُ الثَّانِي: ﴿وَأْمُرْ بِالْمَعْرُوفِ وَأَنْهَ عَنِ الْمُنْكَرِ﴾

وفق مراتبه المستطاعة المعروفة: باليد، أو باللسان، أو بالقلب، مع ظهور آثار الإنكار على المنكر، وذلك بحسب الطاقة والجهد، وترتيب المسؤوليات بلطف ولين وحكمة، ولا بد أن يكون المنكر ظاهراً دون تجسس، ولا تتبع عورات، ويكون من الأمور المتفق على تحريمها، بحيث يجب تركها، وأن يكون المعروف واجباً فعله، بحيث يأثم تاركة، ويكون المنكر واجباً تركه، بحيث يحرم فعله، وهذا يستلزم العلم بالمعروف ليأمر به، والعلم بالمنكر لينهى عنه، وعدم الإنكار فيما فيه سعة بين أهل العلم، طالما صح الدليل مع النص الصريح.

التَّكْلِيفُ الثَّالِثُ: ﴿وَأَصْبِرْ عَلَى مَا أَصَابَكَ﴾

والمراد: الصبر على أذى الناس الذين يدعوهم إلى الخير، حين يأمرهم بالمعروف، وينهاهم عن المنكر، والصبر أيضاً على المحن والابتلاءات، وعلى أداء الطاعات، وترك المحرمات، والصبر على قبول الحق من الناس، وذلك بهضم النفس وعدم التكبر عن قبول ما أوجبه الشرع مما يجب الحرص عليه والعمل به.

فالذي يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر، لا بد أن يصاب بأذى من الناس، ولذا فقد نصح لقمان ابنه بالصبر على ما يصيبه، وهو يدعو إلى الله عز وجل، وأخبره أن الصبر على تبليغ الدعوة من عزائم الأمور، أي من الأمور التي يعزم عليها ويهتم بها، ولا يوفق لهذا الصبر إلا أهل العزائم. قال تعالى:

١٨ - ﴿وَلَا تُصْعِرْ^(١) خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخَالٍ فَخُورٍ﴾

التَّكْلِيفُ الرَّابِعُ: ﴿وَلَا تُصْعِرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ﴾

(١) قرأ نافع وأبو عمرو وحمزة والكسائي وخلف (ولا تصاعر) فعل أمر من صاعر، وهو لغة أهل الحجاز، وقرأ الباقر (ولا تصعّر) من صعّر وهو لغة تميم، والصعّر: مرض يصيب الإبل في أعناقها فيميلها، والمعنى: لا تمل خدك للناس، أي: لا تعرض عنهم بوجهك تكبراً.

أي لا تتكبر، فتحقر الناس، وتعرض عنهم بوجهك تجاهلاً، فلا تُملّه وتعبس بوجهك تكبراً وتعاضماً، وأقبل على الناس تواضعاً إذا كلموك، ولا تعطهم شق وجهك وصفحته، كما يفعل المتكبرون.

والقراءة الأخرى: (ولا تصاعر) والصعر: داء يصيب البعير فيلوي عنقه، وقد شُبّه به المتكبر.

فالمعنى: ولا تُلوي وجهك إعراضاً عن محبيك وعمن سلّم عليك، ولا تحتقر الضعيف والفقير، واجعل اهتمامك بالجميع سواء، وألن جانبك وابسط وجهك؛ فإن «تسمك في وجه أخيك صدقة» والكبر هو رفض قبول الحق وعدم التسليم به، وازدراء الناس واحتقارهم:

١- في حديث عبد الله بن مسعود رضي الله عنه: أن رسول الله ﷺ قال: «لا يدخل النار أحد في قلبه مثقال حبة خردل من إيمان، ولا يدخل الجنة أحد في قلبه مثقال حبة خردل من كبرياء»^(١).

٢- وعنه رضي الله عنه: أن رسول الله ﷺ قال: «لا يدخل الجنة من كان في قلبه مثقال ذرة من كبر»، قال رجل: إن الرجل منا يحب أن يكون ثوبه حسناً ونعله حسنة، قال ﷺ: «إن الله جميل يحب الجمال، الكبر بطر الحق وغمط الناس»^(٢).

ومن لوازم الكبر: الإعجاب بالنفس والفخر والخيلاء والغرور:

٣- وفي حديث أبي ذر رضي الله عنه: ثلاثة يبغضهم الله، وذكر منهم المختال الفخور، وأنتم تجدونه في كتاب الله المتزل: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ﴾^(٣).

٤- وفي حديث أبي هريرة رضي الله عنه: أن رسول الله ﷺ قال: «بينما رجل يتبختر يمشي في بُرديه قد أعجبته نفسه، فخسف الله به الأرض، فهو يتجلجل فيها إلى يوم القيامة»^(٤).

- وفي حديث أبي هريرة أيضاً: أن رسول الله ﷺ قال: «رب أشعث مدفوع بالأبواب، لو أقسم على الله لأبره»^(٥).

(١)، (٢) «صحيح مسلم» برقم (٩١).

(٣) من حديث طويل أخرجه الحاكم على شرط مسلم (٨٨/٢)، وأخرجه أبو داود والنسائي بتصحيح الألباني في صحيح الترغيب والترهيب برقم (١٧٩١).

(٤) «صحيح مسلم» برقم (٢٠٨٨) و«صحيح البخاري» برقم (٥٧٩٠)، والمسند (٨١٧٧، ١٠٨٦٩).

(٥) «صحيح مسلم» برقم (٢٦٢٢).

التَّكْلِيفُ الْخَامِسُ: ﴿وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا﴾

أي: لا تمش في الأرض بين الناس مُسرَّعًا مغرورًا، فخورًا مختلًا متكبرًا متبخرًا؛ معجبًا بنفسك، ناسيًا مَنْ أَنْعَمَ عليك، فأنت - أيها المغرور - مهما ضربت الأرض بقدميك، ومهما أسرع بسيارتك أو دراجتك أو طائرتك، ومهما زُغت بها يمتة ويسرة، ومهما تقدمت على غيرك في قيادتك لمركبتك، فإن الأرض أقوى منك، ولن يمكنك خرقها بقدميك، ولا بمركبتك، ومهما أسرع في خَطْوِكَ فإن الجبال أطول منك، فافرق بنفسك يا مغرور!! فالله تعالى لا يحب كل مُعْجَبٍ بنفسه، متعالٍ على الناس، متكبر عليهم، فخور مغتر، يتناول على الناس بعد مزاياه ومناقبه، قال تعالى حاثًا على التواضع والسكينة، ناهيًا عن البطر والتكبر: ﴿وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا إِنَّكَ لَن تَخْرِقَ الْأَرْضَ وَلَن تَبْلُغَ الْجِبَالَ طُولًا﴾ (الإسراء: ٣٧).

ومن أوصاف عباد الرحمن أنهم ﴿يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا﴾ [الفرقان: ٦٣]. قال تعالى حاثًا على التواضع والسكينة ناهيًا عن البطر والتكبر:

التَّكْلِيفُ السَّادِسُ: ﴿وَأَقْصِدْ فِي مَشْيِكَ﴾

١٩- ﴿وَأَقْصِدْ فِي مَشْيِكَ وَأَغْضُضْ مِنْ صَوْتِكَ إِنَّ أَنْكَرَ الْأَصْوَاتِ لَصَوْتُ الْحَمِيرِ﴾ (١٩)

أي: ولا تضرب الأرض بقدمك فهي أضلَب منك، وتوسَّط في مشيك بين الإسراع والتأني؛ فالإسراع من الخيلاء والعجلة، والتأني من الضعف والوهن، وكلاهما مذموم، وكن في مشيك بين السكينة والوقار؛ لأن الإسراع يذهب ببهاء المؤمن، والبُطء صفة المتناومين، وخير الأمور العدل والوسط، وليكن مشيك برفق؛ فعباد الرحمن يمشون على الأرض هونًا.

طبق هذا وأنت تسير على قدميك، أو بسيارتك، أو بدراجتك، أو في سفيتك أو بطائرتك، أو على دابتك، وغير ذلك؛ فإن هذا من أخلاق المؤمن، وحسن تصرفه، وتعامله مع الناس، وقيادة السيارة تدل على أخلاق قائدها، فيحكم بالتهور والطيش على من يتلوَّى في الشارع كالثعبان ينفذ من كل جانب.

ويحكم بالحماقة على من يريد من الناس أن يوسَّعوا له الطريق، كأنه يمشي وحده في الشارع.

ويُحْكَم بحسن الأخلاق على من يتفادى أخطاء الآخرين، ويفسح لهم، ويعطيهم حقهم في الطريق، ولا يعتدى عليهم، ولا يُضَيِّق عليهم فيضطرهم إلى أضيقة.

التَّكْلِيفُ السَّابِعُ: ﴿وَأَغْضُضْ مِنْ صَوْتِكَ﴾

غَضُّ الصوت معناه: عدم رفعه بالكلام، وعدم المبالغة فيه، أو التشدُّق به، أدبًا مع الله تعالى ومع الناس، فإن أفضع الأصوات وأنكرها، صوت الحمير، ولو كان في الضجيج ورفع الصوت فائدة ومصلحة، لما اختصَّ بذلك الحمار، وارتفاع الصوت دليلُ ضَعْفِ الحجة، واهتزاز الشخصية، وعدم الثقة بالنفس.

وكان النبي ﷺ يحب الصوت الخفيض، ويكره الصوت الجهور، وأقبح الأصوات وأبغضها صوت الحمار؛ لأن له زفيرًا وشهيقًا كصوت أهل النار ﴿لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ﴾ [هود: ١٠٦]. ﴿إِذَا رَأَوْهُمْ مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ سَمِعُوا لَهَا تَغَيُّطًا وَزَفِيرًا﴾ [١٢] [الفرقان].

ولم يكن رسول الله ﷺ فاحشًا ولا متفحشًا ولا صخابًا في الأسواق.

قال الثوري: صياح كل شيء تسييح، إلا الحمار فإنه يصيح لرؤية الشيطان، ولذا سماه الله منكراً.

وفيه تشبيه الرافعين أصواتهم بالحمير وتمثيله بالنهيق، وهذا غاية الكراهة، والمراد: إنكار صوت جنس الحمير، ولذا وحَّد لفظ الصوت وجمع لفظ الحمير، كما شبَّه النبي ﷺ العائد في هبته بالكلب يعود في قيئه^(١).

وعن أبي هريرة ؓ أن النبي ﷺ قال: «إذا سمعتم صياح الديكة بالليل، فاسألوا الله من فضله، وإذا سمعتم نهيق الحمير، فتعوذوا بالله من الشيطان، فإنها رأت شيطاناً»^(٢).

وغضُّ الصوت من صفات المتقين، قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُعْضُونَ أَصْوَاتَهُمْ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ

(١) يُنْظَر الحديث في: البخاري عن ابن عباس برقم (٢٥٨٩، ٢٦٢١) ومسلم (١٦٢٢) وأبي داود (٣٥٣٨) وابن ماجه (٦٤٨٥) والترمذي، «تحفة الأحوذى» (٥٢٢/٤) وهو في سنن الترمذي برقم (١٢٩٨) و«المسند» (٢٥٢٩) وابن حبان (٥١٢١) و«الكبرى» للنسائي (٦٤٨٦).

(٢) «صحيح البخاري» (٣٣٠٣) و«صحيح مسلم» (٢٧٢٩) و«سنن أبي داود» (٥١٠٢) و«سنن الترمذي» (٣٤٥٩) و«سنن النسائي الكبرى» (١١٣٩١) و«المسند» (٨٠٦٤) وابن حبان (١٠٠٥).

أُولَئِكَ الَّذِينَ آمَنَ اللَّهُ قُلُوبُهُم لِلنَّقْوَى ﴿٣﴾ [الحجرات: ٣].

ورفع الصوت والصياح ليس من صفات العقلاء، قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِنْ وَرَاءِ الْحُجُرَاتِ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾ [الحجرات: ١٠].

قال الحسن: كان المشركون يتفاخرون برفع الأصوات، فردّ الله عليهم بأنه لو كان خيراً لفضلتْهم به الحمير.

وقال قتادة: أقبح الأصوات صوت الحمير: أوله زفير، وآخره شهيق.

وهكذا: فقد أمر لقمان ابنه بالتوحيد ونهاه عن الشرك، وأمره ببر الوالدين وشكرهما، وعدم طاعتهما في المعصية، وأمره بمراقبة الله تعالى في السر والعلن، ونهاه عن التكبر وأمره بالتواضع، وأمره بالمعروف، وإقامة الصلاة، والصبر على المكاره.

خَامِسًا: وَصَايَا أُخْرَى لِلْقَمَانِ لَيْسَتْ فِي الْقُرْآنِ:

وبعد: فهذه وصايا لقمان لابنه، أودعها الله كتابه؛ ليتلوها الناس قرآنًا إلى يوم الساعة، ومن وصاياهم له:

١- يا بني، جالس العلماء، وزاحمهم بركبتك؛ فإن الله تعالى يحيي القلوب بنور الحكمة، كما يحيي الأرض بوابل السماء.

٢- يا بني، إن الله تعالى إذا استودع شيئًا حفظه^(١).

٣- يا بني، إذا أتيت نادي قوم فارمهم بسهم الإسلام -يعني: سلّم عليهم- ثم اجلس في ناحيتهم، فلا تنطق حتى تراهم قد نطقوا، فإن أفاضوا في ذكر الله فأجر سهمك معهم -يعني: أقم بينهم- وإن أفاضوا في غير ذلك فتحول عنهم إلى غيرهم^(٢).

٤- يا بني، إن الحكمة أجلسّت المساكين مجالس الملوك^(٣).

(١) جاء هذا في حديث أخرجه أحمد في «المستد» عن ابن عمر (٨٧/٢) برقم (٥٦٠٦، ٥٦٠٥) بإسناد صحيح ورجال ثقات (محققوه) وقد صححه الألباني عن ابن عمر في صحيح الترغيب والترهيب برقم (١٧٠٨) وأخرجه النسائي في الكبرى (١٠٥٣١) وفي عمل اليوم والليلة (٥١٧).

(٢) رواه ابن المبارك في كتاب «الزهد» عن عون بن عبد الله (٣٣٢).

(٣) رواه السيوطي في «الدر المنثور» عن الثوري بن يحيى (٣١٦/٥).

تَفْسِيرُ سُورَةِ لُقْمَانَ (٣١)

مُقَدِّمَةُ السُّورَةِ

سورة لقمان هي السورة الحادية والثلاثون في ترتيب المصحف، والسابعة والخمسون في ترتيب النزول، نزلت بعد سورة الصافات، وقبل سورة سبأ.

وهي أربع وثلاثون آية عند أهل الشام والبصرة والكوفة، وثلاث وثلاثون آية عند الحجازيين. وكلماتها خمس مئة وثمان وأربعون كلمة، وألفان ومئة وعشرة أحرف.

ولم يُعرف لها اسم آخر غير (سورة لقمان)، وسُمِّيت كذلك لاشتغالها على قصة لقمان الحكيم. وسبب نزول السورة: أن قريشًا سألوا رسول الله ﷺ عن قصة لقمان مع ابنه، على وجه الاختبار والتعنت والتعجيز.

وفي حديث البراء قال: كنا نصلي خلف النبي ﷺ الظهر، نسمع منه الآية بعد الآية من سورة لقمان والذاريات^(١).

وسورة لقمان سورة مكية، نزلت على قوم وثنيين يعبدون الحجارة والأصنام، شأنها شأن السور المكية، فهي تغرس في نفوس الناس أصول الإيمان المتعلقة بالتوحيد، والوحي والرسالة، واليوم الآخر وما فيه من الحساب والجزاء. فتخاطب الفطرة البشرية والعقل البشري بدلائل الإيمان، ومؤثرات الكون الناطقة بوحداية الخالق العظيم، المستحق للعبادة دون سواه.

١- فيذكر الله سبحانه وتعالى في السورة دلائل الوحدانية والقدرة في خلق السموات والأرض، والليل والنهار، والشمس والقمر، والجبال والبحار، والنبات والأشجار. إلخ وهذا بالإضافة إلى ما جاء في المقطع الثالث من السورة بذكر جملة من الأدلة الكونية على وحدانية الله تبارك وتعالى.

(١) «السنن الكبرى» للنسائي برقم (١٠٤٥، ١١٤٦١) في صفة الصلاة، وابن ماجه في إقامة الصلاة (٨٣٠). وإسناده ضعيف.

وعن هذا وذاك يقول سبحانه ﴿هَذَا خَلْقُ اللَّهِ فَأَرُونِي مَاذَا خَلَقَ الَّذِينَ مِنْ دُونِهِ﴾.

٢- وتذكر السورة دلائل النبوة والرسالة في هذا الكتاب المحكم، ومعارضة المشركين للوحي والنبوة.

٣ - وتذكر اليوم الآخر، فتحدّر من هذا اليوم الرهيب، الذي لا ينفع فيه والد ولده، ولا مولود والده.

والناس تجاء هذه العناصر الثلاث منهم المؤمن المنعم يوم لقاء الله ومنهم الجاحد المعذب في نار الجحيم.

هذا: ويمكن تقسيم السورة إلى أربعة مقاطع رئيسة:

المقطع الأول: من أول السورة إلى الآية الحادية عشرة، وهذه الآيات التي صُدّرت بها السورة تمهّد لقصة لقمان، وهي تنوّه بهدي القرآن الكريم في جعل الناس قسمين:

أ- المحسنون المقيمون للصلاة، المؤمنون بالله واليوم الآخر، مع بيان الجزاء الحسن، المعدّ لهم في الدار الآخرة.

ب- والمجرمون الذين يشترّون الضلالة بالهدى، ويصدون الناس عن سبيل الله، مع بيان الجزاء السيء المعدّ لهم في الدار الآخرة كذلك.

وذلك ليعلم الناس أن الهدى هدى الله، وأنه لا يُلْتَفَت إلى أخبار أهل الضلال.

إلى جوار تذكير الناس بالمؤثر النفسي، والعامل الروحاني، وهو أن الخالق لهذا الكون هو المستحق للعبادة دون سواه.

المقطع الثاني: يتناول قصة لقمان الحكيم في وصايا لابنه في جانب العقيدة، والعبادة، والأخلاق، والآداب، وذلك في ثماني آيات، من الآية الثانية عشرة إلى الآية التاسعة عشرة من السورة، وجاء في ذلك أربع وصايا هي: النهي عن الشرك بالله، والأمر بالإحسان إلى الوالدين، وتقرير عقيدة الإيمان باليوم الآخر، وما فيه من حساب دقيق وجزاء عادل، وجاء في الوصية الرابعة: سبعة من التكاليف الشرعية، هي: إقامة الصلاة، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والصبر على المكروهات، وعدم التكبر، وعدم

الإعجاب بالنفس، والتواضع والسكينة، وخفض الصوت بالكلام..

المقطع الثالث: يسوق جملة من الأدلة الكونية على وحدانية الله تبارك وتعالى، في تسخير السموات والأرض، والليل والنهار، والشمس والقمر، والفلك التي تجري في البحار بقدره الله تعالى، إلى جوار بيان علم الله تعالى الشامل المحيط، ونعم الله تعالى الظاهرة والباطنة، ويتخلل ذلك الحض على إسلام الوجه لله، وبيان أن الله تعالى هو الحق، وأن ما يدعون من دونه هو الباطل.

ومن ذلك وجوب اللجوء إلى الله تعالى في حالات الشدة والرخاء معاً.

وقد استغرق هذا المقطع من الآية العشرين إلى الآية الثانية والثلاثين.

المقطع الرابع: يمثل ختام السورة، ويهدف إلى معالجة القلوب بدعوة الناس إلى تقوى الله تعالى، والخوف من لقائه في يوم لا ينفع فيه مال ولا بنون إلا من أتى الله بقلب سليم، وتقرير المسؤولية المستقلة، ومن ثم إلى علوم الغيب الخمسة التي ذكرت في نهاية السورة، وهي: وقت قيام الساعة، ووقت نزول المطر، وعلم ما في الأرحام، قبل تكوينه وبعد تكوينه، وعلم ما يحدث في المستقبل، وفي أي مكان يموت الإنسان، وهذا المقطع جاء في الآيتين الأخيرتين من السورة.



تَفْسِيرُ السُّورَةِ

الْمُنْتَفِعُونَ بِهِدْيِ الْقُرْآنِ: صِفَاتُهُمْ وَسَعَادَتُهُمْ

١-٣- ﴿الْمَ (١) تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْحَكِيمِ (٢) هُدًى وَرَحْمَةً (٣) لِلْمُحْسِنِينَ﴾

تبدأ السورة بحروف الهجاء الثلاثة: الألف، واللام، والميم؛ لبيان أن القرآن المعجز، مؤلف من جنس هذه الحروف، ولجذب المستمع إلى تدبره وتأمله، والله أعلم بمراده.

ثم إن هذا القرآن -المكون من هذه الحروف- كتاب محكم، دقيق مبعد، مبرأ من الخلل والنقص، والتناقض والاختلاف، محفوظ من التحريف والتغيير والتبديل، موصوف بالحكمة البالغة، مشتمل عليها، ناطق بها، فيه سعادة الدنيا والآخرة، والحكيم بمعنى: المحكم، أي: المبرأ من الكذب والتناقض.

ومن إحكامه: أنه جاء بأجلّ الألفاظ وأفصحها وأبينها الدالة على أجلّ المعاني وأحسنها، ومن ذلك: أن كل ما فيه مطابق للواقع، ولم يخالف ما جاءت به الكتب السابقة، ومن ذلك: أنه يأمر بكل خير وينهي عن كل شر، ويجمع بين الترغيب والترهيب، والقصص والأحكام، ويدعو إلى إعمال الفكر والعقل، وليس منه اختلاف ولا تناقض.

وقد أنزل الله هذا الكتاب؛ ليكون هداية ورحمة للذين يعملون الحسنات، ويحسنون في أفعالهم وأقوالهم، وقد خصهم الله تعالى بالذكر؛ لأنهم المنتفعون بهذا الكتاب، حيث ينتفع بما في القرآن من هداية، مَنْ عَلِمَ الله منهم قبول الهداية، وهم المتقون المحسنون، أما غيرهم فلا يتأثرون به، ولا تُجدي فيهم دعوة ولا موعظة، ومن هُدًى فقد أفلح وفاز ونجا، ومن ضلّ فقد خاب وخسر وهلك، فالتاس -إذن- فريقان: أهل السعادة وهم المحسنون، وأهل الشقاء وهم المعرضون المستكبرون عن قبول الدعوة.

(١) قرأ أبو جعفر بالسكت على ألف، ولام، وميم بدون تنفس، وقرأ غيره بعدم السكت.

(٢) قرأ حمزة برفع التاء من (ورحمة) على أنه خبر ثان لاسم الإشارة، أو خبر لمبتدأ محذوف، أي: هو رحمة، وقرأ الباقيون بالنصب على الحال.

هذا: وقد عد المصحف الكوفي وحده (الْمَ) آية، وتركها غيره.

وفي الآيتين التاليتين وصف للمحسنين بثلاثة أوصاف، قال تعالى:

٤، ٥- ﴿الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ﴿٤﴾ أُولَٰئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿٥﴾﴾

وقد وصف الله سبحانه الفريق الأول من الناس، وهم أهل الإحسان والإيمان والتقوى، بأوصاف ثلاثة:

الوصف الأول: أنهم يقيمون الصلاة المشتملة على عبادة القلب واللسان والجوارح، وفيها الإخلاص ومناجاة العبد ربه، وتجديد الصلة به بين الحين والآخر.

فيحافظون على أدائها في أوقاتها المحددة، مستوفية للشروط والأركان، والسنن والواجبات والآداب؛ حتى تصل العبد بربه، وتأخذ بيده إلى الابتعاد عن الفواحش والمنكرات، مع حرصه على النوافل الراتبه وغيرها.

الوصف الثاني: أنهم يؤتون الزكاة المفروضة عليهم، فيؤدونها لمستحقيها؛ لتحقيق التكافل والتعاون في المجتمع، وتطهير النفس من الشح والبخل، وزكاة المال ونمائه، وإزالة ما بين الغني والفقير من حقد وحسد وبغضاء، مع التصديق بفضول أموالهم، وصلة أرحامهم وأقاربهم.

الوصف الثالث: أنهم يصدّقون باليوم الآخر، وما فيه من بعث ونشر، وحشر، وحساب، وجزاء على الأعمال في الجنة أو النار، وهم يوقنون بذلك يقيناً ثابتاً، ولا يظنون ظناً فيه ريب أو شك، وهم يعملون لهذا اليوم راغبين في الثواب من الله تعالى.

وخُصت هذه الثلاثة بالذكر دون غيرها لفضلها وأهميتها.

فالمعنى: أن الله تعالى جعل هذا القرآن كتاب هداية ورحمة لمن أقبل عليه وأحسن العمل، فأقام الشرائع، وامثل الأوامر، واجتنب النواهي، وتخلّق بأخلاقه، وتأدب بآدابه، وأيقن بما عند الله من نعيم، فرغب فيه، ولم يراءِ أحداً، ولم يُردِ جزاء ولا شكوراً من الناس.

وهؤلاء المتصفون بالأوصاف السابقة على بيان من ربهم ونور، فهم الجامعون بين

العلم والعمل، وهم الفائزون في الدنيا والآخرة.

ولفظ (المفلحون) من الفلاح، وهو الظفر والفوز بالجنة ورضى الله تعالى، والسلامة من سخطه وعقابه.

وقبل أن يبين سبحانه ما أعدّه للمحسنين في الآخرة من نعيم، عجل بذكر الفريق الآخر، وهم:

غَيْرُ الْمُتَنَفِّعِينَ بِالْقُرْآنِ وَصِفَاتُهُمْ

٧، ٦ ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَشْتَرِي لَهْوَ الْحَدِيثِ لِيُضِلَّ^(١) عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ يَغْيِرَ عَلَيْهِ وَيَتَّخِذَهَا^(٢) هُزُوًا أُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿٦﴾ وَإِذَا نُتِلَتْ عَلَيْهِ ءَايَاتُنَا وَلَّى مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا كَأَنَّ فِي أُذُنِهِ^(٣) وَقْرًا فَأَنشَرُهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٧﴾﴾

والفريق الآخر: هو الذي يشتري لهو الحديث ومُنكره؛ ليُضِلَّ غيره، ويُضِلَّ هو عن سبيل الله دون علم بعواقب الأمور، وهذا الفريق يعاجله ربه بالعقوبة المهيبة مع التحقير له، والتهمك الواضح به؛ لاستهزائه بآيات الله تعالى.

ومجموع الروايات في أسباب النزول تدل على أن الآيتين: السادسة والسابعة، نزلتا في شأن النضر بن الحارث، وتبين أنَّهُ كان يهدف إلى إضلال الناس، وصرفهم عن الدخول في الإسلام، سواء أكان هذا عن طريق إلهائهم بالقصص وأخبار ملوك الفرس، أم عن طريق الجواري والمغنيات؛ لفتنتهم وإغوائهم.

فالمراد بالناس عند نزول الآية: النضر بن الحارث، وهو يشمل كل من حذا حذوه في صرف الناس عن الإسلام إلى غيره، أو صرفهم إلى الفتن والمضلات من المعاصي والذنوب، فهو ضالٌّ مضل.

(١) قرأ ابن كثير وأبو عمرو ورويس بخلف عنه بفتح الياء من (ليُضِلَّ) مضارع ضل، وقرأ الباقر بضم الياء، مضارع أضل، وهو الوجه الثاني لرويس.

(٢) قرأ حفص وحمزة والكسائي ويعقوب وخلف بنصب الذال من (ويتخذها) عطفًا على (ليُضِلَّ)، والباقر برفعها عطفًا على (يشتري).

(٣) قرأ نافع بإسكان الذال من (أذنيه)، والباقر بضمها، وقرأ ابن كثير بصله هاء الضمير، والباقر بعدم الصلة.

ومن أشهر ما ورد في ذلك روايتان تؤيدان معنى واحداً:

إحدهما: أنها نزلت في النضر بن الحارث، كان تاجرًا يأتي (فارس)؛ ليشترى أخبار الأعاجم، ويكتب الكتب من الحيرة والشام فيحدث بها قريشًا، ويكذب بها القرآن، ويقول لهم: إن محمدًا يحدثكم بحديث عاد وثمود، وأنا أحدثكم بحديث رُسُم وأخبار الأكاسرة، فيستملحون حديثه، ويتركون استماع القرآن^(١).

وثانيهما: أنها نزلت في النضر بن الحارث -أيضًا- اشترى قينة -أي: مغنية- وكان لا يسمع بأحد يريد الإسلام إلا انطلق به إلى قيته، فيقول لها: أطعميه واسقيه وغنيه، فهذا خير مما يدعوك إليه محمد من الصلاة والصيام، وأن تقاتل بين يديه^(٢).

والآية عامة في أمة محمد ﷺ من كل من تنطبق عليه الآية، ممن يضلون عن سبيل الله بكفر أو اتخاذ الآيات هزواً، أو ليعطلوا عبادة، أو يقطعوا وقتًا في الاستماع إلى منكر مكروه؛ ليكونوا من جملة العصاة.

لهو الحديث: هو كل حديث باطل منكر يلهي الإنسان، ويضيع وقته، ويقسي قلبه، ويصدّه عن الحق، ويضله عن طريق الخير والهدى.

والقراءة السبعية الأخرى (ليضل) بفتح الياء، والمعنى: ليثبت هو على ضلاله، ويرسخ فيه.

فالضلال أو الإضلال عن سبيل الله يكون بعدم الدخول في الإسلام، أو عدم الاستماع للقرآن، أو صد الناس عن ذلك.

وفي معناه: إدمان سماع الباطل، واللهو الماجن، بما يترتب عليه من ترك الصلاة، أو تأخيرها عن وقتها، أو تعليم الناس سُنة سيئة، كالشرب والقمار، أو ارتياد دور الفسق والفجور، وما إلى ذلك.

ومن ذلك الأحاديث الملهية للقلوب، الصاداة عن طريق الحق، ويدخل في ذلك كل

(١) «أسباب النزول» الواحدي ص ١٩٧ و«زاد المسير» (٦/٣١٥) عن ابن السائب ومقاتل بدون سند، ورواه البيهقي في «الشعب» (٥١٩٤).

(٢) «لباب النقول في أسباب النزول» للسيوطي ص ١٧٢ وهو مروي عن ابن عباس.

كلام محرم، وكل لغو باطل، وكل كفر وفسوق وعصيان.

فمعنى الآية: ومن الناس من يستبدل كل ما يلهي عن طاعة الله تعالى بما يصدُّ عن مرضاته؛ ليضل الناس عن طريق الهدى إلى طريق الهوى، ويتخذ آيات الله سخرية، أولئك لهم عذاب يهينهم ويخزيهم.

ومعنى يضل نفسه، أو يضل غيره بغير علم، أي: إنه يفعل ذلك عن جهل، فهو محجوب عن الحق بسبب اختياره طريق الضلال، فلا يتصرف عن علم ولا عن حكمة، وحسبُ المرء من الجهل والضلال أن يختار حديث الباطل على حديث الحق، ويختار ما يضر على ما ينفع، فكأنه غير عالم بسوء عاقبته.

ونظرًا لما قيل: من أن النضر كان يحاول منع الناس من الدخول في الإسلام، عن طريق إغوائهم وإلهائهم بالغناء، فقد ذكر بعض المفسرين أن الآية نزلت في تحريم الغناء، وأنه هو المراد بلهو الحديث، واستدلوا على ذلك:

١- بما قاله أبو الصهباء: سألت ابن مسعود رضي الله عنه عن هذه الآية فقال: هو الغناء، والله الذي لا إله إلا هو -يردها ثلاث مرات^(١).

وبهذا فسرهما ابن عباس، وجابر بن عبد الله، ومجاهد، وعكرمة، ومكحول، وعمرو بن شعيب.

٢- وقال الحسن البصري: أنزلت هذه الآية في الغناء والمزامير^(٢).

٣- وسئل القاسم بن محمد عن الغناء فقال: أنهاك عنه، وأكرهه لك، قال السائل: أحرام هو؟ قال: انظر يا بن أخي، إذا مَيَّزَ الله الحق من الباطل، في أيهما يُجعل الغناء؟^(٣).

٤- وعن رافع بن حفص المدني قال: أربع لا ينظر الله إليهن يوم القيامة: الساحرة، والنائحة، والمغنية، والمرأة مع المرأة، وقال: من أدرك ذلك الزمان فأولى به طول الحزن^(٤).

(١) «تفسير الخازن»، وأخرجه ابن أبي شيبه (٣٠٩/٦) وابن أبي الدنيا (٢٦) والطبري (٥٣٥/١٨) والحاكم (٤١١/٢) والبيهقي (٥٠٩٦).

(٢) أخرجه ابن أبي حاتم كما في «الدر المنثور» (٦١٨/١١).

(٣) أخرجه ابن أبي الدنيا برقم (٤٦) وقال محققه: إسناده لا بأس به.

(٤) أخرجه ابن أبي الدنيا برقم (٥٩) وقال محققه: إسناده صحيح.

٥- وعن نافع قال: كنت أسيرُ مع عبد الله بن عمر رضي الله عنهما في طريق، فسمع زَمارة راع، فوضع إصبعه في أذنيه، ثم عدل عن الطريق، فلم يزل يقول: يا نافع، أسمع؟ قلت: لا، فأخرج إصبعيه من أذنيه، وقال: هكذا رأيت رسول الله ﷺ صنع^(١).

قال القرطبي: هذه إحدى الآيات التي استدل بها العلماء على كراهة الغناء والمنع منه. ولا يُختلف في تحريم الغناء الذي يحرك النفوس إلى الشهوة، ويبعثها على الغزل والمجون.

فأما ما سَلِمَ من ذلك، فيجوز منه القليل في أوقات الفرح، كالعرس والعيد، وعند التنشيط على الأعمال الشاقة، كما كان في حفر الخندق^(٢).

وعند السفر لقطع الطريق، وهو يشير إلى ما جاء في الصحيحين من جواز الضرب بالدف في العيدين والعرس، والتغني بألفاظ ليس فيها العشق والهيام، وليس فيها زرع الحب غير المشروع بين الجنسين، ويكون ذلك من الرجال للرجال، والنساء للنساء، من غير احتراف لمهنة الغناء؛ لأنه كسب غير مشروع، وقد نهى النبي ﷺ عن ثمن الكلب وكسب المزمار.

ومعنى الآية على هذا: ومن الناس من يستبدل ويختار الغناء والمزامير والمعازف على سماع القرآن.

على أن الناس توسعت في أمر الغناء، فأصبح يُضم إليه الرقص والتكسر، والغمز واللمز، والعُري، وكشف العورات، والشرب، وآلات الطرب واللهو، وأصبحت الموسيقى من لوازمه وخرج الناس بذلك عن الكلام الحسن، إلى الكلام القبيح والأفعال القبيحة، وخرجوا من السماع إلى المشاهدة، ورؤية الأحضان والقبلات الحارة، كأنهم زوجين في غرفة النوم، والأمر زاد وتفشى، وكأنه صار معروفاً، وعكسه صار منكراً! نسأل الله العفو والعافية.

فالأغاني داخله في الآية، وقد استعملها (النضر) للمنع من الهدى والخير، والصدّ عن

(١) ابن أبي الدنيا (٦٨) والبيهقي (٢٢٢/١٠) وفي «الشعب» (٥١٢٠) وهو عند أحمد (١٣٢/٨) برقم (٤٥٣٥) وأبي داود (٤٩٢٤) قال محققو «المسند»: حديث حسن.

(٢) ملخصاً من «تفسير القرطبي» (٥٤/١٤) وانظر: «تفسير الألوسي» (٦٧/٢١).

سماع القرآن، ففيها لهو وإعراض عن دين الله تعالى بوجه من الوجوه، سواء أكان ذلك للمؤمن بنقص إيمانه والحيولة بينه وبين طرق الهدى، أم كان للكافر بثباته على الكفر ورسوخ قدمه فيه، وهذا حال الأشقياء، كما قال تعالى: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرُوا الضَّلَالَةَ بِالْهُدَى﴾ [البقرة: ١٦، ١٧٥].

- وإذا تتلى على الكافر بالله ورسوله آيات القرآن، وهي طريقه إلى الإسلام والعمل بما فيه، أعرض عنها وتكبر، غير مبال ولا عابئ بها، كأنه لم يسمع شيئاً، كأن في أذنيه صمماً، ومن كانت هذه حاله فبشره -أيها الرسول- بعذاب مؤلم موجه في النار يوم القيامة.

وحب الغناء والقرآن لا يجتمعان في قلب مؤمن، فعاشق الأغنية يضيق ذرعاً بسماع القرآن، قد يستمتع ويشاهد -ليلة كاملة- مسرحية، أو فيلماً، أو حفلة غنائية راقصة، مع شعوره بالراحة النفسية، ولكنه لا يطيق الاستماع إلى القرآن أو خطبة الجمعة، أو درس ديني لمدة نصف ساعة مثلاً.

فإذاعة القرآن الكريم -مثلاً- جامعة إسلامية، فيها شتى المعارف والعلوم الضرورية لثقافة المسلم، وبالإحصاء والتتبع، لا تجد إلا شريحة قليلة من الناس هي التي تواظب على متابعتها، وبعض الناس لا يحاول أن يغذي قلبه وعقله منها ولو ساعة من نهار.

وقد وصف الله تعالى حال محب اللهو والباطل، بأنه إذا تتلى عليه آيات القرآن أعرض عن طاعة الله وتكبر، غير متعظ ولا معتبر، كأنه لم يسمع شيئاً، كأن في أذنيه صمماً، ومن كانت هذه حاله فبشره -أيها الرسول الكريم- بعذاب موجه في النار يوم القيامة.

ومن العبث ما يُسمى بالغناء الديني، أو الأناشيد الدينية والتواشيح الدينية، إذا لازم أيّ منها آلات الطرب والموسيقى، فلا يليق أن نسبح الله بالأنغام، ولا يليق أن يُغنى بأسماء الله الحسنى، ولا يجوز مدح النبي ﷺ وإطراؤه بالنغم والطرب، ولا يليق بالعبادة أن يدخلها شيء من هذا القليل، فمن أراد اللهو والغناء فليفعل، وإثمه عليه، ولكن لا يكون هذا باسم الدين، وقد يتخلل هذا الإطراء شرك صريح: أذكر أننا كنا نفطر في شهر رمضان، وأنا طفل صغير، على هذه الألفاظ يرددها في المدياع، الموسيقار الكبير محمد عبدالوهاب!! وهو يقول: (أغثنا أدركننا يا رسول الله) ما هذا الجهل؟ ما هذا العبث؟ ما هذه العقول التي لم تفرق بين الألف والعصا؟! هل الرسول يغيث أحداً؟ هل الرسول

يدرك أحداً؟ فما الذي يفعله رب العالمين إذن؟.

وأذكر وأنا في مقتبل حياتي كنت أخطب الجمعة في قوم من أهل التصوف، وأقول: إن طلب المدد لا يكون إلا من الله تعالى، وإذ بصوت يردّ عليّ مباشرة اثناء الخطبة وهو يقول (مدد يا أبا هاشم) وهو من مشايخهم!.

وَوَضِعُ البشارة موضع الإنذار من باب التهكم والسخرية.

وقد تضمنت الآية ذم المشتري من خمسة وجوه:

١- التولي عن الحكمة. ٢- الاستكبار عن الحق. ٣- الإعراض عن سماع القرآن.

٤- المبالغة في هذا الإعراض بعدم المبالاة بها، وعدم الالتفات إليها.

٥- التهكم بهذا المعرض، والاستهزاء به^(١).

والآية دليل على كفر من نزلت فيه هاتان الآيتان، وهذا كقوله تعالى: ﴿وَبَلِّغْ لِكُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ ﴿٧﴾ يَسْمَعُ ءَايَاتِ اللَّهِ تَنزِيلًا عَلَيْهِ ثُمَّ يُغِرُّ مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا فَبَشِيرَةً بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٨﴾ وَإِذَا عَلِمَ مِنْ ءَايَاتِنَا شَيْئًا أَخَذَهَا هُمُوزًا أَنُورِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿٩﴾ مِّنْ وَرَآيِهِمْ جَهَنَّمُ وَلَا يُغْنِي عَنْهُمْ مَا كَسَبُوا شَيْئًا وَلَا مَا اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْلِيَاءَ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٠﴾﴾ [البقرة: ١٠٧].

وقوله تعالى: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِي ءَاذَانِهِمْ وَقْرًا﴾ [الكهف: ٥٧].

ثَوَابُ الْمُؤْمِنِينَ

٨، ٩- ﴿إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ جَنَّاتُ النَّعِيمِ ﴿٨﴾ خَالِدِينَ فِيهَا وَعَدَ اللَّهُ حَقًّا وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٩﴾﴾.

أما أهل السعادة فإنهم يهتدون بكتاب الله عز وجل، ويستفعون بسماعه، كما قال تعالى: ﴿اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُّتَشَبِّهًا مَّتَافِي نَفْسَعُرٍ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ﴾ [الزمر: ٢٣].

وقال جل شأنه: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَاتُهُ

(١) المعنى مقتبس من «البحر المحيط» (١٨٤/٧).

زَادَتْهُمْ إِيمَانًا ﴿٢﴾ [الأنفال: ٢]. وقد بيّنت الآيات جزاء المحسنين بعد ذكر جزاء الكافرين.

وبعد أن فصّلت السورة بين المؤمنين وجزاءهم، بذكر صفات الكافرين المستهزئين وجزاءهم، بيّنت أن أهل السعادة الذين صدّقوا بالله ورسله، وعملوا الأعمال الصالحة، لهم نعيم دائم في جنات يتمتعون فيها بما لم يخطر لهم على بال، وحياتهم في تلك الجنات حياة أبدية لا تنقطع ولا تزول، وقد وعدهم الله بذلك وعدًا حقًا، ووعد سبحانه لا يتخلف، وهو العزيز في أمره الذي يقهر كل شيء، ويدين كل شيء لجبروته، فهو الغالب الذي لا يُغلب ولا يُقهر، الحكيم في تدبيره وفي كل ما يصدر عنه سبحانه.

قال تعالى: ﴿قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدًى وَشِفَاءً وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِي آذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى﴾ [فصلت: ٤٤].

وقال سبحانه: ﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلَّا خَسَارًا

﴿٨٢﴾ [الإسراء].

الْقُرْآنُ يُخَاطَبُ الْعَقْلَ مِنْ خِلَالِ مَخْلُوقَاتٍ أَرْبَعَةٍ

١٠- ﴿خَلَقَ السَّمَوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا وَقَالَ فِي الْأَرْضِ رَوِّسِي أَنْ تَمِيدَ بِكُمْ وَبَثَّ فِيهَا مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ﴾ ﴿١٠﴾

ومن حكمة الله تعالى، وعظيم قدرته، وبراهين توحيده: خلق السموات والجبـال والدواب والماء، وهي نعم أربع، سخرها الله سبـحانه لنفع الإنسان؛ حيث يلمس أثرها بشكل مباشر كالماء، أو بشكل غير مباشر كالسموات.

وأولى هذه النعم: السموات:

فقد خلقها الله تعالى في الفضاء الذي لانهاية له، على عظمها، وسعتها، وكثافتها، وارتفاعها، ورفعها بغير عمد كما تشاهدونها، فهي مخلوقة بدون دعائم ترتكز عليها، أو تستند إليها، بقدرة قادر، وهي ثابتة لا تزول إلى يوم القيامة، ولا تقع على الأرض إلا بإذنه، كما قال تعالى: ﴿اللَّهُ الَّذِي رَفَعَ السَّمَوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا﴾ [الرعد: ٢].

وقال سبـحانه ﴿إِنَّ اللَّهَ يُمَسِّكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ أَنْ تَزُولَا﴾ [فاطر: ٤١]

ولم يدع أحد من البشر أنه خلق السموات، سواء أكانت هي هذه الكواكب، والنجوم، والمجرات السابحة في الفضاء الذي لا يعلم مداه إلا الله تعالى، أم كانت هذه القبة التي تراها العين، وفيها خلائق ضخمة هائلة، فهي معلقة في الفضاء بغير عمد تستند إليها على كلا المعنيين، مع أن الله تعالى زينها بالنجوم للناظرين، فهي ذات منظر خلّاب، وجمال بديع، لا تملُ العين من النظر إليه.

والضمير في ﴿تَرَوْنَهَا﴾ عائد على السموات، أي: إنكم تشاهدونها بدون عمد.

وقيل: إنه عائد على العمَد، أي: خلقها بغير عمد مرئية.

فيكون المعنى: أن السماء لها عمد ولكنها غير مرئية، والمعنى الأول أصح، وعليه جمهور أهل العلم.

قال الحسن وقتادة: ليس لها عمد مرئية، ولا غير مرئية^(١).

ثانيها: الجبال: وهي الرواسي التي أثقلت الأرض وزادتها ثباتاً؛ لئلا تضطرب بأهلها على وجه الماء، وهي جبال عظيمة، ثبت الله بها جميع أرجاء الأرض وأنحائها.

قال تعالى: ﴿وَأَلْقَى فِي الْأَرْضِ رَوْسًا أَنْ نَمِيدَ بِكُمْ﴾ [النحل: ١٥] أي: لئلا تميد بكم، ولكي تستقر الأرض بساكنيها.

ونظرة علماء طبقات الأرض: أن هذه الجبال تضاريس في قشرة الكرة الأرضية تنشأ من برودة جوف الأرض، فتتكشف القشرة الأرضية وتتجدد، وتحدث المرتفعات والمنخفضات وفق الانكماشات الداخلية، والقرآن يقرر أن هذه الجبال تحفظ توازن الأرض؛ لئلا تتأرجح بالخلق، وتحرك بهم، فتفسد حياتهم.

قال الفخر الرازي: واعلم أن الأرض ثباتها بسبب ثقلها، وإلا كانت تزول عن موضعها بسبب المياه والرياح، ولو خلقها الله تعالى مثل الرمل لما كانت تثبت للزراعة، كما نرى الأرض الرملية، يتنقل الرمل فيها من موضع إلى موضع، فهذه هي حكمة إرسائها^(٢).

(١) الطبري (٢٠/١٣٢).

(٢) «التفسير الكبير» (٢٥/١٤٣).

والجبال إحدى عجائب الكون، ولم يدع أحد من البشر أنه خلقها.

ثالثها: الدواب: فقد نشر الله تعالى في الأرض مختلف أنواع الدواب التي تعقل والتي لا تعقل، وسخر الحيوانات لخدمة الإنسان، ولمصالحه ومنافعه، ولا يعلم عددها وأشكالها وألوانها إلا الذي خلقها، ولم يدع أحد من البشر أنه خلق دابة من الدواب مهما كانت صغيرة الحجم، ولما بث الله سبحانه الدواب في الأرض، عَلِمَ أنه لا بد لها من رزق تعيش به، فأنزل من السماء ماء مباركًا، وأنبأ به من كل زوج كريم.

رابعها: الماء: وهو إحدى عجائب الكون، الذي لم يدع أحد أنه خلقه، وهو من أجل النعم على خلق الله، تفيض به البحار والأنهار والبحيرات، وتتفجر به العيون والآبار، وكله نازل من السماء وفق نظام دقيق.

وبهذا الماء حياة الإنسان والحيوان والنبات، به يُخرج الله النبات من الأرض أصنافًا وأشكالًا كريمة، بهيئة نافعة، حسنة المنظر، أزواجًا مختلفة، منها الذكر والأنثى، مجتمعة أو منفصلة، في عود أو عودين، أو زهرة أو زهرتين، والثمرة لا توجد إلا بعد التلقيح، كما يحدث في الحيوان والإنسان والمعادن مما أنبته الله تعالى من الأرض، وقد خلق الله الناس -أيضًا- من نبات الأرض وأخرجه منها إخراجًا، كما قال تعالى: ﴿وَاللَّهُ أَنْبَتَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ نَبَاتًا﴾ [نوح].

ومع أن الإنسان يقف مشدوهاً مبهوراً أمام جهاز صغير يصنعه، ولكنه يمر بهذه العجائب مغمض العينين، مطموس القلب، كأنه لآله لها يمر بشيء عادي لا يلفت النظر! وهذه الكائنات العظيمة مخلوقة لله تعالى:

١١- ﴿هَذَا خَلْقُ اللَّهِ فَأَرَوْفَ مَاذَا خَلَقَ الَّذِينَ مِنْ دُونِهِۦٓ بَلِ الظَّالِمُونَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾

أي هذا الذي ذكرناه لكم من خلق السموات والأرض، والجبال والنبات، والإنسان والدواب والحيوان، وكل ما تشاهدونه في الكون، من خلق الله وحده دون أن يشاركه أحد في الخلق، فماذا خلقت آلهتكم التي تعبدونها من دون الله أيها المشركون؟ فإن كانت قد خلقت شيئاً فأروني إياه، وهذا سؤال للتهكم والسخرية بهم وبمن يُعبد من دون الله، بل الظالمون لأنفسهم بالشرك في ذهاب بين عن الحق؛ لأنهم وضعوا العبادة في

غير موضعها، وعبدوا ما لا يسمع ولا يبصر، ولا يضر ولا ينفع، فهم أضل من الحيوان الأعجم، ومن المعلوم أن هذه الآلهة لم تخلق شيئاً، لأن المشركين أنفسهم يقرون بأن الله وحده هو الخالق الرازق المدبر ﴿وَلَيْن سَأَلْتَهُمْ مَن خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ﴾ [العنكبوت: ٦١]

لُقْمَانُ وَمَنَاقِبُهُ

١٢- ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا لُقْمَانَ الْحِكْمَةَ أَنِ اشْكُرْ لِلَّهِ وَمَن يَشْكُرْ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ﴾ (١٢)

هذه الجولة الثانية في السورة، للحديث عن لقمان الحكيم، الذي سُميت السورة باسمه؛ لذكر قصته فيها، وقد منَّ الله على عبده لقمان بأن أعطاه العلم النافع والعمل الصالح، وأمره أن يشكره على ما أعطاه، ليزيده من فضله، وأخبر أن الشكر يعود نفعه على من شكر، وأن من لم يشكر يعود وبال ذلك عليه، والله غني بذاته عن شكر غيره له، حميد في صفاته وأفعاله.

وقد ورد أن قريشاً سألت النبي ﷺ عن لقمان، تريد أن تعرف خبره، فقصَّ الله وصيته في القرآن، وهي وصية حافلة بالخير والحكمة.

«ولقمان أعرف من حكماء اليونان الذين اشتهرت أسماؤهم، ففلسفتهم فكر غامض، ونظرات خيالية، أما لقمان فقد لخص الحق في منهج وجيز، أخذ به ابنه، وتركه تراثاً نبيلًا»^(١).

وهو لقمان بن باعوراء، قيل: كان في زمن داود عليه السلام، وقيل: كان بين عيسى ومحمد عليهما السلام، وقد آتاه الله الفهم والعلم، وحسن التعبير، والمعرفة والعمل، والإصابة في الأمور، وهو رجل حكيم في المعتقد والفقه والعقل.

وجمهور السلف على أن لقمان كان عبداً صالحاً، ولم يكن نبياً.

ولم يصح سند الروايات التي قالت بنبوته، وهي عن عكرمة والشعبي.

(١) الشيخ محمد الغزالي، «نحو تفسير موضوعي للقرآن» ص ٣١٧.

١- جاء في الأثر: «لم يكن لقمان نبيا، ولكن كان عبداً كثير التفكير، حسن اليقين، أحب الله فأحبه، ومنَّ عليه بالحكمة»^(١).

وقال قتادة في معنى الحكمة: الفقه في الإسلام، ولم يكن نبياً ولم يُوحَ إليه^(٢).

٢- وقال سعيد بن المسيب لرجل أسود: لا تحزن من أجل أنك أسود، فإن من أخير الناس ثلاثة من السودان: بلال، ومُهَجَّع مولى عمر، ولقمان الحكيم، كان أسوداً نوبياً ذا مشافر^(٣).

قالوا: والنجاشي كان رابعهم، أوتي الحكمة والعقل والفهم، كما أوتي لقمان الفقه في الدين وسلامة العقل.

وقيل: إنه كان عبداً أسوداً، عظيم الشفتين، مشقق القدمين.

٣- روى ابن جرير عن خالد الربيعي قال: كان لقمان عبداً حبشياً نجاراً، فقال له مولاه: اذبح لنا هذه الشاة، فذبحها، فقال: أخرج أطيّب مُضْغَتَيْنِ فيها، فأخرج اللسان والقلب، ثم مكث ما شاء الله، ثم قال: اذبح لنا هذه الشاة، فذبحها، فقال: أخرج أحب مُضْغَتَيْنِ فيها، فأخرج اللسان والقلب، فقال له مولاه: أمرتك أن تُخرج أطيّب مُضْغَتَيْنِ فيها فأخرجتهما، وأمرتك أن تُخرج أحب مُضْغَتَيْنِ فيها فأخرجتهما؟ فقال لقمان: إنه ليس من شيء أطيّب منهما إذا طابا، ولا أحب منهما إذا خُبئا^(٤).

٤- وعن عمرو بن قيس قال: مرّ رجل بلقمان والناس عنده، فقال: ألسنت عبد بني فلان؟ قال: بلى، قال: ألسنت الذي كنت ترعى جبل كذا وكذا؟ قال: بلى، قال: فما الذي بلغ بك ما أرى؟ قال: تقوى الله، وصدق الحديث، وأداء الأمانة، وطول السكوت عما لا يعنيني^(٥).

٥- وعن عبد الله بن دينار: أن لقمان قدم من سفر، فلقي غلامه في الطريق، فقال: ما

(١) القرطبي (٥٩/١٤).

(٢) الطبري (١٣٤/٢٠).

(٣) الطبري (١٣٥/٢٠) عن عبد الرحمن بن حرمة.

(٤) الطبري (١٣٥/٢٠) وابن أبي شيبة (٢١٤/١٣) وأحمد في «الزهد» ص ٤٩.

(٥) الطبري (٥٤٨/١٨) وابن أبي الدنيا (١١٦، ٦٧٥).

- ٥- يا بني، اتخذ تقوى الله لك تجارة، يأتك الربح من غير بضاعة.
- ٦- يا بني، لا تكن أعجز من هذا الديك الذي يصوت بالأسحار، وأنت نائم على فراشك.
- ٧- يا بني، اعتزل الشر كما يعتزلك؛ فإن الشر للشر خلق.
- ٨- يا بني، عليك بمجالس العلماء، وبسماع كلام الحكماء؛ فإن الله تعالى يحيي القلب الميت بنور الحكمة.
- ٩- يا بني، إنك منذ نزلت الدنيا استدبرتها، واستقبلت الآخرة، ودار أنت إليها تسير أقرب من دار أنت عنها ترتحل.
- ١٠- يا بني، ارج الله رجاء لا تأمن فيه مكره، وخف الله مخافة لا تيأس بها من رحمة الله.
- ١١- يا بني، أكثر من قول: رب اغفر لي؛ فإن له ساعة لا يرد فيها سائل.
- ١٢- يا بني، إني ذقت المر كله، فلم أذق شيئاً قط أَمَرَّ من الفقر.
- ١٣- يا بني، حملت الحجارة والحديد، فلم أجد شيئاً أثقل من جار السوء.
- ١٤- يا بني، إذا جاءك الشيطان من قبل الشك والريبة، فاغلبه باليقين والنصيحة، وإذا جاءك من قبل الكسل والسامة فاغلبه بذكر القبر والقيامة.
- ١٥- يا بني، لا ترسل رسولاً جاهلاً، فإن لم تجد حكيماً فكن رسول نفسك.
- ١٦- يا بني، لا تأكل شبعاً على شبع؛ فإنك إن تُلِّقه للكلب، خير من أن تأكله.
- ١٧- يا بني، لا تؤخر التوبة؛ فإن الموت يأتي بغتة.
- ١٨- يا بني، لا ترغب في وُدِّ الجاهل، فيرى أنك ترضى عمله.
- ١٩- يا بني، اتق الله، ولا تُرِ الناس أنك تخشى الله؛ ليكرموك بذلك، وقلبك فاجر.
- ٢٠- يا بني، إياك وشدة الغضب؛ فإن شدة الغضب ممحقة لفؤاد الحكيم.
- ٢١- يا بني، لا يأكل طعامك إلا الأتقياء، وشاور في أمرك العلماء.
- ٢٢- يا بني، إن الدنيا بحر عميق، وقد غرق فيها ناس كثير، فاجعل سفيتك فيها تقوى الله، وحشوها بالإيمان بالله، وشراعها التوكل على الله، لعلك تنجو.
- ٢٣- يا بني، لا تتعلم ما لا تعلم حتى تعمل بما تعلم.

- ٢٤- يا بني، إذا أردت أن تواخي رجلاً فأغضبه قبل ذلك، فإن أنصفك عند غضبه، وإلا فاحذره.
- ٢٥- يا بني، إياك والدّين؛ فإنه ذلّ بالنهار، وهمّ بالليل.
- ٢٦- يا بني، ارجُ الله رجاءً لا يُجرّئك على معصية، وخَفِ الله خوفاً لا يُؤسّك من رحمته.
- ٢٧- يا بني، ما ندمتُ على الصمت قط، وإن كان الكلام من فضة فإن السكوت من ذهب.
- ٢٨- يا بني، إياك والكذب؛ فإنه شهيّ كلحم العصفور، عما قليل يقلي صاحبه.
- ٢٩- يا بني، احضُر الجنائز ولا تحضُر العُرس؛ فإن الجنائز تذكرك الآخرة، والعُرس يشهّيك الدنيا.
- ٣٠- يا بني، لا تكن حلواً فتُبلع، ولا تكن مُراً فتُلفظ.
- ٣١- يا بني، ليكن أول ما تفيد من الدنيا بعد خليل صالح، امرأة صالحة.
- ٣٢- يا بني، لا تجالس الفجّار، ولا تماشهم، اتق أن ينزل عليهم عذاب من السماء فيصيبك معهم.
- ٣٣- يا بني، جالس العلماء وماشهم، عسى أن تنزل عليهم رحمة، فتصيبك معهم.
- ٣٤- يا بني، إذا امتلأت المعدة نامت الفكرة، وخَرَسَت الحكمة، وقعدت الأعضاء عن العبادة.
- ٣٥- يا بني، إنما مثُلُ المرأة الصالحة كمثلُ الدُّهن في الرأس، يُلين العروق ويحسّن الشعر، ومثل المرأة السوء كمثل السيل، لا ينتهي حتى يبلغ منتهاه.
- ٣٦- يا بني، إذا تكلمت أسمعته، وإذا مشيت أسرعته، وإذا قعدت رفعت، وإذا غضبت أسمعته، وكل داء يبرأ، إلا داء امرأة السوء.
- ٣٧- يا بني، إذا جاء وقت الصلاة فلا تؤخرها لشيء، صلّها واسترح منها؛ فإنها دين، وصلّ في جماعة، ولو على رأس زج^(١).

(١) يُنظر: أسانيد هذه الوصايا المختارة، في «الدر المثور» (٢٦٢/١١) وما بعدها، ويُنظر: «حاشية الجمل على الجلالين» (٤٠٣/٣) وما بعدها، ويُنظر: «تفسير التحرير والتنوير» (١٧٠/٢١) وما بعدها، و«تفسير الألوسي» و«تفسير الفخر الرازي». في تفسير الآية.

سبعة أدلة كونيّة على وحدانيّة الله تعالى

الدليل الأول: تسخير ما في الكون لخدمة الإنسان

٢٠- ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ^(١) ظَهَرَهُ وَبَاطِنَهُ وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَابٍ مُنِيرٍ ﴿٢٠﴾﴾

وبعد وصايا لقمان التي جاءت معترضة بين دلائل التوحيد من صفحة الكون المنظور، تعود السورة إلى ما بدأته من استعراض سبعة من الأدلة الكونية على وحدانية الله تعالى؛ وهي جملة من النعم يمتنُّ بها على عباده ليحمدوه ويشكروه:

ألم تروا - أيها الناس - أن الله ذلَّل لكم ما في السَّمَوَاتِ من الشمس والقمر والنجوم التي تزيّن السماء، وتستضيئون بها في ظلمات البوادي والقفار، وسخر لكم السحاب والأمطار والرياح، وجعل السماء سقفاً محفوظاً، وذلَّل لكم جميع ما في الأرض من الدواب والجبال والبحار، والنبات والشجر والماء، والزرع والثمار والمعادن وغيرها؛ لمنفعتكم ومصلحتكم، وحفظ حياتكم ومعاشكم.

إسباغ نعم الله على عباده: والناس أمام شكر النعم فريقان:

فريق آمن وعمل صالحاً، وشكر نعمة الله عليه.

وفريق كفر وجادل، وأنكر فضل الله عليه.

فالنعمة هي: ما ينتفع به الإنسان، وما يتلذذ به من كل ما أحله الله تعالى، وهي نوعان:

١- نعمة ظاهرة مشاهدة محسوسة، كنعمة: السمع والبصر والمال.

٢- ونعمة باطنة خفية يجد الإنسان أثرها في نفسه دون أن يراها، كنعمة الإسلام والإيمان وحسن الأخلاق.

(١) قرأ نافع وأبو عمرو وحفص وأبو جعفر بفتح العين وضم الهاء من غير تنوين في (نِعَمَهُ) على التذكير، جمع نعمة، والضمير يعود على الله تعالى، وقرأ الباقر بإسكان العين وتاء منونة منصوبة (نِعْمَةً) على التأنيث والإفراد، وهي مصدر أُريد به اسم الجنس

لقد أتم الله عليكم -أيها الناس- نعمة ظاهرة على الأبدان والجوارح، ومنها تسوية الأعضاء وحُسن الصورة، وأنواع الرزق.

ومن النعم الباطنة: العقول والقلوب، وما أدخره الله تعالى لخلقه مما لا يعلمون، ومنها: ستر الذنوب، وتكفير الخطايا، وعدم التعجيل بالعقوبة، وحُسن الخلق، وصرف البلايا، ورضى الله تعالى، قال تعالى: ﴿وَإِنْ نَعْدُوا نِعْمَتَ اللَّهِ لَا تَحْصُوهَا﴾ [إبراهيم: ٣٤]. وأعظم نعمة على الإنسان: هي نعمة الإسلام، والإيمان بإرسال الرسل، وإنزال الكتب، واليوم الآخر لإثابة المطيعين وعقاب العاصين.

عن ابن عباس رضي الله عنه، قال: سألت رسول الله ﷺ، فقلت: يا رسول الله، ما هذه النعمة الظاهرة والباطنة؟ فقال: «أما ما ظهر: فالإسلام، وما سَوَى الله من خلقك، وما أفضل عليك من الرزق، وأما ما بطن: فستر مساوئ عملك ولم يفضحك»^(١).

وقال الضحاك: الباطنة: المعرفة، والظاهرة: حسن الصورة، وامتداد القامة، وتسوية الأعضاء.

ومع هذه النعم وغيرها، فإن الناس لم يؤمنوا، فمنهم من شكر الله تعالى وقام بواجب النعمة عليه، ومنهم من كابر وعاند وجحد، وبدّل نعمة الله كفرًا، فجادل في الله بغير علم ولا مستند من حجة صحيحة، ولا كتاب مأثور صحيح، فهو يجادل في توحيد الله تعالى، وفي إخلاص العبادة له بغير برهان ولا هدى، أي: بغير دليل ولا بيان، ولا كتاب يبين حقيقة دعواه، وإنما جادل تقليدًا لغيره، أو تعصّبًا لدراسته، أو اقتداءً بمجتمعه وأئمتّه، من غير علم ولا بصيرة.

قيل: نزلت هذه الآية في النضر بن الحارث، وأبي بن خلف، وأمّية بن خلف، كانوا يجادلون النبي ﷺ في الله تعالى، وفي صفاته بغير علم.

وقال القرطبي: نزلت في يهودي جاء إلى النبي ﷺ، فقال: يا محمد، أخبرني عن ربك، من أي شيء هو؟ فجاءت صاعقة فأخذته^(٢) أي: أخذته وهو يجادل في الله، كما

(١) ذكره السيوطي في «الدر المنثور» (١٦٧/٥) وكذا البيهقي في «الشعب» (٤٥٠٥) والطبري والديلمي

(٧١٦٧) ورجّح بعضهم أنه موقوف على ابن عباس.

(٢) «تفسير القرطبي» (٧٤/١٤).

قال تعالى: ﴿وَيُرْسِلُ الصَّوَاعِقَ فَيُصِيبُ بِهَا مَنْ يَشَاءُ وَهُمْ يُجَادِلُونَ فِي اللَّهِ وَهُوَ شَدِيدُ الْحَالِ﴾ [الرعد: ١٣].

التَّقْلِيدُ الْأَعْمَى يَقُودُ إِلَى جَهَنَّمَ

٢١- ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوَّلَوْ كَانُ الشَّيْطَانُ يَدْعُوهُمْ إِلَى عَذَابِ السَّعِيرِ﴾

وإذا قيل لهؤلاء المجادلين في توحيد الله تعالى، وإفراده بالعبادة: كونوا على بصيرة من أمركم، واتبعوا ما أنزل ربكم على رسوله من الأحكام والشرائع، تعللوا بفعل الآباء والأجداد، وقالوا: هذا ما وجدنا عليه آبائنا من الشرك وعبادة الأصنام، والتحاكم لغير الله تعالى، وسائر العادات والتقاليد، فليس لهم من حجة إلا اتباع الآباء والأجداد فيما كانوا عليه من ضلال.

وهنا يأتي استفهام تعجبي من فظاعة حالهم، وسوء جهلهم، أي: أيفعلون ذلك ولو كان الشيطان يزين لهم سوء أعمالهم من كفرهم بالله تعالى، ويأخذ بأيديهم إلى عذاب النار المستعرة؟ فهم كانوا على ضلال، وأنتم خلف لهم فيما كانوا عليه، قال تعالى: ﴿أَوَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ لَا يَقُولُونَ سَيِّئًا وَلَا يَهْتَدُونَ﴾ [البقرة: ١٧٠].

والآية لم تتحدث فحسب عمن كانوا معاصرين لنزول الوحي من الكافرين، بل تشمل كل: ملحد، أو علماني، أو شيوعي، وكل مشرك، أو كافر، وكل من يقلد غيره في معصية، أو ذنب صغير أو كبير، في كل زمان ومكان، ويدخل في ذلك الشرك والكفر دخولاً أولياً، فهم يتبعون دين آبائهم ولو كان مصيرهم إلى السعير.

الْتَّمَسُكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى سَبِيلُ النِّجَاةِ

٢٢- ﴿وَمَنْ يُسَلِّمْ وَجْهَهُ إِلَى اللَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَقَدْ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىٰ وَإِلَى اللَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ﴾

وإذا كان ما سبق هو حال المجادل الذي لا يستند إلى دليل صحيح في عدم إيمانه بالأدلة الكونية، وشكر النعم السابغة عليه، فإن المؤمن يستسلم لله تعالى استسلاماً مطلقاً، ويحسن العمل له بإتقان، ويخلص دينه لله، ويتوكل عليه، ويفوض أمره إليه،

فِيُحَسِّنُ فِي عِبَادَتِهِ وَأَقْوَالِهِ وَأَفْعَالِهِ، وَيُثَبِّتُنْ أَعْمَالَهُ.

والمعنى أن من يخضع وينقاد لشرع الله تعالى بإخلاص في دينه واتباع لما جاء به رسول الله، فقد أسلم وجهه لله، قَسَلِمَ من الهلاك وفاز بالنجاة.

ومن إسلام الوجه لله: الإحسان في جميع العبادات، والقيام بالحقوق والواجبات، والإحسان، أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك.

وهذا المتمسك بدين الله تعالى قد أخذ بأوثق سبب موصل إلى ثواب الله ورضوانه، شأن المتوكل على الله الذي أخذ بالأسباب واحتاط لنفسه، فأمسك بحبل قوي متين، مأمون انقطاعه، وهو يتدلى من شاهق، فكأنه أخذ موثقًا من الله ألا يعذبه.

وإلى الله وحده تصير كل الأمور، فيجازي المحسن على إحسانه، والمسيء على إساءته، قال تعالى: ﴿بَلَى مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُ أَجْرُهُ عِنْدَ رَبِّهِ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [البقرة].

ومن لم يسلم وجهه لله، ولم يكن محسنًا، لم يستمسك بالعروة الوثقى وكان من الهالكين، ومردة إلى الله، وإذا كانت هذه نهاية المحسن، فما نهاية من يكفر؟

٢٣- ﴿وَمَنْ كَفَرَ فَلَا يَحْزَنُكَ﴾^(١) كَفَرَهُ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ فَنَنْصِلُهُمْ بِمَا عَمِلُوا إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ

أما من استمر على كفره بعد أن بلغته رسالتنا ودعوتنا، فلا يهمنك أمره، ولا تحزن على كفره؛ فإن أمر الله نافذ فيه، وهو لن يَفْلِتَ منا؛ لأنه مأخوذ بعمله ومجازى عليه، وقد أديت ما عليك -أيها الرسول- من البلاغ والدعوة، وعلينا الحساب والجزاء، والله عليم بما تكنه صدورهم من الكفر، وإيثارهم طاعة الشيطان على طاعة الله تعالى، قال تعالى:

٢٤- ﴿نُصِصُهُمْ قَلِيلًا ثُمَّ نَضْطَرُّهُمْ إِلَىٰ عَذَابٍ غَلِيظٍ﴾

وسوف يُمَتَّع هذا الكافر في دنياه متاعًا قليلًا، يُخَدَّع به، ثم تكون نهايته فظيعة، فيُدفع إلينا دفعًا لا يملك له ردًا حين يرجع إلينا فنخبره بأعماله الخبيثة، ثم نجازيه عليها، فلا يهمنك -يا محمد- كُفْرُ مَنْ كَفَرَ، ولا ضلال من ضل، ولا تذهب نفسك عليهم حسرات؛

(١) قرأ نافع بالبناء للمجهول في (يحزنك)، والباقون بالبناء للمعلوم.

فإننا سنتنقم منهم عاجلاً أو آجلاً، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ﴾ (١٩) مَتَّعْ فِي الدُّنْيَا ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ نَذِقُهُمُ الْعَذَابَ الشَّدِيدَ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ ﴿٧٠﴾ [يونس].

الدليل الثاني: تناقض المشركين في عبادتهم غير الله تعالى

٢٥- ﴿وَلَيْن سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾

ثم إنكم -أيها المشركون مع الله غيره في عبادته- مُقِرُّون ومُعترفون بأن الله تعالى هو خالق هذا الكون بما فيه ومن فيه، فهذه السَّمَوَاتُ والأَرْضُ، أنتم تقرُّون بضمائركم وألستكم وتعتفون بفطرتكم أن الله تعالى خالقها، وأنتم لا تدَّعون خلقها، ولم يدَّع أحد خلقها إلى يومنا هذا، وإلى أن يرث الله الأرض ومن عليها، فلماذا هذا التناقض؟ وهذا الخلق دليل ماثل أمام العين، لا يحتاج إلا لمجرد النظر، فإذا سألتهم: من خلق هذا الكون بما فيه؟ فيقولون: الله، فإذا قالوا ذلك، وألزموا أنفسهم بالإقرار، فقل لهم: الحمد لله على إلزامكم الحجة، وقيام الدليل عليكم من أنفسكم، من غير تلكؤ ولا تردد، والحمد لله على إظهار الحق، وإبطال الكفر، ولو كانوا يعلمون حقا أن الخالق الرازق، هو الذي يجب أن يُفرد بالعبادة، لفعلوا، ولكن أكثرهم لا يعلمون ذلك، فأشركوا معه غيره، وقبلوا هذا التناقض بعد إقرارهم بأن خالق هذا الكون هو الله، ومع ذلك فهم يعبدون غيره، فكأنهم لا يعلمون، إذ لا توجد ثمرة لهذا الإقرار.

الحمد لله على هذا الإقرار القهري أمام الدليل الكوني؛ فإن دعواهم ليست على حق، وأكثرهم لا يعلمون الحق، ولا يقدِّرون من له الحمد والشكر حق قدره، فلذا أشركوا معه غيره.

وقد عبَّر القرآن بلفظ ﴿أَكْثَرُهُمْ﴾؛ لأن من العرب في وقت التنزيل من كان على التوحيد حنيفاً مسلماً على ملة إبراهيم، مثل: زيد بن عمرو بن نفيل، وقس، وورقة بن نوفل، وهو وصف عام، يتناول حال البشر جميعاً على مدى التاريخ؛ فإن السواد الأعظم من عالم اليوم لا يؤخِّدون الله تعالى، وعلى رأسهم النصارى في دعوى التثليث، أو القول بالبنوة، أو الحلول، والاتحاد، ونحو ذلك.

الدِّلِيلُ الثَّالِثُ: جَمِيعُ مَا فِي الْكَوْنِ مُلْكٌ لِلَّهِ تَعَالَى:

٢٦- ﴿لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ﴾ ﴿٢٦﴾

ومادمتم -أيها المشركون- قد أقررتم بفطرتكم وألستكم أن الله تعالى هو خالق هذا الكون، فإن هذا يستلزم ملكية الله المطلقة لكل ما في السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ، ملكًا وخلقًا وعبيدًا وإيجادًا وتديرًا وتقديرًا، وهذا شامل لجميع ما في العالم العلوي والعالم السفلي، فجميع ما في السموات والأرض في قبضة الله تعالى وتحت تصرفه، تجري عليهم أحكامه القضائية وأحكامه الجزائية، وهو سبحانه الغني لا تنفعه طاعة المطيعين، ولا تضره معصية العاصين، والكل مملوك ومسخر ومدبر ومفتقر إلى الله تعالى، فلا يستحق العبادة إلا الله تعالى، والله هو الغني عن خلقه، وله الحمد والثناء على كل حال.

الدِّلِيلُ الرَّابِعُ: عِلْمُ اللَّهِ تَعَالَى لَا يَتَنَاهَى

٢٧- ﴿وَلَوْ أَنَّ مَا فِي الْأَرْضِ مِنْ شَجَرَةٍ أَقْلَمٌ وَالْبَحْرُ^(١) يَمْدُ مِنْ بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَا نَفِدَتْ كَلِمَتُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ ﴿٢٧﴾

أي: ومن مظاهر علم الله الذي لا ينفد، وعلمه الذي لا يتناهى، الموجب لاستحقاقه تعالى للحمد والعبادة، دون سواه، أن أشجار الأرض كلها لو تحولت بفروعها وأغصانها وجُعِلَتْ أَقْلَامًا، وتحولت مياه البحر كلها مدادًا، وزيد على هذا البحر سبعة أبحر أخرى؛ ليكتب بها علم الله تعالى، فإن هذه الأقلام ستتناهى وهذا المداد سينفد، وعلم الله تعالى لا ينفد، وهذا ليس مبالغة لا حقيقة له، وإنما لأن علم الله تعالى تتقاصر العقول عن الإحاطة به، وهذا من باب التمثيل لتقريب المعاني إلى الأذهان.

وليس المراد سبعة أبحر على وجه الحصر، وإنما ذكر ذلك على وجه المبالغة.

والمراد: كثرة العدد؛ لأنه لا حصر لكلمات الله، ولا لآياته.

(١) قرأ أبو عمرو ويعقوب بنصب (والبحر) عطفًا على محل اسم إن، والباقون بالرفع عطفًا على المصدر المنسبك من أن وما بعدها، وهذا المصدر فاعل لفعل محذوف تقديره: لو ثبت كون ما في الأرض من شجرة أقلام والبحر يمدده... إلخ.

والمراد: لو جعلت أشجار الأرض كلها أقلامًا، وكانت الأقلام التي يكتب بها من البوص أو الغاب، وتحولت مياه الأرض كلها إلى حبر يكتب به، وأخذ كُتَّاب الأرض يكتبون كلمات الله الدالة على علمه المحيط بكل شيء، والدالة على عظمته وصفاته، لانتهى المداد، ونفدت الأقلام، وكلمات الله لم تنته؛ إذ لا يمكن لأحد أن يحيط بها، والبشر يعجز عن الإلمام بالكمال المطلق، ويعجز عن إدراك الكلمات التي لا تنتهي، وعلم الإنسان محدود متناه، قال تعالى: ﴿وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [الإسراء: ٨٥].
والله عزيز في ملكه، وفي انتقامه ممن أشرك به، حكيم في تدبير شؤون خلقه.

وفي الآية إثبات صفة الكلام لله تعالى على الوجه الذي يليق بجلاله من غير تأويل لها بمعنى آخر، ومن غير نفي لها، أو تشبيه، أو تمثيل بغيرها.

وقد صحَّ من حديث أبي هريرة ؓ أن النبي ﷺ قال: «لا أحصي ثناء عليك أنت كما أثنيت على نفسك فلك الحمد حتى ترضى»^(١).

قيل: إن المشركين قالوا: إن القرآن الذي يأتي به محمد يوشك أن ينفد فينقطع، فأنزل الله الآية^(٢).

وقيل: إنه لما سمع اليهود قوله تعالى: ﴿وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [الإسراء: ٨٥]. جوابًا لسؤالهم عن الروح، قالوا: قد أوتينا التوراة، وفيها تبيان لكل شيء، فقال ﷺ: «إنها في علم الله قليل»، ونزلت الآية، وهذا على القول بأن الآية مدنية^(٣).

وكان حيي بن أخطب قد قال: تزعم يا محمد، أنك أوتيت الحكمة، وتزعم أننا لم نؤت من العلم إلا قليلًا، فكيف يجتمع هاتان؟ فنزلت هذه الآية، ونزلت آية الكهف^(٤).

قال تعالى: ﴿قُلْ لَوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدَادًا لِكَلِمَاتِ رَبِّي لَنَفِدَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَنْ تَنفَدَ كَلِمَاتُ رَبِّي وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِ مَدَدًا﴾ (١٨٩) [الكهف].

(١) «صحيح مسلم» (٣٥٢/١) برقم (٤٨٦) عن أبي هريرة ؓ.

(٢) الطبري (٥٧٢/١٨) وعبد الرزاق (١٠٦/٢) وأبو الشيخ (٧٩) وفي سنده رجل مجهول.

(٣) «الدر المنثور» (٦٥٨/١١) والطبري (٥٧٢/١٨).

(٤) أخرجه ابن المنذر عن ابن جريج كما في «الدر المنثور» (٦٥٨/١١).

وقد جاءت هذه الآية تعقيماً على قصة أهل الكهف وذي القرنين، كما أن الآية التي في هذه السورة جاءت تعقيماً على قصة لقمان، وفيها: ﴿يَبْنِيْ إِنَّهَا إِن تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ فَتَكُنْ فِي صَخْرَةٍ أَوْ فِي السَّمَوَاتِ أَوْ فِي الْأَرْضِ يَأْتِ بِهَا اللَّهُ﴾.

وفي الآيتين إشارة إلى سعة علم الله تعالى وشموله، ومن ذلك ما سبق ذكره في السورتين، وأنه تعالى لو أراد أن يُبْلَغَ خلقه ما في علمه تعالى لنفَذَ الكلام، ونفَذَتِ الأقلام، ونفَذَتِ السجلات، وما انتهى علم الله تعالى.

بمعنى أن الأشجار التي في الأرض كلها لو كانت أقلاماً، والبحار كلها لو كانت مداداً، فكُتِبَتْ بها عجائب صنع الله تعالى الدالة على كمال قدرته ووحدانيته، لفنيت الأقلام، ونفَذَتِ البحار، ولم تنته عجائب الله تعالى، ولم تنقطع كلماته.

قال أبو الجوزاء: لو كانت كل شجرة في الأرض أقلاماً، والبحار مداداً، لنفد الماء وتكسرت الأقلام قبل أن تنفذ كلمات ربي^(١).

وفي ختام الآية بين سبحانه أن العزة والغلبة والقوة لله جميعاً في العالم العلوي والعالم السفلي، فلا حول ولا قوة إلا بالله، بعزته قَهَرَ الخلق كلهم، وتصرف فيهم ودير أمرهم، وبحكمته خلق الخلق، فأمرهم ونهاهم، فهو العزيز في ملكه، الحكيم في خلقه وأمره.

الدَّلِيلُ الْخَامِسُ: الْبَعْثُ وَالنُّشُورُ

٢٨- ﴿مَا خَلَقَكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ وَاحِدَةً إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ﴾ (٢٨)

وقدرة الله تعالى التي لا تُطال، يسهل عليها الخلق والبعث، فيستوي عند هذه القدرة خلق الواحد وخلق الملايين، ويستوي عندها بعث الواحد وبعث الملايين، وذلك بمجرد توجه الإرادة إليها دون أي جهد يُبذل.

أي: ما خلق جميع الناس أول مرة، ولا خلقكم ثاني مرة، ببعثكم بعد موتكم، إلا كخلق نفس واحدة، وخلق نفس واحدة شيء عجيب، يدل على تمام قدرة الله تعالى التي يستوي فيها القليل والكثير، والبدء والإعادة، والله ﴿سَمِيعٌ﴾ لأقوالكم، ﴿بَصِيرٌ﴾ بأعمالكم، وسيجازيكم

(١) عبد الرزاق (١/٤١٣).

عليها، وذلك كقوله تعالى: ﴿فَإِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ ﴿١٣﴾ فَإِذَا هُمْ بِالسَّاهِرَةِ ﴿١٤﴾﴾ [النازعات].

وقوله سبحانه: ﴿إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ﴿٨٢﴾﴾ [يس].

وقوله جلّ شأنه: ﴿وَمَا أَمْرُنَا إِلَّا وَاحِدَةٌ كَلَمْحٍ بِالْبَصَرِ ﴿٥٠﴾﴾ [القمر].

ورد أن أبي بن خلف وآخرين من قريش قالوا للنبي ﷺ: إن الله خلقنا أطوارًا: نطفة، علقة، مضغة، عظامًا، لحماً، ثم تزعم أنا نبعث خلقًا جديدًا جميعًا في ساعة واحدة، وكيف يُحيي جميع الأمم والأجيال التي تضمنتها الأرض في قرون كثيرة؟ فنزلت الآية^(١).

فلا وجه لاستبعاد البعث والنشور والحساب والثواب والعقاب إلا الجهل بعظمة الله تعالى وقوته وقدرته، وإلا فإن إعادة الخلق بعد موتهم أيسر وأهون في نظر العقلاء.

الدَّلِيلُ السَّادِسُ: تَعَاقُبُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالشَّمْسِ وَالْقَمَرِ

٢٩- ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُولِجُ أَيْلًا فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي أَيْلٍ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى وَأَنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿٢٩﴾﴾

هذه الآية استدلال على ما تضمنته الآية السابقة من قدرة الله تعالى على البعث، بأن القادر على تغيير أحوال الأرض والسماء، واختلاف الليل والنهار، قادر على بعث الناس بعد موتهم، وهذا استدلال بطريق التمثيل بعد الاستدلال بطريق القياس.

والآيات تؤكد ما سبق ذكره من دلائل القدرة الموجبة لإخلاص العبادة لله تعالى، وإبطال عبادة غيره سبحانه، وتقرير أن القادر على خلقها هو الإله الحق.

ومن ذلك أن الله تعالى يأخذ من ساعات الليل فيطوّل النهار ويقصّر الليل، ويأخذ من ساعات النهار فيطوّل الليل ويقصّر النهار، فما نقص من أحدهما زاد في الآخر، وذلك عند اختلاف فصول العام، ولكن طول الألفة يُفقد الحساسية، فلا يلحظ الإنسان هذا المشهد العجيب من خلق الله تعالى الذي لا يتخلف مرّة، ولا يضطرب أو ينحرف عن دَوْرته المرتبطة بالشمس والقمر، بحيث يجري كلّ منهما في مداره، مذللاً ومسخراً لنفع

(١) «روح المعاني» للألوسي (٩١/٢١).

الإنسان وغيره إلى أجل محدد معلوم، قيل: هو نهاية الدنيا، وقيل: هو يوم القيامة، والأول أصح.

ويشهد له ما جاء في الصحيحين: عن أبي ذر رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «يا أبا ذر، أتدري أين تذهب هذه الشمس؟» قلت: الله ورسوله أعلم، قال: «فإنها تذهب فتسجد تحت العرش، ثم تستأذن ربها، فيوشك أن يقال لها: ارجعي من حيث جئت»^(١). قال تعالى: ﴿وَسَخَّرَ الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ [فاطر: ١٣]. وهذا من علامات الساعة.

وعن ابن عباس رضي الله عنه أنه قال: الشمس بمنزلة الساقية، تجري بالنهار في السماء في فلکها، فإذا غربت جرت بالليل في فلکها تحت الأرض حتى تطلع الشمس من مشرقها، قال: وكذلك القمر^(٢).

والله تعالى مطلع على أعمال الخلق من خير أو شر، لا يخفى عليه منها شيء، ومن ذلك تعاقب الليل والنهار، والزيادة والنقصان، وكذا جريان الكوكبين في فلکيهما.

قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ﴾ [الحج: ٧٠].

الْإِلَهُ الْحَقُّ

٣٠- ﴿ذَٰلِكَ يَٰأَنَّا اللَّهُ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ^(٣) مِنْ دُونِهِ الْبَطْلُ وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ﴾

أي: والسبب في زيادة الليل ونقصان النهار، وبالعكس: أن سنة الله تعالى لا تتغير، وأن أحوال هذا الكون لا تتبدل، فهي ثابتة مستقرة، تسير وفق نظام دقيق محكم، والقائم بهذه الحقيقة الكبرى هو الله سبحانه؛ فهو الحق في ذاته وصفاته وأفعاله، ورسله حق، وكتبه حق، وعبادته حق، ووعدته حق، ووعيده حق، وصفة الألوهية له حق، ولغيره باطل، وهو الذي يحفظ هذا الكون ويدبره، ويضمن له الثبات والاستقرار؛ لأنه سبحانه حق ثابت لا يتغير، ولا يحول ولا يزول، وغير الله تعالى لا يستحق العبادة؛ لبطلان

(١) البخاري (٤٨٠٣) ومسلم (١٥٩).

(٢) رواه ابن أبي حاتم بإسناد صحيح.

(٣) قرأ أبو عمرو وحفص وحزمة والكسائي ويعقوب وخلف بالياء في (يدعون) على الالتفات، والباقون بالتاء جرًا على السياق.

الوحيته، وهو العلي بذاته فوق جميع مخلوقاته، الكبير على كل شيء، له الكبرياء في ذاته وصفاته، وله الكبرياء في قلوب أهل السماء والأرض، وكل ما عداه خاضع له، فهو وحده المستحق أن يُعبد دون سواه، وكل ما سوى الله تعالى باطل ومحتاج إليه سبحانه.

الدليل السابع: جري السفن في البحر

٣١، ٣٢- ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ الْفُلَكَ تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِنِعْمَتِ اللَّهِ لِيُرِيَكُمْ مِنْ آيَاتِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴿٣١﴾ وَإِذَا غَشِيَهُمْ مَوْجٌ كَالظُّلُلِ دَعَوْا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ ﴿٣٢﴾ فَلَمَّا بَجَّهْتُمْ إِلَى الْبَرِّ فَمِنْهُمْ مُقْنَصِدٌ وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلَّا كُلُّ خَتَّارٍ كَفُورٍ ﴿٣٣﴾﴾

وتمضي الآيات؛ لتأتي بمشهد كوني من مألوف حياة البشر في الأرض:

ألم تر -أيها المشاهد- أن السفن تجري في البحر بأمر الله تعالى، نعمة منه على خلقه؛ ليرىكم من عجائب صنعه وقدرته ما تعتبرون به، حيث لا تقف السفن غالباً ولا تغرق، ولو اختلَّت سنة من سنن الله تعالى في البحر: كثافة الماء، أو نسبة ضغط الهواء، أو درجة الحرارة، أو تيار الهواء أو الماء، لو اختل شيء من ذلك ما جرت السفن في الماء، وهذه الخواص للماء، أو الهواء، أو الحرارة لا ينظمها ولا يسيّرهما إلا رب العالمين، ولم يدع أحد من الخلق أنه يقوم بهذه المهام في البحار إلا الله سبحانه.

إن في جري السفن في البحر لدلالات لكل صبار عن محارم الله، وعلى ما أصابه من ضراء، فهم المتفعلون بالآيات والمواعظ والعبر.

ودلالات لكل شكور لنعم الله عليه، وما أكرمه به من سراء، فالصبار كثير الصبر، والشكور كثير الشكر، والمتصف بهما يكون بين رجاء الثواب وخوف العقاب؛ لأنهم آمنوا باليوم الآخر وما فيه من جنة ونار.

وهاتان صفتان للمؤمن، فالإيمان نصفه صبر ونصفه شكر، وهو مأجور في الحاليتين.

أما غير المؤمن فإنه لا يصبر ولا يشكر، فإن أصابه ضرٌّ لجأ إلى الله تعالى، فإذا نجاه الله تعالى مما هو فيه من الضر فإنه لا يشكر من العباد إلا القليل.

(١) عدّ (مخلصين له الدين) آية البصري والشامي، وتركه غيرهما.

أحوال الناس عند الخوف من الغرق:

فإذا ركب الناس السفن وغطّاهم الموج من فوقهم فارتفع منسوب الماء وكان كالجبال أو السحاب في كثرتة وارتفاعه، وهم كالريشة في مهب الريح، قد أصابهم الذعر والخوف من الغرق، فإذا أنقذهم الله منه، وأخرجهم إلى شاطئ البحر صاروا ثلاثة أنواع من البشر:

النوع الأول: مؤمنون صادقون، شكروا الله تعالى، فابتهلوا له، وأخلصوا في الدعاء، وكانوا ممن قال الله فيهم: ﴿دَعُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾ ونسوا جميع من سواه حين نجاهم الله إلى البر، وأخرجهم من تلك الشدة، فهم موقنون بآيات الله تعالى، شاكرون لأنعمه، صابرون على ما أصابهم، وهذا شأنهم في السراء والضراء، وهذا النوع من الناس معلوم من هذه الآية، فهم السابقون بالخيرات. ﴿وَإِذَا غَشِيَهُمْ مَوَجُّ كَالظِّلِّ دَعُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾.

والنوع الثاني: مقتصد: متوسط الحال، لا يتجرف إلى النسيان، ولا يقوم بالشكر على وجه الكمال، وإنما هو مقتصد في العبادة والدعاء، وهؤلاء هم المقتصدون في الطاعة والعبادة، المتوسطون في العمل، الذين قال الله فيهم: ﴿فَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ﴾.

أما النوع الثالث: فهو نوع كافر بنعمة الله عليه، جاحد لها، ينكر فضل الله عليه بمجرد زوال الخطر عنه، وعودة الرخاء إليه، وهذا النوع من الناس على خطر عظيم، فهم الظالمون لأنفسهم، الذين ختم الله بهم الآية، ووصفهم بالجحود والغدر والكفر، وما يجحد بآيات الله وحججه الدالة على كمال قدرته إلا كل غادر ناقض للعهد، جحود لنعم الله عليه.

جاء في الأثر: أن عكرمة بن أبي جهل لما هرب يوم الفتح من رسول الله ﷺ ركب البحر، فأصابتهم ريح عاصف، فقال أهل السفينة: أخلصوا؛ فإن ألهتكم لا تغني عنكم شيئاً ما هنا، فقال عكرمة: ما هذا الذي تقولون؟ فقالوا: هذا مكان لا ينفع فيه إلا الله، فقال: هذا إله محمد الذي كان يدعونا إليه، لئن يُنَجِّي في البحر إلا الإخلاص، ما ينجِّي في البر غيره، ارجعوا بنا، فرجع فأسلم^(١).

وهذا كقوله تعالى: ﴿وَإِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فِي الْبَحْرِ ضَلَّ مَنْ تَدْعُونَ إِلَّا إِلَهُهُ فَلَمَّا جَنَّكُمُ إِلَى الْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ﴾ [إسراء: ٦٧].

(١) «الإصابة»: ترجمة عكرمة، وأخرجها الدارقطني والحاكم وغيرهما.

وقوله ﷻ: ﴿فَإِذَا رَكِبُوا فِي الْفَلَكِ دَعَوْا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ﴾ (١٥) [العنكبوت].

وقوله سبحانه: ﴿هُوَ الَّذِي يُسَوِّرُكَ فِي الْبَرْ وَالْبَحْرِ حَتَّى إِذَا كُنْتَ فِي الْفَلَكِ وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَبَاقٍ وَفَرِحُوا بِهَا جَاءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَاءَهُمُ الْمَوْجُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ لَئِنْ أَجَبْنَاهُمْ مِنْ هَٰذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ﴾ (٣٣) فَلَمَّا أَجَبْنَاهُمْ إِذَا هُمْ يَتُوعُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ [يونس].

وهذا هو حال الكافر الظالم لنفسه بالكفر والشرك، الذي يتعرف على الله تعالى في الرخاء وينساه في الشدة.

المَسْئُولِيَّةُ فَرْدِيَّةٌ أَمَامَ رَبِّ الْعَالَمِينَ

٣٣- ﴿يَتَأْتِيَ النَّاسَ انْقِعَاؤُ رَبِّكُمْ وَأَخْشَوْا يَوْمًا لَا يَجْزِي وَالِدٌ عَنْ وَلَدِهِ وَلَا مَوْلُودٌ هُوَ جَازٍ عَنِ وَالِدِهِ شَيْئًا إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِاللَّهِ الْغَرُورُ﴾ (٣٣)

هذه الآية بمثابة المقصد من الخطبة بعد ذكر مقدماتها، وتهيئة النفوس إلى قبول الهداية، والتأثر بالموعظة الحسنة، وتقوى الله تعالى تبدأ بمعرفة وحدانيته سبحانه والتصديق برسوله ﷺ، وتنتهي بامثال المأمورات واجتناب المنهيات في الظاهر والباطن وسائر الأحوال.

وبمناسبة الفرع والهول الذي يصيب الناس وهم في غرض البحر والأمواج تلاطمهم، كما هو في الآية السابقة، تذكّرهم هذه الآية بيوم الفرع الأكبر، والهول الأعظم، فتأمرهم أن يستعدوا لهذا اليوم بتقوى الله تعالى، وطاعة أمره واجتناب نهيه، والخوف من لقائه، والحذر من يوم القيامة، وهو يوم لا ينفع فيه والد ولده، ولا مولود يحمل عن أبيه شيئاً، مع أن الوالد أشفق الناس على ولده، والولد له واجب حق التربية، ومع ذلك فإن أواصر القربى والدم، وشائج الرحم والنسب، تنقطع يوم القيامة، فلا يهتم قريب بقريبه، ولو كان أقرب الناس وأحبهم إليه، وكل واحد يقول: نفسي نفسي، كما قال تعالى: ﴿يَوْمَ يُفْرَأُ أَلْرَّءُ مِنْ أَخِيهِ﴾ (٢١) وَأُمِّهِ وَأَبِيهِ (٢٥) وَصَحْبِهِ وَبَيْنِهِ (٢٦) لِكُلِّ امْرِئٍ مِنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُعْبَى (٢٧) [عبس].

وقال سبحانه: ﴿يَوْمَ لَا تَمْلِكُ نَفْسٌ لِنَفْسٍ شَيْئًا وَالْأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِلَّهِ﴾ (١٩) [الانفطار].

فالإنسان هو الذي يصنع مستقبله، إن نجا فبحسناته، وإن هلك فبسيئاته ﴿وإن تدعُ مُثْقَلَةٌ

إِلَى حِمْلِهَا لَا يُحْمَلُ مِنْهُ شَيْءٌ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ ﴿١٨﴾ [فاطر: ١٨].

فلا يوجد أحد يزيد في حسنات الآخر، ولا أحد ينقص من سيئات غيره، إلا بمقدار أخذ الحقوق واستيفاء المظالم.

ويوم القيامة يوم لا يتكلم فيه أحد إلا بإذن الله تعالى، ولا يشفع فيه أحد إلا بإذنه، ولا يؤاخذ فيه أحد بعمل أحد، ولا يهتم فيه أحد بأحد، كلٌّ مشفق على نفسه، وكلٌّ يحمل وزره هو، وكلٌّ يُسأل عن نفسه، وعما تحمّل من مسؤوليات.

إن وعد الله بالبعث والحساب والجزاء، حق ثابت لا يتخلف، فاخشوا يومًا هذا شأنه، ولا تتخذوا بالحياة الدنيا وزخرفها فتُنسيكم الآخرة، فلا تغتروا بها، ولا يغرنكم بالله الغرور.

والغُرور -بفتح الغين- هو: الشيطان، وكل ما يلهي عن طاعة الله تعالى وذكره، من مال ومتاع وجاه، أي: فلا يخدعنكم بالله خادع من شياطين الإنس والجن، فيزين لكم الدنيا وطول الأمل، والغُرور -بضم الغين- هو: طول الأمل.

وقد نزلت هذه الآية بمكة، وأهلها يومئذ خليط من مسلمين وكافرين، وربما كان الأب مسلمًا والولد كافرًا، وربما كان العكس، وقد يتوهم بعض الكافرين أن الإنسان لو كان صادقًا في تعامله مع الناس، وله أب مسلم أو ابن مسلم، فإنه يدفع عنه العذاب يوم القيامة، لو كان هناك بعث وحساب وجزاء، كما يقولون!

وقد لفت الله سبحانه أنظار عباده وهم في دار المهلة، كي يستعدوا لهذا اليوم، فيتزودوا بالتقوى والعمل الصالح، ويتعدوا عن المعاصي والذنوب، قبل أن يفوت وقت العمل، ويأتي يوم الحساب والجزاء.

مَفَاتِحُ الْغَيْبِ الْخَمْسُ

٣٤- ﴿إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ^(١) الْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْأَرْحَامِ وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَّذَا تَكْسِبُ غَدًا وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴿٣٤﴾﴾

(١) قرأ ابن كثير وأبو عمرو وحزمة والكسائي ويعقوب وخلف، بتخفيف الزاي وإسكان النون، من (وينزل) مضارع أنزل، والباقون بتشديد الزاي وفتح النون، مضارع نَزَّل.

وفي ختام السورة: تقرير لموضوعها على وجه العموم، وتصوير لعلم الله الشامل، ولعجز الإنسان الكامل عن معرفة مفاتيح الغيب التي استأثر الله تعالى بعلمها، فلا يعلمها أحد إلا هو سبحانه، فقد تقرر في السورة أن الله تعالى قد أحاط علماً بالغيب والشهادة، والظواهر والبواطن، وقد يُطلع الله بعض عباده على بعض الأمور الغيبية، ولكن هناك أموراً خمسة، طوى الله علمها عن جميع خلقه، فلا يعلمها نبي مرسل ولا ملك مقرب.

جاء الحارث بن عمرو -من أهل البادية- إلى النبي ﷺ، فسأله عن الساعة ووقتها، وقال: إن أرضنا أجذبت، فقل لي متى ينزل الغيث؟ وتركتُ امرأتي حُبلى فمتى تلد؟ ولقد علمتُ أين وُلدتُ، فبأي أرض أموت؟ فأنزل الله الآية: ﴿إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ الْغَيْثَ﴾^(١).

وعن ابن عمر رضي الله عنهما أن النبي ﷺ قال: «مفاتيح الغيب خمس لا يعلمهن إلا الله» وقرأ الآية^(٢)

ومعنى الآية في خمس نقاط:

أولاً: ﴿إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ﴾

فهو وحده يعلم متى تقوم، ولا يعلم وقت قيامها نبي مرسل، ولا ملك مقرب، لا في أي سنة، ولا في أي شهر، ولا في أي يوم أو ليلة، وقد جعلها الله تعالى غيباً؛ لبقى الناس على حذر دائم، وتوقع مستمر، وعمل صالح لا يتقطع، واستعداد لها، فقد تأتيم الساعة بغتة، كما قال تعالى: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسِنُهَا قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ رَبِّي لَا يُجِيبُهَا لَوْفَهَا إِلَّا هُوَ نَقَلَتْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ لَا تَأْتِيكُمُ إِلَّا بَغْتَةً﴾ [الأعراف: ١٨٧].

ولما سئل النبي ﷺ عنها قال: «ما المسئول عنها بأعلم من السائل».

وأجاب ﷺ سائلاً عنها بقوله: «ماذا أعددت لها؟» فالعمل هو الأهم، وليس معرفة وقت مجيئها، قال تعالى: ﴿وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ السَّاعَةَ قَرِيبٌ ﴿٧﴾ يَسْتَعْجِلُ بِهَا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِهَا﴾ [الشورى].

وعن أبي هريرة رضي الله عنه أن رجلاً قال: يا رسول الله، متى الساعة؟ قال: «ما المسئول عنها

(١) الطبري (٨٧/٢١) والسيوطي في «الدر المنثور» (١٦٩/٥) والواحدي في «أسباب النزول» ص ١٩٩ وابن أبي حاتم عن مجاهد والبعثي في التفسير، و«تخريج الكشاف» (٧٧/٣).

(٢) الإمام أحمد في «المسند» (٢٤٠/٢) و (٣٥٣/٥) برقم (٤٧٦٦، ٥١٣٣، ٥٢٢٦) بإسناد صحيح على شرط الشيخين (محققوه) والبخاري في «فتح الباري» (٦٠٩/٢) و (٣٧٣/٨) ومن أرقامه في البخاري (١٠٣٩، ٤٧٧٨) وأخرجه الطبراني في الكبير (١٣٢٤٦).

بأعلم من السائل، ولكن سأحدثكم عن أسرارها: إذا وَلَدَت الأمة ربتها، فذلك من أسرارها، وإذا تناول رعاء الغنم في البنيان، فذلك من أسرارها، في خمس من الغيب لا يعلمهن إلا الله»، ثم تلا الآية^(١).

ثانيًا: ﴿وَيُنَزِّلُ الْغَيْثَ﴾

فلا يعلم أحد متى ينزل الغيث ليلاً أو نهاراً، صيفاً أو شتاء إلا الله سبحانه، فهو الذي ينزله وفق حكمته سبحانه في المكان الذي يريده من العالم، وبالمقدار الذي يريده، وهو جلّ شأنه منشئ الأسباب التي تكوّنه، فيُنَزِّلُ المطرَ من السحاب بإذنه تعالى.

وقد يَعْرِفُ الناس بالتجارب والمقاييس قُرْبَ نزول المطر، ولكن الله وحده هو الذي يخلق الأسباب التي تنشئه وتنزله، وعلم الله تعالى هو العلم الصحيح الشامل الذي لا يزيد ولا ينقص، ولا يتغير ولا يتبدل.

ثالثًا: ﴿وَيَعْلَمُ مَا فِي الْأَرْحَامِ﴾

فهو سبحانه يعلم ما في أرحام الإناث، من أول لحظة التقاء النطفة بالبويضة، ويعلم كل طور من أطوار النطفة، قبل أن يكون للحمل حجم أو جرم، وقبل أن يتحدد للناس نوع الجنين من ذكر أو أنثى، وقبل أن تتحدد معالمه وملامحه، ويعلم سبحانه نوعه ولونه، وكونه تام الخلقة أو ناقصها، وكونه شقيّاً أو سعيداً، غنياً أو فقيراً، ذكياً أو غيبياً... إلخ. والله تعالى هو الذي خلق النطفة وأنشأها ويعلم ما تشتمل عليه.

ويُطْلِعُ الله الملائكة الموكلة به على كونه ذكراً أو أنثى، وشقيّاً أو سعيداً، وعلى رزقه وأجله، بعدما يصير مضغة، فيقضي الله ما شاء، كما صح ذلك في حديث ابن مسعود رضي الله عنه في مسلم وغيره.

والأشعة فوق الصوتية تُظْهِرُ نوع الجنين بعد ظهوره في بطن الأم، وليس هذا من باب الغيب، فكل ما يعلمه البشر من العلوم لا يعدُّ غيباً، فلو تم التعرف على ما في النطفة، أو البويضة بمعرفة نوع الجنين، وكونه ذكراً أو أنثى، ونحو ذلك بمقتضى خواص أودعها الله تعالى في الخلية الأولى، فليس هذا أيضاً من باب الغيب.

(١) ابن أبي شيبة (١٥/١٦٧) والبخاري (٥٠) بنحوه، وكذا مسلم (٩، ١٠) وابن ماجه (٤٠٤٤) وصححه الألباني في صحيح ابن ماجه (٣٢٦٨) وهذا لفظه عن عبد الله بن مسعود قال محققوه: صحيح لغيره.

رابعًا: ﴿وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا﴾

من خير أو شر، أو نفع أو ضرر، أو عسر أو يسر، أو صحة أو مرض، أو طاعة أو معصية، أو ربح في المال والتجارة أو خسارة فيهما، فلا يعلم ما في الغد إلا الله تعالى، ولا تدري نفس شيئًا من كسب دينها ودنياها فيما يستقبل من الزمان.

خامسًا: ﴿وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ﴾

ولا تدري نفس في أي مكان تُقبر، فذلك أمر وراء الحجب الإلهية، ولا يعلم أحد أين مضجعه من الأرض: في بر، أو بحر، أو سهل، أو جبل، أو جو، أو فضاء... إلخ. فربما أقام الإنسان بأرض وضربت فيها أوتاده، وصمم على ألا يبرحها، ثم تقتضي إرادة الله تعالى أن يموت في مكان لم يخطر له على بال.

قال ابن مسعود: كل شيء أوتي نبيكم إلا مفاتيح الغيب الخمس، ثم تلا الآية^(١).

فهذه آية حاصرة لمفاتيح الغيب التي لا يعلمها إلا الله، ولن تجد من المغيبات شيئًا إلا اشتملت عليه، كما جاء في حديث ابن عمر رضي الله عنهما أن النبي ﷺ قال: «أوتيت مفاتيح كل شيء إلا الخمس» وقرأ الآية ﷺ^(٢).

ورد أن ملك الموت مرَّ على سليمان ﷺ، فأخذ ينظر إلى رجل من جلسائه، فقال الرجل: من هذا؟ قال له: ملك الموت، قال: كأنه يريدني، فطلب الرجل من سليمان أن تحمله الريح إلى بلاد الهند، ففعل، وقبض ملك الموت روحه هناك.

ثم عاد ملك الموت لسليمان، وقال له: كان دَوَامُ نظري إليه تعجبًا منه؛ لأنني أمرت أن أقبض روحه بالهند، فلما رأيته عندك تعجبتُ، ثم ذهبتُ في الموعد المحدد لقبض روحه فوجدته هناك^(٣).

وفي الحديث عن مطر بن عكاس، وأبي عزة أن رسول الله ﷺ قال: «إذا قضى الله

(١) «تفسير ابن عطية» (٣٥٦/٤)، والحديث في المسند (٥٢٥٣) صحيح لغيره والحميدي (١٢٤).

(٢) «المسند» (٨٥/٢) برقم (٥٥٧٩) إسناده صحيح على شرط الشيخين وبنحوه في البخاري (٤٧٧٨) والطبراني في الكبير (١٣٣٤٤) والطبري في التفسير (٨٨/٢١). وانظر تخريجه قبل صفحتين.

(٣) من «تفسير النسفي» للآية بتصرف.

لعبد أن يموت بأرض جعل له إليها حاجة»^(١).

وفي لفظ: «ما جعل الله ميتة عبد بأرض إلا جعل له فيها حاجة»^(٢).

وصحَّ عن ابن عمر رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال: «مفاتيح الغيب خمس لا يعلمهن إلا الله: لا يعلم ما في غد إلا الله، ولا متى تقوم الساعة إلا الله، ولا يعلم ما في الأرحام إلا الله، ولا متى ينزل الغيث إلا الله، وما تدري نفس بأي أرض تموت»^(٣).

وورد أن المنصور رأى صورة ملك الموت في النوم، فسأله عن مدة عمره، فأشار بأصابعه الخمس، فعبروها بخمس سنوات، أو أشهر، أو أيام، فقال: أبوحنيفة: هذه هي العلوم الخمسة، لا يعلمها إلا الله، ومنها: وقت الأجل، لا يعلمه ملك الموت، ولا غيره من الخلق.

والآية عامة تشمل علم الزمان والمكان، والحاضر والمستقبل، وخواطر النفس، وما خفي عن العين.

ولما خصص الله بالذكر هذه الأمور الخمسة عمم علمه بجميع الأشياء، فهو سبحانه محيط بالسرائر والخفايا، ومن حكمته تعالى أن أخفى علم هذه الخمس، عن العباد، لأن في ذلك من المصالح والفوائد ما لا يعلمه إلا الله.

والله تعالى هو المختص بعلم ذلك كله ﴿إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾ أي: محيط بالظواهر والبواطن، لا يخفى عليه شيء منها، ومن ادَّعى معرفة شيء من هذه الخمس من المنجمين والعرفان وغيرهم، فهو كافر بالقرآن؛ لأنه خالفه.

تم تفسير (سورة لقمان) والله الحمد والمنة.

(١) الحاكم (٤٢/١) والترمذي (٢١٤٧) و«صحيح سنن الترمذي» (١٧٤٥). و (١٧٤٦) بتصحیح الألباني، وقال الترمذي حديث صحيح، وأبو عزة له صحة، والحديث في مشكاة المصابيح (١١٠).

(٢) الطبراني في «الكبير»، في «مسند أسامة بن زيد» (١٧٨/١) قال الهيثمي في «المجمع» (١٩٦/٧): رجاله رجال الصحيح.

(٣) أحمد (٥٢/٢) برقم (٥١٣٣) إسناده صحيح على شرط الشيخين (محققوه) والبخاري في التفسير (١٠٣٩، ٤٦٩٧، ٧٣٧٩) والطبري (٥٨٦/١٨) وابن أبي حاتم (٧٣٦٧).

تَفْسِيرُ سُورَةِ السَّجْدَةِ (٣٢)

مُقَدِّمَةُ السُّورَةِ

سورة السجدة هي السورة الثانية والثلاثون في ترتيب المصحف، والثالثة والسبعون في ترتيب النزول، نزلت بعد سورة النحل، وقبل سورة نوح.

وهي سبع وعشرون آية عند البصريين، وثلاثون آية عند غيرهم.

وثلاث مئة وثمانون كلمة، وألف وخمسة مئة وثمانية عشر حرفاً.

وشهرتها سورة (السجدة)، وتسمى سورة (ألم تنزيل)، أو (ألم تنزيل السجدة)، أو (ألم السجدة)، وتسمى أيضاً: سورة (المضاجع).

قراءتها في فجر الجمعة وعند النوم

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: كان النبي ﷺ يقرأ في الفجر يوم الجمعة ﴿الْم ﴿١﴾ نَزِيلٌ﴾ السجدة، و ﴿هَلْ أَتَى عَلَى الْإِنْسَانِ﴾^(١).

ويُقصد بقراءتهما في صلاة الصبح يوم الجمعة حصول السُّنة، ويكون السجود تبعاً لذلك، ولا يلزم قراءتهما في كل يوم جمعة، ولا يقرأ بعضهما، ولا يُقرأ بسورة السجدة في الركعتين، فإن السُّنة لا تحصل بذلك.

وعن جابر رضي الله عنه قال: كان النبي ﷺ لا ينام حتى يقرأ ﴿الْم ﴿١﴾ نَزِيلٌ﴾ السجدة، و ﴿تَبَرَّكَ الَّذِي بِيَدِهِ الْمُلْكُ﴾^(٢).

(١) أخرجه البخاري في كتاب الجمعة، «فتح الباري» (٢/٤٣٨٠) وفي البخاري (٨٩١، ١٠٦٨) و«صحيح مسلم» (٥٩٩/٢) برقم (٨٨٠) والنسائي (٩٥٤) وابن ماجه (٨٢٣) وابن أبي شيبة (١٤٠/٢) وله طرق أخرى عن ابن عباس وغيره.

(٢) أحمد في «المسند» (٣/٣٤٠) برقم (١٤٦٥٩) قال محققوه: حديث صحيح، و«صحيح سنن الترمذي» (٢٣١٦) و«السنن الكبرى» للنسائي (١٠٥٤٢) و«السلسلة الصحيحة» (٥٨٥) وابن أبي شيبة (١٠/٤٢٤) وعبد بن حميد (١٠٤٠) والدارمي (٣٤٠٤).

أغراض السورة: وسورة السجدة، سورة مكية، تعالج قضية الوحي وصدق الرسول ﷺ، كما تعالج قضية التوحيد، وقضية البعث والمصير، وهذا الأخير هو المحور الذي تدور عليه السورة، وكل السور المكية تعالج هذه القضايا الثلاث بأسلوب خاص ومؤثرات خاصة، تلتقي كلها في مخاطبة العقل والقلب البشري؛ لإيقاظ الفطرة، وإحياء الإيمان في النفوس:

١- تبدأ السورة بدفع الشك والارتياب عن القرآن العظيم، فتردُّ على الذين زعموا أن محمدًا ﷺ افترى القرآن من عند نفسه، وتدحضُ هذا البهتان بروائع الحجة والبرهان، وتُفيد في صدرها أن هذا القرآن قد نزل من عند الله تعالى يقينًا إلى أمة لم تألف الوحي من قبل، فصاغها في قالب جديد، وحملها رسالة عالمية، وكانت الرسائل قبله رسائل محلية قديمة في بعض القبائل، أو البلاد، أو الشعوب، انتهت هذه الرسائل في مكانها، و زمانها، أو بانتهاء المدة التي من المفروض لها أن تنتهي فيها، أما رسالة محمد ﷺ فهي رسالة عالمية، تحرك بها العرب، فغيروا وجه العالم.

٢- وبعد الحديث عن الوحي والرسالة في الآيات الثلاث من أولها، تتناول السورة جانب العقيدة والتوحيد في ست آيات بعدها، فتلفت النظر إلى خالق هذا الكون الرُحْب، وهيمته عليه وتدير أمره، ورفع الأمر إليه من الأرض إلى السماء.

كما تلفتُ النظر إلى نشأة الإنسان وأطوار خلقه، وما وهبه الله من السمع والبصر والإدراك، والناس بعد ذلك قليلًا ما يشكرون.

٣- وفي الجولة الثالثة للسورة، تتناول جانب البعث والحساب، والثواب والعقاب، فتردُّ على المنكرين بعنهم، بعد تفرق ذراتهم في التراب، بصيغة الجزم واليقين أنهم راجعون إلى ربهم في يوم يشتد فيه الحساب، وأنهم سيندمون على إلحادهم وكفرهم عندما يُنكسون رؤوسهم عند ربهم، ويعلنون يقينهم بالحق الذي أنكروه من قبل، فيقولون: ﴿رَبَّنَا أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا﴾ رأينا بأعيننا، وسمعنا بأذاننا أَنَّ البعث والحساب حق ﴿فَارْجِعْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا إِنَّا مُوقِنُونَ﴾ [١٢]. ولكن هذا اليقين جاء بعد فوات الأوان.

والقرآن الكريم يوقظ عقول وقلوب الأشقياء بهذه الآيات وأمثالها، قبل فوات الأوان وهم في الدنيا.

وقد استغرقت هذه الجولة خمس آيات من السورة من الآية العاشرة إلى الآية الرابعة عشرة.

٤- وبعد ذمّ الجاحدين للتوحيد، المكذبين بيوم الدين، يأتي الوجه المقابل بالثناء على المؤمنين الصادقين، وهو مشهد ساطع مضيء في مقابل المشهد البائس المكروب، وتصف السورة هؤلاء المؤمنين بأنهم لا يقضون ليلهم في ارتكاب الجريمة، ولا في السهرات الحمراء، والمتع الحرام، إنهم ﴿تَجَافَى جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا﴾ [١٦].

إن الصلاة لا مكان لها - غالبًا - عند أهل المدينة المدنيّة.

أما المؤمنون المخلصون فهم يقيمون الصلاة سحابة النهار وبعض الليل، ولن يفلح إلا من قدم الإيمان والعمل الصالح ﴿أَفَمَنْ كَانَ مُؤْمِنًا كَمَنْ كَانَ فَاسِقًا لَا يَسْتَوُونَ﴾ [١٧].

وسيتقم الله من المجرمين الكافرين، ويذيقهم من عذاب القبر وعذاب الآخرة.

٥- ثم ذكر الله تعالى نبيه ﷺ بما لقيه المرسلون قبله من العنت والتكذيب وتحمل المشاق، وعلى رأسهم موسى ﷺ، فما عليك -يا محمد- إلا أن تصبر وتحمل؛ فإن الله تعالى سيفصل بينك وبينهم يوم لقائه.

٦- ويعقب ذلك إشارة إلى مصارع المكذبين لرسلمهم في الأمم السابقة.

وكما أن الله تعالى يحيي الأرض الموات بتزول الماء عليها، فإنه تعالى يحيي قلوب عباده بالوحي المنزل من السماء، ويبعثهم بعد موتهم للحساب والجزاء، فأعرض -أيها الرسول- عن المكذبين بك وبدعوتك، وانتظر الفرج والفتح عليك بالنصر من الله تعالى، فإنه آتٍ لا محالة.

تَفْسِيرُ السُّورَةِ

قَضِيَّةُ الْوَحْيِ وَالرَّسَالَةِ

١، ٢- ﴿الْعَمَّ (١) تَنْزِيلُ الْكِتَابِ لَا (٢) رَبِّ فِيهِ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ (٣)﴾

بدأت السورة بحروف الهجاء الثلاثة، للتنبيه على إعجاز القرآن، وللفت انتباه غير المؤمنين لتأمل القرآن والعمل بما فيه، فإن كنتم في شك منه فهاتوا مثله، واستعينوا بمن شئتم، أو هاتوا مثل عشر سور منه، أو مثل سورة واحدة ﴿فَإِلَّامَ يَسْتَجِيبُوا لَكُمْ فَاعْلَمُوا أَنَّمَا أُنْزِلَ يَعْلَمُ اللَّهُ﴾ [هود: ١٤].

وهذه الأحرف تمهيد لما يُذكر بعدها من أن هذا القرآن المنزل على رسول الله ﷺ المكوّن من مثل هذه الحروف، لاشك أنه منزل من عند الله تعالى، رب الخلق أجمعين، وكل آية منه تنبّضُ بالإعجاز القرآني، وتشير إلى القوة الكامنة فيه، وكلما اتسعت دائرة العلم والثقافة لدى الإنسان ازداد يقينه بالقرآن، واهتزّ كيانه، ورجف فؤاده أمام أسرار القرآن وفيض فتوحاته الربانية.

قال البيضاوي: أشار أولاً إلى إعجاز القرآن، ثم رتب عليه أنه تنزيل من رب العالمين، وقرر ذلك بنفي الريب عنه، ثم أضرب عن ذلك إلى ما يقولون فيه على خلاف ذلك، إنكاراً له وتعجباً منه، ثم بيّن المقصود من إنزاله (٣).

وهكذا، يخبر رب العالمين، أنه أنزل هذا الكتاب مشملاً على ما فيه صلاح البشر وتمام أخلاقهم، وسعادتهم في الدنيا والآخرة، وأنه لاشك في أنه تنزيل من حكيم حميد، قال تعالى:

٣- ﴿أَمْ يَقُولُونَ افْقَرْتُمْ بَلْ هُوَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ لِنُنْذِرَ قَوْمًا مَّا أَتَتْهُمْ مِنْ نَذِيرٍ مِنْ قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ (٤)﴾

(١) قرأ أبو جعفر بالسكت على ألف، ولام، وميم سكتة يسيرة بدون تنفس، وبدونها قرأ غيره. هذا: وقد عد الكوفي (العم) آية وأسقطها غيره.

(٢) قرأ حمزة بخلف عنه بمد اللام من (لا ريب) أربع حركات للمبالغة في النفي، والباقون بالقصر.

(٣) البيضاوي (١١١/٢).

وإذا كان هذا القرآن معجزاً، موحى به إلى النبي ﷺ، فكيف يقول المكذبون: إن محمداً اختلقه وأتى به من عنده؟ ليس الأمر كذلك، فقد كذبوا في ادعائهم هذا الافتراء، بل هو الحق الثابت المنزل من عند الله تعالى، المطابق للفطرة؛ كي يقيم منهج الحياة بين الناس على أساس من العدل والحرية والكرامة والمساواة.

أنزل الله هذا القرآن على محمد ﷺ؛ لينذر به قوماً ما جاءهم من رسول قبل محمد ﷺ، وهم أهل الفترة بين عيسى ومحمد عليهما السلام، وقد جاء قبلهما رسل كثيرون، كإبراهيم، وهود، وصالح عليهم السلام، ولما طالت الفترة بعد آخر رسول من بني إسرائيل أرسل الله محمداً ﷺ.

وقد كان العرب على وجه الخصوص أمة لم يأتهم رسول بين إسماعيل ومحمد، فنزل هذا القرآن لهم ولغيرهم لعلهم يهتدون بهديه، فيعرفوا الحق، ويؤمنوا به وبمن أنزل عليه؛ حيث لا تقوم الحجة على الخلق بالشرائع والعمل بها إلا عن طريق إرسال الرسل؛ لأن علم الشرائع لا يُدرك بغيرهم، وذلك ﴿لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ﴾ [النساء: ١٦٥].

فإذا ثبت أن القرآن تنزيل من رب جميع الكائنات، وأنه لا يحق لأحد أن يرتاب فيه، فكيف تزعمون أن محمداً ﷺ قد افتراه واختلقه، وهو الحق من رب محمد ﷺ؟! ولو أنه افتراه لأظهر الله أمره وقطع دابره، كما قال تعالى: ﴿وَلَوْ نَقُولَ عَلَيْنَا بَعْضُ الْأَقَاوِيلِ﴾ ٤٤ ﴿لَاخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ﴾ ٤٥ ﴿ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ﴾ ٤٦ ﴿فَمَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَاجِزِينَ﴾ ٤٧ [الحاقة].

ثم إن هذا الكتاب جاء لإخراجكم من الظلمات إلى النور، ومن تقليد الآباء والأجداد إلى اتباع طريق الحق والرشاد، كما قال تعالى: ﴿وَهَذَا كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ فَاتَّبِعُوهُ وَاتَّقُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ ١٥٠ ﴿أَنْ تَقُولُوا إِنَّمَا أَنْزَلَ الْكِتَابَ عَلَى طَائِفَتَيْنِ مِنْ قَبْلِنَا﴾ اليهود والنصارى ﴿وَإِنْ كُنَّا عَنْ دِرَاسَتِهِمْ لَغَفْلِينَ﴾ ١٥١ ﴿أَوْ تَقُولُوا لَوْ أَنَّا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ لَكُنَّا أَهْدَى مِنْهُمْ فَقَدْ جَاءَكُمْ يَسِّنُّ مِنْ رَبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةً﴾ [الأنعام].

وقد خاطبت هذه الآيات العرب أولاً؛ لأنهم هم الذين كلّفهم الله تعالى بحمل مشعل الهداية إلى الناس كافة، ومن ديارهم انطلقت الرسالة الأخيرة إلى الخلق أجمعين، فإذا تأصلت فيهم الدعوة أولاً انتقلت إلى سائر أصقاع الأرض بعدهم، فهل علماء الأمة وحكامها عاملون على نشر الدعوة في العالم؟

التَّوْحِيدُ وَأَدِلَّتُهُ

٤- ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ مَا لَكُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا شَفِيعٍ أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ ﴿٤﴾﴾

أما معرفة الله تعالى، وقيام الحجة على توحيده سبحانه، فطريقها العقل، وكتاب الله المنظور في هذا الكون، وكتابه المسطور بين أيدينا، فهذه الطريقة توصل إلى معرفة الله تعالى في كل زمان ومكان، ولما كان بعض الخلق يُشرك مع الله تعالى غيره في عبادته، فقد ذكرت السورة بعض آثار الله تعالى في الكون؛ ليميزوا بها بين من يستحق العبادة، ومن لا يستحق. وهذه بعض أدلة التوحيد في الكون والإنسان:

الدَّلِيلُ الْأَوَّلُ: مِنَ الْكَوْنِ:

وقد اشتملت هذه الآية على قضايا ثلاث، هي: خلق الكون، والاستواء على العرش، ونفي الشفاعة والولاية عن أحد من خلق الله، إلا بإذنه تعالى:

القضية الأولى: خلق العالمين العلوي والسفلي

الله جلّ وعلا هو الذي خلق السموات بلا عمد، مع ارتفاعها وإحكامها، وخلق الأرض في عجائبها وكنوزها وإبداعها، وخلق ما بينهما من الخلائق الهائلة التي نجهل عنها الكثير، وذلك في ستة أيام، ابتدأت يوم الأحد، وانتهت بيوم الجمعة الذي خُلق فيه آدم ﷺ، وهل هذه الأيام الستة، من أيام الدنيا، أو هي قدر أيامها أوهى من أيام الله؟ الله أعلم.

فحقيقة هذه الأيام عند الله تعالى، ولا سبيل إلى تحديدها وتعيين مقدارها؛ فالأيام التي نعرفها تنشأ من دورة الأرض حول نفسها أمام الشمس مرة، فينتج عنها الليل والنهار، وهذا مقياس لنا نحن أبناء هذه الأرض الصغيرة الضئيلة بالنسبة لهذا الكون الرحب الشاسع، وما عداها من أيام الله ليس معلومًا لنا، وقد تكون هذه الأيام الستة قدر أيام الدنيا، وأن الله تعالى خاطبنا بما نعلم، وهذا ما يظهر لي، والله أعلم.

وهذه المدة المحددة بستة أيام لحكمة يعلمها الله تعالى، قد تكون لتعليمنا الثاني، أو نحو ذلك، ولو شاء سبحانه لخلقها في لمح البصر، بكلمة (كن) فيكون.

وهذه الأيام أولها الأحد، وآخرها الجمعة، وبهذا قال عبد الله بن سلام، وكعب الأحبار، والضحاك، ومجاهد، واختاره الطبري، وبه يقول أهل التوراة^(١).

وصحَّ في الحديث: أن اليوم الذي بدأ فيه الخلق هو يوم السبت وليس يوم الأحد، كما جاء عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: أخذ رسول الله ﷺ بيدي، فقال: «خلق الله التربة يوم السبت، وخلق الجبال يوم الأحد، وخلق الأشجار يوم الإثنين، وخلق المكروه يوم الثلاثاء، وخلق النور يوم الأربعاء، وبث فيها الدواب يوم الخميس، وخلق آدم يوم الجمعة بعد العصر آخر الخلق، آخر ساعات النهار»^(٢).

ومقتضى هذا الحديث أن خلق السموات والأرض كان في سبعة أيام.

قال ابن عطية: ووقع في كتاب مسلم أن الخلق ابتدئ يوم السبت، فهذا يخالف الآية، اللهم إلا أن يكون أراد في الآية جميع الأشياء غير آدم، ثم يكون يوم الجمعة هو الذي لم يخلق فيه شيء، مما بين السماء والأرض؛ لأن آدم لم يكن حيثئذ مما بينهما^(٣).

وعلى هذا يمكن الجمع بين الآية والحديث، بأن تحديد بدء الخلق بيوم الأحد، منقول عن أهل الكتاب، وخلق التربة يوم السبت، وخلق آدم يوم الجمعة، بينهما تلازم، فتكون مدة الخلق ستة أيام كما في الآية وانظر تفسير الآية ١٢ من سورة فصلت.

القضية الثانية: استواء الرحمن على عرشه:

ثم استوى ﷻ على العرش، أي: علا وارتفع على عرشه استواءً يليق بجلاله لا يُكَيَّف، ولا يشبّه باستواء المخلوقين، والعرش هو سقف المخلوقات، وهو سرير الملك، أو

(١) يُنظر ابن الجوزي في «زاد المسير» (٢١١/٣).

(٢) هذا لفظ النسائي في «السنن الكبرى» برقم (١٠٩٤٣) وبأطول منه في رقم: (١١٣٢٨) وهو في «صحيح مسلم» برقم (٢٧٨٩) و«المسند» (٣٢٧/١) برقم (٨٣٤١) وابن حبان (٦١٦١) برقم (٨٣٤١) قال ابن كثير: تكلم عليه ابن المديني والبخاري في «التاريخ الكبير» وغير واحد من الحفاظ في هذا الحديث وجعلوه من رواية أبي هريرة عن كعب الأحبار، وليس مرفوعاً والله أعلم، يُنظر: «تفسير ابن كثير» (٣/٤٢٦) وقد رد الألباني هذا في «الصحيحة» (١٨٣٣)، وقال محققو المسند: الصحيح أن هذا الحديث موقوف على كعب الأحبار، وليس من قول النبي ﷺ.

(٣) «تفسير ابن عطية» (٣٥٨/٤) والحديث برقم (٢٧٨٩) وهو السابق ذكره في صحيح مسلم.

كرسيه، وهو غيب لا يعلمه إلا الله .

القضية الثالثة: إن عذاب ربك لواقع ما له من دافع:

وليس لكم -أيها الناس- من وليٍّ يلي أموركم، أو شفيعٍ يشفع لكم عند الله، أو ناصرٍ ينصركم؛ لتنجوا من عذابه تعالى عند تجاوزكم لحدود الله، والخروج على تعاليمه .

أفلا تتعظون وتعتبرون، فتُقرِّدوا الله تعالى بالالوهية، وتخصُّوه بالعبادة؟ فإنَّ تذكُّر هذه الحقيقة يردُّ القلب إلى الله تعالى دون سواه، قال تعالى:

٥- ﴿يَذَرُ الْأَمْرَ مِنَ السَّمَاءِ إِلَى الْأَرْضِ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ أَلْفَ سَنَةٍ مِمَّا تَعُدُّونَ﴾

أي: إن تدبير أمر المخلوقات المقدر عند الله تعالى، والذي شرعه لخلقه في السموات والأرض وما بينهما، فيُسعد به ويُشقى، ويُغني ويُفقر، ويُعز ويذل، ويكرم ويهين، ويرفع أقوامًا ويضع آخرين، كل ذلك يكون بتنزيل أمره تعالى وحُكمه من العالم العلوي إلى العالم السفلي، وما يتنزل من القضاء والقدر فيهما، وما يوحى به سبحانه إلى ملائكته، ثم يصعد ذلك التدبير إلى الله تعالى في يوم مقداره ألف سنة من أيام الدنيا التي تعدونها، كما قال تعالى: ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَوَاتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَنْزِلُ الْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ﴾ [الطلاق: ١٢].

والذي ينزل ويصعد هو جبريل عليه السلام، وهذا التدبير لشؤون الدنيا والصعود بالأعمال إلى الله تعالى يستمر في الدنيا إلى فنائها، ولذا كان حساب اليوم بألف سنة مما نعدُّ من أيام الدنيا، باعتبار المسير العادي لبني آدم.

أما عروج الملائكة وجبريل عليه السلام الوارد في قوله تعالى: ﴿تَعْرُجُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ﴾ [المعارج: ٤].

فإن هذا يكون في يوم القيامة، وهي المسافة بين الأرض وسدرة المنتهى.

وورد أن يوم الحساب يكون قصيرًا على المؤمن، وطويلاً على الكافر، فيكون على المؤمن كقدر صلاة مكتوبة صلاها في الدنيا^(١).

(١) ينظر: «المسند» بنحوه (٧٥/٣) والبخاري في «شرح السنة» (١٢٩/١٥) وفيه ابن لهيعة، سئى الحفظ، وحسنه الهيثمي في «المجمع» (٣٣٧/١٠)، وغيرهم.

فلا ينتصف النهار في مقدار يوم من أيام الدنيا حتى يقضي الله بين العباد، فينزل أهل الجنة الجنة، وأهل النار النار.

قال ابن عباس رضي الله عنهما لما سأله ابن فيروز عنها: أيام سماها الله تعالى، لا أدري ما هي، وأكره أن أقول في كتاب الله ما لا أعلم^(١).

وقال أيضًا: هذا في الدنيا، تعرج الملائكة في يوم مقداره ألف سنة^(٢).

وجاء في أحاديث الإسراء أن ما بين السماء والأرض خمس مئة عام، وشمك كل سماء كذلك، وما بين كل سماء وسماء مثله.

قال قتادة: ﴿يَذَرُ الْأَمْرُ﴾ أي: ينحدر الأمر من السماء إلى الأرض، ويصعد من الأرض إلى السماء في يوم واحد، مقداره ألف سنة في السير، خمس مئة حين ينزل، وخمس مئة حين يعرج^(٣).

قال الشيخ محمد الغزالي -رحمه الله-: إن الأرض تلف حول نفسها كل أربع وعشرين ساعة، وتلف حول الشمس خلال ٣٦٥ يومًا، والشمس وأشرتها تجري في مدار حاشد بالنجوم، والمجرات السابحة في الفضاء، لا ندري إلا القليل من شؤونها.

والضوء يقطع المسافة بين الأرض والشمس في بضع دقائق، ما هذا الملكوت الضخم؟ إن إدارة شؤونه تحتاج بمقاييسنا الزمنية إلى أزمنة بعيدة، إلى ألف عام أو أكثر، لكنها في عمل الخالق الكبير لا تستغرق زمانًا يذكر، ما المدة التي تستغرقها العين في نظر المراتب؟ لا شيء.

إن الله تعالى يريد فيفعل، فإذا في دنيانا محو وإثبات، ووجود وموت، وهزائم وانتصارات^(٤).

وقيل: إن الضمير في ﴿مَقْدَارُهُ﴾ عائد على التدبير، أي: كان التدبير المنقضي في يوم واحد، ألف سنة لو دبرها البشر.

(١) «تفسير الخازن» للآية، ويُظَر: عبد الرزاق (١٠٨/٢) والحاكم (٦١٠/٤).

(٢) الطبري (٥٩٤/١٨).

(٣) عبد الرزاق (١٠٨/٢) والطبري (٥٩٣/١٨).

(٤) «نحو تفسير موضوعي لسور القرآن الكريم» ص ٣١٩.

وقال مجاهد: إن الله تعالى يدبر، ويُلقِي إلى الملائكة أمور ألف سنة من عندنا، وهو اليوم عنده، فإذا فرغت ألقى إليهم مثلها^(١).

والمقصود من الآية: التنبيه على عظيم قدرة الله تعالى وسعة ملكوته وحسن تدبيره.

ويُجمع بين آية سورة السجدة ﴿أَلْفَ سَنَةٍ﴾ وقوله تعالى: ﴿وَلَا تَكُنْ يَوْمًا عِنْدَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ﴾ [الحج: ٤٧]. وقوله ﴿لَا تَعْلَمُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ﴾ [المعارج]. بما يأتي:

(أ) المراد بالألف التي في سورة (الحج): هو أحد الأيام الستة التي خلق الله فيها السموات والأرض.

وأما الألف التي في سورة (السجدة) فهي مقدار سير الأمر وعُروجه إليه تعالى.

أما يوم الخمسين ألف في سورة (المعارج) فهو يوم القيامة.

(ب) أو أن المراد بها جميعاً: يوم القيامة، وأن الاختلاف باعتبار حال المؤمن والكافر، ويدل له قوله تعالى: ﴿فَذَلِكَ يَوْمَئِذٍ يَوْمٌ عَسِيرٌ ﴿١﴾ عَلَى الْكَافِرِينَ عَذْرٌ يَسِيرٌ ﴿٢﴾﴾ [المدثر]. قال تعالى:

٦- ﴿ذَلِكَ عَلِيمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴿٦﴾﴾

ذلك الخالق المدبر لشئون العالمين، الذي استوى على العرش، عَالِمٌ بكل ما يغيب عن الأبصار: مما تكنه الصدور وتخفيه النفوس، وعَالِمٌ بما تشاهده الأبصار، فبسعة علمه، وكمال قدرته، وعموم رحمته، أوجد هذه المخلوقات العظيمة، وأودع فيها من المنافع ما أودع، وهو الذي لا يُغلب، الرحيم بعباده، المطلع على كل شيء، ومنه علم قيام الساعة، فهو من الغيب الذي حجه الله تعالى عنا لحكمة عظيمة.

(١) يُنْظَرُ: «تفسير ابن عطية» (٤/٣٥٨).

(٢) يُنْظَرُ: «أضواء البيان» للشنقيطي (٦/٥٠٣).

الدَّلِيلُ الثَّانِي: مِنَ النَّفْسِ الْبَشَرِيَّةِ

٧-٩- ﴿الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ^(١)﴾ وَبَدَأَ خَلْقَ الْإِنْسَانِ مِنْ طِينٍ ﴿٧﴾ ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُ مِنْ سُلَالَةٍ مِّنْ مَّاءٍ مَّهِينٍ ﴿٨﴾ ثُمَّ سَوَّاهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِنْ رُّوحِهِ وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ﴿٩﴾

هناك ارتباط وثيق بين نهاية الآية السابقة ﴿الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ﴾ وهي وصف لخالق الكون وصانعه، وبين بداية هذه الآية ﴿الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ﴾ ويستحب الوصل بين الآيتين لبيان المعنى؛ فالله تعالى الموصوف بالعزة والرحمة، هو الذي أحكم خلق كل شيء، فخلقه خلقاً يليق به ويوافقه ويهديه إلى وظيفته المنوطة به، فسبحان من هذه صنعته، وسبحان من هذه آثار قدرته، فأتقن وأحكم كل شيء خلقه، وجعل لكل مخلوق صورته المناسبة لأداء مهمته، من حيث شكله وهيئته وأعضاؤه بما يتفق مع وظيفته في الحياة، وما يصلح به معاشه من سائر الحيوانات والطيور والدواب:

فهذه السمكة، وهذه الزاحفة، وهذا الحيوان، وهذا الإنسان، وهذا الكوكب السيار، وهذا النجم الثاقب، وهذه العوالم والأفلاك، وهذه دقات القلب، وهذه دورة الدم، وهذا مدُّ البصر، وهذه حاسة السمع والشم، وهذا الحس والشعور.

إنه مهرجان ضخيم من أصناف الخلق عجيب، في تناسق وإحكام وإبداع وجمال.

قال بعض العلماء: لو تصورت مثلاً أن للفيْل مثلَ رأسِ الجمل، وأن للأرنب مثلَ رأسِ الأسد، وأن للإنسان مثلَ رأسِ الحمار، لوجدتَ في ذلك نقصاً كبيراً، وعدم تناسب وانسجام. ولكنك إذا علمتَ أن طولَ عنقِ الجمل، وشقَّ شَفْتَيْهِ؛ ليسهلَ تناولَ الكَلأِ عليه أثناء السير. وأن الفيل لولا خرطومه الطويل لما استطاع أن يبرك بجسمه الكبير؛ لتناول طعامه وشرابه. لو علمت كل هذا لتيقنت أنه صنَّع الله الذي أتقن كل شيء، ولقلت: ﴿تبارك الله أحسن الخالقين﴾.

(١) قرأ نافع وعاصم وحمزة والكسائي وخلف، بفتح اللام من (خلقه) على أنه فعل ماضٍ، والجملة صفة لكل، أو شيء. والباقون بإسكانها، على أنه مصدر، وهو بدل اشتمال.

إنها رحلة ممتعة في هذا الوجود، يبدؤها سبحانه بخلق الإنسان، حيث خصَّ آدم بالذكر بعد أن عم جميع الخلق فقال: ﴿وَبَدَأَ خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ طِينٍ﴾ والإنسان هو آدم أبو البشر، وهذه إشارة إلى سلسلة التراب التي خُلِقَ منها آدم، حيث جُعل هذا التراب طينًا، ثم طينًا لازبًا، أي: لاصقًا، ثم حمًا مسنونًا، أي: تُرك هذا الطين حتى اسودَّ، ثم أصبح صلصالًا كالْفَخَارِ، ثم نفخ الله فيه من روحه، فصار بشرًا سويًا.

أبصر النبي ﷺ رجلًا قد أسبل إزاره، فقال: «ارفع إزارك»، فقال: يا رسول الله، إني أحتف^(١) تصطك ركبتي، فقال: «ارفع إزارك، فإن كل خلق الله عز وجل حسن»^(٢).

وأخرج الطبراني عن أبي أمامة ؓ قال: بينما نحن مع رسول الله ﷺ إذ لحقنا عمرو بن زُرارة الأنصاري في حُلَّةٍ قد أسبل، فأخذ النبي ﷺ بناحية ثوبه، فقال: يا رسول الله، إني أحمسُ الساقين -أي: دقيقهما- فقال رسول الله ﷺ: «يا عمرو بن زُرارة، إن الله قد أحسن كل شيء خلقه، يا عمرو بن زُرارة، إن الله لا يحب المسبلين»^(٣).

أما ذرية آدم فقد خُلقت هي الأخرى من سلسلة، ولكنها من ماء مهين حقير يُصَّبُ في أرحام النساء، وهذا الماء هو النطفة التي تخرج من بين الصلب والترائب، وهي في الأصل من الغذاء الذي يرجع أيضًا إلى التراب، فكأن التراب هو أصل الناس جميعًا، وإذا مات فإنه يتحلل ويعود إلى عناصره.

ثم جعل الله هذه النطفة علقة بعد أربعين يومًا، ثم مضغة بعد فترة مماثلة، ثم سواه بلحمه وأعضائه وأعصابه وعروقه، وأحسن خلقته، ووضع كل عضو منه في موضعه المناسب له، ونفخ الله فيه من روحه، بأن أرسل إليه الملك، فنفخ فيه الروح، فأصبح إنسانًا بعد أن كان جمادًا، كما نفخ في آدم وعيسى، فكان من هذا الكائن العضوي إنسان

(١) الحنف: إقبال القدم بأصابعها على القدم الأخرى.

(٢) أحمد (٢٩٠/٤) برقم (١٩٤٧٢، ١٩٤٧٥) وهو صحيح الإسناد عن الشريد بن سويد، على شرط مسلم (محققه) والطبراني (٧٢٤٠) قال الهيثمي في «المجمع» (١٢٧/٥): ورجال أحمد رجال الصحيح، وأخرجه الحميدي (٨١٠).

(٣) قال الهيثمي في «مجمع الزوائد» (١٢٤/٥): رواه الطبراني بأسانيد، ورجال أحدها ثقات، وقد صححه الألباني في السلسلة الصحيحة برقم (٢٦٨٢).

ذو سمع وبصر، وحسّ وإدراك، وعقل وقلب وفؤاد، يُميز بين الأصوات، والألوان، والذوات، والأشخاص، كما يميز بين الخير والشر، والنافع والضار، ومع كل هذه الوظائف والخصائص البشرية، فقليل من الناس يشكرون ربهم على ما أنعم به عليهم من النعم التي لا تعد ولا تحصى، وهذا كقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ سُلَالَةٍ مِّن طِينٍ﴾ (١٧) ﴿فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ﴾ [المؤمنون].

وقد أضاف الله تعالى الروح إلى نفسه تشريفاً للإنسان، وإيداناً بأنه خلق عجيب، وصنّع بديع، وأن له شأنًا عظيمًا عند الله تعالى، فالذي خلق كل شيء، وخاصة الإنسان بعد أن لم يكن شيئًا مذكورًا، وأخرج أصله من تراب، ثم كوّن فيه نظام التناسل من ماء مهين، كيف تُعجزه إعادة أجزائه يوم البعث والنشور؟!

الْيَوْمُ الْآخِرُ آتٍ لَا مَحَالَةَ

١٠ - ﴿وَقَالُوا أَإِذَا ضَلَلْنَا فِي الْأَرْضِ أَإِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ﴾ (١) ﴿بَلْ هُمْ بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ كَافِرُونَ﴾ (٢)

في هذه الآية ردٌّ على منكري البعث، وتأكيد لوقوعه؛ وذلك أنه في كل لحظة من لحظات الحياة تُولّد المواليد في العالم، وهو مشهد مألوف لدى الإنسان، ولكنه يمر عليه دون فكر ولا نظر؛ لكثرة وقوعه وتكراره، ويمر الإنسان كذلك بأطوار خلقه وحياته دون تأمل ولا اعتبار، ولم يدّع أحد من البشر أنه خلق الآخر، ولكن القرآن يأتي دائماً بالنشأة الأولى؛ ليزكّرنا بما يعقبها من النشأة الآخرة، فيستدلوا بالأولى على الآخرة، ويعلموا أنه لا وجه لاعتراضهم وشكّهم، فهذا الشك في البعث من بعض الناس غريب كل الغرابة.

والمعنى: قال المكذبون بالبعث، المنكرون لليوم الآخر على سبيل الاستبعاد: أنذا صارت لحومنا وعظامنا ترابًا في جوف الأرض، أُنبعث مرة أخرى في خلق جديد، ونعود إلى الحياة الدنيا ثانية؟ وهذا استبعاد للبعث مع الاستهزاء والسخرية.

إنهم يستبعدون ذلك بعد موتهم ودفنهم، وتحوّل أجسادهم إلى رُفات يغيب في

(١) (لفي خلق جديد) عذها آية أهل الشام والحجاز، وتركها البصري والكوفي.

الأرض، ويختلط بترابها.

إنه بعيد بالنسبة إلى قدرتهم العاجزة، وعقولهم القاصرة، التي تقيس قدرة الله تعالى على قدرتهم!! وهم لا يطلبون بإنكارهم البعث، التوصل إلى الحق، وإنما هو الكفر والعناد وعدم الاعتراف ببقاء ربهم الذي خلقهم ورزقهم وأحياهم وأماتهم، إنهم - لانطماس بصائرهم واستيلاء الجحود على قلوبهم- كافرون مكذبون ببقاء ربهم، منكرون لإعادة الحياة إليهم بعد موتهم، والباعث على إنكارهم للبعث، هو إصرارهم على الكفر الذي لا تنفع معه الآيات والأدلة، ولو كان قصدهم معرفة الحق لا استفادوا من الأدلة القاطعة كالشمس في رابعة النهار، ومن ذلك: أن الإعادة أسهل من البداية في مفهوم العقلاء، والأرض الميتة ينزل الله عليها المطر فتحيا بعد موتها، وهكذا:

ثم إن الذي يتولى قبض الأرواح ملك خاص مُوَكَّل بقبضها وله أعوان يساعدونه. قال تعالى:

١١- ﴿قُلْ يَنفُوكُم مَّلَكُ الْمَوْتِ الَّذِي وُكِّلَ بِكُمْ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ﴾ (١١)

يردُّ الله سبحانه على اعتراض المكذبين بالبعث وشكهم فيه، فيقرر وفاتهم في الدنيا وعودتهم إلى الله تعالى في الآخرة، ويكتفي في الاستدلال على ذلك بالمشاهد الحسية التي نراها بأبصارنا ونسمعها بأذاننا.

والمعنى: قل لهم -أيها الرسول- يتوفاكم ملك الموت الذي وُكِّلَ بكم لقبض أرواحكم عند انتهاء آجالكم، ولن تتأخروا لحظة واحدة، ثم إلى ربكم ترجعون فتردون إليه؛ ليجازيكم على أعمالكم، إن خيراً فخير، وإن شراً فشر ﴿اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنْفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا﴾ [الزمر: ٤٢].

وملك الموت له أعوان يتزعمون الأرواح من الأجساد، حتى إذا بلغت الروح الحلقوم، تناولها ملك الموت، قال تعالى: ﴿حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لَا يُفْرِطُونَ﴾ [الأنعام: ٦١].

وفي بعض الآثار: إن ملك الموت اسمه (عزرائيل)، وهذا من الإسرائيليات.

(١) قرأ يعقوب بالبناء للمعلوم في (ترجعون)، والباقون بالبناء للمجهول.

وفي حديث البراء بن عازب (الطويل): أن النبي ﷺ ذَكَرَ فيه: أن مَلَكَ الموت إذا أخذ روح الميت، أخذها من يده بسرعة، ملائكة فصعدوا بها إلى السماء، وبَيَّنَ ﷺ ما تُعامل به روح المؤمن وروح الكافر بعد أخذ الملائكة لها من مَلَكِ الموت، فدل هذا على أن ملك الموت معه ملائكة آخرون يأخذون من يده الروح، وأن لملك الموت أعوانًا يعملون بأمره.

قال مجاهد: جُمِعت له - أي لِمَلَكِ الموت - الأرض فصارت مثل الطُّسْتِ، يتناول منها حيث يشاء^(١).

وقال مجاهد أيضًا: ما على ظهر الأرض من بيت شَعْرٍ أو مَدْرٍ، إلا وملك الموت يُطيف به كل يوم مرتين^(٢).

مَشْهُدٌ مُنْكَرِي الْبَعْثِ فِي سَاحَةِ الْعَرْضِ وَالْحِسَابِ

١٢ - ﴿وَلَوْ تَرَى إِذِ الْمُجْرِمُونَ نَاكِسُوا رُءُوسِهِمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ رَبَّنَا أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَارْجِعْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا إِنَّا مُوقِنُونَ﴾^(١٢)

وبمناسبة البعث يأتي مشهد حافل بالتأثرات والحركات والحوار، كأنه واقع مُشَاهَد شاخص للعيان: ولو ترى -أيها المخاطب- إذ المجرمون الكافرون الذين أنكروا البعث في الدنيا قد خفضوا ونكسوا رؤوسهم يوم القيامة عند ربهم من الحياء واليأس، والخزي والذل، وهم معترفون بالخطيئة، مُقَرُّون بالحقيقة التي جحدوها، موقنون بما شكَّوا فيه، ويقولون: ربنا أبصرنا حقيقة الأمر، وسمعنا ما كنا ننكر من أمر الرسل، وقد كنا في الدنيا بمنزلة العمى الصم، وقد تُبِّنا إليك ﴿فَارْجِعْنَا﴾ إلى الدنيا نعمل صالحًا، فقد أيقنَّا الآن وآمنا بوحدانيتك، وأنه لا يصلح أن يُعبد أحد سواك، ولا أن يكون لنا رب غيرك، فوعدك حق، ولقاؤك حق، والجنة حق، والنار حق، وقد كنا في الدنيا مكذِّبين بوحدانيتك، وأنك لن تبعث من في القبور.

ولو رأيت -أيها المخاطب- ما هم فيه من خزي وذل وندم، لرأيت أمرًا عظيمًا وخطبًا جسيمًا، وحالًا مُزعجة، وأقوامًا خاسرين، وسؤالًا غير مجاب.

(١) الطبري (٦٢/٢١).

(٢) «تفسير ابن كثير» (٣٦١/٦) عن عبد الرزاق بسنده.

- ١- وهذا كقوله تعالى: ﴿أَسْتَعِيزُ بِهِمْ وَأَتُوعِدُهُمْ يَوْمَ يَأْتُونَنَا لَكِنِ الظَّالِمُونَ الْيَوْمَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾ ﴿٢٨﴾ [مريم].
 - ٢- وقوله تعالى: ﴿وَقَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ﴾ ﴿١٦﴾ فَأَعْرِضُوا بِذُنُوبِهِمْ فَسَحَقًا لِأَصْحَابِ السَّعِيرِ ﴿١١﴾ [الملك].
 - ٣- وقوله سبحانه: ﴿وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ تُفْعَلُونَ عَلَى النَّارِ فَقَالُوا يَا لَيْتَنَا نُرَدُّ وَلَا نُكَذِّبُ بِآيَاتِ رَبِّنَا وَنَكُونُ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ ﴿٢٧﴾ [الأنعام].
 - ٤- وقوله جلَّ شأنه: ﴿فَكَيْفَ إِذَا تَوَفَّيْتُهُمُ الْمَلَائِكَةُ بَضْرِيئُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَارُهُمْ﴾ ﴿٢٧﴾ [محمد].
- وكل ما يحدث في الكون بقضاء الله وقدره، وفق ما علمه من خلقه قبل وجودهم في هذه الحياة:

الْإِنْسَانُ يَصْنَعُ مُسْتَقْبَلَهُ بِنَفْسِهِ

- ١٣- ﴿وَلَوْ شِئْنَا لَآتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدًى وَلَكِنْ حَقَّ الْقَوْلُ مِنِّي لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾ ﴿١٣﴾
- وقبل أن يعلن السياق مصير أهل الشقاء المحتوم، يقرر الحقيقة التي تتحكم في حياة الناس قبل هذا المصير، فلو شاء ربك لجعل للناس جميعاً طريقاً واحداً، هو طريق الهدى والرشاد، والتوفيق للإيمان.
- كما وَّحَدَّ طريق الحشرات والطير والدواب، وجعلها تهتدي إليه سبحانه بفطرة كامنة فيها، وكما جعل الطريق الوحيد للملائكة هو الطاعة والانقياد.
- ولكن اقتضت حكمة الله تعالى أن يجعل للإنسان والجن طريقاً مميزاً يختار فيه طريق الهدى أو الضلال بنفسه.

فهو سبحانه يريد منهم الإيمان بطريق الاختيار، وليس بطريق الإكراه والإكراه، والله تعالى يعلم ما سيختاره كل مخلوق من الثقلين بنفسه وكامل حريته، عندما يكون بالغاً مكلفاً، فكشف الله ذلك للملائكة، وسجَّل على الناس ما سيحدث منهم مستقبلاً في أم الكتاب.

وعِلْمُ الله تعالى لا يتخلف، وإلا كان -تعالى الله عن ذلك- جاهلاً بحال مَنْ خَلَقَ ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ﴾؟ [الملك: ١٤].

قال الله تعالى: ﴿إِنَّا خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ نُطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَاهُ سَمِيعًا بَصِيرًا ﴿٢﴾ إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا ﴿٣﴾﴾ [الإنسان]. وقال تعالى: ﴿وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ ﴿١٠﴾﴾ [البلد]

أي: أُرشدناه إلى طريق الهدى والضلال، وعليه أن يختار.

لقد كتب الله في الأزل وجوب عذاب من كفر من الإنس والجن في نار جهنم، وقرر ملأها بمن كفر منهم، وذلك وفق ميول الناس، واختيارهم طريق الضلال وسلوكهم الطريق المؤدي إلى جهنم، وهذا معنى ﴿لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾.

كما قال تعالى: ﴿وَمَا يَضِلُّ بِهِ إِلَّا الْفَاسِقِينَ﴾ [البقرة: ٢٦].

وقال سبحانه: ﴿فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ﴾ [الصف: ٦].

فهم الذين ضلُّوا أولاً، وهم الذين زاغوا أولاً عن طريق الهدى، وهم الذين فسقوا وخرجوا عن الصواب والرشاد، ويقال لهؤلاء المجرمين عند دخولهم النار:

١٤- ﴿فَذُوقُوا بِمَا نَسِيتُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا إِنَّا نَسِينَكُمُ وَذُوقُوا عَذَابَ الْخُلْدِ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾

أي أنه يقال للمجرمين يوم القيامة الذين سألوا الرجعة إلى الدنيا ليستدركوا ما فاتهم:

فذوقوا العذاب بسبب غفلتكم عن الآخرة، وانغماسكم في شهوات الدنيا، إنا تركناكم اليوم في العذاب بسبب إصراركم على كفركم.

ويقال لهم أيضاً: امكثوا في نار جهنم، فهو عذاب خالد لا ينقطع، وذلك بسبب ما كنتم تعملونه في الدنيا من الكفر بالله ومعاصيه.

كما قال تعالى: ﴿لَا يَذُوقُونَ فِيهَا بَرْدًا وَلَا شَرَابًا ﴿١٢﴾ إِلَّا حَمِيمًا وَغَسَّاقًا ﴿١٥﴾﴾ [النبا].

وهذا مشهد من مشاهد الدار الآخرة، عجَّل الله لنا به في الدنيا، ونحن في فُسحة من الوقت؛ لتدارك الأمر قبل فوات الأوان.

ويُسدل الستار على أهل المصير المحتوم بعد كلمة الفصل، وهو مشهد من شأنه أن يحيي القلب الميت!! ليفتح الستار عن أهل السعادة، بذكر صفاتهم ونعيمهم عند ربهم:

أَهْلُ السَّعَادَةِ وَنَعِيمُهُمْ

١٥- ﴿إِنَّمَا يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا الَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِهَا خَرُّوا سُجَّدًا وَسَبَّحُوا بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ﴾

هذا وصف لأكمل حالات الإيمان، وذلك أنه لما بينت الآيات السابقة، عاقبة أهل الشقاء الوخيمة، أتبعتها بيان حال السعداء في مشهد تخفق له القلوب، وتستروح له النفوس، وتشرئب له الأعناق طمعاً في فضل الله تعالى.

ويبدأ هذا بذكر أوصاف هؤلاء السعداء، والثناء عليهم، فهم المؤمنون المصدقون بالقرآن، العاملون بما فيه، الذين تخشع قلوبهم وتقشعروا أبدانهم إذا وُعظوا بالقرآن، وإذا تليت عليهم آياته زادتهم إيماناً، وسجدوا لربهم خاشعين مطيعين، وسبّحوا بحمد ربهم في سجودهم وهم في ذل وانكسار، من غير استعلاء ولا استكبار، مستشعرين جلال الكبير المتعال، وهذا بخلاف أهل الكفر المعرضين عن آيات الله تعالى، الذين لا يتعظون ولا يعتبرون. قال تعالى:

﴿إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾ [غافر: ٦٠].

في الصحيحين عن ابن عمر رضي الله عنهما، قال: كان النبي ﷺ يقرأ السورة التي فيها السجدة، فيسجد ونسجد، حتى ما يجد أحداً مكاناً لوضع جبهته، في غير وقت الصلاة^(١).

وفي صحيح مسلم: عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا قرأ ابن آدم السجدة فسجد، اعتزل الشيطان يبكي، ويقول: يا ويلتي، أمر ابن آدم بالسجود فسجد، فله الجنة، وأمرت بالسجود فأبيت، فلي النار»^(٢).

وسجود التلاوة يسن للقارئ والمستمع في الصلاة وخارجها. قال تعالى في وصف أهل السعادة:

١٦- ﴿تَتَجَافَى جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ﴾

صَوَّرَ القرآن في هذه الآية هيئة أجساد أهل الإيمان الكامل، ومشاعر قلوبهم أثناء

(١) «صحيح البخاري» برقم (١٠٧٩) و«صحيح مسلم» برقم (٥٧٥).

(٢) «صحيح مسلم» برقم (٨١).

تهجدهم بالصلاة في قيام الليل، حيث ترتفع جنوبهم عن فرش النوم، فيتركون الراحة والشهوة، ولذة المنام والمضاجع اللينة؛ لأن لها مع ربها شُغلاً بالتوجه إليه، والوقوف بين يديه، يتنازعها الرجاء في رحمة الله تعالى، والخوف من عذابه في دعائها لربها والناس نيام، وهم في طاعة الله وفي سبيله، ينفقون أموالهم من الزكوات والكفارات في مصارفها، وينفقون على من تلزمهم نفقتهم من الزوجات الأبناء والأقارب، ويخرجون النفقة المستحقة في وجوه الخير. وهكذا وصف الله أهل السعادة بثلاثة أشياء هي:

١- صلاة التهجد. ٢- والدعاء في جلب المصالح الدينية والدنيوية.

٣- والإنفاق مما رزقهم الله تعالى.

وقد ذكرت الآية السابقة ثلاث صفات لهم كذلك، وهي:

١- إنهم يخرون لله سجدا إذا تليت عليهم آياته فيتدبروها ويعلموا بها.

٢- إنهم يسبحون بحمد الله بكرة وعشيا.

٣- إنهم لا يستكبرون على عبادة الله ولا على خلق الله.

فهذه ستة أوصاف في الآيتين للمؤمنين بآيات الله.

إنها صورة مشرقة مضيئة، في مقابلة الصورة المخزية الفاضحة قبلها.

وأشهر الأقوال أن المراد بالتجافى في الآية: صلاة الليل.

والمراد من تجافى الجنب: صلاتا العشاء والفجر في جماعة، وكلما استيقظ العبد ذكر الله تعالى، ويتكرر هذا في الليلة الواحدة، فيكثر السهر بقيام الليل، والدعاء إلى الله تعالى.

أحاديث في معنى الآية:

١- وعن أسماء بنت يزيد رضي الله عنها قالت: قال رسول الله ﷺ: «إذا جمع الله الأولين والآخرين يوم القيامة، جاء مناد فنادى بصوت يُسمع الخلائق: سيعلم أهل الجمع اليوم من أولى بالكرم، ثم يرجع فينادي: ليقم الذين تتجافى جنوبهم عن المضاجع»^(١).

(١) رواه إسحاق بن راهويه في مسنده، وأبو يعلى في «المسند الكبير»، يُنظر: «المطالب العالية» (٤/٣٧٣).

٢- وعن أنس بن مالك رضي الله عنه أن هذه الآية نزلت في انتظار الصلاة التي تدعى العتمة^(١) وهم الذين يدعون ربهم خوفاً من عذابه، وطمعاً في رحمته، وينفقون مما رزقهم الله في سبيل الله وفي طاعته.

قال تعالى: ﴿يُطَافُ عَلَيْهِمْ بِصِخَافٍ مِّنْ ذَهَبٍ وَأَكْوَابٍ وَفِيهَا مَا شَتَّهِهِ الْإِنْسُ وَكَذَلِكَ أُعْزِيتُ وَأَنْتَ فِيهَا خَالِدٌ﴾ (٧) [الزخرف].

٣- وعن أنس رضي الله عنه قال: ما رأيت رسول الله ﷺ راقداً قط قبل العشاء، ولا متحدثاً بعدها، فإن هذه الآية نزلت في ذلك: ﴿تَتَجَافَى جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ﴾^(٢).

٤- وأخرج الإمام أحمد وغيره: عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه، عن النبي ﷺ قال: «إن الله تبارك وتعالى يعجب من رجلين: رجل قام إلى صلاته من تحت فراشه تاركاً زوجته وأحبابه، فيقول الله تعالى لملائكته: انظروا إلى عبدي ترك فراشه وأهله وجبه وقام إلى صلاته رغبة فيما عندي، ورجل غزا في سبيل الله فانهزم، فعلم ما عليه في الفرار، وما له في الرجوع، فرجع حتى أهرق دمه رغبة فيما عندي، فيقول الله ﷻ لملائكته: انظروا إلى عبدي، رجع رغبة فيما عندي، ورهبة مما عندي، حتى أهرق دمه»^(٣).

٥- وعن عبادة بن الصامت، وكعب، قالوا: إذا حُشِرَ الناس نادى مناد: هذا يوم الفصل، أين الذين تتجافى جنوبهم عن المضاجع؟ أين الذين يذكرون الله قياماً وقعوداً وعلى جنوبهم؟ ثم يخرج عنق من النار فيقول: أمرت بثلاثة: بمن جعل مع الله إلهاً آخر، وبكل جبار عنيد، وبكل معتدٍ، لأننا أعرف بالرجل من الوالد بولده، والمولود بوالده^(٤).

(١) قال أبو عيسى: هذا حديث حسن صحيح غريب لا نعرفه إلا من هذا الوجه (٣١٩٦) في كتاب «التفسير»، وصححه الألباني في «صحيح سنن الترمذي» (٢٥٥٤) وفي التعليق الرغيب (١/ ١٦٠) وهو في الطبري (٦١١/ ١٨).

(٢) عبد الرزاق في «المصنف» (٢١٣٨) وعن عائشة (٢١٣٧) قال الهيثمي (٣١٦/ ١) عن الأخير: رجاله رجال الصحيح.

(٣) ينظر: الحديث في «المسند» (٤١٦/ ١) برقم (٣٩٤٩) بإسناد حسن، وصحح الدار قطني وقفه، وفي «سنن أبي داود» (٥٢٣٦) بنحوه، وابن أبي شيبة (٣١٣/ ٥) وابن أبي عاصم في السنة (٥٦٩) وأبي يعلى (٥٣٦١).

(٤) أخرجه عبد الله بن أحمد في «زوائد الزهد» ص ١٦٨.

في فضل قيام الليل :

(أ) في حديث طويل: أن النبي ﷺ قال لمعاذ بن جبل: «ألا أدلك على أبواب الخير؟ الصوم جنة، والصدقة تطفئ الخطيئة، وصلاة الرجل في جوف الليل»، ثم قرأ: ﴿نَتَجَافَى جُنُوبَهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ﴾ حتى بلغ: ﴿جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾^(١).

(ب) وفي صحيح مسلم: عن أبي هريرة ؓ أن رسول الله ﷺ قال: «أفضل الصيام بعد شهر رمضان شهر الله المحرم، وأفضل الصلاة بعد الفريضة صلاة الليل»^(٢).

(ج) وفي الصحيحين وغيرهما: عن عائشة ؓ قالت: كان رسول الله ﷺ يقوم الليل حتى تفطرت قدماه، فقلت: لم تصنع هذا يا رسول الله، وقد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر؟ قال: «أفلا أكون عبداً شكوراً» فلما كثر لحمه صلى جالساً، فإذا أراد أن يركع، قام فقرأ ثم ركع^(٣).

(د) وكان من أول ما قاله النبي ﷺ حين قدم إلى المدينة مهاجراً: «يا أيها الناس، أطعموا الطعام، وأفشوا السلام، وصلوا الأرحام، وصلوا بالليل والناس نيام، تدخلوا الجنة بسلام»^(٤).

ولم تذكر نافلة في القرآن إلا صلاة الليل ﴿وَمِنَ اللَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِ نَافِلَةً لَّكَ عَسَىٰ أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا﴾ (٧٩) [الإسراء].

(١) من حديث طويل أخرجه أحمد في «المسند» (٢٣١/٥) برقم (٢٢٠١٦) وهو حديث صحيح بطرقه وشواهده، وقال الترمذي: حسن صحيح (٨٦/٢) برقم (٢٦١٦) وأخرجه الحاكم في «المستدرک» (٤١٣/٢) وابن ماجه برقم (٣٩٧٣) و«السنن الكبرى» للنسائي (١١٣٩٤) و«مسنف عبد الرزاق» (٢٠٣٠٣) والطبراني في «الكبير» (٢٦٦) والبراز في «كشف الأستار» (٢٧) وابن ماجه (٣٩٧٣) وعبد بن حميد (١١٢).

(٢) «صحيح مسلم» برقم (١١٦٣).

(٣) «صحيح البخاري» برقم (٤٨٣٧) وانظر: (١١١٨) وعن المغيرة (١١٣٠، ٤٨٣٦) و«صحيح مسلم» برقم (٢٨٢٠) مختصراً، (٧٣١) مطولاً، وعن المغيرة برقم (٢٨١٩).

(٤) من حديث عبد الله بن سلام في «صحيح سنن ابن ماجه» (١٣٣٤، ٢٦٣٠) بتصحیح الألباني والترمذي (٢٤٨٥) والحاكم (١٣/٣) والبيهقي في «الدلائل» (٥٣١/٢)، وفي سنن ابن ماجه (٣٢٥١).

ثم ذكر سبحانه جزاء أهل السعادة يوم لقائه فقال:

١٧- ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ^(١) لَهُمْ مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾

أي: ولأن نعيم أهل الجنة غيب، يجلُّ عن الوصف، ولا يحيط به العقل، فقد أجمله الله تعالى في عبارة قصيرة، ولمحة وجيزة؛ ليذهب فيها التالي لها كل مذهب، ويتصور فيها خياله كل وصف ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُمْ مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ﴾ أي: فلا تعلم نفس مما ادّخره الله لهؤلاء المؤمنين، مما تقرّ به العين، وينشرح له الصدر، جزاء لهم على أعمالهم الصالحة.

ولفظ (نفس) نكره في سياق النفي، أي فلا يعلم أحد، ويدخل في ذلك نفوس الخلائق جميعاً، على مختلف رغباتها وشهواتها وملذاتها، وما تتمناه ونشتهيه.

قال ابن عباس رضي الله عنه: هذا ما لا تفسير له، أي: فلا تعلم نفس من أهل الدنيا ما أعدّه الله لهم؛ لأن إدراك العقل ينتهي إلى ما لا يدركه البصر، وما يدركه السمع من محاسن الأقوال والأفعال والمراثيات، وإلى ما يبلغ به خياله من مجموع ما يعهده في حياته.

والمعنى: فلا يعلم أحد من أهل السعادة ما أعدّه الله له من الخير الكثير والنعيم المقيم، والفرح والسرور، واللذة والحبور، مما لم يخطر لهم على بال، ولم تره أعينهم، ولم تسمعه آذانهم، جزاء ما ضلّوا في الليل، ودعّوا ربهم، ولم يُراَوْا بعملهم، فأخفى الله أجْرهم.

والإنسان لم يعهد في حياته أنهاراً من العسل واللبن والخمر، ولم يعهد قصوراً من ذهب أو فضة، ولم يعهد قباباً من لؤلؤ، ولا أشجاراً من زبرجد، ولا أزهاراً من ياقوت، ولا تراباً من مسك وعنبر، ولا نحو ذلك مما أعدّه الله في الجنة لعباده المتقين مما لا يحيط به الوصف، ولا يدرك كنهه البشر؛ لأن ما يخطر على قلب البشر هو ما ينتهي إليه الوصف المعهود إليه، وما تنتهي إليه دلالة اللغة في الألفاظ، وما في الجنة أعظم وأكبر من ذلك، لا يتسع خيال الإنسان لاستيعابه، ولا يعلم كنهه إلا الله، فاللهم إنا نسألك من فضلك.

(١) قرأ حمزة ويعقوب بإسكان الياء من (أخفي) على أنه فعل مضارع مرفوع؛ لتجرده من الناصب والجازم، وهو مسند إلى ضمير المتكلم، وقرأ الباقر بفتح الياء على أنه فعل ماضٍ مبني للمجهول، ونائب فاعله ضمير يعود على (ما).

أحاديث في معنى الآية:

١- في صحيح مسلم وغيره: عن المغيرة بن شعبة رضي الله عنه أنه سمع النبي ﷺ على المنبر يُخبر الناس أن موسى عليه السلام سأل ربه عن أدنى أهل الجنة منزلة؟ فأخبره أنه آخر أهل الجنة دخولا، وأنه يُعطى مثل مُلك خمسين ملكًا من ملوك الدنيا، ثم يقول الله له: ولك ما اشتئت نفسك، ولذت عينك.

ثم سأل موسى عن أعلى أهل الجنة منزلة؟ فقال: أولئك الذين غرست كرامتهم بيدي، وختمت عليها، فلم تر عين، ولم تسمع أذن، ولم يخطر على قلب بشر، قال: ومصدق ذلك في كتاب الله: ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ﴾^(١).

٢- وعن أبي هريرة رضي الله عنه: أن النبي ﷺ قال: «من يدخل الجنة ينعم لا يبأس، لا تُبلى ثيابه، ولا يفنى شبابه»^(٢).

٣- وعن سهل بن سعد رضي الله عنه قال: بينما نحن عند رسول الله ﷺ وهو يصف الجنة حتى انتهى، ثم قال: «فيها ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر»، ثم قرأ: ﴿نَجَافِي جُثُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ﴾ الآيتين.

قال أبو صخر: فذكرته للقرطبي، فقال: إنهم أخفوا عملاً، وأخفى الله لهم ثواباً، فقدموا على الله، فقررت تلك الأعين^(٣).

٤- وفي الصحيحين وغيرهما: عن أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «يقول الله تبارك وتعالى: أعددت لعبادي الصالحين ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر» اقرؤوا إن شئتم: ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ﴾^(٤).

٥- قال ابن مسعود رضي الله عنه: في التوراة مكتوب: على الله للذين تتجافى جنوبهم عن

(١) الحديث في «صحيح مسلم» برقم (١٨٩) و«سنن الترمذي» برقم (٣١٩٨).

(٢) «صحيح مسلم» برقم (٢٨٣٦).

(٣) ابن أبي شيبة (١٠١/١٣) ومسلم (٢٨٢٥) وأحمد (٤٨٣/٣٧) (٢٢٨٢٦) والطبراني (٦٠٠٢) والحاكم (٤١٣/٢).

(٤) البخاري (٤٧٧٩) و«فتح الباري» (٣٧٥/٨) ومسلم (٢١٨١/٤) برقم (٢٨٢٤) والترمذي (٣١٩٧).

المضاجع، ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر^(١).

الْمُؤْمِنُ وَالْفَاسِقُ لَا يَسْتَوِيَانِ فِي الْجَزَاءِ

١٨ - ﴿أَفَمَنْ كَانَ مُؤْمِنًا كَمَنْ كَانَ فَاسِقًا لَا يَسْتَوُونَ﴾ (١٨)

بَيَّنَّ ﷺ أن الأبرار والفجار لا يستوون؛ لأن عدالة الله تبارك تعالى تقتضي جزاء كل فريق بما عمل، أفمن كان مطيعاً لله ﷻ، مصدقاً برسوله ﷺ، موثقاً بوعدته تعالى للمؤمنين بالجنة، وبوعيده للكافرين بالنار - قد عمّر الإيمان قلبه، وانقادت له جوارحه، وعمل بمقتضى هذا الإيمان، وترك ما يُسخط الله تبارك وتعالى - هل يستوي هذا بمن كان كافراً بالله ورسوله، مكذباً باليوم الآخر وما فيه من ثواب وعقاب؟ قد تعطل قلبه عن الإيمان، وعُدم فيه الوازع الديني، فأسرعت جوارحه إلى المعاصي، وخرج بفسقه عن طاعة الله والرسول؟ هل يستوي هذا وذاك؟

الجواب: لا يستويان عند الله تعالى؛ ولا يستويان في عقل ولا شرع، كما لا يستوي الليل والنهار، ولا الضياء والظلمة، فكذلك لا يستوي ثوابهما في الآخرة، لأنهم لم يستوا في العمل وهم في الدنيا، فكيف يستوون في الجزاء في الآخرة؟ فلا عجب إذن أن يُلْقَى كُلُّ منهما جزاءه المناسب، كما قال تعالى: ﴿أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَنْ نَجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَوَاءً مَحْضُهُمْ وَمَمَّائُهُمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾ (١٧) [الجاثية].

وقال جلّ شأنه: ﴿أَمْ نَجْعَلُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَالْمُفْسِدِينَ فِي الْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ الْمُتَّقِينَ كَالْفُجَّارِ﴾ (١٨) [ص].

وقال سبحانه: ﴿لَا يَسْتَوِي أَحَبُّ النَّارِ وَأَحَبُّ الْجَنَّةِ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمُ الْفَائِزُونَ﴾ (٢٠) [الحشر].

وعن سعيد بن جبير عن ابن عباس ؓ أنه كان بين عليّ بن أبي طالب والوليد بن عقبة بن أبي معيط، نزاع وخصومة، فقال الوليد بن عقبة لعليّ ؓ: اسكت، فإنك صبي، وأنا والله أبسط منك لساناً، وأشجع منك جناناً، وأملأ منك حشواً في الكتيبة، فقال له عليّ: اسكت فإنك فاسق، فنزلت: ﴿أَفَمَنْ كَانَ مُؤْمِنًا كَمَنْ كَانَ فَاسِقًا لَا يَسْتَوُونَ﴾ (١٨) قال:

(١) «تفسير ابن عطية» (٤/٣٦٣).

يعني بالمؤمن: عليًا، وبالفاسق: الوليد بن عقبة^(١).

والمعنى عام يشمل كل مؤمن وفاسق إلى قيام الساعة.

ثم فصل سبحانه جزاء كل فريق، فذكر أولًا ثواب المؤمنين، قال تعالى:

١٩- ﴿أَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَلَهُمْ جَنَّاتُ الْمَأْوَى نُزُلًا بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٩﴾﴾

أما الذين آمنوا بالله ربًا، وبالإسلام دينًا، وبالكعبة قبله، وبمحمد ﷺ نبيًا ورسولًا، وعملوا الأعمال الصالحة التي أمرهم الله بها من فرائض ونوافل، واستقاموا على منهج الله تعالى، فلهم جنات المأوى أعدها الله لهم، يأوون إليها في الدار الآخرة، في ملذات وخيرات وأفراح ونعيم، ورضوان من الله أكبر، وتمتع بالنظر إلى وجهه الكريم، وهم يقيمون في نعيمها ضيافة لهم، فالجنة هي المأوى الحقيقي، والدنيا منزل مرتحل عنه لا محالة، وهذه الجنة جزاء لهم بما عملوه في الدنيا من طاعته سبحانه بامثال أمره واجتناب نهيه فأعمالهم الصالحة في الدنيا هي التي أوصلتهم إلى تلك المنازل العالية، التي لا يمكن الوصول إليها بالأموال ولا بالأولاد ولا بالجاء ولا بالجنود والحراس، ولا سبيل لها إلا بالإيمان والعمل الصالح، ثم ذكر سبحانه جزاء أهل النار، فقال:

٢٠- ﴿وَأَمَّا الَّذِينَ فَسَقُوا فَمَأْوِيَهُمُ النَّارُ كُلَّمَا أَرَادُوا أَنْ يَخْرُجُوا مِنْهَا أُعِيدُوا فِيهَا وَقِيلَ لَهُمْ ذُوقُوا عَذَابَ النَّارِ الَّتِي كُنتُمْ بِهِ تَكْذِبُونَ ﴿٢٠﴾﴾

أي: وأما الذين فسقوا، وخرجوا عن طاعة الله ورسوله، وعملوا بمعاصيه فمستقرهم ومنزلهم دار جهنم، يأوون إليها، وقيمون فيها ﴿لَا يُقْضَىٰ عَلَيْهِمْ فِيمَوتُوا وَلَا يَخَفُّ عَنْهُمْ مِّنْ عَذَابِهَا﴾ [فاطر: ٣٦]. ولا يُقْتَر عنهم العذاب ساعة واحدة.

قال الفضيل بن عياض: والله إن الأيدي لموثقة، وإن الأرجل لمقيدة، وإن اللهب ليرفعهم والملائكة تقمعهم^(٢).

(١) من «تفسير ابن كثير» و«الخازن» و«البيضاوي» للآية، والواحدي في «أسباب النزول» ص ٢٩٢ والسيوطي (٢٢١) و«تفسير القرطبي» (١٤/١٠٥) و«الدر المنثور» (٥/١٧٧).

(٢) «تفسير ابن كثير» (٦/٣٦٩).

إنهم يحاولون الفرار من النار والخروج منها فلا يستطيعون، ثم يسألون خزنة جهنم أن يخففوا عنهم ولو قليلاً من العذاب، فيلوموهم على كفرهم لومًا شديدًا، ويذكروهم بعدم الاستجابة لرسول الله في الدنيا.

قال تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ فِي النَّارِ لِخَزَنَةِ جَهَنَّمَ ادْعُوا رَبَّكُمْ يُخَفِّفْ عَنَّا يَوْمًا مِّنَ الْعَذَابِ﴾ (٤٩) [غافر]. ولو يومًا واحدًا.

﴿قَالُوا أَوَلَمْ نَكُ تَأْتِيكُمُ رُسُلُكُمْ بِالْبَيِّنَاتِ قَالُوا بَلَىٰ قَالُوا فَادْعُوا وَمَا دُعَاتُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ﴾ (٥٠) [غافر]. فلن يستجاب لكم.

ثم يذهبون إلى (مالك) خازن النار، فيطلبون منه القضاء عليهم في نار جهنم، كما قال تعالى: ﴿وَنَادَوْا يَمَلِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ﴾ فيجيبهم بعد طول مدة: ﴿إِنَّكَ مَكِينٌ﴾ (٧٧) لَقَدْ جِئْتَكُمْ بِالْحَقِّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَكُمْ لِلْحَقِّ كَارِهُونَ﴾ (٧٨) [الزخرف].

لذا فإنه يقال لأهل جهنم: ﴿ذُوقُوا عَذَابَ النَّارِ الَّتِي كُنتُمْ بِهِ تَكْذِبُونَ﴾ في الدنيا، فهو تقريع لهم، مصحوب بالدفع إلى نار جهنم والتعذيب فيها، والعياذ بالله!! قال تعالى: ﴿يَوْمَ يُدْعَوْنَ﴾ أي: يُدْفَعُونَ ﴿إِلَىٰ نَارِ جَهَنَّمَ دَعَاً﴾.

ويقال لهم: ﴿هَذِهِ النَّارُ الَّتِي كُنتُمْ بِهَا تَكْذِبُونَ﴾ (٧٩) [الطور].

ولأهل النار عذاب في الدنيا، وفي قبورهم، قبل عذاب جهنم، كما قال تعالى:

٢١- ﴿وَلَنُذِيقَنَّهُمْ مِّنَ الْعَذَابِ الْأَدْنَىٰ دُونَ الْعَذَابِ الْأَكْبَرِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ (٨٠)

هذا وعيد لأهل النار بالعذاب الدنيوي قبل عذاب الآخرة، ومن ذلك ما يكون عند الموت، كما قال تعالى ﴿وَلَوْ تَرَىٰ إِذِ الظَّالِمُونَ فِي غَمَرَاتِ الْمَوْتِ وَالْمَلَائِكَةُ بَاسِطُوا أَيْدِيهِمْ﴾ لهم بالعذاب، ويقولون لهم ﴿أَخْرِجُوا أَنفُسَكُمُ﴾ مما أنتم فيه ﴿الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ بِمَا كُنتُمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ وَكُنتُمْ عَنْ آيَاتِهِ تَسْتَكْبِرُونَ﴾ [الأنعام: ٩٣]

والله تعالى لا يحب أن يعذب عباده، ولكن بعضهم يُصْرُّ على موجبات العذاب، وهذا وعيد لهم بالعذاب وهم في الدنيا؛ كي يرجعوا إلى الله تعالى، وتستيقظ فطرهم، فيبتليهم الله تعالى بالهزائم والفتن، وجُثُوم العدو على صدورهم، والتحكم فيهم، وتدنيس

مقدساتهم، ويبتليهم بالزلازل والمحن والمصائب، والآفات، والجوع والمرض، وجور الحكام، دون أن يؤثر هذا فيهم، وهذا هو العذاب الأدنى الذي يكون في الدنيا، كقوله تعالى: ﴿أَوَلَا يَرَوْنَ أَنَّهُمْ يُفْتَنُونَ فِي كُلِّ عَامٍ مَرَّةً أَوْ مَرَّتَيْنِ ثُمَّ لَا يَتُوبُونَ وَلَا هُمْ يَذْكُرُونَ﴾ [التوبة].

والعذاب في الدنيا قد لا يكون موصولاً بالموت، فيذيقهم الله منه حتى يتوبوا إلى ربهم كما قال تعالى: ﴿ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُمْ بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ [الروم: ٤١]

ومن العذاب الأدنى: سؤال القبر وعذابه، وكونه حفرة من حفر النار، قال تعالى عن آل فرعون ﴿النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا﴾ هذا في البرزخ بدليل ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ﴾ [غافر: ٤٦] والقبر إما روضة من رياض الجنة، أو حفرة من حفر النار، وهو عنوان لما بعده، فاعتبروا يا عباد الله، فإذا لم يعتبروا وهم في الدنيا، ويعملوا للنجاة من العذاب الأكبر يوم لقاء ربهم، فهم ظالمون لأنفسهم:

٢٢- ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ ثُمَّ أَعْرَضَ عَنْهَا إِنَّا مِنَ الْمُجْرِمِينَ مُنْقِمُونَ﴾ [٢٢]

أي: ولا أحد أشد ظلماً لنفسه ممن وعظ بدلائل قدرة الله تعالى وتوحيده، ثم أعرض عنها وجحدها وتركها، فلم يتعظ، ولم يعتبر، ولم ينتفع، ولكنه استكبر وتمادى في غيه وطغيانه، فلم يؤمن بها ولم يتبعها بل أعرض عنها وتركها وراء ظهره، ولذا: توعدهم الله تعالى وهددهم بالعذاب، فقال: ﴿إِنَّا مِنَ الْمُجْرِمِينَ مُنْقِمُونَ﴾ أي: ننتقم ممن أعرض عن آيات الله وحججه، ويا له من تهديد، ووعد من الجبار المنتقم!! قال تعالى: ﴿إِنَّ الْمُجْرِمِينَ فِي ضَلَالٍ وَسُعُرٍ﴾ [٢٧] يَوْمَ يُسْحَبُونَ فِي النَّارِ عَلَى وُجُوهِهِمْ ذُوقُوا مَسَّ سَقَرَ [٢٨] [القمر].

وجاء في الأثر عن معاذ بن جبل رضي الله عنه: «ثلاث من فعلهن فقد أجرم: مَنْ عَقَدَ لَوَاءً فِي غَيْرِ حَقٍّ، وَمَنْ عَقَّ وَالِدَيْهِ، وَمَنْ مَشَى مَعَ ظَالِمٍ لِيَنْصُرَهُ فَقَدْ أَجْرَمَ»^(١).

(١) «تفسير الطبري» (٦٩/٢١) و«المطالب العالية» (٤٠٩٣) والطبراني (١١٢) وقد ضعفه الألباني في «السلسلة الضعيفة» (١٩٥١) باعتباره حديثاً مرفوعاً للنبي ﷺ.

أَمْرُ اللَّهِ تَعَالَى لِنَبِيِّهِ أَنْ يَتَأَسَّى بِمُوسَى فِي صَبْرِهِ عَلَى إِعْرَاضِ قَوْمِهِ

٢٣- ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ فَلَا تَكُنْ فِي مِرْيَةٍ مِّنْ لِّقَائِهِ وَجَعَلْنَاهُ هُدًى لِّبَنِي إِسْرَءِيلَ﴾

هذه الآية لبيان أن ما لقيه محمد ﷺ من إعراض قومه عنه هو نظير ما لقي موسى ﷺ من قوم فرعون، فلا تحزن -أيها الرسول- ولتكن لك فيه أسوة، ولا تكن في شك من لقاء موسى في الدنيا والآخرة.

ومن هنا كان الحديث عن موسى ﷺ، وبني إسرائيل في هذه السورة، إشارة خاطفة لمجرد الربط بين ما لقيه موسى ﷺ من قومه، وما لقيه محمد ﷺ من قومه، من أذى وعنت، فاصبر -يا محمد- كما صبر موسى .

والمعنى : ولقد آتينا موسى التوراة، كما آتيناك القرآن يا محمد :

١- فلا تكن -أيها الرسول- في شك من نزول التوراة على موسى، وتلقي موسى لها بالرضى والقبول.

٢- ولا تكن في شك مما لقيه موسى من الأذى، وقد جعلنا التوراة كتاب هداية لبني إسرائيل يدعوهم إلى الحق، وإلى صراط مستقيم، قال تعالى: ﴿وَأَتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَجَعَلْنَاهُ هُدًى لِّبَنِي إِسْرَءِيلَ﴾ [الإسراء: ٢].

٣- وقال بعضهم ولعله الأنسب: فلا تكن -يا محمد- في شك من لقاء موسى :

فقد روى ابن عباس ؓ أن النبي ﷺ قال: «مررت ليلة أُسري بي على موسى بن عمران، رجل آدم، طوال، جعد، كأنه من رجال شنوءة، ورأيت عيسى ابن مريم مربع الخلق، إلى الحمرة والبياض، سبط الرأس» ورأيت مالكا خازن النار، والدجال في آيات أراهن الله إياه ﴿فَلَا تَكُنْ فِي مِرْيَةٍ مِّنْ لِّقَائِهِ﴾ قال: كان قتادة يفسرها أن النبي ﷺ قد لقي موسى ﷺ^(١).

وهذا الحديث يفسر الآية.

(١) «صحيح مسلم» (١٦٥) و«صحيح البخاري» (٣٢٣٩) و«تفسير الطبري» (١١٢/٢١).

وفي صحيح مسلم: عن أنس رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «أتيتُ على موسى ليلة أُسري بي، عند الكتيب الأحمر، وهو قائم يصلي في قبره»^(١)
فالأنبياء لا تأتي عليهم الأرض، وصلاته ذُكر وشُكر لا تكليف.
وصح في حديث العروج: أن النبي ﷺ رأى موسى في السماء السادسة، وقد ذكر موسى ﷺ في الآية، ولم يُذكر عيسى ﷺ؛ لأن النصارى يعترفون برسالة موسى، ولم يقل اليهود: إن عيسى ابن الله، فكان الاستدلال بموسى أوقع.

وقال أبو العالية: فلا تكن في مرية من لقاء موسى، قيل: أولقي موسى؟ قال: نعم، ألا ترى إلى قوله: ﴿وَسَلَّ مَنْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رُسُلِنَا﴾^(٢) [الزخرف: ٤٥]. قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَذَّبَتْ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِكَ فَصَبَرُوا عَلَى مَا كَذَّبُوا وَأَوْدُوا حَتَّى أَتَاهُمْ نَصْرُنَا﴾ [الأنعام: ٣٤].

والمقصود من الآية: تقرير رسالة موسى ﷺ وتحقيق أن ما معه من الكتاب وحيِّ سماويٍّ، وكتاب إلهي، قبل أن تمتد إليه أيدي اليهود بالتحريف والتبديل.

٤- وأخرج الطبراني بسند صحيح إلى ابن عباس رضي الله عنهما، عن النبي ﷺ أن المعنى: فلا تكن في مرية من لقاء موسى ربه، وجعلنا موسى هدى لبني إسرائيل^(٣).

فهذه أربعة معانٍ لقوله تعالى: ﴿فَلَا تَكُنْ فِي مِرْيَةٍ مِنْ لِقَائِهِ﴾.

والمعنى: ولقد أنزلنا التوراة على موسى كما أنزلنا القرآن على محمد.

١- فليس غريباً أن يصيبك من الأذى مثل ما أصاب موسى من قوم فرعون.

٢- ولا تكن في شك من لقاء موسى ليلة الإسراء والمعراج.

٣- ولا تكن في شك من لقاء موسى يوم لقاء رب العالمين.

٤- ولا تكن في شك من نزول التوراة على موسى، فقد صدقها القرآن وأثنى عليها قبل أن تحرف.

ثم مدح الله تبارك وتعالى من أسلم من اليهود فقال:

(١) «صحيح مسلم» برقم (٢٣٧٥).

(٢) ابن أبي حاتم كما في «الدر المنثور» (١١/٧١٠).

(٣) يُنظر: «تفسير الطبري» (١٨/٦٣٧) والبيهقي (٢/٣٨٦).

٢٤- ﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَيْمَةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا^(١) صَبَرُوا وَكَانُوا بِإِثْنَيْنَا يُوقِنُونَ ﴿٢٤﴾﴾

أي: وجعلنا من بني إسرائيل هداة ودعاة إلى الخير، علماء بالشرع وطرق الهداية، يأتهم بهم الناس، ويدعونهم إلى التوحيد وعبادة الله وحده، وهؤلاء هم الذين دخلوا في الإسلام منهم، فالكتاب الذي أنزل إليهم فيه هدى ونور، والمؤمنون به منهم أئمة يهدون بأمر الله، ومنهم أتباع مهتدون بهم، والنوع الأول أرفع درجة وأعلى مقامًا، وقد نالوا هذه الدرجة العالية، لأنهم صبروا على أوامر الله تعالى وطاعته، وما رزق الله عبدًا رزقًا خيرًا له وأوسع من الصبر.

ولفظ ﴿مِنْهُمْ﴾ في الآية للتبويض، وهذا يصدق على من قال الله فيهم: ﴿وَمِنْ قَوْمِ مُوسَى أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ ﴿١٥٩﴾﴾ [الأعراف].

وهو ينطبق على عبد الله بن سلام، وتميم الداري، وغيرهما، ممن اعترفوا برسالة محمد ﷺ، ولم ينكروا علاماته في التوراة.

وفي الآية تحذير وتنبيه لكل من لم يعتنق الدين الأخير، وبشرى لهم بأنهم إن آمنوا وأطاعوا جعل الله منهم أئمة وهداة يُقتدى بهم.

ولا يدخل في الآية من بقي على اليهودية منهم إلى يومنا، وإلى قيام الساعة.

وهناك مسائل، اختلف منها بنو إسرائيل، فمنهم من أصاب الحق، ومنهم من أخطأ عن عمد أو خطأ، والله تعالى سيفصل بينهم يوم القيامة، فيصدق أحد الفريقين ويكذب الآخر:

٢٥- ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿٢٥﴾﴾

ولا يزال الحديث موصولاً عن يوم القيامة وما فيه من الحكم والقضاء، والفصل بين العباد، فيتناول السياق الفصل يوم الحساب والجزاء، بين محمد ﷺ وقومه، كما يفصل بين المؤمن والكافر، وبين أهل السعادة وأهل الشقاء.

(١) قرأ حمزة والكسائي ورويس بكسر اللام وتخفيف الميم من (لما) على أن اللام حرف جر، وما مصدرية مجرورة باللام، والجار والمجرور متعلق بـ(جعل)، أي: جعلناهم أئمة هادين لصبرهم، وقرأ الباقر بفتح اللام وتشديد الميم، على أن (لما) ظرفية بمعنى حين، أي: جعلناهم أئمة هادين حين صبرهم.

وكذلك الشأن في اختلاف بني إسرائيل في شأن موسى ﷺ، واختلافهم في أمور الدين، والبعث، والثواب والعقاب، وغير ذلك، فكل ذلك متروك إلى الله تعالى، يقضي بينهم بالعدل يوم القيامة فيما اختلفوا فيه، فيميز المحق من المبطل، ويجازي كلًا منهم بعمله، وما يستحق من الجنة أو النار.

وفي هذا تثبيت لقلب النبي ﷺ على ما يلقاه هو والمسلمون معه من التكذيب والإعراض، والصبر على الشدائد، وليكون هذا منهجًا يحتذيه الدعاة إلى الله تعالى بعده في كل زمان ومكان.

الْإِعْتِبَارُ بِمَصَارِعِ الْغَابِرِينَ

٢٦- ﴿أَوَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَبْلِهِمْ مِنَ الْقُرُونِ يَمْشُونَ فِي مَسْكِنِهِمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ أَفَلَا يَسْمَعُونَ ﴿٢٦﴾﴾

في هذه الآية إظهار الحجة على الكفار إلى يوم القيامة، بالأمم السابقة الذين كفروا برسلهم فأهلكهم الله تعالى.

فهذه جولة مع مصارع الغابرين؛ لناخذ العبرة منهم؛ كي نثبت على الحق ونتمسك به، وحتى يرتدع الكفار عن كفرهم، فسنة الله تعالى في خلقه ماضية لا تتخلف.

ومن المعلوم أن العرب -وهم نواة الإسلام الأولى، وفيهم نزل القرآن- يمشون في مساكن عاد وثمود، وغيرهما، ويعرفونها.

والقرآن يستنكر أن تكون مصارع هؤلاء الظلمة بين أيدينا، ثم لا نتوقى مثل مصيرهم.

والمعنى: أَوَلَمْ يَتَبَيَّنْ لَهُوَلَاءِ الْمَكْذِبِينَ لِلرَّسُولِ ﷺ كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنَ الْأُمَمِ السَّابِقَةِ عَلَى كَثَرَتِهِمْ، يَمْشُونَ فِي مَسَاكِنِهِمْ فَيُشَاهِدُونَهَا عَيَانًا فِي أَسْفَارِهِمْ، وَهُمْ لَا يَرَوْنَ فِيهَا أَحَدًا، كَدْيَارِ قَوْمِ لُوطٍ وَقَوْمِ شُعَيْبٍ، فَهَلْ غَفَلُوا عَنْ ذَلِكَ وَلَمْ يَعْرِفُوهُ؟ إِنْ فِي هَلَاكِ الْمَكْذِبِينَ عِظَاتٌ وَدَلَالَاتٌ يُسْتَدَلُّ بِهَا عَلَى صَدَقِ الرِّسْلِ، وَبَطْلَانِ مَا عَلَيْهِ الْأَقْوَامُ مِنَ الشُّرْكِ، وَاللَّهُ تَعَالَى مُجَازِي الْعِبَادِ حِينَ يَبْعَثُهُمُ لِلْحَشْرِ وَالْحِسَابِ.

أَفَلَا يَسْمَعُ هَؤُلَاءِ الْمَكْذِبُونَ بِالرِّسْلِ مَوَاعِظَ اللَّهِ وَحُجُجِهِ، فَيَتَنَفَعُوا بِهَا؟ وَهَذَا كَقَوْلِهِ

تعالى: ﴿فَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ فِيهَا خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا وَيَبُرُّ مُعْتَدِلَةٌ
وَقَصَّرَ مُشِيدٌ ﴿٤٥﴾﴾ [الحج].

وقوله سبحانه: ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ هَلْ يُحْسِبُ مِنْهُمْ مِّنْ أَحَدٍ أَوْ سَمِعُ لَهُمْ رِكْزًا ﴿٩٨﴾﴾
[مريم]. وغير ذلك من الآيات.

إِخْرَاجُ النَّاسِ مِنْ قُبُورِهِمْ كإِخْرَاجِ النَّبَاتِ مِنَ الْأَرْضِ

٢٧- ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَسُوقُ الْمَاءَ إِلَى الْأَرْضِ الْجُرُزِ فَنُخْرِجُ بِهِ زَرْعًا تَأْكُلُ مِنْهُ أَنْفُسُهُمْ
وَأَنْفُسُهُمْ أَفَلَا يُبْصِرُونَ ﴿٢٧﴾﴾

في هذه الآية إظهار الحجة على الكفار، بقدرة الله تعالى على البعث بعد الموت،
والاستدلال على ذلك بإحياء الأرض الموات بالماء والنبات.

حيث يعود السياق فيربط العبد بربه مرة أخرى؛ بذكر دليل من أدلة التوحيد الذي هو
موضوع السورة، وموضوع حوار المشركين الأساس.

وبمناسبة ذكر مصارع الغابرين، وتسوية بيوتهم بالتراب، يأتي هذا الدليل، وفيه مشهد
الحياة وهي تدب في الأرض الميتة.

أي: أولم ير المكذبون بالبعث بعد الموت، فيشاهدوا بأعينهم، أننا نسوق الماء إلى الأرض
اليابسة الجامدة، التي لا نبات فيها، فإذا هي خضراء يانعة بالزرع والثمار مختلفة الألوان
والمذاق، تأكل منها الأنعام، وتتغذى بها أبدانهم، فيعيشوا بها؟ أفلا يرون ذلك فيعتبروا،
ويعلموا أن الله تعالى الذي فعل ذلك، قادر على إحياء الأموات ونشرهم من قبورهم؟

والأرض الجرُز: هي التي تشرب السيول لا المطر.

قال ابن عباس: هي أرض أبين باليمن وهي أرض لا تُنبِت شيئاً.

وعن إخراج النبات من الأرض قال تعالى: ﴿وَبَايَةٌ لَهُمُ الْأَرْضُ الْمَيِّتَةُ أَحْيَيْتَهَا وَأَخْرِجْنَا مِنْهَا
حَبًّا فَمِنْهُ يَأْكُلُونَ ﴿٢٢﴾ وَجَعَلْنَا فِيهَا جَنَّاتٍ مِّنْ نَّجِيلٍ وَأَعْنَبٍ وَفَجَّرْنَا فِيهَا مِنَ الْعُيُونِ ﴿٢٣﴾
لِيَأْكُلُوا مِنْ ثَمَرِهِ وَمَا عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ أَفَلَا يَشْكُرُونَ ﴿٢٥﴾﴾ [يس].

فالمعنى: ونخرج بهذا الماء زرعاً وكلاً تأكل منه أنعامهم وتتغذى به أبدانهم، أفلا

يرون هذه النعم بأعينهم، فيعلموا أن الله الذي فعل ذلك قادر على إخراج الأموات أحياء من الأرض، كما أخرج النبات من الأرض اليابسة بعد أن غاب فيها البذر، ولكن غلب عليهم العمى، واستولت عليهم الغفلة، فلم يوفقوا للخير.

ومما يُذكر في هذا أن أهل مصر كانوا قبل الفتح الإسلامي إذا مرَّ اثنا عشر يوماً من شهر (بؤونة) القبطي الذي يقل فيه منسوب الماء جدًّا، فإنهم يأتون ببنتٍ بكرٍ، ويزيّنونها بالحليّ والثياب، ثم يُلقونها في نهر النيل؛ كي تجري مياهه -على حد زعمهم-

فلما فُتحت مصر، وعلم عمرو بن العاص بهذا كتب بذلك إلى عمر بن الخطاب، فكتب إليه بطاقة وأمره أن يُلقي بها في النيل بدلاً من الجارية، ففتحها عمرو فإذا فيها:

من عبد الله عمر بن الخطاب أمير المؤمنين إلى نيل أهل مصر.

أما بعد: فإنك إن كنت تجري من قبلك فلا تجر، وإن كان الله الواحد القهار هو الذي يُجريك، فنسأل الله أن يُجريك.

فألقي عمرو بالبطاقة في نهر النيل، وأصبحوا يوم السبت، وقد أجرى الله النيل ستة عشر ذراعاً في ليلة واحدة، وقطع الله تلك العادة عن أهل مصر إلى الآن^(١).

يَوْمُ الْفَتْحِ الْحَقِيقِيِّ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ

٢٨- ﴿وَقُولُوا مَتَى هَذَا الْفَتْحُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ (٢٨)

في نهاية السورة يأتي هذا السؤال من المكذبين بالرسول ﷺ وما جاء به من عند الله تعالى، فهم يتساءلون على سبيل السخرية والتهكم: متى هذا الفتح؟ فما المراد بالفتح المذكور؟ إنه اليوم الذي ينصر الله فيه نبيه في الدنيا والآخرة.

وكان المسلمون يتحدثون المشركين بأن الله سيفتح عليهم، وينصرهم ويظهر دينهم، فيتهكّم بهم الكفار، بالسؤال عن هذا الوقت، الذي سيفتح الله عليهم فيه، وكان أصحاب النبي ﷺ يقولون للكفار: إن الله تعالى ناصرنا ومظهرنا عليكم، فيقولون: متى هذا

(١) يُنظر: «تفسير ابن كثير» (٣٧٣/٦) وهو في كتاب «السنة» للالكاني برقم (٦٦) قسم كرامات الأولياء وهو أثر مرسل، عن ابن إسحاق عن ابن لهيعة.

الفتح؟ أي: متى يأتي هذا اليوم الذي يتم فيه الفتح على محمد ﷺ فيُنصر علينا؟ يقولون ذلك استهزاءً واستعجالاً لنزول العذاب بهم، فكان الجواب: إن العذاب سينزل بهم سريعاً بدون مهلة. قال تعالى:

٢٩- ﴿قُلْ يَوْمَ الْفَتْحِ لَا يَنْفَعُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِيْمَانُهُمْ وَلَا هُمْ يُنْظَرُونَ﴾

ويأتي الجواب في هذه الآية على طريقة الأسلوب الحكيم، بأن يوم الفتح الحق، هو يوم القيامة، وهو اليوم الذي يفصل الله فيه بيننا وبينكم، وينقطع أملككم في رجاء النجاة من النار، أو الاستفادة من الندم، أو التوبة، فهو يوم لا يُقبل فيه من الكفار إيمان ولا اعتذار، فلماذا يستعجلون؟ ويوم القيامة هو يوم الفتح الحقيقي؛ حيث يفصل الله بيننا وبينكم، فينصر المؤمنين على الكافرين، ولا يُمهلون أو يُؤخرون للتوبة، ولا يُقبل منهم إيمان ولا اعتذار: ﴿فَلَمْ يَكُ يَنْفَعُهُمْ إِيْمَانُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بَأْسًا﴾ [غافر: ٨٥]. إنه يوم القيامة الذي يكون فيه الفصل والحكم والقضاء بين العباد، والكفار يستبعدون محيء هذا اليوم، وينكرون البعث والنشور، ويقولون: متى يأتي هذا اليوم الذي يتم فيه الفصل بين العباد.

الْخِطَابُ الْأَخِيرُ فِي السُّورَةِ لِكُلِّ دَاعِيَةٍ

٣٠- ﴿فَاعْرِضْ عَنْهُمْ وَأَنْتَظِرْ إِنَّهُمْ مُنْتَظَرُونَ﴾

أي: فأعرض -يا أيها الرسول - ويا كُلَّ داعية إلى الله، في كل زمان ومكان- عن المكذبين بك، ولا تبالِ بهم ولا يعارضهم وتكذبيهم لك، وانتظر ما الله صانع بهم؛ فإن الله منجز وعده لك وناصرك عليهم، إنا متريصون بكم دوائر السوء وحوادث الزمان، وهذا كقوله تعالى: ﴿أَمْ يَقُولُونَ شَاعِرٌ نَّتَرَبَّصُ بِهِ رَيْبَ الْمُنُونِ﴾ ﴿٣٠﴾ قُلْ تَرَبَّصُوا فَإِنِّي مَعَكُمْ مِنَ الْمُرَبِّصِينَ ﴿٣١﴾ [الطور]. وستكون العاقبة بنصر الله وتأيدته لنبيه، ولسائر الدعاة إلى الله تعالى، وحلول العذاب بالكافرين.

وقيل: إن المراد بالفتح هو نصر النبي ﷺ عليهم في الدنيا، كما حدث يوم بدر وما بعده.

والآية عامة في كل داع إلى الله، وكل مكذب بالدعوة إلى يوم القيامة.

تم تفسير (سورة السجدة) والله الحمد والمنة

تَفْسِيرُ سُورَةِ الْأَحْزَابِ (٣٣)

مُقَدِّمَةُ السُّورَةِ

سورة (الأحزاب) هي السورة الثالثة والثلاثون في ترتيب المصحف، والتسعون في ترتيب النزول، نزلت بعد سورة (الأنفال)، وقبل سورة (المائدة)، وهي ثلاث وسبعون آية باتفاق أهل العدد، وألف ومئتان وثمانون كلمة. وخمسة آلاف وتسع مئة وتسعون حرفاً.

وسُميت سورة (الأحزاب)؛ لتحزُّب اليهود والمشركين من قريش، وكنانة، وغطفان، ضد الإسلام وأهله، وكانوا عشرة آلاف، أرادوا غزو المسلمين في المدينة، فردَّ الله كيدهم، وكفى المؤمنين القتال.

وسورة (الأحزاب) سورة مدنية باتفاق، وكان نزولها سنة خمسٍ من الهجرة، وقيل: سنة أربع، وهي السنة التي وقعت فيها غزوة الأحزاب، وتسمى غزوة الخندق.

وقد نُسخ من سورة (الأحزاب) (الشيخ والشيخة إذا زنيا فارجموهما البتة نكالا من الله والله عزيز حكيم)^(١) وبقي حكمها والعمل بها، كما هو ثابت في صحيح السنَّة، غير أن الرجم لا يختص بالشيخين، بل يشمل الشابتين أيضاً، لأن المراد بالشيخ والشيخة: الزاني المحصن، كبيراً كان أو صغيراً ولهذا فإن (عمر) ﷺ لَمَّا طلب كتابتها في المصحف قال له النبي ﷺ «لا أستطيع»^(٢).

والخلاصة: أن فريضة الرجم للزاني الثيب، ثابتة بالسنة القولية والفعلية، للكبير والصغير، ورفض النبي ﷺ كتابتها في المصحف لعلمه أنها ستُنسخ لفظاً.

(١) يُنظَر: «المسند» (١٣٢/٥) برقم (٢١٢٠٧) عن أبي بن كعب، بإسناد فيه عاصم بن بهدلة، وبقية رجاله ثقات، انظر (٢١٥٩٦) عن زيد بن أرقم، ورجاله ثقات رجال الشيخين غير كثير بن الصلت، فقد روى له النسائي وهو ثقة (محققوه) وهو في «مسند الطيالسي» برقم (٥٤٠) والنسائي في «السنن الكبرى» (٧١٥٠) ورقمه في ط الرسالة (٧١٠٨، ٧١٠٩، ٧١١٢) وابن حبان (٤٤٢٨) «الإحسان» (١٣٣٦٣) وعبد الرزاق (٥٩٩٠) و«المستدرک» (٣٥٩/٤) كلهم عن عاصم عن زُرِّ بن حُبَيْش، وصححه الحاكم.

(٢) انظر كلام الشيخ محمد الصادق عرجون، في كتابه (محمد رسول الله) (١١٩/٤) وكلام البخاري في صحيحه في تحقيق الحديث (٦٨٢٩) من المسند، وابن حجر في الفتح (١٤٣/١٢) وانظر كلامنا في أول سورة النور.

ومن سورة الأحزاب ما نُسخ حكمه وتلاوته معاً .

وافتقد زيد بن ثابت ؓ آية ﴿مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ﴾ [٢٣].

وهو يُنسخ مصحف عثمان ؓ، والآية محفوظة في صدره وصدر كثير من الصحابة ؓ، ولكنه لم يجدها مكتوبة إلا عند خزيمة بن ثابت الأنصاري .

وكان لابد من وجود الآية مكتوبة عند اثنين على الأقل من الصحابة، فجعل النبي ﷺ شهادته بشهادة رجلين .

كما افتقد زيد ؓ الآيتين الأخيرتين من سورة (التوبة)، فوجدهما عند أبي خزيمة بن أوس .

عن ابن عباس ؓ أن عمر ؓ قام فحمد الله، وأثنى عليه، ثم قال: أما بعد: أيها الناس، إن الله بعث محمداً ﷺ بالحق، وأنزل عليه الكتاب، فكان مما أنزل عليه، آية الرجم، فقرأناها وعقلناها ووعيناها: (الشيخ والشيخة إذا زنيا فارجموهما البتة) ورجم رسول الله ﷺ ورجمنا بعده، فأخشى أن يطول بالناس زمان أن يقول قائل: لا نجد آية الرجم في كتاب الله، فيضلوا بترك فريضة أنزلها الله^(١).

والأحاديث تشير إلى أن سورة الأحزاب كان فيها قرآن، ثم نسخ لفظه وحكمه .

ويمكن تقسيم السورة إلى خمسة مقاطع:

المقطع الأول: يأمر الله تعالى فيه الأمة في شخص نبيها ﷺ بطاعة الله وحده، واتباع أمره والتوكل عليه، وتنهاء عن طاعة الكافرين والمنافقين، وفيه إبطال لما كان عليه الناس قبل الإسلام فيما يتعلق بالظهار والتبني، وفيه تقرير أن النبي ﷺ هو الوالد الروحي للأمة، وهو أحرص الناس على هداها، ورمز الإسلام الذي أخرجهم من الظلمات إلى النور .

وهو ﷺ أولى بهم من أنفسهم ﴿الَّتِي أَوْلَىٰ بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ﴾ وكان النبي ﷺ لا يصلي على الميت الذي يتحمل ديناً عليه، فلما نزلت هذه الآية، وفتح الله على رسوله ﷺ بالغنائم أخذ يتحمل ديون الناس، ويصلي على المؤمنين، ويواسي الفقراء، ويكفل

(١) الإمام مالك في الموطأ (٨٢٣/٢) ورقمه في رواية أبي مصعب عن أبي بن كعب (١٧٦٦) بنحوه ويُنظر: البخاري (٦٨٣٠) ومسلم (١٦٩١).

اليتامى...، وكما اعتُبر النبي ﷺ أبا للمؤمنين، فإن زوجاته أمهات لهم في البرِّ والحُرمة وعدم الزواج بهن.

وفي هذا المقطع إبطال التوارث عن طريق المؤاخاة، وفيه ميثاق التوحيد الذي أخذه الله تعالى على الخلق، وعلى رأسهم أولو العزم من الرسل، وقد جاءت هذه الأحكام في الآيات الثماني الأولى من السورة.

المقطع الثاني: يبدأ من الآية التاسعة إلى الآية السابعة والعشرين، وهو في وصف ردِّ كيد الأحزاب المهاجمين ودفع جيوشهم، وفيه وصف لحال المؤمنين الصادقين، والمنافقين الذين في قلوبهم مرض، وهو وصف يكشف عن القيم الصحيحة والزائفة.

المقطع الثالث: يتناول الحديث عن زوجات النبي ﷺ، وتخيره لهن بين الصبر على شظف العيش، أو التسريح بإحسان، والأمر لهن بعدم الخروج من بيوتهن إلا لحاجة مشروعة، وعدم اللين في مخاطبة الرجال، وعدم التبرج، فإنهن في موضع القدوة لغيرهن من سائر النساء، وقد ساوى الله تعالى بين الرجال والنساء في الثواب والعمل، وقد تناول هذا المقطع زواج النبي ﷺ بزَيْنَب بنت جَحْش ؓ؛ لإبطال ما كان يترتب على قاعدة التبني التي أبطلها الإسلام.

وأعقب ذلك بعض الأحكام المتعلقة بالزواج، وتنظيم الحياة الزوجية للنبي ﷺ، ومن ثم إلى تشريع الحجاب، وبيان محارم النساء.

ويُختم هذا السياق بأمر النساء جميعاً بالتستر والاحتشام عن طريق الثياب الواسعة السمكة غير اللافتة للنظر؛ حتى لا تشيع الفاحشة بين الناس، ولا يتعرضن للأذى، وحتى تُصان أعراض المسلمين، وتقطع ألسنة المرجفين. وقد استغرق هذا المقطع معظم السورة من الآية الثامنة والعشرين إلى الآية الثانية والستين.

المقطع الرابع: يتناول الحديث عن القيامة، وما يتبع ذلك من سلوك الطريق القويم، وعدم التقليد واتباع أهل الضلال، وحمل الأمانة التي عجزت عن حملها السموات والأرض والجبال، وذلك في الإحدى عشرة آية التي انتهت بها السورة.

تلخيص أغراض السورة في ثلاث نقاط:

أولاً: الأحكام التشريعية: كأحكام الطَّهَّار والطلاق والتَّبَنِّي وما يترتب عليه من تشريع، وقصْر الإرث على الأقارب، وتعدد الزوجات، والحجاب الشرعي، والصلاة على الرسول ﷺ وما يتعلق بشؤون الدعوة.

ثانياً: الحديث عن غزوتي: الأحزاب وبني قريظة، وكشف خفايا المنافقين.

ثالثاً: التوجيهات والآداب الاجتماعية: كآداب الوليمة، والستر، وعدم التبرج، وآداب احترام الرسول ﷺ وزوجاته، ورضى الناس بما رزقهم الله تعالى، وحمل الأمانة، وغير ذلك.

خمسـة نداءات للنبي ﷺ:

وقد تضمنت السورة خمسـة نداءات للنبي ﷺ بصفته هادي الأمة، وقائدها لتنفيذ ما يُطلب في كل نداء مما يخصه، أو يخص الأمة:

النداء الأول: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ اتَّقِ اللَّهَ﴾

وهو بغرض تحديد واجبات الرسالة ووجوب الانتماء إلى الله وحده، وعدم الركون لغير المسلمين وفي هذه الآية، والآيتين بعدها ثلاثة توجيهات للنبي ﷺ، تحمل نهياً وثلاثة أوامر، كلها زيادةً تثبت للنبي ﷺ، كما تقول للمتفوق: دُم على هذا التفوق، ولا تتراخ، فالنبي ﷺ لم يُفَرِّط في تقوى الله تعالى، ولم يهادن أهل الكفر والنفاق، ولم يتبع غير الوحي المنزل، ولم يتوكل على غير الله سبحانه، والخطاب في كل ذلك يراد به الأمة.

النداء الثاني: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لِأَزْوَاجِكَ﴾ [٢٨]

وهو بغرض التنويه بمقام أزواجه ﷺ فيبُتُّ النبوة بيتٌ يكفي بأيسر الزاد، ولا مكان فيه للشهوات والملذات، وهو غير بيت الملوك.

وقد كان النبي ﷺ خارجاً عن سلطان بطنه، ولا مجال في حياته للاستكثار من أطايب الطعام والشراب واللباس، لكن زوجاته ﷺ جئن من بيوت ثراء وسيادة، أُلْفُنَ فيها رغد العيش، ولذا فسرعان ما اجتمعن ضده ﷺ يطلبن نفقة أوسع، ومتاعاً أرغد، فجاء الوحي يصادر هذا كله! وقد خيَّرهنَّ الله تعالى بين الطلاق، أو الرضى بمعيشة الكفاف، فاخترن الله ورسوله.

وقد اختارت أمهات المؤمنين عيش الكفاف على ترك بيوت النبوة، واستحققن شرف الصحبة الكريمة.

النداء الثالث ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَهِيدًا﴾ [٤٥].

وهو بغرض شؤون الرسالة في معاملة الناس؛ ومخاطبة الناس كافة إلى قيام الساعة.

فلا يوجد قبل محمد ﷺ نبوة عامة للبشر كلهم، وكان كل نبي يُرسل إلى قومه خاصة.

أما الشمس التي طلعت على الكون كله، فهي شمس النبوة الخاتمة.

وإذا كان محمد ﷺ شاهداً على أمته، فإن أمته شاهدة على الناس أجمعين بهذا الكتاب المبين.

النداء الرابع ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَعْلَلْنَا لَكَ أَزْوَاجَكَ﴾ [٥٠].

وهو بغرض سيرته ﷺ مع زوجاته، فليست كل امرأة تصلح لعظيم، وهناك طبقات معينة، اختار الله منها أمهات المؤمنين، فكنَّ مؤمنات قانتات ثابتات عابدات.

وقد جاء الإسلام فوجد الرجال لا يقفون عند حد في تعدد الزوجات، فحدده الإسلام بأربع.

وقد أسلم رجل وعنده عشر زوجات، فأمره النبي ﷺ بإمساك أربع، وتسريح الباقيات.

والنبي ﷺ لم يطبق ذلك العدد المحدد بأربع على نفسه بأمر ربه؛ وذلك لأن نساء النبي ﷺ قد اخترنه على أهلهن، وآثرن البقاء معه على شظف العيش، فلا يسوغ ترك إحداهن، وزواجهن بغير النبي ﷺ مستحيل؛ لأن الله تعالى حرمهنَّ على الأمة، ولو عاد بعضهن إلى أهلهن لأجبروهنَّ على الكفر، فالحلُّ هو البقاء في عصمته ﷺ، وكان بينهن عجائز، ثم قال له ربه: ﴿لَا يَحِلُّ لَكَ النِّسَاءُ مِنْ بَعْدِ﴾ [٥٢].

وقد تزوج النبي ﷺ زوجاته جميعاً بعد موت خديجة رضي الله عنها، وتم ذلك خلال سبع سنوات فحسب، أي: في الفترة من سن ٥٣ إلى ٦٠ من عمره الشريف، وهي فترة الأسفار والغزوات، وبعد أن ولَّى الشباب، وكثرت الأشغال، ولم يُنجب ﷺ منهن جميعاً، ولم يتزوج النبي ﷺ في السنوات الثلاث من آخر عمره ﷺ.

وليس للحضارة المعاصرة أن تخوض في شأن تحديد عدد الزوجات بأربع، باستثناء ما

خصَّ الله به رسوله ﷺ بأكثر من ذلك لصالح نشر الدعوة، وتآلف القلوب المختلفة، دون معرفة الحال التي كان عليها الناس قبل الإسلام، ودراسة الحكمة من تعدد زوجات النبي ﷺ، على أن الصعلوك من أبناء الحضارة المعاصرة ينال أكثر من ذلك العدد سفايحاً لا نكاحاً!

النداء الخامس: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لِّأَزْوَاجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَاءِ الْمُؤْمِنِينَ يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِنْ جَلِيبِهِنَّ﴾ [٥٩].

هذا النداء بغرض تبليغ آداب التستر لجميع المؤمنات، وعدم التسكع في الطرقات أو الأسواق أو النوادي؛ لأن الرجال يطمعون في المرأة المبتذلة!

والحق أن المرأة المتبرجة المبتذلة لسان حالها يدعو الرجال للتعرض لها، والمرأة المحتشمة الجادة، تصون نفسها عن الطامعين فيها.

سته نداءات للمؤمنين:

ومع هذه النداءات الخمسة التي وُجِّهت للنبي ﷺ، فإن في السورة ستة نداءات أخرى وُجِّهت للمؤمنين:

النداء الأول: يتناول الموقف شديد الحرج، عند هجوم الأحزاب على المدينة، حين جاؤوا من فوق المسلمين ومن أسفل منهم، وقد زاغت الأبصار وبلغت القلوب الحناجر:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَاءَكُمْ جُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَخُودًا لَّمْ تَرَوْهَا﴾ الآية [٩].

فلم يفقد المؤمنون رباطهم، وأحكموا الدفاع عن المدينة، وهبت رياح النكبة، فأطارت الخيام، وأكفأت القدور فقرروا الرحيل، واكتفوا من الغنيمة بالإياب، وردَّ الله غيظهم في نحورهم، وكفى المؤمنين القتال.

النداء الثاني: للمؤمنين الذين يذكرون الله تعالى، ويسبحونه في صباحهم ومساءهم، ويصلُّون على رسوله ﷺ ويسلمون، ولا يؤذون الله ورسوله والمؤمنون:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَذْكُرُوا اللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا﴾.

فإن هذه الرسالة تقوم على الانتماء إلى الله تعالى، وإعلاء شعائر دينه، واليقين بلقائه، فإذا نسي المسلمون ربهم، ولم يستعدوا للقاءه، كانوا أهلاً لأن يطأهم الأعداء بأقدامهم!

النداء الثالث: في حكم فقهي يتعلق بطلاق المرأة قبل الدخول بها، فلها حق الزواج

بآخر، دون أن تعتد ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نَكَحْتُمُ الْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ طَلَقْتُمُوهُنَّ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَمْسُوهُنَّ فَمَا لَكُمْ عَلَيْهِنَّ مِنْ عِدَةٍ تَعُدُّوهنَّ﴾ الآية: [٤٩].

والإسلام يوجب الالتزام بأصول الطاعات وفروعها، وتطبيق أحكامه قلباً وقالباً.

النداء الرابع: في آداب الوليمة، وأن الدخول لها يكون بإذن، بعد إعداد الطعام، والخروج يكون بعد تناول الطعام:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتَ النَّبِيِّ إِلَّا أَنْ يُؤْذَنَ لَكُمْ﴾ [الآية: ٥٣].

ويلزم لذلك تنظيم وقت الزيارة وتحديدها، واحترام أوقات الناس، وعدم تضييعها سدى، والالتزام بآداب الشرع في الاستئذان، وعدم إحراج أهل البيت وعدم تتبع عوراتهم، ومن دُعي فليجب، ومن لم يُدع فليحتجب، وشرّ اللوائم يُدعى لها الأغنياء دون الفقراء.

النداء الخامس: يحمي أعراض الأنبياء وسيرتهم من تطاول الرعاع عليهم:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ ءَادُوا مُوسَىٰ فَبَرَّاهُ اللَّهُ مِمَّا قَالُوا﴾ [الآية: ٦٩].

النداء السادس للمؤمنين في السورة: يأمرهم بالتقوى والصدق:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا﴾.

وقد حُتمت السورة بخلاصة وجيزة لأعمال البشر، تتعلق بحمل أمانة التكليف الذي يُميز الأخيار من الأشرار^(١).



(١) استفدت في هذه النداءات من كتاب «نحو تفسير موضوعي لسور القرآن الكريم». للشيخ محمد الغزالي.

تَفْسِيرُ السُّورَةِ

أَمْرٌ وَاحِدٌ وَثَلَاثَةُ نَوَاهٍ

١- ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ اتَّقِ اللَّهَ وَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ۝﴾

افتتحت سورة (الأحزاب) بنداء سيد الخلق ﷺ بوصف النبوة على سبيل التشريف والتعظيم. ونداءات الرسول ﷺ من رب العزة له في القرآن، تكون بوصف النبوة والرسالة. ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ﴾ ﴿يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ﴾. وهكذا.

وكذلك الإخبار عنه ﷺ يأتي بوصف النبوة مثل: ﴿يَوْمَ لَا يُخْزِي اللَّهُ النَّبِيَّ﴾ [التحريم: ١٨]. ﴿إِنَّ أَوَّلَى النَّاسِ بِإِبْرَاهِيمَ لَلَّذِينَ اتَّبَعُوهُ وَهَذَا النَّبِيُّ﴾ [آل عمران: ٦٨]. وبوصف الرسول مثل: ﴿قُلِ الْأَنْفَالُ لِلَّهِ وَالرَّسُولِ﴾ [الأنفال: ١].

ويأتي أيضًا باسمه العلم مثل: ﴿مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ﴾ [الفتح: ٢٩].

﴿مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ﴾ [٤٠]. تعليمًا للناس وتلقينًا لهم.

وفي الحديث: عن جبير بن مطعم، عنه ﷺ قال: «إن لي خمسة أسماء: أنا محمد، وأنا أحمد، وأنا الماحي الذي يمحو الله بي الكفر، وأنا الحاشر الذي يحشر الناس على قدمي، وأنا العاقب»^(١).

وهذا هو النداء الأول للرسول ﷺ في هذه السورة من نداءات خمسة، بغرض تبليغ رسالته ﷺ للناس كافة على أكمل وجه؛ حتى لا يُفسد عليه أعداء الإسلام ما أمر بتبليغه، على حدّ قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَإِنْ لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَغْتَ رِسَالَتَهُ وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ﴾ [المائدة: ٦٧].

وقد وجّه الله تعالى رسوله ﷺ في الآية الأولى من هذه السورة بتوجيهين:

التَّوَجُّهُ الْأَوَّلُ: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ اتَّقِ اللَّهَ﴾.

وفيه الأمر بتقوى الله تعالى، أي: بالثبات عليها وذلك أنه إذا أمر الإنسان بشيء وهو

(١) عن جبير بن مطعم في البخاري برقم (٣٥٣٢، ٤٨٩٦، ٤٨٩٨) و«صحيح مسلم» (٢٣٥٤).

متلبس به، فمعناه: طلب الاستمرار عليه، أي: دُم واثبت على تقوى الله سبحانه، بالعمل بأمره واجتناب محارمه، وليقتدي بك المؤمنون، فإن تقوى الله تعالى رأس الفضائل، وهذا تنبيه بالأعلى على الأدنى.

قال طلق بن حبيب: التقوى أن تعمل بطاعة الله، على نور من الله، ترجو ثواب الله، وأن تترك معصية الله، على نور من الله، مخافة عذاب الله.

والتقوى أن تجعل بينك وبين عذاب الله وقاية، بامثال أمره واجتناب نهيه.

والنبي ﷺ لم يفرط في تقوى الله تعالى في يوم من الأيام، والأمر الموجه له في ذلك لزيادة الثبات عليها، ولتقتدي الأمة به ﷺ.

فيا مَنْ مَنَّ الله عليه بالنبوة واختصه بالوحي، وفضله على سائر خلقه، اشكرنعمه ربك عليك، ودُم على تقواه بامثال أمره واجتناب نهيه، وبلغ رسالة ربك، وابذل النصيحة لخلق الله أجمعين.

التَّوَجِيهُ الثَّانِي: ﴿وَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ﴾.

وهذا يعني عدم طاعة الكافرين والمنافقين، أو مهادنتهم، أو اتخاذهم أولياء وأنصارًا، أو الاستماع إلى آرائهم واقتراحاتهم، أو ائتمانهم على أسرار الدولة، وأسرار المسلمين، فلا يصدّك عن دعوة ربك، كافر مظهر عداوته، ولا منافق يعلن خلاف ما يبطن، ولا تتبع أهواءهم فيضلوك عن الصواب: والنبي ﷺ لم يهادن الكفر ولا النفاق يومًا، ولكن الله تعالى أمره بذلك لطلب الثبات على عدم طاعتهم، ولتأسى به الأمة.

﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا﴾ بكل شيء مما ظهر وما بطن ﴿حَكِيمًا﴾ في تدبير شؤون خلقه، وفي أمره ونهيه، فلا تهتم -أيها الرسول- بما هم عليه من ضلال وكُفر، ولا عليك منهم، والله تعالى حقيق بالطاعة له دون الكافرين والمنافقين؛ لأنه عليم حكيم، فلا يأمر إلا بما فيه الإصلاح.

جاء في أسباب النزول أن أبا سفيان ونفراً من مشركي مكة، منهم عكرمة وعمر بن سفيان، قدموا على النبي ﷺ في المدينة بعد غزوة أحد، فأذن لهم بالنزول على رأس المنافقين -عبد الله بن أبي بن سلول- ثم ذهبوا إلى النبي ﷺ ومعهم معتب بن قشير،

والجدُّ بن قيس، وطُعْمة بن أبيرق، وكان عنده عمر بن الخطاب، فقام إلى الرسول ﷺ: عبد الله بن أبي سرح، وطُعْمة بن أبيرق، وقالوا له: اذكر آلهتنا: اللات والعزى ومناة، وقل: إن لها شفاعة لمن عبدها، وندعك وربك، فغضب المسلمون، وهمَّ عمر بقتل نفر القرشيين، فمنعه النبي ﷺ؛ لأنه أعطاهم الأمان، وأمرهم أن يخرجوا من المدينة، فنزلت هذه الآية^(١).

أي: اتق الله -أيها النبي- في حفظ الأمان لمن اتّمتك، ولا تطع الكافرين وكان منهم في وقت التنزيل نفر القرشيين، المذكورون في سبب النزول، ولا تطع المنافقين، وكان منهم في عصر التنزيل عبد الله بن أبيي، ومن معه.

والخطاب يعم كل داعية إلى الله عز وجل إلى قيام الساعة.

التَّوْحِيهِ الثَّلَاثُ فِي النِّدَاءِ الْأَوَّلِ لِلنَّبِيِّ ﷺ

٢- ﴿وَاتَّبِعْ مَا يُوحَىٰ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ إِنَّكَ أَنتَ اللَّهُ كَانِ يَمَّا تَعْمَلُونَ﴾^(٢) خَيْرًا ﴿٢﴾

﴿وَاتَّبِعْ﴾ يا رسولنا ﴿مَا يُوحَىٰ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ﴾ من قرآن وسُنَّة، فإن فيهما الهدى والرحمة، والإنقاذ من الضلال إلى الهدى، واعمل بما في الشرع القويم، والدين الحكيم، مع أن النبي ﷺ لم يتبع غير الوحي المنزل عليه، فهو الذي تولاه بالتربية والرعاية.

وفي هذا إشارة إلى ما سينزل عليه ﷺ من الوحي في شأن التنبئ وغيره ﴿إِنَّكَ أَنتَ اللَّهُ كَانِ يَمَّا تَعْمَلُونَ خَيْرًا﴾ أي: مُطَّلَع على كل ما تعملون وتقولون، لا يخفى عليه شيء منه، محيط بحركات النفوس وخفايا القلوب، وسيجازيكم يوم القيامة على ما قدمته أيديكم من خير أو شر.

(١) يُنْظَرُ: «أسباب النزول» للواحدي ص ٢٩٢، قال ابن حجر في «تخريج أحاديث الكشاف» (١٣٢): ذكره بغير سند، وذكره الثعلبي والماوردي والقشيري وغيرهم.

(٢) قرأ أبو عمرو بياء الغيبة في (بما تعملون) جرياً على نسق الكلام، والباقون بباء الخطاب على الالتفات في هذه الآية ومثلها الآية التاسعة.

التَّوَجِيهُ الرَّابِعُ: ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلًا﴾

أي اعتمد -أيها الرسول - على ربك في جميع شؤونك، وفوض أمرك إليه، وحسبك بالله حفيظاً لمن توكل عليه وأتاب إليه، وبعد ذلك لا تهتم بأمر الكافرين والمنافقين، سواء أكانوا معك أم كانوا عليك، وردَّ الأمر إلى الله تعالى في ثقة وطمأنينة، ولا يهمنك كيدهم ولا مكرهم، وكفى بالله وكيلاً تعتمد عليه في كل خطب وكرب، فيُسِر لك كل عسير، ويُسهل لك كل صعب، ويدفع عنك كل شر، ويُزيل عنك كل مكروه.

وهذه العناصر الأربعة، وهي: تقوى الله تعالى، وعدم طاعة المخالفين، واتباع وحي الله سبحانه، والتوكل عليه، هي رصيد الداعية، ومنهج الدعوة.

إِبْطَالُ ثَلَاثٍ مِنْ عَادَاتِ الْجَاهِلِيَّةِ

٤- ﴿مَا جَعَلَ اللَّهُ لِرَجُلٍ مِّن قَلْبَيْنِ فِي جَوْفِهِ وَمَا جَعَلَ أَزْوَاجَكُمُ اللَّائِي تُظَاهِرُونَ^(١) مِنْهُنَّ أُمَّهَاتِكُمْ وَمَا جَعَلَ أَدْعِيَاءَكُمْ أَبْنَاءَكُمْ ذَلِكَ كُمُ قَوْلُكُمْ بِأَفْوَاهِكُمْ وَاللَّهُ يَقُولُ الْحَقَّ وَهُوَ يَهْدِي السَّبِيلَ﴾
وبعد هذه المقدمة للسورة، يأتي ذكر بعض العادات التي كانت متفشية في الجاهلية، وهي لا تتناسب مع شريعة الإسلام، فأبطلها، وذكر منها في هذه الآية ثلاثة أشياء:

العادة الأولى: الزعم بأن يكون للرجل قلبان، وقد جاء ذلك في قوله تعالى: ﴿مَا جَعَلَ اللَّهُ لِرَجُلٍ مِّن قَلْبَيْنِ فِي جَوْفِهِ﴾ أي: ما خلق الله لأحد من البشر، قلبين في صدره.
فإن قلتم: إن فلاناً له قلبين، تكونوا قد كذبتهم على الخلقة الإلهية.

وهذه الفقرة من الآية تُشير إلى أكذوبة، كانت في الجاهلية، حيث كانوا يزعمون أن

(١) قرأ البزي وأبو عمرو بتسهيل همزة (اللائي) مع المد والقصر، وحذف الياء، ولهما إبدال الهمزة ياء ساكنة مع المد المشيع، وقرأ ورش وأبو جعفر بهمزة مكسورة مسهلة مع المد والقصر بدون ياء وصلًا، وقرأ قالون وقنبل ويعقوب بهمزة مكسورة محققة بدون ياء وصلًا ووقفًا، وقرأ ابن عامر والكوفيون بهمزة مكسورة بعدها ياء ساكنة مدية وصلًا ووقفًا.

(٢) قرأ نافع وابن كثير وأبو عمرو وأبو جعفر ويعقوب (تُظَاهِرُونَ) وقرأ ابن عامر (تُظَاهِرُونَ) وقرأ عاصم (تُظَاهِرُونَ)، وقرأ الباقر وهم حمزة والكسائي وخلف بفتح التاء وعدم تشديد الظاء وأنف بعدها، (تُظَاهِرُونَ).

(جميل بن مَعْمَر الفهري) له قلبان، أي: عقلان يعملان في وقت واحد، فكان لشدة كفره يقول: إن في جوفي قلبيين، أعْقِلُ بكل واحد منهما، أَفْضَلُ من عقل محمد^(١) فسمّوه ذا القلبيين.

وكان -جميل - واعياً حافظاً لما يسمع، فلما هُزِمَ المشركون يوم بدر رآه أبو سفيان وهو معلقٌ إحدى نعليه في يده، والأخرى في رجله -من شدة الذعر والهلع- فسأله أبو سفيان: ما حال الناس؟ قال: انهزموا، فقال له: فما بال إحدى نعليك في يدك؟ قال: ما شعرتُ، فعرفوا أنه لو كان له قلبان لما نسي نعله في يده.

وأيضاً فإن (عبد الله بن خطل التيمي) كانوا يسمونه ذا القلبيين، وكان اسمه في الجاهلية عبد العزى، فلما أسلم، سماه الرسول ﷺ عبد الله، ثم كفر، وقُتِلَ صبراً يوم فتح مكة، وهو الذي تعلّق بأستار الكعبة، ولم يَعْفُ عنه النبي ﷺ.

فنفث الآية نفياً عاماً، أن يكون لأحد من الناس قلبان، لا جميل بن مَعْمَر، ولا ابن خطل، ولا غيرهما.

العادة الثانية: أن الزوجة لا تكون أماً بمقتضى الظهار، كما جاء ذلك في هذه الآية، وَبَيَّنَتْ أنه من عادات الجاهلية في قوله تعالى: ﴿وَمَا جَعَلَ أَزْوَاجَكُمْ الَّتِي تَظَاهِرُونَ مِنْهُنَّ أُمَّهَاتِكُمْ﴾ أي: إنَّ الله تعالى لم يجعل المرأة الواحدة زوجاً للرجل، وأماً له في وقت واحد، فالزوجية والأمومة لا يجتمعان في امرأة واحدة.

وصورة الظهار أن يقول الرجل لامرأته: أنتِ عليّ كظهر أمي.

وقد جاء الكلام عن الظهار وحكمه وكفارته في سورة (المجادلة) التي نزلت قبل سورة (الأحزاب)، وكان الظهار يعدُّ طلاقاً في الجاهلية، فسماه الإسلام ظهاراً، وشرع له كفارة، وبَيَّنَ أن الزوجة لا تكون أماً بهذا القول، ولا تحرُّم على زوجها كحرمة الأمهات، بل هو منكر من القول وزور، وهذا تمهيد لتشريع إبطال التبني.

قال تعالى: ﴿إِنْ أُمَّهَاتُهُمْ إِلَّا الَّتِي وَلَدْنَهُمْ وَإِنَّهُمْ لَيَقُولُونَ مُنْكَرًا مِنَ الْقَوْلِ وَزُورًا﴾ [المجادلة:

(١) قاله مجاهد كما في تفسير الطبري (٨/١٩) وغيره، وقاله السُّدِّي كما في تفسير عبد الرزاق (٢/١١١).

٢٠. فلا يقل أحدكم لزوجته (أنت عليّ كظهر أمي، أو كأمي) فإن أمك من ولدتك، وهي أعظم الناس حرمة عليك، وزوجتك أحل الناس لك، فكيف تشبه أحد المتناقضين بالآخر؟

العادة الثالثة: إبطال التبني وآثاره، كما ذكرته هذه الآية ﴿وَمَا جَعَلَ أَدْعِيَاءَكُمْ أَبْنَاءَكُمْ﴾ أي: وما جعل الله الأبناء الذين تتبنونهم، وليسوا من أصلابكم، ما جعلهم الله لكم أبناء في الشرع على الحقيقة، فإن أبناءكم من ولدتموهم وكانوا منكم، أما هؤلاء فهم أَدْعِيَاء، والدَّعِيّ: هو الولد الذي يدعيه الرجل، أو يدعى إليه بسبب تبنيّه، وقد أراد الإسلام أن يبطل هذه العادة، فقدّم لها بيان قبحها.

فالتبني كالظهار في التحريم الأبدي، فلا تكون الزوجة المظاهر منها كالأم في الحرمة، ولا يثبت النسب بالتبني من قول الشخص للدَّعِيّ: هذا ابني، فهو كلام بالضم لا يُعتدُّ به، وليس له أصل ﴿ذَلِكَمُ قَوْلُكُمْ﴾ الذي تقولونه بأن فلان ابن فلان الذي ادّعاه، قول باطل لا حقيقة له، تقولونه ﴿بِأَفْوَاهِكُمْ وَاللَّهُ﴾ سبحانه ﴿يَقُولُ الْحَقَّ﴾ اليقين والصدق ﴿وَهُوَ يَهْدِي السَّبِيلَ﴾ أي: يبيّن لعباده طريق الرشاد، ويهديهم سواء السبيل، فقلوه حق، وشرعه حق، وهذا كقوله تعالى: ﴿مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَكِن رَّسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ﴾ [الآية ٤٠]. وفي الآية التالية أمر بترك القول الباطل ونسبة الأبناء إلى آبائهم الحقيقيين.

لَا يُنْسَبُ الْمُتَّبَنَى لِمَن تَبَنَاهُ وَلَا يَحْمِلُ اسْمَهُ

٥- ﴿أَدْعُوهُمْ لِأَبَائِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِنْدَ اللَّهِ فَإِن لَّمْ تَعْلَمُوا آبَاءَهُمْ فَاِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ وَمَوَالِيكُمْ وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ فِيمَا أَخْطَأْتُم بِهِ وَلَكِن مَّا تَعَمَّدَتْ قُلُوبُكُمْ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ بهذه الآية شرع سبحانه في إبطال التبني، وقد كان يترتب عليه في الجاهلية: أن المتبني يُنسب إلى من تبناه، ويأخذ حق الابن تمامًا، فيرثه إذا مات، ولا يتزوج ابنة من تبناه، ويُعدُّ ابنًا لامرأته، وأخًا لذريته، فأبطل الإسلام هذا كله بقوله تعالى: ﴿أَدْعُوهُمْ لِأَبَائِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِنْدَ اللَّهِ﴾ أي: انسبوا أَدْعِيَاءكم لأبائهم الحقيقيين، هو أعدل وأقوم وأهدى عند الله تعالى، وأشرف للآباء والأبناء.

وفي الآية نهي عن أن يُنسب الولد لغير أبيه، كما في الأثر: «من انتسب إلى غير أبيه، فعليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين، لا يقبل الله منه صرفًا ولا عدلاً».

ولعل المراد: تعمّد الانتساب إلى غير الأب.

﴿فَإِنْ لَّمْ تَعْلَمُوا آبَاءَهُمْ فَاِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ وَمَوَالِيكُمْ﴾ أي: فإذا لم تعرفوا آباءهم الأصليين لتنسبوا إليهم، فهم إخوة لكم في الدين والعقيدة، وليس عدم معرفة الآباء عذرًا لكم في أن تدعوهم إلى من تنبأهم، لأن المحذور لا يزول.

وهم مواليككم، أي: أولياؤكم في الدين، فليقل أحدكم: يا أخي، يا مولاي، أي: يا أخي في الدين، ويا مولاي في الدين، فادعواهم بالأخوة الإيمانية، والموالاتة في الله، واتركوا دعوتهم إلى من تنبأهم.

ولهذا قال ﷺ لزيد بن حارثة كما في حديث البراء: «أنت أخونا ومولانا»^(١).

وقال ﷺ في حديث عبد الله بن عمر ؓ: «ما زلنا ندعوه إلا زيد ابن محمد حتى نزل القرآن» وفي لفظ: «أنت زيد بن حارثة بن شراحيل»^(٢) بعد أن كان يقال له: زيد بن محمد.

وفي لفظ آخر قال ابن عمر ؓ: ما كنا ندعو زيد بن حارثة، إلا زيد بن محمد حتى نزلت: ﴿ادْعُوهُمْ لِأَبَائِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِنْدَ اللَّهِ﴾ فقال الناس: زيد بن حارثة، وسالم مولى أبي حذيفة، وكان يقال له: سالم بن أبي حذيفة، وغير ذلك.

وفي حديث عائشة ؓ: أن أبا حذيفة وكان ممن شهد بدرًا مع رسول الله ﷺ تبني سالمًا، وأنكحه بنت أخيه هند بنت الوليد بن عتبة، وهو مولى لامرأة من الأنصار، كما تبني رسول الله ﷺ زيدًا، وكان من تبني رجلاً في الجاهلية دعاه الناس إليه، وورث من ميراثه حتى أنزل الله: ﴿ادْعُوهُمْ لِأَبَائِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِنْدَ اللَّهِ﴾^(٣).

زاد في رواية: «فردُّوا إلى آبائهم، فمن لم يُعلم له أب كان مولى وأخًا في الدين»، فجاءت سهلة بنت سهيل بن عمرو إلى النبي ﷺ، فقالت: إن سالمًا كان يُدعى لأبي حذيفة، وإن الله قد أنزل في كتابه: ﴿ادْعُوهُمْ لِأَبَائِهِمْ﴾ وكان يدخل عليّ وأنا فُضِّلُ -

(١) من حديث البراء بن عازب في البخاري برقم (٢٦٩٩).

(٢) يُنظر: البخاري (٤٧٨٢) ومسلم (٢٤٢٥) وابن أبي شيبة (١٤٠/١٢) والترمذي (٣٢٠٩) وغيرهم.

(٣) ينتظر: «صحيح البخاري» برقم (٤٠٠٠) و«صحيح مسلم» برقم (١٤٥٣).

أي: يظهر منها أطرافها، مثل: الشعر، والوجه، واليد - ونحن في منزل ضيق، فقال النبي ﷺ: «أرضعي سالمًا تخرمي عليه»^(١).

وهذا أمر خاص بسالم، لا يقاس عليه غيره، كما في لفظ الحديث، نظرًا لأن سالمًا كان قد تربى في البيت بمنزلة الابن، ولا سبيل إلى إخراجه والتنكر له.

والمراد بالولاء في ﴿وَمَوْلَاكُمْ﴾ ولاء المحالفة، وليس ولاء العتق، فالمخالفة مثل الأخوة، كما قال تعالى: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾ [الحجرات: ١٠].

ولا إثم ولا حرج على الإنسان فيما وقع فيه من باب الخطأ دون أن يتعمد ذلك، كأن يسبق لسان أحدكم دعوته إلى من تبناه، أو ظن أنه أبوه، فنسبه إليه، وهو ليس بأبيه على الحقيقة، فالإنسان غير مؤاخذ في مثل هذا، قال تعالى ﴿وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ فِيمَا أَخْطَأْتُمْ بِهِ وَلَكِنْ مَا تَعَمَّدَتْ قُلُوبُكُمْ﴾ فهو الذي يؤاخذكم به ويحاسبكم على العمد دون الخطأ.

والخطأ في هذا المجال هو نسبة الولد لغير أبيه ظنًا أو نسيانًا بعد النهي عن ذلك.

﴿وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا﴾ واسع المغفرة لمن أخطأ ﴿رَجِيمًا﴾ أي: عظيم الرحمة بمن تاب من ذنبه، حيث لم يعاقبكم على ماسبق، ولم يؤاخذكم على الخطأ.

وفي الحديث: عن ابن عباس ؓ أن النبي ﷺ قال: «إن الله تجاوز لي عن أمتي الخطأ والنسيان وما استكرهوا عليه»^(٢) وبهذا تقرر إبطال حكم التبني.

ومن ذلك ما جرى على ألسنة الناس في شأن المقداد، فكانوا يقولون: المقداد بن الأسود نسبة للأسود، بن يغوث، الذي تبناه في الجاهلية، ولما نزلت هذه الآية قال: أنا المقداد بن عمرو:

(١) «مصنف عبد الرزاق» (١٠٣٣٢، ١٣٨٨٥، ١٣٨٨٧) وابن حبان (٤٢١٤، ٤٢١٥) قال محققه: إسناده صحيح على شرطهما، ويُنظر: «صحيح مسلم» برقم (١٤٥٣).

(٢) «صحيح سنن ابن ماجه» (١٦٦٤) بتصحیح الألباني، وكذا في المشكاة (٦٢٨٤) والروض النضير (٤٠٤) وإرواء الغليل (٨٢) وأخرجه ابن حبان (٧٢١٩) والحاكم (١٩٨/٢) والدارقطني (١٧٠/٤) والبيهقي في «السنن» (٣٥٦/٧) والطبراني في «الصغير» (٢٧٠/١).

- ١- وعن سعد بن أبي وقاص، وأبي بكرة رضي الله عنهما كلاهما قال: سمعته أذناي ووعاه قلبي، أن محمداً ﷺ قال: «من ادَّعى إلى غير أبيه، وهو يعلم أنه غير أبيه، فالجنة عليه حرام»^(١).
- ٢- وفي حديث أبي ذر رضي الله عنه: أنه سمع النبي ﷺ يقول: «ليس من رجل ادَّعى لغير أبيه - وهو يعلمه - إلا كفر، ومن ادَّعى قوماً ليس له فيهم نسب، فليتبوأ مقعده من النار»^(٢).
- ٣- وفي حديث وائلة بن الأسقع: أن رسول الله ﷺ قال: «إن أعظم الفري أن يدَّعي الرجل إلى غير أبيه، أو يُري عينه ما لم يره، أو يقول على رسول الله ﷺ ما لم يقل»^(٣).
- ومن أشهر من حدث لهم التَّبَنِّي في الجاهلية أربعة:

- ١- زيد بن حارثة، تبناه النبي ﷺ.
- ٢- عامر بن ربيعة، تبناه الخطاب، أبو عمر بن الخطاب رضي الله عنه.
- ٣- سالم، تبناه حذيفة رضي الله عنه.
- ٤- المقداد بن عمرو، تبناه الأسود بن عبد يغوث.

قصة تبني (زيد) وإبطال التبني:

أما زيد بن حارثة الذي نزلت فيه هذه الآية، فقد كان أبوه حارثة بن شراحيل الكلبي من قبيلة طيء، وكان قد تُوفِّي، وترك جبلة وزيدا، فبقيا في حجر جدهما، ثم جاء عمّاهما وطلبا من الجد كفالتهم، فأعطاهما جبلة، وبقي زيد عند جده، فأغارت على بلادهم خيل من تهامة فأخذت زيدا، وظل جده يبحث عنه، وأنشد أبياتا منها:

بَكَيْتُ عَلَى زَيْدٍ وَلَمْ أَذِرْ مَا فَعَلَ أَحْيِي فَيُرْجَى أَمْ أَتَى دُونَهُ الْأَجَلَ

ثم علم جده أن الذين أسروه باعوه بمكة، واشتراه (حكيم بن حزام بن خويلد) من سوق عكاظ، ثم أعطاه لعمته (خديجة بنت خويلد)، وتزوجها النبي ﷺ وهو عندها، ثم وهبته خديجة للنبي ﷺ، فأعتقه وتبناه، وكان هذا قبل البعثة.

(١) «صحيح مسلم» برقم (٦٣) و«صحيح البخاري» برقم (٤٣٢٦، ٤٣٢٧، ٦٧٦٦، ٦٧٦٧).

(٢) «صحيح البخاري» برقم (٣٥٠٨).

(٣) «صحيح البخاري» برقم (٣٥٠٩).

ثم إن زيدا قد خرج إلى الشام في إبل لأبي طالب، فمرَّ بأرض قومه، فتعرَّف عليه عمه، وجاء جده وعمه يريدان شراءه من النبي ﷺ، فقالا له: أنتم حرُّمُ الله وجيرانه وعند بيته، وإن ابني عبدك، فامنن علينا، وأحسن إلينا في فدائه، وسنعطيك ما أحببت من الفداء، فطلب النبي ﷺ أن يخيراه بين أن يذهب معهما، أو يبقى مع رسول الله ﷺ، فاختر البقاء مع النبي ﷺ، وعندئذ أشهد النبي ﷺ قريشاً أن زيدا ابنه، فكان يُدعى زيد بن محمد، وأخى النبي ﷺ بينه وبين حمزة بن عبد المطلب، فانصرف جدُّه وعمُّه ورجعا إلى الشام^(١) وزوجه النبي ﷺ زينب بنت جحش . ﷺ

ولما نزلت هذه الآية سماه النبي ﷺ زيد بن حارثة، وبطل هذا التبنِّي، وبطلت الآثار المترتبة عليه، ومنها أن المتبنِّي يتزوج زوجة المتبنِّي بعد طلاقها وانتهاء عدتها، وتزوج النبي ﷺ زينب بعد أن ساءت العشرة بينها وبين زيد وطلقها، وقُتل زيد في غزوة مؤتة بأرض الشام سنة ثمان من الهجرة، ﷺ وأرضاه.

والإسلام بهذا يحرص على إعطاء كل ذي حق حقه، فالطلاق الجاهلي -الذي سماه الإسلام ظهاراً- أبطله الإسلام؛ لأنه كان يجعل المرأة -المظاهر منها- محرَّمة على الرجل، وتبقى معلَّقة، لا هي مطلقة فتتزوج غيره، ولا هي زوجة لمن ظاهر منها، فجعل الإسلام لهذه الحالة مخرجاً بمشروعية الكفارة وعودتها إليه.

وكان التبنِّي فيه خلط للأنساب، وعلاقة غير مشروعة، فأبطله الإسلام، وحذَّر من دعوى الابن لغير أبيه تحذيراً شديداً.

ثَلَاثُ قَضَايَا شَرْعِيَّةٍ

٦- ﴿الَّتِي^(٢) أُولَىٰ بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنْفُسِهِمْ وَأَزْوَاجُهُمْ وَأُزْلُوا الْأَرْحَامَ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُهَاجِرِينَ إِلَّا أَنْ تَفْعَلُوا إِلَىٰ أَوْلِيَائِكُمْ مَعْرُوفًا كَانَ ذَلِكَ فِي

(١) يُنظر: الإصابة في تمييز الصحابة، دار هجر، (٨٢/٤) و (٤٢٣/٢) و«تفسير الخازن» للآية، ورواية ابن مردويه عن ابن عباس كما في «الدر المشور» (٧٢٢/١١) وفيها أن الذي قدم إلى مكة أبوه وعمه، وليس فيها ذكر لأخيه جيلة، وانظر ما جاء في تفسير الآية (٣٧). من هذه السورة.

(٢) قرأ نافع بالهمزة بدلاً من الياء في (النبي) فتجتمع همزتان مع (أُولَى) فتُبدل الأولى واواً خالصة، والباقون بياء مشددة.

الْكِتَابِ مَسْطُورًا ﴿٦﴾

ولما أبطل القرآن بنوة زيد بن حارثة، وبيّن أن محمداً ﷺ ليس أباً لأحد من الناس، أثار هذا سؤالاً في نفوس الناس عن مدى صلة المؤمنين بنبيهم، وهل هي كعلاقة الأجانب من المؤمنين بعضهم ببعض؟

لذلك: فإن الله تعالى يُعلّم المؤمنين حقوق نبيهم ومكانته وحرمة، وقد تناولت هذه الآية قضايا ثلاث:

القضية الأولى: أن النبي ﷺ مُقدّم على النفس: ﴿الَّذِي أُولَىٰ بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنْفُسِهِمْ﴾.

أي: أنه -ﷺ- أقرب للمؤمنين من أنفسهم في أمور الدنيا والدين، وهو -ﷺ- أولى بالمحبة والطاعة من محبة أنفسهم وطاعتها، فإذا دعاهم الرسول إلى أمر، ودعّتهم أنفسهم إلى خلافه، وجب عليهم أن يؤثروا ما دعاهم إليه الرسول ﷺ على ما دعّتهم إليه أنفسهم؛ لأنه -ﷺ- لا يأمرهم إلا بما فيه نفعهم في الدنيا والآخرة، أما أنفسهم فقد تدعوهم إلى ما يضرهم.

قال ابن عباس ؓ في معنى (إذا دعاهم النبي ﷺ ودعّتهم أنفسهم إلى شيء، كانت طاعة النبي ﷺ أولى بهم من طاعة أنفسهم)، وذلك لأن أنفسهم تدعوهم إلى الهلاك واتباع الهوى والشيطان، ورسول الله يدعوهم إلى ما فيه نجاتهم، فالرسول أولى بالمؤمنين من أنفسهم، لأنه بذل لهم من النصّح والشفقة والرحمة والرأفة ما كان به أرحم الخلق بهم، وأعظم منة عليهم، وقد جلب لهم كل خير، ودفع عنهم كل شر، وعلى هذا فلو تعارض مراد الرسول مع مراد النفس، قُدّم مراد الرسول ﷺ، ولا يعارض أحد قول الرسول ﷺ، وتُقدّم محبته على محبة الخلق كلهم، ويُقدى بالنفس والمال والولد.

وفي سبب النزول: أن النبي ﷺ كان إذا دعا الناس إلى الجهاد يقول قوم: نذهب نستأذن آبائنا وأمهاتنا، فنزلت هذه الآية؛ لتبيّن أنه لا استئذان مع أمر النبي ﷺ؛ لأنه أولى بكل مؤمن من نفسه، وأولى به من أبيه وأمه وابنه وأخيه؛ وذلك لأن ولاية النبي ﷺ على أمتة ولاية عامة، تشمل منهاج الحياة بحذاقها، وليس لهم أن يختاروا إلا ما اختاره لهم بوحى من ربه.

وهذه الولاية تتقدم على قرابة الدم، بل وتتقدم على النفس، وهي تشمل أحاسيسهم

ومشاعرهم، فيكون شخصه ﷺ أحب إليهم من أنفسهم، فلا يرغبون بأنفسهم عن نفسه، ولا يُقدِّمون شيئاً على ذاته.

ومحبة النبي ﷺ ليست كلمة تُقال، بل هي قول وفعل يرتقي بالعبد إلى أعلى الدرجات، وهذه أمثلة من شفقة الرسول ﷺ على أمته:

١- عن أبي هريرة ؓ أن رسول الله ﷺ قال: «إنما مثلي ومثل أمتي، كمثل رجل استوقد ناراً، فجعلت الدواب والفراس يقعن فيها، وأنا آخذ بِحُجَزِكُمْ فتقنحون فيه»^(١).

٢- وفي حديث جابر ؓ: أن النبي ﷺ قال: «مثلي ومثلكم كمثل رجل أوقد ناراً، فجعل الجنادب والفراس يقعن فيها، وهو يذُبُّهن عنها، وأنا آخذ بِحُجَزِكُمْ عن النار، وأنتم تتفلتون من يدي»^(٢).

فقد شبه النبي ﷺ المذنبين من أمته بالفراس الذي يرمي نفسه في النار، وهو ﷺ يُمسكُ بملابسهم ومَعْقِد الإزار منهم؛ ليمنعهم من الوقوع فيها، ولكنهم يحاولون الوقوع فيها المرة تلو المرة بارتكاب الذنوب والمعاصي.

والرسول ﷺ حريص أشد الحرص على أن يُعدهم عن النار، وهذا منتهى الشفقة على أمته، وإخلاص النصح لهم، فكان ما يختاره النبي ﷺ لهم مقدماً على ما يختارونه لأنفسهم، ولهذا وجب على المؤمنين أن يكون الرسول ﷺ أحب إليهم من أنفسهم، وحُكْمُهُ عليهم أنفذ من حكمهم على أنفسهم؛ لأن شفقتهم عليهم أكثر من شفقتهم على أنفسهم.

٣- ولهذا قال ﷺ في حديث أبي هريرة ؓ: «ما من مؤمن إلا وأنا أولى الناس به في الدنيا والآخرة، اقرؤوا إن شئتم ﴿الَّذِي أَوْلَىٰ بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنْفُسِهِمْ﴾ فأَيُّما مؤمن ترك ما لا فليُرْثُهُ عصبته، فإن ترك ديناً أو ضياعاً فيأتني فأنا مولاه»^(٣).

٤- وعن جابر ؓ أن النبي ﷺ كان يقول: «أنا أولى بكل مؤمن من نفسه، فأَيُّما رجل

(١) من حديث أبي هريرة في «صحيح مسلم» برقم (٢٢٨٤) والبخاري (٣٤٢٦، ٦٤٨٣).

(٢) «صحيح مسلم» برقم (٢٢٨٥).

(٣) من حديث أبي هريرة في «صحيح البخاري» برقم (٤٧٨١، ٢٣٩٩٩) والبخاري (٢٢١٤) و«المسند» (٢/

٣٣٤) برقم (٨٤١٨) حديث صحيح و«تفسير الطبري» (٧٧/٢١).

مات وترك دينًا فإليّ، ومن ترك مالا فلورثته»^(١).

٥- وفي صحيح مسلم، وغيره: عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ كان يؤتى بالرجل الميت، عليه الدّين، فيسأل: «هل ترك لدينه من قضاء؟» فإن حُدث أنه ترك وفاء، صلّى عليه، وإلا قال: «صلوا على صاحبكم» فلما فتح الله عليه الفتوح قال: «أنا أولى بالمؤمنين من أنفسهم، فمن تُوفّي وعليه دين فعليّ قضاؤه، ومن ترك مالا فهو لورثته»^(٢). وحب النبي ﷺ مقدم على حب النفس:

٦- في الحديث أيضًا: عن أبي هريرة أيضًا: «والذي نفسي بيده لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من نفسه وماله وولده والناس أجمعين»^(٣).

٧- وفي الحديث: عن عمر رضي الله عنه قال: يا رسول الله، والله لأنت أحب إليّ من كل شيء إلا من نفسي، فقال النبي ﷺ: «لا، والذي نفسي بيده يا عمر، حتى أكون أحب إليك من نفسك» فقال عمر: يا رسول الله، لأنت أحب إليّ من كل شيء حتى من نفسي، فقال: «الآن يا عمر»^(٤) أي: الآن كُمل إيمانك يا عمر.

القضية الثانية: زوجات النبي ﷺ أمهاتنا:

والنبي ﷺ أبٌ للمؤمنين، يريهم كما يربي الوالد أولاده، ويترتب على هذه الأبوة، أن نساه أمهاتنا في الحرمة والاحترام والإكرام، لا في الخلوة والمحرمية.

وفي هذه الآية قوله تعالى: ﴿وَأَزْوَاجُهُ أُمَّهَاتُهُمْ﴾ أي: وحرمة أزواج النبي ﷺ على أمته كحرمة أمهاتهم، فلا يجوز نكاح زوجاته من بعده كما قال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لَكُمْ أَنْ تُؤْذُوا رَسُولَ اللَّهِ وَلَا أَنْ تَنْكِحُوا أَزْوَاجَهُ مِنْ بَعْدِهِ أَبَدًا إِنَّ ذَلِكَ كَانَ عِنْدَ اللَّهِ عَظِيمًا﴾ [الآية ٥٣].

وهنّ كأمهاتهم في الحرمة والاحترام، والإكرام والتوقير والإعظام، ولكن لا تجوز

(١) «المسند» (٢٩٦/٣) برقم (١٤١٥٨، ١٤١٥٩) وعن أبي هريرة (٩٩٨٣) وهو حديث صحيح، و«سنن أبي داود» برقم (٢٩٥٦)، وهذا لفظه عن جابر، وأخرجه أبو يعلى (٦٣١٢) ومسلم (١٦١٩) (١٥).

(٢) «صحيح مسلم» (١٢٣٧/٣) برقم (١٦١٩) وهو عند البخاري (٢٢٩٨، ٥٣٧١) والطيالسي (٢٤٥٩).

(٣) «صحيح البخاري» برقم (١٤) عن أبي هريرة رضي الله عنه.

(٤) «صحيح البخاري» برقم (٦٦٣٢).

الخلوة بهن، كما قال تعالى: ﴿وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَاعًا فَسَلُّوهُنَّ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ﴾ [٥٣].

ولا يجوز الزواج بهن، ولا التوارث، ولا يتعدى هذا التحريم إلى بناتهن ﷺ مع أنهم لم يلذن، كما لا يتعدى إلى أخواتهن، ولا يدخل في ذلك ملك اليمين، ولذا فإن (مارية ﷺ) لم تكن من أمهات المؤمنين.

ولما تزوج النبي ﷺ (صفية بنت حيي) يوم قريظة، قالوا: أهي من أمهات المؤمنين، أم مما ملكت يمينه؟ فقالوا: ننظر فإن حجبتها فهي إحدى أمهات المؤمنين، وإذا لم يحجبها فهي مما ملكت يمينه، فلما بنى بها ضرب عليها الحجاب، فعلموا أنها من أمهات المؤمنين.

قال مسروق: قالت امرأة لعائشة: يا أمه، فقالت: لست لك بأم، وإنما أنا أم رجالكم^(١) وهذه الأمومة لا تصدق إلا على من دخل بها النبي ﷺ، أما من طلقها قبل الدخول بها، فلا يقال لها أم المؤمنين، على الأصح، وذلك مثل (أسماء بنت النعمان الكنديّة)، ومثل (بنت الجون) التي عقد عليها، ولم يدخل بها وتزوجت الأشعث بن قيس.

القضية الثالثة: التوارث بالعصب والنسب لا غير:

وقد جاءت هذه القضية في قوله تعالى: ﴿وَأُولُوا الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ﴾ فيرث بعضهم بعضاً، ويبرّ بعضهم بعضاً، فإن هذا أولى من الميراث بالحلف والنصرة والتبني، سواء أكان الأقارب مؤمنين مهاجرين أو غير مهاجرين، فإن ذوي الأرحام مقدمون عليهم، وهذا معنى ﴿مِنَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُهَاجِرِينَ﴾.

أي: وكما أبطل الإسلام أحكام التبني وأحكام الظهار، أبطل التوارث بأخوة الإسلام وبالهجرة، فنسخت هذه الآية وآيات الموارث، توارث الولاية والحلف بالمؤاخاة الذي كان بين المهاجرين والأنصار، وأثبتها للإخوة الحقيقيين، أي: إن ذوي القرابة من المسلمين بعضهم أحق بميراث بعض في حكم الله وشرعه، من الإلث بالإيمان والهجرة. وكان المسلمون يتوارثون في أول الإسلام بالهجرة والإيمان والحلف، دون الرحم، ثم نُسخ ذلك بآية الموارث.

(١) «تفسير ابن عطية» (٣٧٠/٤) والبيهقي (٧٠/٧) وابن سعد (١٧٨/٨).

وتوضيح ذلك: أن النبي ﷺ لَمَّا نزل المدينة مهاجرًا، جعل لكل رجل من المهاجرين أخًا له من الأنصار، فأخى بين أبي بكر وخارجة بن زيد، وبين سلمان وأبي الدرداء، وبين الزبير وكعب بن مالك، وبين عبد الرحمن بن عوف وسعد بن الربيع، وبين عثمان بن مظعون وأبي قتادة الأنصاري، فتوارث هؤلاء وغيرهم بتلك المؤاخاة زمانًا، كما يرث الأخ أخاه، ثم نُسخ هذا الحكم بعد ذلك بهذه الآية، ويقول تعالى: ﴿وَأُولُوا الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ﴾ [الأنفال: ٧٥]. كما نُسخ التوارث بالتبني.

والمراد بأولي الأرحام: الإخوة الأشقاء، فإنهم مقدمون في الميراث على الإخوة لأب، فبيّنت الآية أن أولى الأرحام، بعضهم أولى ببعض في الميراث، من ولاية المتآخين من المهاجرين والأنصار.

وولاية الأرحام لا تقتصر على الإخوة فحسب، بل تشمل ذوي الأرحام جميعًا كما هو مفصل في أحكام الموارث، فيكون هذا الحكم ناسخًا للتوارث بالهجرة والحلف والمؤاخاة الذي شُرِعَ عند قدوم المهاجرين إلى المدينة، وفيه أنه لا يرث من لم يهاجر من المؤمنين، كما لا يرث المؤمنون الكافرين، كما قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا بَعْضُهُمْ مِّنْ بَعْضٍ﴾ [التوبة: ٦٢]. وقال سبحانه: ﴿وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَلَمْ يُهَاجِرُوا مَا لَكُم مِّنْ وَلَدَيْنِهِم مِّن شَيْءٍ حَتَّىٰ يُهَاجِرُوا﴾ [الأنفال: ٧٢]. فتوارث المسلمون بالهجرة زمانًا، ثم نُسخ ذلك كما سبق بيانه.

والمعنى: فكل ذي رحم أولى بإرث قريبه من أن يرثه أنصاريٌّ إن كان الميت مهاجرًا، أو أن يرثه مهاجر إن كان الميت أنصاريًّا.

ثم قال سبحانه: ﴿إِلَّا أَنْ تَفْعَلُوا إِلَيَّ أُولِيَّائِكُمْ مَّعْرُوفًا﴾ أي: إلا أن تتصدقوا عليهم، أو تُحَسِّنُوا إليهم في حياتكم بالبر والنصرة، والصلة والإحسان، والوصية في حدود الثلث، وبسط اليد بالمعروف؛ فإن هذا مما حثَّ الله عليه، كما أنهم يُعْطُونَ شيئًا غير محدد من تركة المُتَوَفَّى، كما قال تعالى: ﴿وَإِذَا حَضَرَ الْقِسْمَةَ أُولُو الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالسَّكِينُ فَارْزُقُوهُمْ مِّنْهُ وَقُولُوا لَهُمْ قَوْلًا مَّعْرُوفًا﴾ [النساء: ٨].

أي: أعطوهم شيئًا ما، وطيبوا خاطرهم بشيء من التركة، وأحسنوا لهم في القول.

ثم إن هذا الحكم المذكور مقدَّر ومكتوب في اللوح المحفوظ، فيجب عليكم العمل به

﴿كَانَ ذَلِكَ فِي الْكِتَابِ مَسْطُورًا﴾ ومما كُتِبَ عند الله تعالى أن الكافر لا يرث مسلمًا .

وبهذا فإن هذه الآية توجب تقديم محبة الله تعالى ومحبة رسوله ﷺ على محبة النفس، بكمال الانقياد لله ورسوله، وتوجب احترام أمهات المؤمنين، وأن مَنْ سَبَّهُنَّ فَقَدْ بَاءَ بالخسران، وتُبين الآية أيضًا أن الزوجة لا تكون أمًّا بحال، كما تنسخ التوارث بالأخوة الإيمانية بتوارث القرابة في النسب.

ثَلَاثَةُ أَنْوَاعٍ مِنَ الْمَوَاقِيقِ

٧- ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَاقَهُمْ وَمِنْكَ وَإِنْ تَوَجَّعَ وَإِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ وَأَخَذْنَا مِنْهُمْ مِيثَاقًا غَلِيظًا﴾

يخبر الله سبحانه أنه أخذ العهد والميثاق من النبيين عمومًا، ومن أولى العزم منهم خاصة: أن يقوموا بدين الله، والجهاد في سبيل الله، ويبلغوا دعوته إلى الناس كافة، وألا يكتموا منها شيئًا، وأن يصدق بعضهم بعضًا، وأن هذا سبيل الله مشي فيه جميع الأنبياء، حتى خُتِموا بأفضلهم، وهو محمد ﷺ، فوجب عليهم أن يؤمنوا به وبدعوته، والله سائلهم عن هذا العهد الغليظ .

وفي هذه الآية والتي بعدها تذكير الله تعالى لنبية محمدًا ﷺ بثلاثة أنواع من المواقيق:

أولها: ميثاق التوحيد الذي أخذه الله تعالى على بني آدم، والرسول في مقدمتهم.

وثانيها: ميثاق البلاغ الذي أخذه الله على الرسول، ولعله المقصود الأساس من هاتين الآيتين.

وثالثها: الميثاق الذي أخذه الله سبحانه على الرسول، أن يُصدِّقوا محمدًا ﷺ، ويؤمنوا به وبدعوته حين يبعثه الله تعالى في آخر الزمن.

وقد صَحَّتْ الأحاديث بأن محمدًا ﷺ كان نبيًّا وآدم بين الروح والجسد، وأن الميثاق أُخِذَ على آدم أن يؤمن بمحمد ﷺ أنه خاتم الأنبياء والمرسلين، كما أُخِذَ على سائر الرسل، صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين:

١- أخرج ابن سعد وغيره عن عامر أن رجلًا قال للنبي ﷺ: متى استُنْبِت؟ قال: «وآدم

بين الروح والجسد حين أخذ مني الميثاق»^(١).

٢- وعن أبي هريرة ؓ أنه قيل للنبي ﷺ: متى وجبت لك النبوة؟ قال: «بين خلق آدم ونفخ الروح»^(٢).

ويحتمل أن يكون المعنى: قُدِّرَ له ﷺ وقُرِّرَ له النبوة قبل أن يخلق آدم.

٣- وعن أبي الجذعاء ؓ قال: قلت: يا رسول الله، متى كنت نبياً؟ قال: «إذ آدم بين الروح والجسد»^(٣). وغير ذلك من الأحاديث والآثار.

٤- ومنها ما جاء عن قتادة أن النبي ﷺ: «كنت أول الأنبياء في الخلق وآخرهم في البعث»^(٤) فهو معنى صحيح، على أن النبوة قُدِّرَتْ له قبل خلق آدم، كما في الأحاديث السابقة.

هذا: وبعد أن أمر الله نبيه بعدم اتباع الكافرين والمنافقين، ولما ذكر الله سبحانه ثلاثة أمثلة من مسائل الجاهلية الضالة، وهي زعم أن يكون للرجل قلبان، وأن الزوجة لا تكون بالظهار أمًا، وإبطال عادة التبني.

يَن سبْحانه أن الذي أمر به نبيه، هو من العهود التي أخذها على النبيين والمرسلين من أول عهود الشرائع، فسنة الله فيهم واحدة، وهم مأمورون بنصرة الدين وقول الحق، وتبليغ الرسالة، دون ملاينة الكافرين والمنافقين، ولا خشيتهم ولا مجاراتهم، أو موافقتهم على ضلالهم قال سبحانه ﴿أَلَمْ يُوَخِّدْ عَلَيْهِمْ مِيثَاقَ الْكِتَابِ أَنْ لَا يَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ﴾ [الأعراف: ١٦٩].

وفي هذه السورة قال تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَاقَهُمْ﴾.

(١) ابن سعد (١/١٤٨) والحديث عند أحمد (٢٧/١٧٦)، (٣٨/٢٥٧) (٢٣/١٦٦٢٣)، (٢٣٢١٢) قال محققوه:

إسناده صحيح. ورجاله ثقات رجال الصحيح، وأخرجه الترمذي (٣٦٠٩) عن أبي هريرة.

(٢) «صحيح سنن الترمذي» (٢٨٥٦) والحاكم (٢/٦٠٩) والبيهقي (٢/١٣٠) وصححه الألباني أيضًا في السلسلة الصحيحة (١٨٥٦) ومشكاة المصابيح (٥٧٥٨).

(٣) ابن سعد (١/١٤٨)، (٧/٥٩) وهو عند الطحاوي في «مشكل الآثار» برقم (٥٩٧٦) قال محققه: إسناده صحيح، وجاء هذا اللفظ أيضًا عن أبي هريرة في الترمذي وغيره كما في تخريج الحديث السابق.

(٤) الطبري (١٩/٢٣)، وهو حديث ضعيف كما في السلسلة الضعيفة (٦٦١).

أي: واذكر يا محمد حين أخذنا من النبيين العهد المؤكد بتبليغ الرسالة، وأداء الأمانة، وأن يصدق بعضهم بعضًا، وأن يؤمنوا برسالة محمد ﷺ على وجه الخصوص.

وهذا الميثاق جاء ذكره في قوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَا ءَاتَيْنَاكُمْ مِنْ كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنْصُرُنَّهُ قَالَ ءَأَقْرَضْتُمْ وَآخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَلِكُمْ إِصْرِي قَالُوا أَقْرَضْنَا قَالَ فَاشْهَدُوا وَأَنَا مَعَكُمْ مِنَ الشَّاهِدِينَ ﴿٨﴾﴾ [آل عمران].

أي وأخذنا العهد والميثاق على الرسل جميعًا أن يأمروا الناس بإخلاص العبادة لله وحده، وينصحوهم لقومهم، وأخذنا منهم الميثاق بتقوى الله تعالى، ونبذ طاعة الكافرين والمنافقين، واتباع ما أوحى الله به إليهم.

ثم ذكر ﷺ خمسة من الرسل الذين أخذ الله عليهم هذا العهد المؤكد، وهم أولو العزم منهم، فابتدأ بآخريهم لشرفه وفضله قائلاً: ﴿وَمِنْكَ﴾ أي: محمد ﷺ المخاطب بالآية، ثم رتبهم بحسب وجودهم فقال: ﴿وَمِنْ نُوحٍ وَإِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰ ابْنِ مَرْيَمَ﴾ صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين.

وخص هؤلاء الخمسة بالذكر؛ لكونهم أصحاب الكتب والشرائع.

وأولو العزم من الرسل، هم الذين كابدوا أقوامهم، وصبروا على أذاهم، أكثر من غيرهم، وهم الذين قال الله عنهم: ﴿فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُو الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ﴾ [الأحقاف: ٣٥].

وقد جاء ذكرهم مصرحًا به في قوله تعالى: ﴿شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰ أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ﴾ [الشورى: ١٣].

ثم عظم الله سبحانه من شأن هذا الميثاق، وسماه ميثاقًا غليظًا، يجب الوفاء به وبما التزموا به من تبليغ الشرائع، فقال تعالى: ﴿وَآخِذْنَا مِنْهُمْ مِيثَاقًا غَلِيظًا﴾.

والله سبحانه سيسأل المرسل إليهم عن هذا الميثاق، فيثيب الصادقين الموفين بعهدهم، ويعذب الكافرين الناقضين لعهدهم مع الله تعالى ومع رسله.

ثم بين سبحانه العلة في إرسال الرسل، وأنها إثابة المطيعين وعقاب العاصين فقال:

٨- ﴿لَيْسَ لَ الصَّدِيقِينَ عَنْ صِدْقِهِمْ وَأَعَدَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا أَلِيمًا﴾

أي: وقد أخذ ﷺ العهد والميثاق من أولئك الرسل؛ ليعظم سبحانه جزاء الذين يُوفون بعهد الله، ولا ينتقضون الميثاق، وليشدّد جزاء الذين يكفرون بما جاءت به رسل الله ﴿لَيْسَ لَ الصَّدِيقِينَ عَنْ صِدْقِهِمْ﴾ أي: ليسأل المرسلين عما أجابتهم به الأمم، فيجزى المؤمنين الجنة، ويجزى الكافرين عذاباً شديداً في جهنم، كما قال تعالى: ﴿يَوْمَ يَجْمَعُ اللَّهُ الرُّسُلَ فَيَقُولُ مَاذَا أُجِبْتُمْ﴾ [المائدة: ١٠٩]. وكما يسأل عيسى ﷺ: ﴿أَأَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّي آلِهَتَيْنِ مِنْ دُونِ اللَّهِ قَالَ سُبْحَنَكَ﴾ [المائدة: ١١٦].

والحكمة من سؤال الرسل يوم القيامة هي تبيكيت مَنْ كَفَرَ بِهِمْ وتقييحهم، وإذا كان الرسل يُسألون يوم القيامة فكيف بمن سواهم؟! وقد جمعت الآية بين ثواب الصادقين وعقاب الجاحدين المكذبين.

غَزْوَةُ الْأَحْزَابِ

٩- ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَاءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَمْ تَرَوْهَا وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا﴾

بعد أن أمر الله تعالى نبيه ﷺ بعدم طاعة الكافرين والمنافقين، بيّن سبحانه أن من النعم التي أنعم بها على المؤمنين، أن ردّ عنهم كيد الكافرين والمنافقين يوم غزوة الأحزاب، وغزوة الأحزاب من الأحداث الضخمة في تاريخ الدعوة الإسلامية.

وللقرآن الكريم طريقته الخاصة في عرض الغزوات، وله أسلوبه الخاص في الوصف والتعقيب، ووقوفه أمام بعض المشاهد والأحداث، وإبرازه للقيم والسنن؛ لأن القرآن يهدف إلى هداية البشر وتربية الأمة، وهذا يختلف عن سرد أحداث القصة في كتب السُنّة والسيرة.

وغزوة الأحزاب هي غزوة الخندق الذي حُفر حول المدينة حين تجمّعت الأحزاب من قريش، وغطفان، وقبائل نجد مع يهود المدينة على حرب النبي ﷺ.

والآيات التي تكلمت عن هذه الغزوة في السورة جاءت على النحو التالي:

١- الوصف العام للغزوة، وذلك من الآية التاسعة إلى الآية الحادية عشرة.

٢- موقف المنافقين واليهود من المسلمين، وذلك من الآية الثانية عشرة إلى الآية

الحادية والعشرين .

٣- موقف المؤمنين في غزوة الأحزاب، وذلك، من الآية الثانية والعشرين إلى الآية الخامسة والعشرين .

٤- أمّا نهاية المعركة، فقد جاء في الآية الخامسة والعشرين .

٥- جاءت نهاية اليهود الذين ظاهروا المشركين وأعانوهم، في الآيتين السادسة والعشرين والسابعة والعشرين .

وسبب هذه الغزوة: أنه بعد غزوة أحد، تهادنت قريش مع المسلمين لمدة عام، وقال أبو سفيان للمسلمين: موعدنا بدر من العام القابل، وتخلف أبو سفيان عن مواعده، فلم يحدث قتال بين المسلمين والمشركين في هذه المدة، إلا ما كان من (عامر بن مالك) حين سأل رسول الله ﷺ بعد أربعة أشهر من انقضاء غزوة أحد، أن يوجهه ومعه أربعون من المسلمين إلى أهل نجد، يدعونهم إلى الإسلام، فغدرت قبائل نجد بهم فقتلوهم، وكان هذا كيداً كاده عامر بن مالك، وهذا ما يُعرف بموقعة (بئر معونة)، حيث غدرت قبائل بني سليم بأربعين من المسلمين فقتلوهم .

ولما أجلي النبي ﷺ بني النضير عن المدينة؛ لغدرهم ونقضهم عهد المسلمين، نزلوا على بني قريظة وأهل خيبر، فاغتاظ اليهود، وخرج منهم سلام بن أبي الحقيق، وحُيَّ بن أخطب وغيرهما، فقدموا على قريش بمكة، وتآمروا مع غطفان على غزو المدينة .

أحداث الغزوة:

فخرجت قريش وبني كنانة في عشرة آلاف بقيادة أبي سفيان، وخرجت غطفان بقيادة (عُيَينة بن حصن) في ألف من الجنود، وخرجت هوازن أيضاً بقيادة (عامر بن الطفيل) .

ودسَّ أبو سفيان (حُيَّ بن أخطب) على بني قريظة؛ لينقضوا عهدهم مع النبي ﷺ، ويكونوا معهم عليه، وكانوا نحو ثمان مئة مقاتل، فنقضوا العهد، وأجابوهم لذلك، فاشتد الأمر على المسلمين .

وأبلغت قبيلة خزاعة رسول الله ﷺ بعزم الأحزاب على غزو المدينة .

فأشار سلمان الفارسي بحفر خندق يحيط بالمدينة، تحصيناً لها من دخول العدو، وهو أمر لم تعهده العرب من قبل، وتم حفر الخندق، وكان جيش المسلمين ثلاثة آلاف، وهو يساوي ربع جيش العدو تقريباً.

وجاء الأعداء، فدخلت قريش من جهة الغرب، أسفل الوادي، بين الجرف وزُعابة، ودخلت غطفان وهوازن من جهة الشرق، أعلى الوادي، إلى جانب جبل أحد، وعسكر المسلمون تحت جبل (سَلْع)، وجعلوا ظهورهم إلى الجبل، وكان الخندق بينهم وبين العدو.

وكانت بنو قريظة قد عاهدوا النبي ﷺ على الهدنة، وألا يلحقه منهم ضرر، فلما تمكن الحصار بالمسلمين استجابوا لدعوة بني النضير، فنقضوا العهد، وصاروا حزباً من الأحزاب، فضاقت الحال، وساءت الظنون، وظهر النفاق.

وقام نعيم بن مسعود الأشجعي بدور الوقيعة بين قريش وقريظة وغطفان، فخذل بينهم، وكان قد أسلم دون علم قومه.

ودام الحصار بضْعاً وعشرين ليلة، لم تقع فيها حرب بين الطرفين، إلا مصارعة بين ثلاثة اقتحموا الخندق من جهة ضيقة بين الخندق وجبل (سَلْع)، وقَتَلَ عليُّ بن أبي طالب أحدهم، وفرَّ صاحبه.

ولحقت بالمسلمين شدة من هذا الحصار، وخَوْفٌ من كثرة عدوهم، حتى كاد النبي ﷺ يصالحهم على نصف ثمار المدينة، واستشار أصحابه، فلم يقبل سعد بن معاذ بهذا.

فأرسل الله سبحانه ريحاً شديدة على الأحزاب، اقتلعت خيامهم، وكفأت قدورهم، وأطفأت نيرانهم، وأثارت الذعر بينهم.

وظنت قريش أن قريظة صالحت المسلمين على قتال الأحزاب، فأجمعوا أمرهم أن يرحلوا عن المدينة، فارتحلوا مهزومين بقدرة الله تعالى، وانصرف المسلمون متوجهين إلى المدينة.

وقال أبو سفيان لقومه: يا معشر قريش، إنكم والله ما أصبحتم بدار مقام، لقد هلك الكراع والخف، أي: الخيل والجمال، وأخلفتنا بنو قريظة، وبلغنا عنهم الذي نكره، ولقينا من شدة الريح ما ترون، ما تطمئن لنا قِدر، ولا تقوم لنا نار، ولا يستمسك لنا

بناء، فارتجلوا فإني مرتجل، ثم جلس على جملة وهو معقول، فضربه، فقام وهو على ثلاثة أرجل، فما أطلق عقاله إلا وهو قائم^(١).

وهكذا ردَّ الله الذين كفروا بغيظهم لم ينالوا خيرًا، وكفى الله المؤمنين القتال، وكان هذا في شهر شوال سنة خمس من الهجرة، كما قال ابن إسحاق، وهو الصحيح.

معنى الآية: ونعود إلى معنى الآية: أي يا معشر الذين صدّقوا بالله ورسوله، اذكروا نعمة الله تعالى التي أنعمها عليكم في المدينة أيام غزوة الأحزاب، حين اجتمع عليكم المشركون من خارج المدينة، حيث جاءكم جنود أهل مكة والحجاز من فوقكم، وأهل نجد من أسفل منكم، واليهود والمنافقون من المدينة وما حولها، وكانوا عددًا لا قِيل لكم به، يريدون إبادتكم والقضاء عليكم، فأحاطوا بكم من كل جانب، وخندق رسول الله حول المدينة، فحاصر الأعداء المدينة، واشتد الأمر، وبلغت القلوب الحناجر، ودام الحصار مدة طويلة فأرسل الله عليهم ريحًا شديدة اقتلعت خيامهم، وأثارت خيولهم ورمت قدورهم، وأرسل عليهم ملائكة من السماء لم تروها، فوقع الرعب في قلوبهم، وانقلبوا خائبين كما في الحديث: عن ابن عباس رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «نُصرت بالصبا، وأهلكت عاد بالدبور»^(٢) والله تعالى لا يخفى عليه شيء، وهو على كل شيء قدير.

أخرج البيهقي في «الدلائل» عن حذيفة رضي الله عنه قال: لقد رأيتنا ليلة الأحزاب ونحن صافّون قعودًا، وأبو سفيان ومن معه من الأحزاب فوقنا، وقريظة أسفل منا، نخافهم على ذرارينا، وما أتت قطُّ علينا أشد ظلمة ولا أشد ريحًا منها، فجعل المنافقون يستأذنون النبي ﷺ يقولون: إن بيوتنا عورة، وما هي بعورة، فما يستأذن منهم أحد إلا أذن له، فيتسللون في الخروج، ونحن ثلاث مئة، وقد استقبلنا النبي ﷺ رجلًا رجلًا حتى أتى عليّ فقال: اتني بخبر القوم، وقال رسول الله ﷺ: «اللهم احفظه من بين يديه ومن خلفه،

(١) «السيرة النبوية» لابن هشام (٢/ ٢٣١).

(٢) من حديث ابن عباس في البخاري برقم (١٠٣٥) ومسلم (٩٠٠) و«السنن الكبرى» للنسائي برقم

(١١٦١٧) و«المستد» (٢٠١٣)، وإسناده صحيح على شرط الشيخين، وأخرجه الطيالسي (٢٦٤١)

والطبراني (١١٠٤٤).

وعن يمينه وعن شماله، ومن فوقه ومن تحته»^(١) فجئت، فإذا بالريح في عسكرهم، ما تجاوز عسكرهم شبرًا، فوالله إني لأسمع صوت الحجارة في رحالهم وفُرشهم، الريح تضربهم بها وهم يقولون: الرحيل، الرحيل، فجئت فأخبرته خبر القوم وأنزل الله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ﴾^(٢).

الْوَصْفُ الْعَامُّ لِابْتِلَاءِ الْمُؤْمِنِينَ

١٠- ﴿إِذْ جَاءُوكُم مِّن فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ الْأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظُّنُونًا﴾^(٣)

فصل ﷺ ما حدث في تلك الغزوة، في هذه الآية وما بعدها، فقال: ﴿إِذْ جَاءُوكُم مِّن فَوْقِكُمْ﴾ أي: اذكروا يا معشر المؤمنين، حين جاءتكم الأحزاب من فوق الوادي من جهة المشرق، وهم قبيلتا أسد وغطفان، ويهود بني قريظة، يقودهم: مالك بن عوف، وعيينة بن حصن، وطلحة بن خويلد، وحُيَّي بن أخطب.

﴿وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ﴾ أي: من بطن الوادي من جهة المغرب، حيث جاءتكم قريش وكنانة، يقودهم: أبو سفيان، والأعور، عمرو بن سفيان، من جهة الخندق، فنزل طائفة من أعلى المدينة، وطائفة من أسفلها، وتم إحكام الحصار.

﴿وَإِذْ زَاغَتِ الْأَبْصَارُ﴾ شخصت من شدة الحيرة والدهشة، فلم تنظر إلا إلى الأعداء، وملَّت وتعبت من استدامة النظر.

﴿وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ﴾ أي: زالت عن مكانها في الصدر، من شدة الرعب،

(١) من حديث طويل عن حذيفة عند الحاكم (٣/٣١) وصححه أبو نعيم في «الدلائل» (٤٣٢) والبيهقي في «الدلائل» (٣/٤٥٠) وابن عساكر (١٢/٢٨٢).

(٢) «زاد المسير» (٦/٣٥٦) «دلائل النبوة» للبيهقي (٣/٤٥١). وانظر حديث ابن عمر في المسند (٤٧٨٥) بإسناد صحيح ورجال ثقات، وابن أبي شيبة (١٠/٢٤٠) وابن ماجه (٣٨٧١) وابن حبان (٩٦١).

(٣) قرأ نافع وابن عامر وشعبة وأبو جعفر بألف بعد نون (الظنون) الثانية وصلًا ووقفًا، تبعًا لرسم المصحف، وقرأ ابن كثير وحفص والكسائي وخلف بإثبات الألف وقفًا وحذفها وصلًا إجراء للفواصل مجرى القوافي، وقرأ الباكون بحذف الألف في الحالين؛ لأنها لا أصل لها.

ففزعزت فزعًا شديدًا، حتى لكان الحلقوم انتقل من مكانه إلى أعلى حتى قارب أن يخرج من الفم، وبلغت الروح التراقي من شدة الخوف، وهذا كقولهم: تنفّس الصعداء.

عن أبي سعيد رضي الله عنه قال: قلنا يوم الخندق: يا رسول الله، هل من شيء نقول، فقد بلغت القلوب الحناجر؟ قال ﷺ: «نعم، قولوا: اللهم اسر عورتنا وآمن روعاتنا» قال: فضرب وجوه أعدائه بالريح فهزمهم بالريح^(١).

﴿وَتَطُّونَ بِاللَّهِ الظُّنُونَا﴾ أي: ولما زادت الأبصار وبلغت القلوب الحناجر، خافوا أن يهزموا حين رأوا شدة الحصار وقوة الأحزاب، فتعددت الظنون، واختلفت الأقاويل. قال الحسن البصري: ظن المنافقون أن المسلمين يستأصلون، وظن المؤمنون أنهم يُنصرون^(٢). فالْمُؤْمِنُونَ ظنوا خيرًا، والمنافقون ظنوا شرًا، فظنوا أن الله تعالى لن ينصر دينه، ولن يُعلي كلمته.

قال قتادة: نزلت هذه الآية يوم الأحزاب، وقد حُوصِر المسلمون شهرًا، فخذق رسول الله ﷺ - أي حفر خندقًا - وأقبل أبو سفيان بقريش ومن معه من الناس حتى نزلوا بعقوة رسول الله ﷺ - أي: بساحة واسعة - وكاتبَت اليهود أبا سفيان فظاهروه، فبعث الله عليهم الرعب والريح، فذكر أنهم كانوا كلما بنوا بناء قطع الله أطنابه، وكلما ربطوا دابة قطع الله رباطها، وكلما أوقدوا نارًا أطفأها الله، حتى لقد ذكر لنا أن سيد قوم يقول: يا بني فلان، هلم إلي، حتى إذا اجتمعوا عنده، قال: النجاة النجاة، أوتيتم. وذلك لما بعث الله عليهم من الرعب^(٣).

وعن جابر بن عبد الله رضي الله عنه قال: لما حفر رسول الله ﷺ وأصحابه الخندق، أصاب النبي والمسلمين جهْدٌ شديد، فمكثوا ثلاثًا، لا يجدون طعامًا حتى ربط النبي ﷺ على

(١) «المسند» (٣/٣) عن أبي عامر العقدي برقم (١٠٩٩٦) بإسناد ضعيف من هذا الطريق، وأخرجه الطبري (١٢٧/٢١١) والبيزار كما قال الهيثمي في «مجمع الزوائد» (١٣٦/١٠) وقال: إسناده متصل ورجاله ثقات وهو في «تفسير الطبري» (٢٥١١٩)، وأبي داود (٣١٤/٥) والنسائي (٦٠) وابن ماجه (٣٨٧١) وهو عند البيزار (٣١١٩) (زوائد) والطبراني في الكبير (٣٧١٠) وطرقهم متعددة.

(٢) «تفسير القرطبي» (١٤٦/١٤).

(٣) «تفسير الطبري» (٢٨/١٩).

بطنه حَجْرًا من الجوع^(١). قال تعالى يصف بلاء المؤمنين:

١١ - ﴿هَٰلِكَ أَتَى الْمُؤْمِنُونَ زَلَزَالًا شَدِيدًا﴾

أي: وفي ذلك الزمان والمكان، حين نزلت الأحزاب حول المدينة، وحوصر المسلمون، امتحن الله المؤمنين، واختبرهم بالجوع والحصار، وابتلاهم بالخوف والقتال، فاضطربوا اضطرابًا شديدًا، حتى لكأن الأرض تتحرك تحت أقدامهم، وهذا يعني اضطراب القلوب وفزعها، وفي هذا اليوم العصيب مَحَصَّ الله القوم، وعُرف المؤمن من المنافق، وظهر هذا للعيان.

وعندما اشتد الكرب، وتفاقمت الشدائد صار إيمان المؤمنين عين اليقين ﴿وَلَمَّا رَأَى الْمُؤْمِنُونَ الْأَحْزَابَ قَالُوا هَٰذَا مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَصَدَقَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ﴾ [الأحزاب: ٢٢]

وكما ظهر إيمان المؤمنين، تبين نفاق المنافقين وظهر ما كانوا يضمرونه:

وَصَفُ حَالِ الْمُنَافِقِينَ فِي الْمَعْرَكَةِ وَالْكَشْفُ عَنْ حَقِيقَتِهِمْ

١٢ - ﴿وَإِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ إِلَّا غُرُورًا﴾

أي: ومما زاد في بلاء المسلمين وحُزنهم ما ظهر من أقوال قبيحة من المنافقين، قصدوا بها إدخال الشك في قلوب المؤمنين، لعلهم يردُّونهم عن دينهم، فقالوا: إن الله وعد المسلمين النصر فكانت الهزيمة، وهذا وعد كاذب للتغريب بنا بالوقوع فيما لا طاقة لنا به، وهذه عادة المنافقين في الشدائد والمحن.

وهكذا، فإن الذين في قلوبهم مرض، كانوا مترددين بين الإيمان والكفر، فأخلصوا النفاق - يومئذ - وصمموا عليه، فكشف كل منهما عما في نفسه الخبيثة وطبعه الذميمة.

قال معتب بن قشير: يعدُّنا محمد بفتح فارس والروم، وأحدنا لا يستطيع أن يفارق رُحله ويذهب إلى الغائط^(٢).

(١) ابن أبي شيبه (٤١٨/١٤) والبيهقي (٤٢٢/٣) وهو في البخاري مطولاً برقم (٤١٠١).

(٢) أخرجه عبد الرزاق عن قتادة بسند صحيح، والبيهقي (٤٢٥/٣).

فهذا الذي وعدنا به محمد ﷺ من النصر والتمكين ما هو إلا باطل من القول، وتغريبكم، فلا تصدقوه.

١٣- ﴿وَإِذْ قَالَتْ طَائِفَةٌ مِّنْهُمْ يَتَّهَلَّ يَثْرِبَ لَا مُقَامَ^(١) لَكُمْ فَارْجِعُوا وَيَسْتَأْذِنُ فَرِيقٌ مِّنْهُمُ النَّبِيَّ يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ وَمَا هِيَ بِعَوْرَةٍ إِن يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَارًا^(٢)﴾

يثرب: هو الاسم القديم لمدينة الرسول ﷺ، وقد سُميت يثرب باسم رجل من العماليق، من نسل إرم بن سام بن نوح، كان قد نزل بها في قديم الزمان، فسميت باسمه.

وورد أن للمدينة في التوراة أحد عشر اسمًا هي: المدينة، وطابة، وطيبة، والمسكينة، والعجيرة، والمحبة، والمحوبة، والقاصمة، والمجبورة، والعذراء، والمرحومة^(٣).

وعن كعب الأحبار قال: إنا نجد في التوراة يقول الله تعالى للمدينة: يا طيبة، ويا طابة، ويا مسكينة^(٣).

وقد غيّر الإسلام اسمها، وكره التسمية القديمة.

جاء في الأثر عن البراء بن عازب ؓ: «من سَمَى المدينة يثرب، فليستغفر الله عز وجل، هي طابة، هي طابة، هي طابة»^(٤).

وقال أبو عبيدة: يثرب: اسم أرض بما فيها من النخل والحوايط، والمدينة.

وهاتان طائفتان من المنافقين، إحداهما تشير على المجاهدين بالرجوع إلى المدينة إذ لا قدرة لهم على قتال الأعداء - على حد زعمهم - وفرقة أخرى يتعللون بأنهم يخافون على بيوتهم من مهاجمة الأعداء، والله تعالى يكشف حال الفريقين في الآيتين السابقتين وقد أفصحت هذه الآية عن قول الذين في قلوبهم مرض، وهم: أوس بن قيطي،

(١) قرأ حفص بضم الميم الأولى من (لا مُقَام) على أنها اسم مكان من أقام، أي: لا مكان إقامة لكم، وقرأ الباقون بفتح الميم، اسم مكان من قام، أي: لا مكان قيام لكم، أو مصدر منه، أي: لا قيام لكم.

(٢)، (٣) من «تفسير ابن كثير» للآية (٣٨٨/٦).

(٤) «المسند» (٢٨٥/٤) بسند ضعيف لضعف يزيد بن أبي زياد، وبقيّة رجاله ثقات كما قال محققوه، برقم (١٨٥١٩). وأخرجه أبو يعلى (١٦٨٨) وابن أبي شيبة في تاريخ المدينة (١٦٤/١) وابن عدي في الكامل (٢٧٣٠/٧).

وجمّع من عشيرته، وعبد الله بن أبيّ بن سلول وأشياعه، حين قالوا للمؤمنين: لا قرار لكم هنا، ولا إقامة لكم في معركة خاسرة، فارجعوا إلى منازلكم داخل المدينة، واتركوا محمداً وأصحابه، وفي هذا تخذيل عن الجهاد بدعوى أنهم لا قدرة لهم على قتال العدو. وكان المسلمون قد جعلوا ظهورهم إلى جبل سلع، ووجوههم إلى العدو، وجعلوا الخندق بينهم وبين الأحزاب، فقال المنافقون: ليس ها هنا موضع إقامة لنا، وأمروا الناس بالرجوع إلى منازلهم بالمدينة^(١).

وقد ذكرت الآية موقف جماعة أخرى من المنافقين كانوا يستأذنون في الانصراف عن ساحة المعركة، ويطلبون من النبي ﷺ أن يعودوا إلى منازلهم قائلين: إن بيوتنا خالية من الحراسة، وغير محصنة، وإنهم يخشون عليها من السرقة، أو من هجوم العدو.

وقد كذّبهم الله تعالى، وبيّن أن بيوتهم ليست كما يقولون، وإنما هم يتعلّلون بذلك للفرار من ساحة القتال، قال تعالى: ﴿وَمَا هِيَ بِعَوْرَةٍ﴾ فقد كانت بيوتهم محصنة بخندق، وجيوش المسلمين تحرسها.

وهذه الطائفة من المنافقين أفردهم القرآن بالذكر؛ لأنهم رجعوا دون إذن النبي ﷺ، وكان عددهم ثمانين رجلاً من بني حارثة، وكانت بيوتهم مجاورة لبني سلمة في أقصى المدينة.

وقد ورد أن بني حارثة أرسلت أوس بن قَيْطِيٍّ إلى النبي ﷺ يقولون: إن بيوتنا عورة، ولا يوجد دار من دور الأنصار مثل دورنا، فليس بيننا وبين غطفان أحد يردهم عنا، فأذن لنا نرجع إلى دورنا، وإلى ذرياتنا ونسائنا، فأذن لهم ﷺ فبلغ ذلك سعد بن معاذ، فقال: يا رسول الله، لا تأذن لهم، إنا والله ما أصابنا وإياهم شدة، إلا صنعوا هكذا، فردّهم^(٢).

وهؤلاء هم الذين قال عنهم علّام الغيوب: ﴿إِنْ يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَارًا﴾.

وهذا كشف آخر عن حقيقة المنافقين.

(١) يُنْظَرُ: «فتح القدير» للشوكاني (٢٢٦/٦).

(٢) يُنْظَرُ: ابن إسحاق (٢٢٢/٢).

١٤- ﴿وَلَوْ دُخِلَتْ عَلَيْهِمْ مِّنْ أَقْطَارِهَا ثُمَّ سُئِلُوا الْفِتْنَةَ لَآتَوْهَا^(١) وَمَا تَلَبَّثُوا فِيهَا إِلَّا بَسِيرًا﴾

بَيَّنَّ سبحانه في هذه الآية أن جيوش الأحزاب لو غزت المدينة من جميع جوانبها، واستولوا عليها، وكان جيش المسلمين خارج المدينة وسأل الجيش الغازي هؤلاء المنافقين أن يقوموا بالدسّ والوقيعة والتفريق بين صفوف المسلمين لخرجوا لذلك مسرعين، ولم يخافوا على بيوتهم من اللصوص كما زعموا، ولم يتباطؤوا في السعي بدسّ الفتنة والوقيعة بين المسلمين.

والمعنى: ولو سألوهم الشرك بالله تعالى والرجوع عن الإسلام لأجابوا إليه مبادرين، وما تأخروا عنه إلا شيئاً يسيراً، ذلكم قول الله تعالى: ﴿وَلَوْ دُخِلَتْ عَلَيْهِمْ مِّنْ أَقْطَارِهَا﴾ أي: ولو دخل الغزاة المعتدون، المدينة من جميع جوانبها وقطنوا فيها، وبقي جيش المسلمين خارجها، ثم طُلب منهم الفتنة، أي إثارة الخلاف بين المسلمين بالتفريق بينهم، أو طُلب منهم الردة عن الإسلام، لأجابوهم لما طلبوا، وفعلوا ذلك مسرعين دون تأخير، وهذا غاية الذم لهم.

ويصح أن يكون المعنى: ولو أن مقتحمًا اقتحم عليهم بيوتهم هذه التي يزعمون أنها عورة، وهم قابعون فيها، ثم طلب منهم أن ينضموا إليه في قتال المسلمين لأسرعوا لتلبية طلبه، وكانوا مطيعين له كل الطاعة.

ومن شأن المنافقين نقض العهود مع الله ومع الناس، وهؤلاء كانوا قد عاهدوا النبي ﷺ على أن لا يفرّوا من القتال بعد الذي حدث منهم في غزوة أحد، وقد تكرر هذا منهم في هذه الغزوة، قال تعالى:

١٥- ﴿وَلَقَدْ كَانُوا عَاهَدُوا اللَّهَ مِن قَبْلُ لَا يُولُونَ الْآذِينَ^(٢) وَكَانَ عَهْدُ اللَّهِ مَسْئُولًا﴾

أي: والذين قالوا: ﴿إِنَّ يُونُسًا عَوْرةٌ﴾ وهم بنو سلمة، وبنو حارثة، وكانوا يوم غزوة أحد، قد جبنوا وتحاذلوا عن ملاقات العدو، ثم تابوا، وعاهدوا النبي ﷺ وحلفوا أنهم لا

(١) قرأ نافع وابن كثير وأبو جعفر وابن ذكوان بخلف عنه بقصر همزة (لآتوها) أي: بحذف الألف بعدها من الإتيان، بمعنى: جاؤوها، وقرأ الباقيون بمد الهمزة، أي: يثبتات ألف بعد الهمزة بمعنى: أعطوها، من الإتياء، وهو الوجه الثاني لابن ذكوان.

يولُّون الأدبار، ولا ينصرفون عن صفوف المسلمين بعد هذه الغزوة، وسيكونون معهم في الدفاع عن المدينة التي يسكنونها، ولكنهم لم يوفُّوا بعهودهم، وهم الذين قال الله فيهم: ﴿إِذْ هَمَّتْ طَّائِفَتَانِ مِنْكُمْ أَنْ تَفْشَلَا وَاللَّهُ وَلِيُّهُمَا﴾ [آل عمران: ١٢٢]. ثم طرأ على بني حارثة نفاق وضعف جديان في هذه الغزوة بعد أن عاهدوا الله من قبل على عدم الفرار، فذكَّره الله سبحانه في هذه الآية، بأنهم كانوا قد عاهدوا الله تعالى على يد رسوله ﷺ قبل غزوة الخندق، ألا يفروا من الجهاد إن شهدوا حربًا، ولا يتأخروا إن دُعوا إلى الجهاد، ولكنهم خانوا عهدهم وتخاذلوا.

وسيسألهم ربهم عن ذلك العهد، ويحاسبهم على عدم الوفاء به ﴿وَكَانَ عَهْدُ اللَّهِ مَسْئُولًا﴾ أي: جديرًا بالوفاء والصدق، قبل أن يُسألوا عنه في الآخرة، وسوف يجازي الله كل ناقض للعهد بما يستحقه من عقاب.

ثم إن التخاذل عن الجهاد، والفرار من ساحة المعارك، لا يقدم في العمر ولا يؤخر، ولو عاش الإنسان بعض الوقت، فإن متاعه في الدنيا قليل لا يستحق بيع الآخرة به، قال تعالى:

خَوْفُ الْمُنَافِقِينَ وَتَثْبِيطُهُمْ لِلْمُؤْمِنِينَ

١٦- ﴿قُلْ لَنْ يَنْفَعَكُمْ الْفِرَارُ إِنْ فَرَرْتُمْ مِنَ الْمَوْتِ أَوِ الْقَتْلِ وَإِذَا لَا تُمْنَعُونَ إِلَّا قَلِيلًا﴾

في هذه الآية يصحح الله تعالى الزعم الذي دعا المنافقين إلى الفرار من المعركة، ونقض العهد مع المسلمين، وهو الخوف من الموت أو القتل. فقد علم سبحانه أنهم ما أرادوا إلا الفرار جُبْنًا، فبيَّن سبحانه أن الفرار لا ينجي من الموت حتف الأنف، ولا من القتل بيد العدو، فإن الأسباب تنفع إذا لم يعارضها القدر، فإذا جاء القدر تلاشي كل سبب، وبطلت كل وسيلة ظنها الإنسان أنها تنجيه.

قل - أيها الرسول- لهؤلاء المنافقين الذين يفرون من القتال طمعًا في البقاء، وحرصًا على الحياة: إن فراركم لن يؤخر آجالكم لمن حضر أجله، ولن يدفع عنكم الموت أبدًا، كما قال تعالى: ﴿فَإِذَا جَاءَ أَجْلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ﴾ [النحل: ٦١].

وقال سبحانه: ﴿أَتَيْنَا تَكُونُوا يُدْرِكُكُمُ الْمَوْتُ وَلَوْ كُنْتُمْ فِي بُرُوجٍ مُشِيدَةٍ﴾ [النساء: ٧٨]. وقال جلَّ شأنه: ﴿قُلْ إِنَّ الْمَوْتَ الَّذِي تَفِرُّونَ مِنْهُ فَإِنَّهُ مُلْفِيكُمْ ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَىٰ عِلِّيِّ الْعَالَمِ

وَالشَّهَادَةَ فَيَبْتِئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٨﴾ [الجمعة].

وإن فررتم أو هربتم ونجوتم من الموت -على سبيل الفرض- فلن تتمتعوا بعد هذا الفرار إلا زمنًا قليلًا بقدر ما بقي من أعماركم المحدودة.

فمن لم يمت بالسيف مات بغيره، تنوعت الأسباب والموت واحد.

وهكذا فقد وبخهم الله تعالى على الفرار من ساحة المعركة، ثم أعلمهم أنه لا عاصم لهم من عذاب الله، وأنهم لن يفلتوا من عقابه.

والفرار من ساحة المعركة غير مآذون فيه إذا كان العدو ضِعْفَ المسلمين في عدده وعُدته، فإن كان العدو أكثر من ذلك، جاز، كما قال تعالى: ﴿الَّذِينَ خَفَفَ اللَّهُ عَنْكُمْ وَعَلَّمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفًا فَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ مِائَةٌ صَابِرَةٌ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ﴾ [الأنفال: ٦٦].

كما يحرم الفرار إذا كان المسلمون يزحفون نحو الأعداء، كما قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا زَحَفًا فَلَا تُولُوهُمْ الْأَدْبَارَ﴾ [الأنفال: ١٥].

ولعل هذا التوبيخ على الفرار في غزوة الأحزاب، كان قبل التخفيف الذي جاء في سورة الأنفال؛ لأن جيش الأحزاب كان أربعة أمثال جيش المسلمين، وكان المسلمون في حصار، ولم يكونوا زاحفين نحو أعدائهم.

ثم بين سبحانه أن الأسباب كلها لا تغني عن العبد شيئًا إذا أراد الله بسوء، قال تعالى:

١٧ - ﴿قُلْ مَنْ ذَا الَّذِي يَعْصِمُكُمْ مِنَ اللَّهِ إِنْ أَرَادَ بِكُمْ سُوءًا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ رَحْمَةً وَلَا يَجِدُونَ لَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا﴾ [٧].

وأخيرًا، حَكَمَ - سبحانه - بأنهم لن يجدوا غير الله وليًّا يُعينهم، ولا نصيرًا ينصرهم.

﴿قُلْ﴾ - يا أيها النبي - لهؤلاء المنافقين: إن قدرة الله تعالى محيطة بالمخلوقات، فإن شاء عطل تأثير الأسباب في المسببات، فربما أتت الرزايا من جهة القوائد، وإذا أراد الله بعبده سوءًا فلا عاصم له من الله تعالى، وإن أراد به رحمة فليس في استطاعة أحد أن يمنع هذه الرحمة، فلا قريب ينفعه، ولا ناصر ينصره، فمن ذا الذي يمنعكم ويجيركم من عذابه إن قدر هلاككم، ومن يمنع عنكم خيره إن قدر بقاءكم ونصركم، فهو المعطي

المانع، النافع الضار، ولا يجد هؤلاء المنافقون لهم من دون الله وليًا يواليهم ولا نصيرًا ينصرهم، ثم توعّد الله المشبطين عن الجهاد وتهدهم بقوله:

١٨- ﴿قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الْمُعَوِّقِينَ مِنْكُمْ وَالْقَائِلِينَ لِإِخْوَانِهِمْ هَلُمَّ إِلَيْنَا وَلَا يَأْتُونَ الْبَأْسَ إِلَّا قَلِيلًا﴾

ذكر سبحانه في هذه الآية نوعًا ثالثًا من المنافقين، يظنون لجهلهم أن الله تعالى لا يعلم بواطن الأمور، فيخفون مقاصدهم عن رسول الله ﷺ، فيبين ﷺ أنه يعلم الذين يقعدون عن الجهاد، ويدعون غيرهم إلى القعود عن الجهاد، ممن قالوا لغيرهم: ﴿لَا مُقَامَ لَكُمْ فَارْجِعُوا﴾ أو قالوا: ﴿هَلُمَّ إِلَيْنَا﴾ أي: ارجعوا إلينا، واتركوا جيش المسلمين، فالله تعالى يعلم المشبطين غيرهم عن الخروج للقتال، ممن لم يخرجوا، ويعلم الذين قالوا لمن خرج مجاهدًا: ارجعوا إلى المدينة ولا تورطوا أنفسكم، وهؤلاء المشبطون أشد الناس حرصًا على التخلف عن الجهاد، لما فيهم من جبن ونفاق وعدم صبر وإيمان، فهم لا يأتون القتال إلا قليلًا مراءاة للناس وليس بدافع الإيمان.

وَرَدَ أن أحد المؤمنين رجع إلى بيته، فوجد أخاه المنافق أمام طعام شهيّ، فقال له: أجلس هكذا ورسول الله في القتال؟ فقال له أخوه: هلم إلى ما أنا فيه من طعام وشراب، ودع عنك محمدًا، فإنه لا قبل له بأعدائه، وإنه لهالك، فشتمه أخوه المؤمن وقال: لأخبرن رسول الله ﷺ، فلما وصل إليه وجد الآية قد نزلت^(١).

وقال ابن السائب: نزلت هذه الآية في (عبد الله بن أبي) وأمثاله من المنافقين الذين رجعوا من الخندق إلى المدينة، فكانوا إذا جاءهم المنافق قالوا له: اجلس ولا تخرج، ويكتبون إلى من في المعسكر أن هلموا إلينا فإننا في انتظاركم^(٢).

فالله تعالى يعلم ما تكنه الضمائر، ويعلم ما يقوله المشبطون للعزائم، من الذين يعوقون الناس عن الجهاد.

والاعتقاد بأن الله تعالى لا يعلم خفايا القلوب ليس بعجيب لدى أهل الكفر:

جاء في صحيح البخاري ومسلم: عن ابن مسعود ؓ أنه: اجتمع عند البيت قرشيّان

(١) أخرجه ابن أبي حاتم عن ابن زيد كما في «الدر المنثور» (١١/٧٥٥).

(٢) «تفسير الألوسي» (٢١/١٢٣).

وثقفي، أو ثقفيان وقرشي، كثيرة شُحْمُ بطونهم، قليلة فقه قلوبهم، فقال أحدهم: أترؤن أن الله يسمع ما نقول؟ قال الآخر: يسمع إن جهرنا، ولا يسمع إذا أخفينا، وقال الآخر: إن كان يسمع إذا جهرنا فإنه يسمع إذا أخفينا، فأنزل الله: ﴿وَمَا كُنْتُمْ تَسْتَرُونَ أَنْ يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلَا أَبْصَرُكُمْ وَلَا جُلُودُكُمْ وَلَكِنْ ظَنَنْتُمْ أَنَّ اللَّهَ لَا يَعْلَمُ كَثِيرًا مِمَّا تَعْمَلُونَ﴾ (١) [فصلت].

وفي هذه الآية بين سبحانه أنه محيط بالمنافقين، وأنهم لن يفلتوا من عقابه، وأنه تعالى يعلم المبطلين عن الجهاد في سبيل الله، الذين يسعون بالتخذيل بين صفوف المسلمين، ويعلم حقيقة الذين يدعون إخوانهم في النفاق إلى القعود عن الجهاد، فيقولون لهم: تعالوا وانضموا إلينا واركبوا محمداً، ولا تشهدوا لهم قتالاً فإننا نخاف عليكم الهلاك.

وهؤلاء المنافقون مع تخذيلهم وتعويقهم طرق الجهاد لا يأتون القتال إلا نادراً، من باب الرياء والسمعة وخوف الفضيحة، فهم لا يقبلون على القتال إلا إقبالاً قليلاً، تارة يخرجون مع المؤمنين؛ لإيهامهم أنهم معهم، وتارة يخرجون رياء، أو طمعاً في الغنيمة.

جِبْنُ الْمُنَافِقِينَ وَبُخْلُهُمْ

١٩- ﴿أَشِحَّةً عَلَيْكُمْ فَإِذَا جَاءَ (٢) الْخَوْفُ رَأَيْتَهُمْ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ كَالَّذِي يُغْتَنَّى عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ فَإِذَا ذَهَبَ الْخَوْفُ سَلَفُوكُمْ بِالْأَسِنَّةِ حِدَادٍ أَشِحَّةً عَلَى الْخَيْرِ أُولَئِكَ لَمْ يُؤْمِنُوا فَأَحْبَطَ اللَّهُ أَعْمَلَهُمْ وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا﴾ (١٩)

أخذت السورة تُصَوِّرُ ما جُبِلَ عليه المنافقون من: جُبْنٍ وَبُخْلٍ وَخَوَرٍ، وتكشف أحوالهم.

١- فوصفتهم - أَوَّلًا في هذه الآية - بشدة البخل، فهم بخلاء بأبدانهم وأموالهم، فلا يجاهدون بالنفس ولا بالمال، وهم يمنعون المؤمنين من بذل ما في وسعهم من المال أو المعونة أو الصلة والمودة؛ وذلك لما في نفوسهم من العداوة والحقد عليهم، إنهم يَشْحُون ببذل أنفسهم إذا دُعُوا إلى الجهاد، حُبًّا في الدنيا وكراهية في الموت، فهم أشحاء بالنفس والمال ﴿أَشِحَّةً عَلَيْكُمْ﴾ فهم يَشْحُون بأنفسهم، ويشْحُون بإخوانهم، ويشْحُون بأموالهم، إنهم يشْحُون بكل ما فيه نفع للمؤمنين.

(١) «صحيح البخاري» برقم (٤٨١٧، ٧٥٢١) و«صحيح مسلم» برقم (٢٧٧٥).

(٢) أمال الألف التي بعد الجيم من (جاء) ابن ذكوان وحمزة وخلف وهشام بخلف عنه.

٢- ووصفتهم - ثانيًا - بالجبن والخور، ﴿فَإِذَا جَاءَ الْخَوْفُ رَأَيْتَهُمْ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ﴾ أي فإذا رأوا جيوش العدو مقبلة وحضرت ساعة القتال، خافوا الهلاك على أنفسهم، ورأيتهم في رُعب شديد لا نظير له، حتى إن أعينهم تدور في أحداقهم، كحال المغشي عليه من سكرات الموت لذهاب عقولهم، خوفًا من القتل وفرارًا منه ﴿تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ كَالَّذِي يُغْشَى عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ﴾ هذا تصوير لحال المنافقين عندما يتوقعون الشدائد ويخافون من الموت، فهم بخلاء جبناء عند لقاء العدو.

٣- أما حالهم عند حلول الأمان وذهاب الخوف، فإنهم يرفعون أصواتهم، ويصيحون بالملامة على من عرّضهم لخطر الحرب، وعدم الانصياع إلى مشورتهم ﴿فَإِذَا ذَهَبَ الْخَوْفُ﴾ أي: انتهت الحرب وذهب الرعب ﴿سَلَفَوْكُمْ بِالْسِّنَةِ حِدَادٍ﴾ أي: رموكم بالسنة سليطة مؤذية، وبالغوا في ذمكم.

٤- وهم عند حصول الغنائم يطلبون القسمة وأخذ نصيبهم منها، قائلين: إنا شهدنا وقاتلنا، وهم عند ملاقات العدو أجبن قوم وأضعف جند، فهم ﴿أَشْحَةً عَلَى الْخَيْرِ﴾ أي: إن المنافقين عند لقاء العدو وشدة البأس، جبناء يبذل أنفسهم، أشحاء بأموالهم، وعند تقسيم الغنائم بخلاء وحسدة.

وهم في حالة السلم يُسرعون إلى ملامتكم وخصومتكم، ولا يواسونكم بأموالهم لتجهيز للقاء العدو، فهم أشحة على كل ما فيه الخير للمسلمين.

وقد كان المنافقون يوهمون المسلمين أنهم منهم، فكشف الله دخائلهم بأنهم قوم قد أسلموا في الظاهر، ولكن الإيمان لم يدخل قلوبهم، ولذا، بين سبحانه سوء مصيرهم، فأبطل الله ثواب أعمالهم بسبب نفاقهم؛ لأن الإيمان شرط في قبول الأعمال ﴿أُولَئِكَ لَمْ يُمْؤِنُوا فَاحْبَطَ اللَّهُ أَعْمَالَهُمْ﴾ وأذهب ثوابها، وكان هذا الإحباط هيئًا على الله تعالى، وكل شيء سهل هين على رب العالمين، ولكنه سبحانه أراد أن يبين أن أعمالهم جديرة بالإحباط لصدورها عن قلوب مريضة ونفوس خبيثة، وهذا النوع من الناس لا ينقطع في جيل من الأجيال، فهو موجود في كل زمان ومكان.

- أما المؤمنون فقد وقاهم الله شح أنفسهم، ووفقهم لبذل أموالهم، فجاهدوا في سبيل الله بأموالهم وأنفسهم، وبذلوا النفس والنفس لإعلاء كلمة الله تعالى.

ثم كشف القرآن عن حالة أخرى من أحوال جبن المنافقين، وهي أنهم يتمنون عند لقاء العدو أن يكونوا خارج المدينة، يتسمعون أخبارهم، ولو أنهم كانوا داخل المدينة مصادفة لكان مشاركتهم في القتال صورة ورياء، قال تعالى:

٢٠- ﴿يَحْسَبُونَ^(١) الْأَحْزَابَ لَمْ يَذْهَبُوا وَإِنْ يَأْتِ الْأَحْزَابُ يَوَدُّوْنَ لَوْ أَنَّهُمْ بَادُوتَ فِي الْأَعْرَابِ يَسْأَلُونَ^(٢) عَنْ أَنْبَائِكُمْ وَلَوْ كَانُوا فِيكُمْ مَا قَتَلُوا إِلَّا قَلِيلًا

ختم الله - سبحانه - هذا الحديث الجامع عن صفات المنافقين عند الشدائد والمحن، فكشف - جلَّ شأنه - عن حالهم بأنهم قوم بلغ بهم الجبن والخور أنهم بعد رحيل الأحزاب عن المدينة، يظنون من شدة الخوف، أنهم لم يذهبوا عنها، وبعد زوال أسباب الخوف لا يزالون يعيشون في جنبهم، فهم ﴿يَحْسَبُونَ الْأَحْزَابَ لَمْ يَذْهَبُوا﴾ وهذا من شدة الخوف والجبن، مع أن الله تعالى هزمهم شر هزيمة.

وإن عاد الأحزاب مرة ثانية إلى المدينة تمنى أولئك المنافقون أنهم لو كانوا غائبين عن المدينة بين أعراب البادية؛ حتى لا يتعرضوا للقتال.

ثم بين سبحانه أن المنافقين يتلهفون على سماع الأخبار السيئة عن المؤمنين، فهم يسألون القادمين من المدينة والذاهبين إليها عن أحوالكم، ويتجسسون من بعيد على أخباركم ﴿يَسْأَلُونَ عَنْ أَنْبَائِكُمْ﴾، ماذا حصل لكم؟

ثم أخبر سبحانه أن المنافقين لو كانوا موجودين في ساحة المعركة لامتنعوا عن القتال معكم؛ إلا ما كان من باب الرياء وإيهام المشاركة، وذلك لشدة جبنهم وضعف يقينهم، فقال: ﴿وَلَوْ كَانُوا فِيكُمْ مَا قَتَلُوا إِلَّا قَلِيلًا﴾ وذلك لحرصهم على الحياة، فهم لا يقاتلون رغبة، وإنما يقاتلون لئلا يكشف أمرهم.

وكيف تشحون - أيها المنافقون - بأنفسكم عن أمر جاد فيه رسول الله ﷺ بنفسه، لقد حضر الهيحاء بنفسه، وشارك في حفر الخندق بنفسه، وياشر الحرب بنفسه، فتأسوا برسول الله ﷺ:

(١) قرأ ابن عامر وعاصم وحزمة وأبو جعفر بفتح السين من (يحسبون)، والباقون بضمها.

(٢) قرأ رويس بتشديد السين من (يسألون)، والباقون بتخفيفها، ووقف عليها حمزة، بنقل حركة الهمزة إلى السين، مع حذف الهمزة، وله أيضًا إبدالها ألفًا.

وَجُوبُ التَّأْسِي بِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ

٢١- ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ^(١) حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا

استدل الأصوليون بهذه الآية على الاحتجاج بأفعال الرسول ﷺ، وأن الأصل أن تتأسى به الأمة في جميع الأحكام، إلا ما دل الدليل على الاختصاص به، والمتأسى برسول الله ﷺ يسلك الطريق المستقيم الموصل إلى دار النعيم، أما المتأسى بغيره فيما يخالف شرع الله تعالى فهو صاحب الأسوة السيئة ممن قال الله فيهم ﴿إِنَّا وَجَدْنَا عِبَادَنَا عَلَى أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَى آثَرِهِمْ مُّهْتَدُونَ﴾ [الزخرف: ٢٢] ويوفق للأسوة الحسنة من كان يرجو الله واليوم الآخر، فإن ما معه من الإيمان والخوف والرجاء، يدفعه إلى التأسي برسول الله ﷺ^(٢).

وبعد أن تعرّض القرآن الكريم بالتوبيخ للذين لم يتأسوا برسول الله ﷺ، ولم يقتدوا به من المنافقين، والذين في قلوبهم مرض، أثنى على المؤمنين الذين يرجون الله واليوم الآخر، وذكروا الله كثيرًا، فهم الذين يتأسون برسول الله، ويهتدون بهديه.

أما الآخرون فالذي منعهم من التأسي برسول الله ﷺ، هو النفاق، ومرض القلب يكون بالشك في هذا الدين.

وهذا كقوله تعالى عن المنافقين: ﴿رَضُوا بِأَن يَكُونُوا مَعَ الْخَوَالِفِ وَطُبِعَ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ﴾ (٨٧) [التوبة].

ثم أعقب ذلك بيان حال المؤمنين، فقال: ﴿لَكِنِ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ جَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ وَأُولَئِكَ لَهُمُ الْخَيْرَاتُ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ (٨٨) [التوبة].

والآية كما قال ابن كثير: أصل كبير في التأسي برسول الله ﷺ في أقواله وأفعاله وأحواله، ولهذا أمر الناس بالتأسي بالرسول ﷺ يوم الأحزاب في صبره ومصابرته ومرابطته ومجاهدته، وانتظاره الفرج من ربه حين تضجّر القوم، وزلزلوا واضطربوا في أمرهم، فكان رسول الله ﷺ مصدر الثقة والرجاء والاطمئنان.

(١) ضم عاصم همزة (أسوة) وكسرها الباقون، والأولى لغة قيس وتميم، والثانية لغة أهل الحجاز.

(٢) ينظر: تفسير ابن سعدي للآية.

لقد كان لكم -أيها المؤمنون- في أقوال رسول الله وأفعاله وأحواله قدوة حسنة تتأسون بها، فالزموا سنته، فإنما يسلكها ويتأسى بها من كان يرجو الله واليوم الآخر، وأكثروا من ذكر الله، واستغفروه، واشكروه في كل حال.

مواقف إيمانية في حفر الخندق:

وقد كان في يوم الخندق كثير من المواقف التي تؤخذ مثلاً للتأسي برسول الله ﷺ في سائر أحواله، منها: أن النبي ﷺ شارك أصحابه في حفر الخندق، وفي الضرب بالفأس، وحمل التراب، وشاركهم في أراجيزهم وأناشيدهم، وهم يقومون بهذا العمل الشاق، وشاركهم في تحمل آلام الجوع وآلام السهر، بل كان ﷺ هو القائد الحازم، وهو القائد الرحيم الذي يلجأ إليه أصحابه عندما يعجزون عن إزالة عقبة صادفتهم خلال حفرهم للخندق:

١- فعن جابر بن عبد الله رضي الله عنه أن الصحابة رضي الله عنهم كانوا إذا اشتدت عليهم في بعض الخندق كذبة -أي: صخرة عظيمة- شكوا ذلك لرسول الله ﷺ، فدعا بإناء من ماء، فثفل فيه، ثم دعا بما شاء أن يدعو به، ثم نضح ذلك الماء على تلك الكذبة، فيقول من حضرها: فوالذي بعثه بالحق نبياً، لانهالت، أي: لتفتتت حتى عادت كالكتيب، أي: الرمل المتجمع، لا تردّ فأساً ولا مسحاة^(١).

٢- وكان زيد بن ثابت رضي الله عنه فيمن ينقل التراب، فقال ﷺ: «أما إنه نغم الغلام!» وغلبته عيناه فنام في الخندق، وكان الحر شديداً، فأخذ (عمارة بن حزم) سلاحه وهو لا يشعر، فلما قام فزع، فقال ﷺ: «يا أبا رُقَاد، نمت حتى ذهب سلاحك!» ثم قال: «من له علم بسلاح هذا الغلام؟» فقال عمارة: يا رسول الله هو عندي، فقال: «رده عليه»^(٢).

ونهى ﷺ أن يروّع المسلم، ويؤخذ متاعه ولو لعباً!

٣- وعن سلمان الفارسي رضي الله عنه قال: ضربت في ناحية من الخندق، فغلظت عليّ صخرة، ورسول الله ﷺ قريب مني، فلما رأيته أضرب، ورأيت شدة المكان عليّ، نزل، فأخذ المِعُول من يدي، فضرب به ضربة لمعت تحت المِعُول برّقه، قال: ثم ضرب به ضربة

(١) «السيرة النبوية» لابن هشام (٢/٢٢٩).

(٢) في إسناده الواقدي كما قال ابن حجر، تنظر غزوة الأحزاب في كتب السيرة.

أخرى، فلمعت تحتة برقة أخرى، قال: ثم ضرب به الثالثة، فلمعت تحتة برقة أخرى، قال: قلت: بأبي أنت وأمي يا رسول الله، ما هذا الذي رأيت؟ لمع المغول وأنت تضرب؟ قال: «أَوَ قَدْ رَأَيْتَ ذَلِكَ سَلَمَانَ؟» قال: قلت: نعم، قال: «أَمَّا الْأُولَى فَإِنَّ اللَّهَ فَتَحَ عَلَيَّ بِهَا الْيَمْنَ، وَأَمَّا الثَّانِيَةُ فَإِنَّ اللَّهَ فَتَحَ عَلَيَّ بِهَا الشَّامَ وَالْمَغْرِبَ، وَأَمَّا الثَّالِثَةُ فَإِنَّ اللَّهَ فَتَحَ بِهَا عَلَيَّ الْمَشْرِقَ»^(١).

وهذه الآية وإن كان نزولها في غزوة الأحزاب، إلا أن المقصود بها وجوب الاقتداء بالرسول ﷺ في جميع أقواله وأفعاله، كما قال تعالى: ﴿وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا﴾ [الحشر: ٧].

وقال سبحانه: ﴿قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ﴾ [آل عمران: ٣١].

وهذه القدوة، وهذه المحبة، ثابتة وحاصلة للمؤمنين حق الإيمان، الذين يرجون ثواب الله تعالى ويؤمنون رحمته، الملازمون لذكر الله سبحانه، فهم المتفجعون بالتأسي برسول الله ﷺ.

ومن التأسي برسول الله ﷺ ما جاء عن سعيد بن يسار قال: كنت مع ابن عمر رضي الله عنهما في طريق مكة، فلما خشيتُ الصبح نزلتُ فأوترتُ، فقال ابن عمر: أليس لك في رسول الله أسوة؟ قلت: بلى، قال: فإنه كان يوتر على البعير^(٢).

ومثله صلاة النافلة في الطائرة، أو السيارة، أو الباخرة، ونحو ذلك، أينما توجهت.

وعن حفص بن عاصم قال: حدثني أبي أنه سمع ابن عمر رضي الله عنهما يقول: صحبتُ رسول الله ﷺ فكان لا يزيد في السفر على ركعتين، وأبا بكر، وعمر، وعثمان كذلك ﷺ^(٣).

وعن ابن عباس قال: إذا حرّم الرجل عليه امرأته فهي يمين يكفرها، وقرأ الآية^(٤).

(١) يُنظر: ابن إسحاق (٢/٢٤٥) وابن أبي حاتم عن السدي كما في «الدر» (١١/٧٥٠) وابن أبي شيبة عن البراء بن عازب (١٤/٤٢١).

(٢) البخاري (٩٩٩) ومسلم (٧٠٠) والترمذي (٤٧٢) والنسائي (١٦٨٧) ومالك (١/١٥٠).

(٣) يُنظر: «البخاري» (١١٠١، ١١٠٢) وهذا لفظه، ومسلم (٦٨٩) وابن ماجه (١٠٧١).

(٤) البخاري (٤٩١١) ومسلم (١٤٧٣) والطيالسي (٥٧٥٧) وعبد الرزاق (١١٣٦٣).

وَصَفُ حَالِ الْمُؤْمِنِينَ عِنْدَ رُؤْيَيْهِمْ تَجَمُّعَ الْأَحْزَابِ

٢٢- ﴿وَلَمَّا رَأَى الْمُؤْمِنُونَ الْأَحْزَابَ قَالُوا هَذَا مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَصَدَقَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَمَا زَادَهُمْ إِلَّا إِيمَانًا وَتَسْلِيمًا﴾

ولما ذكر سبحانه وتعالى أحوال المنافقين الذين في قلوبهم مرض وفي أقوالهم عند الخوف من القتال، وذكر المشبطين غيرهم عن الجهاد، وما نتج عن ذلك من التخاذل عن الجهاد والشك في وعد الله ورسوله.

بعد هذا، قابل الله تعالى بين ذلك وبين صبر المؤمنين على الشدة، وتصديقهم وعد الله تعالى لهم بالنصر على لسان نبيه ﷺ، وما قاله المؤمنون عند رؤيتهم كثرة جنود قريش ومن تحزب معهم بما يظهر روح الإيمان والتضحية، ويدل على الإخلاص واليقين.

﴿وَلَمَّا رَأَى﴾ أي: شاهد ﴿الْمُؤْمِنُونَ الْأَحْزَابَ﴾ الذين تحزبوا واجتمعوا حول المدينة قادمين نحوها، وأحاطوا بها من كل جانب إحاطة السوار بالمعصم، -عندئذ - تذكروا وعد الله لهم بالنصر، وأنه قد اقترب مواعده، ﴿قَالُوا هَذَا مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ﴾ من المحنة والابتلاء، ثم النصر على الأعداء، وأن الضيق يعقبه فرج ﴿وَصَدَقَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ﴾ فيما أخبرنا به، فأنجز وعده، وصدق رسوله فيما بشر به من فتح البلاد، وهزيمة الأعداء ﴿وَمَا زَادَهُمْ﴾ النظر إلى الأحزاب، وما رأوه من كثرة جندهم، وشدة الضيق والحصار ﴿إِلَّا إِيمَانًا﴾ بالله قويًا ثابتًا، وتصديقًا جازمًا ﴿وَتَسْلِيمًا﴾ لقضائه وانقيادًا لأمره.

وكان الله سبحانه قد وعد المؤمنين بالنصر أكثر من مرة، في مثل قوله تعالى: ﴿آمَنَّا بِمَا نَزَّلْنَاكَ مِنَ الْكِتَابِ وَلَقَدْ جَاءَنَا ذِكْرُنَا مِن قَبْلُ وَأَنزَلْنَا إِلَيْنَا الْوَحْيَ وَإِنَّا لَنَظُنُّكَ مِنَ الْكَاذِبِينَ﴾ [البقرة: ٢٣٠]، ﴿وَلَقَدْ جَاءَنَا ذِكْرُنَا مِن قَبْلُ وَأَنزَلْنَا إِلَيْنَا الْوَحْيَ وَإِنَّا لَنَظُنُّكَ مِنَ الْكَاذِبِينَ﴾ [البقرة: ٢٣١]، ﴿وَلَقَدْ جَاءَنَا ذِكْرُنَا مِن قَبْلُ وَأَنزَلْنَا إِلَيْنَا الْوَحْيَ وَإِنَّا لَنَظُنُّكَ مِنَ الْكَاذِبِينَ﴾ [البقرة: ٢٣٢]، ﴿وَلَقَدْ جَاءَنَا ذِكْرُنَا مِن قَبْلُ وَأَنزَلْنَا إِلَيْنَا الْوَحْيَ وَإِنَّا لَنَظُنُّكَ مِنَ الْكَاذِبِينَ﴾ [البقرة: ٢٣٣]، ﴿وَلَقَدْ جَاءَنَا ذِكْرُنَا مِن قَبْلُ وَأَنزَلْنَا إِلَيْنَا الْوَحْيَ وَإِنَّا لَنَظُنُّكَ مِنَ الْكَاذِبِينَ﴾ [البقرة: ٢٣٤]، ﴿وَلَقَدْ جَاءَنَا ذِكْرُنَا مِن قَبْلُ وَأَنزَلْنَا إِلَيْنَا الْوَحْيَ وَإِنَّا لَنَظُنُّكَ مِنَ الْكَاذِبِينَ﴾ [البقرة: ٢٣٥]، ﴿وَلَقَدْ جَاءَنَا ذِكْرُنَا مِن قَبْلُ وَأَنزَلْنَا إِلَيْنَا الْوَحْيَ وَإِنَّا لَنَظُنُّكَ مِنَ الْكَاذِبِينَ﴾ [البقرة: ٢٣٦]، ﴿وَلَقَدْ جَاءَنَا ذِكْرُنَا مِن قَبْلُ وَأَنزَلْنَا إِلَيْنَا الْوَحْيَ وَإِنَّا لَنَظُنُّكَ مِنَ الْكَاذِبِينَ﴾ [البقرة: ٢٣٧]، ﴿وَلَقَدْ جَاءَنَا ذِكْرُنَا مِن قَبْلُ وَأَنزَلْنَا إِلَيْنَا الْوَحْيَ وَإِنَّا لَنَظُنُّكَ مِنَ الْكَاذِبِينَ﴾ [البقرة: ٢٣٨]، ﴿وَلَقَدْ جَاءَنَا ذِكْرُنَا مِن قَبْلُ وَأَنزَلْنَا إِلَيْنَا الْوَحْيَ وَإِنَّا لَنَظُنُّكَ مِنَ الْكَاذِبِينَ﴾ [البقرة: ٢٣٩]، ﴿وَلَقَدْ جَاءَنَا ذِكْرُنَا مِن قَبْلُ وَأَنزَلْنَا إِلَيْنَا الْوَحْيَ وَإِنَّا لَنَظُنُّكَ مِنَ الْكَاذِبِينَ﴾ [البقرة: ٢٤٠].

وكانت هذه الآية من سورة (البقرة) قد نزلت قبل غزوة الأحزاب بعام، فلما رأى المؤمنون الأحزاب وزلزلوا زلزالاً شديداً، علموا أن ذلك هو الوعد الذي وعدهم الله به، وأنه ناصرهم على عدوهم، فلم تزدهم رؤية الأحزاب خوفاً على خوفهم، وإنما زادتهم إيماناً على إيمانهم، فانقادوا وأطاعوا وسلموا لملاقاة العدو تسليماً.

ذكر ابن إسحاق وغيره: أنه لما اشتد البلاء على المسلمين استشار الرسول ﷺ سعد بن عباد، وسعد بن معاذ، في أن يعطي ثمار المدينة تلك السنة عُيْنَةُ بن حُصْن، والحارث بن عوف، وهما قائدا غطفان على أن يرجعا عن المدينة، فقالا: يا رسول الله، هو أمر تحبُّه فنصنعه، أم شيء أمرك الله به لا بد لنا من العمل به، أم شيء تصنعه لنا؟ فقال ﷺ: «بل شيء أصنعه لكم» والله ما أصنع ذلك إلا لأني رأيت العرب قد رمتكم عن قوس واحدة، وكالبؤكم من كل جانب، فأردت أن أكسر عنكم من شوكتهم إلى أمرٍ مَّا، فقال سعد بن معاذ: يا رسول الله، والله لا نعطيهم إلا السيف حتى يحكم الله بيننا وبينهم، قال رسول الله: «فأنت وذاك» فكان هذا التسليم هو موقف المؤمنين في هذه الشدة.

ولما ذكر تعالى أن المنافقين عاهدوا الله أنهم لا يولّون الأدبار، ثم نقضوا هذا العهد، ذكر في مقابل ذلك وفاء المؤمنين بالعهد:

ثَنَاءُ اللَّهِ تَعَالَى عَلَى رِجَالٍ وَفَّوْا بِعُهُودِهِمْ مَعَهُ

٢٣- ﴿مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُمْ مَّنْ قَضَىٰ نَحْبَهُ وَمِنْهُمْ مَّنْ يَنْتَظِرُ وَمَا بَدَلُوا تَبَدُّلًا﴾

أي: من بين المؤمنين رجال كثيرون صادقون، نذروا أنهم إذا أدركوا حرباً لنصرة الإسلام والمسلمين مع المؤمنين، ثبتوا وقاتلوا معهم حتى يُستشهدوا، وقد وفَّوا أكمل وفاء بما عاهدوا الله عليه، فبذلوا مُهْجَهُمْ في مرضاة الله، وضحوا بأنفسهم في سبيل طاعته، فكان من المؤمنين رجال أدركوا أمنيتهُم، ووفَّوا بنذرهم ووعدهم وعهدهم، فقاتلوا حتى قُتِلُوا يوم غزوة أحد: كحمزة، ومصعب بن عمير، وأنس بن النضر، وهؤلاء هم الذين قال الله فيهم: ﴿فَمِنْهُمْ مَّنْ قَضَىٰ نَحْبَهُ﴾ فجاهدوا، وصبروا على البأساء والضراء، وضربوا حين البأس وشدة القتال، حتى استشهدوا في سبيل الله.

وقضاء النخب لا يعني الموت بالضرورة، يدل عليه أن النبي ﷺ كان على المنبر فقال له أعرابي: يا رسول الله، من الذي قضى نجه؟ فسكت ﷺ ساعة، ثم دخل طلحة بن عبيد الله على باب المسجد، وعليه ثوبان أخضران، فقال رسول الله ﷺ: «هذا ممن قضى نجه»^(١)،

(١) «تفسير ابن عطية» (٣٨٧/٤) و«طبقات ابن سعد» (١، ١٨٥/٢) و«تفسير الطبري» وانظر: «سنن الترمذي»

(٣٢٠٣) قال أبو عيسى: هذا حديث حسن غريب لا نعرفه إلا من حديث يونس بن بكير، وحسنه الألباني

في «السلسلة الصحيحة» رقم (١٢٥) عند أبي يعلى (٦٦٣).

وقال معاوية: إني سمعت رسول الله ﷺ يقول: «طلحة ممن قضى نحبه»^(١).

وطلحة بن عبيد الله لم يميت في حياة النبي ﷺ.

﴿وَمِنْهُمْ مَّن يَنْتَظِرُ﴾ إحدى الحسينين: النصر أو الشهادة: كعثمان بن عفان، وطلحة، والزبير، وسعيد بن زيد، وأمثالهم، فإنهم منتظرون حصول النصر، أو إدراك فضل الشهادة.

﴿وَمَا بَدَلُوا بَدِيلًا﴾ أي: ما غيروا عهد الله، ولا نقضوه، ولا بدلوه كما فعل المنافقون.

وهذه الآية يُحتمل أن تكون قد نزلت مع بقية سورة (الأحزاب)، فتكون تذكيرًا بما حدث يوم أحد، ويحتمل أن تكون قد نزلت قبل ذلك، ويكون موضعها في هذه السورة بتوقيف من رسول الله ﷺ للتنبيه على المعنى المذكور فيها:

وهذه جملة من الأحاديث في نزول الآية:

١- أخرج البخاري وغيره بسنده عن خارجة بن زيد بن ثابت، عن أبيه رضي الله عنه قال: لما نسخنا الصحف -أي: التي كانت عند حفصة- فقدت آية من سورة (الأحزاب)، كنت أسمع رسول الله ﷺ يقرؤها، لم أجدها مع أحد إلا مع (خزيمة بن ثابت الأنصاري)، الذي جعل رسول الله ﷺ شهادته بشهادة رجلين ﴿مَنْ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ﴾^(٢).

٢- وفي البخاري وغيره: أن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: نزلت هذه الآية في أنس بن النضر^(٣).

٣- وعن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: غاب عمي أنس بن النضر عن قتال يوم بدر، فلما قدم قال: غبت عن أول قتال قاتله رسول الله ﷺ المشركين، لئن أشهدني الله ﷻ قتالاً ليرين الله ما أصنع.

فلما كان يوم أحد انكشف الناس، فقال: اللهم إني أبرأ إليك مما جاء به هؤلاء -

(١) جامع الترمذي رقم (٣٢٠٢) قال أبو عيسى: هذا حديث غريب لا نعرفه من حديث معاوية إلا من هذا الوجه، وإنما روي هذا عن موسى بن طلحة عن أبيه. وسيأتي قريباً.

(٢) «صحيح البخاري» برقم (٢٨٠٧، ٤٧٨٤) وهو في «المسند» (١٨٨/٥) برقم (٢١٦٤٠) بإسناد صحيح على شرط الشيخين، والترمذي برقم (٣١٠٤) و«السنن الكبرى» للنسائي برقم (١١٤٠١)، وأبو عبيد في فضائل القرآن ص (٢٨٣).

(٣) «صحيح البخاري» برقم (٤٧٨٣) و«صحيح مسلم» برقم (١٩٠٣) مطولاً.

يعني: المشركين- وأعتذر إليك مما صنع هؤلاء -يعني: المسلمين- ثم مشى بسيفه، فلقبه سعد بن معاذ، فقال: أي سعد، والذي نفسي بيده إني لأجد ريح الجنة دون أحد، وأها لريح الجنة، قال سعد: فما استطعتُ يا رسول الله ما صنع.

قال أنس: فوجدناه بين القتلى، به بضع وثمانون جراحة، من ضربة بسيف، وطعنة برمح، ورمية بسهم، فقد مثلوا به، قال: فما عرفناه، عرفته أخته ببنانه.

قال أنس: فكنا نقول: أنزلت هذه الآية: ﴿مَنْ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا﴾ فيه، وفي أصحابه^(١).

٤- وورد أن هذه الآية نزلت أيضًا في طلحة بن عبيد الله، فقد قُطعت يده وهو يدافع عن رسول الله ﷺ يوم أحد، وجاء عن عليٍّ عليه السلام أنه قيل له: حدثنا عن طلحة، قال: ذاك امرؤ نزلت فيه آية من كتاب الله تعالى: ﴿فَمِنْهُمْ مَنْ قَضَىٰ نَحْبَهُ﴾ لا حساب عليه فيما يستقبل^(٢).

٥- وعن معاوية عليه السلام قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «طلحة ممن قضى نجه»^(٣).
وقيل أيضًا: إنها نزلت في مصعب بن عمير.

٦- فعن أبي هريرة عليه السلام أن رسول الله ﷺ حين انصرف من أحد مرَّ على مصعب بن عمير وهو مقتول، فوقف عليه ودعا له، ثم قرأ: ﴿مَنْ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ﴾ ثم قال: «أشهد أن هؤلاء شهداء عند الله، فأتوهم وزورهم، والذي نفسي بيده لا يسلم عليهم أحد إلى يوم القيامة إلا ردُّوا عليه»^(٤).

٧- وفي رواية أبي ذر عليه السلام قال: لما فرغ رسول الله ﷺ يوم أحد مرَّ على مصعب بن عمير مقتولاً على طريقه، فقرأ: ﴿مَنْ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ﴾^(٥).

وتعدد أسباب النزول سائغ، وموجود في كثير من الآيات:

(١) البخاري (١٦/٦) برقم (٢٨٠٥) ومسلم (١٥١٢/٣) برقم (١٩٠٣) والترمذي (١٥١/٢) برقم (٣٢٠٠) وقال: هذا حديث حسن صحيح، والطبري (١٤٧/٢١).

(٢) أوردته السيوطي في «الدر المنثور» (١٩١/٥).

(٣) حديث حسن صحيح كما في «صحيح سنن الترمذي» (٢٥٥٩، ٢٩٤١) والطبري (٦٦/١٩) وهو في «سنن الترمذي» برقم (٣٢٠٢، ٣٧٤٠)، وقد سبق قريباً.

(٤) صححه الحاكم على شرط الشيخين (٢٤٨/٢) ولم يوافقه الذهبي، ورواه البيهقي في «الدلائل» (٢٨٤/٣).

(٥) صححه الحاكم (٢٠٠/٣) ووافقه الذهبي، والبيهقي في «الدلائل» (٢٨٥/٣) وهو يشهد لما قبله.

وهكذا فإن أمثال هؤلاء من الصحابة لم يزالوا على العهد، لا يبدلون ولا يتغيرون، فهم الرجال على الحقيقة، أما من عداهم فهم صور رجال ولا رجال!!
قال تعالى في جزاء المؤمنين الصادقين:

٢٤- ﴿لِيَجْزِيَ اللَّهُ الصَّادِقِينَ بِصِدْقِهِمْ وَيُعَذِّبَ الْمُنَافِقِينَ إِنْ شَاءَ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَحِيمًا﴾

بَيِّنَ ﷺ في هذه الآية، الحكمة من هذا الابتلاء الذي حدث يوم الخندق للمؤمنين والمنافقين، بأن الله تعالى سوف يثيبهم على إيمانهم وجهادهم؛ بسبب صدقهم في أقوالهم وأفعالهم، واستواء ظاهرهم وباطنهم، ووفائهم، وحسن صنيعهم أحسن الجزاء.

قال تعالى: ﴿هَذَا يَوْمُ يَنْفَعُ الصَّادِقِينَ صِدْقُهُمْ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا﴾ [المائدة: ١١٩] والمعنى: أن الله تعالى قدر ما قدر من المحن والزلازل في يوم الأحزاب وغيرها لتبين الصادق من الكاذب، فيجزى الصادقين بصدقهم.

﴿وَيُعَذِّبَ الْمُنَافِقِينَ﴾ إن شاء، لأنهم لم يوفؤا بالوعد، وتغيرت أحوالهم عند حلول الفتن، وتعذيبهم بألا يوفقهم للتوبة النصوح قبل الموت، فيموتوا على الكفر، ويستوجبوا النار، وهذا بسبب نفاقهم، ونقضهم للعهود، وموتهم على ذلك ﴿أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ﴾ من النفاق فيرحمهم ولا يعذبهم، ويخرجهم من النفاق إلى الإيمان بأن يوفقهم للتوبة والإنابة، وقد تاب كثير من المنافقين بعد ذلك، منهم (مُعْتَبٌ بن قشير)، فقد تاب الله عليهم وقبل توبتهم.

﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا﴾ واسع المغفرة لذنوب المسرفين على أنفسهم إذا تابوا ﴿رَحِيمًا﴾ واسع الرحمة بهم، حيث وفقهم للتوبة النصوح، فقبلها منهم، وستر عليهم ما فعلوه.

ولفظ ﴿كَانَ﴾ في جانب الله تعالى يدل على الاستمرار والدوام، فالرحمة والمغفرة صفتان ذاتيتان لله تعالى.

نَهَايَةُ الْمَعْرَكَةِ

٢٥- ﴿وَرَدَّ اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنَالُوا خَيْرًا وَكَفَى اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ الْقِتَالَ وَكَانَ اللَّهُ قَوِيًّا عَزِيزًا﴾

بَيِّنَ سبحانه في هذه الآية، المصير الذي انتهت إليه أحزاب الكفر والنفاق، حيث ردَّ الله الأحزاب على أعقابهم خائبين خاسرين مغتاضين، فهم ﴿لَمْ يَنَالُوا خَيْرًا﴾ في الدنيا ولا

في الآخرة، بل إنهم قد اكتسبوا الآثام والذنوب بمبارزتهم للنبي ﷺ وهمهم بقتله، وكفى الله المؤمنين شر أعدائهم بما أرسله على الأحزاب من ريح مَرَّقة شملهم، وجنود لم يروها، فقد أرسل الله على الأحزاب ريح الصَّبا، فزعزت مراكزهم، وقوضت خيامهم، وكفأت قدورهم، وملأ الله قلوبهم رعباً، فانصرفوا بغیظهم، وكان سبب هذا الانتصار ريح جنَّدها الله تعالى لأحبابه، وملائكة لم تظهر في أرض المعركة.

ومما تضرع به النبي ﷺ إلى ربه في غزوة الأحزاب، كما جاء عن عبد الله بن أبي أوفى ؓ قال: دعا رسول الله ﷺ على الأحزاب فقال: «اللهم منزل الكتاب، سريع الحساب، اهزم الأحزاب، اللهم اهزمهم وزلزلهم»^(١).

ولهذا قال ﷺ: من حديث أبي هريرة ؓ في الصحيحين «لا إله إلا الله وحده، أعز جنده، ونصر عبده، وغلب الأحزاب وحده، فلا شيء بعده»^(٢).

وأخرج ابن سعد وغيره، عن سعيد بن المسيب قال: لما كان يوم الأحزاب حُصر النبي ﷺ وأصحابه بضع عشرة ليلة حتى خَلَصَ إلى كل امرئ منهم الكَرْبُ، وحتى قال النبي ﷺ «اللهم إني أنشدك عهدك ووعدك، اللهم إنك إن تشأ لا تُعبد»، فبينما هم على ذلك إذ جاءه (نعيمُ بنُ مسعود الأشجعي)، وكان يأمنه الفريقان جميعاً، فخذل بين الناس، فانطلق الأحزاب منهزمين من غير قتال، فذلك قوله تعالى: ﴿وَكَفَى اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ الْقِتَالَ﴾^(٣).

وقد حُجِسَ المسلمون يوم الخندق عن صلوات الظهر والعصر والمغرب والعشاء، فأمر النبي ﷺ بلالاً، فأقام فضلى الظهر، ثم أقام فضلى العصر، ثم أذن للمغرب فصلاها وهكذا^(٤)، وكان ذلك قبل أن تشرع صلاة الخوف.

(١) «صحيح البخاري» برقم (٢٩٣٣) (٤١١٥) و«صحيح مسلم» برقم (١٧٤٢).

(٢) من حديث أبي هريرة في البخاري برقم (٤١١٤) ومسلم مع اختلاف في اللفظ برقم (٢٧٢٤).

(٣) «طبقات ابن سعد» (٧٣/٢) و«مُصَنَّفُ عَبْدِ الرَّزَّاقِ» (٣٦٨/٥).

(٤) يُنْظَرُ: هذا المعنى في حديث أبي سعيد في «صحيح سنن النسائي» (٦٣٨) وإرواء الغليل (٢٥٧/١) وابن أبي شية (٧٠/٢) والبيهقي (٤٤٥/٣) وابن خزيمة (٩٩/٢) و«المسند» (٢٥/٣) وانظر البخاري (٤١١٢) ومسلم (٦٣١) عن جابر عن عمر.

وختم الله أحداث غزوة الأحزاب بقوله: ﴿وَكَانَ اللَّهُ قَوِيًّا﴾ على إحداث كل أمر يريده، وهو سبحانه لا يُعَالَب ولا يُقَهَر، وهو جلُّ شأنه ﴿عَزِيزًا﴾ في ملكه وسلطانه. والعزة والقوة صفتان ثابتتان لله تعالى.

ومن هذه العزة والقوة صَرَفُ الأحزاب عن المسلمين بأسباب هيأها الله سبحانه. ولما انصرف أهل الخندق عن الخندق قال رسول الله ﷺ: «لن تغزوكم قريش بعد عامكم هذا، ولكنكم تغزونهم»^(١) وقد تحقق هذا، فلم تغز قريش بعد ذلك المسلمين، وكان ﷺ هو الذي يغزوهم، حتى فتح الله عليه مكة.

وعن سليمان بن صُرد قال: قال رسول الله ﷺ يوم الأحزاب: «الآن نغزوهم ولا يغزونا»^(٢). ثم بيّن سبحانه المصير الذي حلّ بأهل الكتاب حين عاونوا الأحزاب على قتال النبي ﷺ بأن ألقى الله في قلوبهم الرعب فاستسلموا وخضعوا، فقتل المسلمون رجالهم وأسروا نساءهم وورثوا ما خلفوه من أرض وديار وأموال:

غَدْرُ بَنِي قَرْيِظَةَ وَعُقُوبَتُهُمْ

٢٦- ﴿وَأَنزَلَ الَّذِينَ ظَاهَرُوهُمْ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِن صَيَاصِيهِمْ وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ﴾^(٤) قَرِيبًا نَّقَتُولُكَ وَأَنصَرُوكَ قَرِيبًا ﴿٢٦﴾

بيّن ﷺ في هذه الآية ما حلّ ببني قريظة بسبب نقضهم للعقود، لما رأوا الأحزاب قد تجمعوا، وظنوا أنهم سيستأصلون الرسول ﷺ والمؤمنين، فنقضوا العهد الذي بينهم وبين الرسول، وتعاونوا مع المشركين على قتاله، فلما خذل الله المشركين ومن عاونهم، تفرغ الرسول لقتالهم، فحاصرهم في حصنهم، ونزلوا على حكم سعد بن معاذ فيهم، كما

(١) «حاشية الجمل على الجلالين» (٤٣١/٣) عن محمد بن إسحاق.

(٢) «المسند»: (٢٦٥/٤) و«صحيح البخاري» برقم (٤١٠٩).

(٣) قرأ أبو عمرو ويعقوب بكسر الهاء والميم وصلّا من (في قلوبهم الرعب) وضمهما حمزة والكسائي، وخلف وصلّا كذلك، والباقون بكسر الهاء وضم الميم، ووقف الجميع بكسر الهاء وسكون الميم.

(٤) ضم عين (الرعب) ابن عامر والكسائي وأبو جعفر ويعقوب، وأسكنها غيرهم.

سيأتي، وكان النبي ﷺ بعد هجرته إلى المدينة قد عقد معهم، ومع بني النضير، وبني قينقاع، مهادنة، أوجب لهم فيها النصرة والحماية والأمان، على ألا يغدروا، ولا يفجروا، ولا يتجسسوا، ولا يُعينوا عدوًّا، ولا يمدُّوا أيديهم بأذى.

نقض اليهود للعهد:

١- أما بنو قينقاع، فقد حقدوا على المسلمين لَمَّا نصرهم الله في غزوة بدر، فأخذوا يتحرشون بهم، ويتكرون للعهد الذي بينهم، مخافة أن يستفحل أمرهم، فلا يستطيعون مقاومته بعد أن انتصر على قريش، فحذرهم النبي ﷺ مغبة نقضهم للعهد والتحريش بالمسلمين، فقالوا: يا محمد، لا يغرنك أنك لقيت قومًا لا عِلْمَ لهم بالحرب فأصبت منهم فرصة، والله لئن حاربناك لتعلمنَّ أنا نحن الناس.

وحدث أن امرأة عربية مسلمة كانت تشتري ذهبًا من صائغ يهودي، فربط ذيل ثوبها في أعلى ظهرها، وهي لا تشعر به، فلما قامت انكشفت عورتها، فوثب إليه مسلم فقتله، وشدَّت اليهود على المسلم فقتلوه، فاستصرخ كلُّ منهم قومه، فوقع القتال بين المسلمين ويهود بني قينقاع، وانتهى الأمر بأن يأخذوا أموالهم وأمتعتهم عدا السلاح ويخرجوا عن المدينة.

٢- أما بنو النضير، فإن النبي ﷺ خرج إليهم سنة أربع بعد غزوة أُحُد، يطلب منهم مشاركتهم في دية قتيلين وفق المعاهدة التي تمت بينهما، فتأمروا عليه وهو جالس تحت جدار أحد بيوتهم، أن يُلقوا عليه صخرة ويتخلصوا منه، فأعلم الله رسوله ما كان من أمرهم، فرجع إلى المدينة، وأمر بالتهيؤ لهم، فتحصنوا في حصونهم، ثم استسلموا دون حرب ولا قتال، فخرج بعضهم إلى خيبر، وبعضهم إلى الشام، يحملون أمتعتهم دون السلاح.

٣- أما بنو قريظة -وهم موضوع هذه الآية- فقد نقضوا عهدهم السابق ذكره، بأن أعانوا الأحزاب، وحاصروا المدينة، وقد انضم إليهم (حُيَّ بن أخطب) من بني النضير، وهو الذي حرَّض أبا سفيان على غزو المدينة.

أمرُ الله لرسوله في شأن بني قريظة:

ولما انصرف رسول الله ﷺ من غزوة الأحزاب، بعد أن نصره الله عليهم، رجع إلى المدينة ظهراً وأراد أن يغتسل ويستقر، ولكن جاء جبريل إلى النبي ﷺ وهو في بيت أم سلمة يقول له: أَوْضَعَتِ السِّلَاحَ يَا رَسُولَ اللَّهِ؟ قال: «نعم»، قال: ولكن الملائكة لم تضع السلاح منذ أربعين ليلة، إن الله يأمرك أن تسير إلى بني قريظة، فتزلزل حصونهم، وكانت حصونهم في الجنوب الشرقي من المدينة، فنادى النبي ﷺ: «لَا يُصَلِّينَ أَحَدُكُمْ الْعَصْرَ إِلَّا فِي بَنِي قَرِظَةَ»، فأدرك بعضهم العصر في الطريق، فقالوا: لا نصلي حتى نأتيها، فوصلوها بعد العشاء وهم لم يُصَلُّوا العصر، تمسكاً بظاهر لفظ الرسول ﷺ، وقال بعضهم: بل نصلي، فصلُّوها في الطريق، فذكر ذلك للنبي ﷺ فلم يعُتِفَ أحداً.

وخرج الجيش حتى وصل إلى قرية بني قريظة، فتحصن أهلها بحصونهم، فحاصرهم المسلمون خمساً وعشرين ليلة، فلما اشتد عليهم الحصار، طلبوا من النبي ﷺ أن يرسل إليهم (أبا لبابة بن عبد المنذر)؛ ليتشاوروا معه، فأشار إليهم أبو لبابة بيده، أي: إنه الذبح، ثم ندم وقال: خُتِنْتُ الله ورسوله، وربط نفسه في المسجد حتى أنزل الله توبته.

ثم أرسلوا إلى النبي ﷺ (شاس بن قيس)، يعرضون عليه أن ينزلوا على مثل ما نزلت عليه بنو النضير، على أن لهم ما حملت الإبل، إلا السلاح، فأبى النبي ﷺ، وبعد مداولات كثيرة، نزلوا على حكم (سعد بن معاذ)، وكان بينهم وبين الأوس حلف فَرَجَوْا أن يَحْنُوَ عليهم، فحكم سعد أن تُقْتَلَ المقاتلة، وأن تُسَبَى النساء والذرية، وأن تكون ديارهم وأموالهم للمهاجرين دون الأنصار، فأمضى رسول الله ﷺ ما حكم به سعد، وقُتِلَ الرجال المقاتلون، وكانوا زهاء سبع مئة، وأُسر النساء والصبيان، وكان ممن قُتِلَ (حُيَيُّ بن أخطب النَّضْرِي) الذي أدخلهم في الغدر برسول الله ﷺ، فجيء به ويده مجموعة إلى عنقه، وعليه حُلَّتَان، فلما رأى النبي ﷺ قال: والله يا محمد، ما لُمْتُ نفسي في عداوتك، ولقد اجتهدتُ، ولكن من يخذل الله يُخْذَلْ، ثم قال: أيها الناس، إنه لا بأس بأمر الله وقدره، ملحمة كُتِبَتْ على بني إسرائيل، ثم تقدم فُضِرَتْ عنقه.

وكان النبي ﷺ قد قال لسعد: «لقد حكمتَ فيهم بحكم الله فوق سبع سموات»^(١). ومنذ ذلك الحين ذلت اليهود، وضعفت حركة النفاق، فطأطؤوا رؤوسهم، وتبع ذلك أن المشركين لم يفكروا في غزو المسلمين بعدها، بل أصبح المسلمون هم الذين يغزونهم. وهكذا اليهود لا يفيد فيهم إلا القوة وإعمال السلاح، أما المعاهدات والاتفاقات، فكما أخبر علام الغيوب: ﴿أَوْكَلَمَا عَهْدُوا عَهْدًا نَبَذُ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ﴾ [البقرة: ١٠٠]. والتاريخ يعيد نفسه، معهم في فلسطين.

ذلكم ما يشير إليه قول الله تعالى: ﴿وَأَنزَلَ الَّذِينَ ظَاهَرُوهُمْ﴾ أي عاونوهم ﴿مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ﴾ وهم اليهود بعد رحيل جيوش الأحزاب، حيث أنزل الله يهود بني قريظة ﴿مِّنْ صَيَاصِيهِمْ﴾ أي: من حصونهم نزولاً على حكم الإسلام ﴿وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ﴾ أي: ألقى الله الخوف في قلوبهم، فلم يقدروا على القتال فهزموا واستسلموا لكم، ومكنكم الله منهم ﴿فَرِيقًا تَقْتُلُونَ﴾ وهم من قاتل منهم من الرجال المقاتلين ﴿وَتَأْسِرُونَ فَرِيقًا﴾ وهم النساء والذرية.

الْبُشْرَى بِفَتْحِ خَيْبَرَ وَفَارِسٍ وَالرُّومِ

٢٧- ﴿وَأَوْرَثَكُم أَرْضَهُمْ وَدِيَارَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ وَأَرْضًا لَّمْ تَطَّوُّوهاً^(٢)﴾ وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرًا أي: وملّكم الله -معشر المؤمنين- أرض بني قريظة، وعقارهم، وخيلهم، ومساكنهم، وأموالهم المنقولة، كالحليّ والسلاح والمواشي، وغير المنقولة، كالمزارع والبيوت، والحصون المنيعة التي تركوها.

ثم بشرهم الله تعالى بأن يفتح عليهم أرضاً أخرى، وقد فتح الله عليهم خيبر، بعد عام

(١) تُنظَرُ القصة في: «صحيح البخاري» برقم (٣٠٤٣) من حديث أبي سعيد الخدري وأخرجه مسلم (١٧٦٨) وفي «طبقات ابن سعد» (٤٢٦/٣) و«البداية والنهاية» (١٢٣/٤) و«السيرة النبوية» لابن هشام (٢٣٩/٢) ويُنظر: «المسند» (٣١١/٥) برقم (١١١٧٠) وأبو داود برقم (٤٤٠٤) والترمذي برقم (١٥٨٤) والنسائي في «السنن» (٩٢/٨) والكبرى برقم (٨٦١٩)، وأبو يعلى (١١٨٨) وابن حبان (٧٠٢٦).

(٢) حذف أبو جعفر همزة (تطوؤها) وصلاً ووقفاً، فينطق بواو ساكنة بعد الطاء المفتوحة، بدون همز، والباقون كقراءة حفص، ووقف عليها حمزة بالحذف والتسهيل.

وشهر واحد من غزوة بني قريظة، وفتح عليهم بعد ذلك فارس والروم وغيرهما، وهذا ما يشير إليه قوله تعالى: ﴿وَأَرْضًا لَّمْ تَطَّوُّهَا﴾ أي: لم تتمكنوا من دخولها قبل ذلك لمنعتها وعزة أهلها، وهي أرض خيبر.

ثم ختم الله غزوة بني قريظة ببيان قدرته تعالى على كل شيء، فقال: ﴿وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرًا﴾ لا يُعجزه شيء في الأرض ولا في السماء، ولا يفلت من عقابه ظالم، محارب لله ورسوله.

وبهذا أتم الله على رسوله المنة بالقضاء على اليهود من المدينة وما جاورها، وأسبغ عليه النعمة، وأقر عينه بخذلان عدوه.

نِسَاءُ الرَّسُولِ ﷺ بَيْنَ خِيَارَيْنِ

٢٨- ﴿يَتَأْتِيَ النَّبِيَّ قُلُوبٌ لَّا رُؤْيَا لَهَا لَازِلَةٌ إِن كُنْتَ تُرِيدُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزَيِّنْهَا فَنفَكَنَّ مَتَّعْنَا وَاسْتَرْحَبْنَا سَرَاحًا جَمِيلًا﴾

ولما أفاء الله على نبيه بغنائم بني النضير، وبعدها غنائم بني قريظة، وفرض الله له الخمس، طمع أزواج النبي ﷺ في التوسع في أمر المعيشة، ولم يطلبن منه ذلك قبل أن يفيء الله عليه بهذه الأموال، ظناً منهن أن النبي ﷺ كسائر الرجال، إذا وسع الله عليهم في الرزق توسعوا في الكماليات وزيادة المتع، فأخذن يطالبنه بمزيد من النفقة فوق طاقته، ولم يزلن يطلبن مزيداً من النفقة حتى شق ذلك على الرسول ﷺ فألَى منهن شهراً:

قال عمر رضي الله عنه: كانت أموال بني النضير مما أفاء الله به على رسوله ﷺ، مما لم يُوجف المسلمون عليه من خيل ولا ركاب، فكانت هذه الأموال لرسول الله ﷺ خالصة، ينفق منها على أهله نفقة ستهم، ثم يجعل ما بقي في السلاح والكراع عُدةً للمسلمين.

أما أرض بني قريظة، فقد قُسمت على المهاجرين بحكم سعد بن معاذ.

ولعل أزواج النبي ﷺ لَمَّا رَأَيْنَ أن زوجات المهاجرين قد اتسعت أرزاقهن أردن أن يكنّ مثلهن، فسألته أشياء من زينة الدنيا، كما دل عليه قول عمر لحفصة رضي الله عنها: لا تستكثري النبي، ولا تُراجعيه في شيء، وسليني ما بدا لك.

قال في البحر المحيط: لما نصر الله نبيه، وفرّق عنه الأحزاب، وفتح عليه قريظة والنضير، ظن أزواجه أنه اختص بنفائس اليهود وذخائرهم فقعذن حوله، وقُلن: يا رسول الله، بنات كسرى وقيصر في الحلّي والحلل، ونحن على ما تراه من الفاقة والضيق، وآلمن قلبه بمطالبتِهِنَّ له بتوسعة الحال، وأن يعاملَهُنَّ بما يعامل به الملوك والكبراء أزواجهم، فأمره الله أن يتلو عليهن ما نزل في أمرهن.

والنبي ﷺ لم يتعلق قلبه بالدنيا، إلا بما فيه قوام الحياة، فكان ﷺ يقول: «مالي وللدنيا؟!». (١)

ولما طلبت منه فاطمة ؓ أن يعطيها خادماً للمساعدة على شؤون الحياة، وكانت تُدير الرحي، وتطحن الحَبَّ، وقد أفاء الله عليه بكثير من الأموال والسبايا، ومع ذلك فقد أبى أن يعطيها هي وعلياً، ويترك أهل الصُّفَّة، فوجَّهَهُما إلى التسييح والتحميد والتكبير، وقال: هذا خير لكما من خادم.

لقد اختار النبي ﷺ لنفسه ولأهل بيته معيشة الكفاف، ليس عاجزاً عن متاع الحياة؛ فقد عاش ﷺ حتى فُتحت له الأرض، وكثرت غنائمها، وجاءته أموال البحرين واليمن، فقَسَمَها ولم يُبق شيئاً لنفسه.

ورأودته جبال مكة أن تكون له ذهباً فأبى، وقال: أجوع يوماً فأشعر أُنِي محتاج إلى ربي فأسأله، وأشبع يوماً فأشكر فضل الله عليّ.

وتقول عائشة ؓ: إنا كنا لننظر الهلال، ثم الهلال، ثم الهلال، ثلاثة أهلة في شهرين ما يوقد في أبيات رسول الله نار، وكان يطعمهم التمر والماء، وكان هذا من النبي ﷺ استعلاء على متاع الحياة، ورغبة فيما عند الله تعالى.

ولم تكن الطيبات محرمة على رسول الله ﷺ وأهل بيته، وإنما تركها ترفُّعاً على المتاع واللذائذ بحرية تامة، ورغبة صادقة.

(١) مسند أحمد (٣٧٠٩) عن عبد الله بن مسعود، وهو حديث صحيح، (محققوه) ومن حديث ابن عباس (٢٧٤٤) بإسناد صحيح، والترمذي (٢٣٧٧) وابن ماجه (٤١٠٩) والطيالسي (٢٧٧) وأبو يعلى (٥٢٩٢).

ولكن نساء النبي ﷺ بَشَرٌ كسائر البشر، يتطلعن إلى متاع الحياة، فراجعن النبي ﷺ في أمر النفقة، وتحسين أحوال المعيشة، ولكنه لم يستقبل هذه المراجعة بالترحيب، رغبة منه ﷺ في أن تظل حياته وحياة مَنْ معه على هذا النمط، من التسامي على الشهوات والملذات، وإنما استقبلها بالأسى وعدم الرضى.

وعَلِمَ الله تعالى منه صِدْقَ ذلك، فأمره أن يُخَيِّرَهُنَّ بين أن يعشنَّ معه عيشة الكفاف والزهد في زينة الحياة الدنيا، وبين أن يفارقهنَّ ويَدْفَعَ لهنَّ مُتْعَةَ الطلاق؛ ليحصلنَّ على ما يشتهينه من زينة الدنيا.

﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لِّأَزْوَاجِكَ﴾ اللاتي في عصمتك، وقد اجتمعن عليك يطلبنَّ منك زيادة النفقة ﴿إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا﴾ من المال والمتاع، والمأكَل والمشرب، والملبس، وسائر ألوان النعيم، ولا تستطعنَّ الصبر على المعيشة معي، فَلَكُنَّ أَنْ تَخْتَرْنَ مفارقتي إِنْ أَرَدْتُمْ ذَلِكَ ﴿فَعَلَّيْتُ﴾ أَي: أَقْبَلْتُ عَلَيَّ لِأَخِيرِكُنَّ بين أن ﴿أَمْتَعَكُنَّ﴾ شيئاً مما عندي من متاع الدنيا، وليس المراد متعة الطلاق بل المراد متاع الدنيا ﴿وَأَسْرَحَكُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا﴾ أَي: أَفَارَقَكُنَّ بِالطَّلَاقِ دُونَ ضَرَرٍ وَلَا إِذْءَاءٍ، وهذا هو الخيار الأول.

عن جابر ؓ قال: أقبل أبو بكر يستأذن على رسول الله ﷺ والناس يباهه جلوس، والنبي ﷺ جالس، فلم يؤذن له، ثم أقبل عمر، فاستأذن، فلم يؤذن له، ثم أذن لأبي بكر وعمر فدخلوا، والنبي جالس وحوله نساؤه وهو ساكت، فقال عمر: لأُكَلِّمَنَّ النَّبِيَّ ﷺ لَعَلَّهُ يَضْحَكُ، فقال عمر: يا رسول الله، لو رأيتُ ابنة زيد -يعني: امرأة عمر- سألتني النفقة آنفاً فوجأتُ عنقها، فضحك النبي ﷺ حتى بدت نواجذه، وقال: «هَنْ حَوْلِي يَسْأَلُنِي النَّفَقَةَ»، فقام أبو بكر ؓ إلى عائشة ليضربها، وقام عمر ؓ إلى حفصة ليضربها، كلاهما يقولان: تسألان النبي ما ليس عنده؟ قال: وأنزل الله الخيار^(١).

وكان هذا التخيير بعد أن ألى النبي ﷺ منهن شهراً، وَلَمَّا خَيْرَهُنَّ وَاخْتَرَنَ الله ورسوله والدار الآخرة، مَدَحَهُنَّ الله تعالى، وَقَصَرَهُ عَلَى هَؤُلَاءِ الزَّوْجَاتِ التَّسْعِ، فلا يتزوج غيرهن، فقال سبحانه: ﴿لَا يَحِلُّ لَكَ النِّسَاءُ مِنْ بَعْدُ وَلَا أَنْ تَبَدَّلَ بِهِنَّ مِنْ أَزْوَاجٍ وَلَوْ أَعْجَبَكَ

(١) «المسند» (٣/٣٢٨) برقم (١٤٥١٥) بإسناد صحيح وانظر (١٤٥٢٧، ١٤٦٩٢) وهو في مسلم برقم (١٤٧٨) والنسائي في «السنن الكبرى» برقم (٩٢٠٨).

حُسْنَهُنَّ إِلَّا مَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ ﴿٥٢﴾. وجاء الخيار الآخر في قوله تعالى:

٢٩- ﴿وَلِنْ كُنْتُمْ تُرِيدُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالْدارَ الْآخِرَةَ فَإِنَّ اللَّهَ أَعَدَّ لِلْمُحْسِنِينَ مِنْكُمْ أَجْرًا عَظِيمًا﴾

أي: إن كنتم يا نساء النبي، ترغبن في رضى الله ورسوله، وتؤثرن ذلك على متاع الحياة الدنيا، وتفضلن ﴿الْدارَ الْآخِرَةَ﴾ وما أعدّه الله لكنن يوم الحساب والجزاء، فاصبرن على ما أنتن عليه، وأطعن الله ورسوله ﴿فَإِنَّ اللَّهَ أَعَدَّ لِلْمُحْسِنِينَ مِنْكُمْ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ أي: ثوابًا كبيرًا لا يوصف في جنة النعيم، فكان أن اخترن الله ورسوله والدار الآخرة، ولم يتخلف منهن واحدة، وبهذا التخيير سلم النبي ﷺ من تبعة الحقوق الزوجية، وبقي في حرية نفسه إن شاء أعطى وإن شاء منع، ونزه الله أمهات المؤمنين عن أن يخترن الدنيا على الآخرة، وسلمت زوجاته من الإثم والتعرض لسخط الله، وفي هذا التخيير الرضى والقناعة التي يطمئن لها القلب، وينشرح لها الصدر، ويحول عنها القلق وعدم الرضى، ويكون سببًا في زيادة أجرهن ومضاعفته، ويكن بمرتبة ليس فيها أحد من النساء سواهن.

هذا: ولما خرج النبي ﷺ من إيلائه ونزلت هذه الآية، ابتداء بعائشة ؓ، فقال لها: «إني ذاكر لك أمرًا، فلا عليك ألا تستعجلي حتى تستأمرى أبونك»، ثم تلا هاتين الآيتين، فقالت عائشة: أفي هذا أستأمر أبوي؟! فإني أريد الله ورسوله والدار الآخرة، وقال لسائر أزواجه مثل ذلك، فقلن مثل ما قالت عائشة ؓ^(١).

التعريف بأمهات المؤمنين:

وأزواج النبي ﷺ المعنيات في هذه الآية واللاتي تُؤْفَى عنهن، تسع: خمس من قريش، هن: عائشة، وحفصة، وأم حبيبة، وسودة، وأم سلمة، وأربع من غير قريش، هن: صفية بنت حُيَيِّ النَّضْرِيَّة، وميمونة بنت الحارث الهلالية، وزينت بنت جحش الأسدية، وجويرية بنت الحارث المصطلقية. وهذه نبذة يسيرة عنهن رضي الله عنهن:

١- سودة بنت زمعة العامرية، دخل بها النبي ﷺ بمكة، وتُؤْفِت بالمدينة، وكان قد أراد

(١) يُنْظَر: «صحيح البخاري» برقم (٤٧٨٥) و«صحيح مسلم» (١٤٧٥) و«السنن الكبرى» للنسائي (٩٢٠٨) و«المسند» (١٤٥١٥) بإسناد صحيح و«تفسير الطبري» (١٠١/٢١).

طلاقها لكبر سنها، فأثرت البقاء مع النبي ﷺ، وترك ليلتها لعائشة .ﷺ

٢- عائشة بنت الصديق، لم يتزوج بكراً سواها، عقد عليها وهي بنت ست سنوات قبل الهجرة بستين، ودخل بها وهي بنت تسع في المدينة، وتُوفِّي عنها وهي بنت ثمانٍ عشرة، وتُوفيت بالمدينة ودُفنت بالقيع، وأوصت أن يصلي عليها أبو هريرة ، وكان ذلك سنة ثمان وخمسين من الهجرة.

روى البخاري وغيره بسنده عن عائشة : قالت: قال رسول الله ﷺ يوماً: «يا عائشة، هذا جبريل يُقرئك السلام»، فقلتُ: وعليه السلام ورحمة الله وبركاته، ترى ما لا أرى، (تريد رسول الله ﷺ) (١).

٣- حفصة بنت الفاروق، تزوجها النبي ﷺ ثم طلقها، فجاءه جبريل ، وقال له: إن الله يأمرك أن تراجع حفصة، فإنها صَوَّامة قَوَّامة، وإنها زُوجُكَ في الجنة، تُوفيت بالمدينة سنة ثمان وعشرين .ﷺ

٤- أم حبيبة بنت أبي سفيان، واسمها (رملة)، كانت قد هاجرت مع زوجها عبد الله بن جحش إلى الحبشة، فمات زوجها هناك، فتولَّى عثمان بن عفان عقد قرانها لرسول الله ﷺ في الحبشة، ودفع لها النجاشي المهر، أربع مئة دينار، وهي التي أكرمت فراش رسول الله ﷺ أن يجلس عليه أبوها قبل أن يسلم.

٥- أم سلمة، واسمها (هند بنت أبي أمية بن المغيرة)، تزوجها النبي ﷺ بعد أبي سلمة، وقد دخل جبريل على النبي ﷺ في صورة دحية الكلبي وهو عندها فرأته، وهي آخر أزواج النبي ﷺ موتاً، توفيت سنة اثنتين وستين من الهجرة .ﷺ

٦- زينب بنت جحش، بنت عمته: أميمة بنت عبد المطلب، كان قد زوجها النبي ﷺ إلى زيد بن حارثة فطلقها، وتزوجها النبي ﷺ بعد إبطال قاعدة التبني في الإسلام، بأمر من الله تعالى، كما قال تعالى: ﴿لَمَّا قَضَى زَيْدٌ مِّنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَاهَا﴾ [٣٧]. وكانت تقول لسائر أزواج النبي ﷺ: زوجكن أهاليكن، وزوجني الله من فوق سبع سموات. تُوفيت بالمدينة سنة عشرين من الهجرة .ﷺ

(١) «صحيح البخاري» برقم (٣٢١٧، ٣٧٦٨) و«صحيح مسلم» برقم (٢٤٤٧).

٧- صفية بنت حُيٍّ، سُبيَتْ في غزوة خيبر، سنة سبع، فأعتقها النبي ﷺ وتزوجها، وهي بنت سيد بني النضير، وكانت زوجةً لسيد بني قريظة، تُوفيت سنة سبع وثلاثين، وقيل: سنة خمسين من الهجرة، ﷺ.

٨- جُوَيْرِيَّة بنت الحارث، سُبيَتْ في غزوة بني المصطلق، وهي بنت سيدهم، تزوجها النبي ﷺ سنة ست من الهجرة، وأعتق بسببها مئة، وقالوا: أصهار رسول الله ﷺ. تُوفيت سنة ست وخمسين من الهجرة، ﷺ.

٩- ميمونة بنت الحارث الهلالية، وهي آخر من تزوج ﷺ من أمهات المؤمنين، وهي خالة خالد بن الوليد، وخالة ابن عباس، ﷺ، تُوفيت سنة ثلاث وستين من الهجرة. وكان له من السراي اثنتان: مارية، وريحانة.

وهناك نساء عقد عليهن ولم يدخل بهن، منهن: الكلابية، وأسماء بنت النعمان بن الجَوْن، وقتيلة بنت قيس، وغيرهن.

وقد تزوج النبي ﷺ (أميمة بنت شراحيل) وطلقها ليلة الدخول بها؛ لأنه لما مدَّ يده إليها كرهت ذلك^(١).

أما ابنة الجَوْن، فلما أُدخلت على رسول الله ﷺ، ودنا منها قالت: أعوذ بالله منك، فقال لها: «لقد عذت بعظيم، الحقِّي بأهلك»^(٢).

وهذا بخلاف (زينب بنت خريمة الهلالية)، الملقبة أم المساكين، فقد كانت متوفاة وقت نزول هذه الآية.

وهذا بخلاف زوجته الأولى خديجة بنت خويلد، ﷺ، تزوجها رسول الله ﷺ بمكة وهو ابن خمس وعشرين سنة، وآمنت به ونصرته، ولم يتزوج عليها وهي معه حتى ماتت، ومنها جميع أبنائه إلا إبراهيم، فهو من مارية، وقد أقرأها ربنا السلام على لسان جبريل، وبشرها بالجنة.

(١) من حديث طويل في «صحيح البخاري» برقم (٥٢٥٥، ٥٢٥٧).

(٢) «صحيح البخاري» برقم (٥٢٥٤).

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: أتى جبريل عليه السلام النبي ﷺ فقال: يا رسول الله، هذه خديجة أتت معها إناء فيه إدام أو طعام أو شراب، فإذا هي أتتك، فأقرئها السلام من ربها ومني، وبشرها ببیت في الجنة من قصب، لا صخب فيه ولا نصب^(١).

توفيت رضي الله عنها قبل الهجرة بثلاث سنين، وقد أمضى معها النبي ﷺ شبابه حتى بلغ الخمسين من عمره.

وظل بعدها نحو ثلاث سنوات بلا زواج، أي إلى الثالثة والخمسين من عمره، ولم يتزوج ﷺ بعد سن الستين، فهذا العدد من الزيجات كان في خلال سبع سنوات، كانت كلها سفراً، وغزوات، وكلهن ثيبات إلا عائشة، ولم يُنجب منهن جميعاً.

وقد ألف النبي ﷺ بزيجاته بين العشائر والقبائل، وحفظَ عليهن دينهن بزواجه لهن. وكانت هذه الزيجات خاصة من خصوصيات النبي ﷺ وليست لأحد غيره.

مُضَاعَفَةُ الْأَجْرِ وَالْعُقُوبَةِ لِرُزُوجَاتِ النَّبِيِّ ﷺ

٣٠، ٣١ - ﴿يَنْسَاءَ النَّبِيُّ مَنْ يَأْتِ مِنْكَ بِفَحِشَةٍ مُبِينَةٍ^(٢) يُضَعَّفُ^(٣) لَهَا الْعَذَابُ ضِعْفَيْنِ وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا ﴿٣٠﴾ وَمَنْ يَفْعَلْ مِنْكَ لُغْوً لَّهِ وَرَسُولِهِ^(٤) وَتَعْمَلْ صَالِحًا نُؤْتِهَا^(٥) أَجْرَهَا مَرَّتَيْنِ وَأَعْتَدْنَا لَهَا رِزْقًا كَرِيمًا ﴿٣١﴾﴾

وبعد أن أمر الله رسوله أن يخاطب أزواجه ويُخَيِّرهنَّ بين متاع الدنيا، ورضى الله ورسوله، تولَّى الله - سبحانه - خطابهنَّ بنفسه، بعد أن اخترنَّ الله ورسوله والدار الآخرة، وقد سمَّاه عمر بن الخطاب رضي الله عنه عهداً، وكثيراً ما كان يقرأ في صلاة الصبح بسورة الأحزاب، فإذا بلغ هذه الآية رفع صوته، فسئل عن ذلك فقال: «أُذَكِّرُهُنَّ الْعَهْدَ».

(١) «صحيح البخاري» برقم (٣٨٢٠، ٧٤٩٧) و«صحيح مسلم» برقم (٢٤٣٢).

(٢) قرأ ابن كثير وشعبة بفتح ياء (مينة)، والباقون بكسرها.

(٣) قرأ ابن كثير وابن عامر بنون العظمة، وتشديد العين مكسورة في (يُضَعَّفُ لَهَا الْعَذَابُ) على البناء للفاعل و (الْعَذَابُ) مفعول به، وقرأ أبو عمرو وأبو جعفر ويعقوب (يُضَعَّفُ لَهَا الْعَذَابُ) على البناء للمفعول و (الْعَذَابُ) نائب فاعل، وقرأ الباقر (يُضَاعَفُ لَهَا الْعَذَابُ)، مبنياً للمفعول و (الْعَذَابُ) بالرفع نائب فاعل.

(٤)، (٥) قرأ حمزة والكسائي وخلف بياء التذكير في (وتعمل) و (نؤتيها)، والباقون بياء التأنيث.

ولما كان الأجر الموعود به على هذا العهد، أن يؤتيهنَّ الله أجرًا عظيمًا، فإن الله تعالى جعل عذابهنَّ على المعصية مضاعفًا كذلك -على فرض وقوع المعصية من بعضهن- لأنهنَّ في مهبط الوحي، ومُنزل أوامر الله تعالى ونهيه، فضاعف الله لهنَّ الأجر والعذاب، قال تعالى: ﴿يَنْسَاءَ الَّتِي﴾ ناداهنَّ الله تعالى بهذا الوصف؛ لبيان أن ما سيُلقي عليهنَّ خبر يناسب قدرهنَّ من كونهنَّ في بيت النبوة، يا من اخترنَّ الله ورسوله والدار الآخرة، ﴿مَنْ يَأْتِ مِنْكُنَّ بِفَحْشَةٍ مُبَيِّنَةٍ﴾ أي: بمعصية ظاهرة القبح، بالوقوع في كبيرة من الكبائر، كنشوز وسوء خلق، فإن الله تعالى يضاعف لها العذاب ضعفين.

ولفظ الفاحشة حين يأتي منكراً يراد به: المعصية، وكل ما يستفحش من قبيح القول أو الفعل، وإذا أتت الفاحشة معرفة يراد بها: الزنى واللواط.

ومن تفعل فاحشة منهنَّ فلها مثل عذاب غيرها مرتين؛ لأن المعصية من رفيع الشأن تكون أشد قبحًا وأكبر جرمًا، وزيادة قُبْح المعصية تتبع زيادة الفضل، فكانت العقوبة مغلظة، صيانة لجنايَهنَّ وجَنَاب رسول الله ﷺ، فيكون جزاؤهنَّ ضِعْف جزاء غيرهنَّ من النساء، وفي هذا تحذير لهن حتى يحتطن لأنفسهن.

وَرَدَ أن زين العابدين بن علي بن الحسين ؑ، قال له رجل: إنكم أهل بيت مغفور لكم؛ فغضب وقال: نحن أخرى أن يجري فينا ما أجراه الله على نساء نبيه ﷺ، أنْ لِمُسِيئِنَا ضَعْفَيْنِ من العذاب، وَلِمُحْسِنِنَا ضَعْفَيْنِ من الأجر.

ثم ختم الله تعالى الآية ببيان أن منزلتهنَّ لا تمنع من وقوع العذاب بهنَّ مضاعفًا حال ارتكابه، فقال تعالى: ﴿وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا﴾ أي: كان ذلك التضعيف للعذاب سهلاً وهيناً على الله سبحانه.

- أما في حالة طاعتهم فقد بيَّن الله تعالى أنَّ من تواظب منهنَّ على طاعة الله والرسول، وتتقرب إلى الله تعالى بفعل الخيرات وعمل الصالحات، يعطها الله ثوابًا مضاعفًا، مرة لحرصها على طاعة الله، ومرة لحرصها على طاعة رسول الله.

والقنوت لله تعالى هو: الخضوع والخشوع، وملازمة الطاعة لله ﷻ.

والقنوت للرسول ﷺ هو: الدوام على طاعته سبحانه؛ فإن في طاعة الرسول طاعة لله

ﷺ، كما قال تعالى: ﴿مَنْ يُطِيعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ﴾ [النساء: ٨٠].

ولهذا فإن من تعمل بما أمر الله به، وتتزود بعمل الخيرات وصالح الأعمال نعطيها ثواب عملها، مثلي ثواب عمل غيرها من سائر النساء.

فإذا كانت الحسنة بعشر أمثالها بالنسبة لعامة المسلمين، فهي لهنّ بضعف ذلك، وهيّا لها رزقاً كريماً في الجنة زيادة على أجرها، فإن لَكُنَّ - أيتها الزوجات - درجة عالية في منزلة رسول الله ﷺ في أعلى عليين، فوق منازل الخلق، وهذا من خصائص أزواج النبي ﷺ؛ حيث جعل الله حَسَنَتَهُنَّ كحَسَنَتَيْنِ لغيرهن، وجعل سيئَتَهُنَّ بمقدار سيئَتَيْنِ لغيرهن، وذلك لعظم مكانتهن وقُربهن من رسول الله ﷺ.

تَسْعَةُ آدَابٍ لِنِسَاءِ النَّبِيِّ ﷺ وَلِغَيْرِهِنَّ مِنْ بَابِ أُولَى

٣٢- ﴿يَنْسَاءُ الَّتِي لَسْتُ كَأَحَدٍ مِنَ النِّسَاءِ إِنْ اتَّقَيْتُ فَلَا تَخْضَعْنَ بِالْقَوْلِ فَيَطْمَعَ الَّذِي فِي قَلْبِهِ مَرَضٌ وَقُلْنَ قَوْلًا مَعْرُوفًا﴾

أمر الله تعالى نساء النبي ﷺ بجملة من الآداب الشرعية، ونساء الأمة تبع لهن في ذلك، وكلها تهدف إلى بُعد المرأة عن منطقة الخطر، وملازمة تقوى الله تعالى، وهذه الآداب هي:

الْأَدَبُ الْأَوَّلُ: زِيَادَةُ فَضْلِ نِسَاءِ النَّبِيِّ ﷺ عَلَى غَيْرِهِنَّ:

﴿يَنْسَاءُ الَّتِي لَسْتُ كَأَحَدٍ مِنَ النِّسَاءِ إِنْ اتَّقَيْتُ﴾.

أي: لستن في الفضل والمنزلة والشرف، كغيرك من النساء إن خِفْتُنَّ الله تعالى، وفي ذلك نفي للمساواة بينهن وبين سائر النساء بشرط التقوى، فكأن الله تعالى يقول: أَنْتُنَّ أمهات المؤمنين وأفضل النساء؛ وذلك لقربهن واتصالهن بالنبي ﷺ وتخلُّقهن بأخلاقه، واقتباسهن من هديه ﷺ؛ فنساء النبي ﷺ أفضل نساء الأمة إن داوَمْنَ على تقوى الله تعالى، وقد قيّد الله سبحانه هذه الأفضلية بملازمة التقوى والتزوّد منها، فقال تعالى: ﴿إِنْ اتَّقَيْتُنَّ﴾ وهذا شرط جوابه محذوف لدلالة ما قبله عليه، أي: إن اتقيتن الله فأنتنَّ بأعلى المراتب، ففضلكنَّ على سائر النساء لِمَا منحكنَّ الله من صُحبة رسوله ﷺ، فأنتنَّ أحق بالتقوى من سائر النساء.

وقريب من هذا المعنى قول النبي ﷺ لحفصة: «إِنَّ عَبْدَ اللَّهِ -أَخَاهَا- رَجُلٌ صَالِحٌ، لَوْ كَانَ يَقُومُ مِنَ اللَّيْلِ»^(١)، فلما أبلغتُ حفصةُ عبدَ الله بذلك لم يترك قيام الليل أبداً؛ لأنه عَلم أن المقصود: هو التحريض له على قيام الليل.

وهذا الفضل خاص بنساء النبي ﷺ لا يشاركن فيه غيرهنَّ.

الأدبُ الثَّاني: النهي عن الخضوع في القول ﴿فَلَا تَخْضَعْنَ بِالْقَوْلِ فَيَطْمَعَ الَّذِي فِي قَلْبِهِ مَرَضٌ﴾.

في هذا نهى لنساء الأمة، وفي مقدمتهن زوجات النبي ﷺ ألا يتحدثن مع الأجانب بصوت لئِنْ، فيه لُطْفٌ وتَحَبُّبٌ وتودُّدٌ وتكسُّرٌ؛ حتى لا يطمع فيهن من كان في قلبه فُجُورٌ وميل إلى النساء، فيظن أنه المعنيُّ بهذا، وأن هذه المرأة التي تُحادثه تستميل جانبه بركة الكلام وطيب المحادثة، وقد يكون في هذا إثارة للشهوات والغرائز، وإن كانت المرأة سليمة القصد عفيفة النفس، ولكن طبيعتها هكذا، فالقرآن يعلمنا أن تَحَذَّرَ المرأة من الخضوع بالقول إلا لزوجها لِتَحْفَظَ عِفَافَهَا، وتصون عرضها، وحتى لا يطمع فيها الطامعون، وفي هذا نهى عن مقدمات الزنى ووسائله.

والمراد بالمرض في الآية: حب الشهوة والرغبة الجنسية، لأن القلب غير صحيح، فإن القلب الصحيح ليس فيه شهوة لما حرم الله، ولا تحركه الأسباب، لصحة قلبه وسلامته من المرض، أما القلب المريض فإنه يتحرك لأدنى الأسباب.

وإذا كان الإسلام ينهى عن مجرد الكلام العادي من المرأة، إذا كان فيه رقة وتكسُّر، بالنسبة للرجل الأجنبي، فكيف بالأغاني الماجنة وما فيها من ألفاظ الحب والهيّام، والآهات والغرام، مع صحبة الموسيقى الصاخبة؟ وكيف بالأفلام والمسلسلات مع ما فيها من الرقص والخلاعة والتصنع وتعمد الغناء المثير، والخضوع بالقول، والعُريُّ والفجور؟! فإننا لله وإنا إليه راجعون. وفي الآية دليل على أن الوسائل لها أحكام المقاصد، ولما كان الكلام اللين وسيلة للفعل السيئ فقد نهى عنه الإسلام.

(١) البخاري (١١٢١) ومسلم (٢٤٧٩). وأخرجه أحمد في المسند (٤٤٩٤، ٦٣٣٠)، وهو عند عبد الرزاق في المصنف (١٦٤٥) وابن حبان (١١٢١) وابن ماجه (٣٩١٩).

الْأَدَبُ الثَّالِثُ: الْأَمْرُ بِالْإِعْتِدَالِ فِي الْقَوْلِ ﴿وَقُلْنَ قَوْلًا مَعْرُوفًا﴾ .

أي: تكلَّمْنَ بالكلام الذي ليس فيه ريبة، ولا تُنكِره الشريعة، ولا يستميل قلوب الرجال، ويشير عواطفهم.

هذا: ولما نهى الإسلام المرأة عن الخضوع في القول للرجال الأجانب، ربما يتوهم متوهم أنهم مأمورات بالإغلاظ في القول، فدفع ذلك بقوله (وقلن قولا معروفا) أي قولاً غير غليظ ولا جاف، وليس بليّن خاضع أيضاً.

وهكذا نهى الله - سبحانه - المرأة عن الخضوع في القول، ثم أمرها بالقول الحسن المحمود بطريقة طبيعية.

والقول المعروف هو الذي يألفه الناس بحسب العُرف العام، في ألفاظه ومدلولاته، وطريقة أدائه، بحيث لا يجد الذي في قلبه حب النساء مذخلاً ولا سبيلاً إلى الطمع فيمن تحدّثه.

الْأَدَبُ الرَّابِعُ: أَمْرُ الْمَرْأَةِ بِمُلَازِمَةِ الْبَيْتِ

٣٣- ﴿وَقَرْنَ^(١) فِي بُيُوتِكُنَّ وَلَا تَبَرَّجْنَ^(٢) تَبَرُّجَ الْجَاهِلِيَّةِ الْأُولَى وَأَقِمْنَ الصَّلَاةَ وَآتِينَ الزَّكَاةَ وَأَطِعْنَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا﴾
قوله تعالى: ﴿وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ﴾ أي: الزمْنَ بُيُوتَكُنَّ، لأنه أسلم وأحفظ لكنّ، ولا تخرجن منها إلا لضرورة، كما جاء في الحديث: «إن الله أذن لكن أن تخرجن لحوائجكن» أي: حاجات الإنسان من صلاة، وطلب علم، وعلاج، وعمل، وصلة رحم، ونحو ذلك.

فالبیت هو الأصل، ولا يخرجن منه إلا لحاجة مشروعة: كالعلاج والحج وطلب العلم ونحو ذلك.

وكانت زوجات النبي ﷺ يخرجن لزيارة أهلهن، ويخرجن في: الغزوات والحج والعمرة.

وخروج عائشة ؓ في وقعة الجمل إلى البصرة، كان باجتهاد منها للسَّعي بالصلح بين

(١) قرأ نافع وعاصم وأبو جعفر بفتح القاف من (وقرن) فعل أمر من قررن يقررن، والباقون بكسر القاف فعل أمر من قرَّ بالمكان يقرَّر.

(٢) قرأ البزي بخلف عنه بتشديد التاء وصلًا من (ولا تبرجن) مع المد المشبع، والباقون بعدم التشديد مع عدم المد وهو الوجه الثاني للبزي.

فريقي الفتنة، بعد أن ذهب الناس إليها، وظنوا أنهم يستجيبيون لها، فخرجت للصلح بين طائفتين اقتتلا، وكاد الصلح يتم، لولا دعاة الفتنة، ولا ينبغي تتبع كلام المؤرخين.

ومن الحوائج الشرعية: الصلاة في المسجد بشرط التحجب وعدم التطيب:

كما قال ﷺ في حديث عبد الرحمن بن أبي الرجال، عن أبيه عن أمه، عن عائشة ؓ أن النبي ﷺ قال: «لا تمنعوا إماء الله مساجد الله، وليخرجن تَفَلَّاتٍ» قالت عائشة: ولو رأى حالهن اليوم لمنعهن^(١). وفي رواية: «ويوتهن خير لهن».

وهذا الحكم واجب حتمًا على أمهات المؤمنين، وهو واجب كمالٍ لسائر النساء، فالبيت وتربية الأولاد هو مهمة المرأة الأولى، وقد أوجب الإسلام النفقة على الرجل، وجعل المرأة مكفولة في كل حال: وهي أم، وهي أخت، وهي بنت، وهي زوجة، بحيث لا يلزمها السعي على المعاش.

ولو أن الرجال وحدهم، يتقلّدون الوظائف في الدولة، مع زيادة أجورهم، لكفى الرجل المرأة، وتزوجت كل الإناث، ولَمَّا وجدنا رجلاً عاطلاً بدون عمل، ولما احتاجت المرأة إلى العمل إلا ما لا بد منه من الوظائف النسائية، كطبّ وتمريضٍ وعلاجٍ وتعليم البنات، وإن وُجدت امرأة بلا عائل فطريقها الضمان الاجتماعي، وكفالة الدولة لها.

وفي هذا حفظ للأعراض، وقلة الطلاق، وتربية الأولاد، وقصر المرأة على الرجل، وعدم ترجّلها أو تمرّدّها عليه بسبب اكتفائها المادي، وهذا هو المناسب لطبيعة المرأة.

قال مسروق: كانت عائشة إذا قرأت: ﴿وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ﴾ بكت حتى يبتلّ خمارها^(٢).

وقال محمد بن سيرين: بُنْتُ أَنَّهُ قِيلَ لِسُودَةَ زَوْجِ النَّبِيِّ ﷺ: مَا لَكَ لَا تُحْجِينَ وَلَا تَعْتَمِرِينَ كَمَا تَفْعَلُ أَخَوَاتُكَ؟ فقالت: قد حججتُ واعتمرتُ، وأمرني الله أن أقرّ في بيتي،

(١) قال محققو المسند: المرفوع منه حديث صحيح لغيره، لأن في إسناده عبد الرحمن بن أبي الرجال متكلم فيه، وبقيّة رجاله ثقات رجال الصحيح، وقول عائشة صحيح، أخرجه أحمد في «المسند» (٢٤٤٠٦) ويشهد له حديث ابن عمر بإسناد صحيح برقم (٤٥٢٢) وحديث زينب الثقفية زوجة ابن مسعود في «صحيح مسلم» برقم (١٤٢، ٤٤٣).

(٢) «طبقات ابن سعد» (٨١/٨) وعبد الله بن أحمد ص ١٦٤.

فوالله لا أخرج من بيتي حتى أموت، قال: فوالله ما خرجت من باب حجرتها حتى أخرجت بجنازتها^(١).

وعن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «المرأة عورة، فإذا خرجت استشرفها الشيطان، وأقرب ما تكون من رحمة ربها وهي في قعر بيتها»^(٢).

الأدب الخامس: النهي عن التبرج والسفور ﴿وَلَا تَبْرَجْنَ﴾ **تَبْرَجَ** الْجَهْلِيَّةُ الْأُولَى

بعد أن أمر الله النساء بأن يلزمن بيوتهن، ولا يخرجن إلا لحاجة مشروعة، فإذا خرجن فليخرجن محتشمات، عليهن الوقار، ولا يبدن شيئاً أمر الله بستره، بعد ذلك نهاهن الله - سبحانه - في هذه الجملة من الآية عن التبرج، وعدم الخروج متجملات متطيبات.

والتبرج: هو إظهار المرأة محاسنها الذاتية، وكذا محاسن حليها وثيابها على مرأى من الرجال الأجانب.

والجاهلية: هي المدة التي كان الناس عليها قبل الإسلام بعد اندثار رسالة عيسى ﷺ.

والمراد: لا تُظهِرن محاسنكن كما كانت تفعل نساء الجاهلية قبل الإسلام.

قال محمد بن كعب: الجاهلية الأولى بين عيسى ومحمد عليهما السلام^(٣).

وقال مجاهد: كانت المرأة تخرج فتمشي بين الرجال، فذلك تبرج الجاهلية الأولى^(٤).

وكما يفعله بعض نساء العصر من الكاسيات العاريات المتبرجات المتبخترات، ممن

(١) البزار (٢٠٦١) و«صحيح سنن الترمذي» (٩٣٦) وصححه الألباني أيضاً في مشكاة المصابيح (٣١٠٩) وإرواء الغليل (٢٧٣) وابن خزيمة (١٦٨٦) وابن حبان (٥٥٩٨) «الإحسان» وصححه السيوطي في «فيض القدير» (٩١٩٣).

(٢) أخرجه عبد بن حميد وابن المنذر كما في «الدر المنثور» (٣٠/١٢). وأخرجه الترمذي وقال: هذا حديث حسن غريب وصححه الألباني في صحيح الجامع برقم (٦٦٩٠) ورواه الطبراني في المعجم الأوسط ورجاله رجال الصحيح، قال الألباني في صحيح الترغيب والترهيب: صحيح برقم (٣٤٤) وأخرجه ابن خزيمة (٩٣٣) وابن حبان (٤١٢، ١٢) وقال الهيثمي: رجاله موثقون.

(٣) ابن سعد (١٩٨/٨).

(٤) أخرجه ابن مردويه عن ابن عباس كما في «الدر» (٣٤/١٢).

يمشين مشية فيها تبختر وتصنع.

وينبغي على المرأة ألا تلبس كعباً عالياً مدبباً، ولا تضرب الأرض برجلها، وتُلفت أنظار الناس إليها، ولا تُظهر شعرها، أو تضع المساحيق وهي خارجة من البيت، ولا تلبس الملابس الضيقة أو الفاتنة أو الملفتة.

وفي حديث أبي أُذينة الصّدفي: أن رسول الله ﷺ قال: «شُرُّ نساءكم المتبرجات، وهن المنافقات، لا يدخل الجنة منهن إلا مثل الغراب الأعصم»^(١).

أي: لا يدخل الجنة من النساء إلا قليلاً؛ وذلك لأن الغراب الأعصم: هو الأبيض الجناحين، وهو قليل نادر.

الأدب السادس: أمر المرأة بإقام الصلاة ﴿وَأَقِمْنَ الصَّلَاةَ﴾.

أي: أدين الصلاة كاملة في أوقاتها قال تعالى ﴿إِنَّ الصَّلَاةَ كَانَتْ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ كِتَابًا مَوْقُوتًا﴾ [النساء: ١٠٣] وهي تنهى صاحبها عن الفحشاء والمنكر، قال تعالى: ﴿إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ﴾ [العنكبوت: ٤٥]. مع الخشوع والإخلاص فيها، وتتمام الأركان والواجبات والسنن، ولا يوجد أحد من خلق الله يرتفع فوق التكليف الشرعية مهما بلغت درجة ولايته.

ولما أمر الله نساء النبي ﷺ بالتقوى عموماً، أمرهن بعد ذلك بالطاعة، والصلاة أكبر العبادات وأجل الطاعات، وجواز السفر إلى دار النعيم.

الأدب السابع: أمر المرأة بإخراج الزكاة ﴿وَأَتِينَ الزَّكَاةَ﴾.

أي أخرجن الزكاة الواجبة لمستحقيها، وتصدقن بفضول أموالكن، وأحسن إلى خلق الله. وهكذا بعد أن نهاهن الله تعالى عن الشر كالخضوع بالقول، وعدم التبرج، أمرهن بالخير، وأعظمه الصلاة والزكاة.

والزكاة عبادة مالية تطهر النفس من الشح والبخل، وتطهر المال من حق الفقير، وتنمي ﷺ وتحقق التكافل الاجتماعي في المجتمع، وتزيل ما في نفس الفقير من حقد وحسد على الغني.

(١) الحديث عند البيهقي في سننه (٨٢/٧) وصححه الألباني في «السلسلة الصحيحة» (١٨٤٩).

الْأَدَبُ الثَّامِنُ: الْأَمْرُ بِطَاعَةِ اللَّهِ وَالرَّسُولِ ﴿وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾

أي: وامثلن أمر الله تعالى في جميع الأوامر والنواهي؛ لِنَتَلَنَ مرتبة المَتَّقَاتِ، وقد خص الله - سبحانه - الصلاة والزكاة بالذكر، ثم جاء الأمر بالطاعة بصفة عامة؛ لأن الصلاة: أصل العبادات البدنية، والزكاة: أصل العبادات المالية، فمن التزم بهما أدَّى ما دونهما، ويدخل في الأمر بالطاعة: كل ما أمر الله به ورسوله على سبيل الإيجاب وعلى سبيل الاستحباب.

من هم أهل البيت؟ ثم وجَّه الله الخطاب لنساء النبي ﷺ المعنيات بهذه الآداب بالدرجة الأولى، فقال: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ﴾ أي: إنما أوصاكن الله بهذه الأوامر وتلك النواهي؛ لأنه سبحانه أراد لَكُنَّ التَّخْلِيَةَ عن النقائص، والتَّحْلِيَةَ بالكمالات؛ لِيُزَكِّيَنَّ وَيُبْعِدَ الْأَذَى وَالسُّوءَ وَالشَّرَّ عَنْ أَهْلِ بَيْتِ النَّبِيِّ ﷺ من زوجاته وذريته ﷺ، ويظهر نفوسكنَّ غاية الطهارة من أوضار الذنوب والمعاصي، فمن هم أهل بيت النبوة:

القول الأول: أنهم أهل الكساء:

١- في صحيح مسلم وغيره: عن عائشة ؓ أن رسول الله ﷺ خرج ذات غداة، وعليه مرط مرحل - والمرط المرحل: هو الكساء المنقوش - من شعر أسود، فجاء الحسن بن علي فأدخله، وجاء الحسين فأدخله، ثم جاءت فاطمة فأدخلها، ثم جاء عليٌّ فأدخله، ثم قال: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا﴾^(١).

ومقتضاها أن الله تعالى حفظ أزواج بيته ﷺ من ارتكاب الكبائر، وزكى نفوسهن.

وتشمل الآية فاطمة وابنيها الحسن والحسين وزوجها عليًّا كما صح ذلك في هذا الحديث.

٢- ومن ذلك ما جاء عن أنس ؓ قال: إن رسول الله ﷺ كان يمر بباب فاطمة ستة أشهر إذا خرج إلى صلاة الفجر يقول: «الصلاة، يا أهل البيت» ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ

(١) مسلم في الفضائل (٦١/٢٤٢٤) ورقم (٢٠٨١) وأحمد في المسند (١٦٢/٦) برقم (٢٥٢٩٥) في شطره الأول، إلى (أسود) وإسناده صحيح على شرط مسلم، (محققوه) وأخرجه ابن أبي شيبة برقم (١٢١٥١) وأبو داود برقم (٤٠٣٢) والترمذي (٢٨١٣) وقال: حديث حسن غريب صحيح، والحاكم (١٨٨/٤) وقال: صحيح الإسناد ولم يخرجاه ووافقه الذهبي، والبيهقي (١٤٩/٢) وفيه هذه الزيادة (فجاء الحسن بن علي.. من طريق محمد بن بشر عن زكريا، به، الخ كما هي في صحيح مسلم (٢٤٢٤)).

عَنْكُمْ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا^(١).

٣- وأخرج الطبراني وأحمد وغيرهما بسند صحيح: عن أم سلمة رضي الله عنها أن رسول الله ﷺ قال لفاطمة: «أنتي بزوجك وابنيه»، فجاءت بهم، فألقى عليهم كساءً فدَكِيًا، ثم وضع يده عليهم، ثم قال: «اللهم إن هؤلاء أهل محمد، فاجعل صلواتك وبركاتك على آل محمد، كما جعلتها على آل إبراهيم إنك حميد مجيد»، قالت أم سلمة: فرفعتُ الكساء لأَدْخُلَ معهم، فجذبهُ من يدي، وقال: «إنك إلى خير»^(٢).

٤- وعن أم سلمة رضي الله عنها قالت: إن هذه الآية نزلت في بيتها ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمْ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ﴾ قالت: وأنا جالسة عند الباب، فقلت: يا رسول الله، ألسْتُ من أهل البيت؟ فقال: «إنك إلى خير، أنت من أزواج النبي ﷺ» قالت: وفي البيت رسول الله ﷺ وعليّ وفاطمة والحسن والحسين، فجلبلهم بكساء وقال: «اللهم هؤلاء أهل بيتي فأذهب عنهم الرجس وطهرهم تطهيرا»^(٣) ففي هذه الأحاديث ذُكِرَ أهل الكساء.

القول الثاني: أنهم نساؤه ومن حُرْم الصدقة:

والحديث التالي يوسع دائرة أهل البيت، ويضم إليهم من ذُكروا فيه:

٥- أخرج مسلم وغيره بسنده قال: حدثني يزيد بن حَيَّان قال: انطلقتُ أنا وحصين بن سَبْرَة، وعمر بن مسلم، إلى زيد بن أرقم، فلما جلسنا إليه قال له حصين: لقد لقيتُ يا زيد خيراً كثيراً، رأيتُ رسول الله ﷺ، وسمعتُ حديثه، وغزوتُ معه، وصليتُ خلفه، لقد لقيتُ يا زيد خيراً كثيراً، حدثنا يا زيد ما سمعتُ من رسول الله ﷺ، قال: يا ابن أخي، والله لقد كُبرْتُ سني، وقدم عهدي، ونسيتُ بعض الذي كنتُ أعِي من رسول الله

(١) «المسند» (٢٥٩/٣) برقم (١٣٧٢٨، ١٤٠٤٠) بإسناد ضعيف، لضعف علي بن زيد وهو ابن جدعان (محققوه) و«سنن الترمذي» برقم (٣٢٠٦) وابن أبي شيبة برقم (١٢٣٢٢) والطبراني (٤٠٣/٢٢) برقم (١٠٠٢) وصححه الحاكم (١٥٨/٣) على شرط مسلم، وسكت عنه الذهبي، وأخرجه الطيالسي (٢٠٥٩) وأبو يعلى (٣٩٧٨).

(٢) الطبراني (٢٦٦٤، ٢٦٦٥) وأحمد (٣٢٧/٤٤) (٢٦٧٤٦) قال محققوه: حديث صحيح وهذا إسناده ضعيف، لضعف علي بن زيد، وهو ابن جدعان، وشهر بن حوشب، وبقية رجاله رجال الشيخين غير حماد بن سلمة فمن رجال مسلم، وأخرجه أبو يعلى (٧٠٢٦) والطحاوي في «شرح مشكل الآثار» (٧٦٩).

(٣) النسائي في «السنن الكبرى» برقم (١٤٠٤، ١٤٠٥) وورد في «المسند» بنحوه (٣٠٥/٦) برقم (٢٦٥٠٨) بنحوه، و«تفسير الطبري» (٩/٢٢) وأخرجه غيرهم وقال محققو المسند وهو حديث صحيح له ثلاثة أسانيد وذكروها (١١٩/٤٤).

ﷺ فما حدثتكم فاقبلوا، وما لا فلا تكلفوني، ثم قال: قام فينا رسول الله ﷺ يوماً خطيباً بماء يُدعى (خُماً) بين مكة والمدينة، فحمد الله وأثنى عليه، ووعظ وذكّر، ثم قال: «أما بعد، ألا يا أيها الناس، فإنما أنا بشر، يوشك أن يأتي رسول ربي فأجيب، وأنا تارك فيكم ثقلين، وأولهما: كتاب الله، فيه الهدى والنور، فخذوا بكتاب الله واستمسكوا به»، فحثّ على كتاب الله ورغّب فيه، ثم قال: «وأهل بيتي، أذكركم الله في آل بيتي، أذكركم الله في آل بيتي»، ثلاثاً، فقال له حصين: وَمَنْ أَهْلُ بَيْتِهِ يَا زَيْدُ؟ أليس نساؤه من أهل بيته؟ قال: إن نساءه من أهل بيته، ولكن أهل بيته مَنْ حُرِّمَ الصَّدَقَةُ بعده، قال: وَمَنْ هُمْ؟ قال: هم آل عليّ، وآل عقیل، وآل جعفر، وآل عباس، قال: كل هؤلاء حُرِّمَ الصَّدَقَةُ؟ قال: نعم^(١). وقوله: (إن نساءه من أهل بيته) أي بالمعنى العام. وقوله: (ولكن أهل بيته) أي بالمعنى المخصوص.

والمعنى في الآية: إن الله يأمركن يا أهل بيت النبوة، بما يأمركن به، وينهاكن بما ينهاكن عنه، ليذهب عنكم الأذى والشر والخبث حتى تكونوا ظاهرين مطهرين، فاحمدوا الله واشكروه على هذه التزكية وهذا التطهير.

القول الثالث: أنهم نساؤه وذريته:

هذا: وقد نزلت الآية في أزواج النبي ﷺ بوصفهن أهل بيته، فهُنَّ المعنّيات أوّلاً، وكان ذلك قبل أن يدعو لأهل الكساء، ونزلت الآية في بيت أم سلمة، ولما سألت: ألسْتُ من أهل بيتك؟ قال: «إِنَّكَ إِلَى خَيْرٍ، أَنْتَ مِنْ أَزْوَاجِ النَّبِيِّ ﷺ» أي: وأزواجه هم أهل بيته، ثم ألحق بهن أهل الكساء، كما ألحق الحرم المدني بالحرم المكي في الحرمة. ولو لم يُدخل النبي ﷺ أم سلمة ؓ في الكساء لأن فيه رجلاً أجنبياً عنها، هو عليّ ؓ. ونظير ذلك قوله تعالى في زوجة إبراهيم ؑ: ﴿أَتَعَجِبِينَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ رَحِمْتُ اللَّهُ وَبَرَكْنَاهُ عَلَيْكُمْ أَهْلَ الْبَيْتِ﴾ [هود: ٧٣].

وكلمة آل أعم من كلمة أهل، فالأولى تشمل عامة الأقارب والثانية تعني الزوجات والأبناء.

(١) مسلم: (٢٤٠٨) (٣٦) والنسائي في «السنن الكبرى» برقم (٨١٧٥)، والمسند (١٩٢٦٥) بإسناد صحيح على شرط مسلم وأبو داود (٤٩٧٣) وابن خزيمة (٢٣٥٧) والبغوي في شرح السنة (٣٩١٣) وغيرهم.

٣٥- ﴿إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ وَالْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَالْقَنِينَ وَالْقَنِينَ وَالصَّادِقِينَ وَالصَّادِقَاتِ
وَالصَّبِرِينَ وَالصَّبِيرَاتِ وَالْخَاشِعِينَ وَالْخَاشِعَاتِ وَالْمُتَصَدِّقِينَ وَالْمُتَصَدِّقَاتِ وَالصَّامِتِينَ وَالصَّامِتَاتِ وَالْحَفِظِينَ
وَالْحَفِظَاتِ وَالذَّاكِرِينَ اللَّهَ كَثِيرًا وَالذَّاكِرَاتِ أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا﴾

وبعد أن بيّن سبحانه أن أمهات المؤمنين لسن كسائر النساء، وأن أجر العمل الصالح يضاعفُ لهن مرتين، فإنّ هذا يثير تساؤلاً في نفوس المسلمات عموماً: أهّنّ مأجورات على ما يعملن من الحسنات؟ وهل هُنّ مأجورات بمثل ما أمرت به أزواج النبي ﷺ، أم أن هذا خاص بهنّ؟ فكانت هذه الآية جواباً لذلك؛ ففيها ذكر لبقية النساء، وفيها مساواة النساء بالرجال في الطاعات والعبادات وسائر الشرائع الظاهرة والباطنة.

وهذه جملة من الأحاديث الواردة في أسباب نزول الآية:

- ١- جاء من عدة طرق عن أم سلمة ؓ أنها قالت للنبي ﷺ: يا نبي الله، ما لي أرى الرجال يُذكرون في القرآن، والنساء لا يُذكرن، فأنزل الله ﴿إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ﴾^(١).
- ٢- وفي لفظ النسائي: عن عبد الرحمن بن شيبة قال: سمعت أم سلمة زوج النبي ﷺ تقول: قلت للنبي ﷺ: ما لنا لا نُذكر في القرآن كما يُذكر الرجال؟! قالت: فلم يرعني ذات يوم ظهراً إلا ندأوه على المنبر، وأنا أُسرح رأسي، فلففتُ شعري ثم خرجتُ إلى حُجرة بيتي، فجعلتُ سمعي عند الجريد، فإذا هو يقول على المنبر: «يا أيها الناس، إن الله يقول في كتابه»: ﴿إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ﴾ إلى آخر الآية^(٢).
- ٣- وأتت أم عُمارة الأنصارية رسول الله ﷺ، فقالت: ما أرى كل شيء إلا للرجال، وما أرى النساء يُذكرن بشيء، فنزلت الآية^(٣).
- ٤- وعن أسماء بنت عميس لما رجعتُ من الحبشة مع زوجها جعفر بن أبي طالب، دخلتُ على نساء النبي ﷺ، فقالت: هل نزل فينا شيء من القرآن؟ قيل: لا، فأتت النبي ﷺ فقالت: يا رسول الله، إن النساء لفي خيبة وخسار، قال: «ومم ذلك؟» قالت: لأنهنّ لا يُذكرن بالخير، كما تُذكر الرجال، فأنزل الله الآية^(٤).

(١) «المسند» (٢٦٥٧٥، ٢٦٦٠٣، ٢٦٦٠٤) والنسائي في «الكبرى» (١١٤٠٥) والطبراني (٥٥٤) قال محققو «المسند»: إسناده صحيح، ورجاله ثقات.

(٢) «سنن النسائي» (٤٢٥) وصححه السيوطي في «الجامع الصغير» (٤٣٤) وهو في «المسند» (٣٠١/٦) برقم (٢٦٥٧٥) بإسناد صحيح ورجال ثقات، والطبراني في (الكبرى) (٥٥٤) وصححه الحاكم ووافقه الذهبي (٤١٦/٢) وصححه الألباني في كتاب «التفسير» للنسائي (٣٢١١).

(٣) «صحيح سنن الترمذي» (٢٥٦٥) قال الألباني: صحيح الإسناد، وأخرجه الطبراني في الكبير (٣١/٢٥).

(٤) ذكره الواحدي في «أسباب النزول» عن مقاتل.

وجاء مثل ذلك عن عدد من النسوة، دخلن على زوجات رسول الله ﷺ وسألن عن ذلك .

٥- وعن أم سلمة بنت أبي أمية، وأنيسة بنت كعب الأنصارية ؓ قالت للنبي ﷺ: ما بال ربنا يذكر الرجال ولا يذكر النساء في شيء من كتابه؟ ونخشى ألا يكون فيهن خير، فأنزل الله الآية .

وقد ذكر الله تعالى للنساء مع الرجال في هذه الآية عشر مراتب مدحهن معهم، وهذه المراتب العشر هي: الإسلام، والإيمان، والطاعة، والصدق، والصبر، والخشوع، والصدقة، والصوم، والعفة، وكثرة الذكر، وبيانها بالتفصيل فيما يأتي:

أولاً: الانقياد لأمر الله تعالى:

جاء ذلك في قوله تعالى: ﴿إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ﴾ أي: المنقادين والمنقادات لأمر الله تعالى، وهم المتمسكون بأوامر الإسلام، المتخلقون بأخلاقه رجالاً ونساء .

والإسلام بالمعنى الشرعي: هو الشرائع الظاهرة للقائمين بها، وهي شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله، وإقام الصلاة، وإيتاء الزكاة، وصوم رمضان، وحج البيت لمن استطاع إليه سبيلاً .

ثانياً: مرتبة الإيمان: وتصحيح الاعتقاد، وموافقة الظاهر للباطن، جاء في قوله تعالى: ﴿وَالْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ﴾ أي: المصدقين بالله وآياته، وما أنزل على رسله وأنبيائه .

والإيمان بالمعنى الشرعي هو الشرائع الباطنة من عقائد القلب والأعمال، وهو: الإيمان بالله، وملائكته، وكتبه، ورسله، واليوم الآخر، وبالقدر خيره وشره .

فالإسلام عمل الجوارح، والإيمان عمل القلوب:

١- فإن اجتمعاً معاً فهو الإيمان الكامل، والإسلام فيه مستلزم للإيمان، كما قال تعالى: ﴿فَأَخْرَجْنَا مَنْ كَانَ فِيهَا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ ﴿٣٥﴾ فَمَا وَجَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴿٣٦﴾ [الذاريات].

٢- وإذا انفردا، دل كل منهما على أركانه المعروفة، فالإسلام عمل الظاهر، والإيمان عمل الباطن كما في الآية التي معنا: المسلمين والمسلمات والمؤمنين والمؤمنات، فلكل منهما معنى:

٣- وإن أتى العبد بأعمال الجوارح والقلب غير مصدق، فهو النفاق؛ لعدم تمكن الإيمان من القلب، كما قال تعالى: ﴿قَالَتِ الْأَعْرَابُ ءَأَمَّنَّا قُلْ لَمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الْإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ﴾ [الحجرات: ١٤].

٤- وقد يرتفع الإيمان عن صاحبه وقت ارتكابه للكبائر، ثم يعود إليه؛ لأن الإيمان والكبائر لا يجتمعان في وقت واحد.

ولذا: جاء في حديث أبي هريرة أن النبي ﷺ قال: «لا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمن، ولا يسرق السارق حين يسرق وهو مؤمن، ولا يشرب الخمر حين يشربها وهو مؤمن»^(١).

فالإيمان يُسَلَب من العبد وقت ارتكاب الكبيرة فيكون كالظلة، ثم يعود إليه.

ثالثاً: مرتبة الطاعة: وقد جاءت هذه المرتبة في قوله تعالى: ﴿وَالْقَنِينِ وَالْقَنِينَتِ﴾ أي: المطيعين لله ورسوله والمطيعات، المواظبين والمواظبات على ما يرضي الله ورسوله.

فالقنوت: هو العبادة في سكونٍ وتضرعٍ وخشية، وهو ينشأ عن الإسلام والإيمان، قال تعالى: ﴿وَقُومُوا لِلَّهِ قَانِتِينَ﴾ [البقرة: ٢٣٨].

وقال سبحانه: ﴿وَلَهُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ كُلُّ لَّهُ قَانِتُونَ﴾ [الروم].

ونفى الله سبحانه التسوية بين القانت الخاشع وبين غيره في قوله جلَّ شأنه: ﴿أَمَّنْ هُوَ قَانِتٌ ءَأَنَاءَ لَيْلٍ سَاجِدًا وَقَآئِمًا يَحْذَرُ الْآخِرَةَ وَيَرْجُوا رَحْمَةَ رَبِّهِ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولَؤُلَا الْأَلْبَابِ﴾ [الزمر].

رابعاً: مرتبة الصدق في الأقوال والأفعال:

لقوله تعالى: ﴿وَالصَّادِقِينَ وَالصَّادِقَاتِ﴾ أي: الصادقين والصادقات مع الله في أقوالهم وأفعالهم ونياتهم وإيمانهم، والذين ينطقون ويعملون بما يوافق الواقع ولا يخالفه.

والصدق صفة محمودة، من أصول الديانة، كالوفاء بالعهد، والوفاء بالنذر، كما قال تعالى عَمَّنْ جَمَعُوا خِصَالِ الْبِرِّ: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا﴾ [البقرة: ١٧٧]. وهو من علامات

(١) «صحيح البخاري» برقم (٦٨١٠) و«صحيح مسلم» (٥٧).

الإيمان، فالمؤمن قد يكون بخيلاً أو جباناً، ولكنه لا يكون كاذباً، والصحابة لم يُجرب عليهم الكذب في الجاهلية ولا في الإسلام.

خامساً: مرتبة الصبر على ما أمر الله به فيما سرّ وأساء.

قال تعالى: ﴿وَالصَّابِرِينَ وَالصَّابِرَاتِ﴾ أي: الصابرين والصابرات على فعل الطاعات، وترك المحرمات والشهوات والشبهات، والصابرين والصابرات على المكاره، وعلى الشدائد والمصائب، وهذا يدل على قوة العزيمة، وتوطين النفس على تحمل المشاق، ومن أهمه: الصبر عند الصدمة الأولى، والصبر على قبول الحق من الناس.

سادساً: مرتبة الخشوع والتواضع لله ﷻ:

قال تعالى: ﴿وَالْخَاشِعِينَ وَالْخَاشِعَاتِ﴾ أي: الخائفين من الله تعالى والخائفات، والمتواضعين لله تعالى بجوارحهم وقلوبهم والمتواضعات.

والخشوع صفة تجعل القلب والجوارح في انقياد تام، ومراقبة لله ﷻ، واستشعار لعظمته وهيبته، ويدخل في ذلك الخشوع في الصلاة، وتجنب المعاصي، والإحسان في القول والعمل إلى عباد الله، وجميع القرب بالنوافل، والتوبة من الكبائر والصغائر.

سابعاً: مرتبة التصدق على سبيل الفرض والنفل

قال تعالى: ﴿وَالْمُتَصَدِّقِينَ وَالْمُتَصَدِّقَاتِ﴾ أي: المتصدقين والمتصدقات فرضاً ونفلاً، بالأموال وغيرها على الفقراء والمساكين، بإخراج الزكاة وصدقات التطوع، وبذل الخير إلى المحتاجين دفعاً لحاجتهم، وعوناً على مساعدتهم.

والصدقة تشمل جميع الأعطيات، وإنفاق المال، وبذل المعروف، والرفق بالآخرين.

وفي الحديث: عن أبي هريرة ؓ أن النبي ﷺ قال: «... ورجل تصدق بصدقة فأخفاها حتى لا تعلم شماله ما تنفق يمينه»^(١).

وفي حديث أنس ؓ: أن النبي ﷺ قال: «إن الصدقة لتطفئ غضب الرب، وتدفع ميتة

(١) «صحيح البخاري» برقم (٦٦٠، ١٤٢٣) و«صحيح مسلم» برقم (١٠٣١) من حديث السبعة الذين يظلمهم الله في ظله.

السوء»^(١)، و«داووا مرضاكم بالصدقة»، و«الصدقة تطفئ الخطيئة كما يطفئ الماء النار»^(٢).

وفي الصحيحين: عن عدي بن حاتم رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «ما منكم من أحد إلا سيكلمه ربه، ليس بينه وبينه ترجمان، فينظر أيمن منه فلا يرى إلا ما قدم، وينظر أشأم منه فلا يرى إلا ما قدم، وينظر بين يديه فلا يرى إلا النار تلقاء وجهه، فاتقوا النار ولو بشق تمرة»^(٣).

قال تعالى: ﴿وَمَنْ يُؤْكَلْ شَحٌّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [التغابن: ١٦].

ثامناً: المحافظة على الصوم المفروض، والتقرب إلى الله بالصوم المسنون:

قال تعالى: ﴿وَالصَّيِّمِينَ وَالصَّائِمِينَ﴾ يشمل صيام الفرض والنفل، فالصوم زكاة البدن، يطهره ويزكيه.

وفي الحديث: عن أبي هريرة رضي الله عنه، عن النبي ﷺ فيما يرويه عن ربه: «الصوم لي وأنا أجزي به»^(٤) فهو تقرب إلى الله تعالى، واستعلاء على شهوات الحياة وملذاتها.

والصوم فيه تشبه بالملائكة الذين لا يأكلون ولا يشربون، ولا يعصون الله ما أمرهم، ويفعلون ما يؤمرون، وفي الصوم كسر للشهوة، ولذا: فإن الإسلام جعله علاجاً لمن لا يستطيع الزواج «يا معشر الشباب من استطاع منكم الباءة فليتزوج، فإنه أغض للبصر، وأحصن للفرج، ومن لم يستطع فعليه بالصوم فإنه له وجاء»^(٥).

تاسعاً: العفة والطهارة:

قال تعالى: ﴿وَالْحَافِظِينَ فُرُوجَهُمْ وَالْحَافِظِينَ﴾ أي: حافظين أنفسهم عن الزنى ومقدماته،

(١) من حديث أنس عند الترمذي برقم (٦٦٤) قال أبو عيسى: هذا حديث حسن غريب من هذا الوجه.

(٢) من حديث كعب بن عجرة في الترمذي برقم (٦١٤) و«المسند» (٣/٣٢١) من حديث جابر برقم (١٥٢٨٤) بإسناد قوي على شرط مسلم ورجال ثقات، (محققوه) وعن معاذ برقم (٢٢٠١٦).

(٣) «صحيح البخاري» برقم (٦٥٣٩، ٧٤٤٣) و«صحيح مسلم» (١٠١٦).

(٤) من حديث أبي هريرة وأبي سعيد في «صحيح مسلم» برقم (١١٥١) و«صحيح البخاري» برقم (١٩٤٦)، (٧٤٩٢).

(٥) «صحيح البخاري» برقم (١٩٠٥، ١٥٠٦٦) و«صحيح مسلم» برقم (١٤٠٠).

وعن كشف العورة، واللواط، والسحاق، والاستمناء.

فحفظ الفرج يعني: التعفف عن أن يضع الإنسان شهوته في غير ما أحل الله سبحانه، كما قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ هُمْ لِأُفْوَاجِهِمْ حَافِظُونَ ۖ إِلَّا عَلَىٰ أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ ۚ فَمَنْ أَتَبَعَىٰ وَرَاءَ ذَلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْعَادُونَ ۖ﴾ [المؤمنون].

عاشراً: الإكثار من ذكر الله تعالى:

قال تعالى: ﴿وَالذَّاكِرِينَ اللَّهَ كَثِيرًا وَالذَّاكِرَاتِ ۗ أَيْ: إنهم يذكرون الله تعالى بقلوبهم وألسنتهم، قائمين وقاعدين، وعلى جنوبهم، وفي جميع أحوالهم، كما قال تعالى: ﴿الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ﴾ [آل عمران: ١٩١].

يذكرونه في صباحهم ومساءهم وأدبار الصلاة المكتوبة وعند النوم ونحو ذلك:

١- وفي حديث أبي هريرة رضي الله عنه: أن النبي ﷺ قال: «سبق المفردون» قالوا: يا رسول الله، وما المفردون؟ قال: «الذاكرين الله كثيراً والذاكرات»^(١) قال تعالى: ﴿فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ﴾ [البقرة: ١٥٢].

٢- وفي الحديث القدسي: عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ فيما يرويه عن ربه: «وإن ذكرني في ملأ، ذكرته في ملأ خير منهم»^(٢).

٣- وفي حديث أبي سعيد، وأبي هريرة رضي الله عنه: أن النبي ﷺ قال: «إذا استيقظ الرجل من الليل وأيقظ امرأته فصليا ركعتين كُتِبَا من الذاكرين الله كثيراً والذاكرات»^(٣).

٤- وفي حديث أبي هريرة رضي الله عنه: «وما اجتمع قوم في بيت من بيوت الله يتلون كتاب الله

(١) «صحيح مسلم» برقم (٢٦٧٦).

(٢) الحديث في «صحيح الجامع» (٤٣٣٧) و«السلسلة الصحيحة» (٢٠١٢)، وهو في مسند أحمد (٩٣٥١) بإسناد صحيح على شرط الشيخين، وفي صحيح مسلم (٢٦٧٥) والترمذي (٣٦٠٣) والنسائي في الكبرى (٧٧٣٠) وأخرجه البخاري (٧٤٠٥).

(٣) «صحيح سنن ابن ماجه» (٢٢٣/١) وهو في «السنن» برقم (١٣٣٥) وصححه الحاكم ووافقه الذهبي (١/٣١٦) و«صحيح سنن أبي داود» (١١٦١، ١٢٨٨) والنسائي في «السنن الكبرى» (١٣١٠، ١١٤٠٦) وأبو يعلى (١١١٢) وابن حبان (٢٥٦٨).

ويتدارسونه بينهم إلا نزلت عليهم السكينة، وغشيتهم الرحمة، وذكرهم الله فيمن عنده»^(١) فالجزء من جنس العمل وفي رواية (وحفتهم الملائكة) .

ويدخل في ذلك الأذكار التي تعقب الصلاة، وأذكار الصباح والمساء، ولا يدخل فيه تمايل بعض المتصوفة يمتن ويسرة، وما يصحب ذلك من عبث وهمهمة .

قال عطاء بن رباح :

- ١- من فَوَّضَ أمره إلى الله فهو داخل في قوله ﷻ: ﴿إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ﴾ .
- ٢- ومن أَقَرَّ بالله ربًّا، وبمحمد نبيا، ولم يخالف قلبه لسانه، فهو داخل في قوله تعالى: ﴿وَالْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ﴾ .
- ٣- ومن أطاع الله في الفرض، والرسول في السُّنَّة، فهو داخل في قوله سبحانه: ﴿وَالْقَنِينَ وَالْقَنِينَ﴾ .
- ٤- ومن صان قوله عن الكذب فهو داخل في قوله جلَّ شأنه: ﴿وَالصَّادِقِينَ وَالصَّادِقَاتِ﴾ .
- ٥- ومن صبر على الطاعة، وعن المعصية، وعن الرذيلة، فهو داخل في قوله تعالى: ﴿وَالصَّادِقِينَ وَالصَّادِقَاتِ﴾ .
- ٦- ومن صلى فلم يعرف مَنْ عن يمينه وعن شماله، فهو داخل في قوله سبحانه: ﴿وَالْخَاشِعِينَ وَالْخَاشِعَاتِ﴾ .
- ٧- ومن تصدق في كل أسبوع بدرهم، فهو داخل في قوله ﷻ: ﴿وَالْمُصَدِّقِينَ وَالْمُصَدِّقَاتِ﴾ .
- ٨- ومن صام في كل شهر أيام البيض، وهي الثالث عشر، والرابع عشر، والخامس عشر، فهو داخل في قوله تعالى: ﴿وَالصَّائِمِينَ وَالصَّائِمَاتِ﴾ .
- ٩- ومن حفظ فرجه عما لا يحل، فهو داخل في قوله جلَّ شأنه: ﴿وَالْحَافِظِينَ فُرُوجَهُمْ وَالْحَافِظَاتِ﴾ .
- ١٠- ومن صلى الصلوات الخمس بحقوقها، فهو داخل في قوله تعالى: ﴿وَالذَّاكِرِينَ اللَّهَ كَثِيرًا وَالذَّاكِرَاتِ﴾ .

(١) من حديث طويل في «صحيح مسلم» برقم (٢٧٠٠، ٢٦٩٩) .

وقد أعدَّ الله لهؤلاء المتقين الأبرار المتصفين بهذه الأوصاف العشرة، أعظم الأجر والمثوبة في جنات النعيم، مع تكفير ذنوبهم وسيئاتهم بسبب ما فعلوه من صالح الأعمال، المشتملة على أعمال القلوب وأعمال الجوارح وأقوال اللسان، والنفع المتعدي للآخرين، والقاصر على النفس، والمشمول على فعل الخير وترك الشر، ومن قام بها قام بالدين كله ظاهره وباطنه، وقام بالإسلام والإيمان والإحسان.

لذا: فإن الله تعالى غفر لهم ذنوبهم، لأن الحسنات يذهبن السيئات، وأعطاهم أعظم الأجر، وفي الجنة ما لا عين رأت ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر، نسأل الله من فضله.

قِصَّةُ زَيْنَبَ وَزَيْدٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا

٣٦- ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَنْ يَكُونَ^(١) لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا مُبِينًا ﴿٣٦﴾﴾

بعد أن ذكر الله - سبحانه - خصال أهل الإيمان من الرجال والنساء، أتبع ذلك ببيان أن طاعة الرسول ﷺ ملحقة بطاعة الله تعالى، وأنها طاعة واجبة، وليس في وسع مسلم أن ينفك عنها، وأن الرجال والنساء فيها سواء، فبيّن تبارك وتعالى أنه لا ينبغي لكل من الرجال والنساء إذا حكم الله فيهم حكمًا أن يخالفوه بأن يختاروا غير الذي قضاه الله، كما قال تعالى: ﴿الَّتِي أُولَىٰ بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنْفُسِهِمْ﴾ [٦٦].

وقال سبحانه: ﴿مَا كَانَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ﴾ [القصص: ٦٨].

ولا يليق بمن اتصف بالإيمان، إلا الإسراع في مرضاة الله ورسوله، والهرب من سخط الله ورسوله، وامتنال أمرهما واجتناب نهيهما، ومن لم يسلك الطريق الموصلة إلى الله تعالى فقد باء بالعقوبة والنكال، لأنهم جعلوا أهواءهم حجابًا بينهم، وحجابًا من أمر الله ورسوله.

سبب النزول: وقد نزلت هذه الآية في شأن زينب بنت جحش، وزيد بن حارثة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا،

(١) قرأ هشام وعاصم وحزمة والكسائي وخلف بياء التذكير في (أن يكون)، والباقون بياء التأنيث، وجاز تذكير الفعل وتأنيثه؛ لأن الفاعل مؤنث غير حقيقي.

لما خطبها النبي ﷺ له، فاستنكفت وأبت هي وأخوها عبد الله؛ لأنها قرشية وهو عبد مملوك للنبي ﷺ، فأنزل الله تعالى هذه الآية، فَرَضِيْتُ وَأُذْعَنْتُ، وجاء أخوها إلى النبي ﷺ، فقال: يا رسول الله، مُرْنِي بما شئت، قال: «زَوِّجْهَا مِنْ زَيْدٍ»، فَرَضِيْتُ وَزَوَّجَهَا^(١).

وكان زواج زينب بزيد في مكة قبل الهجرة، ومقتضى ذلك أن هذه الآية مكية، وأنها ألحقت بهذه السورة المدنية؛ لتكون مقدمة لذكر قصة زواج رسول الله ﷺ بزينب .

روى جابر بن زيد، أن أم كلثوم بنت عقبة بن أبي معيط، كانت أول من هاجر من النساء بعد صلح الحديبية، فوهبت نفسها للنبي ﷺ فزوجها زيد بن حارثة بعد أن طلق زينب، فسخطت هي وأخوها، فنزلت هذه الآية فرضيا^(٢).

والآية عامة في جميع الأمور، وفيها أن صيغة الأمر عزيمة، ما لم يصرفها صارف عن الوجوب، وليس فيها اختيار للعبد:

فقد ورد أن رجلاً سأل ابن عباس ؓ عن صلاة ركعتين بعد العصر فنهاه، وقرأ الآية: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا لِمُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ﴾^(٣).

قال تعالى: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجًا مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾^(٤) [النساء].

فلا يصح لمؤمن أو مؤمنة، إذا أراد الله ورسوله أمراً، أن يختاروا ما يخالف ذلك، بل يجب عليهم أن يذعنوا ويسلموا، وأن يكون رأيهم تابعاً لحكم الله ورسوله، وقد شدد الله النكير على من يخطئ طريق الحق ﴿وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا مُبِينًا﴾ أي: بُعداً عن طريق الصواب بُعداً ظاهراً، وهذا بيان لسوء عاقبة من خالف أمر الله ورسوله، كما قال تعالى: ﴿فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَنْ تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [النور: ٦٣]. قال تعالى:

(١) يُنْظَرُ: «البحر المحيط» (٧/٢٣٣).

(٢) «تفسير الطبري» (١٩/١١٤).

(٣) عبد الرزاق (٧٩٧٥) والبيهقي (٢/٤٥٣).

إِبْطَالُ التَّبَنِّي

٣٧- ﴿وَإِذْ^(١) تَقُولُ لِلَّذِي أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَاتَّقِ اللَّهَ وَتُخْفِي فِي نَفْسِكَ مَا اللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى النَّاسَ وَاللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَاهُ فَلَمَّا قَضَى زَيْدٌ مِنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَاكَهَا لِكَيْ لَا يَكُونَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِي أَزْوَاجِ أَدْعِيَائِهِمْ إِذَا قَضَوْا مِنْهُنَّ وَطَرًا وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ مَفْعُولًا^(٢)﴾

ثم شرع سبحانه في إبطال حكم التبني الذي كان قائماً في الجاهلية، وهذا تشريع عام للمؤمنين حتى لا يتساوى أدعياء التبني بالأبناء الحقيقيين، وقد كان هذا من الأمور المعتادة التي لا يمكن أن تزول إلا بحادث كبير، فكانت إزالته بقول رسول الله ﷺ وفعله، وإذا أراد الله أمراً جعل له سبباً، فقال تعالى:

﴿وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِي أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ﴾ أي: اذكر -يا محمد- وقت قولك لزيد بن حارثة، الذي أنعم الله عليه بالإسلام والإيمان والهداية، وأنعمت عليه -يا محمد- بالعتق من الرق والتحرير من العبودية، وحُسن التربية والمحبة والإكرام: ﴿أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَاتَّقِ اللَّهَ﴾ أي: أبقِ على زوجك، زينب بنت جحش، في عصمتك ولا تطلقها، واتق الله فيها، واصبر على ما بدر منها في حقك، وكانت قد تعالت عليه بِحَسَنِها ونسبها.

ترجمة زيد بن حارثة: زيد بن حارثة من بني كلب، من تغلب باليمن، وكانت أمه سعدى بنت ثعلبة من بني معن، قد خرجت به إلى زيارة قومها فأغارت عليهم خيل من بني القين بن جسر، فكان زيد ممن سُبي في هذه الغارة، وبيع في سوق حُباشة بناحية مكة، فاشتراه حكيم بن حزام لعمة خديجة بنت خويلد، فلما تزوجها رسول الله ﷺ وهبته إياه، وكانت سنُّه إذ ذاك ثماني سنوات، فحج ناس من بني كلب، ورأوا زيدا فعرفوه وعرفهم، فأعلموا أهلهم ووصفوا لهم مكانه، فقدم جده وعمه كعب إلى مكة؛ ليدفعا له الفدية ويأخذاه، فكلَّمَا النبي ﷺ فيه -وكان هذا قبل البعثة- فأُتي به فعرفهما، فقال له النبي ﷺ: «اخترني أو اخترهما»، فقال زيد: ما أنا بالذي أختار عليك أحداً، فانصرف جده وعمه وطابت أنفسهما ببقائه عند النبي ﷺ، وعندئذ خرج به النبي ﷺ إلى (الحجر) وقال لمن حضر: «اشهدوا أن زيدا ابني يرثي وأرثه»، فصار ابناً للنبي ﷺ، وأسماء زيد بن محمد^(٢).

(١) أدغم الذال في التاء من (وإِذْ تقول) أبو عمرو وهشام وحزمة والكسائي وخلف، وأظهرها الباقون.

(٢) هذه إحدى الروايات في شأن زيد، وانظر ما جاء في تفسير الآية الخامسة من هذه السورة.

- ١- ولما كُبر زيد، زوّجه النبي ﷺ (أم أيمن) مولاته، فولدت له أسامة بن زيد، وطلقها.
- ٢- فزوجه النبي بعدها (زينب بنت جحش) بمكة.
- وبعد الهجرة آخى النبي ﷺ بينه وبين حمزة بن عبد المطلب.
- ولما بطل حكم التبنّي بقوله تعالى: ﴿وَمَا جَعَلَ أَدْعِيَاءَكُمْ أَبْنَاءَكُمْ﴾ [٤]، صار يسمى زيد بن حارثة حبّ رسول الله ﷺ.
- وفي سنة خمس هجرية بعد غزوة الأحزاب طلق زيد زينب.
- ٣- فزوّجه رسول الله ﷺ (أم كلثوم بنت عقبة بن أبي معيط)، وأمها البيضاء بنت عبد المطلب، فولدت له زيدًا ورقية، ثم طلقها.
- ٤- وتزوج (درة بنت أبي لهب)، ثم طلقها.
- ٥- وتزوج (هند بنت العوام) أخت الزبير.
- وشهد زيد بدرًا والمغازي كلها، وقُتل في غزوة مؤتة سنة ثمان وهو أمير الجيش، وسنه خمس وخمسون سنة ٥٠ هـ.
- زينب بنت جحش: أما زينب، فهي بنت جحش الأسدية، كان اسمها برة، فلما تزوجها النبي ﷺ سماها زينب، وأبوها جحش بن أسد بن خزيمه من بني أسد، وأمها أميمة بنت عبد المطلب، تزوجها زيد في الجاهلية، ثم طلقها في المدينة، وتزوجها النبي ﷺ سنة خمس، وتوفيت سنة عشرين وعمرها ثلاث وخمسون سنة.
- وتُخفي في نفسك ما الله مبديه:

وكانت زينب قد بقيت في عصمة زيد سنين ولم تلد، فكان كلما يأتيها يحدث بينهما خلاف، وترفع عليه، فلما تكرر ذلك عزم على أن يطلقها، فكان يأتي إلى النبي ﷺ يُعلمه بعزمه على طلاقها؛ لأنه تزوجها منه، فيقول له النبي ﷺ: ﴿أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَاتَّقِ اللَّهَ﴾ يا زيد، وكان يقول له ذلك بصفة الولاء والصحة، لا بصفة التشريع والرسالة.

رَوَى علي زين العابدين: أن الله تعالى أوحى إلى النبي ﷺ أنه سينكح زينب^(١).

(١) أخرجه الحكيم الترمذي في «نوادير الأصول».

وعن الزهري: أن جبريل عليه السلام أعلم محمداً عليه السلام أن الله تعالى زوجّه زينب، وكان الرسول عليه السلام يُضمر في نفسه ما سيظهره الله تعالى؛ لأن النبي عليه السلام كان يعلم أن زيدا سيطلق زينب وأنه سيتزوجها، ولم يؤمر بتبليغ ذلك للناس، فكان هذا سرّاً في نفسه.

كما حدث أن جبريل عليه السلام أتى النبي عليه السلام في المنام بقطعة من حرير فيها صورة عائشة عليها السلام يقول له: هذه امرأتك، ولم يعلم النبي عليه السلام عائشة ولا أباهما إلا بعد أن تزوجها، وهذا معنى: ﴿وَتَخْفَى فِي نَفْسِكَ مَا اللَّهُ مُبْدِيهِ﴾ أي: تخفي -يا محمد- في نفسك ما أوحى الله به إليك من طلاق زيد لزوجته وزواجك منها، والله تعالى مُظهر ما أخفيت، وتخاف من المنافقين أن يقولوا: تزوج محمد مطلقة متبناه، والله تعالى أحق أن تخاف.

وخشية النبي عليه السلام من الناس ليس معناها: أنه يترك ما يكرهه الناس، ويفعل ما يرضونه، ولكن معناها: أنه يتوقع أن يصدر من المنافقين ما يكرهه النبي عليه السلام، ولذا فقد أقدم على الزواج من زينب، وما فعله النبي عليه السلام قبل ذلك كان خشية كلام المنافقين؛ حتى لا يكون كلامهم فتنة لضعفاء الإيمان.

هذا هو قوله تعالى: ﴿وَتَخَشَى النَّاسَ وَاللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخَشَّاهُ﴾ حيث إن الزواج من امرأة ابن المتبني كان محرماً، وكان أمر الله تعالى للنبي عليه السلام أن يتزوج امرأة متبناه، هو بداية إبطال هذه القاعدة، ومعنى ذلك: بيان أن زواج النبي عليه السلام من زينب سيكون موضع ريبة من الناس، وقيل وقال؛ لأنه حُكم جديد، ليس له نظير سابق، لذا: أراد النبي عليه السلام أن يصون نفسه من ألسنتهم.

كما أن النبي عليه السلام أخفى في نفسه إصرار زيد على طلاق زينب؛ لكثرة تفاخرها عليه، وسماعه منها ما يكره، وعدم صبره على معاشرتها، ووجود التنافر بينهما، وكثرة شكواه من ذلك، فكان كلما جاء للنبي عليه السلام، وقال له: إني أريد أن أفارق صاحبتني، يقول له النبي عليه السلام: أراك منها شيء؟ فيقول: لا، والله ما رأيت منها إلا خيراً، ولكنها تتعاضم عليّ لشرفها وتؤذيني، فيقول له: ﴿أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَاتَّقِ اللَّهَ﴾ يا زيد.

قالت عائشة عليها السلام: لو كنتم رسول الله عليه السلام شيئاً من الوحي لكنتم هذه الآية^(١).

(١) يُنظر: «صحيح مسلم» برقم (١٧٧) والترمذي (٣٢٠٧، ٣٢٠٨) والطبري (١١٧/٩) والطبراني (١١١).

وقال عمر وابن مسعود وعائشة رضي الله عنهن: ما نزل على رسول الله آية هي أشد عليه من هذه الآية.

وقد أخرج ابن أبي حاتم هذه القصة من طريق السدي قال: بلغنا أن هذه الآية نزلت في زينب بنت جحش، وكانت أمها أميمة بنت عبد المطلب، عمه رسول الله صلى الله عليه وسلم، وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم أراد أن يزوجه زيد بن حارثة مولاه، فكرهت ذلك، ثم إنها رضيت بما صنع رسول الله صلى الله عليه وسلم فزوجه إياه، ثم أعلم الله نبيه صلى الله عليه وسلم بعد أنها من أزواجه، فكان يستحي أن يمسك زوجته، وأن يتقي الله، وكان يخشى الناس أن يعيبوا عليه ويقولوا: تزوج امرأة ابنه، وكان قد تبنى زيداً^(١).

قال أنس: جاء زيد بن حارثة يشكو زينب إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، فجعل رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: «اتق الله وأمسك عليك زوجك» فنزلت ﴿وَتُخْفَى فِي نَفْسِكَ مَا اللَّهُ مُبْدِيهِ﴾ قال أنس: فلو كان رسول الله صلى الله عليه وسلم كاتماً شيئاً لكم هذه الآية، فتزوجها رسول الله صلى الله عليه وسلم فما أولم على امرأة من نسائه ما أولم عليها، ذبح شاة ﴿فَلَمَّا فَضَّيَ زَيْدٌ مِّنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَاهَا﴾ فكانت تفخر على أزواج النبي صلى الله عليه وسلم تقول: زَوَّجَكُنَّ أَهَالِيكُنَّ، وزوجني الله من فوق سبع سموات^(٢).

والحاصل: أن الذي كان يخفيه النبي صلى الله عليه وسلم هو إخبار الله تعالى إياه أن زيداً سيطلق زينب، وأنها ستصير زوجته، وأن الذي كان يخشاه قول الناس: تزوج امرأة ابنه، وأن الله تعالى أراد إبطال ما كان عليه أهل الجاهلية من أحكام التبني، بأمر هو أبلغ ما يكون في الإبطال، وهو زواج إمام المسلمين من امرأة من كان يدعى ابناً له؛ ليكون هذا أدعى لقبول الناس، وعدم مساواة المتبني بالابن الصلبي، وجعل زوجة المتبني أجنبية من المتبني.

زواج النبي صلى الله عليه وسلم من زينب بأمر الله تعالى:

وطلق زيد زينب، ولما انقضت عدتها، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لزيد: «اذكرها علي» -أي: اخطبها لي- قال: فانطلقت، فقلت: يا زينب، أبشري، أرسل رسول الله يذكرك -أي:

(١) «فتح الباري» (٤٠٣/٨).

(٢) ينظر البخاري (٧٤٢٠) وفي «المسند» (٤٩٢/١٩) (١٢٥١١) والترمذي (٣٢١٣) والحاكم (٤١٧/٢) والبيهقي في «السنن» (٥٧/٧).

يخطبك - قال لها زيد ذلك، بعد أن عظمت في نفسه، وأدار لها ظهره، ونكص على عقبيه، فقالت: ما أنا بصانعة حتى أوامر ربي، أي: إني لن أجيب حتى أستخير الله تعالى، فقامت إلى مسجدها، ونزل القرآن، وجاء رسول الله ﷺ حتى دخل عليها بغير إذن^(١).

وفي هذا بيان أن الذي قام بخطبتها للنبي ﷺ زوجها السابق زيد، وأن النبي ﷺ دخل عليها بغير إذن بعد أن أمره ربه بالزواج منها، وأن زينب لم تُجب زيدًا إلا بعد أن استخارت ربها ودعته، وأن كل من وكل أمره إلى الله يسر الله له ما هو الأنفع في الدنيا والآخرة^(٢).

ذلكم قول الله تعالى: ﴿فَلَمَّا قَضَى زَيْدٌ مِّنْهَا وَطْرًا﴾ أي: قضى حاجته منها، فطابت نفسه ورغب عنها، وطلقها ﴿زَوَّجْنَاهَا﴾ أي: زوجناك إياها - يا محمد - بغير مهر، فكانت زينب تفتخر على أزواج النبي ﷺ تقول: زوجكن أهاليكن، وزوجني الله من فوق سبع سموات^(٣) وهذه خصوصية للنبي ﷺ.

وعن محمد بن عبد الله بن جحش قال: تفاخرت زينب وعائشة، فقالت زينب ﷺ: أنا التي نزل تزويجي من السماء.

وقالت عائشة ﷺ: أنا التي نزل عذري من السماء، فاعترفت لها زينب ﷺ.

وعن المغيرة عن الشعبي قال: كانت زينب تقول للنبي ﷺ: إني لأدُلُّ عليك بثلاث ما من نسائك: إن جدِّي وجدُّك واحد، وإني أنكحنيك الله من السماء، وإن السفير جبريل عليه السلام^(٤).

الفائدة من هذا الزواج:

وقد زوّج الله زينب ليكون هذا الزواج أسوة في إبطال عادة تحريم زوجات من كانوا

(١) يُنظر: «صحيح مسلم» برقم (١٤٢٨) و«المسند» (٣/١٩٥) و«سنن النسائي» (٦/٧٩) من طريق سليمان ابن المغيرة عن ثابت عن أنس.

(٢) أشار إلى هذه المسائل ابن حجر في «الفتح» (٨/٤٠٣).

(٣) البخاري برقم (٤٧٨٧، ٧٤٢٠) والترمذي (٣٢١٢) قال أبو عيسى: هذا حديث حسن صحيح، والحاكم (٢/٤١٧).

(٤) «تفسير الطبري» (٢٢/١١).

يَتَّبِعُونَهُمْ بَعْدَ طَلَاقِهِمْ إِذَا قَضَوْا مِنْهُنَّ حَاجَتَهُمْ، وَقَدْ قَطَعَ اللَّهُ هَذِهِ النِّسْبَةَ بِقَوْلِهِ ﷻ: ﴿وَمَا جَعَلَ أَدْعِيَاءَكُمْ أَبْنَاءَكُمْ﴾ [٤]. وقوله تعالى: ﴿مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَكِن رَّسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ﴾ [٤٠].

وجاء الاحتراز الصريح من الابن الدعي، في قوله تعالى في سياق حصر المحرمات: ﴿وَحَلَائِلُ أَبْنَائِكُمُ الَّذِينَ مِنْ أَصْلَابِكُمْ﴾ [النساء: ٢٣].

وقد بين الله تعالى حكمة زواج الرسول ﷺ من زينب في قوله سبحانه: ﴿لَئِنْ لَا يَكُونَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِي أَزْوَاجِ أَدْعِيَائِهِمْ﴾ أي: من تبنَّوهم ﴿إِذَا قَضَوْا مِنْهُنَّ وَطَرًا﴾ أي: بعد طلاقها وانتهاء عدتها، ﴿وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ مَفْعُولًا﴾ لا عائق له، ولا مانع منه.

وقد كان زواج زينب من رسول الله ﷺ أمراً كائناً في علم الله تعالى، فكان أمر الله نافذاً لا محالة، ويؤخذ من هذه القصة:

١- أن الله تعالى ذكر زيداً باسمه الصريح في القرآن ولم يذكر غيره، وأن الله تعالى أنعم عليه بالإسلام والإيمان، فهو مسلم بظاهره وجوارحه، مؤمن بقلبه وبباطنه.

٢- مشروعية الزواج من زوجة المتبنَّى، وقد كان هذا الزواج غير مألوف قبل إبطال التبنّي وتطبيق هذا التشريع بالفعل المقترن بالقول.

٣- قيام الرسول ﷺ بتبليغ الوحي حتى ما فيه عتاب له.

٤- المستشار مؤتمن ولو كانت المشورة فيها مصلحة له أو حظ للنفس.

٥- لا يجوز التعرض للمرأة المتزوجة بالرغبة في الزواج منها إلا بعد طلاقها وانتهاء عدتها.

٦- وفيها بيان لفضل زينب رضي الله عنها حيث تولى الله تزويجها من رسوله بدون خطبة ولا شهود ولا مهر.

٣٨- ﴿مَا كَانَ عَلَى النَّبِيِّ مِنْ حَرَجٍ فِيمَا فَرَضَ اللَّهُ لَهُ سُنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلُ وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ قَدَرًا مَّقْدُورًا﴾ (٣٨)

نفى ﷻ الحرج عن سيد المرسلين ﷺ في زواجه من زوجة مُتَّبَنَاه، ودفع طعن من طعن في كثرة أزواجه، وأنه لا وجه له في هذا المظن، وقرر سبحانه أن محمداً ﷺ متبع لسُنَّة الأنبياء الذين سبقوه في اتباع ما أحل الله له.

ولمّا أمر الله تعالى رسوله بزواج زينب التي فارقها زيد، كان سبحانه عالماً بأن ذلك ليس فيه حرج لرسوله ﷺ؛ لأنه لا يخلُ بمقام النبوة، وفيه بيان أن تناول المباحات من سنن الأنبياء، وأنه ليس على الرسول ﷺ ذنب ولا إثم، ولا لوم ولا عتاب، فيما أحل الله له من زواج امرأة من تنبأه بعد طلاقها من زيد، وأن هذه التوسعة عليه في الزواج سنّة الأنبياء الماضية، وأن الله تعالى قد أباح له ما أباحه لهم، وهي سنّة قديمة فيهم، ومن ذلك أن داود عليه السلام كان له مئة امرأة، وكان سليمان ثلاث مئة امرأة، وعدد من الشريّات^(١).

وكان أمر الله تعالى في هذا الزواج وغيره قضاء مبرماً، وحكماً نافذاً لا بد من وقوعه، قال تعالى في وصف المرسلين الذين هذه سنتهم وعادتهم فقال:

٣٩- ﴿الَّذِينَ يُلَاقُونَ رِسَالَاتِ اللَّهِ وَيَخْشَوْنَهُ وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلَّا اللَّهَ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ حَاسِبًا﴾ ﴿٣٩﴾

أثنى الله تعالى على جميع الأنبياء والمرسلين، بأنهم يفعلون كل أمور، ويتركون كل محظور، وهم الذين يبلغون رسالات ربهم، وفيها أوامر الله تعالى ونواهيه إلى من أرسلوا إليهم، ويبيّن سبحانه أن رسل الله جميعاً يخافون الله وحده ولا يخافون أحداً غيره في كل ما يأتون ويذرون، وما يقولون ويفعلون، وكفى بالله تعالى محاسباً لهم، وحافظاً لأعمالهم، يعلم ما تقوله ألسنتهم، وما تفعله جوارحهم، وما تكنه صدورهم، وكفى بالله ناصراً ومعيناً.

وسيد الناس في تبليغ الرسالة وغيرها هو محمد ﷺ، فقد قام بتبليغ الرسالة إلى الثقلين، وأظهر دين الله على جميع الشرائع، وكان النبي يُبعث إلى قومه خاصة، وبعثه الله إلى الخلق جميعاً وإلى أن تقوم الساعة، وورث مقام البلاغ عنه أمته من بعده، فكان أعلى من قام بها أصحابه ﷺ، وورثهم كل خلف عن سلف.

فعن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «لا يحقرن أحدكم نفسه، أن يرى أمراً لله فيه عليه مقالاً، ثم لا يقوله، فيقول الله: ما يمنحك أن تقول فيه؟ فيقول: رب

(١) «تفسير الطبري» (١٤/ ١٩٥).

خشيت الناس، فيقول: فأنا أحق أن يُخشى»^(١).

وفي حديث أبي سعيد أيضًا «لا يمنع أحدكم هيبه الناس أن يقول في حق إذ رآه، أو شاهده، أو سمعه» قال أبو سعيد: وددت أني لم أسمعه^(٢).
وذلك لصعوبة العمل به في عدم السكوت عن الحق.

خَاتَمُ النَّبِيِّينَ ﷺ

٤٠ - ﴿مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَكِن رَّسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ^(٣) النَّبِيِّينَ وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا﴾

ولما تزوج النبي ﷺ بزینب، حدث ما توقعه من قبل، حيث قال الناس: إن محمدًا تزوج امرأة ابنه، فأنزل الله تعالى ما يبطل قولهم، ويحدد مهمة النبي ﷺ في قومه، ويبيّن سبحانه أن محمدًا ﷺ ليس أبا حقيقًا لزيد بن حارثة، ولا لغيره، أبوة ترتب عليها آثارها وأحكامها، من الإرث والنفقة والزواج وغيرها.

أخرج الترمذي عن عائشة ؓ قالت: لما تزوج النبي ﷺ قالوا: تزوج حليمة ابنه فنزلت الآية^(٤).

وبهذه الآية قطع الله تعالى ونفى نفياً تاماً أن يكون زيد بن حارثة ابناً للنبي ﷺ، لا أبوة نسب، ولا أبوة ادعاء.

ذرية النبي ﷺ

وكان للنبي ﷺ وَلَدَانِ وَلِدَا بِمَكَّةَ، من خديجة ؓ وهما: الطيب والطاهر، أو هما اسمان لمسمى واحد، والابن الثاني هو القاسم، وُولِدَ لَهُ أيضًا إبراهيم بالمدينة، من مارية القبطية، وكلهم ماتوا صغاراً، ولم يكن أحد منهم موجوداً وقت نزول هذه الآية.

(١) «المسند» (٣٠/٣)، (٨٤/٣) برقم (١١٢٥٥، ١١٨٦٨، ١١٦٩٩) قال محققوه: وأبو البُخْتَرِي لم يسمع من أبي سعيد، وبقي رجاله ثقات رجال الشيخين، ورواه ابن ماجه عن أبي كريب برقم (٤٠٠٨) وقال البوصيري في «الزوائد» (٣/٢٤٢): هذا بإسناد صحيح، وهو في «صحيح سنن ابن ماجه» (٣٢٣٧) والترمذي (١٩١) وقال: حسن صحيح، وابن حبان (٢٧٨) والبيهقي في «السنن» (١٠/٩٠).

(٢) أخرجه أحمد في المسند (١١٠١٧، ١١٤٠٣، ١١٨٦٩) بإسناد صحيح على شرط مسلم.

(٣) قرأ عاصم بفتح التاء من (وخاتم) على أنه اسم للآلة كالطابع، والباقون بكسرها، اسم فاعل.

(٤) «سنن الترمذي» برقم (٣٢٠٧) والسيوطي (٢٢٨).

أخرج عبد الرزاق والطبري بسنديهما الصحيح، عن قتادة قال: نزلت هذه الآية في زيد، إنه لم يكن بابنه، ولعمري ولقد وُلد له ذكور، إنه لأبو القاسم وإبراهيم والطيب والمطهر^(١).

والمعنى المنفي في الأبوة: هو الأبوة المباشرة لزيد ولغيره، فلا يُلتفت لكونه ﷺ جَدًّا للحسن والحسين وغيرهما رضي الله عن الجميع.
فالمراد: نفي أبوة الصُّلب لا أبوة الرحم.

ولما أراد الله تعالى قطع النبوة في بني إسرائيل، صرف عيسى ﷺ عن الزواج.

ولما كان محمد ﷺ خاتم النبيين، لم يُبق الله له ذرية من الذكور بعد وفاته، فمات إبراهيم رضيًّا، ووُلد له من خديجة أربع بنات: زينب ورقية وأم كلثوم وفاطمة ﷺ، وقد مات في حياته ﷺ ثلاث منهن، وتأخرت فاطمة ﷺ فماتت بعده ﷺ بستة أشهر، ومات القاسم والطاهر وإبراهيم صغارًا.

ثم بيَّن سبحانه أن مهمة الرسول ﷺ تنحصر في الرسالة، فقد ختم الله به النبوة إلى يوم القيامة، فلا نبي بعده ولا معه، وحين ينزل عيسى ﷺ قبل قيام الساعة، فإنه يحكم بشرية محمد ﷺ ويصلي إلى قبلته.

قال ابن عباس ﷺ في معنى الآية: يريد ولو لم أُختم به النبيين، لجعلتُ له ولدًا يكون بعده نبيًّا^(٢).

وقد أجمع الصحابة ﷺ على أن محمدًا ﷺ هو خاتم الرسل والأنبياء، وتواتر ذلك في الأجيال بعدهم، وإلى أن يرث الله الأرض ومن عليها.

ولذا: لم يترددوا في تكفير كل مدَّعٍ للنبوة: كمُسَيْلِمة الكذاب، والأسود العنسي وغيرهما، وهذا أمر معلوم من الدين بالضرورة.

وكل ما سبق لا ينافي ما ذكر، من أن النبي ﷺ أب للمؤمنين أبوة روحية، وأن زوجاته أمهاتهم لا يجوز الزواج منهن، ولا يجوز الخلوة بهن، ولا أن يكنَّ من المحارم، وبمناسبة ختم النبوة يحسن بنا أن نُلقي ضوءًا على بعض من ادَّعوا النبوة مؤخرًا.

(١) عبد الرزاق (١١٨/٢) وابن جرير (١٢٢/١٩).

(٢) «تفسير الكشاف» (٤٣٠/٣).

البابية والبهائية والقاديانية

١- ولم تُقدِّم طائفة ممن ينتسبون إلى الإسلام -في الوقت الحاضر- على ادعاء النبوة، إلا البابية التي ظهرت في فارس بشيراز، سنة مئتين وألف هجرية.

واسمه السيد علي أحمد، أخذ عن رجل من المتصوفة الباطنية، اسمه أحمد زين الدين الإحسائي، وقد زعم أنه أُوحي إليه بكتاب اسمه البيان، وأن القرآن أشار إليه في قوله تعالى: ﴿خَلَقَ الْإِنْسَانَ ۖ عَلَّمَهُ الْبَيَانَ ۖ﴾ [الرحمن]. وقد حُكم عليه بالقتل في تبريز سنة ١٢٦٦هـ.

٢- والبهائية شعبة منها، مؤسسها: بهاء الدين ميرزا حسين علي، من طهران، وأخرجته حكومتها إلى بغداد، ثم نقلته الدولة العثمانية إلى سجن عكا، فسجن سبع سنوات، ثم أطلق سراحه، وتنقل في أوروبا وأمريكا، ثم عاد إلى حيفا، ومات فيها سنة ١٣٤٠هـ^(١).

٣- وفي القرن الثالث عشر الهجري ظهر قاديان من باكستان، يدَّعي النبوة، واسمه: ميرزا غلام أحمد ١٢٥٢-١٣٢٦هـ وأتباعه يسمون الأحمديّة، وهم المعروفون بالقاديانيين، وهم يعتبرونه إمام العصر، والمسيح الموعود، وأن النبوة لم تنقطع، وأنه من جملة الأنبياء، ويفسرون ﴿وَحَاتَمَ النَّبِيِّينَ﴾ بأنه طابعهم وليس آخرهم، وأن كل نبي يظهر بعد محمد ﷺ تكون نبوته مطبوعاً عليها بخاتم تصديقه، ولا يمكن أن تُصدق الآن نبوة أي نبي إلا بخاتمه^(٢) على حد زعمه.

وغلّام أحمد القادياني يدَّعي الرسالة، ويقول: أرسلني ربي لدعوة الخلق، وآتاني آياتٍ بينات، لأدعو خلقه إلى دينه، فطوبى للذين يقبلونني ويذكرون الموت، أو يطلبون الآيات، وبعد رؤيتها يؤمنون^(٣).

وهو يفسر قوله تعالى: ﴿أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولَى الْأَمْرِ مِنْكُمْ﴾ [النساء: ٥٩].

أن المراد بأولي الأمر، جسمانيّاً: ملك بريطانيا، ورُوحياً: إمام الزمان، يعني: نفسه، وأن الشخص الجسماني لا يخالفنا في مقاصدنا، ويمكننا أن نحصل لنا منه الفائدة

(١) يُنظر: «التحرير والتنوير» (٤٦/٢٢).

(٢) جاء هذا في كتاب ميرزا غلام أحمد القادياني المسمى «ملفوظات أحمديّة» ص ٢٩٠.

(٣) من كتابه «التبليغ» ص ٤٣-٤٥.

الدينية، فهو يكون متاً.

ولذا: فنصيحتي لجماعتي أن يُعَدُّوا ملك الإنكليز من أولياء أمرهم، ويطيعوه بصدق القلب؛ لأن هؤلاء لا يُخرجوننا في مقاصدنا الدينية^(١).

ويقول أيضاً: إن إحسان الحكومة الإنكليزية إلينا كبير، ونحن نعيش براحة واطمئنان كبيرين، وتتم مقاصدنا، إن أعظم مقصد لنا هو تبليغ الدين، ولأجل تتميم هذا المقصد نجد كل حرية، ويمكننا التبليغ في كل ركن من المملكة الإنكليزية حيث نشاء، وإذا ذهبنا للتبليغ في الممالك الأخرى فهم لا يساعدوننا^(٢).

ويقول أحد أتباعه: إن طاعة غير المسلمين، إذا مُنحوا الحرية الدينية، سواء أكانوا من الإنكليز أم من غير الإنكليز، واجبة، وبما أن الإنكليز لا يتعرضون للدين، يجب طاعتهم^(٣).

وبهذا يتضح أن القادياني هذا رسول من قبل بريطانيا - كما يتضح من كلامه وكلام أتباعه - فهي حركة سياسية للنيل من الإسلام، ولهم في الوقت الحاضر عدة قنوات فضائية بعدة لغات؛ لنشر دعوتهم، ولذا أسهبت في بيان شأنهم بخلاف غيرهم.

هذا: ومقام الرسالة أخص من مقام النبوة، فإذا لم تكن نبوة بعد محمد ﷺ فلا رسول بعده من باب أولى.

ولهذا قال تعالى: ﴿وَحَاتَرَ التَّيَكُنَّ﴾ ولم يقل خاتم المرسلين، وبذلك تواترت الأحاديث في ختم النبوة:

١- عن أبي بن كعب ؓ عن النبي ﷺ قال: «مثلي ومثل الأنبياء قبلي، كمثلي رجل بنى داراً فأحسنها وأكملها، وترك فيها موضع لبنة لم يضعها، فجعل الناس يطوفون بالبنان ويعجبون منه، ويقولون: لو تم موضع هذه اللبنة! فأنا في النبيين موضع تلك اللبنة»^(٤).

(١) من كتابه «ضرورة الإمام» ص ٣٨.

(٢) من كتابه «بركات الخلافة» ص ٦٥.

(٣) من كتاب «الجماعة الأحمدية والإنكليز» ص ١٨ لمؤلفه منير الحصن من دمشق.

(٤) «المسند» (١٣٦/٥) برقم (٢١٢٤٣، ٢١٢٤٤) وهو حديث صحيح لغيره (محققوه) و«سنن الترمذي»

(٣٦١٣) وانظر: «البخاري» (٣٥٣٤) ومسلم (٢٢٨٧). وعبد بن حميد (١٧٢).

٢- وعن أنس بن مالك رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «إن الرسالة والنبوة قد انقطعت، فلا رسول بعدي ولا نبي» قال: فشق ذلك على الناس، فقال: «ولكن المبشرات» قالوا: يا رسول الله، وما المبشرات؟ قال: «رؤيا الرجل المسلم، وهي جزء من أجزاء النبوة»^(١).

٣- وعن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «فُضِّلْتُ على الأنبياء بست: أُعْطِيت جوامع الكلم، ونُصِرْتُ بالرعب، وأُحِلَّت لي الغنائم، وجُعِلَتْ لي الأرض طهوراً ومسجداً، وأُرْسِلْتُ إلى الخلق كافة، وخُتِمَ بي النبون»^(٢).

٤- وعن جبير بن مطعم أن رسول الله ﷺ قال: «إن لي أسماء: أنا محمد، وأنا أحمد، وأنا الماحي الذي يمحو الله بي الكفر، وأنا الحاشر الذي يُحْشَرُ الناس على قدمي، وأنا العاقب الذي ليس بعده نبي»^(٣).

٥- وأخرج أحمد عن حذيفة أن النبي ﷺ قال: «في أمتي كذابون ودجالون سبعة وعشرون، منهم أربع نسوة، وإني خاتم النبيين، لا نبي بعدي»^(٤).

٦- وفي لفظ آخر: عن ثوبان رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «إنه سيكون في أمتي كذابون ثلاثون، كلهم يزعمون أنه نبي، وأنا خاتم النبيين لا نبي بعدي»^(٥).

وقد ختم الله هذه الآية بقوله عز من قائل: ﴿وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا﴾ أي: لا يخفى عليه شيء من أقوالكم وأفعالكم، فقد شرع لكم على السنة رسله ما فيه صلاحكم، وختم هذه الرسائل بنبينا محمد، فقابلوا ذلك بالشكر والطاعة.

(١) «المسند» (٢٦٧/٣) برقم (١٣٨٢٤) بإسناد صحيح على شرط مسلم ورجال ثقات (محققوه)، وانظر (١٢٠٣٧). والترمذي برقم (٢٢٧٢)، والحاكم (٣٩١/٤) وابن أبي شيبة (٥٣/١١).

(٢) «صحيح مسلم» برقم (٥٢٣) و«سنن الترمذي» برقم (١٥٥٣) و«سنن ابن ماجه» برقم (٥٦٧).

(٣) «صحيح البخاري» برقم (٣٥٣٢) و«صحيح مسلم» برقم (٢٣٥٤).

(٤) «المسند» (٣٨٠/٣٨) (٢٣٣٥٨) قال محققوه: إسناده صحيح، ورجاله ثقات رجال الصحيح، وانظر (٧٢٢٨) وأخرجه الطبراني في الكبير (٣٠٢٦) وفي الأوسط (٥٤٤٦) والبزار (٢٨٨٨) والطحاوي في شرح مشكل الآثار (٢٩٥٣).

(٥) «صحيح سنن أبي داود» (٣٥٧٧)، وهو في السنن (٤٢٥٢) والمسند (٢٢٣٩٥) من حديث طويل إسناده صحيح على شرط مسلم، والطيايسي (٩٩١) ومسلم (١٩٢٠)، والترمذي (٢١٧٦) وابن حبان (٧٢٣٨) وغيرهم.

ذِكْرُ اللَّهِ تَعَالَى طِبُّ الْقُلُوبِ وَشِفَاءُ الْأَبْدَانِ

٤١، ٤٢ - ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا اللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا ﴿٤١﴾ وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴿٤٢﴾﴾

أمر الله المؤمنين أن يُقبلوا عليه بالإكثار من ذكره تعالى بالتهليل، والتحميد، والتكبير، والتمجيد، والتقديس، في جميع أحوالهم وحركاتهم وسكناتهم، وأقل ذلك أن يلزم الإنسان على أوراد الصباح والمساء وأدبار الصلوات الخمس، وعند النوازل ومختلف الأسباب.

قال تعالى: ﴿أَلَا يَذْكُرُ اللَّهُ تَطْمِئِنُّ الْقُلُوبُ﴾ [الرعد: ٢٨].

فَذِكْرُ اللَّهِ تَعَالَى طِبُّ النُفُوسِ ودواؤها، وعافية الأبدان وشفائها، وبه تطمئن القلوب وتنشرح الصدور، فعليهم أن يشغلوا ألسنتهم به؛ لأن في الذكر والتسبيح إشارة إلى التبرؤ مما قاله المرجفون في حق النبي ﷺ، كما في قوله تعالى:

﴿وَلَوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ قُلْتُمْ مَا يَكُونُ لَنَا أَنْ نَتَكَلَّمَ بِهَذَا سُبْحَنَكَ هَذَا مُبْتَلَنٌ عَظِيمٌ﴾ [النور].

وإشغال المؤمنين بذكر الله تعالى عوضاً عن الخوض في الباطل، يماثله قول الله تعالى لمن كانوا يتفاخرون بآبائهم وأحسابهم في مناسك الحج كما قال تعالى: ﴿فَإِذَا قُضِيَتْ مِنْكُمْ مَنَاسِكُكُمْ فَاذْكُرُوا اللَّهَ كَذِكْرِكُمْ آبَاءَكُمْ أَوْ أَشَدَّ ذِكْرًا﴾ [البقرة: ٢٠٠].

فَذِكْرُ اللَّهِ تَعَالَى أَنْفَعُ لَكُمْ، وأبعد عن إثارة الفتن بين المسلمين، فاذكروه سبحانه بقلوبكم وألسنتكم وجوارحكم.

قال ابن عباس ؓ: لم يفرض الله على عباده فريضة إلا جعل لها حداً معلوماً، ثم عذرهم في حالة العذر، إلا ذَكَرَ اللَّهَ تَعَالَى، فلم يجعل الله له حداً ينتهي إليه، ولم يعذر أحداً في تركه إلا مغلوباً على عقله، وأمرهم به في جميع الأحوال، فقال سبحانه: ﴿فَاذْكُرُوا اللَّهَ قِيَمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِكُمْ﴾ [النساء: ١٠٣].

وقال تعالى: ﴿اذْكُرُوا اللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا﴾ أي: ذكراً غير محدد بعدد، ولا مقيداً بحال من الأحوال، بل اذكروه في الصحة والمرض، والغنى والفقر، والليل والنهار، والبر والبحر والجو،

والسر والعلانية، والمسلم لا ينسى ربه أبداً! ^(١) ومن الأحاديث الواردة في فضل الذكر:

١- ما جاء عن أبي الدرداء رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «ألا أنبئكم بخير أعمالكم، وأزكاها عند مليككم، وأرفعها في درجاتكم، وخير لكم من إعطاء الذهب والورق، وخير لكم من أن تلقوا عدوكم فتضربوا أعناقهم، ويضربوا أعناقكم»، قالوا: وما هو يا رسول الله؟ قال: «ذكر الله ﻋﻠﻰ» ^(٢).

٢- وعن عبد الله بن بسر رضي الله عنه قال: جاء أعرابيان إلى رسول الله ﷺ، فقال أحدهما: يا رسول الله، أي الناس خير؟ قال: «من طال عمره وحسن عمله»، وقال الآخر: يا رسول الله، إن شرائع الإسلام قد كثرت علينا فمُرني بأمر أتشبث به، قال: «لا يزال لسانك رطباً بذكر الله» ^(٣).

٣- وفي الحديث: عن أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «من قعد مقعداً لم يذكر الله تعالى فيه، كانت عليه من الله تعالى ترة، ومن قام مقاماً لم يذكر الله تعالى فيه، كانت عليه من الله ترة، ومن اضطجع مضطجعاً لا يذكر الله تعالى فيه، كانت عليه من الله ترة» ^(٤) أي: نقص وتبعة وحسرة وندامة.

٤- وعن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «مثل الذي يذكر ربه والذي لا يذكر

(١) يُنظر: الطبري (١٩/١٢٤).

(٢) «المسند» (١٩٥/٥) برقم (٢١٧٠٢، ٢١٧٠٤) يرفعه إلى أبي الدرداء، يرفعه إلى النبي ﷺ و«سنن الترمذي» برقم (٣٣٧٧) و«سنن ابن ماجه» برقم (٣٧٩٠) وأخرجه الطبراني في الدعاء (١٨٧٢) والبيهقي في «الشعب» (٥١٩) والبخاري في «شرح السنة» (١٢٤٤) ومالك في الموطأ (٢١١/١) والحديث مختلف في رفعه ووقفه.

(٣) «المسند» (١٩٠/٤) برقم (١٧٦٨٠، ١٧٦٩٨) بإسناد صحيح رجال ثقات، وعن أبي بكرة في «المسند» برقم (٢٠٤١٥) وفيه: فأَي الناس شر؟ قال (من طال عمره وساء عمله) وإسناده حسن وكذا (٢٠٥٠٠) (محققوه) وأخرجه الترمذي برقم (٣٣٧٥) و(ابن ماجه) برقم (٣٧٩٣) من حديث معاوية بن صالح، قال الترمذي: حسن غريب، والبيهقي في الشعب (٥١٥).

(٤) رواه أبو داود بإسناد صحيح من حديث أبي هريرة (٤٨٥٥) والترمذي (٣٣٨٠) وابن حبان (٨٥٣) و«المسند» (٩٥٨٣) وهو حديث صحيح، والكبرى للنسائي (١٠١٦٤)، وفي عمل اليوم والليلة (٤٠٦) والطبراني في الدعاء (١٩٢٧).

ربه، مثل الحي والميت»^(١).

٥- وعن عبد الله بن عمرو ؓ أن رسول الله ﷺ قال: «ما من قوم جلسوا مجلساً لم يذكروا الله فيه، إلا رأوا حسرة يوم القيامة»^(٢).

٦- ومجالس الذكر رياض الجنة، كما روى ابن أبي الدنيا من حديث جابر بن عبد الله ؓ قال: خرج علينا رسول الله ﷺ فقال: «يا أيها الناس، ازنّعوا في رياض الجنة»، قلنا: يا رسول الله، وما رياض الجنة؟ قال: «مجالس الذكر» ثم قال: «اغدوا ورؤحوا فاذكروا الله، فمن كان يحب أن يعلم منزلته عند الله، فلينظر كيف منزلة الله عنده، فإن الله ينزل العبد منه حيث أنزله من نفسه».

وفي الحديث عن أنس ؓ «إذا مررتم برياض الجنة فارتعوا، قالوا: وما رياض الجنة؟ قال حلق الذكر»^(٣).

٧- ومجالس الذكر مجالس الملائكة، كما في الصحيحين: عن أبي هريرة ؓ قال: قال رسول الله ﷺ: «إن لله ملائكة يطوفون في الطرق، يلتمسون أهل الذكر، فإذا وجدوا قوماً يذكرون الله تنادوا: هلموا إلى حاجتكم، قال: فيحفونهم بأجنحتهم إلى السماء الدنيا...»^(٤).

٨- وفي الحديث القدسي: عن أبي هريرة ؓ أن النبي ﷺ قال: «يقول الله: مَنْ ذكرني في نفسه ذكرته في نفسي، وإن ذكرني في ملأ ذكرته في ملأ خير منهم»^(٥).

٩- وفي الصحيحين: عن أبي هريرة أيضاً أن النبي ﷺ قال «مَنْ قال: لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد، وهو على كل شيء قدير، في يوم مئة مرة، كانت له عَذْل عشر رقاب، وكتبت له مئة حسنة، ومحيت عنه مئة سيئة، وكانت له حرزاً

(١) البخاري برقم (٦٤٠٧) ومسلم برقم (٧٧٩) بلفظ مختلف.

(٢) «المسند» (٢٢٤/٢) برقم (٧٠٩٣) قال محققوه: وهو حديث صحيح وقال الهيثمي في «المجمع» (١٠/٨٠): رجاله رجال الصحيح، وأخرجه الطبراني في الدعاء (١٩٢٠) والبيهقي في الشعب (٥٣٣).

(٣) الترمذي (٣٥١٠) وهو في المسند (١٢٥٢٣) عن أنس قال محققوه: إسناده ضعيف لضعف محمد بن ثابت البناني وقال الترمذي: حسن غريب، وأخرجه أبو يعلى (٣٤٤٣٢) والبيهقي في الشعب (٥٢٩) وغيرهم.

(٤) وهو حديث طويل في البخاري (٦٤٠٨) ومسلم (٢٦٨٩).

(٥) البخاري (٧٤٠٥) ومسلم (٢٦٧٥).

من الشيطان يومه ذلك حتى يُمسي، ولم يأت أحد أفضل مما جاء به إلا أحد عمل أكثر من ذلك، ومن قال: سبحان الله وبحمده في يوم مئة مرة، حُطت خطاياهُ ولو كانت مثل زبد البحر»^(١).

١٠- وعن أبي مالك الأشجعي عن أبيه قال: كان رسول الله ﷺ يُعَلِّم من أسلم يقول: «اللهم اغفر لي وارحمني واهدني وارزقني»^(٢).

والذكر نوعان:

أحدهما: ذكر أسماء الله تعالى وصفاته والثناء عليه وتنزيهه وتقديسه عما لا يليق بجلاله، كأن يقول: سبحان الله، والحمد لله، ولا إله إلا الله، والله أكبر.

ويقول: سبحان الله عدد خلقه ورضا نفسه وزنة عرشه ومداد كلماته.

ويقول: سبحان الله وبحمده، سبحان الله العظيم.

وكذا ما فيه ثناء على الله تعالى بجميل أسمائه وصفاته وآلائه.

قال تعالى: ﴿فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ﴾ [البقرة: ١٥٢].

وثانيهما: ذكر أوامر الله تعالى ونواهيه وأحكامه، بقراءة القرآن، وهو أفضل الذكر، ثم الأحاديث النبوية، والسيرة العطرة، والأحكام الفقهية، والتوحيد، والتفسير، والأخلاق، وما إلى ذلك.

وليس من الذكر التمايل يمنة ويسرة، مع الإتيان بالفاظ ليس فيها صريح لفظ الجلالة، ولا تمام كلمة التوحيد مما هو شعار لبعض المتصوفة.

والذكر أفضل من الدعاء، ولهذا فإن الدعاء يُبدأ بالذكر، أي: بحمد الله تعالى والثناء عليه، والصلاة والسلام على رسول الله ﷺ.

والتسبيح: هو تنزيه الله تعالى عما لا يليق بجلاله، وهو من جملة الذكر، وقد خصّه

(١) «صحيح مسلم» (٢٦٩١) و«صحيح البخاري» (٣٢٩٣، ٦٤٠٣).

(٢) «صحيح مسلم» (٢٦٩٧).

الله تعالى بالتنبية عليه لبيان فضله وشرفه، كما خصَّ جبريل وميكائيل من بين الملائكة.

والمعنى: أَشْغَلُوا أَلْسِنَتَكُمْ - أيها المسلمون - بتنزيه الله تعالى في الصباح والمساء، وأدبار الصلوات المفروضة، وعند العوارض والأسباب، فإن ذلك عبادة مشروعة، تدعو إلى محبة الله تعالى، وفيه كف اللسان عن كل إثم، وإعانة على كل خير.

قال تعالى: ﴿سُبْحَانَ اللَّهِ حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ ﴿٧﴾ وَلَهُ الْحَمْدُ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَعَشِيًّا وَحِينَ تُظْهِرُونَ ﴿٨﴾﴾ [الروم: ١٧، ١٨].

وفي هذا إشارة إلى المداومة على تنزيه الله تعالى والثناء عليه.

١- وفي الحديث: عن أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «من قال في يوم مئة مرة: سبحان الله وبحمده؛ حُطَّتْ خطاياه ولو كانت مثل زبد البحر»^(١).

٢- وفي الحديث الآخر: عن سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه أنه ﷺ قال: «أيعجز أحدكم أن يكتسب في اليوم ألف حسنة؟» فقال رجل: كيف يكتسب أحدنا ألف حسنة؟ قال: «يسبح مئة تسبيحة فيكتب له ألف حسنة ويحطُّ عنه ألف خطيئة»^(٢).

٣- وفي حديث أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «مَنْ قَالَ حِينَ يُصْبِحُ وَحِينَ يُمَسِي: سبحان الله وبحمده مئة مرة، لم يأت أحد يوم القيامة بأفضل مما جاء به إلا أحد قال مثل ما قال أو زاد عليه»^(٣).

جَزَاءُ الذَّاكِرِينَ عِنْدَ اللَّهِ تَعَالَى

٤٣- ﴿هُوَ الَّذِي يُصَلِّيْ عَلَيْكُمْ وَمَلَائِكَتُهُ لِيُخْرِجَكُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَكَانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا﴾

(١) البخاري (٦٤٠٥) و(٢٤٦٦) ومسلم (٢٨/٢٦٩١) ورقم (٢٢٤٤) والنسائي في اليوم والليلة (١٠٦٦٢).

والموطأ (٩٢٩/٢) وأبوداود (٢٥٥٠) وأحمد (٣٧٥/٢) برقم (٨٨٧٣).

(٢) مسلم (٣٧/٢٦٩٨) وأحمد (١٨٥/١) برقم (١٤٩٦، ١٦١٣) بنحوه، وإسناده صحيح على شرط

مسلم ورجاله ثقات، (محققوه) والترمذي (٣٤٦٣) والنسائي في اليوم والليلة (٩٩٨٠)، وابن أبي شبة

(٢٩٤/١٠) وأبو يعلى (٨٢٩) والطبراني (١٧٠٣).

(٣) «صحيح مسلم» (٢٦٩٣).

أي: وإذا ذكرتم الله بكرة وأصيلاً، فإن الله تعالى يجازيكم بما هو أفضل منه، وهو صلاته - جلّ شأنه - وصلاة الملائكة عليكم.

أي: يرحمكم ربكم على الدوام، ويشي عليكم، ويعتني بأمركم.

وتدعو لكم ملائكته من حملة العرش، وهم أفضل الملائكة، وكذا من حول العرش، فتطلب لكم الرحمة من الله تعالى وتستغفر لكم، فإن الصلاة من الله رحمة، ومن الملائكة استغفار، ومن الأدميين تضرع ودعاء.

قال تعالى: ﴿الَّذِينَ يَحْمِلُونَ الْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا فَاغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا وَاتَّبَعُوا سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ رَبَّنَا وَأَدْخِلْهُمْ جَنَّاتٍ عَدْنٍ الَّتِي وَعَدْتَهُمْ وَمَنْ صَلَحَ مِنْ ءَابَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٨﴾ وَفِهِمُ السَّيَّاتِ وَمَنْ تَقِ السَّيَّاتِ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمْتُمْ وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ [غافر].

وقال تعالى: ﴿أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ﴾ [البقرة: ١٥٧].

قال أنس: لما أنزل الله تعالى ﴿إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ﴾ قال أبو بكر: يارسول الله، ما خصّك الله بشيء إلا وقد أشركنا فيه، فأنزل الله هذه الآية^(١).

وفي الصحيحين عن أبي هريرة ؓ أن رسول الله ﷺ قال: «الملائكة تصلي على أحدكم ما دام في مصلاه ما لم يحدث: اللهم اغفر له، اللهم ارحمه، ولا يزال أحدكم في صلاة ما دامت الصلاة تحبسه، لا يمنعه أن ينقلب إلى أهله إلا الصلاة»^(٢).

قال سُلَيْم بن عامر: جاء رجل إلى أبي أمامة ؓ، فقال: إني رأيت في منامي أن الملائكة تصلي عليك كلما دخلت، وكلما خرجت، وكلما قُمت، وكلما جلست، قال: وأنتم لو شتمت صلت عليكم الملائكة، ثم قرأ: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَذْكُرُوا اللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا﴾^(٣).

(١) «تفسير القرطبي» (١٤/١٩٨) وقد أخرجه عبد بن حميد وابن المنذر عن مجاهد كما في «الدر المنثور» (٧١/١٢).

(٢) «صحيح البخاري» (٦٥٩) و«صحيح مسلم» (٢٧٣، ٢٧٤).

(٣) الحاكم (٤١٨/٢) والبيهقي (٢٥/٧).

أي: إن الله تعالى يصلي عليكم وملائكته إذا ذكرتموه ذكرًا كثيرًا بكرة وأصيلًا.

وأفضل صيغة للصلاة على النبي ﷺ: هي الصلاة الإبراهيمية التي في نهاية التشهد؛ فقد سئل النبي ﷺ كيف نصلي عليك يا رسول الله؟ قال: «قولوا: اللهم صل على محمد، وعلى آل محمد كما صليت على آل إبراهيم، إنك حميد مجيد، اللهم بارك على محمد وعلى آل محمد، كما باركت على آل إبراهيم، إنك حميد مجيد»^(١).

وأبخل الناس من بخل بالصلاة على نبي الهدى، وهو من الثلاثة الذين أبعدهم الله تعالى وطردهم من رحمته؛ لأنهم لم يصلوا على رسول الله ﷺ عند ذكر اسمه الشريف والثلاثة هم: العاق ومن لم يصل على النبي ومن أدرك رمضان ولم يغفر له، والصلاة على النبي ﷺ تبلغه وتصل إليه من أي مكان من العالم، يستوي في ذلك القريب والبعيد.

وصيغ الصلاة على النبي ﷺ التي تجعلها بعض الطرق الصوفية علامة أو شعارًا يُميّز كل طريقة عن غيرها، كلها صيغ مردودة ليس لها أصل في الشرع، من كتاب ولا سنة.

وقوله تعالى: ﴿لِيُخْرِجَكُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ﴾ أي: يخرجكم من ظلمات الجهل والضلال إلى نور الهدى والإيمان، ومن ظلمات المعصية إلى نور الطاعة، ويدخلكم في ساحة الرحمة.

ومن رحمة الله بالمؤمنين أن جعل من صلاته وصلاة ملائكته عليهم، ما يخرجهم من ظلمات الذنوب والجهل إلى نور الإيمان والهدى والعلم والعمل، فإن هذا من أعظم النعم عليهم.

﴿وَكَانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا﴾ في الدنيا والآخرة، لا يعذبهم ما داموا مطيعين مخلصين لله تعالى، فيقبل منهم القليل من العمل، ويعفو عن الكثير من الذنوب.

ومن رحمة الله بهم في الدنيا هدايتهم إلى الصراط المستقيم، ومن رحمته بهم في الآخرة أنهم يأمنون من الفزع الأكبر، ويفوزون برضى ربهم، ورؤية وجهه الكريم، وحصول الأجر العظيم الذي لا يعرف كنهه إلا رب العالمين.

وفي «صحيح البخاري»: عن عمر بن الخطاب ؓ أن رسول الله ﷺ رأى امرأة من السبي قد أخذت صبيًا لها فألصقته إلى صدرها وأرضعته، فقال: «أترون هذه تلقى ولدها

(١) من حديث كعب بن عُجرة في البخاري (٣٣٧٠، ٤٧٩٧) ومسلم (٤٠٦١).

في النار، وهي تقدر على ذلك؟ قالوا: لا، قال: «فوالله، لله أرحم بعباده من هذه بولدها»^(١). قال تعالى مبيّنًا تحية أهل الإيمان في الجنة:

٤٤- ﴿يَحِيَّتُهُمْ يَوْمَ يَلْقَوْنَهُ سَلَامٌ وَأَعَدَّ لَهُمْ أَجْرًا كَرِيمًا﴾ ﴿٤٤﴾

أي: وتحية المؤمنين في الجنة يوم لقاء رب العالمين، هي السلام، حيث تسلم عليهم الملائكة في الجنة، وعند قبض أرواحهم، ويسلم بعضهم على بعض وهم في دار النعيم، ويسلم عليهم ربهم:

١- أما سلام الله على المؤمنين في الجنة فقد جاء في قوله تعالى: ﴿سَلَامٌ قَوْلًا مِّن رَّبِّ رَحِيمٍ﴾ ﴿٥٨﴾ [يس].

٢- وأما سلام الملائكة عليهم في الجنة فقد جاء في قوله تعالى: ﴿وَالْمَلَائِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِمْ مِنْ كُلِّ بَابٍ ۖ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعَمَ عُقْبَى الَّذِينَ﴾ [الرعد].

٣- وبشرى الملائكة لهم عند خروج الروح، جاء في قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبَّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَمُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ﴾ ﴿٣١﴾ [فصلت].

٤- وأما سلام بعض المؤمنين على بعض في الجنة، فقد جاء في قوله سبحانه: ﴿دَعَوْنَهُمْ فِيهَا سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ وَيَحْيَتُهُمْ فِيهَا سَلَامٌ وَأَجْرٌ دَعَوْنَهُمْ أَنْ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [يونس].

٥- روى البراء بن عازب رضي الله عنه قال: يلقون ملك الموت لا يقبض روح مؤمن إلا يسلم عليه^(٢).

٦- وعن ابن مسعود رضي الله عنه قال: إذا جاء ملك الموت لقبض روح المؤمن قال: ربك يُقرئك السلام^(٣) وقيل: تسلم عليهم الملائكة حين يخرجون من قبورهم تبشرهم.

ذلكم قول الله تعالى: ﴿يَحْيَتُهُمْ يَوْمَ يَلْقَوْنَهُ سَلَامٌ﴾ أي: تحية المؤمنين من الله في الجنة يوم القيامة حين يلقونه سلام وأمان لهم من عذاب الله، وعند قبض أرواحهم، وهم على

(١) «صحيح البخاري» برقم (٥٩٩٩).

(٢) ابن أبي شيبة في «المصنف» (٣٦٧/١٣) والطبري (٢١٤/١٤) والحاكم (٣٥٢/٢) والبيهقي في «الشعب» (٤٠٣).

(٣) الطبراني (١١٨٤١) والخطيب (٣١٩/٣).

الصراط، وعند الفزع الأكبر، وهم سالمون من الآفات والأمراض والأعراض، وقد أعدَّ الله لهم ثوابًا حسنًا هو الجنة، وما فيها من النعيم المقيم، مما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر.

تِسْعَةُ أَوْصَافٍ لِلنَّبِيِّ الْخَاتَمِ

٤٥، ٤٦ - ﴿يَتَأْتِيَ النَّبِيَّ^(١) إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَهِيدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿٤٥﴾ وَدَاعِيًا إِلَى اللَّهِ بِإِذْنِهِ وَسِرَاجًا مُنِيرًا ﴿٤٦﴾﴾

هذا هو النداء الثالث للنبي ﷺ في السورة، وهو يتناول أوصاف النبي الخاتم بعد النداء الأول في بدء السورة المتعلق بذات النبي ﷺ ﴿يَتَأْتِيَ النَّبِيَّ اتَّقِ اللَّهَ﴾. وبعد النداء الثاني المتعلق بزوجات النبي ﷺ ﴿يَتَأْتِيَ النَّبِيَّ قُلْ لَا زَوْجَ لَكَ﴾. وفي هذا النداء الثالث تسعة أوصاف للنبي ﷺ، هي كونه ﷺ:

- ١- شاهدًا. ٢- مبشرًا. ٣- نذيرًا. ٤- داعيًا إلى الله.
- ٥- سراجًا منيرًا. ٦- مبشرًا للمؤمنين. ٧- غير مطيع للكافرين والمنافقين.
- ٨- يتحمل أذاهم. ٩- متوكلاً على الله.

١- فالشاهد: هو النبي ﷺ شاهدًا بصحة ما هو صحيح من الشرائع، وشاهدًا ببطلان ما ألصق بها أو نُسخ منها، فهو ﷺ ﴿مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيِّمًا عَلَيْهِ﴾ [المائدة: ٤٨].

وفي الحديث: عن أنس ؓ: يُسأل كل رسول هو بلّغ؟ فيقول: نعم، فيقول الله: من يشهد لك؟ فيقول: محمد وأُمته.

ومحمد ﷺ شاهد على أُمته في حياته، وشاهد عليهم بما عملوه من خير أو شر في

(١) قرأ نافع بالهمزة بدل الياء في لفظ (النبي) وعليه، يكون مع ما بعدها همزتان في (النبي إنا): الأولى همزة مضمومة، وهي التي قرأ بها نافع، فوق ياء (النبي) والثانية همزة مكسورة، من (إنا) بعدها وذلك في (إنا أرسلناك) وكذا (إنا أحللتنا)، في الآية التاسعة والأربعين، فتسهل الهمزة الثانية منهما وتبدل واوًا خالصة، وباقي القراء بتحقيق الهمزتين.

عرصات القيامة قال تعالى: ﴿فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَى هَؤُلَاءِ شَهِيدًا﴾ [النساء].

فالنبي ﷺ يشهد على أمته، ويشهد على جميع الأمم أن رسلهم قد بلغوهم رسالات ربهم، وأمته كذلك تشهد على الأمم، كما قال تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾ [البقرة: ١٤٣].

فهو ﷺ شاهد على من استجاب لدعوته، وعلى من أعرض عنها، وعلى من استجاب لها ثم بدّل.

في حديث الحوض: عن أنس ؓ أن النبي ﷺ قال: «لَيَرِدَنَّ عَلَيَّ نَاسٌ مِنْ أَصْحَابِي الْحَوْضِ، حَتَّى إِذَا عَرَفْتَهُمْ اخْتَلَجُوا دُونِي، فَأَقُولُ: أَصْحَابِي، فَيَقُولُ: إِنَّكَ لَا تَدْرِي مَا أَحْدَثُوا بَعْدَكَ»^(١). وفي رواية: «أَقُولُ: تَبًّا وَسُحْقًا لِمَنْ أَحْدَثَ بَعْدِي».

ومعنى أحدثوا: غَيَّرُوا وَبَدَّلُوا وَارْتَدَوْا، فقد جاء في بعض روايات الحديث:

«إِنَّهُمْ لَمْ يَزَالُوا مُرْتَدِّينَ عَلَى أَعْقَابِهِمْ مِنْذُ فَارَقْتَهُمْ».

فهو ﷺ شاهد لله بالوحدانية، وشاهد على الناس بأعمالهم، وشاهد بإبلاغ الرسالة لأمته، وشاهد على أن الرسل السابقين قد بلغوا رسالات ربهم إلى أممهم، وشاهد على من صدّق أو كذّب بالرسالة، فقلوه ﷺ مقبول عند الله تعالى لهم وعليهم، كما يُقبل قول الشاهد العَدْلُ في الْحُكْمِ.

٢- وأرسلناك -يا رسولنا- مبشراً للمؤمنين بالجنة، وعظيم الأجر والثوبة، والرحمة والرضوان، والمبشّر، هم المؤمنون المتقون، الذين جمعوا بين الإيمان والعمل الصالح وترك المعاصي، لهم البشرى في الحياة الدنيا، بكل ثواب ديني ودنيوي، ولهم البشرى في الآخرة بالنعيم المقيم.

وقُدِّمت البشارة على النذارة؛ لأن النبي ﷺ غلب عليه التبشير؛ لأنه رحمة للعالمين، ولكثرة عدد المؤمنين من أمته، والبشرى هي الخبر السار.

(١) «صحيح البخاري» برقم (٦٥٨٢) و«صحيح مسلم» (٢٣٠٤) ومسند أحمد (١٣٩٩١) بإسناد صحيح على شرط الشيخين، وعبد بن حميد (١٢١٣).

قال ابن عباس رضي الله عنه: لما نزلت هذه الآية دعا رسول الله ﷺ علياً ومُعَاذًا، فبعثهما إلى اليمن، وقال لهما: «اذهبا فبشّرا ولا تنفّرا، ويسّرا ولا تُعسّرا، فإنه قد أنزل عليّ...» وقرأ الآية^(١). وقوله تعالى: ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَهِيدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا﴾ [سورة الفتح: ٨].

٣- وأرسلناك - يا محمد- نذيرًا لمن كفر وكذّب بعذاب النار، والإنذار هو الخبر السيئ، أو قُرب حلوله، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ لَّكُمْ بَيْنَ يَدَيْ عَذَابٍ شَدِيدٍ﴾ [سبأ: ٤٦]. كأن العذاب الشديد قد حلّ بهم.

والمندّرون، هم المجرمون الظالمون، أهل الظلم والجهل، يُنذرون بالعقوبات الدنيوية، ويُندرون بالعقاب الأليم يوم لقاء رب العالمين.

ويشمل لفظ النذير جميع ما في القرآن من النواهي والزواجر والعقوبات.

ولما نزل قوله تعالى: ﴿وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ﴾ [الشعراء] -صعد ﷺ على الصفا، وكان مما قاله ﷺ: «فإني نذير لكم بين يدي عذاب شديد»^(٢).

ومنه النذير العريان، فالنذير: هو الذي يأتي بخبر حلول العدو بديار القوم.

والعريان: هو الذي ينزع ثيابه ليشير من مكان مرتفع، فيراه من لا يسمع نداءه، فيعلم أنه قد حلّ بهم ما يسوؤهم، وقد نُبئ ﷺ بـ﴿أَقْرَأْ﴾ وأرسل بـ﴿الْمَدَنِيِّ﴾.

٤- وأرسلناك -أيها الرسول- داعيًا الخلق إلى توحيد الله وطاعته وعبادته التي خلّقوا لأجلها، بادئًا بتعريفهم بربهم وتنزيههم عن كل ما لا يليق بجلاله، وذكر أنواع العبادات، مع إخلاص الدعوة إلى الله، وكل ذلك، بأمر الله وإذنه، وليس من تلقاء نفسه.

والدعوة إلى الله تعالى تشمل أصول الاعتقاد والعبادة، وكذا كل ما يتعلق بصفات الدعاة من الأنبياء والرسل، والكتب المنزلة عليهم.

والإذن من الله تعالى لنبيه بالدعوة، جاء في قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الْمَدَنِيُّ﴾ ① قُرْ فَأَنْذِرْ ② [المدثر].

(١) «تفسير ابن عطية» (٤/٣٨٩).

(٢) البخاري (٢٧٥٣) ومسلم (٢٠٤، ٢٠٦) عن قَيْصَةَ بن مُخَارِق وزهير بن عمرو.

ومثله قوله تعالى لموسى ﷺ: ﴿قُلْنَا لَا تَخَفْ إِنَّكَ أَنْتَ الْآخِزِيُّ﴾ [طه].

وتفاصيل العقائد والعبادات، وما يبشر به وينذر، حفل به الكتاب والسنّة.

٥- وأرسلناك -يا محمد- سراجاً منيراً لمن استنار به، فأمر النبي ﷺ ظاهر فيما جاء به من الحق، كالشمس في إشراقها وإضاءتها، لا يجحدها إلا معاند.

وقد شُبّه النبي ﷺ بالسراج المنير؛ لأن الله تعالى جَلَّى به ظلمات الشرك، واهتدى به الضالون، كما يُجَلَّى ظلام الليل بالسراج المنير، ويُهتدى به، فرسالة النبي ﷺ كالسراج المنير في الهداية الواضحة التي لا لَبْس فيها، ولا ترك للباطل شبهة إلا فضحها، كما يُضيء السراج الوفاد ظلمة المكان.

وهذا الوصف يشمل ما جاء به النبي ﷺ من أصول الاستنباط والتفقه في الدين والعلم.

ويشمل بيان ما أدخله أهل الكتاب على كتبهم من التحريف والتبديل والتغيير، فيظهرها ويكشفها.

فهذه خمسة أوصاف للنبي ﷺ كلها ثناء وجمال، جاء ختامها بأنه ﷺ السراج الوضاء الذي بيد الله به ظلمات الضلال، فقد عرفنا الخير والشر، وطريق السعادة والشقاء.

عن عطاء بن يسار قال: لقيت عبد الله بن عمرو بن العاص ؓ فقلت: أخبرني عن صفة رسول الله ﷺ في التوراة، قال: أجل، والله إنه لموصوف في التوراة بصفته في القرآن ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَهِيدًا وَمُبَشِّرًا﴾ وحرزاً للأمين، أنت عبدي ورسولي، سميتك المتوكل، ليس بفظ، ولا غليظ، ولا صخاب في الأسواق، ولا يدفع السيئة بالسيئة، ولكن يعفو ويغفر، ولن يقبضه الله حتى يقيم به الملة العوجاء، بأن لا إله إلا الله، فيفتح به أعينا عمياء، وآذاناً صمًا، وقلوباً غلفاً^(١).

(أ) فقوله: وحرزاً للأمين، يقابلها قوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيَّتِينَ رُسُلًا مِنْهُمْ﴾ [الجمعة: ٢].

(ب) وقوله: ليس بفظ ولا غليظ، يقابله قوله تعالى: ﴿وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا

(١) ينظر: «صحيح البخاري» برقم (٢١٢٥) ورقم: (٤٨٣٨) والبيهقي في «الدلائل» (١/٣٧٣) و«المسند»:

(١١/١٩٣) (٦٦٢٢). ويُنظر: «العهد القديم» الإصحاح الثاني والأربعون، بتصرف قليل، و«سفر أشعيا».

مِنْ حَوْلِكَ ﴿[آل عمران: ١٥٩].

(ج) وقوله: ولا صَحَّاب في الأسواق، يقابله قوله تعالى على لسان لقمان: ﴿وَأَعْصُصْ مِنْ صَوْتِكَ﴾ [لقمان: ١٩].

(د) وقوله: ولا يدفع السيئة بالسيئة، يقابله قوله تعالى: ﴿ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ [فصلت: ٣٤].

(هـ) وقوله: ولكن يعفو ويصفح، يقابله قوله تعالى: ﴿فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاصْفَحْ﴾ [المائدة: ١٣].

(و) وقوله: حتى يقيم به الملة العوجاء، يقابله قوله تعالى: ﴿أَلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتِمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا﴾ [المائدة: ٣].

(ز) وقوله: ويفتح به أعينًا عميًا وأذانًا صمًا وقلوبًا غلفًا، يقابله قوله تعالى: ﴿خَتَمَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَعَلَى سَمْعِهِمْ وَعَلَى أَبْصَارِهِمْ غِشْوَةٌ﴾ [البقرة: ٧].

أخرج الحاكم بسند صحيح عن العرياض بن سارية رضي الله عنه صاحب رسول الله ﷺ قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إني عبد الله وخاتم النبيين وأبي مُنْجِدٍ في طيئته، وسأخبركم عن ذلك: أنا دعوة أبي إبراهيم، وبشارة عيسى، ورؤيا أمي آمنة التي رأت»، وكذلك أمهات النبيين يَرَيْنَ، وأنَّ أم رسول الله ﷺ رأت حين وضعته نورًا أضاء لها قصور الشام، ثم تلا الآيتين^(١). وجاء الوصف السادس في قوله تعالى:

٤٧- ﴿وَيُبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ بِأَنَّهُمْ مِنَ اللَّهِ فَضْلًا كَبِيرًا﴾ ﴿٤٧﴾

٦- وأمرناك -يا رسولنا- أن تبشر المؤمنين العاملين للصالحات، بصفة خاصة، بما أعده الله لهم في الدار الآخرة من الفضل الكبير، والثواب الجزيل في جنات النعيم، وذلك أنه بعد أن وصف الله رسوله بهذه الصفات السابقة، أتبع ذلك بتبشير المؤمنين برضى الله تعالى عنهم، ونهيه عن طاعة الكافرين.

أي: بشر أهل الإيمان بالثواب العظيم في روضات الجنات، كما قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ

(١) «المستدرک» (٤١٨/٢) قال الحاكم: صحيح الإسناد ولم يخرجاه، وصححه الذهبي، والحديث بدون ذكر الآية عند أحمد (٣٧٩/٢٨، ٣٨٢، ٣٩٥) (١٧١٥٠، ١٧١٥١، ١٧١٦٣) قال محققوه: صحيح لغيره، دون (وكذلك أمهات النبيين ترين) وأخرجه ابن حبان (٦٤٠٤) والطبراني في الكبير (٦٢٩/١٨) وغيرهم.

ءَامِنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فِي رَوْضَاتِ الْجَنَّاتِ لَهُمْ مَا يَشَاءُونَ عِنْدَ رَبِّهِمْ ذَلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ ﴿الشورى: ٢٢﴾. وقال تعالى: ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا لِحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ﴾ ﴿يونس: ٢٦﴾.

والمبشر به، هو الفضل الكبير، بالنصر في الدنيا، وهداية القلوب، وكشف الكروب، وكثرة الأرزاق، وحصول النعم، والفوز بالجنة والنجاة من النار.

عن الربيع عن أنس رضي الله عنه قال: لما نزلت: ﴿وَمَا أَدْرِ مَا يُفْعَلُ بِي وَلَا بِكُمْ﴾ ﴿الأحقاف: ٩﴾. نزل بعدها: ﴿لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ﴾ ﴿الفتح: ٢﴾. فقالوا: يا رسول الله، قد علمنا ما يفعل بك، فماذا يفعل بنا؟ فأنزل الله: ﴿وَيَشِيرَ الْمُؤْمِنِينَ يَآنَ لَهُمْ مِّنَ اللَّهِ فَضْلًا كَبِيرًا﴾ ﴿٤٧﴾ قال: الفضل الكبير: الجنة^(١).

وهذه الآية أرجى آية في كتاب الله تعالى؛ لأن الله تعالى أمر نبيه أن يبشر المؤمنين بأن لهم عند الله فضلاً كبيراً وهو الجنة^(٢).

هذا: ولما كان من البشر من يصدُّ الداعين إلى الله تعالى من أهل الكفر والنفاق، فقد نهى سبحانه عن طاعتهم وحذر منهم، وجاء ذلك في التوجيه السابع للنبي ﷺ:

٤٨- ﴿وَلَا تُطِيعِ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ وَدَعِ أَذْنَهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ وَكِيلًا﴾ ﴿٤٨﴾

٧- ونهيناك -أيها الرسول- عن طاعة الكافرين والمنافقين، أي: لا تطع قول كل كافر أو منافق، يصدك عن الدعوة إلى الله، واثبت على ما أنت عليه من الحق، وامض في طريق تبليغ الدعوة، لا تطعهم في المساهلة أو المداينة والملاينة في أمر الدين، بل اثبت على وحي الله، وفي هذا نهى له ﷺ عن أن يسمع منهم ما كانوا يطلبونه منه على وجه النصيحة له وهم له غاشون، وهذا درس لنا في التعامل مع غير المسلمين لنكون على حذر من أمرنا. وعدم طاعتهم لا يقتضي أذاهم، ولذا: قال تعالى:

٨- ﴿وَدَعِ أَذْنَهُمْ﴾ فإن عدم إيذائهم يدعو إلى جلبهم، وقبولهم الدعوة، وكف أذاهم،

فأعرض عن أقوالهم وأفعالهم المؤذية، كي يقتدي بك الدعاة إلى الله تعالى في كل زمان ومكان، بأن يكون همهم الأكبر وشغلهم الشاغل، هو دعوة الناس إلى توحيد الله تعالى،

(١) أخرجه البيهقي في «الدلائل» (١٥٩/٤).

(٢) يُنظَر: «تفسير ابن عطية» (٣٩٠/٤).

ولا يشيهم عن ذلك ما يلاقونه من أذى، فلا يمنعك هذا من تبليغ الرسالة، ولا تبال بما ينزلونه بك من أذى.

٩- ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ﴾ ثق به في كل أمورك واعتمد عليه بعد بذل الوسائل والأسباب ﴿فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ﴾ [آل عمران: ١٥٩]

﴿وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلًا﴾ فإنه يكفيك ما أهمك من أمور الدنيا والآخرة

عِدَّةُ الْمُطَلَّقةِ قَبْلَ الدُّخُولِ بِهَا

٤٩- ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا نَكَحْتُمُ الْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ طَلَقْتُمُوهُنَّ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَمْسُوهُنَّ^(١) فَمَا لَكُمْ عَلَيْهِنَّ^(٢) مِنْ عِدَّةٍ تَعْتَدُونَهَا فَمَعَهُنَّ وَسَّرَّحُوهُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا ﴿٤٩﴾﴾

وبعد أن تحدثت الآيات السابقة عن طلاق زيد لزَيْنَبَ ﷺ، تحدثت هنا عن طلاق المرأة التي عُقد قرانها ولم يتم الدخول بها، وهذا تخصيص لعموم آيات العدة في سورة البقرة [٢٣٤-٢٢٨] التي نزلت قبل هذه السورة، وكذا آية سورة الطلاق [٤] التي نزلت بعدها.

والمعنى: يا أيها الذين صدقوا الله ورسوله وعملوا بشرعه، إذا عقدتم على النساء ولم تدخلوا بهن، ثم طلقتموهن من قبل أن تجامعوهن ﴿فَمَا لَكُمْ عَلَيْهِنَّ مِنْ عِدَّةٍ تَعْتَدُونَهَا﴾ وهذا أمر مجمع عليه بين العلماء، وقد ذكر البخاري منهم اثنين وعشرين، ما بين: صحابي وتابعي وإمام، وهو أن المرأة إذا طُلق قبل الدخول بها فلا عدة عليها، فتذهب وتزوج من فورها مَنْ تشاء.

ولا يُستثنى من ذلك إلا المتوفى عنها زوجها الذي عقد عليها ولم يدخل بها، فإنها تعتد عليه أربعة أشهر وعشرًا، وإن لم يكن قد دخل بها، وهذا بالإجماع أيضًا، وذلك لعموم قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنْكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا يَرَبِّصْنَ أَنْفُسَهُنَّ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا﴾ [البقرة: ٢٣٤]. وهذا من باب الحزن والحداد على من ارتبطت به في عقد النكاح، وليس من باب براءة الرحم.

(١) قرأ حمزة والكسائي وخلف العاشر (تُماشوهن) مع المد اللازم، والباقون (تَمْسُوهُنَّ).

(٢) قرأ يعقوب بضم الهاء من (عليهن) وصلًا ووقفًا، ووقف عليها بهاء السكت بخلف عنه.

والكتابات يدخلن في هذا الحكم تحت المؤمنات، وقد خصَّ المؤمنات بالذكر لأنهن الأغلب. ويشبه هذا الحكم مَنْ راجع المرأة في عدتها ثم طلقها قبل أن يمسه، فإنه لا يلزمها عدة في المستقبل؛ لأنها مطلقة قبل الدخول بها.

كما أن المطلقة بعد الدخول بها، عليها العدة إجمالاً، فتحيض ثلاث مرات، أو ثلاثة أشهر، إن كانت لم تبلغ سن الحيض، أو كان الحيض قد انقطع عنها، وتكون العدة بوضع الحمل إن كانت المطلقة حاملاً.

والنكاح: هو العقد الذي يكون بين الرجل والمرأة، لتكون زوجاً له بواسطة وليها، فيُعبر عن العقد بالنكاح، لأنه طريق إليه، وهو في الحقيقة: الدخول والوطء والجماع. والمس: هنا هو الجماع بالإجماع.

والعدة: هي المدة التي تنتظر فيها المرأة دون زواج، لمعرفة براءة رحمها من الحمل. ويدل على جواز الطلاق قبل المسيس قوله تعالى: ﴿لَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِنْ طَلَقْتُمُ النِّسَاءَ مَا لَمْ تَمْسُوهُنَّ أَوْ تَفْرِضُوا لَهُنَّ فَرِيضَةً﴾ [البقرة: ٢٣٦] والمسيس هو الوطء.

واتفق الفقهاء على أن الطلاق قبل النكاح لا يقع أخذاً من الآية ﴿إِذَا نَكَحْتُمُ الْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ طَلَقْتُمُوهُنَّ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَمْسُوهُنَّ﴾ فقد رتب الطلاق على النكاح.

وبحديث عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده: «لا طلاق لابن آدم فيما لا يملك»^(١).

وحديث المسور بن مخرمة: «لا طلاق قبل نكاح»^(٢).

(١) جزء من حديث عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده في «المستد» (١٨٩/٢) برقم (٦٧٦٩) (٦٧٨٠) وإسناده حسن و«سنن الترمذي» برقم (١١٨١) وقال: حديث حسن. وأبي داود برقم (٢١٩١) وابن ماجه برقم (٢٠٤٧) وحسنه الألباني في «إرواء الغليل» (١٧٣/٦) وصححه الحاكم والذهبي في «المستدرك» (٤٠٢/٢)، وهو عند عبدالرزاق (١١٤٥٦) والطيايلى (٢٢٦٥).

(٢) «سنن ابن ماجه» برقم (٢٠٤٨) روي موقوفاً في البيهقي: (٣٢٠/٧) وفي رفعه ضعف في السند؛ لضعف جوير بن سعيد البجلي، وقال الألباني في صحيح ابن ماجه (١٦٦٧) حسن صحيح، وصححه مرفوعاً في إرواء الغليل (١٥٢/٧) وعن علي بن أبي طالب في صحيح ابن ماجه (١٦٦٨).

واختلفوا فيمن علّق الطلاق قبل الدخول كمن قال: إن تزوجت فلانة فهي طالق، فقال بوقوعه الحنفية والمالكية، ولا يقع عند الشافعية والحنابلة.

وجمهور العلماء (المالكية والحنفية والحنابلة) على أن الخلوة الصحيحة بالمرأة المخطوبة أو المعقود عليها، توجب المهر كاملاً، وتوجب العدة، وذهب الشافعية إلى أن الخلوة لا توجب ما يوجب الجماع من العدة والمهر، ولكلّ منهما دليله.

أخرج الطبري بسند حسن عن علي بن أبي طلحة عن ابن عباس رضي الله عنه قال: هذا في الرجل يتزوج المرأة ثم يطلقها من قبل أن يمسه، فإذا طلقها واحدة بانت منه، ولا عدة عليها، ولها أن تتزوج من شاءت، فإن كان قد سمى لها صداقاً فليس لها إلا النصف، فإن لم يكن سمى لها صداقاً متّعها على قدر عُسره ويسره، وهو السراح الجميل^(١).

وعن حسين بن ثابت قال: جاء رجل إلى علي بن الحسين فسأله عن رجل قال: إن تزوجت فلانة فهي طالق، قال: ليس بشيء، بدأ الله بالنكاح قبل الطلاق فقال:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا نَكَحْتُمُ الْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ طَلَقْتُمُوهُنَّ﴾^(٢).

ويؤخذ من هذا أن الطلاق لا يكون إلا بعد النكاح، فلو طلق قبل أن ينكحها، أو علّق طلاقها على نكاحها، لم يقع.

وعن سعيد بن جبير قال: سئل ابن عباس رضي الله عنه عن الرجل يقول: إن تزوجت فلانة فهي طالق، قال: ليس بشيء، إنما الطلاق لمن يملك^(٣).

وكذلك لو قال: كل امرأة أتزوجها فهي طالق، أو إن تزوجت فلانة فهي طالق؛ فليس كل هذا بشيء.

وعن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده قال: قال رسول الله ﷺ: «لا طلاق فيما لا تملك، ولا بيع فيما لا تملك، ولا عتق فيما لا تملك، ولا وفاء نذر فيما لا تملك، ولا

(١) الطبري (١٢٨/١٩).

(٢) أخرجه عبد بن حميد كما في «الدر المنثور» (٧٩/١٢).

(٣) أخرجه عبد بن حميد كما في «الدر المنثور» (٧٩/١٢). وانظر الحديثين السابقين.

نذر إلا فيما ابتُغي به وجه الله تعالى، ومن حلف على معصية فلا يمين له، ومن حلف على قطيعة رحم فلا يمين له»^(١).

متعة المطلقة قبل الدخول:

ثم إن المطلقة قبل الدخول بها، لها حق المتعة، كما قال تعالى: ﴿فَمَتَّعُوهُنَّ﴾ أي: أعطوهن من أموالكم متعة يتمتعن بها بحسب الوُسْع، جبراً لخواترهن لأجل فراقهن، وكون المتعة على قدر وُسْع المطلق أخذاً من قوله تعالى: ﴿وَمَتَّعُوهُنَّ عَلَى الْوُسْعِ قَدَرُهُ وَعَلَى الْمَقْتَرِ قَدَرُهُ مَتَّعًا بِالْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى الْمُحْسِنِينَ﴾ [البقرة: ٢٣٦].

وفي البخاري: عن سهل بن سعد وأبي أسيد رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ تزوج أميمة بنت سراحيل، فلما أُدخلت عليه بسَطَ يده إليها، فكانها كرهت ذلك، فأمر أبا أسيد أن يُجهِّزها ويكسوها ثوبين رزاقيتين^(٢).

فالمتعة مستحبة لمن طُلِّقت قبل الدخول بها، ولها نصف المهر، لقوله تعالى: ﴿وَإِنْ طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَمْسُوهُنَّ وَقَدْ فَرَضْتُمْ لَهُنَّ فَرِيضَةً فَنِصْفُ مَا فَرَضْتُمْ إِلَّا أَنْ يَعْفُونَ أَوْ يَعْفُوا الَّذِي بِيَدِهِ عُقْدَةُ النِّكَاحِ وَأَنْ تَعْفُوا أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى وَلَا تَنْسُوا الْفَضْلَ بَيْنَكُمْ﴾ [البقرة: ٢٣٧].

وبعد المتعة يُطْلَق الرجل سراحها ﴿وَسَرَّحُوهُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا﴾ أي: خلوا سبيلهن مع الستر الجميل دون أذى أو ضرر، فالسراح الجميل هو الكلمة الطيبة دون أذى بالقول أو الفعل ولا منع واجب لها.

أَرْبَعَةُ أَصْنَافٍ مِنَ النِّسَاءِ أَحَلَّهُنَّ اللَّهُ لِرَسُولِهِ ﷺ

٥٠- ﴿يَتَأْتِيهَا النَّبِيُّ^(٣) إِذَا أَحَلَّلْنَا لَكَ أَزْوَاجَكَ الَّتِي ءَاتَيْتَ أَجُورَهُنَّ وَمَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ وَمَا آفَأَ اللَّهُ عَلَيْكَ وَنِسَاءَ عَمَّكَ وَنِسَاءَ عَمَّتِكَ وَنِسَاءَ خَالَكِ وَنِسَاءَ خَالَاتِكَ الَّتِي هَاجَرْنَ مَعَكَ وَامْرَأَةً

(١) عبد الرزاق (١١٤٥٦) والنسائي (٣٨٠١) وحسنه الألباني في «صحيح سنن أبي داود» (١٩١٦، ١٩١٨). وفي مسند أحمد (٦٧٨٠) بنحوه.

(٢) «صحيح البخاري» برقم (٥٢٥٦، ٥٢٥٧).

(٣) قرأ نافع بالهمز في (النبي) فتجتمع همزتان مع (إننا) فيكون له في الهمزة الثانية الإبدال واوًا، والباقون بياء مشددة.

مُؤْمِنَةً إِنْ وَهَبَتْ نَفْسَهَا لِلنَّبِيِّ إِنْ أَرَادَ النَّبِيُّ أَنْ يَسْتَنْكِحَهَا خَالِصَةً لَّكَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ قَدْ عَلِمْنَا مَا فَرَضْنَا عَلَيْهِمْ فِي أَزْوَاجِهِمْ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ لِكَيْلَا يَكُونَ عَلَيْكَ حَرَجٌ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا ﴿٥٠﴾

هذا هو النداء الرابع للنبي ﷺ في السورة، وهو في بيان ما أحلَّ الله تعالى له من الزوجات والإماء، وفيه إجابة للمنافقين والمرجفين الذين استنكروا زواجه ﷺ من زينب . ﷺ وإجابة للنسوة اللاتي استنكرن على المرأة التي وهبت نفسها للنبي ﷺ ببيان مشروعية ذلك له ﷺ على وجه الخصوص، وقد أحلَّ الله لنبيه ﷺ صنوفاً من النساء أربعة:

١- صنفاً يُدفع له المهر، وهنَّ الممهورات.

٢- وصنفاً يُتَمَتَّع به بملك اليمين، وهنَّ المملوكات.

٣- وصنفاً من أقاربه، من نساء قريش وبني زهرة، وهنَّ المهاجرات.

٤- وصنفاً رابعاً ينكحه بدون مهر، وهنَّ الواهبات أنفسهن.

وفي ذلك امتنان من الله تعالى على رسوله ﷺ، وتذكير له بنعم الله تعالى عليه.

وقد خصَّ الله سبحانه رسوله ﷺ بخصائص لم يشاركه فيها أحد، تيسيراً له في نشر الرسالة وتبليغ الدعوة، وتأليف قلوب العشائر، وجمع القبائل، ومن ذلك اختصاصه ﷺ بأكثر من أربع، ونكاح الواهبات أنفسهن بدون مهر.

وقد اشتملت هذه الآية على الأصناف الأربعة السابق ذكرها، والصنف الرابع فقط هو الخاص بالنبي ﷺ، والثلاثة قبله مشتركة، وبيان ذلك فيما يأتي:

الصَّنْفُ الْأَوَّلُ: الْمَمْهُورَاتِ: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَمْلْنَا لَكَ أَزْوَاجَكَ الَّتِي ءَاتَيْتَ أَجْرَهُنَّ﴾

أي: أبحنا لك -أيها الرسول - أن تتزوج كل امرأة أعطيتها مهرها، وهذا أمر غير خاص بالنبي ﷺ، وإنما يشترك معه فيه جميع المؤمنين إلى قيام الساعة.

وسُمي المهر أجراً؛ لأنه يقابل الاستمتاع بما يحل الاستمتاع به من الزوجة.

وهذا الصنف منه القريبات القرشيات، وهن: عائشة، وحفصة، وسودة، وأم سلمة، وأم حبيبة، ومنهن غير القريبات، وكان مهره لئنائه اثنتي عشرة أوقية ونصف الأوقية، إلا أم حبيبة فقد أمهرها النجاشي أربع مئة دينار.

الصَّنْفُ الثَّانِي: مِلْكُ الْيَمِينِ: ﴿وَمَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ مِمَّا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَيْكَ﴾

من السبي في الغزوات أي: وأبחנו لك ما ملكت يمينك من الإمام، مما أنعم الله به عليك عن طريق الفداء، كصفية وجويرية، وجاء التقييد لملك اليمين، أن يمتلكهن عن طريق الغنائم في قوله تعالى: ﴿مِمَّا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَيْكَ﴾ لأنهن أفضل من اللاتي يُملكن بالشراء، فقد بُذل في إحرازهن جهد ومشقة في الحرب بالانتصار على الكفار.

وكان مهر (صفية بنت حييؓ) أن أعتقها النبي ﷺ من الأسر، فمهرها عتقها، وهي من بني إسرائيل.

أما (جويريةؓ) فقد كاتبها ابن قيس على أن تدفع له أقساطاً من المال، ثم يعتقها في النهاية، فأدى النبي ﷺ ما عليها، وكان هذا مهرها وتزوجها عليه الصلاة والسلام، وهي من بني المصطلق.

وَمَلَكَ ﷺ (ريحانة بنت شمعون النضرية)، من سبايا بني قريظة، (ومارية القبطية) أم ابنه إبراهيم التي أهداها له المقوقس ملك مصر.

وهذا الصنف أيضاً غير خاص بالنبي ﷺ وإنما يشترك معه غيره من جميع المؤمنين.

الصَّنْفُ الثَّالِثُ: قَرِيَّاتٌ مِنْ غَيْرِ الْمَحَارِمِ:

من جهة الأب أو الأم، مؤنات مهاجرات ﴿وَبَنَاتِ عَمِّكَ وَبَنَاتِ عَمَّتِكَ وَبَنَاتِ خَالَكَ وَبَنَاتِ خَالَتِكَ الَّتِي هَاجَرْنَ مَعَكَ﴾ أي: وأبחנו لك قريباتك من بنات الأعمام والعمات والأخوال والخالات، بشرط الهجرة إلى المدينة، ولا يشترط فيها مصاحبة النبي ﷺ، وإنما المراد: الاشتراك في الهجرة مطلقاً، سواء أكان ذلك قبل هجرة النبي ﷺ أم بعدها، أم معه ﷺ، والهجرة لا تكون إلا بعد إيمان، ويكون ذلك بعقد الزواج المعروف.

عن أم هانئ بنت أبي طالب قالت: خطبني رسول الله ﷺ، فاعتذرتُ إليه فعذرني، ثم أنزل الله: ﴿إِنَّا أَهْلْنَا لَكَ أَزْوَاجَكَ﴾ فلم أكن أحل له؛ لأنني لم أهاجر، وكنت من الطلقاء^(١).

(١) أخرجه الترمذي وقال: حديث حسن لا أعرفه إلا من هذا الوجه عن السدي، وهو برقم (٣٢١٤) وانظر:

«تفسير الطبري» (١٥/٢٢) وابن سعد (١٥٣/٨) وقد ضعفه الألباني في «ضعيف سنن الترمذي» برقم (٦٣٠).

وكانت أم هانئ قد مات زوجها وترك صغاراً، فلما أدرك بنوها، عرضت نفسها على النبي ﷺ، فقال ﷺ: «أما الآن فلا»^(١).

وليس المقصود خصوص هذه القرابة، وإنما دُكرن للتنويه بمنزلة القرابة.

أما شرط الهجرة فقد انقضى بفتح مكة.

وبنات عم النبي ﷺ هن بنات إخوة أبيه، مثل: بنات العباس، وبنات أبي طالب، وبنات أبي لهب، أما بنات حمزة فإنهن بنات أخيه من الرضاعة لا يحللن له.

أما بنات عماته: فهن بنات عبد المطلب، مثل زينب بنت جحش، أمها، أميمة بنت عبد المطلب.

وبنات خاله: هن بنات عبد مناف بن زهرة، مثل عبد يغوث بن وهب، أخو آمنه، ولم يذكر له بنات.

وأما بنات خالته: فربعة بنت وهب.

وبنات العم والعمات من قريش، وبنات الخال والخالات من بني زهرة.

ويؤخذ من هذا أن من عدا هؤلاء من الأقارب غير محلات، لأن الآية حصرت المحلات وما عداهن من الأقارب يدخل في الأصول أو الفروع اللاتي لا يحل الزواج بهن، كما جاء ذلك مفصلاً في آية سورة النساء ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَاتُكُمْ...﴾ [الآية].

وهذه الأصناف الثلاثة: وهي الزواج بالصدائق، وملك اليمين، وزواج الأقارب المذكورين، تشمل جميع الأمة، ولا تخص النبي ﷺ وحده.

الصَّنْفُ الرَّابِعُ: الْوَاهِبَاتُ:

وهذا الصنف خاص بالنبي ﷺ لقوله تعالى: ﴿وَأَمْرًا مُّؤْمِنَةً إِنْ وَهَبَتْ نَفْسَهَا لِلنَّبِيِّ إِنْ أَرَادَ النَّبِيُّ أَنْ يَسْتَنْكِحَهَا خَالِصَةً لَّكَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ أي: وأبחנו لك امرأة مؤمنة، منحت نفسها لك -أيها النبي- من غير مهر، حباً في الله ورسوله، وتقرباً لك -أيها الرسول- إن كنت تريد الزواج منها، خالصة لك، وليس لغيرك أن يتزوج بالهبة، بل يجب دفع مهر المثل.

(١) «طبقات ابن سعد» (٨/١٥٣).

أما غير المؤمنة، فلا تحل لك مطلقاً، وإن وهبت نفسها لك، وخصوصية النبي ﷺ في ترك المهر لا في نفس النكاح.

وهل كان عند النبي ﷺ امرأة موهوبة أم لا؟

١- قال ابن عباس ومجاهد: لم يكن عند النبي ﷺ امرأة وهبت نفسها له، ولم يكن عنده امرأة إلا بعقد نكاح أو ملك يمين، وما ذكر في الآية على سبيل الفرض والتقدير.

٢- وقال آخرون: كانت عنده موهوبة وهي (زينب بنت خزيمة الأنصارية الهلالية) المعروفة بأُم المساكين، ولم تلبث عنده إلا قليلاً، ثم تُوفيت سنة ثلاث من الهجرة.

وتزوج أيضاً بطريق الهبة (ميمونة بنت الحارث الهلالية).

وهناك ثلاث نساء وهبن أنفسهن للنبي ﷺ ولم يثبت أنه تزوجهن، وإنما زوّجهن غيره، وهن: أم شريك بنت جابر الأسدية، أو العامرية، وخولة بنت حكيم السلمية، وليلى بنت الحطيم.

ومعنى وهبت نفسها للنبي: أنها ملّكته نفسها تمليكاً شبيهاً بملك اليمين بدون مهر، أما الأحاديث والآثار الواردة في ذلك فمنها:

١- ما رواه سهل بن سعد الساعدي رضي الله عنه: أن رسول الله ﷺ جاءته امرأة، فقالت: يا رسول الله، إني وهبت من نفسي، فقامت طويلاً، فقال رجل: زوّجنيها إن لم تكن لك بها حاجة، فقال رسول الله ﷺ: «هل عندك من شيء تُصدقُها إياه؟» قال: ما عندي إلا إزارِي هذا، فقال ﷺ: «إن أعطيتها إياه جلست لا إزار لك، فالتمس شيئاً» فقال: ما أجد شيئاً، فقال: «التمس ولو خاتماً من حديد» فلم يجد شيئاً، فقال له النبي ﷺ: «هل معك من القرآن شيء؟» قال: نعم، سورة كذا، وسورة كذا، لسور سماها، فقال له رسول الله ﷺ: «زوّجناكها بما معك من القرآن»^(١).

٢- وروى البخاري وغيره: أن ثابثاً البناني قال: كنت عند أنس وعنده ابنة له، قال أنس: جاءت امرأة إلى رسول الله ﷺ تعرض عليه نفسها، قالت: يا رسول الله، ألك فيّ

(١) «المسند» (٢٢٧٩٨، ٢٢٨٣٢، ٢٢٨٥٠) و«صحيح البخاري» برقم (٥١٣٥) وهذا لفظه، وانظر:

(٢٣١٠) و«صحيح مسلم» من طريق آخر برقم (١٤٢٥) بنحوه و«الموطأ» (٥٢٦/٢) وعبد الرزاق

(١٢٢٧٤) وأبو داود (٢١١١) والترمذي (١١١٤) والنسائي (٣٣٥٩).

حاجة؟ فقالت بنت أنس: ما أقل حياءها!! واسوأها، واسوأها، قال: «هي خير منك، رغبت في النبي ﷺ فعرضت عليه نفسها»^(١).

٣- وعن عائشة رضي الله ﷻ قالت: كنت أغار من اللاتي وهبن أنفسهن لرسول الله ﷺ وأقول: أتهب امرأة نفسها؟ فلما أنزل الله: ﴿تَرْجِي مَن نَّشَاءُ مِنْهُنَّ﴾ قلت: ما أرى ريبك إلا يسارع في هواك^(٢).

٤- وأخرج ابن أبي حاتم بسنده أن النبي ﷺ تزوج ثلاث عشرة امرأة:

ست من قريش، هن: خديجة، وعائشة، وحفصة، وأم حبيبة، وسودة، وأم سلمة، وثلاث من بني عامر بن صعصعة، وامرأتان من بني هلال بن عامر: ميمونة بنت الحارث، وهي التي وهبت نفسها للنبي، وزينب أم المساكين - وامرأة من بني أبي بكر بن كلاب من القرطاء - وهي التي اختارت الدنيا، وامرأة من بني الجون وهي التي استعازت منه، وزينب بنت جحش الأسدية.

والسيئتان: صفية بنت حيي بن أخطب، وجويرية بنت الحارث بن عمرو بن المصطلق الخزاعية^(٣).

٥- وأخرج الطبري بسنده، عن محمد بن أبي موسى، عن زياد، قال لأبي بن كعب: هل كان للنبي ﷺ لو مات أزواجه أن يتزوج؟ قال: ما كان يحرم عليه ذلك، فقرأت عليه هذه الآية، فقال: أحل الله له ضرباً من النساء، وحرّم عليه ما سواه، أحلّ له كل امرأة أتى أجرها، وما ملك يمينه مما أفاء الله عليه، وبنات عمه وبنات عماته، وبنات خاله وبنات خالاته، وكل امرأة وهبت نفسها له إن أراد أن يستكحها خالصة له من دون المؤمنين^(٤).

٦- وأخرج الطبري بسند حسن، عن قتادة قال: ليس لامرأة أن تهب نفسها لرجل، بغير أمر ولي ولا مهر، إلا للنبي، كانت له خالصة من دون الناس، ويزعمون أنها نزلت

(١) «المسند» (٢٦٨/٣) برقم (١٣٨٣٥) بإسناد صحيح على شرط الشيخين و«صحيح البخاري» برقم (٥١٢٠، ٦١٢٣). وأخرجه ابن ماجه (٢٠٠١) والنسائي في الكبرى (١١٤١٣) وأبو يعلى (٣٤٨٣).

(٢) «صحيح البخاري» برقم (٤٧٨٨، ٥١١٣) ومسلم (١٤٦٤).

(٣) ورواه ابن أبي شيبة في «المصنف» (٢٧٠/٥) من طريق وكيع بلفظ: تزوج رسول الله (امرأة من بني الجون فطلقها، وهي التي استعازت منه).

(٤) «تفسير الطبري» (٢٩/٢٢) وأخرجه الضياء المقدسي في «المختارة» (١١٧١) وحسنه المحقق.

في ميمونة بنت الحارث أنها التي وهبت نفسها للنبي ﷺ.

٧- وأخرج ابن سعد، عن ابن أبي عون، أن ليلى بنت الحطيم، وهبت نفسها للنبي ﷺ، ووهبن نساء أنفسهن، فلم نسمع أن النبي ﷺ قبل منهم أحداً^(١).

أي: لم يدخل بواحدة منهم، وإن كان مباحاً له ذلك؛ لأنه راجع إلى إرادته، لقوله تعالى: ﴿إِنْ أَرَادَ الْتَيْ أَنْ يَسْتَنْكِحَهَا﴾^(٢).

وقال قتادة: كان مما فرض الله عليهم ألا تزوج امرأة إلا بولي وصادق عند شاهدي عدل، ولا يحل لهم من النساء إلا أربع، وما ملكت أيماهم.

هذا ما أحللتناه لك يا محمد بصفة خاصة، وأما أمتك فقد قال تعالى: ﴿قَدْ عَلِمْنَا مَا فَرَضْنَا عَلَيْهِمْ فِي أَزْوَاجِهِمْ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ﴾ أي: قد علمنا ما أوجبنا على المؤمنين في أزواجهم وإيمانهم، بألا يتزوجوا إلا أربع نسوة، وألا يتجاوزوها مع شروط العقد، وسائر الحقوق، من المهر، والولي، والشهود، والنفقة، وما أبحنا لهم من ملك اليمين.

أما أنت -أيها الرسول- فقد رخصنا لك ما سبق ذكره، ووسعنا عليك ما لم نوسع على غيرك؛ لثلاث يضيق صدرك في نكاح من نكحت من هؤلاء الأصناف ﴿لِكَيْلَا يَكُونَ عَلَيْكَ حَرَجٌ﴾ وهذا تعليل لما شرعه الله تعالى لنبيه خاصة، وهو يعود إلى أول الآية وما في ثنائها ﴿وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا﴾ لذنوب عباده ﴿حَيًّا﴾ بالتوسعة عليهم ورفع الحرج عنهم، ولا يزال سبحانه واسع الرحمة والمغفرة بعباده.

تَخْيِيرُ الرَّسُولِ ﷺ فِي الْقِسْمَةِ بَيْنَ زَوَاجَاتِهِ

٥١- ﴿تُرْجَى^(٣) مَنْ شَاءَ مِنْهُنَّ وَقَوَى^(٤) إِلَيْكَ مَنْ شَاءَ وَمَنْ أَبْغَيْتَ مِمَّنْ عَزَلْتَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكَ ذَلِكَ أَدْنَى أَنْ قَرَّ أَعْيُنُهُنَّ وَلَا يَحْزَنَ وَيَرْضَيْنَ بِمَا آتَيْنَهُنَّ كُلُّهُنَّ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِي

(١) ابن سعد (١٥١/٨) والطبري (١٣٤/١٩).

(٢) «فتح الباري» (٥٢٦/٨).

(٣) قرأ ابن كثير وأبو عمرو وابن عامر وشعبة ويعقوب بهمزة مرفوعة في (ترجي)، والباقيون بياء مدية ساكنة.

(٤) قرأ أبو جعفر بإبدال الهمزة في (تؤوي) وأوًا مظهرة وصلًا ووقفًا، ومثله حمزة عند الوقف، ويزيد وجهًا آخر، هو إبدال الهمزة وأوًا وإدغامها في الواو بعدها.

﴿قُلُوبِكُمْ﴾ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَلِيمًا ﴿٥١﴾

وكما خيّر الله - سبحانه - رسوله ﷺ في أمر النفقة، بأن يُمسك من زوجاته من اختارت الله ورسوله والدار الآخرة، ويفارق من اختارت الدنيا، فكان منهن أن اختزن رسول الله ﷺ على هذا الشرط الذي هو من خصائص النبي ﷺ.

كذلك فإن الله تعالى خيّر رسوله في أن يسوي أولاً يُسوِّي بين نسائه في النفقة والمبيت بلا حرج عليه، بعد أن كانت القسمة بينهما واجبة عليه.

﴿تَرْجِي مَن نَّشَاءُ مِنْهُنَّ وَتُؤَيِّ إِلَيْكَ مَن نَّشَاءُ﴾ أي: تؤخر من تشاء من نساءك في القسم وفي المبيت، فلا تؤويها إليك ولا تبيت عندها، وتضم إليك من تشاء، فتؤويها وتبيت عندها، وذلك أن التسوية بينهما في القسمة كانت واجبة عليه ﷺ، فلما نزلت هذه الآية سقط عنه هذا الوجوب، وصار الاختيار إليه فيهن، سواء قسم لهن أم لم يقسم، أو قَسَمَ لبعض دون بعض.

ومع هذا التخيير فإن النبي ﷺ سوَّى بينهن في القسمة، ولم يُخرج واحدة منهن عن القسمة، إلا سودة ؓ عن رغبة منها، فعندما عرض عليها الطلاق، فضّلت أن تبقى في عصمة النبي ﷺ قائلة: لا تطلقني حتى أحشر في زمرة نساءك، وتنازلت عن ليلتها لعائشة ؓ، فكانت عائشة ؓ تأخذ ليلتها وليلة سودة.

ومن الأحاديث الواردة في ذلك ما جاء في البخاري وغيره:

عن معاذة عن عائشة ؓ أن رسول الله ﷺ كان يستأذن في يوم المرأة منا، بعد أن نزلت هذه الآية: ﴿تَرْجِي مَن نَّشَاءُ مِنْهُنَّ﴾ فقلت لها: ما كنت تقولين؟ قالت: كنت أقول: إن كان ذاك إليّ، فإني لا أريد يا رسول الله أن أوتر عليك أحداً^(١).

ففي الآية والحديث أنّ حُكْم التخيير عامٌّ في الواهبات أنفسهن للنبي ﷺ وفي غيرهن، وأن النبي ﷺ مخير في القسم بينهما، إن شاء قسم وإن شاء لم يقسم.

ولما قسم لهن النبي ﷺ اختياراً فرحْنَ بذلك واستبشرنَ، وحملن ذلك جميلاً، واعترفنَ بمَنَّةٍ عليهن في قسّمه وتسويته بينهما، وإنصافه لهنَّ، وعدله فيهن.

(١) «صحيح البخاري» برقم (٤٧٨٩) و«صحيح مسلم» (١٤٧٦).

وعن عائشة رضي الله عنها قالت: كان رسول الله ﷺ يقسم بين نسائه فيعدل، ثم يقول: «اللهم إن هذا فعلي فيما أملك، فلا تلمني فيما تملك ولا أملك»^(١). زاد أبو يعلى: يعني القلب.

وقبل نزول هذه الآية كانت سودة رضي الله عنها قد أسقطت حقها في المبيت، وتنازلت عنه لعائشة رضي الله عنها، ولما نزلت هذه الآية صار النبي ﷺ مخيراً في القسم بين زوجاته.

قال الشوكاني: والحاصل أن الله - سبحانه - فوض الأمر إلى رسوله ﷺ كي يصنع مع زوجاته ما شاء، من تقديم وتأخير، وعزل وإمساك، وضم، من أرجأ، وإرجاء من ضم إليه، وما شاء في أمرهنّ فعل، توسعة عليه ونفيًا للحرَج عنه^(٢).

وعلى هذا فالإرجاء: هو التأخير إلى وقت مستقبل.

والإيواء: هو ضم الشيء وجعله في مكانه.

وهذا الإرجاء وذلك الإيواء، يتعلقان بقسمة النبي ﷺ بين زوجاته، فقد وسّع الله عليه فأباح له أن يُسقط حق بعض نسائه في المبيت معهن، بحيث يصير هذا الحق ملكاً له يتصرف فيه كيف يشاء، بخلاف بقية المسلمين.

قال الزهري: ما علمنا أن رسول الله ﷺ أرجأ أحداً من نسائه، بل آواهن كلهن.

وما ورد من أنه ﷺ آوى بعضهن وأرجأ بعضهن فهو ضعيف.^(٣)

ولم يتزوج النبي ﷺ واحدة بعد نزول هذه الآية.

الرأي الآخر في معنى الآية:

وإرجاء الموهوبات: عدم قبول نكاح الواهبة، وإيواؤهن: قبول هبتهن.

(١) «المسند» (١٤٤/٦) برقم (٢٥١١١) بإسناد رجاله ثقات (محققوه) وأبو داود برقم (٢١٣٤) والترمذي برقم (١١٤٠) والنسائي (٦٣/٧) وفي الكبرى (٨٨٩١) وابن ماجه برقم (١٩٧١)، وابن أبي شيبة (٤/٣٨٦) وابن حبان (٤٢٠٥).

(٢) «فتح القدير» (٢٨٧/٤).

(٣) انظر: ما جاء عن أبي رزّين العُقَيْلي ومجاهد والشعبي، من أنه ﷺ أرجأ ميمونة وسودة وجويرية وأم حبيبة وصفية، فكان يقسم لهن ما شاء دون مساواة مع الأربع الباقيات، فيما أخرجه ابن سعد (١٩٦/٨) وابن أبي شيبة (٢٠٤/٤) وابن جرير (١٤٠/١٩).

وقد قيل إن هذه الآية تخص من وهبن أنفسهن لرسول الله ﷺ، حيث خيره ربه بأن يقبل منهن ما يشاء ويترك ما يشاء.

قلت: وهذا القول يتفق مع آخر الآية السابقة، وفيها ﴿وَأَمْرًا مُؤْمِنَةً إِنْ وَهَبَتْ نَفْسَهَا لِلنَّبِيِّ ﷺ أَلَا يَرِشْهُ أَنْ النَّبِيُّ ﷺ لَمْ يَرْجِءْ أَحَدًا مِنْ نِسَائِهِ كَمَا قَالَ الزهري.

ولم يُحفظ عن النبي ﷺ أنه أثر إحدى زوجاته بليلة سوى ليلة سودة التي وهبتها لعائشة، واستمر الأمر على ذلك إلى وفاته ﷺ.

وكان يطوف كل ليلة على بيوت أزواجه في مرضه الذي تُوفي فيه، من بداية شكواه ﷺ وهو في بيت ميمونة ؓ إلى أن جاءت ليلة عائشة ؓ، فأذنت له أزواجه أن يمرض في بيتها رفقا به ﷺ، كما جاء في الصحيح.

ثم بين سبحانه أن هذا التخير لا يوجب الاستمرار، بل أذن الله تعالى له أن يرجع إلى من يعزلها منهن، فإن أراد العودة إليها، فلا جناح عليه من إيوائها ثانية. قال تعالى:

﴿وَمَنْ أَبْغَيْتَ مِمَّنْ عَزَلْتَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكَ﴾ أي: إنه لا يتعين عليك هذا الأمر، وإذا أحببت أن تؤوي إليك امرأة كنت قد أخرتها وعزلتها عن القسمة، فلا إثم عليك في ذلك، فلك أن تؤخر من تشاء في نوبتها، وتضم إليك من تشاء في غير نوبتها، وترد إلى فراشك من عزلت منهن، وهذا تفضيل للنبي ﷺ على سائر الرجال.

وهذا التخير أقرب إلى أن ترتاح قلوبهن، وتفرح ولا تحزن، ويرضين كلهن بما قسم الله لهن. ثم بين سبحانه الحكمة في هذه التوسعة، وأن الأمر بيد النبي ﷺ، وأن ما جاء إليهن منه ﷺ هو تبرع منه وليس واجبا عليه، وأن هذا شرع وحكم من الله تعالى يجب عليهن قبوله.

قال تعالى: ﴿ذَلِكَ﴾ الذي شرعه الله لكن ﴿أَدْفَا أَنْ تَقْرَأَ أَعْيُنُهُنَّ وَلَا يَخْرُجَنَّ وَرِضْوَنَ﴾ بما آتيتهن كلهن، فإنهن إذا علمن أن هذا أمر الله تعالى فيهن طابت أنفسهن، فلا يشعرون بالحزن والألم؛ لأن ذلك جاء من طريق الوحي وليس باجتهاد منك، وهن يعلمن أنك لم تترك واجبا ولم تفرط في حق لازم عليك.

﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِي قُلُوبِكُمْ﴾ من حب النساء والميل إلى بعضهن دون بعض.

﴿وَكَاثَ اللَّهُ عَلِيمًا﴾ بما في القلوب، يعلم ما تظهرون وما تخفون.

﴿حَلِيمًا﴾ يضع الأمور في نصابها، ولا يعاجل بالعقوبة، بل يؤخر ويمهل.

قَصْرُ النَّبِيِّ ﷺ عَلَى أَزْوَاجِهِ التَّسْعِ

٥٢- ﴿لَا يَحِلُّ^(١) لَكَ الْنِسَاءُ مِنْ بَعْدُ وَلَا أَنْ تَبَدَّلَ^(٢) بَيْنَ مَنْ أَزْوَاجَ وَلَوْ أَعْجَبَكَ حُسْنُهُنَّ إِلَّا مَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ رَقِيبًا ﴿٥٢﴾﴾

وبعد أن كرم الله تعالى نبيه في الآية السابقة، كرم أزواجه في هذه الآية؛ لأنهن اخترن الله ورسوله، فأكرمهن الله تعالى بأن قصره ﷺ عليهن وحرّم طلاقهن، رضي الله عنهن.

والمعنى: لا يباح لك - أيها الرسول - النساء من بعد هؤلاء الزوجات التسع اللاتي في عصمتك، ولا يحل لك أن تُطَلَّقَ واحدة منهن وتزوج مكانها أخرى في المستقبل ولو أعجبك جمالها، وبهذا أُمِّتَهن الله من الطلاق ومن الضرائر، لأن الله تعالى قضى أنهن زوجاته في الدنيا والآخرة، فلا يكون بينه وبينهن فرقة.

قال زيد بن أسلم: كانوا في الجاهلية يقول الرجل للرجل، وله امرأة جميلة: تبادل امرأتي بامرأتك، وأزيدك إلى ما ملكت يمينك^(٣).

فهؤلاء النسوة قد اخترنك على زينة الدنيا، ورضين الحياة معك بطيب نفس مع شطف العيش. وقد اشتملت هذه الآية على حرمة الزواج بغير التسع اللاتي هُنَّ في عصمته ﷺ عند نزول الآية، كما اشتملت على حرمة تطليق واحدة منهن للزواج بأخرى بدلاً منها. والنساء التسع اللاتي حرّم الله على نبيه الزيادة عليهن والاستبدال بهن، هُنَّ: عائشة، وحفصة، وأم حبيبة، وسودة، وأم سلمة، وصفية، وميمونة، وجويرية، وزينب بنت جحش. ولعل المراد بقوله تعالى: ﴿مِنْ بَعْدُ﴾ أي: غير هؤلاء النسوة التسع، وجاء استعمال ﴿بَعْدُ﴾ بمعنى غير، في اللغة كثير، مثل قوله تعالى: ﴿فَمَنْ يَهْدِيهِ مِنْ بَعْدِ اللَّهِ﴾ [الجاثية: ٢٣] أي: فمن يهديه غير الله.

(١) قرأ أبو عمرو ويعقوب بناء التأنيث؛ في (لا يحل) لأن الفاعل حقيقي التأنيث، والباقون بياء التذكير، للفصل بين الفعل والفاعل.

(٢) قرأ البري بخلف عنه بتشديد التاء وصلًا من (تبدل)، والباقون بعدم التشديد، وهو الوجه الثاني للبري.

(٣) أخرجه ابن المنذر كما في «الدر المنثور» (١٢/١٠٤)

وحمل ﴿بَعْدُ﴾ على المعنى المعروف، وهو الشيء المتأخر، أي: من بعد ما أحللنا لك الزواج بالأصناف الأربعة المذكورة في آية ﴿يَتَأْتِيهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَحْلَلْنَا لَكَ﴾ يقتضي أن تكون آية ﴿لَا يَحِلُّ﴾ ناسخة لها.

والقول بعدم النسخ أولى من القول به؛ لأن الآية نزلت مع السورة قبل وفاة النبي ﷺ بأكثر من خمس سنوات، وعليه فالإباحة في الآية إباحة تكريم للنبي ﷺ^(١).

وقال قتادة: لما خيرهن الله ورسوله والدار الآخرة قصره عليهن، وهن التسع اللاتي اخترن الله ورسوله.

فلم يُبح الله له أن يُطلق ولا واحدة منهن، ولم يُبح له تعويض امرأة قديمة بحدیثة.

ثم استثنى الله - سبحانه - من عدم الزيادة على الزوجات، وعدم استبدالهن بغيرهن: ملك اليمين من الجواري، والإماء اللاتي يملكنهن ﷺ عن طريق السبي في الحروب، فقال تعالى: ﴿إِلَّا مَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ﴾ فحلال لك منهن ما شئت.

﴿وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ رَقِيبًا﴾ لا يغيب عنه شيء، فهو مطلع على جميع أحوالكم فاحذروه، وفي هذا تحذير من مجاوزة حدود الله تعالى، وتخطي حلاله وحرامه.

وجاء في روايات ضعيفة أن الله تعالى أحل لرسوله قبل موته أن يتزوج من شاء:

١- قالت عائشة ؓ: ما مات رسول الله ﷺ حتى أحل له النساء^(٢).

(١) يُنظر: «تفسير التحرير والتنوير» (٧٨/٢١).

(٢) «سنن النسائي» (٥٦/٦) برقم (٣٢١٦) وصحيح النسائي (٣٠٠٣ و ٣٠٠٤) والترمذي (٣٥٦/٥) والدارمي (١٥٤/٢) و«المستدرک» (٤٣٧/٢) وصححه الحاكم ووافقه الذهبي، وحسنه الترمذي، وصح إسناده الألباني في «صحيح الترمذي أيضاً» (٢٥٦٨) وهو في «المسند» (٢٤١٣٧) حديث ضعيف، واختلف فيه على عطاء بن أبي رباح، ولذا فقد ضعفه محققو المسند، ونقلوا قول أبي بكر بن العربي في أحكام القرآن (١٥٧١/٣): هو حديث وإمّ ومتعلّق ضعيف، وانظر في المسند (٢٥٤٦٧) و (٢٥٦٥٢) وهو في مصنف عبدالرزاق (١٤٠٠١). و«الكبرى» للنسائي (٥٢٩٤، ٥٢٩٥).

هذا: ويجمع بين قول الألباني وقول ابن العربي ومحققي المسند: بأن صحة الإسناد لا يلزم منها صحة المتن والمعنى، فقد يكون الحديث صحيح الإسناد ضعيف المتن، والعكس صحيح والله أعلم.

٢- وفي لفظ آخر: حتى أُحِلَّ له أن يتزوج من النساء ما شاء (١)

٣- وعن أم سلمة قالت: لم يمت رسول الله ﷺ حتى أُحِلَّ الله له أن يتزوج من النساء ما شاء إلا ذات محرم. (٢) وكذلك قالت عائشة (٣). وهذه الأحاديث الثلاثة ضعيفة وإن صح سند بعضها، فصحة السند لا تعني صحة الحديث.

آيَةُ الْحِجَابِ وَأَدَابُ الضِّيَافَةِ

٥٣- ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتَ النَّبِيِّ (٤) إِلَّا أَنْ يُؤْذَنَ لَكُمْ إِلَى طَعَامٍ غَيْرٍ نَظِيرِ بْنِ إِنَّهُ وَلَكِنْ إِذَا دُعِيتُمْ فَادْخُلُوا فَإِذَا طَعِمْتُمْ فَانْصَرُوا وَلَا مُسْتَسِينٍ لِحَدِيثٍ إِنَّ ذَلِكَ كَانَ يُؤْذَى النَّبِيِّ فَيَسْتَحِي مِنْكُمْ وَاللَّهُ لَا يَسْتَحِي مِنْ أَحَدٍ وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَاعًا فَسْأَلُوهُنَّ (٥) مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ ذَلِكَكُمْ أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ وَقُلُوبِهِنَّ وَمَا كَانَ لَكُمْ أَنْ تُؤْذُوا رَسُولَ اللَّهِ وَلَا أَنْ تَنْكِحُوا أَزْوَاجَهُ مِنْ بَعْدِهِ أَبَدًا إِنَّ ذَلِكَ كَانَ عِنْدَ اللَّهِ عَظِيمًا ﴿٥٣﴾﴾

أمر الله المؤمنين ألا يدخلوا بيوت النبي ﷺ إلا بشرطين، هما: الإذن لهم بالدخول، وأن يكون الجلوس بمقدار الحاجة، والسبب أن هذا كان يؤذي النبي ﷺ، فيستحي أن يقول لكم: أخرجوا، والله تعالى لا يستحي أن يأمركم بما فيه الخير لكم، هذا أدب الدخول في بيوته ﷺ.

أما الأدب في خطاب زوجاته، فإذا أردتم أن تسألوهن شيئاً كالأواني ونحوها، فليكن بينكم وبينهن ساتر يستر النظر عنهن، والحكمة في هذا الحجاب، أنه أبعد عن الريبة وعن أسباب الشر، وأقرب إلى طهارة القلب.

(١) المسند (٢٥٦٥٢) قال محققوه: حديث ضعيف، وهو في مصنف عبد الرزاق (١٤٠٠١) وتفسير الطبري (٣٢/٢٢) والطحاوي في شرح مشكل الآثار (٥٢٣).

(٢) ابن سعد (١٩٤/٨) وابن أبي حاتم.

(٣) كما في «صحيح سنن الترمذي» (٢٥٦٨) وعبد الرزاق في «المصنف» (٤٠٠١) و«المسند» (١٦٥/٤٠) (٢٤١٣٧) وإسناده متكلم فيه كما سبق بيانه.

(٤) وقف قالون بالهمز في (النبي) ووصلها بياء مشددة، وقرأ ورش بالهمز في الوصل والوقف، وله في الهمزة الثانية التسهيل والإبدال بياء ساكنة عند الوصل.

(٥) قرأ ابن كثير والكسائي وخلف بدون همز في (فاسألوهن)، والباقون بالهمز، ووقف عليها حمزة بالنقل.

وختمت الآية بقاعدة عامة تقرر أنه يحرم عليكم أن تؤذوا رسول الله بقول أو فعل، ومن جملة إيدائه ﷺ أن تتزوج زوجاته من بعده، فهن زوجاته في الدنيا والآخرة، لا يحل نكاهن بعده لأحد من أمتة^(١).

وقد تضمنت هذه الآية أمران :

أحدهما : الأدب في أمر تناول الطعام والجلوس بعده . وثانيهما : في أمر الحجاب .

أولاً : آداب الضيافة : لما ذكر الله تعالى أحوال النبي ﷺ مع أزواجه وآدابه معهن، أتبع ذلك ببيان آداب الأمة معهن عند إرادة الدخول عليهن وعند خطابهن في حياتهن، وتحريم الزواج بهن إلى قيام الساعة .

سبب نزول آية الحجاب : قال أكثر المفسرين : نزلت هذه الآية في شأن وليمة زينب بنت جحش ﷺ حين دخل بها النبي ﷺ، وكان ذلك في شهر ذي القعدة من السنة الخامسة للهجرة : ١- ففي الصحيحين وغيرهما : عن أنس بن مالك ﷺ أنه كان ابن عشر سنين مَقْدَم النبي ﷺ المدينة، وكانت أم هانئ تواظب على خدمة النبي ﷺ فخدمته عشر سنين، قال : وتُوَفِّي رسول الله ﷺ وأنا ابن عشرين سنة، وكنت أعلم الناس بشأن الحجاب حين أنزل .

وكان أول ما نزل في دخول رسول الله ﷺ على زينب بنت جحش، حين أصبح بها عروساً، فدعا القوم، فأصابوا من الطعام، ثم خرجوا، وبقي رهط عند النبي ﷺ فأطالوا المكث، فقام النبي ﷺ فخرج، قال أنس : وخرجتُ معه لكي يخرجوا، فمشي النبي ﷺ ومشيتُ معه حتى جاء عَتَبَةُ حُجْرَةَ عائشة، ثم ظن أنهم قد خرجوا، فرجع ورجعتُ معه، حتى إذا دخل على زينب، فإذا هم جلوس لم يقوموا، فرجع النبي ﷺ ورجعتُ حتى إذا بلغ عَتَبَةُ حُجْرَةَ عائشة وظن أنهم قد خرجوا، فرجع ورجعتُ معه، فإذا هم قد خرجوا، فضرب النبي ﷺ بيني وبينه بالسَّتر، وأنزل الحجاب .

زاد في رواية قال : فدخل النبي ﷺ البيت، وأرخى السَّتر، وإنني لفي الحجرة وهو يقول : ﴿بَنَاتُ الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَدْخُلْنَ بُيُوتَ النَّبِيِّ﴾ إلى قوله : ﴿وَاللَّهُ لَا يَسْتَحْيِي مِنَ الْحَقِّ﴾^(٢).

٢- وفي لفظ آخر : قال أنس بن مالك : لما تزوج رسول الله ﷺ زينب بنت جحش،

(١) ينظر : تفسير ابن سعدي للآية .

(٢) يُنْظَرُ : البخاري برقم (٦٢٧)، ٤٧٩١، ٤٧٩٢، (٦٢٣٩) ومسلم برقم (١٤٢٨) والنسائي في «السنن الكبرى» برقم (١١٤٢٠).

دعا القوم فَطَعِمُوا، ثم جلسوا يتحدثون، وإذا هو كأنه يتهيأ للقيام، فلم يقوموا، فلما رأى ذلك قام مَنْ قام، وقعد ثلاثة نفر، فجاء النبي ﷺ ليدخل، فإذا القوم جلوس، ثم إنهم قاموا، فانطلقَتْ فجئْتُ، فأخبرت النبي ﷺ أنهم قد انطلقوا، فجاء حتى دخل، فذهبتُ أدخلُ، فألقي الحجاب بيني وبينه، فأنزل الله الآية^(١).

٣- وفي رواية ثالثة لأنس بن مالك أيضًا: أَنَّ أُمَّ سُلَيْمٍ ٱصْنَعْتُ لِلنَّبِيِّ ﷺ لَيْلَةَ عُرْسِهِ بَزِينَبَ، طَعَامًا، وَقَالَتْ لَهُ: اذْهَبْ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَأَقْرَأْهُ السَّلَامَ، وَأَخْبِرْهُ أَنَّ هَذَا مِنَّا قَلِيلٌ.

قال أنس: والناس - يومئذ - في جَهْدٍ، أَي: جوع وتعب، فأمره النبي ﷺ أَنْ يَضَعَهُ فِي جَانِبِ مَنْ الْبَيْتِ وَيَدْعُو النَّاسَ، فَدَعَا ثَلَاثَ مِئَةِ رَجُلٍ، وَالطَّعَامُ فِي إِنَاءٍ صَغِيرٍ، فَقَالَ ﷺ: «جِئْ بِهِ»، قَالَ: فَجِئْتُ بِهِ، فَوَضَعَ يَدَهُ عَلَيْهِ وَدَعَا، وَقَالَ: «مَا شَاءَ اللَّهُ»، ثُمَّ أَمَرَهُمْ يَتَحَلَّقُونَ عَشْرَةَ عَشْرَةَ، وَأَمَرَهُمْ أَنْ يُسَمُّوا اللَّهَ وَيَأْكُلُوا، فَأَكَلُوا، ثُمَّ قَالَ لِي: «ارْفَعْهُ»، قَالَ: فَرَفَعْتُهُ، فَلَا أَدْرِي أَكَانَ حِينَ وَضَعْتُهُ أَكْثَرَ أَمْ حِينَ رَفَعْتُهُ؟

قال: وَتَخَلَّفَ أَنَسٌ فِي بَيْتِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَأَخَذُوا يَتَحَدَّثُونَ، وَزَوْجُ رَسُولِ اللَّهِ الْتَمَى دَخَلَ بِهَا مُوَلِّيَةٌ وَجْهَهَا إِلَى الْحَائِطِ، فَأَطَالُوا الْحَدِيثَ، فَاشْتَدَّ ذَلِكَ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ - وَكَانَ أَكْثَرُ النَّاسِ حَيَاءً - فَخَرَجَ وَسَلَّمْ عَلَى نِسَائِهِ، فَلَمَّا رَأَوْهُ جَاءَ، ابْتَدَرُوا الْبَابَ فَخَرَجُوا، وَجَاءَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فَأَرَخَى السِّتْرَ، وَأَنَا فِي الْحُجْرَةِ، فَمَكَثَ قَلِيلًا، وَأَنْزَلَ اللَّهُ الْقُرْآنَ، فَخَرَجَ يَقْرَأُ عَلَى النَّاسِ هَذِهِ الْآيَةَ.

قال أنس: فَقَرَأَهُنَّ عَلَيَّ قَبْلَ النَّاسِ، فَأَنَا أَحَدُتُ بِهِنَّ عَهْدًا^(٢).

٤- وقال ابن عباس ٱ: نَزَلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ فِي أَنَسٍ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ، كَانُوا يَتَحِينُونَ طَعَامَ النَّبِيِّ ﷺ فَيَدْخُلُونَ عَلَيْهِ قَبْلَ الطَّعَامِ إِلَى أَنْ يَدْرِكَ، ثُمَّ يَأْكُلُونَ وَلَا يَخْرُجُونَ^(٣).

هذه بعض الأحاديث التي تحمل سبب نزول آية الحجاب التي ابتدأت بالنهاي عن دخول

(١) «صحيح البخاري» (٤٧٩١، ٥١٥٤) وغيرهما و«صحيح مسلم» (٨٩، ١٤٢٨).

(٢) يُنْظَرُ: «صحيح مسلم» برقم (١٤٢٨) والترمذي برقم (٣٢١٨) والنسائي: (١٣٦/٦) والبخاري (٤٧٩١)،

٥١٦٣، (٧٤٢١) والحاكم (٤١٧/٢).

(٣) «تفسير ابن عطية» (٣٩٥/٤).

بيت النبي ﷺ لطعام ونحوه إلا بإذن، حيث كان للنبي ﷺ في المسجد مجلس يجلس فيه، فمن كانت له مهمة عنده فليأته هناك.

﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ أي صدَّقوا وأيقنوا بالله ورسوله وأطاعوه ﴿لَا تَدْخُلُوا بُيُوتَ النَّبِيِّ﴾ أي: بغير إذن للدخول فيها لتناول طعام ونحوه، وإضافة البيوت للنبي ﷺ؛ لأنها كانت ملكاً له في ساحة المسجد، وبعد موته ﷺ سكن فيها نساؤه حتى تُوفيت آخرهن، رضي الله عنهن، ثم آلت هذه البيوت للمسلمين؛ لأن الأنبياء لا يُورثون.

تاريخ دخول بيوت النبي ﷺ في المسجد:

وحين توسعة المسجد النبوي في عهد الوليد بن عبد الملك، وفي عهد عمر بن عبد العزيز - رحمه الله - أدخلت هذه البيوت في المسجد على النحو الذي يراه المسلمون اليوم، فدخل قبري محمد ﷺ وأبي بكر ﷺ في المسجد، أُمِرُ حَدَّثَ في هذا الوقت المتأخر، وكلاهما محاط بعازل عن المسجد من الأرض إلى السقف، ولو تغير الوضع عن هذا، لآثار حفيظة جماهير المسلمين، فلا يُحْتَجُّ بذلك على جواز بناء المساجد على القبور.

ونعود لمعنى الآية: فلا تدخلوا - أيها المسلمون - بيوت النبي ﷺ لأي غرض من الأغراض، سواء أكان ذلك لوليمة أم نحوها ﴿إِلَّا أَنْ يُؤْذَنَ لَكُمْ﴾ في الدخول ﴿إِلَى طَعَامٍ غَيْرَ نَظْرِينَ إِنَّهُ﴾ أي لتناولوا طعاماً غير منتظرين نُضْجِهِ، وليس المراد خصوص الطعام، ولكنه مثال ضرب لموافقته سبب النزول.

ويلحق بدعوة الوليمة كل دعوة أخرى مشروعة.

وليس في الآية تقييد للاستئذان بقصد الطعام، فإن هذا أمر مشروع بقصد الطعام وبغير قصد الطعام، في جميع البيوت، ومنها بيوت النبي ﷺ.

وقد كان هناك قوم يتحينون طعام النبي ﷺ، فيدخلون بيته ويقعدون منتظرين نضج الطعام.

وهذه الآية تشملهم، وتشمل أمثالهم، ممن يدخلون بيوت الناس بغير إذن، ويجلسون منتظرين تمام صنع الطعام، فليكن الحضور بدعوة، وليكن في الوقت المناسب دون إرباك أهل البيت وإحراجهم كما يشير إليه قوله تعالى ﴿وَلَكِنْ إِذَا دُعِيتُمْ﴾ لتناول طعام ونحوه ﴿فَادْخُلُوا﴾ فإذا أكلتم أو قضيتم حاجتكم فانصرفوا وتفرقوا ﴿فَإِذَا طَعِمْتُمْ فَانْتَشِرُوا﴾ ولا

تمكثوا في البيت متناولين لأطراف الحديث بينكم، وهذا إشعار بأن الجلوس بعد الطعام غير مرغوب فيه؛ وهذا معنى: ﴿وَلَا مُسْتَنْسِينَ لِحَدِيثٍ﴾ لأن هذا الانتظار أو هذا الاستئناس يؤذي أهل البيت، ويشل حركتهم، ويضيّق على من فيه.

ثم بين سبحانه حكمة هذا النهي وفائدته فقال:

﴿إِنَّ ذَٰلِكُمْ﴾ الجلوس الزائد عن الحاجة ﴿كَانَ يُؤْذِي النَّبِيَّ﴾ فيشق عليه حبسكم إياه عن شؤون بيته ﴿فَيَسْتَعْجِلْ مِنْكُمْ﴾ أن يدعوكم لإخراجكم من المكان، مع أن ذلك حق لصاحب البيت ﴿وَاللَّهُ لَا يَسْتَعْجِلُ مِنَ الْحَقِّ﴾ أي: لا يترك تأديبكم ببيان الحق لكم حياة منكم، قالت عائشة رضي الله عنها: حسبك من الثقل أن الله تعالى لم يحتملهم. وهذا حكم عام، تمّ تطبيقه عند نزول الآية على بيوت سيد الخلق صلى الله عليه وآله وسلم.

وقد حثّ الإسلام على إجابة الدعوة، ولو كانت على أدنى طعام:

عن ابن عمر رضي الله عنهما أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال: «إذا دعا أحدكم أخاه فليجب، عرساً كان أو غيره»^(١).

كما رغب الإسلام في الانصراف عقب الطعام:

عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال: «لو دُعيتُ إلى ذراع لأجبت، ولو أهدني إليّ كراع لقبلت»^(٢).

قال ابن كثير زاد في رواية: «إذا فرغتم من الذي دُعيتُم إليه فخففوا عن أهل المنزل، وانتشروا في الأرض»^(٣).

والبقاء في بيت النبي صلى الله عليه وآله وسلم بعد تناول الطعام، فيه سوء أدب معه، فإذا كان صلى الله عليه وآله وسلم يستحي منكم، فقد ذبّ الله عنه، وبين أن من واجبات الدين، ألا يستحي أحد من إقامة الحق. وهذا المعنى فهمته أم سليم رضي الله عنها من الآية، وأقرّها النبي صلى الله عليه وآله وسلم على فهمها، فقد جاءت أم

(١) «صحيح مسلم» برقم (١٤٢٩) و«صحيح البخاري» برقم (٥١٧٣).

(٢) «صحيح البخاري» برقم (٢٥٦٨) وانظر: (٥١٧٨) و«المسند» (١٠٢١٢) بإسناد صحيح على شرط الشيخين، وأخرجه البغوي في شرح السنة (٢٨٤٣).

(٣) تفسير ابن كثير للآية (٤٥٤/٦) وليست هذه الجملة ضمن الحديث قبلها، كما توهم بعضهم.

سُليم إلى النبي ﷺ فقالت: يا رسول الله، إن الله لا يستحيي من الحق، فهل على المرأة من غسل إذا احتلمت؟ فقال ﷺ: «نعم، إذا رأت الماء»، فقالت أم سلمة: آله! أو تحتلم المرأة؟ فقال: «تربّت يدك، فبم يشبهها ولدها؟»^(١).

فأم سليم لم تستح من السؤال عن الحق المتعلق بها، والنبي ﷺ لم يستح من إجابتها. وقد جمع علي بن أبي طالب ؓ بين طلب الحق وبين الاستحياء منه، حين أرسل المقداد ؓ، يسأل النبي ﷺ عن الرجل إذا اقترب من أهله فخرج منه المذي، ماذا عليه؟ قال علي: فإن عندي ابنة رسول الله ﷺ وأنا أستحيي أن أسأله.

وقد كان الرجل فيما مضى لا يبنّي بيتاً إلا إذا تزوج.

وفي حديث ابن عمر ؓ قال: كنت عزباً أبييت في المسجد.

ومن أجل ذلك سموا الزواج بناء.

وكانت الستور مرخاة على أبواب بيوت النبي ﷺ المفتوحة في المسجد، فكشف الستر ثم أرخاه؛ لأن البيوت لم تكن لها أبواب محكمة آنذاك.

ثانياً: وجوب الحجاب على النساء:

وبعد آداب الاستئذان والضيافة يأتي الأمر بالحجاب الذي هو موضوع الآية، قال تعالى ﴿وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَاعًا فَسَأَلُوهُنَّ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ﴾ أي: إذا سألتن نساء رسول الله ﷺ خاصة، أو سألتن نساء المؤمنين حاجة، كالسؤال عن صاحب البيت، أو قضاء معونة من الأواني ونحوها، أو كلمتموهن لأي سبب من الأسباب، فاسألوهن من وراء ساتر أو حاجز، كالجدار، أو الباب، أو ستر الوجه، فصار النظر إليهن ممنوعاً بكل حال.

أحاديث أخرى في سبب نزول آية الحجاب:

١- عن أنس بن مالك ؓ أن عمر بن الخطاب ؓ قال: يا رسول الله، يدخل عليك البر والفاجر، فلو أمرت أمهات المؤمنين بالحجاب؟ فأنزل الله آية الحجاب^(٢).

(١) من حديث أم سلمة في «صحيح مسلم» برقم (٣١٣) و«صحيح البخاري» برقم (١٣٠، ٢٨٢، ٣٣٢٨).

(٢) «صحيح مسلم» (٢٣٩٩) و«صحيح البخاري» (٤٧٩٠، ٤٠٢).

٢- وعن عائشة رضي الله عنها قالت: خرجت سودة لحاجتها، بعدما ضرب الحجاب، وكانت امرأة جسيمة، لا تخفى على من يعرفها، فرآها عمر رضي الله عنه فقال: يا سودة، أما والله ما تخفين علينا، فانظري كيف تخرجين؟ قالت: فانكفأت راجعة، ورسول الله في بيتي وإنه ليتعشى، وفي يده عِرْق، فدخلت فقالت: يا رسول الله، إني خرجت لبعض حاجتي، فقال لي عمر: كذا وكذا، قالت: فأوحى الله إليه، ثم رُفِع عنه، وإن العِرْق في يده ما وضعه، فقال: «إِنَّ اللَّهَ أَدْنَى لَكُنَّ أَنْ تَخْرُجْنَ لِحَاجَتِكُنَّ»^(١).

وفي رواية: أن زينب بنت جحش قالت: عجباً لك يا بن الخطاب تغار علينا والوحي ينزل في بيوتنا، فما زال عمر حتى نزلت آية الحجاب^(٢).

٣- وقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: وافقت ربي في ثلاث:

فقلت: يا رسول الله، لو اتخذت من مقام إبراهيم مصلًى؟ فأنزل الله: ﴿وَأَنذُوا مِنْ مَّقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى﴾ [البقرة: ١٢٥].

وقلت: يا رسول الله، إن نساءك يدخل عليهن البر والفاجر، فلو حجبتن؟ فأنزل الله آية الحجاب.

وقلت لأزواج النبي صلى الله عليه وسلم لَمَّا تَمَالَأْنَ عَلَيْهِ فِي الْغِيَرَةِ: ﴿عَسَىٰ رَبُّهُ إِنْ طَلَّقَنَّ أَنْ يُبَدِّلَهُ أَزْوَاجًا خَيْرًا مِّنْكُمْ﴾ [التحريم: ٥]. فتزلت كذلك^(٣).

قال تعالى يمدح الحجاب ويبين الحكمة فيه: ﴿ذَٰلِكُمْ أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ وَقُلُوبِهِنَّ﴾ أي: إن عدم مخالطة النساء للرجال وجهًا لوجه، أزكى وأتقى لقلوبكم وقلوبهن من الخواطر التي تَعْرِض للرجال في شأن النساء، وللنساء في شأن الرجال، وأنفى للريبة، وأبعد عن التهمة، فالروية والمحادثة سبب الفتنة، وبريد الزنى وسلاح الشيطان، وكلما بُعد الإنسان عن دواعي الشر، كان ذلك أسلم له وأطهر لقلبه، وليس كما يقول أرباب الشهوات، من أن الممنوع مرغوب، وأن عدم مخالطة النساء بدون حجاب، يؤدي إلى كبت، ويسبب

(١) «المسند» (٥٦/٦) والبخاري برقم (١٤٦، ٤٧٩٥) ومسلم برقم (٢١٧٠).

(٢) أخرجه ابن جرير عن ابن مسعود (١٦٥/١٩) وعن ابن مسعود أيضاً عند ابن مردويه كما في «الدر» (١٢/١٧٠).

(٣) «صحيح البخاري» برقم (٤٠٢) يُنظر: (٤٤٨٥، ٤٧٩٠) و«صحيح مسلم» (٢٣٩٩) مختصراً.

عُقْدًا في النفس، ويولّد انفجارًا عند أول لقاء!! فهل ما يحدث في بلاد الغرب من الخلوة بالنساء والمخالطة التامة، أدّى إلى طهارة القلوب والبعد عن الفاحشة؟ أم أن الخطر قد تفاقم، والمواليد غير الشرعيين أكثر من غيرهم، والعلاج أصبح عسيرًا؟!

والآية وإن كانت قد نزلت في أزواج النبي ﷺ تعظيمًا لرسول الله، وتكريمًا لشأنه، ولكن الحكم يعمّ جميع المسلمين، فهي أوامر إلهية يستوي فيها جميع الخلق، فإذا كان نساء رسول الله ﷺ - وهنّ أهل بيت النبوة، وأهل الطهر والعفاف -، لا يجوز الخلوة بهن ولا النظر إليهن، مع نفي الريّة عنهن؛ لأنهن أمهات المؤمنين، فلا شك أن غيرهن - من باب أولى - لا يجوز الخلوة بهنّ، ولا سؤالهن، أو التحدث إليهنّ إلا من وراء حجاب؛ لأن الفتنة بالنساء متحققة.

في حديث عقبة بن عامر رضي الله عنه: أن رسول الله ﷺ قال: «ياكم والدخول على النساء»، قال رجل من الأنصار: يا رسول الله، أفرأيت الحمور؟ قال: «الحمور الموت»^(١).

ومما يشهد لهذا قوله تعالى: ﴿بَيِّنَاتٍ لِّلَّذِينَ قُلُوا لِرَبِّكَ وَبَيِّنَاتٍ لِّلْمُؤْمِنِينَ يُذَكِّرُ عَلَيْكَ مِنْ جَلِيلِهِمْ﴾ [٥٩].

ويشهد له أيضًا: (قرينة طهارة القلوب) في قوله تعالى: ﴿ذَلِكَ لَكُمْ أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ وَقُلُوبِهِمْ﴾.

فهل الحجاب أطهر لقلوب الصحابة، وليس أطهر لقلوب بقية المسلمين؟ وأيهما أولى بهذا؟ فهذه العلة دالة على عموم حكم الحجاب.

١- هذا: ومن المعلوم أن المرأة لو كانت شابة جميلة مثيرة للفتنة - فإنه يجب عليها ستر الوجه باتفاق، ولو كان هذا الجمال مصطنعًا بالمساحيق ونحوها.

٢- ومعلوم أيضًا أن المرأة بعد بلوغ سن اليأس لا حرج عليها في عدم ستر وجهها وكفيها.

٣- ومعلوم كذلك أن إحرام المرأة في وجهها وكفيها في الحج والصلاة، وأنه يجوز لها أن تغطيها وهي محرمة، دون نقاب، ودون إلصاق بالوجه، عند وجود الرجال الأجانب.

(١) «صحيح البخاري» (٥٢٣٢) و«صحيح مسلم» (٢١٧٢).

٤- وشعر المرأة ونحرها وساقها وذراعاها عورة بالإجماع يجب سترها جميعاً.

٥- أما الوجه والكفان في الأحوال العادية فهما موضع خلاف بين الأئمة، مع الإجماع على أن سترهما أكمل وأفضل.

٦- والمجتمعات لها حكمها وتقاليدها، فالمرأة التي تكشف وجهها في مجتمع لا يفعل ذلك، تكون جرثومة في هذا المجتمع؛ لأنها تكون شاذة عنه فتجذب الأنظار إليها.

وغطاء الوجه من باب العادة والتقليد لا أجر عليه، فيجب أن يكون ذلك عبادة لله ﷻ وامثال أمره.

والسائق والخادم والبواب والعامل ونحوهم -أجانب عن المرأة، حكمهم حكم غيرهم، فلا يصح التهاون بشأنهم.

وقد أمر الله تعالى القواعد من النساء أن يستعففن خيراً لهن، فكيف بغير العجائز؟ فالأمر في الآية لرجال الأمة ونسائها.

ثم خاطب الله المؤمنين خطاباً عاماً في كلمة جامعة بقوله: ﴿وَمَا كَانَ لَكُمْ أَنْ تُؤْذُوا رَسُولَ اللَّهِ﴾ أي: وما ينبغي لكم -أيها المؤمنون- أن تؤذوا رسول الله في أي أمر من الأمور، وبأي لون من ألوان الأذى، سواء أكان ذلك بدخول بيوته بغير إذنه، أم بحضوركم إليها انتظاراً لنضج الطعام ونحوه، أم بجلوسكم بعد الأكل دون مقتضى، أم لمجرد المؤانسة والمحادثة، أم بغير ذلك مما يتأذى به الناس، فإن هذا أمر مستقبح وغير لائق، ومما يؤذى النبي ﷺ نكاح أزواجه من بعده، فإن هذا غير لائق بمقام النبوة، ولذا قال تعالى: ﴿وَلَا أَنْ تَنْكِحُوا أَزْوَاجَهُمْ مِنْ بَعْدِهِ أَبْدَآ﴾ أي: ولا يحل لكم بحال من الأحوال أن تنكحوا أزواج رسول الله ﷺ بعد وفاته؛ لأنهن أمهاتكم، ولا يحل للرجل أن يتزوج أمه، وقد تضمنت هذه الفقرة من الآية حكيمين:

الحكم الأول: تحريم إيذاء رسول الله ﷺ بقول أو فعل، لأن ذلك من شأنه أن يغضبه ويسيء إليه. قال تعالى ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُؤْذُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَأَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا مُهِينًا﴾ الآية: [٥٧].

الحكم الثاني: ما سبق ذكره وهو تحريم أزواج رسول الله ﷺ على الناس بعده؛ لأنهن أمهاتهم بمقتضى قوله تعالى: ﴿وَأَزْوَاجُهُ أُمَّهَاتُهُمْ﴾ [٥].

وهو حكم دائم في حياة الرسول ﷺ وبعد مماته، وهُن زوجاته في الدنيا والآخرة. وربما تمنى بعض الناس في حياة النبي ﷺ أن يتزوج بعض زوجاته بعد وفاته، فجاءت هذه الجملة من الآية قاطعة لهذه الآمال.

والظاهر أن هذا التحريم لا يشمل النساء اللاتي عقد عليهن رسول الله ﷺ ولم يدخل بهن: مثل (المرأة الكندية) التي استعادت منه ﷺ، فقال لها: الحقي بأهلك، فتزوجها الأشعث بن قيس في زمن عمر بن الخطاب .

ومثل: (قُتَيْلَة بنت قيس الكلبيّة) التي زوّجها الأشعث بن قيس إلى رسول الله ﷺ، ثم حملها معه إلى حضرموت، فتوفّي رسول الله ﷺ قبل رجوعها ولم يدخل بها، فتزوّجها عكرمة بن أبي جهل، وهمّ أبو بكر بعقابه، فقال له عمر: إن رسول الله لم يدخل بها، وهي روايات ضعيفة.

والصحيح أن النبي ﷺ رجع عن زواج الأولى، وقال: لقد استعذت بمعاذ، وأن الثانية لم يعقد عليها^(١).

ثم بيّن سبحانه أن أذاكم لرسول الله ﷺ ونكاح أزواجه من بعده، ذنب عظيم عند الله تعالى ﴿إِنَّ ذَلِكَ كُنْهٌ عِنْدَ اللَّهِ عَظِيمًا﴾ وهذا إعلام من الله تعالى بتعظيم رسوله ﷺ وإيجاب حرمة حيّا أو ميتًا.

وقد طيّب الله نفس رسوله ﷺ، وأسرّ قلبه، فامتثلت الأمة هذا الأمر، واجتنب ما نهى الله عنه، والله الحمد والشكر.

مصافحة النساء الأجنبية: ومما يتعلق بهذا عدم جواز مصافحة الرجل الأجنبي للمرأة الأجنبية، بدليل أن النبي ﷺ لم يصافح النساء وقت البيعة يوم فتح مكة، وقال: «إني لا أصافح النساء»^(٢) جوابًا لمن قالت له: امدد يدك لأبايعك يا رسول الله.

(١) يُنظَر: «تفسير الطبري» (٢٩/٢٢) والأحاديث السابقة عند الآية الثامنة والعشرين.

(٢) ينظر تخريجه فيما يأتي.

وكانت مبايعته ﷺ للنساء كلامًا، وتقول عائشة ؓ: ما مست يده يد امرأة قط وفي حديث عائشة أيضًا: والله ما مست يد رسول الله ﷺ يد امرأة قط^(١). غير أنه بايعهن كلامًا^(٢).

والمرأة أعرف الناس بزوجها، فقد يصدقه الناس كلهم في أمر، وهي التي تكذبه، فهي أعرف الناس بدواخله، سيما فيما يتعلق بأمور النساء، ولم يحدث مثل هذا من زوجات النبي ﷺ.

ولا يجوز للرجل أن يمس شيئًا من بدنه بدن امرأة قط، فقد جاء في الحديث: «لأن يمس أحدكم جمرة من نار، فتخلص إلى بدنه، خير له من أن يمس امرأة لا تحل له»^(٣).

وفي الحديث: عن أميمة بنت رقيقة في بيعه النساء: «إني لا أصافح النساء، إنما قلوي لامرأة واحدة كقلوي لمئة امرأة»^(٤). وفي لفظ: «إنما قلوي لمئة امرأة كقلوي لامرأة واحدة».

وهذا يدل على أن حكم الحجاب عام؛ لأن الإسلام حين يخاطب رجلًا أو امرأة، فإن الحكم يتناول الجميع، فالعبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب.

هذا فضلًا عن النظر إلى أخت زوجته، أو زوجة أخيه، أو يسافر معها، أو تجلس أمامه بزيتها، وملابس بيتها التي تكشف عن رأسها وأطرافها!!

وقد تحجج معه أو تعتمر، وهذا من الجهل الفاضح بمبادئ الإسلام. قال تعالى:

٥٤ - ﴿إِنْ تُبْدُوا شَيْئًا أَوْ تُخْفُوهُ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا ۝٥٤﴾

ثم حذر الله ﷻ من مخالفة أمره تعالى، وبين أنه سبحانه لا يخفى عليه شيء من أحوال

(١) البخاري برقم (٢٧١٣).

(٢) البخاري (٥٢٨٨) ومسلم (١٨٦٦).

(٣) أخرجه الطبراني بسند صحيح كما في «صحيح الترغيب والترهيب».

(٤) الأول لفظ النسائي، والثاني لفظ الترمذي، وأخرجه الدارقطني وهو على شرط الشيخين. يُنظر:

«المسند» (٣٥٧/٦) برقم (٢٧٠٠٧، ٢٧٠٠٨، ٢٧٠٠٩) إسناده صحيح ورجاله ثقات، (محققوه)

والنسائي في «الكبرى» (٨٧١٣) ومالك في «الموطأ» (٩٨٢/٢) والدارقطني (١٤٧/٤) و«سنن الترمذي»

برقم (١٥٩٧) و«سنن النسائي» (١٤٩/٧) وابن حبان (٤٥٥٣) و«سنن ابن ماجه» برقم (٢٨٧٤) والطبراني

في «الكبير» (٤٧٢) والطيالسي (١٦٢١) ولفظا الحديث جاء في «المسند». وأميمة بنت رقيقة روى لها

أصحاب «السنن» هذا الحديث الواحد.

خَلَقَهُ، فَقَالَ سُبْحَانَهُ: ﴿إِنْ تُبْدُوا شَيْئًا﴾ أَي: تظهروه على ألسنتكم مما نهاكم الله عنه ﴿أَوْ تَخْفَوْهُ﴾ أَي: تضمروه في قلوبكم مما يؤذي رسول الله ﷺ أو يضر بالمؤمنين ﴿فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا﴾ لا يخفى عليه شيء مما ظهر أو بطن، وسيحاسبكم الله عليه.

مَحَارِمُ الْمَرْأَةِ

۵۵- ﴿لَا جُنَاحَ عَلَيْهِنَّ فِي آبَائِهِنَّ وَلَا أَبْنَائِهِنَّ وَلَا إِخْوَانِهِنَّ وَلَا أَبْنَاءَ أَخَوَاتِهِنَّ وَلَا نِسَائِهِنَّ وَلَا مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُنَّ وَآتَيْنَهُنَّ مِنْ اللَّهِ إِنْ شَاءَ اللَّهُ كَاتِبًا عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدًا﴾ ﴿۵۵﴾

ولما أنزل الله تعالى آية الحجاب، قال الآباء والأبناء والأقارب: ونحن أيضًا يا رسول الله، نكلّمهن من وراء حجاب؟ فأنزل الله تعالى يخصص هذا العموم، ويستثني المحارم، فبيّن سبحانه أنه لا إثم على النساء في ترك الحجاب عند محارمهن، فيجوز للمرأة أن تخاطبهم بدون حجاب، وأن تُظهر أطرافها أمامهم بدون ساتر، وقد ذكرت الآية ستة أصناف من المحارم، وهم:

الأب وإن علا، والابن وإن سفل، والأخ الشقيق أو لأب أو لأم، وابن الأخ كذلك، وابن الأخت أيضًا، والمرأة الأخرى، وملك اليمين.

فَقَالَ تَعَالَى: ﴿لَا جُنَاحَ عَلَيْنَ﴾ في عدم الاحتجاب عليهم ﴿فِي آبَائِهِمْ وَلَا أَبْنَائِهِمْ وَلَا إِخْوَانِهِمْ وَلَا أَبْنَاءَ إِخْوَانِهِمْ﴾.

ولم يُذكر العم والخال صراحة؛ لأن ذُكر أبناء الإخوان يدخل تحته العم، وذُكر أبناء الأخوات يدخل تحته الخال، فكان رفع الحرج عنهما، رفعًا عن الأعمام والأخوال، ولأن العم صنو الأب، والخال والد، فهما يجريان مجرى الوالدين، وهما معلومان من مفهوم الآية هنا بالضرورة، ومن منطوق الآية، المصراحة بذكر العم والخال، وهي مقدمة على ما يفهم من هذه الآية وذكر أبناء الإخوة والأخوات في هذه الآية يوجب عدم الاحتجاب على العم والخال من باب أولى.

وجاء في بعض الآثار: أن العم والخال لم يُذكرا؛ لأنه قد يكون لهما مصلحة في ذلك، فيصفان المرأة لابنَيْهما، وكما رُفِعَ الجناح عن النساء رُفِعَ عن الرجال أيضًا، فلا جناح عليكم ولا عليهن.

وبعد ذكر المحارم الأربعة السابقة، وهم الأب والابن والأخ وأبناء الأخ والأخت، قال سبحانه: ﴿وَلَا يَسَاءِلُهُنَّ﴾ أي: النساء المؤمنات، وقال بعضهم: جميع النساء، ووصف المرأة من المرأة، لزوجها، منهى عنه، ويحرم وصفها للمسلم أو الكافر على حد سواء ما دام أجنبيًا عنها.

وغير المسلمات لا يؤتمن لعدم وجود الوازع الديني، ومعرفة الحلال والحرام. أما ملك اليمين فالمراد به: الأمة الأثني والعبد المملوك، لقوله تعالى: ﴿وَلَا مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُنَّ﴾ وبعضهم خصّ ملك اليمين بالمرأة دون الرجل.

فهذه ستة أصناف من المحارم، جاءت هنا على وجه الاختصار؛ لأن المقصود في هذه الآية: هو التنبيه على تحقيق الحجاب ليفضي ذلك إلى تقوى الله تعالى، فقال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا أَن يَرَائِكَ أَحَدٌ غَيْرُ هَؤُلَاءِ، وَأَن تَتَعَدَّيْنَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ، وَأَن تُبْدِينَ زِينَتَكَ لغير محارمكُنَّ، أو تتركن الحجاب أمام من يجب عليكن الاحتجاب عنه﴾ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدًا يشهد أعمال العباد ظاهرها وباطنها، ويجازيهم عليها بما يستحقون من ثواب أو عقاب.

وقد ذكرت هذه المحارم بأوسع من ذلك في سورتي: [النساء: ٢٢-٢٤]، و[النور: ٣١].

وبيّنت السنة أنه يحرم من الرضاع ما يحرم من النسب.

الصَّلَاةُ عَلَى سَيِّدِ الْخَلْقِ ﷺ

٥٦- ﴿إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾ وبعد أن بيّن سبحانه أحكام معاملة أزواج النبي ﷺ أعقب ذلك بالثناء عليه، وتشريف مقامه بالصلاة والسلام عليه من خالق الكون سبحانه، ومن أشرف الخلق بعد الرسل وهم الملائكة الكرام، ومن عباد الله المؤمنين.

١- والصلاة من الله تعالى، تعني: رحمته ورضوانه ورفع قدره.

٢- والصلاة من الملائكة، تعني: الدعاء والاستغفار.

٣- والصلاة من المؤمنين: تضرع ودعاء، وتعظيم وتوقير.

أي: إن الله - جلَّ شأنه - يرحم نبيه، ويعظم شأنه، ويرفع مقامه، ويثني عليه عند الملائكة المقربين.

وكذا ملائكة الأبرار، تُثني على النبي ﷺ، وتدعوه أن يظفر بأعلى الدرجات وأسمائها.

فيا مَنْ آمَنتُمْ بالله ربًّا، وبالإسلام دينًا، وبمحمد ﷺ نبيًّا ورسولًا، أكثرُوا من الصلاة والتسليم عليه محبةً وتعظيمًا له، فحقُّه عليكم عظيم، وهو الذي أنقذكم من الظلمات إلى النور، ومن الضلالة إلى الهدى، ففي هذه الصلاة على رسوله، مكافأة لبعض حقوقه عليكم، ولَمَّا كان الخلق عاجزين عن مكافأته ﷺ طلبوا من القادر سبحانه أن يكافئه على ذلك.

وفي هذه الصلاة على النبي ﷺ تشريف لكم، ورفع لدرجاتكم، وحصول الأجر والمثوبة لكم.

وفي هذا دلالة على أنه ﷺ أفضل الأولين والآخرين، وأن الله تعالى يثني عليه في الملأ الأعلى، وأن العالم العلوي والعالم السفلي يصليان ويسلمان عليه.

فالله تعالى يُثني على نبيه عند الملائكة المقربين لمحَبته له، وملائكته يُثنون عليه ويدعون له ويتفرعون ﴿إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ﴾.

ثم أمر الله عباده المؤمنين به، والمؤمنين برسوله ﷺ، العاملين بشرعه، أن يصلوا ويسلموا عليه تحية وتعظيمًا ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾، اقتداءً بالله وملائكته، وجزاءً له على بعض حقوقه عليكم، وتكميلًا لإيمانكم، وتعظيمًا له، ومحبة وإكرامًا، وزيادة في حسناتكم، وتكفيرًا لسيئاتكم.

والسلام هو التحية، بمعنى: الأمان والسلامة.

وفي الحديث عن أبي مسعود الأنصاري ؓ أن رسول الله ﷺ قال: «والسلام كما قد علمتم»^(١).

وكان ابن عمر ؓ يقول بعد وفاة النبي: السلام على النبي ورحمة الله وبركاته.

والجمهور على أن السلام يكون باللفظ الذي كان في حياته ﷺ، وليس بما يتدعه بعض الناس.

(١) من حديث طويل في صحيح مسلم (٤٠٥) وسنن أبي داود (٩٨٠) وسنن الترمذي (٣٢٢٠) وسنن النسائي (٤٥/٣) وقال الترمذي: حسن صحيح وانظر الحديث رقم (٣) الآتي عن أبي مسعود البصري.

وقال ﷺ للذي سلم عليه، فقال: عليك السلام يا رسول الله، قال له: «إن هذه تحية الموتى، فقل: السلام عليك»^(١).

فالآية تضمنت شيئين: الصلاة على النبي، والتسليم عليه، والمسلم مخير بأن يجمع بينهما، أو يُفرد كلاً منهما.

ففي الأثر أن النبي ﷺ قال: «لقيتُ جبريل، فقال لي: أبشرك أن الله يقول: من سلم عليك سلمتُ عليه، ومن صلى عليك صليتُ عليه»^(٢).

والأفضل أن يجمع العبد بين الصلاة والسلام معاً، وإذا ضم إليهما البركة كان أكمل.

حكم الصلاة على النبي ﷺ ودواعيها:

وظاهر الأمر في الآية أنه للوجوب، قيل: الوجوب في العمر مرة، وقيل: في التشهد في الصلاة، وقيل: الوجوب، كُلُّما ذُكر اسم النبي ﷺ، وهو الأرجح، وقال الشافعي بوجوبه في التشهد، ولا خلاف في استحباب الاستكثار من الصلاة والسلام على النبي ﷺ، وخاصة عند وجود أسبابها.

ومن أسبابها ودواعيها: ذكره ﷺ، وعند افتتاح الخطب، ومنها خطبة الجمعة، وكذا عند افتتاح الكتب والرسائل، وعند افتتاح الدعاء واختتامه، وعند سماع الأذان وانهائه، وعند دخول المسجد والخروج منه، وفي التشهد الأخير، وفي يوم الجمعة وليلتها، وفي صلاة الجنازة، وفي دعاء القنوت، وعند زيارة قبر النبي ﷺ، وعند فراغ المحرم من تلبيته، وعلى الذبيحة، وقد كان الصحابة يصلون على النبي ﷺ إذا تذكروا بعض شؤونهم، كما يُترحم على الميت.

وعلى المسلم أن يشمل بصلاته الآل والصحب، والصلاة والسلام على النبي ﷺ دون ذكر آله صلاة مبتورة، كما صحت الأحاديث بذلك.

وتشرع الصلاة والسلام على جميع رسل الله وأنبيائه وعلى ملائكة الله الكرام، وقد

(١) من حديث أبي جُرَيْجٍ الهُجَيْمِيِّ، جابر بن سليم، في صحيح سنن أبي داود (٤٣٤١، ٣٤٤٢) بتصحیح الألباني وصحيح سنن الترمذي (٢١٩٠، ٢١٨٩) عن أبي تيممة الهُجَيْمِيِّ.

(٢) ذكره القاضي عياض في «الشفاء».

أحدث الصلاة على النبي ﷺ في أوائل الكتب والرسائل زمن هارون الرشيد، سنة إحدى وثمانين ومئة^(١).

أفضل صيغ الصلاة على النبي ﷺ:

والصلاة الإبراهيمية، هي أفضل صيغة للصلاة على النبي ﷺ، فلا يصح تركها وأخذ غيرها، لا سيما الصيغ التي تتميز بها كل طائفة من طرق التصوف، ففيها تقدم بين يدي الله ورسوله:

١- ففي حديث كعب بن عجرة ؓ قال: قيل: يا رسول الله، أما السلام عليك فقد عرفناه، فكيف الصلاة؟ فقال: «قولوا: اللهم صلّ على محمد، وعلى آل محمد كما صليت على آل إبراهيم إنك حميد مجيد، اللهم بارك على محمد وعلى آل محمد، كما باركت على آل إبراهيم إنك حميد مجيد»^(٢).

٢- وعن أبي حميد الساعدي ؓ أنهم قالوا: يا رسول الله، كيف نصلي عليك؟ فقال رسول الله ﷺ: «قولوا: اللهم صلّ على محمد وأزواجه وذريته، كما صليت على آل إبراهيم، وبارك على محمد وأزواجه وذريته، كما باركت على آل إبراهيم إنك حميد مجيد»^(٣).

٣- وعن أبي مسعود البصري ؓ قال: أتانا النبي ﷺ ونحن في مجلس سعد بن عباد، فقال له بشير بن سعد: أمرنا الله تعالى أن نصلي عليك يا رسول الله، فكيف نصلي عليك؟ فسكت حتى تمنينا أنه لم يسأله، ثم قال: «قولوا: اللهم صلّ على محمد وعلى آل محمد، كما صليت على إبراهيم، وبارك على محمد وعلى آل محمد، كما باركت على

(١) ذكر ذلك ابن الأثير في «الكامل» والقاضي عياض في «الشفاء» وابن سيده في «المخصص».

(٢) «صحيح البخاري» برقم (٤٧٩٧) و«صحيح مسلم» (٤٠٦) وأبو داود (٩٧٦، ٩٧٨) والترمذي (٤٨٣) والنسائي (١٢٨٨، ١٢٨٦) وابن ماجه (٩٠٤) وعبد الرزاق (٣١٠٥) و«المسند» (١٨١٠٤) بإسناد صحيح على شرط الشيخين وابن أبي شيبه (٥٠٧/٢).

(٣) أخرجه الستة إلا الترمذي، يُنظر: «جمع الفوائد» (٦٧٨/٢) والبخاري (٣٣٦٩، ٦٣٦٠) ومسلم (٤٠٧) وأبوداود (٩٧٩) وابن ماجه (٩٠٥) وعبد الرزاق (٣١٠٣) ومسند أحمد (٢٣٦٠٠) وهو عند مالك في الموطأ (١/١٦٥).

إبراهيم، إنك حميد مجيد، والسلام كما علمتم»^(١).

وجاء لفظ: «وعلى آل إبراهيم» في حديث أبي مسعود عقبة بن عمرو^(٢).

وقد ورد هذا الحديث من عدة طرق، وفي جميع كتب الحديث.

أما فضل الصلاة على النبي ﷺ فقد ورد فيها الكثير من الأحاديث:

١- ففي الحديث: عن عامر بن ربيعة رضي الله عنه: «من صَلَّى عليَّ صلاة لم تزل الملائكة تصلي عليه ما صَلَّى عليَّ، فَلْيُقَلِّ عَبْدٌ مِنْ ذَلِكَ أَوْ لِيَكْثِرْ»^(٣).

٢- وعن أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «من صَلَّى عليَّ صلاة واحدة صَلَّى الله عليه بها عشراً»^(٤).

٣- وفي الحديث: عن أبي هريرة أيضًا أن النبي ﷺ قال: «رَغِمَ أَنْفُ رَجُلٍ ذُكِرْتُ عَنْده فلم يصلِّ عليَّ، وَرَغِمَ أَنْفُ رَجُلٍ دَخَلَ عَلَيْهِ شَهْرُ رَمَضَانَ ثُمَّ انْسَلَخَ قَبْلَ أَنْ يُغْفَرَ لَهُ، وَرَغِمَ أَنْفُ رَجُلٍ أَدْرَكَ عَنْده أَبَوَاهُ الْكَبِيرَ فَلَمْ يُدْخِلْهُ الْجَنَّةَ»^(٥).

٤- وفي حديث أبي هريرة أيضًا: أن النبي ﷺ قال: «لا تجعلوا بيوتكم قبورًا، ولا تجعلوا قبري عيدًا، وصلُّوا عليَّ فَإِنْ صَلَاتُكُمْ تَبْلُغُنِي حَيْثُ كُنْتُ»^(٦).

(١) رواه الستة إلا البخاري، يُنْظَرُ: «جمع الفوائد» (٦٧٧/٢) و«الموطأ» (١٦٦/١) وعبد الرزاق (٣١٠٨)

وهو عند مسلم (٤٠٥) وأبي داود (٩٨٠) والترمذي (٣٢٢٠) والنسائي (١٢٨٤).

(٢) عند ابن خزيمة (٧١١) والحاكم (٢٦٨/١) والبيهقي (١٤٦/٢).

(٣) «المسند» (٤٤٥/٣) برقم (١٥٦٨٠، ١٥٦٩٠) وهو حديث حسن وابن ماجه برقم (٩٠٧) من حديث عبد الله بن عامر بن ربيعة، وأخرجه الطيالسي (١١٤٢) وأبو يعلى (٧١٩٦) والبغوي في شرح السنة (٦٨٨).

(٤) «صحيح مسلم» برقم (٤٠٨) وأبو داود برقم (١٥٣٠) والترمذي برقم (٤٨٥) و«المسند» (٧٥٦١) وهو حديث صحيح (محققوه) والنسائي (١٢٩٥)، وأخرجه أبو يعلى (٦٥٢٧) وابن حبان (٩٠٥).

(٥) «سنن الترمذي» برقم (٣٥٤٥) من حديث أبي هريرة، والبخاري في «الأدب المفرد» برقم (٢١) و«صحيح الأدب المفرد» (٥٠٢)، والمسند (٧٤٥١) وهو حديث صحيح بإسناد حسن كما قال محققوه.

(٦) «سنن أبي داود» (٢٠٤٢) والطبراني في الأوسط (٨٠٢٦) و«المسند» (٣٦٧/٢) برقم (٧٨٨٠٤)، بإسناد حسن، (محققوه).

٥- وعن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «إن لله ملائكة سياحين في الأرض يبلغوني عن أمتي السلام»^(١).

٦- وعن علي بن أبي طالب رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «البخيل الذي من ذكرث عنده فلم يصل علي»^(٢).

٧- وأخرج أبو داود وغيره: أن فضالة بن عبيد صاحب رسول الله ﷺ قال: سمع رسول الله ﷺ رجلاً يدعو في صلاته، لم يمجّد الله تعالى، ولم يصل على النبي ﷺ، فقال رسول الله ﷺ: «عجل هذا» ثم دعاه، فقال له أو لغيره: «إذا صلى أحدكم فليبدأ بتمجيد ربه جلّ وعزّ، والثناء عليه، ثم يصلي على النبي ﷺ، ثم يدعو بعد بما شاء»^(٣).

٨- وأخرج البخاري في «الأدب المفرد»: عن جابر بن عبد الله رضي الله عنه أن النبي ﷺ رَفَى المنبر، فلما رَفَى الدرجة الأولى قال: «آمين» ثم رَفَى الثانية فقال: «آمين»

ثم رَفَى الثالثة فقال: «آمين» فقالوا: يا رسول الله، سمعناك تقول: «آمين» ثلاث مرات، قال: «لَمَّا رَقِيتُ الدرجة الأولى، جاءني جبريل فقال: شَقِيَّ عبد أدرك رمضان فانسَلْخ منه ولم يُغفر له، فقلت: آمين، ثم قال: شَقِيَّ عبد أدرك والدَيْه أو أحدهما، فلم يُدْخِلْهُ الجنة،

(١) «سنن النسائي» (٤٣/٣) و«المسند» (٤٤١/١) برقم (٤٣٢٠، ٧٤٢٤) بإسناد صحيح على شرط مسلم والدارمي (٢٧٧٧) والطبراني في «الكبير» (١٠٥٢٨، ١٠٥٣٠) وابن حبان (٩١٠) «الإحسان» والحاكم (٤٢١/٢) و«صحيح الجامع» (٢١٧٤) وصححه السيوطي في «الجامع الصغير» (٣٣٥٥) وأسند الهيثمي للبخاري، وقال: رجاله رجال الصحيح، «المجمع» (٢٤/٩) وقال ابن القيم في «جلاء الأفهام» حديث (٢٦): هذا إسناد صحيح.

(٢) «سنن الترمذي» (٣٥٤٦) والنسائي في عمل اليوم والليلة (٥٦٢٥٥) و«المسند» (٢٥٧/٣) (١٧٣٦) بإسناد قوي ورجال ثقات (محققوه) والحاكم (٥٩/١) قال الترمذي: حسن صحيح غريب، وقال الحاكم: صحيح الإسناد ولم يخرجاه، ووافقه الذهبي، وقال ابن حجر في «الفتح» (١٦٨/١١): لا يقصر عن درجة الحسن و«صحيح سنن الترمذي» (٢٨١١).

(٣) أبو داود (١٤٨١) و«صحيح سنن الترمذي» (٢٧٦٧) وابن حبان (١٩٦٠) «الإحسان» والحاكم وصححه بموافقة الذهبي (٢٣٠/١) و«المسند» (١٨/٦)، برقم (٢٣٩٣٧) قال محققوه: إسناده صحيح ورجاله ثقات، والبزار في مسند (٣٧٤٨) وابن خزيمة (٧١٠) والطحاوي في شرح مشكل الآثار (٢٢٤٢) وقال الترمذي (٣٤٧٧) حسن صحيح.

فقلت: آمين، ثم قال: شَقِيَّ عبدُ ذِكْرَتَ عنده ولم يصل عليك، فقلت: آمين»^(١).

٩- وفي حديث أبي هريرة رضي الله عنه، عن النبي ﷺ أنه قال: «ما جلس قوم مجلسًا لم يذكروا الله فيه ولم يصلوا على نبيهم إلا كان عليهم ترة -أي: نقص- فإن شاء عذبهم وإن شاء غفر لهم»^(٢).

١٠- وفي حديث جابر رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «ما اجتمع قوم ثم تفرقوا على غير ذكر الله وصلاة على النبي ﷺ إلا قاموا على أنتن جيفة»^(٣).

وَعِيدُ مَنْ يُؤْذُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالْمُؤْمِنِينَ

٥٧- ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُؤْذُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَأَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا مُهِينًا﴾

لما قال سبحانه: ﴿إِنَّ ذَلِكُمْ كَانَ يُؤْذِي النَّبِيَّ﴾ وقال: ﴿وَمَا كَانَ لَكُمْ أَنْ تُؤْذُوا رَسُولَ اللَّهِ﴾ ولما أمر الله تعالى بتعظيم رسوله، والصلاة والسلام عليه، نهى عن أذيته بأي وجه من الوجوه، وتوعد من يفعل ذلك باللعن والعذاب المهين، فقد، بين سبحانه أن الذين يؤذون الله تعالى بالشرك أو الكفر أو النفاق أو الفسوق، ويشمل ذلك ما قاله بعض اليهود: عزيز ابن الله، وما قاله بعض النصارى: المسيح ابن الله، أو أنه هو الله، أو أنه ثالث ثلاثة، تعالى الله عما يقولون علوا كبيرا، ومن ذلك وصف الله تعالى بما لا يليق بجلاله، كقول اليهود: يد الله مغلولة، وقولهم: إن الله فقير ونحن أغنياء، أو الذين يؤذون الله تعالى بمخالفة أمره ونهيه، أو ارتكاب كبائر الذنوب، وسائر المعاصي والآثام.

أو يؤذون رسول الله ﷺ بأي لون من ألوان الأذى، بالأقوال أو الأفعال، أو بالتكذيب أو السخرية أو الاستهزاء أو الطعن في شريعته، أو عن طريق الرسوم أو الأفلام والمسلسلات أو السب أو الشتم، أو التنقيص له أو لدينه، أو يؤذونه بارتكاب ما لا يرضاه الله ورسوله، بمخالفة أمره ونهيه، فإيذاء رسول الله ﷺ إيذاء لله تعالى، وطاعة الرسول ﷺ طاعة لله تعالى.

(١) «صحيح الأدب المفرد» (٥٠٠).

(٢) «صحيح سنن الترمذي» (٢٦٩١)، والسلسلة الصحيحة (٧٤).

(٣) البيهقي (١٥٧٠) وصححه الألباني في «السلسلة الصحيحة» برقم (٨٠).

وفي الحديث: عن عبد الله بن المغفل رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «ومن آذاني فقد آذى الله»^(١).

وفي الحديث القدسي: عن أبي هريرة رضي الله عنه، عن النبي ﷺ فيما يرويه عن ربه: «يؤذيني ابن آدم، يسب الدهر وأنا الدهر، أقلب الليل والنهار»^(٢).

وفي الحديث القدسي أيضًا: «من عادى لي وليًا فقد آذنته بالحرب...»^(٣).

والله ﷻ لا يلحقه أذى، وإيذاؤه سبحانه معناه: مخالفة أمره ونهيه، أما رسول الله ﷺ فقد يلحقه أذى البشر، كالذين قالوا: إنه ساحر أو مجنون، أو قالوا: إنه شاعر أو كاهن، وقد شُجَّ وجهه الشريف، وكُسرت ربايعته، وهؤلاء جميعًا توعدهم الله تعالى بالطرْد والإبعاد من رحمته، ولهم في الآخرة عذاب يذلهم ويهينهم. قا تعالى:

٥٨- ﴿وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ بَغَيْرِ مَا اكْتَسَبُوا فَقَدْ احْتَمَلُوا بُهْتَانًا وَإِثْمًا مُّبِينًا﴾

ثم ألحق سبحانه حرمة المؤمنين بحرمة الله ورسوله، تنويهاً بشأنهم.

فالذين يؤذون أهل الإيمان بقول أو فعل قبيح أو فاحش منكر، يتعلق بأنفسهم أو أموالهم أو أعراضهم، بغير ذنب فعلوه، أو جناية ارتكبوها، فقد ارتكبوا أفحش الذنوب، وأقبح الأفعال والأقوال، وارتكبوا الإثم البين، وحمّلوا أنفسهم البهتان والكذب والزور، واستحقوا عذاب الدنيا والآخرة، ومن ذلك استحلال عرض المسلم، والغيبة والنميمة، والكذب والزور...

ونظرًا لأن الناس يؤذي بعضهم بعضًا، فيعتدي بعضهم على بعض، ويدفع بعضهم بعضًا، فقد قيّد الله - سبحانه - إيذاء الناس لبعضهم بقوله: ﴿بَغَيْرِ مَا اكْتَسَبُوا﴾. أي: بغير جناية منهم موجبة للأذى.

(١) جزء من حديث في «المسند» (٨٧/٤) برقم (٢٠٥٤٩، ٢٠٥٧٨، ١٦٨٠٣) بإسناد ضعيف لجهالة عبدالرحمن بن زياد وبقية رجاله ثقات (محققوه) والترمذي برقم (٣٨٦٢) من حديث عبد الله بن المغفل، وأخرجه الخطيب في تاريخ بغداد (١٢٣/٩) وأخرجه ابن أبي عاصم في السنة (٩٩٢) وابن حبان (٧٢٥٦) والبعوي في شرح السنة (٣٨٦٠).

(٢) البخاري برقم (٤٨٢٦) ومسلم برقم (٢٢٤٦) من حديث أبي هريرة.

(٣) البخاري (٦٥٠٢).

أما في جانب الله تعالى ورسوله، فلم يذكر هذا القيد؛ لأن الإيذاء يقع من الناس، ولا يُتصور وقوعه من الله تعالى ولا من رسوله ﷺ.

وقد جمع - سبحانه - بين البهتان والإثم المبين للدلالة على فظاعة ما ارتكبه في حق المؤمنين، والمؤمنات؛ إذ البهتان هو الكذب الصريح المفترى، والإثم المبين هو الذنب العظيم الذي لا يخفى قبحه.

ولذا جاء في حديث عائشة رضي الله عنها: «أرأيت الربا عند الله استحلال عرض امرئ مسلم»^(١).

ولهذا فإن سبَّ آحاد المؤمنين يوجب التعزير بحسب حالته وعلو مرتبته، فتعزير مَنْ سَبَّ الصحابة أبلغ، وتعزير من سب العلماء وأهل الدين أعظم من غيرهم، والسب من غير المسلمين يوجد مقاطعتهم وإنهاء العلاقات معهم ومعاملتهم بالمثل.

لِبَاسُ الْمَرْأَةِ الْمُسْلِمَةِ

٥٩- ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قُلْ لَأَزُودَكُمْ وَبَنَاتِكُمْ وَسَاءَ الْمُؤْمِنِينَ بِذُنُوبِهِمْ عَلَيْنَ مَنْ جَلَبِيْهُنَّ ذَلِكَ أَذَى أَنْ يُعْرِضَ فَلَا يُؤْذِنَنَّ اللَّهُ عَفْوَراً رَّحِيماً﴾

وبعد النهي عن أذى المؤمنين، يأتي الحديث عن اتقاء أسباب أذى المؤمنات باللباس الساتر، الذي لا يُعرض المرأة لمعاكسة الرجال والتحرش بها، مع البدء بأزواج النبي ﷺ وبناته؛ لأنهن أكمل النساء، ثم يأتي بعدهن نساء المؤمنين بصفة عامة، فقد أمر الله الجميع أن يُعطَيْن وجوههن وصدورهن بإسدال مافوق الثياب على رؤوسهن ووجوههن وصدورهن من خمار أو غطاء أو رداء، والحكمة في ذلك حتى لا يظن أحد أنهن غير عفيفات فيتعرض لهن من في قلبه مرض، وقد يظن أنهن خدماً أو إماءً فيتهاون بهن ويتعرض لهن بالأذى، فالحجاب حاسم لمطامع الطامعين.

سبب النزول: عن أبي مالك قال: كان نساء المؤمنين يخرجن بالليل إلى حاجاتهن، وكان المنافقون يتعرضون لهن ويؤذونهن؛ فزلت هذه الآية^(٢).

(١) رواه البيهقي في «شعب الإيمان» برقم (٦٧١١).

(٢) يُنظَر: «طبقات ابن سعد» (١٧٦/٨).

وقال السُّدِّي: كانت المدينة ضيقة المنازل، وكان النساء إذا كان الليل خرجن فقضين الحاجة، وكان فُسَّاق من فُسَّاق المدينة يخرجون، فإذا رأوا المرأة عليها قناع قالوا: هذه أمة، فكانوا يراودونها، فأنزل الله تعالى الآية^(١).

قال ابن عباس رضي الله عنه: كانت الحرة تلبس لباس الأمة، فأمر الله نساء المؤمنين أن يدين عليهن من جلابيهن، وإدناء الجلاب: أن تتقنَّ وتشدَّه على جبينها^(٢).

وأسباب النزول هذه، لا تعني أن الإسلام يفرق بين الحرائر والإماء، فيبيح للأمة من التبدل وعدم التستر ما لا يبيحه للحرائر، بل إن هذه الأسباب تقرر واقعًا كان موجودًا في المجتمع العربي.

ولما نزلت هذه الآية، عمَّت الجميع، فأمرت الإناث جميعًا، سواء كنَّ متزوجات أم غير متزوجات، حرائر أم إماء، شريفات أم غير شريفات، أمرتهن جميعًا بالستر والحجاب. ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا قُوا أَنْفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ﴾ [التحريم: ٦]

وقوله تعالى: ﴿ذَلِكَ أَذَىٰ أَنْ يُعْرِفَ فَلَا يُؤْذِنُ﴾ ليس قيدًا ولا شرطًا في الآية، إنما هو لبيان الواقع الجاري وقت نزول الآية، فإن المرأة إذا كانت غير محتشمة طمع فيها الرجال، ولو كانت أمة سوداء، حرة أو رقيقة، وحتى لا يُعرفن بأنهن راغبات في أن يتعرض لهن الرجال، فعليهن بالحجاب والاحتشام، سواء كنَّ إماء، أم حرائر، أم خدماً، أم ممرضات، أم عاملات، ونحو ذلك.

أخطاء في مفهوم الحجاب:

فإذا كنَّ غير محتشمات تعرض لهن الرجال بالأذى؛ لأنهم عرفوا ميولهن لذلك؛ بما أعرب عنه لباسهن غير الساتر لعوراتهن.

وأذكر أنني رأيت رجلًا يفتح باب سيارته ويسير في محاذات امرأة تسير في شارع جانبي، وهو يحادثها ويطلب منها الركوب في السيارة، فعاتبته في هذا، فقال: أما ترى

(١) «أسباب النزول» للواحيدي (٣٠٣) و«الدر المثور» (١٢/١٤٤) وابن كثير (٤٨٢/٦).

(٢) الطبري (١٨٢/١٩).

أنها تلبس نصف عباءة، ولو كانت لا تريد المعاكسة للبت عباءة كاملة ساترة، قلت في نفسي: هذا شأن صاحبة نصف العباءة، فما بالناس بمن تكشف عن ساقها وذراعيها؟ وما بالناس بالكاسية العارية؟ إنهن باسم الحرية الشخصية فعُلن ما هو أكثر من هذا.

ولا ريب أن المرأة المحتشمة كاملة الحجاب، يهابها الرجال، ولا يتعرضون لها بأذى، فاعتبرن يا نساء العالمين، واعلمن أن حجاب المرأة عنوان إكرامها واحترامها، وأن عدم الحجاب عنوان ابتذالها وإهانتها، ومن الغرائب أن الحجاب أصبح يُطلق على حالات عجيبة في دنيا الجهال بالدين، فقد يَعْنُون به غطاء الشعر فقط، بشيء جميل مزخرف ملفت، هو أجمل من الحقيقة المجردة، ويصحب ذلك لبس بنطال ونحوه، وقد تغطي رأسها وتلبس الضيق جدًا وتضع المساحيق، ويسمون هذا وذاك ونحوهما حجابًا، فيا للعجب من تحريف شرع الله وتبديله.

والمعنى: يأيها النبي، بلغ أوامر الله تعالى إلى عباده المؤمنين، وابدأ بنفسك، فمُر زوجاتك أمهات المؤمنين الطاهرات، وبناتك الفضليات، أن يرتدين الجلباب الشرعي، الذي لا يصف جسد المرأة، ولا يشف عما تحته، الساتر لجميع بدن المرأة، وليس ثياب شهرة، ولا خاصًا بالرجال، ولا لافتًا للأنظار في لونه أو لمعته أو زخرفته، ونحو ذلك، وأن يكون ثيابًا واسعًا فضفاضًا سميكا، سابغا على القدمين واليدين.

وأن يحتجبن عن أنظار الرجال ليكن قُدوة لسائر النساء في التعفف والتستر والحشمة؛ حتى لا يطمع فيهن فاسق، أو ينال من كرامتهن فاجر، وأمر سبحانه نساء المؤمنين جميعًا أن يلبسن الجلباب السابغ الذي يستر محاسنهن وزينتهن، ويدفع عنهن ألسنة السوء، وأن يُرخين على رؤوسهن ما يغطي الشعر والنحر والصدر.

فالجلباب هو الثياب الخارجية التي تلبسها المرأة عند خروجها من البيت، وهو ما يسمى بالعباءة، أو الملحفة، أو الملاءة، تُغطي به رأسها وصدورها، وهو قطعة واحدة، ساترة لجميع بدن المرأة.

والنساء قديمًا كان منهن الحرائر، ومنهن الإماء، فكانت الأمة إذا خرجت تضع القناع، ولا تلبس الجلباب، فتظهر منها ذوائب شعرها ونحرها وفتحة صدرها، فيعرفون أنها أمة، فيتعرض لها الفساق بالأذى والمعاكسة.

وكانت النسوة الحرائر لا يلبسن الجلباب ليلاً في الظلام، حين يخرجن بين النخل لقضاء حاجتهن، فأمر الله - سبحانه - نساء المؤمنين جميعاً حرائر أو إماء، مريبات أو خادمات أو غيرهن، أن يلبسن الجلباب السابغ الساتر؛ حتى لا يكنَّ هدفاً للمغرضين، ولئلا يتشبهن بالفواجر، فإن النساء الكاسيات العاريات، أكثر من الإماء اللاتي تحدثن عنهن الآية مبيّناً في سبب النزول.

وحال الفساق واحد في كل زمان ومكان، فالمرأة المحتشمة التي لا يظهر منها شيء بملايسها الفضفاضة الخشنة، لا يتعرض لها أحد، ويهابها الناس ويحترمونها. والمرأة الأخرى تُعرف بعلاماتها، وأنها أهل لذلك، فيطمع فيها الطامعون.

والإسلام لا يفرق في أحكامه وصيانه للمجتمع بين امرأة وأخرى، ويطلب الستر والعفة من الجميع، قال تعالى: ﴿ذَلِكَ﴾ اللباس الساتر ﴿أَذْفَىٰ﴾ أي: أقرب ﴿أَن يُعْرَفَ﴾ بأنهن بسترهن ووقارهن لسنن ممن يُعرضن أنفسهن للرجال، ويتسمن بالخلاعة والتبرج، فيتجنب الرجال إيذاءهن، فيسلمون ويسلمن.

ومن طبيعة الخدم والمتبرجات أن يُكثرن من الخروج، ويترددن على الأسواق والحفلات والمجامع، لذا أمر القرآن نساء المؤمنين جميعاً حرائر وإماء، ومن في حكمهن، بالتستر والعفة، وبهذا قال أبوحيان وغيره.

ثم ختم الله الآية بقوله ﷻ: ﴿وَكَانَ اللَّهُ عَفْوًا﴾ لكم ما سلف ﴿حَسِيمًا﴾ بما أوضح لكم من الحلال والحرام، ولم يزل سبحانه واسع الرحمة والمغفرة لمن تاب وأتاب.

ومن الأدلة على وجوب الحجاب قوله تعالى:

١- ﴿وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ الْجَاهِلِيَّةِ الْأُولَىٰ﴾ [٣٣]

٢- وقوله سبحانه: ﴿وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَاعًا فَسَأَلُوهُنَّ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ ذَلِكُمْ أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ وَقُلُوبِهِنَّ﴾ [٥٣].

٣- وقوله ﷻ: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لِّأَزْوَاجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَاءِ الْمُؤْمِنِينَ يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِنْ جَلْبَابِهِنَّ﴾ [٥٩].

٤- وقوله جلّ شأنه: ﴿وَلَا يُدْنِيكَ زِينَتُهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَلْيَضْرِبَنَّ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُوهِهِنَّ﴾

وَلَا يُبْدِيَنَّ زِينَتَهُنَّ إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ ﴿النور: ٣١﴾.

٥- وقوله تعالى: ﴿وَالْقَوَاعِدُ مِنَ النِّسَاءِ الَّتِي لَا يَرْجُونَ نِكَاحًا فَلَيْسَ عَلَيْهِنَّ جُنَاحٌ أَنْ يَضَعْنَ ثِيَابَهُنَّ غَيْرَ مُتَبَرِّجَاتٍ بِزِينَةٍ وَأَنْ يَسْتَعْفِفْنَ خَيْرٌ لَهُنَّ﴾ [النور: ٦٠].

١- وفي حديث أم سلمة ؓ قالت: لما نزلت ﴿يُذْنِبْنَ عَلَيْهِنَّ مِنْ جَلِيبِهِنَّ﴾ خرج نساء الأنصار كأن على رؤوسهن الغربان من السكينة، وعليهن ألبسة سود يلبسنها^(١).

٢- وفي البخاري: عن عائشة ؓ قالت: يرحم الله نساء المهاجرات الأول، لما أنزل الله: ﴿وَلْيَضْرِبْنَ خُمُرِهِنَّ عَلَى جُيُوبِهِنَّ﴾ [النور: ٣١]. شققن مروطهن فاختمرن بها^(٢).

٣- وفي لفظ آخر: أخذن أزهرهن فشققنها من قبل الحواشي فاختمرن بها^(٣).

٤- وفي حديث عائشة ؓ قالت: إن لنساء قريش لفضلاً، ولكن والله ما رأيت أفضل من نساء الأنصار، أشد تصديقاً بكتاب الله، ولا إيماناً بالتنزيل، لقد أنزلت سورة النور ﴿وَلْيَضْرِبْنَ خُمُرِهِنَّ عَلَى جُيُوبِهِنَّ﴾ فانقلب رجالهن إليهن يتلون عليهن ما أنزل فيها، ما منهن امرأة إلا قامت إلى موطأها، فأصبحن يصلين الصبح معتجرات، كأن على رؤوسهن الغربان^(٤).

وقد سد الإسلام طرق الفتنة فحرم الخلوة بالمرأة مطلقاً.

٥- وفي الحديث: عن عقبة بن عامر ؓ أن رسول الله ﷺ قال: «ياكم والدخول على النساء»، فقال رجل من الأنصار: يا رسول الله، أفرأيت الحموم؟ قال: «الحموم الموت»^(٥).

(١) «تفسير عبد الرزاق» (١٠١/٢) برقم (٢٣٧٧) و«صحيح سنن أبي داود» (٣٤٥٦) وصححه الألباني أيضاً في حجاب المرأة المسلمة (ص ٣٨) وابن أبي حاتم.

(٢) «صحيح البخاري» (٤٧٥٨) وانظر: (٤٧٥٩)، وهو في صحيح سنن أبي داود (٣٤٥٧) وكتاب الحجاب للألباني (ص ٣٥).

(٣) «صحيح البخاري» (٤٧٥٩) وانظر: (٤٧٥٨).

(٤) «سنن أبي داود» (٤١٠٠، ٤١٠١)، بنحوه عن عائشة وأم سلمة ؓ.

(٥) أخرجه الشيخان عن عقبة بن عامر الجهني في البخاري (٢٣٢) ومسلم (٢١٧٢) وهو في «سنن الترمذي» (١١٧١) و«مسند أحمد» (١٧٣٤٧) وابن حبان (٥٥٨٨) و«سنن النسائي الكبرى» (٩١٧٢).

- ٦- وفي حديث ابن عباس رضي الله عنه: أن النبي ﷺ قال: «لا يخلون رجل بامرأة إلا مع ذي محرم»^(١).
- ٧- وعن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه: أن النبي ﷺ قال: «إن المرأة عورة، فإذا خرجت استشرفها الشيطان، وأقرب ما تكون بروحة ربها وهي في قعر بيتها»^(٢).
- واستشرف الشيطان معناه: أنها لا تمر بأحد إلا أعجبه.

تَهْدِيدٌ لِأَهْلِ النِّفَاقِ فِي كُلِّ زَمَانٍ وَمَكَانٍ

- ٦٠، ٦١ - ﴿لَئِنْ لَمْ يَنْتَهِ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ وَالْمُرْجِفُونَ فِي الْمَدِينَةِ لَنُغَرِّبَنَّكَ بِهِمْ ثُمَّ لَا يُجَاوِرُونَكَ فِيهَا إِلَّا قَلِيلًا ۚ مَلْعُونِينَ أَيْنَمَا ثُقِفُوا أُخِذُوا وَقُتِلُوا قَتِيلًا﴾
- ولما توعد الله سبحانه الذين يؤذون المؤمنين والمؤمنات بغضبه عليهم في الآخرة، توعدهم بعقاب في الدنيا، إن لم يُقْلِعُوا عن ذلك.
- وقد ذكرت الآية ثلاثة أصناف من الناس وهم:

- ١- المنافقون: الذين يُظهرون ما لا يُبطنون، وعلى رأس ذلك إظهار الإيمان وإبطان الكفر، وإظهار العفة وإبطان حب النساء.
- ٢- والذين في قلوبهم مرض: وهم ضعاف الإيمان، ومرضى القلوب ويراد بهم: أهل الفسق والفجور من الطامعين في النساء، المتطلعين لغير أزواجهن.
- ٣- والمرجفون في المدينة: وهم الذين يُروِّجون الشائعات، وينشرون الرذيلة في المجتمع، ويحبون إشاعتها، إلى جوار نشر الأكاذيب وأخبار السوء.
- ومنهم الذين يُخَوِّفون المسلمين ويُرْهِبُونَهُمْ من الأعداء، فيذكرون لهم كثرة العدو وقتلهم، وقوة العدو وضعفهم، وهكذا، وفي هذا تعريض بسبب الإسلام وأهله، وتوهين من قوة المسلمين، وإرجاف بهم، ووصف النفاق يشمل هذه الصفات الثلاث.

(١) البخاري (١٨٦٢، ٣٠٠٦، ٥٢٣٣) وهذا لفظه، ومسلم (١٣٤١) وابن ماجه (٢٩٠٠) والنسائي في «السنن الكبرى» (٩١٧٤) و«المسند» (١٩٣٤) وابن حبان (٢٧٣١).

(٢) رواه الترمذي والطبراني في «الكبير»، قال الهيثمي في «مجمع الزوائد»: رجاله موثقون. وانظر تخريجه بأوفى من ذلك في آية (وقرن في بيوتكن).

- ١- فقال تعالى: ﴿لَئِنْ لَّمْ يَنْتَهِ الْمُتَنَفِّقُونَ﴾ أي: لئن لم يكف الذين يضمرون الكفر في قلوبهم، ويظهرون الإيمان للناس، ويتركون ما هم فيه من عداً وكيدٍ لكم.
- ٢- ولئن لم يترك مَرْضَى القلوب فسقهم وفجورهم من الذين في قلوبهم مرض، أي: شك وريبة، وضعف إيمان، وحب للنساء وطمع فيهن.
- ٣- ولئن لم ينته المرجفون في المدينة الذين يُنْشَرُونَ الأخبار الكاذبة، ويروِّجون لها، ويُذيعونها بين الناس، ويقللون من شأن المسلمين، ويعظمون شأن غيرهم، لإحداث القلاقل والاضطراب، وبلبله الأفكار في المجتمع.
- لئن لم ينته أهل هذه الأصناف الثلاثة -المنافقين، ومرضى النفوس، والمرجفين- عن قبائحهم وشروهم ﴿لَتُغْرِيتَكَ بِهِمْ﴾ أي: لنسلطنك -أيها الرسول- عليهم، فتعاقبهم، في أثناء حياتك فلا يسكنوك في المدينة إلا قليلاً حتى يخرجوا منها ملاحقين بالمذمة والعار.
- أو يُسلط الله عليهم الحاكم المسلم، بعد الرسول ﷺ فيعاقبهم، ثم لا يمكنون ولا يقيمون معك -أيها الرسول- في المدينة إلا زمناً يسيراً، ولا يقيمون في أي بلد يحكمه حاكم مسلم إلا زمناً يسيراً، إذ لا يكون لهم طاقة به وليس لديهم قوة ولا امتناع منه.
- وقد وعد الله رسوله بخروج أعدائه من المدينة، وطرده اليهود منها، وتم له ذلك في حياته. وهو تهديد لكل مرجف في أي زمان ومكان، ممن يؤذون المسلمين والمسلمات، ويذيعون الرعب والخوف وسوء الظن في نفوس الناس، وهذا كقوله تعالى: ﴿وَإِذَا جَاءَهُمْ أَمْرٌ مِّنَ الْأَمْنِ أَوْ الْخَوْفِ أَذَاعُوا بِهِ﴾ [النساء: ٨٣].
- وقد كان اليهود والمنافقون إذا خرجت سرية من السرايا، يوقعون في نفوس الناس أن المسلمين قد قُتِلُوا وهُزِمُوا، وأن العدوَّ في طريقه إليهم، وكانوا يحبون أن تشيع القاحشة في الذين آمنوا، وتفشو فيهم الأخبار الكاذبة، فعاقب الله اليهود بالجلاء عن المدينة، وهو حُكْم ينطبق على جميع المسلمين في ظلال القوة الإيمانية والعسكرية.
- ثم بيّن سبحانه أن هذا الصنف من البشر -وهم أهل النفاق- مطرودون من رحمة الله تعالى بسبب سوء أفعالهم، فإذا ما ظفر بهم في أي مكان، أخذوا أسارى أذلاء، وقُتِلُوا قتلاً شديداً؛ حتى يُقْلَعُوا عن قالة السوء وإشاعتها، وإيذاء الناس ﴿مَلْعُونِينَ أَيْمَنَّا بِقَوْلِهِ﴾

أي: أينما حلُّوا ووُجدوا ﴿أُخْذُوا﴾ أسرى بالقهر والقوة، فلا يحصل لهم أمن ولا استقرار، فيخشون أن يقتلوا أو يحبسوا أو يعاقبوا، وهذا معنى: ﴿وَقَتِّلُوا الْفِتْيَانُ﴾ فلا يُقِلَّتْ منهم أحد، ما داموا مقيمين على النفاق ونشر الأخبار الكاذبة بين المسلمين، بغرض إيقاع الفتنة والفساد بينهم.

وبهذا الوعيد انكفَّ المنافقون عن أذى المسلمين وعن الإرجاف في المدينة، ولم يقع في المنافقين قتل ولا أسر، ولا خرج منهم أحد من المدينة.

والآية ترشد إلى إصلاح الفاسد من أفراد الأمة أو طوائفها، كما قال ﷺ: «لعل الله يخرج من أصلابهم من يعبده الله» ولهذا شرع الإسلام استتابة المرتد، ودعوة الكفار إلى الإسلام قبل غزوهم.

تَأْدِيبُ الْفُجَّارِ وَالْفَسَقَةِ سُنَّةٌ مِنْ سُنَنِ اللَّهِ تَعَالَى

٦٢- ﴿سُنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلُ وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا﴾ (١١)

بَيَّنَّ سبحانه في هذه الآية أن سُنَّةَ الله تعالى اقتضت تأديب الفُجَّارِ والفسقة؛ حتى يُقْلَعُوا عن فسادهم وفجورهم، ممن هم في الأمم السابقة واللاحقة، من كل أعداء الإسلام من اليهود والمنافقين وغيرهم.

فلا تحزن - يا رسولنا - ويا أيها الداعي إلى الله - على وجود المنافقين؛ فإن ذلك سنة قديمة، لم يخلُ منهم زمان ولا مكان ﴿سُنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلُ﴾.

أي: إن هذه طريقة الله تعالى في منافقي الأمم الماضية، أن يؤسروا ويُقْتَلُوا أينما كانوا ﴿وَلَنْ تَجِدَ﴾ أيها المخاطب ﴿لِسُنَّةِ اللَّهِ﴾ أي: طريقته مع الذين خلوا ولا مع الحاضرين ولا من يأتي بعدهم ﴿تَبْدِيلًا﴾ ولا تغييرًا ولا تحويلاً، لقيامها على الحكمة الإلهية، والعدالة القوية، في تأديب الذين يسعون في الأرض بالفساد، ويؤذون الله ورسوله والمؤمنين.

فلا تحزن - يا مسلم - على كيد المنافقين؛ فإن ذلك سنة قديمة لم يخل منها زمن من الأزمان.

عِلْمُ قِيَامِ السَّاعَةِ عِنْدَ اللَّهِ وَحْدَهُ

٦٣- ﴿يَسْأَلُكَ النَّاسُ عَنِ السَّاعَةِ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ اللَّهِ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ السَّاعَةَ تَكُونُ قَرِيبًا﴾

ولما هدد الله - سبحانه - المنافقين بعذاب الدنيا، أتبع ذلك بذكر عذاب الآخرة، بدءًا بقيام الساعة التي يخوض فيها المكذبون الساخرون، والمؤمنون الخائفون، وأهل الكتاب والمنافقون. وقد تكرر في القرآن ذِكْرُ سؤال الناس عن الساعة، التي يكون فيها الحساب والجزاء، فالمشركون كانوا يسألون عن الساعة استعجالاً بها على سبيل التكذيب والاستهزاء. واليهود كانوا يسألون النبي ﷺ عن الساعة امتحاناً؛ لأن الله تعالى قد استأثر بعلمها في كل كتاب منزل، ومنها التوراة، وبعضهم يسأل عنها تعتُّاً وتعجيزاً. والسائلون عن الساعة أصناف أربعة:

- ١- منهم المكذبون، وهم أكثر السائلين، وسؤالهم سؤال تهكم؛ لأنهم يستدلون بتأخر مجيئها على عدم وقوعها، كما قال تعالى: ﴿يَسْتَعْجِلُ بِهَا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِهَا﴾ [الشورى: ١٨].
 - ٢- ومنهم المؤمنون المصدقون بوقوعها، لكنهم يسألون عن أحوالها وأهوالها، وهؤلاء هم الذين قال الله سبحانه فيهم: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا مُشْفِقُونَ مِنْهَا﴾ [الشورى: ١٨].
 - ٣- ومنهم المؤمنون الذين يسألون عنها محبة لمعرفة موعد قيامها، وهؤلاء نُهوا عن الاشتغال بها، كما جاء في الحديث: عن أنس رضي الله عنه أن رجلاً سأل النبي ﷺ: متى الساعة؟ فقال: «ماذا أعددت لها؟» فقال الرجل: والله يا رسول الله، ما أعددت لها كبير صلاة ولا صوم، سوى أنني أحب الله ورسوله، فقال ﷺ: «أنت مع من تحب»^(١).
- وفي حديث جبريل عليه السلام: «ما المسؤول عنها بأعلم من السائل»^(٢).

- ٤- وصنف من الناس يسأل عن الساعة اختباراً للنبي ﷺ لعله يجيب بما يخالف ما في علمهم، فيجعلون ذلك حجة على عدم نبوته ﷺ، وهؤلاء هم اليهود الذين سألوا عن

(١) البخاري (٣٦٨٨) ومسلم (٢٦٣٩).

(٢) من حديث الإسلام والإيمان والإحسان عن عمر رضي الله عنه في الصحيحين.

الروح، وعن أهل الكهف، وعن ذي القرنين.

وقد بين الله - سبحانه - أن علم الساعة من الغيوب الخمس، التي استأثر الله بها في مثل قوله ﷺ: ﴿إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ﴾ [لقمان: ٣٤].

وقوله سبحانه: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ رَبِّي لَا يُجِيبُهَا لَوْفَهَا إِلَّا هُوَ﴾ [الأعراف: ١٨٧].

وقوله جلَّ شأنه: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ رَبِّي لَا يُجِيبُهَا لَوْفَهَا إِلَّا هُوَ﴾ [النازعات: ٤٤]. وقوله سبحانه: ﴿إِلَيْهِ يُرْدُّ عِلْمُ السَّاعَةِ﴾ [فصلت: ٤٧].

وفي هذه الآية تهديد للمستعجلين، وتبكيك للمتعتنين، ولفظ: ﴿النَّاسِ﴾ في الآية عام يعم جميع السائلين عنها، أي: لعل وقتها وزمانها يكون قريباً؛ فكل آتٍ قريب.

وقد قُرب إتيان الساعة بالنسبة إلى ما مضى من عمر الدنيا، كما قال تعالى: ﴿أَقْرَبَتْ السَّاعَةُ وَأَنْشَقَّ الْقَمَرُ﴾ [القمر: ١]. وقال ﷺ: ﴿أَقْرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ﴾ [الأنبياء: ١].

وقال سبحانه: ﴿أَنَّى أَمُرُ اللَّهَ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ﴾ [النحل: ١].

وقال ﷺ: «بعثت أنا والساعة كهاتين» وأشار بأصبعيه: السبابة والوسطى^(١).

وقد أمر الله نبيه أن يرد عليهم بأن علم قيامها عند الله، فليس لي ولا لغيري علم بها، ثم إن قيام الساعة في القريب أو البعيد ليس فيه نتيجة ولا فائدة، وإنما الفائدة في الريح والخسارة، والشقاء والسعادة، والثواب والعقاب، ولعل قيام الساعة يكون قريباً، فماذا أعددتُم لها؟ وفيما يأتي من آيات إخبار بمن يستحق العذاب فيها من المكذبين بقيامها، ووصف لهذا العذاب:

حَظُّ الْكَافِرِينَ مِنْ قِيَامِ السَّاعَةِ عَذَابُ السَّعِيرِ

٦٤، ٦٥ - ﴿إِنَّ اللَّهَ لَعَنَ الْكَافِرِينَ وَأَعَدَّ لَهُمْ سَعِيرًا﴾ [٦٤] خَالِدِينَ فِيهَا أُولَئِكَ لَا يُجَدُّونَ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا﴾

بين سبحانه في هذه الآية حظ الكافرين في الآخرة من وعيد الساعة، وهو عذاب

(١) من حديث أنس في البخاري (٦٥٠٤) ومسلم (٢٩٥١).

السعير، بعدما بَيَّنَّ حظهم في الدنيا باللعن والأسر والقتل، فقال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَعَنَ الْكَافِرِينَ﴾ بالله ورسوله وبما جاء به من عند الله، أي: أبعدهم وطردهم من رحمته في الدنيا والآخرة ﴿وَأَعَدَّ لَهُمْ﴾ في الآخرة ﴿سَعِيرًا﴾ أي: نارًا موقدة، شديدة الحرارة وشديدة الاشتعال في أجسامهم، وهم ماكثون فيها أبدًا، فلا يخرجون منها ولا يزولون عنها ولا يحولون، وليس لهم في جهنم ولي يدافع عنهم، ولا نصير ينصرهم، فيخرجهم من عذاب النار، فإذا انتفى الولي والناصر فلا يخفف عنهم العذاب يوم القيامة، ولا هم يُنصرون ويُمنعون من عذاب الله، بل يتخلَّى عنهم الولي والنصير، قال تعالى:

٦٦- ﴿يَوْمَ تُقَلَّبُ وُجُوهُهُمْ فِي النَّارِ يَقُولُونَ يَلَيْتَنَّا أَطَعْنَا اللَّهَ وَأَطَعْنَا الرَّسُولَ﴾ (٦٦)

بَيَّنَّ سبحانه في هذه الآية حشرات الكفار، عندما يحلُّ بهم العذاب في الآخرة، بعد أن انقطع رجائهم في الولي والناصر، وهم يتقلبون في نار السعير من جهة إلى جهة، كاللحم الذي يُشوى في النار، ويُسحبون فيها: تارة على وجوههم، وتارة على ظهورهم، وتارة على بطونهم.

وهذا التقلب لوجوههم في النار، كي تناله بلهيبها من كل وجه، وحتى تستريح الجهة الأخرى.

وخصَّص الوجه بالذكر؛ لأنه يؤدَّى بجره في النار أكثر من غيره، فهو مقر الحواس الرقيقة التي هي: العينان، والشم، والأذنان، والأنفاس، كما قال تعالى: ﴿أَفَنَنْتَقِي بَوَجهَهُ سَوْءَ الْعَذَابِ يَوْمَ الْقِيَمَةِ﴾ [الزمر: ٢٤].

وقال سبحانه: ﴿يَوْمَ يُسْجَنُ فِي النَّارِ عَلَى وُجُوهِهمْ دُوقُوا مَسَّ سَقَرَ﴾ (٤٨) [القمر].

هذا ما يشير إليه قوله تعالى: ﴿يَوْمَ تُقَلَّبُ وُجُوهُهمْ فِي النَّارِ﴾ فيذوقون حرها، ويشند عليهم أمرها، ويبلغ بهم العذاب كل مبلغ ﴿يَقُولُونَ﴾ على سبيل التحسر والتفجع وهم نادمون متحسرون على ما فاتهم: ﴿يَلَيْتَنَّا أَطَعْنَا اللَّهَ وَأَطَعْنَا الرَّسُولَ﴾ فسلمنا من هذا العذاب وفُزنا بحزبيل الثواب، قال تعالى: ﴿وَيَوْمَ يَعَضُّ الظَّالِمُ عَلَى يَدَيْهِ يَقُولُ يَلَيْتَنِي أَخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَيْلًا﴾ (٢٧) ﴿يَوَلِّتَنِي لَيْتَنِي لَوْ أَتَّخَذْتُ فَلَانًا خَلِيلًا﴾ (٢٨) لَقَدْ أَضَلَّنِي عَنِ الذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَاءَنِي﴾ [الفرقان].

(١) قرأ أبو عمرو وحزمة ويعقوب بحذف ألف (الرسولا) و (السيلا) في الآية التالية وصلًا ووقفًا، والباقيون بإثباتها وقفًا وحذفها وصلًا.

ويومئذ يتمنى الكافر لو كان مسلماً ﴿رُبِمَا يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ كَانُوا مُسْلِمِينَ﴾ [الحجر].
ولما علموا أنهم وكبراءهم مستحقون للعذاب، أرادوا أن يتشفوا ممن أضلّوهم:

٦٧، ٦٨- ﴿وَقَالُوا رَبَّنَا إِنَّا أَطَعْنَا سَادَتَنَا^(١) وَكِبَرَاءَنَا فَأَضَلُّونَا السَّبِيلَ^(٢) رَبَّنَا ءَاتِهِمْ ضَعْفَيْنِ مِنْ الْعَذَابِ وَالْعَنَتُمْ لَنَا كَبِيرًا^(٣)﴾

وهكذا يقول الكافر يوم الحسرة والندامة: إنا أطعنا أئمتنا في الضلال من الرؤساء والحكام ﴿وَكِبَرَاءَنَا﴾ في الشرك والكفر ﴿فَأَضَلُّونَا السَّبِيلَ﴾ أي: أزالونا عن طريق الهدى والإيمان.
وهذا كقوله تعالى: ﴿حَقَّ إِذَا أَذَارَكُوا فِيهَا جَمِيعًا قَالَتْ أُخْرِنَهُمْ لِأَوَّلِهِمْ رَبَّنَا هَؤُلَاءِ أَضَلُّونَا فَآتِهِمْ عَذَابًا ضِعْفًا مِنَ النَّارِ قَالَ لِكُلِّ ضِعْفٌ وَلَكِنْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [الأعراف: ٣٨].

فكلكم مشترك في الكفر والمعاصي، فتشتركون اليوم في العقاب، وإن تفاوت عذاب بعضهم عن بعض، بحسب تفاوت الجرم والذنب.

ربنا عذبهم مثلي عذابنا الذي تُعذبنا به، بسبب ضلالهم في أنفسهم، وإضلالهم لغيرهم، فهم سبب عذابنا، واطرُدْهُمْ من رحمتك طردًا شديدًا.

وفي هذا دليل على أن طاعة غير الله تعالى في مخالفة أمره وأمر رسوله ﷺ، موجبة لعقاب الله تعالى وسخطه، وأن التابع والمتبوع في العذاب مشتركون، وعلى المسلم أن يحذر من ذلك.

إِذْءَاءُ بَنِي إِسْرَائِيلَ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ

٦٩- ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ ءَادَوْا مُوسَى فَبَرَّأَهُ اللَّهُ مِمَّا قَالُوا وَكَانَ عِنْدَ اللَّهِ وَجِيهًا﴾
وبعد أن تحدثت الآيات عن يؤذون الله ورسوله والمؤمنين، تحدثت عن إيداء بني إسرائيل لنبي الله تعالى موسى ﷺ تسرية عن رسول الله ﷺ، وتحذيرًا للمؤمنين من إيداء رسول الله بوجه من الوجوه.

(١) قرأ ابن عامر ويعقوب بالجمع في (ساداتنا) جمع سادة، والباقون بالافراد (سادتنا) جمع سيد.

(٢) قرأ عاصم وهشام بخلف عنه بالباء في (كبيراً) من الكبر، أي: أشد اللعن وأعظمه.

فيا أيها المؤمنون، لا تؤذوا رسول الله محمد، فتقابلوه بضد ما يجب له من الاحترام والتقدير، ولا تشبهوا بمن آذوا نبي الله موسى بن عمران، فأظهر الله براءته، إذ أنه ليس محل تهمة ولا أذية، وكان عند الله مقرباً من خواص المرسلين، فاحذروا - أيها المؤمنون - أن تكونوا مثلهم.

هذا: وقد كان موسى ﷺ شديد الحياء والتستر، فقال بنو إسرائيل: ما يمنعه من ذلك إلا أنه آدر، أي كبير الخصيتين، واشتهر ذلك عندهم، فأراد الله أن يُبرئه من قولهم، فاغتسل يوماً ووضع ثوبه على حجر، ففرّ الحَجَر بثوبه، فطلبه موسى ورآه قوم من بني إسرائيل على أحسن ما خلق الله، فزال عنه ما ظنّوه فيه.

قال ابن عباس رضي الله عنه: كان موسى حَظِيًّا عند الله، لا يسأل الله شيئاً إلا أعطاه، وكان مستجاب الدعوة، وكان مُحِبًّا مقبُولًا.

ولم يحدد القرآن نوع هذا الإيذاء من بني إسرائيل لموسى ﷺ، ولكن وردت روايات في الصحيحين وغيرهما تُعيّنُه، وهي روايات ثلاث:

الأولى: أن موسى ﷺ صعد الجبل مع هارون، فمات هارون، فقالوا لموسى: أنت قتلته، فبرّأه الله من ذلك بشهادة الملائكة، حيث أمرهم الله تعالى أن يحملوه ويمرّوا به على بني إسرائيل، وتكلمت الملائكة بموته، حتى عرفت بنو إسرائيل أنه قد مات، فانطلقوا به فدفنوه فلم يطلع على قبره أحد من خلق الله إلا الرَّحْمُ^(١)، فجعله الله أصم أبكم^(٢).

قال ابن حجر في فتح الباري: وما في الصحيح أصح من هذا، وهو القول الثالث.

الثانية: أن قارون استأجر امرأة بغياً؛ لِتَسْتَهْم موسى ﷺ في نفسها على ملأ من بني إسرائيل، فبرّأه الله من ذلك، وخسف بقارون وبداره الأرض وأهلكه الله^(٣).

وقرأ الباقون بالثاء (كثيراً) من الكثرة، أي: مرة بعد مرة.

(١) الرَّحْم: نوع من الطير معروف، واحدته: رَحْمَة.

(٢) جاء ذلك عن سعيد بن جبیر، عن ابن عباس، عن عليّ بن أبي طالب، في «المطالب العالية» ق ١٢٦/

ب (٣٨١٩، ٤٠٦٦) و«تفسير الطبري» (٥٢/٢٢) والحاكم (٥٧٩/٢) وصححه ووافقه الذهبي، وقال ابن

حجر: هذا إسناد صحيح، في «المطالب العالية»، وقال في «الفتح» (٥٣٤/٨): إسناده قوي.

(٣) نقله السيوطي في «الدر» (١٣٦/٥) عن ابن أبي شيبة وابن المنذر وابن أبي حاتم والحاكم.

الثالثة: روى أبو هريرة رضي الله عنه: أن بني إسرائيل كانوا يغتسلون عُراً، ينظر بعضهم إلى سوءة بعض، وكان موسى عليه السلام يغتسل وحده، فقالوا: والله ما يمنع موسى أن يغتسل معنا إلا أنه آدر -أي: كبير الخصيتين- قال: فذهب مرة يغتسل، فوضع ثوبه على حَجَرٍ، فقرأ الحَجَرُ بثوبه، فسعى موسى خلفه يقول: ثوبي، ثوبي، حتى نظرتُ بنو إسرائيل إلى سوءة موسى، فقالوا: والله ما بموسى من بأس، فوقف الحَجَرُ، حتى نظر إليه موسى، وأخذ ثوبه فلبسه، وأخذ يضرب الحجر بعصاه ^(١).

وفي الحديث: عن أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «إن موسى كان رجلاً حيياً سِتيراً فقال فريق من قومه: ما نراه يستتر إلا من عاهة فيه، أي: برص، أو أنه آدر، فأظهر الله براءته في هذه الآية» ^(٢).

ولذا: فإن النبي صلى الله عليه وسلم قال كما في حديث ابن مسعود رضي الله عنه: «رحمة الله على موسى، لقد أودى بأكثر من هذا فصبر» ^(٣).

وعن إيداء بني إسرائيل لموسى يقول سبحانه على لسان موسى عليه السلام: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يَفْقَهُمْ لِمَ تُوذُّونَنِي وَقَدْ تَعْلَمُونَ أَنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ﴾ [الصف: ٥].

وهذا الأذى لم يكن من قبيل التكذيب، ولكنه من باب سوء الأدب، وعدم رعايتهم حسن الأدب مع أعظم الناس صلى الله عليه وسلم، وقد آذوه أكثر من مرة، وذلك حين قالوا له: ﴿فَاذْهَبْ أَنْتَ وَرَبُّكَ فَقَتَلَا إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ﴾ [المائدة: ٢٤]. وحين قالوا: ﴿أَتَنَحَدِّثُكَ هُزُؤًا﴾ [البقرة: ٦٧].

وفي هذا يقول تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ ءَادُوا مُوسَى فَبَرَّاهُ اللَّهُ مِمَّا قَالُوا﴾

(١) يُنظَر الحديث في: البخاري برقم (٢٧٨) و (٣٤٠٤) و مسلم (٣٣٩) و«المسند» (٥٠٧/١٣) (٨١٧٣) بإسناد صحيح على شرط الشيخين، وعبد الرزاق (١٢٤/٢) والترمذي (٣٢٢١) وابن حبان (٦٢١١) والبيهقي (١٩٨/١).

(٢) أخرجه البخاري (٤٧٩٩، ٣٤٠٤) وحديث أبي هريرة في «المسند» (٥١٤/٣) برقم (١٠٦٧٨). والترمذي (٣٢٢١) والنسائي في الكبرى (١١٤٢٥).

(٣) البخاري برقم (٣٤٠٥) و (٤٣٣٥) و (٦٠٥٩) ومسلم برقم (١٠٦٢) وحديث ابن مسعود في «المسند» (٣٥٩/١)، (٣٨٠/١) برقم (٣٦٠٨، ٤١٤٨) بإسناد صحيح على شرط الشيخين و«تفسير الطبري» برقم (٣٧/٢٢)، وأبو يعلى (٥٢٠٦)

أي: يَا أَيُّهَا الَّذِينَ صَدَّقُوا اللَّهَ وَاتَّبَعُوا رَسُولَهُ، لَا تُوْذُوا رَسُولَ اللَّهِ بِقَوْلٍ أَوْ فِعْلٍ، وَالتَّزَمُوا الْأَدَبَ وَالطَّاعَةَ، وَالاحْتِرَامَ لِنَبِيِّكُمْ ﷺ، وَاحْذَرُوا أَنْ تَفْعَلُوا مَعَهُ كَمَا فَعَلَ بَنُو إِسْرَائِيلَ مَعَ نَبِيِّهِمْ مُوسَى ﷺ، حَيْثُ آذَوْهُ بِشَتَى أَنْوَاعِ الْأَذَى، فَبَرَأَهُ اللَّهُ مِمَّا قَالُوا فِيهِ مِنَ الْكُذْبِ وَالزُّورِ.

﴿وَكَانَ عِنْدَ اللَّهِ وَجِيهًا﴾ أي: عَظِيمُ الْقَدْرُ وَالْجَاهُ، حَيْثُ اخْتَارَهُ اللَّهُ وَاصْطَفَاهُ لِحَمْلِ الرِّسَالَةِ، وَكَانَ لَهُ عِنْدَ اللَّهِ وَجَاهَةٌ، لَا يَسْأَلُهُ شَيْئًا إِلَّا أَعْطَاهُ.

وَقَدْ دَلَّتِ الْآيَةُ عَلَى وَجُوبِ تَوْقِيرِ النَّبِيِّ ﷺ وَتَجَنُّبِ مَا يُؤْذِيهِ، وَتِلْكَ هِيَ سُنَّةُ الصَّحَابَةِ وَالْمُسْلِمِينَ.

وَقَدْ حَدَّثَتْ فَلَنَاتٌ مِنْ بَعْضِ الصَّحَابَةِ قَبْلَ أَنْ يَكْتَمَلَ فِيهِمُ التَّخَلُّقُ بِآدَابِ الْقُرْآنِ، كَالَّذِي قَالَ لِلنَّبِيِّ ﷺ: (هَذِهِ قِسْمَةٌ مَا أُرِيدُ بِهَا وَجْهُ اللَّهِ) وَالَّذِي قَالَ عَنِ الزُّبَيْرِ لَمَّا اخْتَلَفَ مَعَهُ عَلَى الْمَاءِ: (أَنْ كَانَ ابْنُ عَمَّتِكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ) وَهَكَذَا.

الْقَوْلُ السَّدِيدُ وَآثَرُهُ عَلَى الْعَبْدِ

٧٠- ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا﴾

وَبَعْدَ أَنْ نَهَى اللَّهُ الْمُسْلِمِينَ عَنِ التَّشْبِهِ بِبَنِي إِسْرَائِيلَ فِي إِذَاءِ نَبِيِّهِمْ، أَمَرَهُمْ أَنْ يَتَصَفَوْا بِالتَّقْوَى وَسَدَادِ الْقَوْلِ؛ فِي جَمِيعِ أَحْوَالِهِمْ، فِي السِّرِّ وَالْعَلَنِ، لِأَنَّ التَّقْوَى جَمَاعُ الْخَيْرِ فِي الْقَوْلِ وَالْعَمَلِ، وَالْقَوْلُ السَّدِيدُ مَبْعَثُ الْفَضَائِلِ، فَقَالَ سُبْحَانَهُ:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ﴾ أي يَا مَنْ صَدَقْتُمْ بِاللَّهِ وَاتَّبَعْتُمْ رَسُولَهُ، خَافُوا اللَّهَ أَنْ تَعْصُوهُ، وَرَاقِبُوهُ فِي السِّرِّ وَالْعَلَنِ، فَامْتَثِلُوا أَمْرَهُ وَاجْتَنِبُوا نَهْيَهُ، وَلَا تَخَالَفُوا ذَلِكَ فَتَسْتَحِقُوا الْعِقَابَ.

﴿وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا﴾ أي: قُولُوا كَلَامًا صَادِقًا مُسْتَقِيمًا مُوَافِقًا لِلصَّوَابِ، خَالِيًا مِنَ الْكُذْبِ وَالْبَاطِلِ وَالْإِنْحِرَافِ عَنِ الْحَقِّ، فِيهِ لِينٌ وَلُطْفٌ وَنَصَحٌ وَإِرْشَادٌ.

وَالْكَلَامُ يَكُونُ بَابًا عَظِيمًا مِنْ أَبْوَابِ الْخَيْرِ، أَوْ بَابًا كَبِيرًا مِنْ أَبْوَابِ الشَّرِّ.

«وَهَلْ يَكِبُ النَّاسُ فِي النَّارِ إِلَّا حَصَائِدُ أَلْسِنَتِهِمْ»^(١).

(١) سلسلة الأحاديث الصحيحة (٤١٢) وهو من حديث معاذ في الترمذي (٢٦١٦) وابن ماجه (٣٩٧٣) ومصنف عبدالرزاق (٢٠٣٠٣) والمسند (٢٢٠١٦) بإسناد صحيح بطرقه وشواهده، وأخرجه غيرهم.

«من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقل خيراً أو ليصمت»^(١).

«رحم الله امرأً قال خيراً فغنم، أو سكت فسلم»^(٢).

«نصر الله امرأً سمع مقالتي فوعاها فأداها كما سمعها»^(٣).

وبالقول السديد تشيع الفضائل، فيرغب الناس فيها، وبالقول السيئ تشيع الضلالات فيغتر الناس بها، ويحسبون أنهم يحسنون صنعا.

والقول السديد يشمل: الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والدعوة إلى الله تعالى، والأذان والإقامة، وتلاوة القرآن، ومداواة السنة، وذكر الله تعالى بالتسبيح والتحميد وغيرهما، وطلب العلم الشرعي والتفقه في الدين، ونحو ذلك من كل قول صحيح صادق خال من الانحراف عن الحق والصواب.

أما ما يترتب على القول السديد من نتائج فقد جاء في قوله تعالى:

٧١- ﴿يُضِلِّحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾

أي: فإن أنتم اتقيتم الله تعالى وقتلتم قولا سديداً، وفقكم لصالح الأعمال، وتقبلها منكم وغفر لكم ذنوبكم ﴿وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾ فيما أمر ونهى ﴿فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾ أي فقد نال غاية المطلوب، وظفر بالكرامة العظمى في الدنيا والآخرة.

ويترتب على الإخلال بالتقوى، فساد الأعمال وعدم قبولها، وعدم حصول الأجر والمثوبة عليها.

حَمْلُ أَمَانَةِ التَّكْلِيفِ

٧٢- ﴿إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا﴾

(١) البخاري (٦٤٧٥) ومسلم (٤٧، ٧٤).

(٢) غاية المرام (ص ٢١٥) وهو ضعيف.

(٣) الترمذي (٢٦٥٨) والمسند برقم (١٦٧٣٨) عن جبير بن مطعم، حديث صحيح لغيره.

وبما أن سورة - الأحزاب - مليئة بأحكام التشريع التي كلف الله بها الإنسان، فقد جاءت هذه الآية في نهاية السورة، مقررة لمضمون ما فيها، ومبينة للقاعدة العامة التي تشمل جميع التكاليف الشرعية.

﴿إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ﴾ هذا العرض كان في الأزل، في مبدء التكوين، عندما تعلقت قدرة الله تعالى بخلق العالم السفلي والعلوي بما فيه من: الإنسان والحيوان، والسموات والأرض والجبال؛ كي يقوم الإنسان بما خلق من أجله، كما قال تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى شَهِدْنَا﴾ [الأعراف: ١٧٢].

أما الأمانة فهي ما ائتمن الله عليه المكلفين من امتثال الأوامر واجتناب النواهي، في السر والعلن، وهذا يشمل القيام بكل المأمورات من: الفرائض، والنوافل، والحدود، وقضاء الدين، وغسل الجنابة، وحفظ المرأة فرجها، والعدل، ووفاء الكيل والميزان، والوفاء بالعقود والعهود، وأداء الأمانة المالية والعينية، وما إلى ذلك.

ويشمل الانتهاء عن جميع المحرمات والمكروهات، من الكبائر والصغائر، وهكذا: كل أمر ونهي، أو شأن، أو أئتمن الإنسان عليه من أمور الدنيا أو الدين فيما يتعلق: بالعقائد، والعبادات، والأخلاق، والأمانات التي تقابلها الخيانة، وحفظ العقل والنفس والدين والعرض والمال.

وحمل الإنسان لهذه الأمانة، معناه: تقبله للقيام بهذه التكاليف، والتزامه بالوفاء بها مع ثقلها وضخامتها. فالإنسان ملتزم بهذه التكاليف بفطرته، وإن كان الناس متفاوتين في القيام بما ائتمنوا عليه، فمنهم من يحافظ عليه، ومنهم من يضيعه:

أحاديث وآثار في الأمانة:

١- في الحديث عن أبي هريرة رضي الله عنه: «إِذَا ضُيِّعَتِ الْأَمَانَةُ فَاتَنْتَظِرِ السَّاعَةَ»^(١).

٢- وفي الحديث عن حذيفة رضي الله عنه: «يَنَامُ الرَّجُلُ النُّومَةَ فَتَقْبُضُ الْأَمَانَةُ مِنْ قَلْبِهِ، فَيُظَلُّ

(١) في البخاري (٥٩، ٦٤٩٦).

أثرها مثل أثر الوكت،^(١) ثم ينام النومة فتقبض، فيبقى أثرها مثل أثر المَجْل^(٢) كجمر دُخِرَتْهُ على رِجْلِكَ فنفظ، فتراه متبَرًّا^(٣) وليس فيه شيء، ويصبح الناس يتبايعون، فلا يكاد أحد يؤدي الأمانة، فيقال: إن في بني فلان رجلاً أميناً، ويقال للرجل: ما أَعْقَلُهُ وما أَظْرَفُهُ وما أَجْلَدُهُ، وما في قلبه مثقال حبة من خردل من إيمان، ولقد أتى عليّ زمان ولا أبالي أيكم بايَعْتُ، لئن كان مسلماً ردّه عليّ الإسلام، وإن كان نصرانياً رده عليّ ساعيه، وأما اليوم فما كنت أبايع إلا فلاتاً وفلاتاً^(٤).

٣- وفي الحديث عن أنس رضي الله عنه: «لا إيمان لمن لا أمانة له، ولا دين لمن لا عهد له»^(٥).

٤- وفي حديث عبد الله بن عمرو رضي الله عنه: أن رسول الله ﷺ قال: «أربعٌ إذا كُنَّ فيك فلا عليك ما فاتك من الدنيا: حفظ أمانة، وصدق حديث، وحسن خليفة، وعفة طعمة»^(٦).

٥- وفي حديث أبي سعيد الخدري: أن رسول الله ﷺ قال: «إن من أعظم الأمانة عند الله يوم القيامة الرجل يُفْضِي إلى امرأته وتفضي إليه ثم ينشر سرّها»^(٧).

٦- وعن جابر رضي الله عنه: أن رسول الله ﷺ قال: «إذا حدّث الرجل بالحديث ثم التفت فهي أمانة»^(٨).

٧- أخرج الطبري بسند حسن: عن علي بن أبي طلحة عن ابن عباس رضي الله عنه ﴿إِنَّا عَرَضْنَا

(١) الوكت: الأثر اليسير كالنقطة في الشيء من غير لونه.

(٢) المَجْل: الجلد الغليظ.

(٣) المتبَر: المتفخ. ونفظ، يعني: ارتفع.

(٤) أخرجه الشيخان وغيرهما عن حذيفة بن اليمان، البخاري برقم (٦٤٩٧) ومسلم برقم (١٤٣)، (٧٠٨٦) و«المسند» (٢٨٣/٥) برقم (٢٣٢٥٥) وغيرهم.

(٥) «المسند» برقم (١٢٣٨٣، ١٢٥٦٧، ١٣١٩٩، ١٣٦٣٧). قال محققوه: إسناده حسن ورجاله ثقات، وابن أبي شيبة (١١/١١) وعبد بن حميد (١١٩٨) وأبو يعلى (٢٨٦٣) والبخاري (١٠٠) كشف.

(٦) «المسند» (١٧٧/٢) برقم (٦٦٥٢)، بإسناد ضعيف لانقطاعه، (محققوه) وأخرجه الحاكم (٣١٤/٤) والبيهقي في الشعب (٥٢٥٧) وانظر صحيح الجامع (٣٠١/١).

(٧) مسلم (١٢٤، ١٤٣٧) و«المسند» (١٨/١٩٧) (١١٦٥٥). وابن أبي شيبة (٤/٣٩١) والبيهقي في الشعب (٥٢٣١) وابوداود (٤٨٧٠).

(٨) حسنه الألباني في «السلسلة الصحيحة» (١٠٩٠) وهو عند الطيالسي (١٨٧٠) وأحمد (٣٦٢/٢٢) (١٤٤٧٤) وإسناده حسن (محققوه) بشواهد، وأبي داود (٤٨٦٨) والترمذي (١٩٥٩) وأبو يعلى (٢٢١٢).

الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ ﴿٧٢﴾ قال: الأمانة الفرائض عرضها الله على السموات والأرض والجبال، إن أدوها أثابهم، وإن ضيعوها عذبهم، فكروها ذلك، وأشفقوا من غير معصية، ولا زهدًا في ثواب ولكن تعظيمًا لدين الله أن يقوموا به، ثم عرضها على آدم فقبلها بما فيها على ظلمه وجهله.

قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَخُونُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ وَتَخُونُوا أَمْنَكُمْ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [الأنفال].

ولا سبيل لحمل الإنسان لأمانة التكليف إلا بما أودع الله فيه من العقل الذي ميزه به عن سائر المخلوقات الأرضية، وهو مطالب بحفظها والوفاء بها، دون إضاعة ولا إجحاف، فإذا لم يف بها يكون قد ظلم نفسه وجهل حق الله عليه.

جاء في الأثر: أن الله تعالى قال لآدم: إني عرضت الأمانة على السموات والأرض والجبال، فلم تُطِقْها، فهل أنت آخذها بما فيها؟ قال: يارب، وما فيها؟ قال: إن أحسنت جُوزيت، وإن أسأت عوقبت، فتحملها آدم، فقال: بين أذني وعاتقي، قال الله تعالى: أما إذا تحملت فسأعينك وأجعل لبصرك حجابًا، فإذا خشيت أن تنظر إلى ما لا يحل فارخ عليه حجاب، وأجعل للسانك لَحْنِينَ وَغِلَافًا، فإذا خشيت فأغلقه، وأجعل لفرجك لباسًا، فلا تكشفه على ما حرمتُ عليك.

قال مجاهد: فما كان بين أن تحملها وبين أن أخرج من الجنة إلا مقدار ما بين الظهر والعصر^(١).

أما عرض الأمانة على السموات والأرض والجبال، فهو عرض حقيقي وفُق ظاهر الآية، وليس من باب المجاز، ولا من باب ضرب المثل بالسموات والأرض والجبال، على أنه لو جاز تكليفها لثقل عليها القيام بواجب الأمانة، ولكنه تكليف حقيقي، بمعنى: أن الله تعالى جعل فيها إدراكًا ونطقًا بكيفية يعلمها الله تعالى، بحيث تعقل السؤال والإجابة.

وفي كثير من آيات القرآن الكريم بيان لإدراك ونطق الجمادات، فالسموات والأرض ومن فيهن وما فيهن يسبحون بحمد الله، ولكننا لا نفقه تسبيحهم، ومن الحجارة ما يهبط من خشية الله، ولو نزل القرآن على جبل لرأيت خاشعًا متصدعًا من خشية الله، وقد حنَّ الجذع لرسول الله ﷺ، وسمع له أنين في المسجد، وسبح الحصى بين كفي النبي ﷺ،

(١) «تفسير الخازن» (٣/ ١٨٠) و«تفسير ابن كثير» (٦/ ٤٩٠) و«تفسير الطبري» (١٩/ ٢٠٢).

وسلّم عليه الشجر والحجر والمدر، واشتكى البعير للنبي ﷺ أن صاحبه يؤذيه، وهكذا.

وعرض الأمانة على هذه المخلوقات، هو من باب التخيير لا من باب الإلزام؛ لأنه لو كان مُلْزَمًا لم يكن لها أن تمتنع؛ لأن الجمادات كلها خاضعة مطيعة لله سبحانه، فكلها تسجد لله تعالى بلا استثناء، بخلاف الإنسان، فكثير منه حق عليه العذاب، وليس من بين هذه المخلوقات مَنْ يتمرد على مهمته، أو يخرج عن وظيفته، فالشمس تدور في فلكها دورتها المنتظمة، وترسل أشعتها دون خلل أبدًا، والأرض تدور دورتها، وتُخرج زرعها، وتُؤاري موتاها، وتتفجر منها الينابيع بصفة دائمة، وهكذا سائر الكائنات.

أما الإنسان فقد خاف على نفسه وأشفق عليها من عواقب حملها أن ينشأ عنها عذاب الله وسخطه بسبب التقصير في أداء ما كلف به.

﴿وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ﴾ والتمزم بها على ضعفه ﴿إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا﴾ شديد الظلم والجهل لنفسه إذا لم يحفظ الأمانة.

أَقْسَامُ النَّاسِ بِالنِّسْبَةِ لِحَمْلِ الْأَمَانَةِ

٧٣- ﴿لِيُعَذِّبَ اللَّهُ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكَاتِ وَيَتُوبَ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا﴾ (٧٣)

ثم إن الله تعالى قَسَمَ الناس بالنسبة إلى حمل الأمانة، إلى ثلاثة أقسام: منافقون ومشركون وكلاهما معذب، ومؤمنون مرحومين:

١- فالمعذبون هم الذين ظلموا أنفسهم ولم يقوموا بواجبهم تجاهها، وهم أهل النفاق الذين يُظهرون الإسلام ويبطنون الكفر، وهؤلاء قد قاموا بحمل الأمانة ظاهراً لا باطناً.

٢- وأهل الشرك في عبادتهم لغير الله تعالى، وهم الذين تركوها ظاهراً وباطناً وهذا النوع هو الظلوم الجهول.

أما النوع الثالث فهو الإنسان المرحوم، وهو الذي قام بأداء الأمانة، فحفظها وقام بها، وهم الذين آمنوا بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر وعملوا بطاعته وتركوا معاصيه.

وهذا الفريق منه من قام بواجب الأمانة على الوجه الأكمل، ومنه من عصى الله تعالى

في بعض أوامره ونواهيه .

﴿وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا﴾ للتائبين منهم ﴿رَحِيمًا﴾ بهم، يعفو ويتجاوز ويبدل السيئات حسنات .

وهو جلّ شأنه واسع المغفرة لمن تاب وآمن وعمل صالحًا ثم اهتدى، وهذا كقوله تعالى: ﴿لِيَجْزِيَ اللَّهُ الصَّادِقِينَ بِصِدْقِهِمْ وَيُعَذِّبَ الْمُنَافِقِينَ إِنْ شَاءَ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ﴾ [٢٤] .

وقد ختم الله السورة بالمغفرة والرحمة، إشارة إلى سعة فضل الله تعالى، فهو سبحانه جواد كريم واسع المغفرة عظيم الرحمة .

تم تفسير (سورة الأحزاب) والله الحمد والمنة



الآية	فهرس الم	وجع	الصفحة
١٩٩، ١٩٨	سادساً: لِمَاذَا لَمْ يَنْزَلِ الْقُرْآنُ عَلَى رَجُلٍ غَيْرِ عَرَبِيٍّ؟	٩٠	٩٠
٢٠٣-٢٠٠	الْمُكَذِّبُ بِالْقُرْآنِ لَا يُؤْمِنُ بِهِ وَلَوْ عَرَفَ صِدْقَهُ وَإِعْجَازَهُ	٩٠	٩٠
٢٠٤	إِنْكَارُ وَتَوْبِيخُ لِمَنْ يَسْتَعِجِلُونَ نَزُولَ الْعَذَابِ بِهِمْ فِي الدُّنْيَا	٩٢	٩٢
٢٠٧-٢٠٥	عَمَسَةُ لِلْكَافِرِ فِي النَّارِ تَذْهَبُ بِتَعِيمِ الدُّنْيَا	٩٢	٩٢
٢٠٩، ٢٠٨	هَلَاكَ الْأَمَمِ يَكُونُ بَعْدَ إِعْذَارِهِمْ وَإِنْذَارِهِمْ	٩٣	٩٣
٢١٢-٢١٠	الْقُرْآنُ فَوْقَ قُدْرَةِ الشَّيَاطِينِ	٩٤	٩٤
٢١٣	الشِّرْكُ بِاللَّهِ تَعَالَى أَعْظَمُ الذُّنُوبِ	٩٧	٩٧
٢١٤	أَمْرُ الرَّسُولِ بِتَبْلِيغِ الدَّعْوَةِ لِأَهْلِهِ وَعَشِيرَتِهِ	٩٨	٩٨
٢١٦، ٢١٥	الْأَمْرُ بِلِيْنِ الْجَانِبِ لِكُلِّ مُؤْمِنٍ	١٠١	١٠١
٢٢٠-٢١٧	تَقْوِيَةُ عَزْمِ الرَّسُولِ ﷺ	١٠٢	١٠٢
٢٢٣-٢٢١	إِطْطَالُ وَضْفِ النَّبِيِّ ﷺ بِالْكَهَانَةِ	١٠٣	١٠٣
٢٢٦-٢٢٤	إِطْطَالُ وَضْفِ النَّبِيِّ ﷺ بِأَنَّهُ شَاعِرٌ	١٠٥	١٠٥
٢٢٧	الشَّعْرُ الْمَحْمُودُ - آثار في الشعر	١٠٧	١٠٧
٢٠١	تَفْسِيرُ سُورَةِ النَّملِ - مَقْدَمَةُ السُّورَةِ - موضوعات السورة - أربع قصص فيها	١١١	١١١
٢٠١	تَفْسِيرُ السُّورَةِ - دَلَالَةُ افْتِتَاحِ السُّورَةِ بِحَرْفِي الْهَجَاءِ	١١٤	١١٤
٥-٣	أَوْصَافُ الْمُؤْمِنِينَ وَأَوْصَافُ الْكَافِرِينَ	١١٥	١١٥
٦	الْقُرْآنُ قِصَصٌ مِنَ اللَّهِ عَلَى رَسُولِهِ	١١٧	١١٧
٧	أربع قصص في السورة: الْقِصَّةُ الْأُولَى: قِصَّةُ مُوسَى عليه السلام - موسى يعود إلى مصر	١١٨	١١٨
٩٠، ٨	مُنَاجَاةُ اللَّهِ لِمُوسَى عليه السلام	١١٩	١١٩
١١، ١٠	مُعْجَزَةُ الْعَصَا وَقَتْلُ الْمِصْرِيِّ	١٢١	١٢١
١٣، ١٢	مُعْجَزَةُ الْيَدِ وَبِقِيَّةِ الْمُعْجَزَاتِ التَّسْعِ	١٢٣	١٢٣
١٤	إِنْكَارُ التَّوْحِيدِ مُحَاَلَفَةٌ لِلْفِطْرَةِ	١٢٤	١٢٤
١٥	الْقِصَّةُ الثَّانِيَّةُ: قِصَّةُ دَاوُدَ وَسَلِيمَانَ عَلَيْهِمَا السَّلَامُ	١٢٤	١٢٤
١٦	سليمان يعلم منطق الطير - ثلاثة عشر مثلاً من لغة الطير	١٢٥	١٢٥
١٧	ملك لا ينبغي لأحد قبل سليمان ولا بعده	١٢٨	١٢٨
١٩، ١٨	قصة النمل	١٢٨	١٢٨
٢٢-٢٠	قِصَّةُ الْهَذْدُودِ - قبيلة سبأ	١٣١	١٣١
٢٣	قِصَّةُ (بَلْقِيسَ) مَلِكَةِ سَبَأَ	١٣٣	١٣٣
٢٧-٢٤	الهدهد يوحد الله وينكر الشرك	١٣٤	١٣٤
٢٨	رِسَالَةُ سَلِيمَانَ إِلَى بَلْقِيسَ يَحْمِلُهَا الْهَذْدُودُ	١٣٦	١٣٦
٣٤-٢٩	بلقيس تستشير قومها في شأن سليمان	١٣٧	١٣٧
٣٥	بَلْقِيسُ تُصَانِعُ سَلِيمَانَ	١٣٩	١٣٩

الآية	فهرس الم - و - وعات	الصفحة
٣-١	تَفْسِيرُ السُّورَةِ - التَّوْبَةُ بِشَأْنِ الْقُرْآنِ	١٩٧
٤	قِصَّةُ فِرْعَوْنَ مَعَ بَنِي إِسْرَائِيلَ	١٩٩
٦٠٥	بَنُو إِسْرَائِيلَ هُمْ الْمُسْتَضْعَفُونَ فِي الْأَرْضِ - مِنْ مَنِ اللَّهُ تَعَالَى عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ	٢٠٢
٨٠٧	مُوسَى فِي نَهْرِ النَّيْلِ - نَجَاتِهِ مِنَ الذَّبْحِ - نَسَبُ وَالِدِهِ	٢٠٤
٩	مُوسَى فِي بَيْتِ فِرْعَوْنَ	٢٠٧
١٣-١٠	قِصَّةُ إِذْضَاعِ مُوسَى وَعَوْدَتِهِ إِلَى أُمِّهِ	٢٠٨
١٤	الْعِنَايَةُ الْإِلَهِيَّةُ تُعَدُّ مُوسَى لِحَمَلِ مِشْعَلِ الْهَدَايَةِ لِبَنِي إِسْرَائِيلَ	٢١٠
١٩-١٥	قِصَّةُ قَتْلِ مُوسَى لِلْقَيْظِيِّ	٢١١
٢٢-٢٠	مُؤْمِنُ آلِ فِرْعَوْنَ يَنْصَحُ مُوسَى بِالْخُرُوجِ مِنَ الْمَدِينَةِ - مُوسَى يَتَوَجَّهُ إِلَى مَدْيَنَ	٢١٥
٢٥-٢٣	قِصَّةُ زَوَاجِ مُوسَى مِنْ ابْنَةِ الرَّجُلِ الصَّالِحِ - هَلِ الرَّجُلُ الْكَبِيرُ، هُوَ شَعِيبٌ؟	٢١٧
٢٦	القَوِيُّ الْأَمِينُ	٢٢٠
٢٨، ٢٧	وَلِي الْأَمْرِ يَخْطُبُ لَابِتَهُ الرَّجُلُ الصَّالِحَ	٢٢١
٣٢-٢٩	قِصَّةُ النَّارِ وَالْعَصَا وَالْيَدِ	٢٢٣
٣٥-٣٣	مُوسَى يَتَنَذَّرُ إِلَى رَبِّهِ بِأَمْرَيْنِ	٢٢٧
٣٧، ٣٦	مُوسَى يُوَاكِهُ فِرْعَوْنَ بِمَا أَثَدَّهُ اللَّهُ مِنْ مُعْجَزَاتٍ	٢٣٠
٣٨	فِرْعَوْنَ يَدَّعِي الْإِلَهِيَّةَ وَيَأْمُرُ بِنَاءِ الصَّرْحِ	٢٣١
٤٢-٣٩	سَبَبُ طُغْيَانِ فِرْعَوْنَ وَنَتَائِجُ ذَلِكَ	٢٣٣
٤٣	الْعِبْرَةُ مِنْ قِصَّةِ مُوسَى وَفِرْعَوْنَ	٢٣٥
٤٤	ثَلَاثَةُ تَعْقِيَّاتٍ عَلَى قِصَّةِ مُوسَى ﷺ - التَّعْقِيبُ الْأَوَّلُ: كَيْفَ عَرَفَ مُحَمَّدٌ ﷺ جَانِبَ الطُّورِ الْغَرْبِيِّ	٢٣٧
٤٥	التَّعْقِيبُ الثَّانِي: - لَمْ يَكُنْ مُحَمَّدٌ ﷺ مُقِيمًا بَيْنَ أَهْلِ مَدْيَنَ مُعَاصِرًا لِأَحْدَاثِهَا	٢٣٨
٤٦	التَّعْقِيبُ الثَّالِثُ: - لَمْ يَكُنْ مُحَمَّدٌ ﷺ حَاضِرًا وَقْتُ نِدَاءِ اللَّهِ لِمُوسَى وَتَكْلِيمِهِ إِيَّاهُ	٢٣٩
٤٧	إِزْسَالُ الرُّسُلِ لِإِقَامَةِ الْحُجَّةِ وَقَطْعِ الْمَحَجَّةِ	٢٤١
٥٠-٤٨	الْيَهُودُ وَالْمُشْرِكُونَ يَكْذِبُونَ الثَّوْرَةَ وَالْقُرْآنَ، وَالرَّدُّ عَلَيْهِمْ	٢٤٢
٥١	صِلَةُ الْقُرْآنِ بِمَا قَبْلَهُ مِنَ الْكُتُبِ	٢٤٥
٥٢	مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ دَخَلَ فِي الْإِسْلَامِ عَنْ قَنَاعَةٍ	٢٤٦
٥٣	الْقُرْآنُ يَصِفُ مَنْ اعْتَنَقَ الْإِسْلَامَ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ بِسَبْعَةِ أَوْصَافٍ الْوَصْفُ الْأَوَّلُ: الْإِيمَانُ وَالْإِسْلَامُ	٢٤٧
٥٤	الْوَصْفُ الثَّانِي: مُضَاعَفَةُ الْأَجْرِ لَهُمْ عَلَى إِيْمَانِهِمْ بِالرُّسُولَيْنِ: السَّابِقِ وَاللَّاحِقِ	٢٤٧
٥٥	الثَّالِثُ: الضَّرَرُ - الْوَصْفُ الرَّابِعُ: ﴿وَيَذَرُهُمْ﴾ وَالْحَسَنَةُ الْكَلْبَةُ الْخَامِسُ: ﴿وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُعْمَلُونَ﴾	٢٤٩
٥٥	السَّادِسُ: الْإِعْرَاضُ عَنِ اللَّغْوِ مِنَ الْقَوْلِ أَوْ الْفِعْلِ - السَّابِعُ: عَدَمُ مَخَالَطَةِ الْجَاهِلِيَّةِ إِلَّا لِحَاجَةٍ - سَبَبُ النَّزُولِ	٢٥٠
٥٦	حِرْصُ الرُّسُولِ ﷺ عَلَى إِسْلَامِ أَبِي طَالِبٍ	٢٥٢
٥٧	مَعَبَّةُ عَدَمِ اغْتِنَاقِ الْإِسْلَامِ مَخَافَةَ الْإِذْنَاءِ وَالضَّرَرِ	٢٥٤
٥٨	عَوَاقِبُ الْكُفْرِ وَخِيَمَةُ	٢٥٦

الآية	فهرس المـ ووجـ وعات	الصفحة
٥٩	لَا عُقُوبَةَ يَدُونِ إِقَامَةِ حُجَّةٍ	٢٥٧
٦١، ٦٠	مَتَاعُ الدُّنْيَا وَمَتَاعُ الْآخِرَةِ	٢٥٨
٦٢	ثَلَاثَةُ أَسْئَلَةٍ لِلْمُشْرِكِينَ فِي سَاحَةِ الْعَرْضِ: السُّؤَالُ الْأَوَّلُ عَنْ جَانِبِ التَّوْحِيدِ	٢٦١
٦٤، ٦٣	تَبَرُّؤُ الْمَعْبُودِينَ مِنَ الْعَابِدِينَ فِي عَرَصَاتِ الْقِيَامَةِ	٢٦٢
٦٦، ٦٥	السُّؤَالُ الثَّانِي فِي سَاحَةِ الْعَرْضِ عَنِ الْإِيمَانِ بِالرَّسَالَةِ الْآخِرَةِ	٢٦٣
٦٧	اسْتِثْنَاءٌ مِمَّنْ حَقَّ عَلَيْهِمُ الْعَذَابُ - أَرْبَعَةُ تَعْقِيبَاتٍ عَلَى السُّؤَالَيْنِ السَّابِقَيْنِ:	٢٦٥
٦٨	التَّعْقِيبُ الْأَوَّلُ: اخْتِيَارُ الرَّسُولِ اضْطِغَافًا مِنَ اللَّهِ تَعَالَى - صِلَاةُ الْاسْتِخَارَةِ وَدَعَاؤُهَا	٢٦٦
٦٩	التَّعْقِيبُ الثَّانِي: عَلَّمَ اللَّهُ تَعَالَى مُحِيطَ بِالْظَوَاهِرِ وَالْبَوَاطِنِ	٢٦٧
٧٠	التَّعْقِيبُ الثَّالِثُ: اللَّهُ تَعَالَى هُوَ الْمُسْتَحَقُّ لِلْعِبَادَةِ دُونَ سِوَاهُ	٢٦٨
٧٣-٧١	التَّعْقِيبُ الرَّابِعُ: النَّظَامُ الْكُونِي لَا يَتَخَلَّفُ عَنْ خِدْمَةِ الْإِنْسَانِ	٢٦٨
٧٥، ٧٤	السُّؤَالُ الثَّالِثُ: فِي سَاحَةِ الْعَرْضِ: عَنِ الشُّرَكَاءِ وَالشَّهَدَاءِ	٢٧٠
٧٦	قِصَّةُ قَارُونَ - لِلشَّرَاءِ خَمْسَةُ أَصُولٍ - الْأَصْلُ الْأَوَّلُ: ﴿لَا تَرَحُّ﴾	٢٧١
٧٧	الْأَصْلُ الثَّانِي: ﴿وَاتَّبِعْ فِيمَا مَآثِلُكَ اللَّهُ أَدَارَ الْآخِرَةِ﴾ الثَّالِثُ: ﴿وَلَا تَسْكَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا﴾ ..	٢٧٣
٢٧٤	الْأَصْلُ الرَّابِعُ: ﴿وَأَمِينٌ كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ﴾ الْخَامِسُ: ﴿وَلَا تَبْجِ أَفْسَادَ فِي الْأَرْضِ﴾	٢٧٤
٧٨	مَوْقِفُ قَارُونَ مِنَ النَّصَائِحِ الْحَمْسِ	٢٧٤
٨٠، ٧٩	النَّاسُ قَرِيقَانِ أَمَامَ فِتْنَةِ الْمَالِ وَالْجَاهِ	٢٧٦
٨٢، ٨١	فَمَاذَا كَانَتْ نِهَايَةُ قَارُونَ؟ - الْإِعْتِبَارُ بِنِهَايَةِ قَارُونَ	٢٧٨
٨٤-٨٣	التَّعْقِيبُ عَلَى قِصَّةِ قَارُونَ - ثَوَابُ الْمُحْسِنِينَ وَجَزَاءُ الْمُسِيئِينَ	٢٨١
٨٥	تَعْقِيبُ السُّورَةِ عَلَى قِصَّتَيْ فِرْعَوْنَ وَقَارُونَ - وَعَدُ اللَّهِ لِرَسُولِهِ بِالْعَوْدَةِ إِلَى مَكَّةَ	٢٨٣
٨٨-٨٦	خَمْسَةُ تَكَالِيفٍ لِمَنْ شَرَفَهُ اللَّهُ بِالرَّسَالَةِ الْعَالَمِيَّةِ، هِيَ خِتَامُ السُّورَةِ	٢٨٤
٢٨٨	تَفْسِيرُ سُورَةِ الْعُنُكُوتِ مُقَدِّمَةُ السُّورَةِ - عُنَاصِرُ السُّورَةِ	٢٨٨
١	تَفْسِيرُ السُّورَةِ - الْحِكْمَةُ مِنْ افْتِتَاحِ بَعْضِ السُّورِ بِحُرُوفِ الْهَجَاءِ	٢٩٠
٣، ٢	أَفْسَامُ النَّاسِ بِالنِّسْبَةِ لِلْإِنْتِلَاءِ وَالْفِتَنِ	٢٩١
٢٩١	الْقِسْمُ الْأَوَّلُ: مُؤْمِنٌ ظَاهِرُ الْإِيمَانِ يَحْسُنُ عَقِيدَتَهُ مُبْتَلَى بِالْفِتَنِ - سَبَبُ النُّزُولِ	٢٩١
٤	الْقِسْمُ الثَّانِي: كَافِرٌ مُجَاهِدٌ يَكْفُرُهُ وَعِنَادُهُ	٢٩٥
٥	الْقِسْمُ الثَّالِثُ: مُحْسِنٌ يَرْجُو لِقَاءَ اللَّهِ وَيَعْمَلُ لَهُ	٢٩٦
٧، ٦	الْقِسْمُ الرَّابِعُ: مُجَاهِدٌ يَتَكَلِّفُ الْإِيمَانَ وَالصَّبْرَ عَلَى الْفِتَنِ - ثَلَاثَةُ أَمْثِلَةٍ لِفِتْنَةِ الْمُؤْمِنِينَ	٢٩٧
٩، ٨	الْفِتْنَةُ الْأُولَى: صَلَاحُ الْإِنِّ وَقَسَادُ أَحَدِ الْوَالِدَيْنِ أَوْ كِلَيْهِمَا - سَبَبُ النُّزُولِ	٢٩٨
١١، ١٠	الْفِتْنَةُ الثَّانِيَّةُ: فِتْنَةُ الْأَدَى مِنَ النَّاسِ بِسَبَبِ الْإِيمَانِ	٣٠١
١٢	الْفِتْنَةُ الثَّالِثَةُ: فِتْنَةُ الْإِعْوَاءِ وَالْإِعْرَاءِ	٣٠٥
١٣	الْإِنْسَانُ لَا يَتَحَمَّلُ وَزْرَ غَيْرِهِ	٣٠٧
١٥، ١٤	خَمْسَةُ أَمْثِلَةٍ مِنْ فِتْنَةِ الرُّسُلِ - الْمِثَالُ الْأَوَّلُ: جِهَادٌ طَوِيلٌ وَمِمَارٌ قَلِيلٌ: فِتْنَةُ نُوحٍ مَعَ قَوْمِهِ	٣٠٨

الآية	فهرس الم	وج	وعات	الصفحة
١٨-١٦	الْمِثَالُ الثَّانِي: حَوَارِ الْأَحْبَابِ وَالْمُنَظَرِ: فَتَنَةُ إِبْرَاهِيمَ مَعَ قَوْمِهِ			٣١١
١٩	وَقَفَّةً مَعَ دَلَائِلِ التَّوْحِيدِ قَبْلَ نَهَايَةِ قِصَّةِ إِبْرَاهِيمَ			٣١٣
٢١، ٢٠	آيَاتِ اللَّهِ فِي الْخَلْقِ وَالْبَعثِ			٣١٤
٢٤	جَوَابُ قَوْمِ إِبْرَاهِيمَ لَهُ			٣١٦
٢٥	عِبَادَةُ الْأَوْثَانِ تَقْلِيدٌ لِلْأَبَاءِ وَمُجَامَلَةٌ لَهُمْ			٣١٧
٢٧، ٢٦	هَجْرَةُ إِبْرَاهِيمَ مِنَ الْعِرَاقِ إِلَى فِلَسْطِينَ مُرُورًا بِبُصْرَى			٣١٨
٢٨-٣٥	الْمِثَالُ الثَّلَاثُ: فَتَنَةُ الرِّدْيَةِ وَالشُّذُودِ الْجَنَسِيِّ: لُوطٌ مَعَ قَوْمِهِ - ثَلَاثَةُ أَوصَافٍ لَهُمْ			٣٢٠
٣٧، ٣٦	الْمِثَالُ الرَّابِعُ: فَتَنَةُ الْكَسْبِ الْحَرَامِ بِتَطْفِيفِ الْكَيْلِ وَالْمِيزَانِ - شُعَيْبٌ مَعَ أَهْلِ مَدْيَنَ			٣٢٥
٣٩، ٣٨	الْمِثَالُ الْخَامِسُ: فَتَنَةُ طُغْيَانِ الْمَالِ وَاسْتِثْدَادِ الْحُكْمِ وَالْإِغْتِرَارِ بِالْقُوَّةِ وَبَطْرِ التَّعَمُّ			٣٢٦
٤٠	أَرْبَعَةُ أَلْوَانٍ مِنْ عَذَابِ الْمُكَذِّبِينَ			٣٢٧
٤٣-٤١	مَنْ يَتَّبِعْ غَيْرَ اللَّهِ تَعَالَى كَالْمَتَمَلِّقِ يَخِيطُ الْمَنَكُوبُ			٣٢٩
٤٥-٤٤	رَبَطَ الْمُسْلِمَ بِرَبِّهِ عَنْ طَرِيقِ النَّظَرِ فِي الْكُفُونِ وَطَرِيقِ الْعِبَادَةِ - الْعِبَادَةُ ثَلَاثَةُ أَنْوَاعٍ			٣٣١
٤٦	دَعْوَةُ أَهْلِ الْكِتَابِ - أَهْلُ الْكِتَابِ صَفَانِ - حُكْمُ الْأَخْذِ عَنْ أَهْلِ الْكِتَابِ			٣٣٦
٤٧	أَصْنَافُ النَّاسِ تَجَاهَ كِتَابِ اللَّهِ تَعَالَى ثَلَاثَةٌ - ثَلَاثَةٌ مِنْ شُبِّهِ الْكُفَّارِ عَلَى الْوَحْيِ وَالرَّسَالَةِ			٣٤٢
٤٩، ٤٨	الشُّبْهُ الْأَوَّلَى: دَعْوَاهُمْ أَنَّ الْقُرْآنَ مِنْ عِنْدِ مُحَمَّدٍ ﷺ			٣٤٣
٥٠	الشُّبْهُ الثَّانِيَةُ: طَلَبُ الْحَاجِدِينَ لِآيَاتِ الْقُرْآنِ مِنَ النَّبِيِّ ﷺ أَنْ يُؤَيِّدَ بِالْمُعْجَزَاتِ الْجَسِيَّةِ وَجَوَابِهِمْ			٣٤٦
٥١	خَمْسُ مَزَايَا فِي الْمَعْجَزَةِ الْخَالِدَةِ			٣٤٧
٥٢	كَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا عَلَى صِدْقِ خَاتَمِ الْمُرْسَلِينَ			٣٤٩
٥٣	الشُّبْهُ الثَّالِثَةُ: اسْتِغْجَالُ الْمُكَذِّبِينَ لِنُزُولِ الْعَذَابِ بِهِمْ فِي الدُّنْيَا			٣٤٩
٥٥، ٥٤	وَاسْتِغْجَالُهُمْ نُزُولَ الْعَذَابِ الْآخِرِيِّ بِهِمْ أَيْضًا			٣٥١
٥٦	التَّخْرِيفُ عَلَى الْهَجْرَةِ فِرَارًا بِالَّذِينَ			٣٥٣
٥٧	هَاجَرُوا وَلَا تَخْشَوْا الْمَوْتَ أَوْ الْفَقْرَ			٣٥٤
٥٩، ٥٨	عَظُمَ جَزَاءُ الْمُؤْمِنِينَ			٣٥٥
٦٠	الْمُؤْمِنُ لَا يَخَافُ الْفَقْرَ وَعَلَيْهِ أَنْ يَتَذَلَّ السَّبَبَ			٣٥٦
٦١	تَنَاقُضُ الْمُشْرِكِينَ فِي عِبَادَتِهِمْ لِغَيْرِ اللَّهِ تَعَالَى فِي خَمْسِ حُجَجٍ			٣٥٧
٦٢	الْحُجَّةُ الْأَوَّلَى: اِغْتِرَافُ الْكُفَّارِ بِأَنَّ اللَّهَ تَعَالَى هُوَ الْخَالِقُ لِهَذَا الْكَوْنِ			٣٥٧
٦٣	الْحُجَّةُ الثَّانِيَةُ: اِغْتِرَافُهُمْ بِأَنَّ اللَّهَ تَعَالَى هُوَ الرَّازِقُ لِعِبَادِهِ			٣٥٨
٦٤	الْحُجَّةُ الثَّالِثَةُ: اِغْتِرَافُهُمْ بِأَنَّ اللَّهَ تَعَالَى هُوَ مُنْزِلُ الْمَاءِ وَخَالِقُ النَّبَاتِ وَغَيْرِهِ			٣٥٨
٦٥، ٦٤	مَنَاعُ الدُّنْيَا ظِلَّ رَازِلٍ وَنَعِيمُ الْآخِرَةِ لَا يَنْقُذُ			٣٥٩
٦٦، ٦٥	الْحُجَّةُ الرَّابِعَةُ: التَّعَرُّفُ عَلَى اللَّهِ فِي الشَّدَةِ فَقَطْ			٣٦٠
٦٧	الْحُجَّةُ الْخَامِسَةُ: نِعْمَةُ الْأَمْنِ وَالْأَمَانِ فِي رَحَابِ الْإِسْلَامِ			٣٦١
٦٩، ٦٨	النَّاسُ أَمَامَ دَعْوَةِ الْإِسْلَامِ قَرِيقَانِ: طَالِمٌ مُكَذِّبٌ وَمُؤْمِنٌ مُخْلِصٌ			٣٦٢

الآية	فهرس الم	وج	وعات	الصفحة
	تفسير سورة الروم - مقدمة السورة - موضوعها - مقاطعها	٣٦٤		
١	تفسير السورة - افتتاح بعض السور بحروف الهجاء	٣٦٨		
٦-٢	من معجزات النبي ﷺ - سبب النزول - قتال فارس والروم - التعريف بالروم	٣٦٨		
	أول من حرف وغير دين النصارى - طوائف النصارى الثلاث - الأناجيل الأربعة	٣٧٥		
	تنقسم الكنائس في العصر الحاضر إلى قسمين - الفرس	٣٧٣		
٦	نتائج المعركة بين أقوى دولتين في العالم القديم	٣٧٣		
٧	العلم الدنيوي والعلم الأخروي - علم الظاهر والباطن	٣٧٦		
٨	خمس دعوات لدراسة أسرار النفس والكون والتاريخ والنشأة الآخرة	٣٧٩		
	الدعوة الأولى: دعوة إلى التأمل في النفس - الدعوة الثانية: دعوة إلى التأمل في الكون	٣٧٩		
٩	الدعوة الثالثة: دعوة إلى دراسة التاريخ	٣٨١		
١٠	أسوأ العقاب في الآخرة لمن كفر وكذب بإيات الله	٣٨٢		
١١	الدعوة الرابعة: دعوة إلى التأمل في سلسلة نشأة الإنسان	٣٨٣		
١٣، ١٢	الدعوة الخامسة: دعوة إلى التأمل في مشهد من مشاهد يوم القيامة	٣٨٣		
١٦-١٤	الجزاء الأخروي للمؤمن والكافر	٣٨٤		
١٨، ١٧	عشرة أدلة للتعرف على وحدانية الخالق سبحانه تستهل بتسبيح الله تعالى وحمده	٣٨٥		
	في رحاب التسبيح والتحميد - للتسبيح معنيين - أحاديث في التسبيح	٣٨٦		
١٩	الدليل الأول: الإخياء والإماتة	٣٨٨		
٢٠	الدليل الثاني: البقاء والإعادة	٣٨٩		
٢١	الدليل الثالث: المودة والرحمة بين الزوجين	٣٩٠		
٢٢	الدليل الرابع: خلق السموات والأرض - الدليل الخامس: اختلاف الأنسنة والألوان	٣٩١		
٢٣	الدليل السادس: الراحة والحركة في الليل والنهار	٣٩٣		
٢٤	الدليل السابع: البرق والمطر	٣٩٣		
٢٥	الدليل الثامن: ثبوت السموات والأرض وبقاؤهما بانتظام واستقرار	٣٩٤		
٢٦	الدليل التاسع: خضوع الكون كله لله تعالى	٣٩٥		
٢٧	الدليل العاشر: قضية البعث والنشور	٣٩٦		
٢٩، ٢٨	مثل المشرك بالله تعالى	٣٩٧		
٣٠	دين الفطرة - معنى الفطرة	٣٩٩		
٣٢، ٣١	وجوب الاستقامة على منهج الله، وعدم الاختلاف في الدين	٤٠٢		
٣٤، ٣٣	فتنة السراء والضراء - أولاً: حال الإنسان عندما تأتيه النعمة بعد النعمة	٤٠٤		
٣٥	الكفر والشرك ليس لهما مستند عقلي ولا شرعي	٤٠٥		
٣٦	ثانياً: حال الإنسان عندما يضاب بالنعمة بعد النعمة	٤٠٦		
٣٨، ٣٧	شان المؤمنين الشكر في السراء والصبر على البلاء - الأمر بالصدق والصلة	٤٠٧		

الآية	فهرس الم	وجع	الصفحة
٣٩	مِنْ مَظَاهِرِ الرَّبِّ - التدرج في تحريم الربا	٤٠٨	٤٠٨
٤٠	مِنْ خَصَائِصِ إِلَهِ الْحَقِّ: الْخَلْقُ وَالرِّزْقُ وَالْإِحْيَاءُ وَالْإِمَاتَةُ	٤١٠	٤١٠
٤٢، ٤١	الْحَيَاةُ تَصْلُحُ بِالطَّاعَةِ وَتَفْسُدُ بِالْمَعْصِيَةِ	٤١٣	٤١٣
٤٣	الْأَمْرُ بِالنَّبَاتِ عَلَى الْحَقِّ وَالتَّمَسُّكُ بِهِ قَبْلَ قِيَامِ السَّاعَةِ	٤١٦	٤١٦
٤٥، ٤٤	جَزَاءُ الْكُفَّارِ وَالْمُؤْمِنِينَ	٤١٧	٤١٧
٤٦	مِنْ دَلَائِلِ الْقُدْرَةِ الْإِلَهِيَّةِ: هُبُوبُ الرِّيحِ لِيُسْرَ بِتُرُولِ الْمَطَرِ	٤١٨	٤١٨
٤٧	نَتَائِجُ دَعْوَةِ الرُّسُلِ - عوامل النصر على الأعداء عشرة	٤١٩	٤١٩
٤٩، ٤٨	مِنْ مَنَافِعِ الرِّيحِ	٤٢٢	٤٢٢
٥١، ٥٠	دَلَالَةُ النَّبَاتِ عَلَى الْبُعْثِ وَالنُّشُورِ - جَاحِدُ النِّعَمَةِ يُرَاوِدُهُ الْكُفْرُ لِأَذْنَى سَبَبٍ	٤٢٤	٤٢٤
٥٣، ٥٢	الْكَافِرُ لَا يَنْتَفِعُ بِمَوْعِظَةٍ	٤٢٥	٤٢٥
٥٤	قُدْرَةُ اللَّهِ تَعَالَى فِي أَطْوَارِ حَيَاةِ الْإِنْسَانِ بَيْنَ الضَّعْفِ وَالْقُوَّةِ	٤٢٦	٤٢٦
٥٥	وَضَفُ حَالِ الْمُجْرِمِينَ عِنْدَ قِيَامِ السَّاعَةِ	٤٢٨	٤٢٨
٥٧، ٥٦	أَهْلُ الْعِلْمِ يَرُدُّونَ عَلَى مُنْكَرِي الْبُعْثِ	٤٢٩	٤٢٩
٥٩، ٥٨	الْإِخْبَارُ عَنْ قِسْوَةِ قُلُوبِ الْكُفَّارِ	٤٣٠	٤٣٠
٦٠	الْخِطَابُ الْأَخِيرُ	٤٣١	٤٣١
٥-١	تَفْسِيرُ سُورَةِ لُقْمَانَ - مُقَدِّمَةُ السُّورَةِ - مقاطعها أربعة	٤٣٣	٤٣٣
٧، ٦	تَفْسِيرُ السُّورَةِ - الْمُتَنَفِّعُونَ بِهَذِي الْقُرْآنِ صِفَاتُهُمْ وَقُورُهُمْ بِالْجَنَّةِ	٤٣٦	٤٣٦
١٠- ٨	غَيْرِ الْمُتَنَفِّعِينَ بِالْقُرْآنِ وَصِفَاتُهُمْ - لهُرِ الْحَدِيثِ	٤٣٨	٤٣٨
١١، ١٠	نَوَابِ الْمُؤْمِنِينَ -	٤٤٣	٤٤٣
١٢	الْقُرْآنُ يُخَاطِبُ الْعَقْلَ مِنْ خِلَالِ مَخْلُوقَاتِ أَرْبَعَةٍ هِيَ: السَّمَوَاتُ وَالْجِبَالُ - والدواب والماء	٤٤٤	٤٤٤
١٣	لُقْمَانُ وَمَنَاقِبُهُ	٤٤٧	٤٤٧
١٤	مَوَاعِظُ لُقْمَانَ لِابْنِهِ: أَرْبَعُ وَصَايَا وَسَبْعَةُ تَكْلِيفَاتٍ - أ- الوصايا الأربع: أولا: النهي عن الشرك	٤٥٠	٤٥٠
١٥	ثَانِيًا: الْوَصِيَّةُ بِالْوَالِدَيْنِ	٤٥١	٤٥١
١٦	ثَالِثًا: الْحِسَابُ الدَّقِيقُ وَالْجَزَاءُ الْعَادِلُ	٤٥٧	٤٥٧
١٧	رَابِعًا: الْوَصِيَّةُ بِسَمْعَةِ مِنَ التَّكْلِيفِ الشَّرْعِيِّ - التَّكْلِيفُ الْأَوَّلُ: ﴿يَتَّبِعْ أَفْرَ الصَّلَاةِ﴾	٤٥٩	٤٥٩
١٩	الثَّانِي: ﴿وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَنْهَ عَنِ الْمُنْكَرِ﴾ الثَّالِثُ: ﴿وَأَصْبِرْ عَلَى مَا أَصَابَكَ﴾ الرَّابِعُ: ﴿وَلَا تُصِرْ خَلَكًا لِلنَّاسِ﴾	٤٦٠	٤٦٠
١٩	التَّكْلِيفُ الْخَامِسُ: ﴿وَلَا تَبْسُ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا﴾	٤٦٢	٤٦٢
٢٠	التَّكْلِيفُ السَّادِسُ: ﴿وَأَقْبِصْ فِي مَشِيكَ﴾ - التَّكْلِيفُ السَّابِعُ: ﴿وَأَغْضُضْ مِنْ صَوْتِكَ﴾	٤٦٢	٤٦٢
٢٠	خَامِسًا: وَصَايَا أُخْرَى لِلْقِمَانِ لَيْسَتْ فِي الْقُرْآنِ	٤٦٤	٤٦٤
٢٠	سَبْعَةُ أَدِلَّةٍ كَوْنِيَّةٍ عَلَى وَحْدَانِيَّةِ اللَّهِ تَعَالَى - الدَّلِيلُ الْأَوَّلُ: تَسْخِيرُ مَا فِي الْكَوْنِ لِيُخْدَمَ الْإِنْسَانُ	٤٦٧	٤٦٧
٢٠	إِسْبَاغُ نَعَمِ اللَّهِ عَلَى عِبَادِهِ: النَّاسُ أَمَامَ شُكْرِ النِّعَمِ فَرِيقَانِ:	٤٦٧	٤٦٧

الآية	فهرس المـ وـ وعات	الصفحة
٢٤-٢١	التَّكْلِيدُ الْأَعْمَى يَقُودُ إِلَى جَهَنَّمَ - التَّمَسُّكُ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى سَبِيلُ النِّجَاةِ	٤٦٩
٢٥	الدَّلِيلُ الثَّانِي: تَنَافُضُ الْمُشْرِكِينَ فِي عِبَادَتِهِمْ غَيْرَ اللَّهِ تَعَالَى	٤٧١
٢٧، ٢٦	الدليل الثالث: جميع ما في الكون ملك لله - الدَّلِيلُ الرَّابِع: عِلْمُ اللَّهِ تَعَالَى لَا يَنْتَاهِي	٤٧٢
٢٨	الدَّلِيلُ الْخَامِس: الْبَغْثُ وَالتَّشْوُرُ	٤٧٤
٢٩	الدَّلِيلُ السَّادِس: تَعَاقُبُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالشَّمْسِ وَالْقَمَرِ	٤٧٥
٣٠	إِلَٰهَةُ الْحَقِّ	٤٧٦
٣٢، ٣١	الدَّلِيلُ السَّادِس: جَرَى السُّفْنِ فِي الْبَحْرِ - أَحْوَالُ النَّاسِ عِنْدَ الْخَوْفِ مِنَ الْعَرَقِ	٤٧٧
٣٣	الْمَسْئُولِيَّةُ قَرُونِيَّةٌ أَمَامَ رَبِّ الْعَالَمِينَ	٤٧٩
٣٤	مَقَاتِلُ الْغَيْبِ الْخَمْسُ - أَوَّلًا: ﴿إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ﴾ - ثَانِيًا: ﴿وَيُرْسِلُ الْغَيْثَ﴾	٤٨٠
٤٨٢	ثَالِثًا: ﴿وَيَعْلَمُ مَا فِي الْأَرْحَامِ﴾ - رَابِعًا: ﴿وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا﴾ - خَامِسًا: ﴿وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ﴾	٤٨٢
٤٨٥	تَفْسِيرُ سُورَةِ السَّجْدَةِ - مُقَدِّمَةُ السُّورَةِ - قِرَاءَتُهَا فِي فَجْرِ الْجُمُعَةِ وَعِنْدَ النَّوْمِ - أَغْرَاضُهَا وَمَقَاطِعُهَا ..	٤٨٥
٣-١	تَفْسِيرُ السُّورَةِ - قَضِيَّةُ الْوَحْيِ وَالرَّسَالَةِ	٤٨٨
٦-٤	التَّوْحِيدُ وَأَدِلَّتُهُ - الدَّلِيلُ الْأَوَّلُ: مِنَ الْكُفْرِ فِيهِ ثَلَاثُ قَضَايَا	٤٩٠
٩-٧	الدَّلِيلُ الثَّانِي: مِنَ النَّفْسِ الْبَشَرِيَّةِ	٤٩٥
١١، ١٠	الْيَوْمُ الْآخِرُ آتٍ لَا مَحَالَةَ	٤٩٧
١٢	مَشْهُدٌ مُتَكَرِّرٌ الْبَغْثُ فِي سَاحَةِ الْغُرُصِ وَالْحِسَابِ	٤٩٩
١٤-١٣	الْإِنْسَانُ يَضَعُ مُسْتَقْبَلَهُ بِنَفْسِهِ	٥٠٠
١٧-١٥	أَهْلُ السَّعَادَةِ وَنَعِيمُهُمْ - أَحَادِيثُ فِي مَعْنَى الْآيَةِ - فِي فَضْلِ قِيَامِ اللَّيْلِ	٥٠٢
٢٢-١٨	الْمُؤْمِنُ وَالْفَاسِقُ لَا يَسْتَوِيَانِ فِي الْجَزَاءِ	٥٠٨
٢٥-٢٣	أَمْرُ اللَّهِ تَعَالَى لِنَبِيِّهِ أَنْ يَتَّسَى بِمُوسَى فِي صَبْرِهِ عَلَى إِغْرَاضِ قَوْمِهِ	٥١٢
٢٦	الِإِغْتِيَارُ بِمَصَارِعِ الْغَابِرِينَ	٥١٥
٢٧	إِخْرَاجُ النَّاسِ مِنْ قُبُورِهِمْ كإِخْرَاجِ النَّبَاتِ مِنَ الْأَرْضِ	٥١٦
٢٩-٢٨	يَوْمُ الْفَتْحِ الْحَقِيقِيِّ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ	٥١٧
٣٠	الْخُطَابُ الْآخِرُ فِي السُّورَةِ لِكُلِّ دَاعِيَةٍ	٥١٨
٥١٩	تَفْسِيرُ سُورَةِ الْأَحْزَابِ - مُقَدِّمَةُ السُّورَةِ - مَقَاطِعُهَا - أَغْرَاضُهَا - خَمْسَةُ نِدَاءَاتٍ لِلنَّبِيِّ ﷺ	٥١٩
٥٢٢	النِّدَاءُ الْأَوَّلُ: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ اتَّقِ اللَّهَ﴾ النِّدَاءُ الثَّانِي ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لِّأَزْوَاجِكَ﴾ [٢٨]	٥٢٢
٥٢٣	الثَّالِثُ ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَهِيدًا﴾ [٤٥] الرَّابِعُ ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَعْلَلْنَا لَكَ أَزْوَاجَكَ﴾ [٥٠]	٥٢٣
٥٢٤	النِّدَاءُ الْخَامِسُ: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لِّأَزْوَاجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَاءِ الْمُؤْمِنِينَ يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِنْ جَلِيبِهِنَّ﴾ [٥٩] ..	٥٢٤
٥٢٤	سِتَّةُ نِدَاءَاتٍ لِلْمُؤْمِنِينَ - آيَةُ الْأَمَانَةِ	٥٢٤
٥٢٦	تَفْسِيرُ السُّورَةِ - أَمْرٌ وَاحِدٌ وَثَلَاثَةٌ تَوَاءٌ - التَّوْحِيدُ الْأَوَّلُ: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ اتَّقِ اللَّهَ﴾	٥٢٦
٥٢٧	التَّوْحِيدُ الثَّانِي: ﴿وَلَا تَطِعِ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ﴾	٥٢٧
٣٠، ٢	التَّوْحِيدُ الثَّالِثُ فِي النِّدَاءِ الْأَوَّلِ لِلنَّبِيِّ ﷺ - التَّوْحِيدُ الرَّابِعُ: ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلًا﴾	٥٢٨

الآية	فهرس الم	وجع	وحدات	الصفحة
٤	إِنْطَالُ ثَلَاثٍ مِنْ عَادَاتِ الْجَاهِلِيَّةِ			٥٢٩
٥	لَا يُنْسَبُ الْمُتَّبِيُّ لِمَنْ تَبَّاهُ وَلَا يَحْمِلُ اسْمَهُ - قصة تبي (زيد) وإبطال التبي			٥٣١
٦	ثَلَاثُ قَضَايَا شَرْعِيَّةٍ: تقديم النبي على النفس - أمهات المؤمنين - التوارث بالرحم			٥٣٥
٨، ٧	ثلاثة أنواع من الموائيق			٥٤١
٩	عَزْوَةُ الْأَحْزَابِ - أحداث الغزوة - وسبها			٥٤٤
١١، ١٠	الْوَضْفُ الْعَامُّ لا ابتلاء المؤمنين			٥٤٨
١٥-١٢	وَضْفُ حَالِ الْمُتَافِقِينَ فِي الْمَعْرَكَةِ والكشف عن حقيقتهم			٥٥٠
١٨-١٦	خوف المنافقين وتطيئهم للمؤمنين			٥٥٤
٢٠، ١٩	جُبْنُ الْمُتَافِقِينَ وَيُخْلَهُمْ			٥٥٧
٢١	وُجُوبُ التَّائِسِيِّ بِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ - مواقف إيمانية في حفر الخندق			٥٦٠
٢٢	وَضْفُ حَالِ الْمُؤْمِنِينَ عِنْدَ رُؤْيَيْهِمْ تَجَمُّعُ الْأَحْزَابِ			٥٦٣
٢٤، ٢٣	ثَنَاءُ اللَّهِ تَعَالَى عَلَى رِجَالٍ وَقَوَّاهُمْ بِمَعْنَاهُ - جملة من الأحاديث في معنى الآية			٥٦٤
٢٥	نَهَايَةُ الْمَعْرَكَةِ			٥٦٧
٢٦	عَذْرُ بَنِي قُرَيْظَةَ وَعُقُوبَتُهُمْ - نقض اليهود لليهود - أمر من الله في شأن بني قريظة			٥٦٩
٢٧	البُشْرَى بِفَتْحِ خَيْرٍ وَقَارِسٍ وَالرُّومِ			٥٧٢
٢٩، ٢٨	نِسَاءُ الرَّسُولِ ﷺ بَيْنَ خِيَارَيْنِ - التعريف بأمهات المؤمنين			٥٧٣
٣١، ٣٠	مُضَاعَفَةُ الْأَجْرِ وَالْعُقُوبَةِ لِزَوَاجَاتِ النَّبِيِّ ﷺ			٥٧٩
٣٢	تَسْمَةُ آدَابِ نِسَاءِ النَّبِيِّ ﷺ وَلِغَيْرِهِنَّ مِنْ بَابِ أُولَى - الْأَوَّلُ: زِيَادَةُ فَضْلِ نِسَاءِ النَّبِيِّ ﷺ عَلَى غَيْرِهِنَّ			٥٨١
٣٣	الْأَدَبُ الثَّانِي: النهي عن الخضوع في القول - الْأَدَبُ الثَّالِثُ: الأمر بالإغْتِدَالِ في القول			٥٨٢
	الْأَدَبُ الرَّابِعُ: أمر المرأة بِمَلَاَزِمَةِ الْبَيْتِ - الْأَدَبُ الْخَامِسُ: النَّهْيُ عَنِ التَّبَرُّجِ وَالسُّفُورِ			٥٨٣
	الْأَدَبُ السَّادِسُ: أمر المرأة بِإِقَامِ الصَّلَاةِ - الْأَدَبُ السَّابِعُ: أمر المرأة بِإِخْرَاجِ الزَّكَاةِ			٥٨٦
	الْأَدَبُ الثَّامِنُ: الأمر بِطَاعَةِ اللَّهِ وَالرَّسُولِ - من هم أهل البيت؟ ثلاثة أقوال			٥٨٧
٣٤	الْأَدَبُ الثَّاسِعُ: الأمر بِمُدَارَسَةِ الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ			٥٩٠
٣٥	عَشْرُ مَرَاتِبٍ فِي الطَّاعَةِ لِلنِّسَاءِ وَالرِّجَالِ - أحاديث في أسباب النزول			٥٩٠
	أَوَّلًا: الانقياد لأمر الله تعالى - ثَانِيًا: مرتبة الإيمان - ثَالِثًا: مرتبة الطاعة			٥٩٢
	رَابِعًا: مرتبة الصدق في الأقوال والأفعال - خَامِسًا: مرتبة الصبر على ما أمر الله به فيما سرَّ وأساء:			٥٩٤
	سَادِسًا: مرتبة الخشوع والتواضع لله ﷻ: سَابِعًا: مرتبة الصدق			٥٩٤
	ثَامِنًا: المحافظة على الصوم المفروض، والتقرب إلى الله بالصوم المسنون:			٥٩٥
	تَاسِعًا: العفة والطهارة: - عَاشِرًا: الإكثار من ذكر الله تعالى - أحاديث وآثار			٥٩٥
٣٦	قِصَّةُ زَيْنَبَ وَزَيْدٍ ﷺ			٥٩٨
٣٧	إبطال التبي - ترجمة زيد وعدد زوجاته			٦٠٠
٣٩، ٣٨	زواج النبي ﷺ من زينب بأمر الله تعالى - فائدة هذا الزواج - ما يؤخذ من القصة			٦٠٣

فأحضر النفس

تأليف :

أحمد بن أحمد محمد عبد الله الطويل

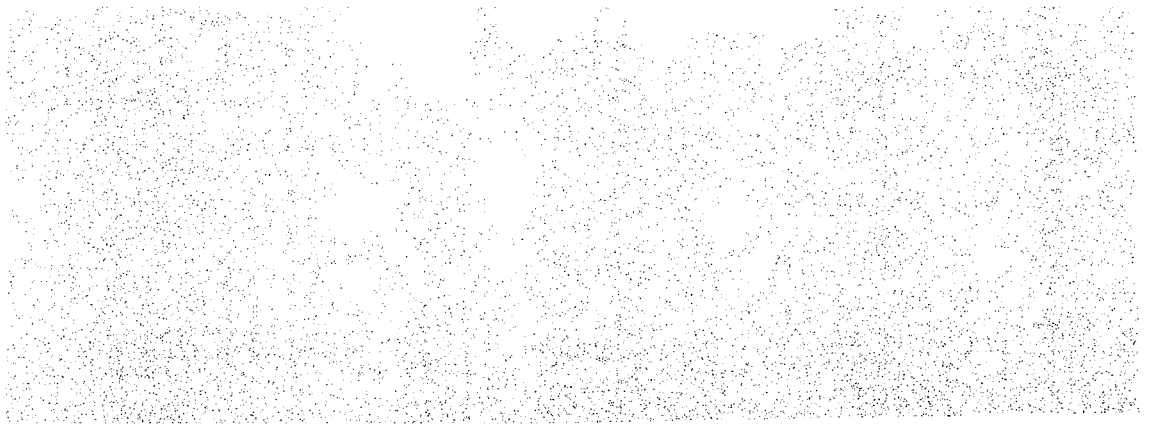
عُضْوُ اللَّجْنَةِ الْعِلْمِيَّةِ لِمُرَاجَعَةِ مُصْحَفِ الْمَدِينَةِ الْمَدِينَةِ
وَلَجْنَةِ الْإِشْرَافِ عَلَى التَّسْجِيلَاتِ الْقُرْآنِيَّةِ
بِمُجْمَعِ الْمَلِكِ فَهْدٍ لَطَبَاعَةِ الْمُصْحَفِ الشَّرِيفِ

قَدَّمَ لَهُ : مَعَالِي الدُّكْتُور / عَبْدُ اللَّهِ بْنُ عَبْدِ الْمُحْسِنِ الشُّرَيْكِي
وَالْأُسْتَاذُ الدُّكْتُور / صَالِحُ بْنُ غَانِمِ السَّدْلَانِ
وَنُخْبَةٌ مِنَ الْعُلَمَاءِ الْمُتَخَصِّصِينَ

المجلد الحادي عشر

من أول سورة سبأ إلى آخر سورة غافر

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ



تَفْسِيرُ سُورَةِ سَبَأٍ (٣٤)

مُقَدِّمَةُ السُّورَةِ

سورة (سبأ) هي السورة الرابعة والثلاثون في ترتيب المصحف، والثامنة والخمسون في ترتيب النزول، وعدد آياتها أربع وخمسون آية عند جمهور أهل العدد، وخمس وخمسون آية في المصحف الشامي.

وهي ثمان مئة وثلاث وثمانون كلمة، وألف وخمسة مئة واثنان عشر حرفاً.

وهي سورة مكية، نزلت بعد سورة (لقمان)، وقبل سورة (الزمر).

وسُمِّيَتْ هذه السورة، سورة (سبأ): لذكر قصة أهل سبأ فيها.

وهي رابع سورة بُدِئَتْ بحمد الله تعالى والثناء عليه وتمجيده سبحانه، فهو -جلّ شأنه- مالكُ هذا الكون وخالقه، وحصاد هذه الدنيا راجع إليه بعدله ورحمته.

وشأن سورة (سبأ) شأن السور المكية:

فهي تعالج أولاً: قضية الشرك، والتوحيد، فتبطل قواعد الشرك، وتقيم الأدلة على انفراده تعالى بالإلهية، وتنفي الإلهية عن أصنامهم، أو أن تكون لهم شفعاء عند الله تعالى، ويأتي ذلك في تقرير أن لله تعالى ﴿مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾ في الآية الأولى من السورة.

ومن الآيات التي تبطل الشرك في أثناء السورة قوله تعالى: ﴿قُلْ أَدْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِنْ شِرْكٍَ وَمَا لَهُمْ مِنْهُمْ مِنْ ظَهِيرٍ﴾ (١١).

وفي إبطال إلهية الملائكة والجن قوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جِيعًا ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلَائِكَةِ أَهْلُوا لَكُمْ إِنَّا كُنَّا نَعْبُدُونَكُمْ قَالُوا سُبْحَانَكَ أَنْتَ وَلِيُّنَا مِنْ دُونِهِمْ بَلْ كَانُوا يَعْبُدُونَ الْجِنَّ أَكْثَرُهُمْ بِهِمْ مُؤْمِنُونَ﴾ (١٢).

وفي نفي شفاعة الملائكة عند ربهم إلا بإذنه تعالى يقول سبحانه: ﴿وَلَا تَنْفَعُ الشَّفَعَةُ

عِنْدَهُ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُ ﴿٢٣﴾.

أما القضية الثانية من قضايا السور المكية: فهي قضية البعث والجزاء التي يستبعلها كفار الأمس واليوم، وقد جاء ذلك في مواطن كثيرة من السورة، منها قوله تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَأْتِينَا السَّاعَةُ﴾ قال تعالى: ﴿قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتَأْتِيَنَكُمُ﴾ [٣].

وقوله سبحانه: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا هَلْ نَدُلُّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ يُنَبِّئُكُمْ إِذَا مُزِقْتُمْ كُلٌّ مُّزِقٍ إِنَّكُمْ لَئِي حَلَقٍ جَدِيدٍ ﴿٧﴾ أَفَتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَمْ بِهِ جِنَّةٌ بَلِ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ فِي الْعَذَابِ وَالضَّلَالِ الْبَعِيدِ ﴿٨﴾﴾.

وفيما يكون بين الضعفاء والأقوياء يوم القيامة من تلاؤم وعتابٍ مرير، يقول تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَىٰ إِذِ الظَّالِمُونَ مَوْقُوفُونَ عِنْدَ رَبِّهِمْ يَرْجِعُ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ الْقَوْلَ يَقُولُ الَّذِينَ اسْتَضَعِفُوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا لَوْلَا أَنْتُمْ لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ﴾.

وتُخْتَمُ السورة بالحديث عن القيامة في قوله تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَىٰ إِذِ فِرْعَوْنُ فَلَا فَوْتَ وَاعْدُوا مِنْ مَكَانٍ قَرِيبٍ ﴿٥١﴾﴾، إلى آخر السورة.

وتقرير قاعدة الجزاء العادل يوم لقاء رب العالمين، جاء في قوله تعالى: ﴿لِيَجْزِيَ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَٰئِكَ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴿٤﴾ وَالَّذِينَ سَعَوْا فِي ءَايَاتِنَا مُعْجِزِينَ أُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مِّن رَّجْزٍ أَلِيمٍ ﴿٥﴾﴾.

أما القضية الثالثة: وهي قضية الوحي والرسالة:

فقد جاءت في مثل قوله تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَنُؤْمِنَ بِهَٰذَا الْقُرْآنِ وَلَا بِالَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ [٣١].

وقوله سبحانه: ﴿قَالُوا مَا هَٰذَا إِلَّا رَجُلٌ يُرِيدُ أَنْ يَصُدَّكُمْ عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ ءَابَاؤَكُمْ﴾

وقوله تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ إِنَّ هَٰذَا إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾ [٤٣].

وقوله تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا﴾ [٢٨].

وقوله تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ ﴿٣٤﴾﴾.

كما تحدثت السورة عن جوانب من قصة داود وسليمان، وتسخير الجن له في الرد على من

يعبدون الجن من دون الله، إلى جوار قصة أهل سبأ التي لم تُذكر في غير هذه السورة.

هذا، ويمكن تقسيم السورة إلى أربعة مقاطع:

المقطع الأول: من أولها إلى الآية التاسعة، نهاية ثلاثة أرباع الحزب، ويشتمل هذا المقطع على تقرير وحدانية الله تعالى، وملكه لهذا الكون بما فيه، وأنه سبحانه يعلم ما في جوف الأرض وما هو فوق ظهرها، وما يهبط من السماء وما يصعد إليها.

ويحكي هذا المقطع إنكار الكفار للبعث والنشور في كل زمان ومكان، ويرد عليهم بأن الذي يعلم حركة كل ذرة سيبعثهم يوم القيامة؛ ل يتم جزاء المؤمنين بمغفرة الذنوب والرزق الحسن في جنات النعيم، وجزاء الكافرين بعذاب شديد الألم.

ومع أن الكفار يُنكرون البعث والحساب والجزاء، ويستبعدون عودة الإنسان إلى الحياة بعد أن تمرّت أشلاؤه وتقطّعت أوصاله، فإن أصحاب العلم الحقيقي يعلمون أن ما في القرآن من حقائق وثواب، هو الحق الذي أخبر به رب العالمين، ولو شاء الله لخسف بهم الأرض، أو أسقط السماء عليهم كسفًا، فتقلب النعمة إلى نقمة.

المقطع الثاني: يبدأ من الآية العاشرة إلى الآية الحادية والعشرين، وهذا القدر من الآيات اشتمل على ثلاث قصص:

القصة الأولى: فيها إشارة سريعة إلى نبي الله داود عليه السلام، وقد جاءت هذه الإشارة في آيتين اثنتين من السورة، تشير الآية الأولى إلى تسييح الطيور والجبال مع داود عليه السلام.

وتشير الآية الثانية إلى اشتغاله عليه السلام بصناعة الحديد لاستخدامها في الحروب وغيرها.

القصة الثانية: فيها إشارة سريعة إلى تسخير الريح والجن لسليمان عليه السلام، وأنها ظلت تعمل في الصناعات الشاقة إلى ما بعد موته، وهي لا تعلم عن موته شيئًا، وقد جاء هذا في ثلاث آيات متتابة.

القصة الثالثة: عن أهل سبأ، وقد جاء ذكرها في سبع آيات تليها.

المقطع الثالث: جاء في آيات ست، تقيم الأدلة الكونية والعقلية على وحدانية الله تعالى وإبطال الشركاء والشفعاء من دون الله تعالى، وهذا في الآيات من [٢٣-٢٧].

وفي المقطع الرابع والأخير من السورة: حديث عن الوحي والرسالة وموقف المترفين منهما في كل زمان ومكان.

ويأتي تعقيب على كل آية في هذا المقام، بذكر مصير المؤمنين والمكذبين، مع ذكر عدة مشاهد لهم يوم القيامة، حين يَبْرَأُ المتبوعون من التابعين، وتَبْرَأُ الملائكة ممن عبدوهم، وذلك حين يذوق المكذبون عذاب النار، ويصيبهم الفزع الأكبر، ويحال بينهم وبين ما يشتهون، وهو مقطع متنوع يدور في هذا الفلك، وهو من الآية الثامنة والعشرين إلى الآية الرابعة والخمسين، نهاية السورة.



تَفْسِيرُ السُّورَةِ

اللَّهُ سُبْحَانَهُ مَا لِكُ هَذَا الْكَوْنِ وَمُدْبِرُ أَمْرِهِ

١- ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَمْ يَمَّا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَلَهُ الْحَمْدُ فِي الْآخِرَةِ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ﴾

سورة (سبأ) إحدى سور خمس مفتحة بـ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ من براعة الاستهلال، وكلها سور مكية، وقد جاءت هذه السور في أول القرآن، ووسطه، وفي الربع الأخير منه، فكان كل خُمس من القرآن مفتتح بالحمد، والسور الخمس هي سور: الفاتحة، والأنعام، والكهف، وسبأ، وفاطر، وفي كلٍّ منها معنى يختلف عن غيره؛ لما في السورة من نعم تختلف عن غيرها.

والحمد: هو الثناء الجميل على الله سبحانه؛ لأنه المستحق لجميع المحامد، فكل شيء صادر منه وراجع إليه سبحانه.

والحمد أعم من الشكر؛ لأن الحمد يكون على نعمة وصلت إليك وإلى غيرك.

أما الشكر فيكون على نعمة وصلت إليك وحدك.

والمؤمنون يحمدون الله تعالى في الدنيا على ما وهبهم من نعم، ويحمدونه في الآخرة على ما منحهم من جنة عرضها السموات والأرض، كما قال تعالى عن أهل الجنة: ﴿وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي صَدَقَنَا وَعْدَهُ وَأَوْرَثَنَا الْأَرْضَ نَبَوْا مِنْ الْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَاءُ﴾ [الزمر: ٧٤]

وقال عنهم أيضًا: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَذْهَبَ عَنَّا الْحَزْنَ﴾ [فاطر: ٣٤]

وقال سبحانه: ﴿وَمَا خَرُّ دَعْوَتُهُمْ أَنْ لِحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [يونس: ١٠].

وهكذا قال سبحانه في أول هذه السورة: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ أي: الثناء بالصفات الحميدة والأفعال الحسنة، والشكر الكامل لله وحده وقد حمد الله نفسه على ملكيته لهذا الكون، فهو ﴿الَّذِي لَمْ يَمَّا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾ فهو خالقهم ومالكهم، وهم عبيده تحت قهره وتصرفه.

﴿وَلَهُ الْحَمْدُ﴾ أي: له الثناء التام في الآخرة، وفي هذا قصرُ الحمد على الله تعالى في

الدار الآخرة، لأن الله تعالى إذا قضى بين عباده يوم القيامة، يَظْهَرُ لَهُمْ عَظَمَ حِكْمَةِ اللَّهِ تعالى، وكَمالِ عدله وفضله، حتى أهل العقاب، فتمتلئ قلوبهم بحمد الله تعالى حين يعلن سبحانه انفراده بالملك والملكوت، كما قال تعالى: ﴿لَمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ؟﴾ فيكون الجواب: ﴿لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ﴾ [غافر: ١٦] وقال سبحانه: ﴿وَالْأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِلَّهِ﴾ [الأنفطار: ١٩].

وقد تواترت الأدلة العقلية والنقلية على تمام النعم على الموحدين في دار النعيم فوق ما يتمنوه، فيكون هذا جديراً بأن تُلْهَجَ ألسنتهم دائماً وأبداً بحمد الله تعالى وشكره.

أما في الدنيا فقد يُجْري الله تعالى على يد بعض خلقه شيئاً من نعمه فيُحمد عليها، وكل نعمة من الله تعالى جديرة بأن يُحمد عليها، ويُنْتَنى عليه من أجلها، والنعم من الله تعالى حاصلة في الدارين، فكما أنه سبحانه محمود على نعم الدنيا، فهو أيضاً محمود على نعم الآخرة، قال تعالى: ﴿وَهُوَ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ لَهُ الْخَمْدُ فِي الْأُولَى وَالْآخِرَةِ وَلَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ [القصص: ٧٠].

وأهل الجنة يحمدون الله في الجنة، وهم يُلْهَمُونَ التَّسْبِيحَ والتحميد، كما يُلْهَمُونَ النَّفْسَ، أي: إن أنفاسهم ذاتها تحميد وتسبيح، وتقديس وشكرٌ وثناء...

﴿وَهُوَ الْحَكِيمُ﴾ في أفعاله وأمره ونهيه وتدبيره لهذا الكون ﴿الْخَبِيرُ﴾ بشؤون خلقه، المطلع على الخفايا والسرائر، وعلى كل ما كان وما يكون.

فالحكمة: إتقان الصنع والتصرف. والخبرة: تقتضي العلم بأوائل الأمور وعواقبها.

والخبير: هو العليم بدقائق الأشياء وظواهرها، لا يخفى عليه شيء من أحوالها.

عِلْمُ اللَّهِ تَعَالَى بِمَا خَفِيَ وَمَا ظَهَرَ

٢- ﴿يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي الْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا وَهُوَ الرَّحِيمُ الْغَفُورُ﴾

هذه أربعة أمور غيبية لا يعلمها إلا الله: اثنان في الأرض، وهما: ما يدخل فيها وما يخرج منها، واثنان في السماء، وهما: ما ينزل منها وما يصعد إليها.

أي: ومن علمه تعالى الشامل المحيط، أنه يعلم ما يدبُّ على وجه الأرض وما يزحف فوقها، وما يستتر في باطنها، فهو سبحانه:

١- ﴿يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي الْأَرْضِ﴾ أي: ما يدخل فيها، فكل بذرة تُوضع في أعماق الأرض يعلمها، ويعلم ما يدخل في جوف الأرض من: المطر، والكنوز، والبذور، والأموات، والحشرات والزواحف والديدان، والدواب والمغارات.

٢- وكما يعلم الداخل في الأرض يعلم الخارج منها من: ثمرات ونبات وحبوب، وكنوز، وماء العيون والآبار، والمعادن وهذا معنى ﴿وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا﴾.

٣- ﴿وَمَا يَنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ﴾ أي ويعلم قطرات المطر، وحبات الثلج والبرد، والصواعق، والرزق والأجل، والسعادة والشقاء والرحمة، والملائكة، والكتب المنزلّة من عند الله، ويعلم ما في الأجواء والفضاء من الكائنات المرئية وغير المرئية، ويعلم سير الكواكب ونظامها

٤- ﴿وَمَا يَعْرِجُ فِيهَا﴾ أي ويعلم: ما يصعد إلى السماء من الملائكة، والأرواح عند مفارقة الأجساد ﴿تَعْرِجُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ إِلَيْهِ﴾ [المعارج: ٤]

ويعلم سبحانه ما يصعد إليه من الأعمال الصالحة، والدعوات الزاكية، كما قال تعالى: ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ﴾ [فاطر: ١٠].

ويعلم ما يتبخر في طبقات الجو، وما يسبح في الفضاء، وما يطير في الهواء.

إن الكون كله صفحة مفتوحة أمام الخالق سبحانه، لا يخفى عليه منها شيء، وعندما تثور عاصفة ترابية، فهو سبحانه يعلم حركة كل ذرة فيها.

وعندما تثور عاصفة حرارية، فهو - جلّ شأنه - يعلم متى تهيج ومتى تهبط.

ولو أن أهل الأرض جميعًا حاولوا إحصاء مخلوقات الله تعالى في أرضه أو سمائه ما استطاعوا، فضلاً عن أن يعلموا: أحجامها وأنواعها وأجناسها، وأحوالها وأشكالها، وحركاتها وسكناتها، فسبحان الخلاق العليم!!

ولما ذكر - سبحانه - مخلوقاته وحكمته فيها، وعلمه بأحوالها، ذكر مغفرته ورحمته فقال:

﴿وَهُوَ الرَّحِيمُ﴾ بعباده، فلا يعاجلهم بالعقوبة في الدنيا، ولا يُحرّمهم رزقه.

﴿الْفُورُ﴾ لذنوب التائبين إليه، المتوكلين عليه، المنيبين إليه، المحبتين له.

الرُّدُّ عَلَى مُنْكَرِي الْبَعْثِ

٣- ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَأْتِينَا السَّاعَةُ قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتَأْتِيَنَّكُمْ عَلَيَّ^(١) الْغَيْبُ لَا يَعْزُبُ^(٢) عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ وَلَا أَصْغَرُ مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْبَرُ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ﴾ ولما ذكر سبحانه في الآية الأولى قوله: ﴿وَلَهُ الْحَمْدُ فِي الْآخِرَةِ﴾ وذكر في الآية الثانية قوله: ﴿يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي الْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا﴾ وكان ذلك مشعرًا بحال الموتى عند دخولهم القبور وعند خروجهم منها، كما في ذِكْرِ الأرواح عند مفارقة الأجساد في الدنيا، ثم نزولها، لِرُدِّ إليها يوم القيامة.

فمما يخرج من الأرض: الأرواح التي تعرج إلى ربها عند مفارقة الأجساد.

ومما ينزل من السماء: الأرواح حين تُرد إلى الإنسان، وتعود إليه يوم القيامة.

وقد كان هذا كله توطئة إلى ذكر إنكار المشركين والكفار، للحشر والنشر في كل زمان ومكان وهو أهم مقاصد هذه السورة، وأول شبهة عندهم.

واستبعاد البعث غباء شديد، فما يمنع الخالق أن يعيد الخلق؟ هل عجز عنه أوَّلًا حتى يعجز عنه أخيرًا؟ ﴿أَفَعَيَيْنَا بِالْحَلْقِ الْأَوَّلِ﴾ [ق: ١٥].

والتكذيب باليوم الآخر أمر شائع بين الأولين والآخرين، وبعض الناس لا يهتمون بالحديث عنه والعمل له، كما يهتمون بالحياة الدنيا والعمل لها!

والحديث عن اليوم الآخر، جاء بعد أن حمد الله تعالى نفسه على أنه مالك هذا الكون ومدير أمره، فكان هذا موجبًا لتعظيمه وتقديسه، وبيان أصناف الناس تجاه اليوم الآخر، فمنهم من كفر به، فأنكر قدرة الله تعالى على إعادة الأموات، وقيام الساعة، ومنهم من آمن وصدق تصديقًا جازمًا، فاستعد لهذا اليوم بالإيمان والعمل الصالح.

(١) قرأ نافع وابن عامر وأبو جعفر ورويس برفع (عالم) خبر لمبتدأ محذوف، أي: هو عالم، على وزن فاعل، وقرأ ابن كثير وأبو عمرو وعاصم وروح وخلف بالخفض في (عالم) بدلًا من (ربي) على وزن فاعل، وقرأ حمزة والكسائي (عَلَام) بتشديد اللام وخفض الميم على وزن فَعَال، بدلًا من (ربي) أيضًا.

(٢) قرأ الكسائي بكسر زاي (لا يعزب) والباقون بضمها، وهما لغتان.

وفي هذه الآية ذكرٌ للصنف الأول:

﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر، قالوا على سبيل الاستبطاء لِمَا وعدهم به محمد ﷺ من البعث والحساب والجزاء، من باب الاستهزاء والسخرية: ﴿لَا تَأْتِينَا السَّاعَةُ﴾ أي: لا قيامة ولا بعث ولا نشور، فنحن نموت ونحيا وما يهلكنا إلا الدهر، والأرض ستأكل أجسادنا ولا نعود إلى الحياة مرة أخرى.

وهذا كقوله تعالى: ﴿وَقَالُوا مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلَّا الدَّهْرُ وَمَا لَهُم بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ﴾ [الجاثية: ٢٤].

وقوله تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَالسَّاعَةُ لَا رَيْبَ فِيهَا قُلْ مَا نَدْرِي مَا السَّاعَةُ إِنْ نَظُنُّ إِلَّا ظَنًّا وَمَا نَحْنُ بِمُتَّبِعِينَ﴾ [الجن: ٢٢].

ثم إن الله تعالى لقّن رسوله الجواب بما يُبطل قولهم على وجه التأكيد، فأقسم لهم على أن البعث حق وصدق ﴿قُلْ﴾ لهم يا محمد ﴿بَلَىٰ وَرَبِّي﴾ عالم الغيب ﴿لَتَأْتِيَنَّكُمْ﴾ بغتة، أقسم بالله العظيم لتأتينكم الساعة، فإنها واقعة لا محالة، ولكن لا يعلم وقت مجيئها أحد سوى علام الغيوب.

ثم استدل سبحانه على البعث بما يلزمهم التصديق به حتمًا، وهو علمه - سبحانه - بما غاب وما شوهد، وعلمه بدقائق الأمور وكبيرها، وعلمه بأجزاء الذرة، وما جرى به القلم مما كان ويكون، فهو سبحانه ﴿عَلِيمُ الْغَيْبِ﴾ وهو الذي أخبر محمدًا ﷺ بقيام الساعة، وهو جلّ شأنه يعلم ما خفي عن الأبصار وما غاب عن الأنظار، لا يغيب عن علمه مقدار وزن الذرة في جوف الأرض ولا في جو السماء، مهما دق وصغر، وغاب عن الأنظار، كما قال تعالى: ﴿وَإِنْ كَانَتْ مِثْقَالُ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَىٰ بِنَا حَاسِبِينَ﴾ [الأنبياء: ٤٧] مع أن الذرة أصغر الجزئيات.

وقد أشارت الآية إلى وجود ما هو أصغر منها، وهذا ما أثبتته العلم التجريبي، وكانت الذرة تطلق قديمًا على الهباءة أو الغبار الذي يتطاير ويظهر في أشعة الشمس، ولكن العلم الحديث أثبت أن الذرة أصغر من ذلك بكثير، ولو أن الله تعالى اقتصر على ذكر الأصغر؛ لتوهم مُتوهم أن الجرم الكبير غير داخل فيها، وإذا كان الأمر كذلك فكيف

يخفى عليه سبحانه شيء من أحوال الخلق في العالم السفلي أو العالم العلوي؟! وكيف لا يبعثهم بعد موتهم؟

فالعظام وإن تفرقت وتلاشت وتمزقت، فهو سبحانه يعلم أين ذهبَتْ وأين تفرقت، ثم يعيدها يوم القيامة فتلتصم الأجسام من الذرات التي كانت مركبة منها في آخر لحظات حياتها قبل الموت، وقد سمي الله ذلك النشأة الأخرى في قوله سبحانه: ﴿وَأَنَّ عَلَيْهِ النَّشَأَ الْآخِرَىٰ﴾ [النجم].

وهو سبحانه يعلم ما تنقصه الأرض وتلفظه من أموات، وما يبقى فيها من أجساد ﴿قَدْ عَلِمْنَا مَا تَنْقُصُ الْأَرْضُ مِنْهُمْ وَعِنْدَنَا كَنْزٌ حَفِيزٌ﴾ [ق].

وقد أقسم الله تعالى على إحياء الناس بعد موتهم ثلاث مرات: الأولى هنا، في الآية التي نحن بصدددها، والثانية في قوله سبحانه: ﴿قُلْ إِي وَرَيْحٍ إِنَّهُ لَحَقٌّ﴾ [يونس: ٥٣] والثالثة في قوله تعالى: ﴿قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتُبْعَثَنَّهُ﴾ [التغابن]. وكلاهما في الرد على من أنكر البعث والنشور.

قال تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَتْ عَلَيْهِ﴾ [الروم: ٢٧].

وقال سبحانه: ﴿أَفَعَيَيْنَا بِالْخَلْقِ الْأَوَّلِ بَلْ هُمْ فِي لَبْسٍ مِّنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ﴾ [ق].

وكل ذلك مسطور في كتاب واضح هو اللوح المحفوظ، فقد أحاط به علم الله تعالى، وجرى به القلم، وقدره في الأزل، ثم ذكر سبحانه العلة والحكمة في البعث والنشور فقال:

٤، ٥- ﴿لِيَجْزِيَ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أَُولَٰئِكَ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾
وَالَّذِينَ سَعَوْا فِي ءَايَاتِنَا مُعْجِزِينَ^(١) أُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مِّن رَّجَزٍ أَلِيمٍ^(٢) ﴿٥﴾

بَيِّنَ ﷻ في هاتين الآيتين، الحكمة من إعادة الحياة إلى البشر والحكمة من قيام الساعة، وأن ذلك لإثابة المطيعين على صلاح اعتقادهم وحُسن أعمالهم أحسن الجزاء، بمغفرة الذنوب، والرزق الحسن في جنات النعيم، ورضوان من الله أكبر.

(١) قرأ ابن كثير وأبو عمرو (معجزين) بحذف الألف وتشديد الجيم، اسم فاعل من عَجَزَه إذا ثبطه، وقرأ الباكون (معاجزين) اسم فاعل من المعاجزة، بمعنى: المبالغة والمسابقة.

(٢) قرأ ابن كثير وحفص ويعقوب برفع ميم (أليم) صفة لعذاب، وقرأ الباكون بخفضها صفة لرجز.

أما المفسدون الذين سعوا في إبطال آيات الله وتكذيب رسله، محاولين تعجيز قدرة الله فيهم، ومبطلين الناس عن الإيمان به، وهم الذين بذلوا جهدهم للطعن في الإسلام والتشكيك في القرآن، بإثارة الشبهات ظناً منهم أنَّ بإمكانهم أن يطفؤوا نور الله بأفواههم، فلهم أسوأ الجزاء وأشد العقاب؛ لأنهم كفروا بالله واجتهدوا في الصد عن سبيل الله، وتكذيب رسله، وإبطال آياته، وهم يُشاققون الله تعالى ويُغالِبونه فلهم أسوأ العذاب وأشدّه، والرجز هو سوء العذاب، قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ سَعَوْا فِيَّ ءَايَاتِنَا مُعْجِزِينَ أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْحَجِيمِ ۝٥٩﴾ [الحج].

وقال جلّ شأنه: ﴿فَأَنزَلْنَا عَلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا رِجْزًا مِّنَ السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ﴾ [البقرة: ٥٩].

والناس متفاوتون في الصلاح والفساد، والضرر الذي يصيب الناس من جرّاء المفسدين متفاوت أيضاً، ولو لم يكن هناك حساب ولا ثواب ولا عقاب على الأقوال والأفعال، لانتهدت الدنيا ولم يلق كلُّ من المحسن والمسيء جزاء عمله، فكانت الحياة الآخرة لإقامة العدل بين الناس، وعدم تسوية الكافر بالمؤمن، والعاص بالمطيع، كما قال تعالى: ﴿لِيَجْزِيَ الَّذِينَ أَسَفُوا بِمَا عَمِلُوا وَيَجْزِيَ الَّذِينَ أَحْسَنُوا بِالْحُسْنَى﴾ [النجم: ٣١].

وقال جلّ شأنه: ﴿فَأَحْسَبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ ۝٦٠﴾ [المؤمنون].

وقال سبحانه: ﴿لَا يَسْتَوِي أَصْحَابُ النَّارِ وَأَصْحَابُ الْجَنَّةِ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمُ الْفَائِزُونَ ۝٦١﴾ [الحشر].

وقال جلّ شأنه: ﴿أَمْ يَجْعَلُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَالْمُفْسِدِينَ فِي الْأَرْضِ أَمْ يَجْعَلُ الْمُتَّقِينَ كَالْفُجَّارِ ۝٦٢﴾ [ص].

الْمُصَدِّقُونَ بِالْبَعْثِ هُمُ الْعُلَمَاءُ الْعَامِلُونَ

٦- ﴿وَبَرَى الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ الَّذِي أُنزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ هُوَ الْحَقُّ وَيَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ^(١)

الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ ۝٦٣﴾

أي: فإذا كان أهل الكفر والجهل لا يصدقون بالبعث، ويرون أن ما جاء به محمد ﷺ ليس بحق، فإن أهل العلم ممن صدّق النبي ﷺ وأتبعه من أمته، ومن أهل الكتاب الذين

(١) قرأ قبل ورويس بالسین في (صراط) وقرأ بإشمام الصاد صوت الزاي بخلف عنه حمزة، وقرأ الباقر بالصاد الخالصة.

أسلموا، وممن جاء بعدهم من العلماء العاملين، الذين انتفعوا بعلمهم وسخروه لخدمة الحق، فإنهم يعتقدون أن الساعة حق، وأن الحساب والجزاء حق، وأن القرآن الذي نزل على الرسول ﷺ حق، لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، فهم لا يشكُّون فيه، ولا يُثيرون حوله الشُّبه، كحال الذين يسعون في الأرض معاجزين.

﴿وَيَرَىٰ أَيُّ: يَعْلَمُ﴾ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ ﴿من كل صاحب فقه ومعرفة، آمن بمحمد ﷺ أن﴾ الَّذِينَ أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ ﴿-أيها الرسول- وهو القرآن الذي فيه قيام الساعة﴾ هُوَ الْحَقُّ ﴿لا يرتاب فيه مراتب﴾ وَيَهْدِي إِلَىٰ صِرَاطٍ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ ﴿أي: يُرشد من يتمسك به إلى سعادة الدنيا والآخرة، ويرى في أوامره ونواهيها أنها تَهْدِي إلى الصراط المستقيم.

والذين أُوتوا العلم هم أصحاب محمد ﷺ ومن جاء بعدهم من العلماء العاملين، ويدخل فيهم من دخل في الإسلام بعد ذلك من أهل الكتاب.

وفي صدر النبوة كان الواحد من أهل مكة يكون فظًّا غليظًا، فإذا أسلم رَقَّ قلبه وامتلأ صدره بالحكمة، واهتدى إلى الحق، وكانوا إذا لقوا النبي ﷺ أشرقت عليهم أنوار النبوة، فملأت قلوبهم حكمة وتقوى، وبذلك فتحوا الممالك، وسادوا البلاد، وأقاموا العدل، فكانوا أعزة بدينهم، كما قال تعالى: ﴿وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [المنافقون: ٨].

ولأن الآية في سياق الحديث عن قيام الساعة، فلا يمنع أن يكون المعنى شاملاً لكل ما جاء به محمد ﷺ سَيِّمًا البعث والنشور، بمعنى: أن الذين صدَّقوا بمحمد ﷺ عبر الأجيال، وكانوا من أولي العلم والبصائر، إذا شاهدوا قيام الساعة، وجزاء الأبرار والفُجَّار، علموا علم اليقين أن ما أخبرهم به محمد ﷺ في الدنيا من قيام الساعة حق وصدق، فيقولون: ﴿هَذَا مَا وَعَدَ الرَّحْمَنُ وَصَدَقَ الْمُرْسَلُونَ﴾ [يس: ٥٢] ويقولون لمن كذب به ﴿لَقَدْ لَبِئْتُمْ فِي كِتَابِ اللَّهِ إِلَىٰ يَوْمِ الْبَعْثِ فَهَكَذَا يَوْمَ الْبَعْثِ﴾ [الروم: ٥٦] وهو سبحانه لا يُغالب ولا يُمانع، وهو المحمود في أقواله وأفعاله.

وفي الاستشهاد بأولي العلم في هذه الآية، تمهيد لإبطال قول المكذبين بخاتم المرسلين في الآية بعد التالية ﴿أَفَرَأَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَمْ بِهِ جِنَّةٌ﴾ وهم بهذا يردُّون ما جاء به القرآن، ومنه قيام الساعة.

الْقُرْآنُ يَخْبِي مَقَالَةَ مُنْكَرِي الْبَعْثِ وَيَتَوَعَّدُهُمْ بِالْعَذَابِ الدُّنْيَوِيِّ

٧- ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا هَلْ نَدُلُّكُمْ عَلَى رَجُلٍ يُنْبِئُكُمْ إِذَا مُزِقْتُمْ كُلُّ مَزْقٍ إِنْكُمْ لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ﴾

ذكرت هذه الآية مقالة الكفار المتعجبين من قيام الساعة، فجلّت شبهة منكري البعث، وبيّنت استغرابهم حديث الرسول ﷺ عنه، حيث قال بعضهم لبعض استهزاء، كما يقول الرجل لصاحبه: هل أدلك على أضحوكة نادرة؟! لأن البعث في زعمهم بعيد محال، فكأن من يخبر عنه في موضع العجب والسخرية!

هل ندلكم على رجل يخبركم أنكم إذا تفرقت أجسامكم، ونخرت عظامكم، وتقطعت أوصالكم، وصرتم تراباً ورفاتاً، أنكم ستُخلَقون خُلُقاً جديداً، حديثو العهد بالوجود، غير الخلق الأول، بعد هذا التمزيق والتفريق؟ فإذا سمعتم منه ما سمعنا، فإنكم ستعلمون عذرنا في مناصبته العدا، قالوا ذلك من فرط إنكارهم.

وكان المشركون في عهد النبي ﷺ قد هيؤوا الجواب لمن يُقدم على مكة في موسم الحج، من قبائل العرب الذين يسألون عن أخبار النبي الجديد.

كما جاء في خبر الوليد بن المغيرة، حين قال لقريش: إنه قد حضر هذا الموسم، وإن وفود العرب ستقدم عليكم فيه، وقد سمعوا بأمر صاحبكم هذا، فأجمعوا فيه رأياً واحداً، ولا تختلفوا فيكذب بعضكم بعضاً، قالوا: فأنْتَ يا أبا عبد شمس، قل وأقم فينا رأياً نقول به، قال: بل أنتم قولوا، أسمع.

قالوا: نقول كاهن؟ قال: لا، والله ما هو بكاهن، لقد رأينا الكهنة، فما هو بمزمزة الكاهن ولا بسجعه.

قالوا: فنقول مجنون؟ قال: ما هو بمجنون، لقد رأينا الجنون وعرفناه، فما هو بختفه، ولا تخلصه، ولا وسوسته.

قالوا: فنقول شاعر؟ قال: لقد عرفنا الشعر كله، فما هو بالشعر.

قالوا: فنقول ساحر؟ قال: ما هو بنفثه ولا عقده.

قالوا: فما نقول يا أبا عبد شمس؟ قال: إن أقرب القول فيه أن تقولوا: ساحر، جاء

بسحر يفرق به بين المرء وأبيه، وبين المرء وأخيه، وبين المرء وزوجه، وبين المرء وعشيرته، فكان المشركون يستقبلون الوافدين على مكة بهذه المقالة، ومن ذلك قولهم:

٨- ﴿أَفَرَأَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَمْ بِهِ جِنَّةٌ بَلِ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ فِي الْعَذَابِ وَالضَّلَالِ الْبَعِيدِ﴾

هذا من تنمة قول منكري البعث بعضهم لبعض، فهم قد جعلوا حال النبي ﷺ دائراً بين الكذب والجنون؛ لأن هذا القول لا يصدر إلا عن أحد هذين كما زعموا!

فإن كان حديثه عن يوم القيامة عن عمد وسلامة عقل، فهو -في زعمهم- كذاب مفتر، وإن كان قد قال ذلك بلسان أملاه عليه عقل مختل، فهو مجنون، وكلام المجنون لا يوصف بالافتراء، فهو إما أن يكون كاذباً، وإما أن يكون مجنوناً، ولا وسط بين الوصفين.

ثم إن الله تعالى رد عليهم استدلالهم بأنهم ضالون مضلون، فقد علموا أنه ﷺ أصدق الخلق وأعقلهم، ولذلك فقد بذلوا أنفسهم وأموالهم لصد الناس عنه، ولو كاذباً مجنوناً ما اجتهدوا في صرف الناس عنه، ولا اهتموا بأمره، لأن المجنون لا يلتفت إليه.

ولذا: قابل وصفهم للرسول ﷺ بأنه افترى على الله كذباً، بأنهم سيكونون في العذاب يوم القيامة؛ لأن من يكذب على رسوله يسلم الله عليه عذابه.

وقابل وصفهم للرسول ﷺ بالجنون بأنهم في الضلال البعيد الموجب لعذاب الله لهم، وليس الأمر كما زعموا، بل الحق أنهم كافرون بالبعث والنشور، وهم -بهذا- غارقون في العذاب الذي لا نهاية له، وهم بعيدون عن الحق غاية البعد.

ثم لفت القرآن أنظارهم إلى دليل عقلي يدل على عدم استبعاد البعث، وهو أنهم لو نظروا إلى ما بين السموات والأرض وما فيهما، لرأوا أنها أعظم من إعادة الناس بعد موتهم، فما الذي يحملهم على هذا التكذيب؟

٩- ﴿أَفَلَمْ يَرَوْا إِلَى مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ مِنْ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِنَّ نَشْأَ^(١) نَخَسِفَ بِهِمُ الْأَرْضَ أَوْ نُسْفِطَ عَلَيْهِمْ كِسَفًا^(٢) مِنْ السَّمَاءِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِكُلِّ عَبْدٍ مُنِيبٍ ﴿٩﴾﴾

(١) قرأ حمزة والكسائي وخلف بياء في هذه الأفعال الثلاثة (إن نشأ نخسف بهم الأرض أو نسقط)، والباقون بنون العظمة فيها، وأدغم الكسائي الفاء في الباء من (نخسف بهم).

(٢) قرأ حفص بفتح السين من (كسفا) اسم جمع، كقطعة وقطع، والباقون بإسكان السين، كسفرة وسدر.

أفلم ير هؤلاء الكفار -الذين لا يؤمنون بالآخرة- عظيم مخلوقات الله تعالى في السماء والأرض، وقد أحاطت بهم من كل جانب بما يبهر العقول، فإن من شأن ذلك أن يهديهم، ويأخذ بأيديهم إلى الإيمان بالبعث والنشور لو تأملوا حق التأمل.

أفلم يلتفتوا ليلاً إلى ما وراءهم، وينظروا في النصف الشمالي من السماء، ثم ينظروا إلى النصف الجنوبي منها، فيروا كواكب ساطعة، بعضها طالع من مشرقه، وبعضها هارٍ إلى مغربه، ويروا قمرًا مختلف الأشكال باختلاف الأيام، ويروا السماء في ارتفاعها واتساعها.

وإن نظروا في النهار إلى الشمس وهي بازغة وآفة، في أوقات: الإسفار والأصيل والشفق، ثم ينظروا إلى: جبال الأرض وبحارها وأوديتها، وطولها وعرضها، وارتفاعها وانخفاضها، وما عليها من أنواع الحيوان واختلاف أصنافه، وسائر المخلوقات الأرضية.

أعْمِيَ الكفار، فلم يعتبروا ويتعظوا بما يشاهدونه من مظاهر قدرة الله تعالى المحيطة بهم من كل جانب، والمنتشرة في الآفاق وفي أرجاء الأرض؟! فإن من شأن هذا التفكير أن يهديهم إلى الحق، ومن شأنه أن يجعلهم يوقنون بأننا مبعوثون ليوم عظيم، يوم يقوم الناس لرب العالمين، فإن الإنسان أينما توجه، وحيثما نظر، رأى السماء والأرض وما فيهما وما بينهما أمامه وخلفه، وعن يمينه وعن شماله، وهما يدلان على وحدانية الخالق سبحانه، ولو شاء الله لعذب المنكرين بالبعث، المكذبين لله ورسوله، بأرضه وسمائه، فحسف بهم الأرض كما حسف بمن قبلهم، أو أسقط السماء عليهم قطعًا.

﴿إِنْ شَأْ نُخَسِّفْ بِهِمُ الْأَرْضَ﴾ كما فعلنا بقارون، ﴿أَوْ سُقِطَ عَلَيْهِمْ كِسْفًا مِنَ السَّمَاءِ﴾ أو ننزل عليهم قطعًا من العذاب فتهلكهم، كما فعلنا بقوم شعيب الذين أهلكناهم بسبب تكذيبهم وجحودهم، فأمطرت السماء عليهم نارًا وأحرقتهم ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ﴾ الذي ذكرنا من عظيم قدرتنا ﴿لَايَةً﴾ أي: دلالة ظاهرة ﴿لِكُلِّ عَبْدٍ مُنِيبٍ﴾ راجع إلى ربه بالتوبة، ومقر له بالتوحيد، ومخلص له بالعبادة، والمنيب من شأنه أن ينظر في آيات الله الدالة على أنه تعالى قادر على كل شيء، ومن قدرته تعالى البعث والحساب، وعقاب الكافر وإثابة المؤمن.

وكلما كان العبد أكثر إنابة كلما كان انتفاعه بالآيات أعظم، لأن المنيب مقبل على ربه، قد توجه إليه بكل همته وإرادته، ورجع إليه في كل أموره، فهو مشغول بمرضاة الله تعالى منصرف عما سواه.

مِنْ فَضْلِ اللَّهِ تَعَالَى عَلَى نَبِيِّهِ دَاوُدَ عَلَيْهِ السَّلَامُ

١٠، ١١- ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُدَ مِنَّا فَضْلًا يَجَالُ أَوْبَىٰ مَعَهُ وَالطَّيْرُ وَأَلَنَّا لَهُ الْحَدِيدَ ﴿١٠﴾ أَنْ أَعْمَلَ سَبِغَاتٍ وَقَدَّرَ فِي السَّرْدِ وَأَعْمَلُوا صَليحًا إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿١١﴾﴾

ومن عباد الله تعالى المنيين إليه، عبده ونبيه داود عليه السلام، فقد كان راعيًا للأغنام، إلى أن اصطفاه الله نبيًا ومليكًا صالحًا ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُدَ مِنَّا فَضْلًا﴾ أي: آتيناه خيرًا ومُلكًا كبيرًا بسبب إنباته إلى ربه، فقد آتيناه علمًا نافعا، وعملا صالحا، ونعمًا دينية ودنيوية.

آتيناه النبوة والملك والزبور، والعناية بإصلاح الأمة، والقضاء بين الناس بالعدل، والشجاعة في الحرب، وحسن الصوت الذي أطرب الإنس والجن والطيور والجبال، وتسخير الجبال والطيور، وإلانة الحديد له، وتعليمه صناعة الدروع.

وأمرنا الجبال والطيور، أن تُردّد التسييح معه بلغة يفهمها داود عليه السلام، وكان هذا معجزة له أيده الله بها، وقد أثنى الله على داود في قوله تعالى:

﴿وَأَذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُدَ ذَا الْأَيْدِ إِنَّهُ أَوَّابٌ ﴿٧﴾ إِنَّا سَخَّرْنَا الْجِبَالَ مَعَهُ يُسَبِّحْنَ بِالْعَشِيِّ وَالْإِشْرَاقِ ﴿٨﴾ وَالطَّيْرَ مَحْشُورَةً كُلٌّ لَهُ أَوَّابٌ ﴿٩﴾ وَشَدَدْنَا مُلْكَهُمْ وَأَيَّدْنَاهُ الْحِكْمَةَ وَقَصَلْنَا لُحُطَابٍ ﴿١٠﴾﴾ [ص].

وقوله سبحانه: ﴿فَاسْتَغْفِرْ رَبُّهُ وَخَرَّ رَاكِعًا وَأَنَابَ ﴿٢٤﴾﴾ فَقَفَرْنَا لَهُ ذَلِكَ وَإِنَّ لَهُ عِنْدَنَا لَزُلْفَىٰ وَحُسْنَ مَنَاقِبٍ ﴿٢٥﴾﴾ [ص]

وقوله أيضًا: ﴿وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُدَ الْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَالطَّيْرَ﴾ [الأنبياء].

قال ابن عباس عليه السلام: كانت الطيور تُسَبِّح معه إذا سَبَّح، وإذا قرأ الزبور لم تَبْق دابة إلا استمعت لقراءته وبكت لبكائه.

وفي الحديث: أن النبي ﷺ سمع صوت أبي موسى الأشعري يقرأ من الليل، فوقف، فاستمع لقراءته ثم قال: «لقد أوتيت مزمارًا من مزامير آل داود»^(١).

(١) أخرجه النسائي في «السنن الكبرى» (١٠٩٤، ١٠٩٥، ٧٩٩٧) وعبد الرزاق في مصنفه (٤١٧٧) وابن أبي شيبة (٤٦٣/١٠)، (١١٢/١٢) والحميدي (٢٨٢) وأحمد في «المسند» (٢٤٠٩٧) قال محققوه: حديث صحيح، وأخرجه ابن حبان (٧١٩٥) والدارمي (١٤٩٧).

فكان سليمان إذا سَبَّح، أجابته الجبال بصداها، وعَكَفَت الطير عليه من فوقه، وكان داود إذا فتر أو لَحِقَه ملل أَسْمَعَهُ الله تَسْبِيحَ الجبال والطير، فينشط لذلك.

كما سَخَّرَ الله لداود إِلانة الحديد، فكان الحديد في يده كالشمع أو العجين، يعمل منه ما يشاء طوع أمره من غير نار ولا ضَرْب مطرقة، كما قال تعالى: ﴿وَعَلَّمْنَاهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَكُمْ لِنُخْصِنَكُمْ مِنْ بَأْسِكُمْ فَهَلْ أَنْتُمْ شَاكِرُونَ﴾ (٨٠) [الأنبياء]

وهذا من خوارق العادات التي أيده الله تعالى بها.

وكان داود ﷺ قد سأل ربه أن يغنيه عن بيت المال بما يُقِيَّتُهُ وَيُطْعِمُ عِيَالَهُ، فألان الله له الحديد، وعَلَّمَهُ صناعة الدروع، وهو أول من صنعها، وكانت قبل ذلك صفائح، فكان يصنع الدروع ويبيعها ويأكل منها وَيُطْعِمُ عِيَالَهُ، ويتصدق على الفقراء والمساكين.

وفي الحديث: عن المقدام بن معدي كرب أن رسول الله ﷺ قال: «ما أكل أحد طعاماً قطُ خيراً من أن يأكل من عمل يده، وإن نبي الله داود كان يأكل من عمل يده»^(١).

ثم بيَّن سبحانه كيف استثمر داود إِلانة الحديد له دون إدخاله النار، فصنع منه بأمر الله تعالى دروعاً واسعات سابغات كوامل تامّات، محكمة حلقة الدرع، فليست ضيقة فلا يدخل فيها المسمار، ولا واسعة حتى لا يتحرك المسمار فيها، وهذا معنى: ﴿وَقَدَّرَ فِي السَّرْدِ أَي: أَحْكَمَ صُنْعَهَا، وَقَدَّرَ الْمَسَامِيرَ فِي جِلْقِ الدَّرْعِ، فلا تجعل الحلقة صغيرة فتضعف، ولا تقوى الدروع على الدفاع عن لابسها، ولا تجعلها كبيرة فتثقل على لابسها، ولا تؤدي وظيفتها.

واعمل يا داود أنت وأهلك بطاعة الله، إنه سبحانه مطَّلَع على كل شيء، ومحيط بكل ما تعملون، ولا يخفى عليه شيء منها.

هذا، وداود ﷺ في سيرته جمع بين عمليْن متباعدين:

١- التغني بآلاء الله تعالى وأمجاده، بصوت رخيم، حيث كانت الطيور ترجع صداها

(١) ينظر: «صحيح البخاري» (٢٠٧٢) وأحمد برقم (١٧١٨١، ١٧١٩٠) حديث صحيح، والطبراني في مسند الشاميين (١١٢٣) وفي الكبير ٢٠/ (٦٣٣) والبيهقي في السنن (١٢٧/٦) وانظر «كنز العمال» (٩٢٢٣) و«الترغيب والترهيب» (١٢٠٣).

وتشارك معه في مزاميره.

٢- والمهارة في الصناعات العسكرية والمدنية التي تحوّل الحديد إلى: سيوف ورماح ودروع، وإلى أوانٍ شتى من جفان وقدور.

(إن الفقه في الدنيا جزء من العقل الذي يفقه الآخرة، ولن يستطيع نصرة الإسلام أبله، ولا قاعد متخلف، وهذا ما تحتاج إليه الأمم الفقيرة التي انتمت إلى الإسلام، وعاشت تتسول الصناعات من أعدائها، فكانت عارًا على دينها، وعندما تحوّل المسلمون إلى عالم ثالث أو رابع نال منهم خصومهم وأمسوا معرة لدينهم^(١)).

وتعلّم الحِرَف والصناعات لا يخطُّ من قيمة أهل الفضل، ولا يُنقص من شأنهم، بل فيه زيادة في فضلهم وفضائلهم، فيكسبهم التواضع، ويغنيهم بالكسب عن سؤال الناس.

مِنْ فَضْلِ اللَّهِ تَعَالَى عَلَى نَبِيِّهِ سُلَيْمَانَ عَلَيْهِ السَّلَامُ

١٢- ﴿وَلِسُلَيْمَانَ الرِّيحَ^(٢) غَدُوهاَ شَهْرٌ وَرَوْاحُهاَ شَهْرٌ وَأَسَلْنَا لَهُ عَيْنَ الْقَظَرِ^(٣) وَمِنَ الْجِنِّ مَن يَعْمَلُ بَيْنَ يَدَيْهِ بِإِذْنِ رَبِّهِ وَمَن يَزِغْ مِنْهُمْ عَنْ أَمْرِنَا نُذِقْهُ مِنْ عَذَابِ السَّعِيرِ^(٤)﴾
أما ابنه سليمان عليهما السلام، فقد أعطاه الله خوارق أخرى، ذُكر منها في هذه الآية: تسخير الريح والجن، وإذابة النحاس.

(أ) أما تسخير الريح، فهي تجري له من أول النهار إلى منتصفه، مسيرة سفر شهر على القدمين أو على الإبل، ومن منتصف النهار إلى الليل، مسيرة شهر أيضًا بالسير المعتاد، أو السير على الإبل.

والغدو يكون أول النهار، وهو الذهاب، والرواح يكون آخر النهار، وهو العودة أو الإياب.

(١) يُنظَر : «نحو تفسير موضوعي لسور القرآن» للشيخ محمد الغزالي ص ٣٣١ .

(٢) قرأ شعبة برفع الحاء من لفظ (الريح) مبتدأ مؤخر، وما قبله خبر مقدم، وقرأ الباقون بنصبها، مفعول لفعل محذوف، أي : وسخرنا لسليمان الريح، وكلهم يقرؤون بالافراد إلا أبا جعفر فبالجمع.

(٣) اتفقوا على تريق راء (القطر) وصلًا، ويجوز فيها وقفًا التريق نظرًا للوصل وعملاً بالأصل، ويجوز فيها التفخيم لوجود حرف الاستعلاء قبلها، ولعله الأرجح؛ لأن التريق فيه تكلف وتأثير على الطاء.

ومعنى تسخير الريح: خلق ريح ثلاثم سير سُفُن سليمان، للغزو في سبيل الله، أو للتجارة ونحوها، وقد جعل الله تعالى لمراسي سليمان في شواطئ فلسطين، رياحا موسمية، تهبُّ شهراً في جهة الشرق، لتذهب سُفُنُه في هذا الموسم، وتهب شهراً آخر في جهة الغرب لترجع السفن إلى شواطئ فلسطين^(١).

وهذه الريح تَقْطَع في كلِّ من الغدوة أو الروحة، ما يَقْطَعُه الناس في شهر من الزمان على أقدامهم، قال تعالى: ﴿وَلَسُلَيْمَنَّ الرِّيحَ عَاصِفَةً تَجْرِي بِأَمْرِهِ إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي بَرَكْنَا فِيهَا وَكُنَّا بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمِينَ﴾ [الأنبياء]

وقال سبحانه: ﴿فَسَخَّرْنَا لَهُ الرِّيحَ تَجْرِي بِأَمْرِهِ رُخَاءً حَيْثُ أَصَابَ﴾ [ص].

قال سعيد بن المسيب: كان سليمان عليه السلام يركب الريح من (إصطخر) -وهي بلدة في إيران- فيتغذى في بيت المقدس، ثم يعود فيتعشى في إصطخر^(٢).

وقال الحسن: كان سليمان يغدو من بيت المقدس، فيقبل بإصطخر، ثم يروح من إصطخر فيبيت بقلعة خراسان^(٣).

وقال أيضاً: كان سليمان يخرج من (تدمر) التي بنتها له الجن، فيقبل في إصطخر، ويبعث في (كابل)^(٤).

والله أعلم بصحة هذه الآثار الثلاثة، ويبدو أنها لا أصل لها.

(ب) ومما أعطاه الله لسليمان: أن جعل له النحاس مذاباً سائلاً، يخرج مما يشبه الفسافي أو الأنابيب، كما يخرج الماء من العين لشدة انصهار النحاس وتدفقه، فيصنع منه الأواني والأسلحة وغيرهما، قال تعالى: ﴿وَأَسْلَمْنَا لَهُمُ الْفِطْرَةَ﴾ أي: فجّرنا له من الأرض عيناً بُرْكَانية من النحاس المذاب.

أو أن الله تعالى ألهمه إذابة النحاس حتى يسيل ويصبح قابلاً للصّب كما يسيل الماء.

(١) «تفسير الشيخ الطاهر بن عاشور» (١١/١٢٨).

(٢)، (٣) «الدر المنثور» (١٢/١٧٠).

(٤) «تفسير ابن عطية» (٤/٤٠٨) وابن كثير (٦/٤٩٩).

قال تعالى على لسان ذي القرنين: ﴿ءَاتُوْنِي زُبْرَ الْحَدِيْدِ حَتّٰى اِذَا سَاوٰى بَيْنَ الصَّدَفَيْنِ قَالَ اَنْفُخُوْا حَتّٰى اِذَا جَعَلُوْهُ نَارًا قَالَ ءَاتُوْنِيْ اُفْرِغْ عَلَيْهِ قَطْرًا﴾ [الكهف] والقطر: هو النحاس.

وهل ﴿عَيْنَ الْقَطْرِ﴾ عين حقيقية في مكان معين، أم هي عين مستعارة لصب ما يُصهر في مصانعه من النحاس؟ الله أعلم.

قال ابن عباس ؓ: النحاس لم يُقدَّر عليه بعد سليمان، وإنما يَعْمَلُ الناس بعدُ فيما كان أُعْطِيَ سليمان^(١).

(ج) ومما أعطاه الله تعالى لسليمان: تسخير الجن له، تعمل بأمره وإرادته ما شاء، مما يعجز عنه البشر بمشيئة الله وقدرته ﴿وَمَنْ أَلْجَىٰ مَنْ يَّعْمَلُ بَيْنَ يَدَيْهِ لِإِذْنِ رَبِّهٖ﴾ والجن عالم مستور لا يراه البشر.

وقد سَخَّرَ الله لسليمان طائفة منهم تطيع أمره، ولم يسَخِّرْ له جميع الجن.

ومن يعدل منهم أو ينحرف عن أمر الله له بطاعة سليمان، فهو معرض للعقاب من الله تعالى ﴿وَمَنْ يَزِغْ يَنْهَكُمْ عَنْ أَمْرِنَا نَذَرُهُ مِنْ عَذَابِ السَّعِيرِ﴾ أي: النار المسعرة في الآخرة، وهذا كتوبه تعالى: ﴿وَالشَّيَاطِينُ كُلُّ بَنَاءٍ وَعَوَاصٍ﴾ [ص]

وقوله سبحانه: ﴿وَمِنَ الشَّيَاطِينِ مَنْ يَغُوصُونَ لَهُ وَيَعْمَلُونَ عَمَلًا دُونَ ذَلِكَ﴾ [الأنبياء: ٨٢].

وفي ذلك يقول جل شأنه:

١٣- ﴿يَعْمَلُونَ لَهُ مَا يَشَاءُ مِنْ مَّحْرِبٍ وَتَمْثِيلٍ وَحِفَافٍ كَالْجَوَابِ^(٢) وَقُدُورٍ رَاسِيَتٍ أَعْمَلُوا ءَالَ دَاوُدَ شُكْرًا وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ^(٣) الشُّكُّورُ﴾ [١٣]

ثم أخبر سبحانه عمَّا كلف به سليمان الجن من أعمال، وذكر في هذه الآية أربعة أشياء:

أولها: قوله تعالى: ﴿يَعْمَلُونَ لَهُ مَا يَشَاءُ مِنْ مَّحْرِبٍ﴾ أي: يعمل الجن لسليمان ما يشاء

(١) أخرجه ابن المنذر من طريق ابن جريج، يُنظر: «الدر المنثور» (١٢/١٧١).

(٢) قرأ ورش وأبو عمرو بإثبات الياء وصلًا في (كالجواب) وأثبتها ابن كثير ويعقوب في الحالين، والباقون بحذفها في الحالين.

(٣) قرأ حمزة بإسكان الياء من (عبادي) وصلًا ووقفًا، وحذفها وصلًا حتى لا يلتقي ساكنان، والباقون بفتحها وصلًا وإسكانها وقفًا.

من مساجد للعبادة، والمحاريب: جمع محراب، وهو كل مكان مرتفع، ويطلق على المكان الذي يقف فيه الإمام في المسجد، وعلى أشرف أماكن العبادة، ويطلق على القصور المرتفعة الحصينة، والأبنية الفخمة المشيدة.

والمحراب أيضًا هو: الحصن الذي يُحارب منه العدو المهاجم للمدينة؛ لأنه يُرمَى من شرفاته.

ولذا: فإن قصور عُمدان في اليمن، سُميت محاريب عُمدان، وهي المعنيّة في هذه الآية، وكان لداود محراب يجلس فيه للعبادة، قال تعالى: ﴿وَهَلْ أَتَاكَ نَبَأُ الْخَصْمِ إِذْ سَوَّرُوا الْمِحْرَابَ﴾ [ص].

واتخاذ المحاريب للإمام في المساجد، حدث في المئة الثانية للهجرة في حياة أنس بن مالك ؓ، وهو آخر من مات من الصحابة، وكان يسمى: الطاق، أو الطاقة.

ولعل أول مسجد وُضع فيه محراب، هو المسجد الأموي بدمشق، في عهد الوليد بن عبد الملك.

وهو الذي أمر ببناء وتوسعة محراب المسجد النبوي في الموضع الذي كان يصلي فيه النبي ﷺ، ولكنه لم يكن محرابًا منفصلًا عن المسجد، وهو علامة على تحري موقف النبي ﷺ في صلاته، وكان هذا في إمارة عمر بن عبد العزيز على المدينة.

ومن المحاريب التي بناها سليمان: بيت المقدس، فقد روى عبد الله بن عمرو بن العاص ؓ عن رسول الله ﷺ: «أن سليمان بن داود لما بنى بيت المقدس سأل الله ﷻ حُكْمًا يوافق حُكْمَهُ فَأُوتِيَهُ، وسأل الله ﷻ مُلْكًا لَا يَنْبَغِي لِأَحَدٍ مِنْ بَعْدِهِ فَأُوتِيَهُ، وسأل الله ﷻ حين فرغ من بناء المسجد ألا يأتيه أحد لا ينهزه إلا الصلاة فيه، إلا أخرجه من خطيبته كيوم ولدته أمه^(١).

وثانيها: جاء في قوله تعالى: ﴿وَتَمَثَّلَ﴾ أي: صور من نحاس، وزجاج، وخشب على هيئة إنسان أو حيوان.

(١) أخرجه النسائي برقم (٦٩٤) وصححه الألباني في صحيح النسائي (٦٦٩) وصحيح ابن ماجه (١٤٠٨).

قال الحسن: ولم تكن التماثيل يومئذ مُحَرَّمَة، وقد حُرِّمَتْ في شريعتنا سداً للذريعة؛ لئلا يُعبد غير الله تعالى.

والتماثيل: جمع تماثل، وهو الصورة المجسَّمة، وكان النَحَّاتون يعملون لسليمان صوراً مختلفة وهيئة للملائكة أو الصالحين الذين ماتوا، أو للحيوان، كالأسود وغيرها، وكان كرسي سليمان محفوفاً بِصُورِ أسود أربعة عشر، وفي الهيكل جابية عظيمة من نحاس مصقول^(١).

وكان معظم الأصنام تماثيل، فحرَّم الإسلام اتخاذها لكونها ذريعة للشرك، واتفق الفقهاء على تحريم اتخاذ ما له ظل من تماثيل ذوات الأرواح، مكتملة الأعضاء، واتفقوا على كراهة التماثيل ذات النصف، والرقم في الثوب، ورخص في لعب الأطفال.

وثالثها: جاء في قوله تعالى: ﴿وَجِفَّانٍ كَالْجَوَابِ﴾ أي: قصاع كبيرة كالأحواض والبرك التي يجتمع فيها الماء، فكانت الجن تصنع لسليمان جفاناً كبيرة للطعام، تشبه الجوابي.

والجفان: جمع جَفْنَة، وهي القصعة العظيمة التي يخزَّن فيها الماء، وتَسْع الواحد منها للجزور.

ورابعها: جاء في قوله تعالى: ﴿وَقُدُورٍ رَاسِيَتٍ﴾ أي: قدور للطعام لا تتحرك من أماكنها لكبر حجمها وضخامتها.

والقدور: جمع قِدْر، وهي الآنية التي يُطبخ فيها الطعام، من نحاس أو فخَّار أو غيرهما، وكان يُطبخ في هذه القدور لجنود سليمان، ولسدنة الهيكل وللخدم والأتباع، وكان يوضع تحتها (أثافي) أي: ثلاثة أحجار ضخمة، ليوقد تحتها النار.

وبعد أن ذكر الله بعض نعمه ومننه على عبده ورسوله سليمان ﷺ أمرهم بشكره تعالى، حيث قال الله تعالى: ﴿أَعْمَلُوا آلَ دَاوُدَ شُكْرًا﴾ لله على ما أعطاكم من فضله ونعمه، اشكروه بطاعته وامثال أمره، اشكروا هذه النعم العظيمة التي حباكم الله بها، واصرّفوها في طاعة الله.

ثم ختم الله الآية بقوله: ﴿وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ الشَّاكِرِينَ﴾ أي: وكثير منهم لا يشكر، وكان

(١) جاء ذلك في الإصحاح العاشر من «سفر الملوك الأول».

داود وآله من هذا القليل، وفي هذا حثٌ للناس على شكر الله تعالى.

والشكر: اعتراف القلب بنعمة الله، وذلك بإظهار الافتقار إليها، وصرفها في طاعة الله، وصونها عن معصية الله.

لقد كان داود وسليمان نبيين ومَلَكَيْنِ فما شغلهم هذا الملك والسلطان عن واجبات العبودية:

جاء في الصحيحين: عن عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنه، عن رسول الله ﷺ أنه قال: «إن أحب الصلاة إلى الله صلاة داود، كان ينام نصف الليل، ويقوم ثلثه، وينام سدسه، وأحب الصيام إلى الله صيام داود، كان يصوم يوماً ويفطر يوماً، ولا يفطر إذا لاقى»^(١).

١- وورد في الأثر: أن داود عليه السلام قال: يارب، كيف أشكرك والشكر نعمة منك؟ قال: الآن شكرتني حين علمت أن النعمة مني^(٢).

٢- وعن ثابت البناني قال: كان داود عليه السلام قد جزأ الصلاة على أهله وولده ونسائه، فكان لا تأتي عليهم ساعة من الليل والنهار إلا وإنسان من آل داود قائم يصلي، فعمتهم هذه الآية ﴿اعْمَلُوا آلَ دَاوُدَ شُكْرًا وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ﴾^(٣).

٣- وَوَرَدَ عن الحسن أنه قال: قال داود: إلهي، لو أن لكل شجرة مني لسانين يسبّحانك الليل والنهار الدهر كله، ما قضيت حق نعمة واحدة من نِعَمِكَ عليّ^(٤).

٤- وجاء في الأثر: أن داود عليه السلام أعطاه الله تعالى العدل في الغضب والرضى، والقصد في الفقر والغنى، وذَكَرَ الله في السر والعلانية^(٥).

٥- وعن إبراهيم التيمي أن رجلاً قال عند عمر رضي الله عنه: اللهم اجعلني من القليل، فقال عمر: ما هذا الدعاء الذي تدعو به؟! قال: إني سمعت الله تعالى يقول: ﴿وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ﴾ فأنا أدعو الله أن يجعلني من ذلك القليل، فقال عمر: كل الناس أعلم من عمر^(٦).

(١) البخاري برقم (١١٣١) ومسلم برقم (١١٥٩).

(٢) أخرجه ابن أبي حاتم عن الفضيل كما في «تفسير ابن كثير» (٤٨٩/٦).

(٣) ابن أبي شيبة (٥٥٣/١١) والبيهقي في «الشعب» (٣١٨٧) وأحمد في «الزهد» وابن أبي حاتم.

(٤) ابن أبي شيبة (٥٥٣/١١) وأحمد في «الزهد» ص ٦٩.

(٥) أخرجه ابن المنذر عن عطاء بن يسار.

(٦) ابن أبي شيبة (٣٢٢/١٠).

ولم يزل الشياطين يعملون لسليمان كل بناء، وهم يضللون الإنس ويخبرونهم أنهم يعلمون الغيب، فأراد الله أن يظهر كذبهم، فظلوا في عملهم، وسليمان قد مات وهو متكئ على عصاه، وكلما مرّوا عليه ظنوه حيًّا، ولم يزالوا كذلك حتى سلط الله دابة الأرض فأكلت عصاه، وسقط على الأرض، وتفرقت الشياطين، وتبين للإنس أنهم لا يعلمون شيئًا من الغيب:

مَشْهُدُ وَفَاةِ سُلَيْمَانَ عَلَيْهِ السَّلَامُ

١٤- ﴿فَلَمَّا قَضَيْنَا عَلَيْهِ الْمَوْتَ مَا دَلَّمْ عَلَى مَوْتِهِ إِلَّا دَابَّةُ الْأَرْضِ تَأْكُلُ مِنْسَأَتَهُ^(١)﴾ فَلَمَّا خَرَ تَبَيَّنَتْ^(٢) لِّجُنِّ أَنْ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ الْغَيْبَ مَا لَبِثُوا فِي الْعَذَابِ الْمُهِينِ ﴿١٤﴾

أخبر ﷺ في هذه الآية عن كيفية موت سليمان عليه السلام، وأن الجن ظلوا في عملهم الشاق يعملون إلى ما بعد موت سليمان بعام، وهم لا يعلمون أنه قد مات.

﴿فَلَمَّا قَضَيْنَا عَلَيْهِ الْمَوْتَ﴾ أي: لما انتهى عمر سليمان وجاءه الموت، ونفذ قضاؤنا المتقدم في الأزل إلى حيز الوجود، ﴿مَا دَلَّمْ عَلَى مَوْتِهِ﴾ أي ما دلّ الجن على موت سليمان ﴿إِلَّا دَابَّةُ الْأَرْضِ﴾ الأرضة -وهي السوس الذي ينخر الخشب- ﴿تَأْكُلُ مِنْسَأَتَهُ﴾ أي تأكل عصاه التي كان متكئًا عليها، فوقع سليمان على الأرض.

وقد عمى الله موت سليمان عن الجن الذين كانوا مسخرين في الأعمال الشاقة، فظلوا يعملون مسخرين فيما كلفهم به سليمان من العمل، ولم يدركوا أنه قد مات، وهو متكئ على عصاه نحو عام كامل، حتى ضعفت العصا من نخر السوس، وسقط سليمان على الأرض، بعدما كان واقفًا في محرابه متكئًا على عصاه.

وعندئذ علمت الجن أنهم كانوا واهمين في زعمهم أن سليمان حي يراقبهم، وأنهم لو كانوا يعلمون شيئًا من الغيب ما ظلوا في هذا العمل الشديد، هذه المدة الطويلة بعد موته.

(١) قرأ نافع وأبو عمرو وأبو جعفر بألف بعد السين بدلًا من الهمزة في (منسأته) لغة أهل الحجاز، وقرأ ابن ذكوان وهشام بخلف عنه بهمزة ساكنة بعد السين، والباقون بهمزة مفتوحة على الأصل، اسم آلة، على وزن مِفْعَلَة، كَمِكْنَسَة، وهي: العصا، وهو الوجه الثاني لهشام.

(٢) قرأ رويس (تبين الجن) على البناء للمجهول، والباقون بالبناء للمعلوم.

قال تعالى: ﴿فَلَمَّا خَرَّ﴾ أي: سقط سليمان على الأرض ﴿تَيَّنَتْ﴾ تحققت الجن وتيقنت أنهم ﴿لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ الْغَيْبَ﴾ ما خفي عليهم موت سليمان، و﴿مَا لِيُثْوَى فِي الْعَذَابِ الْمُهِينِ﴾. وفي هذا إبطال لاعتقاد بعض الناس أن لكل كاهن جنًّا، يُعلمه الغيب.

أخرج عبد بن حميد عن قتادة قال: كانت الجن تخبر الإنس أنهم يعلمون من الغيب أشياء، وأنهم يعلمون ما في غد، فابتلوا بموت سليمان، فمات، فلبث سنة على عصاه، وهم لا يشعرون بموته، وهم مسخرون تلك السنة، ويعملون دائبين^(١).

وأخرج إبراهيم بن طهمان، عن عطاء بن السائب، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس رضي الله عنه قال: «كان نبي الله سليمان إذا قام في مصلاه رأى شجرة نابتة بين يديه، فقال لها: ما اسمك؟ قالت: الخرنوب، قال: لأي شيء أنت؟ فقالت: لخراب هذا البيت، فقال: اللهم عمّ عليهم موتي حتى يعلم الإنس أن الجن لا تعلم الغيب، قال: فنحتها عصا يتوكأ عليها، فأكلتها الأرضة، فسقطت فخرّ، فحزروا أكلها الأرضة، فوجدوه حوًّا، فتبينت الإنس أن الجن لو كانوا يعلمون الغيب ما لبثوا في العذاب المهين» وكان ابن عباس يقرؤها هكذا: فشكرت الجنُّ الأرضة، فكانت تأتيها بالماء حيث كانت^(٢).

ذكر أهل التاريخ أن سليمان ملك وهو ابن ثلاث عشرة سنة، وبقي في الملك مدة أربعين سنة، وشرع في بناء بيت المقدس لأربع سنين مضت من ملكه، وتوفي وهو ابن ثلاثة وخمسين عامًا، وقد دفن في بيت المقدس سنة (٩٢٣) قبل الميلاد.

(١) «الدر المنثور» (١٢/١٨٣).

(٢) رواه الذهبي بسنده إلى إبراهيم بن طهمان في «سير أعلام النبلاء» (٣٢٨/٤) وقال: إسناده حسن، وأخرجه البزار في «كشف الأستار» (٢٣٥٥) والطبري في التفسير (٢٤٠/١٩) والطبراني في الكبير (١٢٢٨١) وابن أبي حاتم، وقال ابن كثير: الأقرب أنه موقوف (٦/٤٩٠).

قِصَّةُ أَهْلِ سَبَأٍ وَمَا فِيهَا مِنْ عِبَرٍ

١٥- ﴿لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ^(١) فِي مَسْكِنِهِمْ^(٢) آيَةٌ جَنَّتَانِ عَنْ يَمِينٍ وَشِمَالٍ^(٣) كُلُّوا مِنْ رِزْقِ رَبِّكُمْ وَاشْكُرُوا لِمَوْلَاكُمْ طَبَقٌ مَبْدُونٌ وَرَبُّ عَفُورٌ ﴿١٥﴾

المقصود من هذه القصة: تحذير الناس من كفران النعمة؛ لئلا يحل بهم ما حلَّ بأهل سبأ، وبعد أن ذكر الله - سبحانه - مثلاً للشاركين الذين أسبغ عليهم النعمة، ممثلاً في قصة داود وسليمان عليهما السلام.

ذكر جلَّ شأنه ما يقابل ذلك ممن بطروا النعمة ولم يشكروها، فسلبها الله عنهم، وأذاقهم لباس الجوع والخوف، وهو تمثيل حال أمة بآمة، وبلاد ببلاد.

ولمَّا بَيَّنَّ مُلْكُ سُلَيْمَانَ وَمَمْلَكَةُ سَبَأٍ مِنَ الْإِتِّصَالِ، بِسَبَبِ قِصَّةِ بَلْقِيسَ وَمَمْلَكَتِهَا الْمُضَادَّةَ لِأَحْوَالِ دَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ عَلَيْهِمَا السَّلَامُ، مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ كَانَتْ قِصَّةُ سَبَأٍ.

وفي هذا تعريض بكل من ينطبق عليه الوصف في الحاليتين:

والمعنى: لقد كان لقبيلة سبأ آية في حال مساكنهم ونظام بلادهم التي كانوا يسكنونها قرب مدينة (مأرب) باليمن، على بُعد مسيرة ثلاثة فراسخ من صنعاء، لقد كان لكم فيهم عبرة وعلامة دالة على قدرة الله تعالى، حيث عاقبهم الله تعالى بالغرق في السيل الجارف لمَّا بذلوا نعمة الله كفراً، ﴿لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِي مَسْكِنِهِمْ آيَةٌ﴾ وكانت أرضهم مخصبة ذات بساتين وأشجار متنوعة في جنوب اليمن، وزاد نعيمهم وخيرهم بعد أن أقاموا سدّاً عظيماً بالحجارة في رأس الوادي بين جبلين لحجز الماء فيه، وليأخذوا من مياه الأمطار على قدر حاجتهم ويخزنوا ما بقي منها، في السد الذي يعرف بسد مأرب غالباً، وهو مورد عظيم للماء -

(١) قرأ البزي وأبو عمرو بفتح همزة (لسبأ) بدون تنوين، ممنوع من الصرف للعلمية والتأنيث، وقرأ قبل بإسكانها إجراءً للوصول مجرى الوقف، وقرأ الباقون بالكسر والتنوين، علّم على الحيّ.

(٢) قرأ حفص وحمزة بسكون السين وفتح الكاف من غير ألف في (مسكنهم) على الأفراد، بمعنى المصدر، وقرأ الكسائي وخلف بإفراد (مسكنهم) وكسر الكاف على لغة فصحاء اليمن، موضع السكنى، لأنه مضاف إلى الجمع. والباقون بالجمع (مسكنهم).

(٣) عدّ (عن يمين وشمال) المصحف الشامي وتركه غيره.

وكانت لهم حديقتان عظيمتان، فيهما من كل أنواع الفواكه والثمار، عن يمين الوادي بساتين نَضْرَة، وعن شماله كذلك، وليس المراد: بُسْتَانَيْنِ فقط، بل المراد: أنها عدد من البساتين عن يمين المساكن وعدد عن شمالها.

وقيل: كان لكل واحد في مسكنه جتان: جنة عن يمين المسكن، وجنة عن شماله، يتفياً ظلالهما في الصباح والمساء، ويجني ثمارهما من نخيل وأعناب وغيرها.

﴿جَنَّاتٍ عَنْ يَمِينٍ وَشِمَالٍ﴾ وكان عندهم وادي عظيم تأتيه السيول الكثيرة، فبنوا سداً مارب وجعلوه مجمعاً لهذا الماء، وكانت السيول تأتيه، فيجتمع فيه الماء الكثير فيوزعونه على بساتينهم يميناً وشمالاً.

وكانت المرأة -من كثرة الفواكه والثمار- تمرُّ بمكثلها على رأسها تحت الأشجار فيمتلئ المكثل دون أن تمد يدها، بلا كلفة ولا قطاف.

لقد أعطاهم الله هذه النعم، وقال لهم على ألسنة الرسل: ﴿كُلُوا مِنْ رِزْقِ رَبِّكُمْ وَاشْكُرُوا لَهُمْ﴾ أي: كلوا من فضل الله وإنعامه عليكم، واشكروا ربكم بالتوحيد والطاعة، فإن هذه البلدة التي تسكنونها بلدة كثيرة الخيرات؛ لأن فيها كل ما تحتاجون إليه من نعم وخير، فهي ﴿بَلَدٌ طَيِّبٌ﴾ وربكم الذي أعطاكم هذه النعم رب واسع المغفرة والرحمة، لمن تاب إليه وأتاب، يعفو عن ذنوب عباده بفضله وإحسانه.

وهكذا كان حال أهل سبأ بعد لقاء بلقيس بسليمان، ودخولها في الإسلام، وأنهم ظلوا على شكر ما هم عليه من نعيم مدة من الزمن، وكانت سبأ مقراً لملوك اليمن، وكانت التابعة منهم، وبلقيس منهم، وكانت دولة ذات حضارة عريقة قامت باليمن (٩٥٠-١١٥٠) قبل الميلاد، ورثت دولة مَعين، وكان عاصمتها مارب وجاء بعدها الدولة الحميرية.

وكلمة سبأ في الأصل: اسم لرجل من العرب اسمه سبأ بن يشجب بن يعرب، وهو أول من جمع السبايا، وأول من غنم في الغزو، وسميت القبيلة باسمه.

أصول القبائل العربية:

وكانت سبأ قبيلة عظيمة تنقسم إلى عشرة أفخاذ، وهم: الأزد، وكندة، ومذحج، والأشعريون، وأنمار، وبجيلة، وعاملة، وهم خزاعة، وغسان، ولخم، وجذام.

فلما فارقوا أوطانهم بقيت الست الأولى في اليمن، أما الأربع الباقية فقد لحقت الأزد بعمان، ولحقت خُزاعة بتهامة في مكة، ولحقت الأوس والخزرج بيشرب، وهم من (لَحَم)، ولحقت غَسَّان بْبُصْرَى من بلاد الشام، ولحقت لَحَم بالعراق.

قال الشعبي: أما غَسَّان فلحقوا بالشام، وأما الأنصار فَلَحِقُوا بيشرب، وأما خُزاعة فَلَحِقُوا بتهامة، وأما الأزد فَلَحِقُوا بعمان، فمزَّقهم الله كل ممزَّق^(١).

جاء في الحديث عن ابن عباس رضي الله عنه: أن رجلاً سأل النبي ﷺ عن سبا: ما هو؟ رجل، أم امرأة، أم أرض؟ فقال ﷺ: «بل هو رجل، كان له عشرة من الأولاد، سكن اليمن منهم ستة، وهم: مَذْحِج، وَكِنْدَةَ، والأَزْد، والأشْعَرِيُّون، وأنمار، وجَمِير، وسكن الشام منهم أربعة، وهم: لَحَم، وَجُذَام، وعامِلَة، وغَسَّان».

ولفظ الترمذي: «فتيامن منهم ستة، وتشاءم منهم أربعة، فأما الذين تشاءموا: فلحَم، وجُذَام، وغَسَّان، وعاملة. وأما الذين تيامنوا: فالأزد، والأشْعَرِيُّون، وجَمِير، ومَذْحِج، وأنمار، وَكِنْدَةَ» فقال رجل: يا رسول الله، وما أنمار؟ قال: «الذين منهم: خثعم، وَبَحِيلَة»^(٢).

والأنصار من الأوس والخزرج من عرب اليمن من سبا، وكانوا قد نزلوا بيشرب لَمَّا تفرقت سبا في البلاد حين أرسل الله عليهم سيل العرم، ونزلت طائفة منهم بالشام، كقبيلتي غَسَّان وعاملة، وقبيلة أخرى إلى عُمان، وهي الأزد. قال ابن كثير: واختلفوا في قحطان على ثلاثة أقوال:

أحدها: أنه من سلالة إرم بن سام بن نوح.

وثانيها: أنه من سلالة عابر، وهو هود عليه السلام.

وثالثها: أنه من سلالة إسماعيل عليه السلام.

(١) أخرجه عبد بن حميد، وابن المنذر، وابن أبي حاتم كما في «الدر المنثور» (٢٠١/١٢).

(٢) يُنظَر: «المسند» (٣١٦/١) برقم (٢٨٩٨) وهو حديث حسن، ورواه الترمذي في سننه (١٥٤/٢).

(٣٢٢٢) وقال: حديث غريب حسن، ورواه الطبري (٧٦/٢٢) وأبو داود (٣٩٨٨) والحاكم (٤٢٣/٢).

وقال: صحيح الإسناد ولم يخرجاه، ووافقه الذهبي، وقال الألباني في «صحيح سنن الترمذي» (٢٥٧٤).

: حسن صحيح، وقال ابن كثير (٥٠٧/٦): إسناده جيد.

وفي حديث أم سلمة رضي الله عنها: أن النبي ﷺ مرَّ بنفر من (أسلم) ينتضلون، فقال: «ارْمُوا بني إسماعيل، فَإِنْ أَبَاكُمْ كَانَ رَامِيًا»^(١).

ف(أسلم) قبيلة من الأنصار، والأنصار: أوسها وخزرجها من غسَّان، من عرب اليمن، من سبأ، نزلوا يثرب، لَمَّا تفرقت سبأ في البلاد حين بعث الله عليهم سيل العرم، ونزلت طائفة منهم بالشام^(٢). قال تعالى:

أَهْلُ سَبَأٍ كَانُوا قَبْلَ سَيْلِ الْعَرَمِ فِي أَمْنٍ وَرَخَاءٍ

١٦، ١٧ - ﴿فَأَعْرَضُوا فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ الْعَرَمِ وَيَدَّلْنَاهُمْ بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتِ أَكْثَلٍ^(٣) خَمَطٍ وَاقِلٍ وَشَيْءٍ مِّن سِدْرٍ قَلِيلٍ ﴿١٦﴾ ذَلِكَ جَزَيْنَاهُمْ بِمَا كَفَرُوا وَهَلْ يُجْزَىٰ^(٤) إِلَّا الْكَفُورَ ﴿١٧﴾﴾

لم يستمر أهل مدينة سبأ على التوحيد وشكر النعمة، وإنما رجعوا إلى عبادة الشمس، بعد أن ألقعوا عنها في زمن سليمان وبلقيس، فلما كفروا بالله بعد إيمان قُضِي عليهم بالعقاب، فتهدَّم سدُّ مأرب، وأرسل الله عليهم سيل العرم، وهو السيل الذي تشكَّل بعد انهيار سدِّ مأرب قبل ظهور الإسلام بنحو أربع مئة سنة.

وقيل: العرم، اسم للوادي الذي أقيم عليه السد حين اندفع الماء نحوهم، فغرقوا، وتلِفَتْ أشجارهم وأنعامهم بسبب الجفاف الذي لحق بهم.

وقال ابن عباس رضي الله عنهما: ذُكر لي أن جُرْذَا ابتعثه الله على سدِّهم فنقب فيه ثقبًا^(٥).

والجُرْذ: هو ذَكَرُ الفئران.

(١) «صحيح البخاري» برقم (٣٥٠٧).

(٢) «تفسير الطبري» (٢٥١/١٩).

(٣) قرأ نافع وابن كثير بإسكان الكاف من (أَكْل) وتكوين اللام، على أنه مقطوع عن الإضافة.

وقرأ أبو عمرو ويعقوب بضم الكاف وترك التثنية من إضافة الشيء إلى جنسه، وقرأ الباقر بضم الكاف والتثنية، وهم: ابن عامر وعاصم وحزمة والكسائي وأبو جعفر وخلف.

(٤) قرأ نافع وابن كثير وأبو عمرو وابن عامر وشعبة وأبو جعفر (يُجَازَى) بالياء والبناء للمفعول ورفع (الكفور) نائب فاعل، وقرأ الباقر بالنون في (تُجَازَى) والبناء للفاعل و (الكفور) مفعول به منصوب.

(٥) أخرجه الطبري عن علي بن أبي طلحة بسند حسن.

قال قتادة عن أهل سبأ: هم قوم أعطاهم الله تعالى نعمة، وأمرهم بطاعته، ونهاهم عن معصيته...، فلما ترك القوم أمر الله بعث عليهم جُرُذًا فنقبه من أسفله، فاتسع حتى أغرق الله به حُرُوثهم، وخرَّب به أراضيهم عقوبة لهم^(١).

وكان سدُّ مأرب الذي يُحفظ فيه الماء، يسمَّى ﴿سَيْلَ الْعَرِمِ﴾ وقد شرع في بنائه (سبأ) أول ملوك هذه الأمة، وأتمَّ بعده ابنه (حمير). هذا قول.

وقيل: إن (سيل العرم) بُني بعد انهيار سد مأرب، وأنه هو الذي أغرق أهل سبأ. أما بلقيس فقد بنت خزانات أخرى فرعية، ورمت بناء السد، وكان يصبُّ في سد مأرب سبعون واديًا.

ويبلغ طول السدِّ من الشرق إلى الغرب ثمان مئة ذراع، وارتفاعه بضع عشرة ذراعًا، وعرضه مئة وخمسون ذراعًا.

يقول تعالى واصفًا حال أهل مدينة سبأ: ﴿فَأَعْرَضُوا﴾ عن أمر الله وشكره، وكذبوا رسل الله تعالى. قيل: إن الله تعالى بعث إليهم ثلاثة عشر نبيًا، فدعاهم إلى توحيد الله تعالى، وذكروهم نعمة الله عليهم، وأنذرهم عاقبة تكذيبهم وجُحودهم، وهؤلاء الأنبياء الذين بُعثوا إليهم ممن قال عنهم القرآن الكريم:

﴿وَرُسُلًا قَدْ قَصَصْنَاهُمْ عَلَيْكَ مِنْ قَبْلُ وَرُسُلًا لَمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ﴾ [النساء: ١٦٤].

فكان عاقبة كفرهم ما قاله رب العزة: ﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِم سَيْلَ الْعَرِمِ﴾ أي: أرسل الله عليهم السيل الجارف الشديد الذي خرَّب السد، وأغرق البساتين.

وقال الضحاك: كانت أودية اليمن تسيل إلى وادي سبأ، وهو وادٍ بين جبلين، فعمد أهل سبأ فسدُّوا ما بين الجبلين بالقيِر والحجارة، وتركوا ما شاؤوا لجَنَاتِهِمْ، فعاشوا بذلك زمانًا من الدهر، ثم إنهم عَتَوْا وعملوا بالمعاصي، فبعث الله على ذلك السدِّ، جُرُذًا فنقبه عليهم، فأغرق الله مساكنهم وجناتهم، وبَدَّلَهُمْ بمكان جَنَّتِهِمْ جَتِينَ^(٢).

(١) يُنْظَرُ: «تفسير الطبري» (٢٤٨/١٩) بتصرف.

(٢) مختصر من «تفسير ابن كثير» (٥٠٦/٦).

والعرم: اسم للوادي الذي كان يأتي منه السيل، أو اسم للسدود التي كانت تحجز الماء، أو اسم للمطر الشديد الذي نتج عنه هذا السيل.

ثم إن الله تعالى غيرَ حدائقهم المثمرة النافعة بحدائق غير مثمرة، وفيها أشجار لا فائدة فيها، كما قال تعالى: ﴿وَيَذَلُّهُمْ يَجْنَتُهُمْ﴾ المثمرتين ﴿جَنَيْنَ﴾ بلا ثمر ﴿ذَوَاقَ أَكُلٍ حَمَطٍ﴾ وهو شجر الشمر المر، كربه الطعم، وقيل: هو شجر الأراك ﴿وَأَثَلٍ﴾ شجر لا ثمر له من شجر العضاة شبيه بالطرفاء ﴿وَشَقٍ مِّن سِدْرٍ قَلِيلٍ﴾ أي: وقليل من شجر النبق، كثير الشوك^(١).

والمعنى: أعطيناهم أشجار حمط وأثل وسدر عوضاً عن جنتيهم، فأصبحت بلادهم قاحلة، ليس فيها إلا شجر العضاة والبادية.

قال تعالى معقِّباً على قصتهم: ﴿ذَلِكَ جَزَيْنَهُمْ بِمَا كَفَرُوا﴾ أي: بسبب كفرهم وعبادتهم للشمس من دون الله، فقد بدل الله حالهم من خير إلى شر، وتلك سُنَّةُ الله في خلقه، لا يعاقب بهذا العقاب الشديد إلا الجحود المبالغ في الكفر، فإنه يجازى بمثل عمله ﴿وَهَلْ تُجْزَى إِلَّا الْكَفُورُ؟﴾

١٨ - ﴿رَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ الْقَرْيَ الَّتِي بَرَكْنَا فِيهَا قَرْيَ ظَلْمَةً وَقَدَرْنَا فِيهَا السَّيْرَ سِيرُوا فِيهَا لِيَالٍ وَأَيَّامًا ءَامِينَ﴾

هذا وصف لحال أهل سبا قبل مجيء السيل، من أن الله تعالى قد أصلح البلاد، فجعلها عامرة بالناس والمرافق، وجعلها متصلة البنيان، مع ما منحهم الله من الجنتين والنعم الخاصة بهم.

أي: وكان من نتيجة عقاب الله تعالى لهم أن تبدلت أحوالهم، فقاوسوا شدة العطش، وفقدان الثمر، حتى اضطروا إلى مفارقة البلاد، فكانت هذه نهايتهم، وطوى القرآن ذكرهم، وطوى التاريخ صفحتهم.

وبعد ذُكرِ نعمة الله تعالى على أهل سبا بالرخاء وطيب العيش، ذُكر سبب نعمة أخرى

(١) قال الأزهرى: والسدر نوعان: سدر لا يُنتفع به ولا يصلح ورقه للغسل، وله ثمرة عصفة لا تؤكل، وسدر ينبت على الماء وثمره النبق، وورقه غسول.

أنعمها عليهم، هي نعمة الأمن، وتيسير الأسفار، وعمارة البلاد، فقال تعالى:

﴿وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ﴾ بين أهل سبأ باليمن ﴿وَبَيْنَ الْقُرَى الَّتِي بَرَكْنَا فِيهَا﴾ وهي الشام وغيرها من البلاد التي مروا بها، جعلنا فيها قوافل للتجارة وبيع الطعام، فقد سلكوا طريق تهامة، ثم الحجاز، ثم الشام.

وجعلنا بينها ﴿قُرَى ظَاهِرَةً﴾ أي: مُدُنًا متصلة يُرَى بعضها من بعض، فكلما ساروا مرحلة وجدوا قرية أو بلدًا أو دارًا، فاستراحوا فيها وتزوّدوا، وكانوا -حين خرجوا من مأرب- لا يتيهون ولا يحملون معهم شيئًا من الطعام والمتاع لعدم حاجتهم له في الطريق.

قال تعالى: ﴿وَقَدَرْنَا فِيهَا السَّيْرَ﴾ أي: قَدَرْنَا مسافات السير بين المدن، فجعلناها متقاربة من منزل إلى منزل، ومن بلد إلى بلد لا يجدون فيها مشقة، ولا يحتاجون إلى حمل ماء أو زاد، وقلنا لهم: ﴿سِيرُوا فِيهَا لَيَالِيَ وَأيَّامًا﴾ صباحًا ومساءً، وفي أي وقت شتتم من ليل أو نهار، وكانوا يسيرون ﴿ءَامِنِينَ﴾ مطمئنين في السير في تلك الأيام والليالي لا يخافون عَدُوًّا ولا جُوعًا ولا عطشًا، ولكنهم أعرضوا عن المنعم، ويطروا النعمة، حتى إنهم تمنّوا أن تتباعد المسافات بين تلك القرى، فاستبدلوا الذي هو خير بالذي هو أدنى.

عُقُوبَةُ مَنْ بَدَّلَ نِعْمَةَ اللَّهِ كُفْرًا

١٩- ﴿فَقَالُوا رَبَّنَا بَعْدَ^(١) بَيْنَ أَسْفَارِنَا وَظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ فَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ وَمَزَقْنَاهُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾

هذه مقالة قالوها على وجه البطر وكفر النعمة، حيث قابل أهل سبأ هذه النعمة الثانية بالطغيان والجحود، فقد بطروا النعمة، وملّوا العافية، واستمرؤوا الراحة، فطلبوا من الله تعالى أن يباعد بين قراهم المتصلة؛ ليمشّوا في الجبال والصحاري والقيافي، ويحملوا معهم الزاد للسفر ﴿فَقَالُوا رَبَّنَا بَعْدَ بَيْنَ أَسْفَارِنَا﴾ أي: اجعل قرانا متباعدة، ليبعد سفرنا بينها، فلا نجد قُرَى عامرة في طريقنا.

(١) قرأ ابن كثير وأبو عمرو وهشام (رَبَّنَا بَعْدَ) فعل طلب، وقرأ يعقوب (رَبَّنَا بَاعَدَ) الأول مبتدأ، والثاني فعل ماضٍ، والجملة خبر، وقرأ الباقون (رَبَّنَا بَاعَدُ) فالأول منصوب على النداء، والثاني فعل طلب.

ويمكن أن يكون قولهم هذا ردًا على مواظب أنبيائهم والصالحين منهم، الذين ينهوهم عن الشرك، كما فعل بنو إسرائيل، حين طلبوا استبدال المن والسلوى بالبصل والثوم والعدس.

ومن أكبر أسباب زوال النعم كفرانها، كما قال بعضهم^(١): ومن لم يشكر النعم فقد تعرض لزوالها، ومن شكرها فقد قيدها بعقالها.

وقد عجل الله لهم العقوبة بسبب ظلمهم لأنفسهم بالشرك والمعاصي ﴿وَزَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ﴾ فأهلكهم الله لكفرهم وتكذيبهم رسل الله، قال تعالى: ﴿فَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ﴾ أي: قصة يتحدث بها السابق لللاحق، وعبرة يعتبر بها من بعدهم ﴿وَمَزَقْنَاهُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ﴾ أي: خربنا بلادهم، وشتتاهم في أرجاء البلاد كل تشئت، فصاروا هنا وهناك، وأصبحت قصتهم مضرب المثل، فيقال: ذهبوا أيدي سبأ، أي: تفرقوا تفرق سبأ، بعد أن كانوا أمة واحدة يظلمها الأمن والرخاء والاطمئنان والجاه.

قال تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾ إن فيما حلَّ بأهل سبأ لعبرة لكل صبار على المكاره والشدائد، شكور لأنعم الله عليه.

وفي حديث صهيب رضي الله عنه: أن النبي ﷺ قال: «عجبًا للمؤمن، لا يقضي الله له قضاء إلا كان خيرًا، إن أصابته سراء شكر، فكان خيرًا له، وإن أصابته ضراء صبر، فكان خيرًا له، وليس ذلك لأحد إلا للمؤمن»^(٢).

وآفة الناس أنهم يحسبون الغنى دليل الرضوان من الله تعالى، وأن المال إذا قلَّ عند الآخرين كان علامة على عدم القبول، ونسي الناس أن الله تعالى يختبر بالعطاء وبالحرمان، وبالبأساء والضراء، وبالنعماء والخذلان، وأن النجاح يكون في الصبر على ابتلاء الإنسان إزاء أقدار الله تعالى، كما قال سبحانه: ﴿وَبَلَّوْكُمْ بِالْشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً﴾ [الأنبياء: ٣٥].

(١) الشيخ ابن عطاء الله السكندري.

(٢) «صحيح مسلم» برقم (٢٩٩٩) وهو في «المسند» (٢٦٤/٣١) (١٨٩٣٤) وغير هذا الموضع، بإسناد صحيح على شرط مسلم، وأخرجه ابن حبان (٢٨٩٦) والطبراني في الكبير (٧٣١٦) وفي الأوسط (٣٨٦١).

وأهل سبأ قد سقطوا في الامتحان عندما استهانوا بنعمة الله عليهم ﴿١٩﴾ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ بَدَلُوا نِعْمَتَ اللَّهِ كُفْرًا وَأَحَلُّوا قَوْمَهُمْ دَارَ الْبَوَارِ ﴿٢٠﴾ [إبراهيم].

وعندما تزول النعمة تذهب الوحدة، والصحة، والأمن، ويأتي أضدادها.

وقصة سبأ تحذر الناس من كفران النعمة حتى لا يحل بهم ما حل بمن قبلهم.

١- قال تعالى: ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَرَبٍ بِطَرَتِ مَعِيشَتَهَا فَبَلَكَ مَسْكِنُهُمْ لَمْ تُشْكِنْ مِنْ بَدِيرٍ إِلَّا قَلِيلًا وَكُنَّا نَحْنُ الْوَارِثِينَ﴾ ﴿٥٨﴾ [القصص].

٢- وقال جل شأنه: ﴿وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ ءَامِنَةً مُطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِنْ كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللَّهِ فَأَذَقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ﴾ ﴿١٣٣﴾ [النحل].

٣- وقال عز شأنه: ﴿وَكَمْ قَصَمْنَا مِنْ قَرْيَةٍ كَانَتْ ظَالِمَةً وَأَنْشَأْنَا بَعْدَهَا قَوْمًا آخَرِينَ﴾ ﴿١٢١﴾ [الأنبياء].

٤- وقال سبحانه: ﴿فَكَانَ مِنْ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ فِيهَا خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا وَيَبِترُ الْمُعْطَلَةُ وَقَصِرَ مَشِيدُ﴾ ﴿٤٥﴾ [الحج].

٥- وقال أيضًا: ﴿وَكَايْنِ مِنْ قَرْيَةٍ أَمَلْتُ لَهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ ثُمَّ أَخَذْتُهَا وَإِلَى الْمَصِيرِ﴾ ﴿٤٨﴾ [الحج].

وفي هذه القصة عدة عبر أشار إليها قوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ﴾ :

١- فرغد عيشهم، وأمن أوطانهم، آية دالة على قدرته تعالى وإنعامه على خلقه.

٢- وفي إرسال سيل العرم عليهم آية دالة على انفراد الله تعالى بالتصرف.

٣- وفي انعكاس حالهم من الرفاهية إلى شظف العيش، آية دالة على تقلب الأحوال.

٤- وعدم الاطمئنان إلى دوام الحال في الخير أو الشر آية من آيات الله تعالى.

٥- وفي حضارة العمران واتساع البلاد آية دالة على عظم السلطان وتصرف الأفعال.

٦- وفيما صاروا إليه من التزوح عن الأوطان والتشتت في البلاد، آية يعتبر بها العصاة والمذنبون.

وفي الجمع بين ﴿صَبَّارٍ﴾ و ﴿شَكُورٍ﴾ إفادة أن واجب المؤمن هو التخلق بالخلقين: الصبر على المكاره، والشكر على النعم.

وأهل سبأ لم يشكروا النعمة، ولم يصبروا على زوالها، فعمهم الجزع، وتفرقوا في البلاد.

وفي الآية دلالة على ضرورة تأمين الطرق وتعييدها، وتيسير المواصلات، وتقريب البلدان؛ لتيسير تبادل المنافع وجلب الأرزاق.

وفي الإجحاف بالنعمة، وعدم شكر الله عليها بتوحيده وطاعته والإحسان إلى خلقه، تعريضها للزوال، وتغيّر أحوال أهلها.

من أجل هذا كان واجباً على كل ولاية الأمور، في كل أمة من الأمم، أن يسعوا جهدهم في تأمين البلاد، وحراسة السبل، وتيسير الأسفار، وتقرير الأمن في أرجاء البلاد بمختلف الوسائل، وهذا من أهم ما تُتفق عليه الأموال، وعلى علماء الأمة أن يقدموا لهم النصيحة، ويرشدوهم إلى طريق الخير.

سُلْطَانُ الشَّيْطَانِ عَلَى ضَعْفَاءِ الْإِيمَانِ

٢٠- ﴿وَلَقَدْ صَدَقَ^(١) عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُ فَاتَّبَعُوهُ إِلَّا فَرِيقًا مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ

نَبِّهَ ﷺ المؤمنين في هذه الآية إلى مكائد الشيطان، وسوء عاقبة أتباعه؛ ليحذروه ويستيقظوا لكيد، فلا يقعوا في إغوائه ووسوسته، فقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ صَدَقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُ﴾ لقد ظن إبليس ظناً غير يقين أنه سيضل بني آدم، وأنهم سيطيعونه في معصية الله، فصدق ظنه عليهم في قدرته على إغوائهم، وحقق ما يريده منهم بالانصراف عن طاعة الله تعالى بسبب انغماسهم في الفسوق والعصيان.

والضمير في ﴿عَلَيْهِمْ﴾ يعود على الناس جميعاً ومنهم أهل سبأ.

قال تعالى مخبراً عن إبليس: ﴿لَئِنْ أَخَّرْتَنِ إِلَى يَوْمِ الْقِيَمَةِ لَأَحْتَنِكَ ذُرِّيَّتَهُ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [الإسراء: ٦٢].

وقال تعالى عنه: ﴿ثُمَّ لَآتِيَنَّهُمْ مِّنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَنِهِمْ وَعَنْ شَمَائِلِهِمْ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ

﴿٧﴾ [الأعراف].

وقال تعالى عنه ﴿فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ

﴿٨٢﴾

﴿٨٣﴾

﴿٨٤﴾

﴿٨٥﴾

﴿٨٦﴾

﴿٨٧﴾

﴿٨٨﴾

﴿٨٩﴾

﴿٩٠﴾

﴿٩١﴾

﴿٩٢﴾

﴿٩٣﴾

﴿٩٤﴾

﴿٩٥﴾

﴿٩٦﴾

﴿٩٧﴾

﴿٩٨﴾

﴿٩٩﴾

﴿١٠٠﴾

﴿١٠١﴾

﴿١٠٢﴾

﴿١٠٣﴾

﴿١٠٤﴾

﴿١٠٥﴾

﴿١٠٦﴾

﴿١٠٧﴾

﴿١٠٨﴾

﴿١٠٩﴾

﴿١١٠﴾

﴿١١١﴾

﴿١١٢﴾

﴿١١٣﴾

﴿١١٤﴾

﴿١١٥﴾

﴿١١٦﴾

﴿١١٧﴾

﴿١١٨﴾

﴿١١٩﴾

﴿١٢٠﴾

﴿١٢١﴾

﴿١٢٢﴾

﴿١٢٣﴾

﴿١٢٤﴾

﴿١٢٥﴾

﴿١٢٦﴾

﴿١٢٧﴾

﴿١٢٨﴾

﴿١٢٩﴾

﴿١٣٠﴾

﴿١٣١﴾

﴿١٣٢﴾

﴿١٣٣﴾

﴿١٣٤﴾

﴿١٣٥﴾

﴿١٣٦﴾

﴿١٣٧﴾

﴿١٣٨﴾

﴿١٣٩﴾

﴿١٤٠﴾

﴿١٤١﴾

﴿١٤٢﴾

﴿١٤٣﴾

﴿١٤٤﴾

﴿١٤٥﴾

﴿١٤٦﴾

﴿١٤٧﴾

﴿١٤٨﴾

﴿١٤٩﴾

﴿١٥٠﴾

﴿١٥١﴾

﴿١٥٢﴾

﴿١٥٣﴾

﴿١٥٤﴾

﴿١٥٥﴾

﴿١٥٦﴾

﴿١٥٧﴾

﴿١٥٨﴾

﴿١٥٩﴾

﴿١٦٠﴾

﴿١٦١﴾

﴿١٦٢﴾

﴿١٦٣﴾

﴿١٦٤﴾

﴿١٦٥﴾

﴿١٦٦﴾

﴿١٦٧﴾

﴿١٦٨﴾

﴿١٦٩﴾

﴿١٧٠﴾

﴿١٧١﴾

﴿١٧٢﴾

﴿١٧٣﴾

﴿١٧٤﴾

﴿١٧٥﴾

﴿١٧٦﴾

﴿١٧٧﴾

﴿١٧٨﴾

﴿١٧٩﴾

﴿١٨٠﴾

﴿١٨١﴾

﴿١٨٢﴾

﴿١٨٣﴾

﴿١٨٤﴾

﴿١٨٥﴾

﴿١٨٦﴾

﴿١٨٧﴾

﴿١٨٨﴾

﴿١٨٩﴾

﴿١٩٠﴾

﴿١٩١﴾

﴿١٩٢﴾

﴿١٩٣﴾

﴿١٩٤﴾

﴿١٩٥﴾

﴿١٩٦﴾

﴿١٩٧﴾

﴿١٩٨﴾

﴿١٩٩﴾

﴿٢٠٠﴾

﴿٢٠١﴾

﴿٢٠٢﴾

﴿٢٠٣﴾

﴿٢٠٤﴾

﴿٢٠٥﴾

﴿٢٠٦﴾

﴿٢٠٧﴾

﴿٢٠٨﴾

﴿٢٠٩﴾

﴿٢١٠﴾

﴿٢١١﴾

﴿٢١٢﴾

﴿٢١٣﴾

﴿٢١٤﴾

﴿٢١٥﴾

﴿٢١٦﴾

﴿٢١٧﴾

﴿٢١٨﴾

﴿٢١٩﴾

﴿٢٢٠﴾

﴿٢٢١﴾

﴿٢٢٢﴾

﴿٢٢٣﴾

﴿٢٢٤﴾

﴿٢٢٥﴾

﴿٢٢٦﴾

﴿٢٢٧﴾

﴿٢٢٨﴾

﴿٢٢٩﴾

﴿٢٣٠﴾

﴿٢٣١﴾

﴿٢٣٢﴾

﴿٢٣٣﴾

﴿٢٣٤﴾

﴿٢٣٥﴾

﴿٢٣٦﴾

﴿٢٣٧﴾

﴿٢٣٨﴾

﴿٢٣٩﴾

﴿٢٤٠﴾

﴿٢٤١﴾

﴿٢٤٢﴾

﴿٢٤٣﴾

﴿٢٤٤﴾

﴿٢٤٥﴾

﴿٢٤٦﴾

﴿٢٤٧﴾

﴿٢٤٨﴾

﴿٢٤٩﴾

﴿٢٥٠﴾

﴿٢٥١﴾

﴿٢٥٢﴾

﴿٢٥٣﴾

﴿٢٥٤﴾

﴿٢٥٥﴾

﴿٢٥٦﴾

﴿٢٥٧﴾

﴿٢٥٨﴾

﴿٢٥٩﴾

﴿٢٦٠﴾

﴿٢٦١﴾

﴿٢٦٢﴾

﴿٢٦٣﴾

﴿٢٦٤﴾

﴿٢٦٥﴾

﴿٢٦٦﴾

﴿٢٦٧﴾

﴿٢٦٨﴾

﴿٢٦٩﴾

﴿٢٧٠﴾

﴿٢٧١﴾

﴿٢٧٢﴾

﴿٢٧٣﴾

﴿٢٧٤﴾

﴿٢٧٥﴾

﴿٢٧٦﴾

﴿٢٧٧﴾

﴿٢٧٨﴾

﴿٢٧٩﴾

﴿٢٨٠﴾

﴿٢٨١﴾

﴿٢٨٢﴾

﴿٢٨٣﴾

﴿٢٨٤﴾

﴿٢٨٥﴾

﴿٢٨٦﴾

﴿٢٨٧﴾

﴿٢٨٨﴾

﴿٢٨٩﴾

﴿٢٩٠﴾

﴿٢٩١﴾

﴿٢٩٢﴾

﴿٢٩٣﴾

﴿٢٩٤﴾

﴿٢٩٥﴾

﴿٢٩٦﴾

﴿٢٩٧﴾

﴿٢٩٨﴾

﴿٢٩٩﴾

﴿٣٠٠﴾

﴿٣٠١﴾

﴿٣٠٢﴾

﴿٣٠٣﴾

﴿٣٠٤﴾

﴿٣٠٥﴾

﴿٣٠٦﴾

﴿٣٠٧﴾

﴿٣٠٨﴾

﴿٣٠٩﴾

﴿٣١٠﴾

﴿٣١١﴾

﴿٣١٢﴾

﴿٣١٣﴾

﴿٣١٤﴾

﴿٣١٥﴾

﴿٣١٦﴾

﴿٣١٧﴾

﴿٣١٨﴾

﴿٣١٩﴾

﴿٣٢٠﴾

﴿٣٢١﴾

﴿٣٢٢﴾

﴿٣٢٣﴾

﴿٣٢٤﴾

﴿٣٢٥﴾

﴿٣٢٦﴾

﴿٣٢٧﴾

﴿٣٢٨﴾

﴿٣٢٩﴾

﴿٣٣٠﴾

﴿٣٣١﴾

﴿٣٣٢﴾

﴿٣٣٣﴾

﴿٣٣٤﴾

قال ابن قُتيبة: إن إبليس لما سأل النظرة، فأنظره الله تعالى، قال: لأغوينهم ولأضلنهم، ولم يكن مستيقناً وقت هذه المقالة، أن ما قاله فيهم سوف يتم، وإنما قاله ظناً، فلما اتبعوه وأطاعوه صدق عليهم ظنه فيهم.

وقال الحسن: لما أهبط الله آدم من الجنة ومعه حواء، هبط إبليس فرحاً بما أصاب منهما، وقال: إذا أصبتُ من الأبوئن ما أصبت، فالذرية أضعف وأضعف، وكان ذلك ظناً من إبليس، فأنزل الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ صَدَقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُ﴾ فقال إبليس عند ذلك: لا أفارق ابن آدم ما دام فيه الروح، أعدّه وأمنّيه وأخدعه، فقال الله تعالى:

«وعزتي وجلالي لا أحجب عنه التوبة ما لم يغرغر بالموت، ولا يدعوني إلا أجبته، ولا يسألني إلا أعطيته، ولا يستغفري إلا غفرت له» رواه ابن أبي حاتم^(١).

ولهذا فإن الشيطان قد سَوَّلَ للمشرّكين الشرك وألوان المعاصي وحسّنها لهم، وكرّه إليهم نصائح الناصحين، فصَدَّقَ عليهم ما توسّسه فيهم، فقبلوا دعوته لهم وأعرضوا عن دعوة الصالحين ﴿فَاتَّبَعُوهُ إِلَّا فَرِيقًا مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ اتبعه الناس فيما دعاهم إليه من الضلال، باستثناء فريق منهم، هم المؤمنون المخلصون، فإنهم لم يتبعوه، وهم الذين ذكرهم الله تعالى في قوله: ﴿إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ﴾ [الحجر: ٤٢].

وفي قوله تعالى مخبراً عن إبليس: ﴿إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ﴾ [الحجر].

فهؤلاء هم الذين ثبتوا على طاعة الله سبحانه. قال تعالى:

٢١- ﴿وَمَا كَانَ لَّهُمْ عَلَيْهِمْ مِّن سُلْطَانٍ إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يُّؤْمِنُ بِالْآخِرَةِ مِمَّنْ هُوَ مِنهَا فِي شَكٍّ وَرَبِّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ حَفِيظٌ﴾ (٢١).

بيّن سبحانه في هذه الآية أن إغواء الشيطان لأهل سبأ ولغيرهم من سائر الخلق، لم يكن عن قهر وإكراه، وإنما كان عن اختيار منهم؛ لتمييز الخبيث من الطيب، فقال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لَّهُمْ عَلَيْهِمْ مِّن سُلْطَانٍ﴾ أي: وما كان لإبليس على الخارجين عن طاعة الله تعالى من قسّر ولا تسلّط ولا إجبار، فهو لا يملك إلا الوسوسة والإغواء، فإبليس لم يقهر أحداً على الكفر أو المعصية، وإنما كان منه الدعاء والترتين.

(١) كما في «تفسير ابن كثير» (٥١١/٦) و«الدر المثور» (٢٠٤/١٢).

قال الحسن: إنه لم يسئل عليهم سيفًا، ولا ضربهم بسوط، إنما وعدهم ومثأهم. وهذا الإغواء من الشيطان لبني آدم، لحكمة أرادها الله تعالى؛ لتمييز من يُصدق بالدار الآخرة فيعمل لها، ممن هو في شك وارتياب، وهذا معنى ﴿إِلَّا لِنَعْلَمَ﴾ أي: نُظهر علمنا للخلائق، فتسجل الملائكة عليهم أعمالهم في صحائفهم، حتى تقوم الحجة عليهم، ويظهر ﴿مَنْ يُؤْمِنُ بِالْآخِرَةِ مِمَّنْ هُوَ مِنْهَا فِي شَكٍ﴾.

وقد اقتضت الآية على تمييز من يؤمن بالآخرة ومن لا يؤمن بها؛ لأن جحود الآخرة قرين للشرك ومساوٍ له، فلو أنهم آمنوا بالآخرة لآمنوا بربهم الواحد الأحد، الذي لا شريك له ولا ولد، وإلا فإن علل وسوسة الشيطان وإغوائه كثيرة، لا حصر لها، وكلها ترجع على تمييز الكافر من المؤمن، والمطيع من العاصي.

ثم ختم الله الآية بقوله: ﴿وَرَبُّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ حَفِيظٌ﴾ فلا يخرج عن حفظه وهيمته شيء، ومع حفظه لهم فقد ضلَّ من ضلَّ من أتباع الشيطان، وسلم بحفظ الله ورعايته من سلم من المؤمنين أتباع الرسل، وفي الآيات التالية:

خَمْسٌ مِنْ خَصَائِصِ الْإِلَهِ الْحَقِّ

٢٢- ﴿قُلْ^(١) ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ وَمَا لَكُمْ فِيهِمَا^(٢) مِنْ شَرِكٍ وَمَا لَكُمْ مِنْهُمْ مِنْ ظَهِيرٍ﴾

في هذه الآية تعجيز لأهل الشرك لإقامة الحجة عليهم، وذلك أنه بعد الحديث عن شرك أهل سبأ، وعبادتهم للشمس من دون الله، تسوق السورة، بأسلوب التلقين عددًا من الأدلة على وحدانية الله تعالى، وعظيم قدرته، ضمن القضية الأولى من قضايا القرآن المكي، وهي قضية التوحيد، فيأمر الله تعالى رسوله ﷺ أن ينادي المشركين الذين عبدوا مع الله غيره، فيخبرهم بأن هؤلاء الشركاء من: الأصنام، والكواكب، والملائكة، والبشر، لا يملكون شيئًا من خصائص الألوهية، ومن أهمها:

(١) قرأ عاصم وحزمة ويعقوب بكسر اللام من (قل ادعوا) على الأصل في التخلص من التقاء الساكنين، والباقون بضمها.

(٢) قرأ يعقوب بضم الهاء من (فيهما)، والباقون بكسرها.

- ١- أنهم لا يملكون مثقال ذرة في هذا الكون.
 - ٢- وليس لهم مشاركة مع الله تعالى في هذا الكون.
 - ٣- وليس لله تعالى مُعين من مخلوقاته.
 - ٤- ولا تُقبل الشفاعة عند الله تعالى إلا ممن أذن الله له في الشفاعة، ورضي عن المشفوع له.
 - ٥- وليس في استطاعة الشركاء أن يرزقوا أحدًا، ولا أن يخلقوا ذبابة.
- ولمَّا كان من العرب صابئة، يعبدون الكواكب، وهي في زعمهم موجودة في السماء، أبطل الله تعالى هذا الزعم ببيان أن الشركاء، وهي الكواكب -كما يزعمون- لا تملك مثقال ذرة في السموات.
- ولمَّا كانوا يعتقدون أن الكواكب تؤثر في الأرض وتتصرف فيها، فقد نفى سبحانه هذا الزعم، بأنها لا تملك أيضًا مثقال ذرة في الأرض.
- ومن العرب أيضًا من يزعم أن الأصنام شركاء لله تعالى في الإلهية، فنفى ذلك بقوله:
- ﴿وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِنْ شِرْكَ﴾.
- ومنهم من يزعم أن الأصنام تشفع لهم عند الله، كما قال تعالى عنهم: ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى﴾ [الزمر: ٢٣].
- فنفى الله ذلك بقوله: ﴿وَلَا تَنْفَعُ الشَّفَعَةُ عِنْدَهُ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُ﴾.
- الْخَاصِّيَّةُ الْأُولَى: تَفَرَّدُ اللَّهُ تَعَالَى بِالْمُلْكِ وَالْمَلَكُوتِ:**
- قل -أيها الرسول- للكفار وجميع المشركين بالله: ادعوا شركاءكم الذين عبدتموهم، وزعتم أنهم آلهة من دون الله، ادعوهم اليوم ليجلبوا لكم الخير، أو يدفعوا عنكم الضر، إنهم بالقطع لا يستطيعون شيئًا من ذلك.
- وهذا السؤال على سبيل التعجيز، فهم ﴿لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ﴾ من خير أو شر، مهما قلَّ أو كثر، لا في العالم العلوي ولا في العالم السفلي، كما قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ نَادَعُوا مِنْ دُونِهِ مَا يَمْلِكُونَ مِنْ قِطْمِيرٍ﴾ [فاطر: ١٣].

الخاصية الثانية: نفى الشركاء:

وبعد أن نفى سبحانه أن يكون لآلهتهم ملك مستقل، نفى أن تكون لهم المشاركة في شيء من هذا الكون، فقال تعالى: ﴿وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا﴾ أي: في السموات والأرض ﴿مِنْ شِرْكٍ﴾ فهم لا يملكون شيئاً مستقلاً، ولا على سبيل الشركة لغيره، لا في الخلق، ولا في الملك، ولا في التصرف، بل الكل خلقه وعيده ﴿إِنْ كُلُّ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا آتِي الرَّحْمَنِ عَبْدًا﴾ [مريم]. ﴿قُلْ إِنْ كَانَ لِلرَّحْمَنِ وَلَدٌ فَأَنَا أَوَّلُ الْعَبْدِينَ﴾ [الزخرف].

فليس للشركاء ملك ولا شركة في ملك، بقى أن يقال: إن الملك يكون له أعواناً ووزراء يقضون حوائج من تعلق بهم، فنفى الله ذلك في الخاصية التالية:

الخاصية الثالثة: نفى المعين المؤازر:

ثم نفى سبحانه أن يكون له معين يعينه على تدبير أمور هذا الكون بما فيه ومن فيه، بل هو سبحانه الخالق لكل شيء، المتفرد بالإيجاد والإعدام، لا يحتاج إلى عون من أحد، وجميع الخلق مفتقر إليه ﴿وَمَا لَهُمْ مِنْهُمْ مِنْ ظَهِيرٍ﴾ أي: ليس له معين يعينه وينصره، فلم يبق بعد ذلك إلا الشفاعة، ولهذا نفاها الله تعالى فيما يأتي:

الخاصية الرابعة: نفى الشفاعة إلا بإذنه تعالى

٢٣- ﴿وَلَا تَنْفَعُ الشَّفَاعَةُ عِنْدَهُ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ﴾ (١) ﴿لَمْ يَحْضَرْ إِذَا فُزِعَ﴾ (٢) عَنْ قُلُوبِهِمْ قَالُوا مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ قَالُوا الْحَقُّ وَهُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ﴾ (٣)

ثم نفى سبحانه أن تكون هناك شفاعة من أحد لأحد إلا بإذنه تعالى، فقال سبحانه: ﴿وَلَا تَنْفَعُ الشَّفَاعَةُ عِنْدَهُ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَمْ يَحْضَرْ﴾ أي: لا يجترئ أحد على أن يشفع عند الله تعالى لأحد، في أمر من الأمور إلا بإذنه، وفي هذا إبطال لشفاعة الأصنام المزعومة.

وكذلك لا يقبل الله تعالى شفاعة نبي مرسل، ولا ملك مقرب، ولا ولي صالح، إلا

(١) قرأ أبو عمرو وحزمة والكسائي وخلف بالبناء للمفعول في (أَذِنَ له)، والباقون بالبناء للفاعل (أَذِنَ له).

(٢) قرأ ابن عامر ويعقوب بالبناء للفاعل في (فُزِعَ) والفاعل ضمير يعود على الله تعالى، أي: إذا أزال الله الفزع عن قلوب الشافعين والمشفوع لهم بالإذن، وقرأ الباقيون بالبناء للمفعول، ونائب الفاعل (عن قلوبهم).

يأذنه سبحانه، فلا يوجد من يقبل الله تعالى شفاعته تعظيمًا له، أو حياء منه، فإن المشركين يزعمون أن شفاعاة الأصنام لازمة، تعالى الله عن ذلك، قال تعالى:

﴿فَمَا نَفَعُهُمْ شَفَاعَةُ الشَّافِعِينَ﴾ [المذثر].

وقال سبحانه: ﴿مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ﴾ [البقرة: ٢٥٥].

وقال جلَّ شأنه: ﴿يَوْمَ يَأْتِي بَعْضُ عَائِدَتِكَ لَا يُبْعَثُ نَفْسًا إِيَّاهَا لَوْ تَكُنْ ءَامَنَتْ مِنْ قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِي إِيمَانِهَا خَيْرًا﴾ [الأنعام: ١٥٨].

فأبطلت الآية رجاء المشركين في أن تشفع لهم آلهتهم المزعومة عند الله تعالى، فينتفعوا بشفاعتها.

وقد ذكر الله - سبحانه - شرط الشفاعاة في قوله: ﴿وَكَمْ مِنْ مَلَكٍ فِي السَّمَوَاتِ لَا تُغْنِي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئًا إِلَّا مِنْ بَعْدِ أَنْ يَأْذَنَ اللَّهُ لِمَنْ يَشَاءُ وَرِضَى﴾ [النجم].

وقوله ﷻ: ﴿وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ارْتَضَى وَهُمْ مِنْ خَشْيَتِهِ مُشْفِقُونَ﴾ [الأنبياء: ٢٨].

وقوله تعالى: ﴿يَوْمَ يَأْتِيهِمُ الرُّوحُ وَالْمَلَائِكَةُ صَفًّا لَا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ وَقَالَ صَوَابًا﴾ [النبأ].

فلا بد من إذن الله تعالى لمن يريد أن يشفع، ولا بد من رضاه سبحانه عن المشفوع له.

وهكذا قطع الله تعالى أنواع العلاقات بين المشركين ومن يتقربون بهم إلى الله، من البشر، أو الجن، أو الحيوان، أو الكواكب أو الحجر، فبين سبحانه أنهم لا يملكون لمن يعبدوهم نفعًا ولا ضرًا، ولا شريكًا للمالك، ولا عونًا له، ولا شفيعًا عنده، وبهذا يبطل الشرك كله، ويوم القيامة يكفر بعضهم ببعض، ويلعن بعضهم بعضًا، ويكونون لهم أعداء!! لقد استكبر المشرك عن الانقياد لرسول الله، ورضى بعبادة من ضره أقرب من نفعه!!

الشفاعة العظمى:

ثم بين سبحانه الحالة التي يكون عليها المنتظرون للشفاعة يوم القيامة، من شدة قلق ولهفة على قبول الشفاعاة فيهم؛ كي يؤذن لهم في الانصراف من أرض المحشر إلى الجنة أو النار.

والشفاعة في هذا الموقف العصيب، خاصة بسيد ولد آدم ﷺ، إظهارًا لمقامه الشريف بين الخلائق، يوم يقوم في الناس المقام المحمود، ليشفع في الخلق كلهم، كي يفصل الله بينهم،

فيقضي لأهل الجنة بالجنة، ولأهل النار بالنار، وذلك بعد أن يظل الناس في انتظار وترقب، لمن يؤذن له في الشفاعة فيهم، وهم في فزع ورعب وخوف، ألا يؤذن لأحد في هذه الشفاعة، وبعد أن يمضي عليهم وقت طويل وهم في هذا الانتظار الرهيب، يأتي الفرج من الله تعالى، فيأذن سبحانه لسيد الخلق أن يشفع فيهم، بعد أن يتخلى عن هذه الشفاعة سائر الرسل، معتردين عنها بسبب أو بدون سبب، وعندئذ يزول الفزع والخوف عنهم.

ذلكم قول الله تعالى: ﴿حَقَّ إِذَا فُزِعَ عَنْ قُلُوبِهِمْ﴾ أي: إذا زال الخوف عن قلوب الملائكة، فإنهم يسألون مَنْ فوقهم من الملائكة، ليتحققوا من هذه البشرى.

فالضمير في ﴿قُلُوبِهِمْ﴾ عائذ على الملائكة الذين عبدتهم بعض المشركين، فنفى ﷺ أن تكون للملائكة شفاعة فيمن عبدوهم من دون الله تعالى كما يزعمون، ويُحتمل أن يعود الضمير على المشركين، إذا زال الخوف منهم ورجعوا إلى عقولهم، وهم أقرب مذكور في الآية.

فالمشركون يعترفون أنهم كانوا على باطل، ويقررون بتكذيبهم للحق الذي جاءت به الرسل، فقد بدا لهم ما كانوا يخفون من قبل، وعلموا أن الحق لله واعترفوا بذنوبهم.

ولكن تظاهرت الأحاديث على أن ذلك الفزع، المذكور في الآية، يكون عند سماع الملائكة نزول الوحي بالأمر من الله تعالى على جبريل، كأنه سلسلة حديد على حجر أملس، فيقولون: ﴿مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ﴾ أي: في أمر الشفاعة؟ فتجيهم الملائكة: ﴿قَالُوا الْحَقُّ﴾ أي: إن الله تعالى أذن في الشفاعة للمؤمنين دون المشركين.

قال القرطبي: إن الله تعالى يأذن للأنبياء والملائكة في الشفاعة، وهم في غاية الشدة والفزع من أهوال يوم القيامة خوفاً من التقصير، فإذا سُري عنهم قالوا للملائكة فوقهم: ماذا قال ربكم؟ أي: بماذا أمر؟ قالوا: الحق، أي: إنه تعالى أذن في الشفاعة للمؤمنين^(١).

قال ابن عباس ؓ: وصوت الوحي كصوت الحديد على الصفا.

كما جاء ذلك في حديث أنس ؓ في الشفاعة العظمى لأهل المحشر كلهم؛ ليدخل أهل الجنة الجنة، وأهل النار النار.

(١) «تفسير القرطبي» (٢٩٥/١٤) بتصرف.

وفي الحديث: أن الأنبياء أَبَوْا أن يشفعوا، وكلُّ منهم يقدم عذراً، وأن أهل المحشر يأتون محمداً ﷺ فيستأذن ربه في الشفاعة، فيقول له: «ارفع رأسك، وسل تعط، واشفع تُشفع» وحيثُ يُقضي الله بالحق لكل أحد من الخلق بما يستحق، فلا يخفى عليه حال أحد، ولا يُمنع من الوصول إليه أحد، ولا يحول بينه سبحانه وبين أي أحد من خلقه حائل.

ثم ختم الله الآية بقوله: ﴿وَهُوَ الْعَلِيُّ﴾ أي: بذاته وقهره وعُلُوُّ قدره بما له من الصفات العظيمة ﴿الْكَبِيرُ﴾ على كل شيء، في ذاته وصفاته.

والنصف الأخير من هذه الآية وهو قوله تعالى على سبيل الحكاية على لسان الملائكة: ﴿مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ قَالُوا الْحَقُّ وَهُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ﴾ هذه الكلمات القرآنية بذاتها هي الحوار الذي يدور بين الملائكة، وهي تتلقى الوحي من الله تعالى، فيسأل بعضهم بعضاً عن الكلام الذي بلغه بهذه الصيغة ﴿مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ؟﴾

١- كما في حديث أبي هريرة ؓ أن النبي ﷺ قال: «إذا قضى الله الأمر في السماء ضَرَبَتِ الملائكة بأجنحتها خُضْعَانًا لقوله، كأنه سلسلة على صفوان، فإذا فزع عن قلوبهم قالوا: ماذا قال ربكم؟ قالوا: الحق وهو العلي الكبير»^(١).

والحديث يصف تلقى الملائكة للوحي من الله تعالى.

ومعنى «قضى الله الأمر» أي: صدر منه الأمر الذي تتولى الملائكة تنفيذه، فيصل هذا الأمر إلى السماء التي هي مقر الملائكة، فتضرب بأجنحتها خشية وخوفاً من الله تعالى، فإذا زال الخوف عنهم تساءلوا عن الوحي المنزل.

٢- ومثله حديث ابن عباس ؓ: «أن الله تعالى إذا أراد أمراً، سَبَّحَ له حملة العرش، ثم سَبَّحَ الذين يلونهم فالذين يلونهم، حتى ينتهي الخبر إلى سماء الدنيا»^(٢).

٣- وفي حديث النواس بن سميان ؓ: أن النبي ﷺ قال: «إذا أراد الله أن يوحى بأمره تكلم بالوحي، فإذا تكلم أخذت السموات منه رجفة -أو قال: رعدة شديدة- من خوف الله

(١) يُنظر: البخاري برقم (٤٨٠٠) وأبو داود برقم (٣٩٨٩) والترمذي برقم (٣٢٢٣) وابن ماجه برقم (١٩٤) والبيهقي (٤٣١).

(٢) يُنظر: «المسند» (٢١٨/١) ومسلم برقم (٢٢٢٩) والترمذي برقم (٣٢٢٤) والنسائي في الكبرى برقم (١١٢٧٢).

تعالى، فإذا سمع بذلك أهل السموات صُعِقُوا وَخَرُّوا لله سجدًا، فيكون أول من يرفع رأسه جبريل، فيكلمه الله من وحيه بما أراد، فيقول: قال الحق، وهو العلي الكبير، فيقولون كلهم مثل ما قال جبريل، فينتهي جبريل بالوحي، حيث أمره الله من السماء والأرض^(١).

وفي الفترة بين عيسى ومحمد عليهما السلام، وهي أكثر من خمسة قرون ونصف، لم تسمع الملائكة فيها صوت وَحْيٍ، فلما بُعث محمد ﷺ كَلَّمَ الله جبريل بالرسالة إليه، فلما سمعت الملائكة ذلك، ظَنُّوا أنها الساعة؛ لأن بَعَثَ محمد ﷺ عند أهل السموات من أشراط الساعة، فَصُعِقُوا مما سمعوا خوفًا من قيام الساعة، فلما نزل جبريل أخذ يُمرُّ بأهل كل سماء، فيرفعون رؤوسهم، ويقول بعضهم لبعض: ماذا قال ربكم؟ قالوا: قال الحق، أي: الوحي، وهو العلي الكبير^(٢).

وهذه الأحاديث الثلاثة لا علاقة لها بتفسير الآية، وإنما هي تبيِّن صفة تلقي الملائكة بالوحي، وقد سقت بمناسبة قوله تعالى على لسان الملائكة: ﴿مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ﴾.

الْخَاصِيَّةُ الْخَامِسَةُ: الرِّزْقُ بِيَدِ اللَّهِ وَحْدَهُ

٢٤- ﴿قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنْ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ قُلِ اللَّهُ﴾

ويأتي السؤال الثاني في هذا السياق، حيث يأمر الله رسوله أن يسأل الكافرين المكذبين عن من يرزقهم من دون الله: هل تملك آلهتهم أن ترزقهم؟ إنها أحجار لا تعي، فكيف يُلتَمَس الرزق منها، وهل المرزوق يكون رازقًا؟

والمعنى: ﴿قُلْ﴾ يا محمد لجميع المشركين، واسألهم عن حجة شركهم: ﴿مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ فينزل عليكم الماء، ويخرج لكم الزرع والثمر، ويُدرُّ لكم الضرع؟ إنهم -ولا بد- مقرون بأن الله سبحانه هو الخالق الرازق، كما أخبر تعالى عنهم

(١) «تفسير الطبري» ٦٣/٢٢ والحديث في كتاب «التوحيد» لابن خزيمة ص ٩٥- ٢٠٦ وابن أبي عاصم في «السنَّة» برقم (٥١٥) وضعفه الألباني في «ظلال الجنة»، قلت: وله شواهد كثيرة صحيحة منها ما صحَّحه الألباني في «صحيح سنن أبي داود» برقم (٣٩٦٤) وحديث أبي هريرة المذكور.

(٢) من «تفسير الخازن» (٤٨٨/٣) وأخرجه عبد الرزاق (١٣٠/٢) عن قتادة والكلبي، وابن أبي حاتم عن قتادة وحده.

في قوله: ﴿قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أَمَّنْ يَمْلِكُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَرَ وَمَنْ يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَمِيتِ وَيُخْرِجُ الْمَمِيتَ مِنَ الْحَيِّ وَمَنْ يُدِيرُ الْأَمْرَ فَسَيَقُولُونَ اللَّهُ﴾ [يونس: ٣١].

فإذا كنتم مقربين بهذا، فلم تعبدون معه ما لا يملك رزقا ولا حياة ولا نشورا؟
فإن لم يقرؤوا بالسنتهم، فتولَّ أنت -أيها الرسول- الإجابة عنهم ﴿قُلِ اللَّهُ﴾ الله وحده هو الذي يرزقكم، قل لهم ذلك لِتُشْعِرَهُمْ بأنهم مقرون بذلك بقلوبهم، ولكنهم يخافون من إقامة الحجة عليهم.

وفي هذا السؤال إقامة للحجة عليهم، وإلزامهم بالإقرار، وما دام الله تعالى هو الرازق، فهو الذي يستحق العبادة وحده، ويستحق الشكر وحده، وهذا يستلزم انفرادة تعالى بالالوهية.

فِي أَدَبِ الْحَوَارِ

﴿وَإِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًى أَوْ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ (٢٥)

وهذا الحوار المتعلق بوحداية الله تعالى وتديره شؤون خلقه، يدور بين فريقين، هما: المتكلمون، وهم أهل الهدى. والمخاطبون، وهم أهل الضلال.

وقد أشار سبحانه إلى أن أحد الفريقين على هُدًى أو على ضلال، فقال تعالى: ﴿وَإِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًى أَوْ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ أي: فأحد الفريقين مُحِقٌّ، والآخر مُبْطِلٌ، وهذا نهاية اللطف، والإنصاف مع الخصم، فقد أخرج الكلام مخرج الشك، مع أن من عبَد الله وحده فهو المهتدي، ومن عبد غيره من جماد أو بشر أو ملك فهو الضال، وهذا أبلغ من الرد بالتصريح، ومن شأنه أن يحمل القلوب النافرة عن الحق إلى الاستسلام والدخول في ساحة الهدى، وستعلمون -علم اليقين- بعد التفكير والتدبر أننا على الحق، وأنتم على الباطل، وهذا كما تقول للمخالف: تَبَّتْ وَتَبَّهْ، والمفهوم أن المخالف هو المخطئ.

وهذا الكلام يقوله من تبين له الحق، فجزم أنه على صواب، وأن خصمه على باطل، قال تعالى:

٢٥- ﴿قُلْ لَا تُشْكِرُونَ عَمَّا أَجْرَمْنَا وَلَا تُشْكِلُ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ (٢٥)

ولما كان الضلال يأتي بالإجرام، أمر الله رسوله أن يقول للمكذبين: إذا نحن أجرمنا، فأنتم غير مؤاخذين بجُرْمنا، وإذا أنتم عملتم عملاً باطلاً فنحن غير مؤاخذين به، فكل فريق منا مؤاخذ بعمله دون عمل غيره.

فالأجدى أن ينظر كل منا: أي الفريقين أحق بالفوز والنجاة عند الله؟ وليكن هدفه طلب الحق والانتصار له.

وفي هذا تعريض للمجرمين بأن يغيروا أعمالهم، فيؤمنوا بالله بعد كفرهم، فأنتم لا تسألون عن ذنوبنا وإجرامنا، ونحن لا نسأل عن أعمالكم؛ لأننا بريئون منكم ومن كُفركم، كما قال تعالى: ﴿وَإِنْ كَذَّبُوكَ فَقُلْ لِي عَمَلِي وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ أَنتُمْ بَرِيئُونَ مِنَّا أَعْمَلُ وَأَنَا بَرِيءٌ مِمَّا تَعْمَلُونَ﴾ [يونس].

فلن أعبد ما تعبدون حالاً ولا مستقبلاً، وأنتم كذلك، ولا تؤاخذون عما ارتكبنا من إجرام، ونحن كذلك لا نؤاخذ بما اقترفتم من ذنوب، وكل منا يُعاقب بجرمه.

ومع ذلك فقد جاء الإجرام مسنداً إلى أهل الهدى، والعمل مسنداً إلى أهل الضلال، وهذا في غاية اللطف والإنصاف؛ إذ إن كلا من الفريقين مسؤول عن عمله ومؤاخذ به.

وهذا الإسناد على حدّ زعم المخاطبين، فهم يزعمون أن المهتدين هم المجرمون، وهكذا كانوا يقولون عنهم في الدنيا، كما أخبر سبحانه في قوله: ﴿وَإِذَا رَأَوْهُمْ قَالُوا إِنَّ هَؤُلَاءِ لَضَالُّونَ﴾ [المطففين].

أما أعمال العباد فإن لها داراً أخرى، يحكم الله فيها بين عباده، ويفصل فيها بين المختصمين، قال تعالى:

٢٦- ﴿قُلْ يَجْمَعُ بَيْنَنَا رَبُّنَا ثُمَّ يَفْتَحُ بَيْنَنَا بِالْحَقِّ وَهُوَ الْفَتَّاحُ الْعَلِيمُ﴾

وفي يوم القيامة، يجمع الله بين الأولين والآخرين، ويحكم بينهم حكماً يتبين فيه الصادق من الكاذب، والمستحق للثواب من المستحق للعقاب، وهكذا:

فإن في هذه الآية إخبار ببعث الخلق من القبور، وجمعهم يوم القيامة في صعيد واحد، وقد بين سبحانه أن الذي يسأل الناس عن أعمالهم ويفصل بينهم يوم القيامة هو رب العالمين، فيجازي المحسن بإحسانه، ويعاقب المسيء على إساءته.

﴿قُلْ﴾ يا محمد للمكذبين بالله ورسوله، المنكرين للبعث والنشور: ﴿يَجْمَعُ بَيْنَنَا رَبَّنَا﴾ و يجمع بينكم يوم القيامة، ثم يقضي بيننا بالحق والعدل ﴿وَهُوَ الْفَتَّاحُ﴾ أي: الحاكم بين خلقه بحكمه العادل ﴿الْعَلِيمُ﴾ بأحوالهم وما ينبغي أن يقضي به، فهو سبحانه يعلم حقائق الأمور، لا تخفى عليه خافية، كما قال تعالى على سبيل الحكاية: ﴿رَبَّنَا أَفْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِالْحَقِّ وَأَنْتَ خَيْرُ الْفَاتِحِينَ﴾ [الأعراف: ٨٩].

فالفتح هو الحكم والقضاء الفصل، والله - سبحانه - هو الفاتح، أي: الحاكم العادل الذي لا يظلم أحداً ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَهُمْ فِي رَوْضَةٍ يُحْبَرُونَ﴾ (١٥) وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَلِقَاءِ الْآخِرَةِ فَأُولَئِكَ فِي الْعَذَابِ مُحْضَرُونَ ﴿١٦﴾ [الروم].

وقد تبين بهذا أن الله تعالى هو الذي يسأل الناس، وهو الذي يحكم بينهم يوم القيامة، ويفصل بين أهل الحق والضلال. قال تعالى:

٢٧- ﴿قُلْ أَرُونِي الَّذِينَ أَهَقْتُمْ بِهِ شُرَكَاءَ كَلَّا بَلْ هُوَ اللَّهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ (٢٧)

ويأتي الأمر المجدد للبلاغ بلفظ: ﴿قُلْ﴾ للمرة الخامسة في هذه الآيات المتتابعة، ليختم به هذا التوجيه لرسوله ﷺ، ولكل داع إلى دين الله إلى يوم القيامة.

﴿قُلْ﴾ يا أيها الرسول للمشركين وكذلك الدعاة من بعدك ﴿أَرُونِي الَّذِينَ أَهَقْتُمْ بِهِ شُرَكَاءَ﴾ أي: أروني بالحجة والدليل، أو أطلعوني على الذين ألحقتموهم بالله، وجعلتموهم شركاء له في العبادة، أين هم في ساحة العدل الإلهية؟ أين السبيل إلى معرفتهم، هل هم في الأرض، أم هم في السماء؟ إن عالم الغيب والشهادة أخبرنا أنهم ليس لهم وجود ﴿قُلْ أَتَنْتَبِهُونَ اللَّهَ يَمَا لَا يَعْلَمُ فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ﴾ [يونس: ١٨] قال تعالى: ﴿إِنْ يَنْتَبِهُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ﴾ (١٦) [يونس]، وهل هؤلاء الشركاء خلقوا شيئاً حتى تشركوهم مع الله تعالى في العبادة؟

والمقصود: إشهاد المشركين على عجز هذه الآلهة المزعومة، وتبكيتهم على جهالتهم، وحضهم على ترك الشرك بالله، وإخلاصهم العبادة لله الواحد القهار.

ولفظ: ﴿أَهَقْتُمْ﴾ مشعر بأن هذه الآلهة ليست أصلية قديمة، وإنما ألحقها واخترعها (عمرو بن لحي) ولم تكن الأصنام موجودة عند العرب من قبل، فأين هي اليوم؟ أروني إياهم؟ ما صفتهم؟ وما مكانتهم؟ وبأي شيء استحقوا العبادة؟ هل خلقوا شيئاً؟ هل رزقوا

أحدًا؟ هل أحيوا؟ هل أماتوا؟ إنه استنكار عليهم وتوبيخ لهم، وإلزام لهم بالحجة. ويأتي الرد حاملاً للردع لهم، والزجر لأقوالهم وأفعالهم الشركية، وإثبات الوجدانية للإله الحق ﴿كَلَّا﴾ ليس له شريك ولا ضد ﴿بَلْ هُوَ اللَّهُ﴾ أي ليس الأمر كما زعموا ووصفوا، بل الله وحده هو المعبود بحق دون سواه، لا شريك له ولا ند ولا نظير، وهو ﴿الْعَزِيزُ﴾ في انتقامه ممن أشرك به، الغالب على أمره، ﴿الْحَكِيمُ﴾ في أقواله وأفعاله وتديره شؤون خلقه.

وقد تدرّج هذا الجدل في الآيات المبدوءة بـ﴿قُلْ﴾ من التلميح، إلى الإشارة، إلى التصريح، على سبيل الترقى، وأخّر الاستفسار إلى آخر المناظرة، ليُفضي إلى إبطال دعوى الخصم بخذافيرها، وليكون كل دليل قبله منادياً على خطأ الخصم وباطله^(١)، وإرخاء العنان للخصم، فيه تخجيل له وإلزام له بالحجة.

الرَّسَالَةُ الْعَالَمِيَّةُ

٢٨- ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾

هذا إعلام من الله تعالى بأنه بعث محمداً ﷺ إلى جميع العالم وكافة البشر، ليبشر وينذر، ويرغب ويرهب، ويدعو إلى وحدانية الله تعالى، حيث تنتقل الآيات من ضلال المشركين في شأن الإله الحق، إلى ضلالهم في شأن الرسول ﷺ، وهذه الآيات التالية تناول جانباً كبيراً من قضية الإيمان باليوم الآخر.

وتبدأ الآية بالرد على من يزعمون أن محمداً ﷺ رسولٌ إلى العرب خاصة، فيقول سبحانه: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ﴾ يا رسولنا ﴿إِلَّا كَافَّةً لِّلنَّاسِ﴾ أجمعين: عربهم وعجمهم، أبيضهم وأسودهم، على اختلاف ألسنتهم وأجناسهم وجنسياتهم وألوانهم:

كما قال تعالى: ﴿قُلْ يَتَّبِعُوا النَّاسَ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا﴾ [الأعراف: ١٥٨].

فرسالتك -أيها الرسول - عامة للخلق جميعاً، الإنس والجن وغيرهم، كما قال تعالى: ﴿تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا﴾ [الفرقان].

(١) يُنظَرُ : «تفسير الطاهر بن عاشور» (٢٢/١٩٦).

وقال سبحانه: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾ [الأنبياء].

وكل رسول أرسله الله تعالى بلسان قومه ليتيسر لهم التلقي عنه، قال تعالى:

﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانٍ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ﴾ [إبراهيم].

أما أنت يا محمد، فقد أرسلت إلى كافة البشر، على اختلاف ألسنتهم وألوانهم. واختيرت العربية من بين اللغات؛ لتكون منطلقاً إلى ألسنة العالم، وانطلقت الرسالة من مكان يتوسط العالم.

«وكان النبي يُبعث إلى قومه خاصة وبعثت إلى الناس عامة»^(١).

وفي الحديث، عن جابر رضي الله عنه: «بُعِثَ إِلَى الْأَسْوَدِ وَالْأَحْمَرِ»^(٢).

أي: العرب والعجم، والإنس والجن.

ومهمتك -أيها الرسول- أن تبشر المؤمنين بجنات النعيم، وتنذر الكافر بعذاب الجحيم.

أما حقيقة أن يكون العبد من المُبَشِّرِينَ بِالْجَنَّةِ، أو من المُنْذَرِينَ بِالنَّارِ، فمرثته إلى الله تعالى، وعلمه عنده ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ الحق فهم معرضون عنه، جهلاً أو عناداً، كما قال تعالى: ﴿وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ﴾ [يوسف].

وقال عليه السلام: ﴿وَإِنْ قُطِعَ أَكْثَرُ مَنْ فِي الْأَرْضِ يَصِلُوكَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ﴾ [الأنعام: ١١٦].

والمراد بالناس في الآية: الكافرون، الذين لا يعلمون الحق، فيحملهم جهلهم على ما هم فيه من الغي والضلال. قال تعالى:

٢٩- ﴿وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِن كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾

هذه الآية لحكاية ما يقوله المنكرون للحساب والجزاء على وجه التكذيب والاستبعاد، فمن أعظم ما أنكره الكفار، ما جاءهم به الرسول ﷺ من ذكر البعث والنشور، ومن

(١) من حديث جابر في البخاري برقم (٣٣٥) ومسلم برقم (٥٢١) وابن المنذر عن أبي هريرة.

(٢) من حديث جابر عند مسلم برقم (٥٢١) والحاكم عن أبي ذر (٤٢٤/٢) وعند أحمد عن ابن عباس (٤/

٤٧١) (٢٧٤٢) قال محققوه: إسناده حسن، والطبراني (١١٠٤٧).

جهالهم ما قررته هذه الآية ﴿وَيَقُولُونَ﴾ أي: المشركون المكذبون، على سبيل الاستهزاء والسخرية: ﴿مَتَىٰ هَٰذَا الْوَعْدُ﴾ الذي تعدنا به من أن الله تعالى يجمعنا فيه ويقضي بيننا ﴿إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ فيما تعدونا فأثروا به.

قال تعالى: ﴿يَسْتَعْجِلُ بِهَا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِهَا وَالَّذِينَ آمَنُوا مُشْفِقُونَ مِنْهَا وَيَعْلَمُونَ أَنَّهَا الْحَقُّ أَلَا إِنَّ الَّذِينَ يُمارُونَ فِي السَّاعَةِ لَفِي ضَلَالٍ بَعِيدٍ﴾ [الشورى].

ثم قال تعالى مؤكدا وقوعه في لحظة معينة:

٣٠- ﴿قُلْ لَكُمْ مِيعَادُ يَوْمٍ لَا تَسْتَحْزِنُونَ عَنْهُ سَاعَةً وَلَا تَسْتَقْدِمُونَ﴾

أمر الله تعالى رسوله ﷺ أن يرد عليهم بألا يتعجلوا، فإن ما وعدهم الله به من الحساب والجزاء في يوم القيامة آت لا محالة، وإن لهم وقتا محددا، ويوما معلوما، لا يتقدمون عنه ساعة ولا يتأخرون، وعلمه عند الله وحده، قال تعالى: ﴿وَمَا تُؤَخِّرُهُ إِلَّا لِأَجَلٍ مَّعْدُودٍ﴾ [١٤] يَوْمَ يَأْتِ لَا تَكَلَّمُ نَفْسٌ إِلَّا بِإِذْنِهِ فَمِنْهُمْ شَقِيٌّ وَسَعِيدٌ [١٥] [هود]. فاحذروا ذلك اليوم، وأعدوا له عدته.

وليس المراد بلفظ الساعة: هذا الوقت المحدد بستين دقيقة، وإنما المراد: لحظة محددة من الزمن، هو لحظة قيام الساعة.

مَنْطِقُ أَهْلِ الْإِلْحَادِ وَالْعُلَمَانِيَّةِ

٣١- ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَنْ نُؤْمِنَ بِهَٰذَا الْقُرْآنِ وَلَا بِالَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ﴾

ويمتد إنكار المكذبين للبعث والحساب والجزاء، من إنكارهم له في الكتب السابقة، إلى إنكارهم له في الماضي والحاضر عبر الأجيال والقرون، فهم لن يؤمنوا بما في هذا القرآن، ولم يؤمنوا بما جاء قبله في الكتب المنزلة من عند الله تعالى الدالة على البعث والنشور، من: التوراة والإنجيل والزيور، فقالوا: ولن نؤمن أيضا بشيء يأتي بعد هذه الكتب، لأنهم لا يؤمنون بالوحي المنزل على رسل الله جملة وتفصيلا، وهذا مفهوم من السياق، فقد كذبوا بجميع كتب الله، وأصروا على رفض مصادر الهدى جميعا، فهم غير مستعدين للإيمان به، لا اليوم، ولا غدا، ولا بعد غد، وهم لن يؤمنوا بهذا الكتاب ولا

بذاك، ولن يؤمنوا بهذا الرسول ولا بذاك، ولن ينظروا في دلائل الهدى أبداً.

وكما كفروا بجميع الكتب وجميع الرسل، كفروا بالتوحيد والرسالة والحشر والنشر، فهم منكرون للتوحيد، منكرون للنبوات، منكرون للبعث والحساب، مصرون على عدم الإيمان بهذا القرآن الذي جاء به محمد ﷺ، ومصرون على عدم الإيمان بالكتب السماوية التي بشرت بمحمد ﷺ ووقع الاحتجاج بها عليهم، فهم مصممون على الباطل مهما تعددت مصادر الحق.

وهذا الإنكار من المكذبين للرسالة والوحي، قد مرَّ بمراحل متعددة، سلكوا فيها طرائق مختلفة لقمع الدعوة الإسلامية، وإبطال رسالة محمد ﷺ، فمن ذلك:

١- أنهم لما جاء الإسلام اضطربت أقوالهم، فقالوا أولاً: ﴿مَا أَنزَلَ اللَّهُ عَلَىٰ بَشَرٍ مِّن شَيْءٍ﴾ [الأنعام: ٩١]. فأنكروا القرآن، وأنكروا صاحب الرسالة.

٢- ثم لجؤوا إلى اليهود في خيبر وقریظة والمدينة؛ ليأخذوا منهم ما يُفحمون به محمدًا ﷺ، فأملى اليهود عليهم ما يُموِّهون به على الناس عدم صحة الرسالة:

(أ) فقالوا: ﴿لَوْلَا أَوْفَىٰ مِثْلَ مَا أُوفِيَ مُوسَىٰ﴾ [القصص].

مع أنهم كفروا بما نزل على موسى، وهم لا يحتجون بموسى، إيماناً منهم بصحة رسالته، ولكنهم يجعلون ذلك وسيلة لإبطال رسالة محمد ﷺ.

(ب) وقالوا مرة أخرى: ﴿وَلَن تُؤْمِنَ لِرُفَيْكَ حَتَّىٰ نُنْزِلَ عَلَيْكَ كِتَابًا نَقْرُؤُهُ﴾ [الإسراء: ٩٣].

(ج) وكثيراً ما قاسوا محمدًا ﷺ على سائر البشر، ولم يميزوه بالوحي، فقالوا:

﴿مَالِ هَٰذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ وَيَمَشِي فِي الْأَسْوَاقِ﴾ [الفرقان: ٧].

(د) ولما دمغتهم حجج القرآن بأن محمدًا ليس بدعاً من الرسل حاجَّهم الله بقوله: ﴿قُلْ فَأَتُوا بِكِتَابٍ مِّنْ عِندِ اللَّهِ هُوَ أَهْدَىٰ مِنْهُمَا أَتَّبِعُهُ إِن كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ [القصص].

فلما لم يجدوا سبيلاً للإنكار، قالوا للنبي ﷺ: ﴿لَن تُؤْمِنَ بِهَٰذَا الْقُرْآنِ وَلَا بِالَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ﴾.

الحوار بين الرؤساء والأتباع في عرصات القيامة

﴿وَلَوْ تَرَىٰ إِذِ الظَّالِمُونَ مَوْقُوفُونَ عِندَ رَبِّهِمْ يَرْجِعُ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ الْقَوْلَ يَقُولُ الَّذِينَ اسْتُضِعُوا لِلَّذِينَ اسْتَكَبرُوا لَوْلَا أَنْتُمْ لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ﴾.

وبعد أن استوفت الآيات أصناف الكفار وأقوالهم، أردفت ذلك بذكر جزائهم في الآخرة، وتصوير فظاعته، فقال تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَىٰ إِذِ الظَّالِمُونَ مَوْقُوفُونَ عِندَ رَبِّهِمْ﴾ أي: لو شاهدت يا محمد، حال الظالمين لأنفسهم بالشرك والكفر، وإنكار البعث والحساب والجزاء، لو شاهدتهم في موقف الحساب يوم القيامة، وهم محبوسون عند ربهم، يلوم بعضهم بعضاً على ما كان منهم في الدنيا، فتكشف العلاقة بينهم وبين من كانوا يُحِبُّون التفاف الناس حولهم، وخفق الأقدام وراءهم، وتقبيل الأيدي والجباه منهم، ممَّن كانوا يَعشُّقُونَ الذل، ولا يُحْسِنُونَ إلا الجري وراء الكبار.

والثراء والفقر، والقوة والضعف، من أكبر العوامل في ذلك.

وفي ساحة العرض يظهر ما كان مستوراً، ويتضح ما كان مخبوءاً، فيكون الخصام والحوار بين أهل النار، ولكنه لا يطول؛ لأن خزنة النار يُحْسِمُونَ الموقف.

ووقوف المجرمين طويلاً بين يدي الله تعالى أمر يستوجب الضجر، ويملاً القلوب رعباً، وهذا ما أشار إليه قوله تعالى: ﴿كَيْفَ تَنْقُوتُ إِنْ كَفَرْتُمْ يَوْمًا يَجْعَلُ الْوِلْدَانَ شِيبًا ۝٧ أَلَسَاءٌ مُنْفِطِرٌ بِهِ ۚ كَانَ وَعْدُهُ مَفْعُولًا ۝٨﴾ [المزمل].

وقوله ﷻ في وصف أهل المحشر: «تدنو الشمس من رؤوس الخلائق فيشتد عليهم حرُّها، فيقولون: لو استشفعنا إلى ربنا حتى يريحنا من مكاننا»^(١).

وفي هذا الموقف: ﴿يَرْجِعُ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ الْقَوْلَ﴾ أي: يتحاورون ويتراجعون الكلام فيما بينهم، كلُّ يُلقِي باللوم والعتاب على الآخر في ضلاله عن طريق الهدى والإيمان، لو أبصرت ذلك -أيها المخاطب- لشاهدت أمراً عجيباً وشيئاً فظيماً ترتعد له

(١) من حديث أنس وأبي هريرة في الصحيحين في باب الشفاعة، وانظر: صحيح الترهيب برقم (٣٥٨٧) عن المقداد ؓ بنحوه.

الفرائص، وتتفطر منه القلوب، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ذَلِكَ لَمَقْصُودُ أَهْلِ النَّارِ﴾ ﴿٢٦﴾ [ص].
ثم فصل سبحانه جانباً من حوارهم وتلاؤمهم حيث يقول المستضعفون من الفقراء والأتباع وعامة الناس، للمستكبرين من القادة والزعماء والرؤساء والأثرياء: لولا إضلالكم لنا لكننا مهتدين.

إنهم يقولون ذلك بغضب وحسرة في موقف الحساب يوم القيامة، وقد كانوا في الدنيا عاجزين عن ذلك؛ لأنهم كانوا أذلاء لهم، خاضعين لسلطوتهم وسلطانهم.

ومقتضى ذلك أن المستضعفين ادّعوا أن وجود المستكبرين كان مانعاً لهم من الإيمان، وقد جاء ذلك في غير هذا الموضع من القرآن، في مثل قوله تعالى:

﴿وَقَالُوا رَبَّنَا إِنَّا أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَاءَنَا فَأَضَلُّنَا السَّبِيلَ﴾ ﴿٢٧﴾ رَبَّنَا إِنَّا أَتَيْنَا مِنْكَ الْغَدَابَ وَالْعَنَتُمْ لَنَا كَبِيرًا﴾ ﴿٢٨﴾ [الأحزاب].

وقوله سبحانه: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا رَبَّنَا أَرْنَا الَّذِينَ ضَلَّوْنَا مِنَ الْإِنْسِ بِجَعَلُهُمَا نَحْتَ أَقْدَامِنَا لِيَكُونَا مِنَ الْأَسْفَلِينَ﴾ ﴿٢٩﴾ [فصلت].

وهم يتقطعون ندماً وحسرة على أنهم ساروا في ركابهم، وتأثروا بهم في ضلالهم، كما قال تعالى: ﴿وَيَوْمَ يَعِضُ الظَّالِمُ عَلَى يَدَيْهِ يَقُولُ بَلَيِّتَنِي أَخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَيْلًا﴾ ﴿٢٧﴾ بَلَيِّتَنِي لَيْتَنِي لَمْ أَخَذْ فَلَانًا خَلِيلًا﴾ ﴿٢٨﴾ لَقَدْ أَضَلَّنِي عَنِ الذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَاءَنِي وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِلْإِنْسَانِ خَذُولًا﴾ ﴿٢٩﴾ [الفرقان].

وهنا يجيب الرؤساء على المستضعفين في استنكار وضيق:

٣٢- ﴿قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا لِلَّذِينَ اسْتَضَعِفُوا أَنَحْنُ صَدَدْنَاكُمْ عَنِ الْهُدَى بَعْدَ إِذْ جَاءَكُمْ بَلْ كُنْتُمْ تُجْرِمِينَ﴾

أي: فيقولون لهم على سبيل التوبيخ والتفريع: أنحن منعناكم عن الإيمان، وحلنا بينكم وبين التوحيد واتباع الحق بعد أن اهتديتم؟

والجواب: لا، ليس الأمر كما تقولون، بل إن الإجماع متأصل فيكم، فأنتم قد اتبعتمونا باختياركم، ورضيتم بالضلال طواعية، فكيف تتبعون غيركم دون إعمال فكر ولا نظر؟ وتمضي الآيات في تكملة الحوار، فيقول تعالى:

٣٣- ﴿وَقَالَ الَّذِينَ اسْتَضَعُوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا بَلْ مَكْرٌ أَلِيلٍ وَالنَّهَارِ إِذْ تَأْمُرُونَنَا أَنْ نَكْفُرَ بِاللَّهِ وَنَجْعَلَ لَهُ أَنْدَادًا وَأَسْرُوا النَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا الْعَذَابَ وَجَعَلْنَا الْأَغْلَلَ فِي آعْنَاقِ الَّذِينَ كَفَرُوا هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٣٣﴾﴾

لم يقتنع الضعفاء بما قاله لهم السادة الكبراء، فرددون عليهم للمرة الثانية قائلين: لقد كنتم دائبين مستمرين في إغوائنا ليلاً ونهاراً، تُحسِّنون إلينا الكُفْرَ، وتطلبون منا أن نكفر بالله ونجعل له شركاء في العبادة، وتُلحُّون علينا في ذلك، وتدبرون لنا الشر والحيل، حتى أوقعتمونا في التهلكة، ولولا تزيينكم الباطل لنا ما كفرنا ولا أشركنا. وقد سُمِّيَ هذا الإغواء مكرًا، وأسند إلى الليل والنهار؛ لأنه وقع فيهما.

وأخفى كلٌّ من الفريقين الحسرة والندامة في نفسه على ترك الإيمان بالله واليوم الآخر حين رأوا العذاب، وهذا معنى ﴿وَأَسْرُوا النَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا الْعَذَابَ﴾ لقد تخلَّوا عن هذا الجدل، وأيقنوا أنهم ظالمون مستحقون للعذاب، فندموا غاية الندم، وتمنَّوا أنهم لو كانوا في الدنيا على حق.

ونظير ذلك قوله تعالى: ﴿وَلَوْ رَرَوْا إِذْ وَقَعُوا عَلَى النَّارِ فَقَالُوا يَلَيْتُنَا نُرَدُّ وَلَا نُكَذِّبُ بِآيَاتِ رَبِّنَا وَكُنَّا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٧٧﴾﴾ [الأنعام].

إنها حالة من الكمد الذي يذفن الكلمات في الصدور، فلا تنفوه به الألسنة، ولا تتحرك به الشفاه، وهذا الندم يحصل في مواقف عدة.

منها قوله تعالى ﴿وَيَوْمَ يَعِضُ الظَّالِمُ عَلَى يَدَيْهِ يَقُولُ يَلَيْتَنِي أَخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سِيلًا ﴿٧٧﴾ يَوَلَّىٰ يَئْتِي لَمْ أَخِذْ فَلَانًا خِلِيلًا ﴿٧٨﴾﴾ [الفرقان]

ومنها قوله تعالى عنهم ﴿وَقَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ ﴿١٠﴾ فَأَعْرِضُوا بِذُنُوبِهِمْ فَسُحْقًا لِأَصْحَابِ السَّعِيرِ ﴿١١﴾﴾ [الملك].

وقد أعلن الظالمون هذه الحسرة التي كانوا يُسرونها في أنفسهم فأظهروها فيما بعد، كما قال تعالى: ﴿قَالُوا يَحْسَرُنَا عَلَىٰ مَا فَرَّطْنَا فِيهَا وَهُمْ يَحْمِلُونَ أَوْزَارَهُمْ عَلَىٰ ظُهُورِهِمْ﴾ [الأنعام: ٣١].

وكما قال سبحانه عنهم: ﴿أَوْ تَقُولُ حِينَ تَرَى الْعَذَابَ لَوْ أَنِّي لِي كَرَّةٌ فَأَكُونُ مِنَ

الْمُحْسِنِينَ ﴿٥٨﴾ [الزمر].

إن الحوار بين الفريقين يوم القيامة، حوار بائس، لا يُنجي الضعفاء ولا الكبراء، فلكلِّ إثم وجريمته، يتحمل تبعه نفسه، فاستحقوا العذاب جميعاً، وقد أصابهم الكمد والحسرة، وهم يرون العذاب أمام أعينهم مهياً لهم ﴿وَجَعَلْنَا الْأَعْلَلَ فِي آعْنَاقِ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ وهي السلاسل التي تجمع أيديهم إلى أعناقهم، زيادة في تعذيبهم جميعاً، سواء مَنْ كان منهم تابِعاً، أم مَنْ كان متبوعاً.

وهذا النوع من التعذيب جاء في مثل قوله تعالى: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ وَأُولَئِكَ الْأَعْلَلُ فِي آعْنَاقِهِمْ﴾ [الرعد].

وقوله سبحانه: ﴿إِذِ الْأَعْلَلُ فِي آعْنَاقِهِمْ وَالسَّلَاسِلُ يُسْحَبُونَ ﴿٧٦﴾ فِي الْحَمِيمِ ثُمَّ فِي النَّارِ يُسْجَرُونَ ﴿٧٧﴾﴾ [غافر].

وقوله ﷻ: ﴿ثُمَّ فِي سِلْسِلَةٍ ذَرْعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعاً فَاسْلُكُوهُ ﴿٣٧﴾﴾ [الحاقة].

يقول سبحانه معقّباً على هذا المشهد: ﴿هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ إنهم لا يُعاقبون بهذا العقاب إلا بسبب كفرهم بالله تعالى وإصرارهم على الجحود والعناد، وعملهم السيئات في الدنيا.

وفي الآية تحذير شديد من متابعة أهل الضلال وأئمة الطغيان.

الْمُتْرَفُونَ فِي كُلِّ أُمَّةٍ يَرْفُضُونَ الْوَحْيَ الْمُنْزَلَ

٣٤- ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرِيَةٍ مِّنْ نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ ﴿١﴾﴾

يخبر سبحانه أن حال المكذبين لرسول الله ﷺ في الوقت الحاضر، كحال من سبقهم من الأمم الماضية المكذبة لرسول الله، فما من رسول أرسل في مدينة من المدن إلا كفر به مترفوها وطغاتها، ذلك أن الذين تمردوا على رسل الله فكذبوهم، هم كبار القوم من الأغنياء المترفين في كل أمة، ومع كل رسالة، فهم الذين يبادرون إلى تكذيب الرسل؛ لأن الترف يبعث على الغرور والتطاول، ويدعو إلى التحلل من القيم والفضائل، والذين سقطوا في امتحان النعم كثير، وإن أُمماً بطِرتْ معيشتها، فكان مِنْ أول ما فعلت: أن

خاصمت الوحي، وعادت الرسل، وزعمت أن ما لديها من المال والبنين دليل على رضا الله تعالى عنهم في الدنيا، ولو كانت هناك دار أخرى، فإنهم سيكونون فيها أكثر سعادة، على حد زعمهم.

والمعنى: إنا لم نبعث في أمة من الأمم رسولاً من الرسل، يدعوهم إلى توحيد الله تعالى وإفراده بالعبادة، ويخوفهم عذاب الله إن لم يؤمنوا، إلا قال المنغمسون في الملذات والشهوات من أهلها: إنا بالذي جئتم به - أيها الرسل - جاحدون، فلن نؤمن برسالتكم، ولن نصدق بما تقولون.

وهكذا: فالمترفون والجبابرة وأهل الشر، هم الذين يبادرون إلى تكذيب الأنبياء في كل زمان ومكان.

وذلك لأن المال هو فتنة الأمم في الماضي والحاضر والمستقبل في غالب الأحيان، وبدل أن يُحسن كثير من الأثرياء التصرف فيما أعطاهم الله تعالى من النعم، طغوا على الفقراء والضعفاء، وعادوا الدعاة والمصلحين، وعابوا على رسل الله أن يكون أتباعهم من الضعفاء والفقراء.

كما قال قوم نوح عليه السلام له: ﴿أَتُؤْمِنُ لَكَ وَاتَّبَعَكَ الْأَرْذَلُونَ﴾ [الشعراء].

وكما قال قوم ثمود لنبِيِّهم صالح عليه السلام: ﴿إِنَّا بِالَّذِي ءَامَنَتْمْ بِهِ كَافِرُونَ﴾ [الأعراف].

ونظير هذه الآية قوله تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ مَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ فِي قَرْيَةٍ مِنْ نَذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ ءَاثِرِهِمْ مُقْتَدُونَ﴾ [الزخرف].

وقوله سبحانه: ﴿وَقَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِهِ الَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِإِلْقَاءِ الْآخِرَةِ وَتَرَفْتُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا مَا هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ﴾ [المؤمنون: ٣٣].

ويقرر سبحانه هذا المعنى في قوله: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ أَكْثَرَ مُجْرِمِيهَا لِيَمْكُرُوا فِيهَا﴾ [الأنعام: ١٢٣].

وفي إيمان الضعفاء والفقراء، فتنة وابتلاء للمتربين والمتكبرين، كما قال تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لِيَقُولُوا أَهَؤُلَاءِ مِنْ اللَّهِ عَلَيْهِمْ مِنْ بَيِّنَاتٍ﴾ [الأنعام: ٥٣].

وفي هذا تسلية للنبي ﷺ على ما مُني به من تكذيب قومه، وكُفّرهم بما جاء به.

أخرج ابن أبي حاتم، وغيره عن رُزَيْن قال: كان رجلان شريكان، خرج أحدهما إلى الساحل وبقي الآخر، فلما بُعث النبي ﷺ كتب إلى صاحبه يسأله ما فعل محمد ﷺ؟ فكتب إليه أنه لم يتبعه أحد من قريش، إنما اتّبعه أراذل الناس ومساكينهم، فترك تجارته ثم أتى صاحبه فقال: دلني عليه - وكان يقرأ الكتب، فأتى النبي ﷺ فقال: إلام تدعو؟ قال: «إلى كذا وكذا»، قال: أشهد أنك رسول الله، قال: «وما علّمك بذلك؟» قال: إنه لم يُبعث نبي إلا اتّبعه رذالة الناس ومساكينهم، قال: فنزلت هذه الآية: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ﴾ (٣٤).

قال: فأرسل إليه النبي ﷺ: «إن الله قد أنزل تصديق ما قلت»^(١).

وهكذا قال هرقل لأبي سفيان لما سأله عن النبي ﷺ قائلاً: سألتك، أضعفاء الناس اتّبعه أم أشرافهم؟ فزعمت: بل ضعفاؤهم، وهم أتباع الرسل.

قال أبو حيان: نصّ الله تعالى على المترفين، لأنهم أول المكذبين للرسل لما شغلوا به من زخرف الدنيا، وما غلب على عقولهم منها، فقلوبهم أبداً مشغولة منهمكة، بخلاف الفقراء، فإنهم خالون من ملذات الدنيا، فقلوبهم أقبل للخير، ولذلك كانوا أتباع الرسل^(٢). قال تعالى عن المترفين:

٣٥- ﴿وَقَالُوا نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَالًا وَأَوْلَدًا وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ﴾ (٣٥)

تقرّر هذه الآية أن الجاه وكثرة الأموال سبب رئيس في الكفر والطغيان، فتشير إلى أن هؤلاء المترفين لم يكتفوا بإعلان كفرهم، وتكذيبهم لرسل الله، بل إنهم جعلوا كثرة أموالهم وأولادهم في الدنيا، حجة على أن لهم حظاً عند الله، وأنهم على حق في موافقهم، وأنهم لن يُعذّبوا في الآخرة؛ لأن من كان سعيداً في الدنيا فهو سعيد في الآخرة - على حد زعمهم.

﴿وَقَالُوا نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَالًا وَأَوْلَدًا﴾ أي: أكثر مالا وجاهاً من هؤلاء الضعفاء الفقراء،

(١) «الدر المنثور» (٦/ ٧٠٤) عن ابن أبي شيبة وابن المنذر أيضاً.

(٢) «البحر المحيط» (٧/ ٢٨٥).

ولولا أننا أحب إلى الله تعالى منهم، وأفضل لما أعطانا الله هذه النعم، فهي دليل الرضى، وإن الذي أعطانا الأموال والأولاد في الدنيا سيعطينا أكثر منه في الآخرة ولا يعذبنا!!

والله سبحانه ينفي هذا الزعم في مثل قوله سبحانه: ﴿يَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُ بِهِ مِن مَّالٍ وَبَنِينٍ ۖ سُبْحٰنَ لَّهُم فِي الْخَيْرَاتِ﴾ [المؤمنون: ٥٥، ٥٦].

وقوله تعالى: ﴿فَلَا تَعْجَبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُم بِهَا فِي الْحَيٰوةِ الدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنفُسُهُمْ وَهُمْ كَافِرُونَ﴾ [التوبة].

وليست الأموال ولا الأولاد هي التي تقرب العبد إلى الله زلفى، إنما يقربه الإيمان والعمل الصالح، والعبد لا يدري أي الأبناء أنفع له، بل إن الله تعالى يقرر في كتابه أن من الأبناء والأزواج ما يكون فتنة وبلاء للعبد، وأكبر من ذلك فقد يكون الابن عدوًّا لأبيه!!

وهكذا فقد زعم بعض أرباب الأموال، أن الله تعالى كما أعطاهم الثراء في الدنيا، فلن يعذبهم في الآخرة، فقالوا: ﴿وَمَا نَحْنُ بِمُعَذِّبِينَ﴾ [١٢٨] لأن الله راضٍ عنا، ومن ذلك قوله تعالى على لسانهم: ﴿وَلَيْنَ رُجِعْتُ إِلَىٰ رَبِّي إِنَّ لِي عِنْدَهُ لَلْحُسْنَىٰ﴾ [فصلت: ٥٠]. وقوله سبحانه: ﴿وَلَيْنَ رُدِدْتُ إِلَىٰ رَبِّي لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِّنْهَا مُنْقَلَبًا﴾ [الكهف: ٣٦].

بَسْطُ الرِّزْقِ وَقَبْضُهُ لِلنَّاسِ كَافَّةً، ابْتِلَاءٌ وَاسْتِدْرَاجٌ

٣٦- ﴿قُلْ إِنَّ رَبِّي يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ وَيَقْدِرُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [٣٦]

ثم إن الله تعالى صَحَّحَ لهؤلاء المترفين خطأهم، وكشف لهم عن جهلهم، وبين أن الثواب والعقاب لا يخضعان للغنى والفقر، ولكن يخضعان للإيمان والكفر، فالله تعالى يوسِّع الرزق لمن يشاء، ويضيِّقه على من يشاء، ويعطي المال لمن يحب ولمن لا يحب، وقد يغدق الله - سبحانه - الرزق على من هو غاضب عليه، وقد يغدقه على من هو راضٍ عنه، وربما يوسِّع رزق العاصي، ويضيِّق رزق المطيع، وربما يوسِّع على إنسان في وقت، ويضيِّق عليه في وقت آخر، وكل هذا وفق حكمة الله تعالى في تدبير شؤون خلقه ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ حيث زعموا أن سعة الرزق دليل الشرف والكرامة، وأن ضيق العيش دليل الذل والمهانة، ولم يدركوا حقيقة الابتلاء والاستدراج، فبسط الرزق وتضييقه بالنسبة للكافر والمؤمن، والطائع والعاصي معلق بمشيئة الله تعالى وفق حكمته سبحانه في خلقه، فقد

يكون هذا ابتلاء أو استدراجاً، ونحو ذلك، وليس فيه دليل على رضى الله تعالى أو سخطه.

الْقُرْبُ مِنَ اللَّهِ تَعَالَى يَكُونُ بِإِيْمَانٍ وَالْعَمَلِ الصَّالِحِ وَلَيْسَ بِأَمْوَالٍ وَالْوَلَدِ

٣٧، ٣٨ - ﴿وَمَا أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ بِالَّتِي تُقَرِّبُكُمْ عِندَنَا زُلْفَىٰ إِلَّا مَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَأُولَٰئِكَ لَهُمْ جَزَاءٌ^(١) أَضْعَفُ بِمَا عَمِلُوا وَهُمْ فِي الْغُرُفَاتِ^(٢) ءَامِنُونَ ﴿٣٧﴾ وَالَّذِينَ يَسْعَوْنَ فِي أَعْيُنِنَا^(٣) مُعْجِرِينَ^(٤) أُولَٰئِكَ فِي الْعَذَابِ مُحْضَرُونَ ﴿٣٨﴾﴾

أي: ليست الأموال والأولاد التي تفتخرون بها -أيها الناس - هي التي تقربكم عند الله تعالى وترفع من درجاتكم، ولكن الذي يقربكم منه سبحانه هو الإيمان والعمل الصالح، كما قال تعالى: ﴿إِلَّا مَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا﴾ فالإيمان بالله واليوم الآخر هو الذي جاءت به جميع الرسل، والعمل الصالح من لوازم الإيمان، وإلى جوار ذلك أنفق العبد من ماله على نفسه وأهله وولده، من غير إسراف ولا تقتير، وأنفق منه في سبيل الله ووجوه الخير، وعلم ولده الخير وأدبه، فإن هذا هو الذي ينجيكم من عذاب الله، ويرفع من درجاتكم، ويضاعف حسناتكم، الحسنة بعشر أمثالها إلى سبع مئة ضعف، إلى أضعاف كثيرة لا يعلمها إلا الله.

قال قتادة: لا تعتبروا الناس بكثرة المال والولد، فإن الكافر يُعطى المال، وربما حُبس هذا المال عن المؤمن^(٤).

وفي صحيح مسلم وغيره: عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «إن الله لا ينظر إلى صوركم وأموالكم، ولكن ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم»^(٥).

(١) قرأ رويس بنصب (جزاء) مع التنوين، وكسره وصلًا، حتى لا يلتقي ساكنان، والنصب على الحال من الضمير المستقر في الخبر المقدم، و (الضعف) بالرفع مبتدأ مؤخر، وقرأ الباقون برفع (جزاء) من غير تنوين، مبتدأ مؤخر، و (الضعف) بالجر على الإضافة.

(٢) قرأ حمزة بإفراد (الغرفات) مع تسكين الراء، وقرأ الباقون بالجمع مع ضم الراء.

(٣) قرأ ابن كثير وأبو عمرو بحذف الألف من (معاجزين) مع تشديد الجيم، والباقيون بإثبات الألف وتخفيف الجيم.

(٤) الطبري (٢٩٦/١٩) بتصرف.

(٥) «صحيح مسلم» (٢٥٦٤) وابن ماجه (٤١٤٣).

وكان طاوس يقول: اللهم ارزقني الإيمان والعمل، وجنّبي المال والولد، فإني سمعت فيما أوحيت: ﴿وَمَا أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ بِالَّتِي تُقَرِّبُكُمْ عِندَنَا زُلْفَىٰ﴾.

وقد أوضح القرطبي هذا المعنى بأن المراد بدعاء طاوس: أن يجنبه الله المال والولد إذا كان فيهما طغيان، أما المال الصالح للرجل الصالح فنعم هو^(١).

وقال محمد بن كعب: إذا كان المؤمن غنياً تقياً آتاه الله أجره مرتين^(٢).

والمؤمنون الصالحون، في منازل عالية في الجنة، مطمئنون منعمون، آمنون من عذاب الله، آمنون عند الموت ومن جميع الأحزان، آمنون من المكدرات والمنغصات.

وعن عليّ رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «إن في الجنة لغرفاً يرى ظهورها من بطونها، وبطونها من ظهورها»، قالوا: لمن هي؟ قال: «للمن أطاب الكلام، وأطعم الطعام، وأدام الصيام، وصلى بالليل والناس نيام»^(٣).

أما الذين يسعون جاهدين لإبطال حججنا الدالة على وحدانيتنا وقدرتنا، ويسعون في صد الناس عن اتباع رسل الله، محاولين أن يغلّبونا ويعجزونا، فهؤلاء تحضرهم الزبانية إلى نار جهنم، فيعذبون فيها يوم القيامة.

بَسْطُ الرِّزْقِ لِلْمُؤْمِنِ يَتَطَلَّبُ الْإِنْصَاقَ مِنْهُ

٣٩- ﴿قُلْ إِنْ رَّبِّي يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَهُ وَمَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُ وَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ﴾ (٣٩)

ولما بين سبحانه أنه يبسط الرزق لغير المؤمنين في الآية السابقة المماثلة لهذه الآية، وهم الذين لم يشرفوا بالإضافة إلى الله تعالى فيها، بعد ذلك امتنّ الله على عباده المؤمنين الذين شرفهم بالإضافة إليه سبحانه في هذه الآية في قوله: ﴿مِنْ عِبَادِهِ﴾ امتنّ

(١) «تفسير القرطبي» (٣٠٥/١٤) بتصرف.

(٢) الحكيم الترمذي (٢١٢/٢) بتصرف.

(٣) ابن أبي شيبة (١٠١/٣) و«صحيح الترمذي» بإسناد حسن، وفي مشكاة المصابيح (١٢٣٣) (٢٠٥١).

والمسند (١٣٣٨) وهو حديث حسن لغيره (محققه) وأخرجه البزار (٧٠٢) وأبو يعلى (٤٣٨) وابن أبي شيبة

(٦٢٥/٨).

عليهم بسعة الرزق، فجمع لهم بين فضل الإيمان والعمل الصالح، وبسط الرزق، وفيه تسلية لمن قدّر الله عليهم أرزاقهم من أهل الإيمان والعمل الصالح، بأنهم نالوا فضل الإيمان وفضل الصبر على ضيق العيش.

هذا ولما بيّن الله - سبحانه - أن الإيمان والعمل الصالح، هو الذي يقرب العبد إلى ربه، ويكون مؤدياً إلى تضعيف حسناته، بيّن سبحانه أن نعيم الآخرة لا ينافي سعة الرزق في الدنيا، بل الصالحون قد يُيسر لهم الرزق في الدنيا مع ما لهم في الآخرة من الجزاء الأوفى، والمثوبة الحسنى بمقتضى الوعد الإلهي^(١).

وقد كرّرت هذه الآية، بقصد ترغيب المؤمنين في النفقة الواجبة والمستحبة على مستحقيها من جار أو قريب أو فقير أو مسكين أو يتيم ونحو ذلك، فختمها الله تعالى بقوله: ﴿وَمَا أَفْقَرُ مِنْ شَيْءٍ﴾ أي: قليلاً أو كثيراً ﴿فَهُوَ يُخْلِفُهُ﴾ أي: يعوضه لكم عاجلاً في الدنيا بالبدل، أو آجلاً في الآخرة بالثواب والأجر المضاعف ﴿وَهُوَ خَيْرُ الرَّزْقِينَ﴾ فاطلبوا الرزق منه وحده، واسلكوا الأسباب التي أمركم بها لتحصيله.

ولا تتوهموا أن الإنفاق في سبيل الله ينقص المال، بل يباركه وينميه ويطهره.

ففي الآية دليل على أن نعيم الآخرة لا ينافي نعيم الدنيا، كما قال تعالى: ﴿رَبَّنَا إِنَّا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةٌ وَفِي الْآخِرَةِ حَسَنَةٌ وَقَدْ آتَيْنَاكَ لَهْمَ نَفْسٍ مِمَّا كَسَبُوا﴾ [البقرة: ٢٠١، ٢٠٢].

ونعيم الدنيا مسبب على أحوال دنيوية، يسرها الله - سبحانه - لمن أخذ بالأسباب، ونعيم الآخرة مسبب على الإيمان والعمل الصالح، وكثير من الصالحين ينعمون في الدنيا والآخرة، وقد جرت سنة الله تعالى أن يزيد الأتقياء الأسخياء من فضله وكرمه. ﴿وَهُوَ خَيْرُ الرَّزْقِينَ﴾ فاطلبوا الرزق من الله، واسعوا في الأسباب التي أمركم بها، وكل منكم يأتيه ما قدّر له:

قال تعالى: ﴿وَاللَّهُ فَضَّلَ بَعْضَكُمْ عَلَى بَعْضٍ فِي الرِّزْقِ﴾ [النحل: ٧١].

وقال سبحانه: ﴿لَنَحْنُ قَسَمًا يَبِينُ مَعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ

(١) «زاد المسير» لابن الجوزي (٦/٦٤٢).

لِاسْتِخْدَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا سُخْرِيًّا وَرَحِمَتْ رَيْكَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴿٣٢﴾ [الزخرف: ٣٢].

وقال جلّ شأنه: ﴿كُلًّا نُمِدُّ هَؤُلَاءِ وَهَؤُلَاءِ مِنْ عَطَاءِ رَيْكَ وَمَا كَانَ عَطَاءُ رَيْكَ مَحْطُورًا ﴿٣٢﴾﴾
أَنْظُرْ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ وَلِلْآخِرَةِ أَكْبَرُ دَرَجَاتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلًا ﴿٣١﴾﴾ [الإسراء: ٣١].

١- وفي الحديث عن أبي هريرة ؓ أن رسول الله ﷺ قال: «قد أفلح من أسلم، ورزق كفافًا، وقنّعه الله بما آتاه»^(١).

٢- وفي الحديث القدسي عن أبي هريرة أيضًا عن رسول الله ﷺ يقول تعالى:
«أنفق يا ابن آدم أنفق عليك»^(٢).

٣- وفي حديث أبي هريرة ؓ أن رسول الله ﷺ قال: «أن ملكين يصيحان كل يوم، يقول أحدهما: اللهم أعط ممسكًا تلفًا، ويقول الآخر: اللهم أعط منفقًا خلفًا»^(٣).

٤- وفي صحيح مسلم وغيره: عن أبي هريرة أيضًا أن رسول الله ﷺ قال: «ما نقصت صدقة من مال، وما زاد الله عبدًا بعفو إلا عزًا، وما تواضع أحد لله إلا رفعه الله»^(٤).

اسْتِجَابُ الْمَلَائِكَةِ فِي سَاحَةِ الْحَشْرِ

٤٠- ﴿وَيَوْمَ يُحْشَرُهُمْ^(٥) جَمِيعًا ثُمَّ يَقُولُ^(٦) لِلْمَلَائِكَةِ أَهْتُولَاءُ إِنَّا كُنَّا يَعْبُدُونَ ﴿٤٠﴾﴾

عطف سبحانه وتعالى على قوله: ﴿وَلَوْ تَرَى إِذِ الظَّالِمُونَ مَوْقُوفُونَ عِنْدَ رَبِّهِمْ ﴿٣١﴾﴾. استجواب الملائكة في ساحة العرض والحساب، عن عبادة المشركين لهم؛ ليستكمل موقف الظالمين لأنفسهم بالشرك في عرصات القيامة، حين تتبرأ الملائكة من عبادتهم لهم، ويشهدون عليهم أنهم كانوا يعبدون الجن.

فقال تعالى: ﴿وَيَوْمَ يُحْشَرُهُمْ جَمِيعًا﴾ أي: اذكر -يا محمد- يوم يحشر الله المشركين جميعًا، للحساب والجزاء، مَنْ تَقَدَّمَ مِنْهُمْ وَهُمْ تَأَخَّرَ، ويحشر المعبودين من الملائكة وغيرهم،

(١) «صحيح مسلم» برقم (١٠٥٤).

(٢) من حديث أبي هريرة في البخاري برقم (٤٦٨٤، ٥٣٥٢) ومسلم برقم (٩٩٣).

(٣) البخاري برقم (١٤٤٢) ومسلم برقم (١٠١٠) عن أبي هريرة.

(٤) «صحيح مسلم» برقم (٢٥٨٨).

(٥)، (٦) قرأ حفص ويعقوب بالياء في (نحشروهم) و (نقول) لمناسبة ما قبله، وقرأ الباقر بالنون على الالتفات.

كما يحشر المستضعفين والمستكبرين، يُحشرون جميعاً على رؤوس الخلائق والأشهاد.

ثم خصَّ الله تعالى الملائكة بالذكر من بين المعبودين، كما خصهم بالسؤال يوم الحشر، لأن المقصود من الآية إبطال قول المشركين عن الملائكة: إنهم بنات الله! والرد عليهم في قولهم: ﴿لَوْ شَاءَ الرَّحْمَنُ مَا عَبَدْنَاهُمْ﴾ [الزخرف: ٢٠].

وكان المشركون يخلطون بين الملائكة والجن، ويجعلون بينهم نسباً.

قال تعالى: ﴿وَجَعَلُوا بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْجَنَّةِ نَسَبًا﴾ [الصفات: ١٥٨].

فقالوا: إن الله تعالى تزوج من الجن فأنجب الملائكة، وكان حيي من خُراعة يقال لهم: بنو مُليح، يعبدون الجن والملائكة.

والآية تبين ردَّ الملائكة على مَنْ عبدوهم من دون الله في قوله ﷻ: ﴿ثُمَّ يَقُولُ الْمَلَكُ عَلَى وَجْهِ التَّوْبِخِ لِمَنْ عَبَدُوهُمُ أَهَؤُلَاءِ إِنَّا كُمْ كَانُوا يَعْبُدُونَ﴾ أي: كانوا يعبدونكم في الدنيا؟ وفي سورة (الفرقان) يقول تعالى: ﴿ءَأَنْتُمْ أَضَلُّنَّكُمْ عَبَادِي هَؤُلَاءِ أَمْ هُمْ ضَلُّوا السَّبِيلَ﴾ [١٧].

والخطاب في الآية موجه للملائكة، ولكنه تقرير للكفار وتوبيخ لهم، كما قال تعالى لعيسى ﷺ: ﴿أَأَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّي آلِهَتَيْنِ مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ [المائدة: ١١٦].

والله ﷻ يبين أن عيسى ﷺ، والملائكة وعزيراً، أبرياء من عبادة المشركين لهم، وأنهم منزهون عما نُسب إليهم، فيقول: ﴿إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُمْ مِنَّا الْحُسْنَىٰ أُولَٰئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ﴾ [الأنبياء: ١٧]. قال تعالى على لسان الملائكة:

٤١- ﴿قَالُوا سُبْحَانَكَ أَنْتَ وَلِئْنَا مِنْ دُونِهِمْ بَلْ كَانُوا يَعْبُدُونَ الْجِنَّ أَكْثَرُهُمْ بِهِمْ مُؤْمِنُونَ﴾

هذا هو جواب الملائكة على السؤال عن عبادة المشركين لهم، وفيه تنزيه لهم عن كونهم معبودين من دون الله ﴿قَالُوا سُبْحَانَكَ﴾ أي: قالت الملائكة: تنزيهاً لك يا ربنا، أن يكون غيرك مستحقاً للعبادة، وكيف ندعوهم لعبادتنا ونحن مفتقرون إليك، ولا نصلح أن نتخذ أولياء من دونك ﴿أَنْتَ وَلِئْنَا مِنْ دُونِهِمْ﴾ أنت الذي نطيعه ونعبده وحده، ونحن نتبرأ إليك منهم، فلن نرضى من المشركين أن يعبدونا.

فالعبادة: ولاية وطاعة بين العابد والمعبود، ورضى المعبود بعبادة العابد وولايته،

والملائكة عباد لله، والعابد لا يكون معبودًا، فنحن ننكر عبادتهم لنا، ولم نأمرهم بها، ولكن الجن سوّلت لهم عبادة غير الله تعالى، فعبدوهم وكان ذلك برضى الجن وإغوائهم لهم، وهذا معنى ﴿بَلْ كَانُوا يَعْبُدُونَ آلَٰجِنَ﴾ وأكثر المشركين مصدقون بالجن ومطيعون لهم ﴿أَكْثَرُهُمْ بِهِمْ مُؤْمِنُونَ﴾ وبعضهم يعبدون آلهة أخرى.

قال تعالى ﴿أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَنْبِئَ ءَادَمَ أَن لَّا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾ (١٦) وَإِنْ أَعْبُدُونِي هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ ﴿١٧﴾ [يس]

وقال تعالى: ﴿إِنْ يَدْعُونَ مِن دُونِهِ إِلَّا إِنَّا وَإِنْ يَدْعُونَ إِلَّا شَيْطَانًا مَّرِيدًا﴾ (١٧) [النساء: ١١٧]. فلما تبرؤوا منهم قال تعالى:

٤٢- ﴿قَالِیَوْمَ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۚ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ نَّفَعًا وَلَا ضَرًّا ۚ وَنَقُولُ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا ذُوقُوا عَذَابَ النَّارِ ۚ الَّتِي كُنْتُمْ بِهَا تُكَذِّبُونَ﴾ (٤٢)

وجّه الله - سبحانه - في هذه الآية الخطاب للعابدین والمعبودین -المشركین والملائكة والجن- بقصد توبيخ الذين عبدوا الملائكة والجن، فقال تعالى: ﴿قَالِیَوْمَ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۚ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ نَّفَعًا وَلَا ضَرًّا﴾ أي: في يوم الحشر والحساب لا ينفع العابد المعبود، لا ينفع المعبود العابد، ولا بدفع عذاب، ولا بشفاعته، ولا غير ذلك.

وهذا الخطاب يكون على رؤوس الأشهاد يوم القيامة، إظهارًا لعجز المعبودين عن نفع عابديهم بوجه من الوجوه، وأن الأسباب قد تقطعت بينهم، وانقطع بعضهم عن بعض.

وفي هذا اليوم، يقال للذين ظلموا أنفسهم بالشرك والمعاصي: ذوقوا عذاب النار الهائل الذي كذبتهم به في الدنيا، فها أنتم الآن قد وردتموه، ودخلتموه بعدما عايتموه.

كما في قوله تعالى: ﴿وَقِيلَ لَهُمْ ذُوقُوا عَذَابَ النَّارِ ۖ الَّتِي كُنْتُمْ بِهِ تُكَذِّبُونَ﴾ [السجدة: ٢٠].

والتعبير بالذي دون التي في آية السجدة؛ لأن القائل هناك هم ملائكة العذاب.

والقائل هنا هو رب العالمين على لسان الملائكة.

الْمُكَذِّبُونَ بِالْإِسْلَامِ لَا يَسْتَنْدُونَ إِلَى دَلِيلٍ جُمْلَةً وَتَفْصِيلًا

٤٣- ﴿وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا يَتَنَصَّرُ قَالُوا مَا هَذَا إِلَّا رَجُلٌ يُرِيدُ أَنْ يَصُدَّكُمْ عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤَكُمْ وَقَالُوا مَا هَذَا إِلَّا إِنْكَارٌ مِمَّنْ قَدْ كَفَرُوا بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ إِنَّ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ ﴿٤٣﴾﴾

أخبر - سبحانه - عن المكذبين بالقرآن ورسول الإسلام، بأنهم في الدنيا إذا تلى عليهم آيات القرآن، وفيها حجج الله الظاهرة، وبراهينه القاطعة، كذبوها وردوها من ثلاثة أوجه:

١- فقالوا أولاً: إن محمدا يريد أن يصرفنا عن عبادة آبائنا.

٢- وقالوا ثانياً: إن محمدا افترى هذا القرآن واختلفه.

٣- وقالوا ثالثاً: إن هذا القرآن سحر واضح.

وهكذا: يبين ﷺ في هذه الآية لونا آخر من كفر المكذبين بالإسلام، وضلالهم فيما يتعلق بالقرآن ورسول الإسلام، حيث قال بعضهم عن القرآن: إنه افتراء، وقال آخرون: إنه سحر، وقالوا عن رسول الإسلام: إنه يريد أن يقطع الصلة بيننا وبين عبادة آبائنا الأولين.

فاسم الإشارة الأول (ما هذا) يعود أولاً على الرسول ﷺ، ويعود ثانياً على القرآن، ويعود ثالثاً على تعاليم الإسلام كلها.

فهم قد كذبوا بالوحي الذي يُتلى عليهم، وكذبوا بالرسول الذي جاء بالوحي، وكانوا إذا تليت عليهم آيات القرآن ووضحت المعاني، بينات الإعجاز، وسمعها المشركون غصة طرية من لسان رسولنا ﷺ، أو سمعها المكذبون بالإسلام من أفواه الدعاة إلى الله تعالى، قال المشركون والمكذبون: ما هذا الذي يتلو علينا القرآن إلا رجل، يريد أن يمنعنا من العبادة التي ورثناها عن آبائنا ومجتمعنا، وأن يقطع الصلة بيننا وبين من سبقونا، سواء أكان هذا الرجل هو رسول الله ﷺ أم من يبلغ الدعوة إلى الناس بعده، ويعد تكذيبهم للرسول ﷺ كذبوا القرآن نفسه، أي: الوحي الذي يُتلى عليهم، فقالوا: ما هذا القرآن إلا كذب مختلق.

ثم أضافوا تكذيباً ثالثاً، فوصفوا القرآن بأنه سحر، ووصفوا الذي أتى به بأنه ساحر ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ﴾ المراد بالحق: ما هو أعم من القرآن، فيشمل السنة

والمعجزة، وكل ما يمثل دين الإسلام، قالوا عن هذا الحق: إنه سحر واضح بين لا يخفى على عاقل.

إنها سلسلة من الاتهامات يوجهونها إلى القرآن؛ ليصرفوا الناس عنه، فهم قد كذبوا القرآن، وكذبوا الرسول، وكذبوا تعاليم الإسلام.

ثم بين - سبحانه - أن هذه الشبه الثلاث، ليس لهم عليها مستند يُعتمد عليه، لا عن طريق الكتب المنزلة، ولا عن طريق الرسل المرسله، فقال تعالى:

٤٤ - ﴿وَمَا آتَيْنَهُمْ مِّنْ كُتُبٍ يَدْرُسُونَهَا وَمَا أَرْسَلْنَا إِلَيْهِم بِقَلَمٍ مِّنْ نَّذِيرٍ﴾

بين سبحانه في هذه الآية أن الكفار لم يطعنوا في القرآن ولا في الرسول الخاتم عن بينة، وأنهم لم يكذبوا محمداً ﷺ عن يقين، ولا عن مستند يستندون إليه، بل عن ظن وتخمين، فأقوالهم لا تستند إلى دليل ولا ما يشبهه، وقد رد الله عليهم بأمرين:

الأمر الأول: أن المكذبين بالوحي والرسالة، لم ينزل عليهم قبل القرآن كتاباً يقرؤون فيه ويتدارسونه، فكيف رفضوا اتباع الرسول، وتلقي القرآن، وكان الأجدر بهم أن يفرحوا بهما؟

الأمر الثاني: أن الله تعالى لم يرسل إليهم قبل محمد ﷺ رسولاً ينذرهم عذاب الله تعالى، فهم لم يكونوا على دين منسوب إلى الله تعالى، وهم يخشون الوقوع في الضلالة إن فرطوا فيه، فكيف كذبوك -أيها الرسول- ورفضوا قبول الحق، مع أنه لا مانع يصدّهم عنه ﴿وَمَا آتَيْنَهُمْ مِّنْ كُتُبٍ يَدْرُسُونَهَا﴾ أي: لم تُنزل على المكذبين بالقرآن كتباً قبل نزول القرآن تدلهم -كما يزعمون- أن ما جاء به محمد ﷺ سحر.

أو أنه مفترى، قد اختلقه ﷺ أو أنه يزيد أن يصرفهم عما ورثوه عن أجدادهم.

قال السدي: لم يكن عندهم كتاب يدرسونه، فيعلمون أن ما جئت به حق أو باطل.

وقال قتادة: ما أنزل الله على العرب كتاباً قبل القرآن، وما بعث إليهم نبياً قبل محمد ﷺ^(١).

وهذا معنى ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا إِلَيْهِم بِقَلَمٍ مِّنْ نَّذِيرٍ﴾ أي: وما بعثنا إليهم رسولاً ينذرهم بأسنا، فمن أين أتوا بهذا الشرك؟ وقد أرسل الله في العرب نبيه إسماعيل، ولكنه لم يتجرّد

(١) يُنظر: الطبري (٣٠٢/١٩).

للإنذار، ولم يقاتل على تبليغ الدعوة لإزالة عوائقها، وقبل إسماعيل ﷺ أرسل الله شعيبًا وصالحًا وهودًا عليهم السلام في هذا المكان من العالم، ولم تخل الأرض من داعٍ إلى توحيد الله تعالى، ولكن محمدًا ﷺ، هو الذي أرسل بالإنذار إلى العالم أجمع.

وهذا كقوله تعالى: ﴿أَمْ أَنْزَلْنَاهُ عَلَيْهِمْ سُلْطَانًا فَهُوَ يَتَكَلَّمُ بِمَا كَانُوا بِهِ يُشْرِكُونَ﴾ [الروم].

وقوله سبحانه: ﴿أَمْ آتَيْنَاهُمْ كِتَابًا مِنْ قَبْلِهِ فَهُمْ بِهِ مُسْتَسْكُونَ﴾ [الزخرف].

ثم إن الله تعالى خوف المكذبين ما لحق بالأمم المكذبة قبلهم من هلاك، فقال:

٤٥- ﴿وَكَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَمَا بَلَّغُوا مَعْشَارَ مَا آتَيْنَاهُمْ فَكَذَّبُوا رُسُلِي فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ﴾^(١)

طيب الله - سبحانه - خاطر رسوله ﷺ بالإشارة إلى هلاك الأمم التي كذبت رسل الله في الأمم الغابرة بقوله: ﴿وَكَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ﴾ كقوم عاد وثمود وفرعون وغيرهم، فعاقبهم الله واستأصل شأفتهم.

فلا تحزن -أيها الرسول الكريم- ولا تأسف على تكذيبهم لك، فإنه سيلحق بهم ما لحق بغيرهم.

ثم هدّد الله سبحانه المكذبين لرسالة محمد ﷺ بأن الأمم السابقة التي كذبت رسلها كانوا أشد منهم قوة، وأعظم منهم سطوة، وأقوى بيانًا وحجة، فأهلكهم الله، مع أنكم - يا من كذبتُم محمدًا ﷺ - لم تؤتوا معشار ما أُوتي هؤلاء السابقون من القوة والمال وطول العمر، وهذا معنى ﴿وَمَا بَلَّغُوا مَعْشَارَ مَا آتَيْنَاهُمْ﴾.

وهو كقوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَأَثَارُوا الْأَرْضَ وَعَمَرُوهَا أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا وَجَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانُوا لَإِيْظِلِّهِمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ [الروم].

وقوله سبحانه: ﴿فَأَهْلَكْنَا أَشَدَّ مِنْهُمْ بَطْشًا﴾ [الزخرف: ٨].

وقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ مَكَنَّاكُمْ فِيْمَا إِنْ مَكَّنَّاكُمْ فِيْهِ وَجَعَلْنَا لَهُمْ سَمْعًا وَأَبْصَرًا وَأَفْئِدَةً فَمَا أَغْنَىٰ

(١) قرأ ورش بإثبات ياء (نكير) وصلًا وحذفها وقفًا، وأثبتها يعقوب في الحاليين، وحذفها غيرهما في الحاليين.

عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَلَا أَبْصَرُهُمْ وَلَا أَفْعَدُتُهُمْ مِنْ شَيْءٍ إِذْ كَانُوا يَجْحَدُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٢١﴾ [الأحقاف].

قوله تعالى: ﴿كَذَّبُوا رُسُلِي﴾ أي: فيما جاؤوهم به، فأهلكناهم، ولم يُغْنِ عنهم ما كانوا فيه من القوة والمال والحضارة ﴿فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ﴾ أي: انظروا كيف كان إنكاري عليهم وعقوبتي لهم بالتدمير والهلاك، منهم من أهلكه الله بالريح العقيم، ومنهم من أهلكه بالصيحة، أو الرجفة، أو بالخسف، أو بالغرق، أو بالحجارة، فاحذروا أن تدوموا على التكذيب فيصيبكم ما أصابهم.

خَمْسُ حَقَائِقَ تَنْسِفُ شُبُهَاتِ أَهْلِ الْبَاطِلِ

٤٦- ﴿قُلْ إِنَّمَا أَعْطُكُمْ بِوَاحِدَةٍ أَنْ تَقُومُوا لِلَّهِ مِثْلَ خِيَلٍ مُنْقَذَةٍ ثُمَّ تَتَفَكَّرُونَ﴾ (١) مَا بِصَاحِبِكُمْ مِنْ جِنَّةٍ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ لَكُمْ بَيْنَ يَدَيْ عَذَابٍ شَدِيدٍ ﴿٤٦﴾

في هذه الآيات الخمس - هذه الآية وما بعدها - نسفٌ لشبهات المكذبين المجادلين للنبي ﷺ، فقد أمره الله تعالى أن يدعوهم إلى عبادة الله وحده، والنظر في أمر نبوته ﷺ، وأن يعظهم بكلام قريب إلى أفهامهم.

وجاء هذا المعنى في خمسة نداءات متوالية، وهي على وجه الإجمال:

- ١- نظرة إنصاف في صدق رسالة محمد ﷺ، وما جاء به من الهدى والنور.
 - ٢- عدم تقاضيه أجراً أو نفعاً على تبليغ دعوته للناس، ولا يلتبس الأجر إلا من الله تعالى.
 - ٣- عدم قدرة المنكرين لرسالة الإسلام على مناظرة الدعاة إلى الله تعالى في كل زمان ومكان.
 - ٤- ثبات الحق وذهاب الباطل، فالمستقبل للإسلام بإذن الله تعالى.
 - ٥- الداعي إلى الله مسؤول أمام الله تعالى إن كان يُضِلُّ قومه أو يهديهم.
- وفي هذه القضايا الخمس إعدار وإنذار للأمة ﴿لِيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنْ بَيِّنَةٍ وَيَحْيَىٰ مَنْ حَيَّ عَنْ بَيِّنَةٍ﴾ [الأنفال: ٤٢].

(١) قرأ رويس بإدغام التاء في التاء من (ثم تفكروا) وصلًا، ويكون البدء بتأين، وقرأ الباقون بتأين مظهرتين.

فالله تعالى خاطب المكذبين لرسول الله ﷺ بخمس دعوات يدعوهم فيها إلى المنهج الصحيح في البحث عن الحق الذي يُزيل الشبه التي يرمون بها النبي ﷺ.

الحقيقة الأولى: نفى تهمة الجنون عن النبي ﷺ: ﴿مَا بِصَاحِبِكُمْ مِنْ جِنَّةٍ﴾

وقد بُدئت هذه الدعوات كلها بلفظ ﴿قُلْ﴾.

فدعاهم القرآن - أولاً - إلى أن يقوموا بالحق لله تعالى على أي حال كانوا، مجتمعين أو منفردين، فيشتمروا عن ساعد الجد، لتلقي ما جاءهم به النبي ﷺ بقلب مفتوح، وعقل واع، ونفس خالية من التعصب والحقد والعكوف على التقليد، وذلك بأن يستعين كل واحد منهم بصاحبه، أو ينفرد بنفسه، للنظر الخالص الذي لا يغالط فيه صاحب هوى ولا شبهة، حتى يصيبوا الحق ويتخلصوا من الباطل فيما يتعلق بشأن النبي ﷺ، وعند ذلك سوف يرون أنه على حق، وأنه قد جاءهم بما يسعدهم في الدارين.

ولن أطيل النقاش معكم، وإنما سأختصر المجادلة وأقتصر على كلمة واحدة، حتى لا أضيع وقتكم ولا أكلفكم جهداً:

النداء الأول: ﴿قُلْ﴾ يا محمد، لكل مكذب برسالتي ﴿إِنَّمَا أَعْظَمَكُمْ﴾ أي: أنصح لكم ﴿بِوَاحِدٍ﴾، أي: بكلمة واحدة، وخصلة واحدة، أشير عليكم بها، وهي طريق نصف، لا أدعوكم فيها إلى اتباع قولي ولا إلى ترك قولكم.

ثم فسّر سبحانه معناها، فقال: ﴿أَنْ تَقُومُوا لِلَّهِ﴾ أي: أن تنهضوا في طاعة الله، وتخلصوا في طلب الحق وإصابته وتحرّيه، والنظر فيما جاءكم به محمد ﷺ، وأنتم ﴿مثنى﴾ أي: اثنين اثنين ﴿وَفَرْدَى﴾ أي: أن يقوم كل واحد منكم بنفسه، يخاطبها ويستخلص ما بداخلها من فكر ونظر إلى الحق بإخلاص وتجرّد وإنصاف.

فإن الاثنين إذا نظرا بإنصاف وإخلاص وموضوعيّة، وعرض كلّ منهما وجهة نظره على الآخر، فدرّساها وحلّلاها، فإن الصواب لا يغدوهما، بخلاف العدد الكبير من الناس، فقد يكون فيه تشويش أو مضادة أو مغالبة في الرأي.

وكذا الشخص الواحد، إذا كان ثاقب النظر، صائب الرأي، جيد الفكر، فإنه يصل إلى معرفة الحق بنفسه.

فهذه دعوة من الله تعالى إلى من لم يؤمنوا بمحمد ﷺ أن يتحرّوا الحق لوجه الله تعالى، سواء أكانوا مجتمعين، أم اثنين اثنين، أم واحدًا واحدًا، فيقروا هل هو مجنون، فيه صفات المجانين، أم هو نبي صادق، فإن قبلوا هذه الموعظة، تبين لهم أن رسول الله ﷺ أكمل الخلق أدبًا وعقلًا وتواضعًا وسكينة ووقارًا، وتبين لهم أن دعوته تزكي النفوس وتطهر القلوب، وتبعث على مكارم الأخلاق، وتملأ القلب أمانًا وإيمانًا وهذا معنى:

﴿ثُمَّ تَفَكَّرُوا﴾ أي: في شأن محمد ﷺ؛ لتعلموا أنه لا يمكن أن يكون به شيء من جنون كما يزعم المغالطون ﴿مَا يَصَاحِبُكُمْ﴾ أي: محمد ﷺ ﴿مِنْ جِنَّةٍ﴾ - كما تزعمون. ونفي الجنون يطوي تحته نفي السحر والشعر والكهانة.

وما هو إلا منذر ومخوف لكم من عذاب الله إن لم تؤمنوا ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ لَّكُمْ﴾ فآمنوا به قبل أن تذوقوا عذاب جهنم، وثقاسوا حرّها ﴿يَنْ يَدَىٰ عَذَابٍ شَدِيدٍ﴾ إن كفرتم ولم تؤمنوا. والطعن في نبوة محمد ﷺ هو أصل الكفر، وقد نفى الجنون عن النبي ﷺ في عدد من الآيات منها:

قوله تعالى: ﴿مَا أَنْتَ بِمَجْنُونٍ﴾ [القلم].

وقوله: ﴿وَمَا صَاحِبُكُمْ بِمَجْنُونٍ﴾ [التكوير].

وقوله: ﴿ثُمَّ تَوَلَّوْا عَنْهُ وَقَالُوا مُعَلِّمٌ لِّجُنُودٍ﴾ [الدخان].

وكان الاتهام بالجنون أروج دعوى عند أهل مكة.

أما السحر والشعر والكهانة والكذب فإن نفيها يتم بنفي خصائصها، وخصائص هذه الصفات منتفية عن النبي ﷺ بشهادة أعدائه، فهي دعاوى كاذبة.

عن سعيد بن جبير عن ابن عباس ؓ قال: صعد النبي ﷺ الصفا ذات يوم فقال: «يا صباحاه»، فاجتمعت إليه قريش، فقالوا: ما لك؟ فقال: «أرأيتم لو أخبرتكم أن العدو يصبحكم أو يمسيكم، أما كنتم تصدقوني؟» قالوا: بلى، قال: «فإني نذير لكم بين يدي عذاب شديد»، فقال أبو لهب: تبّا لك! ألهذا جمعتنا؟ فأنزل الله ﴿تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ﴾ [المسد] ^(١).

(١) «صحيح البخاري» برقم (١٣٩٤، ٤٨٠١) وأخرجه مسلم (٢٠٨).

وعن عبد الله بن بريدة عن أبيه قال: خرج إلينا رسول الله ﷺ يوماً فنأدى ثلاث مرات فقال: «أيها الناس، أتدرون ما مثلي ومثلكم؟» قالوا: الله ورسوله أعلم، قال: «إنما مثلي ومثلكم، مثل قوم خافوا عدوًّا يأتيهم، فبعثوا رجلاً يترأى لهم، فبينما هم كذلك أبصر العدو، فأقبل لينذرهم، وخشي أن يدركه العدو قبل أن ينذر قومه، فأهوى بشويه: أيها الناس أتيتم، أيها الناس أتيتم، ثلاث مرات»^(١).

الْحَقِيقَةُ الثَّانِيَّةُ: النَّبِيُّ ﷺ لَا يَطْلُبُ أَجْرًا عَلَى تَبْلِيغِ الدَّعْوَةِ

٤٧- ﴿قُلْ مَا سَأَلْتُكُمْ مِنْ أَجْرٍ فَهُوَ لَكُمْ إِنَّ أَجْرِيَ^(٢) إِلَّا عَلَى اللَّهِ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾^(٣)
بعد أن دعا القرآن المكذبين به إلى التفكير الهادئ المتأنّي في صدق دعواه ﷺ، بيّن لهم أن النبي ﷺ لم يُرِدْ بدعوته لهم نفعاً أو أجراً على نُصْحِهِ وإرشاده لهم، فإن طلب الأجرة يكون مانعاً من اتباع الداعي للحق، والرسول ﷺ منزّه عن هذا ولا يطلب الأجر إلا منه سبحانه، وقد تكرر في القرآن الكريم التبرؤ من دعوى أن النبي ﷺ يطلب منهم أجراً، كما قال تعالى: ﴿قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُتَكَلِّمِينَ﴾^(٤) إِنَّهُ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ [ص]. وجاء مثل ذلك عن رسل الله جميعاً، كنوح وهود وصالح وشعيب وغيرهم، صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين.

فليس هناك من فائدة دنيوية تعود على النبي ﷺ من جرّاء هذه الدعوة.

﴿قُلْ﴾ أيها الرسول للكفار: ﴿مَا سَأَلْتُكُمْ﴾ على الخير الذي جئتكم به ﴿مِنْ أَجْرٍ فَهُوَ لَكُمْ﴾ فإن كنت قد سألتكم أجراً فلا تعطوني إياه، وإن كنتم قد أعطيتُموني شيئاً فاستردوه وخذوا أنتم هذا الأجر ﴿إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى اللَّهِ﴾ فلا أنتظر أجراً من غيره على أعمالي، فهو الذي كلّفني، وهو الذي يأجرني ﴿وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ لا يخفى عليه شيء في الأرض ولا في السماء، وسيحاسب الجميع على ما قدمت أيديهم ويجازيهم بما يستحقونه، إن خيراً فخير، وإن شراً فشر.

(١) «المسند» (٣٤٨/٥)، ورقمه (٢٢٩٤٨) وهو حديث صحيح لغيره وإسناده حسن كما قال محققوه.

(٢) قرأ نافع وأبو عمرو وابن عامر وحفص وأبو جعفر بفتح ياء الإضافة من (إن أجري إلا) وصلّاً، والباقيون بإسكانها.

الْحَقِيقَةُ الثَّالِثَةُ: الْوَحْيُ يَذْخُصُ بِاطِلِ الْمُكَذِّبِينَ

٤٨- ﴿قُلْ إِنْ رَبِّي يَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَ الْغُيُوبِ ^(١)﴾

ثم أمر الله نبيه في المرة الثالثة أن يبين لمنكري التوحيد، ومنكري رسالة الإسلام، أنهم لا قدرة لهم على مجادلة النبي ﷺ، ولا على محاورته؛ فإن الله تعالى قد سلّحه بأسباب النصر، وأمدّه بقوة من عنده، ولقّنه الدليل والبرهان، ليتبين الحق من الباطل، والهدى من الضلال.

﴿قُلْ﴾ لهم أيها الرسول ﴿إِنَّ رَبِّي يَقْذِفُ بِالْحَقِّ﴾ أي: يلقي بالحجة الواضحة على الباطل فيكشفه ويظهره، وهذه سنة من سنن الله تعالى في خلقه يرد بها أقوال المكذبين، وهذا القرآن الذي جئتكم به هو الحق القوي الذي يقذف به الباطل والكفر والتكذيب، فيطله ويفضحه.

قال تعالى: ﴿بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ﴾ [الأنبياء: ١٨].

والحق: هو الوحي وآيات القرآن وهدي النبي ﷺ.

والباطل: هو الكفر وعدم الإيمان بخاتم المرسلين ﷺ.

ومن القذف بالحق: إنزال الوحي على من اصطفاهم الله تعالى، كما قال سبحانه: ﴿يُنَزِّلُ الْمَلَائِكَةَ بِالرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ أَنْ أَنْذِرُوا أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاتَّقُونِ﴾ [النحل: ٢].

والله سبحانه يعلم النوايا، ويعلم حيث يجعل رسالته، وهو سبحانه ﴿عَلَّمَ الْغُيُوبَ﴾ لا تخفى عليه خافية، وفي هذا تهديد وتخويف لكل من كذّب بنصر الله تعالى لرسوله ﷺ وخذلان أعدائه.

الْحَقِيقَةُ الرَّابِعَةُ: ثَبَاتُ الْحَقِّ وَذَهَابُ الْبَاطِلِ

٤٩- ﴿قُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَمَا يُبْدِئُ الْبَاطِلُ وَمَا يُعِيدُ ^(١)﴾

ثم أمر الله نبيه ﷺ في المرة الرابعة أن يبين للكافرين أن باطلهم -وهو الشرك بالله-

(١) قرأ شعبة وحمزة بكسر الغين من (الغيوب)، والباقون بضمها.

والكفر برسول الله، الذي هم عليه - سيزول لا محالة، ويهال عليه التراب، وأن الحق - الذي هو دين الإسلام الذي جاء به إليهم - سيمحقه ويُذهبه.

﴿قُلْ﴾ يا محمد للمكذبين المعاندين: ﴿جَاءَ الْحَقُّ﴾ أي: الهدى والنور والشرع العظيم من الله سبحانه، فاصدع يا محمد بهذا النبأ، وقرّر هذا الحدث، وأعلّنه للملأ، فإن الباطل لا يقدم ولا يؤخر ﴿وَمَا يُدْعَى الْبَاطِلُ وَمَا يُعْبَدُ﴾ أي: إن الباطل قد زال وهلك، ولم يبق له أثر، والبدء والإعادة من صفات الحي، كقوله تعالى:

﴿وَقُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا﴾ [الإسراء].

وعن ابن مسعود رضي الله عنه أن النبي ﷺ دخل مكة وحول الكعبة أصنام، فجعل يطعنها بعود معه، ويقول: ﴿وَقُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا﴾ [الإسراء].

فالأوثان باطل، والشيطان الذي سؤل للناس عبادتها باطل، والأصنام وإبليس لا يَخْلُقَانِ أحداً ولا يَبْعَثَانِ، والله تعالى هو المبدئ المعيد، وإذا جاء الحق انقشع الباطل من الموضع الذي حلّ فيه الحق، فلا يَبْقَى للباطل شيء يدؤه ويعيده.

وقد ظهر الحق واضحا وثبت أن ما يدعو إليه محمد ﷺ هو الحق الذي لا محيد عنه واضمحل الباطل وذهب سلطانه، وتبين عجزه، فهو لا يُدْعَى ولا يعيد.

الْحَقِيقَةُ الْخَامِسَةُ: مَسْئُولِيَةُ الدَّاعِي عَنْ دَعْوَتِهِ

٥٠ - ﴿قُلْ إِنْ ضَلَلْتُ فَإِنَّمَا أَضِلُّ عَلَى نَفْسِي وَإِنِ اهْتَدَيْتُ فِيمَا يُوحَىٰ إِلَيَّ رَحْمَةً (١) إِنَّهُ سَمِيعٌ قَرِيبٌ﴾

ويأتي النداء الخامس والأخير بلفظ: ﴿قُلْ﴾ أيضا للنبي ﷺ؛ ليبين للأمة أنه مسؤول أمام الله تعالى عما يدعوهم إليه، وأنه لو كان ضالاً في دعوته - على سبيل الفرض - فإثم ضلاله يعود عليه، فإن زعمتم أنني غير صادق في دعوى الرسالة، فإن ضلالي وكذبي في هذه الحالة - على حدّ زعمكم - يعود عليّ لا عليكم ﴿قُلْ إِنْ ضَلَلْتُ﴾ عن الحق، فإن ضلالي يعود على نفسي ﴿وَإِنِ اهْتَدَيْتُ﴾ أي: استقيمت على منهج الله تعالى، فإن هذه الاستقامة وحي أوحى الله به إليّ ﴿وَإِنِ اهْتَدَيْتُ فِيمَا يُوحَىٰ إِلَيَّ رَحْمَةً﴾ فالوحي هو مادة

(١) قرأ نافع وأبو عمرو وأبو جعفر بفتح ياء الإضافة من (رَبِّي إِنْهُ) وصلاً، والباقون بإسكانها.

هدايتي ﴿إِنَّهُمْ سَمِيعٌ﴾ لأقوال عباده ولجميع الأصوات ﴿قَرِيبٌ﴾ يجيب دعوة الداعي إذا دعاه، كما قال ﷺ: «إنكم لا تدعون أصمَّ ولا غائبًا إنما تدعون سميعًا قريبًا مجيبًا»^(١).

وهذا النداء مُؤذَن بترك جدالهم، لعدم الجدوى من مناظرتهم، وفيه بيان أن النبي ﷺ سائرهم وشأنهم، فإن اهتمدوا فلا أنفسهم، وإن ضلوا فعليها.

وهكذا: فإن هذه النداءات الخمسة قد أمرت الرسول ﷺ خمس مرات أن يخاطب المشركين بالله والمكذبين بالإسلام بما يزيل كل شبهة، ويقطع كل شك في دعوته ﷺ، ويدعوهم إلى طريق الهداية والسعادة في الدارين.

حَالُ الْمُجْرِمِينَ عِنْدَمَا يَرَوْنَ الْعَذَابَ الْمُعَدَّ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ

٥١- ﴿وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ فَرَغُوا فَلَا قُوَّةَ وَأُخِذُوا مِنْ مَكَانٍ قَرِيبٍ ۝٥١﴾

وتختتم السورة بأربع آيات تصور حال المجرمين، وتتعجب من حالهم عندما يخرجون من قبورهم للبعث والنشور، حيث يصابون بالرعب والفرع، ويُحال بينهم وبين التوبة؛ لأنها جاءت في غير أوانها ﴿وَلَوْ تَرَىٰ﴾ - يا رسولنا - حال المكذبين بك ﴿إِذْ فَرَغُوا﴾ حين رأوا العذاب الذي أخبرتهم به الرسل.

أي: لو أبصرت وقت فرع الكفار عند معاينة العذاب، حين يخرجون من قبورهم، لرأيت شيئًا هائلًا وأمرًا عظيمًا، وفي هذا اليوم، لا ملجأ ولا منجى من الله إلا إليه، فلا مهرب ولا نجاة لهم من الوقوف بين يدي الله تعالى للحساب ومعاقبتهم على كفرهم وهذا معنى ﴿فَلَا قُوَّةَ﴾ أي: لا مخلص لهم ولا مفرًا من عذاب الله، حيث يؤخذ الكفار من أرض المحشر إلى النار ليلقوا مصيرهم المحتوم، فليس لهم عنه مهرب ولا فوت.

والأماكن والأزمنة لا توصف بالقرب أو البعد بالنسبة إلى الله تعالى، فكلها سواء، ولكن هذا يكون بالنسبة إلى البشر.

والمكان القريب هو أرض المحشر، وهو قريب من جهنم، فيُمسكون ويُقبض عليهم ليلقوا ما أعد لهم من العذاب في وقت سريع، فيؤخذون ثم يقذفون في النار.

(١) النسائي في «السنن الكبرى» برقم (١١٤٢٧) والبخاري برقم (٤٢٠٥) ومسلم برقم (٢٧٠٤).

هذا: ويرى بعض المفسرين أن هذا الفرع الذي يصيب الكافر يكون في الدنيا، كما فسّر سعيد بن جبير الآية بقوله: هم الجيش الذي يُخسف بهم بالبيداء، ويبقى منهم رجل يخبر الناس بما لقي أصحابه^(١):

١- عن عبد الله بن صفوان عن حفصة رضي الله عنها: أنها سمعت النبي ﷺ يقول: «لَيُؤْمَنَّ هذا البيت جيش يَغْزُونَهُ، حتى إذا كانوا ببيداء^(٢) من الأرض يُخسفُ بأوسطهم، وينادي أولهم آخرهم، ثم يُخسف بهم، فلا يبقى إلا الشريد الذي يُخبر عنهم، فقال رجل: أشهدُ عليك -أي: على عبد الله بن صفوان- أنك لم تكذب على حفصة، وأشهدُ على حفصة أنها لم تكذب على رسول الله ﷺ»^(٣).

٢- وعن عبد الله بن القبطية قال: دخل الحارث بن أبي ربيعة، وعبد الله بن صفوان وأنا معهما، على أم سلمة أم المؤمنين رضي الله عنها، فسألاها عن الجيش الذي يُخسف به، وكان ذلك في أيام ابن الزبير، فقالت: قال رسول الله ﷺ: «يعوذ عائد بالبيت، فيُبعث إليه بَعَث، فإذا كانوا ببيداء من الأرض، خُسف بهم»، فقلت: يا رسول الله، فكيف بمن كان كارهاً؟ قال: «يُخسف معهم، ولكنه يبعث يوم القيامة على نيته»^(٤).

٣- وفي حديث أبي هريرة رضي الله عنه: أن النبي ﷺ قال: «لا تنتهي البعوث عن غزو بيت الله حتى يُخسف بجيش منهم»^(٥).

وهكذا صحَّ الحديث بغزو الكعبة، وبعقاب الله تعالى لمن يفعل ذلك، وأن الأرض تُخسف بهم، ولكنني أرى أن اتصال هذا المعنى بالآية، فيه بُعد، والله أعلم.

(١) أخرجه عبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، كما في «الدر المنثور» (١٢/ ٢٣٤) وانظر: «تفسير الطبري» (٣١٠/ ١٩).

(٢) البيداء: كل أرض ملساء ليس فيها شيء.

(٣) «صحيح مسلم» برقم: ٢٨٨٣ وابن ماجه (٤٠٦٣) و«المسند» (٤٠/ ٤٤) (٢٦٤٤٤) بإسناد صحيح على شرط مسلمن والحاكم (٤٢٩/ ٤) والحميدي (٢٨٦) وأبو يعلى (٧٠٤٣).

(٤) «صحيح مسلم» برقم (٢٨٨٢) وابن أبي شيبة (٤٣/ ١٥) والحاكم (٤٢٩/ ٤).

(٥) الحاكم (٤٣٠/ ٤) و«السلسلة الصحيحة» للألباني (٢٤٣٢).

الْعُودَةُ إِلَى الدُّنْيَا أَمْرٌ مُحَالٌ

٥٢- ﴿وَقَالُوا ءَامَنَّا بِهِۦ ۖ وَأَنَّىٰ لَهُمُ التَّنَاقُشُ^(١)﴾ مِنْ مَّكَانٍ بَعِيدٍ ﴿٥٢﴾

أي: وعندما يرى الكفار العذاب يوم القيامة يقولون: آمنا بالله وحده، لا رب غيره، ولا معبود بحق سواه، وآمنا بالدين الذي جاء به رسوله ﷺ، وصدقنا ما كُتِّبَ به كذبنا، وهذا معنى ﴿وَقَالُوا ءَامَنَّا بِهِۦ﴾ أي: قال الكفار عندما يَرَوُا العذاب في الآخرة: آمنا بالله وملائكته وكتبه ورسله، قال تعالى: ﴿وَأَنَّىٰ لَهُمُ التَّنَاقُشُ﴾ أي: العودة إلى الدنيا لتناول الإيمان الذي كذبوه، وهم الآن في الدار الآخرة.

والتناوش: هو التناول من بُعد، فقد ذهبت الدنيا وصارت بعيدة عنهم، وحيل بينهم وبين الإيمان، وصار العودة إليه أمراً محالاً، فكيف ينالون مرادهم.

والمكان البعيد هو الدنيا؟! وهم يتمنون العودة إليها، ولكن ذلك أمر بعيد المنال، قال تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ الْمُجْرِمُونَ نَاكِسُوا رُءُوسِهِمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ رَبَّنَا أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَارْجِعْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا إِنَّا مُوقِنُونَ﴾ ﴿١٧﴾ [السجدة].

والمعنى: كيف يتسنى لهم تناول الإيمان في الآخرة، وقد كفروا بالقرآن وبالرسول من قبل، وما الذي يصلهم به في الدنيا؟ فإظهار الإيمان في هذا الوقت لا ينفعهم، وقد كان قريباً منهم فضيعوا وقته.

ومحلُّ قبول الإيمان يكون في الدنيا، وهم الآن في الآخرة، وقد ذهبت الدنيا وأصبحت بعيدة المنال، لقد فات الأوان، فذهب الامتحان وظهرت النتائج، ولو عقلوا لعرفوا الله وعبدوه، واتبعوا سيد المرسلين قبل البعث والحساب. قال تعالى:

٥٣- ﴿وَقَدْ كَفَرُوا بِهِۦ مِنْ قَبْلُ وَيَقْذِفُونَ بِالْغَيْبِ مِنْ مَّكَانٍ بَعِيدٍ﴾ ﴿٥٣﴾

أي: وكيف يقولون آمنا بالله في هذا الوقت المتأخر، والحال أنهم كفروا به في وقت المهلة والتمكن، ولو أنهم آمنوا وقت المهلة لكان إيمانهم مقبولاً، وقد فات هذا الوقت

(١) قرأ أبو عمرو وشعبة وحزمة والكسائي وخلف بهزمة مضمومة بعد الألف في (التناوش) فيصير المد متصلاً، على أنه مصدر تناوش، وقرأ الباقون بواو مضمومة، مصدر تناوش.

﴿وَقَدْ كَانُوا يَدْعُونَ إِلَى السُّجُودِ وَهُمْ سَالِتُونَ﴾ [القلم: ٤٣].

إنهم كفروا بالله في الدنيا وكذبوا الرسل، وكانوا يَرْجُمُونَ بالغيب، وَيَزُمُونَ بالظن من جهة بعيدة عن إصابة الحق، فيقولون: لا بعث ولا حساب، ولا جنة ولا نار، وليس لهم في هذا مستند سوى ظنهم الباطل، فلا سبيل لإصابتهم الحق، كما لا سبيل للرامي إلى إصابة الغرض من مكان بعيد، هذا ما يشير إليه قوله تعالى: ﴿وَيَقْذِفُونَ بِالْغَيْبِ مَنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ﴾ وذلك حين أنكروا يوم البعث ولم يؤمنوا به، والعرب تقول لكل من تكلم بما لا يعرف: هو يقذف ويرجم بالغيب، كمن يرمي ولا يصيب، فهو يرمي من بعيد ليصيب الغرض ولكنه لا يصيب، فكذلك الباطل من المحال أن يغلب الحق أو يدفعه، وقد يكون له صولة في وقت الغفلة عن الحق، فإذا برز الحق قاوم الباطل وقمعه.

الشُّكُّ فِي الرِّسَالَةِ وَالْبَغْثُ يَحْرِمُ مِنْ دُخُولِ الْجَنَّةِ

٥٤- ﴿رَجِيلٌ^(١) يَنْهَمُ وَيَبْنَى مَا يَشْتَهُونَ كَمَا فُعِلَ بِأَشْيَاعِهِمْ مِنْ قَبْلَ إِتْمَمَ كَانُوا فِي شَكٍّ مَرِيبٍ﴾

وفي الختام بين سبحانه أن الكافرين بالله، والمكذبين برسالة محمد ﷺ محرومون تمامًا من دخول الجنة، ومن تحقيق كل ما يشتهون، فقد منعهم الكفر من الوصول إليه، وجاء يوم القيامة فاصلاً بينهم وبين ما يتمنونه، فقد حيل بينهم وبين التوبة والإيمان، ودخول الجنان، وحيل بينهم وبين العودة إلى الدنيا، كما حيل بينهم وبين نعيم الدنيا ولذاتها، من الملذات والشهوات والأموال والأولاد والجاه والسلطان والخدم والحشم، وجأؤا إلى الله فرادى كما خلقوا وتركوا كل شيء وراء ظهورهم، وحيل بينهم وبين الجنة ونعيمها يوم لقاء الله، فليس لهم مأوى في الآخرة إلا النار وبئس القرار، كما فعل الله بأمثالهم من كفار الأمم السابقة، فالأشياء هم المشابهون لهم في النحلة.

ومن الأشياء الذين حلَّ بهم العذاب في الدنيا ولم يُقبل منهم الإيمان عند معاينة العذاب: فرعون حين قال: ﴿ءَاْمَنْتُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا الَّذِي ءَاْمَنْتُ بِهِ بَنُو إِسْرَءِيلَ وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ [يونس: ٩٠].

(١) قرأ ابن عامر والكسائي ورويس بإشمام كسرة حاء (وحيل) للضم، والباقون بالكسرة الخالصة.

وقوم نوح حين رأوا الطوفان، وقوم يونس لما آمنوا وهم في الدنيا، فكشف الله عنهم العذاب. وقد كان هؤلاء المكذبون وهم في الدنيا في شك من أمر الرسل والبعث والحساب، لقد ملأت الريبة والقلق نفوسهم، فلذلك لم يؤمنوا.

وعن شكهم في قيام الساعة يقول تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَالسَّاعَةُ لَا رَيْبَ فِيهَا قُلْتُمْ مَا نَدْرِي مَا السَّاعَةُ إِنْ نَظُنُّ إِلَّا ظَنًّا وَمَا نَحْنُ بِمُتَّقِينَ﴾ (٣٧) [الجاثية].

قال قتادة: إياكم والشك والريبة، فإنه من مات على شك بُعث عليه، ومن مات على يقين بُعث عليه^(١).

وشئ الله في خلقه لا تتخلف، فالإيمان عند الموت وعند رؤية العذاب لا ينفع، قال تعالى: ﴿فَلَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا قَالُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَحَدُّهُ وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِ مُشْرِكِينَ﴾ (٨٤) ﴿فَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ مَن يَنْفَعُهُمْ إِيمَانُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا سَلَتْ إِلَهُ أَلَّتِي قَدْ خَلَتْ فِي عِبَادِهِ وَخَسِرَ هُنَاكَ الْكَافِرُونَ﴾ (٨٥) [غافر].

وتمني العودة إلى الدنيا لإدراك ما ينجي من النار بالنسبة للكافر لا ينفع، وقد جاء في ذلك آيات كثيرة، منها قوله تعالى على سبيل الحكاية:

﴿فَقَالُوا يَلَيْسَ نَرُدُّ وَلَا نَكْذِبُ إِيَّاكَ رَبَّنَا وَنَكُونُ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ (٧٧) قال تعالى: ﴿بَلْ بَدَأَ لَهُمْ مَا كَانُوا يُخْفُونَ مِنْ قَبْلُ وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا هُوَ عَنْهُمْ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾ (٧٨) [الأنعام].

وقال جل شأنه أيضًا: ﴿حَقَّقْ إِذَا جَاءَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ارْجِعُونِ﴾ (٩٩) ﴿لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحًا فِيمَا تَرَكْتُ كَلَّا إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَائِلُهَا وَمِنْ وَرَائِهِمْ بَرْزَخٌ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾ (١٠٠) [المؤمنون].

وقال سبحانه حكاية عن أهل النار: ﴿رَبَّنَا أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ﴾ [فاطر].

وقال عنهم أيضًا: ﴿رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْهَا فَإِنْ عُدْنَا فَإِنَّا ظَالِمُونَ﴾ (١١٧) [المؤمنون: ١٠٧].

تم تفسير (سورة سبأ) والله الحمد والمنة

(١) أخرجه عبد بن حميد، وابن أبي حاتم كما في «الدر المنثور» (٢٤٨/١٢).

تَفْسِيرُ سُورَةِ فَاطِرٍ (٣٥)

مُقَدِّمَةُ السُّورَةِ

سورة (فاطر) هي السورة الخامسة والثلاثون في ترتيب المصحف، والثالثة والأربعون في ترتيب النزول، نزلت بعد سورة (الفرقان)، وقبل سورة (مريم).

وعدد آياتها خمس وأربعون آية في العدد الكوفي والمكي والمدني الأول، وست وأربعون آية في العدد المدني الأخير والدمشقي، وأربع وأربعون آية في العدد الحمصي. وهي تسع مئة وسبعون كلمة، وثلاثة آلاف ومئة وثلاثون حرفاً.

وتُسمَّى سورة (فاطر) لوجود لفظ: ﴿فَاطِرٌ﴾ في أولها دون غيرها من السور الأخرى. وفي صحيح البخاري، وجامع الترمذي، أنها تُسمَّى (سورة الملائكة) لِذِكْرِ وصف الملائكة فيها دون غيرها.

وهي سورة مكية نزلت قبل الهجرة، وهي آخر سورة مفتحة بلفظ ﴿الْحَمْدُ﴾ من خمس سور في القرآن هي: الفاتحة، والأنعام، والكهف، وسبأ، وفاطر.

أغراض السورة:

(أ) وقد اشتملت هذه السورة على الدعوة إلى توحيد الله تعالى، وإقامة البراهين على وحدانيته سبحانه، وهدم قواعد الشرك، جاء ذلك في الآيات الدالة على قدرة الله تعالى، مثل قوله تعالى:

١- ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ جَاعِلِ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا أُولَى أَجْنَحٍ﴾ [١].

٢- وقوله ﷻ: ﴿وَاللَّهُ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيحَ فَتَنِيْرُ سَحَابًا﴾ [٩].

٣- وقوله سبحانه: ﴿وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ جَعَلَكُمْ أَزْوَاجًا وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنْثَى وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِ وَمَا يُعَمِّرُ مِنْ مَعْمَرٍ وَلَا يَنْقُصُ مِنْ عُمُرِهِ إِلَّا فِي كِتَابٍ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ﴾ [١١].

٤- وقوله تعالى: ﴿وَمَا يَسْتَوِي الْبَحْرَانِ هَذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ سَائِغٌ شَرَابُهُ وَهَذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ﴾ [١٢].

٥- وقوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ مَا يَمْلِكُونَ مِنْ قِطْمِيرٍ﴾ [١٣].

٦- وقوله سبحانه: ﴿إِنْ تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا دُعَاءَكُمْ وَلَوْ سَمِعُوا مَا اسْتَجَابُوا لَكُمْ وَيَوْمَ الْقِيَمَةِ يَكْفُرُونَ بَشِرِكِكُمْ﴾ [١٤].

٧- وقوله جلَّ شأنه: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ ثَمَرَاتٍ مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهَا﴾ [٢٧].

وقد أخصت السورة كثيراً من نعم الله تعالى وفضله على خلقه، وبيّنت أن الله تعالى هو المعطي المانع، لا مانع لما أعطى ولا مُعطي لما منع ﴿مَا يَفْتَحُ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِنْ رَحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا وَمَا يُمْسِكُ فَلَا مُرْسِلَ لَهُ مِنْ بَعْدِهِ﴾ [٢].

فالخير كله منبعه رب العالمين، وما عدا ذلك أصفار على الشمال، وعدم الاعتراف بهذه النعم مصدر من مصادر الشرك والإلحاد.

إن التفكير في ذات الله تعالى، لا يصل به العبد إلى نتيجة، ولا سبيل إلى معرفة الله تعالى إلا بالنظر والتأمل في المُلْك والملكوت، ومن ذلك خلق الإنسان وموته، وجعلُ النبات والزرع مختلف الطعم والشكل والرائحة، ومن خلق الله تعالى: الدواب والأنعام، والشجر والجبال، وطبقات الأرض.

وهكذا تتحدث السورة عن خلق: الملائكة والإنس والجن، ونزول الغيث، وخروج الزرع والفواكه والثمار، وتعاقب الليل والنهار، وأشكال الجبال وتنوعها ما بين أبيض وأسود وأحمر، وكلها ناطقة بعظمة الواحد القهار.

ولذا: فإن السورة تحدثت عن الفارق الكبير بين: المؤمن والكافر، والظلمات والنور، والظل والحرور... فالإيمان بالله تعالى وليد عقل باحث متأمل، والإيمان التقليدي ليس له قرار في قلب المؤمن، بخلاف الإيمان الناتج عن عقل وتفكير وروية، ومن هنا فإن الذين ورثوا الكتاب، كان منهم: الظالم لنفسه، ومنهم المقتصد، ومنهم السابق بالخيريات بإذن الله.

(ب) كما اشتملت السورة على الرسالة والوحي (ميراث الأمة) في مثل.

١- قوله تعالى: ﴿وَإِنْ يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَتْ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِكَ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ﴾ [٤].

٢- وقوله سبحانه: ﴿إِنْ أَنْتَ إِلَّا نَذِيرٌ﴾ [٢٣] إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَإِنْ مِنْ أُمَّةٍ إِلَّا

خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ ﴿٢٤﴾

٣- وقوله ﷻ: ﴿وَإِنْ يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ وَبِالزُّبُرِ وَبِالْكِتَابِ الْمُنِيرِ ﴿٢٥﴾﴾.

٤- وقوله سبحانه: ﴿وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَابِ هُوَ الْحَقُّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ [٣١].

٥- وقوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا﴾ [٣٢].

(ج) واشتملت السورة على اليوم الآخر وما فيه من بعث وحساب، وجنة ونار، في مثل:

١- قوله تعالى: ﴿يَأْتِيهَا النَّاسُ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ ﴿٥﴾﴾.

٢- وقوله سبحانه: ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ ﴿٧﴾﴾.

٣- وقوله تعالى: ﴿جَنَّتٌ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِنْ ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا﴾ [٣٣].

٤- وقوله سبحانه: ﴿الَّذِي أَحْلَاكَ دَارَ الْمَقَامَةِ مِنْ فَضْلِهِ لَا يَمَسُّنَا فِيهَا نُصَبٌ وَلَا يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوبٌ ﴿٣٥﴾﴾.

٥- وقوله جلَّ شأنه: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ نَارُ جَهَنَّمَ لَا يُقْضَىٰ عَلَيْهِمْ فِيمَوْنُوا وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ مِنْ عَذَابِهَا﴾ [٣٦].

وقد رفض المكذبون عقيدة التوحيد والبعث، والإيمان بخاتم الرسل ﷺ، ولقي الرسول ﷺ من قومه عنادًا وتكذيبًا وجدلاً وخصومة، فواساه ربه مرتين في هذه السورة، ببيان أن الرسل قبله قد كُذِّبوا وأوذوا، وأن الله تعالى قد يُمهِّل العباد أمدًا طويلًا حتى يَضْحُو النَّائم، ويفيق الغافل، ولكنه لا يهملهم، وهو سبحانه قادر على مَحْوِ الْعَالَمِ بما فيه ومن فيه، ولكنه سبحانه يؤخرهم ليوم تشخص فيه الأبصار.

وسورة فاطر، تشبه سورة النحل في إحصاء عدد كثير من النعم، وبيان فضل الله تعالى على خلقه.

وقد خاطبت السورة الناس بصفة عامة ثلاث مرات:

١- تسألهم في أول نداء عن مصدر هذه النعم:

﴿يَأْتِيهَا النَّاسُ أَذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ هَلْ مِنْ خَلْقٍ غَيْرِ اللَّهِ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ﴾ [٣].

٢- وتحذره في المرة الثانية من إغواء الشيطان لهم: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِاللَّهِ الْغُرُورُ ۝ إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُفْرٌ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا ۖ﴾ [٥، ٦].

٣- ويأتي النداء الثالث لبيان فقر الناس إلى ربهم وغناه عنهم: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَنْتُمُ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ ۝﴾.

وقد خُتِمت السورة ببيان سعة رحمة الله بخلقه: ﴿وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِمَا كَسَبُوا مَا تَرَكَ عَلَى ظَهْرِهَا مِنْ دَابَّةٍ وَلَكِنْ يُؤَخِّرُهُمْ إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى ۖ﴾ [٤٥].



تَفْسِيرُ السُّورَةِ

خَمْسَةُ أَدِلَّةٍ عَلَى وَحْدَانِيَّةِ اللَّهِ تَعَالَى وَعَظِيمِ قُدْرَتِهِ

الدَّلِيلُ الْأَوَّلُ: ابْتِدَاءُ الْخَلْقِ وَمِنْهُ الْمَلَائِكَةُ

١- ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ جَاعِلِ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا أُولَى أَجْنَحٍ مثنى وثلاث وربع يزيد في الخلق ما يشاء إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾

افتُتِحَت سورة فاطر ببيان أن الله تعالى هو المستحق للحمد المطلق، والثناء التام الكامل، والذكر الحسن، المشمول بالتعظيم والتبجيل. وإسناد الحمد لله تعالى من الباقيات الصالحات.

وقد أقام سبحانه في هذه السورة خمسة أدلة على تفرد الله تعالى بالألوهية، وهذه الأدلة تتلخص في:

١- خلق هذا الكون ومنه الملائكة - كما في هذه الآية.

٢- تصريف الأحوال بين السماء والأرض، كما في الآية التاسعة.

٣- خلق الإنسان من تراب، كما في الآية الحادية عشرة.

٤- مشهد البحرين: العذب والملح، وما فيهما من نعم، كما في الآية الثانية عشرة.

٥- تصريف الليل والنهار بالطول والقصر، كما في الآية الثالثة عشرة.

وافتح السورة بـ ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ يُؤْذَنُ بِأَنْ صِفَات عَظِيمَةٍ لِلَّهِ تَعَالَى سَتُذَكَّرُ فِي هَذِهِ السُّورَةِ.

والله تعالى يَحْمَدُ نَفْسَهُ بِنَفْسِهِ؛ لِيَعْلَمُنَا كَيْفَ نَحْمَدُهُ سُبْحَانَهُ، وَنُثْنِي عَلَيْهِ الثَّناءَ الْكامل، ويمدح نفسه على خلق هذا الكون، لِثُنَى عَلَيْهِ وَنِعْظُمِهِ وَنَقْدَسِهِ وَنُجْدِهِ، وَفِي ذَلِكَ دَلِيلٌ عَلَى كَمالِ قُدْرَتِهِ تَعَالَى وَبِدْيَعِ حِكْمَتِهِ، وَسَعَةِ مُلْكِهِ، وَإِحاطَةِ عِلْمِهِ، وَعَمُومِ رَحْمَتِهِ.

وقد أعقب هذا الحمد صفتان من صفات الأفعال لله تعالى:

الصفة الأولى: خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ، وإبداعهما على غير مثال سبق، ويُشْعِرُ ذَلِكَ

خلق ما فيهما وما بينهما من العوالم، بما يشمل الكون كله، وثبَّه سبحانه بالخلق الأول؛ لِيُسْتَدَلَّ به على أن القادر على البدء قادر على الإعادة، فهو سبحانه ﴿فَاطِرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ والفطرُ: هو الخلق السريع، والإبداع الذي لا نظير له.

قال ابن عباس رضي الله عنه: كنت لا أدري ما فاطر السموات والأرض، حتى أتاني أعرابيان يختصمان في بئر، فقال أحدهما لصاحبه: أنا فطرْتُها، أي: أنا بدأتها وأنشأتها^(١).

ومثله قوله تعالى: ﴿فَاطِرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ [الأنعام: ١٤].

وقوله سبحانه: ﴿وَعَلَّمَنِي مِنْ تَأْوِيلِ الْآيَاتِ فَاطِرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ [يوسف: ١٠١].

وكلها بمعنى: خالق ومنشئ ومبدع، وهو وصف سبق به القرآن الكريم.

ولما ذكر - سبحانه - خلق السموات والأرض، أتبع ذلك بما يتضمن تدبير أمور هذا الخلق بواسطة ملائكة الله الكرام:

الصفة الأخرى: أنه سبحانه ﴿جَاعِلِ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا﴾ أي: جاعل الملائكة وسائط بينه وبين أنبيائه، والصالحين من عباده، يُبلغون إليهم رسالته بالوحي والإلهام والرؤيا الصادقة، ويوصلون إليهم آثار قدرته من الأمطار والرياح وغيرهما، والملائكة هم أفضل خلق الله في السموات وأشرْفُهم، وهم رسل الله بالوحي المنزل على من يختاره من عباده في الأرض، وهذه الرسالة هي أعظم شيء وأجلُّه، وهي التي تصل ما بين السماء والأرض؛ لتبليغ أمر الله تعالى ونهيه، وليس كل الملائكة رُسُلًا، بل بعضهم، ولكن الله تعالى لم يستثن منهم أحدًا في الآية، لبيان أنهم منقادون جميعًا لأمر ربهم، فهم ﴿لَا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ [التحريم].

وصف الملائكة بأنهم أولو أجنحة:

سبق وصف الملائكة من ناحية طبيعتهم ووظيفتهم في قوله تعالى: ﴿وَمَنْ عِنْدُ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ وَلَا يَسْتَحْسِرُونَ﴾ ١٩ ﴿يُسَبِّحُونَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ﴾ ٢٠ [الأنبياء].

(١) رواه البيهقي في «شعب الإيمان» برقم (١٦٨٢) من طريق يحيى بن سعيد عن سفيان ورواه أبو عبيد في

ويأتي هنا وصف وحيد في القرآن الكريم للملائكة، يتعلق بتكوينهم الخلقي، ويشير إلى قوتهم وسرعتهم في تنفيذ ما أمروا به من تدبير أوامر الله تعالى القدريّة، في قوله سبحانه: ﴿أُولَئِكَ أَجْنَحٌ مِّثْنَىٰ وَتِلْكَ وَرَبْعٌ﴾ أي: إن الأجنحة ذاتية لهم، وهي من مقومات خلقتهم، يطيرون بها فيسرعون في تنفيذ ما أمرهم الله به.

والأجنحة جمع جناح، وهو ما يكون للطائر في موضع اليد للإنسان، وهم يخترقون بها الآفاق، في السموات صعودًا ونزولًا، ولا يعلم حقيقتها إلا الله، وهؤلاء الملائكة المكرمون ذوو أجنحة عديدة مصفوفة، منهم من له جناحان في الصف الواحد، ومنهم من له ثلاثة، ومنهم من له أربعة، ومنهم من له ست مئة جناح، وغير ذلك.

والآية تشير إلى كثرة الأجنحة لا إلى حصرها.

والملائكة تطير بهذه الأجنحة لتبليغ ما أمر الله به إلى رسله، فهم الواسطة بين الله تعالى وأنبيائه لتنفيذ مراد الله تعالى في مخلوقاته، فمنهم ملائكة للموت، وآخرون للحياة والولادة، وغيرهم للإحصاء والرقابة، . . . وقدراتهم متفاوتة تفاوتًا بعيدًا، والأجنحة تُعدُّ في الآية باثنين وثلاثة في كل صف من صفوف الأجنحة، وتُعدُّ في الأحاديث بالِمئات والألوف، كما جاء في الحديث: عن ابن مسعود رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم رأى جبريل ليلة الإسراء والعروج وله ست مئة جناح^(١).

والمراد بـ﴿مِثْنَىٰ وَتِلْكَ وَرَبْعٌ﴾ تكرار الأجنحة، لا عددها، بمعنى أنهم: ذوو أجنحة بعضها مصفوفة جناحين جناحين في الصف، وبعضها ثلاثة ثلاثة، وبعضها أربعة أربعة، وتتعدد الصفوف، فتبلغ أعدادًا كثيرة.

روى الزهري بسنده، أن جبريل عليه السلام قال للنبي صلى الله عليه وسلم: يا محمد، كيف لو رأيت إسرافيل، إن له لاثني عشر ألف جناح، منها جناح بالشرق، وجناح بالمغرب، وإن العرش لعلّى كاهله^(٢). ولو كُشف لنا الحجاب لرأينا العجب العجيب.

والملائكة أجسام لطيفة نورانية أخيار، ذووا قوة عظيمة، ومن خصائصهم القدرة على

(١) من حديث ابن مسعود في البخاري (٣٢٣٢، ٤٨٥٦) ومسلم (١٧٤).

(٢) ابن عاشور (٢٢/٢٥٠).

التشكُّل بأشكال مختلفة^(١).

وقد يكون التشكُّل في انقباض وانكماش لإعطاء صورة جسمانية، وقد ثبت تشكُّل جبريل عليه السلام في صورة (دحية الكلبي)، وثبت تشكُّله في صورة رجل لا يُرى عليه أثر السفر ولا يعرفه أحد، كما في حديث عمر بن الخطاب عليه السلام^(٢).

وكما ثبت أن النبي ﷺ رأى جبريل في غار حراء، وهو على كرسي بين السماء والأرض في صورته الحقيقية^(٣).

ورأى كثير من أصحاب رسول الله يوم بدر خُلُقًا لا يعرفونهم، على خيل يقاتلون معهم...، وبَيَّنَت السنة أنهم الملائكة.

ثم قال تعالى: ﴿يَزِيدُ فِي الْخَلْقِ مَا يَشَاءُ﴾ أي: يزيد في الأجنحة، ويزيد في خلق كل شيء ما يشاء أن يزيده من الأمور المختلفة، وفق مقتضى الحكمة والتدبير، من طول القامة وقصرها، وتمام الأعضاء وتناسقها، واعتدال الصورة، وقوة البطش، وحصافة العقل، وجزالة الرأي، وسماحة النفس، وذلاقة اللسان، ولباقة الكلام، وحُسن التأني، وما أشبه ذلك مما لا يحيط به الوصف^(٤).

فالمراد بالخلق: الخلق كلهم، بما يشمل الملائكة وغيرهم.

﴿إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ لا يُعجزه شيء، ولا يستعصي عليه أمر، له الأمر والقوة والسلطان، لا يمتنع عليه فعل شيء أرادته، ومن ذلك زيادة بعض المخلوقات على بعض. وهكذا وصف الله تعالى نفسه في هذه الآية بصفتين جليلتين تَحْمِلُ كُلُّهُمَا صفة القدرة وكمال الإنعام:

الأولى: أنه خالق السموات والأرض ومبدعهما على غير مثال يُحتذى، ولا قانون يُتَمَمَّى، وفي ذلك دليل على كمال قدرته وشمول نعمته، فهو الذي رفع السماء بغير عمد،

(١) كما جاء في «صحيح مسلم» برقم (٨) عن عمر بن الخطاب عليه السلام.

(٢) عن حديث الإسلام والإيمان والإحسان السابق.

(٣) من حديث جابر بن عبد الله في «صحيح البخاري» برقم (٤)، (٣٢٣٨، ٤٩٢٢، ٤٩٢٣) و«صحيح مسلم» (١٦١).

(٤) يُنظَر: «تفسير الكشاف» (٥٩٥/٣).

وزيّنها بالكواكب والنجوم، وهو الذي بسط الأرض وأودعها الأرزاق والأقوات، وبثَّ فيها البحار والأنهار، وفجَّر فيها العيون والآبار.

الأخرى: اختيار الملائكة ليكونوا رسلًا بين الله وأنبيائه، وقد جعل الله لهم أشكالاً عجبية، وصورًا غريبة، وأجنحة عديدة، ف سبحان الله ما أعظم خلقه، وما أبدع صنعه!!

الْعَطَاءُ وَالْمَنْعُ بِيَدِ اللَّهِ وَحْدَهُ

٢- ﴿مَا يَفْتَحُ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِنْ رَحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا وَمَا يُمْسِكُ فَلَا مُرْسِلَ لَهُ مِنْ بَعْدِهِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾
بعد أن وصف الله تعالى نفسه بأنه فاطر السموات والأرض، وأنه جاعل الملائكة رسلًا، وصف نفسه في هذه الآية وصفًا ثالثًا، بأنه سبحانه منفرد بالتدبير والعطاء والمنع، فاتح الرحمة للناس، وممسكها عنهم، فلا يقدر أحد على إمساك ما فتحه، ولا على فتح ما أمسكه، كما قال تعالى عن الكافر: ﴿فَمَنْ يَهْدِيهِ مِنْ بَعْدِ اللَّهِ﴾ [الجاثية: ٢٣].

وقوله سبحانه: ﴿فَأَيُّ حَدِيثٍ بَعْدَ اللَّهِ وَآيَاتِهِ يُؤْمِنُونَ﴾ [الجاثية: ٦].

والفتح والإمساك بمعنى: الإعطاء والمنع، فهو سبحانه الذي يضر وينفع، ويعطي ويمنع. وفي الحديث: عن أبي سعيد والمغيرة رضي الله عنهما، أن النبي ﷺ كان يقول: «اللهم لا مانع لما أعطيت، ولا معطي لما منعت، ولا ينفع ذا الجد منك الجد»^(١).

أي: لا ينفع الغنى غناه، وإنما ينفعه العمل الصالح.

ومن نعم الله تعالى التي يرحم بها عباده: الصحة، والأمن، والعلم، والحكمة، والرزق، وإرسال الرُّسل، وإنزال الكتب... إلخ، ورحمة الله تعالى لا تُمنع دون طالب لها في أي زمان وفي أي مكان، ولا في مختلف الأحوال.

هذه الرحمة وجدها إبراهيم في النار، ووجدها يوسف في الجُبِّ والسجن، ووجدها يونس في بطن الحوت وهو في ظلمات ثلاث، ووجدها موسى في اليَمِّ وفي قصر فرعون، ووجدها أصحاب الكهف في الكهف، ووجدها محمد ﷺ وصاحبه في الغار، وصلوات

(١) يُنظر: البخاري برقم (٨٤٤) ومسلم برقم (٤٧٧، ٥٩٣) من حديث المغيرة بن شعبة وأبي سعيد الخدري ومعاوية رضي الله عنهما «المسند» (٢٥٤/٤) برقم (١٦٩٢٩، ١٨٢٣٣) والشافعي في «الأم» (١/١١٢).

الله وسلامه على جميع رسله وأنبيائه .

وهكذا تأتي الرحمة، ويأتي الفرج بعد الضيق، لكل من يفتح الله عليه بها .

﴿مَا يَفْتَحُ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِنْ رَحْمَةٍ﴾ كالنصر على العدو، والعلم الغزير، والرزق الواسع ﴿فَلَا تُمَسِّكُ لَهُمْ﴾ أي: لا أحد يقدر أن يمسك هذه الرحمة، فالفتح والإمساك هما العطاء والمنع، والله تعالى هو الذي يضر وينفع، ويعطي ويمنع ﴿وَمَا يُمَسِّكُ﴾ من هذه الرحمة ﴿فَلَا مُرْسِلَ لَهُ مِنْ بَعْدِهِ﴾ أي: لا أحد يقدر أن يرسلها بعد الله تعالى، فهو الملك الوهاب ﴿وَهُوَ الْعَزِيزُ الْقَاهِرُ لِكُلِّ شَيْءٍ﴾ ﴿الْحَكِيمُ﴾ في صنعه، الذي يرسل الرحمة إلى خلقه وفق حكمته، ويضع الأمور في مواضعها .

أخرج ابن المنذر عن عامر بن عبد قيس قال: أربع آيات من كتاب الله إذا قرأتهن فما أبالي ما أصبح عليه وما أمسي، وهي قوله تعالى:

١- ﴿مَا يَفْتَحُ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِنْ رَحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهُ﴾ وَمَا يُمَسِّكُ فَلَا مُرْسِلَ لَهُ مِنْ بَعْدِهِ .

٢- وقوله: ﴿وَإِنْ يَمَسُّكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ وَإِنْ يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَادَّ لِفَضْلِهِ﴾ [يونس: ١٠٧] .

٣- وقوله: ﴿سَيَجْعَلُ اللَّهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسْرًا﴾ [الطلاق: ٧] .

٤- وقوله ﴿وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا﴾^(١) [هود: ٦] .

وفي وصية النبي ﷺ لابن عباس ؓ: «يا غلام، إني أعلمك كلمات: احفظ الله يحفظك، احفظ الله تجده تجاهك، إذا سألت فاسأل الله، وإذا استعنت فاستعن بالله، واعلم أن الأمة لو اجتمعت على أن ينفعوك بشيء لم ينفعوك إلا بشيء قد كتبه الله لك، وإن اجتمعت على أن يضروك بشيء لم يضروك إلا بشيء قد كتبه الله عليك، رفعت الأقلام وجفت الصحف»^(٢) .

(١) «الدر المنثور» (١٢/٢٥٣) .

(٢) يُنظر: الحديث في «صحيح سنن الترمذي» برقم (٢٠٤٣) وقال الترمذي (٢٥١٦) حسن صحيح وفي «المسند» بتصحیح أحمد شاكر (٢٣٣/٤) برقم (٢٦٦٩)، وإسناده قوي، وأخرجه أبو يعلى (٢٥٥٦) وابن أبي عاصم في السنة (٣١٦) والطبراني (١٢٩٨٨) .

ثَلَاثَةُ نِدَاءَاتٍ لِلنَّاسِ فِي السُّورَةِ:

النِّدَاءُ الْأَوَّلُ: وَجُوبُ شُكْرِ الْمُنْعِمِ سُبْحَانَهُ

٣- ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اذْكُرُوا نِعْمَتَ (١) اللَّهِ عَلَيْكُمْ هَلْ مِنْ خَلْقٍ غَيْرِ (٢) اللَّهِ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَأَنْتُمْ تُؤْفِكُونَ﴾

ولما ذكر سبحانه رحمته التي أنعم بها على الناس، وجَّه النداء الأول للناس عامة في هذه السورة، فأمرهم أن يتذكر كلُّ منهم ما أنعم الله به عليه على وجه الخصوص.

وتذكُّر النعمة يعني: حفظها وعدم كفرها والقيام بحقوقها، والاعتراف بها، وعدم إنكارها وجحودها، ويعني أيضاً: طاعة من أنعم بها وامتنال أمره تعالى واجتناب نهيه، فذكر النعمة يشمل اعتراف القلب بها، وثناء اللسان عليها، وانقياد الجوارح لها، وذكر النعم موجب لشكرها وعدم الاستعانة بها على معصية الله تعالى.

وهذا يعني: حمد الله تعالى وشكره عليها بقلبه ولسانه، وعمل الجوارح لها.

وليس شكر النعمة خاصاً باللسان، بل لا بد من امتثال الأوامر واجتناب النواهي، كما قال عمر رضي الله عنه: أفضل من ذكر الله باللسان، ذكر الله عند أمره ونهيه، أي: العمل بالأوامر والنواهي. فيا أيها الناس: اشكروا ربكم على نعمه التي لا تعدُّ ولا تحصى، اشكروها بألستكم وقلوبكم وجوارحكم، واستعملوها فيما أمركم الله به.

ثم ذكر - جل شأنه - أصول النعم التي تستوجب الشكر، فهو سبحانه الخالق الرازق، يرزقكم من السماء بالمطر، ويرزقكم من الأرض بالنبات والمعادن، والخلق والرزق وغيرهما، من أدلة توحيد الله سبحانه.

(١) وقف ابن كثير وأبو عمرو والكسائي ويعقوب بالهاء على (نعمت) ووقف الباقر بالتاء وفق رسم المصحف، وأمالها الكسائي وقفاً.

(٢) قرأ حمزة والكسائي وأبو جعفر وخلف بجر (غير) نعت لخالق على اللفظ، والباقر بالرفع نعت على المحل، و (من) مؤكدة، وخالق مبتدأ، والجملة خبر يرزقكم، وقرأ أبو جعفر بإخفاء نون (من) عند خاء (خالق) وإخفاء التنوين عند غين (غير).

ولما كان من المعلوم أنه لا يخلق ولا يرزق إلا الله، نتج عن ذلك أنه لا يعبد إلا الله، فلا تصرفوا العبادة لغيره، فهو المستحق لها دون سواء، فكيف تشركون معه ما لا يَخْلُق ولا يَرْزُق؟ وكيف تُصَرِّفون بعد هذا البيان عن عبادته وتوحيده إلى عبادة غيره مما لا يملك ضراً ولا نفعاً، ولا خلقاً ولا رزقاً؟!

وهذا النداء فيه تعجب من انصراف بعض الناس عن دلائل الوجدانية وصرف العبادة لغير الله.

لَا تَحْزَنَ - أَيُّهَا الرَّسُولُ - عَلَى مَنْ لَمْ يَشْكُرْ نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْهِ

٤- ﴿وَإِنْ يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَتْ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِكَ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ﴾ (١)

انتقل سبحانه من مخاطبة الناس إلى مخاطبة الرسول ﷺ؛ ليبين له أن الكفار إذا انصرفوا عن توحيد الله تعالى، وانصرفوا عن شكر نعمة الله تعالى عليهم بإرسالك إليهم، واستمروا على تكذيبهم لك، وعدم قبول دعوتك، فلا عليك من تكذيبهم، فلست بدعاً من الرسل، فلك أسوة بمن قبلك من المرسلين، فقد كَذَّبَ أقوام آخرون رسل الله قبلك، فلا تأسَ ولا تحزن، واصبر كما صبروا ﴿وَإِنْ يُكَذِّبُوكَ﴾ فيما بَلَّغْتَهُمْ به من الحق المبين ﴿فَقَدْ كَذَّبَتْ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِكَ﴾ من الأنبياء الذين سبقوك فصبروا على تكذيبهم، قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَذَّبَتْ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِكَ فَصَبَرُوا عَلَى مَا كُذِّبُوا وَأَوْدُوا حَتَّىٰ أَنَّهُمْ نَصَرْنَا﴾ [الأنعام: ٣٤].

وقال سبحانه: ﴿مَا يُقَالُ لَكَ إِلَّا مَا قَدْ قِيلَ لِلرُّسُلِ مِنْ قَبْلِكَ﴾ [فصلت: ٤٣].

فهذه سُنَّةُ الله في الأنبياء قبلك، فلك فيهم أسوة، ولا بد أن ينصرك الله على أعدائك.

﴿وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ﴾ وتصير إليه أحوال الخلائق في الآخرة، فيجازي كلًّا بما يستحق، وفي هذا تسلية للنبي ﷺ ولكل داعية إلى الله على بصيرة.

النداء الثاني للناس في السورة: وَجُوبُ الْعَمَلِ لِلدَّارِ الْبَاقِيَةِ

٥- ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِاللَّهِ الْغَرُورُ﴾

ويأتي النداء الثاني للناس كافة في هذه السورة، لِيُعْذِرَهُمْ وَيُنْذِرَهُمْ بتحقيق وعد الله

(١) قرأ ابن عامر وحزمة والكسائي ويعقوب وخلف، بالبناء للفاعل في (ترجع) والباقون بالبناء للمفعول.

تعالى الذي توعد به المكذبين لرسله، والمكذبين بالبعث والنشور والحساب والجزاء، فيبين لهم هذا النداء أن وعد الله واقع لا يتخلف، وأن الساعة آتية لا ريب فيها، وأن الناس محاسبون ومجزيون على أعمالهم إن خيراً فخير، وإن شراً فشر، وذلك بعد أن أقام لهم دلائل التوحيد وصدق النبوة.

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ﴾ بالبعث والحساب والثواب والعقاب ﴿حَقٌّ﴾ ثابت لا شك فيه، فهو آت لا محالة، بلا ريب، وقد دل على ذلك الأدلة السمعية والبراهين العقلية، ويجب عليكم أن تستعدوا له بالإيمان والعمل الصالح ﴿فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا﴾ أي: لا تخدعنكم الدنيا بشهواتها وزينتها ومطالبها، فتصرفكم عما خلقتكم لأجله، فإنها إلى زوال وفناء، ولا تشغلكم عن أداء فروض الله وما أمركم به أو نهاكم عنه، ولا تلهيكم الدنيا عن الآخرة.

﴿وَلَا يَغُرَّنَّكُمُ بِاللَّهِ الْغَرُورُ﴾ الغرور بفتح الغين: هو الشيطان، أي: لا يخدعنكم الشيطان عن طاعة ربكم، فيمنّيكم بالمغفرة مع الإصرار على المعاصي، ويطمعكم في عفو الله تعالى بدون عمل صالح، قال تعالى: ﴿وَلَكِنَّكُمْ فَتَنَّا أَنْفُسَكُمْ وَتَرَبَّصْتُ وَأَرْبَبْتُ وَعَزَّيْتُكُمْ الْأَمَانِي حَتَّى جَاءَ أَمْرُ اللَّهِ وَغَزَّيْتُكُمْ بِاللَّهِ الْغُرُورُ﴾ [الحديد: ١٤].

التَّحْذِيرُ مِنَ عَدَاوَةِ الشَّيْطَانِ

٦- ﴿إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا إِنَّمَا يَدْعُو حِزْبَهُ لِيَكُونُوا مِنْ أَصْحَابِ السَّعِيرِ﴾

بين سبحانه في هذه الآية عداوة الشيطان لابن آدم، وهذه العداوة موجودة في جبلة الشيطان، فقد أخذ على عاتقه إيقاع الناس في الفساد، وفي أسوأ العواقب بعد تحسينها وتزيينها ﴿قَالَ فِيمَا أُغْوِيَنِي لِأَفُذِّنَّ لَهُمْ سِرَّكَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ (١١) ثُمَّ لَا تَبْنِيَهُمْ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَنِهِمْ وَعَنْ شَمَائِلِهِمْ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ ﴿٧﴾ [الأعراف].

فلا تهملوا محاربته في كل وقت، فإنه يراكم وأنتم لا ترونه، وهو يترصدكم دائماً لتقعوا في حباله، وتكونوا من حزبه أصحاب السعير.

واستثنى من ذلك أقوياء الإيمان ﴿قَالَ فِعْزَتِكَ لِأَغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ (٨٧) إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمْ الْمُتْلِحِينَ ﴿٨٨﴾ [ص].

وكثيراً ما حذرنا الله تعالى من فتنته، قال تعالى ﴿وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ﴾ (١٨) إِنَّمَا يَأْمُرُكُم بِالسُّوءِ وَالْفَحْشَاءِ وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿١٩﴾ [البقرة]

وقال تعالى: ﴿يَبْنِيْءَ آدَمَ لَا يَفْنَىٰكُمْ الشَّيْطَانُ كَمَا أَخْرَجَ أَبَوَيْكُم مِّنَ الْجَنَّةِ﴾ [الأعراف: ٢٧].

وفي الحديث عن أنس ؓ أن النبي ﷺ قال: «إن الشيطان يجري من ابن آدم مجرى الدم»^(١).

ولا يَسْلَمُ من وساوس الشيطان عدوٌ له ولا صديق، فالشيطان يضرر العداوة لأوليائه ويأنس بهم؛ لأنه يقضي بهم وطّره ويُنفذ فيهم غريزته، وهو يتفر ويغتاظ من مقاومتهم له، إلى درجة الفرار من عظماء الأمة، فالنبي ﷺ يقول عن نفسه: «إن الله قد أعانني على شيطاني حتى ملكته فلا يأمرني إلا بخير».

ويقول عن عمر ؓ: «ما سلك عمر فجاً إلا وسلك الشيطان فجاً غيره»^(٢).

وهناك أحوال لا مجال فيها للشيطان ففي حديث أبي هريرة ؓ عن النبي ﷺ: «إذا نودي للصلاة أدبر الشيطان وله ضراط»^(٣).

«ولم ير الشيطان أخساً ولا أحقر منه في يوم عرفة لما يرى من تنزل الرحمات»^(٤).

وقد أمر الله سبحانه بالعفو والصفح والصلح إذا وقعت عداوة بين المسلم وأخيه المسلم، قال تعالى: ﴿فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ﴾ [الشورى: ٤٠].

لأنها عداوة عارضة يمكن زوالها، ولا يترتب عليها ضرر فادح، قال سبحانه: ﴿أَدْفَعْ بِأَلْتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ﴾ [فصلت: ٣٤].

ولم يأمر الإسلام بالعفو مع أعداء الدين، فقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ﴾ [الممتحنة: ١].

أما عداوة الشيطان فإنه لا يُرَجَى زوالها، وإذا لم يتخذ المسلم عدواً فإنه لن يتجنب

(١) من حديث أنس وصفيه ؓ عند أحمد وأبي داود وابن ماجه والبيهقي كما في صحيح الجامع الصغير برقم (١٦٥٨).

(٢) ينظر: ظلال الجنة ج ٢ برقم (١٢٦٠) ومصنف ابن أبي شيبة عن محمد بن سعد عن أبيه برقم (٣١٩٩٩).

(٣) عن أبي هريرة في البخاري (٥٨٣) وأبي داود (٥١٦) والنسائي وانظر صحيح مسلم (٣٨٩).

(٤) ضعفه الألباني عن طلحة بن عبيد الله في ضعيف الترغيب والترهيب برقم (٧٣٩).

مكايده ومخادعته ووسوسته^(١).

ومن عجب أن نجد في زماننا من يعبدون الشيطان اتقاء لعداوته!

ثم حذرنا الله سبحانه من قبول دعوة الشيطان، وحثَّ على وجوب اليقظة إلى غروره ووسوسته لتجنب أخطاره ﴿إِنَّمَا يَدْعُوا حِزْبَهُ لِيَكُونُوا مِنْ أَصْحَابِ السَّعِيرِ﴾ وهذا غايته ومقصوده أي: إنما يدعو أتباعه إلى العقائد الباطلة، والأقوال الفاسدة، والأفعال القبيحة، إنه يدعوهم إلى الضلال، والنار الموقدة المستعرة، التي تشوي الوجوه والجلود، فهو عدو لدود، وعداوته قديمة، فكونوا على حذر منه، قال تعالى: ﴿كُتِبَ عَلَيْهِ أَنَّهُ مَنْ تَوَلَّاهُ فَأَنَّهُ يُضِلُّهُ وَيَهْدِيهِ إِلَى عَذَابِ السَّعِيرِ﴾ [الحج].

قال قتادة: عاذا الشيطان فإنه يحق على كل مسلم عداوته، وعداوته أن تعاديه بطاعة الله تعالى.

وقال بعض الصالحين: عجباً لمن عصى المحسن بعد معرفته بإحسانه، وأطاع اللعين بعد معرفته بعداوته ﴿أَفَتَتَّخِذُونَهُ وَذُرِّيَّتَهُ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِي وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّ﴾ [الكهف: ٥٠].

وقد بين سبحانه ما يترتب على السير في ركاب الشيطان في مثل قوله تعالى: ﴿وَمَنْ يَتَّبِعْ خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ فَإِنَّهُ يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ﴾ [النور: ٢١].

ثم بين سبحانه أن الناس بالنسبة إلى طاعة الشيطان وعدمها على قسمين، منهم من سار في ركابه، ومنهم من خالفه ولم يكن له عليه سلطان، منهم من آمن ومنهم من كفر:

عِقَابُ الْكَافِرِ وَجَزَاءُ الْمُؤْمِنِ

٧- ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ^(٢) وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ^(٣)﴾

بين ﷻ في هذه الآية أن الناس يوم القيامة فريقان: كافر، ومؤمن، فالكافر مخلص في العذاب الشديد الدائم الذي لا يوصف هو له؛ لأنه من حزب الشيطان.

والمؤمن له مغفرة وأجر كبير؛ لأنه جمع بين الإيمان والعمل الصالح، فصديق عمله قوله، فالذين جحدوا وحدانية الله تعالى وما جاءت به رسله ﴿لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ﴾ مؤلم يوم

(١) يُنْظَرُ: «تفسير الشيخ الطاهر بن عاشور» للآية (١٢/٢٦٣).

(٢) عَذَابُ الْبَصْرِيِّ وَالشَّامِيِّ (عَذَابُ شَدِيد) آيَةٌ، وَتَرْكُهَا غَيْرُهُمَا.

لقاء رب العالمين ﴿وَالَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ وصدقوا بالله ورسله ﴿وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ﴾ أي: ستر لذنوبهم ورفع لدرجاتهم ﴿وَأَجْرٌ كَبِيرٌ﴾ هو الجنة؛ لأنهم من حزب الرحمن. أما المؤمنون العصاة فليسوا من حزب الشيطان؛ لأنهم يعلمون كيده ويلعنونه ويتبرؤون منه، ولكن دافع الشهوات قد يوقعهم في حبائله.

وقد رضي الشيطان من عباد الله المؤمنين أن يوقعهم في بعض المعاصي بعد أن عجز عن عبادتهم له، كما في حديث أبي هريرة ؓ: «إن الشيطان قد يئس أن يُعبد في أرضكم هذه، ولكنه قد رضي منكم بما دون ذلك مما تحقرون من أعمالكم»^(١).

وفي حديث جابر ؓ: أن النبي ﷺ قال: «إن الشيطان قد يئس أن يعبد المصلون في جزيرة العرب ولكن في التحريش بينهم»^(٢).

وبهذا فإن الله تعالى حذر عباده من غرور الشيطان، وأيقظهم إلى عداوته، وقسم الناس إلى فريقين: فريق انخدع واغتر بالشيطان ولم يناصبه العدا، وفريق أخذ حذره واحترز من كيده. وقسم الناس إلى: كافر مُعَذَّب، ومؤمن مُنعم عليه، وأعقب ذلك باستحقاق حزب الشيطان عذاب السعير.

أَسْبَابُ الْغَوَايَةِ وَأَسْبَابُ الْهُدَايَةِ

٨- ﴿أَفَمَنْ زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ فَرَآهُ حَسَنًا فَإِنْ لَمْ يَضِلُّ مِنْ يَشَاءُ وَيَهْدَى مِنْ يَشَاءُ فَلَا نَذِيبَ (٣) نَفْسِكَ عَلَيْهِمْ حَسْرَتٍ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا يَصْنَعُونَ﴾

يُبين سبحانه في هذه الآية، أن الوقوع في حبائل الشيطان، ناشئ من تزيينه للناس

(١) من حديث أبي هريرة وأبي سعيد في «المسند» (٨٨١٠) بإسناد صحيح على شرط الشيخين، وأخرجه البزار (٢٨٥٠) كشف الأستار، وأبو نعيم في الحلية (٨٦/٧) والبيهقي في «الشعب» (٧٢٦٤).

(٢) «صحيح مسلم» (٢٨١٢) و«المسند» (١٤٣٦٦)، بإسناد صحيح على شرط الشيخين، وأخرجه ابن أبي شيبه (٢٧/١٥).

(٣) قرأ أبو جعفر بضم التاء وكسر الهاء من (تُذْهِبُ) مضارع أذهب و (نَفْسُكَ) بالنصب مفعول به، والباقون ببناء (تُذْهِبُ) للفاعل من ذهب ورفع (نَفْسُكَ) فاعل.

الأعمال السيئة فيرونها حسنة، ولم يقبلوا نصيحة ناصح، كما قال تعالى: ﴿وَزَيْنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ﴾ [النمل: ٢٤] فرأوا الحق باطلاً، والباطل حقاً.

والتزيين: تحسين ما ليس بحسن، كله أو بعضه، أي: إن أعمالهم السيئة صوّرها الشيطان لهم بصورة حسنة؛ ليُقدِّموا عليها بِشَرِّه ونشاط، وهذه هي طبيعة الغواية، وهو الباب الذي يفتح طريق الضلال، فيُعْجَب الإنسان بنفسه وما يصدر عنها، معتقداً أنه على صواب، ولا يطيق مراجعة أحد، فهو في غنى عن نصائحهم على حد زعمه.

والله تعالى يَذْكُرُ مثال الضال الهالك، ويتركه بلا جواب فيقول: ﴿أَفَمَنْ زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ فَرَآهُ حَسَنًا﴾ أي: أفمن حسّن الشيطان له أعماله السيئة من المعاصي والكفر، وحسّن له عبادة غير الله تعالى، فرأى عمله حسناً جميلاً، كمن هداه الله، فرأى الحسن حسناً والسيئ سيئاً؟

كلّا، إنهما لا يستويان في عرف عاقل، فالاستفهام للإنتكار، وجوابه محذوف، تقديره ما ذكر. فإن من ارتكب الأقوال والأفعال القبيحة، التي زَيَّنَّها له الشيطان والهوى، والنفس الأمارّة، فمصيره إلى الشقاء والتعاسة.

وَمَنْ خَالَفَ الشيطان والنفس والهوى، فمصيره إلى السعادة والصلاح. وذلك لأن من استحسن ما هو عليه من الكفر والضلال، لا يستوي بمن استقبحه واجتنبه، واختار طريق الإيمان والهدى والرشاد.

وهكذا لا يستوي من هداه الله إلى الصراط المستقيم بمن ضل عن سبيل الله:

فالأول: عمل الأعمال الحسنة، ورأى الحق حقاً والباطل باطلاً.

والثاني: عمل الأعمال السيئة، ورأى الحق باطلاً والباطل حقاً.

ثم قرّر سبحانه أن الهدى والضلال بيد الله تعالى؛ لأنه خالق أسباب الاهتداء وخالق أسباب الضلال، وذلك في قوله تعالى: ﴿فَإِنَّ اللَّهَ يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ﴾ أي: يصرف من يشاء عن طريق الهدى وفق علمه تعالى عن رغبته واختياره، ويوفّق من يشاء هدايته للإيمان والعمل الصالح، وفق علمه تعالى عن استعداد الفطري، وكلٌّ من الفريقين

قد عمل بمقتضى ميوله وتوجَّهه إلى الهدى أو الضلال، فلا قدرة لك - يا رسولنا ويا كل من تدعو إلى الله - على هدايتهم أو إضلالهم.

قال ابن عباس رضي الله عنه: «أنزلت هذه الآية حيث قال النبي ﷺ: «اللهم أعز دينك بعمر بن الخطاب، أو بأبي جهل بن هشام» فهدى الله عمر، وأضل أبا جهل، ففيهما أنزلت^(١).

فالله تعالى أرشد عباده بإرسال رسله لهدايتهم إلى ما يرضيه، وأضلهم في تكوين نفوسهم النافرة عن الهدى وفق علمه الأزلي عنهم، قال تعالى: ﴿أَمَنْ حَقَّ عَلَيْهِ كَلِمَةُ الْعَذَابِ أَفَأَنْتَ تُنْقِذُ مَنْ فِي النَّارِ﴾ [الزمر].

وهو سبحانه خالق أسباب الهدى والضلال ﴿وَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ فِتْنَتَهُ فَلَنْ تَمْلِكَ لَهُ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا أُولَئِكَ الَّذِينَ لَمْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يُطَهِّرْ قُلُوبَهُمْ لَهُمْ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ [المائدة: ٤١].

وما دام الأمر كذلك ﴿فَلَا نَذْهَبْ نَفْسَكَ عَلَيْهِمْ حَسْرَتٍ﴾ أي: لا تهلك نفسك حزناً على كفر الضالين، وامض في طريق دعوتك وتبليغ رسالة ربك ﴿فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيُكْفُرْ﴾ [الكهف: ٢٩]، فليس عليك إلا البلاغ، وهدايتهم على الله سبحانه.

والمعنى: أفأنت تهدي من زين له سوء عمله فرآه حسناً؟ أفتحسر على من اختاروا لأنفسهم طريق الضلال؟ فإن الله تعالى قد أضلهم، وهدى غيرهم بمشيئته تعالى وإرادته فيهم، وليس بأمره لهم ورضاه عنهم، فقد أرسل الله إليهم الرسل، وأنزل عليهم الكتب، وجعل لهم عقولاً تميز الحق من الباطل، ودعاهم إلى طريق الهدى والرشاد، وكلٌ ميسر إلى العمل بما يعلمه الله تعالى عنه في تكوينه الأزلي ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ﴾؟ [الملك: ١٤].

ثم ختم الله الآية بقوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا يَصْنَعُونَ﴾ أي: لا يخفى عليه شيء من أعمالهم القبيحة، وسيجازيهم عليها أسوأ الجزاء، وفي هذا تهديد ووعد لهم على سوء صنيعهم.

عن عبد الله بن الديلمي قال: أتيت عبد الله بن عمرو، وهو في حائط بالطائف، يقال

(١) أخرجه جوير عن الضحاك، كما في «الدر المثور» (١٢/٢٥٥). والحديث عند أحمد بتحسين الألباني له كما في مشكاة المصابيح برقم (٦٠٣٦) وعند الحاكم (٤٤٨٦)، وهو في المسند عن ابن عمر بنحوه (٥٦٩٦) وأخرجه الترمذي (٣٦٨١) وقال: حديث حسن صحيح غريب وابن حبان (٦٨٨١).

له : الوهط، قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : «إن الله خلق خلقه في ظلمة، ثم ألقى عليهم من نوره، فمن أصابه من نوره يومئذ فقد اهتدى، ومن أخطأه منه ضل، فلذلك أقول : جفَّ القلم على ما عَلَّمَ الله ﷻ»^(١).

الدَّلِيلُ الثَّانِي عَلَى وَحْدَانِيَّةِ اللَّهِ تَعَالَى وَعَظِيمِ قُدْرَتِهِ:

تَضْرِيفُ الْأَحْوَالِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ

٩- ﴿وَاللَّهُ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيحَ^(٢) فَتَنِيْرُ سَحَابًا فَسَقَنَهُ إِلَى بَلَدٍ مَّيْتٍ^(٣) فَأَحْيَيْنَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا كَذَلِكَ النُّشُورُ ﴿٩﴾﴾

هذه الآية فيها احتجاج على منكري البعث، حيث تأتي عطفًا على الاستدلال بأن الله تعالى فطر السموات والأرض وما فيهما وما بينهما في أول السورة.

والله تعالى لم يأت بفعل الإرسال في هذه الآية بصيغة المضارع، وإنما أتى بصيغة الماضي ﴿أَرْسَلَ الرِّيحَ﴾ لأن القصد: هو الاستدلال بما هو واقع فعلاً، أما قوله تعالى: ﴿يُرْسِلُ الرِّيحَ﴾ [الروم: ٤٨]. فهي للاستدلال على تجديد صنع الله تعالى ونعمه.

والمعنى: أن الله تعالى أرسل الرياح، فجعلها بقدرته النافذة، تُهَيِّجُ وتُثِيرُ السحب الساخنة أو الباردة من البحار، ثم يسوق الله بقدرته هذه السحب بالتيار الهوائي في طبقات الجو، فتذهب حيث يشاء الله شمالاً أو جنوباً أو شرقاً أو غرباً ﴿فَسَقَنَهُ إِلَى بَلَدٍ مَّيْتٍ﴾ أي: سقنا السحاب الذي يحمل الغيث إلى أرض مجدبة، فتدب فيها الحياة بما يحمل من مطر، فتحيها به البلاد والعباد، وترزق به الحيوانات، وترتع في الخيرات،

(١) رواه ابن حبان في صحيحه برقم (١٨١٢) من «موارد الظمان» وابن ماجه (٣٣٧٧) وابن حبان في الإحسان (٥٣٥٧) والحاكم في «المستدرک» (٣٠/١) ورواه الترمذي في «السنن» برقم (٢٦٤٢) وقال الترمذي: حديث حسن، وهو في «صحيح سنن الترمذي» (٢١٣٠) و«السلسلة الصحيحة» للألباني (١٠٧٦) وصححه السيوطي في «الجامع الصغير» (١٧٣٣) وهو في «المسند» (١٧٦/٢) برقم (٦٦٤٤)، من حديث طويل إسناده صحيح ورجاله ثقات. (محققوه).

(٢) قرأ ابن كثير وحمزة والكسائي وخلف بإفراد (الرياح)، والباقون بالجمع.

(٣) قرأ نافع وحفص وحمزة والكسائي وأبو جعفر وخلف بتشديد (مَيِّت)، والباقون بالتخفيف.

والماء مصدر الحياة لكل شيء في هذه الأرض، كما قال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيًّا﴾ [الأنبياء: ٣٠].

ومن ذلك الأرض الميتة تحيا بالماء، كما قال تعالى: ﴿فَأَحْيَيْنَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا﴾ أي: إن الله تعالى أحيا الأرض بهذا الماء بعد أن كانت جامدة يابسة، فتخضر بالنبات والثمر والشجر. ويستدل القرآن بهذا الدليل العقلي والحسي على البعث والنشور في كثير من آياته.

أي: ومثل ذلك الإحياء للأرض بعد موتها، يكون إحياء الناس بعد موتهم، فإن الأرض تكون ميتة هامدة لا نبات فيها، فإذا أرسل الله السحاب حمل الماء وأنزله عليها، قال تعالى: ﴿وَنَزَّلْنَا الْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنْبَتَتْ مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ﴾ [الحج: ٥].

وكذلك الأجساد إذا أراد الله بعثها ونشورها ﴿كَذَلِكَ النُّشُورُ﴾، أي: ومثل ذلك الإحياء للأرض يحيي الله الموتى يوم القيامة، ووجه التشبيه بقوله تعالى: ﴿كَذَلِكَ النُّشُورُ﴾:

- ١- أن الأرض الميتة لما قبلت الحياة اللائقة بها، كذلك الأعضاء تقبل الحياة.
- ٢- وكما أن الريح يجمع القطع السحابية، كذلك يجمع الله بين أجزاء الأعضاء.
- ٣- وكما أن الله يسوق الريح والسحاب إلى البلد الميت، كذلك يسوق الروح والحياة إلى البدن الميت^(١).

جاء في الحديث عن أبي هريرة ؓ أن النبي ﷺ قال: «كل ابن آدم يلى ويأكله التراب، إلا عَجَبَ الذَّنْبِ، منه خُلِقَ، ومنه يَرْكَبُ»^(٢).

فإذا أراد الله بعث الأموات، أنزل من تحت العرش مطراً يعم الأرض جميعاً، فتنبت الأجساد في قبورها كما ينبت الحب في الأرض.

قال ابن مسعود ؓ: يرسل الله تعالى ماء من تحت العرش كمني الرجال، قال: فتنبت

(١) «التفسير الكبير» (٣٢/٧).

(٢) من حديث أبي هريرة في صحيح مسلم (٢٩٥٥) و«المسند» (٩٥٢٨)، قال محققوه: حديث صحيح، إسناده قوي، ورجاله ثقات، وهو في والطحاوي في شرح مشكل الآثار (٢٢٨٩).

لُحْمَانُهُمْ وَجُسْمَانِهِمْ مِنْ ذَلِكَ الْمَاءِ، كَمَا تَنْبِت الْأَرْضُ مِنَ الثَّرَى^(١).

وفي حديث عروة بن مسعود رضي الله عنه قال: قلت: يا رسول الله، كيف يحيي الله الموتى؟ وما آية ذلك في خلقه؟ قال: «أَمَّا مَرَرْتُ بِوَادِي قَوْمِكَ مَمَحَلًّا -أي: مجذبًا- ثُمَّ مَرَرْتُ بِهِ يَهْتَرُ خَضِرًا؟ قلت: بلى، قال: «فكَذَلِكَ يَحْيِي اللَّهُ الْمَوْتَى وَتِلْكَ آيَةُ اللَّهِ فِي خَلْقِهِ»^(٢).

وإذا تهيأت الأجسام لقبول الأرواح، أمر الله بالنفختين الأولى والثانية، فإذا الأجساد قائمة، ماثلة لأمر الله تعالى بنفخ الأرواح في الأجساد، فالأرض الميتة كما قُلت الحياة، كذلك الأعضاء تقبل الحياة.

وكما أن الريح يجمع السحاب، فإن الله تعالى يجمع بين أجزاء الأعضاء.

وكما يسوق الله الريح والسحاب إلى البلد الميت، يسوق الروح والحياة إلى البدن الميت، فتحيا الأجساد والأرواح من القبور، ويقوم الخلق بين يدي الله تعالى ليحكم بينهم، ويفصل فيهم بحكمه العادل.

عَزَّةُ الْمُؤْمِنِ فِي التَّمَسُّكِ بِدِينِهِ

١٠- ﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعِزَّةَ فَلِلَّهِ الْعِزَّةُ جَمِيعًا إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ وَالَّذِينَ يَمْكُرُونَ السَّيِّئَاتِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَكْرُ أُولَئِكَ هُوَ يُورَثُ﴾^(١)

ولما بيّن سبحانه أن علاج خداع الشيطان وغروره للإنسان، يتمثل في اتخاذ عدوًا، وعدم قبول دعوته وإشارته، بيّن سبحانه في هذه الآية، أن علاج الغرور بالدنيا والافتتان بها، يكمن في الركون إلى الله تعالى، والاعتزاز بجناحه.

فإن أهل الضلال يقلّدون قادتهم وأغنياءهم معترزين بقوتهم ونفوذهم.

وأهل الشرك يتمسكون بشركهم؛ حتى لاتذهب منهم زعامتهم وراثتهم.

وقد بيّن جلّ شأنه أن العزة في اتباع الإسلام، فمن كان يطلب العزة، فإن العزة بيد الله، لا

(١) من «تفسير ابن كثير» للآية (٥٣٦/٦) و«تفسير الطبري» (٣٣٦/١٩).

(٢) الطيالسي (١١٨٥) وأحمد (١٦١٩٢) والبيهقي (١٠٦٩) قال محققو المسند: وإسناد ضعيف، لجهالة حال وكيع بن حديد، وأخرجه عبد الله بن أحمد في السنة (٢٦٥).

تُنال إلا بطاعته، فليستجب العبد إلى دعوة الإسلام، ففيها العزة؛ لأن العزة لله جميعاً.

أما العزة التي يتشبث بها غير المسلمين، ويلتمسونها في غير ذلك فهي ذاهبة كخيطة العنكبوت ﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعِزَّةَ فَلِلَّهِ الْعِزَّةُ جَمِيعًا﴾ أي: من كان يطلب عزة في الدنيا أو الآخرة فليطلبها من الله، ولا تُنال العزة إلا بتوحيد الله وطاعته، أما من انصرف عن دعوة الحق فلا عزة له ولا كرامة، فمن اعتر بالله أعزه الله، ومن اعتر بغير الله أذله الله.

والعزة: هي الشرف والاستعلاء والحصانة من أن يُنال المرء بسوء.

ومصدر العزة هو الله سبحانه، وليست العزة في الكبر ولا في عبادة الأوثان.

وقد كانت قريش تعتر بوثنيتها، وكان عبد الله بن أبي بن سلول يعتز بزعامته، وكذا أبو جهل وأبو سفيان قبل أن يسلم، وفي هذا قلب للقيم والموازن، قال تعالى: ﴿وَلَتَّخِذُوا مِنْ ذُرِّيَةِ اللَّهِ أَلِهَةً لِيَكُونُوا لَهُمْ عِزًّا﴾ (٨١) ﴿كَلَّا سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا﴾ (٨٢) [مريم].

وكذلك من يطلب العزة في موالاة الكافرين دون المؤمنين، فإنه مخذول، كما قال تعالى: ﴿الَّذِينَ يَتَّخِذُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ أَبِئِنَّهُمْ عِنْدَهُمُ الْعِزَّةُ فَإِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا﴾ (١٣٩) [النساء].

وقد ذمَّ الله سبحانه من يتقربون من المسلمين لغيرهم التماساً للحماية والنصرة، فقال تعالى: ﴿فَقَرَى الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ يُسْرِعُونَ فِيهِمْ يَقُولُونَ نَخْشَى أَنْ تُصِيبَنَا دَائِرَةٌ﴾ [المائدة: ٥٢].

وقال سبحانه في الرد عليهم: ﴿فَعَسَى اللَّهُ أَنْ يَأْتِيَ بِالْفَتْحِ أَوْ أَمْرٍ مِنْ عِنْدِهِ فَيُصْبِحُوا عَلَى مَا أَسْرُوا فِي أَنْفُسِهِمْ نَدِيمِينَ﴾ [المائدة: ٥٢].

فمن طلب العزة من الله وجدها عنده ﴿إِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا﴾ [يونس: ٦٥].

ومن طلبها من غير الله وكله إلى من طلبها عنده.

جاء في الأثر: من أراد عزَّ الدارين فليطع العزيز.

وعزة الرسول ﷺ مستمدة من قُربه من الله تعالى، وعزة المؤمنين مستمدة من إيمانهم بالله ورسوله ﴿وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [المنافقون: ٨]. فطلب العزة له ثلاثة معانٍ:

المعنى الأول: هو طلب العزة عن طريق المغالبة والقوة، وهذه العزة ليست لغير الله

تعالى، ولا تتم إلا له سبحانه، فكل مَنْ غلب أحدًا من خلق الله، يكون مغلوبًا لله تعالى.

ومن هذا القبيل: التمسك بما عليه الآباء والأجداد، كمن يتمسكون بعبادة غير الله تعالى، ويرون أن في ذلك عزًا لهم، كما قال تعالى: ﴿وَاتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ إِلَهَةً لِيَكُونُوا لَهُمْ عِزًّا﴾ [مريم] وبه قال مجاهد.

وكان المشركون يتقربون إلى الأوثان بالثناء والتمجيد والتعظيم.

المعنى الثاني: طلب العزة عن طريق الاستقامة والطريق القويم، وهذه العزة لا تُنال إلا بطاعته تعالى وامتنال أمره واجتناب نهيه.

فالعزة: تكُمْن في الحق الذي دعا الله تعالى إليه على لسان رسوله ﷺ.

المعنى الثالث: أن من أراد عِلْم العزة ومعرفتها فإن المتصف بها هو الله سبحانه، وقد يتصف بها بعض عباده المؤمنين الذين نصروا دينه وشرعه، كما اتصف بها رسول الله ﷺ ﴿وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [المنافقون: ٨].

وقد أوضح الله تعالى طريق العزة، فبين سبحانه أنها تكون في أمرين اثنين، هما:
الكلم الطيب، والعلم الصالح:

وأقوال المؤمنين وأعمالهم الصالحة هي سبب عزهم وهي التي تنفعهم وترفع درجاتهم عند الله تعالى، أما أقوال المشركين وأعمالهم فهي سعي باطل لا تنفع أصحابها.

﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ﴾ أي: إلى الله تعالى يصعد طيب الكلام من الذكر والتلاوة والدعاء والاستغفار، وكل كلام يُرضي الله تعالى كالتسبيح والتحميد والتكبير، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وما إلى ذلك، فكل كلام طيب حسن، يُرفع إلى الله تعالى ويُعرض عليه، ويشئ الله على صاحبه في الملا الأعلى.

اختراق الكلمة للموجات الهوائية:

١- وصعود الكلم الطيب إلى الله تعالى معناه: قبول هذا الكلم الطيب والرضى عنه، والإثابة عليه، وهو يصعد، أي: يرتفع ويرتقي إلى الله تعالى على وجه الحقيقة، أو يصعد إليه في صحف الأعمال.

قال النسفي: هو صعوده إلى مكان القبول والرضى.

والكلم الطيب، هو كلمة التوحيد، كما قال ابن عباس وغيره.

والعمل الصالح، هو العبادة الخالصة لوجه الله تعالى.

والرافع للعمل الصالح هو الكلم الطيب، لأنه لا يقبل عمل إلا من مَوْحَّد، فمن أراد العزة فليعمل عملاً صالحاً موافقاً للسنة، لأن هذا العمل هو الذي يرفع صاحبه عند الله.

وقال ابن عاشور: إن الكلم يتكيف في الهواء، فإسناد الصعود إليه مناسبٌ لِمَاهِيَّتِهِ، وأما العمل الصالح، فهو كصفات عارضة لذوات فاعلة ومفعولة، فلا يناسبه إسناد الصعود إليه، وإنما يحسن أن يُجْعَلَ متعلّقاً برفع يقع عليه ويُسَخَّرُهُ إلى الارتفاع.

قلت: إن جهاز التلفاز يوصل إلينا ما يلتقطه من طبقات الجو وتموج الهواء من الصوت والصورة كما تَوَصَّل إليه العلم الحديث، مما يُثَبِّت معجزة القرآن في صعود الكلم الطيب ورفع العمل الصالح.

٢- وكذا الأعمال الصالحة فإنها تُرْفَع إلى الله تعالى، كما قال سبحانه: ﴿وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ﴾ أي: إن الله تعالى يرفع الأعمال الصالحة ويقبلها عنده من عباده المؤمنين، ولا يقبل الله عملاً إلا بالتوحيد والاتباع، وكلمة التوحيد هي أعظم الكلم الطيب.

والعمل الصالح يشمل كل عمل يحبه الله ويرضاه، وفي مقدمة ذلك: أداء الفرائض، والإكثار من النوافل، وتحري الحلال والحرام.

والأعمال الصالحة في جملتها أوسع نفعاً من الكلم الطيب في جملته عدا الشهادتين، وما ورد في فضل دعاء يوم عرفة، ونحو ذلك.

والكلم يناسبه الصعود؛ لأنه يتكَيَّف في الهواء، أما العمل فيناسبه الرفع؛ لأنه كيفية تُعْرَضُ لفاعله.

وقيل في معنى الآية: إن العمل الصالح يرفع الكلم الطيب، فإذا لم يكن للعبد عمل صالح لم يرفع له قول، فالأعمال الصالحة هي التي ترفع الكلم الطيب.

أما العمل السيئ فإنه يعود إلى صاحبه ولا يزداد إلا إهانة ونزولاً.

ولذلك فإن الله تعالى أسند إلى نفسه رفع العمل الصالح، كما جاء في الحديث: عن أبي هريرة ؓ أن رسول الله ﷺ قال: «من تصدَّق بعُذْل تمرّة من كسب طيب - ولا يقبل

الله إلا الطيب- وإن الله يتقبلها بيمينه، ثم يربها لصاحبها كما يُرِّي أحدكم فُلُوهُ حتى تكون مثل الجبل»^(١).

ولا يقبل الله قولاً يستلزم العمل إلا به، ولا يقبل عملاً إلا بنية.

قال قتادة: لا يقبل الله قولاً إلا بعمل، فمن قال وأحسن العمل قبل الله منه^(٢).

وقال الحسن: يُعرض القول على العمل، فإن وافقه رُفع، وإلا رُدَّ^(٣).

وقال الحسن: ليس بالإيمان بالتمني ولا بالتحلّي، ولكن ما وقر في القلوب وصدّقه الأعمال، من قال حسناً وعمل غير صالح رده الله على قوله، ومن قال حسناً وعمل صالحاً رفعه العمل^(٤).

قال كعب الأحبار: إن لسبحان الله، والحمد لله، ولا إله إلا الله، والله أكبر، لدويّاً تحت العرش كدويّ النحل، يُذكّرُن بصاحبهن، والعمل الصالح في الخزائن^(٥).

وقال عبد الله بن مسعود رضي الله عنه: إذا حدثتكم حديثاً أتيتكم بمصداقه من كتاب الله، ما من عبد مسلم يقول خمس كلمات: سبحان الله، والحمد لله، ولا إله إلا الله، والله أكبر، وتبارك الله، إلا أخذهن ملكٌ تحت جناحه، ثم يصعد بهن، فلا يمر بهن على جمع من الملائكة إلا استغفروا لقائلهن، حتى يجيء بهنّ وجه رب العالمين ﷻ، ومصداقه من كتاب الله: ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ﴾^(٦).

وعن النعمان بن بشير رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «الذين يُذكّرون من جلال الله من تسبيحه وتكبيره وتحميده وتهليله، يتعاطفن حول العرش، لهن دويّ كدويّ النحل،

(١) «صحيح البخاري» برقم (١٤١٠) و«صحيح مسلم» (١٠١٤).

(٢) ابن جرير (٣٤٠/١٩).

(٣) أخرجه ابن المبارك في «الزهد» (٩١).

(٤) البيهقي (٦٦).

(٥) «تفسير الطبري» (٨٠/٢٢) قال ابن كثير: وهذا إسناد صحيح إلى كعب الأحبار، وقد رُوي مرفوعاً.

(٦) هذا حديث موقوف على ابن مسعود، وفي إسناده الحجاج بن نصير، ضعيف، يُنظر: الطبري (٣٢٨/١٩) والطبراني (٩١٤٤) والحاكم (٤٢٥/٢) والبيهقي في «الأسماء والصفات» (٦٦٧).

يُذَكِّرُونَ بِصَاحِبِهِنَّ، أَلَا يَحِبُّ أَحَدُكُمْ أَلَّا يَزَالَ لَهُ عِنْدَ اللَّهِ شَيْءٌ يُذَكِّرُ بِهِ»^(١).

ولما ذكر سبحانه الكلام الطيب والعمل الصالح أتبع ذلك بذكر الكلام السيئ والعمل الخبيث، مِنَ الَّذِينَ يَطْلُبُونَ الْعِزَّةَ مِنْ غَيْرِ اللَّهِ تَعَالَى، وَهُمْ الَّذِينَ ذَكَرَهُمُ اللَّهُ تَعَالَى فِي قَوْلِهِ: ﴿وَالَّذِينَ يَمْكُرُونَ السَّيِّئَاتِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ﴾.

والمكر: هو إلحاق الضرر بالآخر في خفية؛ لئلا يأخذ حذره.

والسيئات: هي الأقوال والأعمال الخبيثة، والذين يدبرون الأمر سرًا، ويحتالون لإطفاء نور الله، والكيد للإسلام والمسلمين، لن ينالوا أغراضهم بالنيل من الإسلام وأهله، كالذين اجتمعوا في دار الندوة وتآمروا على قتل النبي ﷺ، فأحبط الله عملهم.

قال تعالى: ﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرٌ الْمَكْرِينَ﴾ [الأنفال].

وقال تعالى: ﴿وَلَا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِ﴾ [٤٣].

أي: إن الله تعالى سيُطْلِمُ مكرهم، فلا ينتفعون به في الدنيا ويُخَذَّلُونَ بسببه في الآخرة، وهذا هو مقتضى قوله تعالى: ﴿وَمَكْرُ أُولَئِكَ هُوَ يَبُورُ﴾.

والبوار: هو كساد التجارة، وخسران العمل، وفيه تعريض بأن الله تعالى يمكر بهم، أي: ينجازيهم بأسوأ ما كانوا يعملون.

كما قال تعالى: ﴿وَمَكُرُوا وَمَكَّرَ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرٌ الْمَكْرِينَ﴾ [آل عمران].

وما أسرَّ أحد سريرة إلا كساه الله رداءها، إن خيرًا فخير، وإن شرًا فشر.

الدَّلِيلُ الثَّالِثُ: دَلِيلُ الْخَلْقِ وَالنَّشْأَةِ

١١- ﴿وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ جَعَلَكُمْ أَزْوَاجًا وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنْثَى وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِ وَمَا يُعَمِّرُ مِنْ مَعْمَرٍ وَلَا يَنْقُصُ^(٢) مِنْ عُمُرِهِ إِلَّا فِي كِتَابٍ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ﴾ [١١].

(١) «المسند» (٢٦٨/٤) برقم (١٨٣٦٢)، و(١٨٣٨٨) إسناده صحيح ورجاله ثقات (محققوه) والبخاري في التاريخ الكبير (٢٩٦/٧) برقم (١٢٦) وأبو نعيم في الحلية (٢٦٩/٤) وابن أبي شيبة (٢٨٩/١٠) والحاكم (٥٠٠/١).

(٢) قرأ يعقوب بخلف عن رويس بالبناء للفاعل في (ولا ينقص)، والباقون بالبناء للمفعول وهو الوجه الثاني لرويس.

ويأتي الدليل الثالث من دلائل الوجدانية في السورة، في هذه الآية:

أ- حيث يذكر الله تعالى الإنسان بأصل التكوين الأول لخلق آدم من تراب.

ب- ثم ينتقل إلى خلق النسل من نطفة؛ وذلك ليتفكروا ويتأملوا في خلق أنفسهم، كما قال تعالى: ﴿سَرَّيْهِمْ عَيْنَيْنَا فِي الْأَفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ﴾ [فصلت: ٥٣].

وقال سبحانه: ﴿وَفِي أَنْفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾ [الذاريات].

وقال جلّ شأنه: ﴿أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا فِي أَنْفُسِهِمْ﴾ [الروم: ٨].

والإشارة إلى النشأة الأولى، وأولى مراحل الحمل تتردد كثيراً في القرآن؛ لأنها معجزة هذه الحياة، ولا يعلم أحد كيف جاءت، ولا تزال سرّاً غامضاً على البشر، ودلالاتها على الخالق القادر المحيي المميت حقيقة مشاهدة ﴿وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ﴾ أي: والله ابتداء خلقكم ضمن خلق أبيكم آدم من تراب ﴿ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ﴾ أي: ثم خلق نسله من سلالة من ماء مهين هو المني: وهو ماء التلقيح من الرجل للمرأة.

١- قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَخْلُقْهُمْ مِنْ مَّاءٍ مَهِينٍ﴾ ٢٦ ﴿فَجَعَلْنَاهُ فِي قَرَارٍ مَكِينٍ﴾ ٢٧ ﴿إِلَى قَدَرٍ مَعْلُومٍ﴾ ٢٨ ﴿فَقَدَرْنَا فَنِعْمَ الْقَادِرُونَ﴾ ٢٩ [المرسلات].

٢- وقال سبحانه: ﴿فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ مِمَّ خُلِقَ﴾ ٥ ﴿خُلِقَ مِنْ مَّاءٍ دَافِقٍ﴾ ٦ ﴿يَخْرُجُ مِنْ بَيْنِ الصُّلْبِ وَالتَّرَائِبِ﴾ ٧ ﴿إِنَّهُ عَلَىٰ رَجْعِهِ لَقَادِرٌ﴾ ٨ [الطارق].

٣- وقال جلّ شأنه: ﴿قِيلَ الْإِنْسَانُ مَا أَكْفَرُوا﴾ ١٧ ﴿مِنْ أَيْ شَيْءٍ خَلَقَهُ﴾ ١٨ ﴿مِنْ نُطْفَةٍ خَلَقَهُ فَقَدَرُوا﴾ ١٩ ﴿ثُمَّ السَّبِيلَ يَسْرُوا﴾ ٢٠ ﴿ثُمَّ أَمَانَهُ فَاقْبَرُوا﴾ ٢١ ﴿ثُمَّ إِذَا شَاءَ أَنشَرُوا﴾ ٢٢ [عبس].

٤- وقال أيضاً: ﴿نَحْنُ خَلَقْنَكُمْ فَلَوْلَا تَصَدَّقُونَ﴾ ٥٧ ﴿أَفَرَأَيْتُمْ مَا تُمْنُونَ﴾ ٥٨ ﴿أَأَنْتُمْ تَخْلُقُونَهُ أَمْ نَحْنُ الْخَالِقُونَ﴾ ٥٩ [الواقعة].

ج - ثم إن الله تعالى جعلكم رجالاً ونساء، وزوّج بعضكم من بعض؛ ليكون التناسل وتعمير الأرض، وهذا معنى: ﴿ثُمَّ جَعَلَكُمْ أَزْوَاجًا﴾ من تركيب النطفة بين الرجل والمرأة، ولا بد للذكر من أنثى، وللأنثى من ذكر، لا يستغني أحدهما عن الآخر.

ولا بدّ من التلقيح بين نطفتي الرجل والمرأة، وما ينشأ عن ذلك من أطوار النطفة في

الرحم، من الحمل إلى الوضع.

د- وعلم الله تعالى محيط بهذه الأطوار، ومحيط بالكائنات الخفية والظاهرة ﴿وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنْثَىٰ وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِ﴾ أي: لا يحصل حمل للأنثى، ولا تلد ما في بطنها، إلا والله تعالى عالم به، يعلم أطواره ونوعه ورزقه، وأجله وعمله، وشقاه أو سعادته، لا يخفى عليه شيء من أحواله.

﴿اللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنْثَىٰ وَمَا تَغِيصُ الْأَرْحَامُ وَمَا تَزْدَادُ وَكُلُّ شَيْءٍ عِنْدَهُ بِمِقْدَارٍ﴾ (٨) [الرعد].

وهذا كقوله تعالى: ﴿وَمَا تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٌ فِي ظِلْمَةٍ إِلَّا رَطْبٌ وَلَا يَكْبِتُ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ﴾ [الأنعام: ٥٩].

والاستدلال بخلق الإنسان من نطفة، من أعظم الأدلة على دقة خلق الإنسان، وفيه الكفاية عن النظر في خلق بقية الحيوان!

وكما أن الله تعالى خلق الخلق من العدم، فإنه سبحانه يميتهم بقدرته، فالحياة والموت بيد الله سبحانه، ولكل أجل كتاب، والله يعلم مقدار عمر كل مخلوق في هذه الدنيا طال أو قصر.

هـ - ﴿وَمَا يُعَمَّرُ مِنْ مُعَمَّرٍ﴾ المعمر - بفتح الميم - هو من يجعل الله له عمراً، طال أو قصر، أو هو من يمد الله له في عمره، فيزيد عمره على متوسط أعمار الأمة، أو ينقص عنه.

﴿وَلَا يُنْقَصُ مِنْ عُمُرِهِ إِلَّا فِي كِتَابٍ﴾ فلا يزيد عمر الإنسان عن متوسط أعمار الأمة، ما بين الستين والسبعين، فيزيد على السبعين، أو ينقص عنه، فيموت دون الستين، أو أكثر من ذلك أو أقل، إلا وهو مسطر في كتاب، هو اللوح المحفوظ، ثابت في علم الله تعالى.

وطول العمر أو قصره، قد يكون بسبب أو بغير سبب، فالزنى وعقوق الوالدين وقطيعة الرحم، ونحو ذلك من أسباب قصر العمر، كما وردت السنة بذلك، وقد يكون طول العمر أو قصره بمعنى البركة فيه وعدم البركة، فقد يعيش إنساناً خمسين عاماً ويترك وراءه من العلم والأثر ما تنتفع به الأجيال، وقد يعيش إنساناً مئة عام ويترك خلفه ميراثاً سيئاً كالطرب والرقص ونحوهما، مما تفسد به الأجيال بعده وكل منهما تجري له حسناته أو سيئاته بعد موته، فهذا سن في الناس سنة حسنة، وذاك سن فيهم سنة سيئة.

قال سعيد بن جبير: مكتوب في أول الصحيفة: عمره كذا وكذا، ثم يكتب في أسفل ذلك: ذهب يوم، ذهب يومان، حتى يأتي آخر عمره^(١).

وقال أبو مالك الغفاري: ليس من يوم يُسلب عمره إلا في كتاب، ولا بقي من عمره إلا في كتاب.

وقال أبو مسلم الخراساني: لا يذهب من عمر الإنسان يوم ولا شهر ولا ساعة إلا ذلك مكتوب محفوظ معلوم.

وعن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: قالت أم حبيبة زوج النبي ﷺ: اللهم متّعني بزوجي رسول الله ﷺ، وبأبي أبي سفيان، وبأخي معاوية، فقال لها رسول الله ﷺ: «إنك سألت لآجال مضروبة، وآثار موطوءة، وأرزاق مقسومة، لا يُعجل شيئاً منها قبل حله، ولا يؤخر شيئاً منها بعد حله، ولو سألت الله أن يُعافيك من عذاب في النار، وعذاب في القبر، لكان خيراً لك»^(٢).

ويعلم الله سبحانه سبب زيادة العمر، كالصدقة وصلة الرحم، فصدقة المتصدق دليل على أن الله تعالى قد عَلِمَ طول عمره، وهكذا من يصل رحمه.

وخلقُ الناس من تراب ثم من نطفة... وموتهم وحياتهم، وطول أعمارهم أو نقصانها، كل ذلك سهل يسير على الله تعالى ﴿إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ﴾.

عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «من سرّه أن يبسط له في رزقه، وينسأ له في أثره فليصل رحمه»^(٣).

ورُبَّ ساعة تعدل عمراً، لما فيها من طاعة ونفع للعباد والبلاد، ورُبَّ عام لا وزن له عند الله، ولا قيمة له في ميزان الحياة.

وهكذا ذكرت هذه الآية خمسة أدلة على قدرة الله تعالى ووحدانيته وهي:

١- خلق آدم من تراب. ٢- وخلق ذريته من نطفة.

(١) أبو الشيخ في «العظمة» (٤٥٤).

(٢) البخاري برقم (٢٠٦٧) و«صحيح مسلم» برقم (٢٦٦٣) والنسائي في «السنن الكبرى» (١١٩٤) وابن أبي شيبة (٣/٣٧٤).

(٣) مسلم برقم (٢٥٥٧) و«السنن الكبرى» للنسائي برقم (١١٤٢٩) وأبو داود برقم (١٦٩٣).

- ٣- والتناضح والتناسل بينهما. ٤- وشمول علم الله تعالى.
٥- وزيادة العمر أو نقصانه. وكل ذلك يسير على الله تعالى.

الدليل الرابع: مشهد البحرين وما فيهما من نعم

١٢- ﴿وَمَا يَسْتَوِي الْبَحْرَانِ هَذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ سَائِغٌ شَرَابُهُ وَهَذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ وَمِنْ كُلٍّ تَأْكُلُونَ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُونَ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى الْفَلَكَ فِيهِ مَوَازِرَ لِيَتَنَفَّوْا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾^(١)
أما الدليل الرابع على وحدانية الله سبحانه في هذه السورة، فهو الاستدلال بما على الأرض من بحار وأنهار، وما فيهما من أسماك وحُلِيٍّ وسفنٌ جارية.

وفي هذه الآية تذكير الخلق بنعم أربع:

النعمة الأولى: الماء العذب والماء الملح:

﴿وَمَا يَسْتَوِي الْبَحْرَانِ﴾ أي: وما يستوي ماء البحر وماء النهر، وسُمِّي النهر بحرًا: من باب التغليب.

والبحر في كلام العرب: اسم للماء الكثير المستقر في مساحة واسعة، فالفرات ودجلة مثلاً مياههما عذبة، ومياه خليج العرب مثلاً ملحة

﴿هَذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ سَائِغٌ شَرَابُهُ﴾ أي: ماؤه حلو يزوي العطشان، ويسهل مُروره في الحلق لعذوبته، وهي مياه الأنهار، فالفرات هو السائغ للشرب، المزيل للعطش، يتنفع به الشاربون والغارسون والزارعون.

﴿وَهَذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ﴾ شديد الملوحة والمرارة، يزيد العطشان تعبًا وحرقًا، وهي مياه البحار، وقد جعلها الله أجاجًا:

- ١- لثلا يفسد الهواء المحيط بالأرض بروائح ما يموت في البحر من الحيوانات.
- ٢- ولأنه ساكن لا يجرى، فملوحته تمنعه من التغير.
- ٣- ولتكون حيواناته ألدَّ وأحسن. فهذه ثلاث أسباب للماء الأجاج.

(١) لم يعد الحمصى (تشكرون) آية، وعدّها غيره.

وقد خلق الله سبحانه البحرين: العذب والأجاج على صورة واحدة، وخالف بينهما، كما قال تعالى: ﴿يُسْقَى يَمَاءٌ وَحِدٍ وَفُضِّلَ بَعْضُهَا عَلَى بَعْضٍ فِي الْأَكْلِ﴾ [الرعد: ٤].

النعمة الثانية: الأسماك وما يشبهها:

ومن كلا البحرين تخرج الأسماك والحيوانات البحرية على اختلافها ﴿وَمِنْ كُلِّ﴾ أي: من البحرين العذب والملح ﴿تَأْكُلُونَ لَحْمًا طَرِيًّا﴾ سمكًا شهياً الطعم، غصاً، مختلف المذاق والشكل، مفيداً لأجسامكم.

وفي هذا تنبيه إلى أنه ينبغي المسارعة إلى أكله وهو طري قبل أن يموت ويفسد أو يتغير. وقد كره العلماء أكل ما يطفو منه على وجه الماء؛ لأنه يموت في الماء حتف أنفه، لحديث جابر ؓ أن رسول الله ﷺ قال: «ما نضب عنه الماء فكلوه، وما لفظه الماء فكلوه، وما طفا فلا تأكلوه».

والمراد بميتة البحر في حديث أبي هريرة ؓ: «هو الطهور ماؤه، الحل ميتته»^(١). ما لفظه البحر، وليس ما مات في البحر حتف أنفه.

النعمة الثالثة: الحلي والزينة:

﴿وَسْتَخْرِجُونَ﴾ منها ﴿حِلْيَةً﴾ أي: زينة هي اللؤلؤ والمرجان وغيرهما ﴿تَلْبَسُونَهَا﴾ أي: تلبسها نساؤكم ليحسنن في أعين الرجال، كما قال تعالى: ﴿يَخْرُجُ مِنْهُمَا اللُّؤْلُؤُ وَالْمَرْجَانُ﴾ [الرحمن: ٦٦].

وقيل: يخرج من البحر الحلية من اللؤلؤ والمرجان.

ويتكون اللؤلؤ من جسم غريب كحبة الرمل، أو نقطة ماء تدخل في نوع من القواقع داخل الصدفة، فيفرز إفرازاً خاصاً يحيط به هذا الجسم الغريب، ثم يتصلب هذا الإفراز بعد مدة، ويتحول إلى لؤلؤة.

(١) من حديث أبي هريرة بتصحیح الألباني عند أبي داود (٨٣) وابن ماجه (٣٨٦) وهو في المسند (٨٧٣٥) والترمذي (٦٩) حديث صحيح كما قال محققو المسند.

أما المرجان: فهو نبات حيواني يعيش في الماء ويَكُونُ شعابًا مُرجانية تمتد وتتكاثر، ثم تقطّع بطرق خاصة، وتُتخذ منه الحلي^(١).

فمن النعم التي تأتيكم عن طريق البحر: استخراجكم منه ما ينفعكم، وما تتحلى به نساؤكم وتزين بلبسه من اللؤلؤ والمرجان.

وفي هذا تنبيه إلى الانتفاع بالثروة البحرية، وما فيها من كنوز نافعة، ينبغي على المسلمين أن يستخرجوها بأنفسهم، وألا يتركوها لأعدائهم ينتفعون بها دونهم.

وفي الآية دليل على أن اللؤلؤ والمرجان يخرجان من البحر والنهر معًا، وليس من البحر الملح فحسب^(٢).

وأجود شيء في اللؤلؤ والمرجان هو ما يوجد في بحر العرب، حيث مصبّ النهرين: العذب مع اختلاطه بماء البحر الملح، فلهذا الاختلاط أثر في جودة اللؤلؤ^(٣).

النعمة الرابعة: حمل السفن في البحار:

ثم ذكر سبحانه نعمة السفن التي تطفو فوق سطح الماء بقدرة الله تعالى؛ حتى لا يغرق الناس والمال والمتاع، وهي تقطع المسافات البعيدة في وقت قصير، وتيسر سبل السفر، وتنقل ما هو ثقيل وخفيف، وكبير وصغير، عبر القارات والبلاد، وتنقل التجارات وغيرها، هذا معنى ﴿وَرَىٰ أَلْفُكْ فِيهِ مَوَاجِرُ﴾ وهي السفن تشق المياه، وتمخر عباب البحر، مُقْبِلَةً ومُدْبِرَةً، تحمل الأثقال والبضائع، والرجال والنساء، من دولة إلى دولة، فتحمل السائرين وأثقالهم وتجاراتهم، وتنقل عابرات القارات، وهي مسخرة بقدرة الله تعالى، لا تغرق في البحر إلا إذا أراد الله ذلك ﴿لَبَتَعُوا فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ﴾ [الإسراء: ١٢] أي: كي تطلبوا رزق الله تعالى بأنواع التجارة والسفر إلى البلدان البعيدة في مدة قريبة.

وهذا الرزق الحاصل من التجارة ومن تسخير البحر للإنسان، هو من فضل الله تعالى ومن رحمته بعباده ﴿وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ الله على آلائه ونعمه، فإن من شكره زاده من

(١) يُنظر: «في ظلال القرآن» (٥/٢٩٣٤). سيد قطب.

(٢) يُنظر: «أضواء البيان» (٦/٦٤٠) للشيخ الشنيطي.

(٣) «التحرير والتنوير» (٢٢/٢٧٩). ابن عاشور.

فضله وعطائه.

وقال تعالى في سورة النحل: ﴿مَوَآخِرَ فِيهِ﴾ [النحل: ١٤] فأخر لفظ (فيه) على (مواخر) وقال في هذه السورة: ﴿فِيهِ مَوَآخِرَ﴾ فقدّم الظرف هنا وأخره هناك؛ وذلك لأن الآية هنا مسوقة للتذكير بنعمة الله سبحانه والامتنان على خلقه، ولذا قدّم ما يدل عليه وهو الظرف، فهو الأهم.

أما في سورة (النحل) فالقصد هو الاستدلال على عظيم صنع الله تعالى في المخلوقات، بسير السفن وشقّها عباب البحر، وهي طافية على وجه الماء، ولذا أخر الظرف.

الدَّلِيلُ الْخَامِسُ: تَصْرِيْفُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ بِالطُّوْلِ وَالْقِصْرِ

١٣- ﴿يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُّسَمًّى ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ الْمُلْكُ وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ مَا يَمْلِكُونَ مِنْ قِطْمِيرٍ﴾

أما الدليل الخامس من أدلة السورة، المسوقة للتذكير بنعم الله تعالى على خلقه، وهي دالة على عظيم قدرة الله تعالى وبديع صنعه، وهو مشهد الليل والنهار، وتسخير الشمس والقمر، ففي هذه الآية نعمتان:

النعمة الأولى: إنه سبحانه ﴿يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ﴾ أي: يُدخل من ساعات الليل في النهار، فيزيد النهار بقدر ما ينقص من الليل، والعكس صحيح، فيتفاوت بذلك طول الليل والنهار بالزيادة والنقصان، وقد يستويان، حسب الفصول والأمصار، فيصل النهار صيفاً إلى ست عشرة ساعة في بعض البلاد، وينقص الليل إلى ثماني ساعات، ويختلف الأمر عند القطبين الشمالي والجنوبي، وعند مطلع الشمس ومغربها، وبهذا تقوم مصالح العباد في أبدانهم وحيواناتهم وأشجارهم وزروعهم.

وكلٌّ من الليل والنهار يتعاقبان حسب اختلاف المطالع والمغرب، وكلما أتى أحدهما ذهب الآخر، وهذه آية مُشاهدة يراها الأعمى والبصير، وهو دستور لا يتغير، ونظام محكم لا يتبدل، ولا يمكن له أن يكون صُدفة ﴿صُنِعَ اللَّهُ الَّذِي أَنْفَنَ كُلَّ شَيْءٍ﴾ [النمل: ٨٨].

والنعمة الأخرى في هذه الآية: نعمة تدليل الشمس والقمر بالضياء والنور، والسكون

والحركة، وانتشار الناس في الأرض لطلب الرزق، وتذليل ما فيهما من نضج الثمار، وصحة الأبدان، وتجفيف ما يجفف، ولو لا ذلك للحق الضرر بالناس، وكل ذلك لمصالح العباد والبلاد، بتسخير الكواكب والنجوم السيّارة، والثواب الثابتة بأضوائها في أجرام السموات، كلّ منها يدور في مداره الذي قدره الله له، لا يتعداه إلى يوم القيامة.

وقد أثبت العلم أن الشمس تجري في الفضاء الكوني باتجاه واحد، بسرعة اثني عشر ميلاً في الثانية، كما حسبها الفلكيون، وحجم الشمس يبلغ نحو مليون ضعف حجم الأرض، قال تعالى: ﴿وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَهَا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ ٢٨﴾ [يس]، وهذه الكتلة الهائلة تتحرك وتجري في الفضاء الهائل لا يسندها شيء^(١).

وهي في حركة دائمة لا تفر ولا تختل، قال تعالى ﴿وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُّسَمًّى﴾، وكل من الشمس والقمر يسيران في فلكهما إلى ما شاء الله، فإذا جاء الأجل، وقرب انتهاء الدنيا، وتعطل سيرهما، خسف القمر، وكورت الشمس، وانتشرت النجوم، وسُيِّرَتِ الجبال، وعُطِّلَتِ العِشاء، وسُجِّرَتِ البحار..

وفي قوله تعالى: ﴿إِلَّا أَجَلٌ مُّسَمًّى﴾ من سورة [لقمان: ٢٩]. جئ بالي بدل اللام.

وهو تفنن في الأسلوب، فاللام تكون بمعنى: إلى، في الدلالة على الانتهاء.

والمراد: التذكير بنهاية العالم، ونهاية الآجال.

والخطاب في سورة (لقمان) موجّه إلى الرسول ﷺ، وهو خطاب عام لكل الناس، أما الخطاب هنا فهو موجه إلى المشركين، فالسورة مكية، وما تسوقه من دلائل القدرة إنما هو لإثبات التوحيد، وتفرد الله سبحانه بالإلهية.

الأثر المترتب على إقامة الأدلة السابقة هو التوحيد:

وبعد ذكر هذه الأدلة الكونية من العالم المشاهد، فإن الله تعالى يأخذ بيد العبد إلى التوحيد ونبذ الشرك، فيقول سبحانه: ﴿ذَلِكَ كُمْ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ الْمُلْكُ﴾ أي: إن الذي أوجد هذه المخلوقات هو الله سبحانه، مالك الكون كله، لا يشاركه فيه مشارك، ولا ينازعه منازع، فله الملك والسلطان، وله التصرف في الملك كله.

(١) من «تفسير الجوهري» للآية.

ولفظ: ﴿ذَلِكُمْ﴾ يشير إلى ما سبق ذكره من فَطَرَ السموات والأرض، وجعل الملائكة أولي أجنحة، وإرسال الرياح بالسحاب، وإحياء الأرض بعد موتها، وخلقكم من تراب، وجعلكم أزواجًا، وعلم الحمل والولادة، وطول العمر وقصره، وخلق البحرين، وإدخال الليل في النهار والعكس، وتذليل الشمس والقمر، وربكم الذي فعل ذلك كله، وأوجد هذه المخلوقات لمنفعتكم، هو صاحب هذا الملك بعالميه: العلوي، والسفلي، فهو المستحق للعبادة دون سواه.

أما الآلهة التي تعبدونها من دون الله، سواء أكانت بشرًا أم حيوانًا، أم جمادًا أم كواكب، أم ملائكة أم جنًا...، فإنهم لا يملكون شيئًا، قليلًا ولا كثيرًا، صغيرًا ولا كبيرًا، عظيمًا ولا حقيرًا، ﴿وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ﴾ أي: تعبدونهم من دون الله، وتزعمون أنهم آلهة ﴿مَا يَمْلِكُونَ مِنْ قِطْمِيرٍ﴾.

والقطمير: هو القشرة الرقيقة التي تكون بين الثمرة والنواة، وهو مثل يُضرب للقلّة والحقارة. ولضعف الآلهة المزعومة، وهوان شأنها، وعجزها عن أي تصرف، صارت مضرب المثل، بأنها لا تملك فتيلًا، ولا نقييرًا، ولا قطميرًا.

والفتيل: هو ما يشبه الخيط في ظهر النواة، والنقيير: هو النقطة التي تكون في ظهر النواة. والمقصود أن هذه الأصنام على اختلافها لا تملك من هذا الكون شيئًا لا حقيرًا ولا تافهًا، ولا ما فوق ذلك. قال تعالى:

١٤- ﴿إِنْ تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا دُعَاءَكُمْ وَلَوْ سَمِعُوا مَا اسْتَجَابُوا لَكُمْ وَيَوْمَ الْقِيَمَةِ يَكْفُرُونَ بَشْرِكَكُمْ وَلَا يَنْتُكَ مِثْلُ خَيْرٍ﴾

أي: ومع أن آلهة المشركين لا تملك أحقر شيء فإنهم لو دعوها لا تسمع دعاءهم، لأنها ما بين جماد وأموات وملائكة، وكلها لا تسمع دعاء ولا نداء، ولو سمعت - على سبيل الجدل - فهي لا تملك استجابة، ولا ترضى بعبادة غيرها لها.

وقد أكد سبحانه أن ما يعبده الوثنيون جمادات، لا تعي ولا تستجيب، وقد كان المشركون يزعمون أن الأصنام تسمع دعاءهم، ولذا فإنهم كانوا يكلمونها، فيحمدونها ويمدحونها، وقد أبطل الله سبحانه هذا الزعم، فبيّن عجز هذه الأصنام، وبيّن أنها لا تنفع ولا تضر، فهي

معبودات باطلة لا تملك شيئاً، لا تسمع، ولا تبصر، ولا تغيث ملهوقاً، ولا تجيب داعياً، فهي جمادات لا تفهم ولا تدرك، ﴿وَلَوْ سَمِعُوا﴾ على سبيل الفرض، أو أنهم سمعوا كالجن والملائكة ﴿مَا أَسْتَجَابُوا لَكُمْ﴾ أي: إن الجن لا يملكون الاستجابة، والملائكة لا تستجيب للضالين، لأنهم لا يرضون بعبادتهم لهم وهذا في الدنيا، أما في الآخرة فإنهم يتبرؤون من عبادتهم إياهم، ومن إشراكهم مع الله تعالى في العبادة.

﴿وَيَوْمَ الْقِيَمَةِ يَكْفُرُونَ بَشِرِكِكُمْ﴾ حيث يُنطق الله الجمادات، فتتبرأ من عبادة الناس لهم، ﴿قَالُوا سُبْحَنَكَ أَنْتَ وَلَيْسَ مِن دُونِهِمْ﴾ [سبأ: ٤١]. والآيات المماثلة لهذا المعنى كثيرة.

منها قوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُوا مِن دُونِ اللَّهِ مَن لَّا يَسْتَجِيبُ لَهُ إِلَى يَوْمِ الْقِيَمَةِ وَهُمْ عَن دُعَائِهِمْ غَفِلُونَ﴾ (٥) وَإِذَا حُشِرَ النَّاسُ كَانُوا لَهُمْ أَعْدَاءً وَكَانُوا بِعِبَادَتِهِمْ كَافِرِينَ ﴿٦﴾ [الأحقاف].

وقوله سبحانه: ﴿وَاتَّخَذُوا مِن دُونِ اللَّهِ آلِهَةً لِّيَكُونُوا لَهُمْ عِزًّا﴾ (٨١) ﴿كَلَّا سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا﴾ (٨٢) [مريم].

وقوله جلَّ شأنه: ﴿ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَمَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ وَلَيَعَنُ بَعْضُكُم بَعْضًا﴾ [العنكبوت: ٢٥].

وهذه الحقائق التي لا تقبل الشك، ولا يخبر بها إلا عليم بيواطن النفوس وظواهرها، فاجزم بما قاله رب العالمين كأنه رأى عين ولا تشك فيه طرفة عين.

﴿وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ﴾ يعني: نفسه سبحانه، فهو يعلم السر والنجوى، فلا أحد يخبرك باليقين غير الله تعالى.

وهكذا فإن الآيات السابقة تضمنت البراهين الساطعة والأدلة القاطعة على وحدانية الخالق سبحانه، وأن غيره لا يستحق شيئاً من العبادة.

النِّدَاءُ الثَّالِثُ: عَدَمُ اسْتِغْنَاءِ النَّاسِ عَنِ رَبِّهِمْ طَرَفَةً عَيْنٍ

١٥- ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَنْتُمُ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ﴾ (٥٥)

وبعد هذه المواعظ والعبير التي تشهد بوحداية الله تعالى، وعظيم قدرته، وبديع صنعه، يأتي النداء الثالث لعموم البشر، والمشركون على وجه الخصوص؛ لتذكيرهم بنعم الله

سبحانه عليهم، وأن جميع الناس محتاجون إلى إحسان الله تعالى وإنعامه في جميع أحوالهم، لا يستغني عنه أحد طرفة عين.

﴿يَأَيُّهَا النَّاسُ أَنْتُمُ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ﴾ أنتم المحتاجون إلى الله في الدنيا والآخرة في جميع أحوالكم، وفي حركاتكم وسكناتكم، فأنتم فقراء إليه في وجودكم في هذه الحياة وقد كنتم عدماً.

فقراء إليه في إعدادكم بالحواس والأعضاء والجوارح والقوة البدنية والروحية.

فقراء إليه في إمدادكم بالقوت والرزق والنعم الظاهرة والباطنة.

فقراء إليه في جلب الخير ودفع الضرر، وإزالة المكروه والشدائد وتفريج الكربات.

فقراء إليه في التربية والتعليم، والتوفيق للهداية، وإخلاص العبادة.

والموفق هو الذي يستشعر فقره إلى الله تعالى في كل أموره الدينية والدنيوية، فهو يتضرع إلى ربه صباح مساء، ويسأله ألا يكله إلى نفسه طرفة عين، وأن يعينه في جميع أحواله، فلا حول ولا قوة إلا بالله.

وبعد أن مهد سبحانه بأن جميع الناس مفتقر إليه، أتبع ذلك بوصف نفسه بالغنى والحمد، فهو الغني بذاته عن مخلوقاته، المحمود في ذاته وأسمائه وصفاته.

﴿وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ﴾ غني عن العالم على وجه الإطلاق، منعم عليهم بجميع النعم، وهو سبحانه المستحق للحمد والثناء.

وهذا كقوله تعالى: ﴿إِنْ تَكْفُرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنْكُمْ وَلَا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ الْكُفْرَ وَإِنْ تَشْكُرُوا يَرْضَهُ لَكُمْ﴾ [الزمر: ٧]. قال تعالى:

١٦، ١٧- ﴿إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ﴾^(١) وَمَا ذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ بِعَزِيزٍ ﴿١٧﴾

ثم قرر سبحانه استغناؤه عن الخلق، وذكر من مظاهر غناه أنه جل شأنه لا يكثرث بمن أعرض عن الإسلام، ولو شاء لأبادهم، وخلّص الأرض من عصاة أمره ونهيه، وأتى

(١) لم يعد (ويأت بخلق جديد) آية، البصري والحمصي، وعدّها غيرهما.

بخلق جديد، يعبدوه ويوحده، فهو القادر على ذلك، ولكنه سبحانه أمهلهم ولم يعاجلهم بالعقوبة، قال تعالى: ﴿إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ أَيُّهَا النَّاسُ وَيَأْتِ إِخَارِينَ﴾ [النساء: ١٣٣]. هم أطوع لله منكم، فإن شاء سلط عليكم موتاً يعمكم فيهلككم ويبيدكم من الوجود، فكأنه أذهبكم من مكان إلى مكان، ثم أتى بكم إلى الدار الآخرة، ولكن الله تعالى آخر عنهم العقوبة، وفي هذا تهديد ووعد للعصاة والمشركين، وبيان لهم أن حياتهم ووجودهم يتوقف على مشيئة الله وإرادته.

وليس معنى الآية: إن يشأ الله يعجل بموتهم، فيأتي جيل مؤمن من أبنائهم.

وما هذا الذي ذكرناه لكم من إفنائكم والإتيان بغيركم ليس بصعب ولا ممتنع على الله تعالى، بل هو سهل يسير على من يقول للشيء: كن، فيكون ﴿وَمَا ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ بِعَزِيزٍ﴾. فالآية تحتل أن يكون المراد: إن يشأ يذهبكم - أيها الناس - ويأت بغيركم هم أطوع لله منكم، وتحتل أن يراد بها البعث والنشور، لبيان أن مشيئة الله تعالى نافذة في كل شيء، ومنها إعادتكم بعد موتكم خلقاً جديداً، وهذا الوقت علمه عند الله تعالى، والآية التالية ترشح هذا المعنى.

لَا تُعَاقِبُ نَفْسٌ بَذَنْبِ أُخْرَى

١٨- ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ وَإِنْ تَدْعُ مُثْقَلَةٌ إِلَىٰ جِهَلٍ لَا يَحْمِلُ مِنْهُ شَيْءٌ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ إِنَّمَا تُنذِرُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِالْغَيْبِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَمَن تَزَكَّىٰ فَإِنَّمَا يَتَزَكَّىٰ لِنَفْسِهِ ۚ وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ﴾

ولما خاطب الله سبحانه عموم الناس وهذّدهم وتوعّدهم، أراد طمأنة المسلمين من عواقب هذا التهديد، فبيّن سبحانه أن من لم يرتكب جرماً ولم يكتسب إثماً لا تناله عقوبة، فالجزاء شخصي، لا يتجاوز مرتكبه إلى غيره، وكل نفس مسؤولة عن أقوالها وأفعالها، تتحمل نتائجها، ولا تحمله نفس أخرى، ولا تعاقب بذنب غيرها، كما يفعل ذلك بعض الطغاة من التعذيب والضغط على غير الجاني ليعترف بما نُسب إليه، فيعترف اعترافاً غير صحيح حتى يدفع الأذى عن والده مثلاً، أو يمنع انتهاك عرض زوجته أو أمه!

عن عمرو بن الأحوص أن رسول الله ﷺ قال في حجة الوداع: «ألا لا يجني جانٍ إلا

على نفسه، لا يجني والد عن ولده، ولا مولود عن والده»^(١).

وعن أبي رُمثة قال: انطلقت مع أبي نحو رسول الله ﷺ، فلما رأيته قال لأبي: «ابنك هذا؟» قال: إي ورب الكعبة، قال: «أما إنه لا يجني عليك ولا تجني عليه» ثم قرأ رسول الله ﷺ: ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾^(٢).

قال تعالى: ﴿ثُمَّ نُنَجِّي الَّذِينَ اتَّقَوْا وَنَذَرُ الظَّالِمِينَ فِيهَا جِثًا﴾ [مريم].

وقال سبحانه: ﴿كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينٌ﴾ [المدثر].

وقال أيضًا: ﴿قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ فَإِن تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْهِ مَا حُمِّلَ وَعَلَيْكُمْ مَا حُمِّلْتُمْ﴾ [النور: ٤٥].

إذا تسبب الإنسان بقوله أو فعله في أن يستن الناس به في فعل حسنة أو سيئة، فإنه يتحمل جزاء ما كان سبباً فيه، كما قال ﷺ: «من سنَّ في الإسلام سنة حسنة فله أجرها وأجر من عمل بها بعده من غير أن ينقص من أجورهم شيء، ومن سنَّ في الإسلام سنة سيئة فعليه وزرها ووزر من عمل بها من بعده من غير أن ينقص من أوزارهم شيء»^(٣).

أما قوله تعالى: ﴿وَاتَّقُوا فِتْنَةً لَا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ خَاصَّةً﴾ [الأنفال: ٢٥].

وقوله تعالى: ﴿وَلِيَحْمِلُوا أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالًا مَّعَ أَثْقَالِهِمْ﴾ [العنكبوت: ١٣].

وقول النبي ﷺ من حديث زينب بنت جحش ؓ قالت: يا رسول الله، أنهلك وفينا الصالحون؟ قال: «نعم، إذا كثرت الخبث»^(٤).

فالآيتان والحديث محمولة على عدم قيام الآخرين بواجب الأمر بالمعروف والنهي عن

(١) «صحيح سنن ابن ماجه» (٢١٦٠) والترمذي (١١٦٣) وقال حسن صحيح، والطبراني في الكبير (١٧/٥٩) والنسائي في «السنن الكبرى» (١١٢، ٤١٠٠) و«المسند» (٤٦٥/٢٥) (١٦٠٦٤)، قال محققوه:

حديث صحيح وفيه ابن الأوصى، مجهول الحال، وبقية رجاله الإسناد ثقات.

(٢) «صحيح سنن أبي داود» (٣٥٤٥، ٣٧٧٣) والترمذي في «الشمائل» (٤٤) والنسائي (٤٨٤٧) والبيهقي (٢٧/٨)، ومسند أحمد (٧١١٨) قال محققوه: رجاله ثقات رجال الصحيح غير عبد الله بن أحمد فمن رجال النسائي وهو ثقة.

(٣) «صحيح مسلم» برقم (١٠١٧) من حديث المنذر بن جرير عن أبيه.

(٤) «صحيح مسلم» (٢٨٨٠) و«صحيح البخاري» (٣٣٤٦، ٣٥٩٨، ٧٠٥٩).

المنكر، فإذا لم تتمعر وجوههم غضباً لله تعالى، ورضوا بأفعالهم، وسكتوا عنها، عمهم العقاب، كما قال تعالى: ﴿فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ أَنْجَيْنَا الَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ الشُّؤْمِ وَأَخَذْنَا الَّذِينَ ظَلَمُوا بِعَدَابٍ بَئِيسٍ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ﴾ [الأعراف].

ولما كانت عادة الناس في الدنيا أن أحدهم إذا استنجد، أو استغاث بغيره من ضرر دنيوي رفعه عنه، فأغاثه وأنجده، فقد بين سبحانه أن هذه الحالة لا يقاس عليها أحوال الناس في الآخرة، فحكم الله تعالى عادل مطّرد مستمر، وستته قائمة فيهم، ذلكم ما ينبه عليه قول الله تعالى: ﴿وَإِنْ تَدْعُ نَفْسٌ مَثْقَلَةً﴾ بالذنوب، نفساً أخرى، فتسألها أن تحمل عنها شيئاً من خطئها، فتدعوها ﴿إِلَى حِمْلِهَا﴾ لم تجد من يحمل عنها شيئاً ولو كان أقرب الناس إليها، كالأخ أو الابن أو الأب أو الأم أو الزوجة، فإنه ﴿لَا يُحْمَلُ مِنْهُ شَيْءٌ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ﴾. فحال الآخرة ليس كحال الدنيا، يساعد فيه الحميم حميمه، والصديق صديقه، بل إن يوم القيامة يتمنى فيه العبد لو كان له حق على أحد حتى ولو على والده وولده.

في حديث عمر رضي الله عنه: أن النبي ﷺ قال: «إن الميت يُعَذَّبُ ببعض بكاء أهله عليه»، فقال ابن عباس: فلما مات، ذكرت ذلك لعائشة، فقالت: يرحم الله عمر، لا، والله! ما حدث رسول الله ﷺ: إن الله يعذب المؤمن ببكاء أحد، ولكن قال: «إن الله يزيد الكافر عذاباً ببكاء أهله عليه»، قال: وقالت عائشة: حسبكم القرآن ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾ قال: وقال ابن عباس عند ذلك: والله أضحك وأبكى^(١).

فالله تعالى عدل في حكمه، ولا يؤاخذ نفساً بذنب غيرها، ولا غيّاث يومئذ لمن استغاث، وإن كان المستغاث به أقرب الناس إليه، وهذا كقوله تعالى: ﴿يَوْمَ يَفِرُّ الْفَرُّ مِنْ أَخِيهِ ۖ وَأُمِّهِ وَأَبِيهِ ۖ وَصَاحِبَتِهِ وَبَنِيهِ ۖ لِكُلِّ امْرِئٍ مِنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ﴾ [عبس] وقوله: ﴿يَتَأْتِيهَا النَّاسُ انْفِقُوا رَبِّكُمْ وَأَخْشَوْا يَوْمًا لَا يَجْزِي وَالِدٌ عَنْ وَلَدِهِ وَلَا مَوْلُودٌ هُوَ جَارٍ عَنِ وَالِدِهِ شَيْئًا﴾ [لقمان: ٣٣].

وفي هذا بيان أنه إذا استصرخت نفس يوم القيامة، تريد من يحمل عنها شيئاً من أوزارها،

(١) «صحيح مسلم» (٩٢٧، ٩٢٩) و«صحيح البخاري» (١٢٨٨).

فإنها لا تجد من يجيئها إلى ذلك .

وهذا لا ينافي الشفاعة العظمى يوم القيامة، ولا ينافي ما جعله الله من مكفرات الذنوب .

ثلاثة أوصاف لمن ينتفع بالموعظة :

ثم أشار سبحانه إلى أن هذا الكلام فيه موعظة لغير المسلمين وتخويف لهم، وإبطال لأوهامهم ومزاعمهم في أمر البعث والحساب والجزاء، ولذا: فإن الآية وجهت الخطاب إلى النبي ﷺ لبيان أن هذه المواعظ لم تُجد في غير أهل الإيمان شيئاً، وأن الذي ينتفع بالمواعظ هم المؤمنون الموصوفون بثلاثة أوصاف، هي:

الخوف من الله تعالى، وإقام الصلاة، وطهارة النفس من الشرك والدنس .

وعن الوصف الأول قال تعالى: ﴿إِنَّمَا تُنذِرُ﴾ يا رسولنا بالقرآن فينفع إنذارك ووعظك ﴿الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِالْغَيْبِ﴾ دون أن يروه سبحانه، أو يروا عذابه، فهم الذين يخشونه في السر والعلن، والغيب والشهادة، يخافون من الله وهم لم يروه، ويخشون عذابه وهم لم يطلعوا عليه، كما قال تعالى: ﴿فَذَكِّرْ بِالْقُرْآنِ مَنْ يَخَافُ وَعِيدِ﴾ [ق: ٤٥].

وقال سبحانه: ﴿إِنَّمَا تُنذِرُ مَنِ اتَّبَعَ الذِّكْرَ وَخَشِيَ الرَّحْمَنَ بِالْغَيْبِ﴾ [يس: ١١].

فهم يخافون الله تعالى في خلوتهم وجلوتهم. وسرهم وعلانيتهم.

والوصف الثاني لمن ينتفعون بالموعظة، أنهم لم يفرطوا في أداء الصلاة، فحافظوا عليها بخشوع وخضوع واطمئنان ﴿وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ﴾ بحدودها وشروطها وواجباتها وأركانها وسننها، وأدوها مع جماعة المسلمين في أوقاتها .

وإقامة الصلاة من خصائص المسلم، فهي تنهاه عن الفحشاء والمنكر، والخشية تستدعي العمل بما يرضى الله والهرب مما يسخط الله، وفي هذين الوصفين إخلاص الإيمان في الاعتقاد والعمل .

والوصف الثالث لمن ينتفعون بالوعظ والإرشاد، أنهم الذين زكوا أنفسهم وطهروها من دنس الشرك ﴿وَمَنْ تَزَكَّى فَإِنَّمَا يَتَزَكَّى لِنَفْسِهِ﴾ أي: إن ثمرة التطهر تعود عليه، فصلاحه وتقواه لنفسه، ومن تطهر من دنس الكفر والفسوق والعصيان، والرياء والشرك والكبر والخداع

والنفاق، وتحلى بالأخلاق الحميدة كالصدق والإخلاص، وحصّن نفسه بالإيمان والعمل الصالح، والتوبة النصوح، فإن ثمرة هذه التزكية ترجع إليه بالأجر والثواب في الآخرة. وتزكية النفس تشمل: طهارة البدن من الدنس، وطهارة النفس من الذنوب والمعاصي، وطهارتها من الشرك.

وإلى الله المرجع والمصير، فيحاسب كل نفس على ما قدمت، ويجازيها بما عملت.

أَرْبَعَةُ أَمْثَلَةٍ لِلْكَفْرِ وَالْإِيمَانِ

١٩-٢١- ﴿وَمَا يَسْتَوِي الْأَعْمَىٰ وَالْبَصِيرُ^(١) ﴿٢١﴾ وَلَا الظُّلُمَاتُ وَلَا النُّورُ^(٢) ﴿٢٢﴾ وَلَا الظِّلُّ وَلَا الْحَرُورُ﴾

ثم ضرب الله سبحانه أربعة أمثلة للمؤمن والكافر، والإيمان والكفر وبين أنهما لا يستويان أبداً ولا يلتقيان، فلا يستوي الأعمى عن الحق الذي لا يبصر طريق الرشاد، بالبصير الذي سلك طريق الهدى واتبع رسول الإسلام.

ولا يستوي ظلمات الكفر بنور الإيمان، ولا يستوي الظل البارد بالريح الحارة المحرقة، ولا يستوي مَنْ أحيا الله قلبه بالإيمان، بمن أ مات قلبه بالكفر، وأعمى بصيرته عن الهدى. فشبه سبحانه الكافر بالأعمى والميت، وشبه المؤمن بالبصير والحي.

وشبه الكفر بالظلمات، وشبه الإيمان بالنور.

وشبه الإيمان بالظل الوارف البارد.

وشبه ريح الكفر، بالحرور - أي: حر الشمس - أو ريح السموم الحارة - بالميت.

وكل ذلك تشبيه للمعقول بالمحسوس، فقابل القرآن بين الأعمى والمبصر، وبين الظلمة والنور، وبين الظل ووهج الشمس، وبين الحي والميت ﴿وَمَا يَسْتَوِي الْأَعْمَىٰ﴾ عن دين الله ﴿وَالْبَصِيرُ﴾ الذي أبصر طريق الحق واتبعه، فالكفر عمى في القلب، عمى عن دلائل الحق وطريق الهدى.

وكما لا يستوي في عرف عاقل الأعمى والبصير، كذلك لا يستوي الكافر والمؤمن،

(١)، (٢) ترك العدد البصري، لفظ (البصير) ولفظ (ولا النور) من عدّ الآي وعدهما غيره.

ولا تستوي ظلمات الكفر ونور الإيمان، وكما لا تصلح المساواة بين الظلمات والنور، كذلك لا تصلح المساواة بين الكفر والإيمان.

ولا يستوي الظل البارد بالريح الحارة، ولا يستوي المكان الظليل مع المكان الشديد الحرارة. وهكذا ضرب الله الظلّ مثلاً للجنة، وظلها الظليل، وأشجارها اليبانة، كما ضرب مثلاً للنار بشدة حر الشمس المتوهجة، فالجنة مستقر الأبرار، والنار مستقر الفجار.

وكما أنكم لا تشكون في الأمور المحسوسة، وأن هذه الأمور لا تستوي، فكذلك الشأن في الأمور المعنوية لا تقبل الشك، فلا يستوي المهتدي والضال، ولا العالم والجاهل، ولا أصحاب الجنة وأصحاب النار، وهكذا، فاختر لنفسك - أيها العبد - ما شئت فإنك محاسب ومُجَارَى عليه. قال تعالى:

٢٢، ٢٣ - ﴿وَمَا يَسْتَوِي الْأَحْيَاءُ وَلَا الْأَمْوَاتُ إِنَّ اللَّهَ يُسْمِعُ مَن يَشَاءُ وَمَا أَنْتَ بِمُسْمِعٍ مَّن فِي الْقُبُورِ﴾ (١) ﴿إِنَّ أَنْتَ إِلَّا نَذِيرٌ﴾ (٢) ﴿٢٣﴾

أي: ولا يستوي أحياء القلوب بالإيمان، وأموات القلوب بالكفر، ولا يستوي العقلاء والجهلاء، وهكذا ﴿لَا يَسْتَوِي أَصْحَابُ النَّارِ وَأَصْحَابُ الْجَنَّةِ﴾ [الحشر: ٢٠].

قال قتادة: خُلِقَ فَضْلُ بَعْضِهِ عَلَى بَعْضٍ، فَأَمَّا الْمُؤْمِنُ فَعَبْدٌ حَيٌّ، حَيٌّ الْأَثَرُ، حَيٌّ الْبَصَرُ، حَيٌّ النِّيَّةُ، حَيٌّ الْعَمَلُ. وَالْكَافِرُ عَبْدٌ مَيِّتٌ، مَيِّتُ الْبَصَرِ، مَيِّتُ الْقَلْبِ، مَيِّتُ الْعَمَلِ (٣).

قال أبو حيان: وترتيب هذه الأشياء، في بيان عدم الاستواء، جاء في غاية الفصاحة، فقد ذكر الأعمى والبصير مثلاً للمؤمن والكافر، فذكر ما عليه الكافر من ظلمة الكفر، وما عليه المؤمن من نور الإيمان، ثم ذكر مآلهما، وهو الظل والحرور، فالمؤمن بإيمانه في ظل وراحة، والكافر بكفره في حرٍّ وتعَبٍ.

ثم ذكر مثلاً آخر على أبلغ وجه، وهو الحي والميت، فالأعمى قد يكون فيه بعض النفع، بخلاف الميت.

(١) ترك الدمشقي عد (من في القبور) آية، وعدّها غيره.

(٢) ترك الحمصي قوله تعالى: (إلا نذير) من العدد، وعدّها غيره.

(٣) «تفسير الطبري» (٢٥٧/٩)، (٣٥٤/١٩).

وَجَمَعَ الظلمات، لأن طرق الكفر متعددة، وأفرد النور، لأن التوحيد والحق واحد لا يتعدد.
وقدّم الأشرف في المثاليين الأخيرين، وهما الظل والحرور، وقدّم الأوضح في المثاليين الأولين، وهما: الأعمى والظلمات؛ ليظهر الفرق جلياً.
ولا يقال: إن ذلك لأجل السجع؛ لأن معجزة القرآن ليست في اللفظ وحده، بل في المعنى أيضاً^(١).

وفي هذا يقول تعالى: ﴿أَوْ مَن كَانَ مَيِّتًا فَأُحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِنْهَا﴾ [الأنعام: ١٢٢].
ويقول أيضاً: ﴿مَثَلُ الْفَرِيقَيْنِ كَالْأَعْمَى وَالْأَصْبَرِ وَالْبَصِيرِ وَالسَّمِيعِ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا﴾ [هود: ٢٤].
وفي وصف (الحرور) يقول تعالى: ﴿وَوَيْلٌ لِّمَنِ يَحْمُورُ ﴿٤٣﴾ لَا بَارِدٌ وَلَا كَرِيمٌ ﴿٤٤﴾﴾ [الواقعة].
ثم إن الله تعالى أعذر نبيه في تبليغ الدعوة لأهل الجنة وأهل النار، فبين سبحانه أن مهمة الرسول هي مجرد البلاغ.

والله تعالى هو الذي يُسمع من يشاء سماع فهم وقبول، أما أنت - أيها الرسول الكريم - فكما أنه ليس بإمكانك أن تُسمع الموتى في قبورهم، فكذلك لا تستطيع أن تُسمع الكفار سماع قبول وفهم؛ لأنهم موتى القلوب ﴿إِنَّ اللَّهَ يُسْمِعُ مَن يَشَاءُ﴾ فيتفهم بما يسمع كحال المؤمنين الذين وصفهم الله تعالى بقوله: ﴿الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ هَدَاهُمُ اللَّهُ وَأُولَٰئِكَ هُمْ أُولُو الْأَلْبَابِ ﴿٨﴾﴾ [الزمر].

﴿وَمَا أَنْتَ بِمُسْمِعٍ مَّن فِي الْقُبُورِ﴾ وهذا تشبيه للكافر في عدم انتفاعه بهدي القرآن وإعراضه عن سماعه - بالموتى الذين دُفِنوا في القبور، فكما أن سكان القبور لا يستفيدون شيئاً، فإن المعرض المعاند لا يستفيد شيئاً من دعوة الهدى.

وقد كان الكفار يوصي بعضهم بعضاً بعدم الاستماع للقرآن، والتهريج عندما يُلقى على مسامعهم ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَسْمَعُوا لِهَٰذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٢١﴾﴾ [فصلت].

فسبب عدم انتفاعهم بالقرآن، هو موت قلوبهم، فكانهم أموات في قبورهم، وجسد

(١) «البحر المحيط» باختصار وتصرف (٣٠٩/٧).

الميت الذي في القبر أو في غيره لا يسمع، أما الأرواح فليست في القبر، وقد ورد أن أرواح الشهداء في حواصل طير خضر ترد أنهار الجنة، وتأكل من ثمارها، وأن أرواح المؤمنين في شجر أو قناديل تحت العرش، أما أرواح الكفار فهي في سجين.

وفي بعض الأحيان ترد الأرواح إلى الأجساد في القبور فتسمع، كما أخبر النبي ﷺ: «أن الميت ليسمع خفق نعال أهله عند ردّ روحه إليه حال سؤال الملكين»^(١).

وكما أخبر ﷺ عن أهل قلب بدر، حين خاطبهم بعد قتلهم قائلاً: «هل وجدتم ما وعد ربكم حقاً؟ ولما قيل له: أيسمعون ما تقول؟ قال: «ما أنتم بأسمع لما أقول منهم»^(٢).

فلا تعارض بين هذه الآية وحديث أهل القلب ونحوه؛ لأن الله تعالى يرُدُّ الأرواح إليهم أحياناً لتوبيخ الأحياء من الكفرة، أو لبشرى المؤمنين.

ولما كان النبي ﷺ مهتماً بإيمان الجاحدين المكذبين، ويشق عليه عدم إيمان المشابهين لمن في القبور، أخبره ربه أن مهمته مقصورة على إنذارهم، وتخويفهم غضب الله ومقته إن لم يؤمنوا، وفي هذا إعذار للنبي ﷺ بأنه ليس بمُدْخِل الإيمان في قلوبهم ﴿إِنَّ أَنْتَ إِلَّا نَذِيرٌ﴾^(٣) أي: وما أنت إلا منذر للناس عذاب الله إذا استمروا على كفرهم، أما الهداية والضلال فمن الله وحده.

دَعْوَةُ اللَّهِ تَعَالَى عَمَّتِ الْخَلَائِقَ جَمِيعًا عَلَى مَدَى التَّارِيخِ الْإِنْسَانِيِّ

٢٤- ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَإِنْ مِنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ﴾^(٤)

بيّن سبحانه في هذه الآية، أن قُضِرَ رسالة النبي محمد ﷺ على الإنذار في الآية السابقة أمر خاص بالمشرّكين، أما حقيقة الرسالة فهي تجمع بين البشارة والإنذار، فالبشارة لمن قَبِلَ

(١) صححه الألباني بلفظ (إن الميت إذا انصرفوا) الآيات البيّنات ص ٥٥ وفي مسند أحمد (٩٧٤٢) عن أبي هريرة بلفظ (إذا ولّوا مدبرين) قال محققوه: حديث صحيح لغيره، وفيه عبدالرحمن بن كريمة، متكلم فيه، وأخرجه ابن أبي شيبة (٣/٣٧٨) والبخاري في كشف الأستار (٧٨٣) وابن حبان (٣١١٨).

(٢) في البخاري عن أبي طلحة (٣٧٥٧) وفي مسلم عن عمر (٢٨٧٣) يُنْظَرُ الحديث في «المسند» عن عمر (١٨٢) وعن أنس (١٢٠٢٠) وعن أبي طلحة (١٦٣٥٦) وعن ابن عمر (٦١٤٥).

الهدى، والندارة لمن أعرض عن الإيمان بالله وشرائع الدين، فقد أرسلناك -أيها الرسول - مبشراً بالجنة من صدّقك وعمل بهديك، ومحذراً من كذبك وعصاك من عذاب النار.

وما من أمة من الأمم ينتهي نسبها إلى جدّ واحد، يجمع قبائل كثيرة في مواطن متجاورة، إلا أرسل الله إليهم رسولاً أو نبياً، يخوّفهم عذاب الآخرة إن لم يؤمنوا، وهذه الأمم: كالفرس والروم والصين والهند واليونان والبربر والعرب... إلخ، قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِّن قَبْلِكَ مِنْهُمْ مَّن قَصَصْنَا عَلَيْكَ وَمِنْهُمْ مَّن لَّمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ﴾ [غافر: ٧٨].

ومن هذه الأمم من علّمناها، ومنهم من انقرض ولم يبق له أثر ﴿وَإِن مِّن أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ﴾ يحذرهما عاقبة كفرها وضلالها، وحكمة الإنذار؛ لئلا يبقى الضلال رائجاً، مع استمرار الدعوة، سواء آمنوا أم لم يؤمنوا.

وقد اقتصر القرآن على ذكر الرسل والأنبياء الذين كانوا في بلاد العرب دون غيرها؛ لأن العرب كان لهم علم بأخبارهم، وشهدوا آثارهم، فكان الاعتبار بهم أوقع، ولو ذكر لهم قصص أمم لا يعرفونها لكانت مجرد حكاية لا عبرة فيها، ولأن القرآن نزل بلغة العرب، ولو نزل بلغة الهند مثلاً لقل: لماذا لم ينزل بلغة فارس؟! ولو نزل بلغتهم لقل غير ذلك، وهكذا دواليك.

ولا يمنع أن تكون هذه البقعة من العالم - المنطقة العربية - قد خصها الله تعالى بنزول الوحي على رسله فيها، لمزيد فضل و مزية، ولأنها تتوسط العالم، والله أعلم حيث يجعل رسالته.

وقد اقتصر عَجَزُ الآية على أن الله تعالى أرسل في كل أمة نذيراً دون بشير؛ لأن من الأمم من لم يؤمن، فلم تحصل لهم البشرى، ووَصِفُ النذير أنسب في مقام التكذيب.

فقد جاء في الحديث: عن ابن عباس ؓ أن النبي ﷺ قال: «عُرِضَتْ عَلَيَّ الْأُمَمُ، فجعل النبي يمرُّ معه الرهيط، والنبي يمرُّ معه الرجل والرجلان، والنبي يمرُّ ليس معه أحد»^(١). وذلك لأنه لم يستجب له أحد من قومه.

(١) من حديث طويل في «صحيح مسلم» (٢٢٠) و«صحيح البخاري» (٣٤١٠، ٥٧٠٥٠، ٥٧٠٥٢).

ونظير هذه الآية قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا أَنْتَ مُنذِرٌ وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ﴾ [الرعد: ٧].

وقوله: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ فَمِنْهُمْ مَنْ هَدَى اللَّهُ وَمِنْهُمْ مَنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلَالَةُ﴾ [النحل: ٣٦].

فإن كانت آثار الرسالة باقية فهي لا تخلوا من نذير، وإن اندثرت معالم الرسالة السابقة أرسل الله لهم رسولاً، كما حدث بين عيسى ومحمد عليهما السلام.

فقد أرسل الله محمداً ﷺ على فترة انقطاع من الرسل، اندثرت فيها رسالة عيسى، وأصبح العالم في حاجة ماسة إلى وجود رسول يخرجهم من الظلمات إلى النور، فكانت رسالة محمد ﷺ رحمة للعالمين ﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ عَلَى فَتْرَةٍ مِنَ الرُّسُلِ أَنْ تَقُولُوا مَا جَاءَنَا مِنْ بَشِيرٍ وَلَا نَذِيرٍ فَقَدْ جَاءَكُمْ بَشِيرٌ وَنَذِيرٌ﴾ [المائدة: ١٩]

فدعوة الله تعالى قد عمّت الخلائق جميعاً، لأن آدم عليه السلام قد بعثه الله إلى بنيهِ، ولم تنقطع النذارة والبشارة في بنيهِ من لدن عهده إلى بعثة محمد ﷺ.

وذكر أهل الفترة على سبيل الفرض، وليس لأنه توجد أمة لا تعلم أن في الأرض دعوة إلى عبادة الله وحده^(١).

٢٥- ﴿وَإِنْ يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ وَبِالْكِتَابِ الْمُنِيرِ﴾

وإن يكذبك - أيها الرسول - هؤلاء المعرضون عن دعوتك، فلست أول رسول يكذب، فقد كذب الذين من قبلك رسلهم مع مجيئهم لهم بالمعجزات البينات، والآيات الواضحات الدالة على نبوتهم، فكذبوهم وأنكروا ما جاؤوا به من عند الله تعالى، فلا تحزن، ولا تحسب أنهم سيفلتون من العقاب، بل سيحل بهم ما حلَّ بمن قبلهم من الأمم السابقة الذين جاءتهم رسلهم بالحجج المختلفة، منها خوارق عادات، مثل: قوم صالح، وقوم هود، وقوم لوط.

ومنهم من جاءتهم رسلهم بالصحف وبالزبر، وهي المواعظ التي تُكتب وتُحفظ، وترددها الألسنة: كزبور داود، وكتب أنبياء بني إسرائيل مثل: أرمياء، وإيلياء.

(١) يُنظر: «تفسير ابن عطية» (٦/٤٣٦).

ومنهم من جاء بالكتب والشرائع مثل: إبراهيم، وموسى، وعيسى، ومحمد صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين. وأشهر الكتب السماوية: التوراة، والإنجيل، والزبور، والقرآن، وصحف إبراهيم وموسى، وكلها موزعة على الرسل.

وحرف الباء يشير إلى هذا المعنى، فالمراد بالبينات في الآية: الدلائل والبراهين الدالة على صدق الرسل، والمراد بالزبر: الكتب المكتوبة، والمراد بالكتاب المنير، أي الكتاب المضيء بأخباره الصادقة وأحكامه العادلة، فتكذيبهم ناشيء من الظلم والعناد، وليس من قصور أو اشتباه فيما جاءت به الرسل، وهذه الآية سيقى لتسليّة النبي ﷺ.

وذلك عكس ما جاء في سورة آل عمران في قوله تعالى: ﴿إِن كَذَّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَ رَسُولٌ مِّن قَبْلِكَ جَاءُوا بِالْبَيْنَاتِ وَالزُّبُرِ وَالْكِتَابِ الْمُنِيرِ﴾ [آل عمران: ١٨٤]. فهي هناك في الرد على زعم أهل الكتاب أنه لا تُقبل معجزة أي رسول حتى يأتي بقرآن تأكله النار؛ وكل رسول أتى بأصناف من المعجزات، ومنها القرابين التي تأكلها النار، ولذا جُرِّدت آية سورة (آل عمران) من الباء في الزبر والكتاب، قال تعالى:

٢٦- ﴿ثُمَّ أَخَذْتُ الَّذِينَ كَفَرُوا فَكَيْفَ كَانَتْ نَكِيرٌ﴾

أي: وبعد إمهال الكفار الذين لم يؤمنوا برسول الله، مع وجود البراهين الواضحة الدالة على صدق دعواهم، أجزد الله الذين كفروا أخذًا عجيبًا بأنواع العذاب المختلفة، فانظر - أيها المخاطب - كيف كان إنكاري عليهم وحلول عقوبتي بهم؟! فقد بدل الله نعمتهم نقمة، وسعادتهم شقاء، وقصورهم خرابًا، وهكذا يفعل سبحانه بمن كذب رسله، فإياكم وتكذيب الرسل حتى لا يصيبكم ما أصاب من قبلكم من الخزي والعذاب الأليم.

فِي رِحَابِ الْعِلْمِ التَّجْرِييِّ

٢٧- ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ ثَمَرَاتٍ مُّخْتَلِفًا أَلْوَانُهَا وَمِنَ الْجِبَالِ جُدَدٌ بَيَضٌ وَحُمْرٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَانُهَا وَعَرَبِيَّةٌ سُودٌ﴾

(١) قرأ ورش بإثبات الباء وصلًا من (نكير) ويعقوب بإثباتها وصلًا ووقفًا، والباقون بحذفها في الحالين.

وبعد أن بيّن سبحانه اختلاف أحوال الناس في قبول الهدى أو رفضه؛ ليُظهر في عالم الوجود ما تنطوي عليه نفوسهم من الخير أو الشر، بيّن جلّ شأنه أن هذا الاختلاف بين جميع الكائنات أمرٌ فطر الله عليه جميع مخلوقات العالم الأرضي.

١- ألوان الثمار: وقد خطب النبي ﷺ بذلك لدفع غمّه وهَمّه من عدم انتفاع المشركين بالقرآن ﴿أَلَمْ تَرَ﴾ أي: تبصر أيها المخاطب ﴿أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً﴾ أي: أنزل المطر من السحاب بقدرته، فسقينا به أشجاراً في الأرض، فأخرجنا به ثمرات ﴿تُخْلِفُ أَلْوَانُهَا﴾ أي: أخرجنا من هذه الأشجار ثماراً متعددة الألوان، منها الأحمر والأصفر والأسود وغير ذلك، بعضها حلو المذاق، وبعضها مر الطعم، وهي تسقى بماء واحد، كما قال تعالى: ﴿وَفِي الْأَرْضِ قِطْعٌ مُّتَجَبِّرٌ وَجَنَّتٌ مِّنْ أَعْنَابٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنَوَانٌ وَعَيْرٌ صِنَوَانٍ يُسْقَى بِمَاءٍ وَاحِدٍ وَنُفِضَ لِّبَعْضِهَا عَلَى بَعْضٍ فِي الْأَكْثَلِ﴾ [الرعد: ٤].

ومن آياته اختلاف ألوان الأصناف من النوع الواحد، كاختلاف ألوان التفاح مع ألوان السفرجل، وألوان العنب مع ألوان التين، وكذلك اختلاف الألوان في الصنف الواحد، كاختلاف ألوان التمور والزيتون والأعنان والتفاح والرمان.

وقدّم اختلاف ألوان الثمرات في الآية على غيرها؛ لأنها تشبه اختلاف الناس في المنافع والمدارك والعقائد، كما جاء في حديث أبي موسى الأشعري رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «مثل المؤمن الذي يقرأ القرآن مثل الأترجة، ريحها طيب وطعمها طيب، ومثل المؤمن الذي لا يقرأ القرآن مثل الثمرة، لا ريح لها وطعمها حُلُو، ومثل المنافق الذي يقرأ القرآن مثل الريحانة، ريحها طيب وطعمها مرٌّ، ومثل المنافق الذي لا يقرأ القرآن كمثّل الحنظل لا ريح لها وطعمها مرٌّ»^(١).

وثمرات النخيل أكثر الثمار ألواناً، فإن ألوانها تختلف باختلاف أطوارها، فمنها: الأخضر والأصفر والأحمر والأسود والأبيض.

٢- ألوان الجبال: وبعد ذكر ألوان الثمار، يأتي ذكر ألوان الجبال، ففي ألوان الصخور شبهٌ عجيب بألوان الثمار وتعددتها وتنوعها ﴿وَمِنَ الْجِبَالِ جُدَدٌ بَيَضٌ وَحُمْرٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَانُهَا

(١) من حديث أبي موسى الأشعري في «صحيح مسلم» (٧٩٧) والبخاري (٥٢٠، ٥٠٥٩) وغيرهما.

وَعَرَبِيْبٌ سُودٌ ﴿٢٧﴾ أي: وخلقنا من الجبال طرقًا وشعابًا مختلفة في درجة اللون، ففي بعض الجبال توجد جُدَد، أي: طرق في صخور بيضاء ذات عروق تشبه المرجان مثل المرمر، أو ما يقرب من البياض كالتراب الأبيض، والجير والجص، ومنها جبال تتكون من حجارة حمراء، ومن الجبال ما هو أسود شديد السواد، فسبحان الخلاق العليم.

وَالْجُدَّة: هي الخطة التي تكون في ظهر الحمار، تخالف لونه، وهي الطريقة أيضًا.

والغريب: هو الشيء الأسود الحالك، شديد السواد، كما يقال: أسود غريب.

٣- أما ألوان الناس والدواب والأنعام فجاءت في قوله تعالى:

٢٨- ﴿وَمِنَ النَّاسِ وَالْدَّوَابِّ وَالْأَنْعَامِ خُلِقَ الْوَنَمُ كَذَلِكَ إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾ (١) إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ ﴿٢٨﴾

أي: وخلق الله من الناس ألوان أصناف البشر، وهي الأبيض والأسود والأصفر والأحمر، وبين ذلك ﴿وَمِنَ الْإِنْسَانِ خُلِقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْأَنْعَامِ وَالْأَنْعَامِ﴾ [الروم: ٢٢].

أي وخلق الله من جميع أنواع الدواب كالخيل والبغال والحمير ألوانًا مختلفة، والدواب أشمل من الأنعام، فاختلاف الألوان ليس مقصورًا على الفواكه والثمار، بل يشمل طبقات الأرض، والجبال الصلبة، ويشمل الناس والدواب والأنعام، هذا أبيض، وهذا أحمر، وهذا أسود ﴿فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ﴾ [المؤمنون: ١٤].

وهكذا: خلق الله الأشياء المتضادة، أصلها واحد، ومادتها واحدة، وفيها من الفرق والتفاوت ما هو مشاهد لا ينكر، ليدل العباد على كمال قدرته تعالى وبديع حكمته، فهذه الأرض واحدة، والماء واحد، ومع ذلك يُخرج الله به ثمرات مختلفة ونباتات متنوعة، الماء واحد، وما يخرج منه متعدد متنوع، وهذه الجبال، مادتها واحدة، وألوانها متعددة، وفيها الأبيض والأصفر والأحمر وشديد السواد، وهؤلاء الناس والدواب والأنعام،

(١) قرأ نافع وابن كثير وأبو عمرو وأبو جعفر ورويس بتسهيل الهمزة الثانية من (العلماء إن) ويبدلها واوًا خالصة، والباقيون بتحقيقها.

أصلها واحد، ومادتها واحدة، وهي مختلفة الأشكال والأصناف والأنواع والألوان والألْسُن، وهذا التفاوت في المخلوقات دليل عقلي على عظيم قدرة الله تعالى وسعة علمه، وأنه سبحانه يبعث من في القبور.

وقد سبقت هذه الآيات للحث على التأمل وإمعان النظر في عجائب صنع الله تعالى، وعظيم قدرته، وهي دعوة حارة إلى تدبر آيات الله في العالم، وكشف أسرارهِ في الكون.

فالتفكر في ذات الله سبحانه لا يؤدي إلى نتيجة؛ لأن العقل المخلوق لا يدرك كنه الخالق سبحانه، والعقل المحدود لا يدرك الكمال المطلق، كما أن جهاز الحاسوب مثلاً لا يمكنه أن يحيط علماً بحقيقة المهندس الذي صمّمه، ولله المثل الأعلى، فلم يبق سبيل إلى معرفة الخالق جلّ شأنه إلا عن طريق النظر في مخلوقاته، وهو دليل لا يُكذَّب.

إنك تقف في مزرعة أو حديقة، فتجد ألواناً من الزروع والثمار مختلفة الطعم واللون والروائح، وكلها تخرج من طينة واحدة، وتُسقى بماء واحد.

فإذا رفعتَ بصرَكَ إلى السماء وجدت شمساً ساطعة، وقمرًا منيرًا، ونجومًا مبعثرة في الآفاق على أبعاد سحيقة، تدل على عالم ضخم فخم.

وكل ذلك أثر من آثار قدرة الخالق العظيم؛ ليؤدي ذلك إلى العلم بعظمة الله وجلاله، ويؤدي هذا العلم إلى خشيته سبحانه.

ولذا فإن الله تعالى ختم الآيتين بقوله: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾ أي: إنما يخشى الله ويتقي عقابه، بطاعته واجتناب معاصيه: العلماء به سبحانه، وبصفاته، وبشرعه، وبقدرته على كل شيء، ومنها اختلاف المخلوقات مع اتحاد سببها؛ كي يتدبروا ما فيها من عظات وعبر، فكل من كان بالله أعلم، كانت خشيته له أكثر، فابتعد من المعاصي، واقترب من الطاعات، واستعدَّ للقاء الله.

وسياق الآية ظاهر في أن المقصود بالعلماء هنا: علماء النبات والحيوان، وعلماء طبقات الأرض، وعلماء الفيزياء والكيمياء، فضلاً عن علماء الطب والهندسة والفلك، وما إلى ذلك.

والشرط الوحيد أن تكون أبحاث هؤلاء العلماء جميعاً مرتبطة بالواحد الأحد، على

أنها من آثار قدرة الله تعالى وبديع صنعه.

فإذا انقطعت الصلة بين الله سبحانه وبين هذه العلوم، فلا قيمة لها، ولا وزن لها عند الله تعالى، وليس لها أثر في إيمان العبد ولا في تقويم أخلاقه، ولا في نفع العباد والبلاد، فقد وصف الله تعالى عِلْمَ الكفار بقوله: ﴿يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِّنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ الْآخِرَةِ هُمْ غَفْلُونَ﴾ [الروم].

أما من أدرك منهم أن الله تعالى أهلٌ للتسبيح والتحميد والتمجيد والإفراد بالعبودية، فهم الذين تعينهم هذه الآية؛ لأنهم عرفوه حق معرفته، فالكون كتاب مفتوح، والعلماء يتدبرون صفحاته، ويستشعرون عظيم قدرته سبحانه، وحقيقة إبداعه.

فأهل العلم المرتبط بخالق الكون، هم أهل الخشية، وأهل الخشية هم أهل الكرامة ﴿رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ﴾ [البينة: ٨]

ومن العجب العجائب أن تظل المصطلحات الطبية ونحوها تدرس بغير اللغة العربية في بلاد العرب، وليس لها ارتباط بخالق الإنسان ومبدعه، فهي مجردة من الإيمان والخشية.

ومن الأحاديث والآثار الواردة في الخشية

(أ) ما جاء في الصحيحين عن عائشة رضي الله عنها قالت: صنع رسول الله ﷺ شيئاً فرخص فيه، فتنزه عنه قوم، فبلغ ذلك النبي ﷺ فخطب، فحمد الله، ثم قال: «ما بال أقوام يتنزهون عن الشيء أصنعه، فوالله إني لأعلمهم بالله، وأشدهم له خشية»^(١).

(ب) وعن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: خطب رسول الله ﷺ خطبة ما سمعتُ مثلها قط، فقال: «لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلاً ولبكيتم كثيراً»، فغطى أصحاب رسول الله ﷺ وجوههم، ولهم خنين.^(٢)

والخنين: هو البكاء مع انتشاق الصوت من الأنف.

(ج) وعن أبي أمامة رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «فضل العالم على العابد كفضلي على

(١) «صحيح البخاري» برقم (٦١٠١، ٧٣٠١) و«صحيح مسلم» برقم (٢٣٥٦).

(٢) يُنظَر: «صحيح البخاري» (٦٤٨٦) و«صحيح مسلم» (٢٣٥٩) واللفظ له.

أدناكم»، ثم تلا: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾ ثم قال: «إن الله وملائكته وأهل السموات وأهل الأرض والنون في البحر ليصلُّون على معلِّمي الناس الخير»^(١).

وأخرج الخطيب، عن سعيد بن المسيب قال: وضع عمر بن الخطاب ؓ للناس ثمانين عشرة كلمة، حَكَمَ كُلُّهَا، قال:

- ١- ما عاقبت من عصى الله فيك، بمثل أن تطيع الله فيه.
- ٢- وضَعُ أمر أخيك على أحسنه، حتى يَجِيئَكَ منه ما يَغْلِبُكَ.
- ٣- ولا تَظُنَّنْ بكلمة خرجت من مسلم شرًّا، وأنت تجد لها في الخير محملاً.
- ٤- ومن عَرَّضَ نفسه للثُّمَّة، فلا يُلومَنَّ من أساء الظن به.
- ٥- ومن كتم سرَّه كانت الخِيرةُ في يده.
- ٦- وعليك بإخوان الصدق تعش في أكنافهم، فإنهم زينة في الرخاء، عُدة في البلاء.
- ٧- وعليك بالصدق وإن قتلك.
- ٨- ولا تَعْرِضَ فيما لا يعني.
- ٩- ولا تسأل عما لم يكن، فإن فيما كان شُغلاً عما لم يكن.
- ١٠- ولا تَطْلُبَنَّ حاجتك إلى من لا يحب نجاحها لك.
- ١١- ولا تَهَاوَنَ بالحلف الكاذب، فيهلكك الله.
- ١٢- ولا تَصْحَبِ الْفُجَّارَ لِتَعْلَمَ من فجورهم.
- ١٣- واعتزل عدوك.
- ١٤- واحذر صديقك إلا الأمين، ولا أمين إلا من خشي الله.
- ١٥- وتخشع عند القبور.

(١) «صحيح سنن الترمذي» (٢١٦١) وصححه الألباني أيضًا في مشكاة المصابيح (٢١٣) التحقيق الثاني، وفي التعليق الرغيب (٦٠/١)، وهو عند الدارمي عن مكحول مرسلًا (٨٨/١).

١٦- وذِلَّ عند الطاعة.

١٧- واستعصم عن المعصية.

١٨- واستشِرْ في أمرك الذين يخشون الله، فإن الله تعالى يقول: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾^(١).

قال ابن مسعود رضي الله عنه: كفى بخشية الله علماً، وكفى بالاغترار بالله جهلاً^(٢).

وقال مسروق: كفى بالمرء علماً أن يخشى الله، وكفى بالمرء جهلاً أن يُعَجَّبَ بعمله.

وقال رجل للشعبي: أفتني أيها العالم، فقال الشعبي: إنما العالم من خشي الله تعالى.

وقال مقاتل: أشد الناس خشية لله أعلمهم به.

وقال ربيع بن أنس: من لم يخش الله فليس بعالم، ومن ازداد علماً بالله تعالى ازداد خشية منه.

وقال سعيد بن جبير: الخشية هي التي تحول بينك وبين معصية الله.

وقال ابن مسعود رضي الله عنه: ليس العلم عن كثرة الحديث، ولكن العلم عن كثرة الخشية.

وقيل: العلماء ثلاثة:

١- عالم بالله، عالم بأمره ونهيه، وهو الذي يخشى الله، ويعلم الحدود والفرائض.

٢- وعالم بالله، لا يعلم أمر الله، وهو الذي يخشى الله، ولا يعلم الحدود والفرائض.

٣- وعالم بأمر الله، غير عالم بالله، وهو الذي يعلم الحدود والفرائض، ولا يخشى الله، أي: أنه لا يعمل بعلمه^(٣).

والنوع الأول هم المعنيون في الآية، كما قال تعالى مخاطباً رسوله ﷺ: ﴿إِنَّمَا تُنذِرُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِالْغَيْبِ﴾ [١٨].

وقد ختم الله الآية بقوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ﴾ أي: قوي لا يغلبه أحد، ومن عزته تعالى

(١) الخطيب (١٤١).

(٢) ابن أبي شيبة (٢٩١/١٣) وأحمد في «الزهد» ص ١٥٨ والطبراني (٨٩٢٧) واللفظ له.

(٣) أخرجه ابن أبي حاتم عن أبي حيان التميمي عن رجل كما في «الدر المنثور» (٢٧٩/١٢) بتصرف.

خلق هذه المخلوقات المتضادة، وهو سبحانه ﴿عَفُوٌّ﴾ لمن تاب وأتاب، يقبل منهم التوبة إن تابوا، فيغفر لأهل الطاعة ويعفو عنهم.

وتقديم المفعول به، وهو ﴿اللَّهُ﴾ سبحانه، على الفاعل، وهو ﴿الْعَلَمُونَ﴾ معناه: أن الذين يخشون الله من عباده، هم العلماء دون غيرهم؛ لشدة معرفتهم بالله ﷻ.

فِي رَحَابِ الْقُرْآنِ وَنَعِيمِ أَهْلِهِ

٢٩- ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَابَ اللَّهِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَنفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً يَرْجُونَ تَجَرَّةً لَّنْ تَبُورَ﴾ ﴿٢٩﴾

وبعد أن أثنى الله تعالى على عباده العلماء العاملين، أخبر سبحانه عن صفات الذين يخافون الله ويرجون رحمته، فوصفهم بثلاثة أوصاف:

الوصف الأول: أنهم يتلون كتاب الله:

فكتاب الله تعالى لا يتلوه تعبدًا إلا من كان مصدقًا به، عاملاً بما جاء فيه، والتألون له يكتسبون منه العلم الشرعي، من: العقائد والأخلاق والتكاليف، وهم مداومون على هذه التلاوة في جميع أحوالهم: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَابَ اللَّهِ﴾ أي: يقرؤون القرآن ويدومون على تلاوته آناء الليل وأطراف النهار، ويعملون بما فيه.

فهم يتبعونه في أوامره فيمتثلونها، وفي نواهيه فيتركونها، وفي أخباره فيصدقونها، ولا يقدمون عليه غيره، وهم أيضا يتلونه حق تلاوته بإقامة ألفاظه وأحكامه العربية، كالغنن والمدود، وتحقيق مخارج الحروف وصفاتها، ومعرفة الوقوف، وما إلى ذلك.

الوصف الثاني: أنهم يقيمون الصلاة:

ثم أتبع تلاوة القرآن - وهو علامة قبول الإيمان والعلم به - بعلامة أخرى هي أعظم الأعمال البدنية، وهي إقامة الصلاة في قوله: ﴿وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ﴾ أي: داوموا عليها فأدوها في أوقاتها بخشوع وخضوع مع المحافظة على شروطها وأركانها وسُنَنِهَا.

فالصلاة عماد الدين، وعلامة الإسلام والإيمان، فمن ضيعها كان لما سواها أضيع، وهي أول ما يسأل عنه العبد يوم القيامة، وهي جواز السفر إلى دار النعيم، فإن صلحت

صلح ما بعدها، وهي أفضل العبادات البدنية.

الوصف الثالث: أنهم ينفقون أموالهم في وجوه الخير:

فقد أتبع الله تعالى تلاوة القرآن وأداء الصلاة بأعظم الأعمال المالية، وهو إنفاق المال في السر والعلن، على سبيل الجود أو على سبيل الاستحباب، فقال سبحانه: ﴿وَأَنْفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً﴾ ابتغاء رضوان الله تعالى، لا يراؤون أحدًا.

هؤلاء الموصوفون بهذه الصفات الثلاث ﴿يَرْجُونَ﴾ بهذه الأعمال الصالحة ﴿يُحَرِّكُونَ لَنْ تَكْبُرَ﴾ أي: لن تكسدا ولن تهلك، ألا وهو رضى ربهم، والفوز بجزيل ثوابه، والنجاة من سخطه.

وهذه الصفات المذكورة في هذه الآية جاءت في مواضع أخرى، منها قوله تعالى:

﴿الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ﴾ [البقرة].

ثم قال تعالى في جزائهم:

٣٠- ﴿لِيُوفِيَهُمْ أَجُورَهُمْ وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِ إِنَّهُمْ غَفُورٌ شَكُورٌ﴾

أي: إن هؤلاء العلماء العاملين، يوفيهم الله ثواب أعمالهم كاملاً غير منقوص، ويضاعف لهم الحسنات من فضله، فيزيدهم فوق أجورهم التي يستحقونها من فضله وإحسانه.

قيل: إن الزيادة هي النظر إلى وجهه الكريم، كما قال تعالى: ﴿لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا لِحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ﴾ [يونس: ٢٦].

وزيادة الحسنات بمضاعفتها جاءت في مثل قوله تعالى: ﴿كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَتَتْ سَنَعَ سَائِلٍ فِي كُلِّ سُبُلَةٍ مِّائَةُ حَبَّةٍ وَاللَّهُ يُضَاعِفُ لِمَن يَشَاءُ﴾ [البقرة: ٢٦١].

وهو سبحانه كثير المغفرة للذنوب والسيئات، شكور لحسنات الأبرار، يثيبهم على أعمالهم جزيل الثواب، ثم أشاد سبحانه بالكتاب المنزل، فقال:

٣١- ﴿وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَابِ هُوَ الْحَقُّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ إِنَّ اللَّهَ بِعِبَادِهِ لَخَبِيرٌ بَصِيرٌ﴾

نوه سبحانه في هذه الآية بشأن القرآن الذي يتلونه، وأشار إلى عظيم شرفه، بأنه وحي من الله تعالى، وهذا يتضمن التنويه بشأن الرسول ﷺ المنزل عليه هذا القرآن، المشار

إليه في قوله تعالى: ﴿أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ﴾.

وفيه بيان لعدة استحقاق الذين يتلون هذا الأجر العظيم الذي أنزلناه عليك يا محمد. وفي هذا إشارة إلى أن النبي ﷺ كان أميًا، وأن القرآن وحي من عند الله، فهو الكتاب الحق المصدق للكتب التي أنزلها الله على رسله قبلك -يا محمد- كالطوراة والإنجيل والزبور، وكتاب (أرميا) من الوحي الإلهي.

ومن الكتب غير الإلهية: كتاب (زرادشت) المسمى (الزندفستا).

ومنها كتب الصابئة، التي غُيرت وحُرفت.

والقرآن الكريم (هو الحق) فكل ما فيه حق، وكل ما دل عليه حق، وكأن الحق منحصر فيه لكثرة ما اشتمل عليه من الحق، وهو يصدق ما قبله من الرسل والكتب، والكتب التي قبله بشرت به، فلا يمكن لأحد أن يؤمن بالكتب السابقة ويكفر به، لأن كفره بالقرآن ينقض إيمانه بالكتب السابقة.

والقرآن وحي من الله تعالى، والرسول ﷺ لم يكن قارئًا ولا كاتبًا، وأتى ببيان ما في كتب الله جميعًا، ولا يكون ذلك إلا من الله الذي لا يخفى عليه شيء في الأرض ولا في السماء، ويعامل عباده بما يعلمه عنهم، ويصطفى منهم من هو أهل لحمل الرسالة.

وهو سبحانه أعلم بمن ينطوي قلبه على خشية الله تعالى من عدمه، وأعلم بمن يُقبل على بعض الطاعات دون بعض.

والخبير: هو العالم بدقائق الأمور المعقولة والمحسوسة، والظاهرة والخفية، والبصير بشؤون خلقه، لا يخفى عليه منها شيء.

وأهل هذا الكتاب هم أهل الله وخاصته، اصطفاهم من خلقه واختارهم:

٣٢- ﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ وَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ يُؤْتِنُ اللَّهُ ذَلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ ﴿٣٢﴾﴾

وبعد أن أثنى الله تعالى على كتابه، وبيّن أنه الحق الذي يُصدق ما قبله، ذكر هنا أنه سبحانه أعطى أمة محمد ﷺ القرآن؛ كي يعملوا به ولا يتركوه كما ترك من قبلهم كُتب

رسلهم، وبَيَّن سبحانه وتعالى أنه قد اصطفاهم لحمل كتابه، وهي بشرى عظيمة تحققت على مدى القرون، وإلى أن يرث الله الأرض ومن عليها، فقد حملت هذه الأمة الرسالة بعد رسولها ﷺ ومثَّلته بين الناس.

وكان بنو إسرائيل آخر مَنْ نزل الوحي على رسولهم قبل العرب، ولكنهم استغلُّوه لخدمة شهواتهم ودَّعَم غرورهم، فغضب الله عليهم، وصرفهم عن الوحي إلى آخر الدنيا.

واختار الله العرب لأداء هذه الأمانة وحملها إلى العالمين، فكانت هي الأمة التي اصطفاه الله لذلك وهؤلاء الذين اصطفاهم الله، هم أمة محمد ﷺ من الصحابة والتابعين ومن أتى بعدهم من المؤمنين إلى يوم القيامة؛ لقوله تعالى: ﴿هُوَ أَحَبُّكُمْ﴾ [الحج: ٧٨] أي: اختاركم للإيمان والإسلام، فكنتم بهذا أفضل أمة من الناس.

ومناط الاصطفاء هو الانقياد بالقول، والاستسلام لله تعالى، وهذه الأمة هي الأمة الوسط، التي تشهد على الناس يوم القيامة.

قال ابن عباس ؓ: هم أمة محمد ﷺ؛ لأن الله تعالى اصطفاهم على سائر الأمم، واختصهم بكرامته، بأن جعلهم أتباع سيد المرسلين، وأكرمهم بحمل أفضل الكتب.

والمعنى: ثم أعطينا القرآن بعد هلاك الأمم السابقة من اخترناهم من أمة محمد ﷺ فورثناهم هذا الكتاب لينتفعوا بنهدياته، ويسترشدوا بتوجيهاته، ويعملوا بأوامره ونواهيه، وهي وراثته ذات تكاليف ضخمة، وفيها تبعه ومسؤولية كبيرة، فهل تستجيب الأمة لهذا الاصطفاء؟

ثم إن الله تعالى عمَّم هذه البشارة بالنسبة لأمة محمد ﷺ فجعلها تشمل جميع المراتب والأصناف. فأتى سبحانه بقاء التفريع في قوله تعالى: ﴿فَمِنْهُمْ﴾ والضمير بعدها يعود على ﴿الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا﴾ وهو قول الحسن، أو يعود على ﴿عِبَادَنَا﴾ وهو قول ابن عباس وعكرمة وقتادة والضحاك، ويسري هذا الخلاف كذلك على ضمير ﴿جَنَّتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا﴾.

وعوُد الضمير الأول على المصطفين هو الأرجح والأظهر، وهو يوافق ما رُوي عن عمر وعثمان وابن مسعود وأبي الدرداء وعقبة بن عمرو وعائشة^(١) رضي الله عن الجميع.

(١) يُنظَر: «تفسير التحرير والتنوير» (١١/٣١٢).

والذين اختارهم الله لوراثته كتابه ثلاثة أصناف:

الصنف الأول: الظالم لنفسه ﴿فَإِنَّهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ﴾.

قيل: هو من زادت سيئاته على حسناته؛ لأنه فرط في بعض الواجبات وارتكب بعض المحرمات، وهو الأرجح، فهو ظالم لنفسه بارتكاب بعض المعاصي التي هي دون الكفر.

والظالمون لأنفسهم هم الذين يرتكبون المعاصي، فإن ارتكاب المعصية ظلم للنفس؛ لأن صاحبها يعتدي عليها، ويورطها في العقوبة، ويُقصر في حقها، قال تعالى: ﴿وَمَنْ يَعْمَلْ سُوءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ اللَّهَ يَحْدِ اللَّهُ عَفْوَراً رَّحِيماً﴾ [النساء].

وقال: ﴿إِلَّا مَنْ ظَلَمَ ثُمَّ بَدَّلَ حُسْناً بَعْدَ سُوءٍ فَإِنِّي عَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [النمل].

وهم مقصرون في عمل الخير، يقرؤون القرآن ولا يعملون به.

وقيل: هو الكافر، وعليه فيكون الضمير في ﴿جَنَّتٍ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا﴾ يعود على المقتصد والسابق فقط، والقول بأنه الكافر قول ضعيف، لأن الكافر لا يكون ممن اصطفاهم الله تعالى.

والصنف الثاني: المقتصد ﴿وَمِنْهُمْ مُّقْتَصِدٌ﴾ متوسط في فعل الخيرات والصالحات، يعمل بالقرآن غالباً ويُقصر في أداء النوافل، وهو المؤدي للواجبات، المجتنب للمحرمات، وقد يترك بعض المستحبات، ويفعل بعض المكروهات.

والمقتصد هو الوسط بين طرفين، فهو ليس بظالم لنفسه، وليس بسابق إلى الخيرات، وإنما استوت حسناته وسيئاته.

والصنف الثالث: السابق بفعل الطاعات ﴿وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ يُأْذِنُ اللَّهُ﴾.

أي: مسارع مجتهد في الأعمال الصالحة من الفرائض والنوافل، قد أحرز قصب السبق في فعل الطاعات، وترك المحرمات والمكروهات، بتوفيق الله تعالى وتيسيره.

وهذا السبق يأذن الله تعالى وتوفيقه ومعونته، فلا يغتر أحد بعمله، وعليه أن يعلم أن فضل الله تعالى واسع يعطيه من يشاء، وأكبر الفضل وراثته هذا الكتاب.

وأكثر المفسرين على أن الأصناف الثلاثة في أمة محمد ﷺ فالظالم لنفسه: العاصي، والسابق: التقي، والمقتصد: بينهما.

وقال الحسن البصري: السابق من رجحت حسناته على سيئاته، والظالم لنفسه من رجحت سيئاته، والمقتصد من استوت حسناته وسيئاته، وجميعهم يدخلون الجنة.

والأصناف الثلاثة قد اصطفاهم الله تعالى لوراثته كتابه وإن تفاوتت مراتبهم، فلكل منهم قسط من وراثته حتى الظالم لنفسه، باعتبار ما معه من أصل الإيمان.

وهذه جملة من الآثار في هذا المعنى:

وهذه الأصناف الثلاثة كالأقسام الثلاثة التي في سورة الواقعة: السابقون، وأصحاب اليمين، وأصحاب الشمال، على أن المراد بالظالم لنفسه الكافر:

١- عن أبي الدرداء رضي الله عنه قال: فأما الذين سبقوا، فأولئك الذين يدخلون الجنة بغير حساب، وأما الذين اقتصدوا، فأولئك يحاسبون حساباً يسيراً، وأما الذين ظلموا أنفسهم، فأولئك الذين يُحسبون في طول المحشر، ثم هم الذين تلقاهم الله برحمته، فهم الذين يقولون: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَذْهَبَ عَنَّا الْحَزْنَ﴾^(١).

٢- وأخرج ابن جرير من حديث سفيان الثوري عن الأعمش قال: ذكر أبو ثابت أن رجلاً دخل مسجد دمشق، فجلس إلى جنب أبي الدرداء فقال: اللهم آنس وخُشتي، وارحم عُرتي، ويسِّر لي جليساً صالحاً، قال أبو الدرداء: لئن كنت صادقاً لأنا أسعد بما قلت منك، سأحدثك حديثاً سمعته من رسول الله ﷺ لم أحدث به منذ سمعته منه، ذكر هذه الآية ﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا﴾ فأما السابق بالخيرات فيدخلها بغير حساب، وأما المقتصد فيحاسب حساباً يسيراً، وأما الظالم لنفسه فيصبيه في ذلك المكان من الغم والحزن، وذلك قوله: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَذْهَبَ عَنَّا الْحَزْنَ﴾^(٢).

٣- وعن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أنه قرأ هذه الآية على المنبر ﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ﴾ فقال:

(١) يُنْظَرُ: «المسند» (٢٧/٣٦) (٢١٦٩٧) وهو جزء من الحديث الآتي، وضعف إسناده محققوه، وأخرجه الطبراني (٩٥/٧) والحاكم (٣٢٦/٢) والبيهقي (٦٢) وتشهد له آثار أخرى كثيرة.

(٢) «تفسير الطبري» (٩٠/٢٢) ورواه الحاكم في «المستدرک» (٤٢٦/٢)، والبيهقي في «البعث» برقم (٦٢) و«المسند» (١٩٤/٥) قال الهيثمي: رواه أحمد بأسانيد رجال أحدها رجال الصحيح، «مجمع الزوائد» (٧/٩٥) وإسناده صحيح كما في مرويات أحمد في التفسير (٤٦٠/٣).

قال رسول الله ﷺ: «سابقنا سابق، ومقتصدنا ناج، وظالمنا مغفور له»^(١).

٤- وعن شقيق أبي وائل، عن ابن مسعود ؓ قال: هذه الأمة ثلاثة أثلاث يوم القيامة: ثلث يدخلون الجنة بغير حساب، وثلث يحاسبون حساباً يسيراً، وثلث يجيئون بذنوب عظام، إلا أنهم لم يشركوا بالله شيئاً، فيقول الرب ﷻ: أدخلوا هؤلاء في سعة رحمتي، وتلا الآية^(٢).

٥- قال قتادة: الناس ثلاثة منازل في الدنيا، وثلاثة منازل عند الموت، وثلاثة منازل في الآخرة، فأما الدنيا فكانوا: مؤمناً، ومنافقاً، ومشرکاً، وأما عند الموت فهم: المقربون، وأصحاب اليمين، والمكذبون، وأما في الآخرة فكانوا أزواجاً ثلاثة: أصحاب الميمنة، وأصحاب الشمال، والمنافقين^(٣).

٦- وقال جعفر الصادق: بدأنا بالظالمين، إخباراً بأنه لا يُتقرب إليه إلا بكرمه، وأن الظلم لا يؤثر في الاصطفاء، ثم ثنى بالمقتصد؛ لأنه بين الخوف والرجاء، ثم ختم بالسابقين؛ لئلا يأمن أحد مكره، وكلهم في الجنة.

٧- وقال ابن عباس ؓ: هم أمة محمد، ورثهم الله كل كتاب أنزله، فظالمهم يُغفر له، ومقتصدهم يحاسب حساباً يسيراً، وسابقهم يدخل الجنة بغير حساب^(٤).

٨- وفي رواية: السابق بالخيرات يدخل الجنة بغير حساب، والمقتصد يدخل الجنة برحمة الله، والظالم لنفسه يدخل الجنة بشفاعة الرسول ﷺ.

ثم بين سبحانه أن هذا الإرث، والإعطاء للكتاب، والاصطفاء لحمل أشرف الرسائل وأعظم الكتب، هو من فضل الله الواسع الذي لا يدانيه فضل ولا شرف ﴿ذَلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ﴾ الجامع بين خيري الدنيا والآخرة، كما في قوله تعالى: ﴿مَنْ عَمِلَ

(١) أخرجه سعيد بن منصور في سننه (٢٣٠٨) والبيهقي (٦٦).

(٢) «تفسير الطبري» (٣٦٨/١٩) وجاء نحو هذا الأثر أيضاً عن عوف بن مالك عند ابن أبي حاتم، والطبراني (٧٩/١٨) (١٤٩) وقال الهيثمي في «مجمع الزوائد» (٩٦/٧): فيه سلامة بن روح، وثقة ابن حبان، وضعفه جماعة، وبقي رجاله ثقات.

(٣) ابن جرير (٣٧٢/١٩) بمعناه.

(٤) ابن جرير (٣٦٨/١٩) والبيهقي (٧٣).

صَالِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أَنَّىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهٗ حَيَوةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٩٧﴾ [النحل].

وقال: ﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّن بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا﴾ [النور].
ثم ذكر سبحانه ما أعده من النعيم لورثة كتابه، فقال:

٣٣- ﴿جَنَّتٌ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا^(١) يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِن أَسَاوِرَ مِّن ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا^(٢) وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ﴾

بَيَّنَّ سبحانه في هذه الآية أن الأصناف الثلاثة: السابق، والمقتصد، والظالم لنفسه، كلهم يدخلون الجنة؛ لأن المؤمنين كلهم مآلهم الجنة، كما دلت على ذلك الأخبار المتضافرة، فكلهم في جنات النعيم، ودار إقامة دائمة للذين أورثهم الله كتابه، وهذه الجنات تشتمل على الأشجار والأنهار والقصور والحدائق والمنازل العالية، والظل والظليل، وفيها أنهار اللبن والعسل والخمر والماء.

والجنات مراتب ودرجات متفاوتة حسب تفاوت الأعمال، وهي جنات ثمان: جنة الفردوس، وجنة عدن، وجنة النعيم، وجنة رضوان، وجنة المأوى، وجنة الخلد، وجنة السلام، وجنة عليين.

وفي كل جنة منازل ومراتب بحسب مراتب العاملين، وهم يتزينون بأجمل الزينات، وبأفخر الملابس، فهم يلبسون أساور من ذهب مرصعة باللؤلؤ.

قال القرطبي: ولما كانت الملوك تلبس الأساور والتيجان في الدنيا، جعل الله ذلك لأهل الجنة، وليس أحد من أهل الجنة إلا في يده أسورة ثلاثة: سوار من ذهب، وسوار من فضة، وسوار من لؤلؤ^(٣).

(١) قرأ أبو عمرو بالبناء للمفعول في (يدخلونها)، والباقون بالبناء للفاعل.

(٢) قرأ نافع وعاصم وأبو جعفر بنصب همزة (ولؤلؤًا) الأخيرة، عطفًا على محل من (أساور) ويجوز أن تكون مفعولًا لفعل محذوف، أي: ويؤتون لؤلؤًا، والباقون بخفضها عطفًا على من ذهب، وأبدل الهمزة الأولى شعبة وأبو جعفر وأبو عمرو بخلفه.

(٣) «تفسير القرطبي» (١٢/٥٢).

أما لباس أهل الجنة المعتاد فهو الحرير، أي: ثياب رقيقة.

عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «تبلغ الحلية من المؤمن حيث يبلغ الوضوء»^(١).

وفي الحديث عن عمر رضي الله عنه: «من لبس الحرير في الدنيا لم يلبسه في الآخرة»^(٢).

وقال ﷺ في حديث حذيفة رضي الله عنه: «ولا تشربوا في آنية الذهب والفضة، ولا تأكلوا في صحافها، فإنها لهم في الدنيا ولنا في الآخرة»^(٣).

ثم بين الله تعالى حمد أهل الجنة على فوزهم برضى الله تعالى وبُعدهم عن ناره، بعد أن تم نعيمهم، وكملت لذتهم، فقال تعالى يحكي قولهم:

٣٤- ﴿وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَذْهَبَ عَنَّا الْحَزْنَ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ﴾

أخبر سبحانه عما يقوله المصطفون من عباده حين دخولهم الجنة، فهم يحمدون الله الذي أذهب عنهم جميع الهموم والأكدار والأحزان، والحزن يعم كل ما يكدر الصفو من المرض، والفقر، والموت، وأهوال القيامة، وعذاب النار، وزوال النعم، وتقلب القلوب، وخوف العاقبة، وهموم المعيشة... إلخ.

فهم في نعيم متزايد، لا يعرض لهم نقص في معاشهم، ولا مرض في أجسادهم.

كما قال تعالى: ﴿إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَىٰ﴾^(١٧) وَأَنَّكَ لَا تَظْمَأُ فِيهَا وَلَا تَصْحَىٰ^(١٨) [طه].

أخرج البغوي بسنده عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «ليس على أهل لا إله إلا الله، وحشة في قبورهم ولا في نشورهم، وكأني بأهل لا إله إلا الله يُنْفَضُونَ التراب عن رؤوسهم يقولون: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَذْهَبَ عَنَّا الْحَزْنَ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ﴾»^(٤) حيث غفر لنا جميع الزلات، وعفا عن جميع السيئات، ورفع لنا الدرجات.

(١) «صحيح مسلم» برقم (٢٥٠).

(٢) «صحيح البخاري» (٥٨٢٤، ٥٨٣٤) و«صحيح مسلم» (٢٠٦٩).

(٣) من حديث حذيفة في البخاري (٥٤٢٦، ٥٦٣٢) وغيرهما، ومسلم (٢٠٦٧).

(٤) وأخرجه الحكيم الترمذي (١٩/٣) عن ابن عمر والطبراني في «الأوسط» (٩٤٥٤، ٩٤٧٨) والبيهقي في

«الشعب» (١٠٠) وغيرهم، وضعف إسناده الهيثمي في «مجمع الزوائد» (٨٣/١٠).

والله سبحانه غفور لمن تاب من خلقه ﴿شُكُورٌ﴾ حيث قبل منا الحسنات وضاعفها، فقد تجاوز الله عنهم ما اقترفوه من اللوم، وتجاوز عن حديث النفس بالنسبة للمقتصدين والسابقين، وتجاوزَ عن تعجيل العذاب في الدنيا، وقبول الشفاعة في الآخرة بالنسبة لمختلف أحوال الظالمين لأنفسهم، وقد أفاض الله الخيرات على الجميع، وضاعف لهم الحسنات بما هو أكثر من أعمالهم الصالحة.

ومن فضل الله تعالى أن جعل الجنة جزاء على الأعمال الصالحة، وكان يمكن أن يكون الجزاء مجرد السلامة من العقاب. ويمضي أهل الجنة في شكرهم لربهم قائلين:

٣٥- ﴿الَّذِي أَحَلَّنَا دَارَ الْمَقَامَةِ مِنْ فَضْلِهِ لَا يَمَسُّنَا فِيهَا نَصَبٌ وَلَا يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوبٌ﴾ ﴿٣٥﴾

فأهل الجنة يحمدون الله تعالى على ما أنعم به عليهم من دخول الجنة فيقولون: ﴿الَّذِي أَحَلَّنَا﴾ أي: أنزلنا نزول حلول واستقرار، لا نزول معبر واعتبار ﴿دَارَ الْمَقَامَةِ﴾ أي: دار الجنة، التي تدوم فيها الإقامة مع توالي المسرات وزوال المكدرات، فأسكننا فيها، وجعلها مقرًا لنا وسكنًا، لا نتحول عنها أبدًا، وكل ذلك من فضل الله تعالى وإنعامه علينا، حيث إن أعمالنا لا تساوي ذلك، فلولا فضل الله تعالى لما وصلنا إلى ما وصلنا إليه.

أخرج ابن أبي حاتم عن أبي رافع قال: يُوْتَى يومَ القيامة العبدُ بدواوين ثلاثة: فديوان فيه النعم، وديوان فيه ذنوبه، وديوان فيه حسناته، فيقال لأصغر نعم الله عليه: قُومي فاستوفي ثَمَنَكَ من حسناته، فتقوم فتستوعب تلك النعمة حسناته كلها، وتبقى بقية النعم عليه، وذنوبه كاملة، فمن ثم يقول العبد إذا أدخله الله الجنة: ﴿إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شُكُورٌ﴾^(١).

كما جاء في الحديث: «لن يدخل أحدًا منكم عمله الجنة»، قالوا: ولا أنت يا رسول الله؟ قال: «ولا أنا إلا أن يتغمدني الله برحمته منه وفضل»^(٢).

وأهل الجنة في الجنة لا يصيبهم فيها تعب ولا مشقة، فقد سقطت عنهم التكاليف الشرعية التي كانت عليهم في الدنيا، وليسوا في حاجة إلى بحث عن أسباب المعيشة، ولا إلى تربية الأبناء، ولا إلى تأمين المستقبل، ونحو ذلك، فقد أصبحوا في راحة تامة

(١) «الدر المثور» (١٢/٢٩٨).

(٢) «صحيح البخاري» (٥٦٧٣) و«صحيح مسلم» (٢٨١٦).

مستمرة، كما قال تعالى: ﴿كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا أَسْلَفْتُمْ فِي الْأَيَّامِ الْخَالِيَةِ﴾ [الحاقة]. وهم لا يتعبون فيها ولا ينصبون ﴿لَا يَمَسُّنَا فِيهَا نَصَبٌ وَلَا يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوبٌ﴾ والنصب: تعب البدن، أما اللغوب: فهو تعب النفس.

أَهْلُ الشَّقَاءِ وَعَذَابُهُمْ

٣٦- ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ نَارُ جَهَنَّمَ لَا يُقْضَىٰ عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ مِنْ عَذَابِهَا كَذَٰلِكَ نَجْزِي^(١) كُلَّ كَفُورٍ﴾ [٣٦]

أما أهل الشقاء المقابلون للأصناف الثلاثة السابق ذكرهم، فهم في قلق دائم وحيرة واضطراب، لا يستقر لهم حال؛ لأنهم جحدوا بآيات الله، وكذبوا رسله فأعدَّ الله لهم النار المستعرة جزاءً لهم على كفرهم، يعذبون فيها تعذيباً دائماً، لا يُحكم عليهم بالموت الدائم حتى يستريحوا من العذاب، ولا يخفف عنهم العذاب، بل كلما خبت أو هذأت عادت مرة أخرى، فاستعرت وزاد لهيبها، فهم باقون في العذاب بلا موت ولا حياة يستريحون فيها.

وفي قوله تعالى: ﴿وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ مِنْ عَذَابِهَا﴾ إشارة إلى أن نار عقاب عصاة المؤمنين، أخف من نار عقاب الكافرين والمشركين التي قال الله عنها: ﴿فَأَنْتَقُوا النَّارَ الَّتِي أُفُودَهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ﴾ [البقرة: ٢٤]

وقال سبحانه: ﴿وَأَنْتَقُوا النَّارَ الَّتِي أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ﴾ [آل عمران].

جاء في صحيح مسلم أن رسول الله ﷺ قال: «أما أهل النار الذين هم أهلها فإنهم لا يموتون فيها ولا يحيون»^(٢).

وقال تعالى عن أهل النار: ﴿كُلَّمَا نَفِخَتْ جُلُودُهُمْ بَدَّلْنَاهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا الْعَذَابَ﴾ [النساء: ٥٦]. إنهم يرون أن الموت راحة، ولكن لا سبيل إلى ذلك ﴿وَنَادُوا بِمَلَكِكُمْ لِيَقْضِ عَلَيْنَا

(١) قرأ أبو عمرو بالباء في (يُجْزَى) مبيئاً للمفعول، و (كُلُّ) بالرفع، نائب فاعل، والباقون بالنون مبيئاً للفاعل و (كُلُّ) بالنصب مفعول به.

(٢) «صحيح مسلم» برقم (١٨٥).

رُبُّكَ قَالِ إِنَّكُمْ مَعَكُونَ ﴿٧٧﴾ [الزخرف].

أي: بلا موت ولا حياة ﴿ثُمَّ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَى﴾ ﴿٧٣﴾ [الأعلى].

وهم في يأس من رحمة الله: ﴿إِنَّ الْمُجْرِمِينَ فِي عَذَابٍ جَهَنَّمَ خَالِدُونَ﴾ ﴿٧٤﴾ لَا يُفْتَرُ عَنْهُمْ وَهُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ ﴿٧٥﴾ [الزخرف].

وليس هناك مطمع في نقصان هذه النار ﴿مَاوَنَهُمُ جَهَنَّمَ كُلَّمَا خَبَتْ زِدْنَاهُمْ سَعِيرًا﴾ [الإسراء: ٩٧].

وخزنة النار يقولون لهم: ﴿فَذُوقُوا فَلَنْ نَزِيدَكُمْ إِلَّا عَذَابًا﴾ ﴿٣٦﴾ [النبا].

وبمثل هذا العذاب يُجْزَى كل كافر بالله تعالى مشرك به ﴿كَذَلِكَ نَجْزِي كُلَّ كَافِرٍ﴾ أي: نعاقب كل من كان مبالغاً في الكفر، شديد الجحود لآيات ربه الدالة على وحدانيته سبحانه، وهم يَصْرَعُونَ إلى ربهم يتمنون العودة إلى الدنيا لتدارك ما فاتهم.

قال تعالى يصف ندم أهل النار وعويلهم، وتمنيهم العودة إلى الدنيا:

٣٧- ﴿وَهُمْ يَصْطَرِخُونَ فِيهَا رَبَّنَا أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ وَجَاءَكُمُ النَّذِيرُ فَذُوقُوا فَمَا لِلظَّالِمِينَ مِن نَّصِيرٍ﴾ ﴿٣٧﴾

بيّن سبحانه ما يستغيث به أهل النار من صراخ وعويل بعد أن أُلقي بهم فيها، حيث يضجّون بالدعاء رافعين أصواتهم بالاستغاثة وهم يقولون: ﴿رَبَّنَا أَخْرِجْنَا﴾ من نار جهنم وأعدنا إلى الدنيا؛ كي ﴿نَعْمَلْ صَالِحًا غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ﴾ فنؤمن ولا نكفر، ونوحّد ولا نشرك، ونُتَّبِع ولا نبتدع، ونطيع ولا نعصي، ونمثل ولا نرفض، وفي هذا ندم وحسرة واعتراف بسوء عملهم.

إنهم يسألون الرجعة إلى الدنيا ليغيّروا حالهم من الكفر إلى الإيمان، وقد علم الله تعالى أنهم لو رُدُّوا إلى الدنيا لعادوا إلى ما كانوا فيه، كما قال تعالى: ﴿وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا هُمْ عَنْهُ﴾ [الأنعام: ٢٨].

وقد ورد سؤال الرجعة في كثير من الآيات، منها قوله تعالى على لسان أهل النار: ﴿فَهَلْ لَنَا مِن شُفَعَاءَ فَيَشْفَعُوا لَنَا أَوْ نُرَدُّ فَنَعْمَلْ غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ﴾ [الأعراف: ٥٣].

وقوله سبحانه: ﴿رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْهَا فَإِنْ عُدْنَا فَإِنَّا ظَالِمُونَ﴾ [المؤمنون].

وهنا يأتي الجواب من رب العالمين: ﴿قَالَ اخْسَئُوا فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ﴾ [المؤمنون].

وعندئذ يكون الاعتراف: ﴿فَاعْتَرَفْنَا بِذُنُوبِنَا فَهَلْ إِلَى خُرُوجٍ مِّن سَبِيلٍ﴾ [غافر: ١١].

فيجابون بذكر السبب المانع لخروجهم من النار: ﴿ذَلِكُمْ بِأَنَّهُ إِذَا دُعِيَ اللَّهُ وَحْدَهُ كَفَرْتُمْ وَإِنْ يُشْرَكَ بِهِ تَوَلَّيْتُمْ﴾ [غافر: ١٢].

ويكون الجواب على طلبهم الرجعة بقوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُمْ مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرُ﴾ ألم نعطكم عمراً في الدنيا يكفي لأن يؤمن فيه من آمن، ويتوب فيه من تاب، ويتذكر فيه من تذكر؟! فلماذا لم تؤمنوا؟ وفي أي شيء قضيتم هذا العمر، وفترة الشباب منه على وجه الخصوص؟ ومن بلغ الستين من عمره فقد بلغ أقصى العذر:

١- كما في الحديث عن أبي هريرة ؓ أن النبي ﷺ قال: «أعذر الله إلى امرئ آخر أجله حتى بلغه ستين سنة»^(١).

٢- وعن أبي هريرة ؓ أن رسول الله ﷺ قال: «من أتت عليه ستون سنة فقد أعذر الله ﷻ إليه في العمر»^(٢).

٣- وفي حديث أبي هريرة أيضاً: «أعمار أمتي ما بين الستين إلى السبعين، وأقلهم من يجوز ذلك»^(٣).

٤- قال ابن عباس ؓ: العمر الذي أعذر الله فيه لابن آدم في قوله: ﴿أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُمْ مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرُ﴾ ستون سنة.

٥- وقال علي ؓ: العمر الذي عيبرهم الله به في قوله: ﴿أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُمْ مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرُ﴾ ستون سنة.

(١) من حديث أبي هريرة في البخاري برقم (٦٤١٩) و«المسند» (١٣٩/١٣) (٧٧١٣) والنسائي في «تحفة الأشراف» (١٢٩٥٩) والحاكم (٤٢٧/٢) والبيهقي (٣٧٠/٣).

(٢) «المسند» (٣٢٠/٢) برقم (٨٢٦٢) وإسناده قوي، وأخرجه البيهقي في السنن الكبرى (٣٧٠/٣) برقم (٦٣١١) وصححه الألباني في صحيح الجامع برقم (٥٩٤٥).

(٣) «سنن الترمذي» برقم (٢٣٣١، ٣٥٥٠) وابن ماجه برقم (٤٢٣٦) قال الألباني في «صحيح ابن ماجه» (٢/٤١٥): حسن صحيح، وهو في «صحيح سنن الترمذي» (٢٨١٥، ٢٤٤٧) والبيهقي (٣٧٠/٣).

وكان مسروق يقول: إذا بلغ أحدكم أربعين سنة فليأخذ حذره من الله ﷻ.

وفضلاً عن إعطائكم هذا العمر المديد، فقد جاءكم النذير الذي ينذركم بسوء العاقبة، إن متم على الكفر وأعرضتم عن الدعوة.

والنذير هو رسول الله ﷻ، وكلُّ رسول في أمته قبله، فهو نذير: قال تعالى: ﴿وَإِنْ مِنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ﴾ [فاطر: ٢٤] وقال سبحانه: ﴿إِنَّمَا أَنْتَ مُنذِرٌ وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ﴾ [الرعد] وقال جل شأنه ﴿كُلَّمَا أُلْقِيَ فِيهَا فَوْجٌ سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ﴾ (٨) قَالُوا بَلَى قَدْ جَاءَنَا نَذِيرٌ فَكَذَّبْنَا وَقُلْنَا مَا نَزَّلَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ [الملك].

وقيل: النذير هو الشيب، أي: أولم نعلمكم حتى شبتُم، فلم تتعظوا ولم تعتبروا؟! لقد متعكم الله في الدنيا وأدرّ عليكم رزقه، وهيألكم أسباب الراحة، وأمدّ لكم في العمر، وأرسل إليكم الرسل، وأنزل عليكم الكتب، وابتلاكُم بالسراء والضراء كي تعودوا إلى الله سبحانه، فلم يُفد فيكم الوعظ، ولم تستجيبوا للرسل، حتى إذا انقضت آجالكم، ورحلتم عن الدنيا، ووصلتم إلى دار السعادة أو الشقاء، سألتُم الرجفة؟ هيهات هيهات، فقد فات وقت العمل، وجاء وقت الحساب والجزاء، واشتدّ غضب الله على الكافرين، فامكثوا في جهنم خالدين مخلدين.

قال تعالى لأهل النار: ﴿فَذُوقُوا﴾ عذاب جهنم ﴿فَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ نَصِيرٍ﴾ أي: ليس للكافرين من يدفع عنهم عذاب الله. قال تعالى:

٣٨- ﴿إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ غَيْبِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾ (٢٨)

وبعد أن ذكر الله تعالى جزاء أهل الدارين، وأعمال الفريقين، أخبر سبحانه وتعالى بأنه يعلم ما خفي عن العباد، وما تخفيه النفوس من الهواجس والوساوس، لا تخفى عليه خافية، ومن ذلك أنه يعلم، أن الكفر قد تمكّن في قلب الكافر، بحيث لو بقي في الدنيا إلى الأبد، ما آمن بالله ولا عبّده، وهذا تأكيد لدوام عذاب الكافر في النار ﴿وَلَا يَظِلُّ رَبُّكَ أَحَدًا﴾ [الكهف: ٤٩].

وقد علم الله تعالى أنه لو ردّهم إلى الدنيا ما آمنوا ﴿إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾ أي: بخفائها، فاتقوه أن يطلع عليكم، إن كنتم تُضمرون الشك في وحدانية الله تعالى، أو في نبوة محمد ﷺ أو تعصوه وتخالفوا أمره.

اسْتِخْلَافُ الْإِنْسَانِ فِي الْأَرْضِ

٣٩- ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلَائِفَ فِي الْأَرْضِ فَمَنْ كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُ وَلَا يَزِيدُ الْكَافِرِينَ كُفْرُهُمْ إِلَّا مَقْتًا وَلَا يَزِيدُ الْكَافِرِينَ كُفْرُهُمْ إِلَّا خَسَارًا﴾ ﴿٣٩﴾

أي: وكيف لا يعلم الله ما غاب في قلوبكم، وهو الذي أوجدكم في الأرض، وجعل بعضكم يخلف بعضًا، جيلًا بعد جيل، ودولة بعد دولة، وكلُّ يمضي وينتهي ويزول، ولا يبقى إلا الواحد الأحد، الذي لا يحول ولا يزول ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلَائِفَ فِي الْأَرْضِ﴾ بعد عاد وثمود ومن مضى قبلكم من الأمم، تخلفونهم في مساكنهم قرناً بعد قرن.

كما قال تعالى: ﴿ثُمَّ جَعَلْنَاكُمْ خَلَائِفَ فِي الْأَرْضِ مِنْ بَعْدِهِمْ لِنَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ﴾ ﴿٧﴾ [يونس].

وهو الذي جعلكم متصرفين في الأرض تعمرونها، وتكونون أهل سلطان فيها، بعد أمم تداولت السيادة على العالم قبلكم، وفي ذلك ظهور لدين الإسلام على الدين كله، كما قال تعالى: ﴿وَسَتَخْلَفُكُمْ فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ﴾ [الأعراف: ١٢٩].

فاعتبروا - أيها المسلمون - بما أصاب الأمم السابقة من النقم، بسبب إعراضهم عن الهدى واتباع ما جاءهم به رسلهم.

واعلموا أن التبعة فردية، وأنه لا يحمل أحد عن أحد شيئاً، فمن كفر بالله وجحد وحدانيته واستمر على كفره بالحق الذي جاء به محمد ﷺ، فإن ضرر كفره وإعراضه يعود عليه وحده، ولا يحمل عنه أحد شيئاً من أوزاره.

والكافرون ممقوتون عند ربهم ابتداءً، وحين يستمرون على كفرهم يوماً بعد يوم، لا يزيدهم هذا إلا شدة وغضباً ﴿وَلَا يَزِيدُ الْكَافِرِينَ كُفْرُهُمْ إِلَّا مَقْتًا﴾ والمقت: هو البغض الشديد مع الخزي والصغار.

قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنَادُونَ لِمَقْتُ اللَّهِ أَكْبَرُ مِنْ مَقْتِكُمْ أَنْفُسَكُمْ إِذْ تُدْعَوْنَ إِلَى الْإِيمَانِ فَتَكْفُرُونَ﴾ ﴿١٠﴾ [غافر].

وقد سَمَّى الإسلام زواج الرجل من زوجة أبيه، (نكاح المقت) وقد كان معمولاً به في الجاهلية، وقال عنه سبحانه: ﴿إِنَّكُمْ كَانُمْ فَجِشَةً وَمَقْتًا وَسَاءَ سَبِيلًا﴾ [النساء: ٢٢].

وكلما طال عمر الكافر ازداد غضب الله عليه فخسر نفسه وأهله يوم القيامة، وخسر مكانه في الجنة لو كان مؤمناً ﴿وَلَا يَزِيدُ الْكَافِرِينَ كُفْرُهُمْ إِلَّا خَسَارًا﴾ أي: هلاكًا وضللاً. والآية تنفّر من الكفر وتؤكد سوء عاقبته، فالكفر مبعوض من الله تعالى، ولن يزداد صاحبه إلا خسرانًا ووبالًا، وبدل أن يستثمر الكافر عمره في الطاعة والريح، فإنه خسر رأسماله - عمره - واستجلب سخط الله تعالى وغضبه بالكفر، فأصبح من أهل النار المؤبدة.

انْتِفَاءُ صِفَةِ الْإِلَهِيَّةِ عَنْ غَيْرِ اللَّهِ تَعَالَى

٤٠ - ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ شُرَكَاءَكُمُ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَرُونِي مَاذَا خَلَقُوا مِنَ الْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِي السَّمَوَاتِ أَمْ آتَيْنَهُمْ كِتَابًا فَهُمْ عَلَى بَيِّنَةٍ^(١) مَتَى بَلَّ إِن يَحْدُ الظَّالِمُونَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا إِلَّا غُرُورًا﴾ وبعد أن ثبت في السورة، أن الله تعالى هو الذي يدبر الكون في الأرض والجو ومختلف الأحوال، وأنه الخالق الرازق، مالك الملك، نفى سبحانه في هذه الآية صفة الإلهية عن غير الله تعالى، وطالب المشركين بإقامة الدليل على استحقاق آلهتهم للعبادة، واحتج على المشركين ببطلان آلهتهم، بأنه لا يوجد أي مخلوق في الأرض، يدّعي أن الآلهة خلقتهم.

قل - يا رسولنا - لهؤلاء المشركين: أخبروني عن شأن آلهتكم التي عبدتموها من دون الله، وأشركتموها معه في العبادة، أخبروني أي شيء خلّقوا من الأرض، حتى استحقوا منكم صفة الألوهية والعبادة مع الله تعالى؟

ثم أخبروني ألهذه الآلهة التي تزعمونها شرك مع الله في خلق السموات وتصريف أحوالها، كسيّر الكواكب، وتعاقب الليل والنهار، وتسخير الرياح وإنزال المطر؟

ولما كان مقر الأصنام في الأرض، كان من الراجح أن يتخيل المشركون أن لهم تصرفاً في الأرض. ولم يخطر ببال المشركين أن آلهتهم لها تصرف في السموات، ولكن جاء ذكرها تكملة

(١) قرأ ابن كثير وأبو عمرو وحفص وحمة وخلف بالإنفراد في (بينة)، والباقون بالجمع، ومن قرأ بالجمع وقف عليها بالتاء، ومن وقف بالإنفراد فمنهم من وقف بالهاء وهما ابن كثير وأبو عمرو، ومنهم من وقف بالتاء وهم حفص وحمة وخلف العاشر.

للدليل على سبيل الفرض والاحتمال، وقد بين سبحانه عجز آلهة المشركين من عدة وجوه:

١- فإذا كانت آلهتكم -أيها المشركون- لم تخلق شيئاً من الأرض، كما قال تعالى ﴿أَرُونِي مَاذَا خَلَقُوا مِنَ الْأَرْضِ﴾ هل خلقوا بحراً أو جبلاً أو حيواناً أو حشرة، فسيكون جواب الكفار عن هذا أن الله تعالى هو الخالق لجميع الأشياء.

٢- ولم تشارك آلهتكم في خلق السموات، كما قال تعالى ﴿أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِي السَّمَوَاتِ﴾ في خلقها وتديرها، فإذا لم يخلقوا شيئاً، ولم يشاركوا الخالق في خلقه، فلم عبدتموهم ودعوتموهم مع إقراركم بعجزها، فانتهى هذا الدليل العقلي.

٣- ثم ذكر الدليل السمعي، وهو منتف أيضاً: فهل أنزلنا عليهم كتاباً ينطق بأنهم شركاء لله، فهم على بصيرة وحجة وبرهان منه، كما قال تعالى ﴿أَمْ آتَيْنَاهُمْ كِتَابًا فَهُمْ عَلَى بَيِّنَةٍ مِّنْهُ﴾ أي ليس الأمر كذلك، فلم ينزل عليهم كتاب غير القرآن ولم يأتهم نذير إلا محمد ﷺ.

وكل هذا على سبيل التبكيت والإنكار عليهم فآلهتهم لم تشارك في خلق الأرض ولا في السماء ولم ينزل عليهم كتاباً يشهد بأنهم شركاء لله في شيء من ملكه. والمعنى: إن الشركاء لم يخلقوا شيئاً من الأرض ولا من السماء، ولم يؤتوا كتاباً فيه دليل على أنهم شركاء لله تعالى.

والمقصود: قطع كل حجة يتذرعون بها في شركهم، وإثبات جهلهم وباطلهم بأدلة مختلفة، قال تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ﴾ [الأنبياء] فالرسل والكتب متفقة على إخلاص العبادة لله تعالى: ﴿وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ﴾ [البينة: ٥].

ولما نفى سبحانه أنواع الحجج الثلاث أضرب عنها بذكر السبب الحقيقي الذي حملهم على اتخاذ آلهة من دون الله، فبين أن السبب هو: تضليل الرؤساء للأتباع، حيث يقولون لهم: إن الأصنام تشفع لهم عند الله، وهو زعم باطل، وغرور وزور وخداع.

وإذا كان الدليل العقلي والنقلي قد دلّا على بطلان الشرك، فما الذي حمل المشركين على الشرك؟

إن الذي حملهم على الشرك هو التقليد لآبائهم، وتزيين الشيطان لهم، والتعصب لما ورثوه.

والحق أن الظالمين يخدع بعضهم بعضًا، وَيَعِدُّ بعضهم بعضًا، بأن هذه الآلهة تقرّبهم من الله زلفى، فينساق بعضهم وراء بعض، ذلكم قول الله تعالى: ﴿بَلْ إِنْ يَعِدُ الظَّالِمُونَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا إِلَّا غُرُورًا﴾. وهذا وعد من الظالمين بشفاعاة الأصنام للمشركين عند الله تعالى.

وفي الآية توبيخ لمن يعبد ما لا ينفع ولا يضر، ولا يسمع ولا يبصر ولا يغني عنه من الله شيئًا.

قَانُونُ الْجَازِبِيَّةِ

٤١- ﴿إِنَّ اللَّهَ يُمْسِكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ أَنْ تَزُولَا^(١) وَلَئِنْ زَالَتَا إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِنْ بَعْدِهِ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا﴾

ولما بيّن سبحانه عجز المعبودات وضعفها، وذكر أنها لا تَقْدُرُ على خلق شيء من السموات والأرض، أتبع ذلك ببيان جانب من عظيم قدرة الله تعالى، فبيّن أنه سبحانه خالق السموات والأرض وممسكهما، فلا يوجد مخلوق إلا وهو خالقه، ولا يبقى مخلوق إلا بإبقاء الله له، أي: إنه سبحانه بقدرته وحكمته يمنع السموات والأرض من الزوال، ومن السقوط والاضطراب، وعدم الوقوع، كما قال تعالى: ﴿وَيُمْسِكُ السَّمَاءَ أَنْ تَقَعَ عَلَى الْأَرْضِ إِلَّا بِإِذْنِهِ﴾ [الحج: ٦٥].

فهو قيوم السموات والأرض، الحافظ لهما وجودهما واستقرارهما ونظامهما.

قال تعالى: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ تَقُومَ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ بِأَمْرِهِ﴾ [الروم: ٢٥].

وهذا الإمساك هو الذي يُسمى بنظام الجاذبية.

وحقيقة الإمساك: القبض باليد على الشيء بحيث لا ينفلت ولا يتفرق.

ثم أشار سبحانه إلى أن مصير الكائنات إلى الزوال والعدم والتغير، فقال: ﴿وَلَئِنْ زَالَتَا﴾ أي: عن أماكنهما، أو أشرفتَا على السقوط على سبيل الفرض، ما أمسكهما أحد بعد الله، أي: ليس بإمكان أحد أن يمسكهما غير الله تعالى، فهما قائمتان بقدرة الواحد القهار، حتى يأذن الله للسماء أن تتشقق وتتصدع، وللأرض أن تُخرج ما في جوفها من

(١) عدّ البصري قوله تعالى: (أن تزولا) آية، وتركها غيره.

الأموات وتتخلّى عنه، وللشمس أن تتكوّر، وللنجوم أن تنكدر، وللجبال أن تُسِير، وكل هذا عند قيام الساعة.

عن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه قال: قام فينا رسول الله ﷺ بخمس كلمات، فقال: «إن الله ﷻ لا ينام، ولا ينبغي له أن ينام، يخفض القسطن ويرفعه، يُرفع إليه عمل الليل قبل عمل النهار، وعمل النهار قبل عمل الليل، حجابه النور أو النار، لو كشفه لأحرقت سبحات وجهه ما انتهى إليه بصره من خلقه»^(١).

ثم ذيل الله تعالى الآية بالحلم والمغفرة، فجلم الله تعالى ألا يزجج خلقه بالفجائع الكبيرة، فلا يعاجلهم بالعقوبة مع استحقاقهم لها، بل يمهّلهم ويؤخرهم، فهو سبحانه واسع المغفرة والرحمة لمن تاب إليه وأتاب.

نَكَثَ الْعُهُودِ وَالْوُعُودِ فِي الْإِيمَانِ بِخَاتَمِ الرُّسُلِ ﷺ

٤٢- ﴿وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِنْ جَاءَهُمْ نَذِيرٌ مَا زَادَهُمْ إِلَّا نُفُورًا﴾^(١٦٨)

أي أن المكذبين بمحمد ﷺ أقسموا أيمانًا مغلفة لئن أرسل الله إليهم رسولًا ليكوننّ أهدى من اليهود والنصارى، فلما جاءهم محمد ﷺ لم يهتدوا، ولم يوقوا بقسَمِهِمْ، وما ازدادوا إلا بغيًا وضلالًا.

ولا يزال الحديث موصولًا عن الجاحدين للتوحيد، المكذبين للرسول الخاتم ﷺ، وقد كانت قريش تقول: لو أن الله بعث منا نبيًا ما كانت أمة من الأمم أطوع لخالقها، ولا أسمع لنبينا، ولا أشد تمسكًا بكتابها منا؛ فأنزل الله ﷻ ﴿وَإِنْ كَانُوا لَيَقُولُنَّ ﴿١٦٧﴾ لَوْ أَنَّ عِنْدَنَا ذِكْرًا مِّنَ الْأَوَّلِينَ ﴿١٦٨﴾ لَكُنَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ ﴿١٦٩﴾ فَكَفَرُوا بِهِ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿١٧٠﴾﴾ [الصافات].

١- وكانت اليهود تستفتح على أهل المدينة بقدم نبي جديد وأنهم أول من سيؤمن به.

وكان مشركو مكة، في لقاءهم مع أهل الكتاب أثناء أسفارهم إلى يثرب أو الشام- لا يجرؤون على تكذيبهم؛ لأن لهم معرفة بالديانات، وكانوا ينظرون إليهم بعين الوقار،

(١) «صحيح مسلم» برقم (١٧٩).

ويفضلونهم؛ لأنهم ليسوا أميين.

وكان اليهود والنصارى إذا دُعوا الوثنيين إلى الدخول في دينهم، يعتذرون إليهم بأن رسولهم ليس من العرب، ويقولون: لو جاءنا رسول عربي لَكُنَّا أَهْدَى مِنْكُمْ.

٢- وكان النصارى يقولون: إن عيسى أوصاهم أن يُرشدوا بني الإنسان إلى الحق، فكانت الدعوة النصرانية سائدة في بلاد العرب أيام الجاهلية، فتنصرت قبائل: تغلب، ولخم، ونجران.

٣- وكان المشركون يحلفون بآبائهم وأعمارهم وأصنامهم، فإذا أرادوا التأكيد والتشديد حلفوا بالله ﴿وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَنِهِمْ﴾ أي: حلف المشركون بالله أشد الأيمان وأبلغها، كما في قوله تعالى: ﴿وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَنِهِمْ لَئِنْ جَاءَتْهُمْ آيَةٌ لَيُؤْمِنُنَّ بِهَا﴾ [الأنعام: ١٠٩]. وقوله سبحانه: ﴿أَتَتُولَاءَ الَّذِينَ أَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَنِهِمْ إِنَّهُمْ لَمَعَكُمْ﴾ [المائدة: ٥٣].

أقسموا بالله ﴿لَئِنْ جَاءَهُمْ نَذِيرٌ﴾ أي: رسول منذر منهم يخوفهم عقاب الله، ويخبرهم بأن الكفر باطل وإيمان حق، ليكونن أكثر استقامة واتباعاً للحق من اليهود والنصارى وغيرهم من جميع الأمم الذين أرسل الله إليهم رُسُلًا، وكانت قريش قبل مبعث النبي ﷺ يقولون: لعن الله اليهود والنصارى اتهم الرسل فكذبوهم، فوالله لئن أتانا رسول لنكوننَّ أَهْدَى مِنَ الْيَهُودِ وَالنَّصَارَى وَغَيْرِهِمْ^(١).

وهذا كقوله تعالى: ﴿أَنْ تَقُولُوا إِنَّمَا أُنْزِلَ الْكِتَابُ عَلَى طَائِفَتَيْنِ مِنْ قَبْلِنَا وَإِنْ كُنَّا عَنْ دِرَاسَتِهِمْ لَغَنَفِليكَ ﴿١٥٦﴾ أَوْ تَقُولُوا لَوْ أَنَّا أُنْزِلَ عَلَيْنَا الْكِتَابُ لَكُنَّا أَهْدَى مِنْهُمْ﴾ [الأنعام: ١٥٦، ١٥٧].

وقد جاء لفظ: ﴿مِنْ إِحْدَى الْأُمَمِ﴾ ليشمل أي أمة من الأمم ذات دين، فإن كان المراد أمة معينة فهي: اليهودية أو النصرانية أو الصابئة، فلما جاءهم محمد ﷺ أشرف الرسل وخاتمهم، أعرضوا عنه ولم يؤمنوا به، وقد كان من المفروض أن تتغير أحوالهم، وأن يؤمنوا به حسب عهودهم وأيمانهم، ولكن ذلك لم يزددهم إلا بُعْدًا عن الحق ونفورًا منه، وكانوا يتمنون أن يكون الرسول منهم لا من غيرهم كي يصدقوه، وأقسموا على طاعته واتباعه، ولكنهم خالفوا ونقضوا تكبرًا وعنادًا وحسدًا له.

(١) يُنْتَظَرُ: «تفسير أبي السعود» (٢٤٦/٤).

ولو كان المشركون يطلبون الحق لَوُفَّقُوا إِلَيْهِ، ولكن قولهم هذا صادر عن استكبار على الحق، يريدون به المكر والخداع، قال تعالى:

٤٣- ﴿أَسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ وَمَكْرَ السَّيِّئِ﴾^(١) وَلَا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِ فَهَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا سُنَّتَ^(٢) الْأَوَّلِينَ فَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَبْدِيلًا^(٣) وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَحْوِيلًا ﴿٤٣﴾

أي: وكان سبب عدم إيمانهم بالنبي ﷺ أنهم استكبروا أن يتبعوا واحدًا منهم، فتمسكوا بالشرك، وكذبوا رسولهم، واستولى على نفوسهم الحقد الدفين الذي أضمره للرسول ﷺ وللمؤمنين عامة، وخاصة الضعفاء منهم، وهو الخداع والكيد الذي دبروه للإسلام والمسلمين، هذا هو معنى الآية ﴿أَسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ وَمَكْرَ السَّيِّئِ﴾.

أي: إِنَّ قَسَمَهُمُ المؤكد بأن يؤمنوا بالرسول قبل مبعثه ﷺ ليس لقصد حسن، ولا طلبًا للحق، وإنما هو استكبار في الأرض على الخلق، يريدون به المكر السيئ والخداع الباطل، والمكر لا يستعمل إلا في المكروه.

ثم إن الله تعالى توعدهم أن يدفع عن رسوله مكرهم، ويبيِّن لهم أن ضرَّ مكرهم سيعود عليهم، ولا يُحِيط وَيَال المكر السيئ إلا بمن مكره ودبره.

قال كعب لابن عباس ؓ: إن في التوراة: مَنْ حَفَرَ حُفْرَةً لِأَخِيهِ وَقَعَ فِيهَا، فقال ابن عباس: إنا وجدنا ذلك في كتاب الله: ﴿وَلَا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِ﴾.

وفي الأثر: لا تمكر ولا تُعن مكرًا، فإن الله تعالى يقول: ﴿وَلَا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِ﴾ سواء في الدنيا أو الآخرة.

ومن كلام العرب: من حفر لأخيه جُبًّا وقع مُكَبًّا.

وقولهم: يا حافرًا حُفْرَةَ السُّوء، ما تحفِر إلا قِيَّاسَكَ.

(١) قرأ حمزة بإسكان الهمزة وصلًا من (ومكر السيئ) إجراءً للوصول مجرى الوقف، لتوالي الحركات تخفيفًا، وقرأ الباقر بكسرها على الأصل.

(٢) وقف بالهاء على (سنت) في المواضع الثلاثة ابن كثير وأبو عمرو والكسائي ويعقوب، والباقر بالتاء، وأمالها الكسائي وقفًا.

(٣) قوله تعالى (فلن تجد لسنة الله تبديلًا) عدها آية، المدني الأخير والبصري والشامي، وتركها غيرهم.

والمكر مذموم على كل حال، ولم يرخص فيه إلا في الحرب؛ لأنه مقابلة بالمثل، قال تعالى: ﴿وَمَكُرُوا وَمَكَّرَ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَكِرِينَ﴾ [آل عمران].

وقال جل شأنه: ﴿يَأْتِيهَا النَّاسُ إِنَّمَا بَغْيَكُمْ عَلَىٰ أَنْفُسِكُمْ﴾ [يونس: ٢٣].

وقال سبحانه: ﴿فَمَنْ تَكَلَّ فَإِنَّمَا يَنكُثُ عَلَىٰ نَفْسِهِ﴾ [الفتح: ١٠].

فمكرهم هذا يعود عليهم، وهم كذبة، قد ظهر قصدهم السيء.

فهل ينتظر المستكبرون الماكرون إلا أن ينزل بهم العذاب الذي نزل بأمثالهم ﴿فَهَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا سُنَّتَ الْأَوَّلِينَ﴾ والسنة هي العادة والطريقة، وطريقة الله في هذا المعنى: هي الانتقام من مكذبي الرسل، وهي سنة لا تتحول ولا تتغير، فليس باستطاعة أحد أن يبدل أو يُحوّل العذاب عن نفسه أو غيره، فهي سنة جارية في الأمم ﴿وَإِذَا أَرَادَ اللَّهُ يَقْوَمِ سَوْءًا فَلَا مَرَدَ لَهُ﴾ [الرعد: ١١]، فليترقب هؤلاء ما فعل بأولئك.

دَعْوَةٌ إِلَى الْإِسْتِفَادَةِ مِنَ التَّارِيخِ

٤٤- ﴿أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَكُنُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعْجِزَهُ مِن شَيْءٍ فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ إِنَّهُمْ كَانَتْ عَلَيْهِمْ قَدِيرًا﴾ [٤٤]

بعد أن ذكر الله سبحانه ما يؤكد عدم تغيير سنته في خلقه، حث المعارضين للنبي ﷺ المكذبين لدعوته، على الاعتبار بأحوال المهلكين قبلهم، وهم يرون آثارهم بأعينهم، في شمال الجزيرة وجنوبها ووسطها: كقوم عاد، وقوم ثمود، وقوم لوط، وأمثالهم، لينظروا ما حلّ بهم من الهلاك، وبديارهم من الخراب، حين كذبوا الرسل.

أفلم يسافروا ويمروا على ديارهم، ويروا ما صنع الله بهم؟ فقد دمّرناهم تدميرًا، مع أنهم كانوا أقوى وأشد من مشركي مكة.

ووصفهم الله بأنهم كانوا: ﴿أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَءَانَارًا فِي الْأَرْضِ﴾ [غافر: ٢١].

ووصفهم بأنهم كانوا: ﴿أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَأَنَارُوا الْأَرْضَ﴾ [الروم: ٩].

قال تعالى في وجوب الاعتبار بهم: ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ

مِنْ قَبْلِهِمْ دَمَّرَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلِلْكَافِرِينَ أَمْثَلُهَا ﴿١٦﴾ [محمد].

وفي الآية حض على السير في الأرض بالقلوب والأبدان للنظر والاعتبار بعاقبة الذين كذبوا الرسل في الأمم السابقة، وكانوا أكثر منهم أموالاً وأولاداً وأشد قوة، وعمرُوا الأرض أكثر من غيرهم، فلما جاءهم العذاب لم تغن عنهم أموالهم ولا أولادهم ولا قوتهم ونفذت فيهم قدرة الله ومشيتته.

وليس هناك من قوة تمنعهم من عذاب الله، فتدفعه عنهم، أو تشفع لهم، وليس لهم أن يطمعوا في النجاة من عذاب الله ما داموا على عنادهم وتكذيبهم ﴿وَمَا كَانَتْ اللَّهُ لِيُعْجِزَهُ مِنْ شَيْءٍ﴾ أي: لا يغلبه غالب في هذا الكون، فيعجزه ويخرج عن طوعه، أو يسبقه ويفوته ﴿فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ﴾ ولو كانوا أقوى وأشد من الأمم الماضية فإن الله لا يغلبه شيء، قال تعالى: ﴿وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾ ﴿١٦﴾ [الشورى].

فالله تعالى لا يعجزه أو يمنعه شيء عن تحقيق مراده؛ لأن العجز سببه:

١- إما إخفاء المكان على من يريد الانتقام، وهذا معناه نفي إحاطة العلم عن الله تعالى.

٢- وإما أن يكون السبب عدم استطاعة التمكن من عدوه، وهذا ينافي القدرة.

ولذا ختم الله الآية بقوله سبحانه: ﴿إِنَّهُمْ كَانَتْ عَلِيمًا﴾ بأفعالهم وأقوالهم، محيطاً بهم في أي زمان أو في أي مكان ﴿قَدِيرًا﴾ على إهلاكهم والانتقام ممن عصاه، لا يصعب عليه شيء، ولا يغلبه غالب.

خَتَامُ السُّورَةِ فِي شُمُولِ الرَّحْمَةِ الإِلَهِيَّةِ

٤٥- ﴿وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِمَا كَسَبُوا مَا تَرَكَ عَلَى ظَهْرِهَا مِنْ دَابَّةٍ وَلَٰكِنْ يُؤَخِّرُهُمْ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى فَإِذَا جَاءَ أَجْلُهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِعِبَادِهِ بَصِيرًا﴾ ﴿٤٥﴾

وفي نهاية السورة يكشف الله سبحانه عن عدله وحلمه ورحمته، إلى جانب علمه وقدرته، فيؤكد أن إمهال الناس بلا عقوبة، إنما هو عن حلم ورحمة، وأن هذا لا يؤثر في دقة الحساب وعدل الجزاء في النهاية.

أي: ولو يعاقب الله الناس في الدنيا بما عملوا من الذنوب والآثام، لا استأصلهم الله بالعذاب في الدنيا، ولم يُبق منهم أحداً.

وما اكتسبوه من المعاصي، يعم الظلم الذي جاء في سورة النحل من قوله تعالى ﴿وَلَوْ يَأْخُذُ اللَّهُ النَّاسَ بِظُلْمِهِمْ مَا تَرَكَ عَلَيْهَا مِنْ دَابَّةٍ﴾ [٦١].

لأن السياق هناك كان بسبب قتل المؤودة، والسياق هنا عام.

فلو عجل الله لعباده بالعقوبة في الدنيا ﴿مَا تَرَكَ عَلَى ظَهْرِهَا مِنْ دَابَّةٍ﴾ تدب على الأرض من بني آدم وغيرهم، كما أهلك في زمن نوح جميع أصناف المخلوقات بالطوفان، إلا من كان في السفينة.

والوعيد باستئصال الدواب وإهلاكها باعتبارها مخلوقة للإنسان ينتفع بها، فإهلاكها يكون تخويفاً للناس لعلمهم يشوبون إلى رشدهم ويرجعون إلى دين ربهم.

قال ابن مسعود رضي الله عنه: إن كاد الجعل ليعذب في جُحره من ذنب ابن آدم، ثم قرأ الآية^(١).

والأولى أن يكون التهديد بإهلاك الدواب، من باب التخويف والترهيب، وأن بني آدم أو الإنس أو الجن هم المعاقبون على ذنوبهم.

وظهرُ الأرض هو وجهها الصُّلب الذي تستقر عليه المخلوقات، وهو يقابل جوف الأرض وباطنها.

وفي سورة (النحل) قال تعالى: ﴿مَا تَرَكَ عَلَيْهَا﴾ [٦١] ولم يقل على ظهرها، وهو تفنن في العبارة، ولكن الله تعالى يمهلهم ويؤخر عقوبتهم إلى وقت معلوم، هو يوم القيامة، فإذا جاء وقت عقابهم الذي حدده الله لهم، يكون قد انتهى وقت العمل والكسب، وحن وقت الجزاء ﴿فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِعِبَادِهِ بَصِيرًا﴾ أي: بصيراً بمن يستحق العقوبة، ومن يستحق الكرامة، لا يخفى عليه أحد منهم، ولا يعزب عنه شيء من أمورهم، وسيجازيهم بما عملوا من خير أو شر، والآية تتضمن وعيداً للمجرمين، ووعيداً للمؤمنين.

وفي هذا الختام بيان لحكمة إمهال الظالمين وتأخير عقابهم إلى يوم الدين.

(١) أخرجه الطبراني (٩٠٤٠) والحاكم (٤٢٨/٢) وغيرهما.

وقد ختمت آية سورة النحل بقول الله تعالى: ﴿فَإِذَا جَاءَ أَجْلُهُمْ لَا يَسْتَأْذِنُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِرُونَ﴾ [٦١] لأن فيها تهديدًا للظالمين.

وحكمة إهلاك الدواب مع الناس حين ينزل بهم الهلاك، هو إنذار العصاة وتخويفهم، لعلهم يُقْلَعُونَ عن إجرامهم، أما المؤمنون الصالحون فيسلكون طريقهم إلى النجاة كما نجَّى الله هودًا ومن معه، أو يعوضهم في الآخرة، ويحشرون على نياتهم.

تم تفسير (سورة فاطر) والله الحمد والمنة.



تَفْسِيرُ سُورَةِ يَس (٣٦)

مُقَدِّمَةُ السُّورَةِ

سورة يس هي السورة السادسة والثلاثون في ترتيب المصحف، والحادية والأربعون في ترتيب النزول، نزلت بعد سورة الجن، وقبل سورة الفرقان.

وعدد آياتها عند الكوفيين ثلاث وثمانون آية، وعند غيرهم اثنتان وثمانون آية. وهي سبع مئة وتسع وعشرون كلمة، وثلاثة آلاف وعشرون حرفاً.

أَسْمَاؤُهَا :

١- وسميت سورة ﴿يَس﴾ بِمَسْمَى الحرفين في أولها، فكانا مُمَيِّزَيْنِ لها عن سائر السور، وصار ذلك علماً عليها واشتهرت به.

٢- وعُنُونُ لها بعضهم بـ(سورة حبيب النجار)^(١) وهو صاحب قصة (أصحاب القرية).

٣- وذكر أنها تسمى: الْمُعَمَّة. ٤- والمدافعة. ٥- والقاضية.

ومعنى الْمُعَمَّة: التي تعم صاحبها بخير الدارين، والمدافعة، أي: التي تدفع عن صاحبها السوء، والقاضية، أي: التي تقضي كل حاجة بإذن الله^(٢).

٦- وسمّاها بعض السلف (قلب القرآن)، فهذه ستة أسماء لها، أشهرها الأول.

وسورة يس سورة مكية بالإجماع.

وقد حفّلت سورة يس بآثار كثيرة لم تصح، تتعلق بقراءتها عند خروج الروح، وفي مكان خروجها، وقراءتها على الميت، وأنها تخفف عنه سكرات الموت.

(١) قال الشيخ محمد الطاهر بن عاشور في تفسيره (٣٤١/٢٢): رأيت مصحفاً مشرقياً نسخ سنة ١٠٧٨هـ أحسبه في بلاد العجم، عنوانها: سورة حبيب النجار، قال: وهي تسمية غريبة ليس لها سند.

(٢) «تفسير الألوسي» (٢٠٩/٢٢) وقد جاء ذلك في أثر ضعيف عند البيهقي في «الشعب» برقم (٢٢٣٧) والخطيب (٣٨٧/٢).

وشاع عند العامة في بعض البلاد ما يطلقون عليه اسم (عِدَّةِ يس) بمعنى أن جمعًا من القراء يقرؤونها عددًا معينًا على ظالم، فإنه يصاب بسوء، ولا شك أنه إذا حصل شيء من هذا فهو من باب إجابة دعوة المظلوم.

كما أن بعض الجهال يقرأ عددًا منها بنية كفارة الصلاة عن الميت، سيمًا إذا كان لا يصلي، ويقرؤونها كذلك لقضاء الحاجة، ولمغفرة الذنوب، وأنها قلب القرآن، وأن من قرأها فكأنما قرأ القرآن عشر مرات، ومن داوم على قراءتها مات شهيدًا، ومن قرأها في ليلته يسّر الله عليه، . . . ، وهكذا، وكل هذا من باب البدع والجهل والتقليد الأعمى.

فالأحاديث التي وردت في فضل قراءة سورة يس، أو للمعاني السابقة، أحاديث ضعيفة أو موضوعة، وهي مذكورة في أول السورة من تفسير ابن كثير والشوكاني وغيرهما.

وأغلب الظن أن هذه الأحاديث مما وضعها الذين أرادوا أن يصرفوا همة الناس إلى تلاوة القرآن، لَمَّا رأوهم قد انصرفوا عنه إلى دراسة السنة في وقت من الأوقات، وقالوا: نحن نكذب للنبي ﷺ ولا نكذب عليه، وهو كلام لا يصح، فقد ثبت عن رسول الله ﷺ أنه قال: «من كذب علي متعمدًا فليتبوأ مقعده من النار»^(١).

ومثل ذلك جاء في بعض السور، وقد انفردت مؤلفات بيان الصحيح والضعيف من ذلك.

وحديث قراءة يس لتسهيل خروج الروح، أو قراءتها على الميت، أو أنها لما قرئت له، كل هذا ضعفه الشيخ الألباني وغيره، وقال الدارقطني: لا يصح في هذا الباب حديث^(٢).

أغراض السورة: وسورة يس تتكون من مقدمة وثلاثة عناصر:

أما المقدمة فهي حديث عن القرآن ومستمعيه، والمؤمنين به، والرافضين له، وهذا يستغرق من أول السورة إلى الآية الثانية عشرة.

(١) من حديث أنس في صحيح مسلم ٢ وأحمد في المسند (١٢/٥٤) وابن حبان (٣١) وهو حديث متواتر ورد عن جمع من الصحابة.

(٢) تُنظر هذه الأحاديث في: كتاب «أحكام الجنائز»، للشيخ الألباني و«سلسلة الأحاديث الضعيفة» و«ضعيف الترغيب والترهيب» و«ضعيف الجامع الصغير» و«ضعيف سنن أبي داود» و«ضعيف سنن الترمذي» وكتاب «تلخيص الحبير» وغيرها.

والعنصر الأول يبدأ من الآية الثالثة عشرة إلى الآية الثانية والثلاثين، وهو دليل تاريخي على صدق ما جاء به محمد ﷺ يتضمن قصة موجزة عن قرية أنطاكية، وهي تشبه أم القرى، حيث عاند أهلها رسل الله صلوات الله عليهم، وضاقوا ذرعاً بوحى الله إليهم، فقد ظن أعداء المرسلين، أن الرسل جاؤوا ليسلبوهم سلطانهم، ويأخذوا ما في أيديهم، فسرعان ما تبرؤوا منهم، وهددوهم وتشاءوا من قدومهم عليهم، مع أن الرسل لم ينشدوا جاهاً ولا مالاً، وهم يدعون خلق الله إلى عبادة الواحد الديان، وترك ما لا يضر ولا ينفع.

وقد تأمر أهل هذه القرية على قتل من قام فيهم ناصحاً أميناً! فكان نصر الله تعالى حليفاً للمرسلين، وخذل الله المكذبين، فدفعوا الثمن غالياً، وهكذا كل من كذب خاتم المرسلين ساءت عاقبته وباء بالخسران والبوار.

أما العنصر الثاني في السورة، فهو من الآية الثالثة والثلاثين إلى الآية السابعة والأربعين، وهو مجموعة من دلائل وحدانية الله تعالى، وعظيم قدرته، وبديع صنعه في هذا الكون العجيب.

وتبدأ هذه المجموعة بمشهد الأرض الجذباء، والحياة التي تدب فيها، إننا نعطي الأرض أسوأ ما عندنا من فضلات الإنسان والحيوان والطيور، فتعطينا أحسن ما عندها من الفواكه والثمار والزروع والنبات والشجر، فمن الذي أخرج من الحمأ المسنون هذه الخيرات؟ ﴿سُبْحَنَ الَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنْبِتُ الْأَرْضُ وَمِنْ أَنْفُسِهِمْ وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ﴾ (٣٦).

ونصعد بنظرنا من الأرض إلى السماء، لتأمل النظام الفلكي فيها! فإذا الظلام بعد أن يسود أرجاء الكون تُرسل الشمس أشعتها فتستقبلها الأرض، فإذا جمع الله أشعة الشمس عادت الظلمة الأولى، وهذا هو مشهد الليل والنهار.

ولكل من الشمس والقمر مداره الذي لا ينفك عنه، ولا يلتقيان، فالشمس في مدارها، والقمر يتدرج في منازلها، فمن الذي يمسك الكواكب في فضائها؟ ومن الذي يدفعها في مجراها؟ وبأي طاقة تسير؟ ومن الذي أحكم نظامها، فضبط مكانها وزمانها وشرقها وغربها، وهي ألوف؟ ﴿لَا الشَّمْسُ يَنْبَغِي لَهَا أَنْ تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلَا أَيْلٌ سَابِقُ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾ (٤١).

إننا نرى البحار تسبح فيها السفن في عالمها الواسع، وهي أكبر من مساحة الأرض أربع مرات، إنها تجري وتغوص بقدره الله تعالى، وإذا تعرض الناس لأخطار في البحر فلا مُغيث لهم إلا الله، فهل يفزع الناس إلى ربهم في الرخاء كما يهرعون إليه في الشدة؟ وقد تبعت هذه الأدلة على أدلة أخرى قرب نهاية السورة، تتعلق بأنواع أخرى من المخلوقات: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا خَلَقْنَا لَهُمْ مِمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَا أَنْعَمًا فَهُمْ لَهَا مَالِكُونَ ﴿٧٦﴾ وَذَلَّلْنَاهَا لَهُمْ فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ ﴿٧٧﴾﴾.

أما العنصر الثالث والأخير، فهو يتضمن الحديث عن البعث والجزاء، وهما عمدة التربية الدينية، وهذا من الآية الثامنة والأربعين إلى نهاية السورة.

وكما يأتي الموت فجأة، وتأتي الساعة بغتة، دون ترقب ولا انتظار، وعلى هذا فقيام الساعة لا يعطي فرصة لعمل شيء مَّا، ولا التوجيه بشيء مَّا، فهي تقوم والرجُلان قد نشرا الثوب بينهما، فلا يَتِمُّ البيع ولا الشراء، ولا يعود الإنسان إلى بيته!! ثم يقوم الناس لرب العالمين بعد موتهم جميعًا، وبعد الحساب يفرق بين المؤمنين والمجرمين، فيستقر السعداء في روضات النعيم، والأشقياء في دركات الجحيم.

وبهذا فإن السورة جمعت عناصر القرآن المكي الثلاثة، وهي: الوحي والرسالة في مقدمتها، وفي العنصر الأول منها، وجمعت أدلة التوحيد في العنصر الثاني، وجمعت أدلة البعث والحساب والجزاء في العنصر الثالث^(١).

والسورة قررت أمهات أصول الدين على أبلغ وجه وأتمه، وقررت أصول الطاعة بالاعتقاد والعمل، أما الحشر والحساب فهو مقرر في هذه السورة بأبلغ وجه، فهي سورة جامعة لأصول التدبر، ومنها تتشعب شرايين القرآن.

(١) استفدت في هذا التقسيم من كتاب الشيخ محمد الغزالي: «نحو تفسير موضوعي لسور القرآن الكريم».

تَفْسِيرُ السُّورَةِ

الْقُرْآنُ الْحَكِيمُ بَيْنَ الْمُؤَيَّدِينَ وَالْمُعَارِضِينَ وَجَزَاءُ كُلِّ فَرِيقٍ

١-٥- ﴿يَسْ﴾^(١) وَالْقُرْآنَ الْحَكِيمَ ﴿يُ﴾^(٢) إِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴿يُ﴾^(٣) عَلَى صِرَاطٍ^(٤) مُسْتَقِيمٍ ﴿يُ﴾^(٥) تَنْزِيلٍ^(٦) الْغَزِيرِ الرَّحِيمِ

﴿يَسْ﴾ آية مستقلة، مكونة من الياء والسين، شأنها شأن الحروف الهجائية المقطعة في أوائل السور، للتنبيه على إعجاز القرآن، وأنه مكوّن من هذه الحروف التي يعرفونها ويتكلمون بها، ولكن نظمه البديع المعجز آية على كونه من عند الله تعالى.

وقيل: إنها بمعنى: يا رجل، أو بمعنى: يا إنسان في لغة طيّء، أو بلسان الحبشة، ولا يصح كونها من أسماء النبي ﷺ، ولا من أسماء الله ﷻ؛ لأنه ينبغي في هذه الحالة أن يكون لهذه الحروف معنى مقطوع به، ولم يرد في هذا أثر صحيح، والجمع بين ﴿يَسْ﴾ و﴿الْقُرْآنَ﴾ يُرَجَّح القول الأول.

والأظهر أن قبل ﴿يَسْ﴾ قَسَمًا مضمراً؛ لأن لفظ ﴿وَالْقُرْآنَ﴾ مجرور بالعطف على يس، على تقدير كونه مجروراً بإضمار القسم.

ثم يقسم الله تعالى بحروف يس، ويقسم بالقرآن وما فيه من الأحكام والحجّم والحجج، على أن محمداً ﷺ رسولٌ من عند الله عز وجل.

قال النقاش: لم يقسم الله تعالى لأحد من أنبيائه بالرسالة في كتابه، إلا لمحمد ﷺ

(١) قرأ أبو جعفر بالسكت على يا، وسين، سكتة يسيرة، بدون تنفس، ويلزم من ذلك إظهار نون ياسين، وقرأ هشام والكسائي ويعقوب وخلف بإدغام النون من (يس) في الواو بعدها، وأظهرها أبو عمرو وقتيل وحزمة وأبو جعفر، وقرأها بالإظهار والإدغام نافع والبيزي وابن ذكوان وعاصم، ونقل ابن كثير حركة الهمزة إلى الراء، ومثله حمزة في الوقف، ولا يُقرأ لحفص بالإدغام على قصر المد المنفصل.

(٢) قرأ قتيل ورويس بالسين في (صراط) وأشَمَّ الصاد صوت الزاي خلف عن حمزة، والباقون بالصاد الخالصة.

(٣) قرأ نافع وابن كثير وأبو عمرو وشعبة وأبو جعفر ويعقوب برفع لام (تنزيل) على أنه خبر لمبتدأ محذوف، أي: هو تنزيل، أو ذلك تنزيل، أو القرآن تنزيل، وقرأ الباقون بنصبها على المصدر بفعل من لفظه.

تعظيمًا له وتمجيدًا^(١).

والقرآن كتاب محكم لا يلحقه تغيير ولا تبديل، ولا يعتريه باطل ولا تناقض، فهو محكم في نظمه ومعانيه بلا خلل، متضمن للحكمة، وبدائع الحكم والإحكام.

والحكمة وضع الشيء في موضعه، وما في القرآن من الأوامر والنواهي والترغيب والترهيب ونحوها، كل منها وُضع في موضعه اللائق به، فأحكام القرآن الشرعية والجزائية كلها مشتملة على غاية الحكمة.

وجواب القسم ﴿إِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾ أي: إنك -يا محمد- لمن الأنبياء المرسلين بوحى الله تعالى إلى عباده، وهذا ردٌّ على من أنكر رسالته ﷺ من الكفار، كما قال سبحانه عنهم: ﴿وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَسْتَ مُرْسَلًا﴾ [الرعد: ٤٣].

فمحمد ﷺ من جملة المرسلين ومن خيارهم، جاء بما جاءت به الرسل من العقيدة والشرعية، ولو لم يكن لرسالة محمد ﷺ دليل، إلا هذا القرآن، لكفى به شاهدًا ودليلاً.

ومهمة هذه الرسالة هي هداية الخلق، وإخلاص العبادة لله وحده، وعدم الإشراك به سبحانه، فقد أقسم الله تعالى بهذا الكتاب المحكم، المعجز في نظمه وبديع معانيه، المتقن في تشريعه وأحكامه، أقسم على أن محمدًا ﷺ رسول الله ﷻ.

وفي هذا تعظيم وتفخيم لشأن الرسول ﷺ، ومع أن المقصود من القسم: تأكيد المحلوف عليه، إلا أن المقصود الأصلي من هذا القسم هو: الإشادة بعظم شأن الرسالة بعد تعظيم المقسم به، فكأنه قال: إن من أنزل القرآن -وهو مَنْ هو في عظم شأنه- هو الذي أرسل محمدًا ﷺ، وهذا وصف له ﷺ بأنه مرسل من عند الله تعالى، وأنه على صراط مستقيم.

ثم وصف الله سبحانه طبيعة هذه الرسالة، بأنها على طريق واضح ونهج مستقيم، يوصل إلى الفوز بالجنة في الدار الآخرة، وهذا الطريق هو دين الإسلام، لا إفراط فيه ولا تفريط، لا اعوجاج فيه ولا انحراف عن دين الرسل، وهو التوحيد والإيمان، وهو

(١) «فتح القدير» للشوكاني (٤/٣٤٩).

طريق موثوق به، يوصل السائر فيه إلى المقصود دون تردد.

وقد جمعت هذه الآية بين وصف النبي ﷺ بالثبات على طريق الحق، إلى جوار وصف الرسالة بأنها في غاية الاعتدال والاستقامة، كما قال تعالى: ﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ٥٢﴾ صِرَاطُ اللَّهِ الَّذِي لَمْ يَأْتِ فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ﴿الشورى: ٥٢، ٥٣﴾.

وقال سبحانه: ﴿وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ﴾ [الأنعام: ١٥٣].

والقرآن العظيم، هو دليل هذا الصراط، فكلما سار الإنسان على نهجه وجد الاستقامة والاعتدال، وقد أنزله الله ﷻ على الرسول ﷺ مشتملاً على ما يصلح القلب والبدن، والدين والدنيا، يزكى النفوس، ويطهر القلوب، ويأخذ بيد العبد إلى دار الكرامة.

وهذا الصراط المستقيم الذي وصف الله به رسوله، ووصف به دينه وكتابه: تنزيل العزيز الرحيم، فهو الذي أنزل كتابه وحماه من التغيير والتبديل ورحم به عباده.

وهو سبحانه العزيز في ملكه، المنتقم ممن كفر به وبرسوله، الرحيم بمن تاب من عباده وعمل صالحاً، والعزيز هو القوي الذي لا يغلب، الفعال لما يريد.

وما اشتمل عليه القرآن من ترغيب وترهيب، ووعد ووعيد، هو أثر من آثار عزة الله تعالى لحمل الناس على الحق وطريق الهدى.

ومع ذلك فهو سبحانه رحيم بعباده، ومن آثار رحمة الله تعالى في القرآن: إقامة الأدلة والبراهين، وكشف الحقائق للناظرين، وتقريب البعيد بضرب الأمثلة الحسية، مع ما فيه من التبشير لمن أطاعه بدخول الجنة، والتوبة على من تاب.

قال تعالى مبيناً شدة الحاجة إلى هذا الكتاب، والضرورة الملحة له:

٦ ٧- ﴿لَنُنَزِّلَ لَكُمْ قُرْآنًا مَّا أُنْزِلَ عَلَيْهِمْ قُرْآنًا فَهُمْ غَافِلُونَ ٦﴾ لَقَدْ حَقَّ الْقَوْلُ عَلَى أَكْثَرِهِمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٦﴾

أي: أما مهمة هذه الرسالة فهي الإنذار والتبليغ، وقد اقتضت الدعوة في أولها على الإنذار الذي جاء في قوله تعالى: ﴿قُرْآنًا نُنَزِّلُ﴾ [المذثر] لأن القوم جميعاً كانوا على حالة لا تُرضي الله سبحانه، فكان حالهم يقتضي الإنذار؛ ليُقلعوا عما هم فيه من شرك وكفر وسوء أخلاق، والإنذار: إخبار مع تخويف.

وهذا الإنذار هو المشار إليه في هذه السورة: ﴿لِتُنذِرَ قَوْمًا﴾ أي: لتحذر بهذا القرآن قَوْمًا ﴿مَّا أُنذِرَ آبَاؤَهُمْ﴾ وهم العرب الأميون العدنانيون، الذين لم ينزل فيهم كتاب سابق، بعد أن عمتهم الجهالة، وغمرتهم الضلالة، فأرسل إليهم رسولاً منهم يزيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة، وإن كانوا من قبل لفي ضلال مبين، فيُنذر العرب الأمين ومن لحق بهم، ويذكر أهل الكتاب بما عندهم من الكتب، فإنه كان قد مضى عليهم وعلى آبائهم قرون لم يأتهم فيها نذير قبل محمد ﷺ، أو هم أهل مكة وما حولها، فهم الذين أراد الله تعالى أن تنزل فيهم الرسالة بادئ الأمر، وأن تتأصل فيهم جامعة الإسلام، ثم يحملوها إلى الناس كافة، فانضم إليهم أهل يثرب، وهم عرب قحطانيون، وكانوا أنصاراً لهم، ثم تابع إيمان قبائل العرب، ومن ثم انتشر الإسلام في أرجاء المعمورة إلى جميع البشر، كما أراد له رب العالمين في قوله: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا﴾ [سبأ: ٢٨].

وكانت هذه الرسالة رحمة من الله تعالى للخلق أجمعين، قال تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾ [الأنبياء].

فهي رسالة عامة لهم جميعاً قال تعالى: ﴿تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا﴾ [الفرقان].

وقال أيضاً: ﴿قُلْ يَأَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا﴾ [الأعراف: ١٥٨].

وهي رسالة قائمة لكل من يأتي بعد عصر الصحابة رضوان الله عليهم إلى قيام الساعة ﴿وَأَخْرَجَ مِنْهُمْ لِمَا يَلْحَقُوا بِهِمْ﴾ [الجمعة: ٣].

وكل من بلغته الرسالة من البشر، وجب عليه الإيمان بها ﴿وَأَوْحَىٰ إِلَيْكَ هَٰذَا الْقُرْآنَ لِأُنذِرَكَ بِهِ وَمَنْ بَلَغَ﴾ [الأنعام: ١٩].

والإنذار بالدعوة، يوقظ الغافلين الذين مضت عليهم قرون، دون أن ينذرهم منذر ﴿فَهُمْ غَافِلُونَ﴾ أي: ساهون عن الإيمان والاستقامة على العمل الصالح، وكل أمة ينقطع عنها الإنذار تقع في الغفلة.

وفي هذا دليل على وجوب الدعوة والتذكير على العلماء بالله وشرعه؛ لإيقاظ الناس من غفلتهم.

وفي الآية قَصْرُ الإنذار على من خشي الله تعالى، وبيان أن الذين لم يتبعوا الذكر ولم

يخشوا ربهم ، لا فائدة من إنذارهم ؛ لأنهم لا ينتفعون بالذكرى .

الناس أمام دعوة الرسول ﷺ صنفان : صنف رد الدعوة ولم يقبل الرسالة ، وهم الذين حق عليهم القول ؛ وصنف استجاب لله والرسول فاستحق رضوان الله وجنته .

وفي هذه الآية - السابعة - بيان استحقاق المُصرِّين على الكفر ، برسالة محمد ﷺ لعقاب الله تعالى ، وهو مصير المستمرين في غفلتهم بعد أن جاءهم النذير وخوَّفهم عذاب الله سبحانه .

فبعد إنذار النبي ﷺ للناس ، كان منهم من آمن ، ومنهم من كفر - وهم الأكثر -

فالذين آمنوا انتفعوا بدعوة الإسلام لهم ، فخافوا الله وامثلوا أمره ونهيه ، وكانوا من أهل السعادة في الدارين .

أما الآخرون الذين عَلِمَ الله في الأزل أنهم لا يؤمنون ، بسبب ما جُبلت عليه عقولهم من النفور عن الحق ، فقد وجب عليهم ما هو كائن في علم الله تعالى عنهم أنهم لا يؤمنون ، فاستحقوا بذلك العذاب ، وفي هذه الآية والآيتين بعدها حديث عن الصنف الكافر :

﴿لَقَدْ حَقَّ الْقَوْلُ عَلَى أَكْثَرِهِمْ﴾ أي : وجب العذاب على أكثر الناس ، وهم الكافرون بالله ورسوله ، بعد أن عُرض عليهم الحق فرفضوه ، فحيثُذ عوقبوا بالطبع على قلوبهم .

﴿فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ أي : لا يصدقون بالله ولا برسوله ، ولا يعملون بشرعه لا حالاً ولا مآلاً ، كما قال تعالى : ﴿إِنَّ الَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ ۖ وَلَوْ جَاءَتْهُمْ كُلُّ آيَةٍ حَتَّى يَرَوْا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ ۝٩٧﴾ [يونس] .

وفي هذا تسلية للنبي ﷺ ، وكشف لما انطوت عليه قلوبهم من الطغيان .

مَوَانِعُ الْإِيمَانِ الْمَغْنَوِيَّةِ وَالْحِسِّيَّةِ لَدَى الْكَافِرِ

٨- ﴿إِنَّا جَعَلْنَا فِيْ أَعْيُنِهِمْ أَغْشَاءً فَهِيَ إِلَى الْأَذْقَانِ فَهُمْ مُّقْمَحُونَ ۝٨﴾

أخذ الله سبحانه يُبين الموانع من وصول الإيمان إلى قلوب المكذبين ، فذكر في هذه الآية مانع داخلي في نفوسهم يمنعهم من الإيمان ، وذكر في الآية التي تليها مانع خارجي يسد عليهم الطريق إلى الإيمان .

وهكذا: يَفْضِّلُ اللهُ سبحانه أحوال من كَذَّبُوا برسول الله ﷺ فشبَّه حالة إعراضهم عن التدبر في القرآن، والتأمل في دعوة الإسلام وحججه الواضحة، بحال قوم جُعِلَتْ في أعناقهم قيوداً غليظة مرتفعة إلى أذقانهم، فارتفعت رؤوسهم، وغضَّتْ أبصارهم، فلا ينظرون إلى شيء، ولا يلتفتون يميناً ولا شمالاً، وهذا هو حال المُقْمَح، أي: المقيد على الصفة المذكورة ﴿إِنَّا جَعَلْنَا فِيْ أَعْنَاقِهِمْ أَغْلَالًا﴾ والغُلُّ هو ما يُغَلُّ به العنق وهو بمنزلة القيد للرجل، وفي هذه الآية ثلاثة أقوال:

القول الأول: أن المراد بها: تشبيه وتمثيل حال الكفار بمن غُلَّتْ يده إلى عنقه، أي: جعلنا هؤلاء الكفار الذين عُرض عليهم الحق فرفضوه، وأصروا على عدم الإيمان به، كمن جُمِعَتْ أيديهم مع أعناقهم في قيود صلبة حديدية، وجُعِلَتْ تحت أذقانهم، فاضطروا إلى رفع رؤوسهم إلى السماء ﴿فَهِيَ إِلَيَّ الْآذِقَانِ فَهُمْ مُّقْمَحُونَ﴾ أي: فهم مغلولون عن كل خير، لا يبصرون الحق ولا يهتدون إليه.

واكتفى القرآن بذكر الغل في العنق عن ذكر اليدين؛ لأن الغل لا يُعرف إلا بجمع اليدين مع العنق وطأطة الرأس.

القول الثاني: أن الآية ليست من باب التشبيه، وإنما تذكُرُ مانعاً حسيّاً حدث لأبي جهل ورجُلَيْنِ معه من بني مخزوم، أرادوا إيذاء النبي ﷺ فحال الله بينه وبينهم.

فقد ورد عن ابن عباس ؓ أن أبا جهل قال: إني أعاهد الله لأجلِسَنَّ غداً لمحمد بِحَجَرٍ ما أطيق حمّله، فإذا سجد في صلاته فضخْتُ به رأسه، فجاءه وهو يصلي، ومعه حَجَرٌ ليذمغه به، فلما رفعه انثنت يده إلى عنقه، والتصق الحجر بيده، فرجع إلى أصحابه وأخبرهم الخبر، فقال رجل من بني مخزوم: أنا قاتله، فأتاه وهو يصلي؛ ليُرميه بالحجر، فأعمى الله بصره، فجعل يسمع صوته ولا يراه، فلما رجع إلى أصحابه وسأله، قال: ما رأيته، ولقد سمعت صوته، وحال بيني وبينه كهيئة الفحل، لو دنوْتُ منه لأكلني، فأنزل الله في أبي جهل هذه الآية، وأنزل في الرجل الآخر الآية التي بعدها^(١).

(١) أصل هذه الرواية في البخاري (٥٥٧/٨) عند تفسير سورة (اقرأ) برقم (٤٩٥٨) نحوه مختصراً، وقال ابن حجر: رواه ابن إسحاق في «السيرة»، وأبو نعيم في «الدلائل»، وذكره الطبري. قلت: ورواه البيهقي في «الدلائل» (١٩٦/٢).

القول الثالث في الآية: أنها وعيد بما سيحلُّ بالكافرين من عقاب يوم القيامة، ووصفٌ لنوع عذابهم حين يُساقون إلى جهنم في الأغلال، كما قال تعالى عن هذه صفة عذابهم: ﴿إِذِ الْأَغْلَالُ فِيَّ اعْتَنَقَتْهُمْ وَالسَّلْسِلُ يُسْحَبُونَ ﴿٧٦﴾ فِي الْحَمِيمِ ثُمَّ فِي النَّارِ يُسْجَرُونَ ﴿٧٧﴾﴾ [غافر]. وقال سبحانه: ﴿خُذُوهُ فَغُلُّوهُ ﴿٣١﴾ ثُمَّ الْجَحِيمَ صَلُّوهُ ﴿٣٢﴾ ثُمَّ فِي سِلْسِلَةٍ ذَرْعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعًا فَاسْلُكُوهُ ﴿٣٣﴾ إِنَّكُمْ كَانُوا لَا تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ الْعَظِيمِ ﴿٣٤﴾﴾ [الحاقة].

وسياق الآيات يرشح المعنى الأول، فإن الكافر قد نفر من الإيمان، وسدَّ على نفسه جميع الطرق المؤدية إليه، ولا شك أن رؤساء الكفر في صدر الدعوة، وفي كل زمان ومكان، في مقدمة هذا الصنف من البشر. قال تعالى:

٩- ﴿وَجَعَلْنَا مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا^(١) وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا فَأَغْشَيْنَاهُمْ فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ ﴿٩﴾﴾

وتمضي الآيات في تصوير الموانع بين الكفار وبين دخولهم في الإيمان، فهناك مانع داخلي في نفوسهم يمنعهم من الإيمان، وجعلهم كمن غلَّتْ يده إلى عنقه، فلا يرى إلا نفسه، كما في الآية السابقة.

وهناك مانع خارجي يسدُّ عليهم الطريق فلا يبصرون أدلة التوحيد.

أي: جعلنا أمام الكافرين سدًّا، ومن ورائهم سدًّا، حجب هذا السد بينهم وبين الإيمان والهدى، فهم بمنزلة من سدَّ طريقه من بين يديه ومن خلفه، فأصبح محصورًا بين سَدَّيْنِ هائلين، محجوبًا عن النظر في الأدلة والآيات، وقد نسب الله تعالى هذه الموانع إلى نفسه باعتباره خالق السبب والمسبب، وأنه لا يقع في ملك الله تعالى إلا ما يريد.

وهذا تمثيل لسد طرق الإيمان عليهم، بمن سدَّتْ عليه جميع الطرق، فهو لا يهتدي إلى مقصوده ﴿فَأَغْشَيْنَاهُمْ﴾ أي: أعمينا أبصارهم بسبب كفرهم واستكبارهم ﴿فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ﴾ طريق الحق ولا يهتدون إليه، وكل من قابل دعوة الإسلام بالإعراض والعناد فهو مستحق لهذا العقاب.

(١) قرأ حفص وحمزة والكسائي وخلف بفتح السين من (سدًّا) في الموضعين، والباقون بضمها، وهما لغتان بمعنى واحد.

وعن محمد بن كعب القرظي: أن نفرًا من قريش فيهم أبو جهل، تأمروا على النبي واجتمعوا عند بابه، فأخذ النبي ﷺ حفنة من تراب في يده فشرها على رؤوسهم وهو يقرأ هذه الآية، فأخذ الله أبصارهم ولم يروه، وخرج ﷺ من بين أظهرهم، فأتاهم آت، وقال لهم: ماذا تنتظرون؟ لقد خرج محمد من بينكم، وما ترك واحدًا منكم إلا وضع التراب على رأسه، فوضع كل رجل منهم يده على رأسه وإذا عليه تراب^(١).

هَدَايَةُ الْقُرْآنِ لَا تُحْيِي الْقُلُوبَ الْمَيِّتَةَ وَإِنَّمَا تُوقِظُ الْقُلُوبَ الْمُسْتَعِدَّةَ لِقَبُولِ الْإِيمَانِ

١٠- ﴿وَسَوَاءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾

ثم إن الكافر الذي حق عليه القول، لن يؤمن بالله ولا برسوله ولا باليوم الآخر، ولذا فإنه يستوي عنده الإنذار وعدمه، فلا جدوى في دعوته، فتحذيرك لهم -أيها الرسول- وعدم تحذيرك سواء، فهم لا يصدقون بالإيمان ولا يعملون به أبدًا؛ لأن من خيّم على عقله ظلام الضلال، وعَشَّشَتْ في قلبه شهوات الطغيان، لا تنفعه القوارع ولا الزواج؛ لأن الإنذار لا يحيي القلوب الميتة، إنما يوقظ القلب الحي المستعد لتلقي الإيمان، ولكن هؤلاء قد ماتت قلوبهم فهم لا يتأثرون بشيء، وكيف يؤمن من طُبِعَ على قلبه، ورأي الباطل حقًا والحق باطلًا. هذا هو الصنف الأول الذي لم يقبل دعوة النبي ﷺ.

الصنف الثاني: مَنْ قَبِلَ دعوة النبي ﷺ واستجاب لها:

لِلْإِنْتِفَاعِ بِالْمَوْعِظَةِ شَرْطَانِ

١١- ﴿إِنَّمَا تُنذِرُ مَنِ اتَّبَعَ الذِّكْرَ وَخَشِيَ الرَّحْمَنَ الْعَلِيمَ فَبَشِّرْهُ بِمَغْفِرَةٍ وَأَجْرٍ كَرِيمٍ﴾

فقد بيّن سبحانه في هذه الآية من ينتفع بالإنذار، فذكر أنه من توافر فيه شرطان:

أحدهما: اتباع الذكر، وهو القرآن، بالعمل بما فيه.

وثانيهما: خشية الرحمن دون أن يراه العبد، أو يطلع على عقابه.

(١) يُنظَرُ: ابن إسحاق، «سيرة ابن هشام» (٤٨٣/١) وأبو نعيم في «الدلائل» (١٥٤) وجاء مثل ذلك عن ابن عباس عند ابن مردويه ليلة الهجرة وفيه أن جبريل أتاه بالسورة وأمره بقراءتها، وجاء مثل ذلك عن مجاهد وعكرمة.

أي: إنما تنفع الدعوة من آمن بالقرآن، واتبع ما فيه من أحكام الله تعالى، وخاف الرحمن حيث لا يراه أحد إلا الله، فهو مع علمه برحمة الله تعالى يخشاه سبحانه، خوفًا من أن يسلبه ما أنعم به عليه.

فهؤلاء هم الذين ينفع معهم الإنذار والتذكير والإرشاد؛ لأنهم فتحوا عقولهم وقلوبهم للحق، فاستجابوا له، وهم المبشرون بمغفرة الذنوب والثواب العظيم في الآخرة بدخولهم الجنة، قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِالْغَيْبِ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ﴾ [الملك].

وهناك تلازم بين اتباع القرآن وخشية الرحمن سرًا وعلانية، فلا تحل الخشية في قلبٍ إلا وتتبعها العمل بما أنزل الله تعالى.

والاستقامة على النهج القويم والتدبر لآي الذكر الحكيم، يُفضي إلى العمل به.

فعمر بن الخطاب رضي الله عنه، لما تدبر آيات من سورة طه - كانت في لُوحٍ عند أخته - دخل الإيمان في قلبه فأسلم.

والإقبال على سماع القرآن يُفضي إلى الإيمان، شهد بذلك الوليد بن المغيرة، وهو من أعداء الإسلام، فقال: إن له لحلاوة، وإن عليه لطلاوة، وإن أسفلهُ لمغدق، وإن أعلاه لمثمر.

ولذا فإن المشركين كانوا يُعرضون عن سماع القرآن، ويصدّون الناس عن سماعه، مخافة أن يدخل الإيمان في قلوبهم.

فبعد الهجرة مرَّ النبي ﷺ على مجلس عبد الله بن أبيّ بن سلول، وتلا عليهم شيئًا من القرآن، فلما فرغ قال ابن أبيّ: يا هذا، إنه لا أحسن من حديثك إن كان حقًا، فاجلس في بيتك، فمن جاءك فحدّثه، ومن لم يأتك فلا تَعْتَهُ به.

إِحْيَاءُ مَوْتَى الْقُلُوبِ بِالْإِيمَانِ وَمَوْتَى الْأَجْسَادِ بِالْبَعْثِ

١٢- ﴿إِنَّا نَحْنُ نُحْيِي الْمَوْتَى وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا وَآثَرَهُمْ وَكُلُّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ فِي إِمَامٍ مُّبِينٍ﴾

ومع أن الموعظة لا تنفع موتى القلوب، كما قال تعالى ﴿لِيُنذِرَ مَنْ كَانَ حَيًّا﴾ [٧٠].

وكما قال سبحانه: ﴿إِنَّكَ لَا تَسْمَعُ الْمَوْتَى﴾ [النمل: ٨٠]. إلا أن الله تعالى قد يحيي قلب

الكافر الذي مات بالضلالة، فيهديه إلى الحق بعد قسوة القلب، ويشرح صدره للإسلام، فيؤمن بعد كفره قبل أن يموت، كما يحيي الله الأرض الجرداء بماء السماء، قال سبحانه: ﴿اعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا﴾ [الحديد: ١٧].

وقال ﷺ: ﴿أَوْ مَنْ كَانَ مَيِّتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَنْ مَثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِنْهَا﴾ [الأنعام: ١٢٢] أي: أحييناه بالإيمان.

وقد ناسب هذا السياق إثبات البعث والجزاء، وهو من أهم قضايا العقيدة، وقد تحدثت عنه السورة كثيرًا بأساليب متعددة، ومنه هذه الآية: ﴿إِنَّا نَحْنُ نُحْيِي الْمَوْتَى﴾.

أي: نحْيي الأموات جميعًا ببعثهم يوم القيامة، ونعيدهم إلى الحياة مرة أخرى للحساب والجزاء، كما نخرجهم من الشرك إلى الإيمان.

ففي هذه الجملة من الآية، إشارة إلى من يؤمن بالله تعالى، ويصدق بخاتم رسل الله، بعد أن كان كافرًا، وقد تضمن هذا المعنى بعث الناس بعد موتهم يوم القيامة.

فالآية متضمنة للمعنيين معًا، ثم قال تعالى:

﴿وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا﴾ في حياتهم من أعمال الخير والشر ﴿وَأَنذَرَهُمْ﴾ أي: نحن نسجل عليهم أعمالهم التي عملوها في الدنيا من خير أو شر، كالخطى إلى المساجد، أو الخطى إلى مجالس اللهو والفسق، ونكتب آثارهم من أعمال الخير التي تسببوا فيها وهم أحياء، فنُجْري ثوابها لهم بعد مماتهم، كالصدقة الجارية، والعلم النافع، والولد الصالح، والتعليم والنصح، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وغير ذلك من صلاة وصيام وزكاة وحج وعمرة وإحسان، وعمل خير يقتدى به الناس.

كما نُجْري عليهم بعد مماتهم آثارهم السيئة التي تسببوا فيها في دنياهم، كالبدع، ودور اللهو، والشرك وسائر المعاصي، فشتان بين من مات وترك في الناس قرآنًا يتلى بصوته، أو علمًا ينشر إلى يوم القيامة، وبين من مات أو ماتت، وترك رصيدًا من الأغاني أو الرقص! فهذا يجري له عمله الصالح، وتلك يجري لها عملها السيئ، والأول سنّ في الناس سنة حسنة فاقْتدوا به، والآخر سنّ فيهم سنة سيئة فاقْتدوا به، نعوذ بالله من سوء الخاتمة.

﴿وَكُلُّ شَيْءٍ﴾ من الأقوال والأفعال والنيات ﴿أَخْصَيْنَاهُ فِي إِمَامٍ مُّبِينٍ﴾ فعلم الله تعالى

محيط بأعمالهم، وهي مكتوبة ومسجلة؛ أي: إن كل شيء ضبطناه وجمعناه في كتاب مسطور واضح هو أم الكتب، وهو اللوح المحفوظ، بأيدي الملائكة فالعاقل يحاسب نفسه؛ ليكون قدوة في الخير في حياته وبعد مماته.

وقد أُطلق لفظ: (الإمام) على اللوح المحفوظ، وعلى صحف الأعمال التي يسجلها الكرام الكاتبون، وأُطلق أيضًا على الرسول الذي أُرسِل في كل أمة، كما قال تعالى: ﴿يَوْمَ نَدْعُوا كُلَّ أُنَاسٍ بِإِمْئِهِمْ﴾ [الإسراء: ٧١] ليشهد عليهم بما عملوا من خير أو شر. ثم إن الآثار التي يقدمها الناس لأنفسهم قبل الموت؛ ليلقوا عليها الجزاء في الآخرة، لها معنيان:

المعنى الأول: أنها الأعمال والأقوال التي باشروها بأنفسهم من خير أو شر، أو صالح أو سيئ، مما جاء موافقًا للتكاليف الشرعية أو مخالفًا لها، وبهذا جاء الحديث عن أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «إذا مات ابن آدم انقطع عمله إلا من ثلاث: صدقة جارية، أو علم ينتفع به، أو ولد صالح يدعو له»^(١).

ومن الآثار التي يتركها الإنسان بعد موته: ما يكون العبد سببًا في شيعه بين الناس واقتداء غيره به، شريطة أن يكون هذا القول أو العمل له أصل في الشرع، وليس أمرًا مبتدعًا.

وفي هذا يقول ﷺ: «من سنَّ في الإسلام سنةً حسنةً، فله أجرها وأجر من عمل بها بعده من غير أن ينقص من أجورهم شيء، ومن سنَّ في الإسلام سنةً سيئةً كان عليه وزرها ووزر من عمل بها من بعده من غير أن ينقص من أوزارهم شيء»^(٢).

ففي الحديث وعد ووعد، كلُّ يأخذ بحظه منه.

والمعنى الآخر: أن المراد بآثارهم: خطواتهم إلى الطاعة أو المعصية.

قلت: إن آثار العبد تشمل المعنيان معًا، فإن خطوات العبد إلى الطاعة أو المعصية من أعماله.

قال قتادة: لو كان الله مُغْفِلًا شيئًا من شأنك يابن آدم، لأغفل ما تعفي الرياح من آثارك.

(١) يُنظر: «صحيح مسلم» برقم (١٦٣١).

(٢) من حديث جرير بن عبد الله البجلي في «صحيح مسلم» برقم (١٠١٧) وابن حبان (٣٣٠٨).

وقال ثابت البناني: مشيتُ مع أنس، فأسرعت المشي، فأخذ بيدي، فمشينا رويدًا، فلما قضينا الصلاة، قال أنس: مشيتُ مع زيد بن ثابت، فأسرعت المشي، فقال: يا أنس، أما شعرت أن الآثار تكتب؟ أما شعرت أن الآثار تكتب؟^(١).

قد وردت أحاديث في هذا المعنى، منها:

١- ما رواه جابر بن عبد الله رضي الله عنه قال: خَلَّتِ البقاع حول المسجد، فأراد بنو سلمة أن يتنقلوا قُرب المسجد، فبلغ ذلك رسول الله ﷺ، فقال لهم: «إنه بلغني أنكم تريدون أن تنقلوا قُرب المسجد»، قالوا: نعم يا رسول الله، قد أردنا ذلك، فقال: «يا بني سلمة، دياركم تكتب آثاركم، دياركم تكتب آثاركم»، فقالوا: ما كان يسرنا أنا قد تحوّلنا.^(٢) أي: الزموا بيوتكم البعيدة فإن خطواتكم محسوبة بأجرها.

٢- وفي حديث عبد الله بن عمرو رضي الله عنه قال: تُؤَفِّي رجل بالمدينة، فصلى عليه النبي ﷺ، وقال: «يا ليتته مات في غير مولده»، فقال رجل من الناس: ولم يا رسول الله؟ قال رسول الله ﷺ: «إن الرجل إذا تُؤَفِّي في غير مولده، قيس له من مولده إلى مُنقطع أثره في الجنة»^(٣).

٣- وقال أبيُّ بن كعب رضي الله عنه: كان رجلٌ لا أعلم رجلاً أبعد من المسجد منه، وكان لا تُخطئه صلاة، قال: فقيل له: أو فقلتُ له: لو اشتريتَ حمارًا تركبُه في الظلماء وفي الرُمضاء، قال: ما يسرني أن منزلي إلى جنب المسجد، إني أريد أن يكتب لي ممشاي إلى المسجد، ورجوعي إذا رجعتُ إلى أهلي، فقال رسول الله ﷺ: «قد جمع الله لك ذلك كله»^(٤).

٤- وعن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «الأبعد فالأبعد من المسجد أعظم أجرًا»^(٥).

(١) أخرجه الطبري في تفسيره (١٠٠/٢٢).

(٢) «صحيح مسلم» برقم (٦٦٥) و«صحيح البخاري» (٦٥٦، ١٨٨٧) و«المسند» (٣/٣٣٢) برقم (١٤٥٦٦) و«صحيح سنن الترمذي» (٢٥٧٨) عن أبي سعيد.

(٣) «المسند» (١٧٧/٢) برقم (٦٦٥٦) إسناده ضعيف، لضعف ابن لهيعة، وباقي رجاله ثقات رجال الصحيح و«سنن النسائي» (٧/٤) و«سنن ابن ماجه» برقم (١٦١٤).

(٤) «صحيح مسلم» برقم (٦٦٣).

(٥) «صحيح سنن أبي داود» (٥٢٠) وابن أبي شيبة (٢٠٧/٣) وأحمد (٢٦٦/١٤) (٨٦١٨) و(٩٥٣١) وابن ماجه (٧٨٢) والحاكم (٢٠٨/١) والبيهقي (٦٤١٣)، وهو حديث حسن لغيره لأن فيه عبد الرحمن بن مهران، متكلم فيه، وباقي رجاله ثقات رجال الصحيح. (محققو المسند).

وقد نزلت هذه الآية ﴿إِنَّا نَحْنُ نُحْيِي الْمَوْتَىٰ وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا وَآثَرَهُمْ﴾ بمكة، واحتج بها الرسول ﷺ على بني سلمة في المدينة، فهي ليست مدنية، وليست الحادثة سبباً في نزولها.

وكل ما يباشره الإنسان بنفسه، أو يترك أثره من بعده، مسجل عند رب العالمين، وسوف يحاسب عليه، ويجازى به، مهما قلّ أو كثر: ﴿وَوُضِعَ الْكِتَابُ فَتَرَى الْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَوَلَيْنَا مَالَ هَذَا الْكِتَابِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا وَلَا يَظِلُّمُ رَبُّكَ أَحَدًا﴾ [الكهف].

وقال تعالى: ﴿يَبْنِئُوا الْإِنْسَانَ يَوْمَ يَمُوتُ بِمَا قَدَّمَ وَأَخَّرَ﴾ [القيامة].

وقال سبحانه: ﴿عَلِمْتَ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ وَأَخَّرَتْ﴾ [الانفطار].

وقد اشتملت هذه الآية على أربعة أشياء: إحياء الموتى، وكتابة ما قدموا، وكتابة آثارهم، وإحصاء كل شيء.

قِصَّةُ أَصْحَابِ قَرْيَةِ أَنْطَاكِيَّةَ

١٣- ﴿وَأَضْرَبَ لَهِمْ مَثَلًا أَصْحَابَ الْقَرْيَةِ إِذْ جَاءَهَا الْمُرْسَلُونَ﴾ [١٣]

وبعد أن وصف القرآن إعراض المكذبين عن رسول الله ﷺ ضرب لهم مثلاً بأصحاب القرية الذين كذبوا رسل الله، فأنكروا ما جاؤوا به، وأعرضوا عن دعوتهم، وتناولوا عليهم، فكانت عاقبتهم أن أرسل الله عليهم صيحة واحدة أخذتهم فإذا هم خامدون، وهكذا هدّد الله سبحانه من لم يؤمن برسوله محمد ﷺ أن يصيبه في الدنيا من العذاب مثل ما أصاب أهل هذه القرية، وفي هذا وعيد وإنذار لهم وللناس إلى قيام الساعة.

أي: اضرب يا رسولنا لغير المؤمنين بك، الذين ردّوا دعوتك ولم يقبلوها، اضرب لهم مثلاً يعتبرون به؛ كي يستجيروا لدعوتك، وهو قصة أصحاب القرية الذين كذبوا الرسل، فأهلكهم الله بصيحة واحدة، فإن حال المكذبين بك كحال أصحاب القرية الممثل بهم.

والقرية كما ذكر المفسرون عن ابن عباس هي (أنطاكية) من بلاد الشام في سوريا متاخمة لبلاد اليونان، تقع على نهر العاصي، قبيل مصبه في البحر المتوسط، بين الإسكندرونة واللاذقية، بناها سلوقس سنة (٣٠٧) قبل الميلاد، وجعلها عاصمة لملكه بعد

الإسكندر المقدوني، وكانت أيام العباسيين قصبة العواصم من الثغور الشامية^(١).

والمرسلون هم من الحواريين أصحاب عيسى عليه السلام، وكان ذلك في حدود سنة أربعين من مولد عيسى عليه السلام، أي: بعد رفعه بنحو سبع سنوات.

وقد كان بين موسى بن عمران وعيسى ابن مريم، ألف وتسع مئة سنة، ولم تكن بينهما فترة، وكان بينهما ألف نبي من بني إسرائيل، سوى من أرسل من غيرهم.

وكان بين ميلاد عيسى ومحمد ﷺ، خمس مئة وتسع وستون سنة، بُعث في أولها ثلاثة أنبياء، هم أصحاب هذه القصة، والفترة التي لم يُبعث فيها رسول بين عيسى ومحمد أربع مئة وأربع وثلاثون سنة^(٢).

وهؤلاء الرسل الثلاثة كما قال وهب بن منبه، هم: يوحنا وبولس، وقال كعب: صادق ومصدوق، أما الثالث فهو شمعون، وجاء في العهد الجديد بدل يوحنا: برنابا، وبدل شمعون سمعان، وكثيراً ما يكون الاسمان لسمى واحد، فلعله من هذا القبيل، أو هو من تحريف الأسماء.

وخلاصة القصة: أن دعوة عيسى عليه السلام كانت خاصة ببني إسرائيل، وكانت مكملة لشريعة التوراة، وقد أوصى عيسى الحواريين قبل رفعه ألا يغفلوا عن نهْي الناس عن عبادة الأصنام، فكانوا يتوجهون إلى البلاد لتحقيق وصية عيسى عليه السلام في الدعوة إلى توحيد الله تعالى.

وعلى هذا فيصح أن يقال: إنهم رسل من جهة عيسى، ويقال: إنهم رسل من عند الله تعالى.

وقد كان بأنطاكية مبعوثان من تلاميذ الحواريين، قيل: هما برنابا وبولس، وكان فيها نفر من اليهود واليونان، يطعنون في رسالتهما، فاضطرا إلى الخروج من أنطاكية، وقصداً (أيقونية) وما جاورها، فقاومهما يهود هذه المدينة، فرجعا إلى أنطاكية، فحصل لهما من الإيذاء كالمرة الأولى خصوصاً فيما يتعلق بقضية وجوب الختان على من يدخل في الدين، فذهبا إلى أورشليم لمراجعة الحواريين، فأيدوهما برسول ثالث هو (سيلا)؛ كي يعظوا الناس، ولعل ذلك كان بوحي من الله تعالى لتلاميذ الحواريين.

(١) يُنظر: أطلس القرآن، د. شوقي أبو خليل ص ١٣٣.

(٢) «طبقات ابن سعد» (٥٣/١) و«تهذيب ابن عساكر» (٢٢/١) عن ابن عباس .

وكان أهل أنطاكية والمدن المجاورة لها خليطاً من اليهود وعبداء الأصنام^(١).

فكذبوا الرسل الثلاثة وأنكروا عليهم، فأقسم الرسل أنهم مرسلون إليهم وما عليهم إلا البلاغ المبين، فتشاءم منهم القوم وهددوهم بالضرب والتعذيب.

وكان في أقصى المدينة رجل يقال له: (حبيب النجار) كان مؤمناً، وكان رجلاً مريضاً ضعيف الحال، جاء ناصحاً لأهل المدينة، يقول لهم: ﴿يَقْوِمُوا أَتَّبِعُوا الْمُرْسَلِينَ﴾ [٢٠]. ودعاهم إلى الإيمان بالله تعالى ونبتذ الشرك، فإن عبادة الأصنام تضر ولا تنفع، ولا تشفع لهم عند الله تعالى، ولا تُنقذ عابديها من عذاب النار، وأعلن (حبيب) إيمانه بالله، فما كان منهم إلا أن قتلوه بأن وثبوا عليه، قوطثوه بأقدامهم حتى مات، فتقبله الله في الشهداء المجاهدين لإعلاء كلمة الله، وأدخله الله الجنة عقب موته، وأعلمنا الله تعالى بما قاله بعد موته: ﴿يَلَيْتَ قَوْمِي يَعْلَمُونَ﴾ ٢١ ﴿يَا غَفَرَ لِي رَبِّي وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُكْرِمِينَ﴾ ٢٧.

أما عبدة الأوثان، فكان حظهم ما ذكر الله عنهم ﴿إِنْ كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً فَإِذَا هُمْ خَامِدُونَ﴾ ٢٩. صيحة واحدة من ملك واحد أهلكتهم.

قال ابن عطية: إن الله تعالى بعث إلى أهل القرية رسولين، فدعوا أهلها إلى عبادة الله تعالى وحده، وإلى الهدى والإيمان، فكذبوهما، فشدد الله أمرهما بثالث، وقامت الحجة على أهل القرية، وآمن منهم الرجل الذي جاء يسعى، وقتلوه في آخر أمره، وكفروا، فأصابتهم صيحة من السماء فخمدوا^(٢).

هذا: ولم يرتض ابن كثير ما ذهب إليه المفسرون من أن المراد بالقرية أنطاكية؛ لأن الله تعالى لم يهلك أمة من الأمم عن آخرها بعد نزول التوراة^(٣) بل أمر سبحانه بقتال المشركين، كما جاء ذلك عند تفسير آية سورة القصص ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ مِنْ بَعْدِ مَا أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ الْأُولَى﴾ [القصص: ٤٣]. ولم يُعرف أن هذه القرية أهلكت.

وهي إحدى المدائن الأربع التي فيها بطارقة، وهذه المدن الأربع هي:

(١) يُنظر: «تفسير التحرير والتنوير» (٣٥٨/٢٢) وما بعدها.

(٢) «تفسير ابن عطية» (٤/٤٤٩).

(٣) وقد صرح «العهد الجديد» باسم القرية كما في الإصحاحين الثالث عشر والخامس عشر.

١- القدس؛ لأنها بلد المسيح.

٢- وأنطاكية، وهي أول بلدة آمنت بالمسيح عن آخرها.

٣- والإسكندرية، وفيها اصطلحوا على اتخاذ: البطارقة والمطارنة والقساوسة والشمامسة والرهابين.

٤- ورومية؛ لأن بها الملك قسطنطين الذي نصر دينهم ووطّده، ولما بنى القسطنطينية نقل العاصمة إليها.

فإذا كانت أنطاكية هي أول مدينة آمنت عن آخرها بالمسيح، فكيف يكذبون رسل الله؟ فقد تكون هذه القرية غير أنطاكية المشهورة المعروفة^(١).

قلت: إن الذين كذبوا الرسل لم يكونوا نصارى، بل كانوا من اليهود الذين يكذبون رسالة عيسى ﷺ، وكانوا من عبدة الأوثان من أهل اليونان، ولعل القرية التي أهلكت كانت من المدن المتاخمة لأنطاكية من جهة اليونان، وذكر المفسرون اسم أنطاكية لأنها معروفة، وبهذا يُجمع بين قول الحافظ ابن كثير وأقوال المفسرين.

ثم إن رفع عذاب الاستئصال، إنما هو عن الأمم التي نزل عليها كتاب سماوي، وأولهم اليهود، ومنهم أمة محمد ﷺ؛ لأنها آخر الأمم، ورسولها آخر الرسل، وقد أراد الله لهذه الأمة وهذه الدعوة الأخيرة أن تبقى إلى يوم القيامة، كما قال تعالى: ﴿وَمَا كَانُ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ﴾ أي: عذاب إبادة جماعية ﴿وَأَنْتَ فِيهِمْ﴾ يا محمد حيًّا، وبعد موتك أيضًا ببقاء الرسالة ودستورها في الناس، وهو القرآن ﴿وَمَا كَانُ اللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾ [الأنفال: ٣٣].

فهذان أمانان من عذاب الاستئصال الجماعي لأمة محمد ﷺ.

ولذا كان القرآن هو معجزة الرسول ﷺ وهو معجزة باقية إلى يوم الساعة، وليس شأنه شأن المعجزات التي تشاهد في وقتها ثم ينتهي مفعولها.

كما أن الله تعالى رفع عذاب الاستئصال عن أمة موسى وأمة عيسى عليهما السلام لأن

(١) يُنظر: «تفسير ابن كثير» للآية (٥٧٣/٦).

الله تعالى أنزل عليهما التوراة والإنجيل، وهذا ما تشير إليه آية سورة القصص بأن رسالة موسى عليه السلام كانت بعد أن أهلك الله الأمم السابقة هلاك إبادة ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ مِنْ بَعْدِ مَا أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ الْأُولَى﴾ [القصص: ٤٣].

قلت: ولعل ما أصاب قرية أنطاكية لم يكن عذاب استئصال جماعي، بل كان عذاباً محدوداً. وأياً ما كان الأمر، فإن القرآن لم يُعَنَّ بذكر الأماكن ولا الأسماء، ويهدف إلى العبرة المستفادة من القصة لهداية البشر.

ونمضي مع الآيات عندما جاءت رسل الله إلى القرية، قال تعالى:

١٤- ﴿إِذْ أَرْسَلْنَا إِلَيْهِمُ اثْنَيْنِ فَكَذَّبُوهُمَا فَعَزَّزْنَا^(١) بِثَالِثٍ فَقَالُوا إِنَّا إِلَيْكُمْ مُّرْسَلُونَ﴾

أي: اذكر -أيها المخاطب- حين بعثنا إلى أهل القرية المجاورة لأنطاكية رسولين لدعوتهم إلى الإيمان بالله تعالى وترك عبادة غيره ﴿فَكَذَّبُوهُمَا﴾ في دعوتهما ﴿فَعَزَّزْنَا بِثَالِثٍ﴾ أي: قويناهما برسول ثالث، وقال الرسل الثلاثة لأهل القرية: نحن رسل الله، مرسلون لهدايتكم، فماذا رد عليهم أهل القرية؟

١٥- ﴿قَالُوا مَا أَنْتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا وَمَا أَنْزَلَ الرَّحْمَنُ مِنْ شَيْءٍ إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا تَكْذِبُونَ﴾

ثم ذكر سبحانه ما دار بين الرسل وأصحاب القرية من حوار، حيث ردوا دعوتهم لأسباب ثلاثة زعموها، هي:

١- أنهم أناس مثلهم وليسوا ملائكة.

٢- وأن الله تعالى لم يرسل إليهم شيئاً من الوحي.

٣- وأنهم كاذبون في دعواهم الرسالة.

فقالوا أولاً: ﴿مَا أَنْتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا﴾ فَلِمَ أُوحي إليكم ولم يوح إلينا؟! وما الذي

فضلكم علينا وخصكم بالرسالة دوننا؟ ولو كنتم رسلاً لكنتم ملائكة.

(١) قرأ شعبة بتخفيف الزاي الأولى من (فعززنا) بمعنى: غلب، أي: فعلبنا أهل القرية بثالث، وهو فعل متعد، ومفعوله محذوف، وقرأ الباقون بالتشديد من عز بمعنى: قوى، وهو فعل لازم، عُذِّي بالتضعيف، ومفعوله محذوف، أي: فقوينا الرسولين بثالث.

وهذه شبهة كثير من الأمم، كما قال تعالى عنهم: ﴿فَقَالُوا أَبَشَرٌ يَهْدُونَنَا﴾ [التغابن: ٦].
 قالت الرسل لأممهم الذين أوردوا هذه الشبهة: ﴿إِنْ نَحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ
 يَمُنُّ عَلَىٰ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ﴾ [إبراهيم: ١١]

وقال سبحانه على لسان المكذبين: ﴿وَلَيْنَ أَطَعْتُمْ بَشَرًا مِثْلَكُمْ إِنَّكُمْ إِذَا لَخَسِرُونَ﴾ [٣٤]
 [المؤمنون: ٣٤]. فتعجبوا من ذلك وأنكروه ﴿قَالُوا إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا تُرِيدُونَ أَنْ تَصُدُّونَا
 عَمَّا كَانَتْ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا﴾ [إبراهيم: ١٠].

وهذه سُنَّةٌ قديمة في الأمم، قال تعالى: ﴿وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَنْ يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمُ الْهُدَىٰ إِلَّا أَنْ
 قَالُوا أَبَعَثَ اللَّهُ بَشَرًا رَسُولًا﴾ [الإسراء: ٩٤].

وقالوا ثانيًا: ﴿وَمَا أَنْزَلَ الرَّحْمَنُ مِن شَيْءٍ﴾ أي أن أصحاب القرية قالوا: لم يُنزل الله شيئًا
 من الوحي والرسالة على أحد من خلقه.

وقد كان اليهود يتجنبون ذكر اسم الله تعالى، الذي يُسمَّى في لغتهم (يهوه) ويعوضون
 عن ذلك بالصفات، أما أهل اليونان فهم لا يعرفون اسم الله تعالى.

وقالوا ثالثًا: ﴿إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا تَكْذِبُونَ﴾ أي: ما أنتم -أيها الرسل- إلا قوم تكذبون في
 دعوى الرسالة، فليستم رسلًا لنا ولا لغيرنا، فيماذا أجابت الرسل الثلاثة؟

١٦، ١٧- ﴿قَالُوا رَبَّنَا يَعْلَمُ إِنَّا إِلَيْكُمْ لَمُرْسَلُونَ﴾ [١٦] وَمَا عَلَيْنَا إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ ﴿١٧﴾

أي: قال المرسلون مؤكدين أنهم رسل الله: الله يعلم أننا مرسلون إليكم ولسنا كذبة،
 ولو كنا كذلك لانتقم الله منا أشد الانتقام، ولكن الله سيعزنا وينصرنا عليكم، وستعلمون
 لمن تكون عاقبة الدار.

وقد أكد لفظ: ﴿لَمُرْسَلُونَ﴾ هنا باللام؛ لأنه جواب للمنكرين، أما التي قبلها ﴿إِنَّا إِلَيْكُمْ
 مُرْسَلُونَ﴾ فهي مجرد إخبار، فلا تحتاج إلى زيادة تأكيد.

وكان جوابهم في غاية الأدب، وعدم مقابلة السفاهة بمثلها، وهو جواب يحمل الثبات والثقة.

وقالت الرسل لأهل القرية: الهداية بيد الله وحده، ونحن لا نملك هدايتكم، وإنما
 علينا تبليغ الرسالة إليكم بوضوح، فإن آمنتم فلکم السعادة، وإن كذبتم فلکم الشقاء،

وليس لنا من الأمر شيء.

ومن المعجزات الدالة على صدق الرسل ما جاء في هذه القصة من إبراء الأكمه والأبرص والأجذم على أيديهم بإذن الله تعالى^(١). فماذا قال أصحاب القرية لرسولهم؟

١٨- ﴿قَالُوا إِنَّا تَطَيَّرْنَا بِكُمْ لَئِن لَّمْ تَنْتَهُوا لَنَرْجُمَنَّكُمْ وَلَيَمَسَّنَّكُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾

لم يقتنع أهل القرية بهذا المنطق السليم، وأنهم رسل من عند الله، يبلّغون لهم أمره ونهيه بل ردّوا على الرسل ردّاً قبيحاً، قالوا لهم: إنا تشاءمنا بكم وبدعوتكم لنا إلى الإيمان وتزك عبادة الأصنام، لئن لم تنتهوا وتكفّوا عن دعوتكم لنا لنقتلنكم رمياً بالحجارة، وليصيننكم منا عذاب موجه.

وقد تشاءموا منهم؛ لأنهم دعوهم إلى غير ما يدينون به، فاستغربوا ذلك، ونفرت منه طباعهم المعوجّة، وكأنهم قالوا لهم: أعاذنا الله مما تدعوننا إليه.

وتوعّدوهم بالقتل شرّاً قتلة، إن لم يرّحلوا عن ديارهم، وعادة الناس أن يتفاءلوا بما يميلون إليه، وأن يتشاءموا مما يكرهونه.

وفي الحديث: عن أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «لا عدوى ولا طيرة، وأحب الفأل الصالح»^(٢).

والتطير في الأصل: تكلف معرفة ما يدل عليه نوع من الطير، من خير أو شر في ذهابه ومجيئه، ثم أطلق على كل حدث يؤهم منه إصابة الشر.

وهكذا قال بنو إسرائيل لموسى عليه السلام: ﴿وَإِنْ تُصِيبْهُمْ سَيْئَةٌ يَظْهَرُوا بِمُوسَىٰ وَمَنْ مَعَهُ أَلَا إِنَّمَا طَئِرُهُمْ عِنْدَ اللَّهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الأعراف: ١٣١].

وقال أهل ثمود لصالح عليه السلام: ﴿قَالُوا أَطَيَّرْنَا بِكَ وَبِمَنْ مَعَكَ قَالِ طَئِرُكُمْ عِنْدَ اللَّهِ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ تُفْتَنُونَ﴾ [النمل: ٢٧].

ولم يزل اليهود في كل مدينة من هذه المدن يضطهدون الرسل، ويشيرون عليهم الناس، ويلحقونهم في كل بلد يحلّون فيه حتى أصابهم الضر، فُرجم (بولس) في مدينة (لسترة)

(١) يُنظر: «التسهيل في علوم التنزيل» (١٦١/٣).

(٢) «صحيح مسلم» (٢٢٢٣).

حتى حسبوا أنه قد مات^(١).

ثم رد الرسل على أهل القرية فأجابوهم على قولهم ﴿إِنَّا نَطَّيَّرْنَا بِكُمْ﴾ بأن:

١٩- ﴿قَالُوا طَائِفُكُمْ مَعَكُمْ أَيْنَ دُكِّرْتُمْ^(٢) بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ ﴿١٩﴾﴾

قابلت الرسل تهديد القوم بالثبات على الحق والمنطق الحكيم، فقالوا لأهل القرية: ليس الأمر كما ذكرتم أننا سبب شؤمكم، بل إنَّ شؤمكم معكم، بسبب أعمالكم وإصراركم على الكفر والإعراض عن الحق، فكان مردود ذلك عليكم، فما أصابكم ليس بسببنا ولا من أجلنا، بل هو بسبب بغيكم وكفركم.

ثم قال الرسل لأهل القرية: ﴿أَيْنَ دُكِّرْتُمْ﴾ دخلت همزة الاستفهام على إن الشرطية من لفظ (إن) وهذا الشرط جوابه محذوف لدلالة السياق عليه، وتقديره: أئن وعظمت بما فيه خيركم، تشاءمتم منا، وتوعدتمونا بالرجم والتعذيب؟

ثم قالوا لهم: ﴿بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ﴾ عادتكم الإسراف في العصيان والتكذيب، وإيثار الباطل على الحق، والغني على الرشد، فليس شؤمكم بسبب وجودنا بينكم ودعوتنا لكم.

حَبِيبُ النَّجَارِ

٢٠، ٢١- ﴿وَجَاءَ مِنْ أَقْصَا الْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعَى قَالَ يَنْقَوُوا اتَّبِعُوا الْمُرْسَلِينَ ﴿٢٠﴾ اتَّبِعُوا مَنْ لَا يَسْتَأْذِنُكُمْ أَجْرًا وَهُمْ مُّهْتَدُونَ ﴿٢١﴾﴾

همَّ أهل القرية بتعذيب الرسل، أو بقتلهم، وشاع الخبر في المدينة التي هي القرية، فجاء رجل مؤمن من أطراف القرية، هو حبيب النجار، جاء مسرعاً مُهَرَّولاً يسعى لنصرة الرسل من أذى قومه، فأقبل عليهم وأظهر دينه، وقال: أنا ناصح لكم، وهؤلاء الرسل جاؤوا لهدايتكم وإنقاذكم من عبادة الأصنام، وكانت الأنبياء تُقتل في بني إسرائيل، فلما سمع (حبيب) بوصولهم إلى مدينته، وعلم ما يراد بهم من أذى، أقبل إليهم يسعى ليدركهم، فيشهدهم على إيمانه.

(١) «تفسير التحرير والتنوير» (١١/٣٦٣).

(٢) قرأ أبو جعفر بتخفيف كاف (ذكرتم)، والباقون بتشديدها.

وفي سورة القصص ٢٠: ﴿وَجَاءَ رَجُلٌ مِّنْ أَقْصَا الْمَدِينَةِ يَسْعَى﴾ وذلك لأن الرجل الذي في سورة ﴿يَسَ﴾ كان داعيًا قومه إلى الإيمان بالله تعالى، أما الذي في سورة القصص فقد كان ناصحًا لموسى بالخروج من أرض مصر.

وقدّمت جملة ﴿أَقْصَا الْمَدِينَةِ﴾ هنا، إشارة إلى أن الإيمان قد ظهر أولاً في أطراف المدينة، قبل أن يظهر في قلبها؛ لأن قلب المدينة هو مسكن الحكام وأحبار اليهود، وهم أبعد عن إنصاف الرسل وقبول دعوتهم، وعامة الناس يتبعون خاصتهم، بخلاف أطراف المدينة فهم أقرب إلى الاستقلال، فكان هذا التقديم للاهتمام بأقصى المدينة، والثناء على أهلها، وأنه قد يوجد فيها ما لا يوجد في وسطها.

هذا: وجاء عن وهب بن منبه: أن حبيبا النجار كان يصنع الحرير، وكان يتصدق بنصف كسبه، وكان مريضاً بالجذام، ومنزله عند أقصى أبواب المدينة، وكان قد ظل يعكف على عبادة الأصنام سبعين سنة، يسألها كشف الضر عنه، فلم تستجب له، فلما رأى الرسل الذين جاؤوا إلى القرية سألهم: هل من آية؟ قالوا: نعم، نحن ندعو ربنا القادر فيفرج عنك ما بك! فقال: إن هذا لعجيب، إني أدعو هذه الآلهة سبعين سنة لتفرج عني، فلم تستطع، فكيف يفرج ربيكم في يوم واحد؟! قالوا: نعم، ربنا على ما يشاء قدير، وهذه الأصنام لا تنفع شيئاً ولا تضر، فأمن حبيب بدعوة الرسل، ودعوا ربه، فكشف الله ما به^(١).

وتابع الرجل دعوته إلى قومه ﴿قَالَ يَاقَوْمِ﴾ تأليفاً لقلوبهم واستمالة لهم ﴿أَتَبْعُوا الْمُرْسَلِينَ﴾ الداعين لكم إلى توحيد الله تعالى وطاعته.

ثم كرر قوله لهم تأكيداً، وبياناً للسبب الذي دعاهم من أجله، فقال: اتبعوا الذين لا يطلبون منكم ما لا على إبلاغ الرسالة، وإنما جاؤوا ليرشدوكم إلى طريق الحق، وهم على هدى وبصيرة فيما يدعونكم إليه من توحيد الله تعالى.

وقد يقال: إنه لا يأخذ أجراً ولكنه ليس على الحق، فكان الجواب على ذلك بقوله تعالى ﴿وَهُمْ مُّهْتَدُونَ﴾ فهم لا يدعون إلا بما يشهد به العقل الصحيح، والفطرة السليمة.

(١) يُنظر: «تفسير القرطبي» و«الخازن» وغيرهما للآية.

قال قتادة: بلغني أن رجلاً كان يعبد الله في غار اسمه (حبيب)، فسمع بهؤلاء النفر الذين أرسلهم عيسى إلى أهل أنطاكية، فجاءهم فقال: أتسألون أجراً؟ فقالوا: لا، فقال لقومه: ﴿أَتَبْعُونِي مَنْ لَا يَسْأَلُكُمْ أَجْرًا﴾ قال: فرجموه بالحجارة، فجعل يقول: ربِّ اهدِ قومي فإنهم لا يعلمون، فلم يزالوا يرجمونه حتى قتلوه، فدخل الجنة، قال: فما نُؤْظِرُوا بعد قتلهم إياه حتى أخذتهم صيحة واحدة فإذا هم خامدون^(١).

وفي هذا بيان لفضل من سعى إلى الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وبيان أن الرسل لن يخسروا شيئاً في دنياهم، وأنهم سيرحون خيري الدنيا والآخرة. وتابع الرجل المؤمن نصيحته لقومه قائلاً:

٢٢- ﴿وَمَا لِي (٢) لَا أَعْبُدُ الَّذِي فَطَرَنِي وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (٣)﴾

فلما قال لهم (حبيب) هذه المقولة قالوا له: وهل أنت مخالف لديننا، متبع دين هؤلاء الرسل؟ فأجابهم قائلاً: وأي شيء يمنعني من أن أعبد الله الذي خلقني فأبدع خلقي، ولم أكن قبل ذلك شيئاً مذكوراً؟! ثم إن مصيركم ومرجعكم إليه بعد الموت، فيحاسبكم على أعمالكم في الدنيا، ويجازيكم عليها بما تستحقونه من ثواب أو عقاب في الآخرة، والحكم بين عباده في الدنيا والآخرة هو الذي يستحق أن يُعبد، دون من لا يملك نفعا ولا ضرا، ولا عطاء ولا منعاً، ولا موتاً ولا حياة ولا نشوراً، وقد جمعت هذه الآية القصيرة بين بدء الخلق وإعادته، ومقتضى ذلك هو: الإيمان بالله تعالى واليوم الآخر.

ويمضي الرجل قائلاً:

٢٣- ﴿أَتَتَّخِذُ مِنْ دُونِهِ آلِهَةً إِنْ يُرَدِّنْ (٤) الرَّحْمَنُ بِضُرٍّ لَا تُغْنِ عَنِّي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئًا وَلَا يُنْقِذُونِ (٥)﴾

(١) أخرجه عبد الرزاق (١٤١/٢) والطبري (٤٢١/١٩) وغيرهما.

(٢) قرأ حمزة ويعقوب وخلف وهشام بخلف عنه بإسكان ياء (وما لي) وصلاً ووقفاً، والباقون بفتحها وصلاً وإسكانها وقفاً، وهو الوجه الثاني لهشام.

(٣) قرأ يعقوب ببناء (ترجعون) للفاعل، والباقون بالبناء للمفعول.

(٤) قرأ أبو جعفر بإثبات (يردن) مع فتحها وصلاً وإسكانها وقفاً، ويعقوب بإسكانها وقفاً، وحذفها الباقون في الحالين.

(٥) قرأ ورش بإثبات ياء (تنقذون) وصلاً، ويعقوب بإثباتها وصلاً ووقفاً، والباقون بحذفها في الحالين.

أنكر الرجل المؤمن على قومه، كيف يعبدون من دون الله تعالى آلهة لا تسمع ولا تبصر، ولا تنفع ولا تضر، ولا تغني عن عابديها شيئاً!!

أعبد من دون الله آلهة أخرى لا تملك من الأمر شيئاً، فلو أراد الله تعالى أن ينزل بي شيئاً من الضر والأذى، وشفعت لي هذه الآلهة فإن شفاعتها لا تنفع، وهي لا تملك الشفاعة أصلاً.

ثم إنها لا تستطيع إنقاذه مما أنا فيه من الضر والأذى، ولا إنقاذه من عذاب الله إن لم أؤمن به.

قال تعالى: ﴿قُلْ أَفَرَأَيْتُمْ مَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ أَرَادَنِيَ اللَّهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَاشِفَاتُ ضُرِّيهِ أَوْ أَرَادَنِيَ بِرَحْمَةٍ هَلْ هُنَّ مُمْسِكَتُ رَحْمَتِهِ﴾ [الزمر: ٣٨].

وقال سبحانه: ﴿وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُهُمْ وَلَا يَنْصُرُهُمْ﴾ [يونس: ١٨].

ويستمر الرجل المؤمن في نصيحته لقومه، فيقول:

٢٤، ٢٥- ﴿إِنِّي^(١) إِذَا لِنِي ضَلَلٍ مُبِينٍ ﴿٢٤﴾﴾ إِنِّي^(٢) ءَامَنْتُ بِرَبِّكُمْ فَاسْمَعُونِ ﴿٢٥﴾﴾

أي: وإن أنا عبدت غير الله، واتخذت آلهة أخرى من دون الله، فأنا في خسران واضح، وعلى خطأ بين في عبادتي غيره، وهذا الخطأ الظاهر لا يخفى على من له أدنى بصيرة.

ثم إن الرجل الذي كان يكتنم إيمانه أعلن إيمانه، على الملأ، فقال في صراحة واضحة: ﴿إِنِّي ءَامَنْتُ بِرَبِّكُمْ﴾ الذي خلقتني وخلقكم، ورباني ورباكم بنعمه ﴿فَاسْمَعُونِ﴾ أي: استمعوا إلى هذا الإيمان، واشهدوا لي به، واعملوا بنصيحتي إليكم.

وهذا الخطاب من الرجل المؤمن موجه للرسل، وموجه لأهل القرية معاً.

وهكذا فإن الرجل المؤمن شهد للرسل بالرسالة، ودعا قومه إلى توحيد الله، وذكر الأدلة والبراهين عليها، وأخبرهم بأنهم على ضلال، وأن عبادة غير الله باطلة، وأعلن إيمانه جهراً مع خوفه الشديد من قتلهم له، فقتله قومه لما دعاهم إلى التوحيد والإيمان بالرسل، فأدخله الله الجنة، وأخبرهم بما حباه الله به من النعيم بعد وفاته:

(١)، (٢) قرأ نافع وأبو عمرو وأبو جعفر بفتح الباء من (إني إذا)، و(إني آمنت) والباقون بإسكانهما.

(٣) قرأ يعقوب بإثبات ياء (فاسمعون) وصلاً ووقفاً، والباقون بحذفها في الحالين.

نَهَايَةُ حَبِيبِ النَّجَارِ فِي الدُّنْيَا

٢٦، ٢٧- ﴿قِيلَ ادْخُلِ الْجَنَّةَ قَالَ يَلَيْتَ قَوْمِي يَعْلَمُونَ ﴿٢٦﴾ بِمَا غَفَرَ لِي رَبِّي وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُكْرَمِينَ﴾

أي إن هذه الدعوة، وهذه النصائح منه لأهل القرية، لم تصادف من القوم أذنًا واعية، فحين قال لهم ذلك معلنًا إيمانه، وثبوا عليه وثبة رجل واحد فقتلوه، ولم يكن له أحد يمنع من ذلك.

قال ابن مسعود رضي الله عنه: إنهم وطئوه بأقدامهم، حتى خرجت أمعاؤه من دبره، وقيل: إنهم رموه بالحجارة حتى مات ^(١).

فلما قتلوه عرض الله عليه مقعده من الجنة وتحقق له أنه من أهلها برؤيته لها، فلما علم ذلك تمنى أن يُعلم قومه بذلك إشفافًا عليهم ونصحًا لهم، فقال مقالته هذه، وأدخله الله الجنة مع الشهداء في سبيل الله لإعلاء كلمته، وقد فهم قتلُه من الآيات ضمناً لا تصريحاً، فقد أغمض الله ذلك على المشركين، حتى لا يسرهم أن قومه قتلوه، فيُجرّتهم ذلك على قتل الرسل والدعاة بعده.

أخرج الحاكم عن ابن مسعود رضي الله عنه قال: لما قال صاحب يس: ﴿يَقَوْمِ أَتَّبِعُوا الْمُرْسَلِينَ﴾ خنقوه ليموت، فالتفت إلى الأنبياء فقال: ﴿إِنِّي آمَنْتُ بِرَبِّكُمْ فَاسْمَعُونِ﴾ (٢٥) أي: فاشهدوا لي ^(٢). ثم قال الله تعالى له بعد موته: ﴿ادْخُلِ الْجَنَّةَ﴾ إكراماً له، فالشهداء لهم مزية التعجيل بدخول الجنة.

ففي الحديث عن أبي بن كعب بن مالك: إن أرواح الشهداء في حواصل طيور خضر تأكل من ثمار الجنة، وتأوي إلى قناديل معلقة في ظل العرش ^(٣).

(١) يُنظر: «تفسير الطبري» والقرطبي وابن كثير وغيرهم للآية.

(٢) «المستدرک» (٤٢٩/٢).

(٣) يُنظر: «المسند» (٢٧١٦٦) حديث صحيح دون لفظ (الشهداء) ورجال إسناده ثقات رجال الشيخين، وجاء بدل لفظ (الشهداء) (إنما نسمة المؤمن) في كثير من الروايات، وأخرجه الترمذي (١٦٤١) وسعيد بن منصور (٢٥٦٠) وغيرهم.

فلما رأى (حبيب) ما في الجنة من النعيم والكرامة، تمنى أن يعلم قومه بحاله؛ ليُعلموا حسن المال لمن آمن وصبر، فيحملهم هذا على ترك الكفر والدخول في الإيمان ﴿قَالَ يَلَيْتَ قَوْمِي يَعْلَمُونَ﴾ بالسبب الذي غفر الله لي به ذنبي، وأدخلني به جنات النعيم، حتى يؤمنوا بالله، ويتبعوا الرسل، فيدخلوا الجنة مثلي.

قال ابن عباس رضي الله عنه: نصَحَ قومه في حياته ونصحهم بعد مماته.

وقال قتادة بن دعامة: نصَحهم على حالة الرضى والغضب.

وقال عروة بن مسعود للنبي ﷺ: ابغثني إلى قومي أَدْعُوهم إلى الإسلام، فقال ﷺ: «إني أخاف أن يقتلوك» فقال: لو وجدوني نائمًا ما أيقظوني، فقال له رسول الله ﷺ: «انطلق» فانطلق، فمرَّ على اللات والعزى، فقال: لأَصْبِحَنَّك اليوم بما يسوءك، فغضبت ثقيف، فقال: يا معشر ثقيف، إن اللات لا لات، وإن العزى لا عَزَى، أسلموا تسلموا، قال ذلك ثلاث مرات، موجَّهًا كلامه للأحلاف، فرماه رجل فأصاب أُكْحَلَهُ فقتله، فبلغ ذلك رسول الله ﷺ فقال: «هذا مثله كمثِّل صاحب يس، قال: يا ليت قومي يعلمون بما غفر لي ربي وجعلني من المرسلين»^(١).

وذكر ابن إسحاق: أن مسيلمة الكذاب أخذ يسأل حبيب بن زيد بن عاصم: أتشهد أن محمدًا رسول الله؟ فيقول: نعم، ثم يقول: أتشهد أني رسول الله؟ فيقول: لا أسمع، فيقول مسيلمة: أسمع هذا ولا تسمع ذاك؟ فيقول: نعم، فجعل يُقَطِّعُهُ عَضْوًا عَضْوًا، كلما سأله لم يزد على ذلك حتى مات في يديه، فقال كعب الأحبار حين قيل له: إن اسمه حبيب، قال: وكان والله صاحب يس اسمه حبيب^(٢).

نَهَايَةُ أَصْحَابِ الْقَرْيَةِ

٢٨، ٢٩- ﴿وَمَا أَرْزَلْنَا عَلَى قَوْمِهِ مِنْ بَعْدِهِ مِنْ جُنْدٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَمَا كُنَّا مُنْزِلِينَ﴾ ١٨٩

(١) رواه الحاكم في «المستدرک» (٦١٥/٣) والبيهقي (٢٩٩/٥) مطولاً، وابن أبي شيبة (١٤٦/١٢) والطبراني في «المعجم الكبير» (١٤٨/١٧) (١٢١٥٦) من طريقين، وقال الهيثمي في «مجمع الزوائد» (٣٨٦/٩): فيه أبو عبيدة بن الفضل، وهو مرسل وإسناده حسن.

(٢) «تفسير الطبري» (١٠٣/٢٢).

كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً^(١) وَجَدَهُ فَإِذَا هُمْ خَنِيدُونَ ﴿٢٩﴾

هذا توجه بالخطاب إلى أمة محمد ﷺ؛ حتى لا ينزل بهم ما نزل بقوم حبيب النجار، وقد نفى سبحانه أن يكون قد أرسل إليهم رسلاً من السماء لتعذيبهم، فهم أهون من ذلك وأيسر، والمعنى: فلم نحتاج أن نتكلف في عقوبتهم جنداً من السماء تنزل لإهلاكهم، ﴿وَمَا كُنَّا مُنْزِلِينَ﴾ لعدم الحاجة إلى ذلك، ولعظم قدرتنا، وشدة ضعفهم، فأدنى شيء من عذاب الله يكفيهم. ولما قُتل حبيب النجار غضب الله تعالى له، فعجل لهم العقوبة في الدنيا، فأمر جبريل فصاح بهم صيحة واحدة، فماتوا عن آخرهم، ولم تنزل ملائكة من السماء لإهلاكهم، ولم يخلق الله جنداً لإهلاك الأمم التي أبيدت، ولم تعبئ السماء قواها لتلقي عليهم قذائف فتبيدهم، فما هي إلا صيحة واحدة فإذا هم بلا أنفاس ﴿وَمَا يَعْلَمُ جُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ﴾ [المدر: ٣١].

إن تدمير أعداء الإسلام - لو أراد الله ذلك - لا يحتاج إلى أكثر من صيحة!! ذلكم ما يشير إليه قوله تعالى: ﴿وَمَا أَنْزَلْنَا عَلَى قَوْمِهِ﴾ أي: على قوم حبيب النجار، وهم أهل القرية التي كذبت الرسل ﴿مِنْ بَعْدِهِ﴾ أي: من بعد موته ﴿مِنْ جُنْدٍ مِنَ السَّمَاءِ﴾ أي: لم تنزل ملائكة من السماء لعذاب القوم وإهلاكهم، بعد أن قتلوا الرجل الناصح لهم، وكذبوا رسل الله، بل إن الله تعالى تولى أمرهم بصيحة واحدة مِنْ مَلَكٍ واحد فأهلكهم الله.

قال تعالى: ﴿وَمَا كُنَّا مُنْزِلِينَ﴾ على الأمم التي أهلكتها جنوداً أو ملائكة لعقابهم، فإن أمرهم أهون وأيسر من ذلك على الله تعالى، حيث لم يحتاج إلى إنزال قوة عليا تهلكهم.

وما كانت عقوبتنا لهم إلا صيحة واحدة، فإذا هم جثث هامدة، لم يبق لهم أثر، حيث أخدمت أنفاسهم فلم يتحركوا، وكانوا كالناز الخامدة، كما قال تعالى: ﴿حَتَّى جَعَلْنَاهُمْ حَصِيدًا خَمِيدِينَ﴾ [الأنبياء: ١٥]. قال تعالى معقباً على القصة:

(١) قرأ أبو جعفر برفع (صيحة واحدة) على أن كان تامة و(صيحة) فاعل و(واحدة) صفة، أي: ما وقع إلا صيحة واحدة، وقرأ الباكون بنصبها على أن كان ناقصة، واسمها ضمير مضمّر، و(صيحة) خبرها، و(واحدة) صفة، أي: إن كانت الأخذة إلا صيحة واحدة.

التَّعْقِيبُ عَلَى الْقِصَّةِ

٣٠- ﴿يَحْزَنُوا عَلَى الْعِبَادِ مَا يَأْتِيهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾

وبعد هلاك القرية ومن فيها، يقدّم الله تعالى رثاء لكل من كذب رسولاً من رسل الله، وهذا الرثاء يُقصد به من ضُرب لهم المثل في أول القصة ﴿وَأَضْرِبْ لَهُمْ مَثَلًا أَصْحَابَ الْقَرْيَةِ﴾ والعباد هم البشر جميعاً، فسنة الله في خلقه مطردة.

وقد بين الله سبحانه وجه الحسرة والأسف، وأن هذه الحسرة تتعلق بكل من كذب رسولاً من رسل الله إلى يوم الساعة، وهذا شأن المجرمين الذين بدّلوا الإيمان بالكفر، والسعادة بالشقاء، وقد خرجت من هذا العموم أمة واحدة هي أمة يونس عليه السلام لما آمنوا كشف الله عنهم عذاب الخزي في الحياة الدنيا.

والحسرة: انفعال نفسي على حالة مؤسفة، لا يملك الإنسان لها حلاً سوى أن يتحسر ويتألم.

والله تعالى لا يتحسر على العباد، ولكنه سبحانه يقرر أن حالة المكذبين لرسول الله من العباد تستحق منهم الحسرة والندامة، فهي حالة مؤسفة ونهايتها شر وخيم، وبلاء عظيم.

فيا حسرة العباد وندامتهم يوم القيامة على ما ضيّعوا من أمر الله، وعلى ما فرطوا في جنب الله إذا عاينوا العذاب، وقد أتاحت لهم فرص النجاة في الدنيا فأعرضوا عنها، وعُرضت عليهم مصارع الغابرين فلم يعتبروا بها، وفُتحت لهم أبواب الرحمة بإرسال الرسل وإنزال الكتب، ولكنهم أساءوا الأدب معهم، فكلما جاءهم رسول من عند الله سخروا منه وكذبوه.

فما أعظم شقاؤهم، وما أشد جهلهم، وما أعظم عنادهم، حتى وصلوا إلى هذه النهاية الأليمة.

وفي هذا تعريض بمن كذب سيد الرسل ﷺ، ووعد للمكذب بالهلاك والعذاب في الدنيا والآخرة.

العِبْرَةُ الْمُسْتَفَادَةُ مِنَ الْقِصَّةِ

٣١، ٣٢- ﴿أَلَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنَ الْقُرُونِ أَنَّهُمْ إِلَيْهِمْ لَا يَرْجِعُونَ ﴿٣١﴾ وَإِنْ كُلُّ لَمَّا^(١) جَمِيعٌ لَدَيْنَا مُحْضَرُونَ ﴿٣٢﴾﴾

ألم يعلم مكذبو الرسل في كل زمان ومكان، أن الله تعالى قد أهلك قبلهم كثيراً من الأمم السابقة، بسبب إصرارهم على كفرهم وتكذيبهم لرسولهم، بدءاً من قوم نوح عليه السلام ومن بعدهم، فيعتبروا بهم ويستفيدوا مما حدث لهم؟!

إن الحيوان ليرجف حين يرى مصرع أخيه أمامه، ويحاول أن يتوقَّاه قدر ما يستطيع، فما بال الإنسان يرى المصارع تلو المصارع، ثم يسير مندفعاً في ذات الطريق؟! والأمم التي ذهبت لن تعود إلى الدنيا مرة ثانية على تطاول القرون، وتعاقب السنين، فهو هلاك لا طمع معه في الرجوع إلى الدنيا، وهو مما يزيد الحسرة ألماً.

فإن جميعهم قد أريد هلك، ولم يرجع إلى الدنيا، ولن يرجع إليها، وسيبعثهم الله بعد موتهم.

ثم إن كل القرون التي أهلكها الله تعالى من جميع الخلائق، سيحضرون للحساب والجزاء يوم القيامة، بين يدي أحكم الحاكمين فيجازيهم بأعمالهم، إن خيراً فخير، وإن شراً فشر، فالذين أهلكوا في الدنيا لن يُتركوا بعد هذا الهلاك، وليست هذه نهايتهم، بل هناك بعث وحساب وجزاء، وإن جميع القرون من الأمم الماضية والآتية ستحضر للحساب والجزاء بين يدي أحكم الحاكمين، فيجازيهم على ما قدمت أيديهم من ثواب أو عقاب، وليس اجتماعهم في أوقات مختلفة، ولا أماكن متعددة، بل يُبعثون جميعاً في مكان واحد وزمان واحد، فالكل مرجعه إلى الله يوم القيامة، كما قال تعالى:

﴿وَإِنْ كُلُّ لَمَّا لِيُؤْفِقَنَّهُمْ رَبُّكَ أَعْمَالَهُمْ إِنَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿٣١﴾﴾ [هود].

وقال سبحانه ﴿وَإِنْ تَكُ حَسَنَةً يُضْعِفْهَا وَيُؤْتِ مِنْ لَدُنْهُ أَجْرًا عَظِيماً ﴿٣٢﴾﴾ [النساء].

(١) قرأ ابن عامر وعاصم وحمزة وابن جماز بتشديد ميم (لَمَّا) بمعنى: إلّا، والباقون بتخفيفها، مخففة من الثقيلة.

سِتَّةُ أَدِلَّةٍ كَوْنِيَّةٍ عَلَى وَحْدَانِيَّةِ اللَّهِ تَعَالَى وَعَظِيمِ قُدْرَتِهِ

الدَّلِيلُ الْأَوَّلُ: إِخْرَاجُ النَّبَاتِ وَالثَّمَارِ مِنَ الْأَرْضِ

٣٣- ﴿وَأَيُّ لَّهُمُ الْأَرْضُ الَّتِي تَخْرُجُ مِنْهَا حَبًّا فَمِنْهُ يَأْكُلُونَ﴾ (٣٣)

ويأتي القسم الثاني من السورة لإبطال ما اشتمل عليه القسم الأول من الإشراك بالله تعالى، وتكذيب الرسل، وإنكار البعث والنشور، في جملة من الأدلة القاطعة، والبراهين الساطعة، والعلامات الظاهرة، الدالة على وحدانية الله تعالى وعظيم قدرته، وهي ستة أدلة، أولها وآخرها من العالم السفلي، والأدلة الأربعة التي بينهما من العالم العلوي، وهذا هو الدليل الأول:

فهذه الأرض التي نعيش فوقها، وفيها نُدفن، ومنها تُبعث، ومنها تخرج الأرزاق، .. كيف أن هذه الأرض تكون جافة يابسة جرداء، خالية من النبات، ميتة لا حياة فيها، فإذا أنزل الله عليها الماء اهتزت، وانتفخت، وتفتحت، وأخرجت النبات والعشب، والكلاً والزرع والثمر؟! وهذا حياة للأرض بعد أن كانت ميتة، فيأكل من هذا الزرع: الإنسان والحيوان والطير، وهذا أمر مشاهد لا يُنكر، وهي آية باهرة واضحة على قدرة الله تعالى على إحياء الموتى ﴿كَذَلِكَ يُحْيِي اللَّهُ الْمَوْتَى﴾ [البقرة: ٧٣]. فيقفوا بين يدي ربهم للحساب والجزاء.

وبمثل ما فَعَلَ بالأرض يُفَعَّلُ بالإنسان، فقد أخرج الله بهذا الماء أنواع الحبوب من النبات الخارج من الأرض؛ ليأكلوا منه ويعيشوا، فمن أحيأ الأرض بالنبات أحيأ الخلق بعد الممات. قال تعالى:

٣٤، ٣٥- ﴿وَجَعَلْنَا فِيهَا جَنَّاتٍ مِّنْ نَّحِيلٍ وَأَعْنَبٍ وَفَجَّرْنَا فِيهَا مِنَ الْعُيُونِ﴾ (٣٤)

(١) قرأ نافع وأبو جعفر بتشديد الياء من (الميتة)، والباقون بالتخفيف.

(٢) قرأ ابن كثير وابن ذكوان وشعبة وحمزة والكسائي بكسر العين من (العيون)، والباقون بضمها.

لِيَأْكُلُوا مِنْ ثَمَرِهِ^(١) وَمَا عَمِلَتْهُ^(٢) أَيْدِيهِمْ أَفَلَا يَشْكُرُونَ ﴿٣٥﴾

أي: وجعلنا في هذه الأرض ما هو أعجب وأبقى، وهو إخراج حدائق وبساتين من نخيل وأعناب، وهما أشهر وأنفع الفواكه المعروفة، ولذا خصهما الله تعالى بالذكر، فهما طعام وفاكهة

وشققنا في هذه الأرض كثيراً من المياه في العيون والآبار والأنهار التي تُسقى بها هذه الزروع والثمار والأشجار والنبات، ومنها حياة الإنسان والحيوان والطير، وكل كائن حي. وكل هذه النعم خلقها الله تعالى، وأخرجها من الأرض، كالنخيل والعنب ومياه العيون وغيرها؛ ليأكل العباد من ثمرها، قوتاً وفاكهة، ويشكروا الله عليها.

ثم إن الإنسان قد تعاهد هذه الثمار بحرث الأرض وبذرها، وغرسها وسقيها، وجذ نباتها، وعصير الناتج منها، وحفظه وتخزينه، فيكون المعنى: ليأكلوا من ثمره، ويأكلوا من الذي عملته أيديهم، وتكون ﴿مَّا﴾ موصولة بمعنى: الذي.

ويصح أن تكون ﴿مَّا﴾ نافية؛ لأن الله تعالى هو الزارع، كما قال تعالى: ﴿ءَأَنْتَ تَزْرَعُونَهُ أَمْ نَحْنُ الزَّارِعُونَ﴾ [الواقعة].

فيكون المعنى: إنهم يأكلون من شيء لم تعمله أيديهم، وليس لهم فيه صنع، أي: إن البشر لم يُخرجوا هذا النبات، ولم يُحيوا هذه الأرض، وإنما الخالق لها هو الله، ومنبت النبات هو الله، وهو خير الرازقين، وإلا فمن الذي أخرج من الطين هذه الخيرات؟ إنها محض فضل منه تعالى، رحمة بخلقه، وليس بكدهم ولا سعيهم، ولا بحولهم ولا بقوتهم، وهذا المعنى هو الأنسب لختام الآية ﴿أَفَلَا يَشْكُرُونَ﴾ أي: فهلاً يشكرون الله تعالى على ما أنعم به عليهم من النعم التي لا تعد ولا تحصى، أليس الذي أحيا الأرض بعد موتها، فأنبث فيها الزرع والأشجار والثمار والأغصان، وفجر الأرض اليابسة بالعيون والمياه الجارية، بقادر على أن يحيي الموتى؟ بلى إنه على كل شيء قدير.

(١) قرأ حمزة والكسائي وخلف بضم الثاء والميم من (ثمره) جمع ثمرة، وقرأ الباقر بفتحهما، اسم جنس.
(٢) قرأ شعبة وحمزة والكسائي وخلف (وما عملت) بحذف الهاء وهي موافقة لرسم مصحف الكوفة، والباقر (عملته) بإثبات الهاء موافقة لرسم بقية المصاحف، وما موصولة، والعائد محذوف، ووصل ابن كثير هاء الضمير بحرف مد، والباقر بالقصر.

٣٦- ﴿سُبْحَنَ الَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنْبِتُ الْأَرْضُ وَمِنْ أَنْفُسِهِمْ وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ﴾

وفي نهاية الدليل الأول يعلمنا الله سبحانه كيف نشئ عليه بما هو أهله، كما أثنى تعالى على نفسه، فقال: ﴿سُبْحَنَ الَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا﴾ أي: تنزه الله العظيم، وتقديس العليُّ الجليل، الذي خلق الأصناف كلها، مختلفة اللون والطعم والشكل، وخلق من كل صنف منها ذكراً وأنثى، والأزواج هي الأصناف والأنواع، والذكر والأنثى في الإنسان والحيوان والطيور والنخيل والنبات والهوام، وفاوت بين خلقهم وأوصافهم.

وقد ذكر الله سبحانه في هذه الآية نوعاً واحداً منها في قوله تعالى: ﴿مِمَّا تُنْبِتُ الْأَرْضُ وَمِنْ أَنْفُسِهِمْ﴾ أي: من النبات والإنسان، فجعل منهما الذكر والأنثى، قال تعالى: ﴿فَأَخْرَجْنَا مِنْ أَزْوَاجٍ مِّنْ نَّبَاتٍ شَتَّى﴾ [طه: ٥٣].

وقال سبحانه: ﴿وَأَنَّهُ خَلَقَ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالْأُنثَى﴾ [النجم].

ثم عمّم الله سبحانه سائر الأصناف والأنواع، ما علمنا منها وما لم نعلم، فأدخلها تحت قوله سبحانه: ﴿وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ﴾ فبعض هذه الأصناف نابت من الأرض، وبعضها ممثل في الذكر والأنثى من الإنسان، وبعضها لا يعلمه إلا الله، من سائر المخلوقات الأخرى ﴿وَمِنْ كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ [الذاريات].

وبما أن الله تعالى قد تفرد بالخلق فلا يُشْرِكُ معه في العبادة غيره، ولا يجعل معه شريك ولا معين، ولا صاحبة، ولا ولد، ولا يجعل له شبيه ولا مثيل في صفاته وأفعاله.

الدَّيْلُ الثَّانِي: اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ

٣٧- ﴿وَعَايَةٌ لَهُمُ اللَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ النَّهَارَ فَإِذَا هُمْ مُظْلِمُونَ﴾

هذا هو الدليل الثاني على عظيم قدرة الله تعالى ووحدانيته، وهو دليل من العالم العلوي: حيث ابتدئ بالليل والنهار من هذا العالم الكبير، لمشاهدتهما وتكرار وقوعهما، فإزالة ضوء النهار عن الليل يُبقيه في الظلمة، والليل آية للبشر حين يزول عنه ضوء النهار، ويدخل في ظلام دامس بانفصاله عنه، وذلك أن الظلمة عدم، والنور وجود، والظلمة هي الحالة السابقة للعوالم، قبل خلق النور في الأجسام النيرة، وقد كانت الموجودات في

ظلمة قبل أن يخلق الله الكواكب، ويوصل نورها إلى الأجسام التي تستقبل النور، كالأرض والقمر، ولا يلزم أن تكون الظلمة هي الأصل، فالظاهر أن الأرض قد انفصلت عن الشمس وهي نيرة^(١).

إن الظلام يسود أرجاء الكون، والأرض تدور حول نفسها في مواجهة الشمس، فتمر كل نقطة من الأرض بالشمس وتحول إلى نهار، فإذا دارت الأرض انسلخ منها النهار ولقها الظلام، فسبحان العلي القدير! وفي هذا آية عظيمة دالة على وحدانية الله تعالى وقدرته على البعث والنشور، واستحقاقه للعبادة دون سواه.

الدليل الثالث: الشمس ومُسْتَقَرُّهَا الزماني والمكاني

٣٨- ﴿وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَهَا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ﴾ (٢٨)

آية ثانية من العالم العلوي: هي الشمس بالنسبة إلى نظام الفصول الأربعة، ومنازل تنقلها في البروج الاثني عشر، في سيرها اليومي، الذي يبدأ بشروق الشمس على بعض الكرة الأرضية، وينتهي بغروبها على بعضها الآخر، في خطوط دقيقة، وبتكرار هذا الطلوع والغروب تكون السنة الشمسية ﴿نَبَارَكَ الَّذِي جَعَلَ فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا وَجَعَلَ فِيهَا سِرَاجًا وَفَعَلَ مُنِيرًا﴾ (١١) [الفرقان].

والشمس مسخرة بأمر الله تعالى ﴿ثُمَّ أَسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ﴾ (١١) [فصلت]. فليس لها تصرف في نفسها، ولا تستعصي على قدرة الله تعالى، والشمس تدور حول نفسها في اتجاه واحد في الفضاء الكوني بسرعة يحسبها الفلكيون باثني عشر ميلاً في الثانية!

وحجم الشمس يبلغ نحو مليون ضعف حجم الأرض، وهذه الكتلة الهائلة تجري في الفضاء، ولا يسندُها شيء، فهي ﴿تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَهَا﴾.

والمعنى: وآية أخرى لهم -وهي الشمس- تسير بقدرة الله تعالى في فلك لا تتجاوزه ولا تتخطاه، فهي تسير إلى مكان تستقر فيه، وإلى وقت تنتهي إليه، وهو يوم القيامة،

(١) يُنظر: «تفسير التحرير والتنوير» (١٩/٢٣).

حيث ينقطع جريانها عند خراب العالم.

وَجَرِي الشَّمْسِ بانتظام وحساب دقيق، هو تقدير الإله العزيز في ملكه، العليم بخلقه وما يصلحهم وينفعهم في دينهم ودنياهم، وللشمس مستقر مكاني ومستقر زماني:

فالمستقر المكاني: هو غاية ارتفاعها في السماء صيفاً، وغاية انخفاضها في الشتاء، ويفسره الأحاديث الصحيحة، منها: حديث أبي ذر رضي الله تعالى عنه قال: كنت مع النبي ﷺ في المسجد عند غروب الشمس، فقال: «يا أبا ذر، أتدري أين تغرب الشمس؟» قلت: الله ورسوله أعلم، قال: «فإنها تذهب حتى تسجد تحت العرش»، فذلك قوله سبحانه: ﴿وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا﴾.

وفي لفظ: أن أبا ذر رضي الله عنه سأل النبي ﷺ عن معنى الآية، فقال: «مستقرها تحت العرش»^(١).

وفي رواية الإمام أحمد أن أبا ذر رضي الله عنه قال: كنت مع رسول الله ﷺ في المسجد حين وجبت الشمس، فقال: «يا أبا ذر، تدري أين تذهب الشمس؟» قلت: الله ورسوله أعلم، قال: «فإنها تذهب حتى تسجد بين يدي ربها ﷻ»، فتستأذن في الرجوع فيؤذن لها، وكأنها قد قيل لها: ارجعي من حيث جئت، فترجع إلى مطلعها، وذلك مستقرها»، ثم قرأ الآية^(٢).

وفي رواية سفيان الثوري عن أبي ذر رضي الله عنه أيضاً أن النبي ﷺ قال: «فإنها تذهب حتى تسجد تحت العرش، فتستأذن، فيؤذن لها، ويوشك أن تسجد فلا يُقبل منها، وتستأذن فلا يؤذن لها، ويقال لها: ارجعي من حيث جئت، فتطلع من مغربها»، فذلك قوله تعالى: ﴿وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا﴾^(٣).

ومن طلوع الشمس من مغربها إلى يوم القيامة ﴿لَا يَنْفَعُ نَفْسًا إِيْتِنَاهَا لَمَّا كُنَّ ءَامَنَتْ مِن قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِي إِيمَنِهَا حَرِيرًا﴾ [الأنعام: ١٥٨]. حيث يقفل باب التوبة.

(١) «صحيح البخاري» بأرقام (٤٨٠٢، ٤٨٠٣، ٧٤٢٤، ٧٤٣٣) وانظر: «صحيح مسلم» برقم (١٥٩) و«سنن أبي داود» برقم (٣٢٢٧) و«السنن الكبرى» برقم (١١٤٣٠) والترمذي (٢١٨٦، ٣٢٢٧).

(٢) البخاري (٤٨٠٢) ومسلم (١٥٩) و«المسند» (١٥٢/٥) برقم (٢١٣٥٢، ٢١٥٤١)، وأخرجه الطيالسي (٤٦٠) والترمذي (٢١٨٦).

(٣) «صحيح البخاري» برقم (٣١٩٩).

والعرش: قبة ذات قوائم تحمله الملائكة ﴿وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمَنِيَّةٌ﴾ [الحاقة: ١٧].

وهو فوق العالم مما يلي رؤوس الناس، وجميع المخلوقات - بما فيها الشمس - تحت العرش مما يلي الأرض؛ لأنه سقّفها، فالنتيجة أن الشمس تحت العرش أينما كانت. وفي وقت الظهيرة تكون أقرب إلى العرش؛ لكونها في قبة الفلك وقتئذ، وهو نهاية ارتفاع الشمس.

وفي نصف الليل تصير أبعد ما يكون من العرش، وحينئذ تسجد وتستأذن في الطلوع، وهذا هو ظاهر الأحاديث.

أما المستقر الزماني: فإن منتهى سير الشمس، يكون يوم القيامة حيث يبطل سيرها وتسكن حركتها، فَتَلْفُ وتُكَوِّرُ، كما قال تعالى: ﴿إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ﴾ [التكوير].

وهذا هو نهاية العالم، فهي سائرة ليلاً ونهاراً لا تقف ولا تفتر إلى يوم القيامة^(١).

قال تعالى: ﴿وَجَعَلَ اللَّيْلَ سَكَنًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ حُسْبَانًا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ﴾ [الأنعام: ٩٦].

وجرّي الشمس: تنقلها السريع في منازلها إلى مكان استقرارها، وهو مكان الغروب تحت العرش، ولا قَبْلَ للناس بمعرفة ذلك، وسجود الشمس يعني: تسخير الله لها، وهو تمييز وإدراك يخلقه الله تعالى فيها.

الدَّلِيلُ الرَّابِعُ: الْقَمَرُ وَمَنَازِلُهُ

٣٩- ﴿وَالْقَمَرَ^(٢) قَدَرْنَاهُ مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيرِ﴾ [٣٩]

ثم ذكر سبحانه آية الثالثة من العالم العلوي، تدل على كمال قدرة الله تعالى وتفردّه بالألوهية، وهي القمر، آية من آيات الله، قدّر سيره في منازل، بحيث ينزل كل ليلة في منزل لا ينقص عنه ولا يزيد عليه، يبدأ هلالاً ضئيلاً، حتى يكتمل قمراً مستديراً، ثم يرجع ضئيلاً، مثل عذق النخلة المتقوس، في الرقة والانحناء والصفرة، لِقَدَمِهِ وَيُسَبِّحُهُ.

(١) يُنْظَرُ: (تفسير ابن كثير) وكلام سيد قطب «في ظلال القرآن» في تفسيرهما للآية.

(٢) قرأ نافع وابن كثير وأبو عمرو وروح برفع الراء من (والقمر) مبتدأ وما بعده خبر، والباقون بالنصب بإضمار فعل على الاشتغال.

والعرجون: هو قنو النخلة، من منبته منها إلى نهاية الشماريخ التي تحمل ثمار النخلة، ويسمى عرجوناً؛ لأنه متقوس ومنعطف، وبه شبه القمر في دقته وتقوسه واصفراره.

وللقمر ثمانية وعشرون منزلاً في ثمانٍ وعشرين ليلة، ينزل كل ليلة في واحد منها، لا يتخطاها ولا يتعدها، ويكون دقيقاً متقوساً في آخر ليلة، ويغيب ليلة واحدة إن كان الشهر تسعة وعشرين يوماً، ويغيب ليلتين إن كان ثلاثين يوماً، والهلال يزداد نوره ليلة بعد ليلة حتى يكتمل نوره ليلة أربع عشرة، ثم يشرع في النقص حتى يصير كالعرجون القديم.

وقد جعل الله القمر لمعرفة الشهور، وجعل الشمس لمعرفة الليل والنهار.

والشمس تنتقل في مطالعها ومغاربها صيفاً وشتاء، فيطول النهار ويقصر الليل، قال تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسُ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُورًا وَقَدَرَهُ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ﴾ [يونس: ٥].

وقال سبحانه: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَهِلَّةِ قُلْ هِيَ مَوَاقِيتُ لِلنَّاسِ وَالْحَجِّ﴾ [البقرة: ١٨٩].

وقال ﷻ: ﴿وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ آيَاتٍ فَحَوْنًا آيَةَ اللَّيْلِ وَجَعَلْنَا آيَةَ النَّهَارِ مُبْصِرَةً لِّتَبْتَغُوا فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ وَلِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ﴾ [الإسراء: ١٢].

الدليل الخامس: دقة نظام الكون

٤٠- ﴿لَا الشَّمْسُ يَنْبَغِي لَهَا أَنْ تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلَا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾

أي: ولكل من الشمس والقمر، والليل والنهار، وقت قدره الله تعالى لا يتعدها، فلا يمكن للشمس أن تلحق القمر، فتمحو نوره أو تُغير مجراه، ولا يمكن لليل أن يسبق النهار، فيدخل عليه قبل انقضاء وقته، وكل من الشمس والقمر والكواكب في فلك يَجْرُونَ^(١).

ولو أن الشمس أدركت القمر لكان الوقت كله نهاراً، ولو أن القمر أدرك الشمس لكان الوقت كله ليلاً، وفي هذا بيان لقدرة الله تعالى في تسيير هذا الكون بنظام دقيق، فالشمس لها مدار، والقمر له مدار، وكل كوكب من الكواكب له مدار لا يتجاوزه، حيث

(١) من «التفسير الميسر» لنخبة من العلماء، في تفسيرهم للآية ص ٤٤٢ .

لا يطغى على الآخر، فهما يسيران وفق نظام يستحيل معه اتصال أحدهما بالآخر؛ لشدة الأبعاد بين مداريهما، مع أن الشمس تبدو مقاربة للقمر في نظر الرائي.

ويظل الحال هكذا حتى يأذن الله بانتهاء العالم، فيجمع الله بين الشمس والقمر، كما قال تعالى: ﴿وَجُمِعَ الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ﴾ [القيامة].

وبهذا يختل نظام الكون، فتنتهي حياة البشر على سطح كوكب الأرض وتقوم القيامة. قال الحسن: الشمس والقمر والنجوم في فلك بين السماء والأرض، غير ملصقة بشيء، ولو كانت ملصقة ما جرت، فهي تجري في اتجاه واحد في الفضاء الكوني. وقال مجاهد: في قضاء الله وعلمه ألا يفوت الليل النهار حتى يدركه فيذهب ظلمته، وفي قضاء الله وعلمه ألا يفوت النهار الليل حتى يدركه فيذهب بضوئه^(١).

والفلك: هو مجرى الكواكب، سُمي بذلك لاستدارته، كفلكة المغزل والخيمة، والعلامات النجومية تسمى بالنسبة للشمس: بروجًا، وبالنسبة للقمر: منازل.

وفي هذه الآيات تذكير بنعم الله تعالى على عباده، وتذكير بما في الليل والنهار، والشمس والقمر من فوائد ومنافع للناس، لولاها لتعطلت منافع جمّة من حياة الناس، وكل هذا دليل وحدانية الله تعالى، وعلى قدرته سبحانه على البعث والنشور.

الدِّلِيلُ السَّادِسُ: نَجَاةُ أَصُولِ الْبَشَرِ مِنَ الْفَرْقِ فِي سَفِينَةِ نُوحٍ ﷺ

٤١، ٤٢ - ﴿وَأَيُّ لَّهُمْ أَنَّا حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمُ﴾^(٢) فِي الْفَلَكِ الْمَشْحُونِ ﴿١﴾ وَخَلَقْنَا لَهُمْ مِنْ مِثْلِهِ مَا يَرْكَبُونَ ﴿٢﴾

وبعد أن ذكر الله سبحانه آية إخراج النبات من الأرض، وآية النجوم والكواكب، وهي تَسْبُحُ فِي الْفَلَكِ، ذكر سبحانه هنا آية السفن المحملة بالناس والأثقال وهي تطفو فوق سطح مياه البحار، دون أن تغرق، فهذه آيات ثلاث في الأرض والسماء والبحار.

ولا ينسى العبد أن أول سفينة صُنعت على وجه الأرض نَجَّى الله فيها أصول ذرية آدم

(١) «الدر المنثور» (١٢/٣٥٢).

(٢) قرأ ابن كثير وأبو عمرو وعاصم وحزمة والكسائي وخلف (ذريتهم) بالافراد، والباقون بالجمع.

من الطوفان العظيم، وهم سام وحام وياث أبناء نوح عليه السلام، ومن كان معهم في السفينة ممن آمن بنوح عليه السلام، وقد كانت السفينة مشحونة بأجناس المخلوقات الأخرى وكل ما ينفع الناس في حياتهم؛ كي تستمر الحياة بعد الطوفان، وهكذا حملنا ذرية البشر في أصلاب الناجين من الغرق في سفينة نوح، حين أمره الله أن يحمل فيها أهله ومن آمن معه، فكان هذا حَمَلًا لذرية البشر.

قال تعالى: ﴿فَأَنجَيْنَاهُ وَمَنْ مَعَهُ فِي الْفُلِّ الْمَشْحُونِ﴾ [الشعراء].

ولما أراد الله بقاء المخاطبين بهذه الآيات في الأرض، أمر نوحًا عليه السلام أن يصنع السفينة وأن يحمل فيها أصولهم الذين يتوالدون منهم، لنجاتهم من الغرق.

وإن من أعظم الأدلة والبراهين على أن الله تعالى هو المستحق للعبادة دون سواه، أنه تعالى أنعم علينا بحمل الناس صغارًا وكبارًا في السفن المملوءة بما ينفع الناس من تجارة ومعدات وسيارات وطائرات وأسلحة ونفط، وغير ذلك دون أن يصيبهم أذى، وهذا بتسخير الله تعالى للسفن، وتسخيره للماء، وتسخيره للهواء، وكلها من خلق الله تعالى وتديره، فالسفينة في البحر الخِضَمُّ المتلاطم بالأمواج تكون مع ثقلها وكبر حجمها كالريشة في مهب الريح، فإن لم تدركها رحمة الله تعالى فهي هالكة في لحظة من ليل أو نهار.

والفلك آية من آيات الله تعالى، ونعمة من نعمه على عباده، وهي نعمة قائمة في كل مكان وزمان، وقد علم الله تعالى أن أن الفلك سيكون أعظم بعد وقت التنزيل وعصر الصحابة، فتطور صناعته إلى ما هو متعدد المنافع، كثير الطوابق، كبير الحجم، عظيم الفائدة، وكل هذا سيحدث في ذرية من حُمِلوا في سفينة نوح عليه السلام، فأشار القرآن إلى ذلك.

وكما حملت سفينة نوح من كل زوجين اثنين من أصناف المخلوقات، تحمل سائر السفن والمركبات الناس والمتاع من مكان إلى مكان، كذلك خلق سبحانه للبشر وسائل كثيرة يركبون عليها، ويحملون عليها متاعهم وأثقالهم، مثل السفن: كالإبل والخيول والبغال والحمير، والسيارات والطائرات وغير ذلك، فكلها ثُمائل السفن في تحقيق الغرض للناس كافة.

وجاء في الأثر أن الإبل سفينة البر^(١).

(١) جاء ذلك عن ابن عباس كما في «تفسير الطبري» (٤٤٦/١٩).

ومعنى: ﴿مِنْ مِثْلِهِ﴾ أي: مثل سفينة نوح من السفن الأخرى، ومن أجناس المراكب المختلفة في البر والبحر والجو من المراكب التي يركبونها وتبلغهم أوطانهم، والأماكن الأخرى التي يقصدونها في أسفارهم.

١- كما قال تعالى: ﴿وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ الْفُلْكِ وَالْأَنْعَامِ مَا تَرْكَبُونَ﴾ [الزخرف: ١٢].

٢- وقال سبحانه: ﴿إِنَّا لَمَّا طَغَا الْمَاءُ حَمَلْنَاكُمْ فِي الْجَارِيَةِ﴾ [الحاقة].

٣- وقال جل شأنه: ﴿وَالْحَيْلَ وَالْغَالَ وَالْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [النحل].

٤- وقال سبحانه: ﴿وَرَى الْفُلْكَ فِيهِ مَوَازِيرَ لِّتَنْفَعُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [فاطر: ١٢].

قال تعالى مُمْتَنًا على عباده:

٤٣، ٤٤- ﴿وَإِنْ نَشَأْ نُغْرِقْهُمْ فَلَا صَرِيحَ لَهُمْ وَلَا هُمْ يُنْقَذُونَ﴾ [٤٣] إِلَّا رَحْمَةً مِنَّا وَمَتَاعًا إِلَىٰ حِينٍ

في هذه الآية امتنان من الله تعالى على خلقه، وتذكير لهم بنعم الله عليهم، فقد بين سبحانه أنه لو شاء لأغرق الناس في البحر، فلا يجدون مُغِيثًا يُنْقِذُهُم من الغرق، ولا يعاونهم على الشدة، ولا يرفع عنهم المشقة.

والذين ركبوا البحار- سواء في قوارب ذات شراع، أم في عبّارات صغيرة أو ضخمة تعبر المحيطات -يدركون هَوْلَ البحر المخيف؛ إذ ليس هناك من يستغيثون به أو يستجدون به إلا الله، ولا يوجد من ينقذهم فينشلهم من لجج البحر، ويخلصهم من الغرق سوى رب العالمين وماحدث العبّارة ذات الطوابق الثلاث، التي غرقت في البحر بين السعودية ومصر وغرق فيها آلاف البشر، عنا ببعيد^(١).

قال تعالى: ﴿أَفَأَمِنْتُمْ أَن يَخْسِفَ بِكُمْ جَانِبَ الْبَرِّ أَوْ يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا ثُمَّ لَا يَجِدُوا لَكُمْ وَكِيلًا﴾ [١٨] أَمْ أَمِنْتُمْ أَن يُعِيدَكُمْ فِيهِ تَارَةً أُخْرَىٰ فَيُرْسِلَ عَلَيْكُمْ قَاصِفًا مِّنَ الرِّيحِ فَيَغْرِقَكُمْ بِمَا كَفَرْتُمْ ثُمَّ لَا تَجِدُوا لَكُمْ عَلَيْهَا يَدًا يَبِيعًا﴾ [١٩] [الإسراء].

والمنقذ الوحيد: هو إسعاف الله تعالى لمن أشرفوا على الغرق، بأن يسكن الرياح، ويسكن أمواج البحر، فيمكنهم من النجاة، فرحمة الله وحدها ولطفه بخلقه هي التي

(١) كان ذلك عام ١٤٢٨هـ.

تنجيهم من العواصف والمهالك.

والناس يُمتعون في الدنيا بعد نجاتهم من الغرق إلى وقت معلوم عند الله تعالى هو انقضاء آجالهم، فإذا نجا العبد من موة استقبلته موة أخرى لا فرار له منها، والكل سيلقى هذا المصير، وفي هذا عبرة لهم لعلهم يرجعون إلى ربهم ويستدركون ما فاتهم من التقصير في جنب الله سبحانه.

مَوْقِفُ الْمُعَارِضِينَ لِلدَّعْوَةِ

٤٥ - ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ اتَّقُوا مَا بَيْنَ أَيْدِيكُمْ وَمَا خَلْفَكُمْ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾

أي: إن المكذبين بالوحي والرسالة، لم ينتفعوا بالآيات السابقة الدالة على وحدانية الله تعالى وعلى البعث والنشور، فإذا بلغهم الرسول ﷺ ما نزل عليه من القرآن، أو نصحهم ناصح بأن يتعظوا بأحوال من سبقهم من الأمم المكذبة برسل الله، ويتذكروا ما حلّ بهم من النقم، ويعملوا لما هو مدّخرٌ لهم في الآخرة مما يمحو الله به الذنوب والمعاصي، رجاء أن يرحمهم الله تعالى، إذا بلغتهم هذه الدعوة أعرضوا.

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ﴾ أي: قال قائل للمكذبين والمعارضين للدعوة الإسلامية:

﴿اتَّقُوا مَا بَيْنَ أَيْدِيكُمْ﴾ أي: احذروا أمر الآخرة وأحوالها وأحوال البرزخ والقيامة.

﴿وَمَا خَلْفَكُمْ﴾ أي: واعتبروا من أحوال الدنيا، وما حلّ بالمخالفين للرسل قبلكم.

﴿لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ أي: رجاء أن يرحمكم الله، فكانت النتيجة أنهم أعرضوا ولم يستجيبوا للدعوة.

وما بين الأيدي، يراد به: المستقبل، وما هو خلف يراد به: الماضي، فما بين أيديكم:

هو أمر البرزخ والآخرة، وما خلفكم: هو أحوال الأمم السابقة المكذبة لرسل الله.

وجواب ﴿وَإِذَا﴾ التي في أول الآية محذوف، تقديره: كانوا معارضين، وقد دلّ عليه

قوله تعالى: ﴿إِلَّا كَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ﴾ في الآية التالية.

والمعنى: أنهم لا يجيبون ولا يستجيبون. قال تعالى:

٤٦ - ﴿وَمَا تَأْتِيهِمْ مِنْ آيَةٍ مِنْ آيَاتِ رَبِّهِمْ إِلَّا كَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ﴾

أي: إن الجحود والجهل والعناد، بلغ مبلغه عند هؤلاء المعارضين للدعوة: فما تأتيهم آية من آيات القرآن الدالة على وحدانية الله تعالى وقدرته، وعلى صدق رسول الله ﷺ في دعوته.

ولا تأتيهم علامة واضحة من ربهم تهديهم للحق، كالمعجزات الباهرات. ولا تأتيهم آية من آيات الله في الكون، إلا أعرضوا عنها إعراضاً تاماً. فهم لا يؤمنون بكل آية، سواء أكانت معجزة حسية، أم آية قرآنية، أم آية كونية، من بديع صنع الله تعالى في العالم العلوي أو السفلي، كما قال تعالى:

﴿وَكَايْنٍ مِّنْ ءَايَةٍ فِي السَّمٰوٰتِ وَٱلْأَرْضِ يَمُرُّوْنَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ﴾ [يوسف].

غَيْرُ الْمُسْلِمِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي الصَّدِّ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ

٤٧- ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ أَنْفِقُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ ءَامَنُوا أَنْطَعِمُ مَنْ لَوْ يَشَاءُ اللَّهُ أَطْعَمَهُ إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ [٤٧]

سبب نزول هذه الآية أن المشركين لما أسلم مواليتهم وحواشيتهم وغيرهم من المستضعفين، منعوا عنهم النفقة والصلة، فأوصى الله المؤمنين أن يحثوا قرابتهم من المشركين بالإنفاق على رعاياهم.

والآية عامة تنطبق على مواقف أعداء الإسلام من أهله في جميع الأمصار والأزمان. ومع أن مشركي العرب كانوا كرماء، إلا أنهم كانوا يشحون بالبذل والعطاء على فقراء المسلمين، تشقياً منهم، فإذا سمع المشركون من القرآن ما يأمرهم بالإنفاق على ضعفاء المسلمين، أو أن أحداً منهم سألهم أن يعطوه من فضول أموالهم، أو مما كانوا يجعلونه لله من أموالهم التي جاء ذكرها في قوله تعالى: ﴿وَجَعَلُوا لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ الْحَرْثِ وَالْأَنْعَامِ نَصِيبًا﴾ [الأنعام: ١٣٦] - منعوا ذلك عنهم.

وكان الفقراء قد اعتادوا من المشركين أن يعطوهم منها قبل إسلامهم، ثم منعوها عنهم بعد إسلامهم، فإذا قال الفقراء لهم: إن الله هو الرازق، وهو المعطي المانع، فإن المشركين يستهزئون بهم ويحتجون عليهم قائلين: ﴿أَنْطَعِمُ مَنْ لَوْ يَشَاءُ اللَّهُ أَطْعَمَهُ﴾ فلو شاء

الله لأطعمكم كما أطعمنا، ورزقكم كما رزقنا، كما تعلّلوا بمثل هذا في قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا لَوْ شَاءَ الرَّحْمَنُ مَا عَبَدْنَاهُمْ﴾ [الزخرف: ٢٠].

وما عَلِمَ هؤلاء أن الله تعالى أَفْقَرَ بَعْضَ خلقه ابتلاءً، وأغنى بعضهم ابتلاءً؛ كي يظهر شكر الغني وصبر الفقير، ولم يمنع الله الدنيا عن الفقير بخلاً، ولم يأمر الغني ببذل بعض ماله لحاجة إليه، ولكنه ابتلاء الله لكل منهما.

ذكر ابنُ عطية: أن النبي ﷺ أمر المشركين بالإنفاق على المساكين في شدة أصابت الناس، فشَحَّ الأغنياء بصدقاتهم على المساكين، ومنعواهم ما كانوا يعطونهم^(١) محتجين بأنهم يمسكون أموالهم عمن أمسك الله عنه رزقه، كحال الأعرابي الذي كان يرعى إبله، فيجعل السَّمان منها في المكان الخصب، والعجاف المهازِل في المكان الجذب، فلما سئل عن ذلك قال: إنه يكرم ما أكرم الله، ويهين ما أهان الله.

والأوَّلَى من ذلك أنهم قالوا مقاتلتهم: استهزاءً وتعلُّلاً، فكأنهم يقولون للنبي ﷺ: إذا كان إلهك هو الرازق، فلماذا لم يرزقهم؟ فنحن لا نطعم من حرمه الله، وكيف تطلب المعونة منا وأنت في غنى عنها؟!

ومما ورد في أسباب النزول: أن أبا بكر رضي الله عنه كان يُطعم مساكين المسلمين، فلقبه أبو جهل فقال له: يا أبا بكر، أتزعم أن الله قادر على إطعام هؤلاء؟ قال: نعم، قال: فما باله لم يطعمهم؟ قال أبو بكر: ابتلى الله قومًا بالفقر، وقومًا بالغنى، وأمر الفقراء بالصبر، وأمر الأغنياء بالإعطاء، فقال أبو جهل: والله يا أبا بكر، إن أنت إلا في ضلال، أتزعم أن الله قادر على إطعام هؤلاء، وهو لا يطعمهم، ثم تطعمهم أنت؟! فنزلت الآية.

لقد مكن الله للعباد، وأعطاهم من قوة الإرادة، وحرية الاختيار، ما يجعلهم قادرين على فعل الأوامر واجتناب النواهي، فإذا تركوا ما أمروا به، ومنه الإنفاق مما رزقهم الله، كان ذلك اختياراً منهم، يُسألون عنه ويُحاسَبون عليه، وليس جبراً لهم كما زعموا.

قيل: كان العاص بن وائل السهمي إذا سأله المسكين قال له: اذهب إلى ربك، فهو

(١) «تفسير ابن عطية» (٤/٤٥٦).

أولى مني بك، ثم يقول: قد منعه الله، فأطعمه أنا؟^(١).

قال الألوسي في تفسيره: ومما تقدم يقتضى أنها نزلت في كفار مكة، أمروا بالإنفاق مما رزقهم الله تعالى، وهو عام في الإطعام وغيره، فأجابوا بنفي الطعام الذي لم يفتخروا به، فيكون دلالة على نفي غيره بالطريق الأولى. اهـ.

ويختتم المشركون كلامهم للفقراء بقولهم: ﴿إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾ ما أنتم -أيها المؤمنون- إلا في ذهاب واضح عن الحق؛ إذ تأمروننا أن نطعم من حرمه الله من رزقه، ويحتمل أن يكون هذا من خطاب الله تعالى للكافرين.

جَوْلَةٌ مَعَ نِهَآيَةِ الْعَالَمِ وَدَارِ الْبَقَاءِ

٤٨- ﴿وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ (٤٨)

ويأتي العنصر الثالث من السورة، وهو الكلام عن البعث والنشور، وقد كان الكفار -ولا يزالون- يقولون على وجه التكذيب والاستبعاد، مستعجلين قيام الساعة، ونزول العذاب الذي وعدهم به محمد ﷺ: ﴿مَتَى هَذَا الْوَعْدُ﴾ بالبعث والحساب والجزاء ﴿إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ فيما تقولون من أن هناك بعثاً وحساباً وجزاء. وفي الآية التالية ردّ عليهم:

نَفْخَةُ الصَّعْقِ وَالْفَرْعِ

٤٩، ٥٠- ﴿مَا يَنْظُرُونَ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً تَأْخُذُهُمْ وَهُمْ يَخِصِّمُونَ﴾ (٤٩) فَلَا يَسْتَطِيعُونَ تَوْصِيَةً

(١) «حاشية الجمل على الجلالين» (٥١٧/٣) و«تفسير الخازن» (٨/٤).

(٢) في كلمة (يخصمون) ثمانى قراءات:

- ١- قرأ ورش وابن كثير بفتح الياء والخاء وتشديد الصاد من (يَخِصِّمُونَ).
- ٢- قرأ ابن ذكوان وحفص والكسائي ويعقوب وخلف العاشر بفتح الياء وكسر الخاء وتشديد الصاد.
- ٣- قرأ حمزة بفتح الياء وإسكان الخاء وتخفيف الصاد.
- ٤- قرأ أبو جعفر بفتح الياء وإسكان الخاء وتشديد الصاد.
- ٥- قرأ أبو عمرو بفتح الياء وتشديد الصاد، وله في الخاء الفتح والاختلاس.
- ٦- قرأ هشام بفتح الياء وتشديد الصاد، وله في الخاء الفتح والكسر.
- ٧- قرأ شعبة بكسر الخاء وتشديد الصاد، وله في الياء الفتح والكسر.
- ٨- قرأ قالون بفتح الياء وتشديد الصاد، وله في الخاء الإسكان والفتح والاختلاس.

وَلَا إِلَىٰ أَهْلِهِمْ يَرْجِعُونَ ﴿٥٠﴾

أعلم الله رسوله والمؤمنين بأن الوعد بقيام الساعة واقع لا محالة، وأنهم ما ينتظرون إلا صاعقة، أو نفخة واحدة تأخذهم فتهلكهم، فلا يفلتُونَ منها، كما قال تعالى: ﴿فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ نَفْخَةٌ وَاحِدَةٌ ﴿١٣﴾ وَجُمِلَتِ الْأَرْضُ وَالْجِبَالُ فَدُكَّتَا دَكَّةً وَاحِدَةً ﴿١٤﴾ فَيَوْمَئِذٍ وَقَعَتِ الْوَاقِعَةُ ﴿١٥﴾﴾ [الحاقة].

والصُّور: قرن من نور ينفخ فيه الملك للمرة الأولى فيموتون جميعاً، وينفخ مرة أخرى فيقومون من قبورهم أحياء للبعث والحساب.

فالساعة آتية لا ريب فيها، وستحل بهم بغتة، بنفخة يصيح بها إسرافيل في الصور للمرة الأولى يُطَوَّلُهَا وَيَمُدُّهَا، وهي نفخة الفزع، فلا يبقى أحد على وجه الأرض إلا أصغى إليها، وفي نهايتها يرفع إسرافيل الصوت بالنفخة، فتصعقُهم، وتأتي عليهم جميعاً وهم يتخاصمون ويتنازعون في أمور دنياهم، على عادتهم في الدنيا، فلا يشعرون إلا والصيحة قد أخذتهم فيموتون في أماكنهم، ولا يبقى أحد على وجه الأرض إلا لقي حتفه.

قال تعالى: ﴿وَيَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ فَفَزِعَ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَنْ شَاءَ اللَّهُ وَكُلُّ أَتَوْهُ دَاخِرِينَ ﴿٨٧﴾﴾ [النمل].

وقال سبحانه: ﴿وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَعِقَ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَنْ شَاءَ اللَّهُ﴾ [الزمر: ٦٨].

وفي الصحيحين: عن أبي هريرة ؓ أن رسول الله ﷺ قال: «ولتقومن الساعة وقد نشر الرجلان ثوبيهما بينهما، فلا يتبايعانه ولا يطويانه، ولتقومن الساعة وقد انصرف الرجل بلبن لقحته فلا يطعمه، ولتقومن الساعة وهو يليبط حوضه فلا يسقي فيه، ولتقومن الساعة وقد رفع أحدكم أكלתه إلى فيه فلا يطعمها»^(١). واللَّقْحَةُ: هي الناقة قريبة العهد من التناج.

وفي صحيح مسلم، من رواية عبد الله بن عمرو بن العاص ؓ أن رسول الله ﷺ قال: «ثم ينفخ في الصور، فلا يسمعه أحد إلا أصغى لئناً، فأول من يسمعه رجل يلوط حوضه إليه فيصعق ويصعق الناس».

ومعنى يلوط حوضه، أي: يُصلحه ويُعده، واللَّيْتُ: صفحة العنق.

(١) «صحيح البخاري» (٦٥٠٦، ٧١٢١) و«صحيح مسلم» (٢٩٥٤).

وأخرج الطبري عن ابن عمر رضي الله عنهما قال: لِيُنْفَخَنَّ فِي الصُّورِ وَالنَّاسِ فِي طُرُقِهِمْ وَأَسْوَاقِهِمْ وَمَجَالِسِهِمْ، حَتَّى إِنْ الثُّوبَ لِيَكُونَ بَيْنَ الرَّجُلَيْنِ يَتَسَاوَمَانِ، فَمَا يَرْسِلُهُ أَحَدُهُمَا مِنْ يَدِهِ، حَتَّى يُنْفَخَ فِي الصُّورِ فَيَصْعَقَ بِهِ، وَهِيَ الَّتِي قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿مَا يَنْظُرُونَ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً تَأْخُذُهُمْ وَهُمْ يَخِصِّمُونَ﴾ (٤٩) ﴿١﴾.

وَيَصُورُ اللَّهُ سُبْحَانَهُ حَالَ النَّاسِ عِنْدَمَا يَسْمَعُونَ الصَّيْحَةَ الْمُبَاغِتَةَ، وَهُمْ فِي أَمَاكِنِهِمْ، فَلَا يَسْتَطِيعُ أَحَدٌ أَنْ يَوْصِيَ أَحَدًا بِشَيْءٍ، وَلَا يَسْتَطِيعُونَ الرَّجُوعَ إِلَى أَهْلِيهِمْ؛ لِأَنَّهُمْ يَمُوتُونَ حَيْثُ يَكُونُونَ، عِنْدَ حَدُوثِ النَّفْخَةِ الْأُولَى فِي أَسْوَاقِهِمْ، أَوْ مَكَاتِبِهِمْ، أَوْ دَوَائِنِهِمْ، أَوْ بِيُوتِهِمْ، وَالنَّفْخَةُ الْأُولَى هِيَ نَفْخَةُ الْفَرْعِ وَالصَّعَقِ وَالْمَوْتِ، وَالنَّفْخَةُ الثَّانِيَةُ هِيَ نَفْخَةُ الْبَعْثِ وَالنُّشُورِ.

نَفْخَةُ الْبَعْثِ وَالنُّشُورِ

٥١- ﴿وَنُفِّخَ فِي الصُّورِ فَإِذَا هُمْ مِنَ الْأَجْدَاثِ إِلَى رَبِّهِمْ يَنْسِلُونَ﴾ (٥١)

وَبَعْدَ أَرْبَعِينَ سَنَةً مِنْ نَفْخَةِ الصَّعَقِ، تَكُونُ نَفْخَةُ الْبَعْثِ وَالنُّشُورِ، حَيْثُ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ، فَيُخْرَجُ النَّاسُ مِنْ قُبُورِهِمْ وَهُمْ يَسْرِعُونَ الْخَطَى مُتَوَجِّهِينَ إِلَى أَرْضِ الْمَحْشَرِ بَعْدَ أَنْ تُرَدَّ أَرْوَاحُهُمْ إِلَى أَجْسَادِهِمْ، فَيَتَوَجَّهُونَ إِلَى عَرَصَاتِ الْقِيَامَةِ، أَيِ: سَاحَةِ الْعَدْلِ وَالْقَضَاءِ، وَهُمْ يَمْشُونَ مَشْيًا سَرِيعًا؛ لِيَقْضَى فِيهِمْ رَبُّهُمْ بِقَضَائِهِ الْعَادِلِ، وَهُمْ لَا يَتِمَكَّنُونَ مِنَ التَّأْنِي وَالتَّأَخُّرِ، بَلْ يَخْرُجُونَ مِنَ الْأَجْدَاثِ وَالْقُبُورِ، وَهُمْ يَنْسِلُونَ، أَيِ يَسْرِعُونَ لِلْمَثُولِ بَيْنَ يَدَيِ رَبِّ الْعَالَمِينَ:

قال تعالى: ﴿يَوْمَ تَشَقُّقُ الْأَرْضُ عَنْهُمْ سِرَاعًا ذَلِكَ حَشْرٌ عَلَيْنَا يَسِيرٌ﴾ (٥٤) [ق].

وقال سبحانه: ﴿يَوْمَ يُخْرِجُونَ مِنَ الْأَجْدَاثِ سِرَاعًا كَانَتْهُمْ إِلَى نُصْبٍ يُؤْفَضُونَ﴾ (٥٢) [المعارج].

وقال جلَّ شأنه: ﴿يَخْرِجُونَ مِنَ الْأَجْدَاثِ كَانَتْهُمْ جَرَادٌ مُنْشَرٌّ﴾ (٧) ﴿مُهْطِعِينَ إِلَى الدَّاعِ﴾ [القمر: ٧، ٨].

وفي الصحيحين: عن أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «مَا بَيْنَ النَّفْخَتَيْنِ أَرْبَعُونَ» قَالُوا: يَا أَبَا هُرَيْرَةَ، أَرْبَعِينَ يَوْمًا؟ قَالَ: أَيْتٌ، قَالُوا: أَرْبَعِينَ شَهْرًا؟ قَالَ: أَيْتٌ، قَالُوا:

أربعين سنة؟ قال: أبئت، ثم ينزل من السماء ماء، فينبتون كما ينبت البقل، وليس من الإنسان شيء إلا يبلى، إلا عظمًا واحدًا، وهو عَجْبُ الذَّنْبِ، ومنه يُرَكَّبُ الخلق يوم القيامة^(١).

وحين يقوم الناس لرب العالمين، يحزن المكذبون، وتظهر عليهم علامات الحسرة والندم، وتمنّوا أنهم لم يقوموا من قبورهم:

مُنْكَرُوا الْبَعْثِ يَرَوْنَ بِأَعْيُنِهِمْ صِدْقَ مَا وَعَدَهُمْ بِهِ الرَّسُولُ ﷺ مِنَ الْبَعْثِ وَالنُّشُورِ

٥٢- ﴿قَالُوا يَوَيْلَنَا مَنْ بَعَثَنَا مِنْ مَرْقَدِنَا﴾^(٢) هَذَا مَا وَعَدَ الرَّحْمَنُ وَصَدَقَ الْمُرْسَلُونَ ﴿٥٢﴾

أي: وحين يخرج الناس من قبورهم يتعجب الذين كانوا قد أنكروا البعث في الدنيا، وقالوا: ﴿مَنْ هَذَا الْوَعْدُ﴾ [٤٨]. فيقول بعضهم لبعض وهم في أرض المحشر، كما يقول النادم المتحسر بينه وبين نفسه: ﴿يَوَيْلَنَا مَنْ بَعَثَنَا مِنْ مَرْقَدِنَا﴾ لقد كانوا يعتقدون أنهم لا يُبعثون، وقد تحقق لهم البعث حين عاينوا ما كذبوه في الدنيا.

قال ابن عباس: إنما يقولون هذا لأن الله تعالى يرفع عنهم العذاب بين النفختين فيرقدون، فإذا بُعثوا بعد الثانية، وعاينوا أهوال يوم القيامة دَعَوْا على أنفسهم بالويل والثبور^(٣).

وحين يقول الكفار: ﴿مَنْ بَعَثَنَا مِنْ مَرْقَدِنَا﴾ تجيبهم الملائكة ويجيبهم المؤمنون: ﴿هَذَا مَا وَعَدَ الرَّحْمَنُ وَصَدَقَ الْمُرْسَلُونَ﴾ أي: هذا هو الذي وعدكم الله به في الدنيا من البعث بعد الموت، والحساب والجزاء، وما أخبر به رسل الله الصادقون، فقد رأوه بأعينهم، وتحقق ما أنكروه في الدنيا.

وَذَكَّرُ (الرحمن) في الآية، للإشارة إلى أَنَّ العباد سيَلْقَوُا من رحمة الله في الآخرة، مالم

(١) «صحيح البخاري» (٤٨١٤، ٤٩٣٥) و«صحيح مسلم» (٢٩٥٥).

(٢) قرأ حفص بخلف عنه بالسكت على ألف (مرقدنا) وصلًا سكتة يسيرة بدون تنفس؛ لئلا يتوهم أن ما بعدها صفة لما قبلها، والباقون بعدم السكت. قلت: والأولى أن يقف القارئ على (مرقدنا) ويتنفس، ثم يبدأ (هذا ما وعد الرحمن) على أساس أنه وقف لازم، وعدم الوقف يوهم خلاف المعنى المقصود، وهذا مبني على الفصل بين كلام منكري البعث وكلام المؤمنين أو الملائكة، أما السكت فهو مبني على أساس استئناف الكلام من القائلين أنفسهم.

(٣) «تفسير الخازن» (٩/٤) وهو عند ابن أبي شيبة عن أبي صالح (٥٤٣/١٣).

يخطر لهم على بال، كما قال تعالى ﴿الْمَلِكُ يَوْمَئِذٍ الْخَبِيرُ﴾ [الفرقان: ٢٦].

وقال ﴿يَوْمَئِذٍ يَتَّبِعُونَ الدَّاعِيَ لَا عِوَجَ لَهُمْ وَخَشَعَتِ الْأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَنِ فَلَا تَسْمَعُ إِلَّا هَمْسًا﴾ [طه].

وقال ﴿رَبِّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا الرَّحْمَنُ لَا يَمْلِكُونَ مِنْهُ خِطَابًا﴾ [٢٧] يَوْمَ يَقُومُ الرُّوحُ وَالْمَلَائِكَةُ صَفًّا لَا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ وَقَالَ صَوَابًا ﴿[النبا].

وكلها آيات تتحدث عن يوم القيامة وتصف الله عز وجل بأنه رحمن فاللهم ارحمنا يوم تزل الأقدام ويقوم الناس لرب العالمين.

قال قتادة: أول هذه الآية للكفار، وآخرها للمسلمين^(١).

وهذه الآية كقوله تعالى حكاية عنهم: ﴿وَقَالُوا يُوَيْلَنَا هَذَا يَوْمَ الدِّينِ﴾ [٢٨] فيكون الجواب ﴿هَذَا يَوْمَ الْفَصْلِ الَّذِي كُنْتُمْ بِهِ تُكَذِّبُونَ﴾ [الصافات].

ويصح أن يكون هذا من تنمة كلام منكري البعث، بمعنى: أنهم بعدما تحسروا على قيامهم من القبور، لم يلبثوا أن استحضرت نفوسهم ما كانوا يُنذَرُونَ به في الدنيا، فاستأنفوا قائلين: ﴿هَذَا مَا وَعَدَ الرَّحْمَنُ﴾.

وفيه إبطال لتعجبهم السابق واستهزائهم بما وعدهم به محمد ﷺ من البعث والنشور.

هذا: والأولى الوقف على ﴿مِنْ مَرْقِدِنَا﴾ مع التنفس، للفصل بين كلام الكفار وكلام الملائكة، قال تعالى يصف سرعة خروج الناس إلى أرض المحشر:

٥٣- ﴿إِنْ كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً فَإِذَا هُمْ جَمِيعٌ لَدَيْنَا مُحْضَرُونَ﴾ [٥٤]

بَيِّنَ ﷻ في هذه الآية سرعة إمتثال الناس لربهم وحضورهم للحساب في ساحة المحشر، وأن البعث من القبور، لم يكن إلا نتيجة نفخة واحدة، هي النفخة الأخيرة في (القرن) فإذا جميع الخلائق بين يدي ربهم ماثلون للحساب والجزاء كقوله تعالى:

﴿فَإِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ﴾ [١٢] فَإِذَا هُمْ بِالسَّاهِرَةِ ﴿[١٤]﴾ [النازعات].

وقوله سبحانه: ﴿وَمَا أَمْرُ السَّاعَةِ إِلَّا كَلَمْحِ الْبَصَرِ أَوْ هُوَ أَقْرَبُ﴾ [النحل: ٧٧].

وقوله تعالى: ﴿يَوْمَ يَدْعُوكُمْ فَتَسْجُدُونَ لِحَمْدِهِ وَتَقُولُونَ إِن لَّيْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا ۝٥٢﴾ [إسراء].

إنها صيحة واحدة، تُخرجهم من القبور، فتُسرع بهم وتُحضرهم للحساب في لمح البصر، فلا تُكرَّر هذه الصيحة لاستدعائهم للحضور، ثم إنهم لا يحضرون جماعات وزرافات، بل يحضرون جملة واحدة، كما قال تعالى: ﴿وَإِنْ كُلُّ لَمَّا جَمِيعٌ لَّدَيْنَا مُحْضَرُونَ ۝٣٢﴾.

وهذه الصيحة هي قول إسرافيل: أيتها العظام النخرة، والأوصال المتقطعة، والأجزاء المتفرقة، والشعور المتمزقة، إن الله يأمركن أن تجتمعن لفصل القضاء، ثم يُنفخ في الصور، فإذا هم مجموعون في موقف الحساب^(١).

ثم بيّن سبحانه أن الكفار سيلقون يوم القيامة جزاء قاسيًا عادلًا، لا ظلم فيه:

٥٤- ﴿فَالْيَوْمَ لَا تَظْلُمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَلَا تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ۝٥٤﴾

أي: وبعد أن أيقن المكذبون بالبعث، أن وعد الله حق، حين رأوا العذاب المعدّ لهم، وأيقنوا أن الرسل قد صدّقوا فيما وعدوهم به من البعث والنشور، فإن الملائكة تناديهم من قبِلِ العلي الكبير يقولون لهم: ﴿فَالْيَوْمَ لَا تَظْلُمُ نَفْسٌ شَيْئًا﴾ أي: إنه في ذلك اليوم، يتم الحساب بالعدل، وسيكون الجزاء قاسيًا ولكن لا ظلم فيه، فلا يُنقص شيء من حسناتكم، ولا يُزاد شيء على سيئاتكم، وسوف يكون الجزاء وفاقًا لما قدموا لأنفسهم في الدنيا، ولا يتحمل الإنسان وزر غيره، وكلٌّ يُجزى بعمله ﴿وَلَا تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ في الدنيا من خير أو شر، كما قال تعالى: ﴿وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَمَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَإِنْ كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَى بِنَا حَاسِبِينَ ۝٥٧﴾ [الأنبياء]. فمن وجد خيرا فليحمد الله، ومن وجد شرا فلا يلومن إلا نفسه.

هذا هو حال المجرمين، فما هو حال المهتدين؟

(١) «حاشية الصاوي على الجلالين» (٣/٣٢٨).

نَعِيمُ أَهْلِ الْجَنَّةِ

٥٦،٥٥ - ﴿إِنَّ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ الْيَوْمَ فِي شُغْلٍ ^(١) فَكَهُونَ ^(٢)﴾ ٥٥ ﴿هُمْ وَأَزْوَاجُهُمْ فِي ظِلَالٍ ^(٣) عَلَى الْأَرْزَاقِ مُتَّكِئُونَ ^(٤)﴾

أي: أما أهل الجنة فقد عُجِّلَ بهم إلى الجنة، قبل أن يُبعث أهل النار إليها.

وزيادة في حسرة الكافرين يقال لهم في هذا الموقف، إدخالاً للندامة عليهم بسبب ما فرطوا في جنب الله من العمل للآخرة:

إن أهل الجنة في ذلك اليوم مشغولون عن غيرهم بأنواع النعيم الذي يتفكّهون به من كل ما لذّ وطاب في المأكل والمشرب والملبس والسكن والزوجات. . . إنهم يتلذذون في الجنة بما يشرح صدورهم، ويُرضي نفوسهم، ويُقر أعينهم، ويجعلهم في أعلى درجات التمتع والغبطة، فهم مشغولون بما هم فيه من ألوان النعيم عن التفكير في أهل النار، وعن كل ما يخطر بالبال.

إنهم وأزواجهم متلذذون متفكّهون بما يؤكل للتلذذ والتسلية، وليس للشبع أو سد الجوع، وهم متنعمون بالجلوس على الأسيّة المزيّنة، تحت الظلال الوارفة، في راحةٍ ونعيمٍ ومُتعةٍ ولذةٍ ومرحٍ وسرورٍ، والمراد بأزواجهم: اللاتي أُعدت لهم في الجنة من الحور العين، بالإضافة إلى مَنْ كُنَّ أزواجاً لهم في الدنيا إن كُنَّ غير ممنوعات من دخول الجنة.

١- كما قال تعالى: ﴿جَنَّتٌ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا وَمَنْ صَلَحَ مِنْ آبَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ﴾ [الرعد: ٢٣].

٢- وقال سبحانه: ﴿مُتَّكِئِينَ عَلَى سُرُرٍ مَصْفُوفَةٍ وَزَوَّجْنَاهُمْ بِحُورٍ عِينٍ﴾ [الطور: ٢٠].

٣- وقال أيضاً: ﴿إِنَّا أَنشَأْنَهُمْ إِنِشَاءً﴾ ٢٥ ﴿فَجَعَلْنَهُمْ أَتْبَارًا﴾ ٣١ ﴿عُرُبًا أَتْرَابًا﴾ ٣٧ ﴿لَأَصْحَابِ الْعِمينِ﴾ ٢٨ ﴿[الواقعة: ٢٨].

(١) قرأ نافع وابن كثير وأبو عمرو بإسكان الغين من (شغل)، والباقون بضمها.

(٢) قرأ أبو جعفر بحذف الألف من (فأكهون) صفة مشبهة، والباقون بإثباتها اسم فاعل.

(٣) قرأ حمزة والكسائي وخلف بضم الظاء وحذف الألف من (ظلال) جمع ظلة، وقرأ الباقيون بإثبات الألف وكسر الظاء جمع ظل.

(٤) قرأ أبو جعفر بحذف همزة (متكئون) مع ضم الكاف، ومثله حمزة عند الوقف، وله أيضاً التسهيل بين بين، وإبدالها ياء.

٤- وقال ﷻ: ﴿وَجَزَّاهُمْ بِمَا صَبَرُوا جَنَّةً وَحَرِيرًا﴾ (١٢) مُتَكِينِينَ فِيهَا عَلَى الْأَرَائِكِ لَا يَرَوْنَ فِيهَا شَمْسًا وَلَا زَمْهَرِيرًا ﴿١٣﴾ وَدَانِيَةً عَلَيْهِمْ ظِلُّهَا وَذُلَّتْ قُطُوفُهَا نَذِيلًا ﴿١٤﴾ [الإنسان].

٥- وقال جل شأنه: ﴿أُولَئِكَ لَهُمْ جَنَّاتُ عَدْنٍ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِنْ ذَهَبٍ وَيَلْبَسُونَ ثِيَابًا خُضْرًا مِنْ سُندُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ مُتَكِينِينَ فِيهَا عَلَى الْأَرَائِكِ نِعَمَ الثَّوَابِ وَحَسُنَتْ مُرْتَفَقًا﴾ (٢١) [الكهف].

والاتكاء: هو أن يكون الإنسان مضطجعاً على جنبه دون أن يضع كتفه ورأسه على الأرض، طلباً للراحة وإطالة الجلوس، وهي هيئة المترفين ممن يأكلون متكئين، ومنهم سادة الفرس والروم ومن تشبه بهم من العرب، ولذا فإن النبي ﷺ قال في حديث أبي جحيفة: «أما أنا فلا أكل متكئاً»^(١).

أما في غير حالة الأكل فقد اتكأ النبي ﷺ في مجلسه، كما في حديث ضمام بن ثعلبة وافد بني سعد بن بكر: أنه دخل المسجد فسأل عن النبي ﷺ، فقبل له: هو ذلك الأزهر المتكئ^(٢). قال تعالى:

٥٧، ٥٨- ﴿لَهُمْ فِيهَا فَنَكِهَةٌ وَلَهُمْ مَا يَدْعُونَ﴾ (٥٧) سَلَامٌ قَوْلًا مِنْ رَبِّ رَحِيمٍ ﴿٥٨﴾

ولأهل الجنة في الجنة، أنواع الفواكه والثمار اللذيذة، ولهم كل ما يطلبون من أنواع النعيم ﴿لَهُمْ فِيهَا فَنَكِهَةٌ﴾ وهي ما يؤكل للتلذذ والتنعم لا للشبع، وحُصِّتْ الفواكه بالذكر؛ لقلة الحصول عليها في الدنيا بالنسبة للطبقات الفقيرة، وهم أهل الجنة غالباً، وهذا النعيم الموصوف في الآية، هو بالنسبة لأهل اليمين من عامة المسلمين الذين جاء وصف نعيمهم في قوله تعالى: ﴿وَفَنَكِهَةٍ كَثِيرَةٍ﴾ (٣٣) لَا مَقْطُوعَةٍ وَلَا مَمْنُوعَةٍ ﴿٣٣﴾ [الواقعة].

وقوله أيضاً: ﴿فِيهَا فَنَكِهَةٌ وَنَخْلٌ وَرُمَّانٌ﴾ (١٨) [الرحمن].

أما بالنسبة للسابقين المقربين فقد قال تعالى: ﴿فِيهَا مِنْ كُلِّ فَنَكِهَةٍ زَوْجَانِ﴾ (٥٢) [الرحمن].

وقال أيضاً: ﴿وَفَنَكِهَةٍ مِمَّا يَتَخَيَّرُونَ﴾ (٢٠) [الواقعة].

(١) البخاري (٥٣٩٩، ٥٣٩٨) وأبو داود (٣٧٦٩) وابن ماجه (٣٢٦٢) والبيهقي في الشعب (٥٩٦٩) والترمذي (١٨٣٠) وفي «الشماثل» (١٣٢، ١٤٠) و«المسند» (١٨٧٥٤)، وابن حبان (٥٢٤٠) و«سنن النسائي الكبرى» (٦٧٠٩)، والدارمي (٢٠٧١).

(٢) يُنْظَرُ: «تفسير التحرير والتنوير» (٤٣/٢٣).

ولأهل الجنة في الجنة، تحقيق ما يطلبون مما يشتهون ويتمنون في أنفسهم من: تين وعنب ورمان ونحو ذلك دون حاجة إلى سؤال ﴿وَلَهُمْ مَا يَدْعُونَ﴾ أي: لهم ما يطلبون ويشتهون، دون سؤال، كما قال تعالى: ﴿وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهُ أَنْفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدْعُونَ﴾ [فصلت: ٣١].

وقال سبحانه: ﴿وَفِيهَا مَا تَشْتَهُ الْأَنْفُسُ وَتَكْدُّ الْأَعْيُنُ وَأَنْتَرُ فِيهَا خَلِيدُونَ﴾ [الزخرف: ٧١].

وفي الحديث: عن سهل بن سعد رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «فيها ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر»^(١).

وفوق ذلك كله، فإن لأهل الجنة في الجنة، أن يُسلم الله عليهم في الجنة، فيتلقوا السلام من رب العالمين، يسمعون به بأذانهم، كما سمع موسى كلام ربه حين ناداه للرسالة، من جانب الطور الأيمن من الشجرة المباركة، أو بواسطة الملائكة.

وهذا كما قال تعالى بالنسبة لأهل الجنة: ﴿وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللَّهِ أَكْبَرُ﴾ [التوبة: ٧٢]

أي: أكبر مما هم فيه من النعيم، وقال سبحانه: ﴿لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا لِحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ﴾ [يونس: ٢٦]

أي: إن لهم فوق نعيم الجنة نعيمًا أعظم، هو لذة النظر إلى وجهه الكريم.

وبعد أن ذكر سبحانه ألوانًا من نعيم أهل الجنة، ختم ذلك بقوله: ﴿سَلَامٌ قَوْلًا مِّن رَّبِّ رَحِيمٍ﴾ (٥٨) أي: إن لهم في الجنة نعيمًا آخر أكبر من نعيمهم الشاغل لهم عن كل شيء، وذلك حين يكلمهم رب العالمين الرحيم بهم، فيلقي السلام عليهم، وحينئذ تحصل لهم السلامة التامة، والأمن الأبدي، والرضوان الذي لا سخط بعده، والنعيم المقيم في دار الكرامة، وكامل الفرح والبهجة والسرور.

جاء في الأثر بإسناد فيه مقال، عن أنس بن مالك رضي الله عنه: أن أهل الجنة وهم في نعيمهم، يسطع عليهم نور، فيرفعون رؤوسهم، فيقول الله تعالى: السلام عليكم يا أهل الجنة،

(١) مسلم (٢٨٢٥) وفي «المسند» (٢٢٨٢٦) والطبراني (٥٨٢٧، ٦٠٠٣) والحاكم (٤١٣/٢) وعبد بن حميد (٤٦٣).

فذلك قوله تعالى: ﴿سَلِّمْ قَوْلًا مِّن رَّبِّ رَجِيمٍ﴾ (٥٨) ^(١).

فنسأل الله تعالى ألا يحرمنا النظر إلى وجهه الكريم، وأن يحلّ علينا الرضوان الذي لا سخط بعده.

عُزْلَةُ أَهْلِ الشَّقَاءِ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ فِي دَارِ الْبَقَاءِ

٥٩- ﴿وَأَمْتَرُوا الْيَوْمَ أَيُّهَا الْمُجْرِمُونَ﴾ (٥٩)

ما سبق هو بعض ما يقال لأهل الجنة من التحية والتكريم، فماذا يقال للمجرمين؟
الجواب: يقال لهم عند الحشر، وعند الوقوف للحساب، وعندما يؤمر بأهل الجنة إلى الجنة: تميزوا أيها المجرمون عن المؤمنين، وانفصلوا بعيداً عنهم ﴿وَأَمْتَرُوا﴾ أي: انفردوا واعتزلوا وابتعدوا عن المؤمنين الصالحين، وكُونُوا على حدة بعيداً عن أهل الجنة.

وفي هذا تقرير وتوبيخ لهم على رؤوس الأشهاد قبل دخولهم النار.

وقيل: يكون لكل كافر في النار بيت، فلا يرى غيره ولا يراه غيره.

كما قال تعالى: ﴿إِنَّهَا عَلَيْهِمْ مُّوَصَّدَةٌ﴾ (٨) [الهمزة].

وهذا كقوله تعالى: ﴿فَرَزَلْنَا بَيْنَهُمُ﴾ [يونس: ٢٨] أي: ميزنا وفصلنا بينهم.

وقوله أيضاً: ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُنْفَرُونَ﴾ (١٤) فَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَهُمْ فِي رَوْضَةٍ يُحْبَرُونَ (١٥) [الروم].

وقوله أيضاً: ﴿يَوْمَئِذٍ يَصَّدَّعُونَ﴾ [الروم: ٤٣] أي: يكونون فِرْقَتَيْنِ (صِدْعَيْنِ) أهل الجنة وأهل النار، ويقال لأهل النار: ألم أمركم وأوصيكم على ألسنة رسلي ألا تطيعوا الشيطان فيما يحسنه ويزينه لكم، وهذا أيضاً توبيخ لهم قبل دخولهم النار:

(١) من حديث أخرجه ابن ماجه برقم (١٨٤) وقال البوصيري في «الزوائد» (٨٦/١): هذا إسناد ضعيف لضعف الفضل بن عيسى بن أبان القرشي، وهو في «ضعيف سنن ابن ماجه» (٣٣) ورواه ابن أبي الدنيا (٩٨) والبخاري (٢٢٥٣).

تَوْبِيخُ أَتْبَاعِ الشَّيْطَانِ

٦٠، ٦١- ﴿الَّذِي أَعَاهَدَ لَكُمْ يَنْبَيْءَ ءَادَمَ أَن لَّا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٦٠﴾ وَإِنِ اعْبُدُونِي هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ ﴿٦١﴾﴾

هذا استفهام على وجه التوبيخ، لجميع أهل الضلال المتبعين خطوات الشيطان، ويأتي هذا النداء بلفظ: ﴿يَنْبَيْءَ ءَادَمَ﴾ أي: إن الذي أخرج أباكم من الجنة يا أبناء آدم، هو الشيطان، فكيف تطيعونه وتتبعون وساوسه، وهو لكم ولآبائكم وأجدادكم عدو مبين ظاهر العداوة، قد أخذ على عاتقه عهداً ألا يألو جهداً في إغوائكم وإضلالكم بشتى السبل وجميع الطرق؟! ولو لم يكن الشيطان عدواً لكم لَمَا أوقعكم في المهالك، ولَمَا كانت إشاراتكم لمضادة لأمر الله تعالى ونهيه، فقد أوصيتكم على السنة الرسل ﴿أَن لَّا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ﴾ فهو لكم عدو لدود، وعداوته قديمة معروفة، وهو واضح العداوة وضوح الصراط المستقيم، وهذا أمر مقرر بين الناس، شهدت به الأجيال والعصور، ﴿إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾ وقد حذرتكم منه غاية التحذير، وأنذرتكم عن طاعته، وأخبرتكم بما يدعوكم إليه من جميع أنواع الكفر والشرك والبدع والمعاصي وأساليب النفاق.

وقد جاء التحذير من ذلك كثيراً في مثل قوله تعالى: ﴿يَنْبَيْءَ ءَادَمَ لَّا يَفْنِيَنَّكُمْ الشَّيْطَانُ كَمَا أَخْرَجَ أَبَوَيْكُم مِّنَ الْجَنَّةِ﴾ [الأعراف: ٢٧].

وقوله أيضاً: ﴿إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا إِنَّمَا يَدْعُوا حِزْبَهُ لِيَكُونُوا مِنْ أَصْحَابِ السَّعِيرِ﴾ [فاطر].

وقوله سبحانه: ﴿وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾ [البقرة: ١٦٨].

والشيطان يوقع أتباعه في الشرك والبدع والأهواء وسائر المعاصي، وقد أخذ الله العهد المؤكد على بني آدم وهم في عالم الذر، أن يوحدوا الله تعالى ولا يشركوا معه غيره بالسير في ركابه وطاعته فيما يزينه ويوسوس لهم به.

قال تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِن بَنِي ءَادَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ شَهِدْنَا﴾ [الأعراف: ١٧٢].

وكما نهاكم الله عن عبادة الشيطان بطاعته واتباع إشارته، أمركم بإخلاص العبادة لله

وحده ﴿وَأَنِ اعْبُدُونِي﴾ أي: لقد أمرتكم بعبادتي وحدي وطاعتي وامثال أمري، كما أمرتكم بمعصية الشيطان، وبيّنت لكم أن هذا هو الدين القويم الموصل إلى جنة الله تعالى ورضوانه.

وترك عبادة الشيطان الواردة في قوله تعالى: ﴿أَنْ لَا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ﴾ وعبادة الواحد القهار، الواردة في قوله سبحانه: ﴿وَأَنِ اعْبُدُونِي﴾ هو اتباع للصراط المستقيم الذي يوصلكم إلى عز الدنيا وسعادة الآخرة، ﴿هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ﴾ ولكنكم خالفتم أمري واتبعتم الشيطان.

وعلم الصراط المستقيم وأعماله ترجع إلى امثال الأوامر واجتناب النواهي، وفي ذلك حفظ العهد الذي أخذه الله على بني آدم، وفيه العمل بوصية الله عز وجل، بتوحيده وطاعته وامثال أمره واجتناب نهيه، ومن لم يعمل بوصية الله، ولم يحفظ عهده، وقع في حبال الشيطان؛ وهذا معنى قوله تعالى:

٦٢- ﴿وَلَقَدْ أَضَلَّ مِنْكُمْ جِبِلًّا^(١) كَثِيرًا أَفَلَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ ﴿٦٢﴾﴾

ولقد أغوى الشيطان منكم يا بني آدم، خلقًا كثيرًا، ولم يزل يضل الناس إضلالًا ويغويهم إغواء لا يمكن إنكاره، فهل اتعظتم بما فعله مع كثير من أبناء جنسكم؟! أفلم يكن لكم عقل يردّعكم عن مخالفة أمر ربكم؟ ويزجركم عن اتخاذ الشيطان عدوًّا، فلو كان لكم عقل صحيح، لما فعلتم ذلك، فاتخذوه عدوًّا، وأخلصوا لله العبادة، فإنكم إذا واليتم الشيطان وعاديتم الرحمن وكذبتهم بلفاته، ورَدّتم جهنم:

٦٣، ٦٤- ﴿هَذِهِ جَهَنَّمُ الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ ﴿٦٣﴾ أَصَلَوْهَا الْيَوْمَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿٦٤﴾﴾

أي أن الله تعالى يحذّر المجرمين على لسان ملائكته بما أعدّه لهم من العذاب في الآخرة، حيث يقال لهم وهم على شفير جهنم: ﴿هَذِهِ جَهَنَّمُ﴾ الماثلة أمام أعينكم، فانظروا إليها عيانًا، ففيها الجزاء الأليم الذي ينتظركم، وهي ﴿الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ﴾ بها على ألسنة

(١) قرأ نافع وعاصم وأبو جعفر بكسر الجيم والباء وتشديد اللام من (جِبِلًّا)

وقرأ ابن كثير وحمة والكسائي ورويس وخلف بضم الجيم والباء وتخفيف اللام.

وقرأ روح بضمهما وتشديد اللام.

وقرأ أبو عمرو وابن عامر بضم الجيم وسكون الباء وتخفيف اللام، وكلها لغات، ومعناها: الخلق.

الرسل، فقابلتم ذلك باستهزاء وسخرية وتكذيب، إنها الآن ماثلة أمامكم ترونها بأعينكم.

كما قال تعالى: ﴿وَبُرِّزَتِ الْجَحِيمُ لِمَن يَرَىٰ﴾ [النازعات].

وقال سبحانه: ﴿وَبُرِّزَتِ الْجَحِيمُ لِلْغَاوِينَ﴾ [الشعراء]. فلا مجال للإنكار والسخرية.

ويوم القيامة يقول خزنة النار لأهل النار: ذوقوا حرها ولهيها وسعيرها، بسبب كفركم في الدنيا وموتكم عليه، فهذه النار هي التي حذرتكم منها الرسل فكذبتموها، فاليوم تدفعون إليها دفعًا، ويحيط بكم حرها، فيبلغ منكم كل مبلغ، وتلقون فيها جزاءكم.

قال تعالى: ﴿يَوْمَ يُدْعَوْنَ إِلَىٰ نَارِ جَهَنَّمَ دَعَاً﴾ [١٣] ﴿هَذِهِ النَّارُ الَّتِي كُنْتُمْ بِهَا تُكَذِّبُونَ﴾ [١٤] أَفَسِحَّرَ هَذَا أَمْ أَنْتُمْ لَا بُصُورَ﴾ [١٥] [الطور].

وهم في هذا اليوم يُخرس الله ألسنتهم فلا يتكلمون، ولا يستطيعون إنكار ما عملوه من الكفر والتكذيب.

شَهَادَةُ الْجَوَارِحِ عَلَى الْكَافِرِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ

٦٥- ﴿الْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَىٰ أَفْوَاهِهِمْ وَتُكَلِّمُنَا أَيْدِيهِمْ وَنَشْهَدُ أَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ [١٥]

وفي يوم الحساب يُنكر المجرمون ما اطلعوا عليه في صحف أعمالهم، وفيها أنهم أشركوا مع الله غيره في عبادته وهم في الدنيا، كما قال تعالى في بيان ذلك: ﴿وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا إِنَّا سُرَّاوُكُمْ الَّذِينَ كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ﴾ [٢٢] ثُمَّ لَرَّ تَكُنْ فِتْنَتُهُمْ إِلَّا أَنْ قَالُوا وَاللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾ [٢٣] [الأنعام].

قال تعالى معقبًا على قولهم: ﴿أَنْظِرْ كَيْفَ كَذَبُوا عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْزَعُونَ﴾ [٢٤] [الأنعام].

كما أن المعبودين ينكرون يوم القيامة عبادة المشركين لهم ﴿وَقَالَ سُرَّاوُهُمْ مَا كُنْتُمْ إِنَانَا تَعْبُدُونَ﴾ [يونس: ٢٨].

ويشهدون الله تعالى على أنهم لم يكونوا يعرفون شيئًا عن عبادتهم لهم، وأنهم كانوا في غفلة تامة عنها، فيقولون: ﴿فَكَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ إِنْ كُنَّا عَنْ عِبَادَتِكُمْ لَغَافِلِينَ﴾ [٢٩] [يونس].

وعندما يُنكر المجرمون أنهم كانوا في الدنيا يشركون مع الله غيره في الطاعة والعبادة، ويُنكر العصاة ارتكاب الآثام والخطايا، يختم الله على أفواههم فلا تنطق، في هذا الموقف العصيب؛ وتتحول الأعضاء التي ارتكبت المعاصي في الدنيا إلى شهود عليهم في الآخرة أمام رب العالمين، لأن إقرار الجوارح غير الناطقة أبلغ في إقامة الحجة من إقرار الجوارح الناطقة، فتتكلم الأيدي وتنطق بما باشرته من المعاصي، وتشهد الأرجل التي كانت حاضرة عند مباشرة الأيدي لارتكاب السيئات، فينطقها الله الذي أنطق كل شيء.

فالأيدي تقرُّ بالمعاصي لأنها الفاعل، فتتنطق بما فعلت، والأرجل التي سعت إلى المعاصي تشهد بما فعلت وارتكبت من السيئات، ولأنها حضرت عند ارتكاب الأيدي للمعاصي، ذلكم قول الله تعالى: ﴿الْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَىٰ أَفْوَاهِهِمْ﴾ وذلك عندما يُنكر اللسان أن صاحبه قد أشرك بالله، أو ارتكب ما حرم الله.

وقد أسند الله فعل الختم إلى نفسه، وأسند الكلام والشهادة إلى الأيدي والأرجل؛ لئلا يكون هناك احتمال أن ذلك كان جبراً أو قهراً؛ لأن إقرار المعجّر غير مقبول^(١).

ونُطق الجوارح بالشهادة باختيارها، يكون بعد أن أقدرها الله تعالى على الكلام؛ ليكون هذا أدل على صدور الذنب منهم، وهذا كقوله تعالى: ﴿يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [النور].

وشهادة اللسان تكون قبل إنكار الكافر للكفر والشرك، وبعد إنكاره يُختم على فمه فلا ينطق، وتتكلم الأعضاء.

وفي سورة (فصلت) زاد سبحانه في شهادة الجوارح: شهادة السمع والبصر والجلد على العبد بما اقترف من المعاصي؛ ليصبح مجموع الجوارح التي تنطق بالشهادة يوم القيامة سبعة، هي: الفم واللسان، والأيدي، والأرجل، والسمع، والبصر، والجلد. قال تعالى: ﴿حَتَّىٰ إِذَا مَا جَاءُوهَا شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَرُهُمْ وَجُلُودُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [٢٠] وَقَالُوا لَبِئْسَ مَا كُنَّا فِيهِ وَلَبِئْسَ الْوَسِيلَاءُ أَفَمَنْ يَبْدَأُ الْفِتْنَةَ يَكُونُ مِنَ الْمُنْتَضِينَ ﴿٢١﴾ وَلَقَدْ كَذَّبْنَا بِالنَّذْرِ الَّذِي نَبْذُرُهُمْ فَهَلْ يَعْلَمُ لِمَ لَبِئْسَ الْقَوَامُ الَّذِي بَقِيتُمْ فِيهِ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٢٢﴾ [فصلت: ٢٠، ٢١].

ويضاف إلى شهادة الجوارح السبع، شهادة الأرض على العبد بما اقترف فوقها من

(١) يُنظر: «حاشية الجمل على الجلالين» (٣/٥٢٢).

المعاصي، قال تعالى: ﴿يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا﴾ ④ بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَىٰ لَهَا ⑤ [الزلزلة].

وفي النهاية يتمنى الكافر لو تُسوى به الأرض، ولا يكذب على ربه في ساحة العرض والحساب ﴿يَوْمَئِذٍ يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَعَصَوْا الرَّسُولَ لَوْ تُسَوَّىٰ بِهِمُ الْأَرْضُ وَلَا يَكْتُمُونَ اللَّهَ حَدِيثًا﴾ ⑥ [النساء].
وقد صرحت الأحاديث بشهادة الأعضاء على العبد يوم القيامة بما اكتسب من السيئات، ومن ذلك:

١- حديث أنس بن مالك ؓ قال: كنا عند النبي ﷺ، فضحك حتى بدت نواجذه، ثم قال: «أتدرون مم أضحك؟» قلنا: الله ورسوله أعلم، قال: «من مجادلة العبد ربه يوم القيامة، يقول: رب، ألم تُجرني من الظلم؟ فيقول: بلى، فيقول: لا أجيز عليّ إلا شاهداً من نفسي، فيقول: كفى بنفسك اليوم عليك حسيباً، وبالكرام الكاتبين شهوداً، فيُختم على فيه، ويقال لأركانه: انطقي، فتنتطق بعمله، ثم يُخلّى بينه وبين الكلام، فيقول: بُعْداً لَكُنَّ وسُحْقاً، فعنكُنَّ كنت أناضل» ① أي: أخاصم وأجادل.

٢- وفي حديث أبي هريرة ؓ عن يوم القيامة أن النبي ﷺ قال: «... فيُختم على فيه، ويقال لَفَخِذِهِ: انطقي، فتنتطق فَخِذُهُ ولحمه وعظامه بما كان يعمل...» ②.

وفي هذا الحديث إضافة الفخِذ في شهادة الأعضاء، فيكون الشهود تسعة بإضافة الأرض والفخِذ إلى شهادة الجوارح السبع السابق ذكرها.

٣- وفي حديث عقبة بن عامر ؓ: أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: «إن أول عَظْمٍ من الإنسان يتكلم يوم يُختم على الأفواه: فَخِذُهُ من الرَّجُلِ الشمال» ③.

(١) «صحيح مسلم» برقم (٢٩٦٩) والنسائي في «السنن الكبرى» برقم (١١٦٥٣) والبيهقي في «الأسماء والصفات» (٤٦٧) وابن أبي الدنيا (١٨).

(٢) من حديث طويل في «صحيح مسلم» برقم (٢٩٦٨) والبيهقي (٤٦٦) من حديث أبي هريرة، وأبي داود (٤٧٣٠).

(٣) رواه أحمد في «المسند» برقم (١٧٣٧٤) وقال الهيثمي في «مجمع الزوائد» (٣٥١/١): إسناده جيد، وقال محققو «المسند»: حسن لغیره، دون قوله (من الرجل الشمال) وفي سنده رجل مبهم، هو الذي روى عنه عقبة، وأخرجه الطبراني (٣٣٣/١٧) (٩٢١) و«تفسير الطبري» (٤٧٣/١٩).

٤- وعن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه قال: «... يُدعى الكافر والمنافق يوم القيامة للحساب، فيعرض عليه ربه عمله فيجحد، ويقول: أي رب، وعزتك لقد كتب عليّ هذا الملك ما لم أعمل، فيقول الملك: أما عملت كذا في يوم كذا في مكان كذا؟ فيقول: لا، وعزتك، أي رب ما عملته، فإذا فعل ذلك خُتم على فيه وتكلمت أعضاؤه»، ثم تلا: ﴿الْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَىٰ أَفْوَاهِهِمْ﴾^(١).

وبهذا ينتهي المشهد: ألسنة معقودة، وأيدٍ تتكلم، وأرجل تشهد، وجوارح تنطق!!
ومجمل الشهود التسعة التي تشهد على العبد العاصي يوم القيامة هي: الأيدي والأرجل، والألسنة، والسمع، والبصر، والجلد، والأرض، والفخذ، والفم.

قُدْرَةُ اللَّهِ تَعَالَى عَلَى إِلْجَاءِ الْكُفَّارِ عَلَى الْإِقْرَارِ بِوَحْدَانِيَّةِ اللَّهِ تَعَالَى

٦٦- ﴿وَلَوْ نَشَاءُ لَطَمَسْنَا عَلَىٰ أَعْيُنِهِمْ فَاسْتَبَقُوا الصِّرَاطَ فَأَنَّى يُبْصِرُونَ﴾^(٦٦)

وكما أن الله تعالى ألجأ العصاة والمشركين إلى الإقرار في الآخرة بما كانوا عليه في الدنيا من شرك وباطل بعد أن أنكروه، بين سبحانه أنه لو شاء لألجأهم قهراً إلى الإقرار بوحدانيته تعالى وتصديق رسوله واتباع دينه، ولكنه جلّ شأنه لم يشأ ذلك؛ لأن نظام الدنيا يقوم على الأسباب والمسببات، وجميع الخلق في قبضة الله تعالى وتحت تصرفه.

ذلكم ما يشير إليه قول الله تعالى: ﴿وَلَوْ نَشَاءُ لَطَمَسْنَا عَلَىٰ أَعْيُنِهِمْ﴾ أي: أعميناهم وأذهبنا أبصارهم، فيفقدون الرؤية والإبصار، كما أعمينا قلوبهم وختمنا على أفواههم ﴿فَاسْتَبَقُوا الصِّرَاطَ﴾ أي: أنهم ابتدؤوا الطريق الموصل إلى الجنة وازدحموا عليه، وتسابقوا إليه، ليَجُوزُوهُ على عادتهم في الذهاب والإياب، رجاء أن يصلوا إليه كما كانوا في الدنيا يصلون إلى بيوتهم أو إلى أعمالهم، فهم قد بادروا وتسابقوا إلى الطريق الموصل إلى الجنة، ولكنهم لن يصلوا إليه، وهذا معنى: ﴿فَأَنَّى يُبْصِرُونَ﴾ أي: فكيف تتحقق لهم الرؤية وقد عميت أبصارهم؟ ولكننا لم نفعل ذلك، ولم نجعل لهم العقوبة في الدنيا، رحمة بهم وفضلاً منّا، فكان من الواجب أن يقابلوا هذه النعمة بالشكر لا بالكفر.

(١) «تفسير الطبري» (١٧/٢٣).

أما في الآخرة فقد برزت النار للغاوين، وليس لأحد نجاة منها إلا بالعبور على الصراط، ولا يعبر الصراط إلا أهل الإيمان الذين يمشون عليه في نورهم، أما أهل الكفر فليس لهم عهد عند الله بالنجاة من النار، فإن شاء طمس على أعينهم وأبقى حركتهم، فلم يهتدوا إلى الصراط، وإن شاء أذهب حركتهم، فلم يستطيعوا التقدم ولا التأخر، فهم لا يعبرون الصراط، ولا تكون لهم نجاة، وهذا معنى قوله تعالى:

٦٧- ﴿وَلَوْ نَشَاءُ لَمَسَخْنَاهُمْ عَلَىٰ مَكَانَتِهِمْ^(١) فَمَا اسْتَطَاعُوا مُضِيًّا وَلَا يَرْجِعُونَ^(٢)﴾

هذا هو التهديد الآخر للكفرة المجرمين، المنكرين للبعث، المكذبين للرسول، بأنه سبحانه لو شاء لغيّر خلقهم، فجعلهم في صورة مختلفة كالقردة والخنازير، أو الحجارة التي لا روح فيها، ونحو ذلك، بأن يغيّر صورتهم الإنسانية إلى صورة أخرى قبيحة، ومن شأن هذا المسخ أن يُعدهم في أماكنهم، ويجعلهم تماثيل في مجالسهم، فلا يستطيعون أن يمشوا إلى الأمام، ولا يرجعوا إلى الخلف في مجالسهم وأماكنهم، وهذا معنى ﴿فَمَا اسْتَطَاعُوا مُضِيًّا وَلَا يَرْجِعُونَ﴾ أي: لا يستطيعون ذهابًا ولا عودة، فهم في قبضة الله تعالى في جميع أحوالهم، والله تعالى قادر على أن يفعل بهم ما يشاء، ولكنه سبحانه رحمهم ولم يفعل بهم ذلك.

سُوءُ الْخَاتِمَةِ وَالْعِيَاذُ بِاللَّهِ

٦٨- ﴿وَمَنْ تُعَمِّرُهُ نُنَكِّسْهُ^(٢) فِي الْخَلْقِ أَفَلَا يَعْقِلُونَ^(٣)﴾

أي: وإذا كان الله سبحانه لم يطمس على أعين الكفار المجرمين في الدنيا، ولم يُحوّل

(١) قرأ شعبة بجمع (مكائنتهم)، والباقون بالإنفراد.

(٢) قرأ عاصم وحمزة بضم النون الأولى وفتح الثانية وكسر الكاف مشددة من (نُكِّسَهُ) مضارع نَكَسَ بالتشديد للتكثير، إشارة إلى تعدد المراحل من الشباب إلى الكهولة إلى الشيخوخة إلى الهرم، والباقون بفتح النون الأولى وإسكان الثانية وضم الكاف مشددة، مضارع نَكَسَ بالتخفيف، أي: ومن نزل عمره نرده من قوة الشباب إلى ضعف الهرم.

(٣) قرأ نافع وأبو جعفر ويعقوب وابن عامر بخلف عنه بقاء الخطاب في (يعقلون)، والباقون بالياء وهو الوجه الثاني لابن عامر.

ذواتهم الإنسانية إلى أجساد لا تتحرك، بل أمهلهم وأملئ لهم، وأبقاهم دون طمس ولا مسخ، فإن الله تعالى أنذرهم عاقبة غير محمودة، هي أيسر في عُرف الناس من مسخهم وطمس أعينهم، وهي أن يعيشوا في حياتهم أذلة مغلوبين، يعتريهم الضعف بعد القوة، والإذلال بعد العزة، وسوء الحالة بعد حُسْنها وزُهرتها، والنقص بعد الزيادة، والشيوخوخة بعد الشباب، ونقص العقل بعد اكتماله.

ذلكم قوله تعالى: ﴿وَمَنْ نُعَمِّرْهُ﴾ أي: نطل عمره من بني آدم حتى يهرم ﴿تُنَكِّسْهُ فِي الْخَلْقِ﴾ أي: نُعيدُه إلى الحالة التي ابتداءً منها، وهي ضعف العقل وضعف الجسد، وضعف السمع والبصر، وذلك أن الله تعالى خلق الإنسان في ضَعْفٍ من جَسَد، وَخُلُوٍّ من عقل وعلم حال صغره، ثم جعله في ازدياد وتنقّل من حال إلى حال، حتى إذا بلغ أشده واستكمل قوته وعقله، وعلم ما له وما عليه، واستكمل الغاية، وبلغ النهاية، رجع في انتقاص حتى يُردَّ إلى ضَعْفِهِ الأول، فيشبه حال الطفل في ضعف جسده وقلة عقله وخلو علمه، ويصل إلى أرذل العمر.

وأصل التنكيس: جعل أعلى الشيء أسفله ﴿أَفَلَا يَعْقِلُونَ﴾ أن الإنسان ناقص من كل وجه، فيعتبروا ويتداركوا قوة أبدانهم وعقولهم فيستعملونها في طاعة ربهم، ويعلموا أن القادر على تصريف أحوال الناس قادر على البعث بعد الموت.

قال تعالى: ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا وَشَيْبَةً يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ﴾ [الروم: ٥٤].

وقال سبحانه: ﴿وَمِنْكُمْ مَنْ يُرَدُّ إِلَى أَرْذَلِ الْعُمُرِ لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِنْ بَعْدِ عِلْمٍ شَيْئًا﴾ [الحج: ٥].

ومن قدر على تنكيس الإنسان إذا هرم، قادر على مسخه وطمس معالمه.

والمقصود من هذه الآيات الثلاث: تهديد الكفار على استمرارهم في الكفر، وبيان أنهم في قبضة الله تعالى، وأنه سبحانه قادر على أن يطمس أبصار الكفار، ويمسح صورهم، ويردّهم إلى سوء المصير.

الرَّدُّ عَلَى مَنْ وَصَفَ الْقُرْآنَ بِالشَّعْرِ

٦٩- ﴿وَمَا عَلَّمْنَاهُ الشِّعْرَ وَمَا يَنْبَغِي لَهُ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْآنٌ مُبِينٌ﴾ ﴿٦٩﴾

ولما أقسم الله تعالى في أول السورة، على أن محمداً رسول من عند الله، وبيّن سبحانه أن الجاحدين المنكرين للتوحيد وللرسالة، أعرضوا عن امثال ما جاء به القرآن، كما في قوله تعالى: ﴿وَمَا تَأْتِيهِمْ مِنْ آيَةٍ مِنْ آيَاتِ رَبِّهِمْ إِلَّا كَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ﴾ ﴿٦١﴾ وكذبوا بالبعث والحساب والجزاء، فقالوا: ﴿مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾.

بعد ذلك تصدّت السورة لإبطال هذا التكذيب، فذكرت الكثير من البراهين العقلية والنقلية على البعث والحساب والجزاء.

ثم تصدّت السورة للرد على طعن المشركين في القرآن بأنه شعر، وفي الرسول ﷺ بأنه شاعر، فقال تعالى: ﴿وَمَا عَلَّمْنَاهُ الشِّعْرَ﴾ الضمير في ﴿عَلَّمْنَاهُ﴾ يعود على غير مذكور، وهو مفهوم من سياق السورة، أي: وما علمنا محمداً الشعر، ولا يصح ولا يليق به أن يكون شاعراً، وإنما علمناه القرآن المشتمل على ما يُسعد الناس في دنياهم وأخراهم، فمن المحال أن يكون شاعراً، لأن الله تعالى أخبر أنه لم يعلمه الشعر، والشعراء يتبعهم الغاؤون، ورسول الله مهتد رشيد جاء بما يُصلح أحوال البشر في الدنيا والآخرة.

وعليه فالقرآن ليس بشعر، كما قال تعالى: ﴿وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ قَلِيلًا مَّا تُؤْمِنُونَ﴾ ﴿٦١﴾ [الحاقة].

وهو ردٌّ على المشركين في قولهم عن الرسول ﷺ: ﴿بَلْ أَفْتَرَنَاهُ بَلْ هُوَ شَاعِرٌ﴾ [الأنبياء: ٥]. فالقرآن موحى به من عند الله، وهو ذكر وقرآن مبين وليس بشعر.

والشعر: كلام موزون مقفى، له معانٍ مناسبة لأغراضه، وأكثرها هزل وفكاهة، والقرآن ليس كذلك، وما فيه من تساوي الفواصل في نهاية الآيات، لا يجعلها موازية للقوافي كما يعلمه أهل الشعر، والمشركون قد أشاعوا ذلك تمويهاً على الناس، وصرفاً لهم عن القرآن:

١- فقد روى البخاري عن ابن عباس، ومسلم عن عبد الله بن الصامت قالا: قال أبو ذر لأخيه: اركب إلى هذا الوادي، فاعلم لي عِلْمَ الرجل الذي يزعم أنه نبي يأتيه الخبر من السماء، واستمع من قوله ثم اثنتي، فانطلق أخو أبي ذر حتى قدم على النبي ﷺ

وسمع من قوله، ثم رجع إلى أبي ذر فقال له: إنه يأمر بمكارم الأخلاق، وكلامًا ما هو بالشعر، قال أبو ذر: فما يقول الناس؟ قال: يقولون: شاعر، كاهن، ساحر^(١).

٢- وكان أنيس بن جُنادة، وهو أحد الشعراء، يقول: لقد سمعتُ قول الكهنة، فما هو بقولهم، ولقد وضعتُ قوله على أقرأ الشعر، فما يلتئم على لسان أحد بعدي أنه شعر، والله إنه لصادق، وإنهم لكاذبون، ثم ذكر قصة إسلام أبي ذر الغفاري.

٣- وكذلك خبر الوليد بن المغيرة، الذي رواه البيهقي وابن إسحاق، وفيه: أن الوليد جمع قريشًا عند حضور الموسم ليتشاوروا في أمر النبي ﷺ، فقال لهم: إن وفود العرب تردُّ عليكم، فأجمعوا فيه رأيًا، ولا يُكذَّب بعضهم بعضًا.

فقالوا: نقول كاهن، فقال: والله ما هو بكاهن، ما هو بزمزة الكاهن ولا بسجعه.

قالوا: نقول مجنون، فقال: والله ما هو بمجنون، ولا بخنقه ولا وسوسته.

فذكر تردُّدهم في وصفه إلى أن قالوا: نقول شاعر، قال: ما هو بشاعر، لقد عرفتُ الشعر كله، رَجَزَه وهزَجَه وقريضَه ومبسوطه ومقبوضه، وما هو بشاعر.

وليس معنى هذا أن الله تعالى لم يجعل في طبع النبي ﷺ القدرة على نظم الشعر، وليس معناه أيضًا أن القرآن اشتمل على ما يوافق الشعر في بعض فقراته، وهذا لا يستلزم وجود الشعر في القرآن.

فالقرآن الكريم نزل بأفصح لغات البشر، ولو كان يوجد على وجه البسيطة كلام أفصح من كلام العرب، وأمة أفضل وأسلم طبعًا من الأمة العربية، لاختارها الله تعالى لظهور أفضل الشرائع، وأشرف الرسل، وأعز الكتب السماوية.

وقد جاء القرآن معجزًا لبلغاء العرب، فكانت تراكيبه ومعانيه بالغة حدًّا يُقْصَر عنه كل بليغ، وفقَّ ما تتسع له اللغة العربية من وجوه الفصاحة والبلاغة.

فإذا أدى مقتضى الحال في مقام من المقامات إلى أن يجيء النظم القرآني جاريًا على ميزان الشعر العربي، فإن هذا لا يُعدُّ شعرًا، وإنما هو تفتن في ضروب البلاغة، وافق

(١) في صحيح البخاري برقم (٣٨٦١، ٣٥٢٢) واللفظ للأخير، وصحيح مسلم (٢٤٧٤).

ميزان البحور الشعرية، وقد جاء في القرآن ما يتفق مع بحور الشعر جميعاً:

- ١- كقوله تعالى: ﴿فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيُكْفُرْ﴾ [الكهف: ٢٩] من بحر الطويل.
- ٢- وقوله سبحانه: ﴿أَرَأَيْتَ الَّذِي يُكَذِّبُ بِالذِّينِ ﴿١﴾﴾ فذلِكَ الَّذِي يَدْعُ الْيَتِيمَ ﴿٢﴾﴾ [الماعون] من بحر الخفيف.
- ٣- وقوله جلَّ شأنه: ﴿وَاللَّهُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ [النور: ٤٦] من بحر الكامل.
- ٤- وقوله تعالى: ﴿وَدَانِيَةً عَلَيْهِمْ ظِلُّهَا وَذُلَّتْ قُطُوفُهَا نَذِيلًا ﴿٧﴾﴾ [الإنسان] من بحر الرجز.
- ٥- وقوله سبحانه: ﴿وَيُخْرِجُهُم وَيَضْرِبُكُمْ عَلَيْهِمْ وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُّؤْمِنِينَ﴾ [التوبة: ١٤] من بحر الوافر... وهكذا.

فهذا وأمثاله، لا يُضفي على القرآن صفة الشعر، وهو بالضرورة ينفي أن يكون الرسول شاعراً.

وبهذا يكون القرآن الكريم قد أزال من نفوس المشركين أن يكون الرسول شاعراً، وأن يكون القرآن شعراً، فلا ينبغي أن يوصف أيُّ منهما بالشعر، كما قال تعالى: ﴿وَمَا يَلْبِغِي لَكُمْ﴾ أي: وما يصح أن يكون الرسول شاعراً، ولا يتأتى له ذلك.

فالشعر له أوزان، وقوافٍ، وأغراض: كالغزل، والنسيب، والهجاء، والمديح، والمُلمح، والغرام، والشجاعة، والحمية، والكذب، والإغراق في المبالغة والخيال والأوهام، كما قال تعالى: ﴿وَالشُّعْرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ ﴿١٣٣﴾﴾ [الشعراء].

ومن ذلك قولهم: أعذب الشعر أكذبه.

ولذا فقد سئلت عائشة رضي الله عنها: هل كان رسول الله ﷺ يُتسامعُ عنده إشعر؟ قالت: كان أبغضَ الحديث إليه ^(١).

وإنشاد الشعر غير تعلمه، ومن الشعراء من يُقبل على الخلاعة والمُجون والشُّكر والميسر والنساء.

(١) السائل هو نوفل بن أبي عقرب، أخرجه ابن أبي شيبه (٥٣٤/٨) والطيالسي (١٤٩٠) والبيهقي في السنن (٢٤٥/١٠) وهو في «المسند» (٤٧٥/٤١) (٢٥٠٢٠) قال محققوه: إسناده صحيح. ورجاله ثقات رجال الصحيح، قال الهيثمي في المجمع (١١٩/٨) رواه أحمد ورجاله رجال الصحيح.

وقد كان النبي ﷺ في المرتبة العليا من البيان والفصاحة في النثر، وإنما منعه الله من الشعر ترفعاً له عما في قول الشعراء من الخيال والمبالغة.

والقرآن ليس فيه شيء من ذلك، فكله حقائق وبراهين، كما أن الرسول ﷺ لا ينطبق عليه شيء من هذه الأوصاف.

ومن الشعر ما هو من الحكمة والفضيلة والصدق، ومن ذلك استحسان النبي ﷺ لشعر حسان بن ثابت، وعبد الله بن رواحة، وكعب بن زهير. ❦

وقد أنصف الإمام الشافعي حين قال: الشعر كلام، والكلام منه حسن ومنه قبيح.

وفي الحديث عن ابن عباس ؓ: «إن من البيان لسحراً، وإن من الشعر حُكماً»^(١).

وفي الحديث أيضاً: «أصدق كلمة قالها شاعر، كلمة لبيد:

ألا كل شيء ما خلا الله باطل وكل نعيم لا محالة زائل»^(٢)

وعن قتادة قال: بلغني أن عائشة ؓ سئلت: هل كان رسول الله ﷺ يتمثل بشيء من الشعر؟ فقالت: لا، إلا بيت طرفة:

سُتُبدِي لك الأيام ما كنت جاهلاً ويأتيك بالأخبار من لم تُزَوِّد

وكان يجعل أوله آخره وآخره أوله، فيقول: «ويأتيك من لم تُزَوِّد بالأخبار»، فقال له أبو

بكر: ليس هكذا، فقال ﷺ: «إني والله ما أنا بشاعر، ولا ينبغي لي»^(٣).

(١) أخرجه أبو داود في سننه (٥٠١٠، ٥٠١٢)، والترمذي (٢٠٢٨) وقال: حسن صحيح، وأحمد (٥٩/٢) برقم (٣٠٢٥، ٢٧٦١) والبخاري في الأدب المفرد (٨٧٤) والطيالسي (٢٦٧٠) وأبو يعلى (٢٣٣٢) وهو صحيح لغيره لأن سماك بن حرب حسن الحديث وباقي رجاله ثقات (محققو المسند) وأخرجه ابن حبان (٥٧٩٥).

(٢) من حديث أبي هريرة في البخاري (٥٧٩٥، ٣٦٢٨) ومسلم (٢٢٥٦).

(٣) أخرجه عبد الرزاق (١٤٥/٢) والطبري (٤٨٠/١٩) وغيرهما، وينحوه في «المسند» (٢٤/٤٠) (٢٤٠٢٣) من طريق آخر، وقال محققو «المسند»: حسن لغيره. لأن عامر بن شراجيل لم يسمع من عائشة، وبقيّة رجاله ثقات رجال الشيخين، وأخرجه ابن أبي شيبه (٥٢٤/٨) وصححه الألباني في «السلسلة الصحيحة» برقم (٢٠٥٧) والنسائي في «السنن الكبرى» (١٠٨٣٤) وغيرهم.

وعن الحسن أن النبي ﷺ كان يتمثل بهذا البيت: «كفى بالإسلام والشيب للمرء ناهياً». فقال أبو بكر: يا رسول الله، إنما قال الشاعر: كفى الشيب والإسلام للمرء ناهياً. فأعاده الأول، فقال أبو بكر: أشهد أنك رسول الله، ما علمك الشعر، وما ينبغي لك^(١).

وفي حفر الخندق كان الصحابة يَرْتَجِزُونَ أبيات عبد الله بن رواحة ﷺ:

لَا هُمْ لَوْلَا أَنْتَ مَا اهْتَدَيْنَا وَلَا تَصَدَّقْنَا وَلَا صَلَّيْنَا
فَأَنْزَلْنَا سَكِينَةً عَلَيْنَا وَثَبَّتَ الْأَقْدَامَ إِنْ لَاقَيْنَا
إِنَّ الْأَلَى قَدْ بَغَوْا عَلَيْنَا إِذَا أَرَادُوا فِتْنَةً أَبَيْنَا^(٢)

وفي يوم حنين قال ﷺ وهو راكب البغلة يذفعها نحو العدو: «أنا النبي لا كذب أنا ابن عبد المطلب»^(٣)

وعن جندب بن عبد الله البجلي ﷺ قال: كنا مع النبي ﷺ في غار فنكبت إصبه، فقال:

هَلْ أَنْتَ إِلَّا إِصْبَعٌ دَمِيَتْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ مَا لَقِيتَ^(٤)
وفي حديث أنس ﷺ أن النبي ﷺ قال: «اللهم إِنَّ الْعِيشَ عِيشَ الْآخِرَةِ، فَارْحَمِ الْأَنْصَارَ
وَالْمُهَاجِرَةَ»^(٥)

وكل هذا لا ينافي أن النبي ﷺ ما عُلِمَ الشعر، وما جاء من قبيل الشعر فقد وقع اتفاقاً، دون قصد لوزن الشعر.

(١) «معجم الشعراء» للمزباني كما في «الإصابة» (٣/ ٢٥٠) و«طبقات ابن سعد» (١/ ٣٨٢) من طريق عارم عن حماد بن زيد عن علي بن زيد بن الحسن مرسلاً، ينظر: ضعيف الجامع الصغير، برقم (٤٥٣٥).
(٢) من حديث البراء بن عازب في البخاري برقم «٧٢٣٦» ومسلم برقم (١٨٠٣) وأحمد (٤/ ٢٨٥) وابن حبان (٤٥٣٥).

(٣) البخاري برقم (٢٨٦٤) ومسلم برقم (١٧٧٦).

(٤) البخاري (٢٨٠٢) ومسلم (١٧٩٦) والترمذي (٣٣٤٥) وأحمد (٤/ ٣١٢)، برقم (١٨٨٠٧، ١٨٧٩٧) بإسناد صحيح على شرط الشيخين، وأخرجه ابن حبان (٦٥٧٧).

(٥) البخاري (٢٨٣٤) ومسلم (١٨٠٥) والمسند (١٢٧٥٧) بإسناد صحيح على شرط الشيخين والنسائي في الكبرى (٨٣١٣) وأبو نعيم في الحلية (٢/ ٣٠١).

على أن الشعر فيه ما هو مشروع، وهو هجاء المشركين الذي كان يتعاطاه شعراء الإسلام، كحسان بن ثابت، وكعب بن مالك، وعبد الله بن رواحة رضي الله عن الجميع.

ومنه ما كان فيه حِكْم ومواعظ وأداب، كما يوجد في شعر جماعة من الجاهلين.

ولما نفى سبحانه أن يكون القرآن من جنس الشعر قال تعالى: ﴿إِنَّ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْآنٌ مُبِينٌ﴾ أي: ما هذا القرآن الذي جاء به الرسول ﷺ إلا ذِكْرٌ يتذكر به أولو الألباب، وقرآن مبين لأحكامه وحِكْمه ومواعظه، لا يلتبس به الشعر بحال من الأحوال.

والذكر: وصف للكتاب المنزل على محمد ﷺ، كما قال تعالى: ﴿وَقَالُوا يَتَّبِعُنَا الَّذِي نُنْزِلُ عَلَيْهِ الذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ﴾ [الحجر].

ولا ينتفع بهذا القرآن إلا صاحب النفس التقية، والأذن الواعية، والفطرة السليمة، أما من أصرَّ على كفره وضلاله فقد وجبت عليه كلمة العذاب، واستحق أن يُلقى في جهنم وبئس القرار، وهذا معنى قوله تعالى:

٧٠- ﴿يُنْذِرُ^(١) مَنْ كَانَ حَيًّا وَيَحَقُّ الْقَوْلُ عَلَى الْكَافِرِينَ ﴿٧٠﴾﴾

أي: ويتنفع بهذا القرآن من كان حيًّا القلب، مستنير البصيرة، وهم المؤمنون الذين يتنفعون بما فيه، فالقرآن لقلوبهم بمنزلة المطر للأرض الخصبة.

وفي هذا تعريض بمن لا يتنفع بالقرآن، ولا يستعملون عقولهم، وأعرضوا عن دلائله، بعد أن قامت عليهم الحجة، ولم يبق لهم عذر ولا شبهة، كما قال تعالى: ﴿إِنَّمَا نُنْذِرُ مَنْ اتَّبَعَ الذِّكْرَ وَخَشِيَ الرَّحْمَنَ الْغَيْبَ﴾ [١١]

وقال أيضًا: ﴿إِنَّكَ لَا تُسْمِعُ الْمَوْتَى وَلَا تُسْمِعُ الدُّعَاءَ إِذَا وَلَّوْا مُدْبِرِينَ﴾ [النمل].

ثم قال سبحانه متوعدًا من لم يتنفع بإنذار الرسول ﷺ بأنه قد حقت عليه كلمة العذاب: ﴿وَيَحَقُّ الْقَوْلُ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾ والقول هو كلمة العذاب، وقد وجبت عليهم هذه الكلمة، لأن حجة الله البالغة قامت عليهم بالقرآن، وكلمة العذاب هي قوله تعالى: ﴿لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنْ

(١) قرأ نافع وابن عامر وأبو جعفر ويعقوب بناء الخطاب في (لينذر) والمخاطب هو الرسول ﷺ، وقرأ الباقون بياء الغيبة، والضمير للقرآن أو للنبي ﷺ.

الْجَنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴿١١٩﴾ [هود: ١١٩].

وقد شبههم الله تعالى بالأموات؛ لأنهم لا يعقلون ما يُخاطَبون به، فجعلهم الله في مقابلة الأحياء إشعارًا بأنهم أموات في الحقيقة لكفرهم، وسقوط حجتهم، وعدم تأملهم.

الْأَنْعَامُ مَصْدَرٌ لِلثَّرْوَةِ وَمَنْفَعَةٌ لِلْإِنْسَانِ، فَهَلْ شَكَرَ اللَّهُ عَلَيْهَا؟

٧١- ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا خَلَقْنَا لَهُمْ مِمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَا أَنْعَامًا فَهُمْ لَهَا مَالِكُونَ ﴿٧١﴾﴾

وبعد أن أبطل الله سبحانه شبه المشركين وظنونهم، وفند أقوالهم المزعومة في الوحي والرسالة، ذكّرهم ببعض نعم الله عليهم التي قابلوها بالكفر والجحود، وبدل أن يشكروا المنعم سبحانه فيعبدوه ويوحّدوه، أعرضوا عن ذلك، واتخذوا لعبادتهم آلهة لا تضر ولا تنفع.

وفي هذه الآية يمتن الله سبحانه عليهم، بأن خلق لهم الأنعام يملكونها وينتفعون بها، في: الأكل منها، وحمل الأمتعة عليها، واتخاذ الأوبار والأشعار والأصواف، أثاثًا ومناجًا، واتخاذها زينة وجمالًا واستثمارًا، فقال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا خَلَقْنَا لَهُمْ مِمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَا أَنْعَامًا﴾ أي: أعين هؤلاء المشركون عن مظاهر قدرتنا المنظورة بين أيديهم، ومنها: أننا خلقنا لهم من الإبل والبقرة والغنم ما يأكلون لحمه وما يركبون عليه، فيدعوهم هذا إلى التأمل والتفكير فيما أبدعته أيدينا بغير واسطة، ولا شريك ولا مُعين، فيستدلوا بذلك على وحدانيتنا وكمال قوتنا وقدرتنا!

وذكر سبحانه الأيدي دون غيرها؛ لأنها هي المتعارف عليها في الصنع وإيجاد الأشياء، كما قال تعالى: ﴿وَالسَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا بِأَيْدٍ﴾ [الذاريات: ٤٧].

وقال تعالى: ﴿قَالَ يَإَيُّهَا مَا مَنَّكَ أَنْ تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِإَيْدِي﴾ [ص: ٧٥].

وهو سبحانه ليس كمثله شيء، ولا يشبهه المخلوقات في شيء.

وخُصِّتْ الأنعام بالذكر، لأنها وقت تنزل القرآن، كانت أنفُس أموال العرب، وأنفع شيء في حياتهم.

ولو ذكر لهم القرآن ما لم يعرفوه من: العقارات والأسهم والبنوك، والطائرات والقنابل

النووية وغير ذلك، لكذبوه وأنكروه، وهذه الأنعام خلقها الله لأجلهم وملّكهم إياها، فهم يتصرفون فيها تصرف المالك في ملكه، وهذا معنى ﴿فَهُمْ لَهَا مَلِكُونَ﴾. قال تعالى:

٧٢، ٧٣- ﴿وَدَلَّلْنَاهَا لَهُمْ فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ ﴿٧٢﴾ وَهُمْ فِيهَا مَتَعٌ وَمَشَارِبٌ أَفَلَا يَشْكُرُونَ﴾

أي: ولم يخلق الله تعالى هذه الأنعام، وحشية تنفر من بني آدم، ولا يقدرّون على ضبطها، بل خلقها منقادة لهم لا تمتنع منهم ﴿وَدَلَّلْنَاهَا لَهُمْ﴾ أي: خلقناها مهيأة للإنسان، وجعلنا في جبلتها أنها لا تقاوم الإنسان، ولا تدفعه إذا أراد منها شيئاً، بل إذا زجرها انزجرت، وإذا أمرها ذلت وأطاعت، سواء طلب منها: السير، أو الحمل عليها، أو حلبها، أو أخذ نسلها، أو جذّ أصوافها وأوبارها وأشعارها، أو ذبحها، أو استعمالها في الحرث، أو السّعي أو الدّرس، أو القتال أو السباق، ونحو ذلك.

بل إن الطفل الصغير لو جاء إلى بعير ضخم لأناخه، ولو أراد أن يقيمه لأقامه، فإذا ساقه ذلّ وانتقاد له، بل لو أمسك الطفل بزمّام بعير، وكان خلفه مئة بعير أو أكثر، لساروا بسير هذا الصغير، فمن كان يقدر على هذه الأنعام، لولا تسخير الله تعالى لها وتذليلها للإنسان؟

ولهذا فإن العبد إذا ركب شيئاً من هذه الدواب، فإنه يشكر الله تعالى على تذليلها له ويسبح بحمده قائلاً: ﴿سُبْحَنَ الَّذِي سَخَّرَ لَنَا هَذَا وَمَا كُنَّا لَهُ مُقْرِنِينَ لَا إِلَهَ إِلَّا رَبُّنَا لَمُنْقِلُونَ﴾ [الزخرف].

ثم ذكر تعالى بعض خصائص هذه الأنعام، فقال: ﴿فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ﴾ أي: منها ما يركبون عليها في الأسفار، ويحملون عليها الأثقال والمتاع، وهي الإبل ﴿وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ﴾ لحومها وشحومها، ومنتجاتها كالأجبان ومشتقات الألبان، وهي البقر والغنم والإبل، وفضلاً عن ذلك فإن لهم فيها منافع أخرى غير الركوب والأكل، كالانتفاع بأصوافها وأوبارها وأشعارها في صنع الأثاث واللباس، ونقل المتاع، وحرث الأرض وغير ذلك، كما ينتفعون بشرب ألبانها.

ثم تعجب سبحانه من عدم شكرهم على هذه النعم في قوله: ﴿أَفَلَا يَشْكُرُونَ﴾ الله الذي أنعم عليهم بهذه النعم فيخلصوا له العبادة؟ ولكنهم أشركوا مع الله غيره في عبادته. قال تعالى:

٧٤، ٧٥- ﴿وَاتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ آلِهَةً لَعَلَّهُمْ يُنْصَرُونَ﴾ (٧٤) لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَهُمْ وَهُمْ لَهُمْ جُنْدٌ مُنْخَضَرُونَ ﴿٧٥﴾

هذا بيان لبطلان آلهة المشركين التي اتخذوها مع الله سبحانه، ورجؤا نفعها وشفاعتها لهم.

أي: وبعد أن ذكر سبحانه شيئاً من دلائل وحدانيته تعالى وجلائل نعمه، بين جل شأنه أن المشركين لم يقابلوا هذه النعم بالشكر، بل قابلوها بالجحود والبطر، فقد استبدلوا عبادة الله سبحانه باتخاذ آلهة لا تضر ولا تنفع، متوهمين أنها تنصرهم عند الله تعالى وتدفع عنهم الضر، وهي حجارة صماء بكماء، لا تسمع دعاء ولا تستجيب لنداء، اتخذوها آلهة طمعاً في نصرها لهم وإنقاذهم من عذاب الله، كما حكى الله تعالى قولهم: ﴿هَؤُلَاءِ شَفَعْتُنَا عِنْدَ اللَّهِ﴾ [يونس: ١٨].

وقولهم: ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى﴾ [الزمر: ٣].

وهذه الآية كقوله تعالى: ﴿وَاتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ آلِهَةً لَا يَخْلُقُونَ شَيْئاً وَهُمْ يُخْلَقُونَ وَلَا يَمْلِكُونَ لِأَنْفُسِهِمْ ضَرّاً وَلَا نَفْعاً وَلَا يَمْلِكُونَ مَوْتاً وَلَا حَيَوةً وَلَا شَوْراً﴾ (٣) [الفرقان].

وهذه الآلهة لا تستطيع نصر عابديها، ولا أنفسهم ينصرون، قال سبحانه: ﴿لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَ أَنْفُسِهِمْ﴾ [الأنبياء: ٤٣].

وقال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَكُمْ وَلَا أَنْفُسُهُمْ يَنْصَرُونَ﴾ (١٧٧) [الأعراف] ، وإذا كانوا لا يستطيعون نصر أنفسهم فكيف ينصرونهم؟

والمشركون وآلهتهم جميعاً مُنْخَضَرُونَ في العذاب يوم القيامة، يتبرأ بعضهم من بعض ﴿وَهُمْ لَهُمْ جُنْدٌ مُنْخَضَرُونَ﴾ معهم في النار أو عند الحساب.

وضمير ﴿وَهُمْ﴾ يعود على المشركين، وضمير ﴿لَهُمْ﴾ يعود على الآلهة المزعومة، وقيل: بالعكس.

والمعنى على القول الأول: إن هؤلاء المشركين قد صاروا في الدنيا بمنزلة الجند الذين أعدوا أنفسهم لخدمة هذه الآلهة، والدفاع عنها والحضور عندها، لخدمتها ورعايتها وحفظها، فهم يمنعون التعدي عليها، أو إصابتها بسوء، وهم جنود وحماة لها.

فالكفار جند للأصنام، يغضبون لها ويدافعون عنها، وهي لا تسوق إليهم خيراً ولا

تدفع عنهم سوءًا .

وعلى القول الآخر يكون المعنى: إن هذه الأصنام تحضر إلى النار مع المشركين ليُلْقُوا فيها معًا، كما قال تعالى: ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنْتُمْ لَهَا وَرَدُونَ﴾ (الأنبياء).

وقال سبحانه: ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا قُرْءَانُكُمْ وَأَهْلِكُمْ نَارًا وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ﴾ [التحریم: ٦].

والآلهة تحضر عند النار؛ كي تشهد تعذيب المشركين إن كانت تعقل، وهي تعجز عن نفع أو نصر مَنْ عبدوهم في الدنيا. قال تعالى مسلّمًا للنبي ﷺ:

٧٦- ﴿فَلَا يَخْزَنُكَ^(١) قَوْلُهُمْ إِنَّا نَعْلَمُ مَا يُسْرُونَ وَمَا يُعْلِنُونَ﴾

حذّر الله رسوله في هذه الآية أن يحزن لأقوال المشركين وأفعالهم وتكذيبهم وإيذائهم له ﷺ وللمؤمنين، واتهامهم له بأنه ساحر أو شاعر، واستهزائهم به ﷺ، فإنهم قد قالوا في شأن الله تعالى ما هو أشد وأفظع فيما يتعلق بالشرك وإنكار البعث ﴿فَلَا يَخْزَنُكَ قَوْلُهُمْ﴾ وإعراضهم عن قبول الحق.

ثم طمأن الله رسوله بأن أمر المشركين المكذبين مكشوف له سبحانه، فهو محيط بهم يعلم ما يدبرونه وما يمكرونه ﴿إِنَّا نَعْلَمُ مَا يُسْرُونَ وَمَا يُعْلِنُونَ﴾ أي: نعلم ما يخفون وما يُظهرون، ولا يغيب عنا شيء من أحوالهم، وسوف نحاسبهم ونجازيهم على ذلك.

والوقوف على ﴿فَلَا يَخْزَنُكَ قَوْلُهُمْ﴾ وقف لازم؛ أو قل: وقف بيان، لأن الوصل يوهم أن ما بعدها من قول المشركين، وهو من كلام الله تعالى.

والمراد بالقول: ما دل عليه السياق، من قبح المكذبين في رسول الله ﷺ وفيما جاء به من عند الله تبارك وتعالى.

الْبَرَاهِينُ السَّاطِعَةُ عَلَى الْبُعْثِ وَالنُّشُورِ

٧٧- ﴿أَوَلَمْ يَرِ الْإِنْسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِنْ نُطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُبِينٌ﴾

(١) قرأ نافع بضم الياء وكسر الزاي من (فلا يُخزِنُكَ) مضارع أحزن، والباقون بفتح الياء وضم الزاي مضارع حزن.

وبما أن قضية البعث والنشور، من عناصر السور المكية، وقد مرّ بنا في هذه السورة المكية، فقرات تكلمت عن هذه القضية، ثم عاد الحديث عنها بعد الحديث عن الإشراف بالله تعالى ووجوب توحيده جلّ وعلا، وفي هذه الآية وما بعدها ذُكر شبهة منكري البعث وهي: كيف يحيى الله الأجساد والعظام بعدما بليت وتفتت؟ وقد نسي الإنسان وهو يورد هذه الشبهة، أصله الذي خُلق منه، وهو الماء المهيّن.

وقد ورد في أسباب نزول هذه الآيات روايات، منها:

١- جاء أبيّ بن خلف إلى رسول الله ﷺ وفي يده عظم رميم، وهو يُفْتِّتُهُ ويُدرِّيه في الهواء ويقول: يا محمد، أتزعم أن الله يبعث هذا؟ فقال: «نعم، يُميتك الله ثم يبعثك، ثم يحشرك إلى النار»^(١).

وعن عكرمة أن النبي ﷺ قال له: «خلّقها قبل أن تكون أعجب من إحيائها وقد كانت»^(٢).

ولأبيّ بن خلف مواقف ومقالات مع النبي ﷺ مستمرة حتى قتله النبي ﷺ بحربة يوم أحد.

٢- وعن سعيد بن جبير عن ابن عباس ؓ: أن العاص بن وائل أخذ عظماً من البطحاء ففْتَتَهُ بيده، ثم قال لرسول الله ﷺ: أَيْحْيِي الله هذا بعدما أرم؟ فقال ﷺ: «نعم، يميتك ثم يحييك ثم يدخلك جهنم»^(٣).

٣- ورُوي مثل ذلك بالنسبة لأبي جهل وأمّية بن خلف، فهؤلاء أربعة هم: أبيّ بن خلف، وأمّية بن خلف، والعاص بن وائل، وأبو جهل، ولعل إنكار البعث قد حدث من كل واحد فيهم.

وأياً ما كان الأمر، فالآية عامة في كل من أنكر البعث، سواء أكان ذلك وقت نزول الآية في مكة، أم بعد نزولها في المدينة ممن انطبق عليه هذا المعنى.

(١) «تفسير الطبري» (٢٣/ ٣٠) عن مجاهد وقتادة وعكرمة وعُروة والسُّدِّي، وعليه المفسرون و«أسباب النزول» للواحدي: (٢٠٩) و«الدر المنثور»: (٣٧٩/ ١٢) وابن مردويه عن ابن عباس ؓ.

(٢) أخرجه ابن أبي حاتم كما في الدر المنثور (١٢/ ٣٨٠).

(٣) «تفسير الطبري» (٢٣/ ٣٠) و«الدر المنثور» (٥/ ٢٦٩) وغيرهما بإسناد مرسل و«المستدرک» (٢/ ٤٢٩) وصححه الذهبي والبيهقي عن أبي مالك.

والمعنى: ﴿أَوَلَمْ يَرِ الْإِنْسَنُ﴾ المنكر للبعث والشاك فيه، أمراً يفيد اليقين التام بوقوعه، وهو ابتداء خلقه ﴿أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِن نُّطْفَةٍ﴾ فيستدل بهذا البدء على إعادة الخلق بعد موتهم.

والنطفة: هي المنى، والماء المهيّن الخارج من مخرج النجاسة، وهي نطفة قدرة ضعيفة، تحتوي على ألوف الخلايا، وخلية واحدة منها هي التي يكون منها الجنين، ثم تمرُّ بأطوار في الرحم حتى يكتمل النمو شيئاً فشيئاً، ومع أن الإنسان خُلِقَ من هذا الماء المهيّن الذي تشمئز منه النفس، إلا أنه قد يكون شديد الشكيمة، قوي العناد، يكابر ويجادل ويخاصم في شأن البعث وغيره ﴿فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّثِينٌ﴾ ينكر قدرة الله تعالى على البعث والنشور، فهل بلغ الجهل بالإنسان إلى هذا الحد؟ وكان من الواجب عليه أن يستدل بالبدء على الإعادة، وعلى النشأة الأولى بالآخرة، فيعلم أن الذي أنشأه من العدم قادر على أن يعيده بعد ما تمزق وتفرق، من باب أولى.

ولسبب نزول هذه الآية، نظير من كلام الوليد بن المغيرة عند قوله تعالى: ﴿وَيَقُولُ الْإِنْسَنُ إِذَا مَا مِثْ لَسَوْفَ أُخْرَجَ حَيًّا﴾ ﴿١٦﴾ [مريم].

وقوله سبحانه: ﴿أَيَحْسَبُ الْإِنْسَنُ أَن يَجْمَعَ عِظَامُهُ﴾ ﴿٣﴾ بَلَى قَدَرِينَ عَلَى أَن تُسَوَّى بِأَنفِهِ ﴿٤﴾ [القيامة].

ويشبه الآية التي معنا قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَخْلُقْهُ مِن مَّاءٍ مَّهِينٍ﴾ ﴿١٥﴾ فَجَعَلْنَاهُ فِي قَرَارٍ مَّكِينٍ ﴿١٦﴾ إِلَى قَدَرٍ مَّعْلُومٍ ﴿٢٢﴾ فَقَدَرْنَا فَنِعْمَ الْقَادِرُونَ ﴿٢٣﴾ [المرسلات].

وقوله أيضاً: ﴿إِنَّا خَلَقْنَا الْإِنْسَنَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ﴾ [الإنسان: ٢].

وعن بُسْرِ بْنِ جَحَّاشٍ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ بصق يوماً في كفه، فوضع عليها أصبعه، ثم قال: «قال الله تعالى: ابن آدم، أنى تُعجزني وقد خلقتك من مثل هذه؟ حتى إذا سوّيتك وعدلتك مشيت بين بُرديك ولالأرض منك وئيد، فجمعت ومنعت، حتى إذا بلغت التراقي قلت: أنصّدق، وأنى أوان الصدقة؟»^(١). قال تعالى:

(١) «المسند» (٣١٠/٤) برقم (١٧٨٤٢، ١٧٨٤٣) بإسناد حسن، والحاكم (٣٢٣/٤) والطبراني في الكبير (١١٩٤) و«سنن ابن ماجه» برقم (٢٧٠٧) وقال البوصيري في «الزوائد» (٣٦٤/٢): إسناد حديثه صحيح ورجاله ثقات.

٧٨- ﴿وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَنْ يُعْجِ الْعِظَمَ وَهِيَ^(١) رَمِيمٌ ﴿٧٨﴾

أي: ولم يكتف المجادل بالباطل أن أنكر البعث والنشور، بل ضرب لنا مثلاً لا ينبغي ضربه، فقايس قدرة الله تعالى: على قدرة الإنسان، مع عجزه وضعفه، وقد نهانا الله تعالى أن نجعل له شركاء، وأن نشبهه بخلقه، حيث قال تعالى: ﴿فَلَا تَضْرِبُوا لِلَّهِ الْأَمْثَالَ﴾ [النحل: ٧٤].

والمعنى: إن هذا الكافر شبه قدرة الله تعالى بقدرة الخلق، فاستبعد على الله تعالى إعادة خلق الإنسان بعد موته وفنائه، ولم يفتن إلى أصل خلقه، فنسي أننا خلقناه من نطفة ميتة وركبنا فيه الحياة، وهذا أعجب من إعادة الحياة إلى عظامه، كما قال تعالى: ﴿أَفَعَبْنَا بِالْخَلْقِ الْأَوَّلِ بَلْ هُمْ فِي لَبْسٍ مِنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ ﴿١٥﴾﴾ [ق].

ولكنه استبعد هذه الإعادة ﴿قَالَ مَنْ يُعْجِ الْعِظَمَ وَهِيَ رَمِيمٌ﴾ أي: وهي بالية أشد البلى، متفتتة متلاشية، بعد أن كانت رطبة غضة في بدن حي حساس؟ فالمثل المضروب من الكافر مفسر بقوله ﴿مَنْ يُعْجِ الْعِظَمَ وَهِيَ رَمِيمٌ﴾ ووجه الشبه: هو أن هذا أمر في غاية البعد على ما يعهده من قدرة البشر، وقد صدر هذا القول من الكافر وهو في غفلة عن خلقه الأول، وقد أجاب الله تعالى عن هذا الاستبعاد بثلاثة أجوبة شافية كافية:

الْبُرْهَانُ الْأَوَّلُ عَلَى إِمْكَانِيَةِ الْبَعْثِ: الْخَلْقُ الْأَوَّلُ

٧٩- ﴿قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنْشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ ﴿٧٩﴾

﴿قُلْ﴾ يا محمد لمن ينكر البعث موبخاً ومبكتاً: ﴿يُحْيِيهَا الَّذِي أَنْشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ أي: يعيد العظام ويحييها الذي أوجدها أول مرة من العدم، فأحرى بالقادر على البدء أن يقدر على الإعادة، كما قال تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ﴾ [الروم: ٢٧].

وقال سبحانه: ﴿وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ النَّشْأَةَ الْأُولَىٰ فَلَوْلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٨٢﴾﴾ [الواقعة].

وهو سبحانه عالم تاماً بكل صغيرة وكبيرة، لا يخفى عليه شيء في الأرض ولا في السماء ﴿وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ﴾ يعلم الغيب والشهادة، ويعلم ما تنقص الأرض من

(١) سکن الهاء قالون وأبو عمرو والكسائي وأبو جعفر، وضمها الباقون في (وهو) وكسروها في (وهي).

أجسادهم وهم موتى وما يبقى منها، ومن ذلك أنه يعلم تفرُّق هذه العظام وتمزقها، وأين ذهبت: في باطن الأرض، أو في جوف البحار، أو تقطعت أوصالها أو حُرقت وذُرِّيت، ويعلم وسائل الخلق التي لا نعلمها، كالخلق من نطفة، أو من ذرَّة، أو من أجزاء النبات، وكلها أعجب من تكوين الإنسان من عظامه، وعظام الحي فيها حياة، ولها إحساس كلحمه ودمه، وبمجرد النظر في هذا الدليل يعلم الإنسان علم اليقين أن البعث حق لا شبهة فيه، وأن الساعة آتية لا ريب فيها.

قال عقبة بن عمرو لحذيفة: ألا تحدثنا ما سمعت من رسول الله ﷺ؟ فقال: سمعته يقول: «إن رجلاً حضره الموت، فلما أيس من الحياة أوصى أهله: إذا أنا مِتُّ، فاجمعوا لي حطباً كثيراً جزلاً، ثم أوقدوا فيه ناراً، حتى إذا أكلت لَحْمِي وَخَلَصْتُ إِلَى عَظْمِي فامْتَحِشْتُ، فخذوها فذرُّوها في اليمِّ، ففعلوا، فجمعه الله إليه -أي: أحيا هذا الميت- فقال له: لِمَ فعلت ذلك؟ قال: من خشيتك؛ فغفر الله له»، قال عقبة: أنا سمعته يقول ذلك، وكان نبأشاً^(١).

وقد جاء هذا الحديث في الصحيحين من حديث عبد الملك بن عُمر بالفاظ كثيرة، منها: «أنه أمر بنيه أن يحرقوه ثم يسحقوه، ثم يُذرُّوا نصفه في البر، ونصفه في البحر، في يوم رائج، كثير الهواء، ففعلوا ذلك، فأمر الله البحر فجمع ما فيه، وأمر البر فجمع ما فيه، ثم قال له: كُنْ، فإذا هو رجل قائم، فقال له: ما حملك على ما صنعت؟ فقال: مخافتك وأنت تعلم، فما تلافاه أن غفر له»^(٢).

الْبُرْهَانُ الثَّانِي عَلَى إِمْكَانِيَةِ الْبُعْثِ: خَلْقُ الضَّدِّ مِنْ ضِدِّهِ

٨٠- ﴿الَّذِي جَعَلَ لَكُم مِّنَ الشَّجَرِ الْأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَا أَنْتُمْ مِّنْهُ تُوقَدُونَ﴾^(١).

ثم ذكر سبحانه في هذه الآية دليلاً آخر على إمكانية البعث، وهو إخراج النار من

(١) مسلم (٢٩٣٤) و«المسند» (٣٩٥/٥) برقم (٢٣٣٥٣) بسند صحيح على شرط الشيخين، وقد أخرجه البخاري (٣٤٥١) والبراز في مسنده (٢٨٢١) والبيهقي في «الشعب» (٧١٦٠) والطبراني (٦٤٦) وابن حبان (٦٧٩٩) وأبو داود (٤٣١٥) وغيرهم.

(٢) يُنْظَرُ: «صحيح البخاري» برقم (٦٤٨٠، ٦٤٨١) عن حذيفة وعن أبي سعيد وبرقم (٧٥٠٦) عن أبي هريرة و«صحيح مسلم» برقم (٢٧٥٦) عن أبي هريرة.

الشجر الأخضر، فقال سبحانه: ﴿الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ﴾ أي: أخرج لكم بقدرته ﴿مِّنَ الشَّجَرِ الْأَخْضَرِ﴾ الرطب الندي الذي هو في غاية الرطوبة ﴿نَارًا﴾ محرقة ملتهبة مع تضادهما وشدة تخالفهما ﴿فَإِذَا أَنشَأَ مِنَّهُ﴾ أي: من هذا الشجر الأخضر ﴿تَوَقَّدُونَ﴾ النار وتشعلونها، فهو جلّ شأنه القادر على إخراج الضدّ من الضدّ، وفي ذلك دليل على وحدانية الله تعالى وكمال قدرته، ومن ذلك: إخراجهم من قبورهم أحياء.

والمراد بالشجر: شجر المُرْخ، وشجر العَفَّار، وهما ينبتان في أرض الحجاز، حيث يؤخذ عُصْنٌ من هذا، وُعُصْنٌ من هذا، قَدْرُ السَّوَاكِ، وهما أخضران يَقَطُرُ منهما الماء، فإذا ضُرب أحدهما بالآخر تولَّدَتْ منهما النار، كالزناد، سواء بسواء.

وشجرُ العَفَّار: الذكر، وهو الزَّند، وشجر المُرْخ: الأنثى، وهو الزنّدة، ويوضع تحتها عند ضرب أحدهما بالآخر شيء قابل للالتهاب، كالورق أو التبن أو العُفْس أو الدِّيزِل ونحو ذلك، حتى تشتعل النار عند القدح.

ووصفُ الشجر بالأخضر لا يراد به اللون المعروف، وإنما المراد لازمه وهو الرطوبة؛ لأن الشجر يظل أخضر اللون ما دام حيًّا، فإذا جفَّ وزالت منه الحياة تحوّل اللون إلى غُبْرَة، فالخضرة كناية عن رطوبة النبات وحياته.

ووجه الغرابة في إخراج النار من الشجر الرطب هو: إيجاد الضد، وهو نهاية الحرارة والنار المشتعلة من ضد ذلك، وهو الرطوبة.

جاء في المثل: لكل شجر نار، واستمجد المُرْخ والعَفَّار، أي: لكل شجر حظ من النار، وأكثر الأشجار حظًّا من النار: المُرْخ والعَفَّار، وهو مثل يُضْرَب لتفضيل بعض الشيء على بعض.

والمعنى: قل -يا محمد- لهؤلاء المنكرين للبعث: يحيي الأجساد البالية: الله الذي أنشأها أول مرة، وهو الذي جعل لكم بقدرته من الشجر الأخضر نارًا، فإذا أنتم من هذا الشجر توقدون النار وتتفعون به في كثير من أحوالكم، فمَنْ قَدِرَ على إخراج النار من الشجر الأخضر، مع ما فيه من مضادة الماء للنار، كان أقدر على إعادة الأجساد بعد فنائها.

البُزْهَانُ الثَّالِثُ عَلَى إِمْكَانِيَّةِ الْبَعْثِ: خَلْقُ الْعَالَمِ الْعُلُويِّ وَالسُّفْلِيِّ وَهُمَا أَعْظَمُ

٨١- ﴿أَوَلَيْسَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ يَقْدِرُ^(١) عَلَى أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ بَلَىٰ وَهُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ﴾

ذكر سبحانه في هذه الآية ما هو أعظم من خلق الإنسان في مقام الاستدلال على البعث والنشور، فقال تعالى منكرًا عليهم ومتعجبًا من جهلهم: ﴿أَوَلَيْسَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ﴾ مع كبر حجمهما وعظم شأنهما، وخلق ما فيهما وما بينهما ﴿يَقْدِرُ عَلَى أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ؟﴾ فيعيدهما كما بدأهما، فإن خلق السموات والأرض أكبر وأعظم من خلق الناس، كما قال تعالى: ﴿لَخَلْقُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [غافر].

وهما يشتملان على مجموع العالم العلوي والعالم السفلي، ومن قَدِرَ على ما هو أكبر يكون قادرًا من باب أولى على ما هو أدنى.

ومنه: إعادة أجساد بني آدم بعد فنائها، قال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَمْ يَعْ يَخْلُقْهُنَّ يَقْدِرُ عَلَى أَنْ يُحْيِيَ الْمَوْتَىٰ بَلَىٰ إِنَّهُمْ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [الأحاف].

ويأتي الجواب من الله تعالى على هذا الاستفهام: ﴿بَلَىٰ﴾ إنه قادر على ذلك ﴿وَهُوَ الْخَلَّاقُ﴾ لجميع المخلوقات، المتقدم منها والمتأخر، الصغير والكبير، المبدع في الإيجاد والتكوين، وكلها أثر من آثار قدرة الله تعالى ﴿الْعَلِيمُ﴾ بكل ما خلق ويخلق، لا يخفى عليه شيء في الأرض ولا في السماء، ولا يستعصي عليه شيء.

ومن ذلك أن الأموات التي دُفنت وفنيت أجسادها، تُبَثُّ فيها الحياة مباشرة.

والأموات التي تفرقت أوصالها وتقطعت يُعاد تصويرها، ثم تُبَثُّ فيها الحياة.

والأجساد التي لم تبق منها باقية تُعاد أجسادها على صورها؛ لتودّع فيها الأرواح.

وهذا يشبه حال الإنسان عندما تتغير حالته بعد الولادة، فينمو شيئًا فشيئًا، وتتغير ملامحه، وفي كل يوم يُجَدَّد من اللحم والدم، بقدر ما تبخر واضمحَلَّ، ولا يُعَدُّ هذا

(١) قرأ رويس (يَقْدِرُ) فعل مضارع من قدر، والباقون (بقادر) اسم فاعل.

تبديلًا لذات الإنسان، وفي القرآن ما يدل على هذه الأحوال بالنسبة للمعاد.

وكل هذا مع بقاء الأرواح بعد فناء الأجسام، في جميع أحوال البعث عن عدم أو عن تفريق.

النتيجة الحتمية للبراهين السابقة: أَنَّ أَمْرَ اللَّهِ تَعَالَى كَائِنْ لَا مَحَالَةَ

٨٢- ﴿إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ (٨٢)

ونتيجة لما تقدم، فإن الله تعالى لا يعجزه شيء، ولا يصعب عليه أمر، مهما قلَّ أو كثر، أو صغُر أو كُبُر، فخلق السموات والأرض كخلق النملة والبعوضة والحشرة، الكل عند الله سواء، ليس هناك صعب ولا سهل، ولا قريب ولا بعيد؛ لأن أمره تعالى كائن لا محالة، فمتى تعلقت إرادته سبحانه بإيجاد شيء وُجد مباشرة بدون تعب ولا مشقة، ولا جهد ولا كلفة ولا عناء، بل يقول له: ﴿كُنْ﴾ موجودًا ﴿فَيَكُونُ﴾ أي: يوجد في الحال، ومن ذلك: الإحياء والإماتة، والبعث والنشور.

قال قتادة: ليس في كلام العرب أهون ولا أخف من ذلك، فأمر الله كذلك^(٢).

والله تعالى إذا أراد أن يخلق شيئًا فإنه لا يباشر صنعه بيده، ولا بألّة، ولا يخلط مادة بمادة، كما يفعل الصنّاع والمهندسون، ومن هنا نشأ عند المشركين توهم استحالة الإعادة بعد الممات، من غير وجود مواد للخلق، فضلًا عن إعداد ما يراد خلقه وتصويره^(٣).

عن أبي ذر رضي الله عنه، عن النبي ﷺ أنه قال: «إن الله يقول: يا عبادي، كلكم مذبذب إلا من عافيت، فاستغفروني أغفر لكم، وكلكم فقير إلا من أغنيت، فسلوني أرزقكم، إني جواد ماجد واجد، أفعل ما أشاء، عطائي كلام، وعذابي كلام، إذا أردت شيئًا فإنما أقول له: كن؛ فيكون»^(٤).

(١) قرأ ابن عامر والكسائي بالنصب في (فيكون) بعد فاء السبية؛ لأنها مسبقة بلفظ: (كن) فشبّه بالأمر الحقيقي، والباقون بالرفع على الاستئناف.

(٢) «تفسير الطبري» (٤٨٩/١٩) وسنده حسن عن الحسن.

(٣) يُنظر تفسير الآية للشيخ الطاهر بن عاشور (٧٩/٢٣).

(٤) مقاطع من حديث أحمد في «المسند» (١٧٧/٥) برقم (٢١٥٤٠) حديث صحيح، وفيه شهر بن حوشب، ضعيف، وأخرجه ابن ماجه (٤٢٥٧) والبزار في مسنده (٤٠٥٢).

سُبْحَانَ الْمُبْدِي الْمُعِيدِ صَاحِبِ الْمُلْكِ وَالْمَلَكُوتِ وَمَنْ إِلَيْهِ الْمَرْجِعُ وَالْمَصِيرُ

٨٣- ﴿فَسُبْحَانَ الَّذِي يَدِينُ^(١) مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ^(٢)﴾ ﴿٨٣﴾

وما دام الله سبحانه قادراً على البعث والنشور، والخلق والإيجاد، والإعطاء والمنع، فإن أنسب ما تُختم به السورة تنزيه الله تعالى عن كل نقص، ووضفه بكل جلال وكمال، فقد تنزه تعالى وتقدس عن العجز والشرك، فهو المالك لكل شيء ملكاً تاماً، المتصرف في شؤون خلقه بلا منازع ولا ممانع، وقد ظهرت دلائل قدرته، وتما نعمة لكل ذي عقل وبصيرة، فوجب توحيده وطاعته، فإليه وحده مرجع الخلائق للحساب والجزاء ﴿أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ [الأعراف: ٥٤].

فهو مالك الملك، خالق العالم العلوي والسفلي، يتصرف فيهم بقدرته وحكمته، وهو القادر على بعثهم بعد موتهم، فيحاسبهم ويجازيهم بأعمالهم وأقوالهم.

١- قال حذيفة بن اليمان ؓ: قمت مع رسول الله ﷺ ذات ليلة، فقرأ السبع الطوال في سبع ركعات، وكان إذا رفع رأسه من الركوع قال: «سمع الله لمن حمده»، ثم قال: «الحمد لله ذي الملكوت والجبروت، والكبرياء والعظمة»، وكان ركوعه مثل قيامه، وسجوده مثل ركوعه، فانصرف وقد كادت تنكسر رجلاي^(٣).

٢- وعنه أيضاً: أنه رأى رسول الله ﷺ من الليل، وكان يقول: «الله أكبر - ثلاثاً - ذو الملكوت والجبروت والكبرياء والعظمة» ثم استفتح فقرأ البقرة، ثم ركع، فكان ركوعه نحواً من قيامه، وكان يقول في ركوعه: «سبحان ربي العظيم»، ثم رفع رأسه من الركوع، فكان قيامه نحواً من ركوعه، يقول: «الرَّبِّيَّ الْحَمْدُ» ثم سجد، فكان سجوده نحواً من قيامه، وكان يقول في سجوده: «سبحان ربي الأعلى».

ثم رفع رأسه من السجود، وكان يقعد فيما بين السجدين نحواً من سجوده، وكان يقول: «رب اغفر لي، رب اغفر لي» فصلّى أربع ركعات، فقرأ فيهن: البقرة، وآل

(١) قرأ رويس باختلاس كسرة الهاء من (يدينه)، والباقون بإشباعها.

(٢) قرأ يعقوب بالبناء للفاعل في (ترجعون)، والباقون بالبناء للمفعول.

(٣) «المسند» (٣٨٨/٥) برقم (٢٣٣٠٠)، قال محققوه: إسناده ضعيف لجهالة ابن عم حذيفة.

عمران، والنساء، والمائدة، أو الأنعام^(١).

٣- وعن عوف بن مالك الأشجعي رضي الله عنه قال: قمت مع رسول الله ﷺ ليلة فقرأ سورة البقرة، لا يمرُّ بآية رحمة إلا وقف فسأل، ولا يمرُّ بآية عذاب إلا وقف فتعوّذ، قال: ثم ركع بقدر قيامه، يقول في ركوعه: «سبحان ذي الجبروت والملكوت والكبرياء والعظمة»، ثم سجد بقدر قيامه، ثم قال في سجوده مثل ذلك، ثم قام، فقرأ بآل عمران، ثم قرأ سورة سورة^(٢).

٤- وعن حذيفة رضي الله عنه قال: صليت مع رسول الله ﷺ فكان يقول في ركوعه: سبحان ربي العظيم، وفي سجوده: سبحان ربي الأعلى، قال: وما مر بآية رحمة إلا وقف عندها فسأل، ولا آية عذاب إلا تعوّذ منها^(٣).

تم تفسير (سورة يس) ولله الحمد والمنة.



(١) هذا لفظ أبي داود ورقمه (٨٧٤) وانظر: «الشماثل» للترمذي برقم (٢٦٠) و«سنن النسائي» (١٩٩/٢) وقد صححه الألباني في «صحيح سنن أبي داود» برقم (٧٧٧).

(٢) «سنن أبي داود» برقم (٨٧٣) وصححه الألباني برقم (٧٧٦) في صحيح أبي داود، وانظر: مسند أحمد (٢٣٩٨٠) بإسناد قوي. وشماثل الترمذي برقم (٢٩٦) و«سنن النسائي» (١٩١/٢).

(٣) مسلم (٧٧٢) ومسند أحمد بإسناد صحيح على شرط مسلم، قال محققوه: رجاله ثقات رجال الشيخين، غير المستورد فمن رجال مسلم، وأخرجه الطيالسي (٤١٥) وابن ماجه (٢٦٠٤) وابن خزيمة (٥٤٣) وأبو داود (٨٧١) والترمذي (٢١٢) والنسائي (١٧٦/٢).

تَفْسِيرُ سُورَةِ الصَّافَّاتِ (٣٧)

مُقَدِّمَةُ السُّورَةِ

سورة الصافات هي السورة السابعة والثلاثون في ترتيب المصحف، والسادسة والخمسون في ترتيب النزول، نزلت بعد سورة الأنعام، وقبل سورة لقمان، في السنة الرابعة أو الخامسة من البعثة، وهي سورة مكية بالإجماع.

وعدد آياتها مئة وإحدى وثمانون آية في العدد البصري والمدني الأول، ومئة واثنان وثمانون آية عند غيرهما، وهي ثمان مئة وستون كلمة، وثلاثة آلاف وثمان مئة وستة وعشرون حرفاً.

وسُمِّيت سورة الصافات لانفرادها بذكر صفوف الملائكة في أولها، وسماها بعضهم سورة الذبيح؛ لانفرادها بذكر قصة الذبيح إسماعيل عليه السلام فيها.

وشأن سورة الصافات كشأن سائر السور المكية، تتعرض لقضايا الإسلام الثلاث وهي: التوحيد، والبعث، والرسالة؛ لغرس عقيدة الإيمان بالله واليوم الآخر، والوحي المنزل على رسوله ﷺ في نفوس الناس، وتقوية ذلك في نفوس المؤمنين:

١- أما إثبات التوحيد، فقد أقسم الله تعالى عليه بثلاثة أيمان عظيمة في أولها، وكان جواب القسم ﴿إِنَّ إِلَهَكُمْ لَوَاحِدٌ﴾.

وساقت الآيات على ذلك كثيراً من دلائل القدرة الإلهية، والمخلوقات التي لا قبل لغير الله تعالى بخلقها وصنعها، من العوالم السماوية بأجزائها وسكانها.

وفي ثانيا السورة -أوائلها ووسطها ونهايتها- بيانٌ لكثير من معتقدات غير الموحدين بالله تعالى، ونسبة الشريك والولد له جلَّ شأنه، فذكرت: أنهم كانوا إذا قيل لهم: لا إله إلا الله يستكبرون، وأنهم قالوا: الملائكة بنات الله، فرعموا أن الله تعالى تزوج من الجنة، فولدت له الملائكة، وقد كذَّبَتْهُم الملائكة على رؤوس الأشهاد ﴿وَجَعَلُوا بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْجَنَّةِ نَبَآً وَلَقَدْ عَلِمَتِ الْجِنَّةُ إِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ﴾.

ونسبوا لله تعالى البنات، ونسبوا لهم البنين على حدِّ زعمهم: ﴿فَاسْتَفْتَاهُ رَبُّكَ الْبَنَاتُ وَلَهُنَّ الْبَنُونَ﴾.

وأثبتوا الولد لله تعالى: ﴿أَلَا إِنَّهُمْ مِنْ إَفْكِهَمْ يَقُولُونَ﴾ (١٥١) وَلَدَ اللَّهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴿١٥٢﴾ وقد تصدّت السورة في مطلعها للرد على هذه الخرافة، فذكرت طرفي القصة، وهما الملائكة في أولها، ونوّعت بشأنهم ومنزلتهم عند الله تعالى، أما الطرف الآخر وهم الجن، فقد جاء ذكرهم في آخرها وأولها، تاليًا لذكر الملائكة، فقَبَّحْتَهُمْ وَبَيَّنْتُ أَنَّهُمْ مَرْجُومُونَ مَدْحُورُونَ.

٢- أما إثبات البعث والحشر والحساب والجزاء، فقد تناولته السورة في أعقاب الحديث عن التوحيد، بدءًا من قولهم: ﴿أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظْمًا أَوْنَا لَمَبْعُوثُونَ﴾ [١٦]. ومن ثَمَّ تعرّض السورة إلى مشهد طويل فريد من مشاهد القيامة، حافل بالأحداث والوقائع والمفاجآت، متضمنًا لحوار واقعي مكرر، يدور بين المؤمن والكافر، وبيان ما آل إليه كل منهما من خلود المؤمن في الجنة، وخلود الكافر في النار ﴿أَذَلِكَ خَيْرٌ نُزُلًا أَمْ سَجَرَةُ الزَّقُّومِ﴾ (١٧).

٣- وتناولت السورة دعوة محمد ﷺ قومه إلى توحيد الله تعالى، وتناولت كذلك دعوة الرسل أقوامهم إلى وحدانية الله تعالى، وبيّنت كيف نصر الله رسله، ورفع شأنهم، وبارك عليهم ﴿إِنَّهُمْ هُمُ الْمُتَصُورُونَ﴾ (١٧) وَإِنَّ جُنَدًا لَهُمُ الْغَالِبُونَ ﴿١٧٢﴾ وقد وعد الله تعالى رسوله محمدًا ﷺ بالنصر كدأب المرسلين قبله.

وبيّنت السورة أن عذاب الله تعالى نازل بالمشرّكين، وأن العاقبة الحسنى للمؤمنين ﴿بَلْ جَاءَ بِالْحَقِّ وَصَدَّقَ الْمُرْسَلِينَ﴾ (٢٧).

ومن الرسل الذين ذكرت السورة قصتهم: نوح، وإبراهيم، وإسماعيل، وموسى، وهارون، وإلياس، ولوط، ويونس صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين. وأدمجت السورة خلال ذكر قصص هؤلاء الرسل الثمانية، ذكر مناقبهم وفضائلهم، وقوّتهم في دين الله، وإنجاء الله لهم من الكروب التي حقّت بهم.

عن عبد الله بن عباس ؓ أن رسول الله ﷺ قال: «من قرأ يس والصافات يوم الجمعة ثم سأل الله أعطاه سؤله»^(١).

(١) أخرجه أبو داود في «فضائل القرآن» وابن النجار في تاريخه عن الضحاك عن ابن عباس ؓ كما في «الدر» (١٢/٣٨٢).

وعن عبد الله بن عمر رضي الله عنه قال: كان رسول الله ﷺ يأمرنا بالتخفيف ويؤمّننا بالصافات^(١). ولما قدم ملوك حضرموت على النبي ﷺ، وطلبوا منه أن يقرأ عليهم شيئاً مما أنزل الله، قرأ أوائل سورة الصافات^(٢).

هذا: ويمكن تقسيم السورة إلى ثلاثة مقاطع:

المقطع الأول: يبدأ من أول السورة إلى الآية السبعين، وهذا المقطع يتناول الحديث عن الملائكة والشياطين، ومنكري البعث والحساب والجزاء، ومن ثمّ إلى وصف نعيم أهل الجنة وعذاب أهل النار.

المقطع الثاني: من الآية الحادية والسبعين إلى الآية الثامنة والأربعين بعد المئة، وهذا المقطع يتناول قصص ثمانية من المرسلين، وقد بدأ هذا القصص ببيان أن الضالين من خلق الله في كل زمان ومكان لهم نظائر في الأمم السابقة الذين أرسل الله إليهم الرسل، فحذّروهم وأنذروهم، وبيّنت الآيات كيف كانت عاقبة المرسلين، وعاقبة المنذرين.

المقطع الثالث: من الآية التاسعة والأربعين بعد المئة إلى نهاية السورة، وهو مقطع يعيد إلى الأذهان ما سبق في أول السورة من الحديث عن الجن والملائكة، ووعد الله تعالى بنصر رسله وعباده المؤمنين، إلا أن هذا النصر يأتي بعد زمان يتم فيه التمحيص، ويرتفع فيه مستوى الإيمان والأخذ بالأسباب.

وتُختَم السورة بتنزيه الله تعالى، والسلام على رسله، والإقرار بربوبيته وإلهيته، وهي القضايا التي تناولتها السورة ﴿وَسَلِّمْ عَلَى الْمُرْسَلِينَ﴾ ﴿وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [١٨١، ١٨٢].

.

(١) «المسند» (٢٦/٢) وصححه الشيخ أحمد شاكر في تعليقه عليه برقم (٤٧٩٦) وقال محققو المسند: إسناده حسن، وفيه الحارث بن عبد الرحمن القرشي، صدوق، روى له الأربعة، وبقيّة رجاله ثقات رجال الشيخين، وأخرجه النسائي (٨٢٥) وفي الكبرى (١١٤٣٢) و«صحيح سنن النسائي» (٧٩٦) وأبو يعلى برقم (٥٤٤٥) وابن حبان (٤٧٠) وابن خزيمة (١٦٠٦) والطبراني (١٣١٩٤) والبيهقي (١١٨/٣).

(٢) أخرجه أبو نعيم في «الدلائل» (١٩٠) عن أنس بن مالك.

تَفْسِيرُ السُّورَةِ

ثَلَاثَةُ أَيْمَانٍ عَظِيمَةٍ عَلَى وَحْدَانِيَةِ الْخَالِقِ سُبْحَانَهُ

١-٤- ﴿وَالصَّفَّاتِ^(١) صَفًّا ۝١ فَالَّذِينَ نَزَّلُوا ۝٢ فَالتَّالِيَاتِ ذِكْرًا ۝٣ إِنَّ إِلَٰهَكُمْ لَوَاحِدٌ ۝٤﴾

أقسم الله تبارك وتعالى بطوائف الملائكة، وهي في عبادتها لربها، وفي تدبير ما تدبره من أمور العباد بإذن ربها .

وأقسم بها، وهي في موكب الوحي النازل على قلب خاتم الرسل، يقوده جبريل الأمين، وتحفُّه الملائكة الكرام، فتصطفُّ في الملائكة الأعلى صفوفًا، يتقدم بعضها على بعض، بالنظر إلى مراتب الملائكة في الفضل والقرب، وذلك في عبادتهم وذكرهم لله تعالى، كما يضطفُّ المؤمنون في الصلاة، وحين يصف الملائكة أجنحتهم في السماء، انتظارًا لأمر الله سبحانه، مع الخشوع والخضوع لله تعالى الذي دانت له الخلائق، وخضعت لجلاله الرقاب، بما فيهم حملة العرش الأطهار، كما قال تعالى: ﴿وَإِنَّا لَنَحْنُ الصَّافُّونَ ۝١١٥ وَإِنَّا لَنَحْنُ الْمُسَبِّحُونَ ۝١١٦﴾ .

ومع أن جبريل عليه السلام هو المسؤول عن الوحي، فإن ملائكة كثيرين تنزل معه تشریفًا للرسالة، وتنبيهًا بخطرهما ﴿يُنَزِّلُ الْمَلَائِكَةَ بِالرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ أَنْ أَنْذِرُوا أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا أَنَا فَاتَّقُونِ﴾ [النحل: ٢] .

والملائكة إلى جانب ذلك تطرد الشياطين المتطفلة على أخبار الوحي ليعتدوا عن مساره! والحديث الشريف يصف حال الملائكة عند تلقِّيهم أمر الله تعالى، ومنه الوحي الشريف: ١- عن أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «إذا قضى الله الأمر في السماء ضربت الملائكة بأجنحتها خضعًا لقوله كأنه سلسلة على صفوان»^(٢) .

(١) قرأ أبو عمرو ويعقوب بإظهار التاء من (والصافات) في الصاد بعدها، وتاء (فالتالجات) عند الزاي بعدها، وتاء (فالتاليات) عند الذال بعدها، وقرأ بالإدغام أيضًا، وأدغمها حمزة قولًا واحدًا، وهي من قبيل المد اللازم بالنسبة لحمزة، ومن قبيل المد العارض بالنسبة لأبي عمرو ويعقوب.

(٢) من حديث أبي هريرة في البخاري (٧٤٨١) وأبي داود (٣٩٨٩، ٤٧٣٨) والترمذي (٣٢٢٣) وابن ماجه (١٩٤) والطبري (٢٧٧/١٩).

أي: يُسمع لخفق أجنحتها صوت كصوت الحديد على الحجر ﴿حَتَّىٰ إِذَا فُزِعَ عَنْ قُلُوبِهِمْ﴾.
 أي: ذهب عنهم الرهبة والخوف ﴿قَالُوا مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ قَالُوا الْحَقُّ وَهُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ﴾ [سبا: ٢٣].
 وعن حذيفة ؓ أن رسول الله ﷺ قال: «فُضِّلْنَا عَلَى النَّاسِ بِثَلَاثٍ: جُعِلَتْ صُفُوفُنَا كَصُفُوفِ الْمَلَائِكَةِ، وَجُعِلَتْ لَنَا الْأَرْضُ كُلُّهَا مَسْجِدًا، وَجُعِلَتْ تُرْبَتُنَا طَهْرًا إِذَا لَمْ نَجِدِ الْمَاءَ»^(١).
 وعن جابر بن سَمُرَةَ ؓ أن رسول الله ﷺ قال: «أَلَا تَصُفُّونَ كَمَا تَصِفُ الْمَلَائِكَةُ عِنْدَ رَبِّهِمْ؟ قُلْنَا: وَكَيْفَ تَصُفُّ الْمَلَائِكَةُ عِنْدَ رَبِّهِمْ؟ قَالَ: «يُتِمُّونَ الصُّفُوفَ الْمُتَقَدِّمَةَ، وَيَتَرَاوُونَ فِي الصَّفِّ»^(٢).

ذلكم قول الله تعالى: ﴿وَالصَّفَّاتِ صَفًّا﴾ وهذا هو القسم الأول.
 ثم أقسم سبحانه مرة ثانية بالملائكة وهي تُنفَّذُ أوامر ربها في صور مختلفة من الزجر في الكون كله:

(أ) فتزجر السحاب وتسوقه إلى الآفاق، وتُصرف الرياح.
 (ب) وتزجر البشر، ألا يتباطؤوا في تنفيذ أوامر الله تعالى ونواهيهِ، وأن يكفوا عن معاصي الله ومحارمه.

(ج) وتزجر الملائكة من يستحق الزجر من الناس عند قبض أرواحهم.
 ﴿فَكَيْفَ إِذَا تَوَفَّتْهُمُ الْمَلَائِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَارَهُمْ﴾ [محمد].
 ﴿وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ يَتَوَفَّى الَّذِينَ كَفَرُوا الْمَلَائِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَارَهُمْ﴾ [الأنفال: ٥٠].
 (د) كما أن الملائكة تزجر المجرمين وتسوقهم عند الذهاب بهم إلى جهنم والعياذ بالله، كما قال تعالى: ﴿وَسَوْفَ الْمُجْرِمِينَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ وَرِدًا﴾ [مريم].

(هـ) ومن مواطن زجر المجرم حينما يسوقه الملك الموكل به إلى أرض المحشر

(١) «صحيح مسلم» برقم (٥٢٢).

(٢) «صحيح مسلم» برقم (٤٣٠) و«سنن أبي داود» برقم (٦٦١) واللفظ له، و«سنن النسائي» برقم (٩٢/٢) و«سنن ابن ماجه» برقم (٩٢٢).

للعرض والحساب، ويُسلّمه في ساحة العدل الإلهية، كما قال تعالى: ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ هَذَا مَا لَدَىٰ عَيْنِي﴾ ﴿١٣﴾ [ق]

وقال أيضًا: ﴿يَوْمَ يَدْعُوكَ إِلَىٰ نَارِ جَهَنَّمَ دَعَاً﴾ ﴿١٤﴾ هَذِهِ النَّارُ الَّتِي كُنتُمْ بِهَا تُكَذِّبُونَ ﴿١٥﴾ [الطور].
ذلكم قول الله تعالى: ﴿فَالزَّجَرِيتِ زَجْرًا﴾ ﴿٢﴾ وهو القسم الثاني.

أما القسم الثالث والأخير فهو قسم بالملائكة الكرام، عند ترديدكم لكلام الله تعالى الذي يتلقونه من ربهم ليلغوه إلى الرسل، ويبلغه بعضهم بعضًا، فهم يتلون الموحى به إلى الرسل ﴿فَأَتْلَوْنَهَا﴾ ﴿٣﴾ أي: أقسم بالملائكة الأبرار، وهم يذكرون الله تعالى ويتلون آياته على أنبيائه ورسله وأوليائه، كما قال تعالى: ﴿فَأَتْلَوْنَهَا﴾ ﴿٤﴾ عَذْرًا أَوْ تَذَرًا ﴿٥﴾ [المرسلات].

وقد أقسم الله تعالى بالملائكة لعلو شرفهم، وسمو منزلتهم، وامثالهم التام لأمر الله تعالى، ولا يعصونه طرفة عين، أقسم بهم على ألوهيته ووحدانيته سبحانه.

ولله تعالى أن يقسم بما شاء من مخلوقاته تنويها بشأن المقسم به، ولفتنا لأنظار الناس إليه، وليس لأحد من الخلق أن يقسم إلا بالله تعالى.

وهذه الأقسام الثلاثة لتأكيد الحقيقة الكبرى في مهام الوحي الإلهي، وهي توحيد الله تعالى.

فجواب القسم للجميع: ﴿إِنَّ إِلَهَكُمْ لَوَاحِدٌ﴾ ﴿٦﴾ أي: إن معبودكم -أيها الناس- لواحد، لا شريك له، فأخلصوا له العبادة والطاعة، والحب والخوف والرجاء، كما قال تعالى: ﴿وَالْإِلَهُ إِلَهُ وَاحِدٌ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ﴾ ﴿٧٣﴾ [البقرة].

وقد أكد جواب القسم هذا بآن واللام؛ لأن الكفار أنكروا أن يكون الإله واحدًا ﴿أَجْعَلِ الْأَلَهَةَ إِلَهًا وَاحِدًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عَجَبٌ﴾ ﴿٥﴾ [ص].

والسورة -كسائر السور المكية- يهدف الله تبارك وتعالى فيها إلى بناء العقيدة في النفوس، وتخليصها من شوائب الشرك، وقد شاع في الجاهلية أساطير تمثل صور الشرك المختلفة، ومن ذلك قولهم: الملائكة بنات الله. وقولهم: عيسى ابن الله. وقولهم: كيف يسمع هذه الخلائق جميعًا إله واحد؟

واعتقادهم بتعدد الآلهة، وهم لا يُنكرون أن الله تعالى هو الرب العظيم، الخالق

الرازق، ولكنهم جعلوا له شركاء في العبادة، فأبطل الإسلام القول بتعدد الآلهة وحصرها في رب واحد، هو الله تعالى رب العالمين.

مِنْ بَرَاهِينِ التَّوْحِيدِ: خَلْقُ الْعَالَمِ الْعُلُويِّ وَالسُّفْلِيِّ

٥- ﴿رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا رَبُّ الْمَشْرِقِ ۝﴾

أقام سبحانه بعض البراهين والدلائل على وحدانية الله تعالى، فبيّن أنه سبحانه خالق العالم العلوي وما فيه، ومالكة وقاهره وخالق العالم الأرضي وما فيه، ومالكة وقاهره، وخالق ما بين السموات والأرض من الهواء والسحاب والضوء والنور، وغير ذلك من المخلوقات التي لا يعرف البشر عنها شيئاً، فوجود هذه العوالم وانتظامها على هذا النمط البديع، من أوضح الدلائل على وحدانية الله تعالى.

ومن لم يخلق، ولا يملك، ولا يرزق، لا يكون إلهاً، والمشركون لم يدّعوا أن أصنامهم تخلق أو ترزق، فكيف تكون آلهة؟!

وخلق هذه الكائنات ورزقها وتدير شؤونها، دليل على ربوبية الله تعالى، وهو أمر يُقرّ به المشركون، وكما أنه سبحانه لا شريك له في ربوبيته، فهو كذلك لا شريك له في ألوهيته، وكثيراً ما يُقرن الله سبحانه توحيد الإلهية بتوحيد الربوبية، لأنه يدل عليه، وهذا أمر ملزم بعبادة الله وحده، وإفراده بالإلهية كما أفردوه بالربوبية.

فهو سبحانه خالق السموات والأرض وما بينهما: وهو سبحانه خالق الشمس ومصرّف أحوالها في مطالعها ومغاربها فهو رب المشارق، وحُصت المشارق بالذكر من بين السموات والأرض وما بينهما؛ لأنها مشهودة ومكررة كل يوم، فالتناس تألفها، ومن إلفهم لها أنهم يغفلون عن قدرة الله فيها، وذكر المشارق يُعني عن ذكر المغارب؛ لأن كل واحد منهما يستلزم الآخر، والشروق يسبق الغروب، وهو أدل على القدرة، وأبلغ في النعمة.

وقد أفرد القرآن الكريم المشرق والمغرب في مثل قوله تعالى: ﴿رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَاتَّخِذْهُ وَكِيلًا ۝﴾ [المزمل].

وثناهما في مثل قوله تعالى: ﴿رَبُّ الْمَشْرِقَيْنِ وَرَبُّ الْمَغْرِبَيْنِ ۝﴾ [الرحمن].

وجمعهما في مثل قوله سبحانه: ﴿فَلَا أُقِيمُ رَبِّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ إِنَّا لَقَدِيرُونَ﴾ [المعارج].

فالإفراد باعتبار: جهة الشروق والغروب.

والثنائية باعتبار: مشرقى الصيف والشتاء، ومغربيهما.

والجمع باعتبار: عدد المشارق وهي ثلاث مئة وستون مشرقاً، وعدد المغارب مثلها، فكلما مرَّ جزء من الأرض في دورتها أمام الشمس كان مشرقاً لها، ويقابله الغروب فيما يقابلها من الكرة الأرضية، وهما قطريّ المشرق والمغرب.

قال قتادة: المشارق ثلاث مئة وستون مشرقاً، والمغارب ثلاث مئة وستون مغرباً في السنة.

قال: والمشرقان: مشرق الشتاء ومشرق الصيف^(١).

وقال السُّدِّي: المشارق ثلاث مئة وستون مشرقاً، والمغارب مثل ذلك، تطلع الشمس كل يوم من مشرق، وتغرب في مغرب^(٢).

وإذا كانت الشمس تُشرق وتغرب كل يوم في موضع لا تعود إليه إلا في الحول الذي بعده، ولكل نجم مَشرق، ولكل كوكب مَشرق: فهي مشارق كثيرة في جوانب السماء الفسيحة.

مِنْ خَصَائِصِ السَّمَاءِ الْأُولَى

الْخَاصِّيَّةُ الْأُولَى: أَنَّهَا زُيِّنَتْ لِأَهْلِ الْأَرْضِ بِالنُّجُومِ

٦- ﴿إِنَّا زَيْنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا زِينَةً^(٣) الْكُوكِبِ﴾

(١) الأثر عند عبد الرزاق (١٤٧/٢).

(٢) الطبري (٤٩٦/١٩).

(٣) قرأ شعبة بثنوين (زينة) ونصب (الكواكب) على أنها مفعول به والفاعل محذوف، أي: زَيْنَ الله الكواكب في كونها مضيئة حسنة في أنفسها.

وقرأ حفص وحزمة بثنوين (بزينة) وخفض (الكواكب) على أن المراد بالزينة ما يتزين به، وهي مقطوعة عن الإضافة، والكواكب عطف بيان، أو بدل بعض من كل.

وقرأ الباقر بحذف الثنوين من (زينة) و(الكواكب) بالخفض على إضافة زينة للكواكب، إضافة بيانية، من إضافة الأعم إلى الأخص.

وبعد أن قرر سبحانه أنه خالق هذا الكون ومالكه، خص السماء الدنيا بالذكر، فامتَنَّ على الناس أوَّلًا، بأن زين لهم السماء الدنيا، القريبة منهم بمحاسن المناظر، فجعل الكواكب منيرة مضيئة كأنها جواهر تتلألأ، ولولا هذه الإنارة لكانت السماء جَرَمًا مظلمًا لا ضوء فيها، وهي زينة تروق للناظرين، وهداية في الصحاري والبراري والقفار، يهتدون بها في سيرهم من مكان إلى مكان في ظلمات البر والبحر.

وُخِصَّت السماء الدنيا بالذكر؛ لأنها هي التي تُشاهد بالأبصار، وفيها وحدها يكون الحفظ من الشياطين.

والمعنى: إنا زينا السماء القريبة من الأرض بزيينة هي الكواكب، والكواكب هي النجوم التي تلمع في الليل، عدا الشمس والقمر، وهي أحجام مختلفة، ولكل منها خصائص، فمنها الكواكب السيارة، ومنها الثوابت، ومنها ما يدور حول الشمس، ومنها ما هو زينة في الليل، ومنها ما يرمم به الشياطين عند استراق السمع.

والسماء الدنيا هي التي تحيط بالكرة الأرضية، والكواكب والشهب سابحة في مقعر تلك الكرة على أبعاد مختلفة، والسموات السبع يحيط بعضها ببعض، ولها أبعاد عظيمة، واتساع لا يعلم مقداره إلا الله.

أو أن السماء الدنيا ليس فيها شيء من ذلك، وأن الكواكب والشهب تدور في أفلاك السموات الست والعرش.

ومعنى هذا أن أنوار الكواكب تخترق السماء الدنيا في نصف الكرة السماوية الذي يغشاه الظلام من تباعد نور الشمس عنه، وعندئذ تلوح أنوار الكواكب فتضيء السماء الدنيا وتزدان بها، والقرآن لم ينزل لإثبات هذا أو نفيه ولكنه يصلح للاستدلال به على هذا وذاك^(١).

الْخَاصِيَّةُ الْآخَرَى: أَنَّهَا رُجُومٌ لِلشَّيَاطِينِ

٧- ﴿وَحِفْظًا مِّنْ كُلِّ شَيْطَانٍ مَّارِدٍ﴾

ثم امتَنَّ الله سبحانه على المسلمين بأن جعل في تلك الكواكب حراسة للسماء من كل

(١) يُنظَر: «تفسير التحرير والتنوير» (٨٨/٢٣).

شيطان مارد، يصل بتمرده إلى الملائكة، وهم الملائكة، فإذا حاولت أن تستمع قذفها بالشهب من كل جانب، فهذه الكواكب، حفظاً من استراق الشياطين للسمع، فيما يقضيه الله تعالى في السموات، لقطع الطريق على الكُفَّان في معرفة بعض ما سيحدث في الأرض؛ حتى لا يفتنوا الناس في دينهم، كما فتنوهم في الجاهلية، وليكون هذا تشريعاً للنبي ﷺ؛ لأن الكهانة قُطعت ببعثته، وقطعاً لدابر الشك في الوحي، وحفظاً للسماء بالنجوم من كل شيطان متمرّد عاتٍ، خارج عن طاعة الله تعالى، متجرد من الخير، حيث تفر الشياطين خوفاً من الشهب، عند محاولتها استراق السمع.

قال قتادة: خلقت النجوم لثلاث: رجوماً للشياطين، ونوراً يهتدى بها، وزينة للسماء.

والحفظ من الشياطين خاص بالسماء الدنيا؛ لأنها قبة الأرض المباشرة لها قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَرِيحٍ وَجَعَلْنَاهَا رُجُومًا لِلشَّيَاطِينِ وَأَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابَ السَّعِيرِ ٥﴾ [الملك].

وقال سبحانه: ﴿وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا وَزَيَّنَّاهَا لِلنَّاظِرِينَ ١١﴾ وَحَفِظْنَاهَا مِنْ كُلِّ شَيْطَانٍ رَجِيمٍ ١٧ إِلَّا مَنْ اسْتَرَقَ السَّمْعَ فَأَنْبَعَهُ شِهَابٌ مُبِينٌ ١٨﴾ [الحجر].

وقد سميت شهباً تشبيهاً لها بقبس النار الذي هو شعلة أو جمرة منها، كما ذكر الله تعالى عن موسى عليه السلام في قوله: ﴿أَوَإِنِّيكُمْ بِشِهَابٍ قَبَسٍ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ﴾ [النمل: ٧].

مَنْعُ الشَّيَاطِينِ مِنْ اسْتِرَاقِ السَّمْعِ

٨، ٩- ﴿لَا يَسْمَعُونَ^(١) إِلَى أَلْمَلِ الْأَعْلَى وَيُقَدِّفُونَ مِنْ كُلِّ جَانِبٍ^(٢) ٨﴾ دُحُورًا^(٣) وَلَهُمْ عَذَابٌ وَاصِبٌ

وقد حفظ الله السماء بهذه الشهب، من استماع الشياطين للملائكة الأعلى في السماء الدنيا فما فوقها، فمُنِعُوا مِنْ ذَلِكَ، وأصبحت لا تستطيع أن تصل إلى السماء ومن فيها من الملائكة، فلا تستمع إليهم إذا تكلموا فيما يتعلق بأحوال البشر على وجه الخصوص، فإن حاولوا ذلك قُذِفُوا بالشهب من كل جهة طرداً لهم عن الاستماع ﴿وَيُقَدِّفُونَ مِنْ كُلِّ جَانِبٍ﴾.

(١) قرأ حفص وحمة وخلف بتشديد السين والميم من (يَسْمَعُونَ) مضارع تَسْمَعُ، فأدغمت التاء في السين، فأصلها يتسمعون، والباقون بإسكان السين وتخفيف الميم مضارع سمع.

(٢)، (٣) ترك الحمصي (من كل جانب) من العدد، وعد (دحورا) آية، وجمهور علماء العدد عكسه، أي أنهم يعدّون (جانب) ويتركون (دحورا).

وليست الشهب التي يَرجم بها الشياطين من الكواكب الثابتة؛ لأن الكواكب الثابتة تجري ولا تُرى حركاتها، أما الشهب، فإن حركتها مرئية، وقبل بعثة النبي ﷺ كانت الشياطين يركب بعضهم فوق بعض، حتى يقتربوا من السماء الأولى، فربما سمعوا بعض كلام الملائكة، وربما أحرقهم شهاب بعد إلقاء الكلام إلى غيرهم، وربما لم يحرقهم جملة، فينزلوا بتلك الكلمة، فيخبروا بها السحرة والكهنة من سكان الأرض، بعد أن يضيفوا على الخبر الواحد مئة كذبة، فيوهموا الناس بذلك أنهم يعلمون الغيب.

ولما بُعث النبي ﷺ مُنعوا من استراق السمع، ولم يعلموا السبب، فأرسل إبليس أبناءه في أرجاء الأرض ليأتوا له بسبب هذا المنع، فأعلموه ببعثة محمد ﷺ ليلة أن استمعوا إليه وهو يقرأ القرآن في صلاته، فكانوا بعد ذلك إذا صعدوا إلى السماء يجدونها مليئة بالشهب المعدّة لإحراقهم إن هم حاولوا ذلك.

قال تعالى على لسان الجن: ﴿وَأَنَّا لَمَسْنَا السَّمَاءَ فَوَجَدْنَهَا مِثْلَ حَرِّ صَدِيدٍ وَشُهَبًا ۖ وَأَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقْعِدَ اللَّسْمِ فَفَئِمْ يَسْتَمِعُ الْآنَ يَحْدُ لَمْ شَهَابًا رَّصَدًا ۖ﴾ [الجن].

ولا تزال هذه الشهب مجنّدة في السماء لرُمي من يحاول منهم استراق السمع. ولم يحصل الرجم للشياطين إلا بعد أن طُرد إبليس من عالم الملائكة، وكانت الكواكب موجودة قبل ذلك.

هذا: والشهب التي يُرجم بها الشياطين عند محاولتها استراق السمع تلوح في الأفق قطعاً لامعة مثل النجوم تجري في الفضاء، وهي أجسام معدنية تدور حول الشمس، وعندما تقترب من الأرض تتغلب عليها جاذبية الأرض حتى تسقط في البحر غالباً، وربما تقع على الأرض، وتحرق ما تصيبه من شجر أو منزل أو غيرهما، فيراها الناس قطعاً معدنية متفاوتة الحجم، وهي في الأصل أجسام تدور حول الشمس.

وقد سقطت هذه الشهب في بعض البلاد قديماً وحديثاً، منها: ما سقط في الصين سنة ٦١٦ قبل الميلاد، فقتلت رجالاً وكسرت مراكبات، وذكرها العرب في أشعارهم قبل الإسلام، ومنها ما حدث في تونس سنة ٩٤٤ أكثر من مرتين^(١).

(١) ذكر ذلك الشيخ الطاهر بن عاشور عند تفسيره للآية (٩٠/٢٣).

وكثيراً من ذلك يحدث ولا نراه؛ لأنها تسقط في البحر غالباً.

وهؤلاء الشياطين الذين يحاولون استراق السمع بعد المنع، يُرجمون بالشهب فيُطردون ويُزجرون ويمنعون من الوصول إلى غرضهم، فهم يُذحرون ﴿ذُحُورًا﴾ هذا في الدنيا، أما في الآخرة فكما قال تعالى: ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ وَاصِبٌ﴾ أي: عذاب دائم أليم موجه، كما قال تعالى: ﴿فَوَرَبِّكَ لَنَحْشُرَنَّهُمْ وَالشَّيَاطِينَ ثُمَّ لَنُحْضِرَنَّهُمْ حَوْلَ جَهَنَّمَ جِثَاً﴾ [مريم].

وظاهر الأحاديث يفيد أنهم يحاولون السمع إلى الآن، ولكنهم لا يسمعون، وإن سمع منهم أحد شيئاً رُمي بالشهاب، فيُلقي ما سمعه إلى الجن الذي تحته.

والآية التالية قد أوضحت هذا المعنى، قال تعالى:

١٠- ﴿إِلَّا مَنْ خَطِفَ الْخَطْفَةَ فَأَتْبَعَهُ شِهَابٌ ثَاقِبٌ﴾

أي وقد يخطف الشيطان المارد خطفة واحدة سريعة خفيفة، على وجه الخفية والسرقة مما يدور في الملاء الأعلى ويتعلق بأحوال البشر، دون ما يتعلق بالوحي؛ لأن الله تعالى قد أحاط بالوحي بما يستحيل معه تسرُّب ما يوحيه الله من شرعه وقدره، كما قال تعالى: ﴿وَمَا نَزَّلَتْ بِهِ الشَّيَاطِينُ﴾ ﴿١١﴾ وَمَا يَنْبَغِي لَهُمْ وَمَا يَسْتَطِيعُونَ ﴿١٢﴾ إِنَّهُمْ عَنِ السَّمْعِ لَمَعَزُولُونَ ﴿١٣﴾ [الشعراء].

وقال سبحانه: ﴿عَلِمُ الْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَى غَيْبِهِ أَحَدًا﴾ ﴿١٤﴾ إِلَّا مَنْ أَرَضَىٰ مِنْ رَسُولٍ فَإِنَّهُ يَسْلُكُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ رَصَدًا ﴿١٥﴾ لِيَعْلَمَ أَنْ قَدْ أَبْلَغُوا رِسَالَاتِ رَبِّهِمْ وَأَحَاطَ بِمَا لَدَيْهِمْ وَأَحْصَىٰ كُلَّ شَيْءٍ عَدَدًا ﴿١٦﴾ [الجن].

وهكذا فإن الوحي يُحيط به حفظة من الملائكة من كل جانب؛ حتى لا يظهر للخلق شيء منه، فإن اختلس الشيطان شيئاً من أحوال الناس مسارقة فإنه يُقذف بالشهب، كما قال تعالى: ﴿إِلَّا مَنْ خَطِفَ الْخَطْفَةَ﴾ أي: إلا من اختلس من الشياطين الخطفة الواحدة السريعة، وهي الكلمة التي يسمعها بسرعة، فيلقها إلى الذي تحته ﴿فَأَتْبَعَهُ شِهَابٌ ثَاقِبٌ﴾ فربما أدركه الشهاب المضيء قبل أن يلقها إلى أوليائه، وربما ألقاها بقدر الله تعالى إلى من هو تحته قبل أن يأتيه الشهاب، فيذهب بها الآخر إلى الكهنة فيكذبون معها مئة كذبة، يُروِّجونها بسبب الكلمة التي اختطفوها.

قال ابن عباس ؓ: كانت للشياطين مقاعد في السماء، فكانوا يستمعون الوحي، قال:

وكانت النجوم لا تجري، وكانت الشياطين لا تُرمى، قال: فإذا سمعوا الوحي نزلوا إلى الأرض، فزادوا في الكلمة تسعاً وتسعين، قال: فلما بُعث رسول الله ﷺ جعل الشيطان إذا قعد مقعده جاء شهاب فلم يخطفه حتى يُحرقه، قال: فشكوا ذلك إلى إبليس، فقال: ما هو إلا أمر حدث، قال: فبث جنوده، فإذا رسول الله ﷺ قائم يصلي بين جبلي نخلة، قال وكيع: يعني بطن نخلة، قال: فرجعوا إلى إبليس فأخبروه، فقال: هذا الذي حدث^(١)، وبطن نخلة، مكان بين مكة وعسفان.

والشهاب: هو القبس والجمز من النار، وهو لا يقتل الشيطان، ولكنه يحرقه ويصيبه بالخبيل، فتزول خصائصه، فيضمحل، ولا يمكنه استراق السمع مرة أخرى.

والثاقب: هو الذي يترك ثقباً في الجسم الذي يريده، وكل هذا من خصائص ما بعد بعثة النبي ﷺ.

جَوْلَةٌ مَعَ الْبُعْثِ وَالْحِسَابِ

١١- ﴿فَاسْتَفْتِهِمْ^(٢) أَهْمُ أَشَدُّ خَلْقًا أَمْ مَنْ خَلَقْنَا إِنَّا خَلَقْنَاهُمْ مِنْ طِينٍ لَازِبٍ ۝﴾

أي اسأل منكري البعث والنشور في كل زمان ومكان: هل إيجادهم بعد موتهم أشق وأصعب من هذه المخلوقات العظيمة، كالسموات والأرض؟ فإذا أقرروا بذلك وفكروا في أنفسهم، علموا أن ابتداء خلقهم كان من طينٍ لازب، كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ صَلْصَالٍ مِنْ حَمَإٍ مَسْنُونٍ ۝﴾ [الحجر] فتكون الإعادة أيسر وأهون.

هذا: وقد تضمن صدر هذه السورة حقيقتين:

الأولى: حقيقة التوحيد الذي جاء القسم عليه في الآيات السابقة.

والأخرى: حقيقة البعث في الآيات التالية.

والغرض من هذه الآية إقامة البرهان على إعادة الإنسان بعد الموت، فالذي خلقه وخلق جميع الكائنات قادر على إعادة الأجساد بعد الفناء.

(١) «تفسير الطبري» (٢٣/٢٥)، برقم (٢٩٢٦١) ورجاله رجال البخاري ومسلم.

(٢) قرأ رويس بضم الهاء من (فاستفتهم)، والباقون بكسرها.

ولما بيّن سبحانه أنه خلق السموات والأرض وما بينهما وما فيهما من الملائكة والعرش والكرسي والشياطين، وما إلى ذلك؛ أمر الله رسوله أن يسأل المكذبين للبعث: إعادة خلقهم أشد علينا، أم هذه المخلوقات العظيمة؟

﴿فَاسْتَفْتِهِمْ﴾ أي: اسأل - يا محمد - المنكرين للبعث على سبيل التوبيخ والإقرار؛ لإقامة الحجة عليهم في إنكارهم للبعث واستبعادهم إعادة خلقهم بعد أن صاروا عظاماً ورفاتاً ﴿أَمْ أَشَدُّ خَلْقًا﴾ أي: فهل إعادتهم للبعث بعد الموت أشد من الخلق الأول؟ أو أشد من المخلوقات الأخرى؟ وهذا معنى: ﴿أَمْ مِّنْ خَلْقٍ نَّجْوًى﴾ أي: أن خلق البشر، أضعف وأهون ألف مرة من خلق السموات وما فيها، فإن خلق السموات أشق وأصعب؛ لأنها أقوى وأمتن بُنية، وأضخم جَسَداً، وأكبر حجماً!

ومع أن القرآن الكريم يَعَجَبُ من حال المكذبين للبعث، ويستنكر عليهم استبعادهم له، ويسخر من عقولهم، فإنه لا ينتظر جواباً منهم؛ لأن الجواب ظاهر وواضح، إذ لا يمكنهم إلا أن يقولوا: إنّ خلق مَنْ سواهم من الملائكة والسموات والأرض والجن ونحو ذلك، أشد وأعظم من خلقهم، فهم يَقْرُون أن هذه المخلوقات أقوى منهم، وأنهم قد خُلِقُوا من ماء ضعيف.

وإذا كان الأمر كذلك، فلم يُنْكروا البعث وهم يشاهدون ما هو أعظم وأكبر مما أنكروه؟ ثم يعرض القرآن مادة خلق الإنسان الأول، فبيّن سبحانه أن بني آدم خُلِقُوا من شيء ضعيف ﴿إِنَّا خَلَقْنَاهُمْ مِن طِينٍ لَّازِبٍ﴾ أي: خلقنا أباهم آدم من طين رخو لزج، يلتصق ببعضه ببعض، ويعلّق باليد حين يُخَلَطُ بالماء، وما يصنع من الطين لا يوصف بالصلابة والقوة. وبهذا فإن الآية قدّمت دليلين على حقيقة البعث الذي أنكروه؛ وكلا الدليلين واضح مشاهد لا ينكره المشركون فضلاً عن غيرهم:

أحدهما: ما يعترفون به من أن خلق السموات والأرض والملائكة، .. أعظم وأكبر من خلقهم، ومن كان قادراً على خلق الأكبر فهو من باب أولى قادر على خلق الأصغر، قال تعالى: ﴿وَلَيْسَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِقَدِيرٍ عَلَىٰ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ بَلَىٰ وَهُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ﴾ [يس].

وقال سبحانه: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَمْ يَعْ يَخْلُقْهُنَّ بِقَدِيرٍ عَلَىٰ أَن

يُحْيِي الْمَوْتَىٰ بَلَىٰ إِنَّهُمْ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٢﴾ [الأحقاف].

وقال جلّ شأنه: ﴿أَنْتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ السَّمَاءُ بَنَاهَا ﴿٧﴾ رَفَعَ سَمَكَهَا فَسَوَّاهَا ﴿٨﴾﴾ [النازعات].

وقال أيضًا: ﴿لَخَلْقُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٥٧﴾﴾ [غافر].

وثانيهما: أن مَنْ خلق أباهم من طين قادر على أن يعيدهم مرة أخرى بعد أن يصيروا ترابًا وعظامًا.

قال تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَتْ عَلَيْهِ﴾ [الروم: ٢٧].

ثم ذكر سبحانه ثلاثة من أحوال المكذبين بالبعث يَعَجَبُ منها كل عاقل، وهي:

١- أنهم يسخرون من البعث. ٢- وأنهم إذا وُعطوا لم يتعظوا.

٣- وأنهم إذا رأوا آية كإنشقاق القمر، تدل على صدق النبي ﷺ يكذبونها ويسخرون منها. فهذه ثلاثة أمور كلها عجب، قال تعالى:

١٢-١٤ ﴿بَلْ عَجِبْتَ^(١) وَتَسْخَرُونَ ﴿١٢﴾ وَإِذَا ذُكِّرُوا لَا يَذْكُرُونَ ﴿١٣﴾ وَإِذَا رَأَوْا آيَةً يَسْتَسْخِرُونَ﴾

فموقف الكفار إذن يثير التعجب في نفس النبي ﷺ وفي نفس كل مؤمن بعده، إذ كيف ينكرون البعث، ويكذبون به، مع رؤيتهم آثار قدرة الله تعالى في هذه الأدلة الساطعة والبراهين القاطعة؟!

١- ﴿بَلْ عَجِبْتَ﴾ يا محمد من تكذيب هؤلاء المنكرين للبعث، وهم يسخرون مما تقول في شأن الإيمان بالله واليوم الآخر، فأنت عجبٌ من تكذبيهم إياك، وهم سخروا من تعجبك.

قال قتادة والضحاك: عجب محمد وسخر ضلال بني آدم^(٢).

(١) قرأ حمزة والكسائي وخلف بناء المتكلم المضمومة في (عجبت) أي قل يا محمد: بل عجبت أنا، وقرأ الباقر بناء الخطاب المفتوحة، والضمير للرسول ﷺ، أي: بل عجبت أنت - أيها الرسول - من قدرة الله تعالى على هذه الخلائق العظيمة.

(٢) «تفسير ابن جرير» (١٩/٥١٤).

وقال أبو السعود: المعنى: عجبت من قدرة الله تعالى على هذه الخلائق العظيمة وإنكارهم للبعث، وهم يسخرون من تعجبك وتقريرك للبعث^(١).

ويسخرون من نبوتك ومن الحق الذي جئتكم به من عند الله.

قال تعالى: ﴿وَإِنْ تَعَجَّبَ فَعَجَبٌ قَوْلُهُمْ أَإِذَا كُنَّا تُرَابًا أَلَمْ يَأْتِ خَلْقٍ جَدِيدٍ﴾ [الرعد: ٥].

فالله سبحانه وافق رسوله في التعجب منهم واستعظام حالهم، كما في القراءة الأخرى بضم التاء، أي: قل يا محمد: بل عجبت أنا.

وحقيقة العَجَب: روعة وانفعال يعتري الإنسان عند المفاجأة بشيء لا يُعرف سببه، وهذا المعنى لا يليق بالذات العلية، بل المراد: استعظام الأمر المتعجب منه.

والله تعالى يُظهر من حال المتعجب منه ما يثير التعظيم أو التحقير في نفوس الناس، فقد يكون العَجَب بمعنى: إكبار الشيء وتعظيمه، وهو بالنسبة لله تعالى يكون لتعظيم تلك الحالة، وما يترتب عليها من عقاب إن كان الأمر قبيحاً، أو ثواب إن كان حسناً.

سُئِلَ الجنيذ عن هذه الآية، فقال: إن الله لا يعجب من شيء، ولكن عجب رسوله، ولما عجب رسوله قال سبحانه: ﴿وَإِنْ تَعَجَّبَ فَعَجَبٌ قَوْلُهُمْ أَإِذَا كُنَّا تُرَابًا أَلَمْ يَأْتِ خَلْقٍ جَدِيدٍ﴾ [الرعد: ٥].

كما قال تعالى: ﴿وَمَكْرُورًا وَمَكْرَ أَلَلِّهِ﴾ [آل عمران: ٥٤].

وقد يكون التعجب من الله تعالى بمعنى: الاستحسان والرضى، كما في الأثر: عجب ربكم من شابٍّ ليس له صبوة.

وفي الحديث: عن أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «يضحك الله إلى رجلين يقتل أحدهما الآخر، يدخلان الجنة، يقاتل هذا في سبيل الله فيقتل، ثم يتوب الله على القاتل فيستشهد»^(٢) أي: أن القاتل الذي كان كافراً يُسَلِّم فيقاتل فيستشهد في سبيل الله.

وفي حديث الأنصاري وزوجه: عن أبي هريرة رضي الله عنه حين استضافا رجلاً فأطعماه عشاءهما

(١) «تفسير أبي السعود» (٢٦٦/٤).

(٢) أخرجه النسائي في الكبرى (٤٣٥٨، ٤٣٥٩) وهو في البخاري (٢٨٢٦) ومسلم (١٨٩٠) وابن ماجه (١٩١) بنحوه في «المسند» (٧٣٢٦) بإسناد صحيح على شرط الشيخين وابن حبان (٢١٥)، والحميدي (١١٢٢).

وتركا صبيانهما دون طعام، فقال ﷺ: «عجب الله من صنعكما بضيفكما الليلة»^(١).

وفي الحديث: عن أبي هريرة أيضًا أن النبي ﷺ قال: «عجب الله من قوم يدخلون الجنة في السلاسل»^(٢).

ولم يأتِ العجب مسندًا إلى الله تعالى في القرآن، إلا في القراءة الأخرى من هذه الآية، بضم التاء من (عجبت).

ولو كان العجب مما يجوز على الله تعالى لعجب من حال المنكرين للبعث.

٢- ثم إن المكذبين بالبعث متمادون في إعراضهم عن الحق، مصرون على ما هم فيه من باطل، فقد بين سبحانه أنهم إذا وعظوا بما ينفعهم في دينهم فإنهم لا يتعظون، إنهم غافلون عن دلائل التوحيد وآثار القدرة الإلهية في هذا الكون، وهم لشدة إعراضهم لا يستعملون عقولهم في التأمل والإدراك، كما قال تعالى: ﴿أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا﴾ [الفرقان: ٤٤]. وقد ذُكرَ المكذبون بخلق السموات والأرض والنجوم والكواكب والملائكة والشياطين، ولكنهم لم يعتبروا.

٣- وإذا رأوا - أي المكذبون بالبعث - دلالة وعلامة واضحة على التوحيد، ومعجزة دالة على صدق النبي ﷺ، فإنهم يبالغون في السخرية والاستهزاء بها ويقولون: ﴿إِنْ كَادَ لَيُضِلَّنَا عَنْ إِلَهِنَا لَوْلَا أَن صَبَرْنَا عَلَيْهَا﴾ [الفرقان: ٤٢].

قال تعالى: ﴿وَإِنْ يَرَوْا آيَةً يُعْرِضُوا وَيَقُولُوا سِحْرٌ مُّسْتَمِرٌّ﴾ [القمر: ٢٤].

والآية هنا هي معجزة انشقاق القمر.

وهناك معجزات أخرى كثيرة كتكليم الشجر والحجر له ﷺ، ونبع الماء من بين أصابعه الشريفة، وتكثير الطعام بين يديه، وحنين الجذع له، وشكوى البعير إيذاء صاحبه له، وما إلى ذلك.

قال ابن عطية: رُوي أن هذه الآية نزلت في رُكّانة، وهو رجل من المشركين من أهل مكة، لقيه النبي ﷺ في جبل خالٍ، وهو يرعى غنمًا له، وكان أقوى أهل زمانه، فقال له

(١) يُنظر الحديث في: البخاري (٣٧٩٨، ٤٨٨٩) ومسلم (٢٠٥٤).

(٢) البخاري (٣٠١٠، ٤٥٥٧).

النبي ﷺ: «يا رُكَّانة، أَرَأَيْتَ إِنْ صَرَعْتُكَ أَتُؤْمِنُ بِي؟» قال: نعم، فصرعه النبي ﷺ ثلاثاً، ثم عرض عليه آيات، من دعاء شجرة وإقبالها، فلما فرغ من ذلك كله، لم يؤمن رُكَّانه، وجاء إلى مكة فقال: يا بني هاشم، ساحروا بصاحبكم أهل الأرض، فنزلت هذه الآية فيه وفي نُظرائه^(١)، ومعنى يستسخرون: يطلبون أن يكونوا ممن يسخر.

ومن العجب أيضاً أنهم يقيسون قدرة الله تعالى على قدرتهم، قال تعالى:

١٥-١٧ - ﴿وَقَالُوا إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ ﴿١٥﴾ أَئِذَا ﴿٢﴾ مِتْنَا ﴿٣﴾ وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظْمًا أَءِنَّا ﴿٤﴾ لَمَبْعُوثُونَ ﴿١٦﴾ أَوْ ﴿٥﴾ أَبَاؤُنَا الْأَوَّلُونَ ﴿١٧﴾﴾

أي: وقالوا على سبيل الجحود والعناد: ما هذا الذي أتى به محمد ﷺ إلا سحر واضح ظاهر البطلان، والمشار إليه في الآية بـ ﴿هَذَا﴾ هو إعادة الخلق بعد البعث المفهوم من قوله تعالى: ﴿أَهْمُ أَشَدُّ خَلْقًا أَمْ مَنْ خَلَقْنَا﴾ ثم بيّن سبحانه ردّهم لقضية البعث، وإجابتهم عليها بأن إعادة الحياة بعد الموت كلام قُصد به سحر السامع، فكان جوابهم: ﴿أَئِذَا مِتْنَا﴾ وانتهت حياتنا، ووُضِعْنَا في قبورنا وتحللت أجسادنا فكنّا ترابًا، سوف تعود لنا الحياة بعد أن أصبحت أجسادنا بالية، وتفتتت عظامنا؟! والاستفهام للتعجب والإنكار.

ثم قالوا مضيفين إلى ما سبق: وهل أبأؤنا الأولون الذين ماتوا قبلنا، وصاروا عظامًا، يعودون إلى الحياة أيضًا؟ وهذا إمعان وزيادة في الإنكار، أي: أَنْ بَعَثَ مَنْ مَاتُوا قبلنا أبعد وأبطل، كما يزعمون.

ولما كان هذا منتهى ما عندهم، وغاية ما لديهم، أمر الله تعالى نبيه ﷺ أن يجيبهم بهذا

(١) «تفسير ابن عطية» (٤/٤٦٨).

(٢) قرأ نافع والكسائي وأبو جعفر ويعقوب بالاستفهام في (أئذا) والإخبار في (أئنا) وقرأ ابن عامر بالإخبار في الأول والاستفهام في الثاني، والباقون بالاستفهام فيهما، وكلٌّ على أصله في التحقيق والتسهيل والإدخال وعدمه، ومثل ذلك في الآية الثالثة والخمسين (أئذا متنا وكنا ترابًا وعظامًا أئنا) إلا أن أبا جعفر وافق ابن عامر، فقرأ بالإخبار في الأول والاستفهام في الثاني.

(٣)، (٤) قرأ نافع وحفص وحزمة والكسائي وخلف بكسر الميم من (متنا)، والباقون بضمها.

(٥) قرأ قالون وابن عامر وأبو جعفر بإسكان الواو من (أوأبأؤنا) على أنها عاطفة، وكذا الأصهباني إلا أنه ينقل حركة الهمزة إلى ما قبلها، والباقون بفتح الواو، فالعطف بالواو، وأعيدت همزة الاستفهام.

الجواب القاطع لأمر البعث، وفيه زجر وترهيب لهم، فقال تعالى:

١٨، ١٩- ﴿قُلْ نَعَمْ^(١) وَأَنْتُمْ دَاخِرُونَ ﴿٨﴾ فَإِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ فَإِذَا هُمْ يَنْظُرُونَ ﴿٩﴾﴾

أي: قل لهم - يا محمد -: نعم، ستبعثون يوم القيامة أنتم وأباؤكم الأولون، أذلاء صاغرين، وأنتم مهانون محقرّون، تترقبون العقاب الوخيم، والعذاب الأليم، فلا تمتنعون ولا تستعصون على قدرة العليّ القدير.

ثم إن بعثهم وشيك الوقوع، فما هي إلا نفخة واحدة، ينفخها إسرافيل في الصور، فإذا هم قائمون من قبورهم حفاة عراة، ينتظرون أهوال يوم القيامة.

والزجرة الواحدة: هي نفخة البعث الأخيرة، ينفخها إسرافيل في البوق ﴿فَإِذَا هُمْ﴾ قيام من مرقدهم ﴿يَنْظُرُونَ﴾ ما يدور حولهم في دهشة وذ هول، كما قال تعالى: ﴿إِنْ كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً فَإِذَا هُمْ جَمِيعٌ لَدَيْنَا مُحْضَرُونَ ﴿٥٣﴾﴾ [يس].

وهذه النفخة هي التي جاءت في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنْظُرُونَ﴾ [الزمر: ٦٨]، وعندما يقومون من قبورهم يظهر عليهم الذل والهوان ويتمنّوا أنهم لم يُبعثوا:

٢٠، ٢١- ﴿وَقَالُوا يَوَيْلًا هَذَا يَوْمُ الدِّينِ ﴿٢٠﴾ هَذَا يَوْمَ الْفَصْلِ الَّذِي كُنْتُمْ بِهِ تُكَذِّبُونَ ﴿٢١﴾﴾

أي: وعندما يرون بأعينهم جهنم وقد برزت للناظرين، وظهر لهم أنّ ما كانوا يكذبونه في الدنيا مائل أمامهم، لا مفرّ منه، حينئذ تظهر حسرتهم وندامتهم ويدعون على أنفسهم بالهلاك والويل والثبور، فيقول بعضهم لبعض في دُعر وفزع: يا هلاكنا، هذا هو يوم الجزاء على الأعمال، الذي كنا ننكره ونستبعده ونحن في الدنيا.

وعندما يقول بعضهم لبعض: يا ويلنا هذا هو اليوم الذي يُدان فيه العباد بأعمالهم، فإن الملائكة تقول لهم: ادعوا على أنفسكم بما تشاؤون، فإن هذا هو يوم القضاء بين العباد بالعدل، وقد كنتم تنكرونها في الدنيا، وهو يوم يُفرق فيه بين من أحسن ومن أساء، ممّن اتبع طريق الهدى أو طريق الضلال، وتُجزى فيه كل نفس بما عملت، سواء في حق الله تعالى، أو في حق العباد.

(١) قرأ الكسائي بكسر العين من (نعم)، والباقون بفتحها وهما لغتان.

حَشْرُ الظَّالِمِينَ مَعَ أَشْبَاهِهِمْ وَسَوْفُهُمْ إِلَىٰ جَهَنَّمَ

٢٢، ٢٣ - ﴿أَحْشَرُوا الَّذِينَ ظَلَمُوا وَأَزْوَاجَهُمْ وَمَا كَانُوا يَعْبُدُونَ^(١)﴾ (٢٢) مِنْ دُونِ اللَّهِ فَأَهْدُوهُمْ إِلَىٰ صِرَاطِ الْجَحِيمِ ﴿

يأمر الله تعالى الملائكة الموكلون بالناس يوم القيامة، أَنْ تُمَيِّزَ بَيْنَ الْكَفَّارِ وَالْمُؤْمِنِينَ فِي مَحْشَرِهِمْ وَمَنْشَرِهِمْ، وَهُمْ فِي سَاحَةِ الْعَدْلِ الْإِلَهِيَّةِ، فِي عُرْصَاتِ الْقِيَامَةِ حَيْثُ يَجْتَمِعُ الْخَلَائِقُ، فَيَقَالُ لَهُمْ: ﴿أَحْشَرُوا﴾ أَي: اجْمَعُوا ﴿الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ أَنْفُسَهُمْ بِالْشُرْكِ وَسَائِرِ الْمَعَاصِي، أَوْ ظَلَمُوا غَيْرَهُمْ بِالْإِعْتِدَاءِ عَلَيْهِمْ أَوْ أَكَلُوا أَمْوَالَهُمْ، أَوْ نَقَصُوا حَقُّوْقَهُمْ، اجْمَعُوهُمْ وَسَوْفُوهُمْ إِلَىٰ مَكَانٍ اجْتِمَاعِهِمْ الَّذِي يَتَمَيِّزُونَ فِيهِ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ، احْشَرُوهُمْ هُمْ ﴿وَأَزْوَاجَهُمْ﴾. وَفِي مَعْنَى الْأَزْوَاجِ ثَلَاثَةُ أَقْوَالٍ:

الأول: المراد بالأزواج: أَشْبَاهُ الظَّالِمِينَ وَنظَرَاؤُهُمْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ وَالْمُبْتَدِعِينَ وَالْعَصَاةِ وَالْمُجْرِمِينَ، فَكُلُّ إِنْسَانٍ يُحْشَرُ مَعَ نَظِيرِهِ فِي الشُّرْكِ وَالْكَفْرِ وَالظُّلْمِ ﴿إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ [لقمان: ١٣]، وَقَدْ فُسِّرَ الظُّلْمُ بِالْشُّرْكِ فِي هَذِهِ الْآيَةِ.

فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿الَّذِينَ ءَامَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولَٰئِكَ لَهُمُ الْأَمَنُ وَهُمْ مُّهْتَدُونَ﴾ (٨٧) [الأنعام]. وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَالْكَافِرُونَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ [البقرة: ٢٥٤].

فَعَابِدُ الصُّنَمِ يُحْشَرُ مَعَ عَابِدِ الصُّنَمِ، وَعَابِدُ الْجِنِّ يُحْشَرُ مَعَ عَابِدِ الْجِنِّ، وَعَابِدُ الْكَوَاكِبِ يُحْشَرُ مَعَ نَظِيرِهِ، وَالْمُشْرِكُونَ يُحْشَرُونَ مَعَ نَظَرَائِهِمْ، وَالْمُلَاحِدَةُ يُحْشَرُونَ مَعَ أَشْبَاهِهِمْ، وَالْعِلْمَانِيُّونَ يُحْشَرُونَ مَعَ نَظَرَائِهِمْ، وَالشُّيُوعِيُّونَ يُحْشَرُونَ مَعَ أَضْرَابِهِمْ، وَهَكَذَا كُلُّ يُضْمُ إِلَىٰ مَنْ كَانَ يَجَانِسُهُ فِي الْعَمَلِ وَهُمْ فِي الدُّنْيَا.

قَالَ عُمَرُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فِيمَا يَرْوِيهِ النُّعْمَانُ بْنُ بَشِيرٍ عَنْهُ: يُحْشَرُ صَاحِبُ الرِّبَا مَعَ صَاحِبِ الرِّبَا، وَصَاحِبُ الزِّنَى مَعَ صَاحِبِ الزِّنَى، وَصَاحِبُ الْخَمْرِ مَعَ صَاحِبِ الْخَمْرِ، أَزْوَاجُ فِي الْجَنَّةِ، وَأَزْوَاجُ فِي النَّارِ^(٢) وَهَكَذَا، كُلُّ طَائِفَةٍ مَعَ مِثْلِهَا.

(١) تَرَكَ الْبَصْرِي (وَمَا كَانُوا يَعْبُدُونَ) فَلَمْ يَعْدهَا آيَةً، وَعَدهَا غَيْرَهُ.

(٢) «زَادَ الْمَسِيرَ» لِابْنِ الْجَوْزِيِّ (٥٢/٧) وَقَدْ أَخْرَجَهُ عَبْدُ الرَّزَّاقِ (١٨٤/٢) مِنْ قَوْلِ النُّعْمَانِ، دُونَ ذِكْرِ

عُمَرَ، وَهُوَ فِي الظُّبَيْرِيِّ (٥١٩/١٩) وَ«الْمُسْتَدْرَكُ» (٤٣٠/٢).

وقال مجاهد: القتلة مع القتلة، والزناة مع الزناة، وأكلة الربا مع أكلة الربا^(١).

وقال زيد بن أسلم: المراد: أزواجهم في الأعمال، فأصحاب الميمنة زوج، وأصحاب المشأمة زوج، والسابقون زوج^(٢).

وقد جاء القرآن بمثل هذا، من أن المراد بالأزواج: الأصناف والأنواع والنظائر والأشباه، كما في قوله تعالى: ﴿سُبْحَنَ الَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا﴾ [يس: ٣٦].

وقوله أيضاً: ﴿وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْهُمْ﴾ [طه: ١٣١].

وهذا المعنى هو الأرجح، وبه قال ابن عباس، وسعيد بن جبير، وعكرمة، وقتادة، وأبو العالية، والسُّدِّي، وزيد بن أسلم، وغيرهم.

والمعنى الثاني: أن المراد بالأزواج: نساؤهم اللائي كنَّ على دينهم، بأن كنَّ مشركات كأزواجهن، موافقات لهم في الظلم والكفر، وبه قال الحسن ومجاهد.

أما المؤمنات فهن ناجيات من تبعات أزواجهن، حيث يحشرن مع أزواجهن المؤمنين، كما قال تعالى: ﴿هُنَّ وَأَزْوَاجُهُنَّ فِي ظِلِّ عَلَى الْأَرْيَافِ مُتَّكِئُونَ﴾ [يس: ٥٦].

وقال سبحانه: ﴿جَنَّتٌ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا وَمَنْ صَلَحَ مِنْ آبَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ﴾ [الرعد: ٢٣].

المعنى الثالث: أن المراد بالأزواج في الآية، قرناؤهم من الشياطين بأن يحشر كل كافر مع شيطانه الذي أضله ويقرن معه في سلسلة، وبهذا قال الضحاك^(٣).

﴿قَالَ قَرِينُهُ رَبَّنَا مَا أَطَعَيْنُكَ وَلَكِنْ كَانُوا فِي ضَلَالٍ بَعِيدٍ﴾ [ق: ٢٧].

فيقال للملائكة: احشروا هؤلاء الظالمين وما كانوا يعبدون في الدنيا من الآلهة الباطلة كالأصنام والأوثان، بعد أن جمعت كل طائفة مع مثيلتها ثم ألقوا بهم جميعاً في جهنم؛ ليدوقوا حرَّها وسعيها، وفي هذا زيادة في حسرتهم وندامتهم بعد ما شاهدوا بأعينهم بطلان ما كانوا يفعلونه في الدنيا.

(١) يُنظر: «تفسير الطبري» (١٩/٥١٩).

(٢) «الدر المنثور» (١٢/٣٩٥) عن ابن أبي حاتم.

(٣) يُنظر: «تفسير الطبري» (٢٣/١١).

وقد اشتملت الآية على الظالمين، وأشباههم وما كانوا يعبدون من دون الله، فهؤلاء الثلاثة يُحشرون في معية بعضهم، وهم: الظالمون ونُظراؤهم، مع الطواغيت التي كانوا يعبدونها من دون الله، كما قال تعالى: ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنْتُمْ لَهَا وَرَدُونَ﴾ (٩٨). [الأنبياء]

وفي حشر الآلهة مع عابديها زيادة تحسير وتخجيل للعابدين؛ لأنهم رأوا بأنفسهم بطلان ما كانوا يفعلونه في الدنيا، قال تعالى موبخاً لهم: ﴿لَوْ كَانَتْ هَتُولاَءَ إِلَهَةً مَا وَرَدُوهَا وَكُلٌّ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ (٩٩). [الأنبياء].

وإذا كان المكذبون بيوم الدين لم يهتدوا إلى الصراط المستقيم في الدنيا، فدلُّوهم اليوم إلى طريق جهنم، وسُوقوهم إليها سَوْقًا عَنِيفًا، عَرَّفُوهم طريق النار، ووجَّهوهم نحوها، وأزروهم إياها إن كانوا لا يرونها.

وفي التعبير بلفظ الهداية، زيادة في التهكم والسخرية، فالهداية هي الدلالة على الطريق لمن لا يعرفه، ويقابلها الضلالة، وهي الحيرة والاضطراب، قال تعالى: ﴿وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ عَلَىٰ وَجْهِهِمْ عُمًى وَبَكَاءٌ وَصُغًى مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ كُلَّمَا خَبَتْ زِدْنَاهُمْ سَعِيرًا﴾ [الإسراء: ٩٧].

السُّؤَالُ فِي أَرْضِ الْمَحْشَرِ

٢٤-٢٦- ﴿وَقَفُّوهُمْ إِنِّهِمْ مَسْئُولُونَ﴾ (٢٦) مَا لَكُمْ لَا تَنَاصَرُونَ^(١) ﴿٢٥﴾ بَلْ هُمْ أَلْيَوْمَ مُتَسَلِّمُونَ ﴿٢٦﴾

وفي بداية السير بالظالمين إلى جهنم يقال للملائكة: احبسوهم قليلاً عن مواصلة السير؛ ليسألوا سؤال تبيين وتعنيف ﴿وَقَفُّوهُمْ﴾ أي: احبسوهم عند الصراط فلا يعبروه، للإجابة عما يوجَّه إليهم من أسئلة في موقف الحساب ﴿إِنَّهُمْ مَسْئُولُونَ﴾ عن أعمالهم وأقوالهم التي صدرت منهم في الدنيا، ليظهر ذلك على رؤوس الأشهاد، فيتضح كذبهم، أسألوهم مُساءلة إنكارٍ عليهم، وتبكيك لهم، وإقرار بذنوبهم.

قال ابن عباس ؓ: احبسوهم فهم محاسبون.

(١) قرأ أبو جعفر والبرقي بخلف عنه بتشديد التاء وصلًا مع المد المشع من (لا تناصرون) والباقون بتخفيفها مع القصر وصلًا ووقفًا، وكذا أبو جعفر والبرقي حال الابتداء فإنهما يقرآن بالتخفيف.

وفي الحديث عن ابن مسعود رضي الله عنه أن النبي قال: «لا تزول قدما عبد يوم القيامة حتى يسأل عن خمس: عن عمره فيما أفناه، وعن شبابه فيما أبلاه، وعن ماله من أين اكتسبه وفيما أنفقه وماذا عمل فيما علم»^(١).

وعن السؤال يوم القيامة يقول تعالى: ﴿فَلَنَسْأَلَنَّ الَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْأَلَنَّ الْمُرْسَلِينَ﴾ [الأعراف].

وفي حديث عبد الله بن عمرو رضي الله عنه، وفيه بعض علامات الساعة والنفخ في الصور: «ثم يقال: يا أيها الناس، هلم إلى ربكم، وقفوههم إنهم مسئولون، قال: ثم يقال: أخرجوا بعث النار، فيقال: من كم؟ فيقال: من كل ألف، تسع مئة وتسعة وتسعين، قال: فذاك يوم يجعل الولدان شيباً، وذلك يوم يكشف عن ساق»^(٢).

وفي يوم القيامة مواطن ليس فيها سؤال، كما قال تعالى: ﴿فَيَوْمَئِذٍ لَا يُسْأَلُ عَنْ ذَنْبِهِ إِنْسٌ وَلَا جَانٌّ﴾ [الرحمن] حيث ﴿يَعْرِفُ الْمُجْرِمُونَ بِسَمِهِمْ فَيُؤْخَذُ بِالنَّوَصِي وَالْأَقْدَامِ﴾ [الرحمن].

وقال أيضاً: ﴿وَلَا يُسْأَلُ عَنْ ذُنُوبِهِ الْمُجْرِمُونَ﴾ [القصص: ٧٨].

وعدم السؤال يوم القيامة يكون لمن يستحقون دخول الجنة بدون سؤال ولا حساب؛ لأن من نوقش الحساب فقد عذب.

ويكون عدم السؤال أيضاً لمن يستحقون دخول النار بدون سؤال ولا حساب، وذلك لظهور علاماتهم وعدم الحاجة إلى سؤالهم، كما في آية سورة الرحمن (٤١) السابقة.

ثم إن خزنة جهنم تقول للظالمين وهم في هذا الموقف توبيخاً وتقريعاً: ما الذي جعلكم اليوم عاجزين عن التناصر فيما بينكم-أيها الكافرون- وقد كنتم في الدنيا تزعمون أن بعضكم يدفع عن بعض، وينصر بعضكم بعضاً؟! كما قال أبو جهل في يوم بدر: ﴿نَحْنُ جَمِيعٌ مُنْصَرٌّ﴾ [القمر: ٤٤]، ما الذي جرى لكم فلا يغيث بعضكم بعضاً، بعدما كنتم

(١) صححه الألباني في سلسلة الأحاديث الصحيحة برقم (٦٦٦) ورقم (٩٤٦) وحسنه في صحيح الجامع برقم (٧١٧٦) كما صححه عن أبي برزة الأسلمي برقم (٧١٧٧) وقد أخرجه الترمذي كما في جامع الأصول (٧٩٦٩، ٧٩٧٠) وهو في صحيح سنن الترمذي (١٩٦٩، ١٩٧٠) وفي الروض النضير (٦٤٨).

(٢) من حديث طويل في «صحيح مسلم» برقم (٢٩٤٠).

تزعمون ذلك وأنتم في الدنيا؟ وآلهتكم لم تدفع عنكم شيئاً من العذاب، ولم تشفع لكم عند الله تعالى.

فما لكم لا تناصرون اليوم، وكلكم في حاجة إلى الناصر والمعين؟! وكأنهم لا يجيبون عن هذا السؤال، لما يعلوهم من الذل والصغار، واستسلامهم للعذاب. وإذا فإن هذا السؤال الذي في موقف الحساب يكون عن الصلبة والجلساء، والتواصي بالحق والتواصي بالصبر.

ثم يبين سبحانه أن المكذبين بيوم الدين ليسوا بقادرين على التناصر فيما بينهم، بل هم يوم القيامة أذلاء خاضعين متقادين، لضعفهم وعجزهم؛ إذ ليس عندهم حيلة تُنقذهم من البلاء الذي هم فيه، يستوي في هذا العابد والمعبود.

تَلَاوُمُ أَهْلِ النَّارِ

٢٨، ٢٧ - ﴿وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ ۖ ﴿٢٧﴾ قَالُوا إِنَّكُمْ كُنْتُمْ تَأْتُونَنَا عَنِ الْيَمِينِ ۖ ﴿٢٨﴾﴾

وبعد استسلام الظالمين لأمر الله تعالى، ووقوفهم أذلاء صاغرين في ساحة الحشر، بعد أن جُمعوا هم وأزواجهم وشركاؤهم وهُدوا إلى صراط الجحيم، عندئذ يوجه بعضهم إلى بعض العتاب الأليم واللوم المرير، على ما كان منهم في الدنيا، فيتخاصمون في عرصات القيامة، وفي دركات النار، حيث يُلقى كل من التابعين والمتبوعين باللائمة على الآخر، فيقول الضعاف للسادة: لقد كنتم تدعوننا بالقوة والغلبة إلى الباطل فتضلونا، ولولا أنتم لكنا مؤمنين، فيجيبهم السادة: بل أنتم كنتم مشركين كما كنا مشركين، فأئني شيء فضلكم علينا، ولأي شيء تلومونا.

وهكذا يقول الضعفاء للأقوياء: لقد خدعتمونا بقوتكم وسلطانكم، ويقول السادة: بل أنتم كنتم أغبياء لا تبصرون الحق فتحملوا مسئوليتكم معنا، إنهم يتلاومون ويتخاصمون. وهذا العتاب يكون بين الزعماء والعامة، أو بين رؤساء الكفر ومن اتبعوهم، ويسميهم القرآن غالباً: الضعفاء والمستكبرون.

١ - وإلى هذا المعنى يشير قوله تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَىٰ إِذِ الظَّالِمُونَ مَوْقُوفُونَ عِنْدَ رَبِّهِمْ يَرْجِعُ

بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ الْقَوْلَ يَقُولُ الَّذِينَ اسْتَضِعُّوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا لَوْلَا أَنْتُمْ لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ ﴿سبأ: ٣١﴾.

٢- وقوله سبحانه: ﴿وَإِذْ يَتَحَاوَرْنَ فِي النَّارِ فَيَقُولُ الضُّعَفَاءُ لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنْتُمْ مُغْنُونَ عَنَّا نَصِيبًا مِنَ النَّارِ ﴿٤٧﴾ قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُلٌّ فِيهَا إِنَّ اللَّهَ قَدْ حَكَمَ بَيْنَ الْعِبَادِ ﴿٤٨﴾﴾ [غافر].

٣- وقوله تعالى: ﴿هَذَا فَوْجٌ مُقْتَضٍ مَعَكُمْ لَا مَرْجَأَ بِهِمْ مِنْهُمْ صَلَاةُ النَّارِ ﴿٥٩﴾ قَالُوا بَلْ أَنْتُمْ لَا مَرْجَأَ بِكُمْ أَنْتُمْ قَدْ مَتَّعُوهُ لَنَا فَيَسَّ الْفَكَارُ ﴿٦٠﴾ قَالُوا رَبَّنَا مَنْ قَدَّمَ لَنَا هَذَا فَرَدَّهُ عَذَابًا ضِعْفًا فِي النَّارِ ﴿٦١﴾﴾ [ص].

٤- وقوله أيضًا: ﴿وَبَرِّزُوا لِلَّهِ جَمِيعًا فَقَالَ الضُّعَفَاءُ لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنْتُمْ مُغْنُونَ عَنَّا مِنْ عَذَابِ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ قَالُوا لَوْ هَدَّيْنَا اللَّهُ لَهْدَيْنَكُمُ سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَجْرُ عَنَّا أَمْ صَبْرًا مَا لَنَا مِنْ مَّحِيصٍ ﴿٦٦﴾﴾ [إبراهيم: ٢١].

وفي هذه السورة يقول الأتباع للمتبوعين؛ أو الضعفاء للزعماء: إنكم كنتم تأتوننا من قِبَلِ الدِّينِ والحق، بطريق الوسوسة عن يميننا، فتخدعوننا وتزينون لنا الباطل، وتوهمونا أن هذا هو الحق، فتَهَوِّنُونَ علينا أمر الشريعة، وتَنَفِّرُونَا منها، وتحسِّنون لنا الباطل، فتردُّوننا عن الإسلام، وتحوِّلُون بيننا وبينه، وتصدُّوننا عن اتباع الحق، وكنتم في الدنيا تُقْسِمُونَ لنا أن باطلكم هو الحق، وتهتدِّدوننا بالقتل والطرْد والرجم إن اتبعنا محمدًا ﷺ.

ويتجه المفسرون في معنى كلمة اليمين التي في الآية على ثلاثة أقوال:

الأول: أن المراد باليمين: الحَلْف، والأيمان المغلظة أو الموثقة، حيث أقسمتم لنا أنكم على حق فصدقناكم واتبعناكم.

الثاني: أن المراد باليمين: القوة والغلبة، والشدة والبطش، بمعنى: فكتمت تجبرونا على اتباعكم؛ لأنكم أقوىاء ونحن ضعفاء، وهذا مروي عن ابن عباس والفراء.

الثالث: أن المراد باليمين: اليُمن، وَجْهَةُ الخير، بمعنى: فكتمت توهمونا أنكم على حق، فتخدعوننا باتباعكم زعمًا منكم أنكم على خير.

والعرب تضيف الخير إلى جهة اليمين وتفاءل به، وتترقب مجيء الشر من جهة الشمال، وتشاءم به، فيكون إغواؤهم لهم بتحسين الباطل، وتزيينه، وخداعهم، والتمويه

عليهم، بإظهار أن هذا هو الحق والصواب، فيأتون لهم من طريق النزوات والشبهات والشهوات، ويقطعون عنهم طريق الخير وإعمال الفكر، وهذا عن الزجّاج والجبائي.

والآية تتسع لهذه المعاني - كما سبق في بيان معنى الأتباع والمتبوعين - فالأقوياء حسّنوا الباطل للضعفاء، وأقسموا لهم أنه الحق، وهذّدوهم إن هم خالفوهم في ذلك.

ثم إن الرؤساء يردون على المرؤوسين بثلاثة أجوبة:

٢٩، ٣٠ - ﴿قَالُوا بَلْ لَمْ تَكُونُوا مُؤْمِنِينَ ﴿٢٩﴾ وَمَا كَانَ لَنَا عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ بَلْ كُنْتُمْ قَوْمًا طَٰغِينَ﴾

الجواب الأول: قال المتبوعون للتابعين، أو الأقوياء للضعفاء: ليس الأمر كما تزعمون، فنحن لم نتسبب في كفركم في الدنيا، بل كانت قلوبكم منكرة للإيمان بالله واليوم الآخر، وكانت قابلة للكفر والعصيان، فنحن لم نحملكم على الضلال، ولم نمنعكم من الإيمان، بل كفرتم باختياركم، وكان ذلك نابعا منكم، فأنتم لم تكونوا على حق حتى نُضِلَّكم، بل كنتم على الكفر، ولم نتسبب لكم في ذلك، وهذا معنى ﴿بَلْ لَمْ تَكُونُوا مُؤْمِنِينَ﴾.

الجواب الثاني: أنه لم يكن لنا عليكم حجة واضحة، نُضَرِّفُكم بها عن الإيمان بالله، ولم نستعمل معكم البطش والقوة التي تفهركم وتُجبركم على الكفر والضلال، ونُكْرِهُكم بها على رفض الإيمان، ﴿وَمَا كَانَ لَنَا عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ﴾.

والسلطان يراد به: الحجة والبرهان، ويراد به أيضًا: القهر والغلبة.

الجواب الثالث: إن المتبوعين أكدوا للتابعين أنهم لم يكن لهم عليهم سلطان، بل أنتم أيها التابعون الذين رضيتم بالكفر عن اختيار واقتناع منكم وهذا معنى ﴿بَلْ كُنْتُمْ قَوْمًا طَٰغِينَ﴾ أي: بل أنتم الذين أبيتم قبول الإيمان متجاوزين الحق إلى الضلال، من تلقاء أنفسكم، فأنتم فيكم فجور وطغيان، واستعداد للكفر، فلذلك استجبتم لنا واتبعتمونا.

وفي هذا الجواب إضراب عن الجوابين قبله، وبيان أن الطغيان هو السبب المانع لهم من الإيمان، ولذا وجب عليهم العذاب، وحقّت عليهم كلمة الله:

٣١، ٣٢ - ﴿فَحَقَّ عَلَيْنَا قَوْلُ رَبِّنَا إِنَّا لَذَٰيْقُونَ ﴿٣١﴾ فَأَعْوَيْنَكُمْ إِنَّا كُنَّا غَوِينَ ﴿٣٢﴾﴾

أي: أن كلاً منا لقي مصيره واستحق العذاب جزاء كفره وشركه بالله تعالى، وذلك أنه

لما اعترف رؤساء الكفر بأنهم لم يكونوا مؤمنين أصلاً، وأنهم كانوا مشتركين مع غيرهم في الضلال، قالوا: لقد وجب علينا جميعاً وعيد الله لنا بالعذاب بقوله سبحانه: ﴿لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾ [هود: ١١٩].

فإننا -أى التابعين والمتبوعين- ذائقو هذا العذاب لا محالة، فهو جزاء كُفْرنا وشُرْكنا، يستوي في ذلك الضال والمضل، فالجميع في النار ﴿قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُلٌّ فِيهَا إِنَّكَ اللَّهُ قَدْ حَكَمَ بَيْنَ الْعِبَادِ﴾ [غافر].

وبهذا تم الاعتراف الأخير في قول السادة للضعاف: إنا دعوناكم للضلال فأجبتونا ولم نجبركم على ذلك، فلا تلمونا ولوموا أنفسكم.

وبهذا يواصل زعماء الكفر اعترافهم، فأقروا بأنهم أضلُّوا الضعفاء عن سبيل الله والإيمان به، وزينوا لهم الباطل، ودعَّوهم للغواية والضلالة دعوة غير مُلجئة، قالوا: فاستجبتم لنا باختياركم الغيِّ على الرشد ﴿فَأَعْوَيْنَكُمْ﴾ أي أضللناكم عن الهدى ﴿إِنَّا كُنَّا غَوِينَ﴾ أي: كنا قبلكم على ضلال، فهلكنا بسبب كُفْرنا وأهلكناكم معنا.

حُكْمُ اللَّهِ الْعَادِلِ فِي الْجَمِيعِ

٣٣، ٣٤- ﴿فَأَنبَأَهُمْ يَوْمَئِذٍ فِي الْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ﴾ (٣٣) إِنَّا كَذَلِكَ نَفْعَلُ بِالْمُجْرِمِينَ ﴿٣٤﴾

وكما اشترك الأتباع والمتبوعون وهم في الدنيا، في الغواية والضلالة والمعاصي، فأشركوا بالله وكفروا باليوم الآخر، ولم يصدقوا رسول الله ﷺ فيما جاءهم به، فإنهم يشتركون يوم القيامة جميعاً في حلول العذاب بهم، كما كانوا في الدنيا مشتركين في الغواية، واشتراكهم في العذاب لا يفيدهم شيئاً، ولا يخفف عنهم العذاب يوماً.

قال تعالى: ﴿وَلَنْ يَنفَعَكُمُ الْيَوْمَ إِذ ظَلَمْتُمْ أَنْكُرُ فِي الْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ﴾ [الزخرف].

وهذا هو مصير كل مجرم مشرك بالله تعالى ممن اختار وهو في الدنيا طريق الغي والضلال فنذيقهم يوم القيامة من العذاب الأليم.

سَبَبُ سُوءِ الْمَصِيرِ

٣٥، ٣٦ - ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا إِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ ﴿٣٥﴾ وَيَقُولُونَ آيَاتُنَا لَنَآرِكُوا
ءَالِهَتِنَا لِشَاعِرٍ مَّجْنُونٍ ﴿٣٦﴾﴾

ثم بيّن سبحانه السبب الذي أدى بهم إلى سوء المصير، وهو استكبارهم على التوحيد في الدنيا، واستكبارهم عن قبول النصيحة، فكانوا يعرضون عنها ويصرون على الكفر وجحود الحق، ولا ينطقون بكلمة التوحيد، فقد بلغ إجرامهم الغاية، وجاوز النهاية. وقد أمر النبي ﷺ أن يقاتل المشركين من الناس حتى يقولوها^(٢).

وكانوا يقولون عندما يُدعون إلى التوحيد والإيمان: أنترك عبادة ما نحن عليه مما ورثناه عن آبائنا وأجدادنا من عقائد وأقوال وأفعال، ونبتّع ما جاء به هذا الشاعر المجنون، من جعل الآلهة إلهاً واحداً؟! ويَعْنُونَ بهذين الوصفين رسول الله ﷺ، وبهذا فإن المشركين جمعوا بين إنكار الوجدانية، وإنكار الرسالة، وخلطوا في وصفهم لرسول الله ﷺ بين الشعر والمجنون.

والشاعر: هو الذي يصوغ المعاني في قوالب ألفاظ بديعة، فيَنظِمُها أبياتاً من الشعر.

والمجنون: هو الذي يهذي ويتخبط، وليس عنده شيء من حُسن الفهم ولا دقة التعبير، وبين الوصفين تناقض وتضاد، قال تعالى: ﴿كَذَلِكَ مَا أَتَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا قَالُوا سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ ﴿٥٦﴾﴾ [الذاريات].

وقال سبحانه: ﴿مَا يُقَالُ لَكَ إِلَّا مَا قَدْ قِيلَ لِلرُّسُلِ مِنْ قَبْلِكَ﴾ [فصلت: ٤٣].

تَصْدِيقُ اللَّهِ تَعَالَى لِرَسُولِهِ ﷺ

٣٧ - ﴿يَلْجَأُ بَالِحِيٍّ وَصَدَّقَ الْمُرْسَلِينَ ﴿٣٧﴾﴾

(١) قرأ قالون وأبو عمرو وأبو جعفر بتسهيل الهمزة الثانية مع الإدخال في (أثنا) وقرأ ورش وابن كثير ورويس بالتسهيل مع عدم الإدخال، وقرأ هشام بالتحقيق مع الإدخال وعدمه، وقرأ الباقون بالتحقيق مع عدم الإدخال ومثلها (أنك) في الآية الثانية والخمسين، إلا أن هشاماً ليس له فيها إلا الإدخال.

(٢) كما في حديث مسلم عن أبي هريرة برقم (٢١) في الصحيح.

قال تعالى في الرد على المكذبين الذين وَصَفُوا رسول الله ﷺ بأنه شاعر مجنون: ليس الأمر كما تفترون، فقد كذبتُم فيما وصفتُم به رسول الله ﷺ بأنه شاعر مجنون، لأنه جاء بالحق الأبلج الذي أتى به المرسلون قبله، من التوحيد ودين الإسلام، فكان مصدقاً لهم في الدعوة إلى الله تعالى، فكيف تزعمون أنه شاعر مجنون؟! وأنتم تعلمون أنه ليس بشاعر ولا مجنون، ولهذا فإن الله تعالى نقض قولهم في قوله ﴿بَلْ جَاءَ بِالْحَقِّ﴾ أي أن مجيئه حق، وما جاء به من الكتاب والسنة حق.

وفي هذا مبادرة من الله تعالى لتزويه رسوله ﷺ عما قالوه؛ لتنفير الناس من اتباعه، وتقدير ما جاءت به الشرائع السابقة، مما أقره الإسلام، فهو تصديق له ومصادقة عليه، وهو معجزة لكل رسول قبله، لأنهم أخبروا به وبشروا ببعثته، وأخذ الله على الرسل العهد والميثاق، لئن جاءهم محمد ليؤمنن به ولينصرنّه، وأخذواهم هذا العهد على أُممهم، فلما جاءهم محمد ﷺ بين صدق الرسل فيما أخبروا به وتكذيب من خالفهم.

وقد صدّق محمد المرسلين، بأن جاء بما جاؤوا به، ودعا إلى ما دعوا إليه، وأخبر بصحة رسالتهم ونبوّتهم وشرعهم.

وفي هذه الآية احتجاج على الكفار بالدليل النقلي، وهو كون الرسول ﷺ جاءهم بالتوحيد الذي دعت إليه الرسل قبله، بعد أن احتج عليهم بالأدلة العقلية في الآيات قبلها.

تَقْرِيرُ الْجَزَاءِ الْعَادِلِ لِلْمُكَذِّبِينَ بِخَاتَمِ الْمُرْسَلِينَ

٣٨، ٣٩- ﴿إِنَّكُمْ لَذَائِقُوا الْعَذَابِ الْأَلِيمِ ﴿٣٨﴾ وَمَا تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٣٩﴾﴾

ومن كلام الله تعالى الموجه إلى المشركين يوم لقائه، تقرير مصيرهم المحتوم في قوله: ﴿إِنَّكُمْ﴾ أيها المشركون المكذبون، لمعدّبون في النار أشد العذاب، بسبب كفركم بالله، وتكذيبكم لرسول الله، وهو عذاب مخزٍ موجه، يجعلكم في حُزن دائم، ولما قالوا: ﴿فَحَقَّ عَلَيْنَا قَوْلُ رَبِّنَا إِنَّا لَذَائِقُونَ﴾ ردّ الله عليهم في هذه الآية بقوله: ﴿إِنَّكُمْ لَذَائِقُوا الْعَذَابِ الْأَلِيمِ﴾ وهذا خبر صادر عن رب العالمين، لا يحتمل إلا الصدق واليقين، وقولهم السابق يحتمل الصدق والكذب.

أي وأنتم -أيها المكذبون- لا تعاقبون بهذا العقاب، إلا بسبب أقوالكم وأعمالكم

القيحة في الدنيا، كتمجيد آلهتكم ودعائها وتكذيب الرسول ﷺ، وإيذاء المؤمنين، وقولكم: الأصنام شفعاؤنا عند الله، وقولكم: الملائكة بنات الله، ووأد البنات، والزنى، وشرب الخمر، ونحو ذلك.

فلا تعذبون إلا بمقدار عَمَلِكُمْ دون زيادة عليه، فإن الله تعالى يَجْزِي على الشر بمثله، وأما الخير فإنه يكون أضعافاً مضاعفة، وإذا زاد الكافر فوق كفره أعمالاً أخرى، كإيذاء المسلمين، أو الاعتداء على أرواحهم، أو على ممتلكاتهم، أو حال بين الناس وبين قبول الإسلام ونحو ذلك، فإن الله تعالى يزيدهم عذاباً فوق عذابهم، كما قال تعالى: ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ زِدْنَاهُمْ عَذَابًا فَوْقَ الْعَذَابِ بِمَا كَانُوا يُفْسِدُونَ﴾ [النحل].

وفي هذا بيان لسوء عاقبة الكافرين وإعراضهم عن الحق، واستكبارهم عن الدخول في الإسلام، ووصفهم للرسول ﷺ بما هو منه بريء.

ولما كان الخطاب في هذه الآية عاماً والمراد به المكذبون والمشركون، استثنى سبحانه المؤمنين في الآية التالية، فبين فيها أنهم ناجون من العذاب الأليم يوم لقاء الله:

مَا أَعَدَّهُ اللَّهُ لِلْمُخْلِصِينَ الْمُوَحِّدِينَ مِنَ النَّعِيمِ الْمُقِيمِ

٤٠-٤٢- ﴿إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلِصِينَ﴾^(١) ﴿أُولَئِكَ هُم رِزْقٌ مَعْلُومٌ﴾^(٢) ﴿فَوَكَّهُ وَهُمْ مُكْرَمُونَ﴾^(٣)

استثنى الله سبحانه ممن يشتركون في العذاب يوم القيامة، من الذين يذوقون العذاب الأليم، عباده الموحدين المخلصين له في الطاعة والعبادة، الذين أخلصهم الله له، واختصهم برحمته، فإنهم ناجون من العذاب الأليم، لا يذوقون العذاب، ولا يناقشون الحساب، بل يتجاوز الله سبحانه عن سيئاتهم، ويجازيهم الحسنة بعشر أمثالها، إلى سبع مئة ضعف، لأنهم أخلصوا أعمالهم لله، فأخلصهم الله إليه.

وهذا استثناء منقطع بمعنى الاستدراك، كما قال تعالى: ﴿كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهينٌ﴾^(٤) ﴿إِلَّا الْمُحْسِنِينَ﴾^(٥) في جَنَّتِ بِسَاءَلُونَ^(٦) عَنِ الْمُجْرِمِينَ^(٧) ﴿[المدثر].

(١) قرأ نافع وعاصم وحزمة والكسائي وأبو جعفر وخلف، بفتح لام (المخلصين)، والباقيون بكسرهما، والمخلص بفتح اللام هو من أخلصه الله إليه، وبكسر اللام هو الذي أخلص لله تعالى، ومثلها في الآية الرابعة والسبعين.

ومثله قوله تعالى: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيرٍ﴾ ﴿١﴾ ثُمَّ رَدَدْنَاهُ أَسْفَلَ سَافِلِينَ ﴿٢﴾ إِلَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ﴿٣﴾ [التين].

سِتَّةُ أَوْصَافٍ مِنْ نَعِيمِ أَهْلِ الْجَنَّةِ

وبعد أن بيّن القرآن مصير الأشرار، ذكر مصير الأخيار، فأخبر سبحانه عن جزاء عباد الله الموحدين في الآخرة، في مقابلة عقاب المجرمين السابق، فتناولت الآيات التالية، ستة مما أنعم الله به في الجنة على عباده المخلصين، منها: وُصِفَ طعام أهل الجنة، وَوُصِفَ مجالسهم، وَوُصِفَ شرابهم، ثم وَصِفَ زوجاتهم في الجنة، فهذه جملة أوصاف لهم:

الْوَصْفُ الْأَوَّلُ: وصف طعامهم

فقد قال تعالى: ﴿أُولَئِكَ﴾ أي: الذين أخلصهم الله إليه، وأخلصوا له التوحيد ﴿لَهُمْ﴾ في الجنة ﴿رِزْقٌ مَعْلُومٌ﴾ دائم لا ينقطع، يأتيهم بكرة وعشيًا، كما قال تعالى: ﴿وَلَهُمْ رِزْقُهُمْ فِيهَا بُكْرَةً وَعَشِيًّا﴾ [مريم: ٦٢].

والرزق: هو الطعام، كما قال تعالى: ﴿كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ وَجَدَ عِنْدَهَا رِزْقًا﴾ [آل عمران: ٣٧].

وقال سبحانه على لسان يوسف عليه السلام: ﴿قَالَ لَا يَأْتِيَكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِيهِ إِلَّا نَبَأُكُمَا بِتَأْوِيلِهِ﴾ [يوسف: ٣٧].

والرزق المعلوم: هو الذي لا يتخلف عن ميعاده، ولا ينتظره أهله، ولهم فيها ما تشتهيهِ الأنفس وتلذ الأعين، فهو رزق غير مجهول، لا يُجهل أمره، ولا يُبلغ كنهه.

ورزق الجنة هذا، معلوم الصفة والخصائص: من طيب الرائحة، ولذة الطعم، وحسن المنظر، وحلاوة النكهة، وهو عطاء وفضل من الله تعالى غير مقطوع ولا ممنوع.

وقد بيّن الله سبحانه أن طعام أهل الجنة الذي يرزقهم الله إياه فيها، إنما يكون من جميع أنواع الفواكهة التي تتفكه بها النفس على سبيل التفكه والتلذذ - سواء أكان فاكهة، أو لحماً، أو غير ذلك - فكل ما يأكله أهل الجنة يكون من باب التمتع والتلذذ؛ لأنهم في غنى عن القوت الذي يحفظون به حياتهم، فلا يأكلون من أجل الشبع، وهم مستغنون عن

حفظ الصحة بالغذاء؛ لأن أجسادهم خُلقت في الآخرة للأبد، ثم إنهم لا يتوَلَّون ولا يتغوَطون ولا يتمخَّطون، وعرفُهم كرشح المسك.

وهذا النعيم الذي أعده الله لهم يكون مصحوبًا بالإكرام والحفاوة والتعظيم ﴿فَوَكِّكُ وَهُمْ مُكْرَمُونَ﴾ (٤٣) أي: أن رزق أهل الجنة فواكه متعددة ومتنوعة، وهم مكرمون بكرامة الله لهم، غير مهانين ولا محتقرين، قد أكرم بعضهم بعضًا، وأكرمتهم الملائكة، فهم يدخلون عليهم من كل باب، يسلمون عليهم، ويهتئونهم ببلوغ هذا النعيم المقيم، للقلوب والأرواح والأبدان، ومن كرامتهم عند الله تعالى، أنهم يُخدَمون ويُنعَمون بما يشتهون، ثوابًا من الله تعالى وفضلًا منه وكرمًا.

الْوَصْفُ الثَّانِي: مُسْتَقَرُّ الْمُوَحِّدِينَ وَدَارُ إِقَامَتِهِمْ فِي الْآخِرَةِ

٤٣، ٤٤ - ﴿فِي جَنَّاتٍ النَّعِيمِ﴾ (٤٣) عَلَى سُرُرٍ مُتَقَابِلِينَ ﴿

وصف الله سبحانه في هذه الآية مساكن المخلصين من أهل التوحيد في الجنة، فبيَّن تعالى أن الجنة هي مسكنهم ودار إقامتهم، فهم في رياض وبساتين وقصور، وصحة وشباب، ونعيم دائم لا يحول ولا يزول، وذلك لما جمعت الجنة مما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر، ولأنها قد سلمت من جميع المكدرات والمنغصات.

الْوَصْفُ الثَّالِث: صفة جلوسهم في الجنة

فإن من كرامتهم عند ربهم أنهم يجلسون في الجنة ﴿عَلَى سُرُرٍ﴾ في مواجهة بعضهم تواضلاً وتحايُّبًا، لا ينظر بعضهم إلى قفا بعض؛ وهذا من كرامتهم عند ربهم، وكرامة بعضهم على بعض، فإن مقابلة الوجوه، تدل على مقابلة القلوب، وتأدب بعضهم مع بعض، كما تدل على كمال المحبة والمؤانسة، لأن التقابل أتم للسرور وأنس، حيث ينظر بعضهم إلى بعض، فيسعد الحبيب برؤية حبيبه، ويأنس الصديق برؤية صديقه.

والسرر التي يتكئون عليها، هي مجالس مرتفعة مزينة بأنواع الأكسية الفاخرة المزخرفة المجملَّة، ومن ذلك أنها تكون مرصَّعة بالدر واللؤلؤ والياقوت، يتكئون عليها على وجه الراحة والطمأنينة والفرح والأنس والبهجة والسرور.

ويكون هذا الجلوس على قدر طبقات ومراتب أهل الجنة، ويرتفع الابن إذا كان من أهل الجنة، وهو في جنة أدنى من جنة أبيه، يرتفع من الدرجة الأدنى إلى الدرجة الأعلى، حتى يكون الابن بصحبة أبيه، والزوج بصحبة زوجته، وهكذا كما قال تعالى: ﴿هُمْ وَأَزْوَاجُهُمْ فِي ظِلَالٍ عَلَى الْأَرَائِكِ مُتَكُونَ ﴿٥٦﴾﴾ [يس].

وقال أيضاً: ﴿وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَاتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُمْ بِإِذْنِ الْحَقِّنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَمَا أَلْتَنَّهُمْ مِنْ عَلَيْهِمْ مِنْ شَيْءٍ﴾ [الطور].

الْوَصْفُ الرَّابِعُ: حَمْرُ الْجَنَّةِ وَصِفَاتُهَا الْأَرْبَعُ

٤٥-٤٧ - ﴿يُطَافُ عَلَيْهِمْ بِكَأْسٍ مِنْ مَعِينٍ ﴿٤٥﴾ بَيْضَاءَ لَذَّةٍ لِلشَّارِبِينَ ﴿٤٦﴾ لَا فِيهَا غَوْلٌ وَلَا هُمْ عَنْهَا يُنْفَوْنَ ﴿٤٧﴾﴾

وبعد أن ذكر الله سبحانه طعام أهل الجنة، ذكر شرابهم فيها، فبين سبحانه أنه يُدار عليهم وهم في مجالسهم في الجنة، بكتوس خمر من أنهار جارية، خارجة من عيون الجنة، فخمر الجنة يجري كالماء النابع، يرونها بأعينهم، قريبة منهم، يطوف على أهل الجنة، ولدان مخلدون فيها، قد أعدهم الله للخدمة والمؤانسة، كما قال تعالى ﴿وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ غِلْمَانٌ لَهُمْ كَأَنَّهُمْ لُؤْلُؤٌ مَكْنُونٌ﴾ [الطور].

وقال ﴿وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُخَلَّدُونَ ﴿٤٧﴾ يَكُوبُ وَأَبَارِقُ وَكَأْسٍ مِنْ مَعِينٍ ﴿٤٨﴾ لَا يُصَدَّعُونَ عَنْهَا وَلَا يُنْفَوْنَ ﴿٤٩﴾﴾ [الواقعة] وقال: ﴿وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُخَلَّدُونَ إِذَا رَأَيْتَهُمْ حَسِبْتَهُمْ لُؤْلُؤًا مَنُونًا﴾ [الإنسان].

وقال: يُطَافُ عَلَيْهِمْ بِصِحَافٍ مِنْ ذَهَبٍ وَأَكْوَابٍ وَفِيهَا مَا شَتَّاهِيَ الْإِنْسُ وَكَذَلِكَ الْأَعْيُنُ وَأَنْتَرُ فِيهَا خَلِيدُونَ ﴿٥٠﴾ [الزخرف].

وكل إناء فيه شراب يسمّى كأسًا، فإن لم يكن فيه شراب فهو إناء أو قَدَح.

وكل كأس في القرآن فهي الخمر، كما أن الشراب ذاته يسمّى كأسًا، فيقال: شربت كأس ماء، ونحو ذلك.

والمعين: هو النهر الجاري على وجه الأرض، الظاهر للعيون، وهو لا يتقطع ولا يفرغ.

(١) قرأ حمزة والكسائي وخلف بالبناء للمعلوم في (ينزفون) مضارع أنزف بمعنى: ذهب عقله من السكر، والباقون بالبناء للمجهول مضارع نزف بمعنى: سكر وذهب عقله.

ثم وصف الله تعالى هذه الخمر بأربعة أوصاف، فهي:

١- بيضاء اللون. ٢- لذیذة الطعم. ٣- لا تُسَكَّر ولا تُفقد الوعي

٤- وهي تجري من عيون في الجنة لا تنفد ولا تنتهي

وهكذا وصف الله تعالى خمر الآخرة بأنها بيضاء اللون، لذیذة الطعم، فخمر الجنة أشد بياضاً من اللبن، وفي طعمها لذة للشاربين، يتلذذ شاربها وقت شربها وبعده:

روى مالك عن زيد بن أسلم قال: لونها مشرق حسن. فهي ليست كخمر الدنيا في منظرها الرديء، من حُمرة أو سواد، بل هي ﴿بَيَضَاءٌ لَذَّةٌ لِلشَّارِبِينَ﴾ (٤٦) صفتان لها، فهي: بيضاء اللون، لذیذة الطعم والرائحة عند الشاربين.

وليس في خمر الجنة ما يغتال العقول فيُسَكِّرُها، ولا ما يَضُرُّ بالجسم فيفسده، فهي لا تؤذي الجسم ولا العقل ﴿لَا فِيهَا غَوْلٌ﴾ أي: ليس فيها ما يعتري شارب خمر الدنيا من الصداع والألم، وفقد الوعي الذي هو فَرْقُ الإنسان من الحيوان، فهي سالمة من غول العقل وذهابه ونزفه، وهي سالمة من نزف المال.

يقال: غاله واغتاله، إذا قُضي عليه بغته، وأخذه من حيث لا يشعر، أي: أخذه غيلة.

﴿وَلَا هُمْ عَنْهَا يُنْزَفُونَ﴾ أي: أنها لا تُمنع عنهم ولا تنقطع أو تنتهي، إنهم في متاع دائم ولذة مستمرة، دون صداع ولا كدر.

فالغول: هو اغتيال العقل وذهابه، والنزف: هو عدم نفاد الشراب، يقال: نزف ماء البئر، إذا نزحه ولم يُبقِ منه شيئاً، أي: نزحه شيئاً فشيئاً إلى نهايته.

قال ابن كثير: نزّه سبحانه خمر الجنة عن الآفات التي هي في خمر الدنيا، من صداع الرأس، ووجع البطن، وذهاب العقل^(١).

فخمر الجنة، طعمها طيب، كلونها، وتلك أجمل أوصاف الخمر التي تحقق لذة الشراب، وتنفي أكداره وأضراره، فلا ضُرَّ يصدع الرؤوس، ولا سُكَّر ولا عريضة تُذهب لذة الاستمتاع، كما هي حال خمر الدنيا.

(١) «تفسير ابن كثير» (١٣/٧).

قال الضحاك عن ابن عباس رضي الله عنهما: في الخمر أربع خصال: السُّكْر، والصداع، والقيء، والبول، فنَزَّهَ الله خمر الجنة عن هذه الخصال^(١).

الْوَصْفُ الْخَامِسُ: الْحُورُ الْعَيْنُ وَصِفَاتُهُنَّ الثَّلَاثُ

٤٨، ٤٩ - ﴿وَعِنْدَهُمْ قَاصِرَاتُ الطَّرْفِ عَيْنٌ ﴿٤٨﴾ كَأَنَّهُنَّ بَيْضٌ مَّكْنُونٌ ﴿٤٩﴾﴾

وصف الله تعالى أزواج أهل الجنة من الحور العين بثلاثة أوصاف، فهن:

١- قاصرات الطرف. ٢- واسعات العيون. ٣- بيض البشرة

أي وعند أهل الجنة، حور حسان، كاملات الأوصاف، قاصرات الطرف على أزواجهن، لعَفَّتِهِنَّ، فهنَّ لا ينظرن إلى غيرهم، ولا يرغبن في غيرهم، كما أن زوجها قد قصر طرفه عليها لكمالها وجمالها، وتوددها وتحببها إليه، وهذا يدل على جمال الرجال والنساء في الجنة، ومحبة بعضهم لبعض، وشدة عفتهم، وعدم التطلع إلى الآخرين، فكلُّ سعيد بما عنده، متعَفِّفٌ عما سواه، مكتفٍ بما عنده، قَرير العين، سليم السريرة، صافي النفس.

وهكذا أهل الجنة عندهم في مجالسهم نساء عفيفات، لا ينظرن إلى غير أزواجهن، حسان الأعين واسعات، مع الحسن والجمال، وهن مع حسنهن وجمالهن لا ينظرن إلى غير أزواجهن، فهن حياء وعفة، لا تمتد أبصارهن لغير أزواجهن لشدة محبتهن لهن، وهن أيضاً محبوسات في مساكنهن، لا يخرجن منها، كما قال تعالى: ﴿حُورٌ مَّقْصُورَاتٌ فِي الْخِيَامِ ﴿٧٧﴾﴾ [الرحمن].

وقال أيضاً: ﴿فِيهِنَّ قَاصِرَاتُ الطَّرْفِ لَمْ يَطْمِئِنَّ إِلَيْهِنَّ فَبَلَغَهُنَّ وَلَا جَانٌّ ﴿٥١﴾﴾ [الرحمن].

فهن قاصرات الطرف، أي: محبوسات في رؤيا العين على أزواجهن، فلا يرين غيرهن، وهن أيضاً مقصورات في الخيام لا يخرجن منها.

والإسلام يكره المرأة الولّاجة الخرجة، أي: كثيرة الدخول والخروج.

وفي هذين الوصفين: سعادة الأسرة، وصيانة المجتمع، وتجنب كثرة الطلاق، وتشريد

(١) أخرجه ابن أبي حاتم وابن مردويه، «الدر المنثور» (١٢/٤٠٢).

الأبناء، وجرائم الزنى، وفساد الأخلاق.

ثم بيّن سبحانه أن نساء الجنة إلى جوار رقّتهن ونُعومتهم ولُطفهن فإنهن مصونات عن الابتذال، فلا تمتد إليهن الأيدي ولا العيون، فهن كالبيض المصون الذي لم تمسه الأيدي ولم تره الأعين.

والبيض المكنون: هو بيض النعام الذي أخفاه الريش في العش، فلم تمسه الأيدي، ولم يُصبه الغبار.

وبيض النعام في بياضه وصفائه يخالطه شيء من الصفرة، وهو لون محبوب في النساء عند العرب.

وهكذا نساء أهل الجنة في صفاء البشرة ونقاء الجسد، وحُسنهن وبهائهن.

قال ابن عباس رضي الله عنهما: كأنهن اللؤلؤ المكنون في أصدافه، واستشهد بقوله تعالى:

﴿وَحُورٌ عِينٌ ﴿٢٢﴾ كَأَمْثَلِ اللَّوْلُؤِ الْمَكْنُونِ ﴿٢٣﴾﴾ [الواقعة].

والغرض أنهن مع هذا الجمال الباهر مصونات كالدر في أصدافه، مع رقة ولُطف ونعومة.

وهكذا وصف الله تعالى الحور العين في الآية بثلاث صفات:

الأولى: أنهن قاصرات الطرف، أي: أن عيونهن قاصرات على أزواجهن لا ينظرن إلى غيرهم لشدة اقتناعهن واكتفائهن بهم.

الثانية: أنهن عِين، أي: واسعات دائرة العين، وهي صفة للمرأة التَّجَلَاء العِيناء.

الثالثة: أنهن بيض بياضاً مُشرباً بصفرة؛ لأن هذا هو لون بيض النعام الذي شبههن الله به، قال تعالى: ﴿كَأَنَّهُنَّ الْيَاقُوتُ وَالْمَرْجَانُ ﴿٥٨﴾﴾ [الرحمن].

جاء في الأثر: أن أم سلمة رضي الله عنها قالت: يا رسول الله، أخبرني عن قوله تعالى: ﴿كَأَنَّهُنَّ بَيْضٌ مَّكْنُونٌ ﴿١٩﴾﴾ قال: «رقّتهن كرقّة الجلد التي رأيتها في داخل البيضة التي تلي القشرة»^(١).

(١) «تفسير الطبري» (٣٧/٢٣) ورواه الطبراني في «المعجم الكبير» (٣٦/٢٣) قال الهيثمي في «مجمع الزوائد» (١١٩/٧): فيه سليمان بن أبي كريمة، ضعّفه أبو حاتم وابن عدي.

وعن أنس رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «أنا أول الناس خروجًا إذا بُعثوا، وأنا خطيبهم إذا وفّدوا، وأنا مبشرهم إذا حزنوا، وأنا شفيعهم إذا حُبسوا، لواء أهل الجنة يومئذ بيديّ، وأنا أكرم ولد آدم على ربي ﷻ ولا فخر، يطوف عليّ ألفا خادم، كأنهن البيض المكنون، أو اللؤلؤ المكنون»^(١).

ففي هذه الآيات [٤٩-٤٠] وصف الله عباده المخلصين بأنهم: مكرمون في الملأ الأعلى، وأن طعامهم فواكه، وأنهم على سرر متقابلين، مخدومون لا يبذلون شيئًا من الجهد، في راحة ورضوان ونعيم، يتفكّهون بخمر الآخرة، في سعادة غامرة مع أزواجهن من الحور العين، في وفاق ووثام دون تخاصم ولا تنازع.

قال أبو حيان: ذكر تعالى في هذه الآيات:

أولًا: الرزق، وهو ما تتلذذ به الأجسام.

وثانيًا: الإكرام، وهو ما تتلذذ به النفوس، ثم ذكر المحلّ، وهو جنات النعيم، ثم لذة الاجتماع ﴿عَلَى سُرُرٍ مُّتَقَابِلِينَ﴾ وهو أتم للسرور والأنس، ثم ذكر المشروب وهو الخمر التي تدار عليهم بالكؤوس، ولا يتناولونها بأنفسهم، ثم ختم باللذة الجسدية -أبلغ الملاذ- وهي التأنس بالنساء^(٢).

الْوَصْفُ السَّادِسُ: تَجَاذُبُ أَطْرَافِ الْحَدِيثِ بَيْنَ أَهْلِ الْجَنَّةِ

٥٠، ٥١ - ﴿فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ﴾ قَالَ قَائِلٌ مِّنْهُمْ إِنِّي كَانَ لِي قَرِينٌ ﴿٥١﴾

ثم أخبر سبحانه عما يتحدث به أهل الجنة فيما بينهم للأنس والسرور، وهم على موائد الشرب يتلذذون بكل مُمتّع، ويُتعمّون بتجاذب أطراف الحديث، فيتذكرون الماضي والحاضر، ويسأل بعضهم بعضًا عن أحوالهم في الدنيا، وما كانوا يُعانون فيها، وما أنعم الله به عليهم في الجنة، وهذا من تمام الأنس، إذ إن الناس في الآخرة يعودون بذاكرتهم إلى ما كانوا عليه في الدنيا، مما مرت به من الخواطر السيئة والأكدار النفسية، وغيرها

(١) رواه البيهقي في «دلائل النبوة» (٣٨٣/٥).

(٢) «تفسير البحر المحیط» (٣٥٩/٧).

من حسن الأحوال ومجالسة الأصحاب، وسائر الذكريات، ويكون ذلك بعد ما استشعروا وتذوّقوا لذة النعيم الذي هم فيه، جزاء إيمانهم وإخلاصهم.

وقد حُذِفَ المتسائل في الآية لدلالة ما بعده عليه، كما في قوله تعالى: ﴿فِي جَنَّةٍ يَسَاءُلُونَ عَنِ الْمُجْرِمِينَ﴾ [المدثر].

على أن المقام مقام لذة وسرور، وأهل الجنة يتساءلون عما يتلذذون بالحديث عنه من المسائل التي وقع فيها نزاع وإشكال في الدنيا، كي تنكشف لهم الحقائق التي لم يعرفوها في الدنيا.

وبينما هم في الجنة وإذا أحدهم يستعيد ماضيه، ويقصُّ على إخوانه طرفاً مما وقع له في الدنيا، حيث تذكّر صديقاً له، كان يجادله وهو في الدنيا في أمر البعث والحساب والجزاء، فيحمد الله تعالى أن هداه لعدم الإصغاء إليه، فأقبل على جلسائه يحدثهم بهذه القصة، ويثيرهم صديقه هذا وهو في وسط النار ﴿قَالَ قَائِلٌ مِنْهُمْ﴾ لقد كان لي في الدنيا صديق ملازم لي، يُنكر البعث:

قيل: هما أصحاب قصة سورة الكهف [٣٢-٤٣] التي جاءت في قوله تعالى: ﴿وَأَضْرِبْ لَهُمْ مَثَلًا رَجُلَيْنِ﴾.

فقد ورد عن عطاء الخراساني: أنها نزلت في أخوين: مؤمن وكافر، كانا غنيين، وكان المؤمن ينفق ماله في الصدقات، وكان الكافر ينفق ماله في اللذات^(١).

وقيل: إنهما شريكان كان لهما ثمانية آلاف دينار، فكان أحدهما عابداً ناسكاً مقبلاً على الله، مقصراً في تجارته، وكان الآخر مقبلاً على الدنيا منمياً أمواله، وكلما اشترى بستاناً أو داراً أو جارية ونحو ذلك، يفتخر على المؤمن بكثرة ماله، وكان المؤمن كلما سمع ذلك تصدّق بمثله في سبيل الله، يشتري به قصراً في الجنة، فإذا سأله الكافر عن ماله ماذا صنع فيه؟ قال له: تصدقتُ به لله، فكان يسخر منه، و ﴿يَقُولُ أَأَنْتَ لِمَنِ الْمُصَدِّقِينَ﴾ [٥٢] إِذَا مِنَّا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظْمًا أَهْنَا لَمَبْدُونُ ﴿[٥٣]﴾ فقص الله خبرهما في كتابه^(٢).

وقد كان الرجل مسلماً، وصاحبه كافراً يجادله في الإسلام ويحاول تشكيكه فيه رجاء

(١) «التحرير والتنوير» (١١٩/١١) و«تفسير عبد الرزاق» (٤٩/٢).

(٢) يُنظَر: «تفسير الطبري» (٣٨/٢٣) و«تفسير ابن كثير» للآية (١٧/٧).

أن يعود إلى الكفر.

وهذا منظر مألوف متكرر في دنيا الناس، يحاول كل صديق أن يجر صديقه إلى مذهبه، فإذا لم يكن المؤمن قويًا في إيمانه انزلق وضاع.

والقرين قد يكون من الجن، فيوسوس في النفس، كما قال تعالى: ﴿مِن شَرِّ الْوَسْوَاسِ الْخَنَّاسِ ﴿٤﴾ الَّذِي يُوَسْوِسُ فِي صُدُورِ النَّاسِ ﴿٥﴾﴾ [الناس].

وقد يكون القرين من الإنس -وهو الأرجح هنا- فيقول كلامًا تسمعه الأذن، كما قال تعالى: ﴿يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُورًا﴾ [الأنعام: ١١٢].

ويمضي الكافر في إغواء المؤمن وهما في الدنيا:

٥٢، ٥٣- ﴿يَقُولُ أَهْلَكَ لِمَنِ الْمَصْدِقِينَ ﴿٥٢﴾ أَهَذَا مِنَّنَا^(١) وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظْمًا أَهْنَا لَمَدِينُونَ ﴿٥٣﴾﴾

أي: أن هذا القرين كان يقول لصاحبه في الدنيا: أتصدق يا صاحبي أن هناك بعثًا وحسابًا، وثوابًا وعقابًا، وجنة ونارًا، أتصدق بالبعث والجزاء؟ هذا أمر في غاية الغرابة والبعد! فهل إذا متنا وانتهت حياتنا في الدنيا، وصِرْنَا في القبور وتفتت أجزاءنا وتقطعت أوصالنا، وأصبحنا ذرات من التراب، وعظامًا نخرة بالية، أننا لمحاسبون ومجزئون بأعمالنا وأقوالنا؟ يقول ذلك على وجه التكذيب والتعجب والاستبعاد.

ويوم الدين هو الذي يدان فيه العباد، أي: يُجزون فيه بأعمالهم قال تعالى: ﴿أَرَأَيْتَ الَّذِي يَكْذِبُ بِالَّذِينِ ﴿٦﴾﴾ أي: بيوم الحساب والجزاء، وقال أيضًا: ﴿مَلِكِ يَوْمِ الدِّينِ ﴿٧﴾﴾.

وهكذا يقول صاحب الجنة لإخوانه الذين معه الذين معه في الجنة: هذه قصتي، وهذا خبري أنا وقريني، فلم يزل هو كافرًا منكرًا للبعث والنشور، ولم أزل أنا مؤمنًا مصدقًا باليوم الآخر وما فيه من بعث وحساب وجزاء، حتى متنا، ثم بُعثنا، فوصلت أنا إلى ما ترون من هذا النعيم الذي أخبرتنا به الرسل، وهو لاشك قد وصل إلى العذاب الأليم:

(١) قرأ ابن كثير وأبو عمرو وابن عامر وشعبة وأبو جعفر ويعقوب بضم الميم من (متنا)، والباقون بكسرها.

٥٤، ٥٥- ﴿قَالَ هَلْ أَنتَ مُطْلَعُونَ ﴿٥٤﴾ فَأُطْلِعَ قَرَأَهُ فِي سَوَاءِ الْجَحِيمِ ﴿٥٥﴾﴾

ثم إن المؤمن يعلم أن قرينه قد مات على الكفر، ويعلم أن الكافر مخلد في النار، وهو موقن بأن خازن النار سوف يُطلعه -وهو في الجنة- على مثوى قرينه في النار إذا طلب ذلك؛ لأن أهل الجنة يُجابون إلى ما يطلبون، كما قال تعالى: ﴿وَلَهُمْ مَا يَدْعُونَ﴾ [يس: ٥٧] أي: يجاب لهم ما يسألون ويطلبون.

ثم إن هذا المؤمن قد تشوّفت نفسه إلى رؤية قرينه المكذّب بالبعث والنشور وهو في النار؛ ليحمد الله على ما هو فيه من نعمة، فعرض على إخوانه الذين معه في الجنة أن يشاركوه في الاطلاع على مصيره بعد أن ذكر لهم قصة إنكاره للبعث، فقال لهم على سبيل الطلب والحث: ﴿هَلْ أَنتَ مُطْلَعُونَ ﴿٥٤﴾﴾ معي على أهل النار، لنرى جميعاً حال ذلك القرين فيها؟ فهياً معي صاحبوني في الاطلاع على مصير هذا القرين الكافر لنزداد غبطة بما نحن فيه.

فنظر المؤمن، وصحبه الذين معه في الجنة، فأبصر صاحبه في وسط الجحيم يتلظى بسعيرها ولهيبها ﴿فَأُطْلِعَ﴾ واطلعوا معه ﴿قَرَأَهُ﴾ ورأوه معه ﴿فِي سَوَاءٍ﴾ أي: في وسط نار ﴿الْجَحِيمِ﴾ ويسمى الوسط سواء؛ لاستواء المسافة بالقسمة لجميع الأطراف.

قال ابن عباس ؓ: في الجنة كُوى ينظر منها أهلها إلى النار.

وقال كعب الأحبار: في الجنة كُوى إذا أراد أحد من أهلها أن ينظر إلى عدوه في النار، اطلع منها فازداد شكراً.

وقال قتادة: ذكر لنا أنه اطلع فرأى جماجم القوم تغلي.

نعوذ بالله من النار ومن عذاب النار!

وهذه الطاقات التي تكون في الجنة ينظرون منها من علوّ شاهق إلى دركات النار، وهي مسافة بعيدة، فلعل الله تعالى أن يجعل بصرهم نافذاً حاداً، ولعل اطلاعهم يكون من فوق السور، أي: الأعراف المضروب بين الجنة والنار^(١).

(١) يُنظَر: «تفسير الألوسي» (٩٢/٢٣).

الْحَوَارُ بَيْنَ الْمُؤْمِنِ وَالْكَافِرِ فِي الْآخِرَةِ

٥٦، ٥٧- ﴿قَالَ تَاللَّهِ إِنْ كِدْتَ لَتُرْدِينَ^(١)﴾ ٥٦ ﴿وَلَوْلَا نِعْمَةُ رَبِّي لَكُنْتُ مِنَ الْمُحْضَرِينَ﴾ ٥٧

أي: أن المؤمن يخاطب قرينه الذي في النار بسبب إنكاره البعث، يخاطبه لائماً له على حاله، وشاكراً نعمة الله عليه أن نجاه من إضلاله وإغوائه له، قائلاً: لقد قاربت أن تُهْلِكَنِي بِصَدِّكَ إِيَّايَ عَنِ الْإِيمَانِ - وأنا في الدنيا - لو أظَعْتُكَ، وتدخلني معك في النار - اليوم - بسبب إغوائك وإضلالك لي.

وفي هذا توبيخ وتأنيب لقرينه، وهو يتضمن ندامة الكافر على محاولته إغواء صديقه وإضلاله، وإيقاعه في الردى، بالإلحاح عليه، وصرفه عن الإيمان بالبعث، لشدة ما بينهما من الصبغة.

ثم قال المؤمن وهو فرح بنعمة الله تعالى عليه: ﴿وَلَوْلَا نِعْمَةُ رَبِّي﴾ على أن هداني للإيمان وثبتني عليه ﴿لَكُنْتُ مِنَ الْمُحْضَرِينَ﴾ في العذاب معك الآن، وفي هذا المصير المؤلم. قال المؤمن متهكماً من إنكار صديقه الكافر للبعث وهما في الدنيا:

٥٨، ٥٩- ﴿أَفَمَا نَحْنُ بِمَمَيَّنِينَ﴾ ٥٨ ﴿إِلَّا مَوَلَّنَا أَوَّلَىٰ وَمَا نَحْنُ بِمُعَدِّيْنَ﴾ ٥٩

ويستمر المؤمن في مخاطبته للكافر، فيحكي قوله في الدنيا من باب التهكم والسخرية موجّهاً له الخطاب: هل لاتزال على اعتقادك بأننا لن نموت إلا موة واحدة، وأنه لا بعث ولا حساب ولا جزاء؟ ﴿أَفَمَا نَحْنُ بِمَمَيَّنِينَ﴾ ٥٨ ﴿إِلَّا مَوَلَّنَا أَوَّلَىٰ﴾ في الدنيا ﴿وَمَا نَحْنُ بِمُعَدِّيْنَ﴾ ٥٩ أفترعّم أننا لا نُبعث في الآخرة، بعد الموت الذي ذقناه في الدنيا، وهو أسلوب ساخر لاذع يظهر فيه تشفي المؤمن من قرينه، والتحدث بنعمة الله عليه، فهو مبتهج بنعمة الله عليه بالخلود الدائم في الجنة، والسلامة من العذاب، وهو استفهام بمعنى الإثبات والتقرير.

وهذا المعنى هو الأنسب للسياق، وما بعده من كلام الله تعالى، أي: أن هاتين الآيتين من كلام المؤمن، على سبيل التلذذ بما هو فيه من نعيم، وتقرير الخلود فيه، وعدم الموت مرة أخرى، إذ لا موت آخر بعد البعث والنشور، وهذا بخلاف قوله تعالى عنهم:

(١) قرأ ورش بإثبات الياء وصلّاً من (لتردين) ومثله يعقوب في الحاليين، والباقون بالحذف.

﴿قَالُوا رَبَّنَا آمَنَّا أَتَيْنَاكَ فَاَلْمُوتَانِ﴾ فـالموتان هما العدم قبل الإيجاد، ثم الموت في نهاية العمر و﴿وَأَحْيَيْتَنَا أَتَيْنَاكَ﴾ [غافر: ١١] أي: حياة الدنيا وحياة الآخرة، فهما الحياتين.

ويقال: إن هذا سؤال يصدر من أهل الجنة للملائكة حين يُذبح الموت بين الجنة والنار، ويقال: يأهل الجنة خلود بلا موت، ويأهل النار خلود بلا موت.

عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «يجاء بالموت يوم القيامة كأنه كبش أملح، فيوقف بين الجنة والنار، فيقال: يأهل الجنة، هل تعرفون هذا؟ فيشربون - أي يرفعون رؤوسهم - ويقولون: نعم، هذا الموت، قال: ويقال: يأهل النار، هل تعرفون هذا؟ قال: فيشربون وينظرون ويقولون: نعم، هذا الموت، قال: فيؤمر به فيذبح قال: ثم يقال: يا أهل الجنة خلود فلا موت، يا أهل النار خلود فلا موت» ثم قرأ رسول الله ﷺ: ﴿وَأَنذَرَهُمْ يَوْمَ الْحُسْرَىٰ إِذْ فُضِيَ الْأَمْرُ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ وَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ (٣٩) وأشار بيده إلى الدنيا^(١).

التَّغْقِيبُ عَلَى الْقِصَّةِ وَبَيَانُ الْعِبْرَةِ الْمُسْتَفَادَةِ مِنْهَا

٦٠، ٦١ - ﴿إِنَّ هَذَا لَهُوُ الْفَوْزِ الْعَظِيمِ﴾ (٦٠) لِمَثَلِ هَذَا فَلْيَعْمَلِ الْعَامِلُونَ (٦١)

قال تعالى معقِّباً على هذه القصة، بعد أن ذكر نعيم أهل الجنة ووصفه بهذه الأوصاف الجميلة، ومرعِّباً عباده في العمل لهذا النعيم الدائم الذي آل له هذا المؤمن: إن هذا النعيم الذي ناله أهل الجنة، هو الفوز العظيم الذي لا يدانيه فوز، ولا يقاربه فلاح، فيه اندفاع كل مكروه، وحصول كل مطلوب، وفيه الرضا والرضوان، ونعيم الجنات، ورؤية رب الأرض والسموات.

ولمثل هذا العطاء الجزيل، والنعيم المقيم يجب أن يعمل العاملون، ويجتهد المجتهدون، فهو النعيم الكامل، والخلود الدائم، والفوز العظيم، ولمثل هذا النعيم ﴿فَلْيَعْمَلِ الْعَامِلُونَ﴾ في الدنيا ليصيروا إليه في الآخرة، فهو أحق ما يتنافس فيه المتنافسون، وأعظم ما يشمّر له العارفون، ويجتهد في الوصول إليه المجتهدون:

عن البراء بن عازب رضي الله عنه قال: كنت أمشي مع رسول الله ﷺ يده في يدي، فرأى

(١) هذا لفظ مسلم في صحيحه (٢/٢١٨٨) برقم (٢٨٤٩) والبخاري في صحيحه (٨/٣٢٥) برقم (٤٧٣٠).

جنازة، فأسرع المشي حتى أتى القبر، ثم جثا على ركبتيه، فجعل يبكي حتى بلّ الثرى، ثم قال: ﴿لِيُثِلَّ هَذَا فَلْيَعْمَلِ الْعَمِلُونَ﴾ (١).

وعند ابن ماجه عن البراء قال: كنا مع رسول الله ﷺ في جنازة فجلس على شفير القبر، فبكى حتى بلّ الثرى، ثم قال: يا إخواني: «لمثل هذا فأعدوا» (٢).

وقال أنس ؓ: دخلت مع النبي ﷺ على رجل وهو يجود بنفسه، فقال: ﴿لِيُثِلَّ هَذَا فَلْيَعْمَلِ الْعَمِلُونَ﴾ (٣).

الزَّقُومُ طَعَامُ أَهْلِ النَّارِ

٦٢، ٦٣ - ﴿أَذَلِكَ خَيْرٌ نُزْلاً أَمْ شَجَرَةُ الزَّقُّومِ﴾ (١١) إِنَّا جَعَلْنَاهَا فِتْنَةً لِلظَّالِمِينَ ﴿١٢﴾

أي أذلك النعيم الذي وصفناه لأهل الجنة خير، أم العذاب الذي يكون في الجحيم لأهل النار، ومن ذلك طعامهم فيها، فأَي الطعامين أولى؟

وبضدها تتميز الأشياء؛ ليتضح الفارق الهائل بين النعيم الدائم الآمن الراضى، والمصير الآخر الذي ينتظره أهل الكفر والضلال.

والمعنى: قل - يا أيها النبي - للكفار المكذبين بالبعث والنشور في كل زمان ومكان: أهذا الذي ذكرته لكم من طعام أهل الجنة وشرابهم، ومسكنهم وراحتهم أحسن ضيافة، وخير مكاناً ومكانة، أم عذاب أهل النار؟ كما قال تعالى: ﴿أَيُّ الْفَرِيقَيْنِ خَيْرٌ مَقَامًا وَأَحْسَنُ نَدِيًّا﴾ [مريم: ٧٣] أيهما خير وأفضل: طعام أهل الجنة من الفواكه والثمار، أم طعام أهل النار من شجرة الزقوم التي يُكْرَهُونَ على موارثها وتجرع مذاقها؟

(١) معنى الحديث عند أحمد (٥٦٣/٣٠) (١٨٦٠١)، بإسناد ضعيف لضعف الجوزجاني وباقي رجاله ثقات ورجال الشيخين (محققوه) وأخرجه ابن أبي شيبة (٢٢٦/١٣) وابن ماجه (٤١٩٥) والبيهقي في السنن (٣٦٩/٣) وفي الشعب (١٠٥٤٧).

(٢) «صحيح سنن ابن ماجه» (٣٣٨٣)، بتحسين الألباني له وهذا لفظه، وهو في السلسلة الصحيحة (١٧٥١) وقد جاء بأطول من هذا في مسند أحمد (١٨٦٠١) وضعفه بلفظه محققو المسند لضعف محمد بن مالك الجوزجاني ففيه كلام وبقية رجاله ثقات رجال الشيخين، ورواه آخرون، وضعفه البوصيري في الزوائد.

(٣) أخرجه ابن مردويه كما في «الدر المنثور» (٤١٥/١٢).

وشجرة الزقوم: هي شجرة لا وجود لها في الدنيا، وإنما يخلقها الله تعالى في النار، كما يخلق الحيات والعقارب وغيرهما من أصناف العذاب.

وقيل: هي شجرة سامة، موجودة في الأراضي المجاورة للصحراء، كبلاد تهامة، ولها ورق صغير فيه لبن، وإذا مسّت جسد أحد تورّم ومات في الغالب^(١).

والزقوم: من التزقم، وهو ابتلاع الشيء الكريه بمشقة شديدة، وفي هذا توبيخ وتقريع للكفار.

قال ابن الزبيري لصناديد قريش: إن محمدًا يخوفنا بالزقوم، والزقوم هو الزبد والتمر، فأدخلهم أبو جهل بيته، وقال: يا جارية، زقمينا، فأتتهم بالزبد والتمر، فقال أبو جهل: تزقموا، فهذا ما يتوعّدكم به محمد.

وقال ابن الزبيري: أكثر الله في بيوتكم الزقوم، فإن أهل اليمن يُسمّون التمر والزبد بالزقوم.

وسورة الواقعة نزلت قبل سورة الصافات، وفيها قوله تعالى: ﴿ثُمَّ إِنَّكُمْ أَنْتَ الْأَصْلَاحُونَ الْمَكْذِبُونَ﴾ (٥١) لَأَكُونُ مِنْ شَجَرٍ مِنْ زُقُومٍ (٥٢) فَمَالِئُونَ مِنْهَا الْبُطُونَ ﴿[الواقعة: ٥١-٥٣].

و(ال) هنا للعهد، أي: الشجرة التي سبق ذكرها في سورة الواقعة، ولم يكونوا يعرفونها، حتى نزلت آية الواقعة.

وجاء مثل ذلك في قوله تعالى: ﴿إِنَّ شَجَرَتَ الزُّقُومِ﴾ (٤٣) طَعَامُ الْآثِيمِ (٤٤) كَالْمُهْلِ يَغْلِي فِي الْبُطُونِ (٤٥) كَغَلِي الْحَمِيمِ (٤٦) ﴿[الدخان].

قال ابن عباس ؓ: مر أبو جهل برسول الله ﷺ وهو جالس، فلما بُعد، قال رسول الله ﷺ: ﴿أَوَلَيْكَ فَآوَىٰ (٢٤) ثُمَّ أَوَلَيْكَ فَآوَىٰ (٢٥)﴾ فسمع أبو جهل، فقال: من تُوعِد يا محمد؟ قال: «إياك»، فقال: بم تُوعِدني؟ قال: «أُوْعِدُكَ بالعزیز الكريم» فقال أبو جهل: أليس أنا العزيز الكريم، فأنزل الله ﴿إِنَّ شَجَرَتَ الزُّقُومِ﴾ (٤٣) إلى قوله: ﴿ذُقْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ﴾ (٤٦) ﴿[الدخان].

فلما بلغ أبا جهل ما نزل فيه جمع أصحابه، فأخرج إليهم زُبْدًا وتمرًا، فقال: تزقموا

(١) قاله قطرب وأبو حنيفة كما نقله ابن عاشور في تفسيره للآيتين (١٢٣، ١٢٤).

من هذا فوالله ما يتوعدكم محمد إلا بهذا، فأنزل الله آيات سورة الصافات: ﴿إِنَّهَا شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِي أَصْلِ الْجَحِيمِ﴾ (٦٤) إلى قوله: ﴿ثُمَّ إِنَّ لَهُمْ عَلَيْهَا لَشَوْبًا مِّنْ حَمِيمٍ﴾ (٦٥) (١).

وقد جاء الكلام عن شجرة الزقوم مجملًا في سورة الواقعة، وفُصِّلَتْ أوصافها في السورتين الصافات والدخان، وهي شجرة خبيثة مذمومة، ملعونة في القرآن، كما قال تعالى: ﴿وَالشَّجَرَةُ الْمَلْعُونَةُ فِي الْقُرْآنِ﴾ [الإسراء: ٦٠].

ولما ذكرت شجرة الزقوم في القرآن افتنن بها أهل الضلال، فأخذوا يسخرون ويتهكمون، ويقولون: إن محمدًا يزعم أن في النار شجرة، والنار تأكل الشجر، فأنزل الله تعالى يبين أنه جعل ذكرها في القرآن مثيرًا لفتنة الظالمين بالتكذيب والتهكم (٢).

وقد حدث هذا لما وصف الله تعالى جهنم بأن عليها تسعة عشر، حيث قال أبو جهل لقريش: ثكلتكم أمهاتكم، إن ابن أبي كبشة يخبركم أن خزنة النار تسعة عشر، وأنتم اللّهم، أيعجز كل عشرة منكم أن يبطشوا برجل منهم، فقال: أبو الأشد الجُمحي: أنا أكفيكم سبعة عشر، فاكفوني أنتم اثنين، فأنزل الله تعالى: ﴿وَمَا جَعَلْنَا أَصْحَابَ النَّارِ إِلَّا مَلَائِكَةً وَمَا جَعَلْنَا عِدَّتَهُمْ إِلَّا فِتْنَةً لِلَّذِينَ كَفَرُوا﴾ [المدثر: ٣١].

هذه فتنتهم في عدد خزنة النار من الملائكة.

أما فتنة شجرة الزقوم، فإن الكفار قالوا: كيف يخبر محمد عن النار أنها تُنبِت الأشجار، وهي تأكلها وتذهبها؟! فقولهم هذا من الفتنة؛ لأنه يزيدهم كفرًا وتكذيبًا (٣).

وهذا القول جهل منهم؛ إذ لا يستحيل على الله تعالى أن يخلق في النار شجرًا من جنسها لا تأكله النار، كما يخلق الأغلال والسلاسل. ثم ما شجرة الزقوم؟ قال تعالى:

٦٤، ٦٥ - ﴿إِنَّهَا شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِي أَصْلِ الْجَحِيمِ﴾ (٦٤) طَلْعُهَا كَأَنَّهُ زُؤُوسُ الشَّيْطَانِ (٦٥)

﴿إِنَّهَا شَجَرَةٌ﴾ نارية، من شجر النار تُنبِت في قعر جهنم، وأغصانها ترتفع إلى دركاتِها، ومعدنها أشر المعادن وأسوؤها، وغراسها شر المغارسي.

(١) أخرجه ابن مردويه كما في «الدر المنثور» (٤١٦/١٢).

(٢) قاله قتادة، «تفسير الطبري» (٥٥٣/١٩).

(٣) نقله ابن عطية عن السُّدِّي ومجاهد (٤٧٥/٤).

أما ثمر شجرة الزقوم الذي يتولد عنها فهو كطلع النخلة، يخرج منها في الأغصان والفروع، وهو يُشبه في تناهي قبحه وبشاعته وكراهيته رؤوس الشياطين، وهي أقبح ما يتصوره العقل، وأبغض شيء يتخيله الخاطر.

ورؤوس الشياطين غير معروفة، ولكن الشيطان مكروه، مستقبح في طباع الناس، فهم يعتقدون أنه شر محض، لا يخالطه مثقال ذرة من خير، ولذا شُبه به الزقوم، كما يقول الناس عن شخص قبيح المنظر: كأنه شيطان، أو كأن رأسه رأس شيطان.

والعرب لما اعتقدوا أن (الملَك) خير مَحْض، لا يخالطه شر أبداً، شَبَّهوا به الصورة الحسنة، كما قال تعالى على لسان النسوة في قصة يوسف عليه السلام: ﴿مَا هَذَا بَشَرًا إِنْ هَذَا إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ﴾ [يوسف: ٣١].

وقيل: إن في بادية باليمن شجرة قبيحة مُتَتَنَة، تسمى رؤوس الشياطين، وهذه الشجرة تسمى (الْأَسْتَن) بفتح الهمزة والتاء وسكون السين، وهي تشبه صورة الإنسان، وسموها شجرة رؤوس الشياطين، لبشاعة منظرها^(١).

ولعل هذا من باب التمثيل، فإن شجر جهنم لا يبس ولا يتحول حطباً، فإن كان ثمر هذه الشجرة، أو طلُعها بهذا القبح، فلا تسأل بعد هذا عن طعمها! ولا ما تفعل في بطون أهلها، وليس لهم عنها معدل ولا مندوحة، قال تعالى:

٦٦ - ﴿فَاتَمَّ لَأَكُلُونَ مِنْهَا فَمَا لَوْنَ^(٢) مِنْهَا الْبُطُونَ

أي ومع أن شجرة الزقوم منبتها وثمرها في النار، ولا يمكن بلع شيء منها إلا بعنف وإكراه شديد، فإن أهل النار يأكلون منها حتى تمتلئ البطون، فهي طعامهم الذي أعده الله لهم في النار، إلى جوار الضريع والغسلين الذي قال الله عنه: ﴿لَيْسَ لَهُمْ طَعَامٌ إِلَّا مِنْ ضَرِيعٍ

﴿٦٦﴾ لَا يُسْنِنُ وَلَا يُغْنِي مِنْ جُوعٍ ﴿٦٧﴾﴾ [الغاشية].

(١) يُنْظَرُ: «تفسير الخازن» (١٦/٤) و«تفسير الطاهر بن عاشور» للآية (١٢٤/٢٣).

(٢) قرأ أبو جعفر بحذف الهمزة وضم اللام من (فمالتون) ومثله حمزة عند الوقف، ويزيد عليه التسهيل بين الهمزة والواو، والإبدال ياء خالصة، والباقون بكسر اللام وإثبات الهمزة.

وقال سبحانه: ﴿وَلَا طَعَامٌ إِلَّا مِنْ غِسْلِينٍ ﴿٣٦﴾ لَا يَأْكُلُهُ إِلَّا الْخَاطِئُونَ ﴿٣٧﴾﴾ [الحاقة].

وملء البطون كناية عن كثرة الأكل، وسرعة الالتقام منها، كما يسرع من يتناول الدواء الكريه ببلعه، حتى لا يستقر طعمه على لسانه، وهذا غاية الذل والهوان.

جاء في الحديث عن ابن عباس ؓ: «فلو أن قطرة من الزقوم قطرت في بحار الدنيا - لأفسدت على أهل الأرض معاشهم، فكيف بمن تكون طعامه»^(١).

وهي لا تُحَرِّق لأنها من نوع الجحيم.

شَرَابُ أَهْلِ النَّارِ

٦٧- ﴿ثُمَّ إِنَّ لَهُمْ عَلَيْهَا لَشَوْبًا مِنْ حَمِيمٍ ﴿٦٧﴾﴾

وبعد أن ذكر سبحانه طعام أهل النار ذكر شرابهم، وذلك أنه بعد أن تمتلئ بطون أهل النار من طعام الزقوم يغلبهم العطش، فيتطلعون إلى الشراب البارد؛ ليطفئ لهيب بطونهم، فيكون شرابهم: خليط من ماء بالغ الحرارة، يقطع الأحشاء، فيجتمع لهم بين مرارة الزقوم وحرارة الحميم، تغليظاً لعذابهم، ولا يُسَقَوْنَ بهذا الشوب، إلا بعد أن تمتلئ بطونهم من الزقوم، إمعاناً في تعذيبهم، قال تعالى: ﴿وَسُقُوا مَاءً حَمِيمًا فَقَطَّعَ أَمْعَاءَهُمْ﴾ [محمد: ١٥].

وقال سبحانه: ﴿وَإِنْ يَسْتَعْشِبُ يُعَانُوا يَمَاءً كَالْمُهْلِ يَشْوِي الْوُجُوهَ﴾ [الكهف: ٢٩].

وهذا الخلط أو المزج بين الطعام والشراب، يحدث أيضاً في شراب أهل الجنة، ولكنه يكون خليطاً بين الرحيق المختوم وعين التسنيم، قال تعالى: ﴿وَزَاجِجُهُمْ مِنْ تَسْنِيمٍ ﴿٧٧﴾ عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا الْمُقَرَّبُونَ ﴿٧٨﴾﴾ [المطففين].

جاء في الأثر: أن هذا الماء الذي بلغ النهاية في الحرارة، إذا اقترب منه أهل النار شوى الوجه، ووقعت فروة الرأس، فإذا شربه قطع أمعائه حتى تخرج من دبره^(٢).

(١) من حديث ابن عباس في «سنن الترمذي» برقم (٢٥٨٥) قال أبو عيسى: هذا حديث حسن صحيح، وأخرجه النسائي في «السنن الكبرى» برقم (١١٠٧٠) و«سنن ابن ماجه» برقم (٤٣٢٥).

(٢) المعنى من حديث أبي أمامة الباهلي في «مسند أحمد» (٢٦٥/٥) والحاكم في «المستدرک» (٣٥١/٢) من طريق عبد الله بن المبارك عن صفوان بن عمرو.

وعن سعيد بن جبير: أن أهل النار إذا جاعوا استغاثوا بشجرة الزقوم، فأكلوا منها، . . ثم يصبُّ عليهم العطش فيستغيثون، فيغاثون بماء كالمهل، فإذا أدنوه من أفواههم اشتوى من حره لحوم وجوههم التي سقطت عنها الجلود، ويُضهر ما في بطونهم، فيمشون، تسيل أمعاؤهم وتتساقط جلودهم، ثم يُضربون بمقامع من حديد، فيسقط كل عضو على حياله، فيدعون على أنفسهم بالشبور^(١).

مُسْتَقَرُّ أَهْلِ النَّارِ وَدَارُ إِقَامَتِهِمْ

٦٨- ﴿ثُمَّ إِنَّ مَرْجِعَهُمْ لَإِلَى الْجَحِيمِ﴾

وبعد أن بيَّن سبحانه طعام أهل النار وشرابهم ذكر مسكنهم ومستقرهم، فبيَّن أن مردَّهم ومآلهم إلى عذاب النار، أي: أن أهل النار حين يعذبون بالأكل من الزقوم، والشراب من الحميم لم يفارقوا الجحيم، وأن هذا الطعام والشراب زيادة على عذاب جهنم، فليس هناك خروج من النار ثم عودة إليها، بل المراد: أنهم يتقلون من حالة طارئة، وهي الطعام والشراب، إلى حالة أصلية مستقرة، وهي دار الخلود في دركات الجحيم، فهي المرجع والمصير والمقر الدائم في نار تتوقد وسعير يتوهج ﴿يَطُوفُونَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ حَمِيمٍ ءَانِي﴾ [الرحمن].

قال ابن مسعود رضي الله عنه: لا يتتصف النهار يوم القيامة حتى يقل أهل النار في النار، وأهل الجنة في الجنة، ثم قرأ: ﴿أَصْحَابُ الْجَنَّةِ يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُسْتَقَرًّا وَأَحْسَنُ مَقِيلًا﴾ [الفرقان]. وقد عجل الله سبحانه في القرآن بذكر مشاهد القيامة لأهل الجنة وأهل النار، وهي من عالم الغيب؛ كي يتدبَّر الناس ذلك وهم في عالم الشهادة، فينظروا جوانب النقص والتقصير قبل أن يأتي يوم لا مرد له من الله، فيندمون ولات ساعة مندم، وكأن سائلاً سأل: ما الذي أوصل أهل النار إلى هذا المصير؟ فكان الجواب في الآيات التالية:

سَبَبُ عَذَابِ أَهْلِ النَّارِ

٦٩، ٧٠- ﴿إِنَّهُمْ أَكْفَرُوا بِآيَاتِهِمْ صَالِينَ﴾ ﴿فَهُمْ عَلَىٰ ءَاتِهِمْ مُّرْعُونَ﴾

(١) نقله ابن كثير في تفسيره للآية عن ابن أبي حاتم (٧/ ٢١).

ثم بيّن سبحانه سبب عذاب أهل النار، وأنه تقليد الآباء في الكفر، وعدم التأمل، وعدم إعمال الفكر والنظر في الأدلة العقلية والعقلية للتوصل إلى معرفة الله تعالى، والتصديق بالرسول الخاتم، والإيمان باليوم الآخر، فإنهم عطّلوا عقولهم، ولم يلتفتوا إلى مадعّتهم إليه الرسل، ولا إلى ما حذّرتهم عنه الكتب، ولم يلتفتوا إلى نصيح الناصحين، بل عارضوهم قائلين ﴿إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ آثَرِهِمْ مُّقْتَدُونَ﴾ [الزخرف].

واكتفوا باتباع آبائهم وأجدادهم الضالين، وظلّوا أسرى البيئة أو المجتمع، فقلّدوا أهل الشرك والضلال، وهذا يحدث في كل زمان ومكان، إنهم وجدوا آباءهم ضالين فاقتفوا آثارهم تقليدًا بدون تأمل، وسارعوا في تقليدهم دون نظر ولا دراسة.

والإهراع: هو الإسراع المفرط في السير لترشّم خطي من يتبعونهم.

إن التقليد الأعمى، والسير وراء ما خلفه الآباء، من أعراف ومبادئ خاطئة هو سبب العذاب، فالحقيقة أن أغلب الناس يلتزمون مواريث آبائهم على ما بها من ضلال، ويهاجمون ما يخالفها من دَعَوَات ونُظُم، ولا يفكّرون في موازنة بينها ولا تمحيص، وقد يقتلون مُعارضيهم تعصّبًا وظلمًا، أو يُنصّبوا أنفسهم للقضاء على أفكارهم، وهذا جهل بيّن، فيجب على الإنسان أن يتحرر من التبعية، ويتجرد في البحث العلمي؛ ليصل إلى الحقيقة ﴿لِيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنْ بَيِّنَةٍ وَيَحْيَىٰ مَنْ حَيَّ عَنْ بَيِّنَةٍ﴾ [الأنفال: ٤٢].

وبهذا تبين أن ما أصاب الأمم الكافرة من عذاب في الدنيا، سببه أن آباءهم ظلّوا مقيمين على الضلال، فاقتدى بهم الأبناء اقتداء أعمى، ولم يكتفوا بهذا الاقتداء، بل أسرعوا في اقتفاء آثارهم دون تدبر ولا تعقّل، ولا دليل ولا برهان، كما يسير الأعمى خلف من يذهب به إلى الهلاك، وفي هذا توبيخ شديد لهم.

أَهْلُ الضَّلَالِ فِي كُلِّ أُمَّةٍ عَاقِبَتُهُمْ وَخِيَمَةٌ

٧١-٧٤- ﴿وَلَقَدْ صَلََّ قَبْلَهُمْ أَكْثَرُ الْأَوَّلِينَ﴾ ٧١ ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا فِيهِمْ مُّنْذِرِينَ﴾ ٧٢ ﴿فَإَنْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُنْذِرِينَ﴾ ٧٣ ﴿إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ﴾ ٧٤

أي: ولهؤلاء المقلدين المعاصرين للرسول ﷺ نظائر من الأمم السابقة، سبقوهم في

الضلال والتقليد الأعمى، فقد ضل عن الحق واتباع الهدى قبل قومك -يا محمد- أكثر الأمم السابقة، ولهم أيضًا نظائر في الأمم اللاحقة، فلا تغتر -أيها المخاطب- بكثرة المشركين، فإن كثرة العدد لا تبرر ضلال الضالين، ولا خطأ المخطئين.

والهدى والضلال حقيقتان ثابتان مستقلتان لا علاقة لهما بكثرة المتبعين أو قلتهم، فلا ينبغي أن يكون هذا فتنة لضعفاء التفكير أو قليلي النظر، قال تعالى: ﴿قُلْ لَا يَسْتَوِي الْخَبِيثُ وَالطَّيِّبُ وَلَوْ أَعْجَبَكَ كَثْرَةُ الْخَبِيثِ﴾ [المائدة: ١٠٠].

وقال سبحانه: ﴿وَلَنْ تَقُوعَ أَكْثَرُ مَنْ فِي الْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ﴾ [الأنعام: ١١٦].

ثم بين جل شأنه أنه أرسل في هذه الأمم السالفة، رسلاً يحذرونهم ما سيحل بهم من العذاب إن هم كذبوا رسل الله، ويخوفونهم عاقبة أهل الكفر والشرك، ولكنهم لم يستجيبوا، فقد أرسلنا في تلك الأمم ﴿مُنْذِرِينَ﴾ من رسل الله يرشدونهم ويحذرونهم عاقبة التكذيب، ولكن هذه الأمم تمادت في الكفر والطغيان.

فانظر وتأمل كيف كانت نهاية هذه الأمم التي أُنذرت، فكفرت بالله ورسله، لقد عذبهم الله تعالى، ودمرهم عن آخرهم، وصاروا للناس عبرة على مر العصور.

وقد استثنى الله سبحانه من جملة المنذرين، مَنْ صدقوا رسل الله، وأخلصوا لله الطاعة والعبادة، وهم الذين أخلصهم الله إليه، واختصهم برحمته، لصدق إيمانهم، وسلامة فطرتهم، فقد نجاهم الله بفضلهم ورحمته مما عذب به الآخرين.

فليحذر المكذبون في كل زمان ومكان أن يستمروا في ضلالهم، حتى لا يصيبهم مثل ما أصاب غيرهم، وفيما يأتي نموذجاً من عواقب الأمم المكذبة لرسل الله:

قَصَصُ الْمُرْسَلِينَ فِي السُّورَةِ سَبْعٌ

ولما ذكر سبحانه أن أكثر الأولين ضلوا طريق النجاة، شرع يفصل ذلك، فذكر طرفاً من قصة ثمانية من رسل الله، هم: نوح، وإبراهيم، وإسماعيل، وموسى، وهارون، وإلياس، ولوط، ويونس عليهم الصلاة والسلام، فقد كذبهم أقوامهم وأذوهم، ونصرهم الله عليهم، وفي هذا تسلية للنبي ﷺ وتثبيت لقلبه، وتبكيك لكل مشرك مكذب لخاتم الرسل ﷺ، واختيار هؤلاء الرسل وتخصيصهم بالذكر هنا:

- ١- لأن نوحًا ﷺ هو القدوة الأولى، وهو شيخ المرسلين، وهو من أولي العزم من الرسل، وقد تحمّل في سبيل الله بلاء طويلاً.
- ٢- أما إبراهيم ﷺ فهو الذي سمانا المسلمين من قبل، وهو الذي وضع أصول الفطرة، وهو رسول الحنيفية السمحة، ونواة الشجرة الطيبة، شجرة الإسلام.
- ٣- أما إسماعيل ﷺ فهو جدّ النبي الخاتم، وأصل وجود الرسالة في سلالته العرب، فمحمّد ﷺ ابن الذبيحين: إسماعيل، وعبد الله.
- ٤، ٥- وموسى ويثبعه هارون عليهما السلام، هو صاحب الكتاب الذي خدم هذا الدين عقيدة وشريعة، ودينًا ودولة، وفيه شبه من كتاب محمد ﷺ.
- وهؤلاء الرسل هم أصول الرسالات، وقد تفرع منهم ثلاثة آخرون كانوا على نهجهم، وهم:
- ٦- لوط عليه السلام، وهو ابن أخي إبراهيم عليه السلام وهو على ملته.
- ٧، ٨- إلياس ويونس عليهما السلام، وهما من أنبياء بني إسرائيل، وكتابهما التوراة التي نزلت على موسى، صلوات الله وتسليماته عليهم أجمعين:

الْقِصَّةُ الْأُولَى: طَرَفٌ مِنْ قِصَّةِ نُوحٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ

٧٥- ﴿وَلَقَدْ نَادَيْنَا نُوْحًا فَلَنِعْمَ الْمُجِيبُونَ﴾ (٧٥)

وهي قصة أول رسول بدأ الشرك في عهده، وهو نبي الله نوح عليه السلام، وقد ذكرت جوانب من قصته في سور: الأعراف، وهود، والمؤمنون، والشعراء، والقمر، والسورة التي سميت باسمه، بالإضافة إلى إشارات في سور: يونس، والأنبياء، والذاريات.

ذكر نوح عليه السلام في ثلاثة وأربعين موضعًا من القرآن الكريم.

وقصة نوح عليه السلام في هذه السورة تبدأ من نهايتها، بعد أن ظل يدعو قومه إلى توحيد الله تعالى تسعة قرون ونصف، فلم يجد منهم إلا الصّدّ والأذى، فلما أعلمه الله تعالى أنه لن يؤمن من قومه إلا من قد آمن، توجه إلى ربه ﴿فَدَعَا رَبَّهُ أَنِّي مَغْلُوبٌ﴾ فجاءته النجدة بإجابة الدعاء في قوله تعالى: ﴿فَأَنْصِرْ﴾ [القمر: ١٠] على أحد قولين في معنى الآية.

وهكذا توجه نوح إلى ربه أيضًا ﴿قَالَ رَبِّ انصُرْنِي بِمَا كَذَّبُونَ﴾ [المؤمنون] فأجاب الله دعاءه وأمره بصنع سفينة النجاة ﴿فَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ أَنْ اصْنَعْ الْفُلَّكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحِّينَا﴾ [المؤمنون: ٢٧] فكان الهلاك بالطوفان.

وكان نوح عليه السلام قد دعا عليهم لما لم يستجيبوا له فقال: ﴿رَبِّ لَا تَذَرْ عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ ذِيَارًا﴾ [٢٦] إِنَّكَ إِن تَذَرَهُمْ يُضِلُّوا عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوا إِلَّا فَاكِرًا كَفَّارًا [نوح] وابتداء القصة، بذكر نداء نوح ربه، ليحذر المشركون والمكذبون للرسول الخاتم من دعائه عليه السلام، فيؤمنوا به ويتبعوه:

﴿وَلَقَدْ نَادَيْنَا نُوْحًا﴾ أي: طلب منا أن ننصره على قومه الكافرين لما كذبوه، واستغاث بنا أن ننجيه وأهله الذين آمنوا به من الغرق، فأجبنا دعاءه بإهلاك قومه ولبيينا طلبه. ﴿فَلَنَعَمَ الْمُجِيبُونَ﴾ له نحن، وصيغة الجمع: للعظمة والكبرياء.

إِجَابَةُ نِدَاءِ نُوْحٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ اشْتَمَلَتْ عَلَى سَبْعِ نِعَمٍ

النَّعْمَةُ الْأُولَى: نَجَاةُ نُوْحٍ وَأَهْلِهِ مِنَ الْغَرَقِ

٧٦- ﴿وَنَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ﴾ [٧٦]

فقد نجينا نوحًا ومن آمن به من أهله من أذى المشركين، كما نجيناهم من الغرق، وما لحق بهم من الحزن الشديد، والغم العميم، فنجاته نعمة، ونجاة أهله نعمة، وهلاك الظالمين نعمة، وقد أجاب الله نوحًا إجابة مطابقة لسؤاله: فنجاه وأهله من الكرب العظيم وأغرق جميع الكافرين، وأبقى نسله وذريته إلى يوم الدين، وجعل له ثناء حسنًا مستمرًا في الآخرين، وذلك لأنه كان محسنًا في عبادة الخالق، وكان محسنًا إلى خلق الله، وهذه سنة الله في المحسنين ﴿إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ﴾ [الآية: ٨٠]

النَّعْمَةُ الثَّانِيَّةُ: عِمَارَةُ الْأَرْضِ مِنْ ذُرِّيَةِ نُوْحٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ

٧٧- ﴿وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُ هُمْ الْبَاقِينَ﴾ [٧٧]

أي وجعلنا ذرية نوح الذين من نسله هم الذين يبقون بعد موته، فقد أهلك الله جميع الكافرين من قومه، فلم ينجُ من الغرق إلا من نجاه الله مع نوح في السفينة من ذريته، ثم من

تناسل منهم، ولم يبق من أبناء آدم غير ذرية نوح، فجميع الناس من نسل أبناء نوح الثلاثة: سام وحام ويافث.

قال ابن عباس رضي الله عنه: لما خرج نوح من السفينة، مات من معه من الرجال والنساء إلا ولده ونسائه، ويبدو أن من ركب مع نوح في السفينة من غير أبنائه لم يكن لهم نسل، وكان عددهم نحو ثمانين رجلاً وامرأة مؤمنين به، حملهم نوح معه في السفينة.

والطوفان الذي أغرقهم كان قد عمّ الأرض الأهلة بالسكان وقتئذ، فعمّ البشر جميعاً؛ لأنهم كانوا منحصرين في البلاد التي أصابها الطوفان، وكانت هذه الأرض مساحة محدودة في العراق وما حولها، حيث غمر الطوفان بلاد ما بين النهرين، فلا صلة للطوفان بمكة ولا بمصر ولا بفارس، فضلاً عن أوروبا وأفريقيا وغيرها!

وكان قوم نوح في جنوبي العراق، حول موقع الكوفة حالياً.

جاء في الحديث المفسر لهذه الآية: ﴿وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُ هُمْ الْبَاقِينَ﴾ ﴿٧٧﴾ قال: «سام، وحام، ويافث» وفي لفظ آخر: «سام أبو العرب، وحام أبو الفرس، ويافث أبو الروم»^(١) والمراد بالروم: الروم الأول، وهم اليونان، نسبة إلى رومي بن ليطي بن يونا بن يافث بن نوح عليه السلام.

وعن سعيد بن المسيب قال: ولد نوح ثلاثة: سام، وحام، ويافث، وولد كل واحد منهم ثلاثة، فولد سام: العرب وفارس والروم واليهود والنصارى، وولد يافث: الترك والصقالبة وأجوج ومأجوج وغيرهم، وولد حام: القبط والسودان والسند والهند والنب والزنج والحبشة والبربر وغيرهم^(٢).

قال الإمام أحمد: حدثنا رَوْح من كتابه، حدثنا سعيد بن أبي عَرُوبة، عن قتادة، قال: حديث الحسن عن سَمُرة، أن رسول الله ﷺ قال: «سَامُ أبو العرب، ويافث أبو الروم، وحام أبو الحبش» وقال رَوْح ببغداد من حفظه: (ولد نوح ثلاثة: سام، وحام، ويافث)^(٣).

(١) من حديث سمرة بن جندب في «المسند» (٩/٥) برقم (٢٠٠٩٩، ٢٠٠١٠٠) إسناده ضعيف، لأن فيه الحسن بن أبيي الحسن البصري، لم يصرح بالسماع كما قال محققوه، وهو في «سنن الترمذي» برقم (٣٩٣١) وقال:

هذا حديث حسن غريب، والطبراني في «المعجم الكبير» (١٨/١٤٦) من حديث عمران بن حصين.

(٢) يُنظَر: البزار (٢١٨) «كشف» والخطيب (٤٣) عن أبي هريرة ويُنظَر: «فتح الباري» (١٣/١٠٧).

(٣) «المسند» برقم (٢٠١١٤) عن سَمُرة، قال محققوه: إسناده ضعيف، وقد مرّ قريباً.

النُّعْمَةُ الثَّالِثَةُ: أَنَّ اللَّهَ خَلَدَ لِنُوحٍ الذِّكْرَ الْحَسَنَ فِي الْعَالَمِينَ

٧٨- ﴿وَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ ﴿٧٨﴾﴾

وقد خلد الله لنوح الذكر الحسن، والثناء الجميل فيمن جاء بعده من الناس يذكرونه به.

أي: أنعمنا على نوح عليه السلام، بأن أبقينا له السيرة العطرة في الأمم بعده إلى قيام الساعة، كما أطلنا له مدة الرسالة إلى نحو ألف سنة، وأطلنا عمره فوق ذلك، وهذا لم يحدث لغيره من الرسل، وهو فوق مألوف البشر.

وذكر ابن خلدون أن نوحاً عليه السلام كان بعد آدم بمئتي سنة، وكان يُدعى ملك الفرس، واسمه عند بني إسرائيل يختلف^(١).

النُّعْمَةُ الرَّابِعَةُ: تَحِيَّةٌ مِنَ اللَّهِ وَسَلَامٌ عَاطِرٌ عَلَى نُوحٍ

٧٩- ﴿سَلَّمَ عَلَى نُوحٍ فِي الْعَالَمِينَ ﴿٧٩﴾﴾

ثم أثنى الله سبحانه على نبيه نوحا عليه السلام، فحيّاهُ تحية القرب والرضى، وجعل هذا الثناء والأمان، وهذه التحية والتكريم، بصفة دائمة في جميع الأمم والقرون، فسلام عاطر من الله تعالى ومن جميع الخلائق على نوح عليه السلام إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها، وسلام عليه يوم نجا من الغرق وأهلك الله أعداءه ﴿قِيلَ يَنْتُحُ أَهْبِطْ بِسَلَامٍ مِنَّا وَبَرَكَاتٍ عَلَيْكَ وَعَلَى أُمَمٍ مِمَّنْ مَعَكَ﴾ [هود: ٤٨].

النُّعْمَةُ الْخَامِسَةُ: ثُبُوتُ وَضْفِ الْإِحْسَانِ لِنُوحٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ

٨٠- ﴿إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴿٨٠﴾﴾

وهكذا نجزي من أحسن من العباد في طاعة الله، فنُبقي له الذكر الجميل والثناء العطر بين الناس إلى قيام الساعة، فالمعنى: إن مثل ذلك الجزاء نجزي المحسنين.

(١) يُنظَرُ: «تفسير التحرير والتنوير» (١٣٣/٢٣).

النَّعْمَةُ السَّادِسَةُ: ثُبُوتُ وَصْفِ الْإِيمَانِ لِنُوحٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ

٨١- ﴿إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ﴾

وقد كان نوح مخلصاً لله في العبودية، كامل الإيمان واليقين بربه، والإيمان أرفع المنازل، لأنه يشتمل على أصول الدين وفروعه، وقد مدح الله به خواص خلقه.

وقد وصف الله نوحاً بالإحسان، ثم وصفه بالإيمان، وزاده بكون السلام عليه في العالمين بين جميع الأمم، تنويهاً على علو شأنه، بخلاف من ذكروا معه في السورة من رُسل الله: إبراهيم، وموسى، وهارون، وإلياس عليه السلام، فهو أول من أودى في الله، فصبر على ذلك أطول مدة، وكان -بهذا- المثل والقُدوة لمن يأتي بعده من الرسل.

لقد كان نوح مخلصاً لله في العبودية، كامل الإيمان واليقين، وقد علل الله تعالى ذلك بكونه من أولي الإحسان، ثم علل كونه محسناً بأنه كان عبداً مؤمناً، إظهاراً لجلالة قدر الإيمان وأصالة أمره، وجعل الدنيا مملوءة من ذريته تبتغي لذكره الحسن في ألسنة العالمين^(١).

النَّعْمَةُ السَّابِعَةُ: هَلَاكُ الظَّالِمِينَ

٨٢- ﴿ثُمَّ أَغْرَقْنَا الْآخَرِينَ﴾

وختم الله قصة نوح بذكر العبرة مما حلَّ بقومه الذين كذبوه مع نجاته ونجاة أهله، حيث أغرقهم بالطوفان، فلم يبق منهم عينا تطرف، ولا ذكراً ولا أنثى.

وهكذا جمعت هذه الآيات المتعلقة بنوح عليه السلام [٧٥-٨٢] نحو عشر من النعم التي امتنَّ الله بها عليه وهي: إجابة دعائه، ونجاته ونجاة أهله من الحزن والغم، وإهلاك الظالمين، وجعل عُمران الأرض من ذريته، والثناء الحسن عليه إلى يوم الساعة، والتحية له من رب العالمين تحية دائمة، ووصفه بالإحسان، ووصفه بالإيمان، ونجاته ونجاة أهله من الغرق الذي عم القوم.

(١) يُنظَر: «حاشية زاده على البضاوي» (٣/١٥٧).

الْقِصَّةُ الثَّانِيَّةُ: طَرَفٌ مِنْ قِصَّةِ إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ

٨٣، ٨٤ - ﴿وَإِذْ مِنْ شِيعَتِهِ لِبْرَاهِيمَ ﴿٨٣﴾ إِذْ جَاءَ رَبُّهُ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴿٨٤﴾﴾

ويعد أن أثنى الله تعالى على نوح ﷺ أكد ذلك بالثناء الحسن على إبراهيم عليه السلام، وكما جمع سبحانه محامد نوح ومناقبه، جمع كذلك محامد إبراهيم ومناقبه، باعتباره من شيعة نوح، وهذا يقتضي المشاركة بينهما في الصفات، فإبراهيم من ذرية نوح، ودين نوح موافق لدين إبراهيم في محاربة الشرك وعبادة الأصنام.

وقد شايح نوحًا على دينه وملته: هود وصالح قبل إبراهيم، وتابع إبراهيم على دين التوحيد جميع المرسلين من بعده، فكلهم شيعة لنوح، وإبراهيم من المتابعين لنوح في دعوته إلى الله تعالى، والصبر على الأذى لإعلاء كلمة الله، وهكذا كل الرسل، اللاحق منهم يؤيد السابق ويناصره في دعوته، وإن اختلفت شرائعهم في التفاصيل والجزئيات.

المعنى: وإنَّ من أتباع نوح وأشياعه في منهاجه وملته، وفي النبوة والرسالة، ودعوة الخلق إلى الله، وإجابة الدعاء: نبي الله إبراهيم، فهو من أنصاره وأعوانه، وكان بينهما نبيان هما: هود وصالح عليهما السلام، أُرسلَا في جزيرة العرب بالأحقاف ومدائن صالح، وكان بين نوح وإبراهيم: ألفان وست مئة وأربعون سنة^(١).

وجميع الرسل قبل إبراهيم كانوا من شيعة نوح، وإبراهيم من تلك الشيعة.

أي واذكر - يا رسولنا - حين جاء إبراهيم ربه بقلب بريء من كل اعتقاد باطل وخُلُق ذميم، صحيح العقيدة، خالص الإيمان، لا يشوبه شك ولا شرك، ولا شقاق ولا نفاق، ولا شهوة تمنعه من قبول الحق والعمل به، نقيٍّ من الغل والغش، والحقد والحسد، يحب للناس ما يحب لنفسه.

ومعنى أنه جاء ربه، أي: أقبل على القيام بمهام الدعوة إلى الله تعالى مخلصًا مستعدًا لبذل النفس والروح وكل ما يملك، في طلب مرضاة الله تعالى، والقيام بواجب الدعوة إليه سبحانه.

(١) «تفسير البيضاوي» (٢/١٤١).

وإبراهيم عليه السلام هو القائل: ﴿وَلَا تُخْزِنِي يَوْمَ يُبْعَثُونَ﴾ (٨٧) يَوْمَ لَا يَنْفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ﴿٨٨﴾ إِلَّا مَنْ آتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴿٨٩﴾ [الشعراء].

وقد وصف الله تعالى إبراهيم عليه السلام بقوله: ﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّاهٌ مُنِيبٌ﴾ (٧٥) [هود].

وسلامة القلب تجمع محامد الأعمال، وجوامع الكمال النفسي:

كما جاء في الحديث، عن النعمان بن بشير عليه السلام: «ألا وإن في الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله، وإذا فسدت فسد الجسد كله، ألا وهي القلب»^(١).

وإذا كان القلب سليماً، سلم من كل شر، وحصل له كل خير، ولهذا فإنه دعا الخلق إلى الله، وبدأ بأبيه وقومه:

إِبْرَاهِيمُ يُوبِّخُ قَوْمَهُ عَلَى عِبَادَةِ الْأَصْنَامِ

٨٥-٨٧- ﴿إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَاذَا تَعْبُدُونَ﴾ (٨٥) أَيْفَكَاءُ إِلَهَهُ دُونَ اللَّهِ تُرِيدُونَ ﴿٨٦﴾ فَمَا ظَنُّكُمْ بِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٨٧﴾

لقد كان إبراهيم عليه السلام سليم القلب، نقى السريرة، صادق الإيمان في كل وقت، سيما، وقت أن جادل أباه وقومه في عبادة الأصنام، منكراً عليهم وموبِّخاً لهم وهو يقول لهم: أي شيء هذا الذي تعبدونه من دون الله؟! وما الذي تعبدونه من هذه الأوثان والأصنام؟! يقول إبراهيم لقومه: أتريدون آلهة متعددة تعبدونها؟ وتركون عبادة الواحد القهار، وهو المستحق للعبادة دون سواه؟! فهو الذي خلقكم ورزقكم، إن هذا أسوأ الكذب وأبشعه، وإنكم إن عبدتم غيره فسيحاسبكم حساباً عسيراً ويعذبكم عذاباً أليماً، فما ظنكم برب العالمين ماذا يفعل بكم إن عبدتم معه غيره؟ وما ظنكم به إن جعلتم له شركاء وأنداداً؟ فاتركوا هذه الآلهة وأخلصوا العبادة لله وحده، والإفك: هو الافتراء وأقبح الكذب.

وأصل الكلام: أتريدون آلهة من دون الله إفكاً؟ فقدّم المفعول لأجله، وهو ﴿أَيْفَكَاءُ﴾ على المفعول به، وهو ﴿إِلَهَهُ﴾ وأخر الفعل والفاعل، وهذا لتفحيط عملهم وبيان أنهم على باطل وكذب محض.

(١) جزء من حديث (إن الحلال بين) في البخاري برقم (٥٢) ومسلم برقم (١٠٧، ١٥٩٩).

ولذا: فقد جعلت الآلهة نفسها إفكًا من باب التشنيع عليهم وتقييح عملهم.

ثم شرع إبراهيم في تحذير أبيه وقومه مبينًا لهم سوء العاقبة إذا استمروا على ما هم فيه من عبادة غير الله تعالى، فأى شيء تظنون بربكم ورب سائر الخلق أن يصنعه بكم، إن لقيتموه وأنتم تشركون معه غيره؟! هل تظنون أن يترككم بلا عقاب؟! كيف وقد خلقكم لعبادته، ورزقكم من فضله، وأمدكم بنعمه التي لا تعد ولا تحصى، وأرسلني إليكم محذرًا وناصحًا، لا شك أنه سبحانه سيحاسبكم حسابًا عسيرًا، ويعذبكم عذابًا أليمًا، وما دام الأمر كذلك، فيجب عليكم أن تفلعوا من فوركم عن عبادة الأصنام، وأن تخلصوا العبادة لله وحده.

وعليه فإن (مَا) من لفظ (فَمَا) تحتل أن تكون موصولة أو مصدرية، ولم يذكر القرآن ردَّ القوم على إبراهيم حين قال لهم ذلك؛ لأن الإجابة تافهة، معلومة من السياق.

ثم يشرع سياق الآيات في تفصيل ما دبره إبراهيم لتلك الآلهة الباطلة.

إِبْرَاهِيمُ يَعْتَذِرُ عَنِ الْخُرُوجِ مَعَ قَوْمِهِ إِلَى عِيدِهِمْ

٨٨-٩٠ ﴿فَنَظَرَ نَظْرَةً فِي النُّجُومِ ﴿٨٨﴾ فَقَالَ إِنِّي سَقِيمٌ ﴿٨٩﴾ فَتَوَلَّوْا عَنْهُ مُدْبِرِينَ ﴿٩٠﴾﴾

أي نظر إبراهيم في النجوم نظرة المتأمل الذي يريد عذرًا يعتذر به عن الخروج مع قومه إلى عيدهم، فقال لهم: إني مريض، وهو عذر فيه تعريض، فانصرفوا عنه ذاهبين إلى أعيادهم وتركوه.

عن ابن عباس رضي الله عنه قال: كان قوم إبراهيم يتعاطون علم النجوم، ويعتقدون أن لها تأثيرًا في العالم، فعاملهم من حيث يزعمون، حتى يؤثّر فيهم، ولا ينكرون عليه، فيقيم عليهم الحجة، ويوضح لهم بالبرهان أن عبادتهم باطلة ﴿فَنَظَرَ نَظْرَةً فِي النُّجُومِ ﴿٨٨﴾﴾ أي: تطلّع إلى السماء، وقلّب بصره في نجومها، وهو يفكر فيما يعتذر به عن الخروج معهم إلى عيدهم.

وكانوا يخرجون في يوم (عيد النيروز) إلى الحدائق والخلوات، وقبل خروجهم كانوا يضعون الطعام والشراب بين يدي الآلهة لتباركها، فإذا رجعوا أخذوا هذا الطعام المبارك -على حدّ زعمهم- وكان إبراهيم قد يشس من استجابتهم لدعوته، وتأكد له أنهم قد

انحرفوا عن الفطرة، فانتظر هذا اليوم الذي يبعثون فيه عن معابدهم وأصنامهم لينفذ ما عزم عليه، بعد أن بلغ منه الجهد أقصاه، في دعوتهم إلى توحيد الله تعالى دون جدوى، ولما قالوا له: ألا تخرج معنا إلى عيدنا؟ ووجد أن الفرصة قد سحبت له أن يخلو بالأصنام، اعتذر عن خروجه معهم بدعوى أنه مريض لا يستطيع الخروج معهم ﴿فَقَالَ إِنِّي سَقِيمٌ﴾ (٨٩) أوهمهم أن النجوم تدل على أنه سيسقم غداً -على حد زعمهم-.

وقيل: إنه خرج معهم، فلما كان في أثناء الطريق ألقى بنفسه، وقال: إني سقيم، أشتكى رجلي، وقد اعتذر بهذا لتركوه، فيخلو بيت الأصنام لينفذ حيلته فيها، ولا يجد من يمنعه من تحطيمها، ليثبت بالبرهان القاطع والدليل العملي المشاهد أنها لا تملك لنفسها شيئاً، فضلاً عن غيرها، فعبادتها أو التقرب بها إلى الله تعالى وهم وخبل.

أخرج ابن أبي حاتم عن زيد بن أسلم قال: أرسل إليه مَلِكُهُمْ، فقال: إن غداً عيدنا فاخرج، قال: فنظر إلى نجم، فقال: إن هذا النجم لم يطلع قط إلا طلع بسقم لي ﴿فَنَوَلُوا عَنْهُ مُدِيرِينَ﴾ (٩٠) (١).

وقال الحسن: خرج قوم إبراهيم إلى عيد لهم، وأرادوا إبراهيم على الخروج، فاضطجع على ظهره، وقال: إني سقيم، لا أستطيع الخروج، وجعل ينظر إلى السماء، فلما خرجوا أقبل على آلهتهم فكسرها (٢).

ولم يكن إبراهيم مريضاً في حقيقة الأمر، ولم يكذب في قوله كذباً صريحاً، وإنما هو من المعارض الجائزة لمقصد شرعي، كما ورد عن عمران بن الحصين: «إن في المعارض لمدوحة عن الكذب» (٣).

وقد يكون المعنى: إني سقيم القلب، بسبب ما أنتم فيه من كفر وضلال، فإن هذا مما يُقلق ويُزعج ويُسبب سقم النفس، وأنه أخذ ينظر إلى النجوم نظرة تدبر وتأمل مستدلاً بها على وحدانية الله تعالى.

عن أبي هريرة ؓ أن رسول الله ﷺ قال: «لم يكذب إبراهيم إلا ثلاث كذبات: اثنتين

(١)، (٢) «الدر المنثور» (١٢/٤٢٥).

(٣) من حديث عمران بن الحصين في «السنن الكبرى» للبيهقي (١٠/١٩٩) رُوي مرفوعاً وموقوفاً وهو الصحيح.

منهن في ذات الله ﷻ، قوله: ﴿إِنِّي سَقِيمٌ﴾ وقوله: ﴿بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَذَا﴾ [الأنبياء: ٦٣] و«بينما هو ذات يوم ومعه زوجه سارة إذ أتى على جبار الجبابرة في مصر، فسأله عن سارة، فقال: هي أختي...» الحديث^(١).

وكل هذا من باب المعارض أو التألم من كفرهم، والتهكم من الملك الجبار. وقد سماه النبي كذباً؛ لأنه جاء في صورة الكذب.

وقد أذن الله في ذلك لخليله إبراهيم للمصلحة الراجحة، كما أذن سبحانه لأيوب ﷺ أن يأخذ ضغنًا من عَصِيٍّ فيضرب به زوجه ضربة واحدة تحلّ القسم؛ إذ لم يكن في دينه الكفارة المشروعة.

وإذا كان الله سبحانه قد أباح الكذب لعامة الخلق في خدعة الحرب مع العدو، وأباحه على الزوجة بما يُطَيِّب خاطرها، كأن يجاملها بأنها غاية في الجمال، وهي ليست كذلك، وأباحه في الصلح بين المتخاصمين بما يطيب خاطر كل منهما تجاه الآخر، كأن يقول لكل منهما: إنه يحبك ويشني عليك، ولم يقل فيك كلامًا سيئًا، والأمر ليس كذلك.

أقول: فإن جاز هذا شرعًا؛ أفلا يجوز لخليل الرحمن أن يقول ما قال، لصالح الدعوة وإبطال الوثنية والدفع عن عرضه؟ ولسنا بحاجة إلى القول بالتأويل، مع أن إبراهيم ﷺ قد دبر هذه الخطة؛ ليفضح بها غباء قومه، وخطأ زعمهم في عبادة أخشاب أو أحجار لا تملك لنفسها شيئًا.

ولما اعتذر إبراهيم عن الخروج مع قومه في يوم عيدهم، تركوه وراءهم وخرجوا إلى عيدهم فأعرضوا عنه مولين الأدبار.

إِبْرَاهِيمُ يُكْسِرُ الْأَصْنَامَ

٩٣-٩١- ﴿فَرَأَى إِلَهُ الْهِنْدِ فَقَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ ﴿٩١﴾ مَا لَكُمْ لَا تَنْطِقُونَ ﴿٩٢﴾ فَرَأَى عَلَيْهِمْ صَرَبًا بِالْأَيْمِ﴾

فلما ذهب القوم إلى عيدهم توجه إبراهيم إلى الأصنام مسرعًا ليحطمها.

قال السُّدِّي: دخل إبراهيم ﷺ إلى بيت الآلهة، فإذا هم في بهو عظيم، وإذا بباب

(١) يُنظَر: «صحيح البخاري» (٣٣٥٨، ٥٠٨٤) و«صحيح مسلم» (٢٣٧١) والترمذي (٣١٦٦) و«السنن الكبرى» للنسائي (٨٣٧٤، ٨٣٧٥) و«تفسير الطبري» (٤٥/٢٣).

البهو صنم عظيم إلى جنبه صنم أصغر منه، وكل صنم يلي الآخر يكون أصغر منه إلى نهاية البهو، وإذا هم قد وضعوا طعاماً بين أيدي الآلهة، حتى إذا رجعوا إليها أخذوه فأكلوه بعد مُباركة الآلهة له، فلما نظر إبراهيم إلى ما بين أيديهم من الطعام قال في تهكم وسخرية: ﴿أَلَا تَأْكُلُونَ﴾ (٩٦) ﴿مَا لَكُمْ لَا تَنطِقُونَ﴾ (٩٧) (١).

ذلكم قوله تعالى: ﴿فَرَّغَ﴾ أي: مال إبراهيم مسرعاً ﴿إِلَى الْهَيْئَةِ فَقَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ﴾ تلك الأطعمة التي قدمها لكم الجاهلون على سبيل التبرك! وقد خاطب إبراهيم الأصنام مخاطبة العقلاء؛ لأن قومه أنزلوها هذه المنزلة.

ثم قال متعجباً وساخرًا مستهزئًا: ما لكم لا تجيبون من يخاطبكم؟!

فأقبل إبراهيم على الأصنام يحطمها بقوة، بفأس يحملها في يده اليمنى ﴿فَرَّغَ عَلَيْهِمْ﴾ أي: مال على الأصنام ﴿ضَرْبًا بَالِيَيْنِ﴾ أي: باليد اليمنى وبكل قوته حتى حطمها.

ويجوز أن يراد باليمين: القسم الذي حلفه حين قال: ﴿وَتَاللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَامَكُمْ بَعْدَ أَنْ تُولُوا مَدْبِرِينَ﴾ (٥٧) [الأنبياء].

لفظ: ﴿بَالِيَيْنِ﴾ له معانٍ ثلاث: اليد اليمنى، والقوة، والحلف.

وقد جاء هذا التحطيم للأصنام في قوله تعالى: ﴿فَجَعَلَهُمْ جُودًا إِلَّا كَبِيرًا لَهُمْ لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ﴾ (٥٨) [الأنبياء].

وتُجَمِّلُ الآيات هنا ما فصلته سورة الأنبياء من الحوار الذي دار بين إبراهيم وقومه، فينتهي السياق في هذه السورة، بأن الأصنام قد تحطمت، وأن إبراهيم قد ارتاحت نفسه لما فعله بها، وشفى قلبه من الضيق والغم الذي كان يعتريه حين رؤيتها.

إِبْرَاهِيمُ يُجِيبُ قَوْمَهُ فِي رِبَاطَةِ جَاشٍ

٩٤-٩٦ - ﴿فَأَقْبِلُوا إِلَيْهِ يَرْفُونَ﴾ (٩٤) ﴿قَالَ أَتَعْبُدُونَ مَا تَنَحُّونَ﴾ (٩٥) ﴿وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ﴾

(١) من «تفسير ابن كثير» للآية بتصرف (٢٥/٧).

(٢) قرأ حمزة بضم ياء (يزفون) مضارع أزف بمعنى: أسرع، والباقون بفتح الياء مضارع زف بمعنى: عدا بسرعة.

ولما علم القوم بما فعله إبراهيم بأصنامهم حين رجعوا من رحلتهم، ووجدوا أصنامهم قد تكسرت، توجهوا نحوه وهم غاضبون مسرعون، يدفع بعضهم بعضاً، ولهم جلبة وضوضاء من شدة غضبهم، على ما أصاب آلهتهم التي يعبدونها، فكيف يكسرها إبراهيم؟! فأرسلوا إليه من يستدعيه وهم في بيت الأصنام.

والزَّفُ: هو العدو والإسراع في الجري حتى لكأنه يطير ويدفع من هو أمامه.

فأسرعوا نحوه بعد حضوره وقالوا: ﴿قَالُوا مَنْ فَعَلَ هَذَا بِآلِهَتِنَا إِنَّهُ لَمِنَ الظَّالِمِينَ﴾ (٥٩) فقال بعضهم: ﴿قَالُوا سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُ إِبْرَاهِيمُ﴾ (٦٠) سمعناه وهو يقول ﴿وَتَاللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَامَكُمْ بَعْدَ أَنْ تُولُوا مُدِيرِينَ﴾ (٥٧) وهم في قولهم هذا يحرقونه ويستصغرونه.

ولما عتقوه ووبخوه قال لهم ﴿بَلْ فَعَلَكُمْ كَيْفُهُمْ هَذَا فَاسْتَوْهُمْ إِنْ كَانُوا يَنْطُفُونَ﴾ (٦١) فَرَجَعُوا إِلَى أَنْفُسِهِمْ ﴿يَفْكُرُونَ فِيمَا قَال، ثُمَّ عَادُوا فَقَالُوا لَهُ: ﴿لَقَدْ عَلِمْتَ مَا هَؤُلَاءِ يَنْطُفُونَ﴾ (٦٢).

وعند هذا الاعتراف، حان وقت الدعوة، فقال لهم: ﴿أَفَتَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُكُمْ شَيْئًا وَلَا يَضُرُّكُمْ﴾ (٦١) أَفَ لَكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿[الأنبياء انظر الآيات: ٥٧-٦٧]

وهكذا: قَدِمَ إبراهيم على قومه الذين استدعوه في بهو الأصنام، وأجابهم في رباطة جأش وثبات: كيف تعبدون أصناماً تتحتونها أنتم وتصنعونها بأيديكم، فتقطعونها من الحجارة، أو تصورونها من الخشب، وتركون عبادة الله الواحد الأحد؟!

وكيف تعبدون هذه الأوثان والله خلقكم وخلق عملكم؟! وكل ما في هذا الكون مخلوق لله تعالى، فكيف تعبدون المخلوق وتركون الخالق؟! أليس لكم عقول؟!

وفي حديث حذيفة ؓ: أن النبي ﷺ قال: «إِنَّ اللَّهَ يَصْنَعُ كُلَّ صَانِعٍ وَصَنَعَتِهِ»^(١).

(١) رواه البخاري في خلق أفعال العباد ص ٣٩ برقم (١١٧) بسند صحيح، وأخرجه ابن أبي عاصم في «السنن» برقم (٣٥٧) بتصحیح الألباني، والحاكم (٣١/١) وصححه ووافقه الذهبي، وعزاه الهيثمي للبخاري وقال: رجاله رجال الصحيح غير أحمد بن عبد الله الكردي وهو ثقة «مجمع الزوائد» (١٩٧/٧) والبيهقي في الصفات (٣٧، ٥٧، ٨٢٥) وصححه المحقق.

وهذا على أن (مَا) مصدرية .

ويصلح أن يكون المعنى : والله خلقكم وخلق الأصنام التي تعملونها .

وعلى هذا فإن (مَا) موصولة، وهذا هو الأولى بالسياق .

والواو من ﴿وَمَا تَعْمَلُونَ﴾ واو الحال، أي : أنكم قد أتيتم منكراً حين عبدتم ما تصنعونه بأيديكم، والحال أن الله خلقكم وخلق ما تعملون وأنتم معرضون عن عبادته، أو وأنتم مشركون مع الله في العبادة مخلوقات لا تملك لنفسها نفعاً ولا ضرراً، ولا موتاً ولا حياة ولا نشوراً، فكيف لا تعبدون الله وحده، وهو الذي خلقكم وخلق ما تتحتونه؟!

والعمل أعم من النحت، ففي حديث سهل بن سعد رضي الله عنه عن صُنع المنبر قال: أرسل رسول الله ﷺ لامرأة من الأنصار أن: «مُرِي غلامك النجار أن يعمل لي أعواداً أجلس عليها إذا كلمت الناس»^(١) .

ولا يقال : ينحت لي أعواداً؛ لأن النحت يختص بمواد معينة في الصنعة كالحجر أو الخشب .

نَجَاةُ إِبْرَاهِيمَ مِنَ النَّارِ

٩٧، ٩٨ - ﴿قَالُوا ابْنُوا لَهُ بُيُوتًا فَأَلْفُوهُ فِي الْجَحِيمِ ۖ﴾ (٩٧) فَأَرَادُوا بِهِ كَيْدًا فَجَعَلْنَاهُمُ الْأَسْفَلِينَ ﴿

ومع أن إبراهيم أقام الحجة عليهم بالدليل العقلي على وجوب عبادة الواحد الأحد، فإن هذا المنطق لم يجد لديهم آذناً صاغية ولا قلباً واعياً، بل إنهم لجؤوا إلى القوة والشدة والبطش، فتشاوروا فيما بينهم، ثم قرروا أن يجمعوا له حطباً كثيراً، ويضرموا فيه النار، ثم يلقوه فيها بعد أن تتأجج وتستعر ﴿قَالُوا ابْنُوا لَهُ بُيُوتًا﴾ واملؤوه حطباً، وأوقدوا فيه النار ﴿فَأَلْفُوهُ فِي الْجَحِيمِ﴾ اطرحوه فيها، والجحيم هي النار الشديدة، قيل: إن هذا البنيان يبلغ طوله ثلاثين ذراعاً، وعرضه عشرون ذراعاً، واستمروا وقتاً طويلاً يجمعون الحطب، حتى إن المرأة كانت تنذر إن هي حملت أو وضعت لتجمع الحطب لإبراهيم .

أخرج الطبري عن السُّدِّي قال: فحبسوه في بيت، وجمعوا له حطباً، حتى إن كانت

(١) أخرجه البخاري (٤٤٨) و (٢٠٩٤) ومسلم (٥٤٤) والدارمي (١٢٥٨) وابن خزيمة (١٥٢١) ومسند أحمد (٢٢٨٧١) .

المرأة لتمرّض، فتقول: لئن عافاني الله لأجمعنّ حطبًا لإبراهيم، فلمّا جمعوا له وأكثروا من الحطب، حتى إنّ كانت الطير لتمرّ بها فتحترق من شدة وهجها، فعمدوا إليه فرفعوه على رأس البنيان، فرفع إبراهيم رأسه إلى السماء، فقالت السماء والأرض والجبال والملائكة: ربّنا إبراهيم يُحرق فيك، فقال: أنا أعلم به، وإنّ دعاكم فأغيثوه، وقال إبراهيم حين رفع رأسه إلى السماء: اللهم أنت الواحد في السماء، وأنا الواحد في الأرض، ليس في الأرض أحد يعبدك غيري، حسبي الله ونعم الوكيل، فقفّوه فيها، فناداهَا ﴿يَنَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَامًا عَلَيَّ إِنِّي هِيرَ﴾^(١) [الأنبياء: ٦٩].

ويختّم الله سبحانه قصة تحطيم الأصنام، وإعداد النار لإحراق إبراهيم ببيان أنّ القوم أرادوا به كيدًا بإحراقه وإهلاكه، فأبطل الله كيدهم بأن جعل النار بردًا وسلامًا عليه، وجعلهم المغلوبين المقهورين، حيث لم يتمكنوا من دفع حجة إبراهيم، ولم يتفدوا فيه ما أرادوه له من مكر، فنجّاه الله من النار.

وفي سورة الأنبياء: ﴿فَجَعَلْنَاهُمْ الْأَخْسَرِينَ﴾ والخاسر هو الذي لم يحصل على مراده من سعيه، كالتاجر الذي لم يربح في تجارته، بل فقد رأسماله.

وفي سورة الأنبياء تفصيل لما أوجزته هذه السورة من القصة.

هَجْرَةُ إِبْرَاهِيمَ مِنَ الْعِرَاقِ إِلَى فِلَسْطِينَ

٩٩- ﴿وَقَالَ إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَى رَبِّي سَيِّدِينَ﴾^(٢)

ولما نصر الله إبراهيم على قومه، وتأكّد له عدم قبولهم الدعوة، وأن ما شاهدوه من معجزة عدم إحراق النار له لم تؤثر في قلوبهم، صمّم على الخروج من بلده (أور الكلدانيين) فهجر قومه واعتزلهم؛ ليعتد عن أرض الشرك والمعصية، فخرج من العراق متوجّهًا إلى أرض كنعان بالشام، وأعلن إبراهيم هجرته إلى قومه ليكفوا عن أذاه، كما أعلن ذلك لأهله حتى يستعدوا للهجرة معه، فقال إبراهيم بعد أن نجاه الله من النار: إني خارج من أرض الكفر إلى المكان الذي أمرني ربي بالسير إليه، لأتمكن من عبادته، فإنه

(١) ابن جرير (٣٠٦/١٦).

(٢) قرأ يعقوب بإثبات ياء (سيهدين) وصلًا ووقفًا، والباقون بحذفها كذلك.

سيرشدني إلى خيري الدنيا والآخرة، وقال في الآية الأخرى: ﴿وَأَعَزِّلْكُمْ وَمَا نَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَأَدْعُوا رَبِّي عَسَىٰ أَلَّا أَكُونَ بِدُعَاءِ رَبِّي شَقِيًّا﴾ ﴿٨٨﴾ [مريم]

وإبراهيم هو أول من هاجر من خلق الله، وخرج من وطنه، وكان في صحبته زوجته سارة، وابن أخيه لوط عليه السلام.

وهذه الآية أصل في الانتقال والهجرة من بلد الكفر إلى بلد الإسلام، ليتمكن العبد من عبادة الله وحده، ولا يُفتن في دينه كما فُتن إبراهيم في بلده.

وهذه الهجرة مرادة لله تعالى؛ كي يبلغ إبراهيم مكة، ويرفع القواعد من البيت الحرام لإعلان التوحيد في أرجاء المعمورة، وحتى يجعل الله له نسلًا عند بيت ربه يحفظ به بيته ودينه، ولهذا فقد أنطق الله إبراهيم ووفقه حين أعلن على الملأ أنه ذاهب إلى ربه، وكان عُمر إبراهيم وقتئذ سبعين عامًا، ولم يكن له ذرية حتى هذه اللحظة.

إِبْرَاهِيمُ يَسْأَلُ رَبَّهُ الْوَلَدَ، فَبَشَّرَهُ رَبُّهُ بِالْغُلَامِ الْحَلِيمِ

١٠٠، ١٠١ - ﴿رَبِّ هَبْ لِي مِنَ الصَّالِحِينَ﴾ ﴿١٠٠﴾ فَبَشَّرْنَاهُ بِغُلَامٍ حَلِيمٍ ﴿١٠١﴾

أي وعندما عزم إبراهيم على الهجرة، وأزمع على الرحيل، وليس وراءه أحد من أواصر الأهل والقربى، يتركهم خلفه، أو يشدُّون من ساعده عند مفارقة الأوطان، عندئذ استشعر إبراهيم عُقم امرأته وعدم وجود عقبٍ له، فسأل ربه أن يرزقه ذرية صالحة قائلاً: أسألك يا رب، بجانب الهداية إلى الخير والحق، أن تهب لي ولدًا صالحًا أستعين به على نشر الدعوة وإعلاء كلمة الله، فالولد لا يكون نعمة لوالده إلا إذا كان صالحًا، فإن هذا سيجعله بارًا بأبيه في حياته، مجاب الدعوة له بعد مماته.

سأل إبراهيم ربه ولدًا من الصالحين يؤنسه في غربته، ويكون ولدًا مطيعًا له يعوّضه به ربه عن قومه وعشيرته الذين فارقهم.

أجاب الله دعاء إبراهيم، فبشّره على لسان ملائكته الكرام بغلام صغير، يكون حليمًا في كبره، متصفًا بمكارم الأخلاق، وهو إسماعيل عليه السلام، فإسماعيل هو الذي جاء وصفه في القرآن بالحلم، أما إسحاق فقد وُصف بالعلم، وقد جاءت البشارة بإسحاق بعد

البشارة بإسماعيل، فدل هذا على أن إسماعيل هو الأكبر، وأنه هو الذبيح. وقد انطوت هذه الآية على بشارات ثلاث، وهي: أنه غلام ذكر، وأنه يبلغ سن الحلم، وأنه يكون حليماً.

وأي حلم يعدل حلمه ﷺ حين أسلم عنقه لأبيه ليذبحه، مع أن إبراهيم كان يعيش في فلسطين، وإسماعيل يعيش في مكة، وليس بينهما حياة أبوية متواصلة، وإسماعيل في سن المراهقة، الذي ينفر فيه الأبناء عادة من آبائهم، ومع ذلك فإن إسماعيل لم يتردد في الاستجابة لأمر أبيه الذي أتى به هو وأمه وهو طفل رضيع وتركهما في هذه الصحراء، وأمر الله تعالى لإبراهيم ﷺ بذبح ولده كان في رؤيا منامية، ورؤيا الأنبياء حق.

وأول ما بُدئ به رسول الله ﷺ من الوحي، الرؤيا الصالحة، فكان لا يرى رؤيا إلا جاءت مثل فلق الصبح، وقد رأى النبي ﷺ في المنام قبل الهجرة أنه يهاجر من مكة إلى أرض ذات نخل، فلم يهاجر حتى أذن له في الهجرة، إلى أرض ذات نخل. وقبل غزوة أحد رأى بقرًا يُذبح، فكان تأويلها من استشهد من المسلمين يوم أحد.

الذبيح هو إسماعيل وليس إسحاق:

وأمر الله لإبراهيم بذبح ولده كان ابتلاء وليس تشريعاً، وإسماعيل هو الذبيح، وهو الابن البكر الأكبر الذي وُصف بالحلم، أما إسحاق فهو أصغر من إسماعيل بثلاثة عشر عاماً، حيث ذكره القرآن بعد تمام قصة إسماعيل، فقال: ﴿وَبَشِّرْنَاهُ بِإِسْحَاقَ نَبِيًّا مِّنَ الصَّالِحِينَ﴾.

قال محمد بن كعب القرظي: إن الذي أمر الله إبراهيم بذبحه من ابنه، إسماعيل، وإننا لنجد ذلك في كتاب الله، وذلك أن الله تعالى يقول بعد أن فرغ من قصة المذبوح: ﴿وَبَشِّرْنَاهُ بِإِسْحَاقَ﴾ وقال: ﴿وَبَشِّرْنَاهُ بِإِسْحَاقَ وَمِنْ وَرَاءَ إِسْحَاقَ يَعْقُوبَ﴾ [هود: ٧١] أي: بُشِّرْ بَابْنِ، وابن ابن، فلم يكن يأمر بذبح إسحاق، وله فيه من الله موعود بما وعده، وما الذي أمر بذبحه إلا إسماعيل^(١).

(١) الحاكم (٥٥٥/٢) والطبري (٥٩٦/١٩) قال ابن كثير (٣٠/٧): والذي استدل به محمد بن كعب القرظي على أنه إسماعيل أثبت وأصح وأقوى.

وأخرج عبد بن حميد عن عبد الحميد بن جبير بن شيبة قال: قلت لابن المسيب: ﴿وَقَدِّبْنَاهُ يَدْنِيَ عَظِيمٍ﴾ (١٧) هو إسحاق؟ قال: معاذ الله! ولكنه إسماعيل، فثوب بصره إسحاق^(١).

وقد أسند الله البشارة بإسحاق إلى الملائكة الذين أرسلوا إلى قوم لوط في قوله تعالى: ﴿وَيَسِّرُوهُ يَعْزِمُ عَلِيمٌ﴾ [الذاريات: ٢٨]. وكانت البشارة بإسحاق بمحضر زوجته (سارة)، وكانت هي المبشرة به في قوله تعالى: ﴿وَأَمْرَأَتُهُ قَائِمَةٌ فَضَحِكَتْ فَبَشَّرْنَاهَا بِإِسْحَقَ وَمِنْ وَرَاءِ إِسْحَقَ يَعْقُوبَ﴾ (٧٦) [هود].

وهي بشرى كرامة لها، لما بها من عظم، ولأن زوجها كان طاعناً في السن، كما جاء على لسانها: ﴿ءَالِدٌ وَأَنَا عَجُوزٌ وَهَذَا بَعْلِي شَيْخًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عَجِيبٌ﴾ [هود: ٧٢].

وهي البشرى الثانية لإبراهيم، وبشارة إسماعيل هي البشرى الأولى له، وهي استجابة لدعوة إبراهيم عليه السلام: ﴿رَبِّ هَبْ لِي مِنَ الصَّالِحِينَ﴾ (١٣).

ولما ولد له إسماعيل، تحقق أمل إبراهيم في أن يكون له وارث من صلبه.

ولأن البشارة بإسماعيل كانت هي البشارة الأولى، وكان هو المولود الأول، فقد قرنت بحرف الفاء في قوله تعالى: ﴿فَبَشَّرْنَاهُ﴾ لأنها كانت عقب دعاء إبراهيم أن يرزقه الله من الصالحين، حيث أجاب الله دعاءه، بعد أن رزقه بهاجر في هجرته إلى مصر، فحملت بإسماعيل.

ولأن البشارة بإسحاق كانت تالية لذلك، ولم تكن عقب دعاء إبراهيم، فقد جاءت البشرى مقرونة بالواو في قوله تعالى: ﴿وَيَسِّرُوهُ﴾.

وقد رزق الله إبراهيم بإسماعيل، وكانت سن إبراهيم -وقتئذ- ست وثمانون سنة، ورزقه بإسحاق، وكانت سنه وقتها تسع وتسعون سنة، وقد نص على هذا أهل الكتاب في كتبهم، وعندهم أيضاً أن الله تعالى أمر إبراهيم أن يذبح ابنه وحيد البكر^(٢).

قال الأصمعي: سألت أبا عمرو بن العلاء عن الذبيح: أإسحاق كان، أم إسماعيل؟ فقال: يا أصمعي، أذهب عقلك؟ متى كان إسحاق بمكة؟ إنما كان إسماعيل، وهو الذي

(١) «الدر المنثور» (١٢/٤٥٢).

(٢) يُنظر: الإصحاح الخامس عشر من «سفر التكوين».

بَنَى الْبَيْتَ مَعَ أَبِيهِ.

وروى ابن جرير بسنده عن الصُّنَابِحِيِّ قَالَ: كُنَّا عِنْدَ مُعَاوِيَةَ بْنِ أَبِي سَفْيَانَ، فَذَكَرُوا الذَّبِيحَ: إِسْمَاعِيلَ أَمْ إِسْحَاقَ؟ فَقَالَ: عَلَى الْخَيْرِ سَقَطْتُمْ، كُنَّا عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، فَجَاءَ رَجُلٌ فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، عُذُّ عَلِيٍّ -أَيُّ: أَعْطَنِي- مِمَّا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَيْكَ يَا ابْنَ الذَّبِيحِينَ، فَضَحَكَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ، فَقِيلَ لَهُ: يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ، وَمَا الذَّبِيحَانِ؟ فَقَالَ: إِنَّ عَبْدَ الْمَطْلَبِ لَمَّا أُمِرَ بِحُفْرِ زَمْزَمَ، نَذَرَ لِلَّهِ أَنْ يَهْلِلَ اللَّهُ أَمْرَهَا عَلَيْهِ لِيَذْبَحَنَّ أَحَدَ وَلَدِهِ، قَالَ: فَخَرَجَ السَّهْمُ عَلَى عَبْدِ اللَّهِ، فَمَنْعَهُ أَخْوَالُهُ، وَقَالُوا: افْدِ ابْنَكَ بِمِئَةِ مِنَ الْإِبِلِ، فَفَدَاهُ بِمِئَةِ مِنَ الْإِبِلِ، وَإِسْمَاعِيلَ الثَّانِي^(١).

وفي الأثر: «أَنَا ابْنُ الذَّبِيحِينَ» أحدهما: جده إِسْمَاعِيلُ، والآخر -كما سبق-: أبوه عبد الله، وكان عبد المطلب قد نذر أن يذبح أحد أولاده إن رزقه الله عشرة من الأولاد، وذلك عندما أراد حفر زمزم وشق عليه ذلك لعدم وجود أبناء له يساعدونه في حفرها.

هذا: ولما أُسِرَ بنو إِسْرَائِيلَ فِي بِلَادِ آشور زمن بختنصر كَتَبَ النُّقْلَةَ التَّوْرَةَ بعد ذهاب أصلها، ومن جملة ما حَرَّفُوهُ أَنَّهُمْ أَقْحَمُوا اسْمَ إِسْحَاقَ فِي قِصَّةِ الذَّبِيحِ، أَثْنَاءَ ذِكْرِ أَخْبَارِ إِبْرَاهِيمَ، فَأَضَافُوا إِسْحَاقَ بعد لفظ (وحيدك)؛ لِيُنْسَبُوا إِلَى أَنْفُسِهِمْ فَضَّلَ هَذِهِ الْقِصَّةَ^(٢).

فالأدلة النقلية والعقلية متضافرة متعاضة على أن الذبيح هو إِسْمَاعِيلُ وليس إِسْحَاقَ، وإنما أَقْحَمُوا اسْمَ إِسْحَاقَ فِي النَّصِّ حَسَدًا لِلْعَرَبِ أَنْ يَكُونَ الذَّبِيحَ مِنْهُمْ، فَمِنْ إِبْرَاهِيمَ كَانَ إِسْمَاعِيلُ جَدَّ الْعَرَبِ، وَمِنْهُ كَانَ إِسْحَاقُ جَدَّ بَنِي إِسْرَائِيلِ.

(١) «تفسير الطبري» (٥٤/٢٣) برقم (٢٩٥٣٠) والحاكم (٥٥٤/٢) من حديث معاوية، قال الذهبي: إسناده واه، وقال ابن كثير: حديث غريب جداً. وضعفه السيوطي في الدر (٥٢٩/٥) وفيه عبد الله بن سعيد، وهو مجهول كما في الميزان (٤٣٤٨).

(٢) يُنْظَرُ: «سفر التكوين» الإصحاح الثاني والعشرين.

قِصَّةُ الذَّبْحِ وَالْفِدَاءِ

١٠٢ - ﴿فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعَىٰ قَالَ يَبْنَئُ^(١) إِنِّي^(٢) أَرَىٰ فِي الْمَنَامِ أَنِّي^(٣) أَذْبَحُكَ فَانْظُرْ مَاذَا تَرَىٰ^(٤)﴾ قَالَ يَتَأَبَّتْ^(٥) أَفْعَلْ مَا تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِي^(٥) إِنْ شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ ﴿١٠٣﴾

رُزِقَ إبراهيم بابنه إسماعيل على كبر بعد تشوُّف ودعاء، فلما شبَّ وترعرع، وأضحى غلامًا، وقرَّت به عينه، وبلغ سنًّا يكون فيها الولد أحب ما يكون إلى أبيه، بعد أن ذهبت مشقته، وأقبلت منفعته، قيل: بلغ ثلاثة عشر عامًا، وعندئذ أوحى الله إليه منامًا أن يذبحه قربانًا إليه وابتلاءً في خلته لربه!!

وهكذا يُكَلِّفُ الشيخ الكبير بذبح ولده الوحيد، أحب أهل الأرض إليه بعد ما فرح به وأمل الخير في صحبته ﴿فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعَىٰ﴾ أي: لَمَّا كَبُرَ إسماعيل ومشى مع أبيه يعينه في أمور الدين والدنيا، وقد بلغ الثالثة عشرة من عمره ﴿فَكَالَ يَبْنَئُ إِنِّي أَرَىٰ فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ﴾ ورؤيا الأنبياء وحي في غير التشريع، فإن النبي ﷺ لم يوحَ إليه بالشرعة إلا في اليقظة، مع رؤية جبريل يقظة على أي هيئة يتشكل فيها، وأمرُ الله لإبراهيم بذبح ولده أمر ابتلاء وليس تشريعًا، ولو كان تشريعًا ما نُسخ قبل العمل به.

والحكمة في هذا الابتلاء: إظهار عزم إبراهيم، وإثبات علو مرتبته، حيث إن الله تعالى قد اتخذ إبراهيم خليلًا، فلما سأل ربه الولد ووهبه له تعلقت به نفسه، فأمره الله بذبح محبوبه الوليد؛ لتظهر صفاء الخلّة، فامتثل أمر ربه، وقَدَّم محبته على محبة ولده، ولو أنه فُجع بقتل ولده لأهلكه الغم والهم، فكيف وهو يُكَلِّفُ بالإجهاز عليه؟! ولكن إبراهيم لا يعرف إلا الحياة في رضى ربه، ولا يستطيع أن يعصي له أمرًا، مهما كان شاقًّا.

(١) قرأ حفص بفتح الياء الثانية من (يا بني)، والباقون بكسرها.

(٢) قرأ نافع وابن كثير وأبو عمرو وأبو جعفر بفتح الياء من (إني أرى)، والباقون بإسكانها.

(٣) قرأ حمزة والكسائي وخلف بضم التاء من (ترى) بعدها ياء مدية، أي: ماذا تريه من صبرك؟ فالمفعولان محذوفان، وقرأ الباقر بفتح التاء والراء وألف بعدها من رأى بمعنى: اعتقد أي شيء الذي تراه.

(٤) قرأ ابن عامر وأبو جعفر بفتح التاء من (يا أبت)، والباقون بكسرها، ووقف عليها بالهاء ابن كثير وابن عامر وأبو جعفر ويعقوب والباقر بالتاء.

(٥) قرأ نافع وأبو جعفر بفتح الياء من (ستجدني إن شاء الله)، والباقون بإسكانها.

ومع أن إسماعيل هو أمل أبيه في المستقبل، ويموته سوف ينعدم نسله، ويزول أنسه، ومطلوب منه أن يتولى إعدامه بنفسه، فقد قرر إبراهيم أن يحدث ابنه بالخبر، فقال له: ﴿إِنِّي أَرَىٰ فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ﴾ فما رأيك؟ ﴿فَانْظُرْ مَاذَا تَرَىٰ﴾ هل تمثل أم لا؟

ولكن إسماعيل كان غلامًا صالحًا لا يقل عن أبيه يقينًا وصدقًا، يعدّه الله تعالى ليكون نبيًا رسولًا، ﴿قَالَ﴾ إسماعيل ﴿يَتَّبِعْتِ أَفْعَلُ مَا تُؤْمَرُ﴾ فقد أذنتُ لك أن تذبحني؛ لأن الله أمرك بهذا، وأمر الله لا بد من تنفيذه! فامضِ لما أمرك الله به ﴿سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ﴾ صابِرًا، بارًا، محتسبًا، مرضيًا لله تعالى.

وهكذا وعد إسماعيل أباه أن يمثل، وألا يجزع، ولا يهلع، وقد وطّن نفسه على الصبر وقَدَمَ المشيئة في ذلك، لأنه لا يكون شيء بدون مشيئة الله تعالى، وقد وفّى إسماعيل بما وعد، فأمكن أباه من رقبتة، وشكره الله على ذلك.

وقد أعلم إبراهيم ابنه بأمر الذبح؛ ليكون أهون عليه عند التنفيذ، وليختبر جَلَدَهُ وصبره وعزمه، فأمر الله قضاء مبرم حتمي، لا بد من تنفيذه والإذعان له.

قال ابن إسحاق: كان إبراهيم ﷺ إذا زار هاجر وإسماعيل حُمِلَ على البراق، فيغدو من الشام، فيقيل بمكة، ويروح من مكة فيبيت عند أهله بالشام، حتى إذا بلغ إسماعيل معه السعي، أمر في المنام بذبحه، وذلك أنه رأى ليلة التروية كأن قائلًا يقول له: إن الله يأمرك بذبح ابنك هذا، فلما أصبح تروى في نفسه، أي: فكر من الصباح إلى الرواح، أَمِنَ الله هذا الحُلُم، أم من الشيطان؟ فسُمِّي يوم التروية، فلما أمسى رأى في المنام ثانيًا، فعرف أن ذلك من الله تعالى، فسُمِّي ذلك اليوم: يوم عرفة، وقيل: رأى ذلك ثلاث ليالٍ متتابعات، فلما عزم على نحر ولده، سمي اليوم: يوم النحر، فلما تيقن ذلك أخبر به ابنه^(١).

إِسْمَاعِيلُ يُمَكِّنُ أَبَاهُ مِنَ الذَّبْحِ!!

١٠٣-١٠٥ - ﴿فَلَمَّا أَسْلَمَا وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ ﴿١٠٣﴾ وَتَلَّيْنَاهُ أَن يَتَّخِذَهُ ﴿١٠٤﴾ قَدْ صَدَّقَتِ الرُّؤْيَا إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴿١٠٥﴾﴾

(١) يُنْظَرُ: «تفسير البغوي» والخازن للآية.

سَلَّمَ الابن نفسه لأبيه، وسَلَّمَ الأب أمره لله، وامثلا أمر ربهما، وخافا من عقابه، ووطَّن الابن نفسه على الصبر، وهانت عليه في سبيل طاعة ربه ورضا والده، فطرح إبراهيم ولده وكَبَّه على الأرض على شقه الأيمن، وجعل جبينه على الأرض؛ ليكون أمكن من الذبح ﴿فَلَمَّا أَسْلَمَا﴾ امثل الأب والابن أمر الله ﴿وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ﴾ أي: صرعه على وجهه ليزبحه من قفاه، حتى لا يشاهد وجهه عند ذبحه فيرق قلبه.

وجواب ﴿فَلَمَّا﴾ محذوف، تقديره: كان ما كان مما ينطق به الحال، ولا يحيط به الوصف، من حمدهما لله وشكرهما على دفع البلاء.

وهكذا: بدأ إبراهيم في تنفيذ الذبح، فوضع السكين على عنق ولده، وأمرها بقوته على حلقه مراراً فلم تقطع، وفي هذه الحالة العصية نودي إبراهيم من السماء: أن يا إبراهيم قد فعلت ما أمرت به، وحققت ما طُلب منك في الواقع، وصدقت رؤياك، وهذا ثناء من الله تعالى على إبراهيم.

وكانت معالجة إبراهيم لذبح ولده عند الصخرة التي في منى عند العقبة.

قال ابن عباس رضي الله عنه: فلما عزم على ذبح ولده ورماه على شقه، قال الابن: يا أبت اشد رباطي حتى لا أضطرب، واكفف عني ثيابك لئلا ينتضح عليها شيء من دمي فتراه أُمي فتحزن، وأحد شفرتك، وأسرع بها على حلقي ليكون الموت أهون عليّ، وإذا أتيت أُمي فأقرئها مني السلام، وإن رأيت أن تردّ عليها قميصي فافعل، فإنه عسى أن يكون أسلى لها عني، فقال له إبراهيم: نعم العون أنت يا بُنَيَّ على أمر الله^(١).

وقال ابن عباس أيضاً: لما أمر إبراهيم بالمناسك عرض له الشيطان عند المسعى فسابقه، فسبقه إبراهيم، ثم ذهب به جبريل إلى جمرة العقبة، فعرض له الشيطان، فرماه بسبع حصيات حتى ذهب، ثم عرض له عند الجمرة الوسطى، فرماه بسبع حصيات، ومن ثمّ تَلَّه للجبين، وعلى إسماعيل قميص أبيض، فقال له: يا أبت، ليس لي ثوب تكفّنني فيه غيره، فاخْلعه حتى تكفّنني فيه، فعالجه ليخلعه، فنودي من خلفه ﴿أَنْ يَتَابَرَهِيْهُ لَا قَدْ

(١) يُنظَر: «تفسير الألوسي» (١٣٠/٢٣) و«حاشية الصاوي على الجلالين» (٣/٣٤٣) و«إزاد المسير» (٧٣/٧)

والخازن (٢٣/٤) والحاكم (٤٣٠/٢) وجاء هذا المعنى عن مجاهد في «تفسير الطبري» (٥٧٩/١٩).

صَدَقَتْ الرُّؤْيَا ﴿١٠٦﴾ فَالْتَفَتَ إِبْرَاهِيمُ فَإِذَا بَكِشٌ أبيضُ أَقرن، أَعْيَن، فذبحه^(١).

وهذا النداء نَسَخَ ذَبَحَ إسماعيل، فقد صدق إبراهيم الرؤيا إلى أن نهاه الله عن تمامها.
وكما فَرَجَ اللهُ كُرْبَةَ إبراهيم، يفرج الشدائد عن عباده المحسنين ﴿١٠٧﴾ إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴿١٠٨﴾ فنخلصهم من المحن في الدنيا والآخرة، وقد كافأ الله إبراهيم على بذله أعزَّ ما يملك طاعة لربه، بأحسن ما يكون الجزاء. قال تعالى:

الْبَلَاءُ وَالْفِدَاءُ

١٠٦، ١٠٧ - ﴿إِنَّ هَذَا لَهُوٌ^(٢)﴾ الْبَلَاءُ الْمَيُّنُ ﴿١٠٦﴾ وَقَدَيْتُهُ يَذْبَحُ عَظِيمٍ ﴿١٠٧﴾

بَيَّنَّ سبحانه في هذه الآية أن هذا التكليف الذي كُلف به إبراهيم هو الاختبار البَيِّن، والامتحان الشاق، الذي يميِّز المخلص من غيره، ويفرِّق بين قوة الإيمان وضعفه، فهو الابتلاء الواضح الذي أبان عن صدق إيمانك يا إبراهيم، فإن إسماعيل لَمَّا وهبه الله لإبراهيم، أحبه حبًّا شديداً، وإبراهيم خليل الرحمن، والخلة أعلى أنواع المحبة، وهي رتبة لا تقبل المشاركة، ولما تعلق قلب إبراهيم بإسماعيل، أراد الله أن يُظهر حقيقة خُلَّتْه، فأمره، أن يذبح ابنه الوحيد، فنجح إبراهيم في الابتلاء أيَّما نجاح، وقَدَّمَ هوى الله تعالى على هوى نفسه وحبه لولده الوحيد!!

وقد برز هذا الابتلاء في صورة الوحي منامًا، إكرامًا لإبراهيم حتى لا يُزَعَجَ بالأمر بذبح ولده بوحي في اليقظة، وكان هذا الابتلاء لإبراهيم بذبح ولده في وقت لم يكن لإبراهيم ولد غير إسماعيل، وهذا أكمل في الابتلاء؛ لأنه الابن الوحيد وقتها، ولأن إسماعيل هو المبشِّر به، استجابة لدعوة إبراهيم ﷺ.

عن كعب الأحبار وابن إسحاق: أن إبراهيم عليه السلام لما أراد ذبح ولده، قال الشيطان: لئن لم أفتن آل إبراهيم اليوم لا أفتن منهم أحدًا أبدًا، فذهب لأم الغلام أوَّلًا وقال لها:

(١) «المسند» (٤/٤٣٦) (٢٧٠٧) من حديث طويل قال محققوه: رجاله ثقات رجال الصحيح غير أبي عاصم الغنوي، متكلم فيه، وأخرجه الطبري (١٩/٥٨٦) والطبراني (١٠٦٢٨) والبيهقي (٤٠٧٧)، والطيالسي (٢٦٩٧) ومسلم (١٢٦٤) وأبو داود (١٨٨٥).

(٢) قرأ قالون وأبو عمرو والكسائي وأبو جعفر بإسكان الهاء من (لهو)، والباقون بضمها.

إن إبراهيم يريد ذبح ولدك، قالت: ولم؟ قال: يزعم أن الله أمره بهذا، فقالت: سمعًا وطاعة لأمر ربي، ثم ذهب إلى الابن، وقال له: إن أباك يريد ذبحك، قال: ولم؟ قال: يزعم أن ربه أمره بذلك، قال: فليفعل ما أمر به، ثم أقبل على إبراهيم فقال له: إني لأرى الشيطان قد جاءك في منامك فأمرك بذبح ابنك، فعرفه إبراهيم وقال له: إليك عني يا عدو الله، فوالله لأمضين لأمر ربي، فرجع إبليس بغيظه.

وروى ابن عباس رضي الله عنه: أن إبراهيم لما أراد أن يذبح ابنه عرض له الشيطان عند الجمرة الصغرى، فرماه بسبع حصيات، ثم عرض له عند الجمرة الوسطى فرماه بسبع حصيات، ثم أدركه عند الجمرة الكبرى فرماه بسبع حصيات حتى ذهب، ومضى إبراهيم لأمر ربه، وهذا كله من البلاء المبين.

وفدى الله إسماعيل ببديل عنه، كبشًا من عند الله تعالى، عظيم في هيئته وقدره؛ لأنه من عند الله.

أخرج الحاكم بسند فيه الواقدي عن عطاء بن يسار، قال: سألت خوات بن جبير عن ذبيح الله؟ قال: إسماعيل، لما بلغ سبع سنين رأى إبراهيم في النوم في منزله بالشام أن يذبحه، فركب إليه على البراق حتى جاءه، فوجده عند أمه، فأخذ بيده ومضى به لما أمر به، وجاء الشيطان في صورة رجل يعرفه.

وذكر القصة إلى أن قال: فذهب يحز في حلقة، فإذا هو يحز في نحاس، فشحذ الشفرة مرتين أو ثلاثًا بالحجر، ولا تحز، قال إبراهيم: إن هذا الأمر من الله، فرفع رأسه، فإذا هو بوغل واقف بين يديه، فقال إبراهيم: قُمْ يَا بُنَيَّ قَدْ نَزَلَ فِدَاؤُكَ، فذبحه هناك بمنى^(١). قال تعالى مثنىً على إبراهيم في العالمين:

الثناء الحسن والجَزَاءُ الْعَظِيمُ

١٠٨-١١١ ﴿وَرَكَّنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ﴾ ﴿سَلَّمَ عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ﴾ ﴿كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ﴾ ﴿١١٠﴾

إِنَّهُمْ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ ﴿١١١﴾

أي: وأبقينا لإبراهيم ذكرًا وثناء حسنًا في الأمم بعده إلى يوم الدين، وجعلنا السلام والتحية العطرة، منا ومن المؤمنين على إبراهيم إلى يوم القيامة، مع دعائنا ودعاء المؤمنين

(١) الحاكم (٢/٥٥٥).

له بالسلامة من كل آفة .

وبمثل هذا الجزاء الحسن لمن وَّحَّد الله تعالى وأطاعه وامثل أمره، نجزي كل من أحسن من عباد الله، فوَّحَّد الله واتقاه، وهذا وعد من الله تعالى أعده لإبراهيم من المرتبة العظيمة، والدرجة العالية، وقد كان إحسان الابن عظيمًا حين بذل نفسه وجاد بها امتثالاً لأمر أبيه، وقد وعد الله المحسن بالإحسان، فقال: ﴿هَلْ جَزَاءُ الْإِحْسَنِ إِلَّا الْإِحْسَنُ﴾ [الرحمن].

لقد كان إبراهيم راسخًا في إيمانه، مخلصًا في طاعته لربه، كان حنيفًا مسلمًا، وكان أمة وحده، اصطفاه ربه لخلَّته دون العالمين؛ لأنه كان من عباد الله المؤمنين الموقنين الصادقين، الذين بلغ بهم الإيمان إلى درجة اليقين، كما قال تعالى ﴿وَكَذَلِكَ نُرَى إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَكُوتِ وَالْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ﴾ [الأنعام]

قلت: بقي في نفسي تعجُّبٌ شديد من هذه القصة، فإن إسماعيل وقت الأمر بالذبح، كان فتى يافعًا صغيرًا في بداية سن المراهقة والتمرد، وعدم الاستجابة للوالدين غالبًا، مع كثرة السؤال والاستجواب، وليس في سن يُقدَّر فيها احترام الوالد ويُغلب فيها العقل، هذا من جهة، ومن جهة أخرى فإن إسماعيل نشأ بعيدًا عن والده، ورؤيته له كانت عابرة، بين الفئنة والفئنة، ولو حدث مثل هذا من والد لولده - في زماننا هذا أو غيره - لقال الابن لأبيه: من أنت؟ ومنَ تكون حتى تذبحنني؟ فلا علاقة بيني وبينك! أنا لا أعرفك أنت أبعدتني أنا وأمي عنك، ولم تُقِمْ بتربيتي ولا بتعليمي، أقول هذا وأنا أشاهد الأب يُربى ولده أحسن تربية، ويعلمه أحسن تعليم، إلى أن يتخرج من الجامعة، وربما زوجه وأسكنه ثم يقول بعضهم لأبيه: أنت لم تفعل لي شيئًا، وسمعت ابنًا يقول لأبيه: أنت ليس لك فضل في مجيئ للحياة، وإنما كنت تتسامرُ مع أمي، وأنا أتيت، دون قصد منك!! أستحضر هذه المعاني وأنا أتحدث عن قصة الذبح، وأقول: سبحان الله، لا جواب على هذا إلا أن ذلك أخلاق الأنبياء وأدبهم، فأين الثرى من الثريّا؟!!

الْبُشْرَى بِإِسْحَاقَ الْغُلَامِ الْعَلِيمِ

١١٢- ﴿وَبَشَّرْنَاهُ بِإِسْحَاقَ نَبِيًّا مِّنَ الصَّالِحِينَ﴾ [١١٢]

أي: ومن تكريمنا لإبراهيم أنا بشرناه بعد فداء إسماعيل من الذبح بولد آخر يأتي بعد الغلام

الحليم؛ صاحب قصة الذبح المبشّر به **أَوَّلًا** عندما سأل إبراهيم ربه ولدًا من الصالحين .

وهذا الغلام المبشّر به **ثانيًا** هو إسحاق عليه السلام، وجعلناه نبياً من أنبيائنا الصالحين لحمل رسالتنا إلى من بُعث فيهم، كما بشرناه بوجوده وبقائه في الحياة، حتى يرى حفيده يعقوب، كما قال تعالى: ﴿وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ نَافِلَةً ۚ وَكُلًّا جَعَلْنَا صَالِحِينَ﴾ [الأنبياء: ٧٢].

وكان ذلك جزاءً لإبراهيم على صبره وامثاله أمر ربه . قال تعالى :

١١٣- ﴿وَبَرَكْنَا عَلَيْهِ وَعَلَىٰ إِسْحَاقَ وَمِن ذُرِّيَّتِهِمَا مُحْسِنٌ وَظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ مُبِينٌ﴾

أي وقد أفاض الله على إبراهيم وإسحاق بالكثير من بركات الدنيا والآخرة، ومن ذلك أننا جعلنا عددًا كبيرًا من الأنبياء في نسلهما، وجعلنا من ذريتهما مَنْ هو مطيع لربه محسن في عمله، ومنها من هو ظالم لنفسه ظلمًا بينًا بالكفر والمعاصي، وسيجازي الله كل فريق بما يستحقه من ثواب أو عقاب.

وقد جعل الله في ذريتهما ثلاث أمم عظيمة، هي أمة العرب من ذرية إسماعيل، وبني إسرائيل، والروم من ذرية إسحاق.

وفي هذا وعيد لكل من لم يؤمن بخاتم الرسل من اليهود والنصارى وغيرهم، وفيه بيان أن الصالح يلد طالحًا، والبرُّ يلد فاجرًا، وأن هذا ليس فيه ذم ولا منقصة لأبيه.

ولما قال تعالى لإبراهيم: ﴿إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا ۚ قَالَ: وَبِمَنْ ذُرِّيَّتِي ۚ فَأَجَابَهُ رَبُّهُ بِأَن الظالم لنفسه بالكفر والمعاصي لا ينال الإمامة أو النبوة ﴿قَالَ لَا يَتَّالِ عَهْدِي الظَّالِمِينَ﴾ [البقرة: ١٢٤].

القِصَّةُ الرَّابِعَةُ: طَرْفٌ مِنْ قِصَّةِ مُوسَى وَهَارُونَ عليهما السلام

١١٤- ﴿وَلَقَدْ مَكَّنَّا عَلَىٰ مُوسَىٰ وَهَارُونَ﴾

موسى عليه السلام: هو ابن عمران، من نسل يعقوب بن إسحاق، وكانت ولادته في القرن الثالث عشر قبل الميلاد، وهارون أخوه الأكبر، كان وزيره ونصيره.

وهذا المقطع من قصة موسى وهارون يختص بما امتنَّ الله به عليهما مما فصلته السور الأخرى: من درجة النبوة، ونجاتهما وقومهما من الكرب العظيم، ونصرهما على

فرعون، وإعطائهما التوراة، وهدايتهما إلى الصراط المستقيم، فَهُنَّ سِتُّ نِعَمٍ أَوْ مِنْ مَنَحَها الله سبحانه إليهما .

سِتُّ مِنْ أَمْتِنَ اللَّهُ بِهَا عَلَى مُوسَى وَهَارُونَ

الْمَنَّةُ الْأُولَى: مَنَّةُ النُّبُوَّةِ وَالرَّسَالَةِ

لقد مَنَّ الله على موسى وهارون، فأَنعم عليهما بالنُّبُوَّةِ وبالرَّسَالَةِ، أي : وعزَّتنا وجلالنا لقد أَنعمنا على موسى وهارون بكثير من النعم، والمنافع الدنيوية والدنيوية، وأعظمها نعمة النُّبُوَّةِ والرَّسَالَةِ، والدعوة إلى الله عز وجل، وقد كانت نبوة موسى ﷺ مَنَّةً من الله تعالى؛ لأنه ﷺ لم يسأل ربه النُّبُوَّةَ، وإنما تفضل الله بها عليه، وهارون أيضاً لم يطلب النُّبُوَّةَ، وإنما سألها موسى له، فكانت مَنَّةً عليه وإرضاء لموسى ﷺ .

وَالْمَنَّةُ الثَّانِيَّةُ: مَنَّةُ دَفْعِ الضَّرِّ عَنْهُمَا

١١٥- ﴿وَنَجَّيْنَاهُمَا وَقَوْمَهُمَا مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ﴾

أي : ومنَّا على موسى وهارون بنجاتهما وقومهما من الغرق، ونجاتهما من استعباد فرعون لهما، بقتل الذكور واستبقاء الإناث، وإذلال طائفة من أهل مصر بالعمل في الأشغال الشاقة .

والكرب العظيم : هو ما كانوا فيه من الذل تحت سُلْطَةِ الفراعنة، وما كان من فرعون حين تبع موسى لَمَّا خرج بقومه من مصر، وأدركه عند البحر، فأوحى الله إلى موسى أن اضرب بعصاك البحر، فضربه فانفلق، فاجتازه موسى وبنو إسرائيل، ومَدَّ البحر أمواجه على فرعون وجنده، فأطبق عليهم، وقد أطلق الكرب العظيم في قصة نوح ﷺ على الغرق بالطوفان، قال تعالى : ﴿وَنُوحًا إِذْ نَادَى مِنْ قَبْلُ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ فَنَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ﴾ [الأنبياء] قال تعالى :

وَالْمَنَّةُ الثَّالِثَةُ: نَصْرُ اللَّهِ تَعَالَى لِمُوسَى وَهَارُونَ

١١٦- ﴿وَنَصَرْنَاهُمْ فَكَانُوا هُمُ الْغَالِبِينَ﴾

أي : وأنعمنا على موسى وهارون بنصرنا لهما ولقومهما في كل موقعة قاتلوا فيها، ونَصَرْنَاهُمْ على الفراعنة، فكانت لهم العزة والغلبة، بعد أن كانوا مهْزُومِينَ مغلوبين .

وأغرق الله فرعون وقومه وهم ينظرون، ونجى موسى وقومه بأعجوبة بالغة، حين عبروا البحر بعد أن جعله الله اثنا عشر طريقاً يبساً.

ولما خالف بنو إسرائيل أوامر نبيهم موسى ﷺ كانت هزيمتهم أمام العمالة والكنعانيين والآشوريين والبابليين.

وهكذا يهزم الله اليهود بمشيئته تعالى أمام المسلمين لكفرهم بعيسى ومحمد، وتحريفهم ما في التوراة والخروج عن تعاليمها. قال تعالى:

الْمِنَّةُ الرَّابِعَةُ: نُزُولُ التَّوْرَةِ

١١٧- ﴿وَأَتَيْنَهُمَا الْكِتَابَ الْمُسْتَقِيمَ ۝١١٧﴾

أي: وأنزلنا التوراة بتعاليمها الواضحة على موسى ﷺ، ولما كان هارون معاضداً لموسى في رسالته، كان له حظ منها، وهي كتاب ظاهر الأحكام والحدود وسائر التشريع والمواعظ وتفصيل كل شيء:

قال تعالى: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَا التَّوْرَةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ ۝﴾ [المائدة: ٤٤].

وقال سبحانه: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى وَهَارُونَ الْفُرْقَانَ وَضِيَاءً وَذِكْرًا لِّلْمُتَّقِينَ ۝٤٨﴾ [الأنبياء].

وقال جلّ شأنه: ﴿ثُمَّ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ تَمَامًا عَلَى الَّذِي أَحْسَنَ وَتَفْصِيلاً لِّكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لَّعَلَّهُمْ بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ ۝١٥٦﴾ [الأنعام]

الْمِنَّةُ الْخَامِسَةُ: هِدَايَةُ مُوسَى وَهَارُونَ

١١٨- ﴿وَهَدَيْنَاهُمَا الصِّرَاطَ ۝١١٨﴾

ومن منن الله تعالى على موسى وهارون، ونعمه عليهما، أن هداهما إلى الطريق المستقيم الذي لا اعوجاج فيه، وهو الإسلام، دين الله الذي ابتعث به أنبياءه جميعاً وهو الدين الحق والتوحيد الخالص ﴿إِنَّ إِلَٰهَ الْأَوَّلِينَ ۝١﴾ [آل عمران: ١٩].

(١) قرأ قبل ورويس بالسین الخالصة في (الصراط) وقرأ خلف عن حمزة بإشمام الصاد صوت الزاي، والباقون بالصاد الخالصة.

وقد شرع الله لموسى وهارون دينًا ذا أحكام وشرائع مستقيمة موصلة إلى الله تعالى، وقد مَنَّ الله عليهما بسلوك هذا الطريق.

وقد اتفقت الرسائل جميعًا على وجوب التوحيد وأصول الديانة، والكليات العامة، وهي حفظ الدين والنفس والعقل والنسل والمال، ولم تختلف الشرائع في شيء من ذلك، قال تعالى: ﴿شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ﴾ [الشورى: ١٣].

وكان الاختلاف في الفروع والجزئيات في جانب العبادة، حيث جاءت على سبيل التدرج بما يوافق أطوار الأمم ونموها.

وكانت شريعة التوراة يوم أوتيتها موسى هي الصراط المستقيم، ولما نُسخَت بالقرآن كان القرآن هو الصراط المستقيم وعُطِلَت التوراة إلى الأبد.

الْمِنَّةُ السَّادِسَةُ: الثَّنَاءُ الْحَسَنُ عَلَى مُوسَى وَهَارُونَ فِي الْأُمَمِ جَمِيعًا

١٢٠، ١١٩ ﴿وَتَرَكْنَا عَلَيْهِمَا^(١) فِي الْآخِرِينَ

أي: أبقينا وأدَمْنَا على موسى وهارون الذكر الحسن والثناء العطر فيمن بعدهما من الأمم المتأخرة إلى انقضاء العالم، ومن باب أولى أن يكون هذا الثناء أيضًا في الأمم المتقدمة ومفعول ﴿تَرَكْنَا﴾ محذوف، تقديره: تركنا له ثناء حسنًا عليه، وذكرًا جميلًا في الناس.

تحية لموسى وهارون من عند الله، وثناء عطرًا عليهما، ودعاء لهما بالسلامة من كل آفة، وسلام عليهما في الأولين، وسلام عليهما في الآخرين، وسلام عليهما إلى يوم الدين.

١٢٢، ١٢١ ﴿إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ

أي: وبمثل هذا التكريم نجزي من أخلص التوحيد لله تعالى، وأحسن مع الله ومع الناس في أقواله وأعماله من عباده الصادقين في إيمانهم وأعمالهم.

وموسى وهارون أخلصا لله في طاعتهما وعبادتهما، وكانا من الراسخين في إيمانهما،

(١) قرأ يعقوب بضم الهاء من (عليهما)، والباقون بكسرها.

الثابتين على عقيدتهما، فاستحقا بذلك وصف العبودية واستحقا إسنادهما إلى الله تعالى في قوله: ﴿إِنَّهُمَا مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ﴾ (١٢٣).

وهذه الآيات الأربع الأخيرة ختم الله بها قصص: نوح، وإبراهيم، وموسى، وهارون في هذه السورة، فكان ذلك شعاراً لها، كما كان لقصص سورة الشعراء والقمر وغيرهما تعقيب معيّن، ختم به كل قصة.

الْقِصَّةُ الْخَامِسَةُ: قِصَّةُ نَبِيِّ اللَّهِ إِيَّاسَ عَلَيْهِ السَّلَامُ

١٢٣، ١٢٤ - ﴿وَإِنَّ إِيَّاسَ^(١) لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ

وبعد أن ذكر سبحانه قصة ثلاثة من رسل الله من أصحاب الشرائع هم: نوح، وإبراهيم، وموسى عليهم الصلاة والسلام أتبعهم بثلاثة أنبياء من أقوامهم، قاموا بالدعوة إلى الله مثلهم، ولم تكن لهم شرائع مستقلة، بل جاء كل منهم يُذكّر قومه بما غفلوا عنه من الرسالة السالفة، وقد بدأهم بنبي الله إياس ﷺ.

وإلياس هو ابن بشر بن فتاح بن العيزار بن هارون بن عمران.

وقال أبو السعود: هو إياس بن ياسين من سبط هارون أخي موسى^(٢).

وقد ذكر إياس في القرآن مرتين، هنا وفي الآية ٨٥ من سورة الأنعام، وذكر بلفظ (إل ياسين) مرة واحدة في سورة الصافات ١٣٠.

وإلياس نبي من أنبياء بني إسرائيل التابعين لشرعية التوراة، ويُعرف في العهد القديم باسم (إيلياء) كانت نبوته في عهد (آخاب) أحد ملوك بني إسرائيل، في القرن العاشر قبل الميلاد تقريباً.

وذلك أنه لما مات نبي الله (حزقيال) ظهر في بني إسرائيل الفساد والشرك وعبادة الأصنام من دون الله، فأرسل الله إليهم بعد موسى رُسلًا لتجديد ما نسوه من أحكام التوراة.

(١) قرأ ابن عامر بخلف عنه بوصل همزة (إلياس) فيكون النطق بلام ساكنة بعد (إن) وصلًا، وفي البدء بهمزة مفتوحة؛ لأن أصلها (ياس) دخلت عليها (ال)، وقرأ الباقون بهمزة قطع مكسورة في الحالين، وهو الوجه الثاني لابن عامر. وإلياس: اسم أعجمي، سرياني، قطعت همزته تارة ووصلت أخرى.

(٢) «تفسير أبي السعود» (٢٧٦/٤).

وكان يوشع لما فتح الشام قَسَمَهَا على أسباط بني إسرائيل، فأرسل الله رسلاً يبلِّغون ملوك بني إسرائيل أن الله قد غضب عليهم من أجل عبادة الأصنام، فأرسل إلى أهل أنطاكية وما حولها في سوريا ثلاثة من المرسلين، جاء ذكرهم في سورة يس، وأرسل إلى أهل بعلبك وما حولها في سوريا أيضاً نبيُّ الله إلياس عليه السلام.

صنم بعل :

وكان بنو إسرائيل قد عبدوا صنم (بعل) الذي سميت المدينة باسمه، عبدوه أكثر من مرة تقليداً لمن سبقهم من الكنعانيين والعبرانيين، وكان لبعل من السدنة في بلاد السامرة، أو مدينة صرفة، أربع مئة وخمسون سادناً، وكانوا قد صَوَّروه على صورة إنسان له رأس عجول وقرنان، وعليه إكليل يجلس على كرسي، ويمدُّ يديه كمن يتناول شيئاً، وهو تمثال مجوَّف، مصنوع من نحاس، تحته قاعدة من بناء، كالتُّور، فكانوا يضعون القرابين على ذراعيه، ويوقدون النيران تحته، فتحترق بالحرارة، فيظنون أن الصنم قد تقبَّلها وأكلها من جهلهم.

وتوجد في دار الآثار بقصر اللوفر في باريس، صورة بعل منقوشة على وجه حجارة بصورة إنسان، على رأسه خوذة بها قرنان، ويده مفرعة، ولعلها صورته عند بعض الأمم التي عبدته^(١).

أرسل الله إلى مدينة بعلبك وما حولها إلياس عليه السلام وهو من المرسلين الذين أكرمهم الله بالنبوة والرسالة؛ ليُخرج قومه من ظلمات الكفر إلى نور الإيمان.

دعا إلياس بني إسرائيل إلى توحيد الله وطاعته، فأمرهم بتقوى الله، وحذَّره عقابه إن استمروا على ما هم فيه من عبادة الصنم، وهذا ما تشير إليه الآية ﴿إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ﴾ من بني إسرائيل ﴿الْأَلَا نُنْفِئُ﴾ الله فتمثلون أمره وتجتنبون نهيه، وتعبدون الواحد القهار. قال تعالى:

١٢٥، ١٢٦ - ﴿الَّذِينَ بَعَلًا وَتَذَرُونَ أَحْسَنَ الْخَالِقِينَ﴾ (١٥) اللَّهُ (٢) رَبُّكُمْ رَبَّ آبَائِكُمُ الْأَوَّلِينَ ﴿

أي: كيف تعبدون هذا الصنم المسمى (بعل) وتتركون عبادة رب العالمين؟! أتعبدون

(١) يُنظَر: «تفسير التحرير والتنوير» (١٦٦/٢٣).

(٢) قرأ حفص وحمة والكسائي ويعقوب وخلف بنصب الأسماء الثلاثة (الله ربكم ورب) فلفظ الجلالة بدل من أحسن، و(ربكم) صفة، و(رب) عطف، والباقون برفع الثلاثة، فالأول مبتدأ والثاني خبر، والثالث عطف.

صنمكم بغلاً، وهو صنم لا يضر ولا ينفع؟! ولا يخلق ولا يرزق، وهذا توبيخ وزجر لهم ولأمثالهم، مِنْ كُلِّ مَنْ يَعْبُدُ غَيْرَ اللَّهِ تَعَالَى، لبيان أن هذا غاية في الضلال والسفة.

أتعبدون صنماً صنعتموه بأيديكم، وتذرون عبادة ربكم ورب آبائكم وأجدادكم؟! وهو الذي خلقكم ورزقكم ورباكم بنعمه، وهو الذي يميّتكم ثم يحييكم، فهو سبحانه ليس بربكم وحدكم، بل هو أيضاً رب آبائكم الذين اتبعتم طريقهم وقلدتموهم في عبادة غير الله. قال تعالى مبيناً موقف قومه من دعوته:

١٢٧، ١٢٨ - ﴿فَكَذَّبُوهُ فَإِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ ﴿١٢٧﴾ إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلِصِينَ ﴿١٢٨﴾﴾

دعا إيلاس قومه إلى عبادة الله وحده، فكذبوه فيما دعاهم إليه وأعرضوا عن دعوته، والله تعالى سيجمعهم يوم القيامة للحساب والعقاب فيحضرهم إلى جهنم إحضاراً فيه ذل وهوان.

وفي هذا تهديد ووعد لهم بالعقاب الأخرى، ولم يذكر لهم عقوبة دنيوية.

وكان عدم طاعة عامة القوم لإيلاس تبعاً لملوكهم الذين استجابوا لرغبة نسائهم المشركات في إقامة هياكل للأصنام، وكان ملكهم قد آمن بإيلاس عليه السلام ثم ارتدّ.

إيلاس يعهد إلى اليسع أن يقوم بواجب الدعوة بعده:

وذلك أن ابنة الملك لما بلغها ما صنعه إيلاس بسدنة (بغل) أرسلت إليه تتوعده بالقتل، فخرج إلى موضع يقال له: (بئر سبع) ثم ساح في الأرض، وسأل الله أن يقبضه إليه، فأمره ربه أن يعهد بالقيام بواجب الدعوة من بعده إلى صاحبه (اليسع).

عن ابن عباس رضي الله عنه: أن إيلاس أوى إلى امرأة من بني إسرائيل، ولها ولد يقال له: اليسع بن أخطوب، وكان مريضاً، فأوثته المرأة وأخفت أمره، فدعا لابنها، فعافاه الله من الضر الذي به.

وأتبع (اليسع) إيلاس، فأمن به وصدّقه ولازمه، وذهب معه حيثما سار، وكان (إيلاس) قد تقدمت به السن، وكان (اليسع) غلاماً شاباً، فعهد إليه إيلاس أن يقوم بشؤون الدعوة إلى الله بعده، ثم قبضه الله إليه، فلم يعرف أحد مكانه.

(١) قرأ ابن كثير وأبو عمرو وابن عامر ويعقوب بكسر لام (المخلصين)، والباقيون بفتحها.

وقد ذكر (اليسع) في القرآن مرتين، في الآية ٨٦ من سورة (الأنعام) والآية ٤٨ من سورة (ص). وفي كتب اليهود أن الله تعالى رفع (إيلياء) -أي: إلياس- إلى السماء، وأن اليسع شاهده صاعدًا فيها، وليس عندنا في شريعة الإسلام ما يؤيد هذا.

وورد أن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: إلياس هو إدريس، وكان ذلك في مصحفه، وكان يقرأ: (سلام على إدريس) على أنه لغة في إلياس^(١).

وأكثر المفسرين على أن إلياس نبي من أنبياء بني إسرائيل، وهو الأرجح. أما إدريس فكانت رسالته بين شيث ونوح عليهم السلام.

ولو صح ما نسب إلى ابن مسعود ومقاتل لكان هذا محمولًا على تكرار الرفع إلى السماء. ثم إن الله تعالى استثنى ممن يحضرون إلى جهنم عباد الله الذين أخلصوا دينهم لله، وأخلصهم الله إليه، فإنهم ناجون من عذابه، وهم الذين آمنوا برسل الله وصدقوهم، فإنهم محل إكرام الله وإحسانه. قال تعالى:

١٢٩-١٣٢ - ﴿وَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ ﴿١٢٩﴾ سَلَّمَ عَلَىٰ إِيَّا سِينَ ﴿١٣٠﴾ إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴿١٣١﴾ إِنَّهُمْ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٣٢﴾﴾

أي: وجعلنا لإلياس في الأمم بعده ثناء حسنًا، وذكرًا بين الناس في جميع الأمم، تحية من الله وثناء منه على إلياس وآله، وسلامة له ولهم من الآفات، والمراد (إل ياسين): ذووه وأنصاره وقيل: إن (ياسين) هو أبو إلياس، والأول أصح.

وكما جزينا إلياس، الجزاء الحسن على طاعته لله، نجزي كل من أحسن مع الله ومع خلقه، لقد كان إلياس من عباد الله الذين أخلصوا له الطاعة والعبادة.

(١) «تفسير الخازن» (٢٦/٤) و«زاد المسير» (٧٩/٧، ٨٤) ويُنظر: «فتح الباري» (٣٧٣/٦) والطبري (٩/٣٨٣، ٦١٢) وابن أبي حاتم (١٣٣٦/٤) (٧٥٥٦) وابن عساكر (٢٠٧/٩). قلت: وهذه القراءة شاذة لا توجد في القراءات الصحيحة، وهي مخالفة لرسم المصحف.

(٢) قرأ نافع وابن عامر ويعقوب بفتح الهمزة من (إلياسين) وكسر اللام وفصلها عما بعدها هكذا (سلام على آل ياسين) فيصح الوقف على (آل) اضطرارًا أو اختبارًا، وقرأ الباقر قراءة حفص بهمزة مكسورة بعدها لام ساكنة موصولة بما بعدها، فتكون كلمة واحدة لا يجوز فصلها.

وفي ختام هذا القصص -بهذه الآيات الأخيرة- بيان لفضل الإيمان والإحسان، وأن الرسل جميعاً قد اتصفوا بهذه الصفات، فاستحقوا من الله الثناء الحسن والذكر الجميل، صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين.

الْقِصَّةُ السَّادِسَةُ: طَرَفٌ مِنْ قِصَّةِ لُوطٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ

١٣٣-١٣٦ - ﴿وَإِنَّ لُوطًا لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴿١٣٣﴾ إِذْ بَخَّيْتَهُ وَأَهْلَهُ أَجْمَعِينَ ﴿١٣٤﴾ إِلَّا عَجُوزًا فِي الْغَائِبِينَ ﴿١٣٥﴾ ثُمَّ دَمَرْنَا الْآخَرِينَ ﴿١٣٦﴾﴾

وفي لمحة سريعة تشير الآيات إلى رسالة لوط عليه السلام ونجاته مع أهله إلا امرأته الكافرة، وتلفت الأنظار إلى الاعتبار بما حدث لمن كذب رسل الله، ومنهم لوط عليه السلام؛ حتى لا يصيبهم ما أصاب أسلافهم.

ولوط هو ابن هاران أخي إبراهيم، كان قد آمن برسالة عمه، وهاجر معه من العراق إلى الشام ﴿فَمَنْ لَّهُ لُوطٌ وَقَالَ إِنِّي مُهَاجِرٌ إِلَى رَبِّي﴾ [العنكبوت: ٢٦] وقد أرسله الله إلى قري المؤتفكة، وهم أهل سدوم في الأردن، وكان لوط يسكن في أحد هذه القري، وكانوا قوماً يعبدون الأصنام، ويرتكبون فاحشة اللواط، فهو أحد رسل الله إلى هداية أقوامهم، وقد اصطفيناه واختناه لرسالتنا، وكان رسولاً بلا شريعة لم ينزل عليه كتاب.

فاذكر -أيها الرسول- لقومك نبي الله لوطاً عليه السلام حين أنجاه الله وأهله، وأهلك قومه، وهو قائم بواجب الرسالة عن الله تعالى، إلا امرأة عجوزاً هرمية، هي زوجته التي لم تؤمن به، فكفرت بدعوته، وكانت تُفشي أسرار زوجها إلى القوم، فإنها هلكت مع من هلك من قومها؛ لكفرها به فكانت من الباقين في العذاب.

أما قوم لوط الذين كذبوه فاستمروا على شركهم وإتيانهم الفاحشة التي ليس لها نظير سابق، حتى دمرهم الله، بقلب قراهم، حيث جعل عاليها سافلها، وأمطرنا عليهم حجارة من سجيل فأصبح مكانهم بحيرة متتنة، كريهة المنظر، هي (بحيرة لوط) ولعدم الانتفاع بمياها سُميت: البحر الميت.

قال تعالى: ﴿فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَلَىٰهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ مَّنْضُودٍ ﴿٨٧﴾ مُسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَ وَمَا هِيَ مِنَ الظَّالِمِينَ بِبَعِيدٍ ﴿٨٨﴾﴾ [هود] قال تعالى:

١٣٧، ١٣٨ - ﴿وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِمْ مُصْبِحِينَ ﴿١٣٧﴾ وَبِالْأَيْلِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٣٨﴾﴾

وإنكم -أيها المخاطبون- بهذه الآيات تمرّون على هذا المكان في أسفاركم صباحًا ومساءً، فاعتبروا بما حدث لهم، واستعملوا عقولكم فيما خلقتكم من أجله فأنتم تشاهدون آثارهم ليلاً ونهاراً، فخافوا أن يصيبكم ما أصابهم بأن تتجنبوا أسباب غضب الله وتكذيب رسل الله.

وكان أهل مكة إذا سافروا في تجارتهم إلى الشام يمرون بفلسطين على شاطئ بحيرة لوط، وآثارهم باقية تحت الماء، وكانت رحلة قريش إلى الشام في الصيف.

القِصَّةُ السَّابِعَةُ وَالْأَخِيرَةُ: قِصَّةُ نَبِيِّ اللَّهِ يُونُسَ عَلَيْهِ السَّلَامُ

١٣٩، ١٤٠ - ﴿وَإِنَّ يُونُسَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴿١٣٩﴾ إِذْ أَبَقَ إِلَى الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ ﴿١٤٠﴾﴾

هذا ثناء من الله تعالى على عبده ورسوله يونس عليه السلام، كما أثنى على إخوانه المرسلين بالنبوة والرسالة والدعوة إلى الله تعالى، ويونس عليه السلام هو ابن مَتَّى، وهي أمه.

صح عن رسول الله ﷺ أنه قال: «ما ينبغي لعبد أن يقول: أنا خير من يونس بن مَتَّى»^(١).

أي: لا ينبغي لأحد أن يقول: إن ما فعله يونس حين خرج من قومه مغاضباً لهم: إن هذا يسلب عنه وصف النبوة، أو أنه خير من يونس عليه السلام.

ومتَّى هي أمه، وهو من أنبياء بني إسرائيل، من أهل فلسطين، كانت رسالته في أول القرن الثامن قبل الميلاد.

وقد ذكر يونس في القرآن أربع مرات، هنا في سورة الصافات ١٣٩، وفي سورة النساء ١٦٣ وسورة الأنعام ٨٦٣ وسورة يونس ٩٨.

وكانت نينوى مدينة عظيمة بالعراق يحكمها الآشوريون، وكانوا قد أسروا زهاء مئة ألف من بني إسرائيل في حروبهم معهم، وظل هؤلاء الأسرى في بلاد الآشوريين بنينوى من أرض الموصل بالعراق، فأرسل الله إليهم يونس عليه السلام يدعوهم إلى توحيد الله، وإخلاص العبادة له، ولما ضاق صدره بتكذيبهم له أخبرهم بأن عذاب الله نازل بهم خلال ثلاثة

(١) «صحيح البخاري» برقم (٣٣٩٥، ٣٤١٣، ٤٦٣٠) و«صحيح مسلم» برقم (٢٣٧٧).

أيام، فلما كان اليوم الثالث خرج يونس من بين أظهرهم قبل أن يأذن الله له بالخروج، فلما افتقده قومه علموا أنه قد خرج من بينهم؛ لأن العذاب الذي توعدهم به نازل بهم، فأمنوا بأن يونس نبي الله إليهم، وتابوا إلى الله تعالى قبل أن ينزل بهم العذاب، وتضرعوا إليه أن يرفع عنهم العذاب.

أما يونس عليه السلام فإنه لما رأى أن العذاب لم ينزل بقومه استحي أن يرجع إليهم، وقال: لا أرجع إليهم كذاباً أبداً، وكان من عادتهم أنهم يقتلون الكذّاب ما لم تقم له بيّنة، ومضى في طريقه قاصداً بلداً آخر، فتوجه إلى ميناء (يافا) ليذهب إلى مدينة (طرسوس) على شاطئ بلاد الشام، فجاءت سفينة فركبها، وعندئذ هاج البحر واضطربت أمواجه، وخاف الركاب، فلما وصلت اللجة، وقفت السفينة ولم تتحرك، فاضطر أهلها إلى تخفيف عدد ركابها، وقال صاحبها: إن فيكم رجلاً مشؤوماً فاقترعوا، ليلقوا في البحر من وقعت عليه القرعة، ف وقعت على يونس.

القرعة عادة قديمة:

وكانت هذه القرعة عند من يسافرون عن طريق البحر عادة معروفة ومتبعة منذ القدم، فكانوا إذا زاد عدد الركاب، أو ثقل المتاع اقترعوا، فمن خرج عليه السهم أُلقي في البحر؛ ليخفّ المركب ويسلم الركاب، وهذا على حد زعمهم، أو فهمهم هو الذي ورثوه عن آبائهم، وإلا فإن السفينة لا تخفّ برمي رجل منها.

وكانت القرعة أيضاً من طُرُق القضاء عند التباس الحق، أو استواء عدد مستحقّيه، وفقدان المرجح، كما في قصة مريم من قوله تعالى: ﴿وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَقُولُ أَقْلَمُهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ﴾ [آل عمران: ٤٤].

وهي طريقة مُقنعة لفصل النزاع وقطع الخصام، وكانت هذه القرعة جائزة في شريعة من قبلنا، وقد أقرع النبي ﷺ بين أزواجه في أسفاره، وأقرع في قضيتين من قضايا الموارث اختصم إليه أصحابهما، واقترع الأنصار على سكنى المهاجرين فوقع في سهمهم عثمان بن مظعون^(١).

(١) يُنظر فيما سبق: «تفسير التحرير والتنوير» والألوسي في تفسيرهما الآية.

هذا: ولفظ (نون) من أسماء الحوت، ولذا: فإن يونس عليه السلام لُقِّبَ بصاحب الحوت في قوله تعالى: ﴿وَذَا النُّونِ إِذْ ذَهَبَ مُغْضِبًا فَظَنَّ أَنْ لَنْ نَقْدِرَ عَلَيْهِ﴾ أي: نضيق عليه ﴿فَكَادَى فِي الظُّلُمَاتِ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَنَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ (٨٧) فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَبَجَّيْنَاهُ مِنَ الْغَمِّ وَكَذَلِكَ نُخَيِّجُ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٨٨﴾ [الأنبياء].

ونعود إلى الآية التي نحن بصددھا، أي: وَإِنَّ عَبْدَنَا يُونَسَ اصْطَفَيْنَاهُ لِحِمْلِ رِسَالَتِنَا وتبليغھا للناس لهدايتهم، وقد أمره الله بالذهاب إلى أهل نينوى، لإبلاغ بني إسرائيل أن الله تعالى قد غضب عليهم؛ لأنهم انحرفوا عن شريعته، فدعاهم إلى توحيد الله تعالى فكذبوه. قال تعالى:

يُونُسُ فِي بَطْنِ الْحُوتِ

١٤١، ١٤٢ - ﴿فَسَاهَمَ فَكَانَ مِنَ الْمُدْحَضِينَ﴾ (١٤١) فَالْقَمَهُ الْحُوتُ وَهُوَ مُلِيمٌ ﴿١٤٢﴾

ولما كذبه قومه ضاق صدره بتكذيبهم، فأنذرهم عذاباً قريباً، وخرج من البلد الذي أوحى الله إليه فيه، لتوقع نزول العذاب بهم، يريد بلداً آخر، فوصل إلى شاطئ البحر فركب السفينة المملوءة بالناس والمتاع، هرباً من قومه كالعبد الآبق، أي: الهارب من سيده

ولما أحاطت الأمواج بالركاب، قال الملاحون: هنا عبد آبق من سيده، فافترعوا - كعادتهم - لتخفيف الحمولة على السفينة خوف الغرق - وفق ظنهم - فخرج سهم القرعة على يونس عليه السلام أكثر من مرة، فكان بين المغلوبين، حيث وقعت القرعة عليه دون غيره.

والمدحض: هو المغلوب الذي خسر الرهان، كما قال تعالى: ﴿مَجَّيْنَهُمْ دَاحِضَةً عَبْدَ رَبِّهِمْ﴾ أي: خاسرة وباطلة.

ولما خرج من بينهم افتقده قومه ورأوا أمارات العذاب، وخافوا من نزوله، فآمنوا وتابوا وتضرعوا إلى الله، فنفعهم هذا الإيمان مدة حياتهم الدنيوية، كما جاء ذلك في قوله تعالى: ﴿فَلَوْلَا كَانَتْ قَرِيبَةً ءَامَنَتْ فَنَفَعَهَا ءِيمَتُهَا إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ لَمَّا ءَامَنُوا كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَىٰ حِينٍ﴾ (٩٨) [يونس] أي: أنهم لما آمنوا بعد أن شاهدوا أمارات العذاب الذي وعدوا به، أبقاهم الله ممتعين في الدنيا إلى انقضاء آجالهم.

قال عبد الله بن مسعود رضي الله عنه: لما وعد يونس قومه بالعذاب بعد ثلاث، جأروا إلى الله تعالى واستغفروه، فكف عنهم العذاب، فانطلق مغاضباً حتى انتهى إلى قوم في سفينة، فعرفوه فحملوه، فلما ركب السفينة وقفت، فقال: ما لسفيتكم؟ قالوا: لا ندري، قال: لكني أدري، فيها عبد أبى من ربه، وإنها والله لا تسير حتى تلقوه، فقالوا: أما أنت يا نبي الله، فوالله لا نُلقيك، قال: فاقترعوا، فمن قرع -أي أصابته القرعة- فليقع، فاقترعوا، فقرع يونس، فأبوا أن يمكنوه من الوقوع، فعادوا على القرعة حتى قرع يونس ثلاث مرات^(١).

وبعد أن خرجت القرعة على يونس ألقى بنفسه في البحر الأبيض المتوسط، وإذا بحوت معين قد فغر فاهً وابتلعه بسرعة، وهو حوت عظيم يتلع الأشياء ولا يعرض عليها بأسنانه، التقم الحوت يونس، وهو مكتسب من الأفعال ما يُلام عليه، حيث غادر قومه بدون إذن ربه وهو ملام على ما فعل.

١٤٣، ١٤٤ - ﴿فَلَوْلَا أَنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُسَبِّحِينَ ﴿٤٣﴾ لَلِثَّ فِي بَطْنِهِ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿٤٤﴾﴾

ومع أن يونس قد ارتكب ما يستحق اللوم عليه، إلا أن الله تعالى لم يتخل عنه في هذه الحالة العصية، فقد ألهم الله الحوت أن لا يأكل له لحماً، ولا يكسر له عظماً، وقال له: إنا لم نجعل يونس لك رزقاً، إنما جعلناك له حرزاً ومسجداً؛ وذلك لأن يونس عليه السلام كان يعرف ربه في الرخاء، فعرفه ربه في وقت الشدة، فقد كان يونس قبل أن يصير في بطن الحوت، كثير العبادة، كثير العمل الصالح، وكان وهو في بطن الحوت كثير التسبيح والمناجاة لربه، كثير اللوم لنفسه قائلاً: ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ [الأنبياء: ٨٧].

كان يقول ذلك وهو في ظلمات ثلاث: ظلمة الليل، وظلمة البحر، وظلمة بطن الحوت^(٢).

ورد أن الملائكة سمعت هذا الدعاء وهي تحف بالعرش، فقالت: يا رب، هذا صوت ضعيف معروف، من بلاد بعيدة غريبة، فقال: أما تعرفون ذلك؟ قالوا: يا رب، ومن هو؟

(١) «زاد المسير في علم التفسير» (٨٦/٧).

(٢) يُنظر: البزار (٢٢٥٤) «كشف» والطبري (٣٨٤/١٦)، (٦٣٨/١٩) و«مجمع الزوائد» (٩٨/٧).

قال: عبدي يونس، قالوا: عبدك يونس الذي لم يزل يُرفع له عَمَلٌ مُتَقَبَّلٌ، ودعوة مستجابة؟ قالوا: يا رب، أو لا ترحم مَنْ كان يصنع في الرخاء، فتنجّيه من البلاء؟ قال: بلى، فأمر الحوت فطرحة بالعراء^(١).

وقد استجاب الله ليونس فنجاه من هذا الغم، كما قال تعالى: ﴿فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَبَجَّيْنَاهُ مِنَ الْغَمِّ﴾ وهكذا ينجي الله كل مسلم يقع في كرب وضيق، ويتوجه إلى ربه بمثل هذا الدعاء وهو مؤمن، فإن الله تعالى ينجيه من الغم ﴿وكَذَلِكَ نُنْجِي الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الأنبياء: ٨٨].

أخرج الحاكم والبيهقي في «الشعب» عن الحسن قال: كان يونس يكثر الصلاة في الرخاء، فلما كان في بطن الحوت ظن أنه الموت، فحرك رجله فإذا هي تتحرك، فسجد، وقال: يارب، اتخذت لك مسجدًا في موضع لم يسجد فيه أحد^(٢).

ولولا هذا التسبيح وهذه العبادة، لمكث يونس في بطن الحوت، وصار قبرًا له إلى يوم القيامة، وذلك بأن يميت الله الحوت حين ابتلعه، ويبقيه في قعر البحر، فلا يطفو على وجه الماء، حتى يُبعث يونس يوم القيامة من قعر البحر، ولكن الله تعالى أنجى يونس بسبب تسبيحه وتوبته، حيث قذفه الحوت من بطنه إلى البر، بعد أن مكث في بطن الحوت ثلاث ليالٍ، كما قال قتادة^(٣) وقيل: يومان وليلة.

وقال سعيد بن جبير: لبث يونس في بطن الحوت سبعة أيام، فطاف به البحار كلها، ثم نبذه على شاطئ دجلة^(٤).

قال عطاء: أوحى الله تعالى إلى الحوت: إني قد جعلت بطنك له سجنًا، ولم أجعله لك طعامًا، فلذلك بقي سالمًا لم يتغير منه شيء.

وفي هذا دلالة واضحة على أن الإكثار من ذكر الله تعالى وتسبيحه يكون سببًا في تفريج

(١) رُوي مرفوعًا وموقوفًا من حديث أنس بن مالك كما في «تفسير الطبري» (٦٤/٢٣) و«تفسير عبد الرزاق» (١٥٦/٢).

(٢) الحاكم (٥٨٥/٢) والبيهقي (١١٤٤) وابن أبي حاتم.

(٣) يُنظر: الطبري (٦٢٨/١٩).

(٤) أخرجه ابن المنذر وابن أبي حاتم كما في «الدر المنثور» (٤٧٣/١٢).

الكروب وإزالة الهموم، وأن يدخر العبد لنفسه عملاً صالحاً مخبوءاً يُخلص فيه النية بينه وبين ربه ليوم فقره وفاقه. قال تعالى:

١٤٥، ١٤٦- ﴿فَبَدَّلَ لَهُ الْعَرَاءَ وَهُوَ سَقِيمٌ ﴿١٤٥﴾ وَأَبْلَغْنَا عَلَيْهِ شَجَرَةً مِّنْ يَقْطِينٍ ﴿١٤٦﴾﴾

وهكذا استجاب الله ليونس فلفظه البحر، وحمله الموج إلى الشاطئ، وألقاه على الساحل في أرضٍ فضاء، لا شجر فيها ولا بناء ولا ظل، وقد خرج يونس من بطن الحوت سقيماً؛ لأن أمعاء الحوت أضرت بجلده وهي تتحرك حوله. وكان يونس قد نزع ثيابه ليخف للسباحة عندما ألقى بنفسه في البحر، فخرج ضعيف البدن، منهك القوى.

وقد أسند سبحانه النبذ إلى نفسه؛ لأنه هو الذي سخر له الحوت ليقذفه على الشاطئ، والأرض العراء هي الخالية، ليس فيها ما يغطيها، ولا يوجد بها بناء ولا زرع ولا شجر. ومن رحمة الله بيونس أن أنبت عليه في هذه الأرض العارية شجرة من القرع، تظله ويتنفع بها.

واليقطين: كل شجر لا ساق له، كالبطيخ والقثاء والقرع، والمراد بها هنا: شجرة القرع؛ لأنها كبيرة الورق، باردة الظل، لا يقربها الذباب، وهي كثيرة الورق، تتسلق أغصانها على الشيء المرتفع، ويبدو أن أغصانها تسلقت جسد يونس، فكسته وأظلمته بورقها الناعم، إضافة إلى أن القرع قوت وغذاء، يؤكل نيئاً ومطبوخاً بلبه وقشره، وهذا من تدبير الله تعالى ولطفه بيونس ﷺ، ولم يحدث مثل هذا لأحد من الرسل.

يُونُسُ يَعُودُ إِلَى قَوْمِهِ دَاعِياً إِلَى اللَّهِ بَعْدَ نَجَاتِهِ مِنْ بَطْنِ الْحُوتِ

١٤٧، ١٤٨- ﴿وَأَرْسَلْنَاهُ إِلَى مِائَةِ أَلْفٍ أَوْ زَيْدُورِكَ ﴿١٤٧﴾ فَآمَنُوا فَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَىٰ حِينٍ ﴿١٤٨﴾﴾

وبعد أن خرج يونس من بطن الحوت عاد ثانية إلى القوم الذين كذبوه فهرب منهم بعد أن آمنوا حين رأوا العذاب نازل بهم، وهؤلاء القوم هم اليهود المقيمون في نينوى بسبب أسر الآشوريين لهم^(١) وبلغ تعدادهم مئة وعشرين ألفاً^(٢).

(١) يُنْتَظَرُ: كتاب «يونس»- من كتب اليهود- الإصحاح الثالث.

(٢) جاء هذا في ابن جرير (٦٧/٢٣).

المعنى: وبعد أن تدارك الله يونس بلطفه، وأخرجه من بطن الحوت، أمره بالعودة إلى أهل نينوى. وقيل: إنه أرسل إلى قوم آخرين بعد خروجه من بطن الحوت، يبلغ تعدادهم مئة ألف، لا يتقصون بل يزدون، ولعل الأول هو الأصح، وهذا بدليل قوله تعالى: ﴿فَتَأْمَنُوا فَمَعَّنتَهُمْ إِلَىٰ حِينٍ﴾. أي: أن أهل نينوى آمنوا بيونس، لما شاهدوا العذاب نازل بهم، فخرجوا بأطفالهم وأولادهم ونسائهم وبهائمهم، وفرقوا بينهم وبين الأمهات، وتضرعوا إلى الله تعالى، فرفع عنهم العذاب بعد أن كذبوا يونس وتوعدهم بالهلاك. وإلى هنا تنتهي قصص الأنبياء السبع في هذه السورة.

إِبْطَالُ دَعْوَىٰ أَنَّ الْمَلَائِكَةَ بَنَاتُ اللَّهِ

١٤٩، ١٥٠ - ﴿فَاسْتَفْتِهِمْ أَلِرَبِّكَ الْبَنَاتُ وَلَهُمُ الْبَنُونَ﴾ ﴿١٤٩﴾ أَمْ خَلَقْنَا الْمَلَائِكَةَ إِنَاثًا وَهُمْ شَاهِدُونَ ﴿١٥٠﴾ وبعد أن أنكر سبحانه على المشركين شركهم بالله تعالى، وأبطل دعاويهم الكاذبة، وضرب لهم الأمثال بما أصاب الأمم التي كذبت رسل الله، عادت السورة لتناقش المشركين في زعمهم أن الله تعالى تزوج من الجن فأنجب منهم الملائكة، فهم بنات الله في زعمهم. ويبدأ تفنيد هذه الخرافة بهذا الاستفتاء:

﴿فَاسْتَفْتِهِمْ أَلِرَبِّكَ الْبَنَاتُ وَلَهُمُ الْبَنُونَ﴾ ﴿١٤٩﴾ عطفًا على الاستفتاء الأول في قوله تعالى: ﴿فَاسْتَفْتِهِمْ أَهُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمْ مَنِ خَلَقْنَا﴾ وبعد استعراض آفاق الكون بمشاركه ومغاريبه التي تشهد بوحداية الخالق وعظيم قدرته، وأنه سبحانه غني عن الشريك والولد، فلا يستقيم أن يكون له سبحانه أولاد، لا من الجن، ولا من الإنس، ولا من الملائكة، كما يزعم المشركون، ولا يستقيم أن يكون هناك إله للخير وإله للشر، وأنهما أخوان، كما يزعم الملاحدة الضالون ﴿إِنَّمَا هُوَ إِلَهُ وَاحِدٌ﴾ [النحل: ٥١]. تعالى الله عما يقولون علوًا كبيرًا.

ومن العجيب أن المشركين حين نسبوا الولد لله تعالى خصّوه بالإناث وهم يكرهونهنّ، وخصّوا أنفسهم بالذكور وهم يحبونهم، فجعلوا لله ما يكرهون. وفي هذا ثلاثة أنواع من الكفر: أحدها: أنهم أثبتوا التجسيم لله تعالى؛ لأن الولادة مختصة بالأجسام.

ثانيها: أنهم اختاروا لأنفسهم الأفضل، وجعلوا لربهم الأدنى.

ثالثها: أنهم وصفوا الملائكة بالأنوثة، وفي هذا استهانة بأكرم خلق الله وأقربهم إليه.
ولذا: فإن الله تعالى ركّز في كتابه على هذه الأنواع الثلاثة من الكفر، فذكرها أكثر من مرة في عدد من السور.

والمعنى: ﴿فَأَسْتَفْتِهِمْ﴾ أي: أسألهم يا محمد واستخبر هؤلاء المشركين الذين عبدوا الملائكة، وزعموا أنهم بنات الله، فجمعوا بين الشرك بالله تعالى ووضفه بما لا يليق بجلاله، أسألهم على سبيل التوبيخ والتفريع والإنكار ﴿الرَّيْكَ أَلْبَتَّ﴾ اللاتي يكرهونهنّ ولا يرضونهنّ لأنفسهم ﴿وَلَهُمُ الْبُتُونَ﴾ الذين يحبونهم، فكيف يرضون لله ما لا يرضونه لأنفسهم؟ هذه قسمة جائزة ﴿وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ الْبَنَاتِ سُبْحَنَهُ وَلَهُمْ مَا يَشْتَهُونَ﴾ [النحل]

وبعد هذا الاستفسار الإنكاري يطالبهم القرآن بالدليل الحسي على دعواهم، إذ كيف يصفون الملائكة بأنهم إناث، وهنا يأتي التعجب من جهلهم وسفاهتهم، فهل كانوا حاضرين وقت أن خلقنا الملائكة فرأوهم إناثاً وشاهدوا خلقهم؟ كلا ليس الأمر كذلك، فهم لم يشهدوا خلقهم، بل إنهم افترؤا على الله الكذب، وتقوّلوا عليه بغير علم، إنهم لم يكونوا حاضرين خلق الملائكة، وإنما هم يهرفون بما لا يعرفون، وهذا كقوله تعالى: ﴿وَجَعَلُوا الْمَلَائِكَةَ الَّذِينَ هُمْ عِبَادُ الرَّحْمَنِ إِنثًا أَشْهَدُوا خَلْقَهُمْ سَتُكْتَبُ شَهَادَتُهُمْ وَيُسْأَلُونَ﴾ [الزخرف]. قال تعالى:

١٥٢، ١٥١ - ﴿آلَا إِنَّهُمْ مِّنْ إِفْكِهِمْ لَيَقُولُونَ ﴿١٥١﴾ وَلَدَ اللَّهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴿١٥٢﴾﴾

ثم يُفصِّح القرآن عن مقولتهم المفتراة، فيبيّن سبحانه أن المشركين يقولون المستحيل، فضلاً عن القول بدون دليل، فقولهم هذا كذب محض وإفك مفترى.

ولا يصح الوقف على ﴿لَيَقُولُونَ﴾ والبدء بما بعدها؛ لأنه بدء قبيح، فيه نسبة الولد إلى الله تعالى، ولأن الفصل بين القول وقائله يوهم غير المعنى المقصود.

والإفك: هو أشنع الكذب فهم من شدة كذبهم وشناعة جهلهم يقولون زوراً وبهتاناً: اتخذ الله ولداً، فينسبون له الذرية، قولاً بلا علم ولا دليل، قال تعالى: ﴿وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾ غاية الكذب، كاذبون أولاً في نسبتهم الولد إلى الله تعالى، وكاذبون ثانياً في جعلهم الملائكة إناثاً، وقد كفروا ثالثاً؛ لأنهم عبدوهم من دون الله قال تعالى: ﴿تَكَادُ

السَّمَوَاتِ يَنْفَخْنَ مِنْهُ وَتَنْشَقُّ الْأَرْضُ وَتَخِرُّ الْجِبَالُ هَدًا ﴿٩١﴾ أَنْ دَعَوْا لِلرَّحْمَنِ وَلَدًا ﴿٩٢﴾ وَمَا يَنْبَغِي لِلرَّحْمَنِ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَدًا ﴿٩٣﴾ إِنْ كُلُّ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا آتَى الرَّحْمَنِ عَبْدًا ﴿٩٤﴾ [مريم].

قال تعالى موبِّخاً لهم؛ ومبيناً أنه لا يوجد دليل حسي ولا عقلي ولا سمعي، على دعوى الشرك: فقال سبحانه في طلب الدليل الحسي المشاهد:

١٥٣-١٥٥- ﴿أَصْطَفَى^(١) الْبَنَاتِ عَلَى الْبَنِينَ ﴿١٥٣﴾ مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴿١٥٤﴾ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ^(٢)﴾

أي: ولو سلمنا أن الله تعالى قد اتخذ ولداً، فلماذا اختار البنات دون البنين؟ وهذا الاستفهام بمثابة التسليم للمعارض أثناء المناظرة ليصل إلى نهاية الجدل.

وفي هذا إنكار من الله تعالى عليهم باختيارهم البنات له دون البنين، وكان أحدهم إذا بُشِّرَ بالأنثى ظل وجهه مسوداً وهو كظيم.

والمعنى: لأي شيء يختار الله البنات دون البنين؟ ﴿أَفَأَصْفَكَ رِئُوسَ الْبَنِينَ وَأَتَّخِذَ مِنَ الْمَلَائِكَةِ إِنْتِثَاءً﴾ [الإسراء: ٤٠].

وأي شيء حصل لكم حتى تحكموا هذا الحكم الجائر؟ وكيف أصدرتم هذا الحكم الباطل، وفي هذا تسفيه وتجهيل لهم؟! فبئس الحكم ما تحكمون أيها القوم.

﴿أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ وتميزون هذا القول الباطل الجائر، فإنكم لو تذكّرتُم لم تقولوا هذا القول:

أليس عندكم تمييز وإدراك، تعرفون به خطأ هذا الكلام، وأنه لا يجوز ولا ينبغي أن يكون له سبحانه ولد؟! وبعد أن عجزوا عن إقامة دليل المشاهدة، طالبهم القرآن بدليل عقلي، فقال:

١٥٦، ١٥٧- ﴿أَمْ لَكُمْ سُلْطَانٌ مُبِينٌ ﴿١٥٦﴾ فَأَنؤُا يَكْتُمِكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿١٥٧﴾﴾

أي ألكم دليل من كتاب أو سنة على قولكم؟

(١) قرأ أبو جعفر وورش بخلف عنه بوصل همزة (أصطفى) حال وصلها بما قبلها، ويُبدأ بهمزة مكسورة وذلك على حذف همزة الاستفهام، فأصلها: أأصطفى، وقرأ الباقر بهمزة مفتوحة في الوصل والوقف على الاستفهام الإنكاري.

(٢) قرأ حفص وحمزة والكسائي وخلف بتخفيف الدال من (تذكرون)، والباقر بتشديدها.

فأنكر الله عليهم أن يكون لهم حجة واضحة على صحة ما قالوه، فويّخهم على زعمهم الفاسد، وأنه لا يوجد لهم برهان يبين، ولا دليل واضح على أن الله تعالى اتخذ الملائكة بنات له؟

وبعد عجزهم عن إقامة الدليل الحسي والعقلي على أن الملائكة بنات الله، طالبهم بالدليل السمعي المنقول عن سبقهم، فإن كان لكم حجة بينة مسطر فيها أن الملائكة بنات الله -كما زعمتم- فأتوا به ليشهد لكم على صحة دعواكم، وفي هذا تعجيز لهم، وبيان أنهم لا يستندون في أقوالهم الباطلة على دليل شرعي، ولا على منطق عقلي، فثبت بهذا أن قولهم كذب متعمد.

وبهذا ينتفي بالدليل الحسي والعقلي والتقلي أن الملائكة إناث، وأنهم بنات الله؛ لأن القائلين بذلك لم يحضروا خلق الملائكة، وليس عندهم دليل شرعي، ولا منطق عقلي ينطق بذلك، وبالعجز عن هذه الأدلة ينحصر القول في إخبار الله تعالى عنهم بأنهم ﴿عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ لَا يَسِفُونَهُ بِالْقَوْلِ وَهُمْ بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ﴾ [الأنبياء: ٢٧].

قال تعالى: ﴿قُلْ إِنْ كَانَ لِلرَّحْمَنِ وَلَدٌ فَأَنَا أَوَّلُ الْعَبِيدِ﴾ [الزخرف: ٨١].

وهو دليل قد سلّم من المعارضة والمناظرة.

وقد جمعت الآيات السابقة وهي قوله تعالى: ﴿وَهُمْ شَهِدُونَ﴾ وقوله: ﴿وَسُلْطَنٌ تُبَيِّنُ﴾ وقوله: ﴿فَأَتُوا بِكِنْيَتِكُمْ﴾ جمعت هذه الآيات الثلاث بين أسلوب المناظرة، وأسلوب الموعظة، وأسلوب التعليم، فما أبدع هذا النسيج الجامع!!

لِلْفَظِ الْجِنَّةِ ثَلَاثَةُ مَعَانٍ

١٥٨- ﴿وَجَعَلُوا بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْجِنَّةِ نَسَبًا وَلَقَدْ عَلِمَتِ الْجِنَّةُ إِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ﴾ [١٥٨]

في هذه الآية ثلاثة معانٍ للجنة: هي:

١- أنهم فرقة من الجن. ٢- أو أنهم الملائكة. ٣- أو أنهم الشياطين.

المعنى الأول: المراد بالجنة: جماعة من الجن، وفرقة منهم:

حيث ذكر سبحانه في هذه الآية، كيف حصلت ولادة الملائكة -على حد زعمهم- فبين جُلَّ شأنه أن المشركين جعلوا بين الله وبين الجن نسبًا بتلك الولادة، أي: أن الله تعالى

تزوَّج من الجن فأنجب الملائكة، تعالى الله عما يقولون علوًّا كبيرًا، إنها صورة من صور الشرك الخاصة في الجاهلية، وأسطورة من خرافاتهم تحكيها هذه السورة.

﴿وَجَعَلُوا﴾ أي: المشركين بالله ﴿يَبْنُونَ﴾ أي: بين الله تعالى ﴿وَبَيْنَ الْجَنَّةِ﴾ أي: أشرف نساء الجن، ﴿نَسَبًا﴾ أي: مصاهرة، وهو تفسير بالمعنى؛ لأن النسب في الأصل: القرابة وصلة الدم. فالجنة: هي الجماعة من الجن.

وجاء اللفظ مؤنثًا مراعاة لمعنى الجماعة منهم، كما يقال: الطائفة من الرجال، حيث زعم المشركون أن الملائكة بنات الله، أنجبهم من سرات الجن، أي: من أشرف نساء الجن. قال قتادة في تفسير الآية: قالت اليهود: إن الله صاهر من الجن، فخرجت بينهما الملائكة^(١).

وقال مجاهد: قال كفار قريش: الملائكة بنات الله، فقال لهم أبو بكر الصديق: فمن أمهاتهم؟! فقالوا: بنات سرات الجن، فقال الله سبحانه: ﴿وَلَقَدْ عَلِمَتْ الْجَنَّةُ إِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ﴾ يقول: إنها ستُحضَر للحساب^(٢)، بين يدي الله تعالى ليجازيهم، وهم عباد من عباده، ولو كان بينهم وبين الله نسبًا لما حضروا للحساب والجزاء.

والقائلون بذلك من قريش هم قبائل: سُلَيْم، وخُزاعة، وجهينة.

ولقد علمت الجن كذب المشركين وأنهم محضرون للعذاب يوم القيامة، وعلمت أيضًا أن كذب المشركين في ذلك كذبًا فاحشًا، وأنهم سيعاقبون عليه يوم القيامة.

فالضمير في ﴿إِنَّهُمْ﴾ إما أن يعود على المشركين، أو على الجن، وكلاهما معاقب يوم القيامة.

المعنى الثاني للجنة: ومن المفسرين من قال: إن المراد بالجنة: الملائكة، أي: أنهم جعلوا بين الله وبين الملائكة نسبًا بالأبوة والبنوة، فقالوا: إنهم بنات الله، وهذا يقتضي أن تكون الآية تكرر للآيتين قبلها وهما: ﴿أَلَا إِنَّهُمْ مِّنْ إِفْكِهِمْ لَيَقُولُونَ﴾ ﴿وَأَمَّ خَلْقَنَا الْمَلَائِكَةَ إِنَّا وَهُمْ شَاهِدُونَ﴾ ﴿وَالأول أصح، وإن كان مؤداهما واحدًا.

المعنى الثالث: وزعم بعضهم أن ﴿الْجَنَّةَ﴾ أصل الجن وهو الشيطان، كما قال تعالى:

(١) يُنْظَر: «تفسير الطبري» (١٩/٦٤٠).

(٢) أخرجه آدم بن أبي إياس ص ٥٧١، تفسير مجاهد والطبري (١٩/٦٤٥) والبيهقي (١٤١).

﴿مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ﴾ والمراد: شياطين الجن.

وزعموا أن الشيطان إله الشر، وهو أخ لله تعالى، الذي هو إله الخير -على حد زعمهم- قالوا: كان إله الخير وحده أوَّلاً، ثم خطر له الشر، فنشأ منه إله الشر، والقائلون بذلك هم الثنوية من المجوس^(١).

أخرج الطبري عن ابن عباس رضي الله عنه قال: زعم أعداء الله أنه تبارك وتعالى هو وإبليس أخوان^(٢). فالمراد بالنسب في التفسير الأول: هو المصاهرة، والمراد بالنسب في التفسير الثاني والثالث: هو قرابة الدم والعصب بالأبوة والبنوة أو الأخوة. ولفظ الجنة لغة يصدق على الجن، ويصدق على الملائكة؛ لأن كلا منهما مستتر عن العين. قال تعالى منزهاً نفسه عن كل شريك:

١٥٩، ١٦٠- ﴿سُبْحَنَ اللَّهِ عَمَّا يُصِفُونَ﴾ (١٥٩) ﴿إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمَخْلُصِينَ﴾ (١٦٠)

ثم إن الله تعالى نزه نفسه عن كل ما لا يليق به مما يصفه به الكافرون من الشريك والولد، وفي هذا تلقين من الله تعالى للمؤمنين أن يقتدوا به سبحانه في التنزيه والتقديس، وفيه أيضاً تعجب من حالهم، وهي جملة معترضة بين ما قبلها وما بعدها.

ثم استثنى سبحانه من قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ عَلِمَتِ الْجِنَّةُ إِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ﴾ وهو استثناء منقطع، فقال: ﴿إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمَخْلُصِينَ﴾ (١٦٠) أي: فإنهم لا يحضرون إلى جهنم، لأنهم ينزهون الله تعالى عما لا يليق بجلاله، وهذا كقوله تعالى: ﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا سُبْحَنَهُ بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ﴾ (٢١) [الأنبياء].

لَا يَخْذُ الضَّلَالُ إِلَّا لِمَنْ سَبَقَ فِي عِلْمِ اللَّهِ تَعَالَى أَنَّهُ شَقِيٌّ ضَالٌّ

١٦١-١٦٣- ﴿فَاتَّخَذُوا مِمَّا قَبَّيْنُوا﴾ (١٦١) مَّا أَنتَ عَلَيْهِ بِقَاتِلِينَ (١٦٢) إِلَّا مَنْ هُوَ صَالٍ (١٦٣) الْحَجِيمِ (١٦٣)

أخبر سبحانه أن المشركين وما يعبدونهم من دون الله لا يملكون أن يضلوا أو يقتلوا

(١) ينظر: «تفسير التحرير والتنوير» (١٨٦/٢٣) وانظر: «تفسير ابن عطية» (٤٨٨/٤).

(٢) «تفسير الطبري» (١٩/٦٤٤).

(٣) وقف يعقوب على (صال) بالياء، والباقون بحذفها.

أحدًا من خلق الله، إلا من كان من أهل الشقاء، ولن يضلوا إلا من قَدَّرَ الله ﷻ له أنه يَصْلِي الجحيم لكفره وظلمه فهم أهل النار.

قال تعالى: ﴿فَأَنذَرْتُكُمْ﴾ أيها المشركون بالله في كل زمان ومكان وما تعبدونهم من دون الله ﴿مَا أَنتُمْ عَلَيْهِ﴾ أي: على الله تعالى ﴿بِفِتْنَيْنِ﴾ أحدًا من خلق الله، أي: فلستم بمضلين أحدًا من المؤمنين المخلصين، ولن تُسَلَّطوا عليهم، ولن تَفْتِنُوا أحدًا منهم، إلا من سبق في علم الله تعالى أنه من أهل الضلال، وأنه ممن يَصْلِي عذاب النار، فإن لهم قلوبًا لا يفقهون بها، ولهم أعينًا لا يبصرون بها، ولهم آذانًا لا يسمعون بها، كما قال تعالى: ﴿إِنكُم لَئِي قَوْلٍ مُّخَلَّفٍ﴾ ﴿٨﴾ يُؤْفَكُ عَنْهُ مَنَ أُولَٰئِكَ﴾ ﴿٩﴾ [الذاريات].

وفي هذا بيان لعجزهم وعجز آلهتهم عن إضلال أحد من خلق الله.

وفيه بيان كمال قدرة الله تعالى وقوته.

وفيه بيان أنه لا يطمع أحد في إضلال عباد الله المخلصين وحزبه المفلحين.

وبيان أن هذه الأصنام لا تنفع ولا تضر، وكان المشركون يخوفون الناس منها.

الْمَلَائِكَةُ يُبْرِئُونَ أَنْفُسَهُمْ مِمَّا قَالَهُ الْمَشْرِكُونَ

١٦٤-١٦٦- ﴿وَمَا مِنَّا إِلَّا لَهُ مَقَامٌ مَّعْلُومٌ﴾ ﴿١٦٤﴾ وَإِنَّا لَنَحْنُ الصَّافُونَ﴾ ﴿١٦٥﴾ وَإِنَّا لَنَحْنُ الْمُسِيحُونَ﴾ ﴿١٦٦﴾

في هذا رد من الملائكة على قول المشركين عنهم: إنهم إناث، وإنهم بنات الله، فقد عرّفوا أنفسهم بأنهم عباد الله، مطيعون له، كل منهم له وظيفة خاصة لا يتعدها، وله مكان في السموات لا يتجاوزه، منهم الموكّل بالأرزاق، ومنهم الموكّل بالأعمال والأقوال، ومنهم الموكّل بقبض الأرواح، ومنهم أمين الوحي، ومنهم النافخ في الصور، ومنهم حملة العرش والكرسي، ومنهم خزنة النار والجنة، ومنهم الحور العين... وهكذا هم منازل ورتب ودرجات متفاوتة، كل منهم له مقام معلوم.

وفي إخبار الملائكة عن أنفسهم بصيغة الجمع، ما يفيد أنهم ليسوا إناثًا كما يزعم المشركون، فهم صافُونَ ومسبحُونَ.

ومما يروى في هذا عن مقاتل أن جبريل تَوَقَّفَ بالنبى ﷺ ليلة المعراج عند سدره

المنتهى، ثم قال له: تقدم، وتأخر جبريل قائلاً: ﴿وَمَا مِنَّا إِلَّا لَهُ مَقَامٌ مَّعْلُومٌ﴾ ﴿١٦٦﴾ ولو تقدّمت خطوة واحدة لأحرقتني الأنوار، فلكل واحد من الملائكة موضع مخصوص في السموات، ومكان للعبادة لا يتجاوزه، وهذه جملة من الأحاديث في هذا المقام:

١- عن العلاء بن سعيد رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال يوماً لجلسائه: «أطت السماء، وحق لها أن تئط، ليس منها موضع قدم إلا عليه ملك راعع أو ساجد» ثم قرأ: ﴿وَلَا لَنَحْنُ الصَّافُونَ﴾ ﴿١٦٦﴾ ﴿وَلَا لَنَحْنُ الْمُسَبِّحُونَ﴾ ﴿١٦٦﴾^(١).

٢- وروى مسروق عن عائشة رضي الله عنها أن رسول الله ﷺ قال: «ما في السماء الدنيا موضع قدم إلا عليه ملك ساجد أو قائم» فذلك قوله تعالى: ﴿وَمَا مِنَّا إِلَّا لَهُ مَقَامٌ مَّعْلُومٌ﴾ ﴿١٦٦﴾^(٢).

٣- وعن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: إِنَّ مِنَ السَّمَاوَاتِ لَسَمَاً، ما فيها موضع شبر إلا عليه جبهة ملك، أو قدماء، قائماً أو ساجداً، ثم قرأ ﴿وَمَا مِنَّا إِلَّا لَهُ مَقَامٌ مَّعْلُومٌ﴾ ﴿١٦٦﴾^(٣).

٤- وفي حديث أبي ذر رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «إني أرى ما لا ترون، وأسمع ما لا تسمعون، إن السماء أطت، وحق لها أن تئط، ما فيها موضع أربع أصابع إلا وملك واضع جبهته ساجداً لله»^(٤).

وتمضي الملائكة في وصفها بأن منهم الواقفين صفوفًا في عبادة الله وطاعته:

١- في حديث جابر بن سمرة رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «أَلَا تَصِفُونَ كَمَا تَصِفُ الْمَلَائِكَةُ

(١) ابن عساكر (٣٨١/٥٢) ومحمد بن نصر (٢٥٥). وفي إسناده مجاهيل، والمتن صحيح، دون ذكر الآيات كما سيأتي عن أبي ذر.

(٢) رواه أبو الشيخ في «العظمة» برقم (٥١٠) وابن جرير (٦٥١/١٩) برقم (٢٩٦٧٨) ومحمد بن نصر المروزي (٢٥٣)، والحديث له شواهد صحيحة بدون ذكر الآية.

(٣) «تفسير عبد الرزاق» (٢٥٦٥) والطبري (١١٢/٢٣) قال الألباني: وهو في حكم المرفوع وإسناده صحيح، وله شواهد من طرق عدة «السلسلة الصحيحة» (١٠٥٩، ١٠٦٠، ١٧٢٢) وأخرجه الطبراني (٩٠٤٢) والبيهقي (١٥٩).

(٤) «صحيح سنن الترمذي» (١٨٨٢) بتحسين الألباني، وابن ماجه (٤١٩٠)، وحسنه الألباني في ابن ماجه (٣٣٧٨) وفي المشكاة (٥٣٤٧) التحقيق الثاني وأخرجه البزار (٣٥٢٤) والبخاري (٤١٧٢) وهو في مسند أحمد (٢١٥١٦) قال محققوه: حسن لغيره لأن فيه انقطاعاً بن العجلي وأبي ذر.

عند ربها؟ فقلنا: يا رسول الله، وكيف تصف الملائكة عند ربها؟ قال: «يتمون الصفوف الأول، ويتراصون في الصف»^(١).

٢- وفي حديث حذيفة رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «فُضِّلْنَا عَلَى النَّاسِ بِثَلَاثٍ: جُعِلَتْ صُفُوفُنَا كَصُفُوفِ الْمَلَائِكَةِ، وَجُعِلَتْ لَنَا الْأَرْضُ مَسْجِدًا، وَجُعِلَتْ تَرَبُّثُهَا لَنَا طَهُورًا إِذَا لَمْ نَجِدِ الْمَاءَ»^(٢).

٣- وفي حديث النعمان بن بشير رضي الله عنه قال: لقد رأيت النبي ﷺ يُقِيمُ الصُّفُوفَ، كَمَا تُقَامُ الْقِدَاحُ، فَأَبْصَرَ يَوْمًا صُدْرَ رَجُلٍ خَارِجًا مِنَ الصَّفِّ فَقَالَ: «لَتَقِيمَنَّ الصُّفُوفُ أَوْ لِيُخَالِفَنَّ اللَّهُ بَيْنَ وَجْهِكَ»^(٣).

٤- وفي حديث أبي مسعود رضي الله عنه قال: كان النبي ﷺ يَمْسَحُ مَنَاكِبَنَا فِي الصَّلَاةِ، وَيَقُولُ: «اسْتَوُوا وَلَا تَخْتَلِفُوا فَتَخْتَلِفَ قُلُوبُكُمْ، لِيَلِينِي مِنْكُمْ أُولُوا الْأَحْلَامِ وَالنَّهْيِ ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ»^(٤).

٥- وكان عمر بن الخطاب رضي الله عنه إذا أقيمت الصلاة قال: استَوُوا، تَقَدَّمْ يَا فَلَانُ، تَأَخَّرْ يَا فَلَانُ، أَقِيمُوا صُفُوفَكُمْ يَرِيدُ اللَّهُ بِكُمْ هَذِي الْمَلَائِكَةَ، ثُمَّ يَتْلُو: ﴿وَأِنَّا لَنَحْنُ الصَّافُونَ﴾ (١٦٥) وَإِنَّا لَنَحْنُ الْمُسَيِّحُونَ (١٦٦) ^(٥).

٦- وفي مصنف عبد الرزاق عن الحسن رضي الله عنه قال: كانت أول صلاة صلاها رسول الله ﷺ الظهر، فأتاه جبريل، فقال: ﴿وَأِنَّا لَنَحْنُ الصَّافُونَ﴾ (١٦٥) وَإِنَّا لَنَحْنُ الْمُسَيِّحُونَ (١٦٦) فقال جبريل بين يديه ورسول الله ﷺ خلفه، ثم صف الناس خلفه، والنساء خلف الرجال، فصلى بهم الظهر أربعًا، حتى إذا كان عند العصر قام جبريل ففعل مثلها، ثم جاءه حين غربت الشمس فصلى بهم ثلاثًا، يقرأ في الركعتين الأولىين يجهر فيهما، ولم يُسمع في الثالثة، حتى إذا كان عند العشاء، وغاب الشفق، جاءه جبريل، فصلى بالناس أربع ركعات، يجهر بالقراءة في

(١) «صحيح مسلم» برقم (٤٣٠) وأبو داود (٦٦١) والنسائي (٨١٥) وابن ماجه (٩٩٢) وابن أبي شيبة (١/٣٥٣).

(٢) «صحيح مسلم» برقم (٥٢٢).

(٣) مسلم (٤٣٦)، والبخاري (٧١٧) وابن أبي شيبة (١/٣٥١).

(٤) عند مسلم (٤٣٢) وابن أبي شيبة (١/٣٥١).

(٥) الطبري (١٩/٦٥٣).

ركعتين، حتى إذا أصبح ليلته أتاه فصلى ركعتين يجهر فيهما ويطيل القراءة^(١).

٧- وفي حديث أنس رضي الله عنه: «أقيموا صفوفكم، فإن من حُسن الصلاة إقامة الصف»^(٢).

٨- وفي حديث أبي هريرة «سُؤوا صفوفكم فإن تسوية الصف من تمام الصلاة»^(٣).

ومعنى الآية التي بعدها: وإنا لنحن المنزهون لله تعالى عن كل ما لا يليق بجلاله وعظمته، كما قال تعالى: ﴿يُسَبِّحُونَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ﴾ [الأنبياء: ٢٠].

ومن المفسرين من قال: إن هذه الآيات الثلاث من كلام المؤمنين، فيكون المعنى: وما منا من أحد نحن -المؤمنين المخلصين- إلا له صفة وعمل نحو خالقه، لا يتنازل عنه، ولا يمكن للجن أن يحولوه عنه، فلا تطمعوا أيها المشركون في زحزحتهم عن عبادة ربهم، ويكون المراد بالمقام على هذا المعنى: صفة العبودية لله^(٤).

مَقَالَةُ الْكُفَّارِ قَبْلَ بَعْثَةِ مُحَمَّدٍ ﷺ

١٦٧-١٧٠ - ﴿وَإِنْ كَانُوا لَيَقُولُنَّ^(٥)﴾ لَوْ أَنَّ عِندَنَا ذِكْرًا مِّنَ الْأَوَّلِينَ ﴿١٦٨﴾ لَكُنَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ ﴿١٦٩﴾ فَكْفَرُوا بِهِ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿١٧٠﴾﴾

بَيَّنَّ ﷺ أن المكذبين بالبعث والرسالة، كانوا يُظهرون التمني ويقولون قبل بعثة النبي ﷺ: لو جاءنا من الرسل أحد، وأنزل علينا من الكتب مثل ما أنزل على الأمم قبلنا، كالتوراة والإنجيل والزبور، لكننا أول من آمن به، وكنا أكثر عبادة وإخلاصاً لله منهم.

فالضمير في ﴿لَيَقُولُنَّ﴾ يعود على من قالوا هذه المقالة من الكفار الذين كذبوا محمداً ﷺ بعد مجيئه، وكانوا قد وعدوا أنهم أول من سيؤمن به عند بعثته، فخالفت أقوالهم أفعالهم، ولفظ ﴿ذِكْرًا﴾ معناه: كتاباً، ومعنى ﴿مِّنَ الْأَوَّلِينَ﴾ أي: مثل الرسل السابقين

(١) «مصنف عبد الرزاق» (١٧٧١).

(٢) أخرجه ابن أبي شيبة (٣٥١/١)، وانظر حديث أبي هريرة في البخاري (٧٢٢) ومسلم (٤٣٥).

(٣) البخاري (٧٢٣) ومسلم (٤٣٣).

(٤) الشيخ الطاهر بن عاشور في تفسيره (١٦٢/٢٣).

(٥) انفرد المدني الأول بعدم عد (ليقولون) آية، وجمهور علماء العدد على عدها آية.

كموسى وعيسى، فلو جاءنا كتاب مثلهم ﴿لَكُنَّا﴾ بسبب وجود هذا الكتاب فينا ﴿عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ﴾ له في الطاعة والعبادة، أي: لَكُنَّا عباد الله وحدنا دون غيرنا.

وهم كذبة في كل ذلك، فقد جاءهم أفضل الرسل بأفضل الكتب، فكفروا به، وعلم أنهم متمردون على الحق.

قال قتادة: قالت هذه الأمة ما قالت قبل أن يبعث محمد ﷺ فلما جاءهم محمد ﷺ كفروا به^(١).

والذكر: هو القرآن، كما قال تعالى: ﴿وَإِنَّكُمْ لَذَكَّرْتُمْ لَكُمْ وَلِقَوْمِكُمْ﴾ [الزخرف: ٤٤].

وقال سبحانه: ﴿وَقَالُوا يَتَّبِعُنَا إِلَهٌ نَزَلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ﴾ [الحجر: ٦].

وكثيراً ما قال المشركون مثل ذلك، كما قال تعالى: ﴿وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِنْ جَاءَهُمْ نَذِيرٌ لَيَكُونُنَّ أَهْدَىٰ مِنْ إِحْدَى الْأُمَمِ فَلَمَّا جَاءَهُمْ نَذِيرٌ مَّا زَادَهُمْ إِلَّا نُفُورًا﴾ [فاطر: ٤٦].

وهذا كقوله تعالى: ﴿أَن تَقُولُوا إِنَّمَا أُنْزِلَ الْكِتَابُ عَلَى طَائِفَتَيْنِ مِن قَبْلِنَا وَإِن كُنَّا عَنْ دِرَاسَتِهِمْ لَغَافِلِينَ﴾ [١٥٦] أَوْ تَقُولُوا لَوْ أَنَّا أُنْزِلَ عَلَيْنَا الْكِتَابُ لَكُنَّا أَهْدَىٰ مِنْهُمْ فَقَدْ جَاءَكُمْ بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَهَدَىٰ وَرَحْمَةً﴾ [الأنعام: ١٥٧، ١٥٨].

وقوله أيضاً: ﴿وَلَمَّا جَاءَهُمْ رَسُولٌ مِّنْ عِنْدِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ بَشَرٌ مِّمَّنْ أَلَذِّينَ أُوتُوا الْكِتَابَ كَتَبَ اللَّهُ وِرَاءَ ظُهُورِهِمْ كَأَنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ١٧١].

وقوله سبحانه: ﴿وَلَمَّا جَاءَهُمْ كِتَابٌ مِّنْ عِنْدِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَمَّا جَاءَهُمْ مَا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ فَلَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾ [البقرة: ٨٩].

واستمر القوم على كفرهم، حتى نزل فيهم القرآن، ولما جاءهم محمد بالكتاب المبين كما تمنّوا وطلبوا، كانت النتيجة أنهم كفروا به ﴿فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾ عاقبة كفرهم، قال تعالى: ﴿يَوْمَ يَغْشَاهُمُ الْعَذَابُ مِن فَوْقِهِمْ وَمِنْ تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ وَيَقُولُ ذُقُوا مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [العنكبوت: ٥٥].

أَهْلُ النَّصْرِ عَلَى الْعَدُوِّ

١٧١-١٧٣ - ﴿وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الرِّسَالِ﴾ [٧١] إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنصُورُونَ [٧٢] وَإِن جُنَدَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ﴾

(١) يُنْظَر: ابن جرير (١٩/٦٥٥).

ثم بشر الله نبيه والمؤمنين معه، بأنه ناصرٌ جنده من عباده المؤمنين، على أعدائهم الذين كذبوا رسل الله وعادوهم، وحالوا بينهم وبين نشر الدعوة الإسلامية، وكلمة الله لا مردَّ لها، وهي كائنة لا محالة.

وقد جاء هذا الوعد في كثير من آي الذكر الحكيم، كقوله تعالى: ﴿أُولَٰئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمَانَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ﴾ [المجادلة: ٢٢].

وهؤلاء هم حزب الله الذين نصرنا دين الله، فنصرهم الله، وهم من قال الله فيهم: ﴿إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ ءَامَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ﴾ [غافر].

وقال فيهم أيضاً: ﴿كَتَبَ اللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ [المجادلة].

لقد سبق وعدنا لعبادنا المرسلين بالنصر والفوز والحجة والبرهان، وهذه بشارة عظيمة لمن اتصف بأنه من جند الله، فاستقامت أحواله، وقاتل أعداء الله.

﴿وَإِنَّ جُنَدَنَا﴾ المجاهدين في سبيلنا ﴿لَهُمُ الْغَلْبُونَ﴾ لأعدائهم في الدنيا بالحجة والبرهان، وهم الغالبون لهم في ساحة الجهاد، وفي الآخرة بدخول الجنة، ونصر الله للمؤمنين في الدنيا محقق، ولا يقدر فيه هزيمتهم في بعض المعارك، فإن هذا تمحيص وابتلاء لهم، والعاقبة في النهاية بإذن الله تعالى للمؤمنين بالنصر والغلبة، والحجة والبرهان.

ولم يفارق النبي ﷺ هذه الدنيا إلا بعد أن صارت كلمة الذين كفروا السفلى، وكلمة الله هي العليا، ولن تنقضي هذه الدنيا إلا بعد أن يُظهر الله دينه على سائر الأديان، ويقهر اليهود ويختبئون وراء الحجر والشجر.

الْأَمْرُ بِتَرْقُبِ مَا سَيَحِلُّ بِالْكَفَّارِ مِنْ عَوَاقِبِ وَخِيمَةٍ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ

١٧٤، ١٧٥ - ﴿فَقُلْ عَنْهُمْ حَتَّىٰ حِينٍ﴾ (١٧٤) ﴿وَأَبْصِرْهُمْ فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ﴾ (١٧٥)

ثم أمر الله رسوله أن يفارق المكذبين المعاندين، الذين لم يقبلوا الحق، فأعرضوا عن الإيمان به، وألاً يهتم بأقوالهم، ولا يحزن على إعراضهم، حتى يأتي أمر الله بعذابهم.

وترقّب أيها الرسول، وترقّبوا أيها المؤمنون ما سيحل بأعداء الله من عقاب في الدنيا والآخرة، فسوف يرون ما سينزل بهم من عذاب لا محالة، إن عاجلاً أو آجلاً ﴿وَأَبْصِرْهُمْ﴾ شاهدتهم حين ينزل العذاب بهم ﴿فَسَوْفَ يَصِيرُونَ﴾ عاقبة كفرهم، ويرون بأعينهم ما يحل بهم. وفي هذا تهديد ووعد لهم، فدعهم يا محمد لليوم الذي تراه فيهم، ويرون هم تحقيق وعْد الله فيهم. قال تعالى:

١٧٦، ١٧٧ - ﴿أَفِعْدَابًا يَسْتَعْجِلُونَ﴾ ﴿٢٠٤﴾ فَإِذَا نَزَلَ بِسَاحَتِهِمْ فَسَاءَ صَبَاحُ الْمُنْذِرِينَ ﴿١٧٧﴾

وكثيراً ما قال المشركون للنبي ﷺ: يا محمد، أرنا العذاب الذي تُخوفنا به، وعندما يشاهدون العذاب بأعينهم، يقال لهم من باب التهكم: أفبنزول عذابنا بهم يستعجلونك يا محمد؟ فهل بلغ الجهل وانطماس البصيرة بهم أنهم يطلبون تعجيل العقوبة بهم في الدنيا؟

رُوي أنه لما نزل ﴿فَسَوْفَ يَصِيرُونَ﴾ قالوا على وجه الاستهزاء: متى يكون هذا؟ فنزلت الآية^(١). ويا ويلهم يوم ينزل بهم عذاب الله، ويحل بساحتهم صباحاً وهم لم يستعدوا له، فبئس الصباح صباحهم، ولن ينفعهم الندم ولا التوبة ﴿فَإِذَا نَزَلَ﴾ العذاب ﴿بِسَاحَتِهِمْ﴾ أي: بفنائهم الواسع ﴿فَسَاءَ صَبَاحُ الْمُنْذِرِينَ﴾ أي: بئس اليوم يومهم الذي فيه هلاكهم ودمارهم. عن أنس رضي الله عنه قال: صبح رسول الله ﷺ خبير، فلما خرجوا بفؤوسهم ومساحيهم ورأوا الجيش، رجعوا وهم يقولون: محمد والله، محمد والخميس^(٢).

وعن أنس أيضاً أن النبي ﷺ غزا خبير، فلما دخل القرية قال: «الله أكبر خربت خبير، إنا إذا نزلنا بساحة قوم فساء صباح المنذرين»، قالها ثلاث مرات^(٣).

(١) قاله ابن عباس، كما أخرجه جُوَيْر، «الدر المشور» (١٢/٤٩٦).

(٢) المراد بالخميس: الجيش، وسُمِّي كذلك؛ لأن النبي ﷺ كان يقسمه إلى خمسة أقسام: المقدمة، والساقة، والميمنة، والميسرة، والقلب، أو لأن الغنائم تخمس فتقسم خمسة أخماس، والحديث في مسند أحمد (١٢٠٨٦) بإسناد صحيح على شرط الشيخين، وأخرجه الحميدي (١١٩٨) والنسائي (٢٠٣/٧) والبخاري (٣٦٤٧، ٢٩٩١).

(٣) «صحيح البخاري» برقم (٣٧١، ٤١٩٧) وغيرهما و«صحيح مسلم» برقم (١٣٦٥).

لأنه صباح الشر والعقوبة والاستئصال.

وعن أبي طلحة رضي الله عنه قال: لما صبح رسول الله ﷺ خير، وقد أخذوا مساحيهم، وغدّوا إلى حروثهم وأرضهم، فلما رأوا النبي ﷺ ولّوا مدبرين، فقال النبي ﷺ: «الله أكبر، الله أكبر، إنا إذا نزلنا بساحة قوم فساء صباح المنذرين»^(١).

ثم ذكر سبحانه مرة أخرى الأمر بالتولى عنهم وتهديهم بالعقاب في الآية التالية:

تَهْدِيدٌ وَوَعِيدٌ مُؤَكَّدٌ لِلْمُكَذِّبِينَ بِخَاتَمِ الْمُرْسَلِينَ

١٧٨، ١٧٩ - ﴿وَتَوَلَّ عَنْهُمْ حَتَّىٰ حِينٍ ۖ وَأَبْصَرَ فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ﴾ (١٧٩)

فأعرض -يا محمد- عن هؤلاء المكذبين بك وبدعوتك حتى يأذن الله بعذابهم في الدنيا أو الآخرة، أو فيهما معاً، وهذه الآية تأكيد لنظيرتها السابقة.

أو أن يكون التوليّ الآخر غير الأول، أي: أعرض عن المكذبين والمشرّكين حتى ينزل العذاب بهم في الدنيا، أو إلى أن يأتيهم العذاب المستمر في الدار الآخرة.

وتمهل -يا محمد- وانظر حال المشرّكين، فسوف يرون ما يحل بهم من النكال والعذاب، وقد أعيد هذا المعنى في الآيتين لتأكيد حلول العقاب بمن كفر بخاتم المرسلين في الدنيا أو الآخرة، أو فيهما معاً.

خِتَامُ السُّورَةِ بِثَلَاثَةِ مَقَاصِدَ هِيَ: التَّسْبِيحُ وَالتَّسْلِيمُ وَالْحَمْدُ

١٨٠-١٨٢ - ﴿سُبْحَنَ رَبِّكَ رَبِّ الْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ ۖ وَسَلَامٌ عَلَى الْمُرْسَلِينَ ۖ وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾

تختتم السورة بهذه المقاصد الثلاثة:

أولها: تنزيه الله تعالى عن كل ما لا يليق بجلاله مما استفهمت عنه السورة، من قوله تعالى: ﴿فَاسْتَفْهِمُوهُمْ أَهْمُ أَشَدُّ خَلْقًا أَمْ مَن خَلَقْنَا﴾ وقوله سبحانه: ﴿فَاسْتَفْهِمُوا أَلْبَنَاتُ

(١) مسند أحمد (١٦٣٤٧، ١٦٣٥٨) بإسناد صحيح على شرط الشيخين، وأخرجه الطبراني في الكبير (٤٧٠٤) وبنحوه ابن أبي شيبة (٤٦٢/١٤) وقال الهيثمي في مجمع الزوائد (١٤٩/٦) رواه أحمد والطبراني بأسانيد، ورجال أحمد رجال الصحيح.

وَلَهُمُ الْبُتُونُ ﴿١٨٦﴾ وقوله جلَّ شأنه: ﴿وَجَعَلُوا بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْجَنَّةِ نِجَالًا﴾.

ويأتي هذا في آية جامعة لما حوَّته السورة من تنزيه الله تعالى عن الشريك والولد ﴿سُبْحَنَ رَبِّكَ رَبِّ الْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾ ﴿١٨٧﴾ أي: تنزه ربك وتقدَّس عن كل نقص، وعن كل ما لا يليق بجلاله مما يصفه به المشركون، فهو سبحانه المختص بالعزة والقوة، والغلبة والجبروت، لا يملك غيره هذه العزة، ولا يدانيها أحد في الكون، ولا يشوبها افتقار.

وكلمة ﴿الْعِزَّةُ﴾ إن أريد بها الصفة الذاتية لله تعالى، فإنه يجوز الحلف بها، وإن أريد بها العزة المخلوقة الكائنة للأنبياء والمؤمنين، فلا يجوز الحلف بها.

وثانيها: وسلام دائم، وتحية عطرة من رب العالمين، وثناء وأمان منه سبحانه على جميع الرسل الذين ذُكروا في السورة، وسلام على إخوانهم من جميع الأنبياء والمرسلين، الذين بلغوا التوحيد والشرائع عن ربهم، وهم أعلى مراتب البشر، الذين بلغوا الكمال في أنفسهم، وكملوا غيرهم، فوجب على كل عبد أن يقتدي بهم ويهتدي بهديهم، كما وصفهم ربنا بقوله تعالى: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ﴾ [الأنعام: ٨٩].

وبقوله سبحانه: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهِدَّتْهُمْ أَقْدَمَهُ﴾ [الأنعام: ٩٠].

وبقوله جلَّ شأنه: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ مِنْ ذُرِّيَةِ آدَمَ وَمِمَّنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ وَمِنْ ذُرِّيَةِ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَمِمَّنْ هَدَيْنَا وَاجِبَيْنَا﴾ [مريم: ٥٨].

ولفظ: ﴿الْمُرْسَلِينَ﴾ يشمل الملائكة الكرام، فهم مرسلون فيما يقومون به من تنفيذ أمر الله وما يبلغونه إلى أنبياء الله ورسله.

وفي الأثر عن أبي طلحة مرفوعاً: «إذا سلمتم عليّ فسلموا على المرسلين، فإنما أنا رسول من المرسلين»^(١).

وثالثها: الحمد لله في البدء والختام، فهو رب العالمين، ومالك الخلق أجمعين، فله الثناء الكامل، والحمد لله على هلاك الأعداء ونصر الأنبياء، والحمد لله على ما قدره

(١) «تفسير الطبري» (٧٤/٢٣) عن قتادة، وهو عند عبد الرزاق (١٥٩/٢) وابن أبي حاتم، وإسناده قوي ورجاله ثقات إلا أن قتادة مدلس.

لهم من حُسْنِ العواقب، فهو المستحق لذلك دون غيره، وكان هذا الختام بالسلام على المرسلين، وبحمده سبحانه تعليمًا للعباد.

وفي هذه الآيات الثلاث تعليم للأمة أن يقولوها، ولا ييخلوا بما فيها، ولا يغفلوا عنها، سِيَّما في نهاية كلامهم ومجالسهم:

عن علي عليه السلام قال: من أحب أن يَكْتال بالمكيال الأوفى من الأجر يوم القيامة، فليكن آخر كلامه إذا قام من مجلسه ﴿سُبْحَنَ رَبِّكَ رَبِّ الْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾ (٧٨) وَسَلِّمَ عَلَى الْمُرْسَلِينَ ﴿وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ (١).

هذا: وقد صح في كفارة المجلس أحاديث منها:

١- ما جاء عن أبي هريرة عليه السلام: أن رسول الله ﷺ قال: «من جلس في مجلس فكثر فيه لغطه فقال قبل أن يقوم من مجلسه ذلك: سبحانك اللهم وبحمدك، أشهد أن لا إله إلا أنت، أستغفرك وأتوب إليك- إلا غفر له ما كان في مجلسه ذلك» (٢).

٢- وعن أبي هريرة الأسلمي عليه السلام قال: كان رسول الله ﷺ يقول بآخره إذا أراد أن يقوم من المجلس: «سبحانك اللهم وبحمدك أشهد أن لا إله إلا أنت أستغفرك وأتوب إليك» فقال رجل: يا رسول الله، إنك لتقول قولاً ما كنت تقوله فيما مضى، قال: «كفارة لما يكون في المجلس» (٣).

٣- وعن جبير بن مطعم عليه السلام أن رسول الله ﷺ قال: «سبحانك اللهم وبحمدك، أشهد

(١) ورواه الشعبي أيضاً وهو حديث مرسل ذكره السيوطي في «الدر المنثور» (١٤١/٧) والبخاري (٦٦/٧).

(٢) الترمذي برقم (٣٤٣٣) وقال: حسن صحيح، وأحمد في المسند (١٠٤١٥) قال محققوه: حديث صحيح، وفيه موسى بن عتبة، لم يسمع من سهل بن أبي صالح، وأخرجه البخاري (١٣٤٠) والبيهقي في الشعب (٦٢٨) والطبراني في الدعاء (١٩١٤) والنسائي في «السنن الكبرى» برقم (١٠٢٣٠) والحاكم في «المستدرک» (٥٣٦/١) وقال: إسناده على شرط مسلم إلا أن النجار أعلَّه.

(٣) أبو داود برقم (٤٨٥٩) والنسائي في «السنن الكبرى» برقم (١٠٢٥٩) والحاكم في «المستدرک» (١/٥٣٧)، ومسنَد أحمد (١٩٨١٢، ١٩٧٦٩) قال محققوه: حديث صحيح، وفيه أبو هاشم لم يسمع من أبي هريرة، وبينهما أبو العالية الرياحي وهو ثقة، وباقي رجال الإسناد ثقات، وأخرجه ابن أبي شيبة (٢٥٦/١) وأبو يعلى (٧٤٢٦) والطبراني في الدعاء (١٩١٧).

ألا إله إلا أنت، أستغفرك وأتوب إليك، من قالها في مجلس ذكرًا، كان كالطائع يطيع عليه، ومن قالها في مجلس لغوًا كانت كفارة له»^(١).

٤- وفي حديث السائب بن يزيد رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «ما من إنسان يكون في مجلس فيقول حين يريد أن يقوم: سبحانك اللهم وبحمدك، لا إله إلا أنت، أستغفرك وأتوب إليك- إلا غُفر له ما كان في ذلك المجلس»^(٢).

والحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات.

تم تفسير (سورة الصافات) والله الحمد والمنة.



(١) الطبراني في «المعجم الكبير» (١٣٨/٢)، برقم (١٥٨٦) والحاكم (٥٣٧/١) وصححه على شرط مسلم ووافقه الذهبي، والنسائي (٧١/٣) قال الهيثمي في مجمع الزوائد (١٤٢/١٠) رواه الطبراني ورجاله رجال الصحيح.

(٢) «المسند» (٤٥٠/٣) برقم (١٥٧٢٩) قال محققوه: إسناده صحيح ورجاله ثقات رجال الشيخين غير ابن أبي طالب فمن رجال ابن ماجه وهو ثقة، والطبراني في «المعجم الكبير» (١٥٤/٧) برقم (٦٦٧٣) من طريق الليث، قال الهيثمي في «مجمع الزوائد» (١٤١/١٠): رجالهما رجال الصحيح، وأخرجه الطحاوي في شرح معاني الآثار (٢٨٩/٤) وللحديث طرق وشواهد صحيحة.

تَفْسِيرُ سُورَةِ ص (٣٨)

مُقَدِّمَةُ السُّورَةِ

سورة (ص) هي السورة الثامنة والثلاثون في ترتيب المصحف، والثامنة والثلاثون في ترتيب النزول، نزلت بعد سورة (القمر) وقبل سورة (الأعراف)، كان نزولها في آخر حياة أبي طالب، فتكون قد نزلت قبل الهجرة بثلاث سنوات تقريباً، وُسِّمَتِ السورة باسم أول حرف فيها، وتسمّى: سورة (داود)؛ لذكر جانب هام من قصة داود عليه السلام فيها، لم يذكر في غيرها من السور.

وعدد آياتها ثمان وثمانون آية في العدد الكوفي^(١).

وهي اثنتان وثلاثون وسبع مئة كلمة، وسبعة وستون وثلاثة آلاف حرفاً، وهي سورة مكية.

سبب النزول: وجاء في سبب نزول السورة عن سعيد بن جبير عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: لما مرض أبو طالب دخل عليه رهط من قريش، فيهم أبو جهل، فقال: إن ابن أخيك يشتم آلهتنا، ويفعل ويفعل، ويقول ويقول، فلو بعثت إليه فنهيته؟ فبعث إليه، فجاء النبي ﷺ فدخل البيت، وبينهم وبين أبي طالب قدر مجلس رجل، فخشي أبو جهل أن يجلس الرسول إلى جوار أبي طالب ويكون أرقى عليه، فوثب أبو جهل فجلس في ذلك المجلس، فلم يجد رسول الله ﷺ مجلساً قرب عمه، فجلس عند الباب، فقال له أبو طالب: أي ابن أخي، ما بال قومك يشكونك؟ يزعمون أنك تشتم آلهتهم، وتقول وتقول، قال: وأكثروا عليه من القول، وتكلم رسول الله ﷺ، فقال: «يا عم، إنني أريدكم على كلمة واحدة يقولونها تدين لهم بها العرب، وتؤدي إليهم بها العجم الجزية» ففزعوا لكلمته ولقوله، فقال القوم: كلمة واحدة؟ قال: نعم، وأبيك عشراً، قالوا: فما هي؟ قال: «لا إله إلا الله» فقاموا فزعين ينفضون ثيابهم، وهم يقولون: ﴿أَجْعَلِ الْآلِهَةَ إِلَهًا وَاحِدًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ

(١) وخمس وثمانون آية عند الجحدري من البصريين، وست وثمانون آية عند أهل الحجاز، وأهل الشام، وأهل البصرة، عن يعقوب الحضرمي وأيوب بن المتوكل.

عَجَبٌ ﴿٥﴾ فَتَزَلَّتِ الْآيَاتُ الثَّمَانِي الْأُولَى مِنْ هَذِهِ السُّورَةِ^(١).

وفي سبب النزول هذا توبيخ للمشركين على شركهم، وتوبيخ لهم على تكذيب الرسول ﷺ فيما بلغه لهم، وتهديد لهم حتى لا يحلّ بهم ما حلّ بغيرهم. وفيه تسليّة وتصبير للنبي ﷺ؛ كي يقتدي بمن سبقه من الرسل.

قضايا السورة الثلاث:

والقرآن المكي، يتناول قضايا ثلاث، يفرسها في قلوب الناس؛ حتى يأخذ بأيديهم إلى الإيمان بالله ورسوله، والعمل لما في اليوم الآخر من حساب وجزاء على الأعمال، وهي: التوحيد، والرسالة، واليوم الآخر:

١- أما قضية التوحيد ونبذ الشرك بألوانه فهي في الآيات السبع الأولى من السورة.

٢- وقضية الإيمان بالوحي المنزل من عند الله تعالى على خاتم الرسل ﷺ تبدأ من الآية الثامنة التي يتعجب فيها المشركون من بعثة النبي ﷺ ﴿أَنْزَلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ مِنْ بَيْنِنَا﴾ إلى الآية الثامنة والأربعين، ويتخلل ذلك ذكر عدد من الأمم التي كذبت رسل الله، فلحق بهم ما أصابهم من الهلاك والدمار، وهم: قوم نوح، وعاد، وفرعون وقومه، وقوم ثمود، وقوم لوط، وأصحاب الأيكة.

والمكذبون للرسول الخاتم من هذه الأمة، لا يحتاجون إلا إلى صيحة واحدة تأخذهم، فيحل بهم مثل ما حل بهذه الأمم.

ثم تعرضت السورة لذكر جانب هام من قصة ثلاثة من رسل الله تعالى هم: داود،

(١) يُنظر: ابن أبي شيبة في المغازي (١٨٤١٣) وأحمد (٢٢٧/١) برقم (٢٠٠٨، ٣٤١٩) قال محققوه: إسناده ضعيف، فقد تفرد به يحيى بن عباد عن الأعمش، فهو في عداد المجهولين، وباقي رجاله ثقات رجال الشيخين، وأخرجه الترمذي في التفسير (٣٢٣٢) وقال: هذا حديث حسن، والنسائي في «السنن الكبرى» (٨٧٦٩) والطبري (٧٩/٢٣) وصححه الحاكم (٤٣٢/٢) ووافقه الذهبي، والبيهقي في «الدلائل» (٣٤٥/٢) وعبد الرزاق (٩٩٢٤) وأبو يعلى (٢٥٨٣) والواحدي (٢٠٩) والسيوطي في «الدر» (٢٩٥/٥) وأخرجه ابن حبان (٦٦٨٦) وقال محققه: إسناده صحيح على شرط مسلم، ورجاله ثقات رجال الشيخين، قلت: ولعله حديث حسن بإسناد حسن، كما قال الترمذي.

وسليمان، وأيوب عليه السلام، وأشارت -مجرد إشارة- بذكر أسماء ستة آخرين من رسل الله، هم: إبراهيم، وإسحاق، ويعقوب، وإسماعيل، واليسع، وذو الكفل، وكل من المصطفين الأخيار، صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين.

٣- ثم تناولت السورة في القضية الثالثة: يوم القيامة وما فيه من حشر ونشر، وجنة ونار، وذكرت في خلال ذلك ما يحدث بين أهل النار -وهم فيها- من تخاصم وتلاؤم وتلاعن، كل منهم يلقي باللائمة على الفريق الآخر، من الأتباع والمتبعين ﴿إِنَّ ذَلِكَ لَحَقٌّ تَخَاصُّمُ أَهْلِ النَّارِ ۖ﴾.

ثم ذكرت السورة أول غواية من الشيطان لبني آدم، ممثلة في قصة آدم وإبليس. وفي أثناء قضايا السورة الثلاث، تجدها تهتم اهتماماً واضحاً بإقامة الأدلة على وحدانية الله تعالى وقدرته، لربط العباد بربهم وجذبهم إليه سبحانه كلما ابتعد الفكر قليلاً، كقوله تعالى: ﴿أَمْ لَهُمْ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا؟﴾ [١٠].

وقوله سبحانه: ﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَطْلًا﴾ [٢٧].

وقوله جل شأنه: ﴿قُلْ إِنَّمَا أَنَا مُنذِرٌ وَمَا مِن إِلَهٍ إِلَّا اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ﴾.

هذا: ويتضح من السورة ومن سائر السور المكية أن أصول الكفر ثلاثة هي:

١- الإشراك بالله تعالى، وهو ما تعالجه هذه الآية ﴿أَجْعَلِ الْآلِهَةَ إِلَهًا وَاحِدًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ﴾.

٢- تكذيب الرسول ﷺ وتكذيب القرآن الذي جاء به، وهو ما يعالجه قوله تعالى: ﴿وَعِبُوا أَنْ جَاءَهُمْ مُنذِرٌ مِنْهُمْ وَقَالَ الْكَافِرُونَ هَذَا سِحْرٌ كَذَابٌ﴾.

وقوله سبحانه: ﴿أَنْزَلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ مِنْ بَيْنِنَا بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ مِنْ ذِكْرِي بَلْ لَمَّا يَذُوقُوا عَذَابِ﴾.

٣- إنكار البعث والحساب والجزاء في الآخرة، وهو ما جاء في مثل قوله تعالى: ﴿وَأَنَّ لِلْمُتَّقِينَ لِحُسْنِ مَتَابٍ ۖ﴾ جَنَّتْ عَنِّي مُنْفَعَةٌ هُمْ الْأَنْبُؤُ ۖ.

وقوله أيضاً: ﴿وَأَنَّ لِلظَّالِمِينَ لَشَرَّ مَتَابٍ ۖ﴾ جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا فَنَسَّ إِلَهُاهُ ۖ.

وذكر سبحانه بعد هاتين الآيتين شيئاً من نعيم الجنة وعذاب النار، نعوذ بالله من النار

ومن عذاب النار.

وفي مقابل أصول الكفر الثلاثة، أصول الإيمان الثلاثة وهي:

١- توحيد الله تعالى، وإخلاص العبادة له، ويتبع ذلك العمل الصالح.

٢- التصديق بالنبى الخاتم ﷺ، وبالوحي المنزل عليه من الله تعالى.

٣- الإيمان باليوم الآخر، وما فيه من بعث، وحشر ونشر، وحساب، وصراط، وميزان للأعمال، وجنة ونار.

وقد جاء ذلك مفصلاً في كتاب الله تعالى في مواطن كثيرة.

ويجمع هذه الأصول الثلاثة قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّٰنِرِئِ وَالصَّٰبِغِينَ مِّنْ ءَٰمَنِ ٱللَّهِ ٱلْآخِرِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [البقرة]

وكذا الآية التاسعة والستون من سورة المائدة، مع ما بينهما من تقديم وتأخير.

والإيمان بالله تعالى، مع العمل الصالح، يدخل فيه بالضرورة، الإيمان بالشق الثاني لكلمة التوحيد: (لا إله إلا الله) محمد رسول الله، فإن هذا مقتضى الشهادتين، ولا يحصل الإسلام إلا بهما معاً، فلو آمن العبد بالله تعالى وكفر برسوله ﷺ فليس مؤمناً، وهذا يشمل كل من لحق بدين الإسلام وأدركه واتبعه من سائر الملل والنحل: اليهود، والنصارى، والصابئين، والمجوس، والمشركين، وغيرهم.

أما من لم يدرك رسالة محمد ﷺ في كل ملة من الملل، ومات مؤمناً برسول زمانه، من بين رسل الله جميعاً فهو في الجنة، ومن بقي منهم على دينه بعد مجيء النبى الخاتم ولم يؤمن به ﷺ فهو في النار.

تَفْسِيرُ السُّورَةِ

الْقُرْآنُ الْعَظِيمُ رَفِيعُ الشَّانِ، وَلَكِنَّ الْكِبَرَ صَرَفَ الْكُفَّارِ عَنْهُ
١- ﴿ص٥﴾^(١) وَالْقُرْآنِ^(٢) ذِي الذِّكْرِ^(٣) ﴿١﴾

﴿ص٥﴾ حرف من حروف الهجاء المقطعة الواقعة في أوائل بعض السور، والله أعلم بمراده منها، وأبلغ ما قيل فيها: إنها نزلت للإعجاز، تحديًا لبلغاء العرب أن يأتوا بمثل أقصر سورة من هذا القرآن، وإقامة للحجة عليهم؛ إذ هم عجزوا عن ذلك، وفيها إيقاظ وتنبية لمن تحداهم القرآن، أن يتأملوه ويفهموا معانيه.

فحرف الصاد، أحد حروف الهجاء التي يتكون منها القرآن، وهو صوت مخلوق أوجده الله تعالى في حناجر البشر، ولكن القرآن ليس في متناول الكفار؛ لأنه من عند الله تعالى، وقيل: إنه حرف يرمز إلى بعض أسماء الله تعالى، أو أسماء رسوله ﷺ، أو أسماء القرآن^(٤) والمعنى الأول أصح.

وبهذا الحرف، سُمِّيت السورة.

و(ص) و(ق) و(ن) في أوائل سورها الثلاث، ليست آية مستقلة، بل هي وما بعدها آية.

ثم أقسم ﷺ بالقرآن صاحب المكانة والشرف الرفيع، كما قال تعالى: ﴿لَقَدْ أَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ كِتَابًا فِيهِ ذِكْرُكُمْ﴾ [الأنبياء: ١٠] أي: شرفكم وعزتكم.

والقرآن يوقظ العقول، ويذكر الناس بما هم عنه غافلون، فهو يذهب النسيان والغفلة، ويورث الانتباه واليقظة، كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَكِّرٍ﴾ [القمر].

وهو كتاب شريف مشتمل على التذكير والإعذار والإنذار ﴿وَالْقُرْآنِ ذِي الذِّكْرِ﴾ فيه المواعظ والأحكام والقصص، وخبر من قبلنا ونبأ من بعدنا، وهو يذكر العباد بكل ما يحتاجونه من العلم بأسماء الله وصفاته وأفعاله، وأحكامه الشرعية، وما في اليوم الآخر

(١) قرأ أبو جعفر بالسكت على صاد سكتة خفيفة بدون تنفس. وقرأ غيره بدونها.

(٢) قرأ ابن كثير بنقل حركة همزة (والقرآن) إلى ما قبلها، ومثله حمزة عند الوقف.

(٣) عد الكوفي وحده (ذي الذكر) آية، وتركها غيره.

(٤) ذكر ابن الجوزي في «زاد المسير» سبعة منها (٩٧/٧) وكذا الخازن في تفسيره (٢٨/٤).

من الحساب والجزاء فهو يذكر الخلائق بأصول الدين وفروعه.

وجواب القسم محذوف دل عليه السياق، تقديره: والقرآن ذي الذكر، إنه لمن عند الله، ولم يذكر جواب القسم، لأن المقسم به والمقسم عليه شيء واحد هو القرآن، ولهذا عجزتم - أيها المكذبون - عن الإتيان بمثله، مع أنه مكوّن من حروف الهجاء كحرف الصاد.

فحرف الصاد هو الدالّ على جواب القسم المحذوف؛ لأنه حرف للتحدي، أي: فليس الأمر كما يقول الكفار: إن القرآن سحر، وإن محمداً ساحر، بل إن هذا القرآن معجز، منزل من عند الله، ومحمد صادق فيما يبلغه عن ربه، فوجب على العباد تلقّي هذا القرآن بالإيمان والتصديق، والإقبال عليه، والعمل به.

والآيات تتضمن أن المقسم عليه ثلاثة أشياء:

الأول: أن النبي ﷺ مرسل من عند الله حقاً، وليس كما قالوا: ﴿سِحْرٌ كَذَابٌ﴾ ﴿أَنْزَلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ مِنْ بَيْنِنَا﴾.

الثاني: أن الإله المعبود جلّ وعلا، إله واحد، وليس آلهة متعددة، وليس الأمر كما قالوا: ﴿أَجْعَلِ آلِهَةً إِلَهًا وَاحِدًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ﴾.

وقد أشارت السورة في أولها إلى هذين الأمرين.

الثالث: أن الله تعالى يبعث من يموت للحساب والجزاء، وليس كما قالوا: ﴿لَا يَبْعَثُ اللَّهُ مَنْ يَمُوتُ﴾ [النحل: ٣٨]، ولا كما قالوا: ﴿لَا تَأْتِنَا السَّاعَةُ﴾ [سبا: ٣].

وجاء القسم على هذه الأمور الثلاثة في مواضع عدة من القرآن الكريم.

ثم بيّن سبحانه سبب كفر الكافرين فقال:

٢- ﴿بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي عِزِّهِمْ وَشِقَاقِي﴾

هذا انتقال من القسم وجوابه إلى بيان حال الكفار من عناد وغرور لإبطال قولهم، فلا ريب أن القرآن من عند الله، ولكنّ هناك متكبرين على الحق، إذا عُرض عليهم القرآن أخذتهم العزة بالإثم، وعاقبة هؤلاء الهلاك مهما طال الأمد، فليس كفر من كفر لخلل وجده في هذا القرآن ﴿بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي عِزِّهِمْ﴾ حميّة وكبرياء، ومشاركة له، ورفض للحق،

كما قال تعالى: ﴿فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَكِنَّ الظَّالِمِينَ بِبَايِعَتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ﴾ [الأنعام: ٣٣].

وهم أيضًا في خلاف وشقاق وعداوة وعناد لله ورسوله، فعدم انتفاع الكفار بما في القرآن ليس لضعف في تذكير القرآن ومواعظه، وإنما لأنهم كما قال تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُ اتَّقِ اللَّهَ أَخَذَتْهُ الْعِزَّةُ بِالْإِثْمِ﴾ [البقرة: ٢٠٦].

وهي عزة باطلة تقوم على كبرياء، وعصيان، وإعجاب بالنفس، وتقليد للآباء والأجداد، فما في نفوسهم من العزة والشقاق، هو الذي حال بينهم وبين التذكير بالقرآن، ولم يعتبروا بما حدث للأمم المكذبة لرسول الله، ولهذا توعدهم الله تعالى بالإهلاك كما أهلك من قبلهم، من كل من عاند الرسل ولم يقبل دعوتهم:

الْعُقُوبَةُ الرَّادِعَةُ لِكُلِّ مَنْ أَبِي الْحَقِّ وَأَعْرَضَ عَنْهُ

٣- ﴿كَرَّ أَهْلُكُمَا مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ قَرْنٍ فَنَادَوا وَلَوْلَا (١) حِينَ مَنَاصٍ﴾

أي: أنه لا بد من جزاء صارم، وعقوبة رادعة لمن أبي الحق، وشاق الله ورسوله، فلا بد أنهم سيُجزون على عزتهم وشقاقهم بالإهلاك، كما فعل بالأمم قبلهم ﴿كَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ قَرْنٍ﴾ أي: أن كثيرًا من المكذبين في القرون السابقة أهلكناهم قبل هؤلاء، فوجب تحذيرهم؛ حتى لا يكون مصيرهم كمصير من قبلهم ممن لم ينفعهم الندم والتضرع والإنابة، عندما رأوا مقدمات العذاب، فجأروا إلى الله تعالى واستغاثوا به أن يرفع عنهم هذا العذاب، وهذا معنى ﴿فَنَادَوا﴾ أي: استغاثوا بعد فوات الأوان.

﴿وَلَوْلَا حِينَ مَنَاصٍ﴾ أي: وليس الوقت وقت استغاثة وفرار من العقاب، بل هو وقت تنفيذ العقوبة، فليس الحين حين فرار، فقد ضاعت الفرصة، بعد أن تماديت في الكفر، وأعرضتم عن الإيمان، فالمناص: هو الفرار والخلاص، والملجأ والهرب.

قال ابن عباس رضي الله عنهما: كان كفار مكة، إذا قاتلوا فاضطروا في الحرب، قال بعضهم لبعض: مناص، أي: اهربوا وخذوا حذرکم، فلما نزل بهم العذاب بيدر، وقالوا:

(١) وقف الكسائي بالهاء على (ولات) على الأصل في الوقف على تاء التانيث، ووقف غيره بالتاء تبعًا لرسم المصحف، مع سكونها للوقف.

(مناص) أنزل الله ﷻ ﴿وَلَا تَجِيَنَّ مَنَاصٍ﴾ أي: ليس الحين حين هذا القول^(١).

و ﴿وَلَا تَ﴾ بمعنى: ليس، أصلها لا النافية، زيدت عليها التاء، وهي حرف مستقل، خاص بنفي أسماء الزمان نحو: رَبَّتْ وَثَمَّتْ، وليست للتأنيث.

وقد جاء الخلاف بين رسمها في المصاحف موصولة هكذا ﴿وَلَا تَجِيَنَّ﴾ أو مفصولة هكذا ﴿وَلَا تَ جِيَنَّ﴾ والعمل على الفصل، وهو الأشهر.

ثم إن هذه الآية اشتملت على ثلاث مسائل:

الأولى: أن الله تعالى أهلك كثيراً من الأمم الماضية المكذبة لرسول الله، وفي هذا تهديد لكل من كفر بالله ورسوله.

الثانية: أن الكفار المكذبين لرسول الله ﷻ يلجؤون إلى الله تعالى أن يرفع عنهم العذاب عند معاينة أوله.

الثالثة: أنه لا مفر من الهلاك بعد معاينته، فلا تنفع توبة ولا ندم، ولا دعاء ولا استغاثة.

وقد فصل الله - سبحانه - هذه المسائل الثلاث في مواطن عدة من كتابه العزيز.

فمن أدلة المسألة الأولى؛ وهي إهلاك الأمم المكذبة لرسول الله:

(أ) قوله تعالى: ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنَ الْقُرُونِ مِنْ بَعْدِ نُوحٍ﴾ [الإسراء: ١٧].

(ب) وقوله سبحانه: ﴿فَكَانَ مِنْ قَرِيبٍ أَهْلَكْنَاهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ فِيهِ حَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا وَيَبْرِ مَعْطَلَةٍ وَفَصَّرِ مَشِيدٍ﴾ [الحج: ٤٥].

(ج) وقوله جل شأنه: ﴿وَكَانِ مِنْ قَرِيبٍ أَمَلَيْتُ لَهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ ثُمَّ أَخَذْتُهَا وَإِلَى الْمَصِيرِ﴾ [الحج: ٤٨].

(د) وقوله أيضاً: ﴿وَكُنَّ مِنْ قَرِيبٍ عَنَّتْ عَنْ أَمْرِ رَبِّهَا وَرُسُلِهِ فَحَاسَبْنَاهَا حِسَابًا شَدِيدًا وَعَذَّبْنَاهَا عَذَابًا نَكِرًا﴾ [٨] فَذَاقَتْ وَبَالَ أَمْرِهَا وَكَانَ عِقَبُهُ أَمْرًا خَسِرًا [٩] [الطلاق].

(هـ) وقوله أيضاً: ﴿وَقَوْمٌ نُوْحٌ لَمَّا كَذَبُوا الرُّسُلَ أَغْرَقْنَاهُمْ وَجَعَلْنَاهُمْ لِلنَّاسِ آيَةً وَأَعْتَدْنَا

(١) من «تفسير الخازن» للآية (٤/٣٠).

لِلظَّالِمِينَ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿٢٧﴾ [الفرقان].

(و) وقوله سبحانه: ﴿وَأَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ دَمَّرَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلِلْكَافِرِينَ أَمْثَلُهَا﴾ ﴿١١﴾ [محمد].

وغير ذلك من الآيات التي فيها هلاك الأمم، وبيان أن هلاكها كان بسبب كفرها بالله وتكذيبها لرسول الله صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين.

أما المسألة الثانية، وهى لجوء الكافرين إلى الله تعالى عند حلول العذاب بهم، فمن أدلتها:

(أ) قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰ إِذَا أَخَذْنَا مُتْرَفِيهِم بِالْعَذَابِ إِذَا هُمْ يَجْتَرُونَ ﴿٦٤﴾ لَا تَجْعَلُوا لِلْيَوْمِ تُكْذِبُونَ ﴿٦٥﴾ فَكَانَتْ آيَاتِي تُنَالِ عَلَيْهِمْ فَكُنْتُمْ عَلَىٰ أَعْقَابِكُمْ فَنَكَصُونَ ﴿٦٦﴾﴾ [المؤمنون].

(ب) وقوله أيضاً: ﴿فَلَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا قَالُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَحَدُّهُ وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِ مُشْرِكِينَ ﴿٨٤﴾ فَلَمْ يَكُ يَنْفَعُهُمْ إِيمَانُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بَأْسًا سَلَّ اللَّهُ الْآتِيَ قَدْ خَلَّتْ فِي عِبَادَتِهِ وَخَسِرَ هُنَالِكَ الْكَافِرُونَ ﴿٨٥﴾﴾ [غافر].

(ج) وقوله أيضاً: ﴿وَكَمْ مِنْ قَرِيبٍ أَهْلَكْنَاهَا فَجَاءَهَا بَأْسُنَا بَيِّنًا أَوْ هُمْ قَائِلُونَ ﴿٤١﴾ فَمَا كَانَ دَعْوَانَهُمْ إِذْ جَاءَهُمْ بَأْسُنَا إِلَّا أَنْ قَالُوا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ ﴿٤٢﴾﴾ [الأعراف].

(د) وقوله جلَّ شأنه: ﴿وَكَمْ قَصَمْنَا مِنْ قَرِيبٍ كَانَتْ ظَالِمَةً وَأَنشَأْنَا بَعْدَهَا قَوْمًا آخَرِينَ ﴿١١﴾ فَلَمَّا أَحْسَوْا بَأْسَنَا إِذَا هُمْ مِنْهَا يَرْكُضُونَ ﴿١٢﴾ لَا تَرْكُضُوا وَارْجِعُوا إِلَىٰ مَا أَتَرْتُمْ فِيهِ وَمَسْكِينَكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُلُونَ ﴿١٣﴾ قَالُوا يَوَيْلَنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ ﴿١٤﴾ فَمَا زَالَتْ تِلْكَ دَعْوَانَهُمْ حَتَّىٰ جَعَلْنَاهُمْ حَصِيدًا خَمِيدِينَ ﴿١٥﴾﴾ [الأنبياء].

(هـ) وقوله سبحانه: ﴿فَارْتَقِبْ يَوْمَ تَأْتِي السَّمَاءُ بِدُحَانٍ مُبِينٍ ﴿١٥﴾ يَغْشَى النَّاسَ هَذَا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٦﴾ رَبَّنَا اكْشِفْ عَنَّا الْعَذَابَ إِنَّا مُؤْمِنُونَ ﴿١٧﴾﴾ [الدخان].

فعندما يشخص البصر، ويخسف القمر، ويجمع الشمس والقمر ﴿يَقُولُ الْإِنْسَانُ يَوْمَئِذٍ أَتَيْنَ لَافِرٌ ﴿١٠﴾ كَلَّا لَا وَدَّ ﴿١١﴾ إِنَّ رَبَّكَ يَوْمَئِذٍ لِّلشَّفْرِ ﴿١٢﴾﴾ [القيامة] والوزر: هو الملجأ والنصير.

وقال سبحانه: ﴿وَرَبُّكَ الْغَفُورُ ذُو الرَّحْمَةِ لَوْ يُؤْخِذْهُمْ بِمَا كَسَبُوا لَعَجَلْ لَّهُمُ الْعَذَابُ بَلْ لَهُمْ مَوْعِدٌ لَّنْ يَجِدُوا مِنْ دُونِهِ مَوْيلًا ﴿٥٨﴾﴾ [الكهف].

والموئل: هو الملجأ الذي يعصمهم من العذاب، ويلوذون به.

أما المسألة الثالثة، وهي أن الندم لا ينفع عند معاناة العذاب، فمن أدلتها:

(أ) قوله تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ تُفْعَلُونَ عَلَى النَّارِ قَالُوا يَلَيْسَ لَنَا نَرْدٌ وَلَا يُكَذِّبُ يَمَانَتِ رَبِّنَا وَنَكُونُ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [١٧] [الأنعام].

(ب) وقوله سبحانه: ﴿وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ تُفْعَلُونَ عَلَىٰ رَبِّهِمْ قَالَ أَلَيْسَ هَذَا بِالْحَقِّ قَالُوا بَلَىٰ وَرَبِّنَا قَالَ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ﴾ [٢٠] [الأنعام].

(ج) وقوله جلّ شأنه: ﴿وَلَيْسَتِ التَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ حَتَّىٰ إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ إِنِّي تُبْتُ الْفَنَ وَلَا الَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمْ كُفَّارٌ أُولَٰئِكَ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ [١٨] [النساء].

وهذه الآيات تشير إلى ألوان من نداءات التحسر والندم والرجعة إلى الله تعالى، وتشير إلى الاستغاثة به سبحانه عند معاناة العذاب، وإلى رؤية أماراته دون جدوى، فلات ساعة مندم، أي إنه وقت لا يستجاب فيه لنداء، ولا تُقبل فيه توبة، كما قال تعالى: ﴿أَسْتَجِيبُوا لِرَبِّكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لَا مَرَدَّ لَهُ مِنَ اللَّهِ مَا لَكُم مِّنْ مَّلْجَأٍ يَوْمَئِذٍ وَمَا لَكُم مِّنْ نَّكَيرٍ﴾ [١٧] [الشورى].

الْكُفَّارُ يَعْجَبُونَ أَنْ يَكُونَ الرَّسُولُ بَشَرًا

٤- ﴿وَعَجِبُوا أَنْ جَاءَهُمْ مُنْذِرٌ مِّنْهُمْ وَقَالَ الْكَاذِبُونَ هَذَا سِحْرٌ كَذَّابٌ﴾ [١١]

كشف سبحانه في هذه الآية عما انطوت عليه نفوس الكفار تجاه خاتم المرسلين من العزة والشقاق، فبيّن جلّ شأنه أنه قد استقر في نفوسهم أمران تعجبوا منهما فكانا سبب انصرافهما عن التذكر بالقرآن:

الأمر الأول: استحالة أن يكون الرسول بشرًا مثلهم في نظرهم، فهو يأكل ويشرب ويتزوج، زاعمين أن الرسول لا يكون بشرًا، بل يكون ملكًا.

الأمر الثاني: استحالة أن تكون الآلهة المتعددة التي يعبدونها إلهاً واحداً -على حد زعمهم- ﴿وَعَجِبُوا أَنْ جَاءَهُمْ مُنْذِرٌ مِّنْهُمْ﴾ أي: وعجب هؤلاء المكذبون للرسول الخاتم،

فاستبعدوا أن يبعث الله إليهم بشرًا منهم، يدعوهم إلى توحيد الله تعالى، وينذرهم عاقبة الشرك به، فيخوفهم عذاب الله، كما قال تعالى: ﴿بَلْ عَجِبُوا أَنْ جَاءَهُمْ مُنْذِرٌ مِّنْهُمْ﴾ [ق: ٢]، وهذا أمر لا يدعو إلى العجب، لأن الرسول حين يكون منهم، يتمكنون من التلقى عنه، ويكون معروفًا عندهم بصدقه من كذبه، وأمانته من خيانتة، ولا يتعصبون له، ولكنهم بدل أن يشكروا الله تعالى على أن الرسول منهم، فينقادوا له ويتبعوه، عكسوا القضية فتعجبوا وأنكروا أن يكون الرسول من البشر ووصفوه بالسحر وما إلى ذلك.

والمراد بهذا العجب: هو إنكار الوحي والرسالة.

وحقيقة العجب: انفعال في النفس، ينشأ عن العلم بشيء نادر غير مترقب الوقوع.

وهكذا أنكر الكفار رسالة محمد ﷺ ﴿وَقَالَ الْكَافِرُونَ هَذَا سِحْرٌ كَذَابٌ﴾.

وفي قوله تعالى: ﴿فَقَالَ الْكَافِرُونَ هَذَا شَيْءٌ عَجِيبٌ﴾ [ق: ٢] أي: أن الكافرين تعجبوا من رسالة محمد ﷺ ووصفوه بالسحر والكذب فيما يأتي به من القرآن ومن المعجزات البينات، ويقولون: إنه يأتي بخوارق لا نعرفها، ويكذب فيما يسنده إلى ربه، فهو ليس برسول، بل هو كاذب في قوله، ساحر لقومه.

وقد جاء هذا المعنى في كثير من آيات الكتاب العزيز، وهو الأصل الثاني من أصول الكفر.

ومن هذه الآيات قوله تعالى منكرًا عليهم: ﴿أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَا إِلَى رَجُلٍ مِّنْهُمْ أَنْ أَنذِرِ النَّاسَ وَبَشِّرِ الَّذِينَ ءَامَنُوا أَنَّ لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ عِنْدَ رَبِّهِمْ قَالَ الْكَافِرُونَ إِنَّ هَذَا لَسِحْرٌ مُّبِينٌ﴾ [يونس].

وهذا شأن الأمم جميعًا، فقد عجب قوم نوح من إرساله إليهم نبيًا ورسولًا، قال تعالى: ﴿أَوْ عَجِبْتُمْ أَنْ جَاءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَى رَجُلٍ مِّنكُمْ لِيُنذِرَكُمْ وَلِتَتَّقُوا وَلَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ [الأعراف].

وهكذا قال قوم عاد لنبيهم هود عليه السلام: ﴿أَوْ عَجِبْتُمْ أَنْ جَاءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَى رَجُلٍ مِّنكُمْ لِيُنذِرَكُمْ وَأَذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِن بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ﴾ [الأعراف: ٦٩].

وفي كثير من الآيات بين ﷺ سبب تعجب الأمم، زاعمين أن الرسول لا يكون بشرًا، بل يكون ملكًا لا يأكل ولا يشرب، ولا يمشي في الأسواق، ولا يتزوج، ولا يكون له ولد، فقد قالت الأمم لرسول الله جميعًا: ﴿إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا تُرِيدُونَ أَنْ تَصُدُّونَا عَمَّا كُنَّا يَعْبُدُ ءَابَاؤُنَا﴾ [إبراهيم: ١٠].

وقد رد الله عليهم في كثير من آياته، ومنها ما حكاه الله تعالى عن رسله في قولهم: ﴿إِنْ نَحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَمُنُّ عَلَىٰ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ﴾ [إبراهيم: ١١].

وقوله تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَيَمْشُونَ فِي الْأَسْوَاقِ﴾ [الفرقان: ٢٠].

وقوله أيضًا: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِنْ قَبْلِكَ وَجَعَلْنَا لَهُمْ أَزْوَاجًا وَذُرِّيَّةً﴾ [الرعد: ٣٨].

وكما تعجبوا أن يكون الرسول بشرًا تعجبوا أن يكون الإله المعبود واحدًا:

الْكُفَّارُ يَعْجَبُونَ أَنْ يَكُونَ الْإِلَهُ وَاحِدًا

٥- ﴿أَجْعَلِ الْآلِهَةَ إِلَهًا وَاحِدًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ﴾ (٥)

هذا هو الأمر الآخر الذي أنكره المشركون وتعجبوا منه، فقالوا: كيف أن محمدًا صير الآلهة الكثيرة إلهاً واحدًا، وطلب منا أن ندين له بالطاعة والعبادة؟ كيف ينهى عن الشركاء والأنداد، ويأمر بإخلاص العبادة لإله واحد؟ فهل يسمع لحوائجنا جميعًا إله واحد؟! ﴿أَجْعَلِ الْآلِهَةَ إِلَهًا وَاحِدًا﴾ أزعج محمد، أن الرب المعبود واحدًا لا إله غيره؟ ﴿إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ﴾ إن هذا الذي جاء به ودعانا إليه لشيء قد بلغ النهاية في العُجْب والغرابة وتجاوز حدود العقل.

ورد أنه لما أسلم عمر بن الخطاب رضي الله عنه شق ذلك على قريش، وفرح المؤمنون، فاجتمع خمسة وعشرون رجلًا من صناديدهم ومشوا إلى أبي طالب بمشورة الوليد بن المغيرة، فقالوا له: أنت شيخنا وكبيرنا، وقد أتيناك لتقضي بيننا وبين ابن أخيك، وقد علمت ما فعل من تسفيه آلهتنا، فاستحضر أبو طالب النبي صلى الله عليه وسلم وقال: يا بن أخيك، هؤلاء قومك فلا تمل عليهم كل الميل، فقال صلى الله عليه وسلم: «وماذا يسألونني»، قالوا: لا تذكر آلهتنا بسوء، وندعك وإلهك، فقال صلى الله عليه وسلم: «أعطيني كلمة واحدة تملكون بها العرب، وتدين لكم بها العجم»؟ فقال أبو جهل: نعطيها وعشرة أمثالها، فقال صلى الله عليه وسلم: «قولوا: لا إله إلا الله»، فنفروا من ذلك وقالوا: ﴿أَجْعَلِ الْآلِهَةَ إِلَهًا وَاحِدًا﴾ كيف يسع الخلق إله واحد؟ ثم قالوا: بل غير هذا، قال: «لو جئتموني بالشمس حتى تضعوها في يدي ما سألتكم غيرها»، فقاموا غضابًا،

وقالوا: والله لنشتُمك وإلهك الذي أمرك بهذا^(١).

ونزل -لما انطلق أشراف قريش إلى أبي طالب يكلمونه في شأن النبي ﷺ- قوله تعالى:

٦- ﴿وَأَنْطَلَقَ الْمَلَأُ مِنْهُمْ أَنْ^(٢) أَمْشُوا وَأَصْبِرُوا عَلَىٰ آلِهَتِكُمْ إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ يُرَادُ﴾

أي أن كبار القوم لما سمعوا محمدا يدعو إلى التوحيد، أسرعوا في دعوة الناس إلى التمسك بآلهتهم فإن محمدا يريد الزعامة.

أي: وانصرف القوم عن مجلس أبي طالب يتحاورون، ماذا يصنعون؟ فقال عقبة بن أبي معيط^(٣): استمروا في طريقتكم التي وجدتم عليها آباءكم وأجدادكم، واصبروا على عبادة آلهتكم، مهما هوّن محمد من شأنها، ومهما نهاكم عن عبادتها، وهذا معنى: ﴿وَأَنْطَلَقَ الْمَلَأُ مِنْهُمْ﴾ أي: خرج رؤساء القوم وكبرائهم بعد الحوار مع النبي ﷺ يحرضون قومهم على الاستمرار على الشرك، والثبات على تعدد الآلهة، يقول بعضهم لبعض: ﴿أَمْشُوا﴾ أي: سيروا في الأرض ﴿وَأَصْبِرُوا عَلَىٰ آلِهَتِكُمْ﴾ أي: اثبتوا على عبادة الآلهة التي تعبدونها وداوموا عليها، وهي آلهة متفاوتة في قيمتها وحجمها وكُنْهها، فقد كان لكل أسرة إله يناسب مستواها الاجتماعي، وللمقيم إله، وللمسافر إله، وهكذا.

ونظير هذه الآية قوله تعالى حكاية عن المشركين: ﴿إِنْ كَادَ لَيُضِلَّنَا عَنْ آلِهَتِنَا لَوْلَا أَنْ صَبَرْنَا عَلَيْهَا﴾ [الفرقان: ٤٢].

فإن ما جاء به محمد شيء مدبر، يقصد منه الرئاسة والسيادة ﴿إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ يُرَادُ﴾ أي: إن هذا لأمر عظيم يريد محمد إمضاءه وتنفيذه، فهو يريد أن يصرفكم عن دينكم؛ لتكون له

(١) جاء سبب النزول هذا من عدة طرق، ذكرث جلّها في مقدمة السورة، دون قصة إسلام عمر، ويُنظر: «تفسير الطبري» (٢٣/٨٠، ٢٣٧٩) و«الدر المنثور» (١٢/٥٠١) عن الشَّذِّي عند الطبري وابن أبي حاتم، وانظر ما جاء عن ابن عباس ؓ في مسند أحمد (٢٠٠٨، ٣٤١٩) والنسائي في الكبرى (١١٤٣٦) والترمذي (٣٢٣٢) وابن حبان (٦٦٨٦).

(٢) اتفق القراء على كسر النون وصلّا من (أن امشوا)؛ لأن ضمة الشين عارضة، فأصل الكلمة (امشيوا) ثم حدث إعلال وإبدال، والبدء بـ(امشوا) يكون بكسر همزة الوصل، نظرا لأن ضمة الشين عارضة وليست أصلية.

(٣) كما قال ابن عطية في تفسيره (١٤) والطبري (٢٠/٢١) عن مجاهد بن حميد وابن المنذر وقال غيرهم: هذا أمر مدبره محمد لتكون له الرئاسة، والقائل هو: أبو جهل، والعاص بن وائل، أو الأسود بن عبد يغوث.

العزة والسيادة، فاحذروا أن تطيعوه، وقابلوا تصميمه على دعوته لكم بتصميمكم على عبادة آلهمكم، فهو دين آبائنا ولن نتركه مهما كرهنا فيه محمد، وهذه شبهة لا تروج على أحد، فإن الحق يقابل بما يفسده ويبطله من الحجج والبراهين، وليس بما يقدح فيه وفي قائله. والإشارة في ﴿إِنَّ هَذَا﴾ تعود إلى ما يدعوهم إليه محمد ﷺ من عبادة الله تعالى وحده. أو تعود إلى دين المشركين الذي هم عليه، وهو تعليل لأمر بعضهم بعضاً بالصبر، بأن يقطعوا أطماعهم في أن ينزل محمد ﷺ على مرادهم، ويمضوا في طريقهم^(١). ويمضي الملأ الذين انصرفوا من مجلس أبي طالب ينفضون ثيابهم وهم يقولون:

٧- ﴿مَا سَمِعْنَا بِهَذَا فِي الْمِلَّةِ الْآخِرَةِ إِنْ هَذَا إِلَّا اخْلَقُ﴾ (٧)

أي: إن الذي يقوله محمد، من عبادة إله واحد، ليس له نظير في ملة العرب التي أدركنا عليها آبائنا، ولا سمعنا بمثل هذا القول في الملة النصرانية التي هي آخر الملل، فإنهم يقولون بالتثليث لا بالتوحيد، ولا سمعنا بهذا القول فيما دعا إليه الكهان وأهل الكتاب، واتباع الآباء ليس حجة يقابل بها الحق، فغالبًا ما يكون الآباء على ضلال وباطل.

ولعلمهم يشيرون إلى قول الملأ من قريش لأبي طالب وهو في مرض موته، حين قال له النبي ﷺ: «يا عم، قل لا إله إلا الله، كلمة أحاج لك بها عند الله»، فقالوا له جميعًا: أترغب عن ملة عبد المطلب، فقولهم: ﴿فِي الْمِلَّةِ الْآخِرَةِ﴾ كناية عن استمرارهم على دين عبد المطلب، فالملة هي الدين، كما قال تعالى على لسان يوسف ﷺ: ﴿إِنِّي تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ﴾ [يوسف: ٣٧].

ثم قالوا: ﴿إِنَّ هَذَا إِلَّا اخْلَقُ﴾ أي: ما هذا الذي يقوله محمد إلا كذب وافتراء.

(١) يُنْظَرُ: «تفسير الألوسي» (٢٣/١٦٧).

الْكَفَّارُ يَحْسُدُونَ مُحَمَّدًا ﷺ عَلَى اخْتِيَارِهِ لِلرَّسَالَةِ

٨- ﴿أَنْزَلَ^(١) عَلَيْهِ الذِّكْرَ مِنْ بَيْنِنَا بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ مِنْ ذِكْرِي بَلْ لَمَّا يَدُفُّوا عَذَابِي^(٢)﴾

أي: وكما تعجب المشركون -أولاً- من أن يكون المعبود إلهاً واحداً، وتعجبوا -ثانياً- من أن يكون الرسول بشراً، تعجبوا - ثالثاً-: أن يُنزل هذا القرآن على يتيمة قريش، ولم ينزل على عظمائهم، فأنكروا أن يخص الله محمداً بالرسالة، وإنزال القرآن عليه دون غيره منهم، فما الذي فضله علينا حتى ينزل عليه الذكر من دوننا، ويخصه الله به، فقالوا: ﴿أَنْزَلَ عَلَيْهِ الذِّكْرَ مِنْ بَيْنِنَا﴾ أي: كيف يدعي محمد نزول القرآن عليه، ونحن أهل السيادة والثراء والجاه، فكيف يختص بهذا الشرف من بيننا، وفينا من هو أكثر مالاً وأكبر مكانة، وهو إنكار يُترجم عما في قلوبهم من حقد وحسد على ما أوتيته من شرف النبوة.

وهذه شبهة مردود عليها بأن هذا شأن الرسل جميعاً، والله يصطفى من يشاء، ويمنُّ على من يشاء، وهو أعلم بمن هو أهل للرسالة.

وهذا الحسد واضح في قوله تعالى عنهم: ﴿وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَى رَجُلٍ مِنَ الْقُرَيْيَيْنِ عَظِيمٍ﴾ [الزخرف: ٣١] أي: زعيم مكة، وهو الوليد بن المغيرة، أو زعيم الطائف وهو: عروة بن مسعود الثقفي، فهما أحق بالنبوة من محمد ﷺ.

قال تعالى: ﴿أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّي﴾ [الزخرف: ٣٢].

وقال جلَّ شأنه: ﴿ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ﴾ [الجمعة: ٤].

وقد جاء حقدهم هذا في مواطن كثيرة من القرآن الكريم، منها قوله تعالى: ﴿وَإِذَا جَاءَتْهُمْ آيَةٌ قَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ حَتَّى نُؤْتَى مِثْلَ مَا أُوتِيَ رُسُلُ اللَّهِ﴾.

(١) قرأ قالون وأبو عمرو بتسهيل الهمزة الثانية مع الإدخال وعدمه، في (أَنْزَلَ) وقرأ ورش وابن كثير ورويس بالتسهيل مع عدم الإدخال، وقرأ أبو جعفر بالتسهيل مع الإدخال، وقرأ هشام بالتسهيل مع الإدخال وبالتحقيق مع الإدخال وعدمه، وقرأ الباقون بالتحقيق مع عدم الإدخال.

(٢) قرأ يعقوب بإثبات الياء في (عذاب) وصلاً ووقفاً، والباقون بحذفها في الحالين، ومثلها (عقاب) في الآية الرابعة عشرة.

قال تعالى مجيباً لهم: ﴿اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ﴾ [الأنعام: ١٢٤].

وقد صرح رؤساؤهم بهذا الحسد، كأبي جهل حينما سئل: أنتظن أن محمداً على حق أم على باطل؟ فقال: إن محمداً لعلى حق، ولكن متى كنا تبعاً لبني هاشم؟!

وفي رواية أنه قال: تنازعنا نحن وبنو عبد مناف الشرف، أطعموا فأطعمنا، وحملوا فحملنا، وأعطوا فأعطينا، حتى إذا تحاذينا على الركب، وكنا كفرسي رهان، قالوا: منا نبي يأتيه الوحي من السماء، فمتى ندرك هذه؟ والله لا نؤمن به أبداً ولا نصدقه.

وهؤلاء الجاحدون للرسالة والرسول، لم يقطعوا برأي في شأن محمد ﷺ ولا في شأن ما جاءهم به من عند الله، ولم يستندوا في أقوالهم إلى دليل أو شبه دليل، وإنما هم في شك من هذا القرآن يصفونه تارة بالسحر، وتارة بالكهانة، وتارة بالشعر، وتارة يقولون: أساطير الأولين، وهذا معنى: ﴿بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ مِنْ ذِكْرِي﴾ أي: بل هم في شك وعناد مما أوحاه الله إليه، وفي شك من صحة بعثته، ولو عقلوا وأنصفوا لآمنوا، فلا تحزن يا محمد على قول المكذبين، فإن السبب في ذلك أنهم لم يذوقوا عذابي بعد، وهذا معنى ﴿بَلْ لَمَّا يَذُوقُوا عَذَابِي﴾ فإذا ذاقوه زال حسدهم وشكهم، وتيقنوا أنه على الحق المبين، وأنهم على الباطل، ولكنهم لم يذوقوا عذاب الله تعالى، فتجرؤوا على ما قالوا!!

وفي لفظ: ﴿لَمَّا﴾ إشارة إلى أن منهم من سيؤمن به فيما بعد، وقد آمن به أكثرهم، وهذا كقوله تعالى: ﴿وَلَمَّا يَدْخُلِ الْإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ﴾ [الحجرات: ١٤].

وبمثل هذه الآية قال قوم ثمود لنبيهم صالح ﷺ: ﴿الْأَلْفَىٰ الذِّكْرُ عَلَيْكَ مِنْ يَبِينَا بَلْ هُوَ كَذَابٌ أَشِرٌ﴾ [القمر: ٢٥].

وفي هذا تهديد ووعد لهم على أقوالهم وجُرأتهم على كتاب الله تعالى وعلى رسول الله ﷺ، وفيه بيان أن ما صدر منهم سببه أنهم ممتعون في الدنيا، لم يصيبهم شيء من عذاب الله، ولو أنهم ذاقوا شيئاً من عذاب الله ما تجرؤوا على ما قالوه.

وقد أُرِخَ الجار والمجرور في آية صالح ﷺ، وقُدِّمَ في آية محمد ﷺ، وفي هذا إمعان في شدة إنكار كفار قريش لنزول القرآن على محمد ﷺ، أكثر من إنكار قوم صالح ﷺ عليه.

اللَّهُ تَعَالَى هُوَ الْمُعْطِي الْمَانِعُ

٩- ﴿أَمْرٌ عِنْدَهُمْ خَزَائِنُ^(١) رَحْمَةِ رَبِّكَ الْعَزِيزِ الْوَهَّابِ ﴿٩﴾﴾

أي: لماذا يحسد الكفار محمداً على ما خصه الله به من الوحي والرسالة؟ فليست خزائن فضل الله عندهم، حتى يُعطوا من شاؤوا ويمنعوا من شاؤوا، وفي هذا توبيخ لهم وتهكم بهم، فالنبوة عطية من الله تعالى يختص بها من يشاء من عباده، والآية رد على من أنكر اختصاص النبي ﷺ بالرسالة.

والمعنى: أهم يملكون خزائن فضل ربك العزيز في سلطانه، الوهاب الذي يعطي ما يشاء من رزقه ورحمته لمن يشاء من خلقه؟ فكيف يتخيرون للنبوة صناديدهم، والله تعالى هو صاحب التصرف في هذا الكون، يعطي من يشاء ويمنع من يشاء، لا راد لقضائه ولا معقب لحكمه؟ فالعزة لله، وليست لمن يترفع ويتكبر على خلق الله، والنبوة هبة الله تعالى لمن يشاء من عباده، و ﴿اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ﴾ [الأنعام: ١٢٤].

قال تعالى: ﴿قُلْ لَوْ أَنْتُمْ تَمْلِكُونَ خَزَائِنَ رَحْمَةِ رَبِّي إِذَا لَأَمْسَكْتُمْ خَشْيَةَ الْإِنْفَاقِ﴾ [الأنعام: ١٠٠].

إن المكذبين ببعثة النبي ﷺ يستخدمون الحرب الباردة في الدعاية المغرضة، ضد محمد ﷺ لحماية ما ورثوه عن أسلافهم من عقائد فاسدة، على مر الأزمنة واختلاف الأمكنة، ومن ذلك وصف النبي ﷺ قديماً بالسحر أو الشعر أو الكهانة.

ذكر ابن إسحاق: أن الوليد بن المغيرة كان رأس القوم، وأنهم قد اجتمعوا معه في موسم الحج قائلين له: إن وفود العرب ستقدم عليكم من كل جهة، وقد بلغهم شأن محمد ﷺ فأجمعوا فيه رأياً، لا يكذب بعضكم بعضاً فيه، ولا تختلفوا عليه، فاقترحوا أن يصفوه بالسحر أو الشعر أو الكهانة، فقال المغيرة - والفضل ما شهدت به الأعداء -:

لقد رأينا الكهان، فما هو بزممة الكاهن ولا سجعه.

ولقد عرفنا الجنون، فما هو بخنقه ولا تخالجه ولا وسوسته.

(١) قرأ أبو عمرو ويعقوب بالإظهار والإدغام للنون في الراء، من (خزائن رحمة ربك)، وقرأ بقية القراء بالإظهار فقط.

وعرفنا الشعر كله؛ رجزه وهزجه وقريضه ومقبوضه ومبسوطه.

وعرفنا السحر، فما هو بنفثهم ولا عُقدهم.

فنفى الوليد أن يكون النبي ﷺ كاهنًا أو مجنونًا أو شاعرًا أو ساحرًا.

قالوا: فما تقول يا أبا عبد شمس؟ قال: والله إن لقوله لحلاوة، وإن أصله لعذق، أي: كثير الشعب والأطراف، وإن فرعه لجناة، أي: فيه ثمر يُجنى، وما أنتم بقائلين من هذا شيئًا إلا عرفوا أنه باطل، وإن أقرب القول فيه أن تقولوا: إنه ساحر، يفرق بين المرء وأبيه، وبين المرء وعشيرته، وبين الأخوين والزوجين.

فارتضوا هذا الوصف وتفرقوا من مجلسهم على أن يجلسوا في مداخل مكة، فلا يمر بهم أحد إلا حذّروه من النبي ﷺ وذكروا له أنه ساحر!! وهم يعلمون أنهم كاذبون فيما يقولون، وأن محمدًا ﷺ ليس بساحر ولا كذاب.

ولو كان محمد ﷺ ساحرًا أو كاذبًا ما تسلّل كبارهم خفية من وراء نظرائهم؛ ليستمعوا إلى القرآن الذي يتلوه محمد ﷺ في جوف الليل ليشنّفوا آذانهم به، ويخشوا أن تتأثر به قلوبهم، كما حدث من أبي سفيان وأبي جهل والأخنس، حين خرج كل منهم خفية لمدة ثلاث ليالٍ، حتى إذا طلع الفجر تفرقوا، فيجمعهم الطريق ويتلاوموا، ويتعاهدوا على عدم العودة، ثم يعود كل منهم من وراء غيره، وتكرر ذلك ثلاث مرات، ويقولون في النهاية: لقد سمعنا أشياء نعرفها ونعرف ما يراد بها، وسمعنا أشياء لا نعرفها ولا نعرف ما يراد بها، ثم اعترف أبو جهل بصدق محمد ﷺ وصدق ما جاء به، ولكن تنازع الشرف هو الذي منعهم من الإيمان به، فالوحي الذي نزل على محمد ﷺ لم ينزل عليهم، ولن يدركوه، ولذا: فهم يحسدونه عليه، ولن يؤمنوا به أبدًا^(١).

ثم ذكر سبحانه برهانا جامعًا هو بمثابة الحصيلة للإجابة على شبه المشركين في شأن التوحيد والرسالة والقرآن، فقال جلّ شأنه:

(١) ذكرته بالمعنى من حديث ابن إسحاق عن ابن شهاب الزهري، وقد سبق عجز هذا المعنى في الآية الثامنة.

عَجَزُ الْبَشَرِ عَنْ تَصْرِيفِ شُؤْنِ الْكَوْنِ

١٠- ﴿أَمَ لَهُم مِّلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا فَلْيَرْتَقُوا فِي الْأَسْبَابِ﴾ ﴿١٠﴾

أي: ألهؤلاء الجاحدين المكذبين ﴿مِلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا﴾؟ وهذا تأكيد لما في الآية السابقة من عدم ملكيتهم لشيء من خزائن الله تعالى في العالم العلوي والسفلي، فإن كانوا يملكون شيئاً من ذلك ﴿فَلْيَرْتَقُوا فِي الْأَسْبَابِ﴾ أي: فليأخذوا بالأسباب التي تُوصِّلهم إلى السماء، وليصعدوا إليها إن استطاعوا، ويمنعوا الملائكة من إنزال الوحي على محمد ﷺ، وليعطوا من شأؤوا ويمنعوا من شأؤوا، ويدبروا شؤون الكون، ويخصوا بالنبوة من اختاروا، ويمنعوها عن من أرادوا، وهذا من باب التعجيز والتهكم، والاستخفاف والتوبيخ كقوله تعالى: ﴿مَنْ كَانَ يَظُنُّ أَنْ لَنْ يَنْصُرَهُ اللَّهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ فَلْيَمْدُدْ بِسَبَبٍ إِلَى السَّمَاءِ ثُمَّ لْيَقْطَعْ فَلْيَنْظُرْ هَلْ يُذْهِبَ كَيْدُهُ مَا يَغِيظُ﴾ ﴿١٥﴾ [الحج].

وهم أعجز وأضعف خلق الله بما تكلموا به، فإن كان قصدهم التعاون على نصر الباطل وخذلان الحق، فإن جندهم مهزوم وجند الله هو الغالب، والآيات التالية تقرر هذا المعنى. وبهذا ينتهي الكلام عن تفصيل ما للذين كفروا من عزة وشقاق، وما ترتب على ذلك من آثار.

هَزِيمَةٌ مِّنْ تَحْزِيرُوا عَلَى النَّبِيِّ ﷺ

ثم تُثَيِّ سبْحَانَهُ بتفصيل الكلام على الكفار الذين أهلکوا في عصر التنزيل وأمثالهم من القرون السابقة، والقرون اللاحقة، فقال سبحانه:

١١- ﴿جُنْدٌ مَا هَئِلَاكَ مَهْزُومٌ مِّنَ الْأَحْزَابِ﴾ ﴿١١﴾

وهذه الآية تشير إلى من هزمهم الله تعالى من مختلف الأحزاب في عهد النبي ﷺ، وهؤلاء الجند مُتَوَعَّدُونَ بالهزيمة، سواء أكانوا قلة أم كثرة، فكلهم مقدَّر انهزامه في علم الله تعالى، وهذه بشارة من الله تعالى يبشر بها رسوله ﷺ وهي من الإخبار بما في الغيب، وكفار مكة ما هم إلا جند من الجنود الذين كذبوا رسول الله فأهلكهم الله سبحانه.

وفي هذه الآية بشارة للمؤمنين بالنصر على أعدائهم في كل زمان، وعدم الاكتراث بجموعهم مهما كثرت عُدتها وكثر عددها، فإنه لا قيمة لها بجانب قوتهم إذا تسلحوا

بالإيمان والسلاح، وآثروا حب الآخرة على حب الدنيا.

ولما نزل بمكة قوله تعالى: ﴿سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ﴾ [القمر] لم يفهم الصحابة تأويلها، فقال عمر: أي جمع هذا الذي وعد الله أنه سيُهْزَمُ؟

قال قتادة: فجاء تأويلها يوم بدر، وقيل: يوم فتح مكة.

وقال بعضهم: إن في الآية إشارة خفية إلى انهزام الأحزاب يوم غزوة الخندق.

ولفظ: ﴿جُنْدٌ﴾ خبر لمبتدأ محذوف، أي: هم جند.

ولفظ: ﴿مَاءٌ﴾ مزيدة للتحقير، أي: وسواء أكانوا قلة أم كثرة.

و﴿هُنَالِكَ﴾ إشارة إلى المكان البعيد، ولفظ: ﴿مِنْ﴾ للتبعيض.

أي: أنهم من جملة جند الأمم، لا وزن لهم بجانب قدرة الله تعالى، فلا تهتم بأمرهم، ولا تكثرث بجموعهم، ومهما تحزّبوا عليك فهم جند مغلوبون مهزومون أمام قوة المؤمنين في مواطن عديدة، وإن اعترى هذه القاعدة خلل فهو ظرف عابر؛ لتمحيص المؤمنين وابتلائهم حتى يأخذوا بأسباب النصر كاملة.

هَزِيمَةٌ مِّنْ تَحْزِبُوا عَلَى رُسُلِ اللَّهِ جَمِيعًا

١٢- ﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ ذُو الْأَوْدَادِ﴾ (١٧)

ويعد أن أشار سبحانه إلى هزيمة الأحزاب المكذبين لرسول الله ﷺ من المعاصرين له، أفضى جلّ شأنه إلى ضرب المثل، بستة من الأمم السابقة الذين كذبوا رسلهم، وهم: قوم نوح، وقوم عاد، وفرعون وجنده، وقوم ثمود، وقوم لوط، وأصحاب الأيكة، وذكر في نهايتهم قوله: ﴿أُولَئِكَ الْأَحْزَابُ﴾ كما قال تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِي ءَامَنَ يَقْوَمُ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ مِثْلَ يَوْمِ الْأَحْزَابِ﴾ (٣٠) مِثْلَ دَابِ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَالَّذِينَ مِن بَعْدِهِمْ [غافر: ٣٠، ٣١].

فالأحزاب المكذبة لرسول الله، المتآمرة على الفتك بدعوته، موجودة في كل أمة، وكما أن قريشاً من جملة الأجناد الذين تجمعوا أو تحزّبوا على رسول الله ﷺ فنصره الله عليهم، فقد سبقهم إلى ذلك أجناد كثيرون، تجمعوا وتحزّبوا على أنبيائهم، فقهرهم الله وأهلكهم، وهذه أمثلة ممن سبقوا قريشاً في التاريخ الغابر:

١- ﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ﴾ أي: كذب قبل كفار قريش أمم كثيرة، منهم: ﴿قَوْمُ نُوحٍ﴾ فأغرقهم الله بالطوفان.

٢- وقوم هود، وهم قبيلة عاد، فأهلكهم الله بالريح العقيم لما كذبوا نبيهم هودًا.

٣- ﴿وَفِرْعَوْنُ﴾ كذب موسى ﷺ، فأخذه الله وجنوده فأغرقهم في اليم.

وقد أسند الله تعالى التكذيب إلى فرعون دون قومه؛ لأن الله تعالى أرسل موسى إلى بني إسرائيل، فذهب إلى فرعون بأمر من الله تعالى ليخلص بني إسرائيل من قهره وظلمه، ويخرج بهم من أرض مصر، فكذب فرعون موسى، فأمره الله بمجادلته لإبطال كفره.

وقد وصف الله فرعون بأنه ﴿ذُو الْأَوْتَادِ﴾ أي: صاحب القوة والبطش والجنود الكثيرة، والمباني العظيمة، والمُلك الوطيد.

والأوتاد: جمع وتد، وهو ما يُدق في الأرض لتثبيت الشيء وتقويته.

قيل: إن فرعون كان يربط من يريد تعذيبه أو قتله بأربعة أوتاد في يديه ورجليه يشده فيها ويتركه حتى يموت.

وقيل: إن المراد بالأوتاد: المباني الثابتة العظيمة التي تقوم في الأرض كالأوتاد، وقد رجحه ابن عطية، وكانوا يُبْنَوْنَ بيوتهم بالأوتاد^(١) لترسيخ قواعد وأساس البنيان في الأرض.

وهذا القول يؤيده مطابقة التاريخ، فإن فرعون المعني في الآية، هو (منفتح الثاني) من ملوك العائلة التاسعة عشرة في ترتيب الأسر التي تداولت مُلك مصر، وهو الذي خرج بنو إسرائيل من مصر في زمنه، وكانت هذه العائلة مشتهرة بوفرة المباني التي بناها ملوكها من معابد ومقابر، وكانت مدة حكمهم مئة وأربعًا وسبعين سنة، من سنة ١٤٦٢ قبل الميلاد إلى سنة ١٢٨٨ قبل الميلاد.

وعلى هذا فيصح تأويل الأوتاد بأنها الأهرامات، وهي في عين الرائي كأنها الودت الضخم المغروز في الأرض، ولا يلزم أن يكون (منفتح الثاني) - وهو فرعون الذي كان

(١) يُنظَر: «تفسير الألوسي» (٢٣/ ١٧٠) والخازن (٤/ ٣١) و«زاد المسير»، وقد أورد فيها ستة أقوال (٧/ ١٠٥).

في زمن موسى - لا يلزم أن يكون هو الباني لها، بل كان يملكها ويفتخر بها^(١).

أما تمة الأقسام الستة الذين كذبوا رسل الله فقد ذكرهم الله تعالى في قوله:

١٣، ١٤ - ﴿وَتَمُودٌ وَقَوْمٌ لُوطٍ وَأَصْحَبُ لَيْكَةِ^(٢) أُولَئِكَ الْأَحْزَابُ^(٣)﴾ إِنَّ كُلَّ إِلَّا كَذَّبَ
الرُّسُلَ فَحَقَّ عِقَابِ ﴿١٤﴾

٤- أي: أن قوم تمود كذبوا نبيهم صالحاً ﴿فَأَخَذْتَهُمْ صَاعِقَةً الْعَذَابِ آهُونَ يَمَا كَانُوا
يَكْسِبُونَ﴾ [فصلت: ١٧].

٥- ﴿وَقَوْمٌ لُوطٍ﴾ كذبوا نبيهم لوطاً، فأمرهم الله بحجارة من سجيل، بعد أن جعل
أسفل قراهم عاليها.

٦- ﴿وَأَصْحَبُ لَيْكَةِ^(٣)﴾ وهي الشجر الكثير الملتف، وكانوا مجاورين لأهل مدين،
وهؤلاء وأولئك كذبوا نبيهم شعيباً ﴿فَأَخَذَهُمْ عَذَابٌ يَوْمِ الظُّلَّةِ إِنَّهُ كَانَ عَذَابٌ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾
[الشعراء: ١٨٩].

قال تعالى: ﴿فَكَلَّا أَخَذْنَا بِذُنُوبِهِ فَمِنْهُمْ مَن أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُمْ مَن أَخَذَتْهُ الصَّيْحَةُ
وَمِنْهُمْ مَن خَسَفْنَا بِهِ الْأَرْضَ وَمِنْهُمْ مَن أَغْرَقْنَا وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُظْلِمَهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا
أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ [العنكبوت: ١٥].

وهذه أمثلة من الأمم التي تحزبت على الكفر والتكذيب لرسل الله واجتمعت عليه
﴿أُولَئِكَ الْأَحْزَابُ﴾ وهم أمم لا تضاهيها أمم في القوة والشدة، كانوا أكثر من غيرهم
وأشد قوة، وأثاروا الأرض وعمروها أكثر مما عمرها غيرهم، ولما كفروا بالله وكذبوا
رسله، أخذهم الله بذنوبهم، وهو سبحانه قوي شديد العقاب، فاحذروا - أيها المكذبون
لرسل الخاتم - أن يصيبكم ما أصاب أسلافكم.

(١) يُنظر: «التحرير والتنوير» (٢٢١/٢٣) وتفسير الشيخ محمد عبده لسورة الفجر.

(٢) قرأ نافع وابن كثير وابن عامر وأبو جعفر (ليكة) على وزن ليلة، وقرأ الباقون (الأيكة).

(٣) رسمت (الأيكة) هنا وفي سورة الشعراء (١٧٦) بدون ألف ولام هكذا ﴿لَيْكَةِ﴾ ورسمت في سورة ق (١٤)
وسورة الحجر (٧٨) بألف ولام ﴿الْأَيْكَةِ﴾، وفي المواضع الأربعة يبدأ بهمزة مفتوحة بعدها لام ساكنة.

وما كل هؤلاء الطوائف والأحزاب، إلا كَذَّب كل منهم رسوله، وقد سجل الله عليهم هذا التكذيب بأساليب بلاغية متعددة، بالجملة الاسمية والفعلية، والتذكير والتأنيث، والحصص والقصر، ليرتب على ذلك نتيجة استحقاقهم لعقاب الله ﴿فَحَقَّ عِقَابِ﴾ أي: وجب عليهم العذاب واستحقوه بجدارة، هذا ما حل بالأمم السابقة، وليست هذه الأمة بأقوى منهم ولا أشد.

التَّهْدِيدُ وَالْوَعِيدُ لِمَنْ كَذَّبَ خَاتَمَ الْمُرْسَلِينَ

١٥- ﴿وَمَا يَنْظُرُ هَؤُلَاءِ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً مَّا لَهَا مِنْ فَوَاقٍ﴾ (١٥)

أي: وما ينتظر المكذبون لرسالة محمد ﷺ من لدن بعثته إلى قيام الساعة، إلا نفخة واحدة، ينفخها إسرافيل في الصور، وهي النفخة الثانية، فيقوم الخلائق من قبورهم للحساب والجزاء، وعندئذ يلقوا عاقبة كفرهم وتكذيبهم، إنها نفخة واحدة لا تتكرر ﴿فَإِذَا هُمْ مِنَ الْأَجْدَاثِ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يَنْسِلُونَ﴾ [يس: ٥١].

وهذه النفخة لا تتوقف، ولا تتأخر، ولا رجوع عنها، بل تكون مفاجئة سريعة الوقوع، لا تُشْتَى، فيتم بعدها كل شيء بلا انتظار.

والفواق بضم الفاء وفتحها: اسم لما بين حَلْبَتِي الناقة ورضعتي فصيلها، فالمدة بين الحلبتين أو الرضعتين تسمى (فواق الناقة).

والمعنى: أن قيام الساعة يأتي فوراً بعد هذه الصيحة التي يصيح بها إسرافيل دون إمهال، ولا بمقدار هذا الزمن اليسير، كما قال تعالى: ﴿مَا يَنْظُرُونَ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً تَأْخُذُهُمْ وَهُمْ يَخِصِّمُونَ﴾ (٤٩) ﴿فَلَا يَسْتَطِيعُونَ تَوْصِيَةً وَلَا إِلَىٰ أَهْلِهِمْ يَرْجِعُونَ﴾ (٥٠) [يس].

اِسْتِعْجَالُ الْمُكَذِّبِينَ نَزُولَ الْعَذَابِ بِهِمْ

١٦- ﴿وَقَالُوا رَبَّنَا عَجِّلْ لَنَا قِطْنَا قَبْلَ يَوْمِ الْحِسَابِ﴾ (١٦)

ثم إن المكذبين لرسول الله محمد ﷺ قد بلغ بهم التطاول والغرور متناه، حيث

(١) قرأ حمزة والكسائي وخلف بضم الفاء من (فواق) وهي لغة تميم وأسد وقيس، والباقون بفتحها وهي لغة أهل الحجاز، والفواق: الزمان بين حَلْبَتِي الحالب.

استهزؤوا بيوم الحساب، فطلبوا تعجيل نزوله بهم في الدنيا، بعد أن سمعوا أن عقابهم مؤجل إلى يوم القيامة في مثل قوله تعالى: ﴿وَسْتَغْلِبُونَكَ بِالْعَذَابِ وَلَنْ يُخْلِفَ اللَّهُ وَعْدَهُ وَإِنَّ يَوْمًا عِنْدَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ﴾ [الحج].

وممن قال بذلك النضر بن الحارث، وأبو جهل، وبسبب قولهما نزلت الآية. والقائل بتعجيل نزول العقاب أيضًا؛ هم المكذبون للبعث والحساب، في كل زمان ومكان، مِنْ كُلِّ مَنْ هَدَّاهُمُ الْقُرْآنَ، لكفرهم وجحودهم.

وقولهم هذا من باب السخرية وعدم الاكتراث، والاستخفاف بهذا الوعيد؛ لأنهم لا يؤمنون بالبعث، وهو الأصل الثالث من أصول الكفر.

وقولهم: ﴿يَوْمَ الْحِسَابِ﴾ من باب التهكم؛ لأنهم لا يؤمنون به أصلاً. **والقط:** هو النصيب، أي: عَجَّلْ لَنَا حَظَّنَا وقسطنا ونصيبنا من العذاب الموعود به، **والقط:** يطلق أيضًا على الكتاب، أي: كِتَابِ عَمَلِ الْإِنْسَانِ.

وقيل: إن المراد: عجل لنا نصيبنا من الجنة، إن كان هناك جنة، فهم ينكرونها ولا يؤمنون بها، وقد قالوا هذا على وجه الاستهزاء والاستبعاد، وقالوه أيضًا لما سمعوا قول الله تعالى: ﴿فَأَمَّا مَنْ أَوْفَىٰ كَتَبَهِ بِسَمِيْعَةٍ فَيَقُولُ هَٰؤُلَاءِ أَقْرَبُ وَكُنِيَ﴾ [الحاقة].

وقوله أيضًا: ﴿وَأَمَّا مَنْ أَوْفَىٰ كَتَبَهِ بِشَمَالِهِ فَيَقُولُ يَلْتَنِي لِمَ أُوْتِ كِتَابِي﴾ [الحاقة]. ولما قال المنكرون للبعث والنشور: إن كنت صادقاً - يا محمد - فعلامة صدقك أن تأتينا بالعذاب، أمره الله تعالى بالصبر:

الصَّبْرُ مِفْتَاحُ الْفَرْجِ

١٧ - ﴿أَصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَادْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُدَ ذَا الْأَيْدِ إِنَّهُ أَوَّابٌ﴾ [ص]

وبعد أن وصف أعداء الإسلام الرسول ﷺ بالسحر والكذب، فقالوا: ﴿هَٰذَا سِحْرٌ كَذَّابٌ﴾. وقالوا عن وحدانية الله تعالى: إِنَّ هَٰذَا لَشَيْءٌ عَجَابٌ.

وعجبوا أن يخص الله محمداً بالرسالة دونهم فقالوا: ﴿أَنزَلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ مِنْ بَيْنِنَا﴾.

وسخروا من وعيد الله لهم إن لم يؤمنوا، فقالوا: ﴿رَبَّنَا عَجِّلْ لَنَا فِطْنًا﴾ في الدنيا.

بعد ذلك كله، يأمر الله تعالى رسوله ﷺ بالصبر على أذى هؤلاء الجاحدين المعاندين، فيقول تعالى له: اصبر - أيها الرسول - على ما قاله المكذبون لك في الماضي، وما يقولونه لك في الحاضر المعاصر، من أنك ساحر أو مجنون أو شاعر أو كاهن، وما سوف يقولونه عن دعوتك في المستقبل، اصبر على باطلهم وأقوالهم الكاذبة، كما صبر إخوانك من الرسل قبلك، فإن الله ناصرهم عليهم، ومُظْهِر دينك على الدين كله ولو كره المشركون الكافرون، وما قالوه لا يضر الحق شيئاً، ولن يضروك في شيء، وإنما يضررون أنفسهم.

وفي هذا إشارة إلى رفعة شأن النبي ﷺ فوق جميع من سبقه من الرسل.

مِنْ قِصَصِ الْأَنْبِيَاءِ فِي السُّورَةِ: قِصَّةُ نَبِيِّ اللَّهِ دَاوُدَ عَلَيْهِ السَّلَامُ

التَّعْرِيفُ بِدَاوُدَ عَلَيْهِ السَّلَامُ:

وداود عليه السلام هو ابن يسي، من سبط يهوذا بن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم عليه السلام.

كانت ولادته في القرن الحادي عشر قبل الميلاد، وكان من جند طالوت ملك بني إسرائيل، وقد نصره الله على جالوت، ملك فلسطين وهو صبي، وكان قد استنصر بالتأبوت الذي فيه التوراة، وكان ذلك عند (أشدود قرب غزة) وقد جمع الله له بين النبوة والملك، وقد توسع ملكه حتى بلغ من العقبة إلى نهر الفرات، فأعطاه الله مُلْكًا وسلطانًا لم يكن لأحد من آبائه.

ودام مُلْكُ داود أربعين سنة، ومات وعمره سبعون سنة، وكان ذلك سنة (٩٦٣) قبل الميلاد، وقبره فوق جبل على يمين الذهاب من بيت المقدس إلى الرملة بعد أبي غوش،^(١) وقد ورد ذكره في القرآن ست عشرة مرة.

ولما ذكر الله تعالى قوم: نوح، وعاد، وفرعون، وشمود، وقوم لوط، وأصحاب الأيكة، وهم قوم طُغَاة بُغَاة، كان مظهر قوتهم الطغيان والبغي والتكذيب، أعقب ذلك بيان ما حدث لأنبياء الله، فصبروا حتى فرَّج الله عنهم، وحَسُنَتْ عاقبتهم، وفي ذلك

(١) ينظر: أطلس القرآن، د/ شوقي أبو خليل.

عبرة للنبي ﷺ حتى يتأسى بهم في الصبر على أذى قومه، والمضي في طريق الدعوة بقوة وحزم، وقد أمر الله رسوله بالصبر على قومه، وأمره أن يستعين على الصبر بالعبادة، ويتذكر حال العابدين، كما قال تعالى ﴿فَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا﴾ [طه: ١٣٠].

ومن هؤلاء الأنبياء: نبي الله داود عليه السلام، فقد كان ذا قوة، ولكن هذه القوة لا يصحبها الطغيان والبغي.

وإنما كان عبداً أو ابناً تواباً عابداً ذاكراً، وهو صاحب قوة وسلطان.

عن عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال: «إن أحب الصيام إلى الله تعالى صيام داود، كان يصوم يوماً ويفطر يوماً، وأحب الصلاة إلى الله تعالى صلاة داود، كان ينام نصف الليل ويقوم ثلثه وينام سدسه»^(١).

فكان داود قوياً في عبادته، قوياً في ملكه وسلطانه.

﴿وَأَذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُودَ﴾ النبي الشاكر الصابر ﴿ذَا الْأَيْدِ﴾ أي: صاحب القوة العظيمة في بدنه وقلبه، والقوة على أعداء الله، والصبر على طاعته، فقد كان يصوم يوماً ويفطر يوماً، وكان يقوم نصف الليل، وكان يأكل من عمل يده.

قال أبو الدرداء: كان النبي ﷺ إذا ذكر داود وحديث عنه قال: «كان أعبد البشر»^(٢).

وجاء عن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما أنه لا ينبغي لأحد أن يقول: أنا أعبد من داود^(٣).

وكان داود عليه السلام إذا قام من الليل يقول: اللهم نامت العيون، وغارت النجوم، وأنت الحي القيوم، الذي لا تأخذه سنة ولا نوم^(٤).

(١) يُنظر: «صحيح مسلم» برقم (١١٥٩) والبخاري برقم (١١٣١).

(٢) أخرجه البخاري في تاريخه (٨٩/١)، (٢٩٩/٥) والحاكم (٤٣٣/٢) وقال: صحيح الإسناد ولم يخرجاه، ووافقه الذهبي.

(٣) أخرجه الديلمي مرفوعاً (٧٧٤٩).

(٤) أخرجه أحمد عن سعيد بن أبي هلال في «الزهد» كما في «الدر المنثور» (٥١٣/١٢)، قال الألباني: ضعيف جداً السلسلة الضعيفة برقم (١٣٢٨) ج ٣ ص (٤٩٦).

وكان داود عليه السلام يأكل من عمل يده، فربُّما صنع القُفَّةَ من الخوص ثم يرسل بها إلى السوق، فيبيعُها، ثم يأكل من ثمنها^(١).

وقد وصف الله داود بقوله: ﴿إِنَّهُ أَوَّابٌ﴾ أي: كثير الرجوع إلى ما يرضي الله تعالى، كثير التضرع والدعاء، كثير الإنابة والخوف والرجاء، ومن شدة إنابته أن سخر الله له الجبال تسبح معه بالعشى والإشراق، وقد أعطى الله داود قوة نادرة وشجاعة وإقدامًا، فكان يرمي الحجر بالمقلاع، فلا يخطئ الرميَّةَ، وكان يُلوي الحديد بأصابعه ليصنعه سردًا للدروع، وهي قوة محمودة، استعملها في نصر دين الله تعالى.

ثَلَاثُ قَضَايَا عَنْ نَبِيِّ اللَّهِ دَاوُدَ عليه السلام:

والحديث عن داود عليه السلام في هذه السورة يتناول قضايًا ثلاث هي: ذكر خصائصه وفضائله، وقصة اللذين تسوَّرا المحراب، واستخلافه في الأرض.

القَضِيَّةُ الْأُولَى: خَمْسٌ مِنْ خَصَائِصِ دَاوُدَ عليه السلام وَفَضَائِلِهِ

١٨- ﴿إِنَّا سَخَرْنَا الْجِبَالَ مَعَهُ يُسَبِّحْنَ بِالْعَشِيِّ وَالْإِشْرَاقِ﴾^(٢)

في هذه الآية والآيات الثلاث بعدها خمس من الفضائل والخصائص خص الله تعالى بها نبيه داود عليه السلام، وهي:

- ١- تسييح الجبال بتسييحه.
 - ٢- جمع الطيور له وترجيع التسييح معه.
 - ٣- إعطاؤه ملكًا ثابتًا قويًا.
 - ٤- إنزال الزبور عليه ينطق بما فيه من حكمة.
 - ٥- إعطاؤه فصل الخطاب في القضاء بين الخصوم.
- فهذه خمس خصائص من فضائل الله عليه.

(١) أخرجه أحمد في «الزهد» ص ٧٣ عن عروة بن الزبير.

(٢) قرأ الأزرق بترقيق الراء بخلف عنه من (والإشراق)؛ لأن حرف الاستعلاء مكسور.

الخاصية الأولى: تسبيح الجبال معه

جاء هذا في قوله تعالى: ﴿إِنَّا سَخَرْنَا الْجِبَالَ مَعَهُ﴾ أي: مع داود ﴿يُسَبِّحُنَّ﴾ بتسبيحه ﴿بِالْعَشِيِّ وَالْإِشْرَاقِ﴾ أي أول النهار وآخره، وهذا من فضل الله تعالى ونعمه على داود عليه السلام. ووقت العشي: من الزوال إلى الغروب أو إلى الصباح.

ووقت الإشراق: حين تشرق الشمس ويسطع ضوءها، سيما وقت الضحى، وهو يختلف عن وقت الشروق الذي هو وقت طلوع الشمس قبل الإشراق. قال تعالى:

﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُدَ مِنَّا فَضْلًا يَجِبَالٌ أَوِيٌّ مَعَهُ وَالطَّيْرُ﴾ [سبأ: ١٠]

والتسبيح في الأصل: هو قول (سُبْحَنَ اللَّهُ) ثم أُطلق على مختلف الأذكار، وأُطلق أيضاً على الصلاة.

وتسبيح الجبال تسبيح حقيقي، بكيفية لا يعلمها إلا الله، قال تعالى: ﴿يُسَبِّحُ لَهُ السَّمَوَاتُ السَّبْعُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِنْ لَا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ إِنَّهُمْ كَانُوا حَلِيمًا غَفُورًا﴾ [الإسراء: ٤٤].

وقال جل شأنه: ﴿يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ الْمَلِكُ الْقُدُّوسُ الْغَنِيُّ الْحَكِيمُ﴾ [الجمعة].

وهو تسبيح بلسان المقال في الصباح والمساء مع داود عليه السلام، أما تسبيح الجبال بلسان الحال فهو دائم في كل وقت.

وقد أعطى الله داود (الزبور) المسمى عند اليهود بالمزامير، وهو يشتمل على الاستغفار والمناجاة والتسبيح.

وأعطاه صوتاً حسناً، فكان يردد التسبيح والمناجاة، وكانت الجبال والطيور تردد التسبيح معه معجزة له.

صلاة الضحى:

١- عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: كنت أمرُ بهذه الآية لا أدري ما هي؟ حتى حدثني أم هانئ بنت أبي طالب، أن رسول الله ﷺ دخل عليها، فدعا بوضوء فتوضأ، ثم صلى الضحى،

فقال: «يا أم هانئ، هذه صلاة الإشراف»^(١).

فعلم من هذا أن ذكر الله تعالى يكون في صلاة الضحى، وأنها تسمى صلاة الإشراف.

٢- وفي حديث أم هانئ قالت: ذهبتُ إلى رسول الله ﷺ عام الفتح، فوجدته يغتسل، وفاطمة بنته تستره بثوب، فسَلَّمْتُ عليه، فقال: «من هذه؟» قلت: أنا أم هانئ بنت أبي طالب، فقال: «مرحبا يا أم هانئ»، فلما فرغ من غسله قام وصَلَّى ثمان ركعات، مُلتَحِفًا بثوب، قالت أم هانئ: وذلك ضحى^(٢).

أي: وقت الضحى الذي كان داود عليه السلام يسبح الله فيه، والطير والجمال تسبح معه.

٣- وفي الصحيحين: عن عبد الرحمن بن أبي ليلى قال: ما حدثنا أحد، أنه رأى النبي ﷺ يصلي الضحى، غير أم هانئ، فإنها قالت: إن النبي ﷺ دخل بيتها يوم فتح مكة، فاغتسل وصَلَّى ثمان ركعات، فلم أر صلاة قط أخف منها، غير أنه يتم الركوع والسجود^(٣).

٤- وعن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «لا يحافظ على صلاة الضحى إلا أَوَّاب».

قال: «وهي صلاة الأوابين»^(٤).

٥- وفي حديث زيد بن أرقم رضي الله عنه: أن النبي ﷺ خرج على أهل قُباء وهم يصلون الضحى، وفي لفظ: وهم يصلون بعد طلوع الشمس، فقال: «صلاة الأوابين إذا رمضت الفصال»^(٥).

٦- وعن عبد الله بن الحارث قال: سألتُ عن صلاة الضحى في إمارة عثمان بن عفان رضي الله عنه، وأصحاب رسول الله ﷺ متوافرون، فلم أجد أحدا أثبت لي صلاة رسول الله ﷺ

(١) أخرجه البغوي بإسناد الثعلبي عن ابن عباس، وانظر: «تفسير الطبري» (٨٧/٢٣) وأخرجه الطبراني في

«الأوسط» (٤٢٤٦) قال الهيثمي: فيه أبو بكر الهذلي وهو ضعيف «مجمع الزوائد» (٩٩/٧)

قلت: الحديث صحيح عند أحمد عن عبد الله بن الحارث، كما سيأتي في الحديث السادس.

(٢) «صحيح مسلم» برقم (٣٣٦).

(٣) «صحيح مسلم» برقم (٣٣٦) و«صحيح البخاري» برقم (١١٠٣، ١١٧٦).

(٤) أخرجه البخاري في التاريخ (٣٦٦/١) والحاكم (٣١٤/١) والطبراني في «الأوسط» (٣٨٦٥) وصححه

الألباني في «السلسلة الصحيحة» (٧٠٣، ١٩٩٤).

(٥) مسلم (٧٤٨) والطبراني (٥١٠٨، ٥١٠٩) وابن أبي شيبة (٤٠٦/٢).

إلا أم هانئ، قالت: رأيت رسول الله ﷺ صلاها مرة واحدة ثمان ركعات يوم الفتح في ثوب واحد، مخالفاً بين طرفيه، لم أره صلاها قبلها ولا بعدها، فذكرت ذلك لابن عباس فقال: إني كنت لأمرُّ على هذه الآية ﴿سَيَخَنَ بِالْعَشِيِّ وَالْإِشْرَاقِ﴾ فأقول: أي صلاة، صلاة الإشراق؟ فهذه صلاة الإشراق^(١).

٧- وفي حديث أبي هريرة ؓ قال: أوصاني خليلي بثلاث، لا أدعُهنَّ حتى أموت: صوم ثلاثة أيام من كل شهر، وصلاة الضحى، ونوم على وتر^(٢).

٨- وسئلت عائشة ؓ: كم كان رسول الله ﷺ يصلي صلاة الضحى؟ قالت: أربع ركعات، ويزيد ما شاء^(٣).

الْخَاصِيَّةُ الثَّانِيَّةُ: جَمْعُ الطَّيُورِ لِدَاوُدَ وَتَرْجِيعُ التَّسْبِيحِ مَعَهُ

١٩- ﴿وَالطَّيْرَ مَحْشُورَةً كُلٌّ لَهُ أَوَّابٌ﴾

بَيَّنَّ سبحانه أن الطيور تتجمع حول داود ؑ وهو سابح في الهواء لتسمع تسبيحه وأناشيده فترجع معه الزبور وهو يترنم بقراءته، فكان يقف في الهواء، وترجع الطير بترجيعه وتسبح بتسبيحه.

قال تعالى: ﴿وَالطَّيْرَ مَحْشُورَةً﴾ أي: وسخرنا لداود الطير مجموعة حوله ﴿كُلٌّ لَهُ أَوَّابٌ﴾ أي: كل واحد من الجبال والطيور تسبح لتسبح داود.

قال ابن عباس ؓ: كان إذا سبح جاوبته الجبال بالتسبيح، واجتمعت إليه الطير فسبحت، فذلك حشرها^(٤).

(١) جاءت أحاديث كثيرة بهذا المعنى في المسند وغيره عن أم هانئ، ينظر مسند أحمد (٤٤/٤٧٣)، (٤٥/٣٨٦) (٢٦٩٠١، ٢٧٣٩١، ٢٧٣٩٢، ٢٦٨٩٦، ٢٧٣٨٨) وهي أحاديث صحيحة بأسانيد صحيحة ورجال ثقات، وقولها: (فذكرت ذلك لابن عباس...) لم ترد في معظم الأحاديث. (محققه).

(٢) «صحيح البخاري» (١١٧٨) و«صحيح مسلم» (٧٣١).

(٣) «صحيح مسلم» (٧١٩).

(٤) من «تفسير النسفي» للآية.

الْخَاصِيَّةُ الثَّالِثَةُ: الْمَلِكُ الْقَوِيُّ

٢٠- ﴿وَشَدَدْنَا مُلْكُهُ وَأَيَّنَتْنَا الْحِكْمَةَ وَفَصَّلَ^(١) الْخِطَابَ ﴿٢٠﴾﴾

أي: أن الله تعالى قوى ملك داود وثبته، وجعله سائلاً من غلبة الأعداء، ومن قيام ثورات عليه، مدة ملكه الذي استمر أربعين عاماً ﴿وَشَدَدْنَا مُلْكُهُ﴾ أي: قوينا ملكه بكثرة حُرَّاسه وجنوده، وبما منحناه من الهيبة والنصر، والقوة المادية والمعنوية، وما أعطيناه من الأسباب وكثرة العدد والعدد.

روى ابن جرير بسنده عن عكرمة عن ابن عباس ؓ: أن نفرًا من بني إسرائيل اغتصب بقرًا من نفر آخر، فاشتكاه عند داود، ولم يكن له بينة على دعواه، فأنكر ذلك المدعى عليه، فأرجأهما داود ؑ، فرأى في منامه أن يقتل المدعي، فلما عزم على ذلك قال: يا نبي الله، علام تقتلني وهذا قد اغتصب بقرتي؟ قال: إن الله تعالى أمرني بقتلك، وإني قاتلك لا محالة، قال: يا نبي الله، إن الله لم يأمرك بقتلي من أجل هذا الذي اغتصب بقرتي، فأنا صادق فيما ادعيت، ولكني كنت قد اغتلت أباه وقتلته ولم يشعر بذلك أحد، فأمر داود به فقتل^(٢) فاشتدت هيبة داود عند بني إسرائيل وتوطد ملكه.

الْخَاصِيَّةُ الرَّابِعَةُ: الْحِكْمَةُ وَالنُّبُوَّةُ

أي: أن الله تعالى قد أعطى داود ؑ النبوة، وجعله يشوس ملكه بالحكمة والحزم جميعاً، كما قال تعالى: ﴿وَأَيَّنَتْنَا الْحِكْمَةَ﴾ أي: أن الله تعالى أعطاه النبوة والفهم والإصابة في الأمور، فقد اشتمل الزبور على حكم جمّة، وكان داود عالماً بها عاملاً بما فيها، وكان واسع العلم، صالح العمل، حسن المنطق بمقتضى الوحي الإلهي.

الْخَاصِيَّةُ الْخَامِسَةُ: فَصْلُ الْخِطَابِ

أي: أن الله تعالى أعطى داود ؑ الكلام البليغ الفاصل بين الحق والباطل، وبين الصواب والخطأ، ومنحه سداد الرأي، وفصاحة القول بلا تردد ولا تراجع، ومنحه

(١) قرأ الأزرق بتعليق اللام وصلًا من (وفصل).

(٢) «تفسير الطبري» (٢٣/٨٨) بتصرف.

الفصل القاطع الجازم في الحكم بين الناس بالعدل والحزم، وهذا هو معنى ﴿وَفَصَّلَ الْكُتَابَ﴾ وورد فيها أقوال مأثورة، منها:

ما ورد عن أبي موسى رضي الله عنه أنه قال: أول من قال: (أَمَّا بعدُ) داود عليه السلام، وهو فصل الخطاب^(١) وكذلك قال الشعبي: فصل الخطاب: أَمَّا بعد^(٢).

وقال علي بن أبي طالب رضي الله عنه: هو البينة على المدعي واليمين على من أنكر؛ لأن كلام الخصوم ينقطع وينفصل به، وقيل غير ذلك^(٣).

والمتأمل في الآيات الأربع الأخيرة يجد أن الله تعالى قد وصف نبيه داود عليه السلام بعشر صفات وأمر نبيه ﷺ بالاقتداء به، وهذه الصفات العشر هي:

- ١- التحلي بالصبر.
- ٢- ووضفهُ بالعبودية.
- ٣- والقوة في العبادة والحرب.
- ٤- كثرة التوبة والرجوع إلى الله تعالى.
- ٥- تسخير الجبال له حالة كونها تسبح بحمد الله معه.
- ٦- ترديد التسبيح في صلاتي العشاء والضحى.
- ٧- تسخير الطير مجموعة له ترجع التسبيح معه.
- ٨- قوَى الله ملكه ماديًا وأدبيًا.
- ٩- آتاه الله النبوة والحكمة.
- ١٠- أرشده الله إلى سداد الرأي وإصابة الغرض، والعدل في الحكم.

(١) ابن أبي حاتم كما في «تفسير ابن كثير» (٥١/٧).

(٢) عن زياد بن أبي سفيان، ابن أبي شيبة (٢٣٢/٧) وابن سعد (١٠٠/٧) قال ابن عاشور في تفسيره بعد أن نسب ذلك إلى أبي الأسود الدؤلي: ولا أحسب هذا صحيحًا؛ لأنها كلمة عربية، ولم يعرف في كتاب داود أنه قال ما هو بمعناها بالعبرية (٢٣٥/١١).

(٣) يُنظر: «تفسير الخازن» و(ابن الجوزي) و(ابن كثير) وغيرهم للآية.

هذه هي الفضائل التي منحها الله لداود عليه السلام، وهي مما جاء ذكره في هذه السورة.
 هذا: وقد أعطى الله محمداً عليه السلام من كل ما أعطي داود عليه السلام، فقد كان محمد عليه السلام كثير الرجوع إلى ربه، يستغفر الله تعالى في اليوم الواحد أكثر من سبعين مرة، مع أن الله تعالى قد غفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر، وذلل الله له جبل حراء وثور وأحد، حتى إنه عليه السلام قال: «أُحَدِّثُ جِبِلَّ يَحْبِنَا وَنَحْبُهُ»^(١).

وحنَّ الجذع إليه، وسبَّح الحصى في كفه، وكثُر الطعام بين يديه، واشتكى الجمل إليه أذى صاحبه، وأوتي جوامع الكلم، وكفاه الله شر أعدائه... إلخ.

الْقِصَّةُ الثَّانِيَّةُ: قِصَّةُ الَّذِينَ تَسَوَّرُوا الْمِحْرَابَ

٢١- ﴿وَهَلْ أَتَاكَ نَبَأُ الْخَصْمِ إِذْ تَسَوَّرُوا الْمِحْرَابَ﴾^(٢)

هل أتاك - أيها المخاطب - خبر خصمين اختصما إلى داود عليه السلام، في قضية لهما، جعلها الله فتنه له كي يستدل بها على غيرها، لأنه حَكَمَ فيها قبل أن يستمع إلى الخصم الآخر، فتاب الله عليه وغفر له.

ومع أن الله تعالى أثنى على داود عليه السلام وامتدحه بهذه الفضائل الجمَّة، فقد تعرض للفتنة والابتلاء، وكان داود عليه السلام قد جعل وقته أثلاثاً: يوماً يَقْضِي فيه بين الناس، ويوماً يخلو فيه لعبادة ربه، ويوماً لِبَيْتِهِ وأشغاله، فكان يجد فيما يقرأ فضل إبراهيم وإسحاق ويعقوب ومنزلتهم عند الله تعالى، فقال: يا رب، أرى الخير قد ذهب به آبائي؟ فأوحى الله إليه أنهم ابْتُلُوا ببلايا لم تُبْتَلْ بها، فصبروا عليها، فقال: يارب لو ابْتَلَيْتَنِي بمثل ما ابْتَلَيْتَهُمْ به لصبرتُ أيضاً، فأوحى الله إليه: إنك مبتلى في شهر كذا في يوم كذا، فاحترس، فلما كان اليوم الذي وعده الله به دخل محرابه، وأغلق بابه، وأخذ يصلي ويقرأ الزبور^(٣).

(١) من حديث أبي هريرة في البخاري (٣٣٦٧) ومسلم (١٣٦٥) و«المسند» (٨٤٥٠)، وعن أنس (١٢٥١٠)، (١٣٥٤٨) حديث صحيح وإسناد جيد، أخرجه مالك في الموطأ (٨٨٩/٢) وعند عبد الرزاق (١٧١٧٠).

(٢) أمال ابن ذكوان راء (المحراب) بخلف عنه.

(٣) يُنْظَرُ: «تفسير الطبري» (١٤٦/٢٣) وما بعدها و«تفسير الخازن» (٣٣/٤) و«زاد المسير» (١١٣/٧) وغيرها.

قال السُّدِّي: كان داود قد قَسَمَ دهره، يوماً يقضي فيه بين الناس، ويوماً لعبادته، ويوماً لشأن نفسه، ففتن يوم خلوته للعبادة لَمَّا تمنى أن يُعطى مثل فضل إبراهيم وإسحاق ويعقوب، والتزم أن يُمتحن كما امتُحنوا^(١).

وبينما هو يتعبد إذ تسوّر عليه محرابه رجلاً تسَلَّقاً عليه عُرفته، ففرع داود؛ لأنهما لم يدخلوا من الباب، ولأنهما أتوه في وقت عبادته، وأتوه في غير الوقت المحدد للحكم بين الناس.

قال ابن عطية: ولا خلاف بين أهل التأويل أنهما كانا ملائكة بعثهما الله لضرب المثل لداود عليه السلام، فاختصما إليه في نازلة قد وقع هو في مثلها.

قال: فرُوي أنه جلس في ملأ من بني إسرائيل، فأعجب بعمله، وظهر منه ما يقتضي أنه لا يخاف على نفسه فتنة.

وشأن الإنسان أن يضطرب عندما يعرض له مكروهاً، والنبي قد يفزع من توقع الخطر خشية الهلاك، فقد كان العباس يحرس النبي ﷺ حتى أنزل الله تعالى ﴿وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ﴾ [المائدة: ٦٧] فتركت الحراسة.

وكان النبي ﷺ قد أصابه الأرق ذات ليلة فقال: «ليت رجلاً صالحاً من أصحابي يحرسني الليلة»^(٢)، فسمع النبي ﷺ صوت سلاح، فقال: «من هذا؟» قال سعد بن أبي وقاص: جئت لأحرسك، فنام النبي ﷺ حتى سُمع غطيته.

والفزع أعم من الخوف، والله تعالى يؤمّن عباده الصالحين من الفزع الأكبر يوم القيامة، كما قال تعالى: ﴿لَا يَحْزَنُهُمُ الْفَزَعُ الْأَكْبَرُ﴾ [الأنبياء: ١٠٣].

أما في الدنيا فإن الله تعالى لم يؤمّن أنبياءه من القتل والأذى، فقد قُتل بعضهم، وأُودي أكثرهم، وقد خاف موسى وهارون عليهما السلام من لقاء فرعون، فأمنّهما الله تعالى منه ﴿قَالَ لَا تَخَفَا إِنِّي مَعَكُمْ أَتَمَّ وَأَرَى﴾ [طه].

(١) يُنظر: «تفسير ابن عطية» (٤/٤٩٨).

(٢) من حديث عائشة في صحيح البخاري برقم (٢٨٨٥، ٧٢٣١) وفي الأدب المفرد (٨٧٨) ومسلم (٢٤١٠) والترمذي (٣٧٥٦) والنسائي في الكبرى (٨٢١٧) وأبو يعلى (٤٨٥٦) ومسنّد أحمد (٢٥٠٩٣) بإسناد صحيح على شرط الشيخين.

ولما اعتري داود الفزع من تسوّر الرجلين عليه محرابه المغلق، بادراه بالطمأنينة وأخبراه أنهما جاءا للتقاضي أمامه، وليس لاغتياله أو نحو ذلك، وعرض أحدهما قضيته، وبمجرد سماعها حَكَمَ له داود قبل أن يستمع إلى الطرف الآخر، ولم يطلب منه ردًّا ولا بيانًا، ولم يسمع له حجة.

والله تعالى يوجّه الخطاب إلى الرسول الخاتم ليُبين للخلق ما اتّهم به اليهود نبي الله داود ﷺ بالقتل والزنى، زاعمين أنه تأمر على قتل (أوريا) -أحد قواده- ليتزوج امرأته بعد اغتياله؛ كي يتبيّن للعالمين أن قرآن محمد ﷺ هو الذي أنصف داود ﷺ، ونفى عنه ما ألصقه به اليهود، كما فعلوا مع غيره من رسل الله، وليثبت أن الأنبياء الملوك ليسوا ممن أذهبوا طيبتهم في الحياة الدنيا واستمتعوا بها، بل إنهم بذلوا أنفسهم وما يملكون في سبيل مرضاة الله.

لقد كان داود من الأغنياء الشاكرين، وكان أعبد الناس، فعن عمرو بن العاص ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: «أحب الصيام إلى الله صيام داود؛ كان يصوم يومًا ويفطر يومًا، وأحب الصلاة إلى الله صلاة داود؛ كان ينام نصف الليل، ويقوم ثلثه، وينام سدسه»^(١).

وكان داود أوّابًا، كثير التوبة والرجوع إلى الله تعالى، وكان ﷺ يأكل من عمل يده.

ففي الحديث: عن المقداد ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: «ما أكل أحد طعامًا قط خير من أن يأكل من عمل يده، وإن نبي الله داود كان يأكل من عمل يده»^(٢).

وقد أثنى عليه ربه قبل القصة وبعدها، بما يفيد عدم وقوع ذم بين المدّحّين، وإن هذه الحادثة لا تُنقص شيئًا من فضل داود ﷺ؛ وذلك لأن مقام النبوة أشرف المقامات وأعلاها، فهم مطالبون بأكمل الأوصاف وأسنائها، فإن حدث منهم ما هو من طبع البشر عاتبهم الله على ذلك وغفر لهم.

ومعنى الآية: وهل وصل إلى علمك -يا رسولنا- خبر المتخاصمين اللّذين تسوّرا على داود مكان عبادته، فارتاع من دخولهما عليه؛ لأن ذلك كان دون إذن منه، ودون علم

(١) «صحيح البخاري» برقم (١١٣١، ٣٤٢٠) و«صحيح مسلم» برقم (١١٥٩).

(٢) «صحيح البخاري» برقم (٢٠٧٢، ٢٠٧٣) وانظر: (٣٤١٧، ٤٧١٣).

بقدمهما، إن كان خبر هذين المتخاصمين لم يصل إلى علمك -أيها الرسول- فهذا نحن نقصه عليك.

قال السُّدِّيُّ والحسن ووهب بن منبه: كانا ملكين أرسلهما الله تعالى إلى داود في صورة رجلين لإبلاغ المثل إليه^(١).

وقيل: كانا أخوين شقيقين من بني إسرائيل ألهمهما الله هذه الخصومة لدى داود^(٢).

والاستفهام في أول الآية للتعجب وتشويق السامع إلى ما يُلقَى إليه.

و(الْخَصْم) من الاختصاص والمجادلة، وهو لفظ يطلق على الواحد فأكثر.

و(المحراب) هو المكان الذي كان يجلس فيه داود ﷺ للتعبد وذكر الله تعالى.

قال تعالى مبيِّنًا ما كان من الخصوم:

٢٢- ﴿إِذْ دَخَلُوا عَلَى دَاوُدَ فَفَزِعَ مِنْهُمْ قَالُوا لَا تَخَفْ خَصِمَانِ بَعَى بَعْضُنَا عَلَى بَعْضٍ فَأَخْرَجَ بَيْنَنَا بِالْحَقِّ وَلَا تُشِطُّ وَاهِدِنَا إِلَى سَوَاءِ الْفَصْرِ^(٣)﴾

أي: واذكر - أيها المخاطب - حين دخل الخصمان على داود ﷺ من أعلى السور، ففزع واضطرب منهما، لأنهما تسوّرا عليه المحراب، ولأنهما جاءا في غير وقت القضاء، وأحسن داود بشيء ينبغي عليه أن يتخلص منه، فطمأناه قائلين: لا تخف فنحن أخوان، ظلّم أحدهما الآخر وجئنا للتقاضي لديك فاقض بيننا بالعدل، ولا تجر علينا في الحكم، وأرشدنا إلى طريق الحق، ولم يعين المدعي الباغي تأدبًا مع الحاكم، ويمضي الخصم قائلًا:

هَلِ النَّعْجَةُ تُفَسِّرُ بِالْمَرْأَةِ؟

٢٣- ﴿إِنَّ هَذَا أَخِي لَهُ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ نَعْجَةً وَلِيَ^(٤) نَعْجَةً وَاحِدَةً فَقَالَ أَكْفَلْنِيهَا وَعَزَّنِي فِي الْخِطَابِ﴾

(١) ورواه الطبري عن أنس بسند فيه مقال.

(٢) يُنْظَرُ: «تفسير ابن عاشور» (٢٣٧/٢٣) و«تفسير ابن الجوزي» (١١٨/٧١) و«تفسير الشوكاني» (٤١١/٤).

(٣) قرأ قبل ورويس بالسين في (الصراط) وقرأ حمزة عن خلف بإشمام الصاد صوت الزاي، والباقون بالصاد الخالصة.

(٤) قرأ حفص بفتح الياء من (ولي نعجة)، والباقون بإسكانها.

أخذ الخصمان في شرح قضيتهما، قال أحدهما: ﴿إِنَّ هَذَا أَخِي﴾ في النسب والدين والصُّحْبَة، يملك تسعاً وتسعين نعجة، وهي أنثى الضأن، وتُطْلَق النعجة على أنثى البقر، والعرب تُكْنِي عن المرأة بالنعجة، وتُسَبَّه النساء بالنعاج من البقر^(١). وقال ابن قتيبة: ورى عن ذكر النساء بذكر النعاج^(٢).

قلت: ولا يلزم من هذا أن يكون المراد بالنعجة في الآية: المرأة؛ لأن المراد ضرب المثل وتقريب المعنى للمخاطب، والأصل في الكلام هو الحقيقة، والنعجة هي الأنثى من الضأن وليست المرأة.

قال الخصم: وأنا أملك نعجة واحدة فقط، ومع هذا فقد طمع أخي في هذه النعجة، وقال: أعطني إياها واجعلها تحت كفالتي، وهذا معنى ﴿فَقَالَ أَكْفَلْنِيهَا﴾ أي: مَلَكْنِي إياها وتنازل لي عنها، قال المدعي: ﴿وَعَزَّيْ فِي الْخِطَابِ﴾ أي: وغلبنني في المحاجة والمجادلة، واشتد عليّ؛ لأنه أقوى وأفصح مني، ولما رأى مني تمنعاً أغلظ عليّ في القول، فأردت أن أحافظ على صلة القرابة بيننا، فشكوتُهُ إليك لتصدّه عن مجافاتي والتطاؤل عليّ، وأنا أطلب الإنصاف في معاملة القرابة؛ لئلا يقطع الخلاف ما بيننا من أواصر المحبة.

وذهب أبو حيان إلى أن القصة حقيقية وقعت بين اثنين من الناس في شأن غنم لهما، وأن اللذين تسوّرا المحراب من الإنس، وأنهما قد دخلا عليه من غير المدخل وفي غير وقت جلوسه للحكم^(٣).

قلت: هذا كلام يتفق مع ظاهر الآية

حُكْمُ دَاوُدَ فِي الْقَضِيَّةِ

٢٤- ﴿قَالَ لَقَدْ ظَلَمَكَ إِسْوَإِلٌ^(٤) نَعِمَكَ إِلَ يَاجِجٌ وَإِنَّ كَبِيرًا مِّنَ الْخُلَطَاءِ لَيَبْغِي بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ إِلَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَقَلِيلٌ مَّا هُمْ وَظَنَّ دَاوُدُ أَنَّمَا فَتَنَّاهُ فَاسْتَغْفَرَ رَبَّهُ وَخَرَّ رَاكِعًا وَأَنَابَ﴾

(١) يُنْظَرُ: «فتح القدير» للشوكاني (٤/٤١١).

(٢) «زاد المسير» (٧/١١٩) واستشهد على ذلك بيت من الشعر قاله عترة يُعرض بجارية.

(٣) انظر: «البحر المحيط» (٧/٢٩٣).

(٤) قرأ ورش بثلاثة وجوه المد في (بسؤال) ووقف عليها حمزة بالواو الخالصة.

وأمام هذه القضية واضحة المعالم، وأمام سكوت المدعى عليه وعدم اعتراضه على كلام المدعي - حَكَمَ داود بأن سؤال الأخ أخاه نفعته ظُلْمٌ؛ لأنه في غنى عنها، ولأن صاحبها لا يملك غيرها، ولا يَنَازِعُ المالك فيما يملك.

﴿قَالَ﴾ داود بعد فراغ المدعي من كلامه، وعدم اعتراض المدعى عليه بصمته ﴿لَقَدْ ظَلَمَكَ إِسْؤَالُ نَعْبِكَ إِلَيَّ نِعَاجَةً﴾ أي: بسبب طلبه منك التنازل عن نعبتك وضمها إلى نعاجه.

ثم إن داود عليه السلام أراد أن يُنهي كلامه بالموعظة والعبرة، على عادة الدعاة إلى الله تعالى في التحوُّل بالموعظة حرصاً على الهداية، والتخفيف من وقع الحكم على المظلوم، فقال: ﴿وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ الْخَاطِئِينَ﴾ أي: أغلب الشركاء ﴿يَلْبِغِي بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ﴾ أي: يعتدي بعضهم على بعض، ويطمع بعضهم في مال بعض، فيظلمه ويأخذ حقه ولا ينصفه من نفسه، وهذا أمر متفشٍّ بين غير الصالحين من عباد الله.

ولذا قال تعالى: ﴿إِلَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ فلا يبغى بعضهم على بعض، ولا يطمع بعضهم في مال بعض لقوة إيمانهم، وتحريمهم الحلال من الحرام.

ثم بيَّن سبحانه أن هذا النوع من الناس قليل، فقال: ﴿وَقَلِيلٌ مَّا هُمْ﴾ وفي هذا لفت نظر منه، وحثُّ لهما على أن يكونا من هذه القلة، كما قال تعالى: ﴿قُلْ لَا يَسْتَوِي الْخَبِيثُ وَالطَّيِّبُ وَلَوْ أَعْجَبَكَ كَثْرَةُ الْخَبِيثِ﴾ [المائدة: ١٠٠].

والسبب في هذا أن متابعة الهوى أمر محجب إلى النفس، ومجاهدة الهوى والشيطان فيه مشقة على النفوس، وكأن الله تعالى يقول: ما أقل المؤمنين الذين يعملون الصالحات، ويحرصون على إعطاء كل ذي حق حقه.

وبعد انتهاء الحكم اختفى الرجلان وانصرفا بطريقة غير معتادة، وَرَدَ أن أحدهما نظر إلى صاحبه وضحك بعد حكم داود^(١).

فَعَلِمَ بهذا - على ما قاله كثير من المفسرين - أنهما ملكان بعثهما الله تعالى إلى داود عليه السلام في قضية صورية، وأنه قد أخطأ حين قضى لأحد الخصمين دون أن يستمع إلى الآخر ﴿وَوَظَرَ دَاوُدُ أَنَّمَا فَتَنَّاهُ﴾ أي: أيقن عندئذ أن الابتلاء الذي كان قد عاهد الله أن يصبر عليه

(١) قاله الواحدي.

قد وقع، حتى يُعطى من الفضل مثل آبائه إبراهيم وإسحاق ويعقوب.

ولعل داود ظن أن الخصمين قد دخلا عليه لاغتياله، فلما تحقق له أنهما جاءا للقضاء بينهما بالعدل، ندم واستغفر ربه ورجع إليه ﴿فَاسْتَغْفَرَ رَبَّهُ﴾ أي: طلب منه المغفرة على ظنه في الرجلين ﴿وَحَرَّ رَاكِعًا﴾ أي: انحنى بشدة حتى قارب السجود تعظيمًا لله تعالى.

ومن المعلوم أن السجود بوضع الجبهة على الأرض لم يكن موجودًا في بني إسرائيل، وقد فُسِّر قوله تعالى: ﴿وَحَرُّوا لَهُ سُجَّدًا﴾ [يوسف: ١٠٠] في قصة يوسف عليه السلام، بالانحناء، وهذا الركوع يسمى سجودًا في شريعتهم.

ولعل هذا هو حجة الإمام الشافعي في كونه لم يُعدَّ هذه الآية من مواضع سجود التلاوة في القرآن. ورأي الجمهور أنها سجدة؛ لثبوت سجود النبي ﷺ عندها، كما جاء عن مجاهد أنه قال: سألت ابن عباس رضي الله عنهما عن السجدة التي في سورة (ص)، فقال: أوما تقرأ ﴿وَمِنْ ذُرِّيَّتِهِ دَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ﴾ [الأنعام: ٨٤] إلى قوله سبحانه: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهِدَّتْهُمْ أَقْتَدَهُ﴾ [الأنعام: ٩٠].

فكان داود مما أمر نبيكم أن يقتدي به، فسجدها داود، فسجدها رسول الله ﷺ^(١).

بمعنى: أن النبي ﷺ أمر أن يقتدي بداود عليه السلام بما يساوي الركوع في شريعة الإسلام، وهو السجود في شريعة داود ﴿فَاسْتَغْفَرَ رَبَّهُ وَحَرَّ رَاكِعًا وَأَنَابَ﴾ أي: رجع إلى الله تعالى، وندم على ما كان منه من التسرع في الحكم في القضية، قبل الثبوت وسماع الحجة من الطرف الآخر.

قال النحاس: ويقال: إن خطيئة داود هي قوله: ﴿لَقَدْ ظَلَمَكَ﴾ لأنه قال ذلك قبل أن يثبت^(٢).

(١) «صحيح البخاري» برقم (٣٤٢١، ٤٨٠٧) وأحمد (٣٦٠/١) وأبو داود برقم (١٤٠٩) والترمذي برقم

(٥٧٧) وقال: حسن صحيح. والدارمي (٣٤٢/١) وابن خزيمة (٢٧٧/١) والبيهقي (٣١٨٢/٢).

(٢) «فتح القدير» (٤١١/٤).

سُجُودُ التَّلَاوَةِ فِي سُورَةِ ص

٢٥- ﴿فَغَفَرْنَا لَكُمْ ذَلِكَ وَإِنَّ لَكُمْ عِنْدَنَا لُزْفَىٰ وَحُسْنَ مَآبٍ ﴿٢٥﴾﴾

أي: غفرنا لداود ذلك الظن الذي استغفر ربه منه، فسامحناه وعفونا عنه ما كان منه.

قال ابن عباس رضي الله عنه: جاء رجل إلى النبي ﷺ، فقال: يا رسول الله، إني رأيت فيما يرى النائم كأنني أصلي خلف شجرة، فقرأت السجدة فسجدت، فسجدت الشجرة لسجودي، فسمعتها تقول وهي ساجدة: اللهم اكتب لي بها عندك أجراً، واجعلها لي عندك ذخراً، وضع عني بها وزراً، وتقبلها مني كما قبلتها من عبدك داود، قال ابن عباس: فرأيت النبي ﷺ قام، فقرأ السجدة ثم سجد، فسمعته يقول وهو ساجد كما حكى الرجل عن كلام الشجرة^(١).

وعن أبي سعيد رضي الله عنه قال: قرأ رسول الله ﷺ وهو على المنبر، سورة (ص)، فلما بلغ السجدة نزل فسجد، وسجد الناس معه، فلما كان يوم آخر، فلما بلغ السجدة تهيأ الناس للسجود فقال: «إنا هي توبة نبي، ولكني رأيتم تهيأتم للسجود» فنزل فسجد^(٢).

وعن عكرمة عن ابن عباس رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «ص ليس من عزائم السجود» وقد رأيت النبي ﷺ يسجد فيها^(٣).

وإن لداود عند الله تعالى فضلاً عن ذلك ﴿لُزْفَىٰ﴾ أي: قُربى ومكانة عالية، فلا يتوهم متوهم أن الله تعالى قد غضب على داود، وأنه لم يوفق في الاختبار.

ثم بيّن سبحانه أن لداود في الآخرة حُسن المرجع والمصير، بالرجوع إلينا رجوعاً حسناً، يرضى عنه في نفسه، ويرضى عنه الناس، ويرضى عنه رب العالمين، فيجازيه

(١) «صحيح سنن الترمذي» (٤٧٣) و«السلسلة الصحيحة» (٢٧١٠) وابن ماجه (١٠٥٣) وصحيح ابن ماجه (٨٦٥) بتحسين الألباني، والطبراني (١١٢٦٢) والحاكم (٢١٩/١) والبيهقي (٢٠/٧)، وحسنه الألباني أيضاً في المشكاة (١٠٣٦).

(٢) الدارمي (٣٤٢/١) و«صحيح سنن أبي داود» (١٢٥٣) بتصحیح الألباني، والدارقطني (٤٠٨/١) وابن خزيمة (١٤٥٥) وابن حبان (٢٧٦٥) والحاكم (٢٨٤/١) والبيهقي (٣١٨/٢).

(٣) «صحيح البخاري» برقم (١٠٦٩، ٣٤٢٢)، وصحيح أبي داود (١٢٥٢) وغيرهما.

بالجنة التي يأوي إليها في دار العزة والكرامة.

عصمة داود عليه السلام وقصة أوريا :

هذا: وقد ورد في قصة زوجة (أوريا الحثي) -أحد رجال جيش داود عليه السلام- ما لا ينبغي إغفاله، لذكره في كثير من التفاسير القديمة، وبيان الحق في ذلك :

وأن داود عليه السلام رأى امرأة أحد قوّاده صُدفة، فأراد أن يتزوجها، وكان (أوريا) قد خطبها ولم يدخل بها، فطلب داود من (أوريا) أن يتنازل عنها ليتزوجها، وكان يباح في شريعتهم أن يتنازل الرجل عن مخطوبته إلى غيره لصداقة بينهما، فيتركها ويتزوجها الآخر، كما كان ذلك جائزاً في صدر الإسلام، وقد حدث مثله بين بعض المهاجرين والأنصار.

وخرج أوريا في غزوة مدينة (رَبّة) للعمونيّين، وقيل: في غزوة عمّان، قصبة البلقاء من فلسطين، فقتل في الحرب، فتزوجها داود، وكان له تسع وتسعون امرأة، فعاتبه الله تعالى على ذلك؛ لأنه استعمل هذا المباح لنفسه.

وأرسل الله لداود ملكين في صورة رجلين، ليُصوّرا له ما حدث، ويُبيّنا له أنه كان الأليق بمقام النبوة ترك هذا الزواج المباح، وأن ما صدر من داود يستوجب العتاب، ولا يستوجب العقاب.

ولذا: فقد خُتمت القصة بقوله تعالى: ﴿وَإِنَّ لَهُ عِنْدَنَا لَزُلْفَىٰ وَحُسْنَ مَّآبٍ﴾^(١).

كما أن الله تعالى عقّب على هذه القصة بما يكشف عن طبيعة هذه الفتنة، وأن المقصود من القصة عدم اتباع الهوى في الحكم بين الناس، وعدم الانفعال مع الحجة الأولى، والترئيب والتبيين حتى لا يضل القاضي عن طريق الحق والعدل.

والقصة على هذا النحو ليس فيها ما يقدر في عصمة الأنبياء:

١- فطلب داود الزواج من خطيبة أوريا كان أمراً مباحاً جائزاً في شريعتهم، كما كان جائزاً في صدر الإسلام.

٢- ثم إن القصة -في حقيقتها- ليس فيها أن داود عليه السلام أمر أن يُجعل أوريا في صدر الجيش ليُقتل، فهذا من الأكاذيب الملحقة بالقصة، وقد خرج (أوريا) للقتال بمحض إرادته ثم قُتل في المعركة، كشأن أيِّ مُحارب، وتزوج داود المرأة، فهو زواج لا غبار عليه، وليس فيه أي شائبة تقدح في داود عليه السلام.

٣- والذي أخذ على داود عليه السلام هو التوسّع في المباح، بالتطلع إلى هذه المرأة، وعنده الكثير غيرها.

٤- والذي نفّر بعض المفسرين من هذه القصة أمران:

الأمر الأول: عدم إدراك إباحة أن يطلب الرجل من غيره الزواج بمخطوبته ليركها له، على أن هذا كان سائغاً في شريعتهم.

والأمر الثاني: كون داود عليه السلام قد أمر بجعل أوريا في أول الصفوف ليُقتل، فإن هذا لم يحدث، وهو من زيادات الفُصّاص.

٥- لا بدّ من وجود أصل يمثل قدرًا مشتركًا لما جاء في كثير من التفاسير، بدءًا بشيخ المفسرين ابن جرير الطبري^(١) فما بعده^(٢)، وما جاء في كتب السنة^(٣) والقدر الذي ورد في كتب اليهود^(٤).

٦- ذَكَرَ القرآن هذه القصة، ليخلّصها من الشوائب التي لحقت بها، مما ألصقه اليهود بنبي الله داود عليه السلام، من تدبيره لقتل أوريا ليتزوج بامرأته بعد أن وقعت في قلبه.

فقد مدح الله داود قبل القصة وبعدها، وعاتبه بينهما على نتيجة الاختبار المقرر سلفاً، عاتبه لأنه خالف الأولى في أمر مباح، في هذه الحادثة التي كانت فتنة وابتلاء لداود الذي غبط آباءه إبراهيم وإسحاق ويعقوب على ما حباهم الله به من فضل، وسأل ربه معرفة

(١) يُنظر: «تفسير الطبري» (١٤٤/٢٣) فما بعدها.

(٢) كالسيوطي في «الدر المنثور» (٣٠٣/٥) بتصرف.

(٣) من ذلك ما أخرجه ابن أبي شيبة في «المصنف»، الفضائل، يرقم (١١٩٤٣) وغير ذلك مما ورد وكله بسند ضعيف لما فيه من خلط بين الصحيح والسقيم.

(٤) كما في «سفر صمويل الثاني» في الإصحاح الحادي عشر من كتب اليهود مما يتنافى مع عصمة الأنبياء.

السبب، فذكر له أنهم صبروا على البلاء، فقال: يا رب، لو ابتليتني لصرتُ مثلهم، فكان هذا الابتلاء مُرادًا لله تعالى؛ كي يثيب داود عليه، ويرفع درجاته في مصافِّ آبائه الذين غبطهم.

وبهذا لا نحتاج إلى تلمس الأسباب المختلفة لهذه القصة، ونذكر أن تزوج داود بالمرأة ليس إلا فتنة وابتلاء من الله تعالى لداود عليه السلام.

وبالنسبة لهذه القصة فإن النعجة تفسر بالمرأة، ولذلك شاهد من كلام العرب كما سبق.

قال الخازن في تفسيره: ذهب المحققون من علماء التفسير وغيرهم في هذه القصة إلى أن داود عليه السلام ما زاد على أن قال للرجل: انزل لي عن امرأتك واكفُلنيها، فعاتبه الله تعالى على ذلك، ونَبَّهه عليه، وأنكر عليه شُغْلُه بالدنيا.

وقيل: إن داود تمنى أن تكون امرأة أوريا له، فاتفق أن أوريا قُتل في الحرب... وتزوج داود امرأته، فعاتبه الله على ذلك؛ لأن ذنوب الأنبياء - وإن صغرت - فهي عظيمة عند الله تعالى.

وقيل: إن أوريا كان قد خطب تلك المرأة، ووطَّن نفسه عليها، فلما غاب في الغزوة خطبها داود، فزوَّجَتْ نفسها منه، فعاتبه الله تعالى، لأنه لم يترك هذه الواحدة لخاطبها، وعنده تسع وتسعون امرأة.

ويدل على هذا الوجه قوله تعالى: ﴿وَعَزَّيْ فِي الْخَطَابِ﴾ فدل هذا على أن الكلام كان بينهما في الخطبة، ولم يكن أوريا قد تزوج بها، فعُوتب داود لسببين: أحدهما: خطبته على خطبة أخيه.

ثانيهما: الحرص على الزواج مع كثرة نسائه^(١).

فينبغي التحرز والدقة عند ذكر مثل هذه القصة؛ حتى لا يختلط الحق بالصواب:

قال علي عليه السلام: من حدَّث بحديث داود على ما يرويه القُصَّاص جَلَدَتْهُ مئة وستين جلدة، وهو حد الفرية على الأنبياء.

(١) «تفسير الخازن» (٣٥ / ٤) بتصرف يسير.

وقد أخذ بعض أهل العلم من الآية جواز تمثيل الروايات والقصص بقصد التريفة والموعظة، ولا يُرمى واضعها بالكذب، وفيها أيضاً دليل على جواز تمثيل القصص بالأجسام والذوات ما لم تخالف الشريعة، فإن ما حكاه القرآن والسنة من شرع من قبلنا يصلح دليلاً لنا في شرعنا ما لم يرد ما ينسخه^(١).

القضية الثالثة: استخلاف داود في الأرض

٢٦- ﴿يَا دَاوُدَ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ فَاحْكُم بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ إِنَّ الَّذِينَ يَضِلُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا سَأَوْا يَوْمَ الْحِسَابِ﴾ (٢٦)

هذه الحلقة الثالثة والأخيرة من قصة داود عليه السلام في هذه السورة، وهي قضية استخلافه في الأرض لإنفاذ شرع الله فيها، والحكم بين الناس بالعدل، وقد جاءت هذه الجزئية تعقياً على العبرة المستفادة من الحادثة السابقة، لكل من ولّاه الله القضاء والحكم بين الناس؛ لئلا يتبعوا هوى النفس - فيخطئوا - طريق الصواب.

والخليفة: هو الذي يخلف غيره فينبو عنه ويقوم مقامه.

قال ابن عطية: ولا يقال خليفة الله إلا لرسول الله، وأما الخلفاء فكل واحد منهم خليفة الذي قبله، فكان أبو بكر يُدعى خليفة رسول الله مدة حياته ﷺ فلما وُلّي عمر قالوا: خليفة خليفة رسول الله، فلما رأى الصحابة أن ذلك سيطول في المستقبل، قالوا: أمير المؤمنين، وقصر هذا الاسم على الخلفاء الأربعة^(٢).

والرسول -أي رسول- خليفة الله تعالى في إنفاذ شرائعه التي أوحى له بها أو أمره بتبليغها من الشريعة السابقة عليه، أو الموحى إليه بها ابتداءً.

فداود عليه السلام خليفة عن الله في أرضه، لتنفيذ قضاياه الدينية والدنيوية، وهو خليفة عن موسى عليه السلام، وعن أحبار بني إسرائيل -القضاة- لتبليغ وحي الله تعالى إلى الناس، وهو خليفة عن طالوت في الملوك.

(١) يُنظر: «تفسير التحرير والتنوير» (٢٣/٢٣٨).

(٢) «تفسير ابن عطية» (٤/٥٠٢).

وقد كان داود أعظم ملوك الأرض في زمنه، يخاف بأسه سائر الملوك، فهو يتصرف في مملكته ولا ينفلت شيء منها من قبضته.

وخلافة داود ﷺ كانت في أرض مملكته المعهودة، وهي أرض إسرائيل، وهذا يختلف عن استخلاف الله تعالى لآدم في الكرة الأرضية، قال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ [البقرة: ٣٠].

ومن خلافة داود ﷺ أنه كان مرجعاً للمظلومين لرفع الظلم عنهم ﴿فَأَحْكُم بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ﴾ أي: بالعدل والإنصاف، ولا يتمكن من هذا إلا من عِلِمَ الحق، وعلم الواقع، وكان عنده قدرة على تنفيذ الحق، وقد واظب داود ﷺ على ذلك في جميع الأزمان والأحوال، وأمره الله تعالى ألا يزيع عن الحق باتباع هوى النفس والخروج عن الصواب: ﴿وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ﴾ أي: لا تتبع هوى النفس ورغباتها وميولها، فتميل مع أحد الناس لقربة أو صداقة أو محبة، أو تقضى للطرف الآخر، فإن اتباعك للنفس الأمارة بالسوء يؤدي بك إلى الضلال عن طريق الحق، وعن مخالفة شرع الله تعالى ومنهاجه المستقيم.

وهذه وصية من الله تعالى لولاة الأمور جميعاً ليعدلوا في حكمهم ولا يضلوا، فقد تواعد سبحانه كل من يضل عن دين الله وشرعه بسوء المصير يوم القيامة ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَضِلُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ﴾ بعدم طلب مرضاته في أعمالهم وفي حكمهم بين الناس ﴿لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ﴾ في نار جهنم ﴿بِمَا نَسُوا يَوْمَ الْحِسَابِ﴾ أي: بسبب غفلتهم عن الجزاء المعد لهم يوم القيامة.

قال تعالى: ﴿فَذُوقُوا بِمَا نَسِيتُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا إِنَّا نَسِينَكُمُ وَذُوقُوا عَذَابَ الْخُلْدِ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [السجدة: ١٧].

وقال سبحانه: ﴿وَقِيلَ الْيَوْمَ نَنْسِيكُمْ كَمَا نَسِيتُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا وَمَأْوَاكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُم مِّنْ نَّصِيرِينَ﴾ [الجاثية: ٢٤].

قيل: إن بعض خلفاء بني أمية، قال لعمر بن عبد العزيز، أو للزهري: هل سمعت ما بلغنا؟ قال: وما هو؟ قال: بلغنا أن الخليفة لا يجري عليه القلم، ولا تُكتب له معصية، فقال: يا أمير المؤمنين، الخلفاء أفضل أم الأنبياء؟ ثم تلا ﴿يٰٓدَاوُدُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ..

ودخل أبو زرعة على الوليد بن عبد الملك؛ فقال له الوليد: أخبرني، هل يحاسب الخليفة؟ فإنك قرأت الكتاب الأول، أي: كُتِبَ بني إسرائيل، وقرأت القرآن وفقّهت، فقال: يا أمير المؤمنين، أقول؟ قال: قل في أمان، فقال: يا أمير المؤمنين، أنت أكرم على الله أم داود؟ إن الله ﷻ جمع له النبوة والخلافة ثم توّعده في كتابه، فقال: ﴿وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ﴾^(١).

الْحِكْمَةُ مِنْ خَلْقِ هَذَا الْكَوْنِ

٢٧- ﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَطْلًا ذَٰلِكَ ظَنُّ الَّذِينَ كَفَرُوا فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنَ النَّارِ﴾

ثم إن الله تعالى ردّ الحكم بين الناس بالحق، إلى الأصل العريق الذي تقوم عليه السموات والأرض وما فيهما وما بينهما، لبيان أن الانحراف عن دين الله تعالى وشرعه هو انحراف عن الحقيقة الكبرى التي قامت عليها السموات والأرض، فمخلوقات الله جميعاً لا تخرج عن الحق الذي خُلقت من أجله، سواء حالاً أو مآلاً، فالملائكة والرسل والصالحون قاموا بهذا الحق في الدنيا، والشياطين والمفسدون من الإنس والجن يُنصب لهم لواء الحق يوم الجزاء العادل، فلا يندُّ منه أحد، وهو حكم مُطَرَّد غاية في الإحكام.

وقد خلق الله السموات والأرض بالحق وللحق، ليعرف الخلق ربهم، فيعبده ويوحده، ويعلموا كمال علمه وقدرته وسعة سلطانه، ويعلموا أن البعث حق، والحساب والجزاء حق، وسيفصل الله بين أهل الخير وأهل الشر.

فالله تعالى لم يخلق الخلق لغير غاية، ولم يتركهم سدى، يفعل كل منهم ما يشاء من الفساد أو الصلاح دون أن يجزي المحسن بإحسانه والمسيء على إساءته، فإن استواء المحسن والمسيء عبث باطل، وتعطيل للحكمة التي خلق الله الخلق من أجلها، ولو أن الله تعالى سَوَّى بين المؤمن والكافر، لكان ذلك عبثاً ولهواً يتنزّه عنه رب العالمين، وهذا معنى ﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَطْلًا﴾ أي: لم نخلق هذا الكون الفسح بعالميه: العلوي والسفلي وما فيهما وما بينهما، من المخلوقات العجيبة، عبثاً ولا لهواً، كما قال

(١) «تفسير ابن كثير» للآية (٦٣/٧).

تعالى: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ﴾ [المؤمنون].

بل خلقناهما لحكمة عظيمة وغاية سامية، جاءت في قوله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِعِبَادُونَ﴾ [الذاريات].

﴿ذَلِكَ﴾ أي: خلق السموات والأرض وما بينهما لغير حكمة ﴿ظَنُّ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ أي: يقينهم وعلمهم، وسماه القرآن ظناً؛ لأنه يخالف الواقع، فهو أجدر أن يسمى ظناً؛ وذلك لأنهم يجحدون يوم القيامة وينكرون ما فيه من بعث وحشر ونشر وحساب وجزاء على الأقوال والأعمال، وإعراضهم عما جاء به الرسول ﷺ من الوحي المنزل ﴿فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنَ النَّارِ﴾ يعذبون فيها نتيجة كفرهم بالبعث والحساب والجزاء، وجحودهم الحق والإعراض عنه.

الصَّالِحُ وَالطَّالِحُ لَا يَسْتَوِيَانِ عِنْدَ اللَّهِ تَعَالَى

٢٨- ﴿أَمْ نَجْعَلُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَالْمُفْسِدِينَ فِي الْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ الْمُتَّقِينَ كَالْفُجَّارِ﴾

ثم وضح سبحانه ظن الكفار المُفْضِي إلى أن خلق السموات والأرض كان باطلاً في زعمهم، فقرر جلَّ شأنه أنه لو لم يكن هناك بعث ولا حساب ولا جزاء كما يزعم منكرو البعث، لاستوت عند الله تعالى أحوال الصالحين وأحوال المفسدين، فهل يستوي الصالح والطالح؟! وهل يستوي التقى والفاجر؟! هذه تسوية غير لائقة بحُكْمَةِ الله تعالى وحُكْمِهِ، بل يشيب الله الصالحين المتقين بالجزاء الحسن يوم لقائه، ويعاقب المفسدين الفاجرين على أعمالهم، وهذه مقابلة بين أهل السعادة وأهل الشقاء، وجزاؤهما يكون بالنعيم المقيم أو العذاب الأليم، ولو لم يؤاخذ الله كُلاً من الفريقين بما عمل، لكان خلق الإنس والجن باطلاً، وهذا يستلزم أن يكون خلق الكون باطلاً.

والفساد يكون باختيار الشهوات واتباع الهوى بالقوة الباطنة، فقد خلق الله الإنسان في أعلى المراتب ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾ [التين: ٤] بحيث يرتقي إلى رتبة الأنبياء، ولكنه ينحط بسوء عمله إلى أسفل المراتب ﴿ثُمَّ رَدَدْنَاهُ أَسْفَلَ سَافِلِينَ﴾ [التين].

وجميع الناس في خُسران وضلال إلا من آمن وعمل صالحاً، وكل فريق من أهل السعادة أو الشقاء يلتحق بما يُشَبِّهُهُ من الملائكة أو الشياطين بله الحيوانات! ﴿أَمْ حَسِبَ

الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَنْ يَجْعَلَهُمُ اللَّهُ كَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَوَاءٌ مَخْلِبُهُمْ وَمَمْلَأُهُمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴿٢١﴾ [الباقية].

فالتسوية بين المؤمنين والكافرين في الآخرة مستحيلة؛ لأنها ظلم، والظلم محال على الله تعالى ﴿وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمٰوٰتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ لِيَجْزِيَ الَّذِينَ أَسْتَوُوا يَمَا عَمِلُوا وَيَجْزِيَ الَّذِينَ أَحْسَنُوا بِالْحُسْنَىٰ﴾ ﴿٣١﴾ [النجم].

قال ذو القرنين: ﴿أَمَّا مَنْ ظَلَمَ فَسَوْفَ نُعَذِّبُهُ ثُمَّ يُرَدُّ إِلَىٰ رَبِّهِ فَيُعَذِّبُهُ عَذَابًا ثَكْرًا﴾ ﴿٨٧﴾ وَأَمَّا مَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُمْ جَزَاءُ الْحُسْنَىٰ وَسَنَقُولُ لَهُ مِنْ أَمْرِنَا يُسْرًا﴾ ﴿٨٨﴾ [الكهف].

وقال تعالى: ﴿إِنَّهُمْ مِنْ يَأْتِ رَبُّهُمُ مُّجْرِمًا فَإِنَّ لَهُمْ جَهَنَّمَ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَىٰ﴾ ﴿٧٤﴾ وَمَنْ يَأْتِهِ مُؤْمِنًا قَدْ عَمِلَ الصَّالِحَاتِ فَأُولَٰئِكَ لَهُمُ الدَّرَجَاتُ الْعُلَىٰ﴾ ﴿٧٥﴾ [طه].

وهذه الآيات تشير إلى أن الله تعالى لو أبطل الجزاء في الآخرة -كما يقول الكفار- لاستوى حال من أصلح في الدنيا ومن أفسد، وحال من اتقى وفجر. ومن سوى بينهما كان سفيهاً، ولم يكن حكيماً.

الْقُرْآنُ الْعَظِيمُ يَهْدِي إِلَى سَعَادَةِ الدَّارَيْنِ

٢٩- ﴿كَتَبَ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِيَدَّبَّرُوا^(١) ءَايَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُو الْأَلْبَابِ﴾ ﴿٢٩﴾

بعد أن خاطب القرآن الكريم، منكري البعث، ليرشدهم إلى أن خلق هذا الكون لا يكون عبثاً ولا لهواً، أعرض الله تعالى عنهم؛ لأنهم أعرضوا عن آيات الله ولم ينتفعوا بما فيها.

وتوجه بالخطاب إلى النبي ﷺ ليلفت الأنظار إلى أن هذا القرآن قد أتى بما يُقنع، وَيَشْفِي الغليل، ويذحض الشبه، وَيُثَبِّتُ أن خلق هذا الكون لحكمة جليلة، فهو خلق بالحق وليس بالباطل، ولكن الجاحدين المكذبين حُرِّمُوا الانتفاع بما في القرآن، ولم ينتفع به إلا من عقل وتدبر، واهتدى بهديه، من المؤمنين أولي الألباب ﴿كَتَبَ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ﴾ أي: أن هذا الموحى به إليك يا محمد، كتاب عظيم، فيه علم غزير، وفيه الهدى

(١) قرأ أبو جعفر بالباء بدلاً من التاء في (ليدبروا) مع تخفيف الدال، وأصلها لتدبروا، فحذفت إحدى التائين، وقرأ الباقون بياء ودال مشددة، وأصلها ليتدبروا فأدغمت التاء في الدال.

من كل ضلال، والشفاء من كل داء، وفيه نور يستضاء به في الظلمات، وفيه كل حكم يحتاج إليه البشر، فهو كتاب كثير الخير والمنافع الدينية والدنيوية، يتضمن الحجج الدامغة، والبراهين الساطعة، والدلائل القاطعة مُؤَسَّسٌ على وحدانية الله تعالى، وقيام الناس لرب العالمين، وهو كتاب ﴿مُبْرَكٌ﴾ كثير الخير والبركة ﴿لِيَذَّبَ رُءُوسَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ أي: يتفكروا فيها، ويكتشفوا غوامضها بقدر الطاقة، وينتفعوا بما تحويه من هُدًى ونور، وتشريع وعبادة، وأحكام وآداب وأخلاق، ولكي يتعظ به أصحاب العقول السليمة، فالتدبر يُفضي إلى التذكر، وفي هذا حث على تأمل أسرارهِ، واستخراج علومه وحِكَمِهِ وتأمل معانيهِ، والعمل بما فيه لتحقيق الغاية من إنزاله.

قال الحسن البصري: والله ما تدبره بحفظ حروفه وإضاعة حدوده، حتى إن أحدهم ليقول: والله، لقد قرأت القرآن فما أسقطتُ منه حرفاً، وقد أسقطهُ والله كله، ما يُرى للقرآن عليه أثر في خلق ولا عمل^(١).

وألوا العقول الصحيحة هم الذين يتذكرون ويتدبرون فيحصل لهم التذكر والانتفاع بكل علم ومطلوب، وهذا معنى ﴿وَلْيَتَذَكَّرْ أُولُوا الْأَلْبَابِ﴾.

القِصَّةُ الثَّانِيَّةُ: قِصَّةُ سُلَيْمَانَ عَلَيْهِ السَّلَامُ

٣٠- ﴿وَوَهَبْنَا لِدَاوُدَ سُلَيْمَانَ نِعَمَ الْعَبْدِ إِنَّهُ أَوَّابٌ﴾

وقصة سليمان عليه السلام تكملة لقصة داود عليه السلام، حيث لم تبدأ هذه القصة بكلمة ﴿وَأَذْكُرْ﴾ كما في قصة داود التي قبلها، وقصة أيوب التي بعدها، وإنما جاءت آخر المنن التي امتن الله بها على داود، حيث أنعم الله عليه، فأعطاه سليمان، بهجة له في حياته، وحتى يرث ملكه بعد مماته، كما قال تعالى: ﴿وَوَرِثَ سُلَيْمَانُ دَاوُدَ﴾ [النمل: ١٦].

فكانت موهبة سليمان لداود، مكرمة عظيمة، بعد أن غفر الله له وقَبِلَ أُوْبَتَهُ ﴿وَوَهَبْنَا لِدَاوُدَ سُلَيْمَانَ﴾ ابناً له أنعمنا عليه به، وأقررنا به عينه، وأعطيناه النبوة والملك.

ولداود أبناء آخرون، ولكن سليمان هو الذي ورثه في النبوة والملك ﴿نِعَمَ الْعَبْدِ﴾ سليمان

(١) «تفسير الكشاف» (٧٠/٤) وابن كثير (٦٤/٧).

في دينه وخلقه وشكره لربه ﴿إِنَّهُ أَوَّابٌ﴾ أي كثير الرجوع إلى الله تعالى وكثير الإنابة إليه، في جميع أحواله، يتضرع إلى ربه ويدعوه ويذكره ويشكره، ويجتهد في محبته ومرضاته.

الصَّافِنَاتُ الْجَيَادُ، هَلْ عَقَرَهَا سُلَيْمَانُ؟

٣١- ﴿إِذْ عُرِّضَ عَلَيْهِ بِالْعَنِيِّ الصَّافِنَاتُ الْجَيَادُ﴾

اذكر يا محمد، حين عُرض على سليمان، عشية يوم من الأيام - عصرًا - الخيول الأصيلة، التي تقف على ثلاث قوائم، وترفع الرابعة، لنجابتها وخفتها، فهي تسرع الجزي، وتقف على طرف الحافر، في منظر رائع وجمال عجيب، فما زالت تُعرض عليه حتى غابت الشمس في نهاية وقت العصر.

والعشي: من العصر إلى الغروب، وقد جاء وصف الخيول بـ ﴿الصَّافِنَاتُ الْجَيَادُ﴾.

والصافنة: هي التي تقف على ثلاث قوائم، وطرف حافر القائمة الرابعة لا يمكن من الأرض، وهو دلالة الخفة والأصالة.

والجياذ: جمع جواد، وهو الفرس النفيس، سريع الجزي، فإن وقفت الفرس كانت ساكنة مطمئنة، وهذان وصفان لخيول سليمان، بالفضيلة والكمال في حالي الوقوف والحركة.

والعرب تصف الخيل بالصفون والجودة، وكان سليمان مولعًا بحب الخيل والفرسان.

٣٢- ﴿فَقَالَ إِنِّي أَحْبَبْتُ حُبَّ الْخَيْرِ عَنْ ذِكْرِ رَبِّي حَتَّى تَوَارَتْ بِالْحِجَابِ﴾

أي: ﴿فَقَالَ﴾ سليمان وهو يستعرض الخيول الصافنات الجياذ، على سبيل الشكر لربه: ﴿إِنِّي أَحْبَبْتُ حُبَّ الْخَيْرِ﴾ أي: الخيل ﴿عَنْ ذِكْرِ رَبِّي﴾ أي: أحببت استعراض الخيول، وأحببت تدريبها وإعدادها للجهاد من أجل ذكر ربي وطاعته، وإعلاء كلمته، ونصرة دينه، وظل يستعرضها ﴿حَتَّى تَوَارَتْ﴾ الخيل ﴿بِالْحِجَابِ﴾ أي: اختفت عن نظري حيث امتد سيرها فحُجبت عن الأنظار.

وكان سليمان عليه السلام يستعرض الخيل ليطمئن إلى أهليتها، والعرب تسمي الخيل خيرًا؛ لأن

(١) قرأ نافع وابن كثير وأبو عمرو وأبو جعفر بفتح ياء الإضافة من (إني أحببت)، والباقون بإسكانها.

الخير يتعلق بها، قال تعالى: ﴿وَإِنَّهُ لِحُبِّ الْخَيْرِ لَشَدِيدٌ﴾ [العاديات] والمراد: الخيل الصافنة الجيدة.

جاء في حديث عروة بن أبي الجعد رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «الخير معقود بنواصيها الخير إلى يوم القيامة»^(١).

وسمى الله المال خيراً فقال: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ إِنْ تَرَكَ خَيْرًا﴾ [البقرة: ١٨٠] أي: مَالاً، والمراد بذكر الله تعالى في قوله: ﴿عَنْ ذِكْرِ رَبِّي﴾ مطلق الطاعة والعبادة؛ لأن وقت العشي في شريعة موسى التي كان يدعو إليها داود وسليمان، ليس فيها صلاة مفروضة إلا صلاة المغرب، فصرّفها إلى صلاة العصر يحتاج إلى دليل.

ولفظ: ﴿عَنْ﴾ من قوله تعالى: ﴿أَحَبُّ حُبِّ الْخَيْرِ عَنْ ذِكْرِ رَبِّي﴾ للتعليل، وحروف الجر ينوب بعضها عن بعض، أي: أحبيت الخيل من أجل أنها آلة الجهاد في سبيل الله، والجهاد من أفضل الطاعات، وأجلّ القربات.

والضمير في ﴿تَوَارَتْ﴾ يعود على أقرب مذكور، وأقرب مذكور هو ﴿الْخَيْرِ﴾ أي: الخيل. والحجاب: هو غيابها عن رؤية العين، فقد كانت الخيول تُعدُّ بالآلاف، فاستعراضها يطول ويمتد حتى تختفي عن العين.

والمعنى: إني آثرت حب المال من أجل ذكر ربي، واشتغلتُ به طاعة لله تعالى وذكره، حتى غابت الخيل عن عيني، قال سليمان حين غابت بداية صفوف الخيل عن عينيه:

٣٣- ﴿رُدُّوْهَا عَلَيَّ فَطَفِقَ مَسْحًا بِالسُّوقِ^(٢) وَالْأَعْنَاقِ﴾

أي: أَرَجِعُوا إِلَيَّ الخيول التي عُرِضَتْ عَلَيَّ، ثم غابت عني، فَرُدُّوْهَا عَلَيْهِ، فأخذ يمسح سيقانها وأعناقها بإمرار يده عليها، سروراً وإعجاباً بها، وإعدادها للجهاد في سبيل الله، وهذا المسح عادة عند أهل الخيول يكون من باب الفخر والاعتزاز بها، وهذا معنى

(١) «صحيح البخاري» برقم (٢٨٥٠) و«صحيح مسلم» برقم (١٨٧٣).

(٢) قرأ قبل بهمزة ساكنة بعد السين من (السوق)، وقرأ أيضاً بهمزة مضمومة بعد السين، وبعدها واو ساكنة مدية، والباقون بغير همز.

﴿فَطَفِقَ﴾ أي: شرع ﴿مَسَحًا بِالسُّوفِ وَالْأَغْنَاكِ﴾ أي: يمسح سيقانها وأعناقها.

أما القول بأن سليمان أخذ يضرب سيقانها وأعناقها بالسيف، فهو من باب المجاز، وصرف اللفظ عن معناه، إذ المسح لا يكون بمعنى الضرب أو القتل، ولم يرد في ذلك نص صريح صحيح، يفسر الآية بهذا المعنى.

ونربأً بنبي الله سليمان عليه السلام أن يهدر المال العام، أو أن يعاقب الخيل على أمر لا ذنب لها فيه، ونستبعد أن تُذبح هذه الخيول على وجه القرية إلى الله تعالى لنفع الفقير، فهذه تأويلات بعيدة، فيها صرف للسياق والألفاظ عن ظاهرها، وليس عليها دليل شرعي.

فِتْنَةُ سُلَيْمَانَ عَلَيْهِ السَّلَامُ

٣٤- ﴿وَلَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمَانَ وَأَلْقَيْنَا عَلَى كُرْسِيِّهِ جَسَداً ثُمَّ أَنَابَ﴾ (٢٤)

أما الشق الثاني من قصة سليمان عليه السلام فهو الفتنة التي عرّضت له فتاب إلى الله منها، ثم أعقبها فيضٌ نعمٍ عظيمةٍ أكرمه الله تعالى بها.

والفتنة معناها: الابتلاء والاختبار والامتحان، يقال: فتنت النار الذهب، أي: اختبرته لتعلم جودته.

وفتنة سليمان كانت بإلقاء نصف مولود وُلد ميتاً على كرسيه الذي يجلس عليه، وكان ذلك عقوبة له؛ لأنه أقسم أن يأتي نساءه جميعاً في ليلة واحدة، فتحمّل كل واحدة منهن بفارس يجاهد في سبيل الله، ولم يقل: إن شاء الله، ولا عدول عن هذا المعنى إلى غيره؛ لأنه الذي صح عن رسول الله ﷺ في هذا الصدد، وإن لم يُذكر فيه أنه تفسير الآية، فيضرب بغيره عرض الحائط:

عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «قال سليمان: لأطوفنَّ الليلة على تسعين امرأة، كلهن تأتي بفارس يجاهد في سبيل الله، فقال له صاحبه: قل إن شاء الله، فلم يقل إن شاء الله، فطاف عليهن جميعاً، فلم تحمل منهن إلا امرأة واحدة، جاءت بشق رجل، وإيم الله الذي نفس محمد بيده، لو قال: إن شاء الله، لجاهدوا في سبيل الله - فرساناً - أجمعون»^(١).

(١) «صحيح البخاري» برقم (٣٤٢٤، ٦٦٣٩) و«صحيح مسلم» برقم (١٦٥٤).

وشق الرجل: هو نصف المولود الذي وُلد ميتًا، وهو المراد بالجسد الذي أُلقي على كرسيه، عقوبة له، وهو جسد لا حياة فيه، وعدد النسوة اللاتي أقسم سليمان أن يطوف عليهن في هذه الليلة، جاء متعددًا في روايات الحديث، بين: مئة، أو تسعين، أو سبعين، أو أربعين امرأة، وذلك لكثرة نسائه وجواريه.

والطواف عليهن معناه: الجماع، فكانت فتنة سليمان في تركه تعليق ما يطلبه على مشيئة الله تعالى، وعقابه على ذلك كان بعدم تحقيق ما طلبه، قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمَانَ وَأَلْقَيْنَا عَلَى كُرْسِيِّهِ جَسَدًا﴾ أي: ابتليناه، ووضعنا على كرسيه شق ولد لا يتحرك، وُلد له هكذا؛ لأنه لم يستثن في يمينه ﴿ثُمَّ أَنَابَ﴾ رجع سليمان إلى ربه وأناب إليه:

٣٥- ﴿قَالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَهَبْ لِي مُلْكًا لَا يَبْغِيَ لِأَحَدٍ مِنْ بَعْدِي﴾^(١) إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ ﴿٣٥﴾

أدرك سليمان ﷺ أنه لسمو منزلته عند الله تعالى قد أتى ذنبًا يستحق الاستغفار منه، حين لم ذكر المشيئة في يمينه ﴿قَالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي﴾ ما فرط مني من ذنوب وزلات، ولما كان الاستغفار من الذنوب سببًا لفتح أبواب الخير في الدنيا فقد توسل سليمان بعمله الصالح - وهو طلب المغفرة من الله تعالى - إلى طلب المُلْك لخدمة دينه، وإعلاء كلمة ربه، ونشر العدل بين الناس، وإعانة المحتاج، وإعطاء الحقوق لأصحابها، وإنصاف المظلوم، وإنفاذ شرع الله تعالى.

وكان سليمان (وقت طلبه المُلْك من ربه) ذا سلطان عريض، فأراد استدامة المُلْك والتوسع له فيه، حيث قال: ﴿وَهَبْ لِي مُلْكًا لَا يَبْغِيَ لِأَحَدٍ مِنْ بَعْدِي﴾ أي: أعطني مُلْكًا واسعًا لا يحصل لأحد غيري، ولا تسلبني إياه ما حييت، وقد طلب سليمان الدين قبل الدنيا، ولم يطلب المُلْك للظلم والبغي، وإنما طلبه ليتقوى به على نشر الدعوة.

وسأل سليمان ربه في دعائه ألا يجعل له منازعًا في ملكه، وأن يُقيه له مادام حيًا، فأجاب الله سؤله.

وكان سليمان يخشى ظهور مُنافسين له، وكان له عبد أظهر الكيد له، ولما خاف هذا العبد من سليمان هرب إلى فرعون مصر، وبقي هناك حتى مات سليمان، وهذا العبد من

(١) قرأ نافع وأبو عمرو وأبو جعفر بفتح ياء الإضافة من (بعدي إنك)، والباقون بإسكانها.

سبط أفرام، واسمه (يربعام بن نباط) وكان لسليمان عَدُوَّان آخران هما (هدد) و (رزون)^(١) ولذا سأل ربه أن يُثَبِّت ملكه، وألا يسلِّط عليه أحدًا يسلُّبه منه.

ولم يحسُد سليمان أحدًا من الخلق، أن يعطيه الله مثله.

وهذا الدعاء كان سرًّا بين سليمان وربّه، إلا أن الله تعالى ذكره وأظهره، للإعلام بأنه سبحانه لرضاه عن سليمان استجاب له دعوته، فأعطاه ملكًا عظيمًا، ومكَّنه منه إلى مماته، ولم يُعطِ غيره مثله، وكان سليمان قد ختم دعاءه بقوله: ﴿إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ﴾ أي: كثير العطاء والجود، فأنت تهب ما لا يملك غيرك أن يهبه.

وقد ورد في هذا المعنى أحاديث منها ما جاء:

١- عن أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «إن عفريتًا من الجن تفلّت البارحة ليقطع عليّ صلاتي، فأمكنني الله منه، فأخذته فأردت أن أربطه بسارية من سواري المسجد، حتى تنظروا إليه كلكم، فذكرت دعوة أخي سليمان: ﴿رَبِّ اغْفِرْ لِي وَهَبْ لِي مَلَكًا لَا يَبْغِي لِأَحَدٍ مِنْ بَعْدِي﴾ فرددته خاسئًا»^(٢).

٢- وعن أبي سعيد رضي الله عنه قال: قام رسول الله ﷺ يصلي صلاة الصبح وهو خلفه، فقرا، فالتبست عليه القراءة، فلما فرغ من صلاته قال: «لو رأيتموني وإبليس، فأهويت بيدي، فما زلت أختفه حتى وجدت بُرْدَ لُعابه بين أصبعي هاتين -الإبهام والتي تليها- ولولا دعوة أخي سليمان لأصبح مربوطًا بسارية من سواري المسجد، يتلاعب به صبيان المدينة، فمن استطاع منكم ألا يحول بينه وبين القبلة أحد فليفعل»^(٣).

٣- وعن أبي الدرداء رضي الله عنه قال: قام رسول الله ﷺ يصلي فسمعناه يقول: «أعوذ بالله منك» ثم قال: «ألعنك بلعنة الله» ثلاثا، وبسط يده كأنه يتناول شيئًا، فلما فرغ من الصلاة

(١) يُنظَر: «تفسير التحرير والتنوير» (٢٣/٢٦٢).

(٢) «صحيح البخاري» برقم (٣٤٢٣، ٤٨٠٨) وغيرهما ومسلم برقم (٥٤١) و«السنن الكبرى» للنسائي برقم (٥٥١، ١١٤٤٠).

(٣) «المسند» (٣٠٢/١٨) (١١٧٨٠) قال محققوه: إسناده حسن لأن مسرّة بن معبد، متكلم فيه، وبقيّة رجاله ثقات رجال الصحيح، وهو في «سنن أبي داود» برقم (٦٩٩) وعبد بن حميد في المنتخب (٩٤٦) مختصرًا.

قلنا: يا رسول الله، قد سمعناك تقول في الصلاة شيئاً لم نسمعك تقوله قبل ذلك، ورأيناك بسطت يدك؟ قال: «إن عدو الله إبليس جاء بشهاب من نار ليجعله في وجهي، فقلت: أعوذ بالله منك ثلاث مرات، ثم قلت: ألعنك بلعنة الله التامة، فلم يستأخر - ثلاث مرات- ثم أردت أخذه، والله لولا دعوة أخينا سليمان لأصبح موثقاً يلعب به صبيان أهل المدينة»^(١).

٤- وفي حديث عبد الله بن عمرو رضي الله عنه: أنه سمع النبي ﷺ يقول: «إن سليمان سأل الله ثلاثاً، فأعطاه اثنتين، ونحن نرجو أن تكون لنا الثالثة: سألته حكماً يصادف حكمه فأعطاه إياه، وسألته ملكاً لا ينبغي لأحد من بعده فأعطاه إياه، وسألته أيما رجل يخرج من بيته لا يريد إلا الصلاة في هذا المسجد، خرج من خطيئته كيوم ولدته أمه، فنحن نرجو أن يكون الله تعالى قد أعطانا إياه»^(٢). والمسجد: هو المسجد الأقصى.

تَسْخِيرُ الرِّيحِ وَالشَّيَاطِينِ لِسُلَيْمَانَ

٣٦- ﴿فَسَخَرْنَا لَهُ الرِّيحَ (٣) تَجْرِي بِأَمْرِهِ رُفَاءً حَيْثُ أَصَابَ﴾

سأل سليمان ربه ملكاً له خصوصية متميزة عن كل ملك يأتي بعده، وسأله معجزة دالة على صدق نبوته، فأعطاه الله ملكاً خاصاً لم يتكرر لأحد غيره، وآتاه معجزة دالة على قبول توبته وصحة رسالته تتمثل في تسخير الريح والشياطين له، وهذه خاصية تميّز بها سليمان.

والمعنى: استجبنا لسليمان، وذلّلنا له الريح تسير بإذنه دون اختيار منها إلى الجهة التي يريد، فلا تعاكس وجهه سُفْنَه في توجّهها، فهي تطيعه ولا تخالف ما أراد، رغم قوتها وشدتها.

والريح الرخاء: هي الريح اللينة في هبوبها، تساعد على سير السفن بلا زعزعة ولا اضطراب، كما سخر الله الريح العاصفة أيضاً لسليمان، فقال: ﴿وَلِسُلَيْمَانَ الرِّيحَ عَاصِفَةً تَجْرِي بِأَمْرِهِ إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي بَرَكَتْنَا فِيهَا وَكُنَّا بِكُلِّ شَيْءٍ عَالِمِينَ﴾ [الأنبياء].

(١) «صحيح مسلم» برقم (٥٤٢) والنسائي (١٢١٤).

(٢) «المسند» (١٧٦/٢) من حديث طويل برقم (٦٦٤٤) إسناده صحيح ورجال ثقات (محققوه) وأخرج هذا القدر منه النسائي (٣٤/٢) وابن ماجه (١٤٠٨) وابن حبان (١٦٣٣) والحاكم (٤٣٤/٢) وابن خزيمة (١٣٣٤).

(٣) قرأ أبو جعفر بجمع (الريح)، والباقون بإفرادها.

فتارة تكون له الرياح لينة، وتارة تكون عاصفة، كما أراد، أما سرعتها فهي كما قال تعالى: ﴿وَلِسْلِمَنْ الرِّيحِ غُدُوها شَهْرٌ وَرَوَّاحُها شَهْرٌ﴾ [سبأ: ١٢]. قال تعالى:

٣٧، ٣٨- ﴿وَالشَّيْطِينَ كُلَّ بَنَّاءٍ وَعَوَّاصٍ﴾^(١) ﴿٣٧﴾ وَأَخْرَيْنَ مُقَرَّنِينَ فِي الْأَصْفَادِ ﴿٣٨﴾

والمعجزة الثانية هي تسخير الشياطين لسليمان، للقيام بالأعمال الشاقة التي لا يقوى عليها الإنس، فكان منهم:

١- من يقوم بالحفر وأعمال البناء.

٢- ومنهم من يغوصون في البحار لاستخراج كنوزها.

٣- ومنهم من هو شديد الشكيمة، قويُّ الشرور، لا يعمل إلا تحت حراسة مشددة، وهو مقيد في السلاسل، يؤدي عملاً لا يُحسُّه غيره.

فهذه ثلاثة أصناف من الشياطين المذللة لسليمان، وهو تسخير خارق للعادة على وجه المعجزة.

٤- وهناك تسخير رابع للشياطين في الأمور الروحانية والتصرفات الخفية.

وكل طائفة منهم تُتقن أداء عمل يختلف عن غيرها ﴿وَالشَّيْطِينَ كُلَّ بَنَّاءٍ وَعَوَّاصٍ﴾ ﴿٣٧﴾ أي: وسخرنا لسليمان الشياطين يستعملها فيما يرغب من أعمال: فمنهم البناؤون، الذين يقومون بالمباني العظيمة التي يطلبها منهم سليمان.

ومنهم الغواصون في البحار لاستخراج اللؤلؤ والمرجان وغيرهما من كنوز البحار، كما قال تعالى: ﴿وَمِنَ الشَّيْطِينَ مَنْ يَغُوصُونَ لَكُمْ وَيَعْمَلُونَ عَمَلًا دُونَ ذَلِكَ﴾ [الأنبياء: ٨٢].

ومن الأعمال ما هو دون الغوص في البحار، والصناعة التي بلغت مبلغاً من الإتقان والجودة في عهد سليمان، وناهيك ببناء المسجد الأقصى، والصرح الذي بناه لملكة سبأ، والمدن والقصور والحصون المتعددة، وما لزمها من صناعات وخامات ومواد مختلفة.

ومن الشياطين المسخرين لسليمان -تسخير قهر وإذلال ومهانة- من هم مُقيدون في السلاسل والأغلال لكثرة شرورهم، وخشية تفلتهم فيُصَفَّدون في القيود ليعملوا تحت

(١) ترك البصري (وغواص) فلم يعدها آية، وعدّها غيره.

الحراسة المشددة، وهذا من باب احتكار الصناعات النادرة؛ حتى لا تتسرب إلى ممالك أخرى، كصناعة السيوف، والنبال، والخُود، والبيضات، والدروع والدروق، وسائر آلات الحرب ونحوها، وهذا الاحتكار لمثل هذه الصناعات موجود في كل عصر ومصر. وتصفيد الشياطين يحتمل أن يكون مقصودًا في حد ذاته، وهو لون من التسخير، ويحتمل أن يكون لأداء الأعمال الخاصة؛ حتى لا تنتشر بين الآخرين.

عَطَاءٌ بِلَا حُدُودٍ وَلَا حِسَابٍ

٣٩، ٤٠ - ﴿هَذَا عَطَاؤُنَا فَامْنُنْ أَوْ أَمْسِكْ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٣٩﴾ وَإِنْ لَّمْ عِنْدَنَا لُزْلَفَىٰ وَحُسْنِ مَتَابٍ﴾

أعطى الله سليمان مُلْكًا واسعًا، وسَخَّرَ له الريح والشياطين، وقال له: ﴿هَذَا عَطَاؤُنَا﴾ لك يا سليمان، عطاء واسعًا وافيًا، غير مضيقٍ عليك فيه، وأنت مُطلق اليد فيه بلا حدود ولا قيود، فأعط من شئت، وامنع من شئت، فأنت غير محاسب فيما أعطيت ولا فيما منعت، ولا مؤاخذ فيما مننت أو أمسكت ﴿فَإَمْنُنْ أَوْ أَمْسِكْ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ لا حرج عليك في شيء. قال الحسن: ما أنعم الله تعالى على عبد نعمة إلا كان عليه فيها تبعة، إلا سليمان، فإنه إن أعطى أجر، وإن لم يُعط لم تكن عليه تبعة^(١).

ومع هذا العطاء الواسع، وحرية التصرف فيما يملك، فقد كان سليمان يأكل الخشخاش، ويُطعم أبناء البر، ويُطعم الضيف والفقير ما صُنِعَ من الدقيق الفاخر.

وبينما كانت الريح تحمله، والطيور تظله، والجن والإنس حوله ذات يوم إذ لصق ثيابه ببدنه، ف شعر في نفسه بشيء من الزهو، فوضعت الريح على الأرض، قائلة له: إنا أمرنا أن نطيعك ما أطعت الله^(٢).

كأن مجرد الإحساس الداخلي بلذة النعيم، فيه لون من اللمم بالنسبة للأنبياء.

ولذا: فإن النبي ﷺ لَمَّا جلس في ظل شجرة، وأكل تمرًا وشرب من ماء القربة، قال: «تمرٌ، وظل بارد، وماء بارد، والله لتسألن عن هذا النعيم»، أي: سؤال شكر على النعمة.

(١) «تفسير الخازن» (٤/٤٢).

(٢) من كتاب «الطريق إلى الله» لأبي سعيد الخراز.

لقد عاش سليمان مدة حياته يُدير مُلكه ويتصرف فيه بسلطانه حتى جاءه الموت وهو متكئ على عصاه، فوق من فوق كرسيه، وهو لم يزل يسخر الجن والإنس لأمره ﴿فَلَمَّا خَرَّ تَبَيَّنَتْ الْجِنُّ أَنْ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ الْغَيْبَ مَا لَبِثُوا فِي الْعَذَابِ الْمُهِينِ﴾ [ص: ١٤].

وفي الأثر: أن النبي ﷺ لَمَّا خُيِّرَ بين أن يكون عبداً رسولاً، أو مَلِكاً نبياً، يعطي من يشاء ويمنع من يشاء بلا حساب ولا جُنَاح، فاستشار جبريل، فقال: تواضع، فاخترت المنزلة الأولى؛ لأنها أرفع قدراً عند الله وأعلى منزلة في المعاد، وإن كانت المنزلة الثانية وهي النبوة مع الملك عظيمة أيضاً في الدنيا وفي الآخرة.

ومع ما أنعم الله به على سليمان في الدنيا، فقد وعده في الآخرة منزلة عالية وقربى من الله ﷻ، وحُسن مرجع ومصير إليه، وتلك درجة عظيمة من التكریم والرضى والإنعام.

الْقِصَّةُ الثَّالِثَةُ فِي هَذِهِ السُّورَةِ: قِصَّةُ أَيُّوبَ عَلَيْهِ السَّلَامُ

٤١ - ﴿وَاذْكُرْ عَبْدًا أَيُّوبَ إِذْ نَادَى رَبَّهُ أَنِّي مَسْنِي^(١) الشَّيْطَانُ يَصْبِي^(٢) وَعَذَابِي^(٣)﴾

هذا هو المثل الثاني الذي ذُكر للنبي ﷺ؛ كي يتأسى به في الصبر على أذى قومه، فالمثل الأول ﴿وَاذْكُرْ عَبْدًا دَاوُدَ﴾ والمثل الثاني ﴿وَاذْكُرْ عَبْدًا أَيُّوبَ﴾ فكأن الله تعالى يقول لنبيه ﷺ: اصبر على أذى قومك وسفاهتهم، فإنه لم يكن في الدنيا أكثر نعمة ومالاً وأوسع سلطاناً من داود وسليمان، وقد ابتلي كل منهما بفتنة صبر عليها، فغفر الله ذنبه ورفع قدره.

ولم يكن في الدنيا أعظم بلاء وأكثر محنة من أيوب، وقد صبر على ما ابتلاه الله به، فتأمل أحوالهم ليكون لك فيهم أسوة في الصبر على أذى قومك.

وأيوب عليه السلام هو ابن أموص، ينتهي نسبه بإسحاق بن إبراهيم، وكانت رسالته على الأرجح بين موسى ويوسف، عليهم جميعاً أفضل الصلاة وأتم التسليم.

(١) قرأ حمزة بإسكان الياء من (مسنى الشيطان)، والباقون بفتحها.

(٢) قرأ أبو جعفر بضم النون والصاد من (نصب) وقرأ يعقوب بفتحهما، والباقون بضم النون وإسكان الصاد، وكلها لغات.

(٣) قرأ أبو عمرو وعاصم وحمزة ويعقوب وقبل وابن ذكوان بخلفهما بكسر تنوين (وعذاب) حال وصلها بما بعدها، والباقون بضمه، وكلهم بضم همزة الوصل في الابتداء.

وقد جاء ذكره في القرآن الكريم أربع مرات: البقرة ١٦٣ والأنعام ٨٤ والأنبياء ٨٣ وص ٤١ وكان موطنه أرض عوص جنوب غرب البحر الميت (بحيرة لوط) شمال خليج العقبة. وذكر الطبري وياقوت الحموي: أن مسكنه في (البَثِينِيَّة) بين دمشق وأذرع، أو في ضواحي دمشق^(١).

وقصة ابتلاء أيوب عليه السلام ذائعة مشهورة، تُضرب مثلاً للابتلاء والصبر، ولكنها مشوبة بالكاذب التي تغطي عليها، فمن القواعد المسلّمة أن الله تعالى حَفِظَ أنبياءه من الأمراض المنفّرة، سواء أكانت أمراضاً جسدية أم عصبية أم نفسية، وحَفِظَ عقولهم أن يمسها شيء، وعصمهم من الكذب والخيانة وعدم التبليغ والأمراض المنفّرة.

وقد ابتلى الله أيوب عليه السلام ببعض الأمراض غير المعدية لمدة استغرقت نحو سبع سنوات وأشهر، وقيل: ثماني عشرة سنة^(٢) فصبر عليها، حتى ضُرب به المثل في الصبر، فكانت عاقبته أن رفع الله عنه الضر والبلاء، وأعطاه من خيره وفضله الكثير.

﴿وَاذْكُرْ﴾ يا محمد في هذا الكتاب العظيم، خبر عبدنا الصالح ﴿يُؤْيُوبَ﴾ بأحسن الذكر وأبلغ الثناء ﴿إِذْ نَادَى رَبَّهُ﴾ أي: وقت أن مسه الضر، فصبر عليه، ولم يشتك لغير ربه، ودعاه قائلاً: ﴿إِنِّي مَسَّنِيَ الشَّيْطَانُ بِنُصْبٍ وَعَذَابٍ﴾ أي: تسبب لي الشيطان في ألمٍّ ألمٍّ بجسدي، وتعبٍ ومشقة حلّت بي، قيل: إن النُّصْبَ كان في بدنه، والعذاب كان في ماله وولده، فاستجاب الله دعاءه، فأذهب ما كان به من المرض في جسده وعوّضه بضعف ماله وولده.

وقد نسب ذلك إلى الشيطان، تأدّباً مع الله تعالى، وإلا فإن الصحة والمرض، والغنى والفقر، والسراء والضراء، والخير والشر، كل ذلك بيد الله وحده، وليس للشيطان دور في ذلك إلا بالسوسة.

وفي قوله تعالى: ﴿وَيُؤْيُوبَ إِذْ نَادَى رَبَّهُ إِنِّي مَسَّنِيَ الضُّرُّ وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾ [الأنبياء].

فأسند أيوب المسَّ إلى الضر من باب الأدب مع الله تعالى.

(١) ينظر: أطلس القرآن ص ٩٨ د/ شوقي أبو خليل.

(٢) يُنظَر: الآثار الواردة في ذلك في: «الدر المنثور» (٥٩٦/١٢) وما بعدها، عن قتادة وابن عباس وغيرهما.

والتَّضَبُّبُ: هو التعب والمشقة، والعذاب: هو الألم والمرض، وليس التَّضَبُّبُ والعذاب من الوسوسة ولا من آثارها في شيء.

والمعنى: مسني الشيطان بوسواس وتَضَبُّبٍ وعذاب، وكان قد تسلط المرض على جسده واشتد به الأمر حتى فقد أهله وماله، وعظَّم الشيطان التعب والألم في نفس أيوب عن طريق الوسوسة؛ كي يصل إلى السخط والضجر، وعدم الرضى من أيوب، ولكن هيهات هيهات، فليس للشيطان سبيل على أولياء الله: ﴿إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ﴾ [الحجر: ٤٢].

مِنْ نَعَمِ اللَّهِ تَعَالَى عَلَى أَيُّوبَ:

النَّعْمَةُ الْأُولَى: ذَهَابُ مَرَضِهِ الْجِلْدِيِّ وَالْبَاطِنِيِّ

قال تعالى:

٤٢- ﴿أَرْكَضُ بِرَجْلِكَ هَذَا مَغْسَلٌ بَارِدٌ وَشَرَابٌ﴾

أي: ولمَّا دعا أيوب ربه بعد أن أصابه من الضر ما أصابه، وبعد أن ظهر صدقه وصبره، وفشل الشيطان في محاولاته معه، وسأل أيوب ربه الشفاء، وكشف الضر عنه استجاب الله دعاءه، فأعطاه وصفة العلاج وأرشدته إلى الدواء، وامتنَّ عليه بثلاث نعم:

النعمة الأولى: ذهاب مرضه ظاهراً وباطناً، حيث قال الله له: ﴿أَرْكَضُ بِرَجْلِكَ﴾ أي: اضرب الأرض برجلك ينبع لك منها ماء بارد، فاشرب منه يذهب ما بك من مرض باطني، واغتسل منه يذهب ما بك من مرض جلدي، وقال له: ﴿هَذَا مَغْسَلٌ بَارِدٌ وَشَرَابٌ﴾ ف ضرب أيوب الأرض برجله، فنبع تحتها عين ماء بارد، فشرب واغتسل، فذهب ما به من ضر وأذى، وشفاه الله تعالى.

النَّعْمَةُ الثَّانِيَّةُ: مَتَّعَهُ اللَّهُ بِزَوْجِهِ وَوَلَدِهِ وَزَادَهُ بَنِينَ وَحَفَدَةً

٤٣- ﴿وَوَهَبْنَا لَهُ أَهْلَهُ وَمَثَلَهُمْ مَعَهُمْ رَحْمَةً مِنَّا وَذِكْرَى لِرَأُولَى الْأَلْبَابِ﴾

ثم منحه الله نعمة ثانية، فمتعته بأهله -زوجته وذريته- بعد أن كانوا في حُكْمِ المفقودين بالنسبة له؛ لأن المريض لا ينعم ولا يأنس بأهله، بمقدار ما يَشْعُرُ بذلك وهو صحيح معافى، وقد أبقي الله له أهله، ولم يُصَبْ بشيء يكرهه فيهم، وزاده الله بنين وحفدة بعد

أن عوفي من مرضه ﴿وَوَهَبْنَا لَهُ أَهْلَهُ﴾ أي: أبقيناهم له سالمين من كل سوء ﴿وَمَثَلَهُمْ مَعَهُمْ﴾. أي وأعطيناهم مثلهم في الدنيا، وأغناه الله وأعطاه مالاً كثيراً، وعوضه عن كل شيء مسّه في جسده وأهله وماله وولده.

فيكون المعنى: أننا رزقناه بعد الشفاء أولاداً كعدد الأولاد الذين كانوا معه قبل شفاؤه من مرضه، فصار عددهم مضاعفاً.

وفي كتاب (أيوب) من كتب اليهود أنه قد أصابه تلفٌ في ماله، وهلاك في عياله.

وكل ما منَّ الله به على أيوب كان ﴿رَحْمَةً مِنَّا﴾ به وإكراماً له على صبره، وعبرة وذكرى لأصحاب العقول السليمة ليعلموا أن عاقبة الصبر الفرج وكشف الضر.

وجاء في هذه السورة: ﴿وَذَكِّرْ لِلْأُولَى الْأَلْبَبِ﴾.

وفي قوله تعالى من سورة الأنبياء: ﴿وَذَكِّرْ لِلْعَيْنِينَ﴾ [الأنبياء: ٨٤].

وذلك لبيان أن عاقبة الصبر واحدة، وإن اختلفت دواعيه وأسبابه، والعبرة حاصلة لأهل النظر والاستدلال، كما هي حاصلة للعابدين الممثلين أمر الله تعالى المجتنبين نهيه، فيعلموا أن من صبر على الضر أثابه الله ثواباً عاجلاً وآجلاً، واستجاب دعاءه إذا دعاه.

النِّعْمَةُ الثَّالِثَةُ: التَّيْسِيرُ عَلَى أَيُّوبَ فِي التَّكْفِيرِ عَنْ يَمِينِهِ

٤٤- ﴿وَخُذْ يَدَكَ ضَعْفًا فَاصْرِبْ بِهِ وَلَا تَحْنَثْ إِنَّا وَجَدْنَاهُ صَابِرًا نِعَمَ الْعَبْدِ إِنَّهُ أَوَّابٌ﴾

امتنَّ الله على أيوب بمنة ثالثة، وهي إزالة العائق العائلي بينه وبين زوجته، وذلك أن امرأته كانت قد خرجت في حاجة لها فتأخرت عليه، فأقسم إذا برئ من مرضه ليضربنَّها مئة ضربة.

وقيل: إنه سمع منها ما يفيد الضجر من طول مدة البلاء، فغضب عليها، وقيل غير ذلك في السبب الذي حلف من أجله.

وكان أيوب قد ندم على ما بدر منه، فلما شفي من مرضه أوحى الله إليه أن يضربها

بُحْزَمَةٌ مِنْ عِيدَانِ الْحَشِيشِ، فِيهَا الرُّطْبُ وَالْيَابِسُ، وَهَذِهِ الْحُزْمَةُ فِيهَا مِئَةُ عُودٍ، يَضْرِبُهَا بِهَا ضَرْبَةً وَاحِدَةً تَحْلَةً الْقَسَمِ، أَوْ يَضْرِبُهَا بِقَنْوٍ فِيهِ مِئَةُ شِمْرَاخٍ حَيْثُ لَمْ يَكُنْ فِي شَرِيعَتِهِمْ كَفَارَةٌ الْيَمِينِ، وَهَذِهِ رَخْصَةٌ مِنَ اللَّهِ تَعَالَى رَفَقًا بِأَيُّوبَ وَزَوْجِهِ، وَمُكَافَأَةً لَهُ عَلَى صَبْرِهِ، وَإِكْرَامًا لَهُ لِحَبِّهِ إِيَّاهَا، وَكَانَتْ امْرَأَتُهُ صَابِرَةً مُحْسِنَةً.

أَخْرَجَ الطَّبْرِيُّ بِسَنَدٍ حَسَنٍ عَنْ قَتَادَةَ قَالَ: كَانَتْ امْرَأَةُ أَيُّوبَ قَدْ عَرَضَتْ لَهُ بِأَمْرٍ، وَأَرَادَهَا إِبْلِيسُ عَلَى شَيْءٍ، فَقَالَ: لَوْ تَكَلَّمْتُ بِكَذَا وَكَذَا، وَإِنَّمَا حَمَلُهَا عَلَيْهِ الْجَزَعُ، فَحَلَفَ نَبِيُّ اللَّهِ لَنْ شِفَاهُ لِيَجْلِدَنَّهَا مِئَةَ جَلْدَةٍ، قَالَ: فَأَمْرٌ بَغُضْنٍ فِيهِ تِسْعَةٌ وَتِسْعُونَ قَضِيًّا، وَالْأَصْلُ تَكْمَلَةُ الْمِئَةِ، فَضْرِبُهَا ضَرْبَةً وَاحِدَةً، فَأَبْرَأَ نَبِيُّ اللَّهِ، وَخَفَفَ اللَّهُ عَنْ أُمَّتِهِ، وَاللَّهُ رَحِيمٌ.

وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «بَيْنَا أَيُّوبُ يَغْتَسِلُ غُرْيَانًا فَخَرَّ عَلَيْهِ جَرَادٌ مِنْ ذَهَبٍ، فَجَعَلَ أَيُّوبُ يَحْتَشِي فِي ثَوْبِهِ، فَنَادَاهُ رَبُّهُ: يَا أَيُّوبُ، أَلَمْ أَكُنْ أَغْنِيْكَ عَمَّا تَرَى؟ قَالَ: بَلَى وَعَزَّتْكَ، وَلَكِنْ لَا غَنَى بِي عَنْ بَرَكَتِكَ»^(١).

وَقَدْ رَأَى بَعْضُ الْفُقَهَاءِ أَنَّ هَذَا الْحُكْمَ خَاصٌّ بِأَيُّوبَ، وَرَأَى آخَرُونَ أَنَّهُ حُكْمٌ عَامٌّ يَتَعَدَّى إِلَى غَيْرِهِ، وَهَذَا مَبْنِيٌّ عَلَى أَنَّ شَرْعَ مَنْ قَبْلُنَا هَلْ هُوَ شَرْعٌ لَنَا أَمْ لَا؟ فَمَنْ قَالَ بِالْأَوَّلِ عَمَمَ الْحُكْمِ، وَمَنْ قَالَ بِالثَّانِي جَعَلَهُ خَاصًّا بِأَيُّوبَ لَا يَتَعَدَّى إِلَى غَيْرِهِ.

وَاللَّهُ تَعَالَى شَرْعٌ لَنَا كَفَارَةُ الْيَمِينِ الَّتِي لَمْ تَكُنْ فِي شَرْعِ أَيُّوبَ، فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَكَفَّرْنَاهُ بِإِطْعَامِ عَشْرَةِ مَسْكِينٍ مِنْ أَوْسَطِ مَا تُطْعَمُونَ أَهْلِيكُمْ أَوْ كِسْوَتُهُمْ أَوْ تَحْرِيرُ رَقَبَةٍ فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ﴾ [المائدة: ٨٩].

وَفِي الْحَدِيثِ: عَنْ أَبِي مُوسَى رضي الله عنه أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «إِنِّي وَاللَّهُ -إِنْ شَاءَ اللَّهُ- لَا أَحْلِفُ عَلَى يَمِينٍ فَأَرَى غَيْرَهَا خَيْرًا مِنْهَا إِلَّا كَفَرْتُ عَنْ يَمِينِي، وَأَتَيْتُ الَّذِي هُوَ خَيْرٌ»^(٢).

وَفِي حَدِيثِ أَبِي أَمَامَةَ رضي الله عنه: أَنَّ رَجُلًا كَانَ مَرِيضًا بِمَرَضٍ مُضْنٍ، فَدَخَلَتْ عَلَيْهِ جَارِيَةٌ فَهَشَّتْ لَهَا، فَوَقَعَ عَلَيْهَا، فَاسْتَفْتَوْا لَهُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ وَقَالُوا: لَوْ حَمَلْنَاهُ إِلَيْكَ لَتَفْسَخْتَ عِظَامَهُ، مَا هُوَ إِلَّا جِلْدٌ عَلَى عَظْمٍ، فَأَمَرَ رَسُولُ اللَّهِ أَنْ يَأْخُذُوا لَهُ مِئَةَ شِمْرَاخٍ، فَيَضْرِبُوهُ

(١) «صحيح البخاري» برقم (٢٧٩، ٣٣٩١، ٧٤٩٣).

(٢) من حديث طويل في البخاري برقم (٣١٣٣، ٦٧٢١) ومسلم (١٦٤٩).

بها ضربة واحدة. أخرجه أبو داود^(١).

وقد أُجيب عن هذا الحديث بأن هذا الحكم كان خاصاً بهذا الرجل؛ لأنه قد بلغ به من المرض المضني بحيث لا يتحمل إقامة الحد، فلو حَمَلوه لتَفَسَّخت عظامه، ومن المتوقع أن يكون المرض قد أخل بعقله إخلالاً لا يتحكم معه من نفسه، والحديث من أخبار الآحاد، لا يؤخذ منه الأحكام.

قال مالك: هذه فتوى خاصة بأيوب أفتى الله بها نبياً، أي: قلنا لأيوب خذ بيدك حزمة من الشماريخ، فيها مئة شمرّوخ فاضرب بها زوجك ضربة واحدة لتبرّ يمينك فلا تحنث فيه، إنا وجدنا أيوب عبداً صابراً على البلاء، محتسباً أجره عند ربه ﴿نَعَمْ الْعَبْدُ﴾ أيوب ﴿إِنَّهُ أَوَّابٌ﴾ أي: رجّاع إلى طاعة الله، كثير الإنابة إليه.

قال سفيان: أثنى الله على عبدّين ابْتِلياً: أحدهما صابر، والآخر شاكِر، ثناءً واحداً، فقال لأيوب ولسليمان: ﴿نَعَمْ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ﴾.

لقد أكمل أيوب مراتب العبودية في حال السراء والضراء، والشدة والرخاء، وكان كثير الرجوع إلى ربه في مطالبه الدينية والدنيوية.

ثَلَاثَةٌ آخَرُونَ مِنَ الرُّسُلِ أَثْنَى اللَّهُ عَلَيْهِمْ بِثَلَاثِ صِفَاتٍ الصِّفَةُ الْأُولَى: أَنَّهُمْ أَهْلُ قُوَّةٍ وَبَصِيرَةٍ

٤٥- ﴿وَإِذْ كُنَّا عَبْدًا﴾ (٢) ﴿إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ أُولَى الْأَيْدِي وَالْأَبْصَارِ﴾ ﴿٥٥﴾

ولما ذكر سبحانه قصة ثلاثة من رسل الله بشيء من التفصيل، وهم: داود، وسليمان، وأيوب ليتأسى بهم النبي ﷺ في صبرهم على البلاء، ذَكَرَ بعدهم باختصار شديد ثلاثة آخرين من رسل الله ليتأسى بهم النبي ﷺ أيضاً في الصبر على البلاء، وهم: إبراهيم،

(١) بتصحیح الألباني في صحيح سنن أبي داود برقم (٣٧٥٤) عن أبي أمامة بن سهل بن حنيف وفي سنن أبْنِ ماجه برقم (٢٥٧٤) وصحيح ابن ماجه (٢٠٨٧) عن سعيد بن سعد بن عبادة.

(٢) قرأ ابن كثير بإفراد (عبادنا) على أنه اسم جنس، و(إبراهيم) بدل أو عطف بيان، وقرأ الباقر بالجمع، والمراد: الرسل الثلاثة: إبراهيم وإسحاق ويعقوب، و(إبراهيم) وما عطف عليه بدل أو عطف بيان.

وابنه إسحاق، وحفيده يعقوب، وقد وصفهم ربنا بأنهم أصحاب قوة في الطاعة وإقامة لهذا الدين، وأهل بصيرة في دينهم ومعرفة بحقائق الأمور.

ومن لم يتبصر في دينه ويعمل لآخرته، فهو كالمريض الذي لا يقوى على أعمال عقله وجوارحه، وفي هذا ذم وتعريض بمن لا يعمل لآخرته، ولا يجاهد بفكره، كهؤلاء الرسل الذين وُصفوا بالقوة والبصيرة، وصبروا على المحن والبلاء.

فقد صبر إبراهيم على أذى قومه وإلقائه في النار، وابتلي بذبح ولده الوحيد.

واشترك ابنه إسحاق وحفيده يعقوب معه في الفضائل، وصبر يعقوب على فقد ولده وبصره، وقد أمر النبي ﷺ أن يتأسى بهم في صبرهم وابتلائهم.

الصِّفَةُ الثَّانِيَّةُ:

أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى نَزَعَ مِنْ قُلُوبِهِمْ حُبَّ الدُّنْيَا وَزَرَعَ فِيهَا حُبَّ الْآخِرَةِ

٤٦- ﴿إِنَّا أَخْلَصْنَاهُمْ بِخَالِصَةٍ^(١) ذِكْرَى^(٢) الدَّارِ ﴿٤٦﴾﴾

أثنى الله - سبحانه - على رسله، فقال: ﴿إِنَّا أَخْلَصْنَاهُمْ﴾ أي: إنا خصصناهم بخاصة عظيمة جليلة، حيث جعلنا ذكرى الدار الآخرة في قلوبهم، فعملوا لها بطاعتنا، ودعوا الناس إليها، وذكروهم بها، فهم لا ينسون الآخرة؛ لأنها محل همهم واهتمامهم، وهم لا يقبلون على الدنيا ولا يلتفتون لها، فتتج عن ذلك أن هؤلاء الرسل كانت طاعتهم وعبادتهم خالصة لله تعالى، متبعين لأمره، مجتنبين لنهيه، بسبب أنهم جعلوا الدار الآخرة وما فيها من ثواب وعقاب، نصب أعينهم ليفوزوا بالنعيم المقيم.

ومعنى أخلصناهم: طهرناهم من درن النفوس، فصارت نفوسهم نقية من العيوب العارضة للبشر، وهذه هي عصمة النبوة، إنهم عباد أخلصهم الله له، حيث أسند هذا الإخلاص له سبحانه في قوله: ﴿أَخْلَصْنَاهُمْ﴾ فهي عناية إلهية يخصص الله بها من اصطفى من

(١) قرأ نافع وأبو جعفر وهشام بخلف عنه بحذف تنوين (بخالصة) مضافاً لما بعده، وقرأ الباقون بالتنوين وعدم الإضافة، وهو الوجه الثاني لهشام.

(٢) قرأ الأزرق بترقيق راء (ذكرى الدار) حالة الوصل، وله الترقيق مع التقليل في الوقف.

خلقه، فتتنصرف النفس إلى الخير المحض، ويتنزع منها غلبة الهوى والشر، فلا يبقى فيها إلا شيء من اللمم، والتزعات الخفيفة التي تُقلع عنها النفس بمجرد حصولها في الخاطر، كما قال ﷺ: «إنه ليُغان على قلبي فأستغفر الله في اليوم مئة مرة»^(١).

وأساس هذه العصمة هو الوحي الإلهي الذي يتعهد الرسل ويوقظهم، ويجنبهم الوقوع فيما نهى الله عنه، فيصل إلى ثمرة التكليف وهي التقوى، ويحصل لهم ملكة تمنعهم من المعاصي. ولما اصطفى الله الرسل واختارهم، أفردهم بخصلة من خصال الخير، فنزع من قلوبهم حب الدنيا وزرع فيها حب الآخرة.

وقد فسر الله تعالى هذه الخاصية بأنها ﴿ذَكَرَى الدَّارَ﴾ أي أن الله تعالى جعل ذكر الدار الآخرة في قلوبهم، مليء سمعهم وأبصارهم، وأخلصوا لها، وراقبوا الله تعالى في سرهم وجهرهم، فهمهم هو العمل للآخرة، بل وإخلاص العمل لها دون غيرها كما قال تعالى: ﴿وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ﴾ [الفصل] وقال سبحانه: ﴿وَلِلَّهِ رَبِّكَ فَارْغَبْ﴾ [الشرح].

الصفة الثالثة: أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى اصْطَفَاهُمْ وَاخْتَارَهُمْ مِنَ الْبَشَرِ

٤٧ - ﴿وَإِنَّهُمْ عِنْدَنَا لَمِنَ الْمُصْطَفَيْنَ الْأَخْيَارِ﴾ [٤٧]

ثم أثنى سبحانه على رسله بثناء آخر، فبين أنهم لما اصطفاهم الله تعالى لحمل رسالته، وتبليغ دعوته، جعلهم يُفَضَّلُونَ غيرهم في المناقب الحميدة، والصفات الكريمة، فهم صفوة الخلق الذين اجتباهم الله وهداهم، فهم متصفون بكل خُلق كريم وعمل مستقيم، قال تعالى: ﴿اللَّهُ يَصْطَفِي مِنَ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا وَمِنَ النَّاسِ﴾ [الحج: ٧٥].

وقال سبحانه: ﴿وَاجْنِبْنَاهُمْ وَهَدَيْنَاهُمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ [الأنعام: ٨٧].

فهم الذين أنعم الله عليهم فاجتباهم وهداهم.

(١) من حديث الأغرّ المزنّي في «صحيح مسلم» برقم (٢٧٠٢).

وَهُؤُلَاءِ ثَلَاثَةٌ آخَرُونَ مِنَ الرَّسُلِ الْأَخْيَارِ

٤٨- ﴿وَأَذْكُرْ إِسْمَاعِيلَ وَالْيَسَعَ^(١) وَذَا الْكِفْلِ وَكُلٌّ مِنَ الْأَخْيَارِ ﴿٤٨﴾﴾

أعقب ﷺ الرسل الثلاثة السابق ذكرهم بثلاثة آخرين هم: إسماعيل، واليسع، وذو الكفل. وإسماعيل هو ابن إبراهيم، ولم يُذكر مع أبيه وأخيه إسحاق في الآيات السابقة إشارة إلى أنه جد الأمة العربية، وأنه انفرد بها، وأصبح أصلاً للعرب.

كما أن فرع إبراهيم الآخر - وهو إسحاق - قد انفرد ابنه يعقوب بأصل بني إسرائيل. أما (اليسع) فهو ابن أخطوب، استخلفه إلياس من بعده على بني إسرائيل لمقاومة ملوك بني إسرائيل عن عبادة الأصنام، ولم يكن منهم، وبقي يدعوهم إلى عبادة الله تعالى إلى أن مات، ودُفن في السامرة سنة ٨٤٠ قبل الميلاد، فكان (اليسع) بالنسبة لبني إسرائيل كإسماعيل بالنسبة للعرب، وقد عُطف (اليسع) على (إسماعيل) في الآية؛ لأن اليسع كان في إعنته لإلياس كإعانة إسماعيل لإبراهيم.

وذكر اليسع في القرآن مرتين، في الأنعام (٨٦) وفي ص ٤٨.

وذو الكفل هو ابن أيوب بعثه الله بعد أبيه، وكان مقيماً بالشام، في جبل قاسيون المطل على مدينة دمشق من جهة الشمال^(٢).

وهو من أنبياء بني إسرائيل، وسُمّي كذلك؛ لأنه تكفل أن يقوم بالطاعات فوقى.

وذكر ذو الكفل في القرآن مرتين، في الأنبياء (٨٥) وفي ص (٤٨).

أما عطف ذي الكفل على إسماعيل فلأنه مماثل له في صفة الصبر، كما قال تعالى: ﴿وَأِسْمَاعِيلَ وَإِدْرِيسَ وَذَا الْكِفْلِ كُلٌّ مِنَ الصَّابِرِينَ ﴿٨٥﴾﴾ [الأنبياء].

(١) قرأ حمزة والكسائي وخلف (وَالْيَسَعَ) أصلها لَيْسَعَ كَصَيْغَم، وقُدر تنكيره، فدخلت عليه لام ال التعريف، ثم أدمغت اللام في اللام، وقرأ الباقون (وَالْيَسَعَ) أصله يَسَعَ على وزن يضع ثم دخلت عليه الألف واللام.

(٢) أطلس القرآن ص ١٠٠ د/ شوقي أبو خليل.

والمعنى: اذكر يا محمد هؤلاء الأنبياء جميعاً، بأحسن الذكر، وأثن عليهم أحسن الثناء، واقتد بهم في الصبر، وتحمل الأذى في سبيل الله، فكلهم من الأخيار الأطهار الذين اختارهم الله من خلقه، واختار لهم أكمل الأحوال وأتم الصفات، وأجمل الخصال، وأفضل الأخلاق.

مَشْهُدُ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَاتِ النَّعِيمِ

٤٩- ﴿هَذَا ذِكْرٌ وَإِنَّ لِلْمُتَّقِينَ لَحُسْنَ مَكَابٍ ﴿٤٩﴾﴾

أشار سبحانه إلى ما سبق ذكره من قصص الأنبياء السابقين، فبين أن الذي قصصناه عليك -يا محمد- من سيرة الرسل الكرام، ذكر جميل لهم في الدنيا، وشرف يُذكرون به في العالمين، يقصد به التذكر والاعتبار والافتداء بهم، فقال تعالى: ﴿هَذَا ذِكْرٌ﴾، في هذا القرآن ذكر لأهل الذكر، يتذكر بأحوالهم المتذكرون، ويقتدى بأوصافهم الحميدة المقتدون.

ويحتمل أن تعود الإشارة إلى القرآن المذكور في الآية السابقة ﴿كَتَبْنَا أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبْرَكٌ لِيَذَّبُوا عَنْتَهُمْ وَلِيَذَّكَّرَ أُولُوا الْأَلْبَابِ ﴿٤٩﴾﴾ على معنى: أن هذا القرآن ذكر وشرف لك أيها النبي ولقومك، وهو مبتدأ وخبر، وقد ذكر الخبر وهو ﴿ذِكْرٌ﴾ للاهتمام بتعيينه. وهذه الجملة للفصل بين الكلام السابق والآتي، يؤتى بها قصداً للانتقال بالكلام من غرض إلى غرض، وهي مثل جملة (أما بعد).

وقد يحذف الخبر كما في قوله تعالى: ﴿ذَلِكَ وَمَنْ يُعِظْ شَعْبًا اللَّهُ﴾ [الحج: ٣٢].

ومنه الآية التالية: ﴿هَذَا وَإِلَى الظَّالِمِينَ لَشَرٌّ مَكَابٍ ﴿٥٠﴾﴾.

ثم بين سبحانه بعد جملة الفصل أن للمتقين في الآخرة منزلاً كريماً يرجعون إليه عند ربهم، فيجدون ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر، فقال: ﴿وَإِنَّ لِلْمُتَّقِينَ لَحُسْنَ مَكَابٍ﴾ أي: وإن لكل متق لله، مطيع لرسله لحسن مرجع ومصير إلينا.

مَجْلِسُ أَهْلِ الْجَنَّةِ وَطَعَامُهُمْ وَشَرَابُهُمْ

٥٠، ٥١- ﴿جَنَّاتٍ عَدْنٍ مُّفْتَحَةٌ لَهُمْ الْأَنْبَابُ ﴿٥٠﴾ مُّكَبَّرِينَ فِيهَا يَدْعُونَ فِيهَا بِفَكَهَةٍ كَثِيرَةٍ وَشَرَابٍ﴾

ثم فصل سبحانه ما أعده لأهل تقواه في الآخرة من نعم، وهو من أجل أنواع الذكر،

أي: أن هؤلاء المتقين -بعد أن أكرمناهم في الدنيا بالذكر الحسن والثناء الجميل- نُكرمهم في الآخرة بأن ندخلهم جنات يقيمون فيها دائماً يتمتعون بالنعيم المقيم، وليسوا بخارجين منها ولا بمخرجين عنها، قد فُتحت لهم أبوابها الثمانية، من باب الحفاوة والتكريم، انتظاراً لقدومهم، فلا يحتاجون إلى من يفتحها لهم.

فإن الملائكة الموكلون بالجنات إذا رأوا المؤمنين فتحو لهم أبوابها وحيَّوهم بالسلام، ويدخلون الجنة، تحفهم الملائكة في أعز حال وأجمل هيئة^(١).

ثم وصف الله تعالى مجالس أهل الجنة وطعامهم وشرابهم وزوجاتهم، وهذه الأحوال الثلاثة هي أسس الحياة، فوصف الله تعالى مجالسهم وطعامهم بأنهم يجلسون في الجنات جلسة آمنة مطمئنة، يستندون على الأرائك المريحة المزينة، والمزخرفة، يطلبون ما لذ وطاب من أنواع الفواكه الكثيرة والمشارب العديدة وغيرهما فتجاب مطالبهم في الحال.

وهم في الجنة يتكئون على السرر الوفيرة، ويطلبون ألوان الطعام والشراب كعادة الملوك في الدنيا، فتأتيهم الخدم بكل ما يشتهون، وهذا يدل على كمال النعيم وتمام اللذة، وسعادة المقام، وكمال الراحة والطمأنينة.

واقترنت الآية على الفاكهة؛ لأن طعام أهل الجنة لا يكون عن جوع وتغذية، إنما يكون لمجرد التفكه والتلذذ^(٢).

زَوَاجَاتُ أَهْلِ الْجَنَّةِ: مُتَعَةُ الْخُورِ الْعَيْنِ

٥٢-٥٤ - ﴿وَعِنْدَهُمْ قَاصِرَاتُ الطَّرْفِ أُنْزَابٌ ۝٥٢ هَذَا مَا تُوعَدُونَ ۝٥٣ لَيَوْمِ الْحِسَابِ ۝٥٤﴾ إِنَّ هَذَا لَرِزْقُنَا

مَا لَكُمْ مِنْ نَفَادٍ ۝٥٤﴾

أي: وعند أهل الجنة نساء قاصرات الطرف على أزواجهن، لا ينظرن إلى غيرهم، في خلقهن حياء ودين يردعن أن يتطلعن لغير أزواجهن، فهن قاصرات الطرف.

(١) يُنظَر: «التفسير الكبير» للرازي (٢٦/٢٢١).

(٢) يُنظَر: «حاشية الصاوي على الجلالين» (٣/٣٦١).

(٣) قرأ ابن كثير وأبو عمرو بالياء في (توعدون) بالغيب جرياً على السياق، وقرأ الباقر بتاء الخطاب على الالتفات.

﴿فِيهِنَّ فَصِيرَتُ الظَّرْفِ لَمْ يَطْمِئِنَّ إِشْسُ قَبْلَهُمْ وَلَا جَانٌّ﴾ [الرحمن].

وهنَّ مقصورات على أزواجهن: ﴿حُورٌ مَّقْصُورَاتٌ فِي الْحَيَامِ﴾ [الرحمن].

وهنَّ متساويات في: السن والجمال والشباب، في سن الثالثة والثلاثين، ليس بينهن غيرةٌ، ولا بغضاء ولا تحاسد، فالمراد بلفظ: ﴿أَرْبَابٌ﴾ التساوي في السن والتحابب فيما بينهن ولأزواجهن.

وهذا وصف لا يخص الحور العين، بل هو وصف يشمل جميع نساء أهل الجنة من الحور العين المخلوقات في الجنة، ومن زوجات أهل الجنة اللاتي كنَّ في الدنيا وهنَّ مسلمات، فلا تفاوت بين الجميع في: السن والجمال والشباب.

وكما أن الزوجات لا يتشوّفن ولا ينظرن لغير أزواجهن فكذلك الأزواج مقصورون على أزواجهم لتمام حُسنهن في أنظارهم، وليس في الجنة فضول ولا تجاوز ولا عصيان.

ويقال للمتقين في الجنة: هذا العطاء وهذا النعيم هو الذي وعدكم الله به في الدنيا جزاء إيمانكم وأعمالكم الصالحة، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ﴾ [فصلت].

وقال سبحانه: ﴿مَا عِنْدَكُمْ يَنْفَدُ وَمَا عِنْدَ اللَّهِ بَاقٍ﴾ [النحل: ٩٦].

ووصف الله الجنة بأن عطاءها عطاءً ﴿غَيْرَ مَجْدُوزٍ﴾ [هود: ١٠٨] أي: غير مقطوع ولا ممنوع، كما قال سبحانه: ﴿أَكُلْهَا دَائِمٌ وَظِلُّهَا تِلْكَ عُقْبَى الَّذِينَ اتَّقَوْا وَعُقْبَى الْكَافِرِينَ النَّارُ﴾ [الرعد: ٣٥]. وهو نعيم دائم لا يفني ولا ينفد ولا ينتقص.

أي: وهذا الذي سبق وصفه لكم، هو رزقنا لكم في الجنة لا يزول ولا ينقطع، كلما أخذ منه شيء عاد مثله مكانه، بخلاف رزق الدنيا فإن له مواسم ينقطع فيها، ومواسم يتواجد فيها، والرزق يطلق على أي نعمة يُنعم الله تعالى بها على العبد.

والى هنا ينتهي مشهد المتقين في جنات عدن مفتحة أبوابها، متكئين فيها على السرر، يطلبون فيها ما يشاؤون من الأطعمة والأشربة، ويتمتعون فيها بالحور العين، قاصرات الطرف، متحبيات لأزواجهن، وهذا هو حسن المآب والمرجع والمصير.

مَشْهَدُ الطَّاعِينَ فِي جَهَنَّمَ وَبُئْسَ الْمَصِيرُ

٥٦، ٥٥ - ﴿هَذَا وَإِنَّ لِلطَّاعِينَ لَشَرَّ مَثَابٍ ﴿٥٥﴾ جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا فَنَسُوا الْإِهَادُ ﴿٥٦﴾﴾

أما المشهد المقابل لأهل الجنة فهو مشهد أهل جهنم؛ لا يقضي عليهم فيموتوا، ولا يخفف عنهم من عذابها، كلما استوت جلودهم بالنار عادت كما كانت، وهم يصطرخون فيها ويطلبون العودة إلى الدنيا، فيقال لهم: ﴿اخْشَوْا فِيهَا وَلَا تَكْمُلُونَ﴾ [المؤمنون: ١٠٨] فراشهم من نار، وغطاؤهم من نار، طعامهم فيها الزقوم والغسلين والضريع الذي يُغْصُّ في حلوقهم، ولا يسمن ولا يغني من جوع، يتجرعون صديد أهل النار وما يسيل منهم، وشرابهم ماء متناهي الحرارة، كالزيت المغلي يشوي الوجوه ويقطع الأمعاء.

ويبدأ هذا المشهد بكلمة الفصل بين المشهدين وهو لفظ: ﴿هَذَا﴾ وهو اسم إشارة، خبر لمبتدأ محذوف، تقديره الأمر هذا، أو مبتدأ خبره محذوف، أي: هذا للمتقين، وهو بمنزلة (أما بعد) يؤتى به للانتقال من غرض إلى غرض.

فالمعنى: هذا الذي سبق وصفه للمتقين، أما الطغاة الذين تجاوزوا الحد في الكفر والمعاصي فإن لهم يوم القيامة شر مرجع ومصير، فقله تعالى: ﴿وَإِنَّ لِلطَّاعِينَ لَشَرَّ مَثَابٍ﴾ في مقابلة قوله سبحانه: ﴿وَإِنَّ لِلْمُتَّقِينَ لَحَسَنَ مَثَابٍ﴾ وذلك من باب ذكر حال الأشقياء المجرمين بعد حال السعداء المتقين.

أي: وإن للكافرين الذين كذبوا الرسل لشرُّ مُنْقَلَب يصيرون إليه في الآخرة.

والطغيان هو مجاوزة الحد في الكبر والتعاضم من أهل الكفر والشرك؛ لأنهم تكبروا بعظمتهم على قبول الإسلام، وأعرضوا عن دعوته بكبر واستهزاء، وكانوا سبباً في بُعد عامة الناس عن اتّباعه، وهذا أمر حاصل في كل زمان ومكان.

وهكذا كان رؤساء الكفر والضلال في أول الرسالة: أبو جهل، وأمّية بن خلف، وعتبة بن ربيعة، والوليد بن عتبة، والوليد بن المغيرة، والعاص بن وائل، وأضرابهم في كل عصر ومصر.

ثم وصف سبحانه مصير الطغاة في الآخرة، فبيّن سبحانه أن جهنم تستقبلهم بسعيرها ولهبا، فيُلْقَوْنَ فيها، ويفترشون نارها، وبئس الفراش فراش أهل النار.

والمهاد: فراش النائم. والغواش: غطاؤه، وأهل جهنم يفترون النار، ويلتحفون بها قال تعالى: ﴿لَهُمْ مِنْ جَهَنَّمَ مِهَادٌ وَمِنْ فَوْقِهِمْ غَوَاشٌ﴾ [الأعراف: ٤١].

وقال سبحانه: ﴿لَهُمْ مِنْ فَوْقِهِمْ ظُلَلٌ مِنَ النَّارِ وَمِنْ تَحْتِهِمْ ظُلَلٌ﴾ [الزمر: ١٦].

وقال ﷻ: ﴿يَوْمَ يَغْشَاهُمْ الْعَذَابُ مِنْ فَوْقِهِمْ وَمِنْ تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ﴾ [العنكبوت: ٥٥].

شَرَابُ أَهْلِ النَّارِ وَطَعَامُهُمْ

٥٧، ٥٨ - ﴿هَذَا فَلْيَذُقُوهُ حَمِيمٌ وَغَسَّاقٌ﴾^(١) ﴿وَأَخْرَجْنَا مِنْ شَكْلِهِ أَزْوَاجٌ﴾^(٥٨)

ثم وصف الله سبحانه عذاب أهل النار فقال: ﴿هَذَا﴾ أي: هذا العذاب، حميم وغساق، فليذوقوه، فجملة ﴿فَلْيَذُقُوهُ﴾ معترضة بين المبتدأ وهو اسم الإشارة والخبر، (حميم) والحميم: هو الماء المحرق بالغ الحرارة، وقد جاء وصفه بالمهل يشوي الوجوه ويقطع الأمعاء، قال تعالى: ﴿وَلَنْ يَسْتَغِيثُوا يُغَاثُوا بِمَاءٍ كَالْمُهْلِ يَشْوِي الْوُجُوهَ﴾ [الكهف: ٢٩].

وقال سبحانه: ﴿يُصَبُّ مِنْ فَوْقِ رُءُوسِهِمُ الْحَمِيمُ﴾^(١٩) ﴿يُصْهَرُ بِهِ مَا فِي بُطُونِهِمْ وَالْجُلُودُ﴾^(٢٠) ﴿وَلَهُمْ مَقْلِعٌ مِنْ حَديدٍ﴾^(٢١) ﴿كُلَّمَا أَرَادُوا أَنْ يَخْرُجُوا مِنْهَا مِنْ غَمٍّ أُعِيدُوا فِيهَا﴾ [الحج: ١٩-٢٢].

والغساق: قيح وصدید يسيل من أجساد أهل النار، وهو أكره ما يكون في الشراب، من قيح وصدید، مرُّ المذاق، كرهه الرائحة، أي: أن هذا العذاب هو ماء شديد الحرارة، وصدید يخرج من جلود أهل النار وفروج الزناة، فليشربوه!

ولأهل النار ألوان أخرى يعذبون بها ﴿وَأَخْرَجْنَا مِنْ شَكْلِهِ أَزْوَاجٌ﴾^(٥٨) مماثلة لهذا العذاب في النوع، ومختلفة عنه في ذاته؛ إذ ليس عذابهم مقصوراً على الحميم والغساق، بل لهم أنواع أخرى من العذاب تشبهها في شدتها وفظاعتها: كالزمهرير، والسموم، والزقوم،

(١) قرأ حفص وحمزة والكسائي وخلف بتشديد السين من (وغساق) على أنه صفة، وموصوفه محذوف، والتقدير: وشراب غساق، وهو عصارة أهل النار، والتشديد للمبالغة، وقرأ الباقون بالتخفيف على أنه اسم، وهو الزمهرير، أو صدید أهل النار.

(٢) قرأ أبو عمرو ويعقوب بضم الهمزة مقصورة من (وأخر) هكذا (وأخر) جمع أخرى، وهو ممنوع من الصرف للعلمية والعدل، وقرأ الباقون بالفتح والمد، مفرد ممنوع من الصرف للوصفية ووزن الفعل.

والضريع، والغسلين، .. أصناف وأنواع.

عن أبي سعيد رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «لو أن دُلُومًا من غَسَاقٍ يَهراق في الدنيا لأتتَن أهل الدنيا»^(١).

وقال كعب الأحبار: غَسَاق: عين في جهنم، يسيل إليها كل ذات حُمة، من حية وعقرب وغير ذلك، فيُستَنَقَع، فيؤتى بالآدمي فيغمس فيها غمسة واحدة، فيخرج وقد سقط جلده ولحمه عن العظام، ويتعلق جلده ولحمه في كعبيه وعقبه، ويُجرُّ لحمه كما يجرُّ الرجل ثوبه^(٢).

حَوَارُ أَهْلِ النَّارِ

٥٩- ﴿هَذَا فَوْجٌ مُّقْتَنَجٌ مَعَكُمْ لَا مَرْحَبًا بِهِمْ إِنَّهُمْ صَالُوا النَّارِ ﴿٥٩﴾﴾

هذا مشهد ثالث من مشاهد أهل النار يحكي لنا تخاصم أهل النار فيما بينهم بعد دخولهم النار، وما يدور بين الطغاة وعامة الناس الذين اتبعوهم في الدنيا واقتدوا بهم في الكفر والضلال، فإنهم حين يتواردون على الناس ويلتقون فيها، يشتم بعضهم بعضاً، ويلعن بعضهم بعضاً: ﴿كُلَّمَا دَخَلَتْ أُمَّةٌ لَمَنَتْ أَخْنَبًا﴾ [الأعراف: ٣٨].

ويتبرأ بعضهم من بعض، كما يتبرأ عبدة الأوثان من عبادتهم لها: ﴿ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَمَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُم بَعْضًا﴾ [العنكبوت: ٢٥].

وحين ينظر الطغاة من كبار الجاحدين للتوحيد، المكذبين للرسالة الخاتمة، فيرون فوجاً من أتباعهم، ممن لم يكونوا من طبقتهم، ولا من مستواهم الاجتماعي في الدنيا يرونهم وقد لحقوا بهم في جهنم، وأقحموا معهم فيها، فإنهم يُشِرون إليهم، ويقولون: ﴿هَذَا فَوْجٌ مُّقْتَنَجٌ مَعَكُمْ﴾ أي: هذا جمع كثيف من أتباعكم في الدنيا، قد رمُوا بأنفسهم في النار ودخلوها معكم، فلا أهلاً ولا سهلاً بهم، إنهم سيصلون سعيها مثلنا ﴿لَا مَرْحَبًا بِهِمْ إِنَّهُمْ صَالُوا النَّارِ﴾ يقاسون حرها كما قسوناها، وفي هذا يقول تعالى: ﴿إِذْ تَبَرَّأَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا وَرَأَوْا الْكَذَابَ وَنَقَطَتْ بِهِمُ الْأَسْبَابُ﴾ [البقرة: ١٦٦].

(١) «المسند» (٢٨/٣) برقم (١١٢٣٠، ١١٧٨٦) حديث حسن لغيره، لأن فيه ابن لهيعة، ضعيف والحاكم

(٢/٥٠١) وصحح إسناده بموافقة الذهبي، وانظر «ضعيف سنن الترمذي» (٤٧٩).

(٢) رواه ابن أبي حاتم كما قال ابن كثير (٧/٧٩)، وأبي يعلى (٣١٨١) والبيهقي في البعث والنشور (٥٦٦).

ويصح أن يكون قوله تعالى: ﴿هَذَا فَوْجٌ مُّقْتَحِمٌ مَّعَكُمْ﴾ من كلام خزنة النار لقادة الكفر والضلال، وأن يرد هؤلاء القادة عليهم قائلين: ﴿لَا مَرَجًا بِكُمْ﴾.

وهنا يرد الضعفاء على الطغاة بقلب سبهم وشتمهم إليهم وردّه عليهم:

٦٠- ﴿قَالُوا بَلْ أَنتُمْ لَا مَرَجًا بِكُمْ أَنتُمْ قَدْ مَتَمُّوهُ لَنَا فَيَسَّ الْقَرَارُ ﴿٦٠﴾﴾

أي: لا أهلاً ولا مرحباً بكم، فلا حللتكم أهلاً ولا نزلتم مكاناً سهلاً، وهذه تحية أهل النار فيما بينهم بالشتائم واللعنات، فأنتم الذين تسببتم لنا في الضلال، وأخذتم بأيدينا إليه، فبئس المنزل والمستقر لنا ولكم، نار جهنم.

ويواصل الضعفاء حوارهم مع الطغاة من رؤساء الكفر والضلال:

٦١- ﴿قَالُوا رَبَّنَا مَنْ قَدَّمَ لَنَا هَذَا فَرَدَهُ عَذَابًا ضِعْفًا فِي النَّارِ ﴿٦١﴾﴾

أي: يقول الضعفاء على وجه التشفي من الذين جرّوا عليهم الويلات بإغوائهم لهم والدعاء عليهم: ربنا مَنْ كان سبباً في نزول العذاب بنا فأضلّنا في الدنيا عن الهدى فزده عذاباً مضاعفاً في النار بمضاعفة عقابه.

والذين قدموا لهم ذلك هم القادة من الطغاة السابق ذكرهم في قولهم: ﴿أَنْتُمْ قَدْ مَتَمُّوهُ لَنَا﴾ وهذا كقوله تعالى حكاية عنهم: ﴿وَقَالُوا رَبَّنَا إِنَّا أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكِبَرَاءَنَا فَأَضَلُّونَا السَّبِيلَ ﴿٧٧﴾ رَبَّنَا آتِهِمْ ضِعْفَيْنِ مِنَ الْعَذَابِ وَالْعَنَهُمْ لَعْنًا كَبِيرًا ﴿٧٨﴾﴾ [الأحزاب]. وقوله أيضاً: ﴿قَالَتْ أُخْرِيَهُمْ لِأُولَئِهِمْ رَبَّنَا هَؤُلَاءِ أَضَلُّونَا فَآتِهِمْ عَذَابًا ضِعْفًا مِنَ النَّارِ﴾ [الأعراف: ٣٨].

وفي النار يفتقد رؤساء الكفر ضعاف المسلمين فيسألون عنهم:

٦٢- ﴿وَقَالُوا مَا لَنَا لَا نَرَى رِجَالًا كُنَّا نَعُدُّهُمْ مِنَ الْأَشْرَارِ ﴿٦٢﴾﴾

لقد كان هؤلاء الطغاة يحقرون ضعفاء المسلمين، ويسخرون منهم في الدنيا، ويحسبونهم أشقياء، ويقولون عنهم: قد خسروا لذة الدنيا باتباعهم الإسلام، ورضاهم بشظف العيش، وكان منهم في صدر الإسلام: بلال، وعمار، وصهيب، وخبيب، وغيرهم.

وبعد أن يدخل أئمة الكفر النار تدور أعينهم وتتقلب فيها، فلا يرون فيها هؤلاء الضعفاء الذين كانوا يستهزئون بهم في الدنيا، فيقولون على سبيل التحسر والتعجب وهم

في النار: ﴿مَا لَنَا لَا نَرَىٰ رِجَالًا﴾ من فقراء المسلمين وضعفائهم ﴿كُنَّا نَعُدُّهُمْ﴾ في الدنيا استهزاء بهم ﴿مِنَ الْأَشْرَارِ﴾ الأشقياء الفقراء، وسموهم أشراراً لأنهم يخالفونهم في دينهم، وكنا نظن أن سعيد الدنيا سعيد الآخرة، وشقي الدنيا المحروم من نعيمها، هو أيضاً شقي الآخرة، كما قال أحدهم: ﴿وَلَكِنْ رُودَتْ إِلَىٰ رَبِّي لِأَجْدَنَ خَيْرًا مِنْهَا مُنْقَلَبًا﴾ [الكهف: ٣٦]، وقال آخر: ﴿وَلَكِنْ رُجِعْتُ إِلَىٰ رَبِّي إِنَّ لِي عِنْدَهُ لَلْحُسْنَىٰ﴾ [فصلت: ٥٠].

لقد تلفت الطغاة في النار يميناً وشمالاً، ودارت أعينهم فيها فلم يجدوا هؤلاء الفقراء من المسلمين، ولما افتقدوهم في النار عرفوا أنهم في الدرجات العلى، كما قال تعالى عن أهل الأعراف: ﴿أَهَؤُلَاءِ الَّذِينَ أَقْسَمْتُمْ لَا يَنَالُهُمُ اللَّهُ بِرَحْمَةٍ ادْخُلُوا الْجَنَّةَ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمْ وَلَا أَنْتُمْ تَحْزَنُونَ﴾ [الأعراف: ٤٩]، وعندئذ يقول أئمة الكفر:

٦٣- ﴿اتَّخَذْنَاهُمْ^(١) سِخْرِيًّا^(٢) أَمْ زَاغَتْ عَنْهُمْ الْبَصَرُ﴾ [١٦]

هل كان تحقيرنا لفقراء المسلمين واستهزاؤنا بهم خطأ؟ هذا احتمال، فكنا نزعم أنهم من الأشرار، وفي الواقع أنهم من الأخيار، وهذا كقوله تعالى ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا فَرِيقٌ مِّنْ عِبَادِي يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّاحِمِينَ﴾ [١٥٩] فَاتَّخَذْتُمُوهُمْ سِخْرِيًّا حَتَّىٰ أَنْسَوَكُمُ ذِكْرِي وَكُنْتُمْ مِنْهُمْ تَضْحَكُونَ [١٦٠] إِنِّي جَزَيْتُهُمُ الْيَوْمَ بِمَا صَبَرُوا إِنَّهُمْ هُمُ الْفَآئِرُونَ﴾ [المؤمنون]

والاحتمال الآخر: أنهم موجودون معنا في النار، -على حدّ زعمهم- ولكن أبصارنا لم تقع عليهم؟ وفي هذا إشارة إلى أنهم لم يكونوا في الدنيا أهلاً للسخرية والاستهزاء، إنهم يتحسرون على أحوالهم البائسة بعد أن وجدوا أنفسهم في النار، ولم يجدوا معهم من كانوا يسخرون منهم في الدنيا.

فقسموا أمرهم بين أن يكونوا إما من أهل الجنة، أو من أهل النار، إلا أنه خفي عليهم مكانهم^(٣).

(١) قرأ نافع وابن كثير وابن عامر وعاصم وأبو جعفر بهمزة قطع مفتوحة وصلًا وابتداءً من (اتخذناهم) على الاستفهام، وقرأ الباقون بهمزة وصل تحذف وصلًا وتثبت بدءًا، مكسورة على الخبر.

(٢) قرأ نافع وحزمة والكسائي وأبو جعفر وخلف بضم السين من (سخريًّا) والباقون بكسرها وهما لغتان بمعنى واحد وهو الاستهزاء، وقيل: الضم بمعنى: الاستخدام بغير أجر، والكسر بمعنى: الاستهزاء.

(٣) من «تفسير النسفي» للآية.

قال ابن عباس ؓ: يريدون أصحاب محمد ﷺ، يقول أبو جهل: أين بلال؟ أين صهيب؟ أين عمار؟ أولئك في الفردوس، واعجباً لأبي جهل! مسكين، أسلم ابنه عكرمة، وابنته جويرية، وأسلمت أمه، وأسلم أخوه، وكَفَرَ هو^(١)

والآية عامة في كل من ينطبق عليه الوصف، قال تعالى:

٦٤- ﴿إِنَّ ذَلِكَ لَحَقٌّ تَخَاصُمُ أَهْلِ النَّارِ﴾

وفي نهاية هذا المشهد يقرر سبحانه: أن هذا الذي يكون بين أهل الجنة وأهل النار من الجدل والخصام حق واقع يوم القيامة لا مرية فيه، أخبر به أصدق القائلين، وسماء الله تخاصماً؛ لأن ما دار بين الأقوياء والضعفاء من قول بعضهم لبعض: ﴿لَا مَرَجًا بَيْنَهُمْ﴾ وقولهم: ﴿بَلْ أَنْتُمْ لَا مَرَجًا بَيْنَهُمْ﴾ من باب الخصومة، وأضيف التخاصم إلى أهل النار؛ لأن أغلب المعذبين في النار من أهل الضلال في العقيدة، أو من أتباعهم الذين قلدوهم، وهو وصف خاص بالمشركين المخلدين في النار، وأهل النار هم المخلدون فيها، لا يخرجون منها ولا يخفف عنهم من عذابها.

مُهْمَةُ النَّبِيِّ ﷺ هِيَ الْإِنذَارُ وَالِدَّعْوَةُ إِلَى التَّوْحِيدِ

٦٥- ﴿قُلْ إِنَّمَا أَنَا مُنذِرٌ وَمَا مِن إِلَهٍ إِلَّا اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ﴾

ويرتبط آخر السورة بأولها، ففي أول السورة قال الكفار عن محمد ﷺ: ﴿سِحْرٌ كَذَّابٌ﴾ واعترضوا على التوجه بالعبادة إلى إله واحد، فقالوا: ﴿أَجْعَلِ الْأَلِهَةَ إِلَهًا وَاحِدًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ﴾.

وهنا تقرر السورة قضايا القرآن المكي الثلاث، وهي: التوحيد، والوحي، والبعث.

﴿قُلْ﴾ - يا أيها الرسول - لمن يعجبون أن يكون الإله المعبود إلهاً واحداً، وقل لمن كذبوك ووصفوك بالسحر واتهموك بالكذب، قل لهم إن طلبوا منك ما ليس لك ولا بيدك: إنما وظيفتي هي الإنذار والتخويف لمن جحد التوحيد، وأعرض عن الوحي المنزل من عند الله: ﴿إِنَّمَا أَنَا مُنذِرٌ﴾ رسول من رب العالمين، أنذركم وأخوفكم عذاب الله أن يحل

(١) «تفسير القرطبي» (١٥/٢٢٤).

بكم إن لم تؤمنوا بإلله الواحد والرسول الخاتم، هذا نهاية ما عندي، آمركم وأنهاكم، وأحثكم على الخير، وأنهاكم عن الشر، فمن اهتدى فلنفسه ومن ضل فعليها، وليس لهذا الوجود سيد إلا الله، وكل ما في الكون مخلوق لله تعالى، وليس هناك إله مستحق للعبادة إلا الله وحده، فهو الواحد في خلقه، القهار الذي قهر كل شيء وغلبه، فقلوه سبحانه: ﴿إِنَّمَا أَنَا مُنذِرٌ﴾ يقابل قولهم: ﴿هَذَا سَجَرٌ كَذَابٌ﴾ وقوله سبحانه: ﴿وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلَّا اللَّهُ﴾ يقابل قولهم: ﴿أَجْعَلِ الْآلِهَةَ إِلَهًا وَاحِدًا﴾.

وفي صفة القهار تعريض بتهديد المشركين أن الله تعالى قادر على قهرهم وغلبتهم، كما قال تعالى: ﴿وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ﴾ [الأنعام: ١٨].

وهذا برهان قاطع ودليل ساطع على وحدانية الله تعالى، فهو القاهر لكل شيء، وهو الواحد الذي لا نظير له ولا شريك وهو الذي يستحق أن يعبد وحده.

وقد وصف الله نفسه في هذه الآية بصفتي: الواحد القهار.

ثم وصف نفسه بثلاثة أوصاف أخرى، تقرر ربوبية الله سبحانه فقال:

٦٦- ﴿رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا الْعَزِيزُ الْغَفُورُ﴾

أتبع سبحانه صفتي الواحد القهار لله تعالى بثلاثة أوصاف أخرى هي: الرب، العزيز، الغفار، وهذه الصفات الخمس جاءت بعد قوله تعالى: ﴿وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلَّا اللَّهُ﴾ وذلك لنفي كل شريك مع الله تعالى في ذاته وصفاته، أو في خلقه لهذا الكون، وهيمته عليه، أو في رحمته وغفرانه، فهو سبحانه خالق هذا الكون ومالكه ومربيه ومدبر أمره ﴿الْعَزِيزُ﴾ في انتقامه، وهو القوي الذي خلق هذا الكون بما فيه ﴿الْغَفُورُ﴾ لذنوب من تاب وأناب إلى مرضاته تعالى.

وفي صفة ﴿الْغَفُورُ﴾ حث للمشركين والمكذابين على رجوعهم للحق.

ومجيئها بعد صفة ﴿الْقَهَّارُ﴾ من باب الترغيب بعد التهيب، فلو بقي الإنسان على كفره عُمره كله، ثم تاب منه قبل أن يغرغر قَبْلَ الله توبته وكتبه في ديوان الموحدين.

قال الفخر الرازي: لما ذكر أنه (قهار) -وهذا مشعر بالتهيب والتخويف- أُرْدِفَ بما يدل على الرجاء والترغيب، وذكر ثلاث صفات دالة على الرحمة والفضل والكرم، وهي:

الرب، والعزیز، والغفار.

فكونه ربًّا مشعرًا بالتربية والإحسان.

وكونه عزيزًا مشعرًا بأنه قادر على كل شيء ولا يعجزه شيء.

وكونه غفارًا مشعرًا بالترغيب، وأنه يرجى فضله وثوابه.

فلو بقي الإنسان على الكفر سبعين سنة، ثم تاب، فإن الله - سبحانه - يغفر له برحمته جميع الذنوب، ويمحو اسمه من ديوان المذنبين، ويوصله إلى درجات الأبرار^(١).

وفي هذه الآية دعوة هامة للإقلاع عن الشرك، وفي الآية التالية توبيخ لهم على عنادهم؛ لأنهم تركوا ما ينفعهم وعكفوا على ما يضرهم:

قَضِيَّةُ الْوَحْيِ

٦٧، ٦٨ - ﴿قُلْ هُوَ نَبَأٌ عَظِيمٌ^(٢)﴾ ﴿١٧﴾ أَنْتُمْ عَنْهُ مُعْرِضُونَ ﴿١٨﴾

وبعد أن أمر الله تعالى رسوله ﷺ أن يقول للمكذبين الجاحدين: ﴿إِنَّمَا أَنَا مُنذِرٌ وَمَا مِّنْ إِلَهِ إِلَّا اللَّهُ﴾ أمره بعد ذلك أن يقول لهم: إن ما جئتمكم به من عند ربي، من القرآن العظيم، وما فيه من هداية البشر، ومن علم الأولين: كخلق آدم، والملائكة والجن، وعلم الآخرين: كالبعث والحشر والنشر والحساب والثواب والعقاب، أمر أعظم مما تظنون، وأكبر مما تتوقعون، فهذا الذي جئتمكم به يتجاوز حدود الزمان والمكان، والعصور والأقطار، ويؤثر في مستقبل البشرية، إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها.

﴿قُلْ﴾ لأمتك يا محمد مخوفًا ومحدّرًا ومنذرًا ﴿هُوَ﴾ أي: القرآن ﴿نَبَأٌ عَظِيمٌ﴾ أي: خبر كثير النفع، عظيم الفوائد، فهو يتضمن هدايتكم وسعادتكم في الدنيا والآخرة، وهو جدير بالإصغاء إليه، وتهيئة النفوس لقبوله والعمل به، ويتضمن ما أخبرتكم به من البعث والنشور والحساب، والجزاء على الأعمال والأقوال، وهو خبر عظيم ينبغي الاهتمام به وعدم الإعراض عنه.

(١) «التفسير الكبير» (٢٦/٢٢٤).

(٢) ترك الحمصى (نبؤ عظيم) فلم يعدها آية، وعددها غيره.

ذكر الطبري أن شريحاً القاضي اختصم إليه أعرابي، فشهد عليه، فأراد شريح أن ينفذ الحكم، فقال له الأعرابي: أتحكم بالنبأ؟ فقال شريح: نعم، إن الله يقول: ﴿قُلْ هُوَ نَبَأٌ﴾ وقرأ الآية، وحكم عليه، والنبأ في كلام العرب بمعنى: الخبر.

وتفسير النبأ العظيم في الآية بأنه القرآن هو أرجح الأقوال، وهو يشمل النبأ العظيم الذي هو البعث والنشور الوارد في قوله تعالى: ﴿عَمَّ يَسْأَلُونَ﴾ (١) عَنِ النَّبَأِ الْعَظِيمِ (٢) الَّذِي هُمْ فِيهِ مُخْتَلِفُونَ (٣) [النبأ] فإنه من علم الآخرين الذي جاء به القرآن.

وهو يتضمن خبر الملائكة في الملائ الأعلى، وهم يختلفون في شأن خلق آدم عليه السلام فهو من علم الأولين الذي جاء به القرآن، كما تشير إليه الآية التالية ﴿مَا كَانَ لِي مِنْ عِلْمٍ بِالْمَلَأِ الْأَعْلَى إِذْ يَخْتَصِمُونَ﴾ (١٩) أي: لولا الوحي ما كان لي به علم.

وهو يتضمن صدق النبي ﷺ في رسالته وتبليغه عن ربه، فالوحي هو الذي أخبر أن محمداً ﷺ مبشر لمن أطاع الله تعالى بدخول الجنة، ومنذر لمن عصاه بدخول النار.

ثم أخبر سبحانه أن الناس غافلون معرضون عن هذا النبأ العظيم، منصرفون عنه، لا يعملون به، كأنه ليس أمامكم حساب ولا عقاب ولا ثواب، ولا جنة ولا نار، وبعد ذلك نفى سبحانه أن يكون للرسول علم بشيء من أخبار الملائ الأعلى إلا عن طريق الوحي، فإن كنتم في شك مما أخبرتكم به، فإنه لا علم لي به، ولم أدرسه في كتاب، وإنما بلّغتكم ما أخبرني به ربي، من غير زيادة ولا نقص:

٦٩، ٧٠- ﴿مَا كَانَ لِي (١) مِنْ عِلْمٍ بِالْمَلَأِ الْأَعْلَى إِذْ يَخْتَصِمُونَ﴾ (١٩) إِنْ يُوحَىٰ إِلَيَّ إِلَّا أَنَّمَا (٢) أَنَا نَذِيرٌ مُبِينٌ ﴿

بين سبحانه في هذه الآية أنه لولا الوحي المنزل من عند الله تعالى لم يكن للنبي ﷺ علم بما يدور في الملائ الأعلى، ومن ذلك ما قالته الملائكة في شأن خلق آدم عليه السلام حين قال تعالى: ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ﴾ [البقرة: ٣٠].

(١) قرأ حفص بفتح ياء الإضافة من (ما كان لي)، والباقون بكسرها.

(٢) قرأ أبو جعفر بكسر الهمزة من (إنما) على الحكاية، وإن وما بعدها، نائب فاعل، أي: ما يوحى إليّ إلا هذه الجملة، وقرأ الباقر بفتحها على أنها وما في حيّزها نائب فاعل، أي: ما يوحى إليّ إلا كوني نذيراً مبيناً.

وفي شأن امتناع إبليس من السجود لآدم، أي: ليس لي من علم بعالم الغيب، وما يجري فيه من أخبار ما كان وما يكون، ومن ذلك تخاصم أهل النار في النار يوم القيامة، فليس للرسول ﷺ طريق إلى معرفة ذلك إلا بالوحي، وفي هذا دليل على صدق الرسول ﷺ فيما يبلغه عن ربه، ودليل على أن القرآن منزل من عند الله تعالى، فالقصد هو الاحتجاج على صحة نبوة محمد ﷺ؛ لأنه أخبر بأمور لم يكن يعلمها قبل ذلك.

أخرج الترمذي وغيره إلى ابن عباس ؓ قال: قال رسول الله ﷺ: «أتاني الليلة ربي تبارك وتعالى في أحسن صورة، قال: أحسبه قال: في المنام، فقال: يا محمد، هل تدري فيم يختصم الملائكة؟ قال: قلت: لا، فوضع يده بين كتفي حتى وجدت بردها بين ثديي، أو قال في نحري، فعلمت ما في السموات وما في الأرض، قال: يا محمد، هل تدري فيم يختصم الملائكة؟ قلت: نعم، قال: في الكفارات، والكفارات: المكث في المساجد بعد الصلوات، والمشي على الأقدام إلى الجماعات، وإسباغ الوضوء في المكاره، ومن فعل ذلك عاش بخير ومات بخير، وكان من خطيئته كيوم ولدته أمه، وقال: يا محمد، إذا صليت فقل: اللهم إني أسألك فعل الخيرات، وترك المنكرات، وحب المساكين، وإذا أردت بعبادك فتنة فاقبضني إليك غير مفتون، قال: والدرجات: إفشاء السلام، وإطعام الطعام، والصلاة بالليل والناس نيام»^(١).

وفي الأثر عن الحسن: الكفارات ثلاث: إسباغ الوضوء في المكروهات، والمشي على الأقدام إلى الجماعات، وانتظار الصلاة بعد الصلاة^(٢).

فاختصام الملائكة يكون في أمر آدم وذريته في قيامهم بأمر الخلافة في الأرض، ويكون في الكفارات وغفران الذنوب.

وهذا العلم -الذي علمه الله لنبيه- لم يكن ليكون لولا وحي الله لرسوله؛ ليكون للناس

(١) «سنن الترمذي» برقم (٣٢٣٣) وأخرجه أحمد (٤٣٧/٥) (٣٤٨٤) بسند ضعيف كما قال محققو المسند، لأن أبا قلابة لم يسمع من ابن عباس، وأخرجه عبد بن حميد (٦٨٢) وابن الجوزي في العلل المتناهية (٣٤/١) وعبد الرزاق في التفسير (١٦٩/٢) وله شواهد كثيرة ذكرها السيوطي في «الدر المنثور» (١٢/٦١٧) وما بعدها.

(٢) أخرجه عبد بن حميد كما في «الدر المنثور» (١٢/٦١٧).

نذيرًا لهم من عذاب الله، إن لم يؤمنوا به ويعملوا بشرعه.

والمعنى: ما يوحى إليّ إلا لأنى مرسل إليكم، لأنذركم عذاب الله وأبين لكم أمره ونهيّه.

قِصَّةُ سُجُودِ الْمَلَائِكَةِ لِآدَمَ وَامْتِنَاعِ إِبْلِيسَ

٧١، ٧٢- ﴿إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي خَلَقْتُ بَشَرًا مِّنْ طِينٍ ﴿٧١﴾ فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي

فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ ﴿٧٢﴾﴾

ثم فصل سبحانه خبر هذا التخاصم، حين قال الله تعالى للملائكة ومعهم إبليس:

﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ [البقرة: ٣٠].

وقد سبق ذكر هذه القصة في سور: البقرة، والأعراف، والحجر، والإسراء، والكهف، ولعل ما جاء في هذه السورة، هو أول ما نزل من قصة خلق آدم، وسجود الملائكة، وامتناع إبليس من السجود، فإن هذه السورة هي أول سورة ذكرت فيها القصة، حسب ترتيب النزول.

ومختصرها: أن الله تعالى أعلم الملائكة بخلق آدم، فظنوا أن آدم وذريته سيكونون مثل الجن الذين عمّروا الأرض قبله، فأفسدوا فيها وسفكوا الدماء، وكان الله تعالى قد أمر الملائكة بتطهير الأرض من فساد الجن، ولما أراد الله رفع الملائكة إلى السماء قالوا: يا ربنا إن كبير الجن (إبليس) كثير العبادة لك، قال: ارفعوه معكم، فرفع إبليس مع الملائكة، وكان بين صفوفهم يدعى طاووس الملائكة، ولما أتم الله خلق آدم، ونفخ فيه من روحه أمر الملائكة وإبليس معهم بالسجود لآدم سجود تحية بالانحناء، وهنا ظهرت نزعة الكبر في طبيعة إبليس، حيث امتثلت الملائكة أمر ربهم، وامتنع إبليس عن السجود، كبرًا وتعاطفًا، زعمًا منه أنه خلق من مادة هي أفضل من المادة التي خلق منها آدم.

ولما خالف إبليس أمر الله تعالى عُدَّ كافرًا، وطرده الله من رحمته، وحَقَّتْ عليه اللعنة إلى يوم القيامة، فسأل الله أن يَمُدَّ في أجله إلى قيام الساعة، ليتمكن من إغواء بني آدم، حَقْدًا وحسدًا عليهم لخروجه من الجنة، فأعطاه الله سؤله، ولكن إلى وقت النفخة الأولى حتى يموت مع جميع الخلق.

وُيُسْتثنى من هذا الإغواء عباد الله الصالحين، فإنه ليس باستطاعته إغواؤهم.

والنبي ﷺ لم يكن له عِلْم بما دار في الملائكة الأعلى وقت أن قال الله تعالى للملائكة ومعهم إبليس: إني خالق في الأرض إنساناً مكوّناً من الجسم والعقل والروح، وقد بدأت سلالة خَلْقِهِ من تراب، ثم عُجِنَ هذا التراب بالماء فصار طيناً، ثم تخمّر حتى أصبح أسود اللون، ثم تُرك حتى جف، فصار صَلَصاً كالفخار.

فإذا سويّت جسده وأتممت خلقه المادي، وصوّرته على صورة البشر، وأكملّت استعدادة للحياة، ونفخت فيه الروح، فدبّت فيه الحياة، بعد إفاضتها عليه من أمري، فاسجدوا له سُجود تحية وتكريم، لا سجود عبادة وتعظيم، فالعبادة لا تكون إلا لله تعالى، وقد حرّم الله في شريعة الإسلام وضع الجبهة على الأرض إلا لله تعالى.

وطّن الملائكة الكرام أنفسهم على السجود لآدم، حين يتم خلقه ونفخ الروح فيه، امثالاً لأمر ربهم، وإكراماً لآدم، فلما تم خلقه، بدنأ ورُوحاً جاء وقت التنفيذ:

٧٣، ٧٤- ﴿فَسَجَدَ الْمَلَائِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ ﴿٣٠﴾ إِلَّا إِبْلِيسَ اسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ ﴿٧٤﴾﴾

امثل الملائكة كلهم أمر الله تعالى، فسجدوا جميعاً في وقت واحد، حيّوا آدم إكراماً له وامثالاً لأمر الله تعالى، ولفظ: ﴿كُلُّهُمْ﴾ للإحاطة بأنه لم يتخلّف منهم أحد، ولفظ: ﴿أَجْمَعُونَ﴾ للدلالة على أنهم سجدوا في وقت واحد ولم يتفرقوا، أو يتأخر بعضهم، ما عدا إبليس، فإنه لم يسجد، أنفةً وتكبراً.

وبسبب مخالفته لأمر الله تعالى، واستكباره عن طاعته أصبح كافراً بعد أن كان طاووس الملائكة، وقد كان كفره معروفاً في علم الله تعالى قبل أن يظْهر في عالم الوجود، وقد ظهر كفره في عالم الوجود حين امتنع عن السجود لآدم عناداً وتكبراً، وقد جاء ذلك.

في قوله تعالى: ﴿أَبَىٰ وَاسْتَكْبَرَ﴾ [البقرة: ٣٤].

وفي قوله سبحانه: ﴿أَبَىٰ﴾ [الحجر: ٣١، وطه: ١١٦].

وفي قوله أيضاً: ﴿لَوْ يَكُنْ مِنَ السَّاجِدِينَ﴾ [الأعراف: ١١].

وفي قوله تعالى: ﴿قَالَ أَسْجُدْ لِمَنْ خَلَقْتَ طِينًا﴾ [الإسراء: ٦١].

وفي قوله أيضا: ﴿إِلَّا إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ﴾ [الكهف: ٥٠].

ولو أن إبليس كان من الملائكة ما أمكنه التمرد والعصيان؛ لأن الملائكة ﴿لَا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ [التحريم: ٦].

قال الحسن البصري: لم يكن إبليس من الملائكة طرفة عين.

وبامتناع إبليس عن السجود ظهر للملائكة نزعة الكبر والعصيان الكامنة في طبيعة إبليس، بعد أن رأوه في ظاهر الحال على أكمل صورة من الطاعة والعبادة.

ثم بين سبحانه موقف إبليس من أمر الله تعالى له:

٧٥- ﴿قَالَ يٰٓإِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَنْ تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِإِيْدِي ۖ أَتَكْبَرُ ۚ أَمْ كُنْتَ مِنَ الْعَالِينَ﴾ (٧٥)

أي: قال تعالى لإبليس: ما الذي منعك من السجود لمن أكرمته، وشرفته، وميزته فخلقته بيدي من غير أن يكون له أب وأم؟ والله تعالى خالق كل شيء، ولكنه شرف خلق آدم بإضافته لنفسه؛ لأنه سبحانه خلقه خلقاً مباشراً من غير حمل ولا ولادة.

وفي الآية إثبات صفة اليدين لله تعالى على الوجه اللائق بجلاله من غير تشبيه ولا تعطيل؛ إذ ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ ۚ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ [الشورى: ١١].

قال الله تعالى لإبليس: أمنعك من السجود لآدم؛ تكبرك على آدم؟! أم أنت من أصحاب العلو والشرف، الذين يعدون أنفسهم أفضل من غيرهم؟! وبهذا قطع الله عذر إبليس، فكان ردّ إبليس اللعين أن:

٧٦- ﴿قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِن طِينٍ﴾

أجاب إبليس مناقضاً ربه بأنه من النوع الثاني، أي: أنه من العالين، وليس من المستكبرين، فهو يرى أنه أفضل من آدم.

والمعنى: قال إبليس معارضاً لربه: لم أسجد لآدم لأنني خير منه وأفضل، ولو كنت مساوياً له في الشرف، لكان من القبيح أن أسجد له، فكيف وأنا خير منه حيث ﴿خَلَقْنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِن طِينٍ﴾ والنار خير من الطين -على حدّ زعمه- وبهذا الردّ فإن إبليس يكون قد عصى ربه استكباراً، وادّعى باطلاً أن العنصر الذي خلق منه أفضل من العنصر الذي خلق

منه آدم، وهذا زعم باطل.

فالأرض التي هي الطين والتراب، خير للإنسان والحيوان والنبات، ففيها تمشي جداول الماء متواضعة، وفيها حياة كل شيء، ومن الأرض يخرج الزرع والثمر، وبهما يحيى الإنسان والحيوان، وليس في الأرض مفسدة أو ضرر، بخلاف النار التي تشتعل بالأجسام الملتهبة فيها، وهي مُفسدة وضارة، ويتصاعد منها دخان الهواء متعاليًا، ليس فيه إلا الضرر، والنور الذي يخرج من النار هو نور عارض، قائم بالأجسام الملتهبة فيها، والنار لا تقوم بنفسها، فيذهب نورها وكيانها كله بذهاب ما يُلهبها، ويكون مآلها إلى الرماد.

ولو فرضنا جدلاً أن النار خير من الطين بعنصر، فإن الطين خير منها بعناصر، والتراب الذي خُلق منه آدم يتكون من عناصر كثيرة امتزجت به، منها: الهواء والماء والنار، وما يتولد عن ذلك التركيب من عناصر كيماوية وقوة كهربائية، تكوّن بمجموعها ماهية الإنسان^(١).

وهكذا: فإن عنصر النار، مادة الشر والفساد والعلو والطيش والخفة.

وعنصر الطين، مادة الرزانة والتواضع وإخراج النبات والشجر.

والطين يغلب النار ويطفئها، والنار تحتاج إلى مادة تقوم بها، والطين قائم بنفسه.

فهو قياس ظاهر الفساد والبطلان.

وليست المسألة مفاضلة بين الطين والنار، أو آدم وإبليس، وإنما المسألة أمر من رب العالمين، يجب الإذعان له والعمل به، فالسجود في الحقيقة هو سجود لله الذي خلق آدم، وفيه تحية وإكرام لآدم.

وكان من نتائج هذا العصيان أن الله تعالى أرغم أنفه وطرده من رحمته:

٧٧، ٧٨ - ﴿قَالَ فَاخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ ۖ وَإِنَّ عَلَيْكَ لَعْنَتِي^(٢)﴾ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ ﴿٧٨﴾

قال تعالى لإبليس: اخرج من الجنة، فإنك مرجوم بالقول، مدحور مطرود من كل خير

(١) «تفسير التحرير والتنوير» (٢٣/ ٣٠٤).

(٢) قرأ نافع وأبو جعفر بفتح ياء الإضافة من (لعتني إلى)، والباقون بإسكانها.

وكرامة، نتيجة لعصيانك وتمردك، فأنت يا إبليس مبعّد من رحمتي، مستحق لغضبي ولعنتي إلى يوم القيامة، فأبعده الله عن جنته ورضوانه، وحقت عليه لعنته إلى قيام الساعة، فإذا كان يوم الجزاء والعقاب فستلقى ما هو أشنع وأفظع، وجزاء الملعون هو العذاب الأليم، والخلود في دار الجحيم.

وهنا طلب إبليس من ربه أن يطيل عمره إلى يوم القيامة لإضلال بني آدم:

٧٩-٨١- ﴿قَالَ رَبِّ فَأَنْظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿٧٩﴾ قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ الْمُنْظَرِينَ ﴿٨٠﴾ إِلَى يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ ﴿٨١﴾﴾

وجد إبليس نفسه شريداً مطروداً من رحمة الله، فأراد أن يُعطى وقتاً متسعاً لإغواء بني آدم؛ كي يثأر لنفسه منهم، وأراد إلى جوار ذلك أن ينجو من الموت إذ لا موت بعد البعث قال: ربّ أخرني وأمهلي، فلا تقبض روحي إلى اليوم الذي تَبْعَث فيه الخلائق من القبور، وبذلك فلا يمرُّ به الموت لأنه ظل حيّاً إلى قيام الساعة!

وإبليس يعرف أن له ربّاً، ولذا: يسأله إطالة عمره مدة الحياة، فيلبي الله دعاءه ويستجيب له قائلاً: قد أمهلتك وأطلت عمرك، ولكن ليس إلى الوقت الذي طلبت -أيها اللئيم- بل إلى الوقت المعلوم الذي يموت فيه الخلائق جميعاً، وهو وقت النفخة الأولى، وهذا من حلم الله تعالى حيث لم يعجل له بالعقوبة، ولكنه لما أَمِنَ الهلاك بإنظاره إلى نهاية الدنيا، طغى وتمرد، وأخذ على عاتقه أن يُضِلَّ غير المخلصين من عباد الله تعالى.

٨٢، ٨٣- ﴿قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٨٢﴾ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ ﴿٨٣﴾﴾

لقد علِمَ إبليس أنه لن يقدر على إغواء بني آدم، إلا إذا أقدره الله على ذلك، وعلم أن هذا الإغواء يفيد في قوم دون قوم، وعلم أن الله تعالى سيمكّنه من ذلك لابتلاء بني آدم.

ومن هنا فقد أقسم إبليس على ذلك بعزة الله وسلطانه وقهره، على أنه لن يألو جهداً في إغواء بني آدم وإضلالهم بكل السبل: من بين أيديهم ومن خلفهم، وعن أيمانهم وعن شمائلهم ﴿قَالَ﴾ إبليس: ﴿فَبِعِزَّتِكَ﴾ يا رب، وعظمتك، لأُضِلَّ بني آدم كلهم و ﴿لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ وهذا كقوله تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ بِمَا أَغْوَيْتَنِي لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٢٩﴾﴾ [الحجر].

(١) قرأ ابن كثير وأبو عمرو وابن عامر ويعقوب بكسر لام (المخلصين) اسم فاعل، والباقون بفتحها اسم مفعول.

وقوله سبحانه: ﴿وَلَا ضَلَالَتَهُمْ وَلَا أُمْيْنَتَهُمْ﴾ [النساء: ١١٩]. قال إبليس متوعدًا:

﴿يُمْ لَأَيِّنَّهُمْ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَنِهِمْ وَعَنْ شَمَائِلِهِمْ وَلَا يَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ﴾ [الأعراف: ١٧]

ثم استثنى إبليس من الإغواء، عباد الله المخلصين الذين لا سلطان له عليهم، وهو استثناء للأقل من الأكثر، فهو يعلم أنه لن يقوى عليهم، لأنهم الذين أخلصتهم يا رب لعبادتك وعصمتهم مني، قال تعالى: ﴿إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ إِلَّا مَنْ اتَّبَعَكَ مِنْ آلِفَاوِينَ﴾ [الحجر: ٤٢].

فإن موعدهم جهنم ﴿لَمَنْ يَبْعَكَ مِنْهُمْ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنْكُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [الأعراف: ١٨].

لقد علم إبليس أن الله سيحفظ عباده المخلصين من كيدته فاستثناهم، وعلم أنه عاجز عن إغواء بني آدم إلا بإذن الله، فاستعان بعزة الله على إغوائهم. فاللهم احفظنا من كيدته، واصرف عنا شره، وأعنا على محاربته وعداوته، وسلّمنا من شره وشركه، وقد دعوناك يا ربنا كما أمرتنا فاستجب لنا كما وعدتنا.

اسْتَحْقَاقُ إِبْلِيسَ وَاتِّبَاعِهِ لِعَذَابِ جَهَنَّمَ

٨٤، ٨٥- ﴿قَالَ فَالْحَقُّ﴾^(١) ﴿وَالْحَقُّ أَقُولُ﴾^(٢) ﴿لَأَمْلَأَنَّ﴾^(٣) جَهَنَّمَ مِنْكَ وَمِمَّنْ يَبْعَكَ مِنْهُمْ^(٤) أَجْمَعِينَ ﴿

﴿قَالَ﴾ الله تعالى في رده على إبليس: ﴿فَالْحَقُّ﴾ مني، أي خذ الحق مني، فهو سبحانه الحق، ومنه الحق ﴿وَالْحَقُّ أَقُولُ﴾ أي: ولا أقول إلا الحق، فالحق وصفي والحق قولي.

والحق ثابت لا يتخلف، ووعد الله حق لا يحتاج إلى قسم.

والحق نقيض الباطل، وقيل: إن الحق الأولى قَسَمَ أقسم الله به، أي: والحق قسمي ويميني.

(١) قرأ عاصم وحزمة وخلف برفع (فالحق) على أنه مبتدأ، وجملة (لأملأن) خبره، وقرأ الباقر بالنصب على أنه مفعول مطلق، أي: أحق الحق.

(٢) قرأ الأصهباني بتسهيل الهمزة الثانية من (لأملأن) ولحزمة في الوقف: تحقيق الهمزة الأولى وتسهيلها، وعلى كل منهما تسهيل الهمزة الثانية.

(٣) عد الحمصي والكوفي (والحق أقول) آية، وتركها غيرهما من العدد.

(٤) وصل ورش ميم الجمع مع المد الطويل، من (منهم أجمعين) وسكت خلف عن حمزة على الميم بدون تنفس.

ثم بين جلَّ شأنه قول الحق المقصود في الآية، فذكر جواب القسم بأنه سبحانه سيملأ جهنم يوم القيامة من إبليس ومن أتباعه الذين لم يتوبوا فقال: ﴿لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنْكَ﴾ يا إبليس ﴿وَمَنْ تَبَعَكَ مِنْهُمْ﴾ أي: من الضالين الكافرين ﴿أَجْمَعِينَ﴾ فهذا جزاء مَنْ عصاه، وخالف أمره ونهيه، وهذا كقوله تعالى ﴿وَلَكِنْ حَقَّ الْقَوْلُ مِنِّي لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾ [السجدة: ١٣].

وقوله سبحانه: ﴿قَالَ أَذْهَبَ فَمَنْ تَبَعَكَ مِنْهُمْ فَلَئِنْ جَهَنَّمَ جَزَاءُكُمْ جَزَاءً مَوْفُورًا﴾ [الإسراء].

وكلام الله تعالى للملائكة في هذه الآيات هو عن طريق الوحي من الله تعالى إليهم، وكلامه سبحانه لإبليس يكون بواسطة ملك من الملائكة؛ لأن إبليس غير مؤهل لتلقي الخطاب من الله تعالى.

وقد حدد الله تعالى طرق الوحي في قوله سبحانه: ﴿وَمَا كَانَ لِنَشْرِ أَنْ يُكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِنْ وَرَآئِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِ مَا يَشَاءُ﴾ [الشورى: ٥١].

فيكون الحوار المذكور في هذه الآيات بواسطة ملك من الملائكة الكرام.

فلما بين الرسول ﷺ للناس الدليل، ووضح لهم السبيل، أمره ربه، أن يُخبر قومه أنه لم يسألهم أجراً على هذا البيان، ولم يأت بشيء من عن نفسه:

خَتَامُ السُّورَةِ

٨٦- ﴿قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُتَكَلِّفِينَ﴾ (٨٦)

ختمت السورة بإقامة الحجة على المكذبين بالرسالة الخاتمة بأمرين:

الأمر الأول: أن النبي ﷺ لم يكن طالب دنيا، ولم يطلب أجراً على دعوته للناس، من لدن بعثته ﷺ إلى مماته، وأنه لم يأتهم إلا لنفعهم، ولو أنه طلب منهم جزاءً على دعوته، أو توخى جاهاً أو سلطاناً، لكذبوه، فإذا انتفى ذلك وجب تصديقه ﷺ.

الأمر الثاني: أن النبي ﷺ لم يكلفهم من العمل ما لا يطيقون أو يشق عليهم، فتعاليم الإسلام سهلة سمحة يسيرة.

كما أن النبي ﷺ لم يتكلف ويتصنع القول أو الفعل فيما يُبلغه للناس، فهو صادق في

كل ما يقول ويفعل، لا يزيد عليه ولا ينقص منه، وليس بمدَّعٍ للنبوة باطلاً دون أن يوحى إليه! وكأن النبي ﷺ يقول: أنا لم أطلب جزاءً على دعوتهم وهدايتهم، ولستُ صاحب ادِّعاءٍ باطل أو كاذب، وهذا معنى: ﴿وَمَا أَنَا مِنَ الْمُتَكَلِّفِينَ﴾ أي: لم أدَّعِ أمراً من عندي وليس لي، بل أتبع ما يوحى إليّ، ولا أتكلف في دعوتي تخرفاً أو افتراء.

صح عن ابن مسعود ؓ أنه قال: يأيها الناس، مَنْ عَلم شيئاً فليقل به، ومن لم يعلم فليقل: الله أعلم، فإن من العلم أن يقول لما لا يعلم: الله أعلم، قال الله لرسوله: ﴿قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُتَكَلِّفِينَ﴾ (١).

أي: أن ما جاء به القرآن ليس فيه مشقة في تكاليفه، وليس فيه تقوُّل على الله تعالى. وقال الحسين بن الفضل: هذه الآية ناسخة لقوله تعالى: ﴿قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَىٰ﴾ (٢) [الشورى: ٢٣]. قلت: لا تعارض بين الآيتين، فمودة النبي ﷺ بحب قرابته أو حث المكذبين بدعوته من أقاربه على الإيمان به لما بينهم وبينه من قرابة، أقول: ليس في هذين المعنيين أجر على تبليغ الرسالة، فلا وجه للقول بالنسخ. قال تعالى:

٨٧، ٨٨ - ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ﴾ (٨٧) وَلَعَلَّكُمْ نَبَأٌ بَعْدَ حِينٍ ﴿٨٨﴾

أي: فثبت بهذا أن القرآن ليس من أساطير الأولين، وليس سحراً ولا شعراً ولا كهانة فما هذا القرآن إلا وحي أوحاه الله لنبيه؛ لتذكير العالمين من الإنس والجن بما ينفعهم من مصالح دينهم ودنياهم ﴿فِيهِ شِفَاءٌ لِلنَّاسِ﴾، وهدى وموعظة للمتقين.

وفيه ﴿هُدًى لِلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِنَ الْهُدَىٰ وَالْفُرْقَانِ﴾.

وعلى مدى التاريخ الإسلامي -من لدن نزول القرآن إلى قيام الساعة- يتكشف للناس ما لا يعلمونه بالأمس، وتبيّن لهم الحقائق، وسوف تعلمون -أيها الناس- صدق القرآن فيما أخبر به، حين يغلب الإسلام، ويظهره الله على الدين كله، ويدخل الناس في دين الله أفواجا. وتعلمون أيضاً صدق القرآن حين يقع العذاب بالمكذبين يوم القيامة، وتنقطع عنكم

(١) «صحيح البخاري» برقم (٤٨٠٩) و«صحيح مسلم» برقم (٢٧٩٨).

(٢) «تفسير ابن عطية» (٥١٦/٤).

الأسباب يوم لقاء الله تعالى .

وسوف تظهر لكم الحقائق العلمية في المجالات العديدة، التي تُثبت صدق القرآن الكريم فيما أخبر به، كما قال تعالى: ﴿سَرَّيْهِمْ ءَايَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَبَيِّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ﴾ [فصلت: ٥٣].

قال الحسن: يابن آدم عند الموت يأتيك الخبر اليقين.

وهكذا فإن هذه السورة مشتملة على الذكر الحكيم والنبأ العظيم، وإقامة الحجج والبراهين على من كذب سيد المرسلين، وفيها الإخبار عن عباد الله الصالحين، وجزاء المتقين والطاغين.

تم تفسير (السلوة ص) والله الحمد والمنة .



تَفْسِيرُ سُورَةِ الزُّمَرِ (٣٩)

مُقَدِّمَةُ السُّورَةِ

سورة (الزمر) هي السورة التاسعة والثلاثون في ترتيب المصحف، والتاسعة والخمسون في ترتيب النزول، نزلت بعد سورة (سبأ)، وقبل سورة (غافر)، سنة خمس من البعثة، قبل الهجرة إلى الحبشة.

وسُمِّيت سورة (الزمر)؛ لأن لفظ: «الزمر» لم يرد في غيرها من القرآن، وتُسَمَّى سورة (الغُرَف) لقوله تعالى فيها: ﴿هَمَّ غُرْفٌ مِّنْ فَوْقَهَا غُرْفٌ مَّيِّتَةٌ﴾ [٢٠]. وعدد آياتها عند أهل الكوفة خمس وسبعون آية^(١).

وهي ألف ومئة واثنان وسبعون كلمة، وأربعة آلاف وتسع مئة وثمانية أحرف.

وهي سورة مكية، واستثنى بعضهم ثلاث آيات، قيل: إنها نزلت في وحشي قاتل حمزة، وهي قوله تعالى: ﴿قُلْ يَبْعَادَى الَّذِينَ أَشْرَفُوا عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ لَا نَقْنُطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ﴾ [٥٣] وما بعدها، وقيل: إنها نزلت في هشام بن العاص، وكان قد تأخر عن الهجرة إلى المدينة بعد أن استعدَّ لها، وفي رواية: أن عياش بن ربيعة كان قد استعدَّ معه إلى الهجرة، ففُتِنَ فافتتن، وكلها روايات ضعيفة.

والأصح أن الآيات الثلاث نزلت في المشركين الوثنيين، وحكمها عام في كل من تاب إلى الله تعالى من شركه وكفره ومعاصيه، وأن السورة كلها مكية على الصحيح.

ومما ورد في فضل هذه السورة ما جاء عن عائشة ؓ قالت: كان رسول الله يصوم حتى نقول: ما يريد أن يفطر، ويفطر حتى نقول: ما يريد أن يصوم، وكان يقرأ في كل ليلة بني إسرائيل والزمر^(٢).

(١) وثلاث وسبعون آية عند أهل الشام، واثنان وسبعون آية عند أهل مكة وأهل المدينة وأهل البصرة.

(٢) النسائي في «السنن الكبرى» (١١٤٤٤) وفي التفسير برقم (٤٦٤) من حديث عائشة وهو في ط الرسالة له «السنن الكبرى» برقم (١١٣٨٠) وعند أحمد في المسند (٦٨/٦) برقم (٢٤٣٨٨) بسند ضعيف، قال محققوه: لضعف شريك النخعي، وجهالة شيخ سماك بن عميرة، وهو على شرط الشيخين من طرق كثيرة دون (وكان يقرأ..). وأخرجه الحاكم (٤٣٤/٢)، وسكت عنه ووافقه الذهبي.

وفي لفظ: كان رسول الله ﷺ لا ينام حتى يقرأ الزمر وبني إسرائيل^(١).

والجانب الرئيس الذي تعالجه السورة هو قضية التوحيد وإفراد الله تعالى بالعبادة، وتُقيم على ذلك الأدلة والبراهين من: خلق السموات والأرض، واختلاف الليل والنهار، وتسيير إلى الشمس والقمر، وأطوار خلق الإنسان في الأرحام، وغير ذلك من البراهين الساطعة الدالة على وحدانية الله تعالى، بما يوجب إفراده سبحانه بالعبادة.

وتوضّح السورة الفارق بين من يعبد إلهاً واحداً، ومن يعبد آلهة متعددة، فالأول كعبد يملكه سيد واحد، والآخر كالعبد المملوك لعدد من الشركاء، فهم يتنازعون فيه ويتخاصمون.

وتبيّن السورة جزاء الكافر والمشرِك في الدار الآخرة، حيث تغشاه النار من فوقه ومن تحته.

ولإيقاظ القلب الإنساني واستجاشته، لحمله على الإيمان يقول تعالى: ﴿فَبَشِّرْ عِبَادَ ۝ الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ ۝﴾ [١٧، ١٨].

ويقول سبحانه: ﴿اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُتَشَابِهًا مَثَابًا ۖ نَفْسُكَ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ اللَّهِ ۝﴾ [٢٣].

ويقول جلّ شأنه: ﴿أَلَيْسَ اللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ وَيُخَوِّفُونَكَ بِالَّذِينَ مِنْ دُونِهِ ۝﴾ [٣٦].

ويقول أيضاً: ﴿وَإِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَحْدَهُ اشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ وَإِذَا ذُكِرَ الَّذِينَ مِنْ دُونِهِ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ۝﴾ [٥٥].

أ- وجانب التوحيد هو العنصر الأول من عناصر القرآن المكي.

ب- أما العنصر الثاني فهو الإيمان باليوم الآخر، وما فيه من بعث وحشر ونشر وحساب، وجنة ونار.

ويتجلى ذلك واضحاً في الربع الأخير من السورة، كقوله تعالى: ﴿وَأَنبِئُوا إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَأَسْلُمُوا لَهُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ ۝﴾ [٥٤] وَأَتَّبِعُوا أَحْسَنَ مَا أُنزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ بَغْةً وَأَنْتُمْ لَا تَشْعُرُونَ ۝﴾ [٥٥].

وقوله سبحانه: ﴿وَيَوْمَ الْقِيَمَةِ تَرَىٰ الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَىٰ اللَّهِ وُجُوهُهُمْ مُسْوَدَّةٌ ۝﴾ [٦٠].

(١) الترمذي برقم (٢٩٢٠) وقال: حديث حسن غريب.

وبعد النفخ في الصور لموت الخلائق، ثم النفخ فيه لبعثهم، تُشرق الأرض بنور ربها، وتوضع صحائف الأعمال، ويؤتى بالنبيين والشهداء، ويُقضى بينهم بالحق، فيدخل المتقون الجنة أفواجا وجماعات، ويدخل الكفار النار أفواجا وجماعات، ويقال في النهاية: الحمد لله رب العالمين، وهو الجانب الثاني من قضايا القرآن المكي.

ج - أما الجانب الثالث وهو: قضية الوحي والرسالة، فإنه يتجلى في تلقين الرسول ﷺ الحجج والبراهين للرد على شبهات المشركين الباطلة، ومن ذلك قوله تعالى:

١- ﴿قُلْ إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ مُخْلِصًا لَهُ الدِّينَ ﴿١١﴾﴾.

٢- ﴿قُلْ أَقْرَبُكُمْ مِمَّا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ أَرَادَنِيَ اللَّهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَاشِفَتُ ضُرِّيهِ أَوْ أَرَادَنِي بِرَحْمَةٍ هَلْ هِيَ مُنْسِكَةٌ رَحْمَتَهُ قُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ ﴿٣٨﴾﴾.

٣- ﴿قُلْ يَتَقَوَّمُوا عَلَى مَكَاتِبِكُمْ إِنِّي عَاَمِلٌ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٣٩﴾﴾ مِنْ يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ.

٤- ﴿قُلْ لِلَّهِ الشَّفَعَةُ جَمِيعًا ﴿٤٤﴾﴾.

٥- ﴿قُلْ أَفَعَيَّرَ اللَّهُ تَأْمُرُونَ أَتَعْبُدُ أَتَمَّا الْجَهْلُونَ ﴿٤٥﴾﴾ [٦٤].

والقرآن سيد الكتب، وهو الذي حرر الخلق من الشرك والضلال.

وقد ذكر القرآن سبع مرات في هذه السورة لبيان هذه الحقيقة، وهي قوله تعالى:

١- ﴿تَنْزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ ﴿١﴾﴾.

٢- ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ بِالْحَقِّ فَاَعْبُدِ اللَّهَ مُخْلِصًا لَهُ الدِّينَ ﴿٢﴾﴾.

٣- ﴿اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُتَشَابِهًا مَثَانٍ ﴿٢٣﴾﴾.

٤- ﴿وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ لَعَلَّهُمْ يَنْذَكُرُونَ ﴿٧٧﴾﴾.

٥- ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ عَلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ فَمَنِ اهْتَكَفَ فَلِنَفْسِهِ ﴿٤١﴾﴾.

٦- ﴿وَأَتَّبِعُوا أَحْسَنَ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ ﴿٥٥﴾﴾.

٧- ﴿بَلَى قَدْ جَاءَ تِلْكَ أَيْتِي فَكَذَّبْتَ بِهَا وَاسْتَكْبَرْتَ وَكُنْتَ مِنَ الْكَافِرِينَ ﴿٥٩﴾﴾.

وسورة (الزمر) - وهي بصدد توضيح سرائر الناس، واختلاف وجهاتهم، تضمنت أحوالاً شتى لأفواج من البشر، فيها تباين واختلاف، قوبلت كل زمرة منها بزمرة أخرى مضادة، وهي تعقد لذلك ثلاث عشرة مقابلة بين أصناف الناس، مؤمنهم وكافرهم:

١- فالله تعالى يرضى لعباده الشكر، ولا يرضى لهم الكفر كما في الآية [٧].

٢- ولا يستوي عند الله من يُشغل ليله بالعبادة بِمَنْ يشغله باللهو واللذة المحرمة، فمثلهما كمثل الجاهل والعالم، والمؤمن والكافر الآية [٩].

٣- ولا يستوي مَنْ عبد الله حق العبادة -فسجن نفسه عن الهوى والشهوات- بِمَنْ عبد الدنيا وعاش يلهث وراء شهواتها، انظر الآيات [١٣، ١٥، ١٧، ١٨].

٤- ولا يستوي من اتقى وأحسن، بمن عصى وأساء ﴿أَفَمَنْ حَقَّ عَلَيْهِ كَلِمَةُ الْعَذَابِ أَفَأَنْتَ تُنْقِذُ مَنْ فِي النَّارِ﴾ [١٩].

٥- ولا يستوي من ينشرح صدره، فيتسع لسماع القرآن والحديث، وإذا جلس في المسجد أو في درس علم شرعي كأنه في روضة من رياض الجنة، لا يستوي هذا بمن يضيق صدره بذلك، وكأنه سجين يتنفس الصعداء ﴿أَفَمَنْ شَرَحَ اللَّهُ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ فَهُوَ عَلَى نُورٍ مِّن رَّبِّهِ قَوِيلٌ لِّلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ مِّن ذِكْرِ اللَّهِ﴾ الآية [٢٢].

٦- ولا يستوي من صان وجهه عن النار يوم القيامة بمن عرض وجهه لعذاب النار ﴿أَفَمَنْ يَتَّقِ بِوَجْهِهِ سُوءَ الْعَذَابِ يَوْمَ الْقِيَمَةِ﴾ الآية [٢٤].

وكثيراً ما يطوي السياق الطرف الآخر للمقابلة، لكونه مفهوماً من السياق.

٧- ولا يستوي الموحد والمشرک، والكافر والمؤمن ﴿ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا رَّجُلًا فِيهِ شُرَكَاءُ مُتَشَاكِسُونَ وَرَجُلًا سَلَمًا لِّرَجُلٍ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا﴾ الآية [٢٩].

٨- ولا يستوي أهل الكذب مع أهل الصدق، ولا أهل الحق وأهل الباطل، فشتان بين مَنْ كَذَبَ على الله وكَذَبَ بالصدق، ومن جاء بالصدق وصدَّق به، الآيتان [٣٢، ٣٣].

٩- ولا يستوي من ينفع ويضر، بمن لا يملك نفعا ولا ضرا، الآية [٣٨].

١٠- وما أبعد الشُّقَّة بين الموحّد والمشرِك، فالمشرِك عابد وثن يعكف على عبادة حجر ويهابه، وينفّر من التوحيد، ويضيق صدره منه، لا يستوي ذلك بالموحد، قرير العين ساكن النفس، كما في الآيتان [٤٥، ٤٦].

١١- وهناك مقابلة بين الإنسان ونفسه حينما تعرّض له حالتا النعماء والسراء، في مقابل البأساء والضراء ﴿فَإِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ ضُرٌّ دَعَا نُمًّا إِذَا حَوْلَهُ نِعْمَةٌ مِّنَّا قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ﴾ الآية [٤٩].

١٢- وهناك مقابلة بين من يحدّوهم الأمل في عفو الله تعالى، فيسارع ويبادر إلى رضی الله - سبحانه -، وبين من يستولي عليه اليأس، فيتقاعس عن العمل، ويندم حين لا ينفع الندم ﴿أَن تَقُولَ نَفْسٌ بِحَسْرَتِي عَلَىٰ مَا فَرَطْتُ فِي جَنبِ اللَّهِ﴾ الآية [٥٦].

فيجاب: ﴿بَلَىٰ قَدْ جَاءَ تِلْكَ ءَايَتِي فَكَذَّبْتَ بِهَا وَاسْتَكْبَرْتَ وَكُنتَ مِنَ الْكَافِرِينَ﴾ [٥٩].

١٣- وبعد السؤال والحساب يستقر أهل الجنة في الجنة، وأهل النار في النار.

﴿وَسِيقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَىٰ جَهَنَّمَ زُمَرًا﴾ [٧١].

﴿وَسِيقَ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ إِلَىٰ الْجَنَّةِ زُمَرًا﴾ [٧٣].

هذا: ويمكن تقسيم السورة إلى أربعة مقاطع:

المقطع الأول: من أولها إلى الآية السابعة، وهذا المقطع يتناول جانب التوحيد، وإخلاص العبادة لله وحده، وقيام الأدلة الكونية على وجوب ذلك، ونفى الشريك والولد عن الله تبارك وتعالى.

المقطع الثاني: من الآية الثامنة إلى الآية الثانية والخمسين، وهذا المقطع يتناول مختلف أحوال الإنسان بين الإيمان والكفر، والهدى والضلال، وما يعتره من فرح وبطر، ورضى وجزع، مع قيام الأدلة، وضرب الأمثلة، ويتخلل ذلك وعظ وإرشاد، وترغيب وترهيب، وثواب وعقاب.

المقطع الثالث: من الآية الثالثة والخمسين إلى الآية السادسة والستين، وهو يتعلق بالحث على التوبة من كل ذنب، وما يتعلق بذلك من تسويف وتعجيل، وثواب وعقاب.

والمقطع الرابع والأخير، من الآية السابعة والستين إلى نهاية السورة، وهو مقطع شيق، يتحدث عن يوم القيامة ومُقدّماتها وأحوال المتقين والفجار وهم يساقون إلى مصيرهم المحتوم، حيث يرث المتقون أرض الجنة ويحمدون الله على ذلك، وتحفُّهم الملائكة من حول العرش مسبِّحين مهلِّلين، حامدين رب العالمين أن قضى بين عباده بالحق، ونال كل منهم جزاءه، والحمد رب العالمين.



تَفْسِيرُ السُّورَةِ

نُزُولُ الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ لِإِقَامَةِ الدِّينِ الْخَالِصِ

١، ٢- ﴿تَنْزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ﴾ ﴿١﴾ إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ بِالْحَقِّ فَاغْبُصْ
اللَّهُ مُخْلِصًا لَهُ الدِّينَ ﴿٢﴾

افتُتِحَتِ السُّورَةُ بِبِرَاعَةِ اسْتِهْلَالِ، فِيهَا ثَنَاءٌ عَلَى الْقُرْآنِ، وَبَيَانٌ لِمَصْدَرِهِ، وَعِظْمَةٌ مِنْ تَكْلَمٍ بِهِ وَنَزْلٍ مِنْهُ، وَأَنَّهُ قَدْ نَزَلَ عَلَى رَسُولِهِ ﷺ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ تَعَالَى، الْمَتَّصِفِ بِالْعِزَّةِ وَالْحِكْمَةِ، وَلَيْسَ كَمَا يَزْعُمُ الْجَاهِدُونَ مِنْ أَنَّهُ قَوْلُ مَفْتَرٍ، أَوْ حِكَايَاتُ قَدِيمَةٍ.

وَالْمَعْنَى: إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ مَنْزِلٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ تَعَالَى، فَهُوَ سُبْحَانَهُ الْقَادِرُ عَلَى تَنْزِيلِهِ، وَهُوَ كِتَابٌ قَوِيٌّ، حُجَّتُهُ غَالِبَةٌ، وَلَيْسَ بِوَسْعٍ أَحَدٌ أَنْ يِعَارِضَهُ أَوْ يَقَاوِمَهُ، قَالَ تَعَالَى: ﴿وَإِنَّهُ لَكِتَابٌ عَزِيزٌ﴾ ﴿١﴾ لَا يَأْتِيهِ الْبَطْلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ ﴿٢﴾ [فصلت: ٤١، ٤٢].

وعِزَّةُ هَذَا الْكِتَابِ مُسْتَمَدَّةٌ مِنْ عِزَّةِ اللَّهِ تَعَالَى، الَّتِي قَهَرَ بِهَا كُلَّ مَخْلُوقٍ، وَذَلَّ لَهُ كُلُّ شَيْءٍ، فَهُوَ كِتَابٌ مُحْكَمٌ مُتَّقَنٌ، مُشْتَمِلٌ عَلَى الْبَيَانِ الَّذِي لَا يَحْتَمِلُ الْخَطَأَ، مُعْجِزٌ فِي أَلْفَاظِهِ وَمَعَانِيهِ، فِيهِ عُلُومُ السَّابِقِينَ وَاللَّاحِقِينَ.

وَهُوَ كِتَابٌ حَاكِمٌ وَمُهَيْمِنٌ عَلَى الْكُتُبِ السَّابِقَةِ؛ لِأَنَّهُ صَدَّقَهَا وَفَصَّلَهَا وَبَيَّنَّهَا، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ﴾ [المائدة: ٤٨] وَفِيهِ مِنْ حِكْمَةِ التَّشْرِيعِ مَا لَا يَحْتَاجُ إِلَى بَيَانٍ.

وهذا القرآن حاكم على معارضيه بغلبة الحجة، وهو كتاب محكم متقن، مشتمل على الحكمة والتشريع والمنهج، وهذه المعاني مستمدة من صفة ﴿الْحَكِيمِ﴾ لله تعالى.

وحينما يذكر الله - سبحانه - أن هذا الكتاب تنزيل من عند الله، يُتَّبَعُ ذَلِكَ بِيَعِضِ أَسْمَائِهِ الْحَسَنَى، كَمَا فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿تَنْزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ﴾ ﴿٢﴾ [غافر].

وكما في قوله سبحانه: ﴿تَنْزِيلٌ مِنَ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾ ﴿٢﴾ [فصلت].

وفي هذه السورة وسورتها الجاثية والأحقاف: ﴿تَنْزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ﴾ ﴿١﴾

وفي قوله تعالى: ﴿تَنْزِيلَ الْكَرِيمِ﴾ [يس].

وفي كل هذا ثناء على القرآن، وبيان أنه نزل من عند الله وحده، الذي لا يعجزه شيء في الأرض ولا في السماء، فهو الغالب الذي لا يُقهر، والحكيم الذي يضع الأمور في نصابها، وهو الرحمن الرحيم بخلقه، والعليم بأمورهم، المدبر لأحوالهم، وما دام هذا كلامه، فقد وجب علينا أن نؤمن به ونُتبعه في أوامره ونواهيه، قال تعالى: ﴿وَلَهُ لَنْزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [١٩٢] نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ ﴿١٩٣﴾ عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنْذِرِينَ ﴿١٩٤﴾ بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ ﴿١٩٥﴾ [الشعراء].

وهذا الكتاب أنزلناه عليك -أيها الرسول- بالحق والعدل، لإخراج الناس من الظلمات إلى النور، وهو كتاب مشتمل على الحق في أخباره الصادقة وأحكامه العادلة، فكل ما دل عليه حق، وما بعده ضلال، كتاب لا يشوبه باطل ولا شبهة نقص، فوجب عليك قبوله والعمل بما فيه، وأن تُخلصَ لله عبادتك وطاعتك ودينك إخلاصًا تامًا، لا يشوبه رياء ولا سمعة.

والآية تقتضي وجوب إخلاص الطاعة والعبادة لله تعالى، في الشرائع الظاهرة والباطنة، بالتوجه له وحده في العبادة، ومنها الدعاء والنذر والذبح والاستغاثة..

ومن هنا فإن الرياء يحبط العمل ويبطل أجره، كما جاء فيمن يقاتل رياء أو شجاعة أو حمية، ومن يتصدق رياء، ومن يقرأ القرآن للسمعة، ونحو ذلك.

والخاطرة التي تَحْدُثُ في قلب الإنسان، لا تقدر في عمله، كما أن ثناء الناس عليه لا يُقَصُّ من أجره، وكذلك لو أصاب الإنسان مصلحة إضافية، إلى جانب مقصده الأساس، فإن ذلك لا يؤثر عليه، كمن انتفع بتجارة وهو يحج بيت الله الحرام، فكل هذا ونحوه لا يقدح في صحة العبادة، ولا يُعتبر بابًا من أبواب الشرك؛ لأن الله تعالى هو الذي أباح ذلك، ورفع الحرج عن فاعله. قال تعالى:

﴿مَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا﴾ [الكهف: ١١٠].

أي: اعبد الله وحده وأخلص له دينك، فهو الحق الذي قامت به السموات والأرض، وقد أنزله عليك ربك بالحق.

وهذه الحياة لا تقوم إلا على التوحيد، والتوحيد ليس كلمة تقال باللسان، وإنما هو اعتقاد في الضمير، وعمل بالجوارح، وقول باللسان، وهو منهج حياة متكامل.

وفي الآية دليل على وجوب إخلاص النية لله تعالى في الأقوال والأعمال، فهي من أعمال القلوب التي لا يطلع عليها إلا الله، وفيها دليل على أن إنزال القرآن هداية للناس، نعمة كبرى تقتضي الشكر من الله تعالى وإفراده بالعبادة، وفيها دليل قاطع على أن الشرك بالله كفر بنعم الله تعالى التي أنعمها على العبد، والشكر يقتضي توجيه هذه النعم فيما خلقت من أجله. قال تعالى :

٣- ﴿أَلَا لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَىٰ إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فِي مَا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ^(١) إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ كَاذِبٌ كَفَّارٌ﴾

وبعد أن أفادت الآية السابقة، وجوب إخلاص العبادة لله تعالى، أفادت هذه الآية وقررت الأمر بالإخلاص لله وحده، فكما أن الله تعالى هو المتصف بصفات الكمال والجلال والأفعال، فكذلك له الدين الخالص، فهو الذي يصلح القلوب ويزكيها، وفيه إقرار بالوحدانية، ونفي الشرك عن الله تعالى، والبعد عن عبادة غيره، فقال تعالى :

﴿أَلَا لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ﴾ أي : ألا لله وحده الطاعة التامة التي لا يشوبها شرك ولا رياء.

فانتبهوا أيها الناس، واعلموا أن الله تعالى لا يقبل من العمل إلا ما كان خالصاً لوجهه الكريم، فلا يستحق الدين الخالص إلا لله، ورأس الدين هو التوحيد، وإفراد الله تعالى بالعبادة، وعدم صرف شيء منها لغير الله تعالى.

وهذه مقدمة للقضية الأساس التي هي غرض السورة، وهي قضية التوحيد.

وقد بين سبحانه أن الإخلاص الكامل هو الذي لا تشوبه شائبة شرك، فلا واسطة بين العبد وربّه، ولا وسيلة إلا بأسماء الله وصفاته، وبالعمل الصالح الذي يقدمه المتوسّل إلى نفسه، ولا عذر له في التقرب إلى الله تعالى عن طريق حَجَر، أو عبد صالح، حيّاً أو ميتاً.

أخرج جوير عن ابن عباس ؓ في هذه الآية قال: أنزلت في ثلاثة أحياء: عامر، وكنانة، وبني سلمة، كانوا يعبدون الأوثان، ويقولون: الملائكة بنات الله، فقالوا:

﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَىٰ﴾^(٢).

(١) لم يعد الكوفي (يختلفون) آية، وعدّها غيره.

(٢) «أسباب النزول» للسيوطي ص ٢٤٣.

وقال قتادة: ما نعبدهم إلا ليقربونا إلى الله زلفى، أي: إلا ليشفعوا لنا عند الله^(١).

ثم بيّن سبحانه أن المشركين يزعمون أن عبادة الأوثان وسيلة تقربهم من الله تعالى فقال: ﴿وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ﴾ أي: الذين أشركوا مع الله غيره واتخذوهم أولياء من دونه، وقالوا: ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى﴾ أي: ما نعبد هذه الآلهة مع الله تعالى إلا لتشفع لنا عنده، وتقربنا عنده منزلة، فهم أقرب إلى الله منا، وطلبهم مجاب أكثر منا، ولذا فإننا نتوسل بهم!!

قال الصاوي: كان المشركون إذا قيل لهم: مَنْ خلقكم؟ ومن خلق السموات والأرض؟ وَمَنْ ربكم ورب آبائكم الأولين؟ فيقولون: الله، فيقال لهم: فما معنى عبادتكم الأصنام؟ فيقولون: لتقربنا إلى الله زلفى وتشفع لنا عنده^(٢).

وهم بهذا قد كفروا بالله؛ لأن العبادة والشفاعة لله وحده، واعترافهم بأن الله تعالى هو الخالق الرازق، المحيي المميت، لا يفيدهم شيئاً، فإن الشفاعة عند الله تعالى لها شرطان، وهما: الإذن للشافع في أن يشفع، والرضا عن المشفوع له بقبول الشفاعة فيه.

شبه ثلاث لبعض المتصوفة:

١- إنهم لا يُعَمِّمُونَ حُكْمَ هذه الجملة من الآية ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى﴾ فيَقْصُرُونَ معناها على الكافر، بحيث لو أن المؤمن اتخذ عبداً من عباد الله - حياً أو ميتاً - وجعله واسطة بينه وبين الله، يرفع إليه عمله، ويتقرب به إليه، فلا بأس بذلك - على حد زعمهم - وهذا كلام ساقط، فالآية عامة في كل من يتخذ من دون الله ولياً يتزلف به إلى الله، فهي تقول ﴿وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا﴾ واسم الموصول من ألفاظ العموم.

٢- وهم يزعمون أن الملوك لا يُتَّوَصَّلُ إليهم إلا بواسطة وجهاء وشفعاء ووزراء، يرفعون إليهم حوائج الرعايا، يقولون: وهكذا نحن نتوصل إلى الله تعالى عن طريق وليه فلان، وهذا قياس فاسد، فيه تسوية بين الخالق والمخلوق، فالملوك لا يعرفون أحوال رعاياهم وهم بحاجة إلى من يُعَرِّفُهُم أحوالهم، أما رب العالمين، فهو يعلم ما ظهر وما

(١) «تفسير الطبري» (٢٣/١٢٢).

(٢) «حاشية الصاوي على الجلالين» (٣/٣٦٦).

بطن، ولا يحتاج إلى من يخبره بأحوال العباد.

٣- وهناك شبهة ثالثة وهي أنهم يقولون: إنهم مُثْقَلُونَ بالذنوب فلا يستجاب لهم، وهؤلاء الأولياء مقربون فيستجاب لهم، والجواب على ذلك أن الله تعالى استجاب لإبليس ﴿قَالَ إِنَّكَ مِنَ الْمُنظَرِينَ﴾ [الأعراف] فهل هم أشقى من إبليس؟

ثم بيّن سبحانه مصير هؤلاء المشركين في الآخرة، فقال: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ﴾ أي: يفصل بين المؤمنين المخلصين وبين المشركين يوم القيامة ﴿فِي مَا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ من عبادتهم، فيجازي كُلًّا بما يستحق، فيُدْخِلُ الموحِّدين الجنة ويدخل المشركين النار: ﴿إِنَّهُ مَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَهُ النَّارُ﴾ [المائدة: ٧٢] قوله تعالى:

﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ كَذِبٌ كَفَّارٌ﴾ أي: لا يوفق للهداية والطريق المستقيم من هو مفترٍ على الله، دائم الكذب على دينه، ومن هو شديد الجحود لآيات الله وبراهينه الساطعة. وهكذا وصف الله المشرك بالكذب والكفر، لأنه يجحد الإيمان، ويكذب التوحيد، ويكفر به، فكيف تأتبه الهداية وقد سد منافذها على نفسه.

ومن كذبهم: أنهم جعلوا لله الشريك والولد، وعبدوا غيره، وألَّهوا الأصنام. ومن كفرهم: أنهم صرفوا العبادة لغير الله، وكذبوا برسول الله، وما أتى به من عند الله تعالى. والهداية المنتفية في الآية هي:

خلق الهداية وإيجادها في نفس العبد، وليست هداية الإرشاد والبلاغ.

فالرسول ﷺ يبلغ الرسالة إلى الناس كافة بمستوى واحد، ولكن الناس في تلقيهم لهذه الدعوة، منهم من يتلقاها باستعداد وقبول، وحُسن نظر وتدبر، فيعينه الله تعالى ويشرح صدره ويرضى عنه، فينشرح صدره للإيمان، وهذا ما يشير إليه قول الله تعالى: ﴿فَمَنْ يُرِدْ اللَّهُ أَنْ يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ﴾ [الأنعام: ١٢٥].

وقوله سبحانه: ﴿وَلَكِنَّ اللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الْإِيمَانَ وَزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ﴾ [الحجرات: ٧].

ومنهم من لم يكن عنده استعداد للهداية، فلا يتأمل ولا يتدبر، بل يُغْلِقُ عقله وسمعه وبصره، فيكون ضيق الصدر، لا ينشرح للإيمان، ولا يقبل هداية الرحمن، وهو محل

غضب الله تعالى ، وكلما توغل في الكفر ازداد غضب الله عليه .

وهذا ما يشير إليه قوله تعالى : ﴿وَمَنْ يُرِدْ أَنْ يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصْعَدُ فِي السَّمَاءِ﴾ [الأنعام : ١٢٥] .

وقوله سبحانه : ﴿كَيْفَ يَهْدِي اللَّهُ قَوْمًا كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَانِهِمْ وَشَهِدُوا أَنَّ الرُّسُولَ حَقٌّ وَجَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ﴾ [آل عمران : ٨٦] .

لقد كان الضلال كامناً في نفوسهم فرفضوا غيره ، قال تعالى : ﴿وَمَا يُضِلُّ بِهِ إِلَّا الْفَلْسِيقِينَ﴾ [البقرة : ٢٦] .

إنهم انحرفوا بأنفسهم عن الفطرة فلم يقبلوا هدى ﴿فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ﴾ [الصف : ٥] .

وقد بيّن سبحانه أن الله تعالى سيفصل يوم القيامة بين المشركين ومن عبدهم ، أو توسّطوا بهم إلى الله تعالى في مثل قوله تعالى : ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلَكَةِ أَهْلُؤَلَاءِ إِيَّاكُمْ كَانُوا يَعْبُدُونَ ﴿٤١﴾ قَالُوا سُبْحَنَكَ أَنْتَ وَلَيْسْنَا مِنْ دُونِهِمْ بَلْ كَانُوا يَعْبُدُونَ الْجِنَّ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنُونَ ﴿٤٢﴾﴾ [سبأ] .

فالهداية المنفية في الآية هي الهداية التكوينية التي يخلقها الله تعالى في نفس العبد ، وليست هداية الإرشاد والتبليغ والدلالة . قال تعالى :

٤ - ﴿لَوْ أَرَادَ اللَّهُ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَدًا لَاصْطَفَىٰ مِمَّا يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ سُبْحَنَهُ هُوَ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ﴾

ثم أبطل سبحانه زعمهم في نسبة الولد إلى الله تعالى ، فبيّن جلّ شأنه أنه لو كان متخذاً ولداً على سبيل الفرض والاحتمال لاختار من خلقه ما يشاء ، ولم يختار حجارة ، ولا بنات - كما زعمتم - فأرادته سبحانه مطلقة غير مقيدة ، قال تعالى : ﴿لَوْ أَرَدْنَا أَنْ نَتَّخِذَ لَهَوًا لَّاتَّخَذْتَهُ مِن لَّدُنَّا إِنْ كُنَّا فَعِلِينَ﴾ [الأنبياء] .

ثم علّمنا سبحانه كيف ننزهه عن كل نقص ، وعن كل ما لا يليق بجلاله ، فهو الواحد الأحد ، الفرد الصمد ، الذي لا والد له ولا ولد ، وهو الذي قهر خلقه بقدرته ، وكل شيء خاضع له ومتذلّل .

وقد كان المشركون يزعمون أن اللات والعزى ومناة ، بنات الله ، فقال تعالى : ﴿أَفَرَأَيْتُمُ اللَّاتَ

وَالْعَزَىٰ ﴿٦﴾ وَمَنْزَةَ النَّائِثَةِ الْآخَرَىٰ ﴿٧﴾ أَلَكُمُ الذَّكْرُ وَلَهُ الْأُنثَىٰ ﴿٨﴾ تِلْكَ إِذًا قِسْمَةٌ ضِيزَىٰ ﴿٩﴾ [النجم].

وقد بُني الدليل على استحالة اتخاذ الولد على الله تعالى، فبطل بهذا زعم البنوة لله - سبحانه -، وبطل تبعًا لذلك أن تكون هذه الأصنام آلهة.

والإسلام بهذا قد عالج خرافة الشرك المعقدة؛ إذ كيف يستقيم أن تُعبد هذه الآلهة، وعُبادها يقرون أنها لم تَخْلُق ولم تَرْزُق، وأنها لا تضر ولا تنفع، ومن ذلك ما كانوا يقولونه في حجّهم: لبيك لا شريك لك إلا شريكًا هو لك، تملكه وما ملك.

فما دامت هذه الآلهة مملوكة وليست مالكة، فكيف يستقيم أن تكون آلهة؟! وقد نَزَّه الله نفسه عن اتخاذ الولد، ووصف نفسه بالوحدانية المنافية للبنوة، ثم وصف نفسه بالقهار وهي صفة تدل على نفي الشركاء والأنداد عن الله تبارك وتعالى.

قال في التسهيل: نَزَّه الله تعالى نفسه عن اتخاذ الولد، ثم وصف نفسه بالواحد؛ لأن الوحدانية تنافي اتخاذ الولد، ولأنه لو كان له ولد لكان من جنسه، ولا جنس له سبحانه، لأنه واحد، وقد وصف نفسه بالقهار، ليدل على نفي الشركاء والأنداد؛ لأن كل شيء مقهور تحت قهره تعالى، فكيف يكون له شريك؟^(١).

وهو الواحد في ذاته وفي أسمائه وصفاته وأفعاله، لا شريك له ولا ند ولا مثل، وهو القهار لجميع العالم العلوي والسفلي، ووحدته وقهره متلازمان، فالواحد لا يكون إلا قهارًا، والقهار لا يكون إلا واحدًا، وفي ذلك نفي للشرك من كل وجه.

هَذِهِ ثَلَاثَةٌ مِنْ أَدَلَّةِ الْقُدْرَةِ الإِلَهِيَّةِ

٥- ﴿خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ يُكَوِّرُ^(٢) الْبَلَدَ عَلَى النَّهَارِ وَيُكَوِّرُ النَّهَارَ عَلَى اللَّيْلِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُّسَمًّى أَلَا هُوَ الْعَزِيزُ الْغَفَّورُ ﴿٥﴾﴾

ثم لفت سبحانه الأنظار إلى بعض أفعاله الدالة على وحدانيته ونفي الشريك عنه سبحانه، فهو خالق هذا الكون بعالميه العلوي والسفلي، بما فيهما وما بينهما، لحكمة عظيمة، وهي

(١) «التسهيل لعلوم التنزيل» (٣/١٩١).

(٢) قرأ الأزرق عن ورش بترقيق وتფخيم راء (يكور) و(يكور) وفخمها بقية القراء قولًا واحدًا.

معرفة الله تعالى، ومن ثم يوحده ويعبده، ثم يُثيبهم أو يعاقبهم في الآخرة، هذا هو الحق الذي خلق الله الخلق من أجله، ولم يخلقهم عبثاً أو لهواً دون هدف ولا غاية.

وقد اشتملت هذه الآية على مخلوقات ست هي: السموات، والأرض، والليل، والنهار، والشمس، والقمر، وفيها ثلاثة أدلة متقابلة:

الدليل الأول: ﴿خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ﴾ وما فيهما وما بينهما، خلقهما ﴿بِالْحَقِّ﴾ لنفع العباد، لمصلحة وحكمة جليلة تعود عليكم أيها الناس، وقد رفع السماء بلا عمد، وبسط الأرض وذلّلها لخلقهم ليمشوا في مناكبها ويأكلوا من رزقه.

الدليل الثاني: ﴿يُكْوِّرُ اللَّيْلَ عَلَى النَّهَارِ وَيُكْوِّرُ النَّهَارَ عَلَى اللَّيْلِ﴾ كلُّ منهما يخْلُف الآخر، فلا يجتمعان ولا يفترقان، بل إذا أتى أحدهما انعزل الآخر عن سلطانه، كما قال سبحانه: ﴿وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ خِلْفَةً لِّمَنۢ أَرَادَ أَنۢ يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ شُكُورًا﴾ [الفرقان].

يجيء الليل فيذهب بالنهار، ويغشى مكانه فيلبسه ويلبّسه، ثم يجيء النهار فيذهب بالليل، ويُغيّيه عن الأبصار، وهو تكوير متتابع يشبه تكوير العمامة، بعضه فوق بعض، وهو معنى قوله تعالى: ﴿يَغْشَى اللَّيْلَ النَّهَارَ يَطْلُبُهُ حَثِيثًا﴾ [الأعراف: ٥٤] وهو أيضاً معنى قوله سبحانه: ﴿يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ﴾ [الحديد: ٦].

والعلم الحديث يقرر أن الأرض كروية تدور حول نفسها في مواجهة الشمس، وأن الجزء الذي في مواجهة الشمس من سطح الأرض يكون نهاراً مضيئاً، ولكن هذا الجزء لا يظل ثابتاً؛ لأن الأرض تدور، وكلما تحركت يبدأ الليل بظلامه يغمر هذا السطح الذي كان نهاراً، وهذا السطح مكور، فالليل يكون مكوراً عليه، والنهار كذلك يكون مكوراً على هذا الجزء^(١).

ويظل هذا التتابع المستمر ما بقي الليل والنهار، ويترتب على تكوير الليل والنهار، الزيادة والنقص في كلِّ منهما، ويترتب عليه أيضاً تعاقب الفصول الأربعة: الصيف، والشتاء، والربيع، والخريف.

الدليل الثالث: ﴿وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ أي: ذلّل الشمس والقمر،

(١) يُنظَر: «في ظلال القرآن» (٥/٣٠٣٤).

فكلُّ منهما منقاد انقيادًا تامًّا لأمر الله تعالى، يسير في فلكه بانتظام دقيق، وسيرٌ مُتَقَنَّ لمنافع العباد، ولا يزال الأمر كذلك حتى قيام الساعة ﴿لَا الشَّمْسُ يَنْبَغِي لَهَا أَنْ تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلَا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾ [يس].

ويظل الأمر كذلك حتى تُكَوِّرَ الشمس وتنكدر النجوم، ويكون قيام الساعة، وينشيء الله الخلق نشأة أخرى، يحاسبهم ويجازيهم ويستقرون في دار القرار في جنة أو نار.

ألا فتنَّبَها يا عباد الله، فإن الله تعالى غالب على أمره، ستَّارٌ لذنوب خلقه، فأخلصوا عبادتكم لله ولا تشركوا به شيئًا ﴿أَلَا هُوَ الْعَزِيزُ الْغَفُورُ﴾ الخالق لجميع المخلوقات، المتصرف فيها، المهيمن عليها، لا يستعصي عليه شيء، ومن عزته - سبحانه - أنْ أَوْجَدَ هذه المخلوقات وسخرها بأمره.

وصفةُ العزة تفيد أنه سبحانه يفعل ما يشاء ولا غالب له وصفة الغفار، فيها دعوة إلى التوبة بالدخول في الإسلام والمبادرة إليها قبل الموت، ﴿وَلِيَّ لَغْفَارٍ لِّمَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا ثُمَّ اهْتَدَى﴾ [٨٢] [طه].

وَهَذِهِ خَمْسَةُ أَدِلَّةٍ أُخْرَى

٦- ﴿خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَأَنزَلَ لَكُمْ مِنَ الْأَنْعَامِ ثَمِينَةَ أَزْوَاجٍ يَخْلُقُكُمْ فِي بُطُونٍ أُمَّهَاتِكُمْ^(١) خَلْقًا مِنْ بَعْدِ خَلْقٍ فِي ظُلُمَاتٍ ثَلَاثٍ ذَلِكُمْ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ الْمُلْكُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَأَنَّى تُصْرَفُونَ﴾ [١]

وبعد أن ذكر سبحانه في الآية السابقة ستة من المخلوقات الدالة على وحدانية الله تعالى وقدرته، وهي: السموات والأرض، والليل والنهار، والشمس والقمر، ذُكِرَ في هذه الآية خمسة أدلة أخرى على وحدانية الله تعالى وعظيم قدرته؛ إذ ليس في وسع من كان له عقل أن يشك لحظة في أن الله وحده هو خالق هذا الكون، وأن التوجه بالعبادة إلى غيره صَرَفٌ لها في غير موضعها، وذلك لأن هذه الآية وما قبلها بصدد خطاب المشركين الذين يقولون عن الأصنام: ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى﴾.

(١) قرأ حمزة بكسر الهمزة والميم من (أمهاتكم) وقرأ الكسائي بكسر الهمزة وفتح الميم، وقرأ الباقون بضم الهمزة وفتح الميم، وأجمعوا على ضم الهمزة وفتح الميم عند البدء بها.

وختمت هذه الآية بقوله تعالى: ﴿فَأَنَّى تُصْرَفُونَ﴾ أي: فكيف تُصْرَفُونَ عن عبادة الله إلى عبادة غيره، بعد أن عرفتم هذه الأدلة الأحد عشر التي ذكرت في هاتين الآيتين، ومجمل الأدلة الخمسة التي في هذه الآية هي:

- ١- خلق الناس من ذكر وأنثى.
- ٢- خلق الذكر الأول من غير أب ولا أم.
- ٣- خلق الأنثى الأولى من غير أم.
- ٤- خلق الأنعام الثمانية. (من: الإبل اثنين، ومن البقر اثنين، ومن الضأن اثنين، ومن المعز اثنين).

٥- أطوار خلق الإنسان والحيوان في بطون الأمهات.

وقد جاء خلق آدم من سلالة من طين مُدْمَجًا مع خلق سائر الناس من ذكر وأنثى في جملة واحدة هي قوله تعالى: ﴿خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ﴾ أي: خلقكم - أيها الناس - من نفس واحدة هي نفس أبيكم آدم، وقد خلقه الله من تراب، ثم قال له: كن، فكان بشرًا سويًا.

﴿ثُمَّ جَعَلْ مِنْهَا﴾ أي: خلق من هذه النفس الواحدة ﴿زَوْجَهَا﴾ وهي حواء، ليسكن إليها وتسكن إليه، خلقها من آدم خلقًا مستقلًا، حيث خلقت من ضلع آدم، كما يستفاد من الضمير في ﴿مِنْهَا﴾ وكما صح في الحديث عن أبي هريرة ؓ أن رسول الله ﷺ قال: «استوصوا بالنساء خيرًا فإن المرأة خلقت من ضلع أعوج، وإن أعوج شيء في الضلع أعلاه، فإن ذهبت تقيمه كسرته، وإن تركته لم يزل أعوج، فاستوصوا بالنساء خيرًا»^(١).

ووقت خلق حواء لم يكن هناك ضلع سوى ضلع آدم.

وخلق الله سائر الناس عن طريق التوالد والتناسل منهما ﴿مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ مَاءٍ مَهِينٍ﴾

[السجدة: ٨].

إذن، فخلق حواء، وخلق الناس جميعًا يرجع في الأصل إلى نفس واحدة هي آدم، ولذا فقد أدمج الله تعالى خلق الناس في خلق آدم من قوله تعالى: ﴿خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ﴾.

فخلق آدم وحواء ونسلهما، أدلة ثلاثة على عظيم قدرة الله تعالى، قال تعالى: ﴿يَأْتِيهَا النَّاسُ

(١) «صحيح مسلم» برقم (١٤٦٨) و«صحيح البخاري» (٣٣٣١، ٥١٨٦).

أَتَقُوا رَبَّكُمْ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً ﴿١﴾ [النساء: ١].

وقال تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا﴾ [الأعراف: ١٨٩].

وقال سبحانه: ﴿يَتَأْتِيهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاهُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَىٰ وَجَعَلْنَاهُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا﴾ [الحجرات: ١٣]. فهذه ثلاثة أدلة: هي خلق الناس من ذكر وأنثى، وخلق آدم من غير أب ولا أم، وخلق حواء من غير أم.

أما الدليل الرابع، وهو خلق الأنعام، فقد جاء في قوله تعالى: ﴿وَأَنْزَلَ لَكُمْ مِنَ الْأَنْعَامِ ثَمِينَةَ أَزْوَاجٍ﴾.

والأزواج هي الأصناف والأنواع، أي: الذكر والأنثى، كما قال تعالى:

﴿وَمِنْ كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ﴾ [الذاريات: ٤٩].

وقوله تعالى: ﴿وَمِنْ كُلِّ الشَّعَرِ جَعَلْنَا زَوْجَيْنِ آتَيْنِ﴾ [الرعد: ٣].

والأنعام هي: الإبل والبقر والغنم، وكل من هذه الثلاثة ذكر وأنثى.

قال تعالى: ﴿ثَمِينَةَ أَزْوَاجٍ مِنَ الضَّأْنِ اثْنَيْنِ وَمِنَ الْمَعْرِ اثْنَيْنِ﴾ [الأنعام: ١٤٣].

وقال سبحانه: ﴿وَمِنَ الْإِبِلِ اثْنَيْنِ وَمِنَ الْبَقَرِ اثْنَيْنِ﴾ [الأنعام: ١٤٤].

وقد فُسر الإنزال للأنعام بمعانٍ كثيرة:

١- منها: الخلق. ٢- ومنها: إنزال أمر الله تعالى:

٣- ومنها أنه إنزال حقيقي للأنعام من السماء.

٤- ومنها: إنزال الماء الذي يخرج منه النبات ويعيش عليه الحيوان، وهو وما قبله تأويل بعيد.

٥- ومنها: أن يكون (أنزل) بمعنى: أحدث وأنشأ. ولعل الأول هو الصواب.

٦- وقال بعضهم: الإنزال بمعنى الهبوط، فهو إنزال يراد به: الهبوط، كما جاء في سفينة نوح، قال تعالى: ﴿فَلَمَّا أَتَمَّ فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ﴾ [هود: ٤٠].

وقال بعد ذلك ﴿قِيلَ يَنْتُحِ أَهْطُ إِسْلَمِ مَنَّا وَبَرَكَتٍ عَلَيْكَ وَعَلَى أَمْرِ مَعْلَكٍ﴾ [هود: ٤٨]

فأصل الحيوانات الموجودة هي التي نجت مع نوح في سفينته .

فيكون المعنى : أن الله تعالى خلق الأنعام، كما قال تعالى : ﴿وَاللَّهُمَّ خَلِّهَا﴾ [النحل: ٥].

وهذا باعتبار الأصل، ثم إنها هلكت في الطوفان كسائر المخلوقات، ونجَّى الله منها أصولها مع من نجا في السفينة .

وقد خصَّ الله الأنعام بالذكر، لكثرة نفعها وعموم مصالحها، ولاختصاصها بأشياء لا تصلح لغيرها، كالأضحية والعقيقة والهدي والنذر والأكل، ووجوب الزكاة فيها، ودفع الدية منها . .

الدليل الخامس: حالة مشتركة بين الإنسان والحيوان، وهي خلقهما في بطون الأمهات، ثم غلب جانب الإنسان لأنه أشرف، وله عقل يعقل به، فقال : ﴿يَخْلُقُكُمْ﴾ أيها الناس ﴿فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ خَلْقًا مِّنْ بَعْدِ خَلْقٍ﴾ أي: طورًا بعد طور، وأنتم في بطون أمهاتكم لا تمسكم يد، ولا تنظر إليكم عين بطريق مباشر، وقد رباكم الله في هذا المكان الضيق في ظلمات ثلاث، فإن الإنسان يكون نطفة، ثم علقه، ثم مضغه، إلى أن يتم خلقه، ثم يُنفخ فيه الروح، فيكون خلقًا آخر، قال تعالى : ﴿أَلَمْ نَخْلُقْكُمْ مِّنْ مَّاءٍ مَّهِينٍ ﴿٢٠﴾ فَجَعَلْنَاهُ فِي قَرَارٍ مَّكِينٍ ﴿٢١﴾ إِلَى قَدَرٍ مَّعْلُومٍ ﴿٢٢﴾﴾ [المرسلات].

وقال سبحانه : ﴿يَتَكَلَّمُ النَّاسُ إِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِّنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاهُ مِن تُرَابٍ ثُمَّ مِّن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِّنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِّنْ مُّضْغَةٍ مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ﴾ [الحج: ٥].

وفي الحديث: عن ابن مسعود ؓ أن رسول الله ﷺ قال : «إن أحدكم يُجمع خلقه في بطن أمه أربعين يومًا نطفة، ثم يكون علقه مثل ذلك، ثم يكون مضغه مثل ذلك، ثم يُرسل إليه الملك، فينفخ فيه الروح، ويكتب رزقه وأجله وعمله، وشقي أو سعيد»^(١).

وأطوار خلق الإنسان عشرة:

الأول: طور النطفة، وهي جسم مخاطي أبيض، نحو خمسة مليمترات، وهي كاللدودة.

الثاني: طور العلقه، وهي تتكون بعد ثلاثة وثلاثين يومًا من استقرار النطفة في الرحم،

(١) «صحيح مسلم» برقم (٢٦٤٣) و«صحيح البخاري» برقم (٣٢٠٨، ٣٣٣٢، ٦٥٩٤، ٧٤٥٤).

وهي كالنملة الكبيرة، تبلغ نحو ثلاثة عشر ملِّيمترًا، فيها ملامح وتخطيطات.

الثالث: طور المضغة، وهي قطعة لحم حمراء في حجم النحلة، قدر ما يمضغه الإنسان أو أقل.

الرابع: عند استكمال شهرين، يكون طوله ثلاثة سنتيمترات، وله نصف حجم الرأس، وليس له عنق، ولا وجه يميزه.

الخامس: في الشهر الثالث، يبلغ طوله خمسة عشر سنتيمترًا، ووزنه مئة جرام، وتكون له علامات في رسم الجبهة والأنف وغيرهما.

السادس: في الشهر الرابع، يبلغ طوله عشرين سنتيمترًا، ووزنه ٢٤٠ جرامًا، ويظهر في الرأس زغب، وتتضح أظفاره.

السابع: في الشهر السادس، حيث يصير طوله نحو ثلاثين سنتيمترًا، ووزنه خمس مئة جرام، وتتصلب أظفاره.

الثامن: في الشهر السابع، يكون طوله ثمانية وثلاثين سنتيمترًا، ويقل احمرار جلده ويتكاثر، وتظهر عليه مادة دهنية دسمة ملتصقة، ويطول شعر رأسه، وتتميز الجُمُجُمة من الوسط.

التاسع: وفي الشهر الثامن، يبلغ طوله نحو أربعين سنتيمترًا، ووزنه أربعة أرتال، ويكبر حجمه وتقوى حركته.

العاشر: في الشهر التاسع، يبلغ طوله من خمسين إلى ستين سنتيمترًا، ووزنه من ستة إلى ثمانية أرتال، ويتم عظمه، ويتضخم رأسه، ويكثف شعره، وينمو بالغذاء، وتجري فيه دورة الدم، وتبتدئ وظائف الحياة في الجهاز الهضمي والرئة والقلب.

-أما الظلمات الثلاث فهي: ظلمة الرحم، وظلمة البطن، وظلمة المشيمة، وهي غشاء يحيط بالجنين ليقيه وليكون به استقلاله مما ينجر إليه من الأغذية في دروته الدموية الخاصة به دون أمه^(١).

﴿ذَلِكُمُ﴾ الذي خلق السموات والأرض، وسخر الشمس والقمر، وخلقكم، وخلق

(١) يُنظَر: «تفسير التحرير والتنوير» (٢٢/٣٣٣).

لكم الأنعام والنعم، هو ﴿اللَّهُ رَبُّكُمْ﴾ خالق هذا الكون ومدبر أمره، ومبدع خلق الإنسان والحيوان والنبات، وهو سبحانه ﴿لَهُ الْمُلْكُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾ هو الذي خلق السموات والأرض، والليل والنهار، والشمس والقمر، والأنعام، وخلق الإنسان أطواراً، فاعبدوه وحده، ولا تشركوا معه غيره، فلم تبق لكم شبهة ولا عذر تعتذرون به في مشابهة الأصنام بالواحد القهار، كما قال تعالى: ﴿أَمْ جَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ خَلَقُوا كَخَلْقِهِ فَتَشَبَّهُ الْخَلْقُ عَلَيْهِمْ﴾ [الرعد: ١٦] فكيف تكفرون؟!

ولذا: كان ختام الآية بقوله تعالى: ﴿فَأَنَّى تُصْرَفُونَ﴾. كيف تنصرفون عن عبادة الواحدة القهار إلى عبادة غيره؟

اللَّهُ تَعَالَى لَا يَنْفَعُهُ إِيمَانٌ وَلَا يَضُرُّهُ كُفْرٌ

٧- ﴿إِنْ تَكْفُرُوا فَإِنَّ اللَّهَ عَنِّي عَنكُمْ وَلَا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ الْكُفْرَ وَإِنْ تَشْكُرُوا يَرْضَهُ^(١) لَكُمْ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ مَرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ إِنَّهُمْ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾ قال ابن عباس ؓ: هذه الآية مخاطبة للكفار الذين لم يرد الله أن يطهر قلوبهم، والذين لا يرضى الله لهم الكفر، وهم المؤمنون المخلصون.

أي: وبعد أن ساق سبحانه جملة من البراهين القاطعة الدالة على وحدانية الله تعالى وعظيم قدرته، بما يوجب الإيمان بالله تعالى، ويحول بين العبد وبين الكفر بالله تعالى، بعد ذلك هدّد الله الكفار وتوعّدهم بسوء العاقبة إن لم يؤمنوا بالله ربهم، فإنه سبحانه لم يكلفهم بما كلفهم به من العبادات وغيرها ليجلب لنفسه نفعاً أو يدفع عنها ضرراً؛ لأنه سبحانه غني عن خلقه، ولو كان محتاجاً إليهم في شيء لكان ذلك نقصاناً فيه، والله تعالى منزّه عن النقائص، فلا ينفعه إيمان ولا يضره كفر.

﴿إِنْ تَكْفُرُوا﴾ بربكم - أيها الناس -، ولم تؤمنوا به، وتتبعوا رسله، وتصدقوا كتبه، وتؤمنوا بخاتم النبيين وكتابه، ﴿فَإِنَّ اللَّهَ عَنِّي عَنكُمْ﴾ وعن إيمانكم وطاعتكم، وليس

(١) في هاء (يرضه) ست قراءات: ١- اختلس ضمة الهاء فيها نافع وحفص وحمزة ويعقوب ٢- وأشبع حركتها ابن كثير والكسائي وخلف ٣- وأسكنها السوسي ٤- وقرأ بالإسكان والإشباع الدوري عن أبي عمرو وابن جمار ٥- وقرأ بالإسكان والاختلاس هشام وشعبة ٦- وقرأ بالاختلاس والإشباع ابن ذكوان وابن وردان.

بحاجة إلى شيء من ذلك، فأنتم الفقراء إليه، وكفركم لا يضره، كما أن طاعتكم لا تنفعه، وأمره ونهيه لكم، محض فضل وإحسان إليكم، وهو سبحانه يكره لكم أن تعبدوا غيره ﴿وَلَا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ الْكُفْرَ﴾ ولا يحبهم منهم، ولا يحمده لهم، ولا يأمرهم به، ولا يقره لهم، بل يعاقبهم عليه، وذلك لأجل منفعتهم ودفع مضرتهم رحمة بهم، فالكفر يُشقيهم شقاوة لا يسعدون بعدها، وقد خلقكم لعبادته، فلا يرضى لكم أن تعبدوا غيره ﴿وَإِنْ تَشْكُرُوا﴾ الله على نعمه، فتوحده وتؤمنوا به، وتفردوه بالعبادة، وتخلصوا له الطاعة، فإنه سبحانه ﴿يَرْضَىٰ لَكُمْ﴾ لأن فيه منفعتكم وعدم الإضرار بكم، وفيه سعادتكم في الدنيا والآخرة، حيث تثابون عليه يوم القيامة، فمنفعة الشكر تعود عليكم.

وقد كان الكفر مرادًا لله تعالى؛ لأنه لا يقع في ملكه إلا ما يريد، مع أن الله تعالى لا يرضى لعباده الكفر، ولا يمدحه ولا يثني عليه، ولا يأمرهم به، وإن كان واقعًا بمشيئته وقضائه بمقتضى علمه تعالى عن توجهات عباده قبل أن يخلقهم، والله تعالى قد نهاهم عن الكفر ولم يأمرهم به، فالرضى والأمر غير الإرادة، وبهذا يتبين أن عاقبة الشكر تعود على الشاكر بالخير الجزيل، وأن عاقبة الجحود تعود على الجاحد بالشر الويل والشقاء في الدنيا والآخرة.

وعن أبي ذر رضي الله عنه، فيما يرويه عن رسول الله ﷺ، عن ربّه ﷻ قال: «يا عبادي، إنكم لن تبلغوا ضري فتضروني، ولن تبلغوا نفعي فتنفعوني».

يا عبادي، لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم كانوا على أتقى قلب رجل واحد منكم ما زاد ذلك في ملكي شيئًا.

يا عبادي، لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم كانوا على أفجر قلب رجل واحد ما نقص ذلك من ملكي شيئًا^(١).

أخرج عبد بن حميد عن قتادة قال: والله ما رضي الله لعبده ضلالة، ولا أمره بها، ولا دعا إليها، ولكن رضي لكم طاعته، وأمركم بها، ونهاكم عن معصيته.

ثم خاطب سبحانه الكافرين والشاكرين على حدٍّ سواء، نظرًا لأنه قد يكون بين الفريقين

(١) من حديث طويل في «صحيح مسلم» برقم (٢٥٧٧).

من وشائج القرباة والولاء، ما يدفعهم إلى التضحية والفداء، وربما تحرّج المؤمنون أن يمسه إثم من جرّاء كفر أقربائهم وأولياهم، فبيّن سبحانه أنه لا تحمل نفس إثم نفس أخرى، فقال: ﴿وَلَا تُزِرُّ وَازِرَةً وَزَرَ أُخْرَى﴾ بل تُجازي كل نفس بما كسبت.

كما قال تعالى: ﴿وَإِنْ تَدْعُ مُثْقَلَةٌ إِلَىٰ حِمْلِهَآ لَا يَحْمِلْ مِنْهُ شَيْءٌ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ﴾ [فاطر: ١٨]
وقال سبحانه: ﴿قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ فَإِن تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْهِ مَا حُمِّلَ وَعَلَيْكُمْ مَا حُمِّلْتُمْ وَإِنْ تُطِيعُوهُ تَهْتَدُوا﴾ [النور: ٥٤].

ويوم القيامة توفى كل نفس بما كسبت، ويكون مصيركم المحتوم إلى ربكم، فيخبركم بعملكم عن طريق الملائكة، وتروّنه في صحيفة أعمالكم، ويظهر لكم الحق الذي لا مرية فيه، وتحاسبون عليه، وهو سبحانه عليم بأسرار النفوس وما تخفي الصدور، لا تخفى عليه خافية، يعلم السر، ويعلم ما هو أخفى من السر، فقد أحاط علمه بكل شيء، وجرى قلمه بكل ما هو كائن وما يكون، وسجلته الملائكة الكرام، وشهدت به الجوارح، ويوم القيامة يكون الحساب والجزاء.

حَالُ غَيْرِ الْمُؤْمِنِ فِي الشَّدَةِ وَالرَّخَاءِ

٨- ﴿وَإِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ ضُرٌّ دَعَا رَبَّهُ مُنِيبًا إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَا خَوَّلَهُ نِعْمَةً مِنْهُ نَسَىٰ مَا كَانَ يَدْعُوهُ إِلَيْهِ مِنْ قَبْلُ وَجَعَلَ لِلَّهِ أَندَادًا لِّيُضِلَّ^(١) عَنْ سَبِيلِهِ قُلْ تَمَتَّعْ بِكُفْرِكَ قَلِيلًا إِنَّكَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ ﴿٨﴾﴾

إن غير المؤمن بالله - سبحانه - متقلب في ولائه وتوجّجه، فهو عند الحاجة ومس الضر يتوجه إلى الله تعالى بالدعاء ليرفع الضر عنه، فإذا ذهب ضره وصار في نعمة وعافية عاد إلى شركه ونسي ربه الذي لجأ إليه في الشدة ﴿وَإِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ ضُرٌّ﴾ أي: إذا أصابه ما يكره من فقر أو مرض أو هزيمة أو بلاء أو كربة ﴿دَعَا رَبَّهُ مُنِيبًا إِلَيْهِ﴾ أي: تذكر ربه فاستغاث به ودعاه مقبلاً عليه، ليرفع عنه ما به من شدة، كما قال تعالى: ﴿وَإِذَا مَسَّ النَّاسَ ضُرٌّ دَعَوْا رَبَّهُمْ مُنِيبِينَ إِلَيْهِ﴾ [الروم: ٣٣].

لأنه يعلم أنه لا ينجيه إلا الله، ولا يزيل كربه إلا الله، ولذا فهو يدعوه ويستغيث به.

(١) قرأ ابن كثير وأبو عمرو ورويس بفتح الياء من (ليضل) مضارع ضلّ، والباقون بضمها مضارع أضل.

قال سبحانه: ﴿بَلْ إِيَّاهُ تَدْعُونَ فَيَكْشِفُ مَا تَدْعُونَ إِلَيْهِ إِنْ شَاءَ وَتَنْسَوْنَ مَا تُشْرِكُونَ﴾ [الأنعام: ١٠١].

فإذا فرّج الله عن الإنسان كربّه، ورفع ما به من ضرر، ومنحه النعمة والعافية، نسي دعاءه لربه عند حاجته إليه، ولم يكتفِ بهذا، بل أشرك معه غيره، فضّل عن سبيل الله، وكان سبباً لضلال غيره عن طاعة الله وعبادته، وهذا معنى:

﴿ثُمَّ إِذَا خَوَّلَهُ﴾ أي: أعطاه وملّكه ﴿نِعْمَةً مِّنْهُ﴾ أي: كشف عنه ضرره وفرّج عنه كربّه، ومنحه نعمة أخرى ﴿نَسِيَ مَا كَانَ يَدْعُوَ إِلَيْهِ مِن قَبْلُ﴾ أي: نسي الضر الذي كان فيه، فتمرد وطغى، أو نسي ربه الذي كان يدعوه ويتضرع إليه قبل أن يمسه الضر، فأشرك معه غيره في دعائه، زيادة على النسيان ﴿وَجَعَلَ لِلَّهِ أَنْدَادًا لِّيُضِلَّ عَن سَبِيلِهِ﴾ أي: جعل لله شركاء في عبادته ووحدانيتها، فضّل عن سبيل الله.

وعلى قراءة ضم الياء في ﴿يُضِلَّ﴾ يكون المعنى: ليضل الناس بعد أن ضل هو نفسه عن سبيل الله؛ إذ لا يضل الناس إلا ضال، وهؤلاء الأنداد قد يكونون آلهة من البشر أو من الحجر أو من غيرهما، يعبدونها العبد مع الله تعالى، أو يتقرب بها إليه.

وقد يكون اتباعاً للهوى والشیطان، كما قال تعالى: ﴿أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَٰهَهُ هَوَاهُ﴾ [الجاثية: ٢٣].

وقد يكون أيضاً طاعة للحكام أو العلماء في تحريم الحلال وتحليل الحرام، كما قال تعالى: ﴿اتَّخَذُوا أَجْنَابَهُمْ وَرُءُوسَهُمْ أَرْكَابًا مِّنْ دُونِ اللَّهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا إِلَٰهًا وَاحِدًا لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ [التوبة: ٣١].

وقد يكون الشرك في صورة طواغيت يوالِيهم العبد ويتودد إليهم على حساب دينه، قال تعالى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ اللَّهِ أَنْدَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِلَّهِ﴾ [البقرة: ١٦٥].

فتكون العاقبة في هذا ونحوه هي الضلال عن سبيل الله، وعدم إفراذه تعالى بالعبادة، والولاء لغيره.

قل -يا أيها الرسول- لكل من يجعل لله أنداداً في طاعته ومحبته وولائه، متوعداً ومهدداً له بعذاب الله: انتفع بما أنت فيه، وتمتع بالسلامة من العذاب وقتاً قليلاً

حتى يحين وقت موتك وينتهي أجلك، فأنت آيل إلى النار ومصيرك إليها ﴿قُلْ تَمَتَّعْ بِكُفْرِكَ قَلِيلًا﴾ أي: تمتع متاعًا قليلًا إلى نهاية عمرك، فمتاع الدنيا قليل ﴿إِنَّكَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ﴾ في الآخرة فمصيرك إليها وأنت مخلد فيها، كما قال تعالى: ﴿وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَّعٌ إِلَىٰ حِينٍ﴾ [البقرة: ٣٦].

وقوله سبحانه: ﴿فَمَا مَتَّعَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ﴾ [التوبة: ٣٨].

ومتاع الدنيا لا يغني عن العبد شيئًا إن كان ماله إلى النار، قال تعالى: ﴿أَفَرَأَيْتَ إِنْ مَتَّعْنَاهُمْ سِنِينَ ﴿٢٥﴾ ثُمَّ جَاءَهُمْ مَا كَانُوا يُوعَدُونَ ﴿٢٦﴾ مَا أَغْنَىٰ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يُمْتَنِعُونَ ﴿٢٧﴾﴾ [الشعرا] فهذا المتاع الطويل لا يثبت أمام لفحة من عذاب جهنم.

﴿وَلَئِنْ مَسَّتْهُمُ نَفْحَةٌ مِّنْ عَذَابِ رَبِّكَ لَيَقُولُنَّ يُوَدُّنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ ﴿٤٦﴾﴾ [الأنبياء: ٤٦].

هذا: واللاجوء إلى الله تعالى في الشدة ونسيانه في الرخاء جاء في آيات كثيرة، منها قوله تعالى: ﴿فَإِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ ضُرٌّ دَعَانَا ثُمَّ إِذَا خَوَّلْتَهُ نِعْمَةً مِنَّا قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ﴾ [٤٩].

وقوله تعالى: ﴿وَإِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فِي الْبَحْرِ ضَلَّ مَن دَعُونَ إِلَّا إِنَّا هُنا فَلَمَّا بَلَغُوا الْبَرْ أَعْرَضْتُمْ وَكَانَ الْإِنْسَانُ كَفُورًا ﴿٦٧﴾﴾ [الإسراء].

وقوله جلَّ شأنه: ﴿وَإِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ الضُّرُّ دَعَانَا لِجَنبِهِ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَائِمًا فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُ مَرَّ كَأَن لَّمْ يَدْعُنَا إِلَىٰ ضُرِّهِ مَسْتَهْزِئًا﴾ [يونس: ١٢].

هذا هو حال المشرك بربه، وبالمقابل فما هو حال المؤمن القانت؟

الْمُؤْمِنُ وَالْكَافِرُ لَا يَسْتَوِيَانِ

٩- ﴿أَمَنَ ﴿١﴾ هُوَ قَنِيتٌ عَائِدًا إِلَيْلٍ سَاجِدًا وَقَائِمًا يَحْذَرُ الْآخِرَةَ وَيَرْجُوا رَحْمَةَ رَبِّهِ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو الْأَلْبَابِ ﴿٢﴾﴾

هذه مقابلة بين العالم والجاهل، والمطيع والعاصي، والموحد والمشرک، والمعرض عن طاعة الله، المتبع لهواه، والقانت المتقرب إلى ربه بأفضل الطاعات.

(١) قرأ نافع وابن كثير وحزمة بتخفيف الميم من (أمن) موصولة دخلت عليها همزة الاستفهام التقريرية، وقرأ الباقون بتشديد الميم على أن (من) موصولة دخلت عليها (أم) المتصلة ثم أدغمت الميم في الميم.

إنهما لا يستويان، لا يستوي الجاهل الكافر الذي جعل لله أندادًا، بمن هو مؤمن بربه مطيع له، يرجو رحمته ويخشى عذابه، فقد نفى الله - سبحانه - المساواة بينهما، وفي هذا تمام المقابلة بين حال المؤمن، وحال المشرك الذي لا يدعو ربه إلا وقت الاضطرار، فلا يهتم إلا بدياه، ولا يرجو ثوابًا ولا يخاف عقابًا.

والمؤمن هو العالم العامل بعلمه، والمشرك هو الجاهل بحق الله تعالى عليه.

أي: لا يستوي العالم والجاهل. والاستفهام في الآية للإنكار، والمقصود منه: إثبات عدم التسوية بين الفريقين، وتفضيل الذين يعلمون على الذين لا يعلمون.

والذين اتصفوا بالعلم هم الذين جاء ذكرهم في قوله تعالى: ﴿فَمَنْ يَعْلَمْ أَنَّما أَنْزَلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ الْحَقَّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَى إِنَّمَا يَذْكُرُ أُولُوا الْأَلْبَابِ﴾ [الرعد].

فوصف الله تعالى أولي العلم بأنهم أصحاب العقول ﴿أُولُوا الْأَلْبَابِ﴾ إذ العقل والعلم متلازمان، أي: لا يستوي الذين لهم علم فيدركون حقائق الأشياء، مع الذين لا يعلمون، فتختلط عليهم الحقائق، كحال من توهموا أن الحجارة آلهة، فوضعوا الكفر موضع الإيمان.

فيكون المعنى: لا يستوي من هو قانت آناء الليل يحذر بقيام الليل لقاء ربه ويرجوه، ومن جعل لله أندادًا ليضل عن سبيله.

والذين يعلمون هم أهل الإيمان، قال تعالى: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾

[فاطر: ٢٨].

والذين لا يعلمون هم أهل الجهل والشرك، قال تعالى: ﴿قُلْ أَغْيَرَ اللَّهُ تَأْمُرُوتِي عَبْدُ أَيُّهَا الْجَاهِلُونَ﴾.

وفي هذا إشارة إلى أن الإيمان أخو العلم؛ لأنه نور ومعرفة، وأن الجهل أخو الضلال؛ لأنه ظلمة وأوهام باطلة، والعالم يجد من السعادة ما لا يجده الجاهل.

العالم والجاهل لا يستويان:

ونفي الاستواء بين العالم والجاهل يقتضي التفاوت بينهما في صور عديدة، منها:

١- أن العالم بالشيء يهتدي إلى مقصوده بيسر وسهولة، ويعلم ما هو أولى بالإقبال عليه، وغير العالم يضل طريقه، ويضيع وقته، وتختلط عليه الأمور، فيخيب سعيه في

أغلب الأحوال، كما قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَلُوا كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْثَانُ مَاءً حَاقًّا إِذَا جَاءَهُمْ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا﴾ [النور: ٣٩].

فالعالم يسلم من النوائب غالبًا، والجاهل يريد السلامة فيقع في الهلاك.

٢- والعالم تتميز عنده المنافع من المضار، وتتكشف له الحقائق بصحة إدراكه، والجاهل يقع في حيرة من أمره، فلا يدري ماذا يأخذ، وماذا يدع.

قال تعالى: ﴿كُلَّمَا أَضَاءَ لَهُمْ مَشْأَوْا فِيهِ وَإِذَا أَظْلَمَ عَلَيْهِمْ قَامُوا﴾ [البقرة: ٢٠].

٣- والعالم كلما ازداد علمًا استغنى عن الناس بمقدار ما يعلم، وأكسبه ذلك لذة المعرفة.

وفي الحديث عن معاوية رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «من يرد الله به خيرًا يفقهه في الدين»^(١).

قال تعالى: ﴿أَمَنْ هُوَ فَنِتْ عَائَةً أَلِيلَ سَاجِدًا وَقَائِمًا يَحْذَرُ الْآخِرَةَ وَيَرْجُو رَحْمَةَ رَبِّهِ﴾؟

أي: أهذا الكافر المتمتع بكفره زمانًا قليلًا ممن جعل لله شركاء في العبادة، أهو خير، أمَّن هو عابد موحد لربه، طائع له، يقضي ساعات الليل في القيام والسجود لله تعالى، يخاف عذاب الآخرة ويؤمل في رحمة الله تعالى؟

وجواب الاستفهام محذوف لدلالة الكلام عليه.

والمعنى: أهذا الجاعل لله شركاء وأندادًا، خير، أمَّن هو قانت يعبد ربه ليلاً، بعيدًا عن الرياء.

والرجاء: انتظار ما فيه خير ونعيم للإنسان، والخوف انتظار ما فيه مكروه للنفس.

والرجاء يحث النفس على ما يرضي الله تعالى. والخوف يزجر النفس عما لا يرضي الله تعالى.

ولا بد للرجاء من السعي الدؤوب وإلا كان انتظار الخير مغالطة وغرورًا.

قال تعالى: ﴿وَمَنْ أَرَادَ الْآخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَٰئِكَ كَانَ سَعْيُهُمْ مَشْكُورًا

﴿٩﴾ [الإسراء].

أربعة أوصاف للمؤمن:

وقد وصف الله تعالى المؤمن في الآية بأربعة أوصاف، هي:

(١) من حديث معاوية في البخاري برقم (٣١١٦) ومسلم (١٠٣٧).

إخلاص العبادة لله تعالى، والخوف منه، والرجاء فيه، والعلم، والعقل.

فالوصف الأول: قيام الليل قائماً وساجداً بخشوع وإنابة وإخبات.

والوصف الثاني: صفة العمل القلبي بأنه بين الخوف من السيئات والفلتات، وبين الرجاء في رحمة الله تعالى.

وفي هذا تمام المقابلة بين المؤمن الخاشع، والمشرك الذي لا يدعو ربه إلا في وقت الشدة، غير مبالٍ بعاجل العقاب في الدنيا، ولا رجاء ثواب الآخرة.

والوصف الثالث: عدم التسوية بين مَنْ عَلِمَ حقائق الأشياء، فعبد الله على بصيرة، وبين الجاهل الذي اختلطت عليه حقائق الأشياء، فتوهم أن الحجارة آلهة، أو أن أحداً من الخلق يملك شيئاً من خصائص الله تعالى، فيضر أو ينفع، فأطاعه واتبع خطاه، وهذا ما تشير إليه الآية ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ أي: لا يستوي أهل الإيمان -الذين عرفوا أن ربهم حق، ورسولهم حق، ودينهم حق وكتابهم حق- وأهل الشرك وهم الجهلاء الذين لا يعرفون شيئاً من ذلك، فلا يستوي من يعلمون دين الله الشرعي ودينه الجزائي، ومالله في ذلك من الأسرار والحكم، بمن لا يعلم شيئاً من ذلك، لا يستوي هؤلاء وهؤلاء، كما لا يستوي الليل والنهار، والنور والظلام، والماء والنار.

والعلم نور ومعرفة، وهو قرين الإيمان، والجهل ظلمة وضلال وأوهام، وهو قرين الكفر.

وكما لا يستوي العالم والجاهل، لا يستوي البر والفاجر، والمطيع والعاصي.

الوصف الرابع: ختمت به الآية ﴿إِنَّمَا يَذْكُرُ أُولَ الْأَلْبَابِ﴾ فالمؤمنون القانتون هم أصحاب العقول الذين يتأملون ويتدبرون، فيستفهمون ويتذكرون.

أي: إنما يتذكر ويعرف الفرق بين العالم والجاهل والإيمان والكفر: أصحاب العقول السليمة، والمدارك القويمة، فهم الذين يُؤثرون العلم على الجهل، والطاعة على المعصية.

فقد بدأت الآية بذكر العمل، وهو القنوت والسجود والقيام، وخُتمت بالعلم، وبيّنت أنه لا يستوي مع الجهل، وهذا يدل على أن الإنسان محصور بين العلم والعمل.

وهذه الأوصاف الأربعة عامة في كل مؤمن وكل كافر.

وهناك روايات في أن الآية نزلت في أبي بكر وعمر رضي الله عنهما، كما قال ابن عباس رضي الله عنهما.
وقال ابن عمر: نزلت في عثمان، وقيل: نزلت في ابن مسعود وعمار وسلمان، في مقابلة عُتْبَةَ بن ربيعة، أو أبي حذيفة المخزومي^(١) والعبرة بعموم اللفظ.
وعن أنس رضي الله عنه قال: دخل رسول الله ﷺ على رجل وهو في مرض الموت، فقال له: «كيف تجدك؟» قال: أرجو وأخاف، فقال ﷺ: «لا يجتمعان في قلب عبد في مثل هذا الموطن إلا أعطاه الله الذي يرجو، وأمنه الذي يخافه»^(٢).

عَلَى الْمُؤْمِنِ أَنْ يَتَزَوَّدَ بِالْعَمَلِ الصَّالِحِ لِلْآخِرَةِ

١٠- ﴿قُلْ يَبْعَادِ الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا رَبَّكُمْ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ وَأَرْضُ اللَّهِ وَسِعَةٌ إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ (١٠)

أمر الله رسوله في هذه الآية، أن يتوجه بالخطاب إلى المؤمنين القانتين، الجامعين بين الخوف والرجاء، الموصوفين بالعلم والعقل والتذكر: أن يتخذوا من حياتهم القصيرة في الدنيا وسيلة للكسب والتزود للدار الآخرة بالتقوى والإحسان.

﴿قُلْ﴾ أيها الرسول لقومك، وبلغهم هذا النداء عن ربك: ﴿يَبْعَادِ الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ بالله ورسوله ﴿اتَّقُوا رَبَّكُمْ﴾ أطيعوه بامثال أوامره واجتنب نواهيه، بأن تجعلوا بينكم وبين عذاب النار وقاية، وداوموا على ذلك، وإن نزل بكم من الأذى في دين الله، ما يحملكم على التقصير في تقوى الله، فإن المحسنين في الدنيا -بطاعة الله تعالى والابتعاد عن محارمه- قد عجل الله لهم الجزاء الحسن في الدنيا قبل ثواب الآخرة، قال تعالى: ﴿لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ﴾ أي: لهم العاقبة الحسنة، وهي الجنة، ولهم الحالة الحسنة في الدنيا: رزق واسع، ونفس مطمئنة، وقلب منشرح، فهم الذين قالوا: ﴿رَبَّنَا ءَاتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ حَسَنَةً﴾ [البقرة: ٢٠١]. وقال تعالى ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّنْ ذَكَرٍ

(١) يُنْظَرُ: «تفسير الخازن» (٥٠/٤) وابن كثير (٧٩/٧) وأبو نعيم في «الحلية» (٥٦/١) وابن عساکر (٢٣١/٣٩).

(٢) رواه عبد بن حميد في «المنتخب» برقم (١٣٦٨) والترمذي برقم (٩٨٣) وابن ماجه برقم (٤٢٦١) والنسائي في «السنن الكبرى» برقم (١٠٩٠١) وحسنه الألباني في «صحيح سنن الترمذي» (٧٨٥) وفي مشكاة المصابيح (١٦١٢) والسلسلة الصحيحة (١٠٥١) وصحيح ابن ماجه (٣٤٣٦).

أَوْ أَنْتَ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهٗ حَيٰوةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٩٧﴾ [النحل]

وما عند الله خير وأبقى، قال تعالى: ﴿وَلَدَارُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ﴾ [يوسف: ١٠٩].

وحسنة الآخرة هي الجنة، مع زيادة النظر إلى وجه الله الكريم.

وحسنة الدنيا في: الصحة، والرزق، والنصر، والولد، والمال، وراحة النفس، والأمن والأمان، وغير ذلك.

وقد ذكر الله في الآية السبب الموجب للتقوى، وهو ربوبية الله تعالى وإنعامه على خلقه، ومن أجل هذه النعم، نعمة الإيمان بالله ورسوله واليوم الآخر.

والحث على التقوى والإحسان في أول الآية، تمهيد لقوله تعالى: ﴿وَأَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةٌ﴾ ففيها تعريض بالهجرة، فراراً بالدين من الفتن، بمعنى: أن الله تعالى وعد المؤمنين أن يلاقوا حسنة في الدنيا أيضاً، إذا هم هاجروا من ديار الشرك أو الطغيان إلى أي مكان يأمنون فيه على دينهم وأنفسهم، قال تعالى توبيخاً لمن لم يهاجروا فراراً من الفتنة:

﴿قَالُوا أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةً فَهَاجِرُوا فِيهَا﴾ [النساء: ٩٧].

فإذا كان من أحسن فأطاع ربه وترك محارمه، له حسنة في الدنيا، فإن المؤمن المطيع لله والرسول الذي يُضطهد في أرض تحصل له أيضاً هذه الحسنة، وأرض الله أمامه واسعة، فعليه أن يهاجر إلى مكان يتمكن فيه من إقامة دينه، فمهما منعتهم من عبادة الله في أرض فهاجروا إلى غيرها، وهذا حكم عام في كل زمان ومكان.

ولا تزال طائفة من الأمة على الحق ظاهرين، لا يضرهم من خذلهم ولا من خالفهم حتى يأتي أمر الله وهم على ذلك.

وفي الآية إشارة إلى الهجرة إلى الحبشة:

قال ابن عباس ؓ في قوله تعالى: ﴿قُلْ يٰٓعِبَادِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا أَتَقُ۞و۞ا رِبِّكُمۡ﴾ يريد جعفر بن أبي طالب والذين خرجوا معه إلى الحبشة.

ولما كانت مفارقة الأوطان، ومشقة السفر لا يستطيعها إلا صابر، عظم الله أجر الصابرين، وبين أنهم يُعطون أجورهم في الآخرة بغير حساب، لا كما يحاسب غيرهم،

فقال سبحانه: ﴿إِنَّمَا يُوفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ أي بغير حد ولا عد ولا مقدار، وكل شيء يدخل تحت الحساب فهو متناهٍ، وما لا يدخل تحت الحساب فهو غير متناهٍ.

ولهذا المقطع الأخير من الآية معنيان:

المعنى الأول: أن الصابر يوفى أجره، ثم لا يحاسب على نعيم ولا يتابع بذنوب، في إشارة إلى قول النبي ﷺ فيما يرويه عمران بن حصين ؓ أن رسول الله ﷺ قال: «يدخل الجنة من أمتي سبعون ألفاً بغير حساب»، قالوا: من هم يا رسول الله؟ قال: «هم الذين لا يكتوون، ولا يسترقون، وعلى ربهم يتوكلون»^(١).

زاد في رواية: «وجوههم على صورة القمر ليلة البدر»^(٢).

والمعنى الثاني: أن أجور الصابرين تُوفى بغير حصر ولا عد، بل جزافاً.

والصبر: هو سكون النفس وعدم الضجر عند حلول الآلام والنكبات، ومنه الصبر على فعل الطاعات، وترك المحرمات، والصبر على أقدار الله تعالى.

قال علي بن أبي طالب ؓ: كل مطيع يُكال له كيلاً، ويوزن له وزناً إلا الصابرين، فإنه يُحصى لهم حثياً.

وروي أنه يُؤتى بأهل البلاء، فلا يُنصب لهم ميزان، ولا يُنشر لهم ديوان، ويصب عليهم الأجر صباً بغير حساب، حتى يتمنى أهل العافية -في الدنيا- لو أن أجسادهم تُقرض بالمقاريض؛ لِمَا يذهب به أهل البلاء من الفضل.

هذا: والهجرة إلى الحبشة كانت سنة خمس من البعثة، لَمَّا رأى النبي ﷺ ما يصيب أصحابه من الأذى، وكان عمه أبو طالب يحميه، ولا يستطيع النبي ﷺ أن يحميهم، فقال: «لو خرجتم إلى أرض الحبشة، فإن بها ملكاً لا يُظلم عنده أحد، حتى يجعل الله فرجاً مما أنتم فيه» فخرج ثلاثة وثمانون رجلاً، وتسع عشرة امرأة، سوى أبنائهم الذين خرجوا بهم صغاراً، وهذا العدد هو معظم من أسلم في مكة آنذاك، وكان أبو بكر ؓ قد

(١) من حديث عمران بن حصين في «صحيح مسلم» برقم (٢١٨) وعن سهل بن سعد في «صحيح البخاري» (٣٢٤٧، ٦٥٣٤).

(٢) هذه الزيادة من رواية سهل بن سعد في مسلم (٢١٩).

استأذن النبي ﷺ في الهجرة فأذن له، فلقبه ابن الدُّعْنَة فجعله في جواره ولم يهاجر، وكانت حكمة الله تعالى تقتضي بقاء النبي ﷺ بين ظهرائي المشركين لنشر الإسلام، حتى تم مراد الله تعالى، ودخل الإسلام كل بيت في المدينة، بعد أن تم عقد بيعتي العقبة، فأذن الله لرسوله بالهجرة لتكون قاعدة انتشار الإسلام في العالم.

أَرْبَعَةُ أَوْامِرٍ لِلنَّبِيِّ ﷺ وَلِأُمَّتِهِ

الْأَمْرُ الْأَوَّلُ: وَجُوبُ الْإِخْلَاصِ فِي أَعْمَالِ الْقُلُوبِ

١١- ﴿قُلْ إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ مُخْلِصًا لَهُ الدِّينَ﴾ (٢)

وبعد أن أمر الله رسوله أن يُرَغِّبَ الْمُؤْمِنِينَ فِي التَّزَوُّدِ، وَالْمَدَاوِمَةِ عَلَى التَّقْوَى وَالْإِحْسَانِ لِتَحْمُلِ مَشَاقِ الْأَذَى وَالْهَجْرَةِ، أَمَرَهُ أَنْ يَتَوَجَّهَ بِالْخُطَابِ إِلَى غَيْرِ الْمُسْلِمِينَ لِيُخَبِّرَهُمْ، أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى قَدْ أَمَرَهُ وَأَمَرَ أُمَّتَهُ بِالْعِبَادَةِ الْخَالِصَةِ مِنَ الشُّرْكِ وَالرِّيَاءِ، فَيَقُولُ لَهُمْ: إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى قَدْ أَمَرَنِي أَنْ أَعْبُدَهُ وَحْدَهُ، وَأَنْ لَا يَصْرِفَنِي عَنْ ذَلِكَ صَارْفٌ، فَحَيَاتِي وَمَمَاتِي، وَحَرَكَاتِي وَسَكَنَاتِي، وَعِبَادَتِي وَذُبْحِي، وَحَجَّتِي وَجِهَادِي، وَصَلَاتِي وَصُومِي، وَدُعَائِي وَاسْتِغَاثَتِي... كُلُّهَا لِلَّهِ وَحْدَهُ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ (٣) لَا شَرِيكَ لَهُ وَيَذَلِكَ أُمِرْتُ ﴿[الأنعام: ١٦٢، ١٦٣]. وهذا الإخلاص هو الذي جاء في أول السورة ﴿أَلَا لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ﴾.

وهكذا، أمر الله تعالى رسوله ﷺ، وأمر أُمَّتَهُ بِإِخْلَاصِ الْعِبَادَةِ مِنْ قُلُوبِهِمْ لِلَّهِ وَحْدَهُ دُونَ سِوَاهُ، وَأَلَّا يَتَأَثَّرُوا بِمَا كَانَ عَلَيْهِ آبَاؤُهُمْ أَوْ غَيْرُهُمْ مِنَ الشُّرْكِ وَالْجَهْلِ وَالضَّلَالِ، وَالنَّبِيِّ ﷺ هُوَ أَوَّلُ مَنْ خَلَعَ دِينَ آبَائِهِ، وَخَلَعَ الْأَصْنَامَ وَحَطَمَهَا، وَأَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ تَعَالَى وَآمَنَ بِهِ وَدَعَا إِلَى التَّوْحِيدِ.

عَنْ مُقَاتِلٍ: أَنَّ كِفَارَ قَرِيشٍ قَالُوا لِلنَّبِيِّ ﷺ: مَا يَحْمِلُكَ عَلَى هَذَا الَّذِي أَتَيْتَنَا بِهِ؟ أَلَا تَنْتَظِرُ إِلَى مَلَةِ أَبِيكَ وَجَدِكَ وَسَادَاتِ قَوْمِكَ، يَعْبُدُونَ اللَّاتَ وَالْعَزَى؟ فَانْزِلِ اللَّهُ تَعَالَى ﴿قُلْ إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ مُخْلِصًا لَهُ الدِّينَ﴾ (٤).

(١) قرأ نافع وأبو جعفر بفتح ياء الإضافة من (إني أمرت)، والباقون بإسكانها.

(٢) عد الدمشقي والكوفي (له الدين) آية، فيكون متروكاً لغيرهما.

وهذا الأمر مختص بالله تعالى، أي: بتوحيده وعبادته والذي يليه مختص بالنبى ﷺ وأمته جميعاً.

الْأَمْرُ الثَّانِي: وَجُوبُ الْإِخْلَاصِ فِي أَعْمَالِ الْجَوَارِحِ

١٢- ﴿وَأَمَرْتُ لِأَنَّهُ أَكُونَ أَوَّلَ الْمُسْلِمِينَ﴾ ﴿١٢﴾

وبعد أن أمر الله رسوله بالإخلاص في أعمال القلوب أمره بالإخلاص في عمل الجوارح؛ لأن شرائع الله تعالى لا تؤخذ إلا عن الرسول ﷺ فهو المبلغ عن ربه، وهو أول الناس في التطبيق والعمل، وهو الداعي إلى الهدى، وهو أول من أتمم بأمر الله تعالى، فلزم أن يكون هو أول من أسلم لله في أعماله الظاهرة والباطنة.

وقد خصَّ الله رسوله بالخطاب، تنبيهاً على أن غيره من باب أولى، وفي قوله تعالى: ﴿وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ﴾ [الأنعام: ١٦٣] أي: أمرني ربي أن أكون أول من أسلم، فأخضع وأنقاد له، وأخلص له الطاعة، وأبرأ إليه من عبادة غيره، وأنا أول من أسلم من أهل عصري وزمني، وهذه نعمة من الله تعالى ومنته امتنَّ بها عليّ.

والنبى ﷺ هو أقوى المسلمين إسلاماً، كما قال ﷺ: «أما إني لأتقاكم لله وأعلمكم به» فقد أمره ربه أن يبلغ الغاية القصوى في عبادة الله تعالى، وإخلاصها له وحده ليكون أول من أطاع وانقاد وأسلم، ويكون على رأس من أخلص لله وحده، حتى يقتدي به الناس فيما يقول ويفعل، وهو ﷺ أول من خالف دين قومه، فخلع الأصنام وحطّمها وأسلم وجهه لله سبحانه.

الْأَمْرُ الثَّالِثُ: وَجُوبُ الْخَوْفِ مِنْ عَذَابِ اللَّهِ تَعَالَى

١٣- ﴿قُلْ إِنِّي (١) أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ ﴿١٣﴾

المقصود من هذه الآية: زجر الناس عن الوقوع في المعاصي، وفي مقدمة ذلك الشرك والرياء، وقد جرت سُنَّةُ الله تعالى أن يخبر الأنبياء أقوامهم بما اتصفوا به ليكونوا مثلهم، ولذا يأمر الله تعالى رسوله ﷺ أن يخبر قومه بأنه يخاف إن عصى ربه أن يعذبه يوم القيامة

(١) قرأ نافع وابن كثير وأبو عمرو وأبو جعفر بفتح ياء الإضافة من (إني أخاف)، والباقون بإسكانها.

بنار جهنم، وذلك زجرًا للناس عن المعاصي، فإذا كان النبي ﷺ يخاف عذاب الله تعالى مع عصمته، ومغفرة الله له لما تقدم من ذنبه وما تأخر - فغيره من باب أولى.

وكان المشركون يحاولون أن يترك النبي ﷺ دعوته ويتبع دينهم، فأمره الله تعالى أن يخبرهم قائلًا لهم: ﴿إِنِّي أَخَافُ إِنَّ عَصَيْتُ رَبِّي﴾ فيما أمرني به من طاعته، والإخلاص له في عبادته، أخاف ﴿عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ هو يوم القيامة، حيث تَعْظُم الأهوال، وتشيب الرؤوس، ويتصبب العرق، وترجف الأرض والجبال.

الْأَمْرُ الرَّابِعُ: وَجُوبُ إِخْلَاصِ الْعِبَادَةِ لِلَّهِ تَعَالَى وَعُقُوبَةُ غَيْرِ الْمُخْلِصِينَ

١٤، ١٥ - ﴿قُلِ اللَّهُ أَعْبَدُ مُخْلِصًا لِّمُ دِينِي﴾ (١) ﴿فَاعْبُدُوا مَا شِئْتُمْ مِّنْ دُونِهِ قُلْ إِنَّ الْخَاسِرِينَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ أَلَا ذَلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ﴾
يأمر الله تعالى رسوله ﷺ أن يخبر أمة بأنه ممثّل لأمر ربه منقاد له، مخلص له الدين على أكمل وجه.

قل - يا محمد - للناس: إني أعبد الله وحده لا شريك له، وأخلص له في طاعته وعبادته من كل شائبة شك أو شرك، أو شقاق أو نفاق.

وليس في هذه الآيات الأربع تكرار.

فالأولى: إخبار بأنه ﷺ مأمور بالعبادة.

والثانية: إخبار بأنه ﷺ أول المسلمين.

والثالثة: إخبار بأنه ﷺ يخاف عذاب الله إن عصى أمره.

والرابعة: إخبار بامثاله ﷺ أمر ربه تبارك وتعالى، مع إفادة الحصر، كأنه يقول: أعبد الله ولا أعبد أحدًا سواه (٢).

﴿فَاعْبُدُوا﴾ أنتم أيها المشركون ﴿مَا شِئْتُمْ مِّنْ دُونِهِ﴾ فإن هذا لن يضر الله شيئًا، والأمر

(١) انفرد الكوفي بعد (له ديني) آية، وتركه جمهور أهل العدد.

(٢) يُنظَر: «حاشية الجمل على الجالين» (٣/ ٥٩٤).

يستوي عنده سبحانه إن آمنتم أو كفرتم، كما قال تعالى: ﴿وَقُلِ الْحَقُّ مِن رَّبِّكَم مَّا شَاءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَاءَ فَلْيُكْفُرْ﴾ [الكهف: ٢٩].

وهذا كقوله تعالى: ﴿قُلْ يَتَّيِبُهَا لَكُمُ الْكُفْرُ ۖ لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ﴾ [الخ: ١٠٤] وقال سبحانه: ﴿قَدْ جَاءَكُمْ بَصَائِرُ مِن رَّبِّكُمْ فَمَن أَبْصَرَ فَلِنَفْسِهِ ۖ وَمَن عَمِيَ فَلِنَافِثِهِ﴾ [الأنعام: ١٠٤].

وفي الحديث القدسي: عن أبي ذر رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ أن الله تبارك وتعالى قال: «يا عبادي، لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم كانوا على أتقى قلب رجل واحد منكم، ما زاد ذلك في ملكي شيئاً، ولو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم كانوا على أفجر قلب رجل واحد ما نقص ذلك من ملكي شيئاً، يا عبادي، لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم قاموا في صعيد واحد فسألوني، فأعطيت كل إنسان مسألته ما نقص ذلك مما عندي إلا كما ينقص المخيط إذا أدخل البحر»^(١).

وفي هذا تهديد ووعد لهم بأنهم سيرون عاقبة كفرهم خسراناً وعذاباً.

ثم أمر الله رسوله أن يعظ المشركين ويخبرهم: أن من أشرك مع الله غيره فهو الخاسر لنفسه وأهله في الدنيا والآخرة ﴿قُلْ﴾ يا محمد لكل من أشرك مع الله غيره في عبادته: ﴿إِنَّ الْخَاسِرِينَ﴾ حقاً هم الذين صاروا إلى نار جهنم مخلدين فيها، فهم ﴿الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ﴾ فتسببوا لها في الهلاك والعذاب، وحرموها الأجر والثواب، وهم يظنون أنهم يلقون في الآخرة ألواناً من النعيم، فهم كالتاجر الذي وضع ماله في تجارة لتتبدد وتزداد فخر رأس ماله، فلم يُصِبْ ربحاً، ولم يبقَ له ماله، قال تعالى: ﴿وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَٰئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ بِمَا كَانُوا بِآيَاتِنَا يَظْلِمُونَ﴾ [الأعراف: ١٠٩].

وقال سبحانه: ﴿وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَٰئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ فِي جَهَنَّمَ خَالِدُونَ﴾ [التكوير: ١٥] ﴿لَا يَخْرُجُونَ﴾ [المؤمنون: ١٠٤].

ثم إنهم خسروا أيضاً زوجاتهم وبنينهم ومن يعولون، فأوردوهم الموارد، حيث كانوا

(١) من حديث أبي ذر في «صحيح مسلم» برقم (٢٥٧٧) وأوله (يا عبادي إني حرمت الظلم على نفسي..).

لهم قدوة سيئة، ولم ينصحوهم ويؤدبوهم، قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا قُوا أَنْفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ﴾ [التحريم: ٦].

قال ابن عباس رضي الله عنه: إن لكل رجل منزلاً وأهلاً وخدمًا في الجنة، فإن أطاع الله أعطي ذلك، وإن كان من أهل النار حُرِمَ ذلك، فخرس نفسه وأهله ومنزله ^(١).

إنهم خسروا أنفسهم بإلقائها في النار، وحرمانها من النعيم الذي أعدّه الله لهم لو كانوا طائعين، وخسروا أهليهم لأنه قد حيل بينهم، فقد ذهبوا عنهم بلا عودة.

ألا فانتبهوا - أيها الناس -، فإن هذا هو الخسران الكامل الذي ليس بعده خسران ﴿إِلَّا ذَلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ﴾ إنه أعظم خسارة، وأوضح عاقبة سيئة.

قال ابن عباس رضي الله عنه: هم الكفار الذين خلقهم الله للنار، وخلق النار لهم، فزالت عنهم الدنيا، وحرمت عليهم الجنة ^(٢)، وهم في نار مؤبدة يصلون سعيها يوم القيامة.

وَصَفُ عَذَابِ أَهْلِ النَّارِ

١٦ - ﴿لَهُمْ مِنْ فَوْقِهِمْ ظُلَلٌ مِنَ النَّارِ وَفِي تَحْتِهِمْ ظُلَلٌ ذَلِكَ يُخَوِّفُ اللَّهَ بِهِ عِبَادُهُ يَعْجَادُونَ (٣) فَاتَّقُونَ (٤)﴾

ولما كان الخسران لأهل النار يشمل الخزي في الموقف، ويشمل غضب الله تعالى على العبد يوم القيامة، ويشمل اليأس من النجاة، ويشمل هلاك الجسد في النار، بين رضي الله عنه أن الخاسرين - لأنفسهم وأهليهم - لهم يوم القيامة قِطْعُ عذاب من النار، كهيئة الظلل المبنية من فوقهم، ومن تحتهم كذلك.

والظلة: هي البناء المرتفع الذي يستظل الإنسان تحته، وسميت النار ظلّة من باب التهكم؛ لأنها مُحْرِقَة، والظلة تقي من الحر.

(١) «التفسير الكبير» (٢٦/٢٥٦).

(٢) من «تفسير الطبري» للآية.

(٣) قرأ رويس بخلف عنه بإثبات ياء (يا عباد) في الحاليين، والباقون بحذفها في الحاليين ومعهم رويس في الوجه الثاني.

(٤) قرأ يعقوب بإثبات ياء (فاتقون) في الحاليين، والباقون بحذفها كذلك.

والظلل: أطباق من نار جهنم تكون من فوقهم ومن تحتهم.

والأصل أن الظلة تكون فوق العبد، وما تحتها يُسمَّى دركات، وذلك لأن ما تحت العبد من النار يكون ظلة لمن تحته، والظلة تشبه السحابة وسقف البيت، وأهل النار يتمنون يوم القيامة ما يحجبهم عن النار، فيقال لهم: هذه طبقات النار ودركاتها تُظِلُّكم بِحَرِّها ولَهِيَّها، وطبقات النار التي تحتهم، هي ظلل لكفار آخرين؛ لأن جهنم دركات بعضها تحت بعض، وفي كل طبقة منها طائفة من طوائف الكفار.

فالنار لهم غطاء وفراش، كما قال تعالى: ﴿لَهُمْ مِنْ جَهَنَّمَ مِهَادٌ وَمِنْ فَوْقِهِمْ غَوَاشٍ﴾ [الأعراف: ٤١].

وقال سبحانه: ﴿يَوْمَ يَغْشَاهُمْ الْعَذَابُ مِنْ فَوْقِهِمْ وَمِنْ تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ﴾ [العنكبوت: ٥٥].

والنار المؤبدة، تحيط بأهلها من كل جانب، وتُغلق عليهم، كما قال تعالى: ﴿إِنَّهَا عَلَيْهِمْ مُّوَصَّدَةٌ ۖ فِي عَمَدٍ مُّمَدَّدَةٍ﴾ [الهمزة].

وهم لا يستطيعون الخروج منها بحال، قال تعالى: ﴿كُلَّمَا أَرَادُوا أَنْ يَخْرُجُوا مِنْهَا مِنْ غَمٍّ أُعِيدُوا فِيهَا﴾ [الحج: ٢٢].

وقال جلّ شأنه: ﴿يُرِيدُونَ أَنْ يُخْرِجُوا مِنَ النَّارِ وَمَا هُمْ بِخَارِجِينَ مِنْهَا وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّقِيمٌ﴾ [المائدة: ١٧].

وقال سبحانه: ﴿كَذَلِكَ يُرِيدُهُمُ اللَّهُ أَعْمَلَهُمْ حَسَرَاتٍ عَلَيْهِمْ وَمَا هُمْ بِخَارِجِينَ مِنَ النَّارِ﴾ [البقرة: ١٦٧].

وفي هذا تخويف لمن أشرك مع الله غيره، ولم يتبع الرسول الخاتم ﷺ حتى يتداركوا أنفسهم في الدنيا قبل فوات الأوان، ليعلموا أنهم إذا لم يستجيبوا لله ورسوله فتلك عاقبتهم.

﴿ذَلِكَ﴾ العذاب الذي ذكره الله تعالى في الآية سوط يسوق الله به عباده إلى رحمته، وهذا معنى: ﴿يُخَوِّفُ اللَّهُ بِهِ عِبَادَهُمْ﴾ ليحذروه، وقد خَوَّفَ الله عباده بالنار ليتقوها بطاعة ربهم، فقال تعالى: ﴿يَعْبَادِ فَاتَّقُونِ﴾ باتباع ما أمركم به واجتناب ما نهيتكم عنه، حتى تفوزوا برضى الله تعالى وتنجوا من النار، كما قال تعالى: ﴿فَمَنْ دُخِنَ عَنِ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ﴾ [آل عمران: ١٨٥].

وهكذا حث الله عباده على سلوك الطريق الموصل إلى جنة الله، وخوفهم من الطرق الموجبة لغضب الله تعالى وسخطه.

مَا أَعَدَّ اللَّهُ لِلْمُخْلِصِينَ الْمُنِيبِينَ إِلَيْهِ

وبعد أن بيّن سبحانه ما أعده للخاسرين من عذاب أليم، أتبع ذلك ببيان ما أعده للمتقين من نعيم مقيم، فقال:

١٧- ﴿وَالَّذِينَ اجْتَنَبُوا الطَّاغُوتَ أَنْ يَعْبُدُوهَا وَأَنَابُوا إِلَى اللَّهِ لَهُمُ الْبُشْرَىٰ فَبَشِّرْ عِبَادِ ۖ﴾ (١٧)

أي: والذين اجتنبوا طاعة الشيطان، واجتنبوا عبادة غير الله تعالى، وفي هذا إدماج المدح لمن ترك عبادة غير الله تعالى، لأن توجه العبد قد انصرف من عبادة الأوثان إلى عبادة الواحد القهار، وانصرف من الشرك إلى التوحيد، ومن المعاصي إلى الطاعة، قال تعالى: ﴿وَأَنَابُوا إِلَى اللَّهِ﴾ أي: تابوا إليه وأخلصوا له الدين ﴿لَهُمُ الْبُشْرَىٰ﴾ في الحياة الدنيا بالثناء الحسن والتوفيق من الله تعالى.

وهذا شامل للبشرى في الحياة الدنيا، بالثناء الحسن، والرؤيا الصالحة، والعناية الإلهية.

ولهم البشرى في الآخرة رضوان الله، والنعيم الدائم في الجنة.

ولهم البشرى عندما يأتيهم ملك الموت، وعندما يُوضَعُونَ في القبر، وعندما يخرجون منه، وعند الوقوف للحساب، وعند الجواز على الصراط، وعند دخول الجنة وفي رياضها، ففي كل موقف من هذه المواقف لهم البشارة بالروح والريحان وجنة النعيم.

والطاغوت: اسم لكل ما يُعبد من دون الله تعالى، فيطلق على الصنم، وعلى جماعة الأصنام، ويطلق على رئيس الكفر، وعلى الشيطان، وعلى كل قوي في الكفر والظلم، قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَوَّلَ مَا لَهُمُ الطَّاغُوتُ يُخْرِجُونَهُمْ مِنَ النُّورِ إِلَى الظُّلُمَاتِ﴾ [البقرة: ٢٥٧] قال تعالى: ﴿فَبَشِّرْ﴾ أيها الرسول الكريم ﴿عِبَادِ﴾.

(١) قرأ السوسي بإثبات ياء (عباد) حال وصلها بـ (الذين) مفتوحة وصلًا وساكنة وقفًا أو محذوفة، وله حذفها في الحالين، وقرأ يعقوب بإثباتها وقفًا لا وصلًا، والباقون بحذفها في الحالين. هذا: ولم يعد المكي والمدني الأول (فبشر عباد) آية، وعدّها آية غيرهما.

ثم وصف الله سبحانه هؤلاء العباد مبيّنًا سبب استحقاقهم هذه البشرية، فقال:

١٨ - ﴿الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَاهُمُ اللَّهُ وَأُولَئِكَ هُمْ أُولُوا الْأَلْبَابِ﴾

أي: إن الذين يتبعون أرشد الكلام وأحسنه، وهو كلام الله - سبحانه -، ثم كلام رسوله ﷺ، فهم يستمعون إلى الحق والباطل، والإيمان والكفر، والهدى والضلال، فإذا استمعوا إلى ذلك، اتبعوا ما يدعو إلى الحق، وتركوا ما يدعو إلى الباطل، أي: اتبعوا الطيب وتركوا الخبيث.

وهم أيضًا يميزون بين الحسن والأحسن، والفاضل والأفضل، فيتبعون الأحسن والأفضل.

قال ابن عباس ؓ: هو الرجل يجلس مع القوم، فيسمع الحديث فيه محاسن ومساوئ، فيحدث بأحسن ما سمع، ويكف عما سواه^(١).

والقول، لفظ عام، يشمل كل قول، وعباد الله، يستمعون إلى كل قول، فيميزون بين ما يجب اتباعه وما يجب اجتنابه، ويميزون بين الحسن والأحسن، فيتبعون الأحسن، وأحسن الكلام على الإطلاق هو كلام الله تعالى وكلام رسوله ﷺ.

وهذا ثناء من الله تعالى عليهم بنفوذ بصائرهم، فإذا سمعوا قولًا تأملوه، وعملوا بأحسنه، وخير الهدي هدي رسول الله.

قال ابن عباس ؓ: لَمَّا أسلم أبو بكر جاءه عثمان، وعبد الرحمن بن عوف، وطلحة، والزبير، وسعد بن أبي وقاص، وسعيد بن زيد، فسألوه فأخبرهم بإيمانه، فأمنوا، فنزلت فيهم.

وقيل: نزلت في زيد بن عمرو، وأبو ذر، وسلمان الفارسي، كانوا في الجاهلية يقولون: لا إله إلا الله^(٢).

ثم بيّن سبحانه أن مَنْ أخلصوا العبادة لله وحده، ورجعوا إليه بالتوبة والإنابة، هم الذين وفقهم الله للهدى، وتهيأت نفوسهم لقبوله ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَاهُمُ اللَّهُ﴾ أي: وفقهم للرشاد والسداد، ووفقهم لأحسن الأعمال والأقوال ﴿وَأُولَئِكَ هُمْ أُولُوا الْأَلْبَابِ﴾ أي:

(١) «تفسير الكشاف» (١٢١/٤) والقرطبي (٢٤٤/١٥) وابن عطية (٥٢٥/٤).

(٢) «تفسير الخازن» (٥٢/٤) وابن عطية (٥٢٥/٤).

أصحاب العقول السليمة التي تهيأت للاهتمام بما فطرهم الله عليه، فحصول الهداية لا بد له من فاعل وقابل، فالفاعل هو ﴿اللَّهُ﴾ والقابل ﴿هُمْ أُولُوا الْأَلْبَابِ﴾ وفي هذا دليل على تفاوت العقول، وتفاوت قبولها واستجابتها.

والذي لا يميز بين الحسن والقبيح ليس من أولى الألباب، لأنه غلب شهوته على عقله. والآية عامة في كل من عبد الله تعالى وأتاب إليه، لهم البشرى في الحياة الدنيا وفي الآخرة، وهو ثناء من الله تعالى عليهم، فإن أصدق الحديث كتاب الله، وخير الهدي هدي محمد ﷺ.

وكأن الله تعالى لما مدح الذين يتبعون أحسن القول، قيل: ما أحسنه، فكان الجواب: ﴿اللَّهُ نَزَلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُتَشَبِّهًا مَثَانِي﴾ [الزمر]

الكَافِرُ مُخَلَّدٌ فِي النَّارِ، وَالتَّقِيُّ فِي رَوْضَاتِ الْجَنَاتِ

١٩- ﴿أَفَمَنْ حَقَّ عَلَيْهِ كَلِمَةُ الْعَذَابِ أَفَأَنْتَ تُنْقِذُ مَنْ فِي النَّارِ﴾ ﴿١٩﴾

ويعد أن بين سبحانه المستحقين للبشرى في الدنيا والآخرة ممن هداهم الله تعالى، لرجاحة عقولهم وانفعاعهم بها، ذكر من سواهم من المشركين الجاحدين للتوحيد، المنكرين لرسالة محمد ﷺ، الذين لم يهدهم الله - سبحانه -، ولا ألباب لهم، فحُرموا من النعيم الخالد، لعدم قيامهم بالطاعة، التي هي سبب هذا النعيم.

ولما كان النبي ﷺ شديد الحرص على هداية قومه، شديد الحزن على إعراضهم وضلالهم، فقد وجه الله تعالى له الخطاب ليُعلمه أن من سبق عليه القضاء وحققت عليه كلمة العذاب، لا يُقدر الرسول على إنقاذه من النار، بأن يجعله مؤمناً في الدنيا، أو يخرج من النار يوم القيامة، قال تعالى:

﴿أَفَمَنْ حَقَّ عَلَيْهِ كَلِمَةُ الْعَذَابِ﴾ أي: أفمن وجبت عليه كلمة الله التي تقضي بأن الكافر يُعذب في النار، ويخلد فيها إن مات مصرّاً على كفره، أفأنت تُقدير على هدايته؟!

وكلمة العذاب هي قوله تعالى: ﴿لَا مَلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾ [هود: ١١٩] أي: الكافرين منهم، وكلام الله تعالى في كتابه يقضي بأن الكافر يلقى يوم القيامة جزاء

كُفْره واستمراره على غيّه وعناده.

والاستفهام في أول الآية لتقرير أن المشرك لا يستوي مع المؤمن، وهذه هي المقابلة الثانية في السورة، والجواب -وهو المقابل- محذوف لدلالة السياق عليه، وتقدير الكلام: أفأنت تقدر على هدايته؟ وإذا كنت لا تقدر على هدايته، فإنه لا حيلة لك في هدايته ولا في إنقاذه من النار.

كما قال تعالى: ﴿أَفَمَنْ يُلْقَى فِي النَّارِ خَيْرٌ أَمْ مَنْ يَأْتِيَ آمِنًا يَوْمَ الْقِيَمَةِ﴾ [فصلت: ٤٠].

وقال سبحانه: ﴿أَفَمَنْ يَمْشِي مُكِبًّا عَلَى وَجْهِهِ أَهْدَى أَمَّنْ يَمْشِي سَوِيًّا عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ [الملك].

إن من أحاطت به خطيئته ليس باستطاعة أحد أن ينقذه من مصيره الأليم؛ لأنه قد سبق في علم الله تعالى أن هذا العبد سيختار الكفر على الإيمان، فهو من أهل النار، فلا يمكنك -أيها الرسول الكريم- أنت ولا غيرك أن تنقذه من النار، وفي مقدمة هؤلاء من مات على الكفر من عشيرة النبي ﷺ كأبي لهب وولده، كما قال ابن عباس ؓ.

وقد أفادت هذه الآية أن كلمة العذاب قد حَقَّتْ على من كان الكفر كامناً في قلبه، فهو لن يؤمن، وجرّص النبي ﷺ على هدايته يشبه حال من أسقط نفسه في النار، فجاء آخر يحاول إنقاذه من باب الشفقة عليه، ولكنه لا يستطيع.

والإنقاذ من النار، يوحي بالانغماس والسقوط فيها، وأنها قد أحاطت وأحدقت به من كل جانب، وهناك من يحاول إنقاذه!! إنها صورة عجيبة، يوضحها قول النبي ﷺ في حديث أبي هريرة ؓ: «إنما مثلي ومثل الناس، كمثل رجل استوقد ناراً، فلما أضاءت ما حوله جعل الفراش وهذه الدواب التي تقع في النار يقعن فيها، فجعل ينزعهن ويغلبهن فيقتحمّن فيها، فأنا آخذ بحُجَزِكُم عن النار وأنتم تقتحمون فيها»^(١).

أما عن نعيم أهل الجنة فقد قال تعالى:

(١) من حديث أبي هريرة في البخاري برقم (٣٤٢٦، ٦٤٨٣) ومسلم برقم (٢٢٨٤).

٢٠ - ﴿لَكِنَّ^(١) الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ هُمْ غُرُفٌ مِّنْ فَوْقِهَا غُرُفٌ مَّبْنِيَّةٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ^(٢) وَعَدَ اللَّهُ لَا يُخْلِفُ اللَّهُ الْمِعَادَ^(٣)﴾

أي: وإذا كان هذا حال من حقت عليه كلمة العذاب فما هو حال الذين اتقوا ربهم؟ إن الفرق كبير بين من اجتنب عبادة الطاغوت وبين مَنْ عَبْدَ الطَّاغُوتَ، وهو الفرق ذاته بين من اتبع أحسن القول ومن اتبع أسوأه، وبين أهل الهدى وأهل الضلال، وبين المتتبعين بعقولهم وغير المتتبعين بها.

ولذا: فإن الله تعالى أتى بحرف الاستدراك ﴿لَكِنَّ﴾ للإشعار بالتضاد بين الحالين.

والجنة درجات بعضها فوق بعض، والغرف: ما كان من المساكن مرتفعاً عن الأرض، محكم البناء، فالمتقون لهم منازل عالية في الجنة في مقعد صدق عند مليك مقتدر.

والذين اتقوا ربهم هم أهل طاعته وعبادته، وهم الذين أنابوا إلى الله تعالى وأخلصوا له، واهتدوا بهديه، فاتبعوا أحسن القول، واجتنبوا الشرك وأهله.

وكما أن أهل الضلال ﴿مِنْ فَوْقِهِمْ ظُلَلٌ مِّنَ النَّارِ وَمِنْ تَحْتِهِمْ ظُلَلٌ﴾ فإن لأهل الهدى والإيمان في الجنة، غرف أي منازل عالية مزخرفة من فوقها غرف، ودرجات عالية، وقصور شاهقة بعضها فوق بعض، مبنية من الزبرجد والياقوت، وهي من حُسْنِهَا وبِهَائِهَا يُرَى ظَاهِرُهَا مِنْ بَاطِنِهَا، وبَاطِنُهَا مِنْ ظَاهِرِهَا.

في حديث أبي مالك الأشعري رضي الله عنه: أن رسول الله ﷺ قال: «إن في الجنة غرفاً يرى ظاهرها من باطنها، وباطنها من ظاهرها، أعدّها الله لمن أطعم الطعام، وألان الكلام، وتابع الصيام، وصلى والناس نيام»^(٣)

(١) قرأ أبو جعفر بنون مفتوحة مشددة في (لكن) على أنها عاملة، و(الذين) اسمها في محل نصب، والباقون بنون ساكنة مخففة، مع تحريكها وصلًا بالكسر تخلصًا من الساكنين، على أن (لكن) مخففة مهملة و(الذين) مبتدأ.

(٢) عدّ المكي والمدني الأول (الأنهار) آية، ولم يعدها غيرهما.

(٣) أحمد في «المسند» (١٧٣/٢)، (٣٤٣/٥) برقم (٢٢٩٠٥) بإسناد حسن كما قال محققوه، وهو في «مصنف عبد الرزاق» برقم (٢٠٨٨٣) والبيهقي في «الشعب» (٣٨٩٢) والطبراني في الكبير (٣٤٦٦) وابن خزيمة (٢١٣٧) والحاكم في «المستدرک» (٣٢١/١) من حديث عبد الله بن عمرو وقال: صحيح على شرط مسلم ووافقه الذهبي.

وهي غرف في الجنات تجري من تحت أشجارها وقصورها ﴿الْأَنْهَارُ﴾ من غير أخدود، وهذه الأنهار تخرق أسس الغرف فتمر فيها وفي ساحاتها، وبساتينها وأشجارها. وقد وعد الله تعالى عباده المتقين هذا الوعد، ووعد لا يتخلف.

جاء في الصحيحين، وغيرهما، عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «إن أهل الجنة يترأفون أهل الغرف من فوقهم، كما يترأفون الكوكب الدرّي الغابر في الأفق من المشرق أو المغرب لتفاضل ما بينهم»، قالوا: يا رسول الله، تلك منازل الأنبياء لا يبلغها غيرهم، قال: «بلى، والذي نفسي بيده، رجال آمنوا بالله وصدقوا المرسلين»^(١) والغابر: هو الباقي في الأفق في ناحية المشرق أو المغرب.

وفي حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال: قلنا: يا رسول الله، إنا إذا رأيناك رقت قلوبنا، وكنا من أهل الآخرة، فإذا فارقناك أعجبنا الدنيا، وشممنا النساء والأولاد، قال: «لو أنكم تكونون على كل حال، على الحال التي أنتم عليها عندي، لصافحتكم الملائكة بأكفهم، ولزارتكم في بيوتكم، ولو لم تذنّبوا لجاء الله بقوم يذنبون كي يغفر لهم»، قلنا: يا رسول الله، حدثنا عن الجنة، ما بناؤها؟ قال: «الجنة من ذهب، ولبنة من فضة، وبلاطها المسك الأذفر، وحصباؤها اللؤلؤ والياقوت، وترابها الزعفران، من يدخلها ينعم ولا يئأس، ويخلد ولا يموت، لا تبلى ثيابه، ولا يفنى شبابه، ثلاثة لا ترد دعوتهم: الإمام العادل، والصائم حتى يفطر، ودعوة المظلوم ترحل على الغمام، وتفتح لها أبواب السموات، ويقول الرب: وعزتي لأنصرنك ولو بعد حين»^(٢).

(١) البخاري برقم (٦٥٥٥، ٦٥٥٦) ومسلم برقم (٢٨٣٠، ٢٨٣٢) وأبو يعلى (٧٥٢٨) والطبراني (٥٧٤٠) و«المسند» (٣٤٠/٥) برقم (٢٢٨٧٦). إسناده صحيح على شرط الشيخين.

(٢) «المسند» (٣٠٤/٢) برقم (٨٠٤٣) حديث صحيح بطرقه وشواهد كما قال محققوه، والترمذي برقم (٣٥٨٨) وابن ماجه برقم (١٧٥٢) قال محققوه: وهو حديث حسن كما قال الترمذي، وأخرجه عبد بن حميد (١٣٢٠) وابن حبان (٧٣٨٧) ..

مَثَلَانِ عَلَى قُدْرَةِ اللَّهِ تَعَالَى

الْمَثَلُ الْأَوَّلُ: إِحْيَاءُ الْأَرْضِ بَعْدَ مَوْتِهَا بِالْمَاءِ النَّازِلِ مِنَ السَّمَاءِ

٢١- ﴿أَلَمْ نَرِ أَنْ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَلَكَهُ يَنبُوعٌ فِي الْأَرْضِ ثُمَّ يُخْرِجُ بِهِ زَرْعًا مُخْتَلِفًا أَلْوَنُهُ ثُمَّ يَهْبِجُ فَتَرْثُهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَجْعَلُهُ حُطْحُطًا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرًا لِأُولِي الْأَلْبَابِ ﴿٢١﴾﴾

وبعد أن ذكر سبحانه أحوال المشركين والموحدين ضرب للفريقين مثلين في غاية الوضوح؛ المثل الأول منهما يمرّ بأربعة مراحل:

المرحلة الأولى: إنزال المطر من السماء وإدخاله في جوف الأرض:

ألم تُبْصِرْ -أيها المخاطب- أن الله تعالى أنزل بقدرته من السحاب مطراً، فأدخله في الأرض، وجعله مياهاً جارية، وعيوناً نابعة على وجه الأرض، أو مخزوناً في جوفها.

قال ابن عباس رضي الله عنه: ليس في الأرض ماء إلا نزل من السماء، ولكن عروق في الأرض تغيره.

وفيه دليل على أن ماء العيون من المطر تحبسه الأرض، ثم ينبع شيئاً فشيئاً، والماء ضروري لكل كائن حي من: الإنسان والحيوان والنبات:

المرحلة الثانية من مراحل تأثير الماء في النبات وهي إخراج الزرع من هذا الماء، مختلف الأشكال والأنواع والألوان، من: أحمر وأبيض وأسود وأصفر، وأصناف مختلفة من: بقول وفواكه وخضروات وغير ذلك، وهذا ما يشير إليه قوله تعالى: ﴿ثُمَّ يُخْرِجُ بِهِ زَرْعًا مُخْتَلِفًا أَلْوَنُهُ﴾.

أما المرحلة الثالثة فهي أن هذا الزرع يصاب بعد ذلك بالجفاف والذبول والضمور، فيصفر ويبس بعد اخضرار ونضرة، وهذا معنى: ﴿ثُمَّ يَهْبِجُ فَتَرْثُهُ مُصْفَرًّا﴾ وقد ذهبت خضرته ونضارته فذبل واصفر.

وتأتي المرحلة الرابعة والأخيرة وهي مرحلة الهشيم والتكسر والتفتت ﴿ثُمَّ يَجْعَلُهُ حُطْحُطًا﴾ أي: بعد أن استوفى أجله، وأدّى دوره، أصبح كهشيم المحتظر.

وقد شبهت الآية حياة الإنسان، بالحياة الدنيا، فمهما طال عمر الإنسان فلا بد من الانتهاء إلى مرحلة يصير فيها مصفرّ اللون، متحطم الأعضاء، متكسراً، كالزرع بعد نضرته، ثم تكون عاقبته الموت، وكما أحيا الله الأرض بعد موتها يحيي الخلق بعد موتهم.

قال ابن كثير: هكذا الدنيا تكون خضرة ناضرة حسناء، ثم تعود عجوزاً شوهاء، وكذلك الشاب يعود شيخاً هرمًا، كبيراً ضعيفاً، وبعد ذلك كله الموت، فالسعيد من كان حاله بعده إلى خير^(١).

وفي الآية تمثيل لأطوار خلق الإنسان، من نقطة إلى شباب إلى شيخوخة، وهو مثال يصلح لتقريب البعث بإخراج النبات من الأرض بعد نزول الماء عليه، وكذلك عودة الإنسان بعد فناءه، قال تعالى: ﴿وَاللَّهُ أَلْبَتَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ نَبَاتًا ۖ ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيهَا وَيُخْرِجُكُمْ إِخْرَاجًا ۗ﴾ [نوح].

وقد اشتملت هذه الآية على سبعة أدلة على قدرة الله تعالى وهي:

- ١- إنزال الماء من السماء. ٢- إدخاله في جوف الأرض.
 - ٣- جعله ينابيع في الأرض، يُستخرج منها بسهولة.
 - ٤- إخراج الزرع به. ٥- جعل الزرع مختلف الألوان، وهو يسقى بماء واحد.
 - ٦- جفاف الزرع بعد خضرته.
 - ٧- يبلغ الزرع من اليبس حدَّ التحطُّم والتكسُّر والتساقط.
- ثم ختم الله الآية بقوله: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرًا لِأُولِي الْأَلْبَابِ﴾ أي: إن في عجب خلق الله تعالى وعظيم قدرته لعبرة وعظة، وآيات دالة على وحدانيته تعالى لكل عقل مستنير، فلا يبقى عنده شك في أن الله تعالى قادر على البعث والنشور.
- ولهذه الآية نظائر في القرآن الكريم، منها قوله تعالى: ﴿وَأَضْرِبْ لَهُمْ مَثَلًا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا كَمَا أَنْزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ الرِّيحُ﴾ [الكهف: ٤٥].
- وقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا مَثَلُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَا أَنْزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ النَّاسُ وَالْأَنْعَامُ حَتَّى إِذَا أَخَذَتِ الْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَازَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَا أَنَّهُمْ قَدِرُوا عَلَىٰ أَمْرِنَا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَاهَا حَصِيدًا كَأَن لَّمْ تَغْنَبِ بِالْأَمْسِ﴾ [يونس: ٢٤].
- وقوله سبحانه: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ ثَمَرَاتٍ مُّخْتَلِفًا أَلْوَانُهَا﴾ [فاطر: ٢٧].

(١) «تفسير ابن كثير» (٧/ ٩٣).

خمس حالات لضرب هذا المثل في القرآن والسنة، وهي:

(أ) إنزال القرآن على النبي ﷺ، واهتداء المؤمنين به، ووعد الله تعالى بإظهاره على الدين كله.
ومن ذلك ما جاء في الصحيحين: أن النبي ﷺ قال في حديث أبي موسى ؓ: «مثل ما بعثني الله به من الهدى والعلم، كمثل الغيث الكثير، أصاب أرضاً، فكان منها نقية قبلت الماء فأنبتت الكلأ والعشب الكثير، وكان منها أجادب أمسكت الماء فنفع الله بها الناس، فشربوا وسقوا وزرعوا، وأصاب منها طائفة أخرى، إنما هي قيعان لا تمسك ماء ولا تنبت كلأ، فذلك مثل من فقه في دين الله، ونفعه ما بعثني الله به، فعلم وعلم، ومثل من لم يرفع بذلك رأساً، ولم يقبل هدى الله الذي أرسلت به»^(١).

(ب) وتُضْرَب هذه الآيات أيضاً مثلاً يُستدل به على تفرد الله تعالى بالخلق، ومن ثمَّ استحقاقه تعالى للعبادة دون سواه، كما في آية سورة الزمر ٢١.

(ج) كما تُضْرَب مثلاً للحياة الدنيا وأطوارها وسرعة زوالها، كما في آية سورة الحديد ٢٠.

(د) وتُضْرَب آيات القرآن مثلاً لأطوار خلق الإنسان من جنين إلى صبي إلى شاب إلى كهل إلى شيخ هرم، كما في آيتي سورة الحج ٦، ٥.

(هـ) وتُضْرَب مثلاً كذلك لتقريب البعث إلى عقول الناس، كما قال تعالى: ﴿وَمِنْ آيَاتِنَا أَنْكَرَ تَرَى الْأَرْضَ خَاشِعَةً فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ إِنَّ الَّذِي أَحْيَاهَا لَمُجِي الْمَوْتِ﴾ [فصلت: ٣٩]
فهذه خمس حالات لضرب هذا المثل في القرآن.

المثل الثاني: إحياء القلوب بالوحي المنزل من عند الله تعالى

٢٢- ﴿أَفَمَنْ شَرَحَ اللَّهُ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ فَهُوَ عَلَى نُورٍ مِّن رَّبِّهِٖٓ فَوَيْلٌ لِلْفُتَيَّةِ قُلُوبُهُم مِّن ذِكْرِ اللَّهِ أُولَٰئِكَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ (٢٢)

وكما ينزل الماء من السماء فتحيا به الأرض بعد موتها، كذلك ينزل وحي الله تعالى من السماء فتشرح له القلوب الحية، ويدبُّ فيها نور الإيمان، وتنقبض منه القلوب القاسية، فلا ترداد إلا قسوة، فهل يستوي من اتسع صدره، وانشرح قلبه، وقرت عينه،

(١) من حديث أبي موسى في البخاري برقم (٧٩) ومسلم برقم (٢٢٨٢).

بتلقى أحكام الله تعالى والعمل بها، فكان على بصيرة من أمره، وهداية من ربه، بمن كان قلبه قاسيًا، لا يلين لكتاب ولا سنة؟

لقد نفى الله - سبحانه - التسوية بين المؤمن والكافر، والمهتدي والضال في قوله تعالى: ﴿أَمَّنْ شَرَحَ اللَّهُ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ فَهُوَ عَلَى نُورٍ مِّن رَّبِّهِ﴾ والجواب محذوف دل عليه السياق، أي: كمن حقت عليه كلمة العذاب، فهو في ظلمة الكفر.

ومعنى شرح الصدر: توسعته وتفتحته لقبول الحق والهدى، فيسعد بالإسلام، ويؤمن به ويتقاد له، فيصبح على بصيرة من أمره وهُدًى من ربه، فهل يستوي هذا بمن ليس كذلك ممن قسا قلبه وغلظ، وأصبح أسيرًا للظلمات والأوهام؟!

والذين شرح الله صدورهم: هم المتقون، أهل الغرف في الجنات والدرجات العالية. والقاسية قلوبهم: هم الذين حقت عليهم كلمة العذاب.

والويل والهلاك لمن قسا قلبه، وأعرض عن ذكر الله ﴿فَوَيْلٌ لِلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُم مِّن ذِكْرِ اللَّهِ﴾ وهم الذين لم يشرح الله صدورهم للإسلام، فلم تجد دعوة الخير مسلكًا إلى قلوبهم، فإذا قرئ عليهم القرآن اشمازت قلوبهم، وازدادت قسوة وإعراضًا، وتجددت كراهية الإسلام في قلوبهم.

فذكرُ الله تعالى -وأعظمه قراءة القرآن- من شأنه أن تطمئن له قلوب المؤمنين، كما قال تعالى: ﴿أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ﴾ [الرعد: ٢٨].

أما غليظ القلب فإنه لا يزداد إلا ويالاً وخسراناً كما قال تعالى: ﴿وَنُزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلَّا خَسَارًا﴾ [الإسراء: ٨٢].

ومن كان ذكر الله تعالى سبباً في قساوة قلبه فهو في ضلال بين ﴿أَوَلَيْكَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ قد تمكَّن الضلال من قلبه وكان سبباً في كراهيته للدعوة والدعاة.

وشبيه بهذه الآية قوله تعالى: ﴿فَمَن يُرِدِ اللَّهُ أَن يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصْعَعُدُ فِي السَّمَاءِ كَذَلِكَ يَجْعَلُ اللَّهُ الرِّجْسَ عَلَى الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [الأنعام: ١٢٥].

ومثلهما مثل الحي والميت، كما قال تعالى: ﴿أَوْ مَن كَانَ مَيِّتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا﴾ [الأنعام: ١٢٢].

روى البغوي بإسناد الثعلبي عن ابن مسعود رضي الله عنه قال: تلا رسول الله ﷺ: ﴿أَفَمَن شَرَحَ اللَّهُ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ فَهُوَ عَلَى نُورٍ مِّن رَّبِّهِ﴾ قلنا: يا رسول الله، كيف انشرح الصدر؟ قال: «إذا دخل النور القلب انشرح وانفسح»، قلنا: يا رسول الله، فما علامة ذلك؟ قال: «الإجابة إلى دار الخلود، والتجافي عن دار الغرور، والتأهب للموت قبل نزوله»^(١).

وقال مالك بن دينار: ما ضرب عبد بعقوبة أعظم من قسوة القلب، وما غضب الله على قوم إلا نزع منهم الرحمة.

قيل: إن هذه الآية نزلت في أبي بكر وأبي بن خلف.

وقيل: نزلت في علي وحزمة وأبي لهب وولده.

وقيل: نزلت في رسول الله ﷺ وأبي جهل^(٢).

جاء في حديث ابن عمر رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ: «لا تكثروا الكلام بغير ذكر الله فإن كثرة الكلام بغير ذكر الله تورث قسوة القلب، وإن أبعد الناس من الله القلب القاسي»^(٣). والمعروضون عن آيات الله تعالى في ضلال بين، وشقاء لا ينقطع، وتعاسة لا تزول.

خَمْسَةُ أَوْصَافٍ لِأَحْسَنِ الْحَدِيثِ

٢٣- ﴿اللَّهُ نَزَلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُّتَشَدِّدًا مَّتَانِي نَفْسَعِرُ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ ذَلِكَ هُدَى اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَن يَشَاءُ وَمَن يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ﴾^(٤) تشير الآية إلى أن عدم تأثير القرآن في القلوب القاسية ليس لنقص في هدايته، وإنما هو

(١) الطبري (٢١/٨) وأخرجه الحكيم الترمذي في «نوادير الأصول» عن ابن عمر، وأخرجه ابن مردويه كما في «تخريج الكشاف» (٢٠٢/٣)، وهو في تفسير البغوي للآية.

(٢) «تفسير الخازن» (٥٣/٤) وابن عطية.

(٣) أخرجه الترمذي برقم (٢٤١١) وقال: حسن غريب، والبيهقي في «الشعب» (٤٦٠٠) وغيرهما، وهو في «ضعيف سنن الترمذي» برقم (٤٢٣).

(٤) قرأ ابن كثير بإثبات الباء وفقاً في (هاد) وحذفها وصلاً، والباقون بحذفها في الحالين.

للصدأ الذي ران على قلوبهم وعقولهم، فجعلها لا تعي ولا تنتفع، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [البقرة].

والقرآن هدى للمتقين، تلين له قلوب الذين يخشون ربهم فيزيدهم خشوعاً وإيماناً.

وقد وصف الله سبحانه القرآن بخمسة أوصاف في هذه الآية، فهو كتاب من عند الله، فيه وحي الله إلى خلقه:

الوصف الأول: أنه أحسن الحديث على الإطلاق، لأنه كلام الله، وأحسن الكتب المنزلة من عند الله، وهو هدى ونور، وشفاء لما الصدور، وموعظة للمتقين، لما فيه من الخيرات والبركات، وهو القرآن العظيم المشتمل على أفضل الأخبار، من المعاني النافعة، الجامعة لأصول الإيمان، والتشريع، والآداب، والنظر والاستدلال، فهو أحسن الحديث من جهة المعنى، وأحسن الحديث من جهة اللفظ؛ لأنه أفصح الكلام وأجزله وأبلغه، وهو منزّه عن التناقض والاختلاف، جمع أخبار الأولين والآخرين.

وسُمِّيَ القرآن حديثاً؛ لأن النبي ﷺ كان يحدث به قومه، ويخبرهم بما ينزل عليه، ولما اشتمل عليه من أخبار الأمم، والوعد والوعيد، قال تعالى: ﴿فَيَأْتِي حَدِيثٌ بَعْدُ يُؤْمِنُونَ﴾ [المرسلات: ٥٠].

وقال سبحانه: ﴿فَلَمَّا كَبِخَ نَفْسَكَ عَلَى ءَاثَرِهِمْ إِنْ لَمْ يُؤْمِنُوا بِهَذَا الْحَدِيثِ أَسَفًا﴾ [الكهف].

قال تعالى: ﴿أَفَرَأَيْتَ هَذَا الْحَدِيثِ تَعْبَهُونَ﴾ [النجم].

وقال سبحانه: ﴿فَذَرْنِي وَمَنْ يُكَذِّبُ هَذَا الْحَدِيثِ﴾ [القلم: ٤٤].

عن سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه قال: قال أصحاب رسول الله ﷺ: لو حدثتنا؟ فأنزل الله ﷻ ﴿اللَّهُ نَزَلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ﴾ [٢٣] فقالوا: لو قصصت علينا؟ فنزل ﴿مَنْ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ﴾ [يوسف: ٣] فقالوا: لو ذكرتنا؟ فنزل ﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ﴾^(١) [الحديد: ١٦].

(١) أخرجه البزار (١١٥٢) وأبو يعلى (٧٤٠) والطبري (٨/١٣) وابن أبي حاتم (٢٠٩٩/٧) وابن حبان (٦٢٠٩) والحاكم وابن مردويه وابن راهويه كما في «المطالب العالية» (٤٠١٣، ٤٠١٤).

فالله تعالى نَزَّلَ أحسن الحديث، وأكملَه وأعلاه، وأروعَه وأصدقَه.

الوصف الثاني: أنه كتاب، وسمي كذلك لأن كُتِّبَ الوحي كتبوه عند نزوله، والكِتَاب هو الكلام المقروء من السطور، المشتمل على الآيات والسطور، ليبقى حجة على مر الزمان، محفوظًا على حالته من غير تحريف ولا تغيير.

الوصف الثالث: أن كلماته متماثلة متشابهة في فصاحة الألفاظ وشرف المعاني، يشبه بعضه بعضًا في الفصاحة والبلاغة والتناسب، بلا تعارض ولا تضاد، ومعانيه متشابهة في الصحة والصدق والهداية، وقيام الحجة، وتبكيك الخصوم، قال تعالى: ﴿أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ أَلْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا﴾ [النساء].

فهو متشابه في حسنه وإحكامه وائتلافه وعدم اختلافه، يفسر بعضه بعضًا، ويدل بعضه على بعض، ويُردُّ بعضه إلى بعض.

فالتشابه في هذه الآية بمعنى أن بعضه يشبه بعضًا في حسنه، أما الاشتباه الذي في قوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي أَنزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ تُحْكِمُكُمُ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَبِهَاتٌ﴾ فإن هذا الاشتباه يزول برده إلى المحكم.

الوصف الرابع: أنه قرآن ﴿مَنَافِي﴾ تُشْنَى فيه القصص، والأحكام، والحُجَج، والبيانات، والمواعظ، والأخبار، والقضاء، والفرائض، والحدود، والوعد والوعيد، والأسماء والصفات وصفات أهل الخير وصفات أهل الشر، فهي تشني وتكرر، ولا تُملُّ على كثرة التكرار، وإنما يزداد المؤمن حُبًّا له وتعلقًا به، والإكثار من تلاوته وسماعه يزيده حلاوة، وكلما رَدَّه المسلم رآه غَضًّا طريًّا، بخلاف سائر الكلام، وقد شهد بهذا الأعداء.

قال الوليد بن المغيرة حين سمع من النبي ﷺ: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَنِ﴾.

قال: والله إن له لحلاوة وإن عليه لطلاوة.

وحكمة التكرار في القرآن أنه كتاب يُقصد منه الهداية، والهداية يلزمها إعادة الوعظ والنصيحة، بأساليب متعددة لترسُّخ في القلوب، وهذا حال أهل الإعلام عندما يريدون التركيز على بعض المفاهيم، فيكثرون من عرضها على الناس في صور متعددة وأوقات متوالية.

وكما أن الأشجار تذبل وتصفّر وربما تلفت، إذا لم تُسَقِّ بالماء، وكلما تكرر سَقِّها أُنِعت وأثمرت، فكذلك القلوب تحتاج دائماً إلى التذكير والوعظ والإرشاد، فإذا ذُكرت الجنة والنار -مثلاً- في القرآن مرة واحدة، فإنها تمرّ مرّ الكرام، ولا تترك أثراً في النفس، كما تتركه الإعادة والتكرار بين الحين والآخر، حيث يحصل الغرض، والنتيجة المطلوبة من الترغيب والترهيب والوعظ والزجر.

الوصف الخامس: أنه كتاب ﴿نَقَشَ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ﴾ لما فيه من التخويف والوعيد ﴿ثُمَّ تَلِيْنُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ اللَّهِ﴾، عند ذكر الرجاء والترغيب.

قال قتادة: هذا نُعْتُ أولياء الله، نعتهم الله، فقال: تقشع جلودهم، وتبكي أعينهم، وتطمئن قلوبهم إلى ذكر الله، ولم ينعتهم الله بذهاب عقولهم، والغشيان عليهم، لأن هذا في أهل البدع، وهو من الشيطان^(١).

وقال ابن جريج: إذا سمعوا ذكر الله والوعيد أقشعروا، وإذا سمعوا ذكر الجنة واللين يرجون رحمة الله.

ولا بد لمن يذكر الله تعالى أن يوافق قوله عمله.

عن عامر بن عبد الله بن الزبير قال: جئت أبي، فقلت: وجدت قوماً، ما رأيت منهم خيراً قط يذكر الله، فيرعد أحدهم حتى يُغشى عليه من خشية الله، فقال: لا تقعد معهم، ثم قال: رأيت رسول الله ﷺ يتلو القرآن فلا يصيبهم هذا من خشية الله، أفترأهم أخشى لله من أبي بكر وعمر؟^(٢).

وجاء في الأثر: أن أُبَيَّ بن كعب ؓ قرأ عند النبي ﷺ فرقت القلوب، فقال ﷺ: «اغتنموا الدعاء عند الرقة؛ فإنها رحمة»^(٣).

وقال الزجاج: إذا ذُكرت آيات العذاب اقشعرت جلود الخائفين لله، أي: تقشع جلودهم، وتخشع قلوبهم من آيات الزواجر والنذر، وتلين جلودهم وقلوبهم من آيات

(١) عبد الرزاق (١٧٢/٢) وابن عطية (٥٢٨/٤).

(٢) ذكره السيوطي في «الدر» (١٢/٦٥٠) عن الزبير بن بكار في «الموقفات».

(٣) «تفسير ابن عطية» (٥٢٨/٤). وهو أثر ضعيف كما في مسند الفردوس للديلمي برقم (٤٤٠).

الرحمة والمغفرة، قال تعالى: ﴿لَوْ أَنزَلْنَا هَذَا الْقُرْآنَ عَلَى جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُ خَاشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ اللَّهِ﴾ [الحشر: ٢١].

وقد جمعت الآية بين الجلود والقلوب؛ لأن الجلد إذا اقشعّر وجَلَّ القلب.

ولين الجلود والقلوب كناية عن السرور والارتياح وعودتها إلى حالتها التي كانت عليها قبل القشعريرة، فالمؤمنون تأخذهم قشعريرة عند سماع القرآن، وتضطرب له جلود الذين يخافون ربهم، تأثراً بما فيه من ترهيب ووعد، ثم تلين له الجلود والقلوب، استبشاراً بما فيه من وعد وترغيب، فإذا ذُكرت آيات الوعيد والعذاب اقشعرت جلود الخائفين لله، وإذا ذُكرت آيات الوعد والرحمة لآنت جلودهم وسكنت قلوبهم.

عن العباس بن عبد المطلب رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «إذا اقشعرت جلود العبد من خشية الله تعالى تحاتت عنه ذنوبه كما يتحات عن الشجرة اليابسة ورقها».

وفي رواية: «حرّمه الله تعالى على النار»^(١).

وعن عبد الله بن عروة بن الزبير قال: قلت لجَدَّتِي أسماء بنت أبي بكر الصديق رضي الله عنه: كيف كان أصحاب رسول الله ﷺ يفعلون إذا قرئ عليهم القرآن؟ قالت: كانوا كما نعتهم الله ﷻ، تدمع أعينهم، وتقشعرت جلودهم، قلت: فإن ناساً هنا إذا سمعوا ذلك تأخذهم عليه غشية، قالت: أعوذ بالله من الشيطان الرجيم^(٢).

هذا: والمؤمنون يخالفون غيرهم عند سماع القرآن من ثلاثة وجوه:

أحدها: أن سماع المؤمنين هو تلاوة الآيات، وتدبرها والعمل بما فيها، وسماع غيرهم نغمات وأصوات قينات.

ثانيها: أن المؤمنين إذا تليت عليهم آيات الرحمن خروا سجداً وبكياً، بأدب وخشوع، وغيرهم يكونون لاهين غافلين، مشتغلين غير مُصْغِينَ ولا فاهمين.

ثالثها: أن المؤمنين يلزمون الأدب عند سماع القرآن، وغيرهم يصرخ ويتكلف ويصفق،

(١) أخرجه الحكيم الترمذي في «نوار الأصول» (٣٩٥/١) والرواية الثانية عن أبي بن كعب.

(٢) ابن عساكر (١٩/٦٩).

كما قال تعالى في وصف الكافرين: ﴿وَمَا كَانَ صَلَاتُهُمْ عِنْدَ الْبَيْتِ إِلَّا مُكَاءً وَتَصْدِيَةً﴾ [الأنفال: ٣٥].

وفي الآية وصف للقرآن بالجلالة والروعة في قلوب سامعيه لما فيه من المواعظ التي توجلُّ لها القلوب، وتتأثر منها النفوس، كما قال تعالى: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَّتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ [الأنفال].

ويحملهم هذا التأثير على الامتثال والعمل، كما ذكرت الآية.

بل وحملت آيات القرآن غير المسلمين على الدخول في الإسلام لأول وهلة، فهذا جبير بن مطعم كاد قلبه أن يطير لما سمع آية من كتاب الله، ولم يسعه إلا الدخول في الإسلام، قال جبير: سمعت رسول الله ﷺ يقرأ في المغرب بالطور، فلما بلغ قوله تعالى: ﴿أَمْ حُلِفُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِفُونَ﴾ (٣٥) إلى قوله ﴿أَمْ هُمُ الْمُضْطَرُونَ﴾ [٣٥-٣٧] قال: كاد قلبي أن يطير، وذلك أول ما قرأ الإسلام في قلبي^(١).

ومنها من لم يُسلم، ولم يَقوَ على مواصلة سماع القرآن، فهذا عُتبة بن ربيعة كَلَّم النبي ﷺ في الكف عن سب أصنامهم، وعرض على النبي ﷺ أموراً يساومه فيها على ترك الدعوة، فلما فرغ عتبة من كلامه قرأ عليه النبي ﷺ أول سورة (فصلت) إلى قوله: ﴿فَإِنْ أَعْرَضُوا فَقُلْ أَنْذَرْتُكُمْ صَاعِقَةً مِثْلَ صَاعِقَةِ عَادٍ وَتَمُودَ﴾ (١٣) فوضع عتبة يده على فم النبي ﷺ، وناشده الرحم أن يكف.

ومن نتائج التأثير بالقرآن أن المؤمنين عند تعاقب آيات الرحمة بعد آيات الرهبة تلين جلودهم بعد القشعريرة، فترجع الجلود إلى حالتها السابقة قبل القشعريرة.

وهذا التأثير بالقرآن هداية من الله تعالى لعباده، والله يهدي بالقرآن من يشاء من عباده ﴿ذَلِكَ هُدَى اللَّهِ يَدِيَ يَوْمَ مَنْ يَشَاءُ﴾ كما قال تعالى ﴿يَهْدِي بِإِذْنِ اللَّهِ مَنِ اتَّبَعَ بِضِرَافِئِهِ سَبِيلَ آلِ سُلَيْمٍ﴾ [المائدة: ١٦] ومن يضلله الله عن الإيمان بهذا القرآن لكفره وعناده، فما له

(١) البخاري (٧٦٥، ٤٨٥٤) وهذا لفظ الأخير، ومسلم (٤٦٣) والطبراني في الكبير (١٤٩٥) وأبو داود

(٨١١) وابن ماجه (٨٣٢) و«المسند» (١٦٧٣٥، ١٦٧٧٣) وابن حبان (١٨٣٣) و«سنن النسائي الكبرى»

(١٠٦١) وابن حبان (١٨٣٣) مختصرًا في بعض الروايات مطولاً في بعضها.

من هادٍ يهديه ويوفقه، وهذا قوله تعالى: ﴿وَمَنْ يُضِلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ﴾، إذ لا طريق للوصول إلى الهدى إلا بتوفيق الله تعالى، والله تعالى يوفق من كان فيه استعداد للقبول، أما غير المستعد لقبول الإيمان، فهو المتسبب لنفسه في الضلال، قال تعالى ﴿وَمَا يُضِلُّ بِهِ إِلَّا الْفَاسِقِينَ﴾ [البقرة] ففسقه سبب ضلاله.

فِي وَصْفِ عَذَابِ الْكَافِرِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ

٢٤- ﴿أَفَمَنْ يَتَّقِ بِرَجْهِهِ سَوءَ الْعَذَابِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَقِيلَ لِلظَّالِمِينَ ذُوقُوا مَا كُنْتُمْ تَكْسِبُونَ﴾

أفيستوي من هداه الله لطاعته ووقفه لدار كرامته، بمن كان على ضلال واستمرار في عناده حتى قدم على ربه ولقى جزاءه عمله، فأخذ يتقي النار بوجهه لأنه قد غُلَّت يداه ورجلاه، وهكذا.

وهكذا: نفى سبحانه المساواة بين من شرح الله صدورهم للإسلام، ومن قست قلوبهم، فلا يستوي من يُجَرَّ على وجهه في النار بمن يُنعم في الجنة.

فبينَ جلَّ شأنه أن من أضله الله لكفره يُلقى في النار على وجهه يوم القيامة، فلا يحول بينه وبينها حائل، ويُلقى في النار مغلولاً مقيداً، فلا يتهياً له أن يتقي النار إلا بوجهه؛ إذ ليس في وسعه أن يضع يده على وجهه وقاية له، كما هي عادة الناس، فيده مغلولة، والوجه أعلى الأعضاء وأشرفها، وهو مجمع الحواس.

قال مجاهد: يُجر الكافر على وجهه في النار.

وقيل في المعنى: إن الكافر يقابل النار بجميع جوارحه، ولا يزال العذاب نازلاً به حتى يأتي على وجهه، وهو أشرف الجوارح والحواس، فهو يلقى النار بكل شيء حتى بوجهه ومنخره.

ولفظ: (مَنْ) في الآية اسم موصول مبتدأ، والخبر محذوف، تقديره: أفمن يجعل وجهه وقاية من عذاب جهنم كمن هداه الله، فهو آمن من العذاب، لا يعتريه شيء من ذلك، ولا يحتاج إلى الاتقاء، بل هو سالم من كل سوء، مطمئن في جنة الله.

والوجه أشرف الأعضاء، فإذا وقع الإنسان في شيء من المخاوف فإنه يجعل يده وقاية لوجهه،

وأيدي الكفار مغلولة يوم القيامة، فإذا ألقوا في النار لم يجدوا شيئاً يَتَّقُونَهَا به إلا وجوههم. وفي هذا دليل على شدة وفظاعة عذابهم، وأن النار تغشاهم من فوقهم ومن تحت أرجلهم، وتحيط بهم من كل جانب، ويفسر هذا قوله تعالى:

﴿أَفَن يَمْشِي مُكِبًّا عَلَى وَجْهِهِ أَهْدَىٰ أَمَّن يَمْشِي سَوِيًّا عَلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ [الملك].

وقوله سبحانه: ﴿أَفَن يُلْقَىٰ فِي النَّارِ خَيْرٌ أَم مَّن يَأْتِي ءَامِنًا يَوْمَ الْقِيَمَةِ﴾ [فصلت: ٤٠].

وقوله جلَّ شأنه: ﴿يَوْمَ يُسْحَبُونَ فِي النَّارِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ ذُوقُوا مَسَّ سَقَرَ﴾ [القمر].

وقوله تعالى: ﴿وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ عُمِيَٰ وَبُكْمًا وَضُمًّا مَّا وَنَتْهُم جَهَنَّمَ كُلَّمَا خَبَتْ زِدْنَاهُمْ سَعِيرًا﴾ [الإسراء: ٩٧].

فالكافر يُرمى به في النار منكوسًا، مغلولة يداه إلى عنقه، ويُسحب في النار على وجهه لكفره وضلاله، فهل هذا خير أَمَّن يَنعَم في الجنة؛ لأن الله هداه؟!

فجواب الاستفهام محذوف دل عليه السياق كما سبق بيانه.

وكل جاحد للتوحيد أو منكر للرسالة الخاتمة يُكبُّ على وجهه في النار إن مات مصرًا على كفره، ولا يجد وقاية تنجيه من عذاب النار، ويقال لهم: ذوقوا وباشروا وبَالَ مَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَهُ فِي الدُّنْيَا مِنْ مَعَاصِي اللَّهِ. قال تعالى:

٢٥- ﴿كَذَّبَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَاُنْتِهِمُ الْعَذَابُ مِن حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ﴾ (٢٥)

أي: وكما يحل عذاب النار يوم القيامة بمن جحد وحدانية الله تعالى وكفر بالرسول الخاتم، فإنه يوشك أن يكون مصيرهم في الدنيا كمصير الأمم السابقة التي كذبت رسل الله، فيحل بهم ما حلَّ بأمثالهم.

وفي هذا إنذار ووعيد لهم ليتداركوا أنفسهم بالتوبة قبل حلول الأجل، حتى لا يحل بهم عذاب الدنيا قبل عذاب الآخرة، كما قال تعالى: ﴿فَهَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا مِثْلَ أَيَّامِ الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلِهِمْ﴾ [يونس: ١٠٢].

وهذا معنى قوله تعالى: ﴿كَذَّبَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ أي: من الأمم السابقة قبل هذه الأمة، ففاجأهم العذاب وهم آمنون غافلون من حيث لا يتوقعون ولا يخطر لهم على

بال، لقد أتاهم بالزلازل والخسف، كما حدث لقوم لوط، وأتاهم بالغرق في الطوفان، كما حدث لقوم نوح، وأتاهم بالصواعق، كما حدث لقوم صالح، وأتاهم من الجو بالريح العاتية، كما حدث لقوم هود، قال تعالى: ﴿فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضًا مُسْتَقْبِلَ أَوْدِيَّتِهِمْ قَالُوا هَذَا عَارِضٌ مُّطَرٌ نَّأْمَلُ مَا اسْتَعْجَلْتُمْ بِهِ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٤﴾ تَدْمِرُ كُلَّ شَيْءٍ بِأَمْرِ رَبِّهَا فَأَصْبَحُوا لَا يُرَى إِلَّا مَسَكِنُهُمْ كَذَلِكَ نَجْزِي الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ ﴿٢٥﴾﴾ [الأحقاف].

وهكذا حدث لقريش في يوم بدر وغيره، وهكذا يحدث لكل من كذب خاتم النبيين ﷺ إلى قيام الساعة، وهذا ما يشير إليه قوله تعالى:

٢٦- ﴿فَإِذَا فُهِمَ اللَّهُ الْخَزَىٰ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴿٢٦﴾﴾

وخزي الدنيا يكون بعذاب الاستئصال، وبالذل والهوان، والهزائم والنكبات، ويكون بالخوف والفقر والمرض ونحو ذلك.

وهذا العذاب في الدنيا بخلاف ما ينتظرهم في الآخرة، وهو عذاب أشد وأبقى، ولو كانوا يعلمون أن ما حل بهم كان بسبب كفرهم وتكذيبهم لاتعظوا وآمنوا قبل أن يحل بهم ما حل بأمثالهم.

فليحذر المخاطبون من عذاب الله إن كذبوا أشرف الرسل وخاتم الأنبياء، فإن ما أعده الله لهم في الآخرة من العذاب الشديد أعظم من جميع المحن والابتلاءات التي تصيبهم في الدنيا.

الْأَمْثَالُ فِي الْقُرْآنِ

٢٧، ٢٨- ﴿وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ لَّعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٢٧﴾ قُرْآنًا عَرَبِيًّا غَيْرَ ذِي عِوَجٍ لَّعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿٢٨﴾﴾

ولما بين سبحانه أن القرآن ﴿أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُّتَشَبِّهًا مَّثَانِيَ﴾ خص بالذكر أمثال القرآن من بين مزاياه، لما لها من تأثير في نفوس الناس، حيث تُشَبِّهُ الحالة بالحالة، فأخبر سبحانه بأنه ضرب في هذا القرآن أمثال الخير والشر، والإيمان والكفر، بما يُقَرِّبُ حقائق الأشياء ويوضح معناها:

ولقد وضّحنا وبيّنا للناس في هذا القرآن من الأمثال النافعة لكل ما يلزمهم في جميع

شؤونهم، وما ينتفعون به في دينهم ودنياهم، وكررنا ذلك بأساليب متعددة، وضربنا لهم من كل مثل من أمثال القرون السابقة تحذيرًا وتخويفًا؛ لكي يتعظوا ويعتبروا؛ فيتركوا ما هم عليه من الشرك والتكذيب.

وما في القرآن من أمثال هو بعض من كل؛ إذ القرآن يشتمل عليها وعلى غيرها.

قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ فَأَبَى أَكْثَرُ النَّاسِ إِلَّا كُفُورًا﴾ (٨٩) [الإسراء].

وقال سبحانه: ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَذَا الْقُرْآنِ لِلنَّاسِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ وَكَانَ الْإِنْسَانُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلًا﴾ (٩٢) [الكهف].

وقال جلَّ شأنه: ﴿وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ وَلَئِنْ جِئْتَهُمْ بِبَيِّنَاتٍ لَيَقُولُنَّ أَلَّذِينَ كَفَرُوا إِنَّهُمْ أَنْتُمْ إِلَّا مُبْطِلُونَ﴾ (٥٨) [الروم].

وقال أيضًا: ﴿وَلَقَدْ أَتَيْنَا نَصْرُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا الْعَالِمُونَ﴾ (٤٣) [العنكبوت].

عن سفيان بن عُيينة قال: أدركت مشيختنا منذ سبعين سنة، منهم عمرو بن دينار، يقولون: القرآن كلام الله ليس بمخلوق^(١).

وعن جعفر بن محمد عن أبيه قال: سئل علي بن الحسين عن القرآن، فقال: ليس بخالق ولا مخلوق، وهو كلام الخالق^(٢).

ثم وصف الله هذا القرآن بأنه قرآن عربي، سهل المعاني، واضح الألفاظ، لا لبس فيه ولا غموض، ولا انحراف ولا تعارض ولا تناقض، ولا نقص، وهذه الأمثال ضربها الله تعالى للناس في القرآن ﴿لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾ الله فيمثلوا أمره ويجتنبوا نهيه.

كما قال تعالى: ﴿فَإِنَّمَا يَسْتَرْتِهُ بِلسَانِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ (٥٨) [الدخان].

وقال سبحانه: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَى عَبْدِهِ الْكِتَابَ وَلَمْ يَجْعَلْ لَمْ عِوَجًا﴾ (١) [الكهف].

وفي هذا كمال الاعتدال وتمام الاستقامة.

(١) أخرجه البيهقي برقم (٥٢١) وقال محققه: صحيح عن عمرو بن دينار.

(٢) أخرجه البيهقي برقم (٥٣٤) وقال محققه: إسناده حسن.

مَثَلُ الْمُوحِّدِ وَالْمُشْرِكِ

٢٩- ﴿ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا رَجُلًا فِيهِ شُرَكَاءُ مُتَشَكِّسُونَ وَرَجُلًا سَلَمًا^(١) لِرَجُلٍ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾

ثم أعقب الله تعالى ضَرْبَ المَثَلِ في القرآن، بِضَرْبِ مَثَلٍ مجمل، للمؤمن والكافر، أو الموحّد والمشرِك، فالتوحيد والشرك هما أخطر الأمور وأعظمها.

وخلاصة المَثَل: أن المشرِك يعبد آلهة شتى، فهو يشبه عبداً مملوكاً لشركاء عدة، يتنازعون فيه، وهو متحير في إرضائهم، كلُّ له رأي، وكلُّ له حاجة، وكلُّ يطلب منه شيئاً يخالف الآخرين، تقاسمته الأهواء، واختلفت فيه السبل، فهم ليسوا متفقين على أمر ولا على حالة حتى يمكنه أن يستريح، بل هم متشاكسون متنازعون فيه.

أما الموحّد الذي يعبد ربّاً واحداً لا إله غيره ولا معبود سواه، فهو يشبه عبداً مملوكاً لشخص واحد، يعرف مراده، ويعرف ما يرضيه، ليس لغيره عليه من سبيل، فهل يستوي مَنْ هو في راحة تامة، قد سلّم من النزاع والشقاق، بمن هو في حيرة واضطراب؟

﴿ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا﴾ فاضربه -أيها الرسول- مثلاً للناس وبَيَّنَّه، فإن فيه محاجة للمشرِكين وتبكيّةاً لهم، لعلمهم يعتبرون ويتعظون، فالمشرِك يشبه ﴿رَجُلًا﴾ عبداً مملوكاً لعدد من الرجال، فهم فِيهِ ﴿شُرَكَاءُ مُتَشَكِّسُونَ﴾.

التشاكس: شدة الاختلاف في استخدامه وتوجيهه، أي: أن هذا العبد يملكه عدد من الناس يتجادبونه في حوائجهم، ويختلفون عليه في أوامرهم، فهو موزّع وممزق بينهم، لا يدري من يطيع ومن يعصي، ومن يقدّم ومن يؤخر؟ هذا مثل المشرِك، وهو المَثَلُ الأول.

أما المَثَلُ الآخر فهو الذي قال الله تعالى فيه: ﴿وَرَجُلًا سَلَمًا لِرَجُلٍ﴾ أي: يشبه عبداً خالصاً لرجل واحد، فهو يخدمه بطاعة وإخلاص، وهو في أتم راحة وأكمل طمأنينة، إذ لا شَرِكَةَ فيه، وهذا مثل الموحّد.

(١) قرأ ابن كثير وأبو عمرو ويعقوب (سالما) اسم فاعل، أي: خالصاً من الشركة، وقرأ الباقون (سَلَمًا) مصدر صفة للرجل (سَلَمًا) مبالغة في الخلوص من الشركة.

﴿هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا﴾ أي: هل يستوي من هو في حيرة واضطراب، يخدم جماعة من الناس، أخلاقهم مختلفة، وأغراضهم متباينة، كل واحد منهم يريد أن يستخدمه ويسخره فيما يريد، ولا ينازعه فيه أحد؟ وهذا مثل من يعبد آلهة شتى.

هل يستوي هذا بمن هو مملوك لرجل واحد، فهو في راحة واطمئنان، وهذا مثل من يعبد إلهاً واحداً، فإذا لم يستوِ الرجلان، فكذلك لا يستوي المؤمن الموحد، بمن يشرك مع الله تعالى غيره.

ولما كان الجواب موافقاً لإقامة الحجة على المستفهم، حمّد الله تعالى على نهوض حجته، فأثنى الله على نفسه، ليعلمنا كيف نشني عليه، فقال سبحانه: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ أي: على وضوح المثل وقيام الحجة، فالثناء الكامل التام لله وحده، ولكن المشركين لا يعلمون ذلك ﴿بَلْ أَكْذَرُهُمْ﴾ أي: أكثر الناس ﴿لَا يَعْلَمُونَ﴾ الحق فيتبعونه.

قال ابن عباس ؓ: هذه الآية ضربت مثلاً للمشرك والمخلص، والمقصود من ضرب المثل تبكيت المشركين وتقبيحهم على شركهم، والله تعالى قد ضرب المثل، وأوحى به إلى رسوله ﷺ ليضربه للناس ويبيّنه لهم.

الْمَوْتُ نَهَايَةُ كُلِّ حَيٍّ وَفِي يَوْمِ الْقِيَامَةِ فَضْلُ الْقَضَاءِ

٣٠، ٣١- ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُمْ مَيِّتُونَ﴾ ٣٠ ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عِنْدَ رَبِّكُمْ تَخْتَصِمُونَ ﴿٣١﴾

وبعد إثبات الوجدانية لله تعالى، وإبطال الشرك بأنواعه، يتخول القرآن المناسبة، وينتهاز الفرصة لموعظة الناس وإرشادهم، وتذكيرهم بأن الجميع صائر إلى الموت، وأن الحياة إلى زوال، وأن الناس ستبعث وتحاسب وتجازى بأعمالها، وهذا يقتضي المبادرة إلى العمل الصالح، ونبد الشرك وأهله.

ويبدأ تأثير الموعظة بالتطبيق العملي والقُدوة والتأسي، ولذا فإن الله تعالى خاطب رسوله أولاً بأنه صائر إلى الموت حتماً، كما مات النبيون قبله، وجميع الخلائق صائرون إلى الموت كذلك، وقد سوّى الله تعالى في الموت بين الناس جميعاً.

وهذه الآية نعتت إلى النبي ﷺ نفسه، وأعلّمت الصحابة بأنه ﷺ سيموت، وأن إقامته

فيهم قليلة، وأنه ليس خالداً بينهم، فقد كان بعضهم يعتقد أنه لا يموت، ووقع استنكار موته من بعضهم يوم أن مات ﷺ، كما أنها نَعَتْ إلى الناس جميعاً أنفسهم، حتى يتوب العاصي، ويُسلم الكافر، ويسارع إلى الإيمان.

فالموت سيأتيك -يا محمد- ويأتيهم جميعاً، ﴿وَمَا جَعَلْنَا لِشَرٍّ مِنْ قَبْلِكَ الْخُلْدَ أَفَإِنْ مِتَّ فَهُمْ لَخُلْدُونَ﴾ (٣٤) كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ وَبَلَّوْكُمْ بِالْشَّرِّ وَالْخَيْرِ فَتَنْوَلْنَاهُ نَرْجِعُونَ ﴿٣٥﴾ [الأنبياء] ولا يدري الذين قالوا عن النبي ﷺ: ﴿نَرَبُّصُ بِهِ رَبِّبَ الْمَوْتِ﴾ [الطور: ٣٠] أي: ننتظر له الموت، لا يدرون أنهم سيموتون قبله أم بعده، وقد رأى النبي ﷺ مصارع الدُّ أعدائه يوم بدر. قال عبد الله بن مسعود ؓ: دعا رسول الله ﷺ على: أبي جهل، وعتبة، وشيبة ابني ربيعة، والوليد بن عتبة، وأمية بن خلف، وعقبة بن أبي معيط، وعمارة بن الوليد، فوالذي نفسي بيده، لقد رأيت الذين عدَّهم رسول الله ﷺ صرعى في قليب بدر.

فالكل سيموت، ولن يُخلد فيها أحد، فلا معنى لاستعجال الموت أو استبطائه، ولا للشماتة به. وهذه الآية استشهد بها الصديق ؓ عند موت النبي ﷺ مع قوله تعالى: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِنْ مَاتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ﴾ [آل عمران: ١٤٤].

تخاصم العباد بين يدي رب العباد:

ثم إنكم -أيها الناس- ستُنقلون من هذه الدار لا محالة، وتجتمعون عند ربكم في الدار الآخرة، وتختصمون بين يدي الله تعالى فيما كنتم فيه في الدنيا تختلفون، من التوحيد والشرك والمظالم، ويجازي كلاً بما عمل ﴿أَخْصَلَهُ اللَّهُ وَسُوءَهُ﴾ [المجادلة: ٦] فيفصل بينكم بالحق، حين تحتكمون إليه، فيقتص من الظالم للمظلوم، وتقوم الحجة على الناس جميعاً، بأن الرسول ﷺ قد بلغ الرسالة، وأدَّى الأمانة، ونصح الأمة، وتركها على المحجة البيضاء، وترك فيها كتاب الله تعالى وسنة رسوله ﷺ.

والآية عامة في كل المتنازعين والمتخاصمين في الدنيا، كما قال تعالى: ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ [النحل: ١٢٤].

عن عبد الله بن الزبير، لما نزلت هذه الآية، قال الزبير: يا رسول الله، أتكثّر علينا

الخصومة بعد الذي كان بيننا في الدنيا؟ قال: «نعم»، فقال: إن الأمر إذاً لشديد^(١).

وعن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: كنا نقول: ربنا واحد، وديننا واحد، ونبينا واحد، فما هذه الخصومة؟! فلما كان صَفَيْنَ، وشد بعضنا على بعض بالسيوف، قلنا: نعم هو هذا^(٢).

وعن ابن عمر رضي الله عنه قال: عشنا برهة من الدهر، وكنا نرى أن هذه الآية، نزلت فينا وفي أهل الكتابين قبلنا، قلنا: كيف نختصم، نبينا واحد، وكتابنا واحد؟! حتى رأيتُ بعضنا يضرب وجوه بعض، فعرفت أنها نزلت فينا^(٣).

ومن ذلك قول علي رضي الله عنه: أنا أول من يجثو يوم القيامة للخصومة بين يدي الرحمن، فيختصم عليّ وحمزة وعبيدة بن الحارث مع عتبة وشيبة والوليد^(٤).

ويختصم الظالمون بعضهم مع بعض في ظلاماتهم.

وقال الزبير بن العوام رضي الله عنه للنبي ﷺ: أيكذب علينا ما كان بيننا في الدنيا من خواص الذنوب؟ قال: «نعم، حتى يُؤدَّى إلى كل ذي حق حقه»^(٥).

وعن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «لتؤدَّن الحقوق إلى أهلها يوم القيامة حتى يُقاد للشاة الجلاحء من الشاة القراء»^(٦).

ولما قرأ إبراهيم النخعي هذه الآية، قال: وما خصومتنا ونحن إخوان؟! فلما قُتِل عثمان بن عفان قالوا: هذه خصومة ما بيننا^(٧).

(١) «المسند» (١٦٧/١) وصححه أحمد شاكر برقم (١٤٣٤) قال محققوه: إسناده حسن، رجاله ثقات رجال الصحيح، غير ابن علقمة، فقد روى له البخاري مقروناً، ومسلم متابعه، وهو صدوق حسن الحديث، وأخرجه البزار (٩٦٤) وأبو يعلى (٦٦٨) والحاكم (٤٣٥/٢)، وقال الهيثمي: رواه الطبراني ورجالته ثقات «مجمع الزوائد» (١٠٠/٧) ورواه الضياء المقدسي في «المختارة» برقم (٨٥٢، ٨٥٦).

(٢) أخرجه سعيد بن منصور كما في «الدر المنثور» (٦٥٨/١٢).

(٣) النسائي برقم (٤٦٧) و«السنن الكبرى» (١١٤٤٧) وقال الهيثمي في «مجمع الزوائد» (١٠٣/٧): رواه الطبراني ورجالته ثقات، والحاكم (٥٧٢/٤).

(٤)، (٥) «تفسير ابن عطية» (٥٣٠/٤).

(٦) «صحيح مسلم» برقم (٢٥٨٢).

(٧) أخرجه عبد الرزاق (١٧٢/٢) وابن جرير (٢٠٢/٢٠) وابن عساكر (٤٩٣/٣٩).

وعن عقبة بن عامر رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «أول خصمين يوم القيامة جاران»^(١).
والله ﷻ سيخاصم العباد يوم القيامة في تكذيبهم للرسول، ومخالفتهم لأمر الله تعالى ونهيه، ومن ذلك تخاصم أهل الإيمان وأهل الشرك.
والنبي ﷺ سيخاصم من لم يؤمن به من أمة الدعوة، ويحتج عليهم بأنه قد بلغهم وأنذرهم وحذّرهم، وهم يخاصمون، والآية عامة تشمل كل هذا.
وعن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «من كانت له مظلمة لأحد من عرضه أو شيء، فليتخلله منه اليوم قبل ألا يكون دينار ولا درهم، إن كان له عمل صالح أخذ منه بقدر مظلمته، وإن لم تكن له حسنات أخذ من سيئات صاحبه فحمل عليه»^(٢).
وعن أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «أندرون من المفلس؟» قالوا: المفلس فينا من لا درهم له ولا متاع، فقال: «إن المفلس من أمتي يأتي يوم القيامة بصلاة وصيام وزكاة، ويأتي وقد شتم هذا، وقذف هذا، وأكل مال هذا، وسفك دم هذا، فيعطى هذا من حسناته وهذا من حسناته، فإن فئت حسناته قبل أن يقضي ما عليه أخذ من سيئاتهم فطرح عليه ثم طرح في النار»^(٣) والآية عامة في كل خصومة.

أَعْظَمُ الْخُصُومَاتِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ

٣٢- ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَذَبَ عَلَى اللَّهِ وَكَذَّبَ بِالْحَقِّ إِذْ جَاءَهُ الْبَيِّنَاتُ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْكَافِرِينَ﴾

ثم ذكر سبحانه أعظم خصومة يفصل فيها رب العالمين يوم القيامة بين طرفين:

الطرف الأول: كل من أشرك بالله تعالى فنسب إليه الشريك أو الولد، وكل من كذب بالقرآن والرسالة الخاتمة، وكل من كذب بالوحي المنزل على رسل الله جميعاً، وكل من أخبر عن الله تعالى أو عن رسوله ﷺ كذباً، وكل من حكم بحكم كذباً:

(١) «المسند» بإسناد حسن (٢٨/ ٦٠١) (١٧٣٧٢) والطبراني (٨٣٦)، وهو حديث حسن.

(٢) «صحيح البخاري» برقم (٢٤٤٩) وهذا لفظه وانظر: (٦٥٣٤).

(٣) «صحيح مسلم» برقم (٢٥٨١).

قال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَالْإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَأَنْ تُشْرِكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا نَعْلَمُونَ﴾ [الأعراف].

وهؤلاء هم المذكورون في قوله تعالى: ﴿وَقِيلَ لِلظَّالِمِينَ ذُوقُوا مَا كُنْتُمْ تَكْسِبُونَ﴾ [٢٤].

والطرف الثاني: هو الرسول محمد ﷺ والقرآن الذي جاء به، وقد جاء ذكر ذلك في الآية التالية، وينسحب هذا على رسل الله جميعاً، كل في زمانه ومكانه.

هذه خصومة بين المشركين بالله تعالى والمكذبين بخاتم النبيين، وبين رسول الله ﷺ، فيكون القضاء يوم القيامة على المشركين الذين كذبوا على الله تعالى، فجعلوا له الشركاء ونسبوا له الولد والبنات، وكذبوا بالقرآن وكذبوا صاحب الرسالة ﷺ.

قال تعالى: ﴿إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ [لقمان]

ولا يوجد مَنْ هو أظلم منهم، فقد كذبوا على الله في صفاته، وادَّعَوْا أن الله تعالى أمرهم بذلك، وهذا ظلم لمقام الربوبية، ثم ظلموا رسول الله ﷺ بتكذيبه، وظلموا القرآن بنسبته إلى الباطل، وظلموا المؤمنين بالأذى، وظلموا أنفسهم بالقائنها في النار، وليس في وسع السامع القارئ إلا أن يصفهم بالظلم.

ولذا جاء الحكم عليهم بصيغة الاستفهام ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَذَبَ عَلَى اللَّهِ﴾ أي: لا أحد أظلم ممن افترى على الله كذباً، بأن نسب إليه ما لا يليق به، فأشرك بالله تعالى في ربوبيته أو ألوهيته، أو قال: أوحى إليّ ولم يوحَ إليه شيء، أو ادَّعى أن في وسعه أن ينزل مثل ما أنزل الله.

ولا أحد أظلم أيضاً ممن كذب بالحق الذي نزل على محمد ﷺ، فردّ الحق بعد ما تبين له، وجمع بين الكذب على الله والتكذيب بالحق.

وقد ختم الله الآية بالحكم على الفريقين بالكفر، ويَبَيِّن أن مصيرهم إلى جهنم، فهي مسكنهم ودار إقامتهم، أليس في النار مأوى ومسكن يكفي لمن كفر بالله تعالى ولم يصدق محمداً ﷺ؟! بلى، إن فيها مثوى لهم يكفي لإهانة الكافرين وإذلالهم وتعذيبهم. هذا هو الطرف الأول في القضية، وقد جاء الطرف الثاني يبين:

مَصِيرَ الْمُتَّقِينَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ

وذلك في قوله تعالى مبيناً حال المصدق بعد بيان حال المكذب:

٣٣- ﴿وَالَّذِي جَاءَ بِالصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِ أُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ﴾ (٣٣)

﴿وَالَّذِي جَاءَ بِالصِّدْقِ﴾ في قوله وعمله، وأولهم، محمد ﷺ صاحب الرسالة الأخيرة، وَيُصَدِّقُ هذا على رسل الله جميعاً، وكل من يحمل لواء الدعوة بعدهم، فهؤلاء قد جاؤوا بالصدق من عند الله تعالى قولاً وعملاً، والصدق هو القرآن، وكل الكتب المنزلة من عند الله تعالى قبل تحريفها.

أما الذين صدَّقوا بالقرآن في أقوالهم وأعمالهم، فهم الذين جمعوا صفات التقوى، كما قال تعالى: ﴿أُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ﴾ وفي مقدمة المتقين خاتم الأنبياء والمرسلين، محمد ﷺ والمؤمنون به، والعاملون بشريعته من الصحابة رضوان الله تعالى عليهم، فمن بعدهم إلى يوم الدين، وجميع خصال التقوى ترجع إلى الصدق بالحق والتصديق به.

عن علي بن أبي طالب ؑ قال: الذي جاء بالصدق محمد ﷺ، والذي صدَّق به أبو بكر، وهو محمول على أن أبا بكر ؑ هو أول من صدق بالنبي ﷺ.

قال تعالى في بيان ثواب الذين جاؤوا بالصدق وصدقوا به:

٣٤- ﴿لَهُمْ مَا يَشَاءُونَ عِنْدَ رَبِّهِمْ ذَلِكَ جَزَاءُ الْمُحْسِنِينَ﴾ (٣٤)

ولما ذكر سبحانه مصير الظالمين في قوله تعالى: ﴿أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْكَافِرِينَ﴾ [٣٢] ذكر هنا مصير المتقين في قوله: ﴿لَهُمْ مَا يَشَاءُونَ عِنْدَ رَبِّهِمْ﴾ أي: لهم ما يريدون وما يتمنون من أصناف اللذات والمشتهيات من الحور والقصور، وما لذ وطاب من المطاعم والمشارب والملابس والمساكن، وكل ما يشتهوته من أصناف المتع والملذات، بسبب تصديقهم للحق، واتباعهم ما جاء به محمد ﷺ، كما جاء في الحديث: عن سهل بن سعد ؓ أن النبي ﷺ قال عن الجنة: «فيها ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر» ثم قرأ ﴿تَتَجَافَى جُنُوبُهُمْ﴾. ﴿الآيتان من سورة السجدة (١)﴾.

(١) «المسند» (٢٢٨٢٦) حديث صحيح بإسناد حسن، ومسلم (٢٨٢٥) والطبراني (٥٧٠٦، ٦٠٠٣) وأبو يعلى (٧٥٢٠) والطبري في تفسيره (١٠٦/٢١) والحاكم (٤١٣/٢).

وفي قوله تعالى: ﴿وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ الْأَنفُسُ وَتَلَذُّ الْأَعْيُنُ وَأَنْتُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ [الزخرف: ٧١].

وقوله سبحانه: ﴿لَهُمْ مَا يَشَاءُونَ فِيهَا وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ﴾ (٣٥) [ق].

قال تعالى: ﴿ذَلِكَ جَزَاءُ الْمُحْسِنِينَ﴾ وهم الذين أطاعوا ربهم حق الطاعة وعبدوه حق العبادة، والإحسان هو كمال التقوى، وقد فسرهُ النبي ﷺ بقوله:

«أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك»^(١). قال تعالى:

٣٥- ﴿يُكَفِّرُ اللَّهُ عَنْهُمْ أَسْوَأَ الَّذِي عَمِلُوا وَيَجْزِيهِمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ (٣٥)

بَيِّن - سبحانه - مزيد فضله وإكرامه لعباده المحسنين، فذكر أنه جلَّ شأنه وعدهم بأن لهم ما يشاؤون عند ربهم، ليطمئنوا على أن الله تعالى لن يؤاخذهم على ما سلف منهم من الشرك وسائر المعاصي، فيعفو عنهم ويغفر لهم أسوأ ما عملوه في الدنيا من الإشراك بالله تعالى فما دونه.

فالشرك بالله أعظم الذنوب، وقد سئل النبي ﷺ: أي الذنب أعظم؟ فقال: «أن تجعل لله نداً وهو خلقك»^(٢).

وإذا كفر الله عنهم الشرك، وكفر عنهم السجود للصنم ونحوه، كفر عنهم - من باب أولى - ما دون ذلك من الكبائر وغيرها، وهذا أمر عام، فإن الإسلام يجبُّ ما قبله، والتوبة تجبُّ ما قبلها، وهذا معنى ﴿يُكَفِّرُ اللَّهُ عَنْهُمْ أَسْوَأَ الَّذِي عَمِلُوا﴾ فالشرك هو أسوأ الأعمال.

وإذا أريد بالآية، أصحاب رسول الله ﷺ وأول من آمن بالوحي، كان المراد بها أن يكفر الله عنهم ما عسى أن يعمله أحدهم من الكبائر في الإسلام، ويكون هذا خصوصية لأصحاب رسول الله ﷺ.

وفضلاً عن تكفير السيئات، فإن الله تعالى يكافئهم على طاعتهم في الدنيا بأحسن جزاء، وهو الجنة، فضلاً منه وكرماً، فالعدل أن تُحسب الحسنات والسيئات، ثم يكون

(١) «صحيح البخاري» (٥٠) و«صحيح مسلم» (٩).

(٢) من حديث عبد الله بن مسعود في البخاري (٤٤٧٧، ٧٥٣٢) ومسلم (٨٦، ١٤٢) وأبي داود (٢٣١٠) والترمذي (٣١٨٢) و«المسند» (٣٦١٢) بإسناد صحيح على شرط الشيخين وابن حبان (٤٤١٤).

الجزاء عليهما، والفضل هو الذي يتجلى الله به على عباده المتقين.

وهذا الفضل معناه: أن الله تعالى إذا كفر عنهم أسوأ ما عملوه في الدنيا، بسبب توبتهم وإنابتهم، فإنه لا يبقى في ميزانهم سيئات، ثم يجزيهم على أعمالهم الصالحة بأحسن الجزاء، فترجح كفة الحسنات على كفة السيئات، وما وعدهم الله بالجزاء إلا لأنه أراد أن يكفر عنهم سيئات ما عملوا، وهذا ما يشير إليه قوله تعالى: ﴿وَجَزَيْتُمُ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ وهو منتهى الفضل والإحسان، حيث عاملهم ربهم بالفضل، ولم يعاملهم بالعدل، وهذا بناء على أن (أسوأ وأحسن) أفعال تفضيل، حيث غفر الله لهم أسوأ الأعمال وكافأهم بأحسن الجزاء، وهو ظاهر المعنى.

ويجوز أن يراد: عدم التفضيل فيكون المراد بالأحسن والأسوأ: السيئ والحسن. والآية تشير إلى أن عمل الإنسان له ثلاث حالات، فهو إما أن يكون: أسوأ، أو أحسن، أو لا أسوأ ولا أحسن، فالأسوء، المعاصي كلها، والأحسن، الطاعات كلها، والثالث هو المتعلق بالمباحات التي لا ثواب ولا عقاب عليها.

أَلَيْسَ اللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ، حَتَّى يُعْبَدَ مَعَهُ غَيْرُهُ؟

٣٦- ﴿أَلَيْسَ اللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ^(١) وَيُخَوِّفُونَكَ بِالَّذِينَ^(٢) مِنْ دُونِهِ وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ^(٣)﴾

وتمضي الآيات في الحديث عن الشرك وأهله، فيوبخ الله المشركين على شركهم، ويبيّن لهم أن الله كافٍ بهم، فلماذا يعبدون معه غيره؟ أليس الله هو القوي القاهر فوق عباده؟ فلماذا إذا قيل لهم: اعبدوا الله وحده نفرت قلوبهم، ولم يكتفوا بربهم، فإذا دُعي معه غيره فرحوا واستبشروا؟! ﴿أَلَيْسَ اللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ﴾ حتى يشرك معه غيره، وفي القراءة الأخرى «أليس الله بكاف عباده» وإذا كان الله مع عبده، فكيف يخاف غيره؟ ﴿وَيُخَوِّفُونَكَ بِالَّذِينَ مِنْ دُونِهِ﴾ من الأنداد والشركاء أن تنالك بسوء، والضار النافع هو الله سبحانه، وكل ما يُعبد من دون الله لا يملك ضراً ولا نفعاً.

(١) قرأ حمزة والكسائي وأبو جعفر وخلف (عباده) على الجمع، والمراد: الأنبياء والمطيعين من المؤمنين، وقرأ الباقون (عبده) على الأفراد، والمراد: النبي ﷺ.

(٢) انفرد الكوفي بعد (فما له من هاد) آية، ولم يعدها غيره.

وفي عصر التنزيل كانت قريش تقول للنبي ﷺ: إنا نخاف أن تخيلك آلهتنا، وإنا نخشى عليك معرفتها، أي: نخشى أن تصيبك بمكروه بسبب عيبك إياها.

وفي الحديث: عن ابن عباس ؓ أن النبي ﷺ قال: «واعلم أن الأمة لو اجتمعوا على أن ينفعوك بشيء لم ينفعوك إلا بشيء قد كتبه الله لك، ولو اجتمعوا على أن يضروك بشيء لم يضروك إلا بشيء قد كتبه الله عليك، رُفعت الأقلام وجُفت الصحف»^(١).

ويرشح هذا المعنى ختام الآية ﴿وَمَنْ يُضِلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ﴾ أي: أن من يصرفه الله عن التوحيد إلى الشرك، وعن الحق إلى الباطل لكفره وفساد فطرته، فليس هناك من يهديه بعد الله.

وجاء في أسباب النزول أن النبي ﷺ لَمَّا وَجَّهَ خَالِدَ بْنَ الْوَلِيدِ إِلَى هَذِمِ الْعُزَّى، قَالَ سَادَنُ الْعُزَّى: احذر يا خالد، فإن لها شدة، فعمد خالد إلى العزَّى، فهشم أنفها حتى كسرها بالفأس، فأنزل الله الآية^(٢).

والخوف من الأصنام ونحوها - أن تمسَّ مَنْ يُسِيءُ إِلَيْهَا بضرٍ - يماثله عقيدة بعض العوام في زعمهم أنَّ بعض أصحاب الأضرحة والقبور، وبعض الأحياء من الناس أو من الجن، تنفع أو تضر.

وبعض أهل هذه الطرق، إذا قلت له: سل الله وحده، لا يرضى، وإن قلت له: ادع الله مباشرة لا يقبل، ويقول: إن الشيخ الفلاني أفضل مني وأقرب إلى الله تعالى، فهو يرفع شكواي إلى الله تعالى؛ لأن دعاءه مقبول وأنا مدنس بالذنوب! وفي هذا يقول سبحانه: ﴿وَإِذَا دُكِرَ اللَّهُ وَحْدَهُ اشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ وَإِذَا دُكِرَ الَّذِينَ مِنْ دُونِهِ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ﴾^(٣).

ويقول أيضاً: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا إِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ﴾^(٤) [الصفات].
إذا لا بد في زعمهم أن يُدعى معه غيره، وهذا ما تشير إليه الآية ﴿أَلَيْسَ اللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ﴾

(١) «المسند» (٢٩٣/١) برقم (٢٦٦٩) إسناده قوي (محققه) والترمذي برقم (٢٥١٦) وقال: حسن صحيح، من حديث ابن عباس، وأخرجه أبو يعلى (٢٥٥٦) وابن أبي عاصم في السنة معلقا (٣١٦) والبيهقي في الشعب (١٩٥) وأوله (يا غلام إني معلمك كلمات...).

(٢) من «تفسير البيضاوي» للآية، و«تفسير القرطبي» (٢٥٨/١٥).

وَيُخَوِّفُونَكَ بِالَّذِينَ مِنْ دُونِهِ ﴿٣٧﴾

وقيل: إن معنى الآية: أليس الله بكاف عبده محمداً ﷺ ومؤيده وعاصمه أن يناله أذى من الناس ومن الأصنام، والمعنى الأول هو المناسب لسياق الآيات قبلها وبعدها. وقد ختمت الآية بيان أن من يضلله الله تعالى، فلا طريق لهدايته، فما هو السبب؟

فَسَادُ الْفِطْرَةِ بِالتَّأَثُّرَاتِ الْخَارِجِيَّةِ سَبَبُ الضَّلَالِ

٣٧- ﴿وَمَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ مُضِلٍّ أَلَيْسَ اللَّهُ بِعَزِيزٍ ذِي انْتِقَامٍ ﴿٣٧﴾﴾

وإذا كان الذي أضله الله سبحانه لا تحصل له الهداية، فإن من هداه الله لا يحصل له ضلال، وقد عُرف الضلال والهدى لكلا الفريقين، بمقتضى علم الله تعالى، فقدّر على كل منهما ما ركز في قلبه واستعدّت له فطرته الصحيحة فكانت الهداية، أو استعدت له فطرته التي فسدت بالتأثرات الخارجية فتمكن الضلال منها.

ومن أدلة ذلك قوله تعالى: ﴿مَنْ يُضِلِلِ اللَّهُ فَكَأَيُّ هَادٍ لَّهُ﴾ [الأعراف: ١٨٦].

والمعنى: ومن يضلله الله بسبب فسقه وزيغه عن طريق الهدى وفساد فطرته، فلا هادي له، كما قال تعالى: ﴿فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ ﴿٥﴾﴾ [الصف] ومن يوفقه الله للإيمان به والعمل بكتابه واتباع رسوله ﷺ فما له من مضل عن الحق الذي هو عليه، ثم علّل الله سبحانه كفايته لخلقه، مُنكراً عليهم الخوف من غيره وعدم الاكتفاء به سبحانه، فقال: ﴿أَلَيْسَ اللَّهُ بِعَزِيزٍ ذِي انْتِقَامٍ﴾ فيجازي كُلاً بما يستحق، ويتنقم ممن يستحق، فكيف يُخشَى غير الله؟

والجواب: بلى، إنه سبحانه عزيز قوي، وفي الآية وعد للمؤمنين، ووعيد للكافرين، فاحذوا - أيها الناس - أسباب مقت الله وغضبه وما يوجب نقمته وعذابه.

الْكُفَّارُ يَعْتَرِفُونَ بِوُجُودِ الْخَالِقِ الرَّازِقِ وَلَكِنَّهُمْ يَعْبُدُونَ غَيْرَهُ

٣٨- ﴿وَلَيْنَ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ قُلْ أَفَرَأَيْتُمْ مَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ أَرَادَنِيَ^(١) اللَّهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَاشِفَاتُ^(٢) ضُرِّيهِ أَوْ أَرَادَنِي بِرَحْمَةٍ هَلْ هِيَ مُمْسِكَةٌ^(٣) رَحْمَتَهُ قُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ الْمُتَوَكِّلُونَ ﴿٣٨﴾

أقام سبحانه الحجة والدليل على تناقض المشركين، وزيف ما هم عليه من عبادتهم لغير الله تعالى، فهم يقولون بتفرد الله تعالى بالخلق والرزق وتدير شؤون خلقه، وهم مع ذلك يعبدون غير الله سبحانه، ويلتمسون منه جلب الخير أو دفع الضرر.

قال تعالى: ﴿وَلَيْنَ سَأَلْتَهُمْ﴾ أي: ولو أنك سألت -أيها الرسول- هؤلاء المشركين الذين يعبدون غير الله؛ ولو أنك سألت أهل الضلال الذين يخوفونك بالذين من دونه، فأقمت لهم دليلاً من أنفسهم، وقلت لهم: ﴿مَنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ﴾ وما فيهما وما بينهما، ومن يحيي ويميت، ومن يدبر الأمر ﴿لَيَقُولَنَّ اللَّهُ﴾ فهم لم يدعوا أن آلهتهم خلقت شيئاً منها، فالله هو الذي خلقها، إذ لا يكشف الضر إلا الله، ولا يمسك الرحمة إلا الله، والله تعالى هو الذي خلق الكون، وليس في وسع عاقل ولا في فطرة بشر، أن تقول غير هذا، فهذه حقيقة واضحة، فطر الله الناس عليها.

قال الرازي: إن العلم بوجود الإله القادر الحكيم، لا نزاع فيه بين الخلائق، وفطرة العقل شاهدة بصحة هذا العلم، فإن من تأمل في عجائب أحوال السموات والأرض، وفي عجائب أحوال النبات والحيوان، وعجائب بدء خلق الإنسان، وما فيه من الحكيم الغريبة، والمصالح العجيبة، من تأمل ذلك عَلِمَ أنه لا بد من الاعتراف بإله القادر الحكيم الرحيم، ولهذا أقر المشركون بوجود الله^(٣).

ولما خَوَّفَ المشركون النبي ﷺ من مضرة الأوثان وتخيلها، أمره الله تعالى أن يقررهم

(١) قرأ حمزة بإسكان ياء (أرادني الله)، والباقون بفتحها.

(٢) قرأ أبو عمرو ويعقوب (كاشفاتُ ضُرِّه) بتنوين (كاشفات) ونصب (ضُرِّه)، وكذا (ممسكات رحمة) بتنوين (ممسكات) ونصب (رحمته)، على أنهما اسم فاعل وما بعده مفعول به، وقرأ الباقر بترك التنوين فيهما وجر الراء والتاء على الإضافة اللفظية.

(٣) «التفسير الكبير» (٢٦/ ٢٨٢) بتصرف يسير.

بأن خالق العالم هو الله وحده، ثم يقول لهم: إن أَرَادَنِي خَالِقَ الْعَالَمِ -الذي أقررت به- بضر من مرض أو فقر، أو برحمة من صحة أو غنى، هل هذه الآلهة التي خوفتموني إياها تكشف عني هذا الضر أو تمسك عني هذه الرحمة؟

فلما ألقمهم حجراً بهذه الإجابة، وانقطعت حجتهم، أمره ربه أن يصدع بأن الله وحده كافيه من مضرة الأوثان وغيرها.

فإذا كنتم -أيها المشركون- تقرون بوجود الخالق، وأنه سبحانه المتفرد بخلق هذا الكون، وهذا الخلق من خصائص الله تعالى، فلماذا تعبدون غيره؟ وكيف استحسنت عقولكم عبادة غير الله تعالى، وإشراك المخلوقين مع الخالق في العبادة، وهل تستطيع هذه الآلهة التي تشركونها مع الله تعالى أن تُبعد عني أذى قَدَّرَهُ اللهُ عَلَيَّ، أو تزيل عني مكروهاً لحق بي؟

﴿قُلْ أَفَرَأَيْتُمْ أَي: أَفَظَنَنْتُمْ ﴿مَا تَدْعُونَ﴾ أَي: مَا تَعْبُدُونَ ﴿مَنْ دُونِ اللَّهِ﴾ من حجر، أو شجر، أو ملك، أو جن، أو إنسان، أخبروني ﴿إِنْ أَرَادَنِيَ اللَّهُ بِضُرٍّ﴾ أَيَّ ضُرٍّ كَانَ. ﴿هَلْ هُنَّ كَشَفَتْ ضُرَّهٖ﴾ أَي: هل تستطيع هذه الآلهة أن تدفع عني هذا الضر، أو هذا البلاء وهذه الشدة؟ ﴿أَوْ أَرَادَنِيَ بِرَحْمَةٍ﴾ في ديني ودنياي، من نعمة وخير وصحة ورزق ﴿هَلْ هِيَ مُتَمَسِّكَةٌ بِرَحْمَتِي﴾ أَي: هل في وسعها أن تمنع عني هذه الرحمة بعد ذلك؟ وعبر (بـ) كاشفات وممسكات؛ لأن المشركين الأوائل كانوا يقولون عن اللات والعزى ومناة: إنها إناث! والجواب، أنهم لا يكشفون الضر ولا يمسكون الرحمة.

يُرَوَّى أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ لَمَّا سَأَلَ الْمُشْرِكِينَ هَذَا السُّؤَالَ، سَكَتُوا، فَأَنْزَلَ اللَّهُ ^(١) يَأْمُرُ رَسُولَهُ أَنْ يَجِيبَهُمْ بِأَمْرَيْنِ:

الأمر الأول: يُعَلِّمُهُمْ أَنَّهُ قَدْ فَوَّضَ أَمْرَهُ فِيهِمْ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى فَهُوَ كَافِيهِ، وَهُوَ حَسْبُهُ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ وَمِنْ كُلِّ نَاصِرٍ، وَهَذَا شَعَارُهُ فِي جَمِيعِ شُؤْنِهِ، وَعَلَيْهِ يَعْتَمِدُ الْمُعْتَمِدُونَ فِي جَلْبِ مَصَالِحِهِمْ وَدَفْعِ مُضَارِهِمْ، فَالَّذِي بِيَدِهِ الْكَفَايَةُ هُوَ اللَّهُ، وَهُوَ وَحْدَهُ سَيَكْفِينِي كُلَّ مَا أَهْمَنِي، فَاصْذَعْ بِذَلِكَ، بَعْدَ مَا تَبَيَّنَ الدَّلِيلُ الْقَاطِعُ عَلَى أَنَّ اللَّهَ وَحْدَهُ هُوَ الْمُسْتَحَقُّ لِلْعِبَادَةِ، وَأَنَّ آلِهَتَهُمْ عَاجِزَةٌ مِنْ كُلِّ

(١) كما في «تفسير الخازن» و«النسفي» و«الكشاف» و«ابن عاشور» و«ابن عطية» للآية.

الوجوه عن الخلق والرزق والنفع والضرر ﴿قُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ﴾ فهو كافيني وحافظي و﴿عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ الْمُتَوَكِّلُونَ﴾ وهم رسل الله والصالحون من عباده.

وفي هذا تعريض بالمشركين الذين يعتمدون على غير الله سبحانه.

وهكذا قال نبي الله هود عليه السلام لقومه في مواجهة أذاهم وتسفيههم له، فقال:

﴿إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُمْ﴾ [هود: ٥٦].

وفي الأثر: «من أحب أن يكون أقوى الناس، فليتوكل على الله، ومن أحب أن يكون أغنى الناس فليكن بما في يد الله أوثق منه بما في يده، ومن أحب أن يكون أكرم الناس فليتق الله»^(١). أما الأمر الآخر فقد جاء في الآية التالية:

وَعِيدُ الْمَكْذِبِينَ بِخَاتَمِ الْمُرْسَلِينَ

٣٩، ٤٠ - ﴿قُلْ يَقَوْمِ اعْمَلُوا عَلَى مَكَاتِبِكُمْ^(٢)﴾ إِنِّي عَامِلٌ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ^(٣) ﴿٣٩﴾ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُّقِيمٌ﴾

فيا من ارتضيتم لأنفسكم الشرك بالله، استمروا على ما أنتم عليه من عبادة من لا يستحق العبادة، فأنا مستمر في دعوتكم إلى الله، لإخلاص العبادة له وحده، وسوف تعلمون لمن تكون العاقبة في النهاية؟

هذا هو الأمر الآخر: وهو أن يبلغ الرسول ﷺ من كذبه من الأمة أنه موادعهم، وهو يستبشر بنصر الله القريب، وإظهار الدين الحق، ويواعدهم ما يحل بهم من عقوبة، وذلك بعد أن بلغ في وعظه لهم ونصيحته إياهم أقصى مبلغ ﴿قُلْ يَقَوْمِ اعْمَلُوا عَلَى مَكَاتِبِكُمْ﴾ أي: قل للمعاندين الجاحدين للتوحيد، المكذبين لك: داوموا على حالتكم التي أنتم عليها من عداوتي وعدم اتباعي، فإني مستمر في دعوتكم وتبليغ ما أمرني به ربي، وفي هذا تهديد ووعيد لكم، حيث ارتضيتم لأنفسكم عبادة من لا يستحق العبادة، وليس له من الأمر شيء، وأبلغهم

(١) من حديث ابن عباس في «الحلية» (٢١٨/٣) وابن عدي في «الكامل» (٢٤١/٥).

(٢) قرأ شعبة (مكاناتكم) بالجمع، والباقون (مكانتكم) بالإنفراد.

(٣) انفرد الكوفي بعد (فسوف تعلمون) آية، ولم يعدها غيره.

أنك ستقابل عملهم السيئ بعمل أحسن من جانبك، وداوم على الاستمرار في دعوتهم إلى التوحيد ومكارم الأخلاق، وهذا معنى ﴿إِنِّي عَامِلٌ﴾.

وقد حذف من الكلام متعلقه، أي: اعملوا ما شئتم فإنني ثابت على عملي في نصحي لكم ودعوتكم إلى ما ينجيكم.

ثم توعدهم - سبحانه - بالنتيجة المخزية، وهي عذاب عاجل في الدنيا، وعذاب دائم في الآخرة ﴿فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ مَنْ مِّنَّا يَنْجُو فِي عَمَلِهِ، وَمَنْ مِّنَّا تَكُونُ لَهُ الْعَاقِبَةُ الْحَسَنَةُ.

أي: ﴿مَنْ يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ﴾ في الدنيا ﴿وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُّقِيمٌ﴾ دائم في الآخرة، لا يحول عنه ولا يزول، وفي هذا ترهيب ووعد لهم، لعلمهم ينتهون عما هم فيه.

وفي قوله تعالى من سورة الأنعام: ﴿قُلْ يَقَوْمِ اعْمَلُوا عَلَىٰ مَكَاتِبِكُمْ إِنِّي عَامِلٌ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن تَكُونُ لَهُ عَقَبَةُ الدَّارِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ ﴿١٢٥﴾﴾ [الأنعام] لم يذكر الله تعالى فيها عذاب الدنيا؛ لأنه سبق في الآية قبلها في قوله سبحانه: ﴿إِن مَّا تُوعَدُونَ لَآتٍ وَمَا أَنْتَ بِمُعْجِزٍ ﴿١٢٤﴾﴾ [الأنعام].

هَذَا الْقُرْآنُ كِتَابٌ هِدَايَةٌ لِلنَّاسِ كَافَّةً

٤١- ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ عَلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ فَمَنِ اهْتَدَىٰ فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِوَكِيلٍ ﴿٤١﴾﴾

لما أمر الله رسوله أن يقول للمشركين: ﴿اعْمَلُوا عَلَىٰ مَكَاتِبِكُمْ﴾ هوّن عليه أمرهم وتصميمهم على كفرهم، فثبته على دعوته، وبيّن له أنه سبحانه أنزل عليه هذا القرآن ليهتدي به كافة الخلق، المشتغل على الحق في أخباره وأوامره ونواهي، فهو مادة الهداية لمن أراد الوصول إلى دار الكرامة، فمن اهتدى به ففائدة هُداة تعود عليه، ومن بقي في ضلاله فوزره يعود عليه، فلا تحزن ولا تأس عليهم ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ عَلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ﴾ أي: أنزلنا هذا القرآن بالحق الواضح الذي لا لبس فيه، وهو كتاب يتضمن الحق في أخباره وأحكامه وقصصه ووعدته ووعيده..

(١) قرأ حمزة ويعقوب بضم الهاء من (عليهم)، والباقون بكسرها.

وقد أنزلناه لفائدة الناس وهدايتهم، وكفاك شرفاً تبليغه إليهم ﴿فَمَنْ أَهْتَدَى﴾ بنور القرآن، وعمل بما فيه، واستقام على منهج الله، وعرف طريق الرشد والهداية، فإن نفع ذلك وفائدته تعود عليه وحده، وهذا معنى ﴿فَلِنَفْسِهِ﴾ أي: أن هدايته لنفسه بواسطتك أيها الرسول ﴿وَمَنْ ضَلَّ﴾ فلم يهتد بهذا القرآن، بعد ما تبين له الهدى، فضرر ذلك يعود عليه، وليس عليك -يا محمد- تبعة في هذا؛ لأنك بلغت ما أمرت به، وهو لن يضرك، ولن يضر الله شيئاً.

ثم أخبر الله نبيه بأنه ليس قائماً على أمرهم ولا مسيطرًا عليهم، فقال: ﴿وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِوَكِيلٍ﴾ تحفظ أعمالهم وتحاسبهم عليها، وتجبرهم على ما تشاء، فما عليك إلا البلاغ، فإن شئنا أبقيناهم على ما هم فيه من ضلال، وإن شئنا هديناهم.

وجاء الإنزال متبوعاً بلفظ (إليك) في قوله تعالى: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ﴾ [النساء: ١٠٥] لأنها تُنَوِّه بشأن النبي ﷺ.

وقال هنا: ﴿أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ﴾ ولم يقل إليك؛ لأن القصد هو البلاغ، ونظير هذه الآية قوله تعالى: ﴿فَمَنْ أَهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَنْ ضَلَّ فَإِنَّمَا أَنَا مِنَ الْمُنذِرِينَ﴾ [النمل: ٩٢]. وقوله سبحانه: ﴿فَمَنْ أَهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَنْ ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا﴾ [يونس: ١٠٨].

الْوَفَاءُ الْكُبْرَى وَالصُّغْرَى

٤٢- ﴿اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَالَّتِي لَمْ تُمُتْ فِي مَنَامِهَا فِيمَسِكُ إِلَيْ قَضَىٰ^(١) عَلَيْهَا الْمَوْتَ وَيُرْسِلُ الْأُخْرَىٰ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٤٢﴾﴾
أخبر سبحانه أنه المنفرد بتدبير شؤون خلقه، المتصرف فيهم، القابض بناصيتهم في اليقظة والنوم والحياة والموت.

ثم إن الضال قد يستمر على ضلاله حتى يوافيه الأجل، ومن هنا وجب عليهم أن يثوبوا إلى رشدهم وهم في وقت المهلة، فيفيقوا من غفلتهم كما يستيقظ النائم من نومه.

(١) قرأ حمزة والكسائي وخلف بالبناء للمفعول في (قضى) ورفع (الموت) نائب فاعل، وقرأ الباقون بالبناء للفاعل في (قضى) ونصب (الموت) مفعول به.

وقد يموت النائم في نومه فلا يستيقظ، وهذا حال من استمر على ضلاله حتى الموت، فإن للإنسان وفاتين: هما الموت والنوم.

أحدهما: وفاة كبرى: تُسَلَب فيها الحياة عن النفس سلبًا ظاهرًا وباطنًا، فتمسك عنها الروح إمساكًا تامًا، بحيث لا تعود إليها إلى يوم القيامة.

والأخرى: وفاة صغرى: تُسَلَب فيها الحياة عن النفس سلبًا ظاهرًا فقط في حالة النوم، بحيث تعود الروح إلى البدن عند الاستيقاظ من النوم.

والحالة الأولى تسمى موتًا ووفاة كبرى، والحالة الثانية تسمى نومًا ووفاة صغرى.

ويشير إلى الحالة الأولى قوله تعالى: ﴿اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا﴾.

ويشير إلى الحالة الثانية قوله تعالى: ﴿وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا﴾.

ومعنى قوله تعالى: ﴿اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا﴾ أي: يقبض الأرواح عند الموتة الكبرى، حين ينتهي الأجل، والذي يوصف بالموت هو الجسد وليس الروح، وَتَوَفَّى الجسد يكون بسلب الروح عنه.

قال تعالى: ﴿وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا﴾ أي: ويقبض الأنفس التي لم ينته أجلها حال منامها، ثم تُرد إلى البدن عند اليقظة، وهي الموتة الصغرى، كما قال تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُم بِاللَّيْلِ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُم بِالنَّهَارِ ثُمَّ يَبْعَثُكُمْ فِيهِ لِيُقْضَىٰ أَجَلٌ مُّسَمًّى﴾ [الأنعام: ٦٠].

أخرج الطبري بسند حسن عن السُّدِّي قال: تُقْبَضُ الأرواح عند نيام النائم، فتقبض روحه في منامه، فتلقى الأرواح بعضها بعضًا، أرواح الموتى وأرواح النيام، فيخلّى عن أرواح الأحياء، فترجع إلى أجسادها، وتريد الأخرى أن ترجع، فيحبس ﴿الَّتِي قَضَىٰ عَلَيْهَا الْمَوْتَ وَيُرْسِلُ الْأُخْرَىٰ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ قال: إلى بقية آجالها.

وعن قتادة أن النبي ﷺ قال لأصحابه ليلة الوادي: «إن الله قبض أرواحكم حين شاء، وردّها عليكم حين شاء»^(١).

(١) ابن أبي شيبة (٦٦/٢) وأحمد من حديث طويل (٢٧/٢٩٩) (٢٢٦١١) قال محققوه: إسناده صحيح على شرط البخاري، والبخاري (٥٩٥، ٧٤٧١) وأبو داود (٤٠٤، ٤٣٩) والنسائي (٨٤٥) وفي الكبرى (١١٤٤٨).

النفس والروح:

وقد نطق هذا الحديث بقبض الروح، كما نطقت الآية بقبض الأنفس.

وفي هذا دليل على أن النفس هي الروح، وقيل: النفس غير الروح.

قال ابن عباس رضي الله عنه: في ابن آدم نفس بها العقل والتمييز، وفيه روح به النفس والتحريك، فإذا نام العبد قبض الله نفسه ولم يقبض روحه^(١).

ثم بين سبحانه كيف يتم قبض النفس، فقال: ﴿فَيَمُوتُ أَلَّا يَفْقَهُ تَرْجُوعُهَا أَمْ لَا يَلْمِزُهَا لَمْ يَلْمِزْهَا عَلَى آلَتِهَا وَمَا لَهَا مِنْ عِلْمٍ غَيبٍ﴾ أي: فيحبس النفس التي انتهت أجلها، وهي نفس من مات ﴿وَيُرْسِلُ الْآخَرَى﴾ أي: النفس الأخرى التي لم ينته أجلها ﴿إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ أي: يعيدها إلى جسم صاحبها حتى تستكمل رزقها وأجلها ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ﴾ أي: في قبض الله للنفس الميت وإمساكها عنده، وإعادة نفس النائم إليه ﴿لَا يَتَذَكَّرُ﴾ دلائل واضحة على قدرة الله تعالى ﴿لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ فيعقلون ويتدبرون هاتين الحالتين العجيبتين.

ففي حالة الموت تُسلب الحياة عن الجسم، فيُصبح كالجماد، وتُمنع إعادة الحياة إليه في الدنيا.

وفي حالة النوم تُسلب بعض الحياة عن الجسم، فلا يرى ولا يسمع حال النوم، فيكون كالمت ميت وما هو بميت، ثم تعود إليه الحياة، ويظل هكذا حتى ينتهي عمره.

والمتوفي في الحقيقة هو الله، فالله هو الذي يتوفى الأنفس، وملك الموت هو الموكِّل بقبض الأرواح، قال تعالى ﴿قُلْ يَتَوَفَّنَا اللَّهُ الَّذِي يَبْدَأُ الْحَيَاةَ كُلَّ نَفْسٍ لِّمَوْلَانَا ثُمَّ إِلَيْنَا رُجُوعٌ﴾ [السجدة] وله جنود وأعوان، كما قال تعالى:

﴿حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لَا يُفَرِّطُونَ﴾ [الأنعام: ٦١].

والله تعالى يضيف الأشياء إلى نفسه باعتبار أنه الخالق المدبر، ويضيفها إلى أسبابها، باعتبار أن الله تعالى جعل لكل شيء سبباً.

وقبض الأرواح يكون في حالتي الموت والنوم، وإرسال الروح يكون في حالة النوم فقط.

قال ابن عباس رضي الله عنه: إن أرواح الأحياء والأموات تلتقي في المنام، فتعارف ما شاء الله

(١) «تفسير ابن عطية» (٤/٥٣٥).

لها، فإذا أرادت الرجوع إلى أجسادها أمسك الله أرواح الأموات عنده، وأرسل أرواح الأحياء إلى أجسادها^(١)، وقيل: لكل نفس نفسان.

إحداهما: نفس الحياة، وهي التي تفارق الإنسان عند الموت ويذهب معها العقل والتمييز. والأخرى: نفس التمييز، وهي التي تفارق الإنسان إذا نام، ويبقى معها العقل والتمييز، فيظل النفس يجري، بخلاف الأولى فينقطع معها النفس.

وعن عليّ ؑ قال: تخرج الروح عند النوم، ويبقى شعاعها في الجسد، فبذلك يرى الرؤيا، فإذا انتبه من النوم عادت إليه الروح.

وفي الصحيحين: عن أبي هريرة ؓ أن النبي ﷺ قال: «إذا أوى أحدكم إلى فراشه فلينفذ فراشه بداخلة إزاره، فإنه لا يدري ما خلفه عليه، ثم يقول: باسمك ربي وضعت جنبي وبك أرفعه، إن أمسكت نفسي فارحمها، وإن أرسلتها فاحفظها بما تحفظ به عبادك الصالحين»^(٢).

وعن حذيفة ؓ قال: كان النبي ﷺ إذا أوى إلى فراشه قال: «باسمك اللهم أموت وأحيا»، وإذا قام قال: «الحمد لله الذي أحيانا بعد ما أماتنا وإليه النشور»^(٣).

والأنفس في قبضة الله تعالى في صحتها ومنامها، وهناك فرق بين النفس والروح كما سبق^(٤). والنفس والروح يخالفان البدن، وأرواح الأحياء والأموات تتلاقى في البرزخ، فتجتمع وتتحدث، ثم يمسك الله أرواح الأموات، ويرسل أرواح الأحياء.

وما أشبه النوم والموت بحال المشركين! وما أشبه الحياة واليقظة بنور الإسلام وهدي القرآن!

وفي الحديث: «والله لتموتن كما تنامون، ولتبعثن كما تسيقظون»^(٥).

(١) من «تفسير ابن كثير» للآية وهو في «تفسير النسفي» عن سعيد بن جبير.

(٢) «صحيح البخاري» برقم (٦٣٢٠، ٧٣٩٣) واللفظ له و«صحيح مسلم» برقم (٢٧١٤).

(٣) «صحيح البخاري» برقم (٦٣١٢).

(٤) ذكرها ابن الجوزي في كتابه (الوجوه والنظائر).

(٥) يُنظر: الرحيق المختوم ص ٧٩ من خطبة النبي ﷺ حين جهر بالدعوة وقال: (إن الرائد لا يكذب أهله..).

لَا تُطَلَّبُ الشَّفَاعَةُ إِلَّا مِمَّنْ يَمْلِكُهَا

٤٣- ﴿أَمْ أَلْخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ شُفَعَاءَ قُلْ أَوَّلَوْ كَانُوا لَا يَمْلِكُونَ شَيْئًا وَلَا يَعْقِلُونَ﴾

ينكر سبحانه وتعالى على المشركين أن يتخذوا شفعا يسألونهم أو يعبدونهم، وهم لا يملكون شيئا في هذا الكون، ولا يعقلون ما يطلب منهم:

وكما أمر الله نبيه أن يوبِّخ المشركين على عبادتهم غير الله أمره كذلك أن يوبِّخهم على اتخاذ الآلهة شفعا لهم عند الله، وهم لا يملكون شفاعا ولا غيرها، ولا يعقلون شيئا ولا يهتدون.

فالأصنام لا تسمع ولا تبصر وهي أسوأ حالا من الحيوان.

ومع أن الله تعالى ذكّر المشركين بالموت -كي يتفكروا ويفيقوا من غفلتهم- ولكنهم لم يتعظوا ولم يتدبروا دلائل التوحيد والقدرة، فاتخذوا لهم شفعا من الأوثان والأصنام زاعمين أنهم يشفعون لهم عند الله تعالى.

وهذا معنى ﴿أَمْ أَلْخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ شُفَعَاءَ﴾ أي: أن المشركين لفرط جهالتهم اتخذوا من يشفع لهم عند الله في حاجاتهم، وكان الأولى بهم أن يشتغلوا بعبادته تعالى.

ثم أمر الله رسوله أن يلقمهم حجرا يقطع به بهتانهم فقال: ﴿أَوَّلَوْ كَانُوا لَا يَمْلِكُونَ شَيْئًا وَلَا يَعْقِلُونَ﴾ أي: ألتخذونها شفعا كما تزعمون، ولو كانت هذه الآلهة لا تملك شيئا أصلا، ولا تعقل عبادتكم لها، فهي جمادات من أحجار وأموات، لا تملك مثقال ذرة في السموات ولا في الأرض، ولا أصغر من ذلك ولا أكبر، وليست لهم عقول حاضرة، حتى يمدحوا بها ويعقلوا سؤالا أو جوابا.

واتخاذكم لها شفعا حماقة؛ إذ كيف يشفع من لا يعقل؟! فهو لا يتصور معنى الشفاعا أصلا، حتى تتوجه إرادته لها، وهذا كقولهم السابق: ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى﴾ [٢].

ولا يشفع أحد عند الله تعالى إلا بإذنه للشافع في الشفاعا ورضاه عن المشفوع له، قال تعالى: ﴿وَكَمْ مِنْ مَلَكٍ فِي السَّمَوَاتِ لَا تُغْنِي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئًا إِلَّا مِنْ بَعْدِ أَنْ يَأْذَنَ اللَّهُ لِمَنْ يَشَاءُ وَرِضًى﴾ [النجم].

ثم بيّن سبحانه أن الشفاعة ملك لله وحده، فهو الذي يأذن للشافع في الشفاعة، وهو الذي يرضى عن المشفوع أن يُشفع له، وبغير هذين الشرطين لا توجد شفاعة. قال تعالى:

٤٤ - ﴿قُلْ لِلَّهِ الشَّفَعَةُ جَمِيعًا لَّهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ (٤٤)

﴿قُلْ﴾ - أيها الرسول - لهؤلاء المشركين: ﴿لِلَّهِ الشَّفَعَةُ جَمِيعًا﴾ أي: أن الأمر كله لله، وأن الشفاعة كلها لله، لا يملك أحد الشفاعة عنده، ولا يستطيع أن يشفع لأحد إلا بإذنه ﴿لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ وما فيهما وما بينهما، فالأمر كله لله وحده، هو الذي يملك السموات والأرض، ويتصرف فيهما ويدبر أمرهما؛ فيجب أن تطلب الشفاعة ممن يملكها، وأن تُخلص له العبادة، ولا تطلب الشفاعة ممن لا يضر ولا ينفع، ويوم القيامة ترجعون إلى الله فيحكم بينكم بعدله، ويجازي كلًا بعمله ﴿ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ وفي هذا إشارة إلى البعث والحشر والنشر، والحساب والجزاء.

لَا وَاسِطَةَ بَيْنَ الْخَالِقِ وَالْمَخْلُوقِ

٤٥ - ﴿وَإِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَحْدَهُ اشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ وَإِذَا ذُكِرَ الَّذِينَ مِنْ

دُونِهِ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ﴾ (٤٥)

وهذا دليل آخر على تناقض المشركين مع الله تعالى، وذلك أنهم حينما يقولون: إن هذه الآلهة تشفع لهم عند الله، فإنهم يعترفون بأن الله تعالى هو إلههم، وإله آلهتهم، وهو الخالق الرازق المدبر، ومع ذلك فإذا قيل لهم: لا إله إلا الله، أو أن الله تعالى واحد أحد، أو قيل لهم: توجهوا إلى الله وحده بالدعاء والعبادة، دون أن يذكر معه غيره، نفرت قلوبهم وانقبضت، فإذا ذكر معه من يتوسط بهم إلى الله تعالى فرحوا واستبشروا؛ لأن الشرك يوافق أهواءهم، وهذه أشر الحالات وأشنعها، وموعدهم يوم الحساب، وكثير منهم لا يؤمنون بالبعث والحساب والجزاء، وهذا كقولهم في التلبية: لبيك لا شريك لك، إلا شريكًا هو لك، تملكه وما ملك، ومع ذلك فهم ينادونه قائلين: إلا شريكًا هو لك!!

فهم يعترفون أن الشريك مملوك لله تعالى، وأنه لا يملك شيئًا!!

(١) قرأ يعقوب بالبناء للفاعل في (ترجعون)، والباقون بالبناء للمفعول.

قال الفخر الرازي: اعلم أن هذا نوع آخر من الأعمال القبيحة للمشركين، وهو أنك إذا ذكرت الله وحده ظهرت آثار النفرة في وجوههم وقلوبهم، وإذا ذكرت الأصنام والأوثان ظهرت آثار الفرح، وذلك يدل على الجهل والحماقة؛ لأن ذكر الله تعالى رأس السعادة وعنوان الخيرات، وأما ذكر الأصنام فهو رأس الحماقات^(١).

والآية تحكي حالة واقعة في عهد النبي ﷺ حين كان المشركون يهشّون ويهشّون إذا ذكرت آلهتهم، وينقبضون ويتفرون إذا ذكر الله وحده.

قال تعالى: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا﴾ [الكهف: ٥٧].

وقال سبحانه: ﴿وَإِذَا دُكِّرَتْ رَبِّكَ فِي الْقُرْآنِ وَحَدُّهُ وَلَوْ أَنَّ آذَنَهُمْ نُفُورًا﴾ [إسراء: ٤٦].

وقال أيضاً: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا إِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ﴾ [الصافات: ٢٥].

قال الألوسي: وقد رأينا كثيراً من الناس على نحو هذه الصفة التي وصف الله بها المشركين، يهشّون لذكر أموات يستغيثون بهم ويطلبون منهم، ويَطْرَبُونَ من سماع حكايات كاذبة عنهم، وينقبضون من ذكر الله وحده، ويتفرون ممن يفعل ذلك كل النفرة^(٢).

قلت: وهذا موجود في العصر الحاضر للأسف الشديد.

وكم من أناس إذا استمعوا إلى القرآن الكريم، أو الحديث الشريف، أو أحكام الحلال والحرام، ونحو ذلك، انقبضت نفوسهم واكْفَهَرَتْ وجوههم، فإذا استمعوا إلى اللغو واللهو، ونحو ذلك انشاحت نفوسهم وانبسطت أسارير وجوههم.

وتعبير الآية بالاشمئزاز والاستبشار يشعر بأنهم قد بلغوا الغاية في الأمرين معاً، فهم عند ذكر الله تعالى تمتلئ قلوبهم إلى نهايتها غمّاً وهمّاً وانقباضاً وذعراً، وعند ذكر غير الله تعالى تمتلئ قلوبهم إلى نهايتها بهجة وسروراً حتى تظهر آثار ذلك على وجوههم.

(١) «التفسير الكبير» (٧/٢٥٨).

(٢) «تفسير الألوسي» (٢٤/١١).

الْفَصْلُ بَيْنَ الْمُؤَحِّدِينَ وَالْمُشْرِكِينَ فِي سَاحَةِ الْعَدْلِ الإِلَهِيَّةِ:

٤٦- ﴿قُلِ اللَّهُمَّ فَاطِرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ عَلِيمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ أَنْتَ تَحْكُمُ بَيْنَ عِبَادِكَ فِي مَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ (٤٦)

ولما ذكرت السورة ألواناً من الاختلاف بين المشركين والمؤمنين - فيما يتعلق بالتوحيد والشرك - أمر الله رسوله أن يفوض الأمر لله، ويضرع له بالدعاء، وأن يعيده من شرورهم، بعد أن اعتزل ما هم عليه من جهل وسفه، فإن مرد الأمر إلى الله، وسوف يحكم بينهم فيما اختلفوا فيه، ويجازي كلاً بعمله: فالمحسن يُجزى بإحسانه، والمسيء يعاقب على إساءته، وبهذا يظهر المحق من المبتطل، ويُرفع خلاف المختلفين وتخاصم المتخاصمين.

ومن أعظم ما وقع فيه الاختلاف في الدنيا، اختلاف الموحدين والمشركين، الذين اتخذوا من دون الله أنداداً: فسوّه بغيره، واستبشروا عند ذكر آلهتهم، وأشماؤوا عند ذكر الله وحده، وزعموا أنهم على حق، وقد أخبرنا سبحانه أنه سيفصل بين الموحدين والمشركين في الآخرة، قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّالِحِينَ وَالنَّصَارَى وَالْمَجُوسَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا إِنَّ اللَّهَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ (٧) [الحج].

وقال سبحانه ﴿هَذَانِ خَصِمَانِ ائْتَصَمُوا فِي رَبِّهِمْ فَالَّذِينَ كَفَرُوا قُطِعَتْ لَهُمْ ثِيَابٌ مِنْ نَارٍ يُصَبُّ مِنْ فَوْقِ رُءُوسِهِمُ الْحَمِيمُ﴾ (١٩) يُصْهَرُ بِهِ مَا فِي بُطُونِهِمْ وَالْجُلُودُ (٢٠) وَلَهُمْ مَقْلَعٌ مِنْ حديدٍ (٢١) كُلَّمَا أَرَادُوا أَنْ يَخْرُجُوا مِنْهَا مِنْ غَمٍّ أُعِيدُوا فِيهَا وَذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ (٢٢) إِنَّ اللَّهَ يَدْخُلُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِنْ ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ (٢٣)﴾ [الحج].

وفي هذا تنفيس على النبي ﷺ من كدر الأسى على قومه، وإعذار لغير المتبعين له بإنذارهم وإشعارهم بأن الإسلام ماضٍ في دعوتهم إليه، وأن الأجدر بالدعاة إلى الله تعالى تركهم، بعد دعوتهم وتفويض الحكم فيهم إلى الله تعالى، مع مناصحتهم وبذل أسباب هدايتهم.

﴿قُلِ اللَّهُمَّ فَاطِرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ خالقهما ومبدعهما على غير مثال سبق.

﴿عَلِيمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ﴾ أي: يا عالم السر والعلانية، ما غاب عن العباد وما شوهد،

وما ظهر وما بطن، يا من لا تخفى عليه خافية.

﴿أَنْتَ تَحْكُمُ بَيْنَ عِبَادِكَ فِي مَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ أي: أنت تفصل بين عبادك يوم القيامة فيما اختلفوا فيه من القول في وحدانيتك، والإيمان بك وبرسولك وكتابك واليوم الآخر، أسألك بأسمائك الحسنى وصفاتك العليا، أن تفصل بيننا وبين هؤلاء المشركين، فأنت القادر على الحكم بينهم ولا حيلة لغيرك فيهم، وأن تهدينا لما اختلف فيه من الحق بإذنك، إنك تهدي من تشاء إلى صراط مستقيم، وكان هذا من دعاء النبي ﷺ تعليمًا لعباده أن يدعوا ربهم بأسمائه الحسنى وصفاته العليا.

أحاديث في التوسل إلى الله تعالى بأسمائه وصفاته:

١- في حديث أبي سلمة بن عبد الرحمن قال: سألت عائشة رضي الله عنها بأي شيء كان رسول الله ﷺ يفتح صلاته إذا قام من الليل؟ قالت: كان إذا قام من الليل افتتح صلاته: «اللهم رب جبريل وميكائيل وإسرافيل، فاطر السموات والأرض، عالم الغيب والشهادة: أنت تحكم بين عبادك فيما كانوا فيه يختلفون، اهْدِنِي لما اختلف فيه من الحق بإذنك، إنك تهدي من تشاء إلى صراط مستقيم»^(١).

٢- وعن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «من قال: اللهم فاطر السموات والأرض، عالم الغيب والشهادة، إني أعهد إليك في هذه الدنيا، أنني أشهد أن لا إله إلا أنت وحدك لا شريك لك، وأن محمدًا عبدك ورسولك، فإنك إن تكُنِّي إلى نفسي تُقَرِّبَنِي من الشر وتباعدني من الخير، وإني لا أثق إلا برحمتك، فاجعل لي عندك عهدًا تُوفِّيَنِيهِ يوم القيامة، إنك لا تخلف الميعاد، إلا قال الله ﷻ لملائكته يوم القيامة: إن عبدي قد عهد إليَّ عهدًا فأوفوه إياه، فيدخله الله الجنة»^(٢).

٣- وعن أبي راشد الحبراني قال: أتيت عبد الله بن عمرو رضي الله عنه، فقلت له: حدثنا ما سمعت من رسول الله ﷺ فألقى بين يدي صحيفة، فقال: هذا ما كتب لي رسول الله

(١) «صحيح مسلم» برقم (٧٧٠) وأبو داود (٧٦٧) والبيهقي (١٣٨).

(٢) «المسند» (٤١٢/١) برقم (٣٩١٦) رجاله ثقات رجال الصحيح (محققوه) قال الهيثمي في «مجمع الزوائد» (١٧٤/١٠): رجاله رجال الصحيح، إلا أن عون بن عبد الله لم يسمع من ابن مسعود.

ﷺ، فنظرتُ فيها: فإذا فيها أن أبا بكر ﷺ قال: يا رسول الله، علّمني ما أقول إذا أصبحت وإذا أمسيت؟ فقال له رسول الله ﷺ: «يا أبا بكر قل: اللهم فاطر السموات والأرض، عالم الغيب والشهادة، لا إله إلا أنت، رب كل شيء ومليكه، أعوذ بك من شر نفسي، وشر الشيطان وشركه، وأن أقترف على نفسي سوءاً، أو أجرّه إلى مسلم»^(١).

وهذه الآية محاكمة من النبي ﷺ للمشركين إلى الله ﷻ.

كان الربيع بن خيثم قليل الكلام، فلما أخبر بقتل الحسين، قالوا: الآن يتكلم، فما زاده أن قال: آه، وقد فعلوا، وقرأ الآية.

وورد عنه أنه قال: قُتل من كان ﷺ يُجلسه في حجره، ويضع فاه على فيه^(٢).

لَا شَيْءَ يُنْجِي الْكَافِرَ مِنْ عَذَابِ اللَّهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ

٤٧، ٤٨ - ﴿وَلَوْ أَنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُ مَعَهُ لَافْتَدَوْا بِهِ مِنْ سُوءِ الْعَذَابِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَبَدَا لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مَا لَمْ يَكُونُوا يَحْتَسِبُونَ ﴿٤٧﴾ وَبَدَا لَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٤٨﴾﴾

ولما رفع النبي ﷺ الدعاء إلى ربه ليحكم بينه وبين المشركين، بين سبحانه ما يفعله بهم يوم لقائه، فأخبر أن لهم أشد العذاب وأفظعه، جزاء ما قالوا أشد الكفر وأشنعه، وأن أحدهم لو وجد فدية يَفْدَى بها نفسه من العذاب يوم القيامة - مهما بلغت هذه الفدية - لفعل، فلو أن الدنيا كانت له ذهباً وفضة، ولؤلؤاً، ولو أنه امتلك حيواناتها وزروعها وأشجارها وكل ما فيها ومثله معه، ثم بذله يوم القيامة ليفدى نفسه من عذاب الله ما قبل منه، ولا أغنى عنه من الله شيئاً فقال تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ أنفسهم بالشرك وتكذيب الرسول والقرآن ﴿مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا﴾ من مال وذخائر وكل عزيز لديهم من أهلهم وأموالهم، لو كان ذلك ملكاً لهم يوم القيامة على سبيل الفرض ﴿وَمِثْلَهُ مَعَهُ﴾ مضاعفاً ﴿لَافْتَدَوْا بِهِ﴾

(١) «المسند» (١٩٦/٢) برقم (٦٨٥١) صحيح لغيره، وهذا إسناد حسن، فيه ابن عياش صدوق في روايته عن أهل بلده، وهذا منها، وباقي رجاله ثقات (محققوه) وانظر (٦٥٩٧). وهو في «سنن الترمذي» برقم (٣٥٢٩)، وقال: حديث حسن غريب من هذا الوجه.

(٢) من «تفسير النسفي» للآية.

مِنْ سُوءِ الْعَذَابِ يَوْمَ الْقِيَمَةِ ﴿٤٨﴾ أي: لبذلوا كل ذلك فدية لأنفسهم من شدة العذاب يوم القيامة، ولما قبل منهم.

ولهذه الآية نظائر منها قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ أَنَّهُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُ مَعَهُ لَيَفْتَدُوا بِهِ مِنْ عَذَابِ يَوْمِ الْقِيَمَةِ مَا تُقْبَلُ مِنْهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٣٦﴾﴾ [المائدة].

وقوله سبحانه: ﴿وَالَّذِينَ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُ لَوْ أَنَّهُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُ مَعَهُ لَافْتَدُوا بِهِ أُولَئِكَ هُمْ سُوءُ الْحِسَابِ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ لِلْهَادِثِينَ [الرعد: ١٨].

وقوله جلَّ شأنه: ﴿يَوْمَ الْمُجْرِمُ لَوْ يَفْتَدِي مِنْ عَذَابِ يَوْمِهِمْ بِهِ ١١ وَصَحْبَتِهِ وَأَخِيهِ ١٢ وَفَصِيلَتِهِ الَّتِي تُؤَيَّدُ بِذُنُوبِهَا ١٣ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ يُنْجِيهِ ١٤﴾

وفي وصف النار التي يعذبون بها قال تعالى: ﴿كَلَّا إِنَّهَا لَأَطْلَى ١٥ نَزَاعَةٌ لِلشَّوَى ١٦ تَدْعُوا مَنْ أَدْبَرَ وَتَوَلَّى ١٧ وَجَمَعَ فَأَوْعَى ١٨﴾ [المعارج].

قال تعالى: ﴿يَوْمَ لَا يَنْفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ٨٨ إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ٨٩﴾ [الشعراء].

وفي يوم القيامة يظهر لكل من ظلم نفسه بالشرك، وتكذيب الرسالة الخاتمة من:

١- أنواع العقوبات وشدة العذاب ما لم يكونوا يتوقعون في الدنيا أنه نازل بهم، ذلكم قوله تعالى: ﴿وَيَذَرُ اللَّهُ مِمَّنْ لَمْ يَكُونُوا يَحْتَسِبُونَ﴾ أي: وظهر لهم من سخط الله وعذابه وغضبه ما لم يكن في حسابهم.

قال مجاهد: عملوا أعمالاً توهّموا أنها حسنات فإذا هي سيئات.

قرأ سفيان الثوري هذه الآية، فقال: ويل لأهل الرياء، ويل لأهل الرياء.

وجزع محمد بن المنكدر عند موته، فسئل عن ذلك فقال: أخشى أن يبدو لي ما لم أكن أحتسب^(١).

٢- وظهر للمشرّكين أيضاً يوم القيامة -عند عرض صحف أعمالهم- ما اكتسبوه في دنياهم من فساد الاعتقاد، وفساد العمل والقول، ومن أعمال زينها الشيطان لهم في الدنيا، ظلّوها حسنات، فبدت أنها سيئات.

(١) «تفسير الخازن» (٥٨/٤) والكشاف (١٣٣/٤) والنسفي.

وظهر لهم يوم الحساب والجزاء سوء هذه الأعمال التي اكتسبوها في الدنيا، وأعظمها أنهم نسبوا إلى الله تعالى ما لا يليق بجلاله ﴿وَيَدَا لَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا﴾ فأحذق بهم العذاب من كل جانب عقاباً لهم على استهزائهم بالعذاب الذي كان يعدهم به رسول الله ﷺ فيسخرون منه، ويقولون: ﴿مَتَى هُوَ﴾ [الإسراء: ٥١] وفي يوم القيامة ينزل بهم العذاب الذي استهزؤوا بوقوعه في الدنيا.

تَنَاقُضُ حَالِ الْكَافِرِ عِنْدَمَا يُصَابُ بِالْخَيْرِ أَوِ الشَّرِّ

٥٠، ٤٩ - ﴿فَإِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ ضُرٌّ دَعَانَا ثُمَّ إِذَا خَوَّلْنَاهُ نِعْمَةً مِنَّا قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ بَلْ هِيَ فِتْنَةٌ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٤٩﴾ قَدْ قَالُوا الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَمَا أَغْنَىٰ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ وتستمر الآيات في بيان تناقض المشركين في أقوالهم وأفعالهم، فمع أن قلوبهم تشمئز عند إفراد الله تعالى بالذكر، وترضى إذا أشرك معه غيره، فإنهم حينما يصابون بالضرر يفرعون إلى الله وحده، ويطلبون منه رفع الضر عنهم، وينسون شركاءهم في حالة الشدة. قال تعالى: ﴿فَإِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ ضُرٌّ دَعَانَا﴾ أي: إذا أصيب المشرك بشدة وعسرة- فوقع في محنة، أو نزل به مرض أو فقر، ونحو ذلك -طلب من الله تعالى أن يفرج عنه همه، ويزيل عنه كربه، ونسي ما كان يدعوه مع الله لاعتقاده أنه لن يزيل عنه الضر.

وقال تعالى في الحالة المقابلة: ﴿ثُمَّ إِذَا خَوَّلْنَاهُ نِعْمَةً مِنَّا﴾ أي: إذا كشفنا عنه ما أصابه، ومنحناه نعمة منا، فضلاً عن ذلك ﴿قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ﴾ أي: رجع إلى كفره، وأنكر فضل ربه، ونسب النعمة إلى نفسه، قائلاً: إن ما أنا فيه من نعمة ومن جاء هو بسبب علمي، وخبرتي، وحنكتي، واجتهادي، وتفوقي، ولأنني أهل لذلك، مستحق لما أنا فيه من منصب أو مال أو جاه فقد أعطاني الله ذلك، ولولا علمي ومؤهلاتي وخبراتي ما أعطيته، وهذا شأن الكافر، أما المؤمن فهو ينسب الفضل إلى الله تعالى، ولا ينسبه إلى نفسه، فالمراد بالإنسان ما تتحدث عنه الآيات وهو المشرك.

قال تعالى: ﴿بَلْ هِيَ فِتْنَةٌ﴾ أي: ليس الأمر كذلك، بل إن ما أعطيته من نعمة هو ابتلاء وفتنة يبتلي الله بها عباده ليظهر من يشكره ممن يكفره ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَجْهَلُهُمْ﴾ وسوء ظنهم ﴿لَا يَعْلَمُونَ﴾ أن ذلك فتنة واستدرجاً وابتلاء.

وتقدم ما يشبه هذه الآية في أول السورة مبدوءة بالواو، وليست الفاء، قال تعالى: ﴿وَإِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ ضُرٌّ دَعَا رَبَّهُ مُنِيبًا إِلَيْهِ﴾.

ثم بين ﷺ أن مقولة: ﴿إِنَّمَا أُوتِيتُمْ عَلَىٰ عِلْمٍ﴾ قد قالها قارون وأمثاله قبل ذلك، فما نفعهم أموالهم التي جمعوها، ولا رفعت عنهم شيئاً من عذاب الله ﴿قَدْ قَالُوا الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ أي: قال مقاتلتهم هذه من سبقهم من الأمم المكذبة لرسول الله، قالها قارون عندما نصحه الناصحون قائلين له: ﴿لَا تَفْرَحْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ﴾ (٧٦) ﴿وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا وَأَحْسِنَ كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ وَلَا تَبْغِ الْفُسَادَ فِي الْأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ﴾ (٧٧) [الفصص].

فكان جوابه: ﴿قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُمْ عَلَىٰ عِلْمٍ عِنْدِي﴾ [الفصص: ٧٨] فكانت النتيجة أن خسف الله به وبداره وبأمواله الأرض، ولم ينفعه شيء من ذلك، وهكذا حين يأتي العذاب وينزل بأمثال قارون، فإن ما جمعه من حطام الدنيا، وما كانوا فيه في دنياهم من جاه ومال وبنين، لن يدفع عنهم شيئاً من عقاب الله، حين ينزل بهم في الدنيا أو الآخرة ﴿فَمَا أَغْنَىٰ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ (٨٤) أي: لم ينفعهم شيئاً مما جمعه من حطام الدنيا، وما اكتسبوه من متاعها.

ثم بين سبحانه أن الذين قالوا هذه المقولة ممن قبلهم قد نزل بهم عقاب الله تعالى فقال:

٥١- ﴿فَأَصَابَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا وَالَّذِينَ ظَلَمُوا مِن هَٰؤُلَاءِ سَيُصِيبُهُمْ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا وَمَا هُمْ بِمُعْجِزِينَ﴾

بين سبحانه في هذه الآية عقوبة المشركين بالله تعالى، التي تسوؤهم وتحزنهم في الدنيا والآخرة.

أي: أن الله تعالى قد عاجلهم بالعقوبة في الدنيا بسبب ما جنت أيديهم من المعاصي، وكذلك الحال بكل من كان مثلهم إلى يوم القيامة، ممن كانوا معاصرين للنبي ﷺ وإلى أن يرث الله الأرض ومن عليها، وقوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ ظَلَمُوا مِن هَٰؤُلَاءِ﴾ إشارة إلى المشركين المعاصرين للنبي ﷺ ومن يأتي بعدهم من أمثالهم ﴿سَيُصِيبُهُمْ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا﴾ أي: سيصيبهم أيضاً وبال السيئات التي اقترفتها أيديهم ويلقوا جزاءها ﴿وَمَا هُمْ بِمُعْجِزِينَ﴾ أي: وما هم بهاريين ولا فائتين من عذابنا، وأمرهم سهل يسير على الله تعالى، ولن يفلتوا من العقاب في الدنيا والآخرة.

سَعَةُ الرِّزْقِ أَوْ تَضْيِيقُهُ لَيْسَ دَلِيلًا عَلَى رِضَى اللَّهِ تَعَالَى أَوْ غَضَبِهِ

٥٢- ﴿أَوَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ ﴿٥٢﴾

أخبر سبحانه أنه يرزق الصالح والطالح من عباده، وأن بسط الرزق أو قبضه ليس مؤشراً على طاعة العبد أو معصيته، ولا على إيمانه أو كفره، ولا على حب الله له أو بغضه.

لقد كان على الذين نسبوا فضل الله تعالى إلى أنفسهم، فقال قائلهم: ﴿إِنَّمَا أُوتِيتُمْ عَلَىٰ عِلْمٍ﴾ كان الأجدر بهم أن يعلموا أن الله تعالى يوسع الرزق لمن يشاء من عباده، ويضيقه على من يشاء، وأن ذلك مرجعه إلى حكمة الله تعالى وإرادته في خلقه، وليس سعة الرزق دليلاً على رضى الله تعالى على العبد، ولا تضيق الرزق دليلاً على غضبه! وليس ذلك دليلاً على كياسة العبد وفطنته، ولا على عجزه وضعفه.

أولم يعلم هؤلاء أن رزق الله للإنسان لا يدل على حُسن حال صاحبه ولا على سوء حاله؟ فكم من مجتهد غير مرزوق، وكم من خامل غبي موسع عليه في الرزق، فإن الله تعالى لبالغ حكمته يُوسّع الرزق لمن يشاء من عباده، صالحاً كان أو طالحاً، ويضيقه على من يشاء منهم صالحاً كان أو طالحاً! ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ﴾ التوسيع والتضييق ﴿لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ أي: دلالات واضحة لمن يصدقون أمر الله تعالى ويعملون به، ويستفعدون بالهدايات التي نسوقها إليهم، والله تعالى أعلم بما يُصلح عباده، فقد يضيّق عليهم في الرزق لطفاً بهم، ﴿وَلَوْ بَسَطَ اللَّهُ الرِّزْقَ لِعِبَادِهِ لَبَغَوْا فِي الْأَرْضِ وَلَكِنْ يُنْزِلُ بِقَدَرٍ مَّا يَشَاءُ إِنَّهُ بِعِبَادِهِ خَبِيرٌ بَصِيرٌ﴾ ﴿٥٣﴾ [الشورى].

إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا

٥٣- ﴿قُلْ يِعْبَادِيَ^(١) الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا^(٢) مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ

الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ ﴿٥٣﴾

(١) قرأ نافع وابن كثير وابن عامر وعاصم وأبو جعفر بفتح ياء الإضافة من (يا عبادي الذين)، والباقون بإسكانها.

(٢) قرأ أبو عمرو والكسائي ويعقوب وخلف بكسر النون من (لا تقنطوا) وهي لغة أهل الحجاز وأسد، وقرأ الباقون بفتحها وهي لغة غيرهم.

هذا إخبارٌ من الله تعالى بأنه يغفر الذنوب لجميع من تاب، وإلى ربه رجع وأناب، فهي آية عامة لجميع الناس إلى يوم القيامة مؤمنهم وكافرهم، فتوبة الكافر تمحو الكفر، وتوبة العاصي تمحو الذنب، وفيها حث على التوبة والإنابة قبل فوات الأوان بحلول الأجل أو ظهور علامات الساعة.

وبعد أن أكثرت السورة من الترهيب والوعيد لمن أشرك بالله تعالى، وكذب رسول الله ﷺ وكاد اليأس والقنوط أن يستحوذ على قلوبهم، أعقب الله ذلك بفتح باب التوبة على مضراعيه لكل من كان كافراً فأسلم، أو مشركاً فوحد الله، أو مبتدعاً فاتبع هدى الله، أو عاصياً فرجع إلى مولاه، وكانت هذه العودة قبل أن تصل الروح الحلقوم، وقبل أن تطلع الشمس من مغربها، فهو فتح لباب الترغيب بعد الترهيب، والوعد بعد الوعيد، والرجاء بعد الخوف.

﴿قُلْ يَعْبادِي الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ﴾ أي: تمادوا في الذنوب وأكثروا من المعاصي، وأطلقوا لأنفسهم العنان فيما تدعوهم إليه النفس والهوى والشیطان من الذنوب، فتجاوزوا الحد في اقتراف السيئات وأسرفوا على أنفسهم فيها، قل لهم يا محمد: ﴿لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ﴾ أي: لا تيأسوا من مغفرة الله لكم لكثرة ذنوبكم وعظمتها ﴿إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعاً﴾ لمن تاب وأناب ورجع إلى ربه، فلا تقولوا: قد كثرت ذنوبنا، فلن يغفر لنا، فتظلوا مصرين على العصيان، ولكن اعلموا أن الله يغفر الذنوب جميعاً: الشرك والكفر والقتل والزنى والسرقة والربا والظلم، وما إلى ذلك.

حتى الكفر يغفره الله - سبحانه - لمن تاب منه ﴿قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ يَنْتَهُوا يُغْفَرْ لَهُمْ مَا قَدْ سَلَفَ﴾ [الأنفال: ٣٨].

وحتى الشرك يغفره الله جلّ شأنه لمن أقبل عنه، كما قال تعالى عمن ينسبون الولد إليه، ومن يقولون بالثلث: ﴿أَفَلَا يَتُوبُونَ إِلَى اللَّهِ وَيَسْتَغْفِرُونَهُ﴾ [المائدة: ٧٤].

وكبائر الذنوب كلها يغفرها الله - سبحانه - لمن تاب إلى الله منها، قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ يَلْقَ أَثَامًا ﴿١٨﴾ يُضَاعَفْ لَهُ الْعَذَابُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِ مُهَانًا ﴿١٩﴾ إِلَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَالِحًا فَأُولَئِكَ يُبْدِلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ﴾ [الفرقان].

كما يكفر الله صغائر الذنوب مع عدم الإصرار عليها عند اجتناب الكبائر، قال تعالى: ﴿إِنْ تَجْتَنِبُوا كَبَائِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَنُدْخِلَكُمْ مُدْخَلَ كَرِيمًا﴾ [النساء].

ثم ختم الله الآية بقوله: ﴿إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ﴾ لذنوب التائبين من عباده ﴿الرَّحِيمُ﴾ بهم.

روى علي بن طلحة عن ابن عباس رضي الله عنهما في معنى الآية: قد دعا الله إلى مغفرته من زعم أن المسيح هو الله، ومن زعم أن المسيح هو ابن الله، ومن زعم أن عزيزاً ابن الله، ومن زعم أن الله فقير، ومن زعم أن يد الله مغولة، ومن زعم أن الله ثالث ثلاثة، يقول الله تعالى في المشركين: ﴿أَفَلَا يَتُوبُونَ إِلَى اللَّهِ وَيَسْتَغْفِرُونَهُ﴾ [المائدة: ٧٤].

ثم دعا سبحانه من هو أعظم قولاً من هؤلاء، مِمَّنْ قال: ﴿أَنَا رَبُّكُمْ الْأَعْلَى﴾ [النازعات: ٢٤].

وقال: ﴿مَا عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرِي﴾^(١) [القصص: ٣٨]. دعاه إلى التوبة والإيمان.

قال تعالى: ﴿وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِمَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا ثُمَّ اهْتَدَى﴾ [طه].

وقال سبحانه: ﴿وَهُوَ الَّذِي يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ وَيَعْفُو عَنِ السَّيِّئَاتِ﴾ [الشورى: ٢٥].

وقال ﷻ: ﴿وَمَن يَعْمَلْ سُوءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ اللَّهَ يَجِدِ اللَّهَ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ [النساء].

وعلى العبد ألا يتمادى في المعاصي ولا يصر عليها، وإنما يتوب إلى ربه كلما ألم بالذنب، ويعزم على عدم العودة إليه.

قال تعالى: ﴿إِنَّمَا التَّوْبَةُ عَلَى اللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السُّوءَ بِجَهْلَةٍ ثُمَّ يُتُوبُونَ مِنْ قَرِيبٍ فَأُولَٰئِكَ يَتُوبُ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ [٧] وَلَيْسَتِ التَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ حَتَّىٰ إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ إِنِّي تُبْتُ الْكُفْرَ وَلَا الَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمْ كُفَّارٌ أُولَٰئِكَ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ [النساء].

ومهما غرق العبد في بحار الذنوب للأذقان، ثم عرف أن له رباً يغفر الذنوب ويستر العيوب، فإن الله تعالى يقول له: عبدي اختطفك الشيطان مني، ثم عدت إليّ، وعرفت أن لك رباً يغفر الذنوب ويستر العيوب، فأنا غفار لمن تاب، وأقرب إلى من إليّ أناب.

(١) أخرجه الطبري وابن المنذر كما في «الدر المثور» (٦٧٧/١٢).

وفي الحديث القدسي: «يا عبادي إنكم تخطؤون بالليل والنهار وأنا أغفر الذنوب جميعاً فاستغفروني أغفر لكم»^(١).

وفي الحديث: عن أنس بن مالك رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال فيما يرويه عن ربه: «يا بن آدم، إنك ما دعوتني ورجوتني غفرت لك على ما كان منك ولا أبالي، يا بن آدم، لو بلغت ذنوبك عنان السماء ثم استغفرتني غفرت لك ولا أبالي، يا بن آدم، لو أتيتني بقراب الأرض خطايا ثم لقيتني لا تشرك بي شيئاً لأتيتك بقرابها مغفرة»^(٢).

أما من مات على شركه وكفره فليس له مغفرة، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ﴾ [النساء: ٤٨].

ولا تقبل توبة العبد عند الموت ﴿حَتَّىٰ إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ إِنِّي تُبْتُ الْكُفْرَ﴾ [النساء: ١٨] وقال تعالى عن فرعون: ﴿إِنِّي الْكَاذِبُ الْفَرِيدُ﴾ [يونس: ١٠].

وفي الحديث: عن عبد الله بن عمر رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «إن الله يقبل توبة العبد ما لم يغرغر»^(٣).

ولا تقبل التوبة عند طلوع الشمس من مغربها كما جاء في الحديث.

وقال عبد الله بن مسعود رضي الله عنه: هذه أرجى آية في كتاب الله تعالى^(٤).

ولعل ذلك لاشتمالها على أعظم بشارة، فقد شرف الله العباد بإضافتهم إلى نفسه، ثم وصفهم بالإسراف في المعاصي، ثم نهاهم عن اليأس من الرحمة، فلم يبقَ بعد ذلك أدنى شك في مغفرة كل ذنب إلا ما أخرجه النص القرآني وهو الشرك بالله تعالى، ثم علل ذلك بأن من صفاته تعالى أنه الغفور الرحيم.

(١) من حديث أبي ذر في «صحيح مسلم» برقم (٢٥٧٧).

(٢) أخرجه الترمذي برقم (٣٥٤٠) وقال: حديث حسن صحيح، وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة (١٢٧، ١٢٨) وفي الروض النضر (٤٣٢) وفي المشكاة (٤٣٣٦) التحقيق الثاني.

(٣) «المسند» (٦١٦٠، ٦٤٠٨) والترمذي (٣٥٣٧) وابن ماجه (٤٢٥٣) والبيهقي في «الشعب» (٧٠٦٣) والحاكم (٢٥٧/٤) وحسنه الألباني في «صحيح سنن ابن ماجه» (٣٤٣٠)، وقال محققو المسند: إسناده حسن من أجل ابن ثوبان الدمشقي، وبقية رجاله ثقات.

(٤) «حاشية الجمل على الجلالين» (٦٠٥/٣).

وكانت هذه الآية أرجى آية في القرآن، لاشتمالها على إضافة العباد إلى ربهم تشريفاً لهم، وفيها وصف المعاصي بالإسراف، والنهي عن القنوط من رحمة الله تعالى، وجاء بعد ذلك ﴿إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا﴾.

وروى الطبراني بسنده: عن ابن مسعود ؓ قال: أعظم آية في كتاب الله ﴿اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ﴾ [آل عمران: ٢].

وأجمع آية في القرآن بخير وشر ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ﴾ [النحل: ٩٠].

وأكثر آية فرجاً ﴿قُلْ يَاعِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ﴾، وأشد آية في كتاب الله توبيخاً ﴿وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا لَا يَرْزُقُهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ﴾ [الطلاق: ٢، ٣]. قال مسروق: صدقت^(١).

أسباب النزول

١- وقد وردت أحاديث في أسباب نزول الآية، منها: ما صح عن ابن عباس ؓ: أن ناساً من أهل الشرك كانوا قد قتلوا فأكثروا، وزنوا فأكثروا، فأتوا النبي ﷺ، فقالوا: إن الذي تقول، وتدعو إليه لحسن، لو تُخبرنا أن لِمَا عملنا كفارة، فنزل ﴿وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ﴾ الآية [الفرقان: ٦٨].

ونزل ﴿قُلْ يَاعِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ﴾ الآية^(٢).

٢- وعن نافع عن ابن عمر عن أبيه ؓ قال: كنا نقول ما لِمُفْتَن توبة، وما الله بقابل منه شيئاً، فلما قدم رسول الله ﷺ المدينة أنزل فيهم ﴿قُلْ يَاعِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ﴾ والآيات بعدها، قال عمر: فكتبها فجلستُ على بعيري، ثم طُفَّت المدينة، ثم أقام رسول الله ﷺ بمكة ينتظر أن يأذن الله له في الهجرة وأصحابه من المهاجرين، وقد أقام أبو بكر ؓ ينتظر أن يؤذن لرسول الله ﷺ فيخرج معه^(٣).

(١) من «تفسير ابن كثير» للآية (١٠٨/٧).

(٢) البخاري برقم (٤٨١٠) ومسلم برقم (١٢٢) وأبو داود برقم (٧٢٧٤) و«سنن النسائي» (٨٦١٧).

(٣) قال الحاكم: هذا حديث صحيح على شرط مسلم ولم يخرجاه: «المستدرک» (٢/٤٣٥) وصححه الذهبي وعزاه الهيثمي في «المجمع» (٦١/٦) إلى البزار وقال: رجاله ثقات، وحسن إسناده محقق «المختارة» للضياء المقدسي (٢١٢-٢١٤) وأخرجه الطبراني (٤٦٢) والطبري (٢٠/٢٢٧).

٣- وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: خرج النبي ﷺ على رهط من أصحابه يضحكون ويتحدثون، فقال: «والذي نفسي بيده لو تعلمون ما أعلم، لضحكتم قليلاً ولبكيتم كثيراً» ثم انصرف وأبكى القوم، وأوحى الله إليه: يا محمد، لِمَ تُقْنِطُ عبادي؟! فرجع النبي ﷺ فقال: «أبشروا وسددوا وقاربوا»^(١).

٤- وروى ابن إسحاق عن نافع، عن ابن عمر، عن عمر رضي الله عنه، قال: لما اجتمعنا على الهجرة اتَّعَدْتُ -أي: تواعدت- أنا وهشام بن العاص السهمي، وعياش بن ربيعة بن عتبة، فقلنا: الموعد أضاءه بن غفار -أي: عند البئر- وقلنا: من تأخر فقد حُبس، فليمض صاحبه، فأصبحتُ أنا وعياش بن عتبة، وحُبس عنا هشام، وإذا هو قد فُتِنَ فافْتِنَ، فكنا نقول بالمدينة: هؤلاء قد عرفوا الله، ثم افْتِنُوا لبلاء لَحَقَهُمْ، لا نرى لهم توبة، وكانوا هم يقولون هذا في أنفسهم، فأنزل الله الآية إلى قوله: ﴿مَثْوًى لِّلْمُتَكَبِّرِينَ﴾ [٦٠].

قال عمر: فكتبْتُها بيدي، ثم بعثْتُها إلى هشام، قال هشام: فلما قدمتُ عليَّ خرجتُ بها إلى ذي طوى، فقلت: اللهم فَهِّمْنِيهَا، فعرفتُ أنها نزلت فينا، فرجعتُ فجلست على بعيري، فلحقتُ برسول الله ﷺ.

٥- وعن عمرو بن عبسة، قال: جاء رجل إلى النبي ﷺ شيخ كبير، يدعم على عصا له، فقال: يا رسول الله، إن لي غدرات وفجرات، فهل يُغفر لي؟ فقال: «ألست تشهد أن لا إله إلا الله؟» قال: بلى، وأشهد أنك رسول الله، فقال: «قد غفر الله لك غدراتك وفجراتك»^(٢).

ويلاحظ أن هذه الآية مكية، وإسلام وخشي قاتل حمزة كان بعد غزوة أحد، فلا يصح نزولها فيه، وقد ورد في هذا آثار كثيرة.

فَضْلُ التَّوْبَةِ:

ومما جاء في فضل التوبة: «أن رجلاً من بني إسرائيل قتل تسعة وتسعين نفساً، وأراد أن

(١) أخرجه البخاري في «صحيح الأدب المفرد» (١٩١).

(٢) «المسند» (٣٨٥/٤) برقم (١٩٤٣٢)، حديث صحيح بشواهده، (محققوه) وهو في المطالب العالية (٢٨٤٧) قال الهيثمي في مجمع الزوائد (٣٤/١) رواه أحمد والطبراني ورجاله موثقون، إلا أنه من رواية مكحول عن عمرو بن عبسة، فلا أدري أسمع منه أم لا.

يتوب، فسأل عن أعبد أهل الأرض، فدلّوه على رجل عابد، فسأله: هل له من توبة؟ قال: لا، فقتله وأكمل به المئة، ثم سأل عن أعلم أهل الأرض، فدلّوه على رجل عالم، فسأله: هل له من توبة؟ قال: نعم، ومن يحول بينك وبين التوبة، انطلق إلى أرض كذا، فإن بها أناسًا يعبدون الله تعالى، فاعبد الله معهم، ولا ترجع إلى أرضك هذه فإنها أرض سوء، فانطلق إليها، وفي الطريق حَضَرَتْهُ الوفاة، فاختمت فيه ملائكة الرحمة وملائكة العذاب، قالت ملائكة الرحمة: إنه أقبل على الله تائبًا، وقالت ملائكة العذاب: إنه لم يعمل خيرًا قط، فأرسل الله إليهم ملكًا في صورة رجل، فقال: قيسوا ما بين أرض التوبة وأرض المعصية، فقاوسوا فوجدوه أقرب إلى أرض التوبة، فقبضته ملائكة الرحمة.

وفي رواية: «أنهم وجدوه أقرب إلى أرض المعصية بشبر، فأوحى الله إلى أرض التوبة: أن تقاريبي، وإلى أرض المعصية أن تباعدني، فقبضته ملائكة الرحمة»^(١).

٢- وفي الحديث، عن أبي هريرة رضي الله عنه: «أن رجلاً أسرف على نفسه ولم يعمل خيرًا قط، فقال لأبنائه: إذا حضرته الوفاة، فأحرقوني وذروني في الهواء، فوالله لئن قَدِرَ الله عليّ ليعذبني عذابًا ما عَذَّبَ أحدًا، فلما مات وفعل به ذلك أمر الله الأرض أن تجمع ما فيها ففعلت، فإذا هو قائم بين يدي الله تعالى، فسأله ربه: ما حملك على ما صنعت؟ قال: خشيتك يا رب، فغفر الله له»^(٢).

٣- وفي حديث أبي أيوب الأنصاري رضي الله عنه: أنه قال حين حضرته الوفاة: قد كنت كتمتُ منكم شيئًا سمعته من رسول الله ﷺ يقول: «لولا أنكم تذنبون، لخلق الله خلقًا يذنبون فيغفر لهم»^(٣).

٤- وفي حديث أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «والذي نفسي بيده، لو لم تذنبوا لذهب الله بكم، ولجاء بقوم يذنبون فيستغفرون الله فيغفر لهم»^(٤).

٥- وعن أنس بن مالك رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «لله أشد فرحًا بتوبة عبده من

(١) يُنْظَرُ الحديث في: البخاري برقم (٣٤٧٠) ومسلم برقم (٢٧٦٦) عن أبي سعيد الخدري و«المسند» (١١٦٨٧، ١١١٥٤) وابن ماجه (٢٦٢٢) وأبي يعلى (١٣٩٩) وابن حبان (٦١١).

(٢) أخرجه الشيخان عن أبي هريرة في البخاري برقم (٣٤٧٨، ٦٤٨١، ٧٥٠٨) ومسلم برقم (٢٧٥٧).

(٣) «صحيح مسلم» برقم (٢٧٤٨).

(٤) «صحيح مسلم» برقم (٢٧٤٩).

أحدكم إذا استيقظ على بعيره، قد أضله بأرض فلاة»^(١).

هذا: وقد ختم الله سبحانه الآية بذكر صفتان من صفات الله تعالى هما: المغفرة والرحمة، وعلى من يريد رحمة الله ومغفرته، أن يأتي بأسبابهما، فيقبل على الله تعالى بالتوبة النصوح، والدعاء، والتضرع، والإنابة، ويرد المظالم إلى أهلها ليستحق بذلك الدخول في ساحة الرضى والغفران.

ولما فتح الله باب التوبة على مصراعيه رغب عباده في الإنابة والرجوع إليه، فقال:

٥٤- ﴿وَأَنِيبُوا إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَأَسْلُمُوا لَهُ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ ثُمَّ لَا تُصْرَفُونَ﴾

أنيبوا إلى ربكم بقلوبكم، وأسلموا له بجوارحكم، من قبل أن يأتي يوم لا مرد له من الله.

أي: ارجعوا إليه وأطيعوه، واخضعوا له وأقبلوا عليه، وأخلصوا له العبادة من قبل أن ينزل بكم عقاب الله، ثم لا تستطيعون دفعه، ولا تجدون من ينصركم ويمنع عنكم عذاب الله.

ولما بشرهم بأن الله تعالى يغفر الذنوب جميعاً، أمرهم بالرجوع والإنابة إليه، والانقياد لأمره ونهيه، والخضوع لحكمه قبل أن يحل بهم عذاب الله تعالى.

وهذه الآية تتعلق بتوبة المشركين، ودخولهم في الإسلام، واتباع شرعه قبل أن يحل بهم العذاب، والآية السابقة عامة للمؤمنين -الذي أسرفوا على أنفسهم بالمعاصي- ولغيرهم.

ثم أمر الله خلقه باتباع أوامر القرآن ونواهيه، فقال:

٥٥- ﴿وَاتَّبِعُوا أَحْسَنَ مَا أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ بَغْتَةً وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ﴾

وأحسن ما أنزل إلى الناس هو القرآن العظيم، وكله حسن، فامثلوا أمره واجتنبوا نهيه، أحلوا حلاله وحرّموا حرامه، والتزموا طاعته واجتنبوا نواهيه، في أعماله الظاهرة: كالصلاة والصيام والزكاة والحج والصدقة والبر ونحو ذلك، وفي أعماله الباطنة: كمحبة الله تعالى وخشيئة وخوفه ورجائه والنصح لعباده ونحو ذلك.

وفي الآية حث على العفو دون الانتقام، وعلى العمل بالأفضل واتباع الأحوط،

(١) «صحيح مسلم» برقم (٤٧٤٧) و«صحيح البخاري» برقم (٦٣٠٩).

والعمل بالمحكم، والإيمان بالمتشابه، وقد وصف الله عباده بأنهم الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه.

وأحسن: اسم تفضيل، مستعمل بمعنى: حسن، فالتزموا كتاب ربكم الذي فيه سعادتك في الدنيا والآخرة قبل أن يأتيكم الموت بغتة، وقبل أن يفاجئكم العذاب، وعذاب الدنيا والآخرة يأتي فجأة دون إشعار سابق.

آيَةُ الْحُسْرَةِ وَالنَّدَامَةِ: ﴿بَحَسَرْتُ عَلَى مَا قَرَطْتُ فِي جَنْبِ اللَّهِ﴾

ثم نبه الله عباده أن يسارعوا بالتوبة إليه، وحذّرهم ألا يستمروا في غفلتهم، وأن يرجعوا إلى الله قبل أن يتحسروا على ما فاتهم في دنياهم؛ لئلا تندم بعض النفوس التي أسرفت في العصيان على تقصيرها وتفريطها في طاعة الله تعالى في يوم لا ينفع فيه الندم، فقال تعالى:

٥٦- ﴿أَنْ تَقُولَ نَفْسٌ بِحَسَرَتِي^(١) عَلَى مَا قَرَطْتُ فِي جَنْبِ اللَّهِ وَإِنْ كُنْتُ لِمِنَ السَّخِرِينَ

أَي: يَا أَصْفَى عَلَى مَا ضَيَعْتُ مِنَ الْعَمَلِ بِمَا أَمَرَنِي اللَّهُ ﴿وَإِنْ كُنْتُ﴾ فِي الدُّنْيَا ﴿لِمِنَ السَّخِرِينَ﴾ أَي: الْمُسْتَهْزِئِينَ بِأَمْرِ اللَّهِ وَكِتَابِهِ وَرَسُولِهِ وَالْمُؤْمِنِينَ.

فتفريط المستهزئ بأوامر الله ورسوله، ليس تفريط الغافل، وإنما هو تفريط الساخر، الذي لم يكتف بتضييع حق الله تعالى، بل سخر من أهل الطاعة، فالحذر الحذر من عقوبة تحسّر النفس على التفريط في الإيمان والطاعة، والحذر كل الحذر من الموت على الكفر والمعصية، ومن السخرية والاستهزاء بما أنزل الله على رسوله.

آيَةُ تَمَنِّي الْهِدَايَةِ ﴿لَوْ أَنَّ اللَّهَ هَدَانِي؟﴾

وبعد التحسر على التقصير في الطاعة يأتي الاعتذار والتنصل من اقتراف الذنوب، بإلقاء التبعة على القضاء والقدر:

٥٧- ﴿أَوْ تَقُولَ لَوْ أَنَّ اللَّهَ هَدَانِي لَكُنْتُ مِنَ الْمُتَّقِينَ

(١) قرأ ابن جماز بزيادة ياء مفتوحة بعد الألف في (يا حسرتي) ولابن وردان وجهان، أحدهما كابن جماز والثاني بزيادة ياء ساكنة مع المد المشبع، وقرأ الباقون بقاء مفتوحة بعدها ألف بدل من ياء الإضافة.

أو تقول بعض النفوس -وهي المقولة الثانية- ﴿لَوْ أَنَّ اللَّهَ هَدَانِي﴾ وأرشدني إلى طاعته، واتباع دينه ﴿لَكُنْتُ مِنَ الْمُنْقِيْنَ﴾ للشرك والمعاصي، وكنت من الذين صانوا أنفسهم عن غضب الله تعالى وسخطه، فاهتديت إلى الحق، وأطعت الله تعالى وكنت من الصالحين، فأسلم من العقاب وأنال الثواب.

ولو للتمنى وليست شرطية، لأن لو الشرطية تقتضي الاحتجاج بالقضاء والقدر، وهي حجة باطلة. وهذا التنصل والاعتذار يعتذر به المشركون عن شركهم يوم القيامة، كما قال تعالى: ﴿وَقَالُوا لَوْ شَاءَ الرَّحْمَنُ مَا عَبَدْنَاهُمْ﴾ [الزخرف: ٢٠].

وهو عذر غير مقبول، وتنصل مردود، فالإنسان له الحرية في اختيار ما يريد بمقتضى عقله، وما أرسل الله إليه من رسل، وأنزل عليه من كتب، وعرفه طريق الحق والضلال.

آيَةُ تَمْنِي الرُّجْعَةِ ﴿لَوْ أَنَّكَ لِي كَرَّةٌ فَأَكُونَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ﴾

وبعد الحسرة والندامة والاعتذار والتنصل من الذنوب، تأتي مقولة ثالثة يتمنى فيها المذنب أن يعود إلى الدنيا مرة ثانية ليصلح ما أفسده، ويتدارك ما فاته.

٥٨- ﴿أَوْ تَقُولَ حِينَ تَرَى الْعَذَابَ لَوْ أَنَّكَ لِي كَرَّةٌ فَأَكُونَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ﴾

. تقول بعض النفوس ﴿حِينَ تَرَى الْعَذَابَ﴾ وقد أحاط بها من كل جانب يوم الحساب والجزاء ﴿لَوْ أَنَّكَ لِي كَرَّةٌ﴾ أي: رجعة إلى الحياة الدنيا مرة أخرى ﴿فَأَكُونَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ﴾ الموحدين لله، المخلصين في طاعة ربهم، والعمل بما أمرتهم به رسلهم، وهذا كقوله سبحانه: ﴿قَالَ رَبِّ ارْجِعُونِ ﴿٩٩﴾ لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحًا فِيمَا تَرَكْتُ﴾ [المؤمنون: ٩٩، ١٠٠].

ثم يأتي الرد من الله تعالى على هذه المقولات الثلاث، بأن هذا غير ممكن، وأن هذه أمني باطلة لا حقيقة لها، فيقول سبحانه:

٥٩- ﴿بَلَىٰ قَدْ جَاءَكَ ءَايَاتِي فَكَذَّبْتَ بِهَا وَاسْتَكْبَرْتَ وَكُنْتَ مِنَ الْكَافِرِينَ﴾

﴿بَلَىٰ﴾ أي: ليس القول كما تقول - أيها المكذب الساخر - من أن الله تعالى لم يدلك على طريق الرشاد والهدى، فقد جاءتك آيات الله الواضحة المنزلة على رسوله ﷺ الدالة على الحق، فأرشدك الله عن طريق إرسال الرسل وإنزال الكتب، ولكنك كذبت

ولم تؤمن، وهذا رد للمقولة الثانية: ﴿لَوْ أَنَّ اللَّهَ هَدَانِي﴾.

أما الرد على المقولة الأولى وهي: ﴿بَحَسَرْتَنِي عَلَى مَا قَرَرْتُ فِي جَنبِ اللَّهِ﴾ فهو في قوله تعالى: ﴿وَأَسْتَكْبَرْتَ﴾ أي: أنه ليس التفريط والتهاون في حق الله تعالى هو السبب، بل السبب ما هو أعظم من التفريط، وهو الاستكبار على العمل بآيات الله.

أما قوله تعالى: ﴿وَكُنْتَ مِنَ الْكَافِرِينَ﴾ فهو رد على المقولة الثالثة: ﴿لَوْ أَنَّكَ لِي كَرَّةً فَأَكُونَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ﴾ أي: أنك قد لازمت الكفر حتى متَّ عليه، وهذه الجملة ﴿وَكُنْتَ مِنَ الْكَافِرِينَ﴾ في مقابلة ﴿لَكُنْتُ مِنَ الْمُتَّقِينَ﴾ فالكافر يتحسر، ثم يحتاج بحجج واهية، ثم يتمنى الرجوع إلى الدنيا، وهو سؤال لا يفيد، فقد أخبر رب العالمين أنهم لو رُدُّوا العادوا لما نهوا عنه وإنهم لكاذبون.

والمعنى: كأن الله تعالى يقول: قد جاءتك آياتي، وبيَّنتُ لك الهداية من الغواية، وسبيل الحق من الباطل، ومكَّنتك من اختيار الهداية على الغواية، والحق على الباطل، ولكنك تركت ذلك وضيعته واستكبرت عن قبوله، وأثرت الضلالة على الهدى وكنت من الجاحدين، واشتغلت بضد ما أمرتُك به، فالتضييع جاء من جهتك، فلا عذر لك^(١).

عن أبي هريرة ؓ أن رسول الله ﷺ قال: «كل أهل النار يرى مقعده من الجنة، فيقول: لو أن الله هداني؟! فتكون عليه حسرة، قال: وكل أهل الجنة يرى مقعده من النار، فيقول: لو أن الله هداني! فيكون له شكرًا»، ثم تلا رسول الله ﷺ: ﴿أَنْ تَقُولَ نَفْسٌ بِحَسَرَتِي عَلَى مَا قَرَرْتُ فِي جَنبِ اللَّهِ﴾^(٢).

عن علي بن أبي طلحة عن ابن عباس ؓ قال: أخبر الله سبحانه ما العباد قائلون قبل أن يقولوه، وما العباد عاملون قبل أن يعملوه، وقال: ﴿وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ﴾ [فاطر: ١٤].

وقرأ الآيات الثلاث: آية الحسرة، وآية تمنى الهداية، وآية تمنى الرجعة، ثم أورد قوله تعالى: ﴿وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾ [الأنعام: ٢٨].

(١) يُنظَر: «تفسير النسفي» للآية.

(٢) «المسند» (٥١٢/٢) (١٠٦٥٢) والنسائي عن أبي بكر بن عياش في الكبرى (١١٤٥٤) والحاكم (٤٣٥/٢) وقال محققو «المسند»: إسناده صحيح على شرط البخاري، وحسنه الألباني في «صحيح الجامع» (٤٥١٤).

وقوله سبحانه: ﴿وَنُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ وَأَبْصَارَهُمْ كَمَا لَوْ يُؤْمِنُوا بِهِ أُولَٰئِكَ مَرَّةً﴾ [الأنعام: ١١٠].

قال: ولوردوا إلى الدنيا لحيل بينهم وبين الهدى، كما حلنا بينهم وبينه أول مرة في الدنيا^(١).

وقال قتادة في قوله: ﴿أَن تَقُولَ نَفْسٌ بِحَسْرَتٍ عَلَىٰ مَا فَرَّطْتُ فِي جُنْبِ اللَّهِ﴾ لم يكفه أن ضيع طاعة الله، حتى جعل يسخر بأهل طاعة الله، قال: هذا صنف منهم، وقال صنف ثانٍ: ﴿لَوْ أَنَّ اللَّهَ هَدَانِي لَكُنْتُ مِنَ الْمُتَّقِينَ﴾.

وقال صنف ثالث: ﴿لَوْ أَنَّ لِي كَرَّةً﴾ أي: رجعة إلى الدنيا ﴿فَأَكُونُ مِنَ الْمُحْسِنِينَ﴾ يقول الله تعالى ردًا لقولهم وتكذيبًا لهم: ﴿بَلَىٰ قَدْ جَاءَ نَكَآئِي فَكَذَّبْتَ بِهَا وَاسْتَكْبَرْتَ وَكُنْتَ مِنَ الْكَافِرِينَ﴾ فالكافر يتحسر أولًا، ثم يحتج بحجج واهية، ثم يتمنى الرجوع إلى الدنيا، ولو رُدَّ لعاد إلى ضلاله.

وهكذا يصور القرآن أحوال الناس في الآخرة تصويرًا مؤثرًا بليغًا يحمل كل عاقل على التوبة والإنابة والإيمان الصالح الذي ينفع صاحبه يوم لقاء ربه.

سَوَادُ الْوَجْهِ لِأَنَّ صَاحِبَهُ سَوَّدَ وَجْهَهُ الْحَقُّ بِالْكَذِبِ وَبَيَاضُ الْوَجْهِ لِأَنَّ صَاحِبَهُ كَانَ مُوَحِّدًا

٦٠ - ﴿وَيَوْمَ الْقِيَمَةِ تَرَى الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَى اللَّهِ وُجُوهُهُم مُّسْوَدَّةٌ أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْمُتَكَبِّرِينَ﴾

إن من سَوَّد وجه الحقيقة، فنسب إلى الله تعالى الولد أو الشريك، أو ادعى النبوة، أو وصف الله ورسوله بما لا يليق، أو قال عن الله ما لم يقل، أو كَذَب على رسول الله ﷺ فإن جزاء كذبه هذا يوم لقاء الله، أن يسوّد وجهه كما سَوَّد وجه الحق في الدنيا، وهذا علامة له على الخزي والنكال في الموقف العظيم، وله العذاب الشديد في نار جهنم.

وهكذا، فقد بيّن ﷺ مصير كل من المشركين والمتقين في الدار الآخرة، ولَوْن بشرتهم فيها، فقال تعالى في شأن المشركين المكذبين، الذين وصفوا ربهم بما لا يليق به، فنسبوا إليه الشريك والولد، أو نسبوا إليه ما لا يليق بجلاله، كقولهم ﴿يَدُ اللَّهِ مَغْلُولَةٌ﴾ [المائدة: ٦٤] وقولهم ﴿إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَاءُ﴾ [آل عمران: ١٨١] أو شرعوا شيئًا في دين الله ليس

(١) يُنظَر: «تفسير الطبري» (٤٩١/٩)، (٢٣٦/٢٠) وابن أبي حاتم (١٣٦٩/٤) (٧٧٧٥).

منه، أو كذبوا على رسول الله ﷺ فنسبوا إليه ما لم يقله، وهؤلاء وأمثالهم هم الذين جاء ذكرهم في الآية السابقة ﴿وَالَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْ هَؤُلَاءِ سَيُصِيبُهُمْ سَبَأٌ مَّا كَسَبُوا﴾ وهم الذين كذبوا على الله، فقد جعل الله لهم علامة يوم القيامة تدل على سوء المصير، وهو سواد الوجوه في الموقف العظيم، فوجوههم تكون مسودة مظلمة، بسبب كذبهم واقترائهم على الله تعالى، حيث أشركوا معه غيره في عبادته، أو شرعوا لأنفسهم ما لم يأذن به الله، وهذا السواد بسبب ما أحاط بهم من عذاب، وما شاهدوه من أهوال.

قال تعالى: ﴿وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ غَرَّةٌ ﴿١٠﴾ تَرْهَقُهَا قَتَرَةٌ ﴿١١﴾ أُولَٰئِكَ هُمُ الْكَافِرَةُ الْفَجَرَةُ ﴿١٢﴾﴾ [عبس].

وقال سبحانه: ﴿وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ بَاسِرَةٌ ﴿٢٤﴾ تَظُنُّ أَنْ يُفْعَلَ بِهَا فَاقِرَةٌ ﴿٢٥﴾﴾ [القيامة].

وكما أن سواد الوجوه يكون علامة على سوء المصير، فإن بياض الوجوه يكون علامة على حسن المصير، وقد ذكر الله تعالى الفريقين في قوله: ﴿يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ فَأَمَّا الَّذِينَ اسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ أَكْفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿١٠٦﴾ وَأَمَّا الَّذِينَ ابْيَضَّتْ وُجُوهُهُمْ فَفِي رَحْمَةِ اللَّهِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿١٠٧﴾﴾ [آل عمران].

ثم ختم الله الآية بقوله: ﴿الَّذِينَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى﴾ أي: دار إقامة ﴿لِلْمُتَكَبِّرِينَ﴾!؟

والجواب: بلى، فيها مأوى ومسكن ودار إقامة، لمن تكبر على توحيد الله وطاعته، وكذب رسول الله ﷺ، ولم يؤمن بالبعث والنشور، والحساب والجزاء.

قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾ [غافر: ٦٠].

وعن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده ؓ أن رسول الله ﷺ قال: «إن المتكبرين يحشرون يوم القيامة أشباه الذر، في صورة الناس، يعلوهم كل شيء من الصغار، حتى يدخلوا سجنًا من النار، في وادٍ يقال له: بولس، من نار الأنبار^(١) ويسقون عصارة أهل النار من طينة الخبال^(٢)»

(١) أي: من نار النيران.

(٢) «المسند» (١٧٨/٢) برقم (٦٦٧٧) بلفظ: (يحشر المتكبرون) بنحوه، وإسناده حسن، وأخرجه الحميدي (٥٩٨) والترمذي برقم (٢٤٩٢) وقال: هذا حديث حسن، وهو في «صحيح سنن الترمذي» برقم (٢٠٢٥) وابن أبي شيبة (٩٠/٩) والبيهقي (٣٥٩٠) و«الأدب المفرد» برقم: (٥٥٧) وحسنه الألباني في «مشكاة المصابيح» (٥١١٢).

والكبر: هو بطر الحق وغمط الناس، كما صح بذلك الحديث.

ثم ذكر سبحانه الفريق الناجي وهم الذين ابيضت وجوههم، فقال:

٦١- ﴿وَيُنَجِّي^(١) اللَّهُ الَّذِينَ اتَّقَوْا بِمَفَازَتِهِمْ^(٢) لَا يَمَسُّهُمْ السُّوءُ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦١﴾

وبضدها تتميز الأشياء، ولما ذكر الله تعالى حال المتكبرين ذكر حال المتقين؛ لأن التقوى تنافي التكبر، وفيها كمال الخلق الشرعي، وهي تقتضي امتثال الأوامر واجتناب النواهي في الظاهر والباطن، والكبر مرض قلبي باطني يحمل صاحبه على الكفر والمعاصي، فلا جرم أن يُلْقَى المتكبر في النار، وأن ينجو التقي منها.

والمعنى: وينجي الله من جهنم وعذابها الذين اتقوا ربهم فوَّخَدوه ولم يشركوا به، ولم يَعْصُوهُ، وأدوا فرائضه وتركوا نواهيه، وذلك بسبب حصولهم على الفوز والظفر بتحقيق أمنيته ودخول الجنة، وهم يَسْلَمُونَ مما مسَّ غيرهم، فلا يمسهم شيء من عذاب جهنم ﴿وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ على شيء من متاع الدنيا ونعيمها.

لقد نفى الله عنهم السوء والحزن معاً، إنهم لا يحزنون كما يحزن أهل النار، ممن هم في حُزْنٍ وغمٍّ دائمين، ولا يحزنون على شيء فاتهم من حظوظ الدنيا، فهم آمنون ﴿فِي مَقْعَدٍ صِدْقٍ عِنْدَ مَلِكٍ مُّقَدِّرٍ﴾ ﴿٥٥﴾ [القمر]. فلهم الأمن التام والسلامة من كل مكروه وهم يقولون: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَذْهَبَ عَنَّا الْحَزْنَ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ﴾ ﴿٣٤﴾ الَّذِي أَهْلَنَا دَارَ الْمَقَامَةِ مِنْ فَضْلِهِ لَا يَمَسُّنَا فِيهَا نَصَبٌ وَلَا يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوبٌ﴾ ﴿٣٥﴾ [فاطر]

قال تعالى: ﴿إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ مَفَازًا ﴿٣٦﴾ حَدَائِقَ وَأَعْنَابًا﴾ ﴿٣٧﴾ [النبا]

وقال سبحانه: ﴿فَمَنْ زُحِرَ عَنِ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ﴾ [آل عمران: ١٨٥].

التَّوْحِيدُ وَالشُّرْكُ هُمَا سَبَبَا النَّجَاةِ أَوْ الْهَلَاكِ

٦٢- ﴿اللَّهُ خَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ^(٣) عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ ﴿٦٢﴾

(١) قرأ روح بإسكان النون وتخفيف الجيم من (ويُنَجِّي) مضارع أنجي، والباقون بفتح النون وتشديد الجيم (يُنَجِّي) مضارع نجى.

(٢) قرأ شعبة وحمزة والكسائي وخلف بالجمع في (بمفازتهم)، والباقون بالافراد.

(٣) قرأ قالون وأبو عمرو والكسائي وأبو جعفر بإسكان الهاء من (وهو) والباقون بضمها.

ثم يبين سبحانه أن السبب في هلاك، من هلك، هو الإشراف بالله تعالى، والسبب في نجاة من نجا هو توحيد الله تعالى، وأن الإيمان بوجود الله تعالى ووحدانيته، والبراءة من الشرك وأهله، هو دعوة رسل الله جميعاً، وعلى رأسهم خاتمهم صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين، وهذه ثلاثة أدلة من أدلة التوحيد:

الدليل الأول: أن الله تعالى ﴿خَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ﴾ أوجد جميع المخلوقات بقدرته، فهو ربها ومليكيها والمتصرف فيها كيف يشاء، لا رب غيره ولا معبود بحق سواه، وهذا يستلزم إثبات وجود الخالق سبحانه ووحدانيته؛ لأن المخلوق لا يخلق نفسه ولا يخلقه غيره:

١- قال تعالى: ﴿أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمْ الْخَالِقُونَ﴾ [الطور].

٢- وقال سبحانه: ﴿وَاتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ آلِهَةً لَا يَخْلُقُونَ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ﴾ [الفرقان: ٣].

٣- وقال أيضاً: ﴿أَمْ جَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ خَلَقُوا كَخَلْقِهِ فَتَشَبَّهُ الْخَلْقُ عَلَيْهِمْ قُلِ اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ﴾ [الرعد: ١٦].

٤- وقال جلّ شأنه: ﴿أَفَمَنْ يَخْلُقُ كَمَنْ لَا يَخْلُقُ﴾ [النحل: ١٧].

٥- وقال ﷻ: ﴿إِنَّ الذِّبْنَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَنْ يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَلَوْ اجْتَمَعُوا لَهُ﴾ [الحج: ٧٣].

وما دام الله تعالى خالق كل شيء، فإن كل موجود مخلوق لله تعالى، ولا يخرج من ذلك إلا ذات الله ﷻ، والكل عبيد الله وحده، وليس لغيره منة عليهم بالإيجاد، فلزم إفراده تعالى بالعبادة دون سواه، ومن هذه المخلوقات: السموات والأرض، والأرواح، أما كلام الله تعالى فهو صفة قائمة بذاته، وليست مخلوقة، فالله تعالى بأسمائه وصفاته، أول، ليس قبله شيء، وآخر، ليس بعده شيء.

عن أبي هريرة ؓ قال: قال رسول الله ﷺ: «لَيْسَالنَّاسُ عَنْ كُلِّ شَيْءٍ، حَتَّى يَسْأَلُونَكُم: هَذَا اللَّهُ خَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ، فَمَنْ خَلَقَ اللَّهُ؟ فَإِنْ شِئْتُمْ فَقُولُوا: اللَّهُ كَانَ قَبْلَ كُلِّ شَيْءٍ، وَهُوَ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ، وَهُوَ كَائِنٌ بَعْدَ كُلِّ شَيْءٍ»^(١).

الدليل الثاني من أدلة التوحيد قوله تعالى: ﴿وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ﴾ الوكيل هو

(١) أخرجه البيهقي في «الأسماء والصفات» (١٤) وقال محققه: إسناده صالح.

المتصرف في الأمور بالمنع والعطاء، دون أن يُعقَّب عليه أحد، والوكالة التامة لابد فيها من العلم والإحاطة والقدرة التامة على التصرف والتدبير، فكل شيء تحت تدبيره وقهره وإمداده لهم بالنعم، وليس في وسعهم الاستغناء عنه لمحة من الزمان، وهذا أيضًا يستلزم التوجه بالعبادة إلى الله وحده وعدم الإشراك به.

والدليل الثالث أن الله تعالى:

٦٣- ﴿لَهُ مَقَالِيدُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِعَاقِبَتِ اللَّهِ أُولَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴿٦٣﴾﴾

أي: له مفاتيح خزائن السموات والأرض، لا يملكها غيره ولا يتصرف فيها سواه، يعطي من يشاء ويمنع من يشاء، ﴿مَا يَفْتَحُ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِنْ رَحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا وَمَا يُمْسِكُ فَلَا مُرْسِلَ لَهُ مِنْ بَعْدِهِ﴾ [فاطر ٢] وأعظم ما يعطيه الله تعالى لبعض خلقه هو النبوة والرسالة، وجهل المشركين بذلك جرأهم على إنكار رسالة محمد ﷺ، فقالوا: ﴿أَهْتَوَلَاءَ مِنْ اللَّهِ عَلَيْهِمْ مِنْ بَيْنِنَا﴾ [الأنعام: ٥٣].

والمتقون الذين نجاهم الله تعالى من عذابه، هم الذين آمنوا بدلائل الوجدانية هذه، أما الذين جحدوا آيات القرآن، وما فيها من الحجج الواضحة، وجحدوا آيات الله الكونية، فهم الذين خسروا دنياهم بخذلانهم عن الإيمان، وحُرموا خير خزائن الآخرة.

قال تعالى: ﴿وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا عِنْدَنَا خَزَائِنُهُ وَمَا نُنْزِلُهُ إِلَّا بِقَدَرٍ مَعْلُومٍ ﴿٦٦﴾﴾ [الحجر].

وما دام الله تعالى هو الخالق الرازق كما في الدليل الأول.

وهو صاحب التصرف المطلق في مخلوقاته كما في الدليل الثاني.

وهو الذي يضع النظم والنواميس لخلقه، كما في هذا الدليل الثالث.

فإن الله تعالى هو المستحق للعبادة دون سواه.

ولما ذكر سبحانه ما تمتلئ له القلوب تعظيمًا وإجلالًا لله تعالى، ذكر مَنْ عَكَسَ القضية ممن لم يُقدِّر الله حق قدره، ولم يعظمه حق تعظيمه.

وجاء وصف الذين كفروا بآيات الله بأنهم الخاسرون؛ لأنهم كفروا بآيات مَنْ له مقاليد خزائن الخير، فعرضوا أنفسهم للحرمان من رحمة الله تعالى في الآخرة.

فقد خسروا ما يُصلح القلوب، وهو الإخلاص لله تعالى، وخسروا ما تصلح به الألسنة، وهو ذكر الله تعالى، وخسروا ما تصلح به الجوارح، وهي الطاعات، واكتسبوا ما يفسد القلوب والأبدان، وخسروا جنات النعيم، واكتسبوا عذاب الجحيم.

وآيات الله التي في الآية، هي دلائل وجوده ووحدانيته المشار إليها في الجمل الثلاث.

وبعد تقرير حقائق التوحيد أمر الرسول ﷺ أن يوجه إلى المشركين هذا الاستفهام:

٦٤- ﴿قُلْ أَفَعَبَّرَ اللَّهُ تَأْمُرُوْنَ^(١) أَنْعْبُدَ أَيُّهَا الْجَاهِلُونَ ﴿١٤﴾﴾

هذا الأمر بالتوحيد، جاء نتيجة للمقدمات السابقة، الموجهة للمشركين لإثبات وإقرار عقيدة التوحيد بعد نفي الشرك وصرف العبادة لغير الله تعالى.

وفي هذا تأنيب وتوبيخ لكل مشرك بالله تعالى، جاحد لوحدانيته، وكان الكفار المعاصرون للنبي ﷺ قد دَعَوْهُ إلى دين آبائه طمعاً منهم في أن يصرفوه عن التوحيد، ويشاركهم في عبادة الأصنام، فوصفهم النبي ﷺ بالجهل.

والمعنى: قل - أيها الرسول - للمشركين: أبعاد الأدلة الساطعة، والبراهين القاطعة، الدالة على وحدانية الله تعالى، تأمروني - أيها الجاهلون - أن أعبد غير الله، والعبادة لا تصرف إلا لله تعالى، فكيف أعبد غيره؟

لَا يَقْبَلُ مَعَ الشُّرْكِ عَمَلٌ صَالِحٌ

٦٥- ﴿وَلَقَدْ أَوْحَىٰ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكَكَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴿١٥﴾﴾

ولما كان التوحيد سنة الأنبياء، والشرك لا يتطرق إليهم، فقد حذر الله منه جميع رسله - على عظم شرفهم - عن طريق الوحي الإلهي، ولو أن أحدهم أشرك بالله تعالى - على سبيل الفرض والتقدير - فإن عمله الصالح الذي يرجو منه الجزاء الحسن قد ذهب باطلاً، وكأنه لم يكن.

(١) قرأ نافع وأبو جعفر بنون واحدة مكسورة مخففة في (تأمروني) أصلها تأمروني، وقرأ ابن عامر بخلف عن ابن ذكوان بنونين، الأولى مفتوحة والثانية مكسورة على الأصل، والوجه الثاني لابن ذكوان بنون واحدة مكسورة مخففة، وقرأ الباقر بنون مشددة، على إدغام نون الرفع في نون الوقاية، وقرأ نافع وابن كثير بفتح ياء الإضافة منها، والباقر بنون يأسكانها.

﴿وَلَقَدْ أَوْحَىٰ إِلَيْكَ﴾ - يا محمد - بواسطة جبريل ﷺ ﴿وَأَوْحَىٰ أَيضًا﴾ ﴿إِلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكَ﴾ من رسل الله جميعًا ﴿لَئِنْ أَشْرَكْتَ﴾ بالله غيره ﴿لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ﴾ أي: يبطل أجر عملك الصالح ﴿وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ لدينك ودنياك؛ لأن الله تعالى لا يقبل مع الشرك عملاً صالحاً، وافترض وقوع الشرك من رسل الله، على عصمتهم، تنبيه على عظم التوحيد وخطر الشرك؛ ليعلم الناس أن أعلى الدرجات في الفضل، هو التوحيد، ولو أنه أشرك بالله تعالى - على سبيل الفرض - لأحبط هذا الشرك كل مزية، وأذهب كل فضل له على غيره، قال تعالى ﴿ذَٰلِكَ هُدَىٰ اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَن يَشَاءُ مِّنْ عِبَادِهِ وَلَوْ أَشْرَكُوا لَحِطَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [الأنعام]

الْأَمْرُ بِالثَّبَاتِ عَلَى التَّوْحِيدِ

٦٦- ﴿بَلِ اللَّهِ فَاعْبُدْ وَكُنْ مِنَ الشَّاكِرِينَ﴾

أمر الله رسوله بالثبات على التوحيد، والمداومة على الشكر، ونهاه عن طاعة المشركين، فوجه إليه الخطاب - لتأسى به الأمة - كما هو موجه إلى الرسل قبله: ﴿بَلِ اللَّهِ فَاعْبُدْ﴾ - يا محمد - مخلصاً له العبادة وحده لا شريك له ﴿وَكُنْ مِنَ الشَّاكِرِينَ﴾ المداومين على شكر الله تعالى على نعمه بالعمل الصالح، فهو المقصود من الشكر، والخطاب موجه إلى النبي ﷺ والمقصود جميع الأمة، وكما أن الله تعالى يُشكر على النعم الدنيوية كالصحة والرزق، فإنه يُشكر أيضاً على النعم الدينية كالإخلاص والتقوى. وفي الآية تحذير من الشرك بأسلوب التنفير منه والتقيح له.

الْكُونُ كُلُّهُ فِي قَبْضَةِ اللَّهِ تَعَالَى

٦٧- ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ وَالسَّمَوَاتُ مَطْوِيَتَاتٌ يَبْسُطُنَهُنَّ سُبْحَتَهُنَّ وَتَعَلَّىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾

أي: إن الذين أشركوا مع الله تعالى غيره في عبادته لم يصفوه بصفاته الواجبة له، ولم ينفوا عنه ما لا يليق به، ولم يعظموا الله حق عظمتهم، ولم يقدسوه حق تقدسه، ولم يعرفوا قدره وحقه عليهم، بل فعلوا ما يناقض ذلك حين عبدوا معه ما لا ينفع ولا يضر، فساووا المخلوق - مع عجزه - بالخالق العظيم، وساووا بينه وبين الحجر والخشب، ولم يدركوا

عظمة الله تعالى وقدرته في العالم الأخروي، كما لم يدركوها في العالم الدنيوي، ولو اطلع الملحدون على عظيم ملك الله تعالى في الآخرة لعظموه حق عظمتهم، وقدرّوه حق قدره.

﴿وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ﴾ أي: أن الأرضين السبع كلها مع عظمتها وكثافتها، وكل ما فيها ومن فيها في مقدور الله تعالى، كالشيء الذي يقبض عليه القابض بجميع كفه.

﴿وَالسَّمَوَاتُ مَطْوِيَتٌ بِيَمِينِهِ﴾ أي: أن السموات السبع -بكواكبها وأفلاكها وكل من فيها وما فيها مع عظمتها وسعتها- مطوية بيمينه سبحانه، تحت قدرته وتصرفه، كما قال تعالى: ﴿يَوْمَ نَطْوِي السَّمَاءَ كَطَيِّ السِّجِلِّ لِلْكُتُبِ﴾ [الأنبياء: ١٠٤].

وفي هذا إثبات: القبضة، واليمين، والطّي، لله تعالى على وجه يليق بجلاله من غير تعطيل ولا تكيف ولا تشبيه؛ إذ ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ [الشورى: ١١].

﴿سُبْحَنَهُ وَعَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ أي: تنزه سبحانه وتعظيم وتقدس عن شرك المشركين، وإلحاد الملحدين، وضلال الضالين.

ومن الأحاديث الواردة في ذلك:

١- ما رواه أبو هريرة رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «يقبض الله الأرض، ويطوي السماء بيمينه، ثم يقول: أنا الملك، أين ملوك الأرض؟»^(١).

٢- وعن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: جاء خبر من الأحبار إلى رسول الله ﷺ فقال: يا محمد، إنا نجد أن الله يحمل السموات على إصبع، والأرضين على إصبع، يهزهن، والشجر على إصبع، والماء والثرى على إصبع، وسائر الخلق على إصبع، فيقول: أنا الملك، فضحك رسول الله ﷺ حتى بدت نواجذه (تصديقاً لقول الحبر) ثم قرأ رسول الله ﷺ الآية^(٢).

(١) «صحيح البخاري» برقم (٤٨١٢) وانظر: (٦٥١٩، ٧٣٨٢) و«صحيح مسلم» برقم (٢٧٨٧) من طريق الزهري عن سعيد بن المسيب عن أبي هريرة و«السنن الكبرى» للنسائي (٧٦٩٢) وابن ماجه (١٩٢) والبيهقي (٤٣).

(٢) الحديث في البخاري برقم (٤٨١١، ٧٤١٤، ٧٥١٣، ٧٤١٥، ٧٤٥١) ومسلم برقم (٢١٤٧، ٢٧٨٦).

وانظر: «المسند» (٣٧٨/١) برقم (٤٣٦٨) والنسائي في الكبرى برقم (١١٤٥٢)، وابن حبان (٧٣٢٦)،

وصحيح الترمذي (٢٥٨٤).

وقوله: (تصديقاً لقول الحبر) مدرج من الراوي، إبراهيم النخعي، وإنما ضحك النبي ﷺ استهزاء من قول الحبر؛ لأن اليهود يعتقدون بالتجسيم، فيظنون أن لله تعالى يد وأصابع، ولذلك فإن النبي ﷺ قرأ الآية من باب الرد عليه؛ لأن القصة مدنية، والآية نزلت قبل ذلك في مكة فكانت صالحة للرد على اليهود الذين تكلموا في صفات الله تعالى فألحدوا وجسموا وأتوا بكل تخليط، واليهود معروفون بعقيدة التجسيم.

قال سفيان بن عيينة: كل ما وصف الله به نفسه فتفسيره تلاوته، والسكوت عليه، ومذهب السلف: إمرارها كما جاءت من غير تكيف ولا تحريف ولا تعطيل.

٣- وعن مجاهد قال: قال ابن عباس ؓ: أتدري ما سعة جهنم؟ قلت: لا، قال: أجل! والله ما تدري، حدثني عائشة أنها سألت رسول الله ﷺ عن قوله تعالى: ﴿وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ وَالسَّمَوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ﴾ قالت: قلت فأين الناس يومئذ يا رسول الله؟ قال: «على جسر جهنم»^(١).

٤- وعن ابن عمر ؓ أن النبي ﷺ قرأ هذه الآية ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَتَّى قَدَرَهُ﴾ ذات يوم على المنبر، وهو يقول هكذا بيده ويحركها، يقبل بها ويذبر، يمجّد الرب نفسه: «أنا الجبار، أنا المتكبر، أنا الملك، أنا العزيز، أنا الكريم»، فرجف برسول الله ﷺ المنبر حتى قلنا: ليخرن به^(٢).

٥- وعن ابن عمر ؓ أن رسول الله ﷺ قال: «يطوي الله عز وجل السموات يوم القيامة، ثم يأخذهن بيده اليمنى، ثم يقول: أنا الملك، أين الجبارون؟ أين المتكبرون؟ ثم يطوي الأرض بشماله، ثم يقول: أنا الملك، أين الجبارون؟ أين المتكبرون؟»^(٣).

٦- وفي رواية عنه ؓ: «يأخذ الله ﷻ سماواته وأرضه بيديه، فيقول: أنا الله، ويقبض

(١) صحيح إسناده الألباني في صحيح سنن الترمذي (٢٥٨٩)، وصححه الحاكم (٤٣٦/٢).

(٢) «المسند» (٥٤١٤) إسناده صحيح على شرط مسلم ورجاله ثقات (محققوه) والبخاري (٧٤١٣) معلقاً، ومسلم (٢٧٨٨) و«السنن الكبرى» للنسائي (٧٦٩٥) وابن ماجه (١٩٨) وأبوداود (٤٧٣٢) وعبد بن حميد (٧٤٢) موصولاً.

(٣) «المسند» (٧٢/٢) والنسائي في «السنن الكبرى» برقم (٧٦٨٩) وابن ماجه برقم (٤٢٧٥) و«صحيح مسلم» ٢٤- (٢٧٨٨) وهذا لفظه، وصحيح البخاري (٧٤١٢).

أصابه ويسطها، أنا الملك»، حتى نظرتُ إلى المنبر يتحرك من أسفل شيء منه حتى إني لأقول: أساقط هو برسول الله ﷺ^(١).

٧- وأخرج الطبري بسند حسن من طريق علي بن أبي طلحة عن ابن عباس ؓ في قوله تعالى: ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ﴾ قال: هم الكفار الذين لم يؤمنوا بقدرة الله عليهم، فمن آمن أن الله على كل شيء قدير فقد قدر الله حق قدره، ومن لم يؤمن بذلك فلم يقدر الله حق قدره.

النفخ في الصور

٦٨- ﴿وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَعِقَ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَنْ شَاءَ اللَّهُ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنْظُرُونَ﴾^(٢)

هذه الآيات، وهي بصدد بيان عظمة قدرة الله تعالى يوم القيامة، تُفَصِّلُ أحوال الناس عند النفخة الأولى والثانية.

والنافخ هو الملك الموكل بالنفخ في الصور، وهو إسرافيل، أحد الملائكة المقربين وأحد حملة العرش.

والصور: هو القرن، أو البوق، الذي ينادى فيه الخلق وهم أحياء، فيموتون فرعاً وصعقاً، وينادى به الخلق وهم أموات، فتحلُّ الأرواح بأجسادهم.
سأل أعرابي رسول الله ﷺ عن الصور فقال: «قرن ينفخ فيه»^(٣).
والصعق: هو الموت.

والصور غيب، وهو قرن عظيم، لا يعلم حقيقته إلا رب العالمين.

وعند النفخة الأولى يُصعق -أي: يخترُ ميتاً- كل كائن حي في العالم العلوي والسفلي، وهذه النفخة هي نفخة الصعق ونفخة الفرع، وهذا معنى ﴿فَصَعِقَ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي

(١) هذا لفظ مسلم برقم ٢٥ - (٢٧٨٨).

(٢) من حديث عبد الله بن عمرو في «صحيح سنن الترمذي» (١٩٧٩، ٢٥٨٦) والنسائي في «السنن الكبرى»

(١١٣/٢) وابن حبان (٧٣١٢) وأبو داود (٤٧٤٢) والحاكم (٤٣٦/٢)، والمسند (٦٥٠٧، ٦٨٠٥) بإسناد

صحيح ورجال ثقات. (محققوه).

الْأَرْضِ ﴿ قَالَ تَعَالَى: ﴿إِلَّا مَنْ شَاءَ اللَّهُ﴾ أَي أَبْقَاهُ اللَّهُ حَيًّا مِنْ الْأَنْبِيَاءِ وَالشَّهَدَاءِ وَالْمَلَائِكَةِ،
وورد أن في المراد بمن شاء الله في الآية أقوال:

- ١- جاء عن سعيد بن جبير قال: هم الشهداء المقلدون أسياهم حول العرش^(١).
- ٢- وروى سعيد بن جبير وعطاء عن ابن عباس ؓ قال: هم الشهداء؛ لأنهم أحياء عند ربهم لا يصل إليهم الفزع.
- ٣- وجاء عن أنس ؓ أنهم: جبريل، وميكائيل، وإسرافيل، وملك الموت^(٢).
فلا يبقى بعد النفخة الأولى - على القول الأخير - إلا هؤلاء الأربعة، ثم يقبض الله روح ميكائيل، ثم روح ملك الموت، ثم روح جبريل، فيكون آخرهم موتًا جبريل، وقيل: المستثنى هو إسرافيل نفسه، ثم يموت بعد ذلك، ولعله الصواب.

ثم ينفخ إسرافيل في البوق نفخة ثانية مؤذنة بإحياء جميع الخلائق للحساب أمام ربهم، وإذا هم قيام من قبورهم ينظرون ماذا يفعل الله بهم، وهذا معنى ﴿ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنْظُرُونَ﴾.
ولما كان المقصود في سورة (النمل) الموعظة بفناء الدنيا، لم تذكر فيها النفخة الثانية، أما في هذه السورة، فالمقصود ببيان يوم القيامة، ولذا ذكر فيها النفختان.

وعبر عن النفخة الثانية بالنفخة الواحدة في قوله تعالى: ﴿فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ نَفْخَةٌ وَاحِدَةٌ ۚ وَجُمِلَتِ الْأَرْضُ وَالْجِبَالُ فَدُكَّتَا دَكَّةً وَاحِدَةً ۚ فَيَوْمَئِذٍ وَقَعَتِ الْوَاقِعَةُ ۚ﴾ [الحاقة].

فالنفخة الأولى: يكون بعدها الصعق والموت لجميع الأحياء.

والنفخة الثانية: يكون بعدها البعث والنشور، وإعادة الحياة مرة أخرى.

قال تعالى: ﴿فَإِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ ۚ فَإِذَا هُمْ بِالسَّاهِرَةِ ۚ﴾ [النازعات].

وقال سبحانه: ﴿يَوْمَ يَدْعُوكُمْ فَتَسْتَجِيبُونَ بِحَمْدِهِ وَتَظُنُّونَ إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا ۚ﴾ [إسراء].

وقال جلَّ شأنه: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ تَقُومَ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ بِأَمْرِهِ ۚ ثُمَّ إِذَا دَعَاكُمْ دَعْوَةً مِنَ الْأَرْضِ إِذَا أَنْتُمْ تَخْرُجُونَ ۚ﴾ [الروم].

وقال ﷻ: ﴿يَوْمَ تَشَقُّقُ الْأَرْضُ عَنْهُمْ سِرَاعًا ۚ ذَٰلِكَ حَشْرٌ عَلَيْنَا يَسِيرٌ ۚ﴾ [ق].

(١) أخرجه سعيد بن منصور (٢٥٦٨) والطبري (٢٠/٢٥٥).

(٢) أخرجه الطبري في حديث طويل (٢٠/٢٥٤) والبيهقي في «البعث».

النَّفْخُ فِي الصُّورِ يَكُونُ فِي يَوْمِ جُمُعَةٍ:

عن أوس بن أوس رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «إن من أفضل أيامكم يوم الجمعة، فيه خلق آدم، وفيه قبض، وفيه نفخة الصور، وفيه الصعقة، فأكثروا علي من الصلاة فيه فإن صلاتكم معروضة علي..»^(١).

والمراد بالصعقة: النفخة الأولى وهي الصوت الهائل الذي يفزع منه الإنسان.

أما المدة بين النفختين فهي أربعون

عن أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «بين النفختين أربعون» قالوا: يا أبا هريرة، أربعون يوماً؟ قال: أبيت، قالوا: أربعون سنة؟ قال: أبيت، قالوا: أربعون شهراً؟ قال: أبيت «ويبلى كل شيء من الإنسان إلا عَجَبُ ذَنَبِهِ، فمَنْهُ يُرْكَبُ الْخَلْقُ»^(٢).

وعلامات الساعة الكبرى تقع قبل النفخة الأولى:

كما في حديث عبد الله بن عمرو رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «يخرج الدجال في أمتي، فيمكث فيهم أربعين، لا أدري أربعين يوماً، أو أربعين عاماً، أو أربعين شهراً، أو أربعين ليلة، فيبعث الله عيسى ابن مريم، كأنه عروة بن مسعود الثقفي فيطلبه، فيهلكه الله، ثم يلبث الناس بعده سنين سبعا، ليس بين اثنين عداوة، ثم يرسل الله ريحا باردة من قبل الشام، فلا يبقى أحد في قلبه مثقال ذرة من إيمان إلا قبضته، حتى لو أن أحدهم كان في كبد جبل لدخلت عليه، ويبقى شرار الناس لتقوم عليهم الساعة»، قال: «ثم ينفخ في الصور فلا يسمعه أحد إلا أصغى له، وأول من يسمعه رجل يلوط حوضه فيصعق، ثم لا يبقى أحد إلا صُعِقَ، ثم ينزل الله مطراً، فتنبت منه أجساد الناس، ثم ينفخ فيه أخرى فإذا هم قيام ينظرون»^(٣).

(١) «المسند» (١٦١٦٢) إسناده صحيح، رجاله رجال الصحيح غير صحابية فمن رجال أهل السنن (محققوه) و«صحيح سنن أبي داود» (٩٢٥) والنسائي (١٣٧٣) وفي الكبرى (١٦٦٦) وابن خزيمة (١٧٣٣) وابن حبان (٩١٠) والحاكم (٢٧٨/١) وابن أبي شيبة (٥١٦/٢) وابن ماجه (١٠٨٥).

(٢) «صحيح البخاري» برقم (٤٨١٤، ٤٩٣٥) و«صحيح مسلم» برقم (٢٩٥٥) وغيرهما.

(٣) «المسند» (١٦٦/٢) (٦٥٥٥) إسناده صحيح على شرط مسلم ورجالهم ثقات (محققوه) و«صحيح مسلم» برقم (٢٩٤٠)، والنسائي في الكبرى (١١٦٢٩) وابن حبان (٧٣٥٣) والحاكم (٥٥٠/٤) وقال: هذا حديث صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه.

وأول من يرفع رأسه بعد النفخ محمد ﷺ:

عن أبي هريرة ؓ أن النبي ﷺ قال: «إني أول من يرفع رأسه بعد النفخة الآخرة، فإذا أنا بموسى متعلق بالعرش، فلا أدري: أكذاك كان، أم بعد النفخة»^(١).

وفي رواية: «فلا أدري: أكان فيمن صُعب فأفاق، أو كان ممن استثنى الله»^(٢).

والنفخ في الصور وشيك الوقوع:

عن أبي سعيد الخدري ؓ أن رسول الله ﷺ قال: «كيف أنعم وصاحب القرن التقم القرن، وحتى جبهته، وأضغى سمعه؛ ينتظر متى يؤمر أن ينفخ فينفخ؟!» قال المسلمون: فكيف نقول يا رسول الله؟ قال: «قولوا: حسبنا الله ونعم الوكيل، توكلنا على الله ربنا»^(٣).

سَبْعَةُ أَحْدَاثٍ جِسَامٍ مِنْ مَشَاهِدِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ

٦٩- ﴿وَأَشْرَقَتِ الْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا وَوُضِعَ الْكِتَابُ وَجِئَ^(٤) بِالنَّبِيِّينَ^(٥) وَالشُّهَدَاءُ وَقُضِيَ بَيْنَهُم بِالْحَقِّ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾^(٦٩)

صورت الآيات جلال الموقف يوم القيامة، وما يحدث فيه، في سبع نقاط:

- (أ) إشراف الأرض بنور ربها.
- (ب) وضع الكتاب.
- (ج) مجيء الأنبياء والشهداء.
- (د) القضاء العادل.

(١) «صحيح البخاري» برقم (٢٤١١، ٤٨١٣) و«صحيح مسلم» مطولاً (٢٣٧/٣) و«المسند» (٩٨٢١) والترمذي (٣٢٤٥) وابن ماجه (٤٢٧٤).

(٢) «صحيح البخاري» برقم (٣٤٠٨).

(٣) «سنن الترمذي» (٢٤٣١) وقال: هذا حديث حسن، وصححه الحاكم عن أبي هريرة (٥٥٩/٤) وابن جبان (١٠٥/٣) عن أبي سعيد، الإحسان (٨٢٣) وأحمد في المسند (١١٠٣٩، ١١٦٩٦) حديث صحيح لغيره كما قال محققوه، لأن فيه عطية العوفي وباقي رجاله ثقات رجال الشيخين، وأخرجه الحميدي (٧٥٤) وعبد بن حميد في المنتخب (٨٨٦) وابن ماجه (٤٢٧٣) وأبو يعلى (١٠٨٤).

(٤) قرأ هشام والكسائي ورويس بإشمام كسرة (جيء، وسيق، وقيل) للضم، ومعهم ابن ذكوان في (وسيق)، والباقون بالكسر الخالص.

(٥) قرأ نافع بهمزة بعد ياء مدية في (النبين)، يقرؤها (النبئين) والباقون بياء مشددة بدون همز.

(هـ) إعطاء كل ذي حق حقه . (و) سوق الكفار إلى جهنم .

(ز) سوق المتقين إلى الجنة

وقد تضمنت الآية الأولى أربعة مشاهد من هذه السبع وهي :

المشهد الأول: ﴿وَأَشْرَقَتِ الْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا﴾

أي: أضاءت الأرض وأنارت يوم القيامة، عند تجلّي الحق - جلّ وعلا - للخلائق لفصل القضاء بينهم، فأشراق الأرض يكون بسبب ما أقامه الله عليها من العدل بين الناس، وما قضى به من الحق بينهم .

والمراد بالأرض: أرض المحشر، أي: المكان الذي تقوم فيه الخلائق، وهي الساهرة، كما قال تعالى: ﴿فَإِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ ﴿١٧﴾ فَإِذَا هُمْ بِالسَّاهِرَةِ ﴿١٨﴾﴾ [النازعات].

وهي الأرض البيضاء النقية كما صح بذلك الخبر، وليست هي الأرض التي كانوا عليها في الدنيا، كما قال تعالى: ﴿يَوْمَ تَبْدُلُ الْأَرْضُ عَيْرَ الْأَرْضِ وَالسَّمَوَاتُ ﴿٤٨﴾﴾ [إبراهيم].

وإشراق الأرض معناه: انتشار الضوء عليها، كما قال تعالى: ﴿اللَّهُ نُورُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴿٣٥﴾﴾ [النور]. ويكون ذلك حين يتجلّى الله - سبحانه - لفصل القضاء بين خلقه .

قال قتادة: فما يتضارون في نوره، إلا كما يتضارون في الشمس في اليوم الصحو الذي لا دخن فيه^(١).

وقيل: هو نور ذاتي خاص، يخلقه الله تعالى في الأرض، إشارة إلى أنها خلصت من ظلمات أعمال المخلوقات، وهذا النور غير منبعث من كوكب ولا شمس^(٢).

والآية تشير إلى أن الأنوار الموجودة في الأرض تذهب كلها يوم القيامة، فقد أخبر الله تعالى أن الشمس تكور، والقمر يخسف، والنجوم تندثر، ويكون الناس في ظلمة، فتشرق عند ذلك الأرض بنور ربها، وينزل الله تعالى للفصل بين الخلائق، حيث يُنشئهم الله نشأة قوية يتمكنون معها من رؤية الله تعالى، ولا يحرقهم نوره، لأن الله تعالى لو كشف نوره

(١) أخرجه الطبري بسند حسن .

(٢) يُنظر: «تفسير التحرير والتوير» (٦٦/٢٣).

لأحرقَت سُبُحات وجهه ما انتهى إليه بصر الإنسان، كما صح ذلك في الحديث.

المشهد الثاني: ﴿وَوُضِعَ الْكِتَابُ﴾

أي: نُشرت الملائكة صحيفة كل فرد لينظر ما فيها من حسنات وسيئات، وأحضرت هذه الصحف للحساب، فيعطى أهل الجنة كتابهم بيمينهم، ويعطى أهل النار كتابهم بشمالهم ﴿فَأَمَّا مَنْ أُوْقِيَ كِتَابُهُ بِيَمِينِهِ ۖ ﴿٧﴾ فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا ۖ ﴿٨﴾ وَنَقَلُبُ إِلَىٰ أَهْلِهِ مَسْرُورًا ۖ ﴿٩﴾ وَأَمَّا مَنْ أُوْقِيَ كِتَابُهُ وَرَاءَ ظَهْرِهِ ۖ ﴿١٠﴾ فَسَوْفَ يَدْعُوا ثُبُورًا ۖ ﴿١١﴾ وَيَصْلَىٰ سَعِيرًا ۖ ﴿١٢﴾﴾ [الانشقاق].

وأعمال الخلق الأزلية مدونة في اللوح المحفوظ، وحضور الصحف في الموقف لإقامة الحجة على الخلق بما كسبته أيديهم، حيث تُنشر هذه الصحف ليقراً كل إنسان ما فيها من الحسنات والسيئات، فيقال للإنسان ﴿أَقْرَأْ كِتَابَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا ۖ ﴿١٤﴾﴾ [الإسراء] قال تعالى: ﴿وَوُضِعَ الْكِتَابُ فَتَرَىٰ الْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يُنَوِّلُنَا مَالَ هَذَا الْكِتَابِ لَا يَغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا وَلَا يَظِلُّمُ لِرَبِّكَ أَحَدًا ۖ ﴿٤٩﴾﴾ [الكهف].

المشهد الثالث: ﴿وَجَاءَ بِالتَّيِّنَتِ وَالشَّهَدَاءِ﴾

ليسأل الله النبيين عن تبليغ الرسالة، وعن إجابة أممهم لهم، كما قال تعالى: ﴿فَلَنَسْأَلَنَّ الَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْأَلَنَّ الْمُرْسَلِينَ ۖ ﴿١﴾﴾ [الأعراف].

وقال أيضاً: ﴿يَوْمَ يَجْمَعُ اللَّهُ الرُّسُلَ فَيَقُولُ مَاذَا أُجِبْتُمْ قَالُوا لَا عِلْمَ لَنَا ۖ ﴿١٠٩﴾﴾ [المائدة: ١٠٩].

أما الشهداء فهم الملائكة الحفظة، الموكلون بإحصاء وحفظ أعمال العباد، كما قال تعالى: ﴿وَحَاطَّتْ كُلُّ نَفْسٍ مَعَهَا سَائِقٌ وَشَهِيدٌ ۖ ﴿٦﴾﴾ [ق].

وهناك شهادة الأرض والأعضاء والجوارح، وهذه شهادة خاصة بكل عبد.

وهناك شهادة عامة، وهي شهادة أمة محمد ﷺ على سائر الأمم: أن رُسل الله قد بلغوهم رسالات ربهم لتقوم الحجة عليهم إذا أنكروا هذا التبليغ، كما جاء في قوله تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ ۖ ﴿١٤٣﴾﴾ [البقرة: ١٤٣].

ويؤتى من كل أمة بشهيد عليها، وهذه هي شهادة الأنبياء على أممهم، ويأتي الرسول ﷺ شاهداً على هذه الأمة.

قال تعالى: ﴿وَيَكُونُ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾ [البقرة: ١٤٣].

وقال سبحانه: ﴿فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَى هَؤُلَاءِ شَهِيدًا﴾ [النساء].

كما يؤتى بالشهداء في سبيل الله، فيشهدون للرسول بالبلاغ، ويشهدون على كل من كذب الرسل من الأمم والأفراد بالتكذيب.

المشهد الرابع: ﴿وَقُضِيَ بَيْنَهُم بِالْحَقِّ﴾

أي: وقضى رب العالمين بين العباد بالعدل التام، وصدر الحكم في معاملات الناس بعضهم مع بعض، من كل ظالم ومظلوم، وفي معاملاتهم مع خالقهم ﴿وَهُمْ لَا يَظْلُمُونَ﴾ شيئاً بنقص حسنات ولا زيادة سيئات، لأنه حساب صادر ممن لا يظلم مثقال ذرة، ومن هو محيط بكل شيء، يعلم مقادير الأعمال واستحقاقها للثواب والعقاب.

المشهد الخامس: كُلُّ نَفْسٍ تُوَفَّى جَزَاءَهَا

٧٠- ﴿وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَا يَفْعَلُونَ﴾ (٧٠)

ويوم القيامة تُوفَّى كل نفس جزاء عملها من خير أو شر وهو ﷻ أعلم بأفعال العباد من طاعة أو معصية، فلا حاجة إلى كتاب ولا إلى شاهد، ولكن الكتب والشهود تشهد يوم القيامة إلزاماً للحجة، وهو سبحانه لا يخفى عليه شيء من أعمال خلقه، إنه يعلم السر وأخفى، ومع ذلك فقد أحصت الملائكة عليهم أعمالهم، وشهد عليهم أعدل الشهداء، وحكم بينهم أعدل الحاكمين، فلم يسعهم إلا الإقرار والاعتراف، ومن ثم فإنهم يحمدون الله تعالى على حكمه بينهم، وعدله فيهم ﴿وَرَى الْمَلَائِكَةُ حَافِينَ مِنْ حَوْلِ الْعَرْشِ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَقُضِيَ بَيْنَهُم بِالْحَقِّ وَقِيلَ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ (٧٠).

المشهد السادس من مشاهد يوم القيامة: مَصِيرُ الْكُفَّارِ

ثم أخذ سبحانه يفصل أحوال أهل الشقاء وأهل السعادة، فقال في أهل النار:

٧١، ٧٢- ﴿وَسِيقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَىٰ جَهَنَّمَ زُرَّارًا ۚ إِذَا جَاءُوهَا فَتَحَتْ^(١) أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ

(١) قرأ عاصم وحزمة والكسائي وخلف بتخفيف تاء (فتحت) على الأصل في الفعل، والباقون بتشديدها للتكثير.

خَزَنَتَهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِ رَبِّكُمْ وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا قَالُوا بَلَى وَلَكِنْ حَقَّتْ
كَلِمَةُ الْعَذَابِ عَلَى الْكَافِرِينَ ﴿٧١﴾ قِيلَ ادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا فَبِمَا مَنَعَتْ أَلْسِنَتُهُمْ

وكما افترق الناس في الدنيا بين الإيمان والكفر، والتقوى والفجور، فإنهم يفترقون يوم
القيامة بين الجنة والنار:

أي: يساق الذين كفروا بالله ورسله إلى جهنم، جماعات متفرقة، بعضها يتلو بعضًا، لكل
جماعة منهم قائد، هو رأسهم في الكفر، يساقون كما تساق الإبل العطشى إلى موارد المياه،
قال تعالى: ﴿وَسَوْفَ الْمُجْرِمِينَ إِلَى جَهَنَّمَ وَرِدًّا﴾ ﴿٨١﴾ [مريم].

فيُدفعون دفعًا، لا متناهم من دخولها، ويُزجرون زجرًا، أفواجًا أفواجًا.

قال تعالى: ﴿يَوْمَ يُدْعَوْنَ إِلَى نَارِ جَهَنَّمَ دَعَا﴾ ﴿١٣﴾ [الطور].

فيساقون سوقا عنيفًا، يُضربون بالسياط الموجهة من الزبانية الشداد الغلاظ إلى جهنم،
دار العذاب والشقاء.

وقال سبحانه: ﴿كَأَنَّمَا يُسَاقُونَ إِلَى الْمَوْتِ وَهُمْ يَنْظُرُونَ﴾ [الأنفال: ٦].

وقال أيضًا: ﴿وَتَحْشُرُهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ عَلَى وُجُوهِهِمْ عِمًّا وَيُكَا وَصْمًا فَأَوْتَهُم جَهَنَّمَ كُلَّمَا خَبَتْ
زِدْنَاهُمْ سَعِيرًا﴾ [الإسراء: ٩٧].

ويكونون جماعات، على حسب درجات كفرهم، كل زمرة مع الزمرة التي تناسبها
وتشاكلها، حيث يبرأ بعضهم من بعض، ويلعن بعضهم بعضًا.

وهكذا، فمن كفر وصد عن سبيل الله، وقتل أو قاتل رسل الله، أو الدعاة إلى الحق،
لا يستوي عند الله بمن كفر ولم يتعرض للدعوة والدعاة.

وحين يصل الكفار إلى أبواب جهنم، يجدون الخزنة قد فتحو أبوابها السبعة،
لقدومهم، كما قال تعالى: ﴿لَهَا سَبْعَةُ أَبْوَابٍ لِكُلِّ بَابٍ مِنْهُمْ جُزْءٌ مَقْسُومٌ﴾ ﴿٤٤﴾ [الحجر].

ثم تخرجهم الخزنة، ويقولون لهم: كيف تعصون ربكم، وتجددون ربوبيته لكم، وقد
أنزل عليكم الكتب وأرسل لكم الرسل، يحذرونكم أهوال هذا اليوم، ويخوفونكم لقاء
ربكم، فيجيب أهل النار مُقرين بذنوبهم ﴿قَالُوا بَلَى﴾ قد جاءتنا رسل ربنا بالحق، وحذرونا

هذا اليوم، وأقاموا علينا الحجج والبراهين وأنذرونا بما سنلقاه، ولكننا كذبناهم وخالفناهم، ولمَّا تكبرنا وكفرنا حَقَّتْ علينا كلمة الله: ﴿لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْإِنْسَانِ أَجْمَعِينَ﴾ [السجدة: ١٣]. من كل من كفر بالله وجحد، ما جاءت به رسل الله.

وكما جاء في الآية الأخرى: ﴿فَحَقَّ عَلَيْنَا قَوْلُ رَبِّنَا إِنَّا لَذَائِقُونَ﴾ [الصفات].

ولكن هذا الاعتراف وهذا الندم لا ينفع؛ إذ فات وقت المهلة.

وقال تعالى: ﴿فَاعْتَرَفُوا بِذَنبِهِمْ فَسُحْقًا لِأَصْحَابِ السَّعِيرِ﴾ [الملك].

قال جلَّ شأنه: ﴿كُلَّمَا أَلْقَىٰ فِيهَا فَوْجٌ سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ﴾ [الملك: ٨].

وحينئذ يقال لأهل النار: ﴿ادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ﴾ فقد فتحت لكم لتدخلوها مهانين أذلاء، ما كُتِبَ فيها أبدًا لتصلوا سعيها فلا خروج لكم منها، جزاء إصراركم على الكفر، وهنا تقول لهم الخزنة: ﴿فَيْئَسَ الْمُتَكَبِّرِينَ﴾ أي: قُبِحَ مصير المتعاليين على الإيمان بالله ورسوله، والعمل بشرعه، وبئس المسكن الدائم لهم، وبئس المقر مقرهم، لأنهم تكبروا على الله، فكان جزاؤهم من جنس عملهم خزي وذل وإهانة.

المشهد السابع من مشاهد يوم القيامة: مصير المتقين:

وبعد بيان مصير الكافرين يأتي مصير المتقين:

٧٣- ﴿وَسِيقَ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ إِلَى الْجَنَّةِ زُمَرًا حَتَّىٰ إِذَا جَاءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلَامٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَادْخُلُوهَا خَالِدِينَ﴾ [٧٣]

أي: تسوق الملائكة مراكب الذين اتقوا ربهم فوحده وعملوا بطاعته، إلى دار الكرامة والرضوان، وفودًا وفودًا، في إعزاز وتشريف وتكريم، بحسب مراتب التقوى.

قال تعالى: ﴿يَوْمَ نَحْشُرُ الْمُتَّقِينَ إِلَى الرَّحْمَنِ وَفْدًا﴾ [مريم].

فسوق أهل النار: زجرهم وطردهم كما يساق المجرمون إلى السجون.

وحشُر أهل الجنة معناه: سوق مراكبهم على النجائب، كل زمرة مع الزمرة التي تناسب عملها وتشاكله، كما يفعل بالوافدين على الملوك، وعندما يصل المتقون إلى الجنات، تفتح لهم أبوابها، فترحب بهم الملائكة، ويحيونهم بالبشر والسرور ﴿حَتَّىٰ إِذَا جَاءُوهَا

وَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا ﴿١﴾ أي: والحال أن أبوابها تفتح لهم من باب التكريم والحفاوة ﴿٢﴾ وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلِّمٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ ﴿٣﴾ أي: طابت أحوالكم، وطُهرتم من دنس المعاصي والذنوب، وسَلِّمْتُمْ من كل الآفات ﴿٤﴾ فَأَدْخَلُوهَا خَالِدِينَ ﴿٥﴾ أي: ادخلوا الجنة ماكثين فيها أبداً.

وأبواب النيران تكون مفتوحة عند قدوم أهلها عليها، فيدخلونها بلا حفاوة ولا استقبال.

ولذا دخلت الواو على الثانية دون الأولى، وهي واو الحال، وليس فيها دلالة على زيادة أبواب الجنة على أبواب النار، كما قيل: إن العرب تعطف بالواو فيما فوق السبعة، فالتعطف لا يقتضي الزيادة.

أحاديث في المعنى:

- ١- ويستفاد عدد أبواب الجنة، مما صح عن رسول الله ﷺ من حديث سهل بن سعد ؓ أن رسول الله ﷺ قال: «في الجنة ثمانية أبواب، فيها باب يسمى الريان، لا يدخله إلا الصائمون»^(١).
- ٢- وفي حديث عمر بن الخطاب ؓ أن رسول الله ﷺ قال: «ما منكم من أحد يتوضأ فيسبغ الوضوء، ثم يقول: أشهد أن لا إله إلا الله، وأن محمداً عبده ورسوله إلا فتحت له أبواب الجنة الثمانية يدخل من أيها شاء»^(٢).
- ٣- وعن أبي هريرة ؓ أن رسول الله ﷺ قال: «من أنفق زوجين -أي: فرسان أو بعيران- من ماله في سبيل الله، دُعي من أبواب الجنة، وللجنة أبواب، فمن كان من أهل الصلاة دُعي من باب الصلاة، ومن كان من أهل الصيام دُعي من باب الريان، ومن كان من أهل الصدقة دُعي من باب الصدقة، ومن كان من أهل الجهاد دُعي من باب الجهاد».

(١) «المسند» (٣٣٣/٥) بنحوه، والبخاري برقم (١٨٩٦، ٣٢٥٧) وهذا لفظه، ومسلم (١١٥٢) مطول بدون ذكر ثمانية أبواب، والترمذي (٧٦٥) وقال: حسن صحيح غريب، والنسائي (١٦٨/٤) وابن ماجه (١٦٤٠) والطبراني (٥٧٥٤، ٥٧٦٤، ٥٧٩٥، ٥٩٧٠).

(٢) «صحيح مسلم» برقم (٢٣٤) وابن أبي شيبة (٤٠٣/١) و«المسند» (١٢١) برقم (١٧٣١٤) عن عقبة بن عامر، وأبو داود (١٦٩) و«السنن الكبرى» للنسائي (٩٩١٢) وأبو يعلى (١٨٠).

فقال أبو بكر: يا رسول الله، ما على أحد من ضرورة من أيها دُعي، فهل يُدعى أحد منها كلها؟ قال: «نعم، وأرجو أن تكون منهم»^(١).

٤- ومما ورد في وصف أهل الجنة ما جاء عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «أول زُفرة من أمتي يدخلون الجنة على صورة القمر ليلة البدر، والذين يلونهم على ضوء أشد كوكب دري في السماء إضاءة»^(٢).

ودخول الجنة يكون بعد اجتياز الصراط، والحبس على قنطرة بين الجنة والنار، حتى يقتصر ما بينهم من مظالم، فإذا هُذبوا ونُقُوا أُذن لهم في دخول الجنة، والنبى ﷺ هو أول من يقرع باب الجنة، وأول من يشفع لدخولها.

٥- ثبت في الصحيح: عن أنس أن رسول الله ﷺ قال: «أنا أكثر الأنبياء تبعًا يوم القيامة، وأنا أول من يقرع»^(٣) أي: يقرع باب الجنة.

وهو ﷺ أول شفيع في الجنة كما قال ﷺ: «أنا أول الناس يشفع في الجنة»^(٤).

٦- وفي حديث أنس قال: قال رسول الله ﷺ «أتى باب الجنة يوم القيامة فاستفتح، فيقول الخازن: من أنت؟ فأقول: محمد، فيقول: بك أمرت ألا أفتح لأحد قبلك»^(٥).

هذا: وقد وصفت السورة مصائر أهل الكفر وأهل التقوى يوم الحشر والنشر، وسكتت عن مصير أهل المعاصي من مرتكبي الكبائر؛ لأن مصيرهم إلى الجنة بعد عقابهم على

(١) البخاري (١٨٩٧) ومسلم (١٠٢٧) ومالك (٤٦٩/٢) وأحمد (٧٦٣٣) والترمذي (٣٦٧٤) والنسائي

(٢٢٣٧) وابن حبان (٣٠٨)، ومصنف عبد الرزاق (٢٠٠٥٢) وابن خزيمة (٢٤٨٠) والبخاري (١٦٣٥)

(٢) البخاري (٣٢٤٦) ومسلم (١٥/٢٨٣٤) جزء من حديثهما، و«المسند» (٢/٢٣٠) برقم (١٠١٢٢، ٧١٥٢)، (١٠٥٢٤) بنحوه، وابن ماجه (٤٣٣٣) وعبد الرزاق (٢٠٨٧٩) وأبو يعلى (٦٠٨٤) والترمذي (٢٥٢٢) عن أبي سعيد.

(٣) من حديث أنس في «صحيح مسلم» برقم ٣٣١- (١٩٦).

(٤) من حديث أنس في «صحيح مسلم» ٣٣٠- برقم (١٩٦).

(٥) «المسند» (١٢٣٩٧) إسناده صحيح على شرط مسلم، ومسلم (١٩٧) وعبد بن حميد (١٢٦٩) والبخاري (٤٣٣٩) والبيهقي في الدلائل (٤٨٠/٥).

معاصيهم التي لم يتوبوا منها، مما هو دون الشرك.

٧- وفي الحديث: عن عتبة بن غزوان رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «ما بين مصرعين من مصاريع الجنة مسيرة أربعين سنة، وليأتينَّ عليه يوم وهو كظيظ من الزحام»^(١).

٨- وعن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «أول زمرة تلج الجنة، صورهم على صورة القمر ليلة البدر، لا يبصقون فيها ولا يمتخطون، ولا يتغوطون، أنيتهم وأمشاطهم من الذهب والفضة، ومجامرهم من الألوة، ورشحهم المسك، ولكل واحد منهم زوجتان»^(٢).

قال علي بن أبي طالب رضي الله عنه: إذا سيقوا إلى الجنة، فإذا انتهوا إليها وجدوا عند بابها شجرة، يخرج من تحتها عINAN، فيغتسل المؤمن من إحداها، فيطهر ظاهره، ويشرب من الأخرى، فيطهر باطنه، وتلقاهم الملائكة على أبواب الجنة، يقولون: سلام عليكم طبتم فادخلوها خالدين^(٣).

وفي الآيات دليل على أن النار والجنة لهما أبواب تفتح وتغلق، وأن لكل منهما خزنة، ولكل منهما أهل يستحقها بخلاف سائر الأمكنة.

الْمُؤْمِنُونَ يَتَّبِعُونَ مَقَاعِدَهُمْ فِي الْجَنَّةِ

٧٤- ﴿وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي صَدَقَنَا وَعْدَهُ وَأَوْرَثَنَا الْأَرْضَ نَبَوْا مِنَ الْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَاءُ فَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ﴾^(٧٤).

وعندما يدخل المؤمنون الجنة، يحمدون الله تعالى على ما منحهم من النعيم الذي وعدهم به في مثل قوله تعالى: ﴿وَتِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾^(٧٥) [الزخرف].

وقوله سبحانه: ﴿تِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي نُورِثُ مِنْ عِبَادِنَا مَنْ كَانَ تَقِيًّا﴾^(٧٦) [مريم: ٦٣].

وهكذا يقول المؤمنون بعد دخولهم الجنة: الحمد لله الذي صدقنا ما وعدنا به، على السنة رسله بدخول الجنة والاستقرار فيها، والتمتع بنعيمها، وأورثنا أرض الجنة، وملكتنا

(١) من حديث عتبة بن غزوان في «صحيح مسلم» برقم (٢٩٦٧) من حديث طويل، و«المسند» (٣/٥) برقم (٢٠٠٢٥) عن معاوية بن حيدة، بإسناد حسن، وابن حبان (٧٣٨٨) والبيهقي في البعث والنشور (٢٣٩).

(٢) يُنظر: البخاري برقم (٣٢٤٥، ٣٣٢٧) ومسلم: (٢٨٣٤).

(٣) «تفسير الطبري» (٣٥/٢٤) وابن المبارك في «الزهد» برقم (١٤٥٠) والضياء المقدسي في «المختارة» (٥٤١).

إياها، لا ينازعنا فيها أحد، نتصرف فيها كيف نشاء، ونتنقل في الغرف والبساتين، ونتقلب في النعيم، لا يزاحمنا مزاحم، ولا ينازعنا منازع، ونعم ثواب المحسنين الذين أطاعوا ربهم، في زمن قليل، فنالوا خيراً عظيماً لا يفنى ولا يزول.

قيل^(١): إن أمة محمد ﷺ يدخلون الجنة قبل الأمم، فينزلون حيث يشاؤون، ثم تنزل الأمم بعدهم، ومصير أهل المعاصي من المؤمنين مصير المتقين -حسب درجات التقوى- بعد تطهيرهم وأخذ عقابهم على معاصيهم، وأهل الجنة يرثون عن أهل النار مقاعدهم في الجنة، ويرث أهل النار عن أهل الجنة مقاعدهم في النار.

الْحَمْدُ لِلَّهِ فِي بَدَايَةِ كُلِّ أَمْرٍ وَخَاتِمَتِهِ

٧٥- ﴿وَتَرَى الْمَلَائِكَةَ حَافِينَ مِنْ حَوْلِ الْعَرْشِ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَقُضِيَ بَيْنَهُمُ بِالْحَقِّ وَقِيلَ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ (٧٥)

أي: وترى -يا محمد- الملائكة محيطين بعرش الرحمن، مُخْلِفين به من كل جانب، مصطفين حوله، وهم يترهون ربهم عن كل ما لا يليق بجلاله، ويعظمونه، متلبسين بحمدهم له سبحانه، يسبحونه تسبيح تليد، لا تسبيح تعبد؛ لأنه لا تكليف في الآخرة، وقضى بين الخلائق بالحق والعدل، وحمدوا ربهم على هذه النهاية العادلة.

وبهذا يكون قد تم فصل القضاء بينهم، فأدخل أهل الجنة الجنة، وأهل النار النار.

وحمدت الملائكة والرسل والمؤمنون ربهم على عدله في قضائه، وعلى تمام نعمته عليهم، حمد فضل وإحسان، وحمد عدل وحكمة.

قال قتادة: ابتدأ الله ذكر الخلق بالحمد، فقال: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ﴾ [الأنعام: ١].

وختم استقرار الفريقين في منازلهم بالحمد، فنبه على تحميده في بداية كل أمر وخاتمته.

تم تفسير (سورة الزمر) والله والمنة

(١) قاله أبو سليمان الدمشقي كما في «تفسير زاد المسير».

تَفْسِيرُ سُورَةِ غَافِرٍ (٤٠)

مُقَدِّمَةُ السُّورَةِ

سورة (غافر) هي السورة الأربعون في ترتيب المصحف، والستون في ترتيب النزول، نزلت بعد سورة (الزمر) وقبل سورة (فصلت).

وعدد آياتها خمس وثمانون آية في المصحف الكوفي^(١).

وعدد كلماتها ألف ومئة وتسع وتسعون كلمة.

وعدد حروفها أربعة آلاف وتسع مئة وستون حرفاً.

وهي سورة مكية بلا استثناء على الصحيح.

قال سُمرة بن جُنْدُب: نزلت الحواميم جميعاً بمكة^(٢).

وقال مسروق: آل حم أنزلت بمكة^(٣).

وقال ابن عباس ؓ: أنزلت الحواميم السبع بمكة^(٤).

واستثنى الحسن قوله تعالى: ﴿وَسَيَحْجِجُ مُحَمَّدٌ رَّبِّكَ بِالْعَشِيِّ وَالْإِبْكَارِ﴾^(٥) الآية [٥٥].

واستثنى أبو العالية ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِيَّ آيَاتِ اللَّهِ يَغْيِرُ سُلْطَانِ أَتْلَهُمْ إِنَّ فِي صُدُورِهِمْ إِلَّا كِبْرًا مَا هُمْ بِبَالِغِيهِ﴾ الآية [٥٦] على زعم أنها نزلت في بعض يهود المدينة، جادلوا النبي ﷺ في أمر الدجال^(٦).

وقد قرأ أبو بكر ؓ قوله تعالى: ﴿أَنقَتُلُونَ رَجُلًا أَنْ يَقُولَ رَبِّيَ اللَّهُ﴾ الآية [٢٨] حين أذى نفر من قريش رسول الله ﷺ حول الكعبة، وكان ذلك سنة ثلاث قبل الهجرة، عندما اشتد

(١) وأربع وثمانون آية في المصحف المكي والمدني الأول والثاني والحمصي، واثنان وثمانون آية في المصحف البصري، وست وثمانون آية في العدد الدمشقي.

(٢) رواه الديلمي (٦٨١٣) وبذلك قال ابن عباس وابن الزبير ومسروق.

(٣) الطبري (١٢٥/٢١).

(٤) ابن الضريس (١٧) والنحاس (٦٤٩) والبيهقي (١٤٢/٧).

(٥)، (٦) يُنظَر: «تفسير التحرير والتنوير» (٧٥/٢٣) و«فتح القدير» للشوكاني (٤/٤٦٢).

إيذاء قريش للنبي ﷺ بعد وفاة أبي طالب، وخديجة . ﷺ

أسمائها

١- وسميت سورة (غافر) لقوله تعالى في أولها: ﴿غَافِرِ الذَّنْبِ﴾ واشتهرت بذلك .

٢- وتسمى سورة (الطَّوْل) لقوله تعالى فيها: ﴿ذِي الطَّوْلِ﴾ .

٣- وتسمى أيضاً سورة (المؤمن) لانفرادها بقصة مؤمن آل فرعون .

قال ابن الزبير: نزلت سورة (المؤمن) بمكة^(١) .

٤- وتسمى سورة حم (المؤمن)^(٢) .

سور آل حميم السبع:

وهي السور السبع التي تبدأ بقوله تعالى: ﴿حَمْدَ﴾ وقد رُبِّتْ في المصحف وفق ترتيب نزولها هكذا: غافر، فصلت، الشورى، الزخرف، الدخان، الجاثية، الأحقاف .

وتسمى سور آل حميم لاتحاد فواتحها، ومثلها السور المفتحة بقوله تعالى: ﴿طَسَّ﴾ و﴿طَسَّرَ﴾ يقال لها: طواسين بالنون تغليياً، وربما جُمعت على حواميم جاء ذلك عن ابن عباس، وابن مسعود، وسُمرة بن جندب، وغيرهم .

قال عبد الله بن مسعود ﷺ: آل حميم ديباج القرآن^(٣) .

وقال ابن عباس ﷺ: إن لكل شيء ثباب، ولثباب القرآن آل حميم، أو قال: الحواميم^(٤) .

ورأى رجل أبا الدرداء يبيني مسجداً فقال له: ما هذا؟ فقال: أُنْبِئُهُ من أجل آل حميم .

(١) أخرجه ابن مردويه كما في «الدر المنثور» (٥/١٣) .

(٢) وقد ورد بذلك حديث ضعيف عن أبي هريرة في «ضعيف سنن الترمذي» برقم: (٥٤٠) والبيهقي (٢٤٧٣) وابن نصر في «مختصر قيام الليل» ص ٦٨ وفيه: أن من قرأ آيتين من أولها وآية الكرسي حفظ بهما في صباحه ومساءه .

(٣) قال الألباني في «السلسلة الضعيفة» (٣٢/٨): إسناده صحيح، ورواه البيهقي (٢٤٧١) والحاكم (٢/

٤٣٧) وأبو عبيد (١٣٧) وابن الضريس (٢) وجاء مثله عن أنس . ﷺ

(٤) رواه أبو عبيد في «فضائل القرآن» ص ١٣٧ .

قال ابن كثير: وقد يكون هذا المسجد هو المسجد المنسوب إليه داخل قلعة دمشق^(١). وفي حديث أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «من قرأ آية الكرسي، وأول حم المؤمن عَصِمَ ذلك اليوم من كل سوء»^(٢).

موضوعات سورة (غافر)

وسورة (غافر) تخلو من الأحكام، وتقتصر على المواعظ والزواجر، والحديث عن الدار الآخرة، وهي سورة لا يلحق قارئها ملل ولا سامة.

والسورة تعالج قضية العقيدة: الإيمان والكفر، والحق والباطل، والهدى والضلال، والدعوة والتكذيب، كما تعالج قضية الطغيان والتجبر في الأرض بغير الحق.

وفي ثنايا ذلك تعرض آيات السورة لمصارع الغابرين، فيقول تعالى:

﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَالْأَحْزَابُ مِنْ بَعْدِهِمْ وَهَمَّتْ كُلُّ أُمَّةٍ بِرَسُولِهِمْ لِيَأْخُذُوهُ﴾ الآية [٥].

ويدعو الله عز وجل في هذه السورة إلى السياحة في الأرض للتأمل في أحوال المكذبين، ويأتي ذلك مرتين ﴿أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ كَانُوا مِنْ قَبْلِهِمْ﴾ الآية [٢١].

﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ﴾ الآية [٨٢].

وتُفرد السورة بالذكر، قصة موسى وفرعون، الذي زين الشيطان له سوء عمله، فطلب من وزيره هامان أن يبني له صرحًا ليطلّع إلى إله موسى!

وفي ثنايا القصة يبرز دور مؤمن آل فرعون في صورة مُحامٍ قدير يدافع عن قضايا الإيمان، فينصح الفراعنة بأن يوسف عليه السلام قد جاءهم قبل موسى ليهاجم الوثنية السائدة فيهم، ويدعوهم إلى التوحيد الخالص، فلم يزالوا في شك من دعوته حتى مات، فلما أرسل الله موسى من بعده تكررت المأساة، وامتدَّ حبل الكفر فيهم، كذلك يضل الله من هو مسرف مرتاب، ومن هو مسرف كذاب.

(١) «تفسير ابن كثير» (١٢٦/٧).

(٢) «سنن الترمذي» برقم: (٢٨٧٩) والبيهقي في «الشعب» برقم: (٢٢٤٥) وقد ضعفه الألباني في «ضعيف سنن الترمذي» برقم: (٥٤٠).

وتتحدث السورة عن يوم التلاقي والفصل والجزاء ﴿يَوْمَ هُمْ بَرْزُورٌ لَا يَخْفَىٰ عَلَى اللَّهِ مِنْهُمْ شَيْءٌ﴾ الآية [١٦].

﴿الْيَوْمَ تُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ لَا ظُلْمَ الْيَوْمَ﴾ الآية [٧].

وبعد بيان أن فرعون وآله يُعَرَّضُونَ على النار صباحًا ومساءً وهم في قبورهم، يقال عنهم يوم القيامة: ﴿أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ﴾ الآية [٤٦].

بعد ذلك يأتي بيان مفصل للتلاوم الذي يحصل يوم القيامة بين مَنْ يُعَذَّبُونَ في النار من الضالين والمضلين، أو الأتباع والمتبوعين، أو الرؤساء والمرؤوسين.

وتستعرض السورة جانبًا كبيرًا من دلائل التوحيد، ومنها: خلق السموات والأرض، والليل والنهار، وجعل الأرض قرارًا والسماء بناءً، وأطوار خلق الإنسان، والحياة والموت.

ثم يأمر الله سبحانه بالتوحيد في قوله تعالى: ﴿هُوَ الْحَيُّ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾ الآية [٦٥].

ويُنْهَى سبحانه عن الشرك في قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنِّي نُهَيْتُ أَنْ أَعْبُدَ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ الآية [٦٦].

ويُبين الله عز وجل أن عدم التوحيد هو السبب في خلود الكافر في النار، وأنه لا يوجد له سبيل إلى الخروج منها ﴿فَاعْرِفْنَا بِدُثُوبِنَا فَهَلْ إِلَىٰ خُرُوجٍ مِنْ سَبِيلٍ﴾ (١١) ذَلِكُمْ بِأَنَّهُ إِذَا دُعِيَ اللَّهُ وَحْدَهُ كَفَرْتُمْ وَإِنْ يُشْرَكَ بِهِ تُؤْمِنُوا ﴿[١١، ١٢].

وفي هذا السياق تَرِدُ آيات ثلاث، مفتحة باسم الجلالة تُعَرِّف وتذكّر بحق الله تعالى على خلقه:

١- ﴿اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَالنَّهَارَ مُبْصِرًا﴾ [٦١].

٢- ﴿اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ قَرَارًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً﴾ [٦٤].

٣- ﴿اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَنْعَامَ لِتَرْكَبُوا مِنْهَا وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ﴾ (٧٩) [٧٩].

وفي هذا الصدد أيضًا تعرض السورة خمس مرات لمن يكابر ويجادل بالباطل، ويتعامى عن وحدانية الله تعالى فيصفه الله تبارك وتعالى بالكفر والجدال بالباطل:

١- ﴿مَا يُجِدِلُ فِي آيَاتِ اللَّهِ إِلَّا الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ [٤].

- ٢- ﴿وَهَمَّتْ كُلُّ أُمَّةٍ بِرَسُولِهِمْ لِيَأْخُذُوهُ وَجَدَلُوا بِالْبَاطِلِ لِيُدْحِضُوا بِهِ الْحَقَّ﴾ [٥].
- ٣- ﴿الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ أَتَتْهُمْ كَبْرَ مَقْتًا عِنْدَ اللَّهِ﴾ [٣٥].
- ٤- ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ أَتَتْهُمْ إِنْ فِي صُدُورِهِمْ إِلَّا كِبْرٌ مَّا هُمْ بِيَلْفِيهِ﴾ [٥٦].

٥- ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ أَنَّهُمْ يُصْرِفُونَ﴾ [٦٩].

وجاء الأمر بالصبر في السورة مرتين للنبي ﷺ في الآيتين ٥٥ و ٧٧.

كما جاء فيها الأمر بالتوجه إلى الله تعالى بالدعاء مرتين في الآيتين ٦٥ و ٦٥.

وأسلوب سورة (غافر) أسلوب المحاجة، والاستدلال على صدق القرآن، وأنه منزل من عند الله تعالى، وإبطال ضلال المكذبين، وضرب المثل لهم بالأمم المكذبة، وترهيبهم من التمادي في ضلالهم، وترغيبهم في التبصّر ليهتدوا.

ويمكن تقسيم السورة إلى أربعة مقاطع:

المقطع الأول: من أول السورة إلى الآية الثانية والعشرين منها، وهو يشتمل على افتتاح السورة بصفات الله الحسنی وآياته العظمی.

ثم تعرض السورة إلى المجادلين في آيات الله مع وضوح الحق وسطوعه.

وتبيّن وظيفة الملائكة واستغفارهم للمؤمنين، أما الكفار فإن غضب الله تعالى وملائكته عليهم أكبر من مقتهم لأنفسهم بسبب وقوعهم في الشرك بالله تعالى، ومن ثمّ وجب عليهم إخلاص العبادة لله وحده قبل أن تُجزى كل نفس بما كسبت، وعلى غير المسلمين أن يعتبروا بما حدث لغيرهم من سوء المصير.

المقطع الثاني: وهو من الآية الثالثة والعشرين إلى الآية الخامسة والخمسين، وفيه الحديث عن رسالة موسى ﷺ، ومحاربة فرعون لها، ومناصرة مؤمن آل فرعون لدعوة التوحيد، ونصيحته لقومه ودفاعه عن موسى ﷺ وصّده بكلمة الحق في تلطّف وحذر، ثم في صراحة ووضوح، ويحذّرهم الرجل المؤمن من عقاب الله تعالى، ويذكّرهم برسالة يوسف ﷺ وموقفهم منها، ويبيّن مصيرهم في الدار الآخرة.

ويتناول هذا المقطع قصة المتخاصمين في النار، والحوار بين الضعفاء والمستكبرين، ويُختم بما بدأ به من الإشارة إلى رسالة موسى ﷺ، وأمر الله تعالى لنبيه ﷺ أن يصبر على أذى قومه، كما صبر موسى على أذى بني إسرائيل وفرعون وقومه.

المقطع الثالث: وهو من الآية السادسة والخمسين إلى الآية السابعة والسبعين، وهو مقطع يقيم مجموعة من الأدلة الكونية على وحدانية الله تعالى من السموات والأرض، والليل والنهار، وأطوار خلق الإنسان، في مواجهة المجادلين في آيات الله بغير حجة ولا برهان.

وفي ثنايا ذلك تُعرض آيات السورة إلى الأمر بتوحيد الله تعالى وذم الشرك وأهله.

ويُختم هذا السياق بما خُتم به المقطع السابق من أمر النبي ﷺ بالصبر على أذى قومه، فإن الله تعالى ناصره ومعذب الكاذبين به إن عاجلاً أو آجلاً.

أما المقطع الرابع والأخير فهو من الآية الثامنة والسبعين إلى نهاية السورة، وهو ثماني آيات، فيها مواساة للنبي ﷺ بأن الله تعالى قد أرسل قبله رسلاً كثيرين، وأن الله تعالى قد أهلك المكذبين لهم من سائر الأمم، فهم لم يصدقوا الرسل ولم يشكروا نعم الله عليهم، ولكي تعتبر هذه الأمة بغيرها فإن عليها أن تدرس التاريخ، وأن تتعرف على مصارع الأمم المكذبة لرسل الله، فإن سُنَّة الله تعالى ماضية في خلقه جميعاً بهلاك المكذبين ونجاة المؤمنين ﴿سُنَّتَ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ فِي عِبَادِهِ وَخَسِرَ هُنَالِكَ الْكَافِرُونَ﴾.



تَفْسِيرُ السُّورَةِ

١- ﴿حَدَّثَ﴾ (١)

الحاء والميم من الحروف الهجائية المقطعة، المفتوح بها بعض السور، الله أعلم بمراده منها، ومما قيل فيها: أنها للتنبيه على إعجاز القرآن، وبيان أنه مكوّن من الحروف التي ينطقها المعارضون للقرآن، ومع ذلك فقد عجزوا عن الإتيان بمثل أقصر سورة منه، وهي أيضًا لإيقاظ العقول، حتى يتأملوا ما في القرآن من الهداية ودلائل التوحيد... وقراءة ﴿حَدَّثَ﴾ عند لقاء العدو تكون سببًا في هزيمته:

عن أبي المهلب بن أبي صفرة قال: حدثني من سمع النبي ﷺ يقول ليلة الخندق: «إن يُيْتَمَ الليلة فقولوا: حم؛ لا يُنصرون»^(٢).

وعن البراء بن عازب ؓ أن رسول الله ﷺ قال: «إنكم تلقون عدوكم غدًا، فليكن شعاركم: حم لا يُنصرون»^(٣).

ثَمَانِي صِفَاتٍ وَصَفَ اللَّهُ تَعَالَى بِهَا نَفْسَهُ

٢، ٣- ﴿تَنْزِيلُ الْكِتَابِ مِنْ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ﴾ (٢) غَافِرِ الذَّنْبِ وَقَابِلِ التَّوْبِ شَدِيدِ الْعِقَابِ ذِي الطَّلَوِّ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ إِلَهُ الْمَصِيرِ ﴿٣﴾

ابتدأت السورة بالتنويه بشأن القرآن الجامع لأصول الدين، أي: أن هذا القرآن منزل من عند الله تعالى المستحق للعبادة دون سواه، على النبي محمد ﷺ وليس من عند أحد غيره.

ثم وصف الله تعالى سبحانه نفسه بثماني صفات، تليق بجلاله تعالى، فهو سبحانه:

(١) سكت أبو جعفر على حا، وميم سكتة لطيفة بدون تنفس، وقد انفرد الكوفي بعد (حم) آية، ولم يعدها غيره.

(٢) أخرجه عبد الرزاق في «المصنف» (٩٤٦٧) وأبي عبيد ص ١٣٧ وابن سعد (٧٢/٢) وابن أبي شيبة (١٤/٤١٤) وأبي داود (٢٥٩٧) والترمذي (١٦٨٢) والحاكم (١٠٧/٢) وصححه الألباني في «صحيح سنن أبي داود» (٢٢٦٢).

(٣) «صحيح الجامع الصغير» (٢٣٠٤) وابن أبي شيبة (٥٠٤/١٢) والنسائي في «السنن الكبرى» (١٠٤٥١) والحاكم (١٠٧/٢).

(أ) ﴿الْعَزِيزُ﴾ أي: الغالب لكل من سواه، الذي يقهر بعزته وقوته كل مخلوق، ولا يقدر عليه أحد.

(ب) وهو ﴿الْعَلِيمُ﴾ المطلع على أحوال خلقه، دون أن يخفى عليه شيء منها، ولا يند عن علمه شيء.

وفي هذا إشارة إلى أن منكري القرآن مهوورون، مغلوبون، وأن الله تعالى سيحاسبهم ويجازيهم وأنه ليس في وسع أحد أن يأتي بمثله، وفيها إشارة أيضًا إلى أنه سبحانه أعلم حيث يجعل رسالته.

(ج) وهو سبحانه ﴿غَافِرُ الذَّنْبِ﴾ لأوليائه، يستر ذنوب عباده، فيغفر للمستغفرين، ويعفو عن مستحقي العفو والغفران.

(د) ﴿وَقَائِلِ التَّوْبِ﴾ ممن تاب إليه، يقبل توبة: الكفار، والمنافقين، والعصاة والمبتدعين، ويفتح لهم أبوابه بلا حجاب، وفي هذا إشارة إلى أن من كفر بالقرآن ورسول الإسلام، يمكنه أن يتدارك نفسه بالتوبة.

وَمِنْ فَضْلِ اللَّهِ تَعَالَى أَنَّهُ يَجْمَعُ لِلْمُذْنِبِ التَّائِبِ بَيْنَ رَحْمَتَيْنِ:

الرحمة الأولى: أن الله تعالى يجعل توبته طاعة وقربى إلى الله سبحانه.

الرحمة الثانية: أن الله تعالى يمحو عن التائب الذنوب التي تاب منها وندم عليها، فيصبح كأنه لم يفعلها.

وكما غفر الله تعالى لمن تاب من الأمم السابقة وَقَبِلَ إِيْمَانَهُمْ يَغْفِرُ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَيَقْبَلُ مِنْكُمْ تَوْبَتَكُمْ وَيُشِيكُمْ عَلَيْهَا.

(هـ) وهو جلَّ شأنه ﴿شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ على من تجرأ على الذنوب من أعداء الله تعالى، ولم يتب منها، فطغى وتكبر، وأشرك بالله تعالى، أو كذب بالقرآن ورسول الإسلام، ثم لم يتب ولم يستغفر ويصدق بما أنزل الله على رسوله، بل كذب وجحد وأنكر.

وكثيرًا ما يقرن الله تعالى بين المغفرة والعقاب، كما في قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تَقَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [البقرة: ١٩٨] وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ الْعَذَابُ الْأَلِيمُ [الحجر: ٥٠].

وقوله سبحانه: ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِّلنَّاسِ عَلَى ظُلْمِهِمْ وَإِنَّ رَبَّكَ لَشَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ [الرعد: ٦].

وقوله جلَّ شأنه: ﴿اعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ وَأَنَّ اللَّهَ عَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [المائدة: ٩٨].

(و) ومن صفاته تعالى أنه ﴿ذِي الطَّوْلِ﴾ أي: صاحب الإناعام والإحسان الشامل والتفضل على عباده الطائعين، يضاعف لهم الحسنات، ويعطي بلا حساب بمحض فضله وإحسانه، وليس بموجب استحقاقهم لذلك.

(ز) ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾ لا معبود بحق إلا الله، لا رب غيره، ولا معبود سواه.

فهو وحده الذي تخلص له الأعمال، ويؤجبه له بالعبادة.

(ح) ﴿إِلَيْهِ الْمَصِيرُ﴾ أي: إليه مرجع جميع الخلائق يوم الحساب والجزاء لا إلى غيره، فيجازي كلاً بما يستحق، لا مهرّب من حسابه، ولا مفرّ من عقابه.

وقُدِّمَتِ المغفرة والتوبة على العقاب، إشارة إلى سعة فضل الله تعالى، وأن رحمته سبقت عذابه.

وهذه الصفات الثمانية مستلزمة لما اشتمل عليه القرآن الكريم من معاني، فالقرآن:

١- إما إخبار عن أسماء الله وصفاته وأفعاله، وقد جاء هذا في صفة العزة ﴿الْعَزِيزُ﴾.

٢- وإما إخبار عن الغيب الماضي والمستقبل، وقد جاء هذا في صفة ﴿الْعَلِيمُ﴾.

٣- وإما إخبار عن نعم الله وآلائه، وقد دل عليها قوله ﴿ذِي الطَّوْلِ﴾.

٤- وإما إخبار عن عقابه وعذابه، وقد دل عليه قوله ﴿شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾.

٥، ٦- وإما دعوة المذنبين إلى التوبة والإنابة ﴿غَافِرِ الذَّنْبِ وَقَابِلِ التَّوْبِ﴾.

٧- وإما إخبار بأنه سبحانه المألوه المعبود بمقتضى الأدلة العقلية النقلية^(١) ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾.

٨- وإما إخبار عن الثواب والعقاب والجنة والنار ﴿إِلَيْهِ الْمَصِيرُ﴾.

جاء رجل إلى عمر بن الخطاب رضي الله عنه، فقال: يا أمير المؤمنين، إني قتلت، فهل لي من

(١) استفتت في هذه المعاني من تفسير الشيخ عبدالرحمن السعدي للآيتين.

توبة؟ فقرأ عليه أول سورة غافر، وقال: اعمل ولا تيأس^(١).

وورد أن رجلاً -من أهل الشام- ذا بأس كان يفد على عمر رضي الله عنه، فافتقده، فسأل عنه، فقالوا: إنه يشرب الخمر، فكتب عمر إليه يقول: من عمر بن الخطاب إلى فلان، سلام عليكم، أما بعد: فإني أحمد إليك الله الذي لا إله إلا هو، ﴿غَافِرِ الذَّنْبِ وَقَابِلِ التَّوْبِ شَدِيدِ الْعِقَابِ ذِي الْقَوْلِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ إِلَيْهِ الْمَصِيرُ﴾ (٢).

ثم قال لأصحابه: ادعوا الله لأخيكم أن يُثبِّل بقلبه، وأن يتوب الله عليه، فلما وصل الرجل كتاب عمر أخذ يردده ويقول: غافر الذنب، وقابل التوب، شديد العقاب، قد حذرنى عقوبته، ووعدني أن يغفر لي، قال: فلم يزل يردها على نفسه حتى بكى، ثم نزع، فأحسن النزاع.

فلما بلغ عمر خبره قال: هكذا فاصنعوا، إذا رأيتم أحاكم زلَّ زلَّةً فسدوده ووقفوه، وادعوا الله أن يتوب عليه، ولا تكونوا أعواناً للشيطان عليه^(٢).

قال ثابت البناني: كنت مع مصعب بن الزبير في سواد الكوفة، فدخلت حائطاً أصلي ركعتين، فافتحت ﴿حَمْدَ﴾ (١) المؤمن، حتى بلغت ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ إِلَيْهِ الْمَصِيرُ﴾ فإذا رجل خلفي على بغلة شهباء، عليه مقطعات يمنية، فقال: إذا قلت: ﴿غَافِرِ الذَّنْبِ﴾ فقل: يا غافر الذنب اغفر لي ذنبي، وإذا قلت: ﴿وَقَابِلِ التَّوْبِ﴾ فقل: يا قابل التوب اقبل توبتي، وإذا قلت: ﴿شَدِيدِ الْعِقَابِ﴾ فقل: يا شديد العقاب لا تعاقبني، قال: فالتفت فلم أرَ أحداً... (٣).

لَا يُجَادِلُ فِي صَدَقِ الْقُرْآنِ إِلَّا كَافِرٌ: الْآيَةُ الْأُولَى عَنِ الْجَدَلِ فِي السُّورَةِ

٤- ﴿مَا يُجَادِلُ فِي آيَاتِ اللَّهِ إِلَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَا يَغْرُرُكَ تَقَلُّبُهُمْ فِي الْبَلَدِ﴾ (١)

وبعد أن وصف الله نفسه بثمانية أوصاف تُقرر وحدانيته تعالى، وتبين أن هذا القرآن من

(١) «تفسير الطبري» (٢٤/٢٧) وابن أبي حاتم.

(٢) يُنْظَرُ: «حلية الأولياء» (٤/٩٧) و«تفسير القرطبي» (١٥/٢٩١) و«تفسير ابن كثير» (٧/١٢٨) و«الدر

المنثور» (١٣/١١) وهو عن يزيد بن الأصم عند عبد بن حميد.

(٣) من «تفسير ابن كثير» للآية (٧/١٢٩) وهو عند ابن أبي شيبة (١٠/٤٤٨).

عند الله تعالى، يَبَيِّنُ سبحانه أن الذين آمنوا لا يجادلون في صدق نسبة القرآن إلى الله تعالى، ولا يجادلون في كل ما هو معلوم من الدين بالضرورة، ولا يجادل في صدق القرآن إلا الذين كفروا بوحداية الله تعالى، وبالرسول الخاتم، فقد آتَوْا بما هو أعظم من المجادلة في آيات الله، وهو الشرك بالله تعالى.

وهذه المجادلة بالباطل تعود على قوله تعالى: ﴿تَنْزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ﴾ (١) فهي متعلقة بالكتاب المنزل من عند الله العزيز العليم، المشتمل على براهين وحدانية الله تعالى، أما الجدل لاستيضاح الحق، ورفع اللبس، وردِّهم بالجدال إلى الحق فهو من أعظم القربات إلى الله تعالى. والجدال بالباطل من شأن أهل الكفر والشرك، أما المؤمنون فإنهم يخضعون للحق وينقادون له، ولا يعاندون ولا يكابرون.

ومع أن هذه السورة تسمى سورة (غافر) فإنها تعلن حرباً على الجدل السيئ، والمكابرة بالباطل، والتعامي عن الحق، وذلك في خمسة مواقع من السورة تكشف فيها الغطاء عن عنادهم وغرورهم.

ثم نهى سبحانه عن الاغترار بتردد الكفار في البلاد بأنواع التجارات والصناعات والمكاسب، ونعيم الدنيا وزهوتها وبهجتها وحضارتها، فقال: ﴿فَلَا يَغُرُّكَ تَقَلُّبُهمْ فِي الْإِلْدِ﴾.

ولا تظن أن إعطاء الكافر الدنيا، دليل على محبة الله تعالى له، أو أنه على الحق؛ فإن الحق يُنْظَرُ إليه من خلال الحقائق الشرعية، ويُوزَنُ به الناس، ولا يُوزَنُ الحق بالناس.

كما قال تعالى عن الكفار: ﴿ذَرَهُمْ يَأْكُلُوا وَيَتَمَتَّعُوا وَيُلْهِمُ الْأَمَلُ﴾ [الحجر: ٣].

فإنهم في ظل زائل، ومتاع قليل، وشقاء وقلق وتعاسة، وهم معاقبون عما قليل، وإن أمهلوا فإنهم لا يَهْمَلُونَ.

قال تعالى: ﴿لَا يَغُرُّكَ تَقَلُّبُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي الْإِلْدِ﴾ (١٦) ﴿مَتَّعَ قَلِيلٌ ثُمَّ مَأْوَهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمِهَادُ﴾ (١٧) [آل عمران].

وقال سبحانه: ﴿نُمَتِّعُهُمْ قَلِيلًا ثُمَّ نَضْطَرُّهُمْ إِلَىٰ عَذَابٍ غَلِيظٍ﴾ (٢٤) [لقمان].

قال أبو العالية: آيتان ما أشدهما على الذين يجادلون في القرآن.

الأولى: قوله تعالى: ﴿مَا يُجَدِّلُ فِي ءَايَاتِ اللَّهِ إِلَّا الَّذِينَ كَفَرُوا﴾.

والثانية: قوله سبحانه: ﴿وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِي الْكِتَابِ لِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ﴾ [البقرة: ١٧٦].

وفي صحيح مسلم: عن عبد الله بن عمرو بن العاص ؓ قال: هاجرت إلى رسول الله ﷺ يوماً، فسمع أصوات رجلين اختلعا في آية، فخرج ﷺ يُعْرِفُ في وجهه الغضب، فقال: «إنما هلك من كان قبلكم باختلافهم في الكتاب»^(١).

وعن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده ؓ قال: سمع رسول الله ﷺ قوماً يمارون، فقال: «إنما هلك من كان قبلكم بهذا، ضربوا كتاب الله ﷻ ببعضه ببعض، وإنما أنزل الكتاب يصدّق بعضه بعضاً، فلا تكذبوا بعضه ببعض، فما علمتم منه فقولوه، وما جهلتم منه فكلوه إلى عالمه»^(٢).

وعن أبي هريرة ؓ أن رسول الله قال: «جدالٌ في القرآن كفر»^(٣).

وفي لفظ: «مراء في القرآن كفر»^(٤).

والمراد الجدال والمراء الذي يكون بقصد التكذيب والتشكيك والإبطال، أما ما كان لكشف الحقيقة وبيان الحكم فليس بكفر.

الْمَعْرَكَةُ بَيْنَ الْحَقِّ وَالْبَاطِلِ قَائِمَةٌ عَلَى مَدَى التَّارِيخِ

٥- ﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَالْأَحْزَابُ مِنْ بَنِي إِسْرَءِيلَ وَهَمَّتْ كُلُّ أُمَّةٍ بِرَسُولِهِمْ لِيَأْخُذُوهُ وَجَدَلُوا بِالْبَاطِلِ لِيُدْحِضُوا بِهِ الْحَقَّ فَأَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ ﴿٥٠﴾﴾

(١) «صحيح مسلم» برقم: (٢٦٦٦).

(٢) «المسند» (٦٧٤١) قال محققوه: صحيح لغيره، وهذا إسناد حسن، وهو في مصنف عبدالرزاق (٢٠٣٦٧) والبخاري في خلق أفعال العباد ص (٤٣) والبيهقي في شعب الإيمان (٢٢٥٨).

(٣) «المسند» (٧٥٠٨) قال محققوه: إسناده صحيح على شرط الشيخين، وأخرجه ابن أبي شيبة (٥٢٩/١٠) وأبو يعلى (٥٨٩٧) والطبراني في الصغير (٥٧٤).

(٤) «صحيح سنن أبي داود» برقم: (٣٨٤٧) وهو في أبي داود برقم: (٤٦٠٣) والمسند (٧٨٤٨) قال محققوه: حديث حسن صحيح، وإسناده حسن، ابن علقمة حسن الحديث وقد توبع، وباقي رجاله ثقات رجال الشيخين وأخرجه البزار (٢٣١٣) كشف، والحاكم (٢٢٣/٢) وأبو نعيم في الحلية (٢١٢/٨).

(٥) أثبت يعقوب الباء في (عقاب) وصلاً ووقفاً، والباقون بحذفها في الحالين.

يَبِّنُ الْقُرْآنَ حَقِيقَةَ الْمَعْرَكَةِ بَيْنَ الْحَقِّ وَالْبَاطِلِ، وَالْإِيمَانِ وَالْكَفْرِ، وَبَيْنَ أَنْبِيَاءِ اللَّهِ وَالطَّغَاةِ الْمُسْتَكْبِرِينَ، فَذَكَرَ سُبْحَانَهُ أَنَّهُ يَوْجَدُ قَبْلَ هَؤُلَاءِ الْكَافِرِينَ الْمَجَادِلِينَ لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ بِالْبَاطِلِ -أُمَمٌ وَأَحْزَابٌ سَبَقَ لَهُمْ تَكْذِيبُ الرِّسْلِ وَمَجَادِلَتُهُمْ وَلَمْ يَقْبَلُوا مَا جَاءُوا بِهِ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ، كَمَا كَذَّبُوا وَجَادَلُواكَ- أَيُّهَا الرَّسُولُ- فَكَانَ عِقَابِي لَهُمْ أَنْ أَمَهَلْتُهُمْ، ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ.

﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ﴾ أَي: كَذَبَتْ أُمَمٌ رَسَلَهُمْ، قَبْلَ تَكْذِيبِ كُفَّارِ هَذِهِ الْأُمَّةِ لَكَ يَا مُحَمَّدُ، فَكُلُّ رَسُولٍ يَجِيءُ يَكْذِبُهُ طَغَاةُ قَوْمِهِ، وَيَتَحَزَّبُوا عَلَيْهِ، فَقَوْمُ نُوحٍ كَذَّبُوا نُوحًا، وَعَبَدُوا وَدًّا وَسُوءَاعًا وَيَعُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا، وَكَذَا مِنْ تَلَاهُمْ مِنَ الْأُمَمِ الَّذِينَ اشْتَرَكُوا فِي تَكْذِيبِ الرِّسْلِ.

﴿وَالْأَحْزَابُ مِنْ بَعْدِهِمْ﴾ فَقَوْمُ عَادٍ حِزْبٌ، وَقَوْمُ ثَمُودٍ حِزْبٌ، وَأَصْحَابُ الْأَيْكَةِ حِزْبٌ، وَقَوْمُ فِرْعَوْنَ حِزْبٌ... وَهَكَذَا اشْتَرَكِ كُلُّ حِزْبٍ فِي تَكْذِيبِ رَسُولِهِمْ وَرَدُّوا مَا جَاءَ بِهِ، مِنْ عِنْدِ اللَّهِ، وَتَجَمَّعُوا عَلَى الْبَاطِلِ لِيَنْصُرُوهُ، وَعَلَى الْحَقِّ لِيُدْحِضُوهُ.

وَلَمْ يَكْتَفِ هَؤُلَاءِ الْأَقْوَامُ بِتَكْذِيبِ أَنْبِيَائِهِمْ، بَلْ تَجَاوَزُوا ذَلِكَ إِلَى الْبُطْشِ بِهِمْ، وَالتَّامَرِ عَلَى قَتْلِهِمْ ﴿وَهَمَّتْ كُلُّ أُمَّةٍ بِرَسُولِهِمْ لِيَأْخُذُوهُ﴾ فَقَدْ قُتِلَ نَبِيُّ اللَّهِ زَكَرِيَّا، وَنَبِيُّهُ يَحْيَى، وَتَأَمَّرَ قَوْمُ ثَمُودَ عَلَى قَتْلِ نَبِيِّ اللَّهِ صَالِحٍ ﴿قَالُوا تَقَاسَمُوا بِاللَّهِ لَنُبَيِّتَنَّهُ وَأَهْلَهُ ثُمَّ لَنَقُولَنَّ لِوَلِيِّهِ مَا شَهِدْنَا مَهْلِكَ أَهْلِهِ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ﴾ [النمل].

وَتَأَمَّرَتْ قَرِيشٌ فِي دَارِ النَّدْوَةِ عَلَى قَتْلِ النَّبِيِّ ﷺ لَيْلَةَ الْهَجْرَةِ ﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ﴾ [الأنفال: ٣٠].

وَالِى جَوَارِ ذَلِكَ فَإِنَّهُمْ خَاصَمُوا رَسَلَهُمْ، وَجَادَلُوهُمْ بِالْبَاطِلِ لِيُظْلِمُوا بِهِ الْحَقَّ الَّذِي جَاءَهُمْ بِهِ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ ﴿وَجَادَلُوا بِالْبَاطِلِ لِيُدْحِضُوا بِهِ الْحَقَّ﴾.

عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ ؓ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: «مَنْ أَعَانَ بَاطِلًا لِيُدْحِضَ بِبَاطِلِهِ حَقًّا فَقَدْ بَرِئَ مِنْهُ ذِمَّةُ اللَّهِ وَذِمَّةُ رَسُولِهِ»^(١).

(١) «المعجم الكبير» للطبراني (٢١٥/١١) والحاكم في «المستدرک» (١٠٠/٤) موقوفًا وقال: صحيح الإسناد، وتعقبه الذهبي بأن فيه حنش الرجبى وهو ضعيف.

فهذه جرائم ثلاث: تكذيب الرسل، والتأمر عليهم، ومحاولة إبطال الحق الذي جاؤوا به، فكان عاقبة ذلك أن جعلهم الله عبرة للخلق، وعظة لمن يأتي بعدهم ﴿فَأَخَذْنَاهُمْ﴾ أخذ عزيز مقتدر، فدمرهم فأهلكتهم ﴿فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ﴾ لقد كان أشد العقاب وأفضعة، ما هو إلا رجفة، أو صيحة، أو حاصب، أو غرق، فإذا هم خامدون، وهذا ما تشهد به آثار مصارعهم الباقية، وتنطق به الأخبار والروايات.

فاحذروا أيها المكذبون لخاتم المرسلين في هذه الأمة، أن يصيبكم ما أصابهم. قال تعالى:

٦- ﴿وَكَذَلِكَ حَقَّتْ كَلِمَتُ^(١) رَبِّكَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّهُمْ أَصْحَابُ النَّارِ ﴿٦﴾﴾

أي: وكما أخذت هذه الأحزاب بالعذاب وأهلكتهم فقد حقت كلمة العذاب على جميع الكفار، مَنْ تقدم منهم وَمَنْ تأخر، فهم أصحاب النار.

وعقابهم ليس مقصوراً على عذاب الدنيا، بل هو ممتد إلى الآخرة، تحقيقاً لوعيد الله تعالى، ووعيده نافذ لا محالة ﴿وَكَذَلِكَ حَقَّتْ﴾ أي: وجبت ﴿كَلِمَتُ رَبِّكَ﴾ بالعذاب ﴿عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّهُمْ أَصْحَابُ النَّارِ﴾

وكلمات الله: هي الأقوال التي أوحى بها إلى الرسل بوعيد المكذبين بعذاب النار، وكما حق العقاب على الأمم السابقة التي كذبت رسلها، حق ذلك أيضاً على كل كافر إلى قيام الساعة، وفي هذا إشارة إلى أن الله تعالى لن يعاقب أمة محمد ﷺ بعذاب الاستئصال.

مَلَائِكَةُ الرَّحْمَنِ تَدْعُو لِلْمُؤْمِنِينَ بِظَهْرِ الْغَيْبِ

٧- ﴿الَّذِينَ يَحْمِلُونَ الْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِ، وَسَتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا فَاغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا وَاتَّبَعُوا سَبِيلَكَ وَقِهِمْ^(٢) عَذَابَ الْجَحِيمِ ﴿٧﴾﴾

وبعد ذم الجاحدين لآيات الله، المجادلين بالباطل، يأتي الثناء على المؤمنين، حيث

(١) قرأ نافع وابن عامر وأبو جعفر بإثبات ألف الجمع في (كلمة ربك)، والباقون بالإفراد، ووقف عليها الكسائي بالإمالة.

(٢) قرأ رويس بخلف عنه في ضم هاء (وقهم عذاب) وصلًا ووقفًا، والباقون بكسرهما في الحالين وهو الوجه الثاني لرويس.

قَيَّضَ اللَّهُ لَهُمْ مَلَائِكَتَهُ الْمُقَرَّبِينَ يَدْعُونَ لَهُمْ بِظَهْرِ الْغَيْبِ، وَهَذَا مِنْ أَسْبَابِ سَعَادَتِهِمْ الْخَارِجَةِ عَنْ كَسْبِهِمْ بِأَيْدِيهِمْ، حَيْثُ تَسْتَغْفِرُ لَهُمْ حَمَلَةُ الْعَرْشِ وَمَنْ حَوْلَهُ مِنَ الْمَلَائِكَةِ الْمُقَرَّبِينَ فِي الْمَنْزِلَةِ وَالْفَضِيلَةِ، وَتَدْعُوا لَهُمْ بِمَا فِيهِ صَلَاحُهُمْ فِي دِينِهِمْ وَدُنْيَاهُمْ.

وَقَدْ وَصَفَ اللَّهُ الْمَلَائِكَةَ بِأَنَّهُمْ مَدَاوِمُونَ عَلَى التَّسْبِيحِ بِحَمْدِ اللَّهِ، لَا يَمَلُّونَ وَلَا يَفْتَرُونَ، وَأَنَّهُمْ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ تَعَالَى، وَجَمِيعُ الْمَلَائِكَةِ تَوْمَنُ بِاللَّهِ بِالضَّرُورَةِ، فَالْإِيمَانُ رَاسِخٌ ثَابِتٌ فِي نَفْسِهِمْ، وَهُوَ يَتَجَدَّدُ بِتَجَدُّدِ دَلَائِلِهِ وَأَثَارِهِ.

وَقَدْ جَاءَ وَصْفُ الْمَلَائِكَةِ بِالْإِيمَانِ تَنْبِيْهًا عَلَى فَضْلِهِ، وَتَنْوِيْهًا بِشَأْنِهِ وَشَرْفِهِ، وَتَعْرِضًا بِغَيْرِ الْمُؤْمِنِينَ حَيْثُ لَمْ يَحْصُلْ لَهُمْ شَرَفُ الْإِيمَانِ.

قَالَ تَعَالَى: ﴿الَّذِينَ يَحْمِلُونَ الْعَرْشَ﴾ أَيَّ عَرْشِ الرَّحْمَنِ، وَهُوَ سَقْفُ الْمَخْلُوقَاتِ وَأَعْظَمُهَا وَأَوْسَعُهَا، وَأَقْرَبُهَا مِنَ اللَّهِ تَعَالَى، وَالْعَرْشُ أَعْظَمُ الْخَلْقِ، وَقَدْ أَضَافَهُ اللَّهُ تَعَالَى إِلَى نَفْسِهِ فِي قَوْلِهِ: ﴿وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمَنِيَّةٌ﴾ [الحاقة: ١٧].

وَحَمَلَةُ الْعَرْشِ هُمْ أَعْلَى طَبَقَاتِ الْمَلَائِكَةِ، وَهُمْ الْمَوْكَلُونَ بِرَفْعِ الْعَرْشِ الْمُحِيطِ بِالسَّمَوَاتِ، وَكَذَلِكَ الْمَلَائِكَةُ الَّذِينَ هُمْ حَوْلَ الْعَرْشِ، فَهُمْ فِي دَرَجَتِهِمْ فِي الْمَزِيَّةِ وَالْأَفْضَلِيَّةِ.

وَاخْتِيَارَ اللَّهُ تَعَالَى لَهُمْ لِحْمَلِ عَرْشِهِ، يَدُلُّ عَلَى أَنَّهُمْ أَفْضَلُ أَجْنَاسِ الْمَلَائِكَةِ.

. عَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: «أُذِنَ لِي أَنْ أُحَدِّثَ عَنْ مَلَكٍ مِنْ مَلَائِكَةِ اللَّهِ مِنْ حَمَلَةِ الْعَرْشِ، مَا بَيْنَ شَحْمَةِ أُذُنِهِ إِلَى عَاتِقِهِ مَسِيرَةَ سَبْعِ مِائَةِ عَامٍ»^(١).

وَمِمَّا وَرَدَ فِي تَسْبِيحِ حَمَلَةِ الْعَرْشِ أَنْ أَرْبَعَةً مِنْهُمْ يَقُولُونَ: سُبْحَانَكَ وَيُحْمَدُكَ عَلَى حِلْمِكَ بَعْدَ عِلْمِكَ، وَأَرْبَعَةً مِنْهُمْ يَقُولُونَ: سُبْحَانَكَ وَيُحْمَدُكَ عَلَى عَفْوِكَ بَعْدَ قُدْرَتِكَ^(٢).

وَعَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ ؓ قَالَ: حَمَلَةُ الْعَرْشِ مَا بَيْنَ كَعْبِ أَحَدِهِمْ إِلَى أَسْفَلِ قَدَمِيهِ مَسِيرَةَ خَمْسِ مِائَةِ عَامٍ، وَذَكَرَ أَنَّ خُطْوَةَ مَلِكِ الْمَوْتِ مَا بَيْنَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ^(٣).

(١) يُنْظَرُ: «صَحِيحُ سَنَنِ أَبِي دَاوُدَ» بِرَقْمٍ: (٣٩٥٣) وَابْنِ بَيْهَقِي (٨٤٦)، وَصَحْحُهُ الْأَلْبَانِي أَيْضًا فِي مَشْكَاتِ الْمَصَابِيحِ (٥٧٢٨) وَفِي السَّلْسَلَةِ الصَّحِيحَةِ (١٥١).

(٢) جَاءَ ذَلِكَ عَنْ هَارُونَ بْنِ رِثَابٍ فِي «الشَّعْبِ» لِلْبَيْهَقِيِّ (٣٦٤) وَأَبِي الشَّيْخِ (٤٨٣).

(٣) أَخْرَجَهُ الْبَيْهَقِيُّ فِي «الْأَسْمَاءِ وَالصِّفَاتِ» بِرَقْمٍ: (٨٤٨) وَقَالَ مُحَقِّقُهُ: إِسْنَادُهُ صَحِيحٌ عَلَى شَرْطِ مُسْلِمٍ.

وجاء في الشُّنَّة أن حملة العرش في الدنيا عددهم أربعة^(١).

وأنهم في الآخرة يكونون ثمانية كما نطقت بذلك آية سورة الحاقة.

والعرش غيب، ولا نعلم عنه إلا اسمه، ومن حول العرش هم أيضاً ملائكة مقربون يحفون به، كما قال تعالى: ﴿وَتَرَى الْمَلَائِكَةَ حَافِينَ مِنْ حَوْلِ الْعَرْشِ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ﴾ [الزمر: ٧٥].

ولا يعلم حقيقة عدد الملائكة إلا الله سبحانه ﴿وَمَا يَعْلَمُ جُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ﴾ [المدثر: ٣١].

ومن فضل الله تعالى على عباده المؤمنين وتكريمه لهم أن جعل من وظائف حملة العرش ومن يطوفون حوله: الاستغفار للمؤمنين، والدعاء لهم بالخير، وهم يهللون ويكبرون ويسبحون الله، فهم ﴿يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ﴾ أي: ينزهون الله تعالى عن كل نقص، ويلهجون بحمده والثناء عليه، وهذا التسبيح من الملائكة يجري منهم مجرى النفس، فهو سجيّة فيهم.

﴿وَيُؤْمِنُونَ بِهِ﴾ أي: أن الملائكة يؤمنون بالله تعالى حق الإيمان.

ومن تسبيح الملائكة: سبحان ذي العزة والجبروت، سبحان ذي الملك والملكوت، سبحان الحي الذي لا يموت، سبوح قدوس رب الملائكة والروح، سبحانك وبحمدك، ما أعظمك وأجلّك، أنت الله لا إله غيرك، سبحانك اللهم وبحمدك، لك الحمد على عفوك بعد قدرتك، سبحانك اللهم وبحمدك، لك الحمد على حلمك بعد علمك.

ولأن الثناء على الله تعالى والتوجه إليه بسعة علمه ورحمته يكون مقدماً على الدعاء فإن الملائكة افتتحت دعاءها للمؤمنين بالثناء على الله ﴿رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَحْمَةً وَعِلْماً﴾ أي: ياربنا، يا من وسعت رحمتك، ووسع علمك كل شيء تقبل دعاءنا، وفي هذا تعليم للعباد أن يبدؤوا دعاءهم باستمطار رحمة الله تعالى وإنعامه عليهم، ويسألونه بأسمائه وصفاته، والثناء عليه:

(١) يُنْظَرُ: «المسند» (٢٥٦/١) و«مجمع الزوائد» (١٢٧/٨).

الدُّعَاءُ الْأَوَّلُ: طَلَبُ غُضْرَانِ الذُّنُوبِ لِلْمُؤْمِنِينَ

وبعد هذه التوطئة لمناجاة الله تعالى، والتوسل إليه بأسمائه وصفاته يطلب الملائكة من ربهم أن يعفو سبحانه عن تاب من خلقه وأتاب إليه، فيستغفرون للمؤمنين من عباده قائلين: ﴿فَاعْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا وَاتَّبَعُوا سَبِيلَكَ﴾ أي: اغفر يا ربنا، لمن تاب من الشرك والمعاصي، وسلك الطريق الذي أمرتهم به وهو الإسلام.

والتوبة: هي الإقلاع عن المعاصي، وأعظمها الإشراك بالله، ومعلوم أن الملائكة لا تستغفر لكافر، وهذا لا يمنع طلب الهداية لغير المسلم.

واتباع سبيل الله: هو العمل بما أمرهم به، واجتناب ما نهاهم عنه.

الدُّعَاءُ الثَّانِي: طَلَبُ النِّجَاةِ لِلْمُؤْمِنِينَ مِنَ النَّارِ

وجنبهم يا ربنا، عذاب النار وأهوالها ﴿وَقِهِمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ﴾. وهذا كدعاء عباد الرحمن في قولهم: ﴿رَبَّنَا أَصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ إِنَّكَ عَذَابُهَا كَانَ غَرَامًا﴾ [الفرقان].

قال مطرف بن الشخير: أنصح العباد للعباد الملائكة، وأغش العباد للعباد الشياطين، وتلا هذه الآية^(١).

وطلب رجل من بعض الصالحين أن يدعو له ويستغفر له، فقال له: تُبِّ واتبع سبيل الله يستغفر لك من هو خير مني، وتلا هذه الآية^(٢).

والملائكة يؤمنون على دعاء المسلم لأخيه المسلم بظهر الغيب:

كما في حديث أبي الدرداء رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «إذا دعا المسلم لأخيه بظهر الغيب قال الملك: آمين، ولك بمثله»^(٣).

وبعد أن سألت الملائكة ربها مغفرة الذنوب للمؤمنين ونجاتهم من عذاب الجحيم، توجهت إلى الله تعالى بالدعاء الثالث.

(١) «تفسير ابن عطية» (٥٤٨/٤).

(٢) «تفسير ابن عطية» (٥٤٨/٤).

(٣) «صحيح مسلم» برقم: (٢٧٣٢).

الدُّعَاءُ الثَّالِثُ: طَلَبُ دُخُولِ الْجَنَّةِ لِلْمُؤْمِنِينَ

٨- ﴿رَبَّنَا وَأَدْخِلْهُمْ جَنَّاتٍ عَدْنٍ الَّتِي وَعَدْتَهُمْ وَمَنْ صَلَحَ مِنْ آبَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ ﴿٨﴾

أي: وأدخلهم يا ربنا جنات النعيم ينعمون بالإقامة فيها إقامة دائمة، كما وعدتنا على لسان رسلك ﴿رَبَّنَا وَءَاثِنَا مَا وَعَدْتَنَا عَلَى رُسُلِكَ وَلَا تُخْزِنَا يَوْمَ الْقِيَمَةِ إِنَّكَ لَا تُخْلِفُ الْمِيعَادَ﴾ ﴿١٤٦﴾ [آل عمران]. ﴿و﴾ أدخل معهم يا ربنا ﴿مَنْ صَلَحَ﴾ بالإيمان والعمل الصالح ﴿مِنْ آبَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ﴾ لِيَتَمَّ بهم الأنس والفرح والسرور.

فالملائكة يدعون ربهم أن يجعل مع المؤمنين أقاربهم من الأصول والفروع والزوجات، يكونون معهم في درجاتهم في الجنة، في مساكن متقاربة لتقرَّ بهم الأعين، ويتم بهم السرور، كما قال تعالى: ﴿هُمْ وَأَزْوَاجُهُمْ فِي ظِلَالٍ عَلَى الْأَرَائِكِ مُتَكُونَ﴾ ﴿٥١﴾ [يس].

وقال سبحانه: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُمْ بِإِيمَانٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَمَا أَلَتْنَاهُمْ مِنْ عَمَلِهِمْ مِنْ شَيْءٍ﴾ [الطور: ٢١].

﴿إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ﴾ القاهر لكل شيء، فبعزته تُغفر الذنوب وتُستر العيوب ﴿الْحَكِيمُ﴾ في تدبير شؤون خلقه، وهو الذي يضع الأمور في مواضعها، ومن ذلك تحقيق ما وعدنا به على ألسنة رسله من مغفرة الذنوب وستر العيوب.

قال سعيد بن جبير: يدخل الرجل الجنة قبل قرابته فيقول: أين أبي؟ أين أمي؟ أين زوجتي؟ فيلحقون به لصلاحهم وطلبه إياهم، وهذه دعوة الملائكة^(١).

الدُّعَاءُ الرَّابِعُ: طَلَبُ وَقَايَةِ الْمُؤْمِنِينَ مِنَ الذُّنُوبِ وَعَوَاقِبِهَا

٩- ﴿وَقِهِمُ السَّيِّئَاتِ^(٢) وَمَنْ تَقِ السَّيِّئَاتِ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمْتَهُ وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ ﴿٩﴾

(١) «تفسير ابن عطية» (٤/٥٤٨).

(٢) قرأ الأزرق عن ورش بثلاثة أوجه المد في همزة (وقهم السيئات)، والباقون بالقصر، وقرأ أبو عمرو وروح ورويس بخلف عنه بكسر الهاء والميم وصلًا من (وقهم) وحمزة والكسائي وخلف ورويس في وجهه الثاني بضم الهاء والميم وصلًا، وكل القراء يسكن الميم ويكسر الهاء عند الوقف إلا رويسًا فهو يضم الهاء في الحالين.

وبعد أن سألت الملائكة ربها النعيم الدائم للمؤمنين، أعقبوا ذلك بسؤال النجاة لهم من العذاب، فقالوا: ﴿وَفِيهِمُ السَّيِّئَاتُ﴾ أي: جنبهم ارتكاب الذنوب والمعاصي، واصرف عنهم يا ربنا سوء عاقبة أعمالهم السيئة، فلا تؤاخذهم بها، فإن من تصرف عنه سوء العواقب يوم الحساب والجزاء فقد حفظته ونجّيته من العقوبة.

﴿وَمَنْ تَقِ السَّيِّئَاتِ يَوْمَئِذٍ﴾ أي: ومن حفظته من عواقب الوقوع في الخطايا يوم القيامة ﴿فَقَدْ رَحِمْتَهُ﴾ من عذابك برحمتك الواسعة، وأدخلته جنتك، وكل من وقى السيئات يوم القيامة فقد نالته رحمة الله تعالى، لأن رحمته لا يمنعها إلا ذنوب العباد وسيئاتهم، ﴿وَذَلِكَ﴾ أي عدم ارتكاب المحرمات وحصول رحمة الله تعالى ﴿هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ أي: الظفر الذي لا مثيل له، وهو فوز لا ينقطع، ولا يتنافس المتنافسون في شيء أحسن منه.

وبهذا فإن الملائكة تكون قد دعت للمؤمنين بأربع دعوات وهي: طلب المغفرة لهم، ووقايتهم عذاب الجحيم، ودخولهم الجنة ومن صلح من أقاربهم، وأن يصرف الله عنهم سوء العاقبة.

وقد تضمن هذا الدعاء من الملائكة: التوسل إلى الله تعالى بأسمائه وصفاته، وإقرارهم بربوبية الله تعالى وإلهيته، ومحبتهم لمن يحبهم الله، وهم المؤمنون، كما تضمن الدعاء بما يناسب حال المدعو لهم بحصول الرحمة، وإزالة أسباب المعاصي، وسعادتهم مع ذويهم في جنات النعيم.

الْحَسْرَةُ وَالنَّدَامَةُ تَحِلُّ بِالْكَافِرِينَ يَوْمَ التَّنَادِ

وبعد بيان حال المؤمنين أخبر سبحانه عن حال الكفار لبيان الفرق، فقال تعالى:

١٠- ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنَادَوْنَ لَمَقْتُ اللَّهِ أَكْبَرُ مِنْ مَقْتِكُمْ أَنْفُسَكُمْ إِذْ تُدْعَوْنَ إِلَى الْإِيمَانِ فَتَكْفُرُونَ﴾ (١٠)

المقت: هو احتقار النفس وبغضها، والكفار على اختلاف أنواعهم، ممن كفر بالله، أو كفر برسول الله، أو كفر بما أنزل الله عليه، أو كفر باليوم الآخر وما فيه من بعث وحساب وجزاء، أو كفر بملائكة الله وكتبه ورسله، أو كفر بقضاء الله وقدره، هؤلاء وأمثالهم إذا دخلوا النار وأقروا أنهم مستحقون لها، يمقتون أنفسهم أشد المقت، ويبغضونها أشد

البغض، فكل واحد منهم يبغض نفسه ويبغض غيره، وإذا مقت الكفار أنفسهم عند رؤية النار نادتهم ملائكة العذاب على وجه التوبيخ قائلين لهم: **إِنْ مَقَّتَ اللَّهُ لَكُمْ -وَأَنْتُمْ فِي الدُّنْيَا- حِينَ أَعْرَضْتُمْ عَنِ الْإِيمَانِ أَكْبَرَ مِنْ مَقَّتِكُمْ أَنْفُسَكُمْ -الآن- عِنْدَ رُؤْيَا الْعَذَابِ.**

وهكذا: يطوي السياق استجابة دعاء الملائكة للمؤمنين، ليقابل ذلك بيان ما سيحل بالمشركون من الحسرة والندامة والمقت، يوم تُوفَى كل نفس ما كسبت، فيقول تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ الجاحدين لوحداية الله تعالى والمكذبن لرسول الله ﷺ ﴿يُنَادَوْنَ﴾ أي: تناديهن الملائكة تليغاً عن رب العزة جلّ وعلا من مكان بعيد، تناديهن وهم في جهنم، قائلين لهم: ﴿لَمَقَّتْ أَللَّهُ﴾ أي: شدة بغضه لكم، وغضبه عليكم، حين طَلَبَ مِنْكُمْ الْإِيمَانَ بِاللَّهِ تَعَالَى فِي الدُّنْيَا وَاتَّبَعَ رِسْلَهُ فَأَيَّبْتُمْ ﴿أَكْبَرُ مِنْ مَقَّتِكُمْ أَنْفُسَكُمْ﴾ في الآخرة، ﴿إِذْ تُدْعَوْنَ﴾ أي: حين دُعِيتُمْ وَأَنْتُمْ فِي الدُّنْيَا ﴿إِلَى الْإِيمَانِ فَتَكْفُرُونَ﴾.

وهذا البغض أكبر من بغضكم لأنفسكم الآن، بعد أن أدركتم أنكم تستحقون سخط الله وعذابه، وكان السبب في ذلك أنكم منعتم أنفسكم من الإيمان في الدنيا ورضيتم بالكفر، فَحَرَمْتُمْ أَنْفُسَكُمْ مِنْ أَسْبَابِ النِّجَاةِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، وَأَوْقَعْتُمُوهَا فِيمَا يُغْضِبُ اللَّهَ - سَبْحَانَهُ -، فَكَانَ مَقَّتَ اللَّهِ لَكُمْ أَشَدَّ وَأَنْكَى مِنْ مَقَّتِكُمْ أَنْفُسَكُمْ، حَيْثُ جَلَبْتُمْ لَهَا مَا هُوَ أَشَدُّ خَطَرًا وَأَعْظَمَ أَثَرًا، وَكُنْتُمْ بِذَلِكَ أَعْدَاءً لَأَنْفُسِكُمْ، كَمَا جَاءَ فِي حَدِيثِ سَعْدِ بْنِ أَبِي وَقَاصٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عَنْ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّهُ قَالَ لِنِسَاءٍ مِنْ قُرَيْشٍ يَسْأَلْنَ النَّبِيَّ ﷺ وَيَسْتَكْثِرْنَ، فَلَمَّا دَخَلَ عَمْرٌ ابْتَدَرْنَ الْحِجَابَ، فَقَالَ لَهُنَّ: يَا عَدَوَاتِ أَنْفُسِهِنَّ أَتَهْنِئْنَ وَلَا تَهْنِئْنَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ^(١).

قال الحسن: إذا كان يوم القيامة -فأروا ما صاروا إليه -مقتوا أنفسهم، فقليل لهم: لمقت الله إياكم في الدنيا -إِذْ تُدْعَوْنَ إِلَى الْإِيمَانِ فَتَكْفُرُونَ- أكبر من مقتكم أنفسكم اليوم^(٢).

وقد كان مقت الكفار لأنفسهم؛ لأنهم اشتروا الضلالة بالهدى، فما ربحت تجارتهم وما كانوا مهتدين، وكان مقت الله لهم بشدة عذابهم من باب قوله تعالى: ﴿وَلَا يَزِيدُ الْكَافِرِينَ كُفْرَهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ إِلَّا مَقْتًا وَلَا يَزِيدُ الْكَافِرِينَ كُفْرَهُمْ إِلَّا خَسَارًا﴾ [فاطر: ٣٩].

(١) من حديث سعد بن أبي وقاص في صحيح البخاري برقم (٣١٢٠).

(٢) أخرجه عبد بن حميد كما في «الدر المنثور» (٢٢/١٣).

الْإِنْسَانُ يَحْيَا مَرَّتَيْنِ وَيَمُوتُ مَرَّتَيْنِ

لقد كان مقت الكفار لأنفسهم في الآخرة، بسبب إنكارهم البعث وهم في الدنيا، واعتقادهم أنه لا حشر ولا حساب ولا عذاب، فلما تبين كذب اعتقادهم -بعد أن بُعثوا من قبورهم، ورأوا نار جهنم- أقرّوا بالبعث والنشور، وتمنّوا الرجوع إلى الدنيا والخروج من النار:

١١- ﴿قَالُوا رَبَّنَا آمَنَّا أَثْنَيْنِ وَأُحْيَيْنَا أَثْنَيْنِ فَأَعْرَفْنَا بِذُنُوبِنَا فَهَلْ إِلَى خُرُوجٍ مِنْ سَبِيلٍ ﴿١١﴾﴾

لقد كان الكفار ينكرون البعث والنشور في الدنيا، فلما ألقوا في النار ظنوا أن اعترافهم بالحياة الثانية سيمنحهم فرصة الخروج من عذابها ليستريحوا ولو بعض الوقت، عندئذٍ ﴿قَالُوا﴾ أي: قال الكفار يوم القيامة وهم في موقف الدليل البائس ﴿رَبَّنَا آمَنَّا أَثْنَيْنِ﴾ أي مرتين:

الموتة الأولى: حين كنا في بطون أمهاتنا نطفًا قبل نفخ الروح، حيث يكون الجنين لحمًا لا حياة فيه بالمعنى الشرعي، وإن كان ينمو بالمعنى الطبي؛ لأن حقيقة الموت: انعدام الحياة من الحي، وهذه الحياة لم تحصل له بعد، كما قال تعالى: ﴿وَكُنْتُمْ أََمْوَاتًا فَأَحْيَاكُمْ﴾ [البقرة: ٢٨] وبغير هذا المعنى فإن النطفة تنمو وفيها حياة، والمعنى الأول هو المراد.

وقد يعبر عن هذه الموتة: بالعدم المحض قبل إيجاد الخلائق، فهم لم يكونوا شيئًا مذكورًا.

والموتة الثانية: هي التي تكون عند انقضاء الآجال في الدنيا.

أما قوله تعالى: ﴿وَأُحْيَيْنَا أَثْنَيْنِ﴾ أي مرتين:

فالحياة الأولى: تكون عند نفخ الروح في الجسد، بعد مبدأ تكوينه حتى يولد في الدنيا بشرًا سويًا، في الحياة الدنيا.

والحياة الثانية: حين نبعث من قبورنا يوم القيامة.

فهاتان موتتان وحياتان، يجمعها قوله تعالى: ﴿كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَكُنْتُمْ أََمْوَاتًا فَأَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ [البقرة: ٢٨].

أخرج الطبري عن قتادة قال: كانوا أمواتًا في أصلاب آبائهم، فأحياهم الله في الدنيا،

ثم أماتهم الموتة التي لا بد منها، ثم أحياهم للبعث يوم القيامة، فهما حياتان وموتتان^(١). وقال ابن عباس رضي الله عنهما: كتتم أمواتاً قبل أن يخلقكم فهذه ميتة، ثم أحياكم فخلقكم، فهذه حياة، ثم يميتكم فترجعون إلى القبور، فهذه موتة أخرى، ثم يبعثكم يوم القيامة فهذه حياة، فهما ميتتان وحياتان^(٢).

أما حياة الجسم في القبر، فهي حياة مؤقتة، بمقدار السؤال والجواب، فلا توصف بأنها حياة. وحين رأى الكفار البعث رأي العين - وكانوا ينكرونه في الدنيا - أيقنوا بأنهم مذنبون فاعترفوا، وأقروا بأخطائهم السابقة، وهذا معنى ﴿فَاعْتَرَفْنَا بِذُنُوبِنَا﴾ ولكنه ندم فات وقته، بل إنهم يوبخون على عدم الأخذ بأسباب النجاة.

الكافر يسأل الرجعة إلى الدنيا ثلاث مرات

إن الكفار يسألون الله الرجعة والعودة إلى الدنيا بعد هذا الاعتراف، لتدارك ما فاتهم والاستراحة من العذاب قائلين: ﴿فَهَلْ إِلَى خُرُوجٍ مِّن سَبِيلٍ﴾ بأي وسيلة كانت: بحق، أو بعفو، أو بتخفيف، وهذا في غاية اليأس والقنوط؛ لأنهم يستبعدون الخروج مما هم فيه، مع تلطفهم في السؤال، حيث قالوا: إن قدرت يا رب عظمة، فقد أحييتنا بعدما كنا أمواتاً، ثم أمتنا ثم أحييتنا، فأنت قادر على كل شيء، وقد ظلمنا أنفسنا واعترفنا بذنوبنا، فهل أنت مجيبنا إلى العودة في الدنيا فنعمل غير الذي كنا نعمل؟ وهذا السؤال يتكرر ثلاث مرات في مواطن ثلاث:

١- فهم يسألون الله تعالى الرجعة، وهم وقوف بين يديه تعالى في عرصات القيامة، كما قال سبحانه: ﴿وَلَوْ تَرَىٰ إِذِ الْمُجْرِمُونَ نَاكِسُوا رُءُوسِهِمْ عِندَ رَبِّهِمْ رَبَّنَا أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَارْجِعْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا إِنَّا مُوقِنُونَ﴾ [السجدة] فلا يجابون.

وعندئذ يقرون بحقيقة الحساب والجزاء، كما قال تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَىٰ إِذِ وَقُمُوا عَلَىٰ رَبِّهِمْ قَالَ أَلَيْسَ هَذَا بِالْحَقِّ قَالُوا بَلَىٰ وَرَبِّنَا﴾ [الأنعام: ٣٠].

(١) أخرجه ابن المنذر وعبد بن حميد كما في «الدر المثور» (٢٤/١٣).

(٢) الطبري (٤٤٥/١)، (٢٩١/٢٠) وابن أبي حاتم (٧٣/١) (٣٠١).

٢- فإذا وقفوا على النار ورأوا العذاب بأعينهم سألوا الله الرجعة مرة ثانية فلا يجابون، قال تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ وَقَفُوا عَلَى النَّارِ فَقَالُوا يَلَيْتُنَا نُرَدُّ وَلَا نَكْذِبَ بِآيَاتِ رَبِّنَا وَنَكُونُ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [IV] ﴿[الأنعام].

قال سبحانه في الرد عليهم: ﴿بَلْ بَدَأَ لَهُمْ مَا كَانُوا يُخَفُّونَ مِنْ قَبْلُ وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾ [V] ﴿[الأنعام].

٣- فإذا دخلوا النار وذاقوا لهيها سألوا الله الرجعة مرة ثالثة، كما قال تعالى: ﴿وَهُمْ يَصْطَرِخُونَ فِيهَا رَبَّنَا أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَدَقَاتٍ غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ﴾ [F] ﴿[فاطر: ٣٧].

وقال سبحانه على لسانهم: ﴿رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْهَا فَإِنْ عُدْنَا فَإِنَّا ظَالِمُونَ﴾ [G] ﴿[المؤمنون].

السَّبَبُ فِي عَدَمِ إِجَابَةِ الْكَافِرِ إِلَى الرَّجْعَةِ

بَيَّنَّ سبحانه أن طلب الرجعة إلى الدنيا لن يفيدهم شيئاً، وأن ما هم فيه من عذاب سببه إعراضهم عن دعوة الحق في الدنيا فقال تعالى:

١٢- ﴿ذَلِكُمْ بِأَنَّهُ إِذَا دُعِيَ اللَّهُ وَحْدَهُ كَفَرْتُمْ وَإِنْ يُشْرَكَ بِهِ تُؤْمِنُوا فَالْحُكْمُ لِلَّهِ الْعَلِيِّ الْكَبِيرِ﴾

هذا هو الجواب على سؤال الكفار الرجعة إلى الدنيا، ببيان علة المنع من العودة، وهو أنهم كانوا في الدنيا إذا نودي الله وحده -في لون من ألوان العبادة، كالدعاء، والاستغاثة، وطلب المدد- فإنهم لا يقبلون ذلك، فإذا نودي معه غيره- من أولياء الله الصالحين أو من غيرهم -فإنهم يرتضون ذلك ﴿ذَلِكُمْ﴾ أي: العذاب المخلد الذي أعده الله لكم - أيها الكافرون - في الآخرة وما أنتم فيه من مقت لأنفسكم ولغيركم بسبب أنكم كنتم في الدنيا ﴿إِذَا دُعِيَ اللَّهُ وَحْدَهُ كَفَرْتُمْ﴾ أي: إذا دُعيتم إلى توحيد الله تعالى وإلى العمل الخالص من الشرك، كفرتم به ونفرتم غاية النفور ﴿وَإِنْ يُشْرَكَ بِهِ تُؤْمِنُوا﴾ فأنتم تكفرون بالإيمان وتؤمنون بالكفر، وترضون بما هو شر، وتكرهون ما هو خير، وتؤثرون سبب الشقاء على سبب الفلاح فإن جعل مع الله تعالى شريك له في الدعاء والعبادة، صدقتم وارتضيتم، فكنتم في الدنيا تكفرون بالتوحيد وتؤمنون بالشركاء، فاحسبوا أيها الضالون، كما قال تعالى: ﴿وَإِنْ يَرَوْا سَبِيلَ الرُّشْدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا وَإِنْ يَرَوْا سَبِيلَ الْغَيِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا﴾

الأعراف: ١٤٦] اليوم في النار، ولا تؤمّلوا في الخروج منها بحال من الأحوال، وهذا حكم عام لجميع الكفار في كل زمان ومكان إلى يوم القيامة.

وحُكِّمَ الله تعالى على الكفار بالخلود في النار، وجُزّمانهم من الخروج منها حكم لا يقبل النقض، فهو حكم عادل، والذي حكم به غني عن الظلم والجور، فهو العلي الكبير؛ وذلك لأن الحكم لله وحده، فهو الذي حَكَمَ بهذا، فلا رادّ لفضائه ولا معقب لحكمه، وهذا معنى ﴿فَالْحُكْمُ لِلَّهِ الْعَلِيِّ الْكَبِيرِ﴾ هو الحاكم في خلقه، العادل الذي لا يجور، يهدي من يشاء ويضل من يشاء، يرحم من يشاء ويعذب من يشاء، لا إله إلا هو، له العلوّ المطلق، لا يماثله أحد في ذاته ولا في صفاته، ولا في أفعاله، وله الكبرياء والعظمة، وهو سبحانه أكبر وأعظم من أن يشاركه أحد في عبادته، وقد حكم عليكم بالخلود الدائم في النار وحكمه لا يغيّر ولا يُبدّل.

مِنْ دَلَالِ التَّوْحِيدِ:

ولما ذكر سبحانه ما يوجب تهديد الكفار أردفه بذكر ما يدل على توحيده وكمال قدرته؛ ليستدل به على عدم جواز صرف العبادة لغير الله تعالى، فقال سبحانه:

١٣- ﴿هُوَ الَّذِي يُرِيكُمْ آيَاتِهِ وَيُنَزِّلُ^(١) لَكُمْ مِنَ السَّمَاءِ رِزْقًا وَمَا يَتَذَكَّرُ إِلَّا مَنْ يُنِيبُ ﴿١٣﴾﴾

أي: كيف يشرك العبد بربه في العبادة، وأدلة وجوده ووحدانيته النفسية والآفاقية والقرآنية تملأ الآفاق؛ وبها يتبين الحق من الباطل، والهدى من الضلال، بحيث لا يبقى للمتأمل فيها أدنى شك في معرفة الحق، والاهتداء إلى وحدانية الخالق سبحانه، وذلك كخلقه: للسماء والأرض، والشمس والقمر، والليل والنهار، والبحار والأنهار، والمطر والرعد، والنجوم والرياح، والأشجار والنبات ﴿هُوَ الَّذِي يُرِيكُمْ آيَاتِهِ﴾ أي: يظهر لكم أدلة قدرته بما تشاهدونه من الآيات العظيمة، الدالة على كمال خالقها ومبدعها، وقد جاء ذلك في آيات كثيرة، منها: قوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَأَخْتِلَافِ اللَّيْلِ

(١) قرأ ابن كثير وأبو عمرو ويعقوب بإسكان النون وتخفيف الزاي من (ينزل) مضارع أنزل، والباقون بفتح النون وتشديد الزاي، مضارع نَزَلَ.

وَالنَّهَارِ لَا تَهَيَّجُ لَأُولَى الْأَلْبَابِ ﴿١١﴾ [آل عمران].

وقوله سبحانه: ﴿هُوَ الَّذِي يُرِيكُمْ أَلْبَافَكُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنشِئُ السَّحَابَ الثِّقَالَ﴾ [الرعد].

وقوله جلَّ شأنه: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ مَنَامُكُمْ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَابْتِغَاؤُكُمْ مِنْ فَضْلِهِ﴾ [الروم: ٢٣].

ومن أجلَّ نعم الله تعالى على العبد نزول المطر من السماء؛ لأنه سبب الرزق، ولذا خصه الله تعالى بالذكر في قوله: ﴿وَيُنَزِّلُ لَكُمْ مِنَ السَّمَاءِ رِزْقًا﴾ وهذا الرزق هو المطر، تُرزقون به، حيث يحيي به الله الأرض الجذباء، فتُخرج الزروع والثمار، ويحيى به كل كائن حي، من إنسان وحيوان وطيور ونبات..

وقد جمع الله في هذه الآية إظهار الآيات، وإنزال الأرزاق؛ لأن الديانات تحيا بالآيات، والأبدان تحيا بالأرزاق، وبهما قوام الأرواح والأجساد.

ولا ينتفع بهذه الآيات -فيرجع من الشرك إلى التوحيد، ومن المعصية إلى الطاعة، ومن الكفر إلى الإيمان- إلا مَنْ رجع إلى الله تعالى، فتاب إليه وأتاب، وأقبل على طاعته ومحبته وخشيته والتضرع إليه، ﴿وَمَا يَتَذَكَّرُ إِلَّا مَنْ يُنِيبُ﴾ فهو الذي ينتفع ويتعظ، ويفرد الله وحده بالعبادة، ويُخلص له الطاعة.

الْأَمْرُ بِإِخْلَاصِ الْعِبَادَةِ لِلَّهِ وَحْدَهُ

ثم أمر سبحانه بإخلاص العبادة لله وحده، فقال:

١٤- ﴿فَادْعُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ﴾

أي: فيا من توافر فيكم دواعي العبادة، ممن شاهدوا آيات الله في الكون، وأفاض عليهم من رزقه، وكانوا من أهل التذكُّر والإنابة- أَخْلِصُوا لله وحده العبادة والدعاء، وخالفوا المشركين في مسلكهم ولا تلتفتوا إلى غضب الكافرين من ذلك، وامضوا في طريق الدعوة إلى الله تعالى، ولا تبالوا بهم، ولو كره الجاحدون إخلاصكم، وغازبهم ذلك.

والدعاء في الآية يشمل الذكر، وهو دعاء العبادة ودعاء سؤال الحاجة، أي دعاء المسألة، والأمر به يراد منه المداومة على إخلاص الدعاء لله تعالى؛ لأن المؤمن يخلص لله تعالى في عبادته، ولا يصرفه عنها صارف، ولا يُفْتَن في دينه مهما أضله أعداء

الإسلام، ومهما ابتلي فيه .

فالإخلاص هو: أن يخلص العبد قصده في عبادته لله تعالى، في كل ما يدين به ويتقرب إليه تعالى، من الواجبات والمستحبات وحقوق الله وحقوق العباد.

عن عبد الله بن الزبير رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ كان يقول عقب الصلوات المكتوبات: «لا إله إلا الله، وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد، وهو على كل شيء قدير، لا حول ولا قوة إلا بالله، لا إله إلا الله، ولا نعبد إلا إياه، له النعمة وله الفضل، وله الشاء الحسن، لا إله إلا هو مخلصين له الدين ولو كره الكافرون»^(١).

ولما كان الكفار يكرهون إخلاص العباد لله وحده، فيفرحون ويستبشرون عند دعاء الشركاء، ويشتمزون عند ذكر الله وحده، لما كان الأمر كذلك، أمرنا سبحانه أن نخلص العبادة له وحده **﴿وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ﴾** فلا تبالوا بهم، ولا تأخذكم في الله لومة لائم، وادعوه مخلصين له الدين .

ثَلَاثَةُ أَوْصَافٍ وَصَفَ اللَّهُ تَعَالَى بِهَا نَفْسَهُ

ثم أخبر سبحانه عن موجبات إخلاص العبادة له، وعن عظمته وكبريائه، وارتفاع عرشه على جميع المخلوقات كالسقف لها، فقال سبحانه:

١٥- **﴿رَفِيعُ الدَّرَجَاتِ ذُو الْعَرْشِ يُلْقِي الرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ لِيُنْذِرَ يَوْمَ التَّلَاقِ﴾**^(٢)

ذكر سبحانه في هذه الآية من صفاته العظمى ما يزيد المؤمنين إيماناً في إخلاص العبادة لله وحده، وقد اشتملت هذه الآية على أوصاف ثلاثة لله تعالى، فهو سبحانه:

١- رفيع الدرجات . ٢- وهو صاحب العرش .

٣- وهو منزل الوحي على من يشاء من خلقه .

(١) «صحيح مسلم» برقم: (٥٩٤) و«سنن أبي داود» برقم: (١٥٠٦) والنسائي في «السنن الكبرى» برقم: (١٢٦٢) وابن أبي شيبة (٢٣٢/١٠).

(٢) قرأ ورش وابن وردان بإثبات الياء وصلاً من (التلاق) وابن كثير ويعقوب بإثباتها في الحالين، هذا: وقد انفرد المصحف الدمشقي بعدم عدّ لفظ (التلاق) آية، وعدّها غيره، والباقون بحذفها في الحالين.

أما الدرجات فهي: مصاعد الملائكة، والمراد: رُفَع درجات ملائكته الكرام ومعارجهم، إلى أن يبلغوا العرش^(١) قال تعالى: ﴿مَنْ أَلَّهَ ذِي الْمَعَارِجِ ﴿٢﴾ تَعْرُجُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ ﴿٣﴾﴾ [المعارج].

وهو الذي رفع السموات بلا عمد، وهو سبحانه رافع درجات الأنبياء والأولياء والعلماء في الجنة.

ويجوز أن يكون المعنى: أن الله تعالى هو العلي الأعلى، الذي استوى على العرش، وهو المرتفع بعظمته وجلاله، وكمال قوته وقدرته ارتفاعاً يُبين المخلوقين، إنه ﴿رَفِيعُ الدَّرَجَاتِ ذُو الْعَرْشِ﴾ أي: هو سبحانه صاحب العرش العظيم، خالقه ومالكه، وقد خص الله العرش بالذكر؛ لأنه أعظم الأجسام، ولا يحيط بكنهه إلا الله.

ومن رحمة الله بعباده أن يرسل إليهم رسلاً يُلقي إليهم بالوحي الذي يحيون به، ويسعدون بتعاليمه في الدنيا والآخرة، فيكونون على بصيرة من دينهم.

ومنزلة الوحي من الإنسان منزلة الروح من الجسد، فهو سبحانه ﴿يُلْقِي الرُّوحَ﴾ وهو الوحي ﴿مَنْ أَمَرَهُ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ﴾ أي: يختص بالنبوة والرسالة مَنْ أَرَادَ مِنْ خَلْقِهِ، ممن اختصهم الله تعالى لوحيه ودعوة عباده.

وسُمِّي الوحي روحاً؛ لأن الناس يحيون به من مؤت الكفر، كما تحيا الأبدان بالأرواح^(٢) وهي حياة معنوية.

ومهمة الرسل أن يخوفوا عباد الله، ويبشروهم، ويرشدوهم إلى مافيه سعادتهم في الدنيا والآخرة وما يزيل عنهم أسباب الشقاء في الدارين، وينذروهم يوم القيامة الذي يلتقي فيه الأولون والآخرون، ويحثوهم على الاستعداد له بالأسباب المنجية مما يكون فيه، وهذا معنى ﴿لِنُنْذِرَ يَوْمَ التَّلَاقِ﴾ أي: لينذر النبي بالوحي يوم التلاقي، حيث يلتقي الرسل والمرسل إليهم، والمؤمن والكافر، والظالم والمظلوم، ويلتقي أهل الأرض بأهل السماء، ويلتقي الخلق بالخالق، ويلتقي كل إنسان بصحيفة عمله، ويلتقي العابد

(١) «تفسير الألوسي» (٥٥/٢٤).

(٢) «تفسير القرطبي» (٢٩٩/١٥).

بالمعبود... إلخ، كل ذلك في ساحة الحشر للعرض والحساب وفصل القضاء.

أخرج عبد بن حميد عن ابن عباس رضي الله عنه قال: الذنوب ثلاثة: فذنب يُغفر، وذنب لا يغفر، وذنب لا يُترك منه شيء.

فالذنب الذي يُغفر: العبد يُذنب الذنب فيستغفر الله فيَغفر له.

وأما الذي لا يُغفر: فالشرك.

وأما الذنب الذي لا يُترك منه شيء: فمظلمة الرجل أخاه، ثم قرأ ابن عباس الآية، وقال: يؤخذ للشاة الجماء من ذات القرن بفضل نطحها^(١).

مُلْكُ اللَّهِ تَعَالَى لِجَمِيعِ الْمَخْلُوقَاتِ دَائِمٌ لَا يَحُولُ وَلَا يَزُولُ

١٦- ﴿يَوْمَ هُمْ بَرْزَوْنَ^(٢)﴾ لَا يَخْفَى عَلَى اللَّهِ مِنْهُمْ شَيْءٌ لِّمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ ﴿١٦﴾

لقد كان الكفار والعصاة يستترون من الناس - وهم في الدنيا - عند ارتكابهم للذنوب والآثام، وكانت الجبال والأبنية والأنفاق والأشجار تسترهم عن أعين الناس، وكان بعض الناس في الدنيا يتوهم أنه إذا استتر في جُبٍّ أو حُجِبَ بحائط ونحوه فإن الله - سبحانه - لا يراه.

كما قال تعالى عنهم: ﴿أَلَا إِنَّهُمْ يَتَّبِعُونَ صُدُورَهُمْ لِيَسْتَخْفُوا مِنْهُ﴾ [هود: ٥].

وقال سبحانه: ﴿وَلَكِنْ ظَنَنْتُمْ أَنَّ اللَّهَ لَا يَعْلَمُ كَثِيرًا مِّمَّا تَعْمَلُونَ﴾ [فصلت: ٢٢].

وقد بين عليه السلام أنه حين يلتقي العباد في يوم الحساب والجزاء، فإنهم يخرجون من قبورهم ظاهرين بارزين، لا يستترهم ساتر، ولا يظلمهم شيء من جبل، أو بناء، ونحوهما، فهم يُحشرون على أرض بارزة عارية، ليس فيها مرتفعات ولا منخفضات ولا منحنيات ﴿لَا تَرَى فِيهَا عِوَجًا وَلَا أَمْتًا﴾ ﴿١٧﴾ يَوْمَئِذٍ يَتَّبِعُونَ الدَّاعِيَ لَا عِوَجَ لَهُمْ ﴿طه: ١٠٧، ١٠٨﴾.

وهذا معنى ﴿يَوْمَ هُمْ بَرْزَوْنَ﴾ أي تراهم العين، ويسمعهم الداعي ﴿لَا يَخْفَى عَلَى اللَّهِ مِنْهُمْ شَيْءٌ﴾ فيوم القيامة تظهر الخلائق أمام ربهم في أرض عراء مكشوفة، في صعيد واحد لا

(١) «الدر المثور» (٢٨/١٣).

(٢) عد الدمشقي وحده (يوم هم بارزون) آية، وتركها غيره من العدد، وذلك عكس (التلاق) الذي قبلها.

ترى فيه عوجا ولا أمثًا، ولا يخفى على الله منهم ولا من أعمالهم الظاهرة والباطنة شيء.

والله تعالى لا يخفى عليه شيء من أحوالهم في جميع الأيام، ولا في جميع الأحوال، سواء أكانوا في جوف الأرض أم على وجهها، أو كانوا في أرحام أمهاتهم، أو فوق هذه الأرض، وإنما خُصَّ يوم القيامة بالذكر نظرًا لما كان يحسبه الجاهلون في الدنيا من أن الإنسان إذا استتر بشيء فإن الله تعالى لا يراه.

وبينما الناس في أرض المحشر على هذه الحال - وهم في العراء ظاهرون - يأتي هذا النداء من مالك الأرض والسماوات ﴿لَمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ؟﴾ أي مَنْ هو المالك لهذا اليوم العظيم، الجامع للأولين والآخرين، من أهل السماوات وأهل الأرضين؟ فلا يجيبه أحد إذ يسكت العالم هيبة وجزعًا، فيجيب تعالى نفسه: ﴿لِلَّهِ الْوَحْدُ الْقَهَّارُ﴾، المنفرد بالوحدانية، الذي دانت له جميع المخلوقات، سيما في هذا اليوم الذي خشعت فيه الأصوات، وعنت الوجوه لرب الأرض والسماوات.

قال الحسن: هو السائل تعالى، وهو المجيب، حين لا أحد يجيبه، فيجيب نفسه.

لقد كان بعض ملوك الدنيا يزعم أن له فيها مُلكًا، كما قال فرعون: ﴿أَلَيْسَ لِي مُلْكٌ مِصْرَ وَهَٰذِهِ الْأَنْهَارُ تَجْرِي مِنْ تَحْتِي﴾ [الزخرف: ٥١].

وكان أكاسرة الفرس يلقبون أنفسهم: ملك الملوك (شاهنشاه) وملوك الهند يلقبون أنفسهم: ملك الدنيا (شاه جاه) وكان بعض الناس يزعم أن للأصنام ممالك يتصرفون فيها، كقول أهل اليونان: إله البحر، وإله الحرب، وإله الحكمة، وقول أهل مصر: إله الشمس، وإله الموت.

وكان بعض العرب يخصون أصنامًا لبعض القبائل، فاللآت لثقيف، وذو الخلصة لدؤس، ومناة للأوس والخزرج وهكذا.

وفي يوم القيامة يزول كل مُلكٍ عن مالكه، ولا يأخذ صفة الدوام والاستمرار إلا رب العالمين، فملكه دائم لا يُسلب ولا ينقطع، لا في الدنيا ولا في الآخرة.

ويفسر هذا المعنى حديث أبي هريرة في صفة يوم الحشر: «ثم يقول الله تعالى: أنا

الملك، أين ملوك الأرض؟»^(١) أي: أين هم؟ لماذا لم يظهروا بملكهم وعظمتهم؟

وفي حديث ابن عمر رضي الله عنه: «يطوي الله ﷻ السموات يوم القيامة، ثم يأخذهن بيده اليمنى، ثم يقول: أنا الملك، أين الجبارون؟ أين المتكبرون؟ ثم يطوي الأرضين بشماله، ثم يقول: أنا الملك، أين الجبارون؟ أين المتكبرون»^(٢).

وفي حديث الصور: أنه تعالى إذا قبض أرواح خلقه، فلم يبقَ سواه، وحده لا شريك له، حينئذ يقول: ﴿لَمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ؟﴾ ثلاث مرات، ثم يجيب نفسه قائلاً: ﴿لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ﴾ الذي هو وحده قد قهر كل شيء وغلبه^(٣).

وفي حديث سهل بن سعد رضي الله عنه، أن النبي ﷺ قال: «يحشر الناس يوم القيامة على أرض بيضاء عفراء كقرصة نقيّ، ليس فيها معلّم لأحد»^(٤).

وفي رواية ابن مسعود رضي الله عنه: «أنها أرض مثل الفضة، لم يُعَصَّ الله -جلّ وعلا- عليها، فيأمر منادياً ينادي: ﴿لَمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ؟﴾ فيقول العباد مؤمنهم وكافرهم: ﴿لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ﴾»^(٥).

والقول الأول أظهر، وهو أن الخلائق تسكت هيبة ورهبة حين يقول الله تعالى: ﴿لَمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ؟﴾ وأن الله تعالى يجيب نفسه: أن المُلْكَ والتصرف لله تعالى المتفرد بأسمائه وصفاته وأفعاله، فهو القهار الذي قهر جميع الخلائق بقدرته وعزته.

قال ابن عباس رضي الله عنه: ينادى منادٍ بين يدي الساعة: يأيها الناس، أتتكم الساعة، فيسمعها الأحياء والأموات، وينزل الله إلى السماء الدنيا فيقول: لمن الملك اليوم؟ لله الواحد القهار^(٦).

(١) من حديث أبي هريرة في البخاري (٤٨١٢) ومسلم (٢٧٨٧).

(٢) «صحيح مسلم» برقم: (٢٧٨٨) و«صحيح البخاري» برقم: (٧٤١٢).

(٣) ذكره بطوله ابن كثير في تفسير الآية (٧٣) من سورة الأنعام (٢٨٢/٣) وهو من الأحاديث الطوال عند الطبراني عن أبي هريرة برقم (٣٦) والبيهقي في «البعث والنشور» (٦٦٩)، وأبو الشيخ في العظمة (٣٨٧)، وقد ضعفه الأئمة، وتركه الدار قطني.

(٤) يُنظَر: حديث سهل بن سعد في البخاري (٦٥٢١) ومسلم (٢٧٩٠) وقرصة النقي: هو الدقيق النقي الخالي من النخالة.

(٥) يُنظَر: البزار (١٨٥٩) والطبراني (١٠٣١٣) وفي الأوسط (٧١٦٧) وعبد الرزاق (٣٤٤/١).

(٦) أخرجه عبد الله بن أحمد في «السنة» (٢٢٠) والحاكم (٤٣٧/٢) وأبو نعيم في «الحلية» (٣٢٤/١).

يَوْمُ الْحِسَابِ وَالْجَزَاءِ

وفي يوم الموقف العظيم، يُعلم الله عباده أن هذا هو يوم الجزاء على الأعمال؛ صالحها وسيئها، وأن الثواب والعقاب معلق باكتساب العبد في الدنيا:

١٧- ﴿الْيَوْمَ تُجْزَى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ لَا ظُلْمَ الْيَوْمَ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾ (١٧)

ومادام الملك والتصرف كله لله وحده، فإنه يتم في يوم القيامة ثلاثة أشياء:

١- مجازاة العباد بأعمالهم.

٢- العدل التام، وعدم الظلم في القضاء بينهم.

٣- سرعة الحساب.

وهذا معنى قوله تعالى: ﴿الْيَوْمَ تُجْزَى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ﴾ في الدنيا من خير أو شر، قليل أو كثير، ففي هذا اليوم العظيم تأخذ كل نفس -مؤمنة أو كافرة- جزاء عملها من خير أو شر، فيُجزى المحسن بإحسانه، والمسيء بإساءته ﴿لَا ظُلْمَ الْيَوْمَ﴾ فلا جور، ولا محاباة، ولا وساطات، ولا نقص في الحسنات، ولا زيادة في السيئات، والكل سواء أمام رب العالمين: الغني والفقير، والحاكم والمحكوم، والقوي والضعيف، والصغير والكبير، ولا ينتصف يوم القيامة حتى يقيّل المؤمنون في الجنة، والكافرون في النار ﴿إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾ فلا تستبطؤوا ذلك اليوم فإنه آت، وكل آت قريب، وهو سبحانه سريع الحساب لعباده، وقد أحاط علمه بكل شيء، لا يغيب عنه مثقال ذرة في السموات ولا في الأرض، ولا أصغر من ذلك ولا أكبر.

وهو سبحانه عند محاسبة خلقه لا يحتاج إلى تفكير، ولا يشغله حساب عن حساب، بل يحاسب الخلق كلهم في وقت واحد، فلا تستبطؤوا ذلك اليوم، فإنه آت عن قريب لا محالة.

جاء في الحديث القدسي: عن أبي ذر رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ عن ربه جلّ وعلا: «يا عبادي، إني حرمت الظلم على نفسي وجعلته بينكم محرماً فلا تظالموا» إلى أن قال: «يا عبادي إنما هي أعمالكم أحصيها لكم ثم أوفيكم إياها، فمن وجد خيراً فليحمد الله، ومن

وجد غير ذلك فلا يلومن إلا نفسه»^(١).

وقال تعالى: ﴿وَمَا أَمْرُنَا إِلَّا وَحْدَةً كُلَّمَا جَاءَ بِالصَّبْرِ﴾ [القمر].

وعن جابر بن عبد الله رضي الله عنه قال: بلغني حديث عن رجل من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم سمعه من رسول الله في القصاص ولم أسمع، فابتعث بعيراً، فشددت رجلي عليه، ثم سرت شهراً حتى قدمت مصر، فأتيت عبد الله بن أنيس، فقلت للبواب: قل له: جابر على الباب، فقال: ابن عبد الله؟ قلت: نعم، فأتاه فأخبره، فقام يطأ ثوبه حتى خرج إليّ، فاعتنقني واعتنقته، فقلت له: حديث بلغني عنك سمعته من رسول الله صلى الله عليه وسلم ولم أسمع في القصاص، فخشيت أن أموت أو تموت قبل أن أسمع، فقال عبد الله: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: «يحشر الله العباد -أو قال الناس - عراة غرلاً بُهَمًا»، قال: قلنا: ما بُهَمٌ؟ قال: «ليس معهم شيء»، ثم يناديهم بصوت يسمعه من بُعد، كما يسمعه من قُرب: أنا الملك، أنا الديان، لا ينبغي لأحد من أهل الجنة أن يدخل الجنة، ولا ينبغي لأحد من أهل النار أن يدخل النار وعنده مظلمة حتى أقصّه منه، حتى اللّطمة، قال: قلنا: كيف ذا، وإنما نأتي الله غرلاً بُهَمًا؟ قال: «بالحسنات والسيئات»، قال: وتلا رسول الله صلى الله عليه وسلم: ﴿أَلْيَوْمَ تُجْزَى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ لَا ظُلْمَ أَلْيَوْمَ﴾^(٢).

عَذَابُ اللَّهِ لِلْكَافِرِ لَا يَدْفَعُهُ دَافِعٌ .

١٨ - ﴿وَأَنذَرَهُمْ يَوْمَ الْأَرْفَةِ إِذِ الْقُلُوبُ لَدَى الْحَنَاجِرِ كَظْمِينَ^(٣) مَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ حِمٍ وَلَا شَفِيعٌ يُطَاعُ﴾

يأمر الله تعالى رسوله صلى الله عليه وسلم أن يحذر الناس من مغبة هذا اليوم، حتى يعملوا له وهم في الدنيا، قبل أن يحلّ بهم عقاب الله، فقال تعالى: ﴿وَأَنذَرَهُمْ يَوْمَ الْأَرْفَةِ﴾ أي: خوفهم -يا رسول الله-

(١) «صحيح مسلم» برقم: (٢٥٧٧).

(٢) قال الحاكم: صحيح الإسناد ولم يخرجاه وصححه الذهبي «المستدرک» (٤٣٧/٢) والبخاري في الأدب المفرد (٩٧٠) وفي خلق أفعال العباد ص (٩٢) وحسنه ابن حجر في الفتح (١٧٣/١) وهو في تليق التعليق (٣٥٥/٥) من طريق الإمام أحمد بهذا الإسناد، ومثله الألباني في «السلسلة الصحيحة» (٣٠٢/١) والبيهقي (١٣١، ٦٠٠) والحديث عند أحمد بنحوه دون ذكر الآية برقم: (١٦٠٤٢) قال محققوه: إسناده حسن، لأن

فيه القاسم بن عبد الواحد المكي مختلف فيه، وقد توبع، وباقي رجال الإسناد ثقات.

(٣) لم يعد الكوفي وحده لفظ (كاظمين) آية وعدها غيره.

من هول يوم القيامة، فهو قريب الحلول بهم، فلا يستبعدوه.

والآزفة: هي القيامة، سميت بذلك لأنها قريبة الوقوع:

١- وقال تعالى: ﴿أَزِفَتِ الْآزِفَةُ ۚ لَيْسَ لَهَا مِنْ دُونِ اللَّهِ كَاشِفَةٌ﴾ [النجم].

٢- وقال سبحانه: ﴿فَلَمَّا رَأَوْهُ زُلْفَةً سَيِّتَتْ وُجُوهُ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ [الملك: ٢٧].

٣- وقال جلَّ شأنه: ﴿أَقْرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ مُّعْرِضُونَ﴾ [الأنبياء].

٤- وقال أيضًا: ﴿أَنَّى أَمُرُ اللَّهَ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ﴾ [النحل: ١].

ثم وصف الله تعالى حالة الناس يوم القيامة، فقال: ﴿إِذِ الْقُلُوبُ لَدَى الْحَنَاجِرِ كَظِيمِينَ﴾ أي: أن قلوب العباد من مخافة عقاب الله تعالى ترتفع عن أماكنها من صدورهم، وكأنها نشبت في حلوقهم، وهم كاظمون عليها، أي: ممسكون بها حتى لا تخرج مع أنفاسهم، كما يمسك صاحب القربة فمها؛ لكي لا يتسرب منها الماء، وهذا الكظم مع بلوغ الحناجر، يكون من الغم والكرب، حيث يشتد اضطراب حركة القلب، من فرط الجزع حال مشاهدة الأهوال، وهم لا يتكلمون إلا من أذن له الرحمن وقال صوابًا.

أخرج الطبري بسنده الحسن عن السدي قال: شخصت أفئدتهم عن أمكنتها، فنشبت في قلوبهم، فلم تخرج من أجوافهم فيموتوا، ولم ترجع إلى أمكنتها فتستقر.

وقال ابن جريج: ﴿إِذِ الْقُلُوبُ لَدَى الْحَنَاجِرِ﴾ إذا عاين أهل النار النار، حتى تبلغ حناجرهم، فلا تخرج فيموتوا، ولا ترجع على مكانها من أجوافهم^(١).

ثم نفى سبحانه أن يكون للظالمين في هذا اليوم من ينفعهم أو يدافع عنهم، فقال: ﴿مَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ حِمٍّ وَلَا شَفِيعٍ يُطَاعُ﴾ أي: ليس للظالمين من قريب ولا صاحب، ولا شفيع يشفع لهم عند ربهم فيستجاب له.

والحميم: هو المحبُّ المشفق، الذي يهتم بأمر صديقه أو قريبه، فلا يوجد من ينقذهم من العذاب، لا شفيع مطاع ولا غير مطاع، ولو قُدِّرت شفاعتهم، فإنها لا تُقبل، إذ لا بد من تحقيق شرطي الشفاعة، وهي الإذن للشافع والرضى عن المشفوع له.

(١) أخرجه ابن المنذر كما في «الدر المنثور» (١٣/٣١).

عِلْمُ الظَّوَاهِرِ وَالْبَوَاطِنِ يَسْتَوِي عِنْدَ رَبِّ الْعَالَمِينَ

١٩- ﴿يَعْلَمُ خَائِنَةَ الْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ﴾ ﴿١٩﴾

وبعد أن أياأس الله الظالمين من وجود شفيع -يسعى لهم في عدم المؤاخذه بذنوبهم- أياأسهم من أن يتوهموا أنهم يستطيعون إخفاء شيء من نواياهم، أو أذنى حركة من أعمالهم على ربهم، فذكرهم بأنه سبحانه يعلم الخفايا ليحذّرهم من كل قول أو عمل يخالف أمره ونهيه، فقال تعالى: ﴿يَعْلَمُ خَائِنَةَ الْأَعْيُنِ﴾ أي: يعلم مسارقة النظر، وما تختلسه العيون لرؤية ما لا يحل، مما نهى الله تعالى عنه.

قال ابن عباس رضي الله عنهما: هو الرجل يكون جالساً مع الناس فتمرّ المرأة فيسارقهم النظر إليها^(١). وهي نظرة خائنة تتسلّل إلى ما حرم الله تعالى.

ومن الدعاء المأثور: «اللهمّ طهّر قلبي من النفاق، وعملي من الرياء، ولساني من الكذب، وعيني من الخيانة، فإنك تعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور»^(٢).

ومقتضى ذلك: هو إحاطة علم الله التام، بكل صغيرة وكبيرة، مما ظهر من الأعمال أو خفي.

قال القرطبي: ولما جيء بعبد الله بن سعد بن أبي السرح، إلى رسول الله ﷺ بعدما اطمأن أهل مكة، وطلب له الأمان عثمان بن عفان، صمّت رسول الله ﷺ طويلاً، ثم قال: «نعم»، فلما انصرف، قال ﷺ لمن حوله: «ما صمّت إلا ليقوم إليه بعضكم فيضرب عنقه» فقال رجل من الأنصار: فهلاً أومأت إليّ يا رسول الله؟ فقال: «إن النبي لا تكون له خائنة أعين»^(٣).

(١) يُنظر: ابن أبي شيبة (٣٢٧/٤) و«فتح الباري» (٩/١١).

(٢) الحكيم الترمذي عن أم معبد (٢٢٧/٢) والخطيب في تاريخه (٢٦٧/٥)، وهو ضعيف كما في كشف الخفا برقم (٥٧٤).

(٣) «تفسير القرطبي» (٣٠٣/١٥) والحديث بكامله في «صحيح سنن أبي داود» عن سعد بتصحیح الألباني (٢٣٣٤) والنسائي (٤٠٧٨).

ثم بيّن سبحانه أنه يعلم السر المستور الذي تخفيه الصدور، فقال: ﴿وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ﴾ أي: ويعلم ما يضمرة الإنسان في نفسه من خير أو شر، وسوف يجزي الله كل نفس بما كسبت.

القَضَاءُ بِغَيْرِ حُكْمِ اللَّهِ تَعَالَى بَاطِلٌ لَا يُعْتَدُّ بِهِ

٢٠- ﴿وَاللَّهُ يَقْضِي بِالْحَقِّ وَالَّذِينَ يَدْعُونَ^(١) مِنْ دُونِهِ لَا يَقْضُونَ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾

وكونه تعالى يعاقب على خائنة الأعين، ولا يقبل الشفاعة فيمن ظلموا أنفسهم بالكفر وماتوا عليه، كما قال تعالى: ﴿مَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ حِمٍ وَلَا شَفِيعٍ يُطَاعُ﴾ فإن هذا هو القضاء الحق، والحكم بالعدل ﴿وَاللَّهُ يَقْضِي بِالْحَقِّ﴾ لأن قوله حق، وحكمه الشرعي والجزائي حق، وهو المحيط علماً بكل شيء، المنزه عن الظلم والنقص، وهو صاحب القضاء القدري بما كان وما يكون، وهو الذي يقضي بين الناس بالعدل بما يستحقونه، قضاءً متلبساً بالحق لا يشوبه باطل.

أما الآلهة التي يعبدونها من دون الله تعالى، فإنها لا تقضي بشيء، لعجزها التام عن ذلك، فهي لا تعلم شيئاً، ولا تقدر على شيء، كالمعبودات التي يرفع المشركون أكفهم إليها بالدعاء من دون الله تعالى ﴿وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ لَا يَقْضُونَ شَيْئًا﴾ فالجماد لا حكم له أصلاً، فلا يقال: إنه يقضي أو لا يقضي؛ لأنه لا يسمع ولا يبصر ﴿إِنَّ اللَّهَ هُوَ السَّمِيعُ﴾ لِمَا تنطق به مختلف الألسنة ﴿الْبَصِيرُ﴾ بأفعال العباد وأعمالهم.

الْعَاقِلُ مَنْ اتَّعَظَ بِغَيْرِهِ

٢١- ﴿أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ كَانُوا مِنْ قَبْلِهِمْ كَانُوا هُمْ أَشَدَّ مِنْهُمْ^(٢) قُوَّةً وَءَاثَارًا فِي الْأَرْضِ فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ يُذَوِّبُهُمْ وَمَا كَانَ لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ وَاقٍ^(٣)﴾

وبعد أن حذر الله عباده من عذاب الآخرة، حذرهم أيضاً من أن يحل بهم في الدنيا ما

(١) قرأ نافع وهشام وابن ذكوان بخلف عنه بقاء الخطاب في (تدعون) على الالتفات، والباقون بياء الغيب، جرياً على نسق الكلام، وهو الوجه الثاني لابن ذكوان.

(٢) قرأ ابن عامر (أشد منكم) على الخطاب للالتفات، وقرأ الباقيون (منهم) لمناسبة السياق، ووصل ميم الجمع بحرف مد: ابن كثير وأبو جعفر وقالون بخلف عنه.

(٣) وقف ابن كثير على (واق) بالياء، والباقيون بحذفها، ونونها جميع القراء وصلّا.

حل بأمثالهم من الأمم التي كذبت رسل الله .

والمعنى: أبلغت الغفلة بالمكذبين لك -يا محمد- أنهم لم يعتبروا ويتعظوا بالمكذبين لرسول الله قبلك، وهم يمرون على ديارهم في أسفارهم مصبحين وبالليل، ويشاهدون آثار قوم هود، وقوم صالح، وقوم لوط، وأصحاب الأيكة، وغيرهم؟! فإن العاقل من اعتبر بغيره .

ولقد كان هؤلاء السابقون أكثر وأشد من المكذبين لك في القوة المعنوية والمادية، فهم أكثر استغناء عن غيرهم منكم، وأقوى بأساً وأشد بطشاً، وأبقى أثراً في الأرض بمبانيهم الفارحة، وحصونهم الحصينة .

كما قال تعالى: ﴿فَأَمَّا عَادُ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَقَالُوا مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً﴾ [فصلت: ١٥] .

وقال سبحانه: ﴿إِذْ ذَاتَ الْعِمَادِ ﴿٧﴾ الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبَلَدِ ﴿٨﴾﴾ [الفجر] .

وقال جل شأنه: ﴿وَلَقَدْ مَكَنَّاكُمْ فِيْمَا إِنْ مَكَنَّاكُمْ فِيهِ﴾ [الأحاف: ٢٦] .

وقال أيضاً: ﴿وَأَنَارُوا الْأَرْضَ وَعَمَرُوهَا أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا﴾ [الروم: ٩] .

ومع ذلك فلم تنفعهم شدة قوتهم، ولا عظم أجسامهم، ولمّا استمروا على كفرهم وجحودهم، أخذهم الله أخذ عزيز مقتدر، فاستأصلهم الله بسبب كفرهم واكتسابهم الآثام وليس لهم واثق يقيهم من عذاب الله أو يدفعه عنهم .

سَبَبُ الْعَذَابِ الْمُدْمِرِ الَّذِي لَحِقَ بِالْأُمَمِ السَّابِقَةِ

٢٢- ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانَتْ تَأْتِيهِمْ ﴿١﴾ رُسُلُهُمْ ﴿٢﴾ بِالْبَيِّنَاتِ فَكَفَرُوا فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ إِنَّهُ قَوِيٌّ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾

أي: أن ذلك العذاب الذي حلّ بالمكذبين السابقين -كان بسبب موقفهم من رسل الله الذين جاؤوهم بالدلائل الواضحة على صدق دعواهم، فكفروا بهم وكذبوهم، فكانت النتيجة أن الله تعالى عاقبهم بذنوبهم واستأصل شأفتهم ﴿إِنَّهُ قَوِيٌّ﴾ لا يغلبه أحد، ولا يعطل مراده أحد، فهو سبحانه ﴿شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ لمن كفر به وعصاه، وكذب رسله، وعذابه تعالى أليم موجه، لا يقوى عليه المخلوق الضعيف .

(١) قرأ يعقوب بضم الهاء من (تأتيهم)، والباقون بكسرها .

(٢) قرأ أبو عمرو بإسكان السين من (رسلهم)، والباقون بضمها .

مُوسَى وَفِرْعَوْنُ

وبعد أن ذكر سبحانه فريقاً من الأحزاب التي شاهدها العرب، كقوم هود، وقوم صالح وقوم شعيب، ممن قال الله فيهم: ﴿فَلَاخِذْهُمْ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ﴾ ذكر فريقاً آخر من الأمم لم تعرفهم العرب، وهم قوم فرعون مع نبي الله موسى ﷺ، فقال تعالى:

٢٣، ٢٤- ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَى بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُّبِينٍ ﴿٢٣﴾ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَقَارُونَ فَقَالُوا سَاحِرٌ كَذَّابٌ ﴿٢٤﴾﴾

أي: والله لقد بعثنا موسى نبياً ورسولاً، وأيدناه بآياتنا العظيمة، الدالة على وحدانيتنا، وأيدناه بالحجة الباهرة الدالة على حقيقة ما أرسل به، كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَىٰ تِسْعَ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ﴾ [الإسراء: ١٠١].

وهذه المعجزات التي تُصدّق موسى ﷺ في دعواه هي: العصا، واليد، والسنون، وفلق البحر، والطوفان، والجراد، والقمل، والضفادع، والدم.

كما أيدنا موسى بقوة الحجة في مجادلة فرعون، وهي المشار إليها في قوله تعالى: ﴿وَسُلْطَانٍ مُّبِينٍ﴾ أي: منحناه معجزات باهرات، ومنحناه حجة قاهرة يغلب بها خصمه، وتدل على بطلان ما كان عليه مَنْ أرسل إليهم، كما قهرهم في مقابلة العصا بسحرة فرعون فأبطل سحرهم، أو يراد بالآيات: التوراة، وبالسلطان: المعجزات التسع.

أرسلنا موسى بآياتنا ﴿إِلَىٰ فِرْعَوْنَ﴾ ملك مصر، وهو (منفتح بن رمسيس الثاني) ﴿وَهَامَانَ﴾ وزيره ﴿وَقَارُونَ﴾ صاحب الأموال والكنوز، وهو الذي كان من قوم موسى فبغى عليهم، فخسف الله به وبداره الأرض.

وخصّ الله تعالى هؤلاء الثلاثة بالذكر؛ لأنهم الزعماء البارزون الذين كانوا يدبرون المكائد لموسى، فيتبعهم العامة من قومهم، وكان منهم أن أنكروا رسالته، واستكبروا، واتهموه بالسحر والكذب، وقالوا: كيف يزعم أنه رسول للناس، وهو كاذب في دعواه؟

وهكذا كان نتيجة اللقاء الأول بين موسى وهؤلاء الطغاة، أنهم وصفوه بالسحر

والكذب، حسداً منهم وحرصاً على مُلكهم ودنياهم، قال تعالى:

٢٥- ﴿فَلَمَّا جَاءَهُمْ بِالْحَقِّ مِنْ عِنْدِنَا قَالُوا اقْتُلُوا أَبْنَاءَ الَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ وَاسْتَحْيُوا نِسَاءَهُمْ وَمَا كَيْدُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ ﴿٢٥﴾﴾

أي: أن قوم فرعون لم يكتفوا بتكذيب موسى ووصفه بالسحر، بل انتقلوا إلى مرحلة أشد، بعدما استمر موسى في دعوته، وأظهر لهم الحجج الواضحة، وعندئذ أصدرُوا أوامره بقتل الذكور من أبناء الذين آمنوا بموسى، وترك الإناث للخدمة والإذلال.

ولما وصل إليهم موسى بدعوته، وخاطبهم بما أمره به ربه، وأظهر لهم ما زوّده الله به من معجزات، لم يقابلوها بالتصديق والإذعان، ولم يكتفوا بمجرد الإعراض والترك، ولا بالإنكار والمعارضة، بل أمرُوا بقتل أبناء المؤمنين بموسى، حيث قال فرعون وهامان وقارون: اقتلوا أبناء من آمنوا بموسى واتبعوه ﴿وَاسْتَحْيُوا﴾ أي: واستبقوا ﴿نِسَاءَهُمْ﴾ للخدمة والاستمتاع، وهذا كقوله تعالى ﴿وَقَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِ فِرْعَوْنَ أَنْتُمْ مَوْسَى وَقَوْمُهُ لِيُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَيَذَرَكَ وَآلِهَتَكَ قَالَ سَنُقْبِلُ أَبْنَاءَهُمْ وَنَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَاهِرُونَ ﴿١٧٧﴾﴾ [الأعراف]

وهذا القتل كان بعد القتل الأول الذي كان في وقت ولادة موسى ﷺ بسبب خوف فرعون على مُلكه، وكان فرعون قد تراخى عنه.

أما القتل في وقت دعوة موسى لهم فكان بسبب ألا ينشأ على دين موسى قوم، فيقوى ويشد بهم^(١).

وكان القصد من هذا إهانة شعب بني إسرائيل، والتشكيك في أمر موسى وأن يتشاءموا به وبدعوته، ولهذا ﴿قَالُوا أَوِذِنَا مِنْ قَبْلِ أَنْ نَأْتِيَنَا وَوَيْدُ مَا جِئْتُنَا﴾ [الأعراف: ١٢٩].

ثم وهن الله - سبحانه - من كيد فرعون وملئه، فبين أنه مكرٌ وكيدٌ مصيره الهلاك والزوال، فقال: ﴿وَمَا كَيْدُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ﴾ أي: أن هذا الكيد الذي دبّره صار إلى ضلال وهلاك وخسران، فلم تنجح مساعيهم، بل أضل الله كيدهم وسعيهم حيث أخذ الله على أيديهم، فلم يجدوا سبيلاً لإنفاذه، ولم يقدروا على قتل أحد من بني إسرائيل، ولم يتم لهم ما أرادوه.

(١) يُنظَر: «تفسير الفخر الرازي» (٣٠٢/٧) وعبد الرزاق (١٨٠/٢).

والقرآن الكريم لم يقل (وما كيدهم)، وإنما قال: ﴿وَمَا كَيْدُ الْكَافِرِينَ﴾ ليكون الوصف عامًّا يندرج تحته كيد فرعون، ويندفع به اختصاص الحكم بمعين.

فِرْعَوْنُ يَغْزِمُ عَلَى قَتْلِ مُوسَى، وَمُوسَى يَعْصِمُ بِاللَّهِ مِنْ بَطْشِ فِرْعَوْنَ

٢٦- ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ ذَرُونِي أَقْتُلْ مُوسَى وَلْيَدْعُ رَبَّهُ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَنْ يُظْهِرَ فِي الْأَرْضِ الْفَسَادَ﴾

أي: أن فرعون لم يعمل بمشورة ملئه الذين قالوا: ﴿أَقْتُلُوا أَبْنَاءَ الَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَهُ﴾ فسكت، ولم يُظهر تأييدًا ولا معارضة، ثم رأى أن الأجدر به أن يقتل موسى نفسه؛ لأن قتله أقطع للفتنة ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ ذَرُونِي أَقْتُلْ مُوسَى﴾ أي: قال فرعون لأشراف قومه بلهجة المغرور المتكبر: اتركوني أقتل موسى، وهو يعلم أنه لا يوجد معارض ولا ممانع له من قتله، فلما علم موسى بذلك خوَّفهم عذاب الله، وتحذَّاهم بالآيات التسع، فقال فرعون ساخرًا غير مكترث بموسى: ﴿وَلْيَدْعُ رَبَّهُ﴾ أي: يدع ربه الذي يزعم أنه أرسله إلينا؛ كي يخلصه مني فيمنعه من القتل، وهذا استخفاف وجرأة ما بعدها جرأة على رب العالمين، فسبحانك ربي ما أحلمك؟

ثم علَّل فرعون عزمه على قتل موسى، فظهر بمظهر الناصح لقومه، وأنه يريد إزالة الشر من الأرض، فقال: ﴿إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُبَدِّلَ دِينَكُمْ﴾ أي: إني أخشى أن يغيِّر عليكم ما أنتم فيه من عبادة، إلى عبادة إلهه، فيفسد عليكم دينكم بدعوتكم إلى دينه، وأخشى أن يُظهر الفساد في الأرض، فيثير الفتن والقلاقل، ويكثر الهرج والمرج، فيفسد عليكم دنياكم، وهو معنى ﴿أَوْ أَنْ يُظْهِرَ فِي الْأَرْضِ الْفَسَادَ﴾ والمراد: أرض مصر، حيث يذهب الأمن فيها، وتتعطل المزارع والمصالح والمعاش، ويهلك الناس قتلاً وضياعاً، وقد بين فرعون أن السبب في عزمه على قتل موسى أن وجوده يسبب فساد الدين إذا اعتقدوا أن دينه هو الصحيح، أو يسبب فساد الدنيا بوقوع الخصومات وإثارة الفتن بينهم.

(١) قرأ ابن كثير بفتح الياء من (ذروني أقتل) وصلًا، والباقون بإسكانها.

(٢) قرأ نافع وابن كثير وأبو عمرو وأبو جعفر بفتح الياء من (إني أخاف) في المواضع الثلاثة بالسورة، وسكنها الباقون.

وقد بدأ فرعون بذكر الدين؛ لأنه أحب إلى الناس من أموالهم.

ومن العجب أن ينصح الناس شَرَّ الخلق عن اتباع خير الخلق، من باب التمويه والترويح على قوله، وهذا لا يدخل إلا على عقول من قال الله فيهم: ﴿فَاسْتَحَفَّ قَوْمُهُ فَأَطَاعُوهُ﴾ [الزخرف: ٥٤]

ومن المعلوم أن فرعون لم يقتل موسى، فلماذا كان هذا الوعيد والتهديد؟ ولماذا كفَّ عن قتله؟ هل لأنه يثق أنه نبي، فخاف على نفسه أن يُعاجَلَ بالعقوبة؟

قال الزمخشري: والظاهر أن فرعون كان قد استيقن أن موسى نبيًا، وأن ما جاء به آيات، وليس بسحر، ولكن الرجل كان قَتْلًا سَفَاكًا للدماء في أهون شيء، فكيف لا يقتل مَنْ أَحْسَنَ منه بأنه هو الذي يثُلُّ عرشه، ويهدم ملكه؟ ولكنه كان يخاف إن هَمَّ بقتله أن يعاجَلَ بالهلاك^(١).

زاد أبو حيان: وكان كلامه للتمويه على قومه، وإيهامهم أنهم هم الذين يكفُّونه، وما كان يكفُّه إلا الخوف والفرع^(٢).

وكان فرعون قد وهن أمره، فبهرته معجزات موسى، واضطربت عقيدة أصحابه، فرجع عن عزمه على قتل موسى، وتنازل عن ألفاظ الجبارة المتمكنين من تنفيذ أوامره، في قوله: ﴿ذَرُونِي أَقْتُلْ مُوسَى﴾ إلى نصيحته لقومه بأنه يخاف عليهم أن يبدل دينهم، ويظهر الفساد في الأرض.

وفي هذه الأثناء التي انهَدَّ فيها ركن فرعون، وظهر الخلل في صفوف أتباعه، ظهرت مقالة مؤمن آل فرعون، فصدع بأمره، وكاشَفَ فرعون وقومه بنبوة موسى ﷺ.

ولما بلغ موسى عزم فرعون على قتله، لجأ إلى الله تعالى واعتصم بجنابه من بطش فرعون، ومن كل متكبر لا يؤمن بالله ولا بعقابه:

٢٧- ﴿وَقَالَ مُوسَى إِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُمْ مِنْ كُلِّ مُتَكَبِّرٍ لَا يُؤْمِنُ بِيَوْمِ الْحِسَابِ﴾

(١) «تفسير الكشاف» (٤/١٦٠).

(٢) «البحر المحيط» (٧/٤٥٩).

أي: قال موسى لفرعون وملئه: إني استجرت بربي وربكم أيها القوم ﴿مِنْ كُلِّ مُتَكَبِّرٍ﴾ أي: متكبر عن توحيد الله تعالى وطاعته ﴿لَا يُؤْمِنُ بِيَوْمِ الْحِسَابِ﴾ الذي يحاسب الله فيه خلقه، ويجازيهم على أعمالهم وأقوالهم بالثواب والعقاب، ولم يقل موسى: إني عذت بربي وربكم من فرعون، وإنما ذكر قاعدة عامة يدخل فيها فرعون دخولا أوليا، وهي ﴿كُلِّ مُتَكَبِّرٍ لَا يُؤْمِنُ بِيَوْمِ الْحِسَابِ﴾ وقد منع الله موسى مما دبره فرعون، وقبض له من الأسباب ما اندفع به شر فرعون، ومن هذه الأسباب، الرجل المؤمن الذي خرج من عبادة فرعون لينصح موسى من كيد فرعون، وكان يكتُم إيمانه.

والرجل إذا اجتمع فيه التكبر والتكذيب بالجزاء، وعدم المبالاة بالعاقبة، فقد استكمل أسباب القوة والجُرأة على الله تعالى وعلى عباده، ولم يترك ذنبًا إلا ارتكبه.

عن أبي موسى ؓ أن رسول الله ﷺ كان إذا خاف قومًا قال: «اللهم إني أجعلك في نحورهم، وأعوذ بك من شرورهم»^(١).

وهذا كدعاء موسى ربه في قوله: ﴿قَالَ رَبِّ إِنَّا نَخَافُ أَنْ يُقْرِطَ عَلَيْنَا أَوْ أَنْ يَطْغَى﴾ ﴿٤٥﴾ قَالَ لَا تَخَافَا إِنِّي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَى﴾ ﴿٤٦﴾ [طه].

وهكذا فقد أخبر موسى قومه أن ربه حافظ له من أذاهم، وقد علم موسى أنه سيجد معارضين له يكرهون رسالته، وعلم أيضًا أن الله تعالى سيكفيه شر كل معاند، فاستعاذ بربه من بطش فرعون، ومن كل متكبر لا يؤمن باليوم الآخر، فحفظه الله من مكرهم وكيدهم.

مُؤْمِنُ آلِ فِرْعَوْنَ يَنْصَحُ قَوْمَهُ

٢٨- ﴿وَقَالَ رَجُلٌ مُؤْمِنٌ مِّنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَانَهُ أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَنْ يَقُولَ رَبِّيَ اللَّهُ وَقَدْ جَاءَكُمْ بِالْبَيِّنَاتِ مِنْ رَبِّكُمْ وَإِنْ يَكُ كَاذِبًا فَعَلَيْهِ كَذِبُهُ وَإِنْ يَكُ صَادِقًا يُصِيبْكُمْ بَعْضُ الَّذِي يَعِدُكُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَابٌ﴾ ﴿٢٨﴾

وكان أول مظهر من مظاهر تحقيق الله تعالى لاستعاذة موسى بربه أن قبض له رجلاً

(١) «المسند» (٤/٤١٤)، (١٩٧١٩) و (١٩٧٢٠) عن عبد الله بن قيس، والمعجم الصغير للطبراني برقم (٩٩٦) قال محققو المسند: حديث حسن، وأخرجه أبو داود (١٥٣٧) والنسائي في الكبرى (٨٦٣١) و (١٠٤٣٧) وابن حبان (٤٧٦٥) وغيرهم.

أجنيبًا، يدافع ويُدبُّ عنه كيد فرعون وقومه على أحسن الوجوه لتسكن الفتنة ويزول الشر، فما من إنسان يفوّض أمره إلى الله تعالى إلا كفاه الله ما يخاف.

وهذا الرجل من آل فرعون، أي: من قرابته وخاصته، قيل: كان ابن عمه، وقيل اسمه: حزقيل^(١) أو شمعان، أو غير ذلك، وكان يكتُم إيمانه بالله، وبصدق موسى ﷺ، بعد أن ظهر له أدلة صدقه فاهتدى، كما اهتدى أبو بكر ﷺ إلى التصديق بمحمد ﷺ، وكان الرجل المؤمن يكتُم إيمانه خوفًا من فرعون وقومه، وقد علم أن إظهار الإيمان يضره ولا ينفع غيره، ولما سمع هذا الرجل، فرعون يتوعد موسى بالقتل، نصحبهم ألا يقتلوا رجلًا لا ذنب له إلا أنه يقول: ربي الله.

وهذه القصة كانت في مبدأ دخول موسى أرض مصر، عندما عاد من مدين، وهذا الرجل يختلف عن الرجل الذي جاء من أقصى المدينة يسعى، كما في سورة القصص، فإن قصته كانت قبيل خروج موسى من مصر إلى مدين، وكان من بني إسرائيل، ولم يكن من آل فرعون، قال الرجل منكراً على قومه: كيف تستحلون قتل رجل لا ذنب له إلا أنه يوحد الله؟ وقد جاءكم بالبينات الدالة على صدقه، فكيف تقتلونوه وقد ظهرت حجته واشتهرت بين الناس، فهلا أبطلتم ما جاء به ببرهان مماثل يرد عليه قوله؟

أخرج ابن جرير بسنده عن السُّدِّي: أن فرعون أصغى لكلام الرجل المؤمن، واستمع منه ما قاله، وتوقف عن قتل موسى عند نهيه له عن قتله.

وفي الحديث: عن طارق بن شهاب أن رجلاً سأل النبي ﷺ وقد وضع رجله في الغرز: أي الجهاد أفضل؟ قال: «أفضل الجهاد كلمة حق عند سلطان جائر»^(٢).

وقد صرَّح الرجل المؤمن بإيمانه بالله تعالى حين قال: ﴿رَبِّيَ اللَّهُ﴾ فإن لفظ الجلالة ليس من آلهة القبط.

ولما استأنس الرجل المؤمن بخطاب قومه له، صرَّح لهم بتصديق موسى، فقال:

(١) قاله ابن المنذر كما في «الدر» (١٣/٣٥).

(٢) «المسند» (١٨٨٣٠)، و (١٨٨٢٨) قال محققوه: إسناده صحيح، رجاله ثقات رجال الشيخين، وأخرجه البيهقي في الشعب (٧٥٨٢) والنسائي في الكبرى (٧٨٣٤) وانظر المعجم الكبير للطبراني (٨٠٨١) عن أبي أمامة.

﴿وَقَدْ جَاءَكُمْ بِالْبَيِّنَاتِ مِنْ رَبِّكُمْ﴾ أي: جاء بالبراهين القاطعة الدالة على صدق ما يقول، وكانت قد اشتهرت بينهم وعلمها الصغير والكبير، فهذا لا يوجب قتله.

ثم أخذ في إقناعهم عن طريق العقل والتأمل والنظر، والنزول إلى مرتبة الحوار والتحدي، فقال لهم: لا تتعجلوا في قتله، ولا تتعجلوا في اتباعه، فإن تبين لكم كذبه، فإن اتباعكم له لا يضركم في شيء، وإن تبين لكم صدقه، فإن ما يعدكم به من العذاب سوف يحق بكم ﴿وَإِنْ يَكُ كَذِبًا فَعَلَيْهِ كَذِبُهُ﴾ أي: أن وبال كذبه سيعود عليه وحده ﴿وَإِنْ يَكُ صَادِقًا يُصِيبْكُمْ بَعْضُ الَّذِي يَعِدْكُمْ﴾ أي: يلحقكم بعض ما يتوعدكم به، ولم يقل: يصبكم كل ما يعدكم به.

وهكذا، فإن حال موسى بين أمرين، إما أن يكون كاذبًا أو صادقًا، فإن كان كاذبًا فكذبه عليه وإن كان صادقًا فإنه ولا بد أن يصيبكم بعض الذي يعدكم به من عذاب الدنيا، فأمر قتلَه سَفَهَ وجهل منكم، وهكذا فإن الرجل المؤمن قدّم الكذب على الصدق، حتى يصرف عنهم تعصُّبه له، وهذا كلام في غاية الحكمة والإنصاف وحُسن المنطق، وفيه إلزام للحجة بأيسر أمر، فقد وعدهم بالنعيم إن آمنوا، وبالعذاب إن كفروا، وإن كان صادقًا، فالعذاب بعض ما وعده به.

ثم لفت الرجل المؤمن أنظار القوم إلى سُنَّة من سنن الله في الكون، وانتقل إلى مرتبة أعلى في الحوار، لبيّن قُرب موسى من الحق وبعدهم عنه فقال: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ﴾ أي: لا يوفّق للحق من هو متجاوز للحد، مسرف في الضلال، يترك الحق ويُقبل على الباطل وهو ﴿كَذَّابٌ﴾ مبالغ في الكذب، بنسبة ما أسرف فيه من الكذب على الله تعالى، ولو كان موسى مسرفًا كاذبًا ما أيّده الله بالحجج الساطعة، والمعجزات الباهرة.

ويحتمل أن يكون ختام الآية هذا من قول الله تبارك تعالى.

وفي الآية تعريض بفرعون أنه مسرف في عزمه على قتل موسى، كذاب في إقدامه على ادعائه الإلهية، ومن كان هذا شأنه، فإن الله تعالى لا يوفقه ولا يهديه.

ولو كان موسى كاذبًا -كما يزعم فرعون- لافتضح أمره في أقواله وأفعاله، وكانت غاية في الاضطراب، ولكنه صاحب رأي سديد ومنهج قويم، فقد دعا موسى إلى الحق، وأقام

عليه البراهين العقلية والخوارق السماوية، وهذا دليل على كمال عقله وعلمه ومعرفته بربه.

آثار في المعنى:

١- وموقف مؤمن آل فرعون من موسى ﷺ يشبه موقف أبي بكر الصديق ﷺ من النبي ﷺ حين أقبل عقبة بن أبي معيط، والنبي ﷺ يصلي بفناء الكعبة، فأخذ بمنكبه، ولوى ثوبه في عنقه وخنقه خنقاً شديداً، فأقبل أبو بكر يأخذ بمنكبه ورفع يد عقبة عن النبي ﷺ، ثم قال: ﴿أَنقَتُلُونَ رَجُلًا أَنْ يَقُولَ رَبِّيَ اللَّهُ﴾^(١).

٢- وسئل عمرو بن العاص ﷺ، عن أشد ما رآه من قريش، فقال: إنه مرَّ بهم ذات يوم، وهم يقولون للنبي ﷺ: أنت الذي تنهانا أن نعبد ما يعبد آبائنا؟ فقال: «أنا ذاك»، فقاموا إليه وأخذوا بمجامع ثيابه، فرأيت أبا بكر يحتضنه من ورائه وهو يصيح بأعلى صوته، وإن عينيه لتتضحان، وهو يقول: ﴿أَنقَتُلُونَ رَجُلًا أَنْ يَقُولَ رَبِّيَ اللَّهُ﴾ حتى فرغ من الآية^(٢).

٣- وعن علي ﷺ قال: اجتمعت قريش بعد وفاة أبي طالب بثلاث: فأرادوا قتل رسول الله ﷺ فأقبل هذا يجؤه -أي: يضربه- وهذا يُثَلِّثُه -أي: يحركه تحريكاً شديداً- فلم يُغْنِه أحد إلا أبو بكر وله ضفيرتان، فأقبل يَجَأُ هذا، ويُثَلِّثُ ذا، ويقول بأعلى صوته: ﴿أَنقَتُلُونَ رَجُلًا أَنْ يَقُولَ رَبِّيَ اللَّهُ﴾ والله إنه لرسول الله، فقطعت إحدى ضفيري أبي بكر يومئذ^(٣).

٤- وعن عليٍّ أيضاً أنه قال: أيها الناس، أخبروني بأشجع الناس؟ قالوا: أنت، قال: أما إني ما بارزتُ أحداً إلا انتصفتُ منه، ولكن أخبروني بأشجع الناس؟ قالوا: لا نعلم، فمن؟ قال: أبو بكر، لقد رأيت رسول الله ﷺ وأخذته قريش، فهذا يَجْؤُه -أي: يضربه- وهذا يُثَلِّثُه -أي: يسوقه بعنف- وهم يقولون: أنت الذي جعلت الآلهة إلهاً واحداً؟ قال: فوالله ما دنا منا أحد إلا أبو بكر يضربُ هذا، وَيَجْؤُ هذا، ويثَلِّثُ هذا، وهو يقول: ﴿أَنقَتُلُونَ رَجُلًا أَنْ يَقُولَ رَبِّيَ اللَّهُ﴾ ثم رفع عليٌّ بردة كانت عليه، فبكى حتى اخضلت

(١) «صحيح البخاري» برقم: (٣٦٧٨، ٣٨٥٦، ٤٨١٥) و«صحيح مسلم» (٢٣٨٩).

(٢) النسائي في «السنن الكبرى» برقم: (١١٤٦٢) وابن أبي شيبة (٢٩٧/١٤) والبيهقي (٢٧٧/٢) والحكيم الترمذي (٩١٣).

(٣) يُنْظَرُ: «تفسير القرطبي» (٣٠٨/١٥).

لحيته، ثم قال: أنشدكم بالله، أمؤمن آل فرعون خير أم أبو بكر؟ فسكت القوم، فقال: ألا تجيبوني، فوالله لساعة من أبي بكر خير من مثل مؤمن آل فرعون، ذاك رجل يكتم إيمانه، وهذا رجل أعلن إيمانه^(١).

٥- وكان موسى قد طلب من فرعون وقومه أن يتركوه ويوادعوه إن لم يؤمنوا به وبدعوته، كما جاء في قوله تعالى: ﴿أَنْ أَدُؤَا إِلَىٰ عِبَادِ اللَّهِ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ﴾ (٨) وَأَنْ لَا تَعْلُوا عَلَى اللَّهِ إِنِّي ءَاتِيكُمْ سُلْطَانٍ مُّبِينٍ (٩) وَإِنِّي عُدْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُمْ أَنْ تَرْجُمُونِ (١٠) وَإِنْ لَمْ تُؤْمِنُوا لِي فَأَعَزِّلُونِي (١١) [الدخان].

وهكذا طلب رسول الله ﷺ من قومه أن يتركوه يدعوا إلى الله تعالى، وألا يمسّوه بسوء، وأن يصلّوا ما بينه وبينهم من قرابة، وذلك في قوله تعالى: ﴿قُلْ لَا أَشْتَكُمُ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَىٰ﴾ [الشورى: ٢٣] أي: إني لا أطلب منكم أجرا على تبليغ الدعوة إلا أن تصلّوا ما بيني وبينكم من قرابة، فلا تؤذوني وتتركوا ما بيني وبين الناس حتى أبلغ دعوة ربي، ثم إن الرجل المؤمن حذر قومه ونصحهم وخوفهم عذاب الآخرة، ونهاهم عن الاغترار بما لديهم من الملك والسلطان، فقال:

٢٩- ﴿يَقَوْمِ لَكُمْ الْمُلْكُ الْيَوْمَ ظَاهِرِينَ فِي الْأَرْضِ فَمَنْ يَصُرْنَا مِنْ بَاسِ اللَّهِ إِنْ جَاءَنَا قَالَ فِرْعَوْنُ مَا أُرِيكُمْ إِلَّا مَا أَرَىٰ وَمَا أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ الرَّشَادِ﴾ (٢٩).

واستمر مؤمن آل فرعون في نصيحته لفرعون وقومه، فذكرهم بنعم الله عليهم، وحذّرهم من نقمته، وكأنه يقول لهم: إن كنتم قادرين على قتل موسى، فإن الله تعالى قادر على إهلاككم، وذلك بعد أن أمّن بأسهم، وتوسّم تأثير كلامه فيهم، فانتهز انكسار قلوبهم، وأخذ يعظهم وينصحهم قائلاً: ﴿يَقَوْمِ لَكُمْ الْمُلْكُ الْيَوْمَ﴾ أي لكم السلطان والسيادة على أرض مصر في هذا الزمن ﴿ظَاهِرِينَ فِي الْأَرْضِ﴾ أي وأنتم سادة على بني إسرائيل تسيطرون عليهم، وتفعلون بهم ما تشاؤون.

أي: يا أهلي وعشيرتي، أنتم اليوم لكم السلطان، والسيادة، والغلبة على أرض مصر

(١) أخرجه البزار (٧٦١) وأبو نعيم في «فضائل الصحابة» (٢٣٧) قال الهيثمي في «مجمع الزوائد» (٤٧/٩): وفيه من لم أعرفه.

وما حولها، منتصرين على بني إسرائيل، ومع حصول هذه السيادة لكم، فمن يحمينا من عقاب الله إن وقع بنا؟ لأن ما أنتم فيه من سلطان وغلبة لن ينفعنا في شيء، وهذا تذكير لهم بنعمة الله عليهم، وتمهيد لتخويفهم من غضبه تعالى.

وهو تعريض خاص بفرعون: أَلَا يَغْتَرَّ بِمُلْكِهِ وَعَظَمَتِهِ، فَإِنْ ذَلِكَ مُعَرَّضٌ لِلزَّوَالِ إِنْ هُوَ أَغْضَبَ اللَّهَ عَلَيْهِ، وَهَذَا مَعْنَى ﴿فَمَنْ يَنْصُرُنَا مِنْ بَأْسِ اللَّهِ إِنْ جَاءَنَا﴾ أَي: مَنْ يَدْفَعُ عَنَّا عَذَابَ اللَّهِ إِذَا حُلَّ بِنَا؟ وَمَنْ يَنْقُذُنَا وَيَنْجِيْنَا إِذَا حَلَّتْ بِنَا مَصِيبَةٌ؟ وَقَدْ أَدْمَجَ الرَّجُلُ الْمُؤْمِنَ نَفْسَهُ مَعَ قَوْمِ فِرْعَوْنَ تَطْيِيبًا لِقُلُوبِهِمْ، كَأَنَّهُ يَرْضَى لَهُمْ مَا يَرْضَى لِنَفْسِهِ.

وهنا أدرك فرعون أنه المعرَّض به في كلامهم، فأخذته العزة بالإثم، واستبدَّ به الجبروت والطغيان ﴿قَالَ فِرْعَوْنُ مَا أُرِيكُمْ إِلَّا مَا أَرَى﴾ أَي: مَا أَشِيرُ عَلَيْكُمْ إِلَّا بِرَأْيِي ذَكَرْتُهُ مِنْ قَبْلُ، وَهُوَ قَتْلُ مُوسَى حَسَمًا لِلْفِتْنَةِ ﴿وَمَا أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ الرَّسَادِ﴾ أَي: وَلَا أَدْعُوكُمْ إِلَّا إِلَى الصَّلَاحِ وَطَرِيقِ الْحَقِّ وَالصَّوَابِ، وَالرَّأْيُ السَّيِّدُ قَالَ تَعَالَى: ﴿وَأَضَلَّ فِرْعَوْنُ قَوْمَهُ وَمَا هَدَى﴾ ﴿٧٩﴾ [طه].

وفي حديث معقل بن يسار ؓ أن رسول الله ﷺ قال: «مَا مِنْ وَاِلٍ يَلِي رِعْيَةً مِنَ الْمُسْلِمِينَ فَيَمُوتَ وَهُوَ غَاشٌّ لَهُمْ إِلَّا حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ»^(١).

ولفظ مسلم: «مَا مِنْ عَبْدٍ يَسْتَرْعِيهِ اللَّهُ رِعْيَةً يَمُوتَ، يَوْمَ يَمُوتَ وَهُوَ غَاشٌّ لِرِعْيَتِهِ، إِلَّا حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ»^(٢).

وكرر الرجل المؤمن دعوة قومه غير آيس من هدايتهم:

٣٠- ﴿وَقَالَ الَّذِي ءَامَنَ يَقَوْمِ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ مِثْلَ يَوْمِ الْأَحْزَابِ﴾ ﴿٢٠﴾

واسترسل الرجل المؤمن في نصحه لقومه يقول لهم: يَا قَوْمِ إِنِّي أَخَافُ إِنْ تَعَرَّضْتُمْ لِمُوسَى بِالْقَتْلِ أَوْ التَّكْذِيبِ أَنْ يَنْزِلَ بِكُمْ مِنَ الْعَذَابِ مِثْلَ الَّذِي نَزَلَ بِالْأُمَمِ الَّتِي تَحَزَّبَتْ عَلَى أَنْبِيَائِهَا، حِينَ أَعْرَضُوا عَنْ دَعْوَتِهِمْ، وَهَذَا مَعْنَى: ﴿وَقَالَ الَّذِي ءَامَنَ يَقَوْمِ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ﴾ إِنْ قَتَلْتُمْ مُوسَى أَنْ يَحْدُثَ لَكُمْ يَوْمًا أَسْوَدَ فَيَحِلُّ بِكُمْ ﴿مِثْلُ﴾ مَا حَدَثَ ﴿يَوْمِ

(١) البخاري برقم: (٧١٥١).

(٢) مسلم برقم: (١٤٢).

الْأَحْزَابِ ﴿٣١﴾، للذين تحزبوا على أنبيائهم واجتمعوا على معارضتهم.

والمراد بالأيام: الوقائع والأحداث التي تقع فيها، والمراد بالأحزاب: الأمم التي تحزبت ضد رسلها؛ لأن كل أمة حزب، أي: إني أخاف أن يصيبكم ما أصابهم من عذاب الاستئصال، ثم فسر يوم الأحزاب بأنه:

٣١- ﴿مِثْلَ ذَٰبٍ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَالَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ وَمَا اللَّهُ يُرِيدُ ظَلَمًا لِلْعِبَادِ ﴿٣١﴾﴾

أي: مثل يوم قوم نوح، وقوم عاد، وقوم ثمود، ومن جاء بعدهم في الكفر والتكذيب، فإن الله تعالى قد أهلكهم بسبب ذلك، وكانوا يعرفونهم لقرب بلادهم منهم.

والمعنى: إني أخاف عليكم إن أصبتم موسى بأذى أن يكون حالكم كحال هذه الأمم، فإنهم لما كذبوا رسل الله وتآمروا عليهم أهلكهم الله، فاحذروا أن تكونوا مثلهم ﴿وَمَا اللَّهُ يُرِيدُ ظَلَمًا لِلْعِبَادِ﴾ فيعذبهم بغير ذنب أذنبوه، ولا جُرم فعلوه، تعالى الله عن الظلم علواً كبيراً، وإن أعظم الظلم هو الشرك بالله، والله - سبحانه - لا يحب صدور الظلم من عباده، ولا يحب أن يظلم عباده.

ومن عدل الله تعالى أنه لا يترك عقاب الذين يظلمون أنفسهم باتباع قادتهم على غير بصيرة ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ النَّاسَ شَيْئًا وَلَكِنَّ النَّاسَ أَنْفُسُهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٤٤﴾﴾ [يونس: ٤٤].

وقد استوجب قوم فرعون عقاب الله تعالى بسبب ظلمهم، فكان ذلك عدلاً وقسطاً.

وبعد أن خوّف الرجل المؤمن فرعون وقومه عذاب الدنيا حذّره من عذاب الآخرة، فقال:

٣٢، ٣٣- ﴿وَيَقُولُ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ يَوْمَ النَّادِ ﴿٣٢﴾ يَوْمَ تُؤْلَوْنَ مَذْرِبِينَ مَا لَكُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ

عَاصِرٍ وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ ﴿٣٣﴾﴾

أي: يا أهلي وعشيرتي، إني أخاف عليكم عقاب يوم القيامة الذي يكثر فيه نداء بعض الناس على بعض من هول الموقف، واليوم الذي ينادي فيه أهل الجنة أهل النار، قائلين ﴿قَدْ وَجَدْنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا حَقًّا فَهَلْ وَجَدْتُمْ مَا وَعَدَ رَبُّكُمْ حَقًّا قَالُوا نَعَمْ ﴿٤٤﴾﴾ [الأعراف: ٤٤]

وينادي أهل النار أهل الجنة، ﴿أَنْ أَفِضُوا عَلَيْنَا مِنَ الْمَاءِ أَوْ مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ ﴿٥٠﴾﴾ [الأعراف: ٥٠]

وتنادي فيه الملائكة أهل السعادة وأهل الشقاء، (يا أهل الجنة خلودوا بلا موت، ويا

أهل النار خلود بلا موت)، وينادي المجرمون على أنفسهم بالويل والثبور ﴿وَإِذَا أُلْقُوا مِنْهَا مَكَانًا ضَيِّقًا مُقَرَّبِينَ دَعَوْا هُنَالِكَ ثُبُورًا ﴿١٣﴾ لَا نَدْعُوا الْيَوْمَ ثُبُورًا وَاحِدًا وَادْعُوا ثُبُورًا كَثِيرًا ﴿١٤﴾﴾ [الفرقان].

وينادي أهل النار مالكا ﴿يَمْلِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَيْكَ قَالِ إِنَّكُمْ مَنكِثُونَ ﴿١٧﴾﴾ [الزخرف].
وينادي أهل النار ربه: ﴿رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْهَا فَإِنْ عُدْنَا فَإِنَّا ظَالِمُونَ ﴿١٧﴾﴾ قَالِ أَخَشِئُوا فِيهَا وَلَا تَكْمُلُونَ ﴿١٨﴾﴾ [المؤمنون].

ويقال للمشركين ﴿ادْعُوا شُرَكَاءَكُمْ فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُمْ﴾ [القصص: ٦٤].
وخوفهم الرجل المؤمن هول ذلك اليوم إن ظلوا على شركهم فقال:

إني أخاف عليكم يوم تنصرفون من موقف الحساب إلى النار، فتحاولون الهرب منها فلا تستطيعون، ولا تجدون من يمنعكم من عذاب الله حين تفرّون من هول ما تجدونه، فإنهم كلما ذهبوا هاربين من عذاب النار ردّتهم الملائكة؛ يضربون وجوههم وأدبارهم، كما قال تعالى: ﴿وَالْمَلَكُ عَلَى أَرْجَائِهِمْ﴾ [الحاقة: ١٧].

فلا يمكنهم الخروج من أية جهة من أقطار جهنم ﴿يَمَعَشَرُ الْجِنَّ وَالْإِنسُ إِنْ أَسْتَطَعْتُمْ أَنْ تَفْذَرُوا مِنْ أَقْطَارِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ فَانْفُذُوا لَا تَنْفُذُونَ إِلَّا بِسُلْطَنِ ﴿٣٣﴾﴾ [الرحمن: ٣٣].

وهذا إرشاد لكم في الدنيا، فإن هداكم الله وعملتكم بطاعته وتركتم معاصيه، فإن نفع ذلك سيعود عليكم، وإن أعرضتم عنه فباختياركم طريق الضلال، فإن من يخذله الله ولم يوفقه إلى رشده، فما له من هاد يهديه إلى الحق والصواب، فإذا كان العبد غير لائق للهداية وغير مستعد لها فلا سبيل إلى هدايته.

دَلِيلُ رِسَالَةِ يُوسُفَ عَلَيْهِ السَّلَامُ

٣٤- ﴿وَلَقَدْ جَاءَكُمْ يُوسُفُ مِنْ قَبْلُ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا زِلْتُمْ فِي شَكٍّ مِمَّا جَاءَكُمْ بِهِ حَتَّى إِذَا هَلَكَ قُلْتُمْ لَنْ يَبْعَثَ اللَّهُ مِنْ بَعْدِهِ رَسُولًا كَذَلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ مُرْتَابٌ ﴿٢٤﴾﴾

ثم إن الرجل المؤمن، لما رأى تصميمهم على تكذيب موسى عليه السلام ذكرهم بأنه من ذرية قوم كذبوا نبي الله يوسف بن يعقوب عليه السلام، مع أنه جاء لهم بالدلائل الواضحة التي تدل على صدق رسالته، فالأمر ليس مستغرباً فيكم؛ لأن آباءكم وأسلافكم كذبوا رسولهم

يوسف عليه السلام، فأنتم تسيرون على نهجهم في الإعراض عن الحق، وكان بين موسى ويوسف أكثر من أربعة قرون.

والمعنى: ولقد أرسل الله إلى آبائكم النبي الكريم يوسف بن يعقوب عليه السلام من قبل موسى، فأمركم بعبادة الله وحده، وجاءكم بالأدلة الواضحة، والمنطق السليم، فقال لكم: ﴿أَتَذَكَّرُ أَلَمْ يَأْتِكُمْ مَوْثِقَاتُ حَيَرٍ أَمَرَ اللَّهُ الْوَحِيدُ الْقَهَّارُ لَا مَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِهِ إِلَّا أَسْمَاءَ سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ مِمَّا أُنْزِلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ﴾ [يوسف: ٣٩، ٤٠].

وقال لكم: ﴿إِنِّي تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ ﴿٣٩﴾ وَاتَّبَعْتُ مِلَّةَ آبَائِي إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ مَا كَانَتْ لَنَا أَنْ نُشْرِكَ بِاللَّهِ مِنْ شَيْءٍ﴾ [يوسف: ٣٧، ٣٨].

وكان يخبركم عن طريق الوحي، بما هو مغيب عنكم في تعبير الرؤى، وظهر لكم عصمته بشهادة امرأة العزيز، وشاهد أهلها، حتى استخلصه الملك لنفسه، فكانت هذه دلائل واضحة على نبوته، ومع ذلك فلم تطيعوه إلا للجاء الديوي وتوليّه خزائن أرض مصر وأمور الوزارة ﴿فَمَا زِلْتُمْ فِي شَكِّ مِمَّا جَاءَكُمْ بِهِ﴾ أي: لازلتُم مُرتابين في شأنه مدة حياته، وكان أسلافكم يشعرون بأن يوسف عليه السلام على هدى من ربه، مما يجعلهم يفزعون إليه في مهامهم، ثم لم يعزموا على اتباع ما جاء به من الهدى، وانقضت مدة حياته وهم في شك من أمره ﴿حَتَّىٰ إِذَا هَلَكَ﴾ أي: مات يوسف ﴿قُلْتُمْ لَن يَبْعَثَ اللَّهُ مِنْ بَعْدِهِ رَسُولًا﴾ في المستقبل، فقد كنا مترددين في الإيمان بيوسف، وقد استرخنا من هذا التردد، فلن يجيء بعده من يدعي الرسالة عن الله، وهذا ظن باطل، لأن الله تعالى لا يترك عباده سدى لا يأمرهم ولا ينهاهم، ولا يرسل إليهم رسلاً وينزل عليهم كتباً قال تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ مُّرْتَابٌ﴾ أي: بمثل ذلك الضلال يضل الله كل متجاوز للحق، شاك في وحدانية الله تعالى، فلا يوفقه إلى الهدى والصواب، وهذا هو الوصف الذي وصفوا به موسى عليه السلام ظلمًا وعدوانًا، فهم المسرفون المتجاوزون للحق، وهم الذين كذبوا على الله ورسوله، لأن من رد الحق بعد معرفته يعاقبه الله بمنعه من الهدى ﴿وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴿٧﴾﴾ [الصافات: ٧] ﴿وَمَا يُضِلُّ بِهِ إِلَّا الْفَاسِقِينَ ﴿٦١﴾﴾ [البقرة: ٦١]

وقد ختمت الآية هنا بما يناسب ارتيابهم في رسالة يوسف عليه السلام ﴿مُسْرِفٌ مُّرْتَابٌ﴾ وختمت في الآية ٢٨ بما يناسب افتراءهم على موسى عليه السلام ﴿مُسْرِفٌ كَذَّابٌ﴾.

ويحتمل أن تكون هذه الجملة من تنمة كلام مؤمن آل فرعون، ويحتمل أن تكون من كلام الله تعالى، فتكون والآية بعدها جملة معترضة بين كلام الرجل المؤمن وكلام فرعون، يُقصد بها الاعتبار من حال المكذبين بالرسول.

ثم بين سبحانه وصف المسرف المرتاب في الآية التالية:

الآية الثانيةُ عن الجِدَلِ فِي السُّورَةِ

٣٥- ﴿الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ أَتَاهُمْ كَبُرَ مَقْتًا عِنْدَ اللَّهِ وَعِنْدَ الَّذِينَ ءَامَنُوا كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَى كُلِّ قَلْبٍ مُّكْتَبِرٍ جَبَّارٍ ﴿٣٥﴾﴾

بَيَّنَ ﷺ أن من يخاصم ويجادل في آيات الله تعالى وفي حججه الدالة على وحدانيته، والدالة على صدق الرسل، ومن يجادل في شرائع الله تعالى ليبتل شيئاً منها، أو يرده بغير حجة ولا برهان، فإنه يكون قد فعل ذنباً عظيماً يوجب غضب الله تعالى وغضب عباد الله.

١- والمجادلة قد تكون لإبطال حجة الخصم، كما قال تعالى: ﴿وَجَادِلْهُمْ بَالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ [النحل: ١٢٥].

٢- وقد تكون من باب المكابرة، كما قال تعالى: ﴿وَقَالُوا قُلُوبُنَا فِي أَكِنَّةٍ مِّمَّا نَدْعُونَ إِلَيْهِ فِي ءَاذَانِنَا وَقُرْ وَمِنْ بَيْنِنَا وَبَيْنَكَ حِجَابٌ﴾ [فصلت: ٥].

٣- وقد تكون المجادلة لقطع الاستماع، كما قال عبد الله بن أبي بن سلول للنبي ﷺ: ما أحسن ما تقول، ولكن لا تَغْشَا في مجالسنا، واجلس في رحلك فمن جاءك فاقرأ عليه.

وهي هنا من باب المكابرة، فهو يجادل في آيات الله على وضوحها وضوح الشمس، ليدفع الحق ويبتله بغير حجة ولا برهان، إذ ليس عنده علم ولا دليل شرعي ولا عقلي على ما ذهب إليه، وقد عظمت هذه المخاصمة عند الله لقبحها وعند المؤمنين، ومقت الله

(١) قرأ أبو عمرو وابن عامر بخلف عنه بتنوين (قلب) قطعاً عن الإضافة، وجعل التكبر والجبروت صفة للقلب؛ لأنه مدبر الجسد، وقرأ الباقر بترك التنوين على إضافة (قلب) إلى (متكبر) وجعل التكبر والجبروت صفة لموصوف محذوف، أي: على كل قلب شخص متكبر جبار.

للمكذبين بالحق المصدقين للباطل دليل على شناعة ما مقتوه، وهو الجدل في آيات الله بغير برهان، لأن الحق لا يُرد ولا يعارض.

ثم ذم الله سبحانه - غاية الذم - من يكابر، فيدفع أو يرد حجج الله تعالى الساطعة بغير حجة مقبولة، فقال: ﴿كَبُرَ مَقْتًا عِنْدَ اللَّهِ وَعِنْدَ الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ أي: أن الله تعالى مقت جدالهم مقتًا شديدًا، واشتد غضبه عليهم، وبذلك استحقوا العقاب الشديد.

وكما ختم الله بالضلال على قلوب هؤلاء المجادلين وصرفهم عن الهدى، يختم الله على قلب كل مستكبر عن توحيد الله تعالى وطاعته، كثير الظلم والعدوان، والجدال بالباطل والاستكبار والتجبر، وكلها صفات متوفرة في فرعون.

فِرْعَوْنُ يَبْنِي صَرْحًا لِيَصِلَ - فِي زَعْمِهِ - إِلَى إِلَهِ مُوسَى

٣٦- ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَهْمَنُنْ ابْنِي لِي صَرْحًا لَّعَلِّي^(١) أَتْلُعُ^(٢) أَلَّا سَبَبُ﴾

ولما قال الرجل المؤمن ما قال، خاف فرعون أن يتمكن كلامه في قلوب القوم، وقد أعينه الحيل في مقاومة موسى ﷺ بحجة، وظهر للناس أن ما يدعو إليه موسى حق، فأراد أن يتصدى بنفسه لنفي أن يكون هناك إله آخر، فطلب من وزيره هامان أن يبني له بناء عاليًا شامخًا ليرقى عليه حتى يبلغ أبواب السموات، فينظر إلى إله موسى، بعد أن بحث عنه في الأرض فلم يجده - كما زعم - فلم يبق أمامه إلا السماء، ولا يتوصل إليها إلا بسلم.

أي: أن فرعون كذب موسى في دعوته إلى الإقرار برب العالمين والتسليم له، فقال لوزير هامان: ابن لي بناء عظيمًا شاهقًا حتى أصل إلى إله موسى، كما جاء في قوله تعالى: ﴿فَأَوْفِدْ لِي يَهْمَنُنْ عَلَى الظِّلِينِ فَاجْعَلْ لِي صَرْحًا لَّعَلِّي أَطَّلُعُ إِلَى إِلَهِ مُوسَى وَإِنِّي لَأَظُنُّهُ مِنَ الْكَاذِبِينَ﴾ [القصص: ٣٨].

والمراد بالظن: اليقين والجزم بسبب غروره وطغيانه.

وقال هنا: ﴿لَّعَلِّي أَتْلُعُ أَلَّا سَبَبُ﴾ والسبب هو الذي يوصل إلى مكان بعيد.

وقد قصد فرعون ببناء الصرح أن يلبس على الناس ويشككهم في شأن موسى ودعوته،

(١) قرأ نافع وابن كثير وأبو عمرو وابن عامر وأبو جعفر بفتح ياء الإضافة من (لعلِّي أبلغ)، والباقون بإسكانها.

وَيُثَبِّتْ لَهُمْ أَنَّهُ لَا يَوْجَدُ إِلَهَ غَيْرِهِ، وَلَوْ وُجِدَ لَشَاهِدُهُ هُوَ وَغَيْرُهُ مِنَ النَّاسِ، فَطَلَبَ مِنْ هَامَانَ بِنَاءَ الصَّرْحِ لِيَتَوَصَّلَ إِلَى السَّمَاءِ بَعْدَ الْأَخْذِ بِالْأَسْبَابِ:

٣٧- ﴿أَسْبَدَ السَّمَوَاتِ فَأَطَّلَعَ^(١) إِلَى إِلَهِ مُوسَى وَإِنِّي لَأَظُنُّهُ كَذِبًا وَكَذَلِكَ زُينَ لِفِرْعَوْنَ سُوءَ عَمَلِهِ وَصَدَّ^(٢) عَنِ السَّبِيلِ وَمَا كَيْدُ فِرْعَوْنَ إِلَّا فِي تَبَابٍ ﴿٣٧﴾

أي: قال فرعون: أقمْتُ هذا الصَّرْحَ لعلِّي أصِلُ إلى أبواب السماء فأطرقها، وأنظر إلى إله موسى بنفسِي ﴿وَإِنِّي لَأَظُنُّهُ كَذِبًا﴾ أي: وأنا أعتقد أن موسى كاذبًا في ادعائه أن له ربًّا وأنه فوق السماء، وإني سأفعل ذلك ليظهرَ كذبه، وقد فعل فرعون ذلك استخفافًا بـعقول قومه ليوهمهم بما يريد، وكان فرعون قد قال لقومه: ﴿يَتَأْتِيهَا الْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلَهِ غَيْرِي﴾ [القصص: ٣٨].

وقال أيضًا: ﴿أَنَا رَبُّكُمْ الْأَعْلَى﴾ [النازعات: ٢٤] وقد استدل فرعون على ربوبيته بقوله: ﴿أَلَيْسَ لِي مُلْكٌ مِصْرَ وَهَذِهِ الْأَنْهَارُ تَجْرِي مِنْ تَحْتِي﴾ [الزخرف: ٥١].

وهكذا بلغ فرعون الغاية في التبعج والفجور والطغيان، والاستخفاف بالعقول، وشدة الخداع والمغالطة، ما لم يبلغ ذلك أحد من البشر، فزَيَّنَ له الشيطان مِنْ قُبْحِ عمله، وَصَدَّهُ عن سبيل الهدى والرشاد ﴿وَكَذَلِكَ زُينَ لِفِرْعَوْنَ سُوءَ عَمَلِهِ﴾ فرآه حسنًا ودعا إلى مناظرته، كأنه على حق، وهو من أعظم المفسدين ﴿وَصَدَّ عَنِ السَّبِيلِ﴾ أي: حُجِبَ عن طريق الحق بسبب الباطل الذي زُينَ له، فاستحب العمى على الهدى ﴿وَمَا كَيْدُ فِرْعَوْنَ﴾ الذي يكيد به الحق، ويوهم الناس أنه محق فيه ﴿إِلَّا فِي تَبَابٍ﴾ أي: وما احتيال فرعون وتدييره الكيد لموسى - لإيهام الناس أنه محق، وموسى مبطل - إلا في خسار وبوار، لا يفيدُه إلا الشقاء في الدنيا والآخرة، وقد خسر فرعون مُلكه في الدنيا بالغرق، وخسر آخرته بالخلود في النار، فالتباب هو الخسارة والبوار وهما يجلبان الشقاء والتعاسة في الدنيا والآخرة.

(١) قرأ حفص بنصب العين من (فأطلع) على أنه منصوب بأن بعد فاء السببية، وقرأ الباقون بالرفع عطفًا على (أبلغ).

(٢) قرأ عاصم وحمزة والكسائي ويعقوب وخلف بضم الصاد من (وصد) على البناء للمفعول، والباقيون بفتحها على البناء للفاعل.

الرَّجُلُ الْمُؤْمِنُ يُوَاصِلُ نَصَائِحَهُ إِلَى قَوْمِ فِرْعَوْنَ

٣٨- ﴿وَقَالَ الَّذِي ءَامَنَ يَنْقُورُ أَتَيْعُونَ^(١) أَهْدِكُمْ سَبِيلَ الرَّشَادِ ﴿٣٨﴾

وبعد أن استمع مؤمن آل فرعون إلى مغالطة فرعون ومراوغته عاود نصائحه للقوم، فدعاهم في صراحة مكشوفة إلى الإيمان بالله الواحد الأحد، وكشف لهم عن قيمة الحياة الزائلة، وشوقهم إلى نعيم الحياة الباقية، وحذّرهم من عذاب الله، فقال لهم: يا قوم، امثلوا نصحي لكم، فإن فيه طريق الرشد والصواب، والسعادة في الدارين، وقد ابتداء الرجل المؤمن موعظته هذه المرة بنصيحة مجملّة، هي اتباع سبيل الرشاد لتتوق النفوس إلى معرفة هذا السبيل.

ثم أخذ مؤمن آل فرعون يفصّل دعوته إلى قومه بعد أن لاحت له بوارق إقبالهم عليه، فقال:

٣٩- ﴿يَنْقُورُ إِنَّمَا هَذِهِ الْحَيَوةُ الدُّنْيَا مَتَّعٌ وَإِنَّ الْآخِرَةَ هِيَ دَارُ الْقَرَارِ ﴿٣٩﴾

يا أهلي وباعشيرتي: إن هذه الدنيا يتنعم فيها الناس قليلاً، فهي محدودة بأجل معيّن غير طويل، ثم تنقطع وتزول، فمتاع الدنيا زائل، والخير في العمل لما بعد الموت، فإن فيه السعادة الأبدية، وإن الآخرة دار البقاء والدوام، فلا تركنوا إلى الدنيا؛ لأن وراءها حياة أبدية، فيها حقيقة السعادة والشقاء، وفيها الجزاء على الحسنات والسيئات، بالنعيم والعذاب.

ومن آمن وعمل صالحاً، فهو في نعيم مقيم يستقر فيه يوم القيامة، فينبغي لكم أن تُؤثروا الباقية على الفانية، وتعملوا الأعمال الصالحة التي تسعدكم في الآخرة.

قال بعض الصالحين: لو كانت الدنيا ذهباً فانيّا، والآخرة خزفاً باقياً، لكانت الآخرة خيراً من الدنيا، فكيف والدنيا خزفاً فانيّا، والآخرة ذهباً باقياً؟

ويواصل مؤمن آل فرعون موعظه وقد تكون الآية التالية كلاماً معترضاً من الله تعالى لتقرير قاعدة الجزاء:

(١) قرأ قالون والأصبهاني عن ورش وأبو عمرو وأبو جعفر بإثبات الباء وصلّاً من (اتبعون) وقرأ ابن كثير ويعقوب بإثباتها وصلّاً ووقفاً، والباقون بحذفها في الحالين.

قَاعِدَةُ الْجَزَاءِ عَلَى الْأَعْمَالِ وَالْأَقْوَالِ

٤٠- ﴿مَنْ عَمِلَ سَيِّئَةً فَلَا يُجْزَى إِلَّا مِثْلَهَا وَمَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أَنَّىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَٰئِكَ يَدْخُلُونَ^(١) الْجَنَّةَ يَرْزُقُونَ فِيهَا بَعِيرٍ حَسَابٍ ﴿٤٠﴾﴾

قرر الرجل المؤمن قاعدة الجزاء على الأعمال في هذه الآية، كما سجلها القرآن، فبين أن من عصى الله تعالى في حياته، وانحرف عن طريق الهدى، فلا يُجْزَى في الآخرة إلا عقاباً يساوي معصيته، ومن مات على الشرك فجزاؤه جهنم خالدًا مخلدًا فيها ﴿مَنْ عَمِلَ سَيِّئَةً﴾ من شرك أو فسق أو عصيان ﴿فَلَا يُجْزَى إِلَّا مِثْلَهَا﴾، بما يسوؤه ويُحْزَنه، فيعاقب بمثل ما فعل من ذنوب، سواء أكان ذكراً أم أنثى.

في صحيح البخاري: أن وهب بن منبه كان كثير الوعظ للناس ف قيل له: إنك بوعظك تُقْطُّ الناس، فقال: أنا أقدر أن أُقْطُّ الناس؟! والله يقول: ﴿قُلْ يَٰعِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ﴾ ولكنكم تحبون أن تُبَشِّرُوا بالجنة على مساوئ أعمالكم.

والكفر أو الشرك أكبر سيئة، وهذه السيئة أساس الشقاء، وقد كان العقاب عليها أبدياً؛ لأن مقرها القلب والاعتقاد، وكل سيئة بعد الكفر، فيها فساد جزئي، ولذا كان العقاب عليها غير أبدي، ولا يعذب العبد إلا بقدرها.

ومن أطاع الله تعالى، وعمل صالحاً، من أعمال القلوب والجوارح وأقوال اللسان، فامثل أمره واجتنب نهيه - ذكرًا كان أو أنثى - بشرط أن يكون مؤمناً بالله تعالى، موحدًا له، فهؤلاء المؤمنون الصالحون، يدخلون الجنة يرزقون فيها رزقاً واسعاً من ثمارها ونعيمها ولذاتها، وتضاعف لهم الحسنات دون السيئات، الحسنة بعشر أمثالها إلى سبع مئة ضعف، والله يضاعف لمن يشاء، وقد اهتم مؤمن آل فرعون بتقديم الأعمال؛ لأن القوم كانوا يهتمون بحُسن الاعتقاد في الآلهة، ويتهاونون في الأقوال والأعمال.

ولم يهمل -الرجل المؤمن - ذكر الإيمان؛ لأن الإيمان هو أساس قبول الأعمال، وهو أساس النجاة، كما أن الكفر أساس الشقاء، ولا يُقبل معه أعمال صالحة.

(١) قرأ ابن كثير وأبو عمرو وشعبة وأبو جعفر ويعقوب بالبناء للمفعول في (يدخلون)، والباقون بالبناء للفاعل.

واكتفى - مؤمن آل فرعون - بمساواة الذكر والأنثى في العمل الصالح، لينسحب هذا على العمل السيئ أيضًا، كما قال تعالى: ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهٗ حَيٰوةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [النحل].

الرَّجُلُ الْمُؤْمِنُ يَسْتَنْكِرُ مَوْقِفَ قَوْمِ فِرْعَوْنَ وَيُفَوِّضُ أَمْرَهُ إِلَى اللَّهِ

ثم إن الرجل المؤمن استنكر موقف قومه من عدم إيمانهم بموسى عليه السلام، فقال:

٤١- ﴿وَيَقُولُ مَا لِيَ^(١) أَدْعُوكُمْ إِلَى النَّجْوَىٰ وَتَدْعُونَنِي إِلَى النَّارِ﴾

أي: ويا قوم ما لي أدعوكم إلى الإيمان بالله تعالى، واتباع رسوله موسى عليه السلام، وهي دعوة توصلكم إلى الجنة، وتبعدكم عن النار، وأدعوكم إلى الخير وأسباب النجاة من العذاب، وأنتم تدعونني إلى الشر، وأسباب الوصول إلى النار؟! أنا أتعجب من حالكم هذه، وأعجب من دعوتي لكم، وأنا أحرص على دعوتكم للحق وهدايتكم، وأنتم على العكس من ذلك، وما بين الدعوتين بؤن شاسع، فأنتم تدعون إلى الشرك والكفر، وأنا أدعو إلى التوحيد ومغفرة الذنوب، والدعوة الأولى سبب الهلاك، والدعوة الثانية سبب النجاة.

ثم وضح الرجل المؤمن هذه الدعوة وفسرها، فقال:

٤٢- ﴿تَدْعُونَنِي لِأَكْفُرَ بِاللَّهِ وَأُشْرِكَ بِهِ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ وَأَنَا^(٢) أَدْعُوكُمْ إِلَى الْغَيْرِ﴾

أي: فأنتم تدعونني للكفر بالله، وإشراك إله مع الله، وأنا لا علم لي بصحة ذلك، ولا بوجود إله مع الله، والقول على الله بدون علم من أكبر الذنوب وأقبحها، فالذي تدعونني إليه -وهو فرعون- ليس بإله، وما ليس بإله كيف يُعقل أن يكون شريكًا للإله الحق؟! إن هذا من أكبر الذنوب وأقبحها، فلا يستحق العبادة إلا الله وحده، وهأنذا أدعوكم إلى طريق الله ﴿الْعَزِيزِ﴾ في ملكه وانتقامه، ﴿الْعَفَّارِ﴾ لمن تاب إليه من معاصيه.

(١) قرأ نافع وابن كثير وأبو عمرو وهشام وابن ذكوان بخلف عنه وأبو جعفر بفتح ياء (ما لي أدعوكم) وصلًا، والباقون بإسكانها.

(٢) قرأ نافع وأبو جعفر بمد ألف (وأنا أدعوكم) وإثباتها في الحالين فتكون من قبيل المد المنفصل، وقرأ الباكون بحذف الألف وصلًا وإثباتها وقفًا.

قال الرجل المؤمن: ليس الأمر كما تزعمون من أنكم على حق في دعوتكم إليّ، بل قد ثبت قطعاً أن ما أدعوكم إليه من عبادة الواحد القهار هو الحق الذي لا مزية فيه: قال مؤمن آل فرعون:

٤٣- ﴿لَا^(١) جَرَمَ أَنَّمَا تَدْعُونَنِي إِلَيْهِ لَيْسَ لِي دَعْوَةٌ فِي الدُّنْيَا وَلَا فِي الْآخِرَةِ وَأَنْ مَرَدَّنَا إِلَى اللَّهِ وَأَنَّ الْمُسْرِفِينَ هُمْ أَصْحَابُ النَّارِ﴾ (٤٣)

لقد أكد لهم الرجل المؤمن -بصورة لا تقبل الشك ولا التردد- أن ما يدعونه إليه من الاعتقاد في شأن فرعون، لا يُنجي من اتّبعه في الدنيا، ولا يفيد في الآخرة لعجزه ونقصه ولأنه لا يملك نفعاً ولا ضرراً ولا موتاً ولا حياةً ولا نشوراً.

﴿لَا جَرَمَ﴾ أي: حقاً وقيناً لا يقبل الشك ﴿أَنَّمَا تَدْعُونَنِي إِلَيْهِ﴾ من ألهمتكم الباطلة ﴿لَيْسَ لِي دَعْوَةٌ﴾ أي: لا يستحق الدعوة ولا اللجوء إليه ﴿فِي الدُّنْيَا وَلَا فِي الْآخِرَةِ﴾ فهو لا يضر ولا ينفع، ولا يستجيب لنداء داعيه، ولا يقدر على تفريج كربته.

قال تعالى: ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ مَنْ لَا يَسْتَجِيبُ لَهُ إِلَى يَوْمِ الْقِيَمَةِ وَهُمْ عَنِ دُعَائِهِمْ غَافِلُونَ﴾ (٥) وَإِذَا حُشِرَ النَّاسُ كَانُوا لَهُمْ أَعْدَاءً وَكَانُوا بِعِبَادَتِهِمْ كَافِرِينَ ﴿٦﴾ [الأحقاف].

وقال سبحانه: ﴿وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ مَا يَمْلِكُونَ مِنْ قِطْمِيرٍ لَا إِنْ تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا دُعَاءَكُمْ وَلَوْ سَمِعُوا مَا اسْتَجَابُوا لَكُمْ وَيَوْمَ الْقِيَمَةِ يَكْفُرُونَ بَشِرِكَكُمْ وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ﴾ (٧) [فاطر].

وقال أيضاً: ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ عِبَادُ أُمْنَالِكُمْ فَادْعُوهُمْ فَلْيَسْتَجِيبُوا لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ (١٤) [الأعراف].

واعلموا أن مصير الخلائق كلها إلى الله وحده، وهو سبحانه سوف يجازي كل عامل بعمله ﴿وَأَنْ مَرَدَّنَا﴾ في الدار الآخرة ﴿إِلَى اللَّهِ﴾ لا إلى غيره، فيجازي كل عامل بعمله.

أما الذين يستكثرون من المعاصي، ويتجاوزون حدود الله تعالى، ويكفرون ويسفكون الدماء، ويتمادون في الضلال والطغيان، فإنهم سيخلدون في النار ﴿وَأَنَّ الْمُسْرِفِينَ هُمْ أَصْحَابُ النَّارِ﴾ والإسراف: هو الإفراط في الكفر والقتل.

(١) قرأ حمزة بمد (لا) بخلف عنه أربع حركات للمبالغة، والباقون بالقصر.

استشعر الرجل المؤمن من ملامح القوم، أنهم لم يقبلوا نصائحه، وأنهم يضمرون به شراً، وقد حذّروهم وأنذروهم، فلم يطيعوه ولم يوافقوه، فأنهى كلامه مودعاً لهم وهو يقول :

٤٤ - ﴿فَسَتَذْكُرُونَ مَا أَقُولَ لَكُمْ وَأَفَوضُ أَمْرِي^(١) إِلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ

أي: ستذكرون صدق كلامي عند معاناة العذاب، وأناي ذكّرتكم ونصحت لكم، وسوف تندمون حين لا ينفع الندم، وترون مغبة عدم قبولها عندما يحل بكم العذاب في الدنيا، كما قلت لكم سابقاً: ﴿إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ مِثْلَ يَوْمِ الْأَحْزَابِ﴾ وعندما يحل بكم العذاب في الآخرة، وتحرمون جزيل الثواب، كما قلت لكم قبل ذلك: ﴿إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ يَوْمَ التَّنَادِ﴾.

وفي النهاية فإنني أسلّم أمري إلى الله، فألجأ إليه، وأعتصم به، وأتوكل عليه، وألوذ بحماه. وهذا يدل على أنهم هددوه وأرادوا قتله، فقال: ﴿وَأَفَوضُ أَمْرِي إِلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ﴾ يرى أحوال خلقه، ويعلم ما يستحقونه من جزاء، ولا يخفى عليه شيء في الأرض ولا في السماء، ويعلم حالي وضعفي، فيحفظني ويكفيني شرّكم، وهو أيضاً يعلم أحوالكم، فلا تصرف لكم إلا بإذنه وإرادته، فإن سلّطكم عليّ، فلحكمة أرادها، وأمر قضاءه، ولما فوّض الرجل أمره إلى الله نجاه من مكرهم، كما قال تعالى:

٤٥ - ﴿فَوَقَدَ اللَّهُ سَيِّئَاتٍ مَا مَكَرُوا وَحَاقَ بِفِرْعَوْنَ سُوءُ الْعَذَابِ

أي: وقى الله ذلك المؤمن، ما دبّره له فرعون وقومه من أذى وعدوان، بعد أن أظهر إيمانه بموسى، ودعاهم إلى ما دعا إليه، وهذا أمر لا يحتملوه، فاشتد غضبهم عليه، وأرادوا به كيّداً، فحفظه الله من مكرهم وكيدهم، وردّ الله كيدهم عليهم، فعاقبهم بالغرق في الدنيا، وبالعذاب في البرزخ، والنار الموقدة في الآخرة.

قيل: إن مؤمن آل فرعون خرج مع موسى وبني إسرائيل من مصر، ونجا معهم، ولم يعثروا عليه، وحل العذاب بفرعون وقومه، حيث أغرقهم الله جميعاً.

والغريق يعذب باحتباس النفس فيه، وهو يطفو أو يغوص في الماء، ويُرْعَبُه هول الأمواج، ويكون معرّضاً لأكل الحيتان، وهلاكه محقق كما قال تعالى: ﴿وَحَاقَ بِفِرْعَوْنَ سُوءُ الْعَذَابِ﴾ في الدنيا، ولهم عذاب آخر في القبر وبعد البعث:

(١) قرأ نافع وأبو عمرو وأبو جعفر بفتح ياء (أمري إلى) وصلّاء، والباقون بإسكانها.

عَذَابُ آلِ فِرْعَوْنَ فِي الْبَرْزَخِ وَفِي الْآخِرَةِ

أما في البرزخ فإنهم يعذبون في قبورهم صباح مساء إلى يوم الحساب، وعند قيام الساعة يدخلون جهنم داخرين؛ قال تعالى:

٤٦ - ﴿النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوا ^(١) آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ﴾

أي: أن آل فرعون يُعرضون على النار، فتشاهد أرواحهم حال اتصالها بأجسادهم وهم في قبورهم المواضع التي أُعدت لهم في جهنم، ويضمهم القبر فتختلف أضلاعهم:

أحاديث في عذاب القبر:

١- عن عبد الله بن عمر رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «إن أحدكم إذا مات عُرض عليه مقعده بالغداة والعشي، إن كان من أهل الجنة فمن أهل الجنة، وإن كان من أهل النار فمن أهل النار، فيقال: هذا مقعدك حتى يبعثك الله عليه يوم القيامة» ^(٢).

قال مجاهد وغيره: هذه الآية تدل على عذاب القبر في الدنيا، ألا تراه يقول سبحانه عن عذاب الآخرة: ﴿أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ﴾.

وأخرج الطبري بسند حسن عن قتادة قال: يعرضون على النار صباحًا ومساءً، ويقال لهم: يا آل فرعون هذه منازلكم، توييحًا ونقمةً وصغارًا لهم.

وجمهور أهل العلم على أن العرض على النار يكون في البرزخ، أي: بعد موتهم وقبل مبعثهم، واحتج بعضهم بالآية على عذاب القبر.

(١) قرأ ابن كثير وأبو عمرو وابن عامر وشعبة بهمزة وصل في (أدخلوا) وضم الخاء والبدء بالضم، وقرأ الباقر بهمزة قطع مفتوحة وكسر الخاء، والأول فعل أمر من دخل والثاني من أدخل، والواو ضمير آل فرعون في الأول، وضمير الخزنة في الثاني.

(٢) البخاري برقم: (١٣٧٩، ٣٢٤٠، ٦٥١٥) ومسلم برقم: (٢٨٦٦) و«المسند» (١١٣/٢) برقم: (٥٩٢٦)،

وهو في الموطأ (٢٣٩/١) وابن أبي شيبة (٢٣٧/١٣)، والنسائي في الكبرى (٢١٩٩) وفي المجتبى (١٠٧/٤)

وابن حبان (٣١٣٠).

٢- وعن عائشة رضي الله عنها أن رسول الله ﷺ خرج ذات يوم نصف النهار مشتملاً بثوبه، محمرة عيناه، وهو ينادي بأعلى صوته: «أيها الناس: أظلتكم الفتن، كقطع الليل المظلم، لو تعلمون ما أعلم لبكىتم كثيراً وضحكتم قليلاً، أيها الناس: استعيذوا بالله من عذاب القبر، فإن عذاب القبر حق»^(١).

وفي لفظ آخر: «وإنه أوجي إلي أنكم تفتنون في قبوركم»^(٢).

٣- وعن عائشة أيضاً رضي الله عنها أن يهودية دخلت عليها فقالت: أعاذك الله من عذاب القبر، فسألت عائشة رسول الله ﷺ عن عذاب القبر؟ فقال: «نعم، عذاب القبر حق»، قالت عائشة: فما رأيت رسول الله ﷺ بعدُ صلى صلاة إلا تعوَّذ من عذاب القبر^(٣).

وفيه دليل على أن عذاب القبر يتصل بالأجساد.

٤- وفي حديث الإسراء عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه أن رسول الله قال فيه: «ثم انطلق بي إلى خلق كثير من خلق الله رجال، كل رجل منهم بطنه مثل البيت الضخم، مصفدون على سابلة آل فرعون، وآل فرعون يعرضون على النار غدوًا وعشيًا» ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ﴾ «وآل فرعون كالإبل المسومة، يخبطون الحجارة والشجر ولا يعقلون»^(٤).

٥- وأخرج الطبري بسنده عن الأوزاعي أن رجلاً سأل عن طيور بيض تخرج من البحر أفواجا، متوجهة نحو الغرب، لا يعلم عددها إلا الله، فإذا كان العشي رجع مثلها سودا، فقال: إن تلك الطير في حواصلها أرواح آل فرعون، تُعرض على النار غدوًا وعشيًا، فترجع إلى وكرها وقد احترقت رياشها، وصارت سوداء، فینبت عليها من الليل ريش

(١) جزء من حديث أحمد في «المسند» بإسناد صحيح على شرط الشيخين (٨١/٦) برقم: (٢٤٥٢٠) (محققوه) وأورده الهيثمي في «المجمع» (٥٤/٣) وقال: هو في الصحيح باختصار، رواه أحمد رجاله رجال الصحيح وذكره الحافظ في الفتح (٢٣٦/٣) وذكر أن إسناده على شرط البخاري وجاء مختصراً في مواضع أخرى.

(٢) «المسند» (٢٣٨/٦).

(٣) «صحيح البخاري» برقم: (١٣٧٢).

(٤) أخرجه البيهقي في «دلائل النبوة» (٣٩٠/٢) والطبري (١٠/١٥) من حديث طويل.

أبيض، وتتناثر السود، ثم تغدو على النار غُدُوًّا وعشيًّا، ثم ترجع إلى وكرها، فذلك دأبهم في الدنيا، فإذا كان يوم القيامة قال الله تعالى: ﴿أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ﴾ قال: وكانوا يقولون: إنهم ست مئة ألف مقاتل^(١).

٦- قال ابن مسعود رضي الله عنه: أرواح آل فرعون في أجواف طيور سود، يُعرضون على النار كل يوم مرتين، تغدو وتروح إلى النار، ويقال: يا آل فرعون، هذه منازلكم حتى تقوم الساعة، وقيل: تُعرض روح كل كافر على النار بكرة وعشيًّا ما دامت الدنيا^(٢).

ويتضح من ذلك أن آل فرعون يدخلون النار يوم القيامة جزاء ما اقترفوه من الأعمال السيئة، ويعذبون قبل ذلك في قبورهم صباح مساء.

خلاصة نصائح مؤمن آل فرعون إلى قومه:

ومما سبق يتبين أن مؤمن آل فرعون نصحهم بما يلي:

أولاً: نهاهم عن قتل موسى وتكذيبه.

ثانياً: ذكَّروهم نعم الله تعالى عليهم بأنهم ﴿ظَاهِرِينَ فِي الْأَرْضِ﴾.

ثالثاً: خوَّفهم عذاب الدنيا كعذاب يوم الأحزاب.

رابعاً: خوَّفهم عذاب الآخرة، يوم التناد.

خامساً: ذكَّروهم بارتياهم في رسالة يوسف عليه السلام من قبل.

سادساً: بيَّن لهم سوء مصير المجادل في آيات الله تعالى.

سابعاً: بيَّن لهم أن في اتباع نُصحه لهم طريق الرشاد والسداد.

ثامناً: ذكر لهم أن نعيم الدنيا زائل ونعيم الآخرة باقٍ.

تاسعاً: بيَّن لهم قاعدة الجزاء الأخروي.

عاشراً: تعجب من دعوته لهم إلى الجنة ودعوتهم له إلى النار.

(١) «تفسير الطبري» (٤٦/٢٤) وابن أبي الدنيا (٤٨).

(٢) «تفسير الخازن» (٧٣/٤) وعبد الرزاق (١٨١/٢).

حادي عشر: بَيَّنْ لَهُمْ أَنَّ غَيْرَ اللَّهِ تَعَالَى لَا يَسْتَحِقُّ أَنْ يُدْعَى؛ لِأَنَّهُ لَا يَمْلِكُ شَيْئًا.
ثاني عشر: وَادْعَهُمْ بِتَفْوِيزِ أَمْرِهِ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى، فَنَجَاهُ اللَّهُ مِنْ مَكْرِهِمْ.

تَلَاوُْمُ أَهْلِ النَّارِ

ولما ذَكَرَ سبحانه ما يحل بآل فرعون من عذاب النار في الآخرة، ناسب ذلك ذِكر ما يدور بين أهل النار مِنْ تَخَاصُّمٍ وَتَلَاوُْمٍ، واستغاثة أهل النار بخزنتها فلا يجابون.

٤٧- ﴿وَإِذْ يَتَحَاوَرُونَ فِي النَّارِ فَيَقُولُ الضَّعِيفُ لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنْتُمْ مُّعْتَدُونَ عَنَّا نَصِيبًا مِنَ النَّارِ ﴿٤٧﴾﴾

أي: واذكر -أيها الرسول- لأمتك الوقت الذي يتخاصمون فيه، فيعاتب بعضهم بعضًا ويلوم بعضهم بعضًا وهم في النار ﴿فَيَقُولُ الضَّعِيفُ﴾ من عامة الناس الذين لا جاه لهم ولا مال، وهم المقلدون لغيرهم، يقولون لرؤسائهم ﴿لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا﴾ وهم سادة القوم، أصحاب المال والجاه، الذين أضلّوهم وزينوا لهم طريق الشقاء، يقولون لهم: ﴿إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا﴾ نترسّم خطاكم، وننقاد إلى أوامركم، ونطيعكم فيما تدعوننا إليه من الكفر والضلال، ونقلدكم في التوجه لغير الله تعالى، فأنتم أغويتمونا وأضللتتمونا، وزيتتم لنا الشرك والشر ﴿فَهَلْ أَنْتُمْ مُّعْتَدُونَ عَنَّا نَصِيبًا مِنَ النَّارِ﴾ لو شيئًا قليلًا، أي: هل تتحملون عنا قسطًا من عذاب النار، أو تدفعون عنا شيئًا من العذاب المهيّن، فطالما دافعنا عنكم، وسرّنا وراءكم دون تفكير ولا معارضة، يقولون ذلك وهم يعلمون أنهم لا قدرة لهم على تخفيف العذاب عنهم، ولكنه تخجيل لرؤسائهم وتوبيخ لهم، وإيقاع الإيلام في قلوبهم، ونظير ذلك قوله تعالى: ﴿فَهَلْ أَنْتُمْ مُّعْتَدُونَ عَنَّا مِنْ عَذَابِ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ؟﴾ [إبراهيم: ٢١].

٤٨- ﴿قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُلٌّ فِيهَا إِنَّكَ اللَّهُ قَدْ حَكَمَ بَيْنَ الْعِبَادِ ﴿٤٨﴾﴾

أي: قال الرؤساء المستكبرون جوابًا للضعفاء، مبينين لهم عجزهم بأنهم لا يمكنهم أن يتحملوا عنهم شيئًا من عذاب النار؛ لأنهم جميعًا في النار، ولو كانوا يقدرّون على شيء لدفعوا عن أنفسهم العذاب من باب أولى ﴿قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُلٌّ فِيهَا﴾ نحن وأنتم في النار نستوي ﴿إِنَّكَ اللَّهُ قَدْ حَكَمَ بَيْنَ الْعِبَادِ﴾ فقسّم العذاب بين أهل النار بقدر ما يستحقه كل منهم بقضائه العادل، لا يزداد عليه ولا يُنقص منه، ولا مطمع في التخلص من

حكمه تعالى، فقد جُوزي كل فريق بعمله، ولا نستطيع أن نفعل لكم شيئاً، فإن هذا قضاء مبرم لا مردّ له من الله.

٤٩- ﴿وَقَالَ الَّذِينَ فِي النَّارِ لِخَزَنَةِ جَهَنَّمَ ادْعُوا رَبَّكُمْ يُخَفِّفْ عَنَّا يَوْمًا مِّنَ الْعَذَابِ ﴿٤٩﴾﴾

وبعد أن يؤس الجميع من نُصرة بعضهم بعضاً، وتنصّل كل فريق من الآخر، توجهوا كلهم نحو خزنة جهنم، يطلبون منهم الشفاعة عند ربهم، أن يخفف عنهم من العذاب ولو يوماً واحداً من العذاب المستمر؛ كي يُمكنهم أن يلتقطوا أنفاسهم من حرّ جهنم ولو ساعة من نهار! ولو لحظة واحدة!

وهنا تردّ عليهم الملائكة موبخين لهم، ليظهروا لهم سوء صنيعهم، فيندمون ويتحسرون على ما ضيّعوه في حياتهم الدنيا من وسائل النجاة من العقاب:

٥٠- ﴿قَالُوا أَوَلَمْ تَكُ تَأْتِيكُمُ رُسُلُكُمْ بِالْبَيِّنَاتِ قَالُوا بَلَىٰ قَالُوا فَادْعُوا وَمَا دُعَاؤُا

الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ ﴿٥٠﴾﴾

أي: تقول لهم الخزنة تقريراً وتوبيخاً: إن هذا الدعاء وهذه الشفاعة التي تطلبونها منا لا تنفعكم، فقد جاءكم رسل الله بالحجج الواضحة، والمعجزات الدالة على صدقهم، فكذبتموهم.

وهنا يعترف أهل النار بذلك ﴿قَالُوا بَلَىٰ﴾ قد جاءتنا الرسل بالآيات البينات والدلائل الواضحات، وقامت علينا الحجة البالغة، وبعد هذا الاعتراف يتبرأ خزنة جهنم منهم، ويقولون لهم: نحن لا ندعو لكم، ولا نشفع فيكم، فادعوا أنتم لأنفسكم، فإن هذا الدعاء لا يفيدكم شيئاً لأنكم كافرون، فكما كنتم مستبدين بآرائكم في الدنيا، وتوليتهم عن الرسل، فتولوا أمر أنفسكم اليوم، وهذا معنى ﴿قَالُوا فَادْعُوا﴾ أي قالوا لهم: ادعوا لأنفسكم فإن دعاءكم مردود عليكم، قال تعالى: ﴿وَمَا دُعَاءُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ﴾ لا يقبل منهم دعاء، ولا يُستجاب لهم رجاء.

قال الرازي: إذا لم يُسمع دعاء الملائكة المقربين فكيف يُسمع دعاء الكفار؟^(١).

(١) انظر آيات التلاوم في: سورة الأعراف وسورة سبأ وسورة ص وسورة إبراهيم، وغيرها.

وَعَدُ اللَّهِ تَعَالَى بِالنَّصْرِ لِعِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ

٥١- ﴿إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ ءَامَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ﴾

هذا: والكلام من أول السورة إلى هنا كان في الملحدين المجادلين في القرآن، كما قال تعالى: ﴿مَا يُجَدِّلُ فِي ءَايَاتِ اللَّهِ إِلَّا الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ وامتدَّ الكلام إلى ضرب أمثلة لهم من الأمم السابقة، وبعد ذلك بيَّن الله تعالى لرسوله ﷺ أن العاقبة في النهاية أن ينصر الله رسله والمؤمنين.

وختمت هذه الجولة بوعد الله تعالى أن ينصر رسله والمؤمنين في الدنيا والآخرة، لبيان أن سُنَّةَ الله تعالى لا تتخلف، وَنَصْرُ الله لرسوله وللمؤمنين في الدنيا يكون بإظهار دينه على الفريق المعاند لله ورسوله والمؤمنين، وَنَصْرُهُ لهم في الآخرة، يكون بالنعيم في الجنة للمؤمنين، والعذاب في النار للكافرين.

وَنَصْرُ الرسل السابقين على محمد ﷺ قد مضى وظهر.

وَنَصْرُ محمد ﷺ والمؤمنين معه مترقب الحصول وقت التنزيل.

ووعد الله للمؤمنين بالنصر على من ظلمهم في الحياة الدنيا قد يكون مباشراً، وقد يكون بأن يسلط الله عليهم من ينتقم منهم كما حدث لمن قتل أنبياء الله: يحيى، وزكريا، وأشعيا، فإن الله تعالى قد سلَّط عليهم من أعدائهم من أهانهم وسفك دماءهم.

وقد أخذ الله النمرود أخذ عزيز مقتدر، وأهلك الله قوم: نوح، وقوم عاد، وقوم ثمود، وقوم لوط، وأهل مدين، وأصحاب الرس، وأمثالهم.

وقد خرج رسول الله ﷺ من مكة، على إثر مؤامرة لقتله، وعاد إليها فاتحاً في عشرة آلاف مقاتل بعد ثماني سنوات، فَنَصْرُ الله تعالى لرسله قد يكون في حياة الرسول المنصور، كما نصر الله نبيه نوحاً، ونبيه موسى ﷺ، وقد يكون بعد موته، فقد سلَّط الله بختنصر لينتقم ممن قتل يحيى عليه السلام.

وَنَصْرُ المؤمنين داخل في نصر الرسل، فالأنبياء والمؤمنون يُقتلون في الدنيا وهم منصورون فيها.

قال السُّدِّي: لم يبعث الله رسولا إلى قوم فيقتلونه، أو قوماً من المؤمنين يدعون إلى الحق فيُقتلون، فيذهب ذلك القرن، حتى يبعث الله من ينصرهم فيطلب بدمائهم ممن فعل ذلك في الدنيا، قال: فكان الأنبياء يُقتلون في الدنيا وهم منصورون فيها^(١).

وهكذا لا تقوم الساعة حتى ينصر الله المسلمين على اليهود، كما صح بذلك الخبر، قال تعالى: ﴿إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ أي: ننصرهم ومن تبعهم من المؤمنين، ونؤيدهم على من أذاهم ﴿فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ بالحجة الدامغة التي تزحق باطل أعدائهم، وبالتغلب عليهم وإظهار دين الله على جميع الديانات، وإن كانت الغلبة في بعض الأحيان للكفار امتحاناً من الله تعالى وتمحيصاً للمؤمنين، ولكن العاقبة في النهاية للمؤمنين بإذن الله تعالى.

وكما وعد الله المؤمنين بالنصر في الدنيا وعدهم به في الآخرة، فقال: ﴿وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ﴾ أي: وننصرهم أيضاً يوم القيامة، يوم تشهد الملائكة والأنبياء والمؤمنون على الأمم التي كذبت رسلها، فيشهدون بأن الرسل قد بلغوا رسالات ربهم، وأن الأمم قد كذبتهم، وتشهد هذه الأمة على الأمم السابقة، ويشهد الرسول ﷺ على هذه الأمة، كما قال تعالى: ﴿لَنَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾ [البقرة: ١٤٣].

وقال سبحانه: ﴿كَيفَ إِذَا جِئْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَى هَؤُلَاءِ شَهِيدًا﴾ [النساء: ٤١].

كما أنه يوم تشهد فيه الحفظة، وتشهد فيه الأعضاء، وتحدث فيه الأرض، فتتطق شاهدة بالأخبار التي حدثت على ظهرها.

ثم وصف الله - سبحانه - اليوم الآخر بأنه يوم لا يُقبل فيه العذر، فقال:

٥٢- ﴿يَوْمَ لَا يَنْفَعُ الظَّالِمِينَ مَعَذِرَتُهُمْ وَلَهُمُ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ﴾ (٥٢)

أي: هو يوم لا ينفع فيه الجاحدون -الذين تعدوا حدود الله تعالى- لا ينفعهم ما يعتذرون به

(١) أخرجه ابن أبي حاتم كما في «الدر المنثور» (٤٨/١٣).

(٢) قرأ نافع وعاصم وحمة والكسائي وخلف بالياء في (لا ينفع) على التذكير وقرأ غيرهم بقاء التانيث، وجاز تذكير الفعل وتأنيثه؛ لأن الفاعل مؤنث مجازياً.

عن تكذيب رسل الله في الدنيا، كما قال تعالى: ﴿فَيَوْمَئِذٍ لَا يَنْفَعُ الَّذِينَ ظَلَمُوا مَعَذِرَتُهُمْ﴾ [الروم: ٥٧].
وقال سبحانه: ﴿وَلَا يُؤْذَنُ لَهُمْ فَيَعْتَذِرُونَ﴾ [المرسلات].

وهؤلاء الظالمون مطرودون من رحمة الله تعالى، ولهم في الآخرة عذاب النار.
﴿لَهُمُ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ﴾ [الرعد: ٢٥] فإن جهنم أسوأ مرجع ومصير.

الإشارة إلى رسالة موسى وكتابه

هذا مثال على نصر الله تعالى لرسله ولعباده المؤمنين، قال تعالى:

٥٣، ٥٤ - ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْهُدَى وَأَوْرَثْنَا بَنِي إِسْرَءِيلَ الْكِتَابَ﴾ (٥٣) هُدًى وَذِكْرًا
لِأَوَّلِي الْأَلْبَابِ ﴿٥٤﴾

أي: ومن أوضح الأمثلة على نصر الله لرسله وللمؤمنين معه، نصرُ الله تعالى لموسى ﷺ على فرعون، وأيُّ نصر أعظم من الخلاص من العبودية والتبعية لأمة أخرى، ثم تكوين شعب مستقل، له كتاب وشريعة ومُلك ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْهُدَى﴾ أي: آتيناه الوحي الذي يهدي إلى الحق، من التوراة والمعجزات والصحف والشرائع ﴿وَأَوْرَثْنَا بَنِي إِسْرَءِيلَ الْكِتَابَ﴾ أي: جعلنا ذرية نبي الله يعقوب يتوارثون التوراة خلفاً عن سلف، وهذا الكتاب مشتمل على العلم بالأحكام الشرعية، وعلى الترغيب والترهيب، وينتفع به أهل الفطر السليمة والعقول النيرة.

والمعنى: آتيناه موسى الهدى والكتاب، وآتيناه بني إسرائيل الكتاب، ولفظ الهدى يشمل الرسالة، ويشمل الشريعة التي في التوراة، وبنو إسرائيل ورثوا عن موسى شريعة التوراة، ولم يرثوا الرسالة، فقد انتقلت منهم إلى ذرية إسماعيل، والكتاب من الهدى، قال تعالى: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَا التَّوْرَةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ﴾ [المائدة: ٤٤].

وجعلنا هذا الكتاب هادياً إلى سبيل الرشاد، وموعظة لأصحاب العقول السليمة، وفي التوراة علم لمن يجهل، وتذكرة لمن يعلم، والقضاة والأخبار يختصون باستنباط الأحكام منها.

(١) لم يعد المدني الأخير والبصري وابن الجهم عن الشامي لفظ (والكتاب) آية، وعدها المدني الأول والمكي والكوفي والرواية الثانية عن البصري.

أَمْرُ اللَّهِ تَعَالَى لِرَسُولِهِ بِالصَّبْرِ وَالِاسْتِغْفَارِ وَالتَّسْبِيحِ آيَةُ الصَّبْرِ الْأُولَى فِي السُّورَةِ

٥٥- ﴿فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ بِالْعَشِيِّ وَالْإِبْكَارِ﴾

في هذه الآية ثلاثة أوامر للنبي ﷺ وإلى كل داعية إلى الله تعالى، وهي: الأمر بالصبر والاستغفار والتسبيح، فلا تهبطي النصر يا محمد، فإن ما وعدك الله به من نصر رسله والمؤمنين واقع لا محالة، وما عليك إلا الصبر ﴿فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ﴾.

الأمر الأول: الصبر على الأذى، أي اصبر -أيها الرسول وأيها الداعية إلى الله - على أذى المكذبين، واصبر على ما يصيبك من أعدائك، فقد وعدك الله بإعلاء كلمتك، وإظهار دينك على كل دين، ووعد الله ثابت لا يتخلف، وقد تحقق نصر الله لنبيه في غزواته وسراياه، وفتح الخلفاء بعده البلاد، وانتشر الإسلام في الآفاق، وهو في انتشار دائم وصحوة مستمرة.

الأمر الثاني: المداومة على الاستغفار، ثم أمر الله رسوله أن يسأله دوام العصمة؛ لتدوم له المغفرة، فقال: ﴿وَاسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ﴾ أي: دُم على طلب المغفرة لتقتدي بك أمتك، فإن استغفارك -وأنت المعصوم- يجعل أمتك تقتدي بك، وهذا الأمر بالاستغفار كان قبل أن يُخبره الله تعالى بما جاء في سورة (الفتح) من أن الله تعالى قد غفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر، وبالتسبيح يحصل المحبوب، وبالاستغفار يُدفع المحذور.

أما أمرُ الله تعالى لنبيه ﷺ بالاستغفار في سورة (النصر) فهو بعد أن أخبره الله تعالى بأنه قد غفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر، وهو إرشاد إلى شكر نعمة النصر وتمام النعمة، وكمال الدين، ومفارقة الدنيا، فاستغفار النبي ﷺ كان مستمرا قبل نزول سورتي الفتح والنصر وبعدهما.

وبعد نزول سورة (النصر) كان النبي ﷺ يكثر أن يقول في سجوده: «سبحانك اللهم وبحمدك اللهم اغفر لي»^(١) قالت عائشة ؓ: يتأول القرآن.

(١) في البخاري عن عائشة (٨١٧) وفي «المسند» (٢٥٥٦٧، ٢٥٩٢٨) وحديث ابن مسعود (٣٧١٩، ٤٣٥٦) وعبد الرزاق في «المصنف» (٢٨٧٨) والنسائي في الكبرى (٧٠٩) والبيهقي في السنن (٨٦/٢).

وكان النبي ﷺ يتوب إلى الله تعالى ويستغفره في اليوم الواحد مئة مرة .

وأمرُ الله تعالى لنبيه ﷺ بالاستغفار والتوبة، المراد منه: تعليم الأمة؛ لأن الرسول ﷺ معصوم من الذنوب جميعاً؛ صغائر وكبائر، قبل النبوة وبعدها على التحقيق .

الأمر الثالث: المواظبة على التسبيح، فقد أمر الله رسوله في الآية بتسبيحه صباحاً ومساءً ﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ بِالْعَشِيِّ وَالْإِبْكَرِ﴾ أي: إلى جوار استغفارك من الذنوب نزّه ربك عما لا يليق به في آخر النهار وهو وقت العشي، وأوله وهو وقت الإبكار، وهما أفضل الأوقات، وفيهما من الأوراد والأذكار ما ليس في غيرهما .

والمراد بذلك: المداومة على ذكر الله تعالى، وألا يفتر اللسان عنه، كحال الملائكة الأبرار ﴿يُسَبِّحُونَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لَا يَفْترُونَ﴾ [الأنبياء].

وهكذا نجد أن الله تعالى قد أمر رسوله ﷺ في هذه الآية بثلاثة أشياء هي:

١- الصبر على الأذى .

٢- والمواظبة على الاستغفار .

٣- والمواظبة على التسبيح .

قال الفخر الرازي: واعلم أن مجامع الطاعات محصورة في قسمين:

التوبة عما لا ينبغي، والاشتغال بما ينبغي، والأول مقدّم على الثاني .

أما التوبة عما لا ينبغي، فنراها في قوله تعالى: ﴿وَأَسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ﴾ .

وأما الاشتغال بما ينبغي فنراه في قوله تعالى: ﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ بِالْعَشِيِّ وَالْإِبْكَرِ﴾ .

والتسبيح: عبارة عن تنزيه الله تعالى عن كل ما لا يليق به .

والعشي والإبكار، قيل: صلاة العصر وصلاة الفجر، وقيل: الإبكار عبارة عن أول النهار

إلى النصف، والعشي عبارة عن النصف الثاني إلى آخر النهار، فيدخل فيه كل الأوقات .

وبالجملة فالمراد منه: المواظبة على ذكر الله تعالى وألا يفتر اللسان عنه .

الكِبْرُ سَبَبُ الْجِدَالِ بِالْبَاطِلِ: آيَةُ الْجَدَلِ الثَّالِثَةُ فِي السُّورَةِ

٥٦- ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ يَغْيِرُ سُلْطَانُ أَتْلَهُمْ إِنَّ فِي صُدُورِهِمْ إِلَّا كِبْرٌ مَّا هُمْ بِبَلِغِيَةٍ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّكَ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ (٥٦)

وتمضي الآيات في الحديث عن المجادلين في آيات الله لتكشف عن السبب الدافع للكفار إلى المجادلة بالباطل، وما تكنه صدورهم في ذلك؛ ليعلم الرسول ﷺ أن تكذيبهم له ليس تنقيصاً لشأنه، ولا تجويزاً للكذب عليه، ولكن الذي يدفعهم إلى ذلك هو التكبر عن أن يكونوا تبعاً للرسول ﷺ ويكونوا وراء الذين سبقوهم بالإيمان ممن كانوا لا يعبؤون بهم في الدنيا.

﴿إِنَّ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ يَغْيِرُ سُلْطَانُ أَتْلَهُمْ﴾ أي: إن الذين يخاصمون في آيات الله، وفي دلائل قدرته ووحدانيته، وصدق رسوله وكتابه، ويخلطون الدلائل الواضحة بالباطل، من غير أن تكون لديهم حجة بينة، وبرهان صحيح على صحة دعواهم ﴿إِنَّ فِي صُدُورِهِمْ إِلَّا كِبْرٌ مَّا هُمْ بِبَلِغِيَةٍ﴾ أي: ما يحملهم على المجادلة في آيات الله بالباطل، إلا الكبر على صاحب الرسالة ﷺ والحسد له، وليست مجادلتهم لوجود دليل لديهم، وهذا الكبر الذي في صدورهم هو الباعث لهم على تكذيبك -يا محمد- حسداً منهم على ما خصك الله به من فضل، وهو شرف النبوة، وهم لن يبلغوا هذه المرتبة، ولن يبلغوا مرادهم بإطفاء نور الله سبحانه ﴿مَا يَفْتَحُ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِنْ رَحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا﴾ [فاطر: ٢].

فالتجئ إلى الله -أيها الرسول- واعتصم به من شرهم، فهو الذي يسمع أقوالهم، ويُبصر أفعالهم ﴿فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ﴾ من التكبر على الحق، واستعذ بالله من شياطين الإنس والجن، واستعذ بالله من جميع الشرور ﴿إِنَّكَ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ وهو المطلع على أقوالهم وأعمالهم، وهو القادر على إبطال ما يصنعون.

وفي الآية نص صريح، وبيان واضح بأن كل من جادل الحق فهو مغلوب، وكل من تكبر عليه فهو ذليل.

والجدال المذموم هو الجدال بالباطل، أما الجدال لإقامة الحق والكشف عنه فهو جدال محمود، كالجدال في آيات لتوضيح معناها وما يلتبس منها، وحل مشكلاتها، واستنباط

معانيها، ورد الزيف عنها فهو جدال حسن، ومنه رد أهل الضلال إلى الهدى، وردُّ أهل الخطأ إلى الصواب.

وقد وردت آثار^(١) تفيد أن هذه الآية نزلت في اليهود، وأنهم ادَّعَوْا أن الدجال يكون منهم، وأنهم يملكون الأرض به، فأمر الله نبيه أن يستعيد بالله من فتنة الدجال.

ومن هذه الآثار في أسباب النزول:

١- ما أخرجه عبد بن حميد، وابن أبي حاتم بسند صحيح عن أبي العالية قال: إن اليهود أتوا النبي ﷺ، فقالوا: إن الدجال يكون منّا في آخر الزمان، ويكون من أمره، فعظّموا أمره وقالوا: يصنع كذا ويصنع كذا، فأنزل الله ﷻ ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ أَتَتْهُمْ إِنْ فِي صُدُورِهِمْ إِلَّا كِبْرٌ مَّا هُمْ بِبَالِغِيهِ﴾ قال: لا يبلغ الذي يقول، فأمر الله نبيه أن يتعوّذ من فتنة الدجال.

وقال كعب الأحبار: هم اليهود نزلت فيهم، فيما ينتظرون من أمر الدجال.

٢- وعن أنس رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «ما بُعث نبيّ إلا أنذر أمته الأعور الكذاب، ألا إنه أعور، وإن ربكم ليس بأعور، مكتوب بين عينيه كافر»^(٢).

٣- وعن جابر بن عبد الله رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «ما كانت فتنة، ولا تكون، حتى تقوم الساعة، أعظم من فتنة الدجال، وما من نبي إلا وقد حذر قومه، ولأخبرنكم منه بشيء ما أخبره نبي أمته قبلي» فوضع يده على عينيه، ثم قال: «أشهد أن الله ليس بأعور»^(٣).

٤- وجاء وصف الدجال أنه: «جعد، آدم، ممسوح العين اليسرى، وإن معه جنةً وفاراً،

(١) انظرها في: «الدر المثور» (١٣/٤٩-٦٦).

(٢) البخاري (٧١٣١، ٧٤٠٨٢) ومسلم (٢٩٣٣) وهو من حديث طويل في «المسند» في مواطن كثيرة منها: (١٩/٦٣) (١٢٠٠٤) بإسناد صحيح على شرط مسلم (محققه)، والطيالسي (١٩٦٣) وأبو داود (٤٣١٦) وأبو يعلى (٣٢٦٥).

(٣) «المسند» (٩/٢٢) (١٤١١٢) والحاكم (٢٤/١) وقال محققو المسند: حديث صحيح بطرقه وشواهده، وهذا إسناد رجاله ثقات رجال الشيخين، إلا أن زيد، مولى عمر، لم يسمع من جابر، وأخرجه الطبراني في الأوسط (٢١٨٦) وقد جاء في أول الحديث ذكر المدينة وأنها تنفي الخبث، وجاء ذكر اليهود أيضًا ولهذا المعنى قال بعضهم: إن هذه الآية مدنية، واستبعده ابن كثير. قلت: وعموم المعنى يشمل.

وإن معه نهر ماءٍ وجبل خبز، وإنه يسلط على نفس فيقتلها ثم يحييها، لا يسلط على غيرها، وإنه يُمطر السماء ولا يُنبِت الأرض، وإنه يمكث في الأرض أربعين صباحاً حتى يبلغ كل منهل، وإنه لا يقرب أربعة مساجد: المسجد الحرام، ومسجد الرسول، ومسجد القدس، والطور، وما شَبَّهَ عليكم من الأشياء، فإن الله ليس بأعور^(١).

بَعَثَ الْأَمْوَاتِ أَدْنَى دَرَجَةٍ مِنْ خَلْقِ السَّمَوَاتِ

٥٧- ﴿لَخَلَقُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ (٥٧)

وإن أهم ما يجادل فيه المبطلون، آيات الله المثبتة للبعث بعد الموت، وهذا أكبر شبهة راجت بينهم، فقالوا: ﴿أَءِذَا كُنَّا تُرَابًا أَهَآءًا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ﴾ [الرعد: ٥] وكانوا يسخرون من النبي ﷺ لأجل ذلك، فيقولون: ﴿هَلْ نَدْعُهُمْ عَلَى رَجُلٍ يُبَشِّرُكُمْ إِذَا مَزَقْتُمْ كُلَّ مُمَرِّقٍ إِنَّكُمْ لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ﴾ (٧) أَفَرَأَيْ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَمْ بِهِ جِنَّةٌ ﴿[سبأ: ٧، ٨].

ولمّا كان الكفار يقرون بأن الله تعالى هو خالق السموات والأرض، أقيمت عليهم الحجة، بأن بعث الأموات أدنى درجة من خلق السموات والأرض، فقال تعالى: ﴿لَخَلْقُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ﴾ أي: أن خلقهما وإنشاءهما من غير شيء أعظم وأهم من خلق البشر، فمن قدر على خلقهما مع عظمهما، فكيف يعجز عن خلق ما هو أدنى منهما، وهو إعادة الأجساد بعد فنائها؟ فالذي خلق الأجرام العظيمة وأنقنها، قادر على إعادة الناس بعد موتهم من باب أولى ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ أي: لا يعلمون أن حجة إمكان البعث واضحة؛ لأنهم في لهو عن الأدلة المقنعة، والذين يعلمون ذلك هم المؤمنون، وعددهم أقل، وهذا الدليل من الأدلة العقلية الدالة على البعث والنشور دلالة قاطعة.

ويوضح المراد من هذه الآية قوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَمْ يَكُنْ لِيَخْلُقْهُنَّ يَفْقَدِرْ عَلَى أَنْ يُحْيِيَ الْمَوْتَى بَلَى إِنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [الأحقاف: ٣٣].

(١) ابن أبي شيبة (١٤٧/١٥) وهو عند أحمد بإسناد صحيح (٨٩/٣٩) (٢٣٦٨٤، ٢٣٦٨٥) عن جُنادة بن أمية الأزدي عن رجل من أصحاب النبي ﷺ.

لَا يَسْتَوِي عِنْدَ اللَّهِ مَنْ يُؤْمِنُ بِالْبَعْثِ وَمَنْ يَكْفُرُ بِهِ

٥٨- ﴿وَمَا يَسْتَوِي الْأَعْمَىٰ وَالْبَصِيرُ^(١) وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَلَا الْمُسِيءُ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ^(٢)﴾

في هذه الآية ضرب الله مثلاً للمؤمن بالبعث والنشور، وضربه أيضاً للكافر المجادل في أمر البعث، وضربه كذلك لمن آمن وعمل صالحاً، ومن استكبر على عبادة الله وتجراً على معاصيه فقال: ﴿وَمَا يَسْتَوِي الْأَعْمَىٰ وَالْبَصِيرُ^(١)﴾ فالذي يجادل في البعث مع وضوح دلائله كالأعمى، والذي يؤمن به كالبصير، والأعمى والبصير لا يستويان، ولا يستوي الذين اهتدوا والذين هم في ضلال، ﴿و﴾ لا يستوي ﴿الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَلَا الْمُسِيءُ﴾ أي: لا يستوي المؤمنون المهتدون، المقرون بوحداية الله تعالى العاملون للصلاحات، والجاحدون المنكرون لوحدايته تعالى وللبعث والنشور، ولا يعترفون بدلائله البينة ﴿قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ﴾ -أيها الناس- حجج الله الواضحة، فتعظون وتعتبرون.

فلو تذكروا منازل الأخيار والأشرار، والأبرار والفجار، كانت لكم همة عالية، وأثرتم النافع على الضار، والهدى على الضلال.

وقريب من هذه الآية قوله تعالى: ﴿وَمَا يَسْتَوِي الْأَعْمَىٰ وَالْبَصِيرُ^(١) وَلَا الظُّلُمَاتُ وَلَا النُّورُ^(٢) وَلَا الظُّلُمُتُ وَلَا النُّورُ^(٣) وَمَا يَسْتَوِي الْأَحْيَاءُ وَلَا الْأَمْوَاتُ^(٤)﴾ [فاطر: ١٩-٢٢].

وبعد كشف شبهة منكري البعث تأتي النتيجة الحتمية، بتحقيق وقوعها في الوقت الذي يختاره رب العالمين:

٥٩- ﴿إِنَّ السَّاعَةَ لَآتِيَةٌ لَا رَيْبَ فِيهَا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ^(١)﴾

أي: إن الذي يجادل في قيام الساعة هم المبطلون، وهي واقعة لا محالة، فلا ريب ولا شك في قيام الساعة، كما أخبرت بذلك الرسل والكتب، فأيقنوا بمجيئها أيها

(١) عد الدمشقي والمدني الأخير (والبصير) آية، وتركها غيرهما.

(٢) قرأ نافع وابن كثير وأبو عمرو وابن عامر وأبو جعفر ويعقوب بالياء في (ما تذكرون) على الغيب، والباقون بالتاء على الخطاب.

(٣) قرأ حمزة بمد (لا ريب) أربع حركات للمبالغة في النفي، والباقون بالقصر.

الشاكون، وأكثر الناس لا يصدقون بوقوعها ولا يعملون لها، ويمرون على أدلتها وهم معرضون، وأكثر الناس هم الكفار بالبعث والنشور ﴿وَإِذَا قِيلَ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَالسَّاعَةُ لَا رَيْبَ فِيهَا قُلْتُمْ مَا نَدْرِي مَا السَّاعَةُ إِنْ نَظُنُّ إِلَّا ظَنًّا وَمَا نَحْنُ بِمُتَّقِينَ﴾ (٣٢) [الجاثية].

قلت: وليس للدار الآخرة كبير تفكير في حياة الناس اليوم، إلا من رحم ربي، فهم غارقون للأذقان في شؤون الحياة الدنيا إلى آخر رمق.

الدُّعَاءُ عِبَادَةً، فَلَا يُسْأَلُ غَيْرَ اللَّهِ تَعَالَى

٦٠- ﴿وَقَالَ رَبُّكُمْ ادْعُونِي^(١) أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ^(٢) جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾

ولمّا كانت المجادلة في آيات الله سبحانه، تشمل الجدل في وحدانيته تعالى، وتشمل الجدل في اليوم الآخر، فقد أعقب الاستدلال على إمكانية البعث، بالتحذير من الإشراك بالله تعالى، والأمر بالتوجه بالدعاء إليه وحده، دون اتخاذ واسطة ترفعه إلى الله تعالى.

قال ابن عطية: هذه آية تفضّل، ونعمة، ووعد لأمة محمد ﷺ بالإجابة عند الدعاء، وهذا الوعد مقيد بشرط المشيئة لمن شاء الله تعالى، لا أن الاستجابة عليه حتم لكل داعٍ سيّما لمن تعدّى في دعائه^(٣).

والمراد بالدعاء: السؤال بجلب النفع ودفع الضرر، والدعاء في نفسه عبادة، فإن الله تعالى قال: ﴿ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾ ثم قال: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي﴾ أي: عن دعائي، وعلى هذا فإن مَنْ طلب من الموتى قضاء الحوائج وجلب النفع ودفع الضرر كان قد عبدهم بدعائه لهم، وصرف إليهم ما لا يجوز صرفه إلا لله تعالى، إذ لا يقدر على إجابة الدعاء إلا الله سبحانه.

وفي الآية وعيد شديد لمن يستكبر عن دعاء الله تعالى، والمتكبرون يُحشَرُونَ يوم القيامة أمثال الذر تطوهم الناس بأقدامهم لهوانهم على الله تعالى.

(١) قرأ ابن كثير بفتح ياء الإضافة من (ادعوني أستجب)، والباقون بإسكانها.

(٢) قرأ ابن كثير وأبو جعفر ورويس وشعبة بخلف عنه بالبناء للمجهول في (سيدخلون)، والباقون بالبناء للمعلوم وهو الوجه الثاني لشعبة.

(٣) «تفسير ابن عطية» (٥٦٦/٤).

قال سفيان الثوري: يا من أحب عباده إليه، مَنْ سألَه فأكثر سؤاله، ويا من أبغض عباده إليه من لم يسأله، وليس أحد كذلك غيرك يا رب^(١).

والدعاء على نوعين فقد تعنى كلمة الدعاء العبادة، أي أن العبد قد يسأل ربه لا لحاجة، وإنما يسأله تعبدًا، لأن الله تعالى، أمره بالدعاء .

وقد تعني سؤال الحاجة، أي أن العبد يسأل ربه ما فيه صلاح دينه ودنياه .

والعبادة أنواع كثيرة، وسؤال الله تعالى نوع من أنواعها، وهي تشمل: الصلاة والصيام والزكاة والحج، والنذر والذبح، والاستعانة والاستغاثة والاستعاذة، وطلب المدد وغير ذلك.

وفي حديث النعمان بن بشير رضي الله عنه: فسّر النبي ﷺ الدعاء بأنه العبادة، فقال ﷺ: «الدعاء هو العبادة» ثم قرأ الآية^(٢).

فإذا كان الدعاء هو العبادة فإن العبادة هي الدعاء، وذلك لأن الدعاء يطلق على سؤال العبد حاجته من الله تعالى، والعبادة لا تخلو من دعاء المعبود.

وقد علّمنا الله - سبحانه - أن العبادة والدعاء شيء واحد، فجاء في صدر الآية ﴿ادْعُونِي﴾ وفُسِّرَت آخر الآية بأولها حيث قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾ وقد أمر الله - سبحانه - العباد أن يخضّوه بالدعاء، ورغبهم فيه وحثهم عليه، ثم بيّن سبحانه أن الذين يتكبرون عن أفراد الله تعالى بالعبودية والألوهية- ومنها الدعاء -مصيرهم جهنم يدخلونها أذلاء حقراء، والمتكبرون عن عبادة الله تعالى يحشرون يوم القيامة أمثال الذر في صور الناس.

وفي هذا تحذير وإنذار لمن يدعو غير الله - سبحانه - ممن ذكرهم الله تعالى في هذه السورة بقوله: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُ إِذَا دُعِيَ اللَّهُ وَحْدَهُ كَفَرْتُمْ وَإِنْ يُشْرَكَ بِهِ تُؤْمِنُوا﴾ [غافر: ١٢] وقوله سبحانه: ﴿وَمَا دُعَاءُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ﴾ [غافر: ٥٠].

(١) «تفسير ابن كثير» (١٥٣/٧).

(٢) «صحيح سنن ابن ماجه» (٣٢٤/٢) (٣٠٨٦) و«سنن الترمذي» (٤٥٦/٥) (٣٣٧٢) و«صحيح سنن أبي داود» (١٣٢٩) وابن حبان (٨٩٠) «الإحسان» قال محققه: إسناده صحيح و«السنن الكبرى» للنسائي (١١٤٦٤) وصححه الحاكم ووافقه الذهبي (٤٩١/١) والبخاري (٧١٤) و«المسند» (١٨٣٥٢) بإسناد صحيح ورجال ثقات (محققه) وابن أبي شيبة (٢٠٠/١٠) والبيهقي في شرح السنة (١٣٨٤٠) ومشكاة المصابيح (٢٢٣٠).

وقوله تعالى: ﴿وَإِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَحْدَهُ اشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ وَإِذَا ذُكِرَ الَّذِينَ مِنْ دُونِهِ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ﴾ ﴿٥٥﴾ [الزمر].

وفي قوله سبحانه: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا إِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ﴾ ﴿٢٥﴾ [الصفات].

وفي الآية بيان لسوء عاقبة المستكبرين عن إفراد الله تعالى بالعبادة.

وقد تكفل الله - سبحانه - بإجابة الدعاء فضلاً منه وكرماً.

صور إجابة الدعاء:

وقد تكون الإجابة في صورتها المطلوبة للسائل، إن كان في ذلك خير له.

وقد يرفع الله عن العبد من البلاء ما لا يعلم.

وقد يدخر له الإجابة في الآخرة إن كان هذا أنفع له.

وشروط الدعاء: طيب المطعم، والمشرب، والملبس، والمسكن.

ويقدم للدعاء بحمد الله تعالى والصلاة والسلام على رسول الله ﷺ.

ويكون العبد السائل من المؤمنين العاملين للصلوات.

ومن شروط الدعاء: الإخلاص فيه والانشغال به، وألا يكون فيه قطيعة رحم ولا إثم،

وألا يستبطئ العبد الإجابة فيقول: يا رب، دعوت فلم تُجِب.

وعن أبي هريرة ؓ أن النبي ﷺ قال: «إن في الجمعة ساعة، لا يوافقها مسلم يسأل

الله فيها خيراً إلا أعطاه إياه»^(١).

وفي صحيح مسلم: عن عبد الله بن عمر ؓ أن هذه الساعة: «هي ما بين أن يجلس

الإمام إلى أن تقضى الصلاة»^(٢).

(١) «صحيح مسلم» (٥٨٤/٢) برقم: (٨٥٢).

(٢) مسلم (٥٨٤/٢) برقم: (٨٥٣).

أَرْبَعَةُ أَدْلَةٍ عَلَى وَحْدَانِيَةِ اللَّهِ تَعَالَى

الدَّلِيلُ الْأَوَّلُ: نِعْمَةُ الزَّمَانِ

٦١- ﴿اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَالنَّهَارَ مُبْصِرًا إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ ﴿٦١﴾﴾

وبعد أن بيّن الله سبحانه أن التوجه بالدعاء والعبادة، لا يكونان إلا له جلّ شأنه، أقام جملة من الأدلة على وحدانية الله تعالى، وانفراده بالخلق، مما يوجب انفراده تعالى بالعبادة، وبدأ ذلك بالليل والنهار؛ لأنّ فيهما مصالح العباد، وينشأ عنهما الظلمة والنور.

وذكرُ الليل والنهار يتضمن بالضرورة ذكرَ الشمس حيث ينشأ الليل من احتجاب أشعتها عن نصف الكرة الأرضية، وينشأ النهار من انتشار شعاعها على النصف المقابل من الكرة الأرضية.

والله تعالى جعل لكم الليل لتستريحوا فيه وتهدؤوا من عناء العمل بالنهار، وقد هياه الله لتحقيق الراحة فيه، بأن جعله مُظْلِمًا هادئًا ساكنًا لنومكم وراحتكم.

ومن رحمة الله تعالى بكم ونعمته عليكم، أن جعل لكم النهار مضيئًا مسفرًا لتصرفوا فيه بطلب الرزق وأمور المعاش، كما قال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ آيَاتٍ فَحَوِّنَا آيَةَ اللَّيْلِ وَجَعَلْنَا آيَةَ النَّهَارِ مُبْصِرَةً لِّتَبْتَغُوا فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ وَلِتَعْلَمُوا عَدَدَ الْيُسْرِ وَالْحَسَابِ﴾ [الإسراء: ١٢].

وقال سبحانه: ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِن جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ اللَّيْلَ سَرْمَدًا إِلَى يَوْمِ الْقِيَمَةِ مَن إِلَهُ غَيْرَ اللَّهِ يَأْتِيكُمْ بِضِيَاءٍ أَفَلَا تَسْمَعُونَ ﴿٧١﴾ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِن جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ النَّهَارَ سَرْمَدًا إِلَى يَوْمِ الْقِيَمَةِ مَن إِلَهُ غَيْرَ اللَّهِ يَأْتِيكُمْ بِاللَّيْلِ تَسْكُونُونَ فِيهِ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٧٢﴾ وَنِ رَحْمَتِهِ جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِن فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٧٣﴾﴾ [القصص].

وهذا من فضل الله على خلقه ﴿إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ﴾ فهو صاحب الجود والإحسان ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ﴾ ربهم على فضله فيجحدون نعمه وعطاءه، والشاركون المؤمنون هم القلة، كما قال تعالى ﴿وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ الشَّاكِرُونَ ﴿٧٤﴾﴾ [سبأ].

وهم الذين يقرون بنعمة ربهم، ويصبرونها في طاعته ومرضاته.

والذي أعطانا هذه النعم هو الله - سبحانه - المتفرد بالخلق والإنعام:

٦٢- ﴿ذَلِكُمْ اللَّهُ رَبُّكُمْ خَلِقُ كُلِّ شَيْءٍ لَّا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَاتَّقُوا اللَّهَ ۚ﴾

أي: أن الذي أنعم عليكم بهذه النعم هو الله ربكم، الذي أوجد الأشياء كلها، هو الواحد الأحد، الفرد الصمد، المستحق للعبادة دون سواه، فكيف تعدلون عن عبادته إلى عبادة غيره - من الأوثان ونحوها - بعد أن تبين لكم دلائل التوحيد ووجوب الشكر عليها وهذا معنى ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ﴾ وهذا تعجب من انصرافهم عن الحق إلى الباطل، وعن الشكر إلى الكفر، وعن التوحيد إلى الشرك، وفي هذا أمر بعبادته وحده، قال تعالى:

٦٣- ﴿كَذَٰلِكَ يُؤْفِكُ الَّذِينَ كَانُوا بِآيَاتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ ۚ﴾

أي: وكما صُرفتم عن الحق وكُذِّبتم به - أيها المجادلون في آيات الله بالباطل - مع قيام الدليل والبرهان، يُصرف عن الحق والهدى والإيمان الذين جحدوا الحق وأنكروه، وصُرفهم عن الحق عقوبة من الله تعالى، على جحودهم لآيات الله، وتكذيبهم رسل الله، كما قال تعالى ﴿صَرَفَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَفْقَهُونَ﴾ [التوبة]

والإفك: هو الصرف والقلب والتحويل، كما قال تعالى ﴿قَالُوا أَجِئْنَا لِنَتَأَفَّكًا عَنْ ءِلَهَيْنَا﴾ [الأحقاف: ٢٢] أي: تَصْرِفْنَا عن عبادتها إلى غيرها.

الدَّلِيلُ الثَّانِي عَلَى وَحْدَانِيَةِ اللَّهِ تَعَالَى وَكَمَالِ قُدْرَتِهِ: نِعْمَةُ الْمَكَانِ

وقد اشتمل هذا الدليل على أربع نعم وهي: الأرض، والسماء، وحُسن الخلقة، والرزق من الطيبات:

٦٤- ﴿اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ قَرَارًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُورَكُمْ وَرَزَقَكُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ ۚ ذَٰلِكُمْ اللَّهُ رَبُّكُم فَتَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ ۚ﴾

النعمة الأولى: ﴿اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ قَرَارًا﴾ حيث يَسِّرْ لكم الإقامة عليها لتستقروا فيها مدة حياتكم وتستقر عليها مبانيكم وأمتعتكم وهي ثابتة بكم، مهياة لمصالحكم، تتمكنون من حرثها والغرس فيها، والبناء عليها، والسفر والإقامة فيها، وجعلها دارًا لكم بعد موتكم إلى أن تَلْقَوْا ربكم، ففيها تحيُّون وفيها تموتون.

النعمة الثانية: ﴿وَالسَّمَاءَ بَنَاءً﴾ أي: سقفاً محفوظاً، كالقبة، مرفوعة فوقكم بغير عمد، وبث فيها من الكواكب والنجوم ما تهتدون به في ظلمات البر والبحر، قال تعالى: ﴿الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ فِرَاشًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَأَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَّكُمْ﴾ [البقرة: ٢٢].

النعمة الثالثة: ﴿وَصَوَّرَكُمُ فَأَحْسَنَ صُورَكُمْ﴾ أي: خلقكم في أكمل هيئة، وأحسن تقويم، فجعل لكم أعضاء متناسبة مع اعتدال القامة، والتناول باليدين، ولم يجعلكم تمشون على أربع، كالبهائم وجعلكم في أجمل صورة، كما قال تعالى: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾ [التين: ١].

وقال سبحانه: ﴿الَّذِي خَلَقَكَ فَسَوَّاكَ فَعَدَلَكَ﴾ [٧] فِي أَيِّ صُورَةٍ مَا شَاءَ رَكَّبَكَ ﴿٨﴾ [الانفطار] وقد خص الله الإنسان بالعقل والعلم والمعرفة، وأودع في قلبه الحب والبغض، وجعله صاحب حرية واختيار.

النعمة الرابعة: ﴿وَرَزَقَكُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ﴾ أي: أنعم الله عليكم بالرزق الحلال، ولذيذ المطاعم والمشارب والملابس، وأحل لكم كل طيب وحرم عليكم كل خبيث، وخلق لكم ما في الأرض جميعاً.

والخالق لهذه الأشياء، المنعم عليكم بها هو الله ربكم، فتعالى وتعاظم وتقدس في ذاته وصفاته، وتنزه عما لا يليق بجلاله، وتبكاثر خيره وفضله، رب الخلق أجمعين. وهي نعم توجب الشكر، وتدلل على كمال قدرة الله تعالى، وعظيم سلطانه، وسعة ملكه، وتديره لشؤون خلقه في العالمين: العلوي والسفلي.

وَجُوبُ إِخْلَاصِ الْعِبَادَةِ لِلَّهِ وَحْدَهُ وَالنَّهْيِ عَنِ الْإِشْرَاقِ بِهِ

٦٥- ﴿هُوَ الْحَيُّ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَكَادَعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [١٥]

أي: هو سبحانه وتعالى المتفرد بالحياة الدائمة، المستلزمة للصفات الذاتية، التي لا تتم الحياة إلا بها، كالسمع والبصر والقدرة، والعلم والكلام، وغير ذلك من صفات الكمال والجلال، وهو الباقي بعد فناء خلقه، لا إله غيره، ولا معبود بحق سواه، وليس له شبيه في ذاته ولا في صفاته ولا في أفعاله، له العلم التام، والقدرة التامة ﴿فَكَادَعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾

أي: توجهوا إليه وحده بالسؤال، وخصوه بالعبادة، كما قال تعالى ﴿وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ﴾ [البينة: ٥] وأخلصوا له دينكم وطاعتكم، ظاهرًا وباطنًا قائلين: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ ﴿٢﴾ فله الثناء والشكر، والمدح قولًا وفعلًا، مالك الملك، رب الخلق أجمعين.

قال ابن عباس رضي الله عنه: من قال لا إله إلا الله فليقل على أثرها: الحمد لله رب العالمين^(١).

وبعد الأمر بتوحيد الله تعالى يأتي النهي عن الإشراك به سبحانه في قوله:

٦٦ - ﴿قُلْ إِنِّي نُهِيتُ أَنْ أَعْبُدَ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَمَّا جَاءَنِيَ الْبَيِّنَاتُ مِنْ رَبِّي وَأُمِرْتُ أَنْ أُسْلِمَ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ ﴿٦٦﴾

وبعد أن أمر الله - سبحانه - بإخلاص العبادة له وحده، نهى، جل شأنه - عن عبادة غيره، فقرر على لسان رسوله ﷺ إبطال عبادة غير الله تعالى في قوله: ﴿قُلْ﴾ يا محمد ﴿إِنِّي نُهِيتُ﴾ عن طريق الوحي الإلهي ﴿أَنْ أَعْبُدَ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ أي: نهيت عن عبادة غير الله في حد نفسي، وأمرت أن أبلغ ذلك إليكم، فهو حكم الله فيكم، ولا عذر لكم في العدول عنه، وأنا أنصحكم بما أنصح به نفسي، وأريد لكم ما أريده لنفسي، وذلك بعدما قامت دلائل التوحيد المتضافرة من الأدلة العقلية والنقلية على تفرد الله - سبحانه - بالألوهية والربوبية، تفردًا مطلقًا لا تشوبه شائبة، وهي آيات واضحات لا وراء فيها، وهذا معنى ﴿لَمَّا جَاءَنِيَ الْبَيِّنَاتُ مِنْ رَبِّي﴾ أي: أن النهي عن عبادة غير الله تعالى كان وقت مجيء آيات الوحي البينات ونزولها عليّ من عند ربي، وهي تنطق بوحدانيته تعالى، وتنتهي عن الإشراك به، وهذه الآيات البينات تشمل دلائل التوحيد النقلية والعقلية.

وقد أمرني ربي أن أخضع وأنقاد له وحده، بالطاعة التامة وبعد أن نهاني ربي عن عبادة غيره، أمرني أن أسلم وجهي إليه بالطاعة والعبادة فقال: ﴿وَأُمِرْتُ أَنْ أُسْلِمَ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ بأن أخلص له ديني، بقلبي ولساني وجوارحي فتتقاد لطاعته وتستسلم لأمره، وأمرت أن أظهر نفسي من عبادة غيره، فهو وحده رب العالمين، وكل الدلائل والبراهين تشهد بأن المستحق للعبادة هو الله وحده.

(١) ابن جرير (٣٥٧/٢٠) والحاكم (٤٣٨/٢) والبيهقي (١٩٤).

وهذه الآية، معترضة بين آيات دلائل الوجدانية، لتنبية الغافل، وإيقاظ النائم، وتجديد سبب إيراد هذه الأدلة.

وفي آية أخرى ينهى الله تعالى رسوله ﷺ عن اتباع أهواء الضالين، فيقول: ﴿قُلْ إِنِّي نُهَيْتُ أَنْ أَعْبُدَ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ قُلْ لَا أَنْتُمْ أَهْوَاءُكُمْ قَدْ ضَلَلْتُمْ إِذَا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُهْتَدِينَ﴾ (٥١) [الأنعام].

الدليل الثالث: يتعلّق بأطوار خلق الإنسان

٦٧- ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ يُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشَدَّكُمْ ثُمَّ لِيَكَوُنُوا شُيُوخًا^(١) وَمِنْكُمْ مَنْ يُتَوَفَّى مِنْ قَبْلٍ وَلْيَبْلُغُوا أَجَلًا مُسَمًّى وَلَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾
لقد أوجدكم الله -أيها الناس- من العدم، ومر خلقكم بأطوار مختلفة:
١- حيث خلق أباكم آدم من تراب، وأنتم فرعٌ منه.

٢- ثم خلق ذريته من نطفة، وهي المنى الذي يخرج من الرجل، ويصبُّ في رحم المرأة ليمتزج بمائها، وقد نبهت الآية بالابتداء على بقية الأطوار.

٣- ثم يتحول المنى إلى دم غليظ، أي: قطعة من الدم المتجمد كالعلقة.

٤- ثم تجري عليكم أطوار متعددة في الأرحام، إلى أن تولدوا أطفالاً صغاراً.

٥- ثم تنتقلون من مرحلة الطفولة إلى المرحلة التي تكتمل فيها أجسامكم وعقولكم، ﴿ثُمَّ لِيَبْلُغُوا أَشَدَّكُمْ﴾ وهو كمال العقل والبنية في سن الأربعين.

٦- ثم يتقدم بكم السن -إلى أن تصلوا إلى سن الشيخوخة ﴿ثُمَّ لِيَكُونُوا شُيُوخًا﴾ فتتناقص قوتكم شيئاً فشيئاً.

أخرج ابن أبي حاتم عن الشعبي قال: يُنَغَّرُ الغلام لسبع، ويحتلم لأربع عشرة، وينتهي طوله لإحدى وعشرين، وينتهي عقله لثمان وعشرين، ويبلغ أشده لثلاث وثلاثين.

وهناك توضيح كامل لأطوار خلق الإنسان جاء في قوله تعالى: ﴿يَتَأَيَّهَا النَّاسُ إِن كُنْتُمْ

(١) قرأ ابن كثير وابن ذكوان وشعبة وحمزة والكسائي بكسر الشين من (شيوخا)، والباقون بضمها.

فِي رَيْبٍ مِّنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِّنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ مِّنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِّنْ مُّضْغَةٍ مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لِّنُبَيِّنَ لَكُمْ وَنُقِرُّ فِي الْأَرْحَامِ مَا نَشَاءُ إِنَّكَ أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشَدَّكُمْ وَمِنْكُمْ مَّنْ يُؤْتَقُ وَمِنْكُمْ مَّنْ يُرَدُّ إِلَى أَرْدَلِ الْعُمُرِ لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِنْ بَعْدِ عِلْمٍ شَيْئًا وَتَرَى الْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَا أَنزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنْبَتَتْ مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ ﴿٥﴾ [الحج].

ومثلها آيات سورة المؤمنون [١٢-١٤].

وقد رتب الله عمر الإنسان على ثلاث مراتب: الطفولة، وبلوغ الأشد، والشيخوخة، وهذا ترتيب مطابق للعقل، فإن الإنسان في أول عمره يكون في النماء والنشوء، وهو المسمى بالطفولة، إلى أن يبلغ إلى كمال النشوء من غير أن يحصل له ضعف، وهذا بلوغ الأشد، ثم يبدأ بالتراجع، ويبدأ فيه الضعف والنقص وهذه مرتبة الشيخوخة^(١).

ومنكم من يموت قبل بلوغ الأشد أو قبل سن الشيخوخة، وهو غالبًا ما بين الستين والسبعين ﴿وَمِنْكُمْ مَّنْ يُؤْتَقُ مِنْ قَبْلُ﴾ وقد فعل الله ذلك بكم لتبلغوا وقتًا محددًا تنتهي فيه آجالكم ﴿وَلِتَبْلُغُوا أَجَلًا مُّسَمًّى﴾ ينتهي فيه عُمر كل منكم، ثم تبعثون جميعًا للحساب والجزاء يوم القيامة.

وقد بين الله لكم هذه الأطوار لعلكم تدركون صنع الله تعالى في خلقه وتتدبرون آياته، فتعرفون أنه لا إله غيره، وتتوجهون له وحده بالعبادة دون سواه.

الدَّلِيلُ الرَّابِعُ: الْإِحْيَاءُ وَالْإِمَاتَةُ

٦٨- ﴿هُوَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ فَإِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ (٢) ﴿٦٨﴾

وأول ما يعقله الإنسان من أطوار خلقه، هو قدرة الله تعالى على الإحياء والإماتة، إذ كيف يحيي الله تعالى الإنسان يوم القيامة، بعد أن كان جثة لا حياة فيها، تحللت وتفتت في التراب، وكيف يميته عند انتهاء أجله بعد أن كان حيًا ﴿هُوَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ﴾ أي هو سبحانه المتفرد بالإحياء والإماتة، فلا تموت نفس إلا بإذنه، بسبب أو بغير سبب ﴿وَمَا

(١) «التفسير الكبير» للفخر الرازي (٢٧/٨٥).

(٢) قرأ ابن عامر بنصب النون من (فيكون) على أنه منصوب بأن بعد فاء السببية، والباقون يرفعونها على الاستئناف.

يُعَمَّرُ مِنْ مُعَمَّرٍ وَلَا يُنْقِصُ مِنْ عُمُرِهِ إِلَّا فِي كِتَابٍ [فاطر: ١١].

وإذا أراد الله إيجاد أمر من الأمور -تعلقت به قدرة الله تعالى- فإن هذا الأمر يكون، بلا تأخير ولا إعداد ولا معاناة، فلا راد لقضائه ولا معقب لحكمه ﴿فَإِذَا قَضَىٰ أَمْرًا﴾ صغيراً أو كبيراً، جليلاً أو حقيراً ﴿فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ أي: أنه يوجد فوراً من غير تأخير، وهذا تمثيل لكمال قدرة الله تعالى، وتصوير لسرعة وجودها من غير أن هناك أمراً ومأموراً^(١).

الآية الخامسة من آيات الجدل في السورة

٦٩- ﴿الَّذِينَ يَجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ أَنْ يُضَرَّفُونَ﴾

ولأن سورة (غافر) بُنيت على إبطال جدل الذين يجادلون في آيات الله، مما اشتمل عليه القرآن من إبطال الشرك وإنكار البعث وغيرهما، فقد ذُكرت آيات الجدل في آيات الله، في هذه السورة خمس مرات، يعقب كل منها إبطال جانب من جوانب جدلهم.

وفي هذه الآية تعجب من انصرافهم عن التصديق بالقرآن بعد تلك البراهين الواضحة، كأن الله تعالى يقول: ألا تعجب -يا محمد- من هؤلاء المكذبين بآيات الله الدالة على وحدانيته وقدرته، والدالة على البعث بعد الموت، وهم يخاصمون فيها بدون علم ولا حجة، حيث أنكروا الحق الواضح، وانساقوا وراء الأوهام والأباطيل، فجادلوا في وحدانيته تعالى ودلائل قدرته وأنكروها، فكيف يعدلون عنها مع صحتها؟ وإلى أي شيء يذهبون بعد هذا البيان التام؟ هل وجدوا بين آيات الله تعارضاً؟ هل وجدوا فيها شبهاً توافق أهواءهم؟ فبئس ما استبدلوا واختاروا لأنفسهم.

لقد كان من المنتظر أن يهتدوا إلى الحق بعد وصوله إليهم، ولكنهم عموا وصموا لانطماس بصائرهم، واستحوذ الشيطان عليهم، فصرف الله عقولهم من الهدى إلى الضلال.

ثم عرّف الله سبحانه هؤلاء المجادلين بأنهم:

٧٠- ﴿الَّذِينَ كَذَّبُوا بِالْكِتَابِ وَمِمَّا أَرْسَلْنَا بِهِ رُسُلَنَا﴾^(٢) فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿٧٠﴾

(١) «تفسير أبي السعود» (١٤/٥).

(٢) سَكَنَ أَبُو عمرو السين من (رسلنا)، والباقون بضمها.

أي: أن هؤلاء المشركين كذبوا بالقرآن وما جاء فيه، بل كذبوا بسائر الكتب السماوية التي أنزلها الله تعالى على رسله لهداية البشر؛ لأن من كذب رسولاً فقد كذب سائر الرسل، ثم توعد الله بسوء العاقبة على تكذيب الرسل فقال: ﴿فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾ أي: سوف يلقون جزاء تكذيبهم، إذ لا جزاء لهم سوى النار الحامية.

ثم وصف الله سبحانه عذاب هؤلاء المكذبين بقوله:

٧١، ٧٢- ﴿إِذِ الْأَغْطُلُ فِيْ أَعْنَاقِهِمْ وَالسَّلْسِلُ يُسْحَبُونَ^(١)﴾ في الْحَمِيمِ^(٢) ثُمَّ فِي النَّارِ يُسْجَرُونَ﴾

بين سبحانه تنوع تعذيب المكذبين بآيات الله ورسله في النار، حيث توضع القيود في أعناقهم، والسلاسل في أرجلهم، وتسحبهم زبانية جهنم في الماء الحار الذي اشتد غليانه، ثم يوقد بهم، فيجعلون وقوداً لنار جهنم، وهذا معنى ﴿إِذِ الْأَغْطُلُ فِيْ أَعْنَاقِهِمْ﴾ أي: القيود في اليد والعنق ﴿وَالسَّلْسِلُ﴾ الحديدية التي يُربط بها الجاني يسلسلون فيها، ثم ﴿يُسْحَبُونَ﴾ في الْحَمِيمِ أي: في الماء البالغ أقصى درجات الحرارة ﴿ثُمَّ فِي النَّارِ يُسْجَرُونَ﴾ أي: يلقى بهم في النار بعنف وإهانة فيكونون وقوداً لها، كما قال تعالى عن النار: ﴿وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ﴾ [التحريم: ٦].

وطعامهم في جهنم: الزقوم والضريع والغسلين، وشرابهم: الماء الحار الممتن.

وقد وصف الله أهل الشمال بقوله سبحانه: ﴿فِي سَمُومٍ وَحَمِيمٍ﴾ وظل من يحمى ﴿لَا بَارِدٍ وَلَا كَرِيمٍ﴾ [الواقعة: ٤٤].

وقوله تعالى: ﴿إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا وَإِنْ يَسْتَغِيثُوا يُغَاثُوا بِمَاءٍ كَالْمُهْلِ يَشْوِي الْوُجُوهَ﴾ [الكهف: ٢٩].

وقال تعالى في وصف عذابهم: ﴿إِنَّ شَجَرَتَ الزُّقُومِ﴾ طَعَامُ الْأَشِيرِ ﴿كَالْمُهْلِ يَغْلِي فِي الْبُطُونِ﴾ كَغَلِي الْحَمِيمِ ﴿حُدُودُهُ فَأَعْتَلُوهُ إِلَى سَوَاءٍ الْحَمِيمِ﴾ ثُمَّ صُبُّوا فَوْقَ رَأْسِهِ مِنْ عَذَابِ الْحَمِيمِ ﴿ذُقْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ﴾ [الدخان: ٤٩]. وغير ذلك من الآيات.

(١) عد الدمشقي والمدني الأخير والكوفي (يسحبون) آية، وتركها غيرهم.

(٢) عد المدني الأول والمكي (في الحميم) آية، وتركها غيرهما.

أخرج ابن أبي شيبة^(١) عن سعيد بن عبيد الطائي قال: سمعت سعيد بن جبير وهو يصلي في شهر رمضان يردد هذه الآية ﴿فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾ (٧٣) إِذِ الْأَغْطُلُ فِي أَعْتَقِهِمْ وَالسَّلْسِلُ يُسْحَبُونَ (٧٤) فِي الْحَمِيمِ ثُمَّ فِي النَّارِ يُسْجَرُونَ ﴿٧٣﴾.

سُؤَالُ الْمُشْرِكِينَ عَنِ الْأَلْهَةِ فِي سَاحَةِ الْعَرْضِ

وبعد وصف العذاب المهين لمن عبد غير الله تعالى يُسأل المشركون وهم في الموقف عن الآلهة التي عبدوها من دون الله؛ كي تشفع لهم عند الله، أو تدفع عنهم شيئاً من العذاب، كما كانوا يزعمون وهم في الدنيا:

٧٣، ٧٤- ﴿ثُمَّ قِيلَ لَهُمْ أَنْتَ مَا كُنْتُمْ تُشْرِكُونَ﴾ (٧٣) مِنْ دُونِ اللَّهِ قَالُوا ضَلُّوا عَنَّا بَلْ لَمْ نَكُنْ نَدْعُوا مِنْ قَبْلُ شَيْئًا كَذَلِكَ يَضِلُّ اللَّهُ الْكَافِرِينَ ﴿٧٤﴾

أي: يقال للمشركين يوم القيامة -تبكيئاً وتأنيباً لهم، وهم في أتعس الحالات: أين الآلهة التي كنتم تعبدونها من دون الله فقد كنتم تزعمون أنها تنصركم، وأنها تشفع لكم، فادعوهم لينقذوكم من هذا البلاء الذي أنتم فيه إن كانوا يستطيعون.

فيجيبون جواب المخدوع الذي ظهرت له الحقيقة ﴿قَالُوا ضَلُّوا عَنَّا﴾ أي غابوا عن عيوننا فلم نرهم، ولم نعد نعرف لهم طريقاً، فلم ينفعونا بشيء.

ثم يعترفون بأنهم كانوا في أوهام باطلة، وجهالة من أمرهم، فيقولون: ﴿بَلْ لَمْ نَكُنْ نَدْعُوا مِنْ قَبْلُ شَيْئًا﴾ ليس هذا إنكاراً منهم أنهم كانوا يعبدون أصناماً، وإنما هو اعتراف بأن عبادتهم إياها كانت باطلة، وأنهم كانوا على ضلال حين عبدوا ما لا يسمع ولا يبصر، ولا ينفع ولا يضر، فعبادتهم كانت باطلة، لا تساوي شيئاً، وهو عذر غير مقبول، وندم فات أوانه.

والآية تحتل أن يكون المراد بقولهم ﴿بَلْ لَمْ نَكُنْ نَدْعُوا مِنْ قَبْلُ شَيْئًا﴾ إنكار منهم بعبادة الأوثان، ظناً منهم أن هذا الإنكار ينفعهم ويفيدهم.

(١) ابن أبي شيبة (٢/٤٧٧).

(٢) عذ الكوفي والشامي (كنتم تشركون) آية، ولم يعدها غيرهما.

ومثل إضلال هؤلاء المكذبين المشركين يضل الله الكافرين ﴿كَذَلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ الْكَافِرِينَ﴾ حيث عبدوا أصنامًا أوصلتهم إلى هذه النار، قال تعالى: ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ مَنْ لَا يَسْتَجِيبُ لَهُ إِلَى يَوْمِ الْقِيَمَةِ وَهُمْ عَنِ دُعَائِهِمْ غَفِلُونَ ﴿٥﴾ وَإِذَا حُشِرَ النَّاسُ كَانُوا لَهُمْ أَعْدَاءً وَكَانُوا بِعِبَادَتِهِمْ كَافِرِينَ ﴿٦﴾﴾ [الأحقاف] وقال سبحانه: ﴿إِنْ تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا دُعَاءَكُمْ وَلَوْ سَمِعُوا مَا اسْتَجَابُوا لَكُمْ وَيَوْمَ الْقِيَمَةِ يَكْفُرُونَ بَشِرِكِكُمْ﴾ [فاطر: ١٤]

السَّبَبُ فِي عَذَابِ الْمُشْرِكِينَ

ثم بيّن سبحانه سبب العذاب الذي نزل بهم، فقال:

٧٥- ﴿ذَلِكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَفْرَحُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَبِمَا كُنْتُمْ تَمْرَحُونَ ﴿٧٥﴾﴾

أي: ذلكم العذاب الذي أنتم فيه، بسبب فرحكم وبطركم في الأرض بالباطل، وبسبب مرحكم وغروركم فيها، فكنتم تفرحون بالمعاصي وتُسرون بمخالفة الرسل.

والمراد بالفرح: السرور بالباطل، والفرح بالمعصية أثناء ارتكابها، وانشراح الصدر بها، ومن آثار الفرح بالباطل، التناول على الرسول ﷺ.

ومن المرح بالباطل الاستهزاء بالإسلام، أو برسول الإسلام، أو الاستهزاء بالقرآن، أو بشيء من أحكامه، والسخرية بعباد الله الصالحين، وأكل لحوم العلماء، قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ أَجْرَمُوا كَانُوا مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا يَضْحَكُونَ ﴿٦٩﴾ وَإِذَا مَرُّوا بِهِمْ يَتَغَامَزُونَ ﴿٧٠﴾ وَإِذَا انْقَلَبُوا إِلَىٰ أَهْلِهِمْ انْقَلَبُوا فَكِهِينَ ﴿٧١﴾﴾ [المطففين].

ومن الفرح المذموم، فرح البطر بالغنى والجاه، كما قيل لقارون: ﴿لَا تَفْرَحْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ﴾ [القصص: ٧٦].

ومن الفرح المذموم التمرد على رسل الله تعالى بما أوتي الإنسان من العلم والفهم، فيحكّم عقله وعلمه فيما جاءت به رسل الله، قال تعالى: ﴿فَلَمَّا جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَرِحُوا بِمَا عِنْدَهُمْ مِنَ الْعِلْمِ وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾ [غافر].

فليس كل فرح منهياً عنه، وقد امتنَّ الله على المؤمنين بالفرح في قوله تعالى:

﴿وَيَوْمَئِذٍ يَقَرُّ الْمُؤْمِنُونَ ﴿٤١﴾ بِنَصْرِ اللَّهِ﴾ [الروم].

وقوله: ﴿قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ﴾ [يونس]

والفرح المذموم، هو الفرح الذي يؤدي إلى الغفلة، والتوسع في اقتراف الذنوب والآثام، وإنفاق المال في المحرمات، والتطاول على خلق الله. ويوم القيامة يقال لهذا الصنف من الناس:

٧٦- ﴿ادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا فِئَسَ مَوَى الْمُتَكِبِينَ﴾

أي: أن الملائكة تقول لأهل النار: هذه هي أبواب جهنم فادخلوها، عقوبة لكم على كفركم بالله ومعصيتكم له ﴿خَالِدِينَ فِيهَا﴾ خلوداً أبدياً وبثت جهنم دار إقامة ومنزلاً لمن تكبر في الدنيا على طاعة الله ورسوله.

الْأَمْرُ الثَّانِي لِلنَّبِيِّ ﷺ بِالصَّبْرِ فِي هَذِهِ السُّورَةِ

٧٧- ﴿فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَكَأَمَّا تُرِيدُكَ بَعْضَ الَّذِي نَعُدُّهُمْ أَوْ تَوَفِّيكَ فَإِنَّا يُرْجَعُونَ﴾ (١)

أمر الله رسوله بالصبر على أذى قومه وتكذيبهم له مرتين في السورة.

الأولى: بعد أن وعده الله بالنصر على المعارضين لدعوته في الحياة الدنيا ويوم يقوم الأشهاد، وذلك في قوله تعالى: ﴿فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَأَسْتَغْفِرُ لِدُنْيِكَ﴾ [غافر: ٥٥] وكان ذلك بعد أن تم الكلام على ما عاقب الله به المكذبين في الدنيا من العذاب، وبعد ذكر ما يلقونه في الآخرة من الأغلال والسلاسل والحميم والتسجير في النار.

فلما تم ما وعد الله به رسوله ﷺ من عذابهم في الدنيا والآخرة، أمره بالصبر مرة أخرى في هذه الآية، فقال: ﴿فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ﴾ أي: اصبر يا محمد على تكذيب قومك، وامض في طريق الدعوة، فإن وعد الله بنصرك عليهم وإظهار دينك أمرٌ كائن لا محالة، وسيُنجز الله لك ما وعدك به في حياتك أو بعد موتك، وهذا معنى ﴿فَكَأَمَّا تُرِيدُكَ بَعْضَ الَّذِي نَعُدُّهُمْ﴾ به من العذاب في الحياة الدنيا فتقرّ به عينك، وقد تحقّق وعد الله تعالى لنبيه ﷺ بنصره على أعدائه في غزواته، هذا هو الشق الأول من الوعد، أما الشق الآخر

(١) قرأ يعقوب بالبناء للمعلوم في (يرجعون)، والباقون بالبناء للمجهول.

فقد جاء في قوله تعالى:

﴿أَوْ تَوَفِّيْنَاكَ﴾ أي قبل أن يحل بهم العذاب في حياتك ويذوقوه بعد مماتك، كما حدث في موقعة اليمامة وغيرها.

وجواب الشرط محذوف تقديره: فذلك هو المطلوب.

وهذا كله بخلاف عذاب الآخرة، حيث يرجعون إلينا فنجازيهم على أعمالهم، وهذا معنى: ﴿فَالْيَنَّا يُرْجَعُونَ﴾ فننتقم منهم أشد الانتقام، فالعذاب سينزل بهم على أي حال، إن عاجلاً أو آجلاً، ومهمتك هي البلاغ، والنتائج على الله، وهذا كقوله تعالى في سورة الرعد: ﴿وَإِنَّمَا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الَّذِي نَعْدُهُمْ أَوْ تُتَوَفَّىٰ نَكَ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ وَعَلَيْنَا الْحِسَابُ﴾ [الرعد].

فهم غير مفلتين من العذاب على أي حال، سواء رأيته أم لا.

﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ غَفِيلاً عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ﴾ [إبراهيم: ٤٢]

مَوْكِبُ الرِّسَالَاتِ

٧٨- ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِّن قَبْلِكَ مِنْهُمْ مَّن قَصَصْنَا عَلَيْكَ وَمِنْهُمْ مَّن لَّمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَنْ يَأْتِيَ بِآيَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ فَإِذَا جَاءَ أَمْرُ اللَّهِ فُضِيَ بِالْحَقِّ وَخَسِرَ هُنَالِكَ الْمُبْطِلُونَ﴾

ومن صور جدال المكذبين بالقرآن، عدم اقتناعهم بأنه معجزة، فكانوا يقترحون أن يأتي النبي ﷺ بمعجزة أخرى تصدقه، وقضدهم بهذا إفحام النبي ﷺ، ومنهم من يستبعد أن يكون الرسول بشراً، وقبل الإجابة على ذلك، بيّن سبحانه أنه أرسل رسلاً كثيرين قبل محمد ﷺ منهم من عرفنا، ومنهم من لم نعرف، وليس بمقدور رسول منهم أن يأتي بمعجزة إلا بإذن الله، فالآيات يأتي بها الله، ولو علم الله أنهم سيؤمنون إذا جاءتهم الآيات المطلوبة لأيد رسوله بها.

قال سبحانه: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِّن قَبْلِكَ﴾ يا محمد، رسلاً كثيرين، أرسلناهم إلى أقوامهم يدعونهم إلى الله تعالى، ويصبرون على أذاهم، وكلهم مأمورون بتبليغ وحي الله إليهم، وقد أيدناهم بالمعجزات البينات، فجادلهم أقوامهم وكذبوهم، فتأس بهم -أيها الرسول- في الصبر على أذى قومك، فَإِنَّ ﴿مِنْهُمْ مَّن قَصَصْنَا عَلَيْكَ﴾ وهم الذين قص الله

علينا أخبارهم في القرآن، وهم خمسة وعشرون نبيًا ورسولًا، هم:

نوح، وإبراهيم، ولوط، وإسماعيل، وإسحاق، ويعقوب، ويوسف، وهود، وصالح، وشعيب، وموسى، وهارون، وعيسى، ويونس، وداود، وسليمان، وأيوب، وزكريا، ويحيى، وإلياس، واليسع، وإدريس، وآدم، وذو الكفل، ومحمد صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين.

وقد ذكرت سورة (الأنعام) منهم ثمانية عشر رسولًا في قوله تعالى: ﴿وَتِلْكَ حُجَّتُنَا آتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَى قَوْمِهِ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَن نَّشَاءُ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ۝٨٣﴾ وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ كُلًّا هَدَيْنَا وَنُوحًا هَدَيْنَا مِن قَبْلُ وَمِن ذُرِّيَّتِهِ دَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَى وَهَارُونَ وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ۝٨٤ وَزَكَرِيَّا وَيَحْيَى وَعِيسَى وَإِلْيَاسَ كُلٌّ مِّنَ الصَّالِحِينَ ۝٨٥ وَإِسْمَاعِيلَ وَالْيَسَعَ وَيُوشَعَ وَحُوطًا وَكَافًّا فَفَضَّلْنَا عَلَى آلِ عَالَمِينَ ۝٨٦﴾ [الأنعام].

وجاء خمسة آخرون في قوله تعالى: ﴿إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَى نُوحٍ وَاللِّثْنِ مِنْ بَنِي إِدْرِيسَ وَأَوْحَيْنَا إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَعِيسَى وَأَيُّوبَ وَيُوشَعَ وَهَارُونَ وَسُلَيْمَانَ وَآدَمَ دَاوُدَ زَبُورًا ۝١١٣﴾ [النساء].

ويبقى آدم ومحمد عليهما السلام، وقد جمعها القائل في قوله:

في تلك حجتنا منهم ثمانية من بعد عشر ويبقى سبعة وهم إدريس هود شعيب صالح وكذا . ذو الكفل آدم باختار قد ختموا

وما عدا هؤلاء الذين ذكروا في القرآن الكريم نؤمن بهم إجمالاً لقوله تعالى: ﴿وَمِنْهُمْ مَّن لَّمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ﴾.

عن أنس بن مالك ؓ: أن الله تعالى بعث ثمانية آلاف رسول^(١).

وعن سلمان ؓ: أن الله تعالى بعث أربعة آلاف نبي^(٢).

وعن علي بن أبي طالب ؓ قال: بعث الله عبدًا حبشيًا نبيًا، فهو ممن لم يقصص على محمد ﷺ^(٣).

(١)، (٢) «تفسير ابن عطية» (٤/ ٥٧٠).

(٣) الطبراني في الأوسط (٩٣١٩) وابن مردويه كما في «تخريج الكشاف» (٣/ ٢٢٢).

وقيل: إن عدد الرسل نحو ثلاث مئة رسول.

قال تعالى: ﴿وَرُسُلًا قَدْ قَصَصْنَاهُمْ عَلَيْكَ مِنْ قَبْلُ وَرُسُلًا لَمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَى تَكْلِيمًا﴾ [النساء: ١٦٤].

وقد جاءت آثار صحيحة بذكر بعضهم، كما في هذه الأحاديث:

١- «أن الله تعالى بعث نبياً اسمه عبود، عبد أسود».

٢- وبعث «حنظلة بن صفوان نبي أهل الرس».

٣- وبعث «خالد بن سنان من بني عبس».

٤- و«إن نبياً لسعته نملة، فأحرق قريتها، فعوتب في ذلك» ولم يُعرف اسم هذا النبي^(١).

وبعد هذه المقدمة في الآية، يأتي جواب الله تعالى على المكذبين الذين يطلبون خوارق العادات، غير مقتنعين بالقرآن، فيقول سبحانه: ﴿وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَنْ يَأْتِيَ بِآيَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ أي: وما كان ينبغي لأحد من رسل الله جميعاً أن يأتي بآية من الآيات الحسية أو العقلية إلا بإذن الله ومشئته، فاقترح الخوارق على الرسل، ظلم وتعنت وتكذيب، بعد أن أيدهم الله بالآيات الدالة على صدقهم وصحة ما جاؤوا به.

والآية التي يطلبوها هي المعجزة، كناية صالح، أو عصا موسى، وهذا رد على المشركين في قولهم للنبي ﷺ: اجعل لنا الصفا ذهباً، كما قال تعالى: ﴿وَقَالُوا لَنْ تُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الْأَرْضِ يَنْبُوعًا﴾ [٩٠] أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِّنْ نَّحِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجَّرَ الْأَنْهَارُ خِلَالَهَا تَفْجِيرًا﴾ [٩١] أَوْ تُسْقَطَ السَّمَاءُ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا أَوْ تَأْتِيَ بِاللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ قَبِيلًا﴾ [٩٢] أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِّنْ زُخْرٍ أَوْ تَرْقَى فِي السَّمَاءِ وَلَنْ نُؤْمِنَ لِرُفَيْكَ حَتَّى تُنْزِلَ عَلَيْنَا كِتَابًا نَّقْرُؤُهُ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّيَ هَلْ كُنْتُ إِلَّا بَشَرًا رَسُولًا﴾ [٩٣] [الإسراء].

قال تعالى في الرد عليهم: ﴿وَمَا مَنَعَنَا أَنْ نُرْسِلَ بِالْآيَاتِ إِلَّا أَنْ كَذَّبَ بِهَا الْأَوَّلُونَ﴾ [الإسراء: ٥٩].

(١) يُنظَر: «تفسير التحرير والتنوير» (٢٤/٢١٠).

ثم قال تعالى: ﴿فَإِذَا جَاءَ أَمْرُ اللَّهِ﴾ أي: فإذا جاء الوقت الذي حدده الله للفصل والقضاء بين خلقه، حيث يقضي فيه بهلاك المكذبين وعقابهم ﴿فُضِيَ بِالْحَقِّ﴾ والعدل بين الرسل والمكذبين، ويتبين الصدق من الكذب، وحينئذ يخسر أهل الباطل والكذب، كما قال تعالى: ﴿وَخَسِرَ هُنَالِكَ الْمُبْطِلُونَ﴾ أي: هلك في ذلك الوقت المفترون على الله الكذب، الذين يعبدون غيره، ويجادلون في آياته، ويقترحون المعجزات على الرسل من باب التعنت، وهذا كقوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُحْسِرُ الْمُبْطِلُونَ﴾ [الجاثية: ٢٧].

فعليك بالصبر يا محمد تأسيًا بالأنبياء قبلك، وليحذر - المخاصبون - أن يستمروا على باطلهم، فيخسروا كما خسر أسلافهم.

الإِسْلَامُ يَدْعُو إِلَى النَّظَرِ وَالتَّأَمُّلِ فِي الْكَوْنِ (الْأَنْعَامُ وَالسُّفُنُ)

٧٩- ﴿اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَنْعَامَ لِتَرْكَبُوا مِنْهَا وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ﴾

وجّه الله - سبحانه - في هذه الآية من يطلبون خوارق العادات من الرسول الخاتم ﷺ أن ينظروا إلى آيات الله الحاضرة بين أيديهم، وهي شاهدة وناطقة بوحداية الله تعالى، ولكنهم لطول عهدهم بها، وألفهم لها لا يفكرون فيها ولا يتدبرون، وخالف هذه الآيات هو منزل الوحي على رسوله ﷺ، وفيها ما يدعو إلى لفت النظر إليها.

ومن أجل هذه الآيات أو النعم، الأنعام والسفن:

وخلق الأنعام - وهي الأزواج الثمانية من الإبل والبقر والغنم - كخلق الإنسان، فتركيبها وتصويرها، وبث الروح فيها وتذليلها، وتسخيرها للإنسان - كل ذلك - من صنع الله تعالى، ولم يدع أحد من خلق الله أن له يدًا في خلقها أو تذليلها.

والله تعالى يمنُّ على عباده بما سخَّره لهم من نعمة الأنعام، سيِّمًا الإبل منها، ففيها منافع جمّة بين تعالى منها: الركوب عليها، وحمل الأمتعة عليها، وأكل لحومها وألبانها، والتنقل عليها في الأسفار، ومنافع أخرى كثيرة.

فالإبل تُركب وتؤكل وتُحلب ويُحمل عليها الأثقال في الأسفار، ويستفاد بأوبارها.

والبقر تؤكل، ويُشرب لبنها، وتحرث الأرض.

والغنم تؤكل ويُشرب لبنها، ويُنتفع بصوفها وشعرها.

والجميع تُجَزُّ أوبارها وأصوافها وأشعارها، فيتخذ منه الأثاث والثياب والأمتعة، ويُنتفع بجلودها في الصناعات والجلوس عليها، ويُنتفع بها في جمال المرأى في المرح والمراح.

كما قال تعالى: ﴿وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ الْفُلْكِ وَالْأَنْعَامِ مَا تَرْكَبُونَ﴾ [الزخرف: ١٢].

وقال سبحانه: ﴿وَعَلَيْهَا وَعَلَى الْفُلْكِ تُحْمَلُونَ﴾ (٢٢) [المؤمنون].

وقال عن الإبل: ﴿وَتَحْمِلُ أُنْقَالَكُمْ إِلَىٰ بَلَدٍ لَّمْ تَكُونُوا بَلَغِيهِ إِلَّا إِشْقَ الْآنْفُسِ﴾ [النحل: ٧].

وقال تعالى: ﴿وَذَلَّلْنَاهَا لَكُم مِّنْ رَّكُوبِهِمْ وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ﴾ (٧٦) وَلَهُمْ فِيهَا مَنَافِعُ وَمَشَارِبٌ أَفَلَا يَشْكُرُونَ﴾ (٧٦) [يس]. وقد أشار تعالى إلى هذه المنافع في قوله:

٨٠- ﴿وَلَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ وَلِتَبْلُغُوا عَلَيْهَا حَاجَةً فِي صُدُورِكُمْ وَعَلَى الْفُلْكِ تُحْمَلُونَ﴾

أي: ولكم - أيها الناس - في الأنعام منافع أخرى غير الأكل منها والركوب عليها، وهي منافع عديدة في: الوبر، والصوف، والشعر، واللبن، والزبد، والسمن، والروث، وغير ذلك، وقد ذكرت هذه المنافع مجملة، ثم خص بالذكر منفعتها في التنقل عليها، فقال تعالى: ﴿وَلِتَبْلُغُوا عَلَيْهَا حَاجَةً فِي صُدُورِكُمْ﴾ بحمل الأثقال في الأسفار البعيدة وغيرها.

وكما أن الإبل يُحمل عليها الناس والأثقال. في البر، في أسفار البدو وتنقلاتهم، فإن السفن تُحمل الناس وأمتعتهم وسائر حوائجهم في البحر، وهذه نعمة ومنة من الله تعالى امتنَّ بها على عباده، فقال: ﴿وَعَلَيْهَا وَعَلَى الْفُلْكِ تُحْمَلُونَ﴾ (٧٦) وامتنان الله تعالى بالفلُك على خلقه، بما رَكَّب في الإنسان من العقل والذكاء الذي وصَّله إلى مثل هذه المخترعات، كما قال تعالى: ﴿وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنْفَعُ النَّاسَ﴾ [البقرة: ١٦٤].

ويقال عن البعير: سفينة البر، ولا زال يستعمله شريحة كبيرة من الناس في البوادي ونحوها، ثم وَبَّخ سبحانه من لا يتفكرون بآيات الله الماثلة في الكون الدالة على وحدانيته تعالى، فقال:

٨١- ﴿وَيُرِيكُمْ ءَايَاتِهِ فَأَيَّ ءَايَاتِ اللَّهِ تُنْكِرُونَ﴾ (٨١)

أي: ويريكُم الله تعالى دلائل قدرته ووجدانيته، وأسمائه وصفاته، كما يريكُم آياته في الكون والنفس والآفاق، وفي سائر نعم الله الكثيرة، كي يعرفوا الله تعالى في وحدوه

ويذكروه ويعبدوه ويشكروه، والأنعام والسفن بعض آيات الله المشاهدة في الكون، للدلالة على عجب خلقه وكمال قدرته، وليس في وسع أحد أن ينكرها ﴿وُيْرِيكُمْ ءَايَاتِهِ﴾ الكثيرة الواضحة الدالة على قدرته وتدبيره في خلقه، ووجوب توحيده، وتصديق رسله وآياته، ولا عذر لأحد في عدم الاستفادة من هذه الآيات، وكلها تنطق وتُصرِّح بوجوب إخلاص العبادة لله تعالى، فأية آية من آيات الله الساطعة تنكرونها ولا تعترفون بها مع وضوحها؟! وقد تقرر عندكم أن جميع النعم من الله تعالى، فلم يبق للإنكار موضع ولا مجال، وأنتم تقرون أن خالق الكون ورازقه ومدبر أمره هو الله تعالى، وفي هذا توبيخ للمجادلين في آيات الله المكذبين بها.

السِّيَاحَةُ النَّافِعَةُ

٨٢- ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَانُوا أَكْثَرُ مِنْهُمْ وَأَشَدَّ قُوَّةً وَأَثَارًا فِي الْأَرْضِ فَمَا أَغْنَى عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿٨٢﴾﴾

ومن عوامل تحصيل الآيات الدالة على وجود الله تعالى ووحانيته، السير في الأرض، وبالسير في الأرض، يتم التعرف على مصارع المكذِّبين لأدلة التوحيد، والمكذِّبين لرسَل الله - سبحانه -، فيعتبرون بهم، ويتعظون بما حدث لهم من سوء العاقبة ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ﴾ أي: أجلس هؤلاء المكذبون في بيوتهم، فلم يسيروا في أقطار الأرض ليرَوْا بأعينهم مصارع الأمم المكذبة قبلهم؟ كيف كانت نهايتهم، فيعتبرون بما حدث لهم، حتى لا يصيبهم ما أصاب أمثالهم؟! وهذه الأمم السابقة كانوا أكثر منهم عددًا وعُدَّة، وكانوا أشد منهم قوة وآثارهم في الأرض باقية، من الأبنية، والمصانع، والغراس، وغير ذلك، ولكن هذا العدد، وهذه القوة، وهذه الأبنية، والأموال لم تنفعهم عندما حلَّ بهم العذاب، فلم تُغن عنهم قوتهم البدنية، ولا حضارتهم العمرانية، ولا كثرة أموالهم، ولم تدفع عنهم شيئًا من بأس الله، بل أخذهم الله أخذ عزيز مقتدر.

والآية تحث على السير في الأرض بالأبدان والعقول والقلوب، والنظر والتفكر في ملكوت الله، والاعتبار بما حدث لأمثال قوم عاد وثمود ممن كانوا أعظم منهم قوة وأكثر آثارًا في الأرض، وأن هذه القوة وهذه الشدة، لم تُغن عنهم من الله شيئًا حين نزل بهم عقاب الله، ولم تدفع عنهم شيئًا من عذابه.

الْعِلْمُ الْمُنَاقِضُ لِلْإِيمَانِ وَبَالٌ عَلَى صَاحِبِهِ

٨٣- ﴿فَلَمَّا جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَرِحُوا بِمَا عِنْدَهُمْ مِنَ الْعِلْمِ وَحَافَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾

أي: وظل المكذبون الجاحدون على حالهم من التكذيب، حتى جاءتهم رسل الله بالآيات البينات، والدلائل الواضحات فلم يصدقوهم، وفرحوا جهلاً منهم بما عندهم من العلم المناقض لما جاءت به الرسل، فحلَّ بهم بأس الله.

﴿فَلَمَّا جَاءَتْهُمْ﴾ أي: جاءت الأمم المكذبة ﴿رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ﴾ الدالة على وحدانية الله تعالى، وصدق الرسل، والإيمان بالبعث، ومن ذلك: الكتب الإلهية، والمعجزات الحسية، والعلم المبيِّن للهدى من الضلال، والحق من الباطل، عندئذ جادلوا رسل الله، وأعرضوا عن النظر في الأدلة، مكابرة وعنادًا و﴿فَرِحُوا﴾ أي: فرح المكذبون بآيات الله ﴿بِمَا عِنْدَهُمْ مِنَ الْعِلْمِ﴾ أي: من المعتقدات الموروثة عن أهل الضلال من أسلافهم، حيث قالوا لرسولهم: نحن أعلم منكم، لن نُبعث ولن نُعذب.

أو فرحوا بما عندهم من العلوم الدنيوية واغترروا بها، فنزل بهم عذاب الله الذي كانوا يسخرون منه، ويستهزئون به حين يتوعدهم به رسل الله، فيستعجلون وقوعه على وجه الاستبعاد، وذلك لأن العلم بغير إيمان فتنة تُعمي صاحبها، وتوحي له بالغرور، فيظن أنه يملك قوى وقدرات عظيمة، فيتجاوز حدود نفسه، ويتنفخ، فيأخذ أكثر من حقيقته، وينسى ما يجهره من علوم ومعارف، ولم يميز بين ما يقدر عليه وما يعجز عنه، ولو أدرك هذا لتطامن كبره، وخَفَّ فرحه بعلمه.

وفي الآية دليل على أن كل علم يناقض الإسلام، أو يقدح فيه، أو يُشكك في صحته، فإنه علم ظاهري مذموم ممقوت، ومعتقد له ليس من أتباع محمد ﷺ، قال تعالى: ﴿يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِّنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ الْآخِرَةِ هُمْ غَافِلُونَ﴾ [الرؤم].

والعلم الظاهري هو العلم الدنيوي، الخالي من الإيمان، ومن نور الوحي والهداية، والفرح بهذا العلم يدل على شدة الرضا والتمسك به، ومعاداة الحق الذي جاءت به الرسل، وهكذا، كل علم يُردّ به القرآن أو يشكك فيه، أو يجعل أدلته اليقينية، ظنية لا

تفيد شيئاً، أو يشكك في سنة النبي ﷺ، أو يطرحها جانباً نظراً لوجود أحاديث ضعيفة فيها، أو منكرة أو موضوعة، وهو يجهل علم الجرح والتعديل، والدقة البالغة التي حظيت بها أحاديث النبي ﷺ حتى تميز الصحيح من الحسن والضعيف وما إلى ذلك والحمد لله رب العالمين.

الإِيمَانُ عِنْدَ رُؤْيَا الْعَذَابِ لَا يُفِيدُ صَاحِبَهُ

٨٤- ﴿فَلَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا قَالُوا ءَامَنَّا بِاللَّهِ وَحَدُّهُ وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِ مُشْرِكِينَ﴾ (٨٤)

أي: أن هؤلاء المكذبين لرسول الله، الجاحدين لآياته، حين عاينوا العذاب النازل بهم آمنوا واعترفوا بخطئهم حين لا ينفع الإيمان ﴿فَلَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا﴾ أي: لما شاهدوا بأعينهم شدة العذاب وأهواله ﴿قَالُوا ءَامَنَّا بِاللَّهِ وَحَدُّهُ وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِ مُشْرِكِينَ﴾ في الدنيا من عبادة غير الله، وتبرأنا من كل ما خالف الرسل من علم أو عمل. قال تعالى:

٨٥- ﴿فَلَمْ يَكْ يَنْفَعُهُمْ إِيْمَانُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بَأْسًا سُنَّتْ^(١) اللَّهُ أَلَّتِي قَدْ خَلَتْ فِي عِبَادِهِ وَخَسِرَ هُنَالِكَ الْكَافِرُونَ﴾ (٨٥)

أي أن إيمان المضطر لا يقبل، ولا يفيد صاحبه شيئاً بعد رؤية بوارق العذاب، وهو مثل الإيمان عند الغرغرة، وعند طلوع الشمس من مغربها؛ لأن الذي ينفع هو الإيمان الاختياري، وليس الإيمان الاضطراري، فالإيمان لا ينفع صاحبه عند مشاهدة العذاب، ولا عند قيام الساعة ﴿فَلَمْ يَكْ يَنْفَعُهُمْ إِيْمَانُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بَأْسًا﴾ لأن عذاب الاستئصال مشاركة للهلاك والخروج من الدنيا، وإيمان المضطر لا يصحبه اختيار ورغبة، ولا يتحقق المقصود منه.

وهذا تقدير قدره الله - سبحانه - وسنة سنّها في الأمم القديمة، وهي: أن الكافر لا ينفعه إيمانه، إلا قبل ظهور العذاب النازل به، ولم يُسْتَشَنَّ من ذلك إلا قوم يونس عليه السلام، فقد نفعهم إيمانهم بعد معاينة العذاب، كما قال تعالى: ﴿فَلَوْلَا كَانَتْ فَرْيَةً ءَامَنْتَ فَفَعَلَهَا إِيْمَنُهَا إِلَّا قَوْمٌ

(١) وقف بالهاء على (سنت) ابن كثير وأبو عمرو والكسائي، على الأصل في هاء التأنيث، ووقف بالقون بالتاء موافقة لرسم المصحف، وأمالها الكسائي وقفاً.

يُؤْسَ لَمَّا ءَامَنُوا كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَىٰ حِينٍ ﴿٩٨﴾ [يونس].

وهذه سُنَّةُ الله وطريقته التي سنّها في الأمم كلها، حيث يهلك الله الكافرين عند نزول العذاب بهم، ولا ينفعهم الإيمان عند معاينته، أو وجود قرائن تدل عليه، وهذا معنى قوله تعالى: ﴿سُئِلَ اللَّهُ أَلَمْ يَخْلَقْ فِي عِبَادِهِ وَخَسِرَ هُنَالِكَ الْكَافِرُونَ﴾ أي: هلك الكافر يوم القيامة، وخسر بذلك دنياه وأخراه.

وهكذا كان حال فرعون لم ينفعه إيمانه عند مشارفته للهلاك، كما قال تعالى: ﴿فَالْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلَقَكَ آيَةً﴾ [يونس: ٩٢].

فهي توبة فزع، لا توبة إيمان، وسُنَّةُ الله في خلقه ثابتة، لا تتغير ولا تختلف.

تم تفسير (سورة غافر) والله الحمد والمنة.



الآية	فهرس الموضوعات	الصفحة
١	تفسير سورة سبأ (٣٤) - مقدمة السورة - قضاياها، ومقاطعها، وما فيها من قصص	٥
٢	تفسير السورة - الله سبحانه مالك هذا الكون ومدبر أمره	٩
٣-٥	علم الله تعالى بما خفي وما ظهر	١٠
٦	الرؤد على منكبي البعث	١٢
٧-٩	المصدفون بالبعث هم العلماء العالمون	١٥
١٠، ١١	القرآن يحكي مقالة منكبي البعث ويتوعددهم بالعذاب الدنيوي	١٧
١٢، ١٣	من فضل الله تعالى على نبيه داود عليه السلام - آثار في الشكر	٢٠
١٤	من فضل الله تعالى على نبيه سليمان عليه السلام	٢٢
١٥	مشهد وفاة سليمان عليه السلام	٢٨
١٦-١٨	قصة أهل سبأ وما فيها من عبر - أصول القبائل العربية	٣٠
١٩	أهل سبأ كانوا قبل سبل العرم في أمن ورحاء	٣٣
٢٠، ٢١	عقوبة من بدل نعمة الله كفراً	٣٦
٢٢	سلطان الشيطان على ضعفاء الإيمان	٣٩
٢٣	خمس من خصائص الإله الحق - الخاصية الأولى: تفرّد الله تعالى بالملك والملكوت	٤١
٢٤-٢٧	الخاصية الثانية: نفي الشركاء - الخاصية الثالثة: نفي المعينين المؤازرين -	٤٢
٢٨-٣٠	الخاصية الرابعة: نفي الشفاعة إلا بإذنه تعالى - الشفاعة العظمى	٤٣
٣١	الخاصية الخامسة: الرزق بيد الله وحده - في أدب الحوار	٤٧
٣٢-٣٣	الرسالة العالمية	٥١
٣٤-٣٥	منطق أهل الإلحاد والعلمانية	٥٣
٣٦	الحوار بين الرؤساء والأتباع في عرصات القيامة	٥٥
٣٧-٣٨	المترفون في كل أمة يرفضون الوحي المنزل	٥٨
٣٩	يسقط الرزق وقبضه للناس كافة، ابتلاء واستدراج	٦١
٤٠-٤٢	القرب من الله تعالى يكون بالإيمان والعمل الصالح وليس بالمال والولد	٦٢
٤٣-٤٥	يسقط الرزق للمؤمن يتطلب الإنفاق منه	٦٣
٤٦	استجواب الملائكة في ساحة الحشر	٦٥
٤٧-٤٩	المكذبون بالإسلام لا يستندون إلى دليل جملته وتفصيلاً	٦٨
٥٠	خمس حقائق تسيّف شبهات أهل الباطل - الحقيقة الأولى: نفي تهمة الجنون عن النبي ﷺ	٧١
٥١	الحقيقة الثانية: النبي ﷺ لا يطلب أجراً على تبليغ الدعوة	٧٤
٥٢-٥٣	الحقيقة الثالثة: الوحي يذخّر باطل المكذبين - الحقيقة الرابعة: ثبات الحق وذهاب الباطل	٧٥
٥٣-٥٤	الحقيقة الخامسة: مسؤولية الداعي عن دعوته	٧٦
٥٤-٥٥	حال المجرمين عندما يروى العذاب المعد لهم في الآخرة	٧٧
٥٥-٥٦	العودة إلى الدنيا أمر محال	٧٩

الآية	فهرس المـ و و عات	الصفحة
٨٢	النَّبِيَّةُ الْحَمِيَّةُ لِلْبَرَاهِينِ السَّابِقَةِ: أَنَّ أَمْرَ اللَّهِ تَعَالَى كَانَتْ لَامِحَالَةً	٢٤٠
٨٣	سُبْحَانَ الْمُبْدِئِ الْمُعِيدِ صَاحِبِ الْمُلْكِ وَالْمَلَكُوتِ وَمَنْ إِلَيْهِ الْمَرْجِعُ وَالْمَصِيرُ -	٢٤١
٤-١	تَفْسِيرُ سُورَةِ الصَّافَّاتِ (٣٧) - مُقَدِّمَةُ السُّورَةِ - مَقَاطِعُهَا ثَلَاثَ	٢٤٣
٥	تَفْسِيرُ السُّورَةِ - ثَلَاثَةُ أَيْمَانٍ عَظِيمَةٍ عَلَى وَحْدَانِيَّةِ الْخَالِقِ سُبْحَانَهُ	٢٤٦
٦	مِنْ بَرَاهِينِ التَّوْحِيدِ: خَلْقُ الْعَالَمِ الْعُلُويِّ وَالسُّفْلِيِّ	٢٤٩
٧	مِنْ خَصَائِصِ السَّمَاءِ الْأُولَى - الْخَاصِيَّةُ الْأُولَى: أَنَّهَا زُيِّنَتْ لِأَهْلِ الْأَرْضِ بِالنُّجُومِ	٢٥٠
١٠-٨	الْخَاصِيَّةُ الْآخَرَى: أَنَّهَا رُجُومٌ لِلشَّيَاطِينِ	٢٥١
٢١-١١	مَنْعُ الشَّيَاطِينِ مِنْ اسْتِرْقَاقِ السَّمْعِ	٢٥٢
٢٣، ٢٢	جَوْلَةٌ مَعَ الْبُعْثِ وَالْحِسَابِ	٢٥٥
٢٦-٢٤	خَشَرُ الظَّالِمِينَ مَعَ أَشْبَاهِهِمْ وَسَوْفُهُمْ إِلَى جَهَنَّمَ	٢٦٢
٣٢-٢٧	السُّؤَالُ فِي أَرْضِ الْمَخْشَرِ	٢٦٤
٣٤، ٣٣	تَلَاوُثُ أَهْلِ النَّارِ - حِوَارِ الْأَقْوِيَاءِ وَالضَّعْفَاءِ	٢٦٦
٣٧-٣٥	حُكْمُ اللَّهِ الْعَادِلُ فِي الْجَمِيعِ	٢٦٩
٣٩، ٣٨	سَبَبُ سُوءِ الْمَصِيرِ - تَضَدُّيقُ اللَّهِ تَعَالَى لِرَسُولِهِ ﷺ	٢٧٠
٤٢-٤٠	تَقْرِيرُ الْأَجْزَاءِ الْعَادِلِ لِلْمُكَذِّبِينَ بِخَاتَمِ الْمُرْسَلِينَ	٢٧١
٤٤، ٤٣	مَا أَعَدَّهُ اللَّهُ لِلْمُخْلِصِينَ الْمُؤَحِّدِينَ مِنَ النَّعِيمِ الْمُقِيمِ	٢٧٢
٤٧-٤٥	سِتَّةُ أَوْصَافٍ مِنْ نَعِيمِ أَهْلِ الْجَنَّةِ - الْوُضْفُ الْأَوَّلُ: وَصْفُ طَعَامِهِمْ	٢٧٣
٤٩، ٤٨	الْوُضْفُ الثَّانِي: مُسْتَقَرُّ الْمُؤَحِّدِينَ وَدَارُ إِقَامَتِهِمْ فِي الْآخِرَةِ - الْوُضْفُ الثَّالِثُ: صِفَةُ جُلُوسِهِمْ فِي الْجَنَّةِ ...	٢٧٤
٥٥-٥٠	الْوُضْفُ الرَّابِعُ: خَمْرُ الْجَنَّةِ وَصِفَاتُهَا الْأَرْبَعُ	٢٧٥
٥٩-٥٦	الْوُضْفُ الْخَامِسُ: الْخُورُ الْبَيْنُ وَصِفَاتُهَا الثَّلَاثُ	٢٧٧
٦١، ٦٠	الْوُضْفُ السَّادِسُ: تَجَادُّبُ أَطْرَافِ الْحَدِيثِ بَيْنَ أَهْلِ الْجَنَّةِ	٢٧٩
٦٦-٦٢	الْجَوَارُ بَيْنَ الْمُؤْمِنِ وَالْكَافِرِ فِي الْآخِرَةِ	٢٨٣
٦٧	التَّغْفِيبُ عَلَى الْقِصَّةِ وَبَيَانُ الْعِبَرَةِ الْمُسْتَفَادَةِ مِنْهَا	٢٨٤
٧٠-٦٨	الرِّزْقُ طَعَامُ أَهْلِ النَّارِ	٢٨٥
٧٤-٧١	شَرَابُ أَهْلِ النَّارِ	٢٨٩
٧٥	مُسْتَقَرُّ أَهْلِ النَّارِ وَدَارُ إِقَامَتِهِمْ - سَبَبُ عَذَابِ أَهْلِ النَّارِ	٢٩٠
٧٦	أَهْلُ الضَّلَالِ فِي كُلِّ أُمَّةٍ عَاقِبَتُهُمْ وَخِيَمَةٌ	٢٩١
٧٧	قَصَصُ الْمُرْسَلِينَ فِي السُّورَةِ سَنَعٌ	٢٩٢
٧٨	القِصَّةُ الْأُولَى: طَرَفٌ مِنْ قِصَّةِ نُوحٍ ﷺ	٢٩٣
	إِجَابَةُ نِدَاءِ نُوحٍ ﷺ اسْتَمَلَتْ عَلَى سَبْعِ نَعَمٍ - النِّعْمَةُ الْأُولَى: نَجَاةُ نُوحٍ وَأَهْلِهِ مِنَ الْغَرَقِ	٢٩٤
	النِّعْمَةُ الثَّانِيَّةُ: عِمَارَةُ الْأَرْضِ مِنْ ذُرِّيَّةِ نُوحٍ	٢٩٤
	النِّعْمَةُ الثَّالِثَةُ: أَنَّ اللَّهَ خَلَقَ لِنُوحٍ الذَّكَرَ الْحَسَنَ فِي الْعَالَمِينَ	٢٩٦

فَأَحْزَنَ النَّفْسَ

تأليف :

أَحْمَدُ بْنُ أَحْمَدَ مُحَمَّدَ عَبْدَ اللَّهِ الطَّوِيلَ

عُضْوُ الدَّجَنَةِ الْعِلْمِيَّةِ لِمُرَاجَعَةِ مُصْحَفِ الْمَدِينَةِ النَّبَوِيَّةِ
وَلَجَنَةِ الْإِشْرَافِ عَلَى التَّسْجِيلَاتِ الْقُرْآنِيَّةِ
بِمُجْمَعِ الْمَلِكِ فَهْدٍ لَطَبَاعَةِ الْمُصْحَفِ الشَّرِيفِ

قَدَّمَ لَهُ : مَعَالِي الدُّكْتُور / عَبْدُ اللَّهِ بْنُ عَبْدِ الْمُحْسِنِ الشُّرَيْكِي
وَالْأَسْتَاذَ الدُّكْتُور / صَالِحُ بْنُ غَانِمِ السَّدْلَانِ
وَنُحْبَةً مِنَ الْعُلَمَاءِ الْمُتَخَصِّصِينَ

المجلد الثاني عشر

من أول سورة فصلت إلى آخر سورة ق

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

تَفْسِيرُ سُورَةِ فَصَّلَتْ (٤١)

مُقَدِّمَةُ السُّورَةِ

سورة (فصلت) هي السورة الحادية والأربعون في ترتيب المصحف، والحادية والستون في ترتيب النزول، نزلت بعد سورة غافر وقبل سورة الزخرف. وعدد آياتها أربع وخمسون آية عند أهل الكوفة^(١).

وفيها سبع مئة وست وتسعون كلمة، وثلاثة آلاف وثلاث مئة وخمسون حرفاً، وهي سورة مكية باتفاق.

أسمائها: وسميت سورة (فصلت) لوقوع كلمة ﴿فُصِّلَتْ﴾ في أولها، وتسمى سورة حم السجدة، وبذلك ترجم لها البخاري والترمذي، ولها أسماء أخرى هي: السجدة؛ لأن فيها آية سجدة، وسجدة المؤمن، والمصابيح لقوله تعالى: ﴿وَزَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحٍ﴾ [١٢]، والأقوات لقوله تعالى: ﴿وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا﴾ [١٠]. فهذه ستة أسماء للسورة.

وموضوعاتها هي موضوعات السور المكية التي هي: الوحي والرسالة، والوحدانية، والبعث والجزاء، وهي تتجلى واضحة في آيات هذه السورة:

١- ففي جانب الوحي: تبتدئ السورة بالحديث عن القرآن، فتنبؤه بشأنه، وتشير إلى عجز معارضيه، وتذكر بهديه، وتبين أنه معصوم من تطرق الباطل إليه، وأنه مؤيد بما أنزل على الرسل من قبله.

وقد تلقاه المشركون بالإعراض وصم الآذان، فأبطل القرآن مطاعنهم، وذكرهم بأنه نزل بلغتهم، فلا عذر لهم في عدم الانتفاع بهديه، وأنذرهم بما حلّ بالأمم المكذبة لرسل الله، من عذاب الدنيا.

وقررت السورة أن الرسول بشر، خصّه الله بالنبوة، واختاره ليختم به الرسالات، فأنزل عليه الوحي بالحجج الواضحة، والبراهين الساطعة، والمعجزة الخالدة.

(١) واثنان وخمسون آية عند أهل البصرة والشام، وثلاث وخمسون آية عند أهل مكة والمدينة.

٢- وتحدثت السورة في مطلعها عن وحدانية الله تعالى: ﴿أَنَّمَا إِلَهُكُمُ اللَّهُ وَحْدَهُ﴾ [٦].

وفي وسطها: ﴿لَا تَسْجُدُوا لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ وَاسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَهُنَّ﴾ [٣٧].

وفي نهايتها: ﴿وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ أَيْنَ شُرَكَائِيَ قَالُوا ءَاذَنَّاكَ مَا مِنَّا مِنْ شَهِيدٍ﴾ [٤٧].

وبيّنت السورة جانباً من آثار قدرة الله تعالى الدالة على وحدانيته سبحانه، كخلق السموات والأرض، والليل والنهار، والشمس والقمر، والنفس البشرية.

٣- وتناولت السورة جانب اليوم الآخر، ففي أولها تهديد ووعد للمشركين المنكرين لليوم الآخر، وفي أثنائها عرض لبعض مشاهد القيامة من شهادة السمع والبصر والجلود على الإنسان يوم القيامة، وفي نهاية السورة: ﴿أَلَا إِنَّهُمْ فِي مَرِيعَةٍ مِّن لِّقَاءِ رَبِّهِمْ ءَلَا إِنَّهُمْ بِكُلِّ شَيْءٍ مُّحِيطٌ﴾ [٥].

هذا: ويمكن تقسيم سورة (فصلت) إلى مقطعين:

المقطع الأول: من أولها إلى الآية السادسة والثلاثين، وهي آيات تتضمن الحديث عن القرآن الكريم، وأنه منزل من عند الله تعالى بلغة العرب، وقد عجز البشر عن معارضته، ولم يسع كبار الكفار وقت التنزيل إلا أن يشهدوا له بأنه يعلو ولا يُعلَى عليه، وأنه ليس بقول بشر، ومع هذا فقد أعرضوا عنه ﴿وَقَالُوا قُلُوبُنَا فِي أَكِنَّةٍ مِّمَّا نَدْعُونَآ إِلَيْهِ وَفِي ءَاذَانِنَا وَقْرٌ وَمِنْ بَيْنِنَا وَبَيْنَكَ حِجَابٌ﴾ [٥].

فتوعدهم القرآن بعذاب كعذاب عاد وثمود مع قوتهم وشدة بأسهم، ويوم القيامة تشهد عليهم جوارحهم وأعضاؤهم بما كانوا يعملون، وقد كان السبب في ضلالهم أن الله تعالى قيّض لهم قرناء السوء من الجن والإنس، فزيّنوا لهم سوء أعمالهم فأوها حسنة، وذلك أنهم استحبوا العمى على الهدى، وانحرفوا عن الفطرة، فضلّوا وأضلّوا، وصدّوا الناس عن سبيل الله، ومن ذلك قولهم: ﴿لَا تَسْمَعُوا هَذَا الْقُرْآنَ وَالْغَوْا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ﴾ [٢٦].

وفي ثنايا ذلك يوبخهم القرآن على كفرهم ببيان أن الذي يكفرون به هو خالق هذا الكون بما فيه ومن فيه، وأنه كان عليهم تجاه دلائل التوحيد وآثار القدرة الإلهية أن يفردوه سبحانه بالعبادة دون سواه ولكنهم لم يفعلوا.

وفي مقابل هذا الفريق تذكّر السورة حال المتقين الذين استقاموا على شرع الله، فأكرمهم الله بالأمن والأمان في دار الجنان، مع النبيين والصديقين والشهداء والصالحين.

المقطع الآخر: من الآية السابعة والثلاثين إلى نهاية السورة، وهو مقطع يبدأ بجملته من آيات الله في الكون: الليل والنهار، والشمس والقمر، والملائكة المقربين، وهي من دلائل تفرد الله تعالى بالخلق، ودلائل بعث الناس بعد موتهم، وموقف الملحدين من هذه الدلائل، وتعاميهم عن آيات الله الباهرة، وكتابه العظيم الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه.

وتبيّن السورة أن حملَ العرب لهذه الرسالة هو حملٌ لرسالة الأنبياء قاطبة، وأن أهل الكتاب قد أضاعوا ما لديهم من تراث، ونسوا قواعده، كما تبيّن السورة أن مردّ علم الساعة إلى الله تعالى، وتوضح طبيعة الإنسان في حالتي العسر واليسر.

وتُختم السورة بوعده من الله تعالى أن يكشف للناس عن أسرار هذا الكون في آخر الزمان ليستدلوا على صدق ما أخبر به القرآن، وتزداد نبوة محمد ﷺ صدقاً ورسوخاً.

سبب النزول:

١- روى ابن إسحاق عن يزيد بن زياد، عن محمد بن كعب القرظي، قال: حَدَّثْتُ أَنَّ عُثْبَةَ بن ربيعة -وكان سيِّداً- قال يوماً وهو جالس في نادي قريش، ورسول الله ﷺ جالس في المسجد وحده، قال: يا معشر قريش، ألا أقوم إلى محمد فأكلمه، وأعرضُ عليه أموراً لعله يقبل بعضها، فنعطيه أيها شاء، ويكفُّ عنا؟ وذلك حين أسلم حمزة، ورأوا أن أصحاب رسول الله ﷺ يزدون ويكثرون، فقالوا: بلى يا أبا الوليد، فقم فكلّمه، فقام إليه عتبة، حتى جلس إلى رسول الله ﷺ، فقال: يا بن أخي، إنك منا حيث قد علمت من السُّطَّة (الوسط) في العشيرة، والمكان في النسب، وإنك قد أتيت قومك بشيء عظيم، فرقتَ به جماعتهم، وسفّهتَ به أحلامهم، وعبتَ به آلهتهم ودينهم، وكفّرتَ به مَنْ مضى من آبائهم، فاسمع مني أعرض عليك أموراً تنظر فيها، لعلك تقبل منا بعضها، قال: فقال له رسول الله ﷺ: «قل يا أبا الوليد، أسمع».

قال: يا بن أخي، إن كنت إنما تريد بما جئت به من هذا الأمر مالأً، جمعنا لك من

أموالنا حتى تكون من أكثرنا أموالاً .

وإن كنت تريد به شرفاً سوّذناك علينا حتى لا نقطع أمراً دونك .

وإن كنت تريد به ملُكا ملُكناك .

وإن كان هذا الذي يأتيك رِئياً تراه لا تستطيع ردّه عن نفسك، طلبنا لك الطب وبذلنا فيه أموالنا حتى نبرئك منه، فإنه ربما غلب التابع على الرجل حتى يُدَاوَى منه -أو كما قال له .

حتى إذا فرغ عتبة، ورسول الله ﷺ يستمع منه قال: «أفرغت يا أبا الوليد؟» قال: نعم، قال: «فاستمع مني» قال: أفعل، قال: «بسم الله الرحمن الرحيم: ﴿حَمْدٌ ﴿١﴾ تَنْزِيلٌ مِّنَ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ﴿٢﴾ كَتَبْتُ فُصِّلَتْ ءَايَتُهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٣﴾ بِشِيرًا وَنَذِيرًا فَاعْرَضَ أَكْثَرُهُمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ﴿٤﴾﴾» ثم مضى رسول الله ﷺ يقرؤها عليه، فلما سمع عتبة أنصت لها، وألقى يديه خلف ظهره معتمداً عليهما يسمع منه، ثم انتهى رسول الله ﷺ إلى السجدة منها، فسجد، ثم قال: «قد سمعت يا أبا الوليد ما سمعت، فأنت وذاك» .

فرجع عتبة إلى أصحابه، فقال بعضهم لبعض -وهو يقسم بالله-: لقد جاءكم أبو الوليد بغير الوجه الذي ذهب به، فلما جلس إليهم قالوا: ما وراءك يا أبا الوليد؟ قال: ورائي أنني قد سمعت قولاً، والله ما سمعت مثله قطُّ، والله ما هو بالسحر، ولا بالشعر، ولا بالكهانة، يا معشر قريش، أطيعوني واجعلوها لي، خلُّوا بين الرجل وبين ما هو فيه، فاعتزلوه، فوالله ليكونن لقوله الذي سمعتُ نبأ، فإن نصَّبه العرب فقد كُفِّتُموه بغيركم، وإن يظهر على العرب فملُكه ملككم، وعزُّه عزكم، وكنتم أسعد الناس به .

قالوا: سحرك والله يا أبا الوليد بلسانه! قال: هذا رأيي فيه، فاصنعوا ما بدا لكم^(١) .

وفي هذا روايات أخرى تدل على اجتماع قريش وإرسالهم عتبة بن ربيعة، وتلاوة الرسول عليه أول السورة إلى ﴿فَإِنْ أَعْرَضُوا فَقُلْ أَنْذَرْتُكُمْ صَوْفَةً مِّثْلَ صَوْفَةِ عَادٍ وَتُسُودُ﴾ ﴿١٢﴾ .

٢- ففي رواية جابر عن عبد الله ﷺ أن قريشاً اجتمعت يوماً لاختيار أعلم رجل فيهم

(١) هذه رواية ابن إسحاق كما في «سيرة ابن هشام» (١/٢٩٣) والبيهقي (٢/٢٠٤) وابن عساكر (٣٨/٢٤٦) .

حتى يرسلوه إلى النبي ﷺ ليُراجعه في دعوته، فوقع اختيارهم على عُتبة بن ربيعة، فأتاه وكلمه في شأن الرسالة، وقال له: أنت لست خيرًا من عبد الله ولا من عبد المطلب، ولقد فرقت جماعتنا، وشئت أمرنا، وعبت ديننا، وفضحتنا في العرب، حتى قال الناس: إن في قريش ساحرًا وكاهنًا، وقد أوشكنا أن يقوم بعضنا على بعض بالسيوف، فإن كان بك حاجة إلى المال جمعنا لك أموالًا حتى تكون أغنى قريش، وإن كان بك باءة، فاختر أي نساء قريش شئت، فلنزوجك عشرا، فقال رسول الله: «فرغت؟» قال: نعم، فقرأ ﷺ أول سورة فصلت حتى وصل إلى قوله تعالى: ﴿فَإِنْ أَعْرَضُوا فَقُلْ أَنْذَرْتُكُمْ صَاعِقَةً مِثْلَ صَاعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ﴾ (١٣) فقال عتبة: حسبك، حسبك، ما عندك غير هذا، قال: لا، فرجع إلى قريش، وأخبرهم بأنه لم يترك شيئًا يريدون أن يكلموه فيه إلا كلمه، قالوا: فبماذا أجابك؟ قال: والله ما فهمت شيئًا مما قال، غير أنه أنذركم صاعقة مثل صاعقة عاد وثمود... (١).

٣- وعن ابن عمر ؓ أن النبي ﷺ لما قرأ على عتبة أول سورة (فُصِّلَتْ) أتى أصحابه فقال: يا قوم، أطيعوني في هذا اليوم، واعصوني بعده، فوالله لقد سمعت من هذا الرجل كلامًا ما سمعتُ أذنائي قط كلامًا مثله، وما دريتُ ما أرد عليه (٢).



(١) يُنظر النص في: ابن أبي شبة (٢٩٥/١٤) (١٨٤٠٩) وأبي يعلى في «الدلائل» (١٨١٨) وصححه الحاكم ووافقه الذهبي (٢٥٣/٢) وأبي نعيم في «الدلائل» (١٨٢) والبيهقي (٢٠٢/٢) وابن عساكر (٢٤٢/٣٨) قال الهيثمي في «مجمع الزوائد» (٢/٦): فيه الأجلح الكندي، وثقه ابن معين وغيره، وضعفه النسائي وغيره، وبقي رجاله ثقات.

(٢) البيهقي (٢٠٥/٢) وأبو نعيم (١٨٥) كلاهما في «دلائل النبوة».

تَفْسِيرُ السُّورَةِ

الْقُرْآنُ الْكَرِيمُ: مَصْدَرُهُ وَوَضْفُهُ وَوَضِيفَتُهُ

١-٢- ﴿حَمْدٌ^(١)﴾ تَنْزِيلٌ مِّنَ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ﴿٢﴾

ابتدأت سورة (فصلت) بحرفي: الحاء، والميم من حروف التهجي، كسائر سور آل حم السبع، وهي حروف مقطعة، الله أعلم بمراده منها، وفيها إشارة إلى إعجاز القرآن، فقد تحدّى الله به المشركين فعجزوا عن معارضته، مع أنه مكون من الحروف التي تتكون منها لغة العرب، وهم أفصح الناس.

وفيها أيضًا إيقاظ لقلوب المعارضين، ولفت لأنظارهم بعجيب التركيب؛ حتى يستمعوا إليه ويتأملوه، فدلّ هذا على أن القرآن من عند الله، وليس من عند محمد ﷺ وليس في مقدور البشر الإتيان بمثل أقصر سورة منه.

ثم ذكرت السورة مصدر هذا القرآن، فبيّنت أنه منزل من عند الرحمن الرحيم، الذي وسعت رحمته كل شيء، ومن عظيم رحمته، نزول هذا القرآن كتابًا مفصلاً عربياً، فيه العلم والهدى والنور والشفاء والموعظة والخير العميم، وفيه السعادة للدارين.

أي: إن هذا القرآن تنزيل من عند الله تعالى على نبيه محمد ﷺ، كما قال تعالى: ﴿وَإِنَّمَا لَنُزِّلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ ﴿١٩٦﴾ نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ ﴿١٩٧﴾ عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنْذِرِينَ ﴿١٩٨﴾ بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ ﴿١٩٩﴾ وَإِنَّكُمْ لَفِي زُجْرٍ الْأَوَّلِينَ ﴿٢٠٠﴾ [الشعراء].

وقال سبحانه: ﴿قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ مِن رَّبِّكَ بِالْحَقِّ﴾ [النحل: ١٠٢].

وإنما خصّ ﴿الرَّحْمَنَ الرَّحِيمَ﴾ بالذكر لبيان أن هذا القرآن تنزلت آياته من ينابيع الرحمة لإخراج الناس من الظلمات إلى النور، فهي هداية تقي الناس شرور أنفسهم

(١) قرأ أبو جعفر بالسكت على حا، و ميم، سكتة لطيفة بدون تنفس، وأمال الحاء ابن ذكوان وشعبة وحمزة والكسائي وخلف، وقللها الأزرق، وفتحها وقللها أبو عمرو، وفتحها الباقون. وقد عدّ (حم) آية، المصحف الكوفي، وتركها غيره.

وسيئات أعمالهم، وتحميمهم من شطط الأفكار وخطر الغرائز، وطغيان القوى، وعوج الهوى، قال تعالى: ﴿يَأْتِيهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَتْكُمْ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَشِفَاءٌ لِمَا فِي الصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [يونس].

وقال سبحانه: ﴿فَقَدْ جَاءَكُمْ يَسِّنَّةٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ﴾ [الأنعام: ١٥٧]. وهو نعمة باقية إلى يوم القيامة.

٣- ﴿كَتَبَ فُصِّلَتْ آيَاتُهُمْ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾

ثم أثنى الله تعالى على هذا الكتاب، فبيّن أن آياته واضحة الأغراض، وافية بالمقصود، لا تلتبس إلا على مكابر، وفيه من كمال التفصيل، وكثرة المعاني، وفصاحة الألفاظ ما لا يخفى على أحد.

وهو كتاب بُيِّنَت آياته تمام البيان، ووضّحت معانيه وأحكامه ليسهل فهمه وحفظه وتلاوته، وقد بُيِّنَت أحكام حلاله من حرامه، وطاعته من معصيته، وجُعِلَت معانيه مُبَيَّنَةً محكمة، تُفهم بيسر وسهولة، كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ﴾ [القمر: ١٧].

وهو كتاب جامع للمصالح الدينية والدنيوية، لم ينزل مرة واحدة، وإنما نزل نجوماً مشتملاً على ما فيه سعادة الدنيا والآخرة.

وهو كتاب نُوعِت أحكامه فجُعِلَت: هدايات، وأداباً، وأخلاقاً، ومواعظ، وحكمًا، وأحكامًا، وأمثالاً، وقصصًا، وعقائد، وعبادات.

وهو كتاب فُصِّلَت آيات أحكامه بلغة العرب ليكون لهم نعمة وذكرًا، ويكون عليهم حجة وبلاغًا.

وهو كتاب واضح الدلالة، ساطع الحجة، عربيُّ اللسان.

وعروبة القرآن: سمة الوحي المعجز، وقد اختار الله لغة العرب، لتكون وعاء وخيه، واصطفى أهل هذه اللغة ليقودوا الناس إلى الخير، وكل من أجاد لغة القرآن فهو عربي مهما اختلفت جنسيته، وقد أسلم قديمًا من الفرس والروم مَنْ خدَم القرآن بلسانه أكثر من بعض من وُلِدَ في جزيرة العرب.

وترجمة معاني القرآن إلى اللغات الأخرى لا تجعل المترجم قرآنًا، بل هو معانٍ.

وهذا القرآن قد بيّنت آياته ﴿لَقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ اللسان العربي، فيتذوّقون أسرارهِ، ويفهمون تفاصيل أحكامهِ، ودلائل إعجازهِ، لا يلتبس عليهم منه شيء، فيتضح لهم منه الهدى من الضلال، والغي من الرشاد، أما الجاهلون المعرضون فلا يزيدهم إلا ضلالًا وعمى.

﴿قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدًى وَشِفَاءٌ وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِي آذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى﴾ [فصلت: ٤٤]. والعلم والجهل معناهما الانتفاع به وعدم الانتفاع، فالأول عالم والآخر جاهل ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الزمر: ٩]

وكل من قرأ ألفاظه أو فهم معانيه فهو مؤهل للانتفاع به، ومن لم يرفع به رأسًا لا ينتفع به، قال تعالى: ﴿وَمَا تُغْنِي الْآيَاتُ وَالنُّذُرُ عَنْ قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [يونس: ١٠١].

وقال سبحانه: ﴿وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا الْعَالِمُونَ﴾ [العنكبوت: ٤٣].

ولا ينتفع بالقرآن إلا من علم أنه من عند الله، وأيقن بذلك، أما الذين لا يعلمون أنه منزل من عند الله ولا يوقنون بذلك، فإنه لا يكون لهم نعمة ولا ذكرًا، بل هو عليهم عمى ووبال وخسران.

وهذا القرآن نزل مبشّرًا بالثواب العاجل والآجل لمن آمن به وعمل بمقتضاه، ومنذرًا بالعذاب العاجل والآجل لمن كفر به وأعرض عنه. قال تعالى في وصف القرآن:

٤- ﴿بَشِيرًا وَنَذِيرًا فَأَعْرَضَ أَكْثَرُهُمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ﴾ ﴿٤﴾

أي: أن هذا القرآن بشيرًا لأولياء الله بالنعيم المقيم والثواب العاجل والآجل، ونذيرًا لأعدائه بالعذاب الأليم، والعقاب العاجل والآجل، وكثير من الناس أعرض عما في القرآن من الهدى، فلم يتأثر بمبشرات القرآن، ولم يحذر ما فيه من النذير، فلم ينفعه ترغيب ولا ترهيب، فهو من الذين لا يعلمون، ومن الذين لا يسمعون سماع قبول وإجابة ﴿فَأَعْرَضَ أَكْثَرُهُمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ﴾ ما احتوى عليه القرآن من الحجج والبراهين، ولم يسمعه سماعًا يُنتفع به، ولا سماع قبول وإجابة، بل سمعه سماعًا تقوم به الحجة عليهم.

وفي هذا تقرّيع وتوبيخ لكل من بلغته رسالة الإسلام، ولم يؤمن بالرسول الخاتم، وما جاء به من الوحي الإلهي.

ثَلَاثَةُ أَحْوَالٍ لِلْمُعْرِضِينَ عَنِ الْقُرْآنِ

٥- ﴿وَقَالُوا قُلُوبُنَا فِيْ أَكِنَّةٍ مِّمَّا نَدْعُوْنَآ إِلَيْهِ وَفِيْ ءَاذَانِنَا وَقْرٌ وَمِنْ بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ فَاعْمَلْ إِنَّا عَمِلُونَ﴾

في هذه الآية تفصيل آية الإعراض عن القرآن بأقوال المعرضين أنفسهم، فذكرت ثلاث أحوال لهذا الإعراض، وهي:

١- أن قلوبهم مقفلة، عليها أغطية، فهي لا تقبل هدى، ولا يصل إليها إيمان.

٢- وأن آذانهم صماء، لا تسمع شيئاً يفيدها أو تنتفع به.

٣- وأنه يوجد حائل بين الرسول وبينهم، فلا يصل إليهم شيء من دعوته.

والمعنى:

أ- يقول الكافرون المعرضون عن الانتفاع بالقرآن، حين يُدعون إلى الإسلام: ﴿قُلُوبُنَا فِيْ أَكِنَّةٍ﴾ أي قلوبنا في أغطية كثيفة تمنعها من فهم ما تدعونا إليه من التوحيد والإيمان، فلا يصل إليها شيء مما تقول.

ب- ﴿وَفِيْ ءَاذَانِنَا وَقْرٌ﴾ أي: وفي آذاننا ثقل وصمم، بحيث تمنع الحق، ولا تميل إلى استماعه، فنحن لا نفهم ما تقول.

ج - ﴿وَمِنْ بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ﴾ أي: ومن بيننا وبينك -يا محمد- حاجز وسائر حصين، يحول بيننا وبين إجابة دعوتك، ويمنع وصولها إلينا.

وما دام حالنا وحالك هكذا ﴿فَاعْمَلْ إِنَّا عَمِلُونَ﴾ اعمل ما شئت وفق ما يدعوك إليه دينك، ونحن نعمل ما شئنا وفق ما يدعونا إليه ديننا، وليستمر كلٌ منا على طريقته، فاعمل لآخرتك، ونحن نعمل لدنيانا، فنحن لا نعبأ بما تنذرنا به، وإن كان لديك ما تؤذينا به فافعل!

والمكذبون بالقرآن، بقولهم هذا، قد سدوا على أنفسهم النوافذ والأسباب الموصلة إلى الإيمان، وأظهروا الإعراض عنه من كل وجه، كما أظهروا بغضه والرضى بما هم عليه، فاستبدلوا الهدى بالضلال، والكفر بالإيمان، وباعوا الآخرة بالدنيا.

وهذه الآية كقوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا﴾ [الأنعام: ٢٥، والإسراء: ٤٦].

وقوله سبحانه: ﴿وَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ حِجَابًا مَسْتُورًا﴾ [الإسراء: ٤٥].

قيل: إن القائل لما في هذه الآية، هو أبو جهل، في مجمع من قريش، فأسند القول إليهم، وهو يشمل كل معرض عن القرآن إلى قيامة الساعة.

الرَّسُولُ بَشَرٌ يُوحَى إِلَيْهِ، فَالْوَيْلُ لِمَنْ عَصَاهُ، وَالْأَجْرُ الْعَظِيمُ لِمَنْ أَطَاعَهُ

ثم إن الله تعالى لقن رسوله الجواب الذي يرُدُّ به على المكذبين بالوحي، فقال:

٦، ٧- ﴿قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحَى إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمُ إِلَهٌُ وَاحِدٌ فَاسْتَقِيمُوا إِلَيْهِ وَاسْتَغْفِرُواْ وَوَيْلٌ لِّلْمُشْرِكِينَ ﴿٦﴾ الَّذِينَ لَا يُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ ﴿٧﴾﴾

﴿قُلْ﴾ يا محمد لهؤلاء الجاحدين لرسالتك، المعرضين عن دعوتك ﴿إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ﴾ في الصفات البشرية، فأنا كواحد منكم لولا أن الله تعالى أنزل عليّ الوحي، خلقتني الله كما خلقكم، ونسبي ينتهي إلى آدم مثلكم، وأنا آكل وأشرب، وأتزوج النساء، وأمشي في الأسواق، مثلكم تمامًا، ولست من جنس مغاير لكم حتى تُعرضوا عن دعوتي، ولم أدعُكم إلى ما يخالف العقل، إنما أدعُوكم إلى توحيد الله تعالى.

وأنا لا أملك تحويل القلوب الضالة -مثل قلوبكم- إلى الهدى، ولا أتميز عليكم في شيء إلا أن الله تعالى خصّني بالوحي، فأنا بشر ﴿يُوحَى إِلَيَّ﴾ وقد أمركم الله باتباعي وعدم مخالفتي، ولا أملك إلا أن أبلغكم هذا الوحي ﴿فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيُكْفُرْ﴾ [الكهف: ٢٩]. وليس بيدي من الأمر شيء، ولا عندي ما تستعجلون به، وإنما فضّلني الله عليكم بالوحي الذي أوحاه إليّ، وأمرني باتباعه ودعوتكم إليه، ومن ذلك دعوتكم إلى ستة أمور تُمثل أصول الرسالة وقواعدها وهي:

١- التوحيد. ٢- والاستقامة. ٣- والاستغفار. ٤- وترك الشرك وأهله.

٥- وإخراج الزكاة. ٦- والإيمان باليوم الآخرة.

أ- والبند الأول في الدعوة إلى الله تعالى هو: التوحيد، وأول ما يوحى به إليَّ ﴿أَنَّمَا إِلَهُكُمُ اللَّهُ وَحْدَهُ﴾ هو الذي يجب أن تُوجه إليه العبادة، ولا يصح توجيهها إلى غيره، كما قال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَا يُوحِي إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمُ اللَّهُ وَحْدَهُ فَهَلْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ [الأنبياء].

ب - فقد أمرني ربي أن أبلغكم أنَّ إلهكم وخالقكم إله واحد لا شريك له، فعليكم أن تُخلصوا له الطاعة والعبادة، وتسلخوا الطريق الموصل إلى رضوانه، وتلتزموه، وتستمروا عليه ﴿فَاسْتَقِيمُوا إِلَيْهِ﴾ بالطاعة ولا تميلوا عن سبيله، واسلكوا الطريق الموصل إلى الله تعالى باتباع أوامره واجتناب نواهيه، وتصديق أخباره، وداوموا على ذلك مع الإخلاص والمتابعة.

ج - ﴿وَأَسْتَغْفِرُكُمْ﴾ أي: اسألوا الله المغفرة لما سلف من الذنوب، ومن الإشراك به تعالى، وأخلصوا في عبادته، ولا تشركوا معه غيره، واسألوه الصفح عما فرط منكم من الشرك والعناد، وما عسى أن يكون من تقصير وخلل في بعض جوانب الطاعة أو ترك المنهيات

د- أما من سلك الطريق المعوج، وظل على شركه وكفره، فهو مهتد ومتوعد بالعذاب يوم لقاء الله ﴿وَوَيْلٌ لِلْمُشْرِكِينَ﴾ أي: إن الله تعالى أعد الويل والشقاء لمن لم يقبل دعوته.

هـ - ثم توعد الله سبحانه بالويل -على وجه الخصوص- صنفين من المشركين، هما: مانعو الزكاة، وغير المؤمنين باليوم الآخر، فقال تعالى: ﴿وَوَيْلٌ لِلْمُشْرِكِينَ﴾ الموصوفين بأنهم ﴿لَا يُؤْتُونَ الزَّكَاةَ﴾، فهم يمنعونها ولا يُخرجونها إلى الفقراء، ولا ينفقون أموالهم في وجوه الخير، وهم لا يؤمنون بالبعث والنشور والحساب والجنة والنار، فهم جاحدون باليوم الآخر، غير مؤمنين بما فيه.

ويُفهم منه أن المسلم -مانع الزكاة- متوعد بالويل أيضًا.

قال الصاوي: وإنما خصَّ منع الزكاة وقرنه بالكفر بالآخرة؛ لأن المال شقيق الروح، فإذا بذله الإنسان في سبيل الله كان دليلاً على قوته وثباته في الدين^(١).

ومن المعلوم أن الزكاة فرضت إجمالاً في مكة، وهذه السورة مكية، وأن تفصيل أحكامها فقد فرض في المدينة في السنة الثانية للهجرة.

(١) «حاشية الصاوي» (١٧/٤).

وقد جاءت فرضية الزكاة في مكة في أكثر من سورة مكية، منها قوله تعالى: ﴿وَفِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ مَّعْلُومٌ ۚ لِّلْسَائِلِ وَالْمَحْرُومِ﴾ [المعارج: ٢٤، ٢٥] والحق المعلوم هو الزكاة.

أما صدقة التطوع فجاءت مطلقة في قوله تعالى: ﴿وَفِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ لِّلْسَائِلِ وَالْمَحْرُومِ﴾ [الذاريات: ١٩].

وفُرضت زكاة الحبوب والثمار في مكة في قوله تعالى: ﴿وَمِمَّا آتَوْا حَقَّهُ يَوْمَ حَصَادِهِمْ﴾ [الأنعام: ١٤١].

وعلى أن المراد بالزكاة في الآية زكاة المال، استدل بعض علماء الأصول أن المشركين مخاطبون بفروع الشريعة؛ لأن الله تعالى توعدهم على منع الزكاة، مع وصفهم بالكفر والشرك.

وجاء نظير ذلك في قوله تعالى عن المجرمين: ﴿مَا سَلَكَكُمْ فِي سَقَرٍ ۚ قَالُوا لَوْ نَك مِنْ الْمُصَلِّينَ ۚ وَلَوْ نَك نُطْعِمُ الْمُسْكِينِ ۚ وَكُنَّا نَحُوسُ مَعَ الْخَافِضِينَ﴾ [المدثر: ٤٣، ٤٤، ٤٥].

فهم -مع كفرهم- يُحاسَبون على ترك الصلاة، وعدم إطعام المسكين، ولغو الكلام.

وقيل: إن المراد بالزكاة في الآية: زكاة النفس والبدن، بطهارتها من الشرك والكفر، وعدم الإخلاص، واستشهدوا على ذلك بقوله تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا﴾ [الشمس: ٩].

وقوله سبحانه: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَنْ تَزَكَّى﴾ [الأعلى: ١٤].

ومن الواضح أن لفظ ﴿زَكَّاهَا﴾ يعود على النفس، ولفظ ﴿تَزَكَّى﴾ معناه: تطهَّر من دنس الشرك، أو نمى أخلاقه وحسَّنها.

ومعنى ﴿يُؤْتُونَ الزَّكَاةَ﴾ يؤدونها لمستحقها، والذي يؤدى هو الزكاة والصدقة، ولعله الأرجح، وهكذا وصف الله المشركين المتوعَّدين بالويل؛ لأنهم لم يُطهِّروا أنفسهم بتوحيد ربهم، والإخلاص له، ولم يصلُّوا ولم يزكُّوا، فلا إخلاص منهم للخالق، ولا نفع فيهم للخلق، وهم لا يؤمنون بالبعث ولا بالجنة والنار، ولا ينفقون أموالهم في طاعة الله تعالى.

و- كما توعد الله تعالى بالويل والهلاك من لا يؤمن باليوم الآخر وما فيه من بعث وحشر ونشر وحساب وجزاء وجنة ونار، وغير المؤمنين باليوم الآخر قد زال الخوف من قلوبهم فأقدموا على ما أقدموا عليه من الشرك والكفر والمعاصي وكل ما يضرهم في الآخرة.

وبعد بيان سوء عاقبة الكافرين يأتي بيان حسن عاقبة المؤمنين، فقال تعالى:

٨- ﴿إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ أَجْرٌ ^(١) غَيْرُ مَمْنُونٍ ﴿٨﴾

أي: إن الذين آمنوا بالله ورسوله وكتابه وملائكته واليوم الآخر إيماناً حقاً، وعملوا الأعمال الصالحة مخلصين لله فيها ﴿لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ﴾ به عليهم؛ لأنه جزاء أعمالهم الصالحة، فضلاً من الله تعالى وكرماً.

قال تعالى: ﴿بَلِ اللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَيْكُمْ لِلْإِيمَنِ﴾ [الحجرات: ١٧].

وقال أهل الجنة: ﴿فَمَنْكَ اللَّهُ عَلَيْنَا وَوَقَفْنَا عَذَابَ السَّمُورِ ﴿٧﴾﴾ [الطور].

وقال رسول الله ﷺ في حديث عائشة ؓ: «سددوا وقاربوا وأبشروا، فإنه لن يُدخل الجنة أحداً عمله» قالوا: ولا أنت يا رسول الله؟ قال: «ولا أنا إلا أن يتغمدني الله منه برحمة، واعلموا أن أحب العمل إلى الله ﷻ أدومته وإن قل» ^(٢).

أو معنى ﴿مَمْنُونٍ﴾ أنه أجر غير مقطوع ولا ممنوع، بل دائم مستمر بدوام الجنة ونعيمها، وهو الأولى، فهو أجر مستمر متزايد، مشتمل على جميع اللذات والمشتبهات.

تَفْصِيلُ دَقِيقٍ لِحَلْقِ الْأَرْضِ وَالسَّمَوَاتِ يُوجِبُ عَدَمَ الْكُفْرِ بِخَالِقِهِمَا

٩- ﴿قُلْ أَيُّكُمْ ^(٣) لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَنْدَاداً ذَلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾

بعد أن أمر الله رسوله أن يقول للمشركون: ﴿إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحَىٰ إِلَيَّ﴾ أرذف ذلك بنهيهم عن الكفر بالله تعالى على طريقة الاستفهام المتضمن تذكيرهم بتفصيل دقيق لخلق الأرض والسماء.

قال الشيخ محمد الغزالي رحمه الله: ويلاحظ أنه بين عرض الدعوة وجزاء مكذبيها

(١) قرأ أبو جعفر بالغة في تنوين الراء مع الغين بعدها، من (أجر غير)، والباقون بدونها.

(٢) مسلم (٢٨١٨) والبخاري (٦٤٦٤، ٦٤٦٧)، و«المسند» (٢٤٩٤١).

(٣) قرأ قالون وأبو عمرو وأبو جعفر بتسهيل الهمزة الثانية من (أثنكم) مع إدخال ألف بينها وبين الهمزة قبلها، وقرأ ورش وابن كثير ورويس بالتسهيل مع عدم الإدخال، ولهشام ثلاثة أوجه: التسهيل مع الإدخال، والتحقيق مع الإدخال وعدمه، والباقون بالتحقيق مع عدم الإدخال.

وَقَعَ اعتراض معنوي طويل، تضمن الكلام عن نشأة الخليقة، ونظام الملكوت الضخم: إن الإنسان من هذه الأرض نشأ، وعلى خيراتها يحيا، ومنذ استخلفه الله فيها جعله مَلِكًا على عناصرها؛ ليكون عبدًا لربه الذي سَوَّاه ونفخ فيه من روحه... لكن الإنسان نسي وطغى.

والظاهر من كلام العلماء أن الله تعالى أبدع المجموعة الشمسية **أَوَّلًا** ﴿خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ﴾ [الأنعام: ١] ثم أنشأ البشرية بعدما مهَّد الأرض لسكنائها، وبارك فيها وقَدَّر فيها أقواتها.

وهنا -أي: في هذه السورة- وفي مواضع أخرى لُفِت انتباه الإنسان إلى أقرب شيء إليه، إلى الأرض التي عليها يعيش، ويؤمن إن شاء أو يكفر! وذكُر هذه الحقائق عقب عَرَض الدعوة مفهوم، فتدبُّرها أساس الإيمان، والتعامي عنها سبب البوار^(١).

وسوف نتكلم عن خلق الأرض **أَوَّلًا**، ثم عن خلق السماء:

﴿قُلْ﴾ -يا محمد- لهؤلاء المشركين مويِّخًا لهم، ومتعجبًا من حالهم، ومنكرًا عليهم: أنتم تعلمون أنه لا شريك لله تعالى في العالمين العلوي والسفلي، فكيف تجعلون له شريكًا في عبادتكم، وتسوونه مع الخالق، الذي خلق الأرض والسماء، وما بينهما، وهذا الاستفهام الإنكاري عن شيئين:

أحدهما: الكفر بالله تعالى الوارد في قوله سبحانه: ﴿لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ﴾.

والآخر: إثبات الأنداد والشركاء لله سبحانه الوارد في قوله جلَّ وعلا: ﴿وَجَعَلُونَ لَهُ أُنْدَادًا﴾ فكيف تجعلون لله شركاء من الحجر، أو البشر، أو غيرهما؟! مع أنه سبحانه خلق هذا الكون بما فيه، ومن هذا الكون:

أَوَّلًا: خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيِ الْأَحَدِ وَالْإِثْنَيْنِ.

والمراد: خلق الكرة الأرضية بما فيها من يابس وبحار.

واليوم يساوي اليوم العادي المعروف من طلوع الشمس إلى طلوعها؛ لأن اليوم يُقَدَّر بظهور النور والظلمة على الأرض، ولم يظهر ذلك إلا بعد خلق الأرض، فلم تكن هناك

(١) «نحو تفسير موضوعي لسور القرآن الكريم» ص ٣٧١.

أيام قبل خلق الأرض.

وابتداً الله تعالى بذكر خلق الأرض لأنها أقرب للإنسان، والحجة بها أظهر، وما تحويه من النعم أكثر، فكان الكفر بخالقها أقبح وأشنع.

والذي خلق الأرض وما فيها هو المستحق للعبادة وحده دون سواه، وهو خالق الكون كله، وهو رب العالمين، لا ند له ولا نظير، والند هو الضد المساوي للآخر في القدر والصفة، فكيف تجعلون بعض مخلوقات الله تعالى شركاء له في العبادة، وهو سبحانه رب ما دون العالمين، كالحجارة والأخشاب والحديد من باب أولى؟!

وكان المشركون يعبدون آلهة شتى، فمنهم من عبد الأصنام التي تُصنع من الحجارة والأخشاب، ومنهم من عبد الملائكة، ومنهم من عبد الكواكب، فبين سبحانه أنه رب لجميع المخلوقات، وكلها مربية لله تعالى.

قال سعيد بن جبير رضي الله عنه: إن الله تعالى قادر على أن يخلق هذا الكون كله في لحظة، ولكنه خلق السموات والأرض في ستة أيام، ليُعَلِّم خلقه الثبوت والتأني في الأمور. وكان خلق الأرض أولاً قبل خلق السماء، لأنها الأساس، والأصل أن يبدأ بالأساس، ثم بالسقف بعده.

فخلق الأرض كان قبل خلق السماء، كما قال تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ أَسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ فَسَوَّاهُنَّ سَبْعَ سَمَوَاتٍ﴾ [البقرة: ٢٩].

أما دخو الأرض، فقد كان بعد خلق السماء، كما قال تعالى: ﴿أَنْتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَرِ السَّمَاءُ بَنَاهَا ﴿٧٧﴾ رَفَعَ سَمَكَهَا فَسَوَّاهَا ﴿٧٨﴾ وَأَغْطَشَ لَيْلَهَا وَأَخْرَجَ ضُحَاهَا ﴿٧٩﴾ وَالْأَرْضَ بَعْدَ ذَلِكَ دَحَاهَا ﴿٨٠﴾ أَخْرَجَ مِنْهَا مَاءَهَا وَمَرْعَاهَا ﴿٨١﴾﴾ [النازعات].

فَدَحَى الْأَرْضَ بِمَعْنَى ﴿أَخْرَجَ مِنْهَا مَاءَهَا وَمَرْعَاهَا ﴿٨١﴾﴾ وَالْجِبَالَ أَرْسَاهَا ﴿٧٧﴾﴾ [النازعات] وهو متأخر عن خلق السموات.

فخلق الله جِزْم الأرض غير مَدْحُوَّة، قبل خلق السماء بيومين، ثم دحا الأرض بعد خلق السماء.

أخرج البخاري عن سعيد بن جبير: أن رجلاً سأل ابن عباس رضي الله عنه عن أشياء في القرآن

تختلف، وذكر منها أن الله تعالى خلق السموات قبل خلق الأرض، كما جاء في سورة النازعات، وجاء في سورة فصلت أن الله خلق الأرض قبل السموات، فأجاب بقوله: خلق الأرض في يومين، ثم استوى إلى السماء، فسواهن في يومين آخرين، ثم دحا الأرض، ودحوها: أن أخرج منها الماء والمرعى، وخلق الجبال والجماد والآكام وما بينهما في يومين، فذلك قوله تعالى: ﴿دَحَّهَا﴾ وقوله سبحانه: ﴿خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ﴾ فكان خلق الأرض وما فيها من شيء في أربعة أيام، وُخلقت السموات في يومين^(١).

ويقول أهل العلم التجريبي: إن الأرض كانت كرة ملتهبة كالشمس، والأرجح أنها قطعة من الشمس انفصلت عنها، وأنها استغرقت أزماناً طويلة حتى بردت قشرتها وصلبت، وأن جوفها لا يزال في حالة انصهار لشدة الحرارة، حيث تنصهر أقسى الصخور.

ولما بردت القشرة الأرضية جمدت وصلبت، وكانت في أول الأمر طبقات من الصخر بعضها فوق بعض، وقد تعاون الهواء والماء على تفتيت الصخر وتشتيته وترسيبه، حتى صارت تربة أمكن الزرع فيها^(٢).

ثانيًا: خَلَقُ الْجِبَالِ وَالْأَقْوَاتِ

١٠ - ﴿وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ مِنْ فَوْقِهَا وَبَرَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاءً^(٣) لِلنَّاسِ لِيَأْكُلُوا مِنْ ثَمَرِهِمْ﴾

أي: وبعد خلق الأرض، خلق الله أجزاء من جنسها كالجبال وهذا ضمن دُحو الأرض ﴿وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ مِنْ فَوْقِهَا﴾ أي: خلق فوق الأرض جبالاً ثوابت مرتفعة عليها، لا تنتقل ولا تتحرك، وجعلها أوتاداً للأرض؛ لئلا تضطرب وتتحرك بالناس، وهي محاطة بالبحار والمحيطات.

قال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَنْ تَمِيدَ بِهِمْ﴾ [الأنبياء: ٣١].

(١) من حديث ابن عمرو في البخاري كما في «الفتح» (٥٥٦/٨) وهو في «صحيح البخاري»، كتاب التفسير، سورة السجدة (فصلت) بعد الحديث رقم (٤٨١٥).

(٢) يُنْظَرُ: «في ظلال القرآن»، تفسير الآية.

(٣) قرأ أبو جعفر برفع الهمزة مع التنوين في (سواء) على أنها خبر لمبتدأ محذوف، أي: هي سواء، وقرأ يعقوب بالخفض، صفة لأربعة أو أيام، وقرأ الباقر بالنصب على الحال من ضمير أقواتها.

كما أن الله تعالى خلق في الأرض أجزاء من غير جنسها، كالأقوات، فخلق فيها خيرات كثيرة، فيها رزق للإنسان وللحيوان، وفيها التراب والحجارة والمعادن، وكلها بركات، قال تعالى: ﴿وَبَرَكَّتْ فِيهَا﴾ أي: بكثرة الخيرات والأرزاق، وما خلق فيها من البحار والأنهار، والأشجار والثمار، وأصناف الحيوانات، وكل ما يحتاج إليه الإنسان من المنافع، فهي دائمة الخير لأهلها، قال تعالى: ﴿وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا﴾ أي: خلق أرزاق أهلها وما يصلحهم من المعاش للإنسان وغيره:

فللدواب أقوات، وللطيور أقوات، وللوحوش أقوات، وللزواحف أقوات، وللحشرات أقوات.

وقسّم سبحانه أرزاق العباد والبلاد، وشقّ الأنهار، وغرس الأشجار، ووضع الجبال، وأجرى البحار، وقَدَّرَ الحرَّ والبرد والاعتدال، وهكذا.

فكان خلق الأرض في يومين، وخلق الأقوات في يومين.

وختم الله تعالى كل ذلك بقوله: ﴿فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ﴾ وقد دخل في هذه الأيام الأربعة اليومان المذكوران قبل ذلك في قوله تعالى: ﴿خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ﴾ بالإضافة إلى يومين آخرين خلق فيهما الأقوات، فمجموعها أربعة أيام.

وهذه الأيام الأربعة ﴿سَوَاءٌ﴾ أي: لا زيادة فيها ولا نقص، وقد بين الله ذلك لمن أراد المعرفة والسؤال عن مدة خلق الأرض وما فيها، فهو جواب ﴿لِلْسَّائِلِينَ﴾ كأنه قيل: هذا الحصر جواب للذين يسألون قائلين: في كم خلقت الأرض وما فيها؟

أويكون المعنى: إن الله تعالى خلق الأرض وقَدَّرَ فيها أقواتها، وجعل ذلك أمراً مهياً لجميع الخلق، يستوي فيه كل من طلب الانتفاع بها من البشر.

وكانت مدة خلق الأرض وما فيها ضعف مدة خلق السموات، مع أن السموات أكبر من الأرض، وفيها مخلوقات أكثر وعجائب، وذلك لأن الأرض وما فيها من المنافع هي المقصودة للثقلين، فزادت مدة خلقها للاعتناء بشأنها وشأنهم، والامتنان عليهم بها^(١).

(١) يُنظَر: «حاشية الجمل على الجلالين» (٣٢٤/٤) و«تفسير فتح القدير» (٤٨٨/٤) و«تفسير ابن عطية» (٦/٥).

ثَالِثًا: خَلْقُ السَّمَوَاتِ

١١ - ﴿ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ ﴿١١﴾﴾

تشير الآية إلى أن الله تعالى كان موجودًا ولا شيء معه، وكان قد جعل عرشه على الماء، ثم توجَّهت إرادته أولاً إلى خلق السموات والأرض مرة واحدة، فتعلقت قدرته تعالى بمادة تكوينهما معاً، وهي الدخان، كما جاء في الأثر: أن أبارئين قال: قلت: يا رسول الله، أين كان ربنا عز وجل - أي أين كان عرشه - قبل أن يخلق خلقه؟ قال: «كان في عماء، ما تحته هواء وما فوقه هواء، ثم خلق عرشه على الماء». وفي لفظ: «لم يكن في الوجود من الحوادث إلا العماء»^(٢).

والعماء: سحب رقيق، وهو العنصر الأصلي الذي خلق الله منه الموجودات.

وليس معنى خلق الأرض: الإيجاد والتكوين، بل المعنى: أن الله تعالى قدَّر وقضى أن يحدث الأرض في يومين، وهو المعنى اللغوي للخلق، أي: قدَّر وجود أصل الخلق ومادته، وليس الخلق الفعلي، وهذا ما يشير إليه قوله تعالى: ﴿ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ﴾ أي: توجَّهت إرادته سبحانه وقصَّده خلق السماء، وهذا من قولهم: استوى فلان إلى مكان كذا، أي: عمد إليه وتوجَّهت إرادته نحوه، فأراد خلق السماء ﴿وَهِيَ دُخَانٌ﴾ أي: بخار رطب دقيق متصاعد من الماء، والدخان في الأصل: هو ما ارتفع من لهب النار.

ثم وجَّه الله تعالى القول للأرض والسماء معاً قبل خلقهما: ﴿فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا﴾ أي: إن قدرة الله تعالى تعلَّقت بخلقهما، فقال لهما هذا القول الذي يراد به: التكوين والخلق الفعلي، ومجيئهما طَوْعًا أو كَرْهًا بمعنى: انقيادهما لأمر الله تعالى مختارتين

(١) قرأ ورش وأبو جعفر وأبو عمرو بخلفه بإبدال همزة (ائتيا) حرف مد حال وصلها بما قبلها، وكذا حمزة عند الوقف، ويبدأ بهمزة وصل مكسورة مع إبدال الهمزة الساكنة حرف مد جميع القراء.

(٢) يُنظر حديث أبي رزين العُقيلي في: الترمذي (٣١٠٩) وابن ماجه (١٨٢) و«المسند» (١٦١٨٨) والطيالسي (١٠٩٣) وتفسير الطبري (١٧٩٨٠) وابن أبي عاصم في السنة (٦١٢) وابن حبان (٦١٤١) والطبراني في الكبير (٤٦٨/١٩) والأثر حسنه الترمذي، وضعفه محققو المسند، لأن فيه وكيع بن خُدُس متكلم فيه، وبقية رجاله ثقات رجال الصحيح.

أو مجبرتين، وهو تصوير لعظمة القدرة الإلهية، ونفوذها في الأمور المقدرة، دقت أو جلّت.

﴿قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ﴾ أي: أتينا مدعنين لك، ليست لنا إرادة تخالف إرادتك، قيل: إن الله تعالى خلق فيهما الكلام فتكلمتا، وقيل: هو تشبيه لظهور الطاعة منهما وتأثير القدرة الربانية فيهما.

عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: قال الله تعالى للسماء: أطلعي شمسك وقمرك ونجومك، وقال للأرض: شقي أنهارك، وأخرجي شجرك وثمارك، طائعتين أو كارهتين، قالتا: أتينا أمرك طائعتين^(١).

وليس هناك ما يمنع من أن الله تعالى قد خلق فيهما تمييزاً لفهم السؤال والإجابة عليه، ولهذا نظائر كثيرة في الكتاب والسنة. قال تعالى:

١٢ - ﴿فَقَضْنَهُنَّ^(٢) سَبْعَ سَمَوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ وَأَوْحَىٰ فِي كُلِّ سَمَاءٍ أَمْرَهَا وَزَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَحِفْظًا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ^(٣)﴾

أي: أن الله تعالى قد أتم خلق السموات السبع في يومين هما الخميس والجمعة ﴿فَقَضْنَهُنَّ سَبْعَ سَمَوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ﴾ أي: أوجدهن وأبدعهن، وفرغ من خلقهن في مقدار يومين، فتمّ بذلك خلق السموات والأرض في ستة أيام لحكمة يعلمها الله تعالى، مع قدرته سبحانه على خلقهما في لحظة.

وجاء في السنة أن الله تعالى خلق آدم يوم الجمعة، وأنه آخر أيام الأسبوع، وأنه خير أيام الأسبوع وأفضلها، وأن اليهود والنصارى قد اختلفوا في تعيين اليوم الأفضل من الأسبوع، وأن الله تعالى هدى المسلمين إليه.

قال ابن عباس رضي الله عنهما: خلق الله تعالى السموات من دخان، ثم ابتداء خلق الأرض يوم الأحد ويوم الإثنين، فذلك قول الله تعالى: ﴿قُلْ أَيُّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ﴾ ثم قدر فيها أوقاتها في يوم الثلاثاء ويوم الأربعاء، فذلك قوله تعالى: ﴿وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاءً لِّلسَّائِلِينَ﴾ ثم استوى إلى السماء وهي دخان فسمكها، وزينها

(١) «تفسير القرطبي» (٣٤٣/١٥) والطبري، وهو عند البيهقي (٨١٤) والحاكم (٢٧/١).

(٢) وقف يعقوب بهاء السكت على (فقضاهن) بخلف عنه، والباقون بدونها.

بالنجوم والشمس والقمر، وأجراها في أفلاكها، وخلق فيها ما شاء الله من خلقه وملائكته، يومَ الخميس ويومَ الجمعة، وخلق الجنة يوم الجمعة، وخلق آدم يوم الجمعة، فذلك قوله تعالى: ﴿خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ﴾ [يونس: ٣] وسَبَت -أي: قطع- كل شيء يوم السبت، فعظمت اليهود يوم السبت؛ لأنه سبت فيه كل شيء، وعظمت النصارى يوم الأحد؛ لأنه ابتدأ فيه خلق كل شيء، وعظّم المسلمون يوم الجمعة؛ لأن الله فرغ فيه من خلقه، وخلق فيه الجنة، وجمع فيه آدم، وفيه هبط من الجنة إلى الأرض، وفيه قُبِلت توبته وهو أعظمها^(١).

وهكذا عظم اليهود يوم السبت؛ لأن الله تعالى لم يخلق فيه شيئاً فامتنعوا فيه عن العمل، وعظم النصارى يوم الأحد؛ لأن الله تعالى ابتدأ فيه الخلق، وعظم المسلمون يوم الجمعة؛ لأن الله تعالى فرغ فيه من الخلق.

ولا خلاف في أن الله تعالى خلق آدم بعد تمام خلق السماوات والأرض.

وبعد خلق السموات أوحى الله في كل سماء ما أَرَادَهُ وما أمر به فيها، وخلق فيها ما اقتضته حكمته تعالى من الملائكة وسير الكواكب، وما لا يعلمه إلا الله، وهذا معنى ﴿وَأَوْحَى فِي كُلِّ سَمَاءٍ أَمْرَهَا﴾ أي: أوجد النظام الذي تجري عليه الأمور فيها.

قال قتادة: خلق فيها شمسها وقمرها ونجومها وأفلاكها، وما فيها من الملائكة والبحار والبرد والثلوج.

وزين السماء الأولى بالنجوم المضيئة، وجعلها حفظاً للسماوات من الشياطين الذين يسترقون السمع ﴿وَزَيْنَا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَحِفْظًا﴾.

كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَجَعَلْنَاهَا رُجُومًا لِلشَّيَاطِينِ﴾ [الملك: ٥].

وبعد خلق السماوات دحا الأرض، أي: كوّرها، فهي متقدمة في الخلق، متأخرة في الدخو.

﴿ذَٰلِكَ﴾ الخلق البديع ﴿تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ﴾ في ملكه، القادر على صنع كل شيء.

والتقدير: إحكام الشيء ووضعه بمقدار معين، فهو ﴿الْعَلِيمُ﴾ الذي أحاط علمه بكل

(١) أخرجه أبو الشيخ في «العظمة» برقم (٨٧٩) و«تفسير الطبري» (٦١/٢٤) والحاكم (٥٤٣/٢) وقد رُوي مرفوعاً جواباً على سؤال من اليهود.

شيء، ما غاب منه وما شوهد.

وجاء في الحديث: إن الله تعالى خلق التربة في يوم السبت، كما صح ذلك في الحديث عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: أخذ رسول الله ﷺ بيدي فقال: «خلق الله ﷻ التربة يوم السبت، وخلق فيها الجبال يوم الأحد، وخلق الشجر يوم الإثنين، وخلق المكروه يوم الثلاثاء، وخلق النور يوم الأربعاء، وبث فيها الدواب يوم الخميس، وخلق آدم ﷺ بعد العصر من يوم الجمعة في آخر الخلق، في آخر ساعة من ساعات الجمعة، فيما بين العصر إلى الليل»^(١).

ويؤخذ من هذا أن ابتداء الخلق كان يوم السبت، وأن يوم الجمعة خارج عن الأيام الستة التي خلق الله فيها السموات والأرض؛ لأن آدم غير السموات والأرض، وكان خلقه في يوم الجمعة، فأيام الخلق على هذا سبعة، وخلق السموات والأرض كان في ستة أيام كما نص على ذلك القرآن الكريم^(٢).

(١) هذا الحديث أخرجه مسلم برقم (٢٧٨٩) وهو عند النسائي في «السنن الكبرى» برقم (١١٠١٠) وفي ط الرسالة (١٠٩٤٣، ١١٣٢٨) ورواه أحمد عن أبي هريرة برقم (٨٣٤١) وابن مردويه، وأبي يعلى (٦١٣٢) والبيهقي في الأسماء والصفات ص (٣٨٣)، وابن أبي حاتم، وأخرجه ابن خبّان برقم (٦١٦١) والحديث سنده صحيح، وممن صحّحه ابن الأنباري وابن الجوزي والشوكاني في «فتح القدير».

وقد تكلم فيه بعض العلماء من جهة متنه، منهم الإمام ابن كثير وابن المديني والبخاري وابن تيمية والبيهقي، ورأوا أنه معارض للقرآن، وقال بعضهم: إنه من كلام كعب الأحبار.

(٢) وصحّحه بعضهم متناً وسنداً، وقالوا: لا تعارض بينه وبين نص القرآن على الوجه الذي ذكرنا أعلاه، يُنظر: تحقيق ذلك في حاشية «زاد المسير»: (٢٤٣/٧).

وقال محققو المسند (٨٢/١٤): الأصح أن هذا الحديث موقوف على كعب الأحبار، وليس من قول النبي ﷺ. قالوا وقد ثبت بالتواتر أن الله خلق السموات والأرض وما بينهما في ستة أيام، وثبت أن آخر الخلق كان يوم الجمعة، فلزم أن يكون أول الخلق يوم الأحد، وهكذا عند أهل الكتاب... ولو كان أول الخلق يوم السبت، وآخره يوم الجمعة، لكان قد خلق في الأيام السبعة، وهو خلاف ما أخبر به القرآن.

وقال المناوي في فيض القدير (٤٤٨/٣): قال بعضهم: هذا الحديث في متنه غرابة شديدة، فمن ذلك أنه ليس فيه ذكر خلق السموات، وفيه ذكر خلق الأرض وما فيها في سبعة أيام، وهذا خلاف القرآن، لأن الأربعة خلقت في أربعة أيام، ثم خلقت السموات في يومين، وقال ابن كثير: هذا الحديث من غرائب (صحيح مسلم) وقد تكلم عليه ابن المديني والبخاري وغير واحد من الحفاظ، وجعلوه من كلام كعب. وأن أبا هريرة رضي الله عنه إنما سمعه من كلام كعب الأحبار، والخلاصة: أن الحديث موقوف على كعب الأحبار.

إِنذَارُ الْمُعْرِضِينَ عَنْ دَلَائِلِ التَّوْحِيدِ وَالْوَحْيِ الْمُنَزَّلِ

١٣، ١٤ - ﴿فَإِنْ أَعْرَضُوا فَقُلْ أَنْذَرْتُكُمْ صَاعِقَةً مِثْلَ صَاعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ ^(١)﴾ (١٣) إِذْ جَاءَتْهُمْ الرُّسُلُ مِنْ بَنِي أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ قَالُوا لَوْ شَاءَ رَبُّنَا لَأَنْزَلَ مَلَائِكَةً فَإِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ ﴿

وبعد قيام الأدلة السابقة على أن الله تعالى متفرد بالألوهية - لأنه متفرد بإيجاد العوالم كلها - فإن هذا يقتضي توحيد الله تعالى وتصديق الرسول ﷺ، والإيمان بأن القرآن منزل من عند الله سبحانه، فوجب على المكذبين والمشركين في كل زمان ومكان أن يثقلوا عن إعراضهم السابق ذكره في قوله تعالى: ﴿فَاعْرَضَ أَكْثَرُهُمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ﴾ وأن يفتحوا قلوبهم وعقولهم لهذا القرآن بدل قولهم: ﴿قُلُونَا فِيْ أَكْثَرِ مَا نَدْعُونَآ إِلَيْهِ وَفِيْ ءَاذَانِنَا وَقَرْ وَمِنْ بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ﴾ مع أن الله تعالى خلق لهم هذه الجوارح ليستفعلوا بها، لا ليستعملوها في معاصي الله تعالى والإعراض عن آياته، فهم كاذبون في دعواهم: أن قلوبهم مغلقة، وفي آذانهم صمم.

فإن استمروا على إعراضهم عن التدبر والتفكر في هذه المخلوقات، بعدما هديتهم بالدلائل البينة في تفصيل خلق السموات والأرض، وما فيهما وما بينهما، إن استمروا في تكذيبهم للقرآن ورسول الإسلام، وأعرضوا عن طاعة الله ورسوله فقل لهم: قد أنذرتكم عذاباً يستأصلكم، أنذرتكم صاعقة، وهي نار تخرج مع البرق تحرق ما تصيبه، فتهلككم كما أهلكتم قوم عاد وثمود، وخصَّ القرآن ذكر عاد وثمود؛ لأن العرب كانوا يعرفونهم.

أما قوم عاد فقد كانوا بالأحقاف في جنوب الجزيرة العربية، ونبيلهم هود عليه السلام.

وكان قوم ثمود في مدائن صالح بشمال الجزيرة العربية، وآثارهم معروفة باقية، يمرون عليها في أسفارهم، ونبيلهم صالح عليه السلام.

وذكرت فيما سبق أن عتبة بن ربيعة كَلَّمَ النبي ﷺ فيما جاءه به من اختلاف قومه في شأنه، فتلا عليه النبي ﷺ سورة فُصِّلَتْ حتى بلغ قوله تعالى: ﴿فَإِنْ أَعْرَضُوا فَقُلْ أَنْذَرْتُكُمْ صَاعِقَةً مِثْلَ صَاعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ ^(١٣)﴾ فأمسك عتبة على فم النبي ﷺ، وقال له: ناشدتك الله

(١) قوله تعالى (عاد وثمود) عدما آية الكوفي والحجازي، أي: المدني الأول والأخير والمكي، وأسقطها غيرهم من العدد.

والرحم. لقد أخذه جلال الموقف، ورهبة النذير، فلم يستطع مواصلة الاستماع.

وكان هذا العذاب الذي أصاب قبيلتي عاد وثمود، حين جاءتهم رسل الله هود وصالح عليه السلام وغيرهما، يتبع بعضهم بعضًا متوالين، ودعوتهم جميعًا واحدة حيث بلغتهم تعاليم الرسل السابقين، ورأوا بأعينهم الرسل المتأخرين، فكان الرسل جميعًا قد خاطبهم، وقالوا لهم: لا تعبدوا إلا الله، ولا تشركوا به شيئًا، فردّوا رسالتهم وكذبوهم، وهؤلاء الرسل لم يتركوا وسيلة من الوسائل إلا دعّوهم بها إلى الله تعالى، فجاءوهم من أمامهم ومن خلفهم، ومن كل جهة - شأن الحريص على الأخذ بيد صاحبه إلى طريق النجاة - يدعونهم إلى توحيد الله تعالى وإفراده بالعبادة ﴿إِذْ جَاءَهُمُ الرُّسُلُ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ﴾ أي: أن الرسل اجتهدوا في هدايتهم، واستعملوا مع المكذبين كل حيلة، وجاءوهم من كل جهة، وبيّنوا لهم الطريق إلى الله تعالى بأساليب متعددة، وأدلة واضحة، وأنذروهم بعذاب الدنيا والآخرة، وأمروهم بما أمرت به الرسل أممها، فكان الرسل جميعًا قد جاءوهم؛ لأن دعوتهم واحدة.

فكان جواب قوم عاد وثمود لأنبيائهم أن قالوا لهم: ما أنتم إلا بشر مثلنا، ولو أراد الله أن يرسل إلينا رسلًا لأنزل ملائكة، فهم يزعمون أن الرسل لا تكون من البشر ﴿قَالُوا لَوْ شَاءَ رَبُّنَا لَأَنْزَلَ مَلَائِكَةً﴾ من السماء، وأرسلهم إلينا يدعوننا إلى ذلك، ولم يرسلكم، فأنتم بشر مثلنا ﴿فَإِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ﴾ جاحدون لرسالتكم وما تدعوننا إليه، وليس من شرط الرسالة أن يكون الرسول ملكًا، وإنما شرط الرسالة أن يأتي الرسول بما يدل على صدقه، وأن يكون بلسان قومه، وأن يكون صالحًا للتلقى عنه، وفي استطاعتهم مخاطبته ورؤيته.

عَاقِبَةُ الطَّغْيَانِ وَالتَّضَرُّدُ بِالْقُوَّةِ فِي كُلِّ زَمَانٍ (قَوْمُ عَادٍ وَقَوْمُ ثَمُودَ)

١٥- ﴿فَأَمَّا عَادٌ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَقَالُوا مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يَحْحَدُونَ﴾ (١٥)

فَصَلِّ عليه وسلم ما حل بعاد وثمود من العقوبة، فوصف أولًا حال قوم عاد بثلاثة أوصاف:

الوصف الأول: التكبر على الناس، وقد جاء هذا في قوله تعالى: ﴿فَأَمَّا عَادٌ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ﴾ أي: أن الذي منعهم من قبول الهدى هو استكبارهم وتعاضمهم، واحتقار الناس، وجحودهم بآيات الله، وكفرهم برسله، وقد صرفهم هذا التكبر عن الإيمان بالله تعالى، واتباع الرسول ﷺ وعن توقع عقاب الله تعالى لهم.

ومهما أوتي الإنسان من مغريات الحياة، كالمال والجاه، والعلم والسلطان والقوة، فإنه لا يخلو من جوانب النقص والضعف، فلا يوصف بالكبر، إذ الكبر من خصائص الله تعالى، وهؤلاء قد استغلوا على العباد بغير حق فاستحقوا عقاب الله تعالى.

الوصف الثاني: أنهم اغتروا بقوتهم ﴿وَقَالُوا مَن أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً﴾ وكانوا ذوي أجسام طوال، وقوة شديدة، ففتنوا بأجسامهم وأعجبته قوتهم حين هددهم (هود) بعذاب الله، وزعموا أنهم قادرون على دفع ما ينزل بهم من عذاب، وكان اغترارهم بقوتهم باعثاً لهم على الكفر بالله تعالى، والتمرد على خلق الله سبحانه، وبلغ الأمر بهم أنهم قالوا: نحن نستطيع أن ندفع العذاب عن أنفسنا بفضل قوتنا.

قال أبو السعود: كانوا ذوي أجسام طوال، وخلقٍ عظيم، وبلغ من قوتهم أن الرجل منهم ينزع الصخرة ويقتلعها بيده من الجبل^(١).

قال تعالى مجيباً لهم: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّهُ الَّذِي خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً﴾ إنه قادر على أن ينزل بهم ما شاء من أنواع العقاب، فقدرة الله تعالى لا يستعصي عليها شيء، أي: أغفلوا عن قدرة الله تعالى ولم يعلموا أن الله الذي خلقهم وخلق جميع الكائنات هو أعظم منهم قدرة وقوة! فلولا خلق الله لهم لم يوجدوا، ولم يغتروا بقوتهم.

الوصف الثالث: أن قوم عاد جحدوا آيات الله تعالى وحججه فأنكروها ولم يؤمنوا بها ﴿وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ﴾ فكذبوا أدلة التوحيد في دعوى الرسل، ولم يؤمنوا بها، وكذبوا معجزات الرسل فلم يؤمنوا بها، وأصروا على العناد والكفر.

وهذه الأوصاف الثلاثة يتصف بها أمثال قوم عاد في كل زمان ومكان، ممن اغتروا بقوتهم وتفردوا بالهيمنة والطغيان في الأرض، واستعملوا (حق الفيتوا) في كل ما لا

(١) «تفسير أبي السعود» (٢١/٥).

يريدوه، ولم يسمحوا لغيرهم أن تكون لهم قوة تضارع قوتهم، والأيام دول ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهُ عَذَابًا عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ﴾ [إبراهيم: ٤٢] قال تعالى في وصف عذاب قوم عاد:

١٦- ﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِي أَيَّامٍ نَحْسَاتٍ^(١) لِنُدِيقَهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلِعَذَابُ الْآخِرَةِ أَخْزَىٰ وَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ﴾ ﴿١٦﴾

أي: فماذا كانت عقوبة قوم عاد؟ لقد كان الباعث على كفرهم هو اغترارهم بقوتهم، فأهلكهم الله بشيء يسير من جند الله تعالى لا يؤبه به، ولا يتوقع الناس أن يحصل الهلاك به، وهو الريح شديدة الصوت، أو شديدة البرد، تحرق الزرع والشجر كما تحرقها النار، ليعلم الناس أن الله تعالى شديد القوة، وأنه يضع القوة في الشيء الهين، كالريح، ليكون عذابًا وخزيًا، تحقيرًا لهم، وأي خزي أشد من أن تحملهم الريح فتقذف بهم هنا وهناك، كالريشة في مهب الريح؟! وأي خزي أشد من أن تلقى الريح هلكي جثًا هامة على التراب عن بكرة أبيهم، فيشاهد المارة صرعى، قد تقلصت جلودهم، وبلت أجسامهم كأعجاز النخل الخاوية؟

والريح التي أصابت قوم عاد هي الريح الدبور، التي تهب من جهة مغرب الشمس، وسميت دبورًا لأنها تهب من جهة دبر الكعبة، كما قال ﷺ في حديث ابن عباس ؓ: «نصرت بالصبا، وأهلك عاد بالدبور»^(٢).

والصبا : ريح تهب من مشرق الشمس إذا استوى الليل والنهار.

وكانت هذه الريح شديدة الهبوب بسبب قوة انضغاطها بطريقة غير معتادة في الهواء، فإن هذا الانضغاط يجعل الضعيف قويًا، قال تعالى: ﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا﴾ أي: ريحًا عاصفة لها دوي في هبوبها من شدة سرعة تنقلها، وهي قوية شديدة لها صوت

(١) قرأ نافع وابن كثير وأبو عمرو ويعقوب بإسكان الحاء من (نحسات) للتخفيف، والباقون بالكسر على الأصل؛ لأنه صفة لأيام.

(٢) البخاري (١٠٣٥، ٤١٠٥) ومسلم (٩٠٠)، و«المسند» (٢٠١٣، ٣٣٣٨) والنسائي في الكبرى (١١٦١٧)، والطبراني (٢٦٤١) وعبد بن حميد (٦٣٧) وابن حبان (٦٤٢١) والطبراني (١١٠٤٤).

كالرعد القاصف وقد أصابهم هذا العذاب ﴿فِي أَيَّامٍ نَّحْسَاتٍ﴾ أي: أيام سوء وشؤم، وبؤس شديد أصابهم مدة ثمانية أيام، كما قال تعالى: ﴿سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَنِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا﴾ [الحاقة: ٧].

وقد كان هذا النحس خاصًا بهم في هذه الأيام الثمانية من بين أبناء البشر.

وذكر بعضهم: أن هذه الأيام كانت في شهر شوال، وكان أولها يوم الأربعاء وآخرها يوم الأربعاء، وكان هذا العقاب ﴿لِنَذِيْقَهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ أي: عذاب الذل والهوان بسبب استكبارهم عن الإيمان، فقابل الله ذلك الاستكبار بإيصال الذل والهوان إليهم، وقد كانت هذه الريح العاتية شديدة البرودة، وشديدة الصوت والهبوب، تهلك الناس بشدة بردها وصوتها بسبب إصرارهم على الكفر ﴿فَتَرَى الْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَى كَأَنَّهُمْ أُغِجَازُ مُخْلِ حَاوِيَةٍ﴾ [٧] ﴿فَهَلْ تَرَى لَهُمْ مِّنْ بَاقٍ﴾ [٨] [الحاقة].

قال تعالى في وصف هذه الريح: ﴿فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضًا مُّسْتَقْبِلَ أَوْدِيَّتِهِمْ قَالَوا هَذَا عَارِضٌ مُّطَرًا بَلْ هُوَ مَا اسْتَعْجَلْتُمْ بِهِ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [٧٢] ﴿تُدَمِّرُ كُلَّ شَيْءٍ بِأَمْرِ رَبِّهَا فَأَصْبَحُوا لَا يُرَى إِلَّا مَسَكِنُهُمْ كَذَلِكَ نَجْزِي الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ﴾ [٧٥] [الأحقاف].

هذا عذاب الدنيا، أما عذاب الآخرة فإنه أشد وأنكى ﴿وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَخْزَى﴾ ذهولاً وهواناً ﴿وَهُمْ لَا يُصْزَوْنَ﴾ بمنع العذاب عنهم.

وقوم عاد موجودون في كل زمان، تمثلهم بعض دول الكفر في كل عصر ومصر بصلفها وقوتها وجبروتها وتفردتها بالكلمة!! ثم قال تعالى في وصف عذاب قوم ثمود:

١٨، ١٧ - ﴿وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَى عَلَى الْهُدَى فَأَخَذَتْهُمُ صَاعِقَةُ الْعَذَابِ الْهُونِ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ [٧] ﴿وَنَجَّيْنَا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَكَانُوا يَنْقُوتُونَ﴾ [٨]

أي: وأما قبيلة قوم ثمود الذين سكنوا الحِجْر وما حوله، وقد أرسل الله إليهم نبيه صالحاً ﷺ يدعوهم إلى توحيد الله تعالى وينهاهم عن الشرك، وقد أیده الله بالناقة، آية حسية عظيمة، خصها الله بالذكر لأنها كانت آية مبصرة باهرة، رآها صغيروهم وكبريهم، وذكرهم وأنثاهم، فكانت هذه الآية جديرة بأن تأخذ بأيديهم إلى الهدى، ولكنهم استحبوا العمى وهو الكفر والضلال على الهدى وهو العلم والإيمان، فقد بين الله تعالى لهم طريق

الرشد وسبيل الحق، قال تعالى: ﴿فَهَدَيْنَهُمْ﴾ هداية إرشاد ودلالة، أي أرسلنا إليهم نبيهم صالحًا، وأيدناه بمعجزة الناقة التي أخرجها الله لهم من الصخرة، وأقمنا لهم الأدلة على وحدانيته تعالى، من مخلوقاته العظيمة، فاختاروا طريق الضلال على طريق الهدى، واختاروا طريق العمى على الرشاد، وهذا معنى ﴿فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَىٰ عَلَى الْهُدَىٰ﴾ أي: اختاروا الكفر على الإيمان، واختاروا المعصية على الطاعة، وآثروا الغي على الرشد، فكان عقاب الله لهم، كما قال تعالى: ﴿فَأَخَذْتَهُمْ صَيعَةًُ الْعَذَابِ أَلْهَوْا إِنَّا كَانُوا يُكْسَبُونَ﴾.

والصاعقة: هي الصيحة التي تنشأ في كهربائية السحاب الحامل للماء، فتتقدح منها نار تهلك ما تصيبه، أخذتهم هذه الصاعقة بسبب البقاء على الكفر والضلال، وإعراضهم عن دعوة رسولهم وعن أدلة آياته.

وعذاب الهون: هو عذاب الذل والهوان، ولم يظلمهم الله شيئًا، ولكنهم اكتسبوا ذلك بأعمالهم. وقد نجى الله المؤمنين من قومي عاد وثمود، وكان هؤلاء المؤمنون الناجون من عذاب الله تعالى يخافون الله ويتقونه، قال تعالى: ﴿فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا صَالِحًا وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَمِنْ خِزْيِ يَوْمِئِذٍ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ الْقَوِيُّ الْعَزِيزُ﴾ [هود].

وقال عن قوم هود: ﴿وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا هُودًا وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَنَجَّيْنَاهُمْ مِنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ﴾ [هود].

شَهَادَةُ الْجَوَارِحِ وَالْأَغْضَاءِ عَلَى الْكَافِرِ فِي أَرْضِ الْمُخْشَرِ

ولما فرغ سبحانه من إنذار المكذبين أن يحلَّ بهم عذاب الله في الدنيا - كما حلَّ بأمثالهم - أنذرهم بعد ذلك بما يحلَّ بهم من عذاب الآخرة، فقال:

١٩- ﴿وَيَوْمَ يُخْشَرُ^(١) أَعْدَاءُ اللَّهِ إِلَى النَّارِ فَهُمْ يُوزَعُونَ﴾ [١٩]

أي: واذكر - يا محمد - يوم يجمع أعداء الله، ممن أشرك به وكذب رسله، وعاداهم وحاربهم، وكل من كذب رسل الله واستكبر عن عبادة الله فهو عدو لله، وأعداء الله

(١) قرأ نافع ويعقوب بنون العظمة في (يخشر) مع فتحها وضم الشين على البناء للفاعل (أعداء) بالنصب مفعولاً به، وقرأ الباقون بياء الغيبة المضمومة وضم الشين على البناء للمفعول، و(أعداء) بالرفع نائب فاعل.

يجتمعون في أرض المحشر، فيساقون إلى النار، وتردّ زبانية جهنم أولهم على آخرهم حتى يتلاحقوا ويجمعوا؛ وذلك لأن الحشر يستلزم كثرة عدد المحشورين، وكثرة العدد تستلزم الاختلاط، وتداخل بعضهم في بعض، فيحدث الازدحام، وهو تصنيفهم وردّ بعضهم عن بعض، حيث تكف الملائكة بعضهم عن بعض لتمنع الفوضى.

٢٠- ﴿حَتَّىٰ إِذَا مَا جَاءُوهَا شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَارُهُمْ وَجُلُودُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٢٠﴾﴾

هذا وصف لما يحصل بعد حشر الكفار إلى النار، وبعد حضورهم عندها، إنهم يحاسبون على أعمالهم وأقوالهم فينكرونها، وحينئذ تشهد عليهم جوارحهم وأجسادهم بما كتّمته الألسن من الشهادة على إشراكهم بالله تعالى وارتكاب كبائر الذنوب، وهي شهادة تكذيب وفضيحة.

وذلك أنهم لما رأوا النار اعتذروا، فأنكروا بعض ذنوبهم طمعاً في تخفيف العذاب عنهم، وحينئذ تشهد عليهم جوارحهم بما كانوا يصنعون، فيكون في هذا خزي وندامة لهم، وسوء اعتقاد في أن الله تعالى يعلم سرهم ونجواهم، كما تشهد عليهم الحفظة، ويقرؤون كتابهم بأنفسهم.

وتخصيص السمع والأبصار والجلود بالشهادة دون بقية الجوارح:

(أ) لأن السمع يختص بسماع القرآن، وتلقي دعوة الإسلام، فيشهد عليهم سمعهم بأنهم كانوا يصرفونه عن سماع الحق، كما قالوا: ﴿وَفِي ءَاذَانِنَا وَقْرٌ﴾.

(ب) أما البصر فإنه يختص بمشاهدة أدلة وحدانية الله تعالى في الكون، فعمي عن ذلك.

(ج) أما الجلد فلأنه غلاف للجسد كله، فشهادته على نفسه ليظهر استحقاقه للحرق بالنار، دون الاقتصار على السمع والبصر، حيث يختم على فيه، ثم يقال لجوارحه: انطق، فتنتطق بأعماله، ثم يُخلى بينه وبين الكلام، فيقول: «بُعْدًا لَكُنَّ وَسَحَقًا، فَعَنَكُن كُنْتُ أَنَا ضَلُّ» كما سيأتي في الحديث.

وقريب من هذه الآية قوله تعالى: ﴿يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ

﴿٢١﴾﴾ [النور] وفيها شهادة اللسان واليدين والرجلين؛ لأنها في مقام الشهادة على رَمَى

المحصنات، فاللسان قد تكلم، واليد قد أشارت وامتدت، والرجل قد مشت إلى تجمعات الناس، وإلى ارتكاب المعاصي.

والإنسان يستنكر شهادة الجوارح؛ لأنه لم يَألف منها النطق في الدنيا.

ثم إن الكفار يلومون جوارحهم، ويوبِّخونها، ويتعجبون منها على هذه الشهادة:

٢١- ﴿وَقَالُوا لَجُلُودُهُمْ لِمَ شَهِدْتُمْ عَلَيْنَا قَالُوا أَنْطَقَنَا اللَّهُ الَّذِي أَنْطَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾

أي: إن أعداء الله الذين يُحشرون إلى النار، يعاتبون جلودهم على شهادتها عليهم، فيسألونها: لِمَ شهدتم علينا ونحن نجادل وندافع عنكم؟ وَخَصَّ الجلود بالذكر لأنها تكون في مواجهتهم فيخاطبونها، وهذا يشمل جلد اليدين والرجلين، والبدن كله، وهم يظنون أن جلودهم لا يحق لها الشهادة عليهم؛ لأنها جزء منهم، وهذه الشهادة تجرُّ لها العذاب، ولا يتصورون أن هذه الجلود تنطق وتشهد عليهم، ولذا فإنهم يعترضون على شهادتها، فتعتذر الجلود بأن الشهادة قد خرجت منها بغير اختيار، وتقول: أنطقنا الله الذي أنطق الحيوان والجماد ﴿قَالُوا أَنْطَقَنَا اللَّهُ الَّذِي أَنْطَقَ كُلَّ شَيْءٍ﴾ فهو جلُّ شأنه لا يعجزه شيء، وكما أنطق الله اللسان في الدنيا، أنطق الجوارح في الآخرة، فليس في إمكاننا الامتناع عن الشهادة حين أنطقنا الله.

وهو الذي أوجدكم من العدم ﴿وَهُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ وإليه مصيركم بعد الموت للحساب والجزاء ﴿وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ فيحاسبكم على أعمالكم، ويحكم فيكم بحكمه العادل، فلا عجب من شهادته عليكم.

عن أنس بن مالك ؓ قال: ضحك رسول الله ﷺ ذات يوم وتبسم، فقال: «ألا تسألوني عن أي شيء ضحكت؟» قالوا: يا رسول الله، من أي شيء ضحكت؟ قال: «عجبت من مجادلة العبد ربه يوم القيامة، يقول: أي ربي، أليس وعدتني ألا تظلمني؟ قال: بلى، فيقول: فإني لا أقبل عليَّ شاهداً إلا من نفسي، فيقول الله تبارك وتعالى: كفى بنفسك اليوم عليك شهيداً وبالكرام الكاتبين شهوداً، قال: فيردُّ هذا الكلام مراراً، ويُختم

على فيه، وتكلم أركانه بما كان يعمل، فيقول: بُعْدًا لَكُنَّ وَشُحْقًا، فعنك كنت أجادل^(١). قال تعالى:

٢٢- ﴿وَمَا كُنْتُمْ تَسْتَرْوْنَ أَنْ يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلَا أَبْصَرُكُمْ وَلَا جُلُودُكُمْ وَلَكِنْ ظَنَنْتُمْ أَنَّ اللَّهَ لَا يَعْلَمُ كَثِيرًا مِمَّا تَعْمَلُونَ﴾ ﴿٢٢﴾

يحتمل أن يكون هذا من كلام الله تعالى، أو من كلام الجلود، أو من كلام ملك من الملائكة بإذن الله تعالى.

ومما ورد في معنى الآية أن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: اجتمع عند البيت ثقفيان قرشي، أو قرشيان وثقفيان، كثير شحم بطنهم، قليل فقه قلوبهم، فقال أحدهم: أترون أن الله تعالى يسمع ما نقول؟ قال الآخر: يسمع إذا جهرنا، ولا يسمع إن أخفينا، وقال الآخر: إن كان يسمع إذا جهرنا، فإنه يسمع إذا أخفينا؛ فأنزل الله الآية،^(٢).

والثقفى هو عبد ياليل وختناه، والقرشيان ربعة وصفوان ابنا أمية.

ويبدو أن النبي ﷺ تمثل قراءة هذه الآية، عندما أخبره ابن مسعود بكلام الثقفى والقرشين؛ لأنها تؤوّل قول ابن مسعود، وقد كان هؤلاء النفر مشركين يومئذ، وقد مات على الكفر منهم ربعة بن أمية؛ وذلك لأن الحديث السابق ليس سبباً لنزول الآية، وإنما هو متفق مع معناها^(٣).

أخرج الحاكم بسنده عن حكيم بن معاوية عن أبيه معاوية بن حيدة قال: قال رسول الله ﷺ: «تُحْشَرُونَ هَاهُنَا - وَأَوْماً بِيَدِهِ إِلَى الشَّامِ - مُشَاةً وَرُكْبَانًا وَعَلَى وَجُوهِكُمْ، وَتُعْرَضُونَ عَلَى اللَّهِ، وَعَلَى أَفْوَاهِكُمُ الْفِدَامَ، وَإِنْ أَوَّلَ مَنْ يُعْرَبُ عَنْ أَحَدِكُمْ فَخُذْهُ وَكُفِّهِ»، وتلا

(١) في «صحيح مسلم» برقم (٢٩٦٩) والنسائي في «السنن الكبرى» برقم (١١٦٥٣) ورواه ابن أبي الدنيا في «التوبة» برقم (١٨) من طريق مهران بن أبي عمر عن سفيان الثوري بنحوه.

(٢) البخاري (٤٨١٦، ٤٨١٧) ومسلم (٢٧٧٥) والترمذي (٣٢٤٨) و«المسند» (٤٢٣٨) و«سنن النسائي الكبرى» (١١٤٠٤).

(٣) يُنْظَرُ كلام ابن عطية وتعقيب ابن عاشور عليه في: «تفسير التحرير والتنوير» (٢٧/١١).

رسول الله ﷺ: ﴿وَمَا كُنْتُمْ تَسْتَرُونَ أَنْ يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلَا أَبْصَرُكُمْ وَلَا جُلُودُكُمْ﴾^(١).

ومعنى الفدام: أنهم يُمنعون من الكلام بأفواههم حتى تتكلم جوارحهم، والفدام في الأصل: خرقه توضع على فم الإبريق لتصفية الشراب الذي فيه، فهم مكممون ممنوعون من النطق.

ومعنى الآية: وما كنتم -أيها الكافرون- تستخفون في الدنيا عن شهادة أعضائكم عليكم وتحرزون منهم عند ارتكابكم المعاصي فتركوا فعلها، خوفاً من أن يشهد عليكم سمعكم وأبصاركم وجلودكم يوم القيامة.

ويصح أن يكون المعنى: وما كنتم تمتنعون ولا يمكنكم أن تمتنعوا من الاستتار عن جوارحكم عند ارتكابكم المعاصي، ولكن تجرأتم وظننتم بارتكابكم المعاصي أن الله لا يعلم كثيراً من أعمالكم التي تعصونه بها، وهو سبحانه عليم بأعمالكم ونياتكم، لا يخفى عليه شيء منها، إن جهرتم أو أسررتم.

ولم تكونوا تظنون أن جوارحكم ستشهد عليكم، وقد ظننتم أن الله تعالى لا يعلم كثيراً من القبائح المخفية فاجترأتم عليها، وما أوقعكم في هذا العذاب إلا سوء ظنكم بربكم ﴿وَلَكِنْ ظَنَنْتُمْ أَنَّ اللَّهَ لَا يَعْلَمُ كَثِيرًا مِمَّا تَعْمَلُونَ﴾ أي: ظننتم أنه يعلم ما ظهر دون ما خفي، وقد حملكم على هذا الظن جهلكم بجلال الله وصفاته، وكفركم باليوم الآخر، وما فيه من حساب وجزاء، واستبعادكم أن تشهد عليكم جوارحكم.

وفي الآية تنبيه للمؤمنين أن يعلموا أن الله تعالى لا تخفى عليه خافية، ولا يغيب عليه شيء من أقوالهم وأفعالهم، فهو سبحانه يعلم السر وأخفى. قال تعالى:

٢٣- ﴿وَذَلِكُمْ ظَنُّكُمُ الَّذِي ظَنَنْتُمْ بِرَبِّكُمْ أَرَدْتُمْ أَنْ تُصَبِّحْتُمْ مِنَ الْخُسْرَيْنِ﴾

بَيِّنَ ﷻ في هذه الآية سوء عاقبة الجاحدين المكذبين لله والرسول، وأن الذي أوردتهم المهالك، وتسبب في دخولهم النار، هو ظنهم السيئ بربهم، وزعمهم أنه سبحانه لا يعلم

(١) صححه الحاكم ووافقه الذهبي (٤٣٩/٢) وينحوه الترمذي وقال: حسن صحيح (٢٤٢٤) وصححه الألباني في «فضائل الشام» برقم (١٣) وأخرجه أحمد (٢٠٠٥٠، ٢٠٠١١) وعبد الرزاق (١٨٥/٢) و«سنن النسائي الكبرى» (١١٤٣١) وحسنه محققو المسند.

أعمالهم الخفية فلم يحذروه، وجراًهم ذلك على ارتكاب المعاصي، وهذا الظن الفاسد أوقعهم في كثير من الضلال، فظنوا أن الرسول ﷺ لا يكون بشراً، وأنكروا البعث والنشور، وأثبتوا الشركاء لله تعالى، وسارعوا في ارتكاب المعاصي، وقطعوا النظر عما وراء الحياة الدنيا، واستمروا المعاصي، وأمنوا العقوبة، وهذا الظن هو الذي أوقعهم في المهالك، فحققت عليهم كلمة العذاب ووجب عليهم الخلود الدائم في جهنم، وقد ذكر الله تعالى مثل ذلك في المنافقين، فقال: ﴿يُظُنُّونَ بِاللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ ظَنَّ الْجَاهِلِيَّةِ﴾ [آل عمران: ١٥٤].

فعلى المؤمنين أن يحذروا الوقوع في مثل هذه الأوهام، وقد جاء في الحديث: عن أبي هريرة أن النبي ﷺ قال: «ياكم والظن فإن الظن أكذب الحديث»^(١).

وهو الظن الذي لا دليل عليه، وقد كان هذا الظن سبب شقائهم وخسرانهم، حيث خسروا أنفسهم وأهليهم.

عن جابر رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «لا يموتن أحدكم إلا وهو يحسن الظن بالله، فإن قوماً قد أرواهم سوء ظنهم بالله»، فقال الله ﷻ: ﴿وَذَلِكُمْ ظَنُّكُمُ الَّذِي ظَنَنْتُمْ بِرَبِّكُمْ أَرَدْتُمْكَ فَأَصْبَحْتُمْ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ (٣٣) ^(٢).

ومعنى حسن الظن بالله: أن يظن العبد أن الله يرحمه ويعفو عنه. قال تعالى:

٢٤- ﴿فَإِنْ يَصْبِرُوا فَالنَّارُ مَثْوًى لَهُمْ وَإِنْ يَسْتَعْتِبُوا فَمَا لَهُمْ مِنَ الْمَعْتَبِينَ﴾ (١٤)

لقد زجَّ الظن السيئ بهؤلاء المشركين في النار، فإن صبروا أو لم يصبروا على حرها ولهيها فهم باقون فيها وليسوا بخارجين منها، وإن اعتذروا لم ينفعهم هذا العذر، ولم تُقبل منهم توبة ولا رجعة إلى الدنيا، فلا يسعهم إلا الصبر؛ لأن النار مَثْوًى لهم، فقال تعالى: ﴿فَإِنْ يَصْبِرُوا﴾ على العذاب أو لم يصبروا عليه ﴿فَالنَّارُ مَثْوًى لَهُمْ﴾ هي دارهم

(١) البخاري (٥١٤٣، ٦٧٢٤) ومسلم (٢٥٦٣).

(٢) مسلم (٢٨٧٧) و«المسند» (٢٨/٢٢) (١٤١٢٥) إلى شطره الأول، وهو حديث صحيح بإسناد قوي على شرط مسلم، ورجال ثقات (محققوه) والطيايلى (١٨٨٨) وعبد بن حميد (١٠١٣، ١٠٣٩) وأبو داود (٣١١٣) وابن ماجه (٤١٦٧) وابن حبان (٦٣٧، ٦٣٨).

ومأواهم، وكيف يكون الصبر على نار قد اشتد حرها حتى زادت على نار الدنيا بسبعين ضعفاً، مع ما فيها من شدة غليان وصديد وزمهرير ومقامع وسلاسل وأغلال، وخزنتها الغلاظ الشداد؟

قال تعالى ﴿وَإِنْ يَسْتَغِيثُوا﴾ أي: يطلبوا الرجوع والعودة إلى الدنيا ليستأنفوا العمل الصالح ﴿فَمَا هُمْ مِنَ الْمُعْتَبِينَ﴾ أي: لا يجابون إلى ذلك، ﴿وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ﴾ [الأنعام: ٢٨] وإن طلبوا الرضى عنهم فإنه لا يقع، ولا يقبل منهم عذر ولا ندم ولا توبة، بل لا بدّ لهم من النار.

سَبَبُ ضَلَالٍ مَنْ ضَلَّ

ثم وصف ﷺ حال أعداء الله وهم في الدنيا حين أغرتهم الشياطين بالمعاصي فتهانونا بحقوق الله، وأعرضوا عن دعوته، فحقّت عليهم كلمة الله بالعذاب، فقال تعالى:

٢٥- ﴿وَقِضْنَا لَهُمْ قُرْآنًا فَزَيَّنُوا لَهُمْ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَحَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ إِنَّهُمْ كَانُوا خَسِرِينَ﴾ (٢٥)

بيّن ﷺ في هذه الآية سبب ضلال أعداء الله من أهل النار، الذين شهد عليهم سمعهم وأبصارهم وجلودهم، وهو أن قرءاهم الملازمين لهم في الضلالة، من شياطين الإنس والجن، حسّنوا لهم أعمالهم القبيحة في الماضي والمستقبل ﴿وَقِضْنَا لَهُمْ قُرْآنًا﴾ أي: هيأنا وبعثنا لهم قرناء كانوا بمثابة الأصدقاء الملازمين للإنسان لا يفارقونه، فتسلطوا عليهم حتى أضلوهم وحملوهم على ارتكاب المعاصي.

والقيضُ في الأصل: هو قشر البيض، والتقييض: التيسير والتهيئة، كما قال تعالى: ﴿وَمَنْ يَعْشُ عَنْ ذِكْرِ الرَّحْمَنِ نُقَيِّضْ لَهُ شَيْطَانًا فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ﴾ (٢٦) وَإِنَّهُمْ لَيَصُدُّوهُمْ عَنِ السَّبِيلِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ مُّهْتَدُونَ ﴿٢٧﴾ [الزخرف].

وهؤلاء القرناء دعوهم إلى الملذات والشهوات المحرمة، فزيّنوا لهم ما بين أيديهم، أي: ما في الدنيا من الشرك والكفر وسائر المعاصي، كالقتل والزنى والربا، وأكل المال بالباطل، والميسر، وظلم الناس، وآفات اللسان، وما إلى ذلك.

وزيّنوا لهم ما خلفهم، أي: ما هو أمامهم من أمور الآخرة، فأنسوهم ذكرها، ودعوهم

إلى التكذيب بالمعاد، فكذبوا بالبعث والحساب والجزاء، والجنة والنار، قال تعالى ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّا أَرْسَلْنَا الشَّيَاطِينَ عَلَى الْكَافِرِينَ تَوَسُّمَهُمْ أَذًى﴾ [مریم] أي تدفعهم إلى المعاصي وتحملهم عليها، فيستجيون لهم ويتبعون خطواتهم، وهذا التسليط والتقييض بسبب إغراضهم عن ذكر الله وآياته، قال تعالى ﴿وَمَنْ يَعْمُرْ عَنْ ذِكْرِ الرَّحْمَنِ نُقَيِّضْ لَهُ شَيْطَانًا فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ﴾ [٣٦] ﴿وَلَا يَنْفَعُهُمْ عَنْ السَّبِيلِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ مُهْتَدُونَ﴾ [الزخرف] وبذلك وجب عليهم دخول النار، أي: وجب عليهم العذاب في جملة أمم سابقة من كفره الإنس والجن.

والقول الذي حق عليهم: هو وعيد الله لهم بالنار على كفرهم وتكذيبهم.

كما قال تعالى: ﴿فَحَقَّ عَلَيْنَا قَوْلُ رَبِّنَا إِنَّا لَذَائِقُونَ﴾ [الصافات].

وقال سبحانه: ﴿أَفَمَنْ حَقَّ عَلَيْهِ كَلِمَةُ الْعَذَابِ أَفَأَنْتَ تُنْقِذُ مَنْ فِي النَّارِ﴾ [الزمر].

وقال جل شأنه: ﴿قَالَ فَالْحَقُّ وَالْحَقُّ أَقُولُ﴾ [٨٤] ﴿لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنْكَ وَمَنْ بَعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [٨٥] [ص].

وقال أيضاً: ﴿قَالَ ادْخُلُوا فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِكُمْ مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ﴾ [الأعراف: ٣٨].

وهؤلاء الأشقياء المجرمون باتباعهم لشياطين الإنس والجن قد خسروا الدنيا والآخرة ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا خَسِرِينَ﴾ بسبب تكذيبهم وسوء أفعالهم، ولم يربحوا شيئاً.

ومن خسر، لا بد له أن يعذب ويشقى.

تَلْقِيْنُ الْكُفَّارِ نُظَرَائِهِمْ أَسَالِيْبَ الْإِغْرَاضِ عَنِ الدَّعْوَةِ

إن أعداء الله في كل زمان ومكان يرفضون القرآن، ويكرهون سماعه، ويحاولون التشويش عليه؛ حتى لا يصل إلى قلوب العباد:

٢٦- ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَسْمَعُوا لِهَذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [٦٦]

وبعد أن بيّن القرآن إغراض أعداء الله في أنفسهم عن الدعوة الإسلامية، انتقل إلى وصف تلقينهم الناس أساليب الإغراض:

قال ابن عباس رضي الله عنه: كان النبي ﷺ وهو بمكة إذا قرأ القرآن يرفع صوته، فكان أبو جهل وغيره يترددون الناس عنه، ويقولون لهم: لا تسمعوا له وألغوا فيه، فكانوا يأتون بالمكاء، والصفير،

والصياح، وإنشاد الشعر، والأراجيز، وما يحضرهم من الأقوال التي يصخبون بها.

قال أبو جهل: إذا قرأ محمد القرآن فصيحوا في وجهه؛ حتى لا يدري ما يقول^(١).

ورد أنهم قالوا لما استمعوا إلى قراءة أبي بكر رضي الله عنه، وكان رقيق القراءة: إنا نخاف أن يفتن أبناءنا ونساءنا.

والكفار القائلون هذا هم الذين قالوا ﴿قُلُونَا فِي أَكْثَرِ مِمَّا نَدْعُونَ إِلَيْهِ﴾ وهم أئمة الكفر والطغيان.

وكان سبب تحريضهم على الصياح أثناء قراءة القرآن، والتشويش على القارئ، والتخليط عليه بالتصفيق، ولغو الكلام، ورفع الصوت، أنهم علموا أن القرآن أكمل الكلام، وأفصح الألفاظ، وأشرف المعاني، وأبلغ التراكيب، وأيقنوا أن من يستمع إليه يقع في قلبه ويؤثر فيه، فدبروا هذه الحيل لمنع الناس من الاستماع إليه، خشية أن ترقّ قلوبهم له فيؤمنوا به، وهذا شأن أهل الضلال والباطل أن يكتموا أفواه الناس لصرفهم عن الحق.

﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَسْمَعُوا لِهَذَا الْقُرْآنِ﴾ أي: قال الكفار بعضهم يوصي بعضاً: لا تسمعوا لهذا القرآن ولا تطيعوه ولا تنقادوا لأمره، وأعرضوا عنه بأسماعكم، ولا تلتفتوا إليه، فإن اتفق أنكم استمعتم إليه فشوشوا عليه، ﴿وَأَلْفَوْا فِيهِ﴾ أي: أرفعوا أصواتكم بالصياح والتصفيق والصفير والتخليط على محمد ﷺ إذا قرأ القرآن؛ حتى يصير لغواً غير مفهوم ﴿لَعَلَّكُمْ تَعْلَمُونَ﴾ قرأه فيتركه، وتتصرفون عليه فيسكت ويكف عنه، وكلامهم هذا دليل واضح على خوفهم من تأثير القرآن في القلوب؛ حتى لا يُسلموا كغيرهم، وهذا يدل على عجزهم عن معارضة القرآن، ولذا: فقد لجؤوا إلى هذه الطريقة لصرف الناس عن سماعه، وأنهم إذا استمعوا إليه فإنهم لا يغلبن.

الْوَعِيدُ الشَّدِيدُ بِعَذَابِ الْكَافِرِينَ

ويوم الحساب يندم الكفار على لغوهم في القرآن:

٢٧- ﴿فَلَنَذِقَنَ الَّذِينَ كَفَرُوا عَذَابًا شَدِيدًا وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَشْوَأَ الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾

يُبين سبحانه في هذه الآية عقاب المستهزئين بالقرآن، المعرضين عنه، الصارفين غيرهم عن

(١) «تفسير القرطبي» (١٥/٣٥).

سماعه وهو وعيد لجميع الكفار، أي: والله لتعذبنهم عذاباً شديداً، يهينهم ويدلهم في الدنيا والآخرة، ولنجزينهم جزاءً مماثلاً على أسوأ ما كانوا يعملون من الكفر والمعاصي، قال تعالى:

٢٨- ﴿ذَلِكَ جَزَاءُ^(١) أَعْدَاءِ اللَّهِ النَّارُ لَهُمْ فِيهَا دَارُ الْخُلْدِ جَزَاءُ^(٢) بِمَا كَانُوا يَكُونُونَ

أي: إن هذا العذاب الشديد الذي يذيقه الله للكافرين، هو جزاء عادل لأعداء الله على أقبح أعمالهم التي عملوها في الدنيا وهو الشرك بالله تعالى، ومحاربة الله ورسوله بالكفر والتكذيب والمجادلة يلقونه في نار جهنم التي أعدها الله لهم، يُخلَّدون فيها ولا يخرجون منها ولا يفتر عنهم من عذابها، جزاء لكفرهم بالقرآن واستهزائهم به، فهم يُجزون على مساوئ أعمالهم ولا يُجزون على محاسنها كصلة الرحم وإكرام الضيف، فأى عمل صالح منهم فهو باطل لا أجر عليه مع الكفر.

وهذا الجزاء الذي أعده الله لأعدائه في الآخرة، هو النار ﴿لَهُمْ فِيهَا دَارُ الْخُلْدِ﴾ أي: دار الإقامة والخلود الدائم، جزاء بما كانوا ينكرون حججنا وأدلتنا الواضحة على وحدانيتنا، فأعظم الظلم وأكبر العناد جحدوها والكفر بها.

(وفي الآيات دليل على عظيم جرم من صرف الناس عن القرآن العظيم بأي وسيلة كانت، وصدَّهم عن تذييره وهدايته بأي أسلوب، وسمَّى لغوهم بالقرآن جحوداً؛ لأنهم لمَّا علموا أن القرآن بالغ إلى حد الإعجاز خافوا إن سمعه الناس أن يؤمنوا به، فاخترعوا تلك الطريقة الفاسدة، وذلك يدل على أنهم علموا كونه معجزاً إلا أنهم جحدوه حسداً^(٢)).

أَهْلُ النَّارِ يَطْلُبُونَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ الْإِنْتِقَامَ مِمَّنْ أَضَلُّوهُمْ

٢٩- ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا رَبَّنَا أَرْنَا^(٣) الَّذِينَ^(٤) أَضَلَّانَا مِنَ الْجِنَّ وَالْإِنْسِ نَجْعَلُهُمَا تَحْتَ أَقْدَامِنَا

(١) قرأ نافع وابن كثير وأبو عمرو وأبو جعفر ورويس بإبدال الهمزة الثانية واواً، والباقون بتحقيقها.

(٢) «التفسير الكبير» (٢٧/١٢٠).

(٣) قرأ ابن كثير وابن ذكوان وشعبة ويعقوب بإسكان الراء من (أَرْنَا) وأبو عمرو بالإسكان والاختلاس، وهشام بالإسكان والكسر، والباقون بالكسر.

(٤) قرأ ابن كثير بتشديد النون من (الذين) مع القصر والتوسط والمد في الياء وصلّاً ووقفاً، والباقون بالتخفيف مع القصر وصلّاً، ومع الأوجه الثلاثة وقفاً، والمراد بالقصر وصلّاً هنا: إسقاط حرف المد بالكلية، أما في الوقف فيراد به: المد بمقدار حركتين.

لِيَكُونَا مِنَ الْأَسْفَلِينَ ﴿٢٩﴾

أي: أن الكفار - وهم يتقلبون في النار - يطلبون أن يروا بأعينهم الأتباع الذين تسببوا في ضلالهم في الدنيا وقادوهم إلى الضلال من الجن والإنس، وهم الشياطين الذين كانوا يسؤلون لهم الكفر والمعاصي، والرؤساء الذين كانوا يحسنون لهم الشرك والخطايا؛ يطلبون أن يروهم ليهينوهم ويذلّوهم، كما أضلوهم وفتنوه في الدنيا، ولينتقموا منهم ويتشفّوا فيهم بوطنهم تحت أقدامهم، حقًا عليهم فيطلبون رؤيتهم؛ لأنهم لم يروهم معهم في النار، حيث يكونون في دركات من النار أسفل من دركات أتباعهم، فهم معهم في النار، ولكنهم لم يعرفوا أين هم؟

وفي موضع آخر يطلبون مضاعفة الجزاء لهم، كما قال تعالى: ﴿حَتَّىٰ إِذَا آذَرَكُمُ فِيهَا جَمِيعًا قَالَتْ أُخْرِهِمْ لَأُولَهُمْ رَبَّنَا هَؤُلَاءِ أَضَلُّونَا فَآتِهِمْ عَذَابًا ضِعْفًا مِّنَ النَّارِ قَالَ لِكُلِّ ضِعْفٌ وَلَكِن لَّا تَعْلَمُونَ﴾ [الأعراف: ٣٨].

والمراد: الذين أغواوا المشركين وأضلوهم من الجن والإنس، كما جاء في قوله تعالى: ﴿رَبَّنَا آتِهِمْ ضِعْفَيْنِ مِّنَ الْعَذَابِ وَالْعَنَتُمْ لَعْنًا كَبِيرًا﴾ [الأحزاب].

وجاء في هذه السورة أنهم طلبوا رؤيتهم ليهينوهم ويذلّوهم، فقالوا: ﴿تَجْعَلُهُمَا تَحْتَ أَقْدَامِنَا لِيَكُونَا مِنَ الْأَسْفَلِينَ﴾ أي: في الدرك الأسفل من النار، أو ليكونا من الأذلين المهانين، وفي هذا بيان لما تكنه صدورهم لهم من الحقد والضغينة، ومن تبريء بعضهم من بعض.

وقد علموا - من غضب الله عليهم - أنه سبحانه أشد غضبًا على من أضلوا غيرهم، فأرادوا تيسير تمكنهم من الانتقام منهم، قال تعالى: ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ زِدْنَاهُمْ عَذَابًا فَوْقَ الْعَذَابِ بِمَا كَانُوا يُفْسِدُونَ﴾ [النحل: ٨٨].

الْمَلَائِكَةُ تُطمِنُ أَهْلَ الْإِيمَانِ وَالْإِسْتِقَامَةِ وَتُبَشِّرُهُم بِالْجَنَّةِ

٣٠- ﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَمُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ﴾ ﴿٣٠﴾

وبعد استيفاء الكلام على عذاب المكذبين لله ورسوله، يتشوّف السامع إلى معرفة حظ المؤمنين ووصف حالهم، فقال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ﴾ وحده، فآمنوا به

وَوَحَّدُوهُ وَاعْتَقَدُوا ذَلِكَ اعتقادًا جازمًا ولم يخشوا أحدًا غيره ﴿ثُمَّ اسْتَغْفِرُوا﴾ على التوحيد ونبد الشرك، والعمل بشريعة الله تعالى، واستمروا على طاعته والإخلاص له، فكانوا مؤمنين حقًا، مسلمين صدقًا، متمسكين بها في عبادتهم، وفي سلوكهم وأخلاقهم، وأقوالهم وأفعالهم، وثبتوا على ذلك حتى الممات.

عن سفيان الثقيفي قال: قلت: يا رسول الله، قل لي في الإسلام قولًا لا أسأل عنه أحدًا غيرك، قال: «قل آمنت بالله ثم استقم»^(١).

وقد أمر الله نبيه بالاستقامة، فقال سبحانه: ﴿فَاسْتَقِيمْ كَمَا أُمِرْتَ﴾ [هود: ١١٢].

وأمر المشركين بالتوبة من شركهم والاستقامة على منهج الله تعالى، فقال تعالى: ﴿فَاسْتَقِيمُوا إِلَيْهِ وَاسْتَغْفِرُوهُ﴾.

وأمرنا سبحانه أن نفي بوعودنا وعهودنا مع من استقاموا معنا ووفوا بذلك، فقال جلَّ شأنه: ﴿فَمَا اسْتَقَمُوا لَكُمْ فَاسْتَقِيمُوا لَهُمْ﴾ [التوبة: ٧].

وقد فسر الخلفاء الأربعة معنى الاستقامة:

- ١- فقال أبو بكر رضي الله عنه في ﴿ثُمَّ اسْتَغْفِرُوا﴾: لم يُشركوا بالله شيئًا.
- ٢- وقال عمر رضي الله عنه: استقاموا على الطريقة لطاعته، ثم لم يروغوا روغان الثعالب.
- ٣- وقال عثمان رضي الله عنه: ثم أخلصوا العمل لله.
- ٤- وقال علي رضي الله عنه: ثم أدّوا الفرائض.
- ٥- ومن غير الخلفاء الأربعة، قال ابن عباس رضي الله عنهما: استقاموا على شهادة أن لا إله إلا الله.
- ٦- وكان الحسن يقول: اللهم أنت ربنا، فارزقنا الاستقامة.
- ٧- وقال أبو العالية: أخلصوا له العمل والدين.

ومقتضى الاستقامة أن يكون الإنسان وسطًا غير مائل إلى الإفراط أو التفريط.

(١) «صحيح مسلم» برقم (٣٨) والبخاري (١٠٠/٥) والنسائي في «السنن الكبرى» برقم (١١٤٨٩) و«المسند» (١٥٤١٦) (١٩٤٣١) بإسناد صحيح ورجال ثقات، والترمذي برقم (٢٤/١٠) وابن ماجه (٣٩٧٢) وابن حبان (٥٦٩٨) والبيهقي في الشعب (٤٩٢٢).

وعناية أقطاب الإسلام ببيان معنى الاستقامة، تشير إلى أهميتها في الدين.

ثم يبين سبحانه أن أهل الاستقامة تنزل عليهم الملائكة عند الاحتضار نزولاً خفياً، تحصل آثاره في نفوس المؤمنين بالأمن والطمأنينة والتثبيت، وصرف ما في نفوسهم من الخوف والحزن والفرع.

وهكذا فإن الملائكة تنزل عليهم عند الموت، كما في حديث البراء رضي الله عنه: «إن الملائكة تقول لروح المؤمن: اخرجي أيتها الروح الطيبة في الجسد الطيب، كنت تعمرينه، اخرجي إلى رَوْح وريحان، ورب غير غضبان»^(١).

كما تنزل عليهم الملائكة عند خروجهم من قبورهم.

فقد أخرج ابن أبي حاتم عن جعفر بن سليمان قال: سمعت ثابتاً قرأ سورة حم السجدة، حتى بلغ الآية، فوقف، فقال: بلغنا أن العبد المؤمن حين يبعثه الله من قبره، يتلقاه الملكان اللذان كانا معه في الدنيا، فيقولان له: «لا تخف ولا تحزن، وأبشِر بالجنة»، قال: فيؤمن خوفه، وتقر عينه.

وقال زيد بن أسلم: يبشرونه عند موته وفي قبره وحين يُبعث.

والآية تقتضي أن الملائكة تنزل عليهم أيضاً في وقت الحشر، لقوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ يُحْشَرُ أَعْدَاءُ اللَّهِ إِلَى النَّارِ فَهُمْ يُوزَعُونَ﴾^(٢) فالملائكة تتلقى أعداء الله بالوزع، وهو حبس الملائكة لهم حتى يكتملوا وينفصلوا عن المؤمنين، ونزول الملائكة على المؤمنين يكون بالأمن والبشرى ﴿تَنْزِلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ﴾ بالبشرى عند الموت وعند البعث. ﴿أَلَّا تَخَافُوا﴾ مما تقدمون عليه من أمور الآخرة ﴿وَلَا تَحْزَنُوا﴾ على ما فاتكم من أمور الدنيا من أهل أو ولد أو مال أو جاه.

والخوف: غم في النفس، ينشأ عن ظن حصول مكروه شديد يقع في المستقبل.

(١) من حديث طويل في «المسند» (١٨٥٣٤) وأوله: (إن العبد المؤمن إذا كان في انقطاع من الدنيا . . .).
إسناده صحيح ورجاله رجال الصحيح، وأخرجه ابن أبي شيبه (٣/٣١٠) والطبري في التفسير (٢٠٧٦٤) والحاكم (٣٧/١) وابن ماجه (١٥٤٩) وأبو داود (٣٢١٢) والطيالسي (٧٥٣) وقال الهيثمي في المجمع (٤٩/٣) وقال: هو في الصحيح باختصار، رواه أحمد ورجاله الصحيح.

والحزن: غمٌ في النفس، ينشأ عن وقوع مكروه، بفوات نفع أو حصول ضررٍ في الماضي.
 فيتنزل ملكان على كل مؤمن، هما الحافظان اللذان كانا يكتبان أعماله في الدنيا، ويُلقون في أنفس المؤمنين ما يصرفهم عن الخوف والحزن ويدكرهم بالجنة، كما قال تعالى: ﴿وَأَبَشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ﴾ بها في الدنيا، فإنهم واصلون إليها، مستقرون فيها، خالدون في نعيمها، فتحل فيهم السكينة، وتنشرح صدورهم بالراحة والطمأنينة؛ فلا يخافون غير الله تعالى، ولا يحزنون على ما يصيبهم، وهم فرحون بما يترقبون من فضل الله عليهم، فقد تحقق الأمن وزال الخوف، وبُشِّروا بالجنة تعجيلًا بمسرتهم.

قال في حاشية البيضاوي: إن الملائكة تنزل حين الاحتضار على المؤمنين بهذه البشارة: ألا تخافوا من هول الموت، ولا من هول القبر، وشدائد القيامة، وإن المؤمن ينظر إلى حافظيه قائمين على رأسه يقولان له: لا تخف اليوم ولا تحزن، وأبشر بالجنة التي كنت تُوعَد، وإنك سترى اليوم أمورًا لم ترَ مثلها فلا تهولَنَّك، وإنما يراد بها غيرك^(١).

قال مجاهد في الآية: ألا تخافوا مما تقدمون عليه من الموت وأمر الآخرة، ولا تحزنوا على ما خلقتكم من أمر دنياكم من ولد أو أهل أو دين، فإننا سنخلِّفكم في ذلك كله^(٢).

وعن أنس رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «من أحب لقاء الله أحب الله لقاءه، ومن كره لقاء الله كره الله لقاءه» قلنا: يا رسول الله، كلنا نكره الموت، قال: «ليس ذلك كراهية الموت، ولكن المؤمن إذا حضر جاءه البشير من الله بما هو صائر إليه فليس شيء أحب إليه من أن يكون قد لقي الله، فأحب الله لقاءه، وإن الفاجر والكافر إذا حضر جاءه بما هو صائر إليه من الشر، فكره لقاء الله، فكره الله لقاءه»^(٣)، ثم تقول الملائكة للمؤمنين:

٣١- ﴿نَحْنُ أَوْلَاؤُكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ وَلَكُمْ فِيهَا مَا نَشْتَهِي أَنْفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدْعُونَ﴾ (٣١)

أي: أن الملائكة يُعرفون أنفسهم للمؤمنين يوم لقاء الله، حتى يأنسوا بهم، وينشرحوا

(١) حاشية شيخ زاده على البيضاوي (٢٦١/٣).

(٢) أخرجه ابن المنذر وابن أبي حاتم كما في «الدر المنثور» (١٣/١٠٦).

(٣) «صحيح مسلم» (٢٦٨٤) و«المسند» (١٩/١٠٣) (١٢٠٤٧)، والنسائي في الكبرى (١٩٧٣)

عن أبي هريرة، وأبو يعلى (٣٨٧٧) والبزار (٧٨٠) كشف.

لهم، وتزول عنهم دهشة القدوم والاغتراب، فيقولون لهم: نحن الذين كنا نصحبكم في الدنيا، فكنا نكتب حسناتكم، ونشهد عند الله بصلاتكم، ونحثكم على الخير ونزيهه لكم، ونرهبكم من الشر ونقبّحه لكم، ونثبتكم في النوازل والمصائب، خصوصًا عند الموت، وفي القبر، ويوم الحشر، وعلى الصراط، فنحن الذين نتولى حفظكم ومعونتكم في أمور الدنيا والآخرة، ومن كان الله وليه فاز بكل مطلب، ونجا من كل مخافة، فالملائكة تعين على الحق، كما تعين الشياطين على الباطل، والثواب والعقاب منوط بعمل الإنسان وكسبه، والملائكة يرقبون ذلك ويسجلونه ويشهدون به.

كما في حديث أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «يتعاقبون فيكم ملائكة بالليل وملائكة بالنهار، فيسألهم ربهم وهو أعلم بهم: كيف تركتم عبادي؟ فيقولون: أتيناهم وهم يصلون، وتركناهم وهم يصلون»^(١).

وقد حفظ الملائكة العهد، فكانوا أعاونًا وأنصارًا للمؤمنين أيضًا، وهم في الآخرة يُسَدّدونهم ويؤنسونهم ويبشرونهم بالجنة بشارة المحب بفرح حبيب، الذي يسعى للمزيد، حتى يوصلوهم إلى جنات النعيم قائلين لهم: ﴿وَلَكُمْ فِيهَا﴾ أي: في الجنة ﴿مَا تَشْتَهُجْ أَنْفُسُكُمْ﴾ مما تختارونه وتقرّ به أعينكم ﴿وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدْعُونَ﴾ فكل ما يخطر على بالكم، وما تتمنونه في أنفسكم، وكل ما تطلبونه وتشتهونه تجدونه بين أيديكم حيث كنتم، وهذا الصنف من الملائكة خاص برفقة المؤمنين وحفظهم والعناية بهم، وهم في مقابلة قرناء الكافرين من الشياطين، ونعيم المؤمنين محض فضل من الله تعالى، فهو:

٣٢- ﴿تُزَلَّ مِنْ عَفْوٍ رَحِيمٍ﴾

أي: وما يُقدّم للضيف عند نزوله من مأكّل ومشرب ومكان وراحة، وثواب جزيل ونعيم مقيم هو حق الضيافة.

وأهل الجنة يُعطَوْنَ هذا النعيم رزقًا وضيافةً، مهياة لهم من ربّ واسع المغفرة، كثير الرحمة، حيث وفقهم لفعل الحسنات في الدنيا، ثم قبلها منهم وكافأهم عليها.

والتزّل: هو رزق النزّل الذي هو الضيف.

(١) البخاري (٥٥٥، ٧٤٨٦) ومسلم (٦٣٢) و«المسند» (٨١٢٠) وابن حبان (١٧٣٦) و«سنن النسائي الكبرى» (٤٥٩).

أَحْسَنُ الْأَقْوَالِ وَالْأَعْمَالِ

٣٣- ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّنْ دَعَا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحًا وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ ﴿٣٣﴾

لقد قال المشركون أسوأ الكلام حين قالوا لغيرهم: ﴿لَا تَسْمَعُوا لِهَذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا فِيهِ﴾ فصَدُّوا الناس عن سبيل الله، وحين عملوا أسوأ الأعمال، فأشركوا مع الله غيره، وهذا الأسوأ مفهوم من مقابلة الأحسن في قوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّنْ دَعَا إِلَى اللَّهِ﴾ أي: لا أحد أحسن قولاً، وأعظم منزلة، ممن دعا غيره إلى توحيد الله وعبادته وحده، فعلم الجاهل، ووعظ الغافل والمعرض، وأمر بالمعروف ونهي عن المنكر، ورغب الناس في طلب العلم وحُسن الخلق، وبر الوالدين وصلة الرحم، ونهاهم عن ضد ذلك، وأمرهم بالمحافظة على أداء ما كُلف به، فهذا خير ما يقوله إنسان لإنسان.

ولم يكتفِ بذلك بل أتبع هذه الدعوة بالعمل الصالح، الذي يجعله قدوة لغيره، فعمل صالحاً لدينه ودنياه بقوله وفعله، وجعل الإسلام دينه ومذهبه ﴿وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ المتقادين لأمر الله وشرعه، المسارعين إلى الخيرات وترك الشهوات.

والآية عامة في كل من دعا إلى شرع الله، وأدى فرض الله، وامثل أمره واجتنب نهيه، وكان من أمة محمد ﷺ، مسلم الديانة، فلا يوجد من هو أحسن منه قولاً، ولا أفضل عملاً، ولا أوضح طريقة.

والرسل هم أئمة الدعاة إلى الله تعالى على امتداد الزمان، ويأتي بعدهم كل من دعا إلى توحيد الله ونبذ الشرك وأهله.

ويدخل في ذلك المؤذنون دخولاً أولياً؛ لأنهم يدعون الناس إلى أعظم أركان الإسلام بعد الشهادتين، وقد جاء في الحديث عن معاوية ؓ: «المؤذنون أطول الناس أعناقاً يوم القيامة»^(١) وهم المؤذنون الصالحاء.

وفي الحديث عن عائشة ؓ أن النبي ﷺ قال: «الإمام ضامن، والمؤذن مؤتمن، اللهم

(١) من حديث معاوية في «صحيح مسلم» برقم (٣٨٧) وهو عند ابن أبي شيبة (٢٢٥/١) وابن ماجه (٧٢٥)، وصحيح ابن ماجه (٥٩٣).

أرشد الأئمة، واغفر للمؤذنين»^(١).

وفي حديث أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «المؤذن يُغفر له مدَّ صوته، ويصدقَّه كل رطب ويابس»^(٢).

على أن الأذان عند نزول هذه الآية لم يكن موجودًا؛ لأن السورة مكية، والأذان شرع بالمدينة بعد الهجرة، ولكن الآية تشملها بعمومها.

تلا الحسن البصري هذه الآية فقال: هذا حبيب الله، هذا وليُّ الله، هذا صفوة الله، هذا خيرة الله، هذا أحبُّ أهل الأرض إلى الله، أجاب الله في دعوته، ودعا الناس إلى ما أجاب الله فيه من دعوته، وعمل صالحًا في إجابته، وقال: إني من المسلمين، هذا خليفة الله^(٣).

وفي الآية حثٌّ على الدعوة إلى الله سبحانه، وبيان فضل العلماء الداعين إليه على بصيرة، وفق ما جاء عن رسول الله ﷺ، وكل من دعا إلى الله بطريقة من الطرق فهو داخل في هذه الآية. وللدعوة إلى الله تعالى مراتب

الأولى: دعوة الأنبياء إلى الله تعالى بالمعجزات، وبالحجج والبراهين، وبالسيف لمن لم يُسلم ووقف دون نشر الدعوة الإسلامية.

الثانية: دعوة العلماء بالحجج والبراهين، وبالحكمة والموعظة الحسنة لعامة المؤمنين، والجدال بالحسنى لأهل الكتاب.

الثالثة: دعوة المجاهدين في سبيل الله لنشر الدعوة، وفتح بلاد الكفر لإزالة العقبات من طريق الدعوة.

الرابعة: دعوة المؤذنين إلى الصلاة. وكل ذلك داخل في الآية.

(١) «المسند» (٢٣٢/٢) عن عائشة برقم (٢٤٣٦٣) وهو حديث صحيح لغيره (محققه)، وعن أبي أمامة برقم (٢٢٢٣٨) بشرطه الأول، وعن أبي هريرة برقم (٧١٦٩) بإسناد صحيح، وأخرجه ابن خزيمة (١٥٣٢) وأبو داود (٥١٨) والترمذي (٢٠٧) وهذا لفظهما عن أبي هريرة.

(٢) «صحيح سنن أبي داود» (٤٨٤) وابن أبي شيبة (٢٢٥/١) والمسند (٩٣٢٨، ٩٥٤٢) بأطول من ذلك، وهو حديث صحيح بطرقه وشواهد، بإسناد جيد، وأخرجه الطيالسي (٢٥٤٢) وابن ماجه (٧٢٤) وأبو داود (٥١٥) وابن حبان (١٦٦٦).

(٣) من «تفسير ابن كثير» للآية.

عِلَاجُ الْعَدَاوَةِ

٣٤- ﴿وَلَا تَسْتَوِ الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ﴾ (٢٤)

أرشد الله سبحانه في هذه الآية إلى ما يُسبب نجاح الدعوة بالنسبة لغير المسلمين، وما يُنمّي المحبة والمودة بين المسلم وأخيه، ويتضمن ذلك: الثناء على المؤمنين والذمّ للمشركين، والثناء على صاحب الخلق الحسن، والذم لصاحب الخلق السيئ، والتفاوت بينهما، فقال تعالى: ﴿وَلَا تَسْتَوِ الْحَسَنَةُ﴾ التي يرضى الله بها ويثيب عليها ﴿وَلَا السَّيِّئَةُ﴾ التي يبغضها الله ويعاقب عليها، أي: لا تستويان في ذاتهما، ولا في الآثار المترتبة عليهما، ولا يستوي فعل الحسنة مع فعل السيئة، ولا يستوي الإحسان إلى الخلق ولا الإساءة إليهم، لا في ذاتها ولا في وصفها ولا في جزائها ﴿هَلْ جَزَاءُ الْإِحْسَنِ إِلَّا الْإِحْسَنُ﴾ [الرحمن]

والحسنة تعم جميع أفراد جنسها، وأولاًها التوحيد، والدعوة إلى الله تعالى؛ لما فيها من المنافع الدينية والدنيوية، ويدخل فيها الصفح عمن أساء. والسيئة كذلك تستغرق جميع أفراد جنسها، وأولاًها الشرك، وكل دعوة سيئة مخالفة لشرع الله تعالى.

والدعوة إلى الله تعالى هي أحسن الكلام، وقد يقابل المحسن أو الداعي إلى الله تعالى بالإساءة وسوء الأدب، وحيث لا ينبغي للداعية أن يغضب ويثور، أو يقابل المدعوّ بالمثل، أو يقابل الشر بالشر، فإن الحسنة لا يستوي أثرها وقيمتها بالسيئة، وعندما تقابل السيئة بمثلها يزداد الطرف المقابل هياجاً وغضباً وتبجحاً.

وأعظم حسنة: هي كلمة التوحيد. وأعظم سيئة: هي الشرك بالله تعالى.

فلا تستوي حسنة الذين آمنوا وعملوا الصالحات، واستقاموا على شرع الله، وأحسنوا إلى خلق الله، وسيئة الذين كفروا بالله، وكذبوا رسله، وأسأوا إلى خلق الله.

وقد أمر سبحانه بمقابلة السيئة بالإحسان، وبالعفو والصفح عن أساء، فقال تعالى: ﴿ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ أي: ادفع بعفوك وصفحك وحلمك وإحسانك من أساء إليك، وقابل إساءته إليك بالإحسان إليه.

ثم بين سبحانه فائدة مقابلة السيئة بالحسنة، وما يترتب على هذه المعاملة، فبين أنها تقلب العداوة محبة، وتجعل العدو صديقاً، ذلكم قوله تعالى: ﴿فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ﴾ أي: إنك إن دفعت السيئة بالحسنة صار عدوك كالصديق القريب، خالص الصداقة في مودته ومحبه.

قال ابن عباس رضي الله عنه: أمر الله المؤمنين بالصبر عند الغضب، والحلم عند الجهل، والعفو عند الإساءة، فإذا فعلوا ذلك عصمهم الله من الشيطان، وخضع لهم عدوهم كأنه ولي حميم^(١).

وقد جمعت هذه الآية مكارم الأخلاق وأنواع الحلم، ومن ذلك البدء بالقاء السلام على من عرفت وعلى من لم تعرف، وحسن الأدب مع الصغير والكبير، والقريب والبعيد، وكظم الغيظ وعدم التشفي، والسماحة في البيع والشراء، والقضاء والاقتضاء.

وعن جابر بن عبد الله رضي الله عنه أنه لما نزل قوله تعالى: ﴿خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ﴾ [الأعراف] سأل النبي ﷺ جبريل عن تأويلها، فقال له: «حتى أسأل العالم»، فأتاه فقال: «يا محمد، إن الله يأمرك أن تصل من قطعك، وتعطي من حرمك، وتعفو عمن ظلمك»^(٢).

والله تعالى يأمر رسوله بذلك؛ لأن خلقه ﷺ منتهى الكمال البشري، كما قال ﷺ: «بعثت لأتمم صالح الأخلاق»^(٣).

(١) أخرجه الطبري (٤٣٢/٢٠) والبيهقي (٤٥/٧) وغيرهما.

(٢) أخرجه الطبري (١٥٥٥٩) مراسلاً، وابن حاتم كما في «تفسير ابن كثير» (٥٣١/٣)، وأخرجه ابن المنذر كما في الدر (٢٨٠/٣) والحدث شواهد دون ذكر جبريل أو نزول الآية.

(٣) من حديث أبي هريرة في مسند أحمد (٨٩٥٢) وفي لفظ (مكارم الأخلاق) وهو حديث صحيح بإسناد قوي، رجاله رجال الصحيح غير ابن عجلان فقد روى له مسلم متابعة، وهو قوي الحديث، وأخرجه البزار (٢٧٤٠) كشف، والطحاوي في شرح مشكل الآثار (٤٤٣٢) والبيهقي في الشعب (٧٩٧٨) والبخاري في الأدب المفرد (٢٧٣)، ومالك في الموطأ بلاغاً (٩٠٤/٢).

ولذا قالت عائشة رضي الله عنها: ما انتقم رسول الله ﷺ لنفسه قط، إلا أن تُتَّهَكَ حرَمَاتُ الله فيغضب لله ^(١)، وعلى الأمة أن تتخلق بأخلاق النبي ﷺ.

قال تعالى: ﴿وَحَزَنًا سَيِّئَةً سَيِّئًا مِثْلُهَا فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ﴾ [الشورى: ٤٠].

ومقابلة السيئة بمثلها هي العدل، وأفضل منها: كظم الغيظ، وأعلى من ذلك: العفو عن أساء، وأعلى الدرجات: الإحسان إلى من أساء.

قال ﷺ: ﴿وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾ [آل عمران: ١٣٤].

ووصف الله المؤمنين بقوله: ﴿وَيَذَرُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ﴾ [الرعد: ٢٢].

وقال جلَّ شأنه: ﴿ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ السَّيِّئَةِ﴾ [المؤمنون: ٩٦].

ووصف النبي ﷺ بأنه: لا يدفع السيئة بالسيئة، ولكن يعفو ويصفح.

والعداوة التي بين المشركين والنبي ﷺ هي عداوة في الدين.

ومعنى الآية على هذا: ﴿فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ﴾ لكفره، كأنه بعد الإحسان ﴿وَلَوْ حَبِيمٌ﴾

صديق محب أمّا من آمن بعد الكفر فليس بعدوً، كما زالت عداوة عمر رضي الله عنه للنبي ﷺ بعد إسلامه، حتى قال يوماً للنبي ﷺ: لأنّ أحب إليّ من نفسي التي بين جنبيّ.

وكما زالت عداوة هند بنت عتبة زوج أبي سفيان، إذ قالت للنبي ﷺ: ما كان أهل خباء أحب إليّ من أن يذلّوا من أهل خبائك، واليوم ما أهل خباء أحب إليّ من أن يعزّوا من أهل خبائك، فقال لها النبي ﷺ: «وأيضاً» أي: وستزيدن حباً.

وقال مقاتل: نزلت هذه الآية في أبي سفيان، كان عدوًّا للنبي ﷺ في الجاهلية فصار بعد إسلامه وليًّا مصافيًا له بالإسلام وبالمصاهرة التي وقعت بينه وبينه.

والآية عامة في اكتساب المودة بالإحسان، وأولى الناس بذلك هم الدعاة إلى الله تعالى، وأيضاً من له حق كبير على الإنسان كالوالدين والأرحام والأقارب والأصحاب، فعليه أن يقابل إساءتهم بالإحسان، وقطيعتهم بالوصل، وظلمهم بالعفو، وبغضهم

(١) مسلم (٢٣٢٧) و«المسند» (٢٤٠٣٤) بنحوه والنسائي في الكبرى (٩١٦٥) والطبراني في الأوسط (٧٦٤٧) والترمذي في «الشمائل» (٣٤١) مطولاً ومختصراً وانظر البخاري (٣٥٦٠).

بالحب، وجفاءهم باللين، وهجرهم بالمودة، وبُخلهم بالكرم، وهكذا، قال تعالى:

٣٥- ﴿وَمَا يُلْقِنَهَا إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُلْقِنَهَا إِلَّا دُو حَظِّ عَظِيمٍ﴾

أي: وما يوفق لهذه الخصلة الحميدة إلا من أجبر نفسه على ما يحبه الله تعالى وترك ما ييغضه: إن مقابلة السيئة بالحسنة تحتاج إلى قلب كبير، وصدرٍ رحب، وسماحة القادر على الإساءة، وتحتاج إلى مجاهدة النفس، والتحلي بالصبر في الأمور الشخصية، والدعوة إلى الله تعالى دون العدوان على العقيدة وفتنة المؤمنين.

أي: ولا يُوفَّق لهذه الخصلة الحميدة، ولا يُؤْتَى القدرة على مقابلة السيئة بالإحسان إلا من تحلى بالصبر على المكاره، وتحمل الأذى، وكظم الغيظ، والعفو والصفح.

ولا يحصل دفع السيئة بالحسنة إلا لصاحب نصيب وافر من الفضائل، والأدب الجم، والخلق الحسن، والاهتداء والتقوى، والتواضع، ولين الجانب، فأجبر نفسه على ما يحبه الله تعالى.

ولا يُوفَّق لدفع السيئة بالحسنة، إلا صاحب نصيب عظيم من السعادة في الدنيا والآخرة.

قال الحسن في الآية: والله لا يصيبها صاحبها حتى يكظم غيظاً، ويصفح عن بعض ما يكره^(١).

وقال أنس رضي الله عنه في معنى الآية: الرجل يشتمه أخوه فيقول: إن كنت صادقاً يغفر الله لي، وإن كنت كاذباً يغفر الله لك^(٢).

ورد أن رجلاً شتم أبا بكر بحضرة النبي ﷺ فسكت أبو بكر ساعة، ثم جاش به الغضب، فردّ على الرجل، فقام النبي ﷺ فتبعه أبو بكر وقال: يا رسول الله، قمت حين انتصرت، فقال: «إنه كان يرد عنك ملك، فلما قُرِبَتْ تتصرّ ذهب الملك وجاء الشيطان، فما كنت لأجالسه»^(٣).

فإذا صبر الإنسان نفسه، وامثل أمر ربه، وعرف جزيل ثوابه، وعلم أن مقابلة السيئة بمثلها لا تزيد العداوة إلا شدة، وأن مقابلتها بالإحسان لا تزيده إلا رفعه، فإن ذلك يُهَوِّن عليه الأمر، ويُرَغِّبه في الفضل، بل ويتلذذ به.

(١)، (٢) «الدر المنثور» (١٣/١١٥).

(٣) «تفسير ابن عطية» (٥/١٦).

عِلَاجُ الْغَضَبِ

٣٦- ﴿وَإِمَّا يَنْزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾

ولما ذكر الله سبحانه ما يقابل به العدو المسيء، من الناس بالإحسان، ذكر بعد ذلك ما يُدفع به العدو من الجن، وهو الاستعاذة بالله تعالى واللجوء إليه.

فقد يغضب الإنسان حين يقابل بالسيئة، فيقل صبره، أو يضيق صدره، فيجد في نفسه خواطر تدعوه إلى مقابلة السيئة بمثلها، فعليه في هذه الحالة أن يعلم أن ذلك نزغ من الشيطان، وأن دواءه أن يستعيذ بالله منه، فقد ضمن الله له أن يعيذه إذا استعاذه.

﴿وَإِمَّا يَنْزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ﴾ النزغ: شبيه النخس، شبه به الوسوسة، أي: وإما يُلقين الشيطان في نفسك وشوسة، تحملك على مجازاة المسيء بالإساءة أو أشد منها ﴿فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ﴾ أي: الجأ إليه واعتصم به، ولذ بجانبه ﴿إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ﴾ لاستعاذتك به ﴿الْعَلِيمُ﴾ بأمور خلقه جميعاً.

١- والاستعاذة سرٌّ من أسرار الاتصال بين العبد وربّه، كما قال ﷺ في حديث الأغر المزني: «إنه ليغان على قلبي، وإنني لأستغفر الله في اليوم مائة مرة»^(١).

٢- وفي الحديث القدسي عن أبي هريرة ؓ، عن النبي ﷺ: «إن الله تعالى يقول: من عادى لي ولياً فقد آذنته بالحرب، وما تقرب إلي عبدي بشيء أحب إلي مما افترضته عليه، ولا يزال عبدي يتقرب إلي بالنوافل حتى أحبه، فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به، وبصره الذي يبصر به، ويده التي يبطش بها، ورجله التي يمشي بها، ولئن سألني لأعطينه، ولئن استعاذني لأعيذه»^(٢).

٣- وفي الحديث: عن عبد الله بن مسعود ؓ أن النبي ﷺ قال: «إن للشيطان لمةً بآدم، وللملك لمةً، فأما لمة الشيطان فيإعاد بالشر، وتكذيب بالحق، وأما لمة الملك فيإعاد بالخير، وتصديق بالحق، فمن وجد ذلك فليعلم أنه من الله، فليحمد الله، ومن وجد

(١) «صحيح مسلم» (٢٧٠٢).

(٢) «صحيح البخاري» (٦٥٠٢).

الأخرى فليستعذ بالله من الشيطان»^(١).

قال تعالى: ﴿وَأِمَّا يَنْزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [الأعراف].
وعلاج النزغ كما قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِي أَنْفَقُوا إِذَا مَسَّهُمْ طَلِيفٌ مِّنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُمْ مُبْصِرُونَ﴾ [الأعراف].

فإن سؤل لك الشيطان ألا تعامل أعداءك بالحسنى، وزين لك الانتقام منهم، وقال لك: كيف تحسن إلى أعدائك، وفي الانتقام منهم قطع لكيدهم؟ فلا تأخذ بنزغه، وخذ بما أمرناك به، واستعذ بالله من أن يزللك الشيطان، فإن الله تعالى لا يخفى عليه أعداؤك، وهو يتولى جزاءهم.

٤- وقد كان النبي ﷺ إذا قام إلى الصلاة يقول: «أعوذ بالله السميع العليم من الشيطان الرجيم، من همزه ونفخه ونفثه»^(٢).

٥- وعن سليمان بن صرد ؓ قال: استب رجلان عند النبي ﷺ فاشتد غضب أحدهما، فقال النبي ﷺ: «إني لأعلم كلمة لو قالها لذهب عنه الغضب: أعوذ بالله من الشيطان الرجيم» فقال الرجل: أمجنون تُراني؟ فتلا رسول الله ﷺ: ﴿وَأِمَّا يَنْزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ﴾^(٣).

٦- وفي الحديث: عن أبي هريرة ؓ أن النبي ﷺ قال: «لا يُشِرْ أحدكم على أخيه بالسلاح، لا ينزع الشيطان في يده، فيلقه في حفرة من حفر النار»^(٤).

ولما كان الإعراض عن الجاهل أخف على النفس من الإحسان إلى المسيء، فقد أكدت الآية الأخيرة بضمير الفصل، والتعريف بالآلف واللام.

(١) النسائي في «السنن الكبرى» (١٠٩٨٥) والترمذي (٢٩٨٨) وابن حبان (٩٩٧).

(٢) الحديث في «سنن أبي داود» (٧٦٤، ٧٧٥) والترمذي (٢٤٢) وابن ماجه (٨٠٧) والبيهقي (٣٥/٢) والنسائي في «الكبرى» كما في «تحفة الأشراف» (٤٢٥٢) وصححه الألباني في صحيح ابن ماجه (٦٥٨) بنحوه عن ابن مسعود ؓ.

(٣) ابن أبي شيبه (٣٤٥/٨) وأحمد (١٨٣/٤٥) (٢٧٢٠٥) والبخاري (٣٢٨٢، ٦٠٤٨) ومسلم (٢٦١٠) وأبو داود (٤٧٨١) والنسائي في «الكبرى» (١٠٢٢٤) والحاكم (٤٤١/٢).

(٤) يُنظَر: البخاري (٧٠٧٢) ومسلم (٢٦١٧).

أَرْبَعٌ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ فِي الْكَوْنِ (الَّيْلُ وَالنَّهَارُ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ)

٣٧- ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ لَا تَسْجُدُوا لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ وَاسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَهُنَّ^(١)﴾ إِنَّ كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴿٣٧﴾

ولما تحدثت السورة عن خلق السموات والأرض في أولها على آيات الله الدالة على وحدانيته وكمال قدرته، انتقل هنا إلى الاستدلال بأحوال السموات والأرض، فابتدأ ببعض أحوال السماء، ومنها حال الليل والنهار، وطلوع الشمس والقمر، وثنى ببعض أحوال الأرض في قوله تعالى: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْكَ تَرَى الْأَرْضَ خَاشِعَةً﴾ الآية بعد التالية.

واختلاف الليل والنهار آية من آيات الله، لا يُقَدَّر عليها إلا الله، وحركة الشمس والقمر المستمرة المنتظمة لا يقدر عليها إلا الله ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ﴾ أي: ومن العلامات الدالة على عظمة الله وحكمته، ومن حجج الله تعالى على خلقه، ودلائله الدالة على وحدانيته وكمال قدرته: اختلاف الليل والنهار، واختلاف الشمس والقمر وتعاقبهما، وتسخيرهما لمصالح العباد، وهي آيات عجيبة تسير بنظام محكم، وتؤدي وظيفتها أداءً دقيقاً ﴿لَا الشَّمْسُ يَنْبَغِي لَهَا أَنْ تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلَا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾ [يس]. وكل ذلك تحت تسخيريه وقهره سبحانه.

وما دامت الشمس والقمر من مخلوقات الله تعالى، فإن المخلوق لا يُعبد، ولا يصح أن يكون شريكاً للخالق في العبادة، ولا يُسجد له، وإنما يُسجد للخالق المبدع ﴿لَا تَسْجُدُوا لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ﴾ فإنهما مخلوقان مُدَبَّران ﴿وَاسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَهُنَّ﴾ إِنَّ كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴿ولا تشركوا معه غيره.﴾

عن عائشة ؓ قالت: كُسِفَتِ الشمس على عهد رسول الله ﷺ، فقام النبي ﷺ فصلّى بالناس، فأطال القراءة، ثم ركع فأطال الركوع، ثم قام فأطال القيام وهو دون القيام الأول، ثم ركع فأطال الركوع وهو دون ركوعه الأول، ثم رفع رأسه فسجد سجدين، ثم قام فصنع في الركعة الثانية مثل ذلك، ثم قام فقال: «إن الشمس والقمر لا يخسفان لموت أحد ولا

(١) وقف يعقوب بهاء السكت على (خلقهن).

لحياته، ولكنهما آيتان من آيات الله يريهما عباده، فإذا رأيتم ذلك فافزعوا إلى الصلاة»^(١).

والذين عبدوا الشمس والقمر هم الصابئة، بعد أن كانوا موحدين، ومنعهم من العراق، وكانوا يزعمون أنهم يقصدون بالسجود لهما السجود لله تعالى، فنهوا عن ذلك، وكان هذا في زمن إبراهيم عليه السلام حيث حاجهم في عبادة الليل والشمس والقمر.

ثم ظهرت عبادة الشمس في سبأ، كما جاء في قصة بلقيس أنهم يسجدون للشمس من دون الله، ولما تهوّد أهل سبأ بقيت آثار عبادة الشمس في بعض بلاد العرب، فكان من أصنام العرب صنم اسمه الشمس، وبه سمّوا عبد شمس، وكان هذا الصنم يعبد بنو تميم وضبة وتيم وعُكل وأد.

وقيل: إن بعض كنانة عبدوا القمر، وكان بعض الناس يسجدون للشمس والقمر، يزعمون أنهم يسجدون لله كالصابئين، فنهاهم الله عن ذلك، وأمرهم أن يخصوه بالعبادة^(٢)، ثم قال الله تعالى لرسوله ﷺ:

٣٨- ﴿فَإِنْ اسْتَكْبَرُوا فَالَّذِينَ عِنْدَ رَبِّكَ يُسَبِّحُونَ لَهُ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَهُمْ لَا يَسْأَمُونَ﴾ ﴿٣٨﴾

أي: فإن استكبر هؤلاء عن السجود لله تعالى، وصمّموا على السجود لغير الله، فالله تعالى غني عن عبادتهم، ومن مخلوقاته تعالى من يسجد له وينزّهه عما لا يليق بجلاله ليلاً ونهاراً بصفة مستمرة، لا يملّون ولا يفترون، يُنزهونه بالأقوال وينزهونه بالأعمال، كما قال تعالى: ﴿وَالْمَلَائِكَةُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ﴾ [الشورى: ٥].

وقال سبحانه: ﴿وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مِنْ دَابَّةٍ وَالْمَلَائِكَةُ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ﴾ ﴿٤٩﴾ يَخَافُونَ رَبَّهُمْ مِنْ فَوْقِهِمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ﴿٥٠﴾ [النحل].

وقال جلّ شأنه: ﴿إِنَّ الَّذِينَ عِنْدَ رَبِّكَ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ وَيُسَبِّحُونَهُ وَلَهُ يَسْجُدُونَ﴾ ﴿١٦٠﴾ [الأعراف].

هذا ما يشير إليه قوله تعالى: ﴿فَإِنْ اسْتَكْبَرُوا﴾ أي: إن استكبر هؤلاء المشركون المعرضون

(١) «صحيح البخاري» (١٠٥٨) و«صحيح مسلم» (٩٠١).

(٢) يُنظر: «التحرير والتنوير» (٢٤/٢٩٩).

عن السجود لله ﴿فَالَّذِينَ عِنْدَ رَبِّكَ﴾ وهم الملائكة ﴿لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ وَيُسَبِّحُونَهُ﴾ أي ينزهونه عن كل نقص، فهم ﴿يُسَبِّحُونَ لَهُ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَهُمْ لَا يَسْأَمُونَ﴾ أي: لا يفترون عن ذلك ولا يملئون، كما قال تعالى: ﴿يُسَبِّحُونَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ﴾ [الأنبياء: ٢١].

وقال تعالى: ﴿فَإِنْ يَكْفُرْ بِهَا هَؤُلَاءِ فَقَدْ وَكَلْنَا بِهَا قَوْمًا لَّيْسُوا بِهَا بِكَافِرِينَ﴾ [الأنعام: ٨٩].

وهنا موضع سجود تلاوة، بعد ﴿لَا يَسْأَمُونَ﴾ عند جمهور الفقهاء، وعند مالك وأصحابه أن السجود عند ﴿إِنْ كُنْتُمْ إِيَّاهُ تَقْبُورُونَ﴾.

إِحْيَاءُ الْأَرْضِ بَعْدَ مَوْتِهَا دَلِيلٌ عَلَى إِحْيَاءِ النَّاسِ مِنْ قُبُورِهِمْ

٣٩- ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ تَرَى الْأَرْضَ خَاشِعَةً فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ^(١) إِنَّ الَّذِي أَحْيَاهَا لَمُخِي الْمَوْتِ إِنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [٣٩]

ذكر الله سبحانه في هذه الآية بعض الأحوال الأرضية في الدلالة على انفراد الله تعالى بالخلق والملك والتدبير، لوجوب انفراده تعالى بالعبادة.

وكثيراً ما يُضرب هذا الدليل مثلاً على إمكانية البعث والنشور.

﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ تَرَى الْأَرْضَ خَاشِعَةً﴾ أي: ومن علامات وحدانية الله تعالى الدالة على كمال قدرته، وعلى وجوب العبادة له، أنك ترى الأرض يابسة جامدة ﴿فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ﴾ بقدرتنا من السماء، دبَّت فيها الحياة وتحركت بالنبات، وارتفعت وانتفخت بسببه، ثم تصدعت عنه.

وقد صورَّ الله الأرض وهي تتحرك بإخراج النبات منها، بصورة الإنسان الحي المتحرك، ليستدل بذلك على إحياء الموتى ﴿إِنَّ الَّذِي أَحْيَاهَا لَمُخِي الْمَوْتِ﴾ إن الذي أحيا هذه الأرض بالمطر وخروج النبات منها، لقادرٌ على إحياء الخلق بعد موتهم للحساب والجزاء ﴿إِنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ وكما لا تعجزُ قدرته تعالى على إحياء الأرض بعد موتها، فكذلك لا تعجز عن إحياء الموتى، ومثل ذلك قوله تعالى: ﴿وَتَرَى الْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنْبَتَتْ مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ﴾ [الحج: ٥].

(١) قرأ أبو جعفر (وربات) أي: ارتفعت، وقرأ غيره (وربت) أي: زادت.

وكذلك يُحيي الله الموتى بالماء النازل من السماء عند نفخة البعث، فكما لا تعجز قدرته تعالى على إحياء الأرض بعد موتها، لا تعجز عن إحياء الموتى يوم البعث والنشور.

الإِلْحَادُ فِي آيَاتِ اللَّهِ عَوَاقِبُهُ وَخِيَمَةٌ

٤٠- ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُلْحِدُونَ^(١) فِيْ ءَايَاتِنَا لَا يَخَفُونَ عَلَيْنَا أَفَنُيُلْقِي فِي النَّارِ خَيْرٌ أَمْ مَن يَأْتِي ءَامِنًا يَوْمَ الْقِيَمَةِ أَعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٤١﴾

أكثر سورة فصلت من ذكر الآيات الكونية الدالة على وحدانية الله تعالى، كالسما والأرض، والليل والنهار، والشمس والقمر.

وأكثر كذلك من الآيات القولية ﴿تَنْزِيلٌ مِّنَ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ﴿٢﴾ كِتَابٌ فُصِّلَتْ ءَايَاتُهُ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٣﴾﴾.

وبيّنت موقف الكفار المكذبين بالآيات الكونية في مثل قوله تعالى: ﴿قُلْ أَيُّكُمْ لَنَكْفُرَنَّ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ﴾.

كما بيّنت موقفهم من آيات القرآن في قوله سبحانه: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَسْمَعُوا لِهَذَا الْقُرْءَانِ وَالْغَوْا فِيهِ﴾.

وقد بيّنت الآية التي معنا أن من يَصْرِفُ آيات الله الكونية عن دلالاتها، ويُغْرِضُ عن سماع القرآن، ويَطْعُنُ في صحته، ويَصْرِفُ الناس عن الاستماع إليه، فهو غير خافٍ على الله تعالى، وسوف يعاقبه على ذلك، وهذا هو معنى الإِلْحَادِ في آيات الله، وهو يشمل الإِلْحَادَ في آيات الله الكونية والقولية:

﴿إِنَّ الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِيْ ءَايَاتِنَا﴾ أي: يميلون بها عن الصواب والحق، فيحرفون كلام الله تعالى، ويصرفونه عن معناه الحقيقي، ويضعونه في غير مواضعه، ويؤوّلونه تأويلاً فاسداً، فيكفرون بخالق الكون، مع قيام البراهين الساطعة على وجوده تعالى ووحدانيته.

ويُلْحِدُونَ في القرآن بتحريفه وتعطيل أحكامه، ويُلْحِدُونَ فيه بِاللَّغَطِ والمكاء والتضدية

(١) قرأ حمزة بفتح الباء والحاء من (يُلْحِدُونَ) مضارع لحد، وقرأ الباقون بضم الباء وكسر الحاء مضارع لحد.

عند تلاوته إعراضاً عنه، وصرفاً للناس عن اتباعه، أو إنكاراً وجوداً له، أو تكذيباً لما جاء فيه، هؤلاء الناس ﴿لَا يَخَفُونَ عَلَيْنَا﴾ فنحن مُطَّلَعُونَ عليهم، نعلم سرهم ونجواهم، وظاهرهم وباطنهم، وسوف نحاسبهم ونجازيهم على أقوالهم وأفعالهم، فهم ليسوا بغائبين عن بصرنا، وهم في قبضتنا وتحت قدرتنا، وهذا تهديد ووعد لهم.

ومن الإلحاد حمل ألفاظ القرآن على غير محلها أو تكذيبها.

قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: إن هذا القرآن كلام الله، فضعوه على مواضعه، ولا تتبعوا فيه أهواءكم^(١).

ثم بيّن سبحانه الفرق الشاسع بين مصير المؤمنين والكافرين، والملحدين وغير الملحدين، فقال: ﴿أَفَن يُلْقَى فِي النَّارِ خَيْرٌ أَمْ مَن يَأْتِي آمِنًا يَوْمَ الْقِيَمَةِ﴾ أي: أهذا الملحد في آيات الله، الذي يُطْرَح في جهنم أفضل، أم الذي يأتي يوم القيامة آمناً من عذاب الله، مستحقاً لثوابه لإيمانه به وتصديقه بآياته؟

ولما تبين الحق من الباطل، وطريق النجاة من طريق الهلاك، توعد الله سبحانه الملحدين في آياته وهددهم مرة أخرى، فقال: ﴿اعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ﴾ اسلكوا طريق الرشد أو اسلكوا طريق الغي، من أعمالكم القبيحة، فإنها لا تخفى على علام الغيوب ﴿إِنَّهُ يَمَّا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ لا يخفى عليه شيء من أعمالكم، وسيجازيكم عليها بجزائه العادل.

خَمْسَةُ أَوْصَافٍ لِلْقُرْآنِ الْكَرِيمِ

٤١- ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالذِّكْرِ لَمَّا جَاءَهُمْ وَإِنَّهُ لَكُنْتُ عَزِيزٌ ﴿٤١﴾﴾

والملحدون في آيات الله كافرون بالقرآن وما فيه، وهم ليُكْفَرهم جديرون بالعقوبة؛ لأن هذا القرآن إنما نزل ليُقتدى به، ويُهتدى بهديه، لا ليُجحد ويُطعن فيه ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالذِّكْرِ لَمَّا جَاءَهُمْ﴾ أي: جحدوا هذا القرآن حين جاءهم، ومألوا به عن الحق.

وخبر إن محذوف لتهويل الأمر، تقديره: خسروا الدنيا والآخرة، وهم هالكون معذبون بكفرهم.

(١) أخرجه أحمد في «الزهد» ص ٣٥.

وقيل: إن الخبر ﴿أُولَئِكَ يُنَادَوْنَ مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ﴾ وما بينهما سبع جمل معترضة، ثم وصف الله سبحانه القرآن بخمسة أوصاف:

الْوَصْفُ الْأَوَّلُ (أَنَّهُ ذِكْرٌ لِمَنْ كَانَ لَهُ قَلْبٌ)

إنه ذكر، يُذكر الناس بما يغفلون عنه مما فيه فوزهم وسعادتهم، وجاء هذا الوصف في قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالذِّكْرِ﴾ ويتفرع من معنى الذكر أن هذا القرآن ذكر للعرب، ومفخرة لهم بين الأمم لكونه نزل بلغتهم، كما قال تعالى: ﴿وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ﴾ [الزخرف: ٤٤]. وينتفع بهذا الذكر من كانت فطرته مستعدة لقبول الحق والعمل به، ولم يكن تعيساً شقيّاً، زائغاً عن قبول الحق، مطموس البصيرة.

الْوَصْفُ الثَّانِي (أَنَّهُ كِتَابٌ يَعْجَزُ الْخَلْقُ عَنْ مُعَارَضَتِهِ)

إنه كتاب عزيز ومنيع، عن أن يُعارض أو يغالب، أو يطعن فيه الطاعنون، مُنزّه عن كل عيب. والعزيز: هو النفس، عالي الشأن، قويُّ الحجة، يغلب ولا يُغلب، لا نظير له، عجز الخلق عن معارضته، عزيز بإعزاز الله له ﴿وَإِنَّهُ لَكِتَابٌ عَزِيزٌ﴾.

الْوَصْفُ الثَّالِثُ (أَنَّهُ كِتَابٌ لَا يُحَرَفُ وَلَا يُبَدَّلُ)

٤٢- ﴿لَا يَأْتِيهِ الْبُطْلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾

إنه كتاب لا يتطرق إليه الباطل ولا يخالطه، ولا يشتمل عليه بحال، بل ينتفي عنه الباطل في ظاهره وفي تأويله، فلا يوجد فيه ولا يداخله، وهو كتاب لا يقربه شيطان، ولا يتطرق إليه الشك، فقد تكفل الله بحفظه عند تنزيله، وفي ألفاظه ومعانيه، فالباطل لا يتطرق إليه من أية جهة من الجهات، لا بتحريف ولا بتغيير، ولا نقص ولا زيادة، وإنما هو محفوظ بحفظ الله تعالى، فلا يُبطله شيء، ولا تكذبه الكتب التي قبله، ولا يأتي بعده كتاب يُبطله، ولا تمتد إليه يد بالتحريف والتبديل ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ [الحجر: ٩].

الْوُصْفُ الرَّابِعُ (أَنَّهُ كِتَابٌ يَشْتَمِلُ عَلَى الْعِلْمِ وَالْحِكْمَةِ)

إنه كتاب مشتمل على الحكمة والمعرفة، فهو مُنَزَّل من حكيم في صنعه وتدبير أمور خلقه، حكيم في أفعاله وشرعه، يضع الأمور في نصابها، وينزلها منازلها، وهو حكيم في نهيه وأمره: ﴿تَنْزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ﴾ فكيف يأتيه الباطل، وقد أنزله صاحب الكمال المطلق والحكمة البالغة والصفات العليا؟

الْوُصْفُ الْخَامِسُ: (أَنَّهُ كِتَابٌ مُُنَزَّلٌ مِّمَّنْ يَسْتَحِقُّ الْحَمْدَ)

إنه كتاب مُنَزَّل من المحمود حمداً كثيراً، المستحق للحمد كله، والكلام يُحمد حين يجلب الخير ويدفع الشر، فلا يُطعن في لفظه ولا في معناه؛ لأنه مُنَزَّل من حكيم ﴿حَمِيدٍ﴾، فهو سبحانه محمود في صفاته وأفعاله وأفضاله، وهذا الكتاب يشتمل على جميع المصالح الدينية والدنيوية، يجلب المنافع ويدفع المضار، التي يُحمد عليها.

تَكْذِيبُ الرُّسُلِ سُنَّةٌ مَّاضِيَةٌ فِي الْأُمَمِ

٤٣- ﴿مَا يُقَالُ لَكَ إِلَّا مَا قَدْ قِيلَ^(١) لِلرُّسُلِ مِن قَبْلِكَ إِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ وَذُو عِقَابٍ أَلِيمٍ﴾

ولما وُصف القرآن بأنه لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، كأن سائلاً سأل: فما بال هؤلاء الذين ألحدوا في القرآن وكفروا به، فإنهم قد طعنوا فيه؟ فكان الجواب: إن هذه سُنَّةُ الأنبياء مع جميع الأمم، فإن كُلاً منهم لم يَعْدِم مَنْ عانده وجحد ما جاء به.

فما قاله الجاحدون لرسالتك، -أيها النبي- المعاندون للقرآن، مِنْ وَضْفِكَ بالسحر والكذب والجنون، قد قال مثله مَنْ قَبْلَهُمْ من الأمم لرسولهم، فقلوب المكذِبين متشابهة، ومقالاتهم متماثلة، كأنهم تواصلوا بها، وهذا كقولهم: ﴿إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا﴾ [إبراهيم: ١٠] واقترحهم الآيات على النبي ﷺ: كتفجير الأرض، وتفجير الأنهار في البساتين، أو يكون له بيت من زخرف ونحو ذلك.

فلست -أيها النبي- بدعاً من الرسل، لا في تكذيب القوم لك، ولا في تكذيب الدين

(١) قرأ هشام والكسائي ورويس بإشمام الكسر للضم في (قيل)، والباقون بالكسر الخالص.

الموحى به إليك .

﴿كَذَلِكَ مَا أَتَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا قَالُوا سَاحِرٌ أَوْ مُجُنُّونٌ ﴿٥٢﴾ أَتَوَاصَوْا بِهِ بَلْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُوتٌ ﴿٥٣﴾﴾ [الذاريات] .

وقد قيَّض الله للقرآن في كل زمان ومكان من يدفع عنه طعن الطاعنين وأقوال المبطلين .

وما دام الأمر كذلك فاصبر -يا محمد- على ما ينالك في سبيل الدعوة إلى الله تعالى من الأذى والتكذيب .

وفي هذا أبلغ تسلية للنبي ﷺ، فكأن الله تعالى يقول له: إن كان ما أصابك من أذى قد أصاب مثله إخوانك، فاصبر كما صبروا .

ثم حثَّ الله رسوله على التجاوز عما يناله من أذى ومن حُزن على ما يسمعه من المكذبين بدعوته، ووعدَه بأن يغفر له ويعفو عنه، جزاء ما لقيه من الأذى في ذات الله تعالى .

والآية على هذا تسلية للنبي ﷺ وتثبيت لقلبه حتى يصبر ويعلم أن ما يلقاه من مكروه في سبيل نشر الدعوة قد لقيه مَنْ تقدَّمه من الرسل، فليتأسَّ بهم، وليمضِ في طريقه، ولا يهتم بشأنهم .

ويصح أن يكون المعنى: ما يقال لك -أيها الرسول- من الوحي المنزل، وما تُخاطَب به من عند الله تعالى، قد قيل للرسول من قبلك، فاصبر كما صبروا .

ثم بيَّن سبحانه أن الله تعالى يغفر للطائعين من أتباع الرسل، فقال: ﴿إِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ﴾ لك ولذنوب التائبين .

ثم توعَّد الله تعالى من كفروا برسول الله، وفي طليعتهم من آذوا رسول الله ﷺ، فقال: ﴿وَذُو عِقَابٍ أَلِيمٍ﴾ أي: لِمَنْ أصرَّ على كُفْرِهِ وتكذيبه، ففوّض أمره إلى الله، فإنه سينتقم منهم، وفي هذا جماع الترغيب والترهيب، والوعد والوعيد .

اخْتِيَارُ اللِّسَانِ الْعَرَبِيِّ لُغَةً لِلرَّسَالَةِ الْعَامَّةِ

٤٤ - ﴿وَلَوْ جَعَلْنَاهُ قُرْءَانًا أَعْجَمِيًّا لَقَالُوا لَوْلَا فُصِّلَتْ آيَاتُهُ أَأَعْجَمِيٌّ^(١) وَعَرَبِيٌّ قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدًى وَشِفَاءٌ وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِي آذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى أُولَٰئِكَ يُنَادَوْنَ مِنْ مَّكَانٍ بَعِيدٍ﴾

ابتدأت السورة بتحدي المكذبين المعارضين، بإعجاز القرآن، وأبطلت مطاعنهم فيه، بقولهم: ﴿قُلُونَا فِي أَكْتَةٍ﴾ وقولهم: ﴿لَا تَسْمَعُوا هَذَا الْقُرْآنَ وَالْقَوَا فِيهِ﴾ كما أبطلت إلحادهم في القرآن وكُفْرهم به.

ثم عادت السورة في هذه الآية إلى بيان ما بدأت به من أن هذا الكتاب ﴿قُرْءَانًا عَرَبِيًّا﴾ فبيّنت هنا، أنه لو كان القرآن بغير لغة العرب لقالوا: لولا بيّنت آياته بلغة نفهمها ولا يخاطبنا بكلام أعجمي، والسؤال يدور بالنسبة لكل لغة فوق هذه الأرض.

وهذا يدل على أن القوم لا تُجدي معهم الحجة، ولا ينقطع لهم جدال؛ لأنهم لا يطلبون الحق، وإنما هو تعنت وعناد وترويج لأهوائهم.

وقد اقتضت حكمة الله تعالى أن ينزل كتابه عربياً على نبي عربي بلسان قومه ليبين لهم، ولو أنزله بغير لغة العرب لاعترض المكذبون.

والمعنى: ولو جعلنا هذا القرآن الذي أنزلناه عليك - يا محمد - أعجمياً بغير لغة العرب - لقال المشركون: هلاً بيّنت آياته، فنّفّقْه ونعلّمْه؟ فإننا عرب لا نفهم لغة العجم، فكيف يكون هذا القرآن أعجمياً، رغم أن الرسول الذي أنزل عليه عربي؟ أقرآن أعجمي ونبي عربي؟ ولو نزل بعض القرآن بلغة العرب وبعضه بلغة العجم لقالوا: هذا كلام مختلط.

وكان بعض الكفار يقول: هلاً أنزل هذا القرآن بلغة العجم؟ فأجيبوا بأنه لو كان الأمر كذلك لم تتركوا الاعتراض، ولصح لهم أن يقولوا: ﴿قُلُونَا فِي أَكْتَةٍ مِمَّا نَدْعُونَ إِلَيْهِ﴾

(١) قرأ قالون وأبو عمرو وأبو جعفر بتحقيق الهمزة الأولى وتسهيل الثانية مع إدخال ألف بينهما في (أعجمي) وحقق الأولى وسهل الثانية من غير إدخال ابن كثير وابن ذكوان وحفص، ولورش وجهان: الأول كحفص، والثاني إبدال الثانية ألفاً مع المد المشيع، وقرأ هشام بإسقاط الأولى وتحقيق الثانية، والباقيون بتحقيق الهمزتين بدون إدخال، ولا يجوز أن يُقرأ لحفص بتحقيق الهمزتين معاً، وتسهيل الهمزة الثانية يحتاج إلى تلقين وتدريب.

لأنَّا لا نفهمه ولا نحيط به، أما وقد نزل القرآن بلغتهم، فكيف يقولون ذلك؟ وهذا على سبيل الفرض.

قيل: إن رسول الله ﷺ كان يدخل على غلام يُسمى (يسار) وهو غلام عامر بن الحضرمي، وكان يهوديًا أعجميًا، يُكنَّى أبا فكيهة، فقال المشركون: إنما يُعلِّمه (يسار)، فضربه سيده، وقال: إنك تُعلِّم محمدًا؟ فقال: هو والله يعلمني، فأنزل الله الآية^(١).

وفي هذا يقول سبحانه: ﴿وَلَوْ نَزَّلْنَاهُ عَلَىٰ بَعْضِ الْأَعْجَمِينَ ﴿١٨٨﴾ فَقَرَأُوا عَلَيْهِمْ مَا كَانُوا بِهِ مُؤْمِنِينَ ﴿١٨٩﴾﴾ [الشعراء] أي: ولو نزلناه بلغة العرب على بعض الأعجمين فقرأه عليهم بلغة العرب - ما آمنوا به.

والآية تشير إلى عموم الرسالة للعرب والعجم، وذلك أنه لما اصطفى الله سبحانه الرسول عربيًا، وبعثه بين أمة عربية، كان أحق اللغات التي ينزل بها القرآن هي اللغة العربية، ولو نزل غيرها لاستوت لغات العالم في استحقاق ذلك، ووقع التحاسد بينهم، بخلاف العرب فقد كانوا في عزلة عن بقية الأمم^(٢).

وفي مقابل الذين قالوا ﴿أَعْجَمِيٌّ وَعَرَبِيٌّ﴾ يوجد المؤمنون الموفقون، الذين انتفعوا بالقرآن وارتفعوا به، وقد بين سبحانه ما تضمنه هذا القرآن، فقال: ﴿قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدًى وَشِفَاءٌ﴾ أي: هو هدى للمؤمنين من الضلالة والجهل والكفر، ومزيل لما في صدورهم من الشكوك والأمراض، وهو رحمة وشفاء لهم من الأسقام البدنية والقلبية، وفي هذا نهى عن مساويء الأخلاق، وحث على التوبة النصوح، وهي تغسل الذنوب وتشفى القلب، كما قال تعالى: ﴿وَنَزَّلْنَا مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الإسراء: ٨٢].

وقال سبحانه: ﴿يَتَأْتِيَ النَّاسَ قَدْ جَاءَتْكُمْ مَوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَاءٌ لِّمَا فِي الصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ [يونس].

أما غير المؤمنين فلا يزيدهم إلا خسارًا ﴿وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِي آذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى﴾ أي: في آذانهم صمم من سماعه وتدبره، وهو عمى على قلوبهم فلا يهتدون به،

(١) «تفسير الخازن» (٨٨/٤).

(٢) يُنظر: «التحرير والتنوير» (٣١٣/٢٤).

ولا ينتفعون بما فيه؛ وذلك لأن عنادهم في قبول القرآن كان سبباً لضلالهم، كما قال تعالى: ﴿وَإِذَا مَا أَنْزَلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُمْ مَن يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَذِهِ إِيمَانًا فَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا فَزَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿١١٤﴾ وَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَىٰ رِجْسِهِمْ وَمَاتُوا وَهُمْ كَافِرُونَ ﴿١١٥﴾﴾ [التوبة].

وعمى البصائر أشد ضرراً من عمى الأبصار، كقوله تعالى: ﴿فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِن تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ﴾ [الحج: ٤٦].

ونظراً لإعراض المشركين عن القرآن، فكأنهم يُنادون من مكان بعيد لا يصل إليه الصوت، قال تعالى: ﴿أُولَٰئِكَ﴾ أي: الذين لا يؤمنون بالقرآن ﴿يُنَادُونَ مِن مَّكَانٍ بَعِيدٍ﴾ أي: كمن يُنادى وهو في مكان بعيد لا يسمع داعياً ولا يجيب منادياً، ولا يفقه ما يقال له، كما قال تعالى: ﴿وَمَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا كَمَثَلِ الَّذِي يَنْعِقُ بِمَا لَا يَسْمَعُ إِلَّا دُعَاءً وَنِدَاءً صُمُّ بِكُمْ عُمًى فَهُمْ لَا يَهْتَفُونَ ﴿٧٧﴾﴾ [البقرة].

وذلك لأن الذين لا ينتفعون بهدي القرآن قد سدوا على أنفسهم أبواب الهدى بإعراضهم وكفرهم. وعنادهم، وإصرارهم على الجحود والعصيان.

اِخْتِلَافُ بَنِي إِسْرَائِيلَ فِي التَّوْرَةِ سَابِقٌ عَلَى اِخْتِلَافِهِمْ فِي الْقُرْآنِ

٤٥- ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ فَاخْتَلَفَ فِيهِ وَلَوْ لَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَفُضِيَ بَيْنَهُمْ وَإِنَّهُمْ لَفِي شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٍ ﴿١١٥﴾﴾

ثم أراد الله سبحانه أن يُسرِّي عن رسوله ﷺ فضرب له مثلاً بأن موسى عليه السلام قد أُوتي التوراة قبله، فاختلف فيها بنو إسرائيل، فكان منهم من آمن ومنهم من كفر، وكان اختلافهم في التوراة أشد من اختلاف أمتك في القرآن، فقد كفر بدعوة موسى: فرعون وقومه، وبعض بني إسرائيل كقارون، وكفر به الذين عبدوا العجل في غياب موسى، وكذا الذين آمنوا بالتوراة وعطلوا بعض أحكامها.

وقد عصم الله القرآن من مثل هذا الاختلاف؛ لأن الله تعالى تولى حفظه بنفسه، ولم يكُلْ حفظه للأخبار والرهبان.

﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ فَاخْتَلَفَ فِيهِ﴾ أي: آتينا التوراة كما آتيناك القرآن، فاختلف

فيها قومه، كما اختلف قومك عليك، فمنهم من آمن ومنهم من كذب، وهذه عادة قديمة في جميع الأمم مع جميع الرسل، فإنهم يختلفون في الكتب المنزلة على أنبيائهم.

ثم بين سبحانه أنه لولا قضاؤه تعالى بامهال المكذبين من أمته، وتأخير عقابهم إلى يوم القيامة، لأهلكهم في الدنيا بعذاب الاستئصال كالأمم السابقة، فقال تعالى: ﴿وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ لَفُضِيَ بَيْنَهُمْ﴾ وهذه الكلمة هي كلمة تأخير العقاب، والإمهال إلى يوم القيامة، لكل من نزل فيهم كتاب سماوي، كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ مِنْ بَعْدِ مَا أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ الْأُولَى﴾ [القصص: ٤٣].

فالأجل المسمى هو يوم القيامة، أي: لولا قضاء الله تعالى بتأخير العذاب عن قومك لفصل بينهم بإهلاك الكافرين في الحال، وإن هؤلاء المشركين لفي شك من القرآن لتبليد عقولهم، وعمى أبصارهم ﴿وَلِيَّتُهُمْ لَفِي شَكٍّ مِنْهُ﴾ أي: القرآن ﴿مُرِيبٍ﴾ شديد الريبة، فلذلك كذبوه وجحدوه، وسنة الله في خلقه لا تتخلف. قال تعالى:

٤٦- ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ﴾

أي: إن هذا الإمهال، إغذار من الله تعالى للمختلفين في كتابه ليتداركوا أمرهم، ولأن الله تعالى لا يعاقب غير المجرم، وهي آية عامة في كل من أصلح أو أساء ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ﴾ أي: من أطاع الله ورسوله، فأمن بالله تعالى وصدق برسول الله، وبما جاء به من عند الله، فإن ثواب عمله يعود عليه

﴿وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا﴾ أي: ومن عمل من السيئات فعصى الله ورسوله، فإن وزر عمله يعود عليه ﴿وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ﴾ لا يعذب غير المذنب، ولا يزيد في عقاب المسيء، ولا ينقص من أجر المحسن، وفي هذا حث على فعل الخير وترك الشر، وبيان أنه لا ترور وازرة وزر أخرى.

والظلم: هو الاعتداء على حقوق الله تعالى أو حقوق العباد، ومن تمام عدل الله تعالى أن جعل كل درجات الظلم في رتبة الظلم الشديد بالنسبة لله تعالى.

﴿بِظُلْمٍ﴾ ليست صيغة مبالغة، وإنما هي صيغة نسبة، مثل نجار وحداد وعطار، وليست صيغة مبالغة.

والله تعالى لا يظلم مثقال ذرة ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ النَّاسَ شَيْئًا﴾ [يونس: ٤٤].
﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ﴾ [النساء: ٤٠].

أَرْبَعُ مِنْ مَسَائِلِ الْغَيْبِ

٤٧- ﴿إِلَيْهِ يُرَدُّ عِلْمُ السَّاعَةِ وَمَا تَخْرُجُ مِنْ ثَمَرَاتٍ مِنْ أَكْمَامِهَا وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنْثَى وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِ وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ أَيْنَ شُرَكَائِيَ^(١) قَالُوا أَدْنَبْنَا مَا مِنَّا مِنْ شَهِيدٍ﴾ (٤٧)
لَمَّا ذَكَرَ اللَّهُ تَعَالَى تَأْجِيلَ عِقَابِ الْمَعَارِضِينَ لِلْقُرْآنِ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى هُوَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ، وَبَيَّنَّ أَنَّ الْعَمَلَ الصَّالِحَ وَالْعَمَلَ السَّيِّئَ يَعُودُ نَفْعُهُمَا عَلَى الْعَبْدِ وَحْدَهُ.

وَبَيَّنَّ سُبْحَانَهُ أَنَّ مِنَ الْعَمَلِ السَّيِّئِ إِنكَارَ الْبَعْثِ وَالنَّشُورِ، وَالْحِسَابِ وَالْجَزَاءِ.
وَكثِيرًا مَا كَانَ الْمُشْرِكُونَ إِذَا أُنْذِرُوا بِالْبَعْثِ اسْتَهْزَؤُوا بِهِ، وَاسْتَعْجَلُوا مَجِيئَهُ.
فَبَيَّنَّ جَلَّ شَأْنُهُ فِي هَذِهِ الْآيَةِ أَنَّ مَرَدَّ عِلْمِ وَقْتِ قِيَامِ السَّاعَةِ إِلَى اللَّهِ وَحْدَهُ، وَلَا سَبِيلَ لِلخَلْقِ إِلَى مَعْرِفَتِهِ، فَإِذَا سَأَلَ عَنْهَا سَائِلٌ، قِيلَ لَهُ: لَا يَعْلَمُ وَقْتُ قِيَامِهَا إِلَّا اللَّهُ.

﴿إِلَيْهِ يُرَدُّ عِلْمُ السَّاعَةِ﴾ أَي: إِلَى اللَّهِ وَحْدَهُ يُرْجَعُ عِلْمُ وَقْتِ قِيَامِ السَّاعَةِ، فَلَا يَعْلَمُ مَتَى تَقُومُ إِلَّا هُوَ، وَلَا يَعْلَمُهَا نَبِيٌّ مُرْسَلٌ وَلَا مَلَكٌ مُقَرَّبٌ، قَالَ تَعَالَى: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَلُهَا﴾ (٤٢) فِيمَ أَنْتَ مِنْ ذِكْرِهَا (٤٣) إِلَيَّ رَبِّكَ مُنْهَلَا (٤٤) [النازعات].

وَقَالَ سُبْحَانَهُ: ﴿قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ رَبِّي لَا يُجِيبُهَا لَوْفِهَا إِلَّا هُوَ يُفَلِّتُ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ لَا تَأْتِيكُمُ إِلَّا بَغْثَةٌ﴾ [الأعراف: ١٨٧].

وَلَمَّا سَأَلَ جَبْرِيلُ ﷺ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ عَنْ قِيَامِ السَّاعَةِ قَالَ: «مَا الْمَسْئُولُ عَنْهَا بِأَعْلَمَ مِنَ السَّائِلِ»^(٢).

وَلَمَّا سَأَلَ رَجُلٌ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ عَنْ مَوْعِدِ قِيَامِ السَّاعَةِ، صَرَفَ نَظْرَهُ إِلَى مَا هُوَ أَهَمُّ، فَقَالَ لَهُ: «مَاذَا أَعَدَدْتَ لَهَا؟» أَي: إِنْ اسْتَعْدَدْتَ لَهَا بِالْعَمَلِ الصَّالِحِ أَوَّلَى مِنَ السُّؤَالِ عَنْ مَوْعِدِهَا، وَلَيْسَ فِي عَدَمِ الْعِلْمِ بِوَقْتِ قِيَامِ السَّاعَةِ حُجَّةٌ عَلَى تَكْذِيبِ الرَّسُولِ ﷺ وَلَا نَفْيٌ لِمَجِيئِهَا،

(١) قرأ ابن كثير بفتح ياء الإضافة من (شركائي) وصلًا، والباقون بإسكانها.

(٢) من حديث الإسلام والإيمان والإحسان في الصحيحين.

ولذا: فإن الله تعالى ذكر لقيام الساعة ثلاثة نظائر في الآية لا علم لأحد بها، وهي:

أولاً: إن من أمور الغيب علم وقت خروج الثمرة من غلافها أو وعائها، حيث لا يعلم ذلك إلا الله تعالى ﴿وَمَا تَخْرُجُ مِنْ ثَمَرَاتٍ مِنْ أَكْمَامِهَا﴾ أي: لا تخرج الثمرة من أوعيتها إلا بعلم الله سبحانه، والأكمام: هي الأوعية التي تُخلق فيها الثمار، فكل ثمرة تُخلق في كُمٍ يحميها إلى أن تزهر، فتتضج، وتفتح الأكمام عن الثمار، فلا تخرج ثمرة من كمها إلا بعلم الله سبحانه، وهذا شامل لمختلف أنواع الثمار والأشجار في المدن والصحارى، فلا تخرج ثمرة إلا وهو سبحانه يعلمها علمًا تفصيليًا.

ثانيًا: ومن الغيب علم حمل الأنثى من الإنسان والحيوان، وتلقيحها من عدمه، فإن ذلك لا يكون إلا بعلم الله تعالى ﴿وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنْثَى﴾ أي: جنينًا في بطنها، فلا تحمل حامل إلا بعلمه تعالى، فكيف سوى المكذبون بين الله تعالى وبين من لا علم عنده ولا سمع ولا بصر.

ثالثًا: ومن أمور الغيب علم وقت وضع الأجنة، فإن الحامل تكون مثقلة، ولا يعلم وقت وضعها بالدفقة إلا الله تعالى ﴿وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِ﴾.

وقوله تعالى: ﴿إِلَّا بِعِلْمِهِ﴾ يعود على الثمرات والحمل والوضع، فلا يخفى عليه شيء منها. وكل ما يعرفه الإنسان عن الجنين قبل أن يولد، وعن الثمرة قبل أن تفتح أكمامها، ونحو ذلك فليس من باب الغيب؛ لأنه حاصل وموجود.

وما يصيب فيه الرجل الصالح من القول، فيما هو غير ظاهر للناس، فهو من باب الفراسة والإلهام.

أما ما يقوله العرافون والمنجمون والكهنة فهو من باب الدجل والشعوذة^(١).

الحقيقة العارية في الموقف العظيم:

وفي يوم القيامة يقال للمنكرين للبعث والنشور، توبيخًا لهم وإظهارًا لكذبهم: أين شركاء الله الذين كنتم تُشركونهم مع الله في عبادتكم؟! قال تعالى: ﴿وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ أَيْنَ شُرَكَائِيَ﴾ أي: الذين زعمتم أنهم آلهة، كي يدفعوا عنكم ما أنتم فيه من عذاب، أو يشفعوا لكم

(١) يُنظر: «حاشية الجمل على الجلالين» (٤٨/٤) و«تفسير الخازن» (٨٨/٤).

عند الله؟ أين هم الآن في ساحة العرض والحساب؟ وعندئذ يتبرؤون منهم كما قال تعالى عنهم: ﴿قَالُوا﴾ مقرين ببطلان هذا الشرك وبطلان هذه الآلهة ﴿إِذْ أَنْتَكَ مَا مِنَّا مِنْ شَيْءٍ﴾ أي: أخبرناك وأعلمناك الآن بالحققة، وهي أنه ما من أحد منا يشهد اليوم بأن الله تعالى شريكاً، فكلنا قد رجعنا إلى بطلان عبادتها وتبرأنا منها.

وهذه الشهادة تكون عند رؤيتهم للعذاب، حين يتبرأ التابع من المتبوع، والعابد من المعبود، وهم في عرصات القيامة يبحثون عن شركائهم، فلا يرون منهم أحداً، لقد انكشفت الحُجُب، واعترفنا بأنك أنت الله الواحد القهار. قال تعالى:

٤٨- ﴿وَصَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَدَّعُونَ مِنْ قَبْلُ وَظَنُوا مَا لَهُمْ مِنْ نَجِصٍ﴾ ﴿٤٨﴾

لقد غاب المعبودون عن أعين العابدين، فلم يروهم في ساحة العرض، وذهبوا عنهم، فلم ينفعوهم بشيء، وكانوا قبل ذلك يعبدونهم في الدنيا، ويوم القيامة أيقنوا أنه لا ملجأ لهم إلا إلى الله، ولا خلاص لهم من عذاب الله ﴿وَظَنُوا﴾ أي: أيقنوا ﴿مَا لَهُمْ مِنْ نَجِصٍ﴾ أي: لا مهرب لهم ولا مفر من عقاب الله، فلا مُنْقِذ ينقذهم، ولا مغيث يغيثهم كما قال تعالى: ﴿وَرَأَى الْمُجْرِمُونَ النَّارَ فَظَنُّوا أَنَّهُمْ مُوَاقِعُوهَا وَلَمْ يَجِدُوا عَنْهَا مَصْرِفًا﴾ ﴿٥٢﴾ [الكهف].

فاحذروا الشرك - أيها المخاطبون - حتى لا تسوء عاقبتكم، ولا تخسروا دنياكم وأخراكم.

شَأْنُ الْإِنْسَانِ الْكَافِرِ تَجَاهَ السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ

٤٩- ﴿لَا يَسْتَمُ الْإِنْسَانُ مِنْ دُعَاءِ الْخَيْرِ وَإِنْ مَسَّهُ الشَّرُّ فَيَئُوسٌ قَنُوطٌ﴾ ﴿٤٩﴾

وصف الله سبحانه المكذبين بقيام الساعة، باليأس والقنوط إذا أصابهم الشر، فإذا أصابهم الخير لم يشبعوا منه، واستكثروا منه وأسندوه لأنفسهم ﴿لَا يَسْتَمُ الْإِنْسَانُ مِنْ دُعَاءِ الْخَيْرِ﴾ أي: إن الإنسان بطبعه لا يملُّ من طلب الخير وجلبه لنفسه، والاستزادة من متاع الدنيا، كالمال والصحة والعجاء، وألوان النعيم، ولا يقنع بقليل ولا كثير منه، وكلما أتمته الدنيا طلب المزيد.

فإذا أصابه الشر من الفقر والمرض وأنواع البلاء، فإنه ييأس، ويفقد الرجاء في الحصول على الخير، فيضيق صدره وينقطع قلبه، وتظهر آثار ذلك عليه ﴿وَإِنْ مَسَّهُ الشَّرُّ

فَيُؤَسِّرُ ﴿١﴾ من رحمة الله ﴿فَنُطِئُ﴾ سَيِّئُ الظَّنِّ بربه .

وفي الحديث: عن عائشة ؓ أن النبي ﷺ قال: «لو كان لابن آدم واديان من ذهب لتمنى أن يكون له ثالث، ولا يملأ جوف ابن آدم إلا التراب»^(١).

وهذا شأن غير المسلم، أما المسلم فإنه يقول: لئن مسني الشر زمناً فقد حلّ بي الخير أزماناً، فهو يحمد الله تعالى في السراء والضراء.

وفي موضع آخر من القرآن استثنى الله سبحانه الصابرين العاملين للصالحات، فإنهم يشكرون الله على نعمه ويصبرون على ما أصابهم في أنفسهم أو أموالهم أو أولادهم، قال تعالى ﴿إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَٰئِكَ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ﴾ ﴿١١﴾ [هود].

ثم ذكر تعالى حالة أخرى من حالات الإنسان الكافر، فقال:

٥٠- ﴿وَلَيْنَ أَذْفَتُهُ رَحْمَةً مِنَّا مِنْ بَعْدِ ضَرْأٍ مَسْتَه لِيَقُولَنَّ هَذَا لِي وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً وَلَيْنَ رُجْعَتُ

إِلَى رَبِّي﴾^(٢) إِنَّ لِي عِنْدَهُ لَلْحُسْبَى فَلَئِنَّمَا الَّذِينَ كَفَرُوا بِمَا عَمِلُوا وَلَنُذِيقَنَّهُمْ مِنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ ﴿٥٠﴾

أي: ولئن أعطينا الإنسان غير المسلم نعمة منا من بعد ضرر نزل به، فاغتنى بعد فقر، أو عوفي بعد مرض، أو انتصر بعد هزيمة، فإنه لا يشكر الله تعالى، ولا يردُّ الفضل إليه، بل يطغى ويغتر، وينسى ما كان فيه من شدة، وينسب إلى نفسه ما هو فيه من خير أو جاه أو مال، بأنه قد أُعطي ذلك عن جدارة علمية، أو خبرة فنية، أو وراثة عن كابر، أو أنه حصل عليه بجده واجتهاده وسعيه الدؤوب، وهذا معنى ﴿لِيَقُولَنَّ هَذَا لِي﴾ أي: بسعبي وكسبي، فأنا مستحق له بعملتي وبرضى ربي عليّ، كما قال قارون: ﴿إِنَّمَا أُوتِيتُمْ عَلَىٰ عِلْمٍ عِنْدِي﴾ [القصص: ٧٨] فقد زعم أن النعمة وصلت إليه باستحقاقه لها، ولم يعلم أن الله تعالى يبتلي عباده بالغنى كما يبتليهم بالفقر، ويبتليهم بالخير كما يبتليهم بالشر؛ ليظهر الشاكر من الجاحد، والصابر من

(١) أخرجه البخاري عن ابن عباس (٦٤٣٦) ومسلم (١٠٤٩) و«المسند» (٢٤٢٧٦)، والبيهقي في «الشعب» (١٠٢٨٠) والبخاري في زوائد مسنده (٣٦٤٠) وأبو يعلى (٤٤٦٠) وعن ابن عباس في «المسند» (٣٥٠١) وعن زيد بن أرقم (١٩٢٨٠)، وأبو يعلى (٢٥٧٣) وابن حبان (٣٢٣١).

(٢) قرأ ورش وأبو عمرو وأبو جعفر وقالون بخلف عنه بفتح ياء الإضافة من (ربي) وصلاً، والباقون بإسكانها.

الْجَزَع، وكما قال سبحانه: ﴿إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنَّاظٍ ۚ﴾ ﴿٦﴾ أَنْ رَأَاهُ اسْتَفْتَى ۖ ﴿٧﴾ [العلق].

ثم إن كان هذا القائل من أهل الشرك والكفر، وسمع الحديث عن القيامة وما فيها من بعث وحساب وجزاء، أنكر ذلك قائلًا: ﴿وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً﴾ أي: لا أعتقد أن هناك بعثًا ونشورًا، والشك في البعث لا يكون إلا من الكافر، أو المتظاهر بالإسلام المبطن للكفر، فهو يقول: وعلى سبيل الفرض والاحتمال الضعيف، لو قامت الساعة، وأني سأرجع إلى ربي، كما يخبرنا الأنبياء، فإن لي الجنة عنده، وكما أنا سعيد في الدنيا فسأكون سعيدًا في الآخرة، ولي فيها أحسن وأفضل مما أنا فيه من نعيم الدنيا، وسيُحسن إليَّ ربي في الآخرة كما أحسن إليَّ في الدنيا. فهو يتمنى ذلك على الله، مع إساءته العمل وسوء الاعتقاد، هذا معنى قوله: ﴿وَلَكِنْ رَجِعْتُ إِلَىٰ رَبِّي إِنَّ لِي عِنْدَهُ لَلْحُسْنَىٰ﴾ ومثله في سورة الكهف، قوله تعالى: ﴿وَلَكِنْ رُدِدْتُ إِلَىٰ رَبِّي لِأَجِدَنَّ خَيْرًا مِّنْهَا مُنْقَلَبًا﴾ [الكهف: ٣٦].

وقد حكى الله سبحانه ذلك عن العاص بن وائل، حين طلب خبَّاب بن الأرت ما لآله عنده، من أجرٍ له على صناعة سيف، فقال له: حتى تكفر بمحمد؟ قال خبَّاب: لا أكفر بمحمد حتى يُميتك الله ويبعثك، فقال: إني لميت فمبعوث؟ قال: نعم، فقال: لئن بعثني الله فسيكون لي مال فأعطيك، فأنزل الله تعالى: ﴿أَفَرَأَيْتَ الَّذِي كَفَرَ بِآيَاتِنَا وَقَالَ لَأُوتِيَنَّكَ مَالًا وَّلَدًا﴾ [مريم].

وربما كان هذا القول من باب الاستهزاء واستبعاد قيام الساعة.

وقد تجري أعمال بعض المسلمين على صورة من لا يظن الساعة قائمة كمن يفعل السيئات، ويقول: إن الله غفور رحيم، إن الله غني عن عذابنا.

ثم بيَّن سبحانه عاقبة الإنسان الكافر المنكر للبعث والنشور، فقال: ﴿فَلَنَنبِتَنَ الْذِينَ كَفَرُوا بِمَا عَمِلُوا﴾ أي: لنخبرنهم يوم القيامة بأعمالهم السيئة التي عملوها في الدنيا ﴿وَلَنَذِقَنَّهُمْ مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ﴾ بأن نريهم عكس ما اعتقدوه، فننزل بهم عذاب الذل والهوان، بدلًا من الحسنى والكرامة التي أيقنوا أنها ستكون لهم في الآخرة، ونذيقهم العذاب الشديد فلا يمكنهم التخلص منه، فيخلدون في نار جهنم، لا يموتون فيها ولا يحيون!

شأن الإنسان بصفة عامة

٥١- ﴿وَإِذَا أَنْعَمْنَا عَلَى الْإِنْسَانِ أَعْرَضَ وَنَسَىٰ بِنِعْمَتِنَا ۖ وَإِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ فَذُو دُعَاءٍ عَرِيضٍ ﴿٥١﴾﴾

ذكر سبحانه في هذه الآية نوعاً آخر من الناس، يشمل المشرك والمسلم إلا من عصم الله، وهو أن الإنسان إن أصابته السراء والخير والنعم، كالصحة والرزق والجاه، طغى وتكبر ونسي شكر ربه، وشغل بلذاته، وفي هذا تفاوت كبير بين وقوع قلة الشكر والطغيان من الناس وكثرته.

وهذا الإنسان إن أصابته الضراء وما يكره، كال فقر والمرض، أو أصابه الجزع، لم يصبر، فهو يلجأ بكثرة السؤال لكشف الضر عنه سريعاً، فلا صبر في الضراء ولا شكر في السراء إلا من رحم الله.

وهذا نقد لسلوك الإنسان في الحالتين؛ لأنه لم يعرف ربه إلا في وقت الشدة ﴿وَإِذَا أَنْعَمْنَا عَلَى الْإِنْسَانِ﴾ أي: إذا أنعمنا على جنس الإنسان، بصحة أو رزق أو غيرهما ﴿أَعْرَضَ﴾ أي: انصرف عن شكر المنعم سبحانه، ولم يتضرع إليه بالدعاء ﴿وَنَسَىٰ بِنِعْمَتِنَا﴾ عن ذكر ربه، فترفع وتكبر عن الانقياد للحق، وأبعد جانبه عن التفكير فيمن أنعم عليه، فإن أصابه ضرٌّ وبلاءٌ وشدةٌ فهو كثير الدعاء أن يكشف الله عنه ضره ﴿وَإِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ فَذُو دُعَاءٍ عَرِيضٍ﴾ أي: إنه يكثر الدعاء ملجأ فيه عندما يصيبه الشر.

ودعاء المشركين ربهم في الجاهلية، وسؤالهم رفع الضر عنهم، متوارث عن سبقوهم من أهل الحنيفية ممن عاصروهم وتأثروا بهم، قبل أن تدخل عليهم عبادة الأصنام، فهي متأصلة فيهم، فإذا دعوا الله تعالى غفلوا عن منافاة أقوالهم لعقائدهم الشريكة. ولهذه الآية نظائر كثيرة.

١- منها قوله تعالى: ﴿إِنَّ الْإِنْسَانَ خُلِقَ هَلُوعًا ﴿١٦﴾ إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعًا ﴿١٧﴾ وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعًا ﴿١٨﴾ إِلَّا الْمُصَلِّينَ ﴿١٩﴾﴾ [المعارج].

٢- وقوله سبحانه: ﴿وَإِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ الضُّرُّ دَعَانَا لِجَنبَيْهِ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَائِمًا فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُ مَرَّ كَأَن لَّمْ يَدْعُنَا إِلَىٰ ضُرِّ مَسَّهُ﴾ [يونس: ١٢].

٣- وقوله سبحانه: ﴿وَلَيْنَ أَذَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنَّا رَحْمَةً ثُمَّ نَزَعْنَاهَا مِنْهُ إِنَّهُ لَيَكُونُ مِنَّا كَافِرًا ۖ وَلَيْنَ أَذَقْنَاهُ نِعْمَةً بَعْدَ ضَرْأَةٍ مَسْتَهْزِئَةٍ لِيَقُولَنَّ ذَهَبَ السَّيِّئَاتُ عَنِّي إِنَّهُ لَفَرِحٌ فَخُورٌ ﴿١٥﴾ إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَٰئِكَ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ ﴿١٦﴾﴾ [هود].

٤- وقوله جلَّ شأنه: ﴿وَإِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فِي الْبَحْرِ ضَلَّ مَنْ تَدْعُونَ إِلَّا إِلَهُهُ فَلَمَّا فَنَّكُم بِإِلَهِ الْبَرِّ أَغْرَضْتُمْ وَكَانَ الْإِنْسَانُ كَفُورًا ﴿١٧﴾﴾ [الإسراء].

٥- وقوله أيضًا: ﴿وَإِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ ضُرٌّ دَعَانَا ثُمَّ إِذَا خَوَّلْنَاهُ نِعْمَةً مِنَّا قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ﴾ [الزمر: ٤٩].

٦- وقوله ﷻ: ﴿وَإِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ ضُرٌّ دَعَا رَبَّهُ مُنِيبًا إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَا خَوَّلَهُ نِعْمَةً مِّنْهُ نَسِيَ مَا كَانَ يَدْعُو إِلَيْهِ مِن قَبْلُ﴾ [الزمر: ٨].

اِسْتِدْعَاءُ لِأَهْلِ الْإِلْحَادِ

٥٢- ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كَانَ مِنَ عِنْدِ اللَّهِ ثُمَّ كَفَرْتُمْ بِهِ مَن أَضَلُّ مِمَّنْ هُوَ فِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ﴾ وقبل ختام السورة يعود السياق إلى الغرض الأصلي منها، وهو بيان حقيقة القرآن وصدقه، وصدق من جاء به ﷺ، وذلك في صورة استدعاء لمن ألحدوا في القرآن، وكفروا بالذكر لما جاءهم، حيث يُطلب منهم أن يُعمِلُوا النظر في دلائل صدق القرآن، فيتأملوا في إعجازه واتساقه، وتصديق بعضه بعضًا، وكونه مؤيدًا للكتب السابقة، وكون الكتب السابقة بشَّرت به، ويتأملوا ما فيه من أحوال الأولين والآخرين، فإنَّ ما هم عليه من إنكار صدق القرآن، ليس صادرًا عن نظر وتمحيص، بل هو مجازفة وعدم تأمل، وانقياد لأهل الضلال.

﴿قُلْ﴾ يارسولنا لهؤلاء المكذبين ﴿أَرَأَيْتُمْ﴾ أخبروني ﴿إِنْ كَانَ﴾ هذا القرآن ﴿مِنَ عِنْدِ اللَّهِ﴾ من غير شك ولا ارتياب ﴿ثُمَّ كَفَرْتُمْ بِهِ﴾ فأنكرتموه وجحدتموه، مع ظهور الأدلة والبراهين على وجوب الإيمان، أخبروني ﴿مَن أَضَلُّ﴾ منكم، أي: لا أحد أضلُّ ﴿مِمَّنْ هُوَ فِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ﴾ أي: معاندة لله والرسول، لأنكم على خلاف بعيد عن الحق، بكفركم بالقرآن وتكذيبكم له، فقد تبين لكم الحق والصواب ثم عدلتم عنه إلى الباطل والجهل، فأنتم أضلُّ الناس وأظلمهم.

وقد ذكر القرآن هذا التشكيك بين أهل الكفر وأهل الشقاق، ليتساءل مَنْ منهما أشد ضللاً، وذلك مراعاة لاختلاف درجات المعاندين، ومجارة لهم في ادّعائهم، قال تعالى متوَعِّداً: ﴿وَالَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِي الْكِتَابِ لِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ﴾ [البقرة: ١٧٦].

فإن كنتم -أيها المكذبون - في شك من صحة هذا الكتاب، فسيُظهر الله لكم من آياته في السموات والأرض وفي أنفسكم عجيب صنعه وبديع خلقه، وستكشف الأيام عن الحوادث الهائلة التي تجدد في الكون، حتى يظهر لكم جلياً صدق هذا الكتاب وأن ما اشتمل عليه هو الحق، وكفى بالله شهيدا على صدقه وعلى إعجازه.

دَلَالُ صِدْقِ الْقُرْآنِ

٥٣- ﴿سَرِّبْهُمْ ءَايَاتِنَا فِي الْأَفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَبَيِّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ (٥٣)

ثم إن الله تعالى قد وعد رسوله ﷺ بأنه سيغمُر المشركين والمكذبين بطائفة من آياته، يتبيّنون منها أن القرآن من عند الله حقاً، فلا يسعهم إلا الإيمان به، فهو غير محتاج إلى اعترافهم، وستظهر دلائل صدقه في الآفاق البعيدة عنهم وفي أنفسهم، وتتظاهر الأدلة على أنه الحق، فلا يجدون سبيلاً لإنكاره، بل سيؤمنون به يومئذ مع جميع من آمن.

﴿سَرِّبْهُمْ ءَايَاتِنَا﴾ أي: ستظهر لهؤلاء المشركين المكذبين أدلتنا على أن القرآن حق مُنزل من عند الله تعالى، وذلك فيما تضمنه من العجائب العُلوية والسفلية.

﴿فِي الْأَفَاقِ﴾ أي: في أفطار السموات والأرض، من الشمس والقمر والنجوم، وجوف الأرض، والأشجار والنبات، والليل والنهار، والرياح والأمطار، والزرع والثمار، والرعد والبرق والصواعق، والجبال والبحار... وما إلى ذلك.

﴿وَفِي أَنْفُسِهِمْ﴾ أي: ونريهم عجائب قدرتنا في خلقهم وتكوينهم من عظيم الصنعة، وبديع الحكمة، بما أودعنا في الإنسان من حواس، وقوى وعقل وروح، حتى سبيل الغائط والبول، فإن الرجل يأكل ويشرب من مكان واحد، ويتميز خروج ذلك من مكانين.

ونريهم بديع صنعة الله تعالى وحكمته في عَيْنَيْهِ اللتين هما قطرة ماء، ينظر بهما من الأرض إلى السماء، مسيرة خمس مئة عام.

وفي أذنيه اللتين يفرق بهما بين الأصوات المختلفة.

وفيما يصيبهم من خير وشر ونعمة ونقمة، وغير ذلك من بديع حكمة الله تعالى ليظهر لهم أن هذا القرآن حق ﴿حَقٌّ يَبَيِّنُ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ﴾ موحى به من عند الله، لا يقبل الشك ولا يتطرق إليه.

وأكبر شاهد على صدق القرآن الكريم هو شهادة رب العالمين، فلا تلتفت إلى تكذيبهم ﴿أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ فقد شهد الله له بالتصديق في قوله سبحانه: ﴿لَكِنَّ اللَّهَ يَشْهَدُ بِمَا أُنْزِلُ إِلَيْكَ أَنْزَلُهُ بِعِلْمِهِ وَالْمَلَكُ يَشْهَدُونَ وَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا﴾ [النساء].

ولا شيء أكبر من شهادة الله سبحانه: ﴿قُلْ أَيُّ شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهَادَةً قُلِ اللَّهُ شَهِيدٌ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ﴾ [الأنعام: ١٩]. ﴿قُلْ كَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ﴾ [الرعد: ٤٣].

وفي هذه الآية طرف من الإعجاز بالإخبار بالغيب، فقد أخبرت بظهور هذا الدين في المشرق والمغرب، كما يشهد بذلك السابق واللاحق ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَأْتِي الْأَرْضَ نَنْقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا﴾ [الرعد: ٤١].

وذلك باتساع رقعة الإسلام، ونقص أرض الكفر.

ومعنى الآيات في هذه الآية: أنها تشمل آيات القرآن، وتشمل آيات الله الكونية الدالة على وحدانيته تعالى، والدالة على صدق رسوله ﷺ.

والآفاق تشمل أقطار السموات والأرض، وما يحدثه الله فيهما من الحوادث العظيمة التي تظهر تباعاً، وما يتجلى لهم في أنفسهم من العلوم والمعارف التي لم تكن معروفة لأسلافهم، وما هو في علم الغيب مما يظهر فيما بعد، وما إلى ذلك من دلائل الإعجاز في الآية.

الإِحَاطَةُ بِشُؤُونِ الْخَلْقِ جَمَاعٌ مَا فِي السُّورَةِ

٥٤- ﴿أَلَا إِنَّهُمْ فِي مِرْيَةٍ مِّن لِّقَاءِ رَبِّهِمْ أَلَا إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ مُّحِيطٌ﴾

ختم الله السورة بجملتين: بيّنت الجملة الأولى: أن السبب فيما ذكرته السورة من تكذيب المكذبين، وموقفهم من عدم توحيد الله تعالى، وعدم تصديق رسوله ﷺ، وتصديق الكتاب الذي نزل عليه، السبب في ذلك هو إنكارهم للبعث، ولو أنهم كانوا يؤمنون

بالبعث والحساب والجزاء، لانصرفت همتهم إلى العمل لما بعد الموت، فهم في شك من البعث والقيامة، وهمتهم منصرفة إلى الدنيا، وليس للآخرة حُسبان في توجههم، فلذلك لم يعملوا لها ولم يلتفتوا إليها.

ولما كانوا في مأمن من ذلك، أشركوا بالله تعالى، وكذبوا رسوله ﷺ، وكذبوا الوحي الذي نزل عليه.

﴿أَلَا إِنَّهُمْ فِي مَرِئَةٍ مِّن لِّقَاءِ رَبِّهِمْ﴾ ألا فانتبهوا يا قوم، إن المكذبين الكافرين بالله واليوم الآخر في شك عظيم من البعث بعد الممات، ولهذا لم يؤمنوا.

وهذه جملة جامعة لما في السورة من أحوال المشركين المكذبين بالبعث والنشور.

والجملة الأخرى: تتضمن إبطال أقوال المشركين وتقويم اعوجاجهم؛ لأن ذلك من آثار علم الله تعالى بالغيب والشهادة ﴿أَلَا إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ مُّحِيطٌ﴾.

ألا فانتبهوا يا قوم، فإن الله تعالى قد أحاط علمه بكل شيء، ولا يخفى عليه شيء في الأرض ولا في السماء.

وهذا جماع ما في السورة من الإحاطة بشؤون الخلق جملة وتفصيلاً، وسوف يجازيهم الله على ما قدمت أيديهم، ولن يفلتوا من العقوبة، وهذا من براعة الختام.

تم تفسير (سورة فصلت) والله الحمد والمنة



تَفْسِيرُ سُورَةِ الشُّورَى (٤٢)

مُقَدِّمَةُ السُّورَةِ

سورة الشورى هي السورة الثانية والأربعون في ترتيب المصحف، والتاسعة والستون في ترتيب النزول، كما رُوي عن جابر بن زيد، نزلت بعد سورة فصلت وقبل سورة الزخرف، في حدود سنة ثمان بعد البعثة، وقت انحباس المطر عن أهل مكة، واستمر نزولها إلى سنة تسع من البعثة، أي: بعد أن آمن نُقباء الأنصار ليلة العقبة.

وعدد آياتها عند أهل الكوفة ثلاث وخمسون آية، وعند أهل حمص واحد وخمسون آية، وعدّها غيرهم خمسين آية.

وعدد كلماتها ثمان مئة وستون كلمة، وعدد حروفها ثلاثة آلاف وخمسمئة وثمانية وثمانون حرفاً.

وتسمى عند السلف سورة ﴿حَمْدٌ ۝ عَسَقٌ ۝﴾، كما ترجم لها البخاري والترمذي، وقد يُختصر الاسم فيقال سورة ﴿عَسَقٌ ۝﴾، وتسميتها بسورة الشورى هو الأشهر.

وهي سورة مكية عند الجمهور، واستثنى بعضهم أربع آيات من قوله تعالى: ﴿قُلْ لَا أَتْلُو سُلُوكٌ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَىٰ﴾ الآية [٢٣] وما بعدها، وقيل: إن آية ﴿وَلَوْ بَسَطَ اللَّهُ الرِّزْقَ لِعِبَادِهِ﴾ الآية [٢٧] نزلت في أهل الصُّفَّة، فتكون مدنية.

وقيل أيضاً: إن آية ﴿وَالَّذِينَ إِذَا أَصَابَهُمُ الْبَغْيُ هُمْ يَنْتَصِرُونَ﴾ مدنية، والأصح أنها مكية كلها.

وموضوعات سورة الشورى هي موضوعات السور المكية، والمحور الأساس الذي تدور عليه هو الوحي والرسالة، فتبدأ السورة وتنتهي بالحديث عن الوحي، ويتخللها تقرير مصدر الوحي والرسالة، وهي الحقيقة البارزة في محيط السورة:

١- ففي أول السورة بيان لمصدر الوحي، وأنه منزل من عند الله تعالى ﴿كَذَٰلِكَ يُوحَىٰ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ اللَّهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾.

ثم يأتي تقرير لمركز القيادة الجديدة في قوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لِّنُنذِرَ

أَمْ أَلْقَرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهُ ﴿٧﴾ الآية [٧].

ثم تبين الآيات وحدة الرسالة بين جميع الرسل: ﴿شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰ أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ﴾ الآية [١٣].

وأشارت الآيات إلى أن الناس خالفوا هذه الوصية، وأن التفرق في الدين قد وقع ﴿وَمَا تَفَرَّقُوا إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَعِيًا بَيْنَهُمْ﴾ الآية [١٤].

﴿وَإِنَّ الَّذِينَ أُورِثُوا الْكُتُبَ مِنْ بَعْدِهِمْ لَفِي شَكٍّ مِنْهُ مِرْبٍ﴾ الآية [١٤].

ويأمر الله تعالى رسوله ﷺ أن يمضي في طريق الدعوة إلى الله، تاركًا هذا الخلاف وراءه، وما على الرسول إلا الدعوة والبلاغ:

﴿فَإِنْ أَعْرَضُوا فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا إِنْ عَلَيْكَ إِلَّا الْبَلَاغُ﴾ الآية [٤٨].

وتختتم السورة ببيان طرق نزول الوحي على رسول الله ﷺ: ﴿وَمَا كَانَ لِنَبٍ أَنْ يُكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِنْ وَرَآئِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِ مَا يَشَاءُ﴾ الآية [٥١].

ويقرر الله سبحانه أمة الرسول ﷺ في قوله: ﴿وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِمَّنْ آمَرْنَا مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكُتُبُ وَلَا الْإِيمَنُ وَلَكِنْ جَعَلْنَاهُ نُورًا نَهْدِي بِهِ مَنْ نَشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا﴾ الآية [٥٢].

أما كيفية نزول الوحي على رسول الله ﷺ فقد بيّنه حديث عائشة ؓ: أن الحارث بن هشام سأل رسول الله ﷺ، فقال: يا رسول الله، كيف يأتيك الوحي؟ فقال رسول الله ﷺ: «أحيانًا يأتي مثل صلصلة الجرس - وهو أشده عليّ - فيفصم عني وقد وعيتُ عنه ما قال، وأحيانًا يتمثل لي الملك رجلًا أو فيكلمني فأعي ما يقول». قالت عائشة ؓ: ولقد رأيته ينزل عليه الوحي في اليوم الشديد البرد فيفصم عنه وإن جبينه ليتفصد عرقًا^(١).

وقد بيّنت آية الوحي الثانية في السورة أن الإسلام دين عام خالد، وأنه لقارات الدنيا جميعًا إلى آخر الدهر، ونقطة البداية كانت ﴿أَمْ أَلْقَرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهُ﴾ فميدان البلاغ هو

(١) «صحيح البخاري» برقم (٢) وهذا لفظه، وانظر (٣٢١٥) و«صحيح مسلم»: (١٨١٦/٤) برقم (٢٣٣٣) و(الموطأ) (٢٠٢/١) والترمذي (٣٦٣٤) و«المسند» (٢٤٣٠٩) وإسناده صحيح على شرط الشيخين، وابن حبان (٣٨) و«سنن النسائي الكبرى» (١٠٠٨).

العالم كله، شرقه وغربه، ولم يمضِ نصف قرن على البعثة حتى بلغ الإسلام المشارق والمغارب، وأسقط أعلام الأمم التي استعمرت آسيا وأفريقيا.

وكان نزول الوحي على محمد ﷺ بعدما انقطعت صلة اليهود بالدعوة إلى الله تعالى، وجعلوا الدين ميراثاً قومياً، أما النصارى فقد غلب عليهم تعدد الآلهة وقصة الفداء، والحديث الطويل عن ابن الله كما يزعمون!!

جاء الإسلام فأعلن صلته الوثقى بموسى وعيسى ﷺ، وأكد أنه يقرر الوحي الذي نزل على جميع الرسل، ومضى النبي ﷺ في طريق الدعوة، فاستجابت له جماهير أهل الكتاب في آسيا الوسطى وشمال أفريقيا، كما ثاب الوثنيون إلى رشدكم في إيران وآذربيجان والهند والصين، وانزاحت السدود أمام الفيضان فانطلق.

والإسلام ينتشر حالياً بصورة سريعة في أوربا وأمريكا، مخترقاً الحواجز والقيود، يدحض حجج الخصوم وينفذ فيهم على قدم وساق ﴿وَيَمْنَحُ اللَّهُ الْبَطْلَ وَيُحِقُّ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ﴾ الآية [٢٤].
﴿مَجْنُومٌ دَاحِضَةٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ﴾ الآية [١٦].

وقد شقَّ الإسلام طريقه حتى بلغ ما بلغ الليل والنهار، والأذان يرتفع في كل قطر يشهد لله تعالى بالوحدانية، ولمحمد ﷺ بصدق الرسالة، كأنه ساعة لا يتوقف لها دق، ولقد كذب على الله بعض الناس وزوروا وخيا مضجكاً، فسرعان ما انمحي أثرهم، وانقضى زيفهم، وبقي الخلود للحق وحده^(١).

٢- وقد ساقَت السورة عدداً من آيات الله الكونية الدالة على وحدانيته سبحانه:

﴿وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا مِنْ دَائِقَةٍ﴾ الآية [٢٩].

﴿وَمِنْ آيَاتِهِ الْجَوَارِ فِي الْبَحْرِ كَالْأَعْلَامِ﴾ الآية [٣١].

﴿إِنْ يَشَأْ يُسْكِنِ الرِّيحَ فَيَظْلَلْنَ رَوَاكِدَ عَنِ ظَهْرِهِ﴾ الآية [٣٣].

﴿وَهُوَ الَّذِي يُزِلُّ الْفَيْتَ مِنْ بَعْدِ مَا فَتَقُوا وَيَنْشُرُ رَحْمَتَهُ﴾ الآية [٢٨].

٣- وفي مضممار الفضيلة والعدالة ذكرت السورة بعدة خصال ينجو بها العباد من غضب

(١) يُنظَر: «التفسير الموضوعي لسور القرآن» ص ٣٧٤ وما بعدها.

ربهم، تشمل: العمل للآخرة، وتفويض الأمر إلى الله تعالى، واجتناب كبائر الإثم والفواحش، والعفو عن أساء، والاستجابة لله رب العالمين، وإقام الصلاة، وتحكيم الشورى بين الناس، والإنفاق من رزق الله، وذلك في الآيات من السادسة والثلاثين إلى الأربعين.

وحين يزداد اليهود تعلقاً بموارثهم، ويقاثلوننا تدثُّنا، فلا بدُّ لنا من الاستجابة لأمر الله تعالى حتى ينصرنا الله عليهم ﴿أَسْتَجِيبُوا لِرَبِّكُمْ مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ يَوْمٌ لَا مَرَدَّ لَكُمْ مِنَ اللَّهِ﴾ الآية [٤٧].

هذا: ويمكن تقسيم السورة إلى قسمين:

القسم الأول: من أول السورة إلى الآية السادسة والعشرين، وهو يتناول جانب الوحي والرسالة، وما يتصل بها، وذلك بعد افتتاحها بخمسة حروف من حروف الهجاء، فتقرر وحدانية الموحى به إلى الرسول ﷺ وإلى الرسل قبله، وفي هذا إشارة إلى أن الإسلام دين عام خالده إلى قارات الدنيا، وأن دين الله واحد يدعو إلى التوحيد ونحو الشرك، ولو شاء الله لقسر الناس على التوحيد وجعلهم أمة واحدة، ولكنه سبحانه ترك لهم حرية الاختيار، وقال لهم: أقيموا الدين ولا تتفرقوا فيه، وجعل الناس فريقين: فريقاً في الجنة، وفريقاً في السعير.

ولأن هذا الموضوع هو محور السورة، فقد جاء ذكره في أولها وفي أثنائها وفي آخرها، حيث ابتدأت السورة ببيان أن الوحي قد نزل على محمد ﷺ كما نزل على الرسل قبله ﴿كَذَلِكَ يُوحِي إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكَ﴾ الآية [٣].

وبعد ثلاث آيات من هذه الآية جاء ذكر الوحي خاصاً بمحمد ﷺ مع بيان أنه نزل بلسان العرب إلى عموم الخلق، وأن مكة المكرمة هي مركز انطلاق الدعوة العالمية ﴿وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لِّنُنذِرَ أُمَّ الْقُرَى وَمَنْ حَوْلَهَا﴾ الآية [٧].

ثم جاء ذكر أولي العزم من الرسل، لبيان أن شرع الله الذي أوحاه إلى جميع الرسل واحد، وذلك في قوله تعالى: ﴿شَرَعَ لَكُمْ مِّنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى أَن أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ﴾ الآية [١٣].

وفي نهاية السورة جاء الحديث عن أنواع الوحي إلى جميع الرسل ﴿وَمَا كَانَ لِنَشْرِ أَن يُكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِن وَرَآئِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِيَ بَأِذْنِهِ مَا يَشَاءُ﴾ الآية [٥١].

وقررت الآية بعدها أمية محمد ﷺ، وأنه قبل نزول الوحي عليه لم يكن يدري ما الكتاب ولا الإيمان.

وقد تناول هذا القسم إلى جوار ذلك ما يتصل بالوحي من عموم الرسالة الخاتمة، وتفرق الناس فيها، ووجوب التحاكم إلى ما أنزل الله تعالى عند الاختلاف، وأمرُ النبي ﷺ أن يمضي في طريق الدعوة إلى الله، ولا يتبع أهواء الضالين، وقد وعد الله من اتبع طريق الوحي سعادة الدنيا والآخرة، ويُحرم منها من انغمس في الشهوات في دنياه وترك الآخرة وراء ظهره، أو أشرك بالله تعالى وظلم نفسه.

القسم الثاني: من الآية السابعة والعشرين إلى نهاية السورة، وهو يتعلق بدلائل التوحيد في الكون، وفيه حشد لعدد من آيات الله تعالى في الكون من الرزق، ونزول الغيث، وخلق السموات والأرض وما فوقها من دواب، والسفن في البحار، والرياح المسخرة بإذن الله تعالى.

ويصف الله تبارك وتعالى المؤمنين بأوصاف، منها: التوكل على الله، واجتناب الكبائر والفواحش، والعفو والصفح، والاستجابة لأمر الله تعالى، وإقام الصلاة، والأخذ بمبدأ الشورى، والإنفاق في سبيل الله، وعدم قبول الظلم، وعدم مقابلة الإساءة بمثلاً.

وقرر سبحانه أنه لا حرج في الانتصار بعد الظلم، وأن الصبر والعفو من عزائم الأمور.

وتخلل ذلك وعيد شديد وتخويف من النار، ووجوب الاستجابة لأمر الله تعالى قبل أن يأتي يوم لا مرد له من الله، وأشارت السورة إلى أن الله تعالى هو المعطي الوهاب، يهب لمن يشاء الذكور والإناث أو يقتصر على أحدهما.

وختمت السورة ببيان أن مهمة النبي ﷺ هي هداية الخلق إلى صراط الله، وإليه المرجع والمصير فيجازي كلًا بما يستحق.

تَفْسِيرُ السُّورَةِ

الْوَحْيُ يَصِلُ الْأَرْضَ بِالسَّمَاءِ

٣-١- ﴿حَمْدٌ ۝ عَسَىٰ ۝ (١) ۝ كَذَٰلِكَ يُوحَىٰ ۝ (٢) ۝ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ اللَّهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ۝﴾

ابتدأت سورة الشورى بخمسة حروف من حروف الهجاء، كغيرها من السور المفتحة بالحروف المقطعة، ولعلها تشير إلى عَجْزِ البشر عن معارضة القرآن، للدلالة على أنه منزل من عند الله تعالى، مع أنه مكون من الحروف التي ينطقون بها كلامهم، والتحدي قائم إلى يوم القيامة.

وفي هذه الحروف جذب الانتباه إلى البدء بكلام غير مألوف للتفكر فيه، والله أعلم بمراده منها.

ثم بيّن سبحانه أن ما أوحى الله تعالى به إلى نبيه محمد ﷺ في هذه السورة من الدعوة إلى التوحيد، والبعث، ومكارم الأخلاق، وغيرها من المعاني، أوحى إليه مثله في غير هذه السورة، وأوحاه إلى مَنْ قبله من الرسل ﴿كَذَٰلِكَ يُوحَىٰ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ﴾.

أي: كما أنزل الله إليك -أيها الرسول- هذا القرآن أنزل الكتب والصحف على الأنبياء من قبلك، كما قال تعالى: ﴿إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَى نُوحٍ وَالذِّكْرِ مِنْ بَعْدِهِ وَأَوْحَيْنَا إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَعِيسَى وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَهَارُونَ وَسُلَيْمَانَ وَآدَمَ وَدَاوُدَ زَبُورًا ۝ وَرُسُلًا قَدْ قَصَصْنَاهُمْ عَلَيْكَ مِنْ قَبْلُ وَرُسُلًا لَمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ﴾ [النساء].

(١) قرأ أبو جعفر بالسكت بدون تنفس على حروف الهجاء الخمسة، كأن كل حرف منها كلمة مستقلة، ويلزم منه إظهار النون من عين وسين وعدم إخفاؤها، ولكل من القراء العشرة ثلاثة أوجه في (عين) هي المد والتوسط والقصر، فالمد لأجل الساكن، والتوسط لسكون الياء وفتح ما قبلها، والقصر إجراء للوصل مجرى الوقف، والأولى وضل (حم) ب(عسق)، وأمال الحاء من (حم) ابن ذكوان وشعبة وحمزة والكسائي وخلف، وقللها الأزرق، وقرأ أبو عمرو بالفتح والتقليل، وفتحها الباقون. هذا: وقد عدّ الكوفي والحمصي (حم) و(عسق) آية، وتركهما غيرهما.

(٢) قرأ ابن كثير بالبناء للمفعول في (يُوحَى) و (إليك) نائب فاعل، ولفظ الجلالة فاعل بفعل مقدر، كأنه قيل: من يوحى؟ فقيل: يوحى الله، وقرأ الباقون بالبناء للفاعل وهو (الله) و(إليك) متعلق ب (يوحى).

وفي الآية إشارة إلى أن ما في السورة من عقائد وأحكام وآداب ومكارم وأخلاق، إنما هو لتبليغ ذلك للناس؛ كي ينتفعوا ويعتبروا ويتعظوا.

وفي هذا بيان أن النبي ﷺ ليس بدعاً من الرسل، وأن طريقته طريقة من قبله من الرسل، وأن ما جاء به يماثل ما جاؤوا به من التوحيد والعقيدة.

والوحي متجدد النزول على النبي ﷺ مدة حياته كما يفيد الفعل المضارع ﴿يُوحِي﴾؛ لكيلا يطمع المشركون في انقطاع الوحي عنه، وما إغراض بعض الناس عن الوحي المنزل إلا كإغراض الأمم السابقة عما جاءت به الرسل.

وكل ما جاء من عند الله تعالى حق وصدق، وهو تنزيل ممن اتصف بالألوهية والعزة والحكمة البالغة، وجميع ما في العالم العلوي والسفلي خلقه وملكه وتحت تدبيره.

وكان سائلاً سأل: ومن يوحى إليك بهذا القرآن؟ فكان الجواب: هو ﴿اللَّهُ الْعَزِيزُ﴾ في ملكه، وفي انتقامه ممن عصاه ﴿الْحَكِيمُ﴾ في أقواله وأفعاله وتدبير شؤون الكون.

حِكْمَةُ اللَّهِ تَقْتَضِي خَلْقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِتْقَانَ نِظَامِ الْعَالَمِ

٤- ﴿لَمْ يَأْتِ فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ﴾

ثم إن صفتي العزة والحكمة لا تتحققان إلا بخلق السموات والأرض وملكيتهما، وإتقان النظام الذي تُسَيَّر به المخلوقات، وقد أكد الله تعالى هذا المعنى ببيان أن ما في الكون كله مملوك ومخلوق لله وحده.

ثم وصف الله تعالى نفسه بصفتين أخريين، وهما صفتا: العلوّ والعظمة، فلا عَلِيٍّ ولا عَظِيمٍ غير الله سبحانه؛ لأن من عداه مفتقر إليه ﴿وَهُوَ الْعَلِيُّ﴾ بذاته وقُدرته وقهره ﴿الْعَظِيمُ﴾ الذي له العظمة والكبرياء.

موقف البشر من الوحي:

لقد نزل الوحي على رسول الله ﷺ وقام بتبليغه للناس، وفسره بسلوكه في سيرته العطرة، فهل صَوَّب الوحي كل خطأ؟ وهل محا الإسلام الشرك والوثنية؟

لقد بذل الرسول ﷺ الجهد، واجتهد الصحابة ومن بعدهم في الدعوة إلى الله تعالى ولا

يزالون، ولكن الذين تلقوا الوحي كانوا على فريقين: منهم من آمن، ومنهم من كفر. قال تعالى:

٥- ﴿تَكَادُ^(١) السَّمَوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ^(٢) مِنْ فَوْقِهِنَّ^٣ وَالْمَلَائِكَةُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِمَنْ فِي الْأَرْضِ أَلَا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾

أي: توشك السموات على التصدع من كفر الكفار، أما المؤمنون فإن من في السموات يسألون الله تعالى لهم المغفرة والرحمة، وذلك أنه لما وصف الله نفسه بالعلو والعظمة، أخبر سبحانه أن السموات على عظم خلقهن تكاد تتشقق من علو شأن الله تعالى وعظمته هيبة منه وإجلالاً، وخوفاً من مخالفة ما قدره الله لهن من التسخير ﴿تَكَادُ السَّمَوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْ فَوْقِهِنَّ^٣﴾.

ويصح أن يكون المعنى: تكاد السموات يتفطرن من كثرة ما فيهن من الملائكة والكواكب وتصاريف الأقدار، ويوضح هذا قوله ﷺ من حديث أبي ذر ؓ أن رسول الله ﷺ قال: «إني أرى ما لا ترون، وأسمع ما لا تسمعون، أطأت السماء وحُقَّ لها أن تنط، ما فيها موضع أربع أصابع إلا عليه جبهة ملك ساجد..»^(٣) ويرجحه قول الله تعالى بعدها: ﴿وَالْمَلَائِكَةُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ﴾.

وفي موضع آخر من القرآن الكريم: أن السماء تكاد تنفطر لما فشا في الأرض من الإفساد، وعلى رأسه الشرك بالله تعالى: ﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا^(٨٨) لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئًا إِدًّا^(٨٩) تَكَادُ السَّمَوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَشَقُّ الْأَرْضُ وَخَرُّ الْجِبَالُ هَدًّا^(٩٠) أَنْ دَعَا لِلرَّحْمَنِ وَلَدًا^(٩١) وَمَا يَنْبَغِي لِلرَّحْمَنِ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَدًا^(٩٢) إِنْ كُلُّ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا آتِي الرَّحْمَنِ عَبْدًا^(٩٣)﴾ [مريم].

(١) قرأ نافع والكسائي بياء التذكير في (يكاد)، والباقون بياء التأنيث، وجاز تذكير الفعل وتأنيثه؛ لأن الفاعل وهو (السموات) مؤنث غير حقيقي.

(٢) قرأ نافع وابن كثير وابن عامر وحفص وحزمة والكسائي وأبو جعفر وخلف (يَتَفَطَّرْنَ) مضارع تفطر، بمعنى: تشقق، وقرأ الباقر (يَتَفَطَّرْنَ) مضارع انفطر، بمعنى: انشق، وهم أبو عمرو وشعبة ويعقوب.

(٣) أخرجه ابن مردويه عن أنس بإسناد حسن كما في «الدر المنثور» (٣٥٠/٩) وأخرجه أحمد برقم (٢١٥١٦) عن أبي ذر، قال محققوه: حسن لغیره، وفيه مرق العجلي لم يسمع من أبي ذر، وأخرجه الترمذي بتحسين الألباني له عن أبي ذر أيضاً في «صحيح سنن الترمذي» (١٨٨٢) مطوَّلاً، وفي السنن (٢٣١) وابن ماجه (٤١٩٠). والبزار (٣٥٢٤) والبخاري (٤١٧٢) والطبراني (٣١٢٢) بإسناد قوي.

ومثل ذلك قوله تعالى: ﴿إِذَا أَنْشَقَّتِ السَّمَاءُ فَكَانَتْ وَرْدَةً كَالدِّهَانِ﴾ [الرحمن: ٢٧].

وقوله سبحانه: ﴿إِذَا السَّمَاءُ انْفَطَرَتْ﴾ [الانفطار: ١].

وقوله ﷻ: ﴿إِذَا السَّمَاءُ انشَقَّتْ﴾ [الانشقاق: ١].

وتشقق السموات يبدأ من الجهة التي فوق، على الجهة التي تحت، حيث صدرت كلمة الكفر من الأرض، فالسموات تخر على الأرض.

أو أن كل سماء تخر على التي تحتها من قول المشركين: اتخذ الله ولداً، أو تخر من عظمة الله وجلاله.

﴿وَالْمَلَائِكَةُ﴾ الكرام مذعنون لعظمة الله تعالى خاضعون لجلاله، وهم ﴿يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ﴾ أي: والملائكة حين يتلقون من الله تعالى أوامره يسبحونه ويحمدونه، فيزهون الله تعالى عن كل نقص ويصفونه بكل كمال، ويحمدونه لأنه أهل لذلك، قال تعالى ﴿وَيُسَبِّحُ الرَّعْدُ بِحَمْدِهِ وَالْمَلَائِكَةُ مِنْ خِيفَتِهِ﴾ [الرعد: ١٣].

وقال سبحانه: ﴿وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مِنْ دَابَّةٍ وَالْمَلَائِكَةُ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ﴾ [٤٩] يخافون ربهم من فوقهم ويفعلون ما يؤمرون ﴿٥٠﴾ [النحل].

وهم ﴿يُسَبِّحُونَ أَيْلًا وَالنَّهَارَ لَا يَفْترُونَ﴾ [الأنبياء: ٢١].

والتسبيح منهم يجري مجرى النفس من الإنسان، وقُدِّم التسبيح على الحمد، ليُعلم أن تزيه الله تعالى عما لا يليق به، أهم من إثبات صفة الكمال له سبحانه.

وحين تفيض الملائكة خيرات ربها على عباده، فإنها تستغفر لذنوب مَنْ في الأرض ﴿وَيَسْتَغْفِرُونَ لِمَنْ فِي الْأَرْضِ﴾ من المؤمنين بصفة خاصة، عما يصدر منهم مما لا يليق بعظمة الله تعالى كما قال تعالى: ﴿الَّذِينَ يَحْمِلُونَ الْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ آمَنُوا﴾ [غافر: ٧].

فيطلبون لهم عفو الله تعالى ومغفرته ورحمته، والكافر لا يستحق أن تستغفر له الملائكة.

وقيل: إن الملائكة يطلبون لهم الهداية، أو يطلبون من الله تعالى ألا يعاجلهم بالعقوبة، وهذا على معنى أن الاستغفار لمن في الأرض جميعاً.

أما وقد فسرناها الآية الأخرى فهي خاصة بالمؤمنين، ويكون المراد بمن في الأرض: من يستحقون استغفار الملائكة لهم.

وقد أثبت القرآن أن الملائكة تلعن من يستحق اللعنة، كما في قوله تعالى: ﴿أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ لَعْنَةُ اللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾ [البقرة: ١٦٦].

ثم ختم الله الآية بقوله سبحانه: ﴿إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَفُورُ﴾ لذنوب المؤمنين من عباده ﴿الرَّحِيمُ﴾ بهم، فهو واسع الرحمة والمغفرة لمن يشاء من عباده، ولا يُسأل عما يفعل، ولو لا مغفرة الله تعالى ورحمته لعاجل خلقه بالعقوبة في الدنيا. قال القرطبي: هَيَّبَ وعَظَّمَ في الابتداء، وألطف وبشّر في الانتهاء^(١).

وفي وصفه تعالى بالمغفرة والرحمة، ما يوجب امتلاء القلوب بمحبته وإجلاله، وصرف جميع أنواع العبادة له، وفي هذا إشارة إلى أن الشرك بالله تعالى أكبر الظلم وأفحش القول، ولذا: فقد ذم الله تعالى الشرك والشركاء في قوله:

٦- ﴿وَالَّذِينَ أَخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ اللَّهُ حَفِظَ عَلَيْهِمْ وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِوَكِيلٍ﴾

ولما قامت الحجة على وحدانية الله تعالى بمقتضى وصفه بالعزة والحكمة والعُلُوّ والعظمة، وعَلِمَ المؤمنون ذلك استغفرت لهم الملائكة، أما الفريق الآخر الذي لم يؤمن بوحدانية الله تعالى فلا تهتم بشأنهم -أيها الرسول- فإن الله تعالى كفيل بهم، ولست عليهم بوكيل؛ لأن قلوبهم قد عميت عن تلك الأدلة ﴿وَالَّذِينَ أَخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ﴾ أي: اتخذوا غير الله آلهة يعبدونها ويتولّونها، ويتخذونهم شفعاء وشركاء يقربونهم إلى الله زلفى، هؤلاء ليسوا أولياء الله على الحقيقة، لأنهم تولّوا الباطل والأنداد من دون الله، والله تعالى سيحاسبهم ويجازيهم.

قوله: ﴿اللَّهُ حَفِظَ عَلَيْهِمْ﴾ أي: يحفظ عليهم أعمالهم ليجازيهم بها يوم القيامة، خيراً أو شراً، فعليك البلاغ وعلينا الحساب، ولم يوكلك الله عليهم حتى تؤاخذهم بذنوبهم ﴿وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِوَكِيلٍ﴾ لتحفظ أعمالهم، أو تُسأل عنها، إنما أنت منذر، وما أنت بموكل

(١) «تفسير القرطبي» (٥/١٦).

من الله على جبرهم على الإيمان، كما قال تعالى: ﴿فَإِنْ أَعْرَضُوا فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِظًا إِنْ عَلَيْكَ إِلَّا الْبَلَاغُ﴾ [٤٨]. وأولياء الكفار المذكورون في الآية:

١- إما أن يراد بهم: الشياطين، وعبادة الكفار لهم: طاعتهم فيما زينّه لهم الشيطان من الكفر والمعاصي، فهو شرك الطاعة، كما قال تعالى: ﴿لَا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ﴾ [يس].

وقال تعالى على لسان إبراهيم عليه السلام: ﴿يَتَّبِعْتِ لَا تَعْبُدِ الشَّيْطَانَ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلرَّحْمَنِ عَصِيًّا﴾ [مریم].

٢- وإما أن يراد بالولاية: عبادة الأوثان، أو التوسط بهم إلى الله تعالى، كما في الآية: ﴿مَا تَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى﴾ [الزمر: ٣].

عَالَمِيَّةُ الرِّسَالَةِ

٧- ﴿وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لِنُنْذِرَ أُمَّ الْقُرَى وَمَنْ حَوْلَهَا وَنُنْذِرَ يَوْمَ الْجُمُعِ لَا رَيْبَ فِيهِ فَرِيقٌ فِي الْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِي السَّعِيرِ﴾ [٧]

ثم عادت الآيات إلى الحديث مرة أخرى لتبين أن لسان الوحي المنزل على محمد ﷺ هو العربية، وكأن الآيات تقول: كذلك يوحى إليك الله العزيز الحكيم قرآنًا عربيًّا.

ولتبيين أنه لا فرق بين الوحي المنزل على محمد ﷺ وبين ما أوحاه الله إلى الرسل قبله، إلا اختلاف اللغات، كما قال تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ﴾ [إبراهيم: ٤].

وبمثل هذا الوحي أوحى الله إلى رسوله محمد ﷺ قرآنًا معجزًا بلسان عربي لا لبس فيه ولا غموض؛ ليكون كلمة الله الأخيرة إلى الخلق أجمعين، قال تعالى: ﴿وَأَوْحَىٰ إِلَيْكَ هَٰذَا الْقُرْآنَ لِأُنْذِرَكُمْ بِهِ وَمَنْ بَلَغَ﴾ [الأنعام: ١٩] أي: وكل من بلغته رسالة الإسلام من الثقلين إلى قيام الساعة، كما قال تعالى: ﴿وَأَخْرَيْنَ مِنْهُمْ لَمَّا يَلْحَقُوا بِهِمْ﴾ [الجمعة: ٣].

(١) قرأ حمزة بخلف عنه بمد لام (لا ريب) أربع حركات للمبالغة، والباقون بالقصر.

وهذا معنى ﴿وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لِّنُنذِرَ أُمَّ الْقُرَى وَمَنْ حَوْلَهَا﴾.

والقرية في القرآن، بمعنى: عاصمة المدن، فمكة هي المدينة الكبرى، وكُنيت أم القرى؛ لأنها أقدم المدن العربية، فسماها العرب أم القرى، والأم تطلق على الأصل، فهي أعظم القرى، وغيرها يتبعها كما يتبع الفرع الأصل، وهي قبلة أهل القرى جميعاً، وموضع حَجَّهم وعُمُرتهم، وفيها أول بيت وضع للناس، وفيها مقام إبراهيم، وجُجر إسماعيل.

والمندرون هم أهل مكة ومن حولها، وكانت مكة نقطة الانطلاق بالدعوة إلى مشارق الأرض ومغاربها؛ لأنها أصلح مكان على وجه الأرض لنشأة الإسلام، وأصلح نقطة تبدأ منها عالمية الإسلام، حيث تقع في مكان يتوسط العالم.

فقد اقتضت حكمة الله تعالى اختيار الأمة العربية لتكون أوَّل من يتلقَّى الإسلام وينشره بين الأمم، ولو أن الله تعالى خاطب جميع الأمم بدعوة الإسلام أول نزوله، لاقضى هذا أن ينزل القرآن بلغات لا تُحصى.

ولذا: فإن الله تعالى اختار أفضل البشر وأفضل اللغات، وأفضل الأمكنة، لينطلق منها الإسلام إلى عموم الثقليين، قال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرَى حَتَّى يَبْعَثَ فِي أُمِّهَا رَسُولًا يَتْلُوا عَلَيْهِمْ ءَايَاتِنَا﴾ الآية [القصص: ٥٩].

وما حول مكة يشمل جميع الأرض، كما يوضحه قول الله تعالى:

﴿تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا﴾ [الفرقان].

وقوله سبحانه: ﴿قُلْ يَتَأْتِيهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا﴾ [الأعراف: ١٥٨].

وقوله ﷺ: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا﴾ [سبا: ٢٨].

ومكة هي أحب البلاد إلى الله، كما جاء في الحديث: أن النبي ﷺ قال وهو واقف بالحزورة في سوق مكة: «والله إنك لخير أرض الله، وأحب أرض الله إلى الله، ولولا أني أخرجت منك ما خرجت»^(١).

(١) من حديث عبد الله بن عدي بن حمراء الزهري في «سنن الترمذي» برقم (٣٩٢٥) وقال: حسن غريب صحيح، والنسائي في «السنن الكبرى» برقم (٤٢٥٢) وابن ماجه برقم (٣١٠٨) والدارمي (٢٣٩/٢) و«المسند» (٣٠٥/٤) برقم (١٨٧١٥) بإسناد صحيح ورجال ثقات رجال الشيخين (محققوه) وعن أبي سلمة برقم (١٨٧١٨) وصححه الألباني في «صحيح سنن الترمذي» (٣٠٨٢)، وهو عند الدارمي (٢٥١٠).

وقد اختارها الله تعالى لتكون مقر الرسالة الأخيرة، حيث كانت المعمورة عند مولد هذه الرسالة تكاد تنحصر في أربع إمبراطوريات:

١- الرومان في أوروبا، وطرف من آسيا وأفريقيا.

٢- فارس، وهي تسيطر على قسم كبير من آسيا وأفريقيا.

٣- الهند.

٤- الصين، وهما منغلقتان على نفسيهما، معزولتان بعقائدهما وسياستهما.

وكانت اليهودية شريعة مغلقة على بني إسرائيل، لا تضم شعوبًا أخرى، ولم تكن لها سيطرة على أية أرض، نتيجة اضطهاد الرومان والفرس لها.

وكانت المسيحية تسيطر على فلسطين وسورية ومصر، ولما دخل إمبراطور الرومان في المسيحية، دخلت معه أساطير الرومان الوثنية، فلم يعد للمسيحية الأولى وجود.

وكان للعرب آلهة شتى من الملائكة والجن والكواكب والأصنام.

ومن هنا جاء الإسلام لينقذ البشرية فأخرج الجزيرة من الجاهلية إلى الإسلام، ومنها انتشرت الدعوة في أقطار الأرض، وتحقق إنذار أم القرى ومن حولها.

وكان الإنذار الأكبر والأكثر تكرارًا في القرآن، هو الإنذار بيوم الجمع، وهو يوم الحشر: ﴿وَنُنذِرَ يَوْمَ الْجَمْعِ لَا رَيْبَ فِيهِ﴾ ويوم الجمع هو يوم القيامة، كما قال تعالى:

﴿يَوْمَ يَجْمَعُكُمُ لِيَوْمِ الْجَمْعِ ذَلِكَ يَوْمُ النَّعَاجِ﴾ [التغابن: ٩].

والمعنى: لتنذر أم القرى، وتخوف الناس من أهوال يوم القيامة، وهو يوم لاشك في وقوعه، كما قال تعالى: ﴿وَأَنذَرُوكُم يَوْمًا تَرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ﴾ [البقرة: ٢٨١].

وقال سبحانه: ﴿وَأَنذَرُهُمْ يَوْمَ الْحَسْرَةِ إِذْ قُضِيَ الْأَمْرُ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ﴾ [مريم: ٣٩].

وسمي يوم الجمع لأن الله تعالى يجمع فيه الخلائق:

﴿اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ لِيَجْمَعَكُمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَمَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ﴾ [النساء: ٨٧].

﴿قُلْ إِنَّ الْأَوَّلِينَ وَالْآخِرِينَ ﴿٤٩﴾ لَمَجْبُوعُونَ إِلَى مِيقَاتِ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ ﴿٥٠﴾﴾ [الواقعة].

﴿كَيْفَ إِذَا جُمَعْتَهُمْ لِيَوْمٍ لَا رَيْبَ فِيهِ﴾ [آل عمران: ٢٥].

والناس في يوم الجمع فريقان ﴿فَرِيقٌ فِي الْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِي السَّعِيرِ﴾ وهذا نتيجة لإنذار النبي ﷺ للناس، فمن آمن وصدق كان مصيره الجنة، ومن أعرض وكذب، كان مصيره النار؛ وذلك لأن الله تعالى خلق الخلق، وجعل منهم سعداء وهم أهل الجنة، وأشقياء وهم أهل السعير ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ فَنُكِّرُ كَأْفَرٌ وَمَنْكُمْ مُّؤْمِنٌ﴾ [التغابن: ٢].

عن عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنه قال: خرج علينا رسول الله ﷺ ذات يوم قابضاً على كفه، ومعه كتابان، فقال: «أتدرون ما هذان الكتابان؟» قلنا: لا، يا رسول الله، فقال للذي في يده اليمنى: «هذا كتاب من رب العالمين بأسماء أهل الجنة، وأسماء آبائهم وعشائهم، وعدّتهم قبل أن يستقرّوا نطفاً في الأصلاب، وقبل أن يستقرّوا نطفاً في الأرحام، إذ هم في الطينة مُنجدلون، فليس بزائد فيهم ولا ناقص منهم، إجمال من الله عليهم^(١) إلى يوم القيامة». ثم قال للذي في يساره: «وهذا كتاب من رب العالمين بأسماء أهل النار، وأسماء آبائهم وعشائهم، وعدّتهم قبل أن يستقرّوا نطفاً في الأصلاب، وقبل أن يستقرّوا نطفاً في الأرحام، إذ هم في الطين مُنجدلون، فليس بزائد فيهم ولا ناقص، إجمال من الله تعالى عليهم إلى يوم القيامة». فقال عبد الله بن عمرو: ففيم العمل إذا؟ قال: «اعملوا وسدّدوا وقاربوا، فإن صاحب الجنة يُختم له بعمل أهل الجنة، وإن عَمِلَ أَيَّ عمل»، ثم قال: ﴿فَرِيقٌ فِي الْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِي السَّعِيرِ﴾، عدل من الله تعالى^(٢).

وفي لفظ له رضي الله عنه: «إن الله تعالى لما خلق آدم نفذه نفص المزود، وأخرج منه كل ذريته، فخرج أمثال النّغف، فقبضهم قبضتين، ثم قال: شقي وسعيد، ثم ألقاهما، ثم قبضهما، فقال: فريق في الجنة وفريق في السعير^(٣)».

(١) أي: إن الله تعالى جمعهم وأحصاهم وكَمَّل أفرادهم بلا زيادة ولا نقصان.

(٢) «سنن الترمذي» برقم (٢١٤١) وقال: حسن غريب صحيح، وحسنه الألباني في «صحيح سنن الترمذي» (١٧٤٠) وهو في «المسند» (١٦٧/٢) (٦٥٦٣) من حديث طويل بنحوه، وإسناده ضعيف كما قال محققوه، لأن أبا قبيل المعافري مختلف فيه، وأخرجه النسائي في «السنن الكبرى» برقم (١١٤٧٣) وحسنه الألباني في «السلسلة الصحيحة» (٨٤٨) ويُنظر: «معالم التنزيل» للبغوي (١٨٥/٧).

(٣) «تفسير الطبري» (٧/٢٥) وهو موقوف على عبد الله بن عمرو، قال ابن كثير: وهو أشبه بالصواب (١٩٢/٧).

وفي لفظ آخر: «إن الله تبارك وتعالى قبض بيمينه قبضة، وأخرى باليد الأخرى، قال: هذه لهذه، وهذه لهذه، ولا أبالي» فقا أبو عبد الله: فلا أدري في أي القبضتين أنا^(١).

وفي الأثر: يدخل الخلق كلهم الجنة، إلا ما لا خير فيه^(٢).

فأهل الجنة هم من آمنوا بالله واتبعوا ما جاءهم به محمد ﷺ، وأهل النار هم الذين كفروا بالله وخالفوا ما جاءهم به محمد ﷺ.

اِخْتِلَافُ النَّاسِ فِي التَّوْحِيدِ الَّذِي جَاءَ بِهِ الْوَحْيُ

٨- ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَهُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِنْ يُدْخِلُ مَنْ يَشَاءُ فِي رَحْمَتِهِ وَالْظَّالِمُونَ مَا لَهُمْ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾
بيِّن ﷺ أن كونَ الناس فرِيقين أمر مراد لله تعالى، أوجد أسبابه وقدر نتائجه، ولو شاء الله لجعلهم أمة واحدة على دين واحد، إما التوحيد وإما الكفر، فيكون سلوكهم واحداً، ومصيرهم واحداً، إما جنة وإما ناراً، ولكنه سبحانه خلق الإنسان وجعل فيه استعدادات خاصة ينفرد بها عن الملائكة وعن الحيوانات وعن الشياطين، فلم يجعله ذا توجه واحد، فيطيع الله تعالى أو يخالفه، بل جعله مستعداً لقبول الهدى أو الضلال، له حرية واختيار بتصريف عقله وتوجه ميوله، فهو يكتسب أفعاله ويحاسب عليها، بعد أن بيِّن الله له الخير والشر، ورغبه في الأول وحذره من الثاني ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَهُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً﴾ فيجمع خلقه على الهدى، ويجعلهم على ملة واحدة، هي دين الإسلام، ولكنه سبحانه لم يشأ ذلك لِيتميز الخبيث من الطيب، وأهل الهدى من أهل الضلال.

﴿وَلَكِنْ يُدْخِلُ مَنْ يَشَاءُ فِي رَحْمَتِهِ﴾ هذا هو الفريق الأول: أهل الهدى والإيمان، الذين يدخلون في ساحة الرحمة والرضوان من خواص خلقه، فيدخل الله في الإسلام من اختار طريق الهدى وسلك طريق النجاة.

أما الفريق الثاني فهم الذين قال الله عنهم: ﴿وَالظَّالِمُونَ﴾ لأنفسهم بالشرك والكفر

(١) أخرجه أحمد بسنده عن صحابي يقال له: أبو عبد الله، وهو القائل: فلا أدري في أي القبضتين أنا،

«المسند» (١٧٦/٤) برقم (١٧٥٩٣، ٢٠٦٦٨). بإسناد صحيح ورجاله رجال الصحيح غير صحابي

(محققوه) وأخرجه البزار (٢١٤٢) كشف الاستار، وله طرق متعددة.

(٢) رواه ابن جرير بسنده عن ابن حجية.

﴿مَالَهُمْ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾ يتولى أمرهم يوم القيامة ليدفع عنهم سوء العذاب، وليس لهم نصير ينصرهم من عقاب الله تعالى؛ فهم محرومون من الرحمة، وذلك لأنهم استحبوا العمى على الهدى، واختاروا طريق الضلال.

١- ويوضح ذلك قوله تعالى: ﴿وَلَوْ شِئْنَا لَآتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدًى وَلَكِنْ حَقَّ الْقَوْلُ مِنِّي لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾ [السجدة].

٢- وقوله سبحانه: ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى الْهُدَى﴾ [الأنعام: ٣٥].

٣- وقوله ﷻ: ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَآمَنَ مَنْ فِي الْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا﴾ [يونس: ٩٩].

٤- وقوله جلَّ شأنه: ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ﴾ [١٨] إِلَّا مَنْ رَجِمَ رَبُّكَ وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ﴾ [هود: ١١٨، ١١٩].

ثم بين سبحانه أن السبب في ضلال من ضلَّ هو اتخاذهم آلهة يعبدونها من دون الله، فقال:

٩- ﴿أَرِ أَخْذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ ۖ قَالَ هُوَ الْأَوْلَىٰ وَهُوَ يُحْيِي الْمَوْتَىٰ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [١]

قرر سبحانه في هذه الآية أن الله وحده هو الولي، وهو الناصر، وهو الذي يحيي الموتى، وهو وحده القادر على كل شيء، فهذه أربع خصائص لله ﷻ: الولاية، والنصرة، وإحياء الموتى، والقدرة المطلقة.

﴿أَرِ أَخْذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ﴾ أم، بمعنى: بل، أي: بل اتخذ المشركون أولياء غير الله تعالى يتولَّونهم وينصرونهم؟ وهذا إنكار عليهم من الله تعالى أن يتخذوا من دونه شفعاء، وإخبار لهم بأن الله هو الولي الحق وهو المعبود بحق.

﴿قَالَ هُوَ الْأَوْلَىٰ﴾ الذي يجب على الخلق أجمعين أن يتولَّوه بالطاعة والعبادة، وهو سبحانه يتولى عباده جميعاً بتدبير شؤونهم ونفوذ القدر فيهم، ويتولى عباده المؤمنين على وجه الخصوص، فيخرجهم من الظلمات إلى النور، ويعينهم في جميع الأمور.

﴿وَهُوَ يُحْيِي الْمَوْتَى﴾ بالبعث والنشور، فهو القادر على إعادة الحياة إلى الناس بعد موتهم.

﴿وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ لا يعجزه شيء، فكيف يتخذ الجاهلون أولياء من دونه؟!

فإن أرادوا ولياً بحق، فالله هو الولي بالحق، لا ولي سواه.

وقدرة الله تعالى تتجلى في الموت والحياة، والخلق والإيجاد، وغير ذلك:

قال تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ﴾ [الروم: ٢٧].

وقال جل شأنه: ﴿أَفَمَنْ يَخْلُقُ كَمَنْ لَا يَخْلُقُ﴾ [النحل: ١٧].

وقال سبحانه: ﴿وَإِنْ يَسْأَلُهُمُ الذُّبَابُ شَيْئًا لَا يَسْتَفِذُوهُ مِنْهُ﴾ [الحج: ٧٣].

الْمَرْجِعِيَّةُ الشَّرْعِيَّةُ إِلَى خَالِقِ هَذَا الْكَوْنِ وَمُدَبِّرِ أَمْرِهِ

١٠- ﴿وَمَا اخْلَقْتُمْ فِيهِ مِنْ شَيْءٍ فَحُكْمُهُ إِلَى اللَّهِ ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبِّي عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ﴾

أي: إن كل ما اختلف فيه الناس من أمر الدين في أصوله وفروعه، فإن حُكْمَهُ ومرجعَهُ في الدنيا إلى شرع الله، يحكم فيه العباد بما أنزل الله، وبما صح عن رسول الله، ولا يقبل حكماً سواه، ويحكم الله فيه يوم القيامة بحكمه العادل، في كل ما يتعلق بالإيمان والكفر، والبعث وعدمه، والنفع والضرر، وغير ذلك من أمور الدين، ويحكم الله كذلك فيما يكون بين الناس من خصومات، فإذا كان يوم القيامة فإنه يتضح فيه المحق من المبتطل، حين يرى كل من أهل الإيمان وأهل الكفر الثواب والعقاب، فيظهر للمشركين والمعاندين أنهم كانوا على باطل فيما يزعمون، وأن الله تعالى هو الواحد الأحد، الحكيم في حكمه، هو ربهم ومعبودهم وحده، لا شريك له، ولا توكل إلا عليه، ولا إنابة إلا إليه، ويوم القيامة تظهر الفرقة الناجية، ويظهر أهل الحق وأهل الضلال من الفرق والأحزاب والطوائف.

والآية تشير إلى المرجعية التي يقصدها البشر عند كل اختلاف يقع بين الناس من أمور الدنيا أو الآخرة، في حياة الإنسان العامة والخاصة، وفي الحياة الاجتماعية، وفي الاقتصاد والمعاش، والقضاء والسياسة، والأخلاق والسلوك، وما إلى ذلك.

كل ذلك وغيره مرد الحكم فيه إلى الله تعالى وإلى سنة رسول الله، فما حكما به فهو الحق، وما خالف ذلك فهو باطل، ولا يكون ذلك إلا فيما وقع فيه اختلاف بين الأمة، ومعنى ذلك أن اتفاق الأمة حجة.

فالقرآن دستور شامل لحياة البشر وأخراهم، فلا يُتَحَاكَمُ إلا إلى الله، ولا مشرّع إلا

الله، ولا مرجعية عند الاختلاف إلا إلى الله ورسوله: ﴿فَإِنْ نَزَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾ [النساء: ٥٩].

﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجًا مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾ [النساء: ٦٥].

فمرّد الحكم في أمور الدين والدنيا إلى شرع الله تعالى في كتابه، وفي سنّة رسوله ﷺ، والمرجع إلى الله تعالى في كل حال، ومن الآيات الدالة على ذلك.

١- قوله تعالى: ﴿وَلَا يَشْرِكُ فِي حُكْمِهِ أَحَدًا﴾ [الكهف: ٢٦].

٢- وقوله سبحانه: ﴿إِنَّ الْحُكْمَ إِلَّا لِلَّهِ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ﴾ [يوسف: ٤٠].

٣- وقوله ﷻ: ﴿إِنَّ الْحُكْمَ إِلَّا لِلَّهِ يَقُصُّ الْحَقُّ وَهُوَ خَيْرُ الْفَصِّلِينَ﴾ [الأنعام: ٥٧].

٤- وقوله جلّ شأنه: ﴿وَلَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ [الفصص: ٧٠].

٥- وقوله تعالى: ﴿وَأَنَّ أَحْكَمَ بَيْنَهُمْ يَمَّا أَتَزَلَّ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ﴾ [المائدة: ٤٩].

٦- وقوله عزّ في علاه: ﴿أَفَغَيْرَ اللَّهِ أَبْتَغِي حَكَمًا وَهُوَ الَّذِي أَنْزَلَ إِلَيْكُمُ الْكِتَابَ مُفَصَّلًا﴾ [الأنعام: ١١٤].

وقد ختمت الآية بأصلين عظيمين هما: التوكل والإنابة، قال تعالى: ﴿عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ﴾ أي: وعليه اعتمدت في جميع أموري، ومنها جلب المنافع ودفع المضار ﴿وَإِلَيْهِ أُنِيبُ﴾ أي: أتوجه بقلبي وبدني إليه بطاعتي وعبادتي.

قال تعالى ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾.

وقال ﴿وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ الْأَمْرُ كُلُّهُ فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ﴾ [هود: ١٢٣]. قال تعالى:

١١- ﴿فَاطْرُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا وَمِنَ الْأَنْعَامِ أَزْوَاجًا يَذُرْكُمْ فِيهِ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾.

أي: إن الله تعالى الذي يُتْحَاكَمُ إليه، وعليه التوكل وإليه الإنابة، هو سبحانه خالق هذا

(١) قرأ قالون وأبو عمرو والكسائي وأبو جعفر بإسكان الهاء من (وهو)، والباقون بضمها.

الكون وموجده على غير مثال سبق ﴿فَاطِرُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ أي: مبدع العالم العلوي والعالم السفلي خالقهما ومنشئهما، بمشيئته وإرادته وحكمته.

ومن قدرته تعالى أنه ﴿جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا﴾ أي: أوجد لكم بقدرته من جنسكم نساء تسكنون إليهن، وتجمع بينكم وبينهن المودة والرحمة، وتنتشر منكم الذرية، ويحصل لكم النفع الكثير، كما قال تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا﴾ [الأعراف: ١٨٩].

وقال سبحانه ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً﴾ [الروم: ٢١]

وقال أيضًا: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً﴾ [النساء: ١].

فالمراد بالأزواج: النساء، أي: الزوجات، وهذا يقتضي بالضرورة وجود الذكر والأنثى في الإنسان والحيوان، ولذا قال تعالى: ﴿وَمِنَ الْآيَاتِ أَنْ خَلَقَ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ جَوْشَجًا﴾ أي: وخلق أيضًا للأنعام من جنسها إناثًا ليحصل التوالد والتناسل بينهما، ويعمر هذا الكون، وأزواج الأنعام، هي: الإبل والبقر والضأن والمعز، فهي ثمانية أزواج: من الإبل اثنان، ومن البقر اثنان، ومن الضأن اثنان، ومن المعز اثنان، ولولا أنه سبحانه خلق الذكر والأنثى، لما كان هذا التوالد والتناسل في الإنسان والحيوان وغيرهما، فهو سبحانه ﴿يَذَرُوكُمْ فِيهِ﴾ أي: يكثر عددكم بسبب التزاوج للإنسان والحيوان، فذراً، أي: خلق نسل الإنسان نعمة للناس، وخلق نسل الأنعام نعمة للناس، فكان الزواج هو المنبع والمنبت للتكاثر والتناسل.

وخالق الإنسان والحيوان، القادر على كل شيء، لا يماثله شيء في تدبيره وإنعامه، ولا يشبهه شيء في ذاته ولا في أسمائه ولا في صفاته ولا في أفعاله، فهو الواحد الأحد، الفرد الصمد، لا يشبهه شيء من مخلوقاته، ولا يُشَبَّه به أحد، إنه سبحانه ذات، غير مُشَبَّهة للذوات، ولا مُعْطَلَّة من الصفات، وهو السميع لأقوال العباد، العليم بأفعالهم.

فهو سبحانه منزّه عن مشابهة خلقه في الذات والصفات والأفعال والأسماء.

فأسماءه كلها حسنى، وصفاته صفات كمال وعظمة، وأفعاله أوجد بها المخلوقات

العظيمة من غير مشارك ولا منازع، فليس كمثله شيء لانفراده وتوحده بالكمال من كل وجه.

وهو سبحانه لا يخفى عليه شيء من أقوال خلقه وأعمالهم، وسيجازيهم على ما كسبت أيديهم، ذلكم قوله تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ أي: ليس شبه ذاته شيء.

فقد أثبت الله تعالى لذاته مثلاً، ثم نفى عن ذلك المثل أن يكون له مماثل، ونفى المثل ينفي المثل، أي: ليس شيء مثل مثله، ونفي المماثلة تبطل ما نسبوه لله تعالى من اتخاذ البنات، فنفت الآية أن يكون شيء من الموجودات مماثلاً لله تعالى.

وهذه الآية أصل في تنزيه الله تعالى عن مشابهة الحوادث، ونفي المماثلة لا ينفي أن الله تعالى متصف بصفات الكمال المعنوية: كالعلم والحياة والسمع والبصر، ولكنها لا تشبه صفات المخلوقات، فهي تثبت الصفات وتنفي مشابهة المخلوقات، وترد على المشبهة والمعطلة.

فالله تعالى لا يشبه شيئاً من مخلوقاته، ولا يُشَبَّه به أحد، فلا تشابه بين الخالق والمخلوق، إذ إن صفات المخلوق لا تنفك عن الأعراض والأغراض، والله تعالى منزّه عن ذلك، فليس كذاته ذات، ولا كاسمه اسم، ولا كفعله فعل.

وقد أثبت الله تعالى لنفسه في آخر الآية صفتي السمع والبصر؛ لئلا يُتَوَهَّم أن الله تعالى منزّه عن الاتصاف بما اتصفت به المخلوقات من صفات الكمال المعنوية، ولكن صفات المخلوقات عارضة، وهي صفات واجبة لله تعالى^(١).

وهو السميع لجميع الأصوات باختلاف اللغات وتفنن الحاجات، وهو البصير، يرى النملة السوداء على الصخرة الصماء في الليلة الظلماء، ويرى سريان القوات في أعضاء الحيوانات الصغيرة، وسرياء الماء في الأغصان الدقيقة.

١٢- ﴿لَهُ مَقَالِيدُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ يَسْطُرُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾

ونتيجة لما تقدم من أن الله تعالى خالق هذا الكون ومبدعه، فإنه سبحانه.

﴿لَهُ مَقَالِيدُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ أي: له ملكهما، وبيده مفاتيح الرحمة والأرزاق، والنعم الظاهرة والباطنة، فهو المتصرف بما ينفع الناس من خيرات، وجميع الخلق مفتقرون إليه

(١) يُنْظَرُ: «تفسير التحرير والتنوير» (٤٨/٢٤).

في جلب الخير ودفع الضر، وهو المعطي المانع.

﴿يَسْطُرُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ﴾ أي: يوسع الرزق على من يشاء ويضيّقه على من يشاء وفق الحكمة الإلهية ﴿إِنَّهُ﴾ تبارك وتعالى ﴿بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ لا يخفى عليه شيء، وهو سبحانه محيط بشؤون خلقه، ويعلم إذا كان الغنى أو الفقر خيراً لعبده، فمشيئته تعالى جارية وفق علمه بما يناسب أحوال خلقه.

﴿مَا يَفْتَحُ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِنْ رَحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا وَمَا يُمْسِكُ فَلَا مُرْسِلَ لَهُ مِنْ بَعْدِهِ﴾ [فاطر: ٢]

دِينُ اللَّهِ وَاحِدٌ فِي أُصُولِهِ وَقَوَاعِيدِهِ

١٣- ﴿شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ^(١) وَمُوسَى وَعِيسَى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ كَبُرَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ اللَّهُ يَجْتَبِي إِلَيْهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ يُنِيبُ﴾

وبعد أن امتنَّ الله على عباده بنعمة الرزق، امتنَّ عليهم بنعمة الوحي، وبيان الدين وتوضيحه، وكما عظمَّ الله تعالى وحيه إلى نبيه في مطلع السورة، بيّن هنا أنه شرع للمسلمين من الدين ما شرعه للأنبياء السابقين.

﴿شَرَعَ﴾ الله ﴿لَكُمْ﴾ أيها الناس ﴿مِنَ الدِّينِ﴾ الذي أوحيناه إليك يا محمد، وهو خير الشرائع وأزكاها وأفضلها - وهو الإسلام - بمعناه العام، شرعه الله للمصطفين الأخيار، أولى العزم من الرسل وهم نوح وإبراهيم وموسى وعيسى ومحمد صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين، وأولهم نوح عليه السلام ﴿مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا﴾ من التوحيد وأصول الشريعة التي اتفقت عليها الكتب والشرائع أن يبلغها للناس ويعمل بها ﴿وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى﴾ من العقائد وأصول الشرائع والأحكام، وهؤلاء الخمسة هم أولو العزم من الرسل، وهم أكابر الأنبياء، وأصحاب الشرائع، فلكل رسول منهم شرع جديد في الفروع، أما من عداهم من الرسل فقد كانوا يبلغون للناس شرع من قبلهم، كل واحد بعد الآخر، حتى ختم الله الرسالات بأفضل الرسل، وقد جمعت شريعته أصول الاعتقادات

(١) قرأ هشام (إبراهيم)، والباقون (إبراهيم).

والأحكام في الشرائع المتقدمة

فالشرائع السابقة كانت تأمر بالتوحيد، والإيمان بالبعث، واليوم الآخر، وتقوى الله تعالى، بامثال أمره واجتناب نهيه، وتدعو إلى مكارم الأخلاق، كما قال تعالى:

﴿قَدْ أَفْلَحَ مَنْ تَزَكَّى ۖ وَذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِ فَصَلَّى ۝١٥ بَلْ تُؤْثِرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ۖ وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَى ۝١٦ إِنَّ هَذَا لَفِي الصُّحُفِ الْأُولَى ۖ صُحُفِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى ۖ﴾ [الأعلى].

وقال تعالى: ﴿أَمْ لَمْ يَبْنَأْ بِمَا فِي صُحُفِ مُوسَى ۖ وَإِبْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَّى ۖ ۝٣٧ أَلَا نَزَّلُ وَزْرًا وَزَرًا ۖ نُفُخًا ۖ وَأَنْ لَيْسَ لِلْإِنْسَانِ إِلَّا مَا سَعَى ۖ ۝٣٨ وَأَنْ سَعْيُهُ سَوْفَ يُرَى ۖ ۝٣٩ ثُمَّ يُجْزَاهُ الْجَزَاءُ الْأَوْفَى ۖ﴾ [النجم].

وأعظم ما تدعو إليه الشرائع: توحيد الله ﷻ، ثم حفظ الضرورات الخمس: النفس، والعرض، والمال، والعقل، والنسب، ثم حفظ الحاجات التي لا تستقيم أحوال البشر بدونها. ودين الإسلام يتضمن هذه الأصول، ويمتاز بتعليل الأحكام، وسد الذرائع، ودرء المفاسد وجلب المصالح والنظر في الأدلة، ورفع الحرج، والسماحة واليسر، وشدة الاتصال بالفطرة.

ونوح ﷺ هو أول الرسل، فشريعته أساس الشرائع، قال تعالى: ﴿إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَى نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِنْ بَعْدِهِ ۖ﴾ [النساء: ١٦٣].

وقد جاء نوح بتحريم الأمهات والأخوات والبنات^(١).

وقد ذكرت الآية بعده محمدا ﷺ في قوله تعالى ﴿وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ﴾ فضمت الآية أول الرسل وآخرهم ثم ذكرت الثلاثة الآخرين.

أما شريعة إبراهيم ﷺ فهي أصل الحنيفية السمحة، وقد انتشرت هذه الشريعة بين العرب، وكانت أشهر الشرائع عندهم بسبب دعوة إسماعيل له، وظهور أثره في الحج والختان والكرم والفتوة.

(١) أخرجه عبد بن حميد وابن المنذر كما في «الدر المنثور» (١٣/ ١٣٥).

وشريعة موسى ﷺ هي أوسع الشرائع السابقة في تشريع الأحكام.

أما شريعة عيسى ﷺ، فهي الشريعة السابقة لشريعة الإسلام مباشرة.

وقد ذكر الله تعالى هؤلاء الرسل الخمسة في آية الميثاق: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَقَهُمْ وَمِنْكَ وَمِنْ نُوحٍ وَإِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ وَأَخَذْنَا مِنْهُمْ مِيثَقًا غَلِيظًا﴾ [الأنبياء: ١٠٧].

وقدّم النبي ﷺ في آية الميثاق؛ لأن المقصود: بيان الأفضلية، أما في آية الوحي فإن المقصود: وصف دين الإسلام بالأصالة والاستقامة^(١).

والوصية الوحيدة الصادرة لهؤلاء الرسل جميعاً هي ﴿أَنِ اتَّبِعُوا دِينَكُمْ وَلَا تَتَّبِعُوا فِيهِ﴾ أي: اجعلوا دين الله واحداً قائماً مستمراً محفوظاً من غير خلاف ولا اضطراب في الأصول التي لا تختلف فيها الشريعة، وهي: التوحيد ومسائل العقيدة، وأصول العبادات والشرائع، وترك الذنوب والكبائر، أقيموا أصول الدين وفروعه بأنفسكم واجتهدوا في إقامته على غيركم.

قال مجاهد: لم يبعث الله نبياً قط إلا وصّاه بإقامة الصلاة، وإيتاء الزكاة، والإقرار لله بالطاعة، فذلك دينه الذي شرع الله.

وإقامة الدين: تعني القيام بتكاليفه تحت راية واحدة، وعدم الانحراف عنه، أي: أقيموا بالتوحيد والطاعة والعبادة لله وحده، ولا تختلفوا فيما أمركم الله به من إخلاص التوحيد، وطاعة رسله، وقبول شرعه، وآمنوا بكتبه ورسله واليوم الآخر، وبالقضاء والقدر خيره وشره.

وقد نهى الإسلام عن التفرق في أصول الدين والمسائل العامة فقال تعالى ﴿وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ﴾ أي تعاونوا على إقامة الدين حتى لا يحصل منكم تفرق واختلاف في أصول الدين وفروعه، فتصيروا فرقا وأحزاباً وشيعاً، ومن مظاهر الاتفاق، الاجتماع في الحج والأعياد والجمعة والجماعات والجهاد ونحو ذلك من العبادات التي لا تتم إلا بالاجتماع وعدم التفرق.

وهناك اختلاف بين الرسل في الأمور الفرعية من العبادات بما يناسب أحوال الأمم، كما قال تعالى: ﴿لِكُلِّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا﴾ [المائدة: ٤٨].

(١) «تفسير التحرير والتنوير» (٥١/٢٤).

ومع أن الإسلام مؤيد بما سبقه من الشرائع الإلهية، فإن المشركين الذين يزعمون أنهم على ملة إبراهيم، وقفوا في وجه الإسلام، وعظم عليهم ما يدعوهم إليه محمد ﷺ من توحيد الله تعالى، وإخلاص العبادة له. ﴿كَبُرَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ مَا نَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ﴾.

وشق عليهم أيضاً أن ينزل القرآن على محمد ﷺ وهو رجل يتيم من بينهم، فقالوا: ﴿لَوْلَا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَى رَجُلٍ مِّنَ الْفَرِثِيِّينَ عَظِيمٍ﴾ [الزخرف: ٣١].

كما كبر عليهم أن يكون الرسول بشراً، فقالوا: ﴿أَبَعَثَ اللَّهُ بَشَرًا رَسُولًا﴾ [الإسراء: ٩٤].

وكبر عليهم أن يكون الإله المعبود واحداً، فقالوا: ﴿أَجْعَلِ الْآلِهَةَ إِلَهًا وَاحِدًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ﴾ [ص: ٥]. قال تعالى ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا إِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ﴾ [٣٥] [الصافات] وقال: ﴿وَإِذَا ذُكِّرَ اللَّهُ وَحْدَهُ اشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ وَإِذَا ذُكِّرَ الَّذِينَ مِّنْ دُونِهِ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ﴾ [١٥] [الزمر]

وطلبوا من الرسول ﷺ أن يأتيهم بخوارق العادات، وأن يأتي إليهم بكتاب من السماء يقرؤونه، بعد أن يصعد إليها ليشهدوا له بالرسالة، فقالوا:

﴿أَوْ تَرَفَّى فِي السَّمَاءِ وَلَكِنْ نُؤْمِنُ لِرُقِيِّكَ حَتَّى نُنَزِّلَ عَلَيْكَ كِتَابًا نَقْرُؤُهُ﴾ [الإسراء: ٩٣].

وطلبوا نزول الملائكة عليهم ورؤية الله ﷻ عياناً، فقالوا:

﴿لَوْلَا أَنْزَلَ عَلَيْنَا الْمَلَائِكَةَ أَوْ نَرَى رَبَّنَا﴾ [الفرقان: ٢١].

وكبر عليهم أيضاً أن ينتهي سلطانهم الديني بانتهاء عبادة الأوثان في الجزيرة، فتشبثوا بالشرك وتمسكوا به.

وجواباً على هذا كله فقد بين الله سبحانه أنه يصطفي للرسالة من يشاء من عباده.

﴿اللَّهُ يَصْطَفِي مَنِ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا وَمِنَ النَّاسِ﴾ [الحج: ٧٥].

﴿اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ﴾ [الأنعام: ١٢٤]. ﴿اللَّهُ يَجْتَبِي إِلَيْهِ مَن يَشَاءُ﴾

وقد اجتبي محمداً ﷺ للرسالة، واجتبي هذه الأمة، واجتبي لها أفضل الرسالات.

والمجتبي: هو من هداه الله إلى التوحيد ممن ينبى ويرجع إليه.

وهو سبحانه أعلم بسرائر خلقه ﴿وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَن يُنِيبُ﴾ أي: يوفق للعمل بطاعته من يرجع

إليه فييسر له طريق الهداية، كما قال تعالى: ﴿يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ﴾ [المائدة: ١٦]

﴿وَاتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ﴾ [لقمان: ١٥].

سَبَبُ التَّفَرُّقِ فِي الدِّينِ

١٤- ﴿وَمَا تَفَرَّقُوا إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَعِيًّا بَيْنَهُمْ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى لَفُضِّىَ بَيْنَهُمْ وَإِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ بَعْدِهِمْ لَفِي شَكٍّ مِمَّنْهُ مُرِيبٌ ﴿١٤﴾﴾

وبعد أن أمر الله تعالى باجتماع المسلمين، نهاهم عن التفرق، ونهاهم أن لا يغتروا بما أنزل الله عليهم من كتاب، فإن أهل الكتاب لم يتفرقوا إلا بعد ما أنزل الله عليهم الكتاب، ففعلوا ضد ما يأمرهم كتابهم، فاحذروا أن تكونوا مثلهم، وهكذا فقد أوصى الله الأمم على السنة الرسل أن يقيموا الدين ولا يتفرقوا فيه، وبيّنت لهم الرسل مضار الاختلاف والتفرق، ومع ذلك فقد اختلفوا وصاروا شيعاً وأحزاباً، مع نهيههم عن التفرق، وقيام الحجة عليهم بتبليغ الرسل لهم، فالمراد بالعلم في الآية: العلم بالنهي عن التفرق في الدين.

١- أي: وما تفرقت الأمم المكذبة لرسل الله في شرائعهم، إلا من بعد ما جاءهم العلم على لسان رسلهم، من النهي عن التفرق في الدين وبيان مفسده ومضاره، فتفرقوا فيه مع علمهم بأن الفرقة ضلال، وهم غير معذورين بالجهل عن نتائج التفرق في أمر الدين، وما جاءت به الرسل في كل زمان ومكان.

٢- ويجوز أن يكون المعنى: وما تفرقوا إلا من بعد مجيء النبي ﷺ بصفاته الموافقة لما في كتبهم، فتفرقوا بالطعن في رسالته بعد علمهم بمطابقته للأوصاف، كما قال تعالى: ﴿وَمَا تَفَرَّقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمْ الْبَيِّنَةُ﴾ [البينة].

ثم إن سبب هذا التفرق: هو البغي والعناد والحسد طلباً للرياسة، ومن باب الحميّة، فهو الذي حملهم على اختلاق المطاعن فيه، وهذا هو معنى ﴿بَعِيًّا بَيْنَهُمْ﴾.

ثم حذر الله المؤمنين من مثل هذا الاختلاف، فقال تعالى: ﴿وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ﴾ وهذه الكلمة التي في الآية، هي ما أَرَادَهُ اللهُ تعالى من إمهالهم وتأخير العذاب عنهم ﴿إِلَّا أَجَلٌ مُسَمًّى﴾ هو موعد عذابهم في الدنيا أو الآخرة.

ثم بيّن سبحانه أن الذين ورثوا الكتاب، وهم اليهود والنصارى ممن قال الله عنهم: ﴿الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ وَإِنَّ فَرِيقًا مِنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ [١٤].

[البقرة]، قد اختلفوا وتفرقوا في شأن محمد ﷺ، وفي شأن هذا القرآن، بعدما علموا بصدقهما، كما بشرت بذلك التوراة والإنجيل، قال تعالى: ﴿وَإِنَّ الَّذِينَ أُوثِرُوا بِالْكِتَابِ﴾ أي: التوراة والإنجيل ﴿مِنْ بَعْدِهِمْ﴾ أي: من بعد المختلفين في الحق من الأمم السابقة ﴿لَفِي شَكٍّ مِنْهُ مِرْسٍ﴾ أي: لفي ريب من هذا الدين الذي جاء به صاحب الرسالة الأخيرة، وفي ريب من كتابه الذي جاء به، وهو واقع موقع الريبة والاختلاف المذموم.

فالمعنى: إنه كما تفرق أسلافهم في الدين قبل بعثة النبي ﷺ الموعود به في كتبهم، تفرق خَلْفُهُمْ من أهل الكتاب المعاصرين مثلهم، وهم الذين ورثوا الكتاب من بعد سلفهم، فهم في شك وتردد في شأن الرسالة الخاتمة، دون بذل الجهد في تحصيل اليقين.

بُنُودُ الدَّعْوَةِ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى فِي عَشْرِ جُمَلٍ

١٥- ﴿فَلِذَلِكَ فَادِّعْ وَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ وَقُلْ ءَامَنْتُ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنْ كِتَابٍ وَأُمِرْتُ لِأَعْدِلَ بَيْنَكُمْ اللَّهُ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ لَنَا أَعْمَلْنَا وَلَكُمْ أَعْمَلُكُمْ لَا حُجَّةَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ اللَّهُ يَجْمَعُ بَيْنَنَا وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ ﴿١٥﴾﴾

بعد أن أمر الله سبحانه بإقامة الدين، ونهى عن التفرق فيه، وبعد بيان أن المؤمنين قد تلقوا هذا الدين بالقبول والإنابة، وتلقاه المشركون بالإعراض عنه، وتلقاه أهل الكتاب بالشك فيه.

بعد ذلك: أمر الله تعالى رسوله ﷺ أن يمضي في طريق الدعوة إلى هذا الدين القيم، ويترك الذين شكوا فيه أو أعرضوا عنه.

وقد جاءت ألوان الدعوة إلى الله تعالى بالحكمة والموعظة الحسنة في عشر جمل مستقلة، كل جملة منها منفصلة عن الأخرى، تضمنتها هذه الآية، وهي:

أولاً: ﴿فَلِذَلِكَ فَادِّعْ﴾ أي: فلاجل ما أمرناك به -أيها الرسول- من إقامة الدين والنهي عن التفرق فيه، ولأجل ما شرع الله لك من أمور الدين ما شرع، فادع إلى هذا الدين القيم الذي شرعه الله للأنبياء ووصاهم به، ادع -أيها النبي- عباد الله إلى الحق الذي بعثناك به، وأنزل له كتبه وأرسل له رسله، واجمعهم على كلمة التوحيد؛ حتى يسعدوا في دنياهم وأخراهم.

ثانيًا: ﴿وَأَسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتُ﴾ أي: استقم كما أمرك الله على الصراط الذي كُلفت بالسير على نهجه، والزم سبيل الحق والرشاد، بلا إفراط ولا تفريط، ممثلاً أوامر الله مجتنباً نواهيه كما قال تعالى: ﴿وَأَذْكُرُوهُ كَمَا هَدَيْتُكُمْ﴾ [البقرة: ١٩٨] واستمر على تبليغ الرسالة.

ثالثًا: ﴿وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ﴾ أي: لا تتبع -يا رسولنا- أهواء الذين شكوا في الحق، وانحرفوا عن الدين، أو تفرقوا فيه وكانوا شيعاً وأحزاباً.

قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيعًا لَسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ﴾ [الأنعام: ١٥٩].

وقال جلّ شأنه: ﴿فَأَحْصِمْ بَيْنَهُمْ يَمَّا أَنْزَلَ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ عَمَّا جَاءَكَ مِنَ الْحَقِّ﴾ [المائدة: ٤٨].

ولا تتبع أهواء المشركين الباطلة فيما يدعونك إليه من ترك التوحيد، كما قال تعالى: ﴿وَلَكِنْ أَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ إِنَّكَ إِذَا لَنِ الظَّالِمِينَ﴾ [البقرة: ١٤٥].

ولا تبعاً بعصبيتهم الزائفة، ولا تنظر إلى خلاف من خالفك من الكفرة والمنافقين، فلا تتبع أهواءهم ولا تترك سبيل الاستقامة، فإنك إن اتبعت أهواءهم بعدما جاء من العلم إنك إذا من الظالمين.

رابعًا: ﴿وَقُلْ ءَامَنْتُ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنْ كِتَابٍ﴾ أي: ولا يحملنك طعنهم في دعوتك على عدم الإيمان بهذي كتبهم غير المحرفة، فأعلن أنك مصدق بجميع الكتب المنزلة من عند الله تعالى على الأنبياء قبلك.

وفي هذا مخالفة لليهود الذين قالوا: ﴿تُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَتُكَفِّرُ بِبَعْضٍ﴾ [النساء: ١٥٠].

فهم يؤمنون بالتوراة ويكفرون بالإنجيل، أما المسلمون فقد قال الله تعالى عنهم: ﴿وَتُؤْمِنُونَ بِالْكِتَابِ كُلِّهِ﴾ [آل عمران: ١١٩]. فلا تكن كالذين يؤمنون ببعض الكتاب ويكفرون ببعض، ولتكن مناظرتك لهم مبنية على هذا الأصل الدال على هيمنة الإسلام على جميع الشرائع، ولو ناظرنا أهل الكتاب مناظرة مبنية على الإيمان ببعض الكتب دون بعض فلا تُسلم لهم بذلك، لأن من شرط كتابهم ورسولهم التصديق بهذا القرآن وبمن جاء به، كما أننا نؤمن بكتابهم ورسولهم في مرحلة سابقة للإسلام.

خامسًا: ﴿وَأُمِرْتُ لِأَعْدِلَ بَيْنَكُمْ﴾ أي: أمرني ربي أن أقيم العدل بينكم في الحكم إذا

تخاصمتم إليّ، وأدعوكم إلى الحق، ولا أظلم أحداً منكم لأجل عداوتكم، بل أنفذ أمر الله فيكم، فلا تروُن مني جَوْرًا، كما أن عداوتنا لأهل الكتاب لا تمنعنا من العدل بينهم في الحكم.

كما قال تعالى: ﴿وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَاٰنُ قَوْمٍ عَلَيْكُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا أَعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ﴾ [المائدة: ٨].

والآية تدل على أن الرسول ﷺ سيكون له الحكم فيهم، وقد عدل النبي ﷺ فيهم، وأقرهم على أمرهم حتى ظاهروا عليه الأحزاب، كما أنه ﷺ أقام العدل في الحكم بين المسلمين إذا تخاصموا.

سادساً: ﴿اللَّهُ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ﴾ فهو إلهاً وإلهكم، وهو الخالق لنا ولكم، والمنعم علينا وعليكم بالنعم التي لا تُعدُّ ولا تُحصى، وهو رب الجميع، ولستم أحق به منا، ونحن متفقون على توحيد الله، كما قال تعالى: ﴿قُلْ يَتَّخِذِ الْكَافِرُونَ عَالَمًا إِلَىٰ كُلِّ مَلَكٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ اللَّاءَ نَعْبُدُ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكُ بِهِ شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ [آل عمران: ٦٤].

فالله هو الشهيد علينا وعليكم، وهو المتولي أمورنا وأموالكم، فيجب أن نفرده وحده بالعبادة.

سابعاً: ﴿لَنَّا أَعْمَلْنَا وَلَكُمْ أَعْمَلُكُمْ﴾ لنا ثواب أعمالنا الصالحة، ولكم جزاء أعمالكم السيئة، وهو سبحانه سيجازي كلًّا بعمله، فنحن بُراء منكم لا نستفيد من حسناتكم، ولا نتضرر من سيئاتكم، ونحن لا نُسأل عن أعمالكم، وأنتم لا تُسألون عن أعمالنا.

ثامناً: ﴿لَا حُجَّةَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ﴾ لا خصومة ولا جدال بيننا وبينكم بعدما تبين الحق، فالجدال معكم ليس له جدوى؛ لأنكم مكابرون، فمن العبث الاستمرار فيه.

وبعد أن تبينت الحقائق وظهر الحق من الباطل، والهدى من الضلال، لم يبق للجدال والمنازعة محل، وليس أماناً وأمامكم سوى العمل، والله سبحانه سيجازي كلًّا بما عمل.

وليس في هذا نفي للاحتجاج عليهم مطلقاً، فقد حاجَّهم القرآن بعد نزول هذه الآية كثيراً، كما في قوله تعالى: ﴿وَلَا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ [العنكبوت: ٤٦]. فالمُتَّبَت: المجادلة بالحسنى، والمنفي: المناظرة في الحق بعدما استبان وظهر، وقامت عليه الأدلة.

تاسعاً: ﴿اللَّهُ يَجْمَعُ بَيْنَنَا﴾ أي: سأترك جدالكم لقلّة جدواه، وأفوض أمري إلى الله؛ فإنه سبحانه سيجمع بيننا وبينكم يوم القيامة، فيقضي بيننا بالحق فيما اختلفنا فيه، والمخاطب هم

الذين يُثْبِتُونَ البعث ويؤمنون به ﴿قُلْ يَجْمَعُ بَيْنَنَا رَبُّنَا ثُمَّ يَفْتَحُ بَيْنَنَا بِالْحَقِّ﴾ [سبأ: ٢٦].

عاشراً: ﴿وَإِلَى الْمَصِيرِ﴾ فإن مصيرنا ومصيركم واحد، وإلى الله تعالى المرجع والمآب، فيجازي كلًا بما يستحق.

والجمل الأربع الأخيرة تقتضي ترك القتال بين المؤمنين وغيرهم في الفترة المكية، حتى يأذن الله في قتالهم، والجمل قبلها موجّهة إلى الرسول ﷺ لتقتدي به الأمة وتتأسى، كما في قوله تعالى: ﴿لَئِنْ أَشْرَكَتَ لَيَحْطَبَنَّ عَلَيْكَ﴾ [الزمر: ٦٥]. فالمراد: بالنهي عن الشرك في الآية، الأمة؛ لأن وقوع الشرك من النبي ﷺ محال.

عُقُوبَةُ الْمُجَادِلِينَ فِيمَا جَاءَ بِهِ خَاتَمُ النَّبِيِّينَ

١٦- ﴿وَالَّذِينَ يُحَاجُّونَ فِي اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مَا اسْتُجِيبَ لَهُمْ جَحِيشٌ دَاحِضَةٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَعَلَيْهِمْ عَذَابٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ﴾ (١٦)

هذه الآية تقرير لقوله تعالى في الآية السابقة ﴿لَا حُجَّةَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ﴾ فأخبر سبحانه في هذه الآية أن الذين يجادلون في الله بالحجج الباطلة والشبه المتناقضة بعد قيام الأدلة القاطعة والبراهين الساطعة التي استجاب لها أصحاب العقول السليمة، هؤلاء المجادلون، حجتهم باطلة لأنها تخالف الحق وترده.

أي: وبعد وضوح القضية على هذا النحو، واستجابة المؤمنين لرسول الله ﷺ، فإن جدال المشركين في توحيد الله تعالى، لا يستحق الالتفات إليه، وحجتهم فاشلة، لا وزن لها ولا حساب ﴿وَالَّذِينَ يُحَاجُّونَ فِي اللَّهِ﴾ أي: يُخاصمون في دين الله الذي أرسل به محمد ﷺ فيدخلون على الناس الشك في صحته، أو الشك في كونه قد نسخ اليهودية والنصرانية، أو الشك في كونه رسالة عامة إلى الناس كافة، طمعاً في أن تعود إليهم الجاهلية بعدما دخل الناس في الإسلام، هؤلاء حجتهم مردودة ومدفوعة، وهذا الجدل كقولهم: ﴿مَالِ هَذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ وَيَمْشِي فِي الْأَسْوَاقِ﴾ [الفرقان: ٧].

وقولهم: ﴿إِنْ نَزَّلَ الْهَدْيَ مَعَكَ نُنْخِطِفُ مِنْ أََرْضِنَا﴾ [القصص: ٥٧].

وقولهم: ﴿إِذَا مِنَّا وَكُنَّا تُرَابًا ذَلِكَ رَجْعٌ بَعِيدٌ﴾ [ق].

قال مجاهد: وهؤلاء قوم توهّموا أن الجاهلية تعود، فجادلوا الذين استجابوا للإسلام، لعلمهم يردونهم إلى الجاهلية^(١) وما أكثر أمثالهم في سائر العصور!

وكما قال أهل الكتاب: نحن الذين على دين إبراهيم، كتابنا قبل كتابكم، ونبينا قبل نبيكم، فنحن خير منكم، وأولى بالحق^(٢)، وغير ذلك من محاولات صدّ الناس عن الدخول في الإسلام.

﴿مِنْ بَعْدِ مَا اسْتَجِيبَ لَهُ﴾ أي: من بعد ما استجاب الناس لدعوة الإسلام، فدخلوا في دين الله أفواجا، وهؤلاء القوم: ﴿جُتِّهِمْ دَاحِضَةٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ﴾ أي: حجتهم باطلة، وخصومتهم ذاهبة لا قيمة لها ﴿وَعَلَيْهِمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ عظيم من الله تعالى في الحياة الدنيا لعصيانهم وإعراضهم عن حجج الله ﴿وَلَهُمْ﴾ في الآخرة ﴿عَذَابٌ شَدِيدٌ﴾ هو النار وسعيرها، فهذه عقوبة كل مجادل للحق بالباطل.

أخرج ابن المنذر عن عكرمة قال: لما نزلت ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ﴾ قال المشركون بمكة لمن بين أظهرهم من المؤمنين: قد دخل الناس في دين الله أفواجا، فاخرجوا من بين أظهرنا، فعلام تقيمون بيننا؟ فنزلت ﴿وَالَّذِينَ يَخْشَوْنَ فِي اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مَا اسْتَجِيبَ لَهُ﴾^(٣).

ونظير هذا كثير، كما يحدث للأقليات الإسلامية في بلاد العالم غير المسلمة.

حَاسِبُوا أَنْفُسَكُمْ قَبْلَ أَنْ تُحَاسَبُوا

١٧- ﴿اللَّهُ الَّذِي أَنْزَلَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ وَالْمِيزَانَ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ السَّاعَةَ قَرِيبٌ﴾

بعد أن بين سبحانه أن محاجة الحق بالباطل داحضة، ذكر في هذه الآية قاعدة الجدل الحق، ويّين أنه يقوم على أصليين هما: الكتاب والميزان، فقد اشتمل القرآن على الحق والصدق واليقين والأدلة الواضحة، واشتمل الميزان على العدل والإنصاف والقياس الصحيح، وجميع الدلائل العقلية والشرعية تدخل تحت هذين الأصلين، فالحجة تكون

(١) «تفسير ابن عطية» (٣١/٥) و«فتح القدير» في تفسير الآية.

(٢) أخرجه عبد الرزاق عن قتادة (١٩٠/٢) والطبري (٤٨٩/٢٠).

(٣) «الدر المنثور» (١٤٠/١٣).

فيهما والخروج عنهما جدال بالباطل فيه تناقض .

وفي هذه الآية أمر بالعدل والإنصاف قبل أن يفاجأ الناس بيوم الحساب والميزان، فقد أنزل الله الكتب على أنبيائه لتحقيق العدل والإنصاف بين الناس، ومن أشد ما يجادل فيه المشركون إنكار البعث، في مثل قولهم: ﴿إِذَا مُزِفْتُمْ كُلُّ مُمَزَّقٍ إِنَّكُمْ لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ ۝٧﴾ أَفَقَرَأَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَمْ بِهِ جِنَّةٌ ۝﴾ [سبأ].

وقد دحض الله هذه الحجة في مواطن كثيرة من كتابه، منها قوله تعالى:

﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ ۝١١٥﴾ [المؤمنون].

وقوله سبحانه: ﴿إِنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ أَكَادُ أُخْفِيهَا لِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا تَسْعَىٰ ۝١٥﴾ [طه].

أخرج الحاكم وغيره بسنده عن ابن عمر رضي الله عنهما أنه كان واقفاً بعرفة، فنظر إلى الشمس حين نزلت مثل الترس للغروب، فبكى واشتد بكاءه، وتلا قول الله تعالى: ﴿اللَّهُ الَّذِي أَنْزَلَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ وَالْمِيزَانَ ۝﴾ إلى قوله: ﴿وَهُوَ الْقَوِيُّ الْعَزِيزُ ۝﴾ فقبل له -أي: سئل عن سبب بكائه- فقال: ذكرت رسول الله ﷺ وهو واقف بمكاني هذا، فقال: «أيها الناس، إنه لم يبق من دنياكم هذه فيما مضى إلا كما بقي من يومكم هذا فيما مضى»^(١).

وقال أنس بن مالك رضي الله عنه: كان الرجل منا يدخل الخلاء، فيحمل الإداوة من الماء، فإذا خرج توضع خشية أن تقوم الساعة، وتكون عنده الفضلة من الطعام، فيقول: لا أكلها حتى تقوم الساعة^(٢).

وفي حديث جابر بن سمرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «بعثت أنا والساعة كهذه من هذه»^(٣). ولفظ مسلم عن أنس «بعثت أنا والساعة كهاتين»^(٤).

(١) صحيحه الحاكم (٤٤٣/٢) وقال الذهبي: فيه (كثير) هو ابن زيد، ضعفه النسائي دون غيره، انظر: «المستدرک» بتصرف، وأخرجه أحمد في المسند (٦١٧٣) قال محققوه: صحيح لغيره، وفيه ابن حنطب مدلس وقد عنعن.

(٢) أخرجه ابن مردويه كما في «الدر» (١٤٠/١٣).

(٣) «المسند» (٦١/٣١) (٢٠٨٧٠) قال محققوه: صحيح لغيره، وهو في الطبراني «الكبير» (١٨٤٣) و«الأوسط» (٤٩٦٧).

(٤) صحيح مسلم (٢٩٥١).

وقد بيّن ﷻ في هذه الآية أن جزاء السائرين على الحق والناكبين عنه، يكون في يوم لا فرار منه، ولا محيص للعباد من لقاءه، فمُدبر هذا الكون وخالقه هو الذي أنزل الكتاب والميزان، وهو وحده القادر على إحياء الناس بعد موتهم.

﴿اللَّهُ الَّذِي أَنْزَلَ الْكِتَابَ﴾ وهو القرآن وسائر الكتب المنزلة من عند الله، أنزلها بالصدق القاطع، والحق الساطع في أحكامه وتشريعاته وأخباره، فهو سبحانه أنزل الكتاب ﴿بِالْحَقِّ﴾ أي: متضمنًا للحق في أوامره وأحكامه لهداية الناس وسعادتهم، والحق والعدل متلازمان، والدين المنزل في هذا الكتاب يدعو إلى التسوية في الحقوق والواجبات.

﴿وَالْمِيزَانَ﴾ هو العدل والإنصاف في إعطاء الحقوق، وفي المجادلة في الدين، وقد شُبّه العدل بالميزان، وأصله آلة ذات كفتين متساويتين معلّقتين في طرفي قضيب معتدل له عروة.

وسُمّي العدل ميزانًا؛ لأن الميزان يحصل به العدل والإنصاف، فهو من تسمية الشيء باسم السبب، وهذا هو المعنى نفسه في قوله تعالى: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ﴾ [الحديد: ٢٥] وجاء التعبير في هاتين الآيتين بالإنزال.

أما في سورة الرحمن فقد جاء التعبير بالوضع، فقال تعالى: ﴿وَوَضَعَ الْمِيزَانَ﴾ [الرحمن: ٧]. وهذا يدل على أن المراد بالميزان في سورة الرحمن: آلة الوزن^(١).

ثم بيّن سبحانه أن الذي أنزل الكتاب والميزان، هو مقدر قيام الساعة، وهو الله جل شأنه، وأي شيء يُعلمك -أيها السامع- لعل قيام الساعة يكون قريبًا كما في قوله تعالى: ﴿وَمَا يَذُرِيكَ لَعَلَّ السَّاعَةَ قَرِيبٌ﴾.

وفي قوله تعالى: ﴿وَمَا يَذُرِيكَ لَعَلَّ السَّاعَةَ تَكُونُ قَرِيبًا﴾ [الأحزاب: ٦٣].

فيجب على العاقل أن يحذر منها ويستعدّ لها فإنَّ عِلْمَ مجيئها عند رب العالمين.

حَالُ الْمُصَدِّقِ وَالْمُكَذِّبِ بِالْيَوْمِ الْآخِرِ

١٨ - ﴿يَسْتَعْجِلُ بِهَا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِهَا وَالَّذِينَ آمَنُوا مُشْفِقُونَ مِنْهَا وَيَعْلَمُونَ أَنَّهَا الْحَقُّ الْأَنَّ الَّذِينَ يَمَازُونَ فِي السَّاعَةِ لَفِي ضَلَالٍ بَعِيدٍ﴾

(١) يُنظَر: «أضواء البيان» للشيخ الشنقيطي (٧/ ١٨٤). بتصرف.

بَيَّنَ جَلَّ شَأْنُهُ فِي هَذِهِ الْآيَةِ، مَوْقِفَ كُلِّ مِنَ الْمَكْذِبِينَ وَالْمُؤْمِنِينَ مِنْ قِيَامِ السَّاعَةِ وَالْإِيمَانِ بِهَا:

أَمَّا الْمُشْرِكُونَ وَالْمَكْذِبُونَ، فَإِنَّهُمْ يَنْكُرُونَهَا، وَيَسْتَهْزِئُونَ مِنَ الْحَدِيثِ عَنْهَا، فَيَسْتَعْجِلُونَ قِيَامَهَا تَهْكُمًا وَسُخْرِيَةً ﴿يَسْتَعْجِلُ بِهَا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِهَا﴾ أَي: يَسْتَعْجِلُونَ قِيَامَ السَّاعَةِ الَّذِينَ لَا يَصْدُقُونَ بِهَا؛ لِأَنَّهُمْ لَا يَخَافُونَ مِنْهَا.

أَمَّا الْمُؤْمِنُونَ فَهُمْ لَا يَسْتَعْجِلُونَ قِيَامَهَا، وَإِنَّمَا يَغْتَنِمُونَ بَقَاءَهُمْ فِي الدُّنْيَا لِلتَّوْبَةِ وَالْعَمَلِ الصَّالِحِ، وَهُمْ يَتَوَخَّوْنَ النِّجَاةَ مِنْهَا بِالطَّاعَةِ وَالتَّقْوَى ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا مُشْفِقُونَ مِنْهَا﴾ أَي خَائِفُونَ وَجُلُونَ مِنْ قِيَامِهَا لِإِيمَانِهِمْ بِهَا وَعِلْمِهِمْ بِمَا تَشْتَمِلُ عَلَيْهِ مِنَ الْحِسَابِ وَالْجَزَاءِ، فَهُمْ يَخَافُونَ أَلَّا تَنْجِيَهُمْ أَعْمَالُهُمْ ﴿وَيَعْلَمُونَ أَنَّهَا الْحَقُّ﴾ الَّذِي لَا مَرِيَّةَ فِيهِ، قَالَ تَعَالَى:

﴿أَلَا إِنَّ الَّذِينَ يُمَارُونَ فِي السَّاعَةِ﴾ أَي: يَجَادِلُونَ فِي قِيَامِهَا وَيَشْكُونَ فِيهِ ﴿لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾ أَي: فِي ذَهُولٍ شَدِيدٍ عَنِ الصَّوَابِ لِانْكَارِهِمْ عَدْلَ اللَّهِ وَحُكْمَتَهُ، وَأَيُّ ضَلَالٍ أَعْظَمَ مِمَّنْ كَذَبَ بَدَارَ الْبَقَاءِ وَالْخُلُودِ، وَهِيَ دَارُ الْجَزَاءِ الَّتِي يَظْهَرُ فِيهَا عَدْلُ اللَّهِ وَفَضْلُهُ، وَقَدْ تَوَاتَرَتْ أَخْبَارُ الرِّسْلِ وَالْكِتَابِ عَلَى قِيَامِهَا، وَأَنَّ هَذِهِ الدُّنْيَا بِالنِّسْبَةِ لَهَا كِرَاكِبٌ اسْتَظْلَتْ تَحْتَ شَجَرَةٍ ثُمَّ رَاحَ وَتَرَكَهَا، وَالْإِيمَانُ بِالْآخِرَةِ لِأَحَدِ أَرْكَانِ الْإِيمَانِ، فَاللَّهُ تَعَالَى لَا يُعْجِزُهُ شَيْءٌ، وَقَدْ اقْتَضَتْ حُكْمَتُهُ سُبْحَانَهُ أَنْ يَجَازِيَ الْمُحْسِنَ بِإِحْسَانِهِ، وَالْمُسِيءَ بِإِسَاءَتِهِ.

سَأَلَ رَجُلٌ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ بِصَوْتِ جَهْوَريٍّ وَهُوَ فِي بَعْضِ أَصْفَارِهِ، فَنَادَاهُ، فَقَالَ: يَا مُحَمَّدُ، فَقَالَ لَهُ النَّبِيُّ ﷺ نَحْوًا مِنْ صَوْتِهِ: «هَؤُلَاءِ» فَقَالَ: مَتَى السَّاعَةُ؟ فَقَالَ لَهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «وَيْحَكَ، إِنَّهَا كَائِنَةٌ، فَمَا أَعَدَدْتَ لَهَا؟» فَقَالَ: حُبُّ اللَّهِ وَرَسُولِهِ، فَقَالَ ﷺ: «أَنْتَ مَعَ مَنْ أَحْبَبْتَ»^(١).

الْبَرُّ وَالْفَاجِرُ أَمَامَ رِزْقِ اللَّهِ سَوَاءٌ

١٩ - ﴿اللَّهُ لَطِيفٌ بِعِبَادِهِ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ الْقَوِيُّ الْعَزِيزُ﴾

وَلَمَّا ذَكَرَ سُبْحَانَهُ السَّاعَةَ، وَبَيَّنَّ مَوْقِفَ الْأَبْرَارِ وَالْفَجَّارِ مِنْهَا، بَيَّنَّ فِي هَذِهِ الْآيَةِ أَنَّهُ جَلَّ

(١) وَرَدَ هَذَا الْحَدِيثُ مِنْ عِدَّةِ طُرُقٍ تَبْلُغُ دَرَجَةَ التَّوَاتُرِ، وَهُوَ فِي الْبَخَارِيِّ بِرَقْمٍ (٦١٦٧)، (٣٦٨٨) وَمُسْلِمٍ بِرَقْمٍ (٢١٣٩)، (٢٩٥٣) مِنْ حَدِيثِ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ .

شأنه لم يعاجل الذين يمارون في الساعة بالعقوبة في الدنيا مع استحقاقهم للعذاب، فقال تعالى: ﴿اللَّهُ لَطِيفٌ بِعِبَادِهِ﴾ فهو سبحانه رؤوف رحيم بهم، عطوف عليهم، يفيض عليهم من صنوف برّه ما لا تحصيه العقول، مع مجاهرتهم بالمعاصي، يعطى البرّ والفاجر، ولم يهلكهم جوعاً بمعاصيهم.

ومن لطفه تعالى بهم أنه ﴿يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ﴾ الصالح والطالح، والمؤمن والكافر، وكلّ منهم أعجز من أن يرزق نفسه، ولو منع الله رزقه عن الكافر لمات جوعاً وعطشاً، ولذلك فإن الله تعالى أخرج الرزق من دائرة الإيمان والكفر، وعلّقه بالأسباب الموصلة إليه، وجعله فتنةً وابتلاءً، كما قال تعالى: ﴿وَبَلَّوْكُمْ بِالْخَيْرِ وَالْخَيْرِ فَتْنَةً﴾ [الأنبياء: ٣٥].

وقال سبحانه: ﴿أَتَمَنَّا أَمْوَالَكُمْ وَأَوْلَدَكُمْ فَتْنَةً﴾ [التغابن: ١٥].

وقال أيضاً: ﴿وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا﴾ [هود: ٦].

جاء في الأثر: «إن من عبادي المؤمنين من لا يصلح إيمانه إلا الغنى، ولو أفقرته لأفسده ذلك، وإن من عبادي المؤمنين من لا يصلح إيمانه إلا الفقر، ولو أغنيته لأفسده ذلك»^(١).

ومشيئة الله تعالى تقتضي أن يكون الرزق في الدنيا لكل أحد من الخلق ليكون اللطف عامّاً، فلا يترك الله أحداً منهم بلا رزق، مع تفضيل بعضهم على بعض فيه.

﴿وَاللَّهُ فَضَّلَ بَعْضَكُمْ عَلَى بَعْضٍ فِي الرِّزْقِ﴾ [النحل: ٧١].

﴿وَنَحْنُ قَسَمًا بَيْنَهُمْ مَعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِيَتَّخِذَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا سُلَخِيًّا﴾ [الزخرف: ٣٢].

فالكل يشترك في رزق الله في الدنيا، وهذا الرزق هو في الأصل للمؤمنين، ويشاركهم فيه غيرهم في الدنيا، سواء جاء بالطرق المشروعة أم بغيرها، فإذا كان يوم القيامة فإن رزق الله تعالى يُخصّص به المؤمنون، كما قال تعالى: ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ قُلْ هِيَ﴾ أي: الطيبات من الرزق ﴿لِلَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا

(١) يُنظر تخريجه في الآية رقم (٢٧) بنحوه، وقد ضعفه الألباني في ضعيف الجامع الصغير برقم (٧٥) عن عمر رضي الله عنه عند الخطيب البغدادي.

خَالِصَةً يَوْمَ الْقِيَمَةِ ﴿[الأعراف: ٣٢] أَيْ: يُخْتَصُّ بِهِ الْمُؤْمِنُونَ فِي الْآخِرَةِ فَيَكُونُ خَالِصًا لَهُمْ دُونَ غَيْرِهِمْ، وَالدُّنْيَا سَجَنَ الْمُؤْمِنِ وَجَنَّةَ الْكَافِرِ.

ثم مَجَّدَ الله نفسه بصفتين هما: القوة والعزة، فصفة القوة لبيان أن الله تعالى يرزق خلقه عن غير عجز ولا مصانعة، فهو الذي له القوة كلها، والقوي ينتفي عنه سبب الشح. ولا قوة لأحد من المخلوقين إلا به، فهو الذي دانت له المخلوقات جميعاً.

وصفة العزة لبيان انتفاء سبب الفقر عنه، ورزقه تعالى منوط بحكمة عِلْمِهَا فِي أَحْوَالِ خَلْقِهِ.

﴿وَهُوَ الْقَوِيُّ الْعَزِيزُ﴾ فِي انتِقَامِهِ مِمَّنْ عَصَاهُ، لَا يُغَالِبُ وَلَا يُدَافِعُ، وَهَذِهِ الْآيَةُ تَوَسُّطَةٌ لِلآيَةِ الَّتِي بَعْدَهَا.

ثَمَرَةُ الْعَمَلِ لِلدُّنْيَا وَالْعَمَلِ لِلْآخِرَةِ

٢٠- ﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الْآخِرَةِ نَزِدْ لَهُ فِي حَرْثِهِ وَمَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ^(١) مِنْهَا وَمَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ نَصِيبٍ﴾

ولما بَيَّنَّ سبحانه أن غير المؤمنين يستعجلون قيام الساعة، وأن المؤمنين مشفقون منها، بَيَّنَّ هُنَا أَنَّ أَكْبَرَ هَمِّ الْمُؤْمِنِينَ هُوَ الْعَمَلُ لِلْحَيَاةِ الْآخِرَةِ، وَأَنَّ غَيْرَ الْمُؤْمِنِينَ هَمَّتَهُمْ مَقْصُورَةٌ، عَلَى الْعَمَلِ لِلْحَيَاةِ الدُّنْيَا.

والمعنى: مَنْ كَانَ يَقْصِدُ ثَوَابَ الْآخِرَةِ وَنَعِيمَهَا، وَرَضِيَ أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى، فَادَى حَقُوقَ اللَّهِ وَحَقُوقَ الْعِبَادِ، وَأَنْفَقَ مِنْ مَالِهِ فِي سَبِيلِ الدَّعْوَةِ إِلَى اللَّهِ، نَزِدَ لَهُ فِي عَمَلِهِ الْحَسَنَ، فَتَضَاعَفَ لَهُ الْحَسَنَةُ بِعَشْرِ أَمْثَالِهَا إِلَى سَبْعِ مِائَةِ ضِعْفٍ، إِلَى مَا شَاءَ اللَّهُ مِنَ الزِّيَادَةِ، وَنُعْطَهُ مِنْ مَتَاعِ الدُّنْيَا مَا قُدِّرَ لَهُ، مَعَ تَوْفِيقِهِ وَإِعَانَتِهِ، وَتَسْهِيلِ سَبِيلِ الْخَيْرِ لَهُ.

وَمَنْ كَانَ يَرِيدُ بِعَمَلِهِ الدُّنْيَا وَحَدَهَا، وَمِلَذَاتِهَا وَشَهَوَاتِهَا نَعَطَهُ مِنْ مَتَاعِ الدُّنْيَا بَعْضَ مَا

(١) قَرَأَ أَبُو عَمْرٍو وَشُعْبَةُ وَحُمَزَةُ بِإِسْكَانِ الْهَاءِ مِنْ (نُؤْتُهُ) وَقَرَأَ قَالُونَ وَيَعْقُوبُ بِاخْتِلَاسِ حَرَكَةِ الْهَاءِ مِنْ غَيْرِ صِلَةٍ، وَلِهَاشِمِ ثَلَاثَةِ أَوْجِهٍ هِيَ: الْإِسْكَانُ وَالْقَصْرُ وَالصَّلَةُ، وَلَأَبِي جَعْفَرٍ وَجْهَانُ: الْقَصْرُ وَالْإِسْكَانُ، وَقَرَأَ الْبَاقُونَ بِكسر الْهَاءِ مَعَ الصَّلَةِ.

يطلبه مما قُدِّر له، وليس له ثواب ولا نعيم أُخروي.

فعمل الآخرة تُضاعف فيه الحسنات، وعمل الدنيا يُعطى فيه العبد بعض ما يريد.

والحرث يراد به: العمل؛ لأن الحرث يعمل وينتظر المنفعة بما عمل.

عن أبي بن كعب رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «بشِّر هذه الأمة بالسَّاء والرفعة والنصر والتمكين في الأرض ما لم يطلبوا الدنيا بعمل الآخرة، فمن عمل منهم عمل الآخرة للدنيا لم يكن له في الآخرة نصيب»^(١) ومُرِد حرث الدنيا لا يؤمن بالآخرة.

ونظير هذه الآية قوله تعالى: ﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَالَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ﴾ (٥) أُولَئِكَ الَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ إِلَّا النَّكَارُ وَحَبِطَ مَا صَنَعُوا فِيهَا وَبِطُلَّ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٦﴾ [هود].

وقوله تعالى: ﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعَاجِلَةَ عَجَلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَاءُ لِمَنْ نُرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُ جَهَنَّمَ يَصْلَاهَا مَذْمُومًا مَدْحُورًا﴾ (٨) وَمَنْ أَرَادَ الْآخِرَةَ وَسَعَى لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَئِكَ كَانَ سَعْيُهُمْ مَشْكُورًا ﴿١٩﴾ كُلًّا نُمِدُّ هُنَا وَهُنَا مِنْ عَطَاءِ رَبِّكَ وَمَا كَانَ عَطَاءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا ﴿٢٠﴾ [إسراء].

جاء عن عثمان بن عفان رضي الله عنه قال: خرج زيد بن ثابت من عند مروان بنصف النهار، قلت: ما بعث إليه هذه الساعة إلا لشيء سألت عنه، فسألته، فقال: سألنا عن أشياء سمعناها من رسول الله، سمعت رسول الله ﷺ يقول: «من كانت الدنيا همه فَرَّقَ الله عليه أمره، وجعل فقره بين عينيه، ولم يأت من الدنيا إلا ما كُتِبَ له، ومن كانت الآخرة همه جمع الله له أمره، وجعل غناه في قلبه، وأتته الدنيا وهي راغمة»^(٢).

وفي الحديث القدسي: عن أبي هريرة رضي الله عنه، أن رسول الله ﷺ تلا الآية، ثم قال: «يقول الله ﻻ: ابن آدم، تفرغ لعبادتي أملأ صدرك غنى، وأسدَّ فقرك، وإلا تفعل ملأْتُ

(١) «المسند» (١٣٤/٥) (٢١٢٢٠، ٢١٢٢٤) قال محققوه: إسناده قوي، وأخرجه ابن حبان (١٣٢/٢)

وصححه الألباني في «صحيح الترغيب» (٨٧/١) وهو عند البغوي في «شرح السنة» (٣٣٥/١٤).

(٢) أخرجه ابن ماجه في سننه برقم (٤١٠٥) وصححه الألباني في «صحيح سنن ابن ماجه» برقم (٣٣١٣)

وفي «السلسلة الصحيحة» برقم (٩٥٠) وأخرجه الترمذي عن أنس برقم (٢٥٩٦) وهو في «صحيح سنن

الترمذي» برقم (٢٠٠٥).

صدرك شغلاً ولم أسدّ فرك»^(١).

وأخرج الطبري بسنده الحسن عن قتادة، قال في الآية: من أثر دنياه على آخرته لم نجعل له نصيباً في الآخرة إلا النار، ولم نزده بذلك من الدنيا شيئاً، إلا رزقاً قد فُريغ منه وقُسم له^(٢) فمن لم يكن له قصد في العمل للآخرة حرّمه الله منها، وإن شاء أعطاه من الدنيا أو حرّمه، فيخسر دنياه وأخراه.

وعن ابن عمر مرفوعاً: «من جعل الهمّ همّاً واحداً كفاه الله همّ دنياه، ومن تشعبته الهموم لم يُبالِ الله في أيّ أودية الدنيا هلك»^(٣).

التَّشْرِيعُ حَقُّ اللَّهِ وَحْدَهُ

٢١- ﴿أَمْ لَهُمْ شُرَكَاءُ شَرَعُوا لَهُمْ مِنَ الدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنْ بِهِ اللَّهُ وَلَوْلَا كَلِمَةُ الْفَصْلِ لَفُضِيَ بَيْنَهُمْ وَإِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾

لما بيّن سبحانه أنه شرع لعباده ما وصّى به رسله، وأنه جل شأنه أنزل لعباده الكتاب بالحق والميزان، بعد ذلك أشار سبحانه في هذه الآية إلى غير المتبعين لشرع الرسل، وغير المؤمنين بما أنزل الله من كتب، فأنبههم على جهلهم، وويّخهم على اتخاذهم شركاء من دون الله شرعوا لهم في دين الله ما لم يشرعه رب العالمين، من البدع وتحريم الحلال، وتحليل الحرام، وهذا ينطبق على كل نظام أو قانون أو تشريع مخالف لكتاب الله وسنّة رسوله، والدين لا يكون إلا بما شرعه الله، ليدين به العباد ويتقربوا إلى ربهم.

ولمّا بيّن سبحانه قانون العمل والجزاء والسعي للدنيا والآخرة في الآية السابقة، أزدفه بيان العمل الموجب لدخول النار، وهو ضربٌ من تفرّق أهل الشرائع واختلافهم في أصل الدين، وتوبيخٌ للمشركين وإنكارٌ عليهم عبادتهم غير الله تعالى.

(١) صحح إسناده الحاكم ووافقه الذهبي في «المستدرک» (٤٤٣/٢) وأخرجه الترمذي برقم (٢٤٦٦) وقال: حسن غريب، وأخرجه ابن حبان في صحيحه (١١٩/٢) (٣٩٣) وصححه الألباني في «السلسلة» برقم (٩٥٠) وأخرجه البيهقي (١٠٣٣٩).

(٢) «تفسير الطبري» (٤٩١/٢٠).

(٣) صححه الحاكم (٤٤٣/٢)، (٣٢٨/٤) و«صحيح الجامع الصغير» (٦٠٦٥).

و (أم) بمعنى: بل في الآية: ﴿أَمْ لَهُمْ شُرَكَاءُ شَرَعُوا لَهُمْ مِنَ الدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنْ بِهِ اللَّهُ﴾.

والمعنى: بل ألهؤلاء المشركين بالله تعالى شركاء معهم في ضلالتهم، ابتدعوا لهم من الدين والشرع ما لم يأذن به الله، ففعلوا ما يشاركون الله به في الإلهية؟

وفي تشريع الديانات الأرضية من الشرك القديم ما لم يكن موجوداً عند العرب.

وليس لأحد من خلق الله كائناً من كان؛ أن يُشرّع للناس غير ما شرعه الله تعالى وأذن به، لأن الله وحده هو المشرّع، وهو مبدع هذا الكون ومدبره بالنواميس الكلية، فوضع لهم أصولاً وقواعد عامة، وترك للبشر استنباط الأمور الجزئية المتجددة مع الحياة، في حدود المنهج الكلي والتشريعات العامة، وإذا اختلف البشر في شيء من هذا ردّوه إلى الله تعالى، ورجعوا إلى الأصول العامة التي شرعها للناس، وما عدا هذا المنهج، فهو خروج على دين الله سبحانه الذي وصّى به نوحاً وإبراهيم وموسى وعيسى ومحمداً صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين.

ومن الشرائع التي وضعها السابقون تحريم البحيرة والسائبة والوصيلة والحام، وتحليل الميتة والدم والقمار، وغير ذلك.

جاء في الحديث عن أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «رأيت عمرو بن لُحَيٍّ يجر قُصْبَهُ في النار كان أول من سَيَّب السوائب»^(١) ومعنى يجر قصبه، أي: يجر أمعاءه.

وكان هذا الرجل أحد ملوك خزاعة، وهو أول من فعل هذه الأشياء، وأدخل عبادة الأصنام في جزيرة العرب.

ومن الشرائع المعاصرة: عقوبة الزنى والسرقة وشرب الخمر ونحوها، المخالفة لشرع الله تعالى في بعض بلاد المسلمين، وتسوية المرأة بالرجل في الميراث، ومنع تعدد الزوجات في بعضها الآخر، وغير ذلك من القوانين الوضعية.

ثم بيّن الله سبحانه أنه لولا قضاء الله وقدره الذي جعله فاصلاً بين الطوائف المختلفة للقضاء بينهم - وذلك بإمهالهم وعدم تعجيل العقاب لهم في الدنيا - لَقُضِيَ بينهم بتعجيل

(١) «صحيح البخاري» بأرقام (١٠٤٤، ٣٥٢١، ٤٦٢٣، ٤٦٢٤) و«صحيح مسلم» (٩٠١) مطوّلاً.

العذاب لهم ﴿وَلَوْلَا كَلِمَةُ الْفَصْلِ لَفُضِيَ بَيْنَهُمْ﴾ أي: ولولا أن الله حَكَمَ وقضى في سابق أزله أن الثواب والعقاب يكونان يوم القيامة، لَحَكَمَ بين الكفار والمؤمنين في الدنيا، وعَجَّلَ بثواب المؤمنين وعقاب الكافرين ﴿وَإِنَّ الظَّالِمِينَ﴾ أي: الكافرين بالله ﴿لَهُمْ﴾ يوم القيامة ﴿عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ أي: موجه ومؤلم، بسبب إصرارهم على الشرك بالله تعالى وموتهم عليه.

عِقَابُ الظَّالِمِينَ وَمُثُوبَةُ الْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ لِقَاءِ رَبِّ الْعَالَمِينَ

ثم بيَّن سبحانه حال الظالمين عندما يصيبهم هذا العذاب المؤلم في الآخرة.

كما بيَّن حال المؤمنين وهم في روضات الجنات ينعمون بما يشاؤون، فقال تعالى:

٢٢- ﴿تَرَى الظَّالِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا كَسَبُوا وَهُوَ^(١) وَقَعُ بِهِمْ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فِي رَوْضَاتِ الْجَنَّاتِ لَهُمْ مَا يَشَاءُونَ عِنْدَ رَبِّهِمْ ذَلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ ﴿٢٣﴾﴾

١- ترى -أيها الرسول- الذين ظلموا أنفسهم بالكفر والشرك، خائفين خوفاً شديداً من عذاب الله تعالى، بسبب ما اكتسبوا في الدنيا من أعمال خبيثة، وعلى رأسها الكفر.

ولما كان الكلام موجهاً للظالمين، وهم لا يوقنون بيوم القيامة، فقد أكد سبحانه على أن العقاب واقع بهم ولا بد، فقال تعالى: ﴿وَهُوَ وَقَعُ بِهِمْ﴾ أي: وهذا العذاب نازل بهم لا محالة، فهم ذائقوه حتماً، سواء خافوا أم لم يخافوا.

والمقصود: استحضار صورة حال الظالمين يوم القيامة في ذهن المخاطب، وهو مشفق على نفسه من عقاب أعماله السيئة عند نزول العذاب به، كما قال تعالى: ﴿وَتَرَى الظَّالِمِينَ لَمَّا رَأَوْا الْعَذَابَ يَقُولُونَ هَلْ إِلَىٰ مَرَدٍّ مِّن سَبِيلٍ ﴿٤٤﴾ وَتَرْتَهُمْ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا خَشِيعِينَ مِّنَ الدَّلِّ يَنْظُرُونَ مِّن طَرَفٍ خَفِيٍّ﴾ [٤٤، ٤٥]. هذا هو حال الظالمين.

٢- أما الذين آمنوا وعملوا في دنياهم الأعمال الصالحة بقلوبهم وجوارحهم وألستهم من الواجبات والمستحبات فهم يوم القيامة يكونون في أشرف بقاع الجنة، لهم فيها ما يشاؤون من نعيم وخيرات.

(١) سَكَنَ الهاء من (وهو) قالون وأبو عمرو والكسائي وأبو جعفر، وضمها الباقون.

وهم ﴿فِي رَوْضَاتِ الْجَنَّاتِ﴾ أي: في بساتين الجنات وقصورها ونعيم الآخرة، من الأنهار المتدفقة، والأشجار المثمرة، والمناظر الخلابة، والطيور المغردة، والأصوات الشجية، وما إلى ذلك فهم قد استقروا في هذه الروضات قبل عرض الظالمين على الحساب وإشفاقهم من العقاب، لقد انقلب إشفاق المؤمنين على أنفسهم من معاصيهم في الدنيا اطمئناناً، أما اطمئنان المشركين في الدنيا فقد انقلب خوفاً ورعباً، كما جاء في قوله تعالى: ﴿يَسْتَعْجِلُ بِهَا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِهَا وَالَّذِينَ آمَنُوا مُسْفِقُونَ مِنْهَا وَيَعْلَمُونَ أَنَّهَا الْحَقُّ﴾ [١٨].

لقد انعكس هذا الحال في الآخرة، مع ما للمؤمنين مما تشتهيهم أنفسهم عند ربهم.

﴿لَهُمْ مَا يَشَاءُونَ عِنْدَ رَبِّهِمْ﴾ من ألوان اللذائذ والنعيم والثواب العظيم، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَنَهَرٍ ﴿٥٤﴾ فِي مَقْعَدٍ صِدْقٍ عِنْدَ مَلِكٍ مُّقَدِّرٍ ﴿٥٥﴾﴾ [القمر].

والروضات هي أطيب بقاع الجنة، فدلّ هذا على أن في الجنة بقاعاً دونها لمن هم من أهل القبلة.

﴿ذَلِكَ﴾ الذي أعطاه الله لهم من الفضل والكرامة ﴿هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ﴾ إنه فضل لا يوصف، ولا تنتهي إليه العقول، فلا فوز أعظم من رضى الله تعالى، ولا نعيم أكبر من دار كرامته

وقد بيّنت الآية -أولاً- أن المؤمنين نزلوا أحسن منزل في الجنة.

وبيّنت -ثانياً- أن لهم ما يشتهون فيها من كل مالدوطاب.

وبيّنت -ثالثاً- أنهم عند ربهم يحظون بنعيم القرب منه سبحانه.

كما قال تعالى: ﴿وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللَّهِ أَكْبَرُ﴾ [التوبة: ٧٢]

فأين ما فيه الظالمون من الذل والهوان والخوف المحقق، ممن هم في روضات الجنة، لهم فيها ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر؟!

إنه الفضل الأكبر الذي لا يوازيه شيء ولا يدانيه شرف.

ثم إن هذا الإكرام والإنعام الذي أعدّه الله تعالى للمؤمنين في الآخرة، وأخبرنا به سبحانه في الدنيا، هو البشرى التي يبشر بها عباده الذين آمنوا به في الدنيا وأطاعوه، تعجيلاً لهم بالسرور ليتشوّقوا إلى لقاء ربهم.

فِي هَذِهِ الْآيَةِ ثَلَاثُ قَضَايَا

٢٣- ﴿ذَلِكَ الَّذِي يُبَشِّرُ^(١) اللَّهُ عِبَادَهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَىٰ وَمَن يَقَرِّفْ حَسَنَةً نَّزِدْ لَهُ فِيهَا حُسْنًا إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ شَكُورٌ ﴿٢٣﴾﴾
اشتملت هذه الآية على ثلاث جمل:

الجملة الأولى: في تحقيق بشرى المؤمنين برضوان الله تعالى وجنته، أي: ذلك الذي أخبرتكم به - أيها الناس - من البشرى والكرامة والنعيم المقيم في روضات الجنات، لمن آمنوا بالله وعملوا صالحًا، أمر حاصل لهم في الدار الآخرة، كما قال تعالى: ﴿وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ بِأَنَّهُمْ مِّنَ اللَّهِ فَضْلًا كَبِيرًا ﴿٤٧﴾﴾ [الأحزاب].

وقال سبحانه: ﴿وَبَشِّرِ الَّذِينَ ءَامَنُوا أَنَّ لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ عِندَ رَبِّهِمْ﴾ [يونس: ٢].

وكما بشر الله أوليائه الصالحين في قوله سبحانه: ﴿إِنَّا إِنَّا أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٢٢﴾﴾ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ ﴿٢٣﴾﴾ لَهُمُ الْبُشْرَىٰ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ﴾ [يونس].

وبشر الشهداء في قوله تعالى: ﴿يَسْتَبْشِرُونَ بِنِعْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ﴾ [آل عمران: ١٧١].

والجملة الثانية من الآية: تنص على أن النبي ﷺ لا يطلب أجرًا من أحد على تبليغ دعوته إلا أن يصل المؤذنون له في حياته ما بينهم وبينه من قرابة، ويتركوه ينشر رسالة الإسلام للعالمين، ويبلغ الناس رسالة ربه، ولا يحولون بينه وبين دعوته.

جاء في أسباب النزول: أن بعض الصحابة أرادوا أن يجمعوا ما لا للنبي ﷺ يستعين به على النوائب، فلما فعلوا ذلك أنزل الله تعالى هذه الآية^(٢) فقال لهم النبي ﷺ:

«لا أسألكم من أموالكم شيئًا، ولكن أسألكم ألا تؤذوني لقرايتي بيني وبينكم، فإنما قومي أحق من أطاعني وأجابني»^(٣).

(١) قرأ ابن كثير وأبو عمرو وحمزة والكسائي (يُبَشِّرُ)، والباقون (يُبَشِّرُ).

(٢) يُنْظَرُ: الطبراني في «الكبير» (٦٧٥٨) عن ابن عباس من طريق سعيد بن جبير، و«تفسير القرطبي» (١٦/

٢١) و«زاد المسير» (٧/٢٨٣) والسيوطي في «أسباب النزول» (٢٥١).

(٣) «تفسير الطبري» (٤٩٦/٢٠).

فلا أسألكم على ما جئتمكم به من البينات والهدى أجرا إلا أن تصلوا ما بيني وبينكم من القرابة، فتحفظوني ولا تؤذوني، وتودوني لصلة الرحم التي بيننا، وهذه المودة التي يطلبها النبي ﷺ من أقاربه أمر زائد على الإيمان به، لأن الإيمان بالرسول ﷺ وتقديم محبته على كل شيء بعد الإيمان بالله تعالى ومحبته، فرض على كل مسلم، فهو يطلب أن يحبوه حباً زائداً لأجل قرابته منهم.

وهكذا أمر الله نبيه أن يؤكد لمن عاصروا نزول الوحي من عشيرته وأهل بلده: أنه ﷺ لا يسألهم أجراً على تبليغ الدعوة، وإنما يسألهم المودة وحسن المعاملة، بأن يحفظوا حق القرابة منهم، وألا يؤذوه حتى يبلغ رسالة ربه، وهذه الجملة، وهي قوله تعالى: ﴿لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَىٰ﴾ معترضة في سياق الآية.

قال قتادة: إن المشركين اجتمعوا في مجمع لهم، فقال بعضهم لبعض: أترون محمداً يسأل على ما يتعاطاه أجراً؟ فنزلت هذه الآية^(١).

وهم يقصدون: إن كان يريد ما لا جمعوا له من أموالهم، كما حدث ذلك منهم أكثر من مرة.

ولما قال المشركون ذلك نزلت هذه الجملة في أثناء الآية.

ولهذه الجملة من الآية نظائر، منها قوله تعالى: ﴿قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ﴾ [ص: ٨٦].

وقوله سبحانه: ﴿قُلْ مَا سَأَلُكُمْ مِنْ أَجْرِ فَهُوَ لَكُمْ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى اللَّهِ﴾ [سبأ: ٤٧].

وقوله جل شأنه: ﴿قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ﴾ [الأنعام: ٩٠].

وهكذا قال نوح وهود وصالح ولوط وشعيب لأقوامهم: ﴿وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [الشعراء: ١٠٩، ١٢٧، ١٤٥، ١٦٤، ١٨٠].

وعن ابن عباس ؓ قال: قالت الأنصار: فعلنا وفعلنا، وكأنهم افتخروا، فقال ابن عباس، أو العباس: لنا الفضل عليكم، فبلغ ذلك رسول الله ﷺ، فأتاهم في مجالسهم، فقال: «يا معشر الأنصار، ألم تكونوا أذلة فأعزكم الله بي؟» قالوا: بلى يا رسول الله، قال: «ألم تكونوا ضللاً فهداكم الله بي؟» قالوا: بلى يا رسول الله، قال: «أفلا

(١) رواه الواحدي في «أسباب النزول» (٣١٠).

تجيبوني؟» قالوا: ما نقول يا رسول الله؟ قال: «ألا تقولون: ألم يخرجك قومك فآويناك؟ أولم يكذبوك فصدقتناك؟ أولم يخذلوك فنصرناك؟» قال: فما زال يقول حتى جثوا على الركب، وقالوا: أموالنا وما في أيدينا لله ورسوله، قال: فنزلت ﴿قُلْ لَا أَشْكُرُ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَىٰ﴾^(١).

والمعنى: قل -أيها الرسول- للذين يَشْكُون في قيام الساعة من المشركين: لا أسألكم على ما أدعوكم إليه من الحق الذي جئتكم به من عند الله عوضًا من أموالكم، إلا أن تؤدوني في قرابتي منكم، وتصلوا الرحم الذي بيني وبينكم فلا تؤدوني، واتركوني أبلغ رسالة ربي، وعاملوني معاملة الودِّ، لا معاملة العداوة، من أجل القرابة التي بيننا في النسب القرشي.

سُئل ابن عباس في حضرة سعيد بن جبير عن هذه الآية، فابتدر سعيد، فقال: قربي آل محمد، فقال ابن عباس: عَجَلْتُ، إن النبي ﷺ لم يكن بطن من قريش إلا كان له فيهم قرابة، فقال: «إلا أن تصلوا ما بيني وبينكم من القرابة»^(٢).

وقال ابن عباس ؓ: كان لرسول الله ﷺ قرابة من جميع قريش، فلما كذبوه وأبوا أن يتابعوه قال: يا قوم، إذا أبيتم أن تتابعوني فاحفظوا قرابتي فيكم، ولا يكن غيركم من العرب أولى بحفظي ونُصرتي منكم^(٣).

وإنما سألتهم معاملة المودة؛ لأن ذلك يعين على نشر الدعوة، فإن ترك مقاومته تجعله يتمكن من تبليغ الدعوة.

فالمراد بالقربى في الآية: قرابة الرحم، كأنه يقول لهم: إن لم تتبعوني للنبوة فاتبعوني للقرابة، هذا هو معنى الآية.

(١) «تفسير الطبري» (٤٩٩/٢٠) وابن مردويه كما في «تخريج الكشاف» (٢٣٧/٣) وفيه يزيد بن أبي زياد، ضعيف من رواية ابن عباس كما في «ضعيف الكشاف» ص ١٤٥، وهو في مسند أحمد برقم (١١٥٤٧) عن أبي سعيد الخدري من حديث طويل بنحوه، وليس فيه ذكر للآية بإسناد صحيح ورجال ثقات. وصححه الألباني عن سعد بن عباد في فقه السيرة.

(٢) رواه البخاري برقم (٣٤٤٧، ٤٨١٨) وأحمد (٢٢٩/١) (٢٠٢٤، ٢٥٩٩) والترمذي (٣٢٥١) والطبري (٤٩٥/٢٠).

(٣) أخرجه الطبري بإسناد حسن عن علي بن أبي طلحة (٤٩٥/٢٠) والطبراني في «الكبير» (١٣٠٢٦).

ويوضح هذا ما أخرجه الحاكم (٤٤٤/٢) من طريق عمرو بن عون، حدثنا هشيم، أخبرنا داود بن أبي هند عن الشعبي قال: أكثر الناس علينا في هذه الآية ﴿قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَى﴾ فكتبنا إلى ابن عباس نسأله عن ذلك، فكتب ابن عباس: أن رسول الله ﷺ كان أوسط بيت في قريش، ليس بطن من بطونهم إلا وقد وَلَدَهُ، فقال الله عز وجل: ﴿قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَى﴾ إلى ما أدعوكم إليه إلا أن تودوني بقرابتي منكم وتحفظوني بها. قال هشيم: وأخبرني حصين، عن عكرمة عن ابن عباس بنحو من ذلك^(١). والمعنى: إلا أن تراعوا ما بيني وبينكم من قرابة فتصدقوني.

في محبة آل البيت:

أما محبة آل بيت النبي ﷺ فهي حاصلة من أدلة أخرى، منها:

١- ما جاء في خطبة النبي ﷺ بغدير حُـمْ -بين مكة والمدينة- من رواية زيد بن أرقم، أن النبي ﷺ حمد الله وأثنى عليه، وذَكَرَ ووعظ، ثم قال: «أما بعد، ألا أيها الناس، إنما أنا بشر، يوشك أن يأتيني رسول ربي فأجيب، وإني تارك فيكم الثقلين أولهما: كتاب الله، فيه الهدى والنور، فخذوا بكتاب الله واستمسكوا به» فحثَّ على كتاب الله ورغَّب فيه، وقال: «وأهل بيتي، أذكركم الله في أهل بيتي، أذكركم الله في أهل بيتي» فقال له حصين: ومَنْ أهل بيته يا زيد؟ أليس نساؤه من أهل بيته؟ قال: إن نساءه من أهل بيته، ولكن أهل بيته من حُرِّم الصدقة بعده، قال: ومَنْ هم؟ قال: هم آل عليٍّ، وآل عقیل، وآل جعفر، وآل العباس، قال: أَكُل هؤلاء حُرِّموا الصَّدقة؟ قال: نعم^(٢).

٢- ولفظ الترمذي: «إني تارك فيكم ما إن تمسكتم به لن تضلوا بعدي، أحدهما أعظم من الآخر: كتاب الله، حبل ممدود من السماء إلى الأرض، عِثْرَتِي، أهل بيتي، ولن

(١) قال الحاكم: هذا حديث صحيح ولم يخرجاه بهذه الزيادة، وهو صحيح على شرطهما: ونسبه الحافظ في الفتح (٥٦٥/٨) إلى سعيد بن منصور. ١١ تحقيق المسند (٢٣٩/٤). وهو عند ابن سعد (٢٤/١) والبيهقي في الدلائل (١٨٥/١).

(٢) مسلم برقم (٢٤٠٨) و«المسند» (٣٦٦/٤) برقم (١٩٢٦٥) من حديث طويل والنسائي في «السنن الكبرى» برقم (٨١٧٥)، وأبوداود (٤٩٧٣).

يتفرقا حتى يردا عليَّ الحوض، فانظروا كيف تخلفوني فيهما»^(١).

٣- ووردت روايات أخرى تفيد أن آل بيت النبي هم أهل الكساء الذين أدخلهم النبي ﷺ في كسائه، وهم: علي وفاطمة والحسن والحسين، وجاء في حديث أم سلمة لما سألت رسول الله ﷺ: ألسنتُ من أهل بيتك؟ فقال: «إني إلى خير»^(٢). ولعل النبي ﷺ لم يدخل أم سلمة في الكساء، لأن فيه رجلاً أجنبياً عنها هو علي ﷺ ويشهد لهذا أن آية ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ﴾ [الأحزاب: ٣٣] جاءت في سياق الحديث عن زوجات النبي ﷺ، وأهل بيت الإنسان تطلق على زوجته كما هو معلوم.

٤- وقال أبو بكر الصديق ﷺ: ارقبوا محمداً ﷺ في أهل بيته^(٣).

٥- وقال أبو بكر لعليّ ﷺ: والله لقرابة رسول الله ﷺ أحب إليّ من أن أصِلَ قرابتي^(٤).

٦- وقال عمر بن الخطاب للعباس ﷺ: والله لإسلامك يوم أسلمت كان أحب إليّ من إسلام الخطاب لو أسلم! لأن إسلامك كان أحب إلى رسول الله من إسلام الخطاب^(٥).

٧- ولما قال العباس للنبي ﷺ: إن قريشاً إذا لقونا لقونا بوجوه لا نعرفها؛ فغضب النبي ﷺ غضباً شديداً، وقال: «والذي نفسي بيده، لا يدخل قلب رجل الإيمان حتى يحبكم لله ورسوله»^(٦).

الجملة الثالثة من الآية: تنص على مضاعفة الأجر والجزاء لمن يعمل صالحاً من المؤمنين، أي ومن يفعل حسنة من صلاة أو صوم أو زكاة أو حج أو إحسان إلى الخلق ونحو ذلك ﴿نَزِدْ لَهُمُ فِيهَا حُسْنًا﴾ بأن يشرح الله صدره ويُسِّر أمره، وتكون هذه الحسنة سبباً

(١) «سنن الترمذي» برقم (٣٧٨٨) وقال: حسن غريب، وهو في «صحيح سنن الترمذي» برقم (٢٩٨٠).

(٢) راجع تفسير سورة الأحزاب الآية [٣٣].

(٣) البخاري برقم (٣٧١٣، ٣٧٥١).

(٤) البخاري برقم (٣٧١٢).

(٥) «تفسير ابن كثير» (٢٠٣/٧).

(٦) «المستند» (٢٠٧/١) برقم (١٧٧٢، ١٧٧٣) وإسناده ضعيف، وعن عبد المطلب بن ربيعة برقم

(١٧٥١٦)، بإسناد ضعيف أيضاً لضعف يزيد بن أبي زياد، ويزيد بن عطاء (محققوه) وأخرجه الحاكم عن

العباس (٣٧٦/١) برقم (٥٤٣٣) وانظر: صحيح الجامع الصغير رقم (٧٠٧٨).

للتوفيق لعمل آخر، يزداد به عمل المؤمن وترتفع درجته عند الله ويحصل له الأجر والمثوبة.

وعودًا على مشهد الروضات والبُشريات، فإن من يكتسب حسنة يتغني بها وجه الله، ويتقرب بها إليه سبحانه، يضاعفها الله له من عشر حسنات فصاعدًا ﴿وَمَنْ يَفْرَفْ حَسَنَةً نَّزِدَ لَهُ فِيهَا حُسْنًا﴾ أي: زدناه حُسْنًا من هذا الفضل الكبير ﴿وَاللَّهُ يُضَاعِفُ لِمَنْ يَشَاءُ﴾ [البقرة: ٢٦١].

كما قال تعالى: ﴿مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا﴾ [الأنعام: ١٦٠].

وقال سبحانه: ﴿وَإِنْ تَكُ حَسَنَةً يُضَاعِفْهَا وَيُؤْتِ مِنْ لَدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ [النساء: ٤٠].

وفي الحديث القدسي: عن ابن عباس ؓ فيما يرويه رسول الله ﷺ عن ربه: «من هم بحسنة فعملها كتبها الله عنده عشر حسنات إلى سبع مئة ضعف إلى أضعاف كثيرة»^(١).

والله تعالى كثير المغفرة لمن يستحقها ﴿إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ شَكُورٌ﴾ أي: غفور لعباده، شكور لحساناتهم وطاعتهم إياه، يغفر الذنوب ويستر العيوب ويتقبل الحسنات ويضاعفها.

تَنْزِيهِ سَاحَةِ الرَّسُولِ ﷺ عَنْ اخْتِلَاقِ الْقُرْآنِ

٢٤- ﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا فَإِنْ يَشَأْ^(٢) اللَّهُ يَخْتِمْ عَلَى قَلْبِكَ وَيَمْحُ اللَّهُ الْبَاطِلَ وَيُخَوِّدُ الْحَقَّ يَكَلِّمُنِي عَيْنٌ عَالِمَةٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾

وكما وبَّخ القرآن المشركين على أنهم شرعوا في دين الله ما لم يأذن به، وبَّخهم أيضًا على شبهتهم الأخيرة في زعمهم أن محمدًا ﷺ لم يأت بشيء من عند الله، وأنه يكذب على الله تعالى فيما يدعوهم إليه، وفيما يتلوه عليهم من قرآن ﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا﴾ بل أيقول هؤلاء المكذبون: اختلق محمد الكذب على الله، فجاء بالذي يتلوه علينا اختلاقًا من عند نفسه؟ وهذه جرأة منهم وكذب على رسول الله ﷺ، حيث رموا النبي ﷺ بأشنع الأمور وأقبحها وهو إدعاء النبوة والكذب على الله تعالى: وفي هذا جرأة منهم على الله أيضًا، إذ كيف يمكن محمدًا من هذه الدعوة الكاذبة في زعمهم، ثم يؤيده

(١) من حديث طويل في «صحيح البخاري» (٦٤٩١) و«صحيح مسلم» (١٣١).

(٢) وقف حمزة وأبو جعفر وهشام بخلف عنه بإبدال همزة (يشأ) ألفًا، وتُحرك بالكسر في حالة الوصل لجميع القراء.

بالمعجزات، وهو القادر على أن يختم على قلبه فلا يعي شيئاً ولا يدخل إليه خير.

فقال تعالى مبطلاً لما قالوه: ﴿فَإِنْ يَشَأْ اللَّهُ يُخَيِّمَ عَلَىٰ قَلْبِكَ﴾ أي: إنك لو حدثت نفسك أن تفتري على الله الكذب، فإن الله تعالى يطبع على قلبك، فيُنسِكَ القرآن، ويسلبه من صدرك، ويسلبك عقلك الذي تفكر به في الكذب فلا تعقل ولا تنطق، ولكنك لم تفعل ذلك فأَيِّدك الله وسدّدك.

وفي هذا استبعاد الافتراء من رسول الله ﷺ، كما قال تعالى: ﴿وَلَوْ نَقُولَ عَلَيْنَا بَعْضُ الْأَقَاوِيلِ﴾ [٤٤] لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ [٤٥] ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ [٤٦] [الحاقة].

قال ابن عاشور: والمعنى أن افتراءه على الله لا يهمكم حتى تناصبوا محمداً ﷺ العداء، فالله تعالى أولى منكم بأن يغار على انتهاك حرمة رسالته، وبأن يذبّ عن جلاله، فلا تجعلوا هذه الدعوى همكم، فإن الله سبحانه لو شاء لختم على قلبك - أيها الرسول - فسلبك القدرة على أن تنسب إليه كلاماً^(١).

ثم إن الله تعالى وعد بإظهار الإسلام ومحو باطل المبطلين وبهتانهم، وتحقيق ما جاء به رسوله ﷺ، ولو أنه أتى بشيء باطل لمحاه الله تعالى، كما قال سبحانه: ﴿وَنَمَحُ اللَّهُ الْبَاطِلَ﴾ يذهب ويمحقه، ويزيله ويفضحه بإيجاد أسباب زواله.

قال جل شأنه: ﴿إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا﴾ [الإسراء: ٨١].

وقال سبحانه: ﴿بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ﴾ [الأنبياء: ١٨].

وقال أيضاً: ﴿وَيُحِثُّ اللَّهُ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ﴾ [يونس: ٨٢] التي لا تتغير ولا تبدل، وبوعده الصادق الذي لا يتخلّف، فيثبت الحق ويوضحه بإيجاد أسباب ظهوره، وبكلام الله المنزل وحججه وبراهينه، والله تعالى لا يخفى عليه افتراء مفترٍ، ولا صدق مُحَقِّق، فهو يعلم النوايا والمقاصد التي يضمورها الناس في عقولهم ﴿إِنَّهُمْ عَلَيْهِمْ يُدَاتِ الصُّدُورُ﴾ يعلم ما في قلوب العباد، لا يخفى عليه شيء منها ولا من غيرها.

(١) «تفسير التحرير والتنوير» (٨٦/٢٤).

بَابُ التَّوْبَةِ مَفْتُوحٌ عَلَى مِصْرَاعِيهِ

٢٥- ﴿وَهُوَ الَّذِي يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ وَيَعْفُو عَنِ السَّيِّئَاتِ وَيَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ﴾^(١)

وبعد أن ذكر سبحانه مشهد الظالمين المشفقين من العذاب وهو نازل بهم، وتوعد الذين يخاصمون في دين الله بالعذاب الشديد، وبعد أن دحض باطل الذين نسبوا إلى النبي ﷺ الكذب على الله تعالى، بعد ذلك رغب سبحانه في التوبة والرجوع إلى الله تعالى من الضلالة، ففتح لهم الباب على مصراعيه، فلا داعي للقنوط واللجاج في المعصية، ولا داعي للاستمرار على ارتكاب الذنوب ﴿وَهُوَ الَّذِي يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ﴾ إذا رجعوا إلى توحيد الله وطاعته، فأقلعوا عن المعاصي، وأنابوا إليه سبحانه بصدق وإخلاص فهو يستر العيوب ﴿وَيَعْفُو عَنِ السَّيِّئَاتِ﴾ فيغفرها ويمحوها ويسترها عليهم، بل ويحولها بفضله وإحسانه إلى حسنات، كما قال تعالى: ﴿إِلَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَالِحًا فَأُولَٰئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ﴾ [الفرقان: ٧٠] وذلك بالنسبة لصغائر الذنوب وكبائرها.

والعفو عن السيئات يكون بالتوبة، وبأداء الحج المبرور، وبالشهادة في سبيل الله.

والعفو عن الصغائر يكون بترك الكبائر، وبالعمرة، وبالصلوات الخمس، وصلاة الجمعة إلى الجمعة، وهكذا.

قال عليّ ؑ: التوبة اسم يقع على ستة معانٍ:

- ١- التوبة مما مضى من الذنوب والندامة عليها.
- ٢- وقضاء ما فاتته من الفرائض.
- ٣- ورد المظالم إلى أهلها.
- ٤- وإذابة النفس في الطاعة كما ربَّيتها في المعصية.
- ٥- وإذاقة النفس مرارة الطاعة كما أذقتها حلاوة المعصية.

(١) قرأ حفص وحمزة والكسائي وخلف ورويس بخلف عنه بقاء الخطاب في (تفعلون) على الالتفات، والباقون بياء الغيبة على نسق الآية، وهو الوجه الثاني لرويس.

٦- والبكاء بدل كل ضحك ضحكته.

وعن السُّدِّي: هي صدق العزيمة على ترك الذنوب، والإنابة بالقلب إلى عَلام الغيوب.
وعن سهل بن عبد الله التستري: التوبة الانتقال من الأحوال المذمومة إلى الأحوال المحمودة.
وقيل: ألا يجد المرء حلاوة الذنب في القلب عند ذكره^(١).

وهو سبحانه لا يخفى عليه شيء من أعمال الخلق، وسوف يجازيهم عليها.

﴿وَيَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ﴾ وهذا امتنان من الله تعالى بقبول توبتهم.

والتوبة واجبة من كل ذنب، فإن كانت معصية بين العبد وربه فلها ثلاثة شروط:

١- الإقلاع عن المعصية في الحال.

٢- والندم والتحسر على فعلها.

٣- والعزم الأكيد على عدم العودة إليها.

وإن كانت المعصية تتعلق بحق الآدمي أضيف إلى ذلك:

٤- أن يبرأ من حق صاحبها برء الحق إليه، أو الاستحلال منها.

التوبة في الكتاب والسنة: ومن الآيات الواردة في الحث على التوبة:

١- قوله تعالى: ﴿وَمَنْ يَعْمَلْ سُوءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ اللَّهَ يَجِدِ اللَّهَ غَفُورًا رَحِيمًا

﴿١٦﴾ [النساء].

٢- وقوله جل شأنه: ﴿إِنَّمَا التَّوْبَةُ عَلَى اللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السُّوءَ بِجَهَالَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِنْ قَرِيبٍ

فَأُولَٰئِكَ يَتُوبُ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١٧﴾ وَلَيْسَتِ التَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ حَتَّىٰ إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ إِنِّي تُبْتُ الْكُفْرَ وَلَا الَّذِينَ يُمُوتُونَ وَهُمْ كُفَّارٌ﴾ [النساء].

٣- وقوله سبحانه: ﴿وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ

وَمَنْ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا اللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَىٰ مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿١٢٥﴾﴾ [آل عمران].

(١) هذه الآثار الأربعة من «تفسير النسفي» للآية.

٤- وقوله ﷺ: ﴿قُلْ يَعْبادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا﴾ [الزمر: ٥٣].

ومن الأحاديث الواردة في ذلك:

١- قول النبي ﷺ فيما يرويه أبو هريرة: «والله إني لأستغفر الله وأتوب إليه في اليوم أكثر من سبعين مرة»^(١).

٢- وقوله ﷺ فيما يرويه ابن عمر: «يأيها الناس، توبوا إلى الله، فإني أتوب إليه في اليوم مئة مرة»^(٢).

٣- وعن عبد الله بن مسعود: قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «لله أفرح بتوبة عبده المؤمن من رجل نزل في أرض دويّة مهلكة، معه راحلته عليها طعامه وشرابه، فوضع رأسه فنام نومة، فاستيقظ وقد ذهبت راحلته، فطلبها حتى إذا اشتد الحر والعطش، أو ما شاء الله، قال: أرجع إلى مكاني الذي كنت فيه، فأنام حتى أموت، فوضع يده على ساعده ليموت فاستيقظ، فإذا راحلته عنده عليها طعامه وشرابه، فالله أفرح بتوبة العبد المؤمن من هذا براحلته»^(٣).

٤- وعن أنس: أن رسول الله ﷺ قال: «لله أفرح بتوبة عبده حين يتوب عليه، من أحدكم كانت راحلته بأرض فلاة، فانفلتت منه، وعليها طعامه وشرابه، فأيس منها، فأنى شجرة فاضطجع في ظلها، قد أيس من راحلته، فبينما هو كذلك إذ هو بها قائمة عنده، فأخذ بخطامها، ثم قال من شدة فرحه: اللهم أنت عبيدي وأنا ربك، أخطأ من شدة الفرح»^(٤).

٥- وعن صفوان بن عسال المرادي أن رسول الله ﷺ قال: «إن الله جعل بالمغرب باباً، عرضه مسيرة سبعين عاماً للتوبة، لا يُغلق ما لم تطلع الشمس من قبله، وذلك قوله

(١) من حديث أبي هريرة في البخاري برقم (٦٣٠٧).

(٢) من حديث الأغر بن بشار المزني عن ابن عمر في «صحيح مسلم» برقم (٢٧٠٢).

(٣) البخاري برقم (٦٣٠٨) ومسلم برقم (٢٧٤٤) والترمذي (٢٤٩٨).

(٤) البخاري برقم (٦٣٠٩) ومسلم برقم (٢٧٤٧) واللفظ له.

تعالى: ﴿يَوْمَ يَأْتِي بَعْضُ أُمَّتِكَ رَيْكَ لَا يَنْفَعُ نَفْسًا إِيْمَتُهَا لَوْ تَكُنَّ ءَامَنَتْ مِنْ قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِي إِيمَنِهَا خَيْرًا﴾^(١) [الأنعام: ١٥٨].

٦- وعن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «إن الله ﻻ يبسط يده بالليل ليتوب مسيء النهار، ويبسط يده بالنهار ليتوب مسيء الليل، حتى تطلع الشمس من مغربها»^(٢).

ولما دعا الله عباده إلى التوبة من التقصير، كان الناس بحسب الاستجابة على قسمين: قسم استجاب لدعوة ربه، فلبى نداءه وانقاد له، وهؤلاء هم المؤمنون العاملون للصلاحات، وقسم لم يستجب وهم الكافرون المعاندون، وقد اشتملت الآية التالية على القسمين معاً، والله سبحانه يستجيب دعاء الذين آمنوا، ويزيدهم عليه من فضله وإحسانه.

٢٦- ﴿وَيَسْتَجِيبُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَيَزِيدُهُمْ مِنْ فَضْلِهِ ؕ وَالْكَافِرُونَ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ﴾

أي: يستجيب الله لعباده التائبين المؤمنين العاملين للصلاحات، ما يرجونه منه من ثواب، وما يدعونه من خيري الدنيا والآخرة؛ لأنهم استجابوا لله ورسوله، وانقادوا لتعاليم الإسلام ﴿وَيَزِيدُهُمْ مِنْ فَضْلِهِ﴾ توفيقاً ونشاطاً على العمل، ومضاعفة في الأجر والثواب، فيعطيهما ما طلبوا وأعظم منه، ويعطيهم من خير الدنيا ما لم يسألوه؛ لأنه لطيف بهم ومدبر لمصالحهم، هذا حال المؤمنين وهم القسم الأول الذي استجاب لله والرسول فتاب وأناب إلى الله تعالى.

أما القسم الذي لم يستجب لله والرسول، فلم يُقبل على الله تعالى بالتوبة والإنابة، فقد جاء في قوله تعالى: ﴿وَالْكَافِرُونَ﴾ بالله ورسوله غير المستجيبين لدعوته ﴿لَهُمْ﴾ في الدنيا والآخرة ﴿عَذَابٌ شَدِيدٌ﴾ موجه ومؤلم.

(١) أخرجه الترمذي وقال: حسن صحيح، برقم (٣٥٣٦) من حديث طويل.

(٢) مسلم برقم (٢٧٥٩).

حِكْمَةُ اللَّهِ تَعَالَى فِي بَسْطِ الرِّزْقِ وَقَبْضِهِ

٢٧- ﴿وَلَوْ بَسَطَ اللَّهُ الرِّزْقَ لِعِبَادِهِ لَبَغَوْا فِي الْأَرْضِ وَلَكِنْ يُنْزِلُ^(١) بِقَدَرٍ مَّا يَشَاءُ^(٢) إِنَّهُ بِعِبَادِهِ خَبِيرٌ بَصِيرٌ

وما دام الله سبحانه يزيد الذين استجابوا له من فضله وكرمه، فلماذا لم يوسع عليهم في الرزق مع أنهم يسألون ذلك؟

والجواب في قوله تعالى: ﴿وَلَوْ بَسَطَ اللَّهُ الرِّزْقَ لِعِبَادِهِ لَبَغَوْا فِي الْأَرْضِ﴾.

أي أن الله تعالى لم يوسع عليهم في الدنيا سعة تضر بدينهم ودنياهم.

والبغي: هو تجاوز الحد في كل شيء، والتوسعة في الرزق فوق الحاجة، تجعل العبد يتجاوز حدوده غالباً، ويتكبر في الأرض، ويطنغي على غيره، ويترك شكر الله تعالى، وربما يقول كما قال قارون: ﴿إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ عِنْدِي﴾ [القصص: ٧٨] فيكون بسط الرزق مفسداً لهم في الغالب، فيحملهم على الاعتداء على الناس، والتعالي عليهم، ويجعلهم يغفلون عن الطاعة، ويقبلون على التمتع بشهوات الدنيا وملذاتها، ولو كان ذلك معصية وظلماً قال تعالى: ﴿كَلَّا إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنَّاظٍ^(٣)﴾ [العلق: ١٧].

وقد ينسى العبد دعاء ربه واللجوء إليه في حال الثراء، وكثيراً ما يُشغل الثرى عن طاعة الله تعالى والعمل لأخراه.

وهذا ما يشير إليه قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا سَوَوْا مَا دُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّىٰ إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً فَإِذَا هُمْ مُبْلِسُونَ

﴿[الأنعام: ٤٤].

ولما جاء مال البحرين إلى النبي ﷺ قال للأنصار لَمَّا تعرضوا له بعد صلاة الصبح: «أبشروا وأملوا، فوالله ما الفقر أخشى عليكم، ولكن أخشى عليكم أن تُبْسَطَ عليكم الدنيا كما بُسِطَتْ على من قبلكم، فتنافسوها كما تنافسوها، وتهلككم كما أهلكتهم»^(٣)

(١) قرأ ابن كثير وأبو عمرو ويعقوب بسكون النون وتخفيف الزاي من (ينزل)، والباقون بفتح النون وتشديد الزاي.

(٢) قرأ نافع وابن كثير وأبو عمرو وأبو جعفر ورويس بتشديد همزة (يشاء إنه) الثانية ويبدلها واواً، والباقون بالتحقيق.

(٣) أخرجه البخاري عن عمرو بن عوف الأنصاري برقم (٤٠١٥) والترمذي (٢٤٦٢) وأحمد في المسند

(١٨٩١٦) عن المسور بن مخرمة، عن عبيدة بإسناد صحيح على شرط الشيخين. (محققوه).

ونادرًا ما يكون الفقر سببًا للبغي.

وعن خَبَّاب بن الأَرْتِّ رضي الله عنه قال: فينا نزلت هذه الآية، وذلك أَنَّا نظرنا إلى أموال بني النضير وبني قريظة وبني قينقاع، فتمنَّيناها، فنزلت^(١).

ولعل خَبَّابًا تمثل هذه الآية حين قال مقالته، فالآية مكية، وخَبَّاب أنصاري.

وقد ورد عن عليٍّ وغيره أن الآية نزلت في أهل الصُّفَّة لَمَّا تمنَّوا الدنيا^(٢).

أي: أَنهم تمنَّوا أن يغنيهم الله ويبسط لهم الأموال والأرزاق، فأعلمهم الله تعالى أنه لو جاء الرزق على اختيار البشر واقتراحهم، لكان سبب بغيتهم وإفسادهم، ولكنه تعالى أعلم بالمصلحة في كل أحد، فَرُبَّ إنسان لا يصلح إلا بالفقر، وآخر لا يصلح إلا بالغنَى^(٣).

وقد فعل الله سبحانه ما فعل من بسط الرزق لعباده أو تضيقه عليهم؛ لأنه تعالى خير بخفايا أحوال عباده، وطوايا نفوسهم، وما يؤول إليه حالهم، ولا ريب في أن البغي مع الفقر أقل، ومع البسط أكثر وأغلب، ولو عمَّ البسط لغلب البغي، وفسدت الأحوال.

ولو أن الله تعالى جعل جميع الناس في بسطة من الرزق، لاختلَّ نظام حياتهم، ببغي بعضهم على بعض غالبًا، وهذا لا ينفي وجود أثرياء صالحين، منفعتهم متعدية إلى غيرهم، وفيهم خير كثير، وقال تعالى ﴿نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُمْ مَعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا سُلْحِيًّا﴾ [الزخرف: ٣٢]

وقد اقتضت حكمة الله تعالى أن ينزل الرزق وفق علمه بأحوال عباده ﴿وَلَكِنْ يُنْزِلُ بِقَدَرٍ مَا يَشَاءُ﴾ أي: يُنزل من الرزق لعباده بتقدير محسوب، على حسب مشيئته، وما تقتضيه حكمته البالغة: فيُفقر ويُغني، ويمنع ويعطي، ويقبض ويبسط وفق الحكمة الإلهية، ﴿وَاللَّهُ فَضَّلَ بَعْضَكُمْ عَلَى بَعْضٍ فِي الرِّزْقِ﴾ [النحل: ١٧] ولو أغناهم جميعًا لبغوا، ولو أفقرهم جميعًا لهلكوا.

جاء في الأثر: «إن من عبادي من لا يصلحه الغنى، ولو أفقرته لأفسدت عليه دينه، وإن

(١) يُنظر: «زاد المسير» (٢٨٧/٧).

(٢) أخرجه الحاكم (٤٤٥/٢) والبيهقي في «الشعب» (١٠٣٣١) وأبو نعيم في «الحلية» (٣٣٨/١) والطبراني كما في «مجمع الزوائد» (١٠٤/٧) وغيرهم.

(٣) «تفسير ابن عطية» (٣٦/٥).

من عبادي من لا يُصلحه إلا الفقر، ولو أغنيته لأفسدته عليه دينه، وإن من عبادي من لا يُصلح إيمانه إلا الفقر، ولو أغنيته لأفسده ذلك، وإن من عبادي من لا يُصلح إيمانه إلا الصحة، ولو أمرضته لأفسده ذلك، وإن من عبادي من لا يُصلح إيمانه إلا المرض ولو عافيته لأفسده ذلك، إني أدبر أمر عبادي بعلمي بما في قلوبهم، إني خير بصير^(١).

وعن أبي الدرداء رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «ما طلعت شمس قط إلا بُعث بِجَنَّتِيهَا مَلَكَان، إِنْهُمَا لِيُسَمِّعَان أَهْلَ الْأَرْضِ إِلَّا الثَّقَلَيْنِ: يَا أَيُّهَا النَّاسُ، هَلُمُّوا إِلَى رَبِّكُمْ، فَإِنَّ مَا قُلَّ وَكَفَى خَيْرٌ مِمَّا كَثُرَ وَالْهَى، وَمَا غَرِبَتْ شَمْسٌ قَطُّ إِلَّا وَبِجَنَّتِيهَا مَلَكَانٌ يَنَادِيَانِ: اللَّهُمَّ عَجِّلْ لِمَنْفَقِ خَلْقًا، وَعَجِّلْ لِمَمْسَكِ تَلَفًا»^(٢).

وقال قتادة: خير الرزق ما لا يُطغيك ولا يُلهيك^(٣).

وفي الحديث: عن أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «اللَّهُمَّ اجْعَلْ رِزْقَ آلِ مُحَمَّدٍ كِفَافًا»^(٤).

ولما عرض ملك الجبال على النبي ﷺ أن تكون له جبال مكة ذهبًا تسير معه أينما سار، قال: «أجوع مرة فأسأل ربي، وأشبع مرة فأشكره».

والله تعالى أعلم بشؤون خلقه ﴿إِنَّهُ بِعِبَادِهِ خَبِيرٌ﴾ بما يصلحهم ﴿بَصِيرٌ﴾ بتدبير شؤونهم ومعرفة أحوالهم.

ثَلَاثَةٌ مِنْ دَلَائِلِ الْوَحْدَانِيَّةِ: أَوَّلًا: نِعْمَةُ الْمَاءِ مِنْ أَفْضَلِ الْأَرْزَاقِ

٢٨- ﴿وَهُوَ الَّذِي يُنْزِلُ^(٥) الْغَيْثَ مِنْ بَعْدِ مَا قَنَطُوا وَيَنْشُرُ رَحْمَتَهُ وَهُوَ الْوَلِيُّ الْحَمِيدُ ﴿٢٨﴾﴾

ومن الرزق الذي ينزله الله بقدر على خلقه: المطر، ونعمة الماء لا يختلف اثنان في أنها

(١) عند ابن أبي الدنيا (١) والحكيم الترمذي في «نوادير الأصول» (٢/٢٣٢) وابن عساكر في تاريخه (٤١/٢٨٥) وغيرهم.

(٢) «المستدرک» (٢/٤٤٤) برقم (٣٦٦٢) قال الحاكم: صحيح الإسناد، ووافقه الذهبي، وأخرجه ابن حبان (٣٣٢٩) وصححه الألباني في صحيح الترغيب والترهيب (١٧٠٦).

(٣) أخرجه الطبري بإسناد حسن.

(٤) «صحيح مسلم» (١٠٥٥) و«صحيح البخاري» (٦٤٦٠).

(٥) قرأ ابن كثير وأبو عمرو وحزمة والكسائي ويعقوب وخلف بالتخفيف في (يُنْزِلُ الغيث)، والباقون بالتشديد.

أصل دوام الحياة، وإيجاد الغذاء الصالح للإنسان والحيوان ﴿وَهُوَ الَّذِي يُنَزِّلُ الْغَيْثَ﴾ فيغيث به العباد والبلاد ﴿مِنْ بَعْدِ مَا قَنَطُوا﴾ فيغيثهم بعدما انقطع رجائهم ويثسوا من نزوله، فيكون هذا أدعى إلى شكره تعالى لكونه أتى وقت شدة الحاجة إليه قال تعالى:

﴿وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلِ أَنْ يُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ مِنْ قَبْلِهِ لَمَلِسُوا﴾ ﴿٤٩﴾ فَأَنْظِرْ إِلَىَّ عَاثِرِ رَحْمَةِ اللَّهِ كَيْفَ يُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا﴾ [الروم: ٤٩، ٥٠].

ونزول المطر من مواطن إجابة الدعاء:

فعن سهل بن سعد رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «ثنتان ما تُردَّان: الدعاء عند النداء، وتحت المطر»^(١) والمراد بالنداء: الأذان.

قيل: إن الآية نزلت بسبب رفع القحط عن قريش بسبب دعوة النبي ﷺ بعد أن دام القحط عليهم سبع سنين، أكلوا فيها الجيف والعظام، وهو المشار إليه في قوله تعالى: ﴿إِنَّا كَاشَفُوا الْعَذَابَ قَلِيلًا إِنَّكُمْ عَائِدُونَ﴾ ﴿١٥﴾ [الدخان].

عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ لما دعا قريشاً كذبوه واستعصوا عليه، فقال: «اللهم أعني عليهم بسبع كسبع يوسف»^(٢).

فأتاه أبو سفيان فقال: يا محمد، إن قومك قد هلكوا، فادع الله أن يكشف عنهم، فدعا، وكان هذا في المدينة النبوية.

ويؤيده ما رُوي أن هذه الآية نزلت في استسقاء النبي ﷺ لما سأله الأعرابي وهو في خطبة الجمعة.

وفي بعض الروايات أن النبي ﷺ قال: «اللهم عليك بقريش، اللهم اشدّد وطأتك على مُضَر، اللهم اجعلها عليهم سنين كسني يوسف»^(٣).

(١) الحاكم (١١٣/٢) والبيهقي في «السنن» (٣/٣٦٠) و«صحيح سنن أبي داود» (٢٢١٥) دون (وتحت المطر).

(٢) البخاري (١٠٠٧، ٤٨٢٢) ومسلم (٢٧٩٨) والترمذي (٣٢٥٤) و«المسند» (٤١٠٤) في حديث طويل وابن حبان (٤٧٦٤) و«سنن النسائي الكبرى» (١١١٣٨).

(٣) من حديث أبي هريرة في البخاري (١٠٠٦، ٨٠٤) ومسلم (٦٧٥) وسنن أبي داود (١٤٤٢) بتصحیح الألباني.

وقد سَمَّى الله المطر رحمة، فقال: ﴿وَيَنْشُرُ رَحْمَتَهُ﴾ أي على خلقه، فيعمُّهم بالخير عن طريق ما يتتج من هذه الأمطار من خيرات وأرزاق وبركات وأقوات للإنسان والحيوان، فهو سبحانه الذي يتولى الخلق برحمته وإحسانه، حيث أغاثهم بعدما يشعرون، فيفرحون ويستبشرون.

وربما لا يشعر بهذه النعمة أهل المُدن في عصرنا، حيث تتوافر لهم المياه بطريقة أو بأخرى، وتُعمل لها خزانات تحت الأرض وفوق المساكن، وتجري في المواسير، وأكثر من يَشْعُر بالحاجة إلى المطر هم أهل البوادي، الذين تجفُّ أرضهم، ويبس زرعهم، وتضمُّر مواشيهم من قلة الأمطار، ويحمدون الله كثيراً عندما ينشر الله عليهم رحمته، ويتولاهم برعايته وعنايته، ﴿وَهُوَ الْوَلِيُّ﴾ الذي يتولى عباده ويدبر شؤونهم ﴿الْحَمِيدُ﴾ المحمود على كل حال، وبما أوصله لعباده من نعم لا تعد ولا تحصى.

ثَانِيَا: جَمْعُ الْمَخْلُوقَاتِ بَعْدَ تَفَرُّقِهَا آيَةً مُوجِبَةً لِعِبَادَةِ اللَّهِ وَخُدَّةِ

٢٩- ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا مِنْ دَابَّةٍ وَهُوَ عَلَى جَمْعِهِمْ إِذَا يَشَاءُ قَدِيرٌ﴾

وتمضي الآيات في ذكر ألوان من نعم الله تعالى، الدالة على عظم قدرته، وعلى إمكانية البعث بعد الموت، ووجوب إفراذه تعالى بالعبادة، فذكرت هذه الآية خلق السموات والأرض والدواب ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ أي: العالم العلوي غير المشاهد بما فيه من الملائكة والكواكب والأفلاك، وكذا كل ما تجاوز الأرض إلى الجو والفضاء.

ومن آياته كذلك خلق العالم الأرضي بما عليه من الإنسان والحيوان والجماد والنبات وغير ذلك، ومن علامات الله الناصعة الدالة على كمال قدرته ما بثَّ ونشره في السموات والأرض من دواب لا يعلم عددها إلا الله ﴿وَمَا بَثَّ فِيهِمَا مِنْ دَابَّةٍ﴾ أي: وما فرَّق في مجموع السموات والأرض من دابة ومخلوقات كثيرة، وهذا يشمل: الناس والملائكة والجن، والحيوان والطيور والوحوش والحشرات.

والدابة: هي كل ما يدبُّ على الأرض، وهو يشمل الطير؛ لأنه يمشي إذا نزل على الأرض.

إنها حياة مبثوثة في كل مكان: فوق سطح الأرض، وفي ثناياها، وفي أعماق البحر، وأجواء الفضاء.

والإنسان يعجز عن أن يجمع سرِّاً من الطير الأليف ينفلت من أقفاصه، أو سرِّاً من النحل يطير من خليته.

وأسراب النمل والحشرات والهوام والجراثيم لا يعلم مواطنها إلا الله.

وأسراب الأسماك وحيوان البحر لا يطلع عليها إلا الله، وقطعان الوحوش والأنعام سائمة وشاردة في كل مكان، ومخلوقات هنا وهناك لا يعلمها إلا الله، ويجوز أن تكون في السموات موجودات أخرى تدب فيها، والله أعلم.

ثم بيّن سبحانه أنه تعالى قادر على جمع الخلائق للحشر والحساب والجزاء ﴿وَهُوَ عَلَىٰ جَمْعِهِمْ﴾ بعد موتهم ليوم القيامة ﴿إِذَا يَشَاءُ قَدِيرٌ﴾ فلا يتعذر عليه شيء في أي وقت شاء ﴿قُلْ إِنَّ الْأَوَّلِينَ وَالْآخِرِينَ ﴿١٩﴾ لَمَجْمُوعُونَ إِلَىٰ مِيقَاتِ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ ﴿٥٠﴾﴾ [الواقعة: ٤٩، ٥٠].

والمعنى: إن القادر على خلق السموات والأرض وما فيهما من عدم، قادر على إعادة ما فيهما للبعث والجزاء، وفي بعض الأحاديث أن البهائم تُحشر لِيُقْتَصَ لها ومنها.

اللَّهُ تَعَالَىٰ يُؤَاخِذُ بِالذَّنْبِ وَمَا يَعْصُو عَنْهُ أَكْثَرُ

٣٠- ﴿وَمَا أَصَابَكُمْ مِّنْ مُّصِيبَةٍ فِيمَا ^(١) كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُوا عَنْ كَثِيرٍ ﴿٢٥﴾﴾

هذا، ولما امتنَّ الله على عباده بنزول الغيث بعد قنوطهم منه، أعقب ذلك بالتنبيه على أن ما أصاب الناس من قحط أو بلاء أو فقر أو مرض أو هزيمة ونحو ذلك من المصائب والمحن، إنما هو بسبب ما اقترفت أيديهم من الذنوب والخطايا، وفي مقدمة ذلك الشرك بالله تعالى، فقال: ﴿وَمَا أَصَابَكُمْ﴾ أيها الناس ﴿مِّنْ مُّصِيبَةٍ﴾ في دينكم ودنياكم في أبدانكم وأموالكم وأولادكم، وفيما هو عزيز عليكم ﴿فِيمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ﴾ من المعاصي والآثام، وعبر بالأيدي لأن أكثر الأفعال تراوَل بها، وفي هذا تنبيه على محاسبة النفس، وملاحظة الأحوال، وإزالة العوائق نحو امتثال ما يُرضي الله سبحانه؛ حتى لا يظن الناس أن العقوبة على الذنوب مقصورة على الدار الآخرة، وحتى يعلموا أن الله تعالى قد

(١) قرأ نافع وابن عامر وأبو جعفر (بما كسبت) بدون فاء، على أن (ما) في (أصابكم) موصولة مبتدأ و (بما كسبت) خبر، وقرأ الباقون (فيما) بالفاء، على أن (ما) شرطية، ويجوز أن تكون موصولة.

يعاقبهم عليها في الدنيا، والخطاب عام للمؤمنين وغيرهم.

والمصيبة: اسم للحادثة التي تصيب الإنسان بضرٍّ أو مكروه، وما يصيب الناس من ضرٍّ أو مكروه في الدنيا هو جزاء أعمالهم التي لا يرضاها الله تعالى، وهذا الجزاء غير مطَّرد، فقد يعاقب الله قومًا على أعمالهم في الدنيا، وقد يترك قومًا إلى جزاء الآخرة، وقد يتلى قومًا رفعاً لدرجاتهم، فجزاء الآخرة هو الجزاء المطَّرد الموعود به في الخير أو الشر، وجزاء الدنيا قد يحصل أو لا يحصل:

﴿وَلَوْ يَأْخُذُ اللَّهُ النَّاسَ بِظُلْمِهِمْ مَا تَرَكَ عَلَيْهَا مِنْ دَابَّةٍ وَلَكِنْ يُؤَخِّرُهُمْ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ [النحل: ٦١].

﴿وَلَوْ يَأْخُذُ اللَّهُ النَّاسَ بِمَا كَسَبُوا مَا تَرَكَ عَلَىٰ ظَهْرِهَا مِنْ دَابَّةٍ﴾ [فاطر: ٤٥].

ومن رحمة الله بعباده أنه لا يؤاخذهم بكل ما كسبوا، بل يعفو ويصفح عن كثير من الذنوب فلا يؤاخذ عليها، قال تعالى: ﴿وَيَعْفُوا عَنْ كَثِيرٍ﴾ أي: من السيئات، فيتجاوز عنها.

وقد وردت آيات وأحاديث كثيرة تقرر أن ما يصيب الناس من المصائب في الدنيا فهو بما جنته أيديهم.

١- قال تعالى: ﴿ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُمْ بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا﴾ [الروم: ٤١].

٢- وقال سبحانه: ﴿أَوْ لَمَّا أَصَبْتُمْ مُمْسِيَةً قَدْ أَصَبْتُمْ مِثْلَهَا قُلْتُمْ أَنَّىٰ هَذَا قُلْ هُوَ مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [آل عمران: ١٦٥].

٣- وقال جلَّ شأنه: ﴿وَأَمَّا إِذَا مَا ابْتَلَاهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَهْنَنِ﴾ ⑪ ﴿كَلَّا بَلْ لَا تَكْرُمُونَ الْيَتِيمَ﴾ ⑦ ﴿وَلَا تَحْضُونَهُ عَلَىٰ طَعَامِ الْيَسْكِينِ﴾ ⑧ ﴿وَتَأْكُلُونَ الثَّرَاثَ أَكْلًا لَمًّا﴾ ⑨ ﴿وَتُحِبُّونَ الْمَالَ حُبًّا جَمًّا﴾ ⑩ [الفجر] فتضييق الرزق بسبب إهانة اليتيم وما بعده مما جاء في الآيات.

٤- وقد خاطب الله تعالى بني إسرائيل بقوله: ﴿فَمَا جَزَاءُ مَنْ يَفْعَلُ ذَلِكَ مِنْكُمْ إِلَّا خِزْيٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يُرَدُّونَ إِلَىٰ أَشَدِّ الْعَذَابِ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ [البقرة: ٨٥].

٥- وقال تعالى عن اليهود أيضًا: ﴿إِنَّ الَّذِينَ اتَّخَذُوا الْعِجْلَ سَيَنَالُهُمْ غَضَبٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَذَلَّةٌ

فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُفْتَرِينَ ﴿١٥٢﴾ [الأعراف].

٦- وقال عنهم أيضًا: ﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكَ لَيَبْعَنَ عَلَيْهِمْ إِلَى يَوْمِ الْفَيْصَةِ مَن يَسُوءُهُمْ سُوءَ الْعَذَابِ﴾ [الأعراف: ١٦٧].

٧- وقال تعالى في المنافقين: ﴿أُولَٰئِكَ يَرْوَنَ أَنَّهُمْ بَقَتُوا فِي كُلِّ عَامٍ مَّرَّةً أَوْ مَرَّتَيْنِ ثُمَّ لَا يَتُوبُونَ وَلَا هُمْ يَذْكُرُونَ﴾ [التوبة] وهكذا.

وجاءت في هذا المعنى آثار وأحاديث، كثيرة منها ما يلي:

١- «لا تصيب عبدا نكبة فما فوقها أو دونها إلا بذنب، وما يعفو الله عنه أكثر»^(١).

٢- و «إن الرجل ليحرم الرزق بسبب الذنب يصيبه»^(٢).

٣- قال خبَّاب بن الأرت: إنا آمنا بالله، وجاهدنا في سبيله، فوجب أجرا على الله، فمنا من ذهب لم يأخذ من أجره شيئا، منهم مصعب بن عمير مات وما ترك إلا بردة كنا إذا غطينا بها رأسه بدت رجلاه، وإذا غطينا رجله بدا رأسه، فأمرنا رسول الله أن نغطي بها رأسه، ونضع على رجله من الإذخر، ومنهم من عُجِّلَتْ له ثمرته فهو يهدبها.^(٣)

والشاهد: أن من الناس من ضُيِّقَ عليه، ومنهم من وُسِّعَ عليه، وليس هذا ولا ذاك دليل على محبة الله تعالى أو بغضه.

٤- وعن عليٍّ عليه السلام قال: ألا أخبركم بأفضل آية في كتاب الله ﷻ حَدَّثَنَا بِهَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ، قال: ﴿وَمَا أَصَابَكُمْ مِّنْ مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُوا عَنْ كَثِيرٍ﴾ ﴿٣٠﴾ وسأفسرها لك يا عليُّ: ما أصابكم من مرض أو عقوبة أو بلاء في الدنيا فبما كسبت أيديكم، والله تعالى أحلم من أن يُثَنِّي عليه العقوبة في الآخرة، وما عفا الله عنه في الدنيا فالله تعالى أكرم من أن يعود بعد عفوهِ»^(٤).

(١) «سنن الترمذي» عن أبي موسى (٣٢٥٢) وهو ضعيف الإسناد كما في «ضعيف سنن الترمذي» (٦٤٠).

(٢) «سنن ابن ماجه». وقد ضعفه الألباني عن ثوبان في ضعيف الترغيب والترهيب (١٤٧٣).

(٣) ينظر: «صحيح البخاري» برقم (٣٩١٤) وصحيح مسلم، (٩٤٠) والمسند (٢١٠٥٨) والطبراني (٣٦٦١) وابن أبي شيبه (٢٦٠/٣).

(٤) «المسند» (٨٥/١) برقم (٦٤٩) بإسناد ضعيف (محققوه) وأبو يعلى (٤٥٣، ٦٠٨) والحاكم (٤٤٥/٢) والحكيم (٣٣/٢). وعبد بن حميد (٨٧).

٥- وعن عليٍّ رضي الله عنه، عن النبي ﷺ: «من أصابَ حَدًّا فَعَجَّلَ عقوبته في الدنيا، فالله أعدل من أن يُثَنِّي على عبده العقوبة في الآخرة، ومن أصابَ حَدًّا فستره الله عليه وعفا عنه، فالله أكمل من أن يعود إلى شيء قد عفا عنه»^(١).

٦- وعن معاوية بن أبي سفيان رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «ما من شيء يصيب المؤمن في جسده يؤذيه إلا كَفَّرَ عنه به من سيئاته»^(٢).

٧- وعن عائشة رضي الله عنها قالت: قال رسول الله ﷺ: «إذا كثرت ذنوب العبد، ولم يكن له ما يكفرها من العمل ابتلاه الله بالحزن ليكفرها عنه»^(٣).

٨- وفي الأثر: «والذي نفس محمد بيده، ما من حَدَثٍ عود، ولا اختلاج عِرْقٍ، ولا عَثْرَةٍ قدم إلا بذنب، وما يعفو الله عنه أكثر»^(٤).

٩- وعن عمران بن حصين رضي الله عنه أنه دخل عليه بعض أصحابه، وكان قد ابتلي في جسده، فقال له بعضهم: إنا لنبتئس لك لما نرى فيك، قال: فلا تبتئس بما ترى، فإن ما ترى بذنب، وما يعفو الله عنه أكثر، ثم تلا الآية^(٥).

١٠- وقال الضحاك: ما نعلم أحداً حفظ القرآن ثم نسيه إلا بذنب، ثم قرأ الآية وقال: وأي مصيبة أعظم من نسيان القرآن؟!^(٦).

(١) الترمذي برقم (٢٦٢٦) وقال: حديث حسن غريب صحيح، وابن ماجه برقم (٢٦٠٤) والحاكم وصححه ووافقه الذهبي (٤٤٥/٢) وصححه أحمد شاكر في «المسند» (١١٨/٢) برقم (٧٧٥)، وحسن إسناده محققو المسند وأخرجه البزار (٤٨٢) وفي الباب عن عبادة بن الصامت في البخاري (١٨) ومسلم (١٧٠٩).

(٢) «المسند» (٩٨/٤) برقم (١٦٨٩٩) قال الهيثمي في «مجمع الزوائد» (٣٠١/٢): رجال أحمد رجال الصحيح وقال محققو المسند: إسناده صحيح على شرط مسلم، وأخرجه البيهقي في الشعب (٩٨٧٤) والطبراني في الأوسط (٥٨٤٣) وابن أبي شيبة (٢٣٠/٣) وغيرهم.

(٣) «المسند» (١٥٧/٦) برقم (٢٥٢٣٦) وفيه ليث بن أبي سليم ضعيف، وبقية رجاله ثقات رجال الشيخين، (محققوه) وأخرجه البزار (٣٢٦٠) في «الزوائد»، وانظر: «مجمع الزوائد» (٢٩١/٣) فقد حسن إسناده.

(٤) رواه هناد بن السري في «الزهد» برقم (٤٣١) عن الحسن البصري مرسلاً، ويُنتظر: «تخريج أحاديث الكشاف» (٢٤١/٣).

(٥) الحاكم (٤٤٥/٢) والبيهقي في «الشعب» (٩٨١٣، ٩٩٧٣) وابن أبي الدنيا (٢٤٩).

(٦) البيهقي في «الشعب» (١٩٦٥) وابن أبي شيبة (٤٧٨/١) وابن المبارك (٨٥).

١١- وفي الحديث: عن أبي سعيد وأبي هريرة رضي الله عنهما أن النبي ﷺ قال: «والذي نفسي بيده، ما يصيب المؤمن من نَصَبٍ ولا وَصَبٍ ولا هم ولا حُزْنٍ، إلا كفر الله عنه بها من خطاياها حتى الشوكة يشاكها»^(١).

ولما كانت المصيبة في الدنيا قد تكون جزاءً على فعل الشر، فإن خيرات الدنيا قد تكون جزاءً على فعل الخير.

كما أن الله تعالى رفع الخوف من المستقبل، والحزن على الماضي بالنسبة لأولياء الله الصالحين، فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون.

وكما أثر الله في الدنيا يوسف على إخوته فقالوا: ﴿لَقَدْ أَتَرَكَ اللَّهُ عَلَيْنَا وَإِنْ كُنَّا لَخَطِئِينَ﴾ [يوسف: ٩١]

وكما قال تعالى: ﴿فَكَانَتْ لَهُمُ ثَوَابُ الدُّنْيَا وَحَسَنَ ثَوَابِ الْآخِرَةِ﴾ [آل عمران: ١٤٨].

وكما وعد الله عباده المؤمنين بالتمكين في الأرض والاستخلاف فيها، وتبديل خوفهم أمناً.

وثواب الدنيا لا يمنع ثواب الآخرة، وقد يصاب بعض الصالحين بمصائب ونكبات لزيادة أجورهم ورفع درجاتهم في الآخرة، كما أن كثرة الخير والنعم قد تكون إمهالاً واستدراجاً، وهو سبحانه أعلم بخفايا خلقه ونواياهم.

وعَفُوَّ الله تعالى عن المذنبين من عباده عَفْوٌ عن قُدْرَةٍ، وليس عن عجز.

قُدْرَةُ اللَّهِ تَعَالَى لَا يُعْجِزُهَا شَيْءٌ

٣١- ﴿وَمَا أَنتَ بِمُعْجِزٍ فِي الْأَرْضِ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾

أي: لستُم -أيها الناس- بناجين ولا مفلتين من قدرة الله تعالى؛ لأن قدرته لا يعجزها شيء، وليس هناك من ينصركم من عذاب الله أو يمنعكم منه ﴿وَمَا لَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ مِن وَلِيٍّ﴾ يتولى أمركم فيوصل لكم المنافع ﴿وَلَا نَصِيرٍ﴾ يدفع عنكم المضار، فأنتم في قبضة الله وتحت تصرفه في متقلبكم ومثواكم.

ولما كان العرب إذا خافوا سطوة ملك أو عظيم، سكنوا الجهات البعيدة والصعبة، وكان المشركون يعتقدون أن وجودهم في مكة يحميهم من العقاب، لذا قال تعالى: ﴿وَمَا

(١) «صحيح البخاري» (٥٦٤١، ٥٦٤٢) و«صحيح مسلم» (٢٥٧٣).

أَنْتُمْ بِمُعْجِزَاتٍ فِي الْأَرْضِ ﴿ فقيّد سبحانه عدم إمكانية الهرب من قدرة الله تعالى، بالأرض، ليفهم منه أنهم في قبضة الله تعالى في أي مكان من الأرض أي: إن هربتم من أقطارها كل مهرب، وذلك لأن المخاطبين بالآية يعيشون في الأرض دون السماء.

ثَالِثًا: جَرِيُّ السُّفْنِ وَتَوَقُّفُهَا فِي الْبَحَارِ مِنْ دَلَائِلِ الْقُدْرَةِ الْإِلَهِيَّةِ

٣٢- ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ الْجَوَارِ^(١) فِي الْبَحْرِ كَالْأَعْلَامِ^(٢)﴾

ولمّا بيّن سبحانه أن الناس في حالتي حلول المصائب وكشفها عنهم، غير خارجين من قبضة القدرة الإلهية، ساق لعباده بعد ذلك مثالا لحلول المصائب، وتذكيرا لهم برفعها عنهم إن شاء الله تعالى، فذكّرهم بالسفن وهي تجري في البحر، وبيّن أن الله تعالى لو أراد أن يشلّ حركتها بإسكان الرياح، فتعطل السفينة بمن على ظهرها، في خضمّ المياه وأمواج البحر، لفعل.

المعنى: ومن آيات الله تعالى الدالة على قدرته الباهرة، وسلطانه القاهرة: السفن العظيمة كالجبال الشاهقة، وهي تجري في عرض البحر بما تحمل من أثقال.

والجوار: جمع جارية، وهي السفينة تجري في البحر، والمراكب النارية والشرعية، كما قال تعالى: ﴿إِنَّا لَمَّا طَغَا الْمَاءُ حَمَلْنَاكُمْ فِي الْجَارِيَةِ^(٣)﴾ [الحاقة].

والأعلام: جمع علم، وهو الجبل الكبير المرتفع، وسمي علما؛ لأن الناس تسترشد به في سيرهم.

وقد سخر الله السفن وحفظها من الأمواج وجعلها تحملكم وتحمل أمتعتكم إلى البلدان والأقطار البعيدة. قال تعالى:

٣٣- ﴿إِنْ يَشَأْ يُسْكِنِ الرِّيحَ^(٣) فَيَظْلَلْنَ رَوَاكِدَ عَلَى ظَهْرِهِ^(٤) إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ^(٥)﴾

أي: لو شاء الذي أجرى هذه السفن في البحر لأسكن الرياح وأوقفها، فتبقى السفن

(١) قرأ نافع وأبو عمرو وأبو جعفر بإثبات الياء وصلّا من (الجوار) وابن كثير ويعقوب بإثباتها وصلّا ووقفاً، والباقون بحذفها في الحالين.

(٢) عدّ الكوفي والحمصي (كالأعلام) آية، وأسقطها من العدد غيرهما.

(٣) قرأ نافع وأبو جعفر بجمع (الريح)، والباقون بإفرادها.

ساكنة ثابتة على ظهر البحر لا تتحرك ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ﴾ الذي ذكرناه لكم من جرّي السفن ووقوفها في البحر بقدرة الله تعالى ﴿لَا يَتَّخِذُ﴾ أي: لدلالات عظام، وحجج ظاهرة على قدرة الله تعالى ﴿لِكُلِّ صَبَّارٍ﴾ على طاعة الله تعالى ﴿شَكُورٍ﴾ لنعمه وأفضاله، فالخوف يدعو إلى الصبر، والنجاة تدعو إلى الشكر، والمؤمن يصبر على الضراء ويشكر على السراء.

ولا ينتفع بهذه العظات إلا المؤمن، فيعلم أن الله تعالى منفرد بالألوهية، فيفرده بالعبادة، أما غير المؤمن فإنه يمر على هذه الآيات فلا يعتبر.

قال أبو حيان: وإنما ذكر السفن الجارية في البحر؛ لما فيها من عظيم دلائل القدرة من جهة أن الماء جسم لطيف شفاف، يغوص فيه الثقيل، والسفن تحمل الأجسام الثقيلة الكثيفة، ومع ذلك جعل الله تعالى في الماء قوة يحملها بها، ويمنعها من الغوص، ثم جعل الرياح سبباً لسيورها، فإذا أراد أن ترسو أسكن الرياح، فلا تبرح عن مكانها^(١). قال تعالى:

٣٤، ٣٥- ﴿أَوْ يُوقِعَهُنَّ يَمًا كَسْبًا وَيَعْفُ عَنْ كَثِيرٍ ۖ وَيَعْلَمَ ۝ (٣٤) الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِيءِ إِنَّا مَا لَهُمْ مِنْ مَّحِصٍ﴾

أي: وإن يشأ سبحانه يجعل الرياح عواصف، فيغرق هذه السفن ومن فيها، ويهلكهم بسبب ذنوبهم ﴿أَوْ يُوقِعَهُنَّ﴾ أي: يهلكهن بالغرق والتلف ﴿يَمًا كَسْبًا﴾ أي: بسبب ذنوب وخطايا الراكبين في السفن.

وإن يشأ سبحانه أسكن الرياح فتظل السفينة مستقرة ثابتة على ظهر البحر.

فإن أراد سبحانه أهلك أناساً وأنجى أناساً، وهو جلّ شأنه يعفو عن كثير من الذنوب فلا يعاقب عليها، ولا يوبق أهلها مع استحقاقهم للعقاب.

ومع هذه الدلائل على وحدانية الله تعالى، فإن الملحدين ينصرفون عن الإيمان بها ويجادلون فيها، ويعرضون عن التأمل فيها، وقد أعلمهم الله تعالى أنه لا مهرب لهم ولا منجى من عذاب الله، فلا محيد لهم ولا محيص من عقاب الله لهم على ذنوبهم وكفرهم به؛ لأنهم يجادلون بالباطل في آيات الله الدالة على وحدانيته وكمال قدرته.

(١) «البحر المحيط»: (٧/ ٥٢٠).

(٢) قرأ نافع وابن عامر وأبو جعفر برفع (ويعلم) على الاستئناف، والباقون بالنصب وهو منصوب بأن مقدرة.

والمعنى: ويعلم الجاحدون أنهم إذا وقعوا في كرب فلا مُنْجِي لهم إلا الله، فإذا توسطوا البحر وغشيتهم الأمواج والرياح، فلا يدفع الهلاك عنهم بالغرق فيه إلا الله. ومن هنا وجب على العباد أن يفردوا الله تعالى بالعبادة، ويُخلصوا له الولاء والطاعة، ويفروا إليه بالتوبة والإنابة.

ثَلَاثَةُ عَشَرَ صِفَةً لِلْمُؤْمِنِينَ فِي هَذِهِ السُّورَةِ

٣٦- ﴿فَمَا أُوتِيتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَمِنَّعْ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَمَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ وَلَئِنْ عَمِلْتُمْ وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾

ولمَّا بَيَّنَّ سبحانه أنه لو بسط الرزق لعباده لبغوا في الأرض، وأن من الناس أثرياء منعماً عليهم، وفقراء محرومين، ذكّر - جل شأنه - أهل المال والمتاع، بأن متاع الدنيا زائل، وأن ما عند الله خير وأبقى، والموفق هو الذي يسعى للآخرة ولا يجعل الدنيا أكبر همه، فإنَّ ما أعطاكم الله -أيها الناس- من المال والمتاع والبنين والنساء والشهوات، هو متاع قليل لكم في الحياة الدنيا، سرعان ما يزول ﴿قُلْ مَتَّعُ الدُّنْيَا قَلِيلٌ وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ لِمَنِ اتَّقَى﴾ [النساء: ٧٧].

﴿مَا عِنْدَكُمْ يَنْفَدُ وَمَا عِنْدَ اللَّهِ بَاقٍ﴾ [النحل: ٩٦]. والآية تزهّد في الدنيا وترغب في الآخرة، وتذكر الأعمال الموصلة إلى رضوان الله جل وعلا. قال تعالى:

﴿وَمَا عِنْدَ اللَّهِ﴾ تعالى من النعيم المقيم، والثواب الجزيل ﴿خَيْرٌ وَأَبْقَى﴾ زماناً، لا يزول ولا يفنى، لأن نعيم الآخرة دائم مستمر، فلا تُقَدِّمُوا الفاني على الباقي، فهو خير وأبقى ﴿لِلَّذِينَ آمَنُوا﴾ بالله ورسله، وتزوّدوا بالأعمال الصالحة، واصبروا على ترك الملذات، وكونوا من المتوكلين على الله في جميع أحوالكم، والتوكل يجعل العبد يتوجّه بالعبادة إلى الله وحده، ويتوجه إليه أيضاً بقضاء حوائجه في كل ما تعجز عنه قدرة البشر.

والمؤمن والكافر يستويان في متاع الحياة الدنيا، فإذا صارا إلى الله تعالى كان ما عند الله من الثواب خير وأبقى للمؤمن.

الْوَصْفَانِ الْأَوَّلُ وَالثَّانِي: الْإِيمَانُ وَالتَّوَكُّلُ

وقد وصف الله تعالى المؤمنين في هذه الآية بصفتين هما: (الإيمان والتوكل) فالإيمان هو أساس قبول الأعمال، وهو جواز السفر للدار الآخرة، وهو إقرار بالقلب، ونطق

باللسان، وعمل بالجوارح، فهو يشمل العقيدة والشرعية، ولا بُدَّ فيه من الإيمان بالله ربًّا ومحمد نبيًّا، وبالقُرآن شريعة ومنهاجًا، وبالكعبة قبله، ولا بُدَّ فيه من الإيمان بالوحي، والكتب المنزلة من عند الله تعالى، والإيمان بالملائكة والرسل والجن واليوم الآخر وما فيه من خسر وحساب وجزاء والإيمان بالقضاء والقدر.

والتوكل على الله تعالى يعني الاعتماد عليه، والاستعانة به، وتفويض الأمر إليه، في جميع الأمور بعد الأخذ في الأسباب المشروعة، وهؤلاء قد جمعوا بين الإيمان المستلزم للأعمال الصالحة وبين التوكل وهو آليّة العمل، فكل عمل لا يصحبه الاعتماد على الله تعالى، فهو عمل غير تام.

ثم وصفهم الله تعالى بعد ذلك ببقية الأوصاف في الآيات السبع التالية. وهذه الأوصاف هي:

- ٣- اجتناب كبائر الإثم والفواحش. ٤- والمغفرة عند الغضب.
- ٥- والاستجابة لله تعالى. ٦- وإقام الصلاة. ٧- وتحقيق مبدأ الشورى.
- ٨- والإنفاق من رزق الله. ٩- والانتصار من الباغي. ١٠، ١١- العدل والفضل.
- ١٢- دفع الصائل. ١٣- الصبر والصفح.

فهذه أحد عشر صفة لمن ادّخر الله لهم الثواب الآجل على حُسن أعمالهم بالإضافة إلى صفتي الإيمان والتوكل، وتمضي الآيات في وصف أهل الإيمان والتوكل :

الْوَصْفُ الثَّالِثُ: اجْتِنَابُ الْكِبَائِرِ وَالْفَوَاحِشِ

٣٧- ﴿وَالَّذِينَ يَجْنِبُونَ كَبِيرَاتٍ^(١) الْإِثْمِ وَالْفَوَاحِشِ وَإِذَا مَا عَصَبُوا هُمْ يَغْفِرُونَ ﴿٣٧﴾

إن طهارة القلب، ونظافة السلوك، أثر من آثار الإيمان الصحيح، والفاحشة: هي الفعلة الموصوفة بالشناعة التي شدد الدين في النهي عنها، وتوعّد عليها بالعذاب، أو وضع لها عقوبات في الدنيا، وذلك مثل: قتل النفس، والزنى، والسرقه، والحرابة، وكل ما عظم قُبْحُه من الأقوال والأفعال.

(١) قرأ حمزة والكسائي وخلف (كبير الإثم) مفرد يراد به اسم الجنس، وقرأ الباقون (كبائر الإثم) جمع كبيرة.

وكبائر الإثم ليست محدودة في عدد معين، ويجمعها: كل ما توعده الله عليه بالنار أو الغضب أو العذاب، ومنها السبع الموبقات التي جاءت في حديث أبي هريرة رضي الله عنه أنها: الإشراف بالله، وقتل النفس التي حرم الله إلا بالحق، والسحر، وأكل الربا، وأكل مال اليتيم، والتولي يوم الزحف، وقذف المحصنات الغافلات المؤمنات.

وجاءت روايات في تعيين بعض الكبائر، كعقوق الوالدين، وشهادة الزور، وشرب الخمر، والسرقة، واليمين الغموس، ومنع فضل الماء، وفضل الكلاء، واستحلال حرمة بيت الله الحرام، وقتل الرجل ولده خشية أن يطعم معه، والزنى بزوجة الجار، وسب الرجل لوالديه، وسباب المسلم وقتاله، واليأس من روح الله، والأمن من مكر الله، وسوء الظن بالله، والغلول، والذين يشترون بعهد الله وأيمانهم ثمناً قليلاً، وكل ذنب استوجب فاعله حداً من حدود الله، أو جاء الوعيد عليه بنار أو لعنة أو غضب أو عذاب.

والمعنى: والذين يجتنبون كبائر ما نهى الله عنه، وما فحش وقبح من أنواع المعاصي، كالشرك، والقتل، وعقوق الوالدين، والربا، وأكل أموال الناس بالباطل.

وأطلقت الفاحشة في القرآن على خصوص الزنى، قال تعالى: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا الزِّنَىٰ إِنَّهُ كَانَ فَحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلًا﴾ [الإسراء].

كما أطلقت الفاحشة على نكاح زوجة الأب في الجاهلية في قوله تعالى: ﴿وَلَا تَنْكِحُوا مَا نَكَحَ آبَاؤُكُمْ مِنَ النِّسَاءِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ إِنَّهُ كَانَ فَحِشَةً وَمَقْتًا وَسَاءَ سَبِيلًا﴾ [النساء].

واجتناب كبائر الإثم والفواحش يُكفِّرُ صفائر الذنوب كما قال تعالى: ﴿إِنْ تَحْتَسِبُوا كِبَآئِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَنُدْخِلْكُمْ مُدْخَلًا كَرِيمًا﴾ [النساء].

والفاحشة هي الذنب الكبير الذي تدعو إليه النفس كالزنى، والكبيرة لا يكون فيها شهوة نفس، وهذا الفرق يكون عند اقترانهما، أما إذا انفردا فكل منهما يدخل في الآخر.

الْوَصْفُ الرَّابِعُ: ﴿وَإِذَا مَا عَصِيتُمْ هُمْ يَقُورُونَ﴾.

أي: ومن شيمة المؤمنين المغفرة عند الغضب، فيملكون أنفسهم عند اندفاع ثورة الغضب، فلا يغلب غضبهم حلمهم، وذلك في معاملة المسلمين بعضهم مع بعض، فلا يغضبون على من أساء إليهم، فيكظمون غيظهم، ويصفحون عن المسيء طلباً لثواب الله

تعالى وعفوه، وهذا من محاسن الأخلاق.

والمذموم هو الغضب في أمور الدنيا، وقد نصح النبي ﷺ من سأل الوصية فقال له: «لا تغضب»^(١) ثلاث مرات.

والغضب من الشيطان يعالج بالوضوء والاغتسال، والصلاة، وتغيير المكان، وتغيير الحالة التي عليها الإنسان، فيجلس إن كان قائماً، ويتكىء إن كان جالساً... وهكذا.

أما أمور الدين فإن المؤمن يغضب إذا انتهكت حرمة الله، أو اعتدي على بيوت الله، أو احتل جزء من بلاد المسلمين، أو وجهت إهانة إلى كلام الله تعالى أو إلى رسوله ﷺ أو سب أحد أصحاب رسول الله ﷺ... الخ

ففي حديث عائشة ؓ: ما انتقم رسول الله ﷺ لنفسه في شيء قط، إلا أن تنتهك حرمة الله، فينتقم بها لله^(٢).

قال الصاوي: من مكارم الأخلاق التجاوز والحلم عند حصول الغضب، ولكن يشترط أن يكون الحلم غير مُخلٍّ بالمروءة ولا بالواجب، كما إذا انتهكت حرمة الله فالواجب حيثئذ الغضب لا الحلم. ولهذا قال الشافعي: من استغضب فلم يغضب فهو حمار.

وقال الشاعر: وحلم الفتى في غير موضعه جهل^(٣).

فالغضب ليس شراً كله، وهو لله ولدينه وللحق والعدل غضب مطلوب.

والمؤمنون المتوكلون يتجملون بمكارم الأخلاق ومحاسن الشيم، فصار الحلم لهم سجية، وحسن الخلق لهم طبيعة، فهم يكظمون غيظهم ويعفون عمن أساء، ويقابلون السيئة بالإحسان، قال تعالى ﴿وَلَا تَسْتَوِ الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ﴾ (٢٤) [فصلت].

(١) من حديث أبي هريرة في صحيح البخاري برقم (٦١١٦).

(٢) البخاري برقم (٦١٢٦).

(٣) «حاشية الصاوي على الجلالين» (٤٠/٤).

الْوَصْفُ الْخَامِسُ: الْإِسْتِجَابَةُ لِلَّهِ وَالرَّسُولِ:

٣٨- ﴿وَالَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَمْرُهُمْ شُورَى بَيْنَهُمْ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ﴾

ومن صفات المؤمنين: الاستجابة إلى توحيد الله وطاعته، وإزالة العوائق الكامنة في نفوسهم فيما بينهم وبين ربهم من الشهوات والنزوات والأهواء ليكون الطريق إلى الله مفتوحاً وموصولاً، وممن استجابوا لله والرسول حين دُعا إلى الإسلام: (الأنصار) في بدء الدعوة وبعد الهجرة ﷺ. قيل: إن هذا ثناء من الله تعالى عليهم وأنها نزلت فيهم. والاستجابة لله والرسول ثابتة لجميع من آمن بالله وصدق برسول الله، فامثل أمر الله واجتنب نهيه.

وأول من بدأ هذه الاستجابة أبو بكر، وعلي، وخديجة، وعبد الله بن مسعود، وسعد بن أبي وقاص، ونقباء الأنصار أصحاب بيعة العقبة رضي الله عن الجميع.

الْوَصْفُ السَّادِسُ: ﴿وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ﴾

ومن الاستجابة لله تعالى: إقامة الصلاة المفروضة في أوقاتها بحدودها وشروطها وآدابها، والإكثار من النوافل، والصلاة أعظم أركان الإسلام بعد الشهادتين، وكان الأنصار الذين بايعوا النبي ﷺ ليلة العقبة قد سألوه أن يرسل إليهم من يُقرئهم القرآن ويؤمهم في الصلاة، فأرسل إليهم مصعب بن عمير، وكان ذلك قبل الهجرة.

والصلاة هي الصورة الأولى للاستجابة لله تعالى، وهي الصلة بين العبد وربّه، وفيها مظهر المساواة بين المسلمين الرُّكَّع السجود، فلا ترتفع رأس قبل رأس، ولا تتقدم رجل على رجل، ولا منكب على منكب، ويستوي في صفوفها الحاكم والمحكوم والغنى والفقر.

الْوَصْفُ السَّابِعُ: ﴿وَأَمْرُهُمْ شُورَى بَيْنَهُمْ﴾

ومن صفات المؤمنين أنهم يتشاورون فيما بينهم من أمور، ولا يتعجلون، ولا يُرْمون أمراً من أمور الدنيا إلا بعد مشورة أهل الحل والعقد.

وقد أمر الله رسوله بالشورى، فقال سبحانه: ﴿وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ﴾ [آل عمران: ١٥٩].

وكان النبي ﷺ يشاور أصحابه في الحروب وغيرها وهو الذي يوحى إليه، كما حدث في غزوات: بدر، وأحد، والأحزاب، تطبيقاً لخاطرهم، وأخذاً برأي صاحب الخبرة فيهم.

ولما حضرت الوفاة عمر بن الخطاب ؓ - حين طعن - جعل الأمر بعده شورى في ستة نفر، هم: عثمان، وعلي، وطلحة، والزبير، وسعد، وعبد الرحمن بن عوف ؓ أجمعين، فاجتمع رأيهم على عثمان ؓ.

قال الحسن: ما تشاور قوم إلا هُتدوا لأرشد أمورهم، ولا خاب من استخار ولا ندم من استشار.

وقال ابن العربي: الشورى ألفة للجماعة، ومسبار للعقول، وسبب إلى الصواب، وقال الشاعر:

إذا بلغ الرأي المشورة فاستعن برأي لبيب أو نصيحة حازم

وكان الصحابة يتشاورون في الأحكام التي لا نص فيها ويستنبطونها من الكتاب والسنة، كما تشاوروا في الخلافة بعد موت رسول الله ﷺ^(١)، وفي ميراث الجد، وحروب الردة^(٢).

وقد عُرف الأنصار بالتشاور في الأمور الهامة، ولما بلغتهم دعوة النبي ﷺ اجتمعوا في دار أبي أيوب الأنصاري، وأجمعوا أمرهم على الإيمان به ونصرتة، فاهتدوا بسبب الشورى إلى الإسلام.

والشورى تكون بين من يهمهم الأمر من أهل الرأي، وهي سر بين المتشاورين، ولا يُستشار في المسائل الشرعية قطعية الثبوت، فلا يُستشار نواب الشعب مثلاً في إباحة الخمر وتناوله، ولا بيعه وتداوله، ولا في تطبيق شرع الله من عدمه، ولا في إقامة الحدود، ونحو ذلك؛ إذ لا مجال للرأي فيها، وإنما تكون الشورى في المسائل التي لا حكم للشرع فيها، من الأمور الدينية والدنيوية بحيث لا يستبد أحد برأيه بل يجتمع أهل العقد والحل ويتشاورون فيما بينهم ويأخذون بما فيه مصلحة العباد والبلاد.

الْوَصْفُ الثَّامِنُ: ﴿وَمِمَّا رَزَقْنَهُمْ يُفْقُونَ﴾

ومن صفات المؤمنين أنهم ينفقون في سبيل الله ممّا أعطاهم الله من الأموال وغيرها، في النفقات الواجبة كالزكاة والنفقة على من تجب إعالتهم، وكذا النفقة المستحبة كالصدقات على المحتاجين وفي وجوه الخير والبر.

والإنفاق العام من رزق الله تعالى وَرَدَ الأمرُ به في مكة المكرمة، وهو نصٌّ مبكّر للزكاة

(١) كما في «تفسير البيضاوي» (٢/١٧٥). بتصرف.

(٢) «تفسير القرطبي» (٣٦/١٦).

المفروضة التي حُدِّثَتْ أَنْصَبَتْهَا وَمَقَادِيرُهَا فِي السَّنَةِ الثَّانِيَةِ مِنَ الْهَجْرَةِ .
والإنفاق على المحتاجين وفي وجوه البر والخير، سمة من سمات المؤمنين .

الْوَصْفُ الثَّاسِعُ: الْإِنْتِصَارُ مِنَ الْبَاغِي

٣٩- ﴿وَالَّذِينَ إِذَا أَصَابَهُمُ الْبَغْيُ هُمْ يَنْتَصِرُونَ﴾ (٣٩)

ومن صفات المؤمنين: الانتصار من البغي، ورد العدوان، وعدم الخضوع للظلم، فهم أعزة بالله تعالى ﴿وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [المناقون: ٨] . فالمؤمن ينتصر ممن بَغَى عليه، ولا يعتدي على غيره، وإن صَبَرَ على الأذى من أخيه المسلم، ففي عاقبة صبره خير كثير، ولكنه لا يقبل الظلم ولا الضيم ولا الاعتداء على دينه أو كرامته، وإنما ينتصر لله، وينتصر لنفسه وعرضه وماله، ويقابل العدوان بما يدفعه ويردعه .

والبغي: هو الاعتداء على الحق، والانتصار من الباغي أمر مطلوب، والانتصار للنفس رادع للباغي عن التوغل في بغيه، وفي هذا الردع عون على انتشار الإسلام .

قال إبراهيم النخعي: كان المؤمنون يكرهون أن يُسْتَدْلُوا، وكانوا إذا قَدَرُوا عَفْوَ، وقيل: إن العفو إغراء للسفيه .

وقال عطاء في الآية: هم المؤمنون الذين أخرجهم الكفار من مكة وبغوا عليهم، ثم مكَّنهم الله ﷻ في الأرض حتى انتصروا ممن ظلمهم .

وكان المؤمنون يكرهون أن يُذْلُوا أنفسهم فيجترئ عليهم الفُسَّاق .

والانتصار من البغي لا يكون مع العجز، بل مع القدرة على الانتقام ممن بغى عليهم .

كما قال يوسف لإخوته: ﴿لَا تَتْرِبْ عَلَيْكُمُ أَيُّومٌ يَغْفِرُ اللَّهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾ [يوسف: ٩٢] .

١- وكما عفا رسول الله ﷺ عن أولئك نفر الثمانين الذين قصدوه عام الحديبية،

ونزلوا من جبل التنعيم لاغتياله، فلمَّا تمكَّن منهم منَّ عليهم، مع قدرته على الانتقام .

٢- وعفا النبي ﷺ عن غَوْرَث بن الحارث الذي أراد أن يقتله وهو نائم، فتمكَّن

الرسول منه، ودعا أصحابه ثم عفا عنه .

٣- وعفا ﷺ عن لبيد بن الأعصم الذي سحره .

٤- وعفا ﷺ عن زينب أخت مرحب اليهودي الخيري الذي قتله محمود بن مسلمة، وكانت قد وضعت السُم في ذراع الشاة يوم خير للنبي ﷺ فأخبرته الذراع، فدعاها فاعترفت، فقال: ما حملك على ذلك؟ قالت: أردتُ أن أعرف إن لم تكن نبياً استرحنا منك، فأطلقها ﷺ، ولَمَّا مات من هذا السُم بِشْر بن البراء قتلها به.

الْوَصْفُ الْعَاشِرُ وَالْحَادِي عَشَرَ: الْعَدْلُ وَالْفَضْلُ

٤٠- ﴿وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ﴾

والانتصار من الباغي يكون بمثله دون زيادة ولا تجاوز لحد الظلم أو العدوان.
وقد ذكرت الآية أن مراتب العقوبات ثلاث: العدل والفضل والظلم، وفي سورة آل عمران: [آية ١٤٣] زيادة كظم الغيظ، الإحسان إلى من أساء، وعليه:
١- فإن كظم الغيظ هو المرتبة الأولى من مراتب العفو.

٢- والمرتبة الثانية: هي العدل: وهو جزاء السيئة بسيئة مثلها، دون زيادة ولا نقص، فالنفس تُقتل في النفس، والجوارح بمثلها، والمال يُضمن بمثله.
والمراد بالسيئة الأولى في الآية: الأذى الذي يُلحقه الباغي بالمعتدى عليه، وليس المراد بها: المعصية التي لا يرضاها الله تعالى.

والمراد بالسيئة الثانية: الجزاء الذي يلحق بالمعتدى، وإنما سُمِّي سيئة لتشابههما في الصورة.
والمقابلة بالمثل تكون بنحو ما إذا قال لك قائل: أخزأك الله، فقل له: أخزأك الله، ولا تزد على ذلك.

وإذا شتمك فاشتّمه بمثلها ولا تعتد، وكذلك الأمر في الجراحات والدماء والجنايات فإن الجزاء يكون بمثل ما جنى الفاعل.

والمعنى: وجزاء سيئة المسيء عقوبته بسيئة مثلها من غير زيادة.

وهذا كقوله تعالى: ﴿فَمَنْ آعَدَ عَلَىٰكُمْ فَآعِدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا آعَدَ عَلَىٰكُمْ﴾ [البقرة: ١٩٤].

وقوله سبحانه: ﴿وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُمْ بِهِ وَلَئِنْ صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِلصَّابِرِينَ

﴾ [النحل].

٣- أما المرتبة الثالثة فهي مرتبة الفضل، وهو العفو والصفح عن المسيء، فشرع الله تعالى العدل وندب إلى الفضل، وهو العفو، كقوله تعالى: ﴿وَالْجُرُوحَ قِصَاصٌ فَمَنْ تَصَدَّقَ بِهِ فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَّهُ﴾ [المائدة: ٤٥].

ولهذا قال تعالى: ﴿فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ﴾ أي: إن ذلك لا يضيع عند الله تعالى، كما صحَّ في الحديث عن أبي هريرة مرفوعاً: «وما زاد الله عبداً بعفو إلا عزاً»^(١).

أي: فمن عفا عن المسيء وترك عقابه، وأصلح الودَّ بينه وبين المعفو عنه ابتغاء وجه الله تعالى؛ فأجر عفوه على الله تعالى، يجزيه أجراً عظيماً وثواباً كبيراً، وقد أتبع الله العفو بالإصلاح فقال: ﴿فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ﴾ ليشير إلى أن الجاني إذا كان لا يليق بالعفو وكانت المصلحة الشرعية تقتضي عقوبته، فلا مانع من ذلك.

وقد جعل الله أجر العافي عليه ترغيباً في العفو وحملًا عليه، لأن الله تعالى يحب العفو، والجزاء من جنس العمل.

وقد وردت آثار تفيد أنه إذا كان يوم القيامة نادى منادٍ: أين الذين أجرهم على الله؟ فيقوم من عفا وأصلح عن أخيه في الدنيا فيؤمر بهم إلى الجنة^(٢).

وهكذا فإن العفو عمن أساء يأتي في المرتبة الثالثة بعد مقابلة السيئة بمثلها، وكظم الغيظ.

٤- ويلي مرتبة العفو: الإحسان إلى من أساء، جاء ذلك في قوله تعالى: ﴿وَالْكَظِيمِ الْغَيْظِ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾ [آل عمران: ١٣٤].

فهذه أربع مراتب: الكظم والعدل والعفو والإحسان، وكلها مراتب للعفو.

ومن أمثلة العفو ما جاء في صحيح مسلم عن عبادة بن الوليد بن عبادة بن الصامت أنه خرج هو وأبوه لطلب العلم، فلقي أبا اليُسْر صاحب رسول الله ﷺ، فقال له أبوه: أرى في وجهك سعة غضب، فقال: نعم، كان لي دَيْن على فلان، فأتيت بيته، فلما سمع صوتي اختبأ، فقلت: اخرج إليّ، فخرج، فقلت: ما حملك أن اختبأت مني؟ قال: خشيت والله أن أحدثك فأكذب عليك، وأنت صاحب رسول الله، وكنتُ والله معسراً،

(١) «صحيح مسلم» (٢٥٨٨).

(٢) يُنظر: البيهقي في «السنن» (٨٣١٣، ٨٣٢٧، ٨٣٣٠) مرسلًا ومسنَدًا.

قال: فأتى بصحيفة فمحاها بيده، وقال: إن وجدت قضاءً فاقض، وإلا فأنت في حل، هذا حال العافين عن الناس.

ومما ورد في العفو ما رواه أبو هريرة رضي الله عنه أن رجلاً شتم أبا بكر رضي الله عنه والنبي صلى الله عليه وسلم جالس، فجعل النبي صلى الله عليه وسلم يعجب ويتسم، فلما أكثر الرجل من السب والشتم، رد عليه أبو بكر بعض قوله، فغضب النبي صلى الله عليه وسلم وقام، فلحقه أبو بكر، فقال: يا رسول الله، إنه كان يشتمني وأنت جالس، فلما رددت عليه بعض قوله، غضبت وقمت! قال صلى الله عليه وسلم: «إنه كان معك ملك يردُّ عنك، فلما رددت عليه بعض قوله حضر الشيطان، فلم أكن لأقعد مع الشيطان»، ثم قال: «يا أبا بكر، ثلاث كلهن حق: ما من عبد ظلم بمظلومة، فيُغضي عنها لله، إلا أعز الله بها نصره، وما فتح رجل باب عطية يريد بها صلة، إلا زاده الله بها كثرة، وما فتح رجل باب مسألة يريد بها كثرة، إلا زاده الله بها قلة»^(١).

وقد مدح الله المغفرة عند الغضب، كما مدح الانتصار على الباغي؛ لأن التذلل لمن بغى ليس من صفات المؤمن، فالانتصار عند البغي فضيلة، والعفو عند الغضب فضيلة.

٥- وهناك مرتبة خامسة، هي مرتبة الظلم: وهم الذين يعتدون على غيرهم أو يزيدون في العقوبة. وعن حال الظالم الباغي فإن الله تعالى يقول فيه: ﴿إِنَّهُمْ لَا يُحِبُّونَ الظَّالِمِينَ﴾ الذين يبدؤون بالعدوان على الناس ويسئون إليهم.

واستشفَّ بعضهم من هذه الآية أقسام الناس الثلاثة:

(أ) المقتصد، وهو الذي يقتصُّ بقدر حقه بلا زيادة، وهذا هو المقابل للسيئة بمثلها.

(ب) السابق بالخيرات، وهو المعنيُّ بقوله تعالى: ﴿فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ﴾.

(ج) الظالم، وهو المعتدي، المشار إليه في قوله تعالى: ﴿إِنَّهُمْ لَا يُحِبُّونَ الظَّالِمِينَ﴾.

فأمر بالعدل، وندب إلى الفضل وهو العفو، ونهى عن الظلم.

(١) «المسند» (٤٣٦/٢) (٩٦٢٤) قال محققوه: حسن لغیره، وهذا هو شطر الحديث الأول، وأخرجه وأبو داود برقم (٤٨٩٦، ٤٨٩٧) و«صحيح سنن أبي داود» (٤٠٩٥) قال ابن كثير: وهذا الحديث في غاية الحسن في المعنى، والحديث في «السلسلة الصحيحة» (٢٣٧٦) مرسلاً، وقد روى موصولاً عن سعيد بن المسيب بإسناد حسن في الطبراني في الأوسط (٧٢٣٥).

الْوَصْفُ الثَّانِي عَشَرَ: دَفْعُ الصَّائِلِ

٤١- ﴿وَلَمَنِ أَنْصَرَ بَعْدَ ظُلْمِهِ فَأُولَئِكَ مَا عَلَيْهِمْ مِّن سَبِيلٍ﴾ (٤١)

أكد الله سبحانه في هذه الآية أن دفع الصائل أمر محمود، وليس على من فعله مؤاخذه ولا معاقبة، فقال سبحانه: ﴿وَلَمَنِ أَنْصَرَ بَعْدَ ظُلْمِهِ﴾ أي: من دافع عن نفسه، وانتصر ممن ظلمه فأخذ حقه دون عدوان ﴿فَأُولَئِكَ﴾ المنتصرون لأنفسهم ﴿مَا عَلَيْهِمْ مِّن سَبِيلٍ﴾ أي: ليس عليهم حرج ولا عقوبة ولا مؤاخذه، ولا لوم عليهم من غيرهم؛ لأنهم باشروا حقهم الذي شرعه الله لهم، فقابلوا السيئة بمثلها، وانتصروا لدينهم وعرضهم بعد ظلم الظالم لهم، وهذا كقوله تعالى ﴿وَالَّذِينَ إِذَا أَصَابَهُمُ الْبَغْيُ هُمْ يَنْتَصِرُونَ﴾ [الشورى] أما من أراد أن يوقع البغي أو الظلم بغيره من غير أن يقع منه شيء فإنه لا يجازى بالمثل، وإنما يؤدب تأديباً يردعه ويزجره عما صدر منه.

ثم بين سبحانه على من تقع المسؤولية، وعلى من تقع المؤاخذه والمعاقبة، فقال تعالى:

٤٢- ﴿إِنَّمَا السَّبِيلُ عَلَى الَّذِينَ يَظْلِمُونَ النَّاسَ وَيَبْغُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾

أي: إنما تقع المؤاخذه على الذين يعتدون على الناس ظلماً وعدواناً، ويتجاوزون الحد الذي أباحه لهم ربهم إلى ما لم يأذن لهم فيه، فيفسدون في الأرض بغير الحق، ويتكبرون على الناس ويتجبرون عليهم، ويعتدون على الأنفس والأموال والأعراض. والبغي لا يكون إلا في الأرض، ولا يكون إلا بغير حق، وهو يشمل ظلم الناس والبغي عليهم في أموالهم وأعراضهم وأنفسهم.

والبغي: هو الاعتداء على الحق الذي وضعه الله للناس في الأرض، أما الاعتداء على المبطل لأجل باطله فلا يسمى بغياً، وإنما هو انتصار.

والآية تشمل ظلم غير المسلمين للمسلمين، وتشمل ظلم المسلمين بعضهم بعضاً، ولا تستقيم أحوال الناس، ولا يسود العدل بينهم وفي الأرض ظالم لا يجد من يكفّه ويمنعه من ظلمه، أو باغ جائر لا يجد من يقاومه ويقتص منه.

ثم توعد الله هذا الصنف من الناس بالعذاب المؤلم لقلوبهم وأبدانهم يوم القيامة فقال سبحانه: ﴿أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ أي: بسبب ظلمهم وبغيهم.

الْوَصْفُ الثَّالِثُ عَشَرَ: الصَّبْرُ وَالصَّفْحُ

٤٣- ﴿وَلَمَن صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَلِكَ لَمِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ﴾

ختم الله صفات المؤمنين في هذه الآيات، بصفتي الصبر، والعفو والصفح، وقد مدح الله تعالى الصابر على ما يناله من الأذى، فهو يستر السيئة، ويعفو ويصفح عن أساء إليه، ولا ينتصر لنفسه، ويَعِدُّه بالثواب الجزيل وحسن الجزاء. ويَبَيِّنُ سبحانه أن هذا الخُلُق من عِزائم الأمور، وعلوُّ الهمة، وفي هذا بيان لمزية المؤمنين الذين يتحملون الأذى من غيرهم ويصبرون عليه، ولا ينتصفون ممن أذاهم.

وفي هذا ترغيب في العفو، والصبر على الأذى بين المسلمين، أما بين المسلمين والكافرين فإن الحكم في ذلك يرجع إلى المصلحة في العفو أو المؤاخذه.

ومجموع هذه الصفات يرسم طابعاً مميزاً للمؤمن المتوكل الذي يُؤثر الآخرة على الدنيا، ويقود البشرية إلى صلاح الدنيا والدين، بإجتناّب الفواحش والكبائر، والاستجابة لله والرسول، وإقام الصلاة، والإنفاق في وجوه الخير، والتشاور في الأمور، والانتصار من الباغي، والعدل والفضل، ودفع الصائل، والصبر والصفح.

وقد أكدت الجملة الأخيرة في هذه الآية بأربع مؤكدات، هي: اللام، وإن، ولام الابتداء، والوصف بالمصدر ﴿إِنَّ ذَلِكَ لَمِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ﴾ وذلك تنويهاً بفضل الصبر والعفو والتسامح، وأنه من الأمور التي حث الله عليها وأكدها، وأخبر أنه لا يُلقّاها إلا أهل الصبر، ولا يوفّق لها إلا أولوا العزائم والهمم العالية، فإن عدم الانتصار للنفس أمر شاق، والصبر على الأذى ومقابلته بالإحسان أشق، ولكنه يسير على من جاهد هواه واستعان بالله وهضم نفسه واستعلى بها إلى مصاف المحسنين.

أَهْلُ الضَّلَالِ تُسَدُّ عَلَيْهِمْ طُرُقُ النِّجَاةِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ

٤٤- ﴿وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ وَلِيٍّ مِنْ بَعْدِهِ وَتَرَى الظَّالِمِينَ لَمَّا رَأَوْا الْعَذَابَ يَقُولُونَ هَلْ إِلَىٰ مَرَدٍّ مِنْ سَبِيلٍ﴾ ﴿٤٤﴾

وبعد تقرير صفات المؤمنين، يعرض القرآن صورة الضالين الظالمين، وما ينتظرهم من ذل وخسران يوم لقاء رب العالمين.

فبعد ذكر هداية من أراد الله له أن يهتدي، يأتي ذكر من قدر الله عليه الضلال، فهو لا يجد غير الله تعالى ولياً ينصره وينقذه من العذاب.

وقد دعا الله تعالى الناس إلى الهداية بواسطة رسله فقال: ﴿وَاللَّهُ يَدْعُوا إِلَىٰ دَارِ السَّلَامِ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ ﴿٢٥﴾ [يونس: ٢٥] كما نهاهم عن الكفر والضلال.

وبين سبحانه أن الضال، والظالم لنفسه، الخارج عن طاعة الله تعالى، غير قابل للهدى، محروم من توفيق الله تعالى له، فهو سبحانه لا يهدي القوم الضالين، ولا الظالمين، ولا الكافرين، ولا الفاسقين.

ومن يَصْرِفُهُ الله عن طريق الرشاد والهدى، بسبب ظلمه وزيف قلبه، وعدم قابليته للهداية، فليس له ناصر يهديه إلى سبيل الرشاد ﴿وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ﴾ [غافر: ٣٣].

﴿وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ سَبِيلٍ﴾ الآية [٤٦].

فالذي يؤثر الغي على الرشد، يخذله الله، ويُبَعِّده عن طريق الهدى؛ لأنه ليس من أهلها، نظراً لفساد فطرته، وذلك لأن قضاء الله تعالى لا يُرَدُّ، ومشيئته لا معقب لها، فإذا عَلِمَ الله تعالى من العبد في الأزل، أنه من أهل الضلال، لم يكن له ولي غير الله تعالى ينصره ويُجِيرُهُ مِنْ جَزَاءِ هَذَا الضَّلَالِ، فهو لا يجدون لهم مُعِينًا ولا ولياً، ولا يجدون إلا الندامة على ما فات، عندما يَرَوْنَ الْعَذَابَ، فيقولون: هل من سبيل إلى العودة إلى الدنيا مرة أخرى لتدارك ما فاتنا فيها؟ ﴿وَتَرَى الظَّالِمِينَ لَمَّا رَأَوْا الْعَذَابَ﴾ بأعينهم يوم القيامة يرونه منظرًا شنيعًا فظيعًا، عندئذ يُظْهِرُونَ النَّدَمَ وَالْحُزْنَ عَلَىٰ مَا سَلَفَ مِنْهُمْ، ﴿يَقُولُونَ هَلْ إِلَىٰ مَرَدٍّ مِنْ سَبِيلٍ﴾ أي: يقولون لربهم أو لخزنة النار: هل لنا من سبيل إلى الرجوع

إلى الدنيا لنعمل بطاعتك؟ فلا يُجابون إلى ذلك، لأنهم يطلبون أمرًا محالًا.

قال تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ وَقَفُوا عَلَى النَّارِ فَقَالُوا يَلَيْتُنَا نُرَدُّ وَلَا نَكْذِبَ بِآيَاتِ رَبِّنَا وَنَكُونُ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٧٧﴾ بَلْ بَدَأَ لَهُمْ مَا كَانُوا يُخَفُّونَ مِنْ قَبْلُ وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴿٧٨﴾﴾ [الأنعام].

ثم بيّن سبحانه حال الظالمين لأنفسهم بالشرك والكفر يوم القيامة في الآية التالية

لقد كان الظالمون طغاة جبابرة في الدنيا، فناسب أن يكون الذل والانكسار هو السمة البارزة لهم يوم القيامة، فيتهاوى كبرياؤهم، ويتطلعون في يأس ولهفة إلى بارقة أمل للخلاص مما هم فيه دون جدوى. قال تعالى:

٤٥- ﴿وَنَرَنَاهُمْ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا خَشِيعِينَ مِنَ الدَّلِّ يَنْظُرُونَ مِنْ طَرْفٍ خَفِيٍّ وَقَالَ الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنَّ الْخَاسِرِينَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَأَهْلِيَهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ أَلَا إِنَّ الظَّالِمِينَ فِي عَذَابٍ مُقِيمٍ ﴿٤٥﴾﴾

إنهم يُعرضون على النار وهم خاشعون، ليس من التقوى، ولا من الحياء، ولكن من الذل والهوان، في خضوع واستكانة، صاغرين متضائلين، لقد حاولوا الخروج من النار والهرب منها، ولكن لم يجدوا طريقًا لذلك زاد انكسارهم، فهم يُعرضون على النار عرضًا مؤلماً من شدة ما أصابهم، فأبصارهم منكسة، لا يستطيعون رفع أعينهم، إنهم ﴿يَنْظُرُونَ مِنْ طَرْفٍ خَفِيٍّ﴾.

أي: ينظرون نظراً خفياً، كمسارقة النظر من شدة الخوف، ومن هول ما يرون من العذاب، كحال الخائف الهارب من ملاحقة النار له، فهو يجري ويلتفت وراءه بين الفينة والفينة لينظر هل اقتربت النار منه؟

وهو يشبه المحبوس للقتل أو القصاص، ينظر إلى السيف نظرة الكاره، وهو لا يقدر أن يفتح أجفانه ويملاً عينيه منه، قال سبحانه يصف الظالمين في آية أخرى: ﴿مُهْطِعِينَ مُقْنِبِي رُءُوسِهِمْ لَا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ وَأَفْئِدَتُهُمْ هَوَاءٌ﴾ [إبراهيم: ٤٣].

وقال جلّ شأنه: ﴿وَجُوهُهُمْ يَوْمَئِذٍ خَشِيعَةٌ ﴿١﴾ عَامِلَةٌ نَّاصِبَةٌ ﴿٢﴾﴾ [الغاشية].

ولما عاين أهل الجنة ما حلّ بالكفار من سوء العاقبة والانكسار والذلة، تحدثوا بنعمة الله عليهم ﴿وَقَالَ الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ بالله ورسوله، الفائزون برضى الله سبحانه: ﴿إِنَّ الْخَاسِرِينَ﴾

حَقًّا هُمْ ﴿الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَأَهْلِيَهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ﴾ بدخول النار، وخسران أهلهم حيث لم ينفعوهم بشيء، وكانوا معهم في النار، وإن كان أهلهم في الجنة، فإنهم لن يستطيعوا الوصول إليهم، فقد حيل بينهم وبين ما يشتهون، وفوتوا على أنفسهم جزيل الثواب، وحصل لهم العقاب الأليم، وحيل بينهم وبين أهلهم، فلم يجتمعوا بهم، إنها خسارة لا تعدلها خسارة!!

ويأتي التعليق على مشهد المعروضين على النار بقوله تعالى: ﴿أَلَا إِنَّ الظَّالِمِينَ فِي عَذَابٍ مُّقِيمٍ﴾ أي: في عذاب دائم يوم القيامة، لا ينقطع عنهم، ولا يزول ولا يحول، إنه خسران كامل تام، لا خسران أظف من، فالنار لهم دار إقامة لا يرحونها، ولا يحيون فيها ولا يموتون، ولا يفتر عنهم شيء من عذابها وهم فيها آيسون من رحمة الله. لقد كان المشركون وهم في الدنيا يزعمون أن لهم آلهة تنفعهم عند الله، فرد الله عليهم بقوله:

٤٦- ﴿وَمَا كَانَتْ لَهُمْ مِنْ أَوْلِيَاءَ يَنْصُرُونَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ سَبِيلٍ﴾ (٤٦)

أي: وما كان لهؤلاء الكافرين حين يعذبهم الله يوم القيامة، أعوان وأنصار ينصرونهم من عذاب الله، ولا يشفعون لهم عند الله، وقد كانوا في الدنيا يُمتنون أنفسهم بذلك فيخيب أملهم يوم لقاء الله، قال تعالى: ﴿وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ سَبِيلٍ﴾ عن طريق الهداية والرشاد بسبب ظلمه وكفره وفساد فطرته ﴿فَمَا لَهُ مِنْ سَبِيلٍ﴾ أي: ليس له طريق يوصله إلى الحق في الدنيا، ولا طريق يوصله إلى الجنة، لقد سُدت عليه طرق النجاة والخلاص، فالهداية والإضلال بيد الله تعالى دون سواه، وهؤلاء قد ضلوا عن سبيل الله حين زعموا أن لهم شركاء من دون الله يجلبون لهم النفع ويدفعون عنهم الضرر.

تَنْبِيْهُ وَإِنْدَارٌ

٤٧- ﴿أَسْتَجِيبُوا لِرَبِّكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لَا مَرَدَّ لَهُ مِنْ اللَّهِ مَا لَكُمْ مِنْ مَلَجٍ يَوْمَئِذٍ وَمَا لَكُمْ مِنْ نَكِيرٍ﴾ (٤٧)

بعد أن أثنى الله تعالى على المؤمنين وذكر أوصافهم، وسجّل على الكافرين الضلال والعذاب، وجّه سبحانه خطاباً جامعاً يأمر فيه الكفار بالاستجابة لله والرسول، قبل فوات الأوان بالخروج من الدنيا، فيطيعون ربهم ويمثلون أمره، قبل أن يأتي يوم العذاب، فهو يوم

لا رجعة فيه، ولا يجدون لأنفسهم مكاناً يتقون فيه عذاب النار، ولا يمكنهم التنصل من ذنوبهم، فلا يسعهم إلا الاعتراف، ولهذا وجه الله لهم هذا النداء:

﴿أَسْتَجِيبُوا لِرَبِّكُمْ﴾ أيها الكفار بالإيمان والطاعة لربكم خالقكم ورازقكم، ومحييكم ومميتكم، استجبوا لدعوة الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر، ولتكن استجابتكم لداعي الله تعالى عاجلة في الدنيا من قبل أن يأتي يوم القيامة، أو يأتيكم الموت، وهو يوم لا يستطيع أحد رده أو دفعه، إنه يوم يأتي في وقت محدد -في علم الله تعالى- لا يتخلف عنه أبداً، وهذا معنى ﴿مَنْ قَبْلَ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لَا مَرَدَّ لَهُ مِنْ اللَّهِ﴾ هو يوم القيامة، أو هو نهاية الأجل في الدنيا ﴿مَا لَكُمْ مِنْ مَلَجٍ يَوْمَئِذٍ﴾.

الملجأ: هو المكان الذي يأوي إليه الإنسان عند الشدائد ليتقي المكروه، فليس للكفار ملاذ يلودون به، أو يفرون إليه يوم القيامة، ينجيهم من عذاب الله ﴿يَقُولُ الْإِنْسَانُ يَوْمَئِذٍ أَئِنْ لَمْ نَكُنْ بِكُلِّ شَيْءٍ مُّقْتَدِرِينَ﴾ [القيامة].

وليس لكم من مكان يستركم، أو تتكبرون فيه، هذا معنى ﴿وَمَا لَكُمْ مِنْ نَكِيرٍ﴾ أي ليس لكم القدرة على إنكار شيء مما اكتسبتموه في الدنيا من الكفر والمعاصي؛ لأنه مسجل عليكم في صحف أعمالكم، وعندما يحدث إنكار من بعضهم، فإن الحجة تقوم عليهم بشهادة الجوارح.

وما ينزل بهم من عذاب الله تعالى إنما هو بسبب كفرهم وإعراضهم عن الحق.

وفي الآية دليل على ذم التسويف، والأمر بالمبادرة إلى العمل الصالح، فإن للتأخير آفات وموانع، وهكذا يأمر الله عباده بالاستجابة له بامثال أوامره واجتناب نواهيه، والمبادرة إلى ذلك وعدم التسويف، من قبل أن يأتي يوم القيامة، حيث لا يمكن استدراك ما فات، وليس هناك ملجأ ولا منجى من الله إلا إليه، وليس هناك من ينكر على العبد ما يقترفه من جرائم ومنكرات، وفي الآية ذم لطول الأمل ودعوة إلى اغتنام وقت المهلة.

وَضِيفَةُ الرَّسُولِ وَطَبِيعَةُ الْإِنْسَانِ

٤٨- ﴿فَإِنْ أَعْرَضُوا فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا إِلَّا أَلْبَلَعُ وَإِنَّا إِذَا أَذَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنَّا رَحْمَةً فَحَرَّ بِهَا وَإِنْ تَصَبَّهُمْ سَيِّئَةٌ يَمَّا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَإِنَّ الْإِنْسَانَ كَفُورٌ﴾ (٤٨)

ولمَّا أمر الله نبيه بدعوة الناس إلى الاستجابة لله والرسول، أعلم رسوله بعد ذلك بموقفه من المعرضين عن الدعوة، ليعذره فيما قام به، ويبيِّن له أنه غير مقصِّر في الدعوة والبلاغ والإنذار.

فإن أعرض المعاندون بعد هذا كله، فما على الرسول إلا البلاغ، وتوصيل الحجة، وهو ليس متكفلاً بهم، ولا حفيظاً عليهم ﴿فَإِنْ أَعْرَضُوا﴾ أي: إن أعرض المكذبون عن الإيمان بالله ورسوله وأعرضوا عن إجابة الداعي، ولم يقبلوا هداية الرحمن؛ فلا تحزن -أيها الرسول- فإننا لم نرسلك لتكون رقيباً عليهم، ضامناً لهدايتهم، أو مكرهاً لهم على الإيمان، وإنما أرسلناك لتبليغ الدعوة، فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر، وقد ثبت أجرك على الله، سواء أعرضوا أو آمنوا، وحسابهم على الذي يحفظ أعمالهم، وهذا معنى ﴿فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا﴾ أي: لست حافظاً لأعمالهم تحاسبهم عليها، ولا موكلاً بهم، ولا رقيباً عليهم ﴿إِنْ عَلَيْكَ إِلَّا أَلْبَلَعُ﴾.

قال تعالى: ﴿لَيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ﴾ [البقرة: ٢٧٢].

وقال جلَّ شأنه: ﴿فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ وَعَلَيْنَا الْحِسَابُ﴾ [الرعد: ٤٠]

وقد بلغت رسالة ربك، وفي هذا إيناس للرسول ﷺ وإزالة لهمة، وتسلية له.

ثم إن الله تعالى يقول لرسوله: لا تحزن من إعراضهم عن دعوتك، فقد أعرضوا عن نعمتي وعن إنذارِي، وإنَّ معاملتهم لربهم بالبطر بالنعمة، وبالكفر عند الشدة، يخفف عنك معاملتهم لك، ويبيِّن أن هذا خلقٌ مرتكزٌ فيهم، وفي هذا بيان لطبيعة الإنسان وكُفرانه بنعم الله تعالى قال سبحانه: ﴿وَإِنَّا إِذَا أَذَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنَّا رَحْمَةً فَحَرَّ بِهَا﴾ أي: إذا أعطينا الإنسان -وهو يشمل عموم الناس، والكافر بصفة خاصة- إذا أعطيناه منا رحمة، أي غنى وسعة من المال، أو نصراً وأمناً، أو صحة وولداً وجاهاً ﴿فَرَحَ بِهَا﴾ وسرَّ، وانشرح لها ﴿وَإِنْ تَصَبَّهُمْ سَيِّئَةٌ﴾ مصيبة من فقر ومرض، أو هزيمة وبلاء، أو شدة وخوف

﴿بِمَا قَدَّمْتَأَيْدِيهِمْ﴾ أي: بسبب ما قدمته أيديهم من معاصي الله ﴿فَإِنَّ الْإِنْسَانَ كَفُورٌ﴾ جحودٌ لنعمة ربه، شديد الكفر به، يعدد المصائب وينسى النعم، وهذا شأن الإنسان الكافر.

أما المؤمن فإنه يشكر عند النعم، ويصبر عند البلاء والنقم، قال تعالى: ﴿إِنَّ الْإِنْسَانَ خُلِقَ هَلُوعًا ۖ (١٩) إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعًا ۖ (٢٠) وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعًا ۖ (٢١) إِلَّا الْمُصَلِّينَ ۖ (٢٢)﴾ [المعارج].

قال الرازي: نِعَمُ الله تعالى في الدنيا وإن كانت عظيمة، إلا أنها بالنسبة إلى سعادة الآخرة كالقطر بالنسبة إلى البحر، فلذلك سماها ذوقًا، فبين تعالى أن الإنسان إذا فاز بهذا القدر القليل من النعيم في الدنيا، فإنه يفرح بها، ويعظم غروره بسببها، ويقع في العجب والكبر، ويظن أنه فاز بكل المنى، وذلك لجهله بحال الدنيا وبحال الآخرة^(١).

وقال الصاوي: الحكمة في تصدير النعمة بـ﴿إِذَا﴾ والبلاء بـ﴿أَن﴾ هو الإشارة إلى أن النعمة محققة الحصول، بخلاف البلاء؛ لأن رحمة الله تعالى تغلب غضبه^(٢).

وشأن المؤمن كما قال النبي ﷺ: «إن أصابته سراء شكر، فكان خيرًا له، وإن أصابته ضراء صبر، فكان خيرًا له، وليس ذلك لأحد إلا للمؤمن»^(٣).

أَخْوَالُ النَّاسِ فِي الْإِنْجَابِ وَعَدَمِهِ يَجْرِي وَفَقَ عِلْمُ اللَّهِ تَعَالَى وَحِكْمَتِهِ

٤٩، ٥٠ - ﴿لِلَّهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ يَهَبُ لِمَن يَشَاءُ^(٤) إِنْثًا وَيَهَبُ لِمَن يَشَاءُ الذُّكُورَ^(٥) أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَانًا وَإِنْثًا وَيَجْعَلُ مَن يَشَاءُ عَقِيمًا إِنَّهُ عَلِيمٌ قَدِيرٌ﴾ (٥٠)

لما ذكر الله سبحانه نتيجة إذاقة الإنسان للرحمة وإصابته بضدها، أتبع ذلك ببيان أن الله تعالى له الملك، يقسم النعمة والبلاء كيف أراد، فهو المتصرف في الكون كله، علويّه وسفليّه، وهو المتصرف بالخلق والإيجاد كيف يشاء، وله مطلق التصرف في أمور خلقه وفق حكمته، فيعطي ويمنع، وقدرته نافذة في الكائنات كيف يشاء، لا راد لقضائه

(١) «التفسير الكبير» (٢٧/١٨٤).

(٢) «حاشية الصاوي» (٤/٤١).

(٣) من حديث صهيب في «صحيح مسلم» برقم (٢٩٩).

(٤) قرأ نافع وابن كثير وأبو عمرو وأبو جعفر ورويس بتسهيل الهمزة الثانية وإبدالها واوًا من (يشاء إناثًا)، وحققها غيرهم.

ولا معقب لحكمه، له ملك ما في السموات والأرض، وليس لأحد معه شيء - اشتراكًا ولا استقلالًا - يخلق ما يشاء دون وصاية من أحد عليه، ولا اختيار لشيء معين ﴿لِلَّهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ وما فيهما وما بينهما، ما شاء كان وما لم يشأ لم يكن، لا مانع لما أعطى ولا معطي لما منع.

ثم فصل سبحانه بعض مظاهر قدرته وإرادته النافذة، فقال: ﴿يَهْبُ لِمَنْ يَشَاءُ إِنْشَاءً﴾ لا ذكور معهن ﴿وَيَهْبُ لِمَنْ يَشَاءُ الذُّكُورَ﴾ لا إناث معهم ﴿أَوْ يُرْجِعُهُمْ ذُكْرَانًا وَإِنْشَاءً﴾ أي: يجمع بينهما لبعض خلقه ﴿وَيَجْعَلُ مَنْ يَشَاءُ عَقِيمًا﴾ لا يولد له ذكر ولا أنثى.

وقد اشتمل هذا النصُّ على تقسيم الناس إلى أربعة أقسام:

- ١- منهم من يرزقه الله البنات فقط.
- ٢- ومنهم من يرزقه الله البنين فقط.
- ٣- ومنهم من يرزقه الذكور والإناث معًا.
- ٤- ومنهم من يكون عقيمًا لا نسل له ولا ولد. وهكذا خلق الله الخلق:
- أ- فآدمُ خلق من غير ذكر ولا أنثى.
- ب- وخلق حواء من ذكر دون أنثى.
- ج - وخلق عيسى من أنثى دون ذكر.
- د- وخلق بقية الخلق من ذكر وأنثى.

وقيل: نزلت هذه الآية في الأنبياء ﷺ، حيث وهب الله للوط وشعيب إناثًا فقط، ووهب لإبراهيم ذكورًا فقط، ووهب لمحمد ذكورًا وإناثًا، وجعل عيسى ويحيى عقيمين، والآية عامة في جميع الناس.

وقدّم الإناث في الذُّكر تشريفًا لهن، وتأنيسًا بهن، وإشارة إلى الاهتمام بهن وحسن تربيتهن، ففي الحديث عن عائشة مرفوعًا: «من ابتلي من هذه البنات بشيء فأحسن إليهن كُنَّ له سترًا من النار»^(١).

(١) من حديث عائشة في البخاري (١٤١٨، ٥٩٩٥) ومسلم (٢٦٢٩) والترمذي (١٩١٦).

ولأن سياق الكلام في الآية، للدلالة على أنه تعالى يفعل ما يشاء، وليس ما يشاء الناس، ولأن الذكور أحب إليهم من الإناث غالبًا، فأحوال العباد في حب الأولاد مختلفة، والإنجاب يكون وفق حكمته سبحانه ومشيئته، ولذا قال تعالى: ﴿إِنَّهُ عَلِيمٌ قَدِيرٌ﴾ ﴿٥١﴾ عليم بما يخلق وما يصلح أحوال عباده، قدير على خلق ما يشاء، لا يعجزه شيء أراد خلقه، فخلق الله تعالى ليس عارياً عن الحكمة، وإنما يجري وفق علمه تعالى وحكمته.

أنواع الوحي

٥١- ﴿وَمَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ وَرَآءِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ^(١) رَسُولًا فَيُوحِيَ^(٢) بِإِذْنِهِ مَا يَشَاءُ إِنَّهُ عَلَىٰ حَكِيمٍ^(٣) عَلِيمٌ

ولما كان موضوع السورة هو كون القرآن وحياً من عند الله سبحانه، فقد بُدئت بالحديث عن الوحي في قوله تعالى: ﴿كَذَلِكَ يُوحِي إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ اللَّهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ

وُخْتِمَتْ أَيْضًا بالحديث عن الوحي لرد شبهة المشركين في أن الرسول لا يكون بشراً، وقد شق عليهم دعوة الرسول إليهم، كما قال تعالى: ﴿كَبُرَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ مَا نَدْعُهُمْ إِلَيْهِ﴾ [١٣] فهذا من قبيل ردّ العجز على الصدر، لبيان أن شأن النبي ﷺ في ذلك شأن جميع الرسل في نزول الوحي عليه، حيث لم يخاطبهم الله تعالى إلا بأحد أوجه ثلاثة ذكرتها الآية، وقد سُمّي الوحي روحاً، لأن الجسد يحيا بالروح، والقلوب والأرواح تحيا بالقرآن وتحيا به أمور الدنيا والدين.

قيل في أسباب النزول: إن اليهود قالوا للنبي ﷺ: أَلَا تُكَلِّمُ اللَّهُ وتُنظر إليه إن كنت نبياً، كما كلمه موسى ونظر إليه؟ فقال: «لم ينظر موسى إلى الله تعالى»، فأنزل الله: ﴿وَمَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلَّا وَحْيًا

(١)، (٢) قرأ نافع وابن ذكوان بخلف عنه برفع اللام من (يرسل) وإسكان الياء بعد الحاء من (فيوحى) على أن (يرسل) جملة مستأنفة أو خبر لمبتدأ محذوف، أو هو يرسل، ف (يوحى) مرفوع بضممة مقدرة عطفاً على (يرسل)، وقرأ الباقر بنصب اللام والياء، وهما منصوبان بأن مضمرة، وأن وما دخلت عليه في تأويل مصدر معطوف على (وحياً).

(٣) «تفسير الخازن» (٤/١٠٠) والقرطبي (١٦/٥٣) والواحدي (٣١١).

وقد خاض اليهود وغيرهم في معنى تكليم الله لموسى، وقالوا بالتجسيم، فنزلت الآية لتبين صورة تكليم الله تعالى لعباده.

وكان المكذبون قد قالوا للنبي ﷺ ﴿لَوْلَا يُكَلِّمُنَا اللَّهُ أَوْ تَأْتِينَا آيَةٌ﴾ [البقرة: ١٢٨] فرد الله عليهم بهذه الآية، لبيان أن تكليم الله تعالى لا يكون إلا لخواص خلقه من الأنبياء والمرسلين.

أي: وما صح وما استقام لأحد من بني آدم أن يكلمه الله في حال من الأحوال إلا بطريق من طرق الوحي الثلاثة، ومنها الوحي في اليقظة أو المنام، بأن يُلقِيه الله في قلب الرسول، من غير إرسال ملك، ولا مخاطبة منه شفاهًا، أو عن طريق الإلهام بالنفث في الرُوح ﴿أَوْ﴾ يكلمه شفاهًا ﴿مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ﴾ فيسمع كلامه ولا يراه، كما حصل لموسى ﷺ وليس المراد بالحجاب الفاصل، أو الحاجز المادي، وإنما المعنى أنه محجوب عن رؤية الله تعالى في الدنيا ﴿أَوْ﴾ يكلمه بواسطة الرسول؛ بحيث ﴿يُرْسِلَ رَسُولًا﴾ أي: ملكًا من ملائكة الله ﴿فَيُوحِي بِإِذْنِهِ مَا يَشَاءُ﴾ كما كان ينزل جبريل إلى النبي المرسل إليه، فيوحي إليه بإذن ربه ما يشاء الله إحياءه.

يقول الشيخ محمد الغزالي - رحمه الله: وليس كل بشر يرشح للوحي، بل يصطفى الله له طبائع خاصة ومعادن قوية، والأنبياء ليسوا سواء في طاقاتهم واستعداداتهم، كما أن نجوم السماء ليست سواء في أحجامها وأشعتها، والذي يُكَلِّفُ بهداية مدينة غير الذي يُكَلِّفُ بهداية قُطر، غير الذي يُكَلِّفُ بهداية العالم على مرِّ العصور، وقد بعث الله محمدًا بكتاب فيه شفاء الإنسانية على اختلاف الزمان والمكان، وقد بلغ الكتاب علمًا، وأقامه دولة، وورثته حضارة، وتركه حصانة للعالم أجمع من الزين والردى^(١).

ثم ختم الله الآية بقوله: ﴿إِنَّهُ عَلَىٰ حَكِيمٍ﴾ عليّ بذاته وأسمائه وصفاته وأفعاله، قد قهر كل شيء، ودانت له جميع المخلوقات، وهو سبحانه حكيم في تدبير أمور خلقه، يضع الأمور في نصابها.

وفي الآية إثبات صفة الكلام لله تعالى على الوجه اللائق بجلاله وعظيم سلطانه من غير تشبيه ولا تعطيل.

(١) «نحو تفسير موضوعي لسور القرآن الكريم» ص ٣٧٨.

وقد بيّنت الآية أن وحي الله تعالى إلى رسله على ثلاثة أنواع:

الأول: عن طريق الإلقاء في القلب يقظةً أو منامًا، وهو معنى التكلم في الآية، بمعنى: بلوغ مراد الله تعالى إلى النبي -أي نبيّ- بعلم يُلقى في نفسه عن طريق المنام أو الإلهام، يكون حجة له؛ لأنه عِلْمٌ عِلْمًا ضروريًا من عند الله، ويكون حجة للأمة لعصمة الرسول من وسوسة الشيطان.

وأول ما بُدئ به الوحي على النبي محمد ﷺ هو الرؤيا المنامية، فكان لا يرى رؤيا إلا جاءت مثل فلق الصبح، واستمر هذا لمدة ستة أشهر، ثم نزل عليه جبريل في غار حراء.

ففي الحديث عن أبي موسى ؓ عن النبي ﷺ قال: «رأيت في المنام أني أهاجر من مكة إلى أرض بها نخل» وفي لفظ «إني رأيت دار هجرتكم وهي في حرّة ذات نخل، فوقع في وهلي أنها اليمامة، أو هجر، فإذا هي طابة»^(١).

ورؤيا الأنبياء حق كما حدث لخليل الرحمن حين أمر في المنام أن يذبح ولده إسماعيل.

أما وحي الإلهام، فإنه كما قال النبي ﷺ من حديث ابن عباس ؓ: «رأيت بقرًا تذبح فبقّرُ والله خير»^(٢) أي: رأيت هذه الكلمة، من جملة الرؤيا، والبقّر: شق البطن، وقد أوّل النبي رؤيا البقرة، بما أصاب المسلمين يوم أحد، وقوله ﷺ: «ورأيت والله خير» فهو ما أتى الله به بعد ذلك من النصر بعد الهزيمة.

وليست رؤيا المنام ولا الإلهام، حجة لغير الأنبياء، وبالنسبة للأنبياء فإنها جزء من ستة وأربعين جزءًا من النبوة، ومن هذا القبيل في أصح القولين ما جاء عن النبي ﷺ: «إن روح القدس نفث في روعي أن نفسًا لن تموت حتى تستوفي رزقها وأجلها، فاتقوا الله وأجملوا في الطلب»^(٣).

النوع الثاني: أن يكون الكلام من وراء حجاب، يسمعه سامعه، ولا يرى مصدره،

(١) ينظر: صحيح البخاري (٣٦٢٢) وصحيح مسلم (٢٢٧٢) بنحوه.

(٢) «المسند» (٢٤٤٥)، بإسناد حسن، وأخرجه الطبراني (١٠٧٣٣) والحاكم (٣٩/٣) وغيرهم.

(٣) «شرح السنّة» للبخاري (٣٠٤/١٤) عن ابن مسعود. وصححه الألباني عن أبي أمامة في صحيح الجامع (٢٠٨٥) وهو في التمهيد لابن عبد البر (٢٨٤/١).

وهذا النوع مختص بموسى ومحمد ﷺ، فقد كلم الله موسى في البقعة المباركة من الشجرة، ولموسى أنواع أخرى من الوحي كما لسائر الرسل.

وقد حصل هذا النوع من الوحي للنبي ﷺ ليلة المعراج في حديث فرضية الصلاة، وقد أشارت إليه سورة النجم في قوله تعالى: ﴿فَأَسْتَوَىٰ (٦) وَهُوَ بِالْأُفُقِ الْأَعْلَىٰ (٧) ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّىٰ (٨) فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ (٩) فَأَوْحَىٰ إِلَىٰ عَبْدِهِ مَا أَوْحَىٰ (١٠)﴾ [النجم].

قال ﷺ لجابر بن عبد الله ؓ: «ما كلم الله أحداً إلا من وراء حجاب، وإن الله كلم أباك كفاً»^(١) وكان أبوه قد قُتل يوم أحد، وتكليم الله له كان في البرزخ، والآية تتحدث عن الوحي في الدنيا.

النوع الثالث: أن يرسل الله الملك إلى النبي فيبلغ إليه كلاماً يسمعه ويعيه، وهو غالب ما يُوجّه إلى الأنبياء من كلام الله تعالى.

قال تعالى في شأن زكريا ؑ: ﴿فَنَادَتْهُ الْمَلَائِكَةُ وَهُوَ قَائِمٌ يُصَلِّي فِي الْمِحْرَابِ أَنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَىٰ﴾ [آل عمران: ٣٩].

وقال في إبراهيم ؑ: ﴿وَنَدَيْنَاهُ أَنْ يَتَّبِعْهُ ٱبْرَهِيمُ (١٢) قَدْ صَدَّقْتَ الرُّؤْيَىٰ﴾ [الصافات: ١٠٤، ١٠٥].

وقال في موسى ؑ: ﴿يَمُوسَىٰ ٱبْنِي ٱصْطَفَيْتُكَ عَلَى ٱلنَّاسِ بِرِسَالَتِي وَبِكَلِمَىٰ﴾ [الأعراف: ١٤٤].

أما الطرق التي أوحى الله بها إلى رسول الله ﷺ فهي أربعة أنواع:

الأول: ما كان يلقيه الملك في رُوعه وقلبه من غير أن يراه.

الثاني: أن يتمثل له الملك رجلاً فيخاطبه حتى يعي عنه ما يقول.

الثالث: أن الوحي كان يأتيه في مثل صلصلة الجرس، وكان أشده عليه، حتى إن جبينه ليتفصد عرقاً في اليوم الشديد البرد، وحتى إن راحلته لتبرك به إلى الأرض إن كان راكباً عليها.

ولقد جاءه الوحي مرة وفخذه على فخذ زيد بن ثابت فتقلت عليه حتى كادت ترضها.

الرابع: أنه يرى الملك في صورته التي خلقه الله عليها، فيوحي إليه ما يشاء، وقد

(١) الترمذي برقم (٣٠١٠) وقال: حسن غريب من هذا الوجه. وهو في المستدرک (٣/ ٢٢٤) برقم (٤٩١٤) وصححه الألباني في صحيح الجامع الصغير (٧٩٠٥).

حدث ذلك مرتين: مرة في غار حراء، أول ما نزل عليه الوحي، ومرة أخرى ليلة المعراج عند سدرة المنتهى^(١).

ثم أعقب الحديث عن الوحي ببيان أن القرآن نزل من عند الله تعالى.

هُدَايَةُ الْبَشَرِ عَلَى يَدِ أُمِّي الْعَرَبِ

٥٢- ﴿وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ وَلَٰكِن جَعَلْنَاهُ نُورًا نَّهْدِي بِهِ مَن نَّشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا وَإِنَّكَ لَتَهْدَىٰ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٥٢﴾﴾

أي: وكما أوحينا إلى الأنبياء قبلك -أيها الرسول- أوحينا إليك قرآنًا من عندنا، وقد سماه الله روحًا؛ لأن الأرواح تحيا به، كما تحيا الأبدان بالغذاء، وفيه حياة النفوس من الجهل، وفيه الحياة من موت الكفر، وهو ربيع القلوب، كما أن الغيث ربيع الأرض، قال تعالى: ﴿إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَىٰ نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِن بَعْدِهِ﴾ [النساء: ١٦٣].

وقبل نزول القرآن عليك لم تكن تعرف شيئًا عن الكتب الإلهية، ومنها القرآن، حتى عرفناك به ﴿مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ﴾ وما كنت تعرف شيئًا عن حقيقة الإيمان الشرعي من صفات الله تعالى وأصول الدين، ولم تكن تدرك شيئًا عن تفصيل شرائع الله وأحكام دينه ولا عن أخبار السابقين واللاحقين، بل كنت أُميا لا تخط ولا تقرأ.

قال تعالى: ﴿وَأَنزَلَ اللَّهُ عَلَيْكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ وَكَانَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا﴾ [النساء: ١١٣].

وقال سبحانه: ﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَٰذَا الْقُرْآنَ﴾ [يوسف: ٣].

وقد كان النبي ﷺ مؤمنًا بوجود الله تعالى ووحدانيته قبل نزول الوحي عليه؛ لأن الأنبياء معصومون من الشرك وعبادة الأوثان، قبل النبوة وبعدها.

وقد جعل الله هذا القرآن نورًا وضياء للناس وهدى ورحمة ﴿وَلَٰكِن جَعَلْنَاهُ نُورًا نَّهْدِي بِهِ مَن نَّشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا﴾ أي: جعلنا هذا القرآن ضياءً يَهْدِي به من وَفَّقَهُ الله للهداية، فيخرجه من الظلمات إلى النور، ومن الضلال إلى الهدى، ومن الكفر إلى الإيمان، ومن الابتداع

(١) يُنْظَرُ: «زاد المعاد» لابن القيم. في كلامه عن الوحي.

إلى الاتباع كما قال تعالى: ﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ أي: إن الله تعالى يهدي من يشاء بدعوة النبي ﷺ وواسطته، وفي هذا تعريض بالمشركين لعدم اهتدائهم.

وكان مالك بن دينار يقول: يا أهل القرآن، ماذا زرع القرآن في قلوبكم؟ فإن القرآن ربيع القلوب، كما أن الغيث ربيع الأرض^(١).

ثم إن هذا الطريق هو طريق الله الذي يملك هذا الكون وإليه المرجع والمصير:

٥٣- ﴿صِرَاطِ اللَّهِ الَّذِي لَمْ يَلَمَّْا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ إِلَّا إِلَى اللَّهِ تَصِيرُ الْأُمُورُ﴾

أي: إن هذا الصراط هو شرع الله ورحمته، أنزله من يملك هذا الكون، ولا يعزب عنه شيء فيه، فهو دين لا عوج فيه، يُصلح الله تعالى به العباد والبلاد، وإلى الله تصير الأمور من الخير والشر، فيجازي كلًّا بعمله، إن خيرًا فخير، وإن شرًّا فشر.

تم تفسير (سورة الشورى) والله الحمد والمنة

(١) «تفسير القرطبي» (١٦/٥٥).

تَفْسِيرُ سُورَةِ الزُّخْرُفِ (٤٣)

مُقَدِّمَةُ السُّورَةِ

سورة الزخرف هي السورة الثالثة والأربعون في ترتيب المصحف، والثانية والستون في ترتيب النزول، نزلت بعد سورة الشورى وقبل سورة الدخان.

وعدد آياتها تسع وثمانون آية في جميع المصاحف، إلا المصحف الشامي فهي فيه ثمان وثمانون آية.

وعدد كلماتها ثلاث وثلاثون وسبع مئة كلمة.

وعدد حروفها ثلاثة آلاف وأربع مئة حرف.

وسُمِّيت سورة (الزخرف) لقوله تعالى فيها: ﴿وَزُخْرُفًا﴾ الآية [٣٥] ولم ترد هذه الكلمة في غيرها من السور، وسَمَّاها البخاري: سورة حم الزخرف.

وهي سورة مكية، وقيل: إن آية ﴿وَسَلِّ مَنْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رُسُلِنَا﴾ الآية [٤٥] نزلت بالمسجد الأقصى.

وحادثة الإسراء والمعراج كانت قبل الهجرة، فهي آية مكية أيضًا.

وموضوع سورة الزخرف كالسور المكية تناولت:

(أ) جانب التوحيد: فذكرت تناقض المشركين في اعترافهم بأن الله تعالى هو الخالق الرازق، مدبر شؤون الخلق، يحيي ويميت ﴿وَلَيْن سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ﴾.

ومع ذلك فقد عبدوا غيره، وزعموا أن الملائكة بنات الله، مع اعتقادهم بأن البنات أقل شأنًا من الأولاد! وجمعوا بين الإقرار بوجود الله تعالى واتخاذهم آلهة يعبدونها شركاء لله تعالى.

وقد أبطلت السورة حججهم ومعاذيرهم، وصححت انحراف العقيدة لديهم، وردَّتْهم إلى الفطرة السليمة، وبرأت عيسى عليه السلام من قولهم، كما برأت الملائكة من افتراءاتهم ﴿قُلْ

إِنْ كَانَ لِلرَّحْمَنِ وَلَدٌ فَأَنَا أَوَّلُ الْعَبِيدِينَ ﴿٨١﴾ .

وأقامت السورة عدداً من دلائل القدرة والوحدانية مُنبِئَةً في هذا الكون الفسيح: في السماء والأرض، والجبال والوهاد، والبحار والأنهار، والماء الهاطل من السماء، والسفن التي تسير فوق سطح الماء، والأنعام التي سخرها الله تعالى للبشر ليأكلوا لحومها، ويركبوا ظهورها.

(ب) وتناولت السورة مصدر الوحي، وصدق القرآن، وفنّدت الشبه التي أثارها المشركون حول رسالة محمد ﷺ، فقد اقترحوا أن ينزل القرآن على زعيم مكة أو زعيم الطائف، لا على يقيم قريش، فبيّن سبحانه أن الجاه والثراء ليسا ميزاناً لاصطفاء العبد واختياره، فلو شاء الله لجعل ﴿لَمَنْ يَكْفُرْ بِالرَّحْمَنِ لِبُيُوتِهِمْ سُقْفًا مِّنْ فِضَّةٍ وَمَعَارِجَ عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ﴾ (٢٣) وَلِبُيُوتِهِمْ أَبْوَابًا وَسُرَرًا عَلَيْهَا يَتَكُونَ ﴿٢٤﴾ وَزُخْرَفًا وَإِنْ كُلُّ ذَلِكَ لَمَّا مَتَّعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةُ عِنْدَ رَبِّكَ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٢٥﴾ .

وأمر الله تعالى رسوله ﷺ أن يستمسك بما أوحى إليه به، فهو على صراط مستقيم، وبيّن له أن هذا القرآن شرف رفيع له ولقومه، والرسالة فضل الله يؤتيه من يشاء.

﴿أَهْمُ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ﴾ الآية [٣٢].

(ج) وفي الحديث عن البعث والجزاء بيّنت السورة مصير المؤمنين، حيث يقال لهم عند قيام الساعة: ﴿أَدْخُلُوا الْجَنَّةَ أَنْتُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ تُحْبَرُونَ﴾ (٧٠).

كما بيّنت مصير المجرمين الأسود ﴿إِنَّ الْمُجْرِمِينَ فِي عَذَابٍ جَهَنَّمَ خَالِدُونَ﴾ (٧٤) لَا يُفَرِّجُ عَنْهُمْ وَهُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ ﴿٧٥﴾ وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا هُمْ الظَّالِمِينَ ﴿٧٦﴾ .

وأهل الجنة يطاف عليهم بصحاف من ذهب وأكواب، ولهم فيها ما تشتهي الأنفس، وتلذ الأعين، وهم فيها خالدون.

أما أهل النار فإنهم يحاولون الخروج من النار فلا يستطيعون ﴿كُلَّمَا أَرَادُوا أَنْ يَخْرُجُوا مِنْهَا أُعِيدُوا فِيهَا﴾ [السجدة: ٢٠].

ثم يستغيثون بخزنة النار فلا يغثونهم ﴿وَقَالَ الَّذِينَ فِي النَّارِ لِخَزَنَةِ جَهَنَّمَ ادْعُوا رَبَّكُمْ يُحَقِّقْ عَنَّا يَوْمًا مِّنَ الْعَذَابِ﴾ (٤٩) [غافر]

فيلجئون في النهاية إلى الخازن الأكبر ﴿وَنَادُوا بِمَلِكِكُمْ لِيَقْضِيَ عَلَيْنَا رَبُّكُمْ﴾ فيجيبهم بعد وقت طويل: ﴿إِنَّكُمْ مَكِيدُونَ﴾ ﴿٧٧﴾ لَقَدْ جِئْتَكُمْ بِالْحَقِّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَكُمْ لِلْحَقِّ كَارِهُونَ ﴿٧٨﴾ .

(د) وتذكر السورة جانباً من أحوال الأمم السابقة مع رسلهم لِيُذَكِّرَ كل رسول أمته بما حدث لهم من عواقب؛ حتى لا يغترُّوا بإمهال الله تعالى لهم، ويخص بالذكر طرفاً من رسالة إبراهيم عليه السلام، وكيف أنه جعل كلمة التوحيد أثراً باقياً في عقبه، والمشركون يقولون إنهم على ملته، وهم يخالفونها، فيشركون مع الله غيره.

(هـ) كما تناولت السورة طرفاً من قصة موسى مع فرعون، وكيف أن فرعون كذب موسى وطارده هو وقومه حتى بلغوا البحر الأحمر، وعبر بنو إسرائيل البحر يقودهم موسى عليه السلام، وأراد فرعون اللحاق بهم، فغرق في اليم، هو ومن معه جميعاً، ولما أحس فرعون الغرق ﴿قَالَ آمَنْتُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا الَّذِي آمَنْتُ بِهِ بَنُو إِسْرَءِيلَ وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ [يونس: ٩٠].

وعن ابن عباس عليه السلام: أنه لما أغرق الله فرعون، ونطق بكلمة التوحيد، جعل جبريل يأخذ من طين البحر المستقر في قعره ويدشه في فمه، ثم لفظت الأمواج جُثَّةَ الملك السابق، ورأى الناس على شاطئ البحر زُفَاتًا مَكْسُوءًا بالوَحْل، وفماً مليئاً بالطين!

أين أساور الذهب التي كانت في معصميه؟ لقد اختفت مع الألوهية المزورة! لقد كان الرجل المغرور مثلاً للتكبر والجبروت ﴿وَنَادَىٰ فِرْعَوْنُ فِي قَوْمِهِ قَالَ يَبْقَوُا آلِيَّ مَلِكُ مِصْرَ وَهَٰذِهِ الْأَنْهَارُ تَجْرِي مِن تَحْتِي أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾ ﴿٥١﴾ .

وهكذا يختفي المبتلون عن دنيا الناس لتستقبلهم عرصات القيامة بنارها المؤججة.

(و) وتذكر السورة طرفاً من سيرة عيسى عليه السلام، يدور حول الجدل في شأنه، حيث يقول بعضهم: إنه إله ثانٍ، فهو الإله الابن، وإن جبريل -روح القدس- إله ثالث، والإله الأول هو الأب.

وفتنة ولادة عيسى من غير أب، رشحت عيسى عليه السلام ليكون ابناً لله كما يزعمون، ويشاء الله سبحانه أن يعيده إلى الأرض مرة أخرى ليُكْذَّبَ بنفسه أنه إله أو ابن للإله، ويؤكد أنه عبد مرسل من عند الله تعالى: ﴿وَإِنَّكُمْ لَعَلَّمٌ لِّسَاعَةِ فَلَا تَمُوتُ بِهَا وَاتَّبِعُونِ هَٰذَا صِرَاطٌ مُّسْتَقِيمٌ﴾ ﴿٦١﴾ .

وعلى الدعاة إلى الله تعالى أن يثابروا في إرشادهم دون يأس ولا ملل.

وقد خُتِمت السورة بهذا المعنى بعد بيان حال السعداء وحال الأشقياء .

هذا : ويمكن تقسيم السورة إلى خمسة مقاطع :

المقطع الأول: الآيات السبع الأول من السورة، بالإضافة إلى الآيات من ٢٣-٤٥ وهذه الآيات تتحدث عن الوحي والرسالة، ويبدأ ذلك بالحديث عن القرآن، ويُنتهى بالحديث عن خاتم النبيين، وفي ثانياً ذلك يأتي ذكر خليل الرحمن أبي الأنبياء، ليقرر عقيدة التوحيد ونفي الشرك وأهله .

المقطع الثاني: من الآية ٨- ٢٢ وفيه براهين التوحيد والرد على من أشرك مع الله غيره .

المقطع الثالث: يتناول طرفاً من رسالة موسى ﷺ إلى فرعون وقومه، وكيف أن الله تعالى أيدته بالمعجزات الدالة على صدقه في دعواه، ولكن فرعون وَصَفَهُ بالساحر، وادّعى أن له مُلك مصر، وطلبَ معجزات أخرى، كنزول الملائكة عليه، أو يُلقى عليه أسورة من ذهب، وقد استغرق هذا من الآية ٤٦- ٥٦ في السورة .

المقطع الرابع: من الآية ٥٧- ٦٥ وفيه تقرير أن عيسى ﷺ عبد ورسول، وأنه سينزل قرب قيام الساعة، وأن الله تعالى سيحكم بين عباده فيما اختلفوا فيه من شأن عيسى وغيره .

أما المقطع الخامس: فهو من الآية ٦٦ إلى نهاية السورة، وفيه حديث عن مصير المتقين والمجرمين، وما يوعدون به من الجنة والنار، وهو مقطع فيه ترغيب وترهيب، ووعد ووعيد، وتنديد بالمشركين والمكذبين في كل زمان ومكان، وَلَفَّتْ أنظارهم إلى صفحة الكون المرئية، والمقروءة، فإن هذا من شأنه أن يأخذ بأيديهم إلى طريق النجاة .



تَفْسِيرُ السُّورَةِ

فَاتِحَةُ السُّورَةِ

١، ٢- ﴿حَمْدٌ^(١)﴾ وَالْكِتَابِ الْمُبِينِ ﴿٢﴾

ابتدأت سورة الزخرف بحرفي الحاء والميم تنبيهاً على إعجاز القرآن، وأنه مكوّن من حروف الهجاء التي يتألّف منها كلام العرب، مع عجزهم عن معارضته، وهم أرباب الفصاحة والبلاغة، وإيقاظاً لعقولهم؛ حتى يتأملوا في هذا النسيج العجيب من الكلام لعلّهم يهتدون إلى ما فيه.

ثم أقسم سبحانه بالقرآن البين الواضح في ألفاظه ومعانيه، المُظهر لطريق الحق من طريق الضلال، المشرّع للبشرية ما تحتاج إليه من الأحكام الشرعية، المبين لكل ما يحتاج إليه العباد من أمور الدنيا والآخرة.

على أن هذا القرآن جعله الله عربياً واضح الدلالة؛ كي يصدّقوا به ولا يكذبوه، ولكن الكافرين لمكابرتهم لم يؤمنوا، كأنهم بلا عقول.

والقسم بالقرآن تنويهً بشأنه، والمخاطب بالقسم هم المنكرون للقرآن، والمقسم به هو نفسه المقسم عليه، إشارة إلى أن القرآن بلغ الغاية في الشرف؛ إذ لا يوجد ما هو أولى بجواب القسم منه^(٢). أو أن المقسم عليه هو قوله تعالى: ﴿إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا﴾ والمعنى واحد، إذ أن القرآن هو المذكور في الآيتين.

وقد نزل القرآن على الرسول ﷺ كلاماً ملفوظاً غير مكتوب، وسماه الله كتاباً باعتبار أن الله تعالى أنزله ليُكتب، وأن الأمة مأمورة بكتابته.

(١) سكت أبو جعفر على: حا، وميم سكتة لطيفة بدون تنفس، وفي الحاء فتح وإمالة وتقليل كما في السورة السابقة. هذا: وقد عدّ (حم) آية الكوفي وحده وتركها غيره.

(٢) يُنظر: «تفسير الشيخ الطاهر بن عاشور» (٢٤/١٥٩).

عُرُوبَةُ الْقُرْآنِ وَعُلُوُّ مَكَانَتِهِ

٣، ٤- ﴿إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٢﴾ وَإِنَّهُ فِي أُولَى الْأَكْتَابِ لَذِينَ عَلَّمُوا حَكِيمٌ﴾

أنزل الله تعالى هذا القرآن على رسوله محمد ﷺ بلسان العرب لعلهم يفهمونه، ويتدبرون معانيه وحججه ﴿إِنَّا جَعَلْنَاهُ﴾ أي: صيّرنا هذا القرآن بقدرتنا وحكمتنا ﴿قُرْءَانًا عَرَبِيًّا﴾ أي: إن أسلوبه الحكيم غير خارج عن طوق البشر، فقد نزل بلسان العرب؛ كي يفهموه ويعملوا بأوامره ونواهيه وتوجيهاته وإرشاداته. ﴿لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ ألفاظه ومعانيه، فتدبروه وتعملوا بما فيه، وهذا بمثابة الحكمة من نزوله قرآنًا عربيًّا.

وفي الآيتين وصف للوحي المنزل على محمد ﷺ بأنه: ﴿كِتَابٌ﴾ محفوظ في الصدور، وأنه ﴿قُرْءَانًا عَرَبِيًّا﴾ مقروءا على ألسنة الأمة، وأنه نزل بأشرف اللغات، وأوسعها دلالة على المعاني العديدة، وهي اللغة العربية، وقد أنزله الله على أهل هذه اللغة؛ لأنهم أفهم لدقائقها، واصطفى خاتم الرسل منهم، ليكون عن طريقهم مبلغًا مراد الله تعالى إلى جميع الأمم؛ كي ينتشر هذا الدين في العالم، فعليهم أن يعملوا عقولهم، ويثوبوا إلى رشدهم فيؤمنوا به ويعملوا بما فيه.

وقد يَسِّر الله تعالى فهمه لكل من تعقّل معانيه وتدبره بإخلاص.

وتكرار ذِكْرِ عُرُوبَةِ الْقُرْآنِ، تأكيد للرسالة التي حملها العرب للعالم، ويوم يستغني العرب عن القرآن ويتركونه وراء ظهورهم، فسيكونون أذلّ شعوب الأرض! فإن الأمم التي كفرت بوحي الله، خسرت دينها ودنياها، ولن يكون العرب خيرًا منها!

وهذا القرآن كائن وثابت في أصل الكتب السماوية ﴿وَإِنَّهُ فِي أُولَى الْأَكْتَابِ﴾ أي: اللوح المحفوظ ﴿لَذِينَ﴾ أي: عندنا، في الملأ الأعلى في أعلى الرتب وأفضلها، فهو عِلْمُ الله تعالى المحقق الموثّق، وهو كتاب موصوف بالعلو والحكمة، وهذا معنى ﴿لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ عليّ في قدره وشرفه، محكم النظم والمعاني، حكيم فيما اشتمل عليه من الأوامر والنواهي والأخبار، فليس فيه حكم مخالف للعدل والحكمة، لا اختلاف فيه ولا تناقض.

(١) قرأ حمزة والكسائي بكسر همزة (أم) وصلًا، لمناسبة الياء قبلها، والبدء يكون بالضم، وقرأ الباقون بضم الهمزة وصلًا وبدءًا، والكسر والضم فيها لغتان.

وما اشتمل عليه القرآن من معاني، صدر عن علم الله تعالى، وهو كتاب لا يقبل الشك، ولا يمسه إلا طاهر كما قال تعالى: ﴿إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ ﴿٧٧﴾ فِي كِتَابٍ مَّكْنُونٍ ﴿٧٨﴾ لَا يَمَسُّهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ ﴿٧٩﴾ تَنْزِيلٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٨٠﴾﴾ [الواقعة].

وقال سبحانه: ﴿فِي صُحُفٍ مُّكْرَمَةٍ ﴿١٣﴾ مَرْفُوعَةٍ مُّطَهَّرَةٍ ﴿١٤﴾ بَأَيْدِي سَفَرَةٍ ﴿١٥﴾ كِرَامٍ بَرَرَةٍ ﴿١٦﴾﴾ [عبس].

أخرج الإمام أحمد وغيره عن عبد الله بن عباس ؓ قال: إن أول ما خلق الله القلم، فأمره أن يكتب ما يريد أن يخلق، فالكتاب عنده، ثم قرأ ﴿وَأَنزَلْنَا فِي أُمِّ الْكِتَابِ لَدَيْنَا لَعَلِّي حَكِيمٌ ﴿١﴾﴾.

الدَّاعِيَةُ إِلَى اللَّهِ يَمْضِي فِي دَعْوَتِهِ وَإِنْ أَعْرَضَ عَنْهُ النَّاسُ وَأَذُوهُ

٥- ﴿أَفَنَضْرِبُ عَنْكُمُ الذِّكْرَ صَفْحًا أَنْ ^(٢) كُنْتُمْ قَوْمًا مُّسْرِفِينَ ﴿٥﴾﴾

أي: ومع هذه المكانة العالية للقرآن الكريم فإن المكذبين أعرضوا عنه، وظنوا أنهم بإعراضهم عنه سيترك الله تذكيرهم به، ويترك تجديد دعوتهم للهداية.

وهذه الآية تخبر أن من حكمة الله تعالى ألا يترك عباده هملاً، دون أن يرسل إليهم رسولاً، وينزل عليهم كتاباً ولو كانوا مسرفين ظالمين لأنفسهم.

قال قتادة: لو أن هذا القرآن رُفِعَ حين رُدِّهِ الأوائِلَ لهلكوا، ولكن الله برحمته كرره عليهم ودعاهم إليه عشرين سنة ^(٣).

والمعنى: أفنُعرض عنكم، ونترك إنزال القرآن إليكم، لأجل إصراركم وإعراضكم عنه، وعدم انقيادكم له، وإسرافكم في عدم الإيمان به، وهذا من لطف الله تعالى ورحمته بالأمّة، حيث لم يترك دعوتها إلى الخير مع إسرافها وإعراضها، بل إنَّ إعراضكم -أيها المكذوبون- عما نزل من القرآن يبعثنا على تجديد التذكير به، بإنزال شيء آخر منه إلى أن

(١) كتاب «السُّنَّة» برقم (٨٩٨) والطبري (٤٨/٢٥) وإسناده صحيح كما في مرويات أحمد في التفسير برقم (١٤٩) وهو في «المسند» مطوّلاً عن عبادة بن الصامت (٢٢٧٠٥، ٢٢٧٠٧) وهو حديث صحيح بنحوه بدون ذكر الآية وأخرجه مطوّلاً ومختصراً الطيالسي (٥٧٧) والترمذي (٢١٥٥) وأبو داود (٤٧٠٠) وغيرهم.

(٢) قرأ نافع وحزمة والكسائي وأبو جعفر وخلف بكسر همزة (أن) على أنها شرطية، وجواب الشرط مقدر يفسره (أفنضرب) والمعنى: إن أسرفتم نترككم، والباقون بفتح الهمزة على تقدير حرف العلة، أي: لأن كنتم.

(٣) «التفسير الكبير» للفخر الرازي (٢٧/١٩٥) و«تفسير الطبري» (٢٠/٥٤٩).

يكتمل نزوله، ثم يبقى بين يدي البشر يعاودون تكراره رجاء أن ينتفع به من ينتفع، ويهتدي به من يهتدي، فإن آمتم واهتديتم فهو من توفيق الله لكم، وإن لم تؤمنوا فقد قامت عليكم الحجة، وكنتم على بينة من أمركم.

فإعادة التذكير بالقرآن ليست قليلة الجدوى، ورحمة الله بعباده لا تقتضي قطع الإرشاد عنهم، وإسرافهم في الإعراض عنه لا تقتضي ترك مصلحتهم وترك مداومة وغطهم وتذكيرهم حتى يرجعوا إلى الحق، فيهتدي به مَنْ عنده استعداد للهداية، وتقوم الحجة على أهل الشقاوة.

ثم بيّن سبحانه أن عدم الإصغاء للدعوة، هو شأن الأمم السابقة مع رسل الله تعالى، فلا تأس -أيها الرسول- ولا تحزن على إعراض قومك. قال تعالى:

٦، ٧ - ﴿وَكَمْ أَرْسَلْنَا مِنْ نَبِيِّ فِي الْأَوَّلِينَ ﴿٦﴾ وَمَا يَأْتِيهِمْ مِنْ نَبِيٍّ إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ﴿٧﴾﴾

أي: كثيراً من الأنبياء أرسلناهم في القرون التي مضت قبل قومك يا محمد، فما أكثر الرسل الذين أرسلناهم لهداية أقوامهم، فأعرضوا عنهم وكذبوهم، فاصبر على أذى قومك كما صبروا، فإن هذا من سنة الله في خلقه، أن يرسل إليهم رسلاً، يأمرهم بعبادة الله وحده فيكذبونهم ويسخرون منهم ويستهزئون بهم، فيعاقبهم الله تعالى ويستأصل شأفتهم.

وهذا كقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ ضَلَّ قَبْلَهُمْ أَكْثَرُ الْأَوَّلِينَ ﴿٦﴾ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا فِيهِمْ مُنْذِرِينَ ﴿٧﴾ فَأَنْظَرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُنْذِرِينَ﴾ [الصافات: ٧١-٧٣].

لقد هلكوا وانقرضوا، وجاء بعدهم قوم آخرون.

وهؤلاء السابقون لم نرسل إليهم رسولاً لهدايتهم إلا استهزؤوا به وسخروا منه، وأعرضوا عنه، كما يحدث معك أيها النبي، قال تعالى:

٨ - ﴿فَأَهْلَكْنَا أَشَدَّ مِنْهُمْ بَطْشًا وَمَضَى مَثَلُ الْأَوَّلِينَ ﴿٨﴾﴾

أي: فكان نتيجة تكذيب الأمم لرسل الله، واستهزائهم بهم، أن أهلك الله الأمم

(١) حذف أبو جعفر همزة (يستهزئون) وصلًا ووفقًا مع الزاي بعدها واو، ووقف حمزة بتسهيل الهمزة الثانية بينها وبين الواو، وبإبدالها ياء خالصة.

المكذبة، مع أنهم كانوا أطغى منكم وأعتى، وأشد قوة وأكثر مالا، ومع هذا فكانت عقوبتهم أن أهلكهم الله بسبب كفرهم وطغيانهم واستهزائهم بأنبيائهم.

فليحذر المكذبون للقرآن أن يحل بهم ما حل بغيرهم، فقد ضرب الله لهم الأمثال التي يعتبرون بها ﴿وَمَضَىٰ مَثَلُ الْأَوَّلِينَ﴾.

١- كما قال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ كَانُوا مِن قَبْلِهِمْ كَانُوا هُمْ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَءَانَارًا فِي الْأَرْضِ فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ يُذَوِّبُهُمْ وَمَا كَانَ لَهُم مِّنَ اللَّهِ مِن وَّاقٍ﴾ [غافر].

٢- وقال سبحانه: ﴿وَكَايْنٍ مِّن قَرْيَةٍ هِيَ أَشَدُّ قُوَّةً مِّن قَرْيَةٍ الَّتِي أَخْرَجْنَاكَ أَهْلَكْنَاهُمْ فَلَا نَاصِرَ لَهُمْ﴾ [محمد].

٣- وقال جلَّ شأنه: ﴿سُئِلَ اللَّهُ أَلَيْتِي قَدْ خَلَّتْ فِي عِبَادِي﴾ [غافر: ٨٥].

٤- وقال أيضًا: ﴿وَلَن يَحْدَ لِسَنَةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا﴾ [الأحزاب: ٦٢].

٥- وقال ﷻ: ﴿فَجَعَلْنَاهُمْ سَلَفًا وَمَثَلًا لِلْآخِرِينَ﴾ [٥٦].

الْمُشْرِكُونَ يَعْتَرِفُونَ بِوُجُودِ الْخَالِقِ وَلَكِنَّهُمْ لَا يَتَوَجَّهُونَ لَهُ بِالْعِبَادَةِ

ثم تعجَّب الله سبحانه من حال المكذبين للقرآن، فإنهم مع إقرارهم بوجود الله تعالى يعبدون غيره.

٩- ﴿وَلَيْن سَأَلْنَهُمْ مَّن خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ﴾

أي: والله الذي لا إله غيره لئن سألتهم -يا محمد- مَن خلق هذا الكون، بما فيه من الأجرام العلوية والسفلية؟ ليقولنَّ بدون تردُّد: خلقهن الله، ولم ينكروا ذلك، وما دام الأمر كذلك فلا يستحق العبادة غير الله، ولكنهم مع إقرارهم بأن الله تعالى هو الخالق الموجد، فإنهم يتخذون وسائط بينهم وبين الله، أو يعبدون غيره، أو يتخذون آلهة تشفع لهم عنده، وهذا تناقض عقلي، وجهل وسفه، إذ كيف يعترفون بخالق هذا الكون ثم يعبدون غيره؟

وقد بُعث النبي ﷺ لتحقيق التوحيد، وإبطال الوسائط بينه وبين خلقه.

ووصفُ الله تعالى بالعزة والعلم، ليس من كلامهم؛ لأن المستقرَّأ من كلامهم، قولهم: خلقهن الله، فيكون المعنى أنهم لما قالوا: خلقهن الله، وصف الله نفسه بهاتين الصفتين^(١) فهو العزيز في سلطانه، الذي دانت لعزته جميع المخلوقات، العليم بكل شيء في هذا الكون، أوائلها وأواخرها، ظواهرها وبواطنها، لا تخفى عليه خافية في الأرض ولا في السماء.

ثَلَاثَةُ أُدِلَّةٍ عَلَى وَحْدَانِيَّةِ الْخَالِقِ سُبْحَانَهُ

ثم ساق سبحانه ثلاثة من أدلة تفرده تعالى بالإلهية، وهي: الأرض، والماء، والسفن والأنعام.

الدَّلِيلُ الْأَوَّلُ: بَسْطُ الْأَرْضِ وَتَسْخِيرُهَا

١٠- ﴿الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ مَهْدًا^(٢) وَجَعَلَ لَكُمُ فِيهَا سُبُلًا لَّعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٠﴾﴾

أي: أن الله تعالى بسط الأرض وفرشها وذلَّلها لكم، وجعلها صالحة لإنبات الزرع، وجعلها قرارًا للعباد يتمكنون من سكنائها والبناء عليها واستخراج كنوزها كما قال تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ ذُلُولًا فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِن رِّزْقِهَا﴾ [الملك: ١٥].

وقال جلَّ شأنه: ﴿أَلَمْ يَجْعَلِ الْأَرْضَ مِهْدًا ﴿١١﴾﴾ [النبا: ٦].

وجعل سبحانه الامتتان على عباده في ظاهر الأرض وهو سطحها، حيث مهَّدها وبسطها سبحانه؛ وجعل انبساطها لنفع الساكنين عليها.

أما كرويتها فليست فيها منفعة ظاهرة للناس، ولذا لم يأتِ الامتتان بها.

وقد جعل الله سبحانه في هذه الأرض طُرُقًا ومسالك لنفع العباد والبلاد فقال:

﴿وَجَعَلَ لَكُمُ فِيهَا سُبُلًا﴾ أي: وجعل الأرض صالحة للسَّيرِ عليها، فجعل فيها طُرُقًا ومسالك ومنافذ بين سلاسل الجبال المتصلة من بلد لبلد، ومن قُطْرٍ لقطر، كما قال تعالى: ﴿وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ إِسْطًا ﴿١٢﴾ لَتَسْلُكُوا مِنْهَا سُبُلًا فِجَاجًا﴾ [نوح].

(١) يُنظَر: «حاشية الكشف» (٢٣٨/٤).

(٢) قرأ نافع وابن كثير وأبو عمرو وابن عامر وأبو جعفر ويعقوب (مهادا)، والباقون (مهدا) وهما مصدران بمعنى واحد.

وهذه الطرق لنفع العباد والبلاد، وتذليل الأسفار، ووسائل العيش، وجلب المنافع.
ثم بيّن سبحانه الحكمة من ذلك، فقال: ﴿وَلَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ بتذليل الأرض ومسالكها إلى قدرة الخالق الحكيم، فتفردوه بالعبادة، ولعلكم تهتدون في السير في طرقها إلى منافعكم ومصالحكم الدنيوية.

الدليل الثاني: نعمة الماء

١١- ﴿وَالَّذِي نَزَّلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً يَقْدَرُ فَأَنْشَرْنَا بِهِ بَلْدَةً مَيِّتًا^(١) كَذَلِكَ تُخْرَجُونَ^(٢)﴾ ﴿١١﴾

أي: إن الله تعالى نزل الماء بمقدار معين على قدر حاجتكم ومصالحكم، ليس طوفاناً مُغْرِقاً، ولا قاصراً عن الحاجة، بل بما يؤدي الغرض، وفي المصلحة، من غير زيادة ولا نقصان، فتحيا به أنفسكم وأنعامكم ونباتكم، كما قال تعالى: ﴿وَأِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا عِنْدَنَا خَزَائِنُهُ وَمَا نُنْزِلُهُ إِلَّا بِقَدَرٍ مَعْلُومٍ﴾ ﴿١١﴾ [الحجر] ينفع ولا يضر.

وقال سبحانه: ﴿وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً يَقْدَرُ فَأَشْكَتُمْ فِي الْأَرْضِ﴾ [المؤمنون: ١٨].

وقال في هذه الآية: ﴿فَأَنْشَرْنَا بِهِ بَلْدَةً مَيِّتًا﴾ أي: أحييناها بعد موتها، وأخرجنا بهذا الماء النازل من السماء: النبات والزرع، وأحيينا هذه الأرض بالماء بعد أن كانت هامدة جامدة مُجْدِبَة.

وبمثل هذا الإحياء للأرض بعد موتها تخرجون -أيها الناس- من قبوركم أحياء يوم القيامة، وهذا معنى: ﴿كَذَلِكَ تُخْرَجُونَ﴾ أي: للبعث والحساب بعد فنائكم، كما نُخرج النبات من الأرض الميتة، وفي هذا تهوين لأمر البعث، وردُّ على منكبيه.

قال تعالى: ﴿وَمَنْ أَيْبَسَهُ أَنْكَ تَرَى الْأَرْضَ خَاشِعَةً فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ إِنَّ الَّذِي أَحْيَاهَا لَمُحْيٍ الْمَوْتِ﴾ [فصلت: ٣٩].

وقال سبحانه: ﴿وَهُوَ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ حَتَّىٰ إِذَا أَقْلَّتْ سَحَابًا ثِقَالًا سُقْنَاهُ لِبَلَدٍ مَيِّتٍ فَأَنْزَلْنَا بِهِ الْمَاءَ فَأَخْرَجْنَا بِهِ مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ كَذَلِكَ تُخْرَجُ الْمَوْتِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ ﴿٥٧﴾ [الأعراف].

(١) قرأ أبو جعفر بتشديد الياء وكسرهما من (ميتا)، والباقون بياء ساكنة مخففة.

(٢) قرأ ابن ذكوان وحمزة والكسائي وخلف (تخرجون) بالبناء للفاعل، والباقون بالبناء للمفعول.

الدِّلِيلُ الثَّالِثُ: تَسْخِيرُ وَسَائِلِ الْإِنْتِقَالِ لِلْإِنْسَانِ

ولما امتنَّ الله على عباده بخلق وسائل الحياة أتبعها بوسائل اكتساب المعاش، ومنها وسائل الإنتاج، وهذه الوسائل تشمل السفن والأنعام، قال تعالى:

١٢- ﴿وَالَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ الْفُلْكِ وَالْأَنْعَامِ مَا تَرْكَبُونَ﴾ (١٢)

أي: إن الله سبحانه خلق الأصناف المختلفة: الذكر والأنثى من جميع المخلوقات، كما قال تعالى: ﴿وَمِنْ كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ (٤٩) [الذاريات].

وقال في شأن الأنعام: ﴿ثَمَنِيَةَ أَزْوَاجٍ مِّنَ الضَّأْنِ اثْنَيْنِ وَمِنَ الْمَعْزِ اثْنَيْنِ﴾ [الأنعام: ١٤٣].

وعن الثمرات قال سبحانه: ﴿وَمِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ﴾ [الرعد: ٣].

وقال جلَّ شأنه: ﴿سُبْحَنَ الَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنْبِتُ الْأَرْضُ وَمِنْ أَنْفُسِهِمْ وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ﴾ (٣٦) [يس].

وقد خلق الله الأصناف كلها مما تنبت الأرض ومن أنفسهم ومما لا يعلمون، من ليل ونهار، وحرٍّ وبرِّد، ذكر وأنثى، وغير ذلك.

وجعل لكم وسائل للتنقل والمواصلات في السفن البحرية، الشراعية والنارية، وعلى ظهور الأنعام، كما جعل لكم وسائل مختلفة في البر والجو للتنقل وحمل المتاع.

وقد خص الله سبحانه من الأصناف: الذكر والأنثى من الأنعام؛ لأن المقصود من الآية الامتتان بوسائل السفر والمواصلات، وأهمها وقت تنزيل القرآن: السفن والإبل، والقرآن يخاطب الناس بما يفهمون، ويفتح الباب أمام كل جديد بصورة عامة، كما قال تعالى في هذا الصدد: ﴿وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [النحل: ٨].

وهنا قال تعالى: ﴿وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ الْفُلْكِ وَالْأَنْعَامِ مَا تَرْكَبُونَ﴾ وقُدِّمَ الفلُّك على الأنعام ليرتَّب على الأنعام ما ذكر بعدها، ولأن الفلُّك لا يشملها لفظ الأزواج، وجمع بين الفلُّك والأنعام لتشابه الفلُّك بالدابة، بجامع السَّير في كلِّ.

والمعنى: إن الله تعالى سخَّر لكم من السفن ما تركبون في البحر، ومن البهائم: كالإبل، والخيول، والبغال، والحمير ما تركبون في السير.

ثم يبين سبحانه وجوب شكر المنعم على نعمتي السفن والأنعام بقلوبنا، وإعلان ذلك الشكر باللسان:

دُعَاءُ السَّفَرِ بِالْقَلْبِ وَاللِّسَانِ

١٣، ١٤- ﴿لَسْتَوُوا عَلَى ظُهُورِهِ ثُمَّ تَذْكُرُوا نِعْمَةَ رَبِّكُمْ إِذَا اسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ وَتَقُولُوا سُبْحَنَ الَّذِي سَخَّرَ لَنَا هَذَا وَمَا كُنَّا لَهُ مُقْرِنِينَ ﴿١٣﴾ وَإِنَّا إِلَىٰ رَبِّنَا لَمُنْقَلِبُونَ ﴿١٤﴾﴾

أي: إن الله تعالى سخر لكم من السفن والأنعام ما تركبونه؛ لكي تستقروا على ظهور ما تركبون، سفينة كانت، أو دابة، أو سيارة، أو دراجة، أو طائرة، ونحو ذلك.

﴿ثُمَّ تَذْكُرُوا نِعْمَةَ رَبِّكُمْ إِذَا اسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ﴾ أي: تذكرون الله تعالى بقلوبكم وتحمدونه أن سخر لكم وسيلة الركوب في البر والبحر والجو؛ وتعترفون بالنعمة لمن سخرها فتشكروه وتثنوا عليه، وذلك لأن ذكر النعمة حال التلبس بمنافعها أوقع في النفس، وأدعى للشكر عليها، وأجدر بعدم نسيانها، واستشعار بفضل الله تعالى، وفي هذا تعريض بغير المسلمين ممن لا يذكرون الله تعالى عند هذه النعم.

ثم علمنا سبحانه دعاء السفر بإعلان الشكر باللسان، فقال: ﴿وَتَقُولُوا سُبْحَنَ الَّذِي سَخَّرَ لَنَا هَذَا وَمَا كُنَّا لَهُ مُقْرِنِينَ﴾ أي: وما كنا قادرين ولا مستطيعين تذليله، لولا قدرتك وإعانتك يا رب، بمعنى: لولا أن الله تعالى سخر لنا هذا المركب، وجعله منقاداً لأمرنا لكُنَّا أضعف وأعجز من تذليل وسائل السفر والتنقل فيها، فإن من بين ما يركبه الإنسان، ما هو أكثر قوة وأكبر جثة من راكبه، ومع ذلك فهو مسخر لراكبه يُصَرِّفُهُ يميناً وشمالاً، وأمام وخلف، وهذا يستدعي التفكير في البر والبحر والجو والرياح والماء، كيف ذللها الله تعالى لخدمة الإنسان ونفعه.

فالمقرن: هو المستولي على الأمر، الضابط له، الذي يمسك بزمامه.

أما التسخير فهو التذليل والتطويع.

وتسخير الله للدواب معناه: خلقه إياها قابلة للترويض، وفق مراد الراكب.

وتسخير الفلك: خلق البحر صالحاً لحمل السفن فوق مائه، وجعل الرياح تهب، فتدفع السفن على الماء، وهكذا.

وقد خُتِمَ هذا الثناء والشكر ببيان مرجعنا إلى الله تعالى بالبعث بعد الموت للحساب والجزاء، والقادر على عودتنا إليه يوم القيامة قادر على إعادة المسافر سالمًا إلى أهله، ففي دعاء السفر إدماج تلقين العباد إقرارهم بالبعث، وفي الأمر بالسير والعودة من السفر، استدلال على الأمر العظيم وهو البعث بعد الموت.

وفي الآية أمر بالإقرار بالبعث، وترديد القول به، كما نبّه سبحانه بالزاد الدنيوي على الزاد الأخروي، فقال: ﴿وَتَكَرَّوْا فَاِنَّ خَيْرَ اَلْزَادِ اَلنَّقْوَى﴾ [البقرة: ١٩٧].

وكما نبّه باللباس الدنيوي على اللباس الأخروي فقال: ﴿يَكْنِيْ عَادَمٌ قَدْ اَنْزَلَنَا عَلَيْكُمْ لِيَاسًا يُؤْوِيْ سَوْءَكُمْ وَرِيْشًا وَلِبَاسَ اَلنَّقْوَى ذَلِكَ خَيْرٌ﴾ [الأعراف: ٢٦].

والله الذي أفاض على خلقه بهذه النعم هو الذي يستحق أن يُعبد دون سواه.

أدعية الركوب في السفر:

١- عن عبد الله بن عمر رضي الله عنه أن النبي ﷺ كان إذا ركب راحلته كَبَّرَ ثلاثًا، ثم قال: ﴿سُبْحَنَ الَّذِي سَخَّرَ لَنَا هَذَا وَمَا كُنَّا لِمُقَرَّنِينَ ﴿١٣﴾ وَإِنَّا إِلَىٰ رَبِّنَا لَمُنْقَلِبُونَ ﴿١٤﴾﴾ ثم يقول: «اللهم إني أسألك في سفري هذا البر والتقوى، ومن العمل ما ترضى، اللهم هَوِّنْ علينا السفر، واطوِّ لنا البعيد، اللهم أنت الصاحب في السفر، والخليفة في الأهل، اللهم اَصْحَبْنَا في سفرنا، واخْلُقْنَا في أهلنا».

وكان ﷺ إذا رجع إلى أهله قال: «آيُّون تائبون إن شاء الله، عابدون لرَبِّنا حامدون»^(١).

٢- وفي حديث علي بن أبي طالب رضي الله عنه أن النبي ﷺ حمد الله ثلاثًا قبل التكبير^(٢).

٣- وفي حديث أسامة بن زيد عن محمد بن حمزة أنه سمع أباه يقول: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «فوق ظهر كل بعير شيطان، فإن ركبتموه فسموا الله ﷻ، ثم لا تَقْصُرُوا

(١) رواه مسلم برقم (١٣٤٢) ورواه أحمد في «المسند» (١٤٤/٢) برقم (٦٣١١) وأبو داود برقم

(٢٥٩٩) والترمذي برقم (٣٤٤٧) والنسائي في «السنن الكبرى» برقم (١٠٣٨٢) والحاكم (٢٢٥٤).

(٢) يُنظر: «المسند» (٩٧/١) وأبو داود برقم (٢٦٠٢) وغيرهما.

عن حاجاتكم»^(١).

٤- وفي ركوب السفن خاصة يزيد المسلم: ﴿يَسِّرْ اللَّهُ بَجْرَتَهَا وَمُرْسَهَا﴾ [هود: ٤١].

ويقول عند النزول منها: «اللهم أنزلنا منزلاً مباركاً وأنت خير المنزلين».

٥- ولفظ مسلم عن عبد الله بن عمر رضي الله عنه أن النبي ﷺ كان إذا استوى على بعيره خارجاً للسفر حمد الله تعالى، وسبح وكبر ثلاثاً، ثم قال: «سبحان الذي سخر لنا هذا وما كنا له مقرنين، وإنا إلى ربنا لمنقلبون، اللهم إنا نسألك في سفرنا هذا البر والتقوى، ومن العمل ما ترضى، اللهم هون علينا سفرنا هذا، واطو عنا بعده، اللهم أنت الصاحب في السفر، والخليفة في الأهل، اللهم إني أعوذ بك من غناء السفر وكآبة المنظر، وسوء المنقلب في الأهل والمال والولد».

وإذا رجع قالهن، وزاد فيهن: «آيئون تائبون عابدون لربنا حامدون»^(٢).

ولعل هذه الرواية هي الرواية التي في الحديث الأول مع فارق أفراد الضمير وجمعه.

٦- وعن علي بن ربيعة قال: شهدت علي بن أبي طالب رضي الله عنه وقد أتى بدابة ليركبها فلما وضع رجله في الركاب قال: (بسم الله)، فلما استوى على ظهرها، قال: (الحمد لله)، ثلاث مرات، ثم قال: (الله أكبر)، ثلاث مرات، ثم قال: (سبحانك إني ظلمت نفسي فاغفر لي فإنه لا يغفر الذنوب إلا أنت)^(٣).

ويستحب أن يقول الراكب: الحمد لله الذي هدانا للإسلام، ثم يدعو بعدها بدعاء الركوب.

وكان طاوس إذا ركب قال: اللهم هذا من مثك وفضلك، فلك الحمد ربنا، ثم يقرأ الآية^(٤).

(١) «المسند» (٤٩٤/٣) وقال الهيثمي في «مجمع الزوائد» (١٣١/١٠): رجاله رجال الصحيح غير محمد بن حمزة وهو ثقة، وهو في «المسند» برقم (١٦٠٩) قال محققو المسند: إسناده حسن، وأخرجه الحاكم (٤٤٤/١) وهو في «صحيح الجامع الصغير» (٣٩١٨) بتصحيح الألباني له.

(٢) هذا لفظ مسلم، وهو أشملها وأوضحها، ورقمه (١٣٤٢) وانظر «سنن أبي داود» (٢٥٩٩).

(٣) هذه رواية الترمذي وقال: حسن غريب، وهو مرفوع، ورقمه (٣٤٤٦) وأخرجه الطيالسي (١٣٤) وعبد الرزاق (١٩٤٨٠) وابن أبي شيبة (٢٨٤/١٠) وهو في «صحيح سنن أبي داود» (٢٢٦٧) وفي «سنن أبي داود» (٢٦٠٢) والنسائي في عمل اليوم والليلة (٥٠٢).

(٤) «تفسير الطبري» (٥٥٩/٢٠).

أخرج عبد بن حميد، وابن المنذر، عن سليمان بن يسار، أن قوماً كانوا في سفر، فكانوا إذا ركبوا قرؤوا الآية ﴿سُبْحَنَ الَّذِي﴾ وكان فيهم رجل له ناقة هزيلة لا تتحرك، فقال: أما أنا فأنا لهذا مُقَرَّن، أي: أنا المذلل لها، وليست هي المذللة لي، فوثبت به الناقة ونفرت، فصرعته فاندقت عنقه^(١).

إِبْطَالُ خُرَافَةِ أَنَّ الْمَلَائِكَةَ بَنَاتُ اللَّهِ

١٥، ١٦ - ﴿وَجَعَلُوا لَمْ مِنْ عِبَادِهِ جُزْءًا^(٢) إِنَّ الْإِنْسَانَ لَكَفُورٌ مُبِينٌ ﴿١٥﴾ أَمْ أَخَذَ مِمَّا يَخْلُقُ بَنَاتٍ وَأَصْفَنَكُمْ بِالْبَنِينَ ﴿١٦﴾﴾

وبعد أن امتنَّ الله تعالى على عباده بنعمة تذليل الأرض، والماء، ووسائل التنقل، وهي من أدلة القدرة الإلهية التي تُوجب التوجه بالعبادة إلى الله وحده، وكان السياق قبل ذلك يتعلق بمن يُعترفون بوجود الله تعالى ويتوجهون بالعبادة إلى غيره، بعد ذلك عادت الآيات إلى التعجب من تناقض أقوالهم وأفعالهم لِيُفَنِّدَ شُبُهَ المشركين، ومنها قولهم: الملائكة بنات الله. فكيف يستقيم لهم أَوَّلًا - أن يُقروا بأن الله تعالى خالق كل شيء، ويجعلوا له شركاء؟ وكيف يستقيم - ثانيًا - أن يكون المخلوق إلهاً؟

وكيف يستقيم - ثالثًا - لخالق الكائنات كلها أن يتخذ البنات دون البنين؟

﴿وَجَعَلُوا لَمْ مِنْ عِبَادِهِ جُزْءًا﴾ أي: جعل المشركون لله من خلقه نصيباً هو قولهم: الملائكة بنات الله، فالمراد بالجزء في الآية: الولد؛ لأنه بُضِعَ وفرع من والده، وكما قيل: أولادنا أكبادنا، والجزء بعض من كل، وقطعة منه.

والمراد بالجزء هنا: البنات، فهنَّ جزء من عباد الله، وقولهم في الملائكة كقولهم في الأنعام: ﴿وَجَعَلُوا لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ الْحَرْثِ وَالْأَنْعَامِ نَصِيبًا فَقَالُوا هَذَا لِلَّهِ بِرَعْمِهِمْ وَهَذَا لِشُرَكَائِنَا﴾ [الأنعام: ١٣٦].

(١) ذكرتُ بعض ألفاظه بالمعنى، «الدر المنثور» (١٣/١٩٢).

(٢) قرأ شعبة بضم الزاي من (جُزْءًا)، وقرأ أبو جعفر بحذف الهمزة وتشديد الزاي، وقرأ الباقون بإسكان الزاي، ووقف عليها حمزة بنقل حركة الهمزة إلى ما قبلها.

والله تعالى واحد أحد، فرد صمد، لم يتخذ صاحبة ولا ولد، ولم يكن له كفواً أحد، لا والد له ولا ولد، ولا ندّ له ولا شريك ولا نظير.

ثم ختم الله الآية بقوله: ﴿إِنَّ الْإِنْسَانَ لَكَفُورٌ مُّبِينٌ﴾ وهذا استنكار من الله تعالى على من زعم أن الملائكة بنات الله، فوصّفه بأنه شديد الكفر؛ لأنّ المشرك جحود لنعم الله عليه، مُظهر لجحوده وكفره، يعدّد المصائب وينسى النعم.

ثم أخذ الله ﷻ يُبطل معتقدهم في بنوة الملائكة لله تعالى؛ لأنه ينافي الكمال الذي تقتضيه الإلهية، فيأتي بهذا الإنكار الشديد:

أترعمون - أيها الجاهلون - أن ربكم اتخذ من خلقه بناتٍ وأنتم لا ترضونها لأنفسكم ﴿وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِالْأُنْثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ﴾ [النحل].

وفي الوقت ذاته تخصّصون أنفسكم بالبنين وتجعلونها لكم؟ ﴿أَلَكُمُ الذَّكَرُ وَلَهُ الْأُنْثَىٰ﴾ [النجم] ﴿تِلْكَ إِذًا قِسْمَةٌ ضِيزَىٰ﴾ [النجم].

فلو جاز فرضاً وتمثيلاً اتخاذ الولد لله، أما تستحون من الشطط في القسمة، ومن إشار ما هو أحب لأنفسكم عليه سبحانه؟ ﴿وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ مَا يَكْرَهُونَ﴾ [النحل: ٦٢].

﴿وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ الْبَنَاتِ سُبْحَانَهُ وَلَهُمْ مَا يَشْتَهُونَ﴾ [النحل].

﴿أَفَأَصْفَكَ رَبُّكُمْ بِالْبَنِينَ وَاتَّخَذَ مِنَ الْمَلَائِكَةِ إِنثًا إِنَّكُمْ لَعَنُوكُمْ لَعْنًا عَظِيمًا﴾ [الإسراء].

واتخاذ الله الولد باطل من عدة أوجه: إذ إن الخلق كلهم عباد الله، والعبودية تنافي الولادة، والولد جزء من الوالد، ومحال أن يكون لله تعالى ولد، لأنه سبحانه ليس كمثله شيء، والبنات في نظر الناس أقل شأنًا من البنين، فإذا كان للمشركين البنين والله البنات - كما يزعمون - فمعنى ذلك أنهم أفضل من الله تعالى، وهذا كفر ما بعده كفر.

إن المشركين لجهلهم وكفرهم، يزعمون أن الملائكة بنات الله، والحال أن الواحد منهم إذا بشره بمبشر بأن امرأته ولدت أنثى، اسودّ وجهه من شدة الحزن، وصار ممتلئاً همًّا وكرهاً:

١٧- ﴿وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِمَا ضَرَبَ لِلرَّحْمَنِ مَثَلًا ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ﴾ [٧]

أي: إذا بُشِّرَ الرجل بالأنثى التي نسبها للرحمن، حين زعم أن الملائكة بنات الله،

﴿ظَلَّ وَجْهُهُ مُسَوِّدًا﴾ من سوء البشارة بالأنثى من كراحتهم وشدة بغضهم لهن ﴿وَهُوَ كَظِيمٌ﴾ مملوء غمًا وحُزنًا، فكيف يرضون لله ما لا يرضونه لأنفسهم؟ تعالى الله وتقدس عما يقوله الكافرون علوًا كبيرًا.

وهذا حكاية لحالهم، وتوبيخ لهم، وتعجب من فساد مقالتهم، وتشنيع عليهم بنسبة النقص إلى الله تعالى، وهو يُفضي إلى الاستخفاف بجانب الإلهية، ويدلُّ على قلة عقولهم وسفاهة تفكيرهم.

وقد روى بعض العرب أن امرأته ولدت أنثى، فهجر البيت الذي فيه المرأة^(١).

وَصِفُ الْأُنْثَى بِالزَّيْنَةِ وَالضَّعْفِ

ثم أضاف سبحانه إلى تبكيت المشركين السابق تبكيًا آخر، وإنكارًا إلى إنكار، فقال:

١٨ - ﴿أَوْ مَنْ يُنشَأُ فِي الْحِلْيَةِ وَهُوَ فِي الْخِصَامِ غَيْرُ مُبِينٍ ﴿١٨﴾﴾

الوصف الأول: أأخذ الله مَنْ يُنشَأُ في الحلية بناتٍ له؟ والحلية تكون من الذهب والماس والفضة، وتتخذ للبت في وقت مبكر من بدء عمرها، وتصحب أطوار حياتها، فتَحَرَّمُ أذناها ليُجعل فيهما القُرط، بخلاف الصبي؛ لأن البنات لا غنى لهن عن الزينة لتعزيز مكانتهن، ولذا فإنهنَّ يُنشَأْنَ على الدَّعة والنعومة، فكيف تجترئون وتنسبون إلى الله تعالى من يُربَّى في الزينة، ويضعف عن مقاومة الصعاب، والقيام بمهام الأمور، وذلك لضعف المرأة عن الرجل غالبًا في القوة البدنية والعقلية.

أما الوصف الآخر للأنثى: فهو قصورها في الجدل والمحااجة، والدفاع عن النفس، وضعفها في قتال العدو والدفاع عن نفسها، وهذا في غالب الأمر، فلا يمنع وجود بعض الإناث أقوى من بعض الرجال، فالمرأة ضعيفة عاجزة عن الانتصار لنفسها، كما قال بعض العرب وقد بُشِّرَ ببت: ما هي بنعم الولد، نَصْرُها بكاء، وبرُّها سرقة^(٢).

وقالت المرأة التي هجرها زوجها حين ولدت الأنثى:

(١) «التفسير الكبير» (٢٧/٢٠١).

(٢) «التسهيل لعلوم التنزيل» (٤/٢٦).

ما لأبي حمزة لا يأتينا يظل في البيت الذي يلينا
غضبان أن لا نلد البنينا ليس لنا من أمرنا ما شينا
وإنما نأخذ ما أعطينا حكمة رب ذي اقتدار فينا
ولما ادّعت (سَجَّاحُ بِنْتُ الْحَارِثِ) النبوة في بني تميم أيام حروب الردة، وكان قد
ادّعى النبوة قبلها مسيلمة الكذاب، والأسود العنسي، وطليحة بن خويلد الأسدي.

فقال عطارْدُ بن حاجب التميمي:

أَضَحَّتْ نَبِيَّتُنَا أَنْشَى نُطِيفٌ بِهَا وَأَصْبَحَتْ أَنْبِيَاءُ النَّاسِ ذُكْرَانَا

إِبْطَالُ الزَّعْمِ بِأَنَّ الْمَلَائِكَةَ إِنَاثٌ بِالدَّلِيلِ الْعَقْلِيِّ وَالنَّقْلِ

١٩- ﴿وَجَعَلُوا الْمَلَائِكَةَ الَّذِينَ هُمْ عِبْدُ^(١) الرَّحْمَنِ إِنَاثًا أَشْهَدُوا^(٢) خَلَقَهُمْ سَتَكُنُّبُ شَهِدَتُهُمْ وَيُسْأَلُونَ﴾

وتمضي الآيات في إبطال مزاعم المشركين، فقد حكموا بأن الملائكة إناث من سَرَوَاتِ
الجن، أي: من أشرف أمهات الجن، وسَرَوَات: جمع سَرِيَّة، وهي الأم الشريفة، فهل
كانوا حاضرين وقت أن خلقناهم فأروهم إناثًا، ثم وصفوهم بذلك؟ ﴿أَشْهَدُوا خَلَقَهُمْ﴾
واطَّلَعُوا على خلقتهم، حتى يحكموا بأنهم إناث؟ قال تعالى: ﴿مَا أَشْهَدُهُمْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ
وَالْأَرْضِ وَلَا خَلَقَ أَنْفُسَهُمْ﴾ [الكهف: ٥١].

وكما تجرؤوا على الله تعالى فنسبوا له البنات، تجرؤوا على ملائكة الله الكرام،
فجعلوهم إناثًا وأشركوهم مع الله تعالى.

ثم قرر سبحانه أن شهادتهم هذه مسجلة ومدونة عليهم في صحف أعمالهم، وأنهم
سيُسألون عنها يوم القيامة، ضمن أعمالهم السيئة، ويعاقبهم الله تعالى على افتراءهم
الكذب عليه ﴿سَتَكُنُّبُ شَهِدَتُهُمْ وَيُسْأَلُونَ﴾.

وإذن فلا يوجد للمشركين مستند عقلي ولا نقلي على جواز عبادتهم للملائكة.

(١) قرأ أبو عمرو وعاصم وحزمة والكسائي وخلف (عباد) جمع عبد، وقرأ الباقر (عند) ظرف مكان.

(٢) قرأ نافع وأبو جعفر (أشهدوا) بهمزيين: الأولى محققة مفتوحة، والثانية مسهلة مضمومة مع إسكان الشين،
فعلًا رباعيًا مبنياً للمفعول دخلت عليه همزة الاستفهام، وأدخل أبو جعفر ألفًا بين الهمزتين، وقالون بخلف
عنه، والباقر بهمزة واحدة مفتوحة محققة، فعلًا ثلاثيًا مبنياً للفاعل دخلت عليه همزة الاستفهام.

قال تعالى في بيان الدليل العقلي :

٢٠- ﴿وَقَالُوا لَوْ شَاءَ الرَّحْمَنُ مَا عَبَدْنَاهُمْ مَا لَهُمْ بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ﴾ ﴿٢٠﴾

في هذه الآية إبطال لحجة المشركين في عبادتهم للملائكة بدليل عقلي، وذلك أن المشركين لم يكتفوا بجعل الملائكة إناثاً، بل زعموا أن الله تعالى رضي بعبادتهم لهم، وتوهموا أنه سبحانه لو أراد لهم ألا يعبدوا غيره لصرفهم عن ذلك، فاحتجوا على عبادتهم الملائكة بالمشيئة، وهذه حجة باطلة عقلاً وشرعاً، فهم لم يحضروا خلق الملائكة ولم يشاهدوهم، والعقل لا يحتج بالقدر.

وقد أقام الله سبحانه الحجة على العباد بإرسال الرسل، وإنزال الكتب، وأمرهم ألا يعبدوا إلا إياه، فاحتجهم بالقضاء والقدر من أبطال الباطل، وهي كلمة حق يراد بها باطل، وقد نهاهم الله تعالى عن عبادة غير الله تعالى عن طريق إنذار الرسل لهم.

ثم قرّر سبحانه أنهم قالوا ذلك بغير دليل ولا برهان؛ لأن مشيئة الله تعالى لا يعلمها أحد غيره، والمشيئة غير الرضى، والله تعالى لا يرضى لعباده الكفر.

وقد اقتضت حكمته تعالى أن يجعل للإنسان القدرة على اختيار طريق الحق أو الباطل، وهؤلاء قد اختاروا طريق الضلال، واستحبوا الكفر على الإيمان دون أن يكرههم أحد على ذلك، فما قالوه مجرد كذب وظن فاسد ﴿مَا لَهُمْ بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ﴾ فليس لما يقولونه حقيقة ﴿إِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ﴾ أي: ما هو إلا تخرّص وافتراء، ليس عندهم فيه من الله خبر ولا برهان.

قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ فَمِنْهُمْ مَن هَدَى اللَّهُ وَمِنْهُمْ مَن حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلَالَةُ﴾ [النحل: ٣٦].

وقال سبحانه: ﴿وَسَأَلَ مَن أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رُسُلِنَا أَجَعَلْنَا مِنْ دُونِ الرَّحْمَنِ آلِهَةً يُعْبَدُونَ﴾ ﴿١٥﴾

قال المفسرون: حكى الله تعالى عن كفار العرب ثلاثة أقوال شنيعة:

الأول: أنهم نسبوا إلى الله الولد.

الثاني: أنهم نسبوا إليه البنات دون البنين.

الثالث: أنهم حكموا على الملائكة المكرمين بالأنوثة بلا دليل ولا برهان، فكذبهم

القرآن في تلك الأقوال، ثم ازدادوا ضلّالاً وبهتاناً، فزعموا أن ذلك برضى الله تعالى .
وقال ابن مسعود: كان نفر من العرب يعبدون الجن، وأقوام يعبدون الملائكة، مثل بني
مُلَيْح، وهم حيٌّ من خزاعة.

والضمير في ﴿عَبَدْنَهُمْ﴾ عائد إلى معلوم من المقام، وهو عبادة غير الله تعالى، ولو
أرادوا خصوص الملائكة لقالوا: مَا عَبَدْنَاهَا، أو: مَا عَبَدْنَاهُنَّ.

وقد ذكر الله تعالى في هذه الآية أربع مسائل:

الأولى: أن الكفار افترضوا على الله الكذب بزعمهم أن الملائكة إناث، وأنهم بنات الله .

الثانية: أن الله تعالى وبّخهم على ذلك توبيخاً شديداً، وأنكر عليهم ما قالوه .

الثالثة: أن شهادتهم الكاذبة ستُكتب عليهم .

الرابعة: أنهم سيُسألون عنها يوم القيامة .

وقد وُضّحت هذه المسائل الأربع في مواضع كثيرة من القرآن الكريم.^(١)

قال تعالى في بيان الدليل النقلي:

٢١- ﴿أَمْ أَلَيْسَ لَهُمْ كِتَابًا مِّن قَبْلِهِ فَهُمْ بِهِ مُتَمَسِكُونَ ﴿٢١﴾﴾

وفي هذه الآية إبطال حجة المشركين في عبادتهم للملائكة بدليل نقلي، وذلك أنه بعد
أن نفى سبحانه أن تكون للكافرين حجة عقلية على قولهم: ﴿لَوْ شَاءَ الرَّحْمَنُ مَا عَبَدْنَهُمْ﴾
نفى جلّ شأنه أن تكون لهم حجة نقلية في ذلك، فهم لم يحضروا خلق الملائكة، ولم
يُعطوا كتاباً قبل القرآن يحتجون به على عبادتهم لهم .

والمعنى: أشهدوا خلق الملائكة فرأوهم إناثاً، أم أعطيناهم كتاباً قبل هذا القرآن، يشهد
بصحّة أقوالهم، ويقول لهم: اعبدوا غير الله، فهم متمسكون بما فيه، ويعملون بتوجيهاته؟

والجواب: أن الأمر ليس كذلك، فإن الله تعالى أرسل محمداً بشيراً ونذيراً، ولم يأتهم
نذير غير محمد ﷺ، ولم يأتهم بدليل نقلي ولا عقلي على أن الملائكة إناث وأنهم بنات

(١) يُنظر: «أضواء البيان» للشيخ الشنقيطي (٢١٩/٧) وما بعدها .

الله، فلم يبق إلا الباطل.

قال تعالى: ﴿أَمْ أَرْلْنَا عَلَيْهِمْ سُلْطَانًا فَهُمْ يَنْكَلِمُ بِمَا كَانُوا بِهِ يَسْرُكُونَ﴾ (٢٥) [الروم].

قال الفخر الرازي: هل وجدوا ذلك الباطل في كتاب منزل قبل القرآن حتى يُعُولوا عليه ويتمسكوا به^(١).

السَّبَبُ الْوَحِيدُ هُوَ تَقْلِيدُ الْأَبَاءِ وَالْأَجْدَادِ

٢٢- ﴿بَلْ قَالُوا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ آثَرِهِمْ مُّقْتَدُونَ﴾ (٢٢)

لم يبق للمشركين إلا شبهة تقليد آبائهم الضالين، فهم يردّون دعوة الرسل باتباع ما عليه من سبقهم من الآباء والأجداد، وبتأثير البيئة والمجتمع.

وهكذا: أخبر سبحانه أن غير مشركي هذه الأمة من الأمم السابقة قد قال هذه المقالة ﴿لَوْ شَاءَ الرَّحْمَنُ مَا عَبَدْنَاهُمْ﴾ فليس لدى الجميع مستند عقلي ولا نقلي على صحة عبادتهم للملائكة، ولا على كونهم إناثاً، وإنما مستندهم الوحيد هو تقليد آبائهم في جهلهم وكفرهم؛ حيث قالوا: إنا وجدنا آبائنا على طريقة ومذهب ودين -وهي عبادة الملائكة أو الأوثان- ونحن سائرون على طريقتهم، متبعون آثارهم، فهم لم يفكروا ولم يتأملوا في أن ما يفعلونه موافق للحق والصواب، بل كانوا كقطع الأغنام الذي يسير خلف راعيها، دون أن يعرف إلى أي طريق يسير.

التَّقْلِيدُ سُنَّةٌ جَارِيَةٌ فِي الْأُمَمِ

٢٣- ﴿وَكَذَٰلِكَ مَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ فِي قَرْيَةٍ مِّنْ نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا

عَلَىٰ آثَرِهِمْ مُّقْتَدُونَ﴾ (٢٣)

أي: وكما تبع هؤلاء الكافرون آبائهم بغير حجة، ولا مستند عقلي ولا نقلي، كذلك فعل من قبلهم من المكذبين لجميع الرسل، فما بعثنا قبلك -يا محمد- رسولا في أمة من الأمم إلا قالوا مثل مقالته، ﴿وَكَذَٰلِكَ مَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ فِي قَرْيَةٍ مِّنْ نَّذِيرٍ﴾ ينذرهم عقابنا على كفرهم بنا،

(١) «التفسير الكبير» (٢٧/٢٠٦).

فَأَنْذَرَهُمْ وَحَذَّرَهُمْ سَخَطَنَا وَحُلُولَ عِقَابِنَا ﴿إِلَّا قَالُوا مُتْرَفُوهَا﴾ وهم الذين أبطرتهم النعمة والملذات من الرؤساء والكبار ﴿إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ﴾ أي: على ملة ودين وطريقة متبعة ﴿وَإِنَّا عَلَىٰ آثَرِهِمْ﴾ أي: على منهاجهم وطريقتهم ﴿مُقْتَدُونَ﴾ سائرون ومتبعون.

فهؤلاء ليسوا بأول من قال هذه المقالة، والاحتجاج بتقليد الآباء ليس المقصود به اتباع الحق والهدى، إنما هو محض تعصب يراد به نُصرة الباطل.

والآية تسلية للرسول ﷺ ودلالة على أن التقليد قديم، فلا تحزن -أيها الرسول- لإعراض من أعرض عن دعوتك، فإن هذا شأن السابقين في الكفر والضلال، وخصَّ المترفين بالذكر إشارة إلى أن الذي صرفهم عن الحق وعدم التدبر والتأمل، هو كثرة النعم وحب الجاه والسلطان، قال تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ مَا آتَىٰ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا قَالُوا سَاحِرٌ أَوْ مُجُنَّؤٌ ﴿٥٦﴾ أَتَوَاصَوْا بِهِ بَلْ هُمْ قَوْمٌ طَٰغُونَ ﴿٥٧﴾﴾ [الذاريات].

عُقُوبَةُ مَنْ أَصَرَ عَلَىٰ مُخَالَفَةِ هَدْيِ الرُّسُلِ

٢٤ - ﴿قُلْ^(١) أَوَلَوْ جِئْتُكُمْ^(٢) بِأَهْدَىٰ مِمَّا وَجَدْتُمْ عَلَيْهِ آبَاءَكُمْ قَالُوا إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ﴾

أي: قال كل نبي لقومه حين أنذرهم عذاب الله: أتقتدون بآبائكم وتتبعونهم في الضلال ولو جئتكم بدين أهدى وأرشد مما كانوا عليه؟

﴿قَالَ﴾ رسول الله محمد ﷺ وكذا من سبقه من الرسل صلوات الله عليهم، لكل من عارضهم بهذه الشبهة الباطلة، وفي القراءة الأخرى (قل): ﴿أَوَلَوْ جِئْتُكُمْ بِأَهْدَىٰ﴾ أي: أتتبعون آباءكم ولو جئتكم من عند ربكم بما هو أوضح وأبين وأهدى إلى طريق الحق، وأصوب وأدل على سبيل الرشاد، فهل تتبعوني لأجل الهدى؟ وهو خير وأفضل ﴿مِمَّا وَجَدْتُمْ عَلَيْهِ آبَاءَكُمْ﴾ من الدين والملة؟ ﴿قَالُوا﴾ أي: قال المترفون في عناد وجحود: ﴿إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ﴾ جاحدون منكرون لما جئتكم به من هداية، ونحن باقون على دين آبائنا.

(١) قرأ حفص وابن عامر (قال) فعل ماضٍ، وقرأ الباقر (قل) فعل أمر.

(٢) قرأ أبو جعفر (جئتكم) على إسناد الفعل إلى ضمير الجمع، والمراد: الرسول ومن قبله من الرسل، وقرأ غيره (جئتكم) على إسناد الفعل إلى ضمير المتكلم وهو الرسول ﷺ، وأبدل أبو جعفر وأبو عمرو الهمزة حرف مد بخلف عن أبي عمرو، وكذا حمزة عند الوقف.

وفي هذا دعوة لهم للنظر وإعمال الفكر، كما قال تعالى: ﴿وَإِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًى أَوْ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ [سبأ: ٢٤]. قال تعالى مبينًا عقوبة المقلدين في الكفر:

٢٥- ﴿فَأَنزَلْنَا مِنْهُمْ فَأَنْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكْذِبِينَ﴾ (٢٥)

أي وبسبب تكذيب المشركين للحق، وبإصرارهم على تقليد آبائهم في الكفر بالتوحيد والإيمان والبعث والنشور، وعدم تصديق الرسالة، فإنهم قد استحقوا الانتقام منهم، قال تعالى: ﴿فَأَنزَلْنَا مِنْهُمْ فَأَنْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكْذِبِينَ﴾ أي: أحللنا العقوبة بهذه الأمم المكذبة لرسول الله: ﴿فَمِنْهُمْ مَنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُمْ مَنْ أَخَذَتْهُ الصَّيْحَةُ وَمِنْهُمْ مَنْ خَسَفْنَا بِهِ الْأَرْضَ وَمِنْهُمْ مَنْ أَغْرَقْنَا﴾ [العنكبوت: ٤٠].

﴿فَأَنْظُرْ﴾ يا محمد ﴿كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكْذِبِينَ﴾ بآيات الله ورسله، لقد أخذناهم أخذ عزيز مقتدر، فدمرناهم تدميرًا.

فليحذر قومك - يا محمد - أن يستمروا على تكذيبهم فيصيبهم مثل ما أصاب من قبلهم.

ثَلَاثَةُ أَمْثَلَةٍ مِنْ دَعْوَةِ الرُّسُلِ إِلَى تَوْحِيدِ اللَّهِ تَعَالَى

أَوَّلًا: دَعْوَةُ إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ

٢٦، ٢٧- ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ إِنَّنِي بَرَاءٌ مِمَّا تَعْبُدُونَ ﴿٢٦﴾ إِلَّا الَّذِي فَطَرَنِي فَإِنَّهُ سَيِّدِي ﴿٢٧﴾﴾

ولما ذُكر الله المشركين بالأمم الماضية، وجعل الرسل السابقين أسوة لمحمد ﷺ، ساق ثلاثة أمثلة من مواقف الأمم مع رسل الله: إبراهيم ومحمد وموسى ﷺ، وقد بدأ بإبراهيم؛ لأنهم يدعون أنهم على ملته، فكان الأجدر بهم أن يتبعوه في التوحيد وسلامة الفطرة، كما قالوا: ﴿إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ آثَرِهِمْ مُّقْتَدُونَ﴾ [٢٣] فكذبهم القرآن في هذا، وأبطل ما قالوه؛ وأخبر عن دينه الذي ورثه ذريته، لأن إبراهيم جاء بكلمة التوحيد الخالصة، ومن أجلها هجر أباه وقومه، بعد أن تعرض للقتل والتحريق: ﴿وَقَالَ إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَىٰ رَبِّي سَيِّدِي﴾ (٢٦) [الصافات].

(١) قرأ يعقوب بإثبات الياء في (سيهدين) وصلًا ووقفًا، والباقيون بحذفها في الحالين.

والمعنى: واذكر - يا محمد - وقت أن قال إبراهيم لأبيه وقومه الذين كانوا يعبدون ما يعبده قومك: إني بريء من هذه الأوثان التي تعبدونها من دون الله، هذا هو حال جدكم إبراهيم أعظم آبائكم، ومحط فخركم، والمُجمَع على محبته منكم، وأنتم تعتزُّون به، وتفتخرون بالانتساب إليه، فلماذا لا تقلِّدونه في توحيد الله تعالى، وإنكار عبادة الأصنام.

وتقدَّم ذكِّر أبي إبراهيم على قومه في الآية؛ لأن إبراهيم كان لا يتسامح في عبادة الأصنام مع أقرب الناس إليه وهو أبوه، وليكون كلام إبراهيم قدوة لإبطال قول المشركين: ﴿وَإِنَّا عَلَىٰ آثَرِهِمْ مُّهْتَدُونَ﴾ [٢٢] فهلاً اقتديتم بأبيكم إبراهيم.

﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَءُؤُا مِنْكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ﴾ [المتحنة: ٤] ولفظ ﴿براء﴾ أبلغ في التبرؤ من عبادتهم.

ويغد أن تبرأ إبراهيم من عبادتهم قال: لكني أعبد الذي خلقتني وأنشأني من العدم، وفطرني بقدرته، أو أنا لا أوافقكم إلا على عبادة الله الذي خلقتني، ثم علل ذلك بأن الله هو المنجِّي من العذاب، فإنه هو الذي سيهدين إلى الصراط المستقيم، وهذا هو معنى الاستثناء ﴿إِلَّا الَّذِي فَطَرَنِي﴾ أي: إني لا أعبد إلا الذي خلقتني على غير مثال سابق ﴿فَإِنَّهُ سَيَّهْدِينِي﴾ ويوفقني لاتباع سبيل الرشاد، وقد هداني الله إلى بطلان عبادتكم واستبدالها بعبادة الواحد القهار.

ففي قوله تعالى ﴿إِنِّي بَرَاءٌ﴾ نفى لكل ما يعبد من دون الله وقوله ﴿إِلَّا الَّذِي فَطَرَنِي﴾ إثبات العبادة لله وحده.

وهذا كقوله تعالى: ﴿قَالَ أَفَرَأَيْتُمْ مَا كُنْتُمْ تَعْبُدُونَ ﴿٧٥﴾ أَنْتُمْ وَأَبَاؤُكُمْ الْأَقْلَامُونَ ﴿٧٦﴾ فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِّي إِلَّا رَبَّ الْعَالَمِينَ ﴿٧٧﴾ الَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ ﴿٧٨﴾﴾ [الشعراء].

وقوله سبحانه: ﴿قَالَ يَلْقَوْمِ إِنَّي بَرِيءٌ مِّمَّا تَشْرِكُونَ ﴿٧٨﴾ إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ حَنِيفًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿٧٩﴾﴾ [الأنعام].

استمَرَّارُ التَّوْحِيدِ فِي نَسْلِ إِبْرَاهِيمَ

٢٨- ﴿وَجَعَلَهَا كَلِمَةً بَاقِيَةً فِي عَقِبِهِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٧٨﴾﴾

أي: وجعل إبراهيم كلمة التوحيد التي تكلم بها -وهي: لا إله إلا الله- باقية في ذريته

إلى يوم الدين، وفيها نفي الإلهية عما سوى الله تعالى، وإثباتها لله وحده، وهذا معنى ﴿إِنِّي بَرَاءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ﴾ هذا هو النفي، ثم قال: ﴿إِلَّا الَّذِي فَطَرَنِي﴾ وهذا هو الإثبات، فقد تبرأ إبراهيم من عبادة آلهة المشركين، وأثبت عبادته لله وحده وهذا معنى لا إله إلا الله: ففي (لا إله) نفي لكل ما يعبد من دون الله، وفي (إلا الله) إثبات العبادة لله وحده.

قال تعالى: ﴿وَمَنْ يَرْغَبْ عَنْ مِلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلَّا مَن سَفِهَ نَفْسَهُ﴾ [البقرة: ١٣٠]

والعقب: الذرية، ويدخل فيهم ولد البنت لقوله تعالى عن نوح عليه السلام:

﴿وَمِنْ ذُرِّيَّتِهِ دَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَى وَهَارُونَ وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ لَا وَزَكْرِيَّا وَيَحْيَى وَعِيسَى وَإِلْيَاسَ كُلٌّ مِّنَ الصَّالِحِينَ﴾ [الأنعام].

ولا يزال في ذرية إبراهيم من يوحد الله تعالى إلى يوم القيامة.

وقد تسبب إبراهيم في بقاء كلمة التوحيد في قومه؛ لأنه وصّى بها أولاده من بعده، وظلّوا يتوارثون هذه الوصية خلفاً عن سلف: ﴿وَوَصَّي بِهَا إِبْرَاهِيمَ بَنِيهِ وَيَعْقُوبَ يَدْنِي إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى لَكُمُ الدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُمْ مُسْلِمُونَ﴾ [البقرة].

كما سأل إبراهيم ربه لذريته الإيمان والصلاح في قوله: ﴿رَبِّ اجْعَلْنِي مُقِيمَ الصَّلَاةِ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي رَبَّنَا وَتَقَبَّلْ دُعَاءِي﴾ [إبراهيم].

وقوله: ﴿وَأَجْنِبْنِي وَبَنِيَّ أَنْ نَعْبُدَ الْأَصْنَامَ﴾ [إبراهيم: ٣٥].

وقوله: ﴿رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمِينَ لَكَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ﴾ [البقرة: ١٢٨].

كما دعا إبراهيم ربه أن يبعث فيهم رسولا منهم، فقال: ﴿رَبَّنَا وَأَبْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ﴾ [البقرة: ١٢٩].

وقد أجاب الله دعاءه، فقال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِ النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ﴾ [العنكبوت: ٢٧].

وقال عليه السلام: «أنا دعوة أبي إبراهيم، وبشرى أخي عيسى»^(١).

وقيل: إن الضمير في ﴿وَجَعَلَهَا﴾ يعود على الله تعالى.

(١) من حديث أبي أمامة في «المسند» (٢٢٢٦١) وهو حديث صحيح لغيره كما قال محققوه، وأخرجه الطيالسي (١١٤٠) والطبراني في «الكبير» (٧٧٢٩) والبيهقي (٨٤/١) وصححه الألباني في «السلسلة الصحيحة» (١٩٢٥).

ثَانِيَا: دَعْوَةُ مُحَمَّدٍ ﷺ إِلَى التَّوْحِيدِ

ثم بيّن ﷺ أنه لم يُجب دعوة إبراهيم جميع ذريته، ولم يجعل كلمة التوحيد باقية في جميع عقبه؛ لأن كثيراً من نسله كذبوا محمداً ﷺ، وقالوا: إنه ساحر، ومنهم من مات على ذلك، فلم تزل كلمة التوحيد موجودة في ذرية إبراهيم ﷺ حتى دخلهم الترف والطغيان، فكان منهم الظالم لنفسه، ومنهم السابق بالخيران، ومنهم المقتصد.

وقد بيّن سبحانه عاقبة من فرطوا في وصية إبراهيم، فقال:

٢٩- ﴿بَلْ مَتَّعْتُ هَؤُلَاءِ وَآبَاءَهُمْ حَتَّىٰ جَاءَهُمُ الْحَقُّ وَرَسُولٌ مُّبِينٌ ﴿٢٩﴾﴾

أي: إن الله تعالى أمهل المكذبين برسول الله إبراهيم ﷺ فلم يعاجلهم بالعقوبة، لعلمهم يرجعون عن كفرهم، وأمدّهم بالمال والمتاع وطول العمر والنعمة، هم وآباءهم إلى أن جاءهم الحق وهو القرآن، ورسول مبين هو محمد ﷺ، حيث جاءهم برسالة واضحة المعالم، فبيّن لهم الهدى من الضلال، وأقام لهم الأدلة العقلية والنقلية على توحيد الله سبحانه، وعلى صدق رسوله ﷺ، ولكنهم اغتروا بما هم فيه من مهلة، واشتغلوا بالنعيم واتباع الشهوات، وعوّلوا على تقليد الآباء، ولم يتفكروا فيما جاءهم به محمد ﷺ فأعرضوا عن توحيد الله وتصديق رسوله.

ومدة المهلة التي تمتعت بها ذرية إبراهيم دون عقوبة، هي الفترة التي تركوا فيها بدون رسالة، وهي ما بين عيسى ومحمد، أي: المدة بين آخر رسول قبل محمد ﷺ، وهو عيسى عليه السلام إلى أن جاء محمد ﷺ وهذه المدة تزيد على خمسة قرون.

أما الآباء فالمراد بهم: الذين جلبوا عبادة الأصنام وسئوها بين الناس، مثل عمرو بن لُحَيٍّ، ومن بعدها من بعده، وقد انتهى هذا التمتع بمجيء النبي محمد ﷺ فأخذوا بالعذاب يوم بدر، ويوم حنين، ويوم الأحزاب، وغير ذلك، وهم ممن قال الله فيهم: ﴿وَأَمُّ سَمِيعَهُمْ ثُمَّ يَمْسُهُمْ رَبُّنَا عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [هود: ٤٨].

وهدى الله من بقي منهم يوم فتح مكة، وعام الوفود، وما بعد ذلك.

وقد أخبر الله سبحانه أن الظالمين لأنفسهم بالشرك لا يكونون أئمة يقتدى بهم، كما قال تعالى لإبراهيم: ﴿إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا قَالَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ﴾ [البقرة: ١٢٤].

وبين سبحانه أن من نسل إبراهيم وإسماعيل من هو: ﴿مُحْسِنٌ وَظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ مِثْلُ﴾ [الصافات: ١١٣].

وقال سبحانه: ﴿فَقَدْ ءَاتَيْنَا آلَ إِبْرَاهِيمَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَءَاتَيْنَاهُم مُّلْكًا عَظِيمًا لَا فِيْنَهُمْ مِّنْ ءَٰمَنَ بِهِ وَهُمْ مِّنْ صَدِّعَةٍ﴾ [النساء: ٥٤، ٥٥].

وقال أيضاً: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا وَإِبْرَاهِيمَ وَجَعَلْنَا فِيْ ذُرِّيَّتِهِمَا النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ فَمِنْهُمْ مُّهْتَدٍ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَسِقُونَ﴾ [الحديد: ١٢].

وفي الآية التالية بيان لموقف المكذبين من دعوة الإسلام؛ قال تعالى:

٣٠- ﴿وَلَمَّا جَاءَهُمُ الْحَقُّ قَالُوا هَذَا سِحْرٌ وَإِنَّا بِهِ كَافِرُونَ﴾ [٢٠]

أي: ولما انتهت مهلة التمتع لأهل الفترة، جاءهم محمد ﷺ بالقرآن العظيم ليخرجهم من الظلمات إلى النور، ومن الكفر إلى الإيمان، فكان موقفهم منه أن قالوا عن القرآن: إنه سحر، وليس من كلام الله، فكفروا به، وكفروا بالرسول الخاتم، وجحدوا رسالته عُتَوْا واستكبارًا وحسدًا.

﴿وَلَمَّا جَاءَهُمُ الْحَقُّ﴾ وهو القرآن المنزل على رسول الله محمد ﷺ ﴿قَالُوا﴾ عن القرآن ﴿هَذَا سِحْرٌ﴾ يسحرنا به، وليس بوحي، وقالوا عن محمد ﷺ: إنه ساحر، فكانوا قبل مجيء القرآن في غفلة وتساهل، وبعد مجيء القرآن في عناد ومكابرة.

ثم إنهم كفروا بالقرآن الذي وصفوه بالسحر، حيث قالوا: ﴿وَإِنَّا بِهِ كَافِرُونَ﴾. وهذا من أعظم المعاندة، فإنهم لم يكتفوا بمجرد الإعراض عن الحق، ولا بجحوده، وإنما قدحوا فيه، وجعلوه بمنزلة السحر الباطل، الذي لا يأتي به إلا السحرة الذي يفترون على الله الكذب، والذي حملهم على هذا هو طغيانهم بما متّعهم الله به هم وآباؤهم.

اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ

٣١- ﴿وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَى رَجُلٍ مِّنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ﴾

أي: إن الكفار حسدوا محمداً ﷺ على النبوة، واستبعدوا أن ينزل الوحي على فقير يتيم، وظنوا أن الرسالة ينبغي أن ينالها كبير القوم، صاحب المال والجاه، فلو كان هذا القرآن حقاً من عند الله، فهلاً نزل على رجل عظيم من إحدى هاتين القريتين (مكة أو الطائف) الوليد بن المغيرة في مكة، وعروة بن مسعود الثقفي في الطائف، هذه رواية قتادة^(١) وهو المشهور.

وقال مجاهد: عنوا بعظيم مكة: عتبة بن ربيعة، وبعظيم الطائف: كنانة بن عبد باليل^(٢). وقيل غير ذلك.

إن المتتبع لسير الأنبياء يجد أن الحقد والحسد هو الذي يعترض طريق الرسل، فهؤلاء قوم ثمود يقولون عن نبيهم صالح ﷺ: ﴿أَلَفَى الذِّكْرُ عَلَيْهِ مِنْ بَيْنِنَا بَلْ هُوَ كَذَّابٌ أَشِرٌّ﴾ [القمr].

وهذا فرعون يقول عن موسى ﷺ: ﴿أَمْ أَنَا خَيْرٌ مِّنْ هَذَا الَّذِي هُوَ مَهِينٌ وَلَا يَكَادُ يُبِينُ﴾ وقد اعترض بنو إسرائيل على تنصيب طالوت ملكاً، فقالوا: ﴿أَنَّى يَكُونُ لَهُ الْمُلْكُ عَلَيْنَا وَنَحْنُ أَحَقُّ بِالْمُلْكِ مِنْهُ وَلَمْ يُؤْتَ سَعَةً مِّنَ الْمَالِ﴾ وجاء الرد عليهم: ﴿إِنَّ اللَّهَ أَصْطَفَاهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُ بَسْطَةً فِي الْعِلْمِ وَالْجِسْمِ﴾ [البقرة: ٢٤٧].

وهكذا اعترض كفار قريش على رسالة محمد ﷺ، فقالوا: ﴿أَنزِلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ مِنْ بَيْنِنَا﴾ [ص: ٨]، واقترحوا على النبي ﷺ بعقولهم الفاسدة، أن ينزل هذا القرآن على أحد الرجلين من أهل مكة أو الطائف.

يقول الشيخ محمد الغزالي -رحمه الله-: إن تنوير الأقطار، وتحرير العبيد، ونقل الأجيال من القاع إلى القمة، يتطلب معادن خاصة، ورجالاً من طراز نفسي رفيع، ولا يُرشح لذلك شخص لديه مال كثير يُنفقه في مآربه وملذاته، والبشر من الناحية المادية

(١) أخرجه الطبري بسند حسن (٥٨٢/٢٠).

(٢) أخرجه عبد بن حميد، وابن المنذر وابن أبي حاتم، كما في «الدر المشور» (٢٠٢/١٣).

يرأس بعضهم بعضًا، فالمهندس يأمر العامل، والقائد يأمر الجندي.

ولكن ما علاقة ذلك بزكاة الروح، وسناء الضمير، وزراعة الخير في أرجاء الحياة؟
ولذلك يقول الله تعالى ردًا على تعيين أحد العمد نبياً^(١):

٣٢- ﴿أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُمْ مَعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِّتَتَّخِذَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا سُخْرِيًّا وَرَحْمَتُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ﴾ (٣٢)

والمراد برحمة ربك: النبوة والرسالة، أي: أ هم يمنحون النبوة، فيخصون بها من شاؤوا، ويمنعونها عن من شاءوا، حتى يقترحوا أن تكون لفلان الثري، أو لفلان كبير القوم، وفي هذا تجهيل لهم وتعجب من اعتراضهم، وكأن بأيديهم مفاتيح الرحمة يضعونها حيث شاؤوا؟!

إن تفاوت الناس في أمور الدنيا لا دخل له في اصطفاء الرسل الذين يصنعهم الله على عينيه ليربوا البشر، ويخرجوهم من عبادة العباد إلى عبادة رب العباد.

ولما كانت رسالة النبي ﷺ رحمة للعالمين سمّاها القرآن رحمة، وجعل تحكمهم فيها تحكماً في رحمة الله تعالى، فقال: ﴿أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ﴾. أي: أ هم الخزان لرحمة الله، ويدهم مفاتيحها، فيعطون النبوة من شاؤوا ويمنعونها من شاؤوا؟

ثم ضرب سبحانه مثلاً على ذلك بتفضيل بعض الناس على بعض في الرزق، وفق ما تقتضيه الحكمة الإلهية، فقال سبحانه: ﴿نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُمْ مَعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ من الأرزاق والأقوات وغير ذلك، فجعلنا هذا غنياً وهذا فقيراً، وفاوتنا بينهم في الأموال والأرزاق، وإذا كان أمر المعيشة مع قلة شأنه، لم نتركه لهم، بل تولّينا قسّمته بأنفسنا، فكيف نترك أمر النبوة لأهوائهم، وهو عظيم الشأن؟

وإذا كنا لم نترك الحظوظ الفانية، ونمن بها على الخلق، فأولّى بنا ألا نترك الحظوظ الشريفة الباقية، فإذا كانت أرزاق العباد بيد الله، يوسعها على من يشاء، ويضيّقها على من

(١) «نحو تفسير موضوعي لسور القرآن» ص ٣٨١.

(٢) وقف ابن كثير وأبو عمرو والكسائي ويعقوب على (رحمت) بالهاء، ووقف الباقون بالتاء تبعاً للرسم، وذلك في الموضعين معاً وقد رسمت في المصحف بالتاء المفتوحة.

يشاء، بحسب حكمته، فإن مقام النبوة والرسالة أحق وأولى أن يكون بيد الله تعالى.

وكما أن الله تعالى ببالغ حكمته يدبر شؤون خلقه، فيجعل هذا قوياً وهذا ضعيفاً، وهذا مالِكاً وهذا مملوكاً، وهذا صحيحاً وهذا مريضاً؛ ليجتاح بعضهم إلى بعض، فيكون بعضهم سبباً لبعض في المعاش وأمر الحياة، كذلك الأمر، فإن الله تعالى رفع بعض خلقه على بعض في الرزق ﴿وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضًا سُخْرِيًّا﴾ أي: نحن قسمنا بينهم أسباب معيشتهم ليستعين بعضهم ببعض، فيتعارفوا ويتجمعوا لأجل حاجة بعضهم إلى بعض، فتكون من ذلك القبائل والمدن، وليكون كلٌ منهم مُسَخَّرًا عند الآخر، ويخدم بعضهم بعضاً لينتظم أمر الحياة، فيتنفع بعضهم من بعض، ولو كان الناس متساوين علماً وغنى وجاهاً وحِرْفةً، لم يخدم أحد أحداً، فيفضي هذا إلى فساد نظام الحياة؛ إذ لا يستقيم أن يكون الإنسان تاجراً وعالماً وخبّازاً وسبّاكاً وخبّاطاً ومَلِكاً وجندياً... إلخ.

فلا بد من أن يخدم الناس بعضهم بعضاً، ويرأس بعضهم بعضاً، وما يظفر به الناس من مال ومتاع وجاه وسلطان، لا يدل على خيريّة ولا أفضلية، فقد ييسط الله الرزق لقوم وهم حطب جهنم، وقد يُبتلى بالرق والعبودية مَنْ هم ملوك الجنة، أمثال: عمار بن ياسر، وبلال بن رباح ﴿إِنَّهُ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْ عِبَادِي يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّاحِمِينَ﴾ (١٩) ﴿فَاتَّخَذْتُمُوهُمْ سُخْرِيًّا حَتَّىٰ أَتَوْكُمْ ذِكْرِي وَكُنْتُمْ مِنْهُمْ تَضْحَكُونَ﴾ (٢٠) ﴿إِنِّي جَزَيْتُهُمُ الْيَوْمَ بِمَا صَبَرُوا أَنَّهُمْ هُمُ الْفَٰكِرُونَ﴾ (٢١) [المؤمنون].

قال قتادة: تلقى ضعيف القوة، قليل الحيلة، عيى اللسان، موسّعاً عليه في الرزق، وتلقى شديد الحيلة، بسيط اللسان، مقترّاً عليه في الرزق^(١).

ولفظ: ﴿سُخْرِيًّا﴾ من التسخير، وليس من السخرية، وهذا كقول الله تعالى: ﴿وَاللَّهُ فَضَّلَ بَعْضُكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ فِي الرِّزْقِ﴾ [النحل: ٧١].

وقوله سبحانه: ﴿أَنْظُرْ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ وَلِلْآخِرَةِ أَكْبَرُ دَرَجَاتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلًا﴾ [الإسراء].

وكما أن رسالة النبي ﷺ رحمة للعالمين، فهي أيضاً رحمة له ﷺ، ودرجة النبوة أفضل ألف مرة من المال والمتاع والجاه، ولذا قال تعالى: ﴿وَرَحِمْتُ رَبِّيكَ﴾ أي: بالرسالة والنبوة

(١) أخرجه الطبري بسند حسن (٢٠/٥٨٤).

﴿خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ﴾ أي: من المال والمتاع، وفي هذا جواب لمن قالوا: ﴿لَوْلَا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَى رَجُلٍ مِّنَ الْفَرِيقَيْنِ عَظِيمٍ﴾.

ولو أنهم عرفوا علو قدر النبي ﷺ وعظيم منزلته عند الله تعالى، وعرفوا الخصائص والصفات التي حبا الله بها محمداً ﷺ، لعلموا أنه أعظم الرجال قدراً، وأكملهم عقلاً، وأفضلهم خلقاً، وإليه تنتهي أوصاف الرجال، وهو الرجل الأول في العالم على الإطلاق، فلا ينبغي بحال أن يفضل عليه غيره، ولا أن يقدم عليه غيره، فهو ﷺ سيد ولد آدم ولا فخر ﴿قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ﴾ [يونس]

وكذلك رحمة الله تعالى بإدخال المؤمنين الجنة خير وأبقى مما يجمعون من حطام الدنيا الفاني.

التَّوَسُّعُ فِي الرِّزْقِ لَيْسَتْ دَلِيلًا عَلَى مَحَبَّةِ اللَّهِ تَعَالَى

٣٣، ٣٤ - ﴿لَوْلَا أَن يَكُونَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً لَّجَعَلْنَا لِمَن يَكْفُرُ بِالرَّحْمَنِ لِبُيُوتِهِمْ ^(١) سُقُفًا ^(٢) مِّنْ فِضَّةٍ وَمَعَارِجَ عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ ﴿٣٣﴾ وَلِبُيُوتِهِمْ أَبْوَابًا وَسُرُورًا عَلَيْهَا يُتَكَوَّنُونَ ﴿٣٤﴾﴾ وتمضي الآيات في بيان الآثار المترتبة على كفر من كفر بصاحب الرسالة العالمية.

أي: ولولا أن يُخدع الناس جميعاً بتنعيم الكفار، لجعلَ الله حظوظ الدنيا تنهمر عليهم، ومن حكمة الله تعالى أن أغنى بعض الناس وأفقر بعضاً، ولو أن الله تعالى وسَّع على المسلمين كثيراً في الرزق لأقبل الناس على الإسلام لأجل الدنيا، وكان إسلامهم نفاقاً.

وهذه الدنيا لا تساوي عند الله جناح بعوضة، وقد أدخر الله للمؤمنين عنده دار الكرامة والنعيم.

ولولا أن يَرْغَبَ الناس في الكفر، فيقبلوا عليه جميعاً، حباً في الدنيا وزخرفها، فلا يبقى في الأرض مؤمن، بل يجتمعون على الكفر لأجل المال، ويظنون أن سعادة الدنيا

(١) قرأ قالون وابن كثير وابن عامر وشعبة وحزمة والكسائي وخلف بكسر الباء من (لبُيُوتِهِمْ) وفي الآية التالية (ولِبيوتِهِمْ)، وقرأ الباقون بضم الباء في الموضعين معاً، وهما لغتان.

(٢) قرأ ابن كثير وأبو عمرو وأبو جعفر بفتح السين وإسكان القاف من (سُقُفًا) على الأفراد، لإرادة الجنس، والباقيون بضمها على الجمع.

من المال والمتاع ملازمة للكفر، لولا ذلك، لخصص الله هذه الدنيا للكفار، وجعل لهم القصور الشاهقة، المزخرفة بأنواع الزينة والنقوش، وجعل سقوفها من الفضة الخالصة، وجعل لهم مصاعد وسلالم من فضة يرتقون عليها، وجعل أبواب بيوتهم وأسرة منامهم من فضة، زيادة في الرفاهية والنعيم؛ وترك المسلمين في الدنيا بدون هذه الرفاهية لِمَا أَدَّخَرَهُ لهم في الآخرة من نعيم وخيرات، وذلك لأن الدنيا سجن المؤمن وجنة الكافر.

ولكنه سبحانه أغنى بعض الكفار وأفقر بعضاً، وأغنى بعض المؤمنين وأفقر بعضاً؛ لتستقيم شؤون الحياة، ويُقبل الناس على الإيمان أو الكفر دون مؤثرات، قال تعالى: ﴿وَلَوْلَا أَنْ يَكُونَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً﴾ أي: لولا كراهية أن يكون الناس كلهم كفاراً، وجماعة واحدة على دين واحد هو الكفر ﴿لَجَعَلْنَا لِمَنْ يَكْفُرُ بِالرَّحْمَنِ﴾ أي: لأعطى الله الكفار ثراءً فاحشاً ووسّع عليهم غاية التوسعة، ومكّن لهم من الدنيا لحقارتها عند الله تعالى، وجعل ﴿لِيُؤْتِيَهُمْ سُقْفًا مِّنْ فَضَّةٍ﴾ أي: جعل سقوف البيوت من فضة، وجعل المعارج وهي السلالم والمصاعد من فضة أيضاً ﴿وَمَعَارِجَ عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ﴾ أي: يصعدون عليها ويرتقون، وهذا من مظاهر الثراء.

ولجعل أبواب بيوتهم أيضاً من فضة، وجعل أسرّتهم التي يتكئون عليها كلها من فضة. وكذلك الأمر، لو أن الله تعالى وسّع على المسلمين في الدنيا فأغدق عليهم بالمال والمتاع، لو حدث هذا لأقبل الناس على الإسلام من أجل الدنيا، وفي هذا مفسدة ونفاق وفتنة. قال تعالى:

٣٥- ﴿وَزُخْرُفًا وَإِنْ كُلُّ ذَلِكَ لَمَّا^(١) مَتَّعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةُ عِنْدَ رَبِّكَ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٣٥﴾﴾

أي: وجعل كل ما سبق من المساكن والأثاث من ذهب أيضاً، فترى الأبواب والسرر والمصاعد، وأسقف المنازل بالذهب، وتزخرف به، ذلكم قول الله تعالى: ﴿وَزُخْرُفًا﴾ قيل: إن الزخرف هو الذهب نفسه، وقيل: هو أساس البيت وما يُتخذ له من الستور والنمازق ونحوها.

(١) قرأ عاصم وحزمة وابن جمار وهشام بخلف عنه بتشديد الميم من (لَمَّا) على أنها بمعنى: إلا وإن نافية، وقرأ الباقر بتخفيف الميم وهو الوجه الثاني لهشام على أن (إِنْ) مخففة من الثقيلة واللام هي الفارقة.

ولعل لفظ الزخرف يشمل الذهب والفضة وغيرهما مما يُزخرف ويُنقش به، ويشمل الستائر والنمازق والنقوش، وقطع الزينة ونحو ذلك.

وكل هذا نعيم زائل، ومتاع فانٍ، ولو أراد الله أن يخصَّ به الكافرين لفعل.

ولولا أن يرغب الناس في الكفر، فيقبلوا عليه حين يرون هذه التوسعة على الكفار، ويكونوا أمة واحدة على دين واحد هو الكفر، لولا هذا لفعل الله ذلك سبحانه، ولكنه تعالى لم يشأ ذلك؛ لأنه جعل الناس فريقين: فريقاً في الجنة، وفريقاً في السعير. قال تعالى:

﴿وَلَا يَزَالُونَ مُخْلِفينَ ۖ ﴿١٧٨﴾ إِلَّا مَنْ رَجِمَ رَبُّكَ وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴿١٧٩﴾﴾ [هود].

ثم بيّن سبحانه أن متاع الدنيا قليل زائل، وأن نعيم الآخرة مدّخر عند الله للمتقين، فقال تعالى: ﴿وَالْآخِرَةُ عِنْدَ رَبِّكَ لِلْمُتَّقِينَ﴾ وهم الذين اتقوا الشرك والمعاصي، وآمنوا بالله وحده، وعملوا بطاعته، وفي هذا وعد كريم، وتحريض على التقوى.

والإنسان يستمتع قليلاً بما في الدنيا، والمتاع الدائم خاص بالمتقين في الآخرة، فهم أهل السعادة الأبدية، قال تعالى: ﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنْطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالْأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ذَلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاللَّهُ عِنْدَهُ حُسْبُ الْمَآبِ ﴿٧٤﴾﴾ [آل عمران].

أحاديث في المعنى:

١- عن سهل بن سعد رضي الله عنه قال: كنا مع النبي ﷺ بذئ الحليفة، فإذا هو بشاة ميتة، شائلة برجلها، فقال: «أترون هذه هيئة على صاحبها؟ فوالذي نفسي بيده للدنيا أهون على الله، من هذه على صاحبها، ولو كانت الدنيا تزن عند الله جناح بعوضة ما سقى كافراً منها قطرة ماء أبداً»^(١).

(١) أخرجه الترمذي برقم (٢٣٢٠) وقال: حديث حسن غريب، وابن ماجه برقم (٤١١٠) وهذا لفظه وهو في «صحيح سنن ابن ماجه» (٣٣١٨) وانظر: «معالم التنزيل» للبغوي (٧/٢١٣). وصححه الألباني أيضاً في السلسلة الصحيحة (٦٨٦ و٢٤٨٢).

٢- وعن المستورد بن شداد رضي الله عنه، جَدُّ بني فهر، قال: كنت في الركب الذين وقفوا مع رسول الله ﷺ على السَّخْلَةِ الميته، فقال ﷺ: «أترون هذه هانت على أهلها حين ألقوها؟» قالوا: من هوانها ألقوها يا رسول الله، قال: «فإن الدنيا أهون على الله من هذه الشاة على أهلها»^(١).

٣- وعن قتادة بن النعمان رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «إذا أحب الله عبدًا حماه من الدنيا كما يَظَلُّ أحدكم يحمي سقيم الماء»^(٢).

٤- وعن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «الدنيا سجن المؤمن وجنة الكافر»^(٣).

٥- وفي الصحيحين: أن رسول الله ﷺ قال: «لا تشربوا في آنية الذهب والفضة، ولا تأكلوا في صحافها، فإنها لهم في الدنيا ولنا في الآخرة»^(٤).

ولما رأى عمر رضي الله عنه رسول الله ﷺ قد أثر الحصر في جنبه، ابتدرت عيناه بالبكاء، وقال: يا رسول الله، هذا كسرى وقصر فيما هما فيه، وأنت صفوة الله من خلقه، وكان رسول الله ﷺ متكئًا فجلس، وقال: «أوفي شك أنت يا بن الخطاب؟ أولئك قوم عُجِّلَتْ لهم طيباتهم في حياتهم الدنيا».

وفي رواية: «أما ترضى أن تكون لهم الدنيا ولنا الآخرة»^(٥).

وفي الآية دليل على أن الله تعالى قد يمنع بعض خلقه شيئًا من نعمه حتى لا يتسرعوا في الكفر والمعاصي بسبب حب الدنيا، وكل ما فيها من متاع منغص ومكدر، والآخرة خير للمتقين بامثال أوامر الله تعالى واجتناب نواهيه، وفي الجنة ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر، فشتان ما بين الدنيا والآخرة.

(١) أخرجه الترمذي وقال: حديث حسن، وصححه الألباني في «صحيح سنن الترمذي» (١٨٩٠) وهو في «سنن ابن ماجه» برقم (٤١١١). وصححه الألباني في صحيح ابن ماجه (٣٣١٩) والتعليق الرغيب (١٠١/٤).

(٢) أخرجه الترمذي وقال: حديث حسن غريب، وصححه الألباني في «صحيح سنن الترمذي» برقم (١٦٥٩) و«صحيح مشكاة المصابيح» (٥٢٥٠).

(٣) أخرجه مسلم برقم (٢٩٥٦).

(٤) البخاري (٥٦٣٣، ٥٤٢٦) ومسلم (٢٠٦٧).

(٥) البخاري (٨٩، ٤٩١٣) ومسلم (١٤٧٩).

تَسْلِيْطُ الشَّيَاطِيْنَ عَلَى أَهْلِ الضَّلَالِ عُقُوْبَةُ لَهُمْ

٣٦- ﴿وَمَنْ يَّعِشْ عَنْ ذِكْرِ الرَّحْمَنِ نُقَيِّضْ^(١) لَهُ شَيْطَانًا فَهُوَ لَهُ قَرِيْنٌ ﴿٣٦﴾﴾

نوّهت سورة الزخرف بشأن القرآن العظيم، وبيّنت أنه ذِكر وبيان للناس، وأن الله تعالى لا يترك تذكير الناس به لإعراضهم عنه، ووصفت السورة تناقض عقائد المكذبين في عبادة غير الله تعالى مع اعترافهم بوجوده سبحانه، وبيّنت أن سبب ذلك هو التقليد لمن سبقهم، وأنهم وصفوا القرآن بأنه سحر، واعترضوا على كون الرسول يتيماً فقيراً.

بعد ذلك بيّن سبحانه أن من يُعرض عن القرآن وعن عبادة الرحمن، يهيئ الله له قريناً من الشياطين يضلّه ويغويه، ولا ينفك عن الوسوسة له، عقوبة له على تأصيل الضلال فيه.

قال تعالى: ﴿وَمَنْ يَّعِشْ عَنْ ذِكْرِ الرَّحْمَنِ﴾ أي: ومن يتعامّ ويتغافل عن القرآن الكريم ويُعرض عن العمل بما فيه، فلا يخاف عقاباً ولا يرجو ثواباً، ولا يهتدي بهداه، فهو ممن لا ينفع فيهم الإنذار، ولا تفيدهم الموعظة، ولذلك فإن الله تعالى يجعل لكلّ منهم شيطاناً يلازمه، وهذا معنى: ﴿نُقَيِّضْ لَهُ شَيْطَانًا فَهُوَ لَهُ قَرِيْنٌ﴾ وهذا القرين يضلّه ويغويه مدة حياته، جزاء إعراضه عن ذكر الله تعالى، فهو مصاحب له، يمنعه من الحلال، ويحثّه على الحرام، والسبب في ذلك أنه لما زاغ قلبه عن الهدى أزاغ الله قلبه عنه، فهو قد رضي هذا الطريق باختياره، كما قال تعالى: ﴿فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ﴾ [الصف: ٥].

وقال أيضاً: ﴿وَمَا يُضِلُّ بِهِ إِلَّا الْفَاسِقِينَ﴾ [البقرة: ٢٦].

وقال سبحانه: ﴿وَقَيَّضْنَا لَهُمْ قُرَنَاءَ فَزَيَّنُوا لَهُمْ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ﴾ [فصلت: ٢٥].

فالله تعالى يعاقب على المعصية بالزيادة في المعاصي، ويجازي على الحسنات.

ولا عذر لهؤلاء المعرضين عن ذكر الله، لأنهم متمكنون من الهداية قادرون عليها ولكنهم تركوا الحق ورغبوا في الباطل.

(١) قرأ يعقوب وشعبة بخلف عنه بالياء في (نقّض) موافقة للسياق، والفاعل ضمير يعود على الرحمن، وقرأ الباقون بنون العظمة على الالتفات، وهو الوجه الثاني لشعبة.

وهؤلاء الشياطين يُحَوِّلُونَ بينهم وبين طُرُق الهداية، فيزيِّنون لهم العمل السيئ فيرونها حسناً في أعينهم، قال تعالى عن قرناء السوء:

٣٧- ﴿وَلَا تَنصُرْهُمْ لَيْصُهُمْ فِي السَّبِيلِ وَيَحْسَبُونَ^(١) أَنَّهُمْ مُّهْتَدُونَ﴾

أي: إن الشياطين يصدون الناس عن سبيل الحق، ويُغضِّضون لهم الإيمان بالله تعالى والعمل بطاعته، ويظن هؤلاء المعرضون أنهم على الحق والهدى بتزيين الشيطان لهم ما هم عليه من ضلال ﴿وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ مُّهْتَدُونَ﴾.

قال تعالى: ﴿أَفَمَنْ زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ فَرَآهُ حَسَنًا﴾ [فاطر: ٨].

وقد يؤمن الكافر في الدنيا فينقطع هذا الإغواء، ويتعد عن طريق الشيطان.

وهكذا يجد المبطلون أعواناً يتجاوبون معهم، وينصرون باطلهم بطريقة أو بأخرى، كما قال تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَاطِينَ الْإِنسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُورًا﴾ [الأنعام: ١١٢]. وما من أحد إلا ومعه قرين من الجن:

١- عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «ما منكم من أحد إلا وقد وُكِّلَ به قرينه من الجن» قالوا: وإياك يا رسول الله؟ قال: «وإياي، إلا أن الله أعانني عليه فأسلم، فلا يأمرني إلا بخير»^(٢).

ولفظ «فأسلم» وردت برفع الميم، بمعنى: أسلم أنا من شره وفتته.

ووردت بفتح الميم، أي: إن القرين قد أسلم وصار مؤمناً فلا يأمرني إلا بخير.

٢- وعن عائشة رضي الله عنها أن رسول الله ﷺ خرج من عندها ليلاً، قالت: فغُرْتُ عليه، فجاء فرأى ما أصنع، فقال: «ما لك يا عائشة أغرَّت؟» فقلت: وما لي لا يغار مثلي على مثلك؟ فقال: «لقد جاءك شيطانك» قلت: يا رسول الله، أو معي شيطان؟ قال: «نعم،

(١) قرأ ابن عامر وعاصم وحزمة وأبو جعفر بفتح السين من (يحسبون)، والباقون بكسرها.

(٢) «صحيح مسلم» (٢٨١٤) وانظر: رواية ابن عباس في «المسند» (٣٢٣٢).

ومع كل إنسان» قلت: ومعك؟ قال: «نعم، ولكن ربي أعانني عليه حتى أسلم»^(١).

وقرين الكافر يلزمه، أما قرين المؤمن فيتخوّل ويتتبع غفلاته.

٣- أخرج الإمام أحمد في كتاب الزهد عن وهب بن منبه قال: ليس من الآدميين أحدٌ إلا ومعه شيطان موكل به، أما الكافر فيأكل معه من طعامه، ويشرب معه من شرابه، وينام معه على فراشه، وأما المؤمن فهو مُجَانِبٌ له ينتظره متى يصيب منه غفلة أو غرة، فيثب عليه، وأحب الآدميين إلى الشيطان، الأكل والنوم.

٤- وعن سعيد الجُزيري قال: بلغنا أن الكافر إذا بُعث يوم القيامة من قبره أخذ بيده شيطان، فلم يفارقه حتى يُصَيِّرهما الله إلى النار، فذلك حين يقول: ﴿قَالَ يَلَيْتَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ بَعْدَ الْمَشْرِقَيْنِ فَيَنسَ الْقَرِينُ﴾ قال: وأما المؤمن فيوكل به ملك حتى يُقْضَى بين الناس أو يصير إلى الجنة.

وشياطين الإنس يقيضون للمؤمنين قرناء منهم لإغوائهم وإضلالهم:

عن محمد بن عثمان المخزومي أن قريشاً قالت: قَيِّضُوا لكل رجل من أصحاب محمد رجلاً يأخذه، فقيضوا لأبي بكر طلحة بن عبيد الله، فأتاه وهو في القوم، فقال أبو بكر: إلام تدعوني؟ قال: أدعوك إلى عبادة اللات والعزى، قال أبو بكر: وما اللات؟ قال: ربنا، قال: وما العزى؟ قال: بنات الله، قال أبو بكر: فمن أمهم؟ فسكت طلحة فلم يجبه، فقال طلحة لأصحابه: أجيئوا الرجل، فسكت القوم، فقال طلحة: قم يا أبا بكر، أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله، فأنزل الله ﴿وَمَنْ يَعْشَ عَنْ ذِكْرِ الرَّحْمَنِ نُقَيِّضْ لَهُ شَيْطَانًا فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ﴾^(٢).

وإذا كان حال المعرض عن ذكر الله في الدنيا، هو ا لضلال وإغواء القرين، فإنه في الآخرة يندم ويتحسر ويحزن، ويبرؤ من قرينه، كما قال تعالى:

(١) «صحيح مسلم» (٢٨١٥).

(٢) أخرجه ابن أبي حاتم كما في «الدر» (١٠٦/١٣) و«أسباب النزول» للسيوطي (٢٥٣).

٣٨- ﴿حَتَّىٰ إِذَا جَاءَنَا^(١) قَالَ يَلَيْتَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ بَعْدَ الْمَشْرِقَيْنِ فَيَلْسَ الْقَرِينُ﴾

أي: فإذا كان يوم القيامة، فإن كل قرين يُحشر مع قرينه، وعندئذ يتمنى الكافر أن يكون بينه وبين قرينه الذي أغواه أمداً بعيداً كما بين المشرق والمغرب وهو يسُّبُّه ويذمه ﴿حَتَّىٰ إِذَا جَاءَنَا﴾ أي: الذي أعرض عن ذكر الرحمن، جاء هو وقرينه يوم القيامة للحساب والجزاء ﴿قَالَ يَلَيْتَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ بَعْدَ الْمَشْرِقَيْنِ﴾ أي: قال المعرض لقرينه: وددت أن بيني وبينك بُعد ما بين المشرق والمغرب ﴿فَيَلْسَ الْقَرِينُ﴾ أنت حيث أغويتني، وهكذا يتبرأ الشيطان ممن أضله، ويقول: لقد كان هو على ضلال ﴿قَالَ قَرِينُهُ رَبَّنَا مَا أَفْعَيْتُهُ وَلَكِنْ كَانَ فِي ضَلَالٍ بَعِيدٍ﴾ [ق].

وقال تعالى: ﴿وَيَوْمَ يَعْصُ الْأَعْمَالُ عَلَىٰ يَدَيْهِ يَقُولُ يَلَيْتَنِي أَخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَبِيلًا﴾ ﴿يَوَلَّىٰ لَيْتَنِي لَمْ أَخَذْ فَلَانًا خَلِيلًا﴾ ﴿لَقَدْ أَضَلَّنِي عَنِ الذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَاءَنِي وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِلْإِنْسَانِ خَذُولًا﴾ [الفرقان]

قال أبو سعيد الخدري رضي الله عنه: إذا بُعث الكافر زوج بقرينه من الشياطين فلا يفارقه حتى يصيرا إلى النار، حيث يُربط معه بسلسلة.

ويقال للمشرق والمغرب: المشرقين، من باب التغليب، كما يقال: الظهريين لصلاتي الظهر والعصر، والمراد بهما: مكان شروق الشمس ومكان غروبها في الأفق، أو الجهة التي تبدؤ منها الشمس عند الشروق والغروب. قال تعالى:

٣٩- ﴿وَلَنْ يَنْفَعَكُمُ الْيَوْمَ إِذْ ظَلَمْتُمْ أَتُكْرَ فِي الْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ﴾

أي: ولكل واحد من القرين وقرينه نصيبه الأوفر من العذاب يوم القيامة، واشترакهم في العذاب لا يخفف عن فريق دون فريق، وإلقاء اللوم والتبعة من كل منهما على الآخر لا يفيد شيئاً، فالمشرك مؤاخذ بطاعته للقرين، والقرين مؤاخذ بإضلاله وإغوائه لقرينه، وكلهم مشتركون في العذاب ﴿وَلَنْ يَنْفَعَكُمُ الْيَوْمَ﴾ أيها المعرضون عن كتاب الله وسنة رسوله اشتراككم أنتم وقرنائكم في العذاب، فقد اشتركتم في العذاب لاشتراككم في

(١) قرأ نافع وابن كثير وابن عامر وشعبة وأبو جعفر بألف بعد الهمزة من (جاءنا) على التنثية، والباقيون بغير ألف، والفاعل ضمير يعود على (من).

الظلم، حيث كنتم في الدنيا مشركين بالله ﴿إِنكُم﴾ يومئذ وأنتم في عرصات القيامة ﴿فِي الْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ﴾ أنتم وقرنأؤكم، فكما اشتركتم في الكفر في الدنيا تشتركون اليوم في العذاب، وهذا بخلاف ما يحدث في الدنيا، فإن المصيبة فيها إذا عمّت هانت، وتسلى بعضهم ببعض، ولن ينفعكم ندمكم، ولا تمنىكم العودة للدنيا لتدارك ما فاتكم.

واشتراكم في العذاب لن يخفف عنكم شيئاً منه، وإلقاؤكم بالمسؤولية على من أضلوكم، وسؤالكم لهم مضاعفة العذاب لا يفيدكم شيئاً، كما قال تعالى عنهم: ﴿قَالُوا رَبَّنَا مَنْ قَدَّمَ لَنَا هَذَا فَزِدْهُ عَذَابًا ضِعْفًا فِي النَّارِ﴾ ﴿٦١﴾ [ص].

وقال سبحانه ﴿رَبَّنَا ءَاتِنَا ضِعْفَيْنِ مِنَ الْعَذَابِ وَالْعَنَّا كَبِيرًا﴾ ﴿٦٨﴾ [الأحزاب].

لَا سَبِيلَ إِلَى هِدَايَةِ مَنْ اسْتَحَبَّ الْكُفْرَ عَلَى الْإِيمَانِ

٤٠- ﴿أَفَأَنْتَ^(١) تُسْمِعُ الصُّمَّ أَوْ تَهْدِي الْأَعْمَى وَمَنْ كَانَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ ﴿٤٤﴾

ولما بين سبحانه أن المعرضين عن ذكر الله تعالى متوغلون في الضلال، وأن انفكاكهم عنه أمر عسير؛ لأن مقارنة الشياطين لهم مستمرة، بعد ذلك هوّن الله تعالى على النبي ﷺ أمر تصميمهم على الكفر؛ حتى لا يحزن، فبين تعالى أنهم بمنزلة الصم والأعمى في عدم انتفاعهم بالقرآن وما فيه ﴿أَفَأَنْتَ تُسْمِعُ الصُّمَّ﴾ أي: هل أنت -يا محمد- تقدر أن تُسمع من أصمّه الله عن سماع الحق ﴿أَوْ تَهْدِي الْأَعْمَى﴾ أي: هل تقدر أن ترشد إلى طريق الهدى من أعمى الله قلبه عن إبطاره، وهل تقدر أن تهدي ﴿مَنْ كَانَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ أي: من حاد عن طريق الحق بشكل واضح؟ إنك لا تملك هداية مَنْ هُمْ بمنزلة الصم والأعمى؛ إذ ليس ذلك إليك -أيها الرسول- إنما عليك البلاغ، وليس عليك هدايتهم، ولكن الله يهدي من يشاء ويضل من يشاء ﴿إِنْ تَحَرَّصَ عَلَى هُدَاهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ يُضِلُّ وَمَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرٍ﴾ ﴿٣٧﴾ [النحل].

﴿أَفَأَنْتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّى يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ﴾ [يونس: ٩٩] فأنت لا تستطيع أن تُسمعهم ولا تهديهم، بل الله سبحانه يسمعهم ويهديهم، وكما أن الأصم لا يسمع، والأعمى لا

(١) قرأ الأصهباني بتسهيل الهمزة الثانية من (أفأنت) وكذا حمزة عند الوقف، وحققها الآخرون.

يُصِرُّ، والضال لا يهتدى، فهؤلاء قد فسدت فطرهم وعقولهم بإعراضهم عن الذكر، واستحدثهم عقائد فاسدة تحول بينهم وبين الهدى.

وفي الآية ثلاثة أوصاف لغير المسلمين، فهم: صمٌّ، وعميٌّ، وفي ضلال بين، فانصرافهم عن الاستماع إلى القرآن والنظر في آياته يشبه حال الصمِّ العميِّ، والضلال المبين أعم منهما، وفيه تنبيه على عموم أحوالهم، فلا يضيق صدرك بهم -أيها الرسول- واصبر على أذى قومك، وما عليك إلا البلاغ.

حُلُولُ الْعِقَابِ بِالْكَفَّارِ حَاصِلٌ إِنْ عَاجَلًا أَوْ آجَلًا

٤١، ٤٢ - ﴿فَإِمَّا نَذْهَبَنَّ^(١) بِكَ فَإِنَّا مِنْهُمْ مُنْقِمُونَ ﴿١﴾ أَوْ نُرِيَنَّكَ^(٢) الَّذِي وَعَدْنَاهُمْ فَإِنَّا عَلَيْهِمْ مُّقَدِّرُونَ ﴿٢﴾

وعد الله رسوله بالانتقام من أهل الضلال إن عاجلاً أو آجلاً، فعذابهم حاصل سواء في حياة النبي ﷺ أو بعد مماته، كما أن الله تعالى مُّظْهِرٌ دينه، في حياة النبي ﷺ أو بعد مماته ﴿فَإِمَّا نَذْهَبَنَّ بِكَ﴾ أي: إن توفيناك -أيها النبي- قبل نصرِكَ على المكذِبين من قومك وقبل أن ترى بعينك ما نعدهم به من العذاب ﴿فَإِنَّا مِنْهُمْ مُنْقِمُونَ﴾ أي: فاعلم أن وعدنا صادق، وأنا سننتقم منهم ولا بد في الدنيا أو الآخرة، والانتقام منهم من أجل إعراضهم عن أمرنا وديننا، وقد كان المشركون يتربصون الموت للنبي ﷺ حتى يستريحوا من دعوته، فأعلمه الله تعالى أنهم لن يفلتوا من العقاب الدنيوي أو الآخروي، بعد رحيله ورحيلهم عن الدنيا، هذه هي الحالة الأولى، وهي تتضمن وعيدهم بالعذاب بعد مماته.

ثم ذكر الله تعالى الحالة الأخرى، وهي عذاب المكذِبين في حياة النبي ﷺ، فيرى بعينه ما توعدهم الله به قبل مماته، وهذا معنى ﴿أَوْ نُرِيَنَّكَ الَّذِي وَعَدْنَاهُمْ﴾ أي: من العذاب الذي ينزل بهم في حياتك، كما حدث للمشركين يوم بدر، ويوم حنين، ويوم الأحزاب، حيث قُتِلَ صناديدهم على مرأى من رسول الله ﷺ ﴿فَإِنَّا عَلَيْهِمْ مُّقَدِّرُونَ﴾ أي: فهم في قبضتنا وتحت تصرفنا، ولن يفلتوا من عقابنا، سواء في الدنيا أو الآخرة، أو

(١)، (٢) قرأ رويس بتخفيف النون في (نذهب) و (نرينك) وإذا وقف على (نذهب) وقف بالألف على الأصل في نون التوكيد الخفيفة، وقرأ غيره بالشدید فيهما.

فيهما معاً، وسوف نُظهر دينك عليهم، ونُخزيهم بيدك ويد المؤمنين، قال تعالى: ﴿وَإِن مَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَقَّعَنَّكَ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلْغُ وَعَلَيْنَا الْحِسَابُ﴾ [الرعد].

ولم يقبض الله تعالى رسوله ﷺ حتى أقرَّ عينه من أعدائه وحكمه في نواصيهم، وأظهره الله عليهم، فأعزَّ دينه، وأعلى كلمته، ونشر دينه في قارّات الدنيا.

في حديث أبي بُردة عن أبيه قال: صلينا المغرب مع رسول الله ﷺ، ثم قلنا: لو جلسنا حتى نصلي معه العشاء؟ قال: فجلسنا، فخرج علينا فقال: «ما زلتم ها هنا؟ قلنا: يا رسول الله، صلينا معك المغرب، ثم قلنا: نجلس حتى نصلي معك العشاء، قال: «أحسستم، أو أصبتم» قال: فرفع رأسه إلى السماء، وكان كثيراً ما يرفع رأسه للسماء، فقال: «النجوم أمانة للسماء، فإذا ذهب النجوم، أتى السماء ما تُوعَد، وأنا أمانة لأصحابي، فإذا ذهب أتى أصحابي ما يوعدون، وأصحابي أمانة لأمتي، فإذا ذهب أصحابي أتى أمتي ما يوعدون»^(١).

وأخرج الطبري بسنده عن قتادة قال عند تلاوته لهذه الآية: ذهب النبي ﷺ وبقيت النعمة، ولم يرِ الله نبيه ﷺ في أمته شيئاً يكرهه حتى مضى، ولم يكن نبي قطُّ من الأنبياء إلا ورأى العقوبة في أمته، إلا نبيكم ﷺ، قال: وذكر لنا أن رسول الله ﷺ أُرِيَ -أي: أطلعه الله على- ما يصيب أمته من بعده، فما رُئي ضاحكاً منبسطاً حتى قبضه الله ﷻ^(٢).

الْتَمَسْكَ بِالْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ فِي مُوَاجَهَةِ أَهْلِ الضَّلَالِ

ولما هوّن الله على رسوله ما يلاقيه من شدة الحرص على إيمانهم، ووعده بالنصر عليهم، أمره بالثبات على دينه، ودوام التمسك بكتابه، وألا يتضجر من تصميمهم على الكفر ونفورهم من الحق. قال تعالى:

٤٣- ﴿فَاسْتَمْسِكْ بِالَّذِي أُوحِيَ إِلَيْكَ إِنَّكَ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾

(١) «صحيح مسلم» برقم (٢٥٣١).

(٢) «تفسير الطبري» (٤٥/٢٥) وصححه الحاكم والذهبي (٤٤٧/٢) وأخرجه عبد الرزاق (١٩٧/٢)

والبيهقي في «الشعب» برقم (١٤١٠) والضياء المقدسي في «المختارة» برقم (٢٠٩٧).

أي: استمر -أيها الرسول- على التمسك بما أوحاه الله إليك في هذا القرآن من الامتثال لأوامره واجتناب نواهيه، والدعوة إليه وإن كذبك من كذب ﴿إِنَّكَ عَلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ موصل إلى رضوان الله تعالى ودار كرامته، وهو الإسلام، دين الله الذي شرعه لك، وأنت مداوم على العمل بالذي أوحى إليك، ثابت على منهج الله، مستقيم على دينه.

تمسك بالعروة الوثقى، متخلق بخلق القرآن وآدابه، وإذا علم الإنسان أنه على الحق زاده ذلك تمسكًا به واهتداءً بهديه، لأنه على أصل أصيل، خاليًا من الشكوك والأوهام والظلم والجور.

وفي هذا تثبيت للنبي ﷺ وثناء عليه، وبيان أنه ﷺ راسخ في الاهتداء، ملازم لأقوم الطرق، ولم يزعج قيّد أنملة عما بعثه الله به، كما قال تعالى: ﴿إِنَّكَ عَلَىٰ الْحَقِّ الْمُبِينِ﴾ [النمل: ٧٩]. وهذا القرآن شرف لك ولأمتك، قال تعالى:

٤٤ - ﴿وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ وَسَوْفَ تُسْأَلُونَ﴾

وبعد أن أثنى الله على رسوله ﷺ أثنى على كتابه، فبيّن أن هذا القرآن شرف عظيم للرسول ﷺ ولأتمته، أي: إن الذي أوحينا إليك -أيها الرسول- لشرف وفخر عظيم لك ولأمتك، حيث أنزل هذا القرآن في أرضهم وبلغتهم على رجل منهم ليحملوه إلى العالم، فهم أفهم الناس له، وينبغي أن يكونوا أفقه الناس به، عالمين بمقتضاه، وهذا كقوله تعالى: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَيْكُمْ كِتَابًا فِيهِ ذِكْرُكُمْ﴾ [الأنبياء: ١٠] أي: فيه شرفكم وعزكم، فالذكر بمعنى: الشرف والعزة والمجد والفخر والمنقبة.

وقوم النبي ﷺ هم قريش وسائر العرب، فإنهم نالوا بذلك شرف الدنيا والآخرة، ففتحوا البلاد شرقًا وغربًا، وصارت فيهم الخلافة والملك.

والقرآن سبب الذكر؛ لأنه أكسب قومه شرقًا يُذكرون في العالمين بسببه، وقد نزل القرآن بلسان العرب، فاحتاج أهل اللغات كلهم إلى لسانهم، فشرّفوا بذلك على لسان أهل اللغات جميعًا، ولولا هذا ما عرف أحد العرب من الأمم الكبرى.

ثم بيّن سبحانه أن المسلمين سيُسألون يوم القيامة عن مقدار تمسكهم بأوامره ونواهيه، والقيام بحقه، قال تعالى: ﴿وَسَوْفَ تُسْأَلُونَ﴾ أي عن شكر هذه النعمة والقيام بحقوقها، والانتفاع بها والعمل بما فيها، وهو سؤال توبيخ وتهديد، كما قال تعالى: ﴿سَتَكُنُّبُ

شَهِدَتْهُمْ وَيُسْأَلُونَ» [١٩].

ومما ورد في العرب والخلافة والحكم بسبب شرف هذه الأمة وشرف كتابها:

١- روى ابن عباس رضي الله عنه أن النبي ﷺ كان إذا سئل: لمن هذا الأمر بعدك؟ لم يجب بشيء حتى نزلت هذه الآية، فكان بعد ذلك إذا سئل قال: «لقريش»^(١).

٢- وعن ابن عمر رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «لا يزال هذا الأمر في قريش ما بقي منهم اثنان»^(٢).

٣- وعن معاوية قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إن هذا الأمر في قريش، لا يعاديهم أحد إلا أكبه الله تعالى على وجهه ما أقاموا الدين»^(٣).

٤- قال ابن عطية: قال ابن عباس رضي الله عنه: كان رسول الله ﷺ يعرض نفسه على القبائل، فإذا قالوا له: فلمن يكون الأمر بعدك؟ سكت، حتى إذا نزلت هذه الآية، فكان إذا سئل عن ذلك قال: «لقريش»^(٤).

٥- قال عدي بن حاتم رضي الله عنه: كنت قاعدًا عند رسول الله ﷺ، فقال: «ألا إن الله علم ما في قلبي من حبي لقومي، فسَرَنِي فيهم فقال: ﴿وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ﴾»، فجعل الذكر والشرف لقومي في كتابه... فالحمد لله الذي جعل الصديق من قومي، والشهيد من قومي، والأئمة من قومي، إن الله قلب العباد ظهرًا لبطن، فكان خير العرب قريش...». قال عدي: ما رأيت رسول الله ﷺ ذُكرت عنده قريش بخير قط، إلا سره، حتى يتبين ذلك السرور للناس كلهم في وجهه^(٥).

وكما أن القرآن شرف للنبي ﷺ ولأئمة، فإنه تذكرة للناس، يتعظون به، ويذكرون أوامره ونواهيه فيهدون بهديه.

(١) رواه ابن عدي (١٢٧٢/٣). وانظر: المحرر الوجيز لابن عطية (٥٧/٥).

(٢) «صحيح البخاري» برقم (٣٥٠١، ٧١٤٠) و«صحيح مسلم» برقم (١٨٢٠).

(٣) «صحيح البخاري» برقم (٣٥٠٠، ٧١٣٩).

(٤) «تفسير ابن عطية» (٥٧/٥).

(٥) أخرجه الطبراني في «الكبير» (٨٦/١٧) (٢٠١) وقال الهيثمي في «مجمع الزوائد» (٢٣/١٠): فيه حصين السلولي ولم أعرفه، وبقية رجاله ثقات.

تَوْحِيدُ اللَّهِ تَعَالَى جَاءَتْ بِهِ كُلُّ رِسَالَةٍ

ولما قال المشركون: ﴿إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ﴾ [٢٢] أي: على دين الشرك ﴿وَقَالُوا لَوْ شَاءَ الرَّحْمَنُ مَا عَبَدْنَاهُمْ﴾ [٢٠] أمر الله رسوله أن يستقري شرائع الرسل السابقين وما جاء في كتبهم، ويتبع أخبارهم، هل يجد فيها عبادة آلهة غير عبادة الله تعالى؟ فقال سبحانه:

٤٥- ﴿وَسَلِّ (١) مَنْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رُسُلِنَا (٢) أَجَعَلْنَا مِنْ دُونِ الرَّحْمَنِ إِلَهًا يُعْبَدُونَ ﴿٤٥﴾﴾

أي: اسأل -أيها الرسول- أتباع الرسل السابقين وحملة شرائعهم، أ جاءت رسلكم بعبادة غير عبادة الله تعالى؟ فإنهم يخبرونك أن ذلك لم يقع، وأن جميع الرسل -أولهم وآخرهم- يدعون إلى عبادة الله وحده ونبذ الشرك وأهله ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِيَ إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ ﴿٢٥﴾﴾ [الأنبياء] وكل رسول بعثه الله إلى قومه يقول لهم ﴿اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَهِ غَيْرُهُ﴾ [هود: ٦١] وغيرها، وإذا كان الأمر كذلك، فليس أبواؤكم -أيها المشركون- بأهدى من رسل الله الأولين، وأنتم تكذبون رسولنا؛ لأنه أمركم بإفراد الله تعالى بالعبادة.

ولما كان سؤال الرسل السابقين متعذرًا كان لا بد من حمل الآية على سؤال أتباع الرسل، واستقراء كتبهم وشرائعهم، فلم يأمر الله تعالى بعبادة غيره على لسان أحد من رسله، وفي هذا ردٌّ على المشركين في زعمهم؛ وأنه لا مستند لهم في شركهم لا من عقل صحيح ولا نقل عن الرسل.

وقد نفى الله تعالى أن يكون راضيًا عن عبادة غيره معه، فقال: ﴿أَجَعَلْنَا مِنْ دُونِ الرَّحْمَنِ إِلَهًا يُعْبَدُونَ﴾ فإن جميع الرسل دَعَوْا إلى عبادة الله وحده، ونهَوْا عن عبادة ما سواه، وقد كانت للمشركين عقائد مختلفة في عبادتهم للأصنام:

- ١- فمنهم من يجعل الأصنام آلهة، شركاء لله تعالى.
- ٢- ومنهم من يزعم أنه يعبد الأصنام لتُقَرَّبَ إلى الله زلفى.

(١) حذف همزة (واسأل) ونقل حركتها إلى ما قبلها: ابن كثير والكسائي وأبو جعفر، وحققتها غيرهم.

(٢) سَكَنَ السين من (رسلنا) أبو عمرو، وضمها غيره.

٣- ومنهم من يزعم أن الأصنام تشفع له عند الله تعالى .

وقد نفى الله تعالى هذا كله في الآية، كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾ [النحل: ٣٦].

وفي رواية عن ابن عباس رضي الله عنه: أنه لما أُسري برسول الله ﷺ بعث الله ﷻ آدم وولده من المرسلين، فأذن جبريل ثم أقام، وقال: يا محمد، تقدّم فصلّ بهم، فلما فرغ من الصلاة قال له جبريل: سل يا محمد من أرسلنا من قبلك من رسلنا (الآية) فقال النبي ﷺ: «لا أسأل قد اكتفيت» .

هذا قول الزهري، وسعيد بن جبير، وابن زيد، قالوا: جمع الله له الرسل ليلة أُسري به، وأمر أن يسألهم، فلم يشكّ ولم يسأل، فعلى هذا قال بعضهم: إن هذه الآية نزلت بيت المقدس ليلة الإسراء .

وقال أكثر المفسرين: سل -أيها الرسول- مؤمني أهل الكتاب الذين أرسلت إليهم الأنبياء: هل جاءتهم الرسل إلا بالتوحيد؟^(١) .

وعلى هذا فيكون المراد بالمسؤول في الآية: إما مؤمني أهل الكتاب، وإما الرسل السابقين ليلة المعراج، والأول أرجح .

قال قتادة في معنى الآية: سل أهل التوراة والإنجيل: هل جاءت الرسل إلا بالتوحيد؟^(٢) .

هذا: وليس المقصود من الآية حقيقة السؤال، إذ ليس من الممكن سؤال من مضى على موتهم وقت طويل، وإنما المراد تقرير وتأكيد ما بعد السؤال، وهو أن الرسل لم يأتوا إلا بالتوحيد، فإن أريد سؤال الرسل في ليلة العروج حين أحياهم الله تعالى له ليصلى بهم إمامًا، فيراد بالسؤال حيثنّ حقيقة، إذ لا مانع منه، والغرض منه أيضًا تقرير وتأكيد التوحيد وعدم الشرك بالله تعالى .

(١) وعلى هذا أكثر الروايات عن ابن عباس، وقال به مجاهد وقاتادة والضحاك والسدي والحسن ومقاتل، يُنظر: «تفسير الخازن» (١٠٧/٤) و«تفسير ابن عطية» (٥٧/٥) وابن كثير (٢٣٠/٧).

(٢) «تفسير الطبري» (٦٠٥/٢٠) و«مصنف عبد الرزاق» (١٠٢١٠) وتفسيره (١٩٧/٢).

ثالثاً: قِصَّةُ مُوسَى مَعَ فِرْعَوْنَ

٤٦ - ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَى بِآيَاتِنَا إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ فَقَالَ إِنِّي رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٤٦﴾﴾

سيقت هذه السورة إطفاءً لفتنة الثراء والجبروت، فقد جاء موسى يطلب من فرعون أن يؤمن بالله، ويكف عن ظلمه للمستضعفين، ولما فرغت سورة الزخرف من بيان حال الرسول ﷺ مع قومه، وذكر حال إبراهيم ﷺ مع قومه - أتبع ذلك بيان حال موسى ﷺ مع طغاة قومه واستهزائهم به، وهذا تفصيل لمجمل قول الله تعالى في أول السورة: ﴿وَمَا يَأْتِيهِمْ مِنْ نَبِيٍّ إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٧﴾﴾ .

والمعنى: والله لقد أرسلنا موسى بالمعجزات التسع، والآيات الباهرات، والحجج البينات الدالة على صدقه ﷺ، كالعصا واليد، أرسلناه ﴿إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ﴾ وهم أشرف قومه من الأمراء والوزراء، والقادة والأتباع، والرعايا من المصريين وبني إسرائيل، يدعوهم إلى عبادة الله وحده، وينهاهم عن عبادة ما سواه، أرسلنا موسى إلى قومه، كما أرسلناك يا نبي الله إلى العالمين ﴿فَقَالَ﴾ لهم موسى: ﴿إِنِّي رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ أرسلني ربي لأدعوكم إلى عبادة الواحد القهار، وأخلص بني إسرائيل من ظلم فرعون واستعباده لهم.

اسْتِخْفَافُ فِرْعَوْنَ وَقَوْمِهِ بِمَا جَاءَ بِهِ مُوسَى مِنْ مُعْجَزَاتٍ

٤٧ - ﴿فَلَمَّا جَاءَهُمْ بِآيَاتِنَا إِذَا هُمْ مِنْهَا يَضْحَكُونَ ﴿٤٧﴾﴾

﴿فَلَمَّا جَاءَهُمْ﴾ موسى ﷺ ﴿بِآيَاتِنَا﴾ الدالة على صدقه في دعوته: كالطوفان، والجراد، والقمل، والضفادع، والدم، ونقص الزروع والأنفس والثمرات، إذا بفرعون وقومه يسخرون ويستهزئون بالآيات التي جاء بها ﴿إِذَا هُمْ مِنْهَا يَضْحَكُونَ﴾ ليوهموا أتباعهم أن هذه الآيات سحر وأنهم قادرون عليها، فردوها وأنكروها واستهزؤوا بها ظلمًا وغلًا وليس عن قصور في الآيات أو عدم وضوح لها، كما فعلت قريش مع النبي ﷺ وصحبه.

ومع أن موسى جاءهم بآيات كبيرة عظيمة، إلا أنهم كانوا يستخفون بها مكابرة وعنادًا. قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ أَجْرَمُوا كَانُوا مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا يَضْحَكُونَ ﴿٢٦﴾ وَإِذَا مَرُّوا بِهِمْ يَتَغَامَزُونَ ﴿٢٧﴾﴾

[المطففين] قال تعالى:

٤٨ - ﴿وَمَا تُرِيدُهُمْ^(١) مِنْ آيَةٍ إِلَّا هِيَ أَكْبَرُ مِنْ أُخْتِهَا وَأَخَذْنَاهُمْ بِالْعَذَابِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٤٨﴾﴾

أي: وما تُري فرعون وملأه من حجة ومعجزة، إلا وهي أعظم من التي قبلها، وأوضح وأدل على صدق ما يدعوهم إليه موسى، تكاد هذه الآية من جلالها تُنسيهم الآية التي قبلها.

وكان من ضمن هذه الآيات، ألوان من العذاب الدنيوي، كالقحط والقمل والضفادع، والجراد ووجود الدم في الماء عقوبة لهم ﴿وَأَخَذْنَاهُمْ بِالْعَذَابِ﴾ أي: عاقبناهم بأنواع العذاب الشديد ﴿وَلَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ عن كفرهم وشركهم بالله تعالى إلى توحيده وطاعته.

وعن هذا العذاب الذي أخذهم الله به يقول سبحانه: ﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الطُّوفَانَ وَالْجَرَادَ وَالْقُمَّلَ وَالضَّفَادِعَ وَالْدَّمَ آيَاتٍ مُفَصَّلَاتٍ فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا مُجْرِمِينَ ﴿٢٣٣﴾﴾ [الأعراف].

ويقول أيضاً: ﴿وَلَقَدْ أَخَذْنَا آلَ فِرْعَوْنَ بِالسِّنِينَ وَنَقْصٍ مِنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَذْكُرُونَ ﴿١٣٠﴾﴾ [الأعراف].

وفي هذا تعريض بالمكذبين بالنبي الخاتم لثلاث أصاب هذه الأمة ما أصاب أسلافهم.

فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُ يَطْلُبُونَ مِنْ مُوسَى رَفْعَ الْعَذَابِ عَنْهُمْ

٤٩ - ﴿وَقَالُوا يَتَّيِبُهُ^(٢) السَّاحِرُ أَدْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِنْدَكَ إِنَّا لَمُهْتَدُونَ ﴿٤٩﴾﴾

أي: لما أخذ الله فرعون وقومه بالعذاب على يد موسى ﷺ سألوه أن يدعو الله لهم أن يكشف العذاب عنهم، وكانوا يحترمون الساحر ويسمونهم عالماً، كما جاء في قول الله تعالى على لسانهم: ﴿يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَحَابٍ عَلِيمٍ ﴿٢٧﴾﴾ [الشعراء].

ويجوز أن يكون قولهم هذا من باب التهكم بموسى ﷺ.

وكان السحر بأيدي الكهنة، ومن مظاهره تخنيط الموتى لسلامة الجثث من التعفن، قال تعالى: ﴿وَقَالُوا يَتَّيِبُهُ السَّاحِرُ﴾ أي: قال فرعون وملؤه لموسى: يا أيها العالم، قالوا ذلك تعظيماً وتزلفاً له، وكان الساحر فيهم عظيماً موقراً، ولم يكن السحر مذموماً عندهم، قالوا لموسى: ﴿أَدْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِنْدَكَ﴾ أن دعوتك مستجابة، أن يكشف العذاب

(١) ضم يعقوب الهاء من (نريهم)، وكسرها غيره.

(٢) قرأ ابن عامر بضم هاء (أيه الساحر) وصلاً، إتباعاً لضم الياء، والباقون بفتحها، ووقف عليها بالألف: أبو عمرو والكسائي ويعقوب، ووقف غيرهم بالسكون وحذف الألف إتباعاً للرسم.

عمن اهتدى، فقد خصَّك الله بالنبوة والرسالة.

فالعهد يفسَّر: بإجابة الدعاء، أو بكشف العذاب، أو بمنصب النبوة، ولا تضارب بينها، فموسى نبي مجاب الدعاء، وبدعائه يكشف الله العذاب عن اهتدى، ولهذا قالوا: ﴿إِنَّا لَمُهْتَدُونَ﴾ أي: إن كشفت عنا العذاب فإننا سنهتدي ونؤمن بما جئت به.

أو يكون المعنى: أنهم كانوا يزعمون أنهم على هدى.

ومن سوء أدبهم أنهم قالوا: ﴿أَدْعُ لَنَا رَبَّكَ﴾ كأنه سبحانه ليس ربًّا لهم. قال تعالى:

٥٠ - ﴿فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمْ الْعَذَابَ إِذَا هُمْ يَنْكُتُونَ﴾ (٥٠)

أي: فدعا موسى ربه، فكشف الله عنهم العذاب، ولكنهم لم يؤمنوا، فنقضوا عهدهم واستمروا على كفرهم ﴿فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمْ الْعَذَابَ﴾ الذي حلَّ بهم بدعوة موسى ربه أن يرفع عنهم العذاب، فرفعه الله عنهم ﴿إِذَا هُمْ يَنْكُتُونَ﴾ ينقضون عهدهم، فيغدرُونَ ويستمرون، ويُصِرُّون على كفرهم وضلالهم، وهذا كقوله تعالى: ﴿وَلَمَّا وَقَعَ عَلَيْهِمُ الرِّجْزُ قَالُوا يَمْوَسَىٰ أَدْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِنْدَكَ لَئِنْ كَشَفْتَ عَنَّا الرِّجْزَ لَنُؤْمِنَنَّ لَكَ وَلَنُرْسِلَنَّ مَعَكَ بَنِي إِسْرَءِيلَ﴾ (١٢٤) ﴿فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمْ الرِّجْزَ إِلَىٰ أَجَلٍ هُمْ بَلِّغُوهُ إِذَا هُمْ يَنْكُتُونَ﴾ (١٣٥) [الأعراف].

فِرْعَوْنُ يُعْظِمُ نَفْسَهُ

وبعد أن كشف الله عنهم العذاب بدعوة موسى ﷺ، خشي فرعون على قومه أن يتأثروا بموسى، فيتبعوه ويؤمنوا برسالته، وخشي أن ينتشر دينه بين عامة الناس إن كشف الله عنهم العذاب بسبب دعوة موسى ﷺ، ولذلك فإن فرعون أمر منادياً ينادي في الناس يذكِّرهم بعظمة نفسه ليشبِّههم على طاعته، ويستمروا في ولائهم له. قال تعالى:

٥١ - ﴿وَنَادَىٰ فِرْعَوْنُ فِي قَوْمِهِ قَالَ يَنْفَوِرَ إِلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ وَهَٰذِهِ الْأَنْهَارُ تَجْرِي مِن تَحْتِي^١﴾ أَفَلَا بُصِيرُونَ ﴿٥١﴾

أي: جمع فرعون عظماء قومه وأعلن فيهم متبجحاً ومفتخراً ﴿قَالَ﴾ مستعليًا بباطله، قد غرّه ملكه، وأطغاه ماله وجنوده: ﴿يَنْفَوِرَ إِلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ﴾ مهد الحضارات ومجرى

(١) فتح الباء من (تحتي) في حالة الوصل: نافع والبري وأبو عمرو وأبو جعفر، وسكَّنوها غيرهم.

النيل العظيم، لا ينازعني فيه منازع، ولا يخالفني فيه مخالف، ألسْتُ المالك لها المتصرف فيها؟ فضلاً عن ذلك فإن أنهار مصر وخُلجانها المتفرعة من نهر النيل تجري بأمرِي تحت قدميَّ، وتحت قصوري ﴿وَهَذِهِ الْأَنْهَارُ تَجْرِي مِنْ تَحْتِي﴾؟ ومنها فرع دمياط، وفرع رشيد اللذان يُعرفان بالدلتا، وفرع تنيس، وترعة الإسماعيلية، والرياح، وغيرها، وهذا النيل يجري في مملكته من أسوان إلى البحر الأحمر ﴿أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾ عظمتي وقوتي وسعة ملكي، وسلطاني، وضعف موسى وفقره؟ ورثَ فرعون على ذلك أنه ربهم الأعلى، فجمع الناس وأعلن فيهم ذلك ﴿فَحَشَرَ فَنَادَى﴾ ﴿١٣٣﴾ فَقَالَ أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَى ﴿١٣٤﴾ [النازعات]. كما ادَّعى لنفسه الإلهية، فقال: ﴿يَتَأْتِيهَا الْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَهِ غَيْرِي﴾ [القصص: ٣٨].

إن مُلك مصر وما فيها من أنهار لا يساوي هبَاء في مُلك الله الواسع، ومثل فرعون لا يعقل هذا المعنى، فإن هذا الفكر يحتاج إلى قلوب عامرة بالإيمان، لتعقد الموازنة بين ملكوت الله في العالمين العلوي والسفلي، وبين ملك مصر الصغير الزهيد الذي يزول بزوال ملكه!

وقد افتخر فرعون بأمر خارج عن ذاته، ولم يفتخر بأفعال حميدة ولا صفات سديدة.

أخرج ابن أبي حاتم عن الأسود بن يزيد قال: قلت لعائشة: ألا تعجبين من رجل من الطلقاء ينازع أصحاب محمد ﷺ في الخلافة؟ قالت: وما تَعَجَّبُ من ذلك؟ هو سلطان الله يؤتیه البر والفاجر، وقد ملك فرعون أهل مصر أربع مئة سنة.

وفرعون الذي بُعث موسى في زمنه هو مفتاح الثاني بن رمسيس الثاني الذي وُلد موسى في أيامه وتربَّى عنده.

فِرْعَوْنُ يَنْتَقِصُ مِنْ شَأْنِ مُوسَى ﷺ

انتقل فرعون من تعظيم نفسه، إلى التنقيص من شأن موسى ﷺ في نفوس القوم، ليظهر الفرق في نظره بينه وبين موسى الذي يحقُّ دين فرعون وعبادة قومه له، فقال:

٥٢- ﴿أَنَا خَيْرٌ مِّنْ هَٰذَا الَّذِي هُوَ مَهِينٌ^(١) وَلَا يَكَادُ يُبِينُ^(٢)﴾

أي: قال فرعون: بل أنا خير من هذا الذي لا عز له، فهو يمتهن نفسه في قضاء حاجاته بنفسه لضعفه وحقارته، وهو لا جاء له ولا سلطان، ولا مال له ولا سطوة، يعني بذلك موسى ﷺ، فهو يقول: أنا العزيز وهو الذليل، فأنا خير منه.

فالمهين: هو الذليل الضعيف، أراد أنه غريب في أرض مصر، وليس له أهل يعتز بهم.

ثم ذكر فرعون الناس بأمر قديم كان قد عرفه عن موسى في الصغر، وهو في بيت فرعون، ويريد بذلك التنقيص من شأن موسى في أعين الناس فقال: ﴿وَلَا يَكَادُ يُبِينُ﴾ أي: لا يكاد يظهر كلامه، أو يُفصح عن مراده، وذلك لعقدة كانت في لسانه.

ولم يعلم فرعون أن الله تعالى قد أذهب عن موسى هذه العقدة حين دعا ربه قائلاً: ﴿وَأَحْلَلْ عُقْدَةً مِّنْ لِّسَانِي^(٣) يَفْقَهُوا قَوْلِي^(٤)﴾ [طه]

فأجاب الله دعاءه بقوله سبحانه: ﴿قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يٰمُوسَىٰ﴾ [طه: ٣٦].

قال سفيان: كان في لسانه شيء من الجمرة التي وضعها في فيه وهو صغير.

والذي حمل فرعون على وصف موسى ﷺ بهذين الوصفين -هو الكفر والعناد، والصد عن سبيل الله بالترويج على رعيته، لينصرفوا عن موسى ودعوته.

شُبُهَتَانِ لِّفِرْعَوْنَ يَنْفِي بِهِمَا رِسَالَةَ مُوسَى ﷺ

الشُّبُهَةُ الْأُولَى: أَنَّ مُوسَى يَفْتَقِدُ شِعَارَ الْمُلُوكِ فِي زَعْمِهِ

٥٣- ﴿فَلَوْلَا أَلْقَىٰ عَلَيْهِ آسُورَةٌ^(١) مِّنْ ذَهَبٍ أَوْ جَاءَ مَعَهُ الْمَلٰٓئِكَةُ مُقَرَّرِينَ^(٢)﴾

وكان شعار ملوك فارس ومصر والفراعنة أن يُقلد الملك بسوارين على الرسغين، وسوارين على العضدين، ويُطَوَّق بطوق من ذهب.

قال مجاهد: كانوا إذا أرادوا أن يجعلوا رجلاً رئيساً عليهم سوروه بسوارين، وطوَّقوه

(١) ترك الشامي والكوفي (هو مهين) من العدد، وعدّها آية غيرهما من أئمة عدّ آي القرآن.

(٢) قرأ حفص ويعقوب (آسورة) جمع سوار، وقرأ الباقون (أساور) فيكون جمعاً للجمع.

بطوق من ذهب علامة لسيادته^(١).

وقد تخيل فرعون أن رتبة الرسالة كرتبة الملوك، وحيث إن موسى ﷺ يفتقد شعار الملوك المعروف لديهم، فإن الرسالة تنتفي عنه في زعمهم، ولذا قال فرعون: ﴿فَلَوْلَا أُلْقِيَ عَلَيْهِ أَسْوِرَةٌ مِّنْ ذَّهَبٍ﴾ أي: هَلَّا أُلْقِيَ على موسى -إن كان صادقًا أنه رسول رب العالمين- أسورة من ذهب، وفرعون لا يعلم أن الذهب حلية النساء، إن الرجولة شيء، والأساور والقلايدات شيء آخر!! وهذا يشبه قول أبي جهل عن النبي ﷺ: ﴿وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَى رَجُلٍ مِّنَ الْفَرِيقَيْنِ عَظِيمٍ﴾.

الشُّبْهَةُ الثَّانِيَّةُ: عَدَمُ تَصْدِيقِ الْمَلَائِكَةِ لِمُوسَى -كَمَا يَزْعُمُ فِرْعَوْنُ-

ثم اعترض فرعون وقومه على موسى ﷺ، بما اعترض به المشركون على محمد ﷺ في زعمهم أن الرسول لا يكون بشرًا، وإذا كان الرسول من البشر فإنه يحتاج إلى صحبة ملك يصدقه في دعواه، فقالوا في اعتراضهم الثاني: ﴿أَوْ جَاءَ مَعَهُ الْمَلَائِكَةُ مُقْتَرِنِينَ﴾ أي: هَلَّا جَاءَ معه بملائكة اقترن بعضهم ببعض، فتتابعوا يشهدون له بأنه رسول الله إلينا؟ فَأَوْهَمَ فرعون قومه أن الرسل لا بد أن يكونوا على هيئة الملوك ومحفوظين بالملائكة.

قال أبو حيان: لَمَّا وصف فرعون نفسه بالعزة والمُلْك، ووازن بينه وبين موسى ﷺ، ووصفه بالضعف وقلة الأعوان، اعترض عليه فقال: إن كان صادقًا فهلَّا ملكه ربه وسوّره، وجعل الملائكة أنصاره؟^(٢).

أَسْرَى الْإِسْتِعْبَادِ الطَّوِيلِ يَجْنُونَ ثَمَرَةَ ضَعْفِهِمْ وَخُنُوعِهِمْ

٥٤ - ﴿فَاسْتَخَفَّ قَوْمَهُ فَاطَاعُوهُ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَتْسِفِينَ﴾

ولما أن كان القوم متهيئين لاتباع موسى لِمَا رَأَوْهُ من الآيات، أثر فرعون بكلامه عليهم، واستخف عقولهم، فأسرعوا إلى تصديق رأس الكفر؛ لأنهم كانوا يؤلهون فرعون، وبعد أن حصل لهم تردّد في شأن بعثة موسى ﷺ، لم يلبثوا أن رجعوا إلى طاعة فرعون بأدنى سبب، لقرب عهدهم بالكفر، ذلكم قول الله تعالى: ﴿فَاسْتَخَفَّ قَوْمَهُ﴾ أي:

(١) «تفسير القرطبي» (١٦/١٠٠) والخازن (٤/١٠٨) وبحاشيته النسفي.

(٢) «البحر المحيط» (٨/٢٢).

استخف فرعون عقول قومه بما أبدى لهم من شبه لا حقيقة لها ولا دليل عليها، ولا تروج إلا على ضعفاء العقول لجهلهم، وطلب منهم سرعة الاستجابة لِمَا دعاهم إليه من الضلال ﴿فَاطَاعُوهُ﴾ وكذبوا موسى ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ﴾ خارجين عن طاعة الله وعن صراطه المستقيم، وبسبب فسقهم سلط الله عليهم فرعون وجنوده، يزينون لهم الشرك والشور.

مَصِيرُ الظَّالِمَةِ

٥٦، ٥٥ - ﴿فَلَمَّا ءَاسَفُونَا اٰنْتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَاهُمْ اَجْمَعِينَ ﴿٥٥﴾ فَجَعَلْنَاهُمْ سَلَفًا ^(١) وَمَثَلًا لِّلْآخِرِينَ﴾

بَيَّن سبحانه أن المقصود من قصة موسى مع فرعون: هو بيان ما لَحِقَ بفرعون وقومه من سوء العاقبة ليعتبر بها المكذبون بالقرآن وبرسول الإسلام ﴿فَلَمَّا ءَاسَفُونَا﴾ أي: أسخطونا وأغضبونا وعصونا بكفران النعمة وعصيان ربهم المنعم عليهم ﴿اٰنْتَقَمْنَا مِنْهُمْ﴾ أي: لَمَّا أفرطوا في المعاصي استوجبوا أن يعجل الله لهم العذاب في الدنيا بانتقامه منهم، فأهلكهم الله بجنس ما تكبر به فرعون، فكل من تعزز بشيء أهلكه الله به، وقد تكبر فرعون بأن أنهار مصر تجري من تحت قصوره، فأهلكه الله وقومه بالغرق في البحر ﴿فَأَغْرَقْنَاهُمْ اَجْمَعِينَ﴾ ولم نبق منهم أحداً.

عن عقبة بن عامر رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «إذا رأيت الله ﷻ يعطي العبد ما شاء، وهو مقيم على معاصيه -فإنما ذلك استدراج له»، ثم تلا: ﴿فَلَمَّا دَسَوْا مَا دُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ اَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّىٰ اِذَا فَوْحُوا بِمَا اُوتُوا اَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً فَاِذَا هُمْ مُبْلِسُونَ ﴿٥٥﴾﴾ [الأنعام] ^(٢).

وعن طارق بن شهاب قال: كنت عند عبد الله، فذكر عنده موت الفجأة، فقال: تخفيف على المؤمنين، وحسرة على الكافرين، ثم قرأ: ﴿فَلَمَّا ءَاسَفُونَا اٰنْتَقَمْنَا مِنْهُمْ﴾ ^(٣).

(١) قرأ حمزة والكسائي بضم السين واللام من (سُلْفًا) جمع سلف والباقون بفتحهما، اسم جمع سالف، أو مصدر يطلق على الجماعة، من سلف الرجل آباء المتقدمين.

(٢) رواه الطبراني في «المعجم الأوسط» برقم (٩٢٦٨) ورواه أحمد عن رشدين بن سعد في «المسند» (٤/ ١٤٥) (١٧٣١١) حديث حسن في إسناده رشدين بن سعد، وباقي رجاله ثقات، (محققوه) والبيهقي في «الشعب» (٤٥٤٠). والطبري في التفسير (١٩٥/٧).

(٣) أخرجه ابن المنذر وابن أبي حاتم كما في «الدر» (٢١٨/١٣).

لقد خرج موسى ببني إسرائيل من مصر، وطارده فرعون وقومه، واستنفر في مطاردته لموسى من هم فوق العشرين ودون الأربعين من الشباب، لقد استخفَّ عقولهم^(١) لَمَّا وجدهم لا يردُّون له أمرًا، ولا يرفضون له طلبًا، فأطاعوه ولحقوا بموسى وبني إسرائيل، حتى بلغوا البحر الأحمر.

وعبر بنو إسرائيل البحر يقودهم موسى ﷺ، ولما أراد فرعون أن يعبر البحر خلفه، أطبق الله البحر عليه هو وقومه، فلما أحس بالغرق ﴿قَالَ ءَمَسْتُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا الَّذِي ءَمَسْتُ يَدَهُ بُنَا إِسْرَءِيلَ وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ [يونس: ٩٠].

وردَّ الله عليه إيمانه الذي جاء في وقت الغرغرة، إذ ليس فيه اعتراف صريح برب الأرض والسماء، فهو لم يعترف مباشرة بأن له إلهاً، وإنما هو يؤمن بإله بني إسرائيل، قال الله تعالى له: ﴿ءَأَلْتَنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنْتَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ﴾ ﴿٩١﴾ فَأَلْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلَقَكَ آيَةً﴾ [يونس: ٩١، ٩٢].

ولفظت أمواج البحر جثة الملك السابق، ورأى الناس على شاطئ البحر جثة مكسوة بالوحل، وفما مليئًا بالطين!!

لقد اختفت الألوهية المزورة، واختفت أساور الذهب من معصمي فرعون إلى الأبد!! وأخبرنا رب العالمين عن مصيره وهو في البرزخ في قوله تعالى: ﴿وَحَاقَ بِنَالِ فِرْعَوْنَ سُوءُ الْعَذَابِ﴾ ﴿٤٥﴾ النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا﴾ [غافر: ٤٥، ٤٦].

كما أخبرنا سبحانه عن مصيره في الآخرة، فقال: ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ﴾ [غافر: ٤٦].

وهكذا مصير كل الفراعنة والظلمة والطغاة في كل زمان ومكان!!

وقد بين سبحانه أنه قد جعل فرعون وقومه عبرة وعظة لمن يأتي بعدهم ممن كذب بالرسول الخاتم ﷺ ﴿فَجَعَلْنَاهُمْ﴾ أي: جعلنا فرعون وقومه الذين أغرقناهم في البحر الأحمر ﴿سَلَفًا﴾ لمن يأتي بعدهم ممن يعمل عملهم، فيكذب رسل الله، ولم يتوجَّه

(١) ذكر ذلك ابن عبد الحكم في «فتوح مصر» عن عكرمة ص ٢٣ .

بالعبادة لله وحده، وجعلناهم عبرة لكل من يظلم ويظغى ويتجبر، وجعلناهم ﴿سَلَفًا وَمَثَلًا لِلْآخِرِينَ﴾ أي: جعلنا المتقدمين عبرة للمتأخرين في استحقاق العذاب لمن كذب برسالة محمد ﷺ، وهي قصة عظيمة تجري مجرى المثل.

جَدَلٌ حَوْلَ مَصِيرِ عِيسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ فِي الْآخِرَةِ

٥٧- ﴿وَلَمَّا ضُرِبَ ابْنُ مَرْيَمَ مَثَلًا إِذَا قَوْمُكَ مِنْهُ يَصِدُّونَ﴾ (٥٧)

عطف سبحانه على قصة موسى طرفاً من قصة عيسى عليه السلام، وهذا الجانب من قصتي موسى وعيسى لم يُذكر إلا في هذه السورة.

ولما نزل قول الله تعالى: ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ حَصْبُ جَهَنَّمَ أَنْتُمْ لَهَا وَرَدُّونَ﴾ (٩٨) لَوْ كَانَتْ هَؤُلَاءِ ءَالِهَةً مَا وَرَدُّوهُمْ ﴿[الأنبياء: ٩٨، ٩٩].

ولما كان النصارى يزعمون بأن عيسى إله، فقد أثار هذا لغطاً وجدلاً، إذ كيف يكون عيسى إلهاً أو ابناً للإله، على حدّ زعمهم، ثم يكون مصيره النار؟! وبدهي أن الآية تتعلق بالأصنام التي تُعبد من دون الله، بدليل أن (ما) في ﴿وَمَا تَعْبُدُونَ﴾ لغير العاقل، على أن عيسى لا دخل له في جهل الجاهلين وغُلُو المغالين، كما أن الآية بعدها رَدَّت على هذا اللغو: ﴿إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُمْ مِنَّا الْحُسْنَىٰ أُولَٰئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ﴾ ﴿[الأنبياء: ١٣١].

وبهذا المعنى حدث جدال بين عبد الله بن الزُّبَيْرِ والنبي ﷺ، والذي عليه أكثر المفسرين أن سبب نزول هذه الآية هو الإشارة إلى ما جاء في سورة الأنبياء ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ حَصْبُ جَهَنَّمَ﴾ [آية: ٩٨] حيث قال عبد الله بن الزُّبَيْرِ قبل إسلامه للنبي ﷺ: أخاصة لنا هذه الآية ولآلهتنا، أم لجميع الأمم؟ فقال ﷺ: «هي لكم ولآلهتكم ولجميع الأمم»، قال: خصمتك ورب الكعبة، ألسنت تزعم أن عيسى ابن مريم نبي، وقد عبَدته النصارى، فإن كان عيسى في النار، فقد رضينا أن نكون نحن وآلهتنا معه، ففرح بكلامه من حضر من المشركين، وضجَّ أهل مكة بذلك، فنزلت آية الأنبياء، ونزلت هذه الآية.

ويزيدُ بعضهم في كلام ابن الزُّبَيْرِ: وقد عبَدْتُ بنو مُلَيْح الملائكة، فإن كان عيسى

(١) قرأ نافع وابن عامر والكسائي وأبو جعفر وخلف بضم الصاد من (يُصدون)، والباقون بكسرها.

والملائكة في النار فقد رضينا .

وهكذا لما قال ابن الزُّبَيْرِ: إن كان عيسى وعزير والملائكة في النار فقد رضينا أن نكون معهم نحن وآلهتنا، سكت النبي ﷺ انتظاراً للوحي، فظنوا أنه ألزم الحجة، فضحك المشركون وضجوا وارتفعت أصواتهم، فنزلت آية سورة الأنبياء .

ولو تأمل ابن الزُّبَيْرِ الآية ما اعترض عليها؛ لأن الله تعالى يقول: ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ﴾ ولم يقل: وَمَنْ تَعْبُدُونَ!! و﴿مَا﴾ لغير العاقل من الأصنام ونحوها، وليس الملائكة ولا المسيح، ولذلك فإن النبي ﷺ قال لابن الزُّبَيْرِ: «ما أجهلك بلغة قومك؟ أما فهمت أن ﴿مَا﴾ لما لا يعقل»^(١)؟

والمراد بالمثل: الحجة التي تجري مجرى المثل، والصد هو الضجيج .

والذي جعل عيسى مثلاً للمجادلة هو ابن الزُّبَيْرِ، ولما أجابهم النبي ﷺ بأن الآية لجميع الأمم، إنما عَنَى المعبودات التي هي من جنس الأصنام، وهي لا تفقه ولا تتصف بذكاء، بخلاف الصالحين الذين شهد لهم القرآن برفعة الدرجة قبل هذه الآية وبعدها، إذ لا لبس في ذلك، فلا يخفى أن عيسى وأمثاله ليسوا حصب جهنم، والقول بأن سورة الزخرف نزلت قبل سورة الأنبياء ليس محل اتفاق، ولا هو محقق السند^(٢) .

ومعنى الآية: ولما ضُرب المشركون عيسى ابن مريم مثلاً لعبادة الأصنام والأنداد، حيث نهى الله عن عبادته، وجعل عبادته بمنزلة عبادة الأوثان، وذلك حين خاصم ابن الزُّبَيْرِ وغيره النبي ﷺ وحاجَّوه بعبادة النصارى للمسيح، وعبادة اليهود لعزير، وعبادة بني مُلَيْح للملائكة، حينئذ فاجأك -يا محمد- كفار قريش بسبب هذه المحاجة بارتفاع الأصوات بالصياح والضجيج والضحك فرحاً وسروراً، ويزعمون أنهم قد غلبوا في حجتهم .

وقال المشركون: رضينا أن تكون آلهتنا بمنزلة عيسى وعزير والملائكة، فأنزل الله قوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُمْ مِنَّا الْحُسْنَىٰ أُولَٰئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ﴾ [الأنبياء].

فبيَّنت الآية أن الذي يُلقى في النار من آلهة المشركين هي الأصنام المشار إليها ب﴿مَا﴾

(١) ينظر: أسنى المطالب (١٢٢٥) ج ١ ص ٢٤٢ .

(٢) يُنظَر: «تفسير التحرير والتنوير» (٢٣٦/٢٤) .

التي لغير العاقل، وليس الملائكة والمسيح، كما يدخل النار من رضي بعبادتهم من دون الله، والذين سبقت لهم من الله الحسنى قبل وبعد هذه الآية لم يرضوا بعبادتهم لهم، بل ولا يعرفون عنها شيئاً، وقد ورد في هذه الآية أحاديث، منها:

(أ) أخرج الإمام أحمد وغيره بسنده عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: لقد علمتُ آية من القرآن ما سألتني عنها رجل قط، فما أدري أعلمها الناس فلم يسألوا عنها، أم لم يَفْطِنُوا لها فیسألوا عنها؟ ثم طفق يحدثنا، فلما قام، تلاؤمنا ألا نكون سألناه عنها، فقلت: أنا لها إذا راح غداً -والقائل هو أبو يحيى، مولى ابن عقيل الأنصاري- فلما راح الغد، قلت: يا ابن عباس، ذكرتُ أمس أن آية من القرآن لم يسألك عنها رجل قط، فلا تدري أعلمها الناس فلم يسألوا عنها، أم لم يَفْطِنُوا لها، فقلت: أخبرني عنها، وعن اللاتي قرأت قبلها، قال: نعم، إن رسول الله ﷺ قال لقريش: «يا معشر قريش، إنه ليس أحد يُعبد من دون الله فيه خير» وقد علمتُ قريش أن النصارى تعبدُ عيسى ابن مريم، وما تقول في محمد، فقالوا: يا محمد، ألسنتُ تزعم أن عيسى كان نبياً وعبداً من عباد الله صالحاً، فلئن كنتَ صادقاً، فإن آلهتهم لكما تقولون، قال: فأنزل الله ﷻ: ﴿وَلَمَّا ضُرِبَ ابْنُ مَرْيَمَ مَثَلًا إِذَا قَوْمُكَ مِنْهُ يَصِدُّونَ﴾ قال: قلت: ما يصدون؟ قال: يضجّون ﴿وَإِنَّهُمْ لَعِلَّمُوا لِسَاعَةً﴾ [٦١]. قال: «خروج عيسى ابن مريم ﷺ قبل القيامة»^(١).

(ب) وذكر ابن إسحاق في السيرة قال: جلس رسول الله ﷺ -فيما بلغني- يوماً مع الوليد بن المغيرة في المسجد، فجاء النضر بن الحارث حتى جلس معهم، وفي المجلس غير واحد من رجال قريش، فتكلم رسول الله ﷺ فعرض له النضر بن الحارث، فكلّمه رسول الله ﷺ حتى أفحمه، ثم تلا عليه وعليهم: ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنتُمْ لَهَا وَرِدُّونَ﴾ [٩٨] [الأنبياء: ٩٨].

(١) يُنظَر: «المسند» بتصحيح أحمد شاكر (٣٢٨/٤) (٢٩٢١) وحسن إسناده محققوه برقم (٢٩١٨) ورجاله ثقات رجال الصحيح غير عاصم بن أبي النجود فقد روى له أصحاب السنن، وابن حبان برقم (١٦٨١٧) والطبراني في «الكبير» برقم (١٢٧٤٠) قال الهيثمي في «مجمع الزوائد»: (١٠٤/٧) فيه عاصم بن بهدلة وثقه أحمد وغيره وبقية رجاله رجال الصحيح، وأخرجه الحاكم في «المستدرک» (٤٤٨/٢) وصححه السيوطي في «أسباب النزول» ص ١٨٩ .

ثم قام رسول الله ﷺ وأقبل عبد الله بن الزُّبَيْرِ التيمي حتى جلس، فقال له الوليد ابن المغيرة: والله ما قام النضر بن الحارث لابن عبد المطلب وما قعد، وقد زعم محمداً أنَّا وما نعبد من آلهتنا هذه حصب جهنم، فقال عبد الله بن الزُّبَيْرِ: أما والله لو وجدته لخصمته، سلوا محمداً: أكل ما يُعبد من دون الله في جهنم مع مَنْ عبده؟ فنحن نعبد الملائكة، واليهود نعبد عزيزاً، والنصارى تعبد المسيح ابن مريم، فعجب الوليد ومن كان معه في المجلس من قول عبد الله بن الزُّبَيْرِ، ورأوا أنه قد احتجَّ وخاصم، فذكر ذلك لرسول الله ﷺ فقال: «كُلُّ مَنْ أَحَبَّ أَنْ يُعبد من دون الله فهو مع مَنْ عبده، فإنهم إنما يعبدون الشيطان ومن أمرهم بعبادته» فأنزل الله ﷻ: ﴿إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُمْ مِنَّا الْحُسْنَىٰ أُولَٰئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ﴾ [الأنبياء: ١٠١] أي: عيسى وعزير ومن عُبد معهما من الأحرار والرهبان الذين مضوا على طاعة الله، فاتخذهم من يعبدهم من أهل الضلالة أرباباً من دون الله.

ونزل فيما يذكرون أنهم يعبدون الملائكة وأنهم بنات الله قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا سُبْحَنَهُ بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ﴾ [الأنبياء: ٢٦].

ونزل فيما يُذكر من أمر عيسى وأنه يُعبد من دون الله، وتعجب الوليد ومن حضره من حُجته وخصومته نزل قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا ضُرِبَ ابْنُ مَرْيَمَ مَثَلًا إِذَا قَوْمُكَ مِنْهُ يَصِدُّونَ﴾ [٥٧] (١).

(ج) وأخرج الطبري بسند حسن عن الشَّدي في ﴿وَقَالُوا ءَالِهَتُنَا خَيْرٌ أَمْ هُوَ﴾ الآية [٥٨] قال: خاصموه فقالوا: يزعم أن كل من عُبد من دون الله في النار، فنحن نرضى أن تكون آلهتنا مع عيسى وعزير والملائكة، هؤلاء قد عبدوا من دون الله، فأنزل الله تعالى براءة عيسى ﷺ.

(د) وعن ابن عباس ؓ أن المشركين لما سمعوا من النبي ﷺ بيان ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِنْدَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ﴾ [آل عمران: ٥٩] وليس خلقه من دون أب بأعجب من خلق آدم من دون أب ولا أم، قالوا: نحن أهدي من النصارى؛ لأنهم عبدوا آدمياً، ونحن عبدنا الملائكة، فنزل: ﴿وَلَمَّا ضُرِبَ ابْنُ مَرْيَمَ مَثَلًا﴾ (٢). قال تعالى:

(١) «السيرة النبوية» لابن هشام (٣٥٨/١).

(٢) «تفسير ابن عطية» (٦٠/٥) وهو ضمن رواية ابن إسحاق السابقة في «سيرة ابن هشام» (٣٥٨/١).

٥٨- ﴿وَقَالُوا ءِآلِهَتُنَا^(١) خَيْرٌ أَمْ هُوَ مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلًا بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ ﴿٥٨﴾﴾

أي: قال المشركون للنبي ﷺ: آلهتنا التي نعبدها خير أم عيسى الذي يعبده قومه؟ قالوا ذلك على سبيل الجدال من أجل الوصول إلى باطلهم، فإذا كان عيسى في النار فنحن نقبل أن نكون معه نحن وآلهتنا.

وإذا تقرر عندنا وعندك - أيها الرسول - أن عيسى من عباد الله المقربين الذين لهم العاقبة الحسنة، فلم سويت بينه وبين الأصنام في النهي عن عبادة الجميع؟ فلولا أن حجتك باطلة ما حدث هذا التناقض، ولم قلت: ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ﴾ [الأنبياء: ٩٨]. وهذا لفظ يعم الأصنام وعيسى - في زعمهم -.

والجواب: أن الإسلام قد نهى عن كل ما يعبد من دون الله، عيسى وغيره، وعيسى عبدا أنعم الله عليه بالنبوة والرسالة، وقد جعله الله مثلاً لبني إسرائيل يعرفون به قدرة الله تعالى على خلق مولود من غير أب.

ثم إن (ما) من ﴿وَمَا تَعْبُدُونَ﴾ لغير العاقل، فلا يدخل فيها عيسى، مع أن الخطاب في آية سورة الأنبياء للمشركين في مكة، وقد كانوا يعبدون أصناماً ولا يعبدون عيسى ﷺ. وكذلك فإن عيسى وغيره من الأنبياء والأولياء داخلون في ﴿إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُمْ مِنَّا الْحُسْنَى﴾ [الأنبياء: ١٠١] وبهذا فإن الشبه التي أوردوها شبه واهية قد تم دحضها.^(٢)

ثم أبطل الله قولهم وكشف عن مكنون صدورهم، فقال سبحانه: ﴿مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلًا﴾ أي: ما قالوا هذا القول في شأن عيسى ﷺ إلا على وجه الجدال والمكابرة وليس لطلب الحق، فلا تهتم بأمرهم، فهم قوم شديдо الخصومة واللجاج بالباطل، وهذا معنى ﴿بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ﴾ أي: يقصدون الغلبة في المناظرة، سواء أكانت بحق أم بباطل، فوضع عيسى ﷺ لا يخفى عليهم، وهم يعرفون أنه ليس من حطب جهنم ولكنهم قوم مغالطون، يجادلون بالباطل مع ظهور الحق.

(١) اجتمع في آلهتنا ثلاث همزات، فسُهل الثانية نافع وابن كثير وأبو عمرو وابن عامر وأبو جعفر ورويس، وانفقوا على إثبات الأولى محققة، وإبدال الثالثة ألفاً، ولورش ثلاثة وجوه المد في البذل.

(٢) ينظر: كلام الشيخ ابن سعدي في تفسيره لهذه الآية.

عن أبي أمامة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «ما ضلَّ قوم بعد هُدًى كانوا عليه، إلا أوثوا الجدل، ثم تلا: ﴿مَا صَرَّيْهُ لَكَ إِلَّا جَدَلًا﴾»^(١).

وعنه رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ خرج على الناس وهم يتنازعون في القرآن، فغضب غضباً شديداً حتى كأنما صُبَّ على وجهه الخلُّ، ثم قال: «لا تضربوا كتاب الله بعضه ببعض، فإنه ما ضلَّ قوم إلا أوثوا الجدل» ثم تلا الآية^(٢).

عِيسَى عَبْدُ اللَّهِ وَرَسُولُهُ

٥٩- ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا عَبْدٌ أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ وَجَعَلْنَاهُ مَثَلًا لِّبَنِي إِسْرَءِيلَ﴾

قرر الله سبحانه في هذه الآية عبودية عيسى لله ﷻ، ردّاً على النصارى الذين ادَّعوا إلهيته وعبودوه، فهو عبد وليس بإله، والعبودية تنافي الإلهية، وقد فضله الله بالنبوة والرسالة كسائر الأنبياء، فقال تعالى: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا عَبْدٌ أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ﴾ أي: ما عيسى إلا عبد من عباد الله، وليس بإله، ولا ابن للإله، كما زعم النصارى، وقد أنعمنا عليه بالنبوة، وشرفناه بالرسالة، فقد خلق الله عيسى من غير أب، وأيده بالمعجزات الباهرات كإبراء الأكمه والأبرص، وإحياء الموتى بإذن الله ﷻ ﴿وَجَعَلْنَاهُ مَثَلًا لِّبَنِي إِسْرَءِيلَ﴾ أي: جعلنا ولادته من غير أب، آية وعبرة يُستدل بها على قدرة الله تعالى في خلق المولود من غير أب، وفي هذا رفع لمنزلة عيسى ﷺ وتحديد منزلته، ونفي الغلو فيه، أو التنقيص منه.

وفي الآية إبطال لمن ألّه عيسى، بزعمه أنه جزء من الله تعالى؛ لأنه خُلِقَ بكلمة الله.

ولما كان بنو إسرائيل قد ضعُف إيمانهم بالغيب، وطال عهدهم بالرسول، بعث الله إليهم عيسى مجدداً لإيمانهم، مؤيِّداً بالمعجزات من عند الله، فناصره العدا، وسعوا للتكيل به وقتله، فعصمه الله منهم، ورفعاه من بينهم.

(١) «المسند» (٢٥٦/٥) (٢٢١٦٤، ٢٢٢٠٤) والترمذي برقم (٣٣٥٣) وهو حديث حسن بطرقه وشواهد كما قال محققوه، وأخرجه ابن أبي عاصم في السنة ١٠١ والطبراني (٨٠٦٧) وهو عند البيهقي في الشعب (٨٤٣٨)، وقال: حديث حسن غريب صحيح، وابن ماجه برقم (٤٨) و«صحيح سنن ابن ماجه» (١٥/١) و«تفسير الطبري» (٥٣/٢٥) و«المستدرک» (٤٤٧/٢). وصححه الحاكم ووافقه الذهبي.

(٢) «تفسير الطبري» (٥٣/٢٥).

وفي تخصيص بني إسرائيل بالذكر إشارة إلى أن عيسى عليه السلام لم يُبعث إلا لبني إسرائيل، وأنه لم يدع غير بني إسرائيل إلى اتباع دينه، ومن اتبعه من غيرهم كان تقليداً لدعوته؛ لأنها أنقذته من ظلمات الشرك والوثنية^(١).

الْمَلَائِكَةُ مَسْكُنُهُمُ السَّمَوَاتُ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَأَسْكَنَهُمُ الْأَرْضَ

٦٠- ﴿وَلَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَا مِنْكُمْ مَلَائِكَةً فِي الْأَرْضِ يَخْلُقُونَ﴾

ولما أبطل سبحانه زعم النصارى في عيسى، أبطل زعم المشركين في أن الرسل يكونون من الملائكة، فبيّن أنهم عباد لله، جعلهم الله في العالم العلوي، كما جعل بني آدم في العالم السفلي، ولو شاء سبحانه لعكس الأمر، فجعل الملائكة في الأرض، كي يرسل إليهم ملائكة من جنسهم، أما أنتم - يا معشر البشر - فلا تطيقون رؤية الملائكة، ومن رحمته بكم أن أرسل لكم رسلاً من جنسكم تتمكنون من مخاطبتهم والتلقي عنهم، وكذلك فإن سكنى الملائكة في العالم العلوي لا يدل على بنوتهم لله تعالى، كما أن تميز عيسى عليه السلام بخلقه بكلمة: كُنْ، لا تقتضي أن يكون إلهاً أو جزءاً من الإله، أو ابناً له!!

﴿وَلَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَا مِنْكُمْ﴾. يصح أن تكون من للبديّة، أي: لو أردنا لجعلنا بدلاً منكم ملائكة يسكنون الأرض فيعمرونها، ويكونون خلقاً عنكم فيها، يخلف بعضهم بعضاً فيها بعد أن نهلككم.

ويصح أن تكون من للتبعيض، بمعنى: لو أردنا لجعلنا منكم يا رجال، ملائكة عن طريق التوالد، من غير واسطة نساء، فهذا أمر هيّن على الله تعالى، مع أنه أعجب من ولادة عيسى عليه السلام بدون أب، فقدرة الله تعالى لا يعجزها شيء، وهو سبحانه قادر أن يأتي بأعجب مما تتعجبون منه^(٢).

بَيْنَ جَلِّ شَأْنِهِ مَوْقِفَ بَنِي إِسْرَائِيلَ مِنْ دَعْوَتِهِ، فَقَالَ تَعَالَى:

﴿وَلَمَّا جَاءَ عِيسَى بِالْبَيِّنَاتِ﴾ أي: ولما أرسل الله عيسى إلى بني إسرائيل وأيده بالمعجزات الواضحة الدالة على صدق رسالته كإبراء الأكمه والأبرص وإحياء الموتى بإذن الله، ﴿قَالَ﴾ لهم عيسى ناصحًا ﴿قَدْ جِئْتُكُمْ بِالْحِكْمَةِ﴾ وهي النبوة والرسالة، وما تحمله من تكاليف وتشريعات ومواعظ، وكانت أصول دعوته ومبادئها متفقة مع عقائدهم التي ورثوها عن التوراة، وكانت مهمة عيسى أن يبين لهم المختلف فيه، ويحلّ لهم بعض ما حُرِّم عليهم بسبب ظلمهم ومعاصيهم، ولذا فإن عيسى ﷺ قال لهم: ﴿وَلَا يَتَّبِعْ لَكُم بَعْضَ الَّذِي تَخْتَلِفُونَ فِيهِ﴾ وقوله: ﴿بَعْضَ الَّذِي تَخْتَلِفُونَ فِيهِ﴾ إشارة إلى أنه يبين لهم بعض ما يختلفون فيه من أمور الدين، وليس الكلّ، فيصححها ويوضحها لهم كما جاء بها الإنجيل مما اختلفت فيه أفهام اليهود من أحكام التوراة، كما جاء على لسانه في قوله تعالى: ﴿وَلَا يَتَّبِعْ لَكُم بَعْضَ الَّذِي تَخْتَلِفُونَ فِيهِ﴾ [آل عمران: ٥٠]. فأوضح لكم صوابه وجوابه، فيزول عنكم اللبس، فقد جاء عيسى مكملًا ومتممًا لشريعة موسى، ولأحكام التوراة.

وكان عيسى ﷺ قد أرسل إلى قوم موحدين، ولكن ظهر الشرك في فرقة منهم قالوا: ﴿عُزَيْرُ بْنُ اللَّهِ﴾ [التوبة: ٣٠].

ولذلك فقد كان البند الأول في دعوته لهم هو التوحيد، وإخلاص الطاعة والعبادة لله وحده ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ﴾ بامثال أوامره واجتناب نواهيه، وضُوموا أنفسكم عن كل ما يُغضب الله تعالى، فتجنبوا عذاب النار ﴿وَأَطِيعُوا﴾ فيما أمرتكم به من تقوى الله وطاعته، وما نهيتكم عنه من الذنوب والموبقات، واستقيموا على ذلك إلى الممات.

وقد علم الله سبحانه أن فريقًا من قوم عيسى سيغالون فيه، ويزعمون بُنُوته لله تعالى فجاء هذا الإعلان على لسان عيسى ﷺ مقررًا عبوديته لله ﷻ:

٦٤- ﴿إِنَّ اللَّهَ هُوَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَأَعْبُدُوا هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ﴾ (٦٤)

أي: أنا مَرْبُوبٌ لله تعالى، وأنا وأنتم عبيد الله، فقراء إليه، مشتركون في عبادته وحده، وما دام التوحيد ثابتًا لله تعالى، فيجب إفراده تعالى بالعبادة دون سواه، وإخلاص التوحيد والعبادة له ﴿فَأَعْبُدُوهُ﴾ وحده، ولا تشركوا معه غيره، فإن هذا الذي

أمرتكم به من تقوى الله تعالى، وإفراده بالإلهية، هو الطريق الموصّل إلى سعادة الدنيا والآخرة ﴿هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ﴾ أي: وهو دين الله الحق، الذي لا يقبل من أحد سواه، وهو طريقه الموصّل إلى جنة الله، وكرامته.

ومن ذلك قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ اللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَأَعْبُدُوهُ﴾ [مريم: ٣٦]. وفي هذا إقرار بتوحيد الربوبية، بأن الله تعالى هو المربي لجميع خلقه بنعمه الظاهرة والباطنة، وفيه أيضًا إقرار بتوحيد العبادة بعبادته وحده لا شريك له، وفيه رد على النصارى، فهو يقول لهم: أنا عبد مربوب لله، ولست إلها ولا ابنًا للاله.

تَفَرَّقُ بَنِي إِسْرَائِيلَ شِيعًا وَأَحْزَابًا

٦٥- ﴿فَاخْتَلَفَ الْأَحْزَابُ مِنْ بَيْنِهِمْ فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْ عَذَابِ يَوْمِ أَلِيمٍ﴾

أي: فلما جاءهم عيسى بالبينات والمعجزات الباهرات، قابلوها بالتكذيب، وافترقوا في هذا التكذيب، وفي هذه الآية، بيان أن اليهود قد اختلفوا في كثير من شريعة موسى ﷺ، ولما جاء المسيح ﷺ وجدهم فرقا وشيعا، وأهم فرق اليهود أربع:

(أ) طائفة الصّدُوقيّين: نسبة إلى صدوق الذي كانت ذريته تقوم على شؤون الهيكل منذ عهدي داود وسليمان، وكانت فرقة متشددة في العبادة، تُنكر البدع، وتترخص في الاستمتاع بالشهوات، ولا تعترف بيوم القيامة.

(ب) وطائفة الفريسيّين: أهل الزهد والتصوف، وهم يعترفون بيوم القيامة، ويُنكرون على الصّدُوقيّين تشدّدهم في العبادة وجحود البعث والنشور.

(ج) وطائفة السامريّين: وهم خليط من اليهود والآشوريين، وهؤلاء يدينون بالعهد القديم، ويُنكرون ما أضيف إليه في العهد المتأخرة.

(د) وطائفة الآسينيين: وهم يعيشون في عزلة عن بقية الطوائف، فيهم شدة وتقشف، ويتأثرون ببعض المذاهب الفلسفية.

وهناك نحل فردية كثيرة لا يزالون راضخين لذلّ الرومان، ينتظرون الخلاص على يد

المخلص المنتظر^(١).

ولما جاءهم عيسى اختلفوا، فمنهم من صدّقه، وهم: يحيى وزكريا، ومريم أم عيسى، والحواريون الاثنا عشر، وبعض النساء، مثل: مريم المجدليّة، ونفر قليل.

وكفر به جمهور اليهود وأحبارهم، وهُمّوا بقتله وصلّبه حتى رفعه الله إليه، ثم انتشر الحواريّون يدعون إلى شريعة عيسى ﷺ فاتّبعهم أقوام في الشام واليونان، وبعد رفع عيسى ﷺ اختلفوا في أصول الديانة، فتفرّقوا ثلاث فرق: فكان منهم مَنْ جعله إلهاً، ومنهم مَنْ قال: إنه ابن الله، ومنهم مَنْ قال: إن الإله مكون من ثلاثة، وهو ثالثهم، وضاعت كلمة التوحيد التي جاء بها عيسى، وضاعت دعوته بين الناس، وأهم فرق النصارى ثلاث:

(أ) النسطورية، وهم الذين قالوا: عيسى ابن الله.

(ب) واليعقوبية، وهم الذين قالوا: عيسى هو الله، أي: إن الله تعالى قد حلّ فيه.

(ج) والمَلَكانيّة، وهم الكاثوليك، الذين قالوا: عيسى ثالث ثلاثة: الأب، وهو الله، والابن وهو عيسى، والروح القدس وهو جبريل ﷺ.

وهذا الاختلاف حدث بعد وقت طويل من رفع عيسى ﷺ، وقد أفضى بهم هذا الاختلاف إلى أن صار أكثرهم مشركين.

ذلكم قول الله تعالى: ﴿فَاخْتَلَفَ الْأَحْزَابُ مِنْ بَيْنِهِمْ﴾ أي: اختلفوا في أمر عيسى، فمنهم مَنْ قال: إنه عبد الله ورسوله، وهو القول الحق، ومنهم من قال بالبنوّة، ومنهم مَنْ ألّٰهه، ومنهم مَنْ قال بالتثليث، تعالى الله عما يقولون علوّاً كبيراً.

ثم توعّد الله سبحانه كل من أشرك بالله تعالى، ووصف عيسى بغير ما وصفه الله به، فقال سبحانه: ﴿قَوْلٌ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْ عَذَابٍ يَوْمَ إِلْيَهِ﴾ أي: هلاك ودمار وعذاب أليم لمن ظلموا أنفسهم بالشرك، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿قَوْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ مَّشْهَدٍ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ [مريم: ٣٧]. فما أشد حُزن الظالمين، وما أعظم خسرانهم؟

ثم بيّن سبحانه أن هذا العذاب واقع بهم لا محالة في يوم قريب يأتيهم فجأة، فقال تعالى:

(١) يُنظَر: «عبقريّة المسيح» عباس العقاد.

٦٦- ﴿هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا السَّاعَةَ أَنْ تَأْتِيَهُمْ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ (٦٦)

أي: ما ينتظر هؤلاء المشركون المكذبون، المختلفون في شأن عيسى عليه السلام إلا أن تقوم القيامة فجأة، دون أن يشعروا بقيامها، فيعاقبهم الله على شركهم وعلى سوء أقوالهم وأفعالهم. ونظير هذا قوله تعالى: ﴿فَهَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا السَّاعَةَ أَنْ تَأْتِيَهُمْ بَغْتَةً فَقَدْ جَاءَ أَشْرَاطُهَا فَأَنَّى لَهُمْ إِذَا جَاءَهُمْ ذِكْرُهُمْ﴾ (٦٨) [محمد].

وقوله تعالى: ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُهُ بَيِّنَاتٍ أَوْ نَهَارًا مَآذَا يَسْتَعْجِلُ مِنْهُ الْمُجْرِمُونَ﴾ (٥٩) [يونس].

فإذا جاءت الساعة، فلا تسأل عن حال من كذب بها، واستهزأ بما جاء فيها؟

ثَمَرَةُ الْحُبِّ فِي اللَّهِ وَالْبُغْضِ فِي اللَّهِ

٦٧- ﴿الْأَخِلَاءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا الْمُتَّقِينَ﴾ (٦٧)

أي: أن أخلاء الدنيا الذين جمعهم الكفر والتكذيب والاستهزاء والمعصية، يعادي بعضهم بعضاً يوم الموقف العظيم، فإن محبتهم في الدنيا تنقلب إلى عداوة في الآخرة، حين يتبين لهم ضلال ما كانوا عليه في الدنيا، ولأن محبتهم لم تكن لله تعالى.

وهكذا: يتعاون أعداء الإسلام على التآكل من الإسلام وأهله، ويجتمع الأصدقاء أو الصديقان على الخير أو الشر، وقديماً كان المشركون يجتمعون في نواديهم ومجالسهم، ويتعاونون فيما بينهم على اضطهاد النبي ﷺ ومناوأة الإسلام، فبين الله تعالى أن الأصدقاء المتعاونين على الشر والإثم والعدوان في الدنيا يكونون أعداء يوم القيامة؛ لأنهم استخدموا صداقتهم في إغراء بعضهم بعضاً على الكفر أو الشرك أو ارتكاب المعاصي، وإن تفاوتوا في دركات النار يوم القيامة. ﴿الْأَخِلَاءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ﴾

أي: إن الأصدقاء المتعاونين في الدنيا على معاصي الله تعالى، يتبرأ بعضهم من بعض يوم القيامة، كما قال تعالى: ﴿ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَمَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ وَلَيَعْلَنُ بَعْضُكُمْ بِبَعْضٍ وَمَأْوَهُمُ النَّارُ وَمَا لَكُمْ مِنْ نَاصِرِينَ﴾ [العنكبوت: ٢٥].

وقال سبحانه: ﴿حَتَّىٰ إِذَا جَاءَنَا قَالَ يَلَيْتَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ بَعْدَ الْمَشْرِقَيْنِ فَيَنْسُقُ الْقَرْنَيْنِ﴾ (٢٨).

فكلُّ خلة وصداقة لغير الله تعالى تنقلب يوم القيامة عداوة.

أما المتقون فإن صداقتهم في الدنيا تنفعهم في الآخرة؛ لأنها تقوم على الخير والعمل الصالح، والتعاون على البر والتقوى، ولذا فإن الله تعالى استثناهم من العداوة يوم القيامة، فقال: ﴿إِلَّا الْمُتَّقِينَ﴾ لأن صداقتهم تقوم على المحبة في الله ولله، وليست لأغراض دنيوية، ولا على شهوات ولا عصبية، ولذلك فإنها دائمة في الدنيا والآخرة.

وفي الآية إنذار لمن تقوم صداقتهم على محاربة الحق ومناصرة الباطل، وفيها بشارة عظيمة للمؤمنين الذين بنوا صداقتهم على طاعة الله ونصرة دينه والعمل بشريعته.

جاء في حديث السبعة الذين يظلهم الله في ظله يوم لا ظل إلا ظله: «ورجلان تحابا في الله، اجتمعا عليه وتفرقا عليه»^(١).

وعن أبي هريرة ؓ أن رسول الله ﷺ قال: «لو أن رجلين تحابا في الله، أحدهما بالشرق والآخر بالمغرب، لجمع الله بينهما يوم القيامة، يقول: هذا الذي أحببته في»^(٢).

وأثر عن عليّ ؓ: أن خليلين مؤمنين، وخليلين كافرين ماتوا، فالتقت أرواحهم، وقيل لهم: ليثن كل واحد منكم على صاحبه، فقال كل واحد من المؤمنين لصاحبه: نعم صاحب، ونعم الأخ، ونعم الخليل، وقال كل واحد من الكافرين: بئس الأخ، وبئس صاحب، وبئس الخليل^(٣).

بُشْرَى لِلْمُتَحَابِّينَ فِي اللَّهِ

ثم بشر الله عباده المتقين المتحابين بجلاله بأنه يقال لهم يوم القيامة:

٦٨، ٦٩ - ﴿يَعْبَادِ^(٤) لَا خَوْفٌ^(٥) عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ وَلَا أُنْتُمْ تَحْزَنُونَ ﴿٦٨﴾ الَّذِينَ ءَامَنُوا بِآيَاتِنَا

(١) من حديث أبي هريرة في «صحيح مسلم» برقم (١٠٣١) و«صحيح البخاري» برقم (٦٦٠، ١٤٢٣).

(٢) «مختصر تاريخ دمشق» لابن منظور (٧٩/٢٧). وإسناده متكلم فيه، راجع الميزان (٢٢٢٦).

(٣) يُنْظَرُ: «تفسير عبد الرزاق» (١٦٤/٢) والطبري (٦٤٠/٢٠) والبيهقي في «الشعب» (٩٤٤٣).

(٤) قرأ شعبة ورويس بخلف عنه بفتح الياء وصلًا وسكونها وقفًا مع إثباتها بعد الدال من (يا عباد لا خوف) وقرأ نافع وأبو عمرو وابن عامر وأبو جعفر ورويس في وجهه الثاني بإثباتها ساكنة في الحالين، والباقون بحذفها في الحالين.

(٥) قرأ يعقوب بفتح الفاء من (لا خوف) على أن لا نافية للجنس، والباقون بالرفع مع التنوين على أن لا نافية للوحدة.

وَكَانُوا مُسْلِمِينَ ﴿٦٩﴾

أي: لا تخافوا يوم القيامة -أيها المؤمنون- من عقابي في المستقبل، ولا تحزنوا على ما فاتكم من متاع الدنيا، ولا على ما نزل بكم من مكروه، فأنتم آمنون مطمئنون، وذلك أن الناس حين يُبعثون من قبورهم، ما من أحد منهم إلا فزع، فينادي منادٍ بهذه الآية، فيرجوها الناس كلهم، فيطمئن الله المؤمنين بأنهم لا يخافون شيئاً في هذا اليوم العصيب، ولا يخافون من أي شيء يغممهم في المستقبل، وكل ما فاتهم من حظوظ الدنيا ومتاعها لا يحزنون عليه، فإن ما عند الله خير وأبقى ﴿مَا عِنْدَكُمْ يَنْفَدُ وَمَا عِنْدَ اللَّهِ بَاقٍ﴾ [النحل: ٩٦].

وقد وصف الله تعالى من يتنفي عنهم الخوف والحزن في هذه السورة بالإيمان والإسلام.

ووصفهم في موضع آخر بالإيمان والتقوى، وبين أنهم أولياء الله، فقال تعالى: ﴿أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ ﴿٧١﴾ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ ﴿٧٢﴾ [يونس].

ووصفهم أيضاً بالإيمان والاستقامة، فقال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَمُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ﴾ ﴿٧٣﴾ [فصلت] وغير ذلك.

ثم وصف الله هؤلاء المتقين، الذين لا يخافون إذا خاف الناس، ولا يحزنون إذا حزن الناس، فقال: ﴿الَّذِينَ ءَامَنُوا بِبَيِّنَاتٍ﴾ أي: الذين صدّقوا بالقرآن، وبآيات الكونية الدالة على وحدانية الله تعالى وصدق نبيه ﷺ ﴿وَكَانُوا مُسْلِمِينَ﴾ أي: وكانوا في الدنيا خاضعين لحكم الله ووطاعته، منقادين لأمره ونهيه، مخلصين وجوههم له.

والإيمان: تصديق واعتقاد، وعمل.

والإسلام: إتيان بأركان الإسلام الخمسة، كما في حديث جبريل.

وهؤلاء قد عملوا بما جاءت به الرسل، وانقادوا لله بقلوبهم وجوارحهم، فالإسلام: اعتقاد يتمثل في أركان الإيمان الستة، وعمل يتمثل في الأركان الخمسة، وهؤلاء قد جمعوا بين العلم والعمل. ويقال لهؤلاء المؤمنين يوم القيامة:

٧٠- ﴿ادْخُلُوا الْجَنَّةَ أَشْرَ وَأَزْوَاجَكُمْ تَحْبَبُونَ﴾ ﴿٧٠﴾

والأزواج، إما أن يُراد بها: الزوجات، أي: نساؤهم من أهل الدنيا والحبور العين؛ لأن في هذا تمام النعيم، ولعله أرجح.

وإما أن يُراد بها: النظراء والقرناء من أمثالهم وأشباههم في الإيمان والطاعة.

ومعنى ﴿تُحَبَّرُونَ﴾ تُنَعَّمُونَ وتُفْرَحُونَ وتُسَرُّونَ، من الحُبور والسرور، كما في قوله تعالى ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَهُمْ فِي رَوْضَةٍ يُحَبَّرُونَ﴾ [١٥] [الروم].

ويشبه ذلك قوله تعالى: ﴿إِنَّ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ الْيَوْمَ فِي شُغْلٍ فَكِهُونَ﴾ [٥٥] هُمْ وَأَزْوَاجُهُمْ فِي ظِلِّ عَلَى الْأَرَائِكِ مُتَكِفُونَ﴾ [٥٦] [يس].

فيا أيها المؤمنون المنقادون لله والرسول: ادخلوا دار النعيم، والقرار، أنتم ومن كان مماثلاً لكم في إيمانكم وأعمالكم الصالحة، وفي مقدمة هؤلاء: زوجاتكم وأولادكم ومن تحبون في الله، تُنَعَّمون وتكرمون، ويدخل عليكم الفرح والحبور والسرور.

مِنْ نَعِيمِ أَهْلِ الْجَنَّةِ

ثم ذكر سبحانه بعض النعيم الذي كَرَّمَ به عباده المؤمنين، فقال:

٧١- ﴿يُطَافُ عَلَيْهِمْ بِصِحَافٍ مِّنْ ذَهَبٍ وَأَكْوَابٍ وَفِيهَا مَآ تَشْتَهِيهِ^(١) الْأَنفُسُ وَكَلَّذُ الْأَعْيُنُ^٢ وَأَنْتُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ [٧١]

أي: بعد أن يدخل المؤمنون الجنة هم وأزواجهم، يخدمهم ويطوف عليهم ولدان مخلدون في الجنة، بألوان من الأطعمة في أوانٍ من ذهب، وألوان من الأشربة في أكواب من ذهب، وأواني الجنة وكؤوسها كلها من ذهب وفضة، كما قال تعالى:

﴿وَيُطَافُ عَلَيْهِمْ بِبَازِينَ^٣ مِّنْ فِضَّةٍ وَأَكْوَابٍ كَانَتْ فَوَارِبًا^٤ قَوَارِبًا^٥ مِّنْ فِضَّةٍ قَدَرُهَا نَقِيرًا^٦﴾ [١٦] [الإنسان].

وقال سبحانه: ﴿وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ غِلْمَانٌ لَّهُمْ كَأَنَّهُمْ لُؤْلُؤٌ مَّكَوْنٌ﴾ [٢٤] [الطور].

وقال جل شأنه: ﴿يَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُّخْلَدُونَ^٧ يَأْكُوبِ^٨ وَأَبَارِقُ^٩ وَكَأَنَّ مِنْ مَّعِينٍ^{١٠}﴾ [٧٨] [الواقعة]

(١) قرأ نافع وابن عامر وحفص وأبو جعفر (ما تشتهي) بزيادة هاء بعد الياء يعود على (ما) الموصولة، والباقيون (ما تشتهي) بحذف الهاء؛ لأن (ما) مفعول، وعائد المفعول يجوز حذفه، كقوله تعالى: (هذا الذي بعث الله رسولا) أي: بعثه الله.

وقال أيضًا: ﴿يَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُّخَلَّدُونَ إِذَا رَأَيْتَهُمْ حَسِبْتَهُمْ لُؤْلُؤًا مَّنْشُورًا﴾ [الإنسان]

وفي الحديث: عن حذيفة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «لا تلبسوا الحرير ولا الديباج، ولا تشربوا في آنية الذهب والفضة، ولا تأكلوا في صحافها فإنها لهم في الدنيا ولكم في الآخرة»^(١).

والصِّحَاف: جمع صَحْفَة، وهي: إناء واسع مستدير، يوضع فيه الطعام أو الفاكهة، وهو دون القضة التي تتسع لإشباع عشرة من الناس.

وقد اتخذ عمر بن الخطاب رضي الله عنه صحافًا على عدد أزواج النبي ﷺ، وكان لا يؤتى إليه بفاكهة ونحوها إلا أرسل إليهن منها في تلك الصِّحَاف^(٢).

وبعد أن ذكر الله سبحانه الجنة، وبيّن أنها موضع الخُبور، وفيها ألوان النعيم: الطعام والشراب، يُقدّم لهم في أوانٍ من الذهب والفضة، ذكر بيانًا كُليًّا يجمع كل الملذات والشهوات، قال جلّ شأنه: ﴿وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ الْأَنْفُسُ وَتَلَذُّ الْأَعْيُنُ﴾ وقد حصرت هذه الجملة أنواع النعم كلها؛ لأن النعم إما أن تشتهيها القلوب، أو تستلذها العيون، والله تعالى يخلق لأهل الجنة من الشهوات ما يليق بعالم الخلود من السُمُوءِ وعُلُوءِ الشَّانِ، والنفس قد تشتهي ما لا تراه العين، فيؤتى به في صورة جميلة إكمالًا للنعمة، وكل ما تشتهي النفوس من المطاعم والمشارب والملابس والمناكح، وما تستلذه العين من مناظر حسنة، وأشجار محدقة، ومبان مزخرفة وغير ذلك، كل هذا حاصل في الجنة، ومعد لأهلها على أكمل وجه، كما قال تعالى ﴿لَهُمْ فِيهَا فَنَكِّهَةٌ وَلَهُمْ مَا يَدَّعُونَ﴾ [يس]

وهو نعيم دائم لا يحول ولا يزول ولا ينقطع.

عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: قلنا: يا رسول الله، إن الولد من قرة العين وتمام السرور، فهل يولد لأهل الجنة؟ فقال: «إن المؤمن إذا اشتهى الولد في الجنة، كان حمّله ووضعه وسنّه في ساعة كما يشتهي»^(٣).

(١) «صحيح البخاري» برقم (٥٤٢٦، ٥٦٣٢) و«صحيح مسلم» برقم (٢٠٦٧).

(٢) «تفسير التحرير والتنوير» (٣٥٤/٢٤).

(٣) «المسند» (١١٦/١٧)، (٢٨٧/١٨)، (١١٠٦٣، ١١٧٦٤) وإسناده حسن كما قال محققوه، وابن ماجه

(٤٣٣٨) والترمذي (٢٥٦٣) وصححه الألباني في «صحيح سنن ابن ماجه» برقم (٣٥٠٠) وابن حبان

(٧٤٠٤) والبيهقي في «البعث» (٥٨٧) والدارمي (٣٣٧/٢).

قال الترمذي: اختلف أهل العلم في هذا: فقال بعضهم: في الجنة جماع ولا يكون ولد. وقال البخاري: إذا انتهى المؤمن الولد كان في ساعة واحدة كما انتهى، ولكنه لا يشتهي. وجاء عن أبي رزین العقيلي عن النبي ﷺ قال: «إن أهل الجنة لا يكون لهم ولد»^(١). ثم إن هذا الحُبور، وسعة الرزق، ونيل الشهوات نعيم دائم مستمر لا ينقطع ﴿وَأَسْتُرُ فِيهَا خِلْدُونَ﴾ خلودًا أبدًا.

دُخُولُ الْجَنَّةِ بِفَضْلِ اللَّهِ، وَدَرَجَاتُ أَهْلِهَا بِحَسَبِ أَعْمَالِهِمْ

٧٢، ٧٣- ﴿وَتِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٧٢﴾ لَكُمْ فِيهَا فَاكِهَةٌ كَثِيرَةٌ مِنْهَا تَأْكُلُونَ﴾

يَبَيِّنُ سبحانه أن السبب في هذا النعيم الدائم الذي أعده الله للمؤمنين في الجنة، هو ما قَدَّمُوهُ لأنفسهم في الدنيا من صالح الأقوال وصالح الأعمال التي تَقَبَّلَهَا الله منهم، فأَوْصَلَتْهم إلى هذه المنزلة العالية.

والمعنى: إن هذه الجنة قد أُورِثَكُمْ الله إياها بسبب ما كنتم تعملون في الدنيا من الخيرات والأعمال الصالحات، وقد صارت لكم بفضل الله تعالى وإحسانه ورحمته جزاء لكم، فإنه لا يدخل أحد منكم الجنة بعمله، ولكن برحمة الله تعالى وفضله، وإنما تتفاوت الدرجات في الجنة بحسب الأعمال الصالحة زيادة ونقصًا.

فدخول الجنة بفضل الله تعالى، أما حظوظهم فيها فعلى قدر أعمالهم.

عن أبي هريرة ؓ أن رسول الله ﷺ قال: «كل أهل النار يرى منزله من الجنة حسرة فيقول: ﴿لَوْ أَنَّ اللَّهَ هَدَانِي لَكُنْتُ مِنَ الْمُتَّقِينَ﴾ [الزمر: ٥٧]

وكل أهل الجنة يرى منزله من النار، فيقول: ﴿وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَوْلَا أَنَّ هَدَانَا اللَّهُ﴾ [الأعراف: ٤٣] ليكون له شكرًا^(٢).

(١) ينظر: تحقيق المسند (١١٨/١٧) وحديث أبي رزین من زوائد عبد الله بن أحمد، وإسناده ضعيف، وانظر هذه المسألة في حادي الأرواح لابن القيم ٣١٢٢ والبيهقي في البعث والنشور ص ٢٢٠.

(٢) رواه أحمد في مسنده مختصرًا من طريق أبي بكر بن عياش (٥١٢/٢) برقم (١٠٦٥٢). وإسناده صحيح على شرط البخاري (محققه) وهو في سنن النسائي الكبرى (١١٤٥٤) والحاكم (٤٣٥/٢) وصححه بموافقة الذهبي على شرط الشيخين وعند البيهقي في البعث والنشور (٢٤٣).

وعن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «ما من أحد إلا وله منزل في الجنة ومنزل في النار، فالكاfer يرث المؤمن منزله من النار، والمؤمن يرث الكافر منزله من الجنة، وذلك قوله تعالى: ﴿أُولَئِكَ هُمُ الْوَارِثُونَ﴾ (١١) الَّذِينَ يَرِثُونَ الْفَرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿١٢﴾» [المؤمنون] (١).

وهذا كقوله تعالى: ﴿وَنُودُوا أَنْ تِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [الأعراف: ٤٣].

وقوله: ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ (١٧) [السجدة].

والعمل الصالح الذي يتقبله الله تعالى يكون سبباً لدخول الجنة، وهذا الدخول محض فضل من الله تعالى، كما قال ﷺ فيما رواه أبو هريرة رضي الله عنه: «لن يدخل أحدًا منكم عمله الجنة»، قالوا: ولا أنت يا رسول الله؟ قال: «ولا أنا إلا أن يتغمدني الله بفضل منه ورحمة» (٢).

ومن نعيم الجنة: الفواكه الكثيرة، والثمار الشهية اللذيذة، وكل ما أعد الله لكم -أيها المؤمنون- في الجنة من أنواع الفواكه والثمار، وألوان المطاعم والمشارب مما تأكلونه تفكها وتلذذاً، وليس بسبب الجوع والحاجة إلى الغذاء، وكل ما يؤكل من ثمار الجنة يُخلف بدله، جاء في الأثر: «لا ينزع أحد في الجنة من ثمرها ثمرة إلا نبت مكانها مثلاًها» (٣).

وفي الجنة ألوان من النعم ذكرها القرآن، منها:

(أ) المأكّل:

١- ﴿وَلَحْمِ طَيْرٍ مِّمَّا يَشْتَهُونَ﴾ (١٦) [الواقعة].

٢- ﴿وَفَلَكَهَم كَثِيرٌ﴾ (٣٢) لَا مَقْطُوعَةٍ وَلَا مَمْنُوعَةٍ ﴿٣٣﴾ [الواقعة].

(ب) والمشارب:

١- ﴿إِنَّ الْأَثَرَارَ يَشْرَبُونَ مِنْ كَأْسٍ كَانَ مِزَاجُهَا كَافُورًا﴾ (٥) عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ اللَّهِ يُفَجِّرُونَهَا تَفْجِيرًا ﴿٦﴾ [الإنسان].

٢- ﴿وَسُقُونَ فِيهَا كَأْسًا كَانَ مِزَاجُهَا زَجْجِيلًا﴾ (٧) عَيْنًا فِيهَا تُسَمَّى سَلْسِيلًا ﴿٨﴾ [الإنسان].

(١) بتصحیح الألباني في صحيح سنن ابن ماجه (٣٥٠٣) وهو في السنن برقم (٤٣٤١) وفي فيض القدير (٥/ ٤٦٨) وفي السلسلة الصحيحة (٢٢٧٩).

(٢) «صحيح البخاري» برقم (٥٦٧٣) و«صحيح مسلم» برقم (٢٨١٦).

(٣) «تفسير الخازن» (١١٠/٤).

نَزُولُ عِيسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ إِلَى الْعَالَمِ الْإِسْلَامِيِّ وَيُؤَكِّدُ دَعْوَةَ التَّوْحِيدِ

٦١- ﴿وَإِنَّهُ لَعَلَّمَ لِّلسَّاعَةِ فَلَا تَمُوتُ بِهَا وَاتَّبِعُونِ^(١) هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ ﴿٦١﴾﴾

بَيِّنْ سَبْحَانَهُ فِي هَذِهِ الْآيَةِ أَنَّ نَزُولَ عِيسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ حَيًّا إِلَى الْأَرْضِ فِي آخِرِ الزَّمَانِ، مِنْ عِلَامَاتِ السَّاعَةِ الْكُبْرَى، حَيْثُ يُعْرَفُ قُرْبُهَا بِخُرُوجِهِ عَلَى النَّاسِ، وَيَكُونُ ذَلِكَ عِلَامَةً عَلَى نَهَايَةِ الدُّنْيَا ﴿وَإِنَّهُ لَعَلَّمَ لِّلسَّاعَةِ﴾ أَي: وَإِنْ نَزَلَ عِيسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ قَبْلَ يَوْمِ الْقِيَامَةِ لِذَلِيلٍ عَلَى قَرَبِ وَقُوعِ السَّاعَةِ، وَيَدُلُّ عَلَى صِحَّةِ هَذَا الْمَعْنَى قِرَاءَةُ الْأَعْمَشِ: (وَإِنَّهُ لَعَلَّمَ لِّلسَّاعَةِ) بِفَتْحِ الْعَيْنِ وَاللَّامِ، أَي: شَرْطٌ وَعِلَامَةٌ لَهَا، وَهِيَ قِرَاءَةُ غَيْرِ مُتَوَاتِرَةٍ ﴿فَلَا تَمُوتُ بِهَا﴾ أَي: لَا تَشْكُو فِي قِيَامِهَا، فَإِنَّهَا آتِيَةٌ لَا مُحَالَةَ، وَعِيسَى سَيُعَلِّمُكُمْ بِقِيَامِهَا وَيُخْبِرُكُمْ بِأَحْوَالِهَا وَأَهْوَالِهَا.

وَإِنَّ الْقَادِرَ عَلَى نَزُولِ عِيسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ، وَالْقَادِرَ عَلَى خَلْقِهِ بَدُونِ آبٍ، قَادِرٌ عَلَى بَعثِ الْمَوْتَى مِنْ قُبُورِهِمْ.

﴿وَاتَّبِعُونِ﴾ أَيُّهَا النَّاسُ فِيمَا جِئْتُكُمْ بِهِ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ، بِامْتِثَالِ مَا أَمَرْتُكُمْ بِهِ وَاجْتِنَابِ مَا نَهَيْتُكُمْ عَنْهُ، فَهُوَ الطَّرِيقُ الْقَوِيمُ، الَّذِي يَأْخُذُ بِأَيْدِيكُمْ إِلَى الْجَنَّةِ، وَيُوصِّلُكُمْ إِلَى سَعَادَتِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ ﴿هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ﴾، أَيِ هَذَا طَرِيقٌ مُوصِلٌ إِلَى جَنَّةِ اللَّهِ وَرِضْوَانِهِ.

وَقَدْ تَوَاتَرَتْ الْأَحَادِيثُ بِنَزُولِ عِيسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ فِي آخِرِ الزَّمَانِ، وَمِنْهَا:

١- مَا جَاءَ فِي الصَّحِيحَيْنِ وَغَيْرِهِمَا: عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «الَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، لِيُوشِكَنَّ أَنْ يَنْزَلَ فِيكُمْ ابْنُ مَرْيَمَ، حَكَمًا عَادِلًا، فَيَكْسِرَ الصَّلِيبَ، وَيَقْتُلَ الْخَنزِيرَ، وَيَضَعَ الْجِزْيَةَ، وَيَفِيضَ الْمَالَ، حَتَّى لَا يَقْبَلَهُ أَحَدٌ»^(٢).

٢- وَفِي رِوَايَةِ أَبِي دَاوُدَ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَيْضًا: أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «لَيْسَ بَيْنِي وَبَيْنَ عِيسَى نَبِيٍّ، وَإِنَّهُ نَازِلٌ فِيكُمْ، فَإِذَا رَأَيْتُمُوهُ فَاعْرِفُوهُ، فَإِنَّهُ رَجُلٌ مَرْبُوعٌ إِلَى الْحُمْرَةِ وَالْبَيَاضِ، يَنْزِلُ بَيْنَ مَمَصْرَتَيْنِ، كَأَنَّ رَأْسَهُ يَقْطُرُ، وَلَوْ لَمْ يُصْبِهِ بَلَلٌ، فَيُقَاتِلُ النَّاسَ عَلَى الْإِسْلَامِ، فَيَدُقُّ الصَّلِيبَ، وَيَقْتُلُ الْخَنزِيرَ، وَيَضَعُ الْجِزْيَةَ، وَيُهْلِكُ اللَّهُ تَعَالَى فِي زَمَانِهِ

(١) قَرَأَ أَبُو عَمْرٍو وَأَبُو جَعْفَرٍ بِإِثْبَاتِ الْيَاءِ وَصَلًّا مِنْ (وَاتَّبِعُونَ) وَأَثْبَتَهَا يَعْقُوبُ بِإِثْبَاتِهَا وَصَلًّا وَوَقَفًّا، وَابْنُ الْقَاسِمِ بِحَذْفِهَا فِي الْحَالِينِ.

(٢) «صَحِيحُ الْبُخَارِيِّ» بِرَقْمِ (٢٢٢٢) وَ«صَحِيحُ مُسْلِمٍ» بِرَقْمِ (١٥٥) وَ«سُنَنِ ابْنِ مَاجَهَ» (٤٠٧٨).

الْمَلَلُ كُلُّهَا إِلَّا الْإِسْلَامَ، وبهلك الدجال، ثم يمكث في الأرض أربعين سنة، ثم يُتَوَفَّى، ويصلي عليه المسلمون»^(١) والمَمْصَرَة: ثياب فيها صُفرة خفيفة.

٣- وفي رواية: «أن عيسى ينزل وبيده حربة، هي التي يقتل بها الدجال، فيأتي بيت المقدس، والناس في صلاة العصر، فيتأخر الإمام فيقدمه عيسى، ويصلي خلفه على شريعة محمد ﷺ، ثم يقتل الخنازير، ويكسر الصليب، ويُخرب البع والكنائس، ويقتل النصارى إلا من آمن».

قال تعالى: ﴿وَأَن مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ إِلَّا لِيُؤْمِنَنَّ بِهِ قَبْلَ مَوْتِهِ﴾ [النساء: ١٥٩].

ولما أمر سبحانه باتباع أمره واجتناب نهيه في قوله تعالى: ﴿وَأَتَّبِعُون﴾ حذرنا جل شأنه من اتباع الشيطان، وصدّه لنا عن دين الله، وعن طريقه القويم، فقال تعالى:

٦٢- ﴿وَلَا يَصُدَّنَّكُمُ الشَّيْطَانُ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾

أي: لا يضرّكم الشيطان -أيها الناس- ويحول بينكم وبين طاعة الله ورسوله، بوسوسته وتزيينه للشهوات والشبهات، فعداوته ظاهرة وكيدة واضح ﴿إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾ كما قال سبحانه: ﴿إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا إِنَّمَا يَدْعُوا حِزْبَهُ لِيَكُونُوا مِنْ أَصْحَابِ السَّعِيرِ﴾ [فاطر]. وقال سبحانه: ﴿وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾ [الأنعام: ١٤٢]. وهو حريص على إغوائكم وإضلالكم.

مَوْقِفُ بَنِي إِسْرَائِيلَ مِنْ دَعْوَةِ عِيسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ

٦٣- ﴿وَلَمَّا جَاءَ عِيسَى بِالْبَيِّنَاتِ قَالَ قَدْ جِئْتُكُمْ بِالْحِكْمَةِ وَلِأُبَيِّنَ لَكُمْ بَعْضَ الَّذِي تَخْتَلِفُونَ فِيهِ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا﴾^(٢)

ولما ذكر سبحانه العبد المنعم عليه، وهو عيسى عليه السلام وذكر أنه علم على مجيء الساعة،

(١) صحيح سنن أبي داود (٣٦٣٥) وفي سنن أبي داود (٤٣٢٤) وفي السلسلة الصحيحة (٢١٨٢) وانظر: رواية المسند (٧٩٠٣) بإسناد صحيح على شرط مسلم ورجال ثقات، وانظر: رواية عثمان بن أبي العاص الثقفني في المسند (١٧٩٠٠) بسند ضعيف (محققوه) وقصة نزول عيسى عليه السلام في صحيح مسلم عن أبي هريرة (٢٨٩٧) والمسند (٧٦٧٩).

(٢) قرأ يعقوب بإثبات الياء وصلًا ووقفًا في (وأطيعون)، والباقون بحذفها في الحاليين.

٣- ﴿مَثَلُ الْجَنَةِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ فِيهَا أَنْهَرُ مِنْ مَاءٍ غَيْرِ آسِنٍ وَأَنْهَرُ مِنْ لَبَنٍ لَمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُ وَأَنْهَرُ مِنْ خَمْرٍ لَذَّةٍ لِلشَّارِبِينَ وَأَنْهَرُ مِنْ عَسَلٍ مُصَفًّى وَلَهُمْ فِيهَا مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ﴾ [محمد: ١٥].

٤- ﴿كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا أَسْلَفْتُمْ فِي الْأَيَّامِ الْخَالِيَةِ﴾ [الحاقة: ١٤].

(ج) والملابس:

١- ﴿وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ﴾ [الحج: ٢٣].

٢- ﴿وَيَلْبَسُونَ ثِيَابًا خُضْرًا مِنْ سُنْدُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ﴾ [الكهف: ٣١].

(د) والحلي:

١- ﴿يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِنْ ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا﴾ [فاطر: ٣٣].

٢- ﴿وَحُلُوفًا أَسَاوِرَ مِنْ فِضَّةٍ﴾ [الإنسان: ٢١].

(هـ) والأواني:

١- ﴿يَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُخَلَّدُونَ ﴿٧٧﴾ يَأْكُوبُ وَأَبَارِقُ وَكَأْسٍ مِنْ مَعِينٍ ﴿٧٨﴾﴾ [الواقعة: ٧٧].

٢- ﴿يُطَافُ عَلَيْهِمْ بِصِحَافٍ مِنْ ذَهَبٍ وَأَكْوَابٍ﴾ [الزخرف: ٧١].

(و) والمناكح:

١- ﴿وَلَهُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ مُطَهَّرَةٌ﴾ [البقرة: ٢٥].

٢- ﴿وَحُورٌ عِينٌ ﴿٢٢﴾ كَأَمْثَلِ اللَّوْلُؤِ الْمَكْنُونِ ﴿٢٣﴾ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [الواقعة: ٢٢].

٣- ﴿إِنَّا أَنشَأْنَهُمْ إِنِشَاءً ﴿٣٥﴾ جَعَلْنَهُمْ أَجْنَارًا ﴿٣٦﴾ عُرًّا أَتْرَابًا ﴿٣٧﴾ لِأَصْحَابِ الْيَمِينِ ﴿٣٨﴾﴾ [الواقعة: ٣٨].

(ز) والفرش والسرر:

١- ﴿مُتَّكِئِينَ عَلَى فُرُشٍ بَطَائِنُهَا مِنْ إِسْتَبْرَقٍ﴾ [الرحمن: ٥٤].

٢- ﴿مُتَّكِئِينَ فِيهَا عَلَى الْأَرَائِكِ لَا يَرَوْنَ فِيهَا شَمْسًا وَلَا زَمْهَرِيرًا ﴿١٢﴾﴾ [الإنسان: ١٢].

٣- ﴿عَلَى سُرُرٍ مَوْضُوعَةٍ ﴿١٥﴾ مُتَّكِئِينَ عَلَيْهَا مُتَقَابِلِينَ ﴿١٦﴾﴾ [الواقعة: ١٦].

٤- ﴿فِيهَا سُرُرٌ مَرْفُوعَةٌ ﴿١٣﴾ وَأَكْوَابٌ مَوْضُوعَةٌ ﴿١٤﴾ وَمَنَاقِبُ مَصْفُوفَةٌ ﴿١٥﴾ وَزَوَاجٌ مَبْنُوتَةٌ ﴿١٦﴾﴾ [الغاشية: ١٦].

٥- ﴿مُتَّكِئِينَ عَلَى رَفْرَفٍ خُضِرَ وَعَبَقَرِيٍّ حِسَانٍ ﴿٧٦﴾﴾ [الرحمن: ٧٦].

(ح) والخدم:

١- ﴿﴿٧٩﴾ وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُخَلَّدُونَ إِذَا رَأَيْتَهُمْ حَسِبْتَهُمْ لُؤْلُؤًا مَنُورًا ﴿٨٠﴾﴾ [الإنسان: ٨٠].

٢- ﴿وَيُطَوَّفُ عَلَيْهِمْ غِلْمَانٌ لَهُمْ كَأَنَّهُمْ لُؤْلُؤٌ مَّكَوْنٌ﴾ [الطور].

وقد وصف الله نعيم الجنة بقوله: ﴿وَإِذَا رَأَيْتَ ثَمَّ رَأَيْتَ نَعِيمًا وَمَلَكًا كَبِيرًا﴾ [الإنسان].

أَهْلُ الشَّقَاءِ وَعَذَابُهُمْ

وبعد أن ذكر سبحانه حال السعداء الأبرار، أعقب ذلك بذكر حال الأشقياء الفجار، فقال:

٧٤، ٧٥- ﴿إِنَّ الْمُجْرِمِينَ فِي عَذَابٍ مُّهِينٍ ۖ خَالِدُونَ ﴿٧٤﴾ لَا يُفْتَرُ عَنْهُمْ وَهُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ ﴿٧٥﴾﴾

إن الكافرين بالحق، الراسخين في الإجرام، الذين اكتسبوا الذنوب بكفرهم، وماتوا عليه، مقيمون في نار جهنم بصفة دائمة لا يُقضى عليهم فيموتوا، ولا يُخَفَّفُ عنهم من عذاب جهنم ولا لحظة واحدة، فهم في عذاب مستمر لا ينقطع، وهم آيسون من رحمة الله تعالى، قد انقطع رجاءهم من كل خير، وهم في أقصى درجات الحزن والذل واليأس ﴿لَا يُفْتَرُ عَنْهُمْ﴾ أي: لا ينقطع عنهم العذاب ﴿وَهُمْ فِيهِ﴾ أي: في عذاب جهنم ﴿مُبْلِسُونَ﴾ في حزن وغم دائم، يائسون من الفرج ﴿فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْ عَذَابِ يَوْمِ إِلَهِ﴾ [٦٥]. قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ نَارُ جَهَنَّمَ لَا يُقْضَىٰ عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ مِنْ عَذَابِهَا﴾ [فاطر: ٣٦].

وقال سبحانه: ﴿فَذُوقُوا فَلَنْ نَزِيدَكُمْ إِلَّا عَذَابًا﴾ [النبا].

وقال جلَّ شأنه: ﴿فَقَدْ كَذَّبْتَ فَسَوْفَ يَكُونُ لِزَامًا﴾ [الفرقان: ٧٧] أي: عذابًا مستمرًا.

وقال أيضًا: ﴿خَالِدِينَ فِيهَا لَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ الْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنْظَرُونَ﴾ [البقرة].

وهم يسألون الخروج من النار ﴿رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْهَا فَإِنْ عُدْنَا فَإِنَّا ظَالِمُونَ﴾ [١٧].

فيأتيهم الجواب ﴿قَالَ أَخْسَأْوا فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُون﴾ [المؤمنون].

والمسلم يدعو ربه أن يصرف عنه هذا العذاب فيقول: ﴿رَبَّنَا أَصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ

إِنَّكَ عَذَابُهَا كَانَ غَرَامًا﴾ [الفرقان: ٦٥]. قال تعالى:

٧٦- ﴿وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا هُمُ الظَّالِمِينَ﴾ [٧٦]

أي: وما هم فيه من العذاب، إنما هو بسبب إصرارهم على الشرك والكفر، وعدم الإيمان بالنبى الخاتم ﴿وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ﴾ أي: وما وضعنا العذاب في غير موضعه بتزول

العذاب المهين بهم ﴿وَلَكِنْ كَانُوا هُمْ الظَّالِمِينَ﴾ لأنفسهم حين وضعوا العبادة في غير موضعها، وحين فرطوا في جنب الله، وحين عرّضوا أنفسهم للخلود في نار جهنم، بسبب أنهم استحبوا العمى على الهدى، وبدّلوا الإيمان بالكفر، فلمّ نعدّ بهم بغير ذنب، ولكنهم جنّوا على أنفسهم فكفروا بالله، وكذبوا رسوله.

أَهْلُ النَّارِ يَسْتَغِيثُونَ بِخَازِنِهَا

٧٧- ﴿وَنَادَا يَمْلِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ قَالَ إِنَّكُمْ مَرْكُوتٌ﴾ (٧٧)

١- وحين يطول العذاب على الكفار في النار يحاولون الخروج منها دون جدوى، كما قال تعالى عن أهل النار: ﴿كُلَّمَا أَرَادُوا أَنْ يَخْرُجُوا مِنْهَا أُعِيدُوا فِيهَا﴾ [السجدة: ٢٠].

وقال أيضًا: ﴿كَذَلِكَ يُرِيهِمُ اللَّهُ أَعْمَلَهُمْ حَسَرَاتٍ عَلَيْهِمْ وَمَا هُمْ بِخَارِجِينَ مِنَ النَّارِ﴾ [البقرة: ١٦٧].
وقال سبحانه عنهم: ﴿يُرِيدُونَ أَنْ يُخْرِجُوا مِنَ النَّارِ وَمَا هُمْ بِخَارِجِينَ مِنْهَا وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّقِيمٌ﴾ (٧٧) [المائدة].

٢- ثم إنهم يسألون الله تعالى يوم القيامة أن يميّتهم بالقضاء عليهم، فلا يجابون إلى ذلك ﴿إِنَّهُمْ مَنْ يَأْتِ رَبُّهُ مُّجْرِمًا فَإِنَّ لَهُ جَهَنَّمَ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَى﴾ (٧٤) [طه].

وقال ﷻ عن الكافر: ﴿وَيَأْتِيهِ الْمَوْتُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ وَمَا هُوَ بِمَسِيئٍ وَمِنْ وَرَائِهِ عَذَابٌ غَلِيظٌ﴾ [إبراهيم: ١٧].

وقال عنه أيضًا: ﴿وَيَنْجَبِيهَا أَشَقَى﴾ (١١) الَّذِي يَصَلَّى النَّارَ الْكُبْرَى (١٢) ثُمَّ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَى (١٣) ﴿[الأعلى].

٣- وبعد بأسهم من الموت الدائم، ومن الخروج من النار، أو العودة إلى الدنيا، يتوجهون إلى خزنة جهنم ويطلبون منهم أن يخفف الله عنهم ولو يومًا واحدًا من العذاب: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ فِي النَّارِ لِخَزَنَةِ جَهَنَّمَ ادْعُوا رَبَّكُمْ يُخَفِّفْ عَنَّا يَوْمًا مِنَ الْعَذَابِ﴾ (٤٩) [غافر]. فلم يستجيبوا لهم.

٤- بعد ذلك يتوجهون إلى مالك خازن النار فيطلبون منه في ذلة وانكسار أن يميّتهم ربهم، فيهلكهم مرة واحدة، حتى يستريحوا من العذاب ﴿وَنَادَا يَمْلِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ﴾ إنهم

في ضيق وكرب وعذاب متجدد، كلما هدأت نار جهنم زادهم الله لهيبًا وسعيرًا ﴿كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُمْ بَدَّلْنَاهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا الْعَذَابَ﴾ [النساء: ٥٦] ويأتي الرد عليهم بما يزيدهم غمًا على غم ﴿قَالَ﴾ مالك ﴿إِنَّكُمْ مَكِيدُونَ﴾ لا خروج لكم منها، ولا محيد لكم عنها، فلن تستريحوا من العذاب، ولن تحيوا حياة فيها راحة وأمان، فلا خلاص لكم من العذاب أبدًا.

أخرج البخاري بسنده أن رسول الله ﷺ قرأ على المنبر: ﴿وَنَادَا يَمْلِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ﴾ (١). أي: ليقبض أرواحنا فيريحنا مما نحن فيه، وجاءت أقاويل في المدة التي يسكت فيها مالك، ثم يجيبهم، فقيل: بعد ألف سنة، وهو قول ابن عباس، وقيل: بعد مئة سنة، وهو قول كعب، وقيل: بعد أربعين سنة، وهو قول عبد الله بن عمرو بن العاص، قال: هانت والله دعوتهم على مالك، وعلى رب مالك، وقيل: ثمانين سنة، وقيل: ثلاثون سنة، وهو قول أنس (٢).

وهكذا أفادت الآية أن الكفار يريدون الخروج من النار بشتى الطرق، فلا يستطيعون، ثم يستغيثون بخزنة النار يطلبون منهم تخفيف العذاب فلا يُجابون، ثم يلجؤون في النهاية إلى مالك خازن النار يطلبون القضاء عليهم بالموت النهائي، فيجيبهم: إنكم ماكثون مخلدون في النار!! ثم يبين سبحانه السبب في عذاب الكفار، فقال:

٧٨- ﴿لَقَدْ جِئْتَكُمْ بِالْحَقِّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَكُمْ لِلْحَقِّ كَارِهُونَ﴾

هذا الحق الذي جاء من عند الله تعالى، هو الوحي الذي نزل به جبريل ﷺ على رسول الله ﷺ، وقد كان هذا الحق واضحًا على ألسنة الرسل، ولم يتركوا وسيلة إلا سلكوها معكم في الإرشاد إلى طريق الهدى، وهذا الحق يوجب عليكم أن تتبعوه، ولو أنكم اتبعتموه لفزتم وسعدتم في الدارين ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَكُمْ لِلْحَقِّ كَارِهُونَ﴾ الذي جاءت به الرسل ﴿كَارِهُونَ﴾ نافرون من الحق، مشمتزون منه، مبغضون له لكونه مخالفًا لأهوائكم وشهواتكم، فأعرضتم عنه ولم تعملوا به، ولذلك فقد شقيتم شقاء لا سعادة بعدها.

وقال تعالى: ﴿أَكْثَرَكُمْ﴾ ولم يقل جميعكم؛ لأن المشركين فريقان:

أحدهما: الطواغيت ورؤساء الكفر، وهم القادة والكبراء، الذين يصدون الناس عن

(١) «صحيح البخاري» برقم (٤٨١٩).

(٢) «تفسير ابن كثير» (٧/ ٢٤١) والخازن (٤/ ١١٠) والشوكاني (٤/ ٥٤٢) وابن الجوزي (٧/ ٣٣٠).

سبيل الله، ويقفون حجر عثرة في طريق الدعوة.

والآخر: الأتباع وعامة الناس، وهم قلة منهم، ولم تكن كارهة للحق، ولكنها كانت منقادة.

والمراد بالأكثرية: الفريق الأول؛ لأن الحق يتسبب في زوال سلطانهم وتعطيل منافعهم، ولذلك لم يتبعوه.

مِنَ الْأَسْبَابِ الْمُوجِبَةِ لِعَذَابِ أَهْلِ النَّارِ

٧٩- ﴿أَمْ أَبْرَمُوا أَمْرًا فَإِنَّا مُبْرِمُونَ﴾ (٧٩)

لا يفتأ أعداء الإسلام يدبرون له المكائد، ويحاولون إطفاء نوره في كل زمان ومكان، ويوم القيامة يكون هذا من أعظم الأسباب الموجبة لعذاب الله لهم، فكما أحكموا وأتقنوا التآمر على الإسلام وأهله في الدنيا، فإن الجزاء يكون من جنس العمل يوم لقاء الله، فيلحق بهم من الأذى بمقدار كيدهم الذي دبروه للإسلام.

وحقيقة الإبرام هو الفتل المحكم، واستعمل في الآية بمعنى: العزم والتدبير، وإبرام الله لهم: عقوبتهم على تدبيرهم، ومجازاتهم على ظلمهم.

والمعنى: وبعد عدم الاستجابة لاستغاثة أهل النار بخازنها، وبيان سبب خلودهم فيها، أنبهم الله تعالى ووبّخهم على ما كان منهم في الدنيا من الأسباب الموجبة لتعذيبهم، ومنها: مكرهم السيئ بالحق وأهله، وكثرة ما دبروه من كيد للإسلام ورسول الإسلام للقضاء على هذه الدعوة، وهم يظنون أن مكرهم هذا سيؤدي إلى نتيجة، ولا يعلمون أن مكر الله تعالى أعظم من مكرهم ﴿أَمْ أَبْرَمُوا أَمْرًا﴾ بل أحكم المشركون أمراً وأتقنوه ليكيدوا به للحق الذي جاءهم من عند الله؟ فيدحضوه بالباطل المزخرف؟ ﴿فَإِنَّا مُبْرِمُونَ﴾ إنا مدبرون لهم من العذاب والتنكيل بهم ما يخزيهم، ومدبرون ما ينقض هذا الباطل ويبطله، قال تعالى: ﴿وَمَكْرُؤًا وَّمَكْرَ اللَّهِ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَكْرِيْنَ﴾ [آل عمران].

وقال سبحانه: ﴿وَمَكْرُؤًا مَّكْرًا وَمَكْرَئًا مَّكْرًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ [النمل].

وقال أيضاً: ﴿إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْدًا﴾ (٥٥) ﴿وَأَكِيدُ كَيْدًا﴾ (١٦) ﴿فَهَلِ الْكَافِرِينَ أَهْلُكُم رُبُّدًا﴾ (٧) [الطارق].

وقال تعالى: ﴿بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ﴾ [الأنبياء: ١٨]

اللَّهُ تَعَالَى مُحِيطٌ بِمَا يُدَبَّرُ فِي السِّرِّ وَالْعَلَنِ

٨٠- ﴿أَمْ يَحْسِبُونَ أَنَّا لَا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُمْ بَلَىٰ وَرُسُلْنَا^(١) لَدَيْهِمْ^(٢) يَكْتُوبُونَ ﴿٨٠﴾﴾

هذا إعلام من الله تعالى بأنه لا تخفى عليه خافية في الأرض ولا في السماء، وأن الملائكة تسجل كل ما يحدث في الكون من قول وعمل.

ثم إن مكر المكذبين لله ورسوله يحدث فيما بينهم بطريق التناجي، كما يحدث داخل النفس، وقد تأمر المشركون على قتل رسول الله ﷺ في دار الندوة ليلة الهجرة.

وهكذا، يتآمر أعداء الإسلام عليه في كل زمان ومكان، وقد وبَّخهم الله تعالى على هذا في قوله: ﴿أَمْ يَحْسِبُونَ أَنَّا لَا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُمْ﴾ أيظن هؤلاء القوم أننا لا نسمع ما يجول في صدورهم ويُسروونه في أنفسهم، وما يتناجون به فيما بينهم؟ فلذلك أقدموا على المعاصي، وظنوا أنهم غير معاقبين.

فالسِّر: ما حَدَّث به الإنسان نفسه، والنَجْوَى: ما يتكلم به الإنسان مع غيره سراً.

ورد أن الأخنس بن شريق، والأسود بن عبد يغوث اجتمعا، فقال الأخنس: أترى أن الله يسمع سرنا، فقال الآخر: يسمع نجوانا ولا يسمع سرنا، فنزلت الآية^(٣).

وقال محمد بن كعب القرظي: بينا ثلاثة بين الكعبة وأستارها: قُرْشِيَّان وثقفِيّ، أو ثقفِيَّان وقرشيّ، فقال واحد منهم: ترون الله يسمع كلامنا؟ فقال واحد: إذا جهرتم سمع، وإذا أسررتم لم يسمع، فنزلت الآية^(٤).

قال تعالى في رد هذا الزعم: ﴿بَلَىٰ﴾ نسمع ونعلم سرهم ونجواهم ﴿وَرُسُلْنَا﴾ من الملائكة الكرام، الحفظة لأقوال العباد وأفعالهم ﴿لَدَيْهِمْ يَكْتُوبُونَ﴾ أي: يُسْجَلُونَ عليهم

(١) سَكَّن السين من (رسلنا) أبو عمرو، وضمها الباقون.

(٢) ضم الهاء من (لديهم) حمزة ويعقوب، وكسرها الباقون.

(٣) «التسهيل لعلوم التنزيل» (٣٣/٤).

(٤) الطبري (٦٥٣/٢٠) وقد صحَّ هذا المعنى عن ابن مسعود، كما جاء في «المسند» (٢٢١، ٣٨٧٥، ٤٢٣٨) والبخاري (٤٨١٧) ومسلم (٢٧٧٥) والترمذي (٣٢٤٩) والنسائي في «الكبرى» (١١٤٦٨) وأن هذا كان سبباً لنزول قوله تعالى: (وَمَا كُنْتُمْ تُشْعِرُونَ أَن يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلَا أَبْصَارُكُمْ) الآية [فصلت: ٢٢].

كل ما عملوا، وهم ملازمون لهم يكتبون كل صغيرة وكبيرة، كما قال تعالى: ﴿مَا يَلْفُظُ مِنْ قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾ [ق].

وقال سبحانه: ﴿وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ ۖ كِرَامًا كُنِينًا ۖ يَعْمُونَ مَا تَعْمَلُونَ﴾ [الانفطار].

ويوم القيامة ينطق كتاب الأعمال بالحق: ﴿هَذَا كِتَابُنَا يَنْطِقُ عَلَيْكُمْ بِالْحَقِّ إِنَّا كُنَّا نَسْتَنسِخُ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [الجاثية].

فالملائكة تُسجل الأقوال والأفعال، والله تعالى يعلم السر والنجوى والعلانية، ويعلم ما هو أخفى من السر، كالهمم والخواطر والأطياف والظن والحس، وما إلى ذلك. ويوم القيامة يجدوا ما عملوا حاضراً، فيجازيهم الله عليه.

تَنْزِيهُِ اللَّهِ تَعَالَى عَنْ اتِّخَاذِ الْوَلَدِ

قال سبحانه مخاطباً رسوله ﷺ: لِيُبْلِغَ أُمَّتَهُ، ويُنْذِرَ كل مشرك إلى قيام الساعة:

٨١- ﴿قُلْ إِنْ كَانَ لِلرَّحْمَنِ وَلَدٌ ۖ لَأُتْبِتَ أَهْلَهُ بِمَا لَدَّهُ ۚ فَآفَاقًا ۖ﴾ [١] ﴿أَوَّلُ الْعَالَمِينَ﴾ [٨١]

هذه الآية ردٌ على الذين جعلوا الملائكة إناثاً، والذين ضربوا ابن مريم مثلاً؛ لنفي الولد عن الله تعالى بكل وجه من الوجوه.

وذلك أنه لما ذكر سبحانه ثواب المؤمنين في الجنة، وعقاب المجرمين في نار جهنم، بسبب زعمهم أن الملائكة بنات الله، وأن عيسى ابن الله، أعقب ذلك بقيام الحجة الدامغة على المشركين، بنفي أن يكون لله تعالى ولد.

﴿قُلْ﴾ - أيها الرسول - للمشركين الذي يقولون بإثبات النبوة لله تعالى، وهو الواحد الأحد، الفرد الصمد، الذي لا والد له ولا ولد: ﴿إِنْ كَانَ لِلرَّحْمَنِ وَلَدٌ﴾ على سبيل الفرض والتقدير، أو على سبيل الجدل والخصومة، كما يقول المشركون ويزعمون ﴿فَآفَاقًا ۖ﴾

(١) قرأ حمزة والكسائي بضم الواو وسكون اللام من (وُلْد) جمع وَلَد، مثل: أَسَدٌ وَأُسْدٌ، وقرأ الباقون بفتحهما، اسم مفرد، قائم مقام الجمع، وقيل لغتان.

(٢) قرأ نافع وأبو جعفر بإثبات ألف (أنا) وصلاً فتكون من قبيل المد المنفصل، وقرأ الباقون بحذفها وصلاً، وأثبتها الجميع عند الوقف.

الْعَبِيدِينَ ﴿١﴾ لذلك الولد؛ لأن ابن الإله يكون نسلاً للذات الإلهية، وجزءاً منها فلا يكون إلا إلهاً، وأنا أول المنقادين لله تعالى، ولكل ما يحبه الله سبحانه، ولكني أول المنكرين لأن يكون لله ولداً، وأشهدهم له نفياً؛ إذ لو كان للرحمن ولد، لكان محمد بن عبد الله، أفضل الرسل - أول من عبده، ولم يسبقه إليه المشركون، وأنا أعلم أن الإله الحق مستحق للعبادة، ولكنه جل شأنه منزّه عن الزوجة والولد، فإن ثبت ما تقولونه بالدليل فأنا أول من يعبده، وفي هذا نفى للولد على أبلغ الوجوه وإنكار له، تقدّس الله تعالى عن الصاحبة والولد.

ورد أن النضر بن عبد الدار بن قُصَيّ قال: إن الملائكة بنات الله، فنزلت الآية، فقال النضر: ألا ترون أنه قد صدّقني؟ فقال له الوليد بن المغيرة: ما صدّقتك، ولكن قال: إن كان للرحمن ولد فأنا أول الموحيدين من أهل مكة، المنزّهين له عن الولد^(١).

وكلام النضر يقتضي أن إن شريطة، وهو مطابق لما يعتقده الكفار من نسبة الولد لله تعالى. وكلام الوليد يعني أن إن نافية، وهو يقتضي تنزيه الله تعالى عن الولد، ومخالفة المشركين في دعواهم، وذلك لأن الشرط إذا علّق به أمر مستحيل لا يمكن الربط بينه وبين الجزاء، إلا إذا كان الجزاء مستحيلاً أيضاً.

قال تعالى: ﴿مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِنْ وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَهٍ إِذَا لَذَهَبَ كُلُّ إِلَهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَّ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ﴾ [المؤمنون: ٩١].

وقال سبحانه: ﴿الَّذِي لَمْ يُلِدْ لَهُ مَلَكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَمْ يَنْجِدْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُنْ لَهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ﴾ [الفرقان: ٢].

وقال جل شأنه: ﴿لَوْ أَرَادَ اللَّهُ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَدًا لَاصْطَفَىٰ مِمَّا يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ﴾ [الزمر: ٤].

١- قال البخاري في تفسير الآية ﴿فَأَنَا أَوَّلُ الْعَبِيدِينَ﴾: [الأنفین^(٢)].

أي: أنا أول الجاحدين المنكرين لما قُلتُم، وأنا أول من يُغضب للرحمن أن يقال: له ولد. والمعنى على هذا: إن كان للرحمن ولد - كما تزعمون أيها المشركون - فأنا أول من

(١) من «تفسير الكشاف» للآية، وانظر: «أضواء البيان» للشنيطي (٣٠٤/٧).

(٢) «فتح الباري» (٥٦٨/٨).

عبد الرحمن، فإنه لا شريك له، ولا ولد له.

٢- وقال ابن عباس: ﴿إِنْ كَانَ﴾ أي: ما كان للرحمن ولد فأنا أول العابدين، أي: الشاهدين له بذلك^(١).

٣- وعن مجاهد قال: ﴿إِنْ كَانَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا﴾ كما تقولون ﴿فَأَنَا أَوَّلُ الْعَبِيدِينَ﴾ المؤمنين بالله، فقولوا ما شئتم^(٢).

٤- وقال قتادة: إن ذلك لم يكن، ولا ينبغي^(٣).

وعلى هذا يتبين أن معنى قول من قال: إِنَّ إِنْ شَرِطِيَّة: إن كان للرحمن ولد فأنا أول العابدين لهذا الولد، وهذا على سبيل الفرض والتقدير، قال تعالى: ﴿بَدِيعُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَتَى يَكُونُ لَهُ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُنْ لَهُ صَاحِبَةٌ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ [الأنعام].

وقال جل شأنه: ﴿وَقَالُوا أَخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا﴾ ٨٨ ﴿لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئًا إِذَا﴾ ٨٩ ﴿تَكَادُ السَّمَوَاتُ يَنْفَطَرْنَ مِنْهُ وَتَنْشَقُّ الْأَرْضُ وَتَخِرُّ الْجِبَالُ هَدًا﴾ ٩٠ ﴿أَنْ دَعَا لِلرَّحْمَنِ وَلَدًا﴾ ٩١ ﴿وَمَا يَنْبَغِي لِلرَّحْمَنِ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَدًا﴾ ٩٢ ﴿إِنْ كُلُّ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا آتَى الرَّحْمَنِ عَبْدًا﴾ [مريم].

ويحتمل أن يكون معنى الآية: إن كان للرحمن ولد، فأنا أول العابدين لله، ومن عبادتي لله، أن أثبت ما أثبتته لنفسه، وأنفى ما نفاه، فهذا من العبادات القولية الاعتقادية، فلو كان هذا حقًا لكنت أول مثبت له، ثم نزه الله تعالى نفسه عن اتخاذ الشريك والولد، فقال:

٨٢- ﴿سُبْحَنَ رَبِّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾ ٨٢

فهو سبحانه خالق هذا الكون ومالكه، وهو رب العالم العلوي، ورب العالم السفلي، وما فيهما وما بينهما، ورب العرش العظيم المحيط بهما، فالكون كله في يده وتحت قبضته، فكيف يكون له ولد؟ تنزه الله وتقدس عما يصفونه به من الكذب والافتراء من نسبة المشركين الولد إلى الله تعالى، وغير ذلك مما يزعمون من الباطل، فهو سبحانه المتعالي عن كل ما وصفه به الكافرون من صفات لا تليق بجلاله، وقد أكدت الآية ذلك

(١) أخرجه الطبري بسند حسن عن أبي طلحة (٦٥٤/٢٠).

(٢) أخرجه الطبري بسند صحيح، وعبد بن حميد كما في «الدر» (٢٤١/١٣).

(٣) أخرجه الطبري بسند صحيح (٦٥٥/٢٠).

بتكرار لفظ: ﴿رَبِّ﴾ ثلاث مرات.

ثم توعد الله المفترين عليه الكذب، وهددهم بسوء المصير يوم القيامة حيث قال:

٨٣- ﴿فَذَرَهُمْ يَخْضُوا وَيَلْعَبُوا حَتَّى يُلَاقُوا^(١) يَوْمَهُمُ الَّذِي يُوعَدُونَ ﴿٨٣﴾﴾

سمى الله سبحانه ما يقوله المشركون من أن عيسى ابن الله، أو أن عزيزاً ابن الله: لعباً ولهواً وخوضاً في الباطل، وما دام الأمر كذلك فاتركهم -أيها الداعي إلى الله- يخوضوا في باطلهم، ويلعبوا في دنياهم، فعلومهم ضارة غير نافعة، لأنها تعارض الحق وما جاءت به الرسل، وأعمالهم لعب وسفاهة، لا تزكى النفوس، ولا تثمر المعارف، فاتركهم ﴿حَتَّى يُلَاقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِي يُوعَدُونَ﴾ أي: الذي وعدهم الله فيه بالعذاب، إما في الدنيا، وإما في الآخرة، أو فيهما معاً، فإنهم سيلقون جزاء أقوالهم الباطلة، وأفعالهم الشنيعة إن عاجلاً أو آجلاً، ونظير هذه الآية في سورة المعارج الآية [٤٢]. وقال تعالى:

﴿فَذَرَهُمْ حَتَّى يُلَاقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِي فِيهِ يُصْعَقُونَ ﴿٨٤﴾﴾ [الطور].

وفي الآية تيسر للنبي ﷺ من جدوى المحاجة والمجادلة معهم.

اللَّهُ تَعَالَى هُوَ الْمَعْبُودُ لِأَهْلِ الْأَرْضِ وَأَهْلِ السَّمَاءِ

٨٤- ﴿وَهُوَ الَّذِي فِي السَّمَاءِ^(٢) إِلَهٌُ وَفِي الْأَرْضِ إِلَهٌُ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْعَلِيمُ ﴿٨٤﴾﴾

هذه الآية رد على الذين جعلوا لله شركاء في الأرض، والذين جعلوا له شركاء في السماء؛ لبيان أن إله الأرض والسماء واحد، وهو المعبود فيهما معاً، وفيه نفى إلهية غير الله تعالى في الأرض والسماء، وذلك أنه لما نفى سبحانه أن يكون له ولد، نفى في هذه الآية أن يكون له شريك في الإلهية.

(١) قرأ أبو جعفر (يُلَاقُوا) مضارع لقي، وقرأ الباقر (يُلَاقُوا) من الملاقاة.

(٢) قرأ قالون والبيزي بتسهيل الهمزة الأولى مع المد والقصر من (في السماء إله) وأسقطها أبو عمرو مع المد والقصر، وسهل الثانية الأصهباني وأبو جعفر، وللأزرق تسهيل الثانية وإبدالها حرف مد مع القصر، ولقبيل ثلاثة أوجه: ١- إسقاط الهمزة الأولى مع المد والقصر. ٢- تسهيل الهمزة الثانية. ٣- إبدالها حرف مد مع القصر ولرويس وجهان هما: إسقاط الهمزة الأولى مع القصر والمد، وتسهيل الهمزة الثانية، والباقر بتحقيق الهمزتين.

لقد زعم المشركون أن لله تعالى شركاء في الأرض، وهم الأصنام، وزعموا أن له شركاء في السماء، وهم الملائكة، حيث جعلوهم إناثاً، وجعلوهم بنات الله، فأبطل الله تعالى زعم الفريقين في قوله: ﴿وَهُوَ الَّذِي فِي السَّمَاءِ إِلَهٌُ وَفِي الْأَرْضِ إِلَهٌُ﴾ أي: هو الله وحده لا غيره، المعبود بحق في السماء وفي الأرض، وهو الإله الوحيد لأهل السماء وأهل الأرض، يعبد من فيهما، وكلهم خاضعون له، وإله في الآية بمعنى: المعبود، فالمعبود واحد والعابد متعدد.

قال قتادة: هو الذي يُعبد في السماء ويُعبد في الأرض^(١).

فأهل السماوات كلهم، والمؤمنون من أهل الأرض، يعبدونه ويعظمونه ويخضعون لجلاله، كما قال تعالى: ﴿تُسَبِّحُ لَهُ السَّمَوَاتُ السَّبْعُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ﴾ [الإسراء: ٤٤].

وقال سبحانه ﴿وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا﴾ [الرعد: ١٥].

فالله سبحانه هو المعبود بحق، يعبد الخلائق كلهم طائعين مختارين أو كارهين.

وهذه الآية كقوله تعالى: ﴿وَهُوَ اللَّهُ فِي السَّمَوَاتِ وَفِي الْأَرْضِ يَعْلَمُ سِرَّكُمْ وَجَهْرَكُمْ وَيَعْلَمُ مَا تَكْسِبُونَ﴾ [الأنعام: ٢].

فالإله بمعنى المعبود فيهما، وهو معبود واحد، ولكن العابد متعدد، فمنه من في السماء، ومنه من في الأرض.

ثم وصف الله نفسه بالحكمة والعلم، فقال: ﴿وَهُوَ الْحَكِيمُ﴾ الذي أحكم خلقه وأتقن شرعه، فما خلق شيئاً إلا لحكمة، ولا شرع شيئاً إلا لحكمة، وهو ﴿الْعَلِيمُ﴾ بكل شيء من أحوال خلقه، لا يخفى عليه شيء منها.

والوصفان -الحكمة والعلم- فيهما تحقيق، وهو ذكر الشيء بدليله.

وفيهما تدقيق، وهو تميم الدليل بالاستدلال عليه، والأول هو العلم، والثاني هو الحكمة.

(١) الطبري (٢٠/٦٥٩) والبيهقي في «الأسماء والصفات» (٩١١).

اللَّهُ تَعَالَى يَمْلِكُ الْعَالَمَ الْبَاقِيَ وَالْعَالَمَ الْفَانِي

٨٥- ﴿وَبَارَكَ الَّذِي لَمْ يَمْلِكْ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَعِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾^(١)

أثنى الله تعالى على نفسه، ومجد ذاته العلية، ليعلمنا كيف نشني عليه ونمجده سبحانه، ومع هذا التنزيه ذكر جل شأنه أنه مالك هذا الكون، ومقتضى ذلك تنزيهه سبحانه عن الشريك والولد.

ومع أنه جل شأنه يملك العالم الفاني، فإنه يملك العالم الباقي، ويعلم متى تقوم الساعة، وهي بداية الدار الباقية التي يرجع فيها العباد إلى ربهم.

وتبارك: فعل ماض، أي: تعالى الله وتعظم، وتكاثر خيره وبركته، وعظم ملكه، وهو وحده له سلطان السموات السبع، والأرضين السبع، وما فيهما وما بينهما من الأشياء كلها، وهو بكل شيء عليم، ولا يعلم الغيب إلا هو، ومن ذلك علم قيام الساعة ﴿وَعِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ﴾ التي تقوم فيها القيامة، ويحشر فيها الخلق من قبورهم لموقف الحساب، فلا يعلم متى تقوم إلا الله ﴿وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ أي: تُردُّون -أيها الناس- إلى ربكم بعد مماتكم، فيجازي كلاً بما يستحق.

الشَّفَاعَةُ الْمَزْدُودَةُ وَالشَّفَاعَةُ الْمُقْبُولَةُ

٨٦- ﴿وَلَا يَمْلِكُ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ الشَّفَاعَةَ إِلَّا مَنْ شَهِدَ بِالْحَقِّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾

هذه الآية في نفي الشفاعة عن الأصنام ونحوها، وإثباتها لمن شهد لله بالوحدانية، كالنبي وعزير والملائكة، وذلك أنه لما أخبر سبحانه أنه يملك العالم الفاني والعالم الباقي، أعلمنا أن ما يعبد بعض الناس من دون الله، لا يقدر على الشفاعة لهم عند الله، ولا يجلب لهم خيراً ولا يدفع عنهم ضرراً، وهذا معنى ﴿وَلَا يَمْلِكُ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ الشَّفَاعَةَ﴾ أي: لا يملك المعبودون الشفاعة لأحد من الناس، فكل من دُعي من دون الله، من الأنبياء والملائكة وغيرهم، لا يملكون الشفاعة، ولا يشفعون إلا بإذن الله، ولا

(١) قرأ ابن كثير وحزمة والكسائي ورويس وخلف العاشر بياء الغيب في (ترجعون) لمناسبة (يخوضوا ويلعبوا)، والباقيون بقاء الخطاب على الالتفات.

يشفعون إلا لمن ارتضى .

ثم استثنى الله تعالى ممن عُبدوا من دون الله مَنْ شهد بالحق، فأقرّ بتوحيد الله، ونبوة محمد ﷺ، كعزير وعيسى والملائكة ﴿وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ حقيقة ما أقرأوا وشهدوا به واعتقدوه بقلوبهم، من التوحيد الخالص لله عز وجل، وشهدوا بالنبوة والرسالة لرسول الله وصدق ما جاؤوا به من أصول الدين وفروعه وحقائقه وعقائده وشرائعه، وشهدوا باليوم الآخر وما فيه من بعث وحشر ونشر وحساب وجزاء، فإن شفاعته هؤلاء وأمثالهم تنفع عند الله تعالى - وإن كانوا قد عُبدوا من دون الله - لأنهم شهدوا بالحق، أي: بالوحدانية لله تعالى، وذلك إذا أذن الله في الشفاعه للشافع، ورضي عن المشفوع له.

قال قتادة: الملائكة وعيسى وعزير لهم عند الله شفاعه^(١).

وذلك لأنهم شهدوا بالحق، أي: بكلمة الإخلاص، وهم يعلمون أن الله حق، ويعلمون حال من يستحق الشفاعه.

كما أنه لا يملك أحد أن يشفع لأحد إلا لمن آمن بالله تعالى، وشهد الشهادة الحق وهي شهادة التوحيد، فإن الشفاعه تجوز له بعد الإذن فيها، والرضى عن المشفوع له.

أما الكافر فلا يملك أحد أن يشفع له، قال تعالى: ﴿يَوْمَئِذٍ لَا تَنفَعُ الشَّفَعَةُ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ وَرَضِيَ لَهُ قَوْلًا﴾ [طه].

قيل: إن النضر بن الحارث ونفراً معه قالوا: إن كان ما يقول محمد حقاً فنحن نتولى الملائكة، فهم أحق بالشفاعة من محمد ﷺ، فنزلت الآية^(٢).

تَنَاقُضُ الْمُشْرِكِينَ بَيْنَ أَقْوَالِهِمْ وَأَفْعَالِهِمْ

٨٧- ﴿وَلَيْنَ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ فَأَنَّى يُؤْفَكُونَ﴾

في كلمة جامعة: بَيْنَ ﷻ في هذه الآية تناقض المشركين بين أقوالهم وأفعالهم، لإبطال مزاعم المشركين في عبادتهم لغير الله تعالى، مع إقرارهم له بالوجود والتصرف في الكون.

(١) عبد الرزاق (٢/٢٠٣) وابن جرير (٢٠/٦٦٢).

(٢) «تفسير الخازن» (٤/١١١).

والمعنى: ولئن سألت -أيها الداعي إلى الله- المشركين بالله: من خلقهم، ومن خلق هذا الكون، ومن يرزق، ومن يحيي ويميت، ومن يدبر الأمر؟ ليقولن في الإجابة على ذلك ونحوه: الله الذي خلقنا ورزقنا...، فهم معترفون بوجود الله تعالى، ولكنهم يتوجهون بالعبادة لغيره، وهذا الإقرار معلوم من حال المشركين المعاصرين والسابقين:

كقول ضِمَام بن ثعلبة للنبي ﷺ: أسألك بربك ورب من قبلك، آله أرسلك؟^(١).

فقوله هذا فيه إقرار بوجود الله تعالى، وأنه رب كل شيء ومليكه.

ومن ذلك تلبية المشركين في الحج أيام الجاهلية، فهم يقولون: لبيك اللهم لبيك، لبيك لا شريك لبيك، إلا شريكاً هو لك، تملكه وما ملك.

إنهم يُقرّون بوجود الله تعالى، ويُلَبّون له، ولكنهم يُثبتون معه شريكاً، وفي نفس الوقت يُقرّون بأن هذا الشريك مملوك لله تعالى، وهو لا يملك شيئاً، وهذا تناقض عجيب، فما الحاجة إلى هذا الشريك إذا كان مملوكاً لله، وهو لا يملك شيئاً، وما دام الأمر كذلك ﴿فَأَنَّى يُؤْفَكُونَ﴾ كيف ينقلبون وينصرفون عن عبادة الله تعالى، ويشركون به غيره، وكيف ينصرفون عن التوحيد إلى الشرك، وعن عبادة الرحمن إلى عبادة الأوثان، مع اعترافهم بوجود الخالق؟ إنه أمر يدعو إلى العجب! لأن إقرارهم بتوحيد الربوبية يستلزم إقرارهم بتوحيد الإلهية، وفي هذا إبطال للشرك، ووجوب إفراد الله تعالى بالعبادة.

الرَّسُولُ ﷺ يَشْكُو غَيْرَ الْمُؤْمِنِينَ إِلَى رَبِّهِ

٨٨- ﴿وَقِيلَ﴾^(٢) يَرْبِّ إِنَّا هَنَؤُلَاءِ قَوْمٌ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٨٨﴾

هذه شكوى من النبي ﷺ إلى ربه سبحانه فيمن لا يؤمنون به إلى قيام الساعة، وذلك أنه لما لم يتزحزح الكفار في عصر التنزيل عن كفرهم قيد أنملة، ويُس الرسول ﷺ من إيمانهم، التجأ إلى ربه مفوضاً أمره إليه، شاكياً حالهم له، بأنهم قوم معاندون جبّارون،

(١) «تفسير التحرير والتنوير» لابن عاشور (٢٤/٢٧١).

(٢) قرأ عاصم وحمزة بكسر اللام والهاء مع الصلة في (وقيله) عطفًا على (الساعة) وهي مصدر، وقرأ الباقون بفتح اللام وضم الهاء مع الصلة (وقيلُهُ) عطفًا على محل (الساعة) أي: وعنده أن يعلم الساعة ويعلم قيله يا رب.

لا يصدقون برسالته ولا بالقرآن.

وهذه الآية معطوفة على قوله تعالى: ﴿وَعِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ﴾ أي وعنده علم قول الرسول ﷺ ﴿يَرْبِّ إِنَّ هَؤُلَاءِ قَوْمٌ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [الزخرف].

ومعنى: ﴿وَقِيلَ يَرْبِّ﴾ أي: إن محمداً ﷺ شكاً إلى ربه قومه الذين كذبوه، فقال: يارب، إن هؤلاء قوم لا يؤمنون بك ولا بما أرسلتني به إليهم.

قال ابن عباس ؓ: شكاً إلى الله تعالى تخلف قومه عن الإيمان.

وقال قتادة: هذا نبيكم يشكو قومه إلى ربه (١).

كما قال تعالى: ﴿وَقَالَ الرَّسُولُ يَرْبِّ إِنَّ قَوْمِي اتَّخَذُوا هَذَا الْفُرْعَانَ مَهْجُورًا﴾ [الفرقان].

والقيل بمعنى: القول، وهو خبر بمعنى الإنشاء، أي: وقوله: يارب.

إِجَابَةُ اللَّهِ تَعَالَى لِرَسُولِهِ ﷺ

٨٩- ﴿فَاصْفَحْ عَنْهُمْ وَقُلْ سَلَامٌ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾ (٢)

هذه إجابة الله تعالى على شكوى رسوله ﷺ بتوجيهه ألا يطمع في إيمان الكفار المكذبين المعاندين، وأن يُعرض عنهم ولا ييالي بهم، مع أن الله تعالى قادر على تعجيل عقابهم، ولكنه سبحانه حلیم يمهّل ولا يهمل، ويؤخر عقوبتهم لعلهم يتوبوا ﴿فَاصْفَحْ عَنْهُمْ﴾ سامحهم، واعف عنهم، ولا تقابلهم بمثل ما يقابلونك به من الأذى ﴿وَقُلْ سَلَامٌ﴾ أي: سلّم عليهم سلام متاركة ومسالمة، ولا يندُر منك لهم إلا السلام الذي يقوله أولو الأبواب والبصائر للجاهلين، كما في قوله تعالى: ﴿وَإِذَا سَمِعُوا اللَّغْوَ أَعْرَضُوا عَنْهُ وَقَالُوا لَنَا أَعْمَلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَلُكُمْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ لَا نَبْنِئُ الْجَهْلِيَّينَ﴾ [القصص].

وقوله في وصف عباد الرحمن ﴿وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا﴾ [الفرقان]

(١) «تفسير الخازن» (١١٢/٤) و«تفسير الطبري» (٦٦٤/٢٠).

(٢) قرأ ابن كثير وأبو عمرو وعاصم وحمة والكسائي ويعقوب وخلف بياء الغيب في (يعلمون) لمناسبة (فاصفح عنهم)، وقرأ الباقون بقاء الخطاب على الالتفات.

ومن صفات المؤمنين أنهم إذا مروا باللغو مروا كرامًا ﴿وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ﴾ [المؤمنون].

إنهم لا يقابلون السيئة بمثلها، ولكنهم يعفون ويصفحون، وقد كان هذا في الفترة المكية قبل الأمر بقتال الكفار، ثم شرع الإسلام القتال لرد العدوان، وإزالة العوائق أمام نشر الدعوة، وأخذ بعضهم من الآية جواز إلقاء السلام على اليهود والنصارى:

أخرج ابن أبي شيبة عن عون بن عبد الله قال: سأل محمد بن كعب عمر بن عبد العزيز عن ابتداء أهل الذمة بالسلام، فقال: نردُّ عليهم ولا نبتدئهم، قلت: فكيف تقول أنت؟ قال: ما أرى بأسًا أن نبدأهم، قلت: لِمَ؟ قال: لقول الله تعالى: ﴿فَاصْفَحْ عَنْهُمْ وَقُلْ سَلَامٌ﴾^(١). وقد امثل النبي أمر ربه، فقابل أذاهم بالعفو والصفح والإحسان.

ثم إن الله تعالى توعدَّهم وهذَّهم بأنهم سوف يلقون من العذاب والنكال جزاء عنادهم وجحودهم ﴿فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾ عاقبة إجرامهم وتكذيبهم، وفي هذا إيذان بانتهاء السورة.

وعلى الدعاة إلى الله تعالى أن يثابروا في إرشادهم دون كلل ولا ملل، وأن يصبروا على ما يلقونه من أذى في سبيل نشر الدعوة. وهو سبحانه منتقم من المكذبين في كل زمان ومكان.

تم تفسير (سورة الزخرف) والله الحمد والمنة.



(١) يُنظَر: ابن أبي شيبة (٤٣٩/٨) (٤٦٨/٨).

تَفْسِيرُ سُورَةِ الدُّخَانِ (٤٤)

مُقَدِّمَةُ السُّورَةِ

سورة (الدُّخَان) هي السورة الرابعة والأربعون في ترتيب المصحف، والثالثة والستون في ترتيب النزول، نزلت بعد سورة (الزخرف) وقبل سورة الجاثية.

وعدد آياتها عند أهل الكوفة تسع وخمسون آية^(١).

وعدد كلماتها ثلاث مئة وست وأربعون كلمة.

وعدد حروفها ألف وأربع مئة وواحد وثلاثون حرفاً.

وسُمِّيت سورة (الدُّخَان) لوقوع لفظ الدُّخَان فيها، على أنه آية من آيات الله تعالى، وتسمى سورة (حم الدُّخَان).

وهي سورة مكية عند الجمهور، واستثنى بعضهم ﴿إِنَّا كَاشِفُوا الْعَذَابِ قَلِيلًا إِنَّكُمْ عَائِدُونَ﴾ [١٥]. بناء على أن مشركي مكة أرسلوا إلى النبي ﷺ وفدًا وهو في المدينة يطلبون الدعاء لهم، لرفع ما هم فيه من قحط وجذب وجوع.

وافتتاح السورة يُشبه السورة التي قبلها، من القسم بالقرآن، والتنويه بشأنه وشرفه، ويبيّن هذه السورة أن وقت نزوله هو ليلة القدر، التي يُفَرَّق فيها كل أمر حكيم ويُبرَم، فهي الليلة التي تُفَصِّل وتُدبِّر فيها أمور الخلق من كل عام، فتظهر هذه الأمور للملائكة.

وقد بُوركت هذه الليلة لنزول الوحي فيها، وبركة هذا القرآن لأنه يصنع من البشر ملائكة، ولأنه صنع من العرب أمة ذات حضارة لا تغيب عنها الشمس.

ثم أضربت آيات هذه السورة عن هذا الحديث المتعلق بالقرآن ونزوله، لتتناول شأن القوم الذين قاوموا الدعوة، وكانوا في شك وارتياب منها، فعاقبهم الله تعالى في الدنيا بعذاب الجوع، بسبب دعاء النبي ﷺ عليهم، جزاء إعراضهم عن تدبر القرآن، ليعلموا أن إجابة دعوة النبي ﷺ دليل على أنه رسول من عند الله تبارك وتعالى، كما انتقم الله منهم يوم بدر.

(١) وست وخمسون آية عند أهل المدينة ومكة والشام، وسبع وخمسون آية عند أهل البصرة.

ثم تحدثت الآيات في هذه السورة عن حملة الوحي قبل هذه الأمة، وما حلّ بهم من العذاب نتيجة الطغيان والجبروت، فقد ناشد موسى فرعون أن يطلق سراح قومه، وأن يتركهم يرتحلون معه من مصر، ولكن فرعون أبى إلا حبسهم على الأذى، فكانت العاقبة أن أهلكه الله ومن معه جميعاً، وتركوا بعد هلاكهم: القصور والدور، والحدائق والبساتين، والأنهار والعيون.. فقد أورثها الله بني إسرائيل في أرض أخرى، بعد هلاك فرعون وقومه، وسرعان ما حاد بنو إسرائيل عن تراث أنبيائهم، فعاثوا في الأرض فساداً، وعاقبة الظلمة واحدة في كل عصر ومصر.

وقد اختار الله تعالى العرب بعدهم، وأورثهم القرآن العظيم، فساروا به أشواطاً، ثم تخلّوا عنه إلا قليلاً، فأصبحوا شراذم ينال منهم كلُّ جبار؛ لأن الله تعالى قد وعد المؤمنين الصالحين الذين أخلصوا للوحي المنزل عليهم أن يرثوا خير الدنيا والآخرة.

ومن لا يعمل للدار الآخرة، ويسخر من الحياة بعد الموت، ويعدّ ذلك خرافة -فهو في جاهلية عمياء، مهما أوتي من الحضارة المادية والعلم الدنيوي ﴿إِنَّ هَؤُلَاءِ لَيَقُولُونَ ﴿٢٤﴾ إِنَّ هِيَ إِلَّا مَوْتُنَا الْأُولَىٰ وَمَا نَحْنُ بِمُنْشَرِينَ ﴿٢٥﴾﴾.

والله تعالى سيجمع الآباء والأبناء ليحاسبهم على ما قدمت أيديهم، فليست هذه الحياة الدنيا عبثاً ولا لهواً ولا لعباً ﴿إِنَّ يَوْمَ الْفَصْلِ مِيقَتُهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٢٦﴾﴾. ومنكرو البعث والنشور ليسوا بأكرم على الله تعالى ممن سبقهم من الأمم الطاغية، وسنة الله لا تتخلف.

إنها سورة ذات آيات قصيرة، تُبرز ألواناً متعددة من تهديد المكذبين بالرسالة الأخيرة، فتذكّرهم بالقحط تارة، وبما حلّ بالأمم المكذبة تارة، وبما ينتظرهم من العذاب المهين إن استمروا على كفرهم تارة أخرى.

وآيات هذه السورة تطوف بالمسلم في عوالم شتى: بين السماء والأرض، والدنيا والآخرة، والجحيم والجنة، والماضي والحاضر، والغيب والشهادة، والموت والحياة، وكل هذا لبيان الحق والحكمة التي خلق الله هذا الكون من أجلها.

وقد خُتِمت السورة بما ينتظر الأشرار والأخيار من النعيم أو العذاب.

أما مصير الكفار فقد صورته هذه الآيات: ﴿إِنَّ شَجَرَتَ الزُّقُومِ ٤٣ طَعَامُ الْأَثِيمِ ٤٤ كَالْمُهْلِ يَغْلِي فِي الْبُطُونِ ٤٥ كَغَلْيِ الْحَمِيمِ ٤٦﴾ .

ومصير المتقين صَوَّرَهُ هذه الآيات: ﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي مَقَامٍ أَمِينٍ ٥١ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ٥٢ يَلْبَسُونَ مِنْ سُنْدُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ مُتَقَلِّبِينَ ٥٣﴾ .

وعلى هذا فيمكن تقسيم السورة إلى ثلاثة مقاطع:

المقطع الأول: من أولها إلى الآية السادسة عشرة، وهذا المقطع فيه الثناء على القرآن الكريم، وأن الله تعالى قد أنزله في ليلة مباركة، يدبر فيها شؤون الخلق إلى مثلها من العام التالي، وقد نزل هذا القرآن رحمة من عند الله رب العالمين، أما من كذَّب بالقرآن فشكَّ وارتاب فيه، فقد أُنذِرته الآيات بعذاب أليم يعمُّ الناس، ويستغيثون فيه إلى ربهم؛ ليكشف عنهم ما هم فيه من العذاب جزاء تكذيبهم لخاتم المرسلين، ووصفهم له بما لا يليق بجنابه، وإعراضهم عنه ﷺ.

المقطع الثاني: من الآية السابعة عشرة إلى الآية السابعة والثلاثين، وهي آيات تتحدث عن قوم فرعون وما حلَّ بهم من العذاب، لتبيِّن لنا أن عاقبة الظلم واحدة في كل عصر ومصر، وأن ما حدث لقوم فرعون من ضياع وتشرد يحدث لكل من طغى وتجر وأنكر البعث والنشور، فكذَّب بالله ورسله واليوم الآخر.

أما المقطع الثالث: فهو من الآية الثامنة والثلاثين إلى نهاية السورة، وهو مقطع يبيِّن الحق الذي خلقت من أجله السموات والأرض، وأن الله تعالى سيجمع الأولين والآخرين في يوم يشتد فيه الحساب ليحاسب كلًّا على ما قدمت يداه، فيأكل الأشرار من شجرة الزقوم، ويُصب فوق رؤوسهم الحميم، يُضهر به ما في بطونهم والجلود، ويأكل الأخيار مما ينتظرهم من النعيم المقيم، وكل ما يشتهون من فاكهة وطعام وشراب، ويلبسون السندس والإستبرق، ويتزوجون الحور العين، ونعيمهم دائم لا ينقطع بفضل الله تعالى ورحمته.

وقد بُدئت السورة بالحديث عن القرآن، وخُتِمت بالحديث عنه أيضًا.

إن هذا القرآن يوقظ الغافلين، ويصنع أمة ذات رسالة عظيمة ﴿فَإِنَّمَا يَسْتَرْزِقُكَ بِلسَانِكَ لَعَلَّهُمْ

يَتَذَكَّرُونَ ﴿٥٨﴾ فَارْتَقِبْ إِنَّهُمْ مُرْتَقِبُونَ ﴿٥٩﴾ . وهذا مؤذن بانتهاء السورة.

من الآثار الواردة في سورة الدُّخَان:

عن الأسود بن يزيد، وعلقمة: أن رجلاً أتى عبد الله بن مسعود رضي الله عنه فقال: قرأتُ المُفَصَّلَ في ركعة، فقال عبد الله: بل هذذتْ كهذا الشعر -أي: أسرعت في القراءة- وكثرت الدُّقْل -الدُّقْل: هو التمر الرديء اليابس، أي: إن قراءتك غير جيدة- ولكن رسول الله ﷺ كان يقرأ النظائر في ركعة، فذكر عشر ركعات بعشرين سورة، عن تأليف عبد الله-أي: وفق ترتيب السور في مصحف ابن مسعود- آخرهن: ﴿إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ ﴿١﴾﴾ والدُّخَان^(١).

وقال ابن مسعود رضي الله عنه: لقد علمتُ النظائر التي كان يصلي بهن رسول الله ﷺ: الذاريات والطور، واقتربت والرحمن، والواقعة و ن، والحاقة والمزمل، ولا أقسم بيوم القيامة وهل أتى على الإنسان، والمرسلات، وعم يتساءلون، والنازعات وعبس، وويل للمطففين وإذا الشمس كورت، وحم الدُّخَان^(٢).

وقد وردت جملة من الأحاديث في فضل سورة الدُّخَان تركناها لضعف سندها.



(١) الطبراني في «الكبير» (٩٨٥٥) وهو مطوّل في «المسند» (٣٩٦٨) وهو حديث صحيح، وأبي داود (١٣٩٦) و«صحيح سنن أبي داود» (١٢٤). وانظر نحوه مطوّلًا دون ذكر الآية في المسند (٣٦٠٧).

(٢) الطبراني (٩٨٦١، ٩٨٦٢) وهو في البخاري (٧٧٥، ٤٩٩٦) ومسلم (٨٢٢) دون سرّد السور.

تَفْسِيرُ السُّورَةِ

تَقْدِيرُ أُمُورِ الْعِبَادِ فِي اللَّيْلَةِ الْمُبَارَكَةِ

١-٣- ﴿حَمْدٌ^(١)﴾ وَالْكِتَابِ الْمُبِينِ ﴿٢﴾ إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ^(٢) فِي لَيْلَةٍ مُبَارَكَةٍ إِنَّا كُنَّا مُنْذِرِينَ ﴿٣﴾

ابتدأت سورة الدُّخَان بحرفي الحاء والميم، من حروف الهجاء المقطعة، وهي من المتشابه الذي لا يعلمه إلا الله، وربما تشير هذه الحروف إلى أن هذا القرآن مكوّن من الحروف التي ينطق بها المكذّبون، فإن كانوا في شك منه فليأتوا بمثل أقصر سورة.

وفي هذا الافتتاح الغريب جذبٌ للانتباه، للتفكر في معانيه، لعلهم يهتدون بهديه.

ثم أقسم الله تعالى بالقرآن البين في أهدافه، الواضح في أحكامه، الفارق بين الهدى والضلال، المعجز في ألفاظه ومعانيه، وفي هذا تنويهٌ بشرف القرآن الكريم، وتعظيمٌ لشأنه.

وجواب القسم: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةٍ مُبَارَكَةٍ﴾ أي: ابتدأنا نزول القرآن في ليلة القدر من شهر رمضان، كما قال تعالى: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ﴾ ﴿١﴾ [القدر]. وهو قسم بالقرآن على القرآن.

وقال سبحانه: ﴿نَزَّلَ الْمَلَكُ وَالرُّوحُ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِمْ مِنْ كُلِّ أَمْرِ﴾ ﴿١﴾ سَلَامٌ هِيَ حَتَّى مَطَلَعِ الْفَجْرِ ﴿٢﴾ [القدر].

والليلة المباركة هي ليلة القدر من شهر رمضان، وهي ليلة كثيرة الخير والبركة، نزل فيها أفضل الكلام في أفضل الليالي على أفضل الخلق، بأفضل اللغات، لينذر قومًا عمتهم الجهالة، وغلب عليهم الشقاء، فيستضيئوا بنوره ويهتدوا بهديه، كما قال تعالى: ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنْزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ هُدًى لِلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِنَ الْهُدَى وَالْفُرْقَانِ﴾ [البقرة: ١٨٥] وهي الليلة التي ابتدأ فيها نزول القرآن على محمد ﷺ في غار حراء بجبل النور، ولهذا السبب، كان ثواب العبادة فيها خيرًا من ألف شهر، أي: بما يساوي عمرًا

(١) سكت أبو جعفر على الحاء والميم سكتة لطيفة بدون تنفس من (حم) وأمال الحاء ابن ذكوان وشعبة وحمزة والكسائي وخلف، وقللها الأزرق، ولأبي عمرو الفتح والتقليل. وقد عد الكوفي (حم) آية وتركها غيره.

(٢) قرأ ابن كثير بصلة هاء (أنزلناه) بحرف مد، والباقون بعدم الصلة.

آخر يضاف إلى عمر الإنسان، لو كان عمره نحو ثلاثة وثمانين عامًا، فإذا أضيف إلى ذلك أن إحياءها صادف وجود المسلم في المسجد الحرام، والركعة فيه بمئة ألف ركعة، كان ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء.

وقد تضافرت الأحاديث على أن ليلة القدر في العشر الأخير من شهر رمضان.

وقد نزل القرآن جملة واحدة من اللوح المحفوظ في السماء السابعة إلى بيت العزة في السماء الدنيا.

كما روى سعيد بن جبير عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: **فُصِّلَ القرآن من الذكر، فُوَضِعَ في بيت العزة في السماء الدنيا، فجعل جبريل عليه السلام يُنْزِلُهُ على النبي ﷺ ويرتله ترتيلًا^(١).**

وعن سعيد بن جبير عن ابن عباس أيضًا قال: **أُنْزِلَ القرآن جملة واحدة في ليلة القدر إلى السماء الدنيا، وكان بمواقع النجوم، وكان الله ينزله على رسوله ﷺ بعضه في إثر بعض...^(٢).**

وقد نزل القرآن من السماء الدنيا مفرقًا حسب الحوادث والوقائع والأحوال، على مدى ثلاثة وعشرين عامًا هي مدة الرسالة المحمدية، تبيينًا لفؤاد النبي ﷺ، وتجددًا لنزول الوحي، وتدرجًا في التربية والتكليف، وتيسيرًا للحفظ والفهم والاستيعاب.

وجاء عن الشعبي أن القرآن ابتدأ نزوله في ليلة القدر.

وليلة القدر ليلة مباركة، كثيرة الخيرات، تنزل فيها الملائكة، وينزل فيها جبريل عليه السلام، وهي ليلة سلام وأمان حتى مطلع الفجر، وقد أمدها الله تعالى بتلك البركة في كل عام ليستمر مضاعفة الثواب فيها إلى يوم القيامة، وقد تختلف ليلة القدر من عام إلى آخر، وليلتها تختلف من بلد إلى بلد لا يتفقان في جزء من الليل؛ لأن بداية الشهر ليست واحدة في بلاد العالم الإسلامي كله، وفضل الله واسع.

(١) رواه الحاكم في «المستدرک» (٢٢٣/٢٠) وقال: هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه، ووافقه الذهبي.

(٢) رواه البيهقي في «دلائل النبوة» (١٣١/٧) والحاكم في «المستدرک» (٢٢٣/٢) وقال: هذا حديث صحيح على شرطهما ولم يخرجاه، ووافقه الذهبي.

أخرج عبد بن حميد عن أبي الجلد، قال: نزلت صُحُف إبراهيم في أول ليلة من رمضان، وأنزلت التوراة لست خلون من رمضان، وأنزل الزبور لاثنتي عشرة ليلة خلت من رمضان، وأنزل الإنجيل لثماني عشرة ليلة خلت من رمضان، وأنزل القرآن لأربع وعشرين^(١).

فالليلة التي يُفَرَّق فيها كل أمر حكيم ويرم، هي ليلة القدر، وليست ليلة النصف من شعبان، كما قال بعضهم بناء على آثار وأحاديث وردت في ذلك، ولم يصح منها شيء^(٢). ولا أصل لما يفعله بعض الناس فيها من الاحتفال بها، والدعاء فيها بدعاء معين، وتخصيصها بصلاة بنية طول العمر، أو سعة الرزق، ونحو ذلك.

والذي صحَّ عن ليلة النصف من شعبان هو رفع الأعمال إلى الله تعالى فيها، وتحويل القبلة فيها، فقد صحَّ في حديث معاذ بن جبل رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «يُطَّلَع الله في ليلة النصف من شعبان، فيغفر لجميع خلقه إلا لمشرك أو مشاحن»^(٣).

وأحاديث تحويل القبلة معروفة وهي مذكورة في موضعها من سورة البقرة.

ولا علاقة لهذا بتقدير الأمور فيها.

ثم ختم الله الآية بقوله: ﴿إِنَّا كُنَّا مُنْذِرِينَ﴾ الناس بإرسال الرسل وإنزال الكتب، وتبليغهم ما ينفعهم وما يضرهم لتقوم الحجة على العباد في وجوب ترك الشرك والمعاصي وسائر الذنوب.

(١) «الدر المنثور» (٢٤٨/١٣) وقد صحَّ هذا المعنى من حديث واثلة بن الأسقع مرفوعاً في الطبراني «الكبير» (١٨٥) والمسند (١٦٩٨٤) قال محققوه: وفيه عمران بن قطان تفرد به، وقد ضعفه قوم ووثقه آخرون، قالوا: وبقيّة رجال الإسناد ثقات رجال الشيخين عدا عبد الرحمن بن عبد الله وهو ثقة، أخرج له البخاري متابعة، والبيهقي في «الشعب» (٢٢٤٨) و«صحيح الجامع» (١٥٠٩) و«سلسلة الأحاديث الصحيحة» (١٥٧٥) وغيرها.

(٢) انظر: «الدر المنثور» (٢٥٢-٢٦١/١٣) وكلها أحاديث ضعيفة أو موضوعة.

(٣) أخرجه البيهقي برقم (٣٨٣٣) وابن حبان (٥٦٦٥) وصححه الألباني في كتاب «السنة» لابن أبي عاصم برقم (٥١٢) وفي «السلسلة الصحيحة» (١٣٥/٣). وأخرجه أحمد في المسند عن عبد الله بن عمرو برقم (٦٦٤٢) إلا أنه قال (إلا لاثنتين: مشاحن، وقاتل نفس) وهو حديث صحيح بشواهده، وجاء الحديث عن أبي موسى الأشعري عند ابن ماجه (١٣٩٠) وعن أبي هريرة عند البزار (٢٠٤٦) وغيرهم من طرق كثيرة.

أَرْسَلَ اللَّهُ الرُّسُلَ رَحْمَةً لِلْعِبَادِ

٤-٦ - ﴿فِيهَا يُفَرَّقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ ۖ أَمْرًا مِّنْ عِندِنَا إِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ ۖ﴾ رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿٤﴾

وليلة القدر هي التي يُفَرَّقُ فيها كل أمر حكيم، أي: محكم، لا يتغير ولا يتبدل من أرزاق العباد وآجالهم وسائر أحوالهم. ويُبرم، أي: يُقضى ويُفصل فيها ما يراد قضاؤه للناس من اللوح المحفوظ مما هو كائن في السنة المقبلة من الخير والشر، والنفع والضرر، فيُدفع إلى الكتبة من الملائكة كل أمر محكم من الآجال والأرزاق، والأعمال والأحوال، والخير والشر، والبسط والقبض في تلك السنة، وغير ذلك مما يكون فيها إلى آخرها، لا يُبدل ولا يُعَيَّر، فلا رادَّ لقضائه ولا معقب لحكمه.

فالأمر الحكيم: هو الأمر الذي أحكمه الله تعالى وأتقنه، من النظم المدبَّرة لأمر الكون، فتُفَصَّل وتُمَيَّز في هذه الليلة وتكتب في صحائف الملائكة، وبعض هذه الأمور تنفذها الملائكة، وبعضها ينفذها الرسل، وبعضها يقوم به الإنسان نفسه.

وقد وكل الله الملائكة بأن تكتب كل ما سيجري على العبد وهو في بطن أمه، ووكلمهم به بعد وجوده في الدنيا، يكتبون عليه أعماله ويحفظونها، وفي كل ليلة قَدْر، يقدر فيها ما يكون في السنة المقبلة.

وهذا لا يتنافى مع المحو والإثبات اليومي، أو الأسبوعي، أو السنوي، الذي يكون في صحف الملائكة، بسبب محو الحسنات للسيئات، كما قال تعالى: ﴿يَمْحُوا اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثَبِّتُ﴾ فإن المحصلة النهائية لأعمال العباد تكون موافقة لما هو في اللوح المحفوظ، ولذا قال تعالى في نهاية الآية: ﴿وَعِنْدَهُ أُمُّ الْكِتَابِ﴾ [الرعد: ٣٩].

قال ابن عباس ؓ: يُكْتَبُ من أم الكتاب في ليلة القدر، ما يكون في السنة من رزق، أو موت، أو حياة، أو مطر، حتى يُكْتَبَ الْحُجَّاجُ، يُحُجُّ فلان ويحج فلان^(١).

وقال عكرمة: يؤذن للحجاج ببيت الله في ليلة القدر، فيُكْتَبون بأسمائهم وأسماء آبائهم

(١) أخرجه محمد بن نصر ص ١٠٥ وابن المنذر وابن أبي حاتم.

فلا يغادر منهم أحد، ولا يُزاد فيهما ولا يُنقص منهما^(١).

والشقاء والسعادة ليس فيهما تغيير، وكذا الموت والحياة، فكلها ثابتة في اللوح المحفوظ، والذي ينزل إلى الملائكة في هذه الليلة هو ما سيقع من أحوال العباد في العام المقبل.

قال ابن عباس رضي الله عنه: إنك لترى الرجل يمشي في الأسواق، وقد وقع اسمه في الموتى، ثم قرأ الآيات. وقال: ففي تلك الليلة يُفرق أمر الدنيا إلى مثلها من قابل: موت، أو حياة، أو رزق، كل أمر الدنيا يفرق تلك الليلة إلى مثلها من قابل^(٢).

ولأن أمر الله تعالى نافذ لا محالة، وفق اقتضاء علمه وتدبيره، فهو أمر حاصل من الله تعالى، يُرسلُ به الأنبياء إلى البشر بالشرائع الإلهية لهدايتهم وإرشادهم، فإنه **﴿أَمْرًا﴾** أنزلناه **﴿مِنْ عِنْدِنَا﴾** ن قدره في تلك الليلة **﴿إِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ﴾** محمداً ﷺ ومن قبله من الرسل، يبلغون البشر شرع ربهم وأمره ونهيه.

وقد أنزلنا القرآن في الليلة المباركة -ليلة القدر- رحمةً بهذه الأمة، وأرسلنا الرسل جميعاً إلى الخلق: رحمة بهم لإخراجهم من الظلمات إلى النور، ولإنقاذهم من النار والفوز بالجنة؛ حتى يجتنبوا السيئات ويكتسبوا الحسنات، أرسلناهم **﴿رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ﴾** -أيها الرسول- أي: من أجل الرأفة والرحمة بالمرسل إليهم، كما قال تعالى: **﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾** [الأنبياء].

وما دامت الرسالة رحمة، فإن الرسول أيضاً رحمة، أرسله الله تعالى لتقويم الناس وإصلاح عقائدهم وأعمالهم، وكفّهم عن الفساد، فما رحم الله عباده برحمة أجل من هدايتهم بالكتب وإرسال الرسل **﴿إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ﴾** لأقوال العباد،، يسمع جميع الأصوات **﴿الْعَلِيمُ﴾** بأحوال جميع خلقه الظاهرة والباطنة. قال تعالى:

٧- **﴿رَبِّ (٣) السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِنَّ كُنُتُمْ مُوقِنِينَ﴾** (٧)

(١) ابن أبي شيبة (١١٧/٤).

(٢) صححه الحاكم والذهبي (٤٤٨/٢) والبيهقي في «الشعب» برقم (٣٣٨٨) قال المحقق: إسناده رجاله ثقات، وهو عند الطبري (١٠/٢١).

(٣) قرأ عاصم وحزمة والكسائي وخلف بخفض (ربّ) بدلاً من (ربك)، والباقون بالرفع، خبر لمبتدأ محذوف، أي: هو رب.

إِنَّهُ خَالِقُ الْكَوْنِ وما فيه من الأشياء كلها ﴿رَبِّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا﴾ أي: خالقهما وموجدهما، وخالق ما بينهما من الهواء والمخلوقات التي لا يعلمها إلا هو سبحانه، والمشركون يُقرُّون بذلك، ويُقرُّون بأن الأصنام لا تخلق شيئاً، وهذا يلزمهم بالتوجه في عبادتهم إلى الله وحده، ولكن أفعالهم تخالف أقوالهم، والجدير بالعبادة هو الخالق وليس المخلوق ﴿أَفَمَنْ يَخْلُقُ كَمَنْ لَا يَخْلُقُ﴾ [النحل: ١٧].

﴿وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَا يَخْلُقُونَ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ﴾ [النحل].

والأصنام لا تسمع ولا تعلم، ولا تنفع ولا تضر.

وفي هذا إيقاظ لعقول الشاكِّين، فلا مجال للشك في الإله الحق، المستحق للعبادة دون سواه، ف﴿إِنْ كُنْتُمْ مُوقِنِينَ﴾ بذلك فاعلموا أن رب المخلوقات هو الإله الواحد.

فجواب الشرط محذوف، أي: إن كنتم من أهل اليقين، فاعلموا أن الله تعالى رب السموات والأرض وما فيهما وما بينهما. قال تعالى:

٨- ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ رَبُّكُمْ وَرَبُّ آبَائِكُمُ الْأَوَّلِينَ﴾

أي لا معبود بحق إلا الله وحده لا شريك له، فلا يستحق العبادة أحد غيره، لا رب غيره، ولا معبود سواه، وهو سبحانه المتصف بصفات الجلال والكمال، يُحيي الأموات، ويميت الأحياء، وسيجمعكم بعد موتكم فيجازيكم بعملكم إن خيراً فخير، وإن شراً فشر. وهو سبحانه خالقكم وخالق من سبقكم، فهو الذي ربَّاكم بنعمه، وربَّى آباءكم الذين أنتم من نسلهم، ويربِّي سائر الخلق إلى قيام الساعة.

والمشركون لا ينازعون في أن الله تعالى هو المحيي المميت، وأن الأصنام لا تحيي ولا تميت، وإذن فهي لا تستحق العبادة؛ لأنها لا تضر ولا تنفع، وهذا كقوله تعالى: ﴿الَّذِي لَكُمْ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ﴾ [الأعراف: ١٥٨].

وذكر الآباء الأولين حجةً أعظم من ذكر الآباء الأقربين، ليسجل الله عليهم الإلزام بعدم جحد الأدلة وعدم كفران النعمة.

الدُّخَانُ الْمُتَرَقَّبُ

١٠، ٩ - ﴿بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ يَلْعَبُونَ ﴿٩﴾ فَارْتَقِبْ يَوْمَ تَأْتِي السَّمَاءُ بِدُخَانٍ مُبِينٍ ﴿١٠﴾﴾

ثم يبين سبحانه أن إقرار المشركين بأن الله تعالى هو الخالق الرازق، غير صادر عن علم ويقين ثابت، بل هو كالعدم؛ لأنهم خلطوه بالشك، فحملهم على اللعب والاستهزاء ﴿بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ﴾ من الحق، وليسوا موقنين بما يقولونه من أن الله تعالى هو الخالق الرازق، إنهم غافلون عما خلُقوا له، واشتغلوا باللعب الباطل الذي لا يجلب لهم إلا الضرر، فهم ﴿يَلْعَبُونَ﴾ فلا يصدقون به؛ لأنهم لا يتدبرون البراهين القاطعة، ولا يميزون بين الحق والباطل، والنافع والضار، ولو كان إقرارهم بأن الله تعالى هو الخالق الرازق، صادر عن إيمان ويقين، لحملهم هذا على توحيد الله تعالى، وتوجيه العبادة إليه وحده، وعدم اتخاذ وسطاء بينهم وبين الله تعالى، ولكنه إقرار هش، واعتراف أجوف.

ثم توعد الله سبحانه الجاحدين بالتوحيد، المكذبين للرسالة، فتوعدهم بالبطش والانتقام منهم في الدنيا قبل الآخرة، فخطب الله نبيه، وأمره أن يترقب ويتنظر نزول عذاب الله بهم.

وهذا الدُّخَانُ المذكور في الآية، قيل: إنه من أشراط الساعة، يأخذ بأنفاس الناس، ويصيب المؤمنين كهيئة الدخان، يمكث في الأرض أربعين يوماً.

وقيل: إنه أمر قد مضى وحدث لأهل مكة لما دعا عليهم النبي ﷺ، فكان أحدهم يرى ما بين السماء والأرض كأنه دخان من شدة الجوع، فهو دخان بالنسبة لأبصارهم، وليس بدخان على الحقيقة في هذا القول.

والمعنى: انتظر -أيها الرسول- على هؤلاء المشركين يوم يأتي عذابهم من السماء بدخان واضح كثيف، يُعمُّ الناس ويراه كل أحد.

والدُّخَانُ في الأصل: هو ما يتصاعد من النار، وهو أيضًا: الغبار الذي تثيره الرياح من الأرض الشديدة الجفاف، فيتصاعد إلى أعلى كما يتصاعد الغبار الذي تثيره سنابك الخيل.

وللمفسرين في تفسير الآية اتجاهات:

الاتجاه الأول: قال بعضهم: إن الدُّخَانَ قد وقع فعلاً لأهل مكة، لَمَّا أُصْرُوا على كفرهم وإعراضهم، فدعا عليهم الرسول ﷺ فأصابهم القحط والجوع، حتى أكلوا الجيف مدة سبع سنين، وكان الرجل يُحَدِّثُ أخاه فيسمع صوته ولا يراه لشدة الدُّخَانَ بين السماء والأرض، وذلك أن الجائع جَدًّا، يَضْعُفُ بصره، فيُصَابُ بظُلْمَةٍ، ويرى ما بينه وبين السماء كهية الدُّخَانَ، وممن قال بهذا عبد الله بن مسعود، وأبو العالية، وإبراهيم النخعي^(١). وعلى هذا فإن المراد بالدخان، ما يكون في عين الرائي من شدة الجوع وليس بدخان على وجه الحقيقة.

من أدلة الاتجاه الأول: ما جاء في الصحيحين وغيرهما، عن مسروق قال: دخلنا المسجد -يعني: مسجد الكوفة- عند أبواب كندة فإذا رجل يَقْصُصُ على أصحابه ﴿يَوْمَ تَأْتِي السَّمَاءُ بِدُخَانٍ مُبِينٍ﴾ يسألهم: أتدرون ما ذلك الدُّخَانَ؟ قال: ذاك دخان يأتي يوم القيامة، فيأخذ بأسماع المنافقين وأبصارهم، ويأخذ المؤمنين منه شبه الزكام.

قال: فأتينا ابن مسعود رضي الله عنه، فذكرنا ذلك له، وكان مضطجعاً ففرع فقعد، وقال: إن الله ﷻ قال لنبيكم: ﴿قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُتَكَلِّفِينَ﴾ [ص]. إن من العلم أن يقول الرجل لما لا يعلم: الله أعلم، سأحدثكم عن ذلك: إن قريشاً لَمَّا أبطأت عن الإسلام واستغصت على رسول الله ﷺ دعا عليهم بسنين كسني يوسف، فأصابهم من الجُهد والجوع حتى أكلوا العظام والميتة، وجعلوا يرفعون أبصارهم إلى السماء، فلا يرون إلا الدُّخَانَ.

وفي رواية: فجعل الرجل ينظر إلى السماء فيرى ما بينه وبينها كهية الدُّخَانَ من الجُهد. قال الله تعالى: ﴿فَارْتَقِبْ يَوْمَ تَأْتِي السَّمَاءُ بِدُخَانٍ مُبِينٍ﴾ ١١ يَغْشَى النَّاسَ هَذَا عَذَابٌ أَلِيمٌ ١٢ قال: فأتى رسول الله ﷺ، فقيل: يا رسول الله، استسقى الله لِمُضَرٍّ، فإنها قد هلكت، فاستسقى لهم فَسَقُوا، فَأَنْزَلَ اللَّهُ ﴿إِنَّكُمْ عَائِدُونَ﴾ [١٥].

قال ابن مسعود: فلما أصابتهم الرفاهية عادوا إلى حالهم، فَأَنْزَلَ اللَّهُ ﴿يَوْمَ تَبْطِشُ الْبَطْشَةَ الْكُبْرَى إِنَّا مُنْقِمُونَ﴾ ١٦ قال: يعني يوم بدر.

(١) يُنْظَرُ: «تفسير ابن عطية» (٥/٦٩).

قال ابن مسعود: مضى خمس: الدُّخَان، والروم، والقمر، والبطشة، واللَّزَام^(١).

وأخرج الطبري وابن أبي حاتم عن عكرمة مولى ابن عباس قال: قال ابن مسعود: البطشة الكبرى يوم بدر، وأنا أقول: هي يوم القيامة^(٢).

الاتجاه الثاني: أنه دخان يحدث قرب قيام الساعة، ويكون من أماراتها، ويصيب المؤمن منه مثل الزكام، ويدخل في مسامع الكافر والمنافق حتى يكون كالرأس الحنيد، فينفخه، ويكون كالسكران، ويخرج من منخريه وأذنيه، وممن قال بهذا على بن أبي طالب، وزيد بن علي، وابن عمر، وابن عباس، والحسن بن أبي الحسن، وأبو سعيد الخدري.

والتهديد بهذا اليوم كالوعيد المتكرر في القرآن الكريم، وأنه آت قريب الحصول، وعليهم أن يترقبوه، ولكل اتجاه منهما أدلته الصحيحة:

ومن أدلة الاتجاه الثاني: ما رواه حذيفة بن أسيد الغفاري رضي الله عنه قال: أشرف علينا رسول الله ﷺ من غرفة، ونحن نتذاكر الساعة، فقال: «لا تقوم الساعة حتى تروا عشر آيات: طلوع الشمس من مغربها، والدُّخَان، والدابة، وخروج يأجوج ومأجوج، وخروج عيسى ابن مريم، والدجال، وثلاثة خسوف: خسف بالمشرق، وخسف بالمغرب، وخسف بجزيرة العرب، ونار تخرج من قعر عدن تسوق الناس -أو تحشر الناس- فتبيت معهم حيث باتوا، وتقيل معهم حيث قالوا»^(٣).

وفي حديث حذيفة بن أسيد: أن النبي ﷺ قال: «إن أول آيات الساعة: الدُّخَان، ونزول عيسى ابن مريم، ونار تخرج من قعر عدن تسوق الناس إلى الحشر، تقيل معهم إذا قالوا»، قال حذيفة: يا رسول الله، وما الدُّخَان؟ فتلا رسول الله ﷺ الآية ثم قال: «يملاً ما بين المشرق والمغرب، يمكث أربعين يوماً وليلة، أما المؤمن فيصيبه كهيئة الزكمة، وأما

(١) يُنظَر: دليل الاتجاه الأول المذكور في البخاري بأرقام (٤٧٧٤، ٤٨٢١، ٤٨٢٤) ومسلم بأرقام (٢١٥٦، ٢١٥٧، ٢٧٩٨) والترمذي (٣٢٥٤) والنسائي في «السنن الكبرى» (١١٢٠٢، ١١٤٨١) والطبراني (٩٠٤٦، ٩٠٤٨) وغيرهم، و«المسند» (٣٦١٣، ٤١٠٤) بإسناد صحيح على شرط الشيخين.

(٢) قال ابن كثير: وهذا إسناد صحيح عنه (٢٤٨/٧) وهو في الطبري (٢٧/٢١).

(٣) «صحيح مسلم» برقم (٢٩٠١).

الكافر فيكون بمنزلة السكران، يخرج من منخريه وأذنيه ودبره»^(١).

قال الطبراني: إن صحَّ حديث حذيفة يكون قد مرَّ دخان ويأتي دخان.

قال الشوكاني: ولا منافاة بين كون هذه الآية نازلة في الدُّخان الذي كان يترأى لقريش من الجوع، وبين كون الدُّخان من آيات الساعة وعلاماتها وأشراتها^(٢).

فقد صح الحديث بكلِّ منهما، وليس هناك ما يمنع من الجمع بينهما.

الاتجاه الثالث: وقيل: إنه الدخان الذي يغشى الناس ويعمهم حين تقترب النار من المجرمين في يوم القيامة، وقد توعدهم الله بهذا العذاب، وأمر نبيه أن ينتظر بهم ذلك اليوم.

وهذه هي طريقة القرآن في التهيب والوعيد، وتسلية الرسول ﷺ بانتظار عذابهم. ويشهد لهذا المعنى قوله تعالى ﴿أَنَّى لَهُمُ الذِّكْرَى وَقَدْ جَاءَهُمْ رَسُولٌ مُبِينٌ﴾^(٣).

ويقال هذا للكافر حين يطلب الرجوع إلى الدنيا، فيقال له: قد ذهب وقت الرجوع^(٤).

وقال الشيخ محمد الغزالي: وهناك رأي آخر أميل إليه: ربما كان الدُّخان آية يكشف عنها الغد، وكما يؤجل العالم الآن من ثُقب الأوزون وخطره على الناس قد تتمخض الآفاق عن مصيبة داهمة وعذاب أليم لما شاع في الأرض من إلحاد وفسوق، ولما يلقيه الإسلام من خصومة وجفاء، ولما يُوجَّه إلى شخص الرسول من مفتريات^(٥).

وهذا اتجاه رابع في معنى الدخان.

قلت: والأحاديث السابقة تشير إلى ما قاله الطبري، من أنه مرَّ دُخان ويأتي دُخان. قال تعالى:

١١، ١٢ - ﴿يَغْشَى النَّاسَ هَذَا عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ (١١) رَبَّنَا اكْشِفْ عَنَّا الْعَذَابَ إِنَّا مُؤْمِنُونَ ﴿١٢﴾

(١) «معالم التنزيل» للبيهقي (٢٣٠/٧) و«تفسير الطبري» (٦٨/٢٥) قال الحافظ في «الفتح» بلفظ: قال حذيفة: يا رسول الله، وما الدخان؟ (٥٧٣/٨): إسناده ضعيف.. وقال في عون المعبود عن اللفظ المثبت في المتن إسناده صحيح ورجاله رجال الصحيح (٢٩١/١١).

(٢) «فتح القدير» (٥٤٩/٤).

(٣) ينظر: تفسير الشيخ ابن سعدي رحمه الله في تفسير الآية.

(٤) «نحو تفسير موضوعي لسور القرآن» ص ٣٨٥.

أي: وهذا الدُّخَانُ يعم الناس ويحيط بهم من كل جانب، فيكون خفيفاً على المؤمن، فيصيبه مثل الزكام، ويكون شديداً على الكافر والمنافق، فيملأ جوفه ويخرج من منخريه وأذنيه ودبره، ويجعله كالسكران، ويجعلهم يتضرعون إلى الله تعالى ويقولون: هذا عذاب شديد الألم، عظيم الهول ﴿يَغْشَى النَّاسَ﴾ أي: يحيط بهم، فيقولون أو يقال لهم: ﴿هَذَا عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ شديد الألم.

ورد أن كفار قريش جاؤوا إلى النبي ﷺ يقولون: إن كشف الله عنا ما نحن فيه من جوع أسلمنا، فهم يسألون الله تعالى أن يرفع عنهم هذا العذاب، فيقولون: ﴿رَبَّنَا اكْشِفْ عَنَّا الْعَذَابَ﴾ الذي نحن فيه، فإن كشفته عنا آمنا برسولك واتبعنا دعوته ﴿إِنَّا مُؤْمِنُونَ﴾ هذا وعد منهم بالإيمان، وقد أجاب الله دعاءهم فصرفه عنهم، وأخبر أنهم سيعودون إلى الاستكبار والتكذيب وأن الله تعالى سيعاقبهم بالبطشة الكبرى ﴿إِنَّا كَاشِفُوا الْعَذَابَ قَلِيلًا إِنَّكُمْ عَائِدُونَ﴾ ﴿١٥﴾ وهذا كقوله تعالى: ﴿وَقَالُوا يَتَكَبَّرُ النَّاسُ عَنَّا وَإِنَّا لَمُهْتَدُونَ﴾ ﴿٤٩﴾ [الزخرف].

وقوله سبحانه: ﴿وَلَمَّا وَقَعَ عَلَيْهِمُ الرِّجْزُ قَالُوا يَسْأَلُنَا رَبُّكَ بِمَا عَهِدَ عِنْدَكَ لِيْنَ كُشِفَتْ عَنَّا الرِّجْزُ لَنُؤْمِنَ لَكَ وَلَتَرْسِلُنَا مَعَكَ بَنِي إِسْرَءِيلَ﴾ ﴿١١٤﴾ [الأعراف]. وهكذا يقول الكافرون عند معاينة العذاب: ﴿رَبَّنَا أَخْرِنَا إِلَآ أَجَلٍ قَرِيبٍ نُّحِبِّ دَعْوَتَكَ وَنَتَّبِعِ الرَّسُولَ﴾ [إبراهيم: ٤٤].

اسْتِبْعَادُ إِيْمَانِ الْكُفَّارِ

١٣، ١٤ - ﴿أَنَّهُ لَمْ يَذْكُرْ وَفَدَّ جَاءَهُمْ رَسُولٌ مُّبِينٌ﴾ ﴿١٣﴾ ثُمَّ تَوَلَّوْا عَنْهُ وَقَالُوا مُعَلِّمٌ مِّثْنُؤُ ﴿١٤﴾ ثم إن الله تعالى كذب وعدهم بالإيمان، حين قالوا ﴿رَبَّنَا اكْشِفْ عَنَّا الْعَذَابَ إِنَّا مُؤْمِنُونَ﴾ ﴿١٢﴾ وبين أنه أمر مستبعد، فقال: ﴿أَنَّهُ لَمْ يَذْكُرْ﴾ أي: من أين لهم أن يتذكروا، وهم قد تركوا الذكرى وراء ظهورهم، فقد جاءهم رسول مبين هو محمد ﷺ فكفروا به، وأعرضوا عنه، ووصفوه بالجنون!

قال تعالى: ﴿يَوْمَئِذٍ يَنْذَكُرُ الْإِنْسَانُ أَنَّهُ لَمْ يَذْكُرِ﴾ [الفجر: ٢٣].

وقال سبحانه: ﴿وَقَالُوا ءَامَنَّا بِهِ وَاَنَّى لَهُمُ التَّنَازُثُ مِن مَّكَانٍ بَعِيدٍ﴾ [سبأ].

وكيف يتذكرون وهم في شك يلعبون؟ فمن أين يحصل لهم الإيمان والخوف من الله تعالى عند ظهور الدُّخَانِ المبين، وقد سُدَّتْ عليهم طرق الهداية، بطعنهم في الرسول ﷺ الذي لم يترك باباً من أبواب الخير إلا أرشدهم إليه، ولم يترك وسيلة من وسائل الهداية إلا سلكها معهم ﴿وَقَدْ جَاءَهُمْ رَسُولٌ مُّبينٌ﴾ مؤيّد بالآيات الباهرات، والمعجزات الظاهرات، وهو محمد ﷺ فلم يؤمنوا به ولم يتبعوه.

بل شكّوا في رسالته، وأعرضوا عنه، ووصفوه مرة بأنه يُعلِّمه غيره، ومرة بأنه مجنون، ومرة بأنه ساحر، وهكذا ﴿ثُمَّ تَوَلَّوْا عَنْهُ﴾ وكذبوه ﴿وَقَالُوا مُعَلَّمٌ﴾ علّمه بشر، أو علّمه الكهنة، أو الشياطين، كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ﴾ [النحل: ١٠٣]. ونسبوه إلى الجنون فقالوا: إنه ﴿مَجْنُونٌ﴾ فهو يهذي ويتخطب وليس برسول. قال تعالى مُّبِينًا أنه سيكشف عنهم شيئاً من العذاب، ولكنهم لن يُقلعوا عن الكفر:

١٥- ﴿إِنَّا كَاشِفُو الْعَذَابِ قَلِيلًا إِنَّكُمْ عَائِدُونَ﴾

أعلم الله تعالى نبيّه بأنه سيُجيب سؤالهم الذي سأله في قولهم: ﴿رَبَّنَا اكْشِفْ عَنَّا الْعَذَابَ﴾ وأنه سبحانه سيكشف عنهم العذاب المتوَعَّد به مدّة من الزمن، ثم أخبر سبحانه أنهم سيعودون مرة أخرى إلى ما كانوا عليه من الكفر، هذا معنى ﴿إِنَّكُمْ عَائِدُونَ﴾ وهو يتضمن أن كشف العذاب عنهم قليلاً بعد وصوله إليهم، يكون في الدنيا، وأنهم سيستمرّون فيما هم فيه من الضلال والطغيان، ولا يلزم من ذلك أن يكون العذاب قد باشرهم ونزل بهم، كما قال تعالى عن قوم يونس: ﴿لَمَّا ءَامَنُوا كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَىٰ حِينٍ﴾ [يونس: ٩٨].

والمعنى الآخر للآية: أن الله تعالى لو كشف عنهم العذاب في الآخرة ورجعوا إلى الدنيا لعادوا إلى ما كانوا فيه من الكفر، وهذا معنى ﴿إِنَّا كَاشِفُو الْعَذَابِ﴾ أي: إنا سنكشف عنكم العذاب في المستقبل زمناً ﴿قَلِيلًا إِنَّكُمْ عَائِدُونَ﴾ أي: ثم تعودون إلى ما كنتم عليه من الشرك والعصيان، ولن تُوفُّوا بعهدكم؛ لأنهم كعادتهم يتضرعون إلى الله تعالى في حالة الخوف والضرر، فإذا زال عنهم ما هم فيه رجعوا إلى ما كانوا عليه.

قال تعالى: ﴿وَلَوْ رُدُّوْا لَعَادُوْا لِمَا نُهُوْا عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُوْنَ﴾ [الأنعام: ٢٨]

وذلك لأنه لم يوجد منهم إيمان أصلاً حتى يتركوه ويعودوا إلى الكفر، وإنما الذي وُجد منهم هو الوعد بالإيمان إذا انكشف عنهم العذاب، فلما انكشف عنهم العذاب نقضوا عهودهم، وهذه المدة التي أمسكوا فيها عن إيذاء النبي ﷺ هي المدة التي أُرسلوا فيها وفُدهم إلى المدينة ليسأل الرسول ﷺ أن يدعو الله تعالى لهم أن يكشف عنهم القحط، فإنهم توقّفوا خلالها عن الطعن والذم فيه، وهذا شأن أهل الكفر في كل زمان ومكان، قال تعالى: ﴿وَإِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ ضُرٌّ دَعَا رَبَّهُ مُنِيبًا إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَا خَوَّلَهُ نِعْمَةً مِنْهُ نِسَى مَا كَانَ يُدْعُوْا إِلَيْهِ مِنْ قَبْلُ وَجَعَلَ لِلَّهِ أَتَدَاً لِيُضِلَّ عَنْ سَبِيلِهِ﴾ [الزمر: ٨].

ورد أن الله تعالى كشف عن أهل مكة القحط بعد استسقاء النبي ﷺ لهم، ثم عادوا، فعادهم القحط بعد سبع سنين، وهكذا وصف الله أهل الكفر والتكذيب بقوله: ﴿وَلَوْ رَحَّمْنَهُمْ وَكَشَفْنَا مَا بِهِمْ مِنْ ضُرٍّ لَلَجُوا فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ [المؤمنون: ٧٥].

وليست هذه هي المرة الوحيدة التي أغاث الله فيها العباد والبلاد ببركة دعاء النبي ﷺ، فقد حدث هذا مراراً.

ومن ذلك ما جاء في الصحيح وغيره عن أنس ؓ: أن رجلاً جاء يوم الجمعة والنبي ﷺ يخطب، فقال: يا رسول الله، هلك الزرع والضرع، فادع الله أن يسقينا، فرفع يديه وقال: «اللهم اسقنا» ثلاثاً، وما يُرى في السماء قرعة سحب، فأُمطروا من الجمعة إلى الجمعة، حتى سالت الأودية، وسال وادي قنّاة، شهراً، فأتاه آتٍ في الجمعة القابلة، هو الأول أو غيره، فقال: يا رسول الله، تقطعت السبل، فادع الله أن يمस्क المطر عنا، فقال: «اللهم حوالينا ولا علينا»^(١).

فتفرّقت السحب، حتى صارت المدينة في شبه الإكليل من السحاب.

(١) يُنظر الحديث في: البخاري (١٠١٣-١٠١٩) ومسلم (٨٩٧) وأبي داود (١١٧٥) والنسائي في «الكبرى» (٨١٨) وابن حبان (٢٨٥٧) و«المستند» (٧٢١٣) وابن ماجه (١٢٧١).

البَطْشَةُ الْكُبْرَى

١٦- ﴿يَوْمَ نَبْطِشُ^(١) الْبَطْشَةَ الْكُبْرَى إِنَّا مُنْقِمُونَ ﴿١٦﴾﴾

هذا وعيدٌ من الله تعالى بأنه سيعاقب الظالمين يوم القيامة، وهو يوم البطشة الكبرى، وهذا قول ابن عباس والحسن وعكرمة وقتادة.

وقال ابن مسعود وأبي بن كعب ومجاهد: هو يوم بدر^(٢) ولعل الأول هو المراد.

فقد بين سبحانه في هذه الآية الانتقام الذي وعد الرسول ﷺ به أئمة الكفر.

أي: يوم نعذب جميع الكفار العذاب الأكبر يوم القيامة، فهو يوم الانتقام التام، وهو أعظم أنواع البطش، وأشدّه وأذومّه، حيث يأخذهم الله أخذ عزيز مقتدر.

وهذا لا يمنع أن تصيبهم في الدنيا ألوان من العذاب، كما حدث للمشرّكين يوم بدر، فقتل سبعون من صناديدهم.

وفي رواية ابن عباس ؓ: أن البطشة الكبرى يوم القيامة،.

روى ابن مسعود ؓ أنها يوم بدر.

وفي هذا إشارة إلى عذاب الدنيا والآخرة، ولكن البطشة الكبرى على الإطلاق هي عذاب يوم القيامة، وهو الأرجح فيما يظهر لي، والعلم عند الله.

الْإِعْتِبَارُ بِمَا حَدَثَ لِفِرْعَوْنَ وَقَوْمِهِ مِنْ عِقَابِ

١٧- ﴿وَلَقَدْ فَتَنَّا قَبْلَهُمْ قَوْمَ فِرْعَوْنَ وَجَاءَهُمْ رَسُولٌ كَرِيمٌ ﴿١٧﴾﴾

ذَكَرَ الله تعالى كفار هذه الأمة بما حلّ بفرعون وقومه من الطغاة قبلهم، فقال سبحانه:

﴿وَلَقَدْ فَتَنَّا قَبْلَهُمْ قَوْمَ فِرْعَوْنَ﴾ أي: ولقد ابتلينا واختبرنا قبل مكذبي هذه الأمة، قوم فرعون، فأرسلنا إليهم موسى، كما أرسلنا إلى الأمم قبلهم رسلنا فكذبوهم، أو ابتليناهم بسعة الرزق فطغوا وبغوا، وفرعون نظائر، ولقومه نظائر:

(١) قرأ أبو جعفر بضم الطاء من (نَبْطِشُ)، والباقون بكسرها، وهما لغتان.

(٢) يُنْظَرُ: «تفسير ابن عطية» (٧٠/٥) و«تفسير ابن كثير» (٢٥١/٧) وغيرهما.

فمن هذه الأمة في عصر التنزيل : أبوجهل وهو يشبه فرعون، وقوم فرعون يشبهون كفار قريش، وموسى يشبه محمداً، وبنو إسرائيل يشبهون المسلمين، وكما انتقمنا من قوم فرعون نتقم من كفار هذه الأمة، ﴿وَجَاءَهُمْ﴾ أي: قد أرسل إلى هذه الأمة ﴿رَسُولٌ مُبِينٌ﴾ هو محمد ﷺ، كما أرسل إلى فرعون وقومه رسول كريم، أي: رسول شريف من أكرم عباد الله، ومن خيرة الرسل، ومن خيرة الناس وأكرمهم، وهو موسى ﷺ.

وأصل الفتنة: اختبار الذهب بالنار لمعرفة جودته من رداءته، وقد فتن الله قوم فرعون، أي: امتحنهم بالسراء والضراء، وبالتوسعة والتضييق عليهم، وأرسل لهم رسولاً كريم الحسب والنسب لعلهم يثوبون إلى رشدهم، أو يُقلعون عن كفرهم، ولمّا لم يهتدوا أهلكهم الله فأغرقهم أجمعين.

مُوسَى يَطْلُبُ مِنْ فِرْعَوْنَ إِطْلَاقَ سَرَّاحِ بَنِي إِسْرَائِيلَ

١٨، ١٩- ﴿أَنْ أَدُّوْا إِلَىٰ عِبَادِ اللَّهِ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٨﴾ وَأَنْ لَا تَعْلَوْا عَلَى اللَّهِ إِنِّي ءَاتِيكُمْ بِسُلْطَنِ مُبِينٍ﴾

وقد أرسل الله موسى ﷺ ليدعو فرعون إلى الإيمان، ويُخلّص بني إسرائيل من ذلّه واستعباده لهم، ولمّا لم يؤمن فرعون توجّه إليه موسى يطلب منه بني إسرائيل ليخرج بهم من مصر، فهم بمثابة الأمانة عند فرعون، وموسى يطلب منه أداء هذه الأمانة، فيقول: ﴿أَنْ أَدُّوْا إِلَىٰ﴾ أي: سلّموا إليّ ﴿عِبَادَ اللَّهِ﴾ من بني إسرائيل، وأطلقوهم من عذابكم، وأرسلوهم معي ليتحرّروا من الذل والهوان، ويعيشوا أحراراً، فإنهم أهلي وعشيرتي، وقد استعبدتموهم بغير حق، فأرسلوهم ليعبدوا ربهم، وهذا كما قال تعالى لموسى وهارون: ﴿فَأَيُّاهُ فَقُولَا إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِي إِسْرَءِيلَ وَلَا تَعْدِهِمْ﴾ [طه: ٤٧].

وقال سبحانه: ﴿فَأَيُّاهُ فِرْعَوْنُ فَقُولَا إِنَّا رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٩﴾ أَنْ أَرْسِلْ مَعَنَا بَنِي إِسْرَءِيلَ﴾ [الشعراء].

ثم أعلمهم موسى ﷺ بأنه رسول الله إليهم، مؤتمن على وحي الله تعالى، وهو لهم ناصح أمين، يجب عليهم أن يستجيبوا له، فقال: ﴿إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ﴾ من رب العالمين لتعبدوا الله وحده لا شريك له ﴿أَمِينٌ﴾ على وحي الله ورسالته، لا أكتمكم منه شيئاً، ولا

(١) قرأ نافع وابن كثير وأبو عمرو وأبو جعفر بفتح ياء الإضافة من (إني آتيكم) في حالة الوصل، والباقون بإسكانها.

أزيد فيه ولا أنقص منه، وهذا يوجب تمام الانقياد له.

ثم نهى موسى فرعون وقومه عن الاستكبار في الأرض، والعلو على أمر الله ورسوله، فقال: ﴿وَأَنْ لَا تَعْلُوا عَلَى اللَّهِ﴾ أي: استجيبوا لدعوتي وأطلقوا سراح بني إسرائيل، ولا تكبروا على الله بتكذيب رسله والاستكبار عن عبادته ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾ [غافر: ٦٠].

وإن الله تعالى قد أيدني بحجة واضحة، وبرهان ساطع على رسالتي إليكم ﴿إِنِّي أَنَا رَبُّكَ﴾ أي: بمعجزات بيّنة على صدق رسالتي إليكم. فكذبوه وهُمّوا بقتله، فاستجار بالله تعالى من شرورهم.

فِرْعَوْنُ يَتَوَعَّدُ مُوسَى بِالرَّجْمِ

٢٠، ٢١- ﴿وَإِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُمْ أَنْ تَرْجُمُونِ﴾ (٢٠) ﴿وَإِنْ لَمْ تُؤْمِنُوا^(١) لِي فَأَعَزِّلُونِ﴾ (٢١)

فلما طلب موسى ﷺ من فرعون إطلاق سراح بني إسرائيل وتخليصهم من أسرهِ وسلطانه، توعدّه بالقتل، فالتجأ إلى الله تعالى وتعوّذ به من أن يؤذوه بقول أو فعل.

والمعنى: إني استجرت بخالقي وخالقكم أن تقتلوني رمياً بالحجارة، فهو يخوفهم الله الذي يمنعهم من الاعتداء عليه؛ حتى لا يتراجع عن دعوته لهم بحال من الأحوال، وكان من عادتهم عقاب من يخالف دينهم رمياً بالحجارة، كما جاء في قوله تعالى: ﴿فَأَخَافُ أَنْ يَقْتُلُونِ﴾ [القصص: ٣٣].

وإن لم تصدقوا بالمعجزات التي أيدني الله بها فلا ترجئوني، ولكن اغتزلوني وأعتزلكم، واطركوني وشأني، ولا تضعوا العقبات في طريقي، حتى أبلغ رسالة ربي، ومن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر، فخلّوا سبيلي، وكفّوا عن أذاي؛ فإنه لا موالاة ولا صلة بيني وبينكم ما دمتم مُصرين على الكفر.

(١) قرأ ورش وأبو عمرو بخلف عنه وأبو جعفر بإبدال همزة (تؤمنوا لي) وأوا في الحالين، وحمزة وقفًا، وفتح ورش ياء الإضافة، وأسكنها الباقون.

(٢) قرأ ورش بإثبات الياء من (ترجمون) و (فاعتزلون) وصلًا، وأثبتهما يعقوب وصلًا ووقفًا، وحذفهما الباقون في الحالين.

وهكذا فقد طلب موسى ﷺ منهم أن يؤمنوا به، ثم طلب منهم أن يعتزلوه ويكفوا عنه شرهم إن لم يؤمنوا به، ولكنهم لم يؤمنوا به ولم يعتزلوه، بل ظلوا متمردين عليه محاربين لدعوته، ولم يطلقوا له سراح بني إسرائيل، وحينئذ دعا عليهم.

مُوسَى يَدْعُو عَلَى فِرْعَوْنَ وَقَوْمِهِ

٢٢- ﴿فَدَعَا رَبَّهُ أَنَّ هَؤُلَاءِ قَوْمٌ تُجْرِمُونَ﴾ (٢٢)

ولمَّا كَذَّبوا موسى ولم يستجيبوا لدعوته، وأصرُّوا على أذاه، وعدم التخلية بينه وبين الدعوة إلى الله تعالى، ولمَّا لم يُطْلَقُوا سراح بني إسرائيل، ولم يجد موسى منهم آذانًا صاغية، بعد أن طال مقامه بينهم، وأقام حجج الله عليهم، ولم يزدْهم ذلك إلا كفرًا وعنادًا، عندئذ دعا ربه دعوة نفذت فيهم ﴿فَدَعَا رَبَّهُ أَنَّ هَؤُلَاءِ قَوْمٌ تُجْرِمُونَ﴾ (٢٢) مشركون بالله، كافرون به، وقد جاءت دعوته عليهم في قوله تعالى حكاية عنه: ﴿رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا لِقَوْمِ الْفَٰكِرِينَ﴾ (٨٥) وَفِيْنَا بِرَحْمَتِكَ مِنَ الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾ (٨٦) [يونس].

وفي قوله تعالى: ﴿رَبَّنَا أَطْمِسْ عَلَيَّ أَمْوَالَهُمْ وَاشْدُدْ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُوا حَتَّىٰ يَرَوُا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ﴾ (٨٨) قَالَ قَدْ أُجِيبَت دَعْوَتُكُمَا فَاسْتَقِيمَا وَلَا تَتَّبِعَانَّ سَبِيلَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ (٨٩) [يونس] كَأَنَّ موسى ﷺ دعا ربه بقلب حار، يقول: يارب، إن فرعون وشيعته قوم راسخون في الكفر والإجرام، فأنزل بهم عقابك الذي يستحقونه.

أَمْرُ اللَّهِ لِمُوسَى أَنْ يَخْرُجَ بِبَنِي إِسْرَائِيلَ مِنْ مِصْرَ

٢٣، ٢٤- ﴿فَأَسْرِ^(١) بِعِبَادِي لَيْلًا إِنَّكُم مَّتَّبِعُونَ﴾ (٢٣) وَاتَّكِ الْبَحْرَ رَهْوَ إِنَّهُمْ جُنْدٌ مُّعْرِفُونَ﴾ (٢٤)

أجاب الله دعاء موسى ﷺ، فأمره أن يخرج من بين أظهرهم خفية، وهذا معنى ﴿فَأَسْرِ بِعِبَادِي لَيْلًا﴾ أي: أوحينا إلى موسى، وقلنا له: اخرج ببني إسرائيل ومن آمن معك من أهل مصر، من الذين اتبعوك منهم دون الذين كذبوك، اخرج ليلاً. فالسرى هو السير ليلاً، كما قال تعالى: ﴿سُبْحَنَ الَّذِي أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِ لَيْلًا﴾ [الإسراء: ١].

(١) قرأ نافع وابن كثير وأبو جعفر بهمزة وصل في (فأسر). والباقيون بهمزة قطع.

وقال تعالى: ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِي إِلَيْكُمْ مُتَّبِعُونَ﴾ [الشعراء].

وقال سبحانه: ﴿وَلَقَدْ أَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِي فَاصْرَبْ لَهُمْ طَرِيقًا فِي الْبَحْرِ يَبَسًا لَا تَخَفْ دَرَكًا وَلَا تَخْشَىٰ﴾ [طه].

ثم أخبر الله تعالى موسى ﷺ بأن حكمته وتدييره تقضي بأن يتقدم هو وقومه حتى يتبعهم فرعون وجنوده، فينجي الله المتقدمين ويغرق المتأخرين، وهذا معنى ﴿إِنَّكُمْ مُتَّبِعُونَ﴾ أي: يتبعكم فرعون وجنوده.

وقد وجّه الله تعالى موسى ﷺ، بأنه إذا وصل إلى البحر الأحمر فليضرب البحر بعصاه، فإنه سينفلق بإذن الله تعالى اثني عشر طريقًا بعدد أسباط بني إسرائيل، وسوف يتراكم الماء بعضه فوق بعض، فيتجمّد كالجبل الأشم، ويكون قعره يابسًا، فاعبر -ياموسى- أنت ومن معك البحر، ولا تحاول أن تضرب البحر بعصاك مرة أخرى بعد خروجك منه، بل اتركه هادئًا ساكنًا على حالته حتى يغترّ فرعون وجنوده، فينزلوا البحر ليلحقوا بك، فيطبق الله عليهم البحر، فيغرقوا ويهلكوا جميعًا، وينجي الله بَدَنَ فرعون؛ ليكون آية وعبرة لمن يأتي بعده على مر الأيام.

﴿وَأَتْرَكَ الْبَحْرَ رَهَوًا﴾ الرَّهْو: هو الساكن الهادئ، أو هو الفرجة الواسعة، أي: اتركه مفتوحًا كما هو على حالته التي كان عليها حين سلكته، ساكنًا غير مضطرب ليسلكه فرعون وجنوده ﴿إِنَّهُمْ جُنْدٌ مُّغْرَقُونَ﴾ أي: إن أعداءك سيغرقون فيه غرقًا يدمّرهم ويهلكهم، فلا تخش من أن يلحق بك فرعون وجنده، فإنهم سيدخلون البحر ولن يخرجوا منه، وفي هذا طمأنة لموسى ﷺ ومعجزة له، وقد أعلمه الله بهذا مسبقًا؛ كي يبقى فارغ القلب من شرهم وإيذائهم، مطمئنًا إلى أنهم لن يُدركوه.

أخرج الطبري بسند حسن عن قتادة قال: لما خرج آخر بني إسرائيل أراد نبي الله ﷺ أن يضرب البحر بعصاه حتى يعود كما كان، مخافة آل فرعون أن يُدركوه، فقليل له: ﴿وَأَتْرَكَ الْبَحْرَ رَهَوًا إِنَّهُمْ جُنْدٌ مُّغْرَقُونَ﴾.

ولما خرج آخر رجل من بني إسرائيل وعبر البحر، نزل في أثرهم فرعون وجنده، فأمر الله البحر أن ينطبق عليهم، فغرقوا عن آخرهم، ونجي الله فرعون جسدًا بلا روح، ليكون

عبرة للطفاة في كل زمان ومكان، وترك بنو إسرائيل ما مُتُّعُوا به في الدنيا من النعيم، وأورثه الله بني إسرائيل الذين كانوا مستعبدين لفرعون وقومه.

وَرَاثَةُ بَنِي إِسْرَائِيلَ لِثَلْثِ حَضَارَةِ فِرْعَوْنَ وَقَوْمِهِ

٢٥-٢٧- ﴿كَمْ تَرَكُوا مِنْ جَنَّاتٍ وَعَيُْونٍ^(١) ﴿٢٥﴾ وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ ﴿٢٦﴾ وَنَعْمَةٍ كَانُوا فِيهَا فَاكِهِينَ^(٢)﴾

ثم بيَّن الله سبحانه العبرة من عاقبة الظالمين المغرورين، فبعد أن أغرق الله فرعون وقومه، خلَّفُوا وراءهم الكثير مما ورثه آخرون، حيث تركوه لغيرهم ممن جاء بعدهم، فما أكثر ما ترك هؤلاء المهلكون المغرَقون من بساتين، وجنات ناضرة، وحدائق غنَّاء، وأنهار وعيون من المياه جارية، فقد كانت الحدائق بحافتي نهر النيل من أوله إلى آخره على الجانبين، ما بين أسوان إلى رشيد، وله تسعة فروع في الإسكندرية ودمياط والفيوم... إلخ، كلها متصلة ببعضها.

وكم تركوا من زروع كثيرة تبلغ ما بلغ النيل، فأرض مصر تُروى بالماء الجاري في القنوات والجداول، وفيها الكثير من جميع أنواع الزراعة والأشجار والثمار والنبات. وكم تركوا من منازل جميلة، وقصور عظيمة، ومجالس ومساكن مزينة بألوان الزينة والزخارف، وقد سمي الله تعالى ذلك: مقامًا كريمًا.

وكم ترك بنو إسرائيل من عيشة مترفة بكثرة النعم، ورغد العيش، وكثرة الفاكهة، مع الرفاهية والسرور، يأكلون ويشربون ويلبسون ما شاؤوا، مما يتلذذون به مع الجاه والحكم، فسُلبوا هذا كله.

والنَّعمة بفتح النون: هي الرفاهية والبهجة والسرور، مع وجود من يتمتع بها.

وبكسر النون: كثرة المال والمتاع، ولا يلزم وجود من يتمتع بهما.

قال الفخر الرازي: بيَّن تعالى أنه بعد غرقهم تركوا هذه الأشياء الخمسة: الجنات،

(١) قرأ ابن كثير وابن ذكوان وشعبة وحمزة والكسائي بكسر العين من (عيون)، وضمها غيرهم، وهما لغتان.

(٢) قرأ أبو جعفر بحذف الألف من (فاكهين) على أنها صفة مشبهة، من فكه أو عجب أو تلذذ أو تفكَّه، والباقون بإثبات الألف، اسم فاعل، أي: أصحاب فاكهة.

والعيون، والزروع، والمقام الكريم - وهي المنازل والمجالس الحسنة - ونعمة العيش، وهي حسنه ونضارته^(١). قال تعالى:

٢٨- ﴿كَذَٰلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا قَوْمًا ءَاخِرِينَ﴾

أي: وبمثل هذا العقاب يعاقب الله من كذب وبدل نعمة الله كُفْرًا، وقد أورث الله تلك النعم من بعد فرعون وقومه، قَوْمًا آخِرِينَ خلفوهم من بني إسرائيل، وهؤلاء الآخرون فسّرهم قوله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا بَنِي إِسْرَءِيلَ﴾ [الشعراء].

وبنو إسرائيل لم يرثوا مُلك فرعون بالذات، ولكنهم ورثوا مُلكًا مثله في أرض أخرى، ولا يصح أن بني إسرائيل ورثوا أرض مصر؛ لأنهم لم يرجعوا إلى مصر بعد أن خرجوا منها مع موسى ولم يملكوها على مر التاريخ.

فالمعنى: أن بني إسرائيل ورثوا الملك والنعمة التي زالت عن فرعون وملئه في أماكن أخرى.

قال تعالى: ﴿وَأَوْرَثْنَا الْقَوْمَ الَّذِينَ كَانُوا يُسْتَضَعُونَ مَشْرِقَ الْأَرْضِ وَمَغْرِبَهَا الَّتِي بَرَكْنَا فِيهَا﴾ [الأعراف: ١٣٧].

بُكَاءُ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ عَلَى مَنْ مَاتَ مُؤْمِنًا

٢٩- ﴿فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ وَمَا كَانُوا مُنْظَرِينَ﴾

ولمّا أهلك الله فرعون وقومه وأتلف ما كانوا فيه من نعيم ومتاع، لم يحزن لموتهم أحد، ولم يأس أحد على فراقهم، بل استبشر بهلاكهم وهلاك حرثهم ونسلهم كل أحد، حتى السماء والأرض، لأنهم لم يتركوا خلفهم إلا ما يوجب مقت الله تعالى وغضبه، وقد كانوا ملء السمع والبصر، يُدُلُّون غيرهم، ويملكون الجنّات والعيون، ولم يؤخر الله عذابهم للآخرة، أو ليوم آخر من الدنيا، بل نزل بهم الغرق والهلاك دون تأخير ولا تسويف.

ولم تكن لهم أعمال صالحة تصعد إلى أبواب السماء، فتبكي السماء على فقدهم، وليست لهم في الأرض بقاع عبدوا الله فيها ففقدتهم، فلماذا استحقوا ألا يُنْظَرُوا ولا

(١) «التفسير الكبير» (٢٧/٢٤٦).

(٢) ضم الهاء من (عليهم) حمزة والكسائي وخلف ويعقوب، والباقون بكسرها.

يُؤَخِّرُوا لِكْفَرِهِمْ وَإِجْرَامِهِمْ وَعُتُوِّهِمْ وَعِنَادِهِمْ، وَقَدْ كَانَتْ الدُّنْيَا أَعْظَمَ شَيْءٍ عِنْدَهُمْ فَذَهَبُوا وَبَقِيَتِ الدُّنْيَا كَمَا هِيَ عَلَى قَدَرِ حَالِهَا.

ولم يمهّل الله فرعون وقومه بل عاجلهم بالعقوبة في الدنيا ﴿وَمَا كَانُوا مُنْظَرِينَ﴾ (١٩).

وقد وردت آثار كثيرة في هذا المعنى، منها:

(أ) ما أخرجه ابن أبي حاتم بسنده: أن رجلاً سأل عليّاً عليه السلام: هل تبكي السماء والأرض على أحد؟ فقال له: لقد سألتني عن شيء ما سألتني عنه أحد قبلك، إنه ليس من عبد إلا له مُصَلِّي في الأرض، ومُصْعِد عمله من السماء، وإن آل فرعون لم يكن لهم عمل صالح في الأرض، ولا عمل يصعد في السماء، ثم قرأ الآية (١) والسماء والأرض لا يبكيان على كافر.

(ب) وأخرج ابن جرير بسنده أن رجلاً سأل ابن عباس عليه السلام عن الآية: هل تبكي السماء والأرض على أحد؟ قال: نعم، إنه ليس أحد من الخلائق إلا وله باب في السماء، منه ينزل رزقه، وفيه يصعد عمله، فإذا مات المؤمن فأغلق بابه من السماء الذي كان يصعد فيه عمله، ويتنزل منه رزقه بكى عليه، وإذا فقد مُصَلِّاه من الأرض التي كان يصلي فيها، ويذكر الله فيها بكت عليه، وإن قوم فرعون لم تكن لهم آثار صالحة، ولم يكن يصعد إلى الله منهم خير، فلم تبك عليهم السماء والأرض (٢).

قيل: إن بكاء السماء حُمرَة أطرافها، كما قيل: إن السماء احمرت يوم قتل الحسين بن علي، وقيل: إنها تبكي عليهم أربعين صباحاً.

(ج) قال سعيد بن جبير: لم تبك عليهم السماء؛ لأنهم لم يكونوا يُرفع لهم فيها عمل صالح، ولم تبك عليهم الأرض؛ لأنهم لم يكونوا يعملون فيها بعمل صالح (٣).

(د) وفي الأثر: «ما مات مؤمن في غربة غابت عنه فيها بواكيه، إلا بكت عليه السماء والأرض» (٤).

(هـ) وقال مجاهد: وما للأرض لا تبكي على عبد كان يعمرها بالركوع والسجود؟

(١) «تفسير ابن كثير» (٧/٢٥٣).

(٢) «تفسير الطبري» (٧٤/٢٥) والبيهقي (٣٢٨٨).

(٣) وأخرجه عبد بن حميد كما في «الدر المنثور» (١٣/٢٧٥).

(٤) عن شريح بن عبيد الحضرمي مرسلاً، «تفسير الطبري» (٢١/٤٣).

وما للسماء لا تبكي على عبد كان لتكبيره وتسيحه فيها دويّ كدويّ النحل؟^(١).

(ز) وأخرج الطبري بسند حسن عن قتادة، قال: بقاع المؤمن التي كان يصلي عليها من الأرض تبكي عليه إذا مات، وبقاعه من السماء التي كان يرفع فيها عمله.

ثَلَاثٌ مِنْ نِعَمِ اللَّهِ تَعَالَى عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ

٣٠، ٣١- ﴿وَلَقَدْ نَجَّيْنَا بَنِي إِسْرَءِيلَ^(٢) مِنَ الْعَذَابِ الْمُهِينِ ﴿٣٠﴾ مِنْ فِرْعَوْنَ إِنَّهُمْ كَانُوا عَلِيًّا مِنَ الْمُسْرِفِينَ﴾

في هاتين الآيتين، والآيتين بعدهما ثلاث نعم أنعم الله بها على بني إسرائيل:

النِّعْمَةُ الْأُولَى: نِعْمَةٌ إِنْجَائِيَّةٌ مِنْ دُلِّ فِرْعَوْنَ وَقَهْرِهِ:

وذلك أنه لما ذكر تعالى إهلاك فرعون وقومه أزدفه بذكر إحسانه إلى بني إسرائيل؛ ليشكروا ربهم على نعمه وإحسانه.

لقد كان عبور البحر هلاكاً لفرعون وقومه، ونجاة لموسى وبني إسرائيل، حيث أنقذناهم من عذاب فرعون الذي كان يذلمهم بقتل آبائهم واستخدام نسائهم، وإهانتهم بإرهاقهم في الأعمال الشاقة: كالحفر وصناعة اللبن من الطين والتبن لبناء المدن التي كان يبنها في أرجاء البلاد.

نجيناهم من طغيان فرعون المفرط في تعذيبهم وإهانتهم، إنه كان مسرفاً في العلوّ والتكبر، متجاوزاً الحد في الإجرام والطغيان، وفي هذا تخفيف عن النبي ﷺ وتسليّة له، وتبشير به بأن الله تعالى سينجيّه هو والمؤمنين معه من المشركين وكيدهم، فإنهم لم يبلغوا ما بلغه فرعون من التجبر والإمكانات.

النِّعْمَةُ الثَّانِيَّةُ: تَفْضِيلُ بَنِي إِسْرَائِيلَ -لأنّهم أهل كتاب- عَلَى الْوَثَنِيِّينَ

٣٢- ﴿وَلَقَدْ اخْتَرْنَا لَهُمْ عَلَى عِلْمٍ عَلَى الْعَالَمِينَ ﴿٣٢﴾﴾

ولكل زمان عالم، واليهود في زمانهم كانوا أفضل عالمي زمانهم، وأعلم أهل زمانهم؛

(١) أبو الشيخ في «العظمة» (١١٨٣).

(٢) سهّل أبو جعفر همزة (إسرائيل) الثانية مع المد والقصر، ومثله حمزة عند الوقف، والباقون بالتحقيق.

لأنهم أهل كتاب، وغيرهم كانوا وثنيين، وأهل الكتاب يؤمنون بالله ورُسُل زمانهم، فهم خير من الوثنيين الذين يعبدون الحجارة، فاختيارهم وأفضليتهم على غيرهم في وقتهم أمر طبعي، ولا يقتضي تفضيلهم على الأمم الأخرى.

والمعنى: ولقد اصطفينا بني إسرائيل وشرفناهم على علم منا باستحقاقهم التفضيل على الوثنيين ونحوهم ممن لا يؤمن بالله تعالى واليوم الآخر، وهذا الاصطفاء على العالمين جاء في آيات أخر، كقوله تعالى: ﴿يَبْنَئِ إِسْرَءِيلَ أَذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَنِّي فَضَّلْتُكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾ [البقرة: ٤٧].

وقوله سبحانه: ﴿وَمِنْ قَوْمِ مُوسَى أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ﴾ [الأعراف: ١٥٩].

وهذا الوصف في مقابلة الوثنيين المعاصرين لهم، فلا شك أن أهل الكتاب أفضل من عبدة الأوثان.

ومن ذلك قوله تعالى: ﴿يَكْمُرُ إِنْ أَلَّهَ اصْطَفَاكِ وَطَهَّرَكِ وَاصْطَفَاكِ عَلَى نِسَاءِ الْعَالَمِينَ﴾ [آل عمران: ٤٢] والمراد: عالمي زمانها؛ لأن خديجة ؓ أفضل منها، وآسية بنت مزاحم، امرأة فرعون أفضل منها، أو مساوية لها في الفضل، وفضل عائشة على النساء كفضل الثريد على سائر الطعام.

وهذا الاصطفاء لبني إسرائيل في عصرهم كان قبل تبديلهم وتحريفهم للتوراة، وقبل قتلهم الأنبياء، وإفسادهم في الأرض، وتجربتهم على الله تعالى، فلما فعلوا ذلك ضرب الله عليهم الذل والمسكنة، وباؤوا بغضب من الله، واختار الله المسلمين بعدهم اختياراً نسبياً على حُسن استقامتهم وقيامهم بما أنيط بهم من التكليف ﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾ [آل عمران: ١١٠] مطلقاً، وليست الخيرية مقصورة على عصر دون عصر، بل هي قائمة إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها.

وشروط هذه الخيرية هي: الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والإيمان بالله تعالى.

النِّعْمَةُ الثَّالِثَةُ: مَا حَبَّاهُمْ اللَّهُ بِهِ مِنْ نِعَمٍ وَهُمْ فِي التَّيِّهِ

٣٣- ﴿وَالَّذِينَ هُمْ مِنَ آلِ إِبْرَاهِيمَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ إِبْرَاهِيمَ كُلَّ مَقَامٍ يُحْسِنُ﴾ [البقرة: ١٢٨]

أي: وقد أعطى الله بني إسرائيل على يد موسى ﷺ كثيرًا من المعجزات الخارقة للعادة، وأعطاهم من الحُجُب والبراهين ما فيه اختبار وامتحان ظاهر لمن يتدبر ويتأمل، وهذه الآيات مثل: فلق البحر، وتظليل الغمام، وإنزال المن والسلوى، وتفجير الماء من الحجر اثنتي عشرة عينًا، وغير ذلك من الآيات التي لم تحُصَل لسواهم من الناس، وقد أعطيناهم ذلك لننظر كيف يعملون، بإظهار ذلك في عالم الوجود، كما اختبارناهم بالرخاء والشدة، والسراء والضراء ﴿فَلَمَّا عَتَا عَنْ مَا نُهُوا عَنْهُ قُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ﴾ [الأعراف].

الْيَهُودُ يُنْكِرُونَ الْبَعْثَ وَالنُّشُورَ

٣٤-٣٦- ﴿إِنَّ هَؤُلَاءَ لَيَقُولُونَ^(١)﴾ ﴿إِنْ هِيَ إِلَّا مَوْتُنَا الْأُولَىٰ وَمَا نَحْنُ بِمُنشَرِينَ﴾ ﴿فَأَنذَرُوا يَٰٓأَيُّهَا النَّاسُ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ ﴿٣٦﴾

ولما كان الحديث من أول السورة عن غير المؤمنين بالله ورسوله واليوم الآخر، وجاءت قصة فرعون وقومه في هذا السياق للدلالة على إصرارهم على الضلالة والكفر، وكلاهما من المكذبين بالبعث والنشور، ومثل هؤلاء وأولئك، اليهود المشار إليهم بـ ﴿هَؤُلَاءَ﴾ في هذه الآية، وسياق الحديث عنهم، فإنهم ينكرون البعث بالجسد والروح معًا، فأشار القرآن إليهم إشارة ازدراء واحتقار لما قالوه عن اليوم الآخر، وإنكارهم لما فيه من البعث والحساب والجزاء على الأقوال والأعمال، فكانوا يقولون: ما هي إلا الموتة التي نموتها، فهي الموتة الأولى والآخرة، فإذا متنا فلا بعث ولا حياة ولا نشور، وليس هناك من موت سوى الموت المزيل لحياتنا، وليس بعده حياة أخرى، فلا حساب ولا جزاء.

ثم احتجوا على نفي البعث بأن الأموات السابقين لم يرجع أحد منهم إلى الحياة، فقالوا: ﴿فَأَنذَرُوا يَٰٓأَيُّهَا النَّاسُ﴾ الذين ماتوا من قبل ﴿إِنْ كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ في أن الله يبعث من في القبور أحياء، أعيدها لهم الحياة واجعلوهم يخرجون إلينا مرة أخرى لنراهم، فلو كان البعث ممكنًا معقولًا ففعلوا لنا إحياء من مات منهم لنصدقكم في دعوى البعث يوم القيامة، وهذا الكلام فيه مغالطة؛ لأن البعث لا يكون في الدنيا، بل يكون في الآخرة.

قال القرطبي: قائل هذا أبو جهل، قال: يا محمد، إن كنت صادقًا في قولك فابعث لنا رجلين

(١) عدّ الكوفي وحده (ليقولون) آية، ولم يعددها غيره.

من آبائنا، أحدهما: قُصِيُّ بن كلاب، فإنه كان رجلاً صادقاً لنسأله عما يكون بعد الموت.
ولذا: فإن بعض المفسرين يرى أن هذه الآية تتعلق بالمشركون الوثنيين الذين ينكرون
البعث والنشور.

قلت: والآيات تتحدث عن بني إسرائيل، ومن ذلك قوله تعالى ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي إِسْرَءِيلَ
مِنَ الْعَذَابِ الْمُهِينِ (٣٠)﴾ فسياق الحديث بما فيه إنكار البعث والنشور عن اليهود، والآية
تنطبق على كل منكر للبعث والحساب والجزاء.

عَاقِبَةُ الظُّلْمِ فِي كُلِّ عَصْرِ وَاحِدَةٍ

٣٧- ﴿أَهُمْ خَيْرٌ أَمْ قَوْمٌ تُبْعَ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ أَهْلَكْنَاهُمْ إِنَّهُمْ كَانُوا مُجْرِمِينَ (٣٧)﴾

ولما ضُرب القرآن مثلاً سابقاً بفرعون وملئه، ضرب مثلاً لاحقاً بقوم تُبْع، فقال: ﴿أَهُمْ
خَيْرٌ أَمْ قَوْمٌ تُبْع﴾ هل المكذبون بالبعث، خير وأحب إلى الله تعالى من أهل سبأ، ملوك
اليمن؟ أم هم أشد وأقوى من سائر الأمم الكافرة، وقد كانوا أكثر مآلاً وأشد قوة،
وأعظم نعيمًا، كقوم عاد وثمود وأضرابهم من الأمم العاتية؟ فإنهم ليسوا خيرا منهم، وقد
اشترك الجميع في الإجماع، فليتوقعوا أن يصيبهم ما أصاب أسلافهم من الهلاك، فقد
أهلكنا من قبلهم وخرَّبنا بلادهم، وفرقناهم شذَرَ مَذَرَ، لإجرامهم وإصرارهم على الكفر
بالله ورسوله المبعوث فيهم، فليحذروا أن يصيبهم ما أصاب أمثالهم، وفي هذا تهديد
ووعيد لكل من كفر بالله والرسول الخاتم، فإنهم ليسوا بخير ولا أقوى ممن سبقهم، حتى
نضفح عنهم ولا نهلكهم، وهم بالله كافرون.

وقوم تُبْع هم سكان اليمن وحضرموت، من حمير وسبأ، وقد جاء ذكرهم في قوله
تعالى: ﴿وَأَنصَبْ إِلَيْكَ وَقَوْمٌ تُبْعُ كُلُّ كَذَبَ الرُّسُلِ فَقَّ وَعِيدِ (٣٨)﴾ [ق].

وتُبْع لقب لكل من ملك اليمن كلها، مثل: كسرى وقيصر وفرعون والنجاشي، ويقال
تُبْع؛ لأن الملوك تنبعه، واسمه أسعد، وكنيته أبو كريب، وكانت دولته قبل البعثة
المحمدية بألف، أو سبع مئة سنة، وهو تُبْع الأوسط، قيل: إنه ملك ثلاث مئة وستاً
وعشرين سنة.

وكانت عائشة تقول: لا تسبوا تبعًا؛ فإنه كان رجلاً صالحًا، ألا ترى أن الله تعالى ذمّ قومه، ولم يذمّه^(١). وقد وردت آثار تتعلق بإسلامه:

أخرج الطبراني وابن مردويه بسند صحيح عن ابن عباس رضي الله عنهما عن النبي ﷺ قال: «لا تسبوا تبعًا فإنه قد أسلم»^(٢).

قيل: إنه كان على دين إبراهيم، وقد اهتدى إليه على يد حبرين من أحبار يهود.

وعن سهل بن سعد الساعدي رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «لا تسبوا تبعًا فإنه كان قد أسلم»^(٣).

وعن عائشة رضي الله عنها قالت: كان تبع رجلاً صالحًا، ألا ترى أن الله عز وجل ذمّ قومه ولم يذمّه^(٤). وقد جاء النهي عن سب تبع في آثار كثيرة^(٥).

ولا يطلق لقب تبع قديمًا إلا على من ملك جميع بلاد حمير وسبأ وحضرموت، وكان يسير بغزواته إلى كل مكان تطلع عليه الشمس، كما فعل ذو القرنين، ولعل الله تعالى أهلك قومه بعد موته.

وقد علل الله سبحانه عذاب قوم تبع ومن قبلهم من الأمم بسبب أنهم كانوا قومًا مجرمين.

الْحِكْمَةُ مِنْ خَلْقِ هَذَا الْكَوْنِ

٣٨، ٣٩ - ﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لِعِبَادٍ ۚ مَا خَلَقْنَاهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾^(٢٨)

بَيَّنَّ ﷻ أنه لو لم يكن هناك بعث ولا حساب ولا جزاء، لكان خلق السموات والأرض وما فيهما وما بينهما عبثًا، فقد خلق الله هذا الكون بالحق، أي: لحكمة عظيمة، وهي عبادته

(١) الحاكم (٢/٤٥٠).

(٢) صححه الألباني في «السلسلة الصحيحة» (٢٤٢٣) وهو في الطبراني برقم (١١٧٩٠).

(٣) «المستند» (٢٢٨٨٠) قال محققوه: حسن لغيره، وأخرجه الطبراني في «الكبير» (٦٠١٣) و«الأوسط» (٢٢) وغيرهم.

(٤) أخرجه الحاكم (٢/٤٥٠) من طريق عبد الرزاق، عن معمر، عن الزهري، عن عروة، ورجاله ثقات رجال الشيخين.

(٥) منها ما أخرجه عبد الرزاق في تفسيره (٢/٢٠٩).

سبحانه وعدم مساواة المحسن بالمسيء، والمؤمن بالكافر، فيجازى كل فاعل على فعله، ويكافئ كل عامل بما يناسب عمله، فلم يخلقهما الله تعالى لمجرد اللهو أو لغير غرض صحيح، كما قال تعالى: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ﴾ [المؤمنون]. وقال سبحانه: ﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَطْلًا ذَلِكَ ظَنُّ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ [ص: ٢٧].

المراد بـ (الحق):

وهذا الحق الذي خلقت من أجله السموات والأرض، يظهر في النظام الدقيق الذي يحكم هذا الكون في برّه وبحره وجوّه، وغاباته وسهوله وأوديته وجباله وكواكبه وأفلاكه، وهذا من موجبات إفراد الله تعالى بالعبادة، فقد خلق الله الخلق ليعرفوه، فيوحده ويعبدوه، ومن ثم يكون الحساب والجزاء، والفرقة بين من عبده ومن لم يعبد.

ويظهر هذا الحق في الحساب الذي يفصل بين المسلمين والمجرمين، والذاكرين والغافلين يوم القيامة ﴿أَفَجَعَلُ السَّاعِينَ كَالْمُجْرِمِينَ﴾ [القلم]. ﴿أَمَّنْ كَانَ مُؤْمِنًا كَمَنْ كَانَ فَاسِقًا﴾ [السجدة: ١٨].

﴿أَمْ يَجْعَلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَالْمُفْسِدِينَ فِي الْأَرْضِ أَمْ يَجْعَلُ الْمُتَّقِينَ كَالْفُجَّارِ﴾ [ص].

والحق هو العدل، وهو الثواب على الطاعة والعقاب على المعصية، ولو لم يكن هناك بعث ولا حساب ولا جزاء لكان خلق الخلق للفناء وليس للبقاء، فيكون هذا عبثًا ولعبًا وباطلًا وسُدَى لا فائدة فيه ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ فلا يتفكرون في خلق السموات والأرض، لانطماس بصائرهم واستحواذ الشيطان على من لا يرجون ثوابًا ولا يخافون عقابًا، وهم الكفار والمشركون، قال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَإِنَّ السَّاعَةَ لَآتِيَةٌ﴾ [الحجر: ٨٥].

فَخَلَقْنَاهُمْ فِي ذَاتِهِ حَقًّا، وخلقهما مشتمل على الحق، والغاية من خلقهما حق.

والمسلم يصلي ويزكي ويحج، والكافر لا يفعل شيئًا من ذلك، ولا يجازى كل منهما في الدنيا على شيء، ولو لم يكن هناك يوم يُفَرَّقُ بينهما، ويُنصف فيه المظلوم من الظالم، لم يكن لهذه الحياة معنى ولا غاية، ولَمَّا كان المكذبون بالبعث والنشور لا يعلمون ذلك أنكره.

قال المفسرون: إن الله تعالى قد خلق النوع الإنساني، وخلق ما تنتظم به أسباب

معاشهم، من السقف المرفوع، والمهاد المفروش، وما بينهما من عجائب المصنوعات، وبدائع المخلوقات، ثم كلّفهم بالإيمان والطاعة، فأمن البعض وكفر البعض، فلا بد إذاً من دار جزاء يُثاب فيها المحسن ويُعاقب فيها المسيء لتُجزى كل نفس بما كسبت، ولولم يحصل البعث والجزاء لكان هذا الخلق لهوًا وعبثًا، وتنزّه الله عن ذلك^(١).

يَوْمُ الْقِيَامَةِ هُوَ يَوْمُ إِحْقَاقِ الْحَقِّ

٤٠، ٤١ - ﴿إِنَّ يَوْمَ الْفَصْلِ مِيقَتُهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٤٠﴾ يَوْمَ لَا يُغْنِي مَوْلًى عَنْ مَوْلَى شَيْئًا وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ﴾

وميقات الخلق جميعًا، للفصل والقضاء بين الأولين والآخرين، وبين المختلفين في الدنيا، هو يوم الحساب والجزاء، فيوم القيامة هو موعد القضاء بين الخلائق فيما قدّموا في دنياهم من خير أو شر.

قال تعالى: ﴿إِنَّ يَوْمَ الْفَصْلِ كَانَ مِيقَتًا ﴿٧٧﴾﴾ [النبا].

وقال سبحانه: ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا يَوْمِ يُبْعَثُ ﴿٧٧﴾ لِيَوْمِ الْفَصْلِ ﴿٧٣﴾ وَمَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمَ الْفَصْلِ ﴿٧٤﴾﴾ [المرسلات].

وقال أيضًا: ﴿يَوْمَ الْقِيَمَةِ يَفْصِلُ بَيْنَكُمْ﴾ [المتحنة: ٣].

وسيجمع الله الخلائق كلهم، فيُحضرهم ويُحضر أعمالهم، ويكون الثواب والعقاب عليها.

وفي يوم الحساب والجزاء لا ينفع قريب قريبه، ولا ينفع صديق صديقه، ولا حميم حميمه، ولا يدفع أحد عن أحد شيئًا، ولو كان أقرب الناس إليه ﴿يَتَأْتِيهَا النَّاسُ أَتْفُؤًا رِيَكُكُمْ وَأَخْشَوْا يَوْمًا لَا يَجْزِي وَالِدٌ عَنْ وَلَدِهِ وَلَا مَوْلُودٌ هُوَ جَازٍ عَنْ وَالِدِهِ شَيْئًا﴾ [لقمان: ٣٣].

والمولى: هو القريب والحليف، وأولياؤهم في الدنيا الذين يظنون أنهم ينفعونهم لا يفيدونهم شيئًا، وليس هناك من يغضب لهم فينصرهم، فאלله غالب على أمره، ولا يقوى أحد أن يرفع الضر عن غيره مهما كانت قوته وبأسه، قال تعالى مستثنياً مَنْ رَحِمَهُمُ اللهُ تعالى من عذابه:

٤٢ - ﴿إِلَّا مَنْ رَحِمَ اللَّهُ إِنَّهُ هُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴿٤٢﴾﴾

ثم استثنى الله سبحانه من عدم قبول الشفاعة والنصرة، مَنْ رَحِمَ اللهُ من المؤمنين، فإنه

(١) «صفوة التفاسير» للشيخ محمد علي الصابوني (٦٥/١٥).

قد يُشفع له عند ربه، بعد إذن الله للشافع والرضى عن المشفوع له، وهو الذي ينتفع ويرتفع برحمة الله تعالى التي تَسبَّب فيها وسَعَى لها.

أي: لكن مَنْ رحمه الله، فإنه لا يحتاج إلى من يُغْنِي عنه أو ينصره، وعلى هذا فهو استثناء منقطع، قال تعالى: ﴿وَلَا تَنْفَعُ الشَّفَعَةُ عِنْدَهُ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُ﴾ [سبأ: ٢٣].

وقال سبحانه: ﴿وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ارْضَى﴾ [الأنبياء: ٢٨].

والأولى أنه استثناء متصل، معناه: لا يغني قريب عن قريبه إلا المؤمنين، فإن الشفاعة تُقبل منهم ولهم، حيث يشفعون في غيرهم، ويشفع فيهم الأنبياء والصالحون بعد الإذن لهم فيها..

ثم وصف الله نفسه بقوله: ﴿إِنَّهُ هُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ﴾ الذي لا يُكْرِهُهُ أحد على العدول عن مراده، وهو واسع الرحمة، يرحم من يشاء بمحض مشيئته، وهو سبحانه عزيز في انتقامه ممن عصاه، رحيم بأوليائه وأهل طاعته.

طَعَامُ أَهْلِ النَّارِ وَعَذَابُهُمْ

٤٣-٤٦ - ﴿إِنَّ سَجَرَتَ (١) الزَّقُّومِ (٢) طَعَامُ الْأَثِيمِ (٣) كَالْمُهْلِ يَغْلِي (٤) فِي الْبُطُونِ (٤) كَغَلِي الْحَمِيمِ (٤)﴾

ولما ذكر سبحانه أن الناس فريقان في يوم الفصل: فريق مرحوم، وهم أهل السعادة، وفريق معذب، وهم أهل السعير، الأثمون بعمل الكفر والمعاصي، بعد ذلك وصف سبحانه شيئاً من عذاب الكفار، ثم أتبعه بشيء من نعيم الأبرار ليجمع بين الترغيب والترهيب، فأخبر جلّ شأنه عن شجرة الزقوم التي هي طعام أهل النار، وهي الشجرة الملعونة التي خلقها الله في قعر جهنم، وسميت كذلك لأنها من الزَّقْم وهو: الابتلاع بشدة.

وقد جاء في سورة (الواقعة) التي نزلت قبل سورة (الدُّخان): البدء بالأكل منها، فقال

(١) وقف ابن كثير وأبو عمرو والكسائي ويعقوب بالهاء في (شجرت) على الأصل في هاء التأنيث، ووقف الباقون بالتاء تبعاً للرسم، وأمال هاءها الكسائي عند الوقف عليها بخلف عنه.

(٢) عد المدني الأول والدمشقي والبصري والكوفي لفظ (الزقوم) آية، وتركها المدني الأخير والمكي والحمصي.

(٣) قرأ ابن كثير وحفص ورويس بياء التذكير في (يغلي)، والباقون بتاء التأنيث، والفاعل ضمير يعود إلى (شجرة).

(٤) ترك المدني الأول والدمشقي قوله تعالى (في البطن) من العدد، وعدّها آية غيرهما.

سبحانه: ﴿ثُمَّ إِنَّكُمْ إِلَيْهَا الصَّالُونَ الْمَكْذُوبُونَ ﴿٥١﴾ لَاكُونُ مِنْ شَجَرٍ مِنْ زُقُومٍ ﴿٥٢﴾ فَمَالُونَ مِنْهَا الْبُطُونَ﴾ [الواقعة].

وهي الشجرة الملعونة المشار إليها في قوله تعالى: ﴿وَالشَّجَرَةُ الْمَلْعُونَةُ فِي الْفُرْعَانِ﴾ [الإسراء: ٦٠].

وجاء منبئها ووصفها أبشع منظر، في قوله تعالى: ﴿أَذْكَاءَ خَيْرٌ نَزْلًا أَمْ شَجَرَةُ الزُّقُومِ ﴿٦٢﴾ إِنَّا جَعَلْنَاهَا فِتْنَةً لِلظَّالِمِينَ ﴿٦٣﴾ إِنَّهَا شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِي أَصْلِ الْجَحِيمِ ﴿٦٤﴾ طَلْعُهَا كَأَنَّهُ رُءُوسُ الشَّيَاطِينِ ﴿٦٥﴾ فَإِنَّهُمْ لَاكُونُ مِنْهَا فَمَالُونَ مِنْهَا الْبُطُونَ ﴿٦٦﴾﴾ [الصفات].

وثمر هذه الشجرة طعام صاحب الآثام الكثيرة، وعلى رأسها الشرك بالله تعالى، فهي ﴿طَعَامُ الْأَثِيمِ ﴿٤٤﴾﴾ أي: طعام الآثم الفاجر الكافر.

وثمر شجرة الزقوم في شناعته وبشاعته يشبه المغدن المذاب، أو رديء الزيت الحار في سواد لونه وذوبانه، وهو يجرجر في بطون المشركين ﴿كَالْمُهْلِ﴾ وهو الزيت المغلي أو النحاس المذاب، أو هو الصديد المُنْتِن، خبيث الريح والطعم، شديد الحرارة.

وهو ﴿يَغْلِي فِي الْبُطُونِ﴾ ويقرقر فيها.

وثمر شجرة الزقوم أيضًا؛ كالماء شديد الحرارة، الذي تقطع من الغليان، أي: إن ثمر شجرة الزقوم يغلي في بطون الكافرين، كما يغلي الماء الحار.

جاء في الحديث: عن ابن عباس ؓ مرفوعًا: «لو أن قطرة من الزقوم قطرت في دار الدنيا لأفسدت على أهل الدنيا معاشهم، فكيف بمن تكون طعامه»^(١).

ولما نزلت هذه الآية سخر أبو جهل، وقال: يَعدُّنا محمد أن في جهنم الزقوم، وإنما هو الثريد بالزبد والتمر، ثم يأتي لأصحابه بالزبد والتمر، ويقول لهم مستهزئًا وساخرًا: تزقّموا^(٢). ثم يقال لملائكة العذاب:

(١) أخرجه الترمذي من حديث ابن عباس ؓ، وقال: حديث حسن صحيح، وهو برقم (٢٥٨٥). وفي المسند (٢٧٣٥، ٣١٣٦) بنحوه وإسناده صحيح على شرط الشيخين، وأخرجه الطيالسي (٢٦٤٣) وابن ماجه (٤٣٢٥) وابن حبان (٧٤٧٠) والطبراني (١١٠٦٨) وغيرهم.

(٢) يُنْظَرُ: «تفسير القرطبي» (١٤٩/١٦) وغيره.

٤٧، ٤٨ - ﴿خُذُوهُ فَاعْتَلُوهُ^(١)﴾ إِلَىٰ سَوَاءِ الْجَحِيمِ ﴿٤٧﴾ ثُمَّ صُبُّوا فَوْقَ رَأْسِهِ مِنْ عَذَابِ الْحَمِيمِ ﴿٤٨﴾

أي: ويقال لخزنة جهنم: خذوا هذا الفاجر الآثم فادفعوه وسوقوه بعنف، وجُرّوه من تلايبه بشدة إلى وسط الجحيم ﴿خُذُوهُ فَاعْتَلُوهُ﴾ أي: اجذبوه وأوثقوه من مجامع عنقه، وجُرّوه من تلايبه ﴿إِلَىٰ سَوَاءِ الْجَحِيمِ﴾ أي: إلى وسط النار، كما يُقاد المجرم المحكوم عليه بالإعدام إلى السجن أو إلى ساحة القصاص.

ثم أفرغوا فوق رأسه الماء الذي تناهت شدة حرارته، حتى تغلي رأسه من حرارة هذا الماء فلا يفارقه العذاب، كما قال تعالى: ﴿فَالَّذِينَ كَفَرُوا قُطِعَتْ لَهُمْ ثِيَابٌ مِنْ نَارٍ يُصَبُّ مِنْ فَوْقِ رُءُوسِهِمُ الْحَمِيمُ لَا يُصْهَرُ بِهِ مَا فِي بُطُونِهِمْ وَالْجُلُودُ ﴿٢٠﴾ وَلَهُمْ مَقْمِعٌ مِنْ حَدِيدٍ ﴿٢١﴾ كُلَّمَا أَرَادُوا أَنْ يَخْرُجُوا مِنْهَا مِنْ غَمٍّ أُعِيدُوا فِيهَا وَذُقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ ﴿٢٢﴾﴾ [الحج].

وقال سبحانه: ﴿خُذُوهُ فَاعْلُوهُ ﴿٢٠﴾ ثُمَّ لَجِمَ صَلْوَهُ ﴿٢١﴾ ثُمَّ فِي سِلْسِلَةٍ ذَرْعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعًا فَاسْلُكُوهُ ﴿٢٢﴾ إِنَّهُمْ كَانَ لَا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ الْعَظِيمِ ﴿٢٣﴾﴾ [الحاقة].

وقال جلّ شأنه: ﴿وَنَرَى الْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ مُّقَرَّنِينَ فِي الْأَصْفَادِ ﴿٤٩﴾ سَرَابِلُهُمْ مِنْ فَطْرَانٍ وَنَعَشَىٰ وَجُوهُهُمْ النَّارُ ﴿٥٠﴾﴾ [إبراهيم]. ويقال للكافر:

٤٩، ٥٠ - ﴿ذُقْ إِنَّكَ^(٢) أَنْتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ ﴿٤٩﴾ إِنَّ هَذَا مَا كُنْتُمْ بِهِ تَمْتَرُونَ ﴿٥٠﴾﴾

ويقال لهذا الأثيم الشقي يوم القيامة تهكمًا واستهزاء: تذوّق مرارة هذا العذاب الذي تُعَذَّب به اليوم، لقد كنت في الدنيا معزّزًا في قومك، صاحب الكلمة المسموعة، والأمر المطاع، مكرّمًا بينهم، فانت اليوم ذليل مهان.

﴿ذُقْ﴾ هذا العذاب الأليم، والعقاب الوخيم، فقد كنت في الدنيا تزعم أنك عزيز ستُمنع من عذاب الله، وأنت كريم على الله فلا تصاب بالعذاب، واليوم ظهر لك الحق وتبين أنك الذليل المهان.

عن عكرمة قال: لقي رسول الله ﷺ أبا جهل، فقال: إن الله تعالى أمرني أن أقول

(١) قرأ نافع وابن كثير وابن عامر ويعقوب بضم التاء في (فاعتلوه)، والباقون بكسرها، وهما لغتان.

(٢) قرأ الكسائي بفتح همزة (إنك) على تقدير لام العلة، أي: لأنك، والباقون بكسرها على الاستئناف.

لك: ﴿أَوَلَيْكَ فَأُولَٰئِكَ فَتَرْكُوكَ﴾ [٢٥] ثُمَّ أَوَلَيْكَ فَأُولَٰئِكَ [٢٥] [القيامة]. قال: فترع ثوبه من يده وقال: بأي شيء تهددني؟ والله ما تستطيع أنت ولا ربك أن تفعل بي شيئاً، إني لمن أعز هذا الوادي وأكرمه على قومه، فقتله الله يوم بدر وأذله، وجعله عبرة بكلمته، وأنزل الله: ﴿ذُقْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ﴾ [٤٩] ^(١).

لقد كنت - أيها الجاهل المغرور - تزعم في الدنيا أنك أنت العزيز الكريم، فانت اليوم في غاية الذل والمهانة.

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: إن لله تعالى ثلاثة أثواب: أثار العزة، وتسزبل الرحمة، وارْتداء الكبرياء، فمن تعزّز بغير ما أعزّه الله، فذلك الذي يقال له: ﴿ذُقْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ﴾ [٤٩] ومن رحم الناس رحمه الله، فذلك الذي تسزبل بسرباله الذي ينبغي له، فإن الله تعالى يقول: «لا ينبغي لمن نازعني أن أدخله الجنة» ^(٢).

ويقال للكفار وهم يعذبون يوم القيامة على سبيل التوبيخ: هذا هو العذاب الذي كنتم تكذبون به وتشكون في وقوعه وأنتم في الدنيا ﴿هَٰذِهِ النَّارُ الَّتِي كُنْتُمْ بِهَا تُكَذِّبُونَ﴾ [٤٤] أَفَسِحْرٌ هَٰذَا أَمْ أَنْتُمْ لَا بُصِيرُونَ [٥٥] [الطور].

هذا هو العذاب حقيقة واقعة يصب فوق رؤوسكم، فهل هو سحر، أم أنتم لا ترونه؟ ولما كان إنكارهم للبعث خالياً من العلم اليقيني كان ذلك بمنزلة الشك، فهم يجادلون فيه وهم في الدنيا، ويوم القيامة يقال لهم: هذه هي الآخرة التي كنتم تشكون فيها.

نَعِيمُ أَهْلِ الْجَنَّةِ وَتَأْمِينُ مَطَالِبِهِمْ

٥١، ٥٢ - ﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي مَقَامٍ ^(٣) آمِنٍ ﴿٥١﴾ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ^(٤)﴾

(١) أخرجه الأموي في مغازيه كما في «الدر المنثور» و«تفسير ابن كثير» للآية وفي «تفسير الطبري» (٨٠/٢٥) والواحدي ص ٣١٢.

(٢) صححه الحاكم والذهبي، «المستدرک» (٤٥١/٢).

(٣) قرأ نافع وابن عامر وأبو جعفر بضم ميم (مقام) الأولى بمعنى: الإقامة، والباقون بفتحها بمعنى: موضع إقامة.

(٤) قرأ ابن كثير وابن ذكوان وشعبة وحمزة والكسائي بكسر العين من (عيون)، والباقون بضمها.

للمسلم في الجنة ستة مطالب أساسية، يؤمنها له رب العالمين:

المَطْلَبُ الْأَوَّلُ لِأَهْلِ الْجَنَّةِ: الْمَسْكَنُ الْأَمِينُ:

وذلك أنه لما ذكر سبحانه أهوال أهل النار، أتبعه بنعيم أهل الجنة، فبين سبحانه أن الذين اتقوا ربهم، فامثلوا أمره واجتنبوا نهيه وهم في الدنيا، وجعلوا بينهم وبين عذاب الله وقاية، هم اليوم في أمن وسلامة من الأمراض ومن الأحزان والآفات.

والمقام الأمين هو: المسكن الآمن من كل المكاره والمخاوف، وقد بدأ وصف نعيم المتقين به؛ لأن الأمن والسلامة والإيواء أول مطلب يحتاجه الإنسان في موطن إقامته.

المَطْلَبُ الثَّانِي: الطَّعَامُ وَالشَّرَابُ:

فأهل الجنة يأكلون من ثمارها، ويشربون من أنهار العسل واللبن والخمر والمياه التي تجري في ربوع الجنة، فهم في حداثق وبساتين نضرة، وعيون جارية ﴿كُلَّمَا رُزِقُوا مِنْهَا مِنْ ثَمَرَةٍ رِزْقًا قَالُوا هَذَا الَّذِي رُزِقْنَا مِنْ قَبْلُ وَأَتُوا بِهِ مُتَشَبِهًا﴾ [البقرة: ٢٥].

وهم يأكلون لحوم الطير والفواكه الكثيرة، كما قال تعالى: ﴿وَلَا يَحْزَنُ فِيهَا مِنْ ثَمَرٍ مِمَّا يَشْتَهُونَ﴾ [الواقعة: ٣٢] وقال أيضًا: ﴿وَفِيهَا مِنْ ثَمَرٍ كَثِيرٌ لَا مَقْطُوعَةٍ وَلَا مَمْنُوعَةٍ﴾ [الواقعة: ٣٣].

هذا جزاء المتقين، الذين اتقوا سخط الله تعالى وعذابه، فتركوا المعاصي وفعلوا الطاعات، فاستحقوا رضى الله وثوابه، وهم في ظل ظليل من كثرة الأشجار والثمار والفواكه، والعيون الجارية، وما إلى ذلك.

المَطْلَبُ الثَّالِثُ: الْمَلْبَسُ وَسِتْرُ الْعَوْرَةِ

٥٣، ٥٤- ﴿يَلْبَسُونَ مِنْ سُندُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ مُتَقَلِبِينَ﴾ [٥٣] كَذَلِكَ وَزَوَّجْنَاهُمْ بِحُورٍ عِينٍ ﴿٥٤﴾

إن المتقين يلبسون في الجنة اللباس الحرير الأخضر، من غليظ الديباج ورقيقه، وهما السندس والإستبرق، ويجلس بعضهم في مقابلة بعض، من باب المؤانسة والمودة والمسامرة.

والسندس: أجود أنواع الحرير وأرقه.

والإستبرق: ما كان سميكًا من الديباج والحرير، ويلبس فوق الثياب.

قال تعالى: ﴿وَلْيَلْبَسُونَ ثِيَابًا خُضْرًا مِّن سُنْدُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ﴾ [الكهف: ٣١] أي: يلبسون ما رقَّ من الديباج وما غلظ منه.

وهم في مجالسهم يقابل بعضهم بعضًا لتمام الأنس والمحبة، حتى ينظر بعضهم إلى بعض، ولا يستدبر بعضهم بعضًا، وهم متكئون على الفرش المرفوعة المبطنة بالديباج الغليظ، كما قال تعالى: ﴿مُتَّكِئِينَ عَلَيْهَا مُتَقَابِلِينَ﴾ [الواقعة].

وقال أيضًا: ﴿مُتَّكِئِينَ عَلَى سُرُرٍ مَّصْفُوفَةٍ﴾ [الطور: ٢٠].

وثمار الجنة تدنو منهم كلما أرادوا لتكون في متناول أيديهم، كما قال تعالى: ﴿وَحَتَّى الْجَنَّتَيْنِ دَانٍ﴾ [الرحمن: ٥٤].

المطلب الرابع: زَوَجاتُ أَهلِ الجنة، مِنَ الحُورِ العِينِ:

﴿كَذَلِكَ﴾ أي: وكما أعطينا هؤلاء المتقين في الآخرة من النعيم بإدخالهم الجنات، وإلباسهم فيها من السندس والاستبرق، أكرمناهم بزواج حسان جميلات واسعات العيون، يحار الطرف فيهن لجمالهن وحُسنهن، أحللناهن لهن، لكلٍّ منهم ما شاء منهن، والمرأة الحوراء هي: البيضاء، والعيناء: واسعة العينين.

والحور العين يشمل: النساء اللاتي كنَّ زوجات في الدنيا ممن قال الله فيهن: ﴿إِنَّا أَنشَأْنَهُنَّ إِنثَاءً﴾ (٣٥) ﴿فَجَعَلْنَهُنَّ أَبْكَارًا﴾ (٣٦) ﴿عُرُبًا أَتْرَابًا﴾ (٣٧) ﴿لَأَصْحَبِ الْعِينِ﴾ (٣٨) [الواقعة].

كما يشمل الحور العين من النساء اللاتي يخلقهن الله في الجنة ممن قال فيهن: ﴿وَحُورٌ عِينٌ﴾ (٢٢) ﴿كَأَمْثَلِ اللُّؤْلُؤِ الْمَكْنُونِ﴾ (٢٣) ﴿جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [الواقعة]

وقد وصف الله الحور العين بقوله: ﴿لَمْ يَطْمِئِنَّ إِلَهُنَّ قَبْلَهُمْ وَلَا جِآنٌ﴾ [الرحمن: ٥٦].

وقوله أيضًا: ﴿كَأَنَّهُنَّ الْيَاقُوتُ وَالْمَرْجَانُ﴾ (٥٨) [الرحمن].

المطلب الخامس: مَا يُؤْكَلُ لِلتَّلَذُّذِ وَالتَّفَكُّهِ

٥٥- ﴿يَدْعُونَ فِيهَا بِكُلِّ فَاكِهَةٍ آمْنِينَ﴾ (٥٥)

وأهل الجنة في الجنة يطلبون من الخدم كل ما يشتهونه من فواكه الجنة، وهم في مأمن

من انقطاعها أو نفاذها صيفًا وشتاءً، وفي مأمن من التخمر والأسقام والآلام، وهم آمنون من الموت، ومن التعب والنصب، ومن الشيطان والوساوس ﴿يَدْعُونَ فِيهَا﴾ أي: يطلبون من غيرهم أن يأتوا لهم ﴿يَكُلُّ فَنَكْهَةٍ﴾ أي: بإحضار كل ما يشتهون من الفواكه والملذات من كل ما له اسم في الدنيا، وما ليس له اسم، ولا نظير له في الدنيا، فمهما طلبوا من كل ما لذ وطاب أحضر لهم في الحال دون تعب ولا مقابل، حالة كونهم: ﴿ءَامِنِينَ﴾ من التخمة والأمراض، وهم غير خائفين من فنائها.

الْمَطْلَبُ السَّادِسُ: دَوَامُ النِّعَمِ فِي الْجَنَّةِ

٥٦، ٥٧- ﴿لَا يَذُوقُونَ فِيهَا الْمَوْتَ إِلَّا الْمَوْتَةَ الْأُولَىٰ وَوَقَّعَهُمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ ٥٦ فَضَلًّا مِّن رَّبِّكَ ذَٰلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ٥٧﴾

وأهل الجنة في بقاء دائم، لا يموتون أبدًا ولا يذوقون غير الموتة التي ذاقوها في الدنيا؛ فتم لهم كل محبوب ومرغوب، حيث حصل لهم النعيم، واندفع عنهم عذاب الجحيم، فضلًا من الله وكرمًا، فهو الذي وفقهم للأعمال الصالحة التي نالوا بها هذه الدرجة.

فقد صح في الحديث: عن ابن عمر رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال: «إذا صار أهل الجنة إلى الجنة، وأهل النار إلى النار جيء بالموت حتى يُجعل بين الجنة والنار، ثم يُذبح، ثم ينادي مناد: يا أهل الجنة، لا موت، ويا أهل النار، لا موت، فيزداد أهل الجنة فرحًا إلى فرحهم، ويزداد أهل النار حزنًا إلى حزنهم»^(١).

وفي الحديث الآخر: عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «ينادي مناد: إن لكم أن تصحوا فلا تنقموا أبدًا، وإن لكم أن تحبوا فلا تموتوا أبدًا، وإن لكم أن تشبوا فلا تهرموا أبدًا، وإن لكم أن تنعموا فلا تبأسوا أبدًا»^(٢).

ومع هذا النعيم العظيم، فإن الله تعالى سلم أهل الجنة ونجّاهم من العذاب الشديد،

(١) يُنْظَرُ الْحَدِيثُ عَنْ أَبِي سَعِيدٍ فِي «الْمُسْنَدِ» (٩/٣) بِرَقْمٍ (٦٠٢٢، ٥٩٩٣) حَدِيثٌ صَحِيحٌ، إِسْنَادُهُ قَوِيٌّ وَرِجَالُهُ ثِقَاتٌ (مُحَقَّقُوهُ) وَفِي الْبُخَارِيِّ عَنْ ابْنِ عُمَرَ مِنْ هَذِهِ الرِّوَايَةِ (٦٥٤٨) وَمُسْلِمٌ (٢٨٥٠)، وَالْبُغْوِيُّ فِي شَرْحِ السَّنَةِ (٤٣٦٧) وَابْنُ حِبَانَ (٧٤٧٤).

(٢) «صَحِيحُ مُسْلِمٍ» بِرَقْمٍ (٢٨٣٧) مِنْ حَدِيثِ أَبِي سَعِيدٍ وَأَبِي هُرَيْرَةَ.

أي: نَجَّاهُمْ وزَحَّزَّاهُمْ عن النار، فحصل لهم المطلوب والنجاة من المرهوب.

قال تعالى: ﴿فَمَنْ ذُحِّجَ عَنِ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ﴾ [آل عمران: ١٨٥].

وكما أن أهل الجنة لا يذوقون طعم الموت، فإنهم لا ينامون؛ لأن النوم أخو الموت، والله تعالى يُذهب عنهم دواعي النوم وأسبابه.

عن جابر بن عبد الله رضي الله عنه قال: قيل: يا رسول الله، أينام أهل الجنة؟ قال: «لا، النوم أخو الموت، وأهل الجنة لا يموتون ولا ينامون»^(١).

والنجاة من النار والفوز بالجنة هما محض فضل وكرم وإحسان من الله تعالى: ﴿فَضْلًا مِّن رَّبِّكَ﴾ أي: تفضل الله عليهم بما أعطاهم من نعيم

﴿ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ فلا يساويه فوز، ولا يدانيه فضل؛ إذ ليس هناك فوز بعده.

جاء في حديث عائشة رضي الله عنها: أن رسول الله ﷺ قال: «سَدُّوا، وقاربوا، وأبشروا، فإنه لا يُدْخِلُ أَحَدًا الْجَنَّةَ عَمَلُهُ»، قالوا: ولا أنت يا رسول الله؟ قال: «ولا أنا إلا أن يتغمدني الله بمغفرة ورحمة»^(٢).

خَتَامُ السُّورَةِ بِمَا بُدِئَتْ بِهِ

٥٨- ﴿فَإِنَّمَا يَسْتَرْتِهُ لِسَانُكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ (٥٨)

وكما بدئت السورة بالحديث عن القرآن، فإنها خُتِمت بالحديث عنه أيضًا، فقررت أن الله تعالى جعل فهم هذا القرآن يسيرًا سهلًا ليعتبر به من يعتبر ﴿فَإِنَّمَا يَسْتَرْتِهُ لِسَانُكَ﴾ أي: سهَّلنا لفظ القرآن ومعناه، وجعلناه بلغتك -أيها الرسول- بأفصح الألسنة وأجلِّها ﴿لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ فيهدتدون بهديه، ويتنفعون بما فيه، فيقفون عند حدوده، ويتركون ما فيه ضررهم، ويمثلون أوامره ويجتنبون نواهيه، قال تعالى:

﴿فَإِنَّمَا يَسْتَرْتِهُ لِسَانُكَ لِتُبَشِّرَ بِهِ الْمُتَّقِينَ وَتُنذِرَ بِهِ قَوْمًا لَّدَا﴾ (٤٧) [مريم: ٩٧].

(١) صححه الألباني في «السلسلة الصحيحة» برقم (١٠٨٧) وأخرجه البزار في «كشف الأستار» (٣٥١٧) والطبراني في «الكبير» (٩١٩، ٨٨١٦) والبيهقي (٤٨٤).

(٢) «صحيح البخاري» برقم (٦٤٦٧) وهذا لفظه، وانظر: (٦٤٦٤) و«صحيح مسلم» (٢٨١٨).

وقال سبحانه: ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَكِّرٍ﴾ [القمر: ١٧].
وقال جلَّ شأنه: ﴿وَهَذَا كِتَابٌ مُصَدِّقٌ لِسَانًا عَرَبِيًّا لِيُنْذِرَ الَّذِينَ ظَلَمُوا وَبُشْرَى لِلْمُحْسِنِينَ﴾ [الأحقاف: ١٢]. وهكذا كل رسول أرسله الله تعالى بلسان قومه ليبين لهم فيضل الله من يشاء ويهدي من يشاء.

الْمُسْتَقْبَلُ لِلْإِسْلَامِ وَأَهْلِهِ إِنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى

٥٩- ﴿فَارْتَقِبْ إِنَّهُمْ مُرْتَقِبُونَ﴾

أي: فإن لم يهتدوا بهدي القرآن، ولم يستجيبوا لك -أيها الرسول- فانتظر النصر الذي وعدك الله به، كما نصرك حين دعوت عليهم أن يجعلها الله عليهم سنين كسني يوسف، فإنهم منتظرون مثل ذلك وأشد منه.

وفرق بين الانتظارين، فرسول الله وأتباعه ينتظرون الخير، والمكذبون ينتظرون الشر.

وهذا معنى ﴿فَارْتَقِبْ﴾ أي: انتظر -يا رسولنا- نصر الله لك، وما يحل بهم من عقاب ﴿إِنَّهُمْ مُرْتَقِبُونَ﴾ موتك وقهرك، كما قال تعالى: ﴿أَمْ يَقُولُونَ شَاعِرٌ نَتَرَبَّصُ بِهِ رَيْبَ الْمَنُونِ﴾ [الطور: ٣٠].
قُلْ تَرَبَّصُوا فَإِنِّي مَعَكُمْ مِنَ الْمُرَبِّصِينَ [الطور: ٣١].

وسيعلمون لمن تكون النصرة والظفر، وعُلُوُّ الكلمة في الدنيا والآخرة، إنها لك أيها الرسول الخاتم، ولمن اتبعك من المؤمنين، وسوف نُخَيِّبُ ظَنُونَهُمْ وَأَمَآلَهُمْ.

قال تعالى: ﴿إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ ءَامَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَبِئْسَ الْقَوْمُ الَّاشْهَادُ﴾ [غافر: ٥١]. وقال سبحانه: ﴿كَتَبَ اللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ [المجادلة: ٢١].

وفي هذا وعد للرسول ﷺ، ووعد للمشركين، وهو مؤذن بانتهاء السورة.

تم تفسير (سورة الجاثية) والله الحمد والمنة.

تَفْسِيرُ سُورَةِ الْجَاثِيَةِ (٤٥)

مُقَدِّمَةُ السُّورَةِ

سورة (الجاثية) هي السورة الخامسة والأربعون في ترتيب المصحف، والرابعة والستون في ترتيب النزول، نزلت في مكانها هذا بعد سورة (الدخان) وقبل سورة الأحقاف.

وعدد آياتها عند أهل الكوفة سبع وثلاثون آية، وست وثلاثون آية عند غيرهم؛ لأنهم لم يعدّوا ﴿حَمَّ﴾ آية، وعدّها الكوفي وحده.

وعدد كلماتها أربع مئة وثمان وثمانون كلمة.

وعدد حروفها ألفان ومئة وواحد وتسعون حرفاً.

وتسمّى سورة الجاثية لورود هذا اللفظ فيها دون غيرها، كما تسمى: سورة (الشريعة) لورود لفظ شريعة فيها في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ جَعَلْنَاكَ عَلَىٰ شَرِيعَةٍ مِّنَ الْأَمْرِ فَاتَّبِعْهَا﴾ الآية [١٨].

ويقال لها: سورة حم الجاثية، و سورة الدهر لورود لفظ الدهر فيها في قوله تعالى حكاية عن الكفار: ﴿وَمَا يَهْدِيكُمْ إِلَّا الدَّهْرُ﴾ الآية [٢٤].

فهذه أربعة أسماء، أشهرها سورة (الجاثية).

وهي سورة مكية، واستثنى بعضهم قوله تعالى: ﴿قُلْ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا يَغْفِرُوا لِلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ أَيَّامَ اللَّهِ﴾ الآية [١٤]. وقالوا: إنها مدنية.

والسورة تتناول موضوعات السور المكية الثلاثة، وهي: جانب التوحيد، ونُبُوَّة محمد ﷺ، والإيمان بالبعث والجزاء.

والمحور المهم الذي تدور حوله السورة هو جانب التوحيد، فهي تقيم الأدلة والبراهين على وحدانية الله تعالى، وتحث على دراسة الكون واكتشاف آياته، وتلفت النظر إلى ملكوت السموات والأرض وما حوى من عجائب، وتأخذ بيد المتأمل فيهما إلى توحيد الله تعالى وإفراده بالعبادة.

ففي السموات آيات، وفي الأرض آيات، وفي خلق البشر والدواب وسائر المخلوقات

آيات، وفي تعاقب الليل والنهار آيات، وفي تسخير الرياح والأمطار آيات، وكلها شواهد ناطقة بقدرة الله تعالى ووحدانيته، تدل على أن الله وحده هو مصدر هذه النعم الظاهرة والباطنة، وأنه لا خالق ولا رازق إلا هو.

وفي هذا دعم البناء العقلي للإيمان، وإقامته على الفكر السوي، والبصر النافذ.

وهذه الدراسة النظرية لآيات الله في الكون تقود إلى الإيمان بالله تعالى، إلى جانب توظيف كل ما في الكون لمصلحة الإنسان وإسعاده: ﴿اللَّهُ الَّذِي سَخَّرَ لَكُمُ الْبَحْرَ لِيَجْزِيَ أَفْلَاكُ فِيهِ بِأَمْرِهِ وَلِيَبْلَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ (١٧) ﴿وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ (١٨).

(وإلى جانب العلوم العقلية والكونية، توجد علوم شرعية نقلية، تقود البشر إلى سبيل الرشاد، ومع ذلك فإن من قاموا بغزو الفضاء بقوا على كفرهم، وكثير ممن يرون الأجنة تتخلق في البطون، بدل أن يعترفوا بالخالق سبحانه، قالوا: إن الفاعل مجهول! وهو إلحاد يعم الحضارة الحديثة في غرب أوربا وشرقها، ويمتد دُخانها إلى بقية القارات، ومن هنا فهو علم ظاهري لا يَهْدُبُ نفساً، ولا يَضُقُّ فكراً، كالدواب التي تحمل صناديق الكتب ولا علم لها بما حوت).^(١)، وتبين السورة مواقف الناس من استقبال الدعوة:

١- فمنهم شديد العناد، المكابر في الحق، المصّر على الضلالة ﴿وَبَلِّغْ لِكُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيرٍ﴾ (٧) ﴿يَسْمَعُ ءَايَاتِ اللَّهِ تُنْزِلُ عَلَيْهِ ثُمَّ يُصِرُّ مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا فَبَشِيرُهُ عَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ (٨).

٢- ومنهم من لا يشعر بالفرق بين من يعمل السيئات ومن يعمل الصالحات، فينتج عن هذا التصور السيئ أنه لا يقيم وزناً للإيمان الخالص، وكأن المكتسب للصالحات والمكتسب للسيئات في ميزان الله واحد ﴿أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَن نَّجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَوَاءً نَّجْيُهُمْ وَمَمَاتُهُمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾ (٩).

٣- ومنهم من ليس له مرجعية في سلوكه وعبادته إلا اتباع هواه ونفسه الأمارة بالسوء، ﴿أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهُهُ هَوَاهُ وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَىٰ عَمْرٍ﴾ الآية [٢٣].

٤- ومنهم من يُنكر الآخرة ولا يؤمن بالبعث والنشور ﴿وَقَالُوا مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ

(١) يُنظر: «نحو تفسير موضوعي لسور القرآن الكريم» للشيخ محمد الغزالي، ص ٣٨٨.

وَنَحْنَا وَمَا يُهْلِكَا إِلَّا الدَّهْرُ ﴿٢٤﴾ الآية [٢٤].

﴿وَإِذَا قِيلَ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَالسَّاعَةُ لَا رَيْبَ فِيهَا قُلْتُمْ مَا نَدْرِي مَا السَّاعَةُ إِنْ نَظُنُّ إِلَّا ظَنًّا وَمَا نَحْنُ بِمُصْبِقِينَ ﴿٢٥﴾﴾ الآية.

ويجوز أن يكون هؤلاء جميعاً فرقة واحدة، ويجوز أن يكونوا فرقا متعددة^(١).

وجاء في ختام السورة بيان عاقبة الأخيار والأشرار ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَيُدْخِلُهُمْ رَبُّهُمْ فِي رَحْمَتِهِ﴾ الآية [٣٠].

﴿وَقِيلَ الْيَوْمَ نَنسِفُكُمْ كَمَا نَسِفْنَا لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا وَمَأْوَاكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُم مِّن تَصْرِيحٍ ﴿٣١﴾﴾ الآية.

هذا: ويمكن تقسيم السورة إلى مقطعين:

المقطع الأول: يتحدث عن القرآن ومصدره، واستقبال المعارضين له بالرفض والاستكبار ﴿سَمِعَ ءَايَاتِ اللَّهِ تُنَادِي عَلَىٰ تِلْكَ لِيُصِرَّ مُسْتَكْبِرًا كَانَتْ لَمْ يَسْمَعْهَا كَأَنَّ فِي أُذُنَيْهِ وَقْرًا﴾ الآية [٨].

ومن ثمَّ يتحدث المقطع عن طريقة القرآن في علاجهم بالوعيد الشديد، ولفت النظر إلى آيات الله الكونية، المنبثة في هذا العالم الفسح.

ويتضمن هذا المقطع رحمة الله بعباده في عدم التعجيل بعقوبة الضالين عن الحق، ووجوب التريث في عرض الدعوة عليهم، وإعطائهم الفرصة، وتخفيف الوطأة عليهم ﴿قُلْ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا يَغْفِرُوا لِلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ أَيَّامَ اللَّهِ لِيَجْزِيَ قَوْمًا بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ الآية.

كما يتضمن هذا المقطع الحديث عن علماء بني إسرائيل، ومقابلتهم لفضل الله عليهم بالجحود والعصيان والبغي والاختلاف ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا بَنِي إِسْرَءِيلَ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ وَرَزَقْنَاهُمْ مِّنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ ﴿١٦﴾ وَءَاتَيْنَاهُمْ يَتَنَتَّ مِنَ الْأَمْرِ فَمَا اخْتَلَفُوا إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ﴾ الآيتان.

وقد استغرق هذا المقطع من أول السورة إلى الآية الثالثة والعشرين منها.

أما المقطع الآخر فهو يتناول الحديث عن اليوم الآخر، فيواجه منكري البعث

(١) يُنظَر: «في ظلال القرآن» (٥/٣٢١٩).

والمتشككين فيه بالأدلة الدامغة والبراهين القاطعة، على أن الله تعالى يحيي الخلائق بعد موتهم، وتنطق صحف أعمالهم بما قدموه لأنفسهم، فيحاسبهم الله تعالى، ويدخل المؤمنين في رحمته، وينسى الكافرين في نار جهنم كما نسوا لقاء يومهم هذا، ثم لا يخرجون من النار ولا يُقبل منهم عذر.

وفي نهاية السورة ينطلق صوت التوحيد، ليحمد الله تعالى كلُّ من في أرضه وسمائه وملكوته، على الخلق والرزق والتدبير، وينحني كل طاغية وجبار أمام صاحب الكبرياء المطلق، صاحب العزة والقدرة والحكمة، فهو العزيز الحكيم في بداية السورة ونهايتها.

ويطابق آخر السورة أولها في تمجيد الله تعالى، وذكر اسمين من أسمائه الحسنی، هما العزيز الحكيم، وفي ذلك إيذان بانقضاء السورة.



تَفْسِيرُ السُّورَةِ

اِفْتِتَاحُ السُّورَةِ

١، ٢- ﴿حَمْدٌ^(١) تَزِيلُ الْكَتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ ﴿١﴾﴾

افتُتِحت سورة (الجاثية) بحرفي الحاء والميم من حروف التهجي المقطعة، وحقيقة العلم بها عند الله تعالى، والمختار أنها للتنبيه على إعجاز القرآن، وفيها دعوة للتأمل في آيات الله تعالى للاهتمام بها والعمل بما فيها.

وأشارت الآية بعدهما إلى أن هذا الكتاب المنزل من عند الله تعالى مكون من هذه الحروف، ومُوحى به إلى رسول الله ﷺ، وهو كتاب مشتمل على دلائل الإيمان واليقين والحقيقة، معجز في بلاغته ومعانيه وحكمه وأحكامه، مُنَزَّل من عند الله، العزيز في ملكه وانتقامه، الحكيم في صنعه وتدبير أمور خلقه، المتصف بصفات الجلال والكمال، له العزة الكاملة والحكمة التامة، المنعم على خلقه بجليل، النعم فمصدر القرآن هو الله، وقد أنزله لصالح العباد والبلاد.

سِتَّةُ أَدَلَّةٍ كَوْنِيَّةٍ عَلَى وَحْدَانِيَّةِ اللَّهِ تَعَالَى وَقُدْرَتِهِ:

ثم ساقَت السورة في أولها ستة أدلة كونية على وحدانية الله تعالى وقدرته:

الدَّلِيلُ الْأَوَّلُ: خَلْقُ ﴿السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾

٣- ﴿إِنَّ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٣﴾﴾

إن في السموات السبع اللاتي منهن نزول الغيث، وهي مرفوعة بلا عمد، ومزينة بالمصابيح، لا ترى فيها من تفاوت، وفيها الملائكة والعرش والكرسي وسدرة المنتهى، وفيها الكواكب والأفلاك وما إلى ذلك.

وفي الأرض التي خُلق البشر من تُربتها، ومنها يخرج الزرع والنبات، والمعادن، وهي

(١) سكت أبو جعفر على الحاء والميم من (حم)، وأمال الحاء ابن ذكوان وشعبة وحمزة والكسائي وخلف، وقللها الأزرق، ولأبي عمرو الفتح والتقليل، وتُمد الميم ست حركات للجميع.

مبسوطة وممهدة للسعي فيها على المعاش، ومثبتة بالجبال، وفيها البحار والأنهار والمحيطات.. وعليها يحيى الإنسان والحيوان والطيور، والسباع والوحوش..

إن في كل ذلك لأدلة وبراهين ساطعة لمن ينتفعون بحجج الله تعالى وآياته، فيدركون أن الخالق للسماوات والأرض، هو الله المستحق للطاعة والعبادة، وقد جاء التصريح بخلقهما في آيات كثيرة، منها قوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَكِ وَالْأَرْضِ وَآخِثَلَفِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ﴾ [آل عمران].

والخطاب في الآية موجّه إلى المؤمنين، الذين لا ينكرون دلائل التوحيد، فهم الذين ينتفعون بهذه الآيات.

أما غير المؤمنين فقد قال الله تعالى عنهم: ﴿وَمَا تُعْنِي الْآيَاتُ وَالنُّذُرُ عَنْ قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [يونس: ١٠١].

الدليل الثاني: خلق الإنسان

٤- ﴿وَفِي خَلْقِكُمْ وَمَا يَبُتُّ مِنْ دَابَّةٍ آيَاتٌ لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾ [٤]

﴿وَفِي خَلْقِكُمْ﴾ أيها الناس من نطفة، فعلقه، فمضغه، إلى أن يخرجكم الله من بطون أمهاتكم خلقاً من بعد خلق، في ظلمات ثلاث، وفي تشكيل أعضائكم، وما جعل الله فيكم من الحواس والعقل، آيات دالة على قدرة الخلاق العظيم، كما قال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا فِي أَنفُسِهِمْ﴾ [الروم: ٨].

وقال أيضاً: ﴿وَفِي أَنفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾ [الذاريات].

الدليل الثالث: خلق الدواب وسائر المخلوقات

أي: وما ينشره الله تعالى ويفرقه من أنواع المخلوقات التي تدب على وجه الأرض من: الإنسان والحيوان والدواب والطيور والوحوش والسباع والحشرات، وما في البحر

(١) قرأ حمزة والكسائي ويعقوب بنصب التاء بالكسرة في (آيات لقوم يوقنون) و (آيات لقوم يعقلون) عطفًا على اسم (إن)، والمعنى: إن في خلقكم، وإن في اختلاف الليل والنهار، وخبر إن (وفي خلقكم) و(في اختلاف الليل والنهار)، وقرأ الباقون بالرفع فيهما على الابتداء، والجار والمجرور قبله خبر.

من الأصناف المختلفة للأسماك والحيتان، وسائر المخلوقات التي لا تُحصى ولا تُعدُّ على ظهر الأرض، إن في ذلك وغيره آيات لمن يوقن بالله تعالى وشرعه، وفي الآية تعميم بعد تخصيص، فبعد أن خص الله الإنسان بالذكر، وهو ممَّا يدب على الأرض، عمم بذكر سائر الدواب، وفي هذا تكريم للإنسان وتمييز له عن غيره من مخلوقات العالم الأرضي. إن في كل هذا آيات للموقنين بالله ورسوله واليوم الآخر وما فيه بعث وحساب.

والدابة: اسم لكل ما يدبُّ على وجه الأرض من غير الإنسان، وتُطلق على ما يدب بالأرجل دون الطائر، كما قال تعالى: ﴿وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحِهِ إِلَّا أُمَّمٌ أَمَّاكُمُ﴾ [الأنعام: ٣٨]. قال تعالى:

٥- ﴿وَاخْتَلَفَ أَلِيلٌ وَالنَّهَارُ وَمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنْ السَّمَاءِ مِنْ رِزْقٍ فَالْحَيَا يِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَتَصْرِيفِ الرِّيحِ﴾ (١) ءَايَتٌ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٥﴾

الدَّلِيلُ الرَّابِعُ: ﴿وَاخْتَلَفَ أَلِيلٌ وَالنَّهَارُ﴾

أي: وإن في تفاوت الليل والنهار بالطول والقصر، والظلمة والنور، والحرارة والبرودة، وتعاقبهما دون أن يسبق أحدهما الآخر، وسيُهرما على نظام دقيق مطَّرد لا ينخرم ولا يختل، لآيات عظيمة لأصحاب العقول والعلوم والمعارف، على عظيم قدرة الله تعالى ووحدانيته ﴿لَا الشَّمْسُ يَنْبَغِي لَهَا أَنْ تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلَا أَلِيلٌ سَابِقُ النَّهَارِ﴾ [يس: ٤٠].

﴿وَجَعَلْنَا أَلِيلَ وَالنَّهَارَ ءَايَتَيْنِ فَمَحَوْنَا ءَايَةَ أَلِيلٍ وَجَعَلْنَا ءَايَةَ النَّهَارِ مُبْصِرَةً﴾ [الإسراء: ١٢].

الدَّلِيلُ الْخَامِسُ: ﴿وَمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنْ السَّمَاءِ مِنْ رِزْقٍ فَالْحَيَا يِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا﴾:

لَمَّا كَانَ الْمَاءُ سَبِيًّا لِلرِّزْقِ، بِإِخْرَاجِ الزَّرْعِ وَالثَّمَارِ وَالنَّبَاتِ مِنَ الْأَرْضِ، سَمَّى اللَّهُ الْمَطَرَ النَّازِلَ مِنَ السَّمَاءِ رِزْقًا.

أي: ومن آيات الله تعالى إنزال المطر من السحاب على الأرض، فتهتز الأرض وترتُبو وتُنبِت من كل زوج بهيج بعد أن كانت جدياء يابسة لا نبات فيها ولا زرع، وفي ذلك آية عظيمة دالة على قدرة الله تعالى، ومن ذلك إحياء الموتى.

قال سبحانه: ﴿وَمِنْ ءَايَاتِهِ أَنْكَ تَرَى الْأَرْضَ خَاشِعَةً فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ إِنَّ الَّذِي

(١) قرأ حمزة والكسائي وخلف بإفراد (الرياح) على إرادة الجنس، وقرأ الباقون بالجمع لاختلاف أنواع الرياح.

أَحْيَاهَا لَمْحَى الْمَوْقِ ﴿٣٩﴾ [فصلت: ٣٩].

وقال تعالى: ﴿وَقَرَى الْآرْضُ هَامِدَةً فَاِذَا اُنْزِلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنْبَتَتْ مِنْ كُلِّ رَوْحٍ بِهَيْجٍ﴾ [الحج: ٥].

وقال جلّ شأنه: ﴿وَنَزَّلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً مُبْرَكًا فَأَنْبَتْنَا بِهِ جَنَّاتٍ وَحَبَّ الْحَصِيدِ ﴿٩﴾ وَالنَّخْلَ بَاسِقَاتٍ لِّمَا طَلَعَ نَبِيدٌ ﴿١٠﴾ زَرْقًا لِّلْعِبَادِ وَأَحْيَيْنَا بِهِ بَلَدَةً مَّيْتًا كَذَلِكَ الْخُرُوجُ ﴿١١﴾﴾ [ق]

وغير ذلك من الآيات كثير.

الدَّلِيلُ السَّادِسُ: ﴿وَتَصْرِيفِ الرِّيْحِ﴾:

ومن آيات الله الدالة على وحدانيته: تصريف الرياح في الجهات المختلفة جنوباً وشمالاً، وشرقاً وغرباً، وتنقلها من حال إلى حال، تارة حارة، وتارة باردة، فيها الصَّبا وفيها الدُّبور، وكل هذا لمنافع العباد والبلاد، وفي ذلك ﴿ءَايَاتٌ﴾ واضحة على وحدانية الله تعالى ﴿لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ عن الله حججه وأدلته، من ذوي العقول النيرة والبصائر النافذة.

قال الصاوي والجمل: ذَكَرَ اللهُ ﷻ ستة أدلة في ثلاث آيات، خَتَمَ الأولى بـ ﴿الْمُؤْمِنِينَ﴾، والثانية بـ ﴿يُوقِنُونَ﴾، والثالثة بـ ﴿يَعْقِلُونَ﴾ ووجهُ التغاير بينها في التعبير أن الإنسان إذا تأمل في السموات والأرض، وأنه لا بدَّ لهما من صانع آمَنَ، وإذا نظر في خلق نفسه ونحوها ازداد إيماناً فأيقن، وإذا نظر في سائر الحوادث كُمُلَ عقله واستحكم علمه^(١).

ومن ناحية أخرى فقد خُتِمَت الآية الأولى بالإيمان؛ نظراً لأن الآيات التي في السموات والأرض ذُكِرَت مجملة غير مفصَّلة، فكأن الإحالة عليها إحالة على شيء غامض يشره الفكر، ويخبر به الشرع، ويدخل ذلك في دائرة الإيمان والتصديق.

وخُتِمَت الآية الثانية باليقين؛ لأن خلق البشر والحيوان أكثر غموضاً من خلق السموات والأرض، وهذا يحتاج إلى نظر يؤدي إلى اليقين في المعتقد.

أما اختلاف الليل والنهار، والعبرة بالمطر والرياح، فجُعِلَت لقوم يعقلون؛ لأن كل

(١) «حاشية الصاوي على الجلالين» (٦٣/٤) و«حاشية الجمل على الجلالين» (١١٢/٤).

عاقِل يحصل له فهمها وإدراكها^(١).

والمعنى: إن الذين انتفعوا بالآيات الكونية الدالة على وجود الله تعالى ووحدانيته، هم المؤمنون الموقنون العاقلون، فوُزعت هذه الأوصاف الثلاثة على الآيات الثلاث لتكون أوقع في نفس السامع والقارئ.

والمراد بالأوصاف الثلاثة واحد، فالمؤمنون هم الذين يوقنون، فيعلمون ولا يكابرون، ويعقلون بالنظر الصحيح، دلالة المؤثر على الأثر، وأن هذا الكون لا بد له من صانع واحد، وقُدِّم وصف الإيمان لشرفه؛ ولأنه أساس لغيره. قال تعالى:

٦ - ﴿تِلْكَ آيَاتُ اللَّهِ تَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ فَيَأْتِي^(٢) حَدِيثٌ بَعْدَ اللَّهِ وَآيَاتِهِ يُؤْمِنُونَ^(٣)﴾

هذه حجج الله وآياته الكونية ممثلة في خلق السموات والأرض، وخلق الناس، وخلق الدواب، واختلاف الليل والنهار، وإنزال الماء من السماء، وإحياء الأرض به، وتصريف الرياح.

هذه الأدلة والبراهين على وحدانية الله تعالى وقدرته، نقضها عليك يا محمد بالحق المبين الذي لا غموض فيه ولا التباس ﴿تَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ﴾ فإذا لم يصدق الكفار والملحدون في كل زمان ومكان بهذه البراهين الساطعة المتلوة علينا في كتاب الله تعالى ﴿فَيَأْتِي حَدِيثٌ بَعْدَ اللَّهِ وَآيَاتِهِ يُؤْمِنُونَ﴾ أي ومن لم يصدق بهذه الحجج والبراهين، فبأي كلام وبأي أدلة يصدق؟

فالمراد بالحديث: القرآن، كما قال تعالى: ﴿اللَّهُ زَلَّ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُتَشَابِهًا مَثَانٍ﴾ [الزمر: ٢٣].

وقوله أيضًا: ﴿فَيَأْتِي حَدِيثٌ بَعْدَهُ يُؤْمِنُونَ﴾ [المرسلات: ٥٠].

وقوله سبحانه: ﴿أَفَنَنْهَذَا الْحَدِيثِ تَعَجُّبُونَ﴾ [النجم: ٥٩].

والآية هي العلامة، وتطلق على الآية القرآنية، كما في قوله تعالى: ﴿تِلْكَ آيَاتُ اللَّهِ

(١) انظر: «تفسير ابن عطية» (٧٩/٥) بتصرف.

(٢) قرأ الأصبهاني بإبدال همزة (فبأي) ياء وصلًا ووقفًا، وكذا حمزة عند الوقف.

(٣) قرأ نافع وابن كثير وأبو عمرو وحفص وأبو جعفر وروح بياء الغيبة جريًا على السياق في (يؤمنون)، والباقون بياء الخطاب لمناسبة (وفي خلقكم).

تَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ وَإِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴿٨٠﴾ [البقرة].

كما تُطْلَق على الآيات الكونية، كالسموات والأرض، وتطلق أيضًا على المعجزة وخوارق العادات، ولعل المراد بها هنا: الآيات الكونية المشار إليها في الآيات الثلاث السابقة.

وبعد هذه الآيات البينات، والأدلة الواضحات على صدق القرآن العظيم، وصحة ما اشتمل عليه من الأحكام والحكم والأخبار والبعث والنشور، قسمت آيات السورة الناس إلى قسمين، بالنسبة إلى الانتفاع بآياته تعالى من عدمه:

قسم يستدلون بهذه الآيات على وحدانية الله تعالى وقدرته، ويتفكرون فيها، فينتفعون بها وتصل بهم إلى درجة اليقين، وهم المؤمنون.

وقسم لا يتففع بها، فيعرض عنها ولا تترك في نفسه أثرًا، بل يسخر منها ويستعزيء بها، وهم الكافرون.

وقد سبق الحديث عن القسم الأول وهم المؤمنون المنتفعون بآيات الله، ويأتي القسم الثاني في الآيات التالية:

الْوَعِيدُ الشَّدِيدُ لِمَنْ لَا يَنْتَفِعُونَ بِدَلَالِ آيَاتِ اللَّهِ تَعَالَى

٨،٧- ﴿وَلِكُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ ﴿٧﴾ يَسْمَعُ ءَايَاتِ اللَّهِ تَنْتَلِي عَلَيْهِ ثُمَّ يُصِرُّ مُسْتَكْبِرًا كَأَن (١) لَمْ يَسْمَعْهَا فَبَشِيرُهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾

أما من كفر بالله تعالى وبآياته، مع ظهور الأدلة والبراهين على لزوم الإيمان به سبحانه، فإنه مُتَوَعَّد بالويل والثبور، لأنه مجرم بقلبه ولسانه وجوارحه، كثير الإفك، مرتكب للآثام، كثير الكذب والافتراء، مرتكب للذنوب بقلبه وجوارحه، سيئ الظاهر والباطن، وأي هلاك شديد، وأي دمار وحسرة وندامة يوم القيامة، أعظم من هذا الهلاك، وأكبر من هذا الوبال الذي جره على نفسه!!

والإيمان بالله يستلزم الإيمان بآيات الله، والكفر بالله يستلزم الكفر بآياته، وهذا الأفاك الأثيم ﴿يَسْمَعُ ءَايَاتِ اللَّهِ تَنْتَلِي عَلَيْهِ﴾ في غاية الوضوح والجلء، ولو أنها نزلت على جبل

(١) قرأ الأصهباني بتسهيل همزة (كان لم) في الحالين ومثله حمزة عند الوقف بخلف عنه.

لرأيته خاشعاً متصدّعاً من خشية الله، ولكن الكافر يتمادى في كفره وعناده؛ لأنها لم توافق هواه ﴿ثُمَّ يُصِرُّ مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا﴾ فهو يتعالى في نفسه عن الانقياد لله ورسوله، كأنه لم يسمع ما تُلي عليه من آيات الله ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَنُؤْمِنَ بِهَذَا الْقُرْآنِ وَلَا بِالَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ [سبأ: ٣١].

فبشر -أيها الرسول- هذا الأفاك الأثيم بعذاب مؤلم موجه في نار جهنم يوم القيامة ﴿فَبَشِّرْهُ﴾ أي: أخبره خبراً يظهر أثره على الوجه ﴿بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ لأنه أصرَّ على كفره، واستحب العمى على الهدى، وهذا من باب التهكم والاستهزاء.

قيل: إن هذه الآية نزلت في النضر بن الحارث، كان يأتي بأحاديث الأعاجم، ويُسْغَل بها الناس عن سماع القرآن^(١). فسماه الله أفاكًا وتوعده بعذاب مؤلم.

والآية عامة في كل مضاد لدين الله، وفيها تهديد لكل من انطبقت عليه هذه الأوصاف الثلاثة، وهي: كثرة الكذب، وكثرة اقتراف المعاصي، والإصرار على الباطل، ويدخل فيها النضر بن الحارث وأبو جهل وسائر أئمة الكفر دخولاً أولياً.

ثم قال تعالى في تنمة أوصاف الكافر:

٩- ﴿وَإِذَا عَلِمَ مِنْ آيَاتِنَا شَيْئًا اتَّخَذَهَا هُزُوًا أُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾

أي ومن شأن الإنسان الكافر أنه إذا بلغه شيء من آيات الله الدالة على وحدانيته، بالغ في الاستهزاء والسخرية بآيات الله كلها، إمعاناً منه في الضلال ﴿وَإِذَا عَلِمَ﴾ أي: وصل إلى علم هذا الأفاك الأثيم ﴿مِنْ آيَاتِنَا شَيْئًا﴾ مما نزل على محمد ﷺ ﴿اتَّخَذَهَا هُزُوًا﴾ فهو لم يقتصر على الاستهزاء بما بلغه من آيات، بل يسخر من آيات الله كلها ﴿أُولَٰئِكَ﴾ الأفاكون المستهزئون بالقرآن، المعرضون عن الإيمان به والعمل بما فيه ﴿لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾ يهينهم ويخزيهم يوم القيامة، جزاء استهزائهم بآيات الله تعالى.

ومن هنا فقد نهى الإسلام عن السفر بالقرآن إلى أرض العدو مخافة أن يناله أذى، فإذا أمن ذلك الجانب، أو كان القصد الاستفادة والاطلاع فقد زال السبب.

(١) من «تفسير النسفي» وغيره للآية.

عِقَابُ الْمُسْتَهْزِئِينَ بِآيَاتِ اللَّهِ تَعَالَى

١٠ - ﴿مِن رَّآيِهِمْ جَهَنَّمُ وَلَا يُغْنِي عَنْهُمْ مَا كَسَبُوا شَيْئًا وَلَا مَا اتَّخَذُوا مِن دُونِ اللَّهِ أَوْلِيَاءَ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾

وفضلاً عما يصيب المستهزئين بآيات الله في الدنيا من القتل والأسر والضّر، فإن أمامهم نار جهنم تنتظرهم في الدار الآخرة، جزاء تكبرهم وإعراضهم عن الحق وهذا معنى: ﴿مِن رَّآيِهِمْ جَهَنَّمُ﴾ أي: من قُدَامِهِمْ وأمامهم ﴿جَهَنَّمُ﴾ فهم متوجّهون إليها، وهي في انتظارهم، ولا يفيدهم شيئاً مما اكتسبوه في الدنيا من مال ومتاع وجاه وهذا معنى ﴿وَلَا يُغْنِي عَنْهُمْ مَا كَسَبُوا شَيْئًا﴾ أي: ولا تدفع عنهم أموالهم ولو شيئاً قليلاً من عذاب الله يوم لقائه، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَن تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا وَأُولَئِكَ هُمْ وَقُودُ النَّارِ﴾ (آل عمران).

وقال سبحانه: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ أَنَّهُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُ مَعَهُ لَيَفْقَتُوا بِهِ مِنْ عَذَابِ يَوْمِ الْقِيَمَةِ مَا تُقِيلُ بِهِمْ﴾ [المائدة: ٣٦].

ولا تُغْنِي عَنْهُمْ أيضاً معبوداتهم الباطلة التي كانوا يعبدونها وهم في الدنيا، ويزعمون أنها تشفع لهم عند الله، وهذا معنى ﴿وَلَا مَا اتَّخَذُوا مِن دُونِ اللَّهِ أَوْلِيَاءَ﴾ فكما أن المال والولد لا يدفع عنهم ولو شيئاً يسيراً من عذاب الله، فإن آلهتهم التي عبدوها من دون الله، أو تقربوا بها إلى الله، لا تنفعهم شيئاً كذلك، وقد كانوا يطمعون في شفاعتهم وهم في الدنيا، قال تعالى: ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ لا يعلم مقدار هَوْلِهِ وَشِدَّتِهِ إلا الله.

وذكرُ العذاب العظيم الأخرى بعد العذاب المهين المخزي المذل، يفيد أنه عذاب دنيوي، أما العذاب الأليم، فهو العذاب المؤلم الموجه يوم لقاء الله تبارك وتعالى.

فهذه ثلاثة أنواع من العذاب: مهين، وعظيم، وأليم، والأول دنيوي، أي عذاب مذل مُخْزٍ فاضح في الدنيا، وما عداه أخروي، والعظيم أشد من الأليم، يلي كل ذلك عذاب رابع هو أشد أنواع العذاب، وهو عذاب من رجز أليم.

وهذه الآيات تهديد ووعد لكل من اتصف بكثرة الكذب، وكثرة اقتراف السيئات، والإصرار على الباطل.

بُشْرَى وَإِنذَارٌ

١١ - ﴿هَذَا هُدًى وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ لَهُمْ عَذَابٌ مِّن رَّجَزٍ أَلِيمٌ﴾ (١١)

وصف الله تعالى القرآن المشتمل على ما سبق، بأنه كتاب كامل في الهداية لمن آمن به واتبعه، والمشار إليه في ﴿هَذَا﴾ هو الآيات التي تقدم ذكرها في السورة، وأنها هدى لمن يُقبل عليها ولا يُعرض عنها، أما من كفر بها فقد حَرَمَ نفسه من الهداية واستحق العذاب يوم لقاء الله تعالى.

﴿هَذَا هُدًى﴾ أي: هذا القرآن الذي أوحيناه إليك -يا محمد- في أعلى درجات الهداية وأكملها، فهو هدى من الضلالة، ودليل على الحق، يهدي من اتبعه وعمل به إلى صراط مستقيم، ويهدي إلى معرفة الله تعالى، وإلى معرفة رسله وكتبه، ويهدي إلى معرفة أولياء الله وأعدائه، ويهدي إلى الأعمال الصالحة، وينهي عن الأعمال السيئة، ويبين الثواب والعقاب في الدنيا والآخرة، فالمهتدون به هم الفائزون المفلحون.

أما الذين جحدوا القرآن ولم يؤمنوا به فهم يوم القيامة في أشد أنواع العذاب ﴿لَهُمْ عَذَابٌ مِّن رَّجَزٍ أَلِيمٌ﴾ وهو أسوأ أنواع العذاب؛ لأن الرجز أشد العذاب وأكثره إيلاماً، قال تعالى: ﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِجْزًا مِّنَ السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَظْلِمُونَ﴾ [الأعراف: ١٦٢]. وفي الآية بشرى لمن انتفع واهتدى بما في القرآن، وإنذار لمن تولى وأعرض.

الْبَحْرُ الْعَظِيمُ مُسَخَّرٌ لِلْإِنْسَانِ الضَّعِيفِ

١٢ - ﴿اللَّهُ الَّذِي سَخَّرَ لَكُمُ الْبَحْرَ لَتَجْرَىٰ الْفُلُكُ فِيهِ بِأَمْرِهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ (١٢)

ثم إن الآيات الكونية لا يكفي الوقوف عند التأمل فيها، بل لا بد من استخدامها واستغلالها لصالح الإنسان، فقد سَخَّرَهَا له رب العالمين ليعوض في أعماقها، ولا تكتمل سعادة الإنسان في الدنيا إلا بالانتفاع بما ينزل من السماء، وما يخرج من الأرض، وما فيهما وما بينهما كالطاقة الشمسية، والهواء، والفضاء.

(١) قرأ ابن كثير وحفص ويعقوب برفع (أليم) صفة لعذاب، وقرأ الباقون بخفضها صفة ل (رجز).

والله تعالى هو الذي ذلّل لكم البحر على ضخامته، وسخّره لتسير السفن على سطح الماء بمشيئته وقدرته دون أن تغوص في أعماقه، وليس في مقدور أحد من البشر أن يجعل السفينة تطفو على وجه الماء دون أن تسقط فيه، ولا يقدر على ذلك إلا رب العالمين، وفي هذا عبرة لكم، فقد سخّر الله لكم هذه السفن وهذه المراكب لتستخدموها في التجارة ونقل البضائع، وفي الجهاد والسفر للحج وغيره.

وابتغاء فضل الله تعالى - كما يطلق على طلب الرزق بالتجارة ونحوها - فإنه يُطلق أيضًا على استخراج منافع البحر وكنوزه بالغوص فيه لاستخراج اللؤلؤ والمرجان واللحم الطري... ﴿وَلَقَدْ كُنتُمْ تَشْكُرُونَ﴾ ربكم على ما أنعم به عليكم وتفضل، فتعبده وحده، وتطيعوه فيما يأمركم به وينهاكم عنه، فإنكم إن شكرتموه زادكم من نعمه، وأثابكم على شكره، وإن أنكرتموها وكفرتم بها، فإن عذاب الله شديد وعقابه أليم.

كُلُّ مَا فِي الْكَوْنِ مُسَخَّرٌ لِّخِدْمَةِ الْإِنْسَانِ

١٣ - ﴿وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ (١٣)

وبعد تخصيص البحر بالذكر لمنفعة الإنسان، عمّم ﷻ تسخير جميع ما في العالم العلوي والعالم السفلي لنفع الإنسان في كل ما تحضّل به فائدته: كالشمس للضياء، والمطر للشراب، والكواكب للاهتداء بها في ظلمات البر والبحر، والشجر للاستغلال وتصنيع الأخشاب، والأنعام لأكل لحومها والانتفاع من أوبارها وأشعارها وأصوافها وجلودها، والركوب عليها، والحرث.

وهكذا سخّر الله للإنسان: الجبال، والبحار والأنهار، والنبات والأشجار، وغير ذلك، أمّا ما في السموات والأرض - مما لا يفيد الإنسان - فهو غير مقصود في الآية، كالشّهب في السماء، والزلازل البركانية في الأرض، قال تعالى: ﴿وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَوَاتِ﴾ من شمس وقمر ونجوم وأفلاك ثابت وسيارات ﴿وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾ كالجبال وأجناس المعادن، والبحار، والدواب والأودية، والشجر والثمر والسفن، والحيوانات وغير ذلك لمنافعكم ﴿جَمِيعًا مِّنْهُ﴾ كما قال تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُمْ مَّا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا﴾ [البقرة: ٢٩] أي: أن جميع هذه النعم من الله تعالى أنعم بها عليكم، وفُضِّلَ

تفضل به على خلقه، فاعبدوه وحده، ولا تجعلوا له شريكاً.

ومن تأمل في رغيـف الخبز فقط يدرك أنه لم يصل إليه إلا بعد أن اشترك في صنعه عشرات من الناس، بدءاً من الحرث والزرع، ومروراً بالطحين والعجين، وانتهاء بالنار والفرن، وكل هؤلاء سخرهم الله تعالى لشيء واحد.

وهذا يوجب شكر المنعم سبحانه وتدبر آياته وأحكامه.

﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ إن في هذا التسخير للكون لخدمة الإنسان ونفعه، لدلائل على تفرد الله تعالى بالإلهية، إذا تفكر فيها الإنسان اهتدى، فالفكر منبع الإيمان، وخص المتفكرون بالذكر؛ لأنهم الذين ينتفعون بما في أيديهم من نعم، وبالتأمل السليم ينتقل الإنسان من مرحلة الظن إلى مرحلة اليقين التي يجزم بها أن الله تعالى هو المستحق للعبادة دون سواه ﴿وَمَا بِكُمْ مِّنْ عَمَةٍ فَمِنَ اللَّهِ﴾ [النحل: ٥٣].

أَدَبُ الْإِسْلَامِ فِي التَّسَامُحِ مَعَ غَيْرِ الْمُسْلِمِينَ

١٤- ﴿قُلْ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا يَغْفِرُوا لِلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ أَيَّامَ اللَّهِ لِيَجْزِيَ^(١) قَوْمًا بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ

يأمر الله تعالى عباده المؤمنين أن يصبروا على أذى غيرهم ممن لا يرجون ثواب الله ولا يخافون وقائعه بالعاصين، فإن الله تعالى سيجزي كل قوم بما كانوا يكسبون، فيجزيكم خيراً على صبركم وصفحكم، ويجزيهـم شراً إذا استمروا في كفرهم.

وهذه الآية يأمر الله تبارك وتعالى فيها المؤمنين أن يصفحوا عما يصدر من غير المسلمين من أقوال وأفعال رديئة، وألاً يعاقبهم، وهذا من باب التأليف لقلوبهم، والترغيب في إسلامهم، وحسن التعامل والتواد مع غير المسلمين، ممن لهم عهد وذمة.

والذين لا يرجون أيام الله هم الذين لا يتوقعون وقائع الله تعالى بأعدائه؛ ولا ما يُنزله بهم من حوادث وفتن في مستقبل أيامهم، لأنهم لا يخشون على أنفسهم أن يحل بهم مثل

(١) قرأ نافع وابن كثير وأبو عمرو وعاصم ويعقوب بالياء والبناء للفاعل في (لِيَجْزِيَ) والفاعل ضمير يعود على (الله) تعالى و (قَوْمًا) مفعول به، وقرأ أبو جعفر بالياء والبناء للمفعول، وقرأ الباـقون بنون العظمة والبناء للفاعل.

ما حلَّ بالأُمم المكذبة لرسُل الله من عذاب وهلاك، فهم لا يصدقون بذلك، ولا يؤمنون نصر الله تعالى للمسلمين.

ولما ذكر سبحانه دلائل التوحيد والقدرة، أردفها بتعليم فضائل الأخلاق ومحاسن الأفعال، فحثَّ المؤمنين على التجاوز والصفح عما يصدر من غير المسلمين من كلمات بذئنة وتصرفات قبيحة، حتى يأتي أمر الله.

وهكذا أمر الله تعالى رسوله ﷺ أن يوجِّه من صدَّقوا بالله واتبعوه، أن يعفوا ويتجاوزوا عن مساوئ غير المسلمين، الذين لا يرجون ثواب الله، ولا يخافون بأسه عندما يجدون منهم أذى أو مكروه.

﴿قُلْ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا يَغْفِرُوا﴾ أي: يعفوا ويصفحوا ويتجاوزوا ﴿لِلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ أَيَّامَ اللَّهِ﴾ من غير المسلمين الذين لا يحاربوننا، أي: يصبروا على أذى من لا يخافون عقاب الله تعالى، ممن لا يؤمنون باليوم الآخر، ليكون في هذا تأليف لقلوبهم، وفي التجاوز عن أذاهم مصلحة الهدوء والمصالمة بين المسلمين وغيرهم، مما يسبب انتشار الإسلام، وتهيئة نفوسهم إلى الدخول فيه، سيما عندما يرون حسن الأخلاق ومقابلة السيئة بالحسنة عن قوة وعزة وكرامة، لا عن ضعف وذل وهوان، كما قال تعالى: ﴿فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ﴾ [فصلت: ٣٤].

فإذا أصرَّ غير المسلمين على الكفر والعناد، ووقفوا حائلًا دون نشر الدعوة، وحاربوا الإسلام وأهله، فقد أمر الله المؤمنين بالجهاد في سبيله، وقد نزلت هذه الآية في وقت كثر فيه المسلمون وأحسُّوا بالعزة والمنعة، فأمرهم الله بالصفح والعفو.

قال قتادة: ما زال نبي الله يأمر بالعفو ويحث عليه، ويرغب فيه حتى أمر أن يعفو عمن لا يرجو أيام الله^(١).

المراد بـ ﴿أَيَّامَ اللَّهِ﴾

١- وأيام الله، يراد بها: أيام القتال المشهورة بين قبائل العرب، كما يقال: أيام عبس، وأيام داحس والغبراء، وأيام البسوس.

(١) أخرجه عبد بن حميد كما في «الدر المنثور» (١٣/٢٩٥).

- ٢- ويراد بها أيضًا: الذين لا يؤمنون في نصر الله لهم، ولا يخطر ببالهم أنهم منصورون.
- ٣- ويراد بأيام الله أيضًا في القرآن: الأيام التي يحصل فيها مزيد من فضل الله تعالى ونعمته، كقوله تعالى: ﴿وَذَكِّرْهُمْ بِأَيَّامِ اللَّهِ﴾ [إبراهيم: ٥].
- ٤- والمراد بالذين لا يرجون أيام الله أيضًا في الآية: هم الذين لا يخافون عقابه ولا يرجون ثوابه؛ لأنهم لا يؤمنون بالبعث والحساب والجزاء.

وقد تكرر معنى هذه الآية في القرآن، قال تعالى: ﴿وَلَسْمَعُونَ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا أَذًى كَثِيرًا وَإِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ﴾ [آل عمران: ٨٦].

وجاء هذا النصح والإرشاد للنبي ﷺ في القرآن كثيرًا، كما في قوله تعالى:

﴿فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاصْفَحْ﴾ [المائدة: ١٣].

وقد وجه الله المسلمين ألا يتصبروا لأنفسهم، ليجزيهم الله خيرًا على إيمانهم، وعلى ما أودوا في سبيله، وهذا معنى ﴿لِيَجْزِيَ قَوْمًا بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ ليعاقب الله المشركين على ما اكتسبوه في الدنيا من الآثام وإيذاء المؤمنين، والمراد بلفظ: ﴿قَوْمًا﴾ هم الكفار.

فيكون المعنى: ليجزي الله الكفار بما عملوا من السيئات، كأنه قال: لا تكافؤوهم أنتم لنكافئهم نحن.

أو أن المعنى: ليجزي الله كل قوم بما عملوا من خير أو شر.

ومما جاء في أسباب نزول هذه الآية ما يلي:

١- ما رواه مكي بن أبي طالب: أن رجلًا من المشركين شتم عمر بن الخطاب رضي الله عنه، فهم أن يبطش به، قال ابن العربي: وهذا لم يصح.

وفي لفظ: أن رجلًا من غفار شتم عمر فهم أن يبطش به، فنزلت^(١).

٢- وعن ميمون بن مهران عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه لما نزل ﴿مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا

(١) من «تفسير الكشاف» للآية (٤/٢٨٨).

حَسَنًا﴾ [البقرة: ٢٤٥] قال فنحاص اليهودي: احتاج رب محمد، فلمَّا سمع عمر ذلك اشتعل على سيفه وخرج في طلبه، فنزلت الآية^(١).

٣- ومن ذلك ما رواه ابن عباس ؓ أيضًا عن عطاء: أنها نزلت في غزوة (بني المصطلق)، لما نزلوا على بئر (المريسيع)، فأرسل عبد الله بن أبي غلامه ليستقي من البئر فأبطأ، فلما أتاه قال: ما حبسك؟ قال: غلام عمر قعد على فم البئر، فما ترك أحدًا يسقي حتى ملأ قِرب النبي ﷺ وقِرب أبي بكر، وملاه لمولاه، فقال عبد الله بن أبي: ما مثْلنا ومثْل هؤلاء إلا كما قال القائل: سَمَنَ كَلْبِكَ يَأْكُلُكَ، فهمَّ عمر بقتله، فنزلت الآية^(٢).

٤- وقال القرظي والسُدِّي: نزلت في أناس من أصحاب النبي ﷺ من أهل مكة أصابهم أذى شديد من المشركين، فشكوا ذلك لرسول الله ﷺ فأمرهم الله بالتجاوز^(٣).

٥- وأخرج ابن عساكر عن أبي مسلم الخولاني أنه قال لجارية له: لولا أن الله تعالى يقول: ﴿قُلْ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا يَغْفِرُوا لِلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ أَيَّامَ اللَّهِ﴾ لأوجعتك، فقالت: والله إني لممن يرجو أيامه، فما لك لا تُوجعني؟ فقال: إن الله يأمرني أن أغفر لمن لا يرجو أيامه، فعممت أرجو أيامه أخرى، انطلقني فأنت حرة^(٤).

وقيل: إن الآية منسوخة بآيات القتال، كما جاء ذلك عن ابن عباس وقتادة^(٥).

قال ابن عطية: وهذه آية منسوخة بآية القتال، وقالت فرقة: الآية محكمة، وهي تتضمن الغفران عمومًا^(٦).

قلت: ولعل الأخير هو الأصوب والأولى، فإن العفو أقرب للتقوى في أحوال السلم والهدنة، وأدعى للترغيب في الإسلام وعدم التنفير منه.

(١) الواحدي في «أسباب النزول» (٢١٥) و«تفسير الطبري» (١٦١/١٦).

(٢) ذكره الألوسي بدون سند عن عطاء، يُنظر: الواحدي (٣١٢) و«زاد المسير» (٣٥٧/٧) و«تفسير القرطبي» (١٦١/١٦).

(٣) ذكره البغوي والخازن بدون سند في تفسيرهما للآية.

(٤) ابن عساكر (٢١٨/٢٧).

(٥) كما في الطبري (٨٠/٢١) و«الدر المنثور» (٢٩٥/١٣) وابن كثير (٢٦٦/٧).

(٦) «تفسير ابن عطية» (٨٢/٥).

ثم أعقب الله ذلك بما يؤكد عدالة الجزاء، وتحمل كل نفس تبعه أعمالها.

١٥- ﴿مَنْ عَمِلْ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ﴾^(١)

أي: من عمل من عباد الله بطاعته فثواب عمله يعود عليه وحده، ومن ذلك حسن التعامل مع الآخرين، ومن عمل عملاً سيئاً فقد جنى على نفسه، وعقاب عمله يعود عليه، ويوم القيامة ترون ذلك الجزاء رأي العين، بعد أن تصيروا إلى ربكم، فيجازي المحسن بإحسانه والمسيء بإساءته.

نَعَمْ سِتُّ أَنْعَمَ اللَّهُ بِهَا عَلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ

١٦- ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا بَنِي إِسْرَءِيلَ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ﴾^(٢) وَرَزَقْنَاهُمْ مِّنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَىٰ الْعَالَمِينَ ﴿

وبعد أن عدّد الله تعالى بعض نعمه على جميع خلقه، خصّ بني إسرائيل بذكر بعض ما أنعم به عليهم، وبين أنهم كانوا يُقرّون بنبوّة محمد ﷺ قبل مجيئه، فلما جاءهم ما عرفوه، أي: فلما بُعث محمد ﷺ اختلفوا عليه، وكفر به أكثرهم.

وقد ذكرت هذه الآية خمس نعم من الله بها على بني إسرائيل، تضاف إليها نعمة سادسة ذكرت في الآية التالية:

وأولى هذه النعم: أن الله تعالى أعطاهم التوراة التي نزلت على موسى، والإنجيل الذي نزل على عيسى، والزبور الذي نزل على داود لتكون هذه الكتب هداية لهم من الضلالة ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَا الْقُرْآنَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ﴾ [المائدة: ٤٤].

﴿وَلِيَحْكُمَ أَهْلَ الْإِنجِيلِ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فِيهِ﴾ [المائدة: ٤٧].

﴿وَبِآتَيْنَا دَاوُدَ زَبُورًا﴾ [النساء: ١٦٣].

وثانيتهما: أن الله تعالى أعطاهم الحكمة، وهي الفهم والفقه في الأحكام، حتى يتمكنوا من القضاء بها بين الناس، والفصل في الخصومات، قال تعالى: ﴿وَمِن قُوَّةِ مُوسَىٰ أُمِّةٌ

(١) قرأ يعقوب بالبناء للفاعل في (ترجعون)، والباقون بالبناء للمفعول.

(٢) قرأ نافع بالهمز بعد الواو المدية في (والنبوّة)، والباقون بالواو المشددة (والنبوّة).

يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ ﴿١٥٩﴾ [الأعراف: ١٥٩].

كما جعل لهم السيادة على أنفسهم، فلا تحكمهم أمة أخرى في زمانهم إلى أن جاء عيسى عليه السلام.

وثالثها: أن الله تعالى جعل فيهم عددًا كبيرًا من الأنبياء، فأكثر الأنبياء من ذرية إبراهيم عليه السلام، وكانت النبوة فيهم من نسل يعقوب عليه السلام، كما قال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يُقَوْمُ أَذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَعَلَ فِيكُمْ أَنْبِيَاءَ وَجَعَلَكُمْ مُلُوكًا وَءَاتَاكُمْ مَا لَمْ يُوْتِ أَحَدًا مِنَ الْعَالَمِينَ ﴿٢٠﴾﴾ [المائدة: ٢٠].

ورابعها: أن الله تعالى رزقهم من الأقوات والأطعمة والمشارب والملابس والثمار الطيبة، فأنزل عليهم المن والسلوى، ووسّع عليهم في دنياهم ﴿وَأَنْزَلْنَا عَلَيْكُمُ الْمَنَّاءَ وَالسَّلَوى كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ﴾ [البقرة: ٥٧] وأورثهم دنيا فرعون وقومه.

وخامستها: أن الله تعالى فضّلهم في زمانهم بالتوحيد - وهو أصل الديانة - على الوثنيين والمشرّكين، وأعطاهم من النعم ما لم يُعط أحدًا غيرهم، وجعلهم أفضل أُمم زمانهم ﴿يَتَنَبَّأُ إِسْرَءِيلَ أَذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَنِّي فَضَّلْتُكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ ﴿٤٧﴾﴾ [البقرة: ٤٧].

ثم ضرب الله الذلة والمسكنة عليهم بسبب قتلهم الأنبياء وإفسادهم في الأرض، وكان ذلك كله قبل أن تُنسخ شريعتهم بالشرعة التي تلتها، والمراد بـ ﴿الْعَالَمِينَ﴾ مجموع الناس الموجودين في زمن موسى عليه السلام.

وفي زمن محمد ﷺ لم يكن لواحد منهم وجود، كما أن أمة محمد ﷺ لم يكن واحد منهم موجودًا في زمن موسى عليه السلام، وعلى هذا فإن أمة محمد ﷺ غير داخلة في العالمين الموجودين في زمن موسى عليه السلام، فليسوا منهم، جاء في حديث معاوية بن حيدة القشيري أن النبي ﷺ قال في أمته: «أنتم توفون سبعين أمة، أنتم خيرها وأكرمها على الله»^(١).

وقال سبحانه: ﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾ [آل عمران: ١١٠] أي: للناس جميعًا إلى قيام الساعة. قال تعالى:

(١) أخرجه أحمد في «المسند» (٢٠٠١٥) وهذا لفظه، وانظر (٢٠٠٢٥) قال محققوه: إسناده حسن، وهو في «سنن الترمذي» وعند ابن ماجه عن بهز بن حكيم عن أبيه عن جده برقم (٤٢٨٨) وحسنه الألباني في صحيح ابن ماجه برقم (٣٤٦١) و«مستدرک الحاكم» (١٠٢٣) والطبراني في الكبير (١٩/١٠٣٠).

١٧- ﴿وَأَتَيْنَهُمْ بَيِّنَاتٍ مِّنَ الْأَمْرِ فَمَا اخْتَلَفُوا إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَعِيًا بَيْنَهُمْ إِنَّ رَبِّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ (١٧)

أي وآتينا بني إسرائيل دلائل واضحة، ومعجزات رأوها على يد موسى ﷺ، تبين لهم حكم الله فيهم، حتى يقوموا بواجبها على أكمل وجه، ويجتمعوا على الحق الذي بينه الله لهم، ولكنهم اختلفوا وعكسوا القضية.

والنعمة السادسة: أن الله تعالى أعطى بني إسرائيل في التوراة شريعة واضحة تبين الحلال والحرام، والحسن والقبيح، والحق والباطل، لا عوج فيها ولا لبس، وقد ذكر الله هذه النعم ليقول لنبيه ﷺ: لا تحزن -يا محمد- على كفر قومك؛ فإننا قد آتينا بني إسرائيل الكتاب والنعم العظيمة، فلم يشكروا، وأصروا على الكفر، فكَذَلِكَ قَوْمُكَ.

والبيّنة: هي الحجة الظاهرة، والأمر: هو الشأن العظيم، والأمر القدري الذي أوصله إليهم أي: وآتيناهم بواسطة رسلهم وكتبهم، حجج الحق والهدى في شؤون الأمة، فلم يترك موسى وَمَنْ بعده من الأنبياء شيئاً من أمور دينهم ودنياهم إلا أَوْضَحُوهُ وَبَيَّنُّوهُ، ومما بَيَّنَّتْهُ شَرِيعَتُهُمْ بِلَا لَبْسٍ وَلَا غُمُوضٍ مَبْعُثٌ مُحَمَّدٌ ﷺ ووجوب إيمانهم به عندما يُبْعَثُ، فهو ﴿الَّذِي يَخْدُونَهُمْ مَكْنُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ﴾ [الأعراف: ١٥٧].

وهو الذي قال الله عنه: ﴿وَإِذْ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ بَنِي إِسْرَءِيلَ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَةِ وَمُبَشِّرًا بِآتِي مِنْ بَعْدِي أَسْمُهُ أَحْمَدٌ﴾ [الصف: ٦].

قال ابن عباس في تفسير ﴿وَأَتَيْنَهُمْ بَيِّنَاتٍ مِّنَ الْأَمْرِ﴾: بيّنّا لهم أمر النبي ﷺ وشواهد نبوته، بأنه يهاجر من تهامة إلى يثرب وينصره أهلها^(١).

ومع أن الله تعالى بيّن لليهود في التوراة أمر محمد ﷺ على أكمل وجه، ولكنهم اختلفوا في شأنه بعد بعثته وتحقق قيام الحجج والبراهين على صدقه ﴿فَمَا اخْتَلَفُوا﴾ أي: لم يقع الخلاف بين اليهود في شأن رسالة محمد ﷺ ﴿إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ﴾ بمبعث النبي ﷺ، والدليل القاطع على صحة رسالته، فجعلوا ما يوجب زوال الخلاف موجباً لثبوته، وكان هذا الاختلاف عن حسد وعناد، وخوفاً على ذهاب الرياسة منهم،

(١) «حاشية الجمل» (٤/١١٦).

فكان اختلافهم ﴿بَغْيًا بَيْنَهُمْ﴾ عن عمد ومكابرة وحسد وظلم، وعن علم منهم بصدقه ﷺ فهم ممن أضله الله على علم، ولو اختلفوا قبل مجيئه ﷺ لكان لهم عذر في ذلك؛ لأن الاختلاف بعد العلم أقبح وأشنع، ولم يكن اختلافهم بسبب الوصول إلى الحق، بل بسبب البغي والحسد.

قال تعالى: ﴿لَمْ يَكُنِ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ مُنْفِكِينَ حَتَّى تَأْتِيَهُمُ الْبَيِّنَةُ ۖ رَسُولٌ مِّنَ اللَّهِ يَتْلُو صُحُفًا مُّطَهَّرَةً﴾ ﴿١٨﴾ [البينة].

والمفروض أن العلم يرفع الخلاف، ولكنه في هذه المسألة كان سبباً في الخلاف؛ لأنهم لم يقصدوا العلم في حد ذاته، وإنما قصدوا طلب الرياسة؛ وذلك لأنهم علموا وعاندوا^(١).

﴿إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ إن ربك -يا محمد- يحكم بين المختلفين من بني إسرائيل ومن سائر العباد يوم فصل القضاء فيما اختلفوا فيه من أمر الدين والدنيا، وفيما اختلفوا فيه من الإيمان بمحمد ﷺ.

وفي الآية تحذير لهذه الأمة أن يكونوا مثلهم، فينزل بهم عقاب الله الذي يستحقونه.

ونظير هذه الآية قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ بَوَّأْنَا بَنِي إِسْرَءِيلَ مَبْوَءَ صِدْقٍ وَرَزَقْنَاهُمْ مِّنَ الطَّيِّبَاتِ فَمَا اخْتَلَفُوا حَتَّى جَاءَهُمُ الْعِلْمُ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ ﴿٩٢﴾ [يونس].

اِنْتِقَالُ الرِّسَالَةِ مِنْ بَنِي إِسْرَءِيلَ إِلَى الْعَرَبِ

١٨- ﴿ثُمَّ جَعَلْنَاكَ عَلَىٰ شَرِيعَةٍ مِّنَ الْأَمْرِ فَاتَّبِعْهَا وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ ﴿١٨﴾

وبعد بني إسرائيل كتب الله الخلافة في الأرض لرسالة جديدة، ورسول جديد، يرُدُّ إلى شريعة الله منهجها الصحيح، بعد أن تطرق إليها التحريف والتبديل على أيدي بني إسرائيل، وهذه الشريعة يكون الحكم فيها لله وحده، وليس إلى الأهواء المتقلبة ممن لا يعلمون شيئاً ﴿ثُمَّ جَعَلْنَاكَ﴾ أيها الرسول، بعد أنبياء بني إسرائيل ﴿عَلَىٰ شَرِيعَةٍ مِّنَ الْأَمْرِ﴾ أي: شرعنا لك شريعة كاملة تدعو إلى كل خير، وتنهى عن كل شر، على منهاج واضح من أمر الدين، وعلى سنة قديمة، وطريقة حميدة سديدة.

(١) يُنظَرُ: «التفسير الكبير» للفخر الرازي (٢٧/٢٦٥).

والشريعة في الأصل: هي مورد المياه، وهي في اللغة: المذهب والملة، ويراد بها: ما شرعه الله لعباده من أمور الدين، ومنها الفرائض والحدود والأوامر والنواهي، وقد أمر الله رسوله محمدًا ﷺ أن يتبع شرعه ولا يحيد عنه ﴿فَاتَّبِعْهَا﴾ فإن في اتباعها السعادة الأبدية والفوز والفلاح في الدنيا والآخرة ﴿وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ اتبع الشريعة التي أوحينا بها إليك، ولا تتبع أهواء الجاهلين بشرع الله المتبعين لشهواتهم وضلالتهم من الذين لا يعلمون الحق، ويخالفون شرع الله وشرع رسوله بأهوائهم وإرادتهم.

والآية تدل على كمال الدين الإسلامي وشرفه ووجوب الانقياد له، وعدم اتباع أهواء الملحدين والجاحدين.

قال تعالى: ﴿وَإِنْ أَحْكَمَ بَيْنَهُمْ يَمَّا أَتَى اللَّهَ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ وَاحْذَرْهُمْ أَنْ يَفْتِنُوكَ عَنْ بَعْضِ مَا أُنْزَلَ اللَّهُ إِلَيْكَ﴾ [المائدة: ٤٩].

وقال سبحانه: ﴿فَإِنْ لَّمْ يَسْتَجِيبُوا لَكَ فَاعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَاءَهُمْ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ اتَّبَعَ هَوَاهُ يَغْيِرْ هُدًى مِّنَ اللَّهِ﴾ [القصص: ٥٠].

وهؤلاء الضالون الذين يدعونك إلى اتباع أهوائهم لن يدفعوا عنك شيئاً من عذاب الله إن اتبعت أهواءهم. قال تعالى:

١٩- ﴿إِنَّهُمْ لَنُغْنُوا عَنْكَ مِنَ اللَّهِ شَيْئاً وَإِنَّ الظَّالِمِينَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُتَّقِينَ﴾

إن هؤلاء الضالين لن يدفعوا عنك عذاب الله، إن اتبعت أهواءهم، فهم ظالمون يوالي بعضهم بعضاً، ويوافق بعضهم بعضاً، والله يتولى المتقين فيخرجهم من الظلمات إلى النور.

قيل: إن كفار قريش قالوا للنبي ﷺ: ارجع إلى دين آبائك فإنهم كانوا أفضل منك، قال تعالى: ﴿وَإِنَّ الظَّالِمِينَ﴾ أي: المتجاوزين حدود الله من اليهود والمنافقين وغيرهم ﴿بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ﴾ أي: بعض الظالمين أنصار بعض على المؤمنين بالله وأهل طاعته، وذلك في الدنيا، أما في الآخرة فإن ولايتهم تنقلب إلى عداوة.

والمتبعون لأهوائهم ظالمون، يوالي بعضهم بعضاً، أما أنت -يا رسول الله- فإن أولياءك المتقون ﴿وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُتَّقِينَ﴾ وهو ناصرهم في الدنيا والآخرة، وأنت إمام المتقين وقُدوتهم، فاثبت على شريعتنا لتنال رضانا وعطاءنا.

وفي هذا توجيه للأمة كي يتمسكوا بالإسلام، ولا ينحرفوا إلى شيء من التيارات الضالة. قال تعالى:

٢٠- ﴿هَذَا بَصِيرَتُ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾

أي: هذا الإعلان للناس على لسان محمد ﷺ باتباع شرع الله تعالى، وبيان أن الله - جلَّ شأنه - وليُّ من اتبعه، وفي هذه الشريعة براهين ودلائل للناس فيما يختلفون فيه من أحكام، والإشارة إلى القرآن الكريم، وما فيه من بصائر للناس في أمور دينهم ودنياهم، وما فيه من الهدى والرحمة للموقنين به المهتدين بهديه، فيزداد يقينهم وتزكوا نفوسهم.

والله تعالى يُثني على القرآن في هذه الآية، ويبيِّن أن فيه الهداية للناس عامة، فهم يدركون به حقائق الأمور، كما تُبصر العين حقيقة المراثيات، والقرآن للقلب بمنزلة البصر للعين.

﴿هَذَا﴾ القرآن ﴿بَصَائِرَ لِلنَّاسِ﴾ يخرجهم من الظلمات إلى النور، ومن الكفر إلى الإيمان، ومن الضلال إلى الهدى، يعرفون به طريق الرشاد، ويميزون به الحق من الباطل، بما فيه من حجج وبراهين تكشف للقلب الطريق.

والذين ينتفعون بحجج القرآن وهداياته هم المؤمنون الذين يوقنون بصحته، ويعلمون أنه تنزيل من الله العزيز الحكيم، فهو هدى لهم من الضلالة، ورحمة لمن اتبعه وعمل به، أمَّا أعمى البصيرة فإنه لا ينتفع بما فيه، كما قال تعالى: ﴿قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا هُدًى وَشِفَاءٌ وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِي ءَاذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى﴾ [فصلت: ٤٤].

وقال سبحانه: ﴿وَإِذَا مَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُمْ مَّن يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَذِهِ إِيمَانًا فَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا فَزَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿١٢٤﴾ وَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَى رِجْسِهِمْ وَمَاتُوا وَهُمْ كَافِرُونَ ﴿١٢٥﴾﴾ [التوبة].

وقال أيضًا: ﴿وَنُزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلَّا خَسَارًا﴾ [إسراء].

لَا يَسْتَوِي الْبِرُّ وَالْفَاجِرُ

ولمَّا بيَّن سبحانه ضلالات بني إسرائيل، وبيَّن أن القرآن نور وهداية لمن تمسك به، أعقبه ببيان أنه لا يتساوى المؤمن مع الكافر، ولا البر مع الفاجر، لا في الدنيا ولا في الآخرة، فقال تعالى:

٢١- ﴿أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَنْ نَجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَوَاءً^(١) نَجَّيْنَهُمْ وَمَمَاتُهُمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴿٢١﴾﴾

أي: أظنّ الذين اكتسبوا المعاصي والذنوب، وعلى رأسها الشرك والكفر، ممن خالفوا أمر ربهم، وعبدوا غيره، وكذبوا رسل الله، أظنّ هؤلاء أنهم يستون مع المؤمنين العاملين للصالحات، المخلصين لله العباد، المصدقين لرسل الله، العاملين بشرعه.

كلاً، لا يستون، فالمؤمنون يخيّنون في الدنيا حياة طيبة، ليس فيها هموم ولا أحقاد ولا خوف، وفي الآخرة ينالون رضى الله تعالى والفوز بالجنة، وأهل الشرك والكفر أشقياء في الدنيا والآخرة، فشتان ما بين الفريقين:

قال تعالى: ﴿أَفَمَنْ كَانَ مُؤْمِنًا كَمَنْ كَانَ فَاسِقًا لَا يَسْتَوُونَ ﴿٧٨﴾﴾ [السجدة].

وقال سبحانه: ﴿أَمْ نَجْعَلُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَالْمُفْسِدِينَ فِي الْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ الْمُتَّقِينَ كَالْفُجَّارِ ﴿٧٨﴾﴾ [ص]. وقال جل شأنه: ﴿أَنَجْعَلُ الْمُسْلِمِينَ كَالْمُجْرِمِينَ ﴿٢٥﴾﴾ [القلم].

فالمؤمنون العاملون للصالحات، لهم الفوز والفلاح والسعادة والثواب والعاجل والآجل، والمسيئون لهم الغضب والشقاء والعذاب في الدنيا والآخرة.

قال مجاهد: المؤمن يموت مؤمناً ويُبعث مؤمناً، والكافر يموت كافراً ويُبعث كافراً^(٢) فمحيّا المؤمنين ومماتهم سواء، ومحيّا الكافرين ومماتهم سواء.

ويدخل في الآية، نفي المساواة بين عصاة المؤمنين وغير العصاة منهم، فلا يستوي المحسن والمسيء، والطائع والعاصي ﴿سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾ أي: ساء حكمهم بالمساواة بين الأبرار والفجار في الدار الآخرة، وقد يستون في الدنيا، أو يكون أهل السيئات أوفر حظاً من أهل الصالحات، ولكنهم في الآخرة لا يستون، فقد خلق الله الخلق لإظهار

(١) قرأ حفص وحمزة والكسائي وخلف بالنصب والتنوين في (سواء) على أنه حال من الضمير في (نَجْعَلُهُمْ) (ومحيّاهم) فاعل، و(مماتهم) معطوف عليه، وقرأ الباقر بالرفع على أنه خبر مقدم و(محيّاهم) مبتدأ مؤخر و(مماتهم) معطوف عليه.

(٢) «تفسير الطبري» (٨٨/٢١) و«تفسير القرطبي» (١٦٦/١٦).

الحق فأمرهم بطاعته، فمنهم من آمن ومنهم من كفر، ومن عدله وحكمته ألا يستوي: المؤمن والكافر، والطائع والعاصي، والظالم والمظلوم.

وفي هذا توبيخ لمن اكتسبوا السيئات على حكمهم الباطل، فإن أهل الجنة وأهل النار لا يستون، كما قال تعالى: ﴿لَا يَسْتَوِي أَصْحَابُ النَّارِ وَأَصْحَابُ الْجَنَّةِ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ الْفَائِزُونَ﴾ [الحشر].

إن في هذه التسوية سوء ظن بالله تعالى، وسوء ظن بعدله بين من أطاع ومن عصى.

قال مسروق: قال لي رجل من أهل مكة: هذا مقام أخيك تميم الداري، ولقد رأيته قام ذات ليلة حتى أصبح أو قرب أن يصبح، يقرأ آية من كتاب الله، يركع بها ويسجد، ويبكي وهو عند المقام: ﴿أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَنْ نَجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَوَاءً مَحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾ (١).

وعن الفضيل بن عياض أنه بلغها، فجعل يرددّها ويبكي، ويقول: يا فضيل، ليت شعري، من أي الفريقين أنت؟ (٢).

وكان الربيع بن خثيم يصلي فمرّ بهذه الآية ﴿أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ﴾ فلم يزل يكررها حتى أصبح (٣).

وذكر البغوي وابن عطية: أن الآية نزلت في نفر من مشركي مكة، قالوا للمؤمنين: لئن كان ما تقولون حقًا لنفضلنّ عليكم في الآخرة، كما فضّلنا عليكم في الدنيا.

وفي لفظ آخر: والله ما أنتم على شيء، ولئن كان البعث حقًا لحالنا أفضل من حالكم في الآخرة، كما أن حالنا أفضل منكم في الدنيا، وهذا كقوله تعالى حكاية عن منكري البعث: ﴿وَلَيْنِ رُدِّدْتُ إِلَىٰ رَبِّي لِأَجِدَنَّ خَيْرًا مِّنْهَا مُنْقَلَبًا﴾ [الكهف: ٣٦].

وقوله أيضًا: ﴿وَلَيْنِ رُجِعْتُ إِلَىٰ رَبِّي إِنَّ لِي عِندَهُ لَلْحُسْنَىٰ﴾ [فصلت: ٥٠].

(١) «تفسير الخازن» (٤/ ١٢٠) وابن المبارك (٩٤) وابن أبي شيبة (٤٧٧/٢) وعبد الله بن أحمد (ص ١٨٢) والطبراني (١٢٥٠).

(٢) «تفسير النسفي» بحاشية «تفسير الخازن».

(٣) ابن أبي شيبة (٤٧٧/٢).

والآية تأمر بالثبات على الطاعة، وتحذر من اقتراف المعاصي.

الْمَقْصُودُ مِنْ خَلْقِ الْعَالَمِ: إِظْهَارُ الْحَقِّ وَالْعَدْلِ بَيْنَ مَنْ أَطَاعَ وَمَنْ عَصَى

٢٢- ﴿وَخَلَقَ اللَّهُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ وَلِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ (٢٢)

ثم أكد سبحانه نفى المساواة بين المؤمنين والكافرين، فبيّن أن المقصود من خلق العالم هو إظهار الحق والعدل بين من أطاع الله تعالى ومن عصاه، ولا يتم هذا إلا في يوم القيامة ليحصل التفاوت بين المحقين والمبطلين في الدرجات والدركات، ويقتصر من الظالم للمظلوم، ومن هنا كان حشر الناس للحساب والجزاء تحقيقاً للعدل الإلهي، وللحق الذي قامت عليه السموات والأرض.

قال تعالى: ﴿وَخَلَقَ اللَّهُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ﴾ المقتضي للعدل بين العباد بمعاقة المسيء وإثابة المحسن، ولو لم يكن هذا الجزاء بعد الموت لذهبت الحكمة والعلة التي خلق الله الخلق من أجلها، وهذا معنى ﴿وَلِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ﴾ أي: لكي يُجزى كل إنسان بعمله من خير أو شر ﴿وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ فلا يُنقص في ثواب المؤمن، ولا يُزاد في عذاب الكافر.

وهكذا، فقد خلق الخلق ليعرفوه فيوحدوه ويعبدوه، وأنعم عليهم بنعمه الظاهرة والباطنة ثم أمرهم ونهاهم، وفي يوم البعث والحساب استحق المطيع ثواب الله، واستحق العاصي عقاب الله، ولا يظلم ربك أحداً.

اتَّبَاعُ هَوَى النَّفْسِ ضَلَالٌ مُهْلِكٌ

٢٣- ﴿أَفَرَأَيْتَ مَنْ أَخَذَ إِلَهُهُ هَوَاهُ وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِ وَقَلْبِهِ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِ غِشَاوَةً^(١) فَمَنْ يَهْدِيهِ مِنْ بَعْدِ اللَّهِ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ^(٢)﴾ (٢٣)

ولما ذكر الله - سبحانه - ما يزعمه الذين اكتسبوا السيئات بأنهم يكونون في الآخرة في عزة ونعمة كما كانوا في الدنيا، بيّن جلّ شأنه أن كلامهم هذا مبني على المغالطة

(١) قرأ حمزة والكسائي وخلف (غِشَاوَةً)، والباقون (غِشَاوَةً) وهما لغتان بمعنى: الغطاء.

(٢) قرأ حفص وحمزة والكسائي وخلف بتخفيف الدال من (تذكرون)، والباقون بتشديدها.

واتباع الهوى، فهم لن يكونوا آمنين من أهوال البعث، ولا يُرجى لهم اهتداء لتمكّن الضلال من قلوبهم؛ لأن حواسهم وقلوبهم كالمختوم عليها، لا تنتفع بالوعظ ولا تقتنع بالحجج والبراهين.

﴿أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهُهُ هَوَاهُ﴾ أخبرني يا محمد عن حال من اتخذ هواه إلهاً، فلا يهوى شيئاً إلا فعله، فهو مطّوع لهوى نفسه، يتبع ما تميل إليه النفس، كأنه يعبد الهوى؛ لأنه لا يؤمن بالله ولا باليوم الآخر، فلا يخاف الله، ولا يُحرّم ما حرّم الله، فكأن الهوى معبوده، وذلك أن العرب كانت تعبد الحجارة والذهب والفضة، فإذا رأوا شيئاً أحسن من الأول رمّوا الأول وكسّروه وعبدوا الآخر.

قال ابن عباس رضي الله عنه: كان الرجل من العرب يعبد الحجر، فإذا وجد أحسن منه أخذه وألقى الآخر^(١).

وقال في معنى الآية: ذاك الكافر اتخذ دينه بغير هدى من الله ولا برهان، وأضله الله في سابق علمه^(٢).

ومن الكلمات المأثورة: «ثلاث من المهلكات: شح مطاع، وهوى متبع، وإعجاب المرء بنفسه، والعاجز من أتبع نفسه هواها، وتمنى على الله الأماني»^(٣).
والعاقِل يتبع إشارة عقله ويترك إشارة هواه.

وفي الأثر: «إذا رأيت شحاً مطاعاً، وهوى متبّعاً، وإعجاب كل ذي رأي برأيه، فعليك بنفسك»^(٤).
وهذه الآية وإن كانت قد نزلت في هوى الكفر إلا أنها تتناول جميع هوى النفس الأمارّة.

(١) النسائي في «السنن الكبرى» (١١٤٨٥) والحاكم (٣٥٢/٢) وابن جرير عن سعيد بن جبير (٩٣/٢١).

(٢) ابن جرير (٩٢/٢١) والبيهقي (٣٣٤).

(٣) حسنة الألباني في السلسلة الصحيحة (١٨٠٢) ج ٤٤١٢ وقوله (والعاجز) رواه الترمذي عن شداد بن أوس، بدون (الأماني) برقم (٢٤٥٩) وقال: هذا حديث حسن، وانظر مشكاة المصابيح (٥٢٨٩) فقد ضعف الألباني هذا المقطع.

(٤) عن جبّير بن نفير كما في «تفسير الطبري» (١٤٢/١١). وهو عن أبي ثعلبة الخشني عند ابن حبان وأبي داود والترمذي بتضعيف الألباني في السلسلة الضعيفة (٢٣٤٤).

والناس في اتباع الهوى أقسام ثلاثة:

١- منهم من يغلب هواه ونفسه وشيطانه، فهو ممن قال الله عنهم: ﴿إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ﴾ [الإسراء: ٦٥].

وجاء في وصف عمر رضي الله عنه: «والذي نفسي بيده ما لقيك الشيطان قط سالكاً فجاً إلا سلك فجاً غير فجك»^(١).

وقال رضي الله عنه في حديث بريدة: «إن الشيطان ليخاف منك يا عمر...»^(٢).

وقال رضي الله عنه في حديث عائشة: «إني لأنظر إلى شياطين الإنس والجن قد فروا من عمر»^(٣).

وفي حديث ابن مسعود رضي الله عنه: أن النبي ﷺ قال عن نفسه: «ما منكم من أحد إلا وقد وُكِّلَ به قربه من الجن» قالوا: وإياك يا رسول الله؟ قال: «وإياي، إلا أن الله قد أعانني عليه فأسلم، فلا يأمرني إلا بخير»^(٤).

فصار زمام الشيطان بيد النبي ﷺ، وهذا هو صاحب النفس المطمئنة.

٢- ومنهم من غلبه الهوى والشيطان، فصارا معبوديه، لا يشيران عليه بشيء إلا فعله، فهذا ممن قال الله فيهم: ﴿أَفَرَأَيْتَ مَنْ أَخَذَ إِلَهُهُ هَوَاهُ﴾ وهو صاحب النفس الأمّارة.

٣- ومنهم من كان مجاهداً لنفسه وهواه، فهو في جهاد مستمر مع الهوى والشيطان، تارة يغلبانه وتارة يغلبهما، وهذا حال أكثر الناس، فإن مات على ذلك فهو مجاهد لنفسه وهواه، كما جاء في الأثر: «جاهدوا أهواءكم كما تجاهدون أعداءكم» وهذا هو صاحب النفس اللوامة.

والصنف الأول: من الناس وهو الذي يغلب نفسه وهواه، يشبه الملائكة، فقد خُلِقُوا بلا شهوة تنازع عقولهم، فهم لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون، وهؤلاء يغلبون شهواتهم وأهواءهم، ويتبعون إشارة العقل الراشد.

(١) من حديث سعد بن أبي وقاص في صحيح البخاري برقم (٣١٢٠).

(٢) «جامع الترمذي» في حديث طويل برقم (٣٦٩٠) قال أبو عيسى: هذا حديث صحيح غريب من حديث بريدة.

(٣) «جامع الترمذي» (٣٦٩١) قال أبو عيسى: هذا حديث حسن صحيح غريب من هذا الوجه، وهو حديث طويل.

(٤) «صحيح مسلم» (٢٨١٤) وعن عائشة (٢٨١٥).

والصنف الثاني: وهو الذي تغلبه نفسه وهواه، يشبه الدواب، فإن لهم شهوة وليست لهم عقول، ولذا: فإن الذكور من الدواب يقع على الأنثى في قارعة الطريق دون استحياء، وهؤلاء تتحكم فيهم شهواتهم وتغلبهم أهواؤهم.

أما الصنف الثالث: وهم الذين يغلبون هواهم تارة، ويغلبهم الهوى تارة أخرى، فهو شأن عامة البشر، فقد ركب الله فيهم العقل والشهوة معاً، فهما يتنازعان، فإن غلب العقل كان العبد شبيهاً بالملائكة، وإن غلبت الشهوة كان شبيهاً بالدواب.

وهؤلاء الذين عبدوا هواهم لهم عقول سليمة، وقد تكون دعوة النبي ﷺ قد بلغتهم، وعلى هذا فهم على علم بما يعبدون وما يذرون، ولكن أسباب الضلالة قد أحاطت بهم من كل جانب، ولذا قال تعالى: ﴿وَأَصْلَهُ اللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ﴾ فهو متمكن من العلم بما يفعل، ولو تجرد من المكابرة والميل إلى الهوى لاستقام وحسن حاله، وهو كاليهود الذين أشربت قلوبهم حب عبادة العجل، وقالوا لموسى: ﴿اجْعَلْ لَنَا إِلَهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ﴾ [الأعراف: ١٣٨].

قال مقاتل: إن الآية نزلت في أبي جهل بسبب حديث جرى بينه وبين الوليد بن المغيرة، كانا يطوفان ليلة، فتحدثا في شأن النبي ﷺ، فقال أبو جهل: والله إني لأعلم أنه لصادق، فقال له المغيرة: مه، وما ذلك على ذلك؟ قال: كنا نسميه في صباه الصادق الأمين، فلما تمَّ عقله وكُمِّلَ رشدُه نسميه الكذاب الخائن؟ قال: فما يمنعك أن تؤمن به؟ قال: تتحدث عني بنات قريش، أني قد اتبعْتُ يتيماً أبي طالب من أجل كِسْرَةِ، واللَّاتِ والعُزَّى، لا أتبعه أبداً؛ فنزلت الآية^(١).

وكان الحارث بن قيس السهمي أحد المستهزئين، يعبد من الأصنام ما تهواه نفسه، فشملة نزول الآية^(٢).

والآية تحذّر المسلم أن يكون الباعث له في أعماله هو الهوى دون النظر في الدليل واتباع الحق.

جاء في الأثر: «لا يؤمن أحدكم حتى يكون هواه تبعا لما جئت به»^(٣).

(١)، (٢) «تفسير التحرير والتنوير» (٣٥٩/١٢).

(٣) عن عبد الله بن عمرو، قال الحافظ في الفتح: رجاله ثقات، وصححه النووي في آخر الأربعين، وضعف إسناده الألباني في مشكاة المصابيح (١٦٧).

وقال أبو الدرداء: إذا أصبح الرجل اجتمع هواه وعمله وعلمه، فإن كان عمله تبعاً لهواه فيومه يوم سوء، وإن كان عمله تبعاً لعلمه فيومه يوم صالح.

والمتبع لهواه بعد بلوغ العلم إليه بمبعث محمد ﷺ وقيام الحجة عليه بما جاء في خاتمة الرسالات، هو شخص لا يتأثر بالمواعظ، ولا يتفكر في الآيات والنذر، وذلك بسبب فساد الفطرة عنده، فقد ختم الله على سمعه وقلبه، فهو لا ينتفع بما يسمع، ولا يعقل شيئاً، وقد جعل الله على بصره غطاءً، فلا يُبصر حُجَّةً يستضيء أو يسترشد بها، وهذا معنى ﴿وَخَتَمَ عَلَى سَمْعِهِ وَقَلْبِهِ وَجَعَلَ عَلَى بَصَرِهِ غِشَاوَةً﴾ أي: جعل على بصره غطاءً؛ حتى لا يرى الحق ولا يرى حجة يستضيء بها.

وقُدِّمَ السمع على القلب؛ لأن المتبع لهواه قد عقد قلبه على تلبية رغبات النفس، فكان هذا صارفاً للسمع عن تلقي الهداية، وقُدِّمَ ختم القلب على السمع في قوله تعالى: ﴿وَخَتَمَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَعَلَى سَمْعِهِمْ﴾ [البقرة: ٧] لأن القلب هو الأصل، ولأن الكفار يستوي عندهم الإنذار وعدمه، وليس في استطاعة أحد أن يهدي من أضله الله، بسبب إثاره لمراد نفسه على مراد الله ﴿فَمَنْ يَهْدِيهِ مِنْ بَعْدِ اللَّهِ﴾ أي: من يوفقه لإصابة الحق والرشد بعد إضلال الله له؟

﴿أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ أيها الناس، فتعلمون أن من فعل الله به ذلك فلن يهتدي أبداً، ولن يجد لنفسه ولياً ولا مرشداً.

قال تعالى: ﴿أَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ هَوَاهُ أَفَأَنْتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلًا﴾ [الفرقان: ٤٣].

وقد وصف الله أهل الضلال في هذه الآية بأربعة أوصاف، هي:

١- عبادة الهوى. ٢- وضلالهم على علم.

٣- والطعن على أسماعهم وقلوبهم.

٤- وجعل الغشاوة على أبصارهم.

وكل وصف منها يقتضي الضلالة، فالهدى لا يصل إليهم بوجه من الوجوه، لأنهم قد سدوا على أنفسهم أبواب الهداية، وفتحوا لها أبواب الغواية.

الدَّهْرِيُّونَ وَالرَّدُّ عَلَيْهِمْ

٢٤، ٢٥ ﴿وَقَالُوا مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلَّا الدَّهْرُ وَمَا لَهُم بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ ﴿٢٤﴾ وَإِذَا نُتِيَ عَلَيْهِمْ ءَايَتُنَا بِسَنَةٍ مَّا كَانَتْ حُجَّتَهُمْ إِلَّا أَنْ قَالُوا أَتَأْتِنَا بِنَبَأَيْنَا إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿٢٥﴾﴾

ومن ضلالات المكذبين بالله ورسوله، إنكارهم للبعث والنشور، فهم يقولون: إن هذه الحياة التي نحن فيها هي الحياة الأولى والأخيرة، ولا توجد حياة سواها، فنحن نموت ثم يحيا أولادنا بعدنا، أو يموت بعضنا ويحيا بعض آخر إلى زمن معين، أو نكون أمواتاً في أصلاب آبائنا ثم نحيا عند الولادة ﴿وَقَالُوا مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا﴾ أي: ليس بعد هذا العالم عالم آخر، فالحياة هي حياة هذا العالم لا غير، وإذا مات من كان حياً خلفه من يوجد بعده.

وهذا إنكار وتكذيب للبعث والحساب، ثم قالوا: ﴿وَمَا يُهْلِكُنَا إِلَّا الدَّهْرُ﴾ أي: وما يفنيها إلا مرُّ الأيام والليالي وطول العمر، فيحيا أناس ويموت أناس، ومن مات لا يرجع إلى الحياة مرة أخرى، فلا حساب ولا جزاء، فالحياة في زعمهم تكون بتكوين الطبيعة، والممات يكون بفعل الدهر، والزمن هو المؤثر في الموت، فكيف يُرجى لمن أهلكه الدهر أن يعود حياً؟ فهم بهذا ينكرون أن يكون لهم ربٌ يفنيهم ويهلكهم.

قال ابن كثير: هذا قول الدهرية من الكفار، ومن وافقهم من مشركي العرب في إنكار المعاد، ومُرَادهم: ما ثمَّ إلا هذه الدار، يموت قوم ويعيش آخرون، وليس هناك معاد ولا قيامة، وهذا قول الفلاسفة الدهريين، المنكرين للصانع سبحانه، المعقدين أن في كل سنة وثلاثين ألف سنة يعود كل شيء إلى ما كان عليه، وزعموا أن هذا قد تكرر مرات لا تتناهى، فكابروا وكذبوا المعقول والمنقول^(١).

وقال الفخر الرازي: يريدون أن الموجب للحياة والموت تأثيرات الطباع، وحركات الأفلاك، ولا حاجة إلى الخالق المختار، فهذه الطائفة جمعت بين إنكار الإله، وإنكار البعث والقيامة^(٢).

(١) «تفسير ابن كثير» (٢٦٩/٧) بتصرف.

(٢) «التفسير الكبير» (٢٧/٢٧٥).

قال تعالى: ﴿وَمَا لَهُمْ بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ﴾ أي: ليس لهم فيما قالوه مستند عقلي ولا نقلي، وهم يتكلمون بالظن والوهم والخيال من غير حجة ولا بيّنة، وهم بهذا قد أنكروا المعاد، وكذبوا الرسل من غير دليل ولا برهان.

وقد كان العرب في جاهليتهم إذا أصابهم شدة أو بلاء أو نكبة، قالوا: يا خيبة الدهر، فهم يسندون تلك الأفعال إلى الدهر، ويسبّون الله ﷻ؛ لأنه فاعل ذلك في الحقيقة، فلهذا نهى الله عن سب الدهر؛ لأن الذي يسندون إليه هذه الأفعال هو الله تعالى^(١).

فهذه الآية رد على الدهرية الذين يقولون: إنما يهلكنا الليل والنهار، ودورة الزمان، وينسبون الحياة والموت إلى الدهر، وإذا أصابهم مكروه سبوا الدهر، ومثلهم الملاحدة الذين لا يعتقدون بوجود إله مبدع لهذا الكون، وأنه قد خلق صُدفة، ومنهم من يقول: إن الطبيعة أبدعت وصنعت، وما لهم بذلك من علم إن هم إلا يخرصون.

فالطبيعة لا تبدع شيئاً، والأولى أن يقال: الخليفة، بمعنى: المخلوقة لله تعالى.

وليس الدهر من أسماء الله الحسنى، وبهذا يُفسّر حديث أبي هريرة ؓ: أن رسول الله ﷺ قال: «يقول الله تعالى: يؤذيني ابن آدم، يسب الدهر، وأنا الدهر، بيدي الأمر، أقلب الليل والنهار»^(٢).

ونظير هذه الآية قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا إِنْ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ﴾ [الأنعام].

وقوله تعالى: ﴿أَيَعِدْكُمْ أَنْتُمْ إِذَا مِتُّمْ وَكُنْتُمْ تُرَابًا وَعِظْمًا أَنْتُمْ تُخْرَجُونَ﴾ ٢٥ ﴿هَيَّاتَ هَيَّاتَ لِمَا تُوعَدُونَ﴾ ٢٦ إِنْ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ﴾ ٢٧ [المؤمنون].

وقوله سبحانه: ﴿يَقُولُونَ أَءَنَّا لَمَرْدُودُونَ فِي الْحَافِرَةِ﴾ ١٥ ﴿أَءَإِذَا كُنَّا عِظْمًا تَحَرَّةً﴾ ١٦ ﴿قَالُوا تِلْكَ إِذًا كَرَّةٌ خَاسِرَةٌ﴾ ١٧ ﴿فَإِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ﴾ ١٨ ﴿فَإِذَا هُمْ بِالسَّاهِرَةِ﴾ ١٩ [النازعات].

وهؤلاء الدهريون وأشباههم ممن قالوا: لا حياة بعد الموت، إذا تليت عليهم آيات القرآن الواضحة، الدالة على البعث والنشور، لم يعارضوها بما يبطلها، وإنما يقولون: إن

(١) يُنظَر: «تفسير الخازن» (٤/ ١٢٠) وابن كثير (٧/ ٢٦٨) بتصرف.

(٢) «صحيح البخاري» برقم (٤٨٢٦، ٦١٨١) و«صحيح مسلم» برقم (٢٢٤٦) و«سنن أبي داود» برقم (٥٢٧٤) والنسائي في «السنن الكبرى» برقم (١١٦٨٧) وأحمد (٧٢٤٥) والطبري (٢١/ ٩٧).

كان البعث حقاً فأحيوا لنا آباءنا الذين ماتوا إن كنتم صادقين، وهذا سلاح العاجز الذي يخرج عن دائرة البحث والمناظرة، مكابرة وعناداً، وقد توهموا أن هذا حجة لهم، قال تعالى في وصفهم: ﴿وَإِذَا نُنَادِيهِمْ﴾ أي: على منكري البعث والنشور ﴿أَيْنَتُنَا﴾ الدالة على البعث والحساب والجزاء في هذا القرآن، وهي آيات ﴿بَيِّنَاتٍ﴾ واضحة الدلالة على إحياء الناس بعد موتهم، لم يكن لهم ردٌّ إلا قولهم: أحيوا لنا آباءنا الذين ماتوا من قبل إن كنتم صادقين في قولكم، وهذا معنى ﴿مَا كَانَ حُجَّتَهُمْ إِلَّا أَنْ قَالُوا اتَّبَعْنَا آبَاءَنَا إِن كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾. فزعموا أن صدق الرسل متوقف على إحياء آبائهم الأولين، وهم كذبه فيما طلبوا، فلو جاءتهم الرسل بكل آية لم يؤمنوا، وإنما قصدهم بهذا ردّ دعوة الرسل.

وقد سمى القرآن قولهم هذا حجة من باب التهكم؛ لأنهم ساقوه مساق الحجة.

ثم أبطل الله تعالى قولهم بما يلجمهم، فقال:

٢٦- ﴿قُلِ اللَّهُ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يَجْمَعُكُمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَمَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾

قل -أيها الرسول- لمنكري البعث والحساب والجزاء: الله تعالى يحييكم في الدنيا ما شاء لكم الحياة، ثم يميتكم عند انقضاء آجالكم في الدنيا، وكما أنشأكم من العدم، وابتدأ خلقكم من نطفة، فإنه سبحانه يبعثكم للحساب والجزاء؛ لأن من قدر على البدء، فإنه يكون قادراً على الإعادة من باب أولى ﴿ثُمَّ يَجْمَعُكُمْ﴾ أي: يحشركم جميعاً أحياء ﴿إِلَى يَوْمِ الْقِيَمَةِ﴾ لإثابة المطيع وعقاب العاصي، وهو يوم ﴿لَا رَيْبَ فِيهِ﴾ أي: لا شك في مجيئه، فوقوعه مقطوع به ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ أن الله تعالى محييهم ومميتهم لجهلهم وقصور نظرهم ولاستيلاء الهوى والشیطان على قلوبهم.

قال تعالى: ﴿كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَكُنْتُمْ أَمْوَاتًا فَأَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ [البقرة].

وقال سبحانه: ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ ثُمَّ رَزَقَكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ﴾ [الروم: ٤٠].

(١) قرأ حمزة بخلف عنه بمد لام (لا ريب) أربع حركات للمبالغة في النفي، والباقون بالقصر.

مِنْ مَشَاهِدِ الْقِيَامَةِ

٢٧- ﴿وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُحْشَرُ الْمُبْطِلُونَ﴾ ﴿٢٧﴾

ثم شرع سبحانه يُفَصِّلُ أحوال يوم القيامة وأهوالها؛ كي يستعدَّ الخلق للقاء ربهم بالإيمان والعمل الصالح، فبعد أن قرر سبحانه أنه قادر على إحياء الخلق في الآخرة بعد أن أحياهم في الدنيا، عَمَّمَ جَلَّ شأنه هذه القدرة على الكون كله، فبيَّن سبحانه أنه مالك السموات والأرض في الدنيا والآخرة، فالكل خلقه، والكل مملوك له، والكل عبيده ﴿وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ المتصرف في العالمين العلوي والسفلي، وما فيهما وما بينهما، وهو المتصرف أيضًا يوم قيام الساعة، حين يُبعث الناس من قبورهم للحشر والحساب، حيث ينفرد سبحانه بتدبير شؤون الخلق وتصريف أحواله في الدارين، وهو اليوم الذي يخسر فيه الكافرون بالله، الجاحدون لما أنزل الله على رسوله من الآيات البينات والدلائل الواضحات، يخسرون أنفسهم وأهلهم في نار جهنم وبئس المصير ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُحْشَرُ الْمُبْطِلُونَ﴾. الذين جاؤوا بالباطل ليدحضوا به الحق، وكانت أعمالهم باطلة، فبطل كل ذلك يوم لقاء الله، وظهر الحق من الباطل.

كان أحد السلف يتكلم بما يُضحك، فسمعه سفيان الثوري فقال له: أما علمت أن لله يومًا يخسر فيه المبطلون؟ فما زال الرجل متأثرًا بما سمع حتى لقي ربه، قال تعالى: ﴿فَإِذَا جَاءَ أَمْرُ اللَّهِ قُضِيَ بِالْحَقِّ وَخَسِرَ هُنَالِكَ الْمُبْطِلُونَ﴾ [غافر: ٧٨]

والمبطلون هم الكافرون حيث يكون مصيرهم النار.

والمبطلون: هم أصحاب الأباطيل في معتقداتهم وأقوالهم وأعمالهم، وأعظم الباطل الشرك بالله تعالى، ثم إن المشرك بعد ذلك يكون في دركات النار، بعضها أدنى من بعض، وما من دركة منها إلا وهي خسارة على فاعلها.

الْأُمَمُ تَجْتُو بَيْنَ يَدَيِ الْخَالِقِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ تَرْقُبُ مَصِيرَهَا

٢٨- ﴿وَتَرَى كُلَّ أُمَّةٍ جَائِيَةً كُلُّ أُمَّةٍ تُدْعَى إِلَى كِتَابِهَا الْيَوْمَ تُحْزَنُونَ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ ﴿٢٨﴾

(١) قرأ يعقوب بنصب (كلَّ) الثانية على أنها بدل من (كلَّ) الأولى، والباقون بالرفع على أنها مبتدأ، وجملة (تدعى) خبر.

وفي يوم القيامة ترى -يا محمد- كل جماعة من الناس يجمعهم دين واحد جاء به رسولهم، تأتي هذه الأمة وهي باركة على ركبها، وأطراف أناملها، في حالة ترقب وتحفز من الخوف والرعب وشدة الهول والفرع، كما يجثو الخصوم بين يدي الحاكم في ذل وانكسار ﴿وَرَى كُلُّ أُمَّةٍ جَآئَةً﴾ وهذا الجثو يكون حينما يؤتى بجهنم، وتزفر زفرة، فلا يبقى أحد إلا جثا على ركبته، حتى إبراهيم الخليل يجثو ويقول: نفسي، نفسي، لا أسألك اليوم إلا نفسي، وحتى إن عيسى ليقول: لا أسألك اليوم إلا نفسي، لا أسألك اليوم مريم التي ولدني^(١).

قال سلمان الفارسي رحمته الله: إن في القيامة ساعة هي عشر سنين، يخثر الناس فيها جثاة على الركب حتى إبراهيم ينادي ربه: لا أسألك إلا نفسي^(٢).

إنه يوم تشيب فيه الولدان، فكل أمة تتميز عن غيرها، وتجثو على ركبها، تترقب مصيرها في تلّهُفٍ وقلق ﴿يَوْمَ لَا تَمْلِكُ نَفْسٌ لِنَفْسٍ شَيْئًا وَالْأَمْرُ يَوْمَذِ لِلَّهِ﴾ [الانفطار].

جاء عن قتادة: أنه إذا كان يوم القيامة يقال لكل أمة: من كان يعبد شيئاً فليتبّعهُ، فيكون لعبدة الأوثان قادة تأخذ بأيديهم إلى النار، فتقذفهم فيها، فتبقى أمة محمد وأهل الكتاب، فيقال لليهود: ما كنتم تعبدون؟ فيقولون: كنا نعبد الله وعزيراً، إلا قليلاً منهم، فيؤخذ بهم ذات الشمال، ثم يُدعى النصارى فيقال لهم: ما كنتم تعبدون؟ فيقولون: كنا نعبد الله والمسيح، إلا قليلاً منهم، فيؤخذ بهم ذات الشمال، وتبقى أمة محمد فيقال لهم: ماذا كنتم تعبدون؟ فيقولون: كنا نعبد الله وحده، وإنما فارقنا هؤلاء مخافة يومنا هذا، فيؤذن للمؤمنين في السجود، فيسجد المؤمنون، وبين كل مؤمن منافق، فيقُسو ظهر المنافق عن السجود، ويجعل الله سجود المؤمنين عليه توبيخاً وصغاراً وحسرة وندامة^(٣).

قال تعالى: ﴿كُلُّ أُمَّةٍ مِّنَ الْأُمَمِ﴾ تُدْعَىٰ إِلَىٰ كِتَابِهَا. والمراد بالكتاب في الآية أحد أمرين:

الأول: كتاب الشريعة الخاص بهذه الأمة، كالقرآن والتوراة والإنجيل والزيور،

(١) روى هذا المعنى ابن أبي حاتم كما في «تفسير ابن كثير» (٢٧١/٧).

(٢) «تفسير الخازن» (١٢١/٤).

(٣) يُنظَر: «تفسير الطبري» (١٠١/٢١) بتصرف واختصار.

وصحف إبراهيم وصحف إدريس وصحف شيث، وغير ذلك، يُعرض أعمال هذه الأمة على ما في كتابها من الأوامر والنواهي.

كما جاء في الحديث عن أبي مالك الأشعري رضي الله عنه عن النبي ﷺ: «والقرآن حجة لك أو عليك»^(١).

فأمة موسى تدعى إلى ما في التوراة من أحكام، وأمة عيسى تدعى إلى ما في الإنجيل من أحكام، وأمة محمد تدعى إلى ما في القرآن من عقيدة وشرعة، وهكذا سائر الأمم، كل أمة تدعى إلى شرعها الذي كلفت به، هل قامت بما فيه فتتاب، أو ضيعت فتعاقب؟

الثاني: أن يراد بالكتاب: صحيفة تسجيل الأعمال، وما سجل فيها من خير وشر، فلكل واحد من كل أمة، كتاب عمله الخاص به، يقرؤه بنفسه ويُجزى بما فيه.

كما قال تعالى: ﴿أَقْرَأْ كِتَابَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ حَسِيبًا﴾ [الإسراء: ٤٤].

وقال جلّ شأنه: ﴿يَوْمَ نَدْعُوا كُلَّ أُنَاسٍ بِإِمْهَاتِهِمْ فَمَنْ أُوْفِيَ كِتَابُهُ بِيَمِينِهِ فَأُولَٰئِكَ يَقْرَءُونَ كِتَابَهُمْ وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا﴾ [الإسراء: ٧٦].

وقال سبحانه: ﴿وَوَضَعَ الْكِتَابَ فَفَرَى الْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يُوتِلُنَا مَالٌ هَذَا الْكِتَابُ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا﴾ [الكهف: ٤٩].

ويؤتى بالنبين والشهداء، ويُنبأ كل إنسان بما قدّم وأخّر، ثم يقال للجموع الجاثمة التي تتربص مصيرها في لهف: ﴿الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ من خير أو شر وفق أعمالكم في الدنيا.

والمأوى: هو المسكن الدائم والخلود في نار جهنم.

والآية تصف شيئاً من أهوال يوم القيامة ليحذر العباد ويستعدّوا له.

الْمَلَائِكَةُ تَنْسَخُ أَعْمَالَ الْعِبَادِ مِنَ اللَّوْحِ الْمَحْفُوظِ وَتُسَجِّلُهَا فِي صُحُفِ أَعْمَالِهِمْ

٢٩- ﴿هَذَا كِتَابُنَا يَطُوقُ عَلَيْكُمْ بِالْحَقِّ إِنَّا كُنَّا نَسْتَنْسِخُ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [٢٩]

إما أن يراد بالكتاب في الآية اللوح المحفوظ، أو صحيفة الأعمال، أو كتاب الشريعة

(١) في صحيح مسلم (٢٢٣) عن أبي مالك الأشعري.

الخاص بكل أمة، أو القرآن الكريم.

والمعنى: هذا كتاب الله الذي أنزله على نبيه محمد ﷺ، يفصل بينكم بالحق، وينطق بما فعله الناس من حسنات وسيئات، إن الله يأمر الملائكة أن تسجل أعمال بني آدم، ليطابقوه بما هو مستنسخ من اللوح المحفوظ، كي يحاسبوا على ما ارتكبوه من مخالفات.

وليس هناك شيء يُنسى، أو شيء يضيع، فكل شيء مسجل، وعلم الله تعالى لا يند عنه شيء ولا تغيب عنه ذرة ﴿هَذَا كِتَابُنَا يُنْطِقُ عَلَيْكُمْ بِالْحَقِّ﴾

أي: يشهد عليكم بأن أعمالكم مخالفة لما في كتاب شريعتكم المنسوخ من اللوح المحفوظ، وهذا على أن المراد بالكتاب: كتاب الشريعة.

أو أن جميع أعمالكم مكتوبة في صحائف أعمالكم بلا زيادة ولا نقص، وهذا على أن المراد بالكتاب: صحيفة العمل، فقد كان سبحانه يأمر الملائكة الحفظة بكتابة أعمالكم ﴿إِنَّا كُنَّا نَسْتَنْسِخُ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ كنا نأمر الملائكة ونكلفهم بكتابة أعمالكم.

قيل: إن الملائكة إذا رفعت أعمال العباد إلى الله تعالى أمر سبحانه أن يُثبت منها ما فيه ثواب وعقاب، ويسقط منها ما لا ثواب فيه ولا عقاب.

قال علي بن أبي طالب: إن لله ملائكة ينزلون كل يوم بشيء يكتبون فيه أعمال بني آدم^(١).

وقال ابن عباس: إن الله وكل ملائكة ينسخون من أم الكتاب في رمضان كل ما سيكون من أعمال بني آدم^(٢).

ويفسر القولين ما ورد عن ابن عباس: أن الملائكة تكتب أعمال العباد، ثم تصعد بها إلى السماء، فيقابلون ملائكة ديوان الأعمال ليطابقوا ما في صحف الأعمال، على ما أبرز لهم من اللوح المحفوظ في كل ليلة قدر^(٣).

والاستنساخ لا يكون إلا من كتاب، وحقيقة النسخ هي النقل من أصل إلى آخر، والحفظة تنسخ كل ما يفعله العباد من اللوح المحفوظ ثم يمسكونه عندهم ليطابقوا عليه

(١)، (٢) «تفسير ابن جرير» (٩٥/٢٥).

(٣) يُنْظَر: «تفسير ابن كثير» (٢٧١/٧).

أفعالهم التي فعلوها في الدنيا .

فالمعنى: أن الملائكة تنسخ كل عام ما يكون من أعمال بني آدم، والاستنساخ لا يكون إلا من أصل، كما أن الله تعالى يكلف الحفظة بنسخ أعمال العباد، أي: كتابتها، والآية تشمل المعنيين معاً .

النَّاسُ فَرِيقَانِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ

٣٠- ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَيُدْخِلُهُمْ رَبُّهُمْ فِي رَحْمَتِهِ ذَٰلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْمُبِينُ ﴿٣٠﴾﴾

تنقسم الأمم الجاثية، المحتشدة في أرض المحشر، ممن كانوا في البرزخ على مدى الأجيال واختلاف الأجناس، إلى فريقين لا ثالث لهما: الذين آمنوا، والذين كفروا، وهم حزب الله وحزب الشيطان، ويدخل تحتها جميع الملل والنحل ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ بالله ورسله، فامتلوا أمره واجتنبوا نهيه ﴿وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ أي: صدقوا في إيمانهم وتزودوا بالأعمال الصالحة الواجبة والمستحبة، التي ترفع درجاتهم عند رب العالمين ﴿فَيُدْخِلُهُمْ رَبُّهُمْ فِي رَحْمَتِهِ﴾ أي: يدخلهم ربهم في جنة رضوانه، برحمته وفضله، فيفوزون بالنعيم المقيم، وقد سُميت الجنة رحمة؛ لأن فيها تنزل الرحمة ﴿ذَٰلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْمُبِينُ﴾ أي: الفوز الذي لا يدانيه فوز، فهو فوز بين لا فوز بعده، إذا حصل للعبد تم له كل خير واندفع عنه كل شر. قال تعالى:

٣١- ﴿وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا أَفَلَمْ تَكُنْ ءَايَتِي تُنذِرُ عَلَيْهِمْ فَاستَكْبَرْتُمْ وَكُنتُمْ قَوْمًا تُجْرِمِينَ ﴿٣١﴾﴾

المراد بآيات الله في الآية: آيات القرآن، الدالة على وحدانيته تعالى، فالذين جحدوا وحدانية الله تعالى وكذبوا رسله يقال لهم تقريفاً وتوبيخاً: ﴿أَفَلَمْ تَكُنْ ءَايَتِي﴾ التي أنزلتها على رسلي، وعلى رأسها سيد الكتب -وهو القرآن- المنزل على سيد الخلق محمد ﷺ ﴿تُنذِرُ عَلَيْهِمْ﴾ في الدنيا على ألسنة الرسل، وعلى ألسنة الدعاة إلى الله تعالى بعدهم، وهي مشتملة على دلائل وحدانيتي وتصديق رسلي، وبينت لكم فيها ما ينفعكم وما يضركم ﴿فاستكبرتم﴾ عن الاستماع إليها وإيمان بها ﴿وَكُنتُمْ﴾ في الدنيا ﴿قَوْمًا تُجْرِمِينَ﴾ عادتكم الإجرام واقتراف السيئات والمنكرات، فلم تنتفعوا بالمواعظ، ولم تستفيدوا بما تلي عليكم، ولا ما أصاب الأمم قبلكم، فالיום تجزون بما كنتم تعملون.

إِنْكَارُ السَّاعَةِ أَوْ الشَّكُّ فِي قِيَامِهَا كُفْرٌ

٣٢- ﴿وَإِذَا قِيلَ^(١) إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَالسَّاعَةُ^(٢) لَا رَيْبَ فِيهَا فَلْتُمْ مِمَّا تَدْرِي مَا السَّاعَةُ إِنْ نَظُنُّ إِلَّا ظَنًّا وَمَا نَحْنُ بِمُتَّقِينَ^(٣)﴾

أي: وكنتم في الدنيا -أيها المجرمون- إذا ذكرت لكم الساعة، وقيل لكم: إنها آتية لا محالة، وأن وعد الله بمجيئها حق لا ريب فيه، أنكرتُم ذلك، واستبعدتم حصولها، وقتلتم: لا نعرف شيئاً اسمه الساعة، ولا نؤمن بها، ونعتقد أن قولكم بقيام الساعة مبني على الظن والوهم، وليس عن يقين وعلم.

فالمعنى: ﴿وَإِذَا قِيلَ﴾ لكم أيها المنكرون المكذبون لليوم الآخر وما فيه من بعث وحشر ونشر وحساب وجزاء ﴿إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ﴾ يبعث الناس من قبورهم ﴿حَقٌّ﴾ لاشك فيه ﴿وَالسَّاعَةُ﴾ آتية ﴿لَا رَيْبَ فِيهَا فَلْتُمْ﴾ على وجه الاستغراب والاستبعاد ﴿مِمَّا تَدْرِي مَا السَّاعَةُ﴾ لا نعرف عنها شيئاً، ولا نتوقع وقوعها إلا توهُماً ﴿إِنْ نَظُنُّ إِلَّا ظَنًّا﴾ فنحن نسمع الناس يقولون بالبعث والنشور ونحن لا نصدق ذلك ولا نؤمن بالغيبيات ﴿وَمَا نَحْنُ بِمُتَّقِينَ﴾ أي: لسنا متحققين أن الساعة آتية.

لقد قتلتم هذا -أيها الجاحدون المكذبون- في الدنيا، وها أنتم الآن ترون القيامة رأي العين، وترون الجحيم وقد برزت للعيان، والمصير السيئ في انتظاركم. قال تعالى:

٣٣- ﴿وَبَدَا لَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا عَمِلُوا وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ^(١)﴾

وفي هذا اليوم يظهر لمنكري البعث سيئات أعمالهم وعقوبتها حين يرون بأعينهم عذاب النار ﴿وَبَدَا لَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا عَمِلُوا﴾ أي: وظهر لهؤلاء الذين كانوا يكذبون بآيات الله، عقوبة ما عملوه في الدنيا من أعمال قبيحة كانوا لا يتوقعونها ﴿وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾ أي: ونزل بهم من عذاب الله جزاء ما كانوا يسخرون منه في الدنيا، وهذا الاستهزاء يعم

(١) قرأ بإشمام حركة الكسر للضم في (قيل) هشام والكسائي ورويس، والباقون بالياء الخالصة، ومثلها في الآية الخامسة والثلاثين.

(٢) قرأ حمزة بنصب (الساعة) عطفًا على (وعد الله)، والباقون بالرفع على أنها مبتدأ و(لا ريب فيها) خبر.

كل استهزاء بالإسلام وأهله، كالاستهزاء بالبعث والنشور، والاستهزاء بالإسلام ورسول الإسلام، والاستهزاء بكتاب المسلمين وعلمائهم، كما قال تعالى: ﴿قُلْ أَبِإِلَهِهِ وَرَسُولِهِ كُنتُمْ تَسْتَهْزِئُونَ ﴿٣٥﴾ لَا تَعْزُدُوا قَدْ كَفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ﴾ [التوبة: ٦٥، ٦٦].

وحينما يدخل المكذبون نار جهنم، فإنهم يُحاطون بسرادقها ﴿إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا﴾ [الكهف: ٢٩] وهذا معنى ﴿وَحَافٍ بِهِمْ﴾ أي: أحاط بهم العذاب من كل جانب، وذلك بسبب إنكارهم للبعث والنشور. قال تعالى:

٣٤- ﴿وَقِيلَ الْيَوْمَ نَنسِفُكُمْ كَمَا نَسِفْنَا لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا وَمَأْوَنُكُمْ ^(١) النَّارُ وَمَا لَكُمْ مِنْ نَّاصِرِينَ ﴿٣٤﴾﴾

وبعد أن يُودع المجرمون في النار، وتحيط بهم من كل جهة، يقول لهم خزنة النار على سبيل التأنيب والزجر: لقد أنكرتم في الدنيا لقاء ربكم هذا، فاليوم نترككم في العذاب وننساكم فيه، كما تركتم في الدنيا طاعة ربكم، ولم تتزودوا لهذا اليوم ﴿وَقِيلَ الْيَوْمَ نَنسِفُكُمْ﴾ نترككم في عذاب جهنم تخلدون فيها ﴿كَمَا نَسِفْنَا لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا﴾ أي: جزاء ما تركتم الإيمان بربكم، وتركتم العمل للقاءه في هذا اليوم ﴿وَمَا وَنَكُمُ النَّارُ﴾ هي مسكنكم ودار إقامتكم التي تستقرون فيها، وبئس المسكن والقرار، وليس هناك من ينصركم أو يخفف عنكم شيئاً من العذاب ﴿وَمَا لَكُمْ مِنْ نَّاصِرِينَ﴾ يدفعون عنكم عذاب الله تعالى.

صحَّ عن رسول الله ﷺ من حديث أبي هريرة ؓ: أن الله تعالى يقول لبعض العباد يوم القيامة: «ألم أكرمك، وأسوذك، وأزوجهك، وأسخر لك الخيل والإبل، وأذكرك ترأساً وتربعاً؟ فيقول: بلى. قال: فيقول: أفظننت أنك ملاقي؟ فيقول: لا، فيقول الله تعالى: فإني أنساك كما نسيتني» ^(٢).

مِنْ أَسْبَابِ عَذَابِ الْكُفَّارِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ

٣٥- ﴿ذَلِكُمْ بِأَنَّهُمْ أَخَذْتُمْ عَائِدَتَ اللَّهِ هُزُوا وَغَرَقْتُمْ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا فَالْيَوْمَ لَا يُخْرَجُونَ ^(٣) مِنْهَا وَلَا هُمْ يُسْعَوُونَ﴾

(١) أبدل همزة (مأواكم) ألفاً أبو عمرو بخلف عنه وأبو جعفر بلا خلاف، وكلاهما في حالتي الوصل والوقف وحمزة وفقاً فقط، وحقها غيرهم في الحالين، وكلها لهجات عربية.

(٢) «صحيح مسلم» برقم (٢٩٦٨).

(٣) قرأ حمزة والكسائي وخلف بالبناء للفاعل في (يخرجون)، والباقون بالبناء للمفعول.

بَيَّنَ اللهُ ﷻ في هذه الآية سبب العذاب الذي أُخْدِقَ بالكفار وأحاط بهم من كل جانب، وأنه يرجع إلى أمرين:

الأول: استهزاءهم بالقرآن وتكذيبهم بما جاء فيه.

الثاني: أنهم خُذِعُوا بالدنيا وزُخِرْفَها، فظَنُّوا أن لا حياة بعدها ولا بعث ولا نشور ﴿ذَلِكُمْ﴾ أي: هذا الذي حلَّ بكم من العذاب المهيِّن بسبب اتخاذكم ﴿ءَايَاتِ اللَّهِ هُزُوًا﴾ فسخرتم من آيات الله في كتابه، وسخرتم من حججه وبراهينه الدالة على وحدانيته ﴿وَعَزَّيْتُمْ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا﴾ فخذعتكم بزيتها وزخرفها وما فيها من متاع، فانصرفتم إليها، وعملتُم لها، وتركتم العمل للدار الباقية.

ثم يُسَدِّلُ الستار عليهم بإعلان مصيرهم الأخير، وبيان أنهم متروكون في نار جهنم لا يخرجون منها، ولا يُطَلَّبُ منهم اعتذار ولا عتاب ﴿فَالْيَوْمَ﴾ أي: يوم القيامة ﴿لَا يُخْرَجُونَ مِنْهَا﴾ لا يخرج الكفار من النار بعد أن دخلوها، كما قال تعالى: ﴿وَمَا هُمْ بِخَارِجِينَ مِنَ النَّارِ﴾ [البقرة: ١٦٧].

وقال سبحانه: ﴿كُلَّمَا أَرَادُوا أَنْ يَخْرُجُوا مِنْهَا مِنْ غَمٍّ أُعِيدُوا فِيهَا وَذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ﴾ [الحج: ٢١].

وكما أنهم لا يخرجون من النار لا يُطَلَّبُ منهم أن يُرْضُوا ربهم بالتوبة والإنابة؛ لأنها لا تنفع في هذا اليوم، وهذا معنى ﴿وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ﴾ كما قال تعالى: ﴿فَيَوْمَذٍ لَا يَنْفَعُ الَّذِينَ ظَلَمُوا مَعْذِرَتُهُمْ وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ﴾ [الروم: ٥٧].

وقال سبحانه ﴿فَإِنْ يَصْهَرُوا فَالنَّارُ مَثْوًى هُمْ وَإِنْ يُسْتَعْتَبُونَ فَمَا هُمْ مِنَ الْمُعْتَبِينَ﴾ [فصلت: ٢٤].

حَقُّ الرُّبُوبِيَّةِ

٣٦- ﴿فَلِلَّهِ الْحَمْدُ رَبِّ السَّمَوَاتِ وَرَبِّ الْأَرْضِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [٣٦]

وتُخْتَمُ السورة بحمد الله تعالى وتمجيده والثناء عليه لإنعامه علينا بدين الإسلام، وعلى نعمه التي لا تعد ولا تحصى، فوجب علينا أن نحمده كما علَّمنا، فهو رب هذا الكون كله، خالقه ومالِكه، ومدبر أمره ﴿فَلِلَّهِ الْحَمْدُ﴾ على نعمه التي لا تُعَدُّ ولا تُحصى، ولا يستحق الحمد أحد سواه، فهو سبحانه ﴿رَبِّ السَّمَوَاتِ وَرَبِّ الْأَرْضِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ رب الخلائق أجمعين،

وقد حمده أهل السموات، كما قال تعالى: ﴿وَالْمَلَكُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ﴾ [الشورى: ٥].

ومن حمده من أهل الأرض فقد أدى حق الربوبية، وهو سبحانه الذي خلقهم ورزقهم ورباهم وأنعم عليهم بنعمه الظاهرة والباطنة، ومن حمد غير الله تعالى كان مستحقاً لعذاب النار.

وقد كُرّر لفظ: ﴿رَبِّ﴾ في الآية على قصرها ثلاث مرات، تنوياً بشأن الربوبية، وبياناً باستحقاقه تعالى للحمد وحده دون أحد من الخلائق أجمعين.

٣٧- ﴿وَلَهُ الْكِبْرِيَاءُ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ (٣٧)

وحمد الله تعالى ليس لفائدة تعود عليه سبحانه، إنما هو لنفع الخلق وتزكية نفوسهم، كما أن عبادته وطاعته جلّ شأنه تعود عليهم، فالله تعالى لا تضره معصية العصاة ولا تنفعه طاعة المطيعين، وهو الغني عنهم، لا يحتاج إليهم في شيء، وهو صاحب الكبرياء والعظمة ﴿وَلَهُ الْكِبْرِيَاءُ﴾ أي: العظمة، والجلال، والعلو، والسلطان، والقهر، والقوة، والقدرة، والكمال ﴿فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ﴾ الذي لا يُغلب ﴿الْحَكِيمُ﴾ في أقواله وأفعاله وتدبير شؤون خلقه، تبارك الله رب العالمين، والعبادة مبنية على محبة الله تعالى والذل له.

جاء في الحديث القدسي: «يقول الله تعالى: العظمة إزارِي، والكبرياء ردائي، فمن نازعني واحداً منهما أسكتته ناري»^(١).

وذلك لأن صفتي الكبرياء والعظمة من الصفات اللازمة المختصة بالله تعالى، التي لا تنبغي لغيره، وليستا كسائر الصفات التي يمكن أن يتصف بها البشر، كالحلم والرحمة والكرم، ولذلك شُبّهتا بالرداء والإزار؛ لأن الإنسان لا يشاركه أحد في رداءه وإزاره.

وقد خُتِمت السورة بصفتي العزة والحكمة لله تعالى، كما بدئت بهما.

تم تفسير (سورة الجاثية) والله الحمد والمنة.

(١) «صحيح مسلم» برقم (٢٦٢٠) عن أبي هريرة وأبي سعيد وابن عباس ؓ عن النبي ﷺ فيما يرويه عنه، وأخرجه ابن أبي شيبة (٨٩/٩) وأبو داود (٤٠٩٠) وابن ماجه (٤١٧٤) وهو في صحيح ابن ماجه (٣٣٦٥) والسلسلة الصحيحة (٥٤١) والروض النضير (٦٧٧) والبيهقي في «الأسماء والصفات» (١٢٢).

تَفْسِيرُ سُورَةِ الْأَحْقَافِ (٤٦)

مُقَدِّمَةُ السُّورَةِ

سورة الأحقاف هي السورة السادسة والأربعون في ترتيب المصحف، والخامسة والستون في ترتيب النزول، نزلت بعد سورة الجاثية وقبل سورة الذاريات، وهي آخر سور آل حميم السبع، وقد نزلت السور السبع وفق ترتيبها الحالي في المصحف.

وعدد آياتها خمس وثلاثون آية في المصحف الكوفي، وأربع وثلاثون آية في بقية المصاحف.

وعدد كلماتها ست مئة وأربع وأربعون كلمة.

وعدد حروفها ألفان وخمس مئة وخمسة وتسعون حرفاً.

وسُمِّيت بسورة الأحقاف لورود كلمة الأحقاف فيها دون غيرها من السور.

قال ابن مسعود رضي الله عنه: أقرأني رسول الله ﷺ سورة من آل حم وهي الأحقاف ^(١).

وهي سورة مكية، قال ابن عباس والزيبر رضي الله عنه: نزلت سورة حم الأحقاف بمكة ^(٢).

وذكر ابن عطية ^(٣) استثناء آيتين، هما قوله تعالى: ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كَانَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ آيَةٌ﴾ [١٠] فإنها أشارت إلى إسلام عبد الله بن سلام، وإسلامه كان بعد الهجرة، وقوله تعالى: ﴿فَأَصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُو الْعَزْرِ مِنَ الرُّسُلِ﴾ الآية [٣٥].

والأسس التي يقوم عليها بناء الإسلام ثلاثة هي: التوحيد، والرسالة، والبعث، وهذه العناصر الثلاثة يعالجها القرآن في كل السور المكية علاجاً أساسياً؛ وذلك لأن قضية الإيمان بوحداية الله تعالى، وبعثه محمد ﷺ، والإيمان باليوم الآخر وما فيه من حساب

(١) أخرجه الإمام أحمد في «المسند» من حديث طويل بسند جيد (٨٨/٧) (٣٩٨١) قال محققوه: إسناد حسن من أجل عاصم بن أبي النجود، وبقية رجاله ثقات رجال الشيخين غير ابن عياش فمن رجال البخاري وأخرجه أحمد أيضاً مختصر (٣٧٢٤) بإسناد صحيح، وأخرجه الحاكم (٢/٢٢٣). وأبو يعلى (٥٠٥٧) وابن حبان (٤٧٦) والطبري (١٢/١).

(٢) أخرجه ابن مردويه كما في «الدر المنثور» (٣١٠/١٣) وذكره الألوسي في تفسيره.

(٣) في تفسيره (٩١/٥).

وجزاء، هي المحور الذي تدور عليه آداب الإسلام ونظمه وشرائعه كلها:

١- ومن الآيات التي تناولت جانب التوحيد قوله تعالى: ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ مَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَرُونِي مَاذَا خَلَقُوا مِنَ الْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِي السَّمَوَاتِ﴾ الآية [٤].

فإن آلهة المشركين عجزت عجزاً تاماً عن خلق أي شيء، ولم يقل أحد: إن الله تعالى خلق قارة آسيا، وإن هناك رباً آخر خلق قارة أفريقيا، ولم يقل أحد: إن الشمس من خلق الله، والقمر من خلق رب آخر، فدعاء غير الله تعالى لا وزن له، ولو بلغ دعاء المشركين لآلهتهم عنان السماء ما رجعت بشيء ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ مَنْ لَا يَسْتَجِيبُ لَهُمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَمَةِ وَهُمْ عَنْ دُعَائِهِمْ غَفِلُونَ﴾ الآية [٥].

٢- وفيما يتعلق بصاحب الرسالة ﷺ فإن المشركين يقولون: إن القرآن من وضع محمد ﷺ ﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ إِنْ افْتَرَيْتُهُ فَلَا تَمْلِكُونَ لِي مِنَ اللَّهِ شَيْئاً﴾ [٨].

وكانت الإجابة على قولهم هذا في قوله تعالى: ﴿قُلْ مَا كُنْتُ بِدْعًا مِنَ الرُّسُلِ وَمَا أَدْرَى مَا يُفْعَلُ بِي وَلَا بِكُمْ﴾ الآية [٩].

وليس لأهل مكة عذر في إنكار النبوات، فإن اليهود في المدينة يتبعون موسى ﷺ، والصالحون منهم آمنوا بمحمد ﷺ قال تعالى: ﴿وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنْ بَنِي إِسْرَءِيلَ عَلَىٰ مِثْلِهِ فَتَآمَنَ وَاسْتَكْبَرْتُمْ﴾ الآية [١].

ويذكر الله تعالى رسوله ﷺ في هذه السورة برسالة أخيه هود ﷺ إلى أهل الأحقاف، ولما كذبه استأصل الله شأفتهم، وأتى عليهم، فاحذروا -أيها المسلمون- عقاب الله، وآمنوا بالرسول الخاتم.

وإذا كان بعض الإنس لم يستجب لداعي الله، فإن نفراً من الجن استمع إلى القرآن واهتدى بهديه، أفلا يدفعهم ذلك إلى التأمل؟ وإذا كان بعض بني آدم قالوا: ﴿لَا تَسْمَعُوا لِهَذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [فصلت: ٢٦] فإن الجن رجعوا إلى قومهم بعد أن استمعوا للقرآن منذرين ومخوفين لهم عذاب الله إن لم يؤمنوا.

٣- وفيما يتعلق بالبعث، فإن لهذا العالم أجلاً ينتهي عنده، ثم تبدأ حياة ثانية، نحصد فيها ما غرشنا ﴿مَا خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَأَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ الآية [٣].

ويوم القيامة يُعرض الكفار على النار، بسبب انغماسهم في الشهوات، واستفراغ الجهد في الاستمتاع بالملذات ﴿وَيَوْمَ يُعْرَضُ الَّذِينَ كَفَرُوا عَلَى النَّارِ أَدْهَبْتُمْ طِبَنَكُمْ فِي حَيَاتِكُمُ الدُّنْيَا وَأَسْتَمَعْتُمْ بِهَا قَالِيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ﴾ الآية [٢٠].

وعند العرض على النار، يُسأل الكفار عن الحق الذي أنكروه في الدنيا، وهو البعث والنشور، فيعترفون بعد فوات الأوان ﴿وَيَوْمَ يُعْرَضُ الَّذِينَ كَفَرُوا عَلَى النَّارِ أَلَيْسَ هَذَا بِالْحَقِّ قَالُوا بَلَىٰ وَرَبِّنَا قَالَ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ﴾ الآية [٢٤].

والقرآن يُعرض بمنكري البعث، ويهددهم بسوء المصير ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَمْ يَعْ يَخْلُقْهُمْ يَفْتَدِرْ عَلَيْهِمْ أَنْ يُحْيِيَ الْمَوْتَى﴾ الآية [٣٣].

وفي نهاية السورة يُطلب من محمد ﷺ التآسي بمن سبقه من أولي العزم من الرسل ﴿فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُو الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ﴾ الآية [٣٥].

وعندما يطول الكفاح، فإن ذكريات الماضي كلها تكون كأنها لحظات، وهكذا مجيء الساعة بعد رحلة الدنيا ﴿كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ لَمْ يَلْبِسُوا إِلَّا سَاعَةً مِنْ نَهَارٍ﴾ الآية [٣٥]. وكل ما سبق ذكره بلاغ للناس ﴿فَهَلْ يُهْلِكُ إِلَّا الْقَوْمَ الْفَاسِقُونَ﴾ الآية [٣٥].

هذا: ويمكن تقسيم السورة إلى أربعة مقاطع:

المقطع الأول: من أولها إلى الآية الرابعة عشرة، وفيه إشارة إلى كتاب الله تعالى والوحي المنزل على رسول الله ﷺ، ومن آيات القرآن، إلى آيات الكون في السموات والأرض، ثم تشرع السورة في المناظرة بين الرسول ﷺ والمشركين بالله تعالى، فُتَبِّين أنهم لا يستندون في عقيدتهم الباطلة إلى حق من القول، ولا مأثور من العلم.

وتفنّد آيات السورة شبه المكذّبين بالقرآن، فتردّ عليها بالحجة الدامغة والبرهان الساطع، وتقيم الدليل على المكذّبين بالوحي المنزل على خاتم المرسلين بمن اهتدى من بني إسرائيل للحق، فأسلم عندما عرف أن القرآن مُصَدِّق لما في التوراة، كما قال تعالى: ﴿وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنْ بَنِي إِسْرَءِيلَ عَلَىٰ مِثْلِهِ فَقَامَ وَاسْتَكْبَرَتْ﴾ الآية [١٠].

وقال جل شأنه: ﴿وَمِن قَبْلِهِ كَتَبْتُ مُوسَىٰ إِمَامًا وَرَحْمَةً وَهَذَا كِتَابٌ مُّصَدِّقٌ لِّسَانِ عَرَبِيًّا﴾ الآية [١٢].

المقطع الثاني: من الآية الخامسة عشرة إلى الآية التاسعة عشرة، وفي هذا المقطع

تعرض السورة إلى مثالين للابن الصالح، المستقيم في فطرته، البار بوالديه، كلما ازداد عمراً ازداد تقى وصلاً وإحساناً لوالديه.

والابن الشقي، المنحرف عن الفطرة، العاق لوالديه، الذي يَسْخَرُ من الإيمان، ويهزأ بالبعث والنشور، وتبين السورة مصير كل منهما يوم لقاء الله تعالى.

المقطع الثالث: من الآية العشرين إلى الآية السابعة والعشرين، وفيه عرض لقصة قوم هود عليه السلام، الذين كذبوا رسولهم وطغوا في البلاد، واغتروا بقوتهم وجبروتهم، وأصرُّوا على كفرهم، فأرسل الله عليهم الريح العقيم ﴿تُدَمِّرُ كُلَّ شَيْءٍ بِأَمْرِ رَبِّهَا فَأَصْبَحُوا لَا يُرَى إِلَّا مَسَكِنُهُمْ﴾ الآية [٢٥].

وكما أهلك الله قوم عاد، أهلك ما حولهم من القرى، ولم تستطع آلهتهم أن تدفع عنهم شيئاً من عذاب الله تعالى، فظهر إفكهم وافتراؤهم.

﴿وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا مَا حَوْلَكُمْ مِنَ الْقُرَىٰ وَصَرَفْنَا أَلْبَتَ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ [الآية]

المقطع الرابع: من الآية الثامنة والعشرين إلى نهاية السورة، وهو يتناول قصة نفر من الجن صرّفهم الله لاستماع القرآن من الرسول محمد ﷺ فأمنوا به وبلغوه لأقوامهم، وشهدوا له بأنه الحق، وأنه يصدق التوراة التي قبله، فعادوا إليهم منذرين يحذرونهم عذاب الله تعالى إن لم يؤمنوا.

ويتضمن هذا المقطع الإشارة إلى بدء الخلق وإعادته، وأن الكافرين بالله ورسوله يُعرضون يوم القيامة على النار فيُقرون بما كانوا به ينجرون، ولكن الوقت قد فات، فلا رجعة ولا توبة ولا ندم، فهذا يوم الحساب والجزاء.

تَفْسِيرُ السُّورَةِ

الْكِتَابُ الْمَقْرُوءُ وَالْكِتَابُ الْمَنْظُورُ فِي صَفَحَاتِ الْكُؤُنِ

أَوَّلًا: الْكِتَابُ الْمَقْرُوءُ

١، ٢- ﴿حَمْدٌ^(١) تَنْزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ﴾

بدأت سورة الأحقاف بحرفي الحاء والميم، كالسور الست التي سبقتها، وهي السورة السابعة والأخيرة من سور آل حميم، وهذه الكلمات ﴿حَمْدٌ﴾ و ﴿طَسَّ﴾ و ﴿الرَّ﴾... إلخ، ليست مألوفة لدى العرب، فمعناها مجهول لديهم، وهي تسترعي انتباه من يسمعها ليتأملها ويتدبر ما بعدها، فيسمع حِكْمًا وَحُجَجًا ومواعظ، لعلها تصادف قلبه فيهتدي بها، وفي هذا إشارة إلى العلاقة بين الأحرف العربية التي يتداولها العرب، والكتاب المبين المكوّن منها على غير مثال من كلام البشر، وفيها أيضًا لَمَسٌ للعلاقة بين الكتاب المقروء والكتاب المنظور في صفحات الكون.

وإلى جوار ذلك فإن في هذه الحروف دلالة على أن القرآن المعجز مكوّن من هذه الحروف التي يعرفونها، ومع ذلك فقد عجزوا عن الإتيان بمثل أقصر سورة منه ﴿فَالَمْ يَسْتَجِيبُوا لَكُمْ فَأَعْلَمُوا أَنَّمَا أُنْزِلَ بِعِلْمِ اللَّهِ﴾ [هود: ١٤].

ثم أخبر سبحانه أن هذا القرآن منزل من عند الله على خاتم رسله وأنبيائه، وقد وصف الله نفسه بأنه صاحب العزة الغالبة، والسلطان القاهر، وهو الحكيم في أقواله وأفعاله وتدبير شؤون خلقه.

وفي الآيتين ثناء من الله تعالى على كتابه وتعظيم لشأنه، ويتضمن ذلك إرشاد العباد إلى الاهتداء بنوره، والإقبال على تدبر آياته، واستخراج كنوزه.

(١) سكت أبو جعفر على حا وميم سكتة لطيفة بدون تنفس، وأمال الحاء ابن ذكوان وشعبة وحمزة والكسائي وخلف، وقللها ورش وأبو عمرو.

هذا: وقد انفرد الكوفي بعد (حم) آية، وتركها غيره.

ثَانِيَا: الْكِتَابُ الْمَنْظُورُ

٣- ﴿مَا خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَأَجَلٍ مُّسَمًّى وَالَّذِينَ كَفَرُوا عَمَّا أُنذِرُوا مُّعْرِضُونَ﴾

في هذه الآية موعظة وتذكير، كأن الله تعالى يقول: انتبهوا أيها الناس، وانظروا ما يراد بكم، وَلَمْ خُلِقْتُمْ، فإن من آيات الله الكونية، السموات والأرض، وما فيهما وما بينهما من مخلوقات، لا يعلمها إلا الله، وخلقهما لله تعالى محل اتفاق بين المسلمين والمشركين، فلا جَرَم أن يكون خلقهما مُثَبِّتًا لوحداية الله تعالى، ومُثَبِّتًا للبعث والنشور؛ لأن الله تعالى خلق الخلق ليعبدوه في الحياة الأولى التي لها أجل تنتهي عنده، ثم يَرْحَلُونَ إلى الدار الأخرى التي لا نهاية لها ليحاسبوا فيها على الامتحان الذي عُقد لهم في الدنيا، ويُجْزَوُا عليه جزاء لا ينتهي أمده: إما سعادة أبدية، وإما شقاء أبدية، وهذه هي الحكمة من خلق الخلق، وهو الحق الذي خلق الله الكون به، ولولا هذا الهدف والغاية لكان خلق الناس عبثًا ولهوا وباطلاً.

﴿مَا خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ﴾ لم نخلق هذا الكون عبثًا ولا سُدىً، ولا لهواً ولا باطلاً، بل خلقناهما ليعرف العباد ربهم فيعبدوه ويوحده، ويعلموا أنه قادر على بعثهم بعد موتهم، وليقيموا الحق والعدل بينهم في الدنيا، فلا يظلم أحد أحداً، ولا يعتدي أحد على أحد، ما دام القصاص والانتصار للمظلوم سيكون في يوم الحشر والنشر، قال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَطْلًا﴾ [ص: ٢٧].

وقال سبحانه: ﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَإِِبَيتَ ﴿٣٨﴾ مَا خَلَقْنَاهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٩﴾﴾ [الدخان].

وقال أيضًا: ﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَإِنَّ السَّاعَةَ لَآتِيَةٌ﴾ [الحجر: ٨٥].

والله تعالى هو الذي خلق الخلق، وسخر لهم ما في السموات وما في الأرض، وأسبغ عليهم نعمه ظاهرة وباطنة، وأرسل إليهم رسله، وأنزل عليهم كتبه، وأمرهم ونهاهم، وأخبرهم أن هذه الدنيا دار ممر، وأن الآخرة دار مقر، وأن ما عملوا في الدنيا سيجزون عليه يوم القيامة.

وهكذا، فإن كل مخلوق حادث، وكل حادث يقبل الفناء، وهذا الفناء سيُعرض

للسموات والأرض وما بينهما؛ لأن حكمة الله تعالى تقضي بانعدام هذا العالم واستبداله بعالم آخر أعظم منه، هو الدار الآخرة، وفناء هذا العالم يدلُّ دلالة عقلية على البعث.

ومن هنا فإن بقاء السموات والأرض محدود بوقت معين، وهو المراد من قوله تعالى: ﴿وَأَجَلٌ مُّسَمًّى﴾ وهذا الأجل جعلناه موعدًا لنهاية هذا العالم، وعند حلول هذا الأجل، تتبدل الأرض غير الأرض والسموات، ولكن منكري البعث ممن لا يؤمنون بالله واليوم الآخر لا يتعظون ولا يتفكرون، فيجحدوا وحدانية الله تعالى، وينكروا البعث والحساب والجزاء، ويُعْرِضُوا عما أُنْذِرَ بِهِ الْقُرْآنُ ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا عَمَّا أُنْذِرُوا مُّعْرِضُونَ﴾.

قَضِيَّةُ التَّوْحِيدِ وَالشِّرْكِ فِي مُنَازَعَةِ تَتَكَوَّنُ مِنْ ثَلَاثِ حُجَجٍ

٤- ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ^(١) مَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَرُونِي مَاذَا خَلَقُوا مِنَ الْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِي السَّمَوَاتِ أَتُنْفِئُونَ^(٢) يَكْتُمُونَ مِنْ قَبْلِ هَذَا أَوْ أَفْكِرُونَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿٤﴾﴾

وبعد تقرير إثبات الوحداية لله تعالى، أبطل سبحانه صفة الألوهية عن غيره جلَّ شأنه، عن طريق المناظرة بين الكفار والمشركين وبين رسول الله ﷺ ليلجئهم إلى الاعتراف بالعجز عن معارضة الحجة، وفي هذه المناظرة طُلب منهم الإجابة عن ثلاثة أسئلة:

أولها: هل هناك أحد غير الله تعالى خلق شيئاً من هذه الأرض التي نحيا عليها؟ هل خلقوا جبلاً؟ هل أجزوا أنهاراً؟ هل أوجدوا حيواناً؟ هل أنبتوا أشجاراً؟.

الجواب بإقرارهم: لا.

ثانيها: هل هناك أحد مشارك لله تعالى في خلق سمواته؟ فخلق جرمًا من أجرام السماوات؟ أو خلق ملكًا من الملائكة؟ أو خلق العرش أو الكرسي.

الجواب على لسانهم: لا.

(١) سهَّل الهمزة الثانية من (أرأيتم) نافع وأبو جعفر، وحذفها الكسائي، وحققها الآخرون.

(٢) أبدل الهمزة الساكنة ياء ساكنة في حالة الوصل ورش وأبو عمرو بخلف عنه وأبو جعفر من (السموات اتنوني) والكل يبدأ بياء مدية بعد همزة الوصل المكسورة، فهمة القطع الساكنة تبدل حرف مد من جنس حركة همزة الوصل قبلها، ويُنطق في الوصل بهمزة قطع ساكنة بعد التاء المكسورة، وتسقط همزة الوصل حالة الوصل.

ثالثها: هل يوجد لديكم دليل نقلي على أن أي كائن على وجه البسيطة، قد خلق شيئاً على وجه الاستقلال، أو شارك في خلقه؟ الجواب: لا يوجد.

الحجة الأولى: نفي الخلق عن غير الله تعالى:

﴿قُلْ﴾ يارسولنا لكل من كفر بالله ﴿أَرَأَيْتُمْ مَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ أخبروني عمن تزعمون أنهم آلهة من الأصنام وأصحاب القبور والبقر والطواغيت ﴿أَرُونِي مَاذَا خَلَقُوا مِنَ الْأَرْضِ﴾ أي: أرشدوني وأخبروني أي جزء خلقوا من أجزاء الأرض؟ وأي مكان منها خلقوه، أو خلقوا مما على سطحها من: إنسان أو حيوان، أو حجر أو شجر، أو غير ذلك؟ وما دام الأمر كذلك فإن خالق هذا الكون هو رب العالمين.

وهم يعترفون بذلك ﴿وَلَيْن سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ﴾ [الزمر: ٣٨]

الحجة الثانية: نفي الشريك في الخلق مع الله تعالى

قال تعالى: ﴿أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِي السَّمَوَاتِ﴾ أي: أم لهم مع الله نصيب ومشاركة في خلق السموات...؟ والأدلة على نفي كل ذلك كثيرة، منها:

١- قال تعالى: ﴿هَذَا خَلْقُ اللَّهِ فَأَرُونِي مَاذَا خَلَقَ الَّذِينَ مِنْ دُونِهِ﴾ [لقمان: ١١].

٢- وقال سبحانه: ﴿أَيُشْرِكُونَ مَا لَا يَخْلُقُ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلِقُونَ﴾ [الأعراف: ١٨١].

٣- وقال أيضاً: ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ لَكُمْ رِزْقًا فَابْتَغُوا عِنْدَ اللَّهِ الرِّزْقَ وَاعْبُدُوهُ وَاشْكُرُوا لَهُ ۖ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ [العنكبوت: ١٧].

٤- وقال تعالى: ﴿وَاتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ ءَالِهَةً لَا يَخْلُقُونَ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ وَلَا يَمْلِكُونَ لِأَنْفُسِهِمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا وَلَا يَمْلِكُونَ مَوْتًا وَلَا حَيَوَةً وَلَا نُشُورًا﴾ [الفرقان: ٢٢].

فإذا لم يكن شيء من الأرض ولا من السماء مخلوقاً لهم، بطل أن تكون هذه المعبودات آلهة لخروج المخلوقات عن خلقهم، وإذا بطل أن يكون لغير الله خلق، بطل أن يكون هناك تصرف في تلك المخلوقات لغير الله، قال تعالى: ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ شُرَكَاءَكُمُ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَرُونِي مَاذَا خَلَقُوا مِنَ الْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِي السَّمَوَاتِ أَمْ ءَاتَيْنَهُمُ كِتَابًا فَهُمْ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْهُ﴾ [فاطر: ٤٠].

الحجة الثالثة: نفي وجود الدليل النقلي على أن لغير الله تعالى شيئاً من الخلق:

قال سبحانه: ﴿أَتُنُونِي بِكُتُبٍ مِّن قَبْلِ هَذَا﴾ أي: هاتوا كتاباً من الكتب المنزلة على أنبياء الله قبل القرآن ليشهد لهم بأنهم خلّقوا جزءاً من الأرض، أو شاركوا في خلق السموات.

فإن لم يوجد دليل عقلي ولا نقلي يشهد لكم، فأُتُوا ببقية من علم الأولين غير مسطورة في الكتب، وهذا معنى ﴿أَوْ أَتْرَكْتُم مَّنْ عِلْمٍ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ أي: اتنوني بفضلة أثر من علم الأولين تشهد أن لغير الله تعالى شيئاً من الخلق، وهذا توسيع عليهم في أنواع الحجة ليكون العجز أوقع، والحجة أبين.

قال ابن عباس: لا أعلمه إلا عن النبي ﷺ: الأثارة: الخط^(١)، أي: الشيء المكتوب المأثور. قال تعالى: ﴿فَإِن لَّمْ يَسْتَجِيبُوا لَكَ فَاعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَاءَهُمْ وَمَن أَضَلُّ مِمَّنِ اتَّبَعَ هَوَاهُ يَغْيِرْ هُدًى مِّنَ اللَّهِ﴾ [القصص: ٥٠].

وقال سبحانه: ﴿فَإِنَّمَا يَسْتَجِيبُوا لَكُمْ فَاعْلَمُوا أَنَّمَا أُنزِلَ بِعِلْمِ اللَّهِ وَأَن لَّا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَهَلْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ [هود]. فإن لم تفعلوا فأنتم كاذبون فيما تزعمون.

والمراد من الآية: أن كل ما يُعبد من دون الله لا مدخل له في خلق شيء من العالم السفلي أو العالم العلوي، والكل مخلوق لله وحده، ومن هنا فهو سبحانه المستحق للعبادة دون سواه.

وهكذا أقام القرآن الحجة عليهم، وألزمهم ببطلان ما هم عليه من ضلال، فكل الكتب المنزلة من عند الله جاءت بالتوحيد وإبطال الشرك، فليس لهم في عبادة غير الله تعالى مستند من عقل أو نقل^(٢).

وجميع رسل الله قد أمروا بالتوحيد ونهوا عن الشرك ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾ [النحل: ٣٦] وكل رسول جاء ليقول لقومه ﴿اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَهِ غَيْرُهُ﴾ [هود: ٨٤]

(١) أخرجه أحمد (١٩٩٢) بتحقيق أحمد شاكر، وإسناده صحيح على شرط الشيخين، قال الهيثمي: رجاله رجال الصحيح، «المجمع» (١٩٢/١) وصححه الحاكم والذهبي (٤٥٤/٢) وابن حجر في «الفتح» (٨/٥٧٩) والطبراني (١٠٧٢٥).

(٢) يُنظر: «البحر المحيط» (٨/٥٥).

لَا أَحَدَ أَضَلُّ مِمَّنْ يَدْعُو غَيْرَ اللَّهِ تَعَالَى

٥- ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ يَدْعُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ مَنْ لَا يَسْتَجِيبُ لَهُمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَمَةِ وَهُمْ عَنْ دُعَائِهِمْ غَفْلُونَ ﴿٥﴾﴾

ولمَّا لَقِنَ الله رسوله محاجة المشركين وإفحامهم تعجَّب القرآن من حالهم وضلالهم، ووبَّخهم على عبادة غير الله تعالى، فبيَّن سبحانه أنه لا يوجد أحد أشد ضلالاً، وأعجب حالاً، وأكثر جهلاً ممن يعبدون من دون الله تعالى من لا يملك ضرراً ولا نفعاً، ولا يسمع دعاء الداعين، ولا يعلم حاجات المحتاجين، ولا يستجيب لمن ناداه أبداً.

﴿وَمَنْ أَضَلُّ﴾ أي: لا أحد أضل ولا أجهل ﴿مِمَّنْ يَدْعُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ أي: يعبد غير الله تعالى ﴿مَنْ لَا يَسْتَجِيبُ لَهُمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَمَةِ﴾ فهم لا قُدرة لهم على إجابة أحد ممن يدعوهم ما دامت الدنيا وإلى أن تقوم الساعة، فضلاً عن جلب نفع أو دفع ضرر.

قال تعالى: ﴿إِنْ تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا دُعَاءَكُمْ وَلَوْ سَمِعُوا مَا اسْتَجَابُوا لَكُمْ وَيَوْمَ الْقِيَمَةِ يَكْفُرُونَ بَشِرْكُمْ﴾ [فاطر: ١٤].

وقال سبحانه: ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ عِبَادٌ أَثَالُكُمْ فَأَدْعُوهُمْ فَلْيَسْتَجِيبُوا لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ [الأعراف: ١٩٤].

وليس هذا فحسب، بل إن الآلهة المزعومة في غفلة تامة عن عبادة العابدين، ولا تعلم عنها شيئاً، ولا قدرة لها على شيء؛ لأنها من الأموات أو من الجماد أو الحيوان، كعباد البقر ونحوهم، فهي غافلة عن دعاء من يعبدها، عاجزة عن نفعه أو ضره، وهذا معنى ﴿وَهُمْ عَنْ دُعَائِهِمْ غَفْلُونَ﴾ سواء أكانوا من الإنس، أم من الجن، أم من الأوثان.

هذا حالهم في الدنيا، فإذا كان يوم القيامة كانوا لهم أعداء يلعن بعضهم بعضاً ويكفر بعضهم ببعض:

الْعَدَاوَةُ بَيْنَ الْعَابِدِ وَالْمَغْبُودِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ

٦- ﴿وَإِذَا حُشِرَ النَّاسُ كَانُوا لَهُمْ أَعْدَاءً وَكَانُوا بِعِبَادَتِهِمْ كَافِرِينَ ﴿٦﴾﴾

فإذا كان يوم القيامة، وجمع الله الناس للحساب والجزاء، صار الكفار مع من عبدوهم

من دون الله أعداء، يلعن بعضهم بعضاً، ويتبرأ بعضهم من بعض ﴿وَإِذَا حُشِرَ النَّاسُ﴾ يوم القيامة للحساب والجزاء ﴿كَانُوا لَهُمْ أَعْدَاءُ﴾ قيل: إن الله تعالى يخلق في الأصنام والكواكب حياة فتكذبهم، أما الملائكة وعزير والمسيح والشياطين فإنهم يتبرؤون ممن عبدوهم، وهذا معنى ﴿وَكَانُوا بِعِبَادَتِهِمْ كَافِرِينَ﴾ يجحدون عبادتهم لهم ويكذبونهم.

١- كما قال تعالى: ﴿وَقَالَ شُرَكَائُهُمْ مَا كُنْتُمْ إِلَّا نَا تَعْبُدُونَ﴾ (٢٨) ﴿فَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ إِنْ كُنَّا عَنْ عِبَادَتِكُمْ لَغَافِلِينَ﴾ (٢٩) [يونس].

٢- وقال سبحانه على لسان المعبودين: ﴿تَنَزَّلْنَا إِلَيْكَ مَا كَانُوا إِلَّا نَا تَعْبُدُونَ﴾ [القصص: ٦٣].

٣- وقال جلَّ شأنه: ﴿وَاتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ آلِهَةً لِيَكُونُوا لَهُمْ عِزًّا﴾ (٨١) ﴿كَلَّا سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا﴾ (٨٢) [مريم].

٤- وقال سبحانه: ﴿وَقَالَ إِنَّمَا اتَّخَذْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْثَنًا مَوَدَّةَ بَيْنِكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ وَلَئِن بَعْضُكُم بِبَعْضٍ﴾ [العنكبوت: ٢٥].

٥- وقال أيضاً: ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ فَيَقُولُ ءَأَنْتُمْ أَضَلَلْتُمْ عِبَادِي هَؤُلَاءِ أَمْ هُمْ ضَلُّوا السَّبِيلَ﴾ (٧) ﴿قَالُوا سُبْحَنَكَ مَا كَانَ يَلْبِغِي لَنَا أَنْ نَتَّخِذَ مِنْ دُونِكَ مِنْ أَوْلِيَاءَ وَلَكِنْ مَتَّعْتَهُمْ وَءَابَاءَهُمْ حَتَّى نَسُوا الذِّكْرَ وَكَانُوا قَوْمًا بُورًا﴾ (٨) [الفرقان].

قَضِيَّةُ الْوَحْيِ وَالرَّسَالَةِ: دَعْوَى أَنَّ الْقُرْآنَ سِحْرٌ

٧- ﴿وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ ءَايَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ هَذَا سِحْرٌ مُبِينٌ﴾ (٧)

وبعد أن قررت السورة قضية التوحيد والشرك، تتناول في الآيات التالية قضية الوحي والرسالة، وموقف المكذبين من رسول الله ﷺ، فبين ﷺ أن آيات القرآن إذا تليت عليهم صباح مساء، تُبين لهم دلائل التوحيد وغيره، حتى تأخذ بأيديهم إلى الحق، فإنهم لا يتدبرونها، وإنما يغالطون ويقولون عن القرآن: إنه سحر ﴿وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ ءَايَاتُنَا بَيِّنَاتٍ﴾ أي: إذا قرئت عليهم آيات القرآن الواضحات التي لا يشك فيها أحد ولا يرتاب فيها مرتاب، ﴿قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ﴾ أي: حين جاءهم القرآن واستمعوا إليه ﴿هَذَا سِحْرٌ مُبِينٌ﴾ أي: هذا سحر ظاهر، دون تفكير ولا تأمل، وقد وصفوا القرآن بأنه سحر؛

لأن الإسلام يفرق بين المسلم والكافر، سواء أكانا زوجين أم أخوين، أم والدًا وولده، وفي وصفهم للقرآن بالسحر دليل على عجزهم عن الإتيان بمثل أقصر سورة من هذا القرآن، وفيه قلب للحقائق التي لا تروج إلا على ضعفاء العقول، وإلا فإن ما بين السحر وبين القرآن من الفرق، ما هو أعظم مما بين السماء والأرض، إذ كيف يقاس الحق بالسحر، والسحر لا يصدر إلا من ساحر ضال، خبيث النفس والعمل، والقرآن كلام رب العالمين، سبحانه هذا بهتان عظيم.

إِبْطَالُ الْقَوْلِ بِأَنَّ الْقُرْآنَ مُفْتَرَى

٨- ﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَيْنَاهُ قُلْ إِنْ افْتَرَيْتُهُ فَلَا تَمْلِكُونَ لِي مِنَ اللَّهِ شَيْئًا هُوَ أَعْلَمُ بِمَا تُفِيضُونَ فِيهِ كَفَىٰ بِهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَهُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴿٨﴾﴾

ثم إن الله تعالى يقول لرسوله ﷺ: دع قولهم بأن القرآن سحر، واستمع لما هو أعجب منه، وهو قولهم: إن محمدًا افترى هذا القرآن، فزعم أنه وحي من عند الله ﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَيْنَاهُ﴾ بل يقول المكذبون: إن محمدًا اختلق القرآن وافتراه من عند نفسه؟

وقد أمر الرسول ﷺ أن يجيبهم بقوله: إن افتريته عاقبني الله معاقبة لا تملكون ردّها، فقال سبحانه: ﴿قُلْ إِنْ افْتَرَيْتُهُ﴾ على سبيل الفرض والتقدير، كما تدعون ﴿فَلَا تَمْلِكُونَ لِي مِنَ اللَّهِ شَيْئًا﴾ أي: إن كنت قد اختلقت هذا القرآن فإن الله تعالى سيعاقبني على ذلك، وليس في إمكانكم دفع عقاب الله عني، وأنا أعلم علم اليقين أنني إن فعلت شيئًا من ذلك فإن الله تعالى سيعاقبني أشد العقاب.

١- كما قال تعالى: ﴿وَلَوْ نَقُولُ عَلَيْنَا بَعْضُ الْأَقَاوِيلِ ﴿٤٤﴾ لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ ﴿٤٥﴾ ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ ﴿٤٦﴾ فَمَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَاجِيزٍ ﴿٤٧﴾﴾ [الحاقة].

٢- وقال سبحانه: ﴿وَإِنْ كَادُوا لَيَفْتِنُونَكَ عَنِ الَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ لِتَفْتَرِيَ عَلَيْنَا غَيْرًا وَإِذَا لَا تَخَذُوكَ خَلِيلًا ﴿٧٣﴾ وَلَوْلَا أَنْ نَبُنِّئَكَ لَفَدَّتْ وَرَكْنُ إِلَهُهِمْ شَيْئًا قَلِيلًا ﴿٧٤﴾ إِذَا لَا دَفْعْنَاكَ ضَعْفَ الْحَيَوةِ وَضَعْفَ الْمَمَاتِ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ عَلَيْنَا نَصِيرًا ﴿٧٥﴾﴾ [الإسراء].

٣- وقال جلّ شأنه: ﴿قُلْ إِنِّي لَنْ يُخِيرَنِي مِنَ اللَّهِ أَحَدٌ وَلَنْ أَجِدَ مِنْ دُونِهِ مُلْتَحَدًا ﴿٢١﴾ إِلَّا بَلَاغًا مِّنَ اللَّهِ وَرِسَالَاتٍ﴾ [الجن: ٢٢، ٢٣].

وسبب هذا الوعيد الشديد أن الله تعالى لا يقرُّ أحدًا على أن يُبلِّغ إلى الناس شيئًا لم يأمره بتبليغه، ولا يمكن لأحد أن يفتری على الله شيئًا؛ لأنه يعلم كل شيء، ومن ذلك علمه تعالى بما يقولونه عن القرآن، كقولهم: إنه سحر أو شعر أو كهانة ﴿هُوَ أَعْلَمُ بِمَا يُفِيضُونَ فِيهِ﴾ أي: هو جلٌّ وعلا أعلم بما تخوضون في القرآن وما تقدحون فيه من وجوه الطعن المختلفة ﴿كَفَىٰ بِهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ﴾ فإنه سبحانه يشهد لي بالصدق والبلاغ وأن القرآن من عنده، ويشهد عليكم بالجحود والتكذيب ﴿قُلْ أَنزَلَهُ الَّذِي يَعْلَمُ السِّرَّ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ [الفرقان: ٦].

ثم إن الله تعالى دعاهم إلى التوبة مع ما صدر منهم من معاندة الحق ومخاصمته فقال: ﴿وَهُوَ الْغَفُورُ﴾ لعباده إن تابوا وأنبأوا إليه، ورجعوا عن كفرهم وهو ﴿الرَّحِيمُ﴾ بعباده المؤمنين، ورحيم بالكافرين حيث لم يعاجلهم في الدنيا بالعقوبة، وفي هذا وعد للكافرين بالمغفرة والرحمة إن هم رجعوا عن كفرهم وتابوا إلى ربهم، وأقلعوا عما هم فيه، فإن الله تعالى يوفقهم للتوبة ويقبلها منهم، ويتجاوز عن سيئاتهم، ويشيهم على توبتهم.

لَسْتُ أَوَّلَ رَسُولٍ وَلَا عَلِمَ لِي بِالْمُسْتَقْبَلِ إِلَّا عَنْ طَرِيقِ الْوَحْيِ

٩- ﴿قُلْ مَا كُنْتُ بِدَعَا مِنَ الرُّسُلِ وَمَا آدَرِي مَا يُفْعَلُ بِي وَلَا يَكُمَّ إِنِ أُنِيعُ إِلَّا مَا يُوْحَىٰ إِلَيَّ وَمَا أَنَا^(١) إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٩﴾﴾

يأمر الله تعالى رسوله ﷺ أن يجيب الجاحدين لرسالته، القائلين إن محمدًا ﷺ افترى هذا القرآن من عنده، فيقول: ﴿قُلْ﴾ يا رسولنا لمن جحد رسالتك ﴿مَا كُنْتُ بِدَعَا مِنَ الرُّسُلِ﴾ لست أول رسل الله إلى خلقه، بل سبقني رسل وأنبياء قبلي كثيرون، فكيف تنكرون نبوتي، وتشككون في دعوتي، وأنا مبلِّغ عن ربي، لا أعلم شيئًا من المستقبل في أمور الدنيا ولا الآخرة إلا ما أعلمني الله به عن طريق الوحي؟

وقد كان المشركون يسألون النبي ﷺ عن أشياء تقع في المستقبل من باب الاستهزاء، فيقول أحدهم إذا ضلَّت ناقة: أين ناقتي؟ ويقول غيره: مَنْ أبي؟ ونحو ذلك، فأمر الله

(١) قرأ قالون بخلف عنه بمد (أنا) وصلًا، فيكون من باب المد المنفصل، وقرأ الباقون بحذف الألف وصلًا وهو الوجه الثاني لقالون، وأثبتها وفقًا للجميع.

رسوله أن يُعلمهم بأنه لا يعلم شيئاً من أمور المستقبل، فيقول: ﴿وَلَوْ كُنْتَ أَعْلَمُ الْغَيْبَ لَأَسْتَكْرَتْ مِنْ الْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِيَ الشُّوْءُ﴾ [الأعراف: ١٨٨]

وقصارى ما أعلمه هو ما يخبرني الله تعالى به عن طريق الوحي ﴿مَنْ رَأَى لَئْلَةً مَا يُوْحَىٰ إِلَيْكَ﴾.

ولا أبتدع شيئاً من عندي، فقد أعلمني الله مثلاً: أن المشركين في النار، وأن بعد الموت بعثاً، وأنني سأهاجر إلى أرض ذات نخل بين حرّتين، وهكذا.

﴿وَمَا أَدْرَىٰ مَا يُفْعَلُ بِي وَلَا بِكُمْ﴾ فأنا أشق طريق الدعوة ولا أعلم نتائج المعركة بيني وبينكم، ولكن أصدع بأمر الله مستنداً إلى ركن شديد، وسأظل أدعو إليه حتى آخر رمق في حياتي، ألتحق بعده بالرفيق الأعلى، فإذا كانت هذه مبادئ من يفترى الكذب على الله، فأين يكون الصدق إذن؟

هذا هو المعنى المناسب لسياق الآية، وهو أن الرسول ﷺ لا يدري ما يفعل به في الدنيا، هل سيبقى في وطنه مكة أم سيخرج منها؟ وماذا ستسفر عنه الدعوة مع المعارضين؟ وكان هذا في مرحلة من مراحل الدعوة ثم أعلمه الله تعالى أنه قد حفظ دمه وعصمه كما سيأتي، أما بالنسبة للآخرة فقد أخبره ربه بأن له الجنة.

فعدم معرفة النبي ﷺ بما يفعل به خاصٌ بالدنيا على هذا المعنى، فإنه ﷺ لا يدري ماذا يفعل به المشركون، هل سيؤمنون به أم يكفرون؟ هل سيحدث بالأرض خسف أو زلازل أو براكين، أم لا؟ وهكذا، ما لم يُعلمه الله تعالى بشيء مما سيحدث عن طريق الوحي، فيكون هذا بتعليم الله له.

الرسول يعلم ما يفعل به في الآخرة:

أما بالنسبة إلى الدار الآخرة فإن النبي ﷺ يدري ما يفعل به فيها، فهو يجزم ويقطع بأنه في الجنة، وأن من كذّب في النار، كما أخبره ربه بذلك.

وعليه يُحمل حديث أم العلاء، وكانت قد بايعت النبي ﷺ، ولما اقترح الأنصار على استضافة المهاجرين وإسكانهم عندهم، كان من نصيبهم عثمان بن مظعون ؓ، فلما مرض عثمان قالت: فمَرَضَنَاهُ حَتَّى تَوَفَّاهُ اللَّهُ، فلما غُسِّلَ وَكُفِّنَ فِي أَثْوَابِهِ دَخَلَ عَلَيْهِ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فَقُلْتُ: رَحِمَهُ اللَّهُ عَلَيْكَ يَا أَبَا السَّائِبِ، شهادتي عليك لقد أكرمك الله، فقال رسول

الله ﷺ: «وما يدريك أن الله أكرمهُ؟» فقلت: لا أدري، بأبي أنت وأمي يا رسول الله، فقال ﷺ: «أما هو فقد جاءه اليقين من ربه، وإنني لأرجو له الخير، والله ما أدري وأنا رسول الله ما يُفعل بي» قال يعقوب (به) قالت: فقلت: والله لا أُرْكَي أحدًا بعده أبدًا، وأحزني ذلك، فنمت فأريت لعثمان عينًا تجري، فجئت إلى رسول الله ﷺ فأخبرته بذلك، فقال ﷺ: «ذاك عمله»^(١). لأنه مات مرابطًا وعمل الم رابط لا ينقطع.

وفي لفظ للبخاري أيضًا: «ما أدري وأنا رسول الله ما يُفعل به»^(٢). يعني عثمان بن مظعون.

قال ابن كثير: وهذا أشبه أن يكون هو المحفوظ، بدليل قولها: فأحزني ذلك.

وفي هذا وأمثاله دليل على أنه لا يُقْطَع لمعيّن بالجنة، إلا الذين نصّ الشارع على تعيينهم، كالعشرة المبشرين بالجنة، وعبد الله بن سلام، والغُميصاء، وبلال، وسراقة، وعبد الله بن عمرو بن حرام والد جابر، والقراء السبعين الذين قُتِلُوا في بئر معونة، وزيد بن حارثة، وجعفر، وابن رواحة^(٣).

وعلى هذا فإن المراد بقوله تعالى: ﴿وَمَا آدْرَى مَا يُفَعْلُ بِي وَلَا يَكْمُرُ﴾ أن هذا بالنسبة إلى الدنيا، أما في الآخرة فقد علم ﷺ أنه في الجنة^(٤).

ومنه ما قيل: إن النبي ﷺ كان لا يدري ما يُفعل به في الآخرة، وأن هذا كان في صدر الإسلام، ثم نسختها آية الفتح ﴿لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ﴾ [آية: ٢].

فخرج إلى الناس فبشّرهم بأن الله قد غفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر، فقال رجل من

(١) يُنْظَرُ: «صحيح البخاري» بأرقام (١٢٤٣، ٢٦٨٧، ٣٩٢٩، ٧٠٠٣) من حديث خارجة بن زيد بن ثابت، وقد انفرد به، و«المسند» (٤٣٦/٦) (٢٧٤٥٧) إسناده صحيح ورجاله ثقات رجال الشيخين غير أبي كامل الخراساني وهو ثقة، قاله محققوه، والنسائي في «السنن الكبرى» (٧٦٣٤) والبيهقي في «السنن» (٤/٧٦) من طرق الزهري والحاكم (٣٧٨/١) وقال: صحيح على شرط الشيخين ووافقه الذهبي و«مصنف عبد الرزاق» (٢٠٤٢٢) والطبراني في «الكبير» (٣٣٧) وغيرهم، وكلهم من طرق متعددة.

(٢) «صحيح البخاري» برقم (٢٦٨٧).

(٣) «تفسير ابن كثير» (٢٧٧/٧).

(٤) يُنْظَرُ: «تفسير الخازن» (١٢٣/٤) والطبري (١٢٥/٢١) وابن أبي حاتم، كما في «تفسير ابن كثير» (٢٧٨/٧).

المؤمنين: هنيئًا لك يا نبي الله، قد علمنا الآن ما يفعل بك، فماذا يفعل بنا؟ فأنزل الله تعالى ﴿وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ إِنَّ لَهُمْ مِنْ اللَّهِ فَضْلًا كَبِيرًا﴾ (٧) [الأحزاب].

وقال أيضًا: ﴿لِنُدْخِلَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَيُكَفَّرُ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ﴾ [الفتح: ٥] فيبين الله ما يفعل به وبهم^(١).

وعليه يُحمل قول الحسن أن النبي ﷺ كان يعلم ما يفعل به في الآخرة، أي: بعد صدر الإسلام حين أخذ الله ميثاقه في الرسل وأعلمه به، فإن آية الميثاق مدنية، وهذه السورة مكية.

وكان ﷺ لا يدري ما يفعل الله به في الدنيا أيضًا حتى أعلمه الله تعالى به، فقد أعلمه أنه لن يُقتل بمقتضى قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لَكَ إِنَّ رَبَّكَ أَحَاطَ بِالنَّاسِ﴾ [الإسراء: ٦٠].

يقول: أحطت لك بالعرب ألا يقتلوك، فعرف أنه لا يُقتل، ثم أنزل الله: ﴿هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ﴾ [الفتح: ٢٨].

فعلم أن دينه سيظهر على سائر الديانات، وقال له في أمته: ﴿وَمَا كَانِ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ وَمَا كَانِ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾ [الأنفال] فعلم ما يصنع الله به وبأمرته^(٢). حيث حفظه وعصم دمه بمقتضى قوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ﴾ [المائدة: ٦٧].

فالخلاصة: أن الله تعالى قد أعلم نبيه عن طريق الوحي ما يفعل به وبأمرته في الدنيا والآخرة.

ومهمة النبي ﷺ مقصورة على الإنذار، قال تعالى: ﴿وَمَا أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ مُبِينٌ﴾ أبين لكم ما أمرت أن أنذركم به، وأوضح لكم الحق من الباطل، والحلال من الحرام، وأخوفاكم سوء المصير إذا بقيتم على شرككم، وهو ﷺ مبشر لمن أطاع ربه بدخول الجنة:

قال تعالى: ﴿وَبَشِّرِ الَّذِينَ ءَامَنُوا أَنْ لَهُمْ قَدَمٌ صِدْقٍ عِنْدَ رَبِّهِمْ﴾ [يونس: ٢].

(١) «تفسير الطبري» (١٢١/٢١) أخرجه أبو داود في ناسخه من طريق عكرمة عن ابن عباس، كما في «الدر المنثور» (٣١٣/١٣)، وهو في المنار المتيف ج ١ مذكور في الضعاف.

(٢) أخرجه الطبري بهذا المعنى (١٢٢/٢١).

لَا عُذْرَ لِأَهْلِ الْكِتَابِ فِي انْكَارِ الْوَحْيِ الْمُنْزَلِ عَلَى مُحَمَّدٍ ﷺ

١٠- ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كَانَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَكَفَرْتُمْ بِهِءِ وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِنْ بَنِي إِسْرَءِيلَ عَلَى مِثْلِهِ فَقَامَنَ وَاسْتَكْبَرْتُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴿١٠﴾﴾

ثم ذكر سبحانه وتعالى حجة أخرى، لمن يطعنون في القرآن لعلها تردُّ المكذبين إلى الحق، فذكرهم بإيمان بعض بني إسرائيل: ﴿قُلْ﴾ أيها الرسول لمن جحد رسالتك، وجحد القرآن الذي جئت به: ﴿أَرَأَيْتُمْ﴾ أخبروني ماذا تقولون ﴿إِنْ كَانَ﴾ هذا القرآن قد نزل ﴿مِنْ عِنْدِ اللَّهِ﴾ حقًا والحال أنكم قد كذبتُم ﴿وَكَفَرْتُمْ بِهِءِ﴾ مع أن شاهدًا من بني إسرائيل هو عبد الله بن سلام قد شهد بالصدق على مثله في المعنى والتوحيد، وهو التوراة، فآمن الشاهد بالقرآن وبمن جاء به، واستكبرتم أنتم عن الإيمان به، أَلستم تكونون على رأس الظالمين الجاحدين لكل ما هو حق وصدق؟

والآية لم تشر إلى عبد الله بن سلام صراحة، وقد صح في الحديث أنه المراد في الآية كما سيأتي، وهي تنطق بأن شاهدًا موثقًا للحق، من الذين عندهم علم من الكتب المنزلة، قد آمن واهتدى، واستكبرتم أنتم - أيها الجاهلون المكذبون - فهل يوجد ظلم وكفر أعظم من هذا؟

وجواب الشرط في الآية محذوف، تقديره: أفترّون أنفسكم ضالين؟ أو: أَلستم تكونون ظالمين لأنفسكم بالكفر، وظالمين للحق الذي جئتم به من عند ربكم؟ ونظيره قوله تعالى: ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كَانَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ ثُمَّ كَفَرْتُمْ بِهِءِ مَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ هُوَ فِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ ﴿٥٢﴾﴾ [فصلت].

شاهد بني إسرائيل على مثل القرآن:

واختلف أهل التفسير في المراد بالشاهد من قوله تعالى: ﴿وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِنْ بَنِي إِسْرَءِيلَ عَلَى مِثْلِهِ﴾ على ثلاثة أقوال:

فقليل: هو موسى عليه السلام.

وقيل: هو شاهد غير معين من بني إسرائيل.

وقيل: هو عبد الله بن سلام.

ودليل القول الأول: قول مسروق: والله ما نزلت هذه الآية في عبد الله بن سلام؛ لأن آل حميم نزلت بمكة، وإنما أسلم عبد الله بن سلام بالمدينة، ونزلت الآية في محاجة كانت من رسول الله ﷺ لقومه^(١).

والتوراة في الأصل مثل القرآن، في المعنى والأمر بالتوحيد، فشهد موسى على التوراة، وشهد محمد على القرآن، وكلُّ منهما يصدّق الآخر.

فيكون المعنى: وشهد موسى على التوراة، وهي مثل القرآن، كما شهد محمد على القرآن أنه كلام الله، فأمن مَنْ آمَنَ بموسى والتوراة، واستكبرتم أنتم يا معشر العرب أن تؤمنوا بمحمد والقرآن^(٢).

ودليل القول الثاني: أن الشاهد اسم جنس يعُمُّ عبد الله بن سلام وغيره، فإن الآية مكية، وإسلام عبد الله كان بالمدينة، وهي كقوله تعالى: ﴿وَإِذَا يُنَادِي عَلَيْهِمْ قَالُوا ءَامَنَّا بِهِ إِنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّنَا إِنَّا كُنَّا مِنْ قَبْلِهِ مُسْلِمِينَ﴾ [القصص: ٥٣].

وقوله أيضًا: ﴿إِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مِنْ قَبْلِهِ إِذَا يُنَادِي عَلَيْهِمْ بِحُجَّتٍ لَدَفَقَانِ سُجَّدًا﴾ [الأنعام: ١٧] وَيَقُولُونَ سُبْحَنَ رَبِّنَا إِنْ كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا [الأنعام: ١٨] [الإسراء: ٥٣].

وقد كان لأهل مكة صلة ومخالطة بيهود المدينة وخبير في التجارة، فلما ظهرت دعوة النبي ﷺ كان أهل مكة يسألون من يلقون من اليهود عن أمر الديانات والرسول، فكانوا يخبرونهم ببعض الأخبار عن رسالة موسى وكتابه، وكيف أظهره الله على فرعون^(٣).

والقول الثالث: هو قول الجمهور أن المراد بالشاهد: هو عبد الله بن سلام، واستدلوا على ذلك بالأحاديث والآثار، منها:

١- عن عامر بن سعد بن أبي وقاص عن أبيه ؓ قال: ما سمعت رسول الله ﷺ يقول لأحد يمشي على وجه الأرض: إنه من أهل الجنة إلا لعبد الله بن سلام، قال: وفيه

(١) الطبري (١٢٥/٢١) وابن أبي حاتم كما في «تفسير ابن كثير» و«الدر المنثور» للآية.

(٢) «تفسير الخازن» بتصرف (١٢٥/٤).

(٣) قال بهذا ابن جرير وابن أبي حاتم والشعبي وابن عبد البر في «الاستيعاب»، يُنظر: «تفسير ابن كثير» (٧/

٢٧٨) و«تفسير التحرير والتنوير» (٢٠/١٢).

نزلت ﴿وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنْ بَنِي إِسْرَءِيلَ عَلَىٰ مِثْلِهِ﴾^(١).

٢- وصحَّ من حديث عوف بن مالك الأشجعي رضي الله عنه، أنه كان يمشي مع النبي ﷺ فدخلوا كنيسة اليهود بالمدينة يوم عيدهم، وكرهوا دخولها عليهم، فقال ﷺ: «يا معشر اليهود، أروني اثني عشر رجلاً يشهدون أن لا إله إلا الله وأني رسول الله، يحط الله عن كل يهوديٍّ تحت أديم السماء الغضب الذي عليه» قال لهم ذلك ثلاثاً، فلم يجبه أحد، فقال: «أبيت، فوالله إني لأنا الحاشر، وأنا العاقب، وأنا المقفّي، أمتم أو كذبتم».

قال عوف: فانصرفنا، ولما اقتربنا من الخروج، إذ برجل من خلفنا يقول: كما أنت يا محمد، ثم توجه إلى اليهود، فقال: أي رجل تعلمون فيكم يا معشر اليهود؟ قالوا: ما نعلم أن فينا رجلاً أعلم منك بكتاب الله ولا أفقه، ولا من أهلك ولا من جدك من قبلك، قال: فإني أشهد له بالله، أنه نبي الله الذي تجدونه في التوراة، قالوا: كذبت، وردّوا عليه شراً، فقال رسول الله ﷺ: «أثبتتم عليه من الخير أنفاً ما أثبتتم، ولما آمن كذبتموه وقتلتم ما قتلتم، لن يُقبل قولكم» قال عوف: فخرجنا ونحن ثلاثة: رسول الله ﷺ، وأنا، وعبد الله بن سلام، فأنزل الله الآية: ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كَانَ مِنَ عِنْدِ اللَّهِ وَكَفَرْتُمْ بِهِ﴾^(٢).

ففي هذا الحديث أن الآية نزلت في عبد الله بن سلام وهي مدنية كما قال ابن عطية وغيره.

٣- وروى البخاري وغيره عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: بلغ عبد الله بن سلام مقدّم النبي ﷺ المدينة، وهو في أرض يخترف النخل، فأتاه وقال: إني سائلك عن ثلاث لا يعلمهن إلا نبي: ما أول أشرط الساعة؟ وما أول طعام يأكله أهل الجنة؟ ومن أي شيء ينزع الولد إلى أبيه، ومن أي شيء ينزع إلى أخواله؟ فقال ﷺ: «أخبرني بهن أنفاً جبريل»، قال: فقال عبد الله: ذاك عدو اليهود من الملائكة، فقرأ هذه الآية: ﴿مَنْ كَانَ عَدُوًّا

(١) «صحيح البخاري» برقم (٣٨١٢) و«صحيح مسلم» (٢٤٨٣) والنسائي في «السنن الكبرى» (٨٢٥٢) والطبري (١٢٦/٢١).

(٢) أخرجه ابن حبان بإسناد صحيح برقم (٧٦٢) والحاكم وصححه ووافقه الذهبي، «المستدرک» (٤١٥/٣) وأحمد في «المسند» (٢٥/٦) (٢٣٩٨٤) قال محققوه: إسناده صحيح على شرط مسلم، والطبراني في «الكبير» برقم (٨٣) وقال الهيثمي في «مجمع الزوائد» (١٠٦/٧): رجاله رجال الصحيح، وأبو يعلى كما في «الإتحاف» (٥٣٩٩).

لِجِبْرِيلَ فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلَى قَلْبِكَ ﴿٩٧﴾ [البقرة: ٩٧].

فقال رسول الله ﷺ: «أَمَّا أَوَّلُ أَشْرَاطِ السَّاعَةِ: فَتَارُ تَحْشُرُ النَّاسَ مِنَ الْمَشْرِقِ إِلَى الْمَغْرِبِ، وَأَمَّا أَوَّلُ طَعَامٍ يَأْكُلُهُ أَهْلُ الْجَنَّةِ: فزِيَادَةُ كَيْدِ الْحَوْتِ، وَأَمَّا الشَّبَبُ فِي الْوَلَدِ: فَإِنَّ الرَّجُلَ إِذَا غَشِيَ الْمَرْأَةَ فَسَبَقَهَا مَاؤُهُ، كَانَ الشَّبَبُ لَهُ، وَإِذَا سَبَقَتْ كَانَ الشَّبَبُ لَهَا»، قَالَ: أَشْهَدُ أَنَّكَ رَسُولُ اللَّهِ، ثُمَّ قَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، إِنَّ الْيَهُودَ قَوْمٌ بُهْتُ، إِنْ عَلِمُوا بِإِسْلَامِي قَبْلَ أَنْ تَسْأَلَهُمْ عَنِي بِهَتُونِي، فَجَاءَتِ الْيَهُودُ، وَدَخَلَ عَبْدُ اللَّهِ الْبَيْتَ، فَقَالَ ﷺ: «أَيُّ رَجُلٍ فَيَكُمُ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ سَلَامٍ؟» قَالُوا: أَعْلَمْنَا وَابْنُ أَعْلَمِنَا، وَخَيْرُنَا وَابْنُ خَيْرِنَا، فَقَالَ ﷺ: «أَفَرَأَيْتُمْ إِنْ أَسْلَمَ عَبْدُ اللَّهِ؟» قَالُوا: أَعَاذَهُ اللَّهُ مِنْ ذَلِكَ.

زاد في رواية: فأعاد عليهم، فقالوا مثل ذلك، قال: فخرج عبد الله إليهم فقال: أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمداً رسول الله، فقالوا: شرتنا وابن شرتنا، ووقعوا فيه. وفي رواية ثالثة: فقال عبد الله بن سلام: هذا الذي كنت أخاف يا رسول الله^(١).

وعلى هذا فإن عبد الله بن سلام آمن بالنبي ﷺ وشهد بصحة نبوته، واستكبر اليهود فلم يؤمنوا، وعليه فالآية مدنية^(٢) وعبد الله بن سلام أول من أسلم بالمدينة.

٤- وأخرج الطبري بسند صحيح عن مجاهد، وسند حسن عن قتادة: أن الآية نزلت في عبد الله بن سلام.

٥- وفي سنن الترمذي وغيره عن عبد الله بن سلام أنه قال: في نزلت آيات من كتاب الله: ﴿وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنْ بَنِي إِسْرَءِيلَ﴾ ونزل في: ﴿قُلْ كَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَمَنْ عِنْدُهُ عِلْمٌ الْكِتَابِ﴾^(٣) [الرعد: ٤٣].

قلت: هذه أدلة صحيحة تشير إلى أن الآية مدنية نزلت في عبد الله بن سلام، وأنه المقصود

(١) «صحيح البخاري» بأرقام (٣٣٢٩، ٣٩١١، ٣٩٣٨، ٤٤٨٠) و«صحيح مسلم» (١٤٧٠) و«المسند» (١٢٠٥٧) وابن حبان (٧١٦١) و«السنن الكبرى» للنسائي (٨١٩٧).

(٢) وبهذا قال ابن عباس، ومجاهد، والضحاك، وقاتدة، وعكرمة، ويوسف بن عبد الله بن سلام، وهلال بن يساف، والسدي، والثوري، ومالك بن أنس.

(٣) الترمذي (٣٢٥٦، ٣٨٠٣) والطبري (١٢٧/٢١) وابن مردويه كما في «الفتح» (١٣٠/٧).

بالشاهد في الآية، فقد شهد بصحة التوراة المماثلة للقرآن في كونهما من عند الله، وأن كليهما يدعو إلى التوحيد، فلما بعث محمد ﷺ آمن به عبد الله بن سلام كما بشرت التوراة، وشهد بصدق القرآن، واستكبر اليهود عن الإيمان به.

وقد ختم الله الآية بقوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ وعدم الإيمان برسالة خاتم النبيين أشد الظلم وأعظم الكفر، والله تعالى لا يوفق الذين ظلموا أنفسهم بكفرهم بالله تعالى وجحودهم بوحدانيته، إلى الإسلام وإصابة الحق.

اِخْتِقَارُ الضُّعَفَاءِ أَمْرٌ مَذْمُومٌ يَمَقُّتُهُ الْإِسْلَامُ

١١- ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا لَوْ كَانَ خَيْرًا مَّا سَبَقُونَا إِلَيْهِ وَإِذْ لَمْ يَهْتَدُوا بِهِ فَسَيَقُولُونَ هَذَا إِفْكٌ قَدِيمٌ﴾

وتمضي الآيات في سرد أقوال المكذبين الجاحدين برسالة محمد ﷺ فتبين أن أول من سارع إلى الدخول في الإسلام كان الفقراء والموالي، أمثال: بلال، وعمّار، وابن مسعود، وصهيب، وخبّاب، وسميّة، وأمة رومية كانت من السابقين إلى الإسلام وعذبها المشركون، ومن أعتقهن أبو بكر .

عن عروة بن الزبير ، أن عظماء قريش قالوا: لو كان ما جاء به محمد خيراً ما سبقتنا إليه زئيرة^(١)، وزئيرة كانت أمة لعمر . أسلمت قبله، وكان يضربها على إسلامها.

فكان إسلام هؤلاء وأشباههم مغمراً في نظر المتكبرين من قريش، فهم يزعمون أن لهم العظمة والجاه والسبق إلى كل مكرمة؛ لأنهم أصحاب المال والسلطان، أما هؤلاء الفقراء من الضعفاء والعبيد فإنهم لا خير فيهم، ولا سبق لهم إلى خير، وهكذا قال اليهود عن عبد الله بن سلام حين أسلم.

﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ أي: جحدوا نبوة محمد ﷺ، وردّوا دعوته، وهم قبيلتا أسد وغطفان، قالوا على وجه السخرية والاستهزاء ﴿لِلَّذِينَ آمَنُوا﴾ وهم قبيلتا جهينة ومزينة ﴿لَوْ كَانَ﴾ دين محمد وما جاء به حقاً وخيراً ﴿مَّا سَبَقُونَا إِلَيْهِ﴾ أي: ما سبقنا إلى التصديق

(١) «تفسير التحرير والتنوير» (١٢/٢٢).

به فلان وفلان من المستضعفين والموالي والإماء الذين أسلموا، وهم لا يعلمون أن الله تعالى يختص برحمته من يشاء، ويؤتي فضله من يشاء، فنحن كبار القوم وسادتهم وهم الضعفاء الفقراء، وهذا كقوله تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لِّيَقُولُوا أَهَؤُلَاءِ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِن بَيْنِنَا﴾ [الأنعام: ٥٣].

وكما قال قوم نوح له: ﴿وَمَا نَرَاكَ اتَّبَعَكَ إِلَّا الَّذِينَ هُمْ أَرَادُوا بُادِيَ الرَّأْيِ وَمَا نَرَى لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍ بَلْ نَظُنُّكُمْ كَاذِبِينَ﴾ [هود: ٢٧].

وهكذا، فإنهم لما لم يهضموا أنفسهم على الإيمان به، أخذوا يذموه، وإلا فأَيُّ دليل على أن الحق لا يكون حقا إلا إذا اتبعه أولا كبار القوم؟! فهل هم أذكى نفوسا أو أكمل عقولا؟ أم أن الهدى بأيديهم؟

والجواب: لا شيء من ذلك، وما هو إلا تخاذل وانطماس بصيرة، نسأل الله العفو والعافية.

ثم بين سبحانه أن غير المسلمين إذا لم تحصل لهم هداية بالقرآن، وبما جاء عن رسول الله ﷺ، فإنهم سيستمرون في عنادهم واستكبارهم وطعنهم في القرآن، فقال جل شأنه: ﴿وَإِذْ لَمْ يَهْتَدُوا بِهِ﴾ مع وضوح دلائله وإعجازه ﴿فَسَيَقُولُونَ هَذَا إِفْكٌ قَدِيمٌ﴾ أي: يقولون: إن هذا القرآن كذب مأثور عن الأقدمين من أخبار السابقين، كما قال تعالى عنهم: ﴿وَقَالُوا أَأُتِىَ الْأَوَّلِينَ أَكُتِبَ عَلَيْهَا فَهِيَ تُمْلَى عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا﴾ [الفرقان].

﴿وَإِذْ﴾ في الآية ظرف لكلام محذوف تقديره: وإذ لم يهتدوا بالقرآن ظهر عنادهم واستكبارهم، وقالوا: هذا إفك قديم.

وقد استوفت السورة وجوه الطعن في القرآن من قولهم: ﴿سِحْرٌ مُّبينٌ﴾، وقولهم: ﴿أَفْتَرَاهُ﴾، وقولهم: ﴿لَوْ كَانَ خَيْرًا مَّا سَبَقُونَا إِلَيْهِ﴾، وقولهم: ﴿إِفْكٌ قَدِيمٌ﴾ فلا مطمع في إقلاعهم عن الضلال في المستقبل، كما لم يقلعوا عنه في الماضي.

ثم بين - سبحانه - أن القرآن هو الحق الذي لا مرية فيه، وقد نزل موافقا لأفضل الكتب السماوية بعد القرآن وهو التوراة:

الْوَحْيُ الَّذِي نَزَلَ عَلَى مُوسَى هُوَ الْوَحْيُ الَّذِي نَزَلَ بِالْكِتَابِ الْمُهَيْمِنِ

١٢- ﴿وَمِنْ قَبْلِهِ كَتَبَ مُوسَى إِمَامًا وَرَحْمَةً وَهَذَا كِتَابٌ مُصَدِّقٌ لِّسَانًا عَرَبِيًّا لِّنَذِرَ^(١) الَّذِينَ ظَلَمُوا وَيُنَشِّئُ لِلْمُحْسِنِينَ ﴿١٢﴾﴾

ثم بيّن سبحانه أن وحي الله إلى الرسل، سُنَّةٌ إلهية معلومة، ومن أشهرها التوراة التي نزلت على موسى ﷺ وهو بشر، كما أن القرآن نزل على محمد ﷺ وهو بشر مثله، فكيف تصفون القرآن بأنه إفك، وقد سبقه كتاب موسى وأنتم تعرفونه؟ ﴿وَمِنْ قَبْلِهِ كَتَبَ مُوسَى إِمَامًا وَرَحْمَةً﴾ أي: وأنزلنا -قبل هذا القرآن- التوراة التي نزلت على موسى، وجعلناها قُدوة يؤتم بها في دين الله وشرائعه كما يؤتم بالإمام، وجعلناها رحمة لمن آمن بها وعمل بما فيها، كما قال تعالى: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَا التَّوْرَةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ﴾ [المائدة: ٤٤].

قال الفخر الرازي: ووجه تعلق الآية بما قبلها أن المشركين طعنوا في صحة القرآن، وقالوا: لو كان خيرًا لَمَا سبقنا إليه هؤلاء الضعفاء الصعاليك، فردّ الله عليهم بأنكم لا تُنازعون أن الله تعالى أنزل التوراة على موسى، وجعلها إمامًا يُقتدى به، ثم إنها مشتملة على البشارة بمحمد ﷺ فإذا سلّمتم كونها من عند الله، فاقبلوا حكمها بأن محمدًا ﷺ رسول الله حقًا من عند الله^(٢).

ثم أثنى سبحانه على هذا القرآن، وبيّن أنه الكتاب المهيمن على الكتب السماوية التي نزلت قبله، فقال: ﴿وَهَذَا﴾ أي: القرآن ﴿كِتَابٌ عَظِيمُ الشَّانِ﴾ ﴿مُصَدِّقٌ﴾ لما قبله من الكتب، بموافقتها لها ﴿لِسَانًا عَرَبِيًّا﴾ أي: أنزلناه بلسان عربي، هو أفصح اللغات، وأنفذها في نفوس السامعين، قال تعالى: ﴿فَإِنَّمَا يَسَّرْنَاهُ بِلِسَانِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ [الدخان].

وقال سبحانه: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ فَيُضِلُّ اللَّهُ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ﴾ [إبراهيم: ٤].

فالقرآن كتاب عظيم الشأن، وهو أفصح بيانا، وأظهر برهانا، وأبلغ إعجازًا من التوراة.

(١) قرأ نافع وابن عامر وأبو جعفر ويعقوب والبيزي بخلف عنه بناء الخطاب في (لتنذر)، والمخاطب هو النبي ﷺ، والباقون بياء الغيب وهو الوجه الثاني للبيزي، والضمير يرجع إلى القرآن.

(٢) «التفسير الكبير» (١٢/٢٨).

وقد اقتضت حكمة الله تعالى أن يجعل وظيفة هذا القرآن إنذارًا للظالمين بسوء المصير إذا أصرُّوا على ظلمهم، وبُشِّرَى حسنة لمن آمن وأحسن، فقال: ﴿لِيُنذِرَ الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ أنفسهم بالكفر والشرك والمعاصي والفسق والفجور، إن استمروا على ما هم فيه ﴿وَبُشِّرَى لِلْمُحْسِنِينَ﴾ الذين أطاعوا ربهم، وأحسنوا في إيمانهم وهم في الدنيا، وأحسنوا في طاعتهم لله، وأحسنوا في تعاملهم مع الناس.

الإِحْسَانُ إِيمَانٌ وَاسْتِقَامَةٌ

١٣- ﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا^(١) هُمْ يَحْزَنُونَ

ولما ذكر سبحانه أن المحسنين لهم البشرى، بيَّن جُلَّ شأنه أن المحسنين هم الذين قالوا: ربنا الله، فشهدوا له بالوحدانية والتزموا طاعته، ثم استقاموا على أعمالهم مدة حياتهم، وأن البشرى التي أعدها الله لهم، هي عدم الخوف من المستقبل، وعدم الحزن على ما مضى، وأنهم أصحاب الجنة، فالمحسنون هم الذين قالوا بألستهم: ربنا الله، واعتقدوها في ضمائرهم، ثم استقاموا على ذلك في أقوالهم وأفعالهم، فأخلصوا لله في إيمانهم وطاعتهم لكل ما أمر الله به، واجتنبوا بقوة، كل ما نهاهم الله عنه، وثبتوا على ذلك، فجمعوا بين التوحيد والإيمان، والاستقامة على شرع الله، واتخذوه منهج حياة يشمل كل نشاط وكل اتجاه، وكل حركة وكل خالجة، فله العبادَة وحده، ومنه الخشية، وعليه الاعتماد، ولا خوف إلا منه، ولا احتكام إلا إلى شريعته، ولا اهتداء إلا بهديه.

ثم إن الذين استقاموا وثبتوا على طاعة الله، لا يخافون من مكروه يصيبهم في الآخرة، ولا يخافون من الفزع الأكبر إذا خاف الناس، ولا يفزعون إذا فزع الناس من أهوال يوم القيامة، ولا يحزنون على شيء تركوه وراءهم من حظوظ الدنيا؛ لأنهم في سعادة مستمرة، وسرور دائم، لا يعكِّره خوف من مستقبل مجهول، ولا حزن على أمر قد مضى. قال تعالى مبيِّنًا مصير أهل الإيمان والاستقامة:

(١) قرأ يعقوب بفتح الفاء من غير تنوين على أن (لا) نافية للجنس، والباقون بالرفع مع التنوين على أن (لا) نافية للوحدة.

١٤ - ﴿أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ خَالِدِينَ فِيهَا جَزَاءٌ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾

أما مصير أهل الاستقامة في الآخرة فهو الخلود الأبدي في جنة نعيم ﴿أُولَئِكَ﴾ الذين جمعوا بين التوحيد والإيمان والاستقامة، الموصوفون بالثبات على دين الله هم ﴿أَصْحَابُ الْجَنَّةِ﴾ لهم فيها ما يشاؤون من ألوان النعيم ﴿خَالِدِينَ فِيهَا﴾ ماكثين فيها أبداً، وقد نالوا هذا الجزاء الطيب بما قدموه من عمل صالح في دنياهم ﴿جَزَاءٌ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ في الدنيا من إيمان واستقامة وورع وإخلاص.

بِرُّ الْوَالِدَيْنِ قَرِينُ الْإِيمَانِ

١٥ - ﴿وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ إِحْسَانًا^(١) حَمَلَتْهُ أُمُّهُ كُرْهًا^(٢) وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا^(٣) وَفَضَّلَهُ^(٤) ثَلَاثُونَ شَهْرًا^(٥) حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُ^(٦) وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً^(٧) قَالَ رَبِّ ارْزُقْنِي^(٨) إِنِّي أَشْكُرُ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ وَأَصْلِحْ لِي فِي ذُرِّيَّتِي^(٩) إِنِّي تُبْتُ^(١٠) إِلَيْكَ وَإِنِّي مِنَ الْمُسْلِمِينَ^(١١)﴾

وقد جرت عادة القرآن الكريم أن يبدأ في وصاياه بتوحيد الله تعالى وعدم الإشراك به، ويُنثي ببر الوالدين والإحسان إليهما، ولما ذكر سبحانه أن المؤمنين المستقيمين على شرع الله لا يخافون ولا يحزنون، وأن مصيرهم إلى جنة ربهم، أعقب ذلك بوصية الإنسان أن يُحسن إلى والديه.

وكما بيّنت الآيات السابقة أن بعض الناس استجاب لدعوة النبي ﷺ وبعضهم كفر به، بيّن سبحانه أن بعض الناس أيضًا قد يكون مؤمنًا بارًا بوالديه محسنًا إليهما، وبعضهم قد يكون كافرًا منكرًا للبعث عاقًا لوالديه، فذكر في هذه الآية والتي بعدها مثالًا للابن المؤمن البار، وفي الآيتين بعدهما مثالًا آخر للابن الكافر العاق.

(١) قرأ عاصم وحزمة والكسائي وخلف العاشر (إِحْسَانًا) على أنه مصدر حُذِفَ عامله، أي: وصيناه أن يحسن إليهما إحسانًا، وقرأ الباقر (حُسْنًا) مفعول به.

(٢) قرأ ابن ذكوان وعاصم وحزمة والكسائي ويعقوب وخلف وهشام بخلف عنه بضم الكاف في (كُرْهًا)، والباقر بفتحها وهو الوجه الثاني لهشام، وهما لغتان بمعنى واحد.

(٣) قرأ يعقوب (وَفَضَّلَهُ)، والباقر (وفضاله) وهما مصدران بمعنى واحد.

(٤) قرأ الأزرق والبرقي بفتح ياء الإضافة من (أَوْزَعْنِي أَنْ)، والباقر بإسكانها.

قال تعالى: ﴿وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ إِحْسَانًا﴾ أي: أمرناه أن يحسن صحبة والديه، بالقول للطف، والكلام للين، وبذل المال والنفقة، وطيب العشرة، وحسن الخلق، برًا بهما في حياتهما وبعد مماتهما؛ وذلك لأن لهما الفضل الثاني بعد الله ﷻ في وجوده في هذه الحياة، وقد جعل الله رضاه في رضاهما، وسخطه في سخطهما، وأمر بحسن صحبتهما ولو كانا مشركين، وأمر بطاعتهما في غير معصية الله تعالى وإن ظلماه.

ومن الآيات التي أمرت بالإحسان إليهما:

- ١- قوله تعالى: ﴿وَأَعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا﴾ [النساء: ٣٦].
- ٢- وقوله أيضًا: ﴿وَقَصَىٰ رَبُّكَ أَلاَّ تَعْبُدُوا إِلَّا إِنَاءَهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا﴾ [الإسراء: ٢٣].
- ٣- وقوله سبحانه: ﴿وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ حُسْنًا﴾ [العنكبوت: ٨].
- ٤- وقوله تعالى: ﴿أَنِ اشْكُرْ لِي وَلِوَالِدَيْكَ﴾ [لقمان: ١٤].
- ٥- وقوله: ﴿قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا﴾ [الأنعام: ١٥١].

ثم أفردت الآية سبب الأمر بالإحسان إلى الأم، إشارة إلى أن حقها أكد من حق الأب، فقال سبحانه: ﴿حَمَلَتْهُ أُمُّهُ كَرْهًا وَوَضَعَتْهُ كَرْهًا﴾ أي: حملته جنيًا في بطنها على مشقة وتعب من حملها، تعبًا يجعلها كارهة للحمل حين أثقلت به.

وولدتها على مشقة وتعب بأوجاع وآلام، جعلتها كارهة لوضعه حين جاءها الطلق والمخاض، ولم يشاركها الأب في شيء من ذلك، وقد حملته أمه ضعفًا على ضعف، كلما ازدادت مدة الحمل ازداد الثقل والضعف.

وقد جعل الإسلام للأم ثلاثة أرباع البر بسبب الحمل، ثم الوضع، ثم الرضاعة، والربع للأب، وهذا ما يشير إليه حديث أبي هريرة ؓ حين قال رجل: يا رسول الله، من أحق الناس بحسن صحابتي؟ قال: «أمك» قال: ثم من؟ قال: «أمك» قال: ثم من؟ قال: «أمك» قال: ثم من؟ قال: «أبوك»^(١).

(١) «صحيح البخاري» (٥٩٧١) و«صحيح مسلم» (٢٥٤٨).

ثم ذكر سبحانه ما بعد الحمل والولادة من الرضاعة التي يحيا بها الطفل، ويدفع عنه بها ألم الجوع.

وُضِّمَت مدة الحمل إلى مدة الرضاعة للتداخل الذي بينهما من حيث الزيادة والنقصان، فقال جلَّ شأنه: ﴿وَحَمَلُهُ وَفِصْلُهُ﴾ أي: فطامه ﴿ثَلَاثُونَ شَهْرًا﴾ فمدة الحمل قد تكون ستة أشهر، أو سبعة أشهر، أو ثمانية أشهر، أو تسعة، وهو الغالب.

مدة الحمل:

فإذا كانت مدة الحمل تسعة أشهر، كانت مدة الرضاع واحدًا وعشرين شهرًا.

وإذا كانت مدة الحمل ثمانية أشهر، كانت مدة الرضاع اثنين وعشرين شهرًا.

وإذا كانت مدة الحمل سبعة أشهر، كانت مدة الرضاع ثلاثة وعشرين شهرًا.

وإذا كانت مدة الحمل ستة أشهر، كانت مدة الرضاع أربعة وعشرين شهرًا.

وهي أقصى مدة الرضاع التي قال الله عنها:

﴿وَالْوَلَدَاتُ يُرْضَعْنَ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ لِمَنْ أَرَادَ أَنْ يُنَمِّ الرِّضَاعَةَ﴾ [البقرة: ٢٣٣].

وقال أيضًا: ﴿وَفِصْلُهُ فِي عَامَيْنِ﴾ [لقمان: ١٤].

فكل نقص في أشهر مدة الحمل، يُعوَّض عنه بشهر زائد في مدة الرضاع؛ لأن نقصان مدة الحمل يؤثر في تكوين الطفل.

قال ابن عباس رضي الله عنهما: إذا حملت المرأة تسعة أشهر، أرضعت واحدًا وعشرين شهرًا، وإذا حملت ستة أشهر، أرضعت أربعة وعشرين شهرًا.

وهذه الآية تتسع لأن تكون مدة الحمل من ستة إلى تسعة أشهر.

وقد استدل علي بن أبي طالب رضي الله عنه بهذه الآية مع آية سورة البقرة ﴿وَالْوَلَدَاتُ يُرْضَعْنَ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ﴾ [البقرة: ٢٣٣] على أن أقل مدة الحمل تكون ستة أشهر، وبه قال ابن عباس رضي الله عنهما.

وقد ورد عن بَعْجَةَ بن عبد الله الجهني قال: تزوج رجل منا امرأة من جهينة، فولدت لتمام ستة أشهر، فانطلق زوجها إلى عثمان بن عفان، فذكر له ذلك، فبعث إليها عثمان،

فلما أتى بها أمر برجمها، فبلغ ذلك علياً فأتاه، فقال: أما تقرأ القرآن؟ قال: بلى، قال: أما سمعت قوله تعالى: ﴿وَحَمَلُهُ وَفَصَلَّهُ ثَلَاثُونَ شَهْرًا﴾ وقوله سبحانه: ﴿وَالْوَالِدَتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَدَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ﴾ فلم نجده بقي إلا ستة أشهر، فرجع عثمان إلى ذلك^(١). وقد بُني هذا الحكم على شمول اللفظ القرآني له.

وعن أبي حرب بن أبي الأسود الدؤلي عن أبيه قال: رُفِعَ إلى عمر امرأة ولدت لسته أشهر، فسأل عنها أصحاب النبي ﷺ، فقال عليّ ؓ: لا رَجُمَ عليها، ألا ترى أن الله تعالى يقول: ﴿وَحَمَلُهُ وَفَصَلَّهُ ثَلَاثُونَ شَهْرًا﴾ وقال أيضاً: ﴿وَفَصَلَّهُ فِي عَامَيْنِ﴾ [لقمان: ١٤]. وكان الحمل ها هنا ستة أشهر، قال: ثم بلغنا أنها ولدت آخر لسته أشهر^(٢).

بلوغ الأشد والدعاء للنفس وللوالدين:

وبعد أن بقي الإنسان في بطن أمه ما بقي، وبعد أن وضعته وأرضعته وفطمته وتولته برعايتها، واستمرت حياته على ذلك حتى بلغ كمال قوته وشبابه في سن الثالثة والثلاثين، ثم جاوزها حتى بلغ استكمال القوة العقلية والبدنية في سن الأربعين، فشكر ربه على ما أسبغ عليه من نعم في أطوار حياته، وسأله التوفيق للعمل الصالح وصلاح الذرية، وهذا معنى ﴿حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُ﴾ أي: واستمر الإنسان المؤمن بالله واليوم الآخر، البار بوالديه، على الإحسان إليهما، من سن الطفولة وفترة المراهقة، إلى سن الشباب، حتى بلغ أشده بكمال القوة العقلية والجسدية، وهي الفترة من سن الثلاثين إلى سن الأربعين التي قال الله عنها: ﴿وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً﴾ وهي أكمل المدة، كما قال تعالى عن موسى ؑ: ﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَاسْتَوَىٰ﴾ [القصص: ١٤].

وعندما يبلغ الإنسان سن الرشد، يطلب العون من الله تعالى على زيادة الإحسان إلى والديه، بأن يلهمه الشكر على نعمه عليه وعلى والديه.

ومن جملة النعم التي يُنعم الله بها على الابن، أن يوفقه إلى الإحسان إلى والديه، ومن نعم الله تعالى على الوالدين: أن سخر لهما هذا الولد ليحسن إليهما، فدعا ربه بهذا

(١) «الدر المنثور» للسيوطي (٧/ ٤٤١) عن ابن المنذر وابن أبي حاتم.

(٢) «مصنف عبد الرزاق» (١٣٤٤٤).

الدعاء: ﴿قَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ﴾ أي وقِّفني يا رب، وألهمني أن أشكر نعم الدين ونعم الدنيا، وشكُر الله تعالى بصرف النعم في طاعته وعدم استعمالها في معاصيه، وهي ﴿الَّتِي أَنْعَمْتَ﴾ بها ﴿عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَلَدَيَّ﴾ بالهداية، وحنَّتَ قلوبهما عليَّ حين ربياني صغيرًا.

شكا أبو معشر ابنه إلى طلحة بن مُصَرِّف، فقال: استعن عليه بهذه الآية ﴿رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ﴾.

فالإنسان يستمر في إحسانه إلى الوالدين مدى حياته، ولا يفتر عن الإحسان إليهما بكل وجه حتى بالدعاء لهما.

وخص بالذكر بلوغ الأشد، حيث تكثر الأعباء والأعمال، وتزداد المشاغل، فلا ينبغي أن يشغله ذلك عن بر والديه والإحسان إليهما.

كما تشير الآية إلى أن دعاء الإنسان لنفسه ولذريته وزوجته، لا يُنسيه الدعاء لوالديه بظهور الغيب عند مناجاته لربه.

وتشير الآية أيضًا إلى إكثار الإنسان من التضرع إلى ربه، والتزود بالعمل الصالح عند بلوغ الأشد، فهو السن التي يوحى الله فيها إلى الأنبياء في الغالب.

وقد علّمنا الله تعالى الدعاء إلى الوالدين بعد موتهما في قوله: ﴿وَقُلْ رَبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيْتَنِي صَغِيرًا﴾ [الإسراء: ٢٤].

ووعده الله تعالى بإجابة الدعاء على لسان رسوله ﷺ في حديث أبي هريرة ؓ: «إذا مات الإنسان انقطع عمله إلا من ثلاث: صدقة جارية، أو علم ينتفع به، أو ولد صالح يدعو له»^(١).

وعن أبي أسيد مالك بن ربيعة الساعدي: أن رجلاً من بني سلمة قال للنبي ﷺ: هل بقي عليّ من برّ أبوي شيء أبرهما به بعد موتهما؟ فقال ﷺ: «نعم، الصلاة عليهما، والاستغفار لهما، وإكرام صديقهما، وإنفاذ عهدهما، وصلّة الرحم التي لا توصل إلا بهما»^(٢).

(١) «صحيح مسلم» (١٦٣١).

(٢) أبو داود (٥١٤٢) وابن حبان (٢٠٣٠) وفي سننه علي بن عبيد الساعدي، لم يوثقه غير ابن حبان، وبقية رجاله ثقات. وهو في مستدرك الحاكم برقم (٧٢٦٠).

وفي حديث الفضل بن عباس رضي الله عنه أن المرأة الخثعمية قالت لرسول الله ﷺ في حجة الوداع: إن فريضة الله على عباده في الحج أدركت أبي شيخاً كبيراً لا يثبت على الراحلة، أفئجزئ أن أحج عنه، قال: «نعم، حجي عنه»^(١).

ويشترط أن تكون قد حجّت عن نفسها، وهذا الحج غير واجب على أبيها؛ لأنه عاجز ببدنه، وحجها عنه يُجزىء.

وعندما يدعو الإنسان لنفسه ولوالديه ينبغي عليه أن يسأل ربه صلاح الذرية، فكما أحسن إلى والديه عليه أن يُحسن إلى أولاده، فيدعو لهم بالصلاح قائلاً: ﴿وَأَصْلِحْ لِي فِي ذُرِّيَّتِي﴾ ودعوة الوالد لولده مظنة الإجابة.

في سبب النزول:

قيل: إن هذه الآية نزلت في أبي بكر الصديق رضي الله عنه، وذلك أنه عندما كان ابن ثمانين عشرة سنة، وكان النبي ﷺ ابن عشرين سنة، صحبه في تجارة إلى الشام، فنزلاً منزلاً فيه سدره، فقعد النبي ﷺ في ظلها، ومضى أبو بكر إلى راهب هناك يسأله عن الدين، فقال له الراهب: مَنْ الرجل الذي في ظل السدره؟ قال: هو محمد بن عبد الله بن عبد المطلب، فقال الراهب: هذا والله نبي، وما استظل تحتها بعد عيسى أحد إلا هذا، وهو نبي آخر الزمان، فوقع في قلب أبي بكر اليقين والتصديق، فكان لا يُفارق النبي ﷺ في سفر ولا حضر، فلما بلغ رسول الله ﷺ أربعين سنة أكرمه الله تعالى بنبوته، واختصه برسالته، فأمن به أبو بكر وصدّقه، وهو ابن ثمان وثلاثين سنة، فلما بلغ أربعين سنة دعا ربه ﷻ بما ورد في الآية ﴿قَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي﴾ إلخ الآية^(٢).

وقال علي بن أبي طالب رضي الله عنه في قوله تعالى: ﴿وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ إِحْسَانًا﴾ إنها نزلت في أبي بكر رضي الله عنه، أسلم أبواه جميعاً، ولم يجتمع لأحد من المهاجرين أن أسلم أبواه غيره، فأوصاه الله بهما، ولزم ذلك مَنْ بعده.

(١) البخاري (١٥١٣، ٦٢٢٨) ومسلم (١٣٣٤) وأبو داود (١٨٠٩) و«المسند» (١٨٩٠) وابن حبان (٣٩٨٩) والنسائي في «السنن الكبرى» (٣٦٠٧).

(٢) «تفسير الخازن» (١٢٥/٤) و«أسباب النزول» للواحدي (٢١٦) و«الدر المشثور» (٤٠/٦).

ولما دعا أبو بكر ربه أن يعمل صالحًا يرضاه، أجاب الله تعالى دعاءه، فأعتق تسعة من المؤمنين يُعَذَّبون في الله، منهم: بلال، ولم يُرد أبو بكر شيئًا من الخير إلا أعانه الله عليه، كما قال ابن عباس رضي الله عنه.

ولما دعا أبو بكر ربه أن يُصلح له في ذريته، أجابه الله تعالى، فلم يكن له ولد إلا آمن، فاجتمع لأبي بكر إسلام أبويه: أبي قحافة، عثمان بن عمر، وأم الخير بنت صخر بن عمرو، وابنه عبد الرحمن، ومحمد بن عبد الرحمن، فهؤلاء أربعة: أبو بكر، وأبوه، وابنه عبد الرحمن، وابن ابنه محمد، كلهم أدركوا النبي ﷺ وأسلموا، ولم يجتمع ذلك لأحد من الصحابة غير أبي بكر.

وقد طلب هذا الداعي من الله تعالى ثلاثة أشياء:

الأول: أن يوفقه للشكر على النعمة.

والثاني: أن يوفقه للإتيان بالطاعة المرضية عنده سبحانه.

والثالث: أن يصلح له في ذريته، وهذا كمال السعادة البشرية^(١).

والآية عامة، ويدخل فيها أبو بكر رضي الله عنه دخولاً أوليًا.

ثم يتوسل العبد إلى ربه بعمله الصالح أن يتقبل منه دعاءه، فيقول: ﴿إِنِّي نُبْتُ إِلَيْكَ﴾ من جميع الذنوب ﴿وَإِنِّي مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ المتمسكين بالإسلام، الملتزمين بالأوامر والنواهي الشرعية، المنقادين لحكم الكتاب والسنة.

وفي الآية إرشاد إلى تجديد التوبة والإنابة إلى الله ﷻ، والإكثار من ذلك في أواخر العمر. قال تعالى:

١٦ - ﴿وَلِلَّهِ الَّذِينَ نَقَبِلُ^(٢) عَنْهُمْ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا وَنَتَجَاوَزُ عَنْ سَيِّئَاتِهِمْ فِي أَصْحَابِ الْجَنَّةِ وَعَدَ الصِّدْقَ الَّذِي كَانُوا يُوعَدُونَ ﴿١٦﴾﴾

(١) «حاشية البيضاوي» (٣/ ٣٣٦).

(٢) قرأ نافع وابن كثير وأبو عمرو وابن عامر وشعبة وأبو جعفر ويعقوب (يُنْقَبِلُ) بالياء والبناء للمجهول، ورفع (أحسن) نائب فاعل (ويُنْتَجَاوَزُ) بالبناء للمجهول والياء، ونائب فاعل (يُنْتَجَاوَزُ) الجار والمجرور بعده، وقرأ الباقر (ننقبِل) بالنون والبناء للمعلوم ونصب (أحسن) مع البناء للفاعل في (ونتجاوز).

ثم يبين سبحانه أن الذين تابوا وأنبأوا إلى ربهم، وسألوه أن يوفقهم للعمل الصالح، وأن يصلح لهم ذريتهم، هم الذين يتقبل الله أعمالهم الصالحة في عداد الصالحين، ويغفر لهم ذنوبهم ويدخلهم الجنة، فقال: ﴿أُولَئِكَ﴾ أي: الموصوفون بما سبق ذكره ﴿الَّذِينَ نَقَبَلُ عَنْهُمْ﴾ أي: نتقبل منهم ﴿أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا﴾ من صالحات الأعمال وأفضلها، ونجازيهم على أعمالهم بأفضلها ﴿وَنَجَاوَزُ عَنْ سَيِّئَاتِهِمْ﴾ نصفح عنهم، ولا نعاقبهم عليها، ونجعلهم ﴿فِي أَحْسَنِ الْجَنَّةِ﴾ الذين نكرمهم بالعفو والغفران ﴿وَعَدَ الصِّدِّيقُ الَّذِي كَانُوا يُوعَدُونَ﴾ على السنة الرسل، هذا هو وعد الله الحق الذي وعدهم به على السنة الرسل في الدنيا. وهو أصدق القائلين، والله لا يخلف الميعاد.

ولما ذكر الله تعالى حال الابن الصالح البار بوالديه، أعقبه بذكر حال الابن العاق، وهو أشد الحالات:

عُقُوقُ الْوَالِدَيْنِ قَرِينُ الْكُفْرِ

١٧- ﴿وَالَّذِي قَالَ لَوْلَايَ أَفِي^(١) لَكُمْ أَتَعْدَانِي^(٢)﴾ أَنْ أُخْرَجَ وَقَدْ خَلَتِ الْقُرُونُ مِنْ قَبْلِي وَهُمَا يَسْتَفِيتَانِ اللَّهَ وَيْلَكَ ءَامِنْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَيَقُولُ مَا هَذَا إِلَّا أَسْطِيرُ الْأَوَّلِينَ ﴿١٧﴾

أما المثل الآخر فهو للابن الكافر العاق لوالديه المسلمين، وهذا يُمثل فئة موجودة في أرجاء العالم قديماً وحديثاً، وكان منهم في العصر النبوي: أبناء مشركين، أسلم آبائهم ودعواهم إلى الدخول في الإسلام، فلم يستجيبوا لهم، وأغلظوا لهم في القول، فضموا إلى الكفر عقوق الوالدين.

فالمراد بهذه الآية وقت نزولها: فريق من الناس، أسلم آبائهم وبقي أبناءهم على الشرك، والآية لا تعني شخصاً معيناً، فهي عامة في كل من ينطبق عليه الوصف.

(١) قرأ نافع وحفص وأبو جعفر بكسر الفاء منونة، من (أف) وهي لغة أهل الحجاز واليمن، والتنوين للتكثير، وقرأ ابن كثير وابن عامر ويعقوب بفتح الفاء بلا تنوين، وعدم التنوين بقصد عدم التكثير، والباقون بكسر النون بلا تنوين.

(٢) قرأ هشام (أتعداني) بنون واحدة مشددة، على إدغام نون الرفع في نون الوقاية، والباقون بنونين مكسورتين خفيفتين. وفتح ياء الإضافة نافع وابن كثير وأبو جعفر، وأسكنها الباقون.

قال تعالى: ﴿وَالَّذِي قَالَ لَوْلَايَ﴾ حين دعواه إلى الإسلام، وخوفاه من عذاب اليوم الآخر ﴿أَفِ لَكُمْ﴾ كلمة ﴿أَفِ﴾ تصدّر عن قائلها عند التضجر من شيء، أي: والذين يقولون لوالديهم حين يدعونهم إلى اعتناق الإسلام، إنني أكره ذلك وأنضجر منه، أف لكم ولما جئتما به، أددعوانني إلى الإسلام، والإقرار بالبعث والنشور والحياة مرة أخرى، وقد ماتت أمم كثيرة، ومضت عليها أحقاب من الزمن، فهو يستبعد ذلك وينكره، لأنه لم يخرج أحد ممن مات قبل ذلك للدينا مرة ثانية؟ ﴿أَتَعِدَانِي أَنْ أُخْرَجَ﴾ من قبري حيًّا ﴿وَقَدْ خَلَّتِ الْقُرُونُ مِنْ قَبْلِي﴾ أي: هلك قبلي كثير من الناس فلم يُبعث منهم أحد؟ ووالداه خائفان عليه من النار، ويسألان الله له الهداية، ويطلبان له الغوث، ويحثانه على الإيمان بالله وطاعته، وهذا معنى: ﴿وَهُمَا يَسْتَغِيثَانِ اللَّهَ﴾ له قائلين: ﴿وَيْلَكَ ءَامِنٌ﴾ بالله وصدق بما جاء به رسوله، واعمل صالحًا، فإن الهلاك والعذاب محقق لمن لم يؤمن بالله ورسوله، ﴿إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ﴾ بالبعث والحساب والجزاء حق لا شك فيه.

إنهما يبذلان قصارى جهدهما، ويسعيان في هدايته أشد السعي، ومن حرصهما أنهما يستغيثان الله له، استغاثة الغريق، ويتوجّهان له، ويؤمنان له الحق من الضلال. ويقيمان له الأدلة، فلا يزداد هذا العاق إلا عُتُوًّا ونفورًا واستكبارًا، فيكون جواب الابن الشقي لأبيه ﴿مَا هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ﴾ أي: ما هذا الذي تقولانه من الإيمان بالله والبعث والنشور، إلا خرافات وأباطيل سطرها الأولون، وليس لها أصل حقيقي، وإنما هو منقول عن حكايات السابقين التي سُجِّلَتْ في كتبهم، وليس من عند الله، ولا أوحاه الله إلى محمد ﷺ.

والآية تصور لهفة الوالدين على إيمان ولدهما، حيث ترتعش أفئدتهم خوفًا عليه، ويلتمسان له الهداية، ولكن الابن الجاحد العاق يُصِرُّ على كفره ويستمر في جحوده.

الآية عامة في كل كافر عاق لوالديه:

١- أخرج البخاري بسنده عن يوسف بن ماهك قال: كان مروان على الحجاز، استعمله معاوية بن أبي سفيان، فخطب، وجعل يذكر يزيد بن معاوية، لكي يُبايع له بعد أبيه، فقال له عبد الرحمن بن أبي بكر شيئا، فقال: خذوه، فدخل بيت عائشة ؓ، فلم يقدروا عليه، فقال مروان: إن هذا الذي أنزل فيه: ﴿وَالَّذِي قَالَ لَوْلَايَ أَفِ لَكُمْ﴾.

فقلت عائشة من وراء حجاب: ما أنزل الله فينا شيئاً من القرآن إلا أن الله أنزل عُذْرِي^(١).

ومروان هو ابن الحكم بن أبي العاص الأموي، والحكم، عم عثمان بن عفان رضي الله عنه، وكان من مسلمة الفتح، وله أدنى نصيب من الصحبة، وكان عبد الرحمن قد قال له: أَهْرَقْلِيَّة؟ إن أبا بكر والله ما جعلها في أحد من ولده^(٢).

ومعنى أَهْرَقْلِيَّة، أي: كُلَّمَا مات هرقل ورث هرقل، وكلما مات قيصر ورث قيصر، وفي لفظ: سُنَّة هرقل وقيصر^(٣).

قلت: ومروان بن الحكم هو الذي أدخل قبر النبي ﷺ في المسجد النبوي، وله مخالفات شرعية أخرى.

٢- وعن محمد بن زياد قال: لما بايع معاوية لابنه، قال مروان: سُنَّة أبي بكر وعمر، فقال عبد الرحمن: سُنَّة هرقل وقيصر، فقال مروان: هذا الذي أنزل الله فيه: ﴿وَالَّذِي قَالَ لِوَلَدَيْهِ أُفٍّ لَّكُمَا﴾ فبلغ ذلك عائشة فقالت: كذب مروان، كذب مروان، والله ما هو به، ولو شئت أن أسمى الذي أُنْزِلَتْ فيه لسميته، ولكن رسول الله ﷺ لعن أبا مروان، ومروان في صلبه، فمروان فَضُضٌ -أي: قطعة- من لعنة الله^(٤).

٣- وعن الشعبي قال: سمعت عبدالله بن الزبير وهو مستند إلى الكعبة وهو يقول: ورب هذه الكعبة، لقد لعن رسول الله ﷺ فلاناً وما وَلَدَ من صلبه^(٥).

والمراد بفلان: الحكم، والمراد بما وَلَدَ: مروان.

ولفظ البزار (ورب هذا البيت لقد لعن الله الحكم وما وَلَدَ على لسان نبيه)^(٦).

(١) «صحيح البخاري» برقم (٤٨٢٧).

(٢) من رواية ابن مردويه كما في «الدر المنثور» (٤٤٤/٧).

(٣) كما في رواية النسائي في «السنن الكبرى» (١١٤٩١).

(٤) النسائي في «السنن الكبرى» (١١٤٩١) وفي ط الرسالة (١١٤٢٧) وابن المنذر كما في «الفتح» (٥٧٧/٨) والحاكم وصححه (٤٨١/٤) وابن مردويه كما في «تخريج الكشاف» (٢٨٢/٣). وفي التحفة (١٧٥٨٧).

(٥) مسند أحمد (١٦١٢٨) رجاله ثقات رجال الشيخين كما قال محققوه، والطبراني في الكبير (٢٨٩).

(٦) زوائد البزار (١٦٢٣) من طريق عبد الرزاق.

ولفظ الحاكم (أن رسول الله ﷺ لعن الحَكَمَ وَوَلَدَهُ)^(١).

٤- وعن عبدالله بن البهي مولى الزبير، قال: كنت في المسجد ومروان يخطب، فقال عبدالرحمن بن أبي بكر: والله ما استخلف أحدا من أهله، فقال مروان: أنت الذي نزلت فيك ﴿وَالَّذِي قَالَ لَوْلَايَ أَفِي لَكُمْ﴾ فقال عبدالرحمن: كذبت ولكن رسول الله ﷺ لعن أباك^(٢).

٥- وأخرج عبد الرزاق من طريق مكّي، أنه سمع عائشة تُنكر أن تكون الآية نزلت في عبد الرحمن بن أبي بكر، وقالت: إنما نزلت في فلان، وسمّيت رجلاً. قال الحافظ ابن حجر: ونفي عائشة أصح إسناداً وأولى بالقبول^(٣).

والأمر كما قالت عائشة رضي الله عنها، من أن الآية لم تنزل في عبد الرحمن بن أبي بكر، ويدل على أن الآية لا تتعلق به، أن الله تعالى توعد من وصفهم في الآية، بأنهم قد وجبت عليهم كلمة الله بالعذاب يوم القيامة، وأنهم من الخاسرين الهالكين، وهذا لا يكون إلا لمن مات على الكفر، وعبد الرحمن قد أسلم قبل فتح مكة، وحسن إسلامه، ومات على الإيمان والهدى، ولو أنه فعل شيئاً من الذنوب قبل إسلامه فإنه لا يُتوعد بالعذاب؛ لأن الإسلام يَجِبُ ما قبله.

فالآية لا يراد بها شخص معين بل يراد بها كل من كان موصوفاً بهذه الصفة.

قال تعالى في عقوبة الكافر العاق لوالديه:

١٨- ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ فِي أُمْرِ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنَ الْإِنِّ وَالْإِنِّ إِنَّهُمْ كَانُوا خَاسِرِينَ﴾

فقد بين سبحانه وتعالى أن هؤلاء المجرمين الذين ماتوا على الكفر وإنكار البعث والنشور، قد وجب عليهم عذاب الله، وحلّ بهم سخطه، فقال: ﴿أُولَئِكَ﴾ أي:

(١) المستدرک (٤/٤٨١) وقال: هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه، وتعقبه الذهبي بقوله: الرشدني وضعفه ابن عدي.

(٢) أخرجه البزار في البحر الزخار (٢٢٧٣) من طريق عبدالرحمن بن مغراء، عن إسماعيل بن أبي خالد به.

(٣) «تفسير عبد الرزاق» (٧/٣٨٠) و«تفسير القرطبي» (١٦/١٩٧) و«تفسير ابن كثير» (٧/٢٧٩) وقوله: أصح إسناداً، أي: من رواية السدي.

وعند ابن أبي حاتم أن الآية نزلت في عبد الرحمن بن أبي بكر، وهي رواية ضعيفة.

الكافرون العاقون هم ﴿الَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ﴾ أي: وجبت عليهم كلمة العذاب في قوله تعالى: ﴿لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾ [هود: ١١٩] وذلك في جملة من حَقَّت عليهم كلمة الله في الأمم السابقة من الإنس والجن ﴿فِي﴾ جملة ﴿أُمَمٍ﴾ من أصحاب النار سيدخلون معهم ويغرقون في تيارهم، وهؤلاء ﴿قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِمْ﴾ أي: قد مضت هذه الأمم من قبل، من الكفرة الفجار ﴿مِنَ الْجِنَّ وَالْإِنْسِ﴾ ممن كفروا بالله وكذبوا رسله، وكانوا عاقين لأبائهم ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا خَاسِرِينَ﴾ لأنهم باعوا الهدى بالضلال، والنعيم بالعذاب، واستحبوا الكفر على الإيمان، وهؤلاء ضل سعيهم، وخسروا آخرتهم، فلم يحصلوا على نعيم، ولم يَسْلَمُوا من نار الجحيم. قال تعالى:

١٩- ﴿وَلِكُلِّ دَرَجَةٍ مِمَّا عَمِلُوا وَلِيُوفيَهُمْ^(١) أَعْمَالُهُمْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿١٩﴾﴾

بَيِّنْ جَلَّ شأنه أن لكل فريق من الأبناء البررة، المؤمنين بالله واليوم الآخر، المحسنين لأبائهم، لهم درجات ومراتب عالية في الجنان، هذا فريق.

وكذا الأبناء الفجرة، الكافرين بالله واليوم الآخر، العاقين لأبائهم، لهم دركات في النار. وهذا هو الفريق الآخر، وكلاهما متفاوت في مقدار النعيم والعذاب.

والآية عامة فيهم وفي غيرهم من كل بر وفاجر

﴿وَلِكُلِّ﴾ من أهل الخير والشر، من المؤمنين والكافرين ﴿دَرَجَتٌ مِمَّا عَمِلُوا﴾ أي: لهم منازل عند الله يوم القيامة، وفق أعمالهم التي عملوها في الدنيا، كل بمقدار ما عمل ﴿وَلِيُوفيَهُمْ﴾ جزاء ﴿أَعْمَالِهِمْ﴾ التي قَدَّموها لأنفسهم في الدنيا كل حسب مرتبته من الخير والشر ﴿وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ بزيادة سيئاتهم ولا نقصان حسناتهم، بل يجازى كل منهم بمقدار عمله ﴿فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ ﴿٧﴾ وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ ﴿٨﴾﴾ [الزلزلة].

(١) قرأ ابن كثير وأبو عمرو وعاصم ويعقوب وهشام بخلف عنه بالياء في (وليوفيهم) والفاعل ضمير يعود على لفظ الجلالة، والباقون بنون العظمة على الالتفات وهو الوجه الثاني لهشام.

الْكَافِرُ تُعَجَّلُ لَهُ طَيِّبَاتُهُ فِي الدُّنْيَا

٢٠- ﴿وَيَوْمَ يُعْرَضُ الَّذِينَ كَفَرُوا عَلَى النَّارِ أَلَّذِينَ أُذْهِبَتْ^(١) طَبِيبَتُهُمْ فِي حَيَاتِكُمْ الدُّنْيَا وَأَسْتَمْتَعْتُمْ بِهَا فَالْيَوْمَ يُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ بِمَا كُنتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَبِمَا كُنتُمْ تَفْسُقُونَ﴾

أي: ويقال للذين كفروا يوم القيامة حين يُعرضون على النار: إنكم لم تُظلموا شيئاً، فقد أنعمنا عليكم في الدنيا بألوان النعم، وقد استوفيتم ما لكم من الطيبات فيها، وبذلتكم قصارى جُهدكم في التمتع بها، فلم تبق لكم طيبات في الآخرة.

وفي هذا إعذار لهم، وتقرير لكونهم لا يظلمون شيئاً فيما ينالهم من عذاب الآخرة، حيث لم يبق لهم إلا الجزاء السيئ، ولو شاء الله لعَجَّلَ لهم الجزاء على كفرهم في الدنيا، ولكنه سبحانه أمهلهم إلى الآخرة، ووسَّع عليهم النعمة في الحياة الدنيا.

قال تعالى: ﴿وَيَوْمَ يُعْرَضُ الَّذِينَ كَفَرُوا عَلَى النَّارِ﴾ ذَكَرَ -يا محمد- الجاحدين بتوحيد الله تعالى، المكذبين لليوم الآخر، الذين لم يُجيبوا دعوتك، ذَكَرَهُم يوم يُكشف الغطاء عن نار جهنم، وتَبَرَّز للناظرين، ويُلْقُونَ فيها، ويصلُونَ نارها.

فالمراد بالعرض: ليس مجرد الرؤية، أو الوقوف عليها، بل المراد: دخولها ومباشرة العذاب فيها، كما قال تعالى: ﴿وَيَوْمَ يُعْرَضُ الَّذِينَ كَفَرُوا عَلَى النَّارِ أَلَيْسَ هَذَا بِالْحَقِّ قَالُوا بَلَىٰ وَرَبِّئِنَّآ قَالِ فَدُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ﴾ [الأحقاف].

وعندما يعرض الكفار على النار يقال لهم تقريباً وتوبيخاً: ﴿أَذْهَبَتْ طَبِيبَتُكُمْ فِي حَيَاتِكُمْ الدُّنْيَا وَأَسْتَمْتَعْتُمْ بِهَا﴾ لقد استوفيتم نصيبكم من الملذات والطيبات، فأتيتم عليها، وأفنيتموها في الدنيا، وتمتعتم بها كاملة ولم تدخروا شيئاً، وانغمستم في ملذاتها، ورضيتم بشهواتها، وألهتكم طيباتها عن السعي لآخرتكم، فتمتعتم تمتع الأنعام السارحة، وهذا هو حظكم من آخرتكم، فلم يبق لكم منها شيء في الآخرة ﴿فَالْيَوْمَ يُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ﴾ أي: عذاب الخزي

(١) قرأ ابن كثير وابن عامر وأبو جعفر ويعقوب بهمزيين في (أَذْهَبَتْ) وسهّل الهمزة الثانية، ابن كثير ورويس، ومثلهما أبو جعفر إلا أنه أدخل ألفاً بين الهمزتين. وحقّق ابن ذكوان وروح الهمزتين بدون إدخال، ولهشام تحقيق الهمزتين مع الإدخال وعدمه، وله أيضاً تسهيل الثانية مع الإدخال، والباقون بهمزة واحدة على الخبر.

والذل والهوان في نار جهنم بسبب كفركم بالله، وتعالىكم على الناس، وخروجكم عن طاعته ﴿يَمَّا كُنْتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَيَمَّا كُنْتُمْ تَفْسُقُونَ﴾ وفي هذا بيان أن سبب العذاب أمران:

أحدهما: الاستكبار عن قبول التوحيد، ورفض دعوة الإسلام غُلُوًّا وغرورًا، وإيثارًا للباطل على الحق، وهذا ذنب قلبي، وهو المراد بالاستكبار في الأرض.

والآخر: الخروج عن دين الله تعالى باقتراف المعاصي والذنوب، واكتسابها بالجوارح، وهذا ذنب حسي، وهو المراد بالفسق في الآية.

والطيبات: هي المستلذات من المآكل والمشارب والملابس والمفاشر والنساء والمراكب، وغير ذلك، مما يتمتع به الناس عادة، ويُسرف فيه أهل الرفاهية والترف والسرف.

وليس في الآية دليل على تحريم الطيبات والتمتع بكل ما أحله الله، كما قال تعالى: ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ﴾ [الأعراف: ٣٢].

وقال أيضًا: ﴿وَلَا تَنْسِكْ نِصِيْبَكَ مِنَ الدُّنْيَا﴾ [القصص: ٧٧].

فالإسلام لم يحرم الطيبات، ولكن يُخشى على أهل السرف أن يصيروا أصحاب ترف، فينسوا الحقوق والواجبات:

١- قال عمر رضي الله عنه: لو شئتُ لكنْتُ أطيِّبكم طعامًا، وأحسنكم لباسًا، وألينكم فرشًا، ولكن أستبقي طيباتي لحياتي الآخرة^(١).

٢- وقال قتادة: وذكر لنا أن عمر بن الخطاب لما قدم الشام صُنِعَ له طعام لم ير قبله مثله، قال: هذه لنا! فما لفقراء المسلمين الذين ماتوا وهم لا يشبعون من خبز الشعير؟ فقال خالد بن الوليد: لهم الجنة، فاغرورقت عينا عمر، فقال: لئن كان حظنا من الدنيا هذا الحُطام، وذهبواهم بالجنة، لقد باينونا بؤنًا بعيدًا^(٢).

٣- وقال الحسن: أتني عمر رضي الله عنه بشربة غسل، فقال: والله لا أتحمل فضلها، اسقوها

(١) «التفسير الكبير» (٢٨/٢٥).

(٢) «تفسير الطبري» (٢١/١٤٧) و«تفسير ابن عطية» (٥/١٠١).

فلاًناً. وكان عمر في إمارته متقشفاً، زاهداً في ملذات الحياة، لا يزيد في طعامه عن فقراء المسلمين.

٤- وقال عمر رضي الله عنه لجابر بن عبد الله رضي الله عنه وقد رآه اشترى لحماً: «أو كلما انتهى أحدكم شيئاً جعله في بطنه؟! أما تخشى أن تكون ممن قال الله فيهم: ﴿أَذْهَبَتْ طِينُكُمْ فِي حَيَاتِكُمُ الدُّنْيَا﴾»^(١). زاد في رواية: أما يجد أحدكم أن يطوي بطنه لجاره وابن عمه، أين تذهب هذه الآية؟ وقرأها.

قلت: وهذه الآية نزلت في الكفار الذين لا يؤدون شكر النعمة بالإيمان والطاعة، أما المؤمن الذي يقوم بشكرها فيؤمن بالله ويمثل أمره ويجتنب نهيه، فلا ينطبق عليه هذا المعنى، ولكن لَمَّا وَبَّخَ الله تعالى الكافرين على استفراغ الطاقة في التمتع بالطيبات، فقد أثر النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه والصالحون بعدهم عدم الاستغراق في الملذات رجاء ثواب الآخرة، ومن أدلة ذلك:

١- ما جاء في الصحيحين: عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال: دخلتُ على رسول الله صلى الله عليه وسلم فإذا هو متكئ على رمال وحصير قد أثر في جنبه، فقلت: أستاذنس يا رسول الله؟ قال: «نعم»، فجلستُ فرفعتُ رأسي في البيت، فوالله ما رأيتُ فيه شيئاً يَرُدُّ البصر إلا أهباً ثلاثة، فقلت: ادع الله أن يوسع على أمتك، فقد وسَّع على فارس والروم وهم لا يعبدون الله، فاستوى جالساً، ثم قال: «أفي شك أنت يا ابن الخطاب، أولئك قوم قد عُجِّلَتْ لهم طيباتهم في الحياة الدنيا»، فقلت: استغفر لي يا رسول الله^(٢).

٢- وفي الصحيحين: عن عائشة رضي الله عنها قالت: ما شبع آل محمد من خبز شعير يومين متتابعين، حتى قُبِضَ رسول الله صلى الله عليه وسلم^(٣).

ولفظ أبي هريرة رضي الله عنه: ما شبع آل محمد من طعام ثلاثة أيام حتى قُبِضَ^(٤).

(١) «التسهيل لعلوم التنزيل» (٤٤/٤) أخرجه الحاكم (٤٥٥/٢) والبيهقي في «الشعب» (٥٦٧٢) وأحمد في «الزهد» ص ١٢٣.

(٢) من حديث طويل في «صحيح مسلم» برقم (١٤٧٩) و«صحيح البخاري» برقم (٥١٩١).

(٣) هذا لفظ مسلم (٢٩٧٠) وأخرجه البخاري (٥٤٢٣، ٥٤٣٨، ٦٦٨٧).

(٤) «صحيح البخاري» برقم (٥٣٧٤) و«صحيح مسلم» برقم (٢٩٧٦).

٣- وفي الصحيحين عن عائشة رضي الله عنها قالت: إنا كنا لننظر الهلال ثم الهلال ثم الهلال، ثلاثة أهلة في شهرين، ما يوقد في أبيات رسول الله نار، قال عروة: قلت: يا خالة، فماذا كان طعامكم؟ قالت: الأسودان: التمر والماء^(١).

٤- وفي البخاري: عن إبراهيم بن عبد الرحمن، أن عبد الرحمن بن عوف أتني بطعام، وكان صائمًا، فقال: قُتل مصعب بن عمير -وهو خير مني- فكُفِّن في بُردة، إن غُطي رأسه بدت رجلاه، وإن غُطي رجلاه بدا رأسه، قال: وأراه قال: وقتل حمزة -وهو خير مني- فلم يوجد ما يكفَّن فيه إلا بُردة، ثم بُسط لنا من الدنيا ما بُسط، وقد خشيتُ أن تكون عَجَلت لنا طيباتنا في حياتنا الدنيا، ثم جعل يبكي حتى ترك الطعام^(٢).

٥- وفي الصحيحين: أن خبَّابًا رضي الله عنه قال: هاجرنا مع النبي صلى الله عليه وسلم نلتمس وجهه الله، فوقع أجرنا على الله، فمنا من مات لم يأكل من أجره شيئًا، منهم مصعب بن عمير، ومنا من أينعت له ثمرته، فهو يهديها، قُتل يوم أحد فلم نجد ما نكفنه إلا بُردة، إذا غطينا بها رأسه خرجت رجلاه، وإذا غطينا رجله خرج رأسه، فأمرنا النبي صلى الله عليه وسلم أن نغطي رأسه، وأن نجعل على رجله الإذخر^(٣).

٦- وفي حديث أنس رضي الله عنه: أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «حُفَّت الجنة بالمكاره، وحُفَّت النار بالشهوات»^(٤).

هَلَاكُ قَوْمِ عَادٍ مِثْلُ يُضْرَبُ بِمِصَارِعِ الظَّالِمِينَ

٢١- ﴿وَأَذْكُرْ أَنَا عَادٍ إِذْ أَنْذَرَ قَوْمَهُ بِالْأَحْقَافِ وَقَدْ خَلَّتِ الْبُيُوتُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ إِنِّي (٥) أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾

وفي جانب الوحي والرسالة الذي تتحدث عنه السورة، تسوق مثلًا لمن أعرض عن إنذار الرسل الوارد في قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا عَمَّا أُنذَرُوا مُعْرِضُونَ﴾ [٣] لتبين أن محمدًا

(١) «صحيح مسلم» برقم (٢٩٧٢) و«صحيح البخاري» برقم (٢٥٦٧، ٦٤٥٩).

(٢) يُنْظَرُ: البخاري (١٢٧٤، ١٢٧٥، ٤٠٤٥).

(٣) البخاري (١٢٧٦، ٣٨٩٧، ٣٩١٣، ٨٤٤٨) ومسلم (٩٤٠).

(٤) «صحيح مسلم» برقم (٢٨٢٢).

(٥) فتح باء الإضافة ابن كثير وأبو عمرو وأبو جعفر من (إني أخاف)، والباقون بإسكانها.

ﷺ لم يكن بدءًا من الرسل، وتخص بالذكر قبيلة عاد؛ لأنهم أول الأمم العربية الذين جاءهم رسول بعد رسالة نوح العامة، وكانت رسالة هود، ورسالة صالح في جزيرة العرب قبل رسالة إبراهيم ﷺ.

وأشارت السورة بشكل إجمالي إلى أمم أخرى من العرب كذبوا الرسل في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا مَا حَوْلَكُمْ مِنَ الْقُرَىٰ﴾ [٢٧].

وقد كذب قوم عاد نبيهم هودًا، فعاقبهم الله على ذلك بعذاب الاستئصال، وجعلهم كأعجاز نخل خاوية، ولم يبق منهم باقية، فحذر الله أمة محمد ﷺ أن يصنعوا مثل صنيعهم، فيصيبهم ما أصابهم.

وقد ذكرت قصة عاد في سور كثيرة من القرآن، منها سور: الأعراف، وهود، والشعراء، والقمر، والحاقة.

وقد أرسل الله لهم نبيهم هودًا بن عبد الله بن رباح، كان أخًا لهم في النسب لا في الدين.

وكانت رسالته في الأحقاف، وهي جبال رملية على مرتفعات من الأرض في شمال حضرموت وغربي عُمان، ويسمى حاليًا بالربع الخالي، في جنوب الجزيرة العربية.

﴿وَأَذْكُرْ أَخَا عَادٍ﴾ أي: اذكر -أيها الرسول- لقومك بالثناء الجميل، قصة نبي الله هود ﷺ مع قوم عاد ليعتبروا ويتعظوا، وذلك حين حذر قومه عذاب الله إن لم يؤمنوا، اذكره لأمتك ﴿إِذْ أَنْذَرَ قَوْمَهُ بِالْأَحْقَافِ﴾ أي في منازلهم المعروفة بالأحقاف، فخوفهم عذاب الله إن لم يؤمنوا، وكانت مساكنهم بالأحقاف، ذات الرمال الكثيرة، مشرفة على البحر في جنوب الجزيرة العربية، وقد أخبرهم هود ﷺ بأن الرسل الذين سبقوه مثل نوح ﷺ، والرسل الذين يأتون من بعده، مثل صالح ﷺ، كلهم قد بعثهم الله تعالى إلى أقوامهم لهدايتهم، وأمرهم بعبادة الله وحده ﴿وَقَدْ خَلَّتِ النُّذُرُ﴾ أي: مضت الرسل قبله لإنذار أقوامهم وتخويفهم عذاب الله تعالى إن لم يؤمنوا، فكانوا ﴿مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ﴾ أي: جاؤوا من بعده ﴿وَمِنْ خَلْفِهِ﴾ وهم الذين سبقوه، وكلهم أرسلوا إلى أقوامهم لتحقيق التوحيد ﴿أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ﴾ وحده، وهذا كقوله تعالى: ﴿إِذْ جَاءَتْهُمْ الرُّسُلُ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ﴾ [فصلت: ١٤].

ولا تشركوا به شيئاً في عبادتكم، وقد حذرهم هود عليه السلام من عبادة غير الله تعالى؛ لأنه يخاف عليهم عذاب يوم القيامة ﴿يَوْمَ لَا يَنْفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ﴾ (٨٨) إِلَّا مَنْ آتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴿٨٩﴾ [الشعراء].

قال هود عليه السلام: ﴿إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ﴾ إن عبدتم غير الله تعالى ﴿عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ يشتد فيه العقاب، فأمرهم بعبادة الله، وخوفهم عذاب الله، فلم تُقدِّم فيهم تلك الدعوة:

الْحِوَارُ بَيْنَ هُودٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ وَقَوْمٍ عَادٍ

٢٢- ﴿قَالُوا أَجِئْنَا لِنَتَّفِكَا عَنْ ءَالِهَتِنَا فَإِنَّا بِمَا نَعُدُّكَ إِن كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ ﴿٢٢﴾

إن قوم عاد لم يستجيبوا لدعوة هود عليه السلام، ولم يقابلوها بالإيمان والطاعة، بل قابلوها بالإعراض والاستخفاف والتمسك بما عليه آبائهم ﴿قَالُوا أَجِئْنَا﴾ يا هود بدعوتك ﴿لِنَتَّفِكَا عَنْ ءَالِهَتِنَا﴾ أي: لتصرفنا عن عبادة آلهتنا التي أَلْفَنَاهَا عن آبائنا، فإن كان الأمر كذلك ﴿فَأَيْنَا بِمَا نَعُدُّكَ﴾ به من العذاب العظيم الذي وعدتنا به ﴿إِن كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ فيما تقول، فإن لم تأت به فلست صادقاً في دعوتك، ولا فيما وعدتنا به، ومرادهم بذلك: العذاب الدنيوي؛ لأنهم لا يؤمنون بالبعث والنشور.

ولما طلب قوم عاد من نبهم هوداً تعجيل نزول العذاب بهم، وكان هذا من باب التهكم والاستبعاد، أجابهم بما جاء في هذه الآية:

٢٣- ﴿قَالَ إِنَّمَا أَعْلِمُ عِنْدَ اللَّهِ وَأُبَلِّغُكُمْ^(١) مَّا أُرْسِلْتُ بِهِ وَلَكِنِّي^(٢) أَرْسَلْتُكُمْ قَوْمًا يَجْهَلُونَ﴾ ﴿٢٣﴾

أي: إنما أعلم وقت نزول العذاب بكم عند الله وحده، لا يُطْلَعُ عليه أحدًا، فهو من الأمور الغيبية ﴿قَالَ﴾ هود عليه السلام: ﴿إِنَّمَا أَعْلِمُ﴾ بوقت حلول العقاب ﴿عِنْدَ اللَّهِ﴾ فهو الذي يعلم وقت مجيء العذاب بكم، وأنا لم أبعث للإعلام بحلول وقت العذاب، ولكني بُعثت مبلِّغاً عن الله أمره ونهيهِ، والله سبحانه بيده مقاليد الأمور، وهو الذي يأنبئكم بالعذاب إن شاء ﴿وَأُبَلِّغُكُمْ مَّا أُرْسِلْتُ بِهِ﴾ إليكم من ربي وربكم من الأوامر والنواهي، ورسالتي

(١) قرأ أبو عمرو بإسكان الباء من (أبلغكم) وتخفيف اللام، مضارع أبلغ، والباقون بفتح الباء وتشديد اللام، مضارع بَلَّغَ.

(٢) قرأ نافع والبرقي وأبو عمرو وأبو جعفر بفتح ياء (ولكنني أراكم)، والباقون بإسكانها.

محصورة في التبليغ والإنذار، ولم يخبرني ربي متى سيأتي هذا العذاب، وهذا أمر واضح غاية الوضوح، ينبغي أن يكون مفهوماً لديكم ﴿وَلَكَيْفَ أَزْكُرُ قَوْمًا يَجْهَلُونَ﴾ في استعجالكم العذاب، وجُرأتكم على الله تعالى، فتتكرون ما هو حق، وتصرون على الباطل، وتطالبوني بما لا أملك، وذلك لجهلكم حكمة الله في إرسال الرسل، وأنهم بُعثوا مبشرين ومنذرين، وليسوا وسائط في توصيل اقتراحات الخلق إلى الله تعالى، فلم يبق بعد هذا إلا أن يحل بهم عقاب الله:

عَذَابُ قَوْمِ عَادٍ يَلُوحُ فِي الْأُفُقِ

٢٤- ﴿فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضًا مُسْتَقْبِلَ أَوْدِيَّتِهِمْ قَالُوا هَذَا عَارِضٌ مُّطَرٌّ بَلْ هُوَ مَا اسْتَعْجَلْتُمْ بِهِ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾

ومضت سنون عدداً على تكذيب قوم عاد لهود عليه السلام، فسأل ربه أن ينصره عليهم، فنزل بهم عقاب الله، وبدأ ذلك بأن أصابهم قحط شديد، وظلوا في حاجة ماسة إلى نزول الماء، يطلبون أن يُعاثوا به، فقال لهم هود: ﴿وَيَقَوْمِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا﴾ [هود: ٥٢].

وكان هود عليه السلام قد فارقهم إلى مكة، ومات بها، وقيل: إنه دُفن في الحجر، حول الكعبة.

ويقول أهل حضرموت: إن هوداً سكن بلاد حضرموت، بعد هلاك عاد، إلى أن مات ودفن في شرقي بلادهم، على نحو مرحلتين من مدينة تريم، قُرب وادي (برهوت) ولهود عليه السلام قبر في فلسطين لا تصح نسبته له^(١).

وبينما هم ينتظرون نزول المطر رأوا سحاباً أسود كالمطر، يعترض جو السماء، فظنوا أنه الماء الذي طلبوه، وهو متجه نحو أوديتهم ومساكنهم، وكان أغلب منازلهم ومقار المياه في السهول ﴿فَلَمَّا رَأَوْهُ﴾ أي: لما رأوا بأعينهم العذاب الذي استعجلوه ﴿عَارِضًا﴾ في الأفق وهم يظنونونه ماءً ﴿مُسْتَقْبِلَ أَوْدِيَّتِهِمْ﴾ أي: متجهاً نحوها حيث تخضر الأرض، وتشرب دوابهم، ويشربون هم من آبارها وغدرانها، لَمَّا رَأَوْا ذَلِكَ ﴿قَالُوا﴾ وهم يجهلون أنه العذاب الذي استعجلوه، حالة كونهم فرحين مستبشرين: ﴿هَذَا عَارِضٌ مُّطَرٌّ﴾ أي: هذا

(١) ينظر: أطلس القرآن، د/ شوقي أبو خليل ص ٣١.

سحاب عارض يحمل إلينا المطر الذي حُبس عنا لوقت طويل .

وهنا يأتي الرد من الله تعالى على لسان هود عليه السلام بأن هذا ليس مطراً، قال تعالى :

﴿بَلْ هُوَ مَا اسْتَعْجَلْتُمْ بِهِ﴾ من العذاب، يتمثل في ريح عاصفة تحمل الهلاك والدمار إليكم .

قيل : إن القائل هو بكر بن معاوية ، من قوم عاد، قال : إني لأرى سحاباً مُرَمِّداً لا تدع من عاد أحداً ^(١) ولعله كان قد آمن بهود من قبل ، فنجاه الله من العذاب .

ثم فُسِّر هذا العذاب وبيِّن ماهيته، فهو ﴿رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ إنها ريح عاصفة مدمرة، فيها عذاب فظيع مؤلم، كما قال تعالى : ﴿وَأَمَّا عَادٌ فَأَهْلِكُوهَا بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ ﴿٦﴾ سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَتَمَنِيَةً أَيَّامٍ حُسُوماً فَتَرَى الْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَى كَأَنَّهُمْ أُعِجَزُوا بِخَلِّ حَاوِيَةٍ ﴿٧﴾﴾ [الحاقة] .

وقال سبحانه : ﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرَ فِي أَيَّامٍ نَحْسَاتٍ لِّنُذِيقَهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَخْزَىٰ وَهُمْ لَا يُنصَرُونَ ﴿١١﴾﴾ [فصلت] .

وقال أيضاً : ﴿وَفِي عَادٍ إِذْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الرِّيحَ الْعَقِيمَ ﴿٤١﴾ مَا تَذَرُ مِنْ شَيْءٍ أَنتَ عَلَيْهِ إِلَّا جَعَلَتْهُ كَالرِّمِيمِ ﴿٤٢﴾﴾ [الذاريات] . ثم وصف الله تعالى شدة هذه الريح وقوتها في قوله :

٢٥ - ﴿تُدْمِرُ كُلَّ شَيْءٍ بِأَمْرِ رَبِّهَا فَاصْبَحُوا لَا يَرَىٰ إِلَّا مَسَكِنُهُمْ ﴿٢﴾﴾ كَذَلِكَ نَجْزِي الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ ﴿١٥﴾﴾

أي : إن هذه الريح لا تمرُّ بشيء يتعلق بالظالمين من نفس أو مال أو متاع إلا أهلكته بأمر ربها ومشيتته، حتى إن من ينظر إلى قوم عاد لا ير شيئاً من آثارهم سوى مساكنهم التي خلت من أهلها لتكون عبرة لغيرهم ﴿فَاصْبَحُوا لَا يَرَىٰ إِلَّا مَسَكِنُهُمْ﴾ أي : صاروا هلكى، قد تَلَفَتْ مواشيهم وأموالهم وأنفسهم، ولم تُبقِ منهم الريح إلا الآثار، والديار خاوية، كما قال تعالى : ﴿فَهَلْ تَرَىٰ لَهُمْ مِنْ بَاقِيَةٍ ﴿٨﴾﴾ [الحاقة]

وبمثل جزاء قوم عاد يجزي الله المجرمين الظالمين لأنفسهم بالشرك وتكذيب الرسل ﴿كَذَلِكَ نَجْزِي الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ﴾ بسبب جرمهم وطغيانهم .

قيل : إنهم لما رأوا الريح دخلوا بيوتهم وأغلقوا أبوابهم، فجاءت الريح فقلعت

(١) جاء هذا في حديث الحارث البكري في «المستد» (٣/ ٤٨٢) . وهو في المعجم الكبير للطبراني (٣/ ٢٥٤) .

(٢) قرأ عاصم وحمة ويعقوب وخلف (لا يَرَىٰ إِلَّا مَسَاكِنَهُمْ)، والباقون (لا تَرَىٰ إِلَّا مَسَاكِنَهُمْ) .

الأبواب وصرعَهم، وأمر الله الريح فأهالت عليهم الرمال، فكانوا تحت الرمل سبع ليال وثمانية أيام، وأدَّت الريح ما أمرت به فدمرت كل شيء^(١).

وفي الصحيحين وغيرهما: عن عائشة رضي الله عنها قالت: كان النبي ﷺ إذا رأى غيماً أو ريحاً عُرف في وجهه، قالت: يا رسول الله، إن الناس إذا رأوا الغيم فرحوا رجاء أن يكون فيه المطر، وأراك إذا رأيته غيماً عُرف في وجهك الكراهة، فقال: «يا عائشة، ما يؤمِّنني أن يكون فيه عذاب؟ عَذَّب قوم بالريح، وقد رأى قوم العذاب فقالوا: هذا عارض ممطرنا»^(٢).

وفي رواية عن عائشة أيضاً أنها قالت: كان النبي ﷺ إذا رأى مَخِيلَةً في السماء أقبل وأدبر، ودخل وخرج، وتغيَّر وجهه، فإذا أمطرت السماء سُري عنه، فعرفته عائشة ذلك، فقال: «وما أدري لعله كما قال قوم هود: ﴿فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضًا﴾».

وفي رواية ثالثة أنها قالت: كان النبي ﷺ إذا عصفت الريح قال: «اللهم إني أسألك خيرها، وخير ما فيها، وخير ما أرسلت به، وأعوذ بك من شرها، وشر ما فيها، وشر ما أرسلت به»^(٣).

وهكذا طُويت صفحة الظالمين من قوم عاد، وما ظلمهم الله ولكن كانوا أنفسهم يظلمون، وعلى هذه الأمة أن تعتبر بما حدث لغيرها فتتمسك بكتاب ربها وسنة نبيها؛ حتى لا يصيبها ما أصاب الظالمون.

ولقد نزل هذا العذاب بقوم عاد، لأنهم عبدوا الأصنام من دون الله، ولم يستجيبوا لدعوة نبيهم، ولم يشكروا الله تعالى على نعمه عليهم:

الْعِبْرَةُ مِنْ قِصَّةِ قَوْمِ عَادٍ

٢٦- ﴿وَلَقَدْ مَكَنَّاكُمْ فِيهِ وَجَعَلْنَا لَهُمْ سَمْعًا وَأَبْصَرًا وَأَفْئِدَةً فَمَا أَغْنَى عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَلَا أَبْصَرُهُمْ وَلَا أَفْئِدَتُهُمْ مِنْ شَيْءٍ إِذْ كَانُوا يَجْحَدُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾

(١) جاء هذا عن ابن عباس عند ابن أبي الدنيا في كتاب «السحاب» (١٣٤) وأبي الشيخ في «العظمة» (٨٣٨).

(٢) «صحيح البخاري» برقم (٤٨٢٩) و«صحيح مسلم» برقم (٨٩٩) و«المسند» (٢٤٣٦٩) وأبو داود (٥٠٩٨) والحاكم (٤٥٦/٢) والطبراني في «الأوسط» (٢١٧) والبغوي في «شرح السنة» (١١٥٠).

(٣) «صحيح مسلم» برقم (٨٩٩) والترمذي (٣٢٥٧، ٣٤٤٩) والنسائي في «السنن الكبرى» (١٨٣١، ١٨٣٢) وابن ماجه (٣٨٩١).

وعلى مشهد الخراب والدمار الذي لحق بقوم عاد، يلتفت السياق إلى هذه الأمة لتعلم أن الذي قدير على إهلاك قوم عاد - على قوتهم وشدة بأسهم - قادر على مَنْ هُم دونهم في القوة والعدد، من كل من لم ينتفع بحواسه وقواه العقلية والمادية فيما خُلقت له، فجحد توحيد الله تعالى، ولم يؤمن بخاتم النبيين ﷺ، وطغى في الأرض مستبداً بقوته وجبروته.

﴿وَلَقَدْ مَكَّنَّهُمْ﴾ أي: أعطينا قوم عاد من القوة والثراء والأجسام والحضارة، ما لم نعطكم أيها المكذبون بخاتم النبيين، وهذا معنى ﴿فِيمَا إِنْ مَكَّنَّاكُمْ فِيهِ﴾ أيها المخاطبون بهذا القرآن من أمة الدعوة ممن لم يؤمن منهم بخاتم الرسل ﷺ.

والمعنى: ولقد يسرنا لقوم هود ﷺ وغيرهم من الأقوام السابقين عليكم، فأعطيناهم من القوة والسعة، وطول العمر، وأسباب التمكين في الدنيا، وجعلنا لهم من القدرة، وقوة البدن والبطش، وطول الأعمار، وكثرة الأموال، على نحو لم نمكنكم فيه أيها المكذبون المحاربون لله ورسوله، ومع أنهم أعظم تمكيناً منكم، فإن ما هم فيه من بطش وقوة ومالٍ وولد، لم تغن عنهم من الله شيئاً.

ثم بيّن سبحانه أنه أعطى قوم عاد الأسماع والأبصار والقلوب، ليستدلوا بها على توحيد الخالق سبحانه، ويستعملوها في المباحات، وفي طاعة الله تعالى وعبادته، ولكنهم صرفوها في طلب الدنيا وشهواتها، ولم ينتفعوا بها في شيء مما خُلقت له ﴿وَجَعَلْنَا لَهُمْ سَمْعًا وَأَبْصَارًا وَأَفْئِدَةً﴾ ولم ينقصهم شيء من شأنه أن يُخل بإدراكهم للحق، لولا عنادهم واستعمالهم لحواسهم وعقولهم فيما يُسخط الله تعالى عليهم ﴿فَمَا أَغْنَىٰ عَنْهُمْ﴾ أي: فما نفعهم ﴿سَمْعُهُمْ وَلَا أَبْصَارُهُمْ وَلَا أَفْئِدَتُهُمْ مِنْ شَيْءٍ﴾ لقد أناموا عقولهم، وغطوا عيونهم، وأصموا آذانهم، فصاروا أضل من الحيوان الأعجم فلم ينتفعوا بحواسهم ولا بأموالهم ولا بقوتهم حين نزل بهم العذاب، بل إن كل ما لديهم من قوة، وما أُوتوه من نعمة، ذهب أدراج الرياح، وصار هباءً منثوراً.

وقد كان السبب فيما أصابهم من عذاب أنهم جحدوا آيات الله الدالة على توحيدهِ سبحانه، وعلى صدق رسوله ﷺ واستهزأهم بما جاءهم به من الحق، وبما نزل بهم من عذاب كانوا يستعجلونه ﴿إِذْ كَانُوا يَمْجَحِدُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ﴾ فلم يؤمنوا بها، ولم يتوجهوا له بالعبادة ﴿وَحَافَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾ أي: نزل بهم عذاب الله الذي كانوا يسخرون

منه ويستبطنون وقوعه، ويكذبون به.

قال الفخر الرازي: المعنى: أنا فتحنا عليهم أبواب النعم، أعطيناهم سمعًا فما استعملوه في سماع الدلائل، وأعطيناهم أبصارًا فما استعملوها في تأمل العبر، وأعطيناهم أفئدة فما استعملوها في طلب معرفة الله، بل صرفوا كل هذه القوة إلى طلب الدنيا ولذاتها، فلا جرم أنها لم تُغنِ عنهم من عذاب الله شيئًا.

كما قال تعالى: ﴿فَأَهْلَكْنَا أَشَدَّ مِنْهُمْ بَطْشًا وَمَضَىٰ مَثَلُ الْأَوَّلِينَ﴾ [الزخرف].

وقال سبحانه: ﴿فَأَمَّا عَادٌ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَقَالُوا مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ﴾ [فصلت].

ودعا جلَّ شأنه إلى التأمل في مصيرهم، فقال:

﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَانُوا أَكْثَرَ مِنْهُمْ وَأَشَدَّ قُوَّةً وَءِثَارًا فِي الْأَرْضِ فَمَا أَغْنَىٰ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ [غافر].

وقد كانت لهم حضارة عريقة:

﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ ﴿٦﴾ إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ ﴿٧﴾ الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبَلَدِ ﴿٨﴾﴾ [الفجر].

الْعِبْرَةُ بِمَا نَزَلَ بِالْأُمَمِ الْأُخْرَىٰ مِنْ عِقَابِ

٢٧- ﴿وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا مَا حَوْلَكُمْ مِّنَ الْقُرَىٰ وَصَرَفْنَا آيَاتِنَا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ ﴿٧٧﴾

وهلاك قوم عاد لم يكن الوحيد في الأمم المكذبة لرسول الله، بل أهلك الله أقوامًا آخرين مجاورين لهم يماثلون حالهم، وهؤلاء الأقوام يعرفونهم، ويسمعون عنهم، ويمرُّون بديارهم في أسفارهم، كقرى قوم ثمود وقوم لوط وأصحاب الأيكة وأهل سبأ وقوم تبع... ، فقد أبادهم الله جميعًا، ولم يُبقِ منهم أحدًا.

﴿وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا مَا حَوْلَكُمْ مِّنَ الْقُرَىٰ﴾ أيها المكذبون لرسول الله محمد ﷺ ﴿مِّنَ الْقُرَىٰ﴾ المجاورة لكم والبعيدة عنكم، وكانت أخبارهم متواترة عنكم، فجعلناها خاوية على عروشها بعد أن نَوَّعنا لهم الحجج والبراهين ليقنعوا عن الشرك وتكذيب الرسل، وكان تنوع الآيات: تارة بالحجة والمجادلة النظرية، وتارة بالتهديد على الفعل، وأخرى بالوعيد، ومرة

بالتذكير بالنعمة وشكرها ﴿وَصَرَفْنَا الْآيَاتِ﴾ أي: بيّنا لهم أنواع الحجج والدلائل بأساليب مختلفة ﴿لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ عما هم عليه من الكفر بالله وآياته والتكذيب بها، فأمهلناهم ووسّعنا عليهم ليتّعظوا ويتدبروا، ولكن العناد والجحود أعماهم عن طريق الحق، فلم يرجعوا عما هم فيه من ضلال وبغي، فدمرناهم تدميرًا، ولم يجدوا ما ينصرهم أو يدفع عنهم عذاب الله حين أحاط بهم من كل جانب: قال تعالى:

٢٨ - ﴿فَلَوْلَا نَصْرُهُمُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ قُرْبَانًا ءِلَهًَٔا بَلْ ضَلُّوا عَنْهُمْ وَذَٰلِكَ إِفْكُهُمْ وَمَا كَانُوا يَفْقَهُونَ﴾

إن الكافرين بالله، الجاحدين برسول الله، يزعمون أن لهم آلهة تدفع عنهم العذاب إذا حلّ بهم، ومنهم من يزعم أن آلهتهم تشفع لهم عند الله، ومنهم من يتقرّب بالآلهة إلى الله تعالى، فيجعلون وسطاء بينهم وبين الله تعالى، وعندما نزل عذاب الله تعالى بالأمم المكذبة لم يحصل لهم شيء من ذلك، فلم تمنعهم الآلهة من الهلاك، ولم تشفع لهم عند الله تعالى حتى يرفع العذاب عنهم.

﴿فَلَوْلَا نَصْرُهُمُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ قُرْبَانًا ءِلَهًَٔا﴾ أي: فهلّا نصر هؤلاء الذين أهلكناهم من الأمم الخالية، آلهتهم التي اتخذوا عبادتها قربانًا يتقربون بها إلى ربهم لتشفع لهم عنده، هلّا منعتهم من العذاب، كما قالوا: ﴿هَٰؤُلَاءِ شُفَعَاؤُنَا عِنْدَ اللَّهِ﴾ [يونس: ١٨].

وقالوا أيضًا: ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى﴾ [الزمر: ٣].

ليس هذا فحسب بل إن آلهتهم غابت عنهم، ولم تحضر معهم وقت المحنة، وتركتهم وحدهم في ساحة العرض والحساب ﴿بَلْ ضَلُّوا عَنْهُمْ﴾ فلم يجيبوهم ولم يدفعوا عنهم العذاب ﴿وَذَٰلِكَ﴾ الضلال والعذاب والضياع الذي حلّ بهم سببه ﴿إِفْكُهُمْ﴾ أي: كذبهم في زعمهم أن لهم وسطاء بينهم وبين الله تعالى يرفعون أعمالهم إلى الله تعالى ويشفعون لهم عنده ﴿وَمَا كَانُوا يَفْقَهُونَ﴾ في اتخاذهم آلهة لهم، ويزعمون أنهم على حق، وفي هذا تهكم بهم حيث لم ينفعوهم وقت الضيق كما زعموا.

قِصَّةُ إِيْمَانِ الْجِنِّ وَقِيَامِهِمْ بِوَاجِبِ الدَّعْوَةِ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى

٢٩ - ﴿وَإِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ الْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ الْقُرْآنَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوا أَنصِتُوا فَلَمَّا قُضِيَ وَلَوْ

إِلَى قَوْمِهِمْ مُنْذِرِينَ ﴿٢٩﴾

أرسل الله محمدا ﷺ إلى الإنس والجن، وكان لابد من إبلاغ الجميع دعوة النبوة والرسالة، فدعا النبي ﷺ الإنس، ثم أرسل الله إليه بقدرته جماعة من الجن، ليستمعوا إلى الدعوة، ويوصى بعضهم بعضًا بذلك.

وكانت الجن قبل مبعث النبي ﷺ تسترق السمع من السماء، فيسمعون الكلمة ويزيدون عليها عشراً، فلما بُعث محمد ﷺ حُرست السماء بالشهب الراجمة، وكانت النجوم لا يُرمى بها قبل ذلك، فكان أحدهم لا يأتي مقعده للسمع بعد بعثة النبي ﷺ إلا رُمي بشهاب يحرقه، فضاعت الجن ذرعاً بذلك، فاجتمعوا إلى رئيسهم، فأمرهم أن يتفرقوا في أقطار الأرض ليلحثوا عن سبب منع استراق السمع، فوصل بعضهم إلى بطن نخلة عند سوق عكاظ، فوجدوا النبي ﷺ يصلي فاستمعوا إلى القرآن، ثم رجعوا إلى قومهم منذرين، ولم يعرف النبي ﷺ عنهم شيئاً حتى عرّفه الله بذلك.

ثم وفدوا على النبي ﷺ مرات بعد ذلك، وبعد أن أعلمه الله تعالى بهم قبل وفادتهم، جاءه وفد من جن نينوى بالموصل، بالعراق، ووفد من جن نصيبين قيل: إنهم كانوا سبعة، واستعد للقائهم:

قال عبد الله بن مسعود رضي الله عنه: «إن رسول الله ﷺ قال: «إني خارج إلى وفد الجن، فمن شاء يشعني» فسكت أصحابه، فقال ثانية، فسكتوا، فقال ابن مسعود: أنا أتبعك، قال: فخرجتُ معه حتى جاء شُعب الحجون، فأدار لي دائرة، وقال: «لا تخرج منها» -أي: حدّد له مكاناً لا يتجاوزه- قال: ثم ذهب عني، فسمعتُ لَغَطًا ودويًا كدويّ السُّور الكاسرة، ثم في آخر الليل جاء رسول الله ﷺ بعد أن قرأ عليهم القرآن وعلمهم، وأعطاهم زاداً في كل عظم وروثة، فقال: «يا عبد الله، ما رأيت؟» فأخبرته، فقال: «لقد كنتُ أخشى أن تخرج فيتخطفك بعضهم» قلت: يا رسول الله، إني سمعت لهم لَغَطًا، فقال: «إنهم تدارؤوا في قتل لهم، فحكمْتُ بالحق»^(١).

هذا: ولما أشارت سورة الأحقاف إلى الجن في قوله تعالى: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ حَوَّٰ عَلَيْهِمْ

(١) يُنظَر: «تفسير ابن عطية» (١٠٥/٥) و«تفسير الطبري» (٢٠/٢٦) وانظر: «المسند» عن ابن عباس عن سعيد بن جبير (٢٥٢/١) والبيهقي في «الدلائل» (٢٢٥/٢).

الْقَوْلُ فِي أَمْرِ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ ﴿١٨﴾.

وكان من أغراض السورة ترسيخ الإيمان بنبوة محمد ﷺ فقد بينت السورة أن الله تعالى سخر لرسوله الجن ليؤمنوا به وبما نزل عليه من عند الله.

وفي هذا تقرير أن النبي ﷺ قد أرسله الله إلى الثقلين، بل إن رسالته كانت ولا تزال رحمة للعالمين، بما هو أعم من الجن والإنس، وهذا لم يحصل لأحد من رسل الله غيره.

كما قال تعالى: ﴿بَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا﴾ ﴿١﴾ [الفرقان].

وقال سبحانه: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾ ﴿١٧﴾ [الأنبياء].

وقد أمر الله تعالى رسوله ﷺ أن يذكر الجاحدين برسالته بإيمان الجن به؛ كي ينتفع بذلك من يهتدي، وتبلغ الحجة للذين لا يهتدون.

وهذا يدل على أن الجن يدركون الأمور العقلية الاعتقادية، وأنهم قد آمنوا بالله ورسوله، وآمنوا بالقرآن، وبلغوا قومهم بما سمعوه من القرآن، وهم مؤاخذون إذا لم يعملوا بدعوة الإسلام:

كما قال تعالى: ﴿لَا تَلَّاَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾ [هود: ١١٩].

وقال سبحانه: ﴿لَا تَلَّاَنَّ جَهَنَّمَ مِنْكَ وَمِمَّن تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ ﴿٨٥﴾ [ص].

والجن خلق من خلق الله، مخلوق من نار، وموجودون قبل الإنسان:

كما قال تعالى: ﴿وَالْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَهُ مِنْ قَبْلُ مِنْ نَّارِ السَّمُومِ﴾ ﴿٧٧﴾ [الحجر].

وهم يرون الناس والناس لا تراهم:

قال تعالى: ﴿إِنَّهُ يَرَأِيكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُ مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ﴾ [الأعراف: ٢٧].

وهم قبائل وأجناس، ولهم قدرة على الحياة في هذه الأرض:

كما قال تعالى: ﴿وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتْعٌ إِلَىٰ حِينٍ﴾ [الأعراف: ٢٤].

ولهم قدرة على اختراق الفضاء، كما قال تعالى على لسانهم:

﴿وَأَنَا لَمَسْنَا السَّمَاءَ فَوَجَدْنَهَا مِثْلَ حَرِّ سَا شَدِيدًا وَشُهْبًا﴾ [الجن: ٨].

وفيهم المسلم والكافر والمنافق، كما جاء في قوله تعالى عنهم:

﴿وَأَنَا مِنَّا الْمُسْلِمُونَ وَمِنَّا الْقَاسِطُونَ﴾ [الجن: ١٤].

ومنهم الصالحون والطالحون، والأقوياء والضعفاء، والبُله والمغفلون:

وفي هذا يقول تعالى عنهم: ﴿وَأَنَا مِنَّا الصَّالِحُونَ وَمِنَّا دُونَ ذَلِكَ كُنَّا طَرَائِقَ قَدَدًا﴾ [الجن: ١١].

عدد لقاءات النبي ﷺ بالجن:

ويفيد مجموع الروايات أن النبي ﷺ قد التقى بالجن عدة مرات، منها:

التقاؤه بأشرافهم مرتين في نصيبين^(١) وفي الحجون بمكة^(٢) ومن جهة جبل حراء^(٣) وفي بطن نخلة كما في هذه الآية.

وأن هذه الآيات من سورة الأحقاف تحكي لقاء معينًا، وسورة الجن تحكي لقاء آخر.

وذكر بعضهم أن لقاء النبي ﷺ بهم كان ست مرات^(٤).

وعدد الجن الذين التقى بهم النبي ﷺ يختلف من مرة لأخرى، وعبر القرآن عنهم هنا وفي سورة الجن بأنهم ﴿نَفَرٌ﴾ والنفر: ما بين الثلاثة والعشرة، وجاء في بعض الروايات أنهم كانوا سبعة، وقيل: تسعة، وقيل: خمسة عشر، وقيل: ثلاث مئة، وقيل: اثني عشر ألفًا.

وكان بعث الجن للنبي ﷺ في وقت لقي فيه الصّد والإعراض من أهل مكة وأهل الطائف في عام الحزن، قبل الهجرة بعام وبضعة أشهر، كما كان أيضًا بعد معجزة الإسراء والمعراج.

(١) جاء ذلك عن ابن عباس في الطبراني «الكبير» (٦).

(٢) جاء ذلك في الطبري (١٦٩/٢١) وأبي الشيخ (١١٦) وعند أحمد بسند ضعيف لانقطاعه (٦٦/٧) (٣٩٥٤)، وأخرجه أبو يعلى (٥٠٦٢) وأبو الشيخ في العظمة (١١٢١) وانظر حديث ابن مسعود في المسند أيضًا (٤١٤٩) بإسناد صحيح على شرط مسلم ورجال ثقات، كما في صحيح مسلم (٤٥٠) والترمذي (٣٢٥٨) وغيرهم.

(٣) كما في حديث علقمة المذكور في شرح الآية.

(٤) «تفسير الألوسي» (٣٠/٢٦).

وكان الله تعالى يقول لرسوله ﷺ: إن لم تتسع لك الأرض فإن مكانك فوق السماء، وإن لم يؤمن بك الإنس فقد أرسلت لك عالمًا آخر ليؤمنوا بك وبما جئت به من عند الله، وكانت خديجة وأبو طالب يمنعان النبي ﷺ وينصرانه من أذى قومه له، فلما ماتا اشتد أذاهم له.

فخرج إلى الطائف يلتمس من ثقيف الدخول في الإسلام، وأن يكونوا له سندًا وعونًا، ولما وصل إلى الطائف دعا سادة ثقيف وأشرافهم إلى الله تعالى، ونصرته في الدعوة إليه، فقال أحدهم: أما وجد الله أحدًا يُرسله غيرك؟ وقال آخر: لا أكلّمك أبدًا، فإن كنت رسولًا فأنت أعظم خطرًا من أن أرد عليك الكلام، وإن كنت تكذب على الله فما ينبغي لي أن أكلّمك.

فقام رسول الله ﷺ لَمَّا لم يجد منهم إجابة، فأرسلوا في أثره سفهاءهم وعبيدهم وجعلوا يسبونه ويصيحون به، فجلس إلى جوار حائط عُتْبَة وشيبة بني ربيعة، في ظل شجرة عنب، وأخذ يضرع إلى ربه بهذا الدعاء: «اللهم إليك أشكو ضعف قوتي، وقلة حيلتي، وهواني على الناس، يا أرحم الراحمين، أنت رب المستضعفين، وأنت ربي، إلى من تكلني؟ إلى بعيد يتجهّمني، أم إلى عدوّ ملكته أمري؟ إن لم يكن بك عليّ غضب فلا أبالي، ولكن عافيتك أوسع لي، أعوذ بنور وجهك الذي أشرقت له الظلمات، وصلح عليه أمر الدنيا والآخرة، من أن تنزل بي غضبك، أو يحلّ عليّ سخطك، لك العُتْبَى حتى ترضى، ولا حول ولا قوة إلا بك»^(١).

فلما رأى ابنا ربيعة ما لقي النبي ﷺ من الأذى، تحركت فيهما عاطفة صلة الرحم، فدعوا غلامًا لهما، يقال له عدّاس، وقالوا له: خذ قُطْفًا من هذا العنب وضّعه في هذا الطبق، ثم اذهب به إلى هذا الرجل، وقل له يأكل، فلما وضعه بين يدي النبي ﷺ رفع النبي يده، وقال: «بسم الله» ثم أكل، فنظر عدّاس إلى وجهه، ثم قال: والله إن هذا الكلام ما يقوله أهل هذه البلدة، فقال له رسول الله ﷺ: «من أيّ البلاد أنت يا عدّاس؟ وما دينك؟» فقال: أنا نصراني، وأنا رجل من أهل نينوى، فقال ﷺ: «أمن قرية الرجل

(١) ضعفه الألباني عن عبدالله بن جعفر عند الطبراني في ضعيف الجامع الصغير برقم (١١٨٢).

الصالح: يونس بن متى؟ فقال له عدّاس: وما أدراك ما يونس بن متى؟ قال ﷺ: «ذاك أخي، كان نبياً، وأنا نبي» فأكبّ عدّاس على النبي ﷺ يقبل رأسه ويديه وقدميه، ولما رجع عدّاس إلى ابني ربيعة، وسألاه: لماذا تقبل يديه ورجليه؟ قال: يا سيدي، ما في الأرض خير من هذا الرجل، لقد أخبرني بأمر ما يعلمه إلا نبي، فقالا له: ويحك يا عدّاس، لا يصرفك عن دينك، فإن دينك خير من دينه.

ثم إن رسول الله ﷺ انصرف راجعاً إلى مكة.

ولما كان في بطن نخلة -بين مكة والطائف- قام ﷺ من جوف الليل يصلي، وقيل: في صلاة الفجر، فمرّ به نفر من جنّ نصيبين^(١).

وجاء عن الزبير ؓ: أن النبي ﷺ كان يصلي بنخلة العشاء الآخرة، وأن الجنّ كادوا يكونون عليه لبدًا^(٢). ومما ورد في هذا:

١- ما جاء في حديث ابن عباس ؓ قال: انطلق رسول الله ﷺ في طائفة من أصحابه عائدين إلى سوق عكاظ، وقد حيل بين الشياطين وبين خبر السماء، وأرسلت عليهم الشُّهْب، فرُجمت الشياطين، فقالوا: ما لكم؟ قالوا: حيل بيننا وبين خبر السماء، وأرسلت علينا الشُّهْب، قالوا: ما ذاك إلا من شيء حدث، فاضربوا مشارق الأرض ومغاربها فانظروا ما هذا الأمر، فمرّ النفر الذين توجّهوا نحو تهامة بالنبي ﷺ وهو بنخلة وهو يصلي بأصحابه صلاة الفجر، فلما سمعوا القرآن تسمّعوا له، فقالوا: هذا الذي حال بينكم وبين خبر السماء، فهناك رجّعوا إلى قومهم، فقالوا: ﴿إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا ۖ يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ فَآمَنَّا بِهِ﴾ [الجن: ١، ٢] فأنزل الله على نبيه: ﴿قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ الْجِنِّ﴾^(٣) [الجن: ١] الآيات.

٢- وفي حديث علقمة قال: قلت لابن مسعود ؓ: هل صحب النبي ﷺ ليلة الجن

(١) يُنظر: «تفسير الخازن» (١٣١/٤) و«السيرة النبوية» لابن هشام (٤١٩/١) و«الرحيق المختوم» ص ١٢٥.
(٢) أخرجه أحمد (٤٥/٢) (١٤٣٥) قال محققو «المسند»: حسن لغيره، وهذا إسناد رجاله ثقات إلا أنه منقطع بين عكرمة والزبير.

(٣) يُنظر: «صحيح البخاري» برقم (٧٧٣، ٤٩٢١) و«صحيح مسلم» برقم (٤٤٩) و«المسند» (٢٥٢/١) و«دلائل النبوة» للبيهقي (٢٢٥/٢).

منكم أحد؟ قال: ما صحبه منا أحد، ولكن افتقدناه ذات ليلة وهو بمكة، فقلنا: اغتيل، أو استُطير -أي: ذهب بسرعة، كأن الطير حملته- ما فعل به؟ فبتنا ليلة بات بها قوم، حتى إذا أصبحنا، أو كان في وجه الصبح، إذا نحن به يجيء من قبل حراء، قال: فأخبرناه، فقال: أتاني داعي الجن، فأتيتهم فقرأت عليهم القرآن، فانطلق بنا، فأرانا آثارهم وآثار نيرانهم.

وقال الشعبي: وسأله الزاد، قال عامر: سأله بمكة، وكانوا من جن الجزيرة، فقال: «كل عظم يُذكر اسم الله عليه، يقع في أيديهم أوفر ما كان لحمًا، وكل بغرة، أو رُوثة علف لدوابكم»، فقال ﷺ: «فلا تستنجوا بهما، فإنهما زاد إخوانكم الجن»^(١).

٣- وعن أبي ثعلبة الخشني ؓ أن رسول الله ﷺ قال: «الجن ثلاثة أصناف: صنف لهم أجنحة يطفرون في الهواء، وصنف حيّات وكلاب، وصنف يَحُلُون وَيَطْعُون»^(٢).

٤- وعن ابن عباس ؓ قال: كان الجن يستمعون الوحي، فيسمعون الكلمة فيزيدون فيها عَشْرًا، فيكون ما سمعوا حقًا، وما زادوا باطلًا، وكانت النجوم لا يُرمى بها قبل ذلك، فلما بُعث رسول الله ﷺ كان أحدهم لا يأتي مقعده إلا رُمي بشهاب يَحْرِق ما أصاب، فشكوا ذلك إلى إبليس فقال: ما هذا إلا مِنْ أَمْرٍ قد حدث، فبث جنوده، فإذا بالنبى ﷺ يصلي بين جبلي نخلة، فأتوه فأخبروه، فقال: هذا الحدث الذي حدث في الأرض^(٣).

٥- وعن عبد الله بن مسعود ؓ قال: هبطوا على النبى ﷺ وهو يقرأ القرآن بطن نخلة، فلما سمعوه قالوا: أنصتوا، قالوا: صه، وكانوا تسعة، أحدهم اسمه زَوَيْعَةُ، فأنزل

(١) «صحيح مسلم» برقم (٤٥٠) قال الترمذي: حديث حسن صحيح، برقم (٣٢٥٨) وصححه الألباني في «صحيح سنن الترمذي» برقم (٢٥٩٦) و«المسند» (٤٣٦/١) برقم (٤١٤٨) وإسناده صحيح على شرط مسلم، ورجاله ثقات، وأخرجه ابن خزيمة (٨٢) وابن حبان (٦٣٢٠) وغيرهم.

(٢) قال الحاكم: هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه، «المستدرک» (٤٥٦/٢) ووافقه الذهبي، وصححه الألباني في «صحيح الجامع» (٣١٠٩) وأخرجه الطبراني في «الكبير» (٥٧٣) والبيهقي في «الأسماء والصفات» (٨٢٧) والحكيم الترمذي في «نوادير الأصول» (٢٠٦/١).

(٣) «سنن الترمذي» برقم (٣٣٢٣) و«السنن الكبرى» للنسائي برقم (١١٦٤). ومسند أحمد (٢٤٨٢) بإسناد صحيح على شرط الشيخين (محققوه) والطبراني (١٢٤٣١) وأبو يعلى (٢٥٠٢).

الله ﷻ: ﴿وَإِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ الْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ الْقُرْآنَ﴾^(١).

٦- وفي حديث عبد الله بن مسعود أيضًا أن رسول الله ﷺ قال لأصحابه وهو بمكة: «من أحب منكم أن يحضر أمر الجن الليلة فليفعل» فلم يحضر منهم أحد غيري، قال: فانطلقنا حتى إذا كنا بأعلى مكة خط لي برجله خطأ، ثم أمرني أن أجلس فيه، ثم انطلق حتى قام، فافتتح القرآن، فغشيته أسودة كثيرة حالت بيني وبينه، حتى ما أسمع صوته، ثم طفقوا يتقطعون مثل قطع السحاب ذاهبين، حتى بقي منهم رهط، ففزع رسول الله ﷺ مع الفجر، فانطلق فبترز، ثم أتاني فقال: «ما فعل الرهط؟» فقلت: هم أولئك يا رسول الله، فأعطاهم عظمًا وروثًا زادًا، ثم نهى أن يستطيب بروث أو عظم^(٢).

٧- وعن البراء ﷻ قال: بينما عمر بن الخطاب ﷻ يخطب الناس على منبر رسول الله ﷺ إذ قال: أيها الناس، أفیکم سواد بن قارب؟ فلم يجبه أحد تلك السنة، فلما كانت السنة المقبلة قال: أيها الناس، أفیکم سواد بن قارب؟ قال: فقلت: يا أمير المؤمنين، وما سواد بن قارب؟ قال: فقال له عمر: إن سواد بن قارب كان بدء إسلامه شيئًا عجيبًا، قال: فبينما نحن كذلك إذ طلع سواد بن قارب، قال: فقال له عمر: يا سواد، حدثنا ببدء إسلامك كيف كان؟ قال سواد: فإني كنت نازلًا بالهند، وكان لي رثيٌّ من الجن، قال: فبينما أنا ذات ليلة نائم، إذ جاءني في منامي ذلك، قال: قم فافهم واعقل إن كنت تعقل، وقد بُعث رسول من لؤي بن غالب، قال: أنبهني فأفرعني وقال: يا سواد بن قارب، إن الله بعث نبيًا فانفض إليه تهتد وترشد، ثم أتاه الليلة الثانية والثالثة، وقال له مثل ذلك - وفي كل مرة ينشد شعرًا يشيد فيه بالنبي ﷺ - قال سواد: فلما سمعته تكرر ليلة بعد ليلة، وقع في قلبي حب الإسلام ومن أمر رسول الله ﷺ ما شاء الله، قال: فانطلقتُ إلى رحلي فشددته على راحلتي، فما حللتُ نسعة ولا عقدتُ أخرى حتى أتيت رسول الله ﷺ فإذا هو بالمدينة - يعني: مكة - والناس عليه كعُرف الفرس، فلما رأيته النبي ﷺ قال:

(١) قال الحاكم: صحيح الإسناد ولم يخرجاه، ووافقه الذهبي، «المستدرک» (٤٥٦/٢) وابن أبي شيبة كما في «تفسير ابن كثير» (٢٩٠/٧) وأبو نعيم (٣٥٣) والبيهقي في «الدلائل» (٢٢٨/٢) و«الإصابة» (٥٨١/٢) وقال الحافظ: إسناده جيد.

(٢) «تفسير الطبري» (٢١/٢٦) و«دلائل النبوة» للبيهقي (٣٣٠/٢) وصححه الحاكم من طريق عبد الله بن صالح في «المستدرک» (٥٠٣/٢).

«مرحباً بك يا سواد بن قارب، قد علمنا ما جاء بك» قال: قلت: يا رسول الله قد قلت شعراً فاسمعه مني - وأنشد أبياتاً - قال: فضحك النبي ﷺ حتى بدت نواجذه، وقال لي: «أفلمحت يا سواد» فقال له عمر: هل يأتيك رثيك الآن؟ فقال: منذ قرأت القرآن لم يأتي، ونعم العوض كتاب الله من الجن^(١).

٨- وعن جابر بن عبد الله رضي الله عنه قال: قرأ رسول الله ﷺ سورة الرحمن حتى ختمها، ثم قال: «ما لي أراكم سكوتاً، للجن كانوا أحسن منكم رداً، ما قرأت عليهم هذه الآية من مرة ﴿فَيَأْتِيْءُ أَلَاءَ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ (٣٢) إلا قالوا: ولا بشيء من آلائك - أو نعمك - ربنا نكذب، فلك الحمد»^(٢).

وتشير الأحاديث إلى أن النبي ﷺ لم يشعر بالجن وهم يستمعون إليه في أول مرة، كما قال ابن عباس رضي الله عنهما: ما قرأ رسول الله على الجن - أي ما قصد ذلك - ولا رآهم، وإنما أوحى إليه قول الجن، حيث كان النبي ﷺ يصلي بأصحابه صلاة الفجر، فلما سمع الجن القرآن استمعوا له ورجعوا إلى قومهم منذرين، بعد أن عرفوا السبب الذي حال بينهم وبين خبر السماء^(٣).

ثم وفد الجن إلى رسول الله ﷺ بعد ذلك يدعونه، فأتاهم، فقرأ عليهم واستمعوا إليه، ورجع إلى أصحابه صباحاً من قبل حراء بعد أن افتقدوه، كما في رواية ابن مسعود^(٤).

ومعنى الآية: واذكر - أيها الرسول - لقومك وقت أن بعثنا إليك طائفة من الجن يستمعون منك إلى القرآن ﴿وَإِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ﴾ أي: وجَّهنا إليك أيها النبي ﴿نَفَرًا مِّنَ الْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ الْقُرْآنَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوا أَنصُتُوا﴾ أي: لما حضر الجن عند تلاوتك للقرآن، قال بعضهم

(١) «دلائل النبوة» للبيهقي (٢٤٨/١، ٢٥٢) والحديث بتمامه في «تفسير ابن كثير» (٢٩٨/٧). وفي المستدرك (٦٥٥٨)

(٢) «دلائل النبوة» للبيهقي (٢٣٢/١) و«سنن الترمذي» برقم (٣٢٩١). والمستدرك (٣٧٦٦) وقال الترمذي: غريب ورواه ابن عدي في الكامل (٢١٩/٣) بسند ضعيف.

(٣) ينظر: «المسند» (٢٥٢/١) بطوله برقم (٢٢٧١) قال محققوه: إسناده صحيح على شرط الشيخين، و«سنن النسائي الكبرى» (١١٥٦١). وأخرجه البخاري مطولاً (٧٧٣) ومسلم (٤٤٩) وغيرهم.

(٤) مسلم (٤٥٠) و«المسند» (٤٣٦/١) ورقم: (٤١٤٩) بإسناد صحيح على شرط مسلم ورجال ثقات (محققوه) وأبو داود (٨٥) والترمذي (٣٢٥٨) و«سنن النسائي الكبرى» (١١٥٥٩). وانظر الحديث رقم ٢ فيما سبق.

لبعض : استمعوا وأنصتوا إلى هذا القرآن .

والجن بمقدار ما ينطلقون في اللغو، بمقدار ما يقفون خرساً أمام الحق الذي خلقت به السموات والأرض، خلافاً لأبناء آدم الذين قالوا: ﴿لَا سَمْعُوا لِهَذَا الْقُرْآنِ وَالْعَوَّا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ﴾ [فصلت: ٢٦] أما الجن فقد وعوا ما سمعوه، ثم رجعوا إلى قومهم منذرين ﴿فَلَمَّا قُضِيَ وَلَوْ إِلَى قَوْمِهِمْ مُنْذِرِينَ﴾ أي: فلما فرغ الرسول ﷺ من قراءة القرآن كانوا قد آمنوا به، وبعد أن وعوه وأثر فيهم رجعوا إلى قومهم مخوفين ومحذرين لهم بأس الله إن لم يؤمنوا، ومبشرين لهم بحسن العاقبة إن آمنوا.

والآية تفيد أن في الجن نُذْرًا يأمرهم بالمعروف وينهون عن المنكر، وليس فيهم رسل، فالرسل لا يكونون إلا من الإنس، كما قال تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلَّا رَجَالًا نُوحِي إِلَيْهِمْ﴾ [يوسف: ١٠٩].

فرسل الله تعالى إلى عامة البشر هم رجال من بني آدم، يأكلون الطعام ويمشون في الأسواق، وليسوا نساء، ولا ملائكة، ولا جنًا، أما قوله تعالى: ﴿يَمْعَشَرُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ﴾ [الأنعام: ١٣٠] فالمراد به: رسل من مجموع الجنسين، يصدق على أحدهما دون الآخر، ويفسر ذلك الآيات الأخرى.

عَوْدَةُ الْجِنِّ إِلَى بَنِي جَنَسِهِمْ يَبْلُغُونَهُمْ دَعْوَةَ اللَّهِ تَعَالَى

٣٠- ﴿قَالُوا يَنْقُومَنَا إِنَّا سَمِعْنَا كِتَابًا أُنْزِلَ مِنْ بَعْدِ مُوسَى مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ وَإِلَى طَرِيقٍ مُسْتَقِيمٍ﴾

أي: قال الجن - الذين استمعوا إلى القرآن - لقومهم بعد أن وصلوا إليهم: يا قومنا، إنا سمعنا كتاباً عظيم الشأن، جليل القدر، أنزل من بعد موسى على نبي الله محمد، ولم يقولوا أنزل من بعد عيسى؛ لأن التوراة هي آخر كتاب من كتب الشرائع قبل القرآن، وما جاء بعدها في الإنجيل والزبور، كان وصايا ورقائق ملحقة بالتوراة ومخففة لبعض أحكامها، وجاء القرآن كتاباً مستقلاً حوى التوراة والإنجيل، وأنشأ شريعة مهيمنة على ما سبقها من الوحي، قال تعالى: ﴿وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنْ أَلْكِتَابٍ وَمُهِمِّنًا عَلَيْهِ﴾ [المائدة: ٤٨] فهذا الكتاب أنزله الله ﴿مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ﴾

أي: يُصَدِّقُ الكتب التي نزلت على رسل الله قبله، ومن شأن هذا القرآن أنه ﴿يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ وَإِلَى طَرِيقٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ أي: يرشد إلى الطريق القويم، كما قال تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ﴾ [التوبة: ٣٣].

وقال تعالى: ﴿وَلَكِنْ جَعَلْنَاهُ نُورًا نَهْدِي بِهِ مَنْ شَاءَ مِنْ عِبَادِنَا﴾ [الشورى: ٥٢] مع اشتماله على الدعوة إلى التوحيد، وتصديق الأنبياء له، والإيمان بالمعاد والحشر، وهو دين الإسلام الذي يهدي إلى الجنة.

ويمضي الجن في دعوتهم لقومهم، فيقولون:

٣١- ﴿يَقَوْمَنَا أَجِيبُوا دَاعِيَ اللَّهِ وَآمِنُوا بِهِ يَغْفِرَ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ وَيُجِرْكُمْ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ﴾

قال الجن لقومهم: يا قومنا، أجبوا محمداً ﷺ، فإنه يدعوكم إلى ربكم، ولا يدعوكم إلى غرض من أغراض الدنيا، وآمنوا بالقرآن الذي جاءكم به من عند الله، فإنكم إن فعلتم ذلك غفر الله لكم ذنوبكم، وأزال عنكم كل مكروه، وأنقذكم من عذاب مؤلم موجه ﴿يَقَوْمَنَا أَجِيبُوا دَاعِيَ اللَّهِ وَآمِنُوا بِهِ﴾ أي: أطيعوا -أيها القوم- ما طُلب منكم أن تعملوه من الإيمان بالله ورسوله، واليوم الآخر؛ ﴿يَغْفِرَ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ وَيُجِرْكُمْ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ ومذهب أهل السلف أن مؤمني أهل الجن يدخلون الجنة كمؤمني الإنس، وأن كافرهم يُجَارَى بعذاب النار كالإنس، فقد امتنَّ الله تبارك وتعالى على الثقلين بأن جعل مُحْسِنَهُمْ يدخل الجنة، كما يشير إلى ذلك قوله تعالى: ﴿وَلَمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّاتٍ ﴿٤٦﴾ فَإِنَّ أَهْلَ الْآلَاءِ رَيْبًا تَكْذِبَانِ ﴿٤٧﴾﴾ [الرحمن].

فالخطاب موجَّه إلى الإنس والجن معاً، والآية التي معنا تشير إلى ذلك في قوله تعالى: ﴿وَيُجِرْكُمْ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ وفي النجاة من النار فوز عظيم بنعيم الجنة، كما قال تعالى: ﴿فَمَنْ رُحِخَ عَنِ الْكَارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ﴾ [آل عمران: ١٨٥].

وتكفير الذنوب والإجارة من عذاب النار يستلزم دخول الجنة؛ لأنه ليس في الآخرة إلا جنة أو نار، وقد لا يرى الإنس الجن في دار الجزاء كما هو الحال في الدنيا^(١).

ويرى أبو حنيفة أن الجن ليس لهم ثواب في الآخرة، إلا أن يُجَارُوا من النار، ثم يقال

(١) يُنْظَرُ: «تفسير ابن كثير» (٧/٣٠٣).

لهم: كونوا ترابًا مثل البهائم.

وقال مالك والشافعي وابن أبي ليلي والضحاك: كما يُجازون على الإساءة يُجازون عن الإحسان، فيدخلون الجنة^(١).

والآية تقرر ما قاله الجن، وأنهم فهموا دعوة القرآن لهم، فأمنوا به وعملوا بما فيه، وبلغوه لقومهم.

واستمر الجن في دعوتهم لبني جنسهم يبينون لهم مغبة عدم الإيمان بخاتم النبيين، حيث قالوا:

٣٢- ﴿وَمَنْ لَا يُحِبِّ دَاعِيَ اللَّهِ فَلَيْسَ بِمُعْجِزٍ فِي الْأَرْضِ وَلَيْسَ لَهُ مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءُ أُولَٰئِكَ^(٢) فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾

هذه الآية يحتمل أن تكون من كلام الله تعالى لمحمد ﷺ لإبلاغ الكافرين به، ويحتمل أن تكون من كلام الجن المنذرين قومهم، وذلك أنه بعد أن رغب الجن قومهم في التصديق بالله ورسوله، والعمل بما في كتابه، رهّبوهم من الإصرار على الكفر وعدم الإيمان بخاتم الرسل ﷺ حيث قالوا لقومهم: إنكم إن أجبتم داعي الله غفر لكم ذنوبكم التي وقعت منكم قبل الإسلام، وأبعدكم الله عن عذابه، أما إن أعرضتم عن داعي الله، فإنه لن يستطيع أحد منكم أن يفلت من عذاب الله أو يهرب من عقابه؛ لأن الله تعالى لا يعجزه شيء ﴿وَمَنْ لَا يُحِبِّ دَاعِيَ اللَّهِ﴾ وهو القرآن الذي جاء به محمد ﷺ، فإنه لن يستطيع الإفلات من عذاب الله، وهذا معنى ﴿فَلَيْسَ بِمُعْجِزٍ فِي الْأَرْضِ﴾. فإن الله تعالى على كل شيء قدير، لا يفوته، هارب، ولا يغالبه مغالب.

وبالإضافة إلى ذلك فإنه لا يوجد لمن أعرض عن دعوة رسول الإسلام، من يدفع عنه عذاب الله أو يحميه من عقابه ﴿وَلَيْسَ لَهُ مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءُ﴾ أي: ليس لهذا المعرض غير الله

(١) يُنْظَرُ: «تفسير ابن عاشور» (٦٢/٢٦).

(٢) سهّل الهمزة الأولى كالواو من (أولياء أولئك) قالون والبزي مع المد والقصر، وأسقطها أبو عمرو، وقبل، وسهّل الهمزة الثانية كالواو، ورش وقبل من طريق ابن مجاهد، وأبو جعفر ورويس من طريق أبي الطيب، وللأزرق وقبل وجه آخر، هو إبدالها واوًا مع القصر فقط، لتحرك ما بعدها، وقرأ الباقر بتحقيق الهمزتين. فعلم من هذا أن لقبيل ثلاثة أوجه هي: ١- إسقاط الأولى والنطق بالثانية محققة.

٢- تسهيل الثانية كالواو. ٣- إبدال الهمزة الثانية واوًا مع عدم المد.

تعالى ولي ولا نصير، وهو في ضلال بين واضح لا يخفى على أحد ﴿أُولَئِكَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾. وأي ضلال أبلغ من ضلال من دَعَتْهُ الرسل، وبلغته النذر، فأعرض واستكبر.

وفي الآيات توبيخ لمن أصر على عدم الدخول في الإسلام من هذه الأمة.

وقد دلت هذه الآيات على أن الجن حكمهم كحكم الإنس في الثواب والعقاب، وفي وجوب العمل بالأوامر واجتناب النواهي، وأنهم يُثابون على الطاعات ويُعَذَّبون على المعاصي، كما قال تعالى: ﴿وَلَمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّاتٍ ۖ ﴿٤٦﴾ فَيَأْتِي ۖ أَلَاءَ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٤٧﴾﴾ [الرحمن].

قَضِيَّةُ الْبُعْثِ وَالنُّشُورِ

٣٣- ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَمْ يَتَّخِذْ لِنَفْسِهِ وَلَمْ يَخْلُقْ هُنَّ ۖ ﴿٤٦﴾ فَيَأْتِي ۖ أَلَاءَ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٤٧﴾﴾ [الرحمن].

والحديث عن البعث عنصر من عناصر السور المكية، والله تعالى يقيم الحجة على منكري البعث بأنه سبحانه قد خلق ما هو أعظم وأقوى من الإنسان ولم يتعبه ذلك، وأهون منه إعادة الناس بعد موتهم ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا﴾ أي: أغفل منكرو البعث، المستبعدون قيام الإجماع يوم المعاد؟ وبلغ بهم العمى والجهل فلم يعلموا ﴿أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ﴾ بقوله: كن، وخلقهما أعظم وأكبر من خلق الناس، كما قال تعالى: ﴿لَخَلْقُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ﴾ [غافر: ٥٧]

وفي هذا احتجاج على من قال: إن الأجساد لا يمكن أن تُبعث ولا أن تعاد، مع اعترافهم بأن الله تعالى خالق السموات والأرض، فأقيمت عليهم الحجة من قولهم.

وقد أبدع الله خلقهما على غير مثال سابق، ورفع السماء بلا عمد، وبسط الأرض وذلّلها للناس، ولم يَعْجِزْ سبحانه عن اختراعهما وتكوينهما، وهذا معنى ﴿وَلَمْ يَتَّخِذْ لِنَفْسِهِ وَلَمْ يَخْلُقْ هُنَّ ۖ ﴿٤٦﴾ فَيَأْتِي ۖ أَلَاءَ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٤٧﴾﴾ أي: لم يتعب ولم ينصب، ولم يتحير، ولم يعجز، فكيف يعجزه إعادتكم بعد موتكم؟ أليس ذلك الله الذي خلق العالم العلوي والعالم السفلي ﴿يَقْدِرُ عَلَى أَنْ يُخْجِيَ أَلْمَوْتِ﴾؟ فالذي أوجدكم من

(١) وقف يعقوب بهاء السكت على (بخلقهن)، والباقون بدونها، والوقف يكون بالغنة مع سكون النون المشددة.

(٢) قرأ يعقوب (يَقْدِرُ) مضارع قدر، وقرأ الباقر (بقادر) اسم فاعل.

العدم قادر على أن يعيدهم إلى الحياة بعد موتهم، والكل هين على الله تعالى.

وجواب النفي ﴿بَلَى﴾ فإن ذلك أمر يسير على الله تعالى الذي لا يُعجزه شيء ﴿وَأَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ لا يعجزه شيء، ومن قدرته تعالى إحياء الناس بعد موتهم، وكما خلقهم يعيدهم مرة أخرى.

وهذه الآية تربط أول السورة بآخرها، ففي أولها: ﴿مَا خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ﴾ [٣] وفيها عود على الذي قال لوالديه: ﴿أَفِ لَكُمْ أَتَعْدَانِي أَنْ أُخْرِجَ وَقَدْ خَلَيْتِ الْقُرُونُ مِن قَبْلِي﴾ [١٧].

مِنْ مَشَاهِدِ الْقِيَامَةِ

٣٤- ﴿وَيَوْمَ يُعْرَضُ الَّذِينَ كَفَرُوا عَلَى النَّارِ أَلَيْسَ هَذَا بِالْحَقِّ قَالُوا بَلَى وَرَبِّنَا قَالَ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ﴾

يذكر الله سبحانه الناس بمشهد من مشاهد يوم الحشر والنشر، حين يُعرض الكفار عرضاً مباشراً على النار، فيدخلونها ويصلون سعيها، ويقال لهم: أليس هذا العذاب حقاً وقد كنتم تكذبون به في الدنيا؟ وذلك ليعتبر الناس ويتعظوا، فيثوبوا إلى رشدهم، ويتوبوا إلى ربهم قبل أن يأتي يوم لا مرد له من الله ﴿وَيَوْمَ يُعْرَضُ الَّذِينَ كَفَرُوا عَلَى النَّارِ﴾ فيلقون فيها بعد رؤيتها، جزاء جحودهم بوحدانية الله تعالى، وتكذيبهم لخاتم المرسلين، وإنكارهم للبعث والحساب، فيقال لهم تقريراً وتوبيخاً: ﴿أَلَيْسَ هَذَا بِالْحَقِّ﴾ أي: هذا هو العذاب الذي وعدكم به الرسل، كما قال تعالى: ﴿هَذِهِ النَّارُ الَّتِي كُنتُمْ بِهَا تُكَذِّبُونَ﴾ ﴿١٤﴾ أفسحروا هذا أم أنتم لا تبصرون ﴿١٥﴾ أصلوها فاصبروا أو لا تصبروا سواء عليكم إنما تجزون ما كنتم تعملون ﴿١٦﴾ [الطور] فيعترفون على أنفسهم بالكفر، بعدما كانوا في الدنيا منكرين، فيكون جوابهم: ﴿قَالُوا بَلَى وَرَبِّنَا﴾ إنه لحق، وإنكارنا له في الدنيا كان جهلاً وغفلة وغروراً، فيجيبهم ربهم: ﴿قَالَ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ﴾ أي: بسبب كفركم في الدنيا وخروجكم عن أمر الله تعالى وطاعته، لقد اعترفوا بأن البعث حق، وأن الحساب والجزاء حق، ولكنه إقرار في وقت لا ينفع فيه الاعتراف، ولا ينفع فيه الندم.

لَا بُدَّ لِنَشْرِ الدَّعْوَةِ مِنَ الْعَزْمِ وَالصَّبْرِ

٣٥- ﴿فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُو الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ وَلَا تَسْتَعْجِلْ لَهُمْ كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ لَمْ يَلْبُتُوا إِلَّا سَاعَةً مِّنْ نَّهَارٍ بَلَّغَ فُهَلْ يُهْلَكُ إِلَّا الْقَوْمُ الْفَاسِقُونَ﴾ (٢٥)

وفي ختام السورة يأمر الله تعالى رسوله ﷺ بالصبر على أذى قومه الذين جحدوا رسالته، وأنكروا البعث والحساب والجزاء، وطعنوا في القرآن، وأمره أن يتأسى بالأنبياء قبله، ويستمر في دعوة الناس إلى دين ربه، وضرب الله له المثل بأولي العزم من الرسل الذين صبروا على أذى أقوامهم، قائلًا: ﴿فَاصْبِرْ﴾ أيها الرسول على ما أصابك من أذى قومك المكذبين لك وتأسى في صبرك بأولي العزم من الرسل الذين كابدوا أقوامهم وصبروا على أذاهم، وهذا معنى ﴿كَمَا صَبَرَ أُولُو الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ﴾ أي: كما صبر إخوانك -أيها الرسول- وهم أصحاب الجدة والثبات، والصبر على الشدائد والبلاء، وهم أولو العزم والعزم، وكمال الرأي والعقل، فإذا علمت ما كان من الأمم السابقة، وعلمت كيف انتقمنا منهم وانتصرنا لرسولنا، فاصبر كما صبروا، وقد امثل النبي ﷺ أمر ربه، فصبر وصابر وجاهد في الله حق جهاده حتى مكن الله له في الأرض، وأظهر دينه على سائر الأديان.

والعزم المحمود في الدين: هو العزم على ما فيه تركية النفس وصلاح الأمة، وقوامه الصبر على المكروه، وباعثه التقوى، وقوته شدة المراقبة بالألّا يتهاون المؤمن في محاسبة نفسه، قال تعالى: ﴿وَإِنْ تَصَبَّرُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ﴾ [آل عمران: ١٨٦].

وأولو العزم من الرسل هم على الأشهر: نوح، وإبراهيم، وموسى، وعيسى، ومحمد صلوات ربي وسلامه عليهم أجمعين، وقد جاء ذكرهم في آيتين من كتاب الله، هما قوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَاقَهُمْ وَمِنْكَ وَمِنْ نُوحٍ وَإِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ وَأَخَذْنَا مِنْهُمْ مِّيثَاقًا غَلِيظًا﴾ (٧) [الأحزاب].

وقوله جلّ شأنه: ﴿شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ﴾ [الشورى: ١٣].

وأخرج ابن مردويه عن جابر بن عبد الله ؓ قال: بلغني أن أولي العزم من الرسل

كانوا ثلاث مئة وثلاثة عشر^(١).

وعن مسروق قال: قالت لي عائشة رضي الله عنها: ظلّ رسول الله صلى الله عليه وسلم صائماً ثم طواه، ثم ظلّ صائماً، ثم قال: «يا عائشة، إن الله لم يرضَ من أولي العزم من الرسل إلا بالصبر على مكروهاها، والصبر عن محبوبها، ثم لم يرضَ مني إلا أن يكلفني ما كلفهم، فقال: ﴿فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُو الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ﴾، وإني -والله- لأصبرنَّ كما صبروا جَهْدِي، ولا قوة إلا بالله»^(٢).

وقيل: إن ﴿مِنْ﴾ في الآية للبيان، وأن الرسل جميعاً كلهم أولو عزم، وأن الله تعالى لم يبعث نبياً إلا كان ذا عزم وحزم ورأي وكمال عقل^(٣).

وبعد أن أمر الله تعالى رسوله صلى الله عليه وسلم بالصبر على أذى المشركين، نهاه أن يستعجل نزول العذاب بهم، فإنه نازل بهم لا محالة، ولأن الاستعجال ينافي الصبر، وفي تأخير العذاب عنهم تطويل لمدة الصبر عليهم، فقال سبحانه: ﴿وَلَا تَسْتَعْجِلْ لَهُمْ﴾ أي: لا تستعجل هلاكهم ووقوع العذاب بهم، فإنه آتٍ لا محالة، وعليهم أن يستعدوا له بالعمل على ما ينجيهم منه، فإنهم حين يروونه كأنهم لم يمكثوا في الدنيا، أو في البرزخ، إلا وقتاً يسيراً، وزمناً قليلاً؛ لأن شدة العذاب تُنسيهم كل متع الدنيا وشهواتها.

ثم بيّن سبحانه ما يدعو إلى عدم الاستعجال، فقال: ﴿كَانَ يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ لَمْ يَلْبِسُوا إِلَّا سَاعَةً مِّنْ نَّهَارٍ﴾ ولا يؤثر في وقوع العذاب تطويل أجله ولا تعجيله.

وقال سبحانه: ﴿وَيَوْمَ يُحْشَرُهُمْ كَأَن لَّمْ يَلْبِسُوا إِلَّا سَاعَةً مِّنَ النَّهَارِ يَتَعَارَفُونَ بَيْنَهُمْ﴾ [يونس: ٤٥]

وهذا كقوله تعالى: ﴿كَانَ يَوْمَ يَرَوْنَهَا لَمْ يَلْبِسُوا إِلَّا عَشِيَّةً أَوْ ضُحًى﴾ [النازعات].

ثم بيّن سبحانه أن ما تقدم من إنذار الناس، فيه بلاغ للمؤمن منهم والكافر، ليحاسب كل واحد منهم نفسه قبل أن يأتي يوم الحساب، فقال سبحانه: ﴿يَلْعَنُ﴾ أي: هذا بلاغ

(١) «الدر المنثور» (١٣/٣٤٧).

(٢) رواه البغوي بسنده كما في تفسيره للآية، وهو في «تفسير الخازن» وغيره، ورواه ابن أبي حاتم كما في «الدر المنثور» (١٣/٣٤٦) كما رواه الديلمي في «مسند الفردوس» برقم (٨٦٢٨) (مكرر) من طريق محمد بن حجاج الحضرمي به. وفي فيض القدير (٣/٥٥١).

(٣) اختاره الفخر الرازي، وقال به ابن زيد كما في «تفسير الخازن» و«زاد المسير» للآية.

للناس، فهو خير لمبتدأ محذوف، فهو بلاغ كافٍ، تقديره: هذا الذي أنذرتكم به بلاغ، أو هذا القرآن بلاغ، يقطع حجة الكافرين، فيه وعظ وإنذار لمن يتدبر ويتأمل.

ثم إن الهلاك والخلود الأبدي في النار، لا يكون إلا للكافرين الخارجين على حدود الله تعالى. ﴿فَهَلْ يُهْلَكُ إِلَّا الْقَوْمُ الْفَاسِقُونَ﴾ كلاً، إنه لا يهلك على الله إلا هالك مشرك، ولّى الإسلام ظهره، أو منافق صدّق بلسانه وخالف بعمله^(١).

ولا يعذب الله إلا من يستحق العذاب، ولا يهلك بعذاب الله إلا القوم الخارجون على طاعة الله، الواقعون في معاصيه، وهذا مؤذن بانقضاء السورة.

تم تفسير (سورة الأحقاف) والله الحمد والمنة.



(١) قاله قتادة، كما في «تفسير الطبري» (١٧٨/٢١).

تَفْسِيرُ سُورَةِ مُحَمَّدٍ (٤٧)

مُقَدِّمَةُ السُّورَةِ

سورة (محمد) هي السورة السابعة والأربعون في ترتيب المصحف، والسادسة والتسعون في ترتيب النزول، نزلت بعد سورة (الحديد) وقبل سورة (الرعد).

واشتهرت بأنها سورة (محمد) لورود اسم النبي ﷺ في الآية الثانية منها، وتُسمَّى أيضًا سورة (القتال) لورود لفظ القتال في الآية العشرين منها؛ ولأن القتال هو العنصر البارز فيها، كما تسمَّى سورة (الذين كفروا)، والأول هو الأشهر.

وعدد آياتها -عند أهل الكوفة- ثمان وثلاثون آية، وأربعون آية عند أهل البصرة وأهل حمص، وتسع وثلاثون آية عند غيرهم.

وهي خمس مئة وتسع وثلاثون كلمة، وألفان وثلاث مئة وتسعة وأربعون حرفًا.

وهي سورة مدنية، وقد نزلت الآية الثالثة عشرة، وهي قوله تعالى: ﴿وَكَايْنٍ مِّن قَرْيَةٍ هِيَ أَشَدُّ قُوَّةً مِّن قَرْيَتِكَ الَّتِي أَخْرَجْنَاكَ﴾ في الطريق أثناء الهجرة، فتوهم بعضهم أن السورة مكية، وقيل: إنها نزلت عام الفتح، أو سنة الحديبية.

عن ابن عمر رضي الله عنهما أن النبي ﷺ كان يقرأ بهذه السورة في صلاة المغرب^(١).

وقد تناولت السورة: أحكام القتال، والأسرى، والغنائم، وأحوال المنافقين، والمحور الأساس الذي تدور عليه هو الجهاد في سبيل الله، وهذا شأن السور المدنية.

أتباع الحق وأتباع الباطل

وتبدأ السورة ببيان حقيقة الذين كفروا، وحقيقة الذين آمنوا، وأن الله تعالى ولي الذين آمنوا؛ لأنهم اتبعوا الحق من ربهم، وأن الكافرين أعداء الله لا مولى لهم، ثم تأمر السورة المؤمنين أن يخوضوا الحرب ضد أعداء الله ﴿فَإِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا فَضَرْبَ الرِّقَابِ﴾ الآية [٤].

(١) أخرجه الطبراني في «الأوسط» (١٢٣٩، ١٧٤٢) وفي «الكبير» (١٣٣٨٠) وفي «الصغير» (٤٥/١) وهو عند ابن حبان (١٨٣٥) قال محققه: إسناده صحيح على شرط الشيخين.

وتبيّن هذه الآية الحكمة من القتال في قوله تعالى: ﴿وَلَكِنْ لِّيَبْلُوَ بَعْضُكُمْ بِبَعْضٍ﴾ الآية [٤].
وتكرّم السورة الشهداء، فتبيّن أن الله تعالى لن يضيع أعمالهم، فيهديهم ويصلح بالهم، ويدخلهم الجنة، فيعرفون الطريق إليها بأنفسهم.

أما الكفار فتعسّا لهم وأضل أعمالهم، وطريق النصر عليهم يكمن في التمسك بشرع الله ونصر دينه، وإعداد العدة المادية والمعنوية.

وتتحدث السورة عن المؤمنين والكافرين والمنافقين، فتصف متاع المؤمنين في الجنة، ومنه ألوان الأشربة في الأنهار الجارية من: اللبن والعسل والخمر والماء.

أما الكفار، فيتمتعون في الدنيا ويأكلون كما تأكل الأنعام، والنار في الآخرة مثوى لهم.

وتمضي السورة في جولة مع المنافقين، فتكشف أستارهم، وتبيّن هلّهم وجبنهم، وتفضّحهم في مولاتهم، وتأمّرهم مع اليهود، وتبيّن ملامحهم وصفاتهم وخطرهم على المجتمع المسلم.

وفي عصرنا الحاضر يجدد المنافقون سيرة المخادعين القدامى، فهم يتلقّون التعليمات من منابر التنصير العالمي، أو من مراكز الغزو الثقافي، ويندشون بين جماهير المسلمين يثيرون الفتن، ويطلقون الشائعات، ويُرجّحون وجهات النظر المعادية، ويخذّلون أصحاب الكفاح، ويداهنون المسلمين من جهة والأعداء من جهة أخرى، فيتنازلون عن بعض المبادئ الإسلامية -إن كانوا في موقع المسؤولية- إرضاء للعدوّ، مع التعتيم الإعلامي حتى لا ينفضحوا ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لِلَّذِينَ كَرِهُوا مَا نَزَّلَ اللَّهُ سَنُطِيعُكُمْ فِي بَعْضِ الْأَمْرِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِسْرَارَهُمْ﴾ (٢١).

والله تعالى يكشف خباياهم على ألسنتهم، وما تدلّ عليه أعمالهم ﴿وَلَوْ شَاءَ لَأَرْسَلْنَاكُمْ فَلَاعَرَفْتَهُمْ بِسِمَتِهِمْ وَلَنَعْرِفَنَّهُمْ فِي لَحْنِ الْقَوْلِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ أَعْمَالَكُمْ﴾ (٢٢).

الجهاد ضرورة حتمية لرد العدوان وتأمين طريق الدعوة:

وقد حذّرت السورة من الدعوة إلى الصلح مع الأعداء، حرصًا على شهوات الدنيا ومتاعها، فإن ما عند الله خير وأبقى، فإن بادر العدو إلى طلب الصلح فلا بأس بذلك،

قال تعالى: ﴿وَإِنْ جَنَحُوا لِلسَّلَامِ فَاجْنَحْ لَهَا﴾ [الأنفال: ٦١].

وذلك لأن طلب السلم من جهة المسلمين تخاذلاً وضعفاً فيه هوان وذلة، لقوله تعالى: ﴿فَلَا تَهِنُوا وَتَدْعُوا إِلَى السَّلَامِ وَأَنْتُمْ الْآغْلَوْنَ وَاللَّهُ مَعَكُمْ﴾ [٣٥].

ولا بأس من مهادنة العدو إذا كان عددهم وعدّتهم أكثر من ضعف عدد المسلمين وعدّتهم، وهو أدنى حدٍّ لمجابهة العدو ﴿الْفَن حَفَّ اللَّهُ عَنْكُمْ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفًا فَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ مِائَةٌ صَابِرَةٌ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ﴾ [الأنفال: ٦٦] ولا تجوز في أكثر من ذلك.

وفي السورة تهديد للمسلمين إن بخلوا ببذل النفس والمال للقتال في سبيل الله، فتحذّرهـم باستبدال قوم غيرهم إن هم تخاذلوا عن الجهاد لنشر الدعوة، وإزالة العقبات من طريقها.

وبهذا يتضح أن النبي ﷺ هو نبي الرحمة، وهو نبي الملحمة، وأن المسلم من شأنه ألا يقبل الظلم ولا الضيم ولا الذل، ولا ينبغي له أن يترك الباغي يمشي في الأرض متكبراً، بل يُرغم أنفه ويُقلم أظافره، فماذا نتوقع أن يقول القرآن للمغلوب المستباح دمه وماله وعرضه ووطنه حين يلتقى خصمه في الميدان؟ وماذا يُكنُّ أهل فلسطين لليهود الذين أخرجوهم من دورهم واسترخصوا دماءهم وحقوقهم؟ وماذا يُكنُّ أهل الشيشان للروس؟ وماذا يُكنُّ أهل البوسنة للصرب؟ وماذا يُكنُّ أهل السودان للجنوب؟ وماذا يُكنُّ أهل العراق لأمریکا؟ وماذا؟ وماذا؟ إنهم لا يُكنُّون لهم إلا الحقد والبغض الدفين ﴿قَتَلُوهُمْ يُعَذِّبُهُمُ اللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخِزُّهُمْ وَيَضْرِبُكُمْ عَلَيْهِمْ وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُّؤْمِنِينَ﴾ ٤ وَيَذْهَبَ غِيْظَ قُلُوبِهِمْ وَيَتُوبُ اللَّهُ عَلَى مَنْ يَشَاءُ﴾ [التوبة].

وحين يُتخّن المسلم جراح الكفار، ويقعون في قبضته، ويأخذهم أسرى، فإن رحمة الإسلام تتجلى في أنه إما أن يأسرهم، وإما أن يأخذ منهم الفدية، ولا يستأصلهم كما يفعل العدو، وهكذا تتجلى أخلاق الإسلام في السلم والحرب ﴿فَإِذَا لَقِيتُمْ الَّذِينَ كَفَرُوا فَضَرْبَ الرِّقَابِ حَتَّى إِذَا أَتَخْتَرَقُوهُمْ﴾ أي: أكثرتم فيهم القتل ﴿فَشُدُّوا أَلْوَتَاكُمْ﴾ أي: اجعلوهم في الأسر ﴿فَإِذَا مَنَّ اللَّهُ عَلَى أَحَدٍ فَأَنْتُمْ عَلَيْهِمْ وَتَتَلَقَّوْنَ سِرَاحَهُمْ﴾ ﴿وَأَمَّا فِدَاءٌ﴾ تقبلون أخذ الفدية منهم ﴿حَتَّى تَضَعَ الْحَرْبُ أَوْزَارَهَا﴾ الآية [٤].

والنصر على العدو، مرهون بإعداد العدة المكافئة لعدة العدو في البر والبحر والجو،

وعدم مساواتهم في معصية الله تعالى، فإننا إن ساويناهم في معصية الله تفوقوا علينا بقوة السلاح ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِن نُّصْرُوا اللَّهَ يَنْصُرْكُمْ وَيُكَفِّرَنَّ أَقْدَامَكُمْ﴾ (٧).

لقد كان المسلمون يتلون هذه السورة جماعات في ميادين القتال بصوت مرتفع؛ ولأن آياتها تنتهي بميم ساكنة فإن الوقوف عليها له دويٌّ يخلع قلب العدو.

ويوم يتخلى المسلمون عن فريضة الجهاد لردِّ العدوان، وحماية البلاد، وتأديب مَنْ يقفون في وجه نشر الدعوة، وعدم إعداد العدة لذلك، فإن باطن الأرض خير لهم من ظهرها.

مجمل ما في السورة:

- ١- وهكذا: فإن السورة بدأت بذكر الكافرين في الآية الأولى، وهذا من براعة الاستهلال؛ لأن موضوعها يتعلق بقتال مَنْ صدَّ الناس منهم عن دعوة الإسلام.
- ٢- ثم ثنَّت في الآية بعدها بذكر من آمن بما أنزل على محمد ﷺ وعمل صالحاً.
- ٣- ومضت تتحدث عن قتال الكافرين وثواب المؤمنين إلى الآية الخامسة عشرة منها.
- ٤- وعوداً على بدء تعود السورة من الآية الثانية والعشرين إلى نهايتها لتبيِّن مصير الفريقين: فالكفار لن يغفر الله لهم وسيُحبط أعمالهم، والمؤمنون يؤتيهم أجورهم ولن يترهم أعمالهم.
- ٥- وعن المنافقين وكشف خفاياهم تتحدث السورة من الآية السادسة عشرة إلى الآية الحادية والثلاثين.
- ٦- ثم تختتم بتهديد بالغ لمن يتولى عن دين الله ويتقاعس عن الجهاد في سبيله.



تَفْسِيرُ السُّورَةِ

ضَلَالُ الْكُفَّارِ وَاهْتِدَاءُ الْمُؤْمِنِينَ وَسَبَبُ ذَلِكَ

١- ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ أَضَلَّ أَعْمَلُهُمْ﴾

بدأت سورة (محمد) ﷺ بتحريض المؤمنين على قتال الكافرين، وإثارة الحنق والكرهية ضدهم بسبب غضب الله تعالى عليهم لكفرهم بآيات الله، وصدّ الناس عن الدخول في دينه، وهي بداية فيها هجوم على الكفار بلا مقدمة ولا تمهيد، وقد اشتملت هذه البداية على وصفهم بثلاثة أوصاف:

أولها: الشرك بالله تعالى، وجحود آياته الدالة على وحدانيته، والإعراض عن دين الله سبحانه.

وثانيها: صرفُ الناس عن اتباع دين الإسلام الذي ارتضاه الله لعباده، ومنعهم من الدعوة إليه، ومن الجهاد في سبيله، واضطهاد المسلمين وإخراجهم من ديارهم وأموالهم. وثالثها: أن الله تعالى أبطل أعمال الكفار الحسنة التي عملوها في الدنيا، فلم يُثَبِّه عليها، كإطعام الطعام، وصلة الأرحام، وفكّ الأسير، وإجارة المستجير، وبر الوالدين، ومساعدة المحتاج، وإكرام الجار:

﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ لِيَصُدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ فَسَيَفْشُوْنَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ وَالَّذِينَ كَفَرُوا إِلَىٰ جَهَنَّمَ يُحْشَرُونَ﴾ [الأنفال].

﴿وَقَدِمْنَا إِلَىٰ مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَنْثُورًا﴾ [الفرقان].

وفي يوم بدر كان سادات قريش - وهم نحو خمسة عشر رجلاً - يُطعمون الناس الطعام ليكونوا معهم وَيَكْثُرُوا حَوْلَهُمْ، وقد اشتهر هؤلاء بلقب الْمُطْعَمِينَ وهذا من الصدّ عن سبيل الله، ومثله في عصرنا أن تُدفع المساعدات للبلاد النامية لكسب ولائهم وأصواتهم وتغاضيهم عن إيقاع الضرر بإخوانهم المسلمين!!

ويجمع هذه الأوصاف الثلاثة قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ أي: جحدوا بآيات الله وأعرضوا عن الإسلام، وهم رؤساء الكفر وأئمة الضلال، الذين جمعوا بين الكفر والصد

عن سبيل الله ﴿وَصَدُّوا﴾ الناس ﴿عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ﴾ أي: منعوهم من الدخول في الإسلام، ووقفوا حائلًا مانعًا دون نشر الدعوة ﴿أَصْلَ أَعْمَلَهُمْ﴾ الصالحة، أي: أحبطها وأبطلها، فلا يتقبلها ولا يُثيب عليها، بل هي ضالة ضائعة، كالإبل الضالة التي ليس لها صاحب يحفظها ويعتني بها، فإن هذه الأعمال الصالحة مع الكفر بالله والصد عن سبيل الله لا تُقبل، كما أن الله تعالى يُحبط أعمالهم التي يكيدون بها إلى الإسلام وأهله، ليُظهر الإسلام على جميع الملل والنحل ولو كره الكافرون، ومع ذلك فإن الله تعالى يرد كيدهم في نحورهم، فلم يدركوا قصدهم، ولم يثابوا على أعمالهم، هذا هو شأن الكفار، فما هو شأن المؤمنين، قال تعالى:

٢- ﴿وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَءَامَنُوا بِمَا نُزِّلَ عَلَى مُحَمَّدٍ وَهُوَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ كَفَّرَ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَأَصْلَحَ بَالَهُمْ﴾

وفي مقابلة أوصاف الكافرين يصف الله تعالى المؤمنين بثلاثة أوصاف: وهي الإيمان مقابل الكفر، والعمل الصالح مقابل الصد عن سبيل الله، وغفران الذنوب وصلاح الحال مقابل ﴿أَصْلَ أَعْمَلَهُمْ﴾:

أولها: الإيمان بوحداية الله تعالى، وإخلاص العبادة له وحده.

ومن شروط صحة الإيمان وتماحه: الإيمان بالقرآن الذي نُزل على محمد ﷺ، فهو الحق الذي لا ريب فيه، وهو الكتاب الثابت إلى يوم القيامة، الناسخ لما قبله من الكتب، ولا بد لذلك من الإيمان باليوم الآخر، وبملائكة الله وكتبه ورسله، وبالقدر خيره وشره.

وثانيها: اتباع شرع الله تعالى، وعدم الابتداع فيه، والتزود بالعمل الصالح الذي يرفع درجاتهم عند الله تعالى.

«وما تقرب إليَّ عبدي بمثل ما افترضته عليه، ولا يزال عبدي يتقرب إليَّ بالنوافل حتى أحبه»^(١)، و«الإيمان بضع وسبعون شعبة، أعلاها قول لا إله إلا الله، وأدناها إمطة الأذى عن الطريق، والحياء شعبة من الإيمان»^(٢).

(١) من حديث أبي هريرة في البخاري برقم (٦٥٠٢).

(٢) من حديث أبي هريرة في «صحيح مسلم» برقم (٣٥).

وما بين أعلى شعب الإيمان وأدناها أعمال صالحة جمّة، وما أكثرها!

جاء في حديث أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «كل سُلَامَى من الناس عليه صدقة، وكل يوم تطلع فيه الشمس تعدل بين اثنين صدقة، وتعين الرجل في دابته فتحمله عليها أو ترفع له عليها متاعه صدقة، والكلمة الطيبة صدقة، وكل خطوة تمشيها إلى الصلاة صدقة، وتميط الأذى عن الطريق صدقة»^(١).

وثالثها: أن الله تعالى يستر عليهم ما عملوه من السيئات، فيمحوها ويزيلها عنهم.

كما قال تعالى: ﴿إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ﴾ [هود: ١١٤].

وقال سبحانه: ﴿إِنْ تَجْتَنِبُوا كَبَائِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَنُدْخِلْكُمْ مُدْخَلًا كَرِيمًا﴾ [النساء: ٣١].

بل إن الله تعالى يبدل سيئاتهم حسنات ﴿إِلَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَالِحًا فَأُولَئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ﴾ [الفرقان: ٧٠].

وإلى جوار تكفير السيئات وعدم المعاقبة عليها في الآخرة، فإن الله تعالى يصلح شأنهم في الدنيا والآخرة، فيوفقهم للتوبة النصوح في الدنيا، ويمنحهم الثواب الجزيل في الآخرة.

ومن صلاح البال: التفكير السديد، والنظر الصائب، فلا يفكرون فيما فُتِحَ من الأقوال والأفعال، ولا تتوجّه أنظارهم إلى المنكرات وما يناقض التوحيد...

ثم بين سبحانه السبب في ثواب المؤمنين وعقاب العاصين فقال:

٣- ﴿ذَلِكَ بِأَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا اتَّبَعُوا الْبَاطِلَ وَأَنَّ الَّذِينَ آمَنُوا اتَّبَعُوا الْحَقَّ مِنْ رَبِّهِمْ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ لِلنَّاسِ أَمْثَلَهُمْ﴾

بَيَّنَّ ﷻ في هذه الآية سبب ضلال الكفار، وسبب اهتداء المؤمنين، وأن ذلك يرجع إلى اتباع الكافرين للباطل، واتباع المؤمنين للحق، فقد أبطل الله أعمال الكفار، وتجاوز عن سيئات الأبرار وأصلح شؤونهم؛ لأن الكفار اختاروا الباطل على الحق، والمؤمنين اختاروا الحق على الباطل.

﴿ذَلِكَ﴾ الإضلال والاهتداء سببه ﴿بِأَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا اتَّبَعُوا الْبَاطِلَ﴾ اتبعوا في دنياهم

(١) من حديث أبي هريرة في «صحيح مسلم» برقم (١٠٠٩) و«صحيح البخاري» (٢٧٠٧، ٢٨٩١).

خطوات الشيطان، وطُرق الضلال، وما عليه الآباء من غير تبصّر ولا برهان، فأطاعوا هواهم وشيطانهم، وقلدوا مَنْ سبقهم في الكفر.

﴿وَأَنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّبَعُوا الْحَقَّ مِنْ رَبِّهِمْ﴾ أي: اتبعوا رسول الله ﷺ وما جاءهم به من النور والهدى، والصدق واليقين.

وكما بيّن سبحانه حال الفريقين: أهل الكفر وأهل الإيمان، كلٌّ بما يستحق، بيّن للناس الأشباه والنظائر ﴿كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ لِلنَّاسِ أَمْثَلَهُمْ﴾ فيُلحِق بكل فريق من الأمثال والأشباه ما يناسبه.

وبمثل هذا البيان بيّن الله للناس أحوالهم، فلا يُقيهم في غفلة عن معرفة الحق؛ حتى لا يختلط الخيث بالطيب، وليكونوا على بصيرة من أمور دينهم ودنياهم، فيعتبروا ويتعظوا ﴿لِيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنْ بَيِّنَةٍ وَيَحْيَىٰ مَنْ حَيَّ عَنْ بَيِّنَةٍ﴾ [الأنفال: ٤٢].

قَاعِدَةُ التَّعَامُلِ مَعَ غَيْرِ الْمُسْلِمِينَ الْمُحَارِبِينَ

٤- ﴿فَإِذَا لَقِيتُمْ الَّذِينَ كَفَرُوا فَضَرْبَ الرِّقَابِ^(١) حَتَّىٰ إِذَا أَتَخْتَرَقُوا^(٢) الْوُثَاقَ^(٣) فَإِمَّا مَأْبَدٌ وَإِمَّا فِدَاءٌ حَتَّىٰ تَضَعَ الْحَرْبُ أَوْزَارَهَا^(٤) ذَلِكَ وَلَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَانتَصَرْنَا مِنْهُمْ^(٥) وَلَكِنْ لِّيَبْلُوَ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ وَالَّذِينَ قُتِلُوا^(٥) فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَلَنْ يُضِلَّ أَعْمَالُهُمْ﴾

هذا أمر من الله سبحانه بقتال المحاربين من غير المسلمين الذين لا عهد لهم ولا ذمة، حيث يوجه الله - سبحانه - المؤمنين لقتال الكافرين الصادّين عن سبيله؛ وذلك لأن الإسلام هو الحق الثابت، والدين القائم إلى يوم القيامة، والذي ينبغي أن يتقرر في الأرض، ويسود العالم، ويهيمن على البشرية، وما قبله من ديانات قد نُسخت وانتهى وقتها ﴿فَإِذَا لَقِيتُمْ﴾ أيها المؤمنون ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ في ساحات الحرب والقتال، فلا تأخذكم بهم رافة، ولكن أمعنوا في قتلهم، واحصدوهم حصداً، واضربوا منهم الأعناق، هذا

(١)، (٢) انفرد الحمصى وحده بعد (فضرب الرقاب) و (فشدوا الوثاق) وتركها غيره.

(٣) ترك الكوفي وحده (أوزارها) من العدد، وعدّها جمهور أهل العدد.

(٤) انفرد الحمصى وحده بعد (لا انتصر منهم) وتركها غيره.

(٥) قرأ أبو عمرو وحفص ويعقوب (والذين قُتلوا) بالبناء للمفعول، وقرأ الباقر (والذين قاتلوا) بالبناء للفاعل.

معنى ﴿فَضْرَبَ الرَّقَابَ﴾ وخص الرقاب؛ لأنه الغالب في القتل، ولأنه يصور القتل في أشنع صوره، كما قال تعالى: ﴿فَاضْرِبُوا فَوْقَ الْأَعْنَاقِ وَاضْرِبُوا مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ﴾ [الأنفال: ١٢].

فإذا أكثرتم فيهم القتل، وكسرتم شوكتهم فهزمتهم، وأضعفتهم قواهم، فخذوهم أسرى بعد ذلك ﴿حَقَّ إِذَا اتَّخَذْتُمُوهُمْ﴾ من الإثخان وهو كثرة الجراح، والقضاء على قوتهم الضاربة، وأصبحوا كالرجل المشخن بالجراح ﴿فَشُدُّوا أَلْوَاكَ﴾ أحكموا قيد الأسرى؛ حتى لا يستطيعوا التفُّلت ولا الهرب منكم، فالوثاق هو الذي يُربط به الأسير، فإذا كانوا بين أيديكم، فإما أن تطلقوا سراحهم بلا مال ولا فداء، وإما أن تأخذوا منهم الفدية أو من أصحابهم، وإما أن تبادلوهم الأسرى فيما بينكم وبين عدوكم.

والمعنى: إذا لقيتم أعداء الله في أرض المعركة فاقتلوهم، فإن أكثرتم فيهم القتل فأسيروهم، فإن أسرتهم فأنتم بالخيار بين أمرين: إما أن تُمْنُوا عليهم بإطلاق أسراهم بغير عوض، وإما أن تَقْدُوهم، فتأخذوا منهم مقابلاً مالياً، أو عملاً إنسانياً ونحو ذلك، لإطلاق سراحهم وفك أسراهم ﴿فَإِمَّا مَنًّا بَعْدَ﴾ أي: إما أن تُمْنُوا عليهم بإطلاق سراحهم بدون عوض بعد الأسر ﴿وَلِمَا﴾ أن تقدوهم ﴿فِدَاءً﴾ أي تأخذوا منهم الفداء، بعد هزيمتهم وكسر شوكتهم وكثرة القتل والجراح فيهم.

افعلوا ما أمرناكم به، ولا تتركوا قتل العدو وأسرهم حتى يتركوا حربكم وتنتهي المعركة التي بينكم وبين أعدائكم بهزيمتهم وانتصاركم عليهم، فتغلبوهم وتهزمهم، كما قال تعالى: ﴿وَقَنَلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ﴾ أي: حتى لا يبقى في الأرض شرك ولا كفر ﴿وَيَكُونَ الدِّينُ لِلَّهِ﴾ [البقرة: ١٩٣].

فوضع الحرب معناه: إظهار دين الإسلام على الدين كله، وإلا فإن الحرب بين الإسلام والكفر ماضية إلى قيام الساعة، هذا ما يشير إليه قوله تعالى: ﴿حَتَّى تَصَعَ الْكُرْبُ أَوْزَارَهَا﴾ أي: حتى تنتهي الحرب بعزة الإسلام واندحار المشركين، أو بموادعتهم ووضع سلاحهم.

وأوزار الحرب: هي عُدَّتُها وآلاتُها وأثقالُها، من وسائل القتال المختلفة قديماً وحديثاً: كالدَّبَابَات والمَدافع والصواريخ والطائرات، والقنابل والرشاشات، وما إلى ذلك.

عن سلمة بن نفيل قال: بينما أنا جالس عند رسول الله ﷺ إذ جاءه رجل، فقال: يا

رسول الله، إن الخيل قد سُيِّتْ، ووُضِعَ السلاح، وزعم أقوام أن لا قتال، وأن قد وضعت الحرب أوزارها، فقال رسول الله ﷺ: «كذبوا، فالآن جاء القتال، ولا تزال طائفة من أمتي يقاتلون في سبيل الله، لا يضرهم من خالفهم، يُزيغ الله لهم قلوب أقوام ويرزقهم منهم، ويقاتلونهم حتى تقوم الساعة، ولا تزال الخيل معقودًا في نواصيها الخير حتى تقوم الساعة، ولا تضع الحرب أوزارها حتى يخرج يأجوج ومأجوج»^(١).

قال قتادة: ذكر لنا أن هذه الآية نزلت يوم غزوة أحد، ورسول الله ﷺ في الشعب، وقد فشّت فيهم الجراحات والقتل، وقد نادى المشركون يومئذ: اغلْ هُبْل، ونادى المسلمون: الله أعلى وأجلّ، فنادى المشركون: يوم بيوم بدر، وإن الحرب سجال، لنا العزى ولا عزى لكم، فقال رسول الله ﷺ: «قولوا: الله مولانا ولا مولى لكم، إن القتلى مختلفة، أما قتلانا فأحياء يرزقون، وأما قتلاكم ففي النار يُعَذَّبُونَ»^(٢).

وهذه الآية نزلت بعد قوله تعالى: ﴿مَا كَانَتْ لِنَبِيِّ أَنْ يَكُونَ لَهُ أُسْرَى حَتَّى يُنْخِثَ فِي الْأَرْضِ﴾ [الأنفال: ٦٧].

وهي تقرر أيضًا أن أسر العدو لا يكون إلا بعد هزيمته وكسر شوكرته.

وقد كان المسلمون يوم غزوة بدر التي نزلت فيها الآية السابقة، كانوا قلة، فلما كثر المسلمون وقويت شوكرتهم، خيّرهم الله في الأسرى بين المنّ والفدية بهذه الآية، ثم نزل بعد ذلك الأمر بقتل المشركين العرب في أرض الجزيرة حيث كانوا، كما في آية سورة التوبة: ﴿فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ وَخُذُوهُمْ وَأَحْضُرُوهُمْ وَأَقْعُدُوا لَهُمْ كُلَّ مَرْصِدٍ﴾ [آية: ٥].

وفي قوله تعالى: ﴿وَقَتِّلُوا الْمُشْرِكِينَ كَافَّةً كَمَا يُقْتَلُونَكُمْ كَافَّةً﴾ [التوبة: ٣٦] أي: كما يقاتلونكم كافة قاتلوهم كافة.

(١) ينظر: «صحيح سنن النسائي» (٣٣٣٣) و«المسند» (١٦٤/٢٨) (١٦٩٦٥) بإسناده حسن، وهو في السلسلة الصحيحة (١٩٣٥)، والطبراني في «الكبير» (٦٣٦٠) وابن سعد (٤٢٧/٧) وابن أبي عاصم في الآحاد والمثاني (٢٤٦٠) والبخاري (٢٤٦٠) والنووي (٢٤٦٠) وابن أبي عاصم في السلسلة الصحيحة (١٩٣٥).

(٢) أخرجه عبد الرزاق (٢٢١/٢) مختصرًا، والطبراني (٦٩٠/٢١)، والحديث عن البراء بن عازب مختصرًا في صحيح البخاري (٤٠٤٣، ٣٠٣٩).

وإن تمكثتم منهم في ساحة القتال الذي بدؤوه أو تسبوا فيه، فاجعلوهم عبرة لغيرهم، ومثلاً يضرب للناس: ﴿فَإِمَّا تَثَقَفَنَّاهُمْ فِي الْحَرْبِ فَشَرِّدْ بِهِمْ مَنْ خَلْفَهُمْ﴾ [الأنفال: ٥٧] وهذه الآية محكمة وغير منسوخة عند جمهور أهل العلم، وهي مبيّنة وموضّحة لآتي سورة التوبة.

والمنّ والفداء ثابت من فعل النبي ﷺ في شأن ثُمّامة بن أثال، ومفاداة أسرى بدر. وقوله تعالى: ﴿فَضْرَبَ الرَّقَابَ﴾ بمثابة قوله تعالى: ﴿فَأَقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ﴾ وصرّح هنا بالمنّ والفداء، ولم يصرّح به في التوبة.

وظاهر الآية لا يقضي بقتل الأسير، فالحاكم المسلم مأمور أولاً بالإثخان وهو كثرة القتل بين صفوف العدو، وبعد الإثخان، مخيّر بين القتل والأسر، وبعد الأسر مخيّر بين المنّ والفداء.

والذي عليه جمهور العلماء أن الإمام مخيّر بين القتل والأسر في صفوف الرجال المحاربين وفق المصلحة العامة للمسلمين، وبعد الأسر مخيّر بين المنّ والفداء، وبهذا فعل النبي ﷺ والخلفاء الراشدون من بعده، وهذا بالنسبة لعموم المشركين من غير العرب، أما مشركو العرب فلا يُقبل منهم إلا الإسلام.

وفي حديث أنس بن مالك ؓ أن رسول الله ﷺ قال: «انطلقوا باسم الله، وعلى ملة رسول الله، ولا تقتلوا شيخاً فانياً، ولا طفلاً، ولا صغيراً، ولا امرأة، ولا تغلّوا...»^(١).

حديث ثُمّامة بن أثال:

وفي الصحيحين عن أبي هريرة ؓ: أن النبي ﷺ بعث سرية إلى نجد، فأنت برجل من بني حنيفة اسمه ثُمّامة بن أثال فربطوه في سارية المسجد، فسأله النبي ﷺ: «ما عندك يا ثُمّامة؟» قال: عندي خير يا محمد، إن تقتل تقتل ذا دم، وإن تُنعم تُنعم على شاكِر، وإن كنت تريد المال فسل تُعط منه ما شئت، فتركه النبي ﷺ وتكرر ذلك ثلاث مرات، ثم قال النبي ﷺ: «أطلقوا ثُمّامة» فأطلقوه، واغتسل، ثم دخل المسجد، فقال: أشهد أن لا إله

(١) أبو داود في الجهاد برقم (٢٦١٤)، وهو ضعيف، لضعف خالد بن الفزر، قال ابن معين: ليس بذلك، وانظر: مشكاة المصابيح (٣٩٥٦) وضعيف سنن أبي داود (٣٧/٣).

إلا الله، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله، والله ما كان على الأرض أبغض إليّ من وجهك، فقد أصبح وجهك أحب الوجوه إليّ، والله ما كان من دين أبغض إليّ من دينك، فأصبح دينك أحب الدين كله إليّ، والله ما كان من بلد أبغض إليّ من بلدك، فأصبح بلدك أحب البلاد كلها إليّ، وإن خيلك أخذتني وأنا أريد العمرة، فماذا ترى؟ فبشّره النبي ﷺ وأمره أن يعتمر، فلما قدم مكة قال له قائل: أصبوت؟ قال: لا، ولكني أسلمت، ولا والله لا يأتیکم من اليمامة حبة حنطة حتى يأذن فيها رسول الله ﷺ^(١).

وفي الأثر: «الجهاد ماض إلى يوم القيامة»^(٢).

وقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قَاتِلُوا الَّذِينَ يَلُونَكُمْ مِنَ الْكُفَّارِ وَلْيَجِدُوا فِيكُمْ غِلْظَةً﴾ [التوبة: ١٢٣].

وقال أيضًا: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ جَاهَدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ﴾ [التحریم: ٩].

حكمة مشروعية الجهاد:

وبعد أن أمر سبحانه بضرب رقاب الكفار، وأسرهم بعد إضعاف شوكتهم، إلى أن يستسلم العدو، بين جلّ شأنه أن الأمر فيهم هو ما ذكر، فقال: ﴿ذَلِكَ﴾ أي: الأمر ذلك، أو ذلك الأمر، فاسم الإشارة خبر لمبتدأ محذوف، أو مبتدأ لخبر محذوف، وهذا يفيد تقرير الحكم ورسوخه في النفوس، أي: ذلك الحكم المذكور في ابتلاء المؤمنين بالكافرين، ومداولة الأيام بينهم، وانتصار بعضهم على بعض.

ولو أراد الله - سبحانه - لاستأصل الكفار وأهلكهم بدون حرب ولا قتال، ولم يكلفكم قتلهم، ولكن الله تعالى ربط الأسباب بالمسببات، وجعل عقوبتهم على أيديكم، فشرع الجهاد ليختبر إيمانكم وثباتكم، ويبلو بعضكم ببعض، وينصر بكم دينه، وليتبين الصادق من الكاذب والمؤمن من المنافق ﴿وَلَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَأَنْصَرَّ مِنْهُمْ﴾ بدون حرب ولا قتال ﴿وَلَكِنْ لَبَلُّوا بَعْضُكُمْ بِبَعْضٍ﴾ فيظهر المجاهدين في سبيله، الصابرين على ابتلائه،

(١) يُنظر: البخاري برقم (٤٦٢، ٤٣٧٢) ومسلم (١٧٦٤).

(٢) قال البخاري في صحيحه (٤٤) باب الجهاد ماضٍ مع البر والفاجر، لقوله ﷺ: (الخیل معقود في نواصيها الخير إلى يوم القيامة).

فيجزل لهم الأجر والمثوبة، ويعذب الكفار بأيديهم.

وهذا كقوله تعالى: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّىٰ نَعْلَمَ الْمُجْتَهِدِينَ مِنْكُمْ وَالصَّادِقِينَ وَنَبْلُوًا أَخْبَارَكُمْ﴾ (٢١).

في ثواب الشهداء:

وإلى جوار الجزاء الحسن على هذا الابتلاء، فهناك الثواب الأعظم لمن يستشهد في سبيل الله ﴿وَالَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَلَن يُضِلَّ أَعْمَالُهُمْ﴾ لهم أجر عظيم، وثواب جزيل، وهم الذين قاتلوا في سبيل الله لإعلاء كلمته، فهؤلاء لن يبطل الله أعمالهم، بل يجزل لهم العطاء، ويؤميه لهم، فأجر عمل الشهيد والمرابط يجري له بعد موته، كما لو كان حيًا، ومثل هذه الآية قوله تعالى: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ وَيَعْلَمَ الصَّادِقِينَ﴾ (٤٦) [آل عمران].

وفي الحديث: أن النبي ﷺ قال: «يُغْفَرُ لِلشَّهِيدِ كُلِّ ذَنْبٍ إِلَّا الدِّينَ»^(١).

في حديث المقدم بن معد يكرب الكندي ؓ قال: قال رسول الله ﷺ: «للشَّهِيدِ عِنْدَ اللَّهِ سِتُّ خِصَالٍ: أَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُ فِي أَوَّلِ دَفْعَةٍ مِنْ دَمِهِ، وَيُرَى مَقْعَدُهُ مِنَ الْجَنَّةِ، وَيُحَلَّى حُلَّةَ الْإِيمَانِ، وَيُزَوَّجَ مِنَ الْحُورِ الْعِينِ، وَيُجَارَ مِنْ عَذَابِ الْقَبْرِ، وَيَأْمَنَ مِنَ الْفَزَعِ الْأَكْبَرِ، وَيُوضَعَ عَلَى رَأْسِهِ تَاجُ الْوَقَارِ، الْيَاقُوتَةُ مِنْ خَيْرِ مَا فِي الدُّنْيَا وَمَا فِيهَا، وَيُزَوَّجَ اثْنَتَيْنِ وَسَبْعِينَ زَوْجَةً مِنَ الْحُورِ الْعِينِ، وَيُشَفَّعَ فِي سَبْعِينَ إِنْسَانًا مِنْ أَقَارِبِهِ»^(٢).

وفي حديث أبي الدرداء ؓ أن رسول الله ﷺ قال: «يُشَفَّعُ الشَّهِيدُ فِي سَبْعِينَ مِنْ أَهْلِ بَيْتِهِ»^(٣).

ثم إن الشهداء في سبيل الله يوفقههم الله إلى طاعته ومرضاته، ويصلح شأنهم في الدنيا والآخرة، ويوصلهم إلى طريق السعادة والفلاح، قال تعالى:

(١) من حديث عبد الله بن عمرو وأبي قتادة في «صحيح مسلم» برقم (١٨٨٦) والحاكم (١١٩/٢).

(٢) «المسند» (١٣١/٤) برقم (١٧١٨٢) ورجاله ثقات كما قال محققوه و«سنن الترمذي» (١٦٦٣) و«سنن ابن ماجه» (٢٧٩٩)، وأخرجه عبد الرزاق في مصنفه (٩٥٥٩) والبيهقي في الشعب (٤٢٥٤) وصححه الألباني.

في مشكاة المصابيح برقم (٣٨٣٤) وقال أبو عيسى: حديث حسن صحيح غريب.

(٣) «سنن أبي داود» (٢٥٢٢) وقد صححه الألباني في «صحيح سنن أبي داود» برقم (٢٢٠١).

٥، ٦ - ﴿سَيَهْدِيهِمْ﴾ ^(١) وَيُصْلِحُ بَالَهُمْ ^(٢) ﴿وَيُدْخِلُهُمُ الْجَنَّةَ عَرَفَهَا هُمْ﴾ ^(٣)

ويُكْرِمُ الله الشهداء بدخول الجنة دار النعيم، حيث يعلم كلُّ منهم منزله فيها ويهتدي إليه بنفسه.

كما قال مجاهد: يهتدي أهلها إلى بيوتهم ومساكنهم لا يُخطؤون، كأنهم ساكنوها منذ خلقوا، فيكون المؤمن أهدى إلى درجته ومنزله وزوجته وخدمه منه إلى منزله وأهله في الدنيا ^(٣).

وهذا ما يشير إليه قوله تعالى: ﴿وَيُدْخِلُهُمُ الْجَنَّةَ عَرَفَهَا هُمْ﴾ ^(٤) أي: يعرفونها بصفاتها التي ذكرها الله تعالى في كتابه، ويهتدون إلى طريقها، فيعرفونها بأنفسهم، ولا يترددون في دخولها، وهذا من تعجيل الفرح بها في الدنيا، ومن حسن الضيافة لهم في الآخرة، قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ يَهْدِيهِمْ رَبُّهُمْ بِإِيمَانِهِمْ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ﴾ ^(٥) [يونس: ٩].

وفي حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «إذا خلص المؤمنون من النار حُبسوا بقنطرة بين الجنة والنار، يتقاضون مظالم كانت بينهم في الدنيا، حتى إذا هُذِّبوا ونُقُوا أُذن لهم في دخول الجنة، والذي نفسي بيده إن أحدهم بمنزله في الجنة أهدى منه بمنزله كان في الدنيا» ^(٤).

قال مجاهد: يُهْدِيْ أهلها إلى بيوتهم ومساكنهم، وحيث قسم الله لهم منها، لا يخطؤون، كأنهم ساكنوها منذ خلقوا، لا يستدلون عليها أحداً ^(٥).

وورد أن الملك الذي كان موكلاً بحفظ عمل العبد في الدنيا يمشي بين يديه في الجنة حتى يصل به إلى مكان نزله في الجنة، فيعرفه كل شيء فيه، حتى يُدخله منزله وأزواجه ثم ينصرف ^(٦).

(١) ضمَّ الهاء الثانية من (سيهديهم) يعقوب، وكسرها غيره.

(٢) ترك الحمصى وحده عدَّ (ويصلح بالهم) وعدّها غيره.

(٣) «البحر المحيط» (٧٥/٨) و«تفسير الخازن» (١٣٥/٤).

(٤) «صحيح البخاري» برقم (٦٥٣٥).

(٥) الطبري (١٩٢/٢١).

(٦) جاء هذا عن مقاتل عند ابن أبي حاتم كما في «الدر المنثور» (٣٦٠/١٣).

قَاعِدَةُ النَّصْرِ عَلَى الْعَدُوِّ

٧- ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن نَّصُرُوا اللَّهَ يَنْصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ﴾ (٧)

ثم بيّن سبحانه سبب النصر على العدو بعد إعداد العدة اللازمة له والأخذ في الأسباب، فقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ فاعتقدوا اعتقادًا جازمًا بالله وصدقوا رسوله وآمنوا به ﴿إِن نَّصُرُوا اللَّهَ﴾ بنصر دينه، فتجاهدوا في سبيله لإعلاء كلمته، وتحكموا بكتابه، وتمثلوا أمره وتجنبوا نهيه، وتبعوا سنة رسوله، وتدعوا الناس إليه وتستقيموا على ذلك، ينصركم الله على عدوكم.

فنصر الله معناه: نصر دينه واتباع منهج رسوله ﷺ؛ لأن الله تعالى غني عن النصر لتنفيذ مراده، فإنهم إن فعلوا ذلك نصرهم الله وربط على قلوبهم ومكن لهم في الأرض.

قال تعالى: ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَأَنْصَرَ مِنْهُمْ﴾ بلا حرب ولا قتال، فإن نصرتم دين الله ﴿يَنْصُرْكُمْ﴾ الله على عدوكم ﴿وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ﴾ عند القتال، فلا تهنوا ولا تضعفوا ولا تفروا، بل تنتصرون عليهم أو تستشهدون، كما قال تعالى: ﴿فَلْيُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يَشْرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا بِالْآخِرَةِ وَمَنْ يُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيُقْتَلْ أَوْ يَغْلِبْ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ (النساء).

فالإسلام لا يعرف إلا النصر أو الشهادة، أما الهزيمة فليست في حسابات المسلم.

فتثبيت القدم معناه: عدم الزلل، كما قال تعالى: ﴿فَنَزَلَ قَدَمٌ بَعْدَ ثُبُوتِهَا﴾ [النحل: ٩٤].

وثبات القدم على دين الله تعني: الاستقامة على منهجه وشكر نعمه.

وفي معنى هذه الآية قوله تعالى: ﴿وَلَيَنْصُرَنَّ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ﴾ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴿الَّذِينَ إِنْ مَكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ﴾ [الحج: ٤٠، ٤١].

وقوله سبحانه: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَاثْبُتُوا وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ وَاصْبِرُوا إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ ﴿الأنفال﴾

(١) انفرد الحمصي وحده بترك عدّ (ويثبت أقدامكم) وعدّها غيره.

وإلى جوار عوامل النصر الخمسة المذكورة في هاتين الآيتين، لا بد من إعداد القوة المادية المتاحة أو المكافئة، وألا يكون للعدو مدخل من قريب أو بعيد في معرفة أسرار هذه القوة. وإذا كان هذا حال المؤمن، فما هو حال الكافر؟ قال تعالى:

٩، ٨ - ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا فَتَعَسَا لَهُمْ وَأَضَلَّ أَعْمَالُهُمْ﴾ (٨) ذَلِكَ يَأْتِيهِمْ كَرِهُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأَحْبَطَ أَعْمَالَهُمْ﴾

وإذا كان الله تعالى لا يبطل عمل المجاهدين في سبيله، بل يضاعفه وينميه، فإنه سبحانه يُبطل عمل الكافرين ويُخَيِّب رجاءهم ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا﴾ بالله ورسله ﴿فَتَعَسَا لَهُمْ﴾ دعاء عليهم بالتعاسة والشقاء والخذلان والخيبة، أي: بُعْدًا وهلاكًا لهم، كما في الحديث:

عن أبي هريرة ؓ أن رسول الله ﷺ قال: «تعس عبد الدينار، والدرهم، والقطيفة، والخميصة، إن أعطي رضي، وإن لم يُعط لم يرض»^(١).

فقد أذهب الله ثواب أعمالهم وأحبطها ﴿وَأَضَلَّ أَعْمَالَهُمْ﴾ فلم يقبلها منهم، ولم يُثَبِّتْ عليها؛ لأنها صدرت ممن أشرك بخالقه ورازقه، فتوجَّه بدعائه وعبادته لغير الله تعالى.

والمراد بأعمالهم: أعمال الخير والبر التي يرجون منها النفع في الدنيا: كسعة الرزق، وسلامة الأبناء، وعافية الأبدان، ونحو ذلك، وهم لا يرجون ثواب الآخرة؛ لأنهم لا يؤمنون بالبعث، ولو أنهم آمنوا بما أنزل الله لانتفعوا بأعمالهم الصالحة في الآخرة؛ فإنها أهم من الدنيا، ولكنهم لم يأخذوا عليها ثوابًا في الآخرة، ولم يصلوا إلى غرضهم منها في الدنيا.

أما السبب الذي أدى بهم إلى ضياع أعمالهم وخُسرانها، فجعل التعاسة تحل محل السعادة؛ فلأنهم كرهوا ما أنزل الله في كتابه من التوحيد والرسالة والبعث والقرآن الذي يهدي إلى الرشd، كما قال تعالى: ﴿كَبُرَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ مَا نَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ﴾ [الشورى: ١٣].

فكان نتيجة هذه الكراهية أن أحبط الله أعمالهم الحسنة التي عملوها في الدنيا، ككفالة اليتيم، والمساهمة في أعمال الخير؛ لأن الإيمان شرط في قبول الأعمال.

﴿ذَلِكَ﴾ التعس والإضلال ﴿يَأْتِيهِمْ كَرِهُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ﴾ من التكاليف والأحكام، فكذبوا

(١) يُنْظَر: حديث أبي هريرة في البخاري بأرقام: (٢٨٨٦، ٢٨٨٧، ٦٤٣٥) والبيهقي في «الشعب» (٤٢٨٩).

بها ولم يؤمنوا، وأطلقوا لأنفسهم العنان في الشهوات والملذات ﴿فَأَخَظَّ أَعْمَلَهُمْ﴾ أي: أذهبها وأضاعها؛ لأنها كانت طاعة للشيطان والهوى.

الْعَاقِلُ مَنْ اتَّعَظَ بِغَيْرِهِ

١٠- ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ دَمَّرَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلِلْكَافِرِينَ أَمْثَلُهُمْ﴾

والعاقِل من يتعظ بغيره، وكان على الكافرين بالله ورسله، أن ينظروا في أحوال أمثالهم من الأمم السابقة، فيعتبروا بما حدث لهم من سوء العاقبة؛ حتى لا يحلَّ بهم عقاب الله كما حلَّ بالمكذبين قبلهم، فهم لا يلتفتون يمنة ولا يسرة إلا وجدوا مَنْ حولهم، ممن استأصلهم الله تعالى بسبب تكذيبهم وكفرهم، فخدمت أنفاسهم، وبادت ديارهم وأموالهم، وصاروا عبرة لمن يأتي بعدهم.

والمعنى: أفلم يسافر هؤلاء الكفار في أرض الله ليشاهدوا عاقبة المكذبين قبلهم لرسول الله... كقوم عاد، وقوم ثمود، وقوم لوط، وقوم مدين، فقد أزهق الله أرواحهم، ودمَّر مساكنهم، وأذهب أموالهم، فجعلهم تحت الأنقاض المتركمة، فأهلكهم الله وأهلك ديارهم التي كانوا يعيشون فيها، وللكافرين المعاصرين ومَنْ بعدهم مثل عاقبة الذين مِنْ قبلهم من سوء المصير والعذاب المدمر ﴿وَالْكَافِرِينَ أَمْثَلُهُمْ﴾ وهذا تهديد ووعد لمن يجحد وحدانية الله تعالى، ولم يصدق بآخر رسل الله، وأنكر البعث والشور في كل زمان ومكان، وفي كل عصر ومصر، أما المؤمنون فإن الله تعالى ينجيهم من المهالك، ويحسن عاقبتهم، قال تعالى:

١١- ﴿ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ مَوْلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَأَنَّ الْكَافِرِينَ لَا مَوْلَى لَهُمْ﴾

بَيَّنَّ ﷻ سبب التدمير والهلاك الذي حلَّ بالمكذبين في الأمم السابقة، وهو أن الله تعالى يتولى بنصره وعونه وتأييده كل من آمن بالله ورسوله، أما الكافر فليس له ولي ولا نصير يدفع عنه عذاب الله تعالى:

والمعنى: ذلك الذي فعلناه بالفريقين: المؤمنين والكافرين، بسبب أن الله تعالى وليُّ المؤمنين وناصرهم؛ يخرجهم من الظلمات إلى النور، ويتولاهم بعنايته ورعايته، لأنهم نصرُوا دينه، وأخذوا بأسباب النصر على العدو.

أما الكفار فإنهم قد أشركوا مع الله غيره، فلم ينصرهم الله تعالى، ولا يستطيع أحد أن ينصرهم؛ لأنهم لم ينصروا دين الله تعالى ﴿وَأَنَّ الْكَافِرِينَ لَا مَوْلَى لَهُمْ﴾ أي: لا ناصر لهم غير الله سبحانه، فلا أحد يأخذ بأيديهم إلى طريق النجاة، بل إن أولياءهم من الطواغيت يخرجونهم من النور إلى الظلمات.

أما قوله تعالى عن الكفار: ﴿ثُمَّ رُدُّوا إِلَى اللَّهِ مَوْلَاهُمُ الْحَقُّ﴾ [الأنعام: ٦٢] فإن المولى هنا بمعنى: الرب المالك، وقد أمر النبي ﷺ أصحابه أن يردُّوا على أبي سفيان حين قال يوم أحد: لنا العزَّى ولا عزَّى لكم، فقال ﷺ: «ألا تجيبوه؟» قالوا: وما نقول يا رسول الله؟ قال: قولوا: «الله مولانا ولا مولى لكم»^(١).

حَظُّ الْمُؤْمِنِ وَحَظُّ الْكَافِرِ فِي الْآخِرَةِ

١٢- ﴿إِنَّ اللَّهَ يُدْخِلُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَالَّذِينَ كَفَرُوا يَتَنَعَوْنَ وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ الْأَنْعَامُ وَالنَّارُ مَثْوًى لَهُمْ﴾ (١٧)

ولما ذكر سبحانه أنه ولي المؤمنين في الدنيا، وأن الكافرين لا مولى لهم، ذكر في هذه الآية حظ كل منهما ونصيبه في الآخرة، فقد بين سبحانه أن من ولايته للمؤمنين أن يعطيهم النعيم الدائم في الآخرة، بعد النصر في الدنيا.

أما الكافرون فحظهم من الدنيا، أكل وتمتع كحظ الأنعام، وعاقبتهم في دار الخلود، العذاب الدائم، كما قال تعالى: ﴿لَا يَغْرَنَكَ تَقَلُّبُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي الْبِلَادِ﴾ (١٦) ﴿مَتَّعٌ قَلِيلٌ ثُمَّ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمِهَادُ﴾ [آل عمران].

﴿إِنَّ اللَّهَ يُدْخِلُ الَّذِينَ ءَامَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾ حقائق ورسوله ﴿جَنَّاتٍ﴾ حقائق ورسوله ﴿تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا﴾ أي: من تحت قصورها وأشجارها ﴿الْأَنْهَارُ﴾ الجارية تكرمه لهم، فيجدون في الجنات ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر، كما قال تعالى: ﴿وَفِيهَا مَا نَشْتَهِيهِ الْأَنفُسُ وَتَلَذُّ الْأَعْيُنُ وَأَنْتُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ [الزخرف: ٧١].

أما الكفار فإنهم يتنعمون بملذات الدنيا أيامًا قليلة، وهم في تناول هذه الملذات

(١) من حديث البراء في البخاري برقم (٤٠٤٣).

كالأنعام التي لا تعقل، فلا فرق بين الحلال والحرام، ولا بين الخبيث والطيب، ولا يشكرون الله تعالى على نعمه، وهم في غفلة عن عاقبتهم ونهاية أمرهم ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا يَتَمَنَّوْنَ وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ الْأَنْعَامُ﴾ من البهائم التي لا همَّ لها إلا شهوة بطنها وفرجها، وهم في غفلة ولهو ساهون عن مصيرهم في الدار الآخرة ﴿وَالنَّارُ مَثْوًى لَّهُمْ﴾ فهي المكان المعدُّ لنزولهم يوم القيامة، فصورتهم في الدنيا قيحة، وعاقبتهم في الآخرة سيئة، فهم في نار جهنم لا يخرجون منها ولا يفتر عنهم من عذابها.

أخرج البخاري وغيره عن نافع قال: كان ابن عمر رضي الله عنه لا يأكل حتى يؤتى بمسكين يأكل معه، فأدخلت رجلاً يأكل معه، فأكل كثيراً، فقال: يا نافع، لا تدخل هذا عليّ، سمعت النبي ﷺ يقول: «المؤمن يأكل في معيٍّ واحد، والكافر يأكل في سبعة أمعاء»^(١).

بِكُلِّ طَاغِيَةٍ نِهَآيَةٍ

١٣ - ﴿وَكَايْنِ (٢) مِّن قَرِيَةٍ هِيَ أَشَدُّ قُوَّةً مِّن قَرِيكَ الَّتِي أَخْرَجَكَ أَهْلَكْنَهُمْ فَلَا نَاصِرَ لَهُمْ (١٣)﴾

ثم إن الكفار في كل زمان ومكان ليسوا بأعنى ولا أقوى من الأمم السابقة كقوم عاد ﴿إِذْ ذَاتِ الْعِمَادِ (٧) الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبَلَدِ (٨)﴾ [الفجر]

وهم يبنون بكل مرتفع من الأرض آية في البناء لا نظير لها ﴿أَنْتَبِئُونَ بِكُلِّ رِيحٍ ءَايَةٌ تَعْبَثُونَ (١٨) وَتَتَخَذُونَ مِصَافٍ لِّعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ (١٩) وَإِذَا بَطَشْتُمْ بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ (٢٠)﴾ [الشعراء].

كما أنه لا أعتى من قوم ثمود ﴿الَّذِينَ جَاءُوا أَصْحَرَ بِالْوَادِ﴾ [الفجر: ٩].

وكانوا ينحتون البيوت الفارهة في الجبال ﴿وَتَنْحِتُونَ مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا فَارِهِينَ (١٦٩)﴾ [الشعراء].

هذه الأمم وأمثالها كانوا أشد وأقوى من أهل مكة الذين تأمروا على قتل النبي ﷺ فألجؤوه للخروج من مكة، ولما مكث في غار جبل ثور ثلاثة أيام، ثم أخذ طريقه إلى المدينة، توجه

(١) «صحيح البخاري» برقم (٥٣٩٣) و«صحيح مسلم» برقم (٢٠٦٠، ٢٠٦١).

(٢) قرأ ابن كثير وأبو جعفر (وكائن) بألف بعد الكاف ممدودة مدًّا متصلًا، بعدها همزة مكسورة، وسهّل أبو جعفر الهمزة مع المد والقصر، والباقون (وكأين) بهمزة مفتوحة بعد الكاف بدلًا من الألف، وهما لغتان بمعنى: كثير، وعند الوقف عليها يجوز لأبي عمرو ويعقوب الوقف على الياء وحذف التنوين (وكأي) للتنبيه على أن الكلمة مركبة من كاف التشبيه وأي المنونة، ويقف الباقون على النون تبعًا للرسم.

نحو مكة، وقال ﷺ كما في حديث ابن عباس ؓ: «أنت أحب بلاد الله إلى الله، وأنت أحب البلاد إليّ، فلو أن المشركين لم يخرجوني لم أخرج منك» عندئذ نزل قول الله تعالى: ﴿وَكَأَيِّن مِّن قَرِيْبٍ هِيَ أَشَدُّ قُوَّةً مِّن قَرِيْبِكَ الَّذِي أَخْرَجَكَ أَهْلَكَهُمْ فَلَا نَاصِرَ لَهُمْ﴾ (١).

أي: وكثير من أهل المدن والأمم ذات النفوذ كانوا أقوى وأشد بأسًا من أهل قريتك - أيها الرسول- وهي مكة التي خرجت منها، فأهلكنا أهل هذه القرى ودمرناهم، حين كذبوا رسلنا ولم تُغَد فيهم المواعظ، ولم ينصرهم من عقابنا ناصر، ولم يُجزهم من عذابنا مجير، ولم تُغن عنهم قوتهم من الله شيئًا، فما بال أهل قريتك الذين كذبوك وأخرجوك من وطنك، أليسوا أحق بالعقوبة من غيرهم؟ لولا أن الله تعالى أمهلهم كي يتوبوا ويثوبوا إلى رشدهم، ويخرج من أصلابهم من يعبد الله تعالى.

وبنحوه عن عبد الله بن عدي بن حمراء الزهري قال: رأيت رسول الله ﷺ وهو واقف على راحلته بالحزورة -مكان بمكة عند باب الحنَّاطين- يقول: «والله إنك لخير أرض الله، وأحب أرض الله إلى الله، ولولا أنني أخرجت منك ما خرجت» (٢).

وفي الآية تهديد شديد، ووعيد أكيد لكل فرد أو جماعة أو أمة، دبرت المكاييد للإسلام، ودعاة الإسلام في كل عصر ومصر.

الْمُؤْمِنُ وَالْكَافِرُ لَا يَسْتَوِيَانِ

ثم نفى ﷺ التسوية بين المؤمن والكافر، فقال:

١٤- ﴿أَفَن كَانَ عَلَىٰ يَبَنَةٍ مِّن رَّبِّهِ كَمَن زَيْنَ لَّهُ سُوءَ عَمَلِهِ وَانْبَعَوْا أَهْوَاءَهُمْ﴾ (٣)

(١) «تفسير الطبري» (٣١/٢٦) والخازن (١٣٦/٤) و«حاشية الجمل» (١٤٥/٤) وهو في «مسند أبي يعلى» عن ابن عباس (٦٩/٥) برقم (٢٦٦٢) ورجاله رجال الصحيح خلا محمود بن خدّاش وهو ثقة. وانظر: المسند ((١٨٧١٦، ١٨٧١٥)) بنحوه عن عبد الله بن عدي وأبي هريرة بإسناد صحيح ورجال ثقات (محققوه) وأخرجه ابن عبد البر في التمهيد (٢٨٨/٢) والترمذي (٣٩٢٥) والنسائي في الكبرى (٤٢٥٢) وابن ماجه (٣١٠٨) وغيرهم.

(٢) «سنن النسائي الكبرى» (٤٢٣٨، ٤٢٣٩) وابن ماجه (٣١٠٨) والترمذي (٣٩٢٥) و«المسند» برقم (١٨٧١٥) بإسناد صحيح ورجال ثقات وابن حبان (٣٧٠٨) وعن أبي هريرة في «سنن النسائي الكبرى» (٤٢٤٠) و«المسند» (١٨٧١٧)، وهو حديث صحيح. (محققوه).

أي: هل مَنْ كان ثابتاً على الدين الحق، واثقاً بأنه على برهان واضح من ربه، وهو على حجة وبصيرة من أمره، وعلى علم يقيني بوحداية الله تعالى، وعلى هدى ونور بما أنزل الله على رسوله، فهو على أمر بين، ودين بين.

هل يستوي هذا بمن كان على ضلال من أمره، متبعاً لهواه، مرتكباً للفواحش والمنكرات، قد حَسَنَ الشيطان له قبيح عمله فتوهمه حسنات، واتَّبَعَ ما دَعَتْهُ إليه نفسه الأمَّارة، من المعاصي، وعبادة غير الله تعالى من غير حجة ولا برهان، فلم يُفَرِّق بين الحسن والقبيح، وهذا معنى ﴿كَمْ زَيْنَ لِمُ سَوُّ عَمَلِهِ وَالْبُعْدُ أَهْوَاءَهُمْ﴾ أي: لا يستويان؛ لأن كلاً منهما ضد الآخر، فما أبعد الفرق بين الفريقين، وما أعظم التفاوت بين أهل الحق وأهل الباطل؟ وفي هذا ردُّ على من زعم أن غير المسلم إذا أحسن المعاملة مع الناس فإنه خير من المسلم، ولا يكون هذا إلا ممن فسدت فطرتهم، وانحرفت عقيدتهم، فإن ما بين الفريقين كما بين الجنة والنار، وما بين السماء والأرض.

قال تعالى: ﴿أَفَمَنْ يَعْلَمُ أَنَّمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنَ رَبِّكَ الْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَى﴾ [الرعد: ١٩].
وقال سبحانه: ﴿لَا يَسْتَوِي أَحَبُّ النَّارِ وَأَحَبُّ الْجَنَّةِ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمُ الْفَائِزُونَ﴾ [الحشر].
وقال أيضاً: ﴿هَلْ يَسْتَوِي الْأَعْمَى وَالْبَصِيرُ أَمْ هَلْ سَتَوَى الظُّلُمْتُ وَالنُّورُ﴾ [الرعد: ١٦].

شَرَابُ أَهْلِ الْجَنَّةِ وَشَرَابُ أَهْلِ النَّارِ

١٥- ﴿مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعدَ الْمُتَّقُونَ فِيهَا أَنْهَارٌ مِنْ مَاءٍ غَيْرِ آسِنٍ^(١) وَأَنْهَارٌ مِنْ لَبَنٍ لَمْ يَتَغَيَّرَ طَعْمُهُ وَأَنْهَارٌ مِنْ خَمْرٍ لَذَّةٍ لِلشَّارِبِينَ^(٢) وَأَنْهَارٌ مِنْ عَسَلٍ مُصَفًّى وَلَهُمْ فِيهَا مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ وَمَغْفِرَةٌ مِنْ رَبِّهِمْ كَمَنْ هُوَ خَالِدٌ فِي النَّارِ وَسُقُوا مَاءً حَمِيماً فَقَطَّعَ أَمْعَاءَهُمْ﴾

وبعد بيان مصير المؤمن والكافر، يأتي ذكر شيء من نعيم المؤمن وعذاب الكافر في الآخرة، فالمؤمن يشرب من أنهار: الماء واللبن والعسل والخمر، والكافر يشرب من ماء متناهي الحرارة، يُقَطِّعُ الأمعاء ويشوي الوجوه.

(١) قرأ ابن كثير بغير مدٍّ بعد الهمزة من (آسِن) على وزن حَزِرِ صفة مشبهة، وقرأ الباقون (آسن) على وزن ضارب اسم فاعل.

(٢) عَذَّ البصري والحمصي (لذة للشاربين) آية، وتركها غيرهما.

أما شراب المؤمن فقد جاء في قوله تعالى: ﴿ثَلَّ الْجَنَّةِ الَّتِي وَعِدَ الْمُتَّقُونَ﴾ أي: صفة الجنة التي أعدها الله لعباده الأبرار المتقين، عجيبة الشأن.

ومن صفتها: ما سيوصف لكم ويتلى عليكم من هذه الأصناف الخمسة، وهي أفضل ما يتنافس عليه الناس من المشروبات:

١- ﴿فِيهَا أَنْهَرٌ مِنْ مَاءٍ غَيْرِ عَاسِنٍ﴾ أي: في الجنة أنهار من مياه جارية غير متغيرة الطعم، ولا اللون ولا الرائحة، وهو ماء صافٍ غير مُكَدَّر، بل هو لذيق الطعم، تشتهي النفس وتقر به العين، وهو أعذب المياه وأصفها، وأطيها ريحاً، وألذها شراباً، وهذا الماء من عين التسليم، لم تمسه يد، يأتي يوم القيامة إلى فم المسلم فيدخله^(١).

٢- ﴿وَأَنْهَرٌ مِنْ لَبَنٍ لَمْ يَنْغَيَّرْ طَعْمُهُ﴾ أي: وأنهار جارية من الحليب في غاية البياض والحلاوة، لم يخرج من ضرورع الماشية، ولم يتغير طعمه من طول المكث بحموضة ولا غيرها كالألبان الدنيا، ولم يخرج من بين فرث ودم.

٣- ﴿وَأَنْهَرٌ مِنْ خَمْرٍ لَذَّةٍ لِلشَّارِبِينَ﴾ أي: وأنهار جارية من خمر لذيق الطعم، لا يعقبه صداع ولا ذهاب عقل، ولا رائحة كريهة، كخمر الدنيا، بل يتلذذ بها الشاربون، وهي ﴿بَيْضَاءُ لَذَّةٍ لِلشَّارِبِينَ﴾ (٤١) لَا فِيهَا غَوْلٌ وَلَا هُمْ عَنْهَا يُنْزَفُونَ ﴿٤٢﴾ [الصافات].

﴿لَا يَصْدَعُونَ عَنْهَا وَلَا يُزِفُونَ﴾ (٤٣) [الواقعة].

وهذه الخمر لم تُلَوَّثْ بعصير يدٍ ولا رجلٍ ولا آلة معصرة.

٤- ﴿وَأَنْهَرٌ مِنْ عَسَلٍ مُصَفًّى﴾ أي: وأنهار جارية من عسل في غاية الصفاء، لم يخالطه شمع ولا فضلات النحل؛ لأنه لم يخرج من بطونها.

وفضلاً عن ذلك فإن للمؤمنين في الجنة من كل ما لذ وطاب من جميع الثمار والفواكه والعنب والتفاح والرمال والتين والأترج، وغير ذلك مما لا نظير له في الدنيا ﴿وَلَهُمْ فِيهَا مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ﴾، ﴿كُلَّمَا رُزِقُوا مِنْهَا مِنْ ثَمَرٍ رَزَقُوا قَالُوا هَذَا الَّذِي رُزِقْنَا مِنْ قَبْلُ وَأُتُوا بِهِ مُتَشَابِهًا﴾ [البقرة: ٢٥] فهو يشبه ثمر الدنيا في الشكل، ويخالفه في المذاق والطعم.

(١) انظر: الطبري (٢١/٢٠٠) عن سعد بن طريف عن أبي إسحاق.

وغير ذلك مما عَلمُوهُ وما لم يعلموه، مما أُعِدَّ لهم في الآخرة، كما قال تعالى: ﴿فِيهِمَا مِنْ كُلِّ فَاكِهَةٍ زَوْجَانِ﴾ [الرحمن: ٥٢]. ﴿يَدْعُونَ فِيهَا بِكُلِّ فَاكِهَةٍ ءَامِنِينَ﴾ [الدخان: ٥٥].
عن حكيم بن معاوية بن حيدة عن أبيه ؓ أن النبي ﷺ قال: «إن في الجنة بحر الماء، وبحر العسل، وبحر اللبن، وبحر الخمر، ثم تُشقق الأنهار منها بعدُ»^(١).

وصحَّ في الحديث، عن أبي هريرة ؓ أن النبي ﷺ قال: «إذا سألتُم الله فاسألوه الفردوس، فإنه أوسط الجنة، وأعلى الجنة، وفوقه عرش الرحمن، ومنه تَفَجَّرُ أنهار الجنة»^(٢).

وللمؤمنين في الجنة ما هو أهم من الأنهار والثمار، وهو مغفرة الله ورضوانه، كما قال تعالى: ﴿وَمَغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ﴾ أي: ولهم ثواب عظيم وفضل كبير، حيث ستر الله عليهم ذنوبهم وأزالها عنهم وبذلها حسنات، وهم في الجنة غير مكلفين بعمل ولا عبادة ولا سعي على المعاش.

قال الصاوي: في الجنة تُرفع عنهم التكاليف فيما يأكلونه ويشربونه، بخلاف الدنيا فإن مأكولها ومشروبها يترتب عليه الحساب والعقاب، ونعيم الآخرة لا حساب عليه ولا عقاب فيه^(٣).

وفي الحديث أن الله تعالى يقول لأهل الجنة يا أهل الجنة: «أحلُّ عليكم رضواني فلا أسخط عليكم بعده أبداً»^(٤).

شراب الكافر: فهل مَنْ هو في هذا النعيم من الجنة، كمن هو مقيم في نار جهنم لا يخرج منها، ويشرب من ماء قد تناهى في شدة حره؟ يتجرع من حميمها ﴿كَنَّ هُوَ خَلْدٌ فِي النَّارِ وَسُقُوا مَاءً حَمِيمًا فَقَطَّعَ أَمْعَاءَهُمْ﴾.

(١) قال الترمذي: حديث حسن صحيح برقم (٢٥٧١) وأحمد في «المسند»: (٥/٥) (٢٠٠٥٢) بإسناد حسن والدارمي (٣٣٧/٢) وصححه الألباني في «صحيح الترمذي» برقم (٢٠٧٨) و«صحيح الجامع الصغير» برقم (٢١٢٢) وابن حبان برقم (٧٤٠٩) والبيهقي (٢٦٤).

(٢) الحديث في البخاري عن أبي هريرة برقم (٢٧٩٠، ٧٤٢٣).

(٣) «حاشية الصاوي» (٨٤/٤).

(٤) والحديث عن أبي سعيد الخدري وأوله: «إن الله ﷻ يقول لأهل الجنة: يا أهل الجنة...» وهو في «صحيح البخاري» (٦٥٤٩) و«صحيح مسلم» (٢٨٢٩).

وهذا الماء قد بلغ الغاية في الحرارة، إذا دَنَوْنَا منه شوى وجوههم، ووقعت فروة رؤوسهم، فإذا شربوا قَطَعَ أمعاءهم وأخرجها من دبرهم^(١).

والآية لم تُعَرَّجْ على طعام أهل النار؛ لأنه في مقابلة شراب أهل الجنة، وقد جاء ذكره في مثل قوله تعالى:

١- ﴿ثُمَّ إِنَّكُمْ أَنْتَ الْأَصْلَ الْكَذِبُونَ ٥١ لَا كُؤُونَ مِنْ سَجَرٍ مِنْ دَقُومٍ ٥٢ فَمَالُونَ مِنْهَا الْبُطُونَ ٥٣ فَشَرِبُوا عَلَيْهِ مِنَ الْحَمِيمِ ٥٤ فَشَرِبُوا شَرِبَ الْحَمِيمِ ٥٥ هَذَا تَزَلُّمٌ يَوْمَ الَّذِينَ ٥٦﴾ [الواقعة].

٢- وقوله: ﴿أَذَلِكَ خَيْرٌ نُزْلاً أَمْ شَجَرَةُ الزَّقُومِ ١٧ إِنَّا جَعَلْنَاهَا فِتْنَةً لِلظَّالِمِينَ ١٨ إِنَّهَا شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِي أَصْلِ الْجَحِيمِ ١٩ طَلْعُهَا كَأَنَّهُ زُؤُوسُ الشَّيْطَانِ ٢٠ فَاتَهُمْ لَا كُؤُونَ مِنْهَا فَمَالُونَ مِنْهَا الْبُطُونَ ٢١﴾ ثُمَّ إِنَّ لَهُمْ عَلَيْهَا لَشَوْبًا مِنْ حَمِيمٍ ٢٢﴾ [الصافات].

٣- وقوله أيضاً: ﴿إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا وَإِنْ يَسْتَغِيثُوا يُغَاثُوا بِمَاءٍ كَالْمُهْلِ يَشْوِي الْوُجُوهَ بِئْسَ الشَّرَابُ وَسَاءَتْ مُرْتَفَقًا ٢٩﴾ [الكهف: ٢٩].

٤- وقوله جل شأنه: ﴿فَالَّذِينَ كَفَرُوا قُطِعَتْ لَهُمْ نِيَابٌ مِنْ نَارٍ يُصَبُّ مِنْ فَوْقِ رُءُوسِهِمُ الْحَمِيمُ لَا يُصْهَرُ بِهِ مَا فِي بُطُونِهِمْ وَالْجُلُودُ ٢٠﴾ [الحج].

٥- وقوله: ﴿وَسُقَى مِنْ مَاءٍ صَكِيدٍ ١١ يَتَجَرَّعُهُ وَلَا يَكَادُ يُسِغُهُ﴾ [إبراهيم: ١٦، ١٧].

وعن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «إن الحميم ليصب على رؤوسهم، فينفذ الجُمُجُمة حتى يخلص إلى جوفه، فيسلت ما في جوفه حتى يمرق من قدميه، وهو الصهر، ثم يعاد كما كان»^(٢).

(١) «تفسير القرطبي» (١٦/٢٣٧).

(٢) قال الترمذي: حديث غريب حسن صحيح (٢٥٨٢) وعبد الله بن أحمد (ص ٢٠) و«المسند» (٨٨٦٤) بنحوه بإسناد ضعيف، لضعف أبي السمح، وهو دراج بن سمعان القرشي، فقد ضعفه غير واحد من الأئمة (كما قال محققوه)، والبعوي في شرح السنة (٤٤٠٦) والطبري في التفسير (١٧/١٣٣)، (٨٨٦) والحاكم (٣٨٧/٢) وضعفه الألباني في «ضعيف سنن الترمذي» (٤٧٦).

الْمُنَافِقُونَ وَالْمُؤْمِنُونَ

١٦- ﴿وَمِنْهُمْ مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ حَتَّى إِذَا خَرَجُوا مِنْ عِنْدِكَ قَالُوا لِلَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مَاذَا قَالَ أَنِفًا﴾^(١)
 أُولَئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ ﴿١٦﴾

وبعد الحديث عن المؤمنين والكافرين يأتي الحديث عن المنافقين، وهم فرقة من الكافرين إلا أنهم يتظاهرون بالإسلام، وقد ظهر النفاق بالمدينة بعد أن قويت شوكة المسلمين وأصبح الأعداء يخشونهم، وهذه القوة جعلت بعض الناس يتظاهرون بالإسلام على كره منه، وهم يُضَمُّون له ولأتباعه العداوة والبغضاء، وجعلتهم يتحالفون مع اليهود ضد المسلمين.

ومن هؤلاء: عبد الله بن أبيّ بن سلول، ورفاعة بن الثابت، وزيد بن الصلت، ومالك بن الدخشم، وكان هذا في أول العهد بالهجرة، ثم أسلم مالك بن الدخشم وحسن إسلامه، وشهد بدرًا.

وكان المنافقون يحضرون مجلس النبي ﷺ نفاقًا، فيسمعون كلامه وخطبه ومواظمه ولا يُغيرونه اهتمامًا، فإذا خرجوا من مجلسه سألوا علماء الصحابة كعبد الله بن مسعود - على وجه الاستهزاء - قائلين: ماذا كان يقول؟

قال تعالى: ﴿وَمِنْهُمْ﴾ أي: ومن أهل الكفر الذين يناصرونك العداء والبغضاء، المنافقين في الاعتقاد، منهم ﴿مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ﴾ يا محمد وهو في مجلسك، يستمع إلى حديثك بأذانه لا بقلبه، مُظهرًا الاهتمام وشدة الحرص على ما تقول، والاستماع: هو قصد السماع، وهو أشد السمع وأقواه، ﴿حَتَّى إِذَا خَرَجُوا مِنْ عِنْدِكَ﴾ أي: انصرفوا من مجلسك ﴿قَالُوا لِلَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ﴾ ممن حضروا مجلسك من أهل العلم بكتاب الله من أصحاب رسول الله ﷺ أمثال: عبد الله بن مسعود، وابن عباس، وأبي الدرداء، قالوا لهم على سبيل الاستهزاء: ﴿مَاذَا قَالَ أَنِفًا﴾ ما الذي قاله محمد؟ يقول ذلك قبل مفارقة المجلس، ولو كانوا حريصين على الخير لوعته أسماعهم وعقلته قلوبهم، وعملت به جوارحهم، ولكنهم لم يسمعه سماع قبول وانتفاع، بل كانوا معرضين عنه بقلوبهم.

(١) قرأ البزي بخلف عنه بقصر همزة (أنفًا)، والباقون بمدّها وهو الوجه الثاني للبزي، وهما لغتان بمعنى واحد.

قال ابن عباس رضي الله عنه: وقد سُئِلتَ فيمن سُئِلَ، فكان ابن عباس من الذين أوتوا العلم وهو أصغر القوم ^(١).

قال تعالى في وصفهم: ﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ﴾ أي: أولئك المنافقون هم الذين ختم الله على قلوبهم بالكفر، فلا تقبل هدى؛ لأنهم استحَبوا الكفر على الإيمان، وسدوا على أنفسهم أبواب الخير والهدى ﴿وَأَتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ﴾ وشهواتهم فلا يعقلون قولاً، ولا يفهمون حديثاً، وهذا حال كثير ممن يُمالئون المسلمين، وينطبق عليهم قوله تعالى: ﴿هَٰئِئِنَّمْ أُولَآءُ يُحِبُّونَهُمْ وَلَا يُحِبُّونَكُمُ﴾ [آل عمران: ١١٩].

أخرج الطبري بسند حسن عن قتادة، قال في معنى الآية: هؤلاء المنافقون، دَخَلَ رَجُلَانِ: فرجل عقل عن الله وانتفع بما سمع، ورجل لم يعقل عن الله ولم ينتفع بما سمع. وكان يقال: الناس ثلاثة: فسامع عَمِلَ، وسامع غفل، وسامع ترك ^(٢).

هذا هو حال المنافقين، أما الذين اهتدوا للحق واستجابوا له فهم الذين قال الله فيهم:

١٧- ﴿وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى وَءَانَّهُمْ نَفَقَتُهُمْ﴾ (٧)

أي: أما الذين شرح الله صدورهم للإيمان، فاهتدوا واستقاموا على منهج الله، ممن رسخ الإيمان في قلوبهم وتغلَّبوا على أهوائهم، فقد زادهم الله هُدًى وجعلهم أهل علم وبصيرة وفقه في الدين، ووقفهم للتقوى، ومنحهم الخشية والطاعة، وكافأهم على ذلك بالثواب الجزيل.

﴿وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا﴾ لاتباع الحق بالإيمان والانقياد له ﴿زَادَهُمْ هُدًى﴾ فآلهمهم رشدهم؛ ووقفهم للخير، وحفظهم من الشر، لأنهم يفهمون ما يستمعون إليه من الكتاب والسنة ويعملون به، ويستنبطون منه الأحكام ﴿وَأَنَّهُمْ نَفَقَتُهُمْ﴾ حيث يسرها لهم فازداد يقينهم بالله، وحصل لهم العلم النافع والعمل الصالح، فالمنافق يسمع ولا ينتفع ولا يهتدي، والمؤمن يسمع وينتفع ويهتدي.

قال عكرمة: إن ناساً من أهل الكتاب آمنوا برسولهم وصدقوهم، وآمنوا بمحمد ﷺ قبل

(١) جاء ذلك عن عكرمة كما أخرجه الطبري (٢١/٢٠٤) والحاكم (٢/٤٥٧) وابن أبي حاتم، وعبد بن حميد.

(٢) يُنْظَرُ «تفسير الطبري» (٢١/٢٠٣).

أَنْ يُبْعَثَ، فَلَمَّا بُعِثَ كَفَرُوا بِهِ، فَذَلِكَ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ أَسْوَدَتْ وُجُوهُهُمْ أَكْفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ﴾ [آل عمران: ١٠٦].

وكان قوم من أهل الكتاب آمنوا برسولهم وبمحمد ﷺ قبل أن يُبْعَثَ، فلما بُعِثَ آمنوا به، فَذَلِكَ قَوْلُهُ سُبْحَانَهُ: ﴿وَالَّذِينَ أَهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى وَءَانَّهُمْ وَقَوْهُمْ﴾ (١) ﴿٧﴾.

فالمؤمنون يزدادون إيماناً وثباتاً و يقيناً، والمنافقون يزدادون رجساً إلى رجسهم ومرضاً إلى مرضهم، قال تعالى: ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا فَزَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ﴾ (١٧٤) ﴿وَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَى رِجْسِهِمْ وَمَاتُوا وَهُمْ كَافِرُونَ﴾ [التوبة].

وقال سبحانه: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا﴾ [الأنفال: ٢].

وَجُوبُ الْمُبَادَرَةِ بِصَالِحِ الْأَعْمَالِ قَبْلَ قِيَامِ السَّاعَةِ

١٨- ﴿فَهَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا السَّاعَةَ أَنْ تَأْتِيَهُمْ بَغْتَةً فَقَدْ جَاءَ﴾ (٢) ﴿أَشْرَاطُهَا فَأَنَّى لَهُمْ إِذَا جَاءَتْهُمْ ذِكْرُهُمْ﴾ (١٨) ﴿١٨﴾.

أي: ماذا ينتظر الكافرون والمنافقون؟ وإلى متى يظنون في طغيانهم يعمهون، وفي غفلتهم ساهون؟ ألم يَجِنِ الوقت لانخراطهم في سلك المؤمنين قبل أن تقوم الساعة، وَيَلْقُوا جزاء كفرهم ونفاقهم؟ فهل يظنون بلا إيمان حتى تقوم الساعة؟ ﴿فَهَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا السَّاعَةَ أَنْ تَأْتِيَهُمْ بَغْتَةً﴾ أي: ما ينتظر هؤلاء المكذبون إلا مجيء الساعة التي وعدهم الله بها، فإنها ستأتيهم فجأة، فتبهتهم وهم على كفرهم ونفاقهم ﴿فَلَا يَسْتَطِيعُونَ رَدَّهَا وَلَا هُمْ يُنْظَرُونَ﴾ [الأنبياء: ٤٠]، فقد انتهت الآجال، بعد أن عُمِّروا في الدنيا ما يتذكر فيه من تذكر وجاءهم النذير، وفات وقت الندم والتذكر، ولا سبيل للرجعة.

(١) أخرجه البيهقي في «الدلائل» (٧٧/٢).

(٢) أسقط الهمزة الأولى من (جاء أشراطها) قالون والبزي وأبو عمرو ورويس من طريق أبي الطيب، وكذا قبل من طريق ابن شنبوذ، وسهل الثانية ورش وقبل وأبو جعفر ورويس، في وجهه الآخر، ولورش وقبل وجه آخر هو الإبدال ألفاً مع المد المشبع، وللأزرق إبدالها ألفاً بدون مد، فتحصل لقنبل ثلاثة أوجه:

١- إسقاط الهمزة الأولى. ٢- تسهيل الثانية. ٣- إبدالها ألفاً. وحقق الهمزتين باقي القراء، وكلها

لهجات عربية.

فلا تحسب أن تأخير مؤاخذتهم إفلات من العذاب، إنما هم مُرَجُونَ إلى قيام الساعة، وقد جاء في الحديث عن أبي هريرة رضي الله عنه: «بادروا بالأعمال سبعاً، فهل تنتظرون إلا فقراً منسياً، أو غنى مُطغياً، أو مرضاً مُفسداً، أو هرمًا مُفنداً، أو موتاً مُجهزاً، أو الدجال فشر غائب يُنتظر، أو الساعة فالساعة أدهى وأمر»^(١).

وفي الآية الثانية من سورة الأنعام: ﴿هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ تَأْتِيَهُمُ الْمَلَائِكَةُ أَوْ يَأْتِيَ رَبُّكَ أَوْ يَأْتِيَ بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ يَوْمَ يَأْتِي بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ لَا يَنْفَعُ نَفْسًا إِيْمَانُهَا لَمْ تَكُنْ ءَامَنَتْ مِنْ قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِي إِيمَانِهَا خَيْرًا﴾ [١٥٨].

وفي الآية الأخرى من سورة النحل: ﴿هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ تَأْتِيَهُمُ الْمَلَائِكَةُ أَوْ يَأْتِيَ أَمْرُ رَبِّكَ﴾ [٣٣].

من علامات قيام الساعة: ولقيام الساعة علامات صغرى وكبرى:

ومن علاماتها الصغرى: بعثة النبي ﷺ، فهو آخر رسول إلى البشر، فقد قال ﷺ: «بعثت أنا والساعة كهاتين» وأشار بالسبابة والوسطى^(٢).

وجاء في أسماء النبي ﷺ: أنه نبي التوبة، ونبي الملحمة، والحاشر الذي يُحشر الناس على قدمه، والعاقب الذي ليس بعده نبي.

ومنها انشقاق القمر، كما قال تعالى: ﴿أَقْرَبَتِ السَّاعَةُ وَانشَقَّ الْقَمَرُ﴾ [القمر].

ومنها التطاول في البنيان لرعاة الغنم والفقراء والعالمة وأهل البادية.

في الحديث (وأن ترى الحفاة العالة العراء رعاء الشاة يتطاولون في البنيان)

قال تعالى: ﴿أَقْرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ مُّعْرِضُونَ﴾ [الأنبياء].

وحياة الإنسان قريبة، وإن طال عمره، وموت الإنسان قيام ساعته.

وقُرْبُ الساعة أمر نسبي بالنسبة إلى طول مدة الدنيا، وكل واحد يموت فقد قامت قيامته؛

(١) من حديث أبي هريرة عند الترمذي، وقال: حديث حسن، برقم (٢٣٠٦) وأحمد في «الزهد» (٧) والحاكم

(٤/٣٢٠) والبيهقي في «الشعب» (١٠٥٧٢) وضعفه الألباني في «ضعيف سنن الترمذي» (٤٠٠).

(٢) من حديث سهل بن سعد وأنس وأبي هريرة بزيادة: «وأشار...» وبدونها «صحيح البخاري» بأرقام

(٤٩٣٦، ٥٣٠١، ٦٥٠٣، ٦٥٠٤، ٦٥٠٥) و«صحيح مسلم» برقم (٢٩٥٠، ٢٩٥١) و«المسند»

(١٢٢٤٥) والترمذي (٢٢١٤) وابن ماجه (٤٠٤٠).

لأنه يبدأ في مشاهدة أحوال الآخرة، كما في حديث ابن عمر رضي الله عنهما: «إذا مات أحدكم عُرض عليه مقعده بالغداة والعشي، فإن كان من أهل الجنة فمن أهل الجنة، وإن كان من أهل النار فمن أهل النار، ثم يقال: هذا مقعدك حتى يبعثك الله إليه يوم القيامة»^(١).

وقد ظهرت علامات الساعة الدالة على قربها ولم ينتفعوا بها ﴿فَقَدْ جَاءَ أَشْرَاطُهَا﴾ أي: ظهرت علاماتها، فهل سينتفعون إذا قامت الساعة نفسها؟ فعلى المسلم أن يستعدَّ لقيامها بالإيمان وصالح العمل.

في حديث أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «بادروا بالأعمال فتناً كقطع الليل المظلم، يصبح الرجل مؤمناً ويمسي كافراً، أو يمسي مؤمناً ويصبح كافراً، يبيع دينه بعرض من الدنيا»^(٢).

ومن هذه الفتن التي أشار إليها الحديث: ما جاء عن أبي بن كعب رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «يوشك الفرات أن ينحسر عن جبل من ذهب، فإذا سمع به الناس ساروا إليه، فيقول من عنده: لئن تركنا الناس يأخذون منه ليذهبن به كله، قال: فيقتلون عليه، فيقتل من كل مائة تسعة وتسعون»^(٣).

ومن حديث أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «مَنَعَتِ الْعِرَاقُ دَرَاهِمَهَا وَقَفِيزَهَا، وَمَنَعَتِ الشَّامُ مُدِّيَهَا وَدِينَارَهَا، وَمَنَعَتِ مِصْرَ إِرْدَبَهَا وَدِينَارَهَا، وَعَدْتُمْ مِنْ حَيْثُ بَدَأْتُمْ، وَعَدْتُمْ مِنْ حَيْثُ بَدَأْتُمْ»^(٤).

فإذا منعت هذه البلاد تصدير خيراتها إلى العالم فإن هذا من علامات الساعة.

﴿فَإِنَّ لَهُمْ إِذَا جَاءَهُمْ ذِكْرُهُمْ﴾ من أين لهم التذكرة عند قيام الساعة؟ وما جدواها؟ وعندما تُداهمهم الساعة بأهوالها ويقفون للحساب يتذكرون ويؤمنون بالله ورسوله، ولكن إيمانهم هذا لا ينفع في شيء، كما قال تعالى: ﴿فَلَمْ يَكُنْ يَنْفَعُهُمْ إِيمَانُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بَاسًا﴾ [غافر: ٨٥].

(١) «صحيح مسلم» برقم (٢٨٦٦) و«صحيح البخاري» بأرقام (١٣٧٩، ٣٢٤٠، ٦٥١٥).

(٢) «صحيح مسلم» برقم (١١٨).

(٣) «صحيح مسلم» برقم (٢٨٩٥) ومثله عن أبي هريرة برقم (٢٨٩٤).

(٤) «صحيح مسلم» برقم (٢٨٩٦).

وقال سبحانه: ﴿يَوْمَئِذٍ يَنْذَكُرُ الْإِنْسَانُ وَأَنَّ لَهُ الذِّكْرَى﴾ [الفجر: ٢٣].

فكيف يكون حالهم إذا جاءتهم الساعة؟ وقد ندموا وتابوا ولم تنفعهم الذكري، ولم تقبل منهم توبة.

ومن علامات الساعة الصغرى ما جاء في الصحيحين وغيرهما عن أنس رضي الله عنه أنه قال عند قرب وفاته: ألا أحدثكم حديثاً عن النبي ﷺ لا يحدثكم به أحد غيري، سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إِنَّ مِنْ أَشْرَاطِ السَّاعَةِ أَنْ يُرْفَعَ الْعِلْمُ، وَيُظْهَرَ الْجَهْلُ، وَيَفْشُو الزُّنَى، وَيُشْرَبَ الْخَمْرُ، وَيَذْهَبَ الرِّجَالُ، وَتَبْقَى النِّسَاءُ، حَتَّى يَكُونَ لْخَمْسِينَ امْرَأَةً قَيْمٌ وَاحِدٌ»^(١).

وعن أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال عن أشراط الساعة: «يتقارب الزمان، وينقص العلم، ويلقى الشح، ويكثر الهرج»، قالوا: وما الهرج؟ قال: «القتل القتل»^(٢).

وفي البخاري عن أبي هريرة أيضاً قال: بينا رسول الله ﷺ في مجلس يحدث القوم، إذ جاء أعرابي فقال: متى الساعة؟ فمضى رسول الله ﷺ في حديثه، فقال بعض القوم: سمع ما قال فكبره ما قال، وقال بعضهم: بل لم يسمع، حتى إذا قضى حديثه قال: «أين السائل عن الساعة؟» قال: هأنذا يا رسول الله، قال: «إِذَا ضُبِّعَتِ الْأَمَانَةُ فانتظر الساعة» قال: وكيف إضاعتها؟ قال: «إِذَا وُسِّدَ الْأَمْرُ إِلَى غَيْرِ أَهْلِهِ فَانتظر الساعة»^(٣).

وبالنسبة لعلامات الساعة الكبرى، فأولاها كما جاء عن عبد الله بن سلام: «... وأول أشراط الساعة فنار تحشرهم من المشرق إلى المغرب»^(٤).

وفي حديث أنس رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «ما بُعث نبي إلا أُنذِر أُمَّتَهُ الْأَعْوَرُ الْكَذَّابُ، أَلَا إِنَّهُ أَعْوَرٌ، وَإِنْ رَبَّكُمْ لَيْسَ بِأَعْوَرٍ، وَإِنْ بَيْنَ عَيْنَيْهِ مَكْتُوبٌ كَافِرٌ»^(٥).

(١) البخاري برقم (٥٥٧٧، ٦٨٠٨) ومسلم برقم (٢٦٧١) وابن أبي شيبة (٦٥/١٥) و«المسند» (١١٩٤٤)، (١٢٨٠٦).

(٢) البخاري برقم (٦٠٣٧)، وانظر: (٨٥) في كتاب العلم ومسلم (١٥٧).

(٣) البخاري برقم (٥٩، ٦٤٩٦).

(٤) «صحيح البخاري» برقم (٣٩٣٨).

(٥) البخاري برقم (٧١٣١) ومسلم برقم (٧٤٠٨).

وعند قيام الساعة لا ينفع الندم ولا تنفع التوبة، ولا يفيد العمل، ولا خلاص ولا منجا من الله إلا إليه، لقد فات وقت العمل وجاء وقت الحساب والجزاء.

الاستعداد للأخرة بالتوحيد والاستغفار ومراقبة الله تعالى

١٩ - ﴿فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مُتَقَلَّبَكُمْ وَمَثْوَاكُمْ﴾

لا بد لمن يريد الصلاة، أن يتعلم أولاً، كيف يتوضأ وكيف يصلي، وهكذا من يريد الصيام والحج وما إلى ذلك، ثم تأتي مرحلة العمل والتطبيق، إذ لا بد من العلم قبل العمل، وفي مقدمة ذلك العلم: بتوحيد الله تعالى وبأسمائه وصفاته وأفعاله، والعلم بوجوب أفراد الله تعالى بالعبادة، والعلم باليوم الآخر وما فيه من ثواب وعقاب، والعلم بالشرك الأصغر والأكبر، والكفر الأصغر والأكبر، والنفاق الأصغر والأكبر، والبدع، وما إلى ذلك من سائر العلوم الشرعية.

وقد تضمنت هذه الآية ثلاثة منجيات من عذاب النار، وبها يفوز العبد بجنة النعيم.

الأمر الأول: هو العلم اليقيني والإقرار الثابت، بأن الله تعالى واحد أحد لا شريك له ولا ولد، وأنه سبحانه المستحق للعبادة دون سواه، وتوحيد الله تعالى هو أول ما يستعد به المرء للقاء ربه.

والمعنى: فإذا قامت الساعة فاعلم -أيها الرسول- أنه لا ملجأ ولا منجا من الله إلا إليه، ولا مفرج عند قيامها إلا إلى الله الذي لا إله إلا هو، واعلم أن جميع الممالك تبطل عند قيام الساعة، فلا ملك ولا حكم لأحد إلا لله^(١).

أو يكون المعنى: دُم -يا رسولنا- واثبت على ما أنت عليه من العلم بوحداية الله تعالى، واعلم أنه لا معبود بحق إلا الله، واستمر على هذا، واعمل بمقتضاه، واثبت على هذا العلم.

الأمر الثاني: هو الاستغفار، فقد أمر الله تعالى رسوله بالاستغفار، وهو ﷺ المغفور له ما تقدم من ذنبه وما تأخر، فهو ﷺ معصوم من ارتكاب السيئات، ولكن أمره ربه بذلك

(١) «تفسير الخازن» (٤/١٣٨).

لستَنَّ به الأمة وتقتدي به، ولَمَّا جُبِلَ عليه من التواضع لله تعالى، بمداومة الاستغفار، هضمًا للنفس، وحرصًا على نجاة المؤمنين ومغفرة ذنوبهم، والنبى ﷺ يعلم ذلك، ولكن الآية لطلب التجديد والاستمرار.

والاستغفار: طلب المغفرة من الله تعالى، ويكون ذلك باتخاذ أسباب الغفران، بالتوبة والدعاء، وكثرة الحسنات وترك السيئات:

١- وفي صحيح مسلم وغيره قال: حدثني حامد بن عمر البكراوي -واللفظ له- حدثنا عبد الواحد -يعني ابن زياد- عن عبد الله بن سرجس قال: رأيتُ النبى ﷺ، وأكلتُ معه خبزًا ولحمًا -أو قال: ثريدًا- قال: فقلت له: استغفرَ لك النبى ﷺ؟ قال: نعم ولك، ثم تلا هذه الآية ﴿وَأَسْتَغْفِرُ لِدُنْيِكَ وَالْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ﴾ قال: ثم دُرْتُ خلفه، فنظرتُ إلى خاتم النبوة بين كتفيه -عند ناغض كتفه، اليسرى، جُمعًا عليه خِيَلَانٌ كأمثال الثاليل^(١).

و كان أهل الكتاب قد قرؤوا في كتبهم أن النبى ﷺ هو آخر الأنبياء، فكانت بعثته ﷺ من علامات الساعة، وكانوا يقرؤون في كتبهم أن خاتم النبوة بين كتفيه ﷺ.

٢- ومعنى ﴿وَأَسْتَغْفِرُ لِدُنْيِكَ﴾ قد يُطْلَق الذنب على الغفلة عن ذكر الله تعالى، فهو استغفار من الغفلات، كما جاء في الحديث عن الأغر المزني: «إنه ليغان على قلبي، وإنني لأستغفر الله في اليوم مئة مرة»^(٢).

والغَيْن: هو الستر والتغطية، بسبب الانشغال في أمور الأمة.

وقيل: هو السكينة التي تغشى القلب، فيستغفر الله تعالى لإظهار العبودية والافتقار إليه، فإن حسنات الأبرار سيئات المقربين.

٣- وقد يغشى القلب إعظام وإجلالٌ لله تعالى، ويكون الاستغفار في هذه الحالة شكرًا

(١) «صحيح مسلم» برقم (٢٣٤٦) و«المسند» (٣٧٥/٣٤) (٢٠٧٨٠) حديث صحيح، وانظر (٢٠٧٧٠) وإسناده صحيح على شرط مسلم ورجاله ثقات، (محققوه) والترمذي في «المصنف» (٢٢) والنسائي في «الكبرى» (١٠١٢٧، ١١٤٩٦)، ومصنف عبد الرزاق (٢٠٧٩٦).

(٢) من حديث الأغر المزني في «صحيح مسلم» برقم (٢٧٠٢).

لله تعالى، كما قال النبي ﷺ: «أفلا أكون عبدًا شكورًا»^(١).

وقيل: إن ذنب الأنبياء ترك الأفضل دون مباشرة القبيح، وذنوب الأمة مباشرة القبائح من الصغائر والكبائر^(٢).

٤- وكان النبي ﷺ يقول: «رب اغفر لي خطيئتي وجهلي، وإسرافي في أمري، وما أنت أعلم به مني، اللهم اغفر لي خطاياي وعمدي وجهلي وهزلي، وكل ذلك عندي» والحديث عن أبي موسى عن أبيه^(٣).

٥- وكان ﷺ يقول في آخر الصلاة، كما جاء عن علي بن أبي طالب ؓ: «اللهم اغفر لي ما قدمت وما أخرت، وما أسررت وما أعلنت، وما أنت أعلم به مني، أنت إلهي لا إله إلا أنت»^(٤).

٦- وكان ﷺ يقول: «والله إني لأستغفر الله وأتوب إليه في اليوم أكثر من سبعين مرة»^(٥).

٧- ولما قال إبليس: «وعزتك وجلالك لا أزال أغويهم ما دامت أرواحهم في أجسادهم، قال الله ﷻ: وعزتي وجلالي، لا أزال أغفر لهم ما استغفروني»^(٦).

ثم أمر الله نبيه أن يستغفر لذنوب أهل بيته وأمه رجالاً ونساءً، فقال: ﴿وَالْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ﴾ واستغفار النبي لأمه إكرام من الله تعالى لهم، وهو الشفيع المجاب فيهم.

سئل سفيان بن عيينة عن فضل العلم، فقال: ألم تسمع قول الله تعالى: ﴿فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ﴾ فأمر بالعمل بعد العلم، وترجم البخاري في صحيحه، فقال: باب العلم قبل القول والعمل.

(١) يُنظَر: «تفسير الخازن» (١٣٩/٤) والحديث رواه المغيرة بن شعبة في «صحيح مسلم» برقم (٢٨١٩) و«صحيح البخاري» برقم (٤٨٣٧).

(٢) «تفسير النسفي» بحاشية «تفسير الخازن».

(٣) «صحيح البخاري» برقم (٦٣٩٨).

(٤) «صحيح مسلم» برقم (٧٦٩) عن ابن عباس (٧٧١) عن علي بن أبي طالب ؓ.

(٥) «صحيح البخاري» برقم (٦٣٠٧) عن أبي هريرة.

(٦) من حديث أبي سعيد الخدري في «المسند» (٢٩/٣)، برقم (١١٧٢٩، ١١٢٣٧) حديث حسن، وجاء أيضًا بأسانيد أخرى بأرقام (١١٢٤٤، ١١٣٦٧، ١١٢٣٧).

ثم أمر الله نبيه أن يستغفر أيضًا للمؤمنين والمؤمنات، وهذا الاستغفار من جملة حقوقهم بسبب إيمانهم، وهذا يتضمن نصحتهم، وحب الخير لهم، ودفع الشر عنهم، وأمرهم بالمعروف ونهيهم عن المنكر، والعفو عن مساوئهم، والصلح بين المتخاصمين منهم، ونحو ذلك.

الأمر الثالث: مراقبة الله تعالى في السر والعلن، وهي مرتبة الإحسان

فقال تعالى في ختام الآية: ﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ مُتَقَلِّبَكُمْ وَمَتَوَكِّكُمْ﴾ أي: يعلم تقلبكم في أصلاب الآباء وأرحام الأمهات وبطونهن، ويعلم تصرفاتكم وحرركاتكم في حال اليقظة نهارًا، ويعلم مستقركم في نومكم ليلاً، ويعلم مثواكم في الدنيا وفي القبور، ويعلم تصرفكم وأعمالكم في الدنيا، ومصيركم في الآخرة، فأعدوا الزاد ليوم المعاد.

ويعلم ذلك أنه سبحانه يعلم جميع أحوالكم، لا يخفى عليه شيء منها وإن دقَّ وخفي.

- قال تعالى: ﴿وَمَا تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٌ فِي ظِلْمَتِ الْأَرْضِ وَلَا رَطْبٌ وَلَا يَابِسٌ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ ﴿٥٠﴾ وَهُوَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُمْ بِاللَّيْلِ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُمْ بِالنَّهَارِ﴾ [الأنعام].

وقال أيضًا: ﴿عَلِمَ الْغَيْبِ لَا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ وَلَا أَصْغَرُ مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْبَرُ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ﴾ [سبا: ٣].

وقال أيضًا: ﴿وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا﴾ [هود: ٦].

والإحسان: أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك.

لِلْمُنَافِقِينَ فِي السُّورَةِ عَشْرَةِ أَوْصَافٍ

الوصف الأول: كراهية الجهاد

٢٠، ٢١- ﴿وَيَقُولُ الَّذِينَ ءَامَنُوا لَوْلَا نُزِّلَتْ سُورَةٌ فَإِذَا أُنْزِلَتْ سُورَةٌ مُحْكَمَةٌ وَذُكِرَ فِيهَا الْقِتَالُ رَأَيْتَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ نَظَرَ الْمَغْشِيِّ عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ فَأُولَئِكَ لَهُمُ ۖ طَاعَةٌ وَقَوْلٌ مَعْرُوفٌ فَإِذَا عَزَمَ الْأَمْرُ فَلَوْ صَدَقُوا اللَّهَ لَكَانَ حَيَرًا لَهُمْ ۖ﴾

وبعد أن بدأت السورة بالحديث عن المنافقين، ثنّت بذكر مظهر من مظاهر النفاق، وذلك أنه حين يُدعى المسلمون إلى الجهاد في سبيل الله، فإن المنافقين يَضيقون به ذرعًا؛

لأن التظاهر بالإسلام سُلِجَتْهم إلى الخروج للقتال في مصاف المسلمين، ويُعرضهم للقتل، وهم لا يصدقون بالبعث، ولا يرجون ثواباً في الآخرة، فيكونون في حيرة من أمرهم، وهذا بخلاف المؤمنين، فإنهم يتمنون الشهادة في سبيل الله، ويودون دحر العدو، وهذا يُظهر الفرق بين المؤمنين والمنافقين، كما تقرر هذه الآية: ﴿وَيَقُولُ الَّذِينَ ءَامَنُوا لَوْلَا نُزِّلَتْ سُورَةٌ﴾ أي: هلاً نزلت سورة جديدة من الله تعالى تأمرنا بجهاد الكفار وتشتمل على أحكامه وآدابه، فالمؤمنون يحرسون على الجهاد في سبيله؛ لأنهم يعلمون أنه ذروة سنام الإسلام، وأن المسلم يرجع من ساحة القتال بإحدى الحسنيين: إما النصر وإما الشهادة، كما قال تعالى: ﴿قُلْ هَلْ تَرَبَّصُونَ بِنَا إِلَّا إِحْدَى الْحُسَيْنَيْنِ وَنَحْنُ نَتَرَبَّصُ بِكُمْ أَنْ يُصِيبَكُمْ اللَّهُ بِعَذَابٍ مِّنْ عِنْدِهِ أَوْ يَأْتِيَنَا﴾ [التوبة: ٥٢].

وقال سبحانه: ﴿وَمَنْ يُقْتَلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيُقْتَلْ أَوْ يَغْلِبْ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ [النساء: ٧٤].

والآية التي نحن بصددتها تبين حرص المؤمنين على الجهاد في سبيل الله وحبهم له، وفرحهم بالوحي المنزل في ذلك، وأنهم يأنسون به ويستوحشونه إذا أبطأ عليهم، وأن هذا على العكس من حال المنافقين.

وقد وصف الله تعالى حال المتخاذلين عن الجهاد بقوله: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ قِيلَ لَهُمْ كُفُّوا أَيْدِيَكُمْ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَخْشَوْنَ النَّاسَ كَخَشْيَةِ اللَّهِ أَوْ أَشَدَّ خَشْيَةً وَقَالُوا رَبَّنَا لِمَ كَتَبْتَ عَلَيْنَا الْقِتَالَ لَوْلَا أَخَّرْنَا إِلَىٰ أَجَلٍ قَرِيبٍ﴾ [النساء: ٧٧].

فالمؤمن ينتظر الأمر بالقتال، فإذا تأخر عنه هذا الأمر قال: يارب، هلاً أمرتنا بالقتال، أما المنافق فإنه يكره ذلك ويقول: هلاً تأخر هذا الأمر بالقتال ولم ينزل، وذلك لما انطوت عليه نفوسهم من جبن وخور.

﴿فَإِذَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ﴾ ملزمة للعمل بما فيها ﴿مُحْكَمَةٌ﴾ بالبيان والفرائض وليس فيها نسخ، كما قال مجاهد وقتادة: كل سورة ذكر فيها الجهاد فهي محكمة، وهي أشد القرآن على المنافقين.

والسورة المحكمة: هي التي توجب القتال إيجاباً واضحاً غير متشابه، أي: لا يقبل التأويل، ولا يرد عليها النسخ، وذلك مثل ما جاء في هذه السورة: ﴿فَإِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا

فَضْرَبَ الرِّفَاقَ ﴿٤﴾ الآية [٤] فهي آية ظاهرة الدلالة على فرضية القتال ولم تُنسخ، وهذا ما تمناه المسلمون، أما غيرهم فإنهم يكرهون ذلك أشد الكراهية، فإذا أنزلت سورة ﴿وَذَكَرَ فِيهَا الْقِتَالَ﴾ ذكرًا صريحًا، وهو أمر شاق على النفوس، فإن ضعفاء الإيمان لا يثبتون على امثال هذه الأوامر، ولذا: ﴿رَأَيْتَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ﴾ وشك في دين الله ونفاق؛ فإنهم يتضجرون من ذلك و﴿يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ﴾ يا محمد ﴿نَظَرَ الْمَغِشِيِّ عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ﴾ أي: مثل الذي غشي عليه خوفًا من الموت، حيث يكون بصره شاخصًا لا يتحرك فرعًا من الخوف، وذلك لشدة كراحتهم للقتال، كما قال تعالى: ﴿فَإِذَا جَاءَ الْخَوْفُ رَأَيْتَهُمْ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ كَالَّذِي يُغْتَنَّى عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ﴾ [الأحزاب: ١٩].

وهذا كقوله تعالى ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ قِيلَ لَهُمْ كُفُّوا أَيْدِيَكُمْ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ إِذَا فَرِيقٌ مِنْهُمْ يَخْشَوْنَ النَّاسَ كَخَشْيَةِ اللَّهِ أَوْ أَشَدَّ خَشْيَةً وَقَالُوا رَبَّنَا لِمَ كَتَبْتَ عَلَيْنَا الْقِتَالَ لَوْلَا أَخَّرْنَا إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ﴾ [النساء: ٧٧]

وكان الأولى بهم والأجدر أن يطيعوا أمر الله ورسوله، ويقولوا ﴿سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا﴾ فهذا هو القول المعروف بين المؤمنين إذا دُعوا إلى أمر الله ورسوله، أن يقولوا: سمعنا وأطعنا، قال تعالى: ﴿فَأُولَئِكَ لَهُمْ لَا طَاعَةَ وَقَوْلٌ مَعْرُوفٌ﴾ أي: لقد كان الأولى لهؤلاء الذين في قلوبهم مرض وشك في دين الله - أن يطيعوا الله ورسوله، ويقولوا قولًا موافقًا للشرع، بدل أن يضطرب أمرهم، ويتسللوا لوأذا، هربًا من حضور ساحات الجهاد.

ويصح أن يكون المعنى أنهم يقولون على وجه الاستهزاء والخديعة: ﴿طَاعَةٌ وَقَوْلٌ مَعْرُوفٌ﴾ أي: طاعة لك يا محمد، وقول طيب جميل.

﴿فَإِذَا عَزَمَ الْأَمْرُ﴾ أي: إذا جدَّ الجدُّ، فوجب القتال، وجاء أمر الله بفرضه، فلا يخلو حالهم من أمرين:

إما أن يحضروا القتال بدون نية فيُهزموا، أو يخسروا أنفسهم دون أجر ولا مثوبة.

وإما أن ينسحبوا من القتال، كما فعل ابن أبيي يوم أُحُد، ورجع بثلاث الجيش وهو يقول: لا ندري علام نقتل أنفسنا؟

ولو أنهم كانوا صادقين مع الله تعالى في نياتهم، مخلصين في توجههم إليه، لكان هذا

خيرًا لهم من الكذب والمعصية والمخالفة، وهذا معنى ﴿فَلَوْ صَدَقُوا اللَّهَ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ﴾ أي: لو أخلصوا الإيمان لله، وقاتلوا بنية الجهاد، لكان ذلك خيرًا لهم في الدنيا بالنصر والعزة والتمكين، وفي الآخرة بالظفر بالجنة، دار النعيم.

الْوَصْفُ الثَّانِي لِلْمُنَافِقِينَ: قَطِيعَةُ الرَّحِمِ

٢٢- ﴿فَهَلْ عَسَيْتُمْ^(١) إِنْ تَوَلَّيْتُمْ^(٢) أَنْ تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَتَقَطَّعُوا^(٣) أَرْحَامَكُمْ

في الآية السابقة بيان أن من يصدق الله وي بذل الجهد في طاعته وامتنال أمره فإن هذا خير له، وفي هذه الآية بيان أن من لم يصدق الله ويعرض عن طاعته فهو من أهل الفساد في الأرض، وتقطيع الأرحام.

وتبيّن هذه الآية أن قطيعة الرحم من خصال أهل النفاق، وأن المتخاذلين عن قتال العدو ربما قالوا: كيف نقاتلهم وهم من ذوي أرحامنا وعشائرننا؟ وكيف نقتل أنفسنا، أو يقتل بعضنا بعضًا؟! ولذلك فإن القرآن يُوبخهم على جبنهم وكراهتهم للجهاد في سبيل الله، ويقول لهم: هل أنتم متحققون من أن إعراضكم عن القتال سببه الحرص على صلة الرحم والجوار، أو القرابة والنسب؛ حتى لا يقتل بعضكم بعضًا، وهل أنتم متأكدون أنكم لن تفسدوا في الأرض بسفك الدماء وتقطيع الأرحام؟

ولعلكم إن أعرضتم عن الإسلام وتوليتهم شؤون البلاد أن تفسدوا في الأرض بالكفر بالله، ومعصية الرسول ﷺ، وتقطيع أواصر الأخوة والمودة بينكم وبين غيركم، ذلكم قوله تعالى: ﴿فَهَلْ عَسَيْتُمْ^(١) إِنْ تَوَلَّيْتُمْ^(٢) أَنْ تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَتَقَطَّعُوا^(٣) أَرْحَامَكُمْ﴾ أي: لعلمكم ﴿إِنْ تَوَلَّيْتُمْ﴾ أي: أعرضتم عن دين الله وسنة رسوله، وفارقتم أحكام القرآن، وتركتم الجهاد في سبيل الله ﴿أَنْ تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ﴾ بالمعاصي، وسفك الدماء، والبغي، والسلب، والنهب، وتمزيق وحدتكم ﴿وَتَقَطَّعُوا أَرْحَامَكُمْ﴾ بمقاتلة الأقارب بعضهم لبعض.

(١) قرأ نافع بكسر السين من (عسيتم)، والباقون بفتحها وهما لغتان.

(٢) قرأ رويس بضم التاء والواو وكسر اللام مشددة من (تَوَلَّيْتُمْ) على البناء للمفعول، والباقون بفتح التاء والواو واللام مشددة على البناء للفاعل.

(٣) قرأ يعقوب بفتح التاء وسكون القاف وفتح الطاء مخففة من (وَتَقَطَّعُوا) مضارع قطع، والباقون بضم التاء وفتح القاف وكسر الطاء مشددة، مضارع قطع.

والآية تشير إلى أمرين: إما التزام لطاعة الله وامتنال لأوامره، وإما إعراض عن أوامر الله وعمل بمعاصيه، ومن ذلك قطيعة الرحم.

ويصح أن يكون المعنى: فهل يُتوقع منكم إن أخذتم الولاية على الناس إلا أن تُفسدوا في الأرض وتقطعوا أرحامكم؟

فالتولي إما أن يكون بمعنى: ترك الجهاد، وهو المناسب للسياق.

وإما أن يكون بمعنى: الولاية والحكم.

ومن الأحاديث في فضل صلة الرحم ما يلي:

١- في الصحيحين وغيرهما: عن عائشة رضي الله عنها أن النبي ﷺ قال: «الرحم شُجْنة من الله، مَنْ وصلها وصلَّته، ومن قطعها قطعته»^(١)، والشجنة: هي القرابة المشتبكة.

٢- وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الله تعالى خلق الخلق، حتى إذا فرغ منهم قامت الرحم، فأخذت بحَقْوِ الرحمن، فقال: مه، فقالت: هذا مقام العائذ بك من القطيعة، قال: نعم، أما ترضين أن أصلَ مَنْ وصلَّك، وأقطعَ مَنْ قطعك، قالت: بلى، قال: فذاك لك»، ثم قال رسول الله ﷺ: «اقْرؤوا إن شِئتم ﴿فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ تَوَلَّيْتُمْ أَنْ تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَتُقَطِّعُوا أَرْحَامَكُمْ﴾»^(٢).

الحَقْوُ: هو مشدُّ الإزار من الإنسان، كما يمسك القريب بقريبه.

ويصح أن يكون المعنى: أن ملكًا من الملائكة تعلَّق بالعرش، وتكلَّم بلسان الرحم بأمر الله تعالى.

٣- وعن أبي بكرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «ما من ذنب أحرى أن يُعَجَّلَ الله عقوبته في الدنيا، مع ما يدخر لصاحبه في الآخرة من البغي وقطيعة الرحم»^(٣).

(١) البخاري (٥٩٨٩) ومسلم (٢٥٥٥) بلفظ: «الرحم معلقة بالعرش تقول...» والبيهقي (٧٨٩).

(٢) يُنظر: البخاري بأرقام (٤٨٣٠، ٤٨٣١، ٤٨٣٢) ومسلم برقم (٢٥٥٤) والنسائي في «الكبرى» (١١٤٩٧) وابن حبان (٤٤) والحاكم (٢٥٤/٢) والبيهقي (٧٩٣٤).

(٣) «المسند» (٣٨/٥) برقم (٢٠٣٧٤، ٢٠٣٩٨) وإسناده صحيح، كما قال محققوه، والبزار في مسنده (٣٦٧٨) وابن حبان (٤٥٥) والبيهقي في الشعب (٦٦٧٠) والبغوي في شرح السنة (٣٤٣٨) وأبو داود برقم (٤٩٠٢) والترمذي برقم (٢٥١١) وابن ماجه (٤٢١١)، والبخاري في الأدب المفرد (٢٩).

٤- وعن أنس بن مالك رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «من سرّه أن يُيسط عليه رزقه، أو يُنسأ في أثره، فليصل رحمه»^(١).

ففي هذا بيان أن صلة الرحم تسبب سعة الرزق وطول العمر.

٥- ومن حديث عبد الله بن عمرو رضي الله عنه: أن رسول الله ﷺ قال: «ليس الواصل بالمكافئ، ولكن الواصل الذي إذا قُطعت رحمه وصلها»^(٢).

فصلة الرحم لا تكون برد الجميل ولا التعامل بالمثل، وإنما الواصل هو الذي يصل من قطعه، ويعفو عن ظلمه، ويحسن إلى من أساء إليه.

٦- وفي الحديث القدسي: عن عبد الرحمن بن عوف رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «قال الله تعالى: أنا الرحمن خلقت الرحم، وشققت لها اسماً من اسمي، فمن وصلها وصلته، ومن قطعها قطعته»^(٣).

٧- وعن عبد الله بن سلام رضي الله عنه: أن رسول الله ﷺ قال: «أفشوا السلام، وأطعموا الطعام، وصلّوا الأرحام، وصلّوا بالليل والناس نيام؛ تدخلوا الجنة بسلام»^(٤)، فصلة الرحم من أسباب دخول الجنة، وقطيعة الرحم تسبب حرمان دخولها.

كما في حديث: «لا يدخل الجنة قاطع»^(٥). أي: قاطع رحم. قال تعالى في عقوبة قاطع الرحم:

٢٣- ﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فَأَصَمَّهُمْ وَأَعَمَّى أَبْصَرَهُمْ﴾ (٢٣)

(١) البخاري برقم (٥٩٨٦) ومسلم برقم (٢٥٥٧) واللفظ له.

(٢) البخاري برقم (٥٩٩١) و«المسند» (١٦٣/٢) برقم (٦٥٢٤، ٦٧٨٥) بإسناد صحيح رجال ثقات (محققه).

(٣) من حديث عبد الرحمن بن عوف وأبي هريرة «المسند» (١٩٤/١) بأرقام (١٦٥٩، ١٦٨١، ١٠٤٦٩) قال محققوه: صحيح لغيره، رجاله ثقات، وهو في «سنن الترمذي» (١٩٠٧) وقال: حديث صحيح، و«صحيح سنن أبي داود» (١٤٨٦) وابن حبان (٤٤٣) «الإحسان» والحاكم (١٥٧/٤) و«السلسلة الصحيحة» (٥٢٠) وابن أبي شيبة (٣٤٨/٨).

(٤) ابن أبي شيبة (٣٤٨/٨) والترمذي (٢٤٨٥) و«صحيح سنن ابن ماجه» (٢٦٣٠) والحاكم (٤/١٥٩)، والمسند (٢٣٧٨٤) بإسناد صحيح رجال ثقات رجال الشيخين، كما قال محققوه.

(٥) من حديث جبير بن مطعم في صحيح مسلم (٢٥٥٦).

بَيَّنَ ﷺ فِي هَذِهِ الْآيَةِ عَقُوبَةَ الْمُفْسِدِينَ فِي الْأَرْضِ، الْقَاطِعِينَ أَرْحَامَهُمْ، فَقَالَ: ﴿أُولَئِكَ﴾ أَي: الْمُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ، قَاطِعُوا الرَّحِمَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ ﴿لَعَنَهُمُ اللَّهُ﴾ طَرَدَهُمْ وَأَبْعَدَهُمْ مِنْ رَحْمَتِهِ وَقَرَّبَهُمْ مِنْ سَخَطِهِ ﴿فَأَصْحَاهُمْ وَأَعْمَى أَبْصَرَهُمْ﴾ أَي: جَعَلَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ مَا يَنْفَعُهُمْ وَلَا يَبْصُرُونَ، فَهُمْ بِسَبَبِ إِعْرَاضِهِمْ عَنِ الْحَقِّ كَالضُّمِّ الَّذِينَ لَا يَسْمَعُونَ، وَالْعُمَى الَّذِينَ لَا يَبْصُرُونَ، فَلَمْ يَتَبَيَّنُوا حُجَجَ اللَّهِ وَدَلَائِلَ وَحْدَانِيَّتِهِ؛ لِأَنَّهُمْ لَمَّا عَطَّلُوا حَوَاسَّهُمْ عَنِ التَّدْبِيرِ وَالتَّفَكُّرِ صَارُوا كَالْأَنْعَامِ أَوْ أَضَلَّ سَبِيلًا.

الْوَصْفُ الثَّلَاثُ: عَدَمُ تَدْبِيرِ الْقُرْآنِ وَعَدَمُ الْإِنْتِفَاعِ بِمَا فِيهِ

٢٤- ﴿أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْرٌ عَلَى قُلُوبٍ أَفْقَالُهَا﴾ ﴿٢٤﴾

أَي: فَكَيْفَ يُمْكِنُ لَهُؤُلَاءِ الْمُنَافِقِينَ أَنْ يَتَذَكَّرُوا مَعَانِيَ الْقُرْآنِ، وَمَا فِيهِ مِنَ الْمَوَاقِعِ وَالزَّوَاجِرِ، وَالْحُجَجِ الظَّاهِرَةِ، وَالْبَرَاهِينِ الْقَاطِعَةِ، إِذَا كَانُوا لَا يَنْتَفِعُونَ بِمَا يَسْمَعُونَ أَوْ يَبْصُرُونَ، وَكَانَتْ عَقُولُهُمْ لَا تَتَفَاعَلُ مَعَ مَعَانِيَ الْخَيْرِ وَالصَّلَاحِ؟

إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى يُبَكِّتُهُمْ وَيُوبِّخُهُمْ عَلَى إِصْرَارِهِمْ عَلَى الْكُفْرِ، وَيَهَيِّبُ بِهِمْ أَنْ يَتْرَكُوا الْكُفْرَ الَّذِي اسْتَحَقُّوا بِسَبَبِهِ اللَّعْنَةَ، وَيَحْضِضُهُمْ عَلَى التَّأَمُّلِ فِي الْقُرْآنِ مَعَ حُضُورِ الْقَلْبِ وَصَرْفِهِ عَنِ الشَّوَاغِلِ وَجَمْعِ الْهَمَةِ حَالَ تِلَاوَتِهِ، وَإِخْلَاصِ النِّيَّةِ فِي ذَلِكَ، مَعَ الْاِقْتِصَارِ عَلَى الْحَلَالِ وَالطَّيِّبِ فِي الْغِذَاءِ؛ حَتَّى تَذْهَبَ عَنْهُمْ الْمَوَانِعُ الَّتِي صَرَفَتْهُمْ عَنِ تَدْبِيرِهِ.

﴿أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ الْقُرْآنَ﴾ هَلَّا يَتَذَكَّرُ هَؤُلَاءِ الْمُنَافِقُونَ مَوَاقِعَ الْقُرْآنِ وَأَوَامِرِهِ وَنَوَاهِيهِ وَحُجَجِهِ لِيَدْلَهُمْ عَلَى كُلِّ خَيْرٍ وَبَيْنَاهُمْ عَنِ كُلِّ شَرٍّ، وَيَمْلَأُ قُلُوبَهُمْ بِالْإِيمَانِ، وَأَفْئِدَتَهُمْ بِالْيَقِينِ، وَيُوصِلَهُمْ إِلَى جَنَّةِ اللَّهِ وَكَرَامَتِهِ؟ ﴿أَمْرٌ عَلَى قُلُوبٍ أَفْقَالُهَا﴾ بَلْ إِنَّ عَلَى هَذِهِ الْقُلُوبِ أَفْقَالًا مَغْلُقَةً حَالَتْ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ التَّفَكُّرِ، فَلَا يَصِلُ إِلَيْهَا شَيْءٌ مِنْ هَذَا الْقُرْآنِ؟ فَهُمْ لَا يَفْهَمُونَ وَلَا يَعْقِلُونَ، وَلَا تَتَفَتَّحُ قُلُوبُهُمْ لِلْحَقِّ.

وَالْمَعْنَى: أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى قَدْ سَجَّلَ فِي عِلْمِهِ الْأَزَلِيِّ أَنَّ عَلَى هَذِهِ الْقُلُوبِ أَفْقَالًا - جَمْعُ قُفْلٍ - وَهُوَ الْآلَةُ الَّتِي تُقْفَلُ بِهَا الْأَبْوَابُ، فَأَخْبَرَ سُبْحَانَهُ أَنَّ هُنَاكَ ثَلَاثَةَ مَوَانِعَ، وَهِيَ: الصَّمَمُ، وَالْعُمَى، وَالْقُلُوبُ الْمَقْفَلَةُ، وَأَنَّ هَذِهِ الثَّلَاثَةَ هِيَ سَبَبُ إِعْرَاضِهِمْ عَنِ الْإِيمَانِ، وَعَدَمِ تَدْبِيرِ مَوَاقِعِ اللَّهِ وَحِكْمِهِ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ

اللَّهِ لَوْجِدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا ﴿٨١﴾ [النساء].

وعدم تدبر القرآن هجر له، وقد قال سبحانه: ﴿وَقَالَ الرَّسُولُ يَرَبِّ إِنَّ قَوْمِي اتَّخَذُوا هَذَا الْقُرْآنَ مَهْجُورًا﴾ ﴿٣٠﴾ [الفرقان].

قال الفخر الرازي: إن القلب خلق للمعرفة، فإذا لم تكن فيه المعرفة فكأنه غير موجود^(١).

والمعنى: بل قلوبهم قاسية مظلمة، كأنها مكبلة بالأقفال الحديدية فلا ينفذ إليها نور ولا إيمان.

عن هشام بن عروة عن أبيه قال: تلا رسول الله ﷺ: ﴿أَفَلَا يَنْدَبُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا﴾ ﴿٢٤﴾ فقال شاب من أهل اليمن: بل عليها أقفالها حتى يكون الله ﷻ يفتحها أو يفرجها، فما زال الشاب في نفس عمر ﷺ حتى ولي؛ فاستعان به^(٢).

ويؤخذ من هذه الآية: وجوب التفكير والتدبر في آيات القرآن الكريم، والعمل بما فيها من هدايات وإرشادات وحكم ومواظب وأحكام وأوامر ونواه؛ لأن عدم الامتثال فيه هجر للقرآن، وفيه قسوة القلوب وضلال النفوس.

الْوَصْفُ الرَّابِعُ لِلْمُنَافِقِينَ: الرَّجُوعُ عَنِ الْحَقِّ إِلَى الضَّلَالِ

٢٥- ﴿إِنَّ الَّذِينَ ارْتَدُّوا عَلَىٰ أَدْبَارِهِمْ مِن بَعْدِ مَا بَيَّنَّ لَهُمُ الْهُدَىٰ الشَّيْطَانُ سَوَّلَ لَهُمْ وَأَمْلَىٰ ﴿٣﴾ لَهُمْ﴾

أي: إن هؤلاء المنافقين المتظاهرين بالإسلام، لم ينضموا إلى صفوف المسلمين لمحاربة أعداء الله، مع علمهم أن القتال حق، وعدم الوقوف مع المسلمين ردة عن الهدى إلى الضلال، ومثلهم في ذلك مثل الذي اعتنق الإسلام ثم ارتد عنه إلى الكفر، وكذا المنافق الذي خالط المسلمين وتعرّف على محاسن الإسلام، وتبيّن له الهدى من الضلال، ومع هذا فهو مُصِرٌّ على نفاقه، فإذا خلا بأعداء الإسلام أظهر ما بداخله من

(١) «التفسير الكبير» (٢٨/٦٦).

(٢) «تفسير الطبري» (٣٧/٢٦) و«المطالب العالية» (٤١٠٤).

(٣) قرأ أبو عمرو بضم الهمزة وكسر اللام وفتح الباء على البناء للمجهول في (وَأَمْلَىٰ لَهُمْ) ونائب الفاعل ضمير يعود على الشيطان، أو هو الجار والمجرور (لَهُمْ) وقرأ يعقوب مثل أبي عمرو، إلا أنه سَكَّنَ الباء، والباقون بفتح الهمزة واللام وألف بعدها، فعل ماضٍ، والفاعل ضمير يعود على الشيطان.

بُغْضٍ لِلْإِسْلَامِ وَحُبِّ لَأَعْدَائِهِ.

هذه المعاني كلها يشملها قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ ارْتَدُّوا عَلَىٰ أَدْبَارِهِمْ﴾ أي: رجعوا عن الهدى والإيمان، إلى الغي والضلال، ونكصوا على أعقابهم كفارًا بالله تعالى، وارتدوا على أذبارهم، فرجعوا عن الجهاد مع المسلمين ﴿مِنْ بَعْدِ مَا بَيَّنَّ لَهُمُ الْهُدَىٰ﴾ ووضح لهم الحق وظهرت أدلته، هؤلاء المنافقون ليس عندهم دليل ولا برهان، بل خدعهم الشيطان، وغرهم بطول الأمل وطول الأجل، فاستدرجهم إلى الضلال، وزين لهم أعمالهم.

قال قتادة: هم كفار أهل الكتاب، كفروا بمحمد ﷺ بعدما عرفوه ووجدوا نغته في كتبهم^(١).

وقال ابن عباس والضحاك والسدي: هم المنافقون، آمنوا أولًا ثم كفروا ثانيًا^(٢).

والآية عامة تشمل كل ما ذكر، وتشمل المرتد عن الإسلام إلى غيره، وتشمل المعرض عن ساحة القتال مع المسلمين، بعد أن تبين له أنه حق، للدفاع عن النفس، أو لإزالة العقبات من طريق الدعوة.

ثم بين سبحانه السبب في هذا الضلال والخسران فقال: ﴿الشَّيْطَانُ سَوَّلَ لَهُمْ﴾ أي: زين لهم خطاياهم، وسهل لهم الأمر الذي يستصعبونه، ويسر لهم الوقوع فيها، وصور لهم القبيح حسنًا ﴿وَأَمَلَىٰ لَهُمْ﴾ أي: مد لهم في الأمل، فخدعهم وغرر بهم. ﴿يَعِدُّهُمْ وَيُمَنِّيهِمْ وَمَا يَعِدُّهُمْ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُورًا﴾ [النساء]

وأُسْنِدُ التَّسْوِيلِ وَالْإِمْلَاءِ إِلَى الشَّيْطَانِ؛ لَأَنَّهُ السَّبَبُ فِي هَذَا الضَّلَالِ وَالْخَسْرَانِ.

الْوُضْفُ الْخَامِسُ: إِرْضَاءُ غَيْرِ الْمُسْلِمِينَ عَلَى حِسَابِ الدِّينِ

٢٦- ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لِلَّذِينَ كَرِهُوا مَا نَزَّلَ اللَّهُ سَنُطِيعُكُمْ فِي بَعْضِ الْأَمْرِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِسْرَارَهُمْ﴾^(٣)

ولما استدرج الشيطان المنافقين إلى الضلال، بعدما تبين لهم الهدى، سؤل لهم أن يوافقوا أهل الشرك والكفر في بعض الأمور، قائلًا لهم: إن الموافقة في بعض الأمر لا

(١) «تفسير عبد الرزاق» (٢/٢٢٤) و«المصنف» (١٠٢١٢) والطبري (٢١/٢١٧).

(٢) «تفسير الخازن» (٤/١٤١).

(٣) قرأ حفص وحزمة والكسائي وخلف بكسر الهمزة من (إسراهم) مصدر أسرَّ، والباقون بفتح الهمزة مصدر سر.

تعني عدم الاهتداء، كما لو وافق المسلمون اليهود في التخلي عن الحب في الله والبغض في الله، أو التخلي عن ذكر آيات الجهاد وآيات العداء لهم، أو وافقوا لجان حقوق الإنسان ونحوها في عدم تطبيق الحدود الشرعية، أو في مساواة المرأة بالرجل في الميراث والشهادة، أو في إباحة الخمر، ومزاولة الزنى إذا كان بالتراضي بين الطرفين، وكل ذلك بقصد إرضاء الطرف الآخر.

﴿ذَلِكَ﴾ التسويل والتغريير بالمنافقين، حتى يتمادوا في الكفر ﴿بِأَنَّهُمْ﴾ أي: بسبب أنهم ﴿قَالُوا لِلَّذِينَ كَرِهُوا مَا تَرَكَ اللَّهُ﴾ من اليهود والنصارى، وغيرهم ﴿سَطِيعُكُمْ فِي بَعْضِ الْأُمْرِ﴾ الموافق لأهوائهم المخالف لأمر الله تعالى وأمر رسوله، فلن نتنازل لكم عن الدين كله، حتى لا ينكشف حالنا، وإنما سنتنازل بالتدريج شيئاً فشيئاً دون ضجة إعلامية، حتى نوازن بين رضى جميع الأطراف.

﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِسْرَارَهُمْ﴾ أي: يعلم ما يخفيه هؤلاء في صدورهم وما يسرونه، ومنه ما يتآمرون به مع الأعداء على الإسلام وأهله، وسوف يجازيهم الله عليه، فليحذر المسلمون من طاعة غير الله سبحانه، ومخالفة أمر رسوله ﷺ.

ومن هذا القبيل ما ذكره الله تعالى عما أسره المنافقون لليهود في قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدِّينَ كُفْرًا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَنْ أُخْرِجَهُمْ لَتُخْرِجَنَّ عَنْكُمْ وَلَا تُطِيعُ فِيكُمْ أَحَدًا أَبَدًا وَإِنْ قُوتِلْتُمْ لَنَنْصُرَنَّكُمْ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾ [الحشر]

قال المنافقون ذلك سرّاً لليهود، فأظهره الله تعالى وفضحهم، فهو سبحانه يعلم ما يبطنه أعداء الإسلام له من الكيد والدسّ والتآمر على الإسلام والمسلمين، كقوله تعالى عنهم: ﴿الَّذِينَ قَالُوا لِإِخْوَانِهِمْ وَقَعَدُوا لَوْ أَطَاعُونَا مَا قُتِلُوا﴾ [آل عمران: ١٦٨].

وقوله أيضاً: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ كَفَرُوا وَقَالُوا لِإِخْوَانِهِمْ إِذَا ضَرَبُوا فِي الْأَرْضِ أَوْ كَانُوا غُزًى لَوْ كَانُوا عِنْدَنَا مَا مَاتُوا وَمَا قُتِلُوا لِيَجْعَلَ اللَّهُ ذَلِكَ حَسْرَةً فِي قُلُوبِهِمْ وَاللَّهُ يُبَيِّنُ لِلنَّاسِ مَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ [آل عمران: ١٥٦].

وكما قال المنافقون: ﴿لَا نَفِرُوا فِي الْحَرِّ﴾ فقال تعالى مجيباً لهم: ﴿قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّا لَوْ كَانُوا يَفْقَهُونَ﴾ [التوبة: ٨١].

الْوَصْفُ السَّادِسُ: سُوءُ خَاتِمَةِ الْمُنَافِقِينَ عِنْدَ الْمَوْتِ

٢٧- ﴿كَيْفَ إِذَا تَوَفَّتْهُ الْمَلَائِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَرَهُمْ﴾ ﴿٧﴾

بَيَّنَّ ﷺ في هذه الآية، أن المنافقين سُعِجَلْ لهم العذاب من أول منازل الآخرة، بدءًا من الموت، ومرويًا بعذاب القبر، وإلى أن يستقروا في العذاب الخالد ﴿كَيْفَ﴾ تكون حالهم الشنيعة ورؤيتهم الفظيعة، عندما تحضرهم ملائكة العذاب لقبض أرواحهم، ومعهم مقامع من حديد، يضربون بها وجوههم وظهورهم؟ وكيف يصنعون ﴿إِذَا تَوَفَّتْهُمُ الْمَلَائِكَةُ﴾ فتقبض أرواحهم وهم ﴿يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَرَهُمْ﴾؟ لاشك أن حالهم سيكون أسوأ حال وأقبحه، وهذا كقوله تعالى عن الكفار: ﴿وَلَوْ تَرَى إِذْ يَتَوَفَّى الَّذِينَ كَفَرُوا الْمَلَائِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَرَهُمْ وَذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ﴾ ﴿٥﴾ [الأنفال].

وقوله تعالى عن الظالمين: ﴿وَلَوْ تَرَى إِذِ الظَّالِمُونَ فِي غَمَرَاتِ الْمَوْتِ وَالْمَلَائِكَةُ بَاسِطُوا أَيْدِيهِمْ﴾ لهم بالعذاب، وهم يقولون: ﴿أَخْرِجُوا أَنْفُسَكُمُ﴾ مما أنتم فيه من الذل والهوان، فيقال لهم: ﴿الْيَوْمَ نُخْرِجُكَ عَذَابَ الْهُونِ بِمَا كُنْتُمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ وَكُنْتُمْ عَنْ آيَاتِهِ تَسْتَكْبِرُونَ﴾ [الأنعام: ٩٣].

الْوَصْفُ السَّابِعُ: إِبْطَالُ ثَوَابِ أَعْمَالِ الْمُنَافِقِينَ الصَّالِحَةِ

٢٨- ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ اتَّبَعُوا مَا آسَخَطَ اللَّهُ وَكَرَهُوا رِضْوَانَهُ﴾ ^(١) فَأَحْبَطَ أَعْمَالَهُمْ ﴿٨﴾

أي: وهذا العذاب الذي استحقه المنافقون والظالمون من لحظة الموت إلى الخلود في نار جهنم، بسبب أنهم سلكوا طريق النفاق، فاتبعوا ما يُغضب الله تعالى من الكفر والمعاصي والنفاق، وكرهوا ما يرضيه من الإيمان والطاعة، فأبطل الله أعمالهم ولم يقبلها منهم، و﴿ذَلِكَ﴾ الضرب الأليم من الملائكة لهم يكون حين قبض أرواحهم عند الموت بسبب سخط الله تعالى عليهم؛ لأنهم كرهوا ما يرضيه واتبعوا ما يسخطه، وهذا معنى ﴿بِأَنَّهُمْ اتَّبَعُوا مَا آسَخَطَ اللَّهُ﴾ أي: من النفاق والشرك والكفر والمعاصي ﴿وَكَرَهُوا رِضْوَانَهُ﴾ أي: كرهوا ما يرضيه تعالى من الإيمان والتوحيد والعمل الصالح،

(١) قرأ شعبة بضم الراء من (رُضوانه) والباقون بكسرها، وهما لغتان.

ومنه الجهاد في سبيل الله، ﴿فَأَحْطَ أَعْمَلَهُمْ﴾ أي: أبطل ثواب أعمالهم الصالحة في الدنيا من صدقة وصلة رحم، ونحو ذلك؛ بسبب اتباعهم ما يُسخط الله تعالى، وكرهيتهم لما يُحلُّ عليهم رضوانه سبحانه، وهذا بخلاف من اتبع ما يُرضى الله، وكره سخطه، فإنه يُكفِّر عن سيئاته، ويضاعف أجره وثوابه.

الْوَصْفُ الثَّامِنُ: كَشَفُ مَا فِي قُلُوبِ الْمُنَافِقِينَ مِنَ الضَّغَائِنِ

٢٩- ﴿أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ أَنْ لَنْ يُخْرِجَ اللَّهُ أَضْغَنَهُمْ﴾ ﴿٢٩﴾

في هذا تهديد بأن يُظهر الله مكنون الصدور من العداوات والبغضاء؛ حتى يكون نفاقهم مفضوحًا ومعلومًا عند الناس.

إن الله تعالى مطلع على ما يضمرة المنافقون من الكفر والمكر والكيد للإسلام وأهله، وأسرارهم غير خافية عليه سبحانه، فعليهم أن يعلموا أنه لا طائل من مكائدهم، وأنها ستعود عليهم بخيبة الأمل.

﴿أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ﴾ أيعتقد المنافقون الذين امتلأت قلوبهم بمرض الكفر والضلال والشبهة والشهوة ﴿أَنْ لَنْ يُخْرِجَ اللَّهُ أَضْغَنَهُمْ﴾ أي: أن لن يكشف الله أمرهم ويفضح سرهم لعباده المؤمنين، ويُظهر ما في قلوبهم من الضغائن والأحقاد على الإسلام والمسلمين؟

والجواب: بلى، فإن الله تعالى يميز الصادق من الكاذب، ولن يعجزه شيء في الأرض ولا في السماء، وقد كشف الله أمرهم في سورة (التوبة) وبيّن فضائحهم التي تكشف نفاقهم، وسوف يجازي كلًّا بما يستحق.

الْوَصْفُ التَّاسِعُ: ظُهُورُ النِّفَاقِ فِي تَقَاسِيمِ الْوُجْهِ وَفَلَتَاتِ اللِّسَانِ

٣٠- ﴿وَلَوْ نَشَاءُ لَأَرَيْنَاكَهُمْ فَاعْرِفْتَهُمْ بِسِيمَاهُمْ وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِي لَحْنِ الْقَوْلِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ أَعْمَالَكُمْ﴾ ﴿٣٠﴾

أي: ومهما تظاهر المنافقون بالإسلام، ومهما بالغوا في كتمان أمرهم، فإن الله تعالى لو أراد أن يُطلع خلقه عليهم ويُعلمهم بأوصافهم واحدًا واحدًا لفعل، سواء أكان ذلك وقت التنزيل أم على مدى الأيام والأعوام ﴿وَلَوْ نَشَاءُ لَأَرَيْنَاكَهُمْ﴾ أطلعناك عليهم، أيها

الرسول، وأياها المخاطب ﴿فَلَعَرَفْنَهُمْ بِسِمَتِهِمْ﴾ أي: لو شئنا لأريناك أشخاصهم عيانًا، أو ذكرنا لك أوصافهم الخاصة فعرفتهم بعلاماتهم، ولكن الله ستر عليهم لعلهم يتوبون ويثوبون إلى رشدهم.

قال ابن عطية: وأعظم ما روي في اشتهارهم أن رسول الله ﷺ أمر يومًا فأخرجت منهم جماعة من المسجد، كأنه وسمهم بهذا، لكنهم أقاموا على التبري من ذلك، وتمسكوا بلا إله إلا الله، فحقت دماؤهم^(١).

ويُعرف النفاق في لهجة المنافقين، ونبرة أصواتهم، وإمالتهم للقول عن استقامته، وانحراف منطقهم في الخطاب مما يبدو على ألسنتهم ويظهر مقاصدهم، وغير ذلك من أوصافهم ﴿وَلَعَرَفْنَهُمْ فِي لَحَنِ الْقَوْلِ﴾ فلتات اللسان، وفحوى الكلام، فإن اللسان مغرفة القلب، يظهر ما فيه من الخير والشر، واللحن في القول منه ما هو محمود، ومنه ما هو مذموم.

فالمحمود منه: صرف الكلام عن التصريح به إلى المعنى، وهو ما يسمى بالتعريض أو التلميح، كما في الأثر عن عمران بن حصين رضي الله عنه: «إن في المعارض لمندوحة عن الكذب»^(٢).

وكان النبي ﷺ يقول كما في حديث أنس رضي الله عنه: «ما بال أقوام يقول أحدهم كذا وكذا»^(٣) فيعم ولا يخصص.

وفي الحديث عن أم سلمة رضي الله عنها: «فلعل بعضكم يكون ألحن بحجته من بعض»^(٤).

أي: أبلغ في الكلام، ومنه ما ذكرته الآية: ﴿وَلَعَرَفْنَهُمْ فِي لَحَنِ الْقَوْلِ﴾.

ومن ذلك قول النبي ﷺ لبعض أصحابه في غزوة الأحزاب: «وإن وجدتموهم -أي: بني قريظة- على الغدر، فألجئوا لي لحنًا أعرفه»^(٥).

(١) «تفسير ابن عطية» (٥/ ١٢٠).

(٢) أخرجه ابن عدي مرفوعًا (٤٩/١) وأخرجه أيضًا عن علي بن أبي طالب (٤٩/١)، قال الألباني: أثر صحيح موقوف على عمران بن حصين، كما في الأدب المفرد برقم (٨٥٧) وهو في سنن البيهقي الكبرى (٢٠٦٣١).

(٣) من حديث طويل في البخاري (٥٠٦٣) ومسلم (١٤٠١).

(٤) من حديث أم سلمة في البخاري (٢٦٨٠، ٦٩٦٧، ٧١٦٩) ومسلم (١٧١٣).

(٥) يُنظر: «سيرة ابن هشام» (٢/ ٢٣٠).

أما اللحن المذموم فهو: صرف الكلام عن الصواب إلى الخطأ، أو التصحيف فيه.

قال عثمان رضي الله عنه: ما أسرَّ أحد سريرة إلا أبدأها الله على صفحات وجهه وفتلات لسانه.

وعن أبي مسعود عقبة بن عمرو رضي الله عنه قال: خطبنا رسول الله ﷺ خطبة، فحمد الله وأثنى عليه، ثم قال: «إن منكم منافقين، فمن سمَّيته فليقم، قم يا فلان، قم يا فلان، حتى سمَّى ستة وثلاثين رجلاً، ثم قال: إن فيكم -أو منكم- فاتقوا الله»^(١).

وبعد نزول هذه الآية كان النبي ﷺ يعرفهم بفحوى كلامهم على فساد باطنهم.

قال أنس رضي الله عنه: ما خفي على النبي ﷺ بعد هذه الآية شيء من المنافقين، كان يعرفهم بسيماهم، وكان هذا إكراماً للنبي ﷺ.

ورد أن النبي ﷺ عرَّف حذيفة بالمنافقين أو ببعضهم، ومع هذا فإن النبي ﷺ كان يعاملهم على ظاهرهم، لعل الله يتوب عليهم.

ثم ختم الله الآية ببيان علمه الشامل التام بكل ما في الكون، فقال: ﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ أَعْمَالَكُمْ﴾ لا يخفى عليه من أطاعه ومن عصاه، وسوف يجازي كلًّا بما يستحق.

الْوَصْفُ الْعَاشِرُ: إِظْهَارُ مَكْنُونِ صُدُورِ أَهْلِ النِّفَاقِ لِلْخَلَائِقِ

٣١- ﴿وَلْتَبْلَوْنَكُمْ﴾^(٢) حَتَّى نَعْلَمَ الْمُجْهِدِينَ مِنْكُمْ وَالصَّادِقِينَ وَتَبْلَوْا أَخْبَارَكُمْ ﴿٣١﴾

أخبر ﷺ المؤمنين أن الدنيا دار بلاء، وأنه جلَّ شأنه مبتليهم فيها، وبشَّر الصابرين منهم بالأجر العظيم، كما فعل بأنبيائه وصفوة خلقه، فقد صبروا وأوذوا حتى أتاها نصر الله، ومع إحاطة علم الله تعالى بكل ما كان وما يكون وما هو كائن، فإن من حكمة الله تعالى أن يُظهر أثر علمه بأحوال الناس، لتقوم الحجة عليهم، ولا يظهر

(١) «المسند» (٢٧٣/٥) قال الهيثمي في «مجمع الزوائد» (١١٢/١): فيه عياض بن أبي عياض عن أبيه ولم أر من ترجمهما، وقد ضَعَفَهُ محققو «المسند» (٢٢٣٤٨) لجهالة عياض الراوي عن أبي مسعود، وأخرجه البيهقي في دلائل النبوة (٢٨٦/٦) والبخاري في التاريخ (٢٢/٧).

(٢) قرأ شعبة بالياء في هذه الأفعال الثلاثة (ولتبلونكم، نعلم، وتبلو) لمناسبة (والله يعلم)، والباقون بالنون لمناسبة (ولو نشاء) وقرأ رويس بإسكان واو (وتبلو) تخفيفاً، والباقون بفتحها على الأصل.

هذا إلا في التكاليف بالأوامر والنواهي، فَيَتَيَّنُ المطيع من العاصي والكافر، وهذا ما يسمى بالابتلاء والاختبار.

قال تعالى: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ﴾ أي: نعاملكم معاملة المختبر لكم، وذلك بالتكاليف الشرعية، ومنها ما يشق على النفوس، كالجهاد في سبيل الله لقتال أعدائه ﴿حَتَّى نَعْلَمَ الْمُجَاهِدِينَ مِنْكُمْ وَالصَّادِقِينَ﴾ أي: نظهر ونكشف علمنا -لكم وللملائكة- بأهل الصبر على مشاق الجهاد من غيرهم ﴿وَنَبْلُوا أَخْبَارَكُمْ﴾ أي: نظهر أحوالكم ونكشفها، ونختبر أقوالكم وأفعالكم، فيتميز الصادق منكم والكاذب، ويتميز قويُّ الإيمان من ضعيفه، وصحيح العقيدة من سقيمها، وذلك لإقامة الحجة على العباد بما يصدر منهم، فمن امثل أمر الله تعالى وجاهد في سبيله، فهو المؤمن حقاً، ومن قصر في ذلك كان نقصاً في إيمانه.

كان الفضيل بن عياض إذا قرأ هذه الآية بكى، وقال: اللهم لا تبليتنا، فإنك إن ابتليتنا فضحتنا وهتكت أستاذنا^(١).

وفي الحديث: عن علي عليه السلام أن رسول الله ﷺ قال وهو مع جنازة: «ما منكم من أحد إلا وقد كُتِبَ مقعده من النار ومقعده من الجنة»، فقالوا: أفلا نتكل على ما كُتِبَ لنا؟ قال: «اعملوا فكلٌ ميسرٌ لما خُلِقَ له»، وقرأ: ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى وَاتَّقَى ۖ ﴿٥﴾ وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى ۖ ﴿٦﴾ فَسَنِيَرُهُ لِلْعُسْرَى ۖ ﴿٧﴾ وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ وَاسْتَغْنَى ۖ ﴿٨﴾ وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَى ۖ ﴿٩﴾ فَسَنِيَرُهُ لِلْعُسْرَى ۖ ﴿١٠﴾﴾ [الليل: ١].

دِينُ اللَّهِ تَعَالَى لَا يَضُرُّهُ كُفْرُ الْكَافِرِ وَلَا طَاعَةُ الْمُؤْمِنِ

٣٢- ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَشَاقُّوا الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ مَا بَيَّنَّ لَهُمُ الْهُدَىٰ لَنْ يَضُرُّوا اللَّهَ شَيْئًا وَسَيُحِطُّ أَعْمَلُهُمْ﴾ ﴿٣٢﴾

وبعد أن استوفت السورة الحديث عن المنافقين، عادت إلى الحديث عن عموم الكفار

(١) «التسهيل لعلوم التنزيل» (٥٠/٤) و«تفسير النسفي» بحاشية الخازن (١٤٢/٤).

(٢) يُنْظَرُ: «سنن النسائي الكبرى» (١١٦١٤، ١١٦١٥) والبخاري (١٣٦٢، ٧٥٥٢) ومسلم (٢٦٤٧) وأبو داود (٤٦٩٤) وابن ماجه (٧٨) والترمذي (٢١٣٦) و«المسند» (٦٢١) بإسناد صحيح على شرط الشيخين وابن حبان (٣٣٤).

الذين أضل الله أعمالهم، وذكروا في أول السورة بما يشمل أنواع الكفر من المشركين والمنافقين وأهل الكتاب في عقيدتهم، وقد جاءت هذه الآية لتبين أنهم لن يضروا الله شيئاً بكفرهم، وأنهم الخاسرون لدنياههم وأخراهم.

﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ بكل ما يجب الإيمان به، وفي مقدمته جحود وحدانية الله تعالى ﴿وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ﴾ أي: منعوا غيرهم من الإيمان بالله وبالرسول الخاتم ﷺ ﴿وَشَاقُوا الرَّسُولَ﴾ خالفوه وحاربوه وخرجوا عن طاعته ﴿مِنْ بَعْدِ مَا بَيَّنَّ لَهُمُ الْهُدَى﴾ أي: من بعد ما ظهرت لهم الحجج والبراهين، الدالة على وجوب وحدانية الله تعالى، وعلى صدق الرسول ﷺ بما تدركه العقول، وتثبتها النقول من كتب الأنبياء السابقين، ومع ذلك فلم يدخلوا في الإسلام، أو ارتدوا عنه بعد وضوح أدلة الهدى لهم.

هؤلاء الكفار ﴿لَنْ يَضُرُوا اللَّهَ شَيْئًا﴾ لكفرهم وضلالهم، فالله تعالى منزّه عن ذلك، ولن يضروا دين الله في شيء، ولن يضروا الدعاة إلى الله في شيء، وهم لن يضروا إلا أنفسهم، ولن يصلوا إلى أغراضهم ﴿وَسَيُخِطُّ﴾ الله ﴿أَعْمَلَهُمْ﴾ ويبطلها فلا يجدون لها ثواباً في الآخرة؛ لأنهم لم يريدوا بها وجه الله تعالى، فهي كالهباء المثور؛ لأن الله تعالى لا يتقبل عملاً إلا من المتقين.

أَرْبَعُ صِفَاتٍ لِلْمُؤْمِنِينَ فِي هَذِهِ الْآيَةِ

٣٣- ﴿يَتَذَكَّرُ الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَلَا تُبْطِلُوا أَعْمَالَكُمْ﴾

ويأتي هذا النداء للمؤمنين بين آيتين تتحدثان عن الكفار لتأمرهم بطاعة الله والرسول، وتجنب ما يبطل أعمالهم الصالحة كما ذكر عن الكفار، وقد وصفتهم هذه الآية بأربعة أوصاف، هي:

- ١- الإيمان مقابل الكفر.
- ٢- وطاعة الله تعالى مقابل الصد عن سبيله.
- ٣- وطاعة الرسول ﷺ مقابل مشاققة الرسول.
- ٤- والنهي عن بطلان عمل المؤمن مقابل بطلان أعمال الكفار.

﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ يا من آمنتُم بالله حق الإيمان، يأمركم الله تعالى بأمرتُم به سعادتكم الدينية والدنيوية ﴿أَطِيعُوا اللَّهَ﴾ في كل ما يأمركم به وينهاكم عنه ﴿وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ﴾ فلا تخالفوه، ولا تعصوا أمره، كما قال تعالى:

﴿فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَنْ تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [النور: ٦٣].

وقال سبحانه: ﴿مَنْ يُطِيعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ﴾ [النساء: ٨٠].

وقال جلَّ شأنه: ﴿وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَئِكَ رَفِيقًا﴾ [النساء: ٦٩].

فأطيعوا الله وأطيعوا الرسول ﴿وَلَا تُبْطِلُوا﴾ ثواب ﴿أَعْمَلْتُمْ﴾ بالكفر والمعاصي والنفاق والعُجب والرياء والمنِّ والفخر والشُّمعة، لا تبطلوها بما يفسدها، ولا بعمل المعاصي، ولا بما يبطل أجرها، ولا بالإتيان بمفسدٍ من مفسداتها، ولا بقطعها حال وقوعها، فمبطلات الصلاة والصوم والحج ونحوها كلها تدخل في هذا.

واستدل الفقهاء بهذه الآية على تحريم قطع الفرض، وكراهة قطع النفل.

والنهي عن إبطال العمل يقتضي الأمر بإصلاحها وإكمالها وإتمامها.

وفي هذا تحذير لكل مسلم من كل ما يُبطل العمل كله أو بعضه، كقوله تعالى:

﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تُبْطِلُوا صِدْقَتَكُمْ بِالْمِنِّ وَالْأَذَى﴾ [البقرة: ٢٦٤].

وكان بعض السلف يخشى أن يكون ارتكاب الفواحش مبطلًا لثواب العمل الصالح بمقتضى هذه الآية.

ولما عقَدَ زيد بن أرقم ؓ عقْدًا تراه عائشة ؓ أنه حرام، قالت: أخبروا زيدًا أنه قد أبطل جهاده مع رسول الله ^(١).

(١) ذكر السهيلي أن هذا العقد كان في مسألة العينة، وأن عائشة ؓ قالت ذلك لأم محبة، مولاة زيد بن أرقم، قال: وهذا المعنى ذكره ابن بطلال، قال: ولكن هذا إسنادُه إلى عائشة ضعيف، كما في «تفسير ابن كثير» (١/٧١٧).

وكان زيد قد شهد مع رسول الله ﷺ سبع عشرة غزوة، من تسع عشرة غزوة، هي مجموع غزوات النبي ﷺ.

قال ابن عمر رضي الله عنهما: كنا نرى أنه ليس شيء من حسناتنا إلا مقبولا حتى نزل ﴿وَلَا تُبْطَلُوا أَعْمَالَكُمْ﴾ فقلنا: ما هذا الذي يبطل أعمالنا؟ قلنا: الكبائر الموجبات والفواحش، فكنا إذا رأينا من أصاب شيئا منها قلنا: قد هلك، حتى نزل: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ﴾ [النساء: ١١٦] فكففنا عن القول في ذلك، وكنا نخاف على من أصاب الكبائر، ونرجو لمن لم يصبها^(١).

قال أبو العالية: كان أصحاب رسول الله ﷺ يرون أنه لا يضر مع لا إله إلا الله ذنب، كما لا ينفع مع الشرك عمل، فنزلت: ﴿أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَلَا تُبْطَلُوا أَعْمَالَكُمْ﴾ فخافوا أن يبطل الذنب العمل^(٢).

قال عطاء في معنى الآية: داوموا على ما أنتم عليه من الإيمان والطاعة، ولا تشركوا فتبطل أعمالكم.

وقال الكلبي: لا تبطلوا أعمالكم بالرياء والسمعة؛ لأن الله تعالى لا يقبل من الأعمال إلا ما كان خالصا لوجهه الكريم^(٣).

وقال قتادة: من استطاع منكم ألا يبطل عملا صالحا بعمل سيئ فليفعل، ولا قوة إلا بالله، فإن الخير ينسخ الشر، والشر ينسخ الخير، وإن ملك الأعمال خواتيمها^(٤).

مَنْ مَاتَ عَلَى كُفْرِهِ لَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُ

٣٤- ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ مَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ﴾ (٣٤)

ولما بين سبحانه بطلان عمل الكافر في الآية قبل السابقة، بين هنا أن الكافر لن يغفر

(١) «تفسير التحرير والتنوير» (١٢/١٢٨) و«تفسير ابن كثير» (٧/٣٢٣) والطبري (٢٠/٢٢٩) وقد أخرجه محمد بن نصر المروزي في كتاب «الصلاة» (٦٩٩) وسنده حسن.

(٢) «تفسير ابن كثير» (٧/٣٢٣) وهو عند محمد بن نصر (٦٩٨) بسند ضعيف.

(٣) «تفسير الخازن» (٤/١٤٢).

(٤) أخرجه الطبري بسند حسن (٢١/٢٢٦).

الله له إذا مات على الكفر، فقال: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ جحدوا وأنكروا توحيد الله تعالى فكفروا بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر ﴿وَصَدُّوا﴾ الناس ﴿عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ﴾ أي: منعوا غيرهم من الطريق الموصلة إلى طاعة الله والرسول، فنفروهم من الحق وزينوا لهم الباطل ﴿ثُمَّ مَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ﴾ أي: استمروا على كفرهم حتى الموت ﴿فَلَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ﴾ شيئاً من ذنوبهم، بل سيعذبهم عذاباً شديداً عقاباً لهم على كفرهم، ويفضضهم على رؤوس الأشهاد، ولا شفاعاة لهم، لأن العقاب قد وجب عليهم، ففاتهم الثواب، ووجب لهم الخلود في نار جهنم، وهذا كقوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ﴾ [النساء: ٤٨].

وقوله أيضاً: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَمَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَنْ يُمْسِكَ مِنْ أَحَدِهِمْ مَلَأُ الْأَرْضَ ذَهَبًا وَلَوْ افْتَدَى بِهِ﴾ [آل عمران: ٩١]. لأنهم قد سدوا على أنفسهم أبواب الرحمة.

ومفهوم الآية أنهم إذا تابوا قبل موتهم، فإن الله تعالى يغفر لهم ويرحمهم ويدخلهم الجنة، وإن كانوا قبل التوبة قد كفروا وصدوا عن سبيل الله، فإحباط العمل بالكفر مقيد بالموت عليه، كما في هذه الآية وفي قوله تعالى ﴿وَمَنْ يَزِدْكُمْ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ فَأُولَئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَلُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ﴾ [البقرة: ٢١٧] وهما مُقَيَّدَتَانِ لكل نَصٍّ مُطْلَقٍ في هذا الباب.

وهذا حكم عام في كل من مات على الكفر، وإن كان نزول الآية في أبي جهل وأصحابه السبعين الذين قُتِلُوا يوم غزوة بدر ودُفِنُوا في القليب، كما ورد به الخبر.

قَبُولُ الصُّلْحِ وَرَفْضُهُ يَتَوَقَّفُ عَلَى مَصْلَحَةِ الْمُسْلِمِينَ مَعَ الْعَدُوِّ

٣٥- ﴿فَلَا تَهِنُوا وَتَدْعُوا إِلَى السَّلَهِ^(١) وَأَنْتُمْ الْأَعْلَوْنَ وَاللَّهُ مَعَكُمْ وَلَنْ يَتَرَكَكُمْ أَعْمَلَكُمْ﴾

وإذا كان الأمر كما ذكر من أن الله تعالى لن يغفر للكافرين الذين ماتوا على الكفر، فلا تضعفوا -أيها المؤمنون- أمامهم، ولا تخافوا من قتالهم، ولا تدعوه إلى الصلح والمسالمة على سبيل الخوف، وإظهار العجز أمامهم.

﴿فَلَا تَهِنُوا﴾ أي: لا تضعفوا -أيها المؤمنون بالله ورسوله- عن جهاد الأعداء، فتجبنوا

(١) قرأ شعبة وحمزة وخلف بكسر السين من (السلم) بمعنى: السلام، والباقون بفتحها على معنى: الصلح.

عن قتالهم، بل اصبروا واثبتوا وجالدوا عدوكم طلباً لمرضاة الله، فلا تستكينوا ﴿وَدْعُوا إِلَى السَّلَامِ﴾ أي: إلى الصلح والمصالحة، والمهادنة مع غير المسلمين، بل ادفعوا عن أنفسكم خواطر الضعف والعجز، ولا تطلبوا السلام من العدو حال قدرتكم وتفوقكم عليهم في العدد والعدة، فالنهي عن الدعوة إلى السلم والصلح مع العدو مشروط بقوة المسلمين، ويشير إلى هذا قوله تعالى: ﴿وَأَنْتُمْ أَلَعَلَّوْنَ﴾ أي: الأعزة، القاهرون الغالبون لهم، الأعلى منهم قوة وشأناً ﴿وَاللَّهُ مَعَكُمْ﴾ بنصره وتأيده، وفي ذلك بشارة للمؤمنين بالنصر، والظفر على الأعداء ﴿وَلَنْ يَرَكُزَ أَعْمَلَكُمْ﴾ أي: لن يُنْقِصَكُمْ الله ثواب أعمالكم شيئاً، فنهي المسلمين عن طلب الصلح من العدو مشروط بأن يكون ذلك من مركز قوة، والعدو أضعف منهم.

وهذا غير السلم المأذون فيه في قوله تعالى: ﴿وَإِنْ جَنَحُوا لِلسَّلَامِ فَاجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ﴾ [الأنفال: ٦١] فإنه سلم طلبه العدو ووافقناه عليه، أما إذا كان المسلمون أضعف من العدو فإن في السلم تحقيق مصلحة للمسلمين، ولهم أن يبدؤوا به إذا احتاجوا إليه، وأن يجيبوا إذا دُعوا إليه، ومن هنا صالح النبي ﷺ المشركين يوم الحديبية، وقال عمر رضي الله عنه مع بعض أمراء جيشه: آثرت سلامة المسلمين.

وهكذا، فإن الآية اشتملت على ثلاثة أمور توجب النشاط التام وتقوية نفوس المسلمين، وبذل الجهد في جهاد العدو، وهذه الأمور الثلاثة هي:

الأمر الأول: عدم الوهن وإظهار الضعف مع توافر أسباب النصر، ووعد الله لهم بذلك.

الأمر الثاني: إن الله تعالى معهم بالعون والنصر والتأييد، فهم مؤمنون، والله مع المؤمنين.

الأمر الثالث: إن الله لا ينقصهم من أعمالهم شيئاً، بل سيوفهم أجورهم ويزيدهم من فضله ^(١).

قال تعالى ﴿مَا كَانَ لِأَهْلِ الْمَدِينَةِ وَمَنْ حَوْلَهُ مِنَ الْأَعْرَابِ أَنْ يَتَخَلَّفُوا عَنْ رَسُولِ اللَّهِ وَلَا يَرْغَبُوا بِأَنْفُسِهِمْ عَنْ نَفْسِهِ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ لَا يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ وَلَا نَصَبٌ وَلَا مَخْمَصَةٌ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَطْئُونَ مَوْطِئًا يَغِيظُ الْكُفَّارَ وَلَا يَنَالُونَ مِنْ عَدُوٍّ نَيْلًا إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ بِهِ عَمَلٌ صَالِحٌ إِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ﴾ (١٢٠) وَلَا يَنْفَقُونَ نَفَقَةً صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً وَلَا يَقْطَعُونَ وَادِيًا

(١) ينظر: تفسير الكريم الرحمن للآية، للشيخ ابن سعدي.

إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ لِيَجْزِيَهُمُ اللَّهُ أَحْسَنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٣٦﴾ [التوبة]

حُبُّ الدُّنْيَا رَأْسُ كُلِّ خَطِيئَةٍ

٣٦- ﴿إِنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَإِنْ تُؤْمِنُوا وَتَتَّقُوا يُؤْتِكُمْ أَجْرَكُمْ وَلَا يَسْأَلْكُمْ أَمْوَالَكُمْ ﴿٣٦﴾﴾

حذر الله تعالى عباده المؤمنين ألا يحملهم حب الدنيا ولذة العيش على صلح العدو ومسالمة، وعدم الرغبة في قتاله، مع أن هذه الدنيا ما هي إلا لعب ولهو، وقد قصر الله الحياة الدنيا على اللهو واللعب؛ لأن متاعها غير باق.

وهذا ترهيد في الحياة الدنيا وإخبار من الله تعالى عن حقيقة أمرها.

واللعب: هو ما يُشغِل الإنسان، مما ليس فيه فائدة أو منفعة لفاعله في الحال ولا في المال، فهو مجرد هزل، كأفعال الصبيان في مرحهم.

واللهو: هو ما يَصْرِفُ الإنسان عن ساعات الجد ليُريح عقله عن الإجهاد الفكري، أو يريح بدنه عن الكدِّ والتَّصَبُّب فيلهو بشيء مريح لعقله أو بدنه.

واللعب يكون بالأبدان، واللهو يكون في القلوب.

وهكذا الدنيا لعب ولهو ﴿إِنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ﴾ باطل وغرور، فكلها متاع زائل، وحظوظ عاجلة، من مال وولد ونساء ومآكل ومشارب ومجالس وزينة ومناظر. . ومتاعها ينقطع في أسرع وقت، ولا يبقى منها إلا ما كان في عبادة الله تعالى وطاعته.

وهذا المتاع الفاني لا يصح أن يكون سبباً للجُبْن والتخلف عن القتال، ولا مانعاً لكم من الإقدام على الجهاد ﴿وَإِنْ تُؤْمِنُوا﴾ بالله ورسوله وملائكته وكتبه ورسوله واليوم الآخر ﴿وَتَتَّقُوا﴾ الله بأداء فرائضه واجتناب معاصيه، والعمل بمروضة الله وترك ما يغيظه ﴿يُؤْتِكُمْ أَجْرَكُمْ﴾ أي: يُعْطِكم ثواب أعمالكم كاملة غير منقوصة، وهذا ما يكون فيه التنافس وصرف الهمم وبذل الجهد في طلبه، ولا يكلفكم الله ما يشق عليكم ﴿وَلَا يَسْأَلْكُمْ أَمْوَالَكُمْ﴾ أي: لا يطلب منكم أن تُخْرِجُوا جميع أموالكم في الزكاة أو الصدقة، بل يسألكم ربع العشر منها، يؤخذ من أغنيائكم ويرد على فقرائكم، وفي المال حق سوى الزكاة.

وقد ذكر الله تعالى الإيمان والتقوى؛ لأن الباعث على موادة العدو، هو بقاء المال الذي يُنفقه المسلم في سبيل الله، والجهد فيه خَلَعُ النفس من شهواتها التي هي سبب الوهن والضعف.

والمعنى: وإن تؤمنوا وتتقوا باتباع ما أمركم الله به واجتناب ما نهاكم عنه، يَرْضَ الله تعالى منكم بذلك، وَيُكَتِفَ بالقليل من أموالكم، ولا يسألكم زيادة على ما وجب عليكم، بل قدر طاقتكم. قال تعالى:

٣٧- ﴿إِنْ يَسْأَلْكُمُوهَا فَيُحْفِكُمْ تَبَخَّلُوا وَخَرَجَ أَصْفَنَّاكُمْ ۖ﴾

والله تعالى لم يسألكم أن تنفقوا جميع أموالكم؛ لأنه سبحانه لو كَلَّفَكُمْ إنفاق جميع أموالكم وبألف في ذلك؛ فإنكم لن تدفعوها، وستظهر أحقادكم وكراهيتكم لهذا التكليف؛ لأن حب المال يجعلكم تَحْرِصُونَ عليه.

﴿إِنْ يَسْأَلْكُمُوهَا﴾ أي: إن يسألكم الله إعطاء أموالكم كلها للفقراء والمحتاجين ﴿فَيُحْفِكُمْ﴾ أي: يُلْجُ عليكم ويعهدكم، فالإحفاء: هو الإلحاح والمبالغة في المسألة.

وإذا دُعِيتُمْ إلى إخراج جميع أموالكم فإنكم ﴿تَبَخَّلُوا﴾ بها وتمنعونها ﴿وَخَرَجَ﴾ الله ﴿أَصْفَنَّاكُمْ﴾ أي: يظهر ما في قلوبكم من الحقد، إذا طَلَبَ منكم ما تكرهون بذله؛ وذلك لأن الإنسان جُبِلَ على محبة الأموال.

ومن نُوزِعَ في جيبه ظهرت سرائره، فمن رحمة الله تعالى على عباده: عدم التشديد عليهم في التكاليف^(١).

(١) يُنْظَرُ: «التسهيل في علوم التنزيل» (٤/٥٠).

تَرْكُ الْجِهَادِ بِأَمَالٍ يُهْدِدُ الْأُمَّةَ بِالزَّوَالِ

٣٨- ﴿هَآأَنَٓتُمْ^(١) هَؤُلَآءِ تُدْعَوْنَ لِتُنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَمِنْكُمْ مَّنْ يَبْخُلُ وَمَنْ يَبْخُلْ فَإِنَّمَا يَبْخُلْ عَن نَّفْسِهِ وَاللَّهُ الْغَنِيُّ وَأَنْتُمُ الْفُقَرَاءُ وَإِن تَتَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوا أَمْثَلَكُمْ ﴿٣٨﴾

ذكر - سبحانه - في هذه الآية، الدليل على أن الله تعالى لو طلب من المؤمنين أموالهم كلها فإنهم سيمتنعون من ذلك، خوفاً من الفقر، وحباً للمال، وحرصاً على الدنيا.

والله تعالى يُكَلِّفُ المؤمنين إنفاق بعض أموالهم - لا كلها - للمصلحة التي تعود عليهم، وهي دفع العدو عنهم، وجهاد العدو بالمال مقدم على الجهاد بالنفس في آيات كثيرة.

ولذا: فقد رَغِبَ الله عباده في النفقة منه في سبيله، فقال: ﴿هَآأَنَٓتُمْ﴾ يا ﴿هَؤُلَآءِ﴾ المؤمنون ﴿تُدْعَوْنَ﴾ إلى النفقة في جهاد أعداء الله ونُصْرَةِ دينه لما في ذلك من تحقيق مصالحكم الدينية والدنيوية، ﴿فَمِنْكُمْ مَّنْ يَبْخُلُ﴾ بماله عن الإنفاق في سبيل الله، أو بما فُرض عليه من نصاب الزكاة، أو فيما تُدب إليه من وجوه البر، فكيف لو طلب منكم أموالكم في غير مصلحة عاجلة؟ ﴿وَمَنْ يَبْخُلْ﴾ بالصدقة، أو الزكاة، أو طريق الجهاد ﴿فَإِنَّمَا يَبْخُلْ عَن نَّفْسِهِ﴾ أي: إن ضرر ذلك سيعود عليه، فيتمكن منه العدو، ويتسلط عليه، ويذهب بعزه وماله، وربما ذهب به، ويَحْرِمُ نفسه من الثواب الذي أعده الله للمنفقين في سبيله، فالله تعالى لا يطلب منكم المال لذاته، بل لمصلحتكم ﴿وَاللَّهُ الْغَنِيُّ﴾ عنكم، وأنتم الفقراء إليه.

(١) قرأ قالون وأبو عمرو وأبو جعفر بإثبات ألف بعد هاء (ها أنتم) ثم تسهيل الهمزة، فيكون من قبيل المد المنفصل، وللأزرق ثلاثة أوجه:

١- حذف الألفين مع همزة مسهلة على وزن فعلتم.

٢- إبدال الهمزة ألفاً مع المد المشبع.

٣- إثبات الألف مع تسهيل الهمزة مع المد والقصر.

وللأصبهاني وجهان: حذف الألف وإثباتها مع تسهيل الهمزة، وقرأ قبل بتحقيق الهمزة من غير ألف، وقرأ البزي بإثبات الألف وهمزة محققة مع القصر، وقرأ الباقر بتحقيق الهمزة مع ألف قبلها، وكلٌّ على أصله في المد المنفصل. ينظر: (إتحاف فضلاء البشر) ص: ٣٩٥ سورة محمد.

والغني: هو الذي لا يحتاج إلى غيره في شيء، ولا يوصف بهذا إلا الله سبحانه.

والله تعالى لا يسألهم مالا لشيء يعود عليه، بل لمنفعة تعود عليهم، فهم الفقراء المحتاجون إلى الله تعالى في كل شيء ﴿وَأَنْتُمْ أَلْفُقَرَاءُ﴾ إلى الله في كل شيء، فليس المراد بالغني صاحب المال، بل هو المستغني عن غيره، فلا يلزمه طعام ولا شراب ولا ملبس ولا وظيفة... حتى يحتاج إلى غيره.

والعبد يوصف بالثراء ولا يوصف بالغنى؛ لأن الله تعالى وحده هو الغني.

﴿وَإِنْ تَوَلَّوْا﴾ وتعرضوا عن الإيمان بالله، والجهد في سبيله، وامتنال أمره فيما دعاكم إليه، يهلككم ويأت بقوم آخرين غيركم، يأترون بأمر الله وينتهون بنهيه، وهذا معنى ﴿يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ﴾ أي: يخلق بدلکم قوماً آخرين ﴿ثُمَّ لَا يَكُونُوا أَمْثَلَكُمْ﴾ في التولي والإعراض عن أمر الله تعالى، بل يطيعونه ويطيعون رسوله، ويجاهدون في سبيل الله بأموالهم وأنفسهم.

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: كنا جلوساً عند النبي ﷺ إذ نزل قوله تعالى: ﴿وَأَخْرَجَ مِنْهُمْ لَمَّا يَلْحَقُوا بِهِمْ﴾ [الجمعة: ٣]. فقال رجل: مَنْ هؤلاء يا رسول الله؟ فلم يراجعه النبي ﷺ -أي: لم يكلمه- حتى سأله مرة أو مرتين أو ثلاثاً، قال: وفينا سلمان الفارسي، قال: فوضع النبي ﷺ يده على سلمان، ثم قال: «لو كان الإيمان عند الثريا لتناوله رجال من هؤلاء»^(١).

وفي لفظ عند الترمذي عن أبي هريرة أيضاً: أن النبي ﷺ قال: «هم الفرس، هذا وقومه»^(٢).

وفي الآية الوعيد والتهديد على عدم إنفاق المال في التصنيع الحربي ونحوه، وعلى

(١) صححه الألباني في «صحيح سنن الترمذي» برقم (٢٦٣٧) ورقم: (٢٥٩٩) وفي «السلسلة الصحيحة» برقم (١٠٢٧) وهو في «تفسير الطبري» (٢٣٤/٢١) وعند الطبراني في «الأوسط» (٨٨٣٨) والبيهقي (٦/٢٣٤) قال الحافظ ابن حجر في «فتح الباري»: وفي بعض طرق الحديث عند أبي نعيم عن أبي هريرة أن ذلك كان عند نزول: ﴿وَإِنْ تَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ﴾ قال: ويحتمل أن يكون ذلك عند الآيتين في سورتي محمد والجمعة.

(٢) «تفسير الطبري» (٢٣٣/٢١) وجاء هذا عن جابر عند ابن مردويه، وهو في جامع الترمذي (٣٢٦٠) وقال: هذا حديث غريب، في إسناده مقال، وقال الألباني، الحديث بمتابعاته صحيح، كما في السلسلة الصحيحة (١٠١٧).

عدم الإقبال على جهاد العدو عندما يدعو إليه الحاكم المسلم، للدفاع عن حوزة البلاد وحماية الدعوة الإسلامية.

يقول سبحانه: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمْ أَنْفِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَنْ أَقَلْتُمْ إِلَى الْأَرْضِ أَرْضَيْتُمْ بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا مِنَ الْآخِرَةِ فَمَا مَتَّعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ ﴿٢٨﴾ إِلَّا تَنْفِرُوا يُعَذِّبُكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَيَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّهُ شَيْئًا وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٩﴾﴾ [التوبة].

وقال سبحانه: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا مَنْ يَرْتَدَّ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهَ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ﴾ [المائدة: ٥٤]

تم تفسير (سورة محمد) والله الحمد والمنة.



تَفْسِيرُ سُورَةِ الْفَتْحِ (٤٨)

مُقَدِّمَةُ السُّورَةِ

سورة (الفتح) هي السورة الثامنة والأربعون في ترتيب المصحف، والثالثة عشرة بعد المئة في ترتيب النزول، نزلت بعد سورة الصف وقبل سورة (التوبة).
وَصُلْحُ الْحُدَيْبِيَّةِ هو سبب نزولها.

وعدد آياتها تسع وعشرون آية باتفاق، وهي خمس مئة وستون كلمة.
وَأَلْفَانِ وَأَرْبَعِ مِئَةٍ وَثَمَانِيَةٍ وَثَلَاثُونَ حَرْفًا.

وسميت سورة (الفتح)؛ لأنها بُدِئَتْ بقوله تعالى: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ﴾.

وهي سورة مدنية، نزل صدرها سنة ست من الهجرة في كُرَاعِ الْعَمِيمِ -موضع بين مكة والمدينة- على بُعد ثلاثة أميال من عسفان بمكة، وكان نزول هذه السورة ليلاً عقب انصراف النبي ﷺ من صلح الحديبية.

وقد نزلت سورة الفتح في أعقاب صلح الحديبية.

ونزلت سورة الأنفال في أعقاب غزوة بدر.

ونزلت عشرات الآيات من سورة (آل عمران) في أعقاب غزوة أحد، من الآية الحادية والعشرين بعد المئة إلى الآية السادسة والثمانين بعد المئة، ونزلت آيات من سورة (الأحزاب) في أعقاب غزوة الأحزاب من الآية التاسعة إلى الآية السابعة والعشرين.

تحدثت سورة (الفتح) عن صلح الحديبية الذي تَمَّ بين الرسول ﷺ والمشركين سنة ست من الهجرة، وكان بداية للفتح الأكبر -فتح مكة- لِمَا ترتب على هذا الصلح من الأمن ورفع الحرب، وتمكّن الناس من الدخول في الإسلام، وتم الفتح المبين.

كما تحدثت السورة عن الذين تخلفوا عن الخروج مع الرسول ﷺ يوم الحديبية، من الأعراب الذين في قلوبهم مرض، ومن المنافقين الذين ظنوا ظن السوء، ولم يخرجوا مع النبي ﷺ، ففضحهم الله تعالى وكشف سرائرهم.

وتحدثت السورة أيضاً عن (بيعة الرضوان) التي بايع الصحابة فيها رسول الله ﷺ على الثبات حتى الموت.

وتناولت آيات السورة الرؤيا التي رآها النبي ﷺ في منامه، وحدث بها أصحابه ففرحوا بدخول النبي ﷺ وأصحابه مكة آمنين مطمئنين، وقد تحققت هذه الرؤيا ودخلها النبي ﷺ وأصحابه.

قال الزهري: لم يكن فتح أعظم من صلح الحديبية، وذلك أن المشركين اختلطوا بالمسلمين، فسمعوا كلامهم، فتمكن الإسلام في قلوبهم، فأسلم في ثلاث سنين خلق كثير، فعزَّ الإسلام بذلك، وأكرم الله ﷻ رسوله ﷺ^(١).

هذا: ويمكن تقسيم السورة إلى ثلاثة مقاطع، تشمل على التمهيد والموضوع والخاتمة:

١- ففي الآيات التسع الأول: تَجْبُرُ آيات السورة قلوب المسلمين الكسيرة، بسبب صلح الحديبية، فبشَّرَ النبي ﷺ وتملاً قلبه بالفرح، بتحقيق ما يؤمِّله من زيارة المسجد الحرام والفتح المبين، ومغفرة ما تقدم من الذنوب وما تأخر، والاهتداء إلى أقوم الطرق.

ويمتَنُّ الله تعالى في هذه السورة على المؤمنين بنزول السكينة عليهم، وتبشيرهم بالمغفرة والأجر العظيم، والنصر على عدوهم، والويل ثم الويل لأعدائهم من المنافقين والمكذبين والمشركين، مما أعدَّه الله لهم من العذاب والغضب واللعنة، وهذا هو التمهيد لموضوع السورة.

٢- ثم تتحدث آيات السورة في موضوعها عن بيعة الرضوان من الآية العاشرة إلى الآية السادسة والعشرين منها، فتُؤَوِّه في البدء بمبايعة المؤمنين لرسول الله ﷺ، وتفصح معاذير الذين ينكثون عهودهم، وتبيِّن أن ويا ل ذلك سيعود عليهم.

ثم تتناول آيات السورة الأعراب الذين تخلوا عن الخروج مع رسول الله ﷺ، وتعلَّلوا بمعاذير واهية كاذبة، فتكشف حالهم، وتُثَبِّتُ عما في قلوبهم، وظنهم أن المؤمنين لن يعودوا إلى أهلهم أبداً، وتفتح لهم باب التوبة، وتقبل عذر غير المؤهلين للجهاد.

وتتحدث آيات السورة عن غنائم وفتوحات قريبة، يسيل لها لعاب المخلفين المتباطئين، وهي غنائم خيبر وغيرها.

(١) «تفسير الخازن» (٤/١٤٤).

وُثِّنِي آيَات السورة بما أنزله الله فيها على أهل بيعة الرضوان، وتبين الحكمة الإلهية في رفض الرسول ﷺ مقاتلة المشركين في مكة بما يقاس عليها غيرها في كل زمان ومكان، ومراعاة مشكلة الأقليات الإسلامية في العالم والحفاظ عليهم.

وتعود آيات السورة إلى الحديث عن الحرم المكي، لتذكر ما أنزله الله فيها عن رؤيا النبي ﷺ التي رآها عقب مرجعه من الحديبية لتبشّره هو وأصحابه بدخول المسجد الحرام آمنين مطمئنين، محلقين ومقصرين.

٣- وتختتم آيات السورة ببيان أن النصر حليف المسلمين فيما مضى وفيما هو آتٍ، ولكنَّ النصر له مؤهلات، لا بد من توافرها في الجيل الذي يحزره، فمن فقدَّ هذه المؤهلات فلا يلومنَّ إلا نفسه، وفي هذا الختام ثناء الله تعالى على أصحاب رسول الله ﷺ بأنهم أشداء على الكفار، رحماء بينهم، وأنهم رُكَّع سُجَّد يبتغون فضلاً من الله ورضواناً؛ كي يعطيهم مؤهلات النصر في زمانهم، فهل يتحقق ذلك فينا؟ أرجو الله!

وهذا بعض ما ورد فيها من أحاديث:

١- عن عبد الله بن مُعَفَّل رضي الله عنه قال: قرأ رسول الله ﷺ عام الفتح في مسيره سورة الفتح على راحلته، فرجّع في قراءته^(١).

والترجيع: هو ترديد الصوت بالقراءة أكثر من مرة.

٢- وعن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال: كنا مع رسول الله ﷺ في سفر، قال: فسألته عن شيء-ثلاث مرات- فلم يرُد عليّ، قال: فقلت في نفسي: ثكلتك أمك يا ابن الخطاب، نَزَرَتْ رسول الله ﷺ -أي: ألححت عليه في المسألة إلحاحاً- فأدّبك بسكوته عن جوابك ثلاث مرات فلم يرُدّ عليك؟ قال: فركبتُ راحلتي، فتقدمتُ مخافة أن يكون نزل في شيء، قال: فإذا أنا بمنادٍ ينادي: يا عمر، أين عمر؟ قال: فرجعتُ وأنا أظن أنه نزل في شيء، قال: فقال النبي ﷺ: «لقد نزلت عليّ الليلة سورة هي أحب إليّ من الدنيا وما

(١) البخاري برقم (٤٨٣٥) ورقم: (٥٠٣٤) ورقم: (٧٥٤٠) ومسلم برقم (٧٩٤) و«المسند» (٢٤/٥)

(٢٠٥٤٢، ٢٠٥٥٨) والنسائي في «السنن الكبرى» برقم (٨٠٥٥) وأبو داود (١٤٦٧) والترمذي (٣٠٤)

والبيهقي في «السنن» (٥٣/٢).

فيها: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُبِينًا﴾^(١).

٣- وعن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: نزلت على النبي ﷺ ﴿يَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ﴾ مرجعه من الحديبية، فقال النبي ﷺ: «لقد أنزلت عليّ آية أحب إليّ مما على الأرض»، ثم قرأها عليهم النبي ﷺ، فقالوا: هنيئًا مريئًا يا نبي الله، لقد بين الله ﷻ ماذا يفعل بك، فماذا يفعل بنا؟ فنزلت عليه: ﴿لَيَدْخُلَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتُ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَيُكَفَّرُ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَكَانَ ذَلِكَ عِنْدَ اللَّهِ فَوْزًا عَظِيمًا﴾^(٢) [٥].

٤- وعن المغيرة بن شعبة رضي الله عنه قال: كان النبي ﷺ يصلي حتى ترم قدماه، فقيل له: أليس الله قد غفر لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر؟ فقال: «أفلا أكون عبدًا شكورًا»^(٣).

٥- وعن عائشة رضي الله عنها أن نبي الله ﷺ كان يقوم من الليل حتى تتفطر قدماه، فقالت عائشة: لِمَ تصنع هذا يا رسول الله، وقد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر؟ فقال: «أفلا أكون عبدًا شكورًا»^(٤).

٦- وعن أنس رضي الله عنه قال: لما نزلت ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُبِينًا﴾^(٥) مرجعه من الحديبية، وهم يخالطهم الحزن والكآبة، وقد نحروا الهدي بالحديبية، فقال: «لقد أنزلت عليّ آية هي أحب إليّ من الدنيا جميعها»^(٥).

(١) البخاري برقم (٤٨٣٣) ورقم: (٤١٧٧) ورقم: (٥٠١٢) وصحيح مسلم (٤٨٣٣) «المسند» (٣١/١) (٢٠٩) والترمذي برقم (٣٢٦٢) والنسائي في «السنن الكبرى» برقم (١١٤٩٩) وفي ط الرسالة (١١٤٣٥) وابن حبان (٦٤٠٩). والبزار (٢٦٥) وموطأ مالك (٢٠٣/١) وأبو يعلى (١٤٨).

(٢) «المسند» (١٩٧/٣) (١٣٠٣٥) والبخاري برقم (٤١٧٢)، (٤٨٣٤) ومسلم برقم (١٧٨٦) والترمذي برقم (٣٢٦٣) وقال: حسن صحيح، وعبد الرزاق (٢٢٥/٢) وابن أبي شيبة (٥٠١/١٤) والطبري (٢٤١/٢١) وأبو نعيم (٢٥) وعبد بن حميد (١١٨٦) في «المنتخب».

(٣) «المسند» (٥٥/٤) برقم (١٨١٩٨) والبخاري برقم (١١٣٠)، (٤٨٣٦)، (٦٤٧١) ومسلم برقم (٢٨١٩)، (٢٨٢٠) والترمذي برقم (٤١٢) و«سنن النسائي»: (٢١٩/٣) وابن ماجه برقم (١٤١٩) وابن حبان (٢٥٩٠) و«سنن النسائي الكبرى» (١٣٢٧).

(٤) البخاري برقم (٤٨٣٧) ومسلم برقم (٢٨٢٠).

(٥) «صحيح مسلم» ١٧٨٦ و«صحيح البخاري» ٤١٧٢ و«المسند» ١٣٠٣٥ والترمذي ٣٢٦٣ وغيرهم

٧- وأخرج مسلم وغيره بسنده: عن سهل بن حنيف أنه قام يوم صفين، فقال: يا أيها الناس، اتَّهَمُوا أَنْفُسَكُمْ، لقد كنا مع رسول الله ﷺ يوم الحديبية، ولو نرى قتلاً لقاتلنا، وذلك في الصلح الذي كان بين رسول الله ﷺ والمشركين، فجاء عمر بن الخطاب، فأتى رسول الله ﷺ، فقال: يا رسول الله، أَلَسْنَا عَلَى حَقٍّ وَهُمْ عَلَى بَاطِلٍ؟ قال: «بلى»، قال: أليس قَتَلْنَا فِي الْجَنَّةِ وَقَتَلَاهُمْ فِي النَّارِ؟ قال: «بلى»، قال: ففيم نعطى الدِّينَةَ فِي دِينِنَا وَنَرْجِعُ، وَلَمَّا يَحْكُمُ اللَّهُ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ؟ فقال: «يَا بَنَ الْخَطَابِ، إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ، وَلَنْ يَضِيعَ عَنِّي اللَّهُ أَبَدًا»، قال: فانطلق عمر فلم يصبر متغيظاً، فأتى أبا بكر فقال: يا أبا بكر، أَلَسْنَا عَلَى حَقٍّ وَهُمْ عَلَى بَاطِلٍ؟ قال: بلى، قال: أليس قَتَلْنَا فِي الْجَنَّةِ وَقَتَلَاهُمْ فِي النَّارِ؟ قال: بلى، قال: فَعَلَامَ نُعْطِي الدِّينَةَ فِي دِينِنَا وَنَرْجِعُ وَلَمَّا يَحْكُمُ اللَّهُ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ؟ فقال: يابن الخطاب، إنه رسول الله، ولن يضيعه الله أبداً، قال: فنزل القرآن على رسول الله بالفتح، فأرسل إلى عمر فأقرأه إياه، فقال: يا رسول الله، أَوْفَتْحَ هُوَ؟ قال: «نعم، فطابت نفسه ورجع»^(١).

٨- وعن البراء بن عازب ؓ قال: تَعُدُّونَ أَنْتُمْ الْفَتْحَ فَتَحَ مَكَّةَ، وَقَدْ كَانَ فَتَحَ مَكَّةَ فَتَحًا، وَنَحْنُ نَعُدُّ الْفَتْحَ بَيْعَةَ الرِّضْوَانِ يَوْمَ الْحَدِيبَةِ. كُنَّا مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ أَرْبَعَ عَشْرَةَ وَمِئَةً، وَالْحَدِيبَةُ بَثْرٌ، فَتَرَحَّنَا، وَلَمْ نَتْرِكْ فِيهَا قَطْرَةً، فَبَلَغَ ذَلِكَ النَّبِيَّ ﷺ فَأَتَاهَا فَجَلَسَ عَلَى شَفِيرِهَا، ثُمَّ دَعَا بِإِنَاءٍ مِنْ مَاءٍ فَتَوَضَّأَ، ثُمَّ تَمَضَّمْضَ وَدَعَا، ثُمَّ مَجَّهَ، فَتَرَكْنَاهَا غَيْرَ بَعِيدٍ، ثُمَّ إِنَّهَا أَصْدَرْتَنَا -أَي: رَجَعْنَا وَقَدْ ارْتَوَيْنَا- وَمَا شِئْنَا وَرَكَابَنَا^(٢).

٩- وعن مُجَمِّعِ بْنِ جَارِيَةَ الْأَنْصَارِيِّ قَالَ: شَهِدْنَا الْحَدِيبَةَ، حَتَّى بَلَغْنَا كُرَاعَ الْغَمِيمِ، إِذِ النَّاسُ تُسْرِعُ بِالْذَوَابِ، فَقَالَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ: مَا لِلنَّاسِ؟ قَالُوا: أُوحِيَ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، قَالَ: فَأَسْرَعْنَا مَعَ النَّاسِ، فَإِذَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ عَلَى رَاحِلَتِهِ عِنْدَ كُرَاعِ الْغَمِيمِ، فَاجْتَمَعَ النَّاسُ عَلَيْهِ، فَقَرَأَ عَلَيْهِمْ: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُبِينًا ۖ﴾ فقال رجل: يا رسول الله، أَوْ فَتَحَ هُوَ؟ قَالَ: «إِي وَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ إِنَّهُ لَفَتْحٌ» فَتُسِّمَتْ خَيْرٌ عَلَى أَهْلِ الْحَدِيبَةِ، لَمْ يَدْخُلْ مَعَهُمْ فِيهَا أَحَدٌ، فَقَسَمَهَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ ثَمَانِيَةَ عَشْرَ سَهْمًا، وَكَانَ الْجَيْشُ أَلْفًا

(١) «صحيح مسلم» برقم (١٧٨٥) والبخاري برقم (٤٨٤٤).

(٢) «صحيح البخاري» (٣٤٠/٧) (٤١٥٠) والطبري (٢٤٣٢١).

وخمس مئة، منهم ثلاث مئة فارس، فأعطى الفارسَ سهمين، وأعطى الراجل سهمًا^(١).

نبذة عن صلح الحديبية:

روت عائشة رضي الله عنها أن النبي ﷺ رأى في النوم كأن قائلًا يقول له: لتدخلنَّ المسجد الحرام إن شاء الله آمنين، فأخبر بذلك أصحابه ففرحوا، وحسبوا أنهم سيدخلون مكة عامهم هذا، واستنفر النبي ﷺ أصحابه للعمرة، وخرج بهم من المدينة في شهر ذي القعدة سنة ست من الهجرة، وكان معه نحو ألف وخمس مئة من المهاجرين والأنصار، ومن دخل في الإسلام من الأعراب، ولم يكن معهم سلاح إلا السيوف في القرب؛ لأنهم خرجوا للعمرة ولا يريدون حربًا، وساقوا معهم الهدي بعد أن قلدوها وأشعروها، فصلوا الظهر بذي الحليفة، وأحرموا ولبوا، وكان مع النبي ﷺ من نسائه أم سلمة رضي الله عنها، فبلغ المشركين خروجُه، وأجمع رأيهم على صده عن المسجد الحرام.

ولما وصل النبي ﷺ إلى عُسْفان قُرب مكة، وكان ﷺ قد كلفَ بشر بن سفيان الكلبي لمعرفة أخبار قريش، فجاء بِشْر يُخبر بأن قريشًا قد لبست جلود النمر واستعدوا لقتاله، ونزلوا بذي طوى قُرب مكة، وعاهدوا الله ألا يدخلها عليهم أبدًا! فسلك النبي وأصحابه طريقًا وعرا غير طريقهم انتهى بهم إلى الحديبية، وكان به شجرة حذاء، أو بئر تسمى الحديبية، فسُمِّي المكان باسم الشجرة أو البئر، وكان النبي ﷺ يركب ناقة اسمها القصواء وكانت لا تُسبق، فلما وصلت الحديبية، حرنث وأبت المشي، فقال الصحابة خلأت القصواء -أي: توقفت عن المسير- فقال ﷺ: «ما خلأت، وما هو لها بخلق، ولكن حبسها حابس الفيل عن مكة».

وأمر الناس بالنزول في المكان الذي توقفت فيه الناقة عن المشي، وقال ﷺ: «والله لا يسألوني حُطَّةَ فيها تعظيم حرمة الله وصلة الرحم، إلا أعطيتهم إياها»، ولما علمت قريش بنزوله ﷺ في الحديبية أرسلوا بُدَيْل بن وَرْقَاء الخُزَاعِي لیسأل عن سبب مجيئه، فأخبره أنه

(١) ابن أبي شيبة (٤٣٧/١٤) و«المسند» (١٥٤٧٠) بإسناد ضعيف لانفراد يعقوب بن مُجمع به (محققوه) قال الحافظ في الفتح (٨٦/٦): في إسناده ضعف وبقيّة رجاله ثقات، والحاكم (١٣١/٢) والبيهقي في «الدلائل» (١٥٦/٤) وضعّفه الألباني في «ضعيف سنن أبي داود» (٥٨٧) وقد ذُكرت بعض ألفاظه بالمعنى، ومعناه صحيح، وإن كان في بعض رواياته مقال.

جاء معتمرًا، ولا يُريد حربًا، ولكن قريشًا أرسلت عُروة بن مسعود الثقفي ليقول له: والله لن تدخل مكة عنوة أبدًا، وكان عروة خلال حديثه مع النبي ﷺ يمد يده على لحيته، فكان المغيرة بن شعبة يقرع يده، ويقول له: اكف يدك عن وجه رسول الله ﷺ قبل ألا تصل إليك، ورجع عروة يصف لهم ما شاهده من احترام المسلمين لرسول الله ﷺ، فقال: يا معشر قريش، إني قد جئت كسرى في ملكه، والنجاشي في ملكه، وإني والله ما رأيت مَلِكًا في قوم قطُّ مثل محمد في أصحابه، ولقد رأيت قومًا لا يُسلمونه لشيء أبدًا، فَرُّوا رأيكم، فقالوا: نردُّه من عامنا هذا، ويرجع من قافل، فدخل مكة ويطوف بالبيت.

فأرسل النبي ﷺ عثمان بن عفان ؓ إليهم ليخبرهم أنه إنما جاء لزيارة البيت، ومعهم الهدي ينحرونه وينصرفون، فقالوا له: إن شئت أن تطوف بالبيت فطُف وحدك، قال: والله ما كنت لأطوف حتى يطوف رسول الله ﷺ، فحبسوا عثمان، وأشيع أنه قد قُتل، فقال ﷺ: «لا نبرح حتى نناجزهم» ودعا المسلمين إلى بيعة الرضوان، فبايعوه تحت الشجرة على الموت، قال سلمة بن الأكوع: بايعناه وبايعه الناس على عدم الفرار، وأنه إما الفتح وإما الشهادة، وضرب النبي ﷺ بشماله على يمينه، وقال: هذه بيعة عثمان، إنه ذهب في حاجة الله ورسوله، وعاد عثمان دون أن يمسه أذى.

وأقام النبي وأصحابه بالحديبية نحو عشرين يومًا، يتم فيها تبادل السفراء بينهم، فأجمعت قريش رأيها على الصلح، وأرسلوا سهيل بن عمرو لَمَّا علموا ببيعة الرضوان، وقالوا له: صالحُك على أن يرجع من عامه هذا؛ حتى لا تتحدث العرب أنه دخلها عنوة، فلما رآه النبي ﷺ مقبلًا، قال: «لقد أرادت قريش الصلح حين بعثت هذا الرجل».

وتم الصلح على الآتي:

أولًا: أن يرجع محمد ﷺ وأصحابه من عامهم هذا دون زيارة البيت على أن يأتوا العام القادم، وليس معهم إلا السيوف في غمدها، وتترك قريش لهم مكة ثلاثة أيام ليطوفوا بالبيت.

ثانيًا: أن يكفَّ الفريقان عن الحرب عشرين سنين، يأمن فيها الناس دون قتال ولا عدوان.

ثالثًا: من جاء من قريش مسلمًا بدون إذن وليه، ردَّه النبي ﷺ إليهم، ومن جاء قريشًا

من المسلمين لم يردوه.

رابعاً: من أحبَّ أن يدخل مع الرسول ﷺ من القبائل فله ما أراد، ومن أحب أن يدخل مع قريش من القبائل فله ما أراد.

وقد سارعت قبيلة خزاعة فدخلت مع النبي ﷺ وحالفته، وسارعت قبيلة بني بكر فدخلت مع قريش وحالفتها.

تنازلات في صلح الحديبية لحفظ الدماء:

وفي حديث عبد الله بن مغفل رضي الله عنه قال: كنا مع رسول الله ﷺ بالحديبية في أصل الشجرة التي قال الله تعالى في القرآن، وكان يقع من أغصان تلك الشجرة على ظهر رسول الله ﷺ فرفعته عن ظهره، وعلي بن أبي طالب وشهيل بن عمرو، بين يديه، فقال رسول الله ﷺ لعلِّي: «اكتب بسم الله الرحمن الرحيم»، فأمسك سهيل بيده، وقال: ما نعرف الرحمن الرحيم، اكتب في قضيتنا ما نعرف، قال: اكتب باسمك اللهم. وكتب: «هذا ما صالح عليه محمد رسول الله أهل مكة»، فأمسك سهيل بن عمرو بيده، وقال: لقد ظلمناك إن كنت رسوله، اكتب في قضيتنا ما نعرف، فقال: اكتب هذا ما صالح عليه محمد بن عبد الله، فبينما نحن كذلك، إذ خرج علينا ثلاثون شاباً عليهم السلاح، فثاروا في وجوهنا، فدعا عليهم رسول الله ﷺ فأخذ الله بأبصارهم، فقمنا إليهم فأخذناهم، فقال رسول الله ﷺ: «هل جئتم في عهد أحد؟ أو هل جعل لكم أحد أماناً؟» فقالوا: لا، فخلّى سبيلهم، فأنزل الله الآية^(١).

وكان النبي ﷺ قد ساق معه إلى الحديبية سبعين بدنة، قلدها وأشعرها، وأرسل عيّنًا له من خزاعة يأتي له بأخبار قريش، فجاء غتبة الخزاعي يخبر النبي ﷺ أن قريشًا قد جمعوا له جموعًا، وهم مقاتلوه وصادّوه عن البيت، فاستشار أصحابه في أن يقصد البيت، فإن منعه أحد قاتله، أو يُغير على بيوتهم فيصيب من فيها، فقال أبو بكر: إنهم جاؤوا معتمرين ولم يجيئوا لقتال أحد، فمن حال بينهم وبين البيت قاتلوه، فقال: «امضوا على اسم الله»،

(١) أخرجه النسائي في التفسير برقم (٥٣١) والحاكم (٤٦٠/٢) وصححه، ووافقه الذهبي، وأحمد (٢٧/٣٥٤) (١٦٨٠٠) و«صحيح مسلم» عن أنس مختصرًا برقم (١٧٨٤) وهو في الترمذي (٣٢٦٤) وابن أبي شيبة (٤٩٢/١٤) والنسائي في «السنن الكبرى» برقم (١١٥١١) والطبري (٢٨٨/٢١).

فلما كانوا ببعض الطريق قال: إن خالد بن الوليد بالغميم في طليعة خيل لقريش، فخذوا ذات اليمين، فلم يشعر بهم خالد إلا وهم قريب منه، فانطلق خالد إلى قريش يخبرهم.

ولما كان النبي ﷺ بالثنية بركت ناقته، فقال الناس: حل حل، أي: توقفت عن المسير، ثم زجرها فوثبت، حتى نزل بالحديبية على بئر فيها ماء قليل، فترحه الناس سريعاً، ثم اشتكوا العطش، فنزع النبي سيفاً من كنانته وأعطاه سائق بُدنه، فنزل في البئر فغرز في جوفها، فامتألت البئر بالماء وكفاهم، وزاد عن حاجتهم، حتى رجعوا عنه.

وبينما هم كذلك إذ جاء بُدَيْلُ بْنُ وَرْقَاءِ الْخَزَاعِي فِي نَفَرٍ مِنْ قَوْمِهِ يَخْبِرُونَ النَّبِيَّ ﷺ أَنَّ الْقَوْمَ يَسْتَعِدُّونَ لِقَاتِهِ وَصَدَّهُ عَنِ الْبَيْتِ، فَقَالَ ﷺ: «إِنَّا لَمْ نَجِْ لِحَرْبٍ بَلْ جِئْنَا مُعْتَمِرِينَ، فَإِنْ هُمْ أَبَوْا إِلَّا الْقِتَالَ فَلِلَّهِ الْأَمْرُ»، فَأَخْبَرَهُمْ بُدَيْلٌ بِهَذَا.

فانبرى للسفارة بين الفريقين عروة بن مسعود الذي أخذ يرمق النبي ﷺ بعينه، فقال لقومه حين رجع إليهم: والله لقد وفدتُ على كسرى وقيصر والنجاشي، فما رأيتُ مَلِكًا يَعْظُمُهُ أَصْحَابُهُ مَا يَعْظُمُ أَصْحَابُ مُحَمَّدٍ مُحَمَّدًا، وَاللَّهِ مَا تَنْخَمُ نُخَامَةً إِلَّا وَقَعَتْ فِي كَفِّ رَجُلٍ مِنْهُمْ، وَإِذَا أَمَرَهُمْ ابْتَدَرُوا أَمْرَهُ، وَإِذَا تَوَضَّأُوا كَادُوا يَقْتَتِلُونَ عَلَى وَضُوئِهِ، وَإِذَا تَكَلَّمَ خَفَضُوا أَصْوَاتَهُمْ عِنْدَهُ، وَمَا يَحْدُثُونَ النَّظَرَ إِلَيْهِ تَعْظِيمًا لَهُ.

وجاء بعده رجل من بني كنانة، وبعده مِكَرَزُ بْنُ حَفْصٍ، ثُمَّ جَاءَ سَهِيلُ بْنُ عَمْرٍو، وَتَمَّ الصَّلْحُ عَلَى يَدَيْهِ بَيْنَ الْفَرِيقَيْنِ، وَفِي أَثْنَاءِ تَوْقِيعِ شُرُوطِ الصَّلْحِ جَاءَ أَبُو جَنْدَلُ بْنُ سَهِيلِ بْنِ عَمْرٍو مُسْلِمًا، وَهُوَ مُقِيدٌ لَا يَسْتَطِيعُ الْمَشْيَ بِسَبَبِ قَيْدِهِ، فَأَبَى النَّبِيُّ ﷺ أَنْ يَرُدَّهُ إِلَى الْمَشْرِكِينَ قَائِلًا: «إِنَّا لَمْ نَقْضِ الْكِتَابَ بَعْدُ».

قصة أبي بصير:

ولما رجع النبي ﷺ إلى المدينة، جاءه أبو بصير من قريش مُسْلِمًا، وَكَانَ مِمَّنْ حُبِسَ بِمَكَّةَ، فَأَرْسَلَتْ قَرِيشٌ فِي طَلْبِهِ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: يَا أَبَا بَصِيرَ، إِنَّا قَدْ أَعْطَيْنَا هَؤُلَاءِ الْقَوْمَ مَا عَلِمْتَ، وَلَا يَصْلُحُ لَنَا فِي دِينِنَا الْغَدْرُ، وَإِنَّ اللَّهَ تَعَالَى جَاعِلٌ لَكَ وَلِمَنْ مَعَكَ مِنَ الْمُسْتَضْعَفِينَ فَرَجًا وَمَخْرَجًا، ثُمَّ أَعْطَاهُ إِلَى الرَّجُلَيْنِ، فَلَمَّا وَصَلَا بِهِ إِلَى ذِي الْحَلِيفَةِ تَمَكَّنَ أَبُو بَصِيرٍ مِنْ قَتْلِ أَحَدِهِمَا، وَفَرَّ الْآخَرُ، وَرَجَعَ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ بِالْمَدِينَةِ مَتَوْشَحًا سَيْفَهُ،

وقال: يا رسول الله، لقد ردَدْتَنِي إليهم، فأنجاني الله منهم، فقال ﷺ: «وَيْلُ أُمَّه، مُسْعَرُ حَرْبٍ، لو كان معه أحدٌ» ثم خرج أبو بصير حتى نزل العيص، وبلغ ذلك المسلمين الذين كانوا محبوسين معه بمكة، فخرج جماعة منهم إليه، وانضم إليه أبو جندل، حتى اجتمع نحو سبعين رجلاً، وأخذوا يعترضون غير قريش وأموالهم، فأرسلت قريش إلى النبي ﷺ تناشده الله والرحم لَمَّا أُرْسِلَ إليهم، فَمَنْ أتاه منهم فهو آمن، فأرسل إليهم النبي ﷺ فأنزل الله الآية^(١).

وهكذا يلتزم أبناء الإسلام بالوفاء بالعهود والعقود حتى مع أعدائهم، ولو كان هذا العقد جائزاً بالنسبة للمسلمين، فأين هذا مما نراه اليوم من حكام إسرائيل؟! كلما عاهدوا عهداً في اتفاقهم مع أهل فلسطين نبذه فريق منهم، كما قال تعالى عنهم: ﴿وَأَوْكَلِمَا عَاهِدُوا عَهْدًا بَدَدُوا فَرِيقٌ مِّنْهُمْ﴾ [البقرة: ١٠٠].

وقد أمرنا سبحانه أن نعامل العدو بالمثل، فقال: ﴿فَمَا اسْتَقَمُّوا لَكُمْ فَاسْتَقِمْوا لَهُمْ﴾ [التوبة: ٧].

وقد عَزَّ على بعض المسلمين - سَيِّمًا عمر ؓ - قبول هذه الشروط، خاصة الشرط الثالث منها، وأخذ يراجع النبي ﷺ ويراجع أبا بكر قائلاً: أَلَسْنَا على الحق وهم على الباطل؟ فقال له النبي ﷺ: «إني رسول الله، ولستُ أَغْصِيه، وهو ناصري» وقال أبو بكر: الزم غَرْزَه يابن الخطاب، فإنه رسول الله.

وبعد ذلك طلب النبي ﷺ من أصحابه أن يتحللوا من عُمرَتهم، فینحروا هديهم، ويحلّقوا أو يُقَصِّرُوا، ولكن أحداً منهم لم يفعل، فدخل النبي ﷺ على أم سلمة وقد ظهر الغضب على وجهه، فقالت له: يا رسول الله، اعذرهم، وابدأ بما تأمرهم به دون أن تُكلم أحداً، فقام ﷺ ونحر هديه وحلق رأسه، ففعلوا مثله، وأقاموا بضعة أيام في الحديبية، ثم رجعوا إلى المدينة، وعندما سمع النبي ﷺ بعضهم يقول: لقد رجعنا ولم

(١) يُنظَر: حديث صلح الحديبية في «صحيح البخاري» من حديث طويل عن المِسْوَرِ بين مَخْرَمَةٍ، ومروان بن الحكم بأرقام (٢٧٣١، ٢٧٣٢، ٤١٨٠) وعبد الرزاق (٩٧٢٠) و«المسند» (١٨٩١٠) (١٨٩٢٨) من حديث طويل جدا صحيح الإسناد على شرط الشيخين، وأبو داود (٢٧٦٥، ٤٦٥٥) و«السنن الكبرى» للنسائي (٨٨٤٠) وغيرهم.

نصنع شيئاً، قال ﷺ: «بل فتحتم أعظم الفتح»^(١).

عاد المسلمون من عمرتهم وقلوبهم كسيرة، فقد كانوا يؤمّلون في زيارة البيت الحرام، والطواف بالكعبة، والسعي بين الصفا والمروة، فلم يتحقق أملهم، وها هم يعودون من مكة بعد مفاوضات شاقة مع المشركين ذاقوا فيها العنت، وبينما هم في طريقهم إلى المدينة نزلت سورة الفتح حافلة ببشريات النصر المبين، والفتح الأعظم، حيث اتسعت دائرة البلاغ، وزاد الداخلون في الإسلام، وصار للدولة الإسلامية في المدينة كيان قائم معترف به، ولم يمض عامان حتى استسلمت مكة لصاحب الرسالة ﷺ، وهو يقود عشرة آلاف مقاتل، وتحطمت الأصنام التي ظلّت قروناً تُعبد من دون الله، وعلّت راية التوحيد، ورفّع بلال الأذان فوق الكعبة المشرفة.

لقد علم الله سبحانه صدق نيات أصحاب رسول الله ﷺ، الذين بايعوه على الثبات وعدم الفرار تحت الشجرة في ساعة الحرج، ولم يتخلف منهم أحد؛ لأنهم يحبون الله تعالى، ويحبون الموت في سبيل الدعوة إليه، ولذا فقد أعلن الله تعالى رضاه عنهم، وكافأهم بالخير العاجل والآجل، وقد كشف الله لرسوله عن الذين تخلفوا عن الخروج معه، وقالوا في أنفسهم: لن ينقلب الرسول والمؤمنون إلى أهلهم أبداً!!

والمسلمون الذين مُنعوا من أداء النسك في السنة السادسة، تمكّنوا من أدائه في السنة السابعة، ثم دخلوا مكة فاتحين لها في السنة الثامنة.

وقد خُتمت السورة ببيان خواص الأمة التي تريد النصر على عدوها فهم ﴿أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ تَرْتَهُمُ رُكْعًا مُجْتَمِعًا يَتَعَوْنَ فُضْلًا مِنْ اللَّهِ وَرِضْوَانًا سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِمْ مِنْ أَثَرِ السُّجُودِ﴾ [٢٩].

فإذا انتقلت هذه الخواص إلى غيرنا، فكيف يقترب النصر منا؟

(١) يُنظر: «سيرة ابن هشام» (٣/٣٥٥) وما بعدها، و«البداية والنهاية» لابن كثير (٤/١٧٣) وما بعدها، و«صحيح البخاري» (٥/٢٢٤١) و (٧/٣٤٨) وغيرها من كتب الحديث والسير بألفاظ مختلفة.

تَفْسِيرُ السُّورَةِ

أَرْبَعُ نَعَمٍ جَمَعَهَا اللَّهُ تَعَالَى لِنَبِيِّهِ ﷺ فِي آيَاتِ ثَلَاثٍ

١-٣- ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُبِينًا ﴿١﴾ لِيُغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَيَهْدِيكَ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا ﴿٢﴾ وَيَبْصُرَكَ اللَّهُ نَصْرًا عَزِيزًا ﴿٣﴾﴾

المراد بالفتح في الآية: صلح الحديبية، حين صد المشركون رسول الله ﷺ هو وأصحابه عن دخول المسجد الحرام لأداء العمرة، وكان ذلك في السنة السادسة من الهجرة، وقد تصالح الفريقان على وضع الحرب بينهما عشر سنين، وأن يعتمر النبي ﷺ وصحبه العام المقبل، وقد خاطب الله تعالى رسوله محمداً ﷺ في هذه السورة مؤكداً له أنه قد قضى وحكم له بالفتح المبين على عدوه دون قتال ولا تعب.

والفتح يُطلق على النصر المقترون بدخول أرض المغلوب أو بلده، ولا يُطلق على الانتصار المتهى بالغنيمة والأسر دون اقتحام أرض العدو، ولذا فإنه يُقال: فتح خيبر، وفتح مكة، ولا يُقال: فتح بدر، وفتح أحد، والجمهور على أن المراد بالفتح في هذه الآية: صلح الحديبية؛ لأنه كان سبباً لفتح مكة ووعداً به، كما جاء عن عمر رضي الله عنه أنه قال: أو فتح هو يا رسول الله؟ قال: «نعم، والذي نفسي بيده إنه لفتح»^(١).

قال الزَّجَّاج: كان في فتح الحديبية آية عظيمة، وذلك أنه نُزِحَ ماؤها، ولم يبق فيها قطرة، فتمضمض رسول الله ﷺ، ثم مَجَّه في البئر، فدرَّتْ بالماء حتى شرب جميع الناس^(٢).

وقال الشعبي في المراد بالفتح: فتح الحديبية، وغُفِرَ له ما تقدم من ذنبه وما تأخر، وأطعموا نخل خيبر، وبلغ الهدي محله، وظهرت الروم على فارس، وفرح المسلمون بظهور أهل الكتاب على المجوس^(٣).

(١) ضعيف سنن أبي داود (٢٧٣٦) عن مجمع بن جارية الأنصاري، وهو عند الحاكم برقم (٢٥٩٣) وقال: هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه، وانظر فتح الباري (٣٤٢/٥) وانظر الحديث التاسع في آخر المقدمة.

(٢) من «تفسير النسفي» للآية، وقد جاء هذا في حديث البراء السابق ذكره في مقدمة السورة برقم (٨) و(٩).

(٣) «تفسير الخازن» (١٤٤/٤) وقد أخرجه سعيد بن منصور والطبري (٢٤٤/٢١) والبيهقي (١٦٢/٤).

والمعنى: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا﴾ لك أيها الرسول ﴿فَتْحًا مُبِينًا﴾ يُظهر الله فيه دينك، وينصرك على عدوك، وهو هُدنة الحديبية التي أَمِنَ الناس بسببها بعضهم بعضًا، فاتسعت دائرة الدعوة لدين الله، وتمكَّن مَنْ يريد الوقوف على حقيقة الإسلام من معرفته، فدخل الناس في تلك المدة في دين الله أفواجًا، ولذلك سَمَّاهُ الله فَتْحًا مُبِينًا، أي: ظاهرًا جليًّا^(١).

قال عبد الله بن مسعود رضي الله عنه: أَقْبَلْنَا مِنَ الْحَدِيثِ مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، وَكَانَ قَدْ خَرَجَ إِلَيْهَا يَوْمَ الْإِثْنَيْنِ هَلَالُ ذِي الْقَعْدَةِ، فَأَقَامَ فِيهَا بَضْعَةَ عَشَرَ يَوْمًا، ثُمَّ قَفَلَ رَاجِعًا إِلَى الْمَدِينَةِ، فَبَيْنَمَا نَحْنُ نَسِيرُ إِلَى الْمَدِينَةِ إِذْ أَتَاهُ الْوَحْيُ -وَكَانَ إِذَا أَتَاهُ اشْتَدَّ عَلَيْهِ- فَسُرِّيَ عَنْهُ، وَبِهِ مَنْ السُّرُورُ مَا شَاءَ اللَّهُ، فَأَخْبَرَنَا أَنَّهُ أَنْزَلَ عَلَيْهِ ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُبِينًا﴾^(٢).

وقد جمع الله لنبه بين الفتح المبين، ومغفرة الذنوب، وتمام النعمة، وهداية الصراط المستقيم، والنصر المؤزر، فكأنه تعالى قال لنبه: يَسِّرْنَا لَكَ الْفَتْحَ، وَنَصَرْنَاكَ عَلَى عَدُوكَ، وَغَفَرْنَا لَكَ ذَنْبَكَ، وَهَدَيْنَاكَ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا، وَأَتَمَمْنَا عَلَيْكَ النِّعْمَةَ لِيَجْتَمَعَ لَكَ عِزُّ الدَّارَيْنِ، الْعَاجِلِ مِنْهُ وَالْآجِلِ، وَقَدْ رَتَبَ اللَّهُ عَلَى هَذَا الْفَتْحِ الْمُبِينِ أَرْبَعَةَ آثَارٍ تَتَعَلَّقُ بِالنَّبِيِّ ﷺ، هِيَ مِنْ أَجْلِ النِّعْمِ عَلَيْهِ، وَهَذِهِ النِّعْمُ الْأَرْبَعُ هِيَ:

أَوَّلًا: ﴿لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ﴾ بسبب ما حصل من هذا الفتح من الطاعات الكثيرة، وبما تحمَّلتَه من المشقَّات، وَلَمَّا كَانَ النَّبِيُّ ﷺ أَطْوَعَ خَلَقَ اللَّهُ، بِشَّرِّهِ رَبَّهُ بِالْفَتْحِ الْمُبِينِ، وَغَفَرَانَ مَا تَقَدَّمَ وَمَا تَأَخَّرَ مِنَ الذَّنُوبِ، صَغِيرَهَا وَكَبِيرَهَا.

١- ومعنى غفران الذنب: ستره وتغطيته وإزالته، والنبي ﷺ معصوم من الوقوع في الذنوب.

قال ابن عطية: وإنما المعنى: التشريف بهذا الحكم، ولولم تكن له ذنوب البتَّة^(٣).

ولهذا المعنى اللطيف الجليل، كانت سورة النصر مؤذنة باقتراب أجل النبي ﷺ، كما فهمه جَمْعُ مِنَ الصَّحَابَةِ.

(١) «التفسير الميسر» نخبة من العلماء ص ٥١١.

(٢) يُنْظَرُ: أَبُو دَاوُدَ (٤٤٧) مُخْتَصَرًا وَ«صَحِيحُ سَنَنِ أَبِي دَاوُدَ» (٤٣٠) وَالتَّبْرِي (٢٤٢/٢١) وَالبَيْهَقِيُّ فِي «الدَّلَائِلِ» (١٥٧/٤) وَالنَّسَائِيُّ فِي «الكبرى» (٨٨٥٣) وَابْنُ أَبِي شَيْبَةَ (٤٥٣/١٤) وَ«المسند» (٤٤٢١) بِإِسْنَادٍ حَسَنٍ (مُحَقَّقُوهُ) وَالتَّبْرَانِيُّ (١٠٥٤٨)، بِأَلْفَاظٍ مُتَقَارِبَةٍ.

(٣) «تفسير ابن عطية» (١٢٦/٥).

٢- وقد يكون المراد بالغفران: الحيلولة بينه ﷺ وبين الذنوب كلها، فلا يصدر منه ذنب.
 ٣- أو يراد به: ما كان خلاف الأولى، من باب حسنات الأبرار سيئات المقربين، وهذا من خصائص النبي ﷺ لا يشركه فيه أحد، وفيه تشريف للنبي ﷺ؛ لأنه سيد الخلق أجمعين.
 وقد كان النبي ﷺ يقابل هذا الفضل بالشكر الجزيل، فيقوم الليل حتى تتورم قدماه ويقول: «أفلا أكون عبداً شكوراً».

ثانيًا: ﴿وَيَسِّرْ لَّكَ يَوْمَكَ﴾ بإظهار دينك على سائر الأديان، ونصرك على أعدائك، وإعطائك من الخصائص والمناقب ما لم يُعط لأحد غيرك من: الفتح، والنصر، والتمكين، والمغفرة، والهداية، ورفع الدرجات.

ثالثًا: ﴿وَهَبْ لَكَ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا﴾ أي: يُرشدك الله إلى دين قويم لا عوج فيه، هو دين الإسلام، ويثبتك عليه، ويوصلك بما شرعه لك في هذا الدين العظيم إلى جنات النعيم.
 والهداية إلى الصراط المستقيم ثابتة للنبي ﷺ منذ بعثته، ولكنها تزداد وتتسع بازدياد أحكام الشريعة، واتساع بلاد الإسلام، وكثرة المسلمين.

رابعًا: ﴿وَيَنْصُرَكَ اللَّهُ نَصْرًا عَظِيمًا﴾ أي: ينصرك نصرًا قويًا منيعًا لا يضعف فيه الإسلام، بل يكون في عزة وغلبة لا يدفعه دافع، ولا يغلبه غالب، ولا يأتي بعده ذلٌ أبدًا، والعزيم معناه: الغالب، أو النفيس النادر، والعزة هي الغلبة، أو العظمة والقوة، أو الندره والقلة.

أَرْبِعُ نِعَمٍ أَلَّهِ بِهَا عَلَى الْمُؤْمِنِينَ فِي هَذِهِ الْآيَةِ وَمَا بَعْدَهَا

٤- ﴿هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ السَّكِينَةَ فِي قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوا إِيمَانًا مَعَ إِيْمَانِهِمْ وَلِلَّهِ جُنُودُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾

وكما امتنَّ الله على رسوله بنعم أربع في الآيات السابقة، امتنَّ أيضًا على عباده المؤمنين بإنزال السكينة عليهم، وإدخالهم الجنات، وتكفير السيئات، والنصر على عدوهم، إلى جوار ما ينتظر المنافقين من عذاب الله تعالى وغضبه ولعنته عليهم.

وهذه النعم الأربع من آثار هذا الفتح المبين على المؤمنين:

أَوَّلًا: نُزُولُ السَّكِينَةِ عَلَيْهِمْ

بَيَّنَّ الله سبحانه وجهه وسبب هذا النصر العزيز، المذكور في هذه الآية بأنه: ﴿هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ السَّكِينَةَ﴾ أي: الطمأنينة والثبات والوقار ﴿فِي قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ بالله ورسوله يوم الحديبية، حين وقعت المحن واشتد الخطب، فسكنت قلوبهم ورسخ اليقين فيها، ولم تترعج نفوسهم، بل ثَبَّتَ الله أقدامهم، فقد كانت قلوب المؤمنين يوم الحديبية تغور بانفعالات شتى، تتطلع إلى تصديق رؤيا الرسول ﷺ بدخول المسجد الحرام، مع ما طرأ عليهم من ضيق الصدور بشروط قريش، ومنها: ردُّ من جاء من قريش مُسْلِمًا بدون إذن وليه.

ومنها: ردُّ اسم الرحمن الرحيم، وردَّ صفة الرسول ﷺ حين اعترض المفاوض على أن محمدًا رسول الله، فأبى عليٌّ ؓ أن يمحوها بعد كتابتها، فمحاه النبي ﷺ بيده.

لقد ضاقت نفوس الصحابة رضوان الله عليهم حين بلغهم أن عثمان قد قُتِلَ، فبايعوا النبي ﷺ على الموت.

وضاقت نفوسهم من شروط الصلح بشكل عام فظنوا أن فيها ظلمًا وإجحافًا بهم، فأنزل الله السكينة عليهم، وانشرحت صدورهم لشروط الصلح، بعد أن ضاقت بها في أول الأمر، فهاج الناس وماجأوا، وزلزلوا حتى اعترض عمر ؓ قائلاً: لماذا نعطي الدنية في ديننا ما دنا على الحق وهم على الباطل؟! ومع كل هذا فقد أصلح الله نفوسهم، وأذهب خواطر الشيطان عنهم، وألهمهم الحق والثبات، فاطمأنت نفوسهم بعد اضطراب، ورسخ يقينهم بعد شك، هذه هي السكينة التي أنزلها الله على قلوب الصحابة، فأيقنوا أن وعد الله حق، وقبل نزولها عليهم كانت قلوبهم مليئة بالإيمان فازدادت بهذه السكينة إيمانًا إلى إيمانهم.

وهذا معنى ﴿لِيَزَادُوا إِيمَانًا مَعَ إِيمَانِهِمْ﴾ أي: ليزدادوا يقينًا مع يقينهم، وتصديقًا مع تصديقهم برسوخ العقيدة في القلوب، والتوكل على علام الغيوب، كما قال تعالى: ﴿وَإِذَا ثَلَيْتَ عَلَيْهِمْ أَيْدِيَهُمْ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا﴾ [الأنفال: ٢].

وقال سبحانه: ﴿وَإِذَا مَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُمْ مَن يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَذِهِ إِيمَانًا فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فزادتهم إيمانًا وهم يستتبرئون﴾ (١١٤) [التوبة].

فسر ابن عباس السكينة في الآية بالرحمة، وقال: إن الله جلَّ ثناءه بعث نبيه محمدًا ﷺ

بشهادة أن لا إله إلا الله، فلما صدّقوا بها زادهم الصلاة، فلما صدّقوا بها زادهم الصيام، فلما صدّقوا به زادهم الزكاة، فلما صدّقوا بها زادهم الحج، فلما صدّقوا به زادهم الجهاد، ثم أكمل الله دينهم، فقال تعالى: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتِمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي﴾ [المائدة: ٣]. قال ابن عباس: فأوثق إيمان أهل الأرض وأهل السموات، وأصدقته وأكمّله: شهادة أن لا إله إلا الله^(١).

وقد أخذ العلماء من هذه الآية وأشباهاها أن الإيمان يزيد بالطاعة، وينقص بالمعصية. قال البخاري: لقيت أكثر من ألف رجل من العلماء بالأمصار، فما رأيت أحداً منهم يختلف في أن الإيمان قول وعمل، يزيد وينقص، ولو كان الإيمان درجة واحدة لكان إيمان أفراد الأمة من أهل الفسوق والمعاصي مساوياً لإيمان الأنبياء. ولذا: كان إيمان الصديقين أقوى من إيمان غيرهم.

ثَانِيًا: النَّصْرُ عَلَى الْعَدُوِّ

ولا عجب أن يفتح الله على رسوله هذا الفتح العظيم، وينصره على أعدائه نصرًا تصحبه السكينة في قلوب المؤمنين، بعد كسر خواتمهم، فالله تعالى يملك جميع وسائل النصر، وله القوة القاهرة في السموات والأرض، وما هذا إلا غيظ من فيض ﴿وَلِلَّهِ جُنُودُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ فهم جميعاً في ملكه، وتحت قهره وتديره، ينصر بجنوده أوليائه، ومنها الملائكة، والجن، والحيوانات، والصواعق المدمرة، والريح، والزلازل، والخسف، والغرق، وما إلى ذلك، جنود لا تُحصى، يسلطها الله تعالى على من يشاء.

ولو أرسل الله ملكاً واحداً على أعدائه لأبادهم، ولكنه سبحانه شرع الجهاد لعباده، وربط الأسباب بالمسببات، ومن جنود الله تعالى: الملائكة في يوم بدر، والريح في يوم الخندق، والمطر الذي ثبت أقدام المسلمين يوم بدر... ﴿وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا﴾ بأسباب الفتح والنصر، وما تطمئن به القلوب ﴿حَكِيمًا﴾ يضع الأمور في نصابها.

(١) أخرجه الطبري بسند حسن عن علي بن أبي طلحة عن ابن عباس (٢٤٥/٢١) والطبراني (١٣٠٢٨) والبيهقي في «الدلائل» (١٦٨/٤).

فلا يظن المكذبون أن الله تعالى لا ينصر دينه ونبيه، فالأيام دول، وإن تأخر النصر أحياناً فلحكمة اقتضاها هذا التأخير، ويعلمها العليم الحكيم.

ثالثاً: دُخُولُ الْجَنَّاتِ:

٥- ﴿لِيَدْخُلَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَيُكَفِّرُ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَكَانَ ذَلِكَ عِنْدَ اللَّهِ فَوْزًا عَظِيمًا﴾

أي: ومن الآثار المترتبة على هذا الفتح المبين: فوز المؤمنين بدخول الجنات، وتكفير السيئات، وتعذيب المنافقين والمنافقات، وحلول الغضب واللعنات عليهم من رب البريات.

صحَّ عن أنس رضي الله عنه أنه لما أنزل الله تعالى: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُبِينًا﴾ (١) على نبيه ﷺ مرجعه من الحديبية، قال: «لقد أنزلت عليّ آية هي أحب إليّ مما على الأرض» ثم قرأها عليهم، فقالوا: هنيئاً مريئاً يا رسول الله، قد بين الله تعالى لك ما يفعل بك، فماذا يفعل بنا؟ فأنزل الله تعالى: ﴿لِيَدْخُلَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾ (١).

ويروى أنه لما نزل قول الله تعالى: ﴿وَمَا آتَاكِ مَا يُفَعِّلُ فِي وَلَا يَكْمُرُ﴾ [الأحقاف: ٩] تكلم فيها أهل الكتاب، وقالوا: كيف نتبع من لا يدري ما يفعل به وبالناس معه؟ فبين الله سبحانه في الآيات السابقة ما يفعل به، وبيّن في هذه الآية ما يفعل بالمؤمنين.

والآيات عامة، وإن تعلّقت بأحداث ومناسبات معينة وقت نزولها فهي أسباب للنزول، والعبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب.

وقد كان الناس عند الخروج إلى الحديبية، منهم المؤمنون الصادقون، أهل بيعة الرضوان، ومنهم المنافقون الذين لم يخرجوا مع الرسول ﷺ ظناً منهم أن محمداً وأصحابه لن يؤدّوا إلى المدينة، فذكر جلّ شأنه في هذه الآية ما أعدّه لعباده المؤمنين من الكرامة والنعيم في دار الخلود، جنات وبساتين ناضرة تجري من تحت قصورها وأشجارها الأنهار، يقيمون فيها إقامة دائمة ﴿خَالِدِينَ فِيهَا﴾ خلوداً مؤبداً ﴿عَطَاءً غَيْرَ

(١) أخرجه عبد الرزاق في تفسيره (٢/٢٢٥) وابن أبي شيبة (١٤/٥٠١) وأحمد في المسند (١٣٠٣٥) بإسناد صحيح على شرط الشيخين (محققوه) ومسلم (١٧٨٦) إلى (هي أحب إلى من الدنيا جميعاً) والترمذي (٣٢٦٣) وتفسير الطبري (٢٦/٧٠) وأبو يعلى (٣٠٥) وعبد بن حميد (١١٨٨) وللحديث طرق متعددة.

مَجْدُوزٌ ﴿هُود: ١٠٨﴾. كما قال تعالى: ﴿مَكَكِينَ فِيهِ أَبَدًا﴾ ﴿الكهف: ٦٠﴾.

رَابِعًا: تَكْفِيرُ السَّيِّئَاتِ:

﴿وَيُكَفِّرُ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ﴾ فيمحو عنهم خطاياهم وأعمالهم السيئة، فلا يعاقبهم عليها، بل يُحوِّلها حسنات بفضلِهِ وإحسانِهِ لمن يشاء ﴿وَكَانَ ذَلِكَ﴾ الجزاء عند الله ﴿فَوْزًا عَظِيمًا﴾ نَجَاةً من كل غمٍّ، وظفرًا بكل مطلوب، وسعادة لا مزيد عليها، إذ ليس بعد الجنة فوز ولا نعيم ﴿فَمَنْ زُحِرَ عَنِ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ﴾ [آل عمران: ١٨٥].

وفي حديث جابر ؓ: أن النبي ﷺ قال: «لا يدخل النار أحد بايع تحت الشجرة»^(١).

وَعِيدُ اللَّهِ لِلْمُنَافِقِينَ وَالْمُشْرِكِينَ بِأَرْبَعَةِ أَشْيَاءَ

٦- ﴿وَيُعَذِّبُ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكَاتِ الظَّالِمَاتِ بِاللَّهِ ظَلَمَ السَّوْءَ عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ السَّوْءِ﴾^(٢) وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلَعَنَهُمْ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا ﴿١٦﴾

أما المنافقون والمشركون فإنهم يعذبون في نار جهنم، لأنهم خذلوا المؤمنين، وظنوا أن الله لا ينصر دينه ولا يعلى كلمته، وأن أهل الباطل ستكون لهم الدائرة، وهم مطرودون مُبعدون من رحمة الله تعالى، قد باؤوا بغضب من الله، ومستقرهم النار يوم القيامة، وبئس المصير مصيرهم.

والمنافقون مقدّمون على أهل الشرك؛ لأنهم أشدّ ضررًا وأعظم خطرًا من المجاهرين بكفرهم وشركهم قال تعالى: ﴿وَيُعَذِّبُ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكَاتِ﴾ يعذبهم في الدنيا بما يصل إليهم من الهموم والغموم بسبب ما يشاهدونه من ظهور كلمة الإسلام وقهر المخالفين له، فيعذبهم عذابًا خاصًا في الدنيا، زائدًا على العذاب الذي يستحقونه في الآخرة، بسبب النفاق والشرك، كما قال تعالى: ﴿فَتَلَوَّهُمْ يُعَذِّبُهُمُ اللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ﴾ [التوبة: ١٤].

(١) «سنن النسائي الكبرى» (١١٤٤٤) وفي ط الرسالة (١١٥٠٨) وأبو داود (٤٦٥٣) والترمذي (٣٨٦٠) و«المسند» (١٤٧٧٨) بإسناد صحيح على شرط مسلم (محققه) وابن حبان (٤٨٠٢).

(٢) قرأ ابن كثير وأبو عمرو بضم السين من (دائرة السوء) وهو الضرر، والباقون بالفتح وهو الدم، وهذا خاص بلفظ السوء المقيد بلفظ دائرة، أما (ظن السوء) في الموضعين فلا خلاف في فتح السين فيهما، وقرأ الأزرق بترقيق الراء من (دائرة)، والباقون بتفخيمها.

وقال أيضًا: ﴿يَتَأْتِيَ النَّبِيُّ جِهْدَ الْكُفَّارِ وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ﴾ [التوبة: ٧٣، والتحريم: ٩].

ثم وصف الله المنافقين والمشركين بأنهم ﴿الظَّالِمِينَ بِاللَّهِ ظَنًّا سَيِّئًا﴾ فقد ظنوا ظنًا سيئًا بالله تعالى وأنه لن ينصر نبيه ﷺ والمؤمنين معه على أعدائهم، ولن يُظهر دينه، وتوهموا أن الدائرة تدور على المؤمنين حين خرجوا إلى الحديبية، وقالوا: إن المشركين سيستأصلونهم، وأنهم لن يعودوا إلى المدينة، جاء ذلك في قوله تعالى: ﴿بَلْ ظَنَنْتُمْ أَنْ لَنْ يَنْقَلِبَ الرَّسُولُ وَالْمُؤْمِنُونَ إِلَىٰ أَهْلِيهِمْ أَبَدًا وَزُيِّنَ ذَٰلِكَ فِي قُلُوبِكُمْ وَظَنَنْتُمْ ظَنًّا سَوًّا وَكُنْتُمْ قَوْمًا بُورًا﴾.

ثم توعد الله المنافقين والمشركين بأربعة أشياء:

الأول: ﴿عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ السَّوْءِ﴾ الذي أرادوه بالمؤمنين في ظنهم، فيُنزل بالمنافقين في الدنيا ما توقعوه بالمؤمنين من شر وهزيمة.

وهذا دعاء عليهم، ووعد لهم بالعذاب والهلاك، فعليهم تدور دائرة الويلات، وكل ما يسوؤهم مما يتربصونه بالمؤمنين من الدمار والهلاك.

وسميت المصيبة دائرة؛ لأن الزمان يستدير، وهي تدور بدوران الزمان.

والسوء بضم السين: هو الشر، نقیض الخير، أما السَّوء بفتح السين: فهو ما يضاف إلى كل ما يراد ذمه من كل شيء، وهما كالكره والكراهة، والضَّعْف والضَّعْف^(١).

والمعنى: عليهم الدائرة التي يذمونها ويسخطونها.

الثاني: ﴿وَعَظِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ﴾ زيادة على العذاب والهلاك، أي: سَخِطَ الله عليهم بسبب كفرهم ونفاقهم، ومحادثتهم لله والرسول.

الثالث: ﴿وَلَعَنَهُمُ﴾ أي: طردهم الله وأبعدهم من رحمته.

الرابع: ﴿وَعَدَّ لَهُمْ جَهَنَّمَ﴾ يصلون نارها في الآخرة، فقد هيأها الله وسعَّرها وجعلها مستقرًّا لهم.

﴿وَسَاءَتْ مَصِيرًا﴾ أي: وبئست هذه النار مرجعًا ومنقلبًا لأهل الضلال والكفر.

(١) «تفسير الكشاف» (٤/٣٣٤).

جُنُودُ الرَّحْمَةِ وَجُنُودُ الْعَذَابِ

٧- ﴿وَلِلَّهِ جُنُودُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾

ولما كان لله تعالى جنود لنزول الرحمة بعباده المؤمنين، وجنود آخرون لنزول العذاب بالكافرين والمنافقين، فقد قال ﷻ: ﴿وَلِلَّهِ جُنُودُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ مرة للمؤمنين في الآية السابقة -الآية الرابعة- ومرة ثانية للمنافقين والمشركين في هذه الآية.

ومن جهة أخرى فقد قُدمت الآية الأولى في الذكر، قبل إدخال المؤمنين الجنة ليكون مع المؤمنين جنود الرحمة فيثبتوهم على الصراط وعند الميزان، فإذا دخلوا الجنة كانوا إلى جوار الله تعالى ورحمته والقرب منه، فلا حاجة لهم بالملائكة بعد ذلك.

وأخر الله تعالى ذكر جنود السموات والأرض بعد تعذيب الكافرين والمنافقين؛ ليكون معهم جنود السخط فلا يفارقونهم أبداً.

ويفترق ختام الآية الأولى عن الآية الثانية بذكر صفة عزيز في الثانية مقابل عليم في الأولى، ووجود صفة الحكمة فيهما، ففي الأولى قال تعالى: ﴿وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ لأن المقام في معرض الخلق والتدبير، وفي الثانية قال سبحانه: ﴿عَزِيزًا حَكِيمًا﴾ وذلك لأن المقام في معرض الانتقام، بالنسبة لتعذيب الكافر والمنافق، فهو مقام قوة وانتقام، وغلبة وبأس، كما قال تعالى: ﴿أَلَيْسَ اللَّهُ بِعَزِيزٍ ذِي انْتِقَامٍ﴾ [الزمر: ٣٧].

وقال سبحانه: ﴿فَأَخَذْنَاهُمْ أَخَذَ عَزِيزٌ مُّقْتَدِرٌ﴾ [القمر: ٤٢].

أما مقام الرحمة بالنسبة للمؤمنين في الآية السابقة فهو عن علم من الله تعالى باستحقاقهم ذلك، وفي كلتا الحالتين فالله تعالى حكيم فيما قَدَّرَ ودَبَّرَ^(١).

وقد أخبر الله سبحانه بأن له ملك السموات والأرض وما فيهما من الجنود، ليعلم العباد أنه سبحانه المعز المذل، وأنه تعالى سينصر جنده، كما قال تعالى ﴿وَإِنَّ جُنَدَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ﴾ [الصافات] وهو سبحانه القوى القاهرة لكل شيء، الحكيم في خلقه وتدبيره.

(١) يُنظر: «تفسير الخازن» (١٤٦/٤) و«تفسير التحرير والتنوير» (١٥٤/١٢) و«حاشية الصاوي» (٩٢/٤).

ثَلَاثَةُ أَوْصَافٍ لِلنَّبِيِّ ﷺ

٨- ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَهِيدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا﴾

وبمناسبة صلح الحديبية، وما أعده الله لرسوله من الفتح والنصر بعدها، بيّن سبحانه مراده من إرسال محمد ﷺ ليكون كالمقدمة للقصة، وجاء ذلك في معرض الامتنان على النبي ﷺ حيث شرفه الله بالرسالة، وبعثه إلى الناس كافة، وفي هذه الآية ثلاثة أوصاف وصف الله بها رسوله ﷺ، وهي: شاهد، ومبشر، ونذير.

١ - فالشاهد: هو المخبر بتصديق أحد أو تكذيبه، والنبي ﷺ يشهد على أمته يوم القيامة بالبلاغ، وأنه قد بيّن لهم ما أرسله به ربه إليهم، قال تعالى: ﴿فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَى هَؤُلَاءِ شَهِيدًا﴾ [النساء].

وقال سبحانه: ﴿وَيَكُونُ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾ [البقرة: ١٤٣].

وقال جلّ شأنه: ﴿وَجِئْنَا بِكَ شَهِيدًا عَلَى هَؤُلَاءِ﴾ [النحل: ٨٩].

وشهادة الرسول على الأمة أنه قد بلغها رسالة ربه؛ حتى لا يُعذر المخالفون للهدى النبوي، وتعاليم الرسالة الخاتمة.

وهو صلى الله عليه وسلم شاهد لأمره بما فعلوه وما تكلموا به من خير أو شر وحق وباطل.

وهو ﷺ شاهد لله تعالى بالوحدانية والتفرد المطلق بصفات الجلال والكمال.

٢- وهو ﷺ المبشّر: لمن آمن بالله وأطاعه، واتبع ما جاء به محمد ﷺ، بالجنة والثواب الجزيل، في الدنيا والآخرة، ومن تمام البشارة بيان طرق السعادة وأعمال الخير التي يبشر بها المؤمن.

٣- والنذير: لمن جحد وحدانية الله تعالى، وجحد عموم رسالة النبي ﷺ، وجحد نسخها لما سبقها من الرسالات، فهو منذر لهم بالعقاب العاجل والآجل، ينذر هؤلاء وغيرهم بالعذاب الأليم، ومن تمام الإنذار، بيان طرق الشقاء، وأعمال الشر التي ينذر بها العبد.

أَرْبَعَةُ أَسْبَابٍ لِرِسَالَةِ النَّبِيِّ ﷺ

٩- ﴿لَتُؤْمِنُوا^(١) بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ وَتُسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ۝﴾

في هذه الآية بيّن سبحانه الحكمة من رسالة النبي ﷺ، فذكر منها أربعة أسباب:

الأول: الإيمان بالله ورسوله حق الإيمان عن اعتقاد ويقين، والإيمان بالبعث والحساب بعد الموت إيماناً لا يخالطه شك ولا ارتياب، والمراد: إيمان الناس جميعاً الذين أرسل إليهم النبي ﷺ شاهداً ومبشراً ونذيراً، وهم أمة الدعوة الذين لم يؤمنوا بخاتم المرسلين إلى يومنا هذا، وأمة الإجابة الذين آمنوا به ﷺ واتبعوه، وهذا معنى ﴿لَتُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾، والإيمان يستلزم الطاعة والعمل الصالح.

الثاني: ﴿وَتُعَزِّرُوهُ﴾ أي: تعزروا الرسول ﷺ فتجلبوه وتُجْلُوهُ وتقوموا بحقوقه، وتؤيدوه وتنصروا دين الله تعالى، وهو من التعزيز بمعنى: النصرة والتأييد، كقوله تعالى:

﴿إِنْ نَصْرُوا اللَّهَ يَنْصُرْكُمْ﴾ [محمد: ٧]، وليس من التعزيز الذي هو بمعنى التأديب.

الثالث: ﴿وَتُوَقِّرُوهُ﴾ أي: تعظموا رسول الله ﷺ، وهو من التوقير، بمعنى: التعظيم والتبجيل والتشريف.

الرابع: ﴿وَتُسَبِّحُوهُ﴾ أي: تنزهوا الله تعالى وتقدسوه عن كل نقص في أول النهار وآخره ﴿بُكْرَةً وَأَصِيلًا﴾. وقيل: إن المراد بالتسبيح: الصلوات الواجبة.

والضمائر الثلاثة على هذا المعنى في ﴿وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ وَتُسَبِّحُوهُ﴾ تعود على الرسول ﷺ.

وقال ابن عباس رضي الله عنهما: إن ضمير ﴿وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ﴾ يعود على رسول الله ﷺ.

وعلى هذا فإن الوقف على ﴿وَتُوَقِّرُوهُ﴾ وقف تام؛ لأن التسبيح يكون لله تعالى، أما التعزيز والتوقير فهو للنبي ﷺ.

(١) قرأ ابن كثير وأبو عمرو بياء الغيبة في هذه الألفاظ الأربعة (لتؤمنوا، وتعزروه، وتوقروه، وتسبحوه) والباقون بياء الخطاب في الجميع، وقرأ ورش وأبو جعفر وأبو عمرو بخلف عنه بإبدال همزة (لتؤمنوا) واوًا، وللأزرق في (تعزروه و توقروه) تريق الراء وتفخيمها، ووصل ابن كثير الهاء في (تعزروه و توقروه وتسبحوه) بحرف مد، والباقون بعدم الصلة.

هذا: وقد ذكر الله سبحانه وتعالى في هذه الآية الحق المشترك بين الله ورسوله، وهو الإيمان بهما، ثم ذكر صفتين تخصان النبي ﷺ وهما: التعزير والتوقير، ثم ذكر صفة خاصة بالله تعالى وهي: التسبيح والتقدیس والتنزيه.

ونظير هذه الآية في (سورة الأحزاب) قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَهِيدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا﴾ [الأحزاب: ٤٥] وفيها زيادة وصفين للنبي ﷺ هما: ﴿وَدَاعِيًا إِلَى اللَّهِ بِإِذْنِهِ وَسِرَاجًا مُنِيرًا﴾ [الأحزاب: ٤٦]

وذلك لأن الآيات في (سورة الأحزاب) جاءت في سياق تنزيه النبي ﷺ عما قاله الطاعنون في زواجه ﷺ من مطلقة زيد بن حارثة لإبطال قاعدة التنبئ، فناسب ذلك الزيادة في أوصافه، إشارة إلى أنه ﷺ إمام يدعو الناس إلى دين الله تعالى، وأنه ﷺ سراج يُهتدى به.

أما التي في (سورة الفتح) فقد اقتصر على الصفات الأصلية؛ لأنها في سياق إبطال شك الذين شكوا في أمر الصلح والوعد بالفتح والنصر^(١).

الإشادة بمن بايع النبي ﷺ يوم الحديبية

١٠- ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللَّهَ يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ فَمَنْ نَكَثَ فَإِنَّمَا يَنْكُثُ عَلَى نَفْسِهِ وَمَنْ أَوْفَى بِمَا عَاهَدَ عَلَيْهِ^(٢) اللَّهُ فَمَسِيئَتُهُ^(٣) أَجْرًا عَظِيمًا^(٤)﴾

تشرع السورة في الغرض الأصلي منها، فتحدث عن بيعة الرضوان، وهي البيعة التي بايعها المسلمون للنبي ﷺ يوم الحديبية، تحت شجرة من السمر، أي: الطلح، وكانوا ألفاً وأربع مئة على أكثر الروايات، وأول من بايع النبي ﷺ تحت الشجرة: أبو سنان الأسدي^(٤).

وقد بايعوا النبي ﷺ على ألا يفرؤا عنه، ولو لم يبق منهم إلا القليل، ولو كانوا في

(١) يُنظر: «تفسير التحرير والتنوير» (١٢/١٥٧).

(٢) قرأ حفص بضم هاء الضمير من (عليه) وصلاً على الأصل في الضمائر، ويلزم منه تفخيم لفظ الجلالة، وقرأ الباقر بالكسر ويلزم فيه تريق لفظ الجلالة.

(٣) قرأ أبو عمرو وعاصم وحزمة والكسائي ورويس وخلف بياء الغيب في (فسيؤتيه)، والباقر بنون العظمة.

(٤) «السيرة النبوية» لابن هشام (٢/٣١٦).

حالة يجوز الفرار فيها، وهذه هي بنود البيعة:

عن عبادة بن الصامت رضي الله عنه قال: بايعنا رسول الله ﷺ على السمع والطاعة في النشاط والكسل، وعلى النفقة في العسر واليسر، والمنشط والمكره، وعلى الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وعلى أن نقول الحق في الله، لا تأخذنا فيه لومة لائم، وعلى أن نصره إذا قدم علينا يثرب، فتمنعه مما تمنع أنفسنا وأزواجنا وأبنائنا، ولنا الجنة، فمن وفى وفى الله له، ومن نكث فإنما ينكث على نفسه^(١).

قال جابر: كنا يوم الحديبية ألفاً وأربع مئة، فبايعناه -أي: النبي ﷺ- وعمر آخذ بيده تحت الشجرة، وهي سُمرة، وقال: بايعناه على ألا نفر، ولم نبايعه على الموت^(٢).

وسُميت بيعة الرضوان لقوله تعالى: ﴿لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ﴾.

سبب البيعة:

وكان سبب هذه البيعة أن رسول الله ﷺ أرسل عثمان بن عفان من الحديبية إلى أهل مكة ليفاوضهم على أن يتركوا الرسول وصحبه يعمرون بالبيت، فاحتبسته قريش عندها، وأشيع أن عثمان قد قُتل، فعزم النبي ﷺ على قتالهم، ودعا أصحابه إلى مبايعته على ذلك.

قال جابر بن عبد الله: بايعوه على ألا يفروا، كما جاء في الصحيحين، وقد سبق بيانه.

وقال سلمة بن الأكوع وعبد الله بن زيد: بايعناه على الموت.

ولا خلاف في هذا؛ لأن عدم الفرار، يقتضي الثبات إلى الموت أو النصر، ولم يتخلف أحد ممن خرج مع النبي ﷺ إلى الحديبية عن البيعة، إلا عثمان رضي الله عنه؛ لأنه كان في مكة، فوضع النبي ﷺ يده اليمنى على يده اليسرى وقال: «هذه يد عثمان»^(٣).

ثم جاء عثمان بعد ذلك فبايع.

(١) يُنظر: «المستند» (٢٢٦٧٩) قال محققوه: إسناده صحيح، على شرط الشيخين، والبخاري بنحوه (١٨)،

(٤٨٩٤) ومسلم (١٧٠٩) والحميدي (٣٨٧) والترمذي (١٤٣٩) والنسائي (١٦١/٧).

(٢) «صحيح مسلم» (١٨٥٦) والبخاري (٢٩٦٠).

(٣) صحيح البخاري من حديث ابن عمر (٤٠٦٦، ٣٦٩٩) من حديث طويل.

وعن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: لما أمر رسول الله ﷺ ببيعة الرضوان، كان عثمان رضي الله عنه رسول رسول الله إلى أهل مكة، فبايع الناس، فقال رسول الله ﷺ: «اللهم إن عثمان في حاجة الله وحاجة رسوله»^(١) فضرب بإحدى يديه على الأخرى، فكانت يد رسول الله لعثمان خيراً من أيديهم لأنفسهم^(٢)، وتخلّف عن البيعة الجدّ بن قيس، فاختمى وراء جملة حتى بايع الناس، ولم يكن منافقاً، ولكنه كان ضعيف العزم.

وقال النبي ﷺ لأهل البيعة: «أنتم خير أهل الأرض» كما جاء في حديث جابر بن عبد الله^(٣).

وكانت بيعة عمر رضي الله عنه بعد بيعة ابنه عبد الله، وذلك أن الناس كانوا متفرقين في ظل الشجرة، فنظر عمر فوجدهم مُحدّقين حول النبي ﷺ فقال: يا عبد الله، انظر ما شأن الناس أحدقوا حول رسول الله، فوجدهم عبد الله يبايعون النبي ﷺ فبايع، ثم رجع إلى عمر، فقام فبايع^(٤).

وفي صحيح مسلم: أن رسول الله ﷺ لما بايع الناس، كان عمر آخذاً بيد رسول الله ﷺ، أي: كان يضع يد رسول الله في أيدي الناس؛ كي لا يتعب بتحريكها لكثرة المبايعين، ويحمل هذا على أن عمر أخذ بيد النبي ﷺ بعد أن بايع.

وقد حصل الأجر لأهل البيعة بمقتضى نياتهم، وإن كان سبب المبايعات قد زال بالصلح الذي تم بين الرسول ﷺ وأهل مكة، ولم يحدث قتال بين الطرفين.

وفي صحيح مسلم: عن أم مبشر، أنها سمعت رسول الله ﷺ يقول: «لا يدخل النار - إن شاء الله - من أصحاب الشجرة أحد الذين بايعوا تحتها»، ف قيل للنبي ﷺ: ﴿وَلَوْ أَنَّ مِنَ النَّارِ مَوْجًا مِثْلَ مَوْجِ الْوَادِيَةِ لَمُنَّجَتْ مِنْهَا أُولَٰئِكَ أَلْفٌ مِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ كَمَا أَلْفٌ مِنْ أَهْلِ النَّارِ لَمُنَّجَتْ مِنْهَا﴾ [مريم: ٧١]. فقال النبي ﷺ: «قد قال الله تعالى: ﴿ثُمَّ نَجَّيَ الَّذِينَ آمَنُوا وَنُدْرُ الْأُولِيْنَ فِيهَا جَبَّتًا﴾»^(٥) [مريم].

(١) الأحاديث المختارة (٢٤٠٨) ج ٥ ص ٦٢٦ وقد ضعفه الألباني في ضعيف الترمذي (٣٧٠٢).

(٢) نقله ابن كثير عن البيهقي في تفسيره للآية (٣٣٢/٧) و«الدر المنثور» (٤٨٢/١٣).

(٣) البخاري برقم (٤١٥٤، ٤٨٤٠) ومسلم برقم (١٨٥٦) و«مسند الحميدي» (٥١٤/٢) و«مسند أحمد» (١٤٣١٣). بإسناد صحيح على شرط الشيخين.

(٤) يُنظر: «صحيح البخاري» برقم (٣٩١٦، ٤١٨٧).

(٥) «صحيح مسلم» برقم (٢٤٩٦).

وجاء عَبْدٌ لحاطب بن أبي بلتعة يشكوه إلى النبي ﷺ، ويقول: ليدخلنَّ حاطب النار، فقال ﷺ: «كذبت، لا يدخلها، فإنه قد شهد بدرًا والحديبية»^(١).

والمعنى: قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ﴾ أيها الرسول بالحديبية على قتال المشركين -بيعة الرضوان- فعاهدوا الله تعالى على الثبات في القتال وعدم الفرار عند لقاء الأعداء ﴿إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللَّهَ﴾؛ في الحقيقة، ويعقدون الصفقة معه، لأن الرسول ﷺ سفير ومبلغ عن ربه، أي: إنهم في الحقيقة إنما يعاهدون الله، ويعقدون معه العقد ابتغاء جنته ورضوانه، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِآثَرٍ لَهُمْ فِي الْجَنَّةِ﴾ [التوبة: ١١١]. وقال أيضًا: ﴿مَنْ يُطِيعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ﴾ [النساء: ٨٠]

وقوله: ﴿يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ﴾ أي: فهو معهم يسمع أقوالهم، ويرى مكانهم، ويعلم ظواهرهم وبواطنهم.

قال الزمخشري: يريد يد رسول الله ﷺ التي تعلو أيدي المبايعين، وأنها فوق أيديهم؛ لأن من بايع الرسول فقد بايع الله.

وفي هذا إشارة إلى تأكيد البيعة حتى لكان الصحابة بايعوا الله تعالى وصافحوه بتلك البيعة، وهذا لزيادة التأكيد والتقوية، وحملهم على الوفاء بما جاء فيها، ولهذا كانت عقوبة من لم يف بالبيعة، تعود عليه بالوبال وسوء العقاب.

وفي هذا إثبات صفة اليد لله تعالى بما يليق بجلاله ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ [الشورى: ١١] فالله تعالى له يد كما أثبت ذلك لنفسه، وحقيقتها عند الله تعالى لا يعلمها إلا هو، وليس لنا أن نُشبهه، أو نُعطل فنقول: ليس له يد، أو نُؤول فنقول: معناها القدرة، بل نُثبتها كما جاءت، ونفوض العلم بها إلى الله وحده.

﴿فَمَنْ نَكَتَ فَإِنَّمَا يَنْكُ عَلَى نَفْسِهِ﴾ أي: ومن نقض عهده مع الله ومع رسوله، فإنما يعود وبال ذلك على نفسه، وقد حرم نفسه الثواب وألزمها العقاب.

﴿وَمَنْ أَوْفَى بِمَا عَاهَدَ عَلَيْهِ اللَّهُ﴾ أي من صبر عند لقاء العدو، وثبت في سبيل الله ونصرة نبيه ﷺ، ووفى بعهده مع الله ورسوله، فسيعطيه الله ثوابًا جزيلاً في الآخرة، هو الجنة دار الأبرار ﴿فَسَيُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا﴾.

(١) «صحيح مسلم» (٢٤٩٥) من حديث جابر.

الإِعْلَامُ الْمُسَبِّقُ بِأَعْذَارِ الْمُتَخَلِّفِينَ عَنِ الْخُرُوجِ إِلَى الْحُدَيْبِيَّةِ

١١- ﴿سَيَقُولُ لَكَ الْمُخَلَّفُونَ مِنَ الْأَعْرَابِ شَغَلَتْنَا أَمْوَالُنَا وَأَهْلُونَا فَاسْتَغْفِرْ لَنَا يَقُولُونَ بِآلِسِنَاهُمْ مَا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ قُلْ فَمَنْ يَمْلِكُ لَكُمْ مِنْ اللَّهِ شَيْئًا إِنْ أَرَادَ بِكُمْ ضَرًّا^(١) أَوْ أَرَادَ بِكُمْ نَفْعًا بَلْ كَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا﴾

وبعد أن حذر الله تعالى مِنْ نَكْثِ الْعُهُودِ، وَرَغَبَ فِي الْوَفَاءِ بِهَا، أَعْلَمَ نَبِيَهُ ﷺ بِمَا سَيَعْتَذِرُ بِهِ الَّذِينَ تَخَلَّفُوا عَنِ الْخُرُوجِ مَعَهُ إِلَى عُمْرَةِ الْحُدَيْبِيَّةِ مِنْ أَعْرَابِ الْبَادِيَةِ السَّاكِنِينَ حَوْلَ الْمَدِينَةِ، ظَنًّا مِنْهُمْ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ سَيُهْزِمُ، وَذَلِكَ أَنَّهُ لَمَّا عَزَمَ عَلَى الْمَسِيرِ إِلَى مَكَّةَ مُعْتَمِرًا اسْتَنْفَرَ مَنْ هُمْ حَوْلَ الْمَدِينَةِ مِنَ الْأَعْرَابِ وَأَهْلِ الْبَوَادِي لِيُخْرِجُوا مَعَهُ، فَرَأَوْا أَنَّهُ سَيَسْتَقْبِلُ عَدَدًا عَظِيمًا مِنْ قَرِيشٍ وَثَقِيفٍ وَكِنَانَةٍ، وَالْقَبَائِلَ الْمُجَاوِرَةَ لِمَكَّةَ مِنَ الْأَحَابِيشِ، وَلَمْ يَكُنِ الْإِيمَانُ قَدْ تَمَكَّنَ مِنْ قُلُوبِهِمْ، فَقَعَدُوا وَتَخَلَّفُوا عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ حَذَرًا مِنْ قَرِيشٍ أَنْ يَحَارِبُوهُ أَوْ يَصُدُّوهُ عَنِ الْحَرَمِ.

فَأَحْرَمَ النَّبِيُّ ﷺ بِالْعُمْرَةِ وَسَاقَ مَعَهُ الْهَذْيَ لِيُعْلَمَ النَّاسُ أَنَّهُ إِنَّمَا خَرَجَ مُعْتَمِرًا، فَتَنَاقَلَ عَنِ الْخُرُوجِ مَعَهُ سِتُّ مِنَ الْقَبَائِلِ بَعْدَ أَنْ بَايَعُوهُ عَلَى الْخُرُوجِ، وَهُمْ قَبَائِلُ: غِفَارٍ، وَمُزَيْنَةٍ، وَجُهَيْنَةٍ، وَأَشْجَعٍ، وَأَسْلَمَ، وَالذَّلِيلِ، وَخَرَجَ مَعَهُ مِنْ أَسْلَمَ مِثَّةَ رَجُلٍ، وَتَخَلَّفَ مُعْظَمُهُمْ، وَلَمْ يَكُونُوا مُنَافِقِينَ، وَلَكِنْ الْإِيمَانُ لَمْ يَكُنْ قَدْ تَمَكَّنَ مِنْ قُلُوبِهِمْ، وَكَانُوا قَدْ أَعْدَوْا الْمَعْذِرَةَ لِلنَّبِيِّ ﷺ بَعْدَ رَجُوعِهِ إِلَى الْمَدِينَةِ بِأَنْ أَمْوَالَهُمْ وَأَهْلِيَهُمْ شَغَلُوهُمْ عَنِ الْخُرُوجِ مَعَهُ، فَأَخْبَرَ اللَّهُ رَسُولَهُ بِمَا بَيَّنَّوهُ فِي قُلُوبِهِمْ مِنَ التَّخَلُّفِ، وَفَضَحَ أَمْرَهُمْ قَبْلَ أَنْ يَصِلُوا إِلَيْهِ وَيَعْتَذِرُوا، وَهَذَا مِنْ مُعْجَزَاتِ الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ.

وَالْمَعْنَى: ﴿سَيَقُولُ لَكَ﴾ أَيُّهَا الرَّسُولُ ﴿الْمُخَلَّفُونَ﴾ عَنِ الْخُرُوجِ مَعَكَ إِلَى عُمْرَةِ الْحُدَيْبِيَّةِ، عِنْدَ عَوْدَتِكَ إِلَى الْمَدِينَةِ مُعْتَذِرِينَ كَاذِبِينَ فِي عَذْرِهِمْ، مِنَ الَّذِينَ تَخَلَّفُوا عَنِ الْخُرُوجِ مَعَكَ كَقَبِيلَتِي جُهَيْنَةٍ وَمُزَيْنَةٍ بَعْدَ أَنْ بَايَعُوكَ عَلَى الْخُرُوجِ ﴿مِنْ﴾ قَبَائِلِ ﴿الْأَعْرَابِ﴾ النَّازِلِينَ حَوْلَ الْمَدِينَةِ ﴿شَغَلَتْنَا أَمْوَالُنَا وَأَهْلُونَا﴾ شُغْلُنَا عَنِ الْخُرُوجِ مَعَكَ بِالْأَمْوَالِ وَالنِّسَاءِ وَالذَّرِيَّةِ، فَلَمْ نَجِدْ مَنْ يَخْلُفُنَا فِيهِمْ، فَلِذَا تَخَلَّفْنَا عَنْكَ ﴿فَاسْتَغْفِرْ لَنَا﴾ أَيُّ: اطْلُبْ لَنَا

(١) قرأ حمزة والكسائي وخلف بضم الضاد من (ضُرًّا)، والباقون بفتحها، وهما لغتان.

المغفرة من الله تعالى، فنحن معترفون بالتقصير، قالوا ذلك بأفواههم مُدارة ومصانعة من غير ندم ولا توبة، وقد ظنوا أن استغفار النبي ﷺ لهم يمحو عنهم ما أضمره في أنفسهم من نكث العهد، وغاب عنهم أن عِلْمَ الله تعالى محيط بما أضمره.

ولما كان قولهم هذا غير صحيح، فقد كَذَّبَهُم الله تعالى في اعتذارهم، فقال: ﴿يَقُولُونَ يَا أَسَنَتِهِمْ مَا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ﴾ أي: إن ما يقولونه بألسنتهم من طلب الاستغفار لهم من رسول الله ﷺ ومن سبب التخلف عن الخروج معك، قول ليست له حقيقة في الواقع، فهو لم يصدر من قلوبهم بل خرج من أطراف ألسنتهم، وهم كاذبون في اعتذارهم، وإنما تخلفوا لأنهم ظنوا أن أهل مكة سيغلبون النبي ﷺ وصحبه.

وطلبهم الاستغفار يدل على ندمهم وإقرارهم على أنفسهم بالذنب، وأنهم تخلفوا تخلفاً يحتاج إلى توبة واستغفار، فلو كان هذا من قلوبهم لنفعهم استغفار الرسول لهم، ولكنهم تخلفوا لضعف إيمانهم، وسوء ظنهم بالله تعالى.

ولما كان تخلفهم عن رسول الله ﷺ بزعم دفع الضر عنهم، أو جلب النفع بالسلامة لهم ولأموالهم من مخاطر الحرب، فقد قال تعالى: ﴿قُلْ فَمَنْ يَمْلِكُ لَكُمْ مِنْ اللَّهِ شَيْئًا﴾ أي: من يمنعكم من مشيئة الله وقضائه؟ ومن يحمي أهليكم وأموالكم إن أراد الله بكم سوءاً؟ وهل أملك نفعكم أو رفع الضر عنكم باستغفاري لكم؟ فلا يقدر على ذلك إلا الله وحده؛ لأن قضاء الله تعالى لا دافع له ﴿مَا يَفْتَحُ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِنْ رَحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا وَمَا يُمْسِكُ فَلَا مُرْسِلَ لَهُ مِنْ بَعْدِهِ﴾ [فاطر: ٢].

وهذا معنى ﴿إِنْ أَرَادَ بِكُمْ ضَرًّا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ نَفْعًا﴾ أي: إن أراد الله أن يلحق بكم أمراً يضركم، كالهزيمة والمرض والفقر، أو أمراً ينفعكم كالنصر والغنيمة والصحة والثراء، فلا راد لقضائه، ولا معقب لحكمه، قال تعالى: ﴿قُلْ مَنْ ذَا الَّذِي يَعْصِيكُمْ مِنْ اللَّهِ إِنْ أَرَادَ بِكُمْ سُوءًا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ رَحْمَةً﴾ [الأحزاب: ١٧].

وقال سبحانه: ﴿قُلْ لَا أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعًا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ﴾ [الأعراف: ١٨٨].

فليس الأمر كما زعمتم من إظهار الاعتذار، وطلب الاستغفار، وإخفائكم الحقيقة، بل إن الله تعالى يعلم السرائر، ولا يخفى عليه شيء من أعمال خلقه ﴿بَلْ كَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا﴾

فهو يعلم أن تخلفكم ليس لما زعمتم، بل إن الله تعالى يعلم حقيقة تخلفكم، وأنه كان شكاً ونفاقاً، إذ لا تخفى عليه خافية في الأرض ولا في السماء، والمراد: تخويفهم من عذاب الله تعالى ليكثرُوا من التوبة، ويتداركوا أمرهم، وليس بإمكانهم تحويل الشر إلى خير، كما قال تعالى: ﴿وَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ فِتْنَتَهُ فَلَنْ تَمْلِكَ لَهُ مِنَ اللَّهِ شَيْئاً﴾ [المائدة: ٤١].

السَّبَبُ الْحَقِيقِيُّ لِتَخَلُّفِ الْأَعْرَابِ عَنِ الْخُرُوجِ مَعَ الرَّسُولِ ﷺ

١٢- ﴿بَلْ ظَنَنْتُمْ أَنْ لَنْ يَنْقَلِبَ الرَّسُولُ وَالْمُؤْمِنُونَ إِلَىٰ أَهْلِيهِمْ أَبَدًا وَزُيِّنَ ذَٰلِكَ فِي قُلُوبِكُمْ وَظَنَنْتُمْ ظَنًّا سَوِيًّا وَكُنْتُمْ قَوْمًا بُورًا﴾ ﴿١٢﴾

أي: ومن إحاطة علم الله تعالى بالمنافقين وبغيرهم، أنه سبحانه يعلم السبب الحقيقي الذي منعهم من الخروج مع النبي ﷺ في عمرة الحديبية؛ إذ ليس الأمر كما زعمتم -أيها المتخلفون- من انشغالكم بالأموال والأولاد، بل إنكم توقَّعتم أن العدو سيستأصل شأفة المسلمين بالقتل، وأن الرسول ومن معه سيهلكون ولا يرجعون إليكم أبداً، وحسَّن الشيطان لكم هذا الزعم الفاسد في قلوبكم ﴿وَظَنَنْتُمْ﴾ بالدين وبالمؤمنين ﴿ظَنًّا سَوِيًّا﴾ حيث جزمتم باستئصال أهل الحديبية، وانتصار أهل الشرك عليهم، وغزوهم للمدينة، وذلك أنهم قالوا: إن محمداً وأصحابه قلة، فلن يرجعوا إليكم أبداً، فأين تذهبون معهم؟! بل انظروا ماذا يكون من أمرهم، قال تعالى: ﴿وَكَُنْتُمْ﴾ بهذا الظن الفاسد ﴿قَوْمًا بُورًا﴾ هلكى لا خير فيكم.

وهذا أحد أمرين ترتبا على هذا الظن، وهو كونهم لا خير فيهم، إذ لو كان فيهم خير لم يكن هذا الظن في قلوبهم، والأمر الآخر هو: ضعف إيمانهم ويقينهم بوعده الله تعالى في نصر دينه وإعلاء كلمته، وهذا ما أشارت إليه الآية التالية:

عَدَمُ الْإِيمَانِ بِاللَّهِ وَالرَّسُولِ يُؤَدِّي إِلَى نَارِ السَّعِيرِ

١٣- ﴿وَمَنْ لَّمْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ فَإِنَّا أَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ سَعِيرًا﴾ ﴿١٣﴾

ولمَّا ذكر سبحانه حال المتخلفين عن رسول الله ﷺ، وبيَّن فساد ظنهم، أشار جلاً شأنه إلى أن هذا الظن قد يفضي إلى الكفر، فحرَّضهم على الإيمان بالله والتوبة إليه مما بدر منهم، فقال تعالى: ﴿وَمَنْ لَّمْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾ أي: ومن لم يصدِّق بالله تعالى، وبكل ما

جاء به رسوله ﷺ، ويعمل بشرعه فيطيعه فيما أمر ونهى، فإنه كافر مستحق للعقاب وهذا معنى: ﴿فَإِنَّا أَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ سَعِيرًا﴾ أي: أعتدنا له في الآخرة نارا مُسَعَّرَةً تَحْرُقُ الأبدان وتَشْوِي الوجوه، جزاء تخلفه عن رسول الله ﷺ واعتقاده أن الله تعالى لن ينصر رسوله.

وَعِيدٌ لِّلْمُنَافِقِينَ فِيهِ إِمَهَالٌ وَرَجَاءٌ

١٤- ﴿وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ يَغْفِرُ لِمَن يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾

وبعد أن ذكر جلَّ شأنه المبايعين لرسول الله ﷺ، والمتخلفين عنه، الذين طلبوا منه الاستغفار لهم، بيَّن سبحانه وتعالى أن المغفرة والعذاب بيد الله وحده، فهو الذي يملك هذا الكون بما فيه، ومن كان كذلك فهو الذي يَرْحَمُ ويُعَذِّبُ ﴿وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ وما فيهما وما بينهما، يتصرف فيهما كيف يشاء بأحكامه التي قَدَّرَها في الأزل، وأحكامه التي شرعها للناس، وأحكامه التي يجازي بها عباده.

ومن أحكام الجزاء المترتبة على الأحكام الشرعية، غفران الذنوب لمن تاب وأناب وامتنل أمر ربه، وتعذيب من خالف أمر الله تعالى، فهو سبحانه: ﴿يَغْفِرُ لِمَن يَشَاءُ﴾ أي: يتجاوز برحمته عمن يشاء، فيغفر ذنبه ويستر عيبه ﴿وَيُعَذِّبُ﴾ بعذله ﴿مَن يَشَاءُ﴾ وهذا ردٌّ على طمعهم في استغفار رسول الله لهم ﴿وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا﴾ لمن تاب وأناب إليه ﴿رَّحِيمًا﴾ بهم حيث لم يعاجلهم بالعقوبة، ولم يزل سبحانه غفورا رحيمًا في جميع الأوقات، فيقبل توبتهم، ويتجاوز عن خطيئتهم.

وتوبيخهم في الآية فيه رجاء وإمهال؛ لأنهم لم يجاهروا بالكفر، وقد علم الله منهم أنهم سيؤمنون، وأنهم سيطلبون الخروج معه إلى خير طمعًا في الغنيمة.

الْوَعْدُ بِفَتْحِ خَيْبَرَ عَلَى أَيْدِي أَهْلِ الْحُدَيْبِيَّةِ وَخَدَهُمُ

١٥- ﴿سَيَقُولُ الْمُخَلَّفُونَ إِذَا انْطَلَقْتُمْ إِلَى مَغَانِمَ لِتَأْخُذُوهَا ذَرُونَا نَتَّبِعْكُمْ يُرِيدُونَ أَن يُبَدِّلُوا كَلِمَ^(١) اللَّهِ قُل لَّن تَتَّبِعُونَا كَذَلِكُمْ قَالَ اللَّهُ مِنْ قَبْلُ فَسَبِقُوا بَلْ تَحْسُدُونَنَا بَلْ كَاثِبُونَ لَا يَقْهَرُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٥﴾﴾

(١) قرأ حمزة والكسائي وخلف (كَلِمَ الله) بكسر اللام بلا ألف بعدها، اسم جنس، جمع كلمة، وقرأ الباقون (كلام) اسم للجملة، وهما بمعنى واحد.

ولما انصرف المسلمون من الحديبية، انصرفوا إلى صلح من غير قتال، ولم يصيبوا من الغنائم شيئاً، فوعدهم الله فتح خيبر، وأن تكون غنائمها لمن شهد الحديبية خاصة، لا يشاركهم فيها أحد، عوضاً عن غنائم أهل مكة يوم الحديبية؛ حيث لم يصيبوا منها شيئاً، وقد رجع النبي ﷺ من عُمرة الحديبية في شهر ذي الحجة سنة ست من الهجرة، وبعد أيام من شهر المحرم سنة سبع من الهجرة، خرج ﷺ ومَنْ معه إلى غزوة خيبر.

ولما عزم النبي ﷺ على الخروج إلى خيبر، أراد الأعراب الذين تخلفوا عن الخروج إلى الحديبية أن يخرجوا معه إلى خيبر، فمنعهم الله من ذلك؛ لأن غنائم خيبر جعلت لأهل بيعة الرضوان خاصة؛ حيث وعدهم الله بفتح قريب، وقد أعلم الله نبيه سلفاً بما سيكون، فقال تعالى: ﴿سَيَقُولُ الْمُخَلَّفُونَ﴾ أي: الذين تخلفوا عن الخروج مع النبي ﷺ إلى الحديبية، بعد أن خاب ظنهم، فرجعتم سالمين من رحلة العمرة، سيقولون لك ولأصحابك ﴿إِذَا أَنْطَلَقْتُمْ إِلَى مَغَانِمَ﴾ أي إلى غنائم لا قتال فيها ﴿لِتَأْخُذُوهَا﴾ أي: إذا خرجت -أيها الرسول- أنت وأصحابك إلى غنائم خيبر التي وعدكم الله بها، فإن غزوة خيبر كانت بعد الحديبية مباشرة، حيث قال المخلفون للنبي ﷺ وأصحابه: ﴿ذَرُونَا نَتَّبِعْكُمْ﴾ أي: اتركونا نذهب معكم إلى خيبر، لنشارككم في الغنائم التي تنالونها من أعدائكم، وهذا مُشعر بأنهم يعرفون أن النبي ﷺ سيمنعهم من الخروج معه إلى خيبر؛ لأن الله تعالى أمره ألا يخرج معه إلا أهل بيعة الرضوان.

وفي قوله تعالى: ﴿نَتَّبِعْكُمْ﴾ إشارة إلى أنهم راضون أن يكونوا في مؤخرة الجيش كالأتباع، وفي طلبهم الخروج، إشارة إلى طمعهم في الغنائم، وتكذيب لقولهم سابقاً: ﴿سَعَتْنَا أَمْوَالُنَا وَأَهْلُونَا﴾ قال تعالى في الرد عليهم: ﴿يُرِيدُونَ﴾ بقولهم هذا ﴿أَنْ يُبَدِّلُوا﴾ أي: يغيروا ﴿كَلِمَ اللَّهِ﴾ الذي أوحاه إلى رسوله ﷺ من وعد أهل الحديبية خاصة بمغانم خيبر كرامة لهم، وتأديباً للمخلفين، فقد حكم الله بعقوبتهم واختصاص أهل بيعة الرضوان بتلك الغنائم.

وقد أشرك النبي ﷺ في الخروج معه إلى خيبر مع أهل الحديبية مَنْ لَحِقَ بِهِمْ مِنْ أَهْلِ هَجْرَةِ الْحَبْشَةِ، الَّذِينَ أَعْطَاهُمُ النَّبِيُّ ﷺ مِنَ الْغَنَائِمِ، بِوَحْيٍ مِنْ رَبِّهِ، ثُمَّ لَقَّنَ اللَّهُ رَسُولَهُ الرَّدَّ عَلَيْهِمْ فِي قَوْلِهِ: ﴿قُلْ لَنْ تَتَّبِعُونَا﴾ أي لن تخرجوا معنا إلى خيبر لفتحها، لأنكم

محرومون منها بما جنيتم على أنفسكم وبما تركتم القتال أول مرة، فقد أمرني ربي بذلك ﴿كَذَلِكُمْ قَالَ اللَّهُ مِنْ قَبْلُ﴾ أي: إن الله تعالى أمرنا بذلك قبل رجوعنا من الحديبية، تأديباً لكم لامتناعكم عن الخروج إليها بحرمانكم من الغنيمة، عقاباً لكم على عصيانكم للنبي ﷺ، ولسوء ظنكم به وبأصحابه.

ثم أخبر الله تعالى بما سيقوله المخلفون ردّاً على هذا، فقال: ﴿فَسَيَقُولُونَ بَلْ نَحْشُدُونَكُمْ﴾ على الغنائم، وقد تحقق قولهم هذا بعد شهر ونصف، حين سمعوا أن المسلمين يتأهبون للخروج إلى خيبر، فقالوا للمسلمين هذه المقولة: ﴿بَلْ نَحْشُدُونَكُمْ﴾ وأرادوا بالحسد: مقاسمتهم في المغانم، حرصاً على الانفراد بها، أي: إن الله تعالى لم يأمركم بعدم خروجنا معكم، بل إنكم تمنعوننا من الخروج معكم حسداً منكم؛ لئلا نصيب من الغنيمة معكم، فأبطل الله قولهم هذا بقوله: ﴿بَلْ كَانُوا لَا يَفْقَهُونَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ إنهم لم يفهموا عن الله حكمته، فهم جاهلون بشرائع الإسلام ونظمه، ويقتصر فهمهم على الأمور الواضحة، ومنها الحرص على الدنيا، ولو كان عندهم فهم وفقه لأدركوا أن حرمانهم من الخروج إلى خيبر إنما هو بسبب عدم خروجهم إلى الحديبية، فإن المعاصي لها عقوبات.

غزوة خيبر:

ولمّا رجع رسول الله ﷺ من الحديبية أقام بالمدينة بقية شهر ذي الحجة وبعض المحرم، ثم خرج إلى خيبر في المحرم سنة سبع.

وفي الصحيحين: عن أنس رضي الله عنه أن النبي ﷺ كان إذا غزا قومًا لم يكن يغزو بنا حتى يصبح وينظر، فإن لم يسمع أذاناً أغار عليهم، قال: فخرجنا إلى خيبر، فانتهينا إليهم ليلاً، فلمّا أصبح ولم يسمع أذاناً ركب، وركب خلف أبي طلحة، وإن قدمي لتمسّ قدم النبي ﷺ، قال: فخرجوا علينا بمكاتلهم ومساحيهم، فلمّا رأوا رسول الله ﷺ قالوا: محمد والخميس -أي: الجيش- فلما رآهم النبي ﷺ قال: «الله أكبر، خربت خيبر، إنا إذا نزلنا بساحة قوم فساء صباح المنذرين»^(١). والخميس معناه: الجيش.

(١) يُنظر: حديث أنس في البخاري (٣٧١، ٦١٠، ٩٤٧) وغيرها وفي مسلم (٣٦٥) في الجهاد (١٢٠) والنكاح (٨٤).

وأرسل النبي ﷺ إلى علي بن أبي طالب ؓ وهو يقول: لأعطينَ الرايةَ غداً رجلاً يُحب اللهَ ورسولَهُ، ويحبه اللهُ ورسولُهُ، فجاء عليٌّ يقوده رجل آخر؛ لأنه كان مصاباً بالرمد في عينيه، وبصق النبي ﷺ في عينيه فبرأ، وأعطاه الراية، ولما خرج ملك خبير ضربه عليٌّ ضربة فقتله، وكان فتح خبير على يديه^(١).

الشاة المسمومة:

وقد صالح النبي ﷺ أهل خيبر على أن يكون لهم نصف التمر، ولَمَّا سمع أهل فدك بذلك سألوا النبي ﷺ أن يفعل بهم مثلهم، فكانت خيبر للمسلمين، وكانت فدك لرسول الله خاصة؛ لأنهم لم يجلبوا عليها من خيل ولا ركاب، ولما اطمأن النبي ﷺ أهدت له زينب بنت الحارث، امرأة سلام بن مشكم اليهودية شاة مشوية، وسألت: أي عضو من الشاة أحب لرسول الله ﷺ؟ فقيل لها: الذراع، فأكثر فيها السم، وسَمَّت بقية الشاة، فلما وضعنها بين يدي الرسول ﷺ تناول الذراع وأخذ منها قطعة، فلم يستسغها فلفظها، وكان معه بشر بن البراء بن معرور، فأخذ منها كما أخذ رسول الله ﷺ فابتلعها، ولما لفظها النبي ﷺ قال: «إن هذا العظم ليخبرني أنه مسموم»، ثم دعا بالمرأة فاعترفت، فقال: «ما حملك على هذا؟» فقالت: بلغت من قومي ما لا يخفى عليك، فقلت: إن كان ملكاً استرخنا منه، وإن كان نبياً فسيُخبر، فتجاوز عنها رسول الله، ومات (بشر) من أثرها، فقال: يا أم بشر، مازالت أكلُهُ خيبر التي أكلتها مع ابنكِ تُعاودني، فهذا أو أن انقطاع أبهري، فكان المسلمون يرون أن النبي ﷺ مات شهيداً مع ما أكرمه الله به من النبوة^(٢).

وفي الصحيحين: عن أنس أن امرأة يهودية أتت إلى النبي ﷺ بشاة مسمومة، فجاء بها إلى رسول الله ﷺ فسألها عن ذلك، فقالت: أردت لأقتلك، فقال: «ما كان الله ليلسطك علي»^(٣).

وعن عروة، عن عائشة ؓ أن النبي ﷺ كان يقول في مرضه الذي مات فيه: «يا عائشة، ما

(١) تُنظر أحاديث أبي هريرة، وسهل بن سعد، وسلمة بن الأكوع في: «صحيح مسلم» بأرقام: (٢٤٠٥، ٢٤٠٦، ٢٤٠٧) و«صحيح البخاري» بأرقام (٢٩٧٥، ٣٠٠٩، ٣٧٠١، ٣٧٠٢، ٤٢٠٩، ٤٢١٠).

(٢) هذه رواية محمد بن إسحاق، تُنظر غزوة خيبر في: «سيرة ابن هشام».

(٣) «صحيح مسلم» برقم (٢١٩٠) و«صحيح البخاري» برقم (٢٦١٧).

أزال أجد ألم الطعام الذي أكلت بخير، فهذا أوان وجدت انقطاع أبهر من ذلك السم»^(١).

الْوَعْدُ بِالْخُرُوجِ إِلَى حُنَيْنٍ

١٦- ﴿قُلِ لِلْمُخَلَّفِينَ مِنَ الْأَعْرَابِ سَتَدْعُونَ إِلَى قَوْمٍ أُولَىٰ بِأَسِ شَدِيدٍ تَقْتُلُونَهُمْ أَوْ يَسْلُمُونَ فَإِنْ تَطِيعُوا يُؤْزِكُمْ اللَّهُ أَجْرًا حَسَنًا وَإِنْ تَتَوَلَّوْا كَمَا تَوَلَّيْتُمْ مِنْ قَبْلُ يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ ﴿١٦﴾

ثم إن الله تعالى أراد أن يطيب خاطر المخلفين من الأعراب، ويدخل عليهم المسرة بعد الحزن الذي كسر خاطرهم، من جرّاء الحرمان من الخروج إلى خير، وهذا يدل على أنهم قوم يُظهرون الإسلام، وليس عندهم إخلاص، ففتح الله لهم باباً للتوبة وجعل لقبولها علامة، وهي أنه سيطلب منهم الخروج لقتال قوم أقوياء، فإن هم أطاعوا كان إيمانهم حسناً، وسوف يُجزون بالجنة في الآخرة، وإن أعرضوا عما دُعوا إليه عذبهم الله عذاباً أليماً.

﴿قُلْ﴾ أيها الرسول ﴿لِلْمُخَلَّفِينَ مِنَ الْأَعْرَابِ﴾ وهم أهل البادية حول المدينة، الذين تخلّفوا عن الخروج إلى الحديبية ﴿سَتَدْعُونَ﴾ سيدعوكم الرسول ومن ناب منابه ﴿إِلَى﴾ قتال ﴿قَوْمٍ أُولَىٰ بِأَسِ شَدِيدٍ﴾ أصحاب قوة وشدة في الحرب قيل: هم فارس والروم وأشباههم، وقيل: هم مشركوا العرب، وقيل: هم ثقيف وهوازن ﴿تَقْتُلُونَهُمْ أَوْ يَسْلُمُونَ﴾ أي: إما أن تقتلوه، وإما أن تسلموا بلا قتال.

وهذا يشعر بأن القتال لا ينبغي أن يُرفع عنهم حتى يسلموا، ويشعر أيضاً بأن القوم الموصوفين بأنهم أولو بأس شديد، هم من مشركي العرب؛ لأن عرب الجزيرة لا يُقبل منهم إلا الإسلام، ولا يُقبل منهم الجزية، كما قال تعالى: ﴿فَإِذَا أَسْلَخَ الْأَشْهُرَ الْحُرُمَ فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ﴾ [التوبة: ٦].

وقال عن أهل الكتاب: ﴿قَاتِلُوا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حَتَّى يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَنْ يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ﴾ ﴿١٩﴾ [التوبة].

وأرجح الأقوال أن هؤلاء القوم هم ثقيف وهوازن في يوم حنين، حيث فُتحت مكة

بدون قتال، وأقام فيها المسلمون خمسة عشر يومًا بعد فتحها، ثم ذهبوا إلى الطائف لقتال هوازن وثقيف في اثني عشر ألفًا من المسلمين، وكان هذا العدد يضم بين جوانحه الكثير من قبائل: أسلم، وأشجع، وجُهيته، وغِفَار، ومُزينة، وكان الداعي لغزوة حنين هو النبي ﷺ، فاستنفر العرب لذلك، وكانت هوازن وثقيف من أشد العرب بأسًا.

أما الذي دعا إلى حروب الردة فهو أبو بكر .

والذي دعا إلى قتال فارس والروم هو عمر بن الخطاب ، وكان أهل فارس مجوسًا تُقبل منهم الجزية، ويُحتمل أن الله تعالى قد كشف الغيب فأخبر عن المستقبل بما يتضمن خلافة أبي بكر وعمر، وما يكون منهما.

قال رافع بن خديج: كنا نقرأ هذه الآية فيما مضى ولا نعلم من هم، حتى دعا أبو بكر إلى قتال بني حنيفة^(١).

وهذا بخلاف من تخلفوا عن رسول الله ﷺ في غزوة تبوك، فإن الله تعالى منعهم من الخروج مع النبي ﷺ بصفة دائمة، حيث قال فيهم: ﴿فَإِنْ رَجَعَكَ اللَّهُ إِلَى طَائِفَةٍ مِنْهُمْ فَاسْتَأْذِنُوا لَلْخُرُوجِ فَقُلْ لَنْ تَخْرُجُوا مَعِيَ أَبَدًا وَلَنْ تُقَاتِلُوا مَعِيَ عَدُوًّا إِنَّكُمْ رَضِيتُمْ بِالْقُعُودِ أَوَّلَ مَرَّةٍ فَاقْعُدُوا مَعَ الْخَائِفِينَ﴾ [التوبة: ٨٣].

ثم بين سبحانه في نهاية الآية الثواب الجزيل الذي أعدّه الله للطائعين، والعذاب الأليم الذي توعدّ به المخالفين، حيث قال: ﴿فَإِنْ تُطِيعُوا اللَّهَ فَإِنَّمَا يَصْعَدُ إِلَيْهِ مِنْكُمْ خَشْيَةً لَّأَنَّهُ لَآتٍ بِكُمْ خَيْرٌ مِمَّا يَخْتَفُونَ﴾ [التوبة: ١٠٤]. وإن تَوَلَّوْا كَمَا تَوَلَّيْتُمْ مِنْ قَبْلُ أَي: وإن تَعَصَوْا الله تعالى، كما فعلتم حين تخلفتم عن السير مع رسول الله ﷺ إلى الحديبية ﴿بِعَذْبِنَاكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ أي عذابًا موجعًا في نار جهنم يوم القيامة.

أَهْلُ الْأَعْدَارِ فِي الْحَرْبِ

١٧ - ﴿لَيْسَ عَلَى الْأَعْمَى حَرْجٌ وَلَا عَلَى الْأَعْرَجِ حَرْجٌ وَلَا عَلَى الْمَرِيضِ حَرْجٌ وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ يُدْخِلْهُ^(٢) جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَمَنْ يَتَوَلَّ يَْعَذِبْهُ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ [٧]

(١) نقل ذلك ابن عطية (١٣٢/٥) عن الثعلبي.

(٢) قرأ نافع وابن عامر وأبو جعفر بنون العظمة في (يدخله ويعذبه) على الالتفات، والباقون بياء جريًا على السياق.

رفع الله الحرج عن الذين تخلفوا عن الجهاد لأسباب مشروعة، وهم: الأعمى، والأعرج، والمريض، فهؤلاء الثلاثة لهم عذر ظاهر في عدم الجهاد؛ لأنهم لا يقدرّون على الكرّ والفرّ، ولا على حمل السلاح واستخدامه، ولا يمكنهم الإقدام على العدو، والبحث عنه، أو الهرب منه.

ويقاس على هؤلاء الثلاثة كل صاحب عاهة أو مرض لا يمكنه أن يزاوِل الجهاد معه، كالمقعّد، وصاحب المرض المزمن الذي يعوق صاحبه عن العمل، ومقطوع أحد الأعضاء، والفاقد لعقله، والذي يتنزف دمًا، أو يعاني من تليف الكبد، أو تلف الكلى، ونحو ذلك ﴿لَيْسَ عَلَى الْأَعْمَى حَرْجٌ وَلَا عَلَى الْأَعْرَجِ حَرْجٌ وَلَا عَلَى الْمَرِيضِ حَرْجٌ﴾ ليس على هؤلاء الثلاثة وأشباههم إثم ولا ذنب في التخلف عن الجهاد؛ لِمَا بهم من الأعذار الظاهرة، والعاهات المرخّصة لهم في ذلك ﴿وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾ فيما أمرا به ونها عنه ﴿يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ﴾ حدائق وبساتين ﴿تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا﴾ أي: من تحت قصورها وأشجارها ﴿الْأَنْهَارُ﴾ ومن يُعرض عن طاعة الله والرسول، ويتخلف عن الجهاد بدون عذر، يعذبه الله في الدنيا عذابًا شديدًا بالذل والمهانة، وفي الآخرة بعذاب النار ﴿وَمَنْ يَتَوَلَّ يُعَذِّبْهُ عَذَابًا أَلِيمًا﴾. فالسعادة كلها في طاعة الله، والشقاء كله في معصية الله ومخالفة أمره.

بَيْعَةُ الرِّضْوَانِ

١٨، ١٩- ﴿لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنْزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَبَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا ﴿٨﴾ وَمَغَانِمَ كَثِيرَةً يَأْخُذُونَهَا وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿٩﴾﴾

هذا تفصيل الحديث عن بيعة الرضوان، ويقال: بيعة أهل الشجرة، التي سبقت الإشارة إليها في قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَكَ اللَّهَ﴾ الآية [١٠] فتبين هذه الآية أن الله تعالى قد أعطى أهل هذه البيعة أربع مزايا، هي أعظم ما في الدنيا والآخرة من فضل وخير، وهي:

١- رضوان الله تعالى. ٢- والشهادة لهم بإخلاص النية.

٣- وإنزال السكينة عليهم. ٤- ووعدهم بفتح قريب ومغانم كثيرة.

وسبب هذه البيعة أن النبي ﷺ لَمَّا نزل الحديبية أرسل خراش بن أمية الخزاعي إلى أهل

مكة ليلبغهم أنه ﷺ جاء معتمرًا، فعقروا جملَه وأرادوا قتله، فمنعتهم الأحابيش، فخلُّوا سبيلَه، ورجع إلى النبي ﷺ، فأراد أن يرسل إليهم عمر بن الخطاب ؓ، فقال عمر: قد عرفت قريش عداوتي إياها، وغِلظتي عليها، ولكن أدُّلك على رجل هو أعزُّ بها مني: عثمان بن عفان ؓ، فأرسل النبي ﷺ عثمان إلى أبي سفيان وأشراف قريش، يخبرهم أنه ﷺ لم يأت لحرب، وإنما جاء زائرًا للبيت، فخرج عثمان إلى مكة، فلقية أبان بن سعيد بن العاص حين دخل مكة، فترل أبان عن دابته، وحمل عثمان بين يديه، ثم أردفه خلفه وأجاره حتى بلغ رسالة النبي ﷺ إلى كبار القوم، فلما فرغ قالوا له: إن شئت أن تطوف بالبيت فطُف به، فقال: ما كنتُ لأفعل حتى يطوف رسول الله ﷺ فاحتبسته قريش عندها، فبلغ النبي ﷺ أن عثمان قد قُتل، فقال ﷺ: «لا نبرح حتى نناجزهم»، ودعا الناس إلى البيعة فبايعوه، وكان عددهم ألفًا وأربع مئة^(١).

وعن سلمة بن الأكوع، قال: بينما نحن قائلون، إذ نادى منادي رسول الله ﷺ: أيها الناس، البيعة البيعة، نزل روح القدس -أي: جبريل ؑ- قال: فُتُّرنا إلى رسول الله ﷺ وهو تحت شجرة سُمرة -طلح- فبايعناه، فذلك قوله تعالى: ﴿لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ﴾ قال: فبايع لعثمان بأحد يديه على الأخرى، فقال الناس: هنيئًا لابن عفان، يطوف بالبيت ونحن ها هنا، فقال رسول الله ﷺ: «لو مكث كذا وكذا سنة ما طاف حتى أطوف»^(٢).

وفي صحيح مسلم: عن أبي الزبير أنه سمع جابرًا يسأل: كم كانوا يوم الحديبية؟ قال: كنا أربع عشر مئة، فبايعناه، وعمر أخذ بيده تحت الشجرة، وهي سُمرة، فبايعناه جميعًا غير جد بن قيس الأنصاري، اختفى تحت بطن بعيره^(٣).

وفي صحيح مسلم وغيره عن جابر ؓ قال: قال رسول الله ﷺ: «لا يدخل النار أحد ممن بايع تحت الشجرة»^(٤).

(١) يُنظر: «سيرة ابن إسحاق» في صلح الحديبية و«سيرة ابن هشام» (٣١٥/٢) والبيهقي (١٣٢/٤).

(٢) «تفسير الطبري» (١٧٣/٢١) رواه الطبراني في «المعجم الكبير» (٩٠/١) قال الهيثمي في «مجمع الزوائد» (٤٨٤/٩): فيه موسى بن عبيدة وهو ضعيف.

(٣) «صحيح مسلم» برقم (١٨٥٦).

(٤) يُنظر هذا المعنى في: «صحيح مسلم» برقم (٢٤٩٥، ٢٤٩٦).

وقد عرف الناس مكان الشجرة، وكانوا إذا مروا بها يُصلُّون عندها تيمُّناً بها إلى أن كانت خلافة عمر رضي الله عنه، فأمر بقطعها مخافة أن تكون كشجرة ذات أنواط التي كانت في الجاهلية^(١).

وكان بعض الصحابة قد نسي مكانها، كما أن سعيد بن المسيب حين سمع بعض الناس يخبر عن مكانها قال: إن أصحاب محمد ﷺ لم يَعْلَمُوها وعلمتُموها أنتم، أفأنتم أعلم؟!^(٢).

وقد بنى الخليفة العباسي أبو جعفر المنصور مسجداً مكان الشجرة سنة أربع وأربعين ومئتين، يسمى مسجد البيعة، وجده المستنصر العباسي سنة تسع وعشرين وست مئة، ثم جده السلطان محمود خان العثماني سنة أربع وخمسين ومئتين وألف، وهو قائم إلى اليوم^(٣).

﴿لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ من أجل مبايعتهم على نصرك ﴿تَحْتَ الشَّجَرَةِ﴾ وهي شجرة الطلح بالحديبية على مشارف مكة، فلما بايعوه واستعدوا لقتال أهل مكة، وحصل الصلح بينهم وبين رسول الله ﷺ حدثت لهم كآبة في نفوسهم، فأعلمهم الله تعالى أنه علم ما في نفوسهم من الحزن على عدم قتال المشركين، فطمأنهم بتحقيق وعْد الله لهم بفتح قريب، ورضى الله عنهم، ومغانم كثيرة يغنمونها من فتح خيبر، ذلكم قوله تعالى: ﴿فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ﴾ من الإيمان، والصدق، والوفاء، والحرص على جهاد العدو ﴿فَأَنزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ﴾ أي: طمأنهم وثبت قلوبهم وزادهم هدى، شكراً لهم على ما في قلوبهم من الإيمان والإخلاص ﴿وَأَثَبَهُمْ﴾ عوّضهم عما فاتهم بصلح الحديبية ﴿فَتْحًا قَرِيبًا﴾ هو فتح خيبر، لم يحضره إلا أهل الحديبية، فاختصُّوا بخيبر وغنائمها، جزاءً لهم على طاعة الله والقيام بمرضاته.

كما عوّضكم الله يا أهل الحديبية غنائم كثيرة من يهود خيبر، وغيرهم، وكانت خيبر ذات نخل وأموال وعقار ﴿وَمَغَانِرَ كَثِيرَةً يَأْخُذُونَهَا﴾ وقد قسّم النبي ﷺ غنائم خيبر ثمانية عشر سهماً، فأعطى الفارس سهمين، وأعطى الراجل سهماً^(٤).

(١) أخرجه ابن أبي شيبة في «المصنف» (٣٧٥/٢).

(٢) يُنظر: «صحيح البخاري» برقم (٤١٦٢، ٤١٦٣)، (٤١٦٥) وصحيح مسلم (١٨٥٩).

(٣) «التحرير والتنوير» (١٧٥/٢٦).

(٤) يُنظر: ابن أبي شيبة في المغازي برقم (١٨٦٩٢) و«المسند» (٤٢٠/٣) برقم (١٥٤٧٠) قال محققوه:

وإسناده ضعيف لضعف يعقوب بن مَجْمَع بن جارية، وأبو داود برقم (٢٧٣٦) وابن جرير (٤٥/٢٦)

وصححه الحاكم (١٣١/٢) ووافقه الذهبي، والبيهقي في «الدلائل» (٢٣٩/٤).

﴿وَكَانَ اللَّهُ غَزِيرًا﴾ في انتقامه من أعدائه ﴿حَكِيمًا﴾ في تدبير أمور خلقه .

وصح في حديث ابن عمر ؓ أن النبي ﷺ أسهم للرجل ولفرسه ثلاثة أسهم، سهمًا له، وسهمين لفرسه^(١) .

سَبْعُ مِثْقَالِ الذَّوْبِ بِهَا عَلَى أَهْلِ بَيْعَةِ الرِّضْوَانِ

٢٠- ﴿وَعَدَّكُمْ اللَّهُ مَغَانِمَ كَثِيرَةً تَأْخُذُونَهَا فَعَجَّلَ لَكُمْ هَذِهِ وَكَفَّ أَيْدِيَ النَّاسِ عَنْكُمْ وَلِتَكُونَ آيَةً لِلْمُؤْمِنِينَ وَيَهْدِيَكُمْ صِرَاطًا^(٢) مُسْتَقِيمًا ﴿٢٠﴾﴾

الْمِثْقَالُ الْأُولَى: كَثْرَةُ الْفُتُوحَاتِ وَالْمَغَانِمِ

وكما وعد الله أهل الحديبية مغنم خبير، فإنه وعدهم أيضًا -ووعَدَ سائر المسلمين بعدهم- مغنم أخرى كثيرة يأخذونها من أعدائهم ﴿وَعَدَّكُمْ اللَّهُ﴾ يا أهل بيعة الرضوان، وأيها المسلمون في كل زمان ومكان ﴿مَغَانِمَ كَثِيرَةً تَأْخُذُونَهَا﴾ وهذا يشمل كل غنيمة تأخذونها من أعدائكم في أوقاتها التي قدَّرها الله لكم، تغنمونها من الفتوحات التي تُفتح لكم إلى يوم القيامة .

قال في البحر المحيط: ولقد اتسع نطاق الإسلام، وفتح المسلمون فتوحًا لا تُحصى، وغنموا مغنم لا تُعدُّ، وذلك في شرق البلاد وغربها، حتى في الهند والسودان -تصديقًا لوعد الله تعالى- وقد قدم علينا أحد ملوك غانة من بلاد التكرور، وقد فتح أكثر من خمس وعشرين مملكة من بلاد السودان، وأسلموا معه، وقدم علينا بعض ملوكهم يحج معه^(٣) .

وقد كان صلح الحديبية فتحًا ومغنمًا؛ لأن المسلمين غنموا من ورائه انتشار الدعوة الإسلامية في آفاق الأرض، وكان في مقدمة هذه الغنائم ما كان خاصًا بأهل الحديبية ﴿فَعَجَّلَ لَكُمْ هَذِهِ﴾ أي: غنائم خبير، وبعدها غنائم كثيرة تتبعها .

(١) المسند (٤٤٤٨) وإسناده صحيح على شرط الشيخين كما قال محققوه، وأبو داود (٢٧٣٣) وسعيد بن منصور (٢٧٦٢) وابن ماجه (٢٨٥٤) والبخاري في شرح السنة (٢٧٢٢).

(٢) قرأ قبل ورويس بالسین فی (سراطاً) وقرأ خلف عن حمزة بإشمام الصاد صوت الزاي، والباقون بالصاد .

(٣) «البحر المحيط» (٣٩٦/٢٨).

ثم امتنَّ الله على أهل الحديبية الذين حزنوا على عدم قتال المشركين، بأن أنعم عليهم بنعمة السلم، وكفاهم شرور أعدائهم.

الْمِنَّةُ الثَّانِيَةُ: ﴿وَكَفَّ أَيْدَى النَّاسِ عَنْكُمْ﴾

فلم ينلکم منهم سوء مما كان أعداؤکم قد أضمره لکم من المحاربة والقتال، ومن أن ينالوا ممن تركتموهم وراءكم في المدينة، مع قدرتهم على قتالکم وحرصهم عليه.

وذلك لأن المشركين بعثوا أربعين رجلاً لينالوا من المسلمين في الحديبية فأسرهم المسلمون.

قال قتادة: كفَّ الله غطفان ومن معها عن النبي ﷺ حين جاؤوا لنضر أهل خيبر. فإن النبي ﷺ لما قصد خيبر وحاصر أهلها هَمَّتْ قبائل من بني أسد وغطفان أن يُغيروا على نساء المسلمين وذرايهم بالمدينة، فكفَّ الله أيديهم بإلقاء الرعب في قلوبهم^(١). ولهذا نظائر في كل عصر ومصر، يحفظ الله المسلمين من أعدائهم.

الْمِنَّةُ الثَّالِثَةُ: ﴿وَلِتَكُونَ آيَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾

وقد كفَّ الله أيديهم عنكم لتكون هزيمتهم وسلامتكم وغنيمتكم علامة تعتبرون بها ﴿وَلِتَكُونَ﴾ هذه الغنيمة ﴿آيَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ تستدلون بها على صدق وعد الله لكم وعلى ثوابه للمؤمنين، وعلى رعاية الله لكم ورضاه عنكم، وأن الله تعالى حافظكم وناصركم ومرشدكم طريقاً مستقيماً، لا اعوجاج فيه.

الْمِنَّةُ الرَّابِعَةُ: ﴿وَيَهْدِيَكُمْ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا﴾

فكان الله تعالى أنزل السكينة في قلوب المؤمنين لزيادة إيمانهم، واستحقاقهم الجنة، وتكفير سيئاتهم، واستحقاق المنافقين والمشركين العذاب، ولتكون عبرة للمؤمنين يستدلون بها على لطف الله بهم وعلى أن وعده حق.

الْمِنَّةُ الْخَامِسَةُ: الْوَعْدُ بِفَتْحِ فَارِسَ وَالرُّومِ

٢١- ﴿وَأُخْرَى لَمْ تَقْدِرُوا عَلَيْهَا قَدْ أَحَاطَ اللَّهُ بِهَا وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرًا﴾

(١) «تفسير الخازن» (٤/١٥٠).

ولما بشر الله أهل الحديبية بأنه عَجَّلَ لهم غنائم خيبر، وبشر سائر المسلمين بمغانم كثيرة يأخذونها في أوقاتها المقدرة إلى يوم القيامة، بعد ذلك أخبر ﷺ بأنه وعد المسلمين بغنيمة أخرى ليست لهم قدرة على تحصيلها لولا قدرة الله تعالى، فهي تحت تدبيره ومُلْكِهِ، وقد وعدهم الله إياها، ولا بد من وقوع ما وعد الله به، فقال سبحانه:

﴿وَأُخْرَى﴾ أي: وغنيمة أخرى يسرها الله لكم، ﴿لَمْ تَقْدِرُوا عَلَيْهَا﴾ وقت نزول هذه الآيات، ويحدث مثلها على مرّ العصور مما علم الله بها وادّخرها لكم، وهي فوق قدرتكم واستطاعتكم، فهي صعبة المنال بالنسبة لكم ﴿قَدْ أَحَاطَ اللَّهُ بِهَا﴾ أي: هو قادر عليها وهي تحت تدبيره ومملكه، وقد وعدكم الله إياها، ووعدته لا يتخلف، فحفظها لكم بقدرته حتى تأخذوها في وقتها المقدر لكم، ولم تكن أطماعكم تتعلق بها، ولكن الله تعالى لا يُعْجزه أمر من الأمور ﴿وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرًا﴾ لا يتعذر عليه شيء، فهو القادر على نصر أوليائه، يرزقهم من حيث لا يحتسبون، وهو قادر على هزيمة أعدائه، وإن حدث على مدى التاريخ خلاف ذلك، فهو ابتلاء وتمحيص للمؤمنين.

وفيما أشارت إليه هذه الآية أقوال:

فقال ابن عباس ومجاهد: هي الفتوح التي فتحها الله على المسلمين من بعد^(١).
وقال قتادة: بلغنا أنها مكة^(٢).

وقال عليّ وعبد الرحمن بن أبي ليلى وغيرهما: إنها فارس والروم^(٣). وقيل غير ذلك.
قلت: ولعل الأخير هو الأرجح.

وبهذا فقد علم أن هذه الآيات قد أشارت إلى ثلاثة أنواع من المغانم:

- ١- نوع موعود به وهو غنائم خيبر.
- ٢- ونوع مرجو، وهو غنائم كثيرة غير معينة الأوقات.
- ٣- ونوع لا يخطر لهم على بال، ولم تتعلق به أطماعهم، ولعله مغانم بلاد فارس والروم.

(١) البيهقي في «الدلائل» بإسناد حسن (٤/١٦٣).

(٢) أخرجه عبد الرزاق (٢/٢٢٧) والطبري (٢١/٢٨٦).

(٣) يُنظر: ابن عساكر (١/٣٩٧) والطبري (٢١/٢٨٤) والبيهقي (٤/١٦٣).

الْمِنَّةُ السَّادِسَةُ: الرَّفْعُ مِنْ مَغْنَوِيَّاتِ أَهْلِ الْحُدَيْبِيَّةِ

٢٢- ﴿وَلَوْ قَتَلَكُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوَلَّوْا الْأَذْبَرُ ثُمَّ لَا يَحْدُوثُ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا﴾ ﴿٢٢﴾

أخبر جلّ شأنه أن الكفار الذين كفّ الله أيديهم عن المؤمنين، لو أنهم قاتلوا المسلمين لانهزموا أمامهم، وولّوا ظهورهم، كما يفعل المنهزم في القتال.

﴿وَلَوْ قَتَلَكُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ ولو قاتلكم أعداؤكم، وأنتم على مثل هذه الحالة التي كان عليها أصحاب رسول الله ﷺ يوم بيعة الرضوان، من قوة الإيمان، وإخلاص النية، وصدق الجهاد، وحسن الاستعداد، ومباشرة الأسباب ﴿لَوَلَّوْا الْأَذْبَرُ﴾ منهزمين أمامكم ﴿ثُمَّ لَا يَحْدُوثُ وَلِيًّا﴾ يوالِيهم على قتالكم ﴿وَلَا نَصِيرًا﴾ ينصرهم ويعينهم عليكم، بل هم مخذولون مغلوبون.

وهذه سُنَّةُ الله في خلقه، ينصر جنده، ويهزم أعداءه، وهي سُنَّةٌ قديمة ممتدة إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها. قال تعالى:

٢٣- ﴿سُنَّةَ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلُ وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ (١) اللَّهِ تَبْدِيلًا﴾ ﴿٢٣﴾

هذه سُنَّةُ الله في خلقه: ينصر المؤمنين على الكافرين إذا كانت نية المؤمنين نصر دين الله مع الأخذ بالأسباب، كما قال تعالى: ﴿يَتَأَيَّأُ الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنْ نَصَرُوا اللَّهَ يَنْصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ﴾ ﴿٧﴾ [محمد]. وقال جلّ شأنه: ﴿وَلَيَنْصُرَنَّ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ﴾ [الحج: ٤٠].

وقد يكون النصر تامًّا، وقد يكون سجالًا، وقد يتخلف النصر لعدم توافر أسبابه ﴿وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ في نهاية الأمر.

كما جاء في صحيح البخاري ومسلم: عن أبي سعيد الخدري ؓ عن النبي ﷺ قال: «يأتي زمان يغزو فئام من الناس، فيقال: فيكم من صحب النبي ﷺ؟ فيقال: نعم، فيفتح عليه، ثم يأتي زمان فيقال: فيكم من صحب أصحاب النبي ﷺ؟ فيقال: نعم، فيفتح، ثم يأتي زمان فيقال: فيكم من صحب صاحب أصحاب النبي ﷺ؟ فيقال: نعم، فيفتح» (٢).

(١) رسم لفظ (سنة) بهاء التأنيث، ووقف عليها جميع القراء بالهاء، وأمالها الكسائي وقفًا، وكذا حمزة بخلف عنه.

(٢) «صحيح البخاري» بأرقام (٢٨٩٧، ٣٥٩٤، ٣٦٤٩) و«صحيح مسلم» برقم (٢٥٣٢).

وَلَمَّا بَيَّنَّ اللَّهُ سُبْحَانَهُ أَنَّ هَذِهِ السُّنَّةَ ثَابِتَةٌ قَدِيمًا، أَعْقَبَ ذَلِكَ بَيَانُ أَنَّهَا ثَابِتَةٌ أَيْضًا فِي الْحَالِ وَفِي الْمُسْتَقْبَلِ، فَقَالَ: ﴿وَلَنْ نَحْدِلَ فِي سُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا﴾ فهي عادة مطردة في مختلف الأمم والعصور، على ألسنة الرسل جميعًا، وليس في استطاعة كائن من كان أن يحوّل دون إرادة الله تعالى، وهكذا بَشَّرَ الله المؤمنين في هذه الآيات بأربع بشارات:

أَوَّلًا: رضى الله تعالى عنهم.

ثَانِيًا: نزول السكينة والطمأنينة عليهم.

ثَالِثًا: فتوحات وغنائم عاجلة وآجلة.

رَابِعًا: بُشْرَاهُمْ بالنصر على الأعداء.

الْمِنَّةُ السَّابِعَةُ: صِيَانَةُ الدِّمَاءِ فِي الْبَلَدِ الْحَرَامِ

٢٤- ﴿وَهُوَ الَّذِي كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنْكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُمْ بِبَطْنِ مَكَّةَ مِنْ بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ^(١) بَصِيرًا

ثم امتنَّ الله على المؤمنين بأنه لم يترك أحداً من الفريقين -المؤمنين والكافرين- ممن كانوا في الحديبية يَعْتَدِي أحدهما على الآخر، بأسباب أوجدها الله تعالى رفقا بالمؤمنين وإبقاء لقوتهم في وقت حاجتهم إليها بعد ذلك.

﴿وَهُوَ الَّذِي كَفَّ أَيْدِيَهُمْ﴾ أي: منع أيدي المشركين ﴿عَنْكُمْ﴾ أيها المسلمون أن تصل إليكم بأذى، كما منع أيديكم عنهم أن تقتلوهم أيها المسلمون؛ حتى لا يحدث القتال عند المسجد الحرام، بل صان كلاً من الفريقين عن الآخر، وأوجد صلحاً بينهما ﴿بِبَطْنِ مَكَّةَ﴾ أي: في وسط البلد الحرام.

والبطن: هو المكان المنخفض، وكان ذلك بالحديبية على الطريق إلى جدة من مكة، وهو المكان المعروف الآن باسم الشميسي، وبعضه داخل في حدود الحرم، وبعضه من الحل ﴿مِنْ بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ﴾ أي: من بعد ما قدرتم عليهم، فصاروا تحت سلطانكم، وولايتكم بلا عقد ولا عهد، وهم نحو ثمانين رجلاً، أرادوا أن يأخذوا المسلمين على

(١) قرأ أبو عمرو بياء الغيب في (تعملون) لمناسبة (أيديهم)، والباقون بباء الخطاب لمناسبة (وأيديكم).

غرة، فانتبه لهم المسلمون، وأمسكوا بهم، ثم تركوهم ولم يقتلوهم.

كما في صحيح مسلم وغيره عن أنس بن مالك رضي الله عنه: أن ثمانين رجلاً من أهل مكة هبطوا على النبي ﷺ من جبل التنعيم متسلحين، يريدون غرة النبي ﷺ وأصحابه، فأخذهم سلماً فاستحياهم، فأنزل الله تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنْكُمْ^(١)﴾.

وقد كان هذا في أثناء تبادل السفراء بين الفريقين.

فأمر النبي ﷺ بإطلاقهم، ولولا أن الله تعالى نبههم إليهم قبل أن يفاجئوكم بالقتال، فكف بذلك أيديهم عنكم، كما كف أيديكم عنهم، لولا ذلك لحدث ما لا يحمد عقباه، وقد أمر الله رسوله ﷺ أن يعفو عنهم ويطلقهم بعد أن ظفر بهم المسلمون، فأمسكوهم ثم تركوهم ولم يقتلوهم.

ومن المفسرين من قال: إن المراد ببطن مكة، هو مكة نفسها، وأن المسلمين اتبعوا المشركين حتى أدخلوهم بيوت مكة، فقتلوا منهم وأسروا، بعد أن تجمعت قريش مع عكرمة بن أبي جهل وخرجوا يطلبون المسلمين على غرة، وأن النبي ﷺ بعث إليهم خالد بن الوليد وسماه سيف الله.

وهذه الرواية مضطربة؛ لأن خالد بن الوليد وقت صلح الحديبية لم يكن قد أسلم بعد، وكان في طليعة جيش المشركين، فهذه القصة لا يصح أن تكون عام الحديبية، ولا في عمرة القضاء، ولا في يوم فتح مكة، كما قال ابن كثير في تفسيره للآية.

ثم ختم الله الآية بقوله: ﴿وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا﴾ أي: لا تخفى عليه خافية، وسيجازيكم بأعمالكم، فهو سبحانه يراكم ويحيط علمه بكم في كل حال، ومن ذلك أنه جل شأنه يراكم عندما أحطتم بالمشركين وشقتموهم إلى النبي ﷺ تظنون أنكم قاتلوهم أو أسروهم.

(١) «صحيح مسلم» برقم (١٨٠٨) و«المسند» (١٢/٣) برقم (١٢٢٢٧، ١٤٠٩٠) وأبو داود برقم (٢٦٨٨) والنسائي في «السنن الكبرى» برقم (١١٥١٠) والترمذي (٣٢٦٤) وابن أبي شيبة (٤٩٢/١٤) والبيهقي في «الدلائل» (١٤١/٤).

اسْتَحْقَاقُ الْكُفَّارِ لِلْعَذَابِ وَاسْتِحْقَاقُ الْمُؤْمِنِينَ لِلرَّحْمَةِ

٢٥- ﴿هُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَالْمَدَى مَعَكُوفًا أَنْ يَبْلُغَ مَحَلَّهُمْ وَلَوْلَا رِجَالٌ مُؤْمِنُونَ وَنِسَاءٌ مُؤْمِنَاتٌ لَّارْتَدَّ عَنْكُمُ الْكُفْرَانُ وَلَئِنَّكُمْ لَفِي رَبِّكُمْ لَعَذَابٌ أَلِيمٌ ۝٢٥﴾

هذه الآية تُهَيِّجُ المسلمين على قتال المشركين لكفرهم بالله ورسوله، وصددهم رسول الله ﷺ ومن معه عن المسجد الحرام، وهكذا، عَرَّفَ القرآن الكريم الكفار الذين صدوا الرسول ﷺ وأصحابه عن الوصول إلى البيت الحرام، وَبَيَّنَ منزلتهم في ميزان الله تعالى، وذكر أنهم الكافرون حقًا، كما بَيَّنَّ سبحانه ما اكتسبه أهل البيعة من الثواب العاجل والآجل في الدنيا والآخرة، فقال تعالى يصف مشركي مكة بثلاثة أوصاف هي: الكفر، والصد عن المسجد الحرام، ومنع الهدى أن يصل إلى مكة:

﴿هُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ هذه واحدة ﴿وَصَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ﴾ هذه ثانية، أي: إن كفار قريش، ومن كان مثلهم إلى قيام الساعة، مِنَ الَّذِينَ جحدوا توحيد الله ﷻ في كل زمان ومكان، سَيِّمًا الَّذِينَ منعوكم -أيها المسلمون- من دخول المسجد الحرام والطواف به لأداء مناسك العمرة، ولم يكتفوا بذلك، بل منعوا الهدى المحبوس في الحديدية من الوصول إلى محله الذي يُذبح فيه تقريبًا إلى الله تعالى، وكانوا لا يعتقدون بذلك، ولكن حملتهم الأنفة والحمية على أن يفعلوا ما لا يعتقدونه دينًا، فوبَّخهم الله على ذلك وتوعَّدهم عليه.

وكان الهدى الذي مع النبي ﷺ سبعين بدنة، فرخَّص الله للمسلمين أن يذبحوها في الموضع الذي كانوا فيه بالحديدية خارج الحرم؛ لأنهم كانوا في حالة إحصار.

قال تعالى: ﴿وَالْمَدَى مَعَكُوفًا أَنْ يَبْلُغَ مَحَلَّهُمْ﴾ أي: ممنوعًا من الوصول إلى محل نحره بالحرم، إنهم الكافرون حقًا، وقد كان من عادتهم أن يقبلوا كل زائر للكعبة من جميع الأديان، وقد اضطر المسلمون أن ينحروا هداياهم في الحديدية، وبذلك فقد عطل الكفار

(١) قرأ أبو جعفر بحذف الهمزة من (تطوؤهم) فيُنطَق بواو ساكنة بعد الطاء والتاء المفتوحة، ولحمزة وقفًا: الحذف كأبي جعفر، والتسهيل بين بين، وللأزرق الأوجه الثلاثة في مد البدل.

شعيرة من شعائر الله تعالى ظلماً وعدواناً وكل واحد من هذه الثلاثة وهي الكفر بالله والصد عن سبيله ومنع الهدى من الوصول إلى الحرم، كل واحد منها موجب لقتالهم، ولكن الله تعالى حال دون اللقاء بين الفريقين لوجود رجال ونساء مؤمنين بين صفوف المشركين مختلطين بهم وغير مميزين عنهم.

في صحيح البخاري وغيره: عن ابن عمر رضي الله عنه قال: خرجنا مع رسول الله ﷺ معتمرين، فحال كفار قريش دون البيت، فنحر رسول الله ﷺ بؤذنه وحلق رأسه... (١). وفي صحيح مسلم وغيره: عن جابر بن عبد الله رضي الله عنه قال: نحرنا مع رسول الله ﷺ عام الحديبية، البدنة عن سبعة، والبقرة عن سبعة (٢).

ثم بين سبحانه السبب في أن الله تعالى حال بين المؤمنين والكافرين في الحديبية، ولم يقع بينهم قتال، فقال: ﴿وَلَوْلَا رِجَالُ مُؤْمِنُونَ وَنِسَاءُ مُؤْمِنَاتٌ﴾ موجودون في مكة بين أظهر المشركين، يكتمون إيمانهم خوفاً على أنفسهم، ومنهم من آمن بعد هجرة النبي ﷺ ﴿لَمْ تَعْلَمُوهُمْ﴾ أي: لم تعرفوهم ﴿أَنْ تَطَّوَّهُمْ﴾ فإذا تقاتلت وطئتموهم بأرجلكم وجيوشكم حال دخولكم مكة عنوة بقوة السلاح، فتقتلونهم دون علم لكم بهم؛ لأنهم مختلطون مع المشركين، وأنتم لا تعرفونهم بأعيانهم ﴿فَتُصِيبُكُمْ مِنْهُمْ مَعَرَّةٌ بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ أي: يلحقكم بسبب قتلهم لهم إثم وعيب، وعار ومسبة، وغرامة بدفع الديات، وأنتم على غير علم بهم، ولولا ذلك كله لَمَا كَفَّ اللَّهُ أَيْدِيَكُمْ عَنْ كِفَارِ مَكَّةَ، بل لسلطكم عليهم لقتلهم.

وجواب لولا محذوف تقديره: لأذن لكم في دخول مكة وسلطكم على المشركين، أي: لولا كراهة أن تهلكوا المؤمنين مع الكافرين وأنتم لا تعرفونهم، فيصيبكم مكروه بقتلهم، لَمَا كَفَّ أَيْدِيَكُمْ عَنْهُمْ.

وممن عنتهم الآية في جانب المشركين من المسلمين: الوليد بن المغيرة، وسلمة بن

(١) «صحيح البخاري» برقم (١٨١٢) و«صحيح مسلم» برقم (١٢٣٠).

(٢) مسلم (١٣١٨) وأبو داود (٢٨٠٩) وابن ماجه (٣١٣٢) والترمذي (٩٠٤) و«المسند» (١٤١٢٧) بإسناد صحيح على شرط مسلم ورجال ثقات رجال الشيخين غير أبي الزبير فمن رجال مسلم، وقد صرح بالسماع، وأخرجه ابن حبان (٤٠٠٤) والنسائي في «الكبرى» (٤١٠٨).

هشام، وعيَّاش بن أبي ربيعة، وأبو جندل بن سُهيل، وأبو بصير القرشي، وأم الفضل زوج العباس بن عبد المطلب، وأم كلثوم بنت عقبة بن أبي معيط، فهؤلاء وأمثالهم ممن لا يعرفهم كثير من أهل الحديبية بذواتهم، ولا يعرفون ما في قلوبهم من الإيمان وعدمه، فلو حدث قتال لأوذى أمثال هؤلاء دون علم المسلمين بهم.

وقد اقتضت حكمة الله تعالى منع القتال بين الفريقين ليُخرج المؤمنين المستضعفين من بين أظهر الكفار، ويفك أسرهم، ويرفع ما كان ينزل بهم من العذاب.

كما اقتضت حكمته تعالى أن يمنَّ على بعض هؤلاء بالإسلام، كأبي سفيان، وخالد بن الوليد، والعباس بن عبد المطلب، وغيرهم ممن أسلموا بعد صلح الحديبية، فكان هذا رحمة من الله تعالى بالجميع.

ولهذا جاءت لام التعليل في قوله تعالى: ﴿لِيُدْخِلَ اللَّهُ فِي رَحْمَتِهِ مَن يَشَاءُ﴾ فقد رحم الله المؤمنين بنجاتهم من الهلاك، ورحمهم بأن سلّمهم من المعرة التي تلحق بهم حال قتال الفريقين، ورحمهم بأن أبقى لهم قوتهم لضرورة تأتي بعد ذلك.

ورحم الله المشركين فاستبقاهم لعلهم يُسلمون، أو يُسلم كثير منهم.

ورحم الله من أسلم منهم بثواب الآخرة.

فهذه رحمة شاملة لجميع الأطراف بسبب صلح الحديبية.

ثم بيّن سبحانه أنه لو تميز المسلمون من الكافرين، فانفصل أهل الحديبية عن كفار مكة لسلّط الله المسلمين على المشركين فعذبوهم بالقتل والأسر ﴿لَوْ تَزَيَّلُوا لَعَذَّبْنَا الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ أي: لو تميز المؤمنون والمؤمنات الذين يعيشون في مكة عن كفارها، ففارقوهم وانعزلوا عنهم، لأذلَّ الله الكافرين بإهلاكهم وأخذهم أسرى.

أخرج الطبراني بسنده عن جُنيد بن سَبْع قال: قاتلتُ رسول الله ﷺ أول النهار كافرين، وقاتلتُ معه آخر النهار مسلمًا، وفيما نزلت: ﴿وَلَوْلَا رِجَالٌ مُّؤْمِنُونَ وَنِسَاءٌ مُّؤْمِنَاتٌ﴾ قال: وكنا تسعة نفر: سبعة رجال وامرأتين^(١).

(١) «المعجم الكبير» (٢٩/٢)، (٢٤/٤) (٢٢٠٤) وأبو يعلى (١٥٦٠) وابن أبي حاتم.

تَشْفِي الْكَافِرِينَ وَثَبَاتُ الْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ الْحُدَيْبِيَّةِ

٢٦- ﴿إِذْ جَعَلَ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي قُلُوبِهِمْ^(١) الْحَمِيَّةَ الْجَاهِلِيَّةَ فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ التَّقْوَى وَكَانُوا أَحَقَّ بِهَا وَأَهْلَهَا وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا ﴿٢٦﴾﴾

أي: إن المشركين الذين صدوا المسلمين عن المسجد الحرام ليس عندهم عذر ولا سبب فيما فعلوه، فإن المؤمنين جاؤوا مسالمين معظمين لحرمة الكعبة، سائقين الهدي معهم لِنَقْعِ فقراء الحرم.

والسبب الوحيد الذي حمل المشركين على منع المسلمين من العمرة، هو حمية الجاهلية، التي غطت على عقولهم وأعمت قلوبهم، وجعلتهم يتشفون من المسلمين للأحقاد التي يحملونها.

وقد أراد المسلمون أن يقاتلوا المشركين ويدخلوا مكة عنوة، ولكن الله تعالى ثبتهم وأنزل السكينة عليهم، وهياً نفوسهم وأخلصها، وجعلهم ملتزمين بأخلاق الإسلام وآدابه ﴿إِذْ جَعَلَ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي قُلُوبِهِمْ الْحَمِيَّةَ الْجَاهِلِيَّةَ﴾.

اذكر -أيها الرسول- وقت أن دخلت أنفة الجاهلية قلوب الكفار في مكة، فلم يُقروا برسالتك، وامتنعوا من كتابة بسم الله الرحمن الرحيم، وأبوا أن يكتبوا: هذا ما قاضى عليه محمد رسول الله، وقالوا: قد قتلوا آبائنا وإخواننا ودخلوا علينا في منازلنا، فتحدث العرب أنهم قد دخلوا علينا رغم أنوفنا، واللآلِ والعُرَى لا يدخلونها علينا.

ومن ذلك أنهم أنفوا من كتابة (محمد رسول الله) في عقد الصلح.

ومن هذه الحمية أنهم أنفوا من دخول الرسول وصحبه إلى مكة في تلك السنة لئلا يقول الناس: دخلوا مكة قاهرين لقريش، ولم تزل هذه الحمية الجاهلية في قلوبهم حتى حبيت لهم ارتكاب كثير من المعاصي.

أما المسلمون: ﴿فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ﴾ فلم تدخل الحمية في

(١) قرأ أبو عمرو ويعقوب بكسر الهاء والميم من (قلوبهم الحمية) وضمهما حمزة والكسائي وخلف، وكسر الهاء وضم الميم الباقون، وأسكن الميم عند الوقف عليها الجميع.

قلوبهم كما دخلت في قلوب أعدائهم، وجعل الطمأنينة والوقار والثبات في قلب رسوله ﷺ والمؤمنين، ولم يقابلوا سفاهات المشركين بمثلها.

وقد ألزمهم الله الطاعة والإخلاص وعدم الفرقة، عندما كتبت بنود الصلح وهي بنود مجحفة بالمسلمين، وكان في هذا الصلح كل الخير للمسلمين.

﴿وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ التَّقْوَى﴾ وهي قول: لا إله إلا الله، التي هي رأس كل تقوى، ورأس كل طاعة وإخلاص، بما تستلزم من شروط وحقوق، فالتزموها وقاموا بها:

عن أبي بن كعب ؓ أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: «كلمة التقوى: لا إله إلا الله»^(١).

وفي حديث جابر ؓ: أن النبي ﷺ قال: «أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا: لا إله إلا الله، فإن قالوا لا إله إلا الله، فقد عصموا مني دماءهم وأموالهم إلا بحقها وحسابهم على الله»^(٢).

وهي الكلمة التي استكبر المشركون أن يقولوها: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا إِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ﴾ [الصافات]

وهي التي اشمأزت منها قلوبهم ﴿وَإِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَحْدَهُ اشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ وَإِذَا ذُكِرَ الَّذِينَ مِنْ دُونِهِ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ﴾ [الزمر].

وتفسير كلمة التقوى بأنها كلمة التوحيد: لا إله إلا الله جاء عن جمع من الصحابة والتابعين، منهم: علي، وابن عمر، وابن عباس، وسعيد بن جبير، وعطاء الخراساني، وعطاء بن رباح، والمسور، وقتادة، والزهري، وغيرهم.

وكما ألزمهم الله كلمة التقوى ألزمهم تعظيم الحرم، وترك القتال فيه، ولم يستفزه ما صنع الكفار لانتهاك حرمة الحرم، فلم يشقوا عصا الطاعة عندما كتبت بنود الصلح،

(١) الترمذي (٣٢٦٥) وعبد الله بن أحمد (٢١٢٥٥) في المسند بإسناد ضعيف، لضعف ابن أبي فاختة وباقي رجاله ثقات غير ابن قذعة فهو صدوق (محققه)، وأخرجه الطبراني (٥٣٦) والطبري (٣١٠/٢١) والبيهقي في «الأسماء والصفات» (٢٠٠) وصححه الألباني في «صحيح سنن الترمذي» (٢٦٠٣)، وقال الترمذي: هذا حديث غريب لا نعرفه مرفوعاً إلا من حديث الحسن بن قزعة، وسألت أبا زرعة عن هذا الحديث فلم يعرفه مرفوعاً إلا من هذا الوجه.

(٢) البخاري (٢٩٤٦) ومسلم (٢١).

وكانت مجحفة بحقوق المسلمين في الظاهر، فثبت الله المؤمنين على طاعته وطاعة رسوله، وكان في هذا خير للمسلمين.

وكان المؤمنون أهلاً لهذه الكلمة، وأجدر وأحق بها من المشركين الذين استكبروا عنها، ولم يستجيبوا لله والرسول ﴿وَكَانُوا أَحَقَّ بِهَا وَأَهْلَهَا﴾ دون الكفار الذين أنفوا وتكبروا وتناولوا على المؤمنين بمقتضى حميتهم الجاهلية ﴿وَكَانَ اللَّهُ﴾ ولا يزال ﴿يَكُلُّ شَيْءٍ عَلِيمًا﴾ لا يخفى عليه شيء، ومن ذلك علمه تعالى بأهل الفضل ومن يختارهم لدينه وصُحبة نبيه، ومن يخصصهم بمزيد الخير والتكريم، ومن علمه تعالى أن رسول الله ﷺ كان في الحديبية في أربع مئة وألف، وأنه قدم بعد عامين في عشرة آلاف مجاهدًا فاتحًا مكة، مكسرًا للأصنام.

رُؤْيَا الرَّسُولِ ﷺ بِدُخُولِ الْحَرَمِ قَبْلَ أَحْدَاثِ الْحُدَيْبِيَّةِ

٢٧- ﴿لَقَدْ صَدَقَ اللَّهُ رَسُولَهُ الرُّؤْيَا^(١) بِالْحَقِّ لَتَدْخُلَنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ ءَامِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ لَا تَخَافُونَ فَعَلِمَ مَا لَمْ تَعْلَمُوا فَجَعَلَ مِنْ دُونِ ذَلِكَ فَتْحًا قَرِيبًا ﴿٢٧﴾﴾ كان النبي ﷺ قد رأى في منامه وهو في المدينة قبل خروجه إلى الحديبية، كأنه دخل هو وأصحابه مكة المكرمة آمنين معتمرين، يطوفون بالبيت، بعضهم محلقون وبعضهم مقصرون. قال مجاهد: إن هذه الرؤيا كانت بالحديبية، وقيل: إن ملكًا أخبره ﷺ بذلك.

والذي عليه الجمهور أن النبي ﷺ رآها قبل القدوم إلى مكة، وقبل حصاره في الحديبية، فقصَّ رسول الله رؤياه على أصحابه فاستبشروا، وعبروا هذه الرؤيا بأنهم سيدخلون مكة بعمرتهم التي خرجوا لأجلها، فلما حدث الصلح وهَمَّ المسلمون بالعودة إلى المدينة، قال عمر: ألم نخبرنا أنك ستأتي البيت وتطوف به؟ فقال ﷺ: «أفأخبرتكم أنك تأتيه عامك هذا؟» وهكذا قال بعض المنافقين: أين الرؤيا؟ والله ما دخلنا المسجد الحرام، ولا حلقنا ولا قصّرنا، فقال أبو بكر ؓ: إن المنام لم يكن مؤقتًا بوقت، وإنه سيدخل، فأنزل الله تعالى هذه الآية.

(١) قرأ الأصهباني وأبو عمرو بخلف عنه بإبدال همزة (الرؤيا) واوًا وصلًا ووقفًا، وقرأ أبو جعفر بالإبدال مع الإدغام، ولحمزة وجهان وقفًا، أحدهما كأبي جعفر والثاني كالأصبهاني.

وقد كثر الكلام في هذا بعد أن عاد المسلمون من الحديبية دون دخول مكة، حتى إنهم قالوا للنبي ﷺ: ألم نخبرنا أنك ستأتي البيت وتطوف به؟ فقال: «أخبرتكم أنه العام؟» قالوا: لا، قال: «فإنكم ستأتونه وتطوفون به».

أي: لقد جعل الله رؤيا رسوله محمد ﷺ رؤيا صادقة لا تتخلف، ولا يحوم حولها الشك، فقد أوحى الله إليه بها، ورؤيا الأنبياء حق، وهذه الرؤيا ستتحقق في المستقبل، وإن لم يتعين وقتها في المنام، فهي وعد غير معين وعدهم الله به ﴿لَتَدْخُلَنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ﴾ أي: إن ذلك سيكون في المستقبل لأداء نسك العمرة ﴿إِنْ شَاءَ اللَّهُ﴾ بمشيئة الله تعالى، وأنه سيتم قطعاً، ولكنه ليس في الحال ولا في المستقبل القريب، وإنما هو أمر محقق الوقوع بعد زمن ليس بالبعيد، وهذا الاستثناء واجب؛ لأن تقديم المشيئة لا بد منه في كل شيء، والله تعالى يعلمنا ذلك، وقد سكنت قلوب الصحابة واطمأنت لهذه الرؤيا، وكان تحقيقها في العام المقبل.

وقد فهم أبو بكر ﷺ هذا المعنى حين قال: إن المنام لم يكن مؤقتاً بوقت، وإنه سيدخل؛ إذ ليس في الرؤيا أنها سنة ست من الهجرة، وقد تحقق هذا بعد عام. وهذا كما قال تعالى على لسان يوسف ﷺ: ﴿وَقَالَ يَتَابَتِ هَٰذَا تَأْوِيلُ رُؤْيَايَ مِنْ قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّي حَقًّا﴾ [يوسف: ١٠٠].

وقد تحققت رؤيا الرسول ﷺ سنة سبع من الهجرة، بأداء عمرة القضية، فإن النبي ﷺ وأصحابه دخلوا المسجد الحرام ﴿ءَامِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ﴾ أي: آمنين من العدو، فأدؤا مناسك العمرة، وبعضهم حلق رأسه، وبعضهم قصّر شعر رأسه، وحلق شعر الرأس في الحج أو العمرة أفضل من التقصير؛ لما أخرجه الشيخان عن أبي هريرة ﷺ أن رسول الله ﷺ دعا للمحلقين ثلاثاً، وللمقصرين مرة واحدة^(١).

والتقصير يخص شعر الرأس، دون اللحية، ولا شعر البدن ﴿لَا تَحَافُوا﴾ من أذى المشركين، لا عند دخولكم مكة، ولا عند الخروج منها، ولا في أي حال من الأحوال

(١) كما في «صحيح البخاري» برقم (١٧٢٨) و«صحيح مسلم» برقم (١٣٠٢) ولهما عن ابن عمر برقم (١٣٠١، ١٧٢٧).

بعد أداء هذه العمرة ﴿فَعَلِمَ مَا لَمْ تَعْلَمُوا﴾ أي: علم الله ما فيه الخير والمصلحة، حيث صرفكم عن مكة في عامكم هذا، وأراد دخولكم إياها في العام الذي يليه، وأنتم لا تعلمون المصلحة في هذا التأخير ﴿فَجَعَلَ مِنْ دُونِ ذَلِكَ فَتْحًا قَرِيبًا﴾ أي: جعل قبل دخولكم مكة فتحًا قريبًا هو صلح الحديبية، وفتح خيبر وأخذ ما فيها من الغنائم والأموال.

وفي شهر ذي القعدة من العام السابع خرج النبي ﷺ هو وأهل الحديبية معتمرًا، فأحرم من ذي الحليفة، وساق معه الهدي ستين بدنة، وسار إلى مكة والسيوف في غمدها وأصحابه يُلَبُّونَ، وعبد الله بن رواحة أخذ بزمام ناقته.

ولما وصل مكة خرج أهلها لرؤيته هو وأصحابه، وجلس النساء والأطفال على الطرق ينظرون إليهم، وأقام النبي ﷺ وأصحابه بمكة ثلاثة أيام، اعتمر خلالها هو وأصحابه، ثم رجعوا إلى المدينة.

الرَّسَالَةُ الْعَالِيَةُ

٢٨ - ﴿هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا﴾

هذه الآية إعلام من الله تعالى أنه مظهر دينه على جميع الديانات، حيث إن الذي أرسله رسوله بهذا الدين لا يُري رسوله في المنام ما لا يكون، فرويا الرسول وحي وحق ﴿هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ مُحَمَّدًا ﷺ﴾ ﴿بِالْهُدَىٰ﴾ هو البيان الواضح والعلم النافع المتضمن هداية الخلق الذي يهدي من الضلالة، ويبيّن طريق الخير من الشر ﴿وَدِينِ الْحَقِّ﴾ هو الإسلام بأصوله وفروعه، وهو دين الحق والعدل والإحسان والرحمة، وهو كل عمل صالح يزكي القلوب، ويطهر النفوس، ويربي الأخلاق ﴿لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ﴾ أي: ليعليه على جميع الملل والنحل، بالحجة والبرهان، ويكون داعيًا لإخضاعهم بالسيف والسنان، ويتكامل ذلك عند نزول عيسى ﷺ حيث لا يبقى في الأرض غير دين الإسلام ﴿وَكَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا﴾ أي: حسبك يا محمد بالله شاهدًا على أنه ناصرُك، ومُظْهِرُ دينك على كل الديانات، وفي هذا وعيد لمن لم يؤمن برسالة محمد ﷺ.

ونظير هذه الآية قوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ﴾ [التوبة، والصف: ٩].

والإسلام هو الدين الذي ختم الله به الرسالات ونسخها به، ولا يقبل من أحد دينًا سواه ﴿وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَسِرِينَ﴾ ﴿٨٥﴾ [آل عمران].

وكل من سمع بهذه الرسالة ولم يؤمن بها، ومات على ذلك فهو من أهل النار.

وقد عمَّ الإسلام مشارق الأرض ومغاربها، وما زال ينتشر في العالمين بحمد الله تعالى.

أَرْبَعَةُ أَوْصَافٍ لِلنَّبِيِّ ﷺ وَصَحْبِهِ، وَمَثَلَانِ لَهُمْ

٢٩- ﴿مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ تَرَاهُمْ رُكَّامًا سُجَّدًا يَقْتَضُونَ فَضْلًا مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا^(١) سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِمْ مِمَّنْ أُنْزِلَ السُّجُودُ ذَلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَمَثَلُهمُ فِي الْإِنْجِيلِ كَرَزَجٍ أُخْرِجَ شَطَكُهُمْ فَآزَرَهُ^(٢) فَاسْتَغْلَظَ فَاسْتَوَى عَلَى سُوقِهِ^(٣) يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ لِيغِيظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ وَعَدَّ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا﴾ ﴿٢٩﴾

وفي ختام السورة أثنى الله تعالى على رسوله ﷺ وعلى أصحابه، فوصفهم بأربعة أوصاف، وضرب لهم مثلين، فصوّر حالهم مع الكفار ومع أنفسهم، وهيئتهم في عبادتهم لله تعالى، وصوّر قلوبهم وما يشغلها ويجيش فيها، وبيّن صفتهم في التوراة والإنجيل.

﴿مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ﴾ أي: إن هذا الرسول الذي أرسله الله بالهدى ودين الحق، هو محمد ﷺ، فهو رسول الله حقًا وصدقًا، ختم به النبوات، ونسخ به الديانات، وجعل رسالته عامة للناس كافة، وإلى الإنس والجن، وإلى أن تقوم الساعة، ورسالته قائمة على مدى التاريخ البشري وليس كما يقول المكذبون به ﷺ، من أنه رسول إلى العرب خاصة، ومنهم من نفى أنه رسول الله في صلح الحديبية، فقالوا: لا تكتب محمدًا رسول الله، ولكن اكتب اسمك واسم أبيك.

﴿وَالَّذِينَ مَعَهُ﴾ هم أصحابه من المهاجرين والأنصار، وعلى رأسهم أهل بيعة الرضوان،

(١) قرأ شعبة بضم الراء من (رُضْوَانًا) والباقون بكسرهما، وهما لغتان.

(٢) قرأ ابن عامر بخلف عن هشام بقصر همزة (فآزره)، والباقون بمدها، وهو الوجه الثاني لهشام، وهما لغتان، وللأزرق ثلاثة وجوه المد.

(٣) قرأ قبل بهمزة ساكنة بعد السين بدلًا من الواو في (سوقه) وبهمزة مضمومة بعد السين وبعدها واو ساكنة، والباقون بواو مدّية بعد السين، وكلها لغات.

ثم وصف الله تعالى أصحاب رسوله ﷺ بأربعة أوصاف:

الوصف الأول: أنهم ﴿أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ﴾ فهم غلاظ أقوياء على أعداء الله في ساحات الجهاد، لا تأخذهم فيهم رافة، فهم أشداء في قتالهم وإظهار العداوة لهم، والبراءة منهم، ووضوح الغضب في وجوههم، والبغض لهم بقلوبهم، فهم يحبون في الله ويُبغضون في الله، قال تعالى: ﴿يَتَأَيَّمُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَدِيلُوا الَّذِينَ يَكُونُكُمْ مِنَ الْكُفَّارِ وَلِيَجِدُوا فِيكُمْ غِلْظَةً﴾ [التوبة: ١٢٣].

وقال سبحانه: ﴿يَتَأَيَّمُوا أَلْتَنِى جَهْدِ الْكُفَّارِ وَالْمُنْفِقِينَ وَأَغْلَظْ عَلَيْهِمْ﴾ [التحریم: ٩].

وقد بلغت شدتهم على الكفار مبلغاً كبيراً - كما قال الحسن - إنهم يتحرزون من أن تمسّ أبدانهم أبدان الكفار، أو تلزق ثيابهم بشياهم.

وإلى جوار ذلك فهم رحماء بإخوانهم المؤمنين، متعاطفون معهم متوادون، يحب أحدهم لأخيه ما يحبه لنفسه، بعضهم لبعض كالوالد مع الولد: «مثل المؤمنين في توادهم وتراحمهم وتعاطفهم كمثل الجسد الواحد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى»^(١)، و«المؤمن للمؤمن كالبنیان يشد بعضه بعضاً»^(٢).

وقد حثّ الإسلام على الرحمة في كثير من الأحاديث، منها.

ما رواه جابر رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «لا يرحم الله من لا يرحم الناس»^(٣).

وفي حديث عبد الله بن عمرو رضي الله عنه: «من لم يرحم صغيرنا، ويعرف حق كبيرنا فليس منا»^(٤).

وعن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «لا تنزع الرحمة إلا من شقي»^(٥).

(١) من حديث النعمان بن بشير عند البخاري برقم (٦٠١١) ومسلم برقم (٢٥٨٦).

(٢) من حديث أبي موسى الأشعري عند البخاري برقم (٤٨١) ومسلم برقم (٢٥٨٥).

(٣) ابن أبي شيبة (٣٣٨/٨) والبخاري (٧٣٧٦) ومسلم (٢٣١٩) والترمذي (١٩٢٢).

(٤) ابن أبي شيبة (٣٣٩/٨) و«صحيح سنن أبي داود» (٤١٣٤). والمسند (٧٠٧٣) بإسناد صحيح (محققه)

والحميدي (٥٨٦) والبخاري في الأدب المفرد (٣٥٤) والبيهقي في الشعب (١٠٩٧٦).

(٥) ابن أبي شيبة (٣٣٩/٨) و«المسند» (٨٠٠١، ٩٧٠٢) وإسناده حسن (محققه) و«صحيح سنن أبي داود»

(٤١٣٣) والترمذي (١٩٢٤)، والطيالسي (٢٥٢٩) وأبو داود (٤٩٤٢) وابن حبان (٤٦٢).

وقد جمع الله بين الشدة على الكفار والرحمة بالمؤمنين في قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا مَنْ يَرْتَدَّ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهَ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٌ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٌ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾ [المائدة: ٥٤].

الوصف الثاني: أنك ﴿تَرْبُهُمْ رُكْعًا سُجَّدًا﴾ لله تعالى في صلاتهم المفروضة والنافلة، خاشعين لله سبحانه، مبتهلين له، محافظين على صلاتهم، مداومين عليها، مكثرين منها، وهم رهبان بالليل، أسود بالنهار، وهذا وصف لهم بكثرة الصلاة، ومن أعظم أركانها: الركوع والسجود.

الوصف الثالث: أنهم ﴿يَبْتَغُونَ﴾ بهذه العبادة ﴿فَضْلًا مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا﴾ يرجون ربهم أن يتفضل عليهم، فيدخلهم الجنة ويرضى عنهم، فهم يخلصون عملهم لله تعالى، ويطلبون الأجر منه وحده، ولا يراؤون أحدًا، ويحتسبون أجرهم عند الله تعالى، وهذا وصف لهم بالإخلاص والاحتساب، وأن مقصودهم بلوغ رضى الله تعالى والوصول إلى ثوابه.

الوصف الرابع: ﴿سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِمْ مِّنْ أَثَرِ السُّجُودِ﴾ أي: إن علامة الطاعة ظاهرة في وجوههم من أثر السجود وكثرة العبادة، فقد لاحت في وجوههم علامات التهجّد وأمارات السهر، لقد أثرت كثرة الصلاة وحسنها في وجوههم حتى استنارت، ولما استنارت بواطنهم بالصلاة استنارت ظواهرهم، وهذا الأثر من السجود هل هو في الدنيا أم في الآخرة؟ وإذا كان في الدنيا فهل هو أثر حسي أم معنوي؟

ورد أن هذا الأثر يكون يوم القيامة بياضًا في الوجه كالقمر ليلة البدر، يجعله الله كرامة لهم، وعلامة يُعرفون بها في الموقف.

جاء عن أبي بن كعب ؓ أن رسول الله ﷺ قال: ﴿سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِمْ مِّنْ أَثَرِ السُّجُودِ﴾ النور يوم القيامة^(١).

وقيل: «إنهم يبعثون يوم القيامة غُرًا محجلين من آثار الوضوء»^(٢).

فيُعرفون بذلك كما صح في الحديث.

(١) أخرجه الطبراني في «الأوسط» (٤٤٦٤) و«الصغير» (٢٢٢/١) وابن مردويه بإسناد حسن.

(٢) من حديث أبي هريرة في البخاري (١٣٦) ومسلم (٢٤٦).

ورود أن هذا الأثر يكون في الدنيا أثرًا محسوسًا، يعلو جباههم من كثرة السجود على الأرض، ويحصل لهم من غير قصد ولا تكلف ولا مراعاة، كما حدث للنبي ﷺ من تعلق الطين والماء بجبهته الشريفة لَمَّا سجد ليلة إحدى وعشرين من شهر رمضان على الأرض. وقد يكون هذا الأثر معنويًا، بحُسن السَّمْت والوقار والبهاء، ونور يعلو وجوههم من الخشوع والتواضع.

قال ابن عباس ؓ: أما إنه ليس بالذي ترؤن، ولكنه سيمًا للإسلام وسخنته وسمته وخشوعه^(١). وعن جُعَيْد بن عبد الرحمن قال: كنت عند السائب بن يزيد، إذ جاءه رجل وفي وجهه أثر السجود، فقال: لقد أفسد هذا وجهه، أما والله ما هي السِّمَا التي سمى الله، ولقد صليتُ على وجهي منذ ثمانين سنة، ما أثر السجود بين عيني^(٢). وقال مجاهد: ليس الأثر في الوجه ولكن في الخشوع^(٣).

وقد سئل مجاهد عن هذا الأثر، فقال السائل: أهو أثر يكون بين عيني الرجل؟ قال: لا، ربما يكون بين عيني الرجل مثل ركة العنز، وهو أقصى قلبًا من الحجارة، ولكنه نور في وجوههم من الخشوع^(٤).

جاء في الأثر عن جابر ؓ: من كثرت صلاته بالليل حُسن وجهه بالنهار^(٥).

وقال عمر ؓ: من أصلح سريرته أصلح الله علانيته.

وقال عثمان ؓ: ما أسرَّ أحد سريرة إلا أبداه الله على صفحات وجهه، وفلتات لسانه.

وعن أبي سعيد ؓ قال: لو أن أحدكم يعمل في صخرة صماء، ليس لها باب ولا كوة،

(١) «تفسير الطبري» (٣٢٣/٢١).

(٢) «الطبراني في الكبير» (٦٦٨٥) والبيهقي في «السنن» (٢٨٧/٢) وقال الهيثمي في «مجمع الزوائد» (٧/١٠٧): رجاله ثقات.

(٣) «الطبري» (٣٢٤/٢١) وابن نصر في «مختصر قيام الليل» ص ١٦.

(٤) «تفسير القرطبي» (٢٩٥/١٦). وهو ليس بحديث نبوي.

(٥) رُوي مرفوعًا وموقوفًا وهو الأصح، «سنن ابن ماجه» برقم (١٣٣٣).

لخرج عمله للناس، كائنًا ما كان^(١).

قال الألوسي: ولا يبعد أن يكون النور علامة على وجوههم في الدنيا والآخرة للآثار الواردة، لكنه لما كان في الآخرة أظهر وأتم، خصّه النبي ﷺ بالذكر^(٢).

وبعد الفراغ من هذه الأوصاف الأربعة يأتي ذكر المثليين:

المثل الأول: صفة أصحاب رسول الله ﷺ في التوراة:

قال تعالى: ﴿ذَلِكَ﴾ إشارة إلى ما سبق ذكره في الآية من وصف الصحابة:

١- بالشدة على الكفار، والرحمة بالمؤمنين.

٢- وكثرة الركوع والسجود في الصلاة.

٣- وأنهم يرجون بذلك ثواب الله تعالى ورضوانه.

٤- ويعرفون بأثر الصلاح على وجوههم في الدنيا والآخرة.

واتصافهم بهذه الصفات الأربع هو ﴿مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَةِ﴾ أي: إن الله تعالى وصف أصحاب رسول الله ﷺ بهذه الأوصاف عند أهل الكتاب فهي مذكورة عندهم.

وقد جاء نحو ذلك في التوراة:

جاء الرب من سينا، وأشرق لهم من سعير، وتلألأ من جبل فاران، وأتى من ربوات القدس، وعن يمينه نار، شريعة لهم، فأحب الشعب جميع قديسيه، وهم جالسون عند قدمك يتقبلون من أقوالك^(٣).

فجبل فاران هو جبال الحجاز، وقوله: فأحب الشعب جميع قديسيه، مقابل ﴿رَحَمَاءُ يَبْنِيهِمْ﴾ وقوله: قديسيه يقابل ﴿تَرَنَّهُمْ رُكْعًا سُجَّدًا﴾ ويقابل ﴿سَيِّمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِمْ مِنْ أَثَرِ السُّجُودِ﴾ وقوله: جالسون عند قدمك يقابل ﴿يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا﴾.

(١) «المسند» (٢٨/٣) برقم (١١٢٣٠)، بإسناد ضعيف، فيه ابن لهيعة، متكلم فيه، وأخرجه أبو يعلى

(١٣٧٨) قال الهيثمي في المجمع: إسنادهما حسن، وأخرجه ابن حبان مطولاً (٥٦٧٨).

(٢) «تفسير الألوسي» (١٢٥/٢٦).

(٣) الإصحاح الثالث والثلاثون من سفر التثنية.

المثل الثاني: صفة أصحاب رسول الله ﷺ في الإنجيل:

وذلك أن محمدًا ﷺ يُشبه الزارع للأرض.

والصحابه يشبهون حبوب الزرع التي تُبذر في الأرض.

والمسلمون يشبهون الشطاء الذي هو فروع الحبة، الذي يكون على جانبي الشجرة.

﴿وَمَثَلُهُ فِي الْإِنْجِيلِ﴾ أي: وصفة أصحاب رسول الله ﷺ في الإنجيل، أنهم في كمالهم وتعاونهم ﴿كَزَّرَعَ أَخْرَجَ شَطْئَهُ﴾ أي: كصفة زرع خرج من الطين، وأخرج ساقه وفرعه، فالزرع هو صاحب الرسالة ﷺ، والساق هم الصحابة، والفرع هم المؤمنون جميعًا.

﴿فَأَزْرَهُ فَأَسْتَغْلَظَ﴾ أي: فاشتد فرع الحبة حتى صار غليظًا، وتكاثرت فروعها، وقوي مخضرًا، فاستوى قائمًا على سيقانه، جميلًا في منظره، وهذا معنى ﴿فَأَسْتَوَى عَلَى سُوقِهِ﴾ والسوق جمع ساق.

وهذا المنظر الجميل ﴿يُعْجِبُ الزَّرَّاعَ﴾ من كماله واستوائه وحسنه واعتداله أي: يعجب هذا الزرع زُرَّاعه لقوته وحسن منظره وهم المؤمنون، كذلك أصحاب رسول الله ﷺ، هم كالزرع في نفعهم للخلق واحتياج الناس إليهم، ففوة إيمانهم وقوة أعمالهم بمنزلة قوة الزرع وسيقانه، والمتأخر في إسلامه منهم يؤازر المتقدم، ويعاونه على إقامة الدين والدعوة إليه، كالزرع الذي أخرج فرعه فأزره فاستغلظ، ولهذا قال تعالى: ﴿لِيَغِظَ﴾ الله ﴿بِهِمْ﴾ أي: يغيط الله بهؤلاء المؤمنين في كثرتهم وتآلفهم وشدتهم في دينهم وجمال منظرهم ﴿الْكُفَّارَ﴾ بالله حين يتصادمون معهم في المعارك وساحات القتال.

قال في إنجيل متى: هو ذا الزرع قد خرج ليزرع -يعني عيسى عليه السلام- وفيما هو يُزْرَع سقط بعض على الطريق، فجاءت الطيور وأكلته... إلى أن قال: وسقط الآخر على الأرض الجيدة، فأعطى ثمره بعض مئة، وآخر ستين، وآخر ثلاثين، ثم قال: وأما المزروع على الأرض الجيدة فهو الذي يسمع الكلمة ويفهم، وهو الذي يأتي بثمر، فيصنع بعض مئة، وبعض ستين، وآخر ثلاثين^(١).

(١) «إنجيل متى»، الإصحاح ١٣ فقرة ٣.

وهذا يتضمن نماء الإيمان في قلوب المدعوّين، وأنهم يدعون الناس إلى الدين حتى يكثر المؤمنون، كما تُنبت الحبة مئة سنبله، وكما تنبت من النواة الشجرة العظيمة^(١).

قال ابن عباس رضي الله عنه: هذا مثل ضربه الله تعالى لأهل الكتاب، إذا خرج قوم، ينبئون كما ينبت الزرع، يبلغ فيهم رجال يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر، ثم يغلظون، فهم الذين كانوا معهم، وهو مثل ضربه الله تعالى لمحمد صلى الله عليه وسلم، يقول: يبعث الله النبي وحده، ثم يجتمع إليه ناس قليل يؤمنون به، ثم يكون القليل كثيرًا ويستغلظون، ويغيط الله بهم الكفار^(٢).

وقال الضحاك: كان أصحاب محمد قليلًا، ثم كثروا واستغلظوا^(٣).

وقال القرطبي: هذا مثل ضربه الله تعالى لأصحاب النبي صلى الله عليه وسلم، يكونون قليلًا فيكثرون، فكان النبي صلى الله عليه وسلم ضعيفًا حين بدأ بالدعوة، فأجابه الواحد بعد الواحد حتى قوي أمره، كالزرع يبدو بعد البذر ضعيفًا، فيقوى حالًا بعد حال، حتى يغلظ نباته وأفراخه، فكان هذا من أصح مثل وأقوى بيان.

وهكذا المسلم إذا دخل في الإسلام يكون ضعيف الإيمان، ثم يقوى إيمانه بملازمة العلماء الصالحين، حتى يستوي ويكون مثلهم، وهذا تشبيه لحال بدء الدعوة ونماؤها، حيث بدأت ضعيفة، ثم قويت يومًا فيومًا، حتى استحکم أمرها وتغلبت على الأعداء.

فحال محمد صلى الله عليه وسلم كحال عيسى صلى الله عليه وسلم، كلاهما يزرع الدعوة في قلوب الناس، وأصحاب محمد كحواريّ عيسى، يُشبهون حَبّات الزرع التي تُبذر في الأرض، ثم يستجيب المؤمنون للدعوة، فيكونون على جانبي أو على شاطئ الطريق.

فالنبي صلى الله عليه وسلم دعا إلى الإسلام وحده، ثم انضم إليه نفر قليل، ثم قوّاه الله بمن اتبعه.

كما يَقْوَى ساقُ الزرع بما يتولّد منه على الجانبين، حتى يُعجب الزّراع، أو كما تقوى الطاقة الأولى من الزرع بالفروع التي تنبت حول الأصل، حتى تُعجب الزّراع.

(١) «تفسير التحرير والتنوير» (٢٠٨/١٢).

(٢)، (٣) الطبري (٢١/٣٢١، ٣٣٠).

وقد فعل الله معهم ذلك ليغيظ بهم الكفار، وقد غاظ بهم الكفار فعلاً، فزالت دولتنا الفرس والروم، وعلت راية الإسلام حتى امتلأ قلب الكفار غيظاً منهم وحقداً عليهم، وكل من غاظه الله بالصحابة ينطبق عليه وصف الكفر ﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ بالله ورسوله ﴿وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ التي أمرهم الله بها، واجتنبوا ما نهاهم عنه، أعد الله لهم ﴿مَغْفِرَةً﴾ لذنوبهم ﴿وَأَجْرًا عَظِيمًا﴾ ثواباً جزيلاً لا ينقطع وهو الجنة، ووعد الله حق لا يتخلف.

وهكذا، فقد جمع الصحابة بين الإيمان والعمل الصالح، فجمع الله لهم بين المغفرة والأجر العظيم في الدنيا والآخرة.

والمعنى: أن صفة المؤمنين في الإنجيل كالزراع، يظهرو في أول أمره رقيقاً ضعيفاً متفرقاً، ثم ينبت بعضه حول بعض، ويغلظ ويتكامل حتى يقوى ويشتد، وتُعجب جودته أصحاب الزراعة العارفين بها، فكَذلك النبي ﷺ وأصحابه، كانوا أول الأمر في قلة وضعف، ثم لم يزالوا يكثرون ويزدادون قوة، حتى بلغوا ما بلغوا، قال تعالى: ﴿وَأَذْكُرُوا إِذْ أَنْتُمْ قَلِيلٌ مُسْتَضْعَفُونَ فِي الْأَرْضِ تَخَافُونَ أَنْ يَخَطَفَكُمْ الْإِنْسَانُ فَأَوْسُكُمْ وَأَيُّدُكُمْ بِصُرُوفِهِ وَرَزَقَكُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [الأنفال].

قال قتادة: مكتوب في الإنجيل: سيخرج قوم ينبتون نبات الزرع، يأمرهم بالمعروف وينهون عن المنكر^(١).

وعلى هذا التفسير فالوقف على لفظ: ﴿التَّوْرَةِ﴾ وقف تام، على أساس أنهما مثلاًن: مثل في التوراة، وآخر في الإنجيل.

قال قتادة: ﴿ذَلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَةِ﴾ هذا المثل في التوراة ﴿وَمَثَلُهُمْ فِي الْإِنْجِيلِ﴾ قال: وهذا مثل آخر ﴿كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطَأُهُ﴾ قال: هذا نعت أصحاب محمد في الإنجيل^(٢).

وهذا أولى من الوقف على لفظ: ﴿الْإِنْجِيلِ﴾ على أساس أنهما مثل واحد في كل من التوراة والإنجيل.

(١) «تفسير القرطبي» (١٦/٢٢٦).

(٢) يُنظر: الطبري (٢١/٣٢١، ٣٢٦).

وكل من اقتفى أثر الصحابة ﷺ فهو في حكمهم، وللصحابة سبق والفضل والكمال الذي لا يلحقهم فيه أحد من هذه الأمة، فرضي الله عنهم وأرضاهم:

أحاديث في فضل الصحابة:

١- عن أبي هريرة ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: «لا تسبوا أصحابي، فوالذي نفسي بيده، لو أن أحدكم أنفق مثل أحد ذهبًا، ما أدرك مُدَّ أحدهم ولا نصيفه»^(١).

٢- وفي الصحيحين: عن عبد الله بن مسعود ﷺ أن النبي ﷺ قال: «خير الناس قرني، ثم الذين يلونهم، ثم الذين يلونهم، ثم يجيء أقوام تسبق شهادة أحدهم يمينه، ويمينه شهادته»^(٢).

٣- وفي صحيح مسلم: عن عائشة ﷺ أن رجلاً سأل النبي ﷺ: أي الناس خير؟ قال: «القرن الذي أنا فيه، ثم الثاني، ثم الثالث»^(٣).

أي: قرن الصحابة، ثم التابعين، ثم تابع التابعين، والقرن هو الجيل من الناس، ويُقدَّر بمئة عام تقريبًا.

٤- وعن أنس بن مالك ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: «أرحم أمتي بأمتي أبو بكر، وأشدهم في أمر الله عمر، وأشدهم حياء عثمان، وأقضاهم عليٌّ، وأعلمهم بالحلال والحرام معاذ بن جبل، وأفرضهم زيد بن ثابت، وأقروهم أبيُّ بن كعب، ولكل قوم أمين، وأمين هذه الأمة، أبو عبيدة بن الجراح، وما أظَلَّت الخضراء ولا أفلَّت الغبراء أصدق لهجة من أبي ذر، أشبه عيسى في ورعه»، قال عمر: فنعرف له ذلك يا رسول الله؟ قال: «نعم»^(٤).

(١) «صحيح مسلم» برقم (٢٥٤٠) وينحوه عن أبي سعيد في البخاري (٣٦٧٣) وأبي داود (٤٦٥٨) والترمذي (٣٨٦١) و«المسند» (١١٠٧٩) وابن حبان (٦٩٩٤، ٧٢٥٥).

(٢) البخاري بأرقام (٢٦٥٢، ٣٦٥١، ٦٦٥٨) ومسلم برقم (٢٥٣٣).

(٣) «صحيح مسلم» (٢٥٣٦).

(٤) «صحيح سنن الترمذي» (٢٩٨١) و«صحيح سنن ابن ماجه» (١٥٤). والمسند (١٣٩٩٠) بإسناد صحيح على شرط الشيخين، (محققوه) والنسائي في الكبرى (٨٢٤٢) والطيالسي (٢٠٩٦) والضياء في المختارة (٢٢٤٠) والطحاوي في شرح مشكل الآثار (٨٠٨).

٥- وفي البخاري: عن أنس رضي الله عنه حدّثهم أن رسول الله ﷺ صعد أُحُدًا، وأبو بكر وعمر وعثمان، فرجف بهم، فقال: «اثبت أُحُد، فإنما عليك نبي وصديق وشهيدان»^(١).

٦- وعن ابن مسعود رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «اقتدوا باللّذين من بعدي من أصحابي: أبي بكر وعمر، واهتدوا بهدي عمّار، وتمسكوا بعهد عبد الله بن مسعود»^(٢).

٧- وفي الصحيحين: عن عمرو بن العاص رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ بعثه في جيش ذات السلاسل، قال: فأتيته، فقلت: أي الناس أحب إليك؟ قال: «عائشة»، فقلت: من الرجال؟ قال: «أبوها»، قلت: ثم من؟ قال: «عمر بن الخطاب»، فعذّ رجالاً^(٣).

٨- وعن علي رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «رحم الله أبا بكر: زوّجني ابنته، وحملني إلى دار الهجرة، وصحبني في الغار، وأعتق بلالاً من ماله، رحم الله عمر: ليقولنّ الحق وإن كان مُراً، تركه الحق وما له من صديق، رحم الله عثمان تستحي منه الملائكة، رحم الله عليّاً، اللهم أدِر الحق معه حيث دار»^(٤).

٩- وفي صحيح مسلم وغيره: عن زُرّ بن حُبَيْش قال: سمعت عليّاً يقول: والذي فلق الحبة، وبرأ النسمة، إنه لعهد النبي الأمي، ألا إنه لا يُحْبَنِي إلا مؤمن، ولا يبغضني إلا منافق^(٥).

١٠- وعن عبد الله بن مُغَفَّل المزني رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «اللّهُ الله في أصحابي، لا تتخذوهم غرضاً من بعدي، فمن أحبهم فبحبي أحبهم، ومن أبغضهم فببغضي أبغضهم، ومن آذاهم فقد آذاني، ومن آذاني فقد آذى الله، فيوشك أن يأخذه»^(٦).

(١) «صحيح البخاري» (٣٦٧٥، ٣٦٨٦، ٣٦٩٧).

(٢) «صحيح سنن الترمذي» (٢٩٩٢) و«صحيح سنن ابن ماجه» (٩٧) وانظر: الترمذي (٤٠٦٩) و«صحيح ابن ماجه» (٩٧). وعن حذيفة بن اليمان في المسند (٢٣٢٤٥، ٢٣٢٧٦) إلى (عمر).

(٣) مسلم (٢٣٨٤) والبخاري (٣٦٦٢، ٤٣٥٨).

(٤) الحاكم في المستدرك برقم (٤٤٤١) وقال صحيح على شرط مسلم ولم يخرجاه، إلى (دار الهجرة) وفي الترمذي برقم (٣٧١٤) وقال: هذا حديث غريب، وقد ضعفه الألباني في مشكاة المصابيح (٦١٢٥).

(٥) «صحيح مسلم» (١٣٧٠) و«صحيح البخاري» (٦٩٠٣) و«المسند» (١٣٤٠).

(٦) قال الترمذي: (٣٨٦٢) حديث غريب، وهو في «المسند» برقم (٢٠٥٤٩، ٢٠٥٧٨)، بإسناد ضعيف، لجهالة عبدالرحمن بن زياد (محققوه) وضعفه الألباني.

١١- قال القرطبي: قال أبو عروة الزبيري: كنا عند مالك بن أنس رضي الله عنه فذكروا عنده رجلاً ينتقص أصحاب رسول الله ﷺ، فقرأ مالك هذه الآية: ﴿مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ﴾ إلى أن بلغ ﴿لِيَغِيظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ﴾ فقال مالك: مَنْ أصبح مِنَ الناس في قلبه غيظ على أحد من أصحاب رسول الله ﷺ فقد أصابته هذه الآية^(١).

١٢- وقالت عائشة رضي الله عنها: أمروا بالاستغفار لهم فسبوهم^(٢).

تم تفسير (سورة الفتح) والله الحمد والمنة.



(١) «تفسير القرطبي» (٢٦٩/١٦).

(٢) الحاكم (٤٦٢/٢). برقم (٣٧١٩) وهو في صحيح مسلم (٣٠٢٢) ويتصحح الألباني في ظلال الجنة (١٠٠٣).

تَفْسِيرُ سُورَةِ الْحُجْرَاتِ (٤٩)

مُقَدِّمَةُ السُّورَةِ

سورة (الحجرات) هي السورة التاسعة والأربعون في ترتيب المصحف، والثامنة بعد المئة في ترتيب النزول، وقد نزلت سنة تسع من الهجرة في وفد بني تميم، بعد سورة (المجادلة) قبل سورة (التحریم).

وهي ثمانني عشرة آية باتفاق، وثلاث مئة وثلاث وأربعون كلمة.

وألف وأربع مئة وستة وسبعون حرفاً.

وتسمى سورة (الحجرات) لذكر هذا اللفظ فيها، وقد تُسمَّى سورة (الأخلاق)؛ لما تضمنته من قواعد التربية الصحيحة، وأُسِّس السلوك والحضارة الرفيعة.

وهي سورة مدنية باتفاق.

ومن قواعد التربية في السورة أنها تعلِّم المسلم الأدب مع الله تعالى، والأدب مع رسول الله ﷺ، وأدب الإنسان مع نفسه، في هواجس ضميره، وحركات جوارحه، وفي أدبه مع غيره من الناس؛ كي يكون المرء نقي القلب، نظيف المشاعر، عَفَّ اللسان، عَفَّ السريرة.

وفي السورة خمسة نداءات موجهة للمؤمنين، تتضمن أمهات الفضائل ومكارم الأخلاق:

النداء الأول: أَدَّبَ الله تعالى به المؤمنين تجاه ربهم، وتجاه رسوله ﷺ، فلا يُقَدِّمون شريعة على شريعة الله، ولا يُيرمون أمراً، أو يُبدون رأياً، أو يَقْضُونَ حُكْماً على حكم الله تعالى، وهذا ما تضمنته الآية الأولى.

النداء الثاني: فيه أدب خاص مع رسول الله ﷺ، فلا يرفعون أصواتهم على صوته ﷺ في شريعته ومنهجه، ولا يعلو أصواتهم على صوته ﷺ وهو حي، ولا عند قبره وهو ميت، ولا يذكرون اسمه بينهم كما يذكر كل منهم الآخر، بل يُجلُّونه ويُوقِّرونه، ولا ينادونه باسمه المجرد، وهذا ما تضمنته الآية الثانية.

النداء الثالث: يؤدب الله فيه المؤمنين أدباً عاماً، تقوم عليه دعائم المجتمع الفاضل،

فيأمرهم بالتثبت من الأقوال والأخبار، سِيِّمًا إِنْ صَدَرَتْ عَنْ شَخْصٍ مَّتَّهَمٍ، وهذا ما تضمنته الآية السادسة.

النداء الرابع: يحذّر الله فيه المؤمنين من السخرية، والهمز واللمز والتنازع بالألقاب، فإن في ذلك تقطيعاً لأواصر الأخوة، وانتقاصاً من شأن الآخرين، وقد يكونون عند الله تعالى خيراً ممن سخروا منهم، وهذا ما تضمنته الآية الحادية عشرة.

النداء الخامس: يحذّر الله فيه المؤمنين من سوء الظن؛ فإن الظن أكذب الحديث، وَيَنْهَى عَنْ التَّجَسُّسِ، وتتبع عورات المؤمنين؛ فإن من تتبع عورة أخيه تتبع الله عورته حتى يفضحه في جوف بيته، وينفّر في هذا النداء من الغيبة، ويشبّه المغتاب بمن ينهش لحم أخيه الميت ويأكله، وفيه وجوب مجانبة أخلاق الكافرين والفاسقين.

وفي هذه النداءات الخمسة، إما أن يكون العبد مع الله ورسوله، وإما أن يكون مع غيرهما من أبناء جنسه، وهم على قسمين: إما أن يكونوا من أهل الطاعة، أو من أهل الفسق، وأهل الطاعة إما أن يكونوا حاضرين معهم، وإما أن يكونوا غائبين عنهم.

فهذه خمسة أقسام، وحاصلها فيما يأتي:

أولاً: وجوب الطاعة والانقياد لأوامر الله ورسوله، وعدم التقدم عليه بقول أو فعل أو رأي ﴿لَا تَقْدِمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾.

ثانياً: احترام الرسول ﷺ وتعظيم شأنه ﴿لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ﴾.

ثالثاً: وجوب التثبت من الأخبار ﴿إِنْ جَاءَكَ فَاسِقٌ بِبَيِّنَةٍ فَتَبَيَّنُوا﴾.

رابعاً: النهي عن السخرية بالناس، وعن اللّمز والتنازع بالألقاب.

خامساً: النهي عن التجسس والغيبة وسوء الظن.

وبعد هذه النداءات الخمسة يأتي نداء عام للإنسانية جميعاً ليتبين للناس أن أصلهم واحد، يجب أن يتعاونوا ويتآلفوا فيما بينهم، وهم عند الله سواء، لا يتفاضلون إلا بالتقوى.

وفي أثناء هذه النداءات دعوة إلى الصلح بين المتخاصمين، وردّ الباغي عن بغيه، وكأن الآية التاسعة من السورة تشير إلى أنه ينبغي أن توجد محكمة عدل إسلامية للقيام بالصلح

بين كل فريقين اختصما من المسلمين.

وأن يوجد جيش إسلامي موحد ليقوم بردع الفئة الباغية، والدفاع عن حوزة الإسلام والمسلمين، والتصدي لدفع الصائل على كل دولة إسلامية، ولتأمين نشر الدعوة في كل مكان من العالم.

وفي العالم أناس مسلمون بالهوية، أميئون في أحكام الإسلام وآدابه، شأن الأعراب الذين لم يتمكن الإيمان من قلوبهم، وهؤلاء بحاجة إلى تدعيم إيمانهم والتوجه نحوهم بالقول الرشيد والحكمة السديدة، وتأليف قلوبهم لتقوية عرى الإسلام فيها، حتى ينخرطوا في سلك الذين آمنوا بالله ورسوله، ثم لم يرتابوا، وجاهدوا بأموالهم وأنفسهم في سبيل الله، فليس الإسلام كلمة تقال، ولا أمني تمني، والله تعالى يعلم ما ظهر وما بطن، يرى مكاننا، ويطلع على أحوالنا.

وآيات سورة (الحجرات) الثماني عشرة اشتملت على اسم الجلالة ثمان وعشرين مرة بما فيها البسملة، وجاء ذكرها ثلاث مرات في الآية الواحدة أحياناً، كما في الآية الأولى والآية السادسة عشرة.

وحزب المفصل من القرآن الكريم يبدأ من سورة (الحجرات)، أو من سورة (ق) على خلاف في ذلك، وعلى وجازة هذه السورة فهي سورة جليلة ضخمة، تتضمن حقائق كبيرة من حقائق العقيدة والشرعية، ومناهج التنظيم، وقواعد التهذيب والتوجيه، وهي تهدف إلى قيام مجتمع راقٍ ينتسب إلى الله ورسوله، بقلب نقيّ ولسان عَفٍّ، متأدبٍ بأدب الإسلام مع نفسه ومجتمعه في غياب أفراد وحضورهم، فلا يجرح مشاعرهم، ولا يؤاخذهم بظن، ولا يتتبع عوراتهم، ولا يمسُّ كرامتهم وحريتهم، ولا يحتقر ضعيفهم ولا فقيرهم، ويحترم صغيرهم، ويوقّر كبيرهم..

هذا: ويمكن تقسيم السورة إلى ثلاثة مقاطع:

١- فالآيات الخمس الأول تتضمن حسن الأدب مع الله ورسوله، فلا يقَدِّم العبد أمراً ولا نهياً ولا حُكماً ولا قضاءً ولا اقتراحاً على أمر الله ورسوله، ولا يجعل لنفسه ولا لغيره رأياً يخالف تعاليم الله ورسوله، مع لزوم الأدب وحسن التلقي والتوقير والتبجيل.

٢- وفي الآيات الثماني بعد هذه الخمس، جملة توجيهات إسلامية للمجتمع النظيف الحضاري، وهذه التوجيهات تتمثل في: وجوب الثبوت من الأخبار قبل الحكم عليها، ووجوب الصلح بين المتخاصمين من الأفراد والجماعات والأمم الإسلامية، واحترام بعضهم لبعض، فلا يسخر أحد من أحد، ولا ينتقص أحد أحدًا لا بالإشارة، ولا عن طريق غمز، ولا لمز، ولا سوء ظن، ولا كلمة في غياب أخيه أو حضوره.

وتشير الآية الأخيرة في هذا المقطع إلى وحدة الإنسانية على مختلف أجناسها وشعوبها، فهم جميعًا على قدم المساواة، ذكورًا وإناثًا، أثرياء وفقراء، حكامًا ومحكومين، ضعفاء وسادة، لا يتمايزون عند الله إلا بالتقوى والعمل الصالح.

٣- والآيات الخمس الأخيرة تبين أن الإسلام ليس كلامًا يقال باللسان، ولا أمانى، أو ادّعاءات يدّعيها العبد دون أن تكون لها حقيقة واقعية، ومن هنا تُبين الآيات حقيقة الإسلام والإيمان، وتذكرُ شروط الإيمان الكامل الذي يجمع بين إخلاص التوحيد ودعمه بالعمل الصالح، والجهد في سبيل الله، وطاعة الله والرسول، فإن خذل بعض الناس الإسلام، وتركوا شمائله، وضعف يقينهم في الأزمات، فليسوا بمسلمين، وهم ممن ينتمون إلى الإسلام ولا يلبّون له نداء، ولا يؤازرونه في محنة، والله تعالى يعلم الحقائق، ولا يغيب عنه شيء، وهو بصير بعباده، مطلع على نواياهم، محيط بأقوالهم وأفعالهم.



تَفْسِيرُ السُّورَةِ

لَا شَيْءَ يَتَقَدَّمُ حُكْمَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ

١- ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْدِمُوا^(١) بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ

هذا أمر بالتأدب مع الله ورسوله في الاتباع وعدم الابتداع في جميع أمور الدين، وعدم التقدم على شرع الله تعالى بقول أو فعل أو أي أمر من الأمور، وبذلك تتحقق السعادة للعبد في دنياه وأخراه، وفي مطلع السورة، يوجّه الله - سبحانه - النداء إلى عباده بوصف الإيمان المحبّب إلى قلوبهم، والذي من شأن المتصفين به أن يمثلوا أمر الله تعالى ويجتنبوا نهيه، فيأمرهم ألا يُقدّموا على قول أو فعل حتى يَعْلَمُوا حُكْمَ الله فيه؛ لأن العلم مقدّم على العمل، والعلم بالتكاليف الشرعية فرض عين على كل مسلم.

ويأمرهم أن يتأدبوا مع الله ورسوله بالتعظيم والتبجيل والاحترام والتوقير والإكرام. فإما من آمنتم بالله والرسول، كونوا متبعين لله ورسوله في جميع أقوالكم وأفعالكم، واخذروا أن تسرعوا فتقولوا قولاً، أو تُبرموا أمراً، أو تَقْضُوا قضاءً، دون أن تستندوا فيه إلى حكم صريح من كتاب الله تعالى، أو حكم صريح صحيح من سنة رسول الله ﷺ، أو منهما معاً، فلا تقولوا خلاف ما في الكتاب والسنة، ولا تصلّوا قبل أن يدخل الوقت، ولا تصوموا قبل أن يدخل الشهر، ولا تذبحوا الأضحية قبل صلاة العيد، وهكذا، وكونوا كما قال معاذ ﷺ، حين بعثه النبي ﷺ إلى اليمن، وقال له: «بم تحكم»؟ قال: بكتاب الله، قال: «فإن لم تجد»؟ قال: فبسنة رسول الله، قال: «فإن لم تجد»؟ قال: أجتهد رأيي^(٢).

(١) قرأ يعقوب بفتح التاء والدال من (تقدموا) على حذف إحدى التاءين؛ لأن الأصل تتقدموا، وقرأ الباقون بضم التاء وكسر الدال، مضارع أقدم.

(٢) «المسند» (٢٣٠/٥) برقم (٢٢٦١، ٢٢٠٠٧) قال محققوه: إسناده ضعيف لإبهام أصحاب معاذ، وجهالة الحارث بن عمرو، وأخرجه أبو داود في «السنن» (٣٥٩٣) والترمذي في «السنن» (١٣٢٧) وفي سنده مقال كما في «السلسلة الضعيفة» للشيخ الألباني برقم (٨٨١) وأخرجه أيضاً ابن ماجه (٥٥) والدارمي (٦٨) والطبراني في «الكبير» (٣٦٢) والطيالسي (٥٥٩) وغيرهم. قال الخطيب في الفقيه والمتفقه (٨٩/١): إن أهل العلم قد تَقَبَّلُوهُ واحتجوا به، فوقفنا بذلك على صحته عندهم.. ويمثل ذلك قال ابن القيم في (إعلام الموقعين) (٢٠٢/١) ومنه قوله: ولا يعرف من أصحاب معاذ، منهم ولا كذاب ولا مجروح..

أي: يقيس الأمور بأشباهاها فيما ليس فيه نص صريح.

وفي هذا وجوب الانقياد لأمر الله تعالى ورسوله، وتحذير للمؤمنين أن يحكموا فيما شجر بينهم غير حكم الله تعالى، كالقوانين الوضعية والأحكام العرفية، وما عليه الآباء والأجداد، وما يفعله فلان أو علان، فكل هذا تقديم بين يدي الله ورسوله، وردة عن حكم الله ورسوله.

واعتقاد أن غير حكم الله تعالى أصلح للبشر، أو أنسب لحقوق الإنسان، كفرٌ مُخرج من الملة، والعبد مقيد بأمر الدين التي يلتزم فيها الاتباع، ويحرم فيها الابتداع.

أما أمور الدنيا ومصالح الناس في الصناعة والزراعة والتجارة ونحو ذلك فلا مانع منه، ما لم يكن في الأمور المحرمة شرعاً، كزراعة المخدرات، أو تصنيع الخمر والاتجار فيها.

﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ﴾ خافوه واحذروا غضبه، ولا تخالفوا أمره ونهيه في قول أو فعل.

قال طلق بن حبيب: التقوى أن تعمل بطاعة الله على نور من الله ترجو ثواب الله، وأن تترك معصية الله على نور من الله، تخشى عقاب الله.

وحقيقة التقوى، أن تجعل بينك وبين عذاب الله وقاية، بامثال أوامره واجتناب نواهية ﴿إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ﴾ لأقوالكم ولجميع الأصوات في جميع الأوقات ﴿عَلِيمٌ﴾ بأفعالكم ونياتكم وظواهركم وبواطنكم، ويعلم السابق واللاحق.

وما دام الأمر كذلك فلا تبدعوا في دين الله ما ليس منه، ولا تُشرّعوا ما لم يأذن به الله، ولا تقلّدوا المجتمع أو الآباء والأجداد في أمر يخالف شرع الله تعالى:

سبب النزول: عن عبد الله بن الزبير رضي الله عنه، أنه قدم ركب من بني تميم على النبي ﷺ، فقال أبو بكر للنبي ﷺ: أمر القعقاع بن معبد، وقال عمر: بل أمر الأقرع بن حابس، فقال أبو بكر: ما أردت إلا خلافي، فقال عمر: ما أردت خلافاً، فتمارا حتى ارتفعت أصواتهما، فنزلت الآية^(١).

وعن الضحّاك عن ابن عباس رضي الله عنه: أنها نزلت بسبب بعث رسول الله ﷺ سرية، فقتلت بنو عامر رجال السرية إلا ثلاثة نفر نجوا، ثم إنهم اتقوا مع رجلين من بني سليم، فسألوهما

(١) الترمذي (٣٣٦٦) والطبراني (٢٧٦) و«صحيح البخاري» بأرقام (٤٣٦٧، ٤٨٤٧، ٧٣٠٢).

فقالا : إنهما من بني عامر، فقتلوهما وسلبوا أموالهما، وأتوا رسول الله ﷺ، فقال : «بِسْمِ صَنَعْتُمْ، كَانَا مِنْ بَنِي سُلَيْمٍ»، ودفع لهما النبي ﷺ الدية، ونزلت الآية^(١) لتوجيه المؤمنين ألا يعملوا عملاً، ولا يتصرفوا تصرفاً إلا بعد عرضه على كتاب الله وسنة رسوله ﷺ.

وهذه الآية توطئة للنهي عن رفع الصوت عند رسول الله ﷺ في حياته وبعد مماته، وفيها توبيخ لوفد بني تميم حين نادوا رسول الله من وراء الحجرات، فهي تمهيد لما بعدها، وفيها بيان أن طاعة الله تعالى لا تُعَلَم إلا بقول رسول الله ﷺ، وطاعة الرسول طاعة لله تعالى، وهذه الآية تمهيد للآية التالية.

وَجُوبُ التَّأْدِبِ مَعَ النَّبِيِّ ﷺ فِي حَيَاتِهِ وَبَعْدَ مَمَاتِهِ

٢- ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ^(٢) وَلَا تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَن تَحْبَطَ أَعْمَالُكُمْ وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ﴾

وهذا أدب مع النبي ﷺ حال التخاطب معه حياً وعند قبره ميتاً.

حيث أُعيد النداء للمؤمنين في هذه الآية، للإشعار بأنه غرض جديد، جدير بالتنبيه عليه، وأنه لا يندرج تحت النداء الأول، فإما من آمنت بالله واليوم الآخر، وصدقت بكتاب الله وسنة رسوله ﷺ يجب عليكم توقير الرسول ﷺ وإجلاله واحترامه وتعظيمه وتوقيره، فلا ترفعوا أصواتكم في مجلسه وحضرته إذا كلّم بعضكم بعضاً، بل اخفضوا أصواتكم؛ لأن رفع الصوت دليل على قلة الاحتشام وعدم الاحترام، ولا ترفعوا أصواتكم عند مخاطبتكم له ﷺ في حياته، ولا عند قبره بعد مماته، ولا في مجلس قرآن أو علم شرعي، فإن هذا أدب إسلامي، والخطاب يكون بالأدب واللين وخفض الجناح.

﴿وَلَا تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ﴾ أي: لا تجهروا بالصوت عند مناداته ﷺ أو ذكر اسمه، كما ينادي بعضكم على بعض، بل ميّزوه في خطابه كما هو مميز في اصطفاؤه لحمل رسالة ربه، ووجوب محبته وطاعته، والافتداء به، ووجوب حقه على الأمة، ووجوب الإيمان به وتقديم محبته على محبة النفس والولد، فلا تقولوا: يا محمد، باسمه

(١) ذكره الألوسي في تفسيره للآية، وذكره وابن عاشور (٢٦/٢١٧).

(٢) قرأ نافع بالهمز في لفظ (النبي)، والباقون بياء مشددة.

المجرد كما ينادي بعضكم بعضاً، بل عظموه ووقروه، وقولوا: يا رسول الله، يا نبي الله، كما قال تعالى: ﴿لَا تَجْعَلُوا دُعَاءَ الرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَاءِ بَعْضِكُمْ بَعْضًا﴾ [النور: ٦٣].

وهو ﷺ سيد الأولين والآخرين، وسيد الأنبياء والمرسلين، وسيد ولد آدم، وهذا التسيد يقال في غير الأمور التعبدية كالشهادة والأذان، والله تعالى لم يخاطب رسوله ﷺ في كتابه باسمه المجرد، كما خاطب بقية رسله صلوات الله عليهم أجمعين، بل يقول له: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ﴾، ﴿يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ﴾.

وجاء اسمه مجرداً في مقام الإخبار فقط مثل ﴿مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ﴾ [الأحزاب: ٤٠]

وإن لم تكفوا عن ذلك فإنه يُفضي بكم إلى بطلان أعمالكم الصالحة، فاتركوه خشية ﴿أَن تَحْبَطَ أَعْمَالُكُمْ وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ﴾ أي: حتى لا تبطل أعمالكم وأنتم لا تحسّون بذلك، فكما أن التأدب مع النبي ﷺ يحقق الفوز والفلاح، فإن عدم التأدب معه يحبط قبول العمل.

وهذا النهي مخصوص بغير المواضع التي يؤمر بالجهر فيها، كالأذان والتكبير في يوم العيد وخطبة الجمعة.

قال ابن عطية في معنى ﴿أَن تَحْبَطَ أَعْمَالُكُمْ﴾ أي: أن تأثموا ويكون ذلك سبباً إلى الوحشة في نفوسكم، فلا تزال معتقداتكم تتدرج القهقري حتى يؤول ذلك إلى الكفر، فتحبط الأعمال حقيقة^(١).

وذلك لأن سوء الأدب مع رسول الله ﷺ يجعل النفس تسترسل، فلا تزال تزداد، وتتقص من توقير الرسول ﷺ حتى يؤول ذلك إلى الاستخفاف وعدم الاكتراث، وهذا كفر، كما قال تعالى: ﴿وَلَمَّا سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ قُلْ أَبِاللَّهِ وَآيَاتِهِ وَرَسُولِهِ كُنْتُمْ تَسْتَهْزِئُونَ ﴿٦٥﴾ لَا تَعْذِرُوا قَدْ كَفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ﴾ [التوبة: ٦٥، ٦٦] وهذا معنى ﴿وَأَن تَشْعُرُونَ﴾ لأنه ينتقل من سيئ إلى أسوأ حتى تغمره المعاصي، ويصل إلى مرتبة الكفر تدريجياً.

وقد امثل أصحاب رسول الله ﷺ لهذا التوجيه امتثالاً كاملاً:

(١) «تفسير ابن عطية» (٥/١٤٥).

١- فهذا أبو بكر رضي الله عنه لما نزلت هذه الآية قال: يا رسول الله، والله لا أكلمك إلا كأخي السرار^(١) أي: الذي يتكلم سرًّا أو همسًا.

٢- وهذا عمر رضي الله عنه لما نزلت هذه الآية كان لا يتكلم مع رسول الله ﷺ إلا همسًا، أي: بكلام لا يكاد يُسمع، فما تكلم بكلام مع النبي ﷺ إلا استفهم منه ماذا يقول^(٢).

٣- ولما سمع عمر رضي الله عنه صوت رجلين في مسجد رسول الله قد ارتفعت أصواتهما، جاء فقال: أتدريان أين أنتما؟ ثم قال: من أين أنتما؟ قالا: من أهل الطائف، فقال: لو كنتما من أهل المدينة لأوجعتكما ضربًا^(٣).

٤- وفي صحيح البخاري، وغيره: عن ابن أبي مليكة قال: كاد الخيران أن يَهْلِكَا: أبو بكر وعمر، رفعا أصواتهما عند النبي ﷺ حين قَدِمَ عليه رُكْب بني تميم، فأشار أحدهما بالأقرع بن حابس وأشار الآخر برجل آخر^(٤).

٥- وهذا ثابت بن قيس بن شماس، لما نزلت هذه الآية، افتقده النبي ﷺ، فسأل عنه سعد بن معاذ، فذهب يبحث عنه، فوجده جالسًا في بيته منكس الرأس، قال له: «ما شأنك؟» قال: شرٌّ، كنت أرفع صوتي فوق صوت رسول الله، حبط عملي، فأنا من أهل النار، ولما أخبر سعد رسول الله ﷺ بذلك، قال له: «اذهب إليه فقل له: إنك لست من أهل النار، ولكنك من أهل الجنة»^(٥).

٦- وفي رواية: أن النبي ﷺ قال له: «أترضى أن تعيش حميدًا، وتقتل شهيدًا، وتدخل

(١) «كشف الأستار»، «مسند البزار»، برقم (٦٦، ٢٢٥٧) و«المستدرک» (٧٤/٣) قال الهيثمي في «مجمع الزوائد» (١٠٨/٧): فيه حصين بن عمر الأحمسي وهو متروك، وقد وثقه العجلي، وبقية رجاله رجال الصحيح، وأخرجه بنحوه عن أبي هريرة الحاكم (٤٦٢/٢) والبيهقي (١٥٢١). (التفسير الصحيح).

(٢) يُنظَر: هذا المعنى في «صحيح البخاري» برقم (٤٣٦٧، ٤٨٤٥).

(٣) يُنظَر: «صحيح البخاري» برقم: ٤٧٠ من طريق السائب بن يزيد.

(٤) البخاري: (٤٨٤٥، ٧٣٠٢) والطبراني (٢٧٦).

(٥) يُنظَر هذا المعنى عن أنس: في «صحيح البخاري» برقم (٣٦١٣، ٤٨٤٦) و«صحيح مسلم» برقم (١١٩) و«المسند» (١٢٣٩٩، ١٢٤٨٠) بإسناد صحيح على شرط الشيخين (محققه) وأبي يعلى (٣٣٣١) والطبراني (١٣٠٩) والبيهقي (٣٥٤/٦). وعبد بن حميد (١٢٠٩).

الجنة؟ فقال: رضيْتُ ببشرى الله تعالى ورسوله ﷺ، ولا أرفع صوتي أبداً على صوت رسول الله ﷺ^(١).

قال أنس: فكنا نراه يمشي بين أظهرنا، ونحن نعلم أنه من أهل الجنة، فلما كان يوم اليمامة خرج مع خالد بن الوليد إلى مسيلمة الكذاب، وكان فينا بعض الانكشاف، فجاء ثابت بن قيس بن شماس، وقد تحنَّط ولبس كفته، وحفر لنفسه حفرة فقاتلهم حتى قُتل^(٢).

ولما استشهد ثابت، كانت عليه درع نفيسة، فمرَّ به رجل فأخذها، فرآه رجل في المنام بعد موته، فقال له: إني أوصيك بوصية، إياك أن تقول: هذا حُلْمٌ فَتُضَيِّعُهُ، إِنَّ فلاناً نزع درعي وأخذها، ومنزله في أقصى العسكر، وعند خبائه فرس، وقد كفاً على الدرع بُرمة، وجعل فوق البرمة رَحْلاً، فاذهب إلى خالد بن الوليد فأخبره حتى يستردَّ درعي، ثم ائت أبا بكر الصديق خليفة رسول الله ﷺ، وقل له: إن عليّ دَيْنًا إلى فلان، ولي من الدَّين كذا على فلان حتى يقضي عني ديني، فأخبر الرجل خالدًا، فوجد الدرع على ما وَصَفَ، حيث رفعوا الرُّحْلَ فإذا تحته بُرمة، فرفعوا البرمة فإذا الدرع تحتها، فأتوا بها إلى خالد، فلما قَدِمَ المدينة حدَّث الرجل أبا بكر برؤياه، فأجاز وصيته، قال مالك بن أنس: لا أعلم وصية أُجيزت بعد موت صاحبها إلا هذه^(٣).

٧- وعن صفوان بن عَسَّال أن رجلاً من أهل البادية أتى رسول الله ﷺ، فجعل يناديه بصوت جهوريٍّ: يا محمد، يا محمد، فقلنا له: ويحك، اخفض من صوتك، فإنك قد نُهِيتَ عن هذا، قال: لا والله حتى أسمع، فقال النبي ﷺ: «هاؤم» قال: رأيت رجلاً يحب قومًا ولمَّا يلحق بهم؟ قال: «المرء مع من أحب»^(٤).

(١) «تفسير الطبري» (٧٥/٢٦) والطبراني في «الكبير» (١٣١٦) والحاكم (٢٣٤/٣) وابن مردويه كما في «الفتح» (٦٢٠/٦) وابن حَبَّان (٧١٦٧).

(٢) «المسند» (١٣٧/٣). برقم (١٢٣٩٩) بإسناد صحيح على شرط الشيخين (محققوه) وأخرجه البخاري في «خلق أفعال العباد» (٥٥٧) ومسلم (١١٩).

(٣) «تفسير الخازن» (١٦٥/٤) والبغوي كما في «الإصابة» (٣٩٦/١) وابن المنذر كما في «الفتح» (٦٢١/٦) والخطيب (٣٣٢) والطبراني في «الكبير» (١٣٢٠) والحاكم (٢٣٤/٣) قال الهيثمي في «المجمع» (٣٢٢/٩) بنت ثابت بن قيس لم أعرفها، وبقية رجاله رجال الصحيح، والظاهر أنها صحابية فقد قالت: سمعت أبي.

(٤) حديث حسن كما في «صحيح سنن الترمذي» (٢٨٠١) وابن حَبَّان (٥٦٢، ١٣٢١).

وعلى هذا فإن رفع الصوت المنهي عنه هو الذي يكون احتقاراً أو عدم مبالاة، وجُراً على رسول الله ﷺ، أما إذا كان محبة واحتراماً ونحو ذلك مما يصدر من فضلاء المؤمنين ومحبي رسول الله ﷺ كهذا الأعرابي، فليس فيه شيء.

ولما نهى الله سبحانه رفع الصوت عند رسول الله، مدح خفض الصوت عنده فقال:

٣- ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصْوَاتَهُمْ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ امْتَحَنَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلنَّقَاةِ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ (٢)

أي: ولما نزل قوله تعالى: ﴿لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ﴾ وكان أبو بكر وعمر بعدها لا يكلمان النبي ﷺ إلا همساً، بعد ذلك مدح الله تعالى الذين يخفضون أصواتهم في حضرة رسول الله ﷺ، وعند قبره بعد موته، فحُرِّمَتْهُمُ ﷺ ميتاً كحرمته حياً، فقال سبحانه: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصْوَاتَهُمْ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ﴾ أي: يخفضونه في حضرة رسول الله عند مخاطبتهم له ﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ امْتَحَنَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلنَّقَاةِ﴾ أي: اختبر الله قلوبهم، وابتلاها، فظهرت نتيجة هذا الاختبار بأن أصلح الله قلوبهم وأخلصها لتقواه، فجعل التقوى صفة راسخة في قلوبهم، كأنهم فُطِّروا عليها، وجعلهم أهلاً لها، وهؤلاء ﴿هُمْ مَغْفِرَةٌ﴾ من الله تعالى لذنوبهم ﴿وَأَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ ثواب جزيل هو الجنة، فقد زال عنهم كل مكروه وحصل لهم كل مرغوب.

عن مجاهد قال: كُتِبَ إلى عمر بن الخطاب: يا أمير المؤمنين رجل لا يشتهي المعصية ولا يعمل بها أفضل أم رجل يشتهي المعصية ولا يعمل بها؟ فكتب عمر ؓ: إن الذين يشتهون المعصية ولا يعملون بها ﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ امْتَحَنَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلنَّقَاةِ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ (١).

وفي هذا دليل على أن الله تعالى يمتحن القلوب بالأوامر والنواهي، فإذا امتثل العبد وقدم طاعة الله على هوى نفسه، تمتحّض قلبه وتمتّص للتقوى، وإذا لم يمتثل، علّم أنه لا يصلح للتقوى.

ثم بيّن سبحانه الغرض الذي من أجله نزل صدر هذه السورة، وكان كالمقدمة لهذه الآية:

(١) أخرجه أحمد في كتاب «الزهد» كما في «الدر المنثور» (٥٥٢/٧).

لَا تَجْعَلُوا دُعَاءَ الرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَاءِ بَعْضِكُمْ بَعْضًا

٤- ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِنْ وَرَاءِ الْحُجُرَاتِ^(١) أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾

نزلت هذه الآية في قوم من الأعراب، وصفهم ربنا بالجفاء، وأنهم لا يعلموا حدود ما أنزل الله على رسوله، وفدوا عليه فوجدوه في بيته، فلم يصبروا ولم يتأدبوا ويتنظروا خروجه إليهم، وأخذوا ينادونه: يا محمد، أخرج إلينا، فوصفهم ربنا بعدم العقل وسوء الأدب.

والمراد بالحجرات: منازل زوجات النبي ﷺ، أي: أن ما يفعله بعض الناس من النداء عليك -أيها الرسول- بصوت مرتفع من خلف مساكن زوجاتك رضي الله عنهن ﴿أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾ الأدب مع رسول الله ﷺ؛ فإن هذا الأسلوب ليس فيه الاحترام والتوقير المناسبان لخطاب أشرف الخلق ﷺ.

وقد جاءت روايات في أسباب نزول هذه الآية:

١- قال ابن عباس ؓ: بعث رسول الله ﷺ سرية إلى بني العنبر، وأمر عليهم عيينة بن حصن، فلما علموا أنه توجه نحوهم، هربوا وتركوا عيالهم، فسباهم عيينة وأتى بهم إلى رسول الله ﷺ، ثم جاء رجالهم إلى رسول الله ﷺ ليأخذوا أبناءهم الذين أسرهم عيينة ويدفعوا إليه الفدية، فوصلوا المدينة وقت الظهر، وكان رسول الله ﷺ نائماً وقت القيلولة، فأخذوا ينادون عليه من وراء حجرات نسائه، يقولون: يا محمد، أخرج إلينا، حتى أيقظوه من نومه، فخرج إليهم، فقالوا: يا محمد، فادنا عيالنا، أي: نريد أن نأخذ أبناءنا وندفع فيهم الفدية، فنزل جبريل يقول للنبي ﷺ: اجعل بينك وبينهم رجلاً، فقال ﷺ: «أترضون أن يكون بيني وبينكم سبرة بن عمرو، وهو على دينكم»، قالوا: نعم، فقال سبرة: لا أحكم وعمي شاهد، وهو الأعور بن بشامة، فرضوا به، فقال الأعور: أرى أن تفدي نصفهم وتعتق نصفهم، فقال رسول الله ﷺ: «قد رضيت»، وأنزل الله الآية^(٢).

٢- وعن ابن عباس ؓ: أنها نزلت في وفد بني تميم، كانوا سبعين أو ثمانين رجلاً

(١) قرأ أبو جعفر بفتح الجيم من (الحجرات) والباقون بضمها، وهما لغتان.

(٢) «تفسير الخازن» (٤/١٦٥) و«التحرير والتنوير» (٢٦/٢٢٤) والبيهقي في تفسيره.

أتوا رسول الله ﷺ وقت الظهيرة وهو راقد، وفيهم الزبير بن بدر، وعيينة بن حصن، فنادوا النبي ﷺ من وراء حجراته، وقالوا: اخرج يا محمد، فإن مدحنا زين، وذمنا شين، فاستيقظ ﷺ وخرج^(١).

٣- وعن زيد بن أرقم رضي الله عنه قال: اجتمع أناس من العرب، فقالوا: انطلقوا بنا إلى هذا الرجل، فإن يك نبياً فنحن أسعد الناس به، وإن يك ملكاً نعش بجناحه، قال: فأتي رسول الله ﷺ فأخبرته بما قالوا، فجاؤوا إلى حجرته فجعلوا ينادونه وهو في حجرته: يا محمد، يا محمد، فأنزل الله الآية، قال: فأخذ رسول الله ﷺ بأذني فمدّها، فجعل يقول: «لقد صدّق الله قولك يا زيد، لقد صدّق الله قولك يا زيد»^(٢).

حجرات زوجات النبي ﷺ:

وحجرات النبي ﷺ كانت بيتاً واحداً مقسماً على تسع حجرات، وكانت الحواجز التي بين كل حجرتين من جريد النخل، وعلى أبوابها مسوح من شعر أسود.

قال الحسن البصري: كنت أدخل بيوت أزواج النبي ﷺ في خلافة عثمان بن عفان، فأتناول سقفها بيدي، وكانت مساحة الحجرة نحو سبعة عشر ذراعاً^(٣).

قال عطاء الخراساني: أدركت حُجَرَ أزواج رسول الله ﷺ من جريد النخل، على أبوابها المُسَوَّح من شَعَرٍ أُسُود، فحضرت كتاب الوليد بن عبد الملك يُقرأ: يأمرُ بإدخال حُجَرَ أزواج رسول الله ﷺ في مسجد رسول الله ﷺ فما رأيت يوماً أكثرَ باكياً من ذلك اليوم، فسمعتُ سعيد بن المسيّب يقول يومئذ: والله لَوَدِدْتُ أنهم تركوها على حالها، ينشأ ناس من أهل المدينة، ويقدمُ القادمُ من أهل الأفق، فيرى ما اكتفى به رسول الله ﷺ

(١) أخرجه ابن إسحاق في «سيرة ابن هشام» (٥٦١/٢) وابن مردويه كما في «تخريج الكشاف» (٣٣٠/٣) و«حاشية البيضاوي» (٣٦٧/٣) وغيرها.

(٢) «تفسير الطبري» ٧٧/٢٦ ورواه الطبراني في «المعجم الكبير»: ٢١٠/٥ (٥١٢٣) قال في «مجمع الزوائد» ١٠٨/٧: فيه داود بن راشد الطفاوي، وثقه ابن حبان، وضعفه ابن معين، وبقي رجاله ثقات، وأخرجه أبو يعلى كما في «المطالب العالية» ٤١١٠ وابن أبي حاتم.

(٣) ابن سعد ٥٠٠/١ والبخاري في «الأدب المفرد» (٤٥٠) والبيهقي في «الشعب» (١٠٧٣٤) وهو صحيح الإسناد كما في «صحيح الأدب المفرد» برقم (٣٥١).

في حياته، فيكون ذلك مما يُرْهَدُ الناسَ في التكاثر والتفاخر فيها.

وقال يومئذ أبو أمامة بن سهل بن حنيف: ليتها تُركت فلم تُهدم، حتى يقصر الناسُ عن البناء، ويرؤن ما رضي الله لنبيه، ومفاتيح خزائن الدنيا بيده^(١). قال تعالى:

٥- ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ صَبَرُوا حَتَّى تَخْرُجَ إِلَيْهِمْ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٥﴾﴾

ثم إن الله تعالى عَنَّفَ الذين ينادونه من وراء الحجرات على إزعاجهم للنبي ﷺ، وبين أنه كان الأولى بهم أن ينتظروا خروج النبي ﷺ إليهم، فإن هذا من محاسن الأخلاق، وأليق بمقام النبوة، فقال سبحانه: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ صَبَرُوا حَتَّى تَخْرُجَ إِلَيْهِمْ﴾ ولم يزعجوك بمناداتهم لك وقت القيلولة ﴿لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ﴾ عند الله في دينهم وديارهم؛ لأنه تعالى أمرهم بتقريبك، وهو خير لهم عند الله وعند الناس؛ لأن فيه مراعاة الأدب مع مقام النبوة ﴿وَاللَّهُ غَفُورٌ﴾ لما صدر منهم عن جهل، وهو ذنب مخلٌّ بالأدب ﴿رَحِيمٌ﴾ بهم، حيث لم يعاجلهم بالعقوبة في الدنيا، واقتصر على توبيخهم ونصحهم.

أَثَرُ الشَّائِعَاتِ فِي فَسَادِ الْأُمَّةِ وَسَبِيلُ الْوَقَايَةِ مِنْهَا

٦- ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَأٍ فَتَبَيَّنُوا^(٢) أَن تُصِيبُوا قَوْمًا بِجَهْلَةٍ فَتُصْحَبُوا عَلَى مَا فَعَلْتُمْ نَادِمِينَ﴾

من صدق الإيمان: التثبت عند سماع الأخبار، فربَّ شائعة لا أصل لها أحدثت فتنة بالغة، وهذا أيضًا من الآداب التي يجب التأدب بها، وهو عدم تصديق ناقل الأخبار إلا بعد التبيين، وبكفي وصفه بالفسق والإثم، والفاسق لا يقبل قوله، فإن دلت القرائن على صدقه فخبره مقبول، وإن دلت على كذبه فهو مردود.

وقد ورد أن النبي ﷺ أرسل الوليد بن عقبة بن أبي معيط إلى بني المصطلق ليأتي بركة أموالهم، فلما سمعوا بمقدمه وكانوا قد استبطؤوه، خرجوا للقاءه فرحًا به ومعهم زكاتهم، وكانت بينه وبينهم خلافات قديمة معروفة، فلما رآهم الوليد على بُعدٍ خاف منهم، وظن أنهم يريدون قتله، فرجع إلى النبي ﷺ وأخبره أنهم رفضوا إعطاء الزكاة، وأرادوا قتله،

(١) أخرجه ابن سعد (٤٩٩/١).

(٢) قرأ حمزة والكسائي وخلف (فتبينوا) من التثبت، وقرأ الباقون (فتبينوا) من التبين، وهما متقاربان في المعنى.

فقدِمَ وفد منهم على النبي ﷺ وأخبروه بما حدث، فأنزل الله الآية.

وكان الحارث بن أبي ضرار الخزاعي سيدهم، قدم على النبي ﷺ ودعاه إلى الإسلام فأسلم، وأخذ على نفسه عهداً أن يعود إلى قومه ويدعوهم إلى الإسلام، ويجمع الزكاة ممن أسلم منهم، فبعث إليه الرسول ﷺ الوليد بن عقبة لهذا الغرض^(١).

وفي رواية أن النبي ﷺ لما بلغه منع بني المصطلق للزكاة، أرسل إليهم خالد بن الوليد خفية في عسكر معه، وقال له: إن رأيت منهم ما يدل على إيمانهم فخذ منهم زكاة أموالهم، وإن لم ترَ ذلك فاستعمل فيهم ما تستعمل في الكفار، فلما وافاهم سمع أذان المغرب والعشاء، فأخذ منهم صدقاتهم، ولم ير منهم إلا الطاعة والخير، فرجع إلى رسول الله ﷺ وأخبره الخبر، وأنزل الله قوله تعالى: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِن جَاءَكَ فَاسِقُ بَنِي قَتَيْنَا﴾^(٢).

والفسق: هو فعل ما يحرمه الشرع من الكبائر، ويُفسَّرُ هنا بالكذب، ولا يوصف به أحد من الصحابة؛ لأنهم عدول، واتفق المفسرون على أن الوليد ظَنُّ ذلك ولم يتعمد الكذب. قال الفخر الرازي: إن إطلاق لفظ الفاسق على الوليد شيء بعيد؛ لأنه توهم وظنٌّ فأخطأ، والمخطئ لا يُسمى فاسقاً، ولو كان الوليد فاسقاً ما تركه النبي ﷺ دون تعنيفه واستتابته، ولكنه لم يزد على قوله لخالد بن الوليد: «التبين من الله، والمجلة من الشيطان»^(٣)، وقد حمّله على هذا الظن خروجهم له بصدقاتهم على طريقة غير مألوفة؛ إذ لم يُعرف أن القبائل تخرُج لتتلقى السَّعاة الذين يجمعون الزكاة.

(١) يُنظَرُ الحديث في: «المسند» (٢٧٩/٤) (١٨٤٥٩) قال محققوه: إسناده حسن بشواهد، وأخرجه الطبراني في «المعجم الكبير» برقم (٣٣٩٥، ٣٧٩٧) وقال الهيثمي (١٠٩/٧): رجال أحمد ثقات وأخرجه الطبري (٣٥٠/٢١) والبيهقي (٥٤/٩) وابن عساكر (٢٢٩/٦٣).

(٢) «تفسير الخازن» (١٦٦/٤) وقد أنكر القاضي أبو بكر بن العربي هذه القصة في كتابه «العواصم من القواصم» ص ١٠٢، وأحسن الروايات فيها رواية أحمد عن الحارث بن ضرار الخزاعي ضمن أكثر من عشر روايات وردت فيها، تُنظَرُ الروايات في: «الدر المنثور» (٥٤٥-٥٥٢).

(٣) أخرجه عبد بن حميد كما في «الإصابة» (٦١٥/٦) والطبري (٣٥/٢١)، وهو حديث مرسل عن الحسن كما في ضعيف الجامع الصغير، (٢٥٠٤) وأخرجه ابن أبي الدنيا في ذم الغضب، والخرائطي في مساوى الأخلاق، وله شاهد صحيح رواه أبو يعلى عن أنس كما في صحيح الترغيب والترهيب برقم (١٥٧٢).

قال ابن عاشور: وأنا أحسب أن عملهم هذا كان حيلة من كبارهم لصرف الوليد عن الدخول إلى بلدهم؛ حتى لا يُعَيِّرهم عامة الناس بأن عدوهم قد دخل ديارهم عنوة، وقد كان الوليد شجاعاً جواداً، ذا خلق ومروءة.

ويؤخذ من الآية:

- ١- وجوب البحث عن عدالة مجهول الحال.
- ٢- قبول خبر الواحد الذي انتفت عنه تهمة الكذب.
- ٣- الأصل في المجهول عدم العدالة، ويُستثنى الصحابة فإنهم عدول، حتى يثبت خلاف ذلك يقيناً.
- ٤- تحذير من الوقوع فيما يوجب التوبة شرعاً^(١).

والآية عامة في كل فاسق كاذب، ومعناها: يا من آمنتم بالله والرسول، إذا أتاكم رجل غير موثوق بصدقه وعدالته بخبر من الأخبار، سِيِّمًا إن كانت هذه الأخبار هامة ﴿فَتَيَبَّنُوا﴾ وتثبتوا من صحة الخبر، ولا تقبلوه بدون تأكد من صحته؛ لئلا تؤذوا قومًا برآء، لا علم لهم بهذا الخبر، فتجنوا عليهم، فتأكدوا من صحة هذا الخبر بطريقة من الطرق خشية ﴿أَنْ تُصِيبُوا قَوْمًا بِمِجَالَةٍ﴾ أي: وأنتم جاهلون بحقيقة الأمر؛ حتى لا تتصرفوا تصرفاً تندمون عليه ﴿فَتُصِيحُوا عَلَى مَا فَعَلْتُمْ نَادِمِينَ﴾ بسبب تصديقكم الخبر الكاذب دون تبيين.

والآية ترشد إلى كيفية تلقّي الأخبار بنزاهة مجردة من محبة صاحب الخبر أو بُغْضه، وبغض النظر عن مظهره ولحنه في القول، كما ترشد الآية إلى كيفية التعامل معها بحكمة وروية، حتى يسلم المجتمع من الخصام والفرقة.

الْمُؤْمِنُ يَتَّبِعُ شَرْعَ اللَّهِ تَعَالَى وَإِنْ خَافَ رَغْبَتَهُ

- ٧- ﴿وَأَعْلَمُوا أَنَّ فِيكُمْ رَسُولَ اللَّهِ لَوْ يُطِيعُكُمْ فِي كَثِيرٍ مِّنَ الْأَمْرِ لَعَنِتُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الْإِيمَانَ وَزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ أُولَٰئِكَ هُمُ الرَّاشِدُونَ﴾ (٧)
- فإذا تلقّى المسلم خبراً فعليه أن يعرضه على رسول الله ﷺ في حياته، وعلى شرع الله

(١) يُنظَر: «تفسير التحرير والتنوير» (٢٦/ ٢٣٠) بتصرف واختصار.

تعالى بعد ممات رسوله، وكون الرسول ﷺ موجودًا بين الصحابة في حياته أمر معلوم، لا يحتاج إلى الإخبار عنه، ولكن المقصود بقوله تعالى: ﴿وَأَعْلَمُوا أَنَّ فِيكُمْ رَسُولَ اللَّهِ﴾ هو تعليم المسلمين أن يتبعوا شرع رسول الله ﷺ، وأن يحكموه في كل ما شجر بينهم من الأحكام، ولو كانت غير موافقة لرغباتهم.

فإن بين أظهركم رسول الله وهو حي، فتأدبوا معه، فإنه أعلم بما يصلحكم وما فيه خيركم، وقد تريدون لأنفسكم من الشر والضرر ما لا يوافقكم عليه، بحيث ﴿لَوْ يُطِيعُكُمْ فِي كَثِيرٍ مِّنَ الْأَمْرِ لَعَنِتُمْ﴾ أي: لو أطاعكم كلما رغبت لحدث لكم ما يشق عليكم فيضركم، ويوقعكم في الإثم والحرَج، ولو أن الشرع لَبَّى رغباتكم في كل ما تهوى أنفسكم لأدى ذلك إلى مشقتكم، وإتلاف أموركم، ولنزل بكم ما يؤدي إلى هلاككم.

قال أبو سعيد الخدري رحمه الله بعدما قرأ ﴿وَأَعْلَمُوا أَنَّ فِيكُمْ رَسُولَ اللَّهِ لَوْ يُطِيعُكُمْ فِي كَثِيرٍ مِّنَ الْأَمْرِ لَعَنِتُمْ﴾: هذا نبيكم يوحى إليه، وخيار أئمتكم لو أطاعهم في كثير من الأمر لعنتوا، فكيف بكم اليوم^(١).

والله تعالى لا يأمر رسوله إلا بما فيه صلاح العاقبة، وإن لم يوافق رغباتكم ﴿وَلَكِنَّ اللَّهَ حَبَبَ إِلَيْكُمْ أَلَيَّمَنَ﴾ أي: حَسَّنَ إليكم ما شرعه لكم من الأحكام، فشرع لكم الإسلام، ودعاكم إلى حبه والرضى به، فامثلتم وأمتتم ﴿وَزَيَّنَّا فِي قُلُوبِكُمْ﴾ أي: أدخله فيها، وجعلكم مؤمنين به بما أودعه في قلوبكم من محبة الحق وإيثاره، وبالشواهد والأدلة التي تدل على صدق الحق وصحته، وبقبول القلوب والفطر للحق، وبتوفيق الله لكم ﴿وَكُرَّهَ إِلَيْكُمْ الْكُفْرَ﴾ بالله ورسوله واليوم الآخر، كما بغض إليكم كل ما لا يرضى الله تعالى من سائر الذنوب والمعاصي، ﴿وَالْفُسُوقَ﴾ كرهه الله إليكم، وهو الخروج عن طاعته تعالى بفعل كبائر الذنوب من كل ما يُغضب الله تعالى، ويخالف أمره ونهيه ﴿وَالْعَصْيَانَ﴾ أي: وكُرَّهَ إليكم فعل صغائر الذنوب، وذلك بما أودعه الله في قلوبكم من كراهة الشر وعدم إرادته، وبما نصبه من الأدلة والشواهد على فساد، وعدم قبول الفطر له، فإن كرهتم هذه الثلاثة، ولم ترغبوا فيما ينهى عنه الإسلام، فأنتم الراشدون الفائزون، وإن لم

(١) أخرجه الترمذي وقال: حديث حسن صحيح غريب (٣٢٦٩) وصححه الألباني في «صحيح سنن الترمذي» برقم (٢٦٠٧).

تكرهوها فأنتم الغاؤون الذين حُب إليهم الكفر والفسوق، وكره إليهم الإيمان.

وقد ذكر الله تعالى هذه الثلاثة ﴿الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ﴾ في مقابل الإيمان الكامل:

١- الذي هو تصديق بالجنان، وهو المشار إليه بقوله تعالى: ﴿وَزَيَّنُوا فِي قُلُوبِكُمْ﴾.

٢- والإيمان أيضاً إقرار باللسان، وهو مقابل الفسوق الذي هو الكذب والخروج على الطاعة.

٣- وهو أيضاً عمل بالأركان، وذلك مقابل ﴿حَبَّ إِلَيْكُمْ الْإِيمَنُ﴾.

﴿أُولَئِكَ﴾ المشار إليهم بهذه الأوصاف الثلاثة ﴿هُمْ أَلْزَشِدُونَ﴾ السالكون طريق الحق، المهتدون إلى رشدهم، الثابتون على دينهم، المتمسكون به في جميع الأحوال، وهذا من الخير الذي حصل لهم بسبب حبهم للإيمان وبغضهم للكفر والفسوق والعصيان.

وفي الحديث عن عمر رضي الله عنه: من سرته حسنة، وسأته سيئة، فهو مؤمن^(١).

وكان من دعاء النبي ﷺ: «اللهمَّ حَبِّبْ إلينا الإيمان وزَيِّنْهُ فِي قُلُوبِنَا، وَكَرِّهْ إلينا الكفر والفسوق والعصيان، واجعلنا من الراشدين، اللهم توفنا مسلمين، وأحيينا مسلمين، وألحقنا بالصالحين، غير خزايا ولا مفتونين، اللهم قاتل الكفرة الذين يكذبون رسلك، ويصدون عن سبيلك، واجعل عليهم رجزك وعذابك»^(٢).

قال قتادة: إن الله تعالى قال لأصحاب محمد ﷺ: ﴿وَأَعْلَمُوا أَنَّ فِيكُمْ رَسُولَ اللَّهِ لَوْ يُطِيعُكُمْ فِي كَثِيرٍ مِّنَ الْأَمْرِ لَعَزِمْتُمْ﴾ وأنتم والله أسخف الناس رأياً، وأطيش أحلاماً، فليتهم رجل نفسه، وليتصح كتاب الله تعالى، فإن كتاب الله ثقة لمن أخذ به وانتهى إليه، وإن ما سوى كتاب الله تغير^(٣).

قلت: إذا كان قتادة وجه هذا الكلام لأهل زمانه وهم من القرون المفضلة، فماذا يقول قتادة لو علم ما نحن فيه؟! فاللهم ارحم ضعفنا، واجبر كسرنا، وألهمنا رشدنا، يا رب العالمين.

(١) «المسند» من حديث طويل (١٨/١) برقم (١١٤) رجاله ثقات وإسناده صحيح (محققه) والترمذي برقم (٢١٦٥)، والحاكم كما في صحيح الجامع الصغير (٢٥٤٦).

(٢) «المسند» (٤٢٤/٣) (١٥٤٩٢) برجال ثقات، والنسائي في «السنن الكبرى» برقم (١٠٤٤٥) وصححه الحاكم (٥٠٦/١) وهو في «صحيح الأدب المفرد» (٥٣٨).

(٣) «تفسير الطبري» (٣٥٦/٢١).

ومن الأخبار الكاذبة: النيمة، ولا يخفي ما لها من خطر في تسعير نار الفتنة بين الأفراد والجماعات والأمم، وكذا سائر الأنباء المكذوبة التي تسبب التخاصم والتباغض والتقاتل بين الناس.

٨- ﴿فَضَلَّاهُ مِنَ اللَّهِ وَنِعْمَةً وَاللَّهُ عَلَيْهِ حَكِيمٌ﴾

أي: هذا فضل تفضل الله عليهم به ﴿وَنِعْمَةً﴾ أنعمها عليهم ﴿وَاللَّهُ عَلَيْهِ﴾ بمن يشكر نعمه، وعليم بمن يستحق الهداية ممن يستحق الغواية ﴿حَكِيمٌ﴾ في تدبير أمور خلقه وتصريف شؤونهم.

جاء في الأثر عن أنس رضي الله عنه: الإسلام علانية، والإيمان في القلب.

وأشار النبي ﷺ إلى صدره ثلاثاً، وقال: «التقوى ها هنا، التقوى ها هنا»^(١).

إِصْلَاحُ ذَاتِ الْبَيْنِ

٩- ﴿وَإِنْ طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلَحُوا بَيْنَهُمَا فَإِنْ بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الْأُخْرَىٰ فَفْتِنَلُوا إِلَيْكَ يَبْغِي حَقٌّ تَقِيٌّ﴾^(٢) إِلَىٰ أَمْرِ اللَّهِ فَإِنْ فَاءَتْ فَأَصْلَحُوا بَيْنَهُمَا بِالْعَدْلِ وَأَقْسِطُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ ﴿٩﴾

ينهى الله تعالى في هذه الآية عباده المؤمنين أن يبغى بعضهم على بعض أو يقاتل بعضهم بعضاً، ويأمر المؤمنين أن يصلحوا بين الفئتين المتنازعتين، فإن اصطلحا فالحمد لله، وإن لم يصطلحا فليقاتلوا الفئة المعتدية حتى تدعن للحق وتسلم به، فإن رجعت إلى الحق فليصلحوا بينهما بالعدل من غير جور ولا ظلم، ولا تحيز لقرابة أو وطن أو مصلحة ونحو ذلك.

وقد وضع الإسلام قاعدة تشريعية عملية لصيانة المجتمع من الخصام والتفرق والنزاع،

(١) «المسند» (٣/ ١٣٤) عن أبي هريرة (٧٧٢٧) بإسناد جيد وأخرجه مسلم (٣٢، ٢٥٦٤) عن عبدالله بن مسلمة وعن أنس (١٢٣٨١) وعن واثلة بن الأسقع (١٦٠١٩) وعن شيخ من بني سليل (١٦٦٤٤)، (٢٣٢٢٩) وهو حديث صحيح كما قال محققوه، وقال الهيثمي في «مجمع الزوائد» (٥٢/١): رجاله رجال الصحيح، ما خلا على بن مسعدة فقد وثقه قوم، وضعفه آخرون.

(٢) سهل الهمزة الثانية من (تقيء إلى) نافع وابن كثير وأبو عمرو وأبو جعفر ورويس، والباقيون بالتحقيق.

فكَلَّفَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْ يَقَاتِلُوا الْفِتَّةَ الْبَاغِيَةَ حَتَّى تَقْبَلَ الْحَقَّ، وَتَرْجِعَ عَنِ الظُّلْمِ، فَإِنْ قَبِلَتْ حُكْمَ اللَّهِ تَعَالَى، فَلْيُضْلِحُوا بَيْنَ الْفَرِيقَيْنِ بِالْحَقِّ وَالْعَدْلِ، وَقَدْ وَاجَهَ الْإِسْلَامَ وَقْتُ التَّنْزِيلِ أَمْثَلَةٌ مِنْ هَذَا الْقَبِيلِ، اقْتَضَتْ أَنْ يَكُونَ لِلآيَةِ أَكْثَرُ مِنْ سَبَبِ نَزُولٍ، مِنْ ذَلِكَ:

١- أن امرأة من الأنصار يقال لها: أم زيد، كان بينها وبين زوجها خلاف، فحبسها في مكان مرتفع، فبلغ ذلك قومها، فجاؤوا فأنزلوها لينطلقوا بها، وجاء قوم الزوج، وتقاتل الفريقان، وكانا من الأوس والخزرج، فنزلت الآية^(١).

٢- وقال قتادة: نزلت في رجلين من الأنصار، كان بينهما خلاف في حق بينهما، فقال أحدهما للآخر: لَأَخْذَنَّ حَقِّي مِنْكَ عَنوةً، لكثرة عشيرته، فطلبه الآخر عند النبي ﷺ ليحكم بينهما فأبى، ولم يزل الأمر بينهما حتى تقاتلا وتناول كل منهما الآخر بالأيدي والنعال، فنزلت الآية^(٢).

٣- وجاء في الصحيحين: أن النبي ﷺ كان على دابته في طريقه إلى زيارة سعد بن عبادَةَ في مرضه، ومَرَّ عَلَى مَجْلِسٍ فِيهِ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ أَبِي بَنِي سُلُولٍ، فدعاهم إلى الإسلام، وقرأ عليهم القرآن، فقال ابن أبي: ما أحسن ما تقول إن كان حقًا، ولكن لا تؤذنا في مجالسنا، وارجع إلى رَحْلِكَ فَمَنْ جَاءَكَ فَاقْصُصْ عَلَيْهِ، فقال عبد الله بن رواحة: بل اغشنا في مجالسنا فإننا نحب ذلك، واستبَّ المسلمون والمشركون واليهود، حتى كادوا يقتتلون، هذه رواية أسامة بن زيد رضي الله عنه^(٣).

وفي رواية أنس رضي الله عنه أن ابن أبي قال للنبي ﷺ: إليك عني، لقد آذاني نتن حمارك، فقال رجل من الأنصار: لِحِمَارُ رَسُولِ اللَّهِ أَطْيَبُ رِيحًا مِنْكَ، فغضب لكل منهما أصحابه، وكان بينهما ضرب بالأيدي والجريد والنعال. قال أنس: فبلغنا أن الآية ﴿وَإِنْ طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا﴾ نزلت فيهما^(٤).

(١) ، (٢) الطبري (٢١/٣٦٠).

(٣) في «صحيح مسلم» من حديث طويل برقم (١٧٩٨) و«صحيح البخاري» بأرقام منها: (٢٩٨٧، ٤٥٦٦).

(٤) يُنْظَرُ: «صحيح البخاري» برقم (٢٦٩١) و«صحيح مسلم» برقم (١٧٩٩) و«المسند» (١٢٦٠٧، ١٣٢٩٢).

والطبري (٢١/٣٥٨) والبيهقي (٨/١٧٢).

وهذه القصة صحيحة من الروایتين، ولكنها وقعت في أول قدوم النبي ﷺ إلى المدينة، وسورة (الحجرات) نزلت سنة تسع من الهجرة، ثم إن أنسا لم يجزم بأن الآية نزلت بشأن هذه القصة، وإنما قال: بلغنا أنها نزلت فيهم.

والآية تشمل القصة وتعمها، فلعلها ألحقت بها بعد نزولها.

قال تعالى: ﴿وَإِنْ طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلَحُوا بَيْنَهُمَا﴾ أي: وإن حدث بين فئتين من المؤمنين قتال، فعليكم يا أولي الأمر من المسلمين أن تتدخلوا بينهما بالإصلاح، وتبذلوا الجهد في إزالة ما بينهما من خلاف.

وضمير التثنية في ﴿بَيْنَهُمَا﴾ يعود على ﴿طَائِفَتَانِ﴾ باعتبار اللفظ، وضمير الجمع في ﴿اقْتَتَلُوا﴾ يعود عليهما أيضًا باعتبار المعنى؛ لأن كل طائفة مكونة من أفراد، فهم جماعة.

﴿فَإِنْ بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الْأُخْرَى﴾ أي: فإن اعتدت إحدى الطائفتين، وأبت الإجابة وتجاوزت حدَّ الحق والعدل ﴿فَقَاتِلُوا آلَئِي تَبَغَى حَتَّى تَفِيءَ إِلَى أَمْرِ اللَّهِ﴾ أي: قاتلوا الفئة الباغية حتى تنصاع وترجع إلى حكم الله، وتقلع عن الظلم والعدوان، وتقبل الصلح ﴿فَإِنْ فَاتَتْ فَأَصْلَحُوا بَيْنَهُمَا بِالْعَدْلِ وَأَقْسِطُوا﴾ فإن رجعت الفئة المعتدية عن بغيتها، وكفّت عن القتال، وقبلت الصلح، فأصلحوا بين الطائفتين بالإنصاف، واعدلوا في الحكم بينهما، ولا تتجاوزوا في أحكامكم حكم الله ورسوله ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾ العادلين في أحكامهم، الذين يقضون بين الناس بالحق والقسط، والآية تثبت صفة المحبة لله تعالى على وجه يليق بجلاله.

والحكم بالعدل أمر عام يشمل ما بين الأصدقاء والأعداء وما بين الرجل وأهل بيته وما بين الأفراد والقبائل والأمم والجماعات ﴿وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَا نُ قَوْمٍ عَلَىٰ أَلَّا تَعْدِلُوا أَعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ﴾ [المائدة: ٨]

وفي الحديث «المقسطون عند الله على منابر من نور الذين يعدلون في حكمهم وأهليهم وما ولوا»^(١).

وقد كان النبي ﷺ يخطب على المنبر يومًا ومعه الحسن بن علي، فجعل ينظر إليه مرة،

(١) يأتي تخريجه في الآية التالية.

وإلى الناس مرة أخرى ويقول: «إن ابني هذا سيد، ولعل الله يصلح به بين فئتين عظيمتين من المسلمين»^(١).

فكان كما قال ﷺ، حيث أصلح الله به بين أهل الشام وأهل العراق.
والمراد بالطائفة الباغية في الآية: الجماعة من الناس الذين يعشرون رءسهم عن الظلم من أفراد الناس وإن لم تُقاتل.

الخروج على الإمام غير مقصود في الآية:

أما الطائفة التي تخرج على الإمام، أو على جماعة المسلمين فليست مقصودة في الآية؛ لأن البغاة الخارجين على الحاكم المسلم، أو على جماعة المسلمين لهم حكم آخر، كما حدث في عهد أبي بكر وعثمان ؓ، فقد خرج أهل الردة على جماعة المسلمين فقاتلهم أبو بكر ؓ.

وبَعَى بُغَاة من مصر على عثمان ؓ، فأبى عثمان قتالهم، وكره أن يكون سبباً في إراقة دماء المسلمين وهذا اجتهاد منه ؓ.

والبغي يحدده أهل الحل والعقد، أو الخليفة العادل، أو محكمة العدل الإسلامية، فهؤلاء هم الذين يقولون من الفريقين هو الباغي، المستحق للمقاومة، وقد كان تحقيق معنى البغي وصوره غير مضبوط في صدر الإسلام، فضبطه العلماء بعد وقعتي الجمل وصفين، حيث كان القتال فيهما بين فئتين، ولم يكن الخارجون على علي من الذين بايعوه على الخلافة؛ لأنهم اشترطوا لمبايعته أخذ الثأر من قتلة عثمان ؓ، وقد حقق العلماء أن البغي كان من أصحاب معاوية؛ لأن البيعة بالخلافة لا تقبل التقييد بشرط، وأن معاوية وأصحابه كانوا يدافعون عن نظر واجتهاد خاطئ، فكان الواجب على المسلمين الدعوة إلى الصلح بين الفريقين.

والأمر في ﴿فَقَاتِلُوا آلَ بَنِي سَعْدٍ﴾ للوجوب؛ لأن الحكم بالعدل بين الخصمين واجب على الكفاية، وترك قتال الباغي يؤدي إلى إضاعة حقوق الطرف الآخر في نفسه وماله وعرضه،

(١) «صحيح البخاري» برقم (٢٤٤٣، ٢٧٠٤).

وهذا من الفساد في الأرض، والله لا يحب الفساد، ولا يجوز أن يتولى قتال البُغاة إلا أولو الأمر، وعلى ولي الأمر أن يُجبر الفئتين على الصلح إن خشي الفتنة، ويستمر قتال الفئة الباغية إلى أن تكفَّ عن الظلم، وتنزل على حكم الله تعالى.

وهذا البغي لا يزيل اسم الإيمان عن المؤمنين؛ لأن الله تعالى سماهم مؤمنين مع كونهم باغين، ويدل عليه ما ورد عن عليٍّ عليه السلام -وهو القدوة في قتال أهل البغي- وقد سئل عن أهل الجمل وصفيين: أمشركون هم؟ قال: لا، إنهم من الشرك فرّوا، فقيل: أمنافقون هم؟ قال: لا؛ لأن المنافقين لا يذكرون الله إلا قليلاً، قيل: فما حالهم؟ قال: إخواننا بغّوا علينا^(١).

والبغي في الشرع: هو الخارج على الإمام العادل، فإن خرج على الإمام العادل قوم وجعلوا لهم إماماً، فعلى الإمام العادل أن يدعوهم للدخول في طاعته، فإن كانت لهم مظلمة أزالها عنهم، وإن أصروا على البغي قاتلهم حتى يفيئوا إلى أمر الله، ولا يُقتل أسيرهم، ولا يُتبع مُدبرهم، ولا يُجهزُ على جريحهم، فقد أتى عليٌّ يوم صفين بأسير، فقال: لا أقتلك صبراً، إني أخاف الله رب العالمين.

وما أُتلفَ في حال القتال بين الطائفتين من نفس أو مال أو متاع فلا ضمان عليه، فقد أريقَت في يوم الجمل وصفيين دماءٌ، وأُتلفت أموالٌ، فلم يُقتَصص فيها من أحد لأحد، مع معرفة القاتل والمقتول، ولم يُعزَّم أحد مالاً.

فإن كان الخارجون على الإمام قلة ضعيفة، ولهم شبهة يستندون إليها في خروجهم، وليس لهم إمام، فلا يُعترض عليهم، فإن قاتلوا المسلمين وتعرضوا لهم فهم كقطع الطريق في الحكم^(٢).

أخرج الطبري بإسناد حسن عن ابن عباس رضي الله عنه أنه قال: إن الله - سبحانه - أمر النبي صلى الله عليه وسلم والمؤمنين، إذا اقتتل طائفتان من المؤمنين أن يدعوهم إلى حكم الله، ويُنصف بعضهم من بعض، فإن أجابوا حَكَمَ فيهم بكتاب الله، حتى يُنصف المظلوم من الظالم، فمن أبى منهم أن يجيب فهو باغٍ، فحق على إمام المؤمنين أن يجاهدهم ويقاثلهم حتى يفيئوا إلى أمر الله، ويقروا بحكم الله^(٣).

(١) «تفسير ابن عطية» (١٤٨/٥).

(٢) يُنظر: «تفسير الخازن» (١٦٨/٤).

(٣) «تفسير الطبري» (٣٥٧/٢١).

سئل بعض العلماء عما وقع بين بعض الصحابة من قتال، فقال: تلك دماء قد طهر الله منها أدينا، فلا نلوث بها ألسنتنا، وسبيل ما جرى بينهم كسبيل ما جرى بين يوسف وإخوته.

الأخوة الإيمانية

١٠- ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلَحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ^(١) وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿١٠﴾﴾

في هذه الآية عقد للأخوة الإيمانية عقده الله تعالى بين المؤمنين في مشارق الأرض ومغاربها، فالمؤمنون إخوة في الدين والعقيدة، يجمعهم أصل واحد هو الإيمان، وهذا الإيمان، يدعو إلى التواصل والتراحم والتناصر في جلب الخير ودفع الشر.

فالمؤمن أخو المؤمن: لا يظلمه، ولا يخذله، ولا يخقره ولا يسلمه، وعليه أن ينصر أخاه ظالمًا، فيحول بينه وبين الظلم، أو مظلومًا فيدفع الظلم عنه، والأخوة الإيمانية توجب أن يحب المؤمن لأخيه ما يحب لنفسه، وأن يكره له ما يكره لنفسه، وألا يخطب على خطبة أخيه، وأن يدعوه بأحب الأسماء إليه، ويوسع له في المجلس، ويبدأه بالسلام، وأن يعود إذا مرض، ويشمته إذا عطس، ويجب دعوته إذا دعاه، وأن يشيع جنازته، وأن ينصح له إذا استنصحه، وأن يأخذ بيده إلى طريق الهدى والاستقامة، وأن يقرضه إذا استقرضه، ويتفقده إذا غاب، ويحفظه في أهله وماله إذا سافر، ونحو ذلك.

وما دتم إخوة أيها المؤمنون ﴿فَأَصْلَحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ﴾ إذا اقتتلا، ولا تتركوا الفرقة تدب بينهما ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ﴾ خافوه في جميع أموركم، وامثلوا أمره واجتنبوا نهيه ﴿لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ أي: رجاء أن يرحمكم الله، فتسعدوا بجنته ورضوانه.

والأصل في العلاقة بين المؤمنين أن تقوم على التواصل والتراحم، لا على القتال والتخاصم والتناحر، فإن حدث نزاع بين فردين أو جماعتين أو دولتين، فعلى بقية المؤمنين أن يقوموا بواجب الصلح بينهما ويدعوهما إلى حكم الله تعالى ورسوله:

١- عن عبد الله بن عمرو رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «المقسطون عند الله يوم القيامة على

(١) قرأ يعقوب (بين إخوتكم) جمع أخ، وقرأ الباقر (أخويكم) تثنية أخ.

منابر من نور على يمين العرش، الذين يعدلون في حكمهم وأهاليهم وما ولّوا»^(١).

٢- وعن النعمان بن بشير رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «مثل المؤمنين في توادهم وتراحمهم وتعاطفهم مثل الجسد الواحد، إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالحُمى والسهر»^(٢).

٣- وعن سهل بن سعد الساعدي رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «إن المؤمن من أهل الإيمان بمنزلة الرأس من الجسد، يألم المؤمن لأهل الإيمان كما يألم الجسد لما في الرأس»^(٣).

٤- وعن فُهَيْدِ بْنِ مُطَّرَفٍ الغفاري أن رسول الله ﷺ سأله سائل: إن عدا عليّ عاد؟ فأمره أن ينهاه ويذكره بالله تعالى ثلاث مرات، قال: فإن أبي؟ فقائلته، قال: فكيف بنا؟ قال: «إن قتلك فأنت في الجنة، وإن قتلته فهو في النار»^(٤).

النَّهْيُ عَنِ السُّخْرِيَةِ وَاللَّمَزِ وَالْتَنَابُزِ

١١- ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِّن قَوْمٍ عَسَىٰ أَن يَكُونُوا خَيْرًا مِّنْهُمْ وَلَا نِسَاءٌ مِّن نِّسَاءٍ عَسَىٰ أَن يَكُنَّ خَيْرًا مِّنْهُنَّ^(٥) وَلَا تَلْمِزُوا^(٦) أَنْفُسَكُمْ وَلَا تَنَابَزُوا^(٧) بِالْأَلْقَابِ بِئْسَ^(٨) الْأَسْمُ الْمُسُوءُ بَعْدَ الْإِيمَانِ وَمَن لَّمْ يَتُبْ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴿١١﴾﴾

(١) «صحيح مسلم» برقم (١٨٢٧) و«سنن النسائي» (٣٢١ / ٨) (٥٣٩٤) والبيهقي (٧٠٧) وابن أبي شيبة (١٢٧ / ١٣).

(٢) «صحيح مسلم» برقم (٢٥٨٦) و«صحيح البخاري» برقم (٦٠١١).

(٣) «المسند» (٣٤٠ / ٥) قال الهيثمي في «مجمع الزوائد» (١٨٧ / ٨): رجال أحمد رجال الصحيح، وهو في المسند برقم (٢٢٨٧٧) قال محققوه: صحيح لغيره، وأخرجه الطبراني في «الكبير» (٥٧٤٣) و«الأوسط» (٤٦٩٣) وهو عن النعمان بن بشير (١٨٣٥٥).

(٤) ينظر: «المسند» (١٥٤٨٦، ١٥٤٨٧) قال محققوه: حديث صحيح، واللفظ المذكور من الحديثين معاً، وأخرجه البزار (١٨٦٤) زوائد والبيهقي في السنن (٣٦ / ٨) وابن أبي عاصم في الأحاد والمثاني (١٠٢٦).

(٥) وقف يعقوب على (منهن) بهاء السكت، والباقون بدونها.

(٦) قرأ يعقوب بضم الميم من (ولا تلمزوا)، والباقون بكسرها، وهما لغتان في المضارع.

(٧) قرأ البزي بخلف عنه بتشديد التاء وصلّاً من (ولا تنابزوا) مع إشباع المد لالتقاء الساكنين، والباقون بالقصر، ومثلها (ولا تجسسوا) في الآية التالية.

(٨) قرأ ورش وأبو جعفر وأبو عمرو بخلف عنه بإبدال همزة (بش) ياء وصلّاً ووقفاً، ولو ابتدأ بما بعدها (الاسم) ابتدأ بهمزة وصل مفتوحة، أو بـ (ال) مكسورة، فهما وجهان لجميع القراء.

(۱) من حدیث عبد اللہ بن مسعود فی «صحیح مسلم» برقم (۹۱).

تحدث إلا من قلب ممتليء بالكبر والإعجاب بالنفس، وممتليء بمساوي الأخلاق «بحسب امرئ من الشر أن يحقر أخاه المسلم».

والمعنى: يا من آمنتُم بالله حق الإيمان، وصدقتُم بكتابه ورسوله، وعملتُم بشريعته، لا يهزأ قوم مؤمنون من قوم مؤمنين، ولا يحتقر بعضكم بعضًا، ولا يسخر بعضكم من بعض، فمنازل الناس ليست في أحسابهم ولا أنسابهم، ولا في أموالهم ومظاهرهم ومناصبهم، فعسى أن يكون المسخور منه أعلى قدرًا عند الله تعالى من الساخر، إذ رُبَّ أشعث أغبر ذي طُمُرَيْن لو أقسم على الله لأبره. والحكم عام للبشر جميعًا، وإن كان لهذه الجملة من الآية أكثر من سبب نزول:

١- من ذلك ما ورد عن ابن عباس رضي الله عنهما أنها نزلت في ثابت بن قيس بن شماس، وذلك أنه كان في أذنه وقر، فكان إذا أتى رسول الله ﷺ وقد سبقه الناس إلى المسجد، وسَّعُوا له حتى يجلس إلى جوار النبي ﷺ ليسمع ما يقول، فأقبل ذات يوم وقد فاتته ركعة من صلاة الفجر، فلما فرغ النبي ﷺ من الصلاة، جلس كل واحد من الصحابة في مجلسه، فامتأل المسجد، وكان إذا جاء أحد بعد ذلك لم يجد له مكانًا، فيظل واقفًا، فلما فرغ ثابت من الصلاة، أقبل نحو رسول الله ﷺ يتخطى رقاب الناس، وهو يقول: تفسَّحوا، تفسَّحوا، حتى انتهى إلى رسول الله ﷺ ولم يبق بينه وبين الرسول ﷺ إلا رجل واحد، فقال له: تفسَّح، قال الرجل: وجدتُ مجلسًا فاجلس، فجلس ثابت خلفه وهو مغضب، فلما أسفر الصبح، غمز ثابت الرجل، وقال: من هذا؟ قال: أنا فلان، قال له ثابت: ابن فلانة؟ وذكر اسم أمه، وكان يُعَيَّرُ بها في الجاهلية، فنكَّس الرجل رأسه واستحيا، فأنزل الله الآية، فقال ثابت: والله لا أفخر على أحد في الحسب بعدها أبدًا^(١).

٢- وقال الضحاك ومقاتل: نزلت في وفد بني تميم، كانوا يستهزئون بفقراء أصحاب رسول الله ﷺ مثل: عمَّار، وخبَّاب، وبلال، وصهيب، وسلمان، وسالم مولى أبي حذيفة، لِمَا رأوا من رثاثة حالهم، فأنزل الله الآية^(٢).

(١) ذكره الواحدي في «أسباب النزول» (٢٢٣) والبيهقي والخازن وابن الجوزي (٤٦٥١٧) والقرطبي (١٦/٣٢٤) وابن حجر في «تخريج الكشاف»، كلهم بدون سند.

(٢) ذكره البيهقي والخازن وابن الجوزي بدون سند، وذكره السيوطي من رواية ابن أبي حاتم في «الدر» (٦/٩١).

حتى لا يستهزئ غني بفقر، ولا مستور عليه ذنبه بمن لم يُستر، ولا ذو حسب بلئيم، وأشباه ذلك مما ينتقصه به، لعل المسخور منه يكون عند الله خيرًا من الساخر.

وبعد أن نهى الله تعالى الرجال عن احتقار الرجال والسخرية منهم، نهى النساء عن ذلك أيضًا فقال سبحانه: ﴿وَلَا نِسَاءٌ مِّن نِّسَاءٍ عَسَىٰ أَن يَكُنَّ خَيْرًا مِّنْهُنَّ﴾ أي: ولا تهزأ نساء مؤمنات من نساء مؤمنات، عسى أن يكون المهزوء بها منهن خيرًا من الهازئات، وأفضل منهن عند الله تعالى، والحكم عام في جميع النساء في كل زمان ومكان، وإن كان قد صاحب هذه الفقرة من الآية أكثر من سبب للنزول:

١- من ذلك ما رواه أنس بن مالك ؓ أن بعض نساء النبي ﷺ عيّرن أم سلمة ؓ بالقصر، فأنزل الله الآية^(١).

٢- وعن عكرمة عن ابن عباس ؓ أن صفية بنت حيي بن أخطب أتت رسول الله ﷺ فقالت: إن النساء يُعَيِّرُنِي وَيَقْلُنِي: يا يهودية بنت يهوديين، فقال رسول الله ﷺ: «هَلَّا قُلْتَ: إِنَّ أَبِي هَارُونَ، وَإِنْ عَمِي مُوسَى، وَإِنْ زَوْجِي مُحَمَّدٌ» فنزلت الآية^(٢).

ثانيًا: ﴿وَلَا تَلْمِزُوا أَنفُسَكُمْ﴾.

اللمز: هو العيب بالقول، أو بالإشارة باليد أو العين، سواء أكان ذلك بحضرة الملموز أم لا، وسواء أكان على وجه مضحك أم لا، فهو أعم من السخرية، وأخص من الهمز الذي هو عيب بالفعل، وفيه احتقار للمهموز وهو حاضر.

والمعنى: ولا يعب بعضكم بعضًا بوجه من الوجوه، ولا يطعن بعضكم في بعض، فإنه من المحرمات المنهي عنها والمتوعد عليها.

ورد أنه كان بين أبي ذر، ورجلٍ، منازعة، فقال له الرجل: يا ابن اليهودية، فنزل ﴿وَلَا تَلْمِزُوا أَنفُسَكُمْ﴾.

ونُزل الملموز منزلة النفس؛ لأن الأخ كالنفس، فكأنه عاب نفسه.

(١) ذكره الواحدي في «أسباب النزول» وكذا البغوي والخازن وابن الجوزي.

(٢) ذكره ابن الجوزي والبغوي والخازن والواحدي في «أسباب النزول».

وقد توعد الله الهمَّاز اللَّمَّاز بالويل والعذاب الشديد، فقال تعالى: ﴿وَيْلٌ لِّكُلِّ هُمَزَةٍ لُّمَزَةٍ﴾ [الهمزة].

والهمز واللمز من صفات الفجار، كما قال تعالى عن الكافر الأثيم: ﴿هَمَّازٍ مَّشَاءٍ بَنِيمٍ﴾ [١١] مَتَّاعٍ لِلْخَيْرِ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ [١٢] [القلم].

وغالبًا ما يهزأ الأثرياء بالفقراء، والأقوياء بالضعفاء، ويوم القيامة يكون الجزاء من جنس العمل ﴿إِنَّ الَّذِينَ أَجْرَمُوا كَانُوا مِنَ الَّذِينَ ءَامَنُوا يَضْحَكُونَ﴾ [٢٩] وَإِذَا مَرُّوا بِهِمْ يَتَغَامَزُونَ [٣٠] وَإِذَا انْقَلَبُوا إِلَىٰ أَهْلِهِمْ انْقَلَبُوا فَكِهِينَ [٣١] إلى أن قال: ﴿فَالْيَوْمَ الَّذِينَ ءَامَنُوا مِنَ الْكُفَّارِ يَضْحَكُونَ﴾ [٣٢] عَلَىٰ الْأَرَائِكِ يَنْظُرُونَ [٣٣] هَلْ تُؤَبُّوهُمُ الْكُفَّارُ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ [٣٤] [المطففين].

ثالثًا: ﴿وَلَا تَنَابَرُوا بِالْأَلْقَابِ﴾ أي لا يعير أحدكم أخاه ويُلقِّبه بلقب فيه ذم يكرهه.

وذلك كأن يكون للإنسان أكثر من لقب، منه المحمود ومنه المذموم، فيناديه الناس باللقب الذي يكرهه، وهذا هو التنابز بالألقاب، أما الألقاب غير المذمومة فلا تدخل في هذا، ومن الآثار الواردة في أسباب النزول:

١- عن أبي جبيرة بن الضحاك قال: فينا نزلت -أي: في بني سلمة- قال: قدِم رسول الله ﷺ المدينة، وليس فينا رجل إلا وله اسمان أو ثلاثة، فكان إذا دُعي أحد منهم باسم من تلك الأسماء، قالوا: يا رسول الله، إنه يغضب من هذا، فنزلت ﴿وَلَا تَنَابَرُوا بِالْأَلْقَابِ﴾^(١).

٢- وفي الترمذي: كان الرجل منا يكون له اسمان أو ثلاثة، فيُدعى ببعضها، فعسى أن يكره فنزلت^(٢).

٣- وقيل: إن كعب بن مالك الأنصاري كان بينه وبين عبد الله بن أبي حدود الأسلمي

(١) «المسند» (٢٦٠/٤) (١٦٦٤٢) بنحوه، ورجاله ثقات رجال الشيخين غير داود بن أبي هند فمن رجال مسلم (محققوه) وأبو داود برقم (٤٩٦٢) والنسائي في «الكبرى» (١١٥١٦) و«صحيح سنن أبي داود» (٤١٥١) و«صحيح سنن ابن ماجه» (٣٧٤١) و«المستدرک» (٤٦٣/٢) والطبري (١٣٢/٢٦).

(٢) الترمذي برقم (٣٢٦٨) من طريق داود بن أبي هندبة، وقال: حديث حسن صحيح، وصححه الألباني في «صحيح سنن الترمذي» (٢٦٠٦)، وهو في سنن أبْنِ ماجه (٣٧٤١) وفي صحيح ابن ماجه (٣٠١٥).

كلام، فقال: يا أعرابي، فقال له عبد الله: يا يهودي، فنزلت فيهما^(١).

٤- قال ابن عباس رضي الله عنه: التنايز بالألقاب: أن يكون الرجل عمل السيئات ثم تاب منها، فنهى الله أن يُعَيَّرَ بما سَلَفَ من عمله^(٢).

وجاء عن ابن مسعود وغيره: هو قول الرجل للرجل: يا فاسق، يا منافق، يا كافر، وكان الرجل اليهودي إذا أسلم يقال له بعد إسلامه: يا يهودي، يا نصراني، فنُهِوا عن ذلك^(٣).

٦- وفي حديث أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «إذا قال الرجل لأخيه: يا كافر، فقد باء بها أحدهما»^(٤).

والألقاب المنهي عنها هي ما يكرهه المنادى بها، أو يفيد ذمًا له.

أما الألقاب التي صارت كالأعلام لأصحابها، كالأعمش، والأعرج، وذو اليدين، وأبو هريرة، وما أشبه ذلك، فلا بأس بها ما لم يكرهها المدعو بها.

والألقاب التي فيها مدح أو حمد، وتكون حقًا، لا تكره، كما قيل لأبي بكر: عتيق، ولعمر: الفاروق، ولعثمان: ذو النورين، ولعلي: أبو تراب، ولخالد: سيف الله، ونحو ذلك.

فاللمز هو: أن يعيب الإنسان أخاه مواجهة أو في غيبته، فإن كان هذا العيب حقًا، فهو وقاحة واعتداء، وإن كان باطلاً، فهو وقاحة وكذب، ويكون اللمز قولًا بالكلام، ويكون بالإشارة، وهي بمنزلة الكلام.

أما التنايز فهو: أن ينادي الإنسان أخاه بلقب سوء يكرهه، ولا يكون التنايز إلا بالكلام.

والهمز هو: أن يعيب الإنسان أخاه مع احتقاره له وهو حاضر، ولا يكون الهمز إلا بالفعل، فاللمز قول، والهمز فعل.

(١) «زاد المسير» (٤٦٧/٧).

(٢) «تفسير الطبري» (٣٧١/٢١).

(٣) أخرجه عبد بن حميد وابن أبي حاتم كما في «الدر المنثور» (٥٦٣/١٣) وجاء ذلك عن قتادة وعكرمة وأبي العالية ومجاهد والحسن ومحمد بن كعب القرظي.

(٤) البخاري (٦١٠٣، ٦١٠٤) عن ابن عمر رضي الله عنه، وكذا «صحيح مسلم» (٦٠).

ثم إن ما نهانا الله تعالى عنه في هذه الآية من السخرية واللمز والتنايز بالألقاب، هو من الفسق الذي فيه خروج على طاعة الله تعالى، كما قال ﷺ في حديث عبد الله بن مسعود رضي الله عنه: «سباب المسلم فسوق»^(١).

وقد ذم الله تعالى هذه الأوصاف الثلاثة، فقال: ﴿يَسَّ الْأَيْمَنُ الْفُسُوقُ بَعْدَ الْإِيمَنِ﴾ أي: بُسَّتْ هذه الصفة الفاسقة أن تصف بها أخاك، فتصفه بالكفر وهو مسلم، أو تقول: يا فاسق، يا يهودي، يا نصراني، وقد هداه الله للإسلام.

فالمراد بالاسم المذكور في الآية: ما سبق ذكره في أول الآية، وهو السخرية واللمز والتنايز. والمخصوص بالذم محذوف، تقديره: بس الفعل فعلكم، أن تذكروا إخوانكم في الدين بما يكرهون.

وفي هذا نهى للمؤمن أن ينسب أخاه إلى الفسق، فالإيمان لا يناسبه الفسوق؛ لأن المعاصي من شأن أهل الشرك، وهذا كقول جميلة بنت أبي حنيفة شكت للنبي ﷺ أنها تكره زوجها ثابت بن قيس وتريد فراقه، فقالت: لا أعيب في ثابت خلقاً ولا ديناً، ولكني أكره الكفر بعد الإسلام، وتريد بالكفر تعريضها للزنى، قالت: وإني لا أطيقه بغضاً فيه، ومن هذا القبيل ما جاء في الحديث السابق (سباب المسلم فسوق وقتاله كفر).

وقيل في المعنى: إن من فعل ما نهى الله عنه من السخرية واللمز والتنايز، فهو فاسق، وبس استحقاقه لهذا الاسم، بعد أن كان مؤمناً.

ثم قال تعالى: ﴿وَمَنْ لَّمْ يَتُبْ﴾ أي: من هذه الصفات الذميمة الثلاث وغيرها، بأن يستحل من أخيه ويستغفر له، ويمدحه مقابل ذمه ﴿فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ لأنفسهم بارتكاب ما نهى الله تعالى عنه، وتعريضها للعقاب، فالناس قسمان: ظالم لنفسه غير تائب، وتائب مفلح.

(١) ومن حديث سعد بن أبي وقاص في «المسند» (١٥١٩) بلفظ (قتال المسلم كفر وسبابه فسوق، ولا يحل لمسلم أن يهجر أخاه فوق ثلاثة أيام) بإسناد حسن، والحديث صحيح، وهو في «شرح مشكل الآثار» للطحاوي (٨٤٤) وعبد الرزاق (٢٠٢٢٤) وابن ماجه (٣٩٤١) والبخاري في «الأدب المفرد» (٤٢٩) و«سنن النسائي الكبرى» (٣٥٥٤) وجاء عن ابن مسعود وأبي الأحوص وغيرهما.

النَّهْيُ عَنْ سُوءِ الظَّنِّ وَالتَّجَسُّسِ وَالْغَيْبَةِ

١٢- ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِّنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ وَلَا تَجَسَّسُوا وَلَا يَغْتَبَ بََعْضُكُم بَعْضًا أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا^(١) فَكَرِهْتُمُوهُ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢﴾﴾ رابعًا: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِّنَ الظَّنِّ﴾.

نهى سبحانه وتعالى عن كثير من سوء الظن، الخالي من الحقيقة والقرينة القولية أو الفعلية المحرمة، التي ترشح هذا الظن السيء، فإن في ذلك إساءة ظن بالمسلم، وفيه بغض وعداوة له، فلا يزال هذا الظن في نفس العبد حتى يعبر عنه قول أو فعل يصدر من صاحبه:

قال سفيان الثوري: الظن ظنان:

أحدهما: إثم، وهو أن يظن ويتكلم بما ظن.

والآخر: ليس بإثم، وهو أن يظن ولا يتكلم بظنه.

وللظن أربعة أحكام: الواجب، والمحرم، والمباح، والمندوب إليه.

النوع الأول: الظن الواجب: وهو حسن الظن بالله تعالى، كما جاء في الحديث عن جابر رضي الله عنه: «لا يموتن أحدكم إلا وهو يحسن الظن بالله ﷻ»^(٢).

ولا بد ليُحسن الظن من مستند محمود، وعمل مقبول، بأن يكون أهلاً لحسن الظن بالله، فلا يتمنى على الله الأمانى، ولا يكون عمله ليس خالصاً صواباً.

فحسن الظن بالله يقتضي حسن العمل، وإلا كان كاذباً في ذلك:

جاء في الأثر: «ليس الإيمان بالتمني ولا بالتحلي، ولكن ما وقر في القلب وصدقه العمل، وإن قومًا غرتهم الأمانى، وقالوا: نحن نحسن الظن بالله، وكذبوا لو أحسنوا الظن لأحسنوا العمل»^(٣).

(١) قرأ نافع وأبو جعفر ورويس بتشديد الباء من (ميتًا)، والباقون بتخفيفها.

(٢) من حديث جابر في «صحيح مسلم» (٢٢٠٦/٤) برقم (٢٨٧٧).

(٣) البيهقي في «الشعب» (٦٦) وعبد بن حميد عن الحسن.

فلا بد لحسن الظن بالله تعالى من حسن العمل، ولا يُحسن العبد الظن فيما هو محل الحذر والتهم، ولا يقتدي بمن ليس أهلاً للتأسي.

فقد قال النبي ﷺ لأم العلاء الأنصارية حين مات في بيتها عثمان بن مظعون، وقالت: رحمة الله عليك أبا السائب، فشهادتي عليك لقد أكرمك الله، فقال ﷺ: «وما يدريك أن الله أكرمهُ؟» قالت: يا رسول الله، ومن يكرمه الله؟! فقال: «أما هو فقد جاءه اليقين، وإنني أرجو له الخير، وإنني والله ما أدري -وأنا رسول الله- ما يُفعل بي» فقالت: والله لا أزكي بعده أحدًا^(١) وهذا في الدنيا أما في الآخرة فقد علم أن له الجنة^(٢).

وكل ما تعبّدنا الله تعالى به يجب العمل به، ويجب حسن الظن فيه، وإن لم نعلم له علة أو سببًا، كعدد ركعات الصلاة، ورمي الجمار ونحو ذلك.

النوع الثاني: الظن المحظور: وهو سوء الظن بالله تعالى، مع كون عمل العبد خالصًا لوجه الله تعالى. خاليًا من الرياء وأنواع الشرك، وأن يكون العمل صوابًا، وفق ما جاء به محمد ﷺ، ومنه سوء الظن في شيء مما تعبّدنا الله به.

قال تعالى: ﴿يَطْشُونَ بِاللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ ظَنَّ الْجَاهِلِيَّةِ﴾ [آل عمران: ١٥٤].

وقال أيضًا: ﴿وَنَطْشُونَ بِاللَّهِ أَظْثُونَ﴾ [الأحزاب: ١٠].

وقد نشأت العقائد الضالة من الظنون الكاذبة، قال تعالى: ﴿قُلْ هَلْ عِنْدَكُمْ مِنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَا إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ أَنْتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ﴾ [الأنعام: ١٤٨].

وقال سبحانه: ﴿إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَمَا تَهْوَى الْأَنْفُسُ﴾ [النجم: ٢٣]

وفي الآية بعدها: ﴿وَإِنَّ الظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا﴾ [النجم: ٢٨].

ومن الظن المحرم: سوء الظن بالمسلم مستور الحال، ظاهر العدالة، كما جاء في الحديث عن أبي هريرة ؓ أن النبي ﷺ قال: «إياكم والظن، فإن الظن أكذب الحديث»^(٣).

(١) من حديث أم علاء الأنصارية في «المسند» برقم (٢٧٤٥٧) بإسناد صحيح، وأخرجه البخاري (١٢٤٣، ٣٩٢٩، ٧٠٠٤) والطبراني في «الكبير» (٣٣٨) والحاكم (٣٧٨/١) وابن سعد (٣/٣٩٨).

(٢) ينظر تفسير الآية ٩ من سورة الأحقاف.

(٣) «الموطأ» (٩٠٨/٢) والبخاري برقم (٥١٤٣، ٦٠٦٦) ومسلم برقم (٢٥٦٣) و«المسند» (٧٣٣٧، ١٠٩٤٩) بإسناد صحيح على شرط الشيخين (محققه) وأبو داود (٤٩١٧) والترمذي (١٩٨٨).

وفي حديث طلحة بن عبيد الله رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «إن الظن يخطئ ويصيب»^(١).

وفي الأثر أيضاً: «إن الله حرم من المسلم دمه وعرضه، وأن يُظن به ظن السوء».

وقال عمر رضي الله عنه: ولا تظنن بكلمة خرجت من أخيك المسلم إلا خيراً، وأنت تجد لها في الخير محملاً^(٢).

وقد يكون سوء الظن من باب الحيطة والاحتراس، كما قيل: حُسن الظن ورطة، وسوء الظن عصمة.

النوع الثالث: الظن المباح: كمن يشك هل صلى ثلاثاً أم أربعاً، فيبني على اليقين وهو الأقل.

النوع الرابع: الظن المندوب إليه: وهو حُسن الظن بالمسلم ظاهر العدالة.

والأصل أن يظن المسلم خيراً بأهل الخير، أما أهل السوء والفسوق، فلنا أن نظن بهم مثلما ظهر منهم، ولا يضر الظن السيئ بمن جاهر بالمعاصي.

فيا من آمتتم بالله إيماناً حقاً، وعملتكم بهدي رسوله ﷺ، ابتعدوا ابتعاداً تاماً عن الظنون السيئة بأهل الخير من المؤمنين؛ لأن هذه الظنون لا تستند إلى دليل أو قرينة صادقة، وهي مجرد تُهم تُؤلّد الشكوك والمفاسد فيما بينكم.

وقوله تعالى: ﴿كَثِيرًا مِّنَ الظَّنِّ﴾ يفيد أن بعض الظن ليس بإثم، وأنا لم نؤمر باجتنب الظن الذي ليس فيه إثم، وعلى المسلم أن يكون عنده معيار يميز به كِلَا الظنَّينِ ﴿إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ﴾ وذنّب، يستحق صاحبه العقوبة عليه، إذا ترتب على هذا الظن اغتيال أو تجسس أو اتهام باطل.

خامساً: ﴿وَلَا تَجَسَّسُوا﴾

التجسس من آثار الظن؛ لأن الظن يبعث على التجسس، فيدعو صاحبه إلى البحث سرّاً

(١) جزء من حديث في «صحيح سنن ابن ماجه» (٢٠٠٢). وهو في سنن ابن ماجه (٢٤٧٠) وفي صحيح مسلم (٢٣٦١) بنحوه.

(٢) «الدر المنثور» (٦٥٦/٧) عن أحمد في «الزهد» والبيهقي في «الشعب» عن سعيد بن المسيب. وهو قول مأثور عن عمر، رواه سليمان بن عبيد في أمالي المحاملي (٣٩٥/١).

لتحقيق ما ظنه، فيسلك طريق التجسس، وهو البحث بطريقة خفية عن المتجسس عليه، وقد حذرنا الله تعالى من سلوك هذا الطريق؛ لما فيه من الكيد والاطلاع على العورات، وقد يرى المتجسس من المتجسس عليه ما يسوؤه، فتنشأ العداوة والحقد، وهذا يقطع أواصر الأخوة الإسلامية، وإذا علم المتجسس عليه بهذا التجسس فإن هذا يبعثه على الانتقام ممن تجسس عليه.

والتجسس فرعٌ عن الظن المفضي إلى الإثم، وهو من كبائر الذنوب لمن يبتغي به الضرر، وهذا لا يشمل التجسس على الأعداء، ولا تجسس الشرط على الجناة واللصوص.

والمعنى: لا تُفَتِّشُوا ولا تبحثوا عن عورات المسلمين، ولا تتبعوا معائبهم، وخذوا ما ظهر من أحوال الناس، ولا تُنْقِبُوا عن بواطنهم وأسرارهم وتركوا أمرهم إلى الله.

جاء في الحديث: عن أبي برزة الأسلمي والبراء بن عازب رضي الله عنهما وغيرهما أن رسول الله ﷺ قال: «يا معشر من آمن بلسانه ولم يدخل الإيمان قلبه، لا تغتابوا المسلمين، ولا تتبعوا عوراتهم، فإن من تتبع عورة أخيه تتبع الله عورته حتى يفضحه في جوف بيته»^(١).

وفي حديث معاوية بن أبي سفيان قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إنك إن تتبع عورات الناس أفسدتهم أو كدت أن تفسدهم» فقال أبو الدرداء: كلمة سمعها معاوية من رسول الله ﷺ نفعه الله بها^(٢).

وقد جاء النهي عن البحث عن المستور من أمور الناس، حتى لا يظهر للباحث ما ستره الله على أخيه، جاء هذا في أحاديث كثيرة، منها:

١- ما جاء في الحديث المتفق على صحته عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه أن رسول الله ﷺ قال: «... ولا تجسسوا، ولا تحسسوا، ولا تنافسوا، ولا تحاسدوا، ولا

(١) «صحيح سنن أبي داود» (٤٠٨٣) عن أبي برزة، ومن حديث البراء بن عازب في «مسند أبي يعلى» (٣/ ٢٣٧) قال الهيثمي في «مجمع الزوائد» (٩٣/ ٨): رجاله ثقات، وهو في «صحيح الترغيب والترهيب» (٢٣٤١) وفي الترمذي برقم (٢٠٣٢) عن ابن عمر رضي الله عنهما، وجاء أيضاً عن ابن عباس وبريدة.

(٢) «سنن أبي داود» برقم (٤٨٨٨) والطبراني في «الكبير» (٨٩٠) وابن حبان في «الإحسان» (٥٧٣٠) و«صحيح الجامع» (١٠٣٦) و«صحيح الأدب المفرد»: (١٨٦، ٢٤٨) وأبو يعلى (٧٣٧٩).

تباغضوا، ولا تدابروا، وكونوا عباد الله إخوانًا كما أمركم، المسلم أخو المسلم، لا يظلمه، ولا يخذله، ولا يحقره، التقوى ها هنا، التقوى ها هنا - ويشير إلى صدره - بحسب امرئ من الشر أن يحقر أخاه المسلم، كل المسلم على المسلم حرام، دمه وماله وعرضه، إن الله لا ينظر إلى أجسادكم ولا إلى صوركم وأعمالكم، ولكن ينظر إلى قلوبكم»^(١).

٢- وعن عقبة بن عامر رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «من رأى عورة مؤمن فسترها كان كمن أحيًا مؤودة من قبرها»^(٢).

٣- وفي صحيح مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «لا يستر عبد عبدًا في الدنيا إلا ستره الله يوم القيامة»^(٣).

٤- وعن زيد بن وهب قال: أتني ابن مسعود رضي الله عنه، فقليل له: هذا فلان، تقطر لحيته خمرًا، فقال عبد الله: إنا قد نهينا عن التجسس، ولكن إن يظهر إلينا شيء نأخذ به»^(٤).

٥- قال مجاهد: خذوا ما ظهر لكم ودعوا ما ستر الله»^(٥).

٦- أخرج عبد الرزاق وغيره أن عبد الرحمن بن عوف رضي الله عنه حرس المدينة ليلة مع عمر بن الخطاب رضي الله عنه فسمعا لغطًا وأصواتًا مرتفعة في البيت، فقال عمر: أتدري بيت من هذا؟ قال: هذا بيت ربيعة بن أمية بن خلف، وهم الآن جماعة يشربون الخمر، قال عبد الرحمن: أرى أننا قد أتينا ما نهى الله عنه، حيث قال: ﴿وَلَا تَجَسَّسُوا﴾ فقد تجسسنا، فانصرف عنهم وتركهم»^(٦).

٧- وأخرج الخرائطي في مكارم الأخلاق عن ثور الكندي: أن عمر بن الخطاب كان

(١) يُنْظَر: البخاري برقم (٦٠٦٦) ومسلم برقم (٤/١٩٨٥) (٢٥٦٣) وغيرهما.

(٢) أبو داود (٤٨٩٢) و«المسند» (٤/١٥٣) برقم (١٧٣٣٢) بإسناد ضعيف، لأن فيه ابن لهيعة، وجهالة مولى عقبة بن عامر (محققوه) والنسائي في «الكبرى» (٧٢٨٣) والبخاري في «الأدب المفرد» (٧٥٨) وابن حبان (٥١٧).

(٣) «صحيح مسلم» برقم (٢٥٩٠).

(٤) «مصنف عبد الرزاق» (١٨٩٤٥) وابن أبي شيبة (٨٦١٩) و«صحيح سنن أبي داود» (٤٠٩٠) والبيهقي (٧٦٠٤).

(٥) «تفسير الطبري» (٢١/٣٧٥).

(٦) عبد الرزاق (٢/٢٣٢).

يَعْسُ بِالْمَدِينَةِ مِنَ اللَّيْلِ، فَسَمِعَ صَوْتَ رَجُلٍ فِي بَيْتٍ يَتَغَنَّى، فَتَسَوَّرَ عَلَيْهِ، فَوَجَدَ عِنْدَهُ امْرَأَةً، وَعِنْدَهُ خَمْرٌ، فَقَالَ: يَا عَدُوَّ اللَّهِ، أَظَنَنْتَ أَنَّ اللَّهَ يَسْتَرْكَ وَأَنْتَ عَلَى مَعْصِيَتِهِ، فَقَالَ: وَأَنْتَ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ، لَا تَعْجَلْ عَلَيَّ، إِنْ أَكُنْ عَصَيْتُ اللَّهَ فِي وَاحِدَةٍ، فَقَدْ عَصَيْتُ اللَّهَ فِي ثَلَاثٍ، قَالَ اللَّهُ: ﴿وَلَا تَحَسَّسُوا﴾ وَقَدْ تَجَسَّسْتَ، وَقَالَ: ﴿وَأَتُوا الْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَابِهَا﴾ [البقرة: ١٨٩] وَقَدْ تَسَوَّرْتَ عَلَيَّ، وَدَخَلْتَ عَلَيَّ بِغَيْرِ إِذْنٍ، وَقَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿لَا تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّى تَسْتَأْذِنُوا وَتُسَلِّمُوا عَلَى أَهْلِهَا﴾ [النور: ٢٧]. قَالَ عُمَرُ: فَهَلْ عِنْدَكَ مِنْ خَيْرٍ إِنْ عَفَوْتُ عَنْكَ؟ قَالَ: نَعَمْ، فَعَفَا عَنْهُ وَخَرَجَ وَتَرَكَهُ^(١).

سادساً: ﴿وَلَا يَغْتَبَ بََعْضُكُم بَعْضًا﴾

الغيبية - بكسر الغين - أَنْ تَذْكُرَ غَيْرَكَ فِي غَيْبَتِهِ بِمَا يَسُوؤُهُ، كَأَنْ تَقُولَ: فَلَانُ أَفْنُهُ كَبِيرٌ، وَهُوَ كَذَلِكَ، وَقَدْ عَرَّفَ النَّبِيُّ ﷺ الْغَيْبَةَ حِينَ قَالَ لِأَصْحَابِهِ: «أَتَدْرُونَ مَا الْغَيْبَةُ؟» قَالُوا: اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ، قَالَ: «ذَكَرَكَ أَخَاكَ بِمَا يَكْرَهُ»، قِيلَ: أَفَرَأَيْتَ إِنْ كَانَ فِي أَخِي مَا أَقُولُ؟ قَالَ: «إِنْ كَانَ فِيهِ مَا تَقُولُ فَقَدْ اغْتَبْتَهُ، وَإِنْ لَمْ يَكُنْ فِيهِ مَا تَقُولُ فَقَدْ بَهْتَهُ»^(٢).

أَي: إِنْ كَانَ مَا قُلْتَهُ عَنْهُ حَقِيقَةً وَاقِعَةً مَوْجُودَةً فِيهِ - فَهُوَ الْغَيْبَةُ، وَإِنْ لَمْ يَوْجَدْ مَا تَقُولُ فَهُوَ بَهْتَانٌ؛ لِأَنَّهُ كَذَبٌ وَافْتِرَاءٌ.

وَمِنْ ذَلِكَ مَا وَرَدَ عَنْ عَائِشَةَ ؓ أَنَّهَا قَالَتْ: قُلْتُ لِلنَّبِيِّ ﷺ: حَسْبُكَ مِنْ صَفِيَّةٍ كَذَا وَكَذَا - تَعْنِي أَنَّهَا قَصِيرَةٌ - فَقَالَ: «لَقَدْ قُلْتَ كَلِمَةً لَوْ مُزِجْتَ بِمَاءِ الْبَحْرِ لَمَزِجْتَهُ»^(٣).

وَوَرَدَ أَنَّ امْرَأَةً دَخَلَتْ عَلَى عَائِشَةَ، فَلَمَّا قَامَتْ لِتَخْرُجَ أَشَارَتْ عَائِشَةُ بِيَدِهَا إِلَى النَّبِيِّ ﷺ - أَي: إِنَّهَا قَصِيرَةٌ - فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «اغْتَبْتِهَا»^(٤).

قِيلَ: إِنْ هَذِهِ الْآيَةُ نَزَلَتْ فِي رَجُلَيْنِ اغْتَابَا رَفِيقَهُمَا، وَكَانَ النَّبِيُّ ﷺ إِذَا غَزَا أَوْ سَافَرَ

(١) «الدر المنثور» (١٣/٥٧١).

(٢) مسلم (٢٥٨٩) وأبو داود برقم (٤٨٧٤) والترمذي برقم (١٩٣٥) وابن أبي شيبة (٣٨٧/٨) والطبري

(٣٧٦/٢١)، والمسند عن أبي هريرة (٩٠٠٩، ٨٩٨٥) حديث صحيح بإسناد حسن، كما قال محققوه.

(٣) أبو داود (٤٨٧٥) والترمذي (٢٥٠٢، ٢٥٠٣). وصححه الألباني في صحيح أبي داود (٢٦٩/٤) برقم

(٤٠٨٠) وفي صحيح الترمذي (٢٦٣٢) والمشكاة (٤٨٥٣) وغاية المرام (٤٢٧).

(٤) «تفسير الطبري» (٨٧/٢٦).

ضمَّ الرجل المحتاج إلى رجلين موسرين يخدمهما، فضم سلمان الفارسي إلى رجلين في بعض أسفاره، فتقدَّم سلمان إلى المنزل وغلبته عيناه فنام، ولم يصنع لهما طعامًا، فلما قدما سألاه عن الطعام فقال: غلبتني عيناى فنمت، فقالا له: انطلق إلى رسول الله ﷺ فاطلب لنا منه طعامًا، فذهب سلمان إلى الرسول ﷺ يسأله طعامًا، فقال له: «انطلق إلى أسامة بن زيد إن كان عنده فضل طعام»، وكان أسامة خازن رسول الله ﷺ وعلى رحله، فأتاه، فقال: ما عندي شيء، فرجع سلمان إليهما وأخبرهما، فقالا: كان عند أسامة طعام ولكنه بخل، فبعث سلمان إلى طائفة من الصحابة فلم يجد عندهم شيئًا، فلما رجع إليهما قالوا: لو بعثناه إلى بئر سمحة لغار ماؤها، ثم انطلقا إلى أسامة بن زيد يتلمسان عنده شيئًا، فلما جاءا إلى رسول الله ﷺ قال لهما: «ما لي أرى خضرة اللحم في أفواهكما»، قالوا: والله يا رسول الله ما تناولنا في يومنا هذا لحمًا، قال: «ظللتما تأكلان لحم سلمان وأسامة»، فأنزل الله الآية^(١).

والغيبة محرمة بالإجماع، ولا يُستثنى من ذلك إلا ما رجحت مصلحته مما ذكره العلماء، وهو سبعة أسباب:

الأول: التظلم، بأن يشكو الإنسان مظلته أمام القاضي ونحوه، فيذكر ما حدث له من ظلم.

الثاني: الاستعانة على تغيير المنكر، بأن يذكره المسلم عند مَنْ لَدَيْهِ قُدْرَةٌ عَلَى إِزَالَتِهِ.

الثالث: الاستفتاء، فيذكر لمن يُفْتِيهِ بأن فلانًا فعل كذا بالنسبة له، ليبين له الحكم.

الرابع: تحذير المسلمين من الشر، كتجريح الشهود والرواة، ومنه قول النبي ﷺ لَمَّا اسْتَأْذَنَ عَلَيْهِ رَجُلٌ فَاجِرٌ، فَقَالَ: «إِذْذَنُوا لَهُ بِشِّ أَخِي الْعَشِيرَةِ»^(٢).

وقد فعل النبي ﷺ ذلك اتقاء لشره.

ومن هذا الباب قوله تعالى: ﴿لَا يَتَّخِذِ الْمُؤْمِنُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَلَيْسَ مِنَ اللَّهِ فِي شَيْءٍ إِلَّا أَنْ تَتَّقُوا مِنْهُمْ تُقَنَّةً﴾ [آل عمران: ٢٨].

الخامس: المجاهرون بالمعاصي والمبتدعون والمنكرون الجاحدون لمبادئ الإسلام،

(١) «تفسير الخازن» (٤/ ١٧٠) وقد أخرجه ابن أبي حاتم عن السدي كما في «الدر المنثور» (١٣/ ٥٧٥).

(٢) «صحيح البخاري» برقم (٦١٣١) من حديث عائشة.

فإنه يجوز ذكْرُهُم للتحذير منهم، ولأنهم كشفوا اللثام عن وجوههم وتحدثوا عن أنفسهم، فصاروا جرثومة في المجتمع يجب التحذير من شرهم.

السادس: التعريف باللقب الذي لا يقصد به الإساءة، كالأعمى والأعمش^(١).

السابع: طلب النصيحة، كأن تُبَيَّن لمن استشارك في أمر الزواج، أو المشاركة في التجارة، أو الجوار، ونحو ذلك، ما في هذا الشخص من محاسن وعيوب، كما قال النبي ﷺ لفاطمة بنت قيس لما خطبها معاوية وأبو الجهم، فقال:

«أما أبو الجهم، فلا يضع عصاه عن عاتقه، وأما معاوية فصعلوك، لا مال له، أنكحي أسامة بن زيد». ^(٢) ومن الأحاديث التي وردت في تحريم الغيبة:

١- حديث أنس رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «لما عُرج بي مررت بقوم لهم أظفار من نحاس، يخمشون وجوههم وصدورهم، قلت: من هؤلاء يا جبريل؟ قال: هؤلاء الذين يأكلون لحوم الناس ويقعون في أعراضهم»^(٣).

٢- وعن جابر بن عبد الله رضي الله عنه قال: كنا مع النبي ﷺ فارتفعت ريح جيفة متنتة، فقال رسول الله ﷺ: «هذه ريح الذين يفتابون المؤمنين»^(٤).

٣- وعنه رضي الله عنه قال: كنا مع النبي ﷺ في سفر، فهاجت ريح متنتة، فقال النبي ﷺ: «إن نفراً من المنافقين اغتابوا نفراً من المسلمين، فلذلك هاجت هذه الريح»^(٥). والمغتتاب والمستمع شريكان في الإثم.

(١) «تفسير الكشاف» (٣٧٣/٤). ورياض الصالحين وغيرهما.

(٢) رواه مسلم في صحيحه برقم (١٤٨٠).

(٣) أبو داود برقم (٤٨٧٨) و«المسند» (٢٢٤/٣) بإسناد صحيح على شرط مسلم (محققه) والبيهقي في الشعب (٦٧١٦) و«صحيح سنن أبي داود» (٤٠٨٢).

(٤) «المسند» (٣٥١/٣) قال الهيثمي في «مجمع الزوائد» (٩١/٨): رجاله ثقات، وقال محققو «المسند» (١٤٧٨٤): إسناده حسن، وأخرجه البخاري في الأدب المفرد (٧٣٢) والخرائطي في مساوي الأخلاق

(١٨٩) والبيهقي في الشعب (٦٧٣٢) بإسناد قوي.

(٥) أخرجه عبد بن حميد في «المنتخب» (١٠٢٦).

والتوبة من ذلك: بالإقلاع عن الغيبة في الحال، والندم على ما مضى، والعزم الأكيد على عدم العودة إلى اغتيال الناس، وأن يُثني العبد على من اغتابه في المجالس التي اغتابه فيها، وأن يتحلله منها ما لم يكن فيه ضرر أكبر.

٤- وفي الأثر: عن جابر بن عبد الله وأبي طلحة بن سهل الأنصاري رضي الله عنهما: ما من امرئ يخذل امرأ مسلماً في موضع تُنتهك فيه حرمة، ويُنتقص فيه من عرضه، إلا خذله الله في مواطن يُحب فيها نصرته، وما من امرئ ينصر امرأ مسلماً في موضع يُنتقص فيه من عرضه، ويُنتهك من حرمة، إلا نصره الله في مواطن يحب فيها نصرته ^(١).

ثم ذكر الله تعالى مثلاً فريداً من الغيبة، شبه فيه المعتبر بمن يأكل لحم أخيه ميتاً مع شدة الكراهية لذلك، وهكذا فقد شبه الله - سبحانه - من يغتاب غيره بأكل لحمه ميتاً، مع الاشتمزاز والتقرُّز منه لشناعة الغيبة وقبحها بما لا مزيد عليه من التقييح، فقال تعالى: ﴿يُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَنْ يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا﴾ هل يحب الواحد منكم أن يأكل لحم أخيه المسلم وهو ميت ﴿فَكَرِهْتُمُوهُ﴾ أي: وكما كرهتم هذا طبعاً، فأكروهوه شرعاً، فإن عقوبته أشد من ذلك، وكما كرهتم أكل لحم الميت فأكروهوا الغيبة، وأكروهوا أكل لحمه حياً كما كرهتم أكل لحمه ميتاً.

وقد شبهت الغيبة بأكل لحم الميت؛ لأن الحَيَّ لا يعلم بغيبة من اغتابه، فلا يستطيع الدفاع عن نفسه، وكذلك الميت إذا قُطع لحمه وأكل منه فإنه لا يعلم شيئاً عن ذلك، أما الحاضر فقد يستطيع الدفاع عن نفسه.

٥- جاء في الأثر: أن من اغتاب أخاه في الدنيا يُقرب له لحمه في الآخرة، ويقال له: كُلْهُ مَيْتًا كما أكلته حياً ^(٢).

وفي هذا إشارة إلى أن عَرَضَ الإنسان كلحمه ودمه؛ لأن الإنسان يتألم قلبه إذا ذُكر بسوء، كما يتألم جسده إذا قُطع لحمه، والعَرَضُ أشرف من اللحم.

٦- قال ميمون بن سيار: بينما أنا نائم إذا بجيفة زنجي، وقائل يقول: كُلْ يا عبد الله، قلت:

(١) أبو داود بإسناد ضعيف برقم (٤٨٨٤).

(٢) رواه الطبراني في «المعجم الأوسط» برقم (٤٩٦١١) عن أبي هريرة بإسناد فيه مقال.

وما أكل؟ قال: كُلُّ بما اغتَبَتَ عبدُ فلان، قلت: والله ما ذكُرْتُ فيه خيرًا ولا شرًّا، قال: ولكنك استمعت ورضيت، فكان ميمون لا يغتاب أحدًا، ولا يدع أحدًا يغتاب أحدًا عنده^(١).

٧- وفي قصة ماعز الأسلمي، أنه جاء إلى النبي ﷺ فقال: يا رسول الله، إني قد زنيت، فأعرض عنه النبي ﷺ قالها أربعًا، فلما كان في الخامسة قال ﷺ: «زنيت؟» قال: نعم، قال: «وتدري ما الزنى؟» قال: نعم، أتيتُ منها حرامًا ما يأتي الرجل من امرأته حلالًا، قال: «ما تريد إلى هذا القول؟» قال: أريد أن تطهرني، قال: فقال رسول الله ﷺ: «أدخلتَ ذلك منك، في ذلك منها، كما يغيب الميل في المكحلة، والرشا في البئر؟» قال: نعم يا رسول الله، قال: فأمر برجمه فرُجم، فسمع النبي ﷺ رجُلَيْنِ يقول أحدهما لصاحبه: ألم تر إلى هذا الذي ستر الله عليه، فلم تدعه نفسه حتى رُجم رُجم الكلب! ثم سار النبي ﷺ فمرَّ بجيفة حمار، فقال: «أين فلان وفلان؟ انزلا فكلَا من جيفة هذا الحمار» قالا: غفر الله لك يا رسول الله، وهل يؤكل هذا؟ قال: «فما نلتما من أخيكما أنفًا، أشدَّ أكلًا منه، والذي نفسي بيده، إنه الآن لفي أنهار الجنة ينغمس فيها»^(٢).

٨- وصَحَّ عن عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنه أنه مرَّ على بَغْلٍ مَيِّتٍ وهو في نفر من أصحابه، فقال: والله لأن يأكل أحدكم من هذا حتى يملأ بطنه، خير له من أن يأكل لحم رجل مسلم^(٣).

٩- وعن جابر بن عبد الله رضي الله عنه قال: كنا مع رسول الله ﷺ فأتى على قبرين يُعَذَّبُ صاحبهما، فقال: «إنهما لا يعذبَانِ في كبير، وبكى، أما أحدهما فكان يغتاب الناس، وأما الآخر فكان لا يستبرئ من البول»، فدعا بجريدة رطبة فكسرها، ثم أمر بكل كِسرة فغُرِسَتْ على قبر، فقال: «أما إنه سيَهْوَنُ من عذابهما ما كانتا رطبتين»^(٤).

(١) «تفسير الخازن» (١٧١/٤).

(٢) «مسند أبي يعلى» (٥٢٤/٦) (٦١٤٠) والبيهقي في «السنن الكبرى» (٢٢٧/٨) من طريق عمرو بن الضحاك به، وأبو داود في «السنن» برقم (٤٤٢٩) من طريق الضحاك به، قال ابن كثير: وإسناده صحيح وهو في «مصحف عبد الرزاق» (١٣٣٤٠) والبخاري في «الأدب المفرد» (٧٣٧).

(٣) ابن أبي شيبة (٣٨٧/٨) و«صحيح الأدب المفرد» (٥٦٥) والخرائطي في «مساوي الأخلاق».

(٤) «صحيح الأدب المفرد» (٥٦٤) وابن أبي الدنيا في «ذم الغيبة» (٣٧). والحديث بلفظ آخر عن ابن عباس في البخاري (١٣٦١، ٢١٨) ومسلم (٢٩٢) والمسند (١٩٨٠) وأبو داود (٢٠) والترمذي (٧٠) وابن ماجه (٣٤٧) والنسائي (٢٨١) وهو اللفظ الشائع المعروف. (إنهما ليعذبان وما يعذبان في كبير، بلى إنه كبير).

١٠- وعن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه أنه قال: من اغتیب عنده مؤمن فنصره، جزاه الله بها خيراً في الدنيا والآخرة، ومن اغتیب عنده فلم ينصره جزاه الله بها في الدنيا والآخرة شراً، وما التَّقَمَ أحد لقمة شراً من اغتیب مؤمن، إن قال فيه ما يعلم فقد اغتابه، وإن قال فيه بما لا يعلم فقد بهته^(١).

١١- وفي حديث ابن عمر رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «... ومن قال في مؤمن ما ليس فيه، أسكنه الله رَذَّةَ الخبال حتى يخرج مما قال»^(٢). ورغبة الخبال: عصارة أهل النار.

ثم ختم الله الآية بدعوة المؤمنين إلى التوبة والإنابة، فقال: ﴿وَأَتَّقُوا اللَّهَ﴾ خافوا الله فيما أمركم به ونهاكم عنه، واحذروا عقابه، وصونوا أنفسكم عن الغيبة ﴿وَأَنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ﴾ كثير قبول التوبة لمن تاب إلى ربه من قريب توبة نصوحاً، والتواب هو الذي يأذن بتوبة عبده فيوفقه لها، ثم يتوب عليه فيقبل توبته، وهو سبحانه ﴿رَحِيمٌ﴾ بعباده المؤمنين، يدعوهم إلى ما ينفعهم ويقبل منهم توبتهم، وفي الآية تحذير شديد من الغيبة وأنها من الكبائر لأن الله تعالى شبهها بأكل لحم الميت وهو محرم شرعاً.

الْوَحْدَةُ الْإِنْسَانِيَّةُ

١٣- ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا﴾^(٣) إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴿١٣﴾

ولما أمر الله المؤمنين بأن يكونوا إخوة، وأن يُصلحوا بين الطوائف المتقاتلة، ونهاهم عما يفصم عرى الأخوة: من السخرية، واللمز، والنبد، وسوء الظن، والتجسس، والغيبة، ذكَّروهم بعد ذلك بأصل الأخوة في الإنسانية جميعاً، وهي أخوة الأنساب التي أكَّدتها أخوة الإسلام، ووحدة الاعتقاد.

فقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى﴾ أي: خلقناكم من أب واحد هو آدم، وأم واحدة هي حواء، فأنتم أبناء رجل واحد وامرأة واحدة، بث الله منهما رجالاً

(١) «صحيح الأدب المفرد» (٥٦٣).

(٢) «صحيح سنن أبي داود» (٣٠٦٦) والحاكم (٢٧/٢) والطبراني (١٣٠٨٤) والسلسلة الصحيحة (٤٣٨) وغيرهم.

(٣) قرأ البيزي بخلف عنه بتشديد التاء وصلًا من (لتعارفوا)، والباقون بالتخفيف.

كثيرًا ونساءً، وفرقهم، وجعلهم شعوبًا وقبائل لأجل أن يتعارفوا، فلو استقل كل منهم بنفسه لم يحصل هذا التعارف، ولا ما يترتب عليه من حقوق وواجبات، فلا وجه للتفاخر والتفاضل في النسب، وبهذا خطب النبي ﷺ في حجة الوداع فقال: «يأيها الناس، ألا إن ربكم واحد، وإن أباكم واحد، لا فضل لعربي على عجمي، ولا لعجمي على عربي، ولا لأسود على أحمر، ولا لأحمر على أسود إلا بالتقوى»^(١).

وقد جبر الله ما كان بين قبائل العرب بالإسلام، كما جاء في قوله تعالى: ﴿وَأَذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا﴾ [آل عمران: ١٠٣].
وقوله سبحانه: ﴿هُوَ الَّذِي آتَاكَ بِصِرْهِهِ وَالْمُؤْمِنِينَ﴾ (٧) ﴿وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ لَوْ أَنْفَقْتَ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مَا أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ﴾ [الأنفال: ٦٢، ٦٣].

وقد وردت روايات في سبب نزول هذه الآية، منها:

١- أنها نزلت في ثابت بن قيس بن شماس لما قال للرجل الذي لم يُفَسِّح له في المجلس: أنت ابن فلانة؟ فقال النبي ﷺ: «مَنْ الذَّاكِرُ فَلَانَةٌ؟» قال ثابت: أنا يا رسول الله، قال: «انظر في وجوه القوم»، فنظر، فقال: «ما رأيت يا ثابت؟» قال: رأيت أبيض وأحمر وأسود، قال: «فإنك لا تفضلهم إلا بالدين والتقوى»، فنزلت هذه الآية في ثابت، وقد سبق ذكره.

ونزل في الذي لم يُفَسِّح له: ﴿يَتَأْتِيَ الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا قِيلَ لَكُمْ تَفَسَّحُوا فِي الْمَجَالِسِ فَافْسَحُوا يَفْسَحِ اللَّهُ لَكُمْ﴾ [المجادلة: ١١].

٢- وعن يزيد بن شجرة قال: مرَّ رسول الله ﷺ في سوق المدينة، فرأى غلامًا أسود يقول: من اشتراني فعلى شرطين: لا يمنعني من الصلوات الخمس خلف رسول الله ﷺ، فاشتراه بعضهم، فمرض، فعاده النبي ﷺ، ثم تُوفِّي، فحضر دفنه، فقالوا في ذلك شيئًا، فنزلت الآية^(٢).

(١) البيهقي (٥١٣٧) و«المسند» (٢٣٤٨٩) عن أبي نضرة عن سمع خطبة النبي ﷺ أيام التشريق، قال محققوه: إسناده صحيح، وأخرجه أبو نعيم في «الحلية» (١٠٠/٣) عن أبي نضرة عن جابر مختصرًا.

(٢) «تفسير النسفي»، وذكره الثعلبي.

٣- ولما كان يوم فتح مكة أمر رسول الله ﷺ بلالاً، فصعد على ظهر الكعبة فأذّن، وأراد أن يُذِلَّ المشركين بذلك، فلما أذّن، قال عتاب بن أسيد: الحمد لله الذي قبض أسيداً قبل اليوم.

وقال الحارث بن هشام: أما وجد محمد غير هذا الغراب الأسود مؤذناً.

وقال سهيل بن عمرو: إن يكره الله شيئاً يُغيّره.

وقال أبو سفيان: أما أنا فلا أقول شيئاً، فإني إن قلت شيئاً لتشهدنَّ عليَّ السماء، ولتخبرنَّ عني الأرض، فتزلت هذه الآية^(١).

وكل قبيلة تُعجّب بنفسها، وتُفضّل قومها على غيرها، وترى نفسها أرفع نسباً، وأعرق أصلاً من غيرها، وبعضها يحقّر بعضاً، ويرى أنها أدنى نسباً وحسباً ومنزلةً، مثل قبائل: باهلة، وضبيعة، وبني عُكل، والخضير...، وهكذا أهل الجُرف والأعمال.

٤- ومن ذلك ما ورد: أن النبي ﷺ أمر بني بياضة أن يزوّجوا امرأة منهم لأبي هند -وكان حجاباً للنبي ﷺ- فقالوا: يا رسول الله، نزوج بناتنا موالينا -أي: عبيدنا، فأنزل الله الآية^(٢).

وسئل أعرابي: تحب أن تدخل الجنة وأنت باهليّ، فأطرق حيناً، ثم قال: على شرط، ألا يعلم أهل الجنة أنني باهليّ^(٣).

ثم قال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَاهُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ﴾ والشعوب -بفتح الشين- مجموعة القبائل التي ترجع إلى جدّ واحد، فالأمة العربية تنقسم إلى شعوب كثيرة مثل: مُضَر، وربيعة، وأنمار، وإياد، فكل منها يقال له: شعب، وتجمعها الأمة العربية المستعربة، وهي عدنان من ولد إسماعيل عليه السلام، وحمير وسبأ، والأزد وهي شعوب من أمة قحطان، والأوس والخزرج قبيلتان من شعب الأزد، وكنانة وقيس وتميم قبائل من شعب مُضَر، ومذحج وكندة قبيلتان من شعب سبأ.

(١) ذكره الواحدي في «أسباب النزول» (٢٢٤) عن مقاتل والواحدي وابن حجر في «تخريج الكشاف» ص ١٥٩ والبيهقي في «الدلائل» (٧٩/٥) وأخرجه ابن المنذر عن ابن جريج.

(٢) «تفسير القرطبي» (٣٤٠/١٦) وهو عند أبي داود في المراسيل ص ١٩٥، والبيهقي في «النكاح» (١٣٦/٧).

(٣) «التحريم والتنوير» (٢٥٨/٤).

والشعوب: جمع شعب، وهو الطبقة الأولى من الطبقات الست التي عليها العرب، وهي: الشعب، والقبيلة، والعمارة - بفتح العين - والبطن، والفخذ، والفصيلة.

فالشعب يجمع القبائل، والقبيلة تجمع العماثر، والعمارة تجمع البطون، والبطن يجمع الأفخاذ، والفخذ يجمع الفصائل.

فخزيمة شعب، وكنانة قبيلة، وقريش عمارة، وقصي بطن، وهاشم فخذ، والعباس فصيلة.

وبعد الفصيلة العشائر، جمع عشيرة، وليس بعد العشيرة شيء.

ولم يُذكر في القرآن من هذه السبع إلا ثلاث، هي: الشعوب والقبائل في هذه الآية، والفصيلة ذُكرت في قوله تعالى: ﴿وَفَصَّلَتْهُ أَلَى تَوْبِهِ﴾ (١٣) [المعارج].

والحكمة التي من أجلها جعل الله الناس شعوبًا وقبائل هي أن يعرف بعضهم نسب بعض، ويتعرف بعضهم على بعض، كما قال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا﴾. ويترتب على هذا التعارف: التناصر والتعاون والتوارث والقيام بحقوق الأقارب، وحقوق الإنسانية.

وفي حديث أبي هريرة ؓ أن رسول الله ﷺ قال: «تَعَلَّمُوا مِنْ أَنْسَابِكُمْ مَا تَصِلُونَ بِهِ أَرْحَامَكُمْ، فَإِنْ صَلَاةَ الرَّحِمِ مَحَبَّةٌ فِي الْأَهْلِ، مَثْرَاةٌ فِي الْمَالِ، مَنْسَأَةٌ فِي الْأَثَرِ» (٢).

وفي حديث أبي هريرة أيضًا أن النبي ﷺ قال: «اِئْتَنَانِ فِي النَّاسِ هُمَا بِهِمْ كَفَرُ: الطَّعْنُ فِي الْأَنْسَابِ، وَالنِّيَاحَةُ عَلَى الْمَيِّتِ» (٣).

ولما كان الناس يتنافسون في الأنساب، ويتفاخرون بالأحساب، ويتفاضلون فيما بينهم بالانتماء للقبائل، وهذا بسبب السخرية والهمز واللمز والتنازع، فقد بيّن سبحانه أن ميزان التفاضل عند الله تعالى ليس بالحسب ولا بالنسب، ولا بالمال ولا بالجاه ولا بالسلطان، إنما هو بالتقوى فحسب ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتَقَرُّكُمْ﴾ فأرفعكم منزلة عند الله تعالى،

(١) يُنظَرُ هذا عند تفسير الآية في كل من: «الكشاف»، «التحرير والتنوير»، «النسفي»، «الخازن»، «أضواء البيان».

(٢) «صحيح سنن الترمذي» (١٦١٢) والحاكم (١٦١/٤). وهو في مسند أحمد (٨٨٦٨) بإسناد حسن وأخرجه الطبراني في الأوسط (٨٣٠٤) وابن عدي في الكامل (٤٤٥/٢).

(٣) ابن أبي شيبه (٣٨٩/٣) و«المسند» (٤٨٢/١٤) (٨٩٠٥) قال محققوه: إسناده صحيح على شرط البخاري ورجاله ثقات رجال الشيخين، غير ابن عباس فمن رجال البخاري، وأخرجه مسلم (٦٧).

وأعلاكم درجة أكثركم تقوى، وأكثركم طاعة لله، وتركاً للمعاصي، وليس أشرفهم حسباً ولا نسباً، فإن أردتم الفخر فتفاخروا بالتقوى وبالعمل الصالح، وخير الناس من طال عمره وحسن عمله، ومن سره أن يكون أكرم الناس فليتق الله.

والله تعالى يعلم حقيقة أكرمكم، ومرتبكم في تقواه ﴿فَلَا تُزَكُّوا أَنْفُسَكُمْ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اتَّقَى﴾ [النجم: ٣٢] ﴿إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ﴾ بالمتقين، وعليهم بطواهركم ﴿حَبِيرٌ﴾ بكل تقي، وخبير ببواطنكم وسرائركم، فاجعلوا التقوى زادكم إلى معادكم.

والمتقي هو من يجعل بينه وبين عذاب الله وقاية، بامتنال أمره واجتناب نهيه، فلا يفقدك الله حيث أمرك، ولا يراك حيث نهاك.

والتقوى: هي الخوف من الجليل، والعمل بالتنزيل، والرضا بالقليل، والاستعداد ليوم الرحيل.

عن أبي هريرة ؓ قال: سئل رسول الله ﷺ: أي الناس أكرم؟ قال: «أكرمهم عند الله أتقاهم» قالوا: ليس عن هذا نسألك، قال: «فأكرم الناس: يوسف نبي الله ابن نبي الله ابن نبي الله ابن خليل الله» قالوا: ليس عن هذا نسألك، قال: «فعن معادن العرب تسألوني؟» قالوا: نعم، قال: «فخياركم في الجاهلية خياركم في الإسلام إذا فقهوا»^(١).

وعنه ؓ أن رسول الله ﷺ قال: «إن الله لا ينظر إلى صوركم وأموالكم، ولكن ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم»^(٢).

وعن ابن عمر ؓ أن رسول الله ﷺ خطب الناس يوم فتح مكة، فقال: «يا أيها الناس، إن الله قد أذهب عنكم عبية الجاهلية وتعاضمها بآبائها، فالناس رجلان: برّ تقيّ كريم على الله، وفاجر شقيّ، هيّن على الله تعالى، والناس بنو آدم، وخلق الله آدم من تراب». قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ﴾ الآية ثم قال: «أقول قولي هذا وأستغفر الله لي ولكم»^(٣).

(١) يُنظر: «صحيح البخاري» بأرقام: (٣٣٧٤، ٣٣٨٣، ٤٦٨٩) والنسائي في «السنن الكبرى» برقم (١١٢٥٠).

(٢) «صحيح مسلم» برقم (٢٥٦٤) و«سنن ابن ماجه» (٤١٤٣).

(٣) «سنن الترمذي» برقم (٣٢٧٠) (٣٩٥٥) وصححه الألباني في «صحيح سنن الترمذي» (٢٦٠٨) وأخرجه ابن أبي شيبة (٤٩٣/١٤) و«تخريج الكشاف» (٣/٣٥٠). وهو في المسند عن أبي هريرة (٨٧٣٦، ١٠٧٨١) بنحوه وإسناده حسن (محققه) وأخرجه أبو داود (٥١١٦) وهو في السلسلة الصحيحة (٢٧٠٠).

الْإِيمَانُ وَالْإِسْلَامُ

١٤- ﴿قَالَتِ الْأَعْرَابُ ءَأَمَّنَّا قُلْ لَمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الْإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ وَإِنْ تُطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ لَا يَلِتْكُمْ^(١) مِنْ أَعْمَالِكُمْ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿١٤﴾﴾

سبب النزول:

١- نزلت هذه السورة عام الوفود، في السنة التاسعة للهجرة، وكان من بين الوفود التي وفدت على رسول الله ﷺ وفد بني أسد بن خزيمة، وكان قدومهم بعد أيام قليلة من قدوم وفد بني تميم، الذين جاء ذكرهم في أول السورة، فزلوا قُرب المدينة في عدد كثير، ومعهم ضرار بن الأزور، وطليحة بن عبد الله، الذي ادّعى النبوة أيام الردة بعد وفاة النبي ﷺ.

وكانت هذه السُنة، سنة جذب في بلادهم، فأسلموا وجاءوا يطلبون الصدقة، ويقولون للنبي ﷺ: أتتكَ العرب بأنفسها على ظهور رواحلها، وجئناك بالأثقال والعيال والذراري، ولم نقاتلك كما قاتلك هوازن وغطفان وغيرهما، ويُردّدون هذه المقالة مُمتنين على النبي ﷺ بإيمانهم، وهم يريدون منه الصدقة، فأنزل الله هذه الآيات إلى نهاية السورة^(٢).

قال مجاهد: نزلت هذه الآيات في بني أسد، وهي قبيلة كانت تسكن بجوار المدينة، أظهروا الإسلام وقلوبهم دغلة، إنما يحبون المغنم وعرض الدنيا. ويُروى أنهم قدموا المدينة في سنة مجدبة، فأظهروا الشهادتين، وكانوا يقولون لرسول الله ﷺ: جئناك بالأثقال والعيال، ولم نقاتلك كما قاتلك بنو فلان، يمتنون بذلك على النبي ﷺ^(٣).

قال قتادة عن هذه الآيات: نزلت في قوم امتنوا بإيمانهم على رسول الله ﷺ.

٢- وقال السُّدِّي: نزلت هذه الآية في الأعراب الذين جاء ذكرهم في سورة الفتح في قوله تعالى: ﴿سَيَقُولُ لَكَ الْمُخَلَّفُونَ مِنَ الْأَعْرَابِ شَغَلَتْنَا أَمْوَالُنَا وَأَهْلُونَا فَاسْتَغْفِرْ لَنَا﴾ [آية: ١١] فهم قد

(١) قرأ أبو عمرو ويعقوب بهمزة ساكنة بعد الياء في (يألتكم) وهي لغة غطفان، وأبدل أبو عمرو الهمزة حرف مد بخلف عنه، وقرأ الباقون بدون همز وهي لغة أهل الحجاز.

(٢) يُنظر: هذا المعنى عن عبد الله بن أوفى عند الطبراني في «الأوسط» (٨٠١٦) وعن سعيد بن جبير في الطبري (٣٤٧/٢١) وعن الحسن عند ابن أبي حاتم.

(٣) «تفسير الألوسي» (١٧٦/٢٦).

شُغِلُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَهْلِيهِمْ وَقَتِ الْخُرُوجِ لِلْحَدِيثِ، وَجَاءُوا لِيَمْتَنُوا بِهِمَا عَلَى النَّبِيِّ ﷺ عَامَ الْوُفُودِ.

وهذه الآية لا تَعُمُّ جميع الأعراب، فإن منهم من قال الله تعالى فيهم: ﴿وَمِنَ الْأَعْرَابِ مَنْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾ [التوبة: ٩٩].

وإنما نزلت هذه الآية في حيٍّ من العرب منوا بإسلامهم على رسول الله ﷺ، وقالوا: أسلمنا، ولم نقاتلك كما قاتلك بنو فلان^(١).

وأول هذه الآيات قوله تعالى: ﴿قَالَتِ الْأَعْرَابُ ءَأَمَنَّا﴾ والأعراب: هم سكان البادية من العرب، وهم هنا بنو أسد، قدموا على النبي ﷺ وقالوا له: آمنا بالله ورسوله إيماناً كاملاً، وصدّقنا بقلوبنا كل ما جئت به، وامثلنا لما تأمرنا به وتنهانا عنه، فزعموا أنهم ممن قال تعالى فيهم: ﴿وَمِنَ الْأَعْرَابِ مَنْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾ [التوبة: ٩٩].

ولمّا كان بنو أسد حديثي عهد بالإيمان، ولم يتمكن الإيمان من قلوبهم، فإن الله تعالى أعلمهم على لسان رسوله ﷺ أن الإيمان هو التصديق الجازم بالقلب، وليس مجرد القول باللسان.

﴿قُلْ﴾ لهم - أيها الرسول - لا تدّعوا لأنفسكم الإيمان الكامل المستوفي لجميع أركانه، فإنتم ﴿لَمْ تُؤْمِنُوا﴾ إيماناً راسخاً تاماً، ولم تُصدقوا تصديقاً صحيحاً ناشئاً عن اعتقاد قلب وإخلاص نية، ولم يُترجم ذلك إلى عمل بالجوارح والأركان، ومواطأة القلب واللسان، وهذا معنى ﴿وَلَكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنَا﴾ أي: أظهرنا الإسلام الذي يعصم الإنسان ويحقق دمه وماله، فقد نطقنا بكلمة الإسلام، واستسلمنا لما تدعونا إليه لسبب من الأسباب الدنيوية، واقتصرُوا على ذلك، والسبب في ذلك أن الإيمان لم يدخل في قلوبكم، وإنما أمتتم خوفاً ورجاءً، وفي هذا تعليمهم الفرق بين الإسلام والإيمان:

فإن الإسلام بمعناه العام يعُمُّ الإيمان والعمل به، ويكون الإسلام أيضاً باللسان والإتيان بأركانه: الصلاة، والصيام، والزكاة، والحج، كما في قول النبي ﷺ رداً على سؤال جبريل ﷺ: «الإسلام أن تشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله، وتقيم

(١) قال بهذا قتادة كما في «تفسير الطبري» (٣٩١/٢١).

الصلاة، وتؤتي الزكاة، وتصوم رمضان، وتحج البيت إن استطعت إليه سبيلاً»^(١).

وهذا الإسلام بمعناه العام هو المقصود في قوله تعالى: ﴿إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ﴾ [آل عمران: ١٩] فهو الذي عناه النبي ﷺ في قوله: «بُني الإسلام على خمس...».

وهو الذي علّمه جبريل للنبي ﷺ حين سأله عن الإسلام؟ فقال: «أن تعبد الله وحده ولا تشرك به شيئاً، وتقيم الصلاة، وتؤتي الزكاة، وتصوم رمضان...»^(٢).

وهو الذي قاله النبي ﷺ لسعد بن أبي وقاص عن الرجل الذي أعطى النبي ﷺ الرهط من الناس وتركه، فقال سعد: «إني لأراه مؤمناً، فقال ﷺ: «أَوْ مُسْلِمًا؟ إني لأعطي الرجل وغيره أحب إليّ منه»^(٣).

وقد يكون الإسلام والإيمان بمعنى واحد إذا جاء في سياق واحد، فيكون كلٌ منهما بمعنى الآخر كما في قوله تعالى: ﴿فَأَخْرَجْنَا مَنْ كَانَ فِيهَا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ (٢٥) ﴿فَأَوْحَيْنَا إِلَيْكَ يَا مُحَمَّدُ أَنْ تَبْلُغَ لِقَاءَ رَأْسِ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَىَّ﴾ (٢٦) [الذاريات].

وقد يختلفان في المعنى، كما في هذه الآية ﴿قُلْ لَمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنَا﴾ فبينهما عموم وخصوص.

وهؤلاء الأعراب جاؤوا مُظْهِرين للإسلام، وقلوبهم غير مطمئنة بالإيمان؛ لأنهم حديثو عهد به، فبين الله تعالى أن باطنهم لا يخفى عليه سبحانه، وأنه لا يُعْتَدُّ بالإسلام إلا إذا كان مقترناً بالإيمان، فلا يُغْنِي أحدهما عن الآخر.

والإتيان بأركان الإسلام دون التصديق بالقلب، والإخلاص في العمل، لا يكون إيماناً، وهذا معنى ﴿وَلَمَّا يَدْخُلِ الْإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ﴾ أي: أن الإيمان الراسخ الكامل بانعقاد القلب عليه لم يتم بعد في قلوبكم.

وقد أفادت هذه الآية تكذيب دعواهم، وردّ ما وصفوا به أنفسهم، ونفّي الإيمان الكامل

(١) من حديث عمر في «صحيح مسلم» (٨) وعن أبي هريرة (٩) وفي البخاري (٥٠، ٤٧٧٧).

(٢) من حديث ابن عمر في البخاري (٨) ومسلم (١٦) والترمذي (٢٦٠٩) والنسائي (٥٠١٦) والبيهقي في «السنن» (٣٥٨/١) و«الشعب» (٢٠، ٣٥٦٧).

(٣) يُنْظَرُ: «تفسير ابن عطية» (١٥٣/٥) والحديث هو الآتي ذكره.

عنهم، ولذلك فقد أرشدتهم الآيات إلى ما يكمل إيمانهم:

عن سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه، قال: أعطى رسول الله ﷺ رهطاً وأنا جالس، فترك رجلاً منهم هو أعجبهم إليّ، فقلت: ما لك عن فلان؟ والله إني لأراه مؤمناً، فقال رسول الله ﷺ: «أَوْ مُسْلِمًا؟» قال ذلك سعد ثلاثاً، وأجابه النبي ﷺ بمثل ذلك، ثم قال: «إني لأعطي الرجل -وغيره أحب إليّ منه- خشية أن يكبه الله في النار على وجهه»^(١).

قال الحميدي: اعلم أن الإسلام هو الدخول في السلم، وهو الانقياد والطاعة، فمن الإسلام ما هو طاعة على الحقيقة باللسان والأبدان والجنان، لقوله تعالى لإبراهيم عليه السلام: ﴿إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمْ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [البقرة: ١٣١].

ومنه ما هو انقياد باللسان دون القلب، وذلك قوله تعالى: ﴿وَلَكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الْإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ﴾ و﴿لَمَّا﴾ لفظ يفيد التوقع، كأنه يقول: وسيحصل لكم الإيمان فيما بعد عند معرفتكم لمحاسن الإسلام، وتذوق حلاوة الإيمان.

وقيل: الإيمان هو التصديق بالقلب، مع الثقة وطمأنينة النفس عليه، والإسلام هو الدخول في السلم.

وقد فرقت الآية بين المسلم والمؤمن، فدلّ هذا على أن الإيمان أخص من الإسلام، وأن الأعراب المذكورين في الآية ليسوا منافقين، وإنما هم مؤمنون لم يستحكم الإيمان في قلوبهم، فادّعوا لأنفسهم مقاماً أعلى، فادّبوأ على ذلك، والإيمان المنفي عنهم في الآية هو الإيمان الكامل، فهم مسلمون، ولكن إيمانهم غير تام؛ لأن الإيمان يزيد وينقص.

ثم أرشدهم الله تعالى إلى دواء ضعف الإيمان في قلوبهم، فقال: ﴿وَإِنْ تُطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾ فإن طاعة الله ورسوله تجمع الإسلام والإيمان الكامل، وعندئذ ﴿لَا يَلْبِسْكُمْ﴾ أي: لا ينقصكم ﴿مِنْ أَعْمَالِكُمْ شَيْئاً﴾ أي: أنكم إن أخلصتم الإيمان كما أمركم الله ورسوله، تقبل الله منكم أعمالكم، حيث جئتم طائعين للإسلام من غير قتال.

(١) يُنظر هذا المعنى في: «صحيح البخاري» برقم (٢٧، ١٤٧٨) و«صحيح مسلم» برقم (١٥٠) و«المسند» (١٧٦/١) برقم (١٥٢٢) وابن أبي شيبة (٣١/١١) وأبو داود (٤٦٨٣، ٤٦٨٥) والنسائي (٥٠٠٧) والطبري (٣٨٩/٢١).

﴿إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ﴾ لمن تاب من ذنوبه، فيمحوها ويبدلها حسنات ﴿رَحِيمٌ﴾ بهم لا يعاجلهم بالعقوبة، بل يعفو ويصفح، ويدعو إلى التوبة ويرغب فيها.
وفي الآية زجر لمن يُظهر الإيمان واتباع الشَّئَةِ، وأعماله تشهد بخلاف ذلك.

صِفَاتُ الْمُؤْمِنِ الْكَامِلِ

١٥- ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ﴾ (١٥)

ثم بيَّن سبحانه صفات المؤمن الكامل، وهو الذي توافرت فيه ثلاثة شروط، هي:

١- التصديق والاعتقاد الجازم بالله ورسوله.

٢- عدم الشك والارتياب في شيء من أركان الإيمان.

٣- الجهاد بالمال والنفس في سبيل الله.

فَمَنْ جَمَعَ هذه الأوصاف الثلاثة فهو المؤمن الصادق.

وهؤلاء الأعراب لَمَّا لم تجتمع فيهم هذه الصفات الثلاث انتفى عنهم الإيمان الكامل ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ﴾ الذين صدَّقوا وأيقنوا بالله وبرسوله، وعملوا بشرعه، فأقروا بوحدانية الله تعالى، وآمنوا بالرسول الخاتم إيماناً كاملاً راسخاً قوياً ﴿ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا﴾ أي: لم يشكوا ولم يتزلزلوا في إيمانهم، بل ثبتوا على التصديق واليقين، واستمروا عليه إلى نهاية آجالهم ﴿وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ أي: بذلوا نفائس أموالهم وأرواحهم في الجهاد في سبيل الله وطاعته ورضوانه ﴿أُولَئِكَ﴾ المتصفون بهذه الصفات الثلاث ﴿هُمُ الصَّادِقُونَ﴾ في إيمانهم، فلم يقولوا آمنا بألستهم ولم تؤمن قلوبهم، بل كان إيمانهم حقاً وصدقاً، فإن الجمع بين الإيمان بالله وجهاد الكفار في سبيل الله يدل على إيمان القلب، لأن من جاهد الكافر، فجهاده لنفسه أقوى.

وشرط هذا الإيمان: عدم الريب والشك، لأن الإيمان النافع لا يكون إلا بالجزم اليقيني الذي لا يعتريه شك بوجه من الوجوه فهؤلاء هم الصادقون في إيمانهم.

وقد جاء وصف المؤمنين بصفات أخرى عديدة في كتاب الله ﷻ، منها ما جاء في أول سورة

الأنفال، وأول سورة المؤمنون، وما جاء في آخر سورة النور، وفي سورة المعارج، وغير ذلك.

الْمِنَّةُ لِلَّهِ وَحْدَهُ

١٦- ﴿قُلْ أَتَعْلَمُونَ اللَّهَ بِدِينِكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾

ذكرت هذه الآية حالة من حالات من ادعى لنفسه الإيمان، وليس كذلك، وقصدهم بهذا المنة على رسول الله ﷺ فأعلمهم الله تعالى بأنه لا ينبغي لهم أن يمتنوا على رسول الله بإيمانهم، فإن المنة لله الذي خلقهم ورزقهم وأنعم عليهم بالهداية إلى الإسلام.

هذا: ولما نزلت الآيتان السابقتان، أتت الأعراب من بني أسد إلى النبي ﷺ يُخبرونه أنهم مؤمنون صادقون في إيمانهم، ولكن الله تعالى يعلم منهم غير ذلك، ولذا قال تعالى: ﴿قُلْ﴾ يارسولنا لهؤلاء الأعراب ﴿أَتَعْلَمُونَ اللَّهَ بِدِينِكُمْ﴾ أتخبرون الله تعالى بصدق إيمانكم وما تخفيه ضمائركم، وما أنتم عليه من حال؟! فقد نفى سبحانه عنهم رسوخ الإيمان ثم قال: ﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾ لا تخفى عليه خافية في الأرض ولا في السماء ﴿وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ يعلم ما في قلوبكم من الإيمان والكفر والنفاق، ومن البر والفجور والآثام، والله تعالى يعلم كل ذلك ويجازيكم عليه إن خيراً فخير، وإن شراً فشر، قال تعالى:

١٧- ﴿يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا قُلْ لَا تَمُنُّوا عَلَيَّ إِسْلَمَكُم بَلِ اللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَاكُمْ لِلْإِيمَانِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾

امتَنَ بنو أسد على النبي ﷺ حين قدموا عليه بِمِثَّتَيْنِ:

الأولى: أنهم قالوا: أسلمنا، وقاتلتك العرب ولم نقاتلك.

والأخرى: أنهم قالوا: جئناك بالأثقال والعيال، والعرب كانوا يأتونك بأنفسهم، فقال النبي ﷺ فيما يرويه ابن عباس ؓ: «إن فقهم قليل، وإن الشيطان ينطق على ألسنتهم» فنزل قول الله تعالى: ﴿يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا﴾^(١).

(١) يُنْظَرُ ما رواه سعيد بن جبیر عن ابن عباس مرفوعاً من طريق يحيى بن سعيد الأموي في «السنن الكبرى» للنسائي برقم (١١٥١٩) وفي ط الرسالة برقم (١١٤٥٥) وفي «التحفة» (٥٥٧٦). ورواه الطبراني في المعجم الأوسط (٧٢٥٦) وانظر الأحاديث المختارة (٣٧٣) ج ١٠ ص ٣٤٥ قال: تفرد به يحيى بن سعيد الأموي.

أخرج ابن سعد عن محمد بن كعب القرظي قال: قدم عشرة رهط من بني أسد على رسول الله ﷺ في أول سنة تسع، وفيهم حضرمي بن عامر، وضرار بن الأزور، ووابصة بن معبد، وقتادة بن القاتف، وسلمة بن حُبَيْس، ونقادة بن عبد الله بن خلف، وطلحة بن خُوَيْلد، ورسول الله ﷺ في المسجد مع أصحابه، فسلموا، وقال مُتَكَلِّمُهُمْ: يا رسول الله، إنا شهدنا أن الله وحده لا شريك له، وأنت عبده ورسوله، وجئناك يا رسول الله، ولم تبعث إلينا بعثًا، ونحن لمن وراءنا سلم، فأنزل الله: ﴿يَمُنُونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا﴾^(١).

والمن: هو تعداد النعم على الآخرين، وهو خلق مذموم من الناس، محمود من الله تعالى، فهو سبحانه الخالق المنعم بجميع النعم على خلقه على وجه الحقيقة، وهؤلاء الأعراب جاؤوا إلى النبي ﷺ يمتنون عليه بأنهم جاؤوا بعيالهم وأموالهم، وأنهم لم يقاتلوه كغيرهم، وأنهم أسلموا طوعًا.

فهم يَعدُّون إسلامهم منَّة يمتنون عليك بها حين قالوا: أسلمنا ولم نحاربك، واعتقدوا أنهم بهذا يستحقون الحمد والثناء ﴿قُلْ﴾ لهم - يا رسولنا - ﴿لَا تَمُنُوا عَلَيَّ إِسْلَامَكُمْ﴾ فَإِنَّ نَفْعَ إِسْلَامِكُمْ يَعُودُ عَلَيْكُمْ، وإنما المنة لله وحده، أن وفقكم وهداكم للإيمان به وبرسوله ﴿بَلِ اللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَاكُمْ لِلْإِيمَانِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ في إيمانكم، وهذا كقول النبي ﷺ للأنصار يوم حنين: «يا معشر الأنصار، ألم أجدكم ضلَّالًا فهداكم الله بي؟ وكنتم متفرقين فألفكم الله بي؟ وكنتم عالة فأغناكم الله بي؟» كلما قال شيئًا، قالوا: الله ورسوله أمَّن^(٢).

فليس الأمر كما زعم هؤلاء الأعراب من أن إسلامهم يعتبر منَّة عليك يا محمد، بل الحق أن الله تعالى هو الذي يمنُّ عليهم أن أرشدهم إلى الإيمان وهداهم إليه، وبَيَّن لهم طريقه، وقد ادَّعَيْتُمُ الإيمان، والحق أنكم مسلمون فحسب، فالله تعالى هو الذي يَمُدُّ العبد بتوفيقه، ويهديه إلى الإيمان ويأخذ بيده إليه، فهو صاحب الفضل والحمد والمنة.

(١) «طبقات ابن سعد» (١/٢٩٢).

(٢) من حديث عبد الله بن زيد بن عاصم في البخاري برقم (٤٣٣٠).

خِتَامُ السُّورَةِ بِبَيَانِ عِلْمِ اللَّهِ تَعَالَى الشَّامِلِ الْمُحِيطِ

١٨ - ﴿إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ (١)

ثم ختم الله تعالى السورة ببيان إحاطة علمه وشموله بكل ما خفي وغاب عن عقول الناس، وأنه جلَّ شأنه ليس بحاجة إلى أن نخبره بشيء من أحوالنا، فهو سبحانه يعلم كل ما غاب عن أعين الخلق من الذرة فما فوقها، في العالم العلوي والعالم السفلي، يعلم سرهم وعلايتهم، ويعلم ما يُسرّه الإنسان في قلبه، وما يُسرُّ به إلى غيره، ولا يخفى عليه شيء في الأرض ولا في السماء، يعلم ما في البحار والقفار، يعلم قطرات الأمطار، وحبّات الرمال، وخبايا الأمور، ومكنونات الصدور.

قال تعالى في وصية لقمان لابنه: ﴿بَبْنِي إِنَّهَا إِنْ تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ فَتَكُنْ فِي صَخْرَةٍ أَوْ فِي السَّمَوَاتِ أَوْ فِي الْأَرْضِ يَأْتِ بِهَا اللَّهُ﴾ [لقمان: ١٦].

وقال سبحانه ﴿وَإِنْ كَانَتْ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا﴾ [الأنبياء: ٤٧]

وقال جل شأنه: ﴿وَمَا تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِي ظِلْمَتِ الْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَافِيسٍ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ﴾ [الأنعام]

وختم الله الآية بقوله: ﴿وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ في الظاهر والباطن، يحصيه عليكم ويوفيكهم إياه، وسيجازيكم عليه إن خيراً فخير وإن شراً فشر.

تم تفسير سورة (الحجرات) والله الحمد والمنة.



(١) قرأ ابن كثير بياء الغيب في (تعملون) لمناسبة (يمنون)، والباقون بقاء الخطاب لمناسبة (عليكم).

تَفْسِيرُ سُورَةِ ق (٥٠)

مُقَدِّمَةُ السُّورَةِ

سورة (ق) هي السورة الخمسون في ترتيب المصحف، والرابعة والثلاثون في ترتيب النزول.

عن جابر بن زيد: أنها نزلت بعد سورة المرسلات وقبل سورة البلد.

ومعظم السور التي نزلت قبلها كانت من قصار السور في الجزء الثلاثين.

وسورة (ق) خمس وأربعون آية باتفاق، وثلاث مئة وسبع وخمسون كلمة.

وألف وأربع مئة وأربعة وتسعون حرفاً.

وهي من السور التي سُمِّيت بأسماء الحروف التي في أولها لانفرادها بها، فلا تلتبس

بغيرها، مثل: طه، يس، ص، ن، وتسمى سورة الباسقات لذكر هذا اللفظ فيها.

وهي سورة مكية كلها، واستثنى بعضهم^(١) ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي

سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِنْ لُغُوبٍ﴾ (٢٨) فقالوا: إنها مدنية، نزلت ردّاً على اليهود في قولهم:

إن الله تعالى خلق السموات والأرض في ستة أيام، واستراح يوم السبت.

قلت: ولا يلزم أن يكون هذا قد حدث بعد الهجرة؛ لأن أهل مكة كانوا يسألون اليهود

في المدينة بعد البعثة عن أمر النبوة والأنبياء عن طريق المسافرين إليها منهم، وهذه الآية

من هذا القبيل، ولها نظائر نزلت بمكة مما يتعلق باليهود، فقد كانت بين أهل مكة ويهود

المدينة اتصالات وتجارات ومقابلات.

وقد يُعَلِّمُ الله نبيه ﷺ عن طريق الوحي ما كان يتحدث به أهل مكة قبل الإسلام، وما

يتلقَّونه من القصص والأخبار عن يهود المدينة...

وقد ورد في (سورة ق) جملة من الأحاديث، من ذلك:

١- أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه سأل أبا واقد الليثي رضي الله عنه: ما كان رسول الله ﷺ يقرأ في

(١) كما في القرطبي و«الإتقان» عن ابن عباس والضحاك وقتادة.

العيد؟ قال: ﴿قَدْ وَالْقُرْآنَ الْمَجِيدَ﴾^(١)، واقتربت^(٢).

٢- وعن أم هشام بنت حارثة بن النعمان رضي الله عنه قالت: لقد كان تتوَرُّنا وتتوَرُّ النبي ﷺ واحدًا سنتين، أو سنة وبعض سنة، وما أخذتُ ﴿قَدْ وَالْقُرْآنَ الْمَجِيدَ﴾ إلا على لسان رسول الله ﷺ، كان يقرؤها كل جمعة على المنبر إذا خطب الناس^(٣).

٣- وروى مسلم وغيره، عن جابر بن سمرة رضي الله عنه: أن النبي ﷺ كان يقرأ في الفجر ﴿قَدْ وَالْقُرْآنَ الْمَجِيدَ﴾^(٤).

٤- وقالت خولة بنت قيس الجُهَنِيَّة: كنت أسمع خطبة رسول الله ﷺ يوم الجمعة، وأنا في مؤخرة النساء، وأسمع قراءته ﴿قَدْ وَالْقُرْآنَ الْمَجِيدَ﴾ على المنبر، وأنا في مؤخرة المسجد^(٥).

لقد انتقشت كلمات سورة (ق) في أذهان من سمعوها من فم النبي ﷺ وهو يخطب بها يوم الجمعة، وثبتت في أذهانهم بالتكرار، ثم تحولت إلى خُلُق وعادة ومنهج حياة.

فقد كان ﷺ يقرأ بهذه السورة في المجامع الكبار -كالعيد والجمع- لاشتغالها على بدء الخلق وإعادته، والحساب والجزاء، والجنة والنار، والترغيب والترهيب.

والمحور الذي تدور حوله السورة هو البعث والنشور، وهي تسوق في أولها جملة من الآيات الكونية الدالة على وحدانيته تعالى، بعد أن تُقرر تعجُّب المكذِّبين المنكرين لرسالة محمد ﷺ، وهذه الأسس الثلاثة: التوحيد، والرسالة، والبعث، هي منهج السور المكية وخصائصها.

(١) «صحيح مسلم» برقم (٨٩١) و«المسند» (٢١٧/٥) (٢١٨٩٦، ٢١٩١١) حديث صحيح، وأبو داود برقم (١١٥٤) والترمذي برقم (٥٣٤، ٥٣٥) والنسائي (١٨٣/٣) (١٥٦٦) وابن ماجه برقم (١٢٨٢) والنسائي في «الكبرى» (١١٥٥٠، ١١٥٥١).

(٢) «المسند» (٤٣٥/٦) (٢٧٤٥٦، ٢٧٦٢٨) حديث صحيح، و«صحيح مسلم» برقم (٨٧٣) وأبو داود برقم (١١٠٠) والنسائي: (١٥٧/٢) برقم (١٤١٠) وفي «الكبرى» (١٧٢٠) وابن أبي شيبه (١١٥/٢) والبيهقي (٢١١/٣).

(٣) «صحيح مسلم» (٤٥٨) وابن أبي شيبه (٣٥٣/١) ومن حديث قطبة بن مالك في مسلم (٤٥٧) وابن ماجه (٨١٦).

(٤) أخرجه ابن سعد (٢٩٦/٨).

أغراض السورة: تبدأ السورة بالقسم على أن القرآن حق، وبالتالي فإن الرسالة حق، ثم تذكر تعجب الكفار من أمرين:

الأول: أن يكون الرسول بشرًا منهم.

الثاني: العودة إلى الحياة بعد الموت.

بالإضافة إلى دلائل وحدانية الله تعالى في الكون، وهذه الوحداية هي الأمر الثالث الذي يتعجب منه الكفار الملحدون، وإليك بيانها في السورة:

أولاً- فيما يتعلق بإنكار الرسالة الخاتمة، وإنكار أن يكون الرسول واحدًا من البشر، فقد بدأت السورة بتعجب الكفار من أن يرسل الله إليهم واحدًا منهم، وتذكر السورة بأحوال الأمم التي كذبت رسلها وما حلَّ بها من وعيد، مثل قوم نوح، وأصحاب الرس، وثمود، وعاد، وفرعون، وإخوان لوط، وأصحاب الأيكة، وقوم تبع:

﴿كُلٌّ كَذَّبَ الرُّسُلَ حَقَّ وَعِيدٍ﴾ الآية [١٤].

وكم أهلك الله من الأمم التي كذبت رسلها قبل محمد ﷺ، وكانوا أقوى منهم وأشد بطشًا، ورغم ذلك لم يكن لهم مفرٌّ من عقاب الله لهم. الآية [٣٦].

ومن ثمَّ يأمر الله تعالى رسوله ﷺ بالصبر على تكذيبهم، وأن يستعين على ذلك بالصلاة قبل طلوع الشمس وقبل الغروب، وفي جوف الليل البهيم، ويكثر من التسبيح في أدبار السجود، وذلك في الآيتين التاسعة والثلاثين والأربعين.

ثانيًا- وفيما يتعلق بالبعث والنشور، فإن لهذه السورة طابعًا خاصًا، يهزُّ القلب هزًّا، ويرجُّ النفس رجًّا، ويثير روعة الإعجاب، ورغشة الخوف، فهي شديدة الوقع على الحسن، مع البرهان الناصع، والحجة الدامغة على إحياء الموتى، ومن ذلك:

(أ) قياس إعادة الخلق بعد الموت على خلق السموات والأرض، وهما أكبر من خلق الإنسان، قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ﴾ الآية [٣٨].

(ب) وقياس إعادة الناس بعد موتهم على إحياء الأرض بالنبات والزرع بعد موتها قال تعالى: ﴿وَأَحْيَيْنَا بِهِ بَلَدَهُ مَيِّتًا كَذَلِكَ الْخُرُوجُ﴾ الآية [١١].

(ج) وقياس الإعادة على البدء كما في قوله تعالى: ﴿أَفَعَيْنَا بِالْأَوَّلِ﴾ الآية [١٥].

وجاء الحديث عن البعث والنشور في السورة عند الحديث عن النفخ في الصور، وحضور الإنسان بعد بعثه مع سائق يسوقه، وشاهد يشهد عليه يوم القيامة.

وعند تفصيل مشاهد القيامة تظهر الخصومة بين القرين وقرينه، فيقول القرين:

﴿رَبَّنَا مَا أَطَعْتُهُ وَلَكِنْ كَانَ فِي ضَلَالٍ بَعِيدٍ﴾ الآية [٢٧].

ثم تأتي صفات أهل الجنة وجزاؤهم، وصفات أهل النار وجزاؤهم، فجهم تقول لأهلها: هل من مزيد؟ والجنة تُقَرَّبُ لأهلها غير بعيد، بالإضافة إلى ذكر سكرات الموت والحساب، وما يلقيه المجرم في هذا اليوم العصيب.

إن الموت عند كثير من الناس هو نهاية الوجود، ولذا: فليس للآخرة حساب في حياتهم، وستنتهي الدنيا حتمًا، وتقع المفاجأة التي لم يُحسب لها حساب:

﴿لَقَدْ كُنْتَ فِي غَفْلَةٍ مِّنْ هَذَا فَكَشَفْنَا عَنْكَ غِطَاءَكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ﴾ (٢٢).

وسوف يحصد الناس ثمرة ما قَدَّمُوا، فيأتي الكافر ومعه الملك الذي أحصى عليه أعماله ﴿وَقَالَ قَرِينُهُ هَذَا مَا لَدَىٰ عَيْنِي﴾ (٢٣).

وهنا يقول قرينه من الشياطين الذي كان يُغويه ويضله في الدنيا: ﴿رَبَّنَا مَا أَطَعْتُهُ وَلَكِنْ كَانَ فِي ضَلَالٍ بَعِيدٍ﴾ لقد كان قريني فاسدًا ضالًّا قبل أن أقوم بوظيفة الإغواء وتزيين الشرِّ له.

ومع أن الدنيا دار ابتلاء إلا أن الله تعالى قد يُعَجِّلُ فيها بعض العقوبات للمجرمين؛ كي يرتدع الطغاة، ويشوبوا إلى رشدهم ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِّنْ قَرْنٍ هُمْ أَشَدُّ مِنْهُمْ بَطْشًا﴾ الآية [٣٦].

وعن أمثال الطغاة يقول تعالى: ﴿أَوَلَا يَرَوْنَ أَنَّهُمْ يُفْتَنُونَ فِي كُلِّ عَامٍ مَّرَّةً أَوْ مَرَّتَيْنِ ثُمَّ لَا يَتُوبُونَ وَلَا هُمْ يَذْكُرُونَ﴾ (٣٧) [التوبة].

ثالثًا- وعن دلائل التوحيد، تُلَفَّتِ السورة أنظار الملحدِين إلى عظيم قدرة الله تعالى في الكون المنظور: من السماء والأرض، والماء والنبات، والثمر والطلع، والنخيل والزرع، وكلها براهين ناطقة بوحدانية الخالق سبحانه ﴿أَفَلَمْ يَنْظُرُوا إِلَى السَّمَاءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَاهَا وَزَيَّنَّاهَا وَمَا لَهَا مِنْ فُرُوجٍ﴾ [الآيات: ٦-٨].

يقول الشيخ محمد الغزالي رحمته الله: وقد تدبرْتُ هذه الأدلة، وأنا أرقُب الطعام الذي أتناوله، إن بعضًا منه يتحول إلى طاقة ترفع حرارة الجسم، كيف؟ لا أدري! وبعضٌ آخر يتحول إلى خلايا تسري فيها الحياة، ويتكون منها العظم واللحم، وتزدحم فيها خصائص الأجداد والأحفاد، كيف؟ لا أدري!!

ويصف علماء الحياة، الخلية بأنها: كائن يشبه مدينة بها ميادين، وبها حارات، وبها أسلاك كهرباء، ومواسير مياه!! مع أن الخلية لا تُرى بالبصر المجرد.

والجزء الباقي من الطعام يعود (بالصرف الصحي) إلى الأرض ليخرج منها مرة أخرى كيزان ذرة، أو سنابل قمح، أو شماريخ بلح، يأكلها الإنسان، ويجدد القصة التي شرحناها آنفًا! ففي كل جسدٍ موت ونشور، يتكرران في كل ساعة من ليل أو نهار، فهل أستغرب إذا قال الله: ﴿قَدْ وَالْقُرْآنِ الْمَجِيدِ ۝ لَتُبْعَثُنَّ! لِمَاذَا تَكُونُ إِعَادَةُ الْخَلْقِ عَجَبِيَّةٌ؟ أَلَيْسَ هُوَ الْخَالِقُ الْأَوَّلُ؟ إِنْ فِي كُلِّ لَحْظَةٍ بَعْثًا، وَلَكِنَّ الْكَافِرَ بَلِيدٌ ذَاهِلٌ^(١).

وُحُتِمَت السورة بالحديث عن صيحة الحق التي يخرج الناس بها من القبور كأنهم جراد منتشر، ثم يُساقون للحساب والجزاء، لا يخفى على الله منهم أحد.

هذا: والموضوع الذي تناوله سورة (ق) هو ترسيخ الإيمان باليوم الآخر، وما فيه من بعث وحشر ونشر وحساب وجنة ونار في نفوس الناس.

ويمكن تقسيم السورة إلى خمسة مقاطع:

المقطع الأول: يتحدث عن المكذبين بالبعث والنشور والرد عليهم، وذلك في الآيات الخمس الأولى.

المقطع الثاني: يذكُر بعض الأدلة الكونية على إمكانية البعث، منها: السماء والأرض والجبال والنبات والنخيل، وذلك في الآيات من ٦-١١.

المقطع الثالث: ذكُرُ مصير الأقوام الذين كفروا بالله ورسوله، ولم يؤمنوا بالبعث والجزاء، كقوم نوح، وأصحاب البئر، وقوم عاد وثمود، وقوم لوط، وأصحاب الأيكة

(١) «نحو تفسير موضوعي لسور القرآن الكريم» ص ٤٠٧ بتصرف.

وقوم تبع، وجاء هذا في آيات ثلاث من الآية ١٢-١٤.

المقطع الرابع: يتحدث عن أهوال يوم القيامة بدءًا بالخلق الجديد، وقُرْب الله تعالى إلى العبد من حبل وريده، وتسجيل الحفظة لأقوال الإنسان وأفعاله، ومن ثم إلى سكرات الموت، وحدوث علامات الساعة الكبرى، وإتيان الملائكة بالعبد إلى ساحة المحشر، وهو بين السائق والشهيد، وشهادة القرين عليه، ثم إلى المصير المحتوم، الجنة أو النار، نسأل الله السلامة.

وفي **المقطع الخامس والأخير:** وهو من الآية (٢٦-٤٥) تذكرةً وعبرةً لأهل القرون الغابرة واللاحقة، وتسليّةً للنبي ﷺ، وختامًا للسورة بما بدأت به من الحديث عن يوم القيامة، وبيان مهمة النبي ﷺ أنه مذكّرٌ بهذا القرآن من خاف وعيد الله تعالى، وليس بمجبرٍ لأحد على الهداية، وهذا ختام السورة.

حزب المفصل من القرآن الكريم:

وسورة (ق) هي أول حزب المفصل في القرآن الكريم على الصحيح:

عن عمر بن الخطاب أن النبي ﷺ قال: «من نام عن حزبه أو عن شيء منه فقرأه فيما بين صلاة الفجر وصلاة الظهر، كتب له كأنما قرأه من الليل»^(١).

والمراد بالحزب: المقدار الذي يقرأه كل ليلة قليلاً أو كثيراً.

وعن واثلة بن الأسقع ؓ أن رسول الله ﷺ قال: «إن الله أعطاني السبع الطوال مكان التوراة، وأعطاني المئين مكان الإنجيل، وأعطاني مكان الزبور المثاني، وفضلني ربي بالمفصل»^(٢).

والمئون: هي ما ولي الطوال؛ وسميت كذلك لأن كل سورة منها تزيد على مئة آية.

والمثاني: ما ولي المئين، وهي دون المئة آية.

(١) صحيح مسلم (٧٤٧) وصحاح ابن حبان (٢٦٤٣) وصحيح ابن خزيمة (١١٧١) وأبوداود (١٣١٣) وابن ماجه (١٣٤٣) والترمذي (٥٨١) والنسائي في الكبرى (١٤٦٤).

(٢) «المسند» (١٠٧/٤) (١٦٩٨٢) قال محققوه: إسناده حسن، والطبري (١٠٠/١) (١٨٧) عن واثلة بن الأسقع و«مجمع الزوائد» (١٥٨/٧) والطبراني (١٨٧) والبيهقي (٢٤٨٤، ٢٤٨٥) و«صحيح الجامع الصغير» (١٠٧٠) وجاء في الحديث عن ثوبان وأبي أمامة وأبي قلابه.

والمفصل: ما ولي المثاني، وسمي مفصلاً لقصر سوره، وكثرة الفصل بين كل سورتين بالبسملة.

وفي حديث أوس بن حذيفة رضي الله عنه: أن النبي ﷺ كان يأتي على وفد ثقيف - عام الوفود - كل ليلة بعد العشاء يحدثهم، فأبطأ ليلة عن الوقت الذي كان يأتي فيه، فقالوا للنبي ﷺ: لقد أبطأت عنا الليلة؟ قال: «لأنه طرأ عليّ حزبي من القرآن، فكرهتُ أن أجيء حتى أتمّه».

قال أوس: سألت أصحاب رسول الله ﷺ: كيف تُحزّبون القرآن؟ فقالوا: ثلاث، وخمس، وسبع، وتسع، وإحدى عشرة، وثلاث عشرة، وحزب المفصل^(١).

فهذه سبعة أقسام لسور القرآن الكريم في حديث (أوس)، وفي حديث (واثلة) قبله أربعة أقسام، وكلاهما تقسيم نبوي لسور القرآن الكريم، وهما من حالات المدة التي يستحب فيها ختم القرآن الكريم.

فتقسيم سور القرآن كما في الحديث الأول هكذا:

١- السبع الطوال: من البقرة إلى آخر الأعراف، والأنفال مع التوبة.

٢- المئون: من يونس إلى الأنبياء، وهي ما فوق المئة آية غالباً.

٣- المثاني: من الحج إلى الحجرات. ٤- المفصل: من (ق) إلى الناس.

وهذا لمن ختم القرآن في أربع ليال.

أما التقسيم على الحديث الثاني فهو كالاتي:

١- ثلاث: البقرة وآل عمران والنساء. ٢- خمس: من المائدة إلى براءة.

٣- سبع: من يونس إلى النحل. ٤- تسع: من الإسراء إلى الفرقان.

٥- إحدى عشرة: من الشعراء إلى يس.

٦- ثلاث عشرة سورة: من الصافات إلى الحجرات.

(١) أبو داود برقم (١٣٩٣) وابن ماجه برقم (١٣٤٥) و«المسند» (٩/٤) برقم (١٦١٦٦) عن أوس بن حذيفة بسند ضعيف كما قال محققوه، وابن أبي شيبة (٥٠١/٢) والطيالسي (١١٠٨) والبخاري في التاريخ الكبير (١٥٣٩)، وضعفه الألباني في «ضعيف سنن أبي داود» (٢٩٧).

٧- المفصل: وهو ثلاثة أقسام:

- (أ) من قاف إلى النبأ. (ب) ومن النازعات إلى الليل. (ج) ومن الضحى إلى الناس.
- وتقسيم القرآن إلى سور على النحو المذكور، تقسيم نبوي توقيفي.
- وقد وردت أحاديث تشير إلى استحباب ختم القرآن في شهر.
- كما في حديث عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال له: «... اقرأ القرآن في كل شهر»^(١).
- وقد تم تقسيم القرآن إلى أجزاء وأحزاب وأرباع في زمن التابعين حيث قام به نصر بن عاصم بأمر الحجاج بن يوسف، ولكنه تقسيم حرفي لا يراعي المعنى.
- ولنا عليه بعض الملحوظات بما يتم ربط المعنى من حيث القطع والبدء^(٢).



(١) «التجريد الصريح» ص ١٣٦ ومسلم بشرح النووي (٤٢/٨) وأحمد كما في «صحيح الجامع» (١١٦٨).

(٢) يُنظر هذا المبحث في الجزء الأول من كتابي «فن الترتيل وعلومه» ويُنظر تقسيم كامل للقرآن كله بالجزء والحزب والربع وفق المعنى في كتابي «تيسير علم التجويد». الطبعة الثالثة.

تَفْسِيرُ السُّورَةِ

اِفْتِتَاحُ السُّورَةِ

١- ﴿قَٓ﴾^(١) وَالْقُرْآنِ الْمَجِيدِ ﴿١﴾

﴿قَٓ﴾ حرف من حروف الهجاء، سُمِّيت به السورة، وُكِّتَب في المصحف حرفاً واحداً ﴿قَٓ﴾ ويُنطق به ثلاثة حروف، هكذا (قاف)، والله أعلم بمراده منه ومن أمثاله في القرآن.

ويمكن أن تكون هذه الحروف للدلالة على إعجاز القرآن، فإن كان المكذَّبون به في شك منه فليأتوا بمثله، أو بمثل عشر سور منه، أو بمثل أقصر سورة منه.

وإذا سمع المكذَّبون للقرآن هذا النوع الغريب عليهم من الكلام، جعلهم يضغنون له ويتأملون فيه، فيؤدي هذا إلى هداية من أراد الله له الهداية.

ثم أقسم الله تعالى بالقرآن تنويعاً بعلو شأنه؛ لأن التعظيم من لوازم القسم، ووصفه سبحانه بعد ذلك بالمجد، والشرف الرفيع، والخير الكثير، فهو أفضل ما أبلغه الله للناس من كلام يدل على مراد الله تعالى، ويفوق كل كلام أوحاه الله تعالى إلى رسله، فجعله بأفصح اللغات، وجعله معجزاً لأفصح البلغاء، ولا ينسخه كتاب بعده، وهو يُصلح البشرية إلى قيام الساعة.

فالقرآن هو المقسم به، وجواب القسم محذوف، تقديره: لتُبْعَثُن بعد الموت، ومضمون الكلام بعده: إثبات النبوة، وإثبات المعاد، والتقدير: إنك -يا محمد- لرسول، وإن البعث لحق، والمجيد صفة القرآن، وهو الشريف على غيره من سائر الكتب، ومن الحديث القدسي، ومن الحديث النبوي..

والمجد: سعة الأوصاف وعظمتها، والقرآن واسع المعاني، متنوع الوجوه، كثير الخيرات والبركات، جزل الألفاظ، حوى الفصاحة بأكملها، وجمع علوم الأولين والآخرين، واشتمل على أعم المعاني وأحسنها، وكل هذا من موجبات اتباعه والانقياد

(١) سكت أبو جعفر على حرف (ق) حالة الوصل بما بعدها بدون تنفس.

له، وشكر الله تعالى عليه، ولكن أكثر الناس لا يشكر نعم الله عليه، ولا يعطي القرآن حقه وقدره من العلم والعمل والاتباع والانقياد!!

الْكَفَّارُ يَعْجَبُونَ مِنْ قَضِيَّتِي الرَّسَالَةِ وَالْبَعْثِ بَعْدَ الْمَوْتِ

٢- ﴿بَلْ عَجِبُوا أَنْ جَاءَهُمْ مُنْذِرٌ مِنْهُمْ فَقَالَ الْكَافِرُونَ هَذَا شَيْءٌ عَجِيبٌ﴾

وبعد أن أشار سبحانه إلى أن القرآن ليس بكلام بشر، وإنما هو كلام الله تعالى أبلغه إلى رسوله ﷺ على لسان جبريل عليه السلام، أنكر - جل شأنه - على الكافرين المكذبين تعجبهم البالغ من أن يرسل الله إليهم بشرًا مثلهم، وأنهم في منتهى العجب والغرابة من ذلك، بل عجبوا أن جاءهم رسول من البشر مثلهم، ينهاهم عما يضرهم ويأمرهم بما ينفعهم، ويخوفهم عقاب الله إن لم يؤمنوا، فقد تعجبوا من أمرين:

أحدهما: كون هذا الرسول بشرًا مثلهم، من جنسهم، يمكنهم التلقى عنه، ومعرفة أحواله وصدقه وأمانته، فتعجبوا من أمر عادي لا يُتعجب منه، وقد بين الله سبحانه أن جميع الأمم قالوا لرسولهم هذه المقولة، حيث ﴿قَالُوا إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا﴾ [إبراهيم: ١١] وكانت هذه المقولة سببًا مانعًا من اتباع الأمم للرسول:

كما قال تعالى: ﴿وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَنْ يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمُ الْهُدَىٰ إِلَّا أَنْ قَالُوا أَبَعَثَ اللَّهُ بَشَرًا رَسُولًا﴾ [الإسراء: ٩٤].

ثم فسر القرآن تعجبهم هذا بقوله تعالى: ﴿فَقَالَ الْكَافِرُونَ هَذَا شَيْءٌ عَجِيبٌ﴾ أي: أن الذي حملهم على التكذيب به وإنكار أن يكون الرسول بشرًا، هو كفرهم، فقالوا: هذا أمر مستغرب، وهذا في غاية الجهل منهم، فهم كالمجنون الذي يستغرب كلام العاقل، والبخيل الذي يعجب من كرم الكريم.

والآخر: إخبار النبي ﷺ لهم بعذاب يكون بعد الموت، وهم لا يُصدّقون بذلك ويتساءلون كثيرًا: ﴿مَتَىٰ هَذَا الْوَعْدُ﴾ [الملك: ٢٥].

قال تعالى: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ لَّكُمْ بَيْنَ يَدَيْ عَذَابٍ شَدِيدٍ﴾ [سبا: ٤٦].

ومما تعجبوا منه أيضًا أمر البعث والنشور، فهو من جملة ما أنذرهم به خاتم النبيين،

حيث قالوا: هذا البعث الذي تُخَوِّفُنَا بِهِ يَا مُحَمَّد، أمر يُتَعَجَّبُ مِنْهُ، وتقف أفهامنا دونه.

فالباعث لهم على العجب أمران: هما إنذاره لهم بالبعث والنشور، وكون الرسول واحداً منهم يدَّعي الرسالة، مع أنهم قد عرفوا صِدْقَهُ وَأَمَانَتَهُ وَنُصْحَهُ، فكان الواجب عليهم أن يسارعوا إلى الإيمان به، لا أن يعجبوا منه ويستهزئوا به قال تعالى: ﴿أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَا إِلَى رَجُلٍ مِنْهُمْ أَنْ أَنْذِرِ النَّاسَ وَبَشِّرِ الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ [يونس: ٢].

وقد ذكر سبحانه في سورة (ص) قول منكري البعث: ﴿وَعِجْبُوا أَنْ جَاءَهُمْ مُنْذِرٌ مِنْهُمْ وَقَالَ الْكَافِرُونَ هَذَا سِحْرٌ كَذَّابٌ﴾ قال تعالى على لسان المكذبين بالبعث والنشور:

٣- ﴿إِذَا (١) مِتْنَا (٢) وَكُنَّا تُرَابًا ذَلِكَ رَجْعٌ بَعِيدٌ﴾

وبعد تعجب المكذبين من قضية الرسالة، يأتي وجه تعجبهم من قضية البعث والنشور، فيقولون: أبعد أن نموت، وتحلل أجسامنا إلى تراب، ونصير عظاماً مفتتة، أنرجع إلى الحياة مرة أخرى؟ ﴿إِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا﴾ أعود إلى الحياة ثانية؟ هذا أمر مستبعد، يستحيل حصوله ﴿ذَلِكَ رَجْعٌ بَعِيدٌ﴾ أي: هذه عودة بعيدة بعد انعدام الحياة، وتفتت الجسد وتحوله إلى تراب، ومثل هذا:

١- قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا إِذَا كُنَّا عِظَمًا وَرُفُلًا إِنْآ لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا﴾ [الإسراء: ٤٩].

٢- وقوله سبحانه: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا هَلْ نَدُلُّكُمْ عَلَى رَجُلٍ يُبَشِّرُكُمْ إِذَا مُرِّتُمْ كُلُّ مُمَرِّقٍ إِنَّكُمْ لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ﴾ [٧] أَفَتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَمْ بِهِ جِنَّةٌ [سبأ: ٧، ٨].

٣- وقوله جلَّ شأنه: ﴿وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ الْإِعْظَمَ قَالَ مَنْ يُعِى الْعِظَمَ وَهِيَ رَمِيمٌ﴾ [٧٨] قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنْشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ [يس: ٧٨، ٧٩].

٤- وقوله ﷻ: ﴿رَعَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنْ لَنْ يُبْعَثُوا قُلْ بَلَى وَرَبِّي لَتُبْعَثُنَّ ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ بِمَا عَمِلْتُمْ وَذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ﴾ [التغابن: ٧].

(١) سَهْلُ الهمزة الثانية من (أنذا) قالون وأبو عمرو وأبو جعفر مع إدخال ألف بينهما، وقرأ ورش وابن كثير ورويس بالتسهيل من غير إدخال، والباقون بالتحقيق من غير إدخال.

(٢) قرأ نافع وحفص وحمزة والكسائي وخلف بكسر الميم من (متنا) والباقون بضمها، وهما لغتان.

ومن أدلة البعث قول النبي ﷺ في أول بعثته: «إن الرائد لا يكذب أهله، والله لو كذبتُ الناس جميعًا ما كذبتُكم، ولو غششتُ الناس جميعًا ما غششتكم، والله لتموتن كما تنامون، ولتبعثن كما تستيقظون، ولتجزؤن بالإحسان إحسانًا، وبالسوء سوءًا، وإنها لجنة أبدًا، أو نار أبدًا»^(١).

وهكذا، فقد تعجبوا من أمر البعث، لأنهم قاسوا قدرة الله تعالى بقدرتهم، ولا يستوي في عرف عاقل أن يُسوى قدرة الخالق الكامل من كل الوجوه، بقدرة المخلوق العاجز من كل الوجوه!!

قُدْرَةُ اللَّهِ تَعَالَى أَكْبَرُ مِنَ الْبُعْثِ بَعْدَ الْمَوْتِ

٤- ﴿قَدْ عَلِمْنَا مَا تَنْقُصُ الْأَرْضُ مِنْهُمْ وَعِندَنَا كَنْزٌ حَفِیْظٌ﴾

وإنكار الملحدين المكذبين للبعث يقوم على استبعاد إعادة الحياة إلى الجسد بعد أن تفرقت أجزاؤه في الأرض وفي مهب الرياح، وقاع البحار، على تعدد مواقعها، فإن هذا لا يُبقي أملًا في الإحاطة بها -على حد زعمهم- ويتعذر التقاطها وجمعها، ولو جُمعت هذه الأجزاء على سبيل الفرض، فكيف تعود إلى صورتها الأولى؟

قال تعالى في الرد عليهم: ﴿قَدْ عَلِمْنَا مَا تَنْقُصُ الْأَرْضُ مِنْهُمْ﴾ أي علمنا علمًا تامًا ما تفنيه الأرض من أجسادهم، وما تأكله من لحومهم، وأشعارهم، وجلودهم، ودمائهم بعد دفنهم فيها، لا يضل عنا شيء منها مهما تناثرت أجسامهم في الهواء، أو احترقت بالنيران، أو أكلتها السباع، لا يغيب عن علمنا شَعْرَةٌ من شعرهم، ولا إظْفَرًا من أظافرهم، ولا قطرة دم من دمائهم، فكيف يتعذر علينا إعادة الحياة إليهم مرة أخرى؟

وَعِلْمُنَا شامل دقيق، حافظ لجميع أحوال الناس، يسجل عليهم أقوالهم وأفعالهم ﴿وَعِندَنَا كَنْزٌ حَفِیْظٌ﴾ أي: محفوظ من التغير والتبدل، فيه كل ما يجري على الخلق في حياتهم وبعد مماتهم، فهو مقتضى عموم العلم الإلهي.

(١) يُنْظَرُ: «الرحيق المختوم» ص ٧٩ صفي الرحمن المباركفوري ط أولى ١٤٢٤هـ/٢٠٠٣م. وهو في غريب الحديث لابن قتيبة (٣٤٩/١) وفي سيرة ابن هشام وغيرها تحت عنوان: الجهر بالدعوة.

وهذا استدلال بكمال علمه سبحانه، وإحاطته بكل شيء، وقدرته على إحياء الموتى.

أما كيفية إعادة الحياة للإنسان بعد أن تفتت أوصاله، فعلم ذلك عند الله تعالى، ولم نكلّف بالبحث عنه، وقد جاء في حديث أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «كل ابن آدم يأكله التراب إلا عجب الذنب، منه خلُق، وفيه يُرْكَب»^(١).

وفي لفظ آخر لأبي هريرة أيضًا: أن النبي ﷺ قال: «إن في الإنسان عظمًا لا تأكله الأرض أبدًا، فيه يُرْكَب يوم القيامة»، قالوا: أي عظم هو يا رسول الله؟ قال: «عجب الذنب»^(٢).

وقد جاء بعض الكفار إلى النبي ﷺ ويده عظم يفتته بيده، ويقول: يا محمد، أترى أن الله يحيي هذا بعدما بليّ ورّم؟ قال: «نعم، ويبعثك ويدخلك النار»^(٣).

الْكَفَّارُ يُنْكِرُونَ الْوَحْيَ وَالرَّسَالَهَ دُونَ نَظَرٍ وَلَا تَأْمُلٍ

٥- ﴿بَلْ كَذَّبُوا بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ فَهُمْ فِي أَمْرٍ مَّرِيجٍ﴾

المراد بالحق في الآية: القرآن الذي جاء به محمد ﷺ، والنبوة الثابتة بالمعجزات، أي: إن المنكرين للبعث سارعوا إلى التكذيب به من أول وهلة، فكذبوا بالبعث والنشور، وكذبوا بوحداية الله تعالى دون نظر ولا تأمل في دلائل التوحيد والبعث، كذبوا بالوحي المنزل على محمد ﷺ مع سطوع آياته ووضوح دلائله: ﴿بَلْ﴾ أي: أن كلامهم الذي صدر منهم، إنما هو عناد وتكذيب للحق الذي هو أعلى درجات الصدق، ﴿كَذَّبُوا بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ﴾ والذي أخبرهم بوحداية الله تعالى، وأخبرهم بأن النبي حق، وأن البعث حق، هو القرآن الكريم، وهؤلاء المكذبون المنكرون، كذبوا بالقرآن لما جاءهم على لسان محمد ﷺ، كذبوا بكل ما فيه، ثم إنهم اختلفوا واضطربوا في وصفه، فقالوا: سحر، وقالوا: شعر، وقالوا: كهانة، وقالوا: أساطير الأولين ﴿فَهُمْ فِي أَمْرٍ مَّرِيجٍ﴾ مختلط ومضطرب، يتخبطون في وصفه، ولا يثبتون على حال، ولا يستقر لهم قرار؛ وذلك لأنه ما ترك قوم الحق إلا ضلوا وتخطوا، وكل من اتبع الحق وصدق به اهتدى واستقام أمره.

(١)، (٢) رواه مسلم برقم (٢٩٥٥) وانظر: البخاري (٤٨١٤، ٤٩٣٥).

(٣) يُنْظَرُ: «تفسير الطبري» (٢١/٢٣) وابن كثير (٥٩٣/٧).

أَدِلَّةُ الْقُدْرَةِ عَلَى الْبَعْثِ وَالْوَحْدَانِيَّةِ عَلَى أَرْبَعَةِ أَضْرُبٍ

٦- ﴿أَفَلَمْ يَنْظُرُوا إِلَى السَّمَاءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَيَّنَّهَا وَزَيَّنَّهَا وَمَا لَهَا مِنْ فُرُوجٍ﴾ ﴿٦﴾

هذه دعوة إلى التأمل في الكون والاستدلال به على إمكانية البعث والنشور، وقد جاءت أدلة البعث في القرآن الكريم على أربعة أضرب، وكلها أدلة تُثبت وحدانية الخالق سبحانه؛ فهي براهين يُستدل بها على التوحيد وعلى البعث والنشور معاً:

أولها: قياس إعادة الحياة إلى الموتى على خلق السموات والأرض:

فإن خلقهما أعظم من خلق الإنسان ومن إعادته بعد الموت؟ قال تعالى: ﴿لَخَلْقُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ ﴿٥٧﴾ [غافر].

ثانيها: قياس الإعادة على إحياء الأرض بعد موتها:

قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِي أَحْيَاهَا لَمُجِي الْمَوْتِ إِنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ ﴿٣٩﴾ [فصلت].

ثالثها: قياس الإعادة على بدء الخلق، وهو أهون في نظر الناس، قال تعالى:

﴿وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ﴾ [الروم: ٢٧].

رابعها: قياس الإعادة على إخراج النار من الشجر الأخضر.

قال تعالى: ﴿الَّذِي جَعَلَ لَكُم مِّنَ الشَّجَرِ الْأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَا أَنْتُمْ تُوقَدُونَ﴾ ﴿٨٠﴾ [يس].

وكلها أدلة على وحدانية الله تعالى وعظيم قدرته، وفي الدليل الأول يلفت الله تعالى نظر العباد إلى أربعة أشياء هي:

١- السماء. ٢- والأرض. ٣- والجبال. ٤- والنبات.

الضَّرْبُ الْأَوَّلُ مِنْ بَرَاهِينِ الْبَعْثِ: قِيَاسُ الْإِعَادَةِ عَلَى خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ

أولاً: دَلَالَةُ الْعَالَمِ الْعُلَوِيِّ

﴿أَفَلَمْ يَنْظُرُوا إِلَى السَّمَاءِ فَوْقَهُمْ﴾ أَغْفَلَ هَؤُلَاءِ الْمَلْحَدُونَ حِينَ كَذَبُوا بِالْبَعْثِ، فَلَمْ يَتَأَمَّلُوا

في العالم العلوي فوقهم، وينظروا نَظْرَ تَفَكُّرٍ واعتبار إلى ارتفاع السماء بغير عمد

وإحكامها من غير تفاوت ولا صدوع أو شقوق، فيتأملوا ﴿كَيْفَ بَنَيْنَاهَا﴾ أي: رفعناها بدون عمد، وجعلناها مستوية الأرجاء، ثابتة البنيان؟ وهذا النظر في غاية السهولة، لا يحتاج إلى كلفة ولا إلى شد رحل، والسماء قبة مستوية الأرجاء، ثابتة البناء.

كما قال تعالى: ﴿الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَوَاتٍ طِبَاقًا مَّا تَرَىٰ فِي خَلْقِ الرَّحْمَنِ مِن تَفَوتٍ فَإِنِّي جَاعِلٌ الْبَصَرَ هَلْ تَرَىٰ مِن فُطُورٍ ۚ ثُمَّ أَتِجِعُ الْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنقَلِبْ إِلَيْكَ الْبَصَرُ خَاسِئًا وَهُوَ حَسِيرٌ ۝٤﴾ [الملك].

وقال جلّ شأنه: ﴿اللَّهُ الَّذِي رَفَعَ السَّمَوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا﴾ [الرعد: ٢].

وقد جعلها الله سقفا لأهل الأرض، وأودع فيها مصالحهم ومعاشهم.

قال سبحانه ﴿وَجَعَلْنَا السَّمَاءَ سَقْفًا مَحْفُوظًا وَهُمْ عَنْ آيَاتِهَا مُعْرِضُونَ ۝٣٢﴾ [الأنبياء].

وقد زين الله السماء الدنيا بالنجوم الخنس والجوار الكنس فقال: ﴿وَزَيَّنَّاهَا﴾ أي: بالكواكب، وجعلناها كالمصابيح بالنسبة للأرض، كما قال تعالى: ﴿إِنَّا زَيْنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِزِينَةِ الْكُوكِبِ ۝٦﴾ [الصافات].

وقال سبحانه: ﴿نَبَارَكُ الَّذِي جَعَلَ فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا وَجَعَلَ فِيهَا سِرَاجًا وَقَمَرًا مُنِيرًا ۝٦١﴾ [الفرقان].

وقال تعالى: ﴿فَلَا أُقْسِمُ بِالْخُفِّ ۝١٥ الْجَوَارِ الْكُنْزِ ۝١٦﴾ [التكوير].

ومع ذلك فلا ترى في السماء شقوقاً ولا فتوقاً، وهي سليمة من التفاوت والخلل والعيوب ﴿وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٍ﴾.

والله تعالى يزيد في الخلق ما يشاء ﴿وَالسَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا بِأَيْدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ ۝٤٧﴾ [الذاريات].

وقد أثبتت الأبحاث العلمية أن حجم الكون آخذ في الزيادة شيئاً فشيئاً، وكلما ازداد حجمه ازدادت المسافة بين أجرامه، ولا يستطيع المرء أن يرفع بصره إلى السماء ويرى ملايين النجوم الساطعة، ويراقب سيرها في أفلاكها، وتنقلها في أبراجها إلا وينحني إجلالاً وتعظيماً لله سبحانه.

والعجب لمن يتطلع إلى السماء ويشاهد عظمة الخلق، ثم لا يؤمن بالله تعالى^(١).

(١) «الله والعلم الحديث» ص ٢٣، ٢٤.

وقد بين ﷻ أن خلق السموات والأرض أكبر وأعظم من خلق الناس، فالقادر على خلقهما قادر من باب أولى على بعث الموتى، كما قال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَمْ يَكُنْ لِيُخْلَقَنَّ بِقَدْرٍ عَلَيْهِ أَنْ يُحْيِيَ الْمَوْتَىٰ بَلَىٰ إِنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ ﴿٣٢﴾ [الأحقاف].

وقال تعالى يصف الأرض بعد نزول الماء عليها: ﴿فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ﴾ ثم استدل بذلك على البعث والنشور، فقال: ﴿إِنَّ الَّذِي أَحْيَاهَا لَمُحْيِ الْمَوْتَىٰ إِنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [فصلت: ٣٩] وكلها عوالم خلقها الله تعالى من العدم، أفيعجزه سبحانه البعث والنشور؟ فإن البعث يحقق الغاية التي خلق الله الناس من أجلها، وهي عبادة الله تعالى في الدنيا، ثم الحساب والجزاء في الآخرة لمن أطاع ولمن عصى، وهذا هو الحق الذي قامت به السموات والأرض ﴿أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا فِي أَنفُسِهِمْ مَا خَلَقَ اللَّهُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِآلْحَقٍّ وَأَجَلٍ مُّسَمًّى وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ بِلِقَائِي رَبِّهِمْ لَكَافِرُونَ﴾ ﴿٨﴾ [الروم].

ثانياً: دلائل العالم السفلي بما فيه من جبال ونبات

٧، ٨- ﴿وَالْأَرْضَ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ﴾ ﴿٧﴾ تبصرة وذكرى لكل عبد منيب ﴿

في هذه الآية ثلاثة براهين من العالم السفلي على إحياء الموتى يوم البعث والنشور:

البرهان الأول: الأرض التي نعيش فوقها

فقد وسّع الله الأرض وفرشها ومهدّها للسعي في مناكبها والأكل من رزق الله، وقد بسط الله الأرض ولم يجعلها نتوءات؛ كي يستطيع الإنسان أن يمشي عليها بدون إرهاق، وهي مترامية الأطراف والمناكب، كما وطأ سبحانه مناكبها، ودلّل مسالكها، ووسّع مخرجها وأرزاقها، حتى أمكن كل حيوان السكون فيها والاستقرار عليها، والانتفاع بها واستغلال خيراتها وكنوزها:

﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ ذُلُولًا فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِن رِّزْقِهِ وَإِلَيْهِ النُّشُورُ﴾ ﴿١٥﴾ [الملك].

وقد جعل الله الأرض قطعاً متلاصقة مختلفة في حجمها ونوعها:

﴿وَفِي الْأَرْضِ قِطْعٌ مُّتَجَوِّزَاتٌ﴾ [الرعد: ٤].

وكل ما يخرج من الأرض أو ينزل عليها، له نظام دقيق وقدّر معلوم، وتقدير موزون، وحكمة مقصودة ﴿وَالْأَرْضَ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ مَوْزُونٍ ﴿١٩﴾ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعِيشَ وَمَنْ لَسْتُمْ لَكُمْ بِرِزْقَيْنِ ﴿٢٠﴾ وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا عِنْدَنَا خَزَائِنُهُ وَمَا نُنْزِلُهُ إِلَّا بِقَدَرٍ مَعْلُومٍ ﴿٢١﴾﴾ [الحجر].

وهذا الكون -بعالميه العلوي والسفلي- معرض هائل لكل مستبصر ومستيقن، يريد أن يعتبر ويتأمل في ملكوت الله، وينتفع بآياته التي لا تتناهى ﴿وَلَوْ أَنَّ مَا فِي الْأَرْضِ مِنْ شَجَرَةٍ أَقْلَمٌ وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِنْ بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَا نَفِدَتْ كَلِمَاتُ اللَّهِ﴾ [لقمان: ٢٧].

إن الله الذي خلق السموات والأرض قادر بلا شك على إحياء الموتى ﴿أَوَلَيْسَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِقَدِيرٍ عَلَى أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ بَلَىٰ وَهُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ ﴿٨١﴾﴾ [يس].

البرهان الثاني: الجبال:

ومن عظيم آيات الله تعالى أنه ثبتت الأرض بالجبال؛ لئلا تميد بالناس ولتستقر من التزلزل والتموج ﴿وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ﴾ أي: ثبتنا جنبات الأرض بالجبال الراسيات من فوقها؛ حتى لا تميد بأهلها، ولا تضطرب بما عليها، وهي جبال متعددة الأشكال والأحجام والصفات والمئات:

قال تعالى: ﴿وَمِنَ الْجِبَالِ جُدَدٌ بَيَضٌ وَحُمْرٌ مُخْتَلِفٌ أَلْوَنُهَا وَعَرَايِبٌ سُودٌ﴾ [فاطر: ٢٧].

والله تعالى يدعو عباده إلى التأمل في الجبال كيف أقامها ونصبها:

فقال: ﴿وَالِى الْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ ﴿١٦﴾﴾ [الغاشية].

والجبال: أجسام بارزة على الأرض، متباعدة بعضها عن بعض، وعند قيام الساعة فإن هذه الجبال على عظمتها ينسفها ربي نسفاً، وترجف وتُذَكُّ ﴿يَوْمَ تَرْجُفُ الْأَرْضُ وَالْجِبَالُ﴾ [المزل: ١٤]. ﴿وَإِذَا الْجِبَالُ سُيِّرَتْ ﴿٢٣﴾﴾ [التكوير].

وتنظر إليها فتحسبها جامدة وهي تمر مر السحاب، صنع الله الذي أتقن كل شيء. ﴿وَنَرَى الْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ السَّحَابِ صُنِعَ اللَّهُ الَّذِي أَنْفَنَ كُلَّ شَيْءٍ إِنَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَفْعَلُونَ ﴿٨٨﴾﴾ [النمل].

البرهان الثالث: النبات:

وقد أنبت الله في الأرض من كل نوع من النبات ومن كل صنف من أصنافه زوجًا حسن المنظر يسر الناظرين ﴿وَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ﴾ أي: جعلنا في الأرض زوجين من كل صنف حسن من مختلف أنواع النبات يزين الأرض ويبهجها ﴿إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الْأَرْضِ زِينَةً لَهَا﴾ [الكهف: ٧].

قال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى الْأَرْضِ كَمْ أَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ﴾ [الشعراء]. وقد خلق الله هذا كله للاتعاض والاعتبار لكل ذي لب وبصيرة.

لقد رفع الله السماء بلا عمد، ومدّ الأرض وبسطها، وثبّتها بالجبال، وأنبت فيها من كل أنواع النبات أصنافاً حسنة، وقد جعل الله ذلك عبرة وتبصرة للعباد، تدلّ على وحدانية الله تعالى وكمال قدرته، وتذكّرهم بما يجب عليهم نحو ربهم من التوحيد والعبادة ﴿تَبَصَّرْهُ وَذَكَرْهُ﴾ أي: خلقنا كل ما سبق ذكره في الآيات، وجعلناه عظة وعبرة ﴿لِكُلِّ عَبْدٍ مُنِيبٍ﴾ رجّاع إلى الله تعالى، كثير الخضوع لجلاله، والخوف من عقابه.

الضرب الثاني من براهين البعث: قياس الإعادة على إحياء الأرض بعد موتها

٩- ﴿وَنَزَّلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً مُبَارَكًا فَأَنْبَتْنَا بِهِ جَنَّاتٍ وَحَبَّ الْحَصِيدِ﴾ [٩]

هذا هو الضرب الثاني من براهين وحدانية الله تعالى وقدرته على البعث:

وهو قياس الإعادة على إحياء الأرض بعد موتها؛ فإحياء الناس بعد موتهم ليس أمراً مخالفاً للسنن المألوفة في الكون، فإن كثيراً من الأمثلة على البعث بعد الموت تجري حولنا، فهذا الماء ينزل على الأرض الجامدة الميتة، فإذا هي جنات وزروع ونخيل وأعشاب وفواكه، يرزق الله به العباد، فالذي أحيا الأرض بعد موتها يعيد الناس إلى الحياة بعد أن ماتوا ﴿وَنَزَّلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً مُبَارَكًا﴾ أي: نزلنا المطر من السماء، وهو كثير المنافع والخيرات للناس والدواب والطيور وغيرها، وقد وصف الله المطر بأنه مبارك لما فيه من البركة العامة، وإن حصل منه ضرر خاص في بعض الأحيان.

كان ابن عباس رضي الله عنهما إذا أمطرت السماء يقول: يا جارية، أخرجي سرجي، أخرجي

ثيابي، ويقول: ﴿وَنَزَّلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً مُبْرَكًا﴾^(١) أي: أخرجنا بهذا الماء من جوف الأرض ﴿جَنَّاتٍ﴾ معروشات وغير معروشات، وبساتين كثيرة من مختلف أصناف الفاكهة، ومن الأشجار المثمرة ﴿وَحَبِّ الْحَصِيدِ﴾ أي: حب الزرع الذي يُحصَد، كالحنطة والشعير وسائر الحبوب، وخص الحب بالذكر؛ لأنه قوت الناس والحاجة إليه أكثر.

١١، ١٠ - ﴿وَالنَّخْلَ بَاسِقَاتٍ لِّمَا طَلَعَ نَضِيدٌ﴾^(٢) رِزْقًا لِلْعِبَادِ وَأَحْيَيْنَا بِهِ بَلَدَةً مِّثْنًا^(٣) كَذَلِكَ الْخُرُوجُ

ثم خص الله بالذكر من بين الأشجار: شجر النخيل ﴿وَالنَّخْلَ بَاسِقَاتٍ﴾ أي: طوال مرتفعات، فالباسق: هو الطويل العالي مع الاستقامة، وفي هذا دلالة على بديع خلق الله تعالى، وامتنانه على العباد.

وأول ما يخرج من ثمر النخيل: الطلع المتراكم بعضه فوق بعض ﴿لِّمَا طَلَعَ نَضِيدٌ﴾ أي: وأنبتنا في الأرض بعد إنزال الماء عليها من السحاب: النخيل الطوال، الزاخر بالثمار الكثيرة المرتبة، بشكل جميل منظم - بعضها فوق بعض.

سأل عبد الله بن عثمان بن خثيم عكرمة عن معنى باسقات، فقال: بسوقها طلُعها، ألم تر أنه يقال للشاة إذا حان ولادتها: أبسقت؟ قال عبد الله: فرجعت على سعيد بن جبير، فقلت له، فقال: كذب، بسوقها: طولها في كلام العرب، ألم تر أن الله تعالى قال: ﴿وَالنَّخْلَ بَاسِقَاتٍ﴾؟ ثم قال: ﴿لِّمَا طَلَعَ نَضِيدٌ﴾^(٣).

وأول ما يظهر من ثمر النخل هذا الطلع يكون منضداً كحب الرمان، ملتصقاً ببعضه ببعض، فهو نضيد، فإذا خرج من أكمامه فليس بنضيد^(٤).

فالباسقات: هي المرتفعات، والطلع: هو ما يخرج من ثمر النخيل.

والنضيد: هو المتراكب بعضه فوق بعض، وكل ذلك خلقه الله رزقاً للعباد.

أي: وهذا المطر الذي نزل من السماء، والنبات والشجر الذي يخرج من الأرض،

(١) «صحيح الأدب المفرد» (٩٣٢).

(٢) قرأ أبو جعفر بتشديد الياء من (مِثْنًا)، والباقون بتخفيفها.

(٣) أخرجه عبد بن حميد وابن المنذر كما في «الدر المنثور» (٦١٨/١٣).

(٤) «البحر المحيط» (١٢٢/٨).

والنخيل الباسقات جعلها الله ﴿رَزَقًا لِّلْعِبَادِ﴾؛ كي ينتفعوا به، ويأكلوا من رزقه قوتًا وفاكهة، يأكلون ويدخرون لهم ولمواشيهم.

وقد أحيا الله بالماء النازل من السماء: الأرض المجدبة، الخالية من النبات والزرع ﴿وَأَحْيَيْنَا بِهِ﴾ أي: بهذا الماء ﴿بَلَدَةً﴾ أي: أرضًا ﴿مَيِّتًا﴾ هامدة يابسة، لم يكن فيها ثمر ولا خضرة، فأنبطنا فيها الكلاً والعُشب فازدهرت وأينعت، ﴿فَانْظُرْ إِلَىٰ ءَاثَرِ رَحْمَتِ اللَّهِ كَيْفَ يُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ ذَٰلِكَ لَمُنِجٍ لِّلْمُؤْمِنِ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [٥٥] [الروم].

العبرة من الأدلة السابقة: وبمثل هذا الإخراج للنبات من الأرض يُخرج الله الموتى من قبورهم ﴿كَذَٰلِكَ الْخُرُوجُ﴾ أي: خروج الناس من الأرض، فهذا مثال للبعث بعد الموت، كما قال تعالى: ﴿يَوْمَ يُخْرِجُونَ مِنَ الْأَجْدَاثِ يِرَاعًا كَانَتْهُمْ إِلَىٰ نُصَبٍ يُؤْفَسُونَ﴾ [٤٣] [المعارج].

وقال سبحانه: ﴿يَوْمَ تَشَقَّقُ الْأَرْضُ عَنْهُمْ سِرَاعًا ذَٰلِكَ حَشْرٌ عَلَيْنَا يَسِيرٌ﴾ [٤٤] [ق].

وقال جلَّ شأنه: ﴿وَاللَّهُ أَنْبَتَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ نَبَاتًا ۖ ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيهَا وَيُخْرِجُكُمْ إِخْرَاجًا﴾ [١٨] [نوح].

وقال أيضًا: ﴿وَالْبَلَدُ الطَّيِّبُ يَخْرِجُ نَبَاتُهُ بِإِذْنِ رَبِّهِ ۖ وَالَّذِي خَبثَ لَا يَخْرُجُ إِلَّا نَكِدًا﴾ [الأعراف: ٥٨].

والآية تشير إلى أن نشأة الإنسان كنشأة النبات في عناصره الأولية من الغذاء والنمو، فكلاهما يخرج ويُرْضع من الأرض، وكما نبت الناس من الأرض، فإنهم يعودون إلى جوفها مرة أخرى كما أنبتهم منها، فيختلط رُفاتهم بترابها، وتندمج ذراتهم بذراتها، قال تعالى: ﴿مِنْهَا خَلَقْتُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَىٰ﴾ [٥٥] [طه].

روى الترمذي عن أبي رزين العقيلي قال: قلت: يا رسول الله، كيف يعيد الله الموتى؟ وما آية ذلك؟ قال: «أما مررت بوادي قومك جذبًا، ثم مررت به يهتزُّ خضرًا؟» قلت: نعم، قال: «فتلك آية الله في خلقه، كذلك يحيي الله الموتى»^(١).

(١) أخرجه الطيالسي (١٠٨٩) وأحمد (١١/٤) برقم (١٦١٩٢، ١٦١٩٦) قال محققوه إسناده ضعيف لجهالة حال وكيع بن حُدس، وانظر: مشكاة المصابيح (٥٥٣١).

وَقَفَّةُ اغْتِبَارٍ وَتَأْمُلٍ مَعَ مَصَارِعِ الْأُمَمِ الْمُكَذِّبَةِ لِرُسُلِ اللَّهِ

١٢، ١٣ - ﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَأَصْحَابُ الرَّسِّ وَثَمُودُ ﴿١٢﴾ وَعَادُ وَفِرْعَوْنُ وَإِخْوَانُ لُوطٍ ﴿١٣﴾﴾

وفي ثنايا الحديث عن البعث والنشور يقف بنا القرآن الكريم وقفة مع مصارع الأمم التي كذبت رسل الله، وأنكروا البعث والنشور ليكون في ذلك عبرة وعظة ينتفع بها المكذبون بالبعث في كل زمان ومكان.

وقد ذكرت هذه الآية والآيتان بعدها ثمانية من الأمم، هم أشهر الأقوام الذين كذبوا رسل الله، ممن عجل لهم الله تعالى العقوبة في الدنيا، منهم من هو مشهور لدى العرب، ومنهم من هو مشهور لدى أهل الكتاب، ومنهم من هو مشهور في العالم، وهؤلاء الثمانية هم:

- ١- قوم نوح. ٢- وأصحاب الرس. ٣- وقوم صالح.
- ٤- وقوم هود. ٥- وفرعون. ٦- وقوم لوط.
- ٧- وأصحاب الأيكة. ٨- وقوم تبع.

١- ﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ﴾ أي: قبل كفار هذه الأمة الذين كذبوا رسولهم محمداً ﷺ وكذبوا باليوم الآخر: قوم نوح ﷺ، فقد كذبوا نبيهم نوحاً، وقالوا: مجنون.

وقالوا: ﴿وَمَا زَلْنَاكَ أَبْعَثَ إِلَّا الَّذِينَ هُمْ أَرَادُوا لَنَا﴾ [هود: ٢٧]

وقالوا: ﴿لَئِنْ لَمْ تَنْتَهِ يَنْشُرْ لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمَرْجُومِينَ﴾ [الشعراء: ١١٦].

وقالوا: ﴿إِنَّا لَنَرِيكَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾ [الأعراف: ٦٠].

وقالوا: ﴿أَتُؤْمِنُ لَكَ وَاتَّبَعَكَ الْأَرْذَالُونَ﴾ [الشعراء: ١١١].

وقالوا: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا رَجُلٌ بِهِ جِنَّةٌ فْتَرَبِّصُوا بِهِ حَتَّىٰ حِينٍ﴾ [المؤمنون: ٢٥].

وهم أول قوم كذبوا رسولهم.

٢- ﴿وَأَصْحَابُ الرَّسِّ﴾ كذبوا رسولهم (حنظلة بن صفوان)، والرس: هي البئر المطوية بالحجارة، وهم من بقايا ثمود، قيل: إنها بئر معينة كانت لبطن من قبيلة ثمود، فعرفوا بأصحاب الرأس، وقد عاقبهم الله بخسف في الأرض فوقعوا في هذه البئر، وكانوا قد

أَلْقُوا نَبِيَهُمْ حَنْظَلَةَ بْنِ صَفْوَانَ وَهُوَ حَيٌّ فِي هَذِهِ الْبُثْرِ ﴿الرَّسِّ﴾ وَاسْمُهَا كَذَلِكَ؛ لِأَنَّ الْقَوْمَ رَسُّوا رَسُولَهُمْ، أَيْ: دَسَّوْهُ فِيهَا، وَقَدْ أَهْلَكَهُمُ اللَّهُ بِمِثْلِ جَرِيْمَتِهِمْ^(١) وَقَدْ ذَكَرَ أَصْحَابُ الرِّسِّ فِي الْقُرْآنِ مَرَّتَيْنِ، مَرَّةً هُنَا وَمَرَّةً فِي سُورَةِ الْفُرْقَانِ ٣٨ ﴿وَعَادًا وَثَمُودًا وَأَصْحَابَ الرَّسِّ﴾.

٣- ﴿وَتَمُودَ﴾ كَذَبُوا نَبِيَهُمْ صَالِحًا عَلَيْهِ السَّلَامُ، وَقَالُوا لَهُ: ﴿إِنَّمَا أَنْتَ مِنَ الْمُسَحَّرِينَ﴾ [الشعراء: ١٥٣] وَقَالُوا عَنْهُ: ﴿أَتَأْتِيَ الذِّكْرَ عَلَيْهِ مِنْ بَيْنِنَا بَلْ هُوَ كَذَّابٌ أَشِرُّ﴾ [القمر: ٢٥].

وَكَانَتْ دِيَارُهُمْ فِي مَدَائِنٍ صَالِحَةٍ فِي شَمَالِ الْجَزِيرَةِ الْعَرَبِيَّةِ، بَيْنَ الْمَدِينَةِ النَّبَوِيَّةِ وَتَبُوكَ، وَذَكَرَ نَبِيُّ اللَّهِ صَالِحٌ عَلَيْهِ السَّلَامُ فِي الْقُرْآنِ تِسْعَ مَرَّاتٍ، فِي الْأَعْرَافِ (٧٧، ٧٥، ٧٣) وَهُودَ (٦١، ٦٢، ٦٦، ٨٩) وَالشَّعْرَاءِ (١٤٢).

٤- ﴿وَعَادَ﴾ كَذَبُوا نَبِيَهُمْ هُودًا عَلَيْهِ السَّلَامُ، وَقَالُوا: ﴿إِنَّ هُوَ إِلَّا رَجُلٌ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا وَمَا نَحْنُ لَهُ بِمُؤْمِنِينَ﴾ [المؤمنون: ٢٨].

وَقَالُوا: ﴿إِنَّا لَنَرِيكَ فِي سَفَاهَةٍ وَإِنَّا لَنُظُنُّكَ مِنَ الْكَاذِبِينَ﴾ [الأعراف: ٦٦].

وَقَالُوا: ﴿إِنْ نَقُولُ إِلَّا اعْرَنَّاكَ بَعْضُ الْهَتَا سِوَى﴾ [هود: ٥٤].

وَذَكَرَ هُودٌ عَلَيْهِ السَّلَامُ فِي الْقُرْآنِ سَبْعَ مَرَّاتٍ، فِي الْأَعْرَافِ (٦٥) وَهُودَ (٥٠، ٥٣، ٥٨، ٦٠، ٨٩) وَالشَّعْرَاءِ (١٢٤).

٥- ﴿وَفِرْعَوْنَ﴾ كَذَبَ مُوسَى وَهَارُونَ عَلَيْهِمَا السَّلَامُ، وَقَالَ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُ عَنْ مُوسَى وَهَارُونَ: ﴿قَالُوا إِنَّ هَٰذَيْنِ لَسَاحِرَانِ يُرِيدَانِ أَنْ يُخْرِجَاكُم مِّنْ أَرْضِكُمْ بِسِحْرِهِمَا وَيَذْهَبَا بِطَرِيقَتِكُمُ الْمُثَلَّى﴾ [طه: ٦٣].

وَقَالُوا: ﴿أَنُؤْمِنُ لِلشَّرِّينِ مِثْلَنَا وَقَوْمُهُمَا لَنَا عِدُونَ﴾ [المؤمنون: ٤٧].

٦- ﴿وَلُوطَ﴾ كَذَبُوا نَبِيَهُمْ لُوطًا عَلَيْهِ السَّلَامُ، وَقَالُوا لَهُ: ﴿لَئِنْ لَّمْ تَنْتَهِ يَلُوطُ لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمُخْرَجِينَ﴾ [الشعراء: ١٦٧].

وَلُوطٌ عَلَيْهِ السَّلَامُ لَيْسَ أَخًا لِقَوْمِهِ، فَهُوَ لَيْسَ مِنْهُمْ، وَلَكِنَّهُ صَاهِرُهُمْ، فَكَانَ أَخًا لَهُمْ بِهَٰذَا الْمَعْنَى، وَهُمْ أَهْلُ سَدُومَ وَعَمُورَةَ وَقَرَاهُمَا بِالْأُرْدَنِ، وَكَانَ لُوطٌ يَسْكُنُ مَعَهُمْ، وَهُوَ عِبْرَانِي،

(١) وَقَالَ بَعْضُهُمْ: إِنَّهُمْ أَهْلُ أَنْطَاكِيَّةٍ، وَقَدْ قَتَلُوا حَبِيبَ النِّجَارِ، ثُمَّ أَلْقَوْهُ فِي الْبُثْرِ، وَاخْتَارَ ابْنُ جَرِيرٍ أَنَّهُمْ أَصْحَابُ الْأَخْدُودِ، وَالْأَرْجَحُ مَا ذُكِرَ أَعْلَاهُ.

وقومه كنعانيون. وقد ذكر لوط في القرآن الكريم سبعاً وعشرين مرة. قال تعالى:

١٤- ﴿وَاصْحَبُ الْأَيْكَةِ^(١) وَقَوْمٌ تُبِيعُ كُلُّ كَذَبٍ أُرْسِلَ لِقَوْمٍ وَعِيدٍ^(٢)﴾ ﴿١٤﴾

٧- ﴿وَاصْحَبُ لَيْكَةِ﴾ كذبوا نبينهم شعيباً عليه السلام، وقالوا له: ﴿إِنَّمَا أَنْتَ مِنَ الْمُسَخَّرِينَ﴾ ﴿١٨٥﴾ وَمَا أَنْتَ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا وَإِنْ نَظُنُّكَ لَمِنَ الْكَاذِبِينَ ﴿١٨٦﴾ [الشعراء]

وكان شعيب أخاً لقوم مدين من النسب، ولم يكن أخاً لأصحاب الأيكة، وهي الشجر الكثير الملتف بعضه على بعض، ولذا قال تعالى: ﴿كَذَّبَ أَصْحَابُ الْأَيْكَةِ الْمُرْسَلِينَ﴾ ﴿١٧٦﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ شُعَيْبٌ أَلَا نُنْقِوَنَّ عليه السلام [الشعراء] والأيكة بادية مدين.

أما قوم مدين الذين أرسل إليهم أيضاً نبي الله شعيب، فقد كان أخاً لهم في النسب، ولذا قال تعالى: ﴿وَالِإِي مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا﴾ [هود: ٨٤]. ومدين هو ابن إبراهيم عليه السلام وكانت ديارهم شرق خليج العقبة وقد ذكر شعيب عليه السلام في القرآن إحدى عشرة مرة، في الأعراف ٨٥، ٨٨، ٩٠، ٩٢ وفي هود ٨٤، ٨٧، ٩١، ٩٤ وفي الشعراء ١٨٧ وفي العنكبوت ٣٦.

٨- ﴿وَقَوْمٌ تَبِيعُ﴾ الحميري من عرب اليمن القحطانيين، الذين عرفوا بالتبابعة وهو أحد ملوكهم، وهم أهل سبأ المشركون بالله، المنكرون للبعث والنشور.

وتبع: لقب لكل من ملك اليمن، ككسرى وقيصر والنجاشي، وكان اسمه أسعد بن حسان بن أبي كرب^(٣) وكنيته أبا كريب، وهو تبع الأوسط، وقد اختلف هل هو نبي أم رجل صالح، وجاءت آثار تنهى عن سب تبع فإنه قد أسلم^(٤).

وكانت دولة تبع سنة ألف قبل البعثة تقريباً، وقد عاش تبع في القرن العاشر قبل الميلاد، ومد فتوحاته شمالاً حتى الشام، ومشرقاً حتى تركستان، وقيل: إنه أول من كسي الكعبة^(٥).

(١) اتفق القراء على قراءة (الأيكة) في هذا الموضع بال.

(٢) أثبت ورش الياء وصلًا من (وعيد)، وأثبتها يعقوب في الحاليين، وحذفها الباقون.

(٣) أطلس القرآن ص ١٢٨.

(٤) يُنظر: «المسند» (٣٤٠/٥) و«المعجم الكبير» للطبراني (٢٩٦/١١) و«تخريج الكشاف» للزيلعي (٣/

٢٧٠) و«تفسير عبد الرزاق» (١٧١/٢) و«مجمع الزوائد» (٧٦/٨). وقد سبق تخريجه بأوفى من هذا.

(٥) أطلس القرآن ص ١٢٨.

وقوم تَبِعَ كَذِبُوا نبيهم، فأهلكهم الله عن بكرة أبيهم، كما قال تعالى:

﴿أَهُمْ خَيْرٌ أَمْ قَوْمٌ تُبِعَ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ أَهْلَكْنَاهُمْ إِنَّهُمْ كَانُوا مُجْرِمِينَ﴾ [الدخان: ٣٧].

وذكر تبع في القرآن مرتين: هنا وفي سورة الدخان ٣٧.

قال تعالى بعد سرد هؤلاء الأقوام: ﴿كُلُّ﴾ أي: كل قوم من هؤلاء الثمانية ﴿كَذَّبَ الرُّسُلَ﴾ كَذَّبَ كل منهم رسوله، ومن كذب رسولاً فقد كذب الرسل جميعاً؛ لأن دعوتهم واحدة ﴿فَحَقَّ﴾ أي: وجب على المكذبين واستحقوا ما توعدهم الله به من العذاب لتكذيبهم رسل الله وإيذائهم لهم، كما قال تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِرُسُلِهِمْ لَنُخْرِجَنَّكُمْ مِنْ أَرْضِنَا أَوْ لَتَعُوذُنَّ فِي مِلَّتِنَا﴾ [إبراهيم: ١٣].

وقال سبحانه: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِنْ نَذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ﴾ [سبأ: ٢١].

وقال جلَّ شأنه: ﴿كَذَلِكَ مَا أَتَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا قَالُوا سَاحِرٌ أَوْ مُجْنُونٌ﴾ [الذاريات: ٥٢].

وهكذا تُقرر الآيات أن رسل الله جميعاً جاؤوا للأمر بتوحيد الله وعبادته، وأنهم جميعاً قد تعرضوا للتكذيب والأذى والاضطهاد، وقد وعد الله رسله وعباده المؤمنين بالنصر على أعداء الإسلام في نهاية المطاف قال تعالى: ﴿كَتَبَ اللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ [المجادلة: ١١].

﴿إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ ءَامَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ﴾ [غافر: ٥١].

وقال سبحانه: ﴿حَقَّ إِذَا اسْتَيْسَسَ الرُّسُلُ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ قَدْ كُذِّبُوا جَاءَهُمْ نَصْرُنَا فَنُجِّيَ مَنْ نَشَاءُ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُنَا عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ﴾ [يوسف: ١١].

فلا تحزن -أيها الرسول - على ما أصابك من بعض قومك، ولا تأسف على من لم يؤمن منهم، ولتكن لك في هؤلاء أسوة، ولولا أن الله تعالى قد رفع عذاب الاستئصال عن هذه الأمة حتى تبقى رسالتك إلى قيام الساعة؛ لعجل الله لهم العقوبة في الدنيا كهؤلاء، ولكن لا مفر لهم من عقاب الله يوم لقائه، وذلك لأنهم كذبوا الرسل الذين أرسلهم الله إليهم، فحق عليهم وعيد الله وعقوبته، ولستم أيها المكذبون لخاتم النبيين خيراً منهم، ولا رُسُلِهِم أكرم على الله من رسولكم، فاحذروا أن تكونوا مثلهم لئلا يصيبكم ما أصابهم.

الضَرْبُ الثَّالِثُ مِنْ بَرَاهِينِ التَّبْعِثِ: قِيَاسُ الإِعَادَةِ عَلَى بَدْءِ الْخَلْقِ

١٥- ﴿أَفَعَيْنَا بِالْخَلْقِ الْأَوَّلِ بَلْ هُمْ فِي لَبْسٍ مِّنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ﴾ (١٥)

وبعد أن فصّلت السورة مصارع المكذبين باليوم الآخر، ليكون ذلك ردعاً لهم ولأمثالهم، عادت إلى الحديث عن البعث وهو المحور الأساس في السورة.

فإن مَنْ قدر على البدء فهو أقدر على الإعادة ﴿أَفَعَيْنَا بِالْخَلْقِ الْأَوَّلِ﴾ أي: ما عجزنا عن خلق الإنسان أول مرة، وهو لم يكن شيئاً مذكوراً، فكيف نَعجز عن إعادته خلقاً جديداً بعد فناءه؟ والقول بذلك فيه تناقض، إذ لا يعجزنا ذلك، ولكن المكذبين الملحدين في شك وحيرة من أمر البعث.

والخلق الأول: هو خلق الإنسان من نطفة، وخلق آدم من تراب ﴿بَلْ هُمْ فِي لَبْسٍ مِّنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ﴾ أي: أنهم ليسوا في شك من خلقهم أول مرة، وإنما هم في لبس وشك من خلق آخر بعد الموت، لقد التبس عليهم الأمر، مع أنه لا محل لللبس فيه، لأن الإعادة أهون من البداية.

أو يكون المعنى: إنهم يعلمون أن الخلق الأول أعظم من إعادة خلق الأموات، ولكنهم غلطوا وخلطوا بين الحقائق، فاشتبه عليهم الخلق الثاني وهو إحياء الموتى، مع أنه ممكن عقلاً، فإذا كانوا معترفين بالخلق الأول، فلا وجه لإنكارهم الخلق الثاني، والخلق الجديد شيء هيّن بالنسبة إلى الخلق الأول في عُرف الناس، وكل شيء هيّن على قدرة الله تعالى، وليس فيه هيّن وأهون.

والآية تجابه الماديين الذين يستبعدون الحياة الآخرة، وتوبخهم وتقيم الحجة عليهم في صورة استفهام، وهو ينفي الإعياء والتعب عن الله سبحانه عند الخلق الأول.

كما قال تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ﴾ [الروم: ٢٧].

ويصوّر القرآن حيرة الكافر في أمر البعث، فيوجهه إلى أن يتذكر نشأته الأولى ليستدل بها على الحياة الثانية ﴿وَيَقُولُ الْإِنْسَانُ أَإِذَا مَا مِتُّ لَسَوْفَ أُخْرَجُ حَيًّا﴾ (١٦) ﴿أَوَلَا يَذْكُرُ الْإِنْسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِن قَبْلُ وَلَمْ يَكُ شَيْئًا﴾ (١٧) [مريم].

قال تعالى: ﴿وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَنْ يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ ﴿٧٨﴾ قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ ﴿٧٩﴾﴾ [يس].

وقال سبحانه: ﴿أَيَحْسَبُ الْإِنْسَانُ أَنْ يُتْرَكَ سُدًى ﴿٢٦﴾ أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِنْ مَنِيٍّ يُمْنَى ﴿٢٧﴾ ثُمَّ كَانَ عَلَقَةً فَخَلَقَ فَسَوَّى ﴿٢٨﴾ جَعَلَ مِنْهُ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالْأُنثَى ﴿٢٩﴾ أَلَيْسَ ذَلِكَ بِقَدِرٍ عَلَيَّ أَنْ يُحْيِيَ الْمَوْتَى ﴿٣٠﴾﴾ [القيامة].

دلائل البعث الحسية في سورة البقرة:

وفي سورة البقرة وحدها يضرب الله سبحانه خمسة أمثلة على البعث لأقوام أماتهم الله موتاً حقيقياً في الدنيا، ثم أحياهم لتكون أمثلة حية واقعية لمن ينكرون البعث بعد الموت، وهذه الأمثلة هي:

أولاً: قصة الذين عبدوا العجل من بني إسرائيل، وقد جعل الله توبتهم أن يقتل من لم يعبد العجل منهم من عبده، قال تعالى: ﴿ثُمَّ بَعَثْنَاكَ مِنْ بَعْدِ مَوْتِكَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٥٦﴾﴾ [البقرة].

ثانياً: في قصة البقرة، بالنسبة للرجل الذي قتل قريبه واتهم فيه غيره، فأمرهم الله تعالى على لسان موسى ﷺ أن يذبحوا بقرة ويضربوا الميت ببعضها، فيحيا ماثلاً أمامهم مخبراً عما قتلهم ﴿فَقُلْنَا اضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا كَذَلِكَ يُحْيِي اللَّهُ الْمَوْتَى وَيُرِيكُمْ ءَايَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٧٣﴾﴾ [البقرة].

ثالثاً: قصة ﴿الَّذِينَ خَرَجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَهُمْ أُلُوفٌ حَذَرَ الْمَوْتِ فَقَالَ لَهُمُ اللَّهُ مُوتُوا ثُمَّ أَحْيَاهُمْ﴾ [البقرة: ٢٤٣] وذلك على أصح القولين في معنى الآية.

رابعاً: قصة الذي ﴿مَرَّ عَلَى قَرْبَةٍ وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا قَالَ أَنَّى يُحْيِي هَذِهِ اللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا فَأَمَاتَهُ اللَّهُ مِائَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُ﴾ [البقرة: ٢٥٩].

خامساً: قصة إبراهيم الخليل حين قال: ﴿رَبِّ ارْنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَى﴾ [البقرة: ٢٦٠] فأمره الله تعالى أن يأتي بأربعة من الطيور المختلفة، وأن يُقَطِّعَهن إرباً إرباً، ويجعل على كل جبل منهن جزءاً، فخلط لحمها وعظمها وريشها ودمها، ووضع على كل جبل جزءاً، وأمسك عنده رؤوسهن، ثم دعاهن فأعاد الله كل جزء منها إلى صاحبه، وجاءته الطيور الأربعة تسعى طيراناً كما كانت من قبل، وذلك في الآية الستين بعد المئتين من سورة البقرة.

إن الكفرة من الملحدين والماديين ﴿يَعْلَمُونَ ظَهْرًا مِنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ الْآخِرَةِ هُمْ غَافِلُونَ﴾ [الروم].

الضَرْبُ الرَّابِعُ مِنْ بَرَاهِينِ الْبَعْثِ

قِيَّاسُ الْإِعَادَةِ عَلَى إِخْرَاجِ النَّارِ مِنَ الشَّجَرِ الْأَخْضَرِ

﴿الَّذِي جَعَلَ لَكُم مِّنَ الشَّجَرِ الْأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَا أَنتُم مِّنْهُ تُوقَدُونَ﴾ [يس]

ويكون ذلك بسحق المرخ على العفار، وهما نوعان من الشجر، فتندح النار منهما، مع ما فيهما من الماء المضاد للنار، فلا الماء تطفئ النار، ولا النار تحرق الخشب، فمن قدر على ذلك فهو قادر على إحياء الموتى!!

في الحديث القدسي يقول الله تعالى: «كذبني ابن آدم ولم يكن له ذلك، وشتمني ولم يكن له ذلك، فأما تكذيبه إياي فقلوه: لن يعيدني كما بدأتي، وليس أول الخلق بأهون عليّ من إعادته. وأما شتمه إياي فقلوه: اتخذ الله ولدًا، وأنا الأحد الصمد لم ألد ولم أولد، ولم يكن لي كفئًا أحد»^(١).

وفي حديث أبي هريرة ؓ أن رسول الله ﷺ قال: «لتؤدّن الحقوق إلى أهلها يوم القيامة حتى يُقاد للشاة الجلهاء من الشاة القراء»^(٢).

ويُسأل الحَجَرُ لِمَ انكَبَّ على الحَجَرِ، وَلِمَ اتكأ الرجل على الرجل، قال: وكنا نسمع أن الرجل يتعلق بالرجل يوم القيامة وهو لا يعرفه، فيقول: كنت تراني على الخطأ وعلى المنكر ولا تنهاني.

حَدِيثُ السُّورَةِ عَنِ الْإِنْسَانِ فِي ثَلَاثَةِ مَحَاوِرَ

الْمَحَوْرُ الْأَوَّلُ: خَلَقَ الْإِنْسَانُ وَإِحْصَاءُ أَقْوَالِهِ وَأَفْعَالِهِ فِي الدُّنْيَا:

والحديث عن البعث والنشور يتطلب الحديث عن الإنسان في ثلاثة محاور، هي:

(١) «صحيح البخاري» بأرقام (٣١٩٣، ٤٩٧٤، ٤٩٧٥) من حديث أبي هريرة ؓ.

(٢) إلى هنا في «صحيح مسلم» برقم (٢٥٨٢) و«صحيح سنن الترمذي» برقم (١٩٧٢) و«السلسلة الصحيحة» برقم (١٥٨٨).

١- المولد والنشأة. ٢- الاحتضار والموت. ٣- البعث والجزاء.

وعن المحور الأول يقول سبحانه:

١٦- ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ وَنَعَلَهُ مَا تُوَسَّسُ بِهِ نَفْسُهُ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ﴾

يُذَكِّرُ الله سبحانه الناس بالخلق الأول ليستدلوا به على الخلق الثاني، وفي هذا إقامة الحجة على الكفار في إنكارهم البعث والجزاء، ولم يرد الخلق في القرآن مسنداً لغير الله تعالى، فهو وحده مبدع هذا الكون وخالقه ﴿اللَّهُ خَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ﴾ [الزمر]. وقال سبحانه: ﴿وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَرَهُ نَقْدِيرًا﴾ [الفرقان: ٢].

وينفي الله تعالى التسوية بين من يخلق ومن لا يخلق ﴿أَفَمَنْ يَخْلُقُ كَمَنْ لَا يَخْلُقُ﴾ [النحل].

والله تعالى هو المتفرد بخلق جنس الإنسان من ذكر وأنثى على مختلف ألوانه وألوانه وأجناسه.

وقد ورد لفظ ﴿الْإِنْسَانُ﴾ في القرآن في خمسة وستين موضعاً، منها ثلاثة مواضع في أول سورة نزلت من القرآن.

وقد ذكر الله تعالى في القرآن جملة من المواد التي خَلَقَ منها الإنسان الأول، فقد خلقه الله من تراب صار طيناً، ثم صلصلاً، ثم حمأً مسنوناً، وُخِلِقَتْ ذريرته من النطفة التي هي خلاصة التراب، فإذا مات الإنسان تحلل إلى مواد التراب الذي خُلِقَ منه.

وقد أثبت العلم الحديث أن جسم الإنسان يحتوي على عشرين عنصراً، هي نفسها عناصر التراب، وهي على التوالي:

الكربون، والأكسجين، والأيدروجين، والفوسفور، والكبريت، والآزوت، والكالسيوم، والبوتاسيوم، والصوديوم، والكلور، والمغنسيوم، والحديد، والمنجنيز، والنحاس، واليود، والفلورين، والكوبالت، والزنك، والسلكون، والألمنيوم. وهذه نفسها هي العناصر المكوّنة للتراب.

والله جلّ وعلا الخالق للإنسان، يعلم خلجات قلبه، ويعلم سره ونجواه، ويعلم السر وما هو أخفى من السر قال تعالى: ﴿وَنَعْلَمُ مَا تُوسَّسُ بِهِ نَفْسُهُ﴾ أي: نعلم أحواله، وما يسوؤه وما يوسوس به في صدره، ونعلم ما يجول في نفسه من الخواطر والأفكار والهّمّ والعزائم، والوسوسة تُستعمل في جانب الشر ﴿وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ﴾ أي نحن

أقرب إلى الإنسان من نفسه فهو في قبضتنا وتحت سلطاننا، وناصيته بيدنا.

والحبل: هو العرق الغليظ المسمى بالشریان.

والشرايين: هي التي توصل الدم إلى الأعضاء الرئيسة في الجسم، كالرئة والدماغ والنخاع والكليتين والمعدة والأمعاء.

والوريد: أحد الشرايين، وهو ثاني شريانين يَخْرُجان من التجويف الأيسر من القلب، وحبل الوريد هو العرق المكتنف لثغرة النحر.

وفي الجسد وريدان، وهما عِرْقَان يكتنفان صَفْحَتِي العنق، متصلان بالوتين، يَرْدَان من الرأس إليه، وتختلف أسماء أجزائه حسب موقعها من الجسد، فهو في العنق يسمى الوريد، وفي القلب يسمى الوتين، وفي الظهر يسمى الأُبهر، وفي الذراع والفتخذ يسمى الأكلحل والنساء، وفي الخنصر يدعى الأسلم، والإنسان لا يشعر بقرب حبل الوريد منه لخفائه^(١).

والله تعالى قريب من الإنسان بعلمه، فعلم الله تعالى محيط إحاطة شاملة وتامة بالإنسان، وهذا العِلْم أقرب إلى الإنسان من عرقه الشرياني الذي في عنقه، وكيف لا يحيط علم الله تعالى بدخائل النفس، وحنايا الصدر، وخلجات الفؤاد، وهو الذي خلق فسوى؟ ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ﴾ [الملك].

والملائكة أقرب إلى العبد بأقدار الله تعالى من حبل وريده.

فرقابة الله تعالى للإنسان رقابة تامة على خطرات القلب، وما يَمُوج به الضمير، وما يترتب عليها من النفع والضرر.

وفي حديث أبي هريرة ؓ مرفوعاً: «إن الله لا ينظر إلى صوركم وأموالكم ولكن ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم»^(٢).

وفي الآية هَيْئَةٌ وفزع وخوف لقوم، وروح وأنس وسكون قلب لقوم^(٣).

(١) يُنْظَر: «تفسير التحرير والتنوير» بتصرف (٣٠٢/٢٦) و«تفسير ابن عطية» (١٥٩/٥).

(٢) «المسند» (٧٨٢٧، ١٠٩٦٠) قال محققوه: إسناده صحيح على شرط مسلم ورجاله ثقات، أخرجه ومسلم (٢٥٦٤) وابن ماجه (٤١٤٣).

(٣) «حاشية الجمل» (١٩٢/٤) نقلاً عن القشيري.

نعم إن القلب ليرجف ويضطرب، ويفقد توازنه وتماسكه حين يشعر أن الله تعالى يراقبه في حركاته وسكناته، وسره ونجواه، تمهيداً ليوم الحساب.

الْحَفَظَةُ الْمُؤَكَّلُونَ بِالْإِنْسَانِ

١٧، ١٨ - ﴿إِذْ يُلْقَى الْمُتَلَفِّيَانِ عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ قَعِيدٌ ﴿١٧﴾ مَا يَلْفُظُ مِنْ قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَيْنٌ ﴿١٨﴾﴾

وإذا كان الله تعالى مطلع على ضمير العبد وباطنه، وهو أقرب إليه من وريده في جميع أحواله، فإن هذا من شأنه أن يدعو الإنسان إلى مراقبة ربه، فيستحي أن يراه حيث نهاه، أو يفقده حيث أمره، وينبغي عليه أن يحذر ما تسجله الملائكة عليه من الأقوال والأفعال التي لا ترضى رب العالمين.

ومع إحاطة علم الله تعالى بالإنسان، فقد وكل به ملكين يكتبان ويحفظان عليه أقواله وأعماله، إلزاماً له بالحجة، وهما عن يمينه وعن شماله، فالذي على اليمين يكتب الحسنات، والذي على الشمال يكتب السيئات، وحذف لفظ ﴿قَعِيدٌ﴾ من الأول لدلالة الثاني عليه، وأصل الكلام: عن اليمين قعيد وعن الشمال قعيد.

والله تعالى لا يحتاج إلى تدوين الملكين لأعمال العباد، فهو سبحانه مطلع عليها، ولا يغيب عنه شيء، ولكنها تكتب لعرضها على العباد يوم يقوم الأشهاد، فتكون حجة عليهم.

وإذا علم العبد وهو في الدنيا أن الملائكة تسجل عليه أعماله وأقواله، ازداد رغبة في الحسنات، وبُعداً عن السيئات، وإذا استحضّر الإنسان علم الله التام، ورقابته له، وتسجيل الملائكة لجميع أقواله وأفعاله، وأنه لا مفر للعبد من مراقبة الله تعالى، ولا منجا له من عقابه، فكيف يُقدم على ما يغضب الله سبحانه، أو يتلفظ بما لا يرضي الله ﷻ، أو يجروء على هاجسة في نفسه لا تنال القبول من الله تعالى؟

فالخلاصة: أن الله تعالى قد خلق الإنسان، ويعلم ما بداخل نفسه، وهو أقرب إليه من نفسه التي بين جنبيه ولا حاجة له لِكُتُبِ الأعمال؛ لأنه سبحانه عالم بها، لا يخفى عليه منها شيء، وإنما أمر جلّ شأنه الحفظة بكتابة الأعمال لحكم أخرى، منها إقامة الحجة على العبد يوم القيامة عند إنكارهم لشيء مما قالوه أو فعلوه، كما بيّنه قوله تعالى: ﴿وَنُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ كِتَابًا يَلْقَاهُ مَشْهُورًا ﴿١٣﴾ أَقْرَأَ كِتَابَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ حَسِيبًا ﴿١٤﴾﴾ [الإسراء]

وقد أفادت هذه الآية أن المملكين يتلقيان أعمال العبد ويكتبانها في صحيفته.

أما أقوال العبد فقد دلت عليها الآية التي بعدها.

ثم وضح سبحانه ما يسجله الملكان على العبد من أقوال، فقال: ﴿مَا يَلْفُظُ مِنْ قَوْلٍ﴾ أي: ما يتكلم بكلمة خير أو شر ﴿إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ﴾ ملك عن يمينه يرقب قوله ويحفظه ويكتب حسناته و﴿عَيْتٌ﴾ ملك آخر عن شماله، حاضر معه لا يفارقه، يكتب سيئاته، والملكان لا يفارقان العبد إلا عند قضاء الحاجة، وعند مجامعة الرجل زوجته، فإنهما يتأخران عنه، فلا يجوز للعبد أن يتكلم في هاتين الحالتين؛ حتى لا يؤذي المملكين بدنوهم منه وهو على تلك الحالة.

قيل: إن رقيب وعيتد اسمان للملكين.

وورد أنهما يكتبان كل ما يصدر عن العبد حتى أنينه في مرضه، وهو ظاهر الآية، ثم يُمحى ما ليس فيه ثواب ولا عقاب، كما قال تعالى: ﴿يَمْحُوا اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثَبِّتُ وَعِنْدَهُ أُمُّ الْكِتَابِ﴾ [الرعد: ٣٩].

وقال بعض العلماء: لا يكتب من الأعمال والأقوال إلا ما فيه ثواب وعقاب.

قال مجاهد: عن اليمين كاتب الحسنات، وعن الشمال كاتب السيئات^(١).

وقال ابن عباس رضي الله عنهما: يكتب الملكان كل ما تكلم به العبد من خير أو شر، حتى إنه ليكتب قوله: أكلت، وشربت، وذهبت، وجئت، حتى إذا كان يوم الخميس عُرض قوله وعمله، فأقر منه ما كان فيه خير أو شر، وألقى سائرته، فذلك قوله تعالى: ﴿يَمْحُوا اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثَبِّتُ﴾ [الرعد: ٣٩]^(٢).

ويجوز للعبد في مرضه وسفره ما كان يفعله قبل ذلك:

عن عطاء بن يسار يبلغ به النبي ﷺ قال: «إذا مرض العبد قال الله للكرام الكاتبين:

(١) «تفسير الطبري» (٤٢٤/٢١) عن ابن جريج وابن المنذر.

(٢) أخرجه الطبري وابن أبي حاتم كما في «الدر المنثور» (٦٢١/١٣).

اكتبوا لعبدي مثل الذي كان يعمل، حتى أقبضه أو أعافيه»^(١).

وفي حديث أبي موسى رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «إذا مرض العبد، أو سافر كُتِبَ له مثل ما كان يعمل مقيماً صحيحاً»^(٢).

وقد اقتضت الآية على كتابة اللفظ دون العمل اكتفاء بما جاء في الآية السابقة، وفي آيات آخر، كقوله تعالى: ﴿وَأَنَّ عَلَيْكُمْ لِحَافِظِينَ ۖ كِرَامًا كُنِينًا ۖ يَآمُرُونَ مَا تَفْعَلُونَ﴾ [الأنفطار].

وفي حديث أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «يتعاقبون فيكم ملائكة بالليل وملائكة بالنهار...»^(٣).

على أن الأعمال لا تخلو من مصاحبة الأقوال لها، والأقوال هي المقصودة ابتداء من هذا التحذير، ومن الآيات التي تعم الأقوال والأفعال قوله تعالى: ﴿هَذَا كِتَابُنَا يَنْطِقُ عَلَيْكُمْ بِالْحَقِّ إِنَّا كُنَّا نَسْتَنسِخُ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [الجاثية: ٢٩] والمراد بلفظ: ﴿كِتَابُنَا﴾ ديوان الحفظة.

قال تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نُحْيِي الْمَوْتَىٰ وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا وَءَاتَاهُمْ كُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ فِي إِمَامٍ مُّبِينٍ﴾ [يس].

وقوله سبحانه: ﴿يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا أَحْصَاهُ اللَّهُ وَسُوهُ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ [المجادلة].

وقوله سبحانه: ﴿أَمْ يَحْسِبُونَ أَنَّا لَا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُمْ بَلَىٰ وَرُسُلْنَا لَهُمْ يَكْتُمُونَ﴾ [الزخرف].

وللكلمة التي ينطق بها العبد نتائج كبيرة، قد تكون وخيمة، تعود عليه بالوبال، وقد ترفعه إلى أعلى الدرجات:

عن بلال بن الحارث المزني رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إن أحدكم ليتكلم بالكلمة من رضوان الله تعالى، ما يظن أن تبلغ ما بلغت، يكتب الله ﷻ له بها رضوانه إلى يوم

(١) في البخاري (٢٦٩٦) و ابن أبي شيبة (٢٣٣/٣) قال الألباني في «إرواء الغليل» (٢/٢٤٧): صحيح الإسناد إلا أنه مرسل. وقد جاء موصولاً في حديث أبي موسى في المسند (١٩٦٧٩) بإسناد صحيح على شرط البخاري، أفاده محققوه، ومصنف ابن أبي شيبة (٢٣٠/٣) وعبد بن حميد في المنتخب (٥٣٤) والبيهقي في السنن (٣٧٤/٣) والشعب (٩٩٢٨).

(٢) «صحيح البخاري» برقم (٢٩٩٦).

(٣) من حديث أبي هريرة في البخاري (٥٥٥) ومسلم (٦٣٢).

يلقاه، وإن الرجل ليتكلم بالكلمة من سُخط الله تعالى، ما يظن أن تبلغ ما بلغت، يكتب الله ﷻ له بها سُخطه إلى يوم يلقاه»^(١).

فكان علقمة يقول: كم من كلام قد منعنيه حديث بلال بن الحارث.

ولفظ أبي هريرة ﷺ في البخاري: «إن العبد ليتكلم بالكلمة من رضوان الله، لا يُلقى لها بالاً، يرفعه الله بها درجات، وإن العبد ليتكلم بالكلمة من سُخط الله، لا يُلقى لها بالاً، يهوي بها في جهنم»^(٢).

ولذا: فإن الله تعالى يقول: ﴿وَقُلْ لِعِبَادِي يَقُولُوا الَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ الشَّيْطَانَ يَنْزِعُ بَيْنَهُمْ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلْإِنْسَانِ عَدُوًّا مُّبِينًا﴾ [الإسراء: ٥٢].

وفي الحديث عن أبي هريرة ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: «إن الله ﷻ تجاوز لأمتي ما حدثت به أنفسها، ما لم تعمل أو تكلم به»^(٣).

قال الحسن البصري: يابن آدم، بُسُطت لك صحيفة، ووُكِّل بك ملكان كريمان: أحدهما عن يمينك، والآخر عن شمالك، فأما الذي عن يمينك فيحفظ حسناتك، وأما الذي عن يسارك فيحفظ سيئاتك، فاعمل ما شئت، أقلل أو أكثر حتى إذا مِتَّ طُوِثَ صُحُفُكَ، وجُعِلَتْ معك في قبرك، حتى تخرج يوم القيامة، فعند ذلك يقول: ﴿وَكُلِّفَ الْإِنْسَانُ أَلْزَمَتَهُ طَلَبُهُ فِي عُنُقِهِ﴾ [الإسراء: ١٣].

المُحَوَّرُ الثَّانِي عَنِ الْإِنْسَانِ فِي السُّورَةِ: الْإِخْتِضَارُ عِنْدَ الْمَوْتِ

١٩ - ﴿وَجَاءَتْ سَكْرَةُ الْمَوْتِ بِالْحَقِّ ذَلِكَ مَا كُنْتَ مِنْهُ تَحِيدُ﴾

ثم بيّن الله سبحانه حال الإنسان الغافل، المكذب بآيات الله، إذا جاءت شدة الموت

(١) «المسند» (٤٦٩/٣) برقم (٨٤١١) عن أبي هريرة بنحوه، قال محققوه: وهو حديث صحيح، وأخرجه الترمذي برقم (٢٣١٩) و«سنن ابن ماجه» برقم (٣٩٦٩) والنسائي في «السنن» كما في «تحفة الأشراف»: (١٠٣/٢) وصححه الحاكم ووافقه الذهبي (٤٤/١) وذكره الألباني في «السلسلة الصحيحة» (٨٨٨).

(٢) «صحيح البخاري» برقم (٦٤٧٨) وانظر: (٦٤٧٧) وأخرجه مسلم مختصراً برقم (٢٩٨٨).

(٣) «صحيح البخاري» برقم (٢٥٢٨، ٥٢٦٩) و«صحيح مسلم» برقم (١٢٧) واللفظ له، وأبو داود برقم (٢٢٠٩) والترمذي برقم (١١٨٣) وقال: حسن صحيح.

وَكُرْبِهِ وَغَمْرَتِهِ، حالة الاحتضار عند مفارقة الحياة، وهو فراق بالحق الذي لا مردَّ له ولا مَنَاص منه، فهي سَكْرَةٌ تغشى الإنسان وتغلب على عقله، وهي سَكْرَةٌ لا مطمع له في امتداد الحياة بعدها، ﴿وَجَاءَتْ سَكْرَةُ الْمَوْتِ بِالْحَقِّ﴾ وهذا الموت أمر مكتوب ومقدَّر على الناس جميعًا، فهو حق لا باطل معه، ولا تخلف له، ولا عدول عنه ﴿ذَلِكَ﴾ أي: هذا الموت -أيها الإنسان- ﴿مَا كُنْتُمْ مِنْهُ تَحِيدُونَ﴾ هو الذي كنت تفرُّ وتهرب منه وتخاف من لقائه، فلا فكاك منه ولا مناص.

والسَّكْرَةُ: اسم لما يعتري الإنسان من اختلال في المزاج يحجب الإدراك، ويعتري العقل غيبوبة، وعندما يأتي الموت يتضح الحق، ويظهر صدق ما جاءت به الرسل من الإخبار بالبعث والجزاء.

في الحديث: عن عائشة ؓ أن النبي ﷺ لَمَّا تَغَشَّاهُ الموت جعل يمسح العرق عن وجهه ويقول: «سبحان الله، إن للموت لسكرات»^(١).

وفي لفظ الحاكم: «اللهم أعني على سكرات الموت»^(٢).

وفي الحديث: عن عبادة بن الصامت ؓ أن النبي ﷺ قال: «من أحب لقاء الله أحب الله لقاءه، ومن كره لقاء الله كره الله لقاءه»^(٣).

ولما قالت عائشة ؓ: إنا لنكره الموت، قال ﷺ: «ليس ذلك، ولكن المؤمن إذا حضره الموت بُشِّرَ برضوان الله وكرامته، فليس شيء أحب إليه مما أمامه، فأحب لقاء الله، وأحب الله لقاءه، وإن الكافر إذا حُضِرَ بُشِّرَ بعذاب الله وعقوبته، فليس شيء أكره إليه مما أمامه، فكره لقاء الله، وكره الله لقاءه»^(٤).

(١) البخاري (٤٤٤٩، ٦٥١٠) وابن أبي شيبة (٢٥٨/١٠) والترمذي (٩٧٨) وابن ماجه (١٦٢٣) والنسائي في «الكبرى» (٧١٠١، ١٠٩٣٢).

(٢) «المستدرک» (٤٦٥/٢). برقم (٣٧٣١) قال الحاكم: صحيح على شرط البخاري ولم يخرجاه، عن عائشة، وقد ضعفه الألباني في ضعيف سنن ابن ماجه (١٦٢٣).

(٣) صحيح البخاري (١٦٤٢) وصحيح مسلم عن عائشة (٢٦٨٤).

(٤) «صحيح مسلم» (٢٦٨٣) و«صحيح البخاري» (٦٥٠٧) عن عبادة وعائشة، وفي مسلم مطولاً عن عائشة برقم (٢٦٨٤) وفي مسلم أيضاً عن أبي موسى برقم (٨٦٨٦) والبخاري (٦٥٠٨) و«المسند» (٢٢٦٩٦) والترمذي (١٠٦٦، ٢٣٠٩) والنسائي (١٨٣٥).

والذي يحب لقاء الله هو الذي يطمع في ثوابه، والذي يكره لقاءه هو الذي يخاف من عذابه .
وقد جاء في الأثر: «إن المؤمن إذا حضرته الوفاة رأى ما أعد الله له من خير، فأحب لقاء الله» والكافر عكسه .

وقد خاطب الله تعالى اليهود بقوله: ﴿قُلْ إِنَّ الْمَوْتَ الَّذِي تَفِرُونَ مِنْهُ فَإِنَّهُ مُلْقِيكُمْ﴾ [الجمعة: ٨] . وقوله: ﴿قُلْ يَأَيُّهَا الَّذِينَ هَادُوا إِنْ زَعَمْتُمْ أَنَّكُمْ أَوْلِيَاءُ لِلَّهِ مِنْ دُونِ النَّاسِ فَتَمَنَّوْا الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ [الجمعة: ٦] .

ولما بكت عائشة ؓ عندما حضرت الوفاة أبا بكر ؓ، وأنشدت شعراً ترثيه، قال لها: لا تقولي ذلك، ولكن قولي: ﴿وَجَاءَتْ سَكْرَةُ الْمَوْتِ بِالْحَقِّ ذَلِكَ مَا كُنْتَ مِنْهُ تَحِيدُ﴾ (١) .
ولما مات الوليد بكته أم سلمة، وقالت فيه أبياتاً ترثيه، فقال لها النبي ﷺ: «لا تقولي هكذا يا أم سلمة، ولكن قولي: ﴿وَجَاءَتْ سَكْرَةُ الْمَوْتِ بِالْحَقِّ ذَلِكَ مَا كُنْتَ مِنْهُ تَحِيدُ﴾» (٢) .

﴿مَا﴾ في الآية، إما أن تكون موصولة، فيكون المعنى: سكرة الموت الذي كنت تتبعد منه وتفر، وإما أن تكون نافية، فيكون المعنى: ما كنت تقدر على الفرار منه أو الحيد عنه .
والقرآن يصور خروج الروح أروع تصوير، فيقول: ﴿فَلَوْلَا إِذَا بَلَغَتِ الْحُلُقُومَ ﴿٨٣﴾ وَأَنْتُمْ حَيِّدٌ تَنْظُرُونَ ﴿٨٤﴾ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْكُمْ وَلَكِنْ لَا تُبْصِرُونَ ﴿٨٥﴾﴾ [الواقعة] .

وكما بدأ الله خلق الإنسان في قرار مكين لا سلطان للبشر عليه، فإنه ينتهي كذلك إلى وضع لا حيلة للبشر فيه، قال تعالى: ﴿كَلَّا إِذَا بَلَغَتِ الثَّرَاقِي ﴿٢٦﴾ وَقِيلَ مَنْ رَاقٍ ﴿٢٧﴾ وَظَنَّ أَنَّهُ الْفِرَاقُ ﴿٢٨﴾ وَالْقَبْرِ السَّاتِ بِالْطَّافِ ﴿٢٩﴾ إِلَىٰ رَيْكِ يَوْمِذِ السَّاقِ ﴿٣٠﴾﴾ [القيامة] .

والموت قضاء الله لا رادَّ له ولا مفرَّ منه كما قال تعالى: ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ ﴿٢٦﴾ وَبَقِيَ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ ﴿٢٧﴾﴾ [الرحمن] .

ولم يُكْتَبْ لأحد الخلود في الدنيا كما قال تعالى: ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُمْ مَمَيِّتُونَ ﴿٢٦﴾﴾ [الزمر] .
وقال سبحانه: ﴿وَمَا جَعَلْنَا لِلشَّرِّ مِنْ قَبْلِكَ الْخُلْدَ أَفَإِنْ مِتَّ فَهُمْ الْخَالِدُونَ ﴿٣٤﴾ كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ وَبَلَّوْكُمْ بِالْشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ ﴿٣٥﴾﴾ [الأنبياء] .

(١) أحمد في «الزهد» ص ١٠٩ والطبري (٤٢٧/٢١) وأبو عبيد في «الفضائل» ص ١٨٤ .

(٢) أخرجه ابن سعد عن عروة (١٣٣/٤) .

وقال جل شأنه: ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ وَإِنَّمَا تُوَفَّقُونَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ فَمَنْ زُحِرَ عَنِ الْكَارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْفُرُورِ ﴿٧٥﴾﴾ [آل عمران].

وعن أبي ذر رضي الله عنه قال: قلت: يا رسول الله، فما كانت صحف موسى عليه السلام؟ قال: «كانت عبراً كلها: عجبٌ لمن أيقن بالموت ثم هو يفرح، عجبٌ لمن أيقن بالنار ثم هو يضحك، عجبٌ لمن أيقن بالقدر ثم هو ينصب، عجبٌ لمن رأى الدنيا وتقلبها بأهلها ثم اطمأن إليها، عجبٌ لمن أيقن بالحساب غداً ثم لا يعمل»^(١).

و «القبر إما روضة من رياض الجنة، وإما حفرة من حفر النار».

المُحَوَّرُ الثَّالِثُ: يَتَعَلَّقُ بِالْبَعْثِ وَالْجَزَاءِ وَيَبْدَأُ بِالنَّفْخَةِ الثَّانِيَةِ

٢٠- ﴿وَنُفِخَ فِي الصُّورِ ذَلِكَ يَوْمُ الْوَعِيدِ ﴿٧٦﴾﴾

وهذا النفخ يكون يوم الوعيد الذي توعد الله به الكفار بالعذاب، ووعد المؤمنين فيه بالثواب والنعيم، وبعده تقوم الساعة ﴿وَنُفِخَ فِي الصُّورِ ذَلِكَ يَوْمُ الْوَعِيدِ ﴿٧٦﴾﴾ أي: ذلك الزمان الذي يُنفخ فيه في الصور هو يوم الوعيد، أي: يوم القيامة، وهذه هي النفخة الثانية.

وعن النفختين معاً يقول تعالى: ﴿وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَعِقَ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَنْ شَاءَ اللَّهُ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ فِيهَا يُنْظَرُونَ ﴿٧٧﴾﴾ [الزمر].

وعن النفخة الثانية يقول تعالى: ﴿وَيَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ فَفَزِعَ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَنْ شَاءَ اللَّهُ وَكُلُّ أَتَوٍّ ذَاخِرِينَ ﴿٨٧﴾﴾ [النمل].

في الحديث: عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «كيف أنعم وصاحب القرن قد التقم القرن، وحنى جبهته، وانتظر أن يؤذن له؟» قالوا: يا رسول الله، كيف نقول؟ قال: «قولوا: حسبنا الله ونعم الوكيل» فقال القوم: حسبنا الله ونعم الوكيل^(٢).

(١) من حديث طويل عند ابن عساكر (٢٣/٢٧٦). وهو في صحيح ابن حبان (٣٦١) وفي ضعيف الترغيب والترهيب (١٣٥٢) قال الألباني: ضعيف جداً.

(٢) يُنْظَرُ: تخريج الحديث والكلام عن الصور في سورتي [النمل: ٨٧، والزمر: ٦٨] والحديث في «سنن النسائي الكبرى» (١١٠١٦) وأخرجه أبو الشيخ في «العظمة» (٣٩٦) وهو في «شرح مشكل الآثار» للطحاوي (٥٣٤٤). وهو عن ابن عباس في المسند (٣٠٠٨) قال محققوه: حسن لغیره، لضعف عطية العوفي، وأخرجه ابن أبي شيبه (١٠/٣٥٢) والطبراني (١٢٦٧٠) وابن حبان (٨٢٣).

قال ابن عباس عليه السلام: كيف نفرح والموت من ورائنا، والقبر أمامنا، والقيامة موعدنا، وعلى جهنم طريقنا، وبين يدي الله موقفنا؟!

وعن هذه النفخة الثانية أيضاً يقول تعالى: ﴿فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ نَفْخَةٌ وَاحِدَةٌ ۚ وَحُمِلَتِ الْأَرْضُ وَالْجِبَالُ فَدُكَّتَا دَكَّةً وَاحِدَةً ۚ فَيَوْمَئِذٍ وَقَعَتِ الْوَاقِعَةُ ۚ ۝١٥ وَانْشَقَّتِ السَّمَاءُ فَهِيَ يَوْمَئِذٍ وَاهِيَةٌ ۚ ۝١٦ وَالْمَلَكُ عَلَى أَرْجَائِهَا وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمَنِيَةٌ ۚ ۝١٧ يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ لَا تَخْفَى مِنْكُمْ خَافِيَةٌ ۚ ۝١٨﴾ [الحاقة].

فالكل مكشوف، والنفوس خاشعة ﴿وَحْشَعَتِ الْأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَنِ فَلَا تَسْمَعُ إِلَّا هَمْسًا﴾ [طه: ١٠٨].

﴿وَعَنَتِ الْوُجُوهُ لِلْحَيِّ الْقَيُّومِ وَقَدْ خَابَ مَنْ حَمَلَ ظُلْمًا﴾ [طه].

يقف الإنسان بين يدي ربه عاري النفس والجسد، والضمير والوجدان، والكل مشغول بنفسه ﴿لِكُلِّ أَمْرٍ مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ﴾ [عبس].

السَّائِقُ وَالشَّهِيدُ:

٢١- ﴿وَحَاطَّتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّعَهَا سَائِقٌ وَشَهِيدٌ﴾

ويوم القيامة تأتي كل نفس -مؤمنة أو كافرة، مطيعة أو عاصية، برّة أو فاجرة- ومعها ملك يسوقها إلى أرض المحشر، وملك آخر من الحفظة، يشهد عليها بما عملت في الدنيا من خير أو شر، بما حوته صحف أعمالهم فلا يمكنها أن تتأخر عنه.

والسائق هو الذي يجعل غيره أمامه في السير حتى لا ينفلت منه.

وقيل: السائق هو الملك، والشهيد هو الكتاب الذي يلقاه منشوراً، يشهد عليه بعمله وقوله، من خير أو شر.

قرأ عثمان بن عفان رضي الله عنه هذه الآية ثم قال: سائق يسوقها إلى أمر الله، وشهيد يشهد عليها بما عملت^(١).

وعن ابن عباس عليه السلام: السائق من الملائكة، والشاهد من أنفسهم: الأيدي والأرجل...

وعلى قول ابن عباس -إن صحَّ عنه- فإن الشهود على الإنسان من جوارحه يوم القيامة

(١) أخرجه عبد الرزاق (٢/٢٣٧) وابن أبي شيبة (١٣/٥٥٨) والطبري (٢١/٤٢٩) وابن عساكر (٣٩/٢٤٧).

تكون فقط على المعاصي، وهم شهود عشرة: ستة من الإنسان نفسه، وأربعة من خارجه، أما الستة فهي: اللسان، واليد، والرجل، والسمع، والبصر، والجلد، وجاءت الثلاثة الأولى في قوله تعالى: ﴿يَوْمَ نَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [النور] والثلاثة الأخيرة في قوله تعالى: ﴿حَقَّ إِذَا مَا جَاءُوهَا شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَرُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [فصلت].

أما الأربعة الباقية فهي:

١- الحفظة الكرام الكاتبون ﴿وَحَآتَ كُلِّ نَفْسٍ مَعَهَا سَائِقٌ وَشَهِيدٌ﴾.

٢- والأرض ﴿يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا﴾ [الزلزلة].

٣، ٤- والليل والنهار.

ففي الأثر: «ما من يوم وليل يأتي على ابن آدم إلا قال: أنا ليل جديد وعلى ما تعمل في شهيد».

والملائكة والبقاع من الأرض يشهدان للعبد بالخير والعمل الصالح، كما في حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه: «لا يسمع صوت المؤذن إنس ولا جن ولا شيء إلا شهد له يوم القيامة»^(١) كما أنهما يشهدان عليه بالشر.

وفي يوم المشهد العظيم والوقوف العصيب بين يدي الله تعالى يقال للإنسان الكافر:

٢٢- ﴿لَقَدْ كُنْتَ فِي غَفْلَةٍ مِّنْ هَذَا فَكَشَفْنَا عَنْكَ غِطَاءَكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ﴾

لقد كنت - أيها المعرض عن آيات الله - في غفلة من هذا الذي عاينته اليوم، كنت في غفلة عن الحساب فأنكرته، وكنت في غفلة عن لقاء الله فكرهته، وكنت في غفلة عن الحساب فجحذته، وعن النار فما اتقيتها، كنت في غفلة عن الجنة فلم تعمل لها، وفي هذا اليوم كشفنا عنك غطاء الغفلة والنسيان، كشفنا عنك غطاء الجحود والنكران ﴿فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ﴾ بصرك اليوم قوي نافذ حاد، يرى ما كنت تُنكر، ويُبصر ما كنت تجحد.

والغفلة: هي الذهول عما من شأنه أن يُعلم، وقد بيّنَّا لك الدليل - أيها الغافل - بالحس المشاهد في هذا اليوم ليحصل لك اليقين بعد الإنكار، فقد شاهدت البعث والحشر

(١) من حديث أبي سعيد في البخاري (٦٠٩، ٣٢٩٦، ٧٥٤٨).

والحساب والجزاء، وزالت عنك الغفلة والغطاء الذي غطى على قلبك ﴿وَلَوْ تَرَىٰ إِذِ الْمُجْرِمُونَ نَاكِسُوا رُءُوسِهِمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ رَبَّنَا أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَارْجِعْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا إِنَّا مُوقِنُونَ﴾ [السجدة].

والمخاطب في ﴿فَكَشَفْنَا عَنْكَ غِطَاءَكَ﴾ قيل: هو كل إنسان، وقيل: هو الكافر، يقال له ذلك توبيخاً ولوماً وتعنيفاً وعلى هذا جرى تفسير الآية.

والله سبحانه يخاطبنا في الدنيا بهذه الآية ونحوها، لنحذر ونستعد للقاء الله تعالى: أما في يوم القيامة فإنه لا يُستدرك ما فات.

وفي الآية ما يدل على اعتناء الله تعالى بعباده وأنه يحفظ عليهم أعمالهم ويحصيها ويجازيهم عليها بما يستحقون.

ويوم القيامة يأتي الملك الموكل بالكافر إلى ساحة الحشر كما يأتي الشرطي بالمجرم إلى مجلس القضاء، ويقول الملك: هذا ما وُكِّلْتُ به في الدنيا، أحضرته بصحيفة أعماله إلى ساحة العدل الإلهية:

٢٣- ﴿وَقَالَ قَرِينُهُ هَذَا مَا لَدَيَّ عَتِيدٌ﴾

وبعد أن تأتي كل نفس معها سائق وشهيد، وتأتي الأمم جاثية على ركبها فزعاً، وتأتي الصحف منشورة، وكل إنسان قد عُلق كتابه في عنقه، وتأتي الرسل والشهداء، واستعدَّ الجميع للمحاكمة، وتتهيأ كل الظروف، وأشرقت الأرض بنور ربها، عندئذ يبدأ القضاء بين العباد، فيأتي السائق والشهيد، أو يأتي رقيب وعتيد، أي: الملكان الموكلان بكتابة أعمال الإنسان، ولكل إنسان قرينان، ويشهد لهذا المعنى: تثنية الضمير بعد ذلك في قوله تعالى: ﴿أَلْفَيًْا فِي جَهَنَّمَ﴾ وقوله تعالى: ﴿فَأَلْفَيْاهُ فِي الْعَذَابِ الشَّدِيدِ﴾ ولكن الذي يقود الكافر إلى ساحة العدل هو ملك واحد، أي: قال الملك الموكل بسوقه إلى أرض المحشر، وهو الملك الذي كان يكتب السيئات، قال وهو يشير إلى صحيفة أعماله وما فيها من سيئات: هذا ما عندي من ديوان عمله، معدٌّ ومهيأ للعرض، وهذا هو صاحب الكتاب -الكافر المشرك بالله- حاضر معي، ثم تكون المسائلة والمحاسبة لمرتكبي الجرائم في الدنيا.

ويسأل الله الجميع، الرسل والمرسل إليهم: ﴿فَلَنَسْأَلَنَّ الَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْأَلَنَّ الْمُرْسَلِينَ﴾ [الأعراف].

وتعطي العدالة الإلهية فرصة للدفاع والجدال: ﴿يَوْمَ تَأْتِي كُلُّ نَفْسٍ بُعْدِلُ عَنْ نَفْسِهَا وَتُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَا عَمِلَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ [النحل].

ويقول الإنسان الكافر: لا أقبل شاهداً عليّ إلا من نفسي، ويجيبه ربه إلى طلبه، ولكنه حين يتكلم يكذب، فيقول: ﴿وَاللَّهُ رَيْنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾ [الأنعام: ٢٣] فيختم الله على فمه، وتنطق جوارحه فتشهد بعمله.

وتحدث خصومة بين الإنسان وأعضائه: ﴿وَقَالُوا لِمَ لَجُّوهُمْ لِمَ شَهِدْتُمْ عَلَيْنَا قَالُوا أَنْطَقَنَا اللَّهُ الَّذِي أَنْطَقَ كُلَّ شَيْءٍ﴾ [فصلت].

وما أكثر الخصومات في ساحة العرض والحساب! ويكون حكم الله القاطع: ﴿وَلَنْ يَنْفَعَكُمْ الْيَوْمَ إِذْ ظَلَمْتُمْ أَنْتُمْ فِي الْعَذَابِ مُشْرِكُونَ﴾ [الزخرف]

ويأتي موقف التلاوم بين أهل النار من الرؤساء والضعفاء، فلا يفيدهم شيئاً، ويحاولون الخروج من النار بكل سبيل دون جدوى.

سِتَّةُ أَوْصَافٍ لِلْكَافِرِ الْمُسْتَوْجِبِ لِعَذَابِ النَّارِ

٢٤، ٢٥- ﴿أَلْقِيَا فِي جَهَنَّمَ كُلَّ كَفَّارٍ عَنِدٍ ﴿٢٤﴾ مَنَّاعٍ لِلْخَيْرِ مُعْتَدٍ مُّرِيبٍ ﴿٢٥﴾﴾

وصف الله ﷻ الكافر المستحق للخلود في نار جهنم بستة أوصاف، هي أنه:

١- كَفَّارٌ. ٢- عَنِيدٌ. ٣- مَنَّاعٌ لِلْخَيْرِ. ٤- مُعْتَدٍ.

٥- مَرِيبٌ، أي: شاك في دينه، ويشكك الناس فيه. ٦- مُشْرِكٌ بِاللَّهِ تَعَالَى.

وعندما يتم الحُكْمُ العادل، ويتم الفصل بين الخلائق، يأمر الله تعالى الملكين - السائق والشهيد - قائلاً: ﴿أَلْقِيَا فِي جَهَنَّمَ كُلَّ كَفَّارٍ عَنِدٍ ﴿٢٤﴾﴾ اقدفا في النار كل كافر قوي العناد والمكابرة، يدفع الحق بالباطل.

وقد وصفت الآيات من يُلقَى في جهنم بستة أوصاف، ذكرت هذه الآية منها وصفين، هما: الكفر والعناد، والكُفَّار: صيغة مبالغة، أي كثير الكفر، والعنيد، هو المعاند، المكثّر من المعاصي، المجترئ على المحارم والمآثم.

وذكرت الآية التي بعدها ثلاثة أوصاف أخرى هي أنه:

﴿مَنَّاغٍ لِلْحَيِّرِ﴾ أي: كثير الصد للناس عن الإيمان بالله، وكثير منع الفقراء من المال.

وهو ﴿مُعْتَدٍ﴾ أي: ظالم يعتدي على الناس بالأذى، ويعتدي على الإسلام بالتكذيب والباطل.

وهو ﴿مُريبٍ﴾ يشكك غيره في الإسلام، وفي رسول الإسلام، وفي الكتاب الذي نزل عليه، ويشك في وعد الله تعالى ووعيده فلا إيمان ولا إحسان، ولكنه في كفر وعناد وشك وعدوان، وريب وشح، واتخاذ آلهة من دون الله. قال تعالى في شأن المشرك:

٢٦- ﴿الَّذِي جَعَلَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَأَلْفِيَاهُ فِي الْعَذَابِ الشَّدِيدِ ۖ﴾

هذا هو الوصف السادس للكافر، وهو أنه قد أشرك مع الله غيره، فعبد معه معبودًا آخر من خلقه: حجرًا، أو بشرًا، أو ملكًا، أو شيطانًا، أو كوكبًا، ... إلخ.

ولا يملك نفعًا ولا ضرًا، ولا موتًا ولا حياة ولا نشورًا.

والإله الآخر قد يكون شيئًا ماديًا: كحب المال المفرط، أو الجاه والسلطة، أو الزوجة، أو الحبيبة إلى درجة الاستغراق الصارف عن عبادة الله تعالى.

وقد يكون الإله الآخر شيئًا معنويًا: كحب الهوى والشهوة وإشارة الشيطان

﴿أَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهُهُ هَوْنَهُ﴾ [الفرقان: ٤٣].

﴿أَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهُهُ هَوْنَهُ وَأَصْلَهُ اللَّهُ عَلَى عِلْمٍ وَخَمَّ عَلَى سَمْعِهِ وَقَلْبِهِ وَجَعَلَ عَلَى بَصَرِهِ غِشْوَةً﴾ [الجاثية].

وعن أبي سعيد الخدري ؓ أن رسول الله ﷺ قال: «يخرج عُتْق من النار يتكلم، ويقول: وَكَلْتُ اليوم بثلاثة: بكل جبار، ومن جعل مع الله إلهاً آخر، ومن قتل نفسًا بغير نفس، فتنطوي عليهم، فتقذفهم في غمرات جهنم»^(١).

﴿فَالْفِيَاهُ﴾ أيها الملكان ﴿فِي الْعَذَابِ الشَّدِيدِ﴾ أي: في عذاب جهنم، كما قال تعالى:

﴿إِنَّكُمْ مَن يَشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَاهُ النَّارُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ﴾ [المائدة: ٧٢].

(١) «المسند» (٤٠/٣) برقم (١١٣٥٤) قال محققوه: بعضه صحيح لغيره، لأن فيه عطية العوفي وباقي رجاله ثقات، وأبو يعلى (١١٣٨) والبخاري (٣٥٠٠) والطبراني في الأوسط (٣٢٠، ٣٩٩٣) قال الهيثمي في مجمع الزوائد (١٨٦١٣): أحد إسنادي الطبراني رجاله رجال الصحيح، وأخرجه ابن أبي شيبه (١٦٠/١٣).

الْقَرِينُ مِنَ الشَّيَاطِينِ يَتَنَصَّلُ مِنْ إِغْوَائِهِ لِلْكَافِرِ فِي سَاحَةِ الْعَرْضِ وَالْحِسَابِ

٢٧- ﴿قَالَ قَرِينُهُ رَبَّنَا مَا أَطْغَيْتُهُ وَلَكِنْ كَانَ فِي ضَلَالٍ بَعِيدٍ﴾ ﴿٢٧﴾

أي: إن الكافر العنيد حين يلقي في النار يتنصّل من كُفره وعناده ويلقي بالتبعة على قرينه الذي كان يُزيّن له الكفر، فيقول الكافر: يارب، هذا شيطاني هو الذي أطغاني، فأغواني وحسّن لي المعاصي، فيجيب عليه الشيطان نافياً ذلك، ومبيّناً أنه كان فاسداً في حد ذاته، منغمساً في الضلال من تلقاء نفسه.

﴿قَالَ قَرِينُهُ﴾ أي: شيطانه الذي كان معه في الدنيا يغويه ويضله، قال متبرئاً منه حاملاً عليه إثمه ﴿رَبَّنَا مَا أَطْغَيْتُهُ﴾ ما أمرته بالطغيان، ولا زينت له المعاصي، ولا أجبرته على الكفر إذ ليس لي عليه سلطان ﴿وَلَكِنْ كَانَ فِي ضَلَالٍ بَعِيدٍ﴾ فضلّ باختياره، وأثر العمى على الهدى من غير إكراه ولا إجبار، فالضلال أصيل متمكن منه وليس بتابع فيه؛ لأن التابع في شيء لا يكون متمكناً منه.

فالقرين الأول الذي في الآية السابقة هو الملك، والقرين الآخر الذي هو في هذه الآية هو الشيطان، قال تعالى: ﴿وَمَنْ يَعِشْ عَنْ ذِكْرِ الرَّحْمَنِ نُفِضَ لَهُ شَيْطَانًا فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ﴾ ﴿٢٦﴾ وَإِنَّهُمْ لَيَصُدُّوهُمْ عَنِ السَّبِيلِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ مُهْتَدُونَ ﴿٢٧﴾ [الزخرف].

وقال سبحانه: ﴿وَقَفَّضْنَا لَهُمْ قُرَآءَ قُرَآءَ فَرَزَيْنَا لَهُمْ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ﴾ [فصلت: ٢٥].

وعن عبد الله بن مسعود ؓ أن رسول الله ﷺ قال: «ما منكم من أحد إلا وكل به قرينه من الجن» قالوا: وإياك يا رسول الله؟ قال: «وإياي، إلا أن الله أعانني عليه فأسلم، فلا يأمرني إلا بخير»^(١).

ويوم القيامة يدافع الشيطان عن نفسه بأنه لم يضل بني آدم، فيقول كما حكى الله تعالى عنه: ﴿وَقَالَ الشَّيْطَانُ لَمَّا قُضِيَ الْأَمْرُ إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ وَوَعَدْتُكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ وَمَا كَانَ لِي عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ إِلَّا أَنْ دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي فَلَا تَلُومُونِي وَلُومُوا أَنْفُسَكُمْ﴾ [إبراهيم: ٢٢].

(١) «صحيح مسلم» برقم (٢٨١٤).

الْفَضْلُ بَيْنَ الْخُصُومَاتِ يَوْمَ لِقَاءِ اللَّهِ

٢٨، ٢٩ - ﴿قَالَ لَا تَخْصِمُوا لَدَيَّ وَقَدْ قَدَّمْتُ إِلَيْكُمْ بِالْوَعِيدِ ﴿٢٨﴾ مَا يُبَدِّلُ الْقَوْلُ لَدَيَّ وَمَا أَنَا بِظَلَمٍ لِلْعَبِيدِ﴾

وعندما يختصم الكافرون مع قرائهم، ويختصم التابعون مع المتبوعين بين يدي رب العزة جلّ جلاله، يأتي النداء من عنده تعالى: ﴿قَالَ لَا تَخْصِمُوا لَدَيَّ﴾ أي: لا تتنازعوا عندي اليوم في موقف الحساب والجزاء؛ إذ لا فائدة من ذلك فقد استوجبت النار جميعاً، فلا ينفع الخصام ولا الجدل، وقد سبق أن أنذرتكم في الدنيا على لسان رُسلي، وحذرتكم شديد عقابي، فلم تنفعكم الآيات والنذر ﴿وَقَدْ قَدَّمْتُ إِلَيْكُمْ بِالْوَعِيدِ﴾ لمن كفر بي وعصاني، وقد جاءتكم رسلي بالآيات البينات، والحجج الواضحات، فقامت عليكم الحجة، وقدمتم عليّ بما أسلفتم من الأعمال التي وجب جزاؤها، فالخصام في ساحة الحشر لا جدوى منه؛ لأن الكفار وقرنائهم من الشياطين يستويان في العذاب، فكلاهما مؤاخذ بذنبه، وإلقاء التبعة من بعضكم على بعض لا ينجيكم من العذاب، فقد تم إنذاركم بالوعيد في وقت حياتكم فلم تكثرثوا، فلا عذر لكم اليوم بعد أن أُرسلت إليكم رسلي، وأنزلت عليكم كتبي، وتوعدت أهل الضلال وحذرتهم عاقبة أمرهم.

قال ابن عباس رضي الله عنه: إنهم اعتذروا بغير عذر، فأبطل الله حجبتهم وردّ عليهم قولهم ^(١).

وهنا يأتي تنفيذ حكم الله تعالى بدخول أهل الجنة الجنة، وأهل النار النار، وحكم الله تعالى لا يُغَيَّرُ ولا يُبَدَّلُ ﴿مَا يُبَدِّلُ الْقَوْلُ لَدَيَّ﴾ أي: ما يُبَدِّلُ كلامي، ولا يُغَيِّرُ حكمي بعذاب الكفرة والمجرمين، فقد حقّت عليهم كلمة الله ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾ [هود: ١١٩]. ولا أصدق من الله قила، ولا أصدق من الله حديثاً.

وليس من شأن الله تعالى أن يعذب أحداً بدون ذنب، ولا يعذب أحداً بذنب غيره بعد قيام الحجة عليه ﴿وَمَا أَنَا بِظَلَمٍ لِلْعَبِيدِ﴾. بل أجزيهم بما عملوا من خير وشر، لا يزداد في سيئاتهم ولا ينقص من حسناتهم.

فلا تطمعوا في أنّ إلقاء المسؤولية على غيركم تُنجيكم من العقاب، فلا تلوّموا إلا

(١) «تفسير الطبري» (٢١/٤٤٢).

أنفسكم، وما وعدتكم به في الدنيا من العذاب المهين واقع لا محالة، فإن قضاء الله تعالى عادل ولا يُرد بأسه عن القوم المجرمين.

وعن أنس رضي الله عنه قال: فرضت على النبي ﷺ ليلة أُسري به الصلاة خمسين، ثم نقصت حتى جعلت خمسا، ثم نودي: «يا محمد، إنه لا يبدل القول لدي، وإن لك بهذه الخمس خمسين»^(١).

امْتَلَأْ جَهَنَّمَ بِأَهْلِهَا

٣٠- ﴿يَوْمَ نَقُولُ^(٢) لِجَهَنَّمَ هَلِ امْتَلَأَتْ وَنَقُولُ هَلْ مِنْ مَزِيدٍ^(٣)﴾

وبعد تنفيذ حكم الله تعالى في خلقه، ومع كثرة أهل النار، فإن جهنم لا تضيق بهم، بل فيها متسع لغيرهم، وهي متشوقة إلى الوفاء بما خلقت له، وممثلة لأمر ربها، لا تتلأأ ولا تتعلل ﴿يَوْمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ هَلِ امْتَلَأَتْ﴾.

أي: اذكر -أيها الرسول- هذا اليوم الذي نقول فيه: ﴿لَا تَخْصِمُوا لَدَيَّ﴾ ونقول فيه: ﴿مَا يُبَدِّلُ الْقَوْلَ لَدَيَّ﴾ هو نفسه اليوم الذي نقول فيه لجهنم: هل امتلأت من كل كافر عنيد، مناع للخير، معتد أثيم؟ هل اكتفيت بمن جعل مع الله إلهاً آخر؟ فترد جهنم قائلة: ﴿هَلْ مِنْ مَزِيدٍ﴾؟ إنها تتلظى وتغيط شوقاً لأهلها، فتقول: هل من زيادة من الجن والإنس؟ فيضع الرب جلّ وعلاً قدمه فيها، فينزوي بعضها على بعض، وتقول: قط، قط، أي: امتلأت، امتلأت، وكان الله تعالى قد وعدا بالامتلاء حين قال: ﴿لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾ [هود: ١١٩].

وقال أيضاً: ﴿لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنْكَ وَمِمَّنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ﴾^(٤) [ص].

وقيل: إن المعنى: إني قد امتلأت ولم يبق في موضع قدم، فهل هناك من زيادة لم تدخل النار بعد؟ فالاستفهام هنا إنكاري، بمعنى: لم يبق في مكان واحد، فهي ضيقة مكتظة على من فيها، وليست متسعة عليهم؛ لأن اتساعها يعني عدم شدة العذاب، والأمر ليس كذلك.

(١) «مصنف عبد الرزاق» واللفظ له (١٧٦٨) ومن حديث طويل في البخاري (٣٤٩، ٣٣٤٢) ومسلم (١٦٣) والنسائي (٤٤٧) وابن ماجه (١٣٩٩).

(٢) قرأ نافع وشعبة (يقول) بالياء، والضمير لله تعالى، والباقون بنون العظمة على الالتفات.

عن أنس رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «لا تزال جهنم يُلْقَى فيها وتقول: هل من مزيد؟ حتى يضع رب العزة فيها قدمه، فينزوي بعضها إلى بعض، وتقول: قط قط»^(١). أي: حسبي، حسبي.

قال تعالى في وصف جهنم وعذابها: ﴿كَلَّا إِنَّهَا لَأَطْلَىٰ ﴿١٥﴾ نَزَاعَةٌ لِّلشَّوْءِ ﴿١٦﴾ تَدْعُوا مَنَ أَدْبَرَ وَتَوَلَّىٰ ﴿١٧﴾ وَجَمَعَ فَأَوْعَىٰ ﴿١٨﴾﴾ [المعارج].

وفي الحديث إثبات القدم لله تعالى على وجه يليق بجلاله من غير تشبيه ولا تأويل ولا تعطيل.

وعن أبي سعيد رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «احتجت الجنة والنار، فقالت النار: فيّ الجبارون والمتكبرون، وقالت الجنة: فيّ ضعفاء الناس ومساكينهم، فُقْضِيَ بينهما، فقال للجنة: إنما أنت رحمتي، أرحم بك من أشياء من عبادي، وقال للنار: إنما أنت عذابي، أعذب بك من أشياء من عبادي، ولكل واحدة منكما ملؤها»^(٢).

وَنُطِقَ الجنة والنار نُطْقَ حَقِيقِي، فقد أثبت الله تعالى نُطْقَ الجماد والشجر والحجر، كما في حديث مقاتلة اليهود، واختبائهم خلف الشجر والحجر، فيُنطقه الله تعالى ويقول: «يا مسلم، هذا يهودي ورائي فاقتله»^(٣).

وقد أخبر الله تعالى أن نملة تكلمت، وأن كل شيء يسبح بحمد الله، وغير ذلك كثير.

نَعِيمُ الْمُتَّقِينَ يُقَرَّبُ مِنْهُمْ فِي الْجَنَّةِ

٣١- ﴿وَأَزَلَفَتْ الْجَنَّةُ لِّلْمُتَّقِينَ غَيْرَ بَعِيدٍ ﴿٣١﴾﴾

وبعد أن ذكر سبحانه أهل النار يذكر أهل الجنة، فيقول سبحانه: ﴿وَأَزَلَفَتْ الْجَنَّةُ لِّلْمُتَّقِينَ غَيْرَ بَعِيدٍ ﴿٣١﴾﴾ أي: قُرِبَت الجنة وأُذْنِيت من المؤمنين المتقين، فتكون بمرأى منهم إكراماً

(١) «صحيح البخاري» عن أبي هريرة برقم (٤٨٤٩)، وانظر: (٤٨٥٠، ٧٣٨٤، ٧٤٤٩٠) يُنظر: «المسند» (٣/ ٢٣٤) (١٢٣٨٠، ١٢٤٤٠، ١٣٤٥٧) بإسناد صحيح على شرط الشيخين، و«صحيح مسلم» برقم (٢٨٤٨) و«تفسير الطبري» (١٠٦/ ٢٦) والترمذي (٣٢٧٢) والنسائي في «الكبرى» (٧٧١٩، ٧٧٢٢٥) وغيرهم بألفاظ وطرق متعددة.

(٢) «صحيح مسلم» برقم (٢٨٤٦، ٢٨٤٧) ويُنظر: «صحيح البخاري» برقم (٧٤٤٩).

(٣) من حديث أبي هريرة في البخاري (٢٧٦٨) ومسلم عن ابن عمر (٢٩٢١).

لهم، ويشاهدونها وينظروا ما فيها من النعيم المقيم والحبور والسرور زيادة في مسرتهم.
وهذه أول آية في السورة تبشر من اتقى الله تعالى بالجنة، والتقوى رتبة فوق رتبة الإيمان، كما قال تعالى في وصف أوليائه: ﴿الَّذِينَ ءَامَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ﴾ [يونس].
ولن يحصل المسلم على هذه الجائزة إلا إذا كان تقياً.

وقد سأل عمر بن الخطاب أبي بن كعب رضي الله عنه عن التقوى، فقال له: أما سلكت طريقاً ذاكوك؟ قال: بلى، قال: فما فعلت؟ قال: شمرت، واجتهدت، قال: فذلك التقوى^(١).
أي: كما تحتاج إلى تشمير وجد واجتهاد للوقاية من الشوك، فإنك تحتاج إلى التشمير عن ساعد الجد في امثال الأوامر واجتناب النواهي لتقي نفسك من عذاب الله.

أَرْبَعَةٌ أَوْصَافٍ لِأَهْلِ الْجَنَّةِ

٣٢، ٣٣- ﴿هَذَا مَا تُوعَدُونَ^(٢) لِكُلِّ أَوَّابٍ حَفِيزٍ ﴿٣٢﴾ مِّنْ خَشْيِ الرَّحْمَنِ الْغَيْبِ وَجَاءَ بِقَلْبٍ مُّنِيبٍ ﴿٣٣﴾﴾
أي: ويقال للمتقين الذين اتقوا الشرك وانقادوا للأوامر والنواهي: هذه هي الجنة التي وعدكم الله إياها، وفيها ما تشتهيهِ الأنفس وتلذ الأعين، وقد وعدنا الله تعالى لكل رجاء إليه، محافظ على ما أمر الله به، مقيم لحدوده، يخشى عذاب الله ويرجو رحمته.
وكما وصف الله الكفار المستحقين لعذاب النار بأوصاف ستة، هي: ﴿كُلٌّ كَفَّارٌ غَائِبٌ ﴿١٤﴾ مِّنَ الْخَيْرِ مُعْتَدٍ مُّرِيبٍ ﴿١٥﴾ الَّذِي جَعَلَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ﴾.
وصف كذلك المتقين الذين تُقَرَّبُ منهم الجنة بأربعة أوصاف، هي:

- ١- أَوَّاب. ٢- حَفِيز. ٣- خَشْيِ الرَّحْمَنِ الْغَيْب. ٤- جَاءَ بِقَلْبٍ مُّنِيب.
- فعندما يُشْرِفُ المتقون على أبواب الجنة، يقال لهم: هذا الذي كنتم توعدون به في الدنيا أيها المتقون، لكل تائب من ذنوبه، حافظ لكل ما قرَّبه إلى ربه من الفرائض

(١) تفسير ابن كثير (١/ ٤١).

(٢) قرأ ابن كثير (يوعدون) بالياء، والضمير للمتقين، والباقون بناء الخطاب.

(٣) حال وصل (منيب) بما بعدها، كسر التنوين أبو عمرو وعاصم وحمة ويعقوب، وقنبل وابن ذكوان، بخلفهما وضمه الباكون.

والطاعات، محافظ على حدود الله، غير منتهك لحرماته.

وهذا الأواب الحفيظ كان قد خاف الرحمن في الدنيا فأطاع ربه دون أن يراه لقوة يقينه، فامتثل أمره، واجتنب نهيه، واستحيا من معاصيه، وراقب ربه في السر والعلانية ﴿مَنْ خَشِيَ الرَّحْمَنَ﴾ أي: خافه ﴿بِالْغَيْبِ﴾ أي: وهو غائب عنه لم يشاهده، يرجو رحمة الله ويخشى عذابه.

قال الحسن: إذا أرخى الستر وأغلق الباب.

قوله تعالى ﴿وَجَاءَ بِقَلْبٍ مُنِيبٍ﴾ أي: لقي ربه يوم القيامة تائباً من ذنوبه، مقبلاً عليه، مخلصاً في طاعته، ومات موصوفاً بالإلانة، ولم يُبطل عمله الصالح في آخر عمره، وحضر يوم الحشر وهو مصاحب قلبه المنيب إلى ربه، وهذا كقوله تعالى: ﴿يَوْمَ لَا يَنْفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ﴾ (٨٨) إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴿٨٩﴾ [الشعراء].
ويقال لهؤلاء المؤمنين يوم القيامة:

٣٤، ٣٥- ﴿أَدْخُلُوهَا وَسَلِّمْ ذَلِكَ يَوْمُ الْخُلُودِ﴾ ﴿لَهُمْ مَا يَشَاءُونَ فِيهَا وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ﴾ (٣٥)

أي: ادخلوا الجنة دخولاً مصحوباً بالسلامة من الشرور والآفات، مأموناً فيه من جميع المكاره، سالمين من العذاب والهموم والأكدار، يصحبهم الأمن والطمأنينة، فلا انقطاع لنعيمهم ولا كدر ولا تنغيص.

ويجوز أن يكون المراد: أن الملائكة تسلّم عليهم عند دخولهم الجنة.

ثم يقال لأهل الجنة: ﴿ذَلِكَ يَوْمُ الْخُلُودِ﴾ أي: يوم البقاء الذي لا ينتهي أبداً؛ لأنه لا موت في الجنة ولا فناء.

ثم إن لهؤلاء المتقين في الجنة ما يريدون ويطلبون، من كل ما تشتهيه الأنفس وتلذ الأعين، وذلك أنهم يسألون الله تعالى حتى تنتهي مطالبهم، فيعطيه الله ما سألوا ﴿لَهُمْ مَا يَشَاءُونَ فِيهَا﴾. من كل ما تعلق به مشيتهم واشتهته نفوسهم.

ثم يزيد الله عباده ما لم يسألوه، مما لم يخطر بقلب بشر، حيث يتجلى لهم رب العزة جلّ في علاه، فينظرون إلى وجهه الكريم في دار كرامته، وهذا معنى ﴿وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ﴾ كما قال تعالى: ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ﴾ [يونس: ٢٦].

وقال تعالى: ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [السجدة]. وهذا فضلاً عما يمدّهم الله به من الثواب الجزيل والنعيم المقيم.

وفي حديث أبي هريرة ؓ أن رسول الله ﷺ قال: «قال الله تعالى: أعددت لعبادي الصالحين ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر»^(١).

وعن صهيب بن سنان ؓ أن النبي ﷺ قال: «إذا دخل أهل الجنة الجنة يقول الله تعالى: تريدون شيئاً أزيدكم؟ فيقولون: ألم تبيض وجوهنا؟ ألم تدخلنا الجنة؟ ألم تنجنا من النار؟ قال: فيكشف الحجاب، فما أعطوا شيئاً أحب إليهم من النظر إلى ربهم، ثم تلا: ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا لِحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ﴾»^(٢).

فالحسنى: هي الجنة، والزيادة: هي النظر إلى وجه الله الكريم، قال تعالى:

﴿وَجُوهٌ يُّوَمِّذُ نَاصِرَةٌ ۖ إِلَٰى رَّبِّهَا نَاطِرَةٌ﴾ [القيامة].

وعن جرير بن عبد الله ؓ قال: نظر رسول الله ﷺ إلى القمر ليلة البدر، فقال:

«إنكم سترون ربكم كما ترون هذا القمر، لا تضامون في رؤيته، فإن استطعتم ألا تغلبوا على صلاة قبل طلوع الشمس وقبل غروبها فافعلوا»، ثم قرأ: ﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ الْغُرُوبِ﴾^(٣).

ومعنى لا تضامون، أي: لا ينضم بعضهم إلى بعض فيحجب الرؤية عن الآخر.

السَّعِيدُ مَنِ اتَّعَظَ بِغَيْرِهِ

٣٦- ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ هُمْ أَشَدُّ مِنْهُمْ بَطْشًا فَنَقَّبُوا فِي الْبِلَادِ هَلْ مِن مَّحِيصٍ﴾ [٣٦]

وبعد أن تحدثت السورة عن البعث والنشور، واستدللت على إمكانهما عقلاً ونقلًا، انتقلت إلى التهديد والوعيد ببيان مصارع المكذبين بالله ورسله واليوم الآخر، وبيان أن الله تعالى قد استأصلهم في الدنيا، حتى يعتبر كل مكذب بالبعث إلى يوم القيامة، فيتدارك

(١) «صحيح مسلم» برقم (٢٨٢٤).

(٢) يأتي تخريجه في الآية التاسعة والثلاثين. وهو في صحيح مسلم (١٨١) والترمذي (٣١٠٥) بتصحیح الألباني.

(٣) «صحيح البخاري» برقم (٥٥٤، ٥٧٣) و«صحيح مسلم» برقم (٦٣٣).

نفسه قبل أن يحلَّ أجله ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِّنْ قَرْنٍ﴾ أي: وكم أهلكنا قبل هؤلاء المكذبين باليوم الآخر أمما كثيرة، وهؤلاء الذين أهلكوا كانوا أعتى منهم وأشد قوة، وأكثر سطوة، وأكثر جمعا ممن جاء بعدهم ﴿هُم أَشَدُّ مِنْهُمْ بَطْشًا﴾. أي: أشد منهم قوة وأثارا في الأرض.

ثم إن هؤلاء السابقين ساروا في البلاد، وتجوّلوا في أقطارها، وكانوا أكثر منكم سياحة، وضربا في الأرض، فلما حلَّ بهم بأس الله حاولوا الهرب من الهلاك، فأخذوا يبحثون وينقبون في جوانب الأرض عن وجود مهرب لهم ومفر ينجيهم من الهلاك فلم يفلحوا ﴿فَنَقَّبُوا فِي الْبِلَادِ هَلْ مِن مَّخِصٍ﴾. أي: لا مفر لهم من عذاب الله حين نزل بهم، فلم تغن عنهم قوتهم ولا أموالهم ولا أولادهم من الله شيئا.

فآلاية تسجل للأجيال أن كثيرا من الأمم التي تقلّبت في الأرض، فعمرت فيها وفتشت عن أسباب الحياة، كانوا أشد منهم قوة وبطشا، ولكنهم لمّا كفروا بالله ورُسّله أخذهم الله بعذابه، ولم يجدوا لأنفسهم مفرّا ينجيهم من النهاية الأليمة.

ولأهمية هذه الآية في تذكير النفوس الغافلة بمصارع الظالمين المكذبين، فإن لها نظائر مُرعبة في القرآن الكريم، كقوله تعالى: ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِّنَ الْقُرُونِ مِن بَعْدِ نُوحٍ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ يَذُنُوبَ عِبَادِهِ خَيْرًا بَصِيرًا﴾ [٧] [الإسراء].

وقوله سبحانه: ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِّنْ قَرْنٍ هَلْ يُخِشُ مِنْهُمْ مِّنْ أَحَدٍ أَوْ تَسْمَعُ لَهُمْ رِكْزًا﴾ [٩٨] [مريم].

وقوله جلّ شأنه: ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِّنْ قَرْنٍ هُمْ أَحْسَنُ أَثْنًا وَرِيًّا﴾ [٧٤] [مريم].

وقوله ﷻ: ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ بَطَرْتِ مَعِيشَتَهَا فَبَلَكَ مَسْكَنُهُمْ لَمَّا تَشْكَنُ مِنْ بَعْدِهِمْ إِلَّا قَلِيلًا وَكُنَّا نَحْنُ الْوَارِثِينَ﴾ [٥٨] [القصص].

وقد كان هلاك المكذبين السابقين عن طريق البصر والرؤية المشاهدة، فالمشاهدة أقوى أنواع العلم، وإن آثار هؤلاء المهلكين باقية مشاهدة، قال تعالى: ﴿أَلَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِمْ مِّنْ قَرْنٍ مَّكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ مَا لَمْ نُمَكِّنْ لَكُمْ وَأَرْسَلْنَا السَّمَاءَ عَلَيْهِمْ مِدْرَارًا وَجَعَلْنَا الْأَنْهَارَ تَجْرِي مِن تَحْتِهِمْ فَأَهْلَكْنَاهُمْ يَذُنُونَهُمْ وَأَنشَأْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ قَرْنًا آخَرِينَ﴾ [٦] [الأنعام].

تلك نهاية الظالمين، وعاقبة الطغاة المتجبرين، والقرآن يذكّرهم بأسمائهم فيقول سبحانه: ﴿وَأَنذَرْتُ أَهْلَكَ عَادًا الْأُولَىٰ﴾ [٥٠] ﴿وَقَوْمًا ثَمُودًا فَمَا أَغْنَىٰ﴾ [٥١] ﴿وَقَوْمَ نُوحٍ مِّن قَبْلُ إِنَّهُمْ كَانُوا هُمْ أَظْلَمَ

وَأَطَقَ ﴿٥٢﴾ وَالْمُؤَنِّفَةَ أَهْوَى ﴿٥٣﴾ فَعَسَلَهَا مَا عَسَى ﴿٥٤﴾ [النجم] فهل من معتبر؟!

صَاحِبُ الْقَلْبِ الْحَيِّ هُوَ الَّذِي يَتَعِظُ

٣٧- ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرَى لِمَنْ كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ﴾ ﴿٣٧﴾

إن فيما سبق ذكره من إهلاك القرى الظالمة لتذكركم وموعظة لمن كان له عقل يتدبر، أو أصغى إلى الموعظة بقلب حاضر ليتنفع ويعتبر ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرَى لِمَنْ كَانَ لَهُ قَلْبٌ﴾ واع يعي ما يسمع، ويعقل ما يوجه إليه ﴿أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ﴾ أي: صرّف سمعه وأصغى إلى ما يُلقى إليه من وعظ وحكم ﴿وَهُوَ شَهِيدٌ﴾ حاضر بقلبه، غير غافل ولا ساهٍ ولا لاهٍ، فأقبل على الله تعالى غير مدبر ولا معرض.

قال الضحاك: العرب تقول: ألقى فلان سمعه، إذا استمع بأذنيه، وهو شاهد بقلب غير غائب، ويعبر بالقلب في القرآن عن العقل.

وهكذا: فإن من تذكّر واهتدى بهدى الله تعالى، انتفع وارتفع، ومن استمع إلى آيات الله تعالى ليسترشد ويهتدى وقلبه حاضر يعي ما يستمع إليه، فإنه يتعظ ويتنفع ويهتدى بهدى الله. أما المعرض عن الموعظة وعن الاستماع إليها، فإنه لا يتنفع ولا يهتدى.

الرُّدُّ عَلَى زَعْمِ الْيَهُودِ أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى اسْتَرَاخَ يَوْمَ السَّبْتِ

٣٨- ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِنْ لُغُوبٍ﴾ ﴿٣٨﴾

في هذه الآية تكذيب لمزاعم اليهود في قولهم: إن الله تعالى قد أصابه التعب من خلق الكون، فاستراح يوم السبت.

وذلك أن خلق السموات والأرض، أعظم وأكبر من البعث الذي ينكره الملحدون، فما على منكري البعث إلا أن يتأملوا في خلق العالم العلوي والعالم السفلي، فيستدلوا بذلك على إمكانية إحياء الله تعالى للموتى ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ﴾ أي: خلق الله السموات السبع بلا عمد، مع ارتفاعها وعظمتها، وما فيها من الملائكة والأجرام السماوية والأفلاك والكواكب والعرش والكرسي وسدرة المنتهى ﴿اللَّهُ الَّذِي رَفَعَ السَّمَوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا﴾ [الرعد: ٢].

وخلق سبحانه الأرض في كثافتها واتساعها، وما فيها من كنوز ومعادن، وجبال وبحار، وأنهار وأشجار، وما إلى ذلك، قال تعالى: ﴿وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ﴾ أي: وخلقنا ما بين السماء والأرض من مخلوقات وكائنات لا يعلمها إلا الله، وقد استغرق خلقهما ستة أيام، أولها الأحد وآخرها الجمعة بمقدار أيام الدنيا، فقد خلق الأرض في يومين، والسموات في يومين، ثم قدر أقوات الأرض وأرزاقها في يومين من غير تعب ولا نصب ولا لغوب ولا إعياء.

ورد عن ابن عباس رضي الله عنه: أن اليهود سألت النبي ﷺ عن خلق السموات والأرض، فقال: «خلق الله الأرض يوم الأحد والإثنين، وخلق الجبال يوم الثلاثاء، وخلق السموات يوم الأربعاء والخميس، وخلق يوم الجمعة، النجوم والشمس والقمر» قالت اليهود: ثم ماذا يا محمد؟ قال: ﴿ثُمَّ أَسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ﴾ قالوا: قد أصبت لو أتممت: ثم استراح، فغضب رسول الله ﷺ غضباً شديداً، فنزلت الآية^(١).

واتفق الجميع على أن آدم خلق يوم الجمعة.

قال سعيد بن جبير: الله تعالى قادر على أن يخلق السموات والأرض وما بينهما في لمحة ولحظة، ولكنه سبحانه خلقهن في ستة أيام ليعلم عباده التثبت في الأمور والتأني فيها.

وقد اقترن خلق السموات والأرض بالزمن الذي هو ستة أيام، في سبعة مواضع من كتاب الله تعالى^(٢).

كما اقترن خلق السموات والأرض وما بينهما بثلاثة أشياء، هي: الحق^(٣) ونفي اللعب^(٤) ونفي الباطل^(٥).

وقد تقدم الحديث عن السموات والأرض في قوله تعالى: ﴿أَفَلَا يَنْظُرُونَ إِلَى السَّمَاءِ

(١) «أسباب النزول» للواحدي ص ٣٢٨، وانظر: «تفسير الطبري» (١١٢/٢٦).

(٢) هي: [الأعراف: ٥٤]، [يونس: ٣]، [هود: ٧]، [الفرقان: ٥٩]، [السجدة: ٤]، [الحديد:

[٤]، [ق: ٣٨].

(٣) [الحجر: ٨٥].

(٤) [الأنبياء: ١٦].

(٥) [ص: ٢٧].

فَوَقَّهْمُ ﴿١﴾ إِلَى قَوْلِهِ: ﴿لَمَّا طَغَىٰ نَضِيدٌ﴾ وانظر الآيات من ٩-١٢ في هذه السورة وكان بعض اليهود بمكة يقولون: إن الله تعالى خلق السموات والأرض في ستة أيام، واستراح في اليوم السابع^(١). والاستراحة تَغْنِي التعب والإعياء، والله تعالى منزّه عن ذلك، ولذا جاء ختام الآية ﴿وَمَا مَسَّنَا مِنْ لُغُوبٍ﴾ أي: وما أصابنا من ذلك الخلق نصَب ولا وصب.

وفي هذا دلالة على عِظَم قدرة الله تعالى، وأنه سبحانه قادر على إحياء الموتى من باب أولى، قال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَمْ يَكُنْ يَخْلُقْهُنَّ يَتَّقِدِرُ عَلَىٰ أَنْ يُحْيِيَ الْمَوْتَىٰ بَلَىٰ إِنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [الأحقاف].

والله تعالى قادر على خلق الكون بقوله: ﴿كُنْ﴾ ولكنه سبحانه يُعَلِّم عباده الثاني والثبت في الأمور.

ثَلَاثَةُ أَسْلِحَةٍ يُسْتَعَانُ بِهَا عَلَى تَبْلِيغِ الدَّعْوَةِ

٣٩-٤١- ﴿فَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ الْغُرُوبِ ﴿٣٩﴾ وَمِنَ اللَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَأَدْبَرَ الشُّجُورِ ﴿٤٠﴾ وَاسْتَغِصَّ يَوْمَ يُبَادُ^(٢) الْمُنَادِ^(٣) مِنْ مَّكَانٍ قَرِيبٍ ﴿٤١﴾﴾

ولما ذكرت السورة إنكار المكذبين بالرسالة والبعث والنشور أمر الله تعالى رسوله ﷺ أن يستعين على تكذيبهم بثلاثة أسلحة، هي: الصبر، والصلاة مع التسبيح، وهذان في الدنيا، والسلاح الثالث: تَرْقُب عقاب الله تعالى لهم في الآخرة.

السلاح الأول: ﴿فَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ﴾ اصبر يا أيها النبي، ويا أيها الداعية إلى الله تعالى في كل زمان ومكان، على تكذيب الكافرين لك بالبعث والنشور، فإن ما جئتهم به هو الحق من عند الله، والله تعالى لهم بالمرصاد، واصبر على ما يقوله اليهود، وما ينتقصون به الذات العليّة، فإن الصبر هو السلاح الأول للدعوة، ولذلك فقد كان التسليح بالصبر من أول ما أمر الله به رسوله، حين كلفه بالدعوة إليه في الآيات الأولى التي أرسله

(١) وهذا مكتوب في سفر التكوين من التوراة، وهو تحريف من اليهود.

(٢) أثبت يعقوب وابن كثير الياء وفقاً في (يناد)، واتفق الجميع على حذفها وصلاً.

(٣) قرأ نافع وأبو عمرو وأبو جعفر بإثبات الياء وصلاً من (المناد) وقرأ ابن كثير ويعقوب بإثباتها في الحالين، والباقون قرؤوا بحذفها في الحالين.

الله بها إلى العالمين، وهي قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الْمَدِينَةُ ۖ قُرْ فَأَنْذِرِ ۚ وَرَبِّكَ فَكَذِّبِ ۚ وَتَبَاكَ ۚ فَطَهِّرِ ۚ وَالرُّجْزَ فَاهْجُرِ ۚ وَلَا تَمْنُنْ تَسْتَكْثِرُ ۚ وَلِرَبِّكَ فَاصْبِرِ ۚ﴾ [المدثر].

وكان هذا الصبر ضمن خمسة أسلحة يواجه بها الرسول ﷺ ظلمات الضلال، وتمرد العصاة، وإصرار المعاندين، وعقبات الدعوة، فالصبر زاد كل نبي، ودرع كل داعية.

السلاح الثاني: ﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ﴾ أي: اشتغل عن المكذبين بك بطاعة ربك وتسبيحه أول النهار وآخره، وفي وقت السحر، وأدبار الصلاة، ونحو ذلك، وصلِّ لربك حامداً له، قبل طلوع الشمس في صلاة الصبح، وقبل الغروب في صلاتي الظهر والعصر، وصلِّ من الليل صلاتي المغرب والعشاء، وسبِّح بحمد ربك عقب الصلوات.

والتسبيح: هو تنزيه الله تعالى عن كل نقص، والبراءة من كل ما لا يليق بكمال ذاته، وجلال صفاته، وعظيم قدره وسلطانه، وقد يطلق التسبيح على الصلاة.

والحمد: هو الثناء الجميل لواهب النعم، ومانح المنن.

وقد جاء التسبيح بلفظ الماضي في سور: الحديد والحشر والصف.

وبلفظ المضارع في سورتي: الجمعة والتغابن، وبلفظ المصدر في سورة الإسراء.

وجاء الحمد في فواتح سور خمس، هي:

١ - الفاتحة، حيث حمد الله تعالى نفسه في أول كتابه.

٢ - وفي أول سورة الكهف، حيث حمد الله تعالى نفسه على إنزال القرآن.

٣ - وفي أول سورة الأنعام، حيث حمد الله سبحانه نفسه على خلق السموات والأرض.

٤ - وفي أول سورة سبأ، حيث حمد الله تعالى نفسه على أنه المالك المتصرف في هذا الكون.

٥ - وفي أول سورة فاطر، حيث حمد الله تعالى نفسه على أنه جعل الملائكة رسلاً أولي أجنحة.

وكما افتتح الله سبحانه خلق السموات والأرض بالحمد في أول سورة الأنعام، اختتم حال الخلق يوم البعث بالحمد في بعض السور، ومنها قوله تعالى: ﴿وَتَرَى الْمَلَائِكَةَ حَافِينَ مِنْ حَوْلِ الْعَرْشِ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ ۖ وَقُضِيَ بَيْنَهُم بِالْحَقِّ وَقِيلَ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [الزمر].

والتسبيح في الأصل: هو التنزيه كما سبق بيانه، وقد يراد به الصلاة كما في هذه الآية، وهو من أسمائها.

قال ابن عطية: أجمع المتأولون على أن التسبيح هنا هو الصلاة^(١) وكان النبي ﷺ يصاب بالأذى وهو فيها.

وقد كان المشركون يستهزئون بالنبي ﷺ وبالمؤمنين إذا قاموا إلى الصلاة: ومن ذلك قصة إلقاء عقبة بن أبي معيط سلاً الجزور على ظهر النبي ﷺ وهو ساجد في حجر الكعبة، وجاء عقبة فوضع ثوبه على عنق النبي ﷺ فخنقه خنقاً شديداً، فأقبل أبو بكر وأخذ بمنكبه فدفعه عن النبي ﷺ وهو يقول: ﴿أَنْقَتُلُونَ رَجُلًا أَنْ يَقُولَ رَبِّيَ اللَّهُ﴾ [غافر: ٢٨].

وقال تعالى: ﴿أَرَأَيْتَ الَّذِي يَنْهَى ﴿٩﴾ عَبْدًا إِذَا صَلَّى ﴿١٠﴾ أَرَأَيْتَ إِنْ كَانَ عَلَى الْهُدَى ﴿١١﴾ أَوْ أَمَرَ بِالْقَوَى ﴿١٢﴾ إِنْ كَذَّبَ وَتَوَلَّى ﴿١٣﴾ أَمْ يَعْلَمُ أَنَّ اللَّهَ رَأَى ﴿١٤﴾ كُلَّ لَئِن لَّرَبِّنَا لَسَنُفَعَا بِالنَّاصِيَةِ ﴿١٥﴾ نَاصِيَةٍ كَذِبَةٍ خَاطِئَةٍ ﴿١٦﴾ فَلْيَدْعُ نَادِيَهُ ﴿١٧﴾ سَنَدْعُ الزَّبَانَةَ ﴿١٨﴾ كُلَّا لَا نُطِيعُكَ وَأَسْجُدُ وَأَقْتَرِبُ ﴿١٩﴾﴾ [العلق].

وعن جابر بن عبد الله ؓ قال: كنا جلوساً عند النبي ﷺ إذ نظر إلى القمر فقال: «إنكم سترون ربكم كما ترون هذا القمر، لا تضامون في رؤيته، فإن استطعتم ألا تغلبوا على صلاة قبل طلوع الشمس وغروبها فافعلوا»^(٢).

قال ابن كثير: وكانت الصلاة المفروضة قبل الإسراء اثنتين: قبل طلوع الشمس في وقت الفجر، وقبل الغروب في وقت العصر، وكان قيام الليل واجباً على النبي ﷺ وعلى أمته حوْلاً، ثم نُسخ في حق الأمة وجوبه، وبقي واجباً على النبي ﷺ وحده، حتى نسخ الله ذلك كله ليلة الإسراء بخمس صلوات، وجعل منهن صلاتي الصبح والعصر، فهما قبل طلوع الشمس وقبل الغروب^(٣).

(١) «تفسير ابن عطية» (١٦٨/٥).

(٢) هذا لفظ مسلم برقم (٦٣٣) ويُنظر: «صحيح البخاري» برقم (٤٨٥١) و«المسند» (٣٦٥/٤) وأبو داود برقم (٣٧٢٩) والترمذي برقم (٢٥٥١) والنسائي في «السنن الكبرى» برقم (١١٣٣٠) وابن ماجه برقم (١١٧). والحديث في نهاية الآية (٣٥).

(٣) «تفسير ابن كثير» (٤٠٩/٧).

أما التسبيح في أدبار السجود فهو التسبيح بعد الصلاة، أو هو صلاة النوافل.
وقيل: هو الركعتان بعد المغرب، وقيل: صلاة الوتر.

ودليل القول الأول وهو أن المراد بالتسبيح الأذكار التي تقال عقب الصلوات المكتوبات: ما ثبت عن أبي هريرة رضي الله عنه: أن النبي ﷺ جاءه فقراء المهاجرين، فقالوا: يا رسول الله، ذهب أهل الدثور بالدرجات العلا، والنعيم المقيم، فقال: «وما ذاك؟» قالوا: يصلون كما نصلي، ويصومون كما نصوم، ويتصدقون ولا نتصدق، ويعتقون ولا نعتق! قال: «أفلا أعلمكم شيئاً إذا فعلتموه سبقتم من بعدكم، ولا يكون أحد أفضل منكم إلا من فعل مثل ما فعلتم؟ تسبحون وتحمدون وتكبرون دبر كل صلاة ثلاثاً وثلاثين» قال: فقالوا: يا رسول الله، سمع إخواننا أهل الأموال بما فعلنا، ففعلوا مثله، قال: «ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء»^(١).

وفي صحيح مسلم: عن أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «من سبح الله في دبر كل صلاة ثلاثاً وثلاثين، وحمد الله ثلاثاً وثلاثين، وكبر الله ثلاثاً وثلاثين، فتلك تسع وتسعون، وقال تمام المئة: لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد، وهو على كل شيء قدير؛ غُفِرَتْ خطاياهم وإن كانت مثل زبد البحر»^(٢).
وفي رواية عند البخاري: «تسبحون عشراً، وتحمدون عشراً، وتكبرون عشراً في دبر كل صلاة»^(٣).

ودليل القول الثاني، وهو أن المراد بالتسبيح أدبار السجود: صلاة النوافل بعد الفرائض: حديث علي رضي الله عنه قال: كان رسول الله ﷺ يصلي على إثر كل صلاة مكتوبة ركعتين إلا الفجر والعصر^(٤).

وحديث ابن عباس رضي الله عنه: أنه بات عند خالته ميمونة، وأنه صلى تلك الليلة مع النبي ﷺ ثلاث عشرة ركعة^(٥).

(١) «صحيح مسلم» برقم (٥٩٥).

(٢) «صحيح مسلم» برقم (٥٩٧).

(٣) «صحيح البخاري» برقم (٦٣٢٩).

(٤) «المسند» (١/ ١٢٤) برقم (١٠١٢، ٢٩٤٠) إسناده قوي، ورجاله ثقات كما قال محققوه، وأبو داود (١٢٧٥)

والنسائي في «السنن الكبرى» برقم (٣٤١). وابن خزيمة (١١٩٦) والبزار (٦٧٤) وابن أبي شيبة (٣٥٠/٢).

(٥) البخاري برقم (١١٣٨) ومسلم برقم (٧٦٣).

وَرَدَ أَنْ عَلِيًّا ﷺ سَأَلَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ عَنْ إِدْبَارِ النُّجُومِ وَأَدْبَارِ السُّجُودِ، فَقَالَ: «أَدْبَارُ السُّجُودِ: الرُّكْعَتَانِ بَعْدَ الْمَغْرَبِ، وَإِدْبَارُ النُّجُومِ: الرُّكْعَتَانِ قَبْلَ الْغَدَاةِ»^(١).

وجاء عن عليٍّ ﷺ أَنَّ إِدْبَارَ النُّجُومِ: الرُّكْعَتَانِ قَبْلَ الْفَجْرِ^(٢).

ولعل القول الأول أولى، وهو أن المراد بالتسبيح في أدبار السجود: هو الأذكار التي تعقب الصلاة.

ويشبه هذه الآية قوله تعالى: ﴿فَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا وَمِنْ آنَاءِ اللَّيْلِ فَسَبِّحْ وَأَطْرَافَ النَّهَارِ لَعَلَّكَ تَرْضَىٰ﴾^(٣) [طه].

السلاح الثالث الأخروي: هو الاستماع إلى إسرائيل حين ينفع في الصور، وهو سلاح يحضُّ على الاستعداد للآخرة، قبل أن يأتي يوم لا مرد له من الله ﴿وَأَسْمِعْ﴾ أي: ألقِ سمعك، واصنع لما يخبرك الله به من أهوال يوم القيامة، ثم وُضِّحَ الله تعالى المأمور بالاستماع إليه، فقال: ﴿يَوْمَ يُنَادِ الْمُنَادُ مِنْ مَّكَانٍ قَرِيبٍ﴾ أي: استمع وترقَّب نداء المنادي في يوم الحشر لقيام الناس من قبورهم.

والمنادي هو: إسرائيل، والمكان القريب هو بيت المقدس، والنداء يكون بالنفخ في القرن وهو -البوق- وليس المراد من الآية الاستماع للنداء في حد ذاته، فإن كل إنسان سوف يسمعه، إنما المراد: هو ترقب هذا اليوم، والاستعداد له بالعمل الصالح، وفيه وعيد للكفار وتهديد لهم أن ينتظروا هذا اليوم.

قال كعب الأحمار: يقف إسرائيل على صخرة بيت المقدس، فينادي في الحشر: أيتها العظام البالية، والأوصال المتقطعة، واللحوم المتمزقة، والشعور المتفرقة، إن الله يأمركن أن تجتمعن لفصل القضاء^(٣).

قيل: إن صخرة بيت المقدس هي أقرب الأرض إلى السماء.

فهذه الأوامر الثلاثة: اصبر، وسبِّح، واستمع، تربط الدنيا بالآخرة، والسماء بالأرض.

(١) مسند مسدد كما في «المطالب العالية» (٤١١٤).

(٢) ابن أبي شيبة (٥٢٣/٢) و«مختصر قيام الليل» ص ٢٩ والطبري (٤٧٠/٢١).

(٣) أخرجه الطبري (٤٥٧/٢١) وورد مثله عن يزيد بن جابر عند ابن عساكر (١٣٦/٦٥).

قال تعالى: في وصف يوم القيامة:

٤٢- ﴿يَوْمَ يَسْمَعُونَ الصَّيْحَةَ بِالْحَقِّ ذَلِكَ يَوْمُ الْخُرُوجِ﴾ (٤٢)

أي: واليوم الذي ينادي فيه المنادي هو اليوم الذي يسمع الخلائق فيه صيحة البعث من القبور، والحشر للجزاء، وهذه الصيحة: هي النفخة الثانية التي يقوم فيها العباد لرب العالمين ﴿يَوْمَ يَسْمَعُونَ الصَّيْحَةَ بِالْحَقِّ﴾ أي: اذكر - يارسولنا- يوم يسمعون صيحة البعث بالنفخ في الصور، في يوم لا شك فيه ولا مرية ﴿ذَلِكَ يَوْمُ الْخُرُوجِ﴾ أي: يوم خروج أهل القبور من قبورهم.

الْحَيَاةُ وَالْمَوْتُ وَالْحَشْرُ وَالنَّشْرُ وَالْمَرْجِعُ وَالْمَصِيرُ

٤٣- ﴿إِنَّا نَحْنُ نُحْيِي وَنُمِيتُ وَإِلَيْنَا الْمَصِيرُ﴾ (٤٣)

ثم قرر سبحانه أن الموت والحياة بيد الله وحده، فهما من خصائص الإلهية ﴿إِنَّا نَحْنُ نُحْيِي وَنُمِيتُ﴾ نحبي الخلائق من العدم في الدنيا، ونميتهم -عند انتهاء آجالهم- بقدرتنا وإرادتنا ﴿وَإِلَيْنَا الْمَصِيرُ﴾ أي: إلينا مصير الخلائق جميعاً يوم القيامة للحساب والجزاء والثواب والعقاب. قال تعالى:

٤٤- ﴿يَوْمَ تَشْقَى^(١) الْأَرْضُ عَنْهُمْ سِرَاعًا ذَلِكَ حَشْرٌ عَلَيْنَا يَسِيرُ﴾ (٤٤)

ويوم الخروج هو اليوم الذي تتصدع فيه الأرض عمن في باطنها من مخلوقات، فيخرجون منها مسرعين إلى الداعي استجابة لنداء المنادي، كما قال تعالى:

﴿يَوْمَ يَدْعُوكُمْ فَتَسْتَجِيبُونَ بِحَمْدِهِ﴾ [الإسراء: ٥٢].

وقال سبحانه: ﴿يَوْمَ يَخْرُجُونَ مِنَ الْأَجْدَاثِ سِرَاعًا كَأَنَّهُمْ إِلَى نُصُبٍ يُوفِضُونَ﴾ (٤٣) [المعارج].

وقال جل شأنه: ﴿وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَإِذَا هُمْ مِنَ الْأَجْدَاثِ إِلَى رَبِّهِمْ يَنْسِلُونَ﴾ (٥١) [يس].

وقال ﷻ: ﴿يَوْمَ يَدْعُ الدَّاعِ إِلَى شَيْءٍ نُّكْرٍ﴾ [القمر: ٦].

(١) قرأ أبو عمرو وعاصم وحزمة والكسائي وخلف بتخفيف الشين مضارع تشقق، والباقون بتشديدها على إدغام التاء في الشين.

وقال أيضًا: ﴿وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ فَرَغُوا فَلَا قُوَّةَ وَأُخِذُوا مِنْ مَّكَانٍ قَرِيبٍ﴾ ﴿٥١﴾ [سبأ].

فكم أنكروا هذا اليوم، وكم قالوا: لا بعث ولا حساب!

وسوق الناس إلى مكان الحساب يوم القيامة، لِيُسْأَلَ كُلُّ مَنْهُمْ عَنْ عَمَلِهِ، أَمْرٌ سَهْلٌ يسير على رب العالمين ﴿ذَلِكَ حَشْرٌ عَلَيْنَا يَسِيرٌ﴾ وكل شيء سهل على الله تعالى ﴿إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَا أَرَدْنَاهُ أَنْ نَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ ﴿٤٠﴾ [النحل: ٤٠].

وفي هذا الحشر يقول تعالى: ﴿وَهُوَ عَلَىٰ جَمْعِهِمْ إِذَا يَشَاءُ قَدِيرٌ﴾ [الشورى: ٢٩].

قال ابن كثير في ﴿يَوْمَ تَشَقُّقُ الْأَرْضُ عَنْهُمْ سَرَاعًا﴾: وذلك أن الله تعالى يُنْزِلُ مطرًا من السماء تنبت به أجساد الخلائق من قبورها، كما ينبت الحب في الثرى بالماء، فإذا تكاملت الأجساد أمر الله إسرافيل فينفخ في الصور، فإذا نفخ إسرافيل فيه خرجت الأرواح تتوهج بين السماء والأرض، فيقول الله ﷻ: وعزتي وجلالي، لترجعن كل روح إلى الجسد الذي كانت تعمرة، فترجع كل روح إلى جسدها، فتدب فيه كما يدب السم في اللدغ، وتنشق الأرض عنهم، فيقومون إلى موقف الحساب سرعًا، مبادرين إلى أمر الله ﷻ ﴿مُهْطِعِينَ إِلَىٰ الدَّاعِ يَقُولُ الْكَافِرُونَ هَذَا يَوْمٌ عَرِيرٌ﴾ ﴿٨﴾ ^(١) [القمر].

وفي حديث أبي هريرة ؓ: أن النبي ﷺ قال: «أنا سيد ولد آدم يوم القيامة، وأول من ينشق عنه القبر، وأول شافع وأول مشفع» ^(٢).

وعند خروجهم من القبور يشعرون بالهول والخوف والفرع: ﴿قَالُوا يَوَدُّونَا مَنْ بَعَثَنَا مِنْ مَرْقَدِنَا﴾ ﴿٥١﴾ فيأتيهم الجواب من قبل الرحمن: ﴿هَذَا مَا وَعَدَ الرَّحْمَنُ وَصَدَقَ الْمُرْسَلُونَ﴾ [يس: ٥٢]. وعن سرعة خروج الناس من القبور يقول تعالى: ﴿وَمَا أَمْرُنَا إِلَّا وَجِدَةٌ كَلَمْحٍ بِالْبَصَرِ﴾ ﴿٥٠﴾ [القمر].

فيقول سبحانه: ﴿مَا خَلَقْنَاكُمْ وَلَا بَعَثْنَاكُمْ إِلَّا كَفَافٍ وَجِدَةٍ﴾ [لقمان: ٢٨].

وفي صفة حشر الكافرين يوم القيامة يقول تعالى: ﴿وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ عُمًى وَيَكْمًا وَصُمًَّا مَاؤُنْهَمُ جَهَنَّمُ كُلَّمَا خَبَتْ زِدْنَاهُمْ سَعِيرًا﴾ [الإسراء: ٩٧].

(١) «تفسير ابن كثير» (٤١١/٧).

(٢) «صحيح مسلم» برقم (٢٢٧٨).

ويقول أيضًا: ﴿وَتَحْشُرَ الْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ زُرْقًا﴾ [طه: ١٠٢].

وعن أبي هريرة رضي الله عنه: أن النبي ﷺ قال: «يُحْشَرُ النَّاسُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ثَلَاثَةَ أَصْنَافٍ: صِنْفًا مَشَاةً، وَصِنْفًا رُكْبَانًا، وَصِنْفًا عَلَى وُجُوهِهِمْ» قيل: يا رسول الله، كيف يمشون على وجوههم؟ قال: «إِنَّ الَّذِي أَمْشَاهُمْ عَلَى أَقْدَامِهِمْ قَادِرٌ أَنْ يَمْشِيَهُمْ عَلَى وُجُوهِهِمْ، أَمَّا إِنْهُمْ يَتَّقُونَ بِوُجُوهِهِمْ كُلَّ حَذَبٍ وَشَوْكَةٍ»^(١).

وعن ابن مسعود رضي الله تعالى عنه قال: يَرُدُّ النَّاسَ جَمِيعًا الصَّرَاطَ، وَوَرُودُهُمْ: قِيَامُهُمْ حَوْلَ النَّارِ، ثُمَّ يَصْدُرُونَ عَنِ الصَّرَاطِ بِأَعْمَالِهِمْ: فَمِنْهُمْ مَنْ يَمُرُّ مِثْلَ الْبَرْقِ، وَمِنْهُمْ مَنْ يَمُرُّ مِثْلَ الرِّيحِ، وَمِنْهُمْ مَنْ يَمُرُّ مِثْلَ الطَّيْرِ، وَمِنْهُمْ مَنْ يَمُرُّ كَأَجُودِ الْخَيْلِ، وَمِنْهُمْ مَنْ يَمُرُّ كَعَذْوِ الرَّجُلِ، حَتَّى إِنْ أَخْرَجَهُمْ مُرُورًا رَجُلٌ نَوْرُهُ عَلَى مَوْضِعِ إِبْهَامِي قَدَمِيهِ، فَيَتَكَفَّأُ بِهِ الصَّرَاطُ^(٢).
والصراط: مكان عليه حَسَكٌ، وهو نبات له شَوْكٌ ضَلْبٌ، ذو شعب ثلاث، كحسك القتاد، حافته ملائكة، معهم كلاليب من نار، يختطفون بها الناس.

خَتَامُ السُّورَةِ يَطْوِي فِي ثَنَائِهِ مَا تَعَرَّضَتْ لَهُ مِنْ قَضَايَا

٤٥- ﴿تَنَحَّنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِجَبَّارٍ فَذَكَرَ بِالْقُرْآنِ مَنْ يَخَافُ وَعِيدِ^(٣)﴾

وفي ختام السورة يُطْمِئِنُّ اللهُ تَعَالَى رَسُولُهُ ﷺ بِأَنَّهُ غَيْرُ مُسْئِلٍ عَنْ عَدَمِ اهْتِدَائِهِمْ؛ لِأَنَّهُ إِنَّمَا بُعِثَ دَاعِيًا وَهَادِيًا، وَلَيْسَ مَبْعُوثًا لِإِرْغَامِهِمْ عَلَى الْإِيمَانِ ﴿تَنَحَّنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ﴾ أَي: إِنَّ عِلْمَنَا مُحِيطٌ بِمَا يَقُولُهُ الْمَكْذُوبُونَ الْمَلْحَدُونَ فِي شَأْنِكَ، وَفِي شَأْنِ دَعْوَتِكَ، وَفِي افْتِرَائِهِمْ عَلَى اللَّهِ تَعَالَى، وَتَكْذِيبِهِمْ بِآيَاتِهِ، وَإِنْكَارِ الْبَعْثِ وَالتَّوْحِيدِ، وَسَنْجَازِهِمْ عَلَى ذَلِكَ بِمَا يَسْتَحِقُّونَ مِنْ عِقَابٍ ﴿وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِجَبَّارٍ﴾ أَي: لَسْتُ مُسَلِّطًا عَلَيْهِمْ لِتَجْبُرَهُمْ عَلَى الْإِسْلَامِ، وَإِنَّمَا بُعِثْتُ مُبَلِّغًا: قَالَ تَعَالَى: ﴿فَذَكَرَ إِثْمًا أَنْتَ مُذَكِّرٌ^(٤) لَسْتُ عَلَيْهِمْ بِمُصِيطِرٍ﴾ [الغاشية].

(١) هذا لفظ الترمذي برقم (٣١٤٢)، وأخرجه (٢٥٦٦) وعَجَزُ الْحَدِيثِ عِنْدَ الْبُخَارِيِّ عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ (٤٧٦٠، ٦٥٢٣) ومسلم (٢٨٠٦) و«المسند» (١٦٧/٣). برقم (٨٦٤٧، ٨٧٥٥) حسن لغيره لضعف علي بن زيد، وجهالة أوس بن خالد، أفاده محققوه.

(٢) أخرجه عبد بن حميد، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وابن مردويه كما في «الدر» (١١٤/١٠).

(٣) قرأ ورش بإثبات الباء وصلًا من (وعيد) ويعقوب بإثباتها وصلًا ووقفًا، والباقيون بحذفها في الحاليين.

وقال سبحانه: ﴿وَإِنْ مَا زُرَيْنَاكَ بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ أَوْ تَوَفَّيْنَاكَ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلْغُ وَعَلَيْنَا الْحِسَابُ﴾ [الرعد: ٤٠] وهذا معنى ﴿فَذَكِّرْ بِالْقُرْآنِ مَنْ يَخَافُ وَعِيدِ﴾ أي: خوِّف بالقرآن من يخشى وعيدي؛ لأن من لا يخاف وعيدي لا يذكّر، فلا تُشغل نفسك بهم، حيث لا فائدة من تذكيره إلا لإقامة الحجة عليه لئلا يقول ﴿مَا جَاءَنَا مِنْ بَشِيرٍ وَلَا نَذِيرٍ﴾ [المائدة: ١٩].

أتى النبي ﷺ برجل ترتعد فرائضه، فقال: «هُوَ عَلَيْكَ، وإنما أنا ابن امرأة من قريش، كانت تأكل القديد في هذه البطحاء»^(١).

قال ابن عباس ؓ: قالوا: يا رسول الله، لو خَوَّفْتَنَا؟ فنزلت هذه الآية^(٢) الأخيرة من السورة، تطوي في ثناياها إشارات إلى ما تعرضت له من قضايا، وهي: القرآن والرسالة، والمعاد والحساب والجزاء، وفيها تثبيت للنبي ﷺ؛ حتى لا يضيق صدره بالمكذّبين، ولا يحزن على ما يصيبه من أذى، ولا تذهب نفسه عليهم حسرات، فمَعَادُهُمْ عند الله، وحسابهم عليه، وليفرح قلبك، ولتطمئن نفسك، ولك في أولى العزم من الرسل أسوة.

تم تفسير (سورة ق) والله الحمد والمنة.

(١) أخرجه الحاكم عن جرير (٤٦٦/٢) وصححه الألباني في «السلسلة الصحيحة» (١٨٧٦).

(٢) «تفسير الخازن» (٤/١٨٠).

الآية	فهرس الم	ويع	ويعات	الصفحة
	تفسير سورة فصلت (٤١) - مقدمة السورة - موضوعاتها - مقاطعها - سبب النزول	٥		
٤-١	تفسير السورة - القرآن الكريم: مصدره ووضفه ووظيفته	١٠		
٥	ثلاثة أحوال للمعرضين عن القرآن	١٣		
٨-٦	الرسل بشر يوحى إليهم، قالوا لمن عصاه، والأجر العظيم لمن أطاعه	١٤		
٩	تفصيل دقيق لخلق السموات والأرض يوجب عدم الكفر بخالقهما	١٧		
	أولاً: خلق الأرض في يومين الأحد والإثنين	١٨		
١٠	ثانياً: خلق الجبال والأنهار	٢٠		
١٢، ١١	ثالثاً: خلق السموات	٢٢		
١٤، ١٣	إنذار المعرضين عن دلائل التوحيد والوحي المنزل	٢٦		
١٨-١٥	عاقبة الطغیان والتفرد بالقوة في كل زمان - (قوم عاد وقوم ثمود)	٢٧		
٢٤-١٩	شهادة الجوارح والأعضاء على الكافر في أرض المحشر	٣١		
٢٥	سبب ضلال من ضل	٣٧		
٢٦	تلقين الكفار نظراءهم أساليب الإغراض عن الدعوة	٣٨		
٢٨، ٢٧	الوعيد الشديد بعذاب الكافرين	٣٩		
٢٩	أهل النار يطلبون يوم القيامة الانتقام ممن أضلواهم	٤٠		
٣٢-٣٠	الملائكة تطمن أهل الإيمان والاستقامة وبشرهم بالجنة	٤١		
٣٣	أحسن الأقوال والأعمال - مراتب الدعوة	٤٦		
٣٥، ٣٤	علاج العداوة	٤٨		
٣٦	علاج الغضب - أحاديث في المعنى	٥٢		
٣٨، ٣٧	أربع من آيات اللو في الكون (الليل والنهار والشمس والقمر)	٥٤		
٣٩	إحياء الأرض بعد موتها دليل على إحياء الناس من قبورهم	٥٦		
٤٠	الإلحاد في آيات الله وعاقبه وخيمته	٥٧		
٤١	خمسة أوصاف للقرآن الكريم - الوصف الأول (أنه ذكر لمن كان له قلب)	٥٨		
٤٢	الوصف الثاني (أنه كتاب يعجز الخلق عن معارضته) - الوصف الثالث (أنه كتاب لا يحرف ولا يبدل)	٥٩		
٤٣	الرابع (أنه كتاب يستعمل على العلم والحكمة) - الخامس: (أنه كتاب منزل ممن يستحق الحمد)	٦٠		
٤٤	تكذيب الرسل سنة ماضية في الأمم	٦٠		
٤٦، ٤٥	اختيار اللسان العربي لغة للرسالة العامة	٦٢		
٤٨، ٤٧	اختلاف بني إسرائيل في التوراة سابق على اختلافهم في القرآن	٦٤		
٥٠، ٤٩	أربع من مسائل الغيب - الحقيقة العارية في الموقف العظيم	٦٦		
٥١	شأن الإنسان الكافر تجاه السراء والضراء	٦٨		
٥٢	شأن الإنسان بصفة عامة	٧١		
	استدعاء لأهل الإلحاد	٧٢		

الآية	فهرس الم و وعات	الصفحة
٥٣	دَلَايِلُ صِدْقِ الْقُرْآنِ	٧٣
٥٤	الإِحَاطَةُ بِشُؤُونِ الْخَلْقِ جَمَاعَ مَا فِي السُّورَةِ	٧٤
٧٦	تَفْسِيرُ سُورَةِ الشُّورَى (٤٢) - مُقَدِّمَةُ السُّورَةِ - تَقْسِيمُهَا - مَحَوْرُهَا	٧٦
٣-١	تَفْسِيرُ السُّورَةِ - الْوَحْيُ يَصِلُ الْأَرْضَ بِالسَّمَاءِ	٨٢
٦-٤	حِكْمَةُ اللَّهِ تَعَالَى تَقْتَضِي خَلْقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِتْقَانَ نِظَامِ الْعَالَمِ - مَوْقِفُ الْبَشَرِ مِنَ الْوَحْيِ	٨٣
٧	عَالِيَّةُ الرِّسَالَةِ	٨٦
٩-٨	اِخْتِلَافُ النَّاسِ فِي التَّوْحِيدِ الَّذِي جَاءَ بِهِ الْوَحْيُ	٩٠
١٢-١٠	الْمُرْجِعَةُ الشَّرْعِيَّةُ إِلَى خَالِقِ هَذَا الْكَوْنِ وَمُدَبِّرِ أَمْرِهِ	٩٢
١٣	دِينُ اللَّهِ وَاحِدٌ فِي أَصُولِهِ وَقَوَاعِيدِهِ	٩٦
١٤	سَبَبُ التَّفَرُّقِ فِي الدِّينِ	١٠٠
١٥	بُتُو الدَّعْوَةِ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى فِي عَشْرِ جُمَلٍ	١٠١
١٦	عُقُوبَةُ الْمُجَادِلِينَ فِيمَا جَاءَ بِهِ خَاتَمُ النَّبِيِّينَ	١٠٤
١٧	حَاسِبُوا أَنْفُسَكُمْ قَبْلَ أَنْ تُحَاسَبُوا	١٠٥
١٨	حَالُ الْمُصَدِّقِ وَالْمُكَذِّبِ بِالنُّيُومِ الْآخِرِ	١٠٧
١٩	الْبَرُّ وَالْفَاجِرُ أَمَامَ رِزْقِ اللَّهِ سَوَاءٌ	١٠٨
٢٠	ثَمَرَةُ الْعَمَلِ لِلدُّنْيَا وَالْعَمَلِ لِلْآخِرَةِ	١١٠
٢١	التَّشْرِيعُ حَقُّ اللَّهِ وَخَدَهُ	١١٢
٢٢	عِقَابُ الظَّالِمِينَ وَمَثُوبَةُ الْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ لِقَاءِ رَبِّ الْعَالَمِينَ	١١٤
٢٣	فِي هَذِهِ الْآيَةِ ثَلَاثُ قَضَايَا - مَحَبَّةُ آلِ النَّبِيِّ	١١٦
٢٤	تَنْزِيهُ سَاحَةِ الرَّسُولِ ﷺ عَنِ اِخْتِلَاقِ الْقُرْآنِ	١٢١
٢٦، ٢٥	بَابُ التَّوْبَةِ مَفْتُوحٌ عَلَى مُضْرَاعَيْهِ - التَّوْبَةُ فِي الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ - أَحَادِيثُ فِي الْمَعْنَى	١٢٣
٢٧	حِكْمَةُ اللَّهِ تَعَالَى فِي بَسْطِ الرِّزْقِ وَقَبْضِهِ - ثَلَاثَةٌ مِنْ دَلَالِلِ الْوَحْدَانِيَّةِ	١٢٧
٢٨	أَوَّلًا: نِعْمَةُ الْمَاءِ مِنْ أَفْضَلِ الْأَرْزَاقِ	١٢٩
٢٩	ثَانِيًا: جَمْعُ الْمَخْلُوقَاتِ بَعْدَ تَعَرُّفِهَا آيَةً مُوجِبَةً لِعِبَادَةِ اللَّهِ وَخَدَهُ	١٣١
٣٠	اللَّهُ تَعَالَى يُؤَاخِذُ بِالذَّنْبِ وَمَا يَعْفُو عَنْهُ أَكْثَرَ - أَحَادِيثُ فِي الْمَعْنَى	١٣٢
٣١	قُدْرَةُ اللَّهِ تَعَالَى لَا يُعْجِزُهَا شَيْءٌ	١٣٦
٣٥-٣٢	ثَالِثًا: جَرَى السُّفْنِ وَتَوَقُّفُهَا فِي الْبَحَارِ مِنْ دَلَالِلِ الْقُدْرَةِ الْإِلَهِيَّةِ	١٣٧
٣٦	ثَلَاثَةُ عَشَرَ صِفَةً لِلْمُؤْمِنِينَ فِي هَذِهِ السُّورَةِ - الْوُضْعَانِ الْأَوَّلُ وَالثَّانِي: الْإِيمَانُ وَالتَّوَكُّلُ	١٣٩
٣٧	الْوُضْعُ الثَّلَاثُ اجْتِنَابُ الْكِبَارِ وَالْفَوَاحِشِ - الْوُضْعُ الرَّابِعُ: ﴿وَلِذَا مَا عَصَبُوا هُمْ يَقْتُرُونَ﴾	١٤٠
٣٨	الْخَامِسُ: ﴿وَالَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمْ﴾ - السَّادِسُ: ﴿وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ﴾ السَّابِعُ: ﴿وَأَنزَلْنَا سُرُوحًا عَلَيْهِمْ﴾	١٤٣
٣٩	الْوُضْعُ الثَّامِنُ: ﴿وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُقْتَرُونَ﴾ - الْوُضْعُ الثَّاسِعُ: الْإِنْتِصَارُ مِنَ الْبَاغِي	١٤٤
٤٠	الْوُضْعُ الْعَاشِرُ وَالْحَادِي عَشَرَ: الْعَدْلُ وَالْفَضْلُ	١٤٦

الآية	فهرس المـ وـعـات	الصفحة
٤٢، ٤١	الْوَصْفُ الثَّانِي عَشَرَ: دَفْعُ الصَّائِلِ	١٤٩
٤٣	الوصف الثالث عشر: الصَّبْرُ وَالصَّفْحُ	١٥٠
٤٦-٤٤	أَهْلُ الصَّلَالِ تُسَدُّ عَلَيْهِمْ طُرُقُ النَّجَاةِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ	١٥١
٤٧	تَنْبِيْهِ وَإِنْدَارٌ	١٥٣
٤٨	وِظِيْفَةُ الرُّسُولِ وَطَبِيعَةُ الْإِنْسَانِ	١٥٥
٥٠، ٤٩	أَخْوَالُ النَّاسِ فِي الْإِنْتِجَابِ وَعَدَمِهِ يَجْرِي وَفَقَ عِلْمُ اللَّهِ تَعَالَى وَحِكْمَتِهِ	١٥٦
٥١	أَنْوَاعُ الْوَحْيِ - أَحَادِيثُ فِي الْمَعْنَى	١٥٨
٥٣، ٥٢	هَذَايَةِ الْبَشَرِ عَلَى يَدِ أُمِّي الْعَرَبِ	١٦٢
	تَفْسِيرُ سُورَةِ الرُّخْرِفِ (٤٣) - مُقَدِّمَةُ السُّورَةِ - مَوْضُوعَاتُهَا وَمَقَاطِعُهَا	١٦٤
٢، ١	تَفْسِيرُ السُّورَةِ - فَاتِحَةُ السُّورَةِ	١٦٨
٤، ٣	عُرُوبَةُ الْقُرْآنِ وَعُلُوُّ مَكَانَتِهِ	١٦٩
٨-٥	الدَّاعِيَةُ إِلَى اللَّهِ يَمْضِي فِي دَعْوَتِهِ وَإِنْ أَغْرَضَ عَنْهُ النَّاسُ وَآذَوْهُ	١٧٠
٩	الْمُشْرِكُونَ يَغْتَرِفُونَ بِوُجُودِ الْخَالِقِ وَلَكِنَّهُمْ لَا يَتَوَجَّهُونَ لَهُ بِالْعِبَادَةِ	١٧٢
١٠	ثَلَاثَةُ أَدِلَّةٍ عَلَى وَحْدَانِيَةِ الْخَالِقِ سُبْحَانَهُ: الْأَوَّلُ: بَسْطُ الْأَرْضِ وَتَسْخِيرُهَا	١٧٣
١١	الدَّلِيلُ الثَّانِي: نِعْمَةُ الْمَاءِ	١٧٤
١٢	الدَّلِيلُ الثَّلَاثُ: تَسْخِيرُ وَسَائِلِ الْإِنْتِقَالِ لِلْإِنْسَانِ	١٧٥
١٤، ١٣	دُعَاءُ السَّفَرِ بِالْقَلْبِ وَاللِّسَانِ - أَدْعِيَةُ الرُّكُوبِ فِي السَّفَرِ	١٧٦
١٧، ١٥	إِنْطَالُ خُرَافَةٍ أَنَّ الْمَلَائِكَةَ بَنَاتُ اللَّهِ	١٧٩
١٨	وَضَفُّ الْأُنْتَى بِالزَّيْنَةِ وَالصَّغْفِ	١٨١
٢١-١٩	إِنْطَالُ الرُّغْمِ بِأَنَّ الْمَلَائِكَةَ إِنَاثٌ بِالدَّلِيلِ الْعَقْلِيِّ وَالتَّقْلِي	١٨٢
٢٣، ٢٢	السَّبَبُ الْوَحِيدُ هُوَ تَقْلِيدُ الْأَبَاءِ وَالْأَجْدَادِ - التَّقْلِيدُ سُنَّةٌ جَارِيَةٌ فِي الْأُمَمِ	١٨٥
٢٥، ٢٤	عُقُوبَةُ مَنْ أَصَرَ عَلَى مُخَالَفَةِ هَذِي الرُّسُلِ	١٨٦
٢٧، ٢٦	ثَلَاثَةُ أَمْثِلَةٍ مِنْ دَعْوَةِ الرُّسُلِ إِلَى تَوْحِيدِ اللَّهِ تَعَالَى - أَوَّلًا: دَعْوَةُ إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ	١٨٧
٢٨	اسْتِمْرَارُ التَّوْحِيدِ فِي نَسْلِ إِبْرَاهِيمَ	١٨٨
٣٠، ٢٩	ثَانِيًا: دَعْوَةُ مُحَمَّدٍ ﷺ إِلَى التَّوْحِيدِ	١٩٠
٣٢، ٣١	اللَّهُ أَغْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ	١٩٢
٣٥-٣٣	التَّوْبِيعَةُ فِي الرَّزْقِ لَيْسَتْ دَلِيلًا عَلَى مَحَبَّةِ اللَّهِ تَعَالَى - أَحَادِيثُ فِي الْمَعْنَى	١٩٥
٣٩-٣٦	تَسْلِيْطُ النَّيَاطِيْنِ عَلَى أَهْلِ الصَّلَالِ عُقُوبَةٌ لَهُمْ - أَحَادِيثُ فِي الْمَعْنَى	١٩٩
٤٠	لَا سَبِيلَ إِلَى هَذَايَةِ مَنْ اسْتَحَبَّ الْكُفْرَ عَلَى الْإِيمَانِ	٢٠٣
٤٢، ٤١	حُلُولُ الْعِقَابِ بِالْكَفَّارِ حَاصِلٌ إِنْ عَاجَلَا أَوْ أَجَلَا	٢٠٤
٤٤-٤٣	الْتِمَسُّكُ بِالنِّكَتَابِ وَالسُّنَّةِ فِي مُوَاجَهَةِ أَهْلِ الصَّلَالِ - أَحَادِيثُ فِي الْمَعْنَى	٢٠٥
٤٥	تَوْحِيدُ اللَّهِ تَعَالَى جَاءَتْ بِهِ كُلُّ رِسَالَةٍ	٢٠٨

الآية	فهرس الم	وج	وعات	الصفحة
٤٦	ثَالِثًا: قِصَّةُ مُوسَى مَعَ فِرْعَوْنَ.....			٢١٠
٤٨، ٤٧	اسْتِخْفَافُ فِرْعَوْنَ وَقَوْمِهِ بِمَا جَاءَ بِهِ مُوسَى مِنْ مُعْجَزَاتٍ.....			٢١٠
٥٠، ٤٩	فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُ يَظْلُمُونَ مِنْ مُوسَى رَفَعَ الْعَذَابَ عَنْهُمْ.....			٢١١
٥١	فِرْعَوْنُ يُعْظِمُ نَفْسَهُ.....			٢١٢
٥٢	فِرْعَوْنُ يَتَّقِصُ مِنْ شَأْنِ مُوسَى ﷺ.....			٢١٣
٥٣	شُهَتَانِ لِفِرْعَوْنَ الْأُولَى: أَنَّ مُوسَى يَفْتَقِدُ شِعَارَ الْمُلُوكِ - الثَّانِيَّةُ: عَدَمُ تَصْدِيقِ الْمَلَائِكَةِ لَهُ.....			٢١٤
٥٤	أَسْرَى الْإِسْتِعْبَادِ الطَّوِيلِ يَجْنُونَ ثَمَرَةَ ضَعْفِهِمْ وَخُنُوعِهِمْ.....			٢١٥
٥٦، ٥٥	الْوَحْيُ يَصِلُ الْأَرْضَ بِالسَّمَاءِ.....			٢١٦
٥٨، ٥٧	جَدَلٌ حَوْلَ مَصِيرِ عِيسَى فِي الْآخِرَةِ.....			٢١٨
٥٩	عِيسَى عَبْدُ اللَّهِ وَرَسُولُهُ.....			٢٢٣
٦٠	الْمَلَائِكَةُ مَسْكُونُهُنَّ السَّمَوَاتِ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَأَسْكَنَهُنَّ الْأَرْضَ.....			٢٢٤
٦٢، ٦١	نُزُولُ عِيسَى ﷺ لِيَنْظُمَ إِلَى الْعَالَمِ الْإِسْلَامِيِّ وَيُؤَكِّدَ دَعْوَةَ التَّوْحِيدِ.....			٢٢٥
٦٤، ٦٣	مَوْقِفُ بَنِي إِسْرَائِيلَ مِنْ دَعْوَةِ عِيسَى ﷺ.....			٢٢٦
٦٦، ٦٥	تَفَرُّقُ بَنِي إِسْرَائِيلَ شِيْعًا وَأَحْزَابًا - أَهَمُ فِرْقِ الْيَهُودِ وَالنَّصَارَى.....			٢٢٨
٦٧	ثَمَرَةُ الْحُبِّ فِي اللَّهِ وَالْبُغْضِ فِي اللَّهِ.....			٢٣٠
٧٠-٦٨	بُشْرَى لِلْمُتَحَابِّينَ فِي اللَّهِ.....			٢٣١
٧١	مِنْ نَعِيمِ أَهْلِ الْجَنَّةِ.....			٢٣٣
٧٣، ٧٢	دُخُولُ الْجَنَّةِ بِفَضْلِ اللَّهِ، وَدَرَجَاتُ أَهْلِهَا بِحَسَبِ أَعْمَالِهِمْ - الْوَرْدُ مِنْ نَعِيمِهِمْ.....			٢٣٥
٧٦، ٧٤	أَهْلُ الشَّقَاءِ وَعَذَابُهُمْ.....			٢٣٨
٧٨، ٧٧	أَهْلُ النَّارِ يَسْتَغِيثُونَ بِخَازِنِهَا.....			٢٣٩
٧٩	مِنْ الْأَسْبَابِ الْمُوجِبَةِ لِعَذَابِ أَهْلِ النَّارِ.....			٢٤١
٨٠	اللَّهُ تَعَالَى مُحِيطٌ بِمَا يُدَبَّرُ فِي السِّرِّ وَالْعَلَنِ.....			٢٤٢
٨٣-٨١	تَنْزِيهِ اللَّهِ تَعَالَى عَنِ اتِّخَاذِ الْوَلَدِ.....			٢٤٣
٨٤	اللَّهُ تَعَالَى هُوَ الْمَعْبُودُ لِأَهْلِ الْأَرْضِ وَأَهْلِ السَّمَاءِ.....			٢٤٦
٨٥	اللَّهُ تَعَالَى يَمْلِكُ الْعَالَمَ الْبَاقِي وَالْعَالَمَ الْفَاقِي.....			٢٤٨
٨٦	الشَّفَاعَةُ الْمَرْدُودَةُ وَالشَّفَاعَةُ الْمُقْبُولَةُ.....			٢٤٨
٨٧	تَنَاقُصُ الْمُشْرِكِينَ بَيْنَ أَقْوَالِهِمْ وَأَفْعَالِهِمْ.....			٢٤٩
٨٨	الرَّسُولُ ﷺ يَشْكُو غَيْرَ الْمُؤْمِنِينَ إِلَى رَبِّهِ.....			٢٥٠
٨٩	إِجَابَةُ اللَّهِ تَعَالَى لِرَسُولِهِ.....			٢٥١
٢٥٣	تَفْسِيرُ سُورَةِ الدُّخَانِ (٤٤) - مُقَدِّمَةُ السُّورَةِ - مقاطعها الثلاث - من الآثار فيها.....			٢٥٣
٣-١	تَفْسِيرُ السُّورَةِ - تَقْدِيرُ أُمُورِ الْعِبَادِ فِي اللَّيْلَةِ الْمُبَارَكَةِ.....			٢٥٧
٨-٤	أَرْسَلَ اللَّهُ الرُّسُلَ رَحْمَةً لِلْعِبَادِ.....			٢٦٠

الآية	فهرس الم - و - وعاءات	الصفحة
١٢-٩	الدُّخَانُ الْمُرتَقَبُ - اتجاهات أربع في المراد به وأدلتها	٢٦٣
١٥-١٣	اسْتِيعَادُ إِيْمَانِ الْكُفَّارِ	٢٦٧
١٧، ١٦	الْبُظْشَةُ الْكُبْرَى - الإغْتِيَارُ بِمَا حَدَثَ لِفِرْعَوْنَ وَقَوْمِهِ مِنْ عِقَابٍ	٢٧٠
١٩، ١٨	مُوسَى يَطْلُبُ مِنْ فِرْعَوْنَ إِظْلَاقَ سَرَاحِ بَنِي إِسْرَائِيلَ	٢٧١
٢١، ٢٠	فِرْعَوْنُ يَتَوَعَّدُ مُوسَى بِالرَّجْمِ	٢٧٢
٢٢	مُوسَى يَدْعُو عَلَى فِرْعَوْنَ وَقَوْمِهِ	٢٧٣
٢٤، ٢٣	أَمْرُ اللَّهِ لِمُوسَى أَنْ يَخْرُجَ بِبَنِي إِسْرَائِيلَ مِنْ مِصْرَ	٢٧٣
٢٨-٢٥	وَرَاثَةُ بَنِي إِسْرَائِيلَ لِثَمَلِ حَضَارَةِ فِرْعَوْنَ وَقَوْمِهِ	٢٧٥
٢٩	بُكَاءُ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ عَلَى مَنْ مَاتَ مُؤْمِنًا - آثار في المعنى	٢٧٦
٣١، ٣٠	ثَلَاثٌ مِنْ نِعَمِ اللَّهِ عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ - النُّعْمَةُ الْأُولَى: نِعْمَةُ إِنْجَائِهِمْ مِنْ دُلِّ فِرْعَوْنَ وَقَهْرِهِ	٢٧٨
٣٢	النُّعْمَةُ الثَّانِيَّةُ: تَفْضِيلُ بَنِي إِسْرَائِيلَ - لِأَنَّهُمْ أَهْلُ كِتَابٍ - عَلَى الْوَتَنِيسِ	٢٧٨
٣٣	النُّعْمَةُ الثَّالِثَةُ: مَا حَبَّاهُمْ اللَّهُ بِهِ مِنْ نِعَمٍ وَهُمْ فِي التَّيِّدِ	٢٧٩
٣٦-٣٤	الْيَهُودُ مُنْكَرُوا الْبَغْيِ وَالنُّشُورِ	٢٨٠
٣٧	عَاقِبَةُ الظُّلْمَةِ فِي كُلِّ عَصْرِ وَاحِدَةٍ	٢٨١
٣٩، ٣٨	الْحِكْمَةُ مِنْ خَلْقِ هَذَا الْكَوْنِ	٢٨٢
٤٢، ٤٠	يَوْمُ الْقِيَامَةِ هُوَ يَوْمُ إِخْفَاقِ الْحَقِّ	٢٨٤
٥٠-٤٣	طَعَامُ أَهْلِ النَّارِ وَعَذَابُهُمْ	٢٨٥
٥٢، ٥١	نَعِيمُ أَهْلِ الْجَنَّةِ وَتَأْيِينُ مَطَالِبِهِمْ - الْمَطْلَبُ الْأَوَّلُ الْمَسْكُونُ الْأَمِينُ - الْمَطْلَبُ الثَّانِي: الطَّعَامُ وَالشَّرَابُ	٢٨٨
٥٤، ٥٣	الْمَطْلَبُ الثَّالِثُ: الْمَلْبَسُ وَشَرُّ الْعَوْرَةِ - الْمَطْلَبُ الرَّابِعُ: زُوجَاتُ أَهْلِ الْجَنَّةِ مِنَ الْحُورِ الْعِينِ	٢٨٩
٥٥	الْمَطْلَبُ الْخَامِسُ: مَا يُؤْكَلُ لِلتَّلَذُّذِ وَالتَّمَكُّهِ	٢٩٠
٥٧، ٥٦	الْمَطْلَبُ السَّادِسُ: دَوَامُ النِّعَمِ فِي الْجَنَّةِ	٢٩١
٥٨	خِتَامُ السُّورَةِ بِمَا بُدِئَتْ بِهِ	٢٩٢
٥٩	الْمُسْتَقْبَلُ لِلْإِسْلَامِ وَأَهْلِهِ إِنْ شَاءَ اللَّهُ	٢٩٣
٢٩٤	تَفْسِيرُ سُورَةِ الْجَانِّيَةِ (٤٥) - مُقَدِّمَةُ السُّورَةِ - مقطعيها - محور السورة	٢٩٤
٢٩٨	تَفْسِيرُ السُّورَةِ - افْتِتَاحُ السُّورَةِ - بِسْمَةُ أَدْلَةٍ كَوْنِيَّةٍ عَلَى وَحْدَانِيَّةِ اللَّهِ تَعَالَى وَقُدْرَتِهِ	٢٩٨
٣	الدَّلِيلُ الْأَوَّلُ: خَلْقُ السَّمَكِ وَالْأَرْضِ	٢٩٨
٤	الدَّلِيلُ الثَّانِي: خَلْقُ الْإِنْسَانِ - الدَّلِيلُ الثَّالِثُ: ﴿وَمَا يَدَّبُّ مِنْ دَابِّ﴾	٢٩٩
٦٠٥	الرَّابِعُ: ﴿وَأَخْلَافَ الْبَيْتِ وَالْأَهْكَارِ﴾ الْخَامِسُ: ﴿وَمَا أَرْزَلَهُ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ رِزْقٍ فَآخِيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا﴾	٣٠٠
٣٠١	الدَّلِيلُ السَّادِسُ: ﴿وَتَصْرِيفِ الرِّيحِ﴾	٣٠١
٩-٧	الْوَعْدُ الشَّدِيدُ لِمَنْ لَا يَتَّقِعُونَ بِدَلَالِ آيَاتِ اللَّهِ تَعَالَى	٣٠٣
١٠	عِقَابُ الْمُسْتَهْزِئِينَ بِآيَاتِ اللَّهِ	٣٠٥
١٢، ١١	بُشْرَى وَإِنْذَارٌ - الْبَحْرُ الْعَظِيمُ مُسَحَّرٌ لِلْإِنْسَانِ الضَّعِيفِ	٣٠٦

الآية	فهرس المـ وحات	الصفحة
١٣	كُلُّ مَا فِي الْكَوْنِ مُسَخَّرٌ لِيُخْدَمَ الْإِنْسَانَ	٣٠٧
١٥-١٤	أَدَّبَ الْإِسْلَامُ فِي التَّسَامُحِ مَعَ غَيْرِ الْمُسْلِمِينَ - أيام الله - أسباب النزول	٣٠٨
١٧-١٦	يَعْمُ سِتُّ أَنْعَمَ اللَّهُ بِهَا عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ	٣١٢
٢٠-١٨	انْتِقَالَ الرِّسَالَةِ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ إِلَى الْعَرَبِ	٣١٥
٢١	لَا يَسْتَوِي الْبَرُّ وَالْفَاجِرُ	٣١٧
٢٢	الْمَقْصُودُ مِنْ خَلْقِ الْعَالَمِ : إِظْهَارُ الْحَقِّ وَالْعَدْلِ بَيْنَ مَنْ أَطَاعَ وَمَنْ عَصَى	٣٢٠
٢٣	اتِّبَاعُ هَوَى النَّفْسِ ضَلَالٌ مُهِلِكٌ - أحاديث في المعنى	٣٢٠
٢٦-٢٤	الدَّهْرِيُّونَ وَالرَّدُّ عَلَيْهِمْ	٣٢٥
٢٨، ٢٧	مِنْ مَشَاهِدِ الْقِيَامَةِ - الْأُمَمُ تَجُتَوِ بَيْنَ يَدَيِ الْخَالِقِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ تَرْقُبُ مَصِيرَهَا	٣٢٨
٢٩	الْمَلَائِكَةُ تَنْسَخُ أَعْمَالَ الْعِبَادِ مِنَ اللَّوْحِ الْمَحْفُوظِ وَتُسَجِّلُهَا فِي صُحُفٍ أَعْمَالِهِمْ	٣٣٠
٣١، ٣٠	النَّاسُ فَرِيقَانِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ	٣٣٢
٣٤-٣٢	إِنْكَارُ السَّاعَةِ أَوْ الشُّكُّ فِي قِيَامِهَا كُفْرٌ	٣٣٣
٣٥	مِنْ أَشْنَابِ عَذَابِ الْكُفَّارِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ	٣٣٤
٣٧، ٣٦	حَقُّ الرُّبُوبِيَّةِ	٣٣٥
٣٣٧	تَفْسِيرُ سُورَةِ الْأَخْقَافِ (٤٦) - مَقْدَمَةُ السُّورَةِ - مقاطعها الأربع	٣٣٧
٢٠، ١	تَفْسِيرُ السُّورَةِ - الْكِتَابُ الْمَقْرُوءُ وَالْكِتَابُ الْمَنْظُورُ فِي صَفَحَاتِ الْكَوْنِ - أَوَّلًا : الْكِتَابُ الْمَقْرُوءُ	٣٤١
٣	ثَانِيًا : الْكِتَابُ الْمَنْظُورُ	٣٤٢
٤	قَضِيَّةُ التَّوْحِيدِ وَالشِّرْكِ فِي مُنَاطَرَةٍ تَتَكَوَّنُ مِنْ ثَلَاثِ حُجَجٍ	٣٤٣
٦، ٥	لَا أَحَدٌ أَضَلُّ مِمَّنْ يَدْعُو غَيْرَ اللَّهِ تَعَالَى - الْعِدَاوَةُ بَيْنَ الْعَابِدِ وَالْمُغْبُودِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ	٣٤٦
٧	قَضِيَّةُ الْوَحْيِ وَالرِّسَالَةِ : دَعَايَ أَنَّ الْقُرْآنَ سِحْرٌ	٣٤٧
٨	إِنْطِلَالُ الْقَوْلِ بِأَنَّ الْقُرْآنَ مُفْتَرَى	٣٤٨
٩	لَسْتُ أَوَّلَ رَسُولٍ وَلَا عِلْمٌ لِي بِالْمُسْتَقْبَلِ إِلَّا عَنْ طَرِيقِ الْوَحْيِ - الرسول يعلم ما يفعل به في الآخرة	٣٤٩
١٠	لَا عُدْرَ لِأَهْلِ الْكِتَابِ فِي إِنْكَارِ الْوَحْيِ الْمُنَزَّلِ عَلَى مُحَمَّدٍ ﷺ - شاهد بني إسرائيل على مثل القرآن .	٣٥٣
١١	احْتِقَارُ الضُّعَفَاءِ أَمْرٌ مَذْمُومٌ يَمُفِّتُهُ الْإِسْلَامُ	٣٥٧
١٢	الْوَحْيُ الَّذِي نَزَلَ عَلَى مُوسَى هُوَ الْوَحْيُ الَّذِي نَزَلَ بِالْكِتَابِ الْمُهِيمِ	٣٥٩
١٤، ١٣	الْإِحْسَانُ إِيْمَانٌ وَاسْتِيقَامَةٌ	٣٦٠
١٦، ١٥	بِرُّ الْوَالِدَيْنِ قَرِينُ الْإِيْمَانِ - مدة الحمل - بلوغ الأشد والدعاء للنفس وللوالدين - في سبب النزول	٣٦١
١٩-١٧	عُقُوقُ الْوَالِدَيْنِ قَرِينُ الْكُفْرِ - الآية عامة في كل كافر عاق لوالديه	٣٦٨
٢٠	الْكَافِرُ تُعْجَلُ لَهُ طَيِّبَاتُهُ فِي الدُّنْيَا	٣٧٣
٢١	هَلَاكَ قَوْمٍ عَادٍ مَثَلٌ يُضْرَبُ لِمَصَارِعِ الظَّالِمِينَ	٣٧٦
٢٣، ٢٢	الْجَوَارِ بَيْنَ هُودٍ وَقَوْمٍ عَادٍ	٣٧٨
٢٥، ٢٤	عَذَابُ قَوْمٍ عَادٍ يَلُوحُ فِي الْأَفَقِ	٣٧٩

الآية	فهرس الم	وحدات	الصفحة
٢٦	الْبَيْتَةُ مِنْ قِصَّةِ قَوْمِ عَادٍ	٣٨١	
٢٨، ٢٧	الْبَيْتَةُ بِمَا نَزَلَ بِالْأَمَمِ الْأُخْرَى مِنْ عَقَابٍ	٣٨٣	
٢٩	قِصَّةُ إِيْمَانِ الْجَنِّ وَقِيَامِهِمْ بِوَاجِبِ الدَّعْوَةِ إِلَى اللَّهِ - عدد لقاءات النبي ﷺ بالجن	٣٨٤	
٣٢-٣٠	عَوْدَةُ الْجَنِّ إِلَى بَنِي جَنْسِهِمْ يَلْعَنُونَهُمْ دَعْوَةُ اللَّهِ	٣٩٣	
٣٣	قِصَّةُ الْبُعْثِ وَالنُّشُورِ	٣٩٦	
٣٥، ٣٤	مِنْ مَشَاهِدِ الْقِيَامَةِ - لَا بُدَّ لِنَشْرِ الدَّعْوَةِ مِنَ الْعَزْمِ وَالصَّبْرِ	٣٩٧	
	تَفْسِيرُ سُورَةِ مُحَمَّدٍ - مُقَدِّمَةُ السُّورَةِ - أَتْبَاعُ الْحَقِّ وَأَتْبَاعُ الْبَاطِلِ	٤٠١	
	الْجِهَادُ ضَرُورَةٌ حَتْمِيَّةٌ لِرُدِّ الْعُدْوَانِ وَتَأْمِينِ طَرِيقِ الدَّعْوَةِ: مَجْمَلٌ مَا فِي السُّورَةِ	٤٠٢	
٣-١	تَفْسِيرُ السُّورَةِ - ضَلَالُ الْكُفَّارِ وَاهْتِدَاءُ الْمُؤْمِنِينَ وَسَبَبُ ذَلِكَ	٤٠٥	
٦-٤	قَاعِدَةُ التَّعَامُلِ مَعَ غَيْرِ الْمُسْلِمِينَ الْمُحَارِبِينَ - حَدِيثُ ثُمَامَةَ بْنِ أَنَالٍ - حِكْمَةُ مَشْرُوعِيَّةِ الْجِهَادِ	٤٠٨	
	فِي ثَوَابِ الشَّهَدَاءِ	٤١٣	
٩-٧	قَاعِدَةُ النَّصْرِ عَلَى الْعَدُوِّ	٤١٥	
١١، ١٠	الْعَاقِلُ مَنْ اتَّعَظَ بِغَيْرِهِ	٤١٧	
١٢	حُطُّ الْمُؤْمِنِ وَحُطُّ الْكَافِرِ فِي الْآخِرَةِ	٤١٨	
١٣	لِكُلِّ طَاعِيَةٍ نِهَآيَةٌ	٤١٩	
١٤	الْمُؤْمِنُ وَالْكَافِرُ لَا يَسْتَوِيَانِ	٤٢٠	
١٥	شَرَابُ أَهْلِ الْجَنَّةِ وَشَرَابُ أَهْلِ النَّارِ - أَحَادِيثُ فِي الْمَعْنَى	٤٢١	
١٧، ١٦	الْمُنَافِقُونَ وَالْمُؤْمِنُونَ	٤٢٥	
١٨	وُجُوبُ الْمُبَادَرَةِ بِصَالِحِ الْأَعْمَالِ قَبْلَ قِيَامِ السَّاعَةِ - أَحَادِيثُ فِي الْمَعْنَى	٤٢٧	
١٩	الِاسْتِعْدَادُ لِلْآخِرَةِ بِالتَّوَجُّيدِ وَالِاسْتِغْفَارِ وَمُرَاقَبَةِ اللَّهِ تَعَالَى - أَحَادِيثُ فِي الْمَعْنَى	٤٣١	
٢١، ٢٠	لِلْمُنَافِقِينَ فِي السُّورَةِ عَشْرَةُ أَوْصَافٍ - الْوَصْفُ الْأَوَّلُ: كَرَاهِيَةُ الْجِهَادِ	٤٣٤	
٢٣، ٢٢	الْوَصْفُ الثَّانِي لِلْمُنَافِقِينَ: قَطِيعَةُ الرَّجَمِ - أَحَادِيثُ فِي الْمَعْنَى	٤٣٧	
٢٤	الْوَصْفُ الثَّالِثُ: عَدَمُ تَدَبُّرِ الْقُرْآنِ وَعَدَمُ الْإِنْتِفَاحِ بِمَا فِيهِ	٤٤٠	
٢٥	الْوَصْفُ الرَّابِعُ لِلْمُنَافِقِينَ: - الرُّجُوعُ عَنِ الْحَقِّ إِلَى الضَّلَالِ	٤٤١	
٢٦	الْوَصْفُ الْخَامِسُ: إِزْضَاءُ غَيْرِ الْمُسْلِمِينَ عَلَى حِسَابِ الدِّينِ	٤٤٢	
٢٧	الْوَصْفُ السَّادِسُ: سُوءُ خَاتِمَةِ الْمُنَافِقِينَ عِنْدَ الْمَوْتِ	٤٤٤	
٢٨	الْوَصْفُ السَّابِعُ: إِبْطَالُ ثَوَابِ أَعْمَالِ الْمُنَافِقِينَ الصَّالِحَةِ	٤٤٤	
٢٩	الْوَصْفُ الثَّامِنُ: كَشْفُ مَا فِي قُلُوبِ الْمُنَافِقِينَ مِنَ الضَّعَائِنِ	٤٤٥	
٣٠	الْوَصْفُ الثَّاسِعُ: ظُهُورُ التَّفَاقِي فِي تَقَاسِيمِ الْوُجُوهِ وَفَلَتَاتِ اللِّسَانِ	٤٤٥	
٣١	الْوَصْفُ الْعَاشِرُ: إِظْهَارُ مَكُونِ صُدُورِ أَهْلِ التَّفَاقِي لِلْحَلَّاقِي	٤٤٧	
٣٢	دِينُ اللَّهِ تَعَالَى لَا يَضُرُّهُ كُفْرُ الْكَافِرِ وَلَا طَاعَةُ الْمُؤْمِنِ	٤٤٨	
٣٣	أَرْبَعُ صِفَاتٍ لِلْمُؤْمِنِينَ فِي هَذِهِ الْآيَةِ	٤٤٩	

الآية	فهرس الم	وجات	الصفحة
٣٤	مَنْ مَاتَ عَلَى كُفْرِهِ لَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُ	٤٥١	٤٥١
٣٥	قَبُولُ الصُّلْحِ وَرَفْضُهُ يَتَوَقَّفُ عَلَى مَصْلَحَةِ الْمُسْلِمِينَ مَعَ الْعَدُوِّ	٤٥٢	٤٥٢
٣٧-٣٦	حُبُّ الدُّنْيَا رَأْسُ كُلِّ خَطِيئَةٍ	٤٥٤	٤٥٤
٣٨	تَرْكُ الْجِهَادِ بِالْمَالِ يَهْدُذُ الْأُمَّةَ بِالرَّوَالِ	٤٥٦	٤٥٦
	تَفْسِيرُ سُورَةِ الْفَتْحِ (٤٨) - مَقْدَمَةُ السُّورَةِ - مَقَاطِعُهَا - أَحَادِيثُ فِيهَا	٤٥٩	٤٥٩
	نَبْذَةُ عَنْ صَلَاحِ الْحَدِيثِ - تَنَازُلَاتُ فِي صَلَاحِ الْحَدِيثِ لِحِفْظِ الدِّمَاءِ - قِصَّةُ أَبِي بَصِيرٍ	٤٦٤	٤٦٤
٣-١	تَفْسِيرُ السُّورَةِ - أَرْبَعُ نِعَمٍ جَمَعَهَا اللَّهُ تَعَالَى لِنَبِيِّهِ ﷺ فِي آيَاتٍ ثَلَاثٍ	٤٧٠	٤٧٠
٤	أَرْبَعُ نِعَمٍ أَنْعَمَ اللَّهُ بِهَا عَلَى الْمُؤْمِنِينَ فِي هَذِهِ الْآيَةِ وَمَا بَعْدَهَا	٤٧٢	٤٧٢
	أَوَّلًا: تَزُولُ السَّيِّئَةُ عَلَيْهِمْ - ثَانِيًا: النَّصْرُ عَلَى الْعَدُوِّ	٤٧٣	٤٧٣
٥	ثَالِثًا: دُخُولُ الْجَنَّاتِ رِجَاعًا: تَكْفِيرُ السَّيِّئَاتِ	٤٧٥	٤٧٥
٦	وَعِيدٌ لِلْمُنَافِقِينَ وَالْمُشْرِكِينَ بِأَرْبَعَةِ أَشْيَاءَ	٤٧٦	٤٧٦
٧	جُنُودُ الرَّحْمَةِ وَجُنُودُ الْعَذَابِ	٤٧٨	٤٧٨
٨	ثَلَاثَةُ أَوْصَافٍ لِلنَّبِيِّ ﷺ	٤٧٩	٤٧٩
٩	أَرْبَعَةُ أَسْبَابٍ لِرِسَالَةِ النَّبِيِّ ﷺ	٤٨٠	٤٨٠
١٠	الْإِشَادَةُ بِمَنْ بَايَعَ النَّبِيَّ ﷺ يَوْمَ الْحُدَيْبِيَّةِ - سَبَبُ الْبَيْعَةِ - أَحَادِيثُ فِي الْمَعْنَى	٤٨١	٤٨١
١١	الْإِعْلَامُ الْمُسَبِّقُ بِأَعْذَارِ الْمُتَخَلِّفِينَ عَنِ الْخُرُوجِ إِلَى الْحُدَيْبِيَّةِ	٤٨٥	٤٨٥
١٢	السَّبَبُ الْحَقِيقِيُّ لَتَخَلُّفِ الْأَعْرَابِ عَنِ الْخُرُوجِ مَعَ الرَّسُولِ ﷺ	٤٨٧	٤٨٧
١٣	عَدَمُ الْإِيمَانِ بِاللَّهِ وَالرَّسُولِ يُؤَدِّي إِلَى نَارِ السَّعِيرِ	٤٨٧	٤٨٧
١٤	وَعِيدٌ لِلْمُنَافِقِينَ فِيهِ إِمْهَالٌ وَرَجَاءٌ	٤٨٨	٤٨٨
١٥	الْوَعْدُ بِفَتْحِ خَيْبَرَ عَلَى أَيْدِي أَهْلِ الْحُدَيْبِيَّةِ وَخَدْمِهِمْ - غَزْوَةُ خَيْبَرَ: - الشَّاةُ الْمَسْمُومَةُ	٤٨٨	٤٨٨
١٦	الْوَعْدُ بِالْخُرُوجِ إِلَى حُتَيْنٍ	٤٩٢	٤٩٢
١٧	أَهْلُ الْأَعْذَارِ فِي الْحَرْبِ	٤٩٣	٤٩٣
١٩، ١٨	بَيْعَةُ الرِّضْوَانِ	٤٩٤	٤٩٤
٢٠	سَبْعُ مَنَنِ امْتَنَّ اللَّهُ بِهَا عَلَى أَهْلِ بَيْعَةِ الرِّضْوَانِ - الْوَيْلَةُ الْأُولَى: كَثْرَةُ الْقُتُوحَاتِ وَالْمَعَانِمِ	٤٩٧	٤٩٧
	الْوَيْلَةُ الثَّانِيَّةُ: ﴿وَكَلَّ أَيْدِيَ النَّاسِ عَنْكُمْ﴾ - الْوَيْلَةُ الثَّالِثَةُ: ﴿وَلَيَكُونَنَّ مَكَايِدَ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾	٤٩٨	٤٩٨
٢١	الْوَيْلَةُ الرَّابِعَةُ: ﴿وَيَهْدِيكُمْ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا﴾ - الْوَيْلَةُ الْخَامِسَةُ: الْوَعْدُ بِفَتْحِ فَارِسَ وَالرُّومِ	٤٩٨	٤٩٨
٢٣-٢٢	الْوَيْلَةُ السَّادِسَةُ: الرَّفْعُ مِنْ مَعْنَوِيَّاتِ أَهْلِ الْحُدَيْبِيَّةِ	٥٠٠	٥٠٠
٢٤	الْوَيْلَةُ السَّابِعَةُ: صِيَانَةُ الدِّمَاءِ فِي الْبَلَدِ الْحَرَامِ	٥٠١	٥٠١
٢٥	اسْتِخْقَاقُ الْكُفَّارِ لِلْعَذَابِ وَاسْتِخْقَاقُ الْمُؤْمِنِينَ لِلرَّحْمَةِ	٥٠٣	٥٠٣
٢٦	تَشْفِي الْكَافِرِينَ وَتَبَاتُ الْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ الْحُدَيْبِيَّةِ	٥٠٦	٥٠٦
٢٦	رُؤْيَا الرَّسُولِ ﷺ بِدُخُولِ الْحَرَمِ قَبْلَ أَحْدَاثِ الْحُدَيْبِيَّةِ	٥٠٨	٥٠٨
٢٨	الرَّسَالَةُ الْعَالَمِيَّةُ	٥١٠	٥١٠

الآية	فهرس الم	وحدات	الصفحة
٢٩	أَرْبَعَةُ أَوْصَافٍ لِمُحَمَّدٍ ﷺ وَصَحْبِهِ وَمَثَلَانِ لَهُمْ - أحاديث في فضل الصحابة	٥١١	٥١١
	تَفْسِيرُ سُورَةِ الْحُجُرَاتِ (٤٩) - مُقَدِّمَةُ السُّورَةِ - نداءات السورة الخمس، ومقاطعها الثلاث	٥٢٢	٥٢٢
١	تَفْسِيرُ السُّورَةِ - لَأَشْيَاءٌ يَتَقَدَّمُ حُكْمُ اللَّهِ وَرَسُولِهِ - سبب النزول	٥٢٦	٥٢٦
٣-٢	وَجُوبُ التَّأْدُّبِ مَعَ النَّبِيِّ ﷺ فِي حَيَاتِهِ وَبَعْدَ مَمَاتِهِ - أحاديث في المعنى	٥٢٨	٥٢٨
٥، ٤	لَا تَجْعَلُوا دَعَاءَ الرُّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدَعَاءِ بَعْضِكُمْ بَعْضًا - أسباب النزول - حجرات زوجات النبي ﷺ	٥٣٣	٥٣٣
٦	أَثَرُ الشَّائِعَاتِ فِي فَسَادِ الْأُمَّةِ وَسَبِيلُ الْوَقَايَةِ مِنْهَا	٥٣٥	٥٣٥
٨، ٧	الْمُؤْمِنُ يَتَّبِعُ شَرْعَ اللَّهِ تَعَالَى وَإِنْ خَالَفَ رَغْبَتَهُ	٥٣٧	٥٣٧
٩	إِضْلَاحُ ذَاتِ الْبَيِّنِ - الخروج على الإمام غير مقصود في الآية	٥٤٠	٥٤٠
١٠	الْأُخُوَّةُ الْإِيمَانِيَّةُ	٥٤٥	٥٤٥
١١	سِتة أمور توغر الصدور: التَّهَيُّ عَنِ السُّخْرِيَةِ وَاللَّزْمِ وَالتَّائِبِ	٥٤٦	٥٤٦
١٢	التَّهَيُّ عَنْ سُوءِ الظَّنِّ وَالتَّجَسُّسِ وَالْغِيبةِ - أنواع الظن - أحاديث في المعنى - مالا يدخل في الغيبة	٥٥٣	٥٥٣
١٣	الْوَحْدَةُ الْإِنْسَانِيَّةُ - التقوى ميزان التفاضل	٥٦٣	٥٦٣
١٤	الْإِيمَانُ وَالْإِسْلَامُ - سبب النزول	٥٦٨	٥٦٨
١٥	صِفَاتُ الْمُؤْمِنِ الْكَامِلِ	٥٧٢	٥٧٢
١٧، ١٦	الْمِثَّةُ لِلَّهِ وَحْدَهُ	٥٧٣	٥٧٣
١٨	خِتَامُ السُّورَةِ بَيَانُ عِلْمِ اللَّهِ تَعَالَى الشَّامِلِ الْمُحِيطِ	٥٧٥	٥٧٥
	تَفْسِيرُ سُورَةِ ق (٥٠) - مُقَدِّمَةُ السُّورَةِ - أغراض السورة - مقاطعها - تقسيم السور - حزب المفصل	٥٧٦	٥٧٦
١	تَفْسِيرُ السُّورَةِ - افْتِتَاحُ السُّورَةِ	٥٨٤	٥٨٤
٣، ٢	الْكُفَّارُ يَعْجَبُونَ مِنْ قَضِيَّتِي الرِّسَالَةِ وَالْبَغْيِ بَعْدَ الْمَوْتِ	٥٨٥	٥٨٥
٤	قُدْرَةُ اللَّهِ تَعَالَى أَكْبَرُ مِنَ الْبَغْيِ بَعْدَ الْمَوْتِ	٥٨٧	٥٨٧
	الْكُفَّارُ يَنْكُرُونَ الْوَحْيَ وَالرِّسَالَةَ دُونَ نَظَرٍ وَلَا تَأْمَلٍ	٥٨٨	٥٨٨
٦	أَدِلَّةُ الْقُدْرَةِ عَلَى الْبَغْيِ وَالْوَحْدَانِيَّةِ عَلَى أَرْبَعَةِ أَضْرُبٍ	٥٨٩	٥٨٩
	الضَّرْبُ الْأَوَّلُ مِنْ بَرَاهِينِ الْبَغْيِ: قِيَاسُ الْإِعَادَةِ عَلَى خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ - أولاً: دَلَالَةُ الْعَالَمِ الْعُلُويِّ ...	٥٨٩	٥٨٩
٨، ٧	ثانياً: دلائل العالم السفلي بما فيه من جبال ونبات	٥٩١	٥٩١
١١، ٩	الضَّرْبُ الثَّانِي مِنْ بَرَاهِينِ الْبَغْيِ: قِيَاسُ الْإِعَادَةِ عَلَى إِخْيَاءِ الْأَرْضِ بَعْدَ مَوْتِهَا	٥٩٣	٥٩٣
١٤، ١٢	وَقَفَّةُ اغْتِيَابٍ وَتَأْمَلٍ مَعَ مَصَارِعِ الْأُمَمِ الْمُكْذِبَةِ لِرُسُلِ اللَّهِ	٥٩٦	٥٩٦
١٥	الضَّرْبُ الثَّالِثُ مِنْ بَرَاهِينِ الْبَغْيِ: قِيَاسُ الْإِعَادَةِ عَلَى بَدْءِ الْخَلْقِ - دلائل البعث الحسية في سورة البقرة ..	٦٠٠	٦٠٠
	الضَّرْبُ الرَّابِعُ مِنْ بَرَاهِينِ الْبَغْيِ - قِيَاسُ الْإِعَادَةِ عَلَى إِخْرَاجِ النَّارِ مِنَ الشَّجَرِ الْأَخْضَرِ	٦٠٢	٦٠٢
	حَدِيثُ السُّورَةِ عَنِ الْإِنْسَانِ فِي ثَلَاثَةِ مَحَاوِرَ	٦٠٢	٦٠٢
١٦	الْمِخْوَرُ الْأَوَّلُ: خَلَقَ الْإِنْسَانَ وَإِخْصَاءُ أَقْوَالِهِ وَأَفْعَالِهِ فِي الدُّنْيَا	٦٠٢	٦٠٢
١٨، ١٧	الْحَقْفَةُ الْمُؤَكَّلُونَ بِالْإِنْسَانِ - أحاديث في المعنى	٦٠٥	٦٠٥
١٩	الْمِخْوَرُ الثَّانِي عَنِ الْإِنْسَانِ فِي السُّورَةِ الْإِخْصَارُ عِنْدَ الْمَوْتِ	٦٠٨	٦٠٨

الآية	فهرس الم ————— وعات	الصفحة
٢٠	الْمُحَوَّرُ الثَّالِثُ - يَتَعَلَّقُ بِالْبُعْثِ وَالْجَزَاءِ وَيَبْدَأُ بِالنَّفْحَةِ الثَّانِيَةِ لِلْبُعْثِ وَالْحِسَابِ	٦١١
٢٣-٢١	السَّائِقُ وَالشَّهِيدُ:	٦١٢
٢٦، ٢٤	سَيِّئَةُ أَوْصَافٍ لِلْكَافِرِ الْمُسْتَوْجِبِ لِعَذَابِ النَّارِ	٦١٥
٢٧	الْفَرِيقَيْنِ مِنَ الشَّيَاطِينِ يَنْتَضِلُّ مِنْ إِغْوَائِهِ لِلْكَافِرِ فِي سَاحَةِ الْعُرْضِ وَالْحِسَابِ	٦١٧
٢٩، ٢٨	الْفَضْلُ بَيْنَ الْخُصُومَاتِ يَوْمَ لِقَاءِ اللَّهِ	٦١٨
٣٠	امْتِلَاءُ جَهَنَّمَ بِأَهْلِهَا	٦١٩
٣٥-٣١	نَعِيمُ الْمُتَّقِينَ يَقْرُبُ مِنْهُمْ فِي الْجَنَّةِ - أَرْبَعَةُ أَوْصَافٍ لِأَهْلِ الْجَنَّةِ	٦٢٠
٣٦	السَّعِيدُ مَنْ وَعِظَ بغيرِهِ	٦٢٣
٣٨، ٣٧	صَاحِبُ الْقَلْبِ الْحَيِّ هُوَ الَّذِي يَتَّعِظُ - الرَّدُّ عَلَى زَعْمِ الْيَهُودِ أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى اسْتَرَاخَ يَوْمَ السَّبْتِ	٦٢٥
٤٢-٣٩	ثَلَاثَةُ أَسْلِحَةٍ يُسْتَعَانُ بِهَا عَلَى تَبْلِيغِ الدَّعْوَةِ - أَحَادِيثُ فِي الْمَعْنَى	٦٢٧
٤٤-٤٣	الْحَيَاةُ وَالْمَوْتُ وَالْحَشَرُ وَالنَّشْرُ وَالْمَرْجِعُ وَالْمَصِيرُ	٦٣٢
٤٥	خِتَامُ السُّورَةِ يَطْوِي فِي ثَنَائِهِ مَا تَعَرَّضَتْ لَهُ مِنْ قَضَايَا	٦٣٤
	فهرس الموضوعات	٦٣٦



فاحِشَةُ النَّفْسِ

تأليف :

أحمد بن أحمد محمد عبد الله الطويل

عُضْوُ الدَّجَنَةِ الْعِلْمِيَّةِ لِمُرَاجَعَةِ مُصْحَفِ الْمَدِينَةِ النَّبَوِيَّةِ
وَلَجْنَةِ الْإِشْرَافِ عَلَى التَّسْجِيلَاتِ الْقُرْآنِيَّةِ
بِمُجْتَمَعِ الْمَلِكِ فَهْدٍ لَطَبَاعَةِ الْمُصْحَفِ الشَّرِيفِ

قَدَّمَ لَهُ : مَعَالِي الدُّكْتُور / عَبْدُ اللَّهِ بْنُ عَبْدِ الْمُحْسِنِ الشُّرْكِي
وَالْأَسْتَاذُ الدُّكْتُور / صَالِحُ بْنُ غَانِمِ السَّدْلَانِ
وَنُحْبَةً مِنَ الْعُلَمَاءِ الْمُتَخَصِّصِينَ

المجلد الثالث عشر

من أول سورة الذاريات إلى آخر سورة الصف

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

تَفْسِيرُ سُورَةِ الذَّارِيَّاتِ (٥١)

مُقَدِّمَةُ السُّورَةِ

سورة (الذاريات) هي السورة الحادية والخمسون في ترتيب المصحف، والسادسة والستون في ترتيب النزول، كما ورد عن جابر بن زيد.

نزلت بعد سورة الأحقاف وقبل سورة الغاشية.

وسميت بسورة الذاريات؛ لأن هذه الكلمة لم تقع في غيرها من السور، وبعضهم^(١) يثبت فيها الواو، على حكاية لفظ القرآن، وجمهور المفسرين على حذفها.

وهي سورة مكية باتفاق، وعدد آياتها: ستون آية باتفاق.

وعدد كلماتها: ثلاث مئة وستون كلمة، وعدد حروفها: ألف ومئتان وتسعة وثلاثون حرفاً.

والسورة تتحدث عن اليوم الآخر، وعن دلائل القدرة والوحدانية، وعن الوحي والرسالة، وهذه القضايا الثلاث هي عناصر القرآن المكي.

وتبدأ السورة بالقسم بأربعة من القوى الإلهية، من جنود الله تعالى في أرضه، وهي: الرياح، والسُّحُب، والسُّنَن، والملائكة المعبَّر عنها بـ: الذَّارِيَّاتِ، وَالْحَامِلَاتِ، وَالْجَارِيَّاتِ، وَالْمُقَسَّمَاتِ، وهذا القسم على أن البعث والنشور كائن لا محالة.

﴿إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَصَادِقٌ ۖ وَإِنَّ الَّذِينَ لَوْفَعُوا ۖ﴾

ثم يُقسم الله تبارك وتعالى ثانية بالسماء المحبوبة، ذات الخلق الحسن المتقن على أن المكذابين باليوم الآخر وبالرسول الخاتم، يتخبطون في أقوالهم المنكرة للبعث والرسالة، ثم تذكّر السورة مصير كل من المكذابين والمصدقين يوم لقاء الله، وتذكّر المؤهلات التي أهلت المتقين للنعيم المقيم.

وتسوق جانباً من الآيات الكونية التي يُستدل بها على وحدانية الله تعالى في سمائه وأرضه وجباله ووهاده، وفي خلق الإنسان وإبداع صورته.

وتبيّن السورة أنه ينبغي على العبد أن يتخلص من تعلُّق القلب بالبحث عن الرزق؛ كي

(١) كالبخاري وابن عطية والقرطبي.

يخلص إيمانه بالله تعالى .

وفي مقام الاستدلال على صدق النبوة، تذكر السورة عددًا من رسل الله تعالى، وتوجز ما حلَّ بأمم هؤلاء الرسل، من العذاب والهلاك، فتذكر طرفًا يسيرًا من قصة كلٍّ من: إبراهيم، ولوط، وموسى، وما حلَّ بقوم نوح، وعاد، وثمود، لَمَّا كذبوا رسل الله .

وتُختتم السورة ببيان الغرض الذي خلق الله الإنس والجن من أجله، وهو أن يتعرفوا على رب الأرض والسماء، فيخضعوه بالعبادة، ويفردوه بالطاعة، ويخلصوا له التوحيد، ولا يَكُنْ همهم طلب الرزق؛ فإن في هذا رفقًا وأسرًا للقلوب، وعليهم أن يتخلصوا من هذا الرقِّ والأسر، فقد ضَمِنَ الله رزقهم، وتكفلَ به وهم في بطون أمهاتهم، وبعد طرق الأسباب لا يأتيهم منه إلا ما قُدِّرَ لهم، وشدة الحرص عليه تضر ولا تنفع .

ويلحظ القارئ أن في هذه السورة ثلاثة مقاطع:

فالمقطع الأول: من أولها إلى الآية الثالثة والعشرين منها، وهذا المقطع يتضمن القسم خمس مرات على أن البعث والحساب والجزاء على الأعمال والأقوال حق وصدق، وأن ما جاء به محمد ﷺ حق وصدق، وأن أقوال الناس في ذلك مضطربة، ولا يُصرف عن هذا الوحي المنزل إلا من حُرِمَ السعادة، وصُرف عن الهداية، من كل مُكذَّب بالقرآن والدار الآخرة، وهم لن يفيقوا من غفلتهم إلا حين يُعرضون على النار، ويقال لهم: ﴿ذُوقُوا فَنَّتَكُمْ﴾

أما المتَّقون الذين يقومون الليل، ويستغفرون بالأسحار، ويتصدقون ببعض أموالهم، فهم في دار الكرامة والنعيم، ينعمون بما آتاهم ربهم ونجَّاهم من عذاب السموم .

ويلفت السياق أنظار الخلق إلى دلائل التوحيد في النفس والأرض والسماء، فهو مقطع يشتمل على عناصر القرآن المكي الثلاثة، ففي الآيات من ١-١٤ حديث عن يوم القيامة ونعيم المتقين، وفي الآيات من ١٥-٢٣ بعض دلائل التوحيد، والذي أخبرنا بهذا هو الوحي المنزل على محمد ﷺ .

أما المقطع الثاني: فهو من الآية الرابعة والعشرين إلى الآية السادسة والأربعين، وقد اشتمل هذا المقطع على إشارات وجيزة إلى ستة من رسل الله تعالى، اقتصر فيها

السورة على بيان العبرة المستفادة من هلاك كل أمة من هذه الأمم بما يناسب المقام من قِصر السورة وما يراد منها، وكونها من المفصل.

أما المقطع الثالث والأخير: فهو من الآية السابعة والأربعين إلى نهاية السورة، وهو يعود على ما بدأت به السورة لدعم دلائل التوحيد في النفس والأرض والسماء، ووجوب الفرار إلى الله تعالى بتوحيده ونبد الشرك وأهله، وأنه تعالى قد خلق الخلق لعبادته، وفيه تفنيد مزاعم مَنْ وَصَفَ الرسول ﷺ بالسحر أو الجنون...، وبيان ما ينتظر المكذبين بالله ورسوله من نصيبهم في العذاب الأخروي، كما استحقَّه مَنْ سبق ذُكرهم في السورة من الأقوام الذين كذبوا رسل الله تعالى.

فهذا المقطع والمقطع الأول يدوران في فلك واحد هو مقصود السورة، من التركيز على جانب التوحيد واليوم الآخر والإيمان بخاتم المرسلين، والمقطع الذي بينهما فيه الأمثلة الحية ووسائل الإيضاح المفسرة لمصير من مات على كفره وشركه بالله تعالى ولم يتبع ما جاء به محمد ﷺ.



تَفْسِيرُ السُّورَةِ

خَمْسَةُ أَنْوَاعٍ مِنَ الْقَسَمِ عَلَى أَنَّ الْقِيَامَةَ حَقٌّ وَأَنَّ الرَّسُولَ حَقٌّ

١-٤- ﴿وَالَّذِينَ ذَرَوْا ﴿١﴾ فَالْحَمَلَاتِ وَفَرَّ ﴿٢﴾ فَالْجَرِيَتِ يُسْرًا ﴿٣﴾ فَالْمَقْسَمِ أَمْرًا ﴿٤﴾﴾

الريح والسحاب والسفن والملائكة خلق من خلق الله، وجند من جنوده، يجعلها سبحانه أداة لتنفيذ قدرته ومشيئته، والله تعالى يوجه أنظار عباده إليها للتأمل في دلائل التوحيد، فيقسم بها تعظيمًا لشأنها، والله تعالى أن يُقسم بما شاء من مخلوقاته، وليس للعباد أن يُقسموا إلا بالله تعالى، والمقسم عليه هو أن ما وعدنا الله به من البعث والحساب والجزاء، آتٍ لا محالة، ولا شك في صدقه ووقوعه.

ويرى بعضهم أن هذه الصفات الأربع تتعلق بالرياح فقط، فهي تنشئ السحاب، وهي تحمل بخار المياه التي تجري فيها السفن، والملائكة تقسم الأمطار على الأقطار بحمل الريح لها^(٢).

وقد أقسم سبحانه وتعالى بهذه المخلوقات العظيمة على أن وعده حق، وأن يوم الحساب والجزاء واقع لا محالة، وإذا كان الله تعالى قد أقسم على أنه حق وصدق فإن التكذيب به في غاية القبح والشناعة!!

أثر ابن الكوّاء:

ومع وجاهة هذا المعنى، إلا أن المعنى الأول ورد عن عليّ ؑ، فقد قيل إنه ؑ صعد منبر الكوفة، فقال: سلوني قبل ألا تسألوني، ولا تسألوا بعدي مثلي، فقام ابن الكوّاء الأعور، وقال: يا أمير المؤمنين، ما ﴿وَالَّذِينَ ذَرَوْا ﴿١﴾﴾؟ قال: الرياح، قال: فما ﴿فَالْحَمَلَاتِ وَفَرَّ ﴿٢﴾﴾؟ قال: السحاب، قال: فما ﴿فَالْجَرِيَتِ يُسْرًا ﴿٣﴾﴾؟ قال: السفن، قال: فما ﴿فَالْمَقْسَمِ أَمْرًا ﴿٤﴾﴾؟ قال: الملائكة، ولا تعدّ لمثل هذا، ولا تسألني عن مثل

(١) قرأ أبو جعفر بضم السين من (يسرا)، والباقون بإسكانها.

(٢) يُنظر هذا المعنى في «تفسير الفخر الرازي» (٦٢٨/٧) وبه قال الزمخشري في «الكشاف» وآخرون.

هذا، قال: فما ﴿وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْحُبُوبِ﴾؟ قال: دارُ الخلقِ الحسنِ.

قال: فما السواد الذي في حرف القمر؟ قال: أغمى يسأل عن عمياء، ما العلمُ أردتَ بهذا؟ ويحك، سلْ تفقُّهًا، ولا تسأل تعثًُّا، سلْ عَمَّا يَعْنِيكَ، ودع ما لا يَعْنِيكَ، قال: فوالله إن هذا ليعنيني، قال: إن الله يقول: ﴿وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ آيَاتَيْنِ فَمَحَوْنَا آيَةَ اللَّيْلِ﴾ [الإسراء: ١٢] السواد الذي في حرف القمر.

قال: فما المجرَّة؟ قال: شرج السماء، ومنها فُتحت السماء بماء منهمر، زمَن الغرق على قوم نوح. قال: فما قَوْسُ قُزَح؟ قال: لا تقل قَوْسُ قُزَح، فإن قُزَح: الشيطان، ولكنه القوس، وهي أمانة من الغرق.

قال: فكم بين السماء إلى الأرض؟ قال: قدر دَعْوَة عَبْدٍ دعا الله، لا أقول غير ذلك. قال: فكم ما بين المشرق والمغرب؟ قال: مسيرة يوم للشمس، مَنْ حَدَّثَكَ غير ذلك فقد كَذَبَ. قال: فمن الذين قال الله تعالى: ﴿وَأَحْلَوْا قَوْمَهُمْ دَارَ الْبَوَارِ﴾ [إبراهيم: ٢٨]؟ قال: دعهم، فقد كُفيتهم.

قال: فما ذو القرنين؟ قال: رجل بعثه الله إلى قوم كفرة، أهل كتاب، كان أوائلهم على حق، فأشركوا بربهم، وابتدعوا في دينهم، فأحدثوا على أنفسهم، فهم اليوم يجتهدون في الباطل، يحسبون أنهم على حق، ويجتهدون في الضلال، ويحسبون أنهم على هدى، فضلٌ سعيهم في الحياة الدنيا، وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعًا.

قال: فرفع صوته وقال: وما أهل النهرِوان غداً منهم ببعيد، قال: فقال ابن الكوَّاء: والله لا أسأل سواك، ولا أتبع غيرك، قال: فقال: إن كان الأمر إليك فافعل^(١).

هذا: وقد كان العرب يعتقدون أن الأيمان الكاذبة، تجعل الديار بلاقع، أي: خرائب، وأنها تضرُّ صاحبها - على حدِّ زعمهم - وكان النبي ﷺ يُكثر من الحلف ولم يُصَبِّ

(١) يُنظَر: «المستدرک» (٤٦٦/٢) مختصرًا، وصححه الحاكم ووافقه الذهبي، ويُنظَر مطوَّلًا في «المختارة» للضياء المقدسي برقم (٤٩٤) ورقم (٥٥٦) وأخرجه عبد الرزاق في تفسيره برقم (٢٩٧٠) ط قلعجي، قال ابن كثير: وثبت ذلك من غير وجه (٤١٣/٧) وهو عند الطبري (١١٥/٢٦) والله أعلم بصحته.

بسوء، فكان هذا دليلاً على صدقه ورفع شأنه، ولعل هذا الاعتقاد عند العرب هو بعض السر في قسم الله تعالى ببعض مخلوقاته، حيث كانوا يعتقدون أن النبي ﷺ رجل قوي الحجة، غالب في المجادلة وإقامة الدليل، فأقسم لهم القرآن على لسان النبي ﷺ بكل شريف ليعلموا صدقه ﷺ فيما يأتيهم به من عند الله تعالى.

والسور التي بُدئت بالقسم بغير الحروف المقطعة، يكون المقسم عليه فيها واحداً من ثلاثة: التوحيد، أو الرسالة، أو البعث، وهذه الثلاثة هي أصول الدين العامة، وهي موضوع السور المكية.

اختصاصات القسم في أوائل السور:

١- وقد اختصت سورة الصافات بأن القسم في أولها كان على التوحيد: ﴿إِنَّ إِلَهَهُمْ لَوَحْدٌ﴾ [الصافات].

٢- وفي سورتي النجم والضحى أقسم سبحانه في مطلعهما على صدق الرسول ﷺ: قال تعالى ﴿مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَى﴾ [النجم]، وقال سبحانه: ﴿مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَى﴾ [الضحى].

٣- والقسم في بقية السور على البعث والحساب والجزاء.

وهذه السورة من بين السور المقسم فيها على البعث والنشور ﴿وَالَّذِينَ ذَرَوْا﴾.

والمعنى: أقسم سبحانه وتعالى - أولاً - بالرياح المثيرات للتراب فتفرقه، وتحمل الرمال من مكان إلى مكان، وتحمل حبوب اللقاح والغبار والسحب وغيرها، فتسوقها بلين ولطف وقوة وإزعاج، وتوزعها هنا وهناك، كما قال تعالى: ﴿كَمَاءٍ أُنزِلَتْهُ مِنَ السَّمَاءِ فَأَخْلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ الرِّيحُ﴾ [الكهف: ٤٥].

وقال سبحانه: ﴿اللَّهُ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَيَبْسُطُهُ فِي السَّمَاءِ كَيْفَ يَشَاءُ﴾ [الروم: ٤٨].

والرياح نعمة كبرى، ولو أننا حرمانا الهواء لَمِتْنَا واختنقنا.

إن تيارات الهواء تصعد وتهبط فوق ظهر الأرض، ثم تهب الرياح، فتذهب بها شرقاً وغرباً، وشمالاً وجنوباً، وقد يذهب ما يخرج من الرتين من الهواء إلى شخص آخر في شرق الأرض أو غربها، ولا يعلم ذلك إلا الله وحده.

ثم أقسم - ثانيًا - بالسحب، وهي تحمل قدرًا عظيمًا من الماء فتسير به إلى حيث أراد الله تعالى، ﴿فَالْحَدِيثُ﴾ وهي السحب ﴿وَقَرَأَ﴾ أي: وهي محملة بالماء الذي فيه حياة الإنسان والحيوان والطيور والنبات.

إن الهواء الخفيف الرقيق يحمل أثقالًا من المياه التي تجري في الأنهار والبحار، فهو يحمل السحب التي ينزل منها المطر، ويتكوّن منه أنهار الأرض لنفع العباد والبلاد، ولا عجب في هذا فإن إطارات السيارات تُعبأ بالهواء لتحمل أثقالًا من البشر أو البضائع والأمتعة، قال تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي يُرِيكُمْ الْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنْشِئُ السَّحَابَ الثِّقَالَ﴾ [الرعد].

وقال سبحانه: ﴿وَهُوَ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيْحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ حَتَّى إِذَا أَقْلَّتْ سَحَابًا ثِقَالًا سُقْنَتْهُ لِيَكْدِرَ مَنِيَّتٍ فَأَنْزَلْنَا بِهِ الْمَاءَ فَأَخْرَجْنَا بِهِ مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ كَذَلِكَ نُخْرِجُ الْمَوْتَى﴾ [الأعراف: ٥٧].

وأقسم سبحانه -ثالثًا- بالسفن التي تجري في البحار بسهولة ويسر ﴿فَالْجَرِيَّتُ﴾ وهي السفن تجري في المياه جريًا سهلًا، فتنتقل الناس وتنقل أمتعتهم، وتحمل الأساطيل الحربية، وحاملات الطائرات والصواريخ وغيرها، من بلد إلى بلد.

قال تعالى: ﴿وَمِنْ ءَايَاتِهِ الْجَوَارِ فِي الْبَحْرِ كَالْأَعْلَامِ﴾ [الشورى].

وقال تعالى: ﴿وَلَهُ الْجَوَارِ الْمُنْتَآتُ فِي الْبَحْرِ كَالْأَعْلَامِ﴾ [الرحمن].

وفسر بعضهم^(١) الجاريات بالنجوم التي تجري على وجه اليسر والسهولة، فتزين بها السماء، ويهتدى بها في ظلمات البر والبحر، ويُعتبر بها. والأولى تفسيرها بالسفن كما جاء في أثر ابن الكواء.

ثم أقسم جلّ شأنه - رابعًا - بالملائكة، وهي تقسّم أمر الله تعالى في خلقه وتدبره بأمره عزّ وجلّ، ﴿فَالْمُقَسِّمَتُ﴾ أي: الملائكة وهي تقسم الأرزاق والأمطار والأعمار وغير ذلك بين العباد بأمر الله تعالى، وكل ملك مخصص بأمر من الأمور:

فجبريل صاحب الوحي إلى رسل الله، وميكائيل صاحب الأرزاق والأمطار والرحمة، وإسرافيل صاحب النفخ في الصور، وملك الموت صاحب قبض الأرواح، وهناك حملة

(١) كالشيخ ابن سعدي في تفسيره للآيات.

العرش والكرسي، والحفظة والمعقبات، ومن يطوفون حول البيت المعمور... إلخ، وهكذا جعل الله كُلاً من الملائكة على تدبير أمور الدنيا وأمور الآخرة، لا يتعدى ما قدر له ولا يُنقص عنه.

جَوَابُ الْقَسَمِ عَلَى هَذِهِ الْأَرْبَعِ

٥، ٦- ﴿إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَصَادِقٌ ۝ وَإِنَّ الَّذِينَ لَوْعٌ ۝﴾

أي: إن الذي وعدكم الله به -أيها الناس- من البعث والحساب، لكائن حقاً وصدقاً ﴿وَإِنَّ الَّذِينَ﴾ أي: الجزاء على الأقوال والأفعال بالشواب والعقاب ﴿لَوْعٌ﴾ أي: كائن لا محالة.

وتسمية يوم القيامة بيوم الدين، جاء كثيراً في القرآن، ومنه قوله تعالى: ﴿مَلِكِ يَوْمِ الدِّينِ ۝﴾ [الفاتحة] أي: اليوم الذي يُدان فيه العباد، ويُجزون على أعمالهم، وقوله سبحانه: ﴿يَوْمَئِذٍ يُؤْفِكُ اللَّهُ دِينَهُمُ الْحَقَّ﴾ [النور: ٢٥] أي: جزاءهم الحق، وقوله جلّ شأنه: ﴿أَرْءَيْتَ الَّذِي يُكَذِّبُ بِاللَّيْلِ ۝﴾ [الماعون] أي: بالحساب والجزاء.

ومنه ما جاء في الأثر: (كما تدين تدان)^(١)، أي: كما تعمل تُجزى.

الْقَسَمُ عَلَى تَنَاقُضِ الْمُكَذِّبِينَ بِالْوُحْيِ وَالْبُعْثِ:

٧-٩- ﴿وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْحُبُوبِ ۝ إِنَّكَ لَنَى قَوْلٍ مُّخْتَلِفٍ ۝ يُؤْفِكُ عَنْهُ مَنْ أُولَكَ ۝﴾

ثم أقسم ﷻ قسماً - خامساً - بالسماء ذات الخلق الحسن المتقن المستوي، فهي المزيّنة بالمصابيح، والمحبوكة بالنجوم، ذات الطرق المتعددة لصعود الملائكة وهبوطها ﴿وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْحُبُوبِ ۝﴾ فهي تشبه حبك الرمال، ومياه الغدران حين يحركها النسيم، وقد فُسِّرَت ﴿الْحُبُوبُ﴾ بمعانٍ يمكن الجمع بينها على نحو ما ذكرت فيما سبق، وهذه المعاني هي:

أولاً: ذات الخلق الحسن المحكم المتقن المستوي.

ثانياً: ذات الزينة والنجوم.

ثالثاً: ذات الطرائق الحسنة المتعددة.

(١) يُروى عن أبي قلابة، قال الألباني: ضعيف، السلسلة الضعيفة برقم (٢٣٦٩).

والسماء توصف بهذا كله، فهي أوصاف يكمل بعضها بعضاً.

وجواب القسم: ﴿إِنَّكُمْ لَفِي قَوْلٍ مُّتَخَلِّفٍ﴾ (٨) إنكم -أيها المكذبون بمحمد ﷺ - وبالיום الآخر - لفي قول مضطرب متناقض، يخالف بعضه بعضاً، في أمر البعث، وفي صدق القرآن، وفي شأن خاتم الرسل، فالخراصون هم أصحاب القول المختلف.

فقد قالوا عن القرآن أقوالاً متناقضة، قالوا: إنه سحر، وشعر، وكهانة.

﴿وَقَالُوا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ اكْتَتَبَهَا﴾ [الفرقان: ٥].

وقالوا: ﴿إِنْ هَذَا إِلَّا أَخْلَقَ﴾ [ص: ٧].

وقالوا: ﴿لَوْ نَشَاءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَذَا إِنْ هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ﴾ [الأنفال: ٣١].

وقالوا: ﴿قُلُوبُنَا فِي أَكْتُمٍ مِمَّا نَدْعُونَا إِلَيْهِ وَفِيْءَ آذَانِنَا وَقْرٌ وَمِنْ بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ﴾ [فصلت: ٥].

وقالوا عن الرسول ﷺ: إنه شاعر، وساحر، وكاهن، ومجنون.

وقالوا: يعلمه بشر، بعد أن كانوا يلقبونه بالصادق الأمين.

وقالوا عن البعث والنشور: ﴿إِنْ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ﴾ [المؤمنون: ٢٧].

وقالوا عنه أيضاً: ﴿أَوَدَّا كُنَّا عَظَمًا وَرَفُنَا أَوْنًا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا﴾ [الإسراء: ٤٩].

وقالوا: ﴿هَلْ نَدْكُرُ عَلَى رَجُلٍ يَبْتَئِثُكُمْ إِذَا مُرِقْتُمْ كُلٌّ مُّرِقٍ إِنَّكُمْ لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ﴾ (٧) أفترئ

على الله كذباً أم به جنة؟ [سبأ: ٧، ٨] وهكذا. فهم في حيرة واضطراب وتردد.

ثم بين ﷺ أنه قد صُرف عن الإيمان بالبعث والحساب والجزاء، وصُرف عن هذا القرآن وما فيه من هدى ونور، وصُرف عن الإيمان بصاحب الرسالة العالمية، من صُرف عن اتباع الحق، فحُرم الهداية وأسباب السعادة؛ لأنه أثر الغي على الرشد، والضلالة على الهداية، والكفر على الإيمان، فانصرف عن أدلة التوحيد وبراهينه اليقينية، فلم يوفق للخير ﴿يُؤْفَكُ﴾ أي: يصرف عن الإيمان ويصرف عن كتاب الله تعالى ﴿مَنْ أُفِكَ﴾ أي: من غلبت عليه شقاوته فصُرف عن أدلة الله اليقينية وبراهينه القطعية لانحراف الفطرة عنده، وقد علم الله منه ذلك قبل أن يكون بشراً سوياً مكلفاً.

وهذا الاختلاف دليل على فساد أقوالهم وبطلانها، وكون الحق واحداً لا اختلاف فيه

ولا تناقض، دليل على صدقه وصحته، وأنه من عند الله ﴿وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا﴾ [النساء]

عُقُوبَةُ الْمُكَذِّبِينَ بِالْبَعْثِ وَبِخَاتَمِ الْمُرْسَلِينَ

١٠-١٤- ﴿قِيلَ الْخَرَّاصُونَ﴾ [١٣] الَّذِينَ هُمْ فِي غَمْرٍو سَاهُونَ ﴿١١﴾ يَسْأَلُونَ أَيَّانَ يَوْمَ الَّذِينَ ﴿١٢﴾ يَوْمَ هُمْ عَلَى النَّارٍ يُقْتَنُونَ ﴿١٣﴾ ذُوقُوا فِتْنَتَكُمْ هَذَا الَّذِي كُنتُمْ بِهِ تَسْتَعِجِلُونَ ﴿١٤﴾

ثم لعن الله تعالى كل من كذب بالبعث أو بالقرآن أو بخاتم الرسل، أو كذب بالجميع فقال تعالى: ﴿قِيلَ الْخَرَّاصُونَ﴾ [١٣] أي: لعن الكذابون، وهذا دعاء على أصحاب القول المختلف بالهلاك والطرده من رحمة الله تعالى.

وإذا جاء لفظ: ﴿قِيلَ﴾ في القرآن فهو بمعنى: اللعنة؛ لأن من لعنه الله تعالى فهو بمنزلة المقتول الهالك^(١).

والخرص في القول: هو الظن والتخمين الذي لا حجة فيه ولا دليل عليه، وهو غير الخارص الذي يخرص النخلة ليقدر ما عليها من ثمر، فإن ذلك الخرص للنخيل جائز في المعاملات وبيع السلم.

والمعنى: قاتل الله الذين كذبوا على الله وجحدوا آياته، فأنكروا البعث والنشور، وكذبوا خاتم النبيين، وقالوا على الله ما لا يعلمون.

ثم وصف الله الظانين غير الحق - وهم الخرّاصون - بأنهم في جهالة تغمر قلوبهم فتسترها وتغطيها عن التأمل والفكر الصائب، وأنهم في غفلة تامة عما ينفعهم، وكأنهم لا يحسون بشيء مما حولهم ﴿الَّذِينَ هُمْ فِي غَمْرٍو﴾ أي: في لُجَّة من الجهل والكفر والضلالة ﴿سَاهُونَ﴾ غافلون عن الدار الآخرة.

فالسهو: الغفلة عن الشيء مع ذهاب القلب عنه، والمراد به في الآية: الغفلة عن اليوم الآخر وما فيه من بعث وحساب وجزاء.

ومن صفات المكذبين بالله واليوم الآخر، الظانين بالله غير الحق، أنهم يسألون سؤال

(١) قاله ابن الأنباري كما في «زاد المسير» لابن الجوزي (٣٠/٨).

تهكم وتكذيب، واستخفاف واستبعاد: متى يوم الحساب والجزاء الذي تقولون عنه؟ ﴿يَسْأَلُونَ أَيَّانَ يَوْمِ الدِّينِ﴾ أي: متى يقع يوم الحساب والجزاء؟ ومتى يحل؟ وهم يعنون أنه لا وقوع له، وأنه أمر مستبعد كما قال تعالى: ﴿عَمَّ يَسْأَلُونَ﴾ ١٦ عَنِ النَّبِيِّ الْعَظِيمِ ﴿الَّذِي هُمْ فِيهِ مُخْلِفُونَ﴾ ١٧ [النبأ]

فلا تسأل عن حال هؤلاء المكذبين، فإن مآلهم إلى النار يعذبون فيها، قال تعالى في الرد عليهم: ﴿يَوْمَ هُمْ عَلَى النَّارِ يُفْتَنُونَ﴾ ١٨ أي: إن يوم الدين هو اليوم الذي تدخلون فيه النار -أيها الخراصون- وتصلون حرها ولهيبها، فهذا هو يوم البعث والحساب والجزاء، فالمراد بقوله تعالى: ﴿يُفْتَنُونَ﴾ يُعَذَّبُونَ وَيُحْرَقُونَ.

ويقال لهم ﴿ذُوقُوا فِتْنَتَكُمْ﴾ أي ذوقوا العذاب والنار، وهو أثر فتنكم، بسبب الكفر والضلال الذي سلكتم طريقه في دنياه.

وأصل الفتن: مأخوذ من قولهم: فتنْتُ الذهب بالنار، بمعنى: أدبته لتظهر جودته من عدمها.

أي: ويوم يُعرض المكذبون على النار، تقول لهم خزنة جهنم: ذوقوا العذاب المعد لكم، فهذا جزاء كفركم وتكذيبكم، ويقال لهم: هذا عذابكم الذي كنتم تستعجلونه وأنتم في الدنيا قائلين: ﴿مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ [الأنبياء: ٣٨].

فالآن تمتعوا به في السلاسل والأغلال والسخط والوبال..

نَعِيمُ الْمُتَّقِينَ وَصِفَاتُهُمُ الْخَمْسُ

١٥ - ﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ﴾ ١٩

وبعد أن ذكرت الآيات مصير أهل الشقاء، الجاحدين لوحداية الله تعالى، والمكذبين بخاتم الرسل، وكتابه الخالد إلى يوم الدين، شرعت الآيات في بيان مصير أهل السعادة، فقال تعالى: ﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ﴾ وهم الذين خافوا ربهم، مع أنهم لم يروهم، فوقفوا عند حدوده، وأقاموا الفرائض، وأكثروا من النوافل، وابتعدوا عن المحرمات، وتركوا الشبهات والمكروهات ورعاً ورغبةً فيما عند الله، هؤلاء المتقون في حداق وبساتين،

(١) قرأ ابن كثير وابن ذكوان وشعبة وحمزة والكسائي بكسر العين من (عيون)، والباقون بضمها، وهما لغتان.

وعيون تجري فيها المياه الصافية، فهم يرون هذه الأنهار، ويتمتعون بها، ويأكلون من ثمار الجنة ويشربون من عيونها.

وقد وصف الله المتقين في هذه السورة بخمسة أوصاف:

الْوَصْفُ الْأَوَّلُ: أَنَّهُمْ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ:

أي إنهم يتمتعون في حدائق وبساتين وأشجار وثمار وفواكه، لها نظير في الدنيا أو ليس لها نظير: ﴿كُلَّمَا رُزِقُوا مِنْهَا مِنْ ثَمَرٍ رِزْقًا قَالُوا هَذَا الَّذِي رُزِقْنَا مِنْ قَبْلُ﴾ [البقرة: ٢٥] أي في الدنيا قال تعالى ﴿وَأَتُوا بِهِ مُتَشَبِهًا﴾ يشبه بعضه في الشكل ولكنه يختلف في طعمه ومذاقه، وفي هذه البساتين عيون سارحة، تشرب منها البساتين، ويشرب منها عباد الله، يفجرونها تفجيرا، يجدون فيها عين النسيم، وعين السلسيل، وعين الكافور.

الْوَصْفُ الثَّانِي: الْجَزَاءُ مِنْ جِنْسِ الْعَمَلِ

١٦- ﴿أَخْذِينَ مَا آتَاهُمْ رَبُّهُمْ إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَلِكَ مُحْسِنِينَ﴾

هذا إشارة إلى ثوابهم على إحسانهم في الدنيا، فقد أعطى الله أهل الجنة جميع ما يتمنونه من أصناف النعيم في الآخرة، فأخذوه وهم راضون به، فرحون بما أعطاهم الله من فضله، قد قرّت به أعينهم في دار الكرامة، وفرحت به نفوسهم، فلم يطلبوا له بدلا، ولا يريدون عنه حولا.

فالمعنى: أَنَّ أَهْلَ الْجَنَّةِ يُحْصِلُونَ نِعَمَ اللَّهِ تَعَالَى الَّتِي أَعْطَاهُمْ إِيَّاهَا، مِنْ جَنَّتِهِ وَرِضْوَانِهِ، فَهُمْ ﴿أَخْذِينَ مَا آتَاهُمْ رَبُّهُمْ﴾ وهذا النعيم في دار الكرامة جزاء لهم على إحسانهم في الدنيا بفعل الطاعات وترك المنهيات ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَلِكَ﴾ أي في الدنيا ﴿مُحْسِنِينَ﴾. فيما بينهم وبين الله، وفيما بينهم وبين الناس.

قد تلقوا أوامر الله تعالى ونواهيه بالانقياد وانسراح الصدر في الدنيا، فكافأهم الله بالإحسان إحسانا، وكما قيل للمشركين: ﴿ذُوقُوا فَتَنَّاكُمْ﴾ فإن المتقين:

١- في جنات. ٢- وفي عيون.

٣- آخذين ما آتاهم ربهم، مما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر،

قال تعالى: ﴿كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا أَسْلَفْتُمْ فِي الْأَيَّامِ الْخَالِيَةِ﴾ [الحاقة].

وقال سبحانه: ﴿يُطَافُ عَلَيْهِمْ بِصِحَافٍ مِّنْ ذَهَبٍ وَأَكْوَابٍ وَفِيهَا مَا نَشْتَهِيهِ الْأَنفُسُ وَتَلَذُّ الْأَعْيُنُ وَأَنْتُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ [الزخرف].

وقال جلَّ شأنه في وصف الذين تتجافى جنوبهم عن المضاجع:

﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [السجدة].

وعن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه، عن النبي ﷺ قال: «إن الله تبارك وتعالى يقول لأهل الجنة: يا أهل الجنة، فيقولون: لبيك ربنا وسعديك، والخير في يديك، فيقول: هل رضىتم؟ فيقولون: وما لنا لا نرضى يا ربنا، وقد أعطيتنا ما لم تعط أحداً من خلقك؟ فيقول: ألا أعطيكم أفضل من ذلك؟ فيقولون: وأي شيء أفضل من ذلك؟ فيقول: أحلُّ عليكم رضواني فلا أسخط عليكم بعده أبداً»^(١).

الْوَصْفُ الثَّالِثُ: أَنَّهُمْ يَسْهَرُونَ عَلَى الطَّاعَاتِ لَا عَلَى الْمَعَاصِي:

١٧- ﴿كَانُوا قَلِيلًا مِّنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجُونَ﴾ [٧]

كان هؤلاء المحسنون -وهم في الدنيا- قليلاً ما ينامون في الليل، فهم يصلُّون لربهم قانتين له، كما قال تعالى: ﴿قُلِ اللَّيْلُ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [٢] يَصْفَهُ: أَوْ انْقَضَتْ مِنْهُ قَلِيلًا [٣] أَوْ زِدَ عَلَيْهِ وَرَقِلَ الْقُرْآنُ تَرْتِيلًا [٤] [المزمل].

قال سبحانه ﴿أَمَّنْ هُوَ قَتِيتُ عَائَةَ اللَّيْلِ سَاجِدًا وَقَائِمًا يَحْذَرُ الْآخِرَةَ وَيَرْجُو رَحْمَةَ رَبِّهِ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْمَلُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْمَلُونَ﴾ [الزمر: ٩].

لقد أحسنوا في عبادتهم لربهم وأخلصوا له، وتواطأ القلب واللسان على طاعة الله تعالى في جوف الليل وهم سجدًا وقائمًا، ينامون قليلاً ويصلون كثيرًا، فهم قانتون لربهم، ما بين: صلاة وقراءة وذكر ودعاء وتضرع وخشوع وإنابة، فكانوا أهلاً لهذا النعيم المقيم. وكان النبي ﷺ يأمر أصحابه بذلك، ولا ينسون حق أنفسهم ولا حق أهلهم، كما في

(١) «صحيح البخاري» (٧٥١٨، ٦٥٤٩) و«صحيح مسلم» (٢٨٢٩).

حديث عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال له: «ألم أُخبر أنك تقوم الليل وتصوم النهار؟ قلت: إني أفعل ذلك، قال: «فإنك إن فعلت ذلك هجمت عينك، ونفثت نفسك، وإن لنفسك عليك حقًا، ولأهلك عليك حقًا، فصم وأفطر، وقم ونم»^(١). وشبهه بهذه الآية قوله تعالى: ﴿تَجَافَى جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا﴾ [السجدة: ١٦]. والهجوم: هو النوم القليل ليلاً، فهم ينامون قليلاً من الليل، ويصلون أكثره.

قال عبد الله بن سلام: لما قدم رسول الله ﷺ المدينة انجفل الناس إليه، فكننت فيمن انجفل، فلما رأيت وجهه عرفت أن وجهه ليس بوجه كذاب، فكان أول ما سمعته يقول: «يأيها الناس، أطعموا الطعام، وصلُّوا الأرحام، وأفشوا السلام، وصلُّوا بالليل والناس نيام تدخلوا الجنة بسلام»^(٢).

وقال الحسن البصري: كان الأحنف بن قيس يقول: عرضت عملي على عمل أهل الجنة، فإذا قوم قد باينونا بوئنا بعيداً، وإذا قوم لا نبلغ أعمالهم، كانوا قليلاً من الليل ما يهجعون. وعرضت عملي على عمل أهل النار، فإذا قوم لا خير فيهم، يُكذبون بكتاب الله، ويرسل الله، يُكذبون بالبعث بعد الموت، فوجدت من خيرنا منزلة قومًا خلطوا عملاً صالحاً وآخر سيئاً^(٣).

وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم: قال رجل من بني تميم لأبي: يا أبا أسامة، صفة لا أجدها فينا، ذكر الله قومًا فقال: ﴿كَانُوا قَلِيلًا مِّنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ﴾ ﴿٧﴾ ونحن والله قليلاً من الليل ما نقوم، فقال له أبي: طوبى لمن رقد إذا نعس، واتقى الله إذا استيقظ^(٤) فاشترط بعضهم أن يكون التهجد بعد نوم، ولو نومًا خفيفًا.

(١) «صحيح مسلم» (١١٥٩) و«صحيح البخاري» (١١٥٣) وهذا لفظه.

(٢) «المسند» (٤٥١/٥) برقم (٢٣٧٨٤) بإسناد صحيح رجال ثقات رجال الشيخين، نحوه، (محققوه) وأخرجه الترمذي برقم (٢٤٨٥) وابن ماجه برقم (١٣٣٤) والحاكم (١٣/٣) والبيهقي في «الدلائل» (٢/٥٣١) و«صحيح سنن ابن ماجه» (١٠٩٧، ٢٦٣٠) بإسناد صحيح.

(٣) «تفسير ابن كثير» (٤١٧/٧).

(٤) «تفسير ابن كثير» (٤١٧/٧).

وصَحَّ عن أنس رضي الله عنه في معنى الآية: أنهم يصلون بين المغرب والعشاء^(١).

الْوَصْفُ الرَّابِعُ: أَنَّهُمْ يُكْثِرُونَ مِنَ الْإِسْتِغْفَارِ بِالْأَسْحَارِ:

١٨- ﴿وَيَا لَأَتَحَارَّ هُمْ بِسْتَفْرُونَ﴾

أي: إنهم كانوا يستغفرون الله تعالى من ذنوبهم وهم في صلاتهم وقت السحر، قبيل الفجر، في السدس الأخير من الليل، فهم مع إحسانهم يَعُدُّون أنفسهم مذنبين مقصّرين، فيُكْثِرُونَ من الاستغفار بالأسحار، وهم يتعبدون ويجهدون في الإكثار من الصلاة ومن العمل الصالح، وحين يَهْجَعُونَ في ليلهم يشتغلون بعبادة أخرى هي الاستغفار، وخصَّ وقت السحر؛ لأن النوم يغلب فيه، فالصلاة والاستغفار فيه أعجب من بقية الليل.

فهم يُصَلُّون لله متعبدين، ثم يستغفرون الله تعالى: استغفار المذنب المقصّر.

وقد وصف الله عباده الصالحين بقوله: ﴿وَالسَّغِيرَاتِ بِالْأَسْحَارِ﴾ [آل عمران: ١٧].

بما يشير إلى أن الاستغفار في وقت السحر له فضيلة وخاصة ليست لغيره.

قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يَبْتُكِرُونَ لِربِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَمًا﴾ [الفرقان].

ووقت السحر مظنة قبول الإجابة:

١- صحَّ عن جماعة من الصحابة أن رسول الله ﷺ قال: «ينزل ربنا تبارك وتعالى كل ليلة إلى السماء الدنيا، حين يبقى ثلث الليل الآخر، فيقول: من يدعوني فأستجيب له؟ ومن يسألني فأعطيه؟ ومن يستغفرني فأغفر له؟»^(٢).

وفي الحديث إثبات صفة النزول لله تعالى على وجه يليق بجلاله تعالى من غير تشبيه ولا تأويل ولا تعطيل.

٢- وفي الصحيحين: عن عبد الله بن عباس رضي الله عنه قال: كان النبي ﷺ إذا قام من الليل يتعبد قال: «اللهم لك الحمد، أنت قيوم السموات والأرض ومن فيهن، ولك الحمد،

(١) كما في «صحيح سنن أبي داود» (١١٧٤) وعبد الرزاق في التفسير (٢٩٧٩) وصححه الحاكم والذهبي (٤٦٧/٢).

(٢) «صحيح مسلم» برقم (٧٥٨) و«صحيح البخاري» (١١٤٥، ٦٣٢١، ٧٤٩٤) وغيرهما.

أنت مَلِكُ السموات والأرض ومن فيهن، ولك الحمد، أنت نور السموات والأرض ومن فيهن، ولك الحمد، أنت الحق، ووعدك الحق، ولقاؤك الحق، والجنة حق، والنار حق، والنبيون حق، ومحمد حق، والساعة حق، اللهم لك أسلمت، وبك آمنت، وعليك توكلت، وإليك أنبت، وبك خاصمت، وإليك حاكمت.

فاغفر لي ما قدمت وما أخرت، وما أسررت وما أعلنت».

زاد في رواية: «أنت المقدم وأنت المؤخر، لا إله إلا أنت، ولا إله غيرك»^(١).

وزاد النسائي: «ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم».

٣- وفي البخاري: عن عبادة بن الصامت رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «من تعارَّ من الليل فقال: لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد، وهو على كل شيء قدير، الحمد لله، وسبحان الله، ولا إله إلا الله، والله أكبر، ولا حول ولا قوة إلا بالله، ثم قال: اللهم اغفر لي، أو دعا، استُجيب له، فإن توضأ وصلى قبلت صلاته»^(٢) يقال: تعارَّ الرجل من نومه: إذا انتبه وله صوت.

الْوُصْفُ الْخَامِسُ: أَنَّهُمْ يُخْرِجُونَ الزَّكَاةَ الْمَفْرُوضَةَ وَيَتَصَدَّقُونَ بِفُضُولِ أَمْوَالِهِمْ

١٩- ﴿وَفِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ لِّلسَّائِلِ وَالْمَحْرُورِ﴾

أي: حق واجب، هو الزكاة المفروضة بشكل عام، غير محددة المقدار ولا النصاب؛ لأن أصل الزكاة قد فُرض بمكة، وحُدثت مقاديرها وأنصبت في السنة الثانية من الهجرة، وفي أموال الأغنياء أيضًا حق مستحب على وجه التطوع ﴿لِّلسَّائِلِ﴾ المحتاج الذي يسأل الناس الصدقة.

وفي حديث الحسين بن علي رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «للسائل حق وإن جاء على فرس»^(٣)

(١) «صحيح البخاري» (١١٢٠)، وانظر: (٦٣١٧، ٧٣٨٥) و«صحيح مسلم» (٧٦٩).

(٢) «صحيح البخاري» (١١٥٤).

(٣) «المسند» (٢٠١/١) برقم (١٧٣٠) بإسناد ضعيف لجهالة يعلى بن أبي يحيى (محققوه) و(سنن أبي داود) برقم (١٦٦٥) وابن أبي حاتم (١٥٥٦) وضعفه الألباني في «ضعيف سنن أبي داود» (٣٦٤، ٣٦٥) وأخرجه ابن عدي في «الكامل» عن أبي هريرة (١٨٧٨/٥). وضعفه لأن فيه يعلى بن أبي يحيى، لكن له شواهد.

وفي المال حق سوى الزكاة^(١)، يصل به رحمًا، أو يقري به ضيفًا، أو يعين به محرومًا . . .

﴿وَالْمَحْرُومِ﴾ هو المحتاج الذي لا مال له، ولكنه لا يسأل الناس حياءً وتعففًا، كما قال تعالى: ﴿يَحْسَبُهُ الْجَاهِلُ أَغْنِيَاءَ مِنَ التَّعَفُّفِ تَعْرِفُهُمْ بِسِيمَاهُمْ لَا يَسْأَلُونَ النَّاسَ إِلْحَافًا﴾ [البقرة: ٢٧٣].

وفي حديث أبي هريرة ؓ أن رسول الله ﷺ قال: «ليس المسكين الذي ترده التمرة والتمرتان، ولا اللقمة ولا اللقمتان، إنما المسكين الذي يتعفف، واقرؤوا إن شئتم: ﴿لَا يَسْأَلُونَ النَّاسَ إِلْحَافًا﴾»^(٢).

وفي لفظ: «ولكن المسكين الذي لا يجد غنى يغنيه، ولا يُفطن له فيُصدق عليه»^(٣).

وذكر لفظ: ﴿وَالْمَحْرُومِ﴾ لترقيق النفوس، وحث الناس على البحث عنه ليضعوا صدقاتهم في موضع يحب الله وضعها فيه.

ونظير هذه الآية قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ فِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ مَعْلُومٌ ﴿٢٤﴾ لِلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ﴾ [المعارج]. والحق المعلوم هو الزكاة، وغير المعلوم هو الصدقة.

وقد تضمنت هذه الآية والتي قبلها: إصلاح النفس بقيام الليل والتوجه إلى الله تعالى بالدعاء والاستغفار، وفي ذلك تزكية للنفس بالأقوال والأفعال، وتطهير لها في الظاهر والباطن.

كما تضمنت الآيتان: إصلاح الناس بسد حاجات المحتاجين منهم، ونفع المحروم المتعفف عن إظهار حاجته، الصابر على شدة احتياجه.

والسائل: هو الذي يُظهر فقره بسؤال الناس.

والمحروم: هو المتعفف عن السؤال فيُحرم نتيجة تعففه، إلا لمن هو مطلع على حاله.

(١) جاء هذا في الترمذي عن فاطمة بنت قيس، ضعّفه الألباني برقم (٦٥٩) وهو في سنن الدار قطني رقم ٣ ج ٢ ص ١٠٧.

(٢) من طريق شريك بن عبد الله، عن عطاء بن يسار، عن أبي هريرة عند البخاري برقم (٤٥٣٩) ومسلم برقم (١٠٣٩).

(٣) «تفسير الطبري»: (١٢٥/٢٦). وهو عن أبي هريرة في صحيح البخاري (١٤٠٩) وفي الموطأ وأحمد وأبي داود والنسائي كما في صحيح الجامع الصغير برقم (٥٣٨٤).

ثَلَاثَةٌ مِنْ بَرَاهِينِ التَّوْحِيدِ: الْأَرْضُ وَالنَّفْسُ وَالسَّمَاءُ

٢١، ٢٠ - ﴿وَفِي الْأَرْضِ آيَاتٌ لِلْمُتَوَقِّينَ ﴿٢٠﴾ وَفِي أَنْفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٢١﴾﴾

ثم ساق سبحانه ثلاثة من أدلة التوحيد في الكون: في الأرض، وفي الأنفس، وفي السماء، داعيًا عباده إلى التفكير فيها والاعتبار، فقال: ﴿وَفِي الْأَرْضِ آيَاتٌ﴾ عبر ودلائل واضحة على قدرة خالقها، في صنوف النبات، والحيوان، والجبال، والقفار، والبحار، والأنهار، واختلاف ألسنة الناس وألوانهم، وما بينهم من التفاوت في العقول والأفهام، والسعادة والشقاء، وما في تركيبهم من الخلق البديع^(١).

والتأمل في الأرض، يشمل الأرض نفسها وما فيها من جبال وبحار وأشجار ونبات وغير ذلك، فكلها تدل على عظمة الخالق سبحانه، وسعة سلطانه، وعميم إحسانه، وإحاطة علمه بالظواهر والبواطن.

وفي دلائل كيفية خلق الأرض ودخوها، وتسخيرها للإنسان والحيوان، وكيف قُسمت الأرض إلى سهول وجبال وبحار، وكيف أنبت الزرع والشجر، وما يخرج منها من منافع للناس، آياتٌ وعبرٌ ﴿لِلْمُتَوَقِّينَ﴾ الذين ينتفعون بدلائلها، فتكسبهم اليقين بوقوع البعث والنشور، وغير الموقنين لا ينتفعون بهذه الآيات.

﴿وَفِي أَنْفُسِكُمْ﴾ آيات عجيبة في بواطن أحوال الإنسان وأطوارها، وأعجبها خلق العقل، وخلق النطق، وخلق الحواس، والدورة الدموية، واتساق الأعضاء، وتسوية المفاصل والعضلات والشرابين، وخلق الإنسان من نقطة إلى علقة إلى مضغة، ثم خلقها عظمًا، وكسوة العظم باللحم، ومن ثم إلى نفخ الروح فيه، واختلاف الألسنة، والصور والألوان والطبائع، وما يخرج من السبيلين، والسمع والبصر، وما إلى ذلك.

إن جسم الإنسان خلق بالغ التعقيد، سبحان من خلقه وصوّره، وشق سمعه وبصره.

ومع ذلك فإن الإنسان المغرور المفتون يجلس على أريكته، ويقول: لا إله، والحياة مادة! فإذا كانت الحياة مادة فَمَنْ بناها وضبطها ووضع لها نظامها؟ أفلا تتفكرون - أيها

(١) «تفسير ابن كثير» (٤١٩/٧).

الناس - في خلق أنفسكم؟ كيف أنشأكم الله من ماء؟ وكيف خلقكم أطوارًا، وفي كل طور أوجد خلقًا لم يكن موجودًا من قبل؟ ﴿أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾ فتعظون وتعتبرون، وتؤمنون بالبعث بعد الموت؟ وتستدلون بذلك على أن الله تعالى واحد أحد، فرد صمد، لا والد له ولا ولد، وأنه لم يخلق الخلق سُدى، بل خلقهم لحكمة عظيمة وغاية بالغة الأهمية.

قال قتادة: من تفكر في خلق نفسه عرف أنه إنما خُلق ولِيُنْتِ مفاصله للعبادة.

لَنْ تَمُوتَ نَفْسٌ حَتَّى تَسْتَوِيَّ رِزْقَهَا وَأَجَلَهَا

٢٢، ٢٣ - ﴿وَفِي السَّمَاءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ ﴿٢٢﴾ فَوَرَبِّ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ لَحَقٌّ مِّثْلُ (١) مَا أَنْتُمْ نَاطِقُونَ﴾

أية التوحيد الثالثة هي خلق السماء وجعلها مصدر للرزق الديني والدنيوي. ومع أن الله تعالى خلق أسباب الرزق في الأرض، وربط الأسباب بالمسببات، وأوجب على العبد أن يكّد ويكدح، إلا أن الله تعالى ربط العبد بالسماء في طلبه للرزق، ليتجاوز المرء أسباب الرزق الظاهرة في الأرض، ويتطلع إلى السماء مع بذل السبب حيث الرزق المقسوم، والخط المرسوم.

وليس المقصود عدم طرُق أبواب الرزق، وعدم الأخذ بالأسباب، إنما المقصود أن يعمل الإنسان في الأرض، ويجهّد في تحصيل رزقه، وهو يتطلع إلى السماء موقنًا برزقه المقدر، وأنه لن تموت نفس حتى تستوفي رزقها وأجلها، وأن الرزق يطلب صاحبه كما يطلبه أجله، فاتقوا الله وأجملوا في الطلب ﴿وَفِي السَّمَاءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ ﴿٢٢﴾﴾ من الخير والشر، والثواب والعقاب، وغير ذلك كله مكتوب ومقدر.

أي: جعل الله في السماء مادة رزقكم من الأمطار وصنوف الخيرات والأقدار، وهذا الرزق منه ما هو رزق دنيوي يتعلق بالمعاش والأقوات وسائر الأرزاق، ومنه ما هو رزق ديني كالهدي والتشريع الذي يأتي عن طريق الوحي، فهو رزق دنيوي وأخروي، أشار إليه قوله تعالى ﴿وَمَا تُوعَدُونَ﴾ أي من الأمور المقدرة والثواب والعقاب عليها، وقد أقسم ربنا على أن الرزق مضمون.

(١) قرأ شعبة وحمزة والكسائي وخلف برفع لام (مثل) صفة (لالحق)، وقرأ الباقون بنصبها حالًا من الضمير المستتر في (لحق).

قال تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي يُرِيكُمْ آيَاتِهِ وَيُنَزِّلُ لَكُمْ مِنَ السَّمَاءِ رِزْقًا﴾ [غافر: ١٣].

قال الأصمعي: أقبلت من جانب البصرة، فطلع أعرابي على قعود له، فقال: ممن الرجل؟ قلت: من بني أصمع، قال: من أين أقبلت؟ قلت: من موضع يتلى فيه كلام الرحمن، فقال: ائتل عليّ، فتلوث ﴿وَالَّذِينَ﴾ فلما بلغت ﴿وَفِي السَّمَاءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ﴾ قال: ﴿٢٢﴾ حسبك، فقام إلى ناقته، فنحرها ووزعها على من أقبل وأدبر، وعمد إلى قوسه وسيفه فكسرها وولّى! فلما حجبت مع الرشيد طفقت أطوف، فإذا أنا بمن يهتف بي بصوت دقيق، فالتفت فإذا أنا بالأعرابي قد نحل واصفرّ، فسلم عليّ واستقرأ السورة، فلما بلغت الآية، صاح وقال: قد وجدنا ما وعدنا ربنا حقًا، ثم قال: وهل غير هذا؟ فقرأت: ﴿فَرَبِّ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ لَحَقُّ مِثْلَ بَاطِلٍ﴾ ﴿٢٣﴾ فصاح وقال: يا سبحان الله، من الذي أغضب الجليل حتى حلف؟ لم يصدقوا بقوله حتى ألجؤوه إلى اليمين! قالها ثلاثًا، وخرجت معها نفسهُ^(١).

ثم أقسم الله تعالى بنفسه الكريمة على صحة هذا الخبر، وأن ما وعدهم الله به من ضمان الرزق، ومن البعث والنشور، ومن الحساب والجزاء حق لا ريب فيه، فلا تشكوا فيه، كما لا تشكون فيما تنطقون به من كلام يخرج من أفواهكم، فهو أمر يقيني وفي غاية الوضوح، وكما أن النطق لا يفارق الإنسان في حال من الأحوال فكذلك رزقه، وكما أنكم لا تشكون في نطقكم، فلا ينبغي أن تشكوا في البعث بعد الموت. وفي الأثر: لو أن أحدكم فرّ من رزقه لتبعه كما يتبعه الموت^(٢).

قِصَّةُ ضَيْفِ خَلِيلِ الرَّحْمَنِ وَالْإِعْتِبَارُ بِمَا حَدَّثَ لِقَوْمِ لُوطٍ

٢٤- ﴿هَلْ أُنَبِّئُكَ حَدِيثَ ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ^(٣) الْمُكْرَمِينَ﴾ ﴿٢٤﴾

في هذا انتقال من المواعظ ودلائل التوحيد إلى الاعتبار بأحوال الأمم الماضية، حيث تأتي إشارات يسيرة إلى ست قصص من قصص الرسل والأمم، وهم: إبراهيم، ولوط،

(١) ذكرها «تفسير الكشاف» و«تفسير النسفي» وغيرهما عند تفسير هذه الآية، وفيها موعظة بليغة.

(٢) «تفسير القرطبي» (٤٣/١٧).

(٣) قرأ ابن عامر بخلف عن ابن ذكوان (إبراهيم)، والباقون (إبراهيم).

وموسى، وعاد قوم هود، وشمود قوم صالح، وقوم نوح.

وذكرت قصة إبراهيم عليه السلام توطئة لبيان ما حلّ بقوم لوط عليه السلام حين كذبوا رسولهم.

وضيوف إبراهيم كانوا: جبريل، وميكائيل، وإسرافيل، وأتباع لهم من الملائكة، وكانت لإبراهيم أموال كثيرة من البقر، وكان مضيافاً، فكان يطوي بطنه حتى يأتيه ضيف، وقد أوقف إبراهيم للضيوف أوقافاً، صارت سنة في الناس من بعده على اختلاف أجناسهم وشرائعهم.

وترتيب القصص هنا على خلاف الترتيب الذي جرى عليه اصطلاح القرآن في البدء بقصة نوح، ثم هود، ثم صالح، ثم لوط ليعتبر المشركون الذين هم في غمرة ساهون بما حلّ بالأمة الماضية.

وقد بدأت قصة ضيف إبراهيم عليه السلام بأسلوب التشويق والتفخيم، بمعنى: هل وصل إلى سمعك -يا محمد- خبر ضيوف إبراهيم المعظمين من الملائكة الكرام الذين وفدوا عليه في صورة رجال من بني آدم؟

وقدوم الملائكة لإهلاك قوم لوط بدأ بالحديث عن ضيف إبراهيم المكرمين، وهو حديث يكشف عن سوء فهم أهل الكتاب للألوهية، وتأثر عقولهم بالفكر الوثني!

لقد كان ضيوف إبراهيم عدداً من الملائكة، جاؤوا له بأنباء سارة، منها أن الله تعالى سيرزقه بغلام عليم، ومنها أنهم أخبروه أن الله تعالى سيدمر القرى النجسة التي عجز لوط عليه السلام عن إصلاحها.

لكن العهد القديم ساق القصة على نحو آخر، فذكر أن الله تعالى هو الذي تناول الغداء مع إبراهيم، وأن إبراهيم قدّم لرب العالمين مائدة فاخرة، عليها عجل مشوي وخبز، وأن الله تعالى أكل حتى امتلأ!! هذا ما ذكره الكتاب المقدس مما حرّفته أيديهم.

أما القرآن المتهم عند أهل الكتاب، فقد تنزّه عن هذا الكلام جملة وتفصيلاً^(١).

(١) «نحو تفسير موضوعي لسور القرآن» ص ٤١١، وانظر: سفر التكوين.

﴿هَلْ أُنْتُكَ حَدِيثُ ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ الْمُكْرَمِينَ﴾ هل وصل إلى سمعك -يا محمد- خبر ضيوف إبراهيم الذين أكرمهم الله -وكانوا من الملائكة الكرام- وقد جاؤوا إليه في صورة رجال حسان؟ نحن نقص عليك قصتهم بالحق الذي لا تشوبه شائبة من باطل، ولم تصل إليه أيدي التحريف والتغيير والتبديل.

والضيوف هم الملائكة الذين أظهرهم الله لإبراهيم عليه السلام، فأخبروه بأنهم مرسلون من الله تعالى لتنفيذ العذاب في قوم لوط، وسماهم الله ضيفاً؛ لأنهم جاؤوا في هيئة الضيف.

وعن ابن عباس رضي الله عنهما أنهم كانوا ثلاثة: جبريل، وميكائيل، وإسرافيل، وقيل: إنهم كانوا اثني عشر ملكاً^(١) وقد أكرمهم الله تعالى برفع الدرجة عنده؛ لأن الملائكة مقربون عند الله تعالى، كما قال سبحانه: ﴿بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ﴾ [الأنبياء: ٢٦].

وهكذا: فإن الملائكة الذين أرسلهم الله تعالى لإهلاك قوم لوط، أمرهم بالمرور على إبراهيم ليسروه بغلام عليم مع كبره وعقم امرأته، فجاؤوا إليه في صورة ضيوف قال تعالى:

٢٥- ﴿إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ فَقَالُوا سَلَامًا قَالَ سَلَامٌ^(٢) قَوْمٌ مُّنْكَرُونَ﴾

هل بلغك -أيها الرسول- حديث الملائكة حين دخلوا على إبراهيم في بيته، فحيّوه قائلين له: سلاماً، أي: نُسَلِّم عليك سلاماً، فردّ عليهم التحية ﴿قَالَ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ﴾ قَوْمٌ مُّنْكَرُونَ أي: أنتم قوم غرباء لا نعرفكم، فمن أنتم؟ أحب أن تُعرّفوني بأنفسكم؟ وقد أنكرهم إبراهيم؛ لأنهم قدموا عليه في صورة شباب حسان، عليهم مهابة عظيمة.

ولعل إبراهيم قال ذلك في نفسه، أو قاله لمن كان معه من غلمانه وأتباعه، ولم يخاطبهم بذلك.

ورد في التوراة أن إبراهيم كان جالساً أمام بيت خيمته تحت شجرة، وأنه أنزل ضيوفه تحت تلك الشجرة.

فلما عرف أنهم ضيوف جاؤوا لزيارته، ذهب إلى أهله سريعاً ليحضر لهم الطعام:

(١) «تفسير الألوسي» (١١/٢٧).

(٢) قرأ حمزة والكسائي (سَلِّم)، والباقون (سلام) وهما لغتان، مثل: جِزْمٌ وحَرَامٌ.

٢٦، ٢٧- ﴿فَرَاغَ إِلَىٰ أَهْلِهِ فَجَاءَ بِعِجْلٍ سَمِينٍ ﴿٢٦﴾ فَقَرَّبَهُ إِلَيْهِمْ ﴿٢٧﴾ قَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ﴾

وكان إبراهيم عليه السلام كريماً بطبعه، فكان لا يأكل إلا مع ضيوف، وإذا لم يجد ضيفاً ربما طوى بطنه أكثر من يوم حتى يأتيه ضيف، فلما قدم عليه هؤلاء الضيوف سرعان ما مال خفية إلى أهله، فعمد إلى عجل سمين فذبحه، وهذا معنى ﴿فَرَاغَ إِلَىٰ أَهْلِهِ﴾ أي: عدل إبراهيم عن المكان الذي نزل فيه الضيوف وتوجّه إلى أهل بيته ﴿فَجَاءَ بِعِجْلٍ سَمِينٍ﴾ فذبحه، وفي قوله تعالى: ﴿فَمَا لَبِثَ أَنْ جَاءَ بِعِجْلٍ حَنِيذٍ﴾ [هود: ٦٩] فهو عجل سمين مشوي، والشوي أسرع أنواع الطبخ لأهل البادية، وكانت أموال إبراهيم من البقر.

ومن آداب الضيافة أن صاحب البيت يُسرع بتقديم الطعام إلى ضيوفه من غير أن يشعروا به، حتى لا يمنعه الضيف، أو يُثقل عليه بالتأخير، وأعدَّ إبراهيم العجل الحنيد.

﴿فَقَرَّبَهُ إِلَيْهِمْ﴾ ووضعه بين أيديهم، ولم يَسْتَشْرِهِمْ في إحضار الطعام؛ لأن هذا يُخرج الضيف فلا يجيب بحقيقة الحال، فقد يكون الضيف جائعاً ويستحي من طلب الطعام، ولذا فإن إبراهيم عليه السلام قَدَّمَ إليهم الطعام مباشرة، وقال لهم في تَلَطُّفٍ وبِشَاشَةٍ: ﴿أَلَا تَأْكُلُونَ﴾ على سبيل العرض والتلطف، وليس على سبيل الأمر.

ففي الحديث عن أبي هريرة رضي الله عنه مرفوعاً: «من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليكرم ضيفه»^(١).

ورد أن إبراهيم عليه السلام لَمَّا قَدَّمَ الطعام إلى الملائكة قالوا: إنا لا نأكل إلا ما أَدِينَا ثمنه، فقال إبراهيم: وإنا لا نبيحه لكم إلا بثمن، قالوا: وما هو؟ قال: أن تُسَمُّوا الله تعالى عند الابتداء، وتمجّدوه عند الفراغ من الأكل، فقال بعضهم لبعض: بحق اتخذه الله خليلاً^(٢). قال تعالى:

٢٨- ﴿فَأَوْحَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً قَالُوا لَا تَحَفُّوا نَبْشُورُهُمْ عَلَيْهِمْ ﴿٢٨﴾﴾

أي: فلمَّا رأى إبراهيم الملائكة لا يأكلون أحسَّ في نفسه خوفاً منهم، فإنَّ من لم يأكل

(١) ضم الهاء حمزة ويعقوب، والباقون بكسرها.

(٢) في البخاري (٦١٣٨، ٦٤٧٥) ومسلم (٤٧) ومن حديث أبي شريح الخزاعي عند البخاري (٦٠١٩) ومسلم (٤٨).

(٣) «تفسير ابن عطية» (١٧٨/٥).

طعامك لا يحفظ ذمامك ﴿فَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً﴾ وهنا كشف الملائكة له عن ذواتهم، وأخبروه أنهم ملائكة جاؤوا في صورة رجال لمهتئين:

المهمة الأولى: بشرى إبراهيم ﷺ بغلام عليم، هو إسحاق ﷺ، وكانت زوجته سارة عقيماً لا تلد.

المهمة الأخرى: عقاب قوم لوط على جريمتهم النكراء، وكفرهم بنبي الله لوط ﷺ. ﴿قَالُوا لَا تَخَفْ﴾ إنا رسل الله وأخبروه بما جاؤوا من أجله ﴿وَبَشِّرُوهُ بِغُلَامٍ عَالِمٍ﴾ أي: بشروه بأن زوجته سارة، ستلد مولوداً يكون من أهل العلم بالله وبدينه، وهو إسحاق ﷺ. وفي موضع آخر قال تعالى: ﴿فَلَمَّا رَأَىٰ أَيْدِيَهُمْ لَا تَصِلُ إِلَيْهِ نَكِرَهُمْ وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً﴾ [هود: ٧٠]. والغلام العليم الذي بشرت به الملائكة في قصة لوط هو إسحاق ابن سارة.

أما الغلام الحليم المبشر به في قوله تعالى: ﴿فَبَشِّرْنَاهُ بِغُلَامٍ حَلِيمٍ﴾ [الصافات] فهو إسماعيل ابن هاجر.

وإسماعيل أكبر من إسحاق بثلاثة عشر عاماً، وقد بُشِّرَتْ سارة بإسحاق بعد أن بلغت سن اليأس، أما هاجر فقد كانت شابة في مقتبل عمرها. قال تعالى:

٢٩- ﴿فَأَقْبَلَ بِنُورَيْنِ فِي صَرَقٍ فَصَكَّتْ وَجْهَهَا وَقَالَتْ عَجُوزٌ عَقِيمٌ﴾

أي: ولما سمعت سارة مقالة الملائكة، أقبلت على مجلس إبراهيم مع ضيفه، في صيحة وجلبة، وهي فرحة مسرورة، فلطمت وجهها تعجباً من هذا الأمر، وعلى عادة ما يحدث من النساء عند السرور من الأقوال والأفعال، وقالت: كيف ألد وأنا عجوز عقيم لا ألد؟ وقد ذكرت سارة ثلاثة أسباب مانعة لها من الحمل، وهي:

١- أنها عجوز، قد بلغت السن الذي لا تلد فيه النساء.

٢- وأنها عقيم، فرحمها غير صالح للحمل والولادة.

٣- والمانع الثالث جاء في سورة هود في قولها ﴿وَهَذَا بَعْلِي شَيْخًا﴾ [هود ٧١]

وقد جاء هذا في قوله ﷺ: ﴿وَأَمْرَانِ فَأَيُّهُمَا فَضَحِكْتُ﴾ أي: حاضت ﴿فَبَشَّرْنَاهَا بِإِسْحَاقَ

وَمِنْ وَرَاءِ إِسْحَاقَ يَعْقُوبَ ﴿٧٦﴾ قَالَتْ يَتُولاَنِي ٱلَّذِى ٱنَّآ عَجُوزٌ وَهَٰذَا بَعْلِى شَيْخًا ٱتَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ عَجِيبٌ ﴿٧٧﴾ [هود]، وكان النساء يحضرن مجالس الرجال في بيوتهن مع أزواجهن ويؤاكلنهم.

وفي الموطأ قال مالك: لا بأس أن تحضر المرأة مع زوجها وضيغه وتأكل معهم^(١).

﴿فَأَقْبَلَ كَأَمْرَهُ﴾ سارة ﴿فِي صَرْفٍ﴾ أي: في صيحة وضجة وجلبة.

وقيل: في جماعة من النسوة يتبادرن النظر إلى الملائكة ﴿فَصَكَّتْ وَجْهَهَا﴾ أي: لظمت وجهها.

وقال مجاهد: ضربت بكفها جبهتها على عادة النساء عندما يتعجبن من أمر غريب ﴿وَقَالَتْ عَجُوزٌ عَقِيمٌ﴾ لم يسبق لها حمل قط، وقد استبعدت ذلك لكبر سنها، وكان عمرها تسعاً وتسعين سنة، وكان عمر إبراهيم مئة وعشرين عاماً^(٢).

فالعقيم من النساء التي لا تلد، ومن الرياح التي لا تلح شجراً. قال تعالى:

٣٠- ﴿قَالُوا كَذَٰلِكَ قَالَ رَبُّنَا إِنَّهُ هُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْعَلِيمُ﴾ ﴿٣٠﴾

أي: قالت الملائكة: هكذا قال ربك، كما أخبرناك، فنحن بلغنا ما أمرنا بتبليغه، فلا تتعجبي أن يكون لك غلام في هذه السن ﴿قَالُوا كَذَٰلِكَ﴾ أي: الأمر كما قلنا لك ﴿قَالَ رَبُّنَا﴾ أي: هكذا حكم ربك وقضى في الأزل، فلا تتعجبي، فهو القادر على ذلك، ولا عجب من قدرته ﴿إِنَّهُ هُوَ ٱلْحَكِيمُ﴾ يضع الأشياء في مواضعها ﴿ٱلْعَلِيمُ﴾ بمصالح عباده، لا يخفى عليه شيء، وقد وسع علمه كل شيء.

والحوار الذي دار هنا كان بين الملائكة وسارة، وكذلك الحوار الذي دار في سورة هود.

أما الحوار الذي في سورة الحجر، فهو بين إبراهيم والملائكة، والمعنى واحد، ثم إن إبراهيم عليه السلام أراد أن يتعرف على حقيقة الضيوف، إذ كيف يبشرونه بغلام عليم؟

٣١- ﴿قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا ٱلْمُرْسَلُونَ﴾ ﴿٣١﴾

عرف إبراهيم حقيقة ضيوفه، وأنهم ليسوا بشراً، وإنما هم ملائكة جاؤوا لتبليغ أمر ما،

(١) «تفسير التحرير والتنوير» (١٢/٣٦٠).

(٢) «حاشية الصاوي على الجلالين» (٤/١٢٦).

وقد علم إبراهيم أن الملائكة لا ينزلون مجتمعين إلا لأمر عظيم، فسألهم: ما شأنكم الخطير الذي جئتم لأجله أيها الملائكة الأبرار؟ ﴿قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ﴾ الخطب: هو الأمر المهم، أي: ما قصتكم، وما شأنكم ﴿أَيُّهَا الْمُرْسَلُونَ﴾ بعد هذه البشرى السارة؟ ولم يسألهم إبراهيم عن شأنهم إلا بعد أن أضافهم، واستعدوا للرحيل، وقد علم خليل الرحمن أن نزول الملائكة بتلك الصورة لا يكون لمجرد بشارته بالغلام العليم، فإن هذه البشرى تحصل بالوحي، فهم ولا بد جاؤوا لمهمة أخرى، أجابت الملائكة إبراهيم:

٣٢-٣٤ ﴿قَالُوا إِنَّا أَرْسَلْنَا إِلَى قَوْمِ ثَمُودَ ﴿٥٨﴾ لِنُرْسِلَ عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِنْ طِينٍ ﴿٥٩﴾ مُسَوِّمَةً عِنْدَ رَبِّكَ لِلْمُسْرِفِينَ ﴿٦٠﴾﴾

قالت الملائكة مجيبة لإبراهيم ﷺ: إن الله قد أرسلنا إلى قوم لوط المجرمين، فقد كفروا بالله، وكذبوا رسوله، وارتكبوا أفحش الجرائم التي لم يسبقهم إليها أحد من خلق الله وهم أهل سدوم وعمورية بالأردن.

ومهمتنا التي جئنا إليها أن نهلك قري قوم لوط، فنجعل عاليها سافلها، ثم تتبع ذلك فمطرهم بحجارة من طين متحجر، وفي الآية الأخرى ﴿وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِنْ سِجِّيلٍ مَنصُورٍ ﴿٨٧﴾ مُسَوِّمَةً عِنْدَ رَبِّكَ وَمَا هِيَ مِنَ الظَّالِمِينَ بِبَعِيدٍ ﴿٨٨﴾﴾ [هود].

والسجّيل: هو الطين المطبوخ بالنار، كالآجر، وهذه الحجارة، قذفها الأرض إلى أعلى بضغط إلهي، ثم نزلت عليهم كأنها مطر.

وكل حجر منها يحمل اسم صاحبه الذي يُرمى به، وعليه علامة أنه ليس من حجارة الدنيا ﴿مُسَوِّمَةً﴾ أي: مُعَلِّمَةً، قيل: إنها مختومة.

وقال ابن عباس ؓ: في الحجر الأسود منها نقط بيضاء، وفي الحجر الأبيض نقط سوداء.

وقد أعدت هذه الحجارة ﴿عِنْدَ رَبِّكَ لِلْمُسْرِفِينَ﴾ المتجاوزين حدود الله تعالى في الفجور.

قيل: كانوا ست مئة ألف، فأدخل جبريل جناحه تحت الأرض فاقتلع قراهم، ورفعها حتى سمع أهل السماء أصواتهم، ثم قلبها، وأرسلت الحجارة على من كانوا خارج قري المؤتفكة^(١).

(١) «حاشية الصاوي على الجلالين» (١٢٦/٤).

أخذ إبراهيم يجادل الملائكة في قوم لوط، لعل الله أن يدفع عنهم العذاب، فقال الله تعالى ﴿يَا إِبْرَاهِيمُ أَعْرِضْ عَنْ هَذَا إِنَّهُ قَدْ جَاءَ أَمْرُ رَبِّكَ وَإِنَّهُمْ آتِيهِمْ عَذَابٌ غَيْرُ مَرْدُودٍ﴾ (٦١) [هود] قال تعالى:

٣٥، ٣٦- ﴿فَأَخْرَجْنَا مَنْ كَانَ فِيهَا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ (٣٥) ﴿فَمَا وَحَدَّا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ (٣٦) ﴿

ترك الملائكة إبراهيم ذاهبين إلى قوم لوط لإهلاكهم، وكانوا متجاورين، كما بين البحر الميت ومدينة الخليل، وحلوا بديارهم، وجرى بينهم وبين لوط ﷺ ما جرى من الحوار، ثم شرعوا في تنفيذ ما كلفهم به ربهم، فأمر الله الملائكة بإخراج من في قري قوم لوط من المؤمنين؛ حتى لا يشملهم العذاب، ولم يكن منها مؤمن سوى لوط وابنته، فخرجوا منها ﴿فَأَخْرَجْنَا﴾ أي: بأمرنا ﴿مَنْ كَانَ فِيهَا﴾ في قرية لوط ﴿مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ من أهل الإيمان؛ لئلا يهلكوا، وقد يسر الله إخراج المؤمنين ونجاتهم، وهم لوط وأهله إلا امرأته.

لم تجد الملائكة في القرية غير بيت من المسلمين، وهو بيت لوط وابنته.

وقيل: أهل بيته كانوا ثلاثة عشر، أما امرأته فكانت من الهالكين؛ لأنها لم تؤمن بنبوة لوط ﷺ، وكانت تُرشد الشباب على ضيوف إبراهيم، وتُظهر إيمانها بلوط ﷺ

والإيمان أعم من الإسلام، فكل مؤمن يكون مسلماً وليس العكس، كما فرق الله بينهما في قوله: ﴿قَالَتِ الْأَعْرَابُ ءَأَمِنَّا قُلْ لَمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الْإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ﴾ [الحجرات: ١٤].

وقد عرّف النبي ﷺ كلا منهما في حديث جبريل ﷺ حين سأله عن الإسلام والإيمان والإحسان.

عرّف الإسلام بأنه: عمل الجوارح، بالإتيان بأركانه الخمسة.

وعرّف الإيمان: بأنه عمل القلب، بالتصديق بأركانه الستة.

وعرّف الإحسان: بأنه مراقبة الله ﷻ.

والغرض من الآية بيان قلة المؤمنين الناجين من العذاب، وكثرة الكافرين المستحقين للهلاك، ولوط وابنته كانوا مصدقين بقلوبهم، منقادين لأمر الله تعالى بجوارحهم، ولذا فإن الله تعالى جمع لهم بين الإيمان والإسلام. قال تعالى في بيان العبرة المستفادة من القصة:

٣٧- ﴿وَتَرْكَا فِيهَا ءَايَةً لِلَّذِينَ يَخَافُونَ الْعَذَابَ الْأَلِيمَ﴾ (٣٧) ﴿

ولما أهلك الله قوم لوط، بقيت آثارهم ظاهرة، علامة بيّنة، يمرُّ عليها الناس في صباحهم ومساءهم، وهي بحيرة لوط، أو البحر الميت في الأردن، الذي لا يُتفع بمياهه ﴿وَرَكْنَا فِيهَا﴾ أي: في قري قوم لوط ﴿ءَايَةً﴾ من آثار عذابهم واستئصالهم ﴿لِلَّذِينَ يَخَافُونَ الْعَذَابَ الْأَلِيمَ﴾ فهم الذين ينتفعون بالذكرى، ويعتبرون بما حدث لغيرهم، وهي علامة دالة على قدرة الله تعالى، قال سبحانه: ﴿وَالْمُؤْنَفِكَةَ آهَوَىٰ ۖ فَفَشَّنَا مَا غَشَّى ۖ﴾ [النجم].

وقال سبحانه: ﴿وَإِنَّكَ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِمْ مُّصْبِحِينَ ۖ وَاللَّيْلُ أَفْلَا تَعْقِلُونَ ۖ﴾ [الصافات].

وقد بقي مكانهم خراباً لم يُعمَّر حتى الآن ﴿وَإِنَّهَا لَيْسَبِيلُ مِصْرَ ۖ﴾ [الحجر].

والذين يخافون العذاب الأليم هم المؤمنون بالبعث والجزاء من أهل الإسلام، فهم الذين يتقون أسبابها.

الِإِغْتِبَارُ بِمَا حَدَثَ لِفِرْعَوْنَ وَجُنُودِهِ

٣٨، ٣٩- ﴿وَفِي مُوسَىٰ إِذْ أَرْسَلْنَاهُ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ ۖ﴾ [٢٨] ﴿فَتَوَلَّىٰ بِرُكْبِهِ ۖ وَقَالَ سِحْرٌ أَوْ مَجْنُونٌ ۖ﴾ [٢٩]

وبعد قصة إبراهيم ولوط عليهما السلام، تأتي إشارة سريعة إلى ما لحق بفرعون وجنده من الهلاك لما كذبوا نبي الله موسى ﷺ ﴿وَفِي مُوسَىٰ﴾ أي: وفي قصة موسى مع فرعون آية وعبرة، وهذه الآية كائنة حين أرسلنا موسى إلى فرعون وملئه بالآيات والمعجزات الظاهرة، وجعلناها آية للذين يخافون العذاب الأليم، وتدل هذه الآية، على أن الله تعالى مهلك المكذبين الذين خالفوا أمره ونهيه، فيخافون أن يقع بهم مثل عذابهم إن هم صنعوا مثل صنيعهم.

وقد أرسل الله موسى ﴿بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ﴾ أي: بحجة واضحة، وبرهان بيّن، حيث أيده الله تعالى بالتوراة والآيات التسع، ومنها العصا واليد.

وقد جاءت قصة موسى بعد قصة ضيف إبراهيم، لشهرتها أكثر من غيرها، ولأن عذاب قومهما أرضي، فقد عذّب قوم لوط بالحجارة، وعذّب فرعون وقومه بالغرق.

أما عاد وثمود فقد كان عذابهما سماً، إذ عذّب عاد بالريح، وعذّب ثمود بالصاعقة أو الطاغية.

وكما أن أسباب وجود الناس أربعة أشياء، هي: الماء، والتراب، والهواء، والنار، فقد أهلك الله قوم لوط بالحجارة وهي من طين، وأهلك قوم فرعون بالماء، وأهلك قوم

عاد بالريح وهو هواء، وأهلك قوم ثمود بالنار.

دعا موسى فرعون وقومه إلى توحيد الله تعالى، فأعرض فرعون بجانبه عن الإيمان به، وتعزز بأصحابه وجنوده، وتقوى بهم، وهذا معنى ﴿فَتَوَلَّىٰ رُكُوعًا﴾ أي: فأعرض فرعون عن الإيمان بموسى مغترًا بقوته وجنوده وجاهه، فكان جنوده له كالركن الذي يعتمد البنيان عليه ﴿وَقَالَ﴾ فرعون عن موسى: ﴿سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ﴾ فهو إما ساحر وما أتى به شعوذة ليس من الحق في شيء، وإما مجنون لا يؤاخذ بما صدر منه لعدم عقله، ولذلك ادّعى النبوة.

وقد قال فرعون ذلك تمويهًا على قومه، وليس شكًا منه في صدق موسى ﷺ، فهو يعلم أنه صادق، كما قال تعالى: ﴿وَحَمَدُوا بِهَا وَاسْتَفْتَنَهَا أَنْفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا﴾ [النمل: ١٤]
وقال موسى لفرعون: ﴿لَقَدْ عَلِمْتَ مَا أَزَلَّ هَؤُلَاءُ إِلَّا رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ بَصَائِرَ﴾ [الإسراء: ١٠٢]

فماذا كانت عاقبة فرعون حين أعرض عن الحق وسخر بموسى ﷺ؟ قال تعالى:

٤٠- ﴿فَأَخَذَتْهُ وَجُودُهُ فَبَذَلَتْهُمْ فِي أَلِيمٍ وَهُوَ مُلِيمٌ﴾ ﴿٤٠﴾

أي: أخذنا فرعون ﴿وَجُودُهُ﴾ الذين تقوى بهم ﴿فَبَذَلَتْهُمْ﴾ أي: ألقيناهم جميعًا ﴿فِي أَلِيمٍ﴾ وهو البحر، لَمَّا أغضبونا وكذبونا ﴿وَهُوَ﴾ أي فرعون ﴿مُلِيمٌ﴾ قد أتى بما يُلام عليه من الكفر والطغيان والجحود.

لقد رُمي الطاغية الذي ادّعى الربوبية والألوهية في البحر كما تلقى النواة، ولم يكلف أحدًا شيئًا، ولا احتاج جهدًا، وما بكت عليه السموات والأرض.

وفي هذا آية للذين يخافون العذاب الأليم، فيجتنبون سبب ما حلّ بفرعون وقومه من العذاب بسبب المكابرة وعدم تصديق الرسل، وعدم الإيمان بالبعث والجزاء.

الاعْتِبَارُ بِمَا حَدَثَ لِقَوْمِ عَادَ

٤١، ٤٢- ﴿وَفِي عَادٍ إِذْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الرِّيحَ الْعَقِيمَ﴾ ﴿٤١﴾ مَا نَذَرُ مِنْ شَيْءٍ أَنْتَ عَلَيْهِ إِلَّا جَعَلْنَاهُ كَالرَّمِيمِ﴾

ومن أشهر قبائل العرب البائدة: قوم عاد بالأحقاف في جنوب الجزيرة العربية، فقد

أرسل الله تعالى إليهم نبيه هودًا ﷺ يدعوهم إلى توحيد الله تعالى، فكذبوه واتهموه بالجنون والسَّفَه، قائلين له: ﴿إِنَّا لَنَرُكَ فِي سَفَاهَةٍ وَإِنَّا لَنُظُنُّكَ مِنَ الْكَذِبِينَ﴾ [الأعراف: ٦٦] فعاقبهم الله بالريح العاتية ﴿سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَنَعًا لَّيَالٍ وَثَمَنِيَةً أَيَّامٍ حُسُومًا فَتَرَى الْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَى كَأَنَّهُمْ أُعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ﴾ ﴿٧﴾ [الحاقة].

قال تعالى: ﴿وَفِي عَادٍ﴾ أي: وفي شأن قوم عاد وإهلاكهم آياتٌ وعِبَرٌ للذين يخافون العذاب الأليم، وكان ذلك ﴿إِذْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الرِّيحَ الْعَقِيمَ﴾ التي لا تأتي بخير، ولا بركة فيها، فلا تُلْقَح شجرًا، ولا تحمل مطرًا، وهي ريح الدُّبُور لقوله ﷺ من حديث ابن عباس ؓ: «نصرت بالصِّبَا، وأهلك عاد بالدُّبُور»^(١) وذلك بسبب إشراكهم بالله تعالى وتكذيبهم هودًا ﷺ، وقولهم: ﴿مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً﴾ [فصلت: ١٥].

ومن خصائص هذه الريح أنها لا تُبقي ولا تذر.

وهكذا وصف الله هذه الريح العقيم بأنها ما ترك شيئًا مرَّت عليه في طريقها مما أراد الله تدميره وإهلاكه من الأنفس والأموال والأنعام والمتاع ﴿إِلَّا جَعَلَتْهُ كَالرَّمِيمِ﴾ وهو الشيء الهالك البالي الهشيم المفتت، فقد أرسل الله تعالى عليهم ريحًا صرصرًا عاتية، استمرت ثمانية أيام متتابعة، قال تعالى في عذابهم: ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِم رِيحًا صَرْصَرًا فِي يَوْمٍ نَحْسٍ مُّسْتَمِرٍّ﴾ ﴿١٩﴾ نَزَعَ النَّاسَ كَأَنَّهُمْ أُعْجَازُ نَخْلٍ مُّنْقَعِرٍ ﴿٢٠﴾ [القمر].

كما قال تعالى: ﴿تُدْمِرُ كُلَّ شَيْءٍ بِأَمْرِ رَبِّهَا فَأَصْبَحُوا لَا يُرَى إِلَّا مَسَكِنُهُمْ كَذَلِكَ نَجْزِي الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ﴾ ﴿٢٥﴾ [الأحقاف].

وقال سبحانه: ﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِم رِيحًا صَرْصَرًا فِي أَيَّامٍ نَّحْسَاتٍ لِّنُذِيقَهُمْ عَذَابَ الْغُرَى فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ [فصلت: ١٦].

فكانت هذه الريح تهدم البنيان، وتنتزع الرجال، وترفعهم إلى أعلى، حتى يرى الواحد منهم كالطير، ثم ترمي به في الأرض جثة هامدة.

وسُميت الريح بالعقيم تشبيهاً لها بعقم المرأة التي لا تحمل ولا تلد، وهي ريح لا خير فيها.

(١) من حديث ابن عباس في «صحيح مسلم» برقم (٩٠٠) و«صحيح البخاري» برقم (١٠٣٥، ٣٣٤٣، ٤١٠٥).

وهذه الريح كانت تتزع الإنسان العادي من بين الناس وتذهب به .

أخرج الترمذي وغيره، عن أبي وائل، عن رجل من ربيعة قال: قدمت المدينة فدخلتُ على رسول الله ﷺ فذكرتُ عنده وافد عادٍ، فقلت: أعوذ بالله أن أكون مثل وافد عادٍ، قال رسول الله ﷺ: «وما وافد عادٍ؟» قال: فقلت: على الخير سَقَطْتُ، إِنَّ عادًا لَمَّا أَقْحَطَتْ بَعَثَتْ قَيْلًا، فنزل على بكر بن معاوية، فسقاه الخمر، وغتته الجرادتان، ثم خرج يريد جبال مَهْرَةَ، فقال: اللهم إني لم آتِك لمريض فأداويه، ولا لأسير فأفاديه، فاستق عبدك ماكنت مُسْقِيه، واستق معه بكر بن معاوية، يشكُرُ له الخمر التي سقاه، فرفع له سحابات، فقيل له: اختر إحداهن، فاختر السوداء منهن، فقيل له: خذها رَمَادًا رَمْدًا - أي: متناهية في الإحراق- لا تذر من عاد أحدًا، وذكر أنه لم يُرسل عليهم من الريح إلا قَدْرُ هذه الحلقة، يعني: حلقة الخاتم، ثم قرأ: ﴿إِذْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الرِّيحَ الْعَقِيمَ لَا مَأْثَرُ مِنْ شَيْءٍ أَنْتَ عَلَيْهِ إِلَّا جَعَلْتَهُ كَالرِّمِيمِ﴾ (١).

والذين لا يخافون العذاب الأليم ممن أصر على الكفر والتكذيب مصيرهم مثل مصير قوم عاد.

الْإِغْتِبَارُ بِمَا حَدَّثَ لِقَوْمِ ثَمُودَ

٤٣- ﴿وَفِي ثَمُودَ إِذْ قِيلَ لَهُمْ تَمَنَّوْا حَتَّىٰ حِينٍ﴾ (٤٣)

ومن القبائل المشتهرة بين العرب قبيلة ثمود في مدائن صالح بشمال الجزيرة العربية، فقد أرسل الله إليهم نبيه صالحًا ﷺ، فدعاهم إلى التوحيد وعدم الإشراف بالله تعالى، فناصره العدا، وطلبوا منه معجزة تدل على صدقه، بأن يُخرج لهم ناقة عُشراء من صخرة صماء، فأيده الله بها ورأوها بأعينهم، ولكنهم لم يؤمنوا، بل قتلوا الناقة وتآمروا على قتل صالح، ﷺ فتوَعَّدَهم الله تعالى ثلاثة أيام، تأخذهم الصاعقة بعدها، فتهلكهم وهم ينظرون.

﴿وَفِي ثَمُودَ﴾ أي: وتركنا في شأن قصة قوم ثمود آية للمؤمنين ليكون في هلاكهم آيات وعبر ﴿إِذْ قِيلَ لَهُمْ تَمَنَّوْا حَتَّىٰ حِينٍ﴾ أي: حين قال لهم نبيهم صالح ﷺ: انتفعوا بحياتكم

(١) «سنن الترمذي» (٣٩١/٥) (٣٢٧٣، ٣٢٧٤) وحسنه الألباني في «صحيح سنن الترمذي» (٢٦١١) والنسائي في «السنن الكبرى» (٨٦٠٧) وابن ماجه (٢٨١٦) و«المسند» (١٥٩٥٣، ١٥٩٥٤). بأطول من هذا السياق، وإسناده حسن، كما قال محققوه.

وتمتعوا بها مدة أيام ثلاثة، حيث تنتهي آجالكم بعد ذلك بنزول الصاعقة عليكم فتُهلككم، كما قال تعالى: ﴿فَعَقَرُوهَا فَقَالَ تَمَتَّعُوا فِي دَارِكُمْ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ ذَلِكَ وَعْدٌ غَيْرُ مَكْذُوبٍ﴾ ﴿٦٥﴾ [هود].

ورد أن صالحًا وعدهم بالهلاك بعد ثلاثة أيام، وقال لهم: تصبح وجوهكم غداً مصفرة، وبعد غد محمرة، وفي اليوم الثالث مسودة، ثم يصبحكم العذاب، كما قال تعالى: ﴿فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ مُصْبِحِينَ﴾ ﴿٨٣﴾ [الحجر: ٨٣].

فلما رأوا الآيات التي بينها لهم نبيهم صالح ﷺ بتغير اللون عمدوا إلى قتله، فنجاه الله منهم، وفي اليوم الرابع نزلت عليهم نار من السماء، وقيل: صيحة فهلكوا^(١) وفي تأمرهم على قتله يقول تعالى: ﴿قَالُوا تَقَاسَمُوا بِاللَّهِ لَنُبَيِّتَنَّهُ وَأَهْلَهُ ثُمَّ لَنَقُولَنَّ لِوَلِيِّهِ مَا شَهِدْنَا مَهْلِكَ أَهْلِهِ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ﴾ ﴿٩٩﴾ [النمل]. قال تعالى:

٤٤، ٤٥ - ﴿فَعَمَّوْا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ^(٢) وَهُمْ يَنْظُرُونَ﴾ ﴿٤٤﴾ ﴿فَمَا اسْتَطَعُوا مِنْ قِيَامٍ وَمَا كَانُوا مُنْصَرِينَ﴾ ﴿٤٥﴾

ولما توعد صالح قوم ثمود بالتمتع في منازلهم ثلاثة أيام، ما كان منهم إلا أنهم عصوا أمر ربهم، وأعرضوا عما أمرهم الله به على لسان رسوله صالح ﷺ، فأخذتهم صاعقة العذاب وهم ينظرون إلى عقوبتهم بأعينهم ﴿فَعَمَّوْا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ﴾ أعرضوا عن دعوة صالح وكذبوه ﴿فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ وَهُمْ يَنْظُرُونَ﴾ والنظر إلى النعمة يزيد صاحبها ألماً وحسرة، كما أن النظر إلى النعمة يزيد صاحبها مسرة.

قال مجاهد: ﴿وَهُمْ يَنْظُرُونَ﴾ أي: ينتظرون، وذلك أن ثمود وعدت العذاب قبل نزوله بهم بثلاثة أيام، وجعل لنزوله عليهم علامات في تلك الأيام الثلاثة، فظهرت العلامات التي جعلت لهم، الدالة على نزولها في تلك الأيام، فأصبحوا في اليوم الرابع موقنين بأن العذاب نازل بهم، ينتظرون حلوله بهم^(٣).

(١) يُنظر: «تفسير روح المعاني» للألوسي (١٦/٢٧).

(٢) قرأ الكسائي (الصعقة) على إرادة الصوت الذي يصحب الصاعقة، والباقون (الصاعقة) على إرادة النار النازلة من السماء للعقوبة.

(٣) أخرجه الطبري بسند صحيح عن مجاهد.

قال تعالى: ﴿وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَىٰ عَلَى الْهُدَىٰ فَأَخَذَتْهُمُ صَاعِقَةُ الْعَذَابِ الْهُونِ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿٧﴾ وَجَعَلْنَا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ ﴿٨﴾﴾ [فصلت].

وقال تعالى في عذابهم: ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ صَيْحَةً وَاحِدَةً فَكَانُوا كَهَشِيرِ الْحُمْلِ ﴿٣١﴾﴾ [القمر].

ولما حلَّ بهم عذاب الله تعالى أعجزهم عن الحركة، وشل حواسهم، فأقعدهم مكانهم، وجعلهم جُثًّا هامدة، فلم يمكنهم أن ينهضوا قِيَامًا، ولم يستطيعوا الهرب ولا الفرار، ولم يمكنهم الحركة ولا القيام من أماكنهم ولم ينصرهم من بأس الله ناصر، ولم يمكنهم نصر أنفسهم ولا دفع العذاب عنهم ﴿لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَ أَنفُسِهِمْ وَلَا هُمْ مِّنَّا يُصْحَبُونَ﴾ [الأنبياء: ٤٣].

الاعتبار بما حدث لقوم نوح

٤٦- ﴿وَقَوْمٌ ﴿١﴾ نُّوحٌ مِّن قَبْلُ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ ﴿٤١﴾﴾

ثم ختم الله هذه الآيات بلمحة عن نبي الله نوح ﷺ، فقال: ﴿وَقَوْمٌ نُّوحٌ مِّن قَبْلُ﴾ أي: من قبل هؤلاء الذين ذُكروا في الآيات السابقة، وهم: قوم إبراهيم، وقوم لوط، وفرعون وقومه، وقوم عاد، وقوم ثمود، وقبل هؤلاء جميعًا أهلكتنا قوم نوح بالطوفان، فأرسل الله عليهم الماء المنهمر فأغرقهم عن آخرهم ولم يبق من الكافرين ديارًا ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ﴾ مخالفين لأمر الله تعالى، خارجين عن طاعته، منغمسين في الشرك وعبادة الأصنام، قد ارتكبوا الكفر والمعاصي، وهذه عادة الله تعالى وسنته فيمن عصاه.

وفي قوله تعالى: ﴿مِّن قَبْلُ﴾ تنبيه على مخالفة عادة القرآن في ترتيب أحوال هذه الأمم في السورة.

وجاء مثل ذلك في سورة النجم في قوله تعالى: ﴿وَأَنَّهُ أَهْلَكَ عَادًا الْأُولَىٰ ﴿٥٠﴾ وَثَمُودًا ﴿٥١﴾﴾ وَثَمُودًا ﴿٥١﴾ وَقَوْمٌ نُّوحٌ مِّن قَبْلُ إِنَّهُمْ كَانُوا هُمْ أَظْلَمَ وَأَطْلَىٰ ﴿٥٢﴾﴾ [النجم].

(١) قرأ أبو عمرو وحمزة والكسائي وخلف بخفض ميم (وقوم) عطفًا على ثمود، والباقون بالنصب مفعول لفعل محذوف تقديره: وأهلكنا، دل عليه ما قبله.

ثَلَاثَةُ بَرَاهِينٍ أُخْرَى عَلَى الْبُعْثِ وَالتَّوْحِيدِ

الْبُرْهَانُ الْأَوَّلُ: خَلَقَ السَّمَاءَ وَاتَّسَاعُهَا

٤٧- ﴿وَالسَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا بِأَيْدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ﴾

تحدثت السورة عن منكري البعث، وأعقبت ذلك بذكر ما حلَّ ببعض الأمم المكذبة لرسول الله، والمكذبة للبعث والنشور، ولمَّا كانت شبهة منكري البعث أنهم يتوهمون استحالة إعادة الأجسام بعد فناؤها، فإن الله تعالى ذكر ثلاثة أمثلة على ذلك للاستدلال بها على أن الله تعالى يحيي الناس بعد موتهم، وهذه الأمثلة الثلاثة هي: السماء، والأرض، وخلق الذكر والأنثى من جميع أجناس المخلوقات.

وابتداً سبحانه بخلق السماء؛ لأنها أعظم المخلوقات، وقد خلقها الله تعالى ولم تكن شيئاً، فإعادة الأشياء الفانية بالنسبة إلى خلقها شيء يسير في عرف الناس.

قال تعالى: ﴿وَالسَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا بِأَيْدٍ﴾ أي: خلقنا السماء وأتقناها، وجعلناها سقفاً للأرض، وشيئناها وأحكمنا بناءها ﴿وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ﴾ لأرجائها وأنحائها، بحيث صارت الأرض وما يحيط بها من الفضاء - بالنسبة إلى سعة السماء - كالحلقة الملقاة في فلاة من الأرض.

وعبر سبحانه عن خلق السماء بالبناء؛ لأن السماء تبدو كالقبة وهي بناء، وإنا لقادرون على توسعتها بتلك الصورة العجيبة، وهذه السعة تشمل مدارات النجوم والكواكب، والمجرات التي تحوي مئات الملايين من النجوم، وتشمل طبقات الفضاء التي تتناثر فيها النجوم والكواكب، فهذه التي تُعدُّ بالملايين لا تُعدُّ أن تكون ذرات متناثرة في هذا الفضاء الرحيب^(١).

وهذه الآية ليست من آيات الصفات؛ لأن لفظ ﴿بِأَيْدٍ﴾ ليس جمع يد، وإنما معناها: أنا بنينا السماء بقوة وقدرة عظيمة فائقة، كما قال تعالى: ﴿وَأَيَّدْتُهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ﴾ [البقرة: ٨٧] أي: قوَّيناه^(٢).

(١) يُنظر: «في ظلال القرآن» (٦/ ٣٣٨٥) بتصرف.

(٢) «أضواء البيان» للشيخ الشنقيطي (٧/ ٦٦٩).

والآية تحتمل أن يكون هذا الاتساع في المستقبل شيئاً فشيئاً، بدءاً من أول الخلق، وهو يدخل في الإعجاز العلمي للقرآن.

وتحتمل أيضاً ﴿وَإِنَّا لَمُؤَسِّعُونَ﴾ على عبادنا بالرزق، فما من دابة في أقطار العالم العلوي والسفلي، إلا أوصل الله إليها من الرزق ما يُغنيها ويكفيها، والمعنى الأول أنسب لسياق الآية.

البُزْهَانُ الثَّانِي: صَلاَحِيَّةُ الْأَرْضِ لِمَنَافِعِ النَّاسِ

٤٨- ﴿وَالْأَرْضَ فَرَشْتَهَا فَنِعَمَ الْمَهْدُونَ﴾ ﴿٤٨﴾

ومن دلائل قدرة الله تعالى وحكمته أن جعل الأرض مبسطة ممهدة، يمشي عليها أنواع الحيوان وتتوسّدُها وتضطجع عليها جميع المخلوقات، ولو لم تكن كذلك لما استطاع الإنسان والحيوان أن يستخدمها.

وقد رُوِيَ في ذكر الأرض ما يبدو للناس من سطوحها، ورُوِيَ في ذكر السماء ما يبدو للناس من قبة أجوائها.

والأرض بما فيها كحلقة في فلاة بالنسبة إلى السماء، وقد بسط الله الأرض وجعلها صالحة لمنفعة الناس وراحتهم، ولتكون موطناً لهم وداراً لمعاشهم ﴿وَالْأَرْضَ فَرَشْتَهَا﴾ أي: جعلناها فراشاً مبسوطاً للخلق للاستقرار والمشي عليها، ولزراعتها واستثمارها واستخراج كنوزها، وجعلناها فيها مسالك وطرقاً تُوصِّلُهم إلى حيث يريدون ﴿فَنِعَمَ الْمَهْدُونَ﴾ نحن، حيث جعلناها مهذا لأهلها على أحسن الوجوه وأكملها، وفي هذا تلقين للناس، وتعليم لهم أن يحمده ويشكروه سبحانه على ما امتنَّ به عليهم من خلق السماء والأرض، ليقولوا: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ ﴿٢﴾ ويعبدوه حق العادة.

البُزْهَانُ الثَّالِثُ: خَلْقُ نَوْعَيْنِ مُتَقَابِلَيْنِ مِنْ جَمِيعِ أَجْنَاسِ الْمَخْلُوقَاتِ

٤٩- ﴿وَمِنْ كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ ﴿٤٩﴾

أي: ومن كل شيء من أجناس الموجودات خلقنا نوعين متقابلين متضادين: كالذكر والأنثى، والليل والنهار، والسماء والأرض، والغنى والفقر، والضلال والهدى، والصحة

(١) قرأ حفص وحمة والكسائي وخلف بتخفيف الذال من (تذكرون)، والباقون بتشديدها.

والمرض، والبياض والسواد، والحُلُو والحامض، والجنة والنار، والشمس والقمر، والبر والبحر، والسهل والجبل، والجن والإنس، والموت والحياة، والظلمة والنور، والسعادة والشقاء، والحق والباطل، والإيمان والكفر، والشتاء والصيف، والثواب والعقاب، والطاعة والمعصية، والحر والبرد، والخير والشر.

وخلقنا من الحيوانات ذكورا وإناثا، ومن الجن ذكورا وإناثا، ومن الطيور ذكورا وإناثا، ومن النبات ذكورا وإناثا، وهكذا

والقادر على خلق هذه الأزواج، وعلى جعل الأرض مهادا، والسماء بناء، قادرٌ على إعادة الحياة للموتى من باب أولى، والمنفرد بخلق هذه الكائنات هو الذي يجب أن يُفرد بالعبادة.

وفي هذا دلالة على أنه سبحانه إله واحد، لا رب غيره ولا معبود بحق سواه، وفي ذلك إبطال لكل شريك مع الله تعالى، وقد خلق الله هذا الكون بما فيه؛ لكي تتذكروا قدرة الله تعالى وتعتبروا ﴿لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ نعم الله عليكم وحكمته فيكم، فتعرفوا أن الله تعالى خالق كل شيء، وتستدلوا بذلك على توحيده سبحانه، وعلى أنه يحيي الناس بعد موتهم.

ولما دعا الله عباده إلى النظر في آياته، أمرهم بالمقصود من ذلك، وهو الفرار إلى الله بالرجوع إليه فيفر العبد إلى ربه من كل ما يكرهه الله تعالى إلى كل ما يحبه، ومن الغفلة إلى ذكر الله، يفر من قضاء الله وقدره إلى قضائه وقدره.

وَجُوبُ الْفِرَارِ مِنَ الْمَعْصِيَةِ إِلَى الطَّاعَةِ

٥٠- ﴿فَقَرُّوا إِلَى اللَّهِ إِنِّي لَكُمْ مِنْهُ نَذِيرٌ مُبِينٌ﴾

أي: وما دام الأمر كذلك فأقلعوا أيها المشركون، وأيها الجاحدون لوحداية الله تعالى، المنكرون للبعث والنشور، أَقْلِعُوا عما أنتم فيه من الكفر والضلال، وتوجَّهوا إلى الله الواحد القهار بالطاعة والعبادة، وفِرُّوا من عذاب الله إلى رحمته تعالى بالإيمان به وبرسوله، واتباع أمره، واجتناب نهيه، والعمل بطاعته ﴿فَقَرُّوا إِلَى اللَّهِ﴾ فِرُّوا من الكفر إلى الإيمان، ومن الشرك إلى التوحيد، ومن المعصية إلى الطاعة، ومن الضلال إلى الهدى، ومن الجهل إلى العلم، ومن الظلمات إلى النور، ومن الكفر إلى الإيمان.

والفرار: سرعة المفارقة تجنباً للأذى، والأمر بالفرار إلى الله تعالى أمر بالدخول في الإيمان وطاعة الرحمن، وعبر بالفرار لينبه على العقاب والعذاب الذي ينتظرهم.
قال ابن الجوزي: اهربوا مما يوجب العقاب من الكفر والعصيان، إلى ما يوجب الثواب والطاعة^(١).

كما جاء في الحديث عن البراء بن عازب رضي الله عنه: «لا ملجأ ولا منجا منك إلا إليك»^(٢) فأسرعوا إلى طاعة الله عباد الله، فقد أنذرتكم عقاب الله قبل أن يحل بكم. وكان النبي صلى الله عليه وسلم يفر إلى الصلاة كلما حزبه أمر، وهذا فرار إلى الله تعالى.

وَجُوبُ الْفِرَارِ مِنَ الشَّرْكِ إِلَى التَّوْحِيدِ

٥١- ﴿وَلَا تَجْعَلُوا مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ إِنَّ لَكُمْ مِنْهُ نَذِيرٌ مُبِينٌ﴾^(٥١)

ثم أكد صلى الله عليه وسلم هذا الإنذار، ونهى عن التقاعس فيه، فقال: ﴿وَلَا تَجْعَلُوا مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ﴾ أي: لا تشركوا بالله أحداً في طاعته وعبادته، فإن خطر الشرك شديد، وعاقبته وخيمة ﴿إِنَّ لَكُمْ مِنْهُ نَذِيرٌ﴾ أي: من الله تعالى ﴿نَذِيرٌ﴾ أبلغكم رسالة ربي، وأبشّر من أطاعه بدخول الجنة، وأحذّر من عصاه من دخول النار، فأنا لكم نذير ﴿مُبِينٌ﴾ بين الإنذار لكم.

والشرك بالله تعالى أعظم الذنوب، وهو الذنب الذي لا يُغفر إذا مات العبد عليه، ولذلك فإن أصل الفرار إلى الله تعالى، أن يفر العبد من الشرك إلى التوحيد، ويخلص لربه الطاعة والعبادة، والخوف والرجاء والدعاء والإنابة، والرغبة والرهبة.

وجملة ﴿إِنَّ لَكُمْ مِنْهُ نَذِيرٌ مُبِينٌ﴾ ذكرت عند الأمر بالطاعة في الآية السابقة، وذكرت عند النهي عن المعصية في هذه الآية للإشارة إلى أنه لا يفوز عند الله تعالى إلا من جمع بين الإيمان والعمل الصالح، وأن أحدهما بدون الآخر لا ينفع^(٣).

(١) «زاد المسير» (٤١/٨).

(٢) من حديث البراء بن عازب في البخاري (٥٣١٢، ٦٣١٥) ومسلم (٢٧١٠).

(٣) «تفسير الخازن» (١٨٥/٤) بتصرف.

مَوْقِفُ الْأَقْوَامِ مِنَ الرُّسُلِ

٥٢، ٥٣ - ﴿كَذَلِكَ مَا أَتَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا قَالُوا سَاحِرٌ أَوْ مُجْنُونٌ ﴿٥٢﴾ أَتَوَصَّوْا بِهِمْ بَلْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ﴾

ولَمَّا تَصَدَّرَتِ السُّورَةُ بِالْقِسْمِ عَلَى أَنَّ الْمُنْكَرِينَ لَوْحَدَانِيَةِ اللَّهِ تَعَالَى، وَالْمُنْكَرِينَ لِلْبَعْثِ وَالنَّشُورِ فِي قَوْلٍ مُخْتَلَفٍ مُتَنَاقِضٍ، خُتِمَتِ السُّورَةُ بِهَذَا الْمَعْنَى كَذَلِكَ، فَقَالَ تَعَالَى مُشِيرًا إِلَى مَا سَبَقَ: ﴿كَذَلِكَ﴾ أَي: مِثْلَ قَوْلِ الْمَكْذِبِينَ السَّابِقِينَ بِالتَّوْحِيدِ وَالْبَعْثِ وَالرَّسَالَةِ. ﴿مَا أَتَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ﴾ أَي: مَا أَتَى جَمِيعَ الْأَقْوَامِ الَّذِينَ قَبْلَ قَوْمِكَ - أَيُّهَا الرُّسُولُ - ﴿مِنْ رَسُولٍ﴾ يَدْعُوهُمْ إِلَى تَوْحِيدِ اللَّهِ وَعِبَادَتِهِ ﴿إِلَّا قَالُوا﴾ عَنْ كُلِّ مِنْهُمْ ﴿سَاحِرٌ أَوْ مُجْنُونٌ﴾. فكل رسول قال فيه فريق من قومه: مجنون، وقال فريق آخر: شاعر، وقال فريق ثالث: ساحر، وقال فريق رابع: كاهن... وهكذا.

فلا تحزن -أيها الرسول- لما تسمعه من بعضهم، فإن هذا دأب الكفار في كل زمان ومكان، حيث تصدر عنهم الأقوال الشنيعة التي يتنزه عنها رسل الله جميعاً، ولم يزل هذا دأبهم وعاداتهم في الأولين والآخرين، يلقن بعضهم بعضاً، ويؤثر بعضهم في بعض.

فهل أوصى بعض الأمم بعضاً بهذا، حتى وصلت المقولة من أول أمة، إلى آخر أمة، وهل أوصى بعض الأقوام بعضاً بهذه الأقوال حتى وصلت إلينا ﴿أَتَوَصَّوْا بِهِمْ﴾ أتواصى الأولون والآخرين بالتكذيب بالرسول ﷺ -أي رسول- حين قالوا بذلك جميعاً؟ ثم بين سبحانه أن السبب في ذلك هو الجحود والطغيان، فقال: ﴿بَلْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ﴾ جمعهم الطغيان والكفر، فتشابهت قلوبهم وأعمالهم، فقال متأخرهم بذلك كما قال متقدمهم. ﴿كَذَلِكَ قَالَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ مِثْلَ قَوْلِهِمْ تَشَبَّهَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ [البقرة: ١١٨].

وكذلك المؤمنون لما تشابهت قلوبهم في الإذعان إلى الحق، بادروا إلى الإيمان برسول الله وتعظيمهم وتوقيرهم وطاعتهم واتباعهم.

وتواصى المكذبين بعضهم بعضاً على تكذيب الرسل، يُشعر بأن القوم لن ينتفعوا بالآيات والنذر، ولمَّا لم ينتفعوا بها استحقوا عقاب الله في الدنيا والآخرة.

الدَّعْوَةُ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى لَا يَعُوقُهَا عَائِقُ

٥٤، ٥٥- ﴿فَقُولْ عَنْهُمْ مِمَّا أَنْتَ بِمَلُومٍ ۝ وَذَكَرْ فَإِنَّ الدَّكَرَى نَفْعُ الْمُؤْمِنِينَ ۝﴾

كان النبي ﷺ شديد الحرص على إيمان قومه، يغتم قلبه لعنادهم وكفرهم، فخفف الله عنه، وبيّن له أنه لما كانت مهمتك -أيها الرسول- هي مجرد البلاغ والإنذار، وقد بلغت الرسالة، وبذلت الجهد، ولم تقصّر، فلا عليك منهم بعد ذلك ﴿فَقُولْ عَنْهُمْ﴾ أعرض عن المكذبين بك -يا محمد- حتى يأتيك أمر الله فيهم، وكفّ عن جدالهم ﴿فَمَا أَنْتَ بِمَلُومٍ﴾ لن يلومك أحد بعد أن بلغت الرسالة، وأدّيت الأمانة، ونصحت الأمة.

وقد كان النبي ﷺ شديد الحرص على إيمان الأمة، يتألم من عنادهم وكفرهم، فكان الله سبحانه يعاود تسليته مرة تلو المرة، لئيسري عن نفسه ويواسيه، فيقول له: ﴿لَعَلَّكَ بَخِيعٌ نَفْسَكَ إِلَّا يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ ۝﴾ [الشعراء].

ويقول أيضاً: ﴿وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُ فِي ضَيْقٍ مِمَّا يَمْكُرُونَ﴾ [النحل: ١٢٧].

ويقول أيضاً: ﴿فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً﴾ [فاطر: ٨] وهكذا.

ولما نزل قوله تعالى: ﴿فَقُولْ عَنْهُمْ﴾ اشتد ذلك على الصحابة، وظنوا أن الوحي قد انقطع، وأن العذاب قد حضر، حيث أمر النبي ﷺ أن يُعرض عنهم، فأنزل الله تعالى^(١) يطيب نفوس أصحابه، وبيّن لهم أن الوحي لم ينقطع، وأن النبي ﷺ مستمر في تذكيرهم ووعظهم، فقال: ﴿وَذَكِّرْ﴾ أي: ﴿فَقُولْ عَنْهُمْ﴾ واحترس؛ كي لا يتوهم متوهم أن الإعراض عن المكذبين إبطال للتذكير، فالتذكير باقٍ، وقد ذكر النبي ﷺ بعد ذلك، فأمن بعض من لم يكن قد آمن من قبل.

والاستمرار في التذكير، إقامة للحجة على المعرضين؛ لئلا يزدادوا طغياناً وكفراً، فمع إعراضك عنهم -أيها الرسول- وعدم التفاتك إلى تخذيلهم، داوم على الدعوة إلى الله، وعلى وعظ مَنْ أُرسلت إليهم، فإن الموعظة والتذكير يتنفع بهما أهل القلوب المؤمنة، وفيهما إقامة الحجة على المعرضين^(٢).

(١) «تفسير الخازن» (٤/ ١٨٥) و«المطالب العالية» (٤١١٦) والطبري (٥٥٢/ ٢١) والبيهقي (١٧٥٠).

(٢) «التفسير الميسر» نخبة من العلماء ص ٥٢٣.

والذكرى ينتفع بها مَنْ عَلِمَ الله أنه سيؤمن منهم، قال تعالى: ﴿فَذَكِّرْ إِن نَّفَعَتِ الذِّكْرَى ۝ سَيَذَكِّرْ مَنْ يَخْشَى ۝﴾ [الأعلى].

وانتفاع المؤمنين بالذكورة والموعظة أمر محقق، والنتف الحاصل لهم هو رسوخ العلم وتنشيط العمل بإعادة التذكير، واستفادة علم جديد، وإظهار حجة المؤمنين على الكافرين.

قال الشيخ ابن سعدي رحمه الله:

والتذكير نوعان: تذكير بما لم يُعرف تفصيله، مما عُرِفَ مُجْمَلُهُ بِالْفِطْرِ والعقول؛ فإن الله تعالى فَطَرَ العقول على محبة الخير وإيثاره، وكراهية الشر والزهد فيه، وشرعهُ تعالى موافق لذلك، فكل أمر ونهي من الشرع فهو من التذكير، وتمام التذكير أن يُذكرَ ما في المأمور به من الخير والحُسن والمصالح، وما في المنهي عنه من المضار.

والنوع الثاني: تذكير بما هو معلوم، ولكن انسحبت عليه الغفلة والذهول، فيُذكرون بذلك، ويُكرَّر عليهم التذكير ليرسخ في أذهانهم، ويتبها ويعملوا بما تذكروه من ذلك، وليُحدث لهم نشاطاً وهمّة توجب لهم الانتفاع والارتفاع.

وأخبر الله تعالى أن الذكرى تنفع المؤمنين؛ لأن ما معهم من الإيمان والخشية والإناية، والعمل بما يرضى الله تعالى، يوجب لهم أن تنفع فيهم الذكرى، وتقع الموعظة منهم موقعاً، أما من ليس معه إيمان، ولا استعداد لقبول التذكير، فهذا لا ينفع تذكيره، وهو بمنزلة الأرض السبخة التي لا يفيدها المطر شيئاً، وهذا الصنف من الناس لو جاءتهم كل آية فإنهم لا يؤمنون حتى يروا العذاب الأليم^(١).

الْعِبَادَةُ هِيَ الْغَرَضُ مِنْ خَلْقِ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ

٥٦- ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ (٢) ﴿٥٦﴾

ثم إن الله تعالى خلق الخلق ليعرفوه ويعبدوه، ولو لم يخلقهم ما عرفوه وما عبدوه، وما كان هناك جنة ولا نار، ولم يرض الله من خلقه إلا أن يعترفوا له بأنه المتفرد بالإلهية، وأنه

(١) تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، بتصرف، مؤسسة الرسالة، ط رابعة ص ٨١٢.

(٢) قرأ يعقوب بإثبات الياء في (ليعبدون) وصلاً ووقفاً، والباقون بحذفها في الحالين، ومثلها (يطعمون) (فلا تستعجلون) في الآيات التالية.

المستحق للعبادة دون سواه، وهو الذي يجب إظهار الخضوع له، واعتقاد أنه وحده النافع الضار، وأنه المعبود بحق من الإنس والجن، وأن الله تعالى لم يخلق الخلق إلا ليقفوا عند حدود التكاليف الشرعية من الأوامر والنواهي فيمثلوها ويعملوا بها، وتام العباداة متوقف على تمام المعرفة، وكلما ازداد العبد معرفة لربه، كلما كانت عبادته أكمل.

وهذه التكاليف الشرعية في الشرائع الإلهية، تكون فيها بعض الفروق من أمة إلى أمة، من نقص إلى زيادة، ومن كيفية إلى كيفية، ومن تشديد إلى تخفيف، وهكذا.

وبناء على ذلك فإن معنى الآية:

وما خلقت الجن والإنس إلا ليعرفوني، ويقرؤا بوجوب العباداة لله وحده، فيطيعوه باختيارهم، بمقتضى ما أودعه فيهم من الفطرة، وما أخذه عليهم من ميثاق التوحيد، وبمقتضى ما خلق الله فيهم من عقول، وأرسل إليهم من رسل، وأنزل عليهم من كتب، فمن أطاعه واتبع الحق والرشد فقد فاز ونجا، ومن عصاه وأعرض عن ذكره فقد ضلَّ وغوى.

وكُفِّر الكافر لا ينافي أن الله تعالى خلق الخلق لعبادته، فقد يبْري الإنسان القلم ليكتب به، ولكنه لا يستعمله.

على أن الكافر منقاد لله تعالى طوعاً وكرهاً، كما قال تعالى: ﴿وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَظِلَالُهُمْ بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ ۝١٥﴾ [الرعد].

وإقرار العبد بربه خالقاً ورازقاً ومدبراً اعتراف به سبحانه، كما قال تعالى عن الكفار: ﴿وَلَيْن سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ﴾ [لقمان: ٢٥].

ولكن هذا الإقرار أو هذه المعرفة لا تنفعهم مع الشرك به سبحانه، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ﴾ [النساء: ٤٨، ١١٦] ذلكم قول الله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ ٥١ أي: إلا لأمرهم بعبادتي، وأكلفهم بالعمل والترك، ثم أجازيهم على أعمالهم وأقوالهم، إن خيراً فخير، وإن شراً فشر.

فالحكمة الأولى من خلق الإنس والجن هي ابتلاؤهم بالأوامر والنواهي، كما قال تعالى: ﴿الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ [الملك: ٢].

وقال سبحانه: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الْأَرْضِ زِينَةً لَهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ ٧ [الكهف].

ففي هاتين الآيتين وأمثالهما بيان الحكمة الأولى من خلق الجن والإنس وهي عبادة الله وحده ، وفي تقديم الجن على الإنس رد على المشركين الذين يعبدون الجن ليعلموا أن الجن عباد لله تعالى مثلهم .

والحكمة الأخرى هي : بعث الناس بعد موتهم ليجازيهم ربهم على أعمالهم وأقوالهم التي كانت في الدنيا ، كما قال تعالى : ﴿لِيَجْزِيَ الَّذِينَ أَسْتَوُوا بِمَا عَمِلُوا وَيَجْزِيَ الَّذِينَ أَحْسَنُوا بِالْحُسْنَى﴾ [النجم : ٣١] .

وكما قال سبحانه : ﴿إِنَّهُ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ لِيَجْزِيَ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ بِالْقِسْطِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ شَرَابٌ مِّنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ﴾ [يونس : ٤] .

وقال جل شأنه : ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ﴾ [المؤمنون : ١١٥] .

فهذه الآيات وأمثالها تبين الحكمة الثانية من خلق الخلق ، وهي الجزاء على ما قدمته أيديهم في الدنيا .

وعلى هذا ، فالحكمة من خلق المخلوقات هي : العِلْمُ بالخالق ، وبعد العلم به سبحانه يكون التكليف : افعل ، ولا تفعل .

ومقر القيام بهذا التكليف هو الدنيا ، وبعد التكليف يكون الجزاء الذي يترتب على نتيجة الاختبار .

ومقر هذا الجزاء هو الآخرة ، ومن أجل هذا أرسل الله الرسل ، وأنزل الكتب ، وخلق لنا عقولاً ، وأمرنا بالخير ونهانا عن الشر ، والعبادة التي خلق الله الجن والإنس لأجلها ، هي العبادة الاختيارية وليست عبادة التسخير ؛ لأن العبادة الاختيارية هي التي يكون عليها الثواب والعقاب .

أما قوله تعالى : ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ﴾ [الأعراف : ١٧٩] .

وقوله سبحانه : ﴿لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾ [هود : ١١٩] وأمثالهما ، فإن معنى ذلك : أن الله تعالى خلق الخلق بما أودع فيهم من عقول وحواس ، وما أرسل إليهم من الرسل ، وأنزل عليهم من الكتب ، وجعلهم بفطرتهم مستعدين لقبول الإيمان والكفر .

فمن آمن بالله واليوم الآخر فقد عمل بمقتضى الفطرة السليمة ، ووفى بالميثاق المأخوذ على بني آدم بتوحيد الله تعالى وهم في عالم الذر ، ومن لم يؤمن بالله ورسله فقد انحرفت عنده الفطرة ، وعطل أجهزة الاستقبال فيه عن الانتفاع بالهدى والأخذ بأسبابه .

ومن آمن بالله تعالى فقد حقق غاية وجوده في هذه الحياة، وقام بوظيفته فيها، ومن لم يؤمن بالله تعالى فقد أبطل غاية وجوده في الدنيا، وأصبح بلا وظيفة.

وتتحقق العبودية بالتوجه إلى الله تعالى بكل حركة في الضمير، وكل حركة في الجوارح، وكل حركة في الحياة ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ لا شريك لكم ﴿وَبِذَلِكَ أُبَيِّنُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ﴾ [الأنعام].

وفي الآية بيان لسوء صنيع الكفار؛ لأن الله تعالى قد خلقهم لعبادته، ولكنهم لم يعبدوه.

ثَمَرَةُ الْعِبَادَةِ تَعُودُ عَلَى الْخَلْقِ لَا عَلَى الْخَالِقِ

٥٧- ﴿مَا أُرِيدُ مِنْهُمْ مِنْ رِزْقٍ وَمَا أُرِيدُ أَنْ يُطْعَمُوا﴾

ثم أبطل سبحانه أن تكون هناك علة أو غاية تعود على الله ﷻ من خلق الخلق وعبادتهم، فبين أنه تعالى لا يحتاج إليهم في شيء، وأن أهم ما يحتاجه المحتاج هو الطعام والشراب واللباس والمسكن، وكل هذا يرجع إلى الرزق، وهو المال، وقد نفى الله تعالى أنه محتاج إلى ذلك في قوله: ﴿مَا أُرِيدُ مِنْهُمْ مِنْ رِزْقٍ وَمَا أُرِيدُ أَنْ يُطْعَمُوا﴾ فأنما الرازق المعطي، وأنا الغني المغني، فلا أحتاج لأحد في شيء، وأنتم الفقراء إليّ في جميع أحوالكم؛ لأن الخالق الرازق غني عن خلقه، يُطْعِم ولا يُطْعَم، وَيَرْزُق ولا يُرْزَق.

﴿إِنَّ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ لَكُمْ رِزْقًا فَابْتَغُوا عِنْدَ اللَّهِ الرِّزْقَ وَاعْبُدُوهُ وَاشْكُرُوا لَهُ ۚ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ [العنكبوت: ١٧].

وقال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَنْ يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَلَوْ اجْتَمَعُوا لَهُ ۚ وَإِنْ يَسْلُبْهُمُ الذُّبَابُ شَيْئًا لَا يَسْتَنْقِذُوهُ مِنْهُ ضَعُفَ الطَّالِبُ وَالْمَطْلُوبُ﴾ [الحج: ١٧٣].

وعن أبي هريرة ؓ أن رسول الله ﷺ قال: «قال الله تعالى: يا ابن آدم، تفرغ لعبادتي أملأ صدرك غنى وأسد فقرك، وإلا تفعل ملأث صدرك شغلا، ولم أسد فقرك»^(١).

(١) «المسند» (٣٥٨/٢) (٨٦٩٦) بإسناد حسن، لأجل زائد بن نسيط، صدوق، حسن الحديث، كما قال أبو حاتم، (محققوه) والترمذي برقم (٢٤٦٦) وابن ماجه برقم (٤١٠٧) و«صحيح سنن ابن ماجه» (٣٣١٥)، والحاكم ٣٢٦/٤ وصححه، ووافقه الذهبي، وله شاهد حسن من حديث معقل بن يسار.

وجاء في بعض الكتب: يابن آدم، خلقتك لعبادتي فلا تلعب، وتكفلك برزقك فلا تتعب، فاطلبنى تجدني، فإن وجدتنني وجدت كل شيء، وإن فُتكت فاتك كل شيء، وأنا أحبُّ إليك من كل شيء^(١).

وقد أسند الله تعالى الإطعام إلى نفسه؛ لأن الخلق كلهم عيال الله، ومن أطعم عيال الله فكأنه أطعم الله تعالى، وذلك لما صحَّ من حديث أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «إن الله ﷻ يقول يوم القيامة: يابن آدم، مرضت فلم تعدني، قال: يارب، كيف أعودك وأنت رب العالمين؟ قال: أما علمت أن عبدي فلاناً مرض فلم تعده؟ أما علمت أنك لو عدته لوجدتني عنده؟

يابن آدم، استطعمتك فلم تطعمني، قال: يارب كيف أطعمك وأنت رب العالمين؟ قال: أما علمت أنه استطعمك عبدي فلان فلم تُطعمه؟ أما علمت أنك لو أطعمته لوجدت ذلك عندي؟

يابن آدم، استسقيتك فلم تسقني، قال: يارب، كيف أسقيك وأنت رب العالمين؟ قال: استسقاك عبدي فلان فلم تسقه، أما علمت أنك لو سقيته لوجدت ذلك عندي^(٢).

قال تعالى: ﴿قُلْ أَغْنَى اللَّهُ عَمِّي وَأُمِّي وَأَنَا يَتَرَكُ اللَّهَ وَهُوَ يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِي﴾ [الأنعام: ١٤].

وفي ذكر الإطعام إشارة إلى ما كان يهديه المشركون من الطعام إلى سدنة الأصنام، وما يتقربون به من النذور والذبائح إلى أصحاب القبور.

ثَلَاثَةُ أَوْصَافٍ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ

٥٨- ﴿إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ﴾

وصف الله تعالى نفسه في هذه الآية بثلاثة أوصاف:

الوصف الأول: ﴿إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ﴾ كثير الرزق لخلقه، فما من دابة في الأرض ولا في السماء إلا على الله رزقها ويعلم مستقرها ومستودعها ﴿وَكَايْنِ مِنْ دَابَّةٍ لَا تَحْمِلُ رِزْقَهَا اللَّهُ يَرْزُقُهَا

(١) «تفسير ابن كثير» (٧/٤٢٦).

(٢) رواه مسلم برقم (٢٥٦٩).

وَلِيَاكُمْ ﴿[العنكبوت: ٦٠] وهذا الرزق يعم المال والطعام، فهو المتكفل بأرزاق العباد وحاجاتهم، وقد أكد الله ذلك بل (إِنَّ) والضمير المنفصل لقطع أوهام الخلق في أمور الرزق، ليقوى اعتمادهم على الله تعالى، فلا رازق غيره جلَّ شأنه ﴿وَفِي السَّمَاءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ ﴿٦٠﴾ فَوَرَبِّ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ لَحَقٌّ ﴿[الذاريات] ولن تموت نفسي حتى تستوفى رزقها وأجلها.

الوصف الثاني: أنه سبحانه ﴿ذُو الْقُوَّةِ﴾ أي: أنه تعالى صاحب القدرة الباهرة، الخالية من النقائص، وهي قوة لا تشبهها قوة، فهو جلَّ شأنه لا يُقهر ولا يُغلب، ولا يُعجزه شيء، أوجد المخلوقات ونفذت فيهم مشيئته، لا يعجزه هارب، ولا يخرج عن سلطانه أحد.

الوصف الثالث: أنه جلَّ شأنه ﴿الْمَتِينُ﴾ أي: الشديد، فالله تعالى كامل في قوته، بحيث لا يُعارض ولا يُداني، فله القوة والقدرة كلها، لا يطرأ عليه عجز ولا نقص.

ومن ذلك أنه رزق الخلائق وأنه يبعثهم بعد موتهم.

والمعنى: أن الله تعالى غنيٌّ غنيًّا مطلقاً، لا يحتاج إلى شيء أبداً، ولم يخلق الله الخلق لتحصيل نفع له، ولكن ليُعمر هذا الكون، ونظام العمران لا يقوم إلا على اتباع الشريعة التي يجمعها معنى العبادة في قوله تعالى: ﴿إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾^(١) ويتحقق ذلك بامثال الأوامر واجتناب النواهي.

الْعِبْرَةُ الْمُسْتَفَادَةُ مِنْ هَلَاكِ الظَّالِمِينَ

٥٩، ٦٠ - ﴿فَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا ذُنُوبًا مِثْلَ ذُنُوبِ أَصْحَابِهِمْ فَلَا يَسْتَعْجِلُونَ ﴿٥٩﴾ قَوْلُ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْ يَوْمِهِمْ^(٢) الَّذِي يُوعَدُونَ ﴿٦٠﴾﴾

ولما ذكر الله سبحانه أنه خلق الخلق لعبادته بيّن هنا أن عبادة المشرك بالله تعالى باطلة، فإذا لم يتوجه العبد إلى الله وحده بالعبادة، فإن له نصيباً من العذاب كنصيب من سبق ذكرهم في السورة، من قوم نوح، وقوم عاد، وقوم ثمود، فكما ماثلوهم في الشرك والظلم، يماثلونهم في العقاب والمصير ﴿فَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ غيرهم، أو ظلموا أنفسهم

(١) يُنْظَرُ: «تفسير التحرير والتنوير» (٢٩/١٣).

(٢) قرأ أبو عمرو ويعقوب بكسر الهاء والميم من (يومهم الذي) وقرأ حمزة والكسائي وخلف بضم الهاء والميم، وقرأ الباقر بكسر الهاء وضم الميم.

بالشرك، أو بتكذيب الرسول الخاتم ﷺ، أو بإنكار البعث والنشور، لهم ﴿ذُنُوبًا﴾ أي: نصيبًا من العذاب لعبادتهم غير الله تعالى.

والذُّنُوب في الأصل هو: الدَّلُو الكبير المملوء ماء، فإن كان فارغًا فلا يقال له ذنوب، وهو مستعمل في الآية بمعنى: النصيب.

قال مجاهد في معنى ﴿ذُنُوبًا﴾: سَجَلًا من العذاب مثل عذاب أصحابهم^(١).

فإن للكافرين ﴿ذُنُوبًا مِّثْلَ ذُنُوبِ أَصْحَابِهِمْ﴾ أي: لهم نصيب من العذاب ينزل بهم، مثل نصيب أسلافهم الذين مَضَوْا وهَلَكُوا ﴿فَلَا يَسْتَعِجِلُونَ﴾ أي لا يستعجلوا نزوله بهم، وكانوا يفعلون ذلك، ويقولون ﴿مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ [٢٥] يقولون ذلك استهزاء واستبعادًا، فيبين سبحانه أن العذاب نازل بهم لا محالة، ولكن الله تعالى أخره إلى يوم القيامة ولم يعاجلهم به في الدنيا، لعلهم يتوبوا ويثوبوا إلى رشدهم.

ثم توعدهم الله تعالى بالهلاك والويل والنبور مرة أخرى، ليبين لهم موعد نزول العذاب بهم، وهو يوم القيامة، وعبر عنهم في الآية السابقة بالذين ظلموا، وعبر عنهم هنا بالذين كفروا قال تعالى ﴿وَالْكَافِرُونَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ [البقرة: ٢٥٤]

﴿فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا﴾ بالله ورسوله وبالبعث والنشور ﴿مِنْ يَوْمِهِمُ الَّذِي يُوعَدُونَ﴾ بنزول العذاب فيه، وهو يوم القيامة، فإن هلاكهم سيكون فيه، وهو آتٍ لا محالة، وليس فيه مغيث ولا مجير ولا منقذ لهم من عذاب الله سبحانه.

وقوله تعالى: ﴿مِنْ يَوْمِهِمُ الَّذِي يُوعَدُونَ﴾ في نهاية السورة، هو نفسه اليوم الذي سبق ذكره في أول السورة في قوله تعالى ﴿إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَصَادِقٌ﴾ وفي هذا ردٌ للعجز على الصدر.

قال تعالى عن هذا اليوم: ﴿وَنُلْقِيَهُمْ فِي الْحَمِيمِ هَذَا يَوْمُكُمْ الَّذِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ﴾ [الأنبياء: ١٠٣]. نعوذ بالله من العذاب ونعوذ به من الكفر والضلال.

تم تفسير (سورة الذاريات) والله الحمد والمنة.

(١) ابن أبي حاتم والطبري (٥٥٧/٢١).

تَفْسِيرُ سُورَةِ الطُّورِ (٥٢)

مُقَدِّمَةُ السُّورَةِ

سورة (الطور) هي السورة الثانية والخمسون في ترتيب المصحف، والخامسة والسبعون في ترتيب النزول، نزلت بعد سورة (نوح) وقبل سورة (المؤمنون).

وسميت سورة الطور لورود لفظ الطور فيها معرّفًا دون غيرها.

وعدد آياتها عند أهل الشام والكوفة تسع وأربعون آية^(١).

وعدد كلماتها ثلاث مئة واثنى عشرة كلمة، وعدد حروفها ألف وخمسة مئة حرف.

وهي سورة مكية باتفاق، وكان النبي ﷺ يقرأ بها كثيرًا في صلاته:

١- فعن محمد بن جُبَيْر بن مُطْعَم، عن أبيه رضي الله عنه قال: سمعت النبي ﷺ يقرأ في المغرب بالطور، فما سمعت أحدًا أحسن صوتًا -أو قراءة- منه^(٢).

٢- وعن أم سلمة رضي الله عنها قالت: شكوت إلى رسول الله ﷺ أنني أشتكي، فقال:

«طُوفِي مِنْ وَرَاءِ النَّاسِ، وَأَنْتِ رَاكِبَةٌ» فطفتُ ورسول الله ﷺ يُصَلِّي إلى جنب البيت، يقرأ بالطور وكتاب مسطور^(٣).

٣- وقد أسلم جُبَيْر بن مُطْعَم لَمَّا سَمِعَ النَّبِيَّ ﷺ يقرأ بسورة الطور، فقد قدم جُبَيْر من مكة إلى المدينة بعد غزوة بدر، ليفاوض النبي ﷺ في شأن أسرى المشركين الذين عنده، وكان جُبَيْر مشرّكًا، فوقف خارج المسجد، والمسلمون اصطَفُوا وراء نبيهم لصلاة المغرب، واستمع إلى سورة الطور، فتغيرت نفسه، واهتزَّ الشرك في ضميره، وأحسنَّ كأن

(١) وعند أهل المدينة ومكة سبع وأربعون آية، وعند أهل البصرة ثمانٍ وأربعون آية.

(٢) «صحيح البخاري» برقم (٧٦٥، ٤٨٥٤) و«صحيح مسلم» برقم (٤٦٣) ومالك (٨٧/١) وأحمد

(١٦٧٣٥، ١٦٧٨٣) و«سنن النسائي الكبرى» (١٠٦٢) وابن حبان (٨١٣٣).

(٣) «صحيح البخاري» بأرقام (٤٦٤، ١٦١٩، ٤٨٥٣) و«صحيح مسلم» برقم (١٢٧٦) وأبو داود (١٨٨٢) وابن

ماجه (٢٩٦١) و«سنن النسائي الكبرى» (١١٤٦٤، ٣٨٨٩) و«المسند» (٢٦٤٨٥) وابن حبان (٣٨٣٠).

الوحي المثلثوَّ يسحقُ بقايا الكفر في نفسه، ويكتسحها اكتساحًا.

قال جبير: سمعت النبي ﷺ يقرأ في المغرب بالطور، فلما بلغ: ﴿أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ﴾ (٣٥) ﴿كَادَ قَلْبِي أَنْ يَطِيرَ﴾ (١).

٤- وفي رواية قال: قدمت المدينة على رسول الله ﷺ لأُكَلِّمَهُ فِي أُسَارَى بَدْرٍ، فَدْفِعْتُ إِلَيْهِ وَهُوَ يَصْلِي بِأَصْحَابِهِ صَلَاةَ الْمَغْرَبِ، فَسَمِعْتُهُ يَقْرَأُ: ﴿وَالطُّورِ﴾ (١) ﴿إِلَى قَوْلِهِ: ﴿إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَاقِعٌ﴾ (٧) مَا لَكُمْ مِنْ دَافِعٍ﴾ (٨) فَكَأَنَّمَا صَدَعَ قَلْبِي... فَأَسْلَمْتُ خَوْفًا مِنْ نَزُولِ الْعَذَابِ! وَمَا كُنْتُ أَظُنُّ أَنَّ أَقُومُ مِنْ مَقَامِي حَتَّى يَقَعَ بِي الْعَذَابُ (٢).

لقد ترك الرجل عبادة الأوثان، وأسلم من فوره، وما أكثر الذين أخرجهم القرآن من الظلمات إلى النور!

والمحاور التي تقوم عليها السورة: هي غرس عقيدة التوحيد في نفوس البشر، والإيمان باليوم الآخر، والمحور الثالث: هو الإيمان بالنبي الخاتم، وهذه المحاور الثلاثة، هي موضوعات السور المكية، التي تلزم لمن لم يدخل في الإسلام، ومن هم حديثو عهد به في كل زمان ومكان، حيث يبدأ الداعية معهم بهذه الأصول الثلاثة، ثم تأتي مرحلة التكاليف الشرعية، والأوامر والنواهي:

١- وتبدأ السورة بما يتعلق بالبعث والجزاء، فَتُقَسِّمُ بِخَمْسَةِ مِنْ عَظِيمِ خَلْقِ اللَّهِ تَعَالَى، هي: جبل الطور، والتوراة التي نزلت فيه، والبيت المعمور، والسماء، والبحر المسجور على أن عذاب الله تعالى كائن لا محالة، وليس هناك ما يدفعه، وهو افتتاح مرهوب، يبعث على الخوف الشديد من عذاب أهل الجحيم، وأهوال الآخرة وشدائدها ﴿إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَاقِعٌ﴾ (٧) مَا لَكُمْ مِنْ دَافِعٍ﴾ (٨).

٢- ثم تُقَسِّمُ السورة الناس إلى قسمين:

الكفار المكذبون بالله ورسوله واليوم الآخر، وذلك من الآية الأولى إلى الآية السادسة عشرة، وهم أهل النار.

(١) البيهقي في «الأسماء والصفات» (٨٣٤)، والحديث في صحيح البخاري (٤٥٧٣).

(٢) يُنْظَرُ هَذَا الْمَعْنَى فِي: «صحيح البخاري» برقم (٤٨٥٤) و«المسند» (١٦٧٦٢، ١٦٧٨٥).

والمتمقون الأبرار، المؤمنون بالله ورسوله واليوم الآخر، وذلك من الآية السابعة عشرة إلى الآية الثامنة والعشرين وهم أهل الجنة.

فتحدثت آيات السورة **أَوَّلًا**: عن عذاب أهل النار في مشهد يزلزل ويرعب، فيه ويل وهول وفزع، ترجف له القلوب، وترتعب منه النفوس ﴿يَوْمَ يُدْعَوْنَ إِلَىٰ نَارِ جَهَنَّمَ دَعَا ۖ هَٰذَا النَّارُ الَّتِي كُنْتُمْ بِهَا تُكَذِّبُونَ﴾.

وتحدثت آيات السورة **ثانيًا**: عن نعيم المتقين، وأنواع السعادة التي أعدها الله لهم في الآخرة، وإلى من يرقى معهم في درجاتهم من زوجاتهم وذرياتهم من أهل الإيمان، من كل ما فيه أمن وأمان، وسعادة ورضوان.

٣- ويأتي الأصل الثاني بالحديث عن خاتم الرسل ﷺ وفيه الأمر من الله تعالى بالتذكير وإنذار الكفار، وألا يعبأ بما يقوله المكذبون الضالُّون، وفيه إبطال مزاعمهم المفتراة على النبي ﷺ، وهذا من الآية التاسعة والعشرين إلى الآية الرابعة والثلاثين.

٤- ثم تحدثت آيات السورة عن جانب التوحيد من الآية الخامسة والثلاثين إلى الآية السابعة والأربعين في مناظرة عقلية مع الكافرين، لا يملك معها كل ذي لبٍّ سليم إلا أن يقول: آمنت بالله رب العالمين.

إنها سورة تُبطل الشُّبُهَة والأضاليل، وتدحض الحجج والمعاذير، وتعرض الحقيقة بارزة واضحة بمنطق نافذ لا يحتمل التأويل.

٥- وقد جاء في آيات السورة خمسة عشر استفهامًا متعاقبًا، كأنها خمس عشرة صدمة كهربائية تنقل المرء من حال إلى حال، وتُرغمه على التفكير في الحال والمآل، ولا يسع الكافر العاقل إلا أن يؤمن بالله تعالى ربًّا وبمحمد ﷺ نبيًّا وبالإسلام دينًا، وهذه المناظرة من الآية الثلاثين إلى الآية الثالثة والأربعين، منها جانب يتعلق بالرسالة، وجانب يتعلق بالتوحيد، وفيها دحض لأكاذيب الجاحدين، فتقذف بالحق الذي أوحاه الله إلى رسوله ﷺ على باطل المكذبين المعاندين فإذا هو زاهق، وتسوق ذلك بأسلوب ساحر خلَّاب.

٦- وآيات هذه السورة، ذات تأثير قوي على النفس البشرية، فهي تدحض كل شبهة، وكل عذر، وتُذلل كل عقبة في طريق الإيمان بالله ورسوله واليوم الآخر، فأياتها وفواصلها

كأنها قذائف، أو صواعق، أو سياط لاذعة، من البدء إلى الختام، تَرُجُّ القلب رجًا، وتُزَعِبُ الحسَّ رُعبًا، وتهز المشاعر هزًّا، فتتسف الباطل نسفًا، وتُخرس لسان كل مكابر مجادل!

يجد القارئ ذلك في سياط العذاب المسلطة على أهل النار في مطلع السورة، وحلاوة النعيم المعد لأهل الجنة^(١).

ويجدها وهي تُطارِدُ الهواجس والشبهات والأباطيل وتدحضها في استفهامات السورة الخمسة عشر، فتبطل مزاعمهم الفاسدة في شأن نبوة محمد ﷺ، وترد عليهم بالحجج الدامغة والبراهين القاطعة التي تقصم ظهر الباطل، وتقيم الدلائل على صدق محمد ﷺ، وهذه الاستفهامات الخمسة عشر جاءت في قوله تعالى:

- ١- ﴿أَمْ يَقُولُونَ شَاعِرٌ نَّتَرَبَّصُ بِهِ رَيْبَ الْمُنُونِ﴾ ﴿٣٠﴾ .
- ٢- ﴿أَمْ تَأْمُرُهُمْ أَخْلَامُهُمْ بِهَذَا﴾ [٣٢]
- ٣- ﴿أَمْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ﴾ [٣٢]
- ٤- ﴿أَمْ يَقُولُونَ نَقُولُكُمْ﴾ [٣٣]
- ٥- ﴿أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ﴾ [٣٥]
- ٦- ﴿أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ﴾ [٣٥]
- ٧- ﴿أَمْ خَلَقُوا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ﴾ [٣٦]
- ٨- ﴿أَمْ عِنْدَهُمْ خَزَائِنُ رَيْكِ﴾ [٣٧]
- ٩- ﴿أَمْ هُمُ الْمُصْطَبِرُونَ﴾ [٣٧]
- ١٠- ﴿أَمْ لَهُمْ سُلُمٌ يَسْتَمِعُونَ فِيهِ﴾ [٣٨]
- ١١- ﴿أَمْ لَهُ الْبَنَاتُ وَلَكُمْ الْبَنُونَ﴾ ﴿٣٩﴾ .
- ١٢- ﴿أَمْ تَسْأَلُهُمْ أَجْرًا﴾ [٤٠]
- ١٣- ﴿أَمْ عِنْدَهُمُ الْغَيْبُ﴾ [٤١]
- ١٤- ﴿أَمْ يَرِيدُونَ كَيْدًا﴾ [٤٢]
- ١٥- ﴿أَمْ لَهُمْ إِلَهٌ غَيْرُ اللَّهِ﴾ [٤٣]

٧- وفي نهاية السورة ترسم مشهدًا محسوسًا يحمل التوبيخ والتفريع لكل معاند مكابر ﴿وَإِنْ يَرَوْا كِسْفًا مِنَ السَّمَاءِ سَاقِطًا يَقُولُوا سَحَابٌ مَرْكُومٌ﴾ ﴿٤٤﴾ .

وتختتم السورة بتوجيه النبي ﷺ إلى التسليح بالصبر والتسبيح والصلاة، ففي ذلك العلاج الناجع لتخطي العقبات والتغلب على النكبات.

(١) يُنظَر: «في ظلال القرآن» (٦/ ٣٣٩١).

تَفْسِيرُ السُّورَةِ

خَمْسَةُ أَنْوَاعٍ مِنَ الْقَسَمِ عَلَى أَنَّ عَذَابَ اللَّهِ وَاقِعٌ لَا مَحَالَةَ

٦-١- ﴿وَالطُّورِ^(١)﴾ وَكَتَبَ مَسْطُورٍ ﴿٢﴾ فِي رَقٍّ مَنُشُورٍ ﴿٣﴾ وَالْبَيْتِ الْمَعْمُورِ ﴿٤﴾ وَالسَّافِرِ الْمَرْفُوعِ ﴿٥﴾ وَالْبَحْرِ الْمَسْجُورِ ﴿٦﴾

لله تبارك وتعالى أن يُقسم بما شاء من مخلوقاته، وليس للعبد أن يُقسم إلا بالله تعالى، وقد أقسم الله تعالى في أول سورة الطور بخمسة من مخلوقاته العظيمة على أن البعث والجزاء حق، لكل من المتقين والمكذبين، وبيانها فيما يأتي:

الْقَسَمُ الْأَوَّلُ: ﴿وَالطُّورِ﴾ ﴿١﴾:

وهو جبل طور سيناء، الذي ناجى فيه موسى بن عمران ربه، وأنزل عليه فيه الألواح المشتملة على أصول التوراة، وقد أقسم الله تعالى به تكريماً وتشريعاً له، وتنوياً بشأن الألواح، وتذكيراً بما فيها من الآيات. وجبل الطور هو المقسمُ به في قوله تعالى: ﴿وَالطُّورِ سِينِينَ﴾ [التين].

والجبل الذي خوطب فيه موسى ﷺ، من جانب الله تعالى، هو جبل الزبير، ويسمى جبل حُوريب، وهو جبل الطور المذكور في قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا قَضَى مُوسَى الْأَجَلَ وَسَارَ بِأَهْلِهِ آنَسَ مِنْ جَانِبِ الطُّورِ نَارًا﴾ [القصص: ٢٩]. وكلها في صحراء سيناء.

الْقَسَمُ الثَّانِي: ﴿وَكُتِبَ مَسْطُورٍ﴾ ﴿٢﴾:

أي: كتاب منسق الكتابة، منتظم الحروف، مرتب المعاني، قد سُطِّرت حروفه وكلماته تسطيراً حسناً جميلاً، وقد فُسِّر هذا الكتاب بخمسة أقوال:

الأول: اللوح المحفوظ. الثاني: كتاب أعمال بني آدم. الثالث: التوراة.

الرابع: جميع الكتب المنزلة من عند الله تعالى، فهو اسم جنس. الخامس: القرآن.

ولعل الأقرب للصواب أن يكون المراد بالكتاب المسطور: التوراة، فهو المناسب لمجاورة الطور، وكأن القسم بالطور توطئة للقسم بالتوراة.

(١) عَذَّ (والطور) آية، البصري والكوفي والشامي، وليست آية عند الحجازين: المدني الأول والأخير والمكي.

والتوراة كتبها موسى ﷺ بيده بعد نزول الألواح عليه، وضمنها كل ما أوحى الله به إليه، مما أمر بتبليغه في مدة حياته، إلى ساعات قليلة قبل وفاته.

والتوراة هي الأسفار الأربعة المعروفة عند اليهود: سفر التكوين، وسفر الخروج، وسفر العدد، وسفر التثنية^(١).

وهي التي قال الله تعالى عنها: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَا التَّوْرَةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ﴾ [المائدة: ٤٤].

وقال عن الألواح: ﴿وَلَمَّا سَكَتَ عَنْ مُوسَى الْغَضِبُ أَخَذَ الْأَلْوَحَ فِي تَشْحِنَا هُدًى وَرَحْمَةً لِلَّذِينَ هُمْ لِرَبِّهِمْ يَرْهَبُونَ﴾ [الأعراف: ١٥٢].

والقسم بالتوراة يستلزم أن يكون قبل تحريفها وتبديلها، وقد يكون بدء التحريف عندما ظهرت دعوة محمد ﷺ، فعمدوا إلى تغيير أوصافه فيها.

والقول بأن المراد بالكتاب المسطور: القرآن، قول بعيد؛ لأن القرآن وقت نزول هذه السورة في مكة لم يكن مسطوراً، ولم يكن كتاباً مكتملاً.

ولا توجد مناسبة ترشح أن يكون المراد بالكتاب: كتاب أعمال بني آدم.

والمسطور: هو المكتوب، كما قال تعالى: ﴿بِئْسَ الْفَقِيرُ وَمَا يَسْطُرُونَ﴾ [القلم: ١] والأقوال الثلاثة الباقية محتملة.

أما قوله تعالى: ﴿فِي رَقٍّ مَّنْشُورٍ﴾ [٢] فإن الرق: هو الصحيفة المأخوذة من جلد أبيض رقيق، ليكتب عليه؛ إذ لم يكن الورق موجوداً آنذاك، والناس تكتب على مثل هذا الجلد، والمنشور: هو المبسوط غير المطوي.

وقد كان اليهود يكتبون التوراة في رقوق ملتصق بعضها ببعض، أو مخططة حتى تصير قطعة واحدة، ثم تطوى طياً أسطوانياً لحفظ، فإذا أرادوا قراءتها نشروها، وفي حديث الرجم: «فنشروا التوراة»^(٢).

(٢، ١) يُنْظَرُ: «تفسير التحرير والتنوير» (٣٧/١٣).

والمعنى: أن الله تعالى أقسم بالكتاب وهو منشور للقراءة، حيث يحصل الاهتداء به للقارئ والسامع، وهذه الحالة هي أشرف أحواله.

القَسَمُ الثَّالِثُ: ﴿وَأَلَيْتَ الْمَعْمُورِ﴾

وهذا لفظ صريح في أن المراد بالبيت المعمور: البيت الذي تطوف حوله الملائكة في السماء السابعة، وهو لأهل السماء كالكعبة لأهل الأرض، ويقع في محاذاة الكعبة، تعمُرُه الملائكة في السماء السابعة، وفي كل سماء بيت يتعبَّد فيه أهلها، والذي في السماء الدنيا هو بيت العزة.

أحاديث في البيت المعمور:

١- وفي حديث الإسراء عن أنس بن مالك رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «أتيت بالبراق -وهو دابة- أبيض طويل، فوق الحمار ودون البغل، يضع حافره عند منتهى بصره- قال: فركبته حتى أتيت بيت المقدس، قال: فربطته بالحلقة التي يربط بها الأنبياء، قال: ثم دخلت المسجد، فصليت فيه ركعتين، ثم خرجت، فجاءني جبريل عليه السلام بإناء من خمر، وإناء من لبن، فاخترت اللبن، فقال جبريل: اخترت الفطرة، ثم عرج بنا إلى السماء...» وساق الحديث بطوله، وفيه «فإذا أنا بإبراهيم مسنداً ظهره إلى البيت المعمور، وإذا هو يدخله كل يوم سبعون ألف ملك لا يعودون إليه...»^(١).

٢- ولفظ البخاري: من حديث مالك بن صعصعة عن أنس رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «... فرُفِعَ إليَّ البيت المعمور، فسألت جبريل فقال: هذا البيت المعمور يصلي فيه كل يوم سبعون ألف ملك، إذا خرجوا لم يعودوا إليه...»^(٢).

٣- وقد سُئِلَ عليٌّ رضي الله عنه: ما البيت المعمور؟ فقال: بيت في السماء يدخله كل يوم سبعون ألف ملك لا يعودون إليه، يقال له: الضُّراح، وهو بِحِيَالِ الكعبة من فوقها، حُرْمَتُهُ في السماء كحرمة البيت في الأرض، يصلي فيه كل يوم سبعون ألفاً من الملائكة لا

(١) «صحيح مسلم» (١٤٥-١٤٧) برقم (١٦٢) كتاب الإيمان، باب الإسراء والمعراج.

(٢) «صحيح البخاري» (٢١٩/٦) برقم (٣٢٠٧) وكذا «صحيح مسلم» (١٦٤) من طريق قتادة، وهو في «المسند»

(١٢٥٥٨) بإسناد صحيح على شرط مسلم ورجال ثقات رجال الشيخين، غير حماد بن سلمة فمن رجال مسلم

(محققوه) والحديث. في «المستدرک» (٤٦٨/٢) وفي «المنتخب» لعبد بن حميد (١٢١٠).

يعودون إليه أبداً^(١).

٤- وعن عائشة رضي الله عنها أن النبي ﷺ قال: «... إن هذه الكعبة بحيال البيت المعمور الذي في السماء يدخل ذلك البيت المعمور سبعون ألف ملك لا يعودون إليه إلى يوم القيامة، لو وقع حجر منه لوقع على ظهر الكعبة»^(٢).

وقيل: إن المراد بالبيت المعمور هنا: البيت الحرام، وسمي كذلك لأنه معمور بالحجاج والعمَّار، والآثار الواردة فيه تؤيد المعنى الأول.

القَسَمُ الرَّابِعُ: ﴿وَالسَّقْفِ الْمَرْفُوعِ ۝٥﴾

أي: والسماء العالية المرتفعة، وقد جاء مصرحاً به في آية أخرى، أن السماء سقف للأرض، وذلك في قوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا السَّمَاءَ سَقْفًا مَحْفُوظًا وَهُمْ عَنْ آيَاتِهَا مُعْرِضُونَ ۝٢٣﴾ [الأنبياء].

فقد جعلها سقفاً للمخلوقات، وبناءً للأرض، تستمد منها أنوارها، ويقتدى بعلاماتها ومناراتها، وينزل الله منها المطر والرحمة وأنواع الرزق.

فالمراد بالسقف: السماء، وهي عالية مرفوعة بلا عمد.

﴿اللَّهُ الَّذِي رَفَعَ السَّمَوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا﴾ [الرعد: ٢].

أما العرش فهو سقف للجنة، كما قال ابن عباس رضي الله عنهما.

القَسَمُ الْخَامِسُ: ﴿وَالْبَحْرِ الْمَسْجُورِ ۝٦﴾

أي: المملوء بالماء، قد سجره الله، ومنعه من أن يفيض على وجه الأرض، وقد اقتضت حكمة الله تعالى عدم جريانه وفيضانه، ليعيش الناس والنبات والدواب على وجه الأرض.

وقد يراد بالمسجور: المملوء بالنار، والنار تحت الماء في البحار، والبحار تُملاً يوم القيامة بالنار، كما قال تعالى: ﴿ثُمَّ فِي النَّارِ يُسْجَرُونَ﴾ [غافر: ٧٢].

(١) «تفسير الطبري» (٢١/٥٦٣) وبه قال مجاهد والضحاك وابن زيد، يُنظر: «المطالب العالية» عن إسحاق بن راهويه (٤١٢٢) والبيهقي (٣٩٩١).

(٢) قال ابن حجر في «فتح الباري» (٦/٣٠٨): إسناده صالح عن ابن مَرْدُؤَيْهِ.

وقال سبحانه: ﴿وَإِذَا الْبَحَارُ سُجِّرَتْ ۝١﴾ [التكوير] أي: أضرمت فيها النار والتهبت، فتصير ناراً تلظى ممثلة على سعتها وعظمتها.

عن سعيد بن المسيب أن علي بن أبي طالب ؓ سأل يهودياً: أين جهنم؟ قال: هي البحر، فقال علي: ما أراه إلا صدقاً ﴿وَالْبَحْرِ الْمَسْجُورِ ۝١﴾، ﴿وَإِذَا الْبَحَارُ سُجِّرَتْ ۝١﴾ [التكوير]. ولعل المراد به: جنس البحار، أو البحر الأحمر، لمناسبته للطور والكتاب المسطور وغرق فرعون.

ويبدو أن الرق المنشور: صحائف موسى، وأن البحر المسجور: هو البحر الأحمر، حيث أغرق الله فرعون، وقضت أمواج البحر على الألوهية المزورة.

فمن جانب الطور نُودي موسى ﷺ ليقيم حرباً على وثنية فرعون، وليأخذ التوراة فيقيم بها ديناً ودولة، كما نُودي محمد ﷺ من جانب البيت العتيق ليرسي دعائم التوحيد، فيأخذ القرآن ويقيم به ديناً ودولة.

أما عيسى ﷺ فقد جاء بالإنجيل معتمداً على ما في التوراة من تشريع، وليُحلّ لبني إسرائيل بعض ما حُرِّمَ عليهم في التوراة بسبب ظلمهم وبغيهم، وليصدق ما قبله من كتب، ويبشر بخاتم المرسلين وقرآنه الباقي إلى آخر الدهر.

وهكذا أقسم الله تعالى بخمسة أشياء، هي:

جبل الطور في سيناء، والتوراة، والبيت المعمور، والسماء، والبحر المسجور.

وقد أقسم الله تعالى بهذه الخمس للدلالة على أنها آية من آيات الله دالة على وحدانيته تعالى وبراهين قدرته وبُعْثه للأمم.

والمقسّم عليه في الآيات السابقة هو قيام الساعة، ونزول العذاب بالكفار، وأنه ليس له من دافع يدفعه عن المستحقين له: قال تعالى:

٧، ٨- ﴿إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَاقِعٌ ۝٧ مَّا لَكُمْ مِنْ دَافِعٍ ۝٨﴾

أي: إن عذاب الله نازل بالمكذّبين والمشرّكين نزولاً لا شك فيه يوم القيامة، فهو واقع

بهم لا محالة، ولا يخلف الله وعده، وليس لذلك اليوم ما يُعده ولا ما يمنعه ويدفعه، ولا يوجد من يقيهم منه بشفاعة أو معارضة.

وَرَدَّ أَنْ عَمَرَ ﷺ لما سمع هذه الآيات أخذ يبكي ويبكي حتى صار له خطان أسودان في وجهه، وانتفخت جفون عينيه.

وفي رواية: أنه نزل عن حماره واستند إلى حائط وقال: قسم -ورب الكعبة- حق. وظل وقتاً طويلاً، ثم رجع إلى منزله فمكث شهراً يعود الناس لا يذرون ما مرضه، ﷺ^(١).

ولما سمعها جبير بن مطعم ﷺ أسلم، وقال: ما كنت أظن أني أقوم من مكاني حتى يقع بي العذاب^(٢).

الْفَنَاءُ الْمُؤَذَّنُ بِقِيَامِ السَّاعَةِ

٩-١٢ - ﴿يَوْمَ تَمُورُ السَّمَاءُ مَوْرًا ﴿٩﴾ وَسِيرُ الْجِبَالِ سِيرًا ﴿١٠﴾ فَوَيْلٌ لِلْمُكَذِّبِينَ ﴿١١﴾ الَّذِينَ هُمْ فِي خَوْضٍ يَلْعَبُونَ ﴿١٢﴾﴾

ثم يبين سبحانه اليوم الذي يقع فيه هذا العذاب، فيبين أنه اليوم الذي تتحرك فيه السماء، وتضطرب أجزاؤها اضطراباً كبيراً، ويختل نظامها من شدة الأهوال فتمور، أي: تدور كما تدور الرّحى، وتتكفأ بأهلها، وتدوم حركتها ولا تسكن، وذلك يوم القيامة عند نهاية الحياة ﴿يَوْمَ تَكُونُ السَّمَاءُ كَالْهَلِجْلِ ﴿٨﴾﴾ [المعارج].

﴿وَيَوْمَ تَشَقَّقُ السَّمَاءُ بِالْغَمَمِ وَنُزِلَ الْمَلَكُوتُ تَنْزِيلًا ﴿٢٥﴾﴾ [الفرقان].

ويوم القيامة تسير الجبال، فتزول عن أماكنها، وتسير كما يسير السحاب، فتُنفَسفُ نَسْفًا من فوق وجه الأرض وتفتت كالرمال، ثم تصير كالصوف المنفوش، كما قال تعالى: ﴿وَسْتَلُونَكَ عَنِ الْجِبَالِ فَقُلْ يَنْسِفُهَا رَبِّي نَسْفًا ﴿١٤٥﴾﴾ [طه].

وتكون هباءً منثورًا ﴿وَتَكُونُ الْجِبَالُ كَالْعِهْنِ الْمَنْفُوشِ ﴿٥﴾﴾ [القارعة].

﴿وَتَكُونُ الْجِبَالُ كَالْعِهْنِ ﴿١﴾﴾ [المعارج].

(١) مسند عمر (٦٠١/٢) وأبو عبيد في «فضائله» عن الحسن ص ٦٤ وأحمد في «الزهد» عن مالك بن مغول.

(٢) «تفسير الخازن» (١٨٧/٤).

﴿وَرَى الْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ السَّحَابِ﴾ [النمل: ٨٨].

وذلك كله لعظم يوم القيامة وما فيه من الأهوال والزلازل، التي تُزعج الأجرام العظيمة، فكيف بالإنسان الضعيف!

والحكمة في ذلك أن الجبال والبحار والشمس والقمر وغير ذلك، خلقها الله تعالى لعمارة الدنيا، وانتفاع بني آدم بها، ولَمَّا لم تَبَقْ عودة إلى الدنيا، أزالها الله تعالى لخراب الدنيا وعمارة الآخرة، ويومئذ تُبدل الأرض غير الأرض والسموات.

فالهلاك في هذا اليوم واقع بالذين كذبوا بما جاءهم به الرسول ﷺ من توحيد الله تعالى، والإيمان بالبعث والحساب والجزاء على الأعمال، وكل ما جاء به القرآن، وهو منتهى سوء الحال لهم.

فقد كانوا في الدنيا يخوضون في الباطل والكذب، كقولهم:

﴿لَا تَسْمَعُوا لِهَذَا الْقُرْآنِ وَالْقَوَىٰ فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [فصلت: ٢٦].

فَيُكَذِّبُونَ بالقرآن ويسخرون من الإسلام، وقد عاشوا حياتهم الدنيا في غفلة وسهو عن لقاء الله تعالى، فكانوا يلهون ويلعبون، ولا يذكرون حسابًا ولا ثوابًا ولا عقابًا، وكانوا منشغلين بأسلحة الدمار الشامل والعلوم الضارة التي تهلك الحرث والنسل، بخلاف ما عليه أهل الصدق والإيمان، وأصحاب العلم الشرعي والعلوم النافعة للبشرية.

مَشْهَدُ عَذَابِ الْمُكَذِّبِينَ وَهُمْ يُسَاقُونَ إِلَىٰ نَارِ جَهَنَّمَ

١٣-١٥- ﴿يَوْمَ يَدْعُوتُ إِلَىٰ نَارِ جَهَنَّمَ دَعَا^(١)﴾ ١٣ هَذِهِ النَّارُ الَّتِي كُنتُمْ بِهَا تُكَذِّبُونَ ﴿١٤﴾ أَفَسِحْرٌ هَذَا أَمْ أَنْتُمْ لَا تُبْصِرُونَ ﴿١٥﴾

ثم وصف الله سبحانه دخولهم النار، فبين أنهم يُدفعون إليها دفعًا بقسوة وغلظة وعنف، حيث تجمع الخزنة أيديهم إلى أرجلهم، وتأخذ بنواصيهم، وتدفعهم على وجوههم إلى النار دفعًا ﴿يَوْمَ يَدْعُوتُ﴾ أي: يُساقون بعنف ﴿إِلَىٰ نَارِ جَهَنَّمَ دَعَا﴾ وهذا

(١) عد الشامي والكوفي لفظ (دعا) آية، ولم يعده غيرهما.

حال الخائف المتقهقر، حيث يُساق إلى النار سَوْقًا فيه إهانة وزجر.

وتقول لهم الملائكة الموكلون بإيصالهم إلى النار، توبيخًا وتعنيفًا لهم، حين يَصِلُونَ بهم إلى حافة النار: ﴿هَذِهِ﴾ هي ﴿النَّارِ الَّتِي كُنْتُمْ بِهَا تُكَذِّبُونَ﴾ لقد كنتم في الدنيا تُكذبون بالبعث والحشر والعذاب، فهذا هو العذاب ماثل أمام أعينكم، لا سبيل إلى إنكاره ولا تكذيبه.

﴿أَفَسِحْرٌ هَذَا﴾ الذي تشاهدونه بأعينكم، وقد كنتم تزعمون في الدنيا أن محمدًا ساحر، وأن ما يقوله ساحر، فهل ما ترونه سحر؟ ﴿أَمْ أَنْتُمْ لَا بُصُورَ﴾ المراثيات، كما كنتم تقولون في الدنيا ﴿بَيْنَنَا وَبَيْنَكَ حِجَابٌ﴾ [فصلت: ٥].

وتقولون: ﴿إِنَّمَا سَكِرْتُمْ أَبْصَرْنَا﴾ [الحجر: ١٥] فهل سَكِرْتُمْ أبصاركم وعميت عن رؤية العذاب، أم أن الحجاب قد منعكم الرؤية؟

والجواب على ذلك: أن القرآن ليس بسحر، بل هو أحق الحق، وأصدق الصدق، وهم قد رأوا بأعينهم صدق ما أخبرهم به رسول الله ﷺ، فلا مجال للإنكار والتكذيب، وهذا تأنيب لهم على ما سبق منهم من تكذيب في الدنيا، وعند رؤية المكذبين للنار يقال لهم:

١٦- ﴿أَصْلَوْهَا فَاصْبِرُوا أَوْ لَا تَصْبِرُوا سَوَاءٌ عَلَيْكُمْ إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٦﴾﴾

أي: وعندما يَدْفَعُ خزنة النار بأهلها إلى جهنم، يقولون لهم تَيْئِسًا: ذوقوا حرَّها ولهيبها، وادخلوها صاغرين، سواء أصبرتم على سعيها أم لم تصبروا، فإنها مأواكم ومصيركم، لا مفر منها ﴿أَصْلَوْهَا﴾: ادخلوها، فهي محيطة بكم، مستوعبة لجميع أبدانكم مطلعة على أفئدتكم ﴿فَاصْبِرُوا﴾ على ألمها وشدتها ﴿أَوْ لَا تَصْبِرُوا سَوَاءٌ عَلَيْكُمْ﴾ أي: سواء أصبرتم أم لم تصبروا، فلن يُخَفَّفَ عنكم من عذابها، ولن تخرجوا منها، وجزاؤكم فيها أمرٌ حتمٌ، ولا رجاء في خروجكم منها، وقد فعل الله بكم ذلك بسبب ذنوبكم ومعاصيكم ﴿إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ في الدنيا من الكفر والتكذيب، وأنتم مخلصون فيها أبدًا، تنالون جزاء أعمالكم القبيحة من الكفر والتكذيب ﴿وَلَا يَظِلُّمُ رَبُّكَ أَحَدًا﴾ [الكهف: ٤٩].

فالصبر والجزع لا ينفعان شيئًا، وهذا كقولهم: ﴿سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَجْرَعْنَا أَمْ صَبَرْنَا مَا لَنَا مِنْ مَّحِيصٍ﴾ [إبراهيم: ٢١].

فالجزاء من جنس العمل، وإذا كان الجزاء واقعًا حتمًا كان الصبر وعدمه سواء.

عَشْرَةُ أَلْوَانٍ مِنْ نَعِيمِ أَهْلِ الْجَنَّةِ

١٧- ﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَنَعِيمٍ ﴿١٧﴾﴾

ولمَّا ذكر ﷺ حال أهل الكفر، بيَّن حال الذين صدَّقوا بالله ورسوله واليوم الآخر، وامثلوا أوامره واجتنبوا نواهيه، قد أعد الله لهم ألوانًا من النعيم المقيم عند رب العالمين، فقال: ﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَنَعِيمٍ ﴿١٧﴾﴾ أي: إن الذين صانوا أنفسهم عن كل ما نهى الله عنه يكونون يوم القيامة في حداثق وبساتين، وأشجار ملتفة، وأنهار متدفقة، وقصور محدقة، ومنازل مزخرفة، تجري بين قصورها أنهار الجنة، وهم في نعيم دائم لا ينقطع، ويشمل نعيم القلب والروح والبدن، قال تعالى: ﴿إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ مَفَاذًا ﴿٣١﴾ حَدَائِقَ وَأَعْنَابًا ﴿٣٢﴾ وَكَوَاعِبَ أَزْوَاجًا ﴿٣٣﴾ وَكَأْسًا دِهَاقًا ﴿٣٤﴾ لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا كِذَابًا ﴿٣٥﴾﴾ [النبا].

وقال سبحانه: ﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَنَهَرٍ ﴿٥٤﴾ فِي مَقْعَدٍ صِدْقٍ عِنْدَ مَلِكٍ مُقَدِّرٍ ﴿٥٥﴾﴾ [القمر: ٥٤، ٥٥] وفي هذا تباين بين حال المتقين وحال المكذبين السابق ذكرهم.

ثم أخذ سبحانه يُعَدِّد ألوانًا من نعيم أهل الجنة، فذكر عشرة من نعيمهم، فهم:

أَوَّلًا: فِي فَرَحٍ وَسُرُورٍ بِمَا أُعْطَاهُمُ اللَّهُ مِنَ النِّعَمِ وَالسَّعَادَةِ

١٨- ﴿فَكَيْهِنَ ﴿١﴾ بِمَا ءَاتَاهُمُ رَبُّهُمْ﴾

إنهم يتنعمون ويتلذذون بما أعطاهم ربهم من أصناف النعيم المذكور في الآية السابقة، من المأكُل، والمشرب، والمسكن، والملبس، والمركب، حيث يكونون ﴿فَكَيْهِنَ﴾ أي: مسرورين فرحين، أو أنهم ذوو فاكهة من فواكه الجنة ﴿بِمَا ءَاتَاهُمُ رَبُّهُمْ﴾ فقد أرضاهم بما يحبون من أصناف النعيم والسعادة الكاملة، وفي الجنة ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر، وهو فضل من الله تعالى وإكرام لهم، ومنة عليهم، ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مِمَّا أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٧﴾﴾ [السجدة]

(١) قرأ أبو جعفر بحذف ألف (فاكهين)، والباقون بإثباتها.

ثَانِيًا: فَوَزُّهُمْ بِالنَّجَاةِ مِنَ النَّارِ ﴿وَوَقَّهَتْ رَبُّهُمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ﴾ .
أي: نَجَّاهُمْ مِنْ عَذَابِ جَهَنَّمَ .

كما قال تعالى ﴿فَمَنْ ذُحِرَ عَنِ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ﴾ [آل عمران: ١٨٥] .

وأي فوز أعظم من أن يصرف الله عنهم أهوال جهنم؟

ومن أوصاف عباد الرحمن أنهم يَدْعُونَ رَبَّهُمْ قَائِلِينَ:

﴿رَبَّنَا اصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا﴾ [١٥] ﴿[الفرقان]

لقد نجاهم الله من عذاب الجحيم، لأنهم فعلوا ما يرضى الله وتركوا ما يسخطه .

ثَالِثًا: تَهْنِئَةُ أَهْلِ الْجَنَّةِ بِطَعَامِهِمْ وَشَرَابِهِمْ

١٩- ﴿كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [١٩]

وكما قيل لأهل النار: ﴿أَصْلَوْهَا فَاصْبِرُوا أَوْ لَا تَصْبِرُوا﴾ يقال لأهل الجنة على وجه التهنية: ﴿كُلُوا وَاشْرَبُوا﴾ من كل ما تشتهون ﴿هَنِيئًا﴾ مريئًا لكم، فلا تُخْمة ولا سقم، ولا تنغيص ولا كدر، جزاء لكم ﴿بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ أي: بسبب ما قدمتموه من صالح الأعمال في الدنيا، فطعامكم هنيء، لا يلحقه تعب ولا مرض، ولا عُسر هضم، ولا حموضة ولا سمنة، وشرابكم سائغ فيه تفكُّه وتلذذ، وهذا كقوله تعالى: ﴿كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا أَسْلَفْتُمْ فِي الْأَيَّامِ الْخَالِيَةِ﴾ [١٩] ﴿[الحاقة]. وكل ذلك على وجه الفرح والسرور والحبور .

رَابِعًا: هَيْئَةُ أَهْلِ الْجَنَّةِ حَالِ اتِّكَائِهِمْ عَلَى السُّرُرِ

٢٠- ﴿مُتَّكِئِينَ^(١) عَلَى سُرُرٍ مَصْفُوفَةٍ وَزَوَّجْنَاهُمْ بِحُورٍ عِينٍ﴾ [٢٠]

الالتكاء على الفرش والسرر حال الأكل والشرب، شأن أهل الترف والرفاهية في الدنيا، كما قال تعالى عن نساء القصور من عِلْيَةِ الْقَوْمِ: ﴿وَأَعْتَدَتْ لَهُنَّ مُتَّكًا﴾ [يوسف: ٣١] .

والالتكاء هو الجلوس على وجه الراحة، والأرائك جمع أريكة، وهي ما يُتَكَوُّ عليها من الفرش والمزخرفة المزينة الفاخرة، ووصفها الله تعالى بأنها مصفوفة، لكثرتها وحُسن

(١) قرأ أبو جعفر بحذف همزة (متكئين) وصلًا ووقفًا، هكذا (متكين) ولحمزة وقفًا: الحذف والتسهيل بين بين، وقرأ الأزرق بتثنية البدل، قصر وتوسط ومد .

تنظيمها وجمال رونقها، واجتماع أهلها عليها بسرور وحسن معاشرة.

وكان الأكاسرة وأباطرة الرومان يتكئون وهم يشربون الخمر، وليس هذا من شأن المتقين في الدنيا، كما قال ﷺ: «أما أنا فلا أكل متكاً»^(١).

أما في الآخرة فإنهم يأكلون ويشربون حال كونهم ﴿مُتَّكِئِينَ عَلَى سُرُرٍ مَّصْفُوفَةٍ﴾ متقابلين في مواجهة بعضهم البعض، وهذا لتمام الأنس وحسن المجالسة، كما قال تعالى:

﴿عَلَى سُرُرٍ مُتَقَابِلِينَ﴾ [الصافات: ٤٤].

وقال سبحانه: ﴿عَلَى سُرُرٍ مَوْصُوفَةٍ ﴿١٥﴾ مُتَّكِئِينَ عَلَيْهَا مُتَقَابِلِينَ﴾ [الواقعة].

وقال جل شأنه: ﴿مُتَّكِئِينَ فِيهَا عَلَى الْأَرَائِكِ نَعَمَ الثَّوَابُ وَحَسُنَتْ مُرْتَفَقًا﴾ [الكهف: ٣١].

وقال ﷻ: ﴿مُتَّكِئِينَ فِيهَا عَلَى الْأَرَائِكِ لَا يَرَوْنَ فِيهَا شَمْسًا وَلَا زَمْهَرِيرًا﴾ [الإنسان: ١٣].

خَامِسًا: الْحُورُ الْعِينُ

وفضلاً عن ذلك فإن الله تعالى جعل لكل فرد في الجنة زوجاً من الحور العين، قال تعالى: ﴿وَزَوَّجْنَاهُمْ بِحُورٍ عِينٍ﴾ وهن نساء حسان بيض، واسعات العيون، أي: قرناهم بنساء من الحور العين.

والحور: صفة لنساء المؤمنين في الجنة، سواء أكنَّ مخلوقات في الجنة لأهل الجنة، أم كنَّ نساء للمؤمنين في الدنيا، فأنشأهن الله إنشاءً، وجعلهنَّ عُرباً أتراباً، أي: متحبيبات لأزواجهن، أبكاراً لا ثيبات، وهنَّ أتراباً، أي: في سن الثالثة والثلاثين، وهو أفضل سن للمرأة، ويقال للجميع: ﴿ادْخُلُوا الْجَنَّةَ أَنتُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ تُحْبَرُونَ﴾ [الزخرف: ٧٠].

والحور: من الحور، وهو شدة البياض مع شدة السواد في العين.

والعين: جمع عينا، وهي المرأة واسعة العين.

(١) من حديث أبي جُحَيْفَةَ في صحيح سنن الترمذي (١٨٣٠) وصحيح ابن حبان (٥٢٤٠) والنسائي (٦٧٤٢) والبيهقي (١٣٠٣).

سَادِسًا: إِنْحَاقُ الْأَدْنَى دَرَجَةٍ فِي الْجَنَّةِ بِالْأَعْلَى مِنَ الْأُصُولِ وَالْفُرُوعِ

٢١- ﴿وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَاتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُمْ بِإِيمَانٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ^(١) وَمَا أَكْثَرُهُمْ^(٢) وَمَا أَكْثَرُهُمْ^(٣) مِنْ عَلَيْهِمْ مِنْ شَيْءٍ كُلُّ أَمْرٍ بِنَا كَسَبَ رَهِيْنٌ ﴿٢١﴾

ومن فضل الله تعالى على أهل الجنة أن يُلحق الأدنى منهم درجة في الجنات، بمن هو أعلى في درجات الجنان، من الذرية والآباء والأمهات والزوجات، بشرط أن يكونوا من المؤمنين، ولكنهم في درجة أقل مرتبة، فيُلحق الأدنى بالأعلى إكراماً لهم، ومن تمام نعيمهم؛ كي تفر أعينهم وتطيب نفوسهم.

قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَاتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُمْ بِإِيمَانٍ﴾ أي: بشرط أن يكون الأبناء مؤمنين مثل آبائهم، فهم شركاء في الإيمان، ولذا ﴿أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ﴾ أي: جعلناهم معهم في منزلتهم في الجنة، وإن لم يبلغوا درجة آبائهم في الإيمان، لتقر أعين الآباء بالأبناء في مكان واحد، على أحسن الوجوه، ولتجتمع لهم أنواع السعادة والسرور في أنفسهم، بمزاوجة الحور العين، ومؤانسة الإخوان المؤمنين، واجتماع نسلهم بهم، ومساواتهم لهم في العطاء والنعيم والمنزلة، وإن لم يبلغوا عملهم، فضلاً من الله وكرماً.

وفي رواية عن ابن عباس رضي الله عنه أن المراد بالذرية: الصغار الذين هم دون سن البلوغ، ولم يصلوا إلى درجة التكليف وتحمل الإيمان .
ولعل هذا الإلحاق من شفاعة المؤمن الصالح لأهله وذريته .

جاء في الأثر عن ابن عباس أيضاً: إن الله ليرفع ذرية المؤمن معه في درجته في الجنة، وإن كانوا دونه في العمل لتقر به عينه، ثم قرأ الآية^(٤).

(١) قرأ أبو عمرو (وَاتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُمْ) مفعولاً ثانياً، وقرأ ابن عامر ويعقوب (وَاتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُمْ) فاعل .
وقرأ الباقر (وَاتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُمْ) فاعل .

(٢) قرأ نافع وأبو عمرو وابن عامر وأبو جعفر ويعقوب (أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ) مفعول به، والباقر (ذُرِّيَّتَهُمْ) .

(٣) قرأ ابن كثير بكسر لام (وما أَكْثَرُهُمْ)، والباقر بفتحها، ورؤي عن قبل وجه آخر بحذف الهمزة، وكلها لغات .

(٤) جاء هذا الأثر من طريقين بألفاظ متقاربة، يُنظر: «تفسير الطبري» (١٥/٢٧) وصححه الحاكم (٤٦٨/٢) وسكت عنه الذهبي، وقال الهيثمي في «المجمع» (١١٧/٧): رواه البزار، وفيه قيس بن الربيع وثقه شعبة والثوري، وفيه ضعف، وأخرجه البيهقي في «السنن» (٢٦٨/١٠) والبزار في «الكشف» (٢٢٦٠) .

وهذا الإلحاق كرامة للآباء، وإلا لكانت معاملة الأبناء على حسب أعمالهم، ومع هذا فإن الله تعالى لم يُنقص الآباء من ثواب أعمالهم شيئاً ﴿وَمَا أَلْنَهُمْ مِنْ عَمَلِهِمْ مِنْ شَيْءٍ﴾ أي: وما نقصنا الآباء شيئاً من ثواب أعمالهم، فالمقتصر يلحق بالمحسن، والمحسن لا ينقص من أجره شيء.

قال الجمل: والذرية هنا تصدق على الآباء والأبناء، فإن المؤمن إذا كان عمله الصالح أكثر ألحق به مَنْ هو دونه في العمل، أيًا كان، أبًا أو ابنًا، وهذا منقول عن ابن عباس وغيره^(١). وقد ورد في ذلك أحاديث، منها ما جاء:

١- عن ابن عباس ؓ، عن النبي ﷺ قال: «إذا دخل الرجل الجنة سأل عن أبويه وعن زوجته وولده، فيقال: إنهم لم يدركوا ما أدركت، فيقول: يارب، إني عملتُ لي ولهم، فيؤمر بالحقاقهم به» وقرأ الآية^(٢).

٢- وعن عليّ ؓ قال: سألت خديجة النبي ﷺ عن ولدين ماتا لها في الجاهلية، فقال ﷺ: «هما في النار» فلما رأى الكراهة في وجهها قال: «لو رأيت مكانهما لأبغضتهما»، قالت: يا رسول الله، فولدي منك؟ قال: «في الجنة» ثم قال ﷺ: «إن المؤمنين وأولادهم في الجنة، وإن المشركين وأولادهم في النار» ثم قرأ الآية^(٣).

٣- وعن أبي هريرة ؓ أن النبي ﷺ قال: «إن الله ليرفع الدرجة للعبد الصالح في الجنة، فيقول: يارب، أنى لي هذا؟ فيقول: باستغفار ولدك لك»^(٤).

٤- وعنه ؓ أن رسول الله ﷺ قال: «إذا مات الإنسان انقطع عمله إلا من ثلاثة: من

(١) «حاشية الجمل على الجلالين» (٢١٦/٤).

(٢) الطبراني في «الصغير» (٦٤٠) وفي «الكبير» برقم (١٢٢٤٨) وقال الهيثمي في «مجمع الزوائد» (٧/١١٧): فيه محمد بن عبد الرحمن بن غزوان وهو ضعيف.

(٣) من زوائد عبد الله بن أحمد على «المسند» (١٣٤/١) (١١٣١) قال الهيثمي في «مجمع الزوائد» (٧/٢٧١): فيه محمد بن عثمان لم أعرفه، وبقية رجاله رجال الصحيح، وضعّفه محققو «المسند».

(٤) «المسند» (٥٠٩/٢). ورقمه (١٠٦١٠) بإسناد حسن من أجل عاصم بن أبي النجود وباقي رجاله ثقات رجال الصحيح (محققوه) وأخرجه ابن أبي شيبة (٣٩٦/١٠) وابن ماجه (٣٦٦) والبزار في كشف الأستار (٣١٤١) وغيرهم وهو في صحيح الجامع (١٦١٧).

صدقة جارية، أو علم يتففع به، أو ولد صالح يدعو له»^(١).

وربما توهم بعض الناس أن أهل النار، يُلحق الله بهم ذريتهم كأهل الجنة، فرفع الله هذا الوهم، وبين سبحانه أن من عدل الله تعالى أنه لا يعذب أحدا إلا بذنب، فأخبر سبحانه أنه لا يؤاخذ أحدا بذنب أحد، وأن كل إنسان مرهون بعمله، لا ينفعه غيره، سواء أكان أباً أو أمّاً، أو ابناً أو زوجة... ﴿كُلُّ أُنْرِيٍّ بِمَا كَسَبَ رَهِيْنٌ﴾ فهو مرتهن بعمله، لا يحمل وزر غيره ولا ذنب غيره، وهذا الارتهان خاص بالكافر، فإن كان العبد مؤمناً صالحاً سعد وفاز؛ لأن عمله الصالح أطلقه وفكَّ أسرَه، وأدخله الجنة مباشرة، كما قال تعالى: ﴿كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِيْنَةٌ ۖ ﴿٢٨﴾ إِلَّا أَصْحَابَ الْيَمِيْنِ ﴿٢٩﴾ فِي جَنَّاتٍ يَسَاءَلُوْنَ ﴿٣٠﴾ عَنِ الْمَجْرِيْنَ ﴿٣١﴾﴾ [المدر].

فالمؤمن لا يكون مرتهنًا بعمله، أما الكافر فإنه مرهون بعمله، لا ينفك عنه إلا بعد أدائه وحسابه.

سَابِعًا: أَهْلُ الْجَنَّةِ يَتَزَوَّدُونَ مِنَ اللَّحُومِ وَالْفَاكِهَةِ مَا يَشْتَهُونَ

٢٢- ﴿وَأَمَدَدْنَاهُمْ بِفَاكِهَةٍ وَلَحْمٍ مِّمَّا يَشْتَهُونَ ﴿٢٢﴾﴾

أي: وزدنا أهل الجنة من فضلنا الواسع ورزقنا العميم، فوق ما ذُكر من النعيم ألوانًا من الفاكهة المنوعة وأصناف اللحوم المختلفة، من كل ما يُستطاب ويُشتهى، ولعل هذه الآية فسّرت بقوله تعالى: ﴿وَفَاكِهَةٍ مِّمَّا يَتَخَيَّرُوْنَ ﴿٢٥﴾ وَلَحِيْرٍ طَيِّرٍ مِّمَّا يَشْتَهُونَ ﴿٢٦﴾﴾ [الواقعة].

والمعنى: زدناهم على ما ذُكر من النعيم من الأكل والشرب الهنيء، فاكهةً ولحماً مما يشتهون، من كل مالدّ وطاب من أنواع الفواكه واللحوم وسائر ألوان المتع والنعيم.

(١) «صحيح مسلم» برقم (١٦٣١) والبخاري في «الأدب المفرد» (٣٨) وأبو داود (٢٨٨٠) والترمذي (١٣٧٦) و«المسند» (٨٨٤٤) بإسناد صحيح و«شرح مشكل الآثار» (٢٤٦)، وأبو يعلى (٦٤٥٧) وابن خزيمة (٢٤٩٤) وابن حبان (٣٠١٦).

ثَامِنًا: خَمْرُ الْآخِرَةِ لَا تُؤَثِّرُ عَلَى الْعَقْلِ وَلَا عَلَى اللِّسَانِ

٢٣- ﴿يَنْزَعُونَ فِيهَا كَأْسًا^(١) لَا لَغْوٌ^(٢) فِيهَا وَلَا تَأْتِيرُ^(٣)﴾ (٢٣)

ومن نعيم أهل الجنة: أنهم يتعاطون فيها كأسًا من الخمر، يُناول كل واحد منهم صاحبه ليتّم بذلك سرورهم، وهذا الشراب مخالف لخمّر الدنيا، فلا يزول به عقل شاربه، ولا يحصل بسببه لغو، ولا كلام فيه إثم أو معصية، ولا باطل، ولا رفث، ولا تخاصم، كما يحدث ممن يشربون الخمر في الدنيا ﴿يَنْزَعُونَ فِيهَا كَأْسًا﴾ يَصُبُّ بعضهم لبعض، ويُناول بعضهم بعضًا في جو من السّمر والمداعبة، والإيثار والكرامة، هذا هو معنى ﴿لَا لَغْوٌ فِيهَا وَلَا تَأْتِيرُ﴾ كقوله تعالى: ﴿لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا كِدًّا﴾ (٣٥) [النبا].

وإذا انتهى ما في الجنة من الكلام الذي لا فائدة فيه، والكلام الذي فيه إثم ومعصية، ثبت أن كلامهم كله طيب طاهر، فيه مسرة للنفوس وفرح للقلوب وحُسن معاشرة.

والكأس: هي الإناء الذي يُشرب فيه الخمر، لا عُروة له ولا خُرطوم، ولا يقال له كأس إلا إذا كان فيه خمر، وإلا فهو كوب.

واللغو: هو الكلام الساقط الذي يُنبئ عن خلل في العقل.

والتأثير: ما يؤثّم قائله أو فاعله شرعًا أو عرفًا.

قال قتادة: نزّه الله خمر الآخرة عن قاذورات خمر الدنيا وأذاها، فنفي عنها صُداع الرأس، ووجع البطن، وإزالة العقل، وأخبر أنها لا تحملهم على الكلام الذي لا فائدة فيه، المتضمن للهذيان والفحش، ووصفها بحُسن منظرها، وطيب مطعمها، فقال: ﴿يَبْضَأَ لَذَّةً لِلشَّارِبِينَ﴾ (٤٦) لَا فِيهَا غَوْلٌ وَلَا هُمْ عَنْهَا يُنْزَفُونَ ﴿٤٧﴾ [الصافات].

(١) قرأ أبو جعفر وأبو عمرو بخلف عنه بإبدال همزة (كأسًا) ألفًا وصلًا ووقفًا، والباقون بإثباتها ساكنة.

(٢) قرأ ابن كثير وأبو عمرو ويعقوب بفتح الواو من (لغو) وفتح الميم من (تأثير) مع عدم التنوين فيهما على أن (لا) نافية، والباقون بالرفع فيهما مع التنوين على أن (لا) نافية للوحدة.

(٣) أبدل همزة (تأثير) ألفًا ورش وأبو جعفر وأبو عمرو بخلف عنه، وحزمة عند الوقف، وحققها الآخرون.

تَاسِعًا: خَدَمُ أَهْلِ الْجَنَّةِ غِلْمَانٌ كَاللُّؤْلُؤِ الْمَصُونِ فِي أَصْدَافِهِ

٢٤- ﴿وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ غِلْمَانٌ لَّهُمْ كَأَنَّهُمْ لُؤْلُؤٌ^(١) مَكْنُونٌ﴾

ومع أن الجنة لا نَصَب فيها ولا تعب، ولا شغل ولا عمل، إلا أنه من تمام النعيم أن يكون في الجنة غلمان دون سن البلوغ، مُعَدُّون للخدمة، يطوفون حول المؤمنين في الجنة، يناولونهم الكؤوس وغيرها، في لذة وسرور، من غير سامة ولا ملل، وهؤلاء الغلمان قد خلقهم الله في الجنة لهذا الغرض.

قيل: إن أولاد المشركين الذين هم دون سن التكليف هم خدم أهل الجنة^(٢).

﴿وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ غِلْمَانٌ لَّهُمْ﴾ قد أعدَّهم الله لخدمتهم، وهم صغار في السن لتكون حركتهم خفيفة ﴿كَأَنَّهُمْ﴾ في الصفاء والبياض والحسن ﴿لُؤْلُؤٌ مَكْنُونٌ﴾ أي: لؤلؤ مصون في أصدافه، لم تمسه الأيدي.

قال تعالى: ﴿وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُّخَلَّدُونَ﴾^(٣) يَأْكُوبِ وَأَبَاقُ وَكَاسٍ مِّن مَّعِينٍ ﴿٥٨﴾ [الواقعة].

وقال تعالى: ﴿وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُّخَلَّدُونَ إِذَا رَأَيْتَهُمْ حَسِبْتَهُمْ لُؤْلُؤًا مَّنثورًا﴾^(٤) [إنسان: ١٩].

قال قتادة: ذكر لنا أن رجلاً قال: يا نبي الله، هذا الخادم، فكيف المخدم؟ قال: «والذي نفس محمد بيده إن فضل المخدم على الخادم كفضل القمر ليلة البدر على سائر الكواكب»^(٥).

عَاشِرًا: أَهْلُ الْجَنَّةِ يَتَجَادَبُونَ أَطْرَافَ الْحَدِيثِ عَمَّا كَانَ فِي الدُّنْيَا

٢٥، ٢٦- ﴿وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ﴾^(٦) قَالُوا إِنَّا كُنَّا قَبْلُ فِي أَهْلِنَا مُشْفِقِينَ ﴿٦٦﴾

(١) أبدل الهمزة الأولى من (لؤلؤ) واوًا أبو عمرو بخلف عنه، وشعبة وأبو جعفر، وحمزة عند الوقف، أما الهمزة الثانية فيبدلها وقفًا هشام بخلف عنه، وحمزة، ولهما أيضا تسهيلها مع الزَّوم، ولهما كذلك إبدالها واوًا خالصة مع السكون والزَّوم والإشمام.

(٢) «تفسير القرطبي» (٦٩/١٧).

(٣) حديث مرسل أخرجه ابن جرير في تفسيره (١٩/٢٧) وأورده السيوطي في «الدر المنثور» (١٣/٧٠٦) ولعبد الرزاق (٢٤٨/٢) وابن المنذر، وقال ابن حجر في «تخريج الكشاف» (١٦٠): رواه عبد الرزاق: أخبرنا معمر عن قتادة به.

والتحدث بنعمة الله تعالى، وتجادب أطراف الحديث بين الجلساء في الجنة، والمؤانسة بينهم، من نعيم الله تعالى على أهل الجنة، فإن أهل النار يكونون في غمٍ وكربٍ ونكدٍ، وكلٌ منهم لا يفكر إلا في نفسه.

والمعنى: وأقبل أهل الجنة يسأل بعضهم بعضاً عن عظيم ما هم فيه من نعيم لا ينفد، وعما كانوا فيه في الدنيا من أحوال، وهذا من باب التحدث بالنعمة، والتلذذ بالحديث، وهم يتذكرون ما هم فيه من حُسن العاقبة، إلى جوار سوء عاقبة أهل النار.

ومن ذلك ما ذكره القرآن عن الصديقين اللذين دخل أحدهما الجنة، والآخر النار.

﴿قَالَ قَائِلٌ مِّنْهُمْ إِنِّي كَانَ لِي قَرِينٌ ﴿٥١﴾ يَقُولُ أَإِنَّكَ لَمِنَ الْمُصَدِّقِينَ ﴿٥٢﴾﴾ إلى أن قال لجلسائه في الجنة: ﴿هَلْ أَنتُمْ مُّطَّلِعُونَ ﴿٥٦﴾ فَاطْلَعُوا فِرَءَاهُ فِي سَوَاءِ الْجَحِيمِ ﴿٥٥﴾﴾ [الصافات]

وهكذا يسأل بعضهم بعضاً من باب المؤانسة والمحبة والمودة.

أخرج البزار عن أنس ؓ أن رسول الله ﷺ قال: «إذا دخل أهل الجنة الجنة اشتاقوا إلى الإخوان، فيجيء سرير هذا حتى يحاذي سريرَ هذا فيتحدثان، فيتكى هذا ويتكى ذا، فيتحدثان بما كان في الدنيا، فيقول أحدهما لصاحبه: يا فلان، تدري أيَّ يوم غفر الله لنا؟ يوم كذا في موضع كذا وكذا، فدعونا الله فغفر لنا»^(١).

ويقول كل مسؤول لسائله: إنا كنا بين أهلينا في الدنيا نعيش خائفين من أهوال يوم القيامة، وكنا نعمل الصالحات، ونرجو من الله أن يقبلها منا، ويرضى عنا بها ﴿قَالُوا﴾ أي: قال المسؤولون للسائلين: ﴿إِنَّا كُنَّا قَبْلُ﴾ ونحن في الدنيا ﴿فِي أَهْلِنَا مُشْفِقِينَ﴾ خائفين من عذاب الله وعقابه، نخاف من رد الحسنات، والأخذ بالسيئات.

ولكن الله تعالى مَنَّ علينا بالإيمان والعمل الصالح، فوفّقنا للطاعة والعبادة، وكان ذلك سبباً للفوز بالجنة والنجاة من النار:

(١) أخرجه البزار (٣٥٥٣) قال الهيثمي في «مجمع الزوائد» (٤٢١/١٠): رجاله رجال الصحيح غير سعيد بن دينار، والربيع بن صبيح، وهما ضعيفان وقد وثقا.

٢٧، ٢٨ - ﴿فَمَنْ أَلَّهَ عَلَيْنَا وَوَقَفْنَا عَذَابَ السَّمُورِ ﴿٢٧﴾ إِنَّا كُنَّا مِنْ قَبْلُ نَدْعُوهُ إِنَّهُ﴾^(١)
هُوَ أَكْبَرُ الرَّحِيمِ ﴿٢٨﴾

أي: لقد تفضل الله علينا بالهداية والتوفيق، وأكرمنا بالجنة، ومنَّ علينا بالعفو والمغفرة والرضوان، وأذهب عنا الحزن، كما قال تعالى: ﴿وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَذْهَبَ عَنَّا الْحَزْنَ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ ﴿٣٤﴾﴾ [فاطر: ٣٤].

وأجارنا مما نخاف، وحمانا من نار جهنم، وأنقذنا من حرها وسعيرها ﴿وَوَقَفْنَا عَذَابَ السَّمُورِ﴾ فتزداد لذة المؤمن حيث انتقل من الضيق إلى السعة، ومن السجن إلى الجنة، كما يزداد الكافر حسرة وألمًا، حيث انتقل من نعيم الدنيا إلى نار جهنم.

والسَّمُوم: الريح الحارة التي تدخل المسام.

ويقول أهل الجنة: ﴿إِنَّا كُنَّا مِنْ قَبْلُ﴾ ونحن في الدنيا ﴿نَدْعُوهُ﴾ أي: نعبد الله وحده، ونبتهل إليه، ونتضرع إليه، ولا نشرك معه أحدًا، ونسأله سبحانه أن يقينا عذاب السموم، ويوصلنا إلى النعيم، وهذا يشمل دعاء العبادة ودعاء المسألة، أي: لم نزل نتقرب إلى الله تعالى بأنواع القربات، وندعوه في سائر الأوقات ﴿إِنَّهُ هُوَ أَكْبَرُ الرَّحِيمِ﴾ فاستجاب لنا ربنا وأعطانا سُؤْلَنَا، وَمِنْ بَرِّهِ بِنَا وَرَحْمَتِهِ لَنَا أَنْ أَنَالْنَا رِضَاهَ وَالْجَنَّةَ، وحفظنا من سخطه والنار.

لَمَّا قرأت عائشة ؓ هذه الآية، قالت: اللهم مُنَّ علينا، وقنا عذاب السموم، إنك أنت البر الرحيم، قيل للأعمش: في الصلاة؟ قال: نعم^(٢).

وَجُوبُ الْمُتَابِرَةِ عَلَى الدَّعْوَةِ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى وَإِنْ أُوذِيَ الدَّاعِي

٢٩ - ﴿فَذَكِّرْ فَمَا أَنْتَ بِنِعْمَتِ رَبِّكَ بِكَاهِنٍ وَلَا مَجْنُونٍ ﴿٢٩﴾﴾

(١) فتح همزة (إنه) نافع والكسائي وأبو جعفر على تقدير لام التعليل، أي: لأنه، والباقون بكسرها على الاستثناف، وقرأ ابن كثير بصلة هاء الضمير في (ندعوه).

(٢) عبد الرزاق (٤٠٤٨) وابن أبي شيبة (٢/٢١١) والبيهقي في «الشعب» (٢٠٩٢).

(٣) وقف ابن كثير وأبو عمرو والكسائي ويعقوب بالهاء على (بنعمت) على الأصل في هاء التأنيث، ووقف الباقر بالتاء تبعًا للرسم، وأمالها الكسائي وقفًا.

هذا أمر من الله تعالى بالقيام بواجب الدعوة إلى الله سبحانه، ومتابعة نشر الإسلام في العالم، فيذكر الناس جميعًا كافرهم ومسلمهم، بأمر الله ونهيه في كتاب الله وسنة رسوله، لتقوم الحجة على الضالين، ويهتدى بتذكيره الموفقون.

وذلك أنه بعد أن ساقَت السورة ألوانًا من الوعد والوعيد، والعذاب والنعيم، أمر الله تعالى رسوله ﷺ بالمثابرة على الدعوة، وملازمة التذكير، إنذارًا للكافرين، وتبشيرًا للمؤمنين، وأن يمضي ﷺ في طريقه دون أن يهتمّ بأكاذيب المبطلين.

فداوِم -أيها الرسول- على التذكير حتى يَرَعَوِيَّ بعض المكذِبين عن كذبهم، ويزداد المصدّقون توغُّلاً في إيمانهم.

ولما كان أثر الدعوة أهم بالنسبة للمكذِبين لعلهم يهتدون، ناسب ذلك أن يتبع القرآن شُبُهَاتهم واتهاماتهم لتبْرِئَةَ الرسول ﷺ منها، حتى يزول ما عَلِقَ في نفوسهم.

وتبدأ الآيات بتبرئة الرسول ﷺ من صفتين قبيحتين رماه بهما الكفار، وهما: الكهانة، والجنون، وكانت العرب تألف وجود الكهانة والجنون في بعض الناس.

﴿فَذَكِّرْ﴾ -يا رسولنا - مَنْ أُرْسِلْتَ إِلَيْهِمْ بِالْقُرْآنِ، وَاثْبَتْ عَلَى مَا أَنْتَ عَلَيْهِ مِنَ الْوَعْظِ وَالتَّذْكِيرِ ﴿فَمَا أَنْتَ بِنِعْمَتِ رَبِّكَ﴾ أي: بما أنعم الله عليك بالنبوة والرسالة ورجاحة العقل، وعصمته لك ﴿بِكَاهِنٍ وَلَا مَجْنُونٍ﴾ كما يزعم الكافرون.

وهكذا: نفى الله سبحانه عن رسوله ﷺ كل نقص، وأثبت له كل كمال، وبيّن أنه أكمل الناس عقلاً، وأبعدهم عن الهوى والشياطين، وأعظمهم صدقًا، وأرجحهم رأيًا.

والكاهن: هو الذي يُخبر بالغيب دون علم، والمجنون: هو الذي لا يعقل ما يقول، - فَلَسْتُ كما يدَّعون أيها الرسول -وحاشاك- وإنما أنت تنطق بالوحي عن ربك، قال تعالى: ﴿مَا أَنْتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ﴾ [القلم].

وقال سبحانه: ﴿وَمَا صَاحِبُكُمْ بِمَجْنُونٍ﴾ [التكوير].

فمن أين تأتي الكهانة لدين التوحيد والفطرة؟ ومن أين يأتي الجنون لدين العقل والحكمة؟

قَذَائِفُ الْحَقِّ تَدْمَغُ الْبَاطِلَ فِي خَمْسَةِ عَشَرَ اسْتِفْهَامًا

٣٠، ٣١- ﴿أَمْ يَقُولُونَ شَاعِرٌ نَّتَرَبَّصُ بِهِ رَبِّبَ الْمُنُونِ﴾ ٣٠ ﴿قُلْ تَرَبَّصُوا فَإِنِّي مَعَكُمْ مِنَ الْمُرَبِّصِينَ﴾

أخذت السورة بعد ذلك في تقريع الجاهلين بأسلوب استنكاري، فيه التعجب من جهالاتهم، والرد على أكاذيبهم، فسأقت شبهاتهم وردت عليها بأسلوب يبدأ بلفظ ﴿أَمْ﴾ خمس عشرة مرة، كلها إلزامات ليس لديهم جواب عليها، فالإسلام ليس فيه عوج ولا خطأ ولا شرود، وهي استفهامات متعاقبة كأنها صدمات كهربائية توقظ الإنسان، وتنقله من حال إلى حال، وترغمه على التفكير والتأمل، وهذه الاستفهامات، منها ما يتعلق بالوحي والرسالة، ومنها ما يتعلق بالتوحيد والعقيدة:

الاستفهام الأول: عَنْ تَرَقُّبِ نُزُولِ الْمَوْتِ بِالرَّسُولِ

بل أيقول المشركون عنك -يا محمد-: هو شاعر ننتظر نزول الموت به، فينقضي أمره ويذهب ما جاء به من هذا الدين؟

روى ابن إسحاق عن ابن عباس رضي الله عنه: أن قريشاً اجتمعت في دار الندوة في أمر النبي ﷺ، فقال قائل منهم: احتبسوه في وثاق، ثم تربصوا به ريب المنون حتى يهلك ويموت، كما هلك من هلك من قبله من الشعراء: زهير، والنابعة، والأعشى، إنما هو كأحدهم، فأنزل الله هذه الآية^(١).

فكانوا يقولون: ننتظر به حوادث الدهر حتى يموت ويهلك، كما هلك من قبله من الشعراء، أو يتفرق عنه أصحابه، وإن أباه مات وهو شاب، ونحن نرجو أن يكون موته كموت أبيه^(٢).

وفسره ابن عباس بالموت، والمنون: هو الدهر، أي: نترصد به حوادث الزمن، والمنون أيضاً: اسم من أسماء الموت، وهو واحد لا جمع له.

والريب: هو الحدث، كما قال قتادة: تربصوا بمحمد الموت يكفيكموه، كما كفاكم

(١) «تفسير الطبري» (١٩/٢٧) و«تفسير الألوسي» (٣٦/٢٧) وهو في «سيرة ابن هشام» (١/٤٨٠).

(٢) «تفسير الخازن» (٤/١٨٨).

شاعر بني فلان، وشاعر بني فلان.

وقد نفى القرآن صفة الشعر عن النبي ﷺ، كما نفى عنه صفة الكهانة التي جاءت في الآية السابقة، فقال تعالى: ﴿وَمَا هُوَ يَقُولُ شَاعِرٌ قَلِيلًا مَّا تُؤْمِنُونَ ۖ وَلَا يَقُولُ كَاهِنٌ قَلِيلًا مَّا تَذْكُرُونَ﴾ (٤٢) [الحاقة].

وقال سبحانه: ﴿وَمَا عَلَّمْنَاهُ الشِّعْرَ وَمَا يَنْبَغِي لَهُ ۚ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْآنٌ مُبِينٌ﴾ (٩٦) [يس].
إن محمداً ﷺ ليس بشاعر، وكتابه مشحون بالحقائق لا بالخيالات كما قال تعالى ﴿وَبِالْحَقِّ أَنْزَلْنَاهُ وَبِالْحَقِّ نَزَّلٌ﴾ [الإسراء: ١٠٥].

وقد أمر الله رسوله أن يجيبهم عن مقالتهم هذه بجواب منصف؛ لأن حوادث الدهر مشتركة بين الجانبين، ولا يدري أحد بأي من الطرفين تحل.

﴿قُلْ﴾ لهم أيها الرسول: ﴿تَرَبَّصُوا﴾: انتظروا موتي أو هلاكي ﴿فَإِنِّي مَعَكُمْ مِنَ الْمُرِصِينَ﴾: المنتظرين نزول العذاب بكم، وأن يصيبكم الله بعذاب من عنده أو بأيدينا، وسترون لمن تكون العاقبة، كما قال تعالى: ﴿قُلْ هَلْ تَرَبَّصُونَ بِنَا إِلَّا إِحْدَى الْحُسَيْنَيْنِ وَنَحْنُ نَتَرَبَّصُ بِكُمْ أَنْ يُصِيبَكُمْ اللَّهُ بِعَذَابٍ مِنْ عِنْدِهِ أَوْ بِأَيْدِينَا فَتَرَبَّصُوا إِنَّا مَعَكُمْ مُتَرَبِّصُونَ﴾ (٥١) [التوبة].

أي: منتظرون عاقبة الأمور، فأنا واثق من نصر الله تعالى، وقد أذاقهم الله ألواناً من العذاب في غزوات الرسول ﷺ، وبأيدي المسلمين في كل زمان ومكان.

الِاسْتِفْهَامُ الثَّانِي: عَنْ تَسْفِيهِ الدَّاعِيَةِ وَإِلْصَاقِ التُّهْمِ بِهِ

٣٢- ﴿أَمْ تَأْمُرُهُمْ﴾ (١) ﴿أَحْلَمُهُمْ بِهَذَا أَمْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ﴾ (٢٢)

إن عظماء قريش كانوا يوصفون بأولي الأحلام والعقول، وكذا أمثالهم من العلمانيين والجاحدين، فكيف يقولون: إن محمداً شاعر، أو كاهن، أو مجنون؟ وكيف التبس عليهم الحقائق واختلط عليهم الأمور، فلم يميزوا ويفرقوا بين الكاهن وغيره،

(١) قرأ السوسي بإسكان الراء واختلاس ضميتها في (تأمرهم) ودوري أبي عمرو، له الإسكان والاختلاس وإشمام الحركة، والباقون بإتمام الحركة.

والمجنون وغيره؟! وهم لا يجهلون حال محمد ﷺ، ويعرفون أن هذه الأوصاف لا تنطبق عليه ﷺ وقد اعترف بذلك بعض زعمائهم كالوليد بن المغيرة.

قيل لعمر بن العاص ؓ: ما بال قومك لم يؤمنوا وهم أصحاب الأحلام؟ فقال: تلك عقول كادها الله، أي: لم يصحبها التوفيق والرشاد.

هذا ما يشير إليه قوله تعالى: ﴿أَمْ تَأْمُرُهُمْ أَخْلَقَهُمْ﴾ بل أعقول المكذبين تأمرهم ﴿بِهَذَا﴾ الكلام المتناقض، وهو دعوى أن القرآن سحر أو شعر أو كهانة، فأين عقولكم؟ وكيف لا تميز بين الحق والباطل؟ وكيف تصف محمداً ﷺ بالأوصاف المذكورة مجتمعة أو متفرقة؟ فالعقول السليمة لا تأمر بهذا؛ لأن أصحابها يترفعون عن اختلاق هذه التهم وإصاقها بأفضل الخلق ﷺ، فبئس العقول والأحلام التي صدر عنها ما صدر، فإن عقولاً جعلت أكمل الخلق عقلاً، جعلته مجنوناً، وجعلت أحق الحق وأصدق الصدق كذباً وباطلاً، لهي عقول المجانين.

والحلم: يطلق في الأصل على ضبط النفس عند هيجان الغضب، ويطلق على سعة الصدر وحسن الخلق.

الاستفهام الثالث: لِبَيَانِ أَنَّ الطُّغْيَانَ هُوَ الْبَاعِثُ عَلَى تَكْذِيبِ الدُّعَاةِ

وبعد هذا التهكم اللاذع يأتي هذا الوصف المزري ليبين للكفار أن الطغيان قد تأصل فيهم وخالط نفوسهم، فدفعهم ذلك إلى مثل هذه الأقوال، فإذا انتفى أن عقولهم لم تأمرهم بذلك، لم يبق إلا أنهم قوم طغاة ﴿أَمْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ﴾ فالطغيان هو الباعث الأول الذي حملهم على التكذيب، وهم قوم قد تجاوزوا الحد في أقوالهم وأفعالهم.

الاستفهام الرابع: لَوْ كَانَ الْقُرْآنُ كَلَامَ بَشَرٍ فَمَا الَّذِي يَمْنَعُ الْبَشَرَ مِنَ الْإِتْيَانِ بِمِثْلِهِ؟

٣٣، ٣٤ - ﴿أَمْ يَقُولُونَ نَقُولُ بِكْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ ﴿٣٣﴾ فَلْيَأْتُوا بِحَدِيثٍ مِثْلِهِ إِنْ كَانُوا صَادِقِينَ ﴿٣٤﴾

ثم تناولت ألسنة المكذبين على رسول الله ﷺ فاتهموه بافتراء ما يقول، ولذا فإن السؤال هنا يأتي باستنكار قولهم ﴿أَمْ يَقُولُونَ نَقُولُ بِكْ﴾ بل أيقول الجاحدون المكذبون: إن محمداً ﷺ افترى هذا القرآن من تلقاء نفسه؟

والتقول: نسبة الكلام إلى أحد لم يقله، أو هو تكلف القول، وتقول عليه، أي: كذب

عليه، قال تعالى: ﴿وَلَوْ نَقُولُ عَلَيْنَا بَعْضُ الْأَقَاوِيلِ ﴿٤٤﴾ لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ ﴿٤٥﴾ ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ ﴿٤٦﴾ فَمَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَاجِيزٍ ﴿٤٧﴾﴾ [الحاقة].

وقال سبحانه: ﴿وَأِنْ كَادُوا لَيَفْتِنُونَكَ عَنِ الَّذِي أُوتِيتَ إِلَيْكَ لَيَفْتَرِي عَلَيْنَا غَيْرُ وَإِذَا لَا تَأْخُذُوكَ خِلَالًا ﴿٧٣﴾ وَلَوْلَا أَنْ تُبَنِّنَاكَ لَقَدْ كِدْتَ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْنًا خِلَالًا ﴿٧٤﴾ إِذَا لَا دُفْعَتَكَ ضَعْفَ الْحَيَوةِ وَضَعْفَ الْمَمَاتِ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ عَلَيْنَا نَصِيرًا ﴿٧٥﴾﴾ [الإسراء].

ثم ابتداء سبحانه الرد عليهم في زعمهم أن القرآن مفترى بقوله تعالى: ﴿بَلْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ أي: ليس الأمر كما زعموا، بل هم لم يصدقوا بالقرآن أصلاً، استكباراً وعناداً، ولو أنهم آمنوا به لم يقولوا ما قالوه فيه.

إن دلائل تنزيه النبي ﷺ عن دعوى القول بالقرآن -أمر واضح لا يحتاج إلى دليل، ولكنهم لا يريدون الإيمان، فهم يبادرون إلى الطعن، ويختلقون المعاذير سترًا لمكابرتهم، والذي حملهم على ذلك هو انغماسهم في الباطل وإصرارهم على الجحود.

فإن كان هذا القرآن كلام بشر، فما الذي يمنع البشر من الإتيان بمثله، وهم أرباب الفصاحة والبلاغة؟ ﴿فَلْيَأْتُوا بِحَدِيثٍ﴾ أي: بكلام ﴿مِثْلِهِ﴾ أي: مثل هذا القرآن في نظمه، وحسن بيانه، وبديع أسلوبه ﴿إِنْ كَانُوا صَادِقِينَ﴾ في زعمهم أن محمدًا اختلقه، وهم أرباب الفصاحة والبلاغة، فإما أن تصدق معارضتهم له، وإما أن يُقرُّوا بصدقه.

ولما كانت مقالاتهم بأن القرآن مفترى، طعنًا منهم في المعجزة الدالة على صدق خاتم الرسل ﷺ، ربما تُرَوِّج على بعض الدُهَمَاءِ، فإن القرآن قد تصدَّى لإبطال دعواهم:

فتحدَّاهم أوَّلاً أن يأتوا بمثله إن كانوا صادقين، وكان عجزهم عن ذلك دليل كذبهم؛ لأن محمدًا ﷺ عربي مثلهم، ينطق بلسانهم، فلو كان قد قال هذا القرآن فما الذي يمنع خاصة العرب البلغاء من تأليف مثله، وفيهم الشعراء والفصحاء؟ فَعَجُزُ البشر عن الإتيان بمثله دليل على أنه من عند الله تعالى.

ثم تحدَّاهم ثانيًا إذا كانوا قد عجزوا عن الإتيان بمثله كله، فليأتوا بمثل عشر سور مثله: ﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِمِثْرِ سُورٍ مِثْلِهِ مُفْتَرِيَاتٍ﴾ واستعينوا على ذلك بمن شئتم من البشر ﴿وَادْعُوا مَنْ اسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ [هود: ١٣].

والأمر ليس كذلك، فالمانع لهم من التصديق هو الجحود والمكابرة، قال تعالى: ﴿فَأَنَّهُمْ لَا يَكْذِبُونَكَ وَلَكِنَّ الظَّالِمِينَ إِنَّمَا يُتَابِعُ اللَّهُ يَحْكُمُونَ﴾ [الأنعام: ٣٣].

فلما عجزوا عن ذلك، تحداهم القرآن ثالثاً أن يأتوا بسورة واحدة من مثله:

﴿وإن كنتم في ريب مما نزلنا على عبدنا فأتوا بسورة من مثله﴾ [البقرة: ٢٣].

وقوله تعالى: ﴿مِنْ مِثْلِهِ﴾ معناه: أن يأتوا بسورة من مثل القرآن، أي: بكلام يشبهه.

وقد نفى الله تعالى هذا في قوله سبحانه: ﴿قُلْ لِّئِنْ أَجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيراً﴾ [الإسراء: ٨٨].

وقوله سبحانه: ﴿فَأَنَّهُمْ يَسْتَجِيبُوا لَكُمْ فَأَعْلَمُوا أَنَّمَا أُنْزِلَ بِعِلْمِ اللَّهِ وَأَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَهَلْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾ [هود: ١٤].

وقوله جلّ شأنه: ﴿فَإِنْ لَّمْ يَسْتَجِيبُوا لَكَ فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا يُفْعَلُ أَهْوَاءَهُمْ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ اتَّبَعَ هَوَاهُ يَغْيِرْ هُدًى مِنَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ [القصص: ٥٥].

وقال ﷺ: ﴿أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيراً﴾ [النساء: ٨١].

وفي هذه الآيات إلهاب لعزيمتهم؛ ليأتوا بكلام يماثل القرآن، وعدم استجابتهم دليل على كذبهم، والتحدي بالقرآن قائم إلى قيام الساعة، على كل مكابر معاند مكذب.

وهم على هذا، إما مؤمنون مهتدون، وإما معاندون مكذبون.

الاستفهام الخامس: هل خلق الناس من غير خالق؟

٣٥- ﴿أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ﴾

أي: أوجدوا من غير موجد؟ أم هم أوجدوا أنفسهم؟

أو أن المعنى: أخلقوا لغير سبب فلا ثواب ولا عقاب، ولذلك فهم لا يسمعون ولا يتفكرون؟!

ومن أهم أغراض السورة: إثبات البعث والجزاء، وأن إعادة خلق الإنسان أيسر من بدء الخلق، وقد كان الناس عدماً، فأوجدهم الله تعالى، ثم أماتهم، وكما خلقوا من العدم فإنهم يُبعثون بعد موتهم للحساب والجزاء، وخلق الناس من غير خالق أمر واضح

البطلان، لا يحتاج إلى الاستدلال، فالصفر لا يُوجد شيئاً.

فيسأل الله تعالى منكري البعث، الجاحدين لوحدانيته تعالى، عن حقيقة وجودهم، وهي حقيقة قائمة، لا سبيل لإنكارها، فيقول تعالى: ﴿أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ﴾ أخلق هؤلاء الملحدون من غير خالق؟ هذا شيء تنكره الفطرة، ولا يحتاج إلى جدل.

وهذا استدلال عليهم، لا يمكنهم معه إلا التسليم للحق، أو الخروج عن موجب العقل والدين، فهم منكرون لتوحيد الله، مكذبون لرسوله، وهذا يستلزم إنكار أن الله خلقهم.

الِاسْتِفْهَامُ السَّادِسُ: هَلْ خَلَقَ الْإِنْسَانُ نَفْسَهُ؟

ثم يأتي الافتراض الآخر في قوله تعالى: ﴿أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ﴾ لأنفسهم حتى تجرؤوا على الله تعالى فأنكروا وجوده، ولم يدع أحد من الخلق أنه خلق نفسه، أو خلق غيره، فإذا كانوا لم يُوجدوا بدون واجدٍ، ولم يُوجدوا أنفسهم - فلم يبق إلا أن الله تعالى هو الخالق لهم، وبعبارة أخرى: فإنهم إن أقروا بأنهم لم يُخلَقوا بغير خالق، وأقروا بأنهم لم يَخْلُقوا أنفسهم - لزمهم أن يقولوا أن لهم إلهاً خلقهم، وهو الله سبحانه، فهذه ثلاث حالات ليس لها رابع.

وما دام الله تعالى لم يشاركه أحد في الخلق وجب ألا يشاركه أحد في العبادة، وتكون الحجة قد قامت على العباد بأن لهم خالقاً يجب عليهم الإيمان به.

والقول بأنهم لم يُخلَقوا لشيء زعمٌ باطلٌ، بل خُلِقوا للأوامر والنواهي، ومن ثم للحساب والجزاء، قال تعالى: ﴿كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُعِيدُهُمْ﴾ [الأنبياء: ١٠٤].

وقال تعالى: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ﴾ [المؤمنون].

فالإنسان مخلوق مربوب لله تعالى وهو لا يخلق شيئاً ﴿فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ مِمَّ خُلِقَ﴾ خُلِقَ مِنْ مَّاءٍ دَافِقٍ

﴿يَخْرُجُ مِنْ بَيْنِ الصُّلْبِ وَالتَّرَائِبِ﴾ (٧) إِنَّهُ عَلَى رَجْعِهِ لَقَادِرٌ ﴿٨﴾ [الطارق].

والمشركون معترفون بأن الله تعالى هو الخالق الرازي: ﴿وَلَكِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ

اللَّهُ﴾ [الزخرف: ٨٧].

الِاسْتِفْهَامُ السَّابِعُ: هَلْ خَلَقَ أَحَدُ الْعَالَمِ الْعُلُويِّ أَوِ السُّفْلِيِّ؟

٣٦- ﴿أَمْ خَلَقُوا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بَلْ لَا يُفْقَهُونَ﴾ (٣٦)

ثم يواجههم القرآن بمخلوقات أعظم من خلق الإنسان، وهي السموات والأرض، إنها لم تَخْلُقْ نفسها بطبيعة الحال، كما أنهم لم يَخْلُقُوا أنفسهم، فهل السموات والأرض خلقت نفسها؟ أم خُلِقت من غير خالق؟ وهم لم يدَّعوا أنهم خلقوها ﴿أَمْ خَلَقُوا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ﴾ على هذا الصنع البديع.

ثم بيّن سبحانه السبب في إنكارهم لوحداية الله تعالى، واليوم الآخر بأنهم كفار لا يؤمنون بالله ولا يصدقون ما جاء به رسوله ﴿بَلْ لَا يُؤْفِقُونَ﴾ بعذاب الله تعالى؛ لأنهم مشركون، فإنكارهم البعث ناشئ من عدم يقينهم بالغيب، فهم ينكرونه بدون حجة ولا شبهة، وليس عندهم علم تام، ولا يقين يجعلهم ينتفعون بالأدلة الشرعية والعقلية.

وخصّ السموات والأرض بالذكر لِعِظَمِهِمَا وشرفهما، وهم يعترفون بأن الذي خلقهما هو الله سبحانه ﴿وَلَيْنَ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ﴾ [الزمر: ٣٨].

لقد أوجدنا الله تعالى في عالم ممهّد، مسخّر لنا، ونحن لم نصنع من ذرّاته ولا مجراته شيئاً.

الاستِفْهَامُ الثَّامِنُ: هَلْ يَمْلِكُ أَحَدٌ خَزَائِنَ اللَّهِ؟

٣٧- ﴿أَمْ عِنْدَهُمْ خَزَائِنُ رَيْكَ﴾

أي: أم يمكنهم الاستغناء عن الله تعالى في جميع الأمور، كالمال والصحة والقوة وغير ذلك؟ فكلها من خزائن الله تعالى.

ولمّا تبَيَّن على وجه الاستحالة أن البشر لم يخلقوا أنفسهم، ولم يخلقوا السموات والأرض، فهل هم يملكون خزائن الله فيقبضوا الرزق ويوسعوه على من شاؤوا؟ ويضروا من شاؤوا وينفعوا من شاؤوا؟

وهل يملكون أن يخصوا من شاؤوا بالنبوة والرسالة، ويمنعوها عن من شاؤوا؟ ويتصرفوا كيفما أرادوا؟ ﴿أَمْ عِنْدَهُمْ خَزَائِنُ رَيْكَ﴾؟ وكثيراً ما كانوا يتساءلون: لماذا اختير الأنبياء من بيننا، ولماذا لم يقع الاختيار علينا؟ كما قالوا: ﴿أَنْزَلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ مِنْ بَيْنِنَا﴾ [ص: ٨]

والله تعالى يبيّن أنه لو كانت الخزائن بأيديهم لأمسكوا وبخلوا ﴿قُلْ لَوْ أَنْتُمْ تَمْلِكُونَ خَزَائِنَ رَحْمَةِ رَبِّي إِذَا لَأَمْسَكْتُمْ خَشْيَةَ الْإِنْفَاقِ وَكَانَ الْإِنْسَانُ قَتُورًا﴾ [الإسراء: ٨٠].

والخزائن: جمع خزينة، وهي في الأصل: الصندوق الذي يوضع فيه المال أو القوات، وهو هنا بمعنى: عِلْمُ الله تعالى وإرادته في إعطاء مخلوقاته أو حرمانهم، ومنه: الاصطفاء للرسالة ﴿أَهْمُرْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ﴾ [الزخرف: ٣٢].

الاستِفْهَامُ التَّاسِعُ: هَلْ يَمْلِكُ أَحَدٌ قَهْرَ الْخَلْقِ جَمِيعًا؟

﴿أَمْ هُمُ الْمُضْطَرُونَ﴾^(١) ﴿٣٧﴾

فإذا لم يكن للناس تصرف في رزق الله تعالى، فهل هم الجبارون المتسلطون على خلق الله بالقهر والغلبة؟ ﴿أَمْ هُمُ الْمُضْطَرُونَ﴾ المتصرفون في الخلق كما يشاؤون؟ ليس الأمر كذلك، بل هم العاجزون الضعفاء، وإذا كانت لهم سطوة فليجربوا حظهم.

الاستِفْهَامُ الْعَاشِرُ: هَلِ اطَّلَعَ أَحَدٌ فِي الْمَلَأِ الْأَعْلَى عَلَى مَا عِنْدَ اللَّهِ

٣٨- ﴿أَمْ لَهُمْ سُلْمٌ يَسْتَمِعُونَ فِيهِ فَلَيَأْتِ مُسْتَعِمُّهُمْ بِسُلْطَانٍ مُبِينٍ﴾ ﴿٣٨﴾

نفى ﷻ أن يكون لأحد اطلاع على ما قسمه الله لعباده، فقال على سبيل التهكم ﴿أَمْ لَهُمْ سُلْمٌ يَسْتَمِعُونَ فِيهِ﴾ أي: ألهم مضعد يرتقون به إلى السماء ويستمعون فيه إلى كلام الملائكة، فيصلوا عن طريقه إلى علم الغيب، ويعرفوا أن ما هم عليه هو الحق؟ فإن تيسر لهم ذلك فليتمسكوا به، ويعلموا أنهم على حق، وليأت من استمع منهم إلى كلام الملائكة بحجة تدل على صدق دعواهم بنفي رسالة محمد ﷺ، وهذا معنى ﴿فَلَيَأْتِ مُسْتَعِمُّهُمْ بِسُلْطَانٍ مُبِينٍ﴾ وهيئات، فلا قبل لهم بذلك، وهذا على سبيل التعجيز؛ إذ لا سبيل لهم إلى الاستماع لمصدر التنزيل، ولا يعلم الغيب إلا رب العالمين، ولا يُطلع أحدًا على شيء منه إلا من ارتضى من رسول، فإن الله تعالى يخبره بما يريد، بعد أن يحيطه بالحفظ من الملائكة من بين يديه ومن خلفه.

(١) قرأ هشام بالسین في (المضطرون) على الأصل، وقرأ خلف عن حمزة بإشمام الصاد صوت الزاي، وقرأ قنبل وابن ذكوان وحفص بالسین والصاد، وقرأ خلاد بالإشمام والصاد، والباقون بالصاد.

الِاسْتِفْهَامُ الْحَادِي عَشَرَ: هَلِ اخْتَصَّ اللَّهُ بِالْبَنَاتِ عَلَى حَدِّ زَعْمِهِمْ؟

٣٩- ﴿أَمْ لَهُ الْبَنَتُ وَلَكُمْ الْبَنُونَ﴾ ﴿٣٩﴾

ثم وبخهم الله تعالى على ما هو أشنع وأقبح من المزاعم السابقة، وهو نسبتهم البنات إلى الله تعالى، ومن الأمور المستحيلة أن يكون لله ولد، فهو سبحانه لم يلد، ولم يولد، ولم يكن له كفواً أحد، ومع ذلك فإنهم ينسبون البنات إلى الله تعالى، وهم يأنفون منهن، ويعتبرون البنات في درجة أقل من البنين، حيث تَسُوْدُ وجوههم كمدًا وغيظًا إذا بُشِّروا بهن، وهم لا يستحيون من نسبتهن إلى الله تعالى، وهذا من أقبح المنكرات، وقد سفّه الله عقولهم؛ إذ كيف يجعلون لله ما يكرهون؟ فقال: ﴿أَمْ لَهُ الْبَنَتُ وَلَكُمْ الْبَنُونَ﴾ ﴿٣٩﴾ كما تزعمون ذلك افتراءً وكذباً على الله تعالى، ومن كان عقله كذلك فلا يُسْتَبْعَد منه إنكار البعث وإنكار الوحي والرسالة، فليس بعد الشرك بالله ذنب، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿الْكُفْرُ أَذْكَرُ وَلَهُ الْأُنثَى﴾ ﴿٢١﴾ تِلْكَ إِذًا قِسْمَةٌ ضِيزَى ﴿٢٢﴾ [النجم]. لقد جمعوا في شركهم بين نسبة الولد إلى الله تعالى، وبين اختيار أنقص الصّنفين له، فهل بعد هذا كُفْرٌ وشرك؟

الِاسْتِفْهَامُ الثَّانِي عَشَرَ: هَلْ يَطْلُبُ الدَّاعِيَةُ أَجْرًا عَلَى تَبْلِيغِ الدَّعْوَةِ؟

٤٠- ﴿أَمْ تَسْأَلُهُمْ أَجْرًا فَهُمْ مِنْ مَغْرَمٍ مُثْقَلُونَ﴾ ﴿٤٠﴾

ثم عادت الآيات إلى إبطال الدواعي التي تحمل المكذبين على الإعراض عن دعوة النبي ﷺ، فقال تعالى على سبيل التهكم: ﴿أَمْ تَسْأَلُهُمْ أَجْرًا فَهُمْ مِنْ مَغْرَمٍ مُثْقَلُونَ﴾ ﴿٤٠﴾ بل أسأل -يا محمد- الناس أجرًا على تبليغ الرسالة وتعليم أحكام الإسلام؟! إن الأنبياء لم يسألوا الناس شيئاً، ولم يطلبوا منهم دنيا، فقد قال كل نبي لقومه: ﴿وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ ﴿١٩﴾ [الشعراء: ١٠٩].

وأمر الله محمداً أن يقول للناس: ﴿قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُتَكَلِّمِينَ﴾ ﴿٨١﴾ [ص].

وهو ﷺ حريص على هدايتهم وتعليمهم تبرعاً منه، بل إنه يبذل لهم الأموال ويؤلف قلوبهم ويستجلب محبتهم ومودتهم، ليتمكن الإيمان والعلم من قلوبهم، ويُقبلوا على دعوة ربهم.

فليس على الأمة مشقة ولا جهد من جرّاء تبليغ الدعوة، وليس عليهم التزام بغرامة مالية تُطلب منهم على إرشادهم.

فالمعنى: إنك -يا محمد- ما كلفتهم شيئاً مادياً يعطونك إياه، فيكون ذلك سبباً لإعراضهم عنك، تخلّصاً من أداء ما يُطلب منهم، فانتفى بذلك عذر إعراضهم عن دعوتك.

الْإِسْتِفْهَامُ الثَّالِثُ عَشَرَ: هَلْ عِنْدَ الْكُفَّارِ مَا يُخَالِفُ دَعْوَةَ الْإِسْلَامِ؟

٤١- ﴿أَمْ عِنْدَهُمُ الْغَيْبُ فَهُمْ يَكْتُبُونَ﴾ (٤١)

وبعد أن أثبت القرآن أن النبي ﷺ لم يطلب من الناس أجراً على تبليغ الرسالة، أنكر أن يكون للمشرّكين اطلاع على ما عند الله تعالى يخالف ما بلّغهم إياه النبي ﷺ، فهم يسجلون ما أطلعوا عليه ليكون معلوماً لهم.

﴿أَمْ عِنْدَهُمْ﴾ علم ﴿الْغَيْبِ﴾ وهو ما في اللوح المحفوظ، فيكونوا قد اطلعوا على ما لم يطلع عليه رسل الله ﴿فَهُمْ يَكْتُبُونَ﴾ أي: يكتبون هذا الغيب للناس، ويخبرونهم به، ويعارضون دعوته بما عندهم من علم الغيب؟ ليس الأمر كذلك، فإنه لا يعلم الغيب في السموات والأرض إلا الله، فلا قيل لهم بإنكار ما جحدوه، ولا بإثبات ما أثبتوه قال تعالى: ﴿عَلِمُ الْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَى غَيْبِهِ أَحَدًا﴾ (٢١) إِلَّا مَنْ ارْتَضَى مِنْ رَسُولٍ فَإِنَّهُ يَسْلُكُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ رَصَدًا ﴿٧﴾ [الجن].

وقال سبحانه: ﴿قُلْ لَا يَعْلَمُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ الْغَيْبَ إِلَّا اللَّهُ﴾ [النمل: ٦٥].

ومن ذلك علّمه تعالى بقيام الساعة، وليس للكفار علم من غيب أو شهادة، وفي هذا إلزام لهم بالطرق العقلية والنقلية على فساد قولهم.

قال قتادة: إن هذه الآية رد على قولهم: ﴿شَاعِرٌ﴾ بمعنى: أعلموا أن محمداً يموت قبلهم حتى يحكموا بذلك؟^(١).

وقال ابن عباس ؓ: أم عندهم اللوح المحفوظ، فهم يكتبون ما فيه، ويخبرون الناس بما فيه؟^(٢).

(١) «زاد المسير» (٥٧/٨) و«تفسير الخازن» (١٨٩/٤).

(٢) «تفسير القرطبي» (٧٦/١٧).

الِاسْتِفْهَامُ الرَّابِعُ عَشَرَ: هَلْ يُرِيدُونَ الْمَكْرَ بِالْإِسْلَامِ؟ فَالْعَاقِبَةُ لِلْأَصْلَحِ

٤٢- ﴿أَمْ يُرِيدُونَ كَيْدًا فَالَّذِينَ كَفَرُوا هُمُ الْمَكِيدُونَ﴾ (٤٢)

وتنتقل الآيات من إبطال أقوال الكفار ومزاعمهم إلى إبطال نواياهم وعزائمهم، للنيل من الإسلام ورسول الإسلام ﴿أَمْ يُرِيدُونَ كَيْدًا﴾ يبتلون به دعوتك - أيها الرسول - ويفسدون به دينك، فإن كيدهم في نحورهم، وضرره يعود عليهم.

والمعنى: بل أريد المكذبون المكر برسول الله ﷺ والكيد للإسلام وأهله؟! فالصراع بين الحق والباطل طويل، والعاقبة للمتقين ﴿فَالَّذِينَ كَفَرُوا هُمُ الْمَكِيدُونَ﴾ فعليهم يرجع كيدهم ومكرهم.

ومن ذلك تأمر قريش على قتل النبي ﷺ ليلة الهجرة، وتأمر اليهود على قتله ﷺ ودس السم له أكثر من مرة، ومن ذلك تأمر الصليبيين والصهانية والعلمانيين على الإسلام وأهله.

وكيد الله تعالى لهم معناه: مجازاتهم على ما دبّروه وفعلوه، كما قال تعالى:

﴿وَلَا يَحِبُّ الْمَكْرَ السَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِ﴾ [فاطر: ٤٣].

وقال سبحانه: ﴿وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَكْرِينَ﴾ [الأنفال: ٣٠].

وقال جلّ شأنه: ﴿وَقَدْ مَكَرُوا مَكْرَهُمْ وَعِنْدَ اللَّهِ مَكْرُهُمْ وَإِنْ كَانَتْ مَكْرُهُمْ لَتَرْوُلَ مِنْهُ الْجِبَالُ﴾ [إبراهيم: ٤٦].

وقد رد الله كيدهم في نحورهم، فنصر نبيه ودينه، وخذلهم وانتصر عليهم والله الحمد والمنة.

الِاسْتِفْهَامُ الْخَامِسُ عَشَرَ: أَلَهُمْ مَعْبُودٌ يَسْتَحِقُّ الْعِبَادَةَ غَيْرُ اللَّهِ؟

٤٣- ﴿أَمْ لَهُمْ إِلَهٌ غَيْرُ اللَّهِ سُبْحَنَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ (٤٣)

وبعد أن انكشفت كل شبهة، ودحضت كل حجة، وتعرّى القوم من كل عذر، تختتم هذه الأسئلة، بالرد على رأس الخطايا، أم لهم معبود يستحق العبادة غير الله، يخلقهم ويرزقهم، ويلجؤون إليه في وقت الشدة والضرر؟ تنزه الله وتقّس عن شركهم، فليس له شريك في الملك، ولا شريك في الوجدانية والعبادة، فبطل بذلك عبادة ما سوى الله سبحانه، ووجب إخلاص العبادة لله وحده.

وَالْإِسْتِفْهَامُ فِي ﴿أَمْ﴾ فِي الْمَوَاضِعِ الْخَمْسَةِ عَشَرَ لِلْإِنْكَارِ وَالتَّوْبِيخِ وَالتَّقْرِيعِ .

الْكَافِرُ لَنْ يُؤْمِنَ وَلَوْ كَانَ الْهَلَاكُ فَوْقَ رَأْسِهِ وَالسَّيْفُ عَلَى عُنُقِهِ

٤٤ - ﴿وَإِنْ يَرَوْا كِسْفًا مِّنَ السَّمَاءِ سَاقِطًا يَقُولُوا سَحَابٌ مَّرْكُومٌ﴾ ﴿٤٤﴾

وبعد هذه الاستفهامات العقلية، أتى ﷺ بدليل محسوس، يبين أن السبب في كفر الكافرين: هو العناد والمكابرة والتقليد الأعمى لمن سبقهم، وأنهم لو رأوا بأعينهم قطعاً من النار تنزل عليهم من السماء لعذابهم -لعاندوا وكابروا، وقالوا: هذا سحب متراكم، ولم ينتهوا عن كفرهم.

﴿وَإِنْ يَرَوْا﴾ أي: المشركون المكذبون ﴿كِسْفًا مِّنَ السَّمَاءِ سَاقِطًا﴾ أي: قطعاً من العذاب نازلاً بهم، لم يتركوا ما هم عليه من التكذيب و﴿يَقُولُوا﴾ وهم يرونه ساقطاً عليهم: هذا ﴿سَحَابٌ مَّرْكُومٌ﴾ متراكم بعضه فوق بعض، فلا يبالون بما رأوا من الآيات، ولا يعتبرون بها، وهؤلاء لا دواء لهم إلا العذاب والنكال، وهذا كما قال قوم عاد حين رأوا سحابة الموت والدمار فوق رؤوسهم، قالوا: ﴿هَذَا عَارِضٌ مُّثْمِرٌ﴾ فرد الله عليهم في قوله: ﴿بَلْ هُوَ مَا اسْتَعْجَلْتُمْ بِهِ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [الأحقاف: ٢٤].

فهم مكابرون في الحق، ولن يعترفوا به ولو كان الهلاك فوق رؤوسهم والسيف على أعناقهم.

والآية تلوح إلى ما طلبه المشركون من النبي ﷺ في قولهم: ﴿وَقَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الْأَرْضِ يَنْبُوعًا﴾ ﴿٩٠﴾ أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِّنْ نَّخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجَّرَ الْأَنْهَارُ خِلَالَهَا تَفْجِيرًا﴾ ﴿٩١﴾ أَوْ تَسْقِطَ السَّمَاءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسْفًا أَوْ تَأْتِيَ بَالِلَةٌ مِّنَ السَّمَاءِ﴾ ﴿٩٢﴾ [إسراء].

والله تعالى يقرر عدم إيمانهم مهما جاءهم من آيات وحجج وبراهين، ومهما لبي الرسول ﷺ مطالبهم، فقال سبحانه: ﴿وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَابًا مِّنَ السَّمَاءِ فَظَلُّوا فِيهِ يَعْرُجُونَ﴾ ﴿٧﴾ لَقَالُوا إِنَّمَا سُكَّرَتْ أَبْصَارُنَا بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَّسْحُورُونَ﴾ ﴿١٥﴾ [الحجر].

وقال جل شأنه: ﴿إِنَّ الَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ ﴿٩٦﴾ وَلَوْ جَاءَتْهُمْ كُلُّ آيَةٍ حَتَّى يَرَوْا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ﴾ ﴿٩٧﴾ [يونس].

وقال ﷻ: ﴿وَنَقَلِبْ أَعْيُنَهُمْ وَابْصُرْهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَنَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ ﴿١٠﴾

وَلَوْ أَنَّا زَلَنَّا إِلَيْهِمُ الْمَلَكِيَّةَ وَلَكَّمْهُمُ الْمَوْتُ وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَيْءٍ قُبُلًا مَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ ﴿١١٠﴾ [الأنعام: ١١٠، ١١١].

عَلَيْكَ الْبَلَاغُ وَعَلَيْنَا الْحِسَابُ وَالْعِقَابُ

٤٥، ٤٦ - ﴿فَذَرَهُمْ حَتَّى يُلَاقُوا^(١) يَوْمَهُمُ الَّذِي فِيهِ يُصْعَقُونَ^(٢)﴾ ﴿٤٥﴾ يَوْمَ لَا يُغْنِي عَنْهُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿٤٦﴾

ويتوجه القرآن بعد ذلك إلى النبي ﷺ بالأيتار دعوة الكافرين، ولا عرض القرآن عليهم، نظرًا لجحودهم وإعراضهم، فبلغ دعوة ربك -أيها الرسول- واطرهم إلى أن يعانوا اليوم الذي يموتون فيه ويهلكون، وذلك عند النفخة الأولى، حيث يصعق الناس جميعًا، وهذا معنى ﴿فَذَرَهُمْ﴾: دَعِ المشركين وما هم فيه من غيٍّ وضلال، مع الاستمرار في تبليغ الدعوة، فإنك لن تعد من يتنفع ويهديه الله على يدك، واطر المعاندين ولا تهتم بهم ﴿حَتَّى يُلَاقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِي فِيهِ يُصْعَقُونَ﴾ فيموتوا ثم يبعثوا، ويكون الحساب والعقاب.

وفي الآية الأخرى: ﴿فَذَرَهُمْ يَخُوضُوا وَيَلْعَبُوا حَتَّى يُلَاقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِي يُوعَدُونَ﴾ ﴿٨٢﴾ [المعارج].

ويوم الصعق هو اليوم الذي قال الله فيه: ﴿وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَعِقَ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَنْ شَاءَ اللَّهُ﴾ [الزمر: ٦٨].

ثم وصف الله تعالى يوم القيامة، بأنه يوم لا يملك أحد فيه أن يدفع عنهم شيئًا من عذاب الله، ولا يقيهم منه، أو يشفع لهم في رفعه عنهم ﴿يَوْمَ لَا يُغْنِي عَنْهُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا﴾ لا في قليل ولا في كثير، أي: امض في دعوتك -أيها الرسول- وإن لم يعاقبوا على كيدهم في الدنيا، فعَمَّا قريب سيأتيهم اليوم الذي يعاقبون فيه على مكرهم السيئ وكيدهم القبيح.

﴿وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ﴾ فلا ينصرهم ناصر، ولا يقيهم واقٍ من عذاب الله تعالى، ولا يمنعهم منه مانع، بل هو واقع بهم لا محالة.

(١) قرأ أبو جعفر (يُلَاقُوا) مضارع لقي، والباقون (يلاقوا) من الملاقاة، فعل مضارع.

(٢) قرأ ابن عامر وعاصم بالبناء للمفعول في (يُصْعَقُونَ)، والباقون بالبناء للفاعل.

عَذَابُ الظَّالِمِينَ فِي الدُّنْيَا قَبْلَ الْآخِرَةِ

٤٧- ﴿وَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا عَذَابًا دُونَ ذَلِكَ وَلَكِنْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ ﴿٤٧﴾

ثم يبين سبحانه أن للظالمين عذاباً في الدنيا قبل عذاب الآخرة ﴿وَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا عَذَابًا دُونَ ذَلِكَ﴾ أي: أن هذا العذاب يحل بهم قبل يوم القيامة في البرزخ وعذاب القبر، وبأيدي المسلمين في الدنيا من القتل والأسر، وبالقلق والضيق، والكدر والأوجاع، والأسقام والبلايا، وذهاب الأموال والأولاد ﴿وَلَكِنْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ فهم يجهلون ما سينزل بهم من عقاب، ولا يفهمون ما يُراد بهم، ولا يدركون أنهم إذا رُفِع عنهم العذاب عادوا إلى أسوأ مما كانوا عليه، ولذلك أقاموا على ما يوجب العذاب وشدة العقاب من الكفر والعصيان.

ويشبه هذه الآية قوله تعالى: ﴿وَلَنَذِقَنَّهُمْ مِنَ الْعَذَابِ الْأَدْنَى دُونَ الْعَذَابِ الْأَكْبَرِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ ﴿٦١﴾ [السجدة].

التَّسْلُحُ بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ وَالتَّسْبِيحِ عَلَى مَشَاقِّ تَبْلِيغِ الدَّعْوَةِ

٤٨، ٤٩- ﴿وَأَصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ حِينَ تَقُومُ﴾ ﴿٤٨﴾ وَمِنَ اللَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَإِدْبَرَ الْجُودِ

وجّه الله تعالى رسوله ﷺ أن يستعين بالله تعالى على المكذبين لدعوته، وأن يقوّي عزيمته ويوثّق صلته بالله تعالى بثلاثة أسلحة، هي: الصبر، والإكثار من الصلاة، والتسبيح: عند القيام من النوم، ومن المجلس، وفي أثناء الليل، وفي وقت الفجر.

فقال: ﴿وَأَصْبِرْ﴾ أي: لا تعباً أيها الرسول، ويا من تقوم بواجب الدعوة إلى الله ﷻ، بما يفعله المكذبون المعارضون لك، واصبر ﴿لِحُكْمِ رَبِّكَ﴾ على ما حَكَمَ به وقدره من إعراض بعضهم عن دعوتك.

واصبر على ما أمرك الله به من تبليغ الرسالة، مع صدهم وإنكارهم، واصبر على ما يلحقك من أذى، اصبر إلى أن يحكم الله بينك وبينهم، اصبر لحكم ربك الذي قدره، واصبر لحكم ربك الذي شرعه للناس وأمرهم بالاستقامة عليه ﴿فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا﴾ أي: أنت بمرأى منا، وفي حفظنا ورعايتنا وتحت حمايتنا، فنحن نرى ونعلم ما يلحق بك من أذى.

وفي هذا إثبات صفة العينين لله تعالى على وجه يليق بجلاله، دون تشبيهه بخلقه، أو

تكيف لذاته سبحانه وبحمده، كما ثبت ذلك بالسنة وأجمع عليه سلف الأمة، وقد ورد اللفظ بصيغة الجمع للتعظيم.^(١)

ثم أمره ربه أن يستعين على الصبر بالذكر والعبادة فقال: ﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ حِينَ تَقُومُ﴾ من نومك، وحين تقوم إلى صلاتك، وحين تقوم من مجلسك، فإن كان قد حدث في المجلس لغط أو لغو، فإن هذا التسييح يكون كفارة لك، وإن لم يكن فيه لغط ولا لغو ازدادت حسناتك، وفي الآية أمر بقيام الليل، والقيام إلى الصلوات الخمس بدليل الآية بعدها ﴿وَمِنَ اللَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَإِدْبَرَ النُّجُومِ﴾.^(٢)

١- ففي حديث أبي هريرة ؓ أن رسول الله ﷺ قال: «من جلس مجلساً فكثر فيه لغطه، فقال قبل أن يقوم: سبحانك اللهم وبحمدك، أشهد أن لا إله إلا أنت، أستغفرك وأتوب إليك؛ إلا كان كفارة لما بينهما»^(٣).

زاد في رواية أنه: «يُخْتَم له بهن كما يُخْتَم بالخاتم على الصحيفة»^(٣).

وسَبِّح بحمد ربك حين تقوم إلى الصلاة، فتقول: «سبحانك اللهم وبحمدك، وتبارك اسمك، وتعالى جدك، وجل ثناؤك، ولا إله غيرك»^(٤).

وسَبِّح بحمد ربك حين تقوم من فراشك، وإلى أن تدخل في الصلاة.

٢- عن عاصم بن حميد قال: سألت عائشة ؓ: بأي شيء كان يفتح رسول الله ﷺ قيام الليل؟ فقالت: سألتني عن شيء ما سألتني عنه أحد قبلك، كان إذا قام كبر عشراً، وحمد الله عشراً، وسبَّح عشراً، وهلل عشراً، واستغفر عشراً، وقال: «اللهم اغفر لي»

(١) «التفسير الميسر» نخبة من العلماء ص ٥٢٥.

(٢) يُنْظَر: الترمذي برقم (٣٤٣٣) والنسائي في «السنن الكبرى» برقم (١٠٢٥٩، ١٠٢٦٠) و«المستدرک» (١/

٥٣٦، ٥٣٧) وأبو داود برقم (٤٨٥٨، ٤٨٥٩) وابن أبي شيبة (٢٥٦/١٠) و«صحيح سنن أبي داود»

(١٠٦٨)، والحديث في مسند أحمد (١٠٤١٥) وهو حديث صحيح، وإسناده منقطع، لأن موسى بن عقبة

لم يسمع من سهيل بن أبي صالح، أفاده محققوه.

(٣) «سنن أبي داود» برقم (٤٨٥٧).

(٤) رواه أبو داود والترمذي، وقد تُكَلِّم في أحد رواياته، ورواه مسلم عن عمر بن الخطاب ؓ دون لفظ «وجل

ثناؤك» برقم (٣٩٩) وابن أبي شيبة (٢٣٢/١) والطبري (٦٠٦/٢١).

وارحمني، واهدني، وارزقني، وعافني»، وكان يتعوّذ من ضيق المقام يوم القيامة^(١).

وفي أثناء الليل سبّح بحمد ربك وعظّمه، وصلّ له صلاتي المغرب والعشاء، وافعل ذلك أيضًا عند صلاة الصبح وقت إدبار النجوم، أي: حين تغيب النجوم بضوء الصبح، وتصلّي ركعتين قبل الفجر.

أما ﴿وَأَذْبَرْ الشُّجُورَ﴾ التي في (سورة ق) فهي الركعتان بعد المغرب، أو غير ذلك.

٣- وعن عبادة بن الصامت ؓ أن رسول الله ﷺ قال: «من تعارّ من الليل فقال: لا إله إلا الله، وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد، وهو على كل شيء قدير، سبحان الله، والحمد لله، ولا إله إلا الله، والله أكبر، ولا حول ولا قوة إلا بالله، ثم قال: رب اغفر لي أو قال -ثم دعا- استجيب له، فإن عزم فتوضأ ثم صلى، تُقبِلَت صلاته»^(٢).

٤- وعن عائشة ؓ أنها قالت: لم يكن رسول الله ﷺ على شيء من النوافل أشدّ تعاهدًا منه على ركعتي الفجر^(٣).

٥- وفي لفظ مسلم عن عائشة ؓ: «ركعتا الفجر خير من الدنيا وما فيها»^(٤).

وفي صلاة الليل، يقول تعالى: ﴿وَمِنَ اللَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِ نَافِلَةً لَّكَ عَسَىٰ أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا﴾ (٧٦) [الإسراء: ٧٩].

تم تفسير (سورة الطور) والله الحمد والمنة.

(١) «سنن النسائي الصغرى» برقم (١٦١٨) وأبو داود بتصحیح الألباني رقم (٧٦٦ ج ١ ص ٢٠٣) وانظر: مشكاة المصابيح برقم (٩٠٠) عن ابن عباس ؓ عند الترمذي.

(٢) «المسند» (٣١٣/٥) برقم (٢٢٦٧٣) بإسناد صحيح ورجال ثقات على شرط الشيخين (محققوه) والبخاري برقم (١١٥٤) وأبو داود (٥٠٦٠) والترمذي برقم (٣٤١٤) والنسائي في «السنن الكبرى» برقم (١٠٦٩٧) وفي «عمل اليوم والليلة» (٨٦١) وابن ماجه برقم (٣٨٧٨) وابن حبان (٢٥٩٦) والدارمي (٢٦٨٧).

(٣) البخاري برقم (١١٦٩) ومسلم برقم (٧٢٤).

(٤) «صحيح مسلم» برقم (٧٢٥).

تَفْسِيرُ سُورَةِ النَّجْمِ (٥٣)

مُقَدِّمَةُ السُّورَةِ

سورة (النجم) هي السورة الثالثة والخمسون في ترتيب المصحف، والثالثة والعشرون في ترتيب النزول، نزلت بعد سورة (الإخلاص) وقبل سورة (عبس).

وعدد آياتها اثنتان وستون آية عند أهل الكوفة، وإحدى وستون آية عند بقية علماء العدد.

وهي ثلاث مئة وستون كلمة، وألف وأربع مئة وخمسة أحرف.

وسميت سورة (النجم)؛ لأنها بُدئت بهذا اللفظ، وبعضهم أثبت الواو في أولها، على حكاية لفظ القرآن، كالبخاري والترمذي، وهي سورة مكية باتفاق.

وذكر بعضهم عن ابن عباس وقتادة أن آية ﴿الَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبِيرَ الْإِثْمِ وَالْفَوَاحِشِ﴾ [٣٢] مدنية، وهو سند ضعيف.

قال ابن عطية: سبب نزولها أن المشركين قالوا: إن محمداً يتقوّل القرآن ويختلق أقواله، فنزلت السورة في ذلك:

أَحَادِيثُ فِي سَجْدَةِ سُورَةِ النَّجْمِ:

١- قال عبد الله بن مسعود رضي الله عنه عن سورة النجم: هي أول سورة أعلّن النبي ﷺ بقراءتها، فقرأها في الحرم، والمشركون يسمعون^(١).

٢- وقال أيضاً: أول سورة أنزلت فيها سجدة سورة ﴿وَالنَّجْمِ﴾، فسجد رسول الله ﷺ وسجد الناس كلهم، إلا رجلاً رأيته يأخذ كفاً من تراب فسجد عليه، فرأيته بعد ذلك قُتل كافراً، وهو أمية بن خلف^(٢).

٣- وعن عكرمة عن ابن عباس رضي الله عنه: أن النبي ﷺ سجد بالنجم، وسجد معه المسلمون

(١) أخرجه ابن مردويه كما في «الدر المنثور» (٥/١٤) و«تفسير ابن عطية» (٥/١٥٧) وغيرهما.

(٢) يُنظر: البخاري بأرقام (١٠٧٠، ٣٨٥٣، ٣٩٧٢، ٤٨٦٣) ومسلم برقم (٥٧٦) وأبو داود برقم (١٤٠٦) والنسائي (١٦٠/٢) (٩٥٨) مختصراً وابن أبي شيبه (٧/٢).

والمشركون والجن والإنس^(١).

٤- وعن ابن عمر رضي الله عنه قال: صلى بنا رسول الله ﷺ فقرأ: ﴿وَالنَّجْمِ﴾ فسجد بنا فأطال السجود^(٢).

٥- وعن زيد بن ثابت رضي الله عنه قال: قرأت النجم عند رسول الله ﷺ فلم يسجد فيها^(٣).

٦- وعن ابن عباس رضي الله عنه قال: كان رسول الله ﷺ يسجد في ﴿وَالنَّجْمِ﴾، فلما هاجر إلى المدينة تركها^(٤).

٧- وعنه أيضاً: أن رسول الله ﷺ لم يسجد في شيء من المفصل منذ تحوّل إلى المدينة^(٥).

٨- وعن المطلب بن أبي وداعة قال: قرأ النبي ﷺ بمكة: ﴿وَالنَّجْمِ﴾ فسجد وسجد من عنده^(٦).

أما موضوعات السورة:

١- فقد ابتدأت سورة (النجم) بالحديث عن الوحي والرسالة، من الآية الأولى إلى الآية الثامنة عشرة، فذكرت حقيقة الوحي وطبيعته، وذكرته مشهدين من مشاهده، وتحدثت عن معجزة المعراج، وبيّنت أن الرسول ﷺ رأى ليلتها من آيات ربه الكبرى، وأثبت أن الرسول ﷺ صادق فيما يُبلغه عن ربه، وأنه منزّه عما ادّعاه المشركون، وأن القرآن وحي من الله تعالى بواسطة جبريل الأمين.

٢- ثم تحدثت السورة عن الشرك والمشركين، فأبطلت زعمهم أن الأصنام آلهة، وبيّنت أنها أوهام لا حقيقة لها، وحذّرت المعرضين عن توحيد الله تعالى ليقلعوا عن شركهم،

(١) «صحيح البخاري» برقم (١٠٧١، ٤٨٦٢) والترمذي (٥٧٥) وابن أبي شيبة (٧/٢) من طريق آخر.

(٢) البيهقي (٣١٤/٢) برقم (٥٤١٨) في السنن.

(٣) ابن أبي شيبة (٦/٢) وأحمد في المسند (١٨٣/٥) (٢١٥٩١) إسناده صحيح على شرط الشيخين (محققه)، والبخاري برقم (١٠٧٢) وأبو داود برقم (١٤٠٤) والترمذي برقم (٥٧٦) والنسائي (١٦٠/٢)

(٩٥٩) والطبراني برقم (٤٨٢٩).

(٤) ابن مردويه كما في «الدر المنثور» (٦/١٤).

(٥) أبو داود برقم (١٤٠٣)، وقد ضعفه الألباني (٥٨/٢).

(٦) «المسند» (١٥٤٦٤، ٢٧٢٤٦) وغيرهما، والنسائي (٩٥٧) والحاكم (٦٣٣/٣) قال محققو المسند: صحيح لغيره.

وذلك في الآيات من التاسعة عشرة إلى الثامنة والعشرين .

٣- وبَيَّنَّتْ الأسلوب الحكيم الذي ينبغي على الداعية أن يسلكه في دعوته حيال ما يلقاه من أذى وإعراض .

وأشارت السورة إلى الدار الآخرة، وما فيها من حساب وجزاء لمن أحسن أو أساء .

وبَيَّنَّتْ شيئاً من رحمة الله تعالى بعباده بغفران اللّمْم، وضرث مثلاً للجزاء العادل يوم القيامة، بأنه ليس للإنسان إلا ما سعى، وأن العقوبة لا تتعدى المجرم، وهذا في الآيات من التاسعة والعشرين إلى الآية الثانية والثلاثين .

٤- وذكرت السورة جملة من آثار قدرة الله تعالى للدلالة على وحدانيته سبحانه، كالإحياء والإماتة، والبعث بعد الفناء، والإغناء والافتقار، وخلق الإنسان من نطفة... إلخ، وذلك من الآية الثالثة والثلاثين إلى الآية التاسعة والأربعين .

٥- وخُتِمَتِ السورة ببيان ما حلّ بالأمم الطاغية من العذاب والدمار تذكيراً لكل من يؤمن بالله واليوم الآخر، ويؤمن بالرسالة الخاتمة إلى يوم القيامة، وزجراً لأهل الطغيان والضلال بالعذاب الذي ينتظرهم يوم لقاء الله، وذلك في الآيات من الخمسين إلى الثانية والستين .



تَفْسِيرُ السُّورَةِ

قَسَمُ اللَّهِ سُبْحَانَهُ عَلَى صِدْقِ مَا يَصْدُرُ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ مِنْ قُرْآنٍ وَسُنَّةٍ

١-٤- ﴿وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ ۝ مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ ۝ وَمَا يَبْطِئُ عَنِ الْمَوْتِ ۝ إِن هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ﴾

افتُتِحَت السورة بالقسم على صدق رسول الله ﷺ فيما يوحى إليه من ربه، ردًّا على المكذبين الطاعنين في رسالة محمد ﷺ، القائلين بأنه قد اختلق القرآن.

وقد أقسم الله تعالى بالنجم حين يبدو للناظرين لامعًا في جِوِّ السماء ليلاً، وأقسم به وقت سقوطه وهو ينقضُّ على مسترقي السمع، قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصْبِيحٍ وَجَعَلْنَاهَا رُجُومًا لِلشَّيَاطِينِ﴾ [الملك: ٥].

وسقوط النجم يدل على بطلان عبادتها، قال مجاهد: ﴿إِذَا هَوَىٰ﴾ أي: سقط مع الفجر.

وأقسم سبحانه بالنجوم وهي تميل للغروب، كل ذلك داخل في القسم.

فالمراد بالنجم أربعة أقوال بإجمال:

أحدها: أنه اسم جنس يشمل كل نجم بازغ في السماء.

ثانيها: أن المراد به: نجم خاص، هو أشهر النجوم: الثريا، وكان العرب يوقِّتون بطلوعه عند فصول العام، ونُضِج الثمار، فإذا أُطلق اسم النجم فيكون هو المراد؛ لأنه المشهور لدى العرب.

وقيل: إنه نجم الشَّعْرَى المذكور في السورة في قوله تعالى: ﴿وَأَنَّهُ هُوَ رَبُّ الشَّعْرَى

﴾ [النجم]. وهذا أيضًا نجم خاص، كنجم الثريا السابق ذكره.

وكانت قبيلة خزاعة تعبدّه، فهو معظَّم عندهم.

وقال السُّدِّي: هو الزهرة، وهو نجم خاص أيضًا، فهذه ثلاثة أقوال في النجم الخاص.

ثالثها: أن المراد بالنجم: الشهاب الذي يَهْوِي لِرَجْم الشياطين الذين يسترقون السمع،

ولفظ: ﴿هَوَىٰ﴾ يحتمل أن النجم غاب أو سقط^(١).

(١) يُنظَر: «زاد المسير في علم التفسير» (٦٢/٨) و«تفسير الخازن» (١٩٠/٤).

رابعها: أن المراد به: ما يَنْزِلُ من القرآن منجِّماً، أي: مفرقاً حسب الحوادث والأحوال، كما قال تعالى: ﴿فَلَا أَقْسِمُ بِمَوْقِعِ النُّجُومِ ۖ وَإِنَّهُ لَقَسَمٌ لِّو تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ﴾ [الواقعة: ٧٦].

ولعل الأرجح أن الله تعالى أقسم بنجم الثريا إذا غاب، فقد أخرج الطبري وعبد الرزاق عن مجاهد بسند صحيح: ﴿وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ﴾ [١] قال: إذا سقطت الثريا مع الفجر^(١).

وفي هذا تعظيم لقدرة الله تعالى في قوله: ﴿فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ رَأَىٰ كَوْكَبًا قَالَ هَٰذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَا أُحِبُّ الْآفِلِينَ﴾ [٦٦] [الأنعام: ٧٦].

ولله تعالى أن يُقسم بما شاء من مخلوقاته، والعبد لا يقسم إلا بالله تعالى.

عن معمر عن قتادة قال: لما نزلت ﴿وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ﴾ [١] قال عتبة بن أبي لهب: إني كفرتُ برب النجم، قال معمر: فأخبرني ابنُ طاوس عن أبيه أن النبي ﷺ قال له: «أما تخاف أن يسلط الله عليك كلبه؟» فخرج ابن أبي لهب مع أناس في سفر، حتى إذا كانوا ببعض الطريق سمعوا صوت الأسد، فقال: ما هو إلا يريدني، فاجتمع أصحابه حوله، وجعلوه في وسطهم، حتى إذا ناموا جاء الأسد فأخذ هامته^(٢).

وأخرج أبو نعيم عن أبي الضحى قال: قال ابنُ أبي لهب: هو يكفر بالذي قال: ﴿وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ﴾ [١] فقال النبي ﷺ: «عسى الله أن يرسل عليه كلباً من كلابه»، فبلغ ذلك أباه، فأوصى أصحابه: إذا نزلتم منزلاً فاجعلوه وسطكم، ففعلوا حتى إذا كانت ليلة بعث الله سبعا فقتله^(٣).

والمقسم عليه هو الشهادة للنبي ﷺ وتنزيهه عن الضلال في علمه، وعن الغي في قصده، وأنه ليس ساحراً ولا شاعراً ولا كاهناً، وبأنه لم يخلق هذا القرآن من عند نفسه ﴿مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ﴾ [٢] أي: ما حاد محمد ﷺ عن طريق الحق والهداية، وما خرج عن

(١) وعبد بن حميد، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، يُنظر: عبد الرزاق (٢/ ٢٥٠) والطبري (٥/ ٢٢) و«الدر المنثور» (٧/ ١٤).

(٢) أخرجه عبد الرزاق (٢/ ٢٥٠) والطبري (٦/ ٢٢) وأبو الفرج الأصفهاني في «الأغاني» (١٦/ ١٧٦).

(٣) أخرجه أبو نعيم في «الدلائل» (٣٨٩).

السداد والرشاد، بل هو في غاية الاستقامة والاعتدال، بخلاف ما عليه أهل الضلال من فساد العلم وفساد القصد.

والمعنى: وحقَّ النجم الذي تَرَوْنَهُ بأعينكم حين يَغْرُبُ، وحين يسقط لرجم الشياطين، إن محمداً ﷺ الذي أرسلناه ﴿شَهِيدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا﴾ [الأحزاب: ٤٥] ما ضلَّ عن طريق الحق في أقواله وأفعاله، وما جانب الصواب في أمر من الأمور.

وهكذا: يقسم الله تعالى بالنجم عند سقوطه في الأفق عند إدبار الليل وإقبال النهار، على صحة ما جاء به محمد ﷺ من الوحي الإلهي.

والفرق بين الضلال والغي: أن الضلال هو عدم الاهتداء إلى الصواب، والغواية هي اتباع الهوى وسبيل الفساد والعوج، فالضلال يكون بسبب الجهل والغواية تكون بسبب معرفة الحق والعدول عنه.

أي: ما جهل - رسولنا - الحق وما عدل عنه، بل هو عالم بالحق متبع له، فهو يقول الحق، ولا يتكلم بالباطل، ولا يأتي بشيء من تلقاء نفسه.

وأتى بلفظ: ﴿صَاحِبُكُمْ﴾ إشارة إلى أن محمداً ﷺ ملازم لهم، يعرفون أحواله تماماً، لا يخفى عليهم شيء منها، وهم مطلعون على أخلاقه وسلوكياته منذ نعومة أظفاره، ولم يعرفوا عنه إلا الصدق والأمانة، ورجاحة العقل، والقول السديد، ولم يقولوا فيه هذا الكلام إلا بعد بعثته، فدلَّ ذلك على كذبهم، وأنهم ما قالوه إلا حسداً.

وللعلم الإنساني مصادر معروفة: أولها العقل، ثم الحواس الخمس، وهناك مصدر اختصَّ الله به بعض الناس، وهو الوحي الصادق، أشار إليه يعقوب ﷺ عندما قال لأبنائه: ﴿إِنِّي أَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [يوسف: ٩٦].

وَمَنْ تَلَقَّى شَيْئًا مِنَ الْعَلِيمِ بِكُلِّ شَيْءٍ، فقد اكتسب علماً لا ريب فيه! والله تعالى لا يهب مِنْ عِلْمِهِ لكل إنسان، فالناس معادن، ولا يَحْمِلُ الْوَحْيَ إِلَّا عِبَادٌ مُضْطَفُّونَ، عبادٌ لهم طباع سماوية تأنف من الإسفاف والافتراء، تأفل النجوم وهم لا يأفلون، وتغرب وهم لا يغربون! ومحمد ﷺ من هؤلاء، أو قل: هو إمام هؤلاء^(١).

(١) «نحو تفسير موضوعي لسور القرآن» للشيخ / محمد الغزالي ص ٣١٦ .

والله تعالى يقسم على أن محمداً ﷺ لا يصدر نطقه بالقرآن والسنة عن هوى نفسه ﴿وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ﴾ (٣).

والهوى: هو ميل النفس إلى ما تحبه، أو ما تحب أن تفعله، وهو خلاف مقتضى العقل، ولذا فإن الناس تختلف في الهوى ولا تختلف في الحق.

وفي الآية ردٌّ على قول المكذبين بالقرآن: ﴿إِنْ هَذَا إِلَّا أَفْكٌ أَفْتَرْتَهُ﴾ [الفرقان: ٤].

وقولهم: ﴿أَسْطِيزُ الْأَوَّلِينَ أَكْتَبَهَا فِي ثَمَلٍ عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا﴾ [الفرقان: ٥].

فما هذا القرآن وما هذه السنة، إلا وحي صادر من الله تعالى إلى نبيه محمد ﷺ لا يزيد فيه ولا ينقص عنه، والوحي يشمل صحيح الأحاديث القدسية، ويشمل صحيح الأحاديث النبوية، كما في حديث المقدام بن معدي كرب أن رسول الله ﷺ قال:

«ألا إني أوتيت الكتاب ومثله معه، ألا يوشك رجل شبعان على أريكته يقول: عليكم بهذا القرآن، فما وجدتم فيه من حلال فأحلوه، وما وجدتم فيه من حرام فحرّموه»^(١).

والشبعان: هو المتكبر المنكر للسنة.

ومن ذلك قول النبي ﷺ: «إن روح القدس نفث في روعي أنه لن تموت نفس حتى تستكمل رزقها وأجلها، فاتقوا الله وأجملوا في الطلب»^(٢).

وعن عبد الله بن عمرو ؓ قال: كنت أكتب كل شيء أسمعه من رسول الله ﷺ أريد حفظه، فنهتني قريش، فقالوا: إنك تكتب كل شيء تسمعه من رسول الله ﷺ، ورسول الله بشر يتكلم في الغضب، فأمسكت عن الكتاب، فذكرت ذلك لرسول الله ﷺ، فقال: «اكتب، والذي نفسي بيده ما خرج مني إلا حق»^(٣).

(١) أخرجه أبو داود برقم (٤٦٠٤) والترمذي و«المسند» (١٧١٧٤). صححه الألباني في صحيح الجامع

(٢٦٤٣) قال محققو المسند: إسناده صحيح وأخرجه الطبراني في الكبير (٦٦٨/٢٠) وابن عبد البر في

التمهيد (١٤٩/١) وغيرهم.

(٢) أخرجه ابن حبان عن ابن مسعود كما في «الدر المنثور» (٤٦٠/١)، وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة (٢٨٦٦) ج ٦ ص ٨٦٥.

(٣) «المسند» رقم (٦٨٠٢، ٦٥١٠) إسناده صحيح ورجاله ثقات رجال الشيخين كما قال محققوه وأبو داود برقم (٣٦٤٦) والحاكم (١٠٥/١) والدارمي (١٢٥/١) وابن أبي شيبة (٤٩/٩).

وعن أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «لا أقول إلا حقًا» قال بعض أصحابه: فإنك تُداعبنا يا رسول الله؟ قال: «إني لا أقول إلا حقًا»^(١).

وقد لازم الصدق رسول الله ﷺ حتى في مزاحه ومداعبته.

فالنبي ﷺ لا يتبع إلا ما أوحاه الله إليه من الهدى والتقوى، وقد دل هذا على أن السنة الصحيحة وحي من الله تعالى لرسوله، كما قال تعالى ﴿وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ﴾ [النحل: ٤٤] وقال: ﴿وَأَنزَلَ اللَّهُ عَلَيْكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ﴾ [النساء: ١١٣].

وقال: ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ بَيِّنَاتٍ لِّكُلِّ شَيْءٍ﴾ [النحل: ٨٩]

وهو ﷺ معصوم فيما يخبر به عن ربه، لأنه لا يصدر إلا عن وحي.

مِنْ صِفَاتِ جِبْرِيلَ عليه السلام وَهُوَ يَتَنَزَّلُ بِالْوَحْيِ

٥-٨- ﴿عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَى ۝ ذُو مِرَّةٍ فَاسْتَوَى ۝ وَهُوَ بِالْأُفُقِ الْأَعْلَى ۝ ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّى ۝﴾

وقد علّم محمداً ﷺ ملكٌ شديدُ القوة -وهو جبريل عليه السلام- ليستطيع تنفيذ ما يأمر الله به من الأعمال العظيمة العقلية والجسمانية، فهو الذي أعلم الرسل بالتبليغ، وهو الذي اقتلع قرى قوم لوط فرفعها إلى عنان السماء، ثم قلبها فجعل أسفلها أعلاها، وهو الذي صاح بقوم ثمود صيحة فأصبحوا خامدين، وكان هبوطه على الأنبياء وصعوده أسرع من لمح البصر، فهو شديد القوى الظاهرة والباطنة، قوي على تنفيذ ما أمره الله به، قوي على توصيل الوحي إلى الرسل ومنع اختلاس الشياطين له، أو إدخالهم فيه ما ليس منه.

وهذه الآية تضمنت أمرين:

أحدهما: أن هذا الوحي بأمر الله تعالى.

والآخر: أن جبريل عليه السلام شديد القوة.

وكوّن جبريل عليه السلام نزل بالوحي، وعلم الرسول ﷺ القرآن، جاء ذلك في مثل قوله

(١) «المسند» (٢/٣٤٠، ٨٤٨١، ٨٧٢٣) والترمذي برقم (١٩٩٠) من طريق المقرئ به، وقال: حديث

حسن صحيح، قال محققو المسند: إسناده قوي، وصححه الألباني عن الترمذي (٤/٣٥٧).

تعالى: ﴿وَإِنَّمَا لَنَزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٦٦﴾ نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ ﴿١٦٧﴾ عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنذِرِينَ ﴿١٦٨﴾ بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ ﴿١٦٩﴾﴾ [الشعراء].

وقوله سبحانه: ﴿لَا تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ ﴿١٦٦﴾ إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ ﴿١٦٧﴾ فَإِذَا قَرَأْتَهُ فَانصَحْ قُرْآنَهُ ﴿١٦٨﴾ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ ﴿١٦٩﴾﴾ [القيامة].

وكون جبريل شديد القوى جاء في مثل قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ﴿١٦٥﴾ ذِي قُوَّةٍ عِنْدَ ذِي الْعَرْشِ مَكِينٍ ﴿١٦٦﴾ مُطَاعٌ ثُمَّ أَمِينٍ ﴿١٦٧﴾﴾ [التكوير].

ومن حفظ الله لوحه أن أرسله مع هذا الرسول القوي الأمين.

ثم وصف الله تعالى جبريل ﷺ وصفاً ثانياً بعد أن وصفه بالقوة، فقال: ﴿ذُو مِرَّةٍ ﴿١٦٨﴾ أَيُّ ذُو قُوَّةٍ وَخُلِقَ حَسَنًا وَجَمَالَ ظَاهِرًا وَبَاطِنًا﴾.

قال ابن عباس: ذو منظر حسن.

وقيل: ذو حصافة ورجاحة في العقل، فهو الذي ينزل بفيوضات الحكمة على الرسل والأنبياء، ولذلك فإن النبي ﷺ لَمَّا اختار اللبن ليلة الإسراء، قال له جبريل: لقد أصبت الفطرة، ولو أخذت الخمر لَعَوْتُ أَمَتَكَ.

وجبريل ﷺ هو الذي ظهر على صورته الحقيقية للنبي ﷺ في الأفق الأعلى، وهو أفق الشمس جهة المشرق ﴿فَاسْتَوَى﴾ أي: استقام جبريل وجاء في صورة ذاته الحقيقية، وظهر للنبي ﷺ على طبيعته.

رؤية النبي لجبريل عليهما السلام على صورته الحقيقية مرتين:

وكان جبريل ﷺ ينزل على النبي ﷺ في صورة آدميين، كما كان يأتي الأنبياء قبله، فسأله رسول الله ﷺ: أن يريه نفسه على صورته التي جُبل عليها، فأراه نفسه مرتين: مرة في الأرض، ومرة في السماء.

١- فأما التي في الأرض فبالأفق الأعلى، أو الأفق المبين أي: جهة الشرق، تحت السماء الدنيا، حيث كان رسول الله ﷺ يتعبد في غار حراء، فطلع عليه جبريل من الجهة الشرقية وفتح جناحيه، فسد ما بين المشرق والمغرب، فخرّ رسول الله ﷺ مغشياً عليه، فنزل إليه جبريل في صورة الأدميين فضمه إلى نفسه، وجعل يمسح الغبار عن وجهه، ونزل عليه ب(اقرأ) وهو قوله: ﴿ثُمَّ دَنَا﴾ أي: جبريل عليه السلام من النبي ﷺ لإيصال الوحي إليه وذلك بعد استوائه بالأفق الأعلى من الأرض ﴿فَنَذَلَ﴾ إلى محمد وكان منه قاب قوسين أو أدنى.

٢- وعن زرّ بن حبيش عن ابن مسعود ؓ أن النبي ﷺ رأى جبريل عند سدره المنتهى له ست مئة جناح يتناثر منها تهاوليل الدر^(١).

قال ابن مسعود ؓ: رأى رسول الله ﷺ جبريل في صورته وله ست مئة جناح، كل جناح منهما قد سدّ الأفق، يسقط من جناحه من التهاوليل والدرّ والياقوت ما الله به عليم^(٢) والتهاوليل: هي الأشياء المختلفة الألوان.

وصح عن ابن مسعود أن النبي ﷺ رأى جبريل وله ست مئة جناح^(٣).

وعن عبدالله في قوله ﴿مَا كَذَبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَى﴾ قال: رأى رسول الله ﷺ جبريل في حُلّة من رفر، قد ملأ ما بين السماء والأرض^(٤).

وهذه الرؤية غير الرؤية الأولى التي رأى فيها النبي ﷺ جبريل ﷺ في غار حراء على كرسي بين السماء والأرض حيث نزلت عليه آيات من سورة المدثر بعد نهاية فترة التعبد في الغار.

أى وأما المرة التي في السماء فكانت عند سدره المنتهى ليلة الإسراء والمعراج فوق

(١) أخرجه النسائي (٥٦٢) وأحمد، عن حسن بن موسى (٤٦٠/١) وابن خزيمة (٢٩١) وهو في مسلم بنحوه عن أبي هريرة (١٧٤) والبخاري (٤٨٥٦).

(٢) «المسند» (٣٩٥/١) (٣٧٤٨) وهذا لفظه وإسناده ضعيف لضعف شريك، وبقية رجاله ثقات رجال الشيخين غير عاصم بن أبي النجود، فهو حسن الحديث، كما قال محققوه، وانظر (٣٩١٥) بإسناد حسن و«تفسير الطبري»: (٢٧/٢٧) والطبراني (٩٠٥٤، ٩٠٥٥).

(٣) البخاري (٣٢٣٢) ومسلم (١٧٤) والترمذي (٣٢٧٧) وأحمد في المسند (٣٧٨٠).

(٤) الحديث في «المسند» (٣٢٢/١). ينظر الحديث (٣٨٦٤) وفيه رؤيا النبي لجبريل في صورته مرتين وانظر البخاري بنحوه (٣٢٣٣) و (٣٢٣٥)، والمسند (٣٧٤٠) قال محققوه: إسناده صحيح على شرط الشيخين، وهذا لفظه، وأخرجه الترمذي (٣٢٨٣) وقال: حديث حسن صحيح والنسائي في الكبرى (١١٥٣١) وغيرهم.

السماء السابعة كما سيأتي في الآية الرابعة عشر.

ولم يره أحد من الأنبياء على صورته الحقيقية التي خُلق عليها غير محمد ﷺ.

والمرة الأولى جاءت في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ رَآهُ بِالْأَفْقِ الْمُبِينِ﴾ [التكوير].

والمرة الثانية جاءت في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ﴾ [النجم].

وقد وصف الله تعالى الرؤية التي كانت في السماء بقوله:

٩-١٢- ﴿فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ ۖ فَأَوْحَىٰ إِلَىٰ عَبْدِهِ مَا أَوْحَىٰ ۖ مَا كَذَبَ (١) الْفُؤَادُ مَا رَأَىٰ ۖ أَفَتَمْرُونَهُ (٢) عَلَىٰ مَا يَرَىٰ﴾ [النجم].

ثم إن جبريل اقترب من النبي ﷺ فنزل من أعلى إلى أدنى، وكأنه معلق في الهواء، وهذا معنى ﴿ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّى﴾ [النجم] أي: انخفض جبريل من الأفق الأعلى مقتربا من محمد ﷺ، وأخذ في الدنو بحيث لو رآه الرائي يظنه متدلّا.

ثم ازداد في القرب منه حتى كان على مسافة قوسين منه ﷺ أو أقرب من ذلك، والقوس آلة مقوَّسة من عود يُشدُّ بها وتر من جلد، وهي مقدار ذراع.

وفي الحديث: عن أنس ؓ أن النبي ﷺ قال: «ولقَابُ قوس أحدكم من الجنة، أو موضع قيد - أي: سَوْطه - خير من الدنيا وما فيها إلا الشهيد...» الحديث (٣).

والقَاب: هو ما بين مقبض القوس - أي: وسط العود المقوَّس - ولكل قَوْس قَابَان، وقَاب قَوْسَيْنِ، بمعنى: قَدْر قَوْسَيْنِ ﴿فَكَانَ﴾ جبريل ﴿قَابَ﴾ أي: قدر مسافة ﴿قَوْسَيْنِ﴾ من محمد ﷺ أو ﴿أَدْنَىٰ﴾ من قَوْسَيْنِ، وهذا يدل على كمال المباشرة للرسول بالرسالة، وأنه لا واسطة بينه وبين جبريل ﷺ، وهذا المعنى هو الذي نختاره للآية.

(١) قرأ هشام وأبو جعفر بتشديد الذال (ما كَذَّبَ) على أن (ما) موصولة أو مصدرية، مفعول به، والفعل مضاعف متعَدٍّ، والباقون بالتخفيف، فعل لازم متعَدٍّ إلى مفعوله بقي، أي: ما كذب فيما رأى.

(٢) قرأ حمزة والكسائي ويعقوب وخلف (أَفَتَمْرُونَهُ) مضارع مَرَّئِهِ، إذا علمته وجحدته، والباقون (أَفَتَمَارُونَهُ) مضارع ماراه يماريه، إذا جادله.

(٣) يُنْظَرُ: البخاري (٢٧٩٣، ٢٧٩٦) وعن أبي هريرة.

وقال بعض المفسرين: ثم دنا الرب من محمد فاقترب منه حتى صار قاب قوسين أو أدنى، جاء ذلك في رواية شريك بن عبد الله، ورُدَّ عليه بأن هذه زيادة منه في الحديث^(١) وقال بها ابن عساكر والضحاك.

وكانت تعتري النبي ﷺ رعشة أو رجفة عند نزول الوحي عليه في أول الأمر، كما أشار إليه قوله تعالى: ﴿يَأْتِيهَا الْمَدِيرُ﴾ و ﴿يَأْتِيهَا الْمَرْزَلُ﴾ وقوله تعالى: ﴿إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا﴾ [المزمل].

ولما كان الاتصال المباشر بين الملك والإنسان لا يقوى عليه البشر، كانت تعتري النبي ﷺ شدة، لذا كان جبريل ينزل على النبي في صورة رجل حسن الخلق والخلق ثم اعتاد النبي ﷺ على اتصال جبريل به مباشرة، وفارقت هذه الشدة والرعدة، كما في حديث عمر ؓ أن جبريل جلس إلى النبي ﷺ، فأسند ركبته إلى ركبته، ووضع كفيه على فخذه، وكان عمر قد وصف جبريل بقوله: إذ دخل علينا رجل شديد بياض الثياب، شديد سواد الشعر، لا يرى عليه أثر السفر، ولا يعرفه أحد منا، وفي نهاية الحديث قال ﷺ: «هذا جبريل أتاكم يعلمكم أمر دينكم».

ولمراعاة هذه الحكمة كان جبريل يتمثل للنبي ﷺ في صورة إنسان، كما جاء في حديث عمر ؓ، وكثيراً ما كان جبريل يتمثل في صورة دحية الكلبي: قال مسروق بن الأجدع: قلت لعائشة: فأين قوله تعالى: ﴿ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّى﴾ فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَى؟ قالت: ذلك جبريل، كان يأتيه في صورة الرجل، وإنه أتاه هذه المرة في صورته التي هي صورته، فسد الأفق^(٢).

فيكون المعنى: ثم دنا جبريل بعد استوائه بالأفق الأعلى من الأرض، فتدلى إلى محمد ﷺ، وكان منه قاب قوسين بل أدنى. وكان الحليفان من العرب إذا أرادا عقد الصفاء والعهد بينهما، خرجا بقوسيهما فألصقا بينهما دليلاً على أن كلاً منهما حليف ومعاون للآخر^(٣).

(١) يُنظَر: «تفسير الخازن» (٤/١٩١).

(٢) أخرجه الشيخان: البخاري (٣٢٣٥) ومسلم (١٧٧).

(٣) «تفسير الخازن» (٤/١٩٢).

وبعد أن اقترب جبريل جداً من النبي ﷺ أوحى الله تعالى إلى عبده محمد ﷺ ما أوحى بواسطة جبريل ﷺ من قرآن كريم، ومن هُذي نبوي، فالموحي هو الله سبحانه، والموحي إليه هو النبي ﷺ بواسطة جبريل ﷺ، والموحي به هو القرآن.

وعدم التصريح بالموحي به فيه تفخيم شأنه وإعلاء قدره، حتى لكأنه لا تحيط به عبارة، ولا يحده وصف.

عن أنس ؓ في حديث الإسراء، عندما ذُكر سدره المنتهى، قال: «فلما غشيها من أمر الله ما غشى تغيرت، فما أحد من خلق الله يستطيع أن ينعتها من حسنها، فأوحى الله إلي ما أوحى، ففرض عليّ خمسين صلاة في كل يوم وليلة»^(١).

فهذا حديث صحيح صريح في نسبة الوحي في الآية إلى الله تعالى، وأن جبريل ﷺ مبلغ عن الله تعالى، وهذا أولى من أن يكون المعنى: فأوحى جبريل إلى عبد الله محمد ﷺ ما أوحى، ولا تعارض بينهما، فالمؤدى واحد.

قال سعيد بن جبير: أوحى إليه ﴿أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَآوَى﴾ إلى ﴿وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ﴾.

ولما بلغ المشركون أن النبي ﷺ رأى جبريل كذّبوه، فأنزل الله تعالى: ﴿مَا كَذَّبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَى﴾ (١١) ما كذب قلبُ النبي ﷺ ما رآه ببصره من صورة جبريل الحقيقية، فقد رآه بعينه وعرفه بقلبه، ولم يشك في أن ما رآه حق.

والمعنى: اتفق فؤاد النبي ﷺ ورؤيته على الوحي الذي أوحاه إليه، وتواطأ عليه سمعه وقلبه وبصره، فتلقى النبي ﷺ الوحي تلقياً لاشك فيه ولا شبهة ولا ريب، ومن ذلك ما رآه بعينه ليلة العروج، من آيات الله العظيمة وأن قلبه وعينه قد تيقنا بما رآه، وقد كانت رؤية النبي ﷺ لجبريل حسنة، وليست مجرد اتصال روحي.

أتكذبون محمداً ﷺ فتجادلونه على ما يراه ويشاهده من آيات ربه؟ أفتجادلون محمداً فيما رآه بعينه، وتحقق منه بعقله وبصره من رؤية جبريل ﷺ؟ إن تكذيبكم لذلك تعنت واضح، وجهل فاضح، فكيف هذا وأنتم تُقرّون بأنه صادق أمين؟!

(١) من حديث طويل في «صحيح مسلم» برقم (١٦٢).

ولما أخبر النبي ﷺ قومه عن رحلة الإسراء والمعراج كذّبه كفار مكة، واستخفوا به، وطلبوا منه أن يصف لهم بيت المقدس، فصوّره الله أمامه، فأخذ ينظر إليه ويصفه لهم.

الرؤية الثانية

١٣-١٦ - ﴿وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ ﴿١٣﴾ عِنْدَ سِدْرَةِ الْمُنْتَهَىٰ ﴿١٤﴾ عِنْدَهَا جَنَّةُ الْمَأْوَىٰ ﴿١٥﴾ إِذْ يَنْفَى السِّدْرَةَ مَا يَفْئِسُ ﴿١٦﴾﴾

ولقد رأى محمد ﷺ جبريل ﷺ على صورته الحقيقية التي خلقه الله عليها مرة أخرى عند سدرة المنتهى - شجرة نبق - وهي التي فوق السماء السابعة، ينتهي إليها ما يُعْرَج به من الأرض، وينتهي إليها ما يُهْبَط به من فوقها، وهي عن يمين العرش، وسُمِّيت سدرة المنتهى؛ لأنه ينتهي إليها عِلْم الملائكة وعِلْم الخلائق، ولا يعلم أحد ما وراءها.

ففي الحديث، عن أنس ؓ: «ثم صُعد بي إلى السماء السابعة...، ثم رُفِعْتُ إلى سدرة المنتهى، فإذا نَبُقُها مثل قلال هجر، وإذا أوراقها كآذان الفيلة»^(١).

وعن عبد الله بن مسعود ؓ قال: لَمَّا أُسْرِيَ برسول الله ﷺ انْتَهَى به إلى سدرة المنتهى، وهي في السماء السادسة، إليها ينتهي ما يعرج به من تحتها، وإليها ينتهي ما يُهْبَط به من فوقها، حتى يقبض منها^(٢).

فرأى محمد جبريل عليهما السلام في هذا المكان الذي هو محل الأرواح العلوية التي لا يقرُبها شيطان ولا غيره من الأرواح الخبيثة.

وقد كانت رؤية النبي ﷺ لجبريل ﷺ على صورته الحقيقية في المرة الثانية ليلة الإسراء والمعراج، حيث فرضت عليه الصلاة، أما المرة الأولى فقد كانت على الأرض في جبل حراء حيث كان يتعبّد ﷺ، فنزل عليه ب (اقرأ) في أثناء الفترة التي قضاها في غار حراء، ونزل ب (المدثر) بعد انتهاء فترة التعبّد في الغار، وكانت المرة الأولى للنبوة والثانية للرسالة.

(١) جزء من حديث في الصحيحين: في البخاري (٣٢٠٧) ومسلم (٣٨٥/١) و«المسند» (١٧٨٣٣).

(٢) أخرجه أحمد في «المسند» (٣٦٦٥) وإسناده صحيح على شرط الشيخين (محققوه) والنسائي في «الكبرى» برقم (٣١١).

(١٧٣) (٢٧٩) وهذا لفظه، ومسلم (١٧٣) والترمذي (٣٢٧٦) وفي «سنن النسائي الصغرى» (٣٢٧٦).

وهي التي رآه النبي ﷺ فيها على كرسي بين السماء والأرض، وكانت في حراء بعد فتور الوحي في المرة الأولى حيث نزل بالمدثر^(١).

والله تبارك وتعالى يُقسم على الرؤية التي كانت في السماء لنفي الشك والريبة فيها، فكأنه تعالى يقول للمنكرين: إن كنتم أنكرتم هذه الرؤية التي في الأرض، فإنه لم يره في الأرض فقط، بل رآه رؤية أعظم منها، حين كان مصاحباً لجبريل في ليلة المعراج، وهذا من باب الترقي في بيان مراتب الوحي.

وفيه دلالة على عظيم منزلة النبي ﷺ، حيث وصل إلى مكان لم يصل إليه ملك مقرب، ولا نبي مرسل، وفيه شرف لسدرة المنتهى لتبوئها هذا المكان فوق سبع سموات قرب العرش. ويختص النبق بثلاثة أوصاف: ظل مديد، وطعم لذيد، ورائحة زكية، ولو أن ورقة منها وُضعت في الأرض لأضاءت لأهل الأرض.

قيل: وهي شجرة طوبى التي ذكرها الله تعالى في الآية التاسعة والعشرين من سورة الرعد ﴿الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ طُوبَىٰ لَهُمْ وَحُسْنُ مَآبٍ ۖ﴾.

وقد وصف الله سبحانه الجنة بأن عرضها السموات والأرض، فكم يكون طولها؟ وجنة المأوى إحدى الجنات الثمان؛ سُميت كذلك لأن الملائكة وأرواح الشهداء والصالحين تأوي إليها، فهي مأواهم ومسكنهم، وهي الجنة الجامعة لكل نعيم تشتهي الأمانى وتأوى إليه الرغبات، ومعنى ذلك أن الجنة في أعلى الأماكن وفوق السماء السابعة، وعلى عِظَم مساحة الجنة طولاً وعرضاً، فإن الله تعالى يقول عن سدرة المنتهى: ﴿عِنْدَهَا جَنَّةُ الْمَأْوَىٰ﴾ (١٥) أي: إن جنة المأوى التي وعد الله المتقين -على عِظَمها وسَعَتها- توجد عند سدرة المنتهى، فكم تبلغ سدرة المنتهى إذن؟ وكم يكون حجمها؟ وهذا كما يقول شخص لآخر: اذهب إلى المسجد الحرام فستجد فلاناً عنده، فكم تأخذ قدماً فلان هذا من مساحة المسجد الحرام؟ وهكذا، فإن جنة المأوى بأكملها عند سدرة المنتهى!! يا سبحان الله!

ولمَّا انتهى النبي ﷺ إلى سدرة المنتهى، حيث ينتهي علم الخلائق، غشيها من نور الله ما غشيها، فلا يستطيع أحد أن ينظر إليها، حيث حَفَّ بالمكان من الجلال والكمال

(١) ينظر: حديث جابر في البخاري (٤٩٢٤) و(٣٢٣٨ و٦٢١٤) ومسلم (١٦١) وانظر أسباب النزول في مقدمة سورة المزمل.

ما لا يحيط به الوصف، وما حصل فيه للنبي ﷺ من التشريف بتلقي الوحي مباشرة من الله تعالى دون واسطة، كما في حديث الإسراء والمعراج: «حتى ظهرت بمستوى أسمع فيه صريف الأقلام في الألواح، ففرض الله على أمتي خمسين صلاة»^(١).

ذلكم قوله تعالى: ﴿إِذْ يَغْشَى السِّدْرَةَ﴾ أي: يغشاها من الفيوضات الربانية، والأنوار القدسية، والخيرات التي لا يحيط بها الوصف ﴿مَا يَغْشَى﴾ فقد غشيتها سحابات أنوار الله ﷻ، حتى ما يستطيع أحد أن ينظر إليها، وغشيتها الملائكة أمثال الطيور يعبدون الله عندها، ويجتمعون حولها مسبّحين وزائرين.

في الحديث: عن عبد الله بن مسعود ؓ، أن النبي ﷺ رأى سدره المنتهى وقد غشيتها فراش من ذهب، فأُعطي ثلاثاً: أُعطي الصلوات الخمس، وأُعطي خواتيم سورة البقرة، وعُفّر لمن لم يُشرك بالله شيئاً من أمته^(٢).

ثَبَاتُ بَصَرِ النَّبِيِّ عِنْدَ رُؤْيَا الْآيَاتِ الْكُبْرَى

١٧، ١٨ - ﴿مَا زَاغَ الْبَصَرُ وَمَا طَغَى﴾ لَقَدْ رَأَى مِنْ آيَاتِ رَبِّهِ الْكُبْرَى ﴿١٧﴾

ورؤية النبي ﷺ ربه ليلة المعراج يثبتها بعض الصحابة، حيث يرى بعضهم أن محمداً ﷺ رأى ربه ببصره، دون كيف ولا انحصار، وقد غشيته الأنوار وأحاطت به، فانعكس بصره في بصيرته، وهو رأي أهل السنة والجماعة.

في حديث أبي ذر ؓ، قال: سألت النبي ﷺ: هل رأيت ربك؟ قال: «نور، أنى أراه»^(٣) وفي رواية: «رأيت نوراً»^(٤).

(١) يُنظر: صحيح البخاري (٣٤٢) عن أبي ذر، وفي صحيح مسلم (١٦٣) في قصة المعراج وفي صحيح الجامع (٤١٩٩).

(٢) «المسند» (٤٢٢/١) (٣٦٦٥) بإسناد صحيح على شرط الشيخين (محققوه) و«صحيح مسلم» برقم (١٧٣) والترمذي (٣٢٧٦) والطبري (٣٤/٢٢) والبيهقي (٣٧٢/٢).

(٣) «المسند» (٢١٣٩٢، ٢١٥٢٧). وفي صحيح مسلم (١٧٨).

(٤) «صحيح مسلم» برقم (١٧٥، ١٧٨) و«المسند»: (١٤٧/٥) برقم (٢١٣٩٢) والترمذي (٣٢٨٢)، والطياي (٤٧٤) وأبو عوانة (٣٨٣).

بمعنى أن حجابته تعالى النور، فالرائي يرى نوراً، لأنه غير مؤهل في الدنيا للرؤيا الحقيقية قال تعالى: ﴿لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ﴾ (١٣) [الأنعام].

فهي رؤية بغير إحاطة، ولا يلزم أن يكون مع الرؤية كلام، وبعضهم ينفي هذه الرؤية^(١) والأول أرجح.

قال ابن عباس ؓ: إن محمداً ﷺ رأى ربه مرتين: مرة ببصره، ومرة بفؤاده^(٢).

وجمهور السلف وأهل العلم -ومنهم ابن مسعود وقتادة- على أن المرئي في المرتين هو جبريل: مرة في الأرض، ومرة عند سدرة المنتهى ليلة المعراج.

وفي ليلة المعراج كان النبي ﷺ على درجة عالية من الثبات والطاعة، فما مال بصره يميناً ولا شمالاً، ولا جاوز ما أمر برؤيته، بل ثبت في مقامه العظيم الذي تحار فيه العقول، وتزل فيه الأقدام، وتميل فيه الأبصار ﴿مَا زَاغَ الْبَصَرُ وَمَا طَغَى﴾ (٧) أي: لم يُصَبَّ بصعقة، ولم يُغش عليه، ولم يفعل إلا ما أمر به، ولم يسأل فوق ما أُعطي، ولم يتجاوز ما لم يؤذن له في رؤيته.

والمراد بزوغان البصر في الآية: ميله عن الرؤية، وليس المراد: خداع البصر، وقد رأى النبي ﷺ جبريل بعيني رأسه، فكيف تجادلونه فيها؟

وفي ليلة المعراج رأى النبي ﷺ من آيات ربه الكبرى، الدالة على قدرة الله وعظمته، رأى سدرة المنتهى وما غشيها من البهجة والجلال، ورآى البيت المعمور، والملائكة تطوف حوله، ورآى الجنة والنار، ورآى أحوال الطائعين والعاصين، ورآى جبريل في صورته التي يكون عليها في السماء له ست مئة جناح^(٣).

(١) منهم عائشة ؓ، كما جاء في البخاري برقم (٤٨٥٥) ومسلم (١٥٩/١) برقم (١٧٧) وفي البخاري (٣٢٣٤) عن عائشة: من زعم أن محمداً رأى ربه فقد أعظم القرية، فمردود عليه بصغر سن عائشة وقت المعراج، وقال أبو ذر: رآه بقلبه ولم يره ببصره، ينظر: النسائي في «السنن الكبرى» (١١٥٠٣٦).

(٢) أخرجه الطبراني في «الكبير» (١٢٥٦٤) و«الأوسط» (٥٧٦١) قال الهيثمي في «مجمع الزوائد» (٧٩/١): رجاله رجال الصحيح خلا جمهور بن منصور الكوفي، ذكره ابن حبان في الثقات.

(٣) كما في «صحيح مسلم» عن ابن مسعود برقم (١٧٤) و«صحيح البخاري» برقم (٤٨٥٦، ٤٨٥٧).

وفي حديث ابن عباس رضي الله عنه، عن النبي ﷺ قال: «رأيت ليلة أُسري بي موسى رجلاً آدم طوالاً جفداً، كأنه من رجال شنوءة، ورأيت عيسى رجلاً مربوعاً، مربوع الخلق، إلى الحمرة والبياض، سبط الرأس، ورأيت مالكا خازن النار، والدجال»، في آيات أراهنَّ الله إياه، فلا تكن في مرية من لقائه^(١).

قال أنس وأبو بكرة، عن النبي ﷺ: «تحرس الملائكة المدينة من الدجال»^(٢).
وعن ابن مسعود رضي الله عنه: أن النبي ﷺ رأى رفرقاً أخضر من الجنة قد سدَّ الأفق^(٣).
وكلها من آيات الله الكبرى، وفي سورة الإسراء: ﴿لَنُرِيَهُ مِنْ أَيْنَأْتَنَّهُ﴾.

أَشْهُرُ أَصْنَامِ أَهْلِ الْجَاهِلِيَّةِ ثَمَانِيَّةٌ

١٩، ٢٠ - ﴿أَفَرَأَيْتُمْ^(٤) أَلَلَّتْ^(٥) وَالْعَزَى^(٦) وَمَنْوَةٌ^(٦) الثَّالِثَةَ الْآخِرَى^(٦)﴾

بعد أن زكى الله نبيه وأمره بتوحيده، عمد القرآن إلى إبطال عبادة الأصنام، وبين أنها لا تنفع ولا تضر، وهي أسماء فارغة المعنى، سمّاها المشركون وآباؤهم، فابتدعوا لها أسماء باطلة خدعوا أنفسهم بها، وزعموا أنها مشتقة من صفات الإله الحق، فذكر سبحانه أشهر أصنام أهل الجاهلية، وهذا مما يتعلق بالوحي والرسالة، حيث تم القضاء عليها بالإسلام في جزيرة العرب، وبقي نظائرها في العالم، والمذكور في الآية أسماء أصنام اتخذها العرب آلهة يعبدونها، واشتقوا لكل منها اسماً من أسماء الله تعالى فاشتقوا من

(١) «صحيح البخاري» (٣٢٣٩، ٣٣٩٦) و«صحيح مسلم» (١٦٥).

(٢) «صحيح البخاري» (٣٢٣٩، ٣٣٩٦) و«صحيح مسلم» (١٦٥).

(٣) البخاري (٣٢٣٣، ٤٨٥٨) والطبري (٤٥/٢٢) والطبراني (٩٠٥١، ٩٠٥٣) والبيهقي (٣٧٦/٢).

(٤) سهّل الهزمة الثانية من (أفرايتم) نافع وأبو جعفر، وأبدلها ألفاً مع المد المشبع حالة الوصل ورش، وحذفها الكسائي، وحققها الباقون.

(٥) قرأ رويس بتشديد التاء من (اللات) مع المد المشبع، اسم فاعل، والباقون بالتخفيف، ووقف الكسائي بالهاء، والباقون بالتاء وفقاً للرسم.

(٦) قرأ ابن كثير (ومناة)، والباقون (ومناة) وهما لغتان بمعنى واحد، وهي على قراءة ابن كثير مشتقة من النؤ وهو المطر، وكانوا يطلبون المطر عندها، وهي صخرة على ساحل البحر، وعلى قراءة الجمهور مشتقة من منى يمنى، أى يصب؛ لأن دماء الذبائح كانت تُصبُّ عندها.

الله: اللَّات، ومن العزيز: العُزَّى، ومن المنان: مناة، وهذا إلحاد منهم في أسماء الله، وتوجَّه بها نحو الشرك بالله سبحانه.

وأول هذه الأصنام الثمانية: ﴿اللَّات﴾

وهو صنم كان لثقيف (بالطائف)، وكانت له شهرة عند قريش، وكان جمهور العرب يعبدونه، وكان العرب يبنون للأصنام بُيوتًا تُضاهي الكعبة، فبنوا لِلَّات بيتًا، وجعلوا له أستارًا وسدنة، وجعلوا حوله فناء عظيمًا يفتخرون به.

وكان اللَّات عبارة عن صخرة بيضاء منقوشة داخل هذا البيت.

وهو في الأصل كان رجلًا صالحًا يلبث السَّويق للحجاج بمكة^(١).

فلما مات عكفوا على قبره فعبدوه، وسبب هذا هو الغلو في محبة الصالحين.

وقد بعث النبي ﷺ إليه (المغيرة بن شعبة وأبا سفيان) فهدهما.

وسمَّوه اللَّات على الاشتقاق من اسم الجلالة (الله) ثم قصدوا تأنيثه، أو ما يفيد أنه كان يلبث، أي: يعجن السويق، وهو نوع من الحبوب كالقمح أو البرّ.

جاء عن مجاهد: أن اللَّات كان رجلًا في الجاهلية على صخرة بالطائف، وكانت له غنم، فكان يأخذ من سمنها ولبنها، ويأخذ من زيب الطائف، ومن اللبن المجفف والتمر، فيخلط ذلك، ويجعل منه خَيْسًا، ويُطعم من يمرُّ عليه، فلما مات عبده، وقالوا: هو اللَّات -بالتاء المشددة^(٢).

وقال ابن جريج: كان اللَّات رجلًا من ثقيف، يلبث السويق بالزيب، فلما تُوفِّي جعلوا قبره وثنا، وزعم الناس أنه (عامر بن الظَّرب)، أخذ عَدَوَان^(٣).

ولما مات اللَّات قال (عمرو بن لُحي): إنه لم يمت، ولكنه دخل الصخرة، فعبدوها وبنوا عليها بيتًا^(٤).

(١) جاء هذا في «صحيح البخاري» عن ابن عباس حديث رقم (٤٨٥٩) وفي «تفسير الطبري» (٤٨/٢٢).

(٢) أخرجه سعيد بن منصور والفاكهي في «أخبار مكة» (١٦٤/٥) (٧٥).

(٣) أخرجه ابن المنذر كما في «الدر المنثور» (٣٢/١٤).

(٤) الفاكهي في «أخبار مكة» (١٦٤/٥) (٧٦).

وكان اللات يهوديًا، وسدنته كانوا من ثقيف، بنو عتاب بن مالك، وهم الذين بنوا عليه بناء، وكانوا يسمون: زيد اللات، وتيم اللات، وهكذا.

وثانيها: ﴿الْعُزَّى﴾

وهي شجرة عليها بناء وأستار، وكانت (بنخلة) بين مكة والطائف.

وقيل: إنها اسم لصنم، وهو شجر أبيض على هيئة صخرة فيها صورة شجر، وكانت فوق ذات عرق.

وكانت قريش تعظمها وتعبدوها مع غيرهم من العرب، وكانوا يحلفون بها، كما قال أبو سفيان يخاطب المسلمين يوم أُحُد: لنا العُزَّى، ولا عُزَّى لكم، فأمرهم النبي ﷺ أن يقولوا: «الله مولانا، ولا مولى لكم»^(١).

وكانوا إذا شرعوا في عمل يقولون: باسم الله اللات والعزى.

وقد بعث النبي ﷺ إليها (خالد بن الوليد) فقطعها، وهدم البيت الذي عليها، وكان يقول وهو يضربها بالفأس:

يا عُزُّ كُفْرانِكَ لا سِبحانَكَ إني رأيتُ الله قد أهانَكَ

هدم (خالد) البيت الذي كان عليها، ثم أتى النبي ﷺ فأخبره، فقال: ارجع، فإنك لم تصنع شيئًا، فرجع خالد، فلما أبصرته السدنة أمعنوا في الحيل وهم يقولون: يا عُزَّى، يا عُزَّى، فأتاها خالد، فإذا امرأة عريانة، ناشرة شعرها، تحفُّنُ التراب على رأسها، فغمسها بالسيف حتى قتلها، ثم رجع إلى النبي ﷺ فأخبره، فقال: «تلك العُزَّى»^(٢).

فقد أخرج النسائي عن أبي الطفيل قال: لما فتح رسول الله ﷺ مكة بعث خالد بن الوليد إلى نخلة، وكانت بها العُزَّى، فأتاها خالد، وكانت على ثلاث سمرات -نوع من

(١) من حديث البراء في صحيح البخاري (٤٠٤٣) ومن حديث طويل لابن مسعود في المسند (٤٤١٤).

(٢) جاء هذا عن أبي الطفيل في «سنن النسائي الكبرى» برقم (١١٥٤٧) وفي «السنن» برقم (٥٦٧) وإسناده حسن، وأخرجه أبو يعلى في مسنده برقم (٩٠٢) عن أبي كريب عن محمد بن فضيل به، وقال محققه: إسناده صحيح، وكلام محقق النسائي أصح لما في أحد رواه (الوليد) من كلام يُنزل الحديث من مرتبة الصحيح إلى الحسن، وهو في الأحاديث المختارة بإسناد صحيح (٢١٩٥/١) برقم (٢٥٨).

شجر الطلح- فقطع السَّمُرَات، وهدم البيت الذي كان عليها، ثم أتى النبي ﷺ فأخبره، فقال: «ارجع فإنك لم تصنع شيئاً...» الحديث^(١).

والعُزَّى أحدث من اللات ومناة، وكان الذي اتخذها (ظالم بن أسعد)، وكانت بوايد من نخلة الشامية يقال له: حُرَّاص يِزَاء العُمَيْر، عن يمين المصعد إلى العراق من مكة، وكانت العرب وقريش تُسمي عبد العُزَّى، وكانت أعظم الأصنام عندهم، وكانت قریش قد حَمِيتُ لها شِعْبًا من وادي حُرَّاص يقال له: شُقَام، يضاهون به حرم الكعبة^(٢).

وثالثها: ﴿مَنَاة﴾

وهي صخرة عظيمة، وكانت بمكان اسمه (المشلل) حذو قُدَيْد بين مكة والمدينة.

وسميت مناة؛ لأن دماء النسك كانت تُمنى -أي: تراق- عندها، وكانت خزاعة والأوس والخزرج يعظمونها ويهللون منها للحج بالكعبة، ويستمتطون عندها تبرُّكًا بها، وكانوا يطوفون حول مناة عوضًا عن السعي، فلما شرع الإسلام السعي بين الصفا والمروة تحرَّج الأنصار من السعي بينهما، فأنزل الله: ﴿إِنَّ الصَّفَا وَالْمَرْوَةَ مِن شَعَائِرِ اللَّهِ فَمَنْ حَجَّ الْبَيْتَ أَوْ اعْتَمَرَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَنْ يَطَّوَّفَ بِهِمَا﴾^(٣) [البقرة: ١٥٨].

قال ابن عطية: كانت مناة أعظم هذه الأوثان قَدْرًا، وأكثرها عبادة، ولذلك قال تعالى: ﴿وَمَنَاةَ الثَّالِثَةَ الْأُخْرَى﴾ فأكدها الله تعالى بهاتين الصفتين: الثالثة، والأخرى.

وقد بعث النبي ﷺ إليها أبا سفيان، وقيل: علي بن أبي طالب ؑ، فهدمها.

أخرج البخاري بسنده عن الزهري قال: سمعت عروة يقول: قلت لعائشة ؓ، فقالت: إنما كان من أهل لمناة الطاغية التي بالمشلل لا يطوفون بين الصفا والمروة، فأنزل الله: ﴿إِنَّ الصَّفَا وَالْمَرْوَةَ مِن شَعَائِرِ اللَّهِ﴾ فطاف رسول الله ﷺ والمسلمون.

قال سفيان: مناة بالمشلل من قُدَيْد.

(١) «الأصنام» ص ١٧ .

(٢) يُنْظَرُ هذا المعنى في: «صحيح البخاري» برقم (٤٨٦١) و«صحيح مسلم» مع «شرح النووي» (٢٢/٩) وهما عن عائشة ؓ.

(٣) البخاري (٤٨٦١) ومسلم (١٢٧٧).

وقال عبد الرحمن بن خالد، عن ابن شهاب، عن عروة قال: قالت عائشة: نزلت في الأنصار، كانوا هم وغسان - قبل أن يُسلموا - يهلّون لمناة.

وقال معمر، عن الزهري، عن عائشة رضي الله عنها قالت: كان رجال من الأنصار ممن كان يهلّ لمناة - ومناة: صنم بين مكة والطائف - قالوا: يا نبي الله، كنا لا نطوف بين الصفا والمروة تعظيمًا لمناة. نحوه.

قال ابن الكلبي: كان مناة منصوبًا على ساحل البحر من ناحية المشلل بقديد بين المدينة ومكة، ولم يكن أحد أشد إعظامًا له من الأوس والخزرج، وكانت جميع العرب تعظمه ويحجون إليه^(١).

ورابعها: ذو الخلصة.

وكانت تعبدها: دؤس، وخثعم وبجيلة، وكانوا يسمونها الكعبة اليمانية، ويسمونها الكعبة: الكعبة الشمالية، وقد أرسل النبي ﷺ إليها (جرير بن عبد الله البجلي) فهدمها.

وخامسها: فلس، لطى، ومن يليها من جبلي طيء، وقد أرسل إليه النبي ﷺ (علي بن أبي طالب) فهدمه، واصطفى منه سيفين أعطاهما النبي ﷺ لعلي رضي الله عنه.

وسادسها: ريام، بيت الصنعاء، كان لحمير وأهل اليمن.

وسابعها: رضاء، بيت لبني ربيعة بن كعب.

وثامنها: ذو الكعبات، لبكر وتغلب ابني وائل^(٢).

ومعنى الآية: هل رأيتم هذه الأصنام حق الرؤية، فإذا رأيتموها علمتم أنها لا تصلح للعبادة، ولا تضر ولا تنفع، فأخبرونا - أيها المشركون - عن هذه الآلهة التي تعبدونها، هل لها من القدرة ما لرب العالمين، حتى تزعموا أنها آلهة؟ قال تعالى:

(١) كتاب «الأصنام» ص ١٣.

(٢) يُنظر في هذه الأصنام: «سيرة ابن هشام» (١/٨٣-٨٨).

٢١، ٢٢- ﴿الْكُمْ الذَّكْرُ وَلَهُ الْأُنْثَىٰ﴾ ﴿٢١﴾ تِلْكَ إِذَا قِسْمَةٌ ضِيزَىٰ ﴿٢٢﴾

وكان المشركون يقولون عن الملائكة، وعن هذه الأصنام الثلاثة: اللات، والعزى، ومناة- إنها بنات الله، مع أنهم كانوا يثدنون البنات ويكرهونهن، فقال الله تعالى لهم: ﴿الْكُمْ الذَّكْرُ وَلَهُ الْأُنْثَىٰ﴾ ﴿٢١﴾ أتجعلون لكم الذكر الذي ترضونه، وتجعلون لله بزعمكم الأنثى التي لا ترضونها لأنفسكم؟ وهذا من باب التهكم والتسفيه؛ لأنهم يعترفون أن الله تعالى خالفهم ورازقهم.

ومع أن أساس هذه القضية باطل لا أصل له؛ لأن الله تعالى لا والد له ولا ولد، إلا أن هذه القسمة على فرض صحتها - كما تزعمون أيها المشركون- قسمة جائزة ظالمة؛ إذ كيف تخصّون أنفسكم بالذكر الذي تفضّلونه، وتنسبون لله ما تكرهون؟ فهلاً كنتم محايدين وعادلين في قسمتكم ﴿تِلْكَ إِذَا قِسْمَةٌ ضِيزَىٰ﴾ ﴿٢٢﴾ لقد جُرتُم في القسمة ولم تعدلوا، وأي ظلم أعظم من تفضيل المخلوق على الخالق؟ وهذا من باب الإنكار والتوبيخ.

هذا: وقد مرّ الحديث عن قصة الغرائيق في سورة الحج عند الآية الثانية والخمسين، وهي قصة باطلة، ومن زعم أن النبي ﷺ مدح الأصنام، فالإسلام منه بريء، وهي من الإلفك المفترى على رسول الله ﷺ.

عِبَادَةُ الْأَصْنَامِ فِي الْعَالَمِ أَوْهَامٌ

٢٣- ﴿إِنْ هِيَ إِلَّا أَسْمَاءٌ سَمِيَتْهُمَا أَنْتُمْ وَعَابَاؤُكُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَمَا تَهْوَى الْأَنْفُسُ وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مِنْ رَبِّهِمُ الْهُدَىٰ﴾ ﴿٢٣﴾

ثم بيّن سبحانه حقيقة هذه الأصنام، وأنها أسماء لآلهة مزعومة، لا حجة عليها ولا برهان، فهي لا تعقل ولا تتصرف، وليست لها حقائق ثابتة، وإنما هي حجارة، أو بيوت، تجعلون لها سدنة وتعبّدونها ﴿إِنْ هِيَ إِلَّا أَسْمَاءٌ﴾ باطلة فاسدة لا معنى لها، فهي لا تسمع ولا تبصر، ولا تعقل ولا تفهم، ولا تضر ولا تنفع، وليس لها شيء من صفات الألوهية، وهي مجرد أسماء، سميت بها هذه الحجارة، أو هذا الجماد ﴿أَنْتُمْ وَعَابَاؤُكُمْ﴾ أي: ليست

(١) قرأ ابن كثير (ضزى)، والباقون (ضيزى).

لها حقائق، فأنتم سميتوها آلهة، وليست بآلهة، بل جعلتموها أنتم آلهة ظلما وزورا بدافع الهوى وتزيين الشيطان ﴿مَّا أَنْزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ﴾ أي: إن الله تعالى لم يُخبر أحداً من رسله، بأن لهذه الأصنام أرواحاً، كما أخبر عن الملائكة والإنس والجن والشياطين، فالسلطان هو الحجة، والإخبار عن هذه الأصنام من الله تعالى ليكون ذلك حجة لهم على عبدة الأوثان في كل زمان ومكان، ولم تنزل عبادة الأصنام قائمة، إلى وقتنا، كما في بعض البلاد من العالم:

قال تعالى: ﴿وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَمْ يَنْزِلْ بِهِ سُلْطَانٌ وَمَا لَيْسَ لَهُمْ بِهِ عِلْمٌ﴾ [الحج: ٧١].

وقال سبحانه: ﴿مَّا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِهِ إِلَّا أَسْمَاءُ سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ مِمَّا أَنْزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ﴾ [يوسف: ٤٠].

فهي أسماء ليس لها حقيقة، وليس لها من أوصاف الكمال والقدرة والعظمة شيء.

وإذا انتفت الحجة، كانت الأوهام والأمانى هي التي تخدعهم وتغرهم وتزيّن لهم عبادة الأوثان ﴿إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ﴾ ليس المراد بالظن هنا: الاعتقاد غير الجازم، وإنما المراد: أنهم على وهم باطل، بقرينة ﴿وَمَا تَهْوَى الْأَنْفُسُ﴾ من الشرك والبدع الموافقة لأهوائهم الآمرة بالسوء، المنحرفة عن الهدى.

أي: ما يتبع هؤلاء الجاهلون في عبادتهم الباطلة إلا الأوهام الكاذبة، وهوى النفس المنحرفة الذي ينشأ عن الفطرة غير السليمة، وتقليد من سبقهم دون إعمال فكر ولا تدبر، وما تمليه عليهم النفس الأمارة، والشيطان اللعين، فهم قد وضعوا عبادتهم بأنفسهم، والعبادة تكون بمقتضى الشرع لا بمتابعة هوى النفس.

والظن الذي يبعثهم على متابعته، ظن كاذب مذموم؛ دون علم ولا هوى، فهم يتبعونه لأنه موافق لهواهم وما يألفون، وكان الواجب عليهم أن يتبعوا ما جاءهم به رسول الهدى ﴿وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مِنْ رَبِّهِمُ الْهُدَى﴾ أي: جاءهم الهدى على لسان محمد ﷺ يرشدهم إلى التوحيد والنبوة والبعث والحساب والجزاء، وما فيه صلاح المرء في دينه ودنياه، فلم يهتدوا، ولم ينتفعوا بما في القرآن الكريم والسنة النبوية من البيان الساطع، والبرهان القاطع، على أن هذه الأصنام ليست آلهة، وأن العبادة لا تصلح إلا لله تعالى، فكيف لا

يتركون عبادتها بعد وضوح هذا البيان؟ من أن هذه الأصنام ما هي إلا ظن كاذب وزعم فاسد، وكيف يُمتنّون أنفسهم بأنها تشفع لهم، والله تعالى هو مالك الدنيا والآخرة ولا يشفع عنده أحد إلا بإذنه، ولا يشفع إلا لمن ارتضى.

خَمْسُ شُبُهَاتٍ لِلْمُشْرِكِينَ فِي عِبَادَتِهِمْ غَيْرَ اللَّهِ تَعَالَى

٢٤، ٢٥ - ﴿أَمْ لِلْإِنسَانِ مَا تَمَنَّى ﴿٢٤﴾ فَلِلَّهِ الْآخِرَةُ وَالْأُولَى ﴿٢٥﴾﴾

ثم أبطل سبحانه عقائد المشركين في خمس نقاط، هي:

١- يقينهم بأن الأصنام تشفع لهم عند الله تعالى.

٢- وتمنيهم أن يكون الرسول ملكًا.

٣- وتمنيهم أن ينزل القرآن على رجل من القريتين عظيم.

٤- وطلبهم من الرسول أن يأتيهم بقرآن غير هذا أو يُبدّله.

٥- وطلبهم أن يأتيهم الرسول بخوارق للعادات، كمعجزات موسى وعيسى عليهما السلام.

فهذه الشبهات وغيرها كان المشركون يتطلعون إليها على أنها محطّ أمانهم وأهوائهم، وكانوا يُعْرِضُونَ عن كل ما يخالف هواهم، فبيّن سبحانه أن تحقيق الأمانى بيد الله، وأنه هو المعطي المانع، على أن ما يتمناه الإنسان قد يتمناه غيره، فيحدث التعارض والحرمان، ويفضي إلى تعطيل الأُمْنِيَّتَيْنِ.

والحفظ مَقْسَمَةٌ، ولكل واحد نصيب، والعاقِل هو الذي يوطّن نفسه على الرضى، ذلكم قوله تعالى: ﴿أَمْ لِلْإِنسَانِ مَا تَمَنَّى ﴿٢٤﴾﴾ أي: لا يحصل للإنسان كل ما يتمناه، وهؤلاء قد اتبعوا الظنون والأوهام وما تشتهيه أنفسهم، من حب الزعامة وتقليد الآباء، وتطلّعهم إلى شفاعة الأصنام لهم عند الله تعالى.

وفي حديث أبي هريرة مرفوعًا: «إذا تمنى أحدكم فليُنْظَرْ ما يتمنى، فإنه لا يدري ما يُكْتَبُ له من أُمْنِيَّتِهِ»^(١).

(١) تفرّد به أحمد في «المسند» (٣٥٧/١) برقم (٨٦٩١) قال محققوه: إسناده ضعيف، لضعف عمر بن أبي سلمة عند التفرّد، وأورده الهيثمي في «المجمع» (١٥١/١٠): وأخرجه الطيالسي (٢٣٤١) والبخاري في الأدب المفرد (٧٩٤) والبيهقي في الشعب (٧٢٧٤) ..

وليس كل ما يتمناه المرء يدركه، وليس كل ما يريده العبد يتحقق، فكل شيء مرهون بإرادة الله تعالى ومشيتته وفق حكمته تعالى في خلقه ﴿فَلِلَّهِ الْآخِرَةُ وَالْأُولَى﴾ (١٥).

أي: إنه جل شأنه مالك الدنيا والآخرة، يعطي من اتبع هداه وترك هواه.

لِلشَّفَاعَةِ عِنْدَ اللَّهِ تَعَالَى شَرْطَانِ

٢٦- ﴿وَكَمْ مِنْ مَلَكٍ فِي السَّمَوَاتِ لَا تُغْنِي شَفَعَتُهُمْ شَيْئًا إِلَّا مِنْ بَعْدِ أَنْ يَأْذَنَ اللَّهُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَرْضَى﴾

ثم ضرب الله سبحانه مثلاً بأعظم ما يتمناه المشرك، وهو شفاعاة الآلهة لهم عند الله، فبيّن سبحانه أن الملائكة مع علوّ شأنهم، وشرف منزلتهم، وكرامتهم على الله تعالى، فإن شفاعتهم لا تنفع إلا إذا تحقق فيها شرطان، وهما: أن يأذن الله للشافع في أن يشفع، وأن يرضى عن المشفوع له بالشفاعة فيه.

وهذا معنى ﴿وَكَمْ مِنْ مَلَكٍ﴾ أي: وكثير من ملائكة الله المقربين عند الله في السموات العلا ﴿لَا تُغْنِي﴾ عنهم ﴿شَفَعَتُهُمْ﴾ ولا تنفع ﴿شَيْئًا﴾ عند الله تعالى.

أي: لا تفيد هذه الشفاعاة من دعاها أو رجاها وتعلق بها، مع سُمُو منزلتهم، فكيف تطمعون في شفاعاة من هم دون ذلك من شجر أو حجر أو إنسان صالح أو غير صالح، ميت أو حي، ونحو ذلك ممن يَطْلُبُ منهم المشركون الشفاعاة، مع إقرارهم بأن الله تعالى هو الخالق الرازق؟ فيقولون: ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى﴾ [الزمر: ٣].

ويقولون: ﴿هَؤُلَاءِ شَفَعُونَا عِنْدَ اللَّهِ﴾ [يونس: ١٨].

ثم وضع سبحانه شرطين لقبول الشفاعاة عنده لا بد منهما لكل شافع أو مشفوع له:

أولهما: جاء في قوله تعالى: ﴿إِلَّا مِنْ بَعْدِ أَنْ يَأْذَنَ اللَّهُ لِمَنْ يَشَاءُ﴾ لهم في الشفاعاة، كما قال تعالى: ﴿مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ﴾ [البقرة: ٢٥٥].

وقال تعالى: ﴿وَلَا تَنْفَعُ الشَّفَاعَةُ عِنْدَهُ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُ﴾ [سبا: ٢٣] بأن كان من أهل التوحيد.

وثانيهما: جاء في تنمة الآية في قوله سبحانه: ﴿وَيَرْضَى﴾ أي: عن المشفوع له، كما

قال تعالى عن الملائكة: ﴿وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ارْتَضَى﴾ [الأنبياء: ٢٨].

وقد جمع الشرطين معاً قوله تعالى: ﴿يَوْمَئِذٍ لَا تَنْفَعُ الشَّفَعَةُ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ وَرِضَىٰ لَهُمْ قَوْلًا﴾ [طه]. وجمعهما أيضاً في الآية التي معنا من سورة النجم.

فإذا كان هذا في حق الملائكة، فكيف بغيرهم؟

فِرْيَةُ الْقَوْلِ بِأَنْوَةِ الْمَلَائِكَةِ

٢٧- ﴿إِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ لَيَسْئُرُنَّ الْمَلَائِكَةَ سَيْئَةً الْأُنثَىٰ﴾

والحديث موصول عن الكفار المنكرين للبعث، فهم الذين يقولون عن الملائكة: إنهم إناث، وهم الذين لا يصدقون بالدار الآخرة، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ﴾ وما فيها من بعث وحساب وجنة ونار، ولا يعملون لها، وهم الذين يفترون على الله الكذب، فيزعمون أن الملائكة بنات الله، ويجعلونهم إناثاً كما قال تعالى عنهم:

﴿لَيَسْئُرُنَّ الْمَلَائِكَةَ سَيْئَةً الْأُنثَىٰ﴾ أي: هم الذين يصفون الملائكة بأوصاف الإناث، ويقولون: الملائكة بنات الله، كما قال تعالى: ﴿وَجَعَلُوا الْمَلَائِكَةَ الَّذِينَ هُمْ عِبْدُ الرَّحْمَنِ إِنثًا أَشْهَدُوا خَلَقَهُمْ سَتَكُنُّبُ شَهَدَتُهُمْ وَيَسْأَلُونَ﴾ [الزخرف] أي: إن هؤلاء الكفار هم الذين يصفون الملائكة بالأنوثة، ويزعمون أنهم بنات الله، والسبب في ذلك أنهم لا يؤمنون بالآخرة، لهذا تجرؤوا على الله تعالى في أقوالهم وأفعالهم، فلم ينزهوا الله سبحانه عن الولد، وجعلوا الملائكة إناثاً، وكل هذا افتراء على الله تعالى وتقول عليه بغير علم، ولذا: قال تعالى:

٢٨- ﴿وَمَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنَّ الظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا﴾

أي: إن المشركين لا علم لهم بتكوين الملائكة، فهم لم يشهدوا خلقهم، وليس عندهم حجة ولا برهان على أنهم إناث، فقولهم هذا مجرد وهم وتخيل لا دليل عليه ﴿إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ﴾ فهو اعتقاد خاطئ لا يفيد شيئاً.

وحقائق الأمور لا تُدرك إلا بالعلم الصحيح، ولو وافق الظن الحقيقة فهذا مجرد صُدفة واتفاق، ولذا قال تعالى: ﴿وَإِنَّ الظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا﴾ أي: لا يُجدي ولا يقوم مقام

(١) انفرد الكوفي بعد لفظ (شيئاً) آية، وأسقطه جمهور أهل العدد، فلم يعدوه آية.

الحق أبداً، وإنما تُدرك حقيقة الشيء بالعلم اليقيني، لا بالظن والتوهم الذي لا يفيد شيئاً في إدراك الحقائق، والعلم اليقيني يدل على نقيض قولهم، وأن الله تعالى منزّه عن الصاحبة والولد، وأن الملائكة عباد مقربون ﴿لَا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ وأن المشركين لا يتبعون إلا الظن وهوى النفس.

هَذَا وَعِيدٌ لِلْكَفَّارِ وَوَعْدٌ لِلْمُؤْمِنِينَ

٢٩- ﴿فَأَعْرِضْ عَنْ مَن تَوَلَّى^(١) عَنْ ذِكْرِنَا وَلَوْ يُرِيدُ إِلَّا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا^(٢)﴾

ولما كان المنكرون للبعث والنشور، ضالّين في حقيقة الأمر، ونتج عن هذا الضلال إعراضهم عما جاء به النبي ﷺ في هذا القرآن العظيم، لذلك أمر الله تعالى نبيه ﷺ أن يُعرض عنهم، فلا يهتم بهم؛ لأنهم لم يقبلوا الإرشاد، وأمره ألا يحزن على كفرهم، ويداوم على دعوتهم للإيمان.

﴿فَأَعْرِضْ﴾ أيها الرسول، وأيها الداعية إلى الله تعالى ﴿عَنْ مَن تَوَلَّى عَنْ ذِكْرِنَا﴾ أي: القرآن والسنة ﴿وَلَوْ يُرِيدُ إِلَّا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا﴾ فإن طلب الدنيا ومتاعها، منتهى علمهم وغايتهم، وهم قد آثروا الفانية على الباقية، وظلّوا يعملون للدنيا وغفلوا عن الآخرة، فسعيهم مقصور على الدنيا ولذاتها وشهواتها. قال تعالى:

٣٠- ﴿ذَلِكَ مَبْلَغُهُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن صَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَن أَهْتَدَى^(٣)﴾

ثم حَقَّرَ الله تعالى أفكارهم وهَوْنَ من شأنهم، فقال: ﴿ذَلِكَ مَبْلَغُهُمْ مِنَ الْعِلْمِ﴾ أي: هذا هو نهاية علمهم وغاية مداركهم ﴿إِنَّ رَبَّكَ﴾ أعلم بمن أصرَّ على الضلال، فحاد عن الحق وعن طريق الهداية، هذا هو طريق أهل الضلال، أما المؤمنون بالآخرة، فمهمتهم منصرفة إلى الآخرة، وعلومهم أفضل العلوم وأجلّها، وهو كتاب الله وسنة رسوله، لذا قال تعالى عنهم: ﴿وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَن أَهْتَدَى﴾ أي: ممن سلك طريق الإسلام، واستجاب لدعوته، وقد أسند الله الهدى والضلال إليهم؛ لأنهم اكتسبوهما بفعلهم، وإن كان كل شيء مِنْ خَلْقِ الله تعالى.

(١) انفرد الشامي بعد (عمن تولى) وتركه غيره.

(٢) أسقط الشامي (إلا الحياة الدنيا) من العدد، وعدّها غيره.

إنه سبحانه أعلم منك -أيها الرسول- بحالهم ودخائل نفوسهم، فلا تحزن على من لم يتبع طريق الهدى منهم، ولا تتحسر عليهم، وفي هذا إنذار شديد للعصاة المعرضين عن العمل بكتاب الله وسنة رسوله ﷺ المؤثرين لهوى النفس وحظوظ الدنيا، فالدنيا دار من لا دار له، ومال من لا مال له، فاللهم لا تجعل الدنيا أكبر همنا ولا مبلغ علمنا.

وكثيراً ما كان النبي ﷺ يدعو ربه ألا يجعل الدنيا أكبر همه ولا مبلغ علمه.

عن ابن عمر رضي الله عنه قال: قلما كان رسول الله ﷺ يقوم من مجلس حتى يدعو بهؤلاء الدعوات لأصحابه: «اللهم اقسم لنا من خشيتك ما يحول بيننا وبين معاصيك، ومن طاعتك ما تبلغنا به جنتك، ومن اليقين ما تهوّن به علينا مصائب الدنيا، ومتعنا بأسماعنا وأبصارنا وقوتنا ما أحييتنا، واجعله الوارث منا، واجعل ثأرنا على من ظلمنا، وانصرنا على من عادانا، ولا تجعل مصيبتنا في ديننا، ولا تجعل الدنيا أكبر همنا ولا مبلغ علمنا، ولا تسلط علينا من لا يرحمنا»^(١).

عَدَالَةُ الْجَزَاءِ الْآخِرِيِّ

٣١- ﴿وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمٰوٰتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ لِيَجْزِيَ الَّذِينَ أَسْتَوُوا بِمَا عَمِلُوا وَيَجْزِيَ الَّذِينَ أَحْسَنُوا بِالْحَسَنِ﴾

وبما أن لله سبحانه الآخرة والأولى، وأنه تعالى أعلم بمن ضلّ عن سبيله وأعلم بمن اهتدى، فإنه لا يقدر على مجازاة المحسن بإحسانه، والمسيء بإساءته، إلا مالک الملك، کامل القدرة ﴿وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمٰوٰتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾ أي: له سبحانه كامل ما في الكون، فهو خالقه ومالکه، والمتصرف فيه، يأمرهم وينهاهم، ويؤجرهم عليهم شرعه، ويجزئهم على ما أمرهم ونهاهم، فيثيب المطيع ويعاقب العاصي.

والله تعالى، يعلم أن لهم حياتين، ويعلم أن من في العالم الأرضي ستصدر منهم أقوال وأفعال حسنة وسيئة في حياتهم الدنيا، وأنه مجازيهم على ذلك جزاء عادلاً في الآخرة، فلا جرم أن يكون الجزاء غايةً لخلقهم، وعلة باعثة على وجودهم، إلى جوار سبب أساسي

(١) «صحيح سنن الترمذي» (٢٧٨٣) بإسناد حسن، ومشكاة المصابيح (٢٤٩٢) التحقيق الثاني، وابن السني

(٤٤٦) والحاكم (٢٥٨/١).

أوجد الله الخلق من أجله، هو معرفة الله سبحانه، وهو المقصود الأعظم، والسبب الأول، ثم إعمار هذه الأرض، وابتلاء المخلوقات، وغير ذلك من الحكم الإلهية. ولهذا فقد خلق الله الخلق ﴿لِيَجْزِيَ الَّذِينَ أَسْتَوُوا بِمَا عَمِلُوا﴾ أي: يعاقبهم عقاباً عادلاً مماثلاً لما عملوه في الدنيا ﴿وَيَجْزِيَ الَّذِينَ أَحْسَنُوا بِالْحُسْنَى﴾ فيثيبهم بأفضل مما عملوا، وهو الجنة، ثم رضى الله سبحانه ورؤيته في دار النعيم.

الْكَبَائِرُ وَالْفَوَاحِشُ وَالصَّغَائِرُ وَاللَّئِمَّةُ

٣٢- ﴿الَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبِيرَ^(١) الْإِنْتِهَاءِ وَالْفَوَاحِشَ إِلَّا اللَّئِمَةَ إِنَّ رَبَّكَ وَاسِعُ الْمَغْفِرَةِ هُوَ أَعْلَمُ بِكُمْ إِذْ أَشْأَكُم مِّنَ الْأَرْضِ وَإِذْ أَنْتُمْ أَجْنَتُمْ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ^(٢) فَلَا تُزَكُّوا أَنْفُسَكُمْ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اتَّقَى﴾^(٣) ثم وصف الله سبحانه هؤلاء المحسنين بأنهم ﴿الَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبِيرَ الْإِنْتِهَاءِ وَالْفَوَاحِشَ﴾ فهم يفعلون ما أمرهم الله به ويتركون ما نهاهم عنه.

١- والإثم: اسم جنس، يشمل الذنوب الصغائر والكبائر.

٢- وكبائر الإثم: هي كل ما توعد الله فاعله أو قائله بالعذاب أو الغضب، أو اللعنة أو النار، كالسرقة، والربا، والرشوة، وقذف المحصنات، والتولي يوم الزحف، ويدخل في ذلك كل ما وضع له الشرع عقوبة القصاص، أو الحدود، أو التعزيرات، وكل جريمة تؤذن بعدم اكتراث فاعلها بالدين، أو رقة في دينه.

والسبع الموبقات من كبائر الذنوب، وهي إلى السبعين أقرب منها إلى السبع.

٣- والفواحش: أخص من الكبائر، وأقوى إثماً، ويُعدُّ فاعلها متجاوزاً حد الكبائر، كالزنى بزوجة الجار، ونكاح زوجة الأب، والقتل غيلةً، والزنى بالمحارم.

وهكذا فإن الزنى في حد ذاته حرام، وهو من كبائر الذنوب، ولكن الزنى بالمحارم، أو بحليلة الجار، وكذا الشيخ الزاني -أشدَّ إثماً، فهو من الفواحش.

(١) قرأ حمزة والكسائي وخلف (كبير الإثم) على التوحيد، وقرأ الباقون (كبائر) على الجمع، ووفق الأزرق الراء، ووقف حمزة بالسكت والنقل في (الإثم).

(٢) قرأ حمزة بكسرة الهمزة والميم وصلًا من (أمهاتكم) وقرأ الكسائي بكسر الهمزة وفتح الميم وصلًا، والباقون بضم الهمزة وفتح الميم وصلًا، والجميع يبدأ بهمزة مضمومة وميم مفتوحة.

والزواج من المحارم حرام، وهو بزوجة الأب أشدُّ حرمة، قال الله تعالى عنه:

﴿إِنَّمَا كَانَ فِجْشَةً وَمَقْتًا وَسَاءَ سَبِيلًا﴾ [النساء: ٢٢].

والقتل كبيرة من الكبائر، ولكن القتل غيلةً أشدُّ إثماً.

وخيانة الأمانة حرام، ولكن خيانة الإنسان لمن ائتمنه أشدُّ حرمة.

والكذب حرام، ولكن الكذب على الله ورسوله أشدُّ حرمة، وهكذا كل ما تنهى قبحه وفحشه من الأقوال والأفعال فهو من الفواحش.

٤- والصغائر: هي ما دون الكبائر، كالقُبلة والنظرة والغمزة دون إصرار.

فهناك قاعدة عامة تقول: لا صغيرة مع الإصرار، ولا كبيرة مع الاستغفار.

فالإصرار على الصغيرة بالمداومة عليها وتحقيرها، يجعلها كبيرة بالنسبة لمن يفعل ذلك.

والذي يتوب من الكبيرة وهو صادق من قلبه في توبته وقت أن تاب، ثم ضَعُفَتْ نفسه وزَلَّتْ، فوقع في الذنب مرة أخرى ثم تاب، فإن الله تعالى يتوب عليه، ولكن عليه ألا يكون مستخفًا، متهاونًا في ذنبه، غير مُقْلِع من قلبه.

وفي الحديث: عن ابن مسعود مرفوعًا: «إياكم ومحقرات الذنوب، فإنهن يجتمعن على العبد حتى يهلكنه»^(١).

٥- واللَّمَم: هو الذي يُلَمُّ بالذنب -أي: يقع فيه- من غير إصرار عليه، ثم يتوب منه ولا يعود إليه، فهو يُلَمُّ به على وجه الندرة والقلة^(٢)، ومما ورد في ذلك:

(أ) ما رواه ابن جرير عن مجاهد قال: اللَّمَم: هو الذي يُلَمُّ بالذنب ثم يدعه، وفي رواية له: هو الرجل يلَمُّ بالذنب ثم ينزع عنه^(٣).

(١) الحديث في «المسند» (٣٨١٨) وبرقم (٢٥١٧٧) عن عائشة ؓ بنحوه، قال محققوه: إسناده حسن، وهو مكرر برقم (٢٤٤١٥) وفي «سنن النسائي الكبرى» (١١٨١١) وصححه ابن حبان (٥٥٦٨) وابن ماجه (٤٢٤٣) وفي حديث طويل عن سهل بن سعد في «المسند» (٢٢٨٠٨) وإسناده صحيح على شرط الشيخين (محققوه)، وأخرجه الطبراني في «الكبير» (٥٨٧٢) و«الأوسط» (٧٣١٩) و«الصغير» (٩٠٤).

(٢) وبهذا قال ابن عباس، وأبو هريرة، والحسن، ومجاهد، وابن جرير، والسُّدِّي.

(٣) «تفسير الطبري» (٣٩/٢٧).

(ب) وقال ابن عباس رضي الله عنه: هو الرجل يلم بالفاحشة ثم يتوب، وقال: قال رسول الله ﷺ: «إِنْ تَغْفِرَ اللَّهُمَّ تَغْفِرْ جَمًّا، وَأَيُّ عَبْدٍ لَكَ مَا أَلَمَّا»^(١)

(ت) وقال أبو هريرة رضي الله عنه: اللَّمَّةُ من الزنى، ثم يتوب، ولا يعود، واللَّمَّةُ من السرقة، ثم يتوب ولا يعود، واللَّمَّةُ من شرب الخمر، ثم يتوب، ولا يعود، قال: ذلك الإلمام^(٢).

(ث) وقال السُّدِّي: قال أبو صالح: سئِلْتُ عن اللَّمَم، فقلت: هو الرجل يصيب الذنب ثم يتوب، وأخبرت بذلك ابن عباس، فقال: لقد أعانك عليها ملك كريم^(٣).

(ج) وعن ابن عباس رضي الله عنه، قال: ما رأيت شيئاً أشبه باللَّمَم مما قال أبو هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى كَتَبَ عَلَى ابْنِ آدَمَ حَظَّهُ مِنَ الزِّنَى، أَدْرَكَ ذَلِكَ لَا مَحَالَةَ، فَزَنَى الْعَيْنُ النَّظَرَ، وَزَنَى اللِّسَانُ النَّطْقَ، وَالنَّفْسُ تَمَنَّى وَتَشْتَهِي، وَالْفَرْجُ يَصْدُقُ ذَلِكَ أَوْ يَكْذِبُهُ»^(٤).

(ح) وقال ابن مسعود رضي الله عنه: زنى العينين النظر، وزنى الشفتين التقييل، وزنى اليدين البطش، وزنى الرجلين المشي، وَيُصَدَّقُ ذَلِكَ الْفَرْجُ أَوْ يُكْذَّبُهُ، فَإِنْ تَقَدَّمَ بِفَرْجِهِ كَانَ زَانِيًا، وَإِلَّا فَهُوَ اللَّمَمُ^(٥).

(خ) قال أبو هريرة وابن عباس والشعبي وغيرهم: اللَّمَم: صغار الذنوب التي بين الحَدَّيْنِ: الدنيا والآخرة، وهي ما لا حَدَّ فيه ولا وعيد مختصاً بها، ويقال لها: صغائر بالإضافة إلى غيرها^(٦).

(د) وقيل: إن هذه الآية نزلت في رجل يُسَمَّى نبهان التَّمَّار، كان له دكان يبيع فيه تمرًا،

(١) «تفسير البغوي» (١٢٨/٧) وهو في «سنن الترمذي» برقم (٣٢٨٤) و«صحيح سنن الترمذي» (٢٦١٨) والبخاري

(٢٦٦٢) «كشف الأستار» والحاكم (٤٦٩/٢) والبيهقي في «الشعب» (٧٠٥٥، ٧٠٥٦) والبيهقي لابن أبي الصلت.

(٢) «تفسير الطبري» (٣٩/٢٧) والبيهقي في «الشعب» (٧٠٥٨، ٧٠٥٩).

(٣) حكاها في التفسير: البغوي والحاكم والسيوطي في «الدر».

(٤) «المسند» (٢٧٦/٢) (٧٧١٩) بإسناد صحيح على شرط الشيخين (محقوقه) و«صحيح البخاري» برقم

(٦٦١٢، ٦٣٤٣) و«صحيح مسلم» برقم (٢٦٧٥) وعبد الرزاق (٢٥٣/٢) والطبري (٦٢/٢٢) والبيهقي

في «السنن» (٨٩/٧).

(٥) «تفسير الطبري» (٣٩/٢٧) وعبد الرزاق (٢٥٥/٢) والحاكم (٤٧٠/٢) والبيهقي في «الشعب» (٧٠٦٠).

(٦) «تفسير ابن عطية» (٢٠٤/٥) والطبري (٦٧/٢٢).

فجاءته امرأة تشتري تمرًا، فقال لها: إِنَّ داخل الدكان ما هو خير من هذا، فلما دخلت راودها عن نفسها فأبت فندم، فأتى النبي ﷺ، وقال: ما من شيء يصنعه الرجل إلا وقد فعلته -أي: بالمرأة غصبًا عنها- إلا الجماع، فنزلت الآية^(١).

وقد حدثت هذه القصة في المدينة، وعليه فإن هذه الآية تكون مدنية ألحقت بسورة النجم المكية.

(ذ) قال زيد بن أسلم: اللِّمَم: الشرك والزنى، تركوا ذلك حين دخلوا الإسلام وغفر الله لهم، ما كانوا أَلْمُوا به، وأصابوا من ذلك قبل الإسلام^(٢).

والجمع بين هذه الأقوال: أن كل ذنب أَلَمَّ به العبد -صغيرًا كان أو كبيرًا- قبل الدخول في الإسلام، أو قبل التوبة، فإن الله تعالى يغفر له ذلك؛ لأن الإسلام يَجِبُ ما قبله، والتوبة تَجِبُ ما قبلها.

ووجه تسمية هذه الذنوب التي ذُكرت في الحديث، وفي قول ابن مسعود، وفي سبب النزول، بِاللِّمَم: أن العبد لا يُصِرُّ عليها، وكلما أَلَمَّ بها على وجه الندرة والقلّة، أُلْقِع عنها مباشرة، فالإقدام عليها مرة لا يُخرج العبد عن أن يكون من المحسنين، فتارك المحرمات، وفاعل الواجبات يدخل تحت مغفرة الله تعالى التي وسعت كل شيء^(٣).

وقيل في اللِّمَم أقوال أخرى، ونختار ما سبق ذكره؛ لأنه جاء بالترقية بين اللِّمَم والصغائر.

وتعريف اللِّمَم في اللغة يختلف عن تعريف الصغائر، فالصغائر أطلق القرآن عليها سيئات في قوله تعالى: ﴿إِنْ تَجْتَنِبُوا كَبَائِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ مُكَفِّرٌ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَتُدْخِلُكُمْ مُدْخَلًا كَرِيمًا﴾ [النساء] ولم يطلق ذلك على اللِّمَم.

وما أَلَمَّ به العبد من الشرك والمعاصي قبل إسلامه وقبل التوبة فهو من اللِّمَم.

فقد جاء عن ابن عباس، وزيد بن ثابت، وزيد بن أسلم، وابنه، في سبب نزول الآية:

(١) «التحرير والتنوير» (١٢٢/٢٧).

(٢) الطبري (٦١/٢٢).

(٣) يُنْظَر: «تفسير ابن سعد» ص ٧٦٨ تحقيق محمد زهدي النجار.

أن الكفار قالوا للمسلمين: قد كنتم بالأمس تعملون أعمالنا، فنزلت الآية.

وهي مثل قوله تعالى: ﴿وَأَنْ تَجْمَعُوا بَيْنَ الْأُخْتَيْنِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ﴾ [النساء: ٢٣].

ومعنى الآية: إن المحسنين هم الذين يتعدون عن كبائر الذنوب والفواحش، ولا يلامون على ما صدر منهم من ذنوب، ولم يُصْرُوا عليها، ووقعت منهم على وجه الندرة، ثم تابوا وأقلعوا عنها، فإن الذين فعلوا هذا مع الإتيان بالواجبات وترك المحرمات يغفرها الله لهم ويسترها عليهم.

﴿إِنَّ رَيْكَ وَسِعُ الْمَغْفِرَةِ﴾ فهو غَفَّار الذنوب، وستَّار العيوب، يغفر لمن أقبل على ربه وأناب، فرحمته وسعت كل شيء، وقد عَقَّبَ الله تعالى بذلك؛ لئلا ييأس صاحب الكبيرة من عفو الله تعالى، ولو لا مغفرة الله تعالى لهلك العباد والبلاد، ولولا عفو وحلمه لسقطت السموات على الأرض، ولما ترك الله على ظهرها من دابة.

قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ وَمَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَى مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ [آل عمران].

وقال سبحانه: ﴿وَمَنْ يَعْمَلْ سُوءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ اللَّهَ يَجِدِ اللَّهَ غَفُورًا رَحِيمًا﴾ [النساء].

وقال جلَّ شأنه: ﴿إِنْ تَجْتَنِبُوا كَبَائِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَلُدْخِلْكُمْ مَدْخَلًا كَرِيمًا﴾ [النساء].

وفي الحديث عن أبي هريرة ؓ أن النبي ﷺ قال: «الصلوات الخمس، والجمعة، إلى الجمعة، ورمضان إلى رمضان، مكفرات ما بينهنّ إذا اجتنب الكبائر»^(١).

والآية تنشد الكمال في المسلم، وتفيد أن لكل جواد كبوة، ولكل صارم نبوة، وأن طبيعة الإنسان الأرضية قد تغلب جانب الروح فيه، وينبغي على الإنسان أن يشتد تعلُّقه بمغفرة الله تعالى، وأن يُعَوِّلَ على فضل الله سبحانه بعد الاجتهاد في ترك المحرمات وفعل الواجبات.

(١) صحيح مسلم برقم (٢٣٣).

ورحمة الله الواسعة صادرة عن علم شامل يحيط بظاهر العبد وباطنه، فهو سبحانه أعلم بأحوال الإنسان الأول وقت إنشائه من تراب الأرض، وأعلم بذريته وهم أجنة مستترون في بطون وأرحام أمهاتهم، ويعلم أطوارهم فيها ﴿هُوَ أَعْلَمُ بِكُمْ إِذْ أَنْشَأَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَإِذْ أَنْتُمْ أَجِنَّةٌ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ﴾ أي: أعلم بحالكم من أنفسكم، فهو يدبر لكم ما لا يخطر ببالكم، كما قال تعالى في الحديث القدسي عن أبي هريرة، عن النبي ﷺ قال: «إن الله تبارك وتعالى قال: أعددت لعبادي الصالحين ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر، وإن شئتم فاقراءوا: ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ﴾^(١) [السجدة: ١٧].

ومن هذا القبيل قوله تعالى لنبيه ﷺ في حديث الإسراء حين فرض عليه خمسين صلاة: «إن أمتك لا تطيق ذلك»^(٢).

فهو سبحانه أعلم بأحوالكم وما جُبلتم عليه من ضعف وقوة، وخور وعزيمة وما إلى ذلك، وعلمه تعالى لم يزل قائماً بكم، ولعلمه بأحوالكم تغمدكم برحمته ومغفرته وعفوه، فلا تخبرون الناس بطهارة قلوبكم وتمدحون أنفسكم، فإن الله تعالى، أعلم بمن اتقى لأن التقوى محلها القلب، والله هو المطلع عليها.

النهي عن تزكية النفس:

قيل: إن ناساً كانوا يعملون أعمالاً حسنة، ثم يقولون مفتخرين: صلاتنا وصيامنا وحجنا، فأنزل الله تعالى: ﴿فَلَا تُزَكُّوا أَنْفُسَكُمْ﴾^(٣) أي: لا تمدحوها، ولا تثنوا عليها، ولا تصفوها بالصلاح والتقوى، ولا تظنوا أنكم أصحاب فضل وطاعة، فإن هذا يؤدي إلى الإعجاب بالنفس، وانتقاص الآخرين، ويوصل المرء إلى الرياء المحبط للعمل.

(١) البخاري (٣٢٤٤، ٧٤٩٨) ومسلم (٢٨٢٤) وابن ماجه (٤٣٢٨) والترمذي (٣٠١٣) والنسائي في (الكبرى) (١١٠١٩) و«المسند» (٨١٤٣) بإسناد صحيح على شرط الشيخين (محققوه) دون ذكر الآية، وهو في مصنف عبدالرزاق (٢٠٨٧٤) وعند أبي يعلى (٦٢٧٦) وغيرهم، وابن حبان (٣٩٦).
(٢) من حديث طويل عن مالك بن صعصعة في البخاري (٣٢٠٧) معلقاً، ومسلم (١٦٤) والترمذي (٣٣٤٦) و«المسند» (١٧٨٣٣) وإسناده صحيح على شرط الشيخين (محققوه) وابن حبان (٤٨) والنسائي في الكبرى (٣١٣).

(٣) من «تفسير النسفي» وابن عاشور للآية.

وعليكم أن تهضموا أنفسكم، وتتهموها، وتنسبوها إلى التقصير، وانظروا إلى من هم دونكم في الرزق، وأعلى منكم في الطاعة؛ حتى لا تزدرؤا نعمة الله عليكم ﴿هُوَ أَكْبَرُ مِنِّي أَتَقَى﴾ فاكثفوا بعلمه وجزائه عن ثناء الناس، فهو أعلم بمن برّ وأطاع، وأخلص العمل، واتقى ربه في السر والعلن.

وعن ثابت بن الحارث الأنصاري قال: كانت اليهود إذا هلك لهم صبي صغير قالوا: هو صديق، فبلغ ذلك النبي ﷺ فقال: «كذبت يهود، ما من نسمة يخلقها الله في بطن أمها إلا أنه شقي أو سعيد»، فأنزل الله الآية^(١).

ومن اعتقد أن طاعته وعمله الصالح هو بفضل الله وتوفيقه وتسديده وإعانتة، فحمد الله وشكره على ذلك، فإن هذا ليس تزكية للنفس، وإنما هو سرور بالطاعة، وذكرها شكرًا لله تعالى^(٢). وقد جاء النهي عن تزكية النفس، وتزكية الآخرين في الكتاب والسنة، قال تعالى:

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْكُونَ أَنْفُسَهُمْ بَلِ اللَّهُ يُرَكِّي مَن يَشَاءُ وَلَا يَظْلُمُونَ فَتِيلًا﴾ [النساء].

ومن ذلك حديث أم علاء الأنصارية: حين مات عثمان بن مظعون في بيتها، فلما غُسل وكُفّن في أثوابه دخل عليه رسول الله ﷺ، فقالت: رحمة الله عليك أبا السائب -كنيته- فشهادتي عليك لقد أكرمك الله، فقال لها رسول الله ﷺ: «وما يدريك أن الله أكرمهم؟» فقالت: إذا لم يكرمهم الله، فمن يكرمهم الله؟ فقال ﷺ: «أما هو فقد جاءه اليقين، وإني لأرجو له الخير، وإني والله ما أدري وأنا رسول الله ما يفعل بي» قالت أم علاء: فلا أزكي أحدًا بعدما سمعت هذا من رسول الله ﷺ^(٣).

والرسول لا يعلم ما يحدث له في الدنيا ولكنه يعلم مصيره في الآخرة وهو الجنة. وقد شاع بين الصحابة رضي الله عنهم في عصر النبوة أنهم كانوا يتحرزون من التزكية، فإذا أثنوا على أحد قالوا: لا أعلم عليه إلا خيرًا، ولا أزكي على الله أحدًا. عن محمد بن عمرو بن عطاء قال: سَمِيتُ ابنتي برة، فقالت لي زينب بنت أبي سلمة:

(١) الطبراني في «الكبير» (١٣٦٨) وأبو نعيم (٤٠٤/١) (١٣٦٣) والواحدي ص ٢٩٧.

(٢) «تفسير الكشاف» (٢٣/٤).

(٣) البخاري (١٢٤٣)، وانظر: (٢٦٨٧، ٧٠١٨) و«المسند» (٢٧٤٥٧) بإسناد صحيح رجال ثقات رجال الشيخين (محققوه) والطبراني في «الكبير» (٣٣٩) والحاكم (٣٧٨/١) والبيهقي في «السنن» (٧٦/٤).

إن رسول الله ﷺ نهى عن هذا الاسم، وسُمِّيتُ بَرَّةً، فقال ﷺ: «فَلَا تُزَكُّوا أَنْفُسَكُمْ» ﴿٣٣﴾ إن الله أعلم بأهل البرِّ منكم»، قالوا: بم نُسَمِّيها؟ قال: «سَمُّوها زَيْنَب»^(١).

النهي عن مدح الآخرين تملُّقًا:

ومما ورد في النهي عن مدح الآخرين، ما جاء عن عبد الرحمن بن أبي بكرة عن أبيه قال: مدح رجل رجلاً عند النبي ﷺ، فقال له: «ويلك، قطعت عنق صاحبك -مرارًا- إذا كان أحدكم مادحًا صاحبه لا محالة فليقل: أحسب فلانًا، والله حسيبه، ولا أزكي على الله أحدًا، أحسبه -إن كان يعلم ذاك- كذا وكذا»^(٢).

وجاء رجل إلى عثمان، فأثنى عليه في وجهه، فجعل المقداد بن الأسود، يَحْثُو في وجهه التراب، ويقول: أمرنا رسول الله ﷺ إذا لقينا المدَّاحين أن نَحْثُو في وجوههم التراب^(٣).

أما تزكية القدوة والصالح من عباد الله ليقْتدي به الناس فهو جائز، وقد زكَّى النبي ﷺ أبا بكر رضي الله عنه، قالوا: والآية نزلت في قوم كانوا يعملون أعمالًا حسنة، ثم يتفاخرون بها.

لَا يُؤَاخِذُ أَحَدٌ بِذَنْبٍ غَيْرِهِ

٣٣-٣٥- ﴿أَفَرَأَيْتَ^(٤) الَّذِي تَوَلَّى^(٥) وَأَعْطَى قَلِيلًا وَأَكْدَى^(٦)﴾ أَعِنْدَهُ عِلْمُ الْغَيْبِ فَهُوَ يَرَى^(٧) ﴿٣٥﴾

أَعْلِمْتُ - أيها الرسول - قُبِحَ حالة مَنْ أُمِر بتوحيد الله وعبادته، فتولى عن الإيمان، وأعرض عن طاعة الرحمن، فما أجهله وما أشد غفلته؟ وانظر إليه حين يُدْعَى إلى إنفاق المال، فإنه ييخل بالقليل منه، ثم يمنع عطاءه بالكلية، ويُمسك بمعروفه وإحسانه، فما أشد بخله؟ وهل عنده علم من الغيب أن ماله سينفذ حتى ييخل به؟

هذا: وقد وردت في هذه الآيات أسباب كثيرة للنزول، منها:

(١) «صحيح مسلم» برقم (٢١٤٢).

(٢) «المسند» (٤١/٥، ٤٥) برقم (٢٠٤٦٢) وإسناده صحيح على شرط الشيخين (محققوه)، والبخاري برقم (٦١٦٢) ومسلم برقم (٣٠٠٠) وأبو داود (٤٨٠٥)، والبزار في مسنده (٣٦٢٧).

(٣) «صحيح مسلم» برقم (٣٠٠٢) وأبو داود برقم (٤٨٠٤).

(٤) سَهَّلَ الهمزة الثانية من (أفرايت) نافع وأبو جعفر، وأبدلها ألفًا ورش مع المد المشبع حالة الوصل، وحذفها الكسائي، وحققها الباقون.

ما أخرجه ابن أبي حاتم عن عكرمة أن النبي ﷺ خرج في غزوة، فأراد رجل أن يخرج معه، ولم يجد ما يخرج عليه، فلقي صديقاً له، فقال: أعطني شيئاً، قال: أعطيك بكري هذا - أي: الصغير من الإبل - على أن تتحمل عني ذنوبي، فقال: نعم، فأنزل الله الآية. ^(١)

وبهذا المعنى وردت روايات أخرى:

فقد جلس الوليد بن المغيرة عند النبي ﷺ يستمع إلى وعظه، فتأثر قلبه، وكاد أن يُسلم، فعيّره رجل من المشركين وقال: تركت دين آبائك وصللتهم، وزعمت أنهم في النار؟ فقال الوليد: إني خشيت عذاب الله، فضمن له الرجل إن هو أعطاه شيئاً من ماله، ورجع إلى شركه أن يتحمل عنه عذاب الله، فأعطاه بعض الذي طلبه، ثم بخل ومنعه الباقي، فنزل قول الله تعالى: ﴿أَفَرَأَيْتَ الَّذِي تَوَلَّى ۖ وَأَعْطَى قَلِيلًا وَأَكْدَى ۚ﴾ ^(٢).

فقوله: ﴿وَأَكْدَى﴾ أي: بخل بعطائه ومنعه عنه، يقال: أكدته للذي اعترضته كذبة، أي: صخرة، أو حجر لا يستطيع إزالته، وهو يحفر في الأرض.

والمعنى: أفرأيت - يا رسولنا - حالاً أعجب من حال هذا الإنسان الفاجر الأثيم الذي أعرض عن طاعة الله ورسوله، وبذ الهداية وراء ظهره، بعد أن قارب على الدخول فيها، وأعطى لصاحبه قليلاً من المال المشروط بينهما؛ كي يتحمل عنه العذاب، ثم توقف وقطع عطاءه عن صاحبه الذي عيّر إن هو دخل في الإسلام.

قال تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا اتَّبِعُوا سَبِيلَنَا وَلْنَحْمِلْ خَطَايَكُمْ وَمَا هُمْ بِحَامِلِينَ مِنْ خَطَايَهُمْ مِنْ شَيْءٍ إِنَّهُمْ لَكَذِبُونَ ۖ﴾ ^(٣) وَلْيَحْمِلْ أَثْقَالَهُمْ وَأَتَقَالَا مَعَ أَثْقَالِهِمْ وَلَيَسْئَلَنَّ يَوْمَ الْفِئِمَةِ عَمَّا كَانُوا يَفْقَرُونَ ۖ﴾ [العنكبوت: ١٢، ١٣].

﴿عِنْدَهُ﴾ أي: أعند هذا الذي قطع عطاءه وأعرض عن الهداية والرشد علّم بالأمور الغيبية حتى يعلم أن صاحبه يتحمل عنه العذاب؟ وهل عنده ﴿عِلْمُ الْغَيْبِ﴾ أن صاحبه

(١) ذكره السيوطي في «الدر المنثور» (٤٣/١٤).

(٢) رواه الطبري والقرطبي وابن عطية والألوسي وغيرهم عن مجاهد وابن زيد، والواحدي في «أسباب النزول» ص ٢٢٦ وفي سننه ابن لهيعة، وذكره السيوطي في «الدر المنثور» (١٢٨/٦) وزاد في نسبه إلى ابن المنذر وابن أبي حاتم والطبراني وأبي نعيم في «المعرفة» وابن مردويه عن ثابت بن الحارث الأنصاري.

سينفذ ما في يده ويحتاج إليه حتى أمسك عنه معروفه، فهو يرى ذلك عياناً ويطلع عليه؟ وهل هو يعلم أن في إمكان غيره أن يحمل عنه أوزاره وذنوبه يوم القيامة؟ ليس الأمر كذلك، وإنما أمسك عن العطاء شحاً وبُخلًا.

وليست هذه الآيات صفات شخص بعينه، ولكنها تصوير لحالة من حالات الكفر الشائعة قديماً وحديثاً، فملاحة العصر في غرور بالباطل، وإعراض عن الحق، واستعلاء على غيرهم، وجمود على ما هم عليه، وسبب نزول الآيات يوضح الحالة الخاصة، والعبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب، والآيات بعد ذلك، في السياق نفسه.

الْكُفْرُ بِمُحَمَّدٍ ﷺ كُفْرٌ بِجَمِيعِ الْأَنْبِيَاءِ

٣٦، ٣٧- ﴿أَمْ لَمْ يَنْبَأْ^(١) بِمَا فِي صُحُفِ مُوسَىٰ ﴿٣٦﴾ وَإِبْرَاهِيمَ^(٢) الَّذِي وَفَّىٰ ﴿٣٧﴾﴾

إن الكفر بمحمد ﷺ كُفْرٌ بجميع الأنبياء، وإنكارٌ للوحي الذي نزل على رسل الله كلهم، فهلاً اطلع الكافر على ما أخبر به رسل الله من قبل؟ فكثيراً ما ذكر الله تعالى أسماءهم وشرائعهم في كتابه العزيز، وفي الكتب السابقة.

والمعنى: ألم يُخبر هذا الذي أعرض عن الإسلام بما جاء في أسفار التوراة، وصحف إبراهيم الذي وفَّى بما أمر به، وبلغه وقام بأدائه خير قيام، من أنه لا تحمل نفس ذنب أخرى، ولكل إنسان ما اكتسب من الخير أو الشر، وأنه محاسب ومجزى على ما قدمته يده.

وفي هذا ذمٌ لمن أعرض عن الحق وبخل بماله، وذمٌ له على جهله وحمقه، فطالما سأل هذا الكافر وغيره أهل الكتاب عن أخبار موسى ﷺ، فكان عليه أن يسأل عن طلب النجاة من عذاب الله تعالى في شريعة محمد، فإن شريعة موسى معلومة عند اليهود.

ومآثر شريعة إبراهيم يعرفها العرب، ولهذا خُصَّتْ هاتان الشريعتان بالذكر دون غيرهما، وقُدِّمَ موسى ﷺ لاشتهاره بكثرة الأحكام عما وصلهم من شريعة إبراهيم، ﷺ. وقُدِّمَتْ صحف إبراهيم في سورة الأعلى على صحف موسى مراعاة للترتيب الزمني،

(١) أبدل أبو جعفر همزة (ينبأ) ألفاً وصلًا ووقفًا، وفي الوقف حمزة وهشام.

(٢) قرأ هشام (إبراهيم)، والباقون (إبراهيم).

وصحف موسى هي التوراة، وصحف إبراهيم هي التي سجل فيها ما أوحى الله به إليه.
سأل أبو ذر رضي الله عنه رسول الله ﷺ عن الكتب التي أنزلت على الأنبياء، فذكر له منها عشر صحائف أنزلت على إبراهيم ^(١).

أي: أنزل الله عليه ما كُتب فيها، وهي تساوي نحو عشر ورقات بالخط القديم.
فهلّا سأل هذا المُعرِضُ عن دين الله العلماء عن صحف موسى وإبراهيم عليهما السلام، ليُعلم ما يجهله عن وحي الله تعالى ورسله الأكرمين.
أمّا ما وُفّي به إبراهيم عليه السلام فهو كل ما يجب عليه الوفاء به من جميع ما ابتلاه الله به، من سنن الفطرة وغيرها، وما أمره الله به من أصول الدين وفروعه.
ومن ذلك الكلمات التي ابتلاه الله بها فوقّها: ﴿وَإِذْ أَتَىٰ إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ﴾ [البقرة: ١٢٤].

ومنها ما وُفّي به من ذبح ولده إسماعيل لَمّا أمره ربه بذلك، كما قال تعالى: ﴿يَتَذَكَّرُ﴾ [١٢٤] قَدْ صَدَّقْتَ الرُّؤْيَا ﴿[الصفات: ١٠٤، ١٠٥].
ومنها قيامه بجميع الأوامر والنواهي التي أمر بها، فكان بحق إماماً يُقتدى به، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً﴾ [النحل: ١٢٠].
وقال سبحانه: ﴿ثُمَّ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ أَنْ اتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا﴾ [النحل: ١٢٣].

ومما ورد في ذلك ما أخرجه ابن مردويه عن ابن عباس رضي الله عنه قال: وُفّي إبراهيم بسهام الإسلام كلها، وهي ثلاثون سهمًا، منها عشرة في براءة ﴿إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَىٰ﴾ [التوبة: ١١١] وما بعدها، وعشرة في قوله تعالى: ﴿إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ﴾ [الأحزاب: ٣٥] وستة في المؤمنون من أولها، وأربعة في المعارج ﴿وَالَّذِينَ يُضِدُّونَ يُيُومَ الَّذِينَ﴾ [١٢١] فذلك ثلاثون سهمًا فمن وافى الله بسهم منها فقد وافاه بسهم من سهام الإسلام، ولم يوافه بسهام الإسلام كلها إلا إبراهيم عليه السلام ^(٢).

(١) أخرجه ابن حبان برقم (٣٦١ ج ٢ ص ٨١) وقد أورده ضمن الأحاديث الصحاح، وأخرجه الحاكم في المستدرک.

(٢) «الدر المنثور» (٤٧/١٤).

وقد أخرج الحاكم هذا الأثر بسند صحيح عن عكرمة، عن ابن عباس رضي الله عنهما مختصراً قال: سهام الإسلام ثلاثون سهماً، لم يتمها أحد قبل إبراهيم عليه السلام، قال الله تعالى: ﴿وَابْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَّى﴾ (٣٧) ^(١).

عَشْرَةُ أَحْكَامٍ مِمَّا فِي صُحُفِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى عَلَيْهِمَا السَّلَام

٣٨- ﴿أَلَا نَزَرُ وَزَرُهُ وَزَرُ أُخْرَى﴾ (٣٨)

ثم شرع سبحانه في بيان ما أوحاه الله تعالى في صحف إبراهيم وموسى، فذكر منها عشرة أحكام، ثم أتبعها بذكر بعض مصارع المكذبين لرسول الله، للاعتبار بما حدث لهم؛ حتى لا يصيبنا ما أصابهم إن كذبتنا خاتم المرسلين عليه السلام.

أَوَّلًا: ﴿أَلَا نَزَرُ وَزَرُهُ وَزَرُ أُخْرَى﴾ (٣٨)

أي أنه لا عقوبة إلا بنص، فلا تتحمل نفس ذنب نفس أخرى، وكل إنسان يحمل وزر نفسه. وفي هذه الآية ردٌّ على من زعم أن أحداً يتحمل العذاب عن غيره، حيث لم يكتب في صحف إبراهيم وموسى أن أحداً يتحمل العذاب عن غيره، فلا تؤخذ نفس بإثم غيرها، ووزرها لا يحمله عنها أحد، فكل نفس ظلمت نفسها بكُفْرٍ أو شِرْكٍ أو دون ذلك من الذنوب، فإن وزرها عليها، لا يتحمله عنها غيرها، كما قال تعالى: ﴿وَأَن تَدْعُ مُثْقَلَةٌ إِلَىٰ جَمِلِهَا لَا يَحْمِلُ مِنْهُ شَيْءٌ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ﴾ [فاطر: ١٨].

والمتسبب في وزر غيره يحمل وزراً زائداً على وزره، ولا يُعتبر هذا من تحمّل أوزار غيره، ولكنه زيادة في العذاب؛ لأنه أضل غيره، كما قال تعالى: ﴿لِيَحْمِلُوا أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَمِنْ أَوْزَارِ الَّذِينَ يُضِلُّونَهُمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ [النحل: ٢٥].

وقال سبحانه: ﴿وَلِيَحْمِلُوا أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالًا مَّعَ أَثْقَالِهِمْ وَلَيُسْأَلُنَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَمَّا كَانُوا يَفْعَلُونَ﴾ (١٣) [العنكبوت].

ومن هذا القبيل قوله عليه السلام في حديث المنذر بن جرير عن أبيه رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم

(١) صححه الحاكم وأقره الذهبي (٢/٤٧٠١) ومن رواه (المعلّى بن راشد) متكلم فيه، ولشرطه الأول شاهد في «سلسلة الأحاديث الصحيحة» للألباني برقم (١٣٨٧).

قال: «من سنَّ في الإسلام سُنَّةً حسنةً فله أجرها وأجر من عمل بها من غير أن ينقص ذلك من أجورهم شيء، ومن سنَّ سُنَّةً سيئةً كان عليه وزرها ووزر من عمل بها من بعده، من غير أن ينقص من أوزارهم شيء»^(١). فهذا وزر بسبب إضلاله لغيره، وليس وزر غيره.

وفي الحديث: عن ابن مسعود رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «لا تُقتل نفس ظلماً إلا كان على ابن آدم الأول كِفْلٌ من دمها؛ لأنه أول من سن القتل»^(٢).

وجاء في التوراة: عن إبراهيم عليه السلام أنه قال في شأن قوم لوط عليه السلام: أفتهلك البار مع الأثيم؟^(٣). ونظيره في صحف موسى في التوراة: لا يُقتل الآباء عن الأولاد، ولا يُقتل الأولاد عن الآباء، كل إنسان بخطيئته يُقتل^(٤).

وقد حكى الله تعالى عن خليله إبراهيم قوله: ﴿وَلَا تُخْزِي يَوْمَ يُبْعَثُونَ﴾ (٨٧) يَوْمَ لَا يَنْفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ﴿إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾ (٨٨) [الشعراء: ٨٧-٨٩].

كما حكى عن موسى قوله: ﴿أَتَهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ السُّفَهَاءُ مِنَّا﴾ [الأعراف: ١٥٥]. قال تعالى:

٣٩-٤١ - ﴿وَأَنْ لَّيْسَ لِلْإِنْسَانِ إِلَّا مَا سَعَى ﴿٣٩﴾ وَأَنَّ سَعْيَهُ سَوْفَ يُرَى ﴿٤٠﴾ ثُمَّ يُجْزَاهُ الْجَزَاءَ الْأَوَّلَى ﴿٤١﴾﴾
ثانياً: ﴿وَأَنْ لَّيْسَ لِلْإِنْسَانِ إِلَّا مَا سَعَى﴾ (٤١)

أي: أن كل إنسان له عمله الحسن أو السيء، فليس له من عمل غيره وسعيهم شيء.

ومما كُتب في صحف إبراهيم وموسى أنه لا يحصل للإنسان من الأجر إلا ما اكتسبه هو لنفسه بسعيه، فكما أنه لا يُحْمَل عليه وزر غيره، لا يحصل له إلا ثمرة عمله الصالح دون زيادة ولا نقص، وهذا من باب العدل، أما باب الفضل فإن الله تعالى يزيد ما يشاء من فضله وكرمه.

(١) «صحيح مسلم» برقم (١٠١٧).

(٢) النسائي في «الكبرى» (٣٤٣٣، ١١٠٧٧) وهو في البخاري (٣٣٣٥، ٦٨٦٧) ومسلم (١٦٧٧) وابن ماجه (٢٦١٦) والترمذي (٢٦٧٣) و«المسند» (٣٦٣٠) وإسناده صحيح على شرط الشيخين (محققوه) وابن حبان (٥٩٨٣) وعبد الرزاق (١٩٧١٨) وابن أبي شيبة (٣٦٤/٩).

(٣) «تفسير التحرير والتنوير» (١٣١/٢٧).

(٤) «تفسير تفسير التحرير والتنوير» (١٣١/٢٧).

قال عكرمة: إن هذا في شريعة سابقة فلا تلزم في شريعتنا.

وفسر الربيع بن أنس، الإنسان في الآية بالكافر، أما المؤمن فله ما سعى، وما سعى غيره^(١).

ومن سعى الإنسان ما تركه من صدقة جارية أو علم ينتفع به، أو ولد صالح يدعو له، ومن ذلك المرابط والشهيد، والقدوة الصالحة، واقتفاء الأثر في العمل الصالح الذي له أصل في الإسلام، وعليه ذنب من قلّده في العمل السيء، كما أنه ينتفع بالصدقة عنه وبالحج والعمرة والدعاء ونحو ذلك.

ثالثاً: ﴿وَأَنَّ سَعْيَكُمْ سَوَّفَ يُرَى﴾.

يراه الإنسان في الآخرة، فيميز حسناته من سيئاته، تشريعاً للمحسن، وتوبيخاً للمسيء، ويُعرض كلُّ منهما على صاحبه يوم القيامة، ويراه في ميزانه.

وفي هذا بشري للمؤمن، وأنه سيرى أعماله الصالحة ليفرح بها، كما أن الكافر يحزن بأعماله السيئة، فيزداد غمًا حين يرى ذلك في صحيفة أعماله، ويراه في ميزانه.

ويجوز أن تُجسّم الأعمال فتصير مشاهدة، فأمر الآخرة مخالفة لأمر الدنيا.

ويجوز أن تكون هناك علامات على الأعمال تعرف بها كما في قوله تعالى عن المؤمنين: ﴿يَسْعَىٰ نُوْرُهُمْ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِمْ﴾ [الحديد: ١٢].

ويجوز أن تكون رؤية الأعمال بإشهارها وإعلانها، كما قال تعالى عن أهل الأعراف: ﴿أَهْلُوْا۟ الَّذِيْنَ أَقْسَمْتُمْ لَا يَنَالُهُمُ ٱللَّهُ بِرَحْمَةٍ﴾ [الأعراف: ٤٩].

وفي الحديث: عن نافع، عن ابن عمر رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال: «لكل غادر لواء يوم القيامة، فيقال: هذه غدرة فلان»^(٢).

وفي الحديث أيضاً: عن جندب بن عبد الله رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «من سَمِعَ سَمِعَ الله به، ومن يرائي يرائي الله به»^(٣).

(١) «تفسير ابن عطية» (٢٠٦/٥).

(٢) «صحيح البخاري» برقم (٣١٨٨، ٧١١١) و«صحيح مسلم» (١٧٣٥) مختصراً.

(٣) من «صحيح البخاري» برقم (٦٤٩٩، ٧١٥٢) و«صحيح مسلم» (٢٩٨٧).

رابعاً: ﴿ثُمَّ يُجْزَاهُ الْجَزَاءَ الْأَوْفَى﴾ ﴿٤١﴾

أي: ويوم القيامة يُجزى الإنسان على سعيه الجزاء المستكمل لجميع أقواله وأفعاله، وهذا وعد للمؤمن ووعد للكافر، حيث يكون الجزاء على الفعل من جنس العمل، قال تعالى: ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدُهُم مِّن فَضْلِهِ﴾ [النساء: ١٧٣].

وقال سبحانه: ﴿وَلِنَّا لَمَوْفُوهُمْ نَصِيبُهُمْ غَيْرَ مَنْقُوصٍ﴾ [هود: ١٠٩].

وقال جلَّ شأنه: ﴿وَوَجَدَ اللَّهُ عِنْدَهُ فَوْقَهُ حِسَابُهُمْ﴾ [النور: ٣٩].

وقال أيضاً: ﴿فَإِنَّ جَهَنَّمَ جَزَاءُكُمْ جَزَاءً مَّوْفُورًا﴾ [الإسراء: ٦٣].

ما ينتفع به الإنسان بعد موته من عمل غيره وما لا ينتفع:

هذا: وقد توسَّع العلماء في الجمع بين قوله تعالى: ﴿وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَانِ إِلَّا مَا سَعَى﴾ ﴿٣٩﴾ وبين النصوص التي تفيد أن الإنسان قد ينتفع بعمل غيره، وإذا كانت هذه الآية من شرع إبراهيم وموسى، فإن ما ورد في القرآن الكريم من شرع غيرنا هو شرع لنا؛ لأن القرآن يثبت ويقرره، وليس من باب الحكاية، كما أن شرع من قبلنا شرع لنا ما لم يرد ناسخ، وهذه الآية لم تُنسخ، ويقرر معناها في القرآن الكريم آيات كثيرة، منها:

قوله تعالى: ﴿إِن أَحْسَنْتُمْ أَحْسَنُتُمْ لِنَفْسِكُمْ وَإِن أَسَأْتُمْ فَلَهَا﴾ [الإسراء: ٧].

وقوله تعالى: ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا﴾ [فصلت: ٤٦].

وقوله جلَّ شأنه: ﴿وَمَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ يَمْهَدُونَ﴾ [الروم: ٤٤].

والآية تقرر أن الإنسان لا يستحق أجراً إلا على سعي نفسه، ولم تتعرض لانتفاعه بسعي غيره بنفي أو إثبات؛ لأن اللام في ﴿لِلْإِنسَانِ﴾ تدل على أن الإنسان لا يستحق ولا يملك شيئاً إلا بسعيه، ولم تتعرض الآية لنفي الانتفاع بما ليس ملكاً ولا مستحقاً له^(١).

والظاهر أن الآية عامة خُصصت بكثير من الأمور في الكتاب والسنة: فمن الكتاب قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَاتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُمْ بِإِيمَانٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ﴾ [الطور: ٢١] فأدخل الله الأبناء

(١) «أضواء البيان» للشيخ الشنقيطي (٧/٧٠٨).

درجة أعلى في الجنة بصلاح الآباء.

وقوله سبحانه: ﴿أَدْخِلُوا آلَ إِبْرَاهِيمَ الْجَنَّةَ أَنَّهُمْ وَآزْوَاجُهُمْ وَأَزْوَاجُهُمْ تُخْبَرُونَ﴾ [الزخرف].

وقوله جلَّ شأنه: ﴿إِنَّا نَحْنُ نُحْيِي الْمَوْتِ وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا وَآثَرَهُمْ﴾ [يس: ١٢].

وقد أجمع العلماء على أن الميت ينتفع بخمسة أشياء، هي:

١- الصلاة عليه. ٢- والدعاء له. ٣- والحج عنه.

٤- والصدقة له. ٥- وقضاء الدين عنه.

عشرون دليلاً لابن تيمية على انتفاع الميت بعمل غيره:

قال ابن تيمية: ومن اعتقد أن الإنسان لا ينتفع إلا بعمله فقد خرق الإجماع، وذلك باطل من عشرين وجهاً:

أولاً: الإنسان ينتفع بدعاء غيره.

ثانياً: النبي ﷺ يشفع لأهل الموقف في الحساب، ثم يشفع لأهل الجنة في دخولها.

ثالثاً: النبي ﷺ يشفع لأهل الكبائر في الخروج من النار.

رابعاً: الملائكة يستغفرون ويدعون لمن في الأرض.

خامساً: الله تعالى يُخرج من النار من لم يعمل خيراً قط من المؤمنين، بمحض رحمته تعالى وفضله.

سادساً: أولاد المؤمنين يدخلون درجة أعلى في الجنة بعمل آبائهم.

سابعاً: انتفاع الغلامين اليتيمين بصلاح أبيهما، كما في قوله تعالى: ﴿وَكَانَ أَبُوهُمَا صَالِحًا﴾ [الكهف: ٨٢].

ثامناً: ينتفع الميت بالصدقة عنه وبالعق من الرق.

تاسعاً: يسقط الحج المفروض عن الميت بحج وليه عنه.

عاشراً: يسقط الحج المنذور والصوم المنذور عن الميت، بعمل غيره له وأدائه عنه.

حادي عشر: امتنع النبي ﷺ من الصلاة على مدينتين، حتى قضى أبو قتادة دين الميت الأول، وقضى علي بن أبي طالب دين الميت الثاني، وانتفعا بصلاة النبي ﷺ عليهما.

قلت: وهذا كان قبل أن يفتح الله على رسوله من الغزوات وغيرها، حيث تحمل هذه الديون عن أمته فيما بعد.

ثاني عشر: قال النبي ﷺ لمن صَلَّى وحده: «ألا رجل يتصدق على هذا فيصلي معه»^(١) فيحصل له فضل صلاة الجماعة بصلاة غيره معه.

ثالث عشر: تبرا ذمة الإنسان من الديون، إذا قضاها عنه غيره.

رابع عشر: من كانت عليه تبعات ومظالم تحلل منها أصحابها -سقطت عنه، وهذا انتفاع له بعمل غيره.

خامس عشر: الجار الصالح ينفع جاره في الحياة وبعد الممات.

سادس عشر: جليس أهل الذكر، وإن لم يجلس بقصد الذكر يُرحم معهم، فينتفع بعملهم.

سابع عشر: ينتفع الميت بصلاة الحي عليه، والدعاء له.

ثامن عشر: الجمعة والجماعة يحصل أجرهما باجتماع الناس وكثرتهم، فينتفع بعضهم من بعض.

تاسع عشر: يُرفع العذاب عن بعض الناس بسبب بعضهم، كما قال تعالى: ﴿وَمَا كَانَتْ أَلَلَةٌ لِّعَذَابِهِمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ﴾ [الأنفال: ٣٣].

وقال سبحانه: ﴿وَلَوْلَا رِجَالٌ مُّؤْمِنُونَ وَنِسَاءٌ مُّؤْمِنَاتٌ لَّزَّ تَعْلَمُوهُمْ أَنْ تَطَّوَّهُمْ﴾ [الفتح: ٢٥] وهذا انتفاع لهم بعمل غيرهم.

عشرون: صدقة الفطر تُشرع عن الصغير وعن غيره ممن يمولهم الرجل، ولا سعي لهم في ذلك.

ومن تأمل العمل وجد كثيرا من الانتفاع بعمل غيره بما لا يكاد يُحصى^(٢).

(١) من حديث أبي سعيد الخدري في سنن أبي داود ١٥٧/١ برقم ٥٧٤ بتصحيح الألباني وهو في المسند من حديث أبي أمامة (٢٢٣١٥، ٢٢١٨٩) وهو حديث صحيح، كما قال محققوه، وهذا مرسل، إسناده صحيح ورجاله ثقات، (محققوه) وأخرجه الطبراني في الكبير (٧٨٥٧) وفي الأوسط (٦٦٢٠).

(٢) يُنظر: «حاشية الجمل على الجلالين» (٢٣٦/٤).

ومن الأحاديث والآثار الواردة في ذلك:

١- قوله ﷺ من حديث أبي هريرة ؓ: «إذا مات الإنسان انقطع عمله إلا من ثلاثة: إلا من صدقة جارية، أو علم يُنتفع به، أو ولد صالح يدعو له»^(١).

وهو حديث عام يشمل كل إنسان في الانتفاع بهذه الثلاث: العلم، والصدقة الجارية، ودعوة الابن، كما في الحديث عن عائشة أن النبي ﷺ قال: «ولد الرجل من أطيب كسبه، فكلوا من أموالهم هنئًا»^(٢).

٢- وعن ابن عباس أن امرأة من خثعم سألت رسول الله ﷺ، فقالت: إن فريضة الله على عباده في الحج أدركت أبي شيخاً كبيراً لا يستطيع أن يستوي على الراحلة، فهل يقضي عنه أن أحج عنه؟ قال: «نعم، حُجِّي عنه»^(٣).

ورود مثل ذلك عن امرأة من جهينة: أن أمها نذرت الحج ولم تحج، فقال ﷺ: «حُجِّي عنها»^(٤).

٣- وفي حديث بريدة ؓ: أن امرأة أتت رسول الله ﷺ فقالت: إن أُمِّي ماتت وعليها صوم شهر، أفيجزئ - أو يقضي - أن أصوم عنها؟ قال: «نعم» قالت: وإنها لم تحج، أفيجزئ أو يقضي عنها أن أحج عنها؟ قال: «نعم»^(٥).

٤- وفي حديث ابن عباس ؓ: أن رجلاً قال: يا رسول الله، إن أُمِّي تُوفيت، أفينفعها إن تصدّقتُ عنها؟ قال: «نعم»^(٦).

٥- وسأل عمرو بن العاص ؓ رسول الله ﷺ أن يعتق عبيداً له من الرق مثل أخيه، فقال

(١) «صحيح مسلم» برقم (١٦٣١) عن أبي هريرة.

(٢) «المسند» (٣١/٦) برقم (٢٤٩٥١، ٢٥٤٠٠، ٢٤٠٣٢) قال محققوه: وهو حديث حسن لغیره لجهالة عمّة عمارة بن عمير التيمي، وأبو داود برقم (٣٥٢٨) والترمذي برقم (٣٥٨) وقال: حسن صحيح، وهو عن عائشة، وأخرجه الطيالسي (١٥٨٠) وابن أبي شيبة (١٥٨/٧).

(٣) «صحيح البخاري» بأرقام (١٥١٣، ١٨٥٤، ١٨٥٥) و«صحيح مسلم» برقم (١٣٣٤) مطوّلاً.

(٤) «صحيح البخاري» (١٣١٥)، (١٨٥٢) و«صحيح مسلم» (١٣٣٤) مطوّلاً، وفي البخاري (١٨٥٢).

(٥) «صحيح مسلم» برقم (١١٤٩)، وانظر حديث عائشة عند البخاري (١٩٥٢) وابن عباس (١٩٥٣).

(٦) «صحيح البخاري» برقم (٢٧٧٠، ٢٧٥٦).

- له: «لو كان أبوك مسلماً فأعتقتم عنه، أو تصدقتم عنه، أو حججتم عنه، بلغه ذلك»^(١).
- ٦- وبعد موت عبد الرحمن بن أبي بكر، أعتقت عنه عائشة رضي الله عنها رقاباً من الرق واعتكفت عنه.
- ٧- وعن ابن عمر وابن عباس رضي الله عنهما: أنهما أفتيا امرأة جعلت أمها على نفسها، أي: نذرت صلاة بمسجد قباء، ولم تفِ بنذرهما، أن تصلي عنها بمسجد قباء، أي: هل يجوز ذلك؟
- ٨- وأمر النبي ﷺ سعد بن عباد رضي الله عنه أن يقضي نذراً نذرته أمه، قيل: كان عتقاً، وقيل: صدقة، وقيل: نذراً مطلقاً، قال سعد: إن أمي توفيت قبل أن تقضيه، فقال ﷺ: «اقضه عنها»^(٢).
- ٩- وفي الحديث: عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «من دعا إلى هدى كان له من الأجر مثل أجور من تبعه، لا ينقص ذلك من أجورهم شيئاً، ومن دعا إلى ضلالة كان عليه من الإثم مثل آثام من تبعه لا ينقص ذلك من آثامهم شيئاً»^(٣).
- ١٠- وعن ابن عباس رضي الله عنهما أن امرأة رفعت صبيّاً لها فقالت: يا رسول الله، ألهذا حج؟ قال: «نعم، ولك أجر»^(٤).
- ١١- وعن عائشة رضي الله عنها قالت: إن رجلاً قال لرسول الله ﷺ: إن أمي افئلتت نفسها، وأظنها لو تكلمت تصدّقت، فهل لها أجر إن تصدّقت عنها؟ قال: «نعم»^(٥).
- ١٢- وورد أن عبد الله بن أبيّ بن سلول، كان قد أعطى العباس قميصاً ألبسه إياه، فلما مات أرسل رسول الله ﷺ قميصه ليكفن فيه، فلم يبق له في الآخرة حسنة يثاب عليها.

(١) حسنه الألباني في صحيح أبي داود (٢٥٠٧).

(٢) من حديث ابن عباس عند البخاري (٢٧٦١، ٦٦٩٨) ومسلم (١٦٣٨) وأبي داود (٣٣٠٧) وابن ماجه (٢١٣٢) والترمذي (١٥٤٦) و«المسند» (١٨٩٣) وإسناده صحيح على شرط الشيخين (محققوه)، وابن حبان (٤٣٩٣) والنسائي في «الكبرى» (٤٧٤٠، ٤٧٥٣).

(٣) «صحيح مسلم» برقم (٢٦٧٤).

(٤) «صحيح مسلم» (١٣٣٦) وأبو داود (١٧٣٦) و«المسند» (١٨٩٨) وإسناده صحيح على شرط مسلم، ورجاله ثقات (محققوه) وابن حبان (١٤٤) و«سنن النسائي الكبرى» (٣٦١١-٣٦١٥) وألفاظه متقاربة.

(٥) «صحيح البخاري» برقم (١٣٨٨، ٢٧٦٠) و«صحيح مسلم» برقم (١٠٠٤) وفي الوصية (١٢).

وقد أجمع أهل العلم على أنه لا يؤمنُ أحد عن أحد، وما عدا الإيمان من شرائع الإسلام، فإنَّ ما كان منه مِنْ عمل الأبدان فليس فيه للإنسان إلا ما سعى، ولا يجزئ عنه سعي غيره؛ لأن المطلوب في عمل البدن هو الإنسان نفسه.

ومثل ذلك ما يقصد به تركية الإنسان نفسه، والترويض على مراقبة الله تعالى في السر والعلن، وتعويدها الخير من النوافل والقربات، فالنيابة في مثل هذا لا تجوز.

أما ما كان المقصد منه تكثير الخير وزيادة الحسنات بالقرب، والنوافل من الأقوال والأعمال، فالنيابة تجوز فيه.

والصحيح أن المسلم يدعو لأخيه المسلم بعد قراءة القرآن، فإن الأجر يصل للميت وللحيّ بمشيئة الله تعالى، وقد ورد في حديث عائشة ؓ أنها قالت: كان رسول الله ﷺ يُعوّذ نفسه بالمعوذات، فلما ثقل به المرض كنت أَعُوّذه بهما، وأضع يدي على جسده رجاء بركتها^(١).

فقد صَحَّت النيابة في قراءة القرآن والتبرك به ﷺ في هذا الحديث، فيصح الدعاء من باب أولى، ويجوز الاستجار على النيابة في القرب. قال تعالى:

٤٢-٤٤- ﴿وَأَنۢ إِلَىٰ رَبِّكَ أَلۡمُنَٰهٖ ﴿٤٢﴾ وَأَنَّهُ هُوَ أَضَحَّكَ وَأَبۡكَى ﴿٤٣﴾ وَأَنَّهُ هُوَ أَمَاتَ وَأَحَيَا﴾

نقل القرطبي عن السدي، عن أبي صالح قال: هذه الحروف التي ذكر الله تعالى من قوله: ﴿أَمْ لَمْ يُبَيِّنْ بِمَا فِي صُحُفِ مُوسَىٰ ﴿٣٦﴾﴾ إلى قوله: ﴿هَٰذَا نَذِيرٌ مِّنَ النَّذِرِ الْأَوَّلِ ﴿٥١﴾﴾ كل هذا في صحف إبراهيم وموسى، وعليه فتكون الآيات التالية من تنمة ما في صحف إبراهيم وموسى.

خامساً: ﴿وَأَنۢ إِلَىٰ رَبِّكَ أَلۡمُنَٰهٖ ﴿٤٢﴾﴾ .

أي: إليه تنتهي جميع الأمور، وإليه يصير كل شيء وإليه البعث والنشور، وإليه ينتهي العلم والحكمة والرحمة وسائر الكمالات، وهكذا:

وأن إلى ربك -أيها الرسول- انتهاء جميع خلقه يوم القيامة، فإن مرجعهم ومصيرهم

(١) ينظر نحوه في صحيح البخاري (٤١٧٥) ولفظه (كان رسول الله ﷺ إذا اشتكى نفث على نفسه بالمعوذات ومسح عنه بيده) الخ.

إليه، فيجزى الذين أساءوا بما عملوا، ويجزي الذين أحسنوا بالحسنى، فيراد بالمتتهى: الحشر والمصير بعد الموت، فهو متتهى بالنسبة إلى الدنيا، وبعد ذلك الجنة والنار، والله تعالى هو الذي ينتهي إليه استدلال العقل، وإليه تنتهي الخلائق.

وفسر أبي بن كعب الآية بأنه لا فكرة في الرب^(١).

أي: إن العبد يجب عليه أن ينتهي عن التفكير في ذات الله تعالى فإنه لن يصل إلى شيء، وقد أمرنا النبي ﷺ أن نفكر في آلاء الله تعالى وآياته الكونية، ونستدل بذلك على وجوده سبحانه، ولا نفكر في ذات الله تعالى؛ فإن ذلك يؤدي إلى الهلاك، فعن أبي ذر رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «تفكروا في خلق الله، ولا تفكروا في الله فتهلكوا»^(٢).

وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: مرَّ النبي ﷺ على قوم يتفكرون في الله تعالى، فقال: «تفكروا في الخلق ولا تفكروا في الخالق، فإنكم لا تقدرونه»^(٣).

سادساً: ﴿وَأَنْتَ هُوَ أَضْحَكُ﴾

ومن أحوال الآخرة إلى أحوال الدنيا، أي أنه سبحانه ﴿أَضْحَكُ﴾ من شاء في الدنيا، بأن أوجد في الكون ما يسره ويضحكه ﴿وَأَبْكِي﴾ من شاء في الدنيا، فأوجد ما يؤدي إلى حزنه وغمه، فقد خلق الله أسباب الخير والشر، والفرح والحزن، والسرور والهم والغم، وسبب المؤثرات، وأوجد المشاعر والأحاسيس والأسباب والدوافع، وقد رمز الله سبحانه إلى الحزن والفرح: بالضحك والبكاء في الدنيا والآخرة لإفادة الإحاطة بأحوال الإنسان، وإن كانت متفاوتة في الضعف والقوة، وله الحكمة البالغة في كل ذلك.

سابعاً: ﴿وَأَنْتَ هُوَ أَمَاتُ﴾

أي أنه سبحانه أَمَات من أراد موته من خلقه بقدرته وإرادته ﴿وَأَحْيَا﴾ من أراد حياته منهم بالبعث بعد الموت، فهو المتفرد بالحياة والموت، والإيجاد والإعدام، وهو المستحق للعبادة دون سواه، قال تعالى: ﴿الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ [الملك: ٢].

(١) «تفسير البغوي» (٤١٧/٧) وأخرجه أبو الشيخ في «العظمة» عن سفيان الثوري برقم (٦) بإسناد حسن كما قال المحقق.

(٢) حسنه الألباني عن أبي الشيخ في «السلسلة الصحيحة» برقم (١٧٨٨) وقد أخرجه أبو الشيخ برقم (٤).

(٣) أبو الشيخ (٥) وحسنه الألباني في المصدر السابق.

والذي أوجد الخلق أمرهم ونهاهم، وسوف يعيدهم بعد موتهم، ويجازيهم بما عملوه من خير أو شر، وأيضًا فإنه تعالى أحيا قلوب من شاء بالإيمان، وأمات قلوب من شاء بالكفر، وأحيا الأرض بالنبات، وأماتها بالجذب والقحط، وهكذا. قال تعالى:

٤٥، ٤٦- ﴿وَأَنْتُمْ خَلَقَ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالْأُنْثَىٰ ۖ مِنْ نُطْفَةٍ إِذَا تُمْنَىٰ ۚ﴾ (٤٦)

ثامناً: وأنه سبحانه خلق الذكر والأنثى من الإنسان والحيوان، والنبات والطيور... إلخ، كما قال تعالى: ﴿وَمِنْ كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ (٤٦) [الذاريات].

وقال سبحانه: ﴿يَجْمَلُ مِنْهُ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالْأُنْثَىٰ﴾ (٣٩) [القيامة]

ويبدو أن المراد بالزوجين خصوص الإنسان؛ لأن سياق الكلام عنه.

وقد خلق الله الذكر والأنثى من نطفة تتدفق من صلب الرجل، وتُصبُّ في رحم المرأة، حيث تلتقي نطفة الرجل ببويضة المرأة، ويختلطان في قرار الرحم، وماء المرأة يخرج مع بويضة دقيقة، تتسرب مع دم الحيض، وتستقر في كيس دقيق، فإذا باشر الذكر الأنثى انحدرت تلك البويضة من الأنثى، واختلطت مع ماء الذكر، وعند التقاء النطفتين يبتدئ تخلُّق النسل ما لم يُعْقَه عائق.

وهذا من أعظم الدلائل على كمال قدرة الله تعالى، وانفراده بالعزة والسلطان، حيث خلق الإنسان من ماء مهين، ثم نمَّأها حتى بلغت ما بلغت، وقد أحسن الله خلقه وصوّره في أحسن صورة، وجعله في أعلى عِلين، أو في أسفل سافلين، بمقتضى عمله واختياره طريق الهدى أو الضلال. قال تعالى:

٤٧، ٤٨- ﴿وَأَنَّ عَلَيْهِ النَّشَأَ الْأُخْرَىٰ ۖ وَأَنَّ هُوَ آغَىٰ وَأَفْقَىٰ﴾ (٤٨)

تاسعاً: ﴿وَأَنَّ عَلَيْهِ النَّشَأَ الْأُخْرَىٰ﴾ (٤٧)

المراد بالنشأة الأخرى: الخلق الثاني بعد الموت للبعث والحساب والجزاء يوم القيامة، وهي النشأة التي ليس بعدها نشأة، وهي في مقابلة النشأة الأولى، التي هي الإيجاد والخلق والتكوين.

(١) قرأ ابن كثير وأبو عمرو (النشأة)، والباقون (النشأة) وهما لغتان.

أي: وإن على ربك -أيها الرسول- إعادة الخلق بعد مماتهم، فكما قدّر سبحانه على البدء، فهو على الإعادة أقدر، فيعيد العباد من الأجداث، ويجمعهم ليوم الميقات، ويجازيهم على الحسنات والسيئات.

عاشراً: ﴿وَأَنَّهُ هُوَ أَغْنَىٰ وَأَقْنَىٰ﴾

أي: وأنه سبحانه أغنى من شاء من خلقه وفق حكمته، أغناه بالمال والمتاع والجاه، وملّكه لهم وأرضاهم به، ويسّر لهم أسباب المعاش وأنواع المكاسب.

ومعنى ﴿وَأَقْنَىٰ﴾ ضد معنى ﴿أَغْنَىٰ﴾ أي: وأنه سبحانه أغنى وأفقر، وبهذا قال ابن زيد. كما قال تعالى: ﴿يَسْطُرُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ وَيَقْدِرُ﴾ [سبأ: ٣٦] وهذا يناسب الآيات قبلها: أضحك وأبكى، وأمات وأحيا، والذكر والأنثى.

وقد قال المفسرون في ﴿وَأَقْنَىٰ﴾ أقوالاً كثيرة، أبرزها: أنها بمعنى: الرضى والقناعة، فتكون ﴿وَأَقْنَىٰ﴾ بمعنى: أرضى، أي: أعطى فأرضى، والشراء عرض زائل، والقناعة خير قُنية. وقيل: إن ﴿وَأَقْنَىٰ﴾ من القُنية، وهي الشيء الذي يُدَّخر ويُقنَى، وقد أعطى الله عباده من الأموال ما يملكونه ويقتنونه.

فيكون المعنى: وأنه أغنى وأعطى ما يُدَّخر ويُقنَى، فموارد الرزق وأسبابها وموانعها بيد الله سبحانه، والمعنى الأول مأثور عن ابن عباس رضي الله عنهما ^(١).

وكل هذا من نعم الله تعالى على عباده الموجبة للشكر وإخلاص العبادة للمنعّم سبحانه.

كَوْكَبُ الشُّعْرَى

٤٩- ﴿وَأَنَّهُ هُوَ رَبُّ الشُّعْرَى﴾

ولما كان بعض الناس في الجاهلية يعبدون كوكب الشُّعْرَى، المسمى بالمرزم، وقت التنزيل، فقد خصه الله تعالى بالذكر، وهو سبحانه رب كل شيء، فقد أخبر سبحانه أن هذا النجم وغيره مخلوق لله تعالى، وليس إلهاً كما يزعمون، فكيف يُتخذ إلهاً مع الله؟ فقال سبحانه: ﴿وَأَنَّهُ هُوَ رَبُّ الشُّعْرَى﴾ أي: وأنه تعالى رب الكوكب المسمى بالشُّعْرَى، وكانت قبيلاً خزاعة وحمير تعبدانه.

(١) يُنْظَرُ: «تفسير الطبري» (٨٤/٢٢) و«الإتقان» (٤٥/٢).

وأول من سنَّ لهم ذلك أبوكبشة، قال: لأن النجوم تقطع السماء عرضًا، والشعري تقطعها طولًا، فهي مخالفة لبقية النجوم، ولذا فإن النبي ﷺ لما بُعث وخالف العرب في الدين سموه: ابن أبي كبشة، تشبيهاً له بأبي كبشة الذي خالفهم وعبدَ الشعري^(١).

وكان أبو كبشة من أجداد النبي ﷺ من جهة أمه، فكان كفار مكة يريدون التغطية على دعوة التوحيد، فيقولون: إن محمدًا يدعو إلى عبادة الشعري.

ولما أيد الله رسوله بمعجزة انشقاق القمر، قالوا: سحرَكم ابن أبي كبشة، وقال أبو سفيان لمن حوله وهو في حضرة هرقل: لقد بلغ أمر ابن أبي كبشة أنه يخافه ملك بني الأصفر.

والشعري: اسم نجم من نجوم برج الجوزاء، شديد الضياء، وهو من البروج التي تظهر في فصل الربيع.

وسميت الجوزاء: لشدة بياضها في سواد الليل، تشبيهاً لها بالشاة الجوزاء، وهي شاة سوداء في وسطها بياض.

والشعري أبرز نجوم الجوزاء، ويقال لها: الشعري اليمانية؛ لأنها إلى جهة اليمن.

وهناك كوكب آخر اسمه: الشعري الغميضاء، وهو ليس من كواكب الجوزاء.

وقد خُصت الشعري بالذكر؛ لأن أبا كبشة -وهو من كبار العرب- قد عبدها، ودعا الناس إلى عبادتها، فذكرت في هذه السورة إلحاقاً لها بالآلات والعزى ومناة.

وقبيلة خزاعة التي عبدت الشعري كانوا مجاورين لأهل مكة، فلما عبدوها ظهرت عبادة الكواكب في الحجاز.

فإثبات أن الشعري مخلوقة لله تعالى دليل على إبطال عبادتها؛ لأن المخلوق لا يكون إلهاً^(٢).

كما قال تعالى: ﴿لَا تَسْجُدُوا لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ وَاسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَهُنَّ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ﴾ (٢٧) فَإِنْ اسْتَكْبَرُوا فَالَّذِينَ عِنْدَ رَبِّكَ يُسَبِّحُونَ لَهُ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَهُمْ لَا يَسْأَمُونَ ﴿٢٨﴾ [فصلت].

(١) «تفسير الخازن» (٢٠٠/٤) والقرطبي (١١٩/١٧) وأبو السعود (١٦٣/٥).

(٢) «تفسير التحرير والتنوير» بتصرف، مجلد (٢٧/١٥٠-١٥٢).

وكانت الأصنام التي عبدها المشركون أكثر من ثلاث مئة وستين صنماً معظمها حول الكعبة، وقد حطمها النبي ﷺ بقضيب في يده يوم فتح مكة، وهو يقول: ﴿وَقُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا﴾ (٨١) [الإسراء].

الاعتبار بمصارع أربعة من الغابرين:

٥١، ٥٠ - ﴿وَأَنذَرْتُ أَهْلَكَ عَادًا^(١) الْأُولَى^(٢) وَثَمُودًا^(٣) فَمَا أَتَى^(٤)﴾

وبعد هذه الجولة في الأنفس والآفاق، ساقطت السورة جانباً من مصارع الغابرين، فذكرت منهم أربعة، هم قوم عاد، وقوم ثمود، وقوم نوح، وقوم لوط.

أولاً: قوم عاد

قال تعالى عن قوم عاد: ﴿وَأَنذَرْتُ أَهْلَكَ عَادًا الْأُولَى﴾ وهم قوم هود، كذبوا نبيهم حين دعاهم إلى توحيد الله تعالى وعبادته، فرموه بالسفاهة والضلال، وقد أهلكهم الله بالريح الصرصر العاتية، لا تذر من شيء أتت عليه إلا جعلته كالريم ﴿سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَتَمَينَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا فَتَرَى الْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَى كَأَنَّهُمْ أُعِجَازٌ نَحْلٍ حَاقِيَةٍ﴾ [الحاقة].

ثانياً: قوم ثمود

أما عاداً الآخرة فهم قبيلة ثمود، قوم صالح، وقوم عاد متقدمة في الزمان على عاد الآخرة. وقد أهلك الله عاداً الأخرى، وهم قوم ثمود، ونبيهم صالح ﷺ، دعاهم إلى توحيد الله تعالى وعبادته وأيده بمعجزة الناقة، فكذبوه وتآمروا على قتله وعقروا الناقة، فأرسل الله عليهم صيحة واحدة، صاح بها جبريل ﷺ، فلم يُبق منهم أحداً، فأصبحوا في دارهم جاثمين، كأنهم لم يكونوا فيها من قبل، وأهلكهم الله جميعاً، وتراهم بعد هلاكهم كهشيم المحتظر، فدمرهم الله تدميراً. ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ صَيْحَةً وَاحِدَةً فَكَانُوا كَهَشِيمٍ الْمُخْتَطِرِ﴾ [القمر].

(١) قرأ نافع وأبو عمرو وأبو جعفر ويعقوب بنقل همزة (عاد الأولى) إلى اللام قبلها وحذف الهمزة مع إدغام تنوين (عاداً) في لام (الأولى) غير أن قالون يقرأ بهمزة ساكنة بعد اللام المضمومة بدلاً من الواو، وقرأ الباقون بإظهار تنوين (عاداً) وكسره، وإسكان لام (الأولى) وتحقيق الهمزة بعدها مضمومة مع إسكان الواو، وهذا في حالة الوصل، فإن وقف على (عاداً) وابتدأ بـ (الآن) ففيها وجوه كثيرة لا مجال لذكرها.

(٢) قرأ عاصم وحزمة ويعقوب بفتح الدال غير منونة على المنع من الصرف من (ثمود) اسم للقبيلة، والوقف بدال ساكنة، ونونها الباقون على إرادة الحي، ويقفون بالألف.

ثَالِثًا: قَوْمُ نُوحٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ

٥٢- ﴿وَقَوْمٌ نُوحٍ مِنْ قَبْلُ إِنَّهُمْ كَانُوا هُمْ أَظْلَمَ وَأَطَىٰ﴾ ﴿٥٢﴾

وأهلك الله سبحانه قوم نوح بالطوفان، وكانوا في الترتيب الزمني قبل عاد وثمود، وهم أول أمة كذبت رسولها من أهل الأرض، ونوح أول رسول، وكان قومه أشد تمرّداً، وأعظم كفرًا من الذين جاؤوا بعدهم، فكانوا لا يتأثرون بدعوته رغم طول المدة فيهم، ألف سنة إلا خمسين عامًا، كلما ذهب قرن جاء قرن آخر، وهم مستمرون في الإعراض عنه، عاكفون على أذاه، فقد كانوا يضربونه حتى لا يكاد يتحرك، وكان الرجل منهم يأخذ بيد ولده ويمشي به إلى نوح عليه السلام فيحذره منه، ويقول له: يا بُنَيَّ، إن أبي مشى بي إلى هذا الرجل، وأنا في سنّك، وحذّرني منه، فإياك أن تصدّقه، فيموت الكبير على الكفر، وينشأ الصغير وهو ييغض نوحًا^(١). وقد أرسل الله عليهم الطوفان فأغرق الكافرين به جميعًا.

رَابِعًا: قَوْمُ لُوطٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ

٥٣-٥٥- ﴿وَالْمُؤْتَفِكَةَ أَهْوَىٰ ۖ فَغَشَّيْنَا مَا غَشَّى ﴿٥٤﴾ فَيَأْتِي آلَاءُ رَبِّكَ تَتَمَارَىٰ ﴿٥٥﴾﴾

أرسل الله نبيه لوطًا إلى أهل المؤتفكة ودعاهم إلى توحيد الله تعالى وترك فاحشة اللواط، فكذبوه وهددوه بالطرد، واستمروا على طغيانهم وفسقهم، فعاقبهم الله تعالى بما يناسب جريمتهم، فقد أهلك الله مدائن قوم لوط بالأردن، وهي قرى أربع: سدوم، وعمورة، وآدمه، وصبوييم. وعبر القرآن عنها هنا بالمؤتفكة، وفي سورة براءة [٧٠] بالمؤتفكات، وكذا في سورة الحاقة [٩] ﴿وَجَاءَ فِرْعَوْنُ وَمَنْ قَبْلَهُ وَالْمُؤْتَفِكَةُ بِالْخَاطِئَةِ﴾ ﴿٩﴾.

والإتفاك: هو الانقلاب، حيث خسف بها جبريل، أي: قلبها فجعل عاليها سافلها، وهذا معنى ﴿أَهْوَىٰ﴾ أي: أسقطها وقلبها عليهم، كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَنزَلْنَا عَلَىٰ آلِ قَارُونَ الْمَاءَ وَأَمْطَرْنَا مَطَرًا أَسْوَأَ أَكَلَمٍ يَكُونُوا يَكُونُوا بِرُؤُسِهِمْ لَوْلَا كَانُوا لَا يَرْجُونَ نُشُورًا﴾ ﴿٤٠﴾ [الفرقان].

وقال سبحانه: ﴿فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَلَىٰ سَافِلِهَا وَأَمَاطْنَا عَنْهَا جِبَارَةً مِّنْ سِجِّيلٍ﴾ [هود: ٨٢].

(١) يُنظر: «البحر المحيط» (١٧٠/٨) والطبري (٨٩/٢٢) وعبد بن حميد وابن المنذر عن قتادة.

(٢) قرأ يعقوب بإدغام التاء الأولى في الثانية من (ربك تمارى) والنطق بقاء واحدة مشددة وهذا في حالة الوصل، فإذا ابتداء ب(تمارى) أظهر التاءين كقراءة الآخرين في الحاليين.

وهذا ما يشير إليه قوله تعالى: ﴿فَعَسَّهَا مَا غَشَّى﴾ (٥٦) أي: أصابها من الهلاك والدمار ما أصابها، وألبسها ما ألبسها من الحجارة التي وقعت عليها، وغطاها من ألوان العذاب ما غطى، بأن فاضت عليها مياه غمرت بلادهم، فأصبحت بحرًا مِيًّا لا يُتَنَفَّعُ بمياهه، وجعلها عبرة مشاهدة يراها السابق واللاحق، وهذا العذاب الذي أصابهم لم يعذب الله به أحدًا من العالمين، حيث قلب أسفل ديارهم أعلاها وأمطر عليهم حجارة من سجيل، وهذا التهويل والتفخيم الذي اشتملت عليه الآية جاء أيضًا بالنسبة لفرعون وقومه، فقال تعالى: ﴿فَفَشِّهْم مِّنَ الَّيْمِ مَا غَشَّيَهُمْ﴾ [طه: ٧٨]. أي شيء عظيم لا يمكن وصفه.

ثم تشير هذه الآية إلى ما سبق في السورة من النعم والنقم؛ لأن في النقم عظات للمتعتين، وعبرًا للمعتبرين، فهي نعم بهذا الاعتبار، وقد مرَّت في السورة نِعَمٌ خاصة بالنبي ﷺ فيما يتعلق بالوحي والمعراج، ونِعَمٌ للناس جميعًا من ﴿أَضْحَكَ وَأَبْكَ﴾ إلى ﴿أَعْنَى وَأَقْنَى﴾ إلى جوار النقم التي فيها مصارع المكذبين.

فبأي نعمة من هذه النعم أيها الإنسان المكذِّب تُشْكُ وتتردد؟ إنك لا تستطيع التشكك في واحدة منها، ولا في غيرها من نعم الله تعالى، فهي نعم ظاهرة لا تقبل الشك بوجه من الوجوه، قال تعالى: ﴿وَمَا يَكُم مِّن نِّعْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ﴾ [النحل: ٥٣] ولا يدفع النقم إلا الله سبحانه، وهذا كقوله تعالى: ﴿فَيَأْتِيْءَ الْآلَاءَ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ (١٣) [الرحمن].

إِنذَارٌ وَتَحْذِيرٌ قَبْلَ قِيَامِ السَّاعَةِ

٥٦-٥٨ - ﴿هَٰذَا نَذِيرٌ مِّنَ النَّذْرِ الْأَوَّلِ﴾ (٥٦) ﴿أَرَأَيْتَ الْآزِفَةَ﴾ (٥٧) ﴿لَيْسَ لَهَا مِن دُونِ اللَّهِ كَاشِفَةٌ﴾

أي: أن هذا النبي القرشي الهاشمي، محمد بن عبد الله، ليس بدعًا من الرسل، فقبله رُسُلٌ كثيرون، دعوا إلى ما دعا إليه من التوحيد والعبادة، وقد قُرِبَت الساعة، فإذا أت وجاءهم العذاب الموعود به فلا مرد له من الله ولا دافع يدفعه.

وبعد ذكر ما لحق بالأمم المكذبة لرسل الله من عذاب، حذَّر سبحانه أمة محمد ﷺ إلى يوم القيامة أن يحلَّ بهم مثل ما حلَّ بغيرهم، فقال: ﴿هَٰذَا نَذِيرٌ﴾ أي: هذا محمد ﷺ جاء لكم بالقرآن أيها الناس، لينذركم ويخوفكم عذاب الله إن لم تؤمنوا بالنبي الخاتم، وقد أنذركم بالحق الذي أنذر به الأنبياء قبله، وهذا معنى ﴿مِّنَ النَّذْرِ الْأَوَّلِ﴾ فدعوته لكم

من جنس الدعوات السابقة، والنذر الجامعة، كما قال تعالى: ﴿قُلْ مَا كُنْتُ بِدَعَا مَنْ الرُّسُلِ﴾ [الأحقاف: ٩].

فهو سبحانه يخبركم بما أخبر به الأنبياء قبل محمد ﷺ من الأمم السابقة.

فاحذروا مخالفة رسول الله؛ لأن مخالفته تؤدي بكم إلى الهلاك، كما قال تعالى: ﴿فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَنْ تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [النور: ٦٣].

وفي الحديث: عن أبي موسى ﷺ أن النبي ﷺ قال: «أنا النذير العريان»^(١) أي: الذي أعجله شدة ما عاين من الشر فبادر إلى إنذار قومه، فجاءهم عرياناً مسرعاً.

ثم إن المنذر به قد دنا واقترب وقته، فقيام الساعة قد اقترب، وانتهاء الدنيا قد اقترب ﴿أَزِفَتِ الْأَزْفَةُ﴾ أي اقتربت الساعة، كما قال تعالى: ﴿أَقْرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ﴾ [الأنبياء: ١] وقال سبحانه: ﴿أَنَّهُ أَمْرٌ أَلَلَّ﴾ [النحل: ١] وقال أيضاً: ﴿إِنَّهُمْ يَرَوْنَهُ بَعِيدًا وَرَأَتْهُ قُرَيْبًا﴾ [المعارج] وسميت أزفة لقرب وقتها.

وليس بإمكان أحد أن يدفع أو يمنع قيامها، ولا يستطيع أحد أن يكشف ما فيها من ضرر وعذاب غير الله سبحانه، ولا يطلع على وقت قيامها إلا الله سبحانه: ﴿لَيْسَ لَهَا مِنْ دُونِ اللَّهِ كَاشِفَةٌ﴾ أي: ليس من دون الله من يكشف وقتها ويعلمه، فمجيئها محقق، والله وحده هو الذي يعلم وقت وقوعها ﴿لَا يَجْلِبُهَا لُوقُهَا إِلَّا هُوَ﴾ [الأعراف: ١٨٧].

فهو سبحانه القادر على كشفها، ولكنه لا يكشفها لأحد، وهو القادر على رفع ما يلحق بالناس من عذاب يومها، ولا يقدر على كشف هذا العذاب إلا هو.

وفي الحديث: عن سهل بن سعد ﷺ أن النبي ﷺ قال: «مَثَلِي وَمَثَلُ السَّاعَةِ كَهَاتَيْنِ» وفرق بين الوسطى والإبهام^(٢).

ثم قال: «مَثَلِي وَمَثَلُ السَّاعَةِ كَمَثَلِ فَرْسَيْنِ رَهَانٍ»^(٣).

(١) من حديث أبي موسى في صحيح البخاري (٦١١٧) .

(٢) ، (٣) «المسند»: (٣٣١/٥) . وهو عن سهل بن سعد برقم (٢٢٨٠٩) قال محققوه: إسناده صحيح

وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة برقم (٣٢٢٠) .

ذَمُّ مَنْ لَمْ يَخْشَعْ قَلْبُهُ بِالْقُرْآنِ فِي إِنْكَارَاتِ أَرْبَعَةٍ

٥٩-٦١ - ﴿أَفَرَأَيْتَ هَذَا الَّذِي قَعَبُونَ ﴿٥٩﴾ وَفَضَحَكُونَ ﴿٦٠﴾ وَلَا يَتَكُونُونَ ﴿٦١﴾ وَأَنْتُمْ سَيِّدُونَ ﴿٦٢﴾﴾

ثم أشار سبحانه إلى من كذب بهذا القرآن، فتعجب منه في أربعة أشياء إنكاراً عليه؛ ووعيداً له بسوء المصير، وهذه الإنكارات الأربع هي:

الإنكار الأول: ﴿أَفَرَأَيْتَ هَذَا الَّذِي قَعَبُونَ﴾ وهو القرآن، وما جاء فيه من وعد ووعد، وأوامر ونواهٍ وهو أشرف الكلام وأفضله ﴿قَعَبُونَ﴾ أيها المكذبون من أن يكون هذا القرآن صحيحاً، كما قال تعالى: ﴿أَفَرَأَيْتَ هَذَا الَّذِي قَعَبُونَ أَنْتُمْ مُدْهِنُونَ ﴿٨١﴾﴾ [الواقعة].

إن الذي ينبغي التعجب منه هو عقولكم وضلالكم، أما القرآن فهو أصدق الحديث، من قال به صدق ومن حكم به عدل ومن عمل به أجر، ومن دعا إليه هدى إلى صراط مستقيم.

الإنكار الثاني: ﴿وَفَضَحَكُونَ﴾ عند سماعه تهكماً وسخرية واستهزاء منه ومما جاء فيه.

وهو الذي ينبغي أن تتأثر منه النفوس، وتلين له القلوب، وتبكي له العيون.

الإنكار الثالث: ﴿وَلَا يَتَكُونُونَ﴾ خشية من الله تعالى، وخوفاً من عذابه، وكان عليكم أن تبكوا من زواجه ووعيده بدل الدمع دماً، حُزناً على ما فرطتم في جنب الله، كما قال تعالى: ﴿وَيَحْزَنُونَ لِلَّذِينَ يَكُونُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعاً ﴿١٣٦﴾﴾ [الإسراء].

وكان عليكم أن تردادوا إيماناً، كما قال تعالى: ﴿وَإِذَا ثَلَيْتَ عَلَيْهِمْ عَائِنَتَهُمْ رَأَتْهُمْ إِيمَانًا ﴿٢﴾﴾ [الأنفال: ٢].

في حديث سعد بن مالك ؓ أن النبي ﷺ قال: «إن هذا القرآن أنزل بحزن، فإذا قرأتموه فابكوا، فإن لم تبكوا فتباكوا»^(١)

قال تعالى: ﴿اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُتَشَابِهًا مَثَابِي نَقَشَرُ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ ﴿٢٣﴾﴾ [الزمر: ٢٣].

الإنكار الرابع: ﴿وَأَنْتُمْ سَيِّدُونَ ﴿٦١﴾﴾

أي: وأنتم غافلون لاهون معرضون عن القرآن، رافعون رؤوسكم تكبراً.

(١) رواه ابن ماجه (٤٢٤/١) برقم (١٠٥٦) وفي إسناده ضعف.

والسمود: بلغة حمير، هو الغناء، ومنه قول بعضهم لجاريته: اسْمُدِي لَنَا، أي: غَنِّي لَنَا.
 فيكون المعنى: وأنتم فرحون بأنفسكم تتغنون بالأغاني لقلّة الاكتراث، وعدم الاحترام
 لما تسمعون من القرآن، كقوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ صَلَاتُهُمْ عِنْدَ الْبَيْتِ إِلَّا مُكَاءً
 وَتَصْدِيَةً﴾ [الأنفال: ٣٥].

وإذا كان هذا شأن المكذبين بالقرآن فإن شأن المؤمنين به هو الخضوع والعبادة:

٦٢- ﴿فَاسْجُدُوا لِلَّهِ وَاعْبُدُوا﴾ (٦٢)

هذا أمر من الله تعالى في خاتمة السورة بالخضوع له سبحانه، والكف عن تكذيب
 رسوله ﷺ، وعن إعراضهم عن القرآن؛ لأن ذلك استخفاف بحق الله تعالى، وكان عليهم
 أن يتدبروا القرآن، وينظروا في دلائل صدق النبوة.

فالمراد بالسجود في الآية: إما الخشية والسكينة، وإما سجود الصلاة، بأن يدخلوا في
 الإسلام، والصلاة أهم شعائره ﴿فَاسْجُدُوا لِلَّهِ وَاعْبُدُوا﴾ (٦٢) أي: أخلصوا له العبادة،
 واتركوا ما أنتم عليه من كفر وضلال، واعبدوا الله وحده، واتركوا عبادة اللات والعزى
 ومناة والشعري، فإن السجود والعبادة والخضوع لا تجوز إلا للواحد الأحد، الفرد
 الصمد، وسلّموا أموركم لله وحده، وهذه الآية سجدة عند بعض أهل العلم.

ففي سنن ابن ماجه بإسناد ضعيف عن أبي الدرداء ؓ قال: سجدت مع النبي ﷺ
 إحدى عشرة سجدة، ليس فيها من المفصل شيء^(١).

وبهذا أخذ المالكية فلم يعدوا سجدة المفصل، وهو مبني على دليل غير صحيح.

وعن أبي بن كعب ؓ قال: كان آخر فعل النبي ﷺ ترك السجود في المفصل.

وعن ابن عباس ؓ أن النبي ﷺ لم يسجد في المفصل منذ تحول إلى المدينة.

قالوا: وكان الأمر بالسجود في سورة النجم مذكراً للمشركين بالسجود لله تعالى، فسجدوا
 مع النبي ﷺ، ثم نسخ السجود فيها بعد ذلك فلم يُرو عن النبي ﷺ بعد الهجرة^(٢).

تم تفسير (سورة النجم) والله الحمد والمنة.

(١) أخرجه أبو داود (١٤٠١) وقال: إسناده واه، وابن ماجه (١٠٥٦) بتضعيف الألباني (٣٣٥/١).

(٢) «التحرير والتنوير» (١٦٢/١٣). وانظر بعض هذه الأحاديث في مقدمة السورة.

تَفْسِيرُ سُورَةِ الْقَمَرِ (٥٤)

مُقَدِّمَةُ السُّورَةِ

سورة (القمر) هي السورة الرابعة والخمسون في ترتيب المصحف، والسابعة والثلاثون في ترتيب النزول، نزلت بعد سورة (الطارق) وقبل سورة (ص).

وتسمى سورة القمر، وسورة ﴿أَقْرَبَتِ السَّاعَةُ﴾، لورودهما في الآية الأولى منها، وبالأول ترجم لها الترمذي، وبالثاني ترجم البخاري.

وهي خمس وخمسون آية باتفاق أهل العدد، وثلاث مئة واثنان وأربعون كلمة، وألف وأربع مئة وثلاثة وعشرون حرفاً.

وهي سورة مكية، واستثنى بعضهم ثلاث آيات، هي: ﴿أَمْرٌ يَقُولُونَ نَحْنُ جَمِيعٌ مُنْتَصِرٌ﴾ (١٤) **سَيِّهْرُمُ الْجَمْعُ وَيُولُونَ الدُّبُرُ** (١٥) **بَلِ السَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ وَالسَّاعَةُ أَذَى وَأَمْرٌ** (١٦).

قيل: إنها نزلت يوم بدر، ولعل الصحيح أن النبي ﷺ تلاها يوم بدر ليستشهد بها، وكانت قد نزلت قبل ذلك، ويؤيده قول عمر ؓ إنه لم يكن يذري ما معنى ﴿سَيِّهْرُمُ الْجَمْعُ وَيُولُونَ الدُّبُرُ﴾ (١٥) حتى فهم تأويلها يوم بدر.

وكان نزول سورة القمر سنة خمس قبل الهجرة، ففي الصحيح: عن عائشة ؓ قالت: أنزل على محمد بمكة، وإني جارية ألعب: ﴿بَلِ السَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ وَالسَّاعَةُ أَذَى وَأَمْرٌ﴾ (١٦) (١).

وكانت عائشة ؓ قد عُقد عليها في شهر شوال قبل الهجرة بثلاث سنين، أي: في أواخر سنة أربع قبل الهجرة، وكانت سنها يومئذ نحو ست سنوات، وكان انشقاق القمر سنة خمس قبل الهجرة غالباً.

قال ابن عباس ؓ: كان بين نزول آية ﴿سَيِّهْرُمُ الْجَمْعُ وَيُولُونَ الدُّبُرُ﴾ (١٥) وبين بدر سبع سنين.

وفي حديث أبي واقد الليثي ؓ: أن رسول الله ﷺ كان يقرأ بقاف، واقتربت الساعة،

(١) البخاري برقم (٤٨٧٦، ٤٩٩٣).

في الفطر والأضحى^(١).

أحاديث في إنشقاق القمر:

وانشقاق القمر أمرٌ متفقٌ عليه بين العلماء، وأنه وقع في زمن النبي ﷺ، وكان إحدى معجزاته، ومن الأحاديث الواردة في ذلك:

١- ما رواه أنس بن مالك ؓ قال: سأل أهل مكة النبي ﷺ آية، فانشق القمر بمكة فرقتين، فنزلت: ﴿أَفْتَرَبِ السَّاعَةَ﴾ إلى ﴿سِحْرٌ مُّسْتَعَرِفٌ﴾^(٢).

٢- وعن عبد الله بن مسعود ؓ قال: انشق القمر على عهد النبي ﷺ، فقالت قريش: هذا سحر ابن أبي كبشة، سحركم، فقالوا: انتظروا ما يأتيكم به الشُّفَّار، فإن محمداً لا يستطيع أن يسحر الناس كلهم، فجاء الشُّفَّار فسألوهم، فقالوا: نعم قد رأينا، فأنزل الله: ﴿أَفْتَرَبِ السَّاعَةَ﴾^(٣)، وابن أبي كبشة:

أ- رجل من خزاعة عبَدَ كوكب الشعري، وخالف قريشاً في عبادة الأوثان، فشبَّهوا النبي ﷺ به في مخالفة عبادتهم.

ب- وقيل: إنه كان جد النبي ﷺ من جهة أمه.

ج - وقيل: إن أبا كبشة كنية زوج حليلة السعدية مرضعة النبي ﷺ.

٣- وعنه ؓ قال: انشقَّ القمر على عهد رسول الله ﷺ شقتين، حتى نظروا إليه، فقال ﷺ: «اشهدوا»^(٤).

(١) «المسند» (٢١٨/٥) برقم (٢١٩١١، ٢١٨٩٦) حديث صحيح، (محققوه) والموطأ (١/١٨٠) وعبد الرزاق (٥٧٠٣) ومسلم (١٤/٨٩١) و«المستدرک» (٢/٤٦٥) على شرط مسلم، ووافقه الذهبي، وابن ماجه برقم (٨١٦). وأبوداود برقم (١١٥٤) والترمذي برقم (٥٣٤) وابن حبان (٢٨٢٠).

(٢) الترمذي (٣٢٨٦) وعبد الرزاق (٢/٢٥٧) و«المسند» (١٢٦٨٨، ١٣١٥٤) ومسلم (٤٧/٢٨٠٢) والبيهقي (٢٦٢/٢) وغيرهم.

(٣) الطبري (١٠٦/٢٢) وأبو نعيم (٢١١) والبيهقي في الدلائل (٢/٢٦٦) وهو في البخاري (٣٦٣٦) وغيره ومسلم (٢٨٠٣).

(٤) «أسباب النزول» للواحدي ومسند الطيالسي برقم (٢٩٥) بنحوه. وهو في البخاري (٣٨٦٩) ومسلم (٢٨٠٠) والترمذي (٣٢٨٥) وابن حبان (٦٤٩٥) وأحمد (١/٣٧٧).

٤- وعن أنس رضي الله عنه أيضًا قال: انشقَّ القمر على عهد رسول الله ﷺ فرقتين: فرقة فوق الجبل، وفرقة دونه، فقال رسول الله ﷺ: «اشهدوا»^(١)، وعن ابن عمر بنحوه^(٢).

٥- وعن أنس رضي الله عنه: أن أهل مكة سألوا النبي ﷺ أن يريهم آية، فأراهم القمر شقَّتَيْنِ حتى رأوا حراء بينهما^(٣).

٦- وفي رواية عنه رضي الله عنه قال: فانشقَّ القمر بمكة مرتين^(٤).

٧- وقال ابن عباس رضي الله عنه: انشق القمر في زمان رسول الله ﷺ^(٥).

٨- وعن ابن مسعود رضي الله عنه قال: خمس قد مضين: الدُّخان، والقمر، والروم، والبطشة، واللزام ﴿فَسَوْفَ يَكُونُ لِرَآئِكُمْ﴾^(٦) [الفرقان: ٧].

٩- وقال عبد الله بن مسعود رضي الله عنه: رأيت القمر وقد انشق، فأبصرت الجبل من بين فُرَجَتِي القمر^(٧).

وهكذا سجلت السورة مكابرة المشركين وعدم تصديقهم بمعجزات النبي ﷺ، وأمرته بالإعراض عنهم وعدم الاكتراث بهم، وأنذرتهم باقتراب الساعة، وما يلقونه فيها من عقوبات بسبب تكذيبهم بصاحب الرسالة الأخيرة، وذكَّرتهم بما حدث لأمثالهم، وأنذرتهم بعذاب دنيوي قريب، وأعلمتهم بأن الله تعالى محيط بهم وبأفعالهم، ومجازيهم بالسوء سوءًا وبالإحسان إحسانًا.

وكررت آيات السورة التنويه بشأن القرآن الكريم في فواصل القصص:

قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَكِّرٍ﴾ .

(١) البخاري بأرقام (٣٦٣٦، ٣٨٣٩، ٤٨٦٤) ومسلم برقم (٢٨٠٠) والترمذي (٣٢٨٧) والطبري (١٠٥/٢٢).

(٢) مسلم برقم (٢٨٠١) والترمذي برقم (٣٢٨٨) والبيهقي في «الدلائل» (٢٦٧/٢) والحاكم (٤٧٢/٢) وأبو نعيم (٢٠٨).

(٣) البخاري برقم (٣٦٣٧، ٤٨٦٧، ٤٨٦٨) ومسلم برقم (٢٨٠٢) والطبري (١٠٥/٢٢).

(٤) «المسند» (١٦٥/٣) ومسلم برقم (٢٨٠٢).

(٥) البخاري برقم (٤٨٦٦).

(٦) البخاري برقم (٤٧٦٧) واللفظ له، وانظر (١٠٠٧) و«صحيح مسلم» (٢٧٩٨).

(٧) «المسند» (٣٩/٧) (٣٩٢٤) والطبري (١٠٦/٢٢) والحاكم (٤٧١/٢) قال محققو «المسند»: حديث صحيح.

وفي نهاية كل مشهد من مشاهد تعذيب المكذبين يأتي هذا التهديد ولفت النظر للاعتبار ﴿فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذْرِي﴾ وفي كل مشهد من مشاهد العذاب السبعة يتناثر الرعب والفزع والهول في سرعة تزلزل القلوب كأنها سياط تقصم الظهر وتأخذ بالأنفاس.

وكان النبي ﷺ يقرأ بسورة القمر مع سورة قاف في المحافل الكبار؛ لاشتمالها على ذكر الوعد والوعيد، وبدء الخلق وإعادته، والتوحيد وإثبات النبوات، وغير ذلك من المقاصد العظيمة، وتحتوي سورة القمر على موضوعات السور المكية:

١- فتبدأ بمعجزة انشقاق القمر لإثبات جانب الوحي والرسالة للنبي ﷺ، وموقف المكذبين منها.

٢- وتتكلم السورة عن جانب البعث ومشاهد القيامة في أولها وآخرها، من الآية السادسة إلى الآية الثامنة، ومن الآية السادسة عشرة إلى الآية الخامسة والخمسين وهي نهاية السورة.

٣- وما بين ذلك من الآية التاسعة إلى الآية الثانية والأربعين تتحدث عن مصارع خمسة من المكذبين لرسول الله في الأمم الغابرة، في عرض سريع لمصارع قوم نوح، وقوم عاد، وقوم ثمود، وقوم لوط، وفرعون وملئه.

٤- ومن الآية الثالثة والأربعين وما بعدها تتحدث آيات السورة عن عقاب الطغاة ونعيم المتقين، والإنذار بقيام الساعة، والإخبار عن وقوع قتال في المستقبل يُهْزَم فيه الكفار في الدنيا، ولهم عذاب أشد في الآخرة.

وفي السورة غرسٌ لعقيدة التوحيد في نفوس المؤمنين، ووعيد لمن كَذَّبَ بخاتم الرسل ﷺ ﴿أَكْفَارُكُمْ خَيْرٌ مِنْ أُولَئِكَ أَمْ لَهُمْ بَرَاءَةٌ فِي الزُّبُرِ﴾.

وهكذا كل أمة ضالة سوف تلقى مصيرًا مؤلماً ﴿وَلَا يَزَالُ الَّذِينَ كَفَرُوا تُصِيبُهُمْ بِمَا صَنَعُوا قَارِعَةٌ أَوْ تَحُلُّ قَرِيبًا مِّن دَارِهِمْ حَتَّى يَأْتِيَ وَعْدُ اللَّهِ﴾ [الرعد: ٣١].

تَفْسِيرُ السُّورَةِ

مُعْجَزَةُ انْشِقَاقِ الْقَمَرِ فِي مَنَى لَيْلَةَ أُزْبَعِ عَشْرَةِ مِنْ ذِي الْحِجَّةِ سَنَةِ خَمْسٍ قَبْلَ الْهِجْرَةِ

١- ﴿أَفَرَأَيْتِ السَّاعَةَ وَانْشَقَّ الْقَمَرُ﴾

تبدأ السورة بالموعظة المشتملة على معجزة انشقاق القمر، وتجعل ذلك وسيلة للتذكير بقيام الساعة، حتى يتضاءل تعلق النفوس بالدنيا، ويفكر الناس فيما بعد الموت، فيُنصِتوا لداعي الهدى، وتتهياً قلوبهم لقبول الحق، وتستعد للعمل لما بعد الموت، وفي هذا اغتنام الفرصة للموعظة والتذكير، وكم يكون مثل هذا الانتهاز سبباً لإيمان القلوب القاسية، وإذا تأمل العبد آية انشقاق القمر ازداد تأييداً لصدق النبي ﷺ، وكان ذلك سبباً لإيقاظ القلوب، وإحياء للإيمان في النفوس.

وكان كفار مكة قد تحدّوا النبي ﷺ، وقالوا له: إن كنت صادقاً فشق لنا القمر فرقتين، ووعدوه بالإيمان به إن فعل، وكانت ليلة بدر من الشهر، فسأل النبي ﷺ ربه أن يؤيده بما طلبوا، فانشق القمر نصفين: نصفاً على جبل الصفا، ونصفاً على جبل قيععان المقابل له، حتى رأوا جبل حراء بينهما، فلما رأوا ذلك قالوا: سحرنا محمد، ثم قالوا: إن كان قد سحرنا فإنه لا يستطيع أن يسحر الناس كلهم، فقال أبو جهل: اصبروا حتى تأتينا أهل البوادي، فإن أخبروا بانشقاقه فهو صحيح، وإلا فقد سحر محمد أعيننا، فجاؤوا فأخبروا بانشقاق القمر، فقال أبو جهل والمشركون: هذا سحر دائم مطرد، ونزلت الآيات.

وفي حديث محمد بن جبير قال: انشق القمر^(١) على عهد رسول الله فرقتين: فرقة على هذا الجبل وفرقة على هذا الجبل، فقالوا: سحرنا محمد، فقالوا: إن كان سحرنا فإنه لا

(١) يُنظَر: حديث جبير بن مطعم في «المسند» (٣١٤/٢٧) (١٦٧٥٠) بسند ضعيف كما قال محققوه، لأن السُّلَمي لم يسمع من محمد بن جبير، وأخرجه الترمذي (٣٢٨٩) والطبري (١٠٩/٢٢) والحاكم (٢/٤٧٢) والبيهقي (٢/٢٦٨) و«صحيح سنن الترمذي» (٢٦٢٢) وأبو نعيم في «الدلائل» (٢٠٩). قلت: ولهذا الحديث أصل في الصحيحين دون قولهم: (سحرنا محمد) عن عبد الله بن مسعود برقم (٤٨٦٤) في البخاري و(٢٨٠٠) في مسلم، قال: (انشق القمر على عهد رسول الله ﷺ شقتين، فرقة فوق الجبل وفرقة دونه فقال ﷺ اشهدوا).

يستطيع أن يسحر الناس كلهم. وقد مرّت أحاديث انشقاق القمر في مقدمة السورة.

وقد اشتملت الآية الأولى من السورة على أمرين:

أحدهما: اقتراب قيام الساعة. وثانيهما: معجزة انشقاق القمر.

الشق الأول من الآية:

واقتراب قيام الساعة، هو الحدث الأكبر، الذي تهتز له القلوب، وتُدْهَش له العقول، ويحتار فيه الوجدان، ومعنى ﴿أَقْرَبَتِ السَّاعَةُ﴾ قُرْب وقت حلول القيامة، ودنا زمان قيامها. وسميت القيامة بالساعة؛ لوقوعها بغتة، ولسرعة ما فيها من الحساب؛ أو لأنها على طول يومها، فهو قدر يسير عند الله تعالى، خفيف على المؤمن.

وقد وردت أحاديث تبين أن ما بقي من الدنيا قدر يسير بالنسبة لما مضى منها، وأن بعثة النبي ﷺ من علامات الساعة، إذ هو ﷺ آخر الرسل، ولا نبي بعده. والمرء في هذا المعنى ينظر إلى عُمر الدنيا ولا ينظر إلى عُمر نفسه.

خطب النبي ﷺ في أصحابه ذات يوم، وقد كادت الشمس أن تغرب، فقال: «والذي نفسي بيده، ما بقي من الدنيا فيما مضى إلا كما بقي من يومكم هذا فيما مضى»^(١).

٢- وعن سهل بن سعد ؓ قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «بُعِثْتُ أنا والساعة هكذا، وأشار بأصبعيه السبابة والوسطى»^(٢).

٣- وعن جابر بن عبد الله ؓ قال: كان رسول الله ﷺ إذا خطب احمّرت عيناه، وعلا صوته، واشتد غضبه، حتى كأنه منذر جيش، يقول: «صَبَحَكُمْ وَمَسَّكُمْ» ويقول: «بُعِثْتُ أنا والساعة كهاتين»، ويقرن بين أصبعيه: السبابة والوسطى^(٣).

(١) أخرجه البزار عن أنس كما في «مجمع الزوائد» (٣١١/١٠). وهو عن أبي سعيد عند أحمد والترمذي والحاكم بإسناد ضعيف كما في ضعيف الجامع (١٢٤٠).

(٢) أخرجه الشيخان: البخاري برقم (٦٥٠٣) ومسلم برقم (٢٩٥٠) وانظر «المستد» (٣٨٨/٥) برقم (٢٢٨٣٤، ٢٢٧٩٦) بإسناد صحيح على شرط الشيخين (محققوه) بلفظ (كهذه من هذه).

(٣) «صحيح مسلم» برقم (٨٦٧).

وبمثل افتتاح سورة القمر، افتتحت سورة الأنبياء: ﴿أَقْرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ مُّعْرِضُونَ﴾ (١) وهكذا سورة النحل: ﴿إِنَّا أَمَرُ اللَّهُ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ﴾.

ولفظ ﴿أَقْرَبَ﴾ أبلغ من قُرْب، كما تقول: اقتدر أبلغ من قدر، ومعناه: أنها قربت دون تحديد.

واقتراب الساعة باعتبار نسبة ما بقي من عمر الدنيا بعد البعثة المحمدية إلى ما مضى.

والمقصود بافتتاح هذه السور الثلاث: تذكير الناس بقرب قيام الساعة؛ ليعملوا لما بعد الموت، وحثهم على الاستعداد ليوم الحساب بإخلاص الإيمان والعمل الصالح لله تعالى، عن طريق التذكير بأهوال يوم القيامة.

الشق الثاني من الآية:

أما الشق الثاني في الآية، وهو انشقاق القمر في قوله تعالى: ﴿وَأَنشَقَّ الْقَمَرُ﴾ فإن هذا لفظ قرآني صريح في وقوع انشقاق القمر بالفعل في الزمن الماضي، إلى جوار أحاديث رسول الله ﷺ الصحيحة الصريحة في انشقاق القمر، وقد ذكرنا بعضها في مقدمة السورة عن جماعة من الصحابة رضي الله عنهم: علي بن أبي طالب، وأنس، وابن مسعود، وابن عباس، وابن عمر، وحذيفة، وجبير بن مطعم، ومنهم من لم يشهد انشقاق القمر، ولكنه لم يتكلم إلا عن يقين.

قال السبكي: الصحيح عندي أن انشقاق القمر متواتر، منصوب عليه في القرآن، مروى في الصحيحين وغيرهما من طرق شتى، لا يُمتري في تواتره^(١).

فهو خبر مستفيض، تدل جميع رواياته على أن انشقاق القمر معجزة حصلت لرسول الله ﷺ في الدنيا، وهذه المعجزة رآها النبي ﷺ والمسلمون والكفار، وليس عند المنكر إلا الاستبعاد، ولا يمكنه أن يأتي بدليل على استحالة.

فعن ابن مسعود رضي الله عنه قال: بينما نحن مع رسول الله ﷺ بمنى فانشق القمر^(٢).

أي: إن هذه المعجزة حدثت في منى، وكما حدّد هذا الأثر مكان انشقاق القمر، فقد

(١) قول السبكي عن «التفسير الوسيط» للشيخ محمد سيد طنطاوي شيخ الأزهر (٩٧/١٤).

(٢) في رواية الترمذي بتصحيح الألباني رقم: (٢٦١٩).

جاء في السيرة الحلبية تحديد زمانه، وأنه كان ليلة أربع عشرة من ذي الحجة، آخر أيام النفر من منى.

وفي هذه الليلة اجتمع المشركون بمنى، وفيهم: الوليد بن المغيرة، وأبو جهل، والعاص بن وائل، والعاص بن هشام، والأسود بن عبد يغوث، والأسود بن عبد المطلب، وزمعة بن الأسود، والنضر بن الحارث، فسأل هؤلاء الثمانية رسول الله ﷺ، قالوا: إن كنت صادقاً فشق لنا القمر فرقتين، فانشق القمر^(١)، فقال لهم النبي ﷺ: «إن فعلتُ تؤمنوا؟» قالوا: نعم، وكانت ليلة بدر، فسأل رسول الله ﷺ ربه أن يعطيه ما سألوا. فأمسى القمر قد مثل نصفاً على أبي قبيس، ونصفاً على قُعيقَعان - جبل بمكة - ورسول الله ﷺ ينادي: «يا أبا سلمة بن عبد الأسود، والأرقم بن أبي الأرقم»، فشهدوا^(٢).

وكان ذلك سنة خمس قبل الهجرة، حيث دعا النبي ﷺ ربه فأجابه، وأراههم تلك الآية. كما حددت بعض الروايات هيئة انشقاقه.

ففي رواية ابن مسعود رضي الله عنه^(٣) أن القمر انشق فرقتين: فرقة فوق الجبل، وفرقة دونه، وقال ﷺ: «اشهدوا، اشهدوا».

وفي رواية ابن عباس رضي الله عنه^(٤): نصف على جبل أبي قبيس، ونصف على جبل قُعيقَعان، المقابل له. وفي رواية أنس: حتى رأوا حراء بينهما^(٥).

وقد نزلت الآية بعد انشقاق القمر بوقت يسير، وكان القمر قد انشق إلى نصفين، رأى الناس بينهما سواداً، كأنه قمران.

ولمَّا رأى المكذبون انشقاق القمر قالوا: هذا سحرٌ محمد بن أبي كبشة، وفي رواية أنهم

(١) عن «تفسير التحرير والتنوير» (١٦٧/١٣).

(٢) أخرجه أبو نعيم في «الدلائل» من طريق عطاء، والضحاك، عن ابن عباس (٢٠٩).

(٣) في «صحيح البخاري» برقم (٣٨٦٩) بنحوه وانظر صحيح مسلم (٢٨٠٠) وراجع البخاري (٤٨٦٥، ٣٦٣٦)، و«تفسير الطبري» (٥٠/٢٧).

(٤) عند أبي نعيم (٢٠٩).

(٥) «صحيح البخاري» برقم (٣٨٦٨)، وانظر (٤٨٦٧، ٣٦٣٧) وصحيح مسلم (٢٨٠٢).

قالوا: سَحَرَ محمد القمر، وهو سِحْر معروف معهود فيه بمعنى: الكسوف، ثم قالوا: إن كان محمد سَحَرَنَا، فهو لا يستطيع أن يسحر الناس كلهم، فقال أبو جهل: اصبروا حتى تأتينا أهل البوادي، فإن أَخْبَرُوا بانشقاقه فهو صحيح، وإلا فقد سَحَرَ محمد أعيننا، فجاءوا فَأَخْبَرُوا بانشقاق القمر، فقال أبو جهل والمشركون: هذا ﴿سِحْرٌ مُّسْتَمِرٌّ﴾ أي: سحر دائم، وأخذوا يتلقون الركبان فيخبرونهم بأنهم قد رأوا انشقاق القمر نصفين، فيكذبونهم.

هل انشقاق القمر ظاهرة فلكية؟

وربما كان هذا الانشقاق بسبب مرور جسم سماوي، حَجَب ضوء الشمس عن وجه القمر، بمقدار ظل ذلك الجسم.

يقول ابن مسعود رضي الله عنه: انشق القمر حتى رأيت الجبل بين فُرْجتي القمر^(١).

وقد يكون القمر في بعض المنازل الخاصة به، فيظهر لبعض الناس دون بعض، كما يغيب ويُكْسَف، فيراه بعض الناس دون بعض.

جاء عن ابن عباس رضي الله عنه قال: كُسِف القمر على عهد رسول الله ﷺ، فقالوا: سُحِر القمر فنزلت ﴿أَقْرَبَتِ السَّاعَةُ وَأَشَقُّ الْقَمَرُ﴾ إلى قوله ﴿سِحْرٌ مُّسْتَمِرٌّ﴾^(٢).

فقد جاء التعبير في هذه الرواية عن الانشقاق بالكسوف، مما يفيد أن الذي حدث هو خسوف نصفي للقمر، حَجَب نصفه، وقد عُرفت حوادث من هذا القبيل بالنسبة لأشعة الشمس، ويجوز أن يحدث مثله بالنسبة لضوء القمر على وجه الندرة.

ولا ينافي هذا أن الذي حدث معجزة؛ لأنه تم وقت سؤال المشركين للرسول ﷺ أن يريهم انشقاق القمر، وقد تحداهم بذلك قبل حصوله، ولا سبيل لمعرفة ذلك للرسول ﷺ إلا عن طريق الوحي لمعرفة أوقات ظواهر التغيرات للكواكب.

وقد اختص ظهور ذلك الخسوف النصفي بمكة دون غيرها من العالم؛ لأن أهل مكة تأهبوا لذلك بعد أن أخبرهم النبي ﷺ، أما غيرهم فهم في نوم أو غفلة، بالإضافة إلى

(١) «تفسير الطبري» (٥١/٢٧). وأخرجه أحمد في المسند (٤٦٥/١) وانظر الحديث رقم ٩ في مقدمة السورة.

(٢) «المعجم الكبير» للطبراني (٢٥٠/١١) (١١٦٤٢). وإسناده حسن وله شواهد.

ظلام الليل واختلاف المطالع^(١).

وهكذا يخبر سبحانه أن الساعة قد اقترب وقت مجيئها، وأن المكذبين لم يزالوا غير مستعدين لها، ويريههم الله من الآيات ما يدل على صدق صاحب الرسالة فيما جاء به من عند الله عز وجل، ومن هذه الآيات انشقاق القمر فلقنتين: فلقة على جبل أبي قبيس، وفلقة على جبل قعيقعان، وقد رأى المكذبون ذلك بأعينهم ولم يدخل الإيمان في قلوبهم، وقالوا: سحرنا محمد، ولكننا نسأل القادمين من السفر، فإن أخبرونا أنهم قد رأوه آمنًا، فلما أخبروهم بوقوع ذلك قالوا: إن محمدًا سحرنا وسحر غيرنا، وهذا معنى قولهم: ﴿سِحْرٌ مُّسْتَعِزٌّ﴾.

مَوْقِفُ الْمَعَارِضِينَ لِلدُّعْوَةِ مِنْ مُعْجَزَةِ انْشِقَاقِ الْقَمَرِ

٢، ٣- ﴿وَإِنْ يَرَوْا آيَةً يُعْرِضُوا وَيَقُولُوا سِحْرٌ مُّسْتَعِزٌّ ۖ وَكَذَّبُوا وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ وَكُلُّ أَمْرٍ مُّسْتَعِزٌّ﴾^(٢)

وهكذا المكذبون للرسالة في كل زمان ومكان، كلما رأوا دليلًا أو برهانًا يصدق صاحب الرسالة ﷺ يُعْرِضُونَ عن تصديقه والإيمان به، فيكذبون ويُكْبِرُونَ، ويقولون بعد ظهور الدليل: هذا باطل، وتخريصات لا تدوم ولا تصح.

وقيل: إن معنى مستمر: شديد المرارة، أي: هو أمر مستبشع عندنا، مُرٌّ على لهواتنا، لا نقدر على استساغته.

وبعد أن أخبر سبحانه عن حال المعرضين المكذبين للنبي ﷺ في المستقبل، أخبر عن حالهم في الماضي، فقد أخبر جلَّ شأنه في الآية الثانية أن المكذبين إن يروا في الحال أو الاستقبال آية دالة على صدق الرسول ﷺ يعرضوا عنها.

وأخبر في الآية الثالثة أنهم قد رأوا كثيرًا من الآيات فأعرضوا ﴿وَكَذَّبُوا﴾ النبي ﷺ فيما عاينوه من انشقاق القمر ﴿وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ﴾ في ضلالتهم وما دعَتْ إليه أهواؤهم وزينته الشيطان لهم من التكذيب، فإنه لو كان قصدهم اتباع الهدى لآمنوا من فورهم، واتبعوا

(١) يُنْظَرُ: «التحرير والتنوير» مجلد (١٣/١٧٠).

(٢) قرأ أبو جعفر بخفض الراء من (مستقر) صفة لأمر وخبر كل مقدر تقديره: بالغوه، والباقون بالرفع خبر كل.

محمداً ﷺ ولكنهم قصدوا اتباع الهوى، فضلوا وأضلوا، قال تعالى ﴿فَإِنْ لَّمْ يَسْتَجِيبُوا لَكَ فَاعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَاءَهُمْ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ اتَّبَعَ هَوَاهُ يَغْيِرْ هُدَىٰ مِنَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ [القصر]

ثم أخبر سبحانه أن كل شيء له نهاية فقال: ﴿وَكَُلُّ أَمْرٍ﴾ من الخير والشر، والإيمان والكفر، والهدى والضلال ﴿مُسْتَقَرٌّ﴾ أي: كل أمر سينتهي إلى غاية، من كل شيء كائن وواقع بأهله يوم القيامة عند ظهور الثواب والعقاب، وهذا هو منتهى الأمر، حيث تبين الحق، وظهر أمر النبي ﷺ، وتبين غاية البيان، فكل أمر سيصل إلى آخره، فالمصدق يتقلب في جنات النعيم ومغفرة من الله ورضوان، والمكذب يتقلب في غضب الله وسخطه، خالداً مخلداً في نار جهنم.

قال مقاتل: لكل حديث منتهى وغاية.

وقال قتادة: إن الخير يستقر بأهل الخير، والشر يستقر بأهل الشر، وكل أمر مستقر بأهله^(١)

وقال تعالى: ﴿لِكُلِّ نَبِيٍّ مُّسْتَقَرٌّ وَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ [الأنعام: ٦٧].

وهكذا فإن دعوة النبي ﷺ ستظهر أكثر مما هي عليه في الحاضر، ويعلو شأنها، ويزيد أتباعها، وإن المتبعين لأهوائهم، المختلفين للمعاذير سينخذل باطلهم، ويفتضح أمرهم، ويتنقص أتباعهم.

قُلُوبُ الْجَاهِدِينَ لَا تَتَأَثَّرُ بِالزَّوْجِرِ وَالْمَوَاعِظِ

٥، ٤ - ﴿وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مِنَ الْأَنْبَاءِ مَا فِيهِ مُزْدَجَرٌ ﴿١﴾ حِكْمَةٌ بَلِغَةٌ فَمَا تُغْنِ ﴿٢﴾ النَّذْرُ﴾

ثم بين سبحانه أن قلوب الجاهدين لا تتأثر بالزواجر والمواعظ، فقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مِنَ الْأَنْبَاءِ﴾ أي: جاءهم من أخبار الأمم الماضية، التي كذبت رسل الله، مع ما أيدهم الله به من المعجزات والخوارق، وكل ما فيه عبرة وعظة، وقد علموا ما حلّ بالأمم المكذبة لرسول الله من العذاب والنكال، ولكنهم لم يرتدعوا ولم يزدجروا عن ارتكاب

(١) «زاد المسير» (٨٩/٨).

(٢) قرأ يعقوب بإثبات الياء وفقاً من (فما تغني) والباقون بحذفها.

الشرور، وجاءهم من المواعظ والزواجر التي من شأنها أن يتأثر بها كل عاقل، ولكنهم لم يتنفعوا ولم يهتدوا، وجاءهم من الحج والبراهين ﴿مَا فِيهِ مُزْدَجَرٌ﴾ أي: ما فيه كفاية وردع لهم ولأمثالهم عن كفرهم وضلالهم، بالإضافة إلى أنه قد أحل لهم الحلال، وحرّم عليهم الحرام، وأخبركم أيها الجاحدون بما تفعلون وما تذكرون، ولم يترك أمراً فيه لبس إلا بيّنه، ونعمة أنعمها الله عليكم، ومع وجود هذه الموانع التي تحول بينهم وبين ارتكاب ما ارتكبه لم يرتدعوا، واستمروا في طغيانهم وجحودهم.

وهذه الأنباء التي جاءتهم يتضمنها هذا القرآن بما فيه من حُكم عظيمة بلغت منتهى الغاية في الهداية والبيان، فهي ﴿حِكْمَةٌ بَلِغَةٌ﴾ لتقوم الحجة عليهم، فلا يبقى لأحد على الله حجة بعد الرسل، ولكن ماذا تغني النذر عن قوم كذبوا بآيات الله وأعرضوا عنها ﴿فَمَا تُغْنِ الْنَذْرُ﴾ أي: ماذا تنفع الإنذارات والوعود لقوم صمّوا آذانهم عن سماع الحق، واستمروا في غيهم فلم يتعظوا ولم يهتدوا حتى كتب الله عليهم الشقاء وختم على قلوبهم قال تعالى ﴿وَمَا تُغْنِ الْآيَاتُ وَالنَّذْرُ عَنْ قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [يونس: ١٠١].

وقال سبحانه: ﴿فَلَوْ شَاءَ لَهَدَيْنَاكُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [الأنعام: ١٤٩].

وقال جل شأنه: ﴿إِنَّ الَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ ۖ وَلَوْ جَاءَتْهُمْ كُلُّ آيَةٍ حَتَّى يَرَوْا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ ۖ﴾ [يونس].

سَبْعَةٌ مِنْ أَهْوَالِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ

٦- ﴿فَتَوَلَّ عَنْهُمْ يَوْمَ يَدْعُ الدَّاعُ﴾ ^(١) *إِلَى شَيْءٍ نَكْرٍ* ^(٢) ﴿٦﴾

وإذا كان هذا حال المكذبين الجاحدين من أنهم لا يتنفعون بالنذر ولا بالمواعظ والعبر، ولا تغني عنهم شيئاً، ولا حيلة لك في هداهم، فلم يبق إلا الإعراض والتولى عنهم، فلا تبال بهم -أيها الرسول، وأيها الداعية إلى الله تعالى- واركهم في طغيانهم

(١) قرأ ورش وأبو عمرو وأبو جعفر بإثبات الياء وصلًا من (الداع إلى) وقرأ البزي ويعقوب بإثباتها وصلًا ووقفًا، والباقون بحذفها وصلًا ووقفًا، وعلى إثبات الياء يكون المد منفصلاً.

(٢) قرأ ابن كثير بإسكان الكاف من (نكر)، والباقون بضمها.

وأعرض عن جدالهم، وأمهلهم إلى اليوم الذي يدعوهم فيه الداعي إلى أمر عظيم، تنكره النفوس لعدم عهدهم بمثله، وهو يوم البعث والنشور، حيث يدعوهم فيه إسرافيل، النافخ في الصور، وهو قائم على صخرة بيت المقدس يدعوهم ﴿إِلَى شَيْءٍ تُنْكِرُ﴾ أي: إلى أمر فظيع منكّر، لا تألفه النفوس، ولا تعرف له مثيلاً، هو يوم الحساب، وهو يوم شديد الأهوال، وقد عدّد الله تعالى في هذه الآيات سبعة من أهوال يوم القيامة:

منها ثلاثة في هذه الآية، واثنان في الآية التالية، واثنان في الآية بعدها:

الأوّل: نداء إسرافيل، فإنه يؤذن بحضور الخلق إلى ساحة العرض والحساب.

الثاني: أنه يدعوهم إلى شيء مهول، وخطب جسيم.

الثالث: أن يوم القيامة يومٌ تنكره النفوس وتهابه، وتخاف منه.

الرابع: أَنَّ أَبْصَارَهُمْ تَكُونُ ذَلِيلَةً خَائِفَةً

٧- ﴿خُشَعًا^(١) أَبْصَرُهُمْ يَخْرُجُونَ مِنَ الْأَجْدَاثِ كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُّنتَشِرٌ ﴿٧﴾﴾

أي: إن أبصار الكفار تنظر من طرف خفي، وهي خاضعة خاشعة ذليلة، كحال الذي لا تثبت حدقة عينه في وجوه الناس، وهي نظرة الخائف المفتضح، فإن عزة العزيز وذلة الدليل تظهران في العيون ﴿خُشَعًا أَبْصَرُهُمْ﴾ خاضعة منكسرة، لا يستطيعون رفعها من شدة الهول والفرع الذي وصل إلى قلوبهم، كما قال تعالى: ﴿وَجُوهٌ يَوْمَئِذٍ خَاشِعَةٌ﴾ [الغاشية].

وقال سبحانه: ﴿أَبْصَرُهَا خَشِيعَةٌ﴾ [النازعات]. وقال تعالى يصف حالهم:

﴿وَتَرْنَهُمْ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا خَشِيعِينَ مِنَ الَّذِينَ يَنْظُرُونَ مِنْ طَرْفٍ خَفِيٍّ﴾ [الشورى: ٤٥].

الخامس: تَشْبِيهُ الْمَوْتَى حَالِ خُرُوجِهِمْ مِنْ قُبُورِهِمْ بِالْجَرَادِ الْمُنْتَشِرِ الْمُكْتَظِّ

ويوم القيامة يخرج المكذبون من قبورهم يستتر بعضهم في بعض، من شدة الخوف على كثرتهم، وكثرة تحركهم، وهم في ساحة العرض والحساب، عيونهم ذليلة ﴿يَخْرُجُونَ مِنْ

(١) قرأ أبو عمرو وحزمة والكسائي ويعقوب وخلف (خاشعا) مفردًا، والباقون (خُشَعًا) جمعًا.

الْجَنَاحَاتِ ﴿١﴾ أَي: القبور ﴿كَانَتْهُمْ﴾ حين يموج بعضهم في بعض في سيرهم نحو الداعي ﴿جَرَادٌ مُنْشَرٌّ﴾ أي: وهم لكثرتهم ينبعثون منتشرين في الآفاق، لا يدري الواحد منهم أين يذهب من الخوف والحيرة، فليس لأحد منهم جهة يقصدها.

قال تعالى: ﴿يَوْمَ يَكُونُ النَّاسُ كَالْفَرَاشِ الْمَبْثُوثِ﴾ [القارعة: ٤].

ثم وصف الله حال المجرمين عند خروجهم من القبور بأنهم:

السادس: أَنَّهُمْ يَتَوَجَّهُونَ مُسْرِعِينَ نَحْوَ صَوْتِ الدَّاعِي

٨- ﴿مُهْطِعِينَ إِلَى الدَّاعِ﴾ ^(١) يَقُولُ الْكَافِرُونَ هَذَا يَوْمٌ عَسِرٌ ﴿٨﴾

مادّين أعناقهم إلى الأمام، فالإهطاع: هو الإسراع في المشي مع مدّ العنق إلى أعلى، كما قال تعالى: ﴿مُهْطِعِينَ مُقْنِي رُءُوسِهِمْ لَا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ وَأَفْئِدَتُهُمْ هَوَاءٌ﴾ [إبراهيم: ٤٣].

وقال سبحانه: ﴿يَوْمَ يَخْرُجُونَ مِنَ الْجَنَاحَاتِ سِرَاعًا كَانَتْهُمْ إِلَى نُصْبٍ يُوفُضُونَ﴾ [المعارج: ٤٣].

فهم لا يتلكئون ولا يتأخرون، وأبصارهم نحو صوت الداعي شاخصة، لا تفارق وجهته، ولا تلتفت إلى شيء آخر من شدة الذعر، وهذا يدل على أن الداعي يدعوهم ويأمرهم بالحضور في ساحة الحشر فيلبون دعوته ويسرعون إلى إجابته.

السابع: أَنَّهُ يَوْمٌ شَدِيدُ الْأَهْوَالِ

ومن أثر ما في نفوس أهل النار من الخوف والذعر ﴿يَقُولُ الْكَافِرُونَ هَذَا يَوْمٌ عَسِرٌ﴾ أي: يوم صعب شديد الأهوال، كما قال تعالى:

﴿فَذَلِكَ يَوْمٌ عَسِيرٌ ﴿٩﴾ عَلَى الْكَافِرِينَ غَيْرُ يَسِيرٍ﴾ [المدثر: ١٠].

وهذا خاص بالكافرين، وهو على المؤمنين أخف من صلاة مكتوبة.

ثم عرضت السورة لخمسة من أنباء السابقين الذين أشارت إليهم في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مِنَ الْأَنْبَاءِ مَا فِيهِ مُرْدَجَرٌ﴾ [٤] لُتُبَيِّنَ أَنْ مَا أَصَابَ هَؤُلَاءِ الْأَقْوَامِ مِنْ

(١) قرأ نافع وأبو عمرو وأبو جعفر بإثبات الياء من (إلى الداعي) وصلًا، وابن كثير ويعقوب بإثباتها وصلًا ووقفًا، والباقون بحذفها.

عذاب الاستئصال، كان بسبب عدم انتفاعهم بما جاءتهم به الرسل.
وابتدأت السورة بأول الرسل، نبي الله نوح ﷺ.

الْإِعْتِبَارُ بِمَا نَزَلَ بِخَمْسَةِ أَقْوَامٍ مِنَ الْعَذَابِ

الْقِصَّةُ الْأُولَى: قِصَّةُ عَذَابِ قَوْمِ نُوحٍ

١٠، ٩ - ﴿كَذَّبَ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ فَكَذَّبُوا عَبْدَنَا وَقَالُوا مَجْنُونٌ وَازْدَجَرَ ۖ ﴿٩﴾ فَدَعَا رَبَّهُ أَنِّي مَغْلُوبٌ فَأَنْصِرْ ۖ﴾

لما ذكرت السورة حال المكذبين لرسول الله ﷺ، وبينت أن الآيات والنذر لم تُجد فيهم، بعد ذلك أُنذر الله أمة محمد ﷺ وخوفها بعقوبات الأمم الماضية المكذبة لرسول الله، وبين - سبحانه - كيف أن الله تعالى أهلكهم وأحل بهم عقابه، وبدأ بقوم نوح، أول رسول أرسله الله إلى قوم يعبدون الاصنام، فدعاهم إلى توحيد الله وعبادته، ولكنهم أصروا على شركهم وتمادوا في طغيانهم، وهذه القصة مقصورة هنا على إهلاك قوم نوح وبيان سببه، وتفصيلها في سور: الأعراف، وهود، والمؤمنون، ونوح، ويونس، والشعراء، والعنكبوت، والصفات.

فقد كذبت قبل قومك -أيها الرسول- قوم نوح، وقد أسند التكذيب إلى جميع القوم؛ لأن الذين آمنوا به قلة، قال تعالى: ﴿وَمَا ءَامَنَ مَعَهُ إِلَّا قَلِيلٌ﴾ [هود: ٤٠].

ولأنهم شافهوه بالتكذيب، واستمر تكذيبهم له إلى أن أُنذرهم الله بالطوفان، فلم يتبعوا نوحاً ولم ينضموا إليه أيضاً، فكان تكذيب قوم نوح له شبيهاً بتكذيب المشركين لرسول الله محمد ﷺ، ولذا قال تعالى: ﴿فَإِنْ كَذَّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ جَاءُوا بِالْبَيِّنَاتِ وَالزُّبُرِ ۖ وَالْكِتَابِ الْمُنِيرِ ۖ﴾ [آل عمران: ١٠].

وكان التكذيب لجميع الرسل مشوباً بالبهتان، حيث يتهمونهم بالجنون، والسفه، والضلال، والسحر، والكهانة، وما إلى ذلك، وتتجاوز الأقوال إلى الأفعال، فيعتدون عليهم بالضرب والأذى والزجر.

وكان تكذيب الأمم لرسول الله بسبب دعوتهم إلى التوحيد، فالتوحيد هو المهمة الأولى، وهو الأصل والأساس لدعوة كل رسول، وكل رسول جاء يقول لقومه: ﴿اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ

مِّنَ إِلَهِ غَيْرِهِ ﴿٥٠﴾ [هود: ٥٠].

وقد وصف الله المكذبين من أمة محمد ﷺ أنهم لم يبلغوا معشار ما كان لدى الأمم السابقة من القوة، والعدة، والعتاد، والحضارة ﴿وَكَذَّبَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَمَا بَلَّغُوا مِعْشَارَ مَا ءَاتَيْنَاهُمْ﴾ [سبأ: ٤٥].

وقوم نوح كذبوا نبينهم نوحًا، وكانوا كلما مرَّ عليه ملاً من قومه سخروا منه ﴿فَكَذَّبُوا عَبْدَنَا﴾ نوحًا، وجحدوا رسالته ﴿وَقَالُوا مَجْنُونٌ﴾ فنسبوه إلى الجنون، أي: إنه لا يعقل ما يقول، فزعموا أنهم على حق، وأن نوحًا على ضلال، فقلبوا الحقائق، ثم زجروه، وعنفوه كما قال تعالى: ﴿وَأَزْدِرْجَ﴾ أي: إنهم انتهروه وتوعدوه بأنواع الأذى إن لم ينته عن دعوته، فقالوا: ﴿لَئِن لَّمْ تَنْتَهِ يَنْتُحْ لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمَرْجُومِينَ﴾ [الشعراء: ١١٦].

فلم يكتفوا بعدم الإيمان به ولا بتكذيبه، بل آذوه وهددوه بالرجم!!

واستمر نوح يدعو قومه إلى توحيد الله تعالى وعبادته ليلاً ونهارًا، وسرًا وجهاً، فلم يزداهم ذلك إلا فراراً منه، وظل يدعوهم إلى توحيد الله تعالى، وترك عبادة الأصنام، حتى أخبره الله تعالى بأنه: ﴿لَن يَؤْمِنَ مِن قَوْمِكَ إِلَّا مَن قَدَ ءَامَنَ﴾ [هود: ٣٦].

وقد بلغ أذاهم لنوح ﷺ مبلغاً كبيراً، حيث كان الواحد من قومه يخنقه إلى أن يخر مغشياً عليه، وهو يقول: اللهم اغفر لقومي فإنهم لا يعلمون^(١).

وهنا دعا نوح ربه وتوجه إليه أن ينصره عليهم، فقال: رب قد غلبني قومي فلم يستجيبوا لي، وإني ضعيف عن مقاومتهم ولا قدرة لي على الانتصار منهم ﴿فَانْصِرْ﴾ لي بعقاب من عندك على كفرهم بك، فأنت- القوي المتين، وأنت نصير المقهورين المظلومين، وقال في الآية الأخرى ﴿رَبِّ لَا تَذَرْ عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا﴾ ﴿٢١﴾ إِنَّكَ إِن تَذَرَهُمْ يُضِلُّوا عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوا إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا﴾ [نوح]

يقول الشيخ محمد الغزالي: كنت أسمع هذه الآيات من فم قارئ ندي الصوت، وَقَفَ على كلمة ﴿مَغْلُوبٌ﴾ أطال مدَّ الواو -ست حركات- مليئة بالقهر والضراعة والاستنجد،

(١) «البحر المحيط» (١٧٦/٨).

خُيِّلَ إِلَيَّ أَنهَا امْتَلَأَتْ بِآلَامِ تِسْعَةِ قُرُونٍ وَنُصِفَ، مِنْ جِهَادِ الدَّعْوَةِ، وَفُشِّلَ الِاسْتِجَابَةُ، وَنَظَرْتُ حَوْلِي، فَرَأَيْتُ الدَّمُوعَ تَطْفُرُ مِنَ الْأَعْيُنِ، رَقَّةً لِعِبُودِيَّةِ نُوحٍ وَاسْتَغَاثَتِهِ^(١).

قال تعالى مجيئاً دعوة نوح ومنتصرًا له من قومه:

١١، ١٢ - ﴿فَفَتَحْنَا^(٢) أَبْوَابَ السَّمَاءِ بِمَاءٍ مُنْهَرٍ ﴿١١﴾ وَفَجَرْنَا الْأَرْضَ عُيُونًا^(٣) فَأَلْقَى الْمَاءَ عَلَى أَمْرٍ قَدَرٍ ﴿١٢﴾

أنهى نوح إلى ربه ما انتهى إليه مع قومه في مشواره الطويل، وجهاده الدؤوب، وعمله المتواصل، وما انتهت إليه طاقته ووشعه، فلم تعد لديه طاقة يذلها، ولم تبق له حيلة ولا حيلولة، وما كاد نوح يُسَلِّمُ الأمر لرب الأرض والسماء بطلب الانتصار لدعوته منهم، وما كادت الكلمة تخرج من فمه حتى كانت الإجابة الفورية من رب العالمين: ﴿فَفَتَحْنَا^(٢) أَبْوَابَ السَّمَاءِ بِمَاءٍ مُنْهَرٍ ﴿١١﴾﴾ أي: أرسلنا عليهم الطوفان بصورة سريعة، في مطر غزير قوي، يَنْصُبُ بتدفق وغزارة، لم تتقدمه سحب ولا رعد ولا برق، ولم تمطر السماء قبله ولا بعده مثله، مع استمراره أربعين يومًا^(٤).

وقد صحَّ في أحاديث الإسراء والمعراج: أن للسماء أبوابًا تُفْتَحُ وتُغْلَقُ، وهذا المطر المتتابع أسنده الله تعالى إليه، فظاهر الآية يفيد أن يدَّ الجبار - سبحانه - هي التي فتحت أبواب السحاب فانهمر منها الماء وتدفق، فهو سبحانه الذي يقول للشيء كن فيكون.

سأل ابنُ الكَوَّاءِ عليًا ؑ عن المَجْرَةِ فقال: شَرُّجُ السماء، ومنها فتحت أبواب السماء بماء منهمر، ثم قرأ: ﴿فَفَتَحْنَا^(٢) أَبْوَابَ السَّمَاءِ بِمَاءٍ مُنْهَرٍ ﴿١١﴾﴾^(٥).

وقال ابن عباس ؓ: قال كثير: لم تُمَطَّرِ السماء قبل ذلك اليوم ولا بعده إلا من السحاب، وفتحت أبواب السماء بالماء من غير سحاب في ذلك اليوم، فالتقى الماءان^(٦).

(١) «نحو تفسير موضوعي لسور القرآن الكريم» ص ٤٢٠.

(٢) قرأ ابن عامر وأبو جعفر وروح ورويس بخلف عنه بتشديد التاء من (فتحتنا) للتكثير، والباقون بتخفيفها على الأصل، وهو الوجه الثاني لرويس، وهما لغتان.

(٣) قرأ ابن كثير وابن ذكوان وشعبة وحمزة والكسائي بكسر العين من (عِيُونًا)، والباقون بضمها.

(٤) «تفسير الخازن» (٢٣٠/٤).

(٥) «صحيح الأدب المفرد» (٥٨٩) وابن أبي حاتم عن أبي الطفيل.

(٦) أخرجه ابن المنذر وابن أبي حاتم كما في «الدر المنثور» (٧٥/١٤).

وقال أبو السعود: وهو تمثيل لكثرة الأمطار وشدة انصبابها^(١).

هذا هو الماء النازل من السماء، أما الماء المتفجر من الأرض، فيقول تعالى عنه: ﴿وَفَجَّرْنَا الْأَرْضَ عُيُونًا﴾ أي: شققنا الأرض عيونًا متفجرة بالماء، وصارت الأرض كلها عيونًا تتفجر بالماء، بنفس القوة والشدة والكثرة التي تنهمر بها من السماء ﴿فَالْتَقَى الْمَاءُ﴾ المنهمر من السماء، والمتفجر من الأرض ﴿عَلَى أَمْرٍ قَدِّدٍ﴾ أي: على أمر قد قدره الله وقضاه في الأزل، فقد تفجرت الأرض كلها بالماء حتى التور الذي لم تجر العادة بوجود الماء فيه، فقد نبع فيه الماء مع أنه موضع النار، وهذا الأمر الذي قدره الله تعالى وهو إهلاك قوم نوح بالطوفان، كان جزاء لهم على عدم إيمانهم.

واجتماع الماء النازل من أعلى بالماء النابع من أسفل لم يكن بطريق المجاورة، بل باتحاد المائين واختلاطهما حتى صارا طوفانًا يعمُّ ويطمُّ، يغمرُّ وجه الأرض كلها حيث أغرق الله المكذبين، ونجَّى الله نوحًا ومن آمن معه. قال تعالى:

١٣، ١٤ - ﴿وَحَمَلْنَاهُ عَلَى ذَاتِ الْوُجْهِ وَدُسِّرَ ﴿١٣﴾ تَجْرَى بِأَعْيُنِنَا جَزَاءً لِّمَن كَانَ كُفْرًا ﴿١٤﴾﴾

أي: نجينا نوحًا، وحملناه ومن معه على سفينة مصنوعة من ألواح الخشب والمسامير التي شُدَّت بها، كما قال تعالى: ﴿وَأَيُّهُ لَمَّمْنَا أَنَّا حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ فِي الْفُلِّ الْمَشْحُونِ ﴿٤١﴾ وَخَلَقْنَا لَهُم مِّن مِّثْلِهِ مَا يَرْكَبُونَ ﴿٤٢﴾ وَإِن شَأْنُ نُّفُوسِهِمْ فَلَا صَرِيحَ لَهُمْ وَلَا هُمْ يُقَدَّرُونَ ﴿٤٣﴾ إِلَّا رَحْمَةً مِنَّا وَمَتَاعًا إِلَىٰ حِينٍ ﴿٤٤﴾﴾ [يس].

وقال سبحانه: ﴿إِنَّا لَمَّا طَغَا الْمَاءُ حَمَلْنَاكُم فِي الْجَارِيَةِ ﴿١١﴾ لِنَجْعَلَهَا لَكُمْ تَذْكِرَةً وَتَعِيَهَا أُذُنٌ وَاعِيَةٌ ﴿١٢﴾﴾ [الحاقة].

وقد أمر الله نوحًا أن يدعو ربه بدعاء جاء في هذه الآية: ﴿فَإِذَا اسْتَوَيْتَ أَنْتَ وَمَنْ مَعَكَ عَلَى الْفُلِّ فَقُلِ السَّلَامُ لِلَّهِ الَّذِي بَخَّسَنَا مِنَ الْقَوْرِ الظَّالِمِينَ ﴿١٨﴾ وَقُلْ رَبِّ أَرْزُقْنِي مَزَلًا مَّبَارَكًا وَأَنْتَ خَيْرُ الْمَرْزُقِينَ ﴿٢٩﴾﴾ [المؤمنون].

ثم وصف الله - سبحانه - السفينة التي صنعها نوح ﷺ، ونجاه هو ومن آمن به من الغرق، ممن حملهم معه فيها من أصناف المخلوقات، فقال: ﴿تَجْرَى بِأَعْيُنِنَا﴾ أي: تجري هذه السفينة بمرأى منَّا، وبحفظنا وتحت رعايتنا وعنايتنا، فقد نجينا المؤمنين وأغرقنا المكذبين.

(١) «تفسير أبي السعود» (٧/٧٨٦).

﴿قِيلَ يٰنُوحُ اهْبِطْ بِسَلَامٍ مِنَّا وَبَرَكَاتٍ عَلَيْكَ وَعَلَىٰ أُمَمٍ مِّمَّنْ مَعَكَ﴾ [هود: ٤٨]

ثم بيّن سبحانه الأسباب التي أدت إلى نجاة المؤمنين وهلاك الكافرين، وجعلتهم محل غضب الله تعالى، فقال: ﴿جَزَاءٌ لِّئِنْ كَانَ كُفْرًا﴾ أي: فعلنا بنوح ما فعلنا بنجاته من الغرق جزاءً له على كفرهم به، وانتصاراً لنوح ﷺ، فقد كذبه قومه وكفروا به فصبر على أذاهم واستمر في دعوته لهم، فإنه كان نعمة أنعم الله بها على قومه، فجدوا هذه النعمة وكفروا بها، وهذا جزاء كفران النعمة.

والذي كُفر هو نوح ﷺ، فقد كفر به قومه، وكان كفرهم به مدة تسعة قرون ونصف القرن، حيث بدأت دعوته لهم بالرسالة، وفي الآية إثبات العينين لله سبحانه على وجه يليق بجلاله.

١٥، ١٦- ﴿وَلَقَدْ تَرَكْنَاهَا آيَةً فَهَلْ مِنْ مُّذَكِّرٍ ﴿١٥﴾ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذْرٍ ﴿١٦﴾﴾

ولقد أبقينا قصة نوح مع قومه وجعلناها عبرة ودليلاً على قدرتنا لمن جاء بعد نوح، ليعتبروا ويتعظوا بما حلّ بهذه الأمة التي كفرت بربها وكذبت رسولها ﴿وَلَقَدْ تَرَكْنَاهَا آيَةً﴾ يتذكر بها المتذكرون على أن من كذب الرسل وعاندهم أهلكه الله بعقاب عام ﴿فَهَلْ مِنْ مُّذَكِّرٍ﴾: هل من معتبر ومتعظ، مشمّر عن ساعد الجدل للعمل بما فيه من أوامر ونواهٍ؟

عن أبي إسحاق أنه سمع رجلاً يسأل الأسود: ﴿فَهَلْ مِنْ مُّذَكِّرٍ﴾ أو (مذكر)؟ قال: سمعت عبد الله يقرأها: ﴿فَهَلْ مِنْ مُّذَكِّرٍ﴾ وقال: سمعت رسول الله ﷺ يقرأها: ﴿فَهَلْ مِنْ مُّذَكِّرٍ﴾ دالاً^(٢).

وعلى هذا التفسير فإن الضمير في ﴿وَلَقَدْ تَرَكْنَاهَا﴾ يعود على قصة نوح، من نجاة

(١) أثبت الباء وصلّاً من لفظ (ونذر) في المواضع الستة بالسورة ورش، وأثبتها وصلّاً ووقفاً يعقوب، وحذفها الباقون في الحالين، والراء مرققة وصلّاً، ونرجح تفخيمها وقفاً لسكونها بعد ضم والسكون العارض يعتد به وقفاً ولا ينظر إلى أصل الكلمة.

(٢) «صحيح البخاري» برقم (٤٨٧١) و«صحيح مسلم» برقم (٨٢٣) وأبو داود برقم (٣٩٩٤) والترمذي برقم (٢٩٣٧) و«سنن النسائي» (١٥٠/٢) وورد مثل ذلك عن ابن مسعود في البخاري برقم (٤٨٦٩)، (٤٨٧٤) و«المسند» (٣٧٥٥) بإسناد صحيح على شرط الشيخين و«السنن الكبرى» للنسائي (١١٥٥٥) والحاكم (٢/٢٤٩) وقراءة الذال، قراءة شاذة، يُنظر: «مختصر الشواذ» لابن خالويه ص ١٤٨.

المؤمنين وغرق الكافرين.

ويجوز أن يعود الضمير في ﴿تَرَكْنَهَا﴾ على السفينة نفسها، ليدل ذلك على رحمة الله بخلقه وعنايته بهم، بحيث يكون المعنى: أبقينا أثر سفينة نوح وجنسها محفوظة من الانقراض والبلى، لتكون عبرة وعظة دالة على كمال قدرة الله تعالى وبديع صنعه، تشهدا للأمم الذين أرسلت إليهم الرسل تأييداً لهم، وتخويفاً بأول عذاب عُدِّبَتْ به أول أمة كذبت رسولها، فكان عذابها حجة دائمة لكل أمة، مثل هلاك ديار عاد وثمود.

وقد أخذت السفينة تتناقص حتى بقي منها أخشاب، شهدها صدر الأمة الإسلامية، وقد تواتر خبر مُشاهدتها من جميع الأمم بعد نوح ﷺ إلى هذا العصر.

ولقد ذكر القرآن أن سفينة نوح استقرت على جبل الجودي، حيث نزل نوح ومن معه منها، وبقيت السفينة هناك لا ينالها أحد، وجبل الجودي يقع قُرب قرية تسمى بِأَقْرَدِي في جزيرة ابن عمر، قرب الموصل، شرقيّ دجلة، عند ملتقى الحدود السورية التركية حالياً، ويُرى جبل الجودي بوضوح من بلدة (عين ديوار) السورية.

وفي صحيح البخاري، قال قتادة: لقد شهدها صدر هذه الأمة^(١).

وعند الطبري عن قتادة قال: أبقاها الله بِأَقْرَدِي من أرض الجزيرة عبرة وآية، حتى نظرت إليها أوائل هذه الأمة، وكم من سفينة كانت بعدها قد صارت رماداً.

وقد نقلت وكالات الأنباء يوم الأربعاء ١٣/٩/٢٠٠٠م أنه تم العثور على مدن كاملة مغمورة في قاع البحر الأسود، وقال العلماء المكتشفون: إنها تثبت الطوفان كما ورد في الكتب المقدسة، وذكرت ذلك الخبر هيئات الإذاعة البريطانية بعد أن بثت الفضائيات صورته^(٢).

وقال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَهَا آيَةً لِلْعَالَمِينَ﴾^(٣) [العنكبوت: ١٥].

(١) كما أخرجه عبد الرزاق (٢/٢٥٨) وعبد بن حميد وابن جرير (٢٢/١٢٨).

(٢) ينظر: أطلس القرآن الكريم ص ٢٧ د/ شوقي أبو خليل.

(٣) «تفسير التحرير والتنوير» (١٢/١٨٦).

وقال تعالى: ﴿وَقَوْمٌ نُّوحٍ لَّمَّا كَذَبُوا الرُّسُلَ أَغْرَقْنَاهُمْ وَجَعَلْنَاهُمْ لِلنَّاسِ آيَةً﴾ [الفرقان: ٣٧].

ثم يأتي استفهام تعجبي، يوقظ القلوب الغافلة إلى هول العذاب وصدق النذير: ﴿فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذْرِي﴾^(١) أي: كيف كان عذابي وإنذاري لمن كفر بي وكذب برسلي، ولم يتعظ بما جاءت به؟! لقد كان عذابهم أليماً، ولم يبق لأحد منهم حجة.

وفي هذا تعريض بتهديد كل من كذب بالنبى الخاتم ﷺ أن يصيبهم عذاب أليم جزاء تكذيبهم لرسول الله، كما أصاب قوم نوح ﷺ. قال تعالى:

١٧ - ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَكِّرٍ﴾ (١٧)

ثم نوه الله تعالى بشأن القرآن، وبيّن أنه من عند الله، وأن الله تعالى سهّله ويسّره حفظه وتلاوته وفهمه، ويسّر تذكر الخلق بما يحتاجونه من التذكير بكل ما فيه من هدى وإرشاد.

وفي هذا تبصير للمؤمنين ليزدادوا إقبالاً عليه سبحانه، وفيه تعريض بالمكذبين، لعلمهم يُقلعون عن صدهم وإعراضهم ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ﴾ سهلنا لفظ القرآن للتلاوة والحفظ، وسهلنا معانيه للفهم والتدبر لمن أراد أن يتذكر ويعتبر.

والله تعالى يدعو عباده إلى الإقبال عليه ويقول: ﴿فَهَلْ مِنْ مُدَكِّرٍ﴾ هل من متعظ به، عامل بما فيه؟ وهل من طالب علم فيعان عليه؟ وفي هذا حث على تعليم القرآن والاشتغال به؛ لأن الله تعالى قد يسّره وسهّله على من يشاء من عباده، بحيث يسهل حفظه للصغير والكبير، والعربي والعجمي، وغيرهم.

قال سعيد بن جبیر: يسرناه للحفظ والقراءة، وليس شيء من كتب الله تعالى يُقرأ كله ظاهراً - أي يُحفظ كله عن ظهر قلب - إلا القرآن^(٢).

(١) هذه الكلمة أصلها (ونذري) فحذفت منها الياء، ونظراً لهذا الحذف فقد رأى بعض علماء التجويد ترقيقها وفقاً ولم يعتدوا بالسكون العارض، واعتد آخرون بالسكون العارض فقالوا: إنها مفخمة لأنها ساكنة بعد ضم، والقاعدة تقتضي التفضيم، وهذا في المواضع الستة في هذه السورة.

قلت: ولعل التفضيم أرجح لأن السكون العارض للوقف يغير حكم الراء من التريق إلى التفضيم والعكس، كما في (والعصر) فهي مرققة وصلاً مفخمة وفقاً.

(٢) «تفسير الخازن» (٢٠٥/٤).

ومع أن الرسم العثماني يخالف الرسم الإملائي في كثير من القواعد، إلا أننا نجد بعض الصبيان يحفظون القرآن كله في التاسعة من أعمارهم ونحوها، وكثير منهم يُحسن تلاوته من المصحف، وكذا العُميان، وغير الناطقين بالعربية ممن لا يكتب اسمه، ولا يعرف النطق بالعربية، ولكنه يقرأ القرآن كله في المصحف قراءة صحيحة، كما نجد من عوام المسلمين العرب مَنْ هو أميٌّ، ولكنه يجيد قراءة القرآن من المصحف لكثرة إلف حروفه وورسمه وألفاظه، وهو لا يعرف أن يكتب اسمه؛ وذلك لأن الله تعالى سهّل فهم القرآن وبسّره، ويكفي أن تقرأ النص لتتعظ كل الاتعاظ بما لا يُغني عنه شرح مهما كان.

وقد جاءت هذه الآية في أعقاب قصة كل من: نوح، وهود، وصالح، ولوط عليهم السلام للاعتبار والاتعاظ بكل قصة منها، بما يناسب موضوع القصة، والملاحظ أن القصص في هذه السورة تقتصر على جانب التذكير بعاقبة أهل الضلال والعناد في إيجاز شديد، وبيان مصارع المكذبين بما يناسب موضوع السورة، وهو قيام الساعة، وما فيها من نعيم وعذاب.

الْقِصَّةُ الثَّانِيَّةُ: قِصَّةُ عَذَابِ عَادٍ قَوْمِ هُودٍ

١٨، ١٩ - ﴿كَذَّبَتْ عَادٌ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذْرِي ﴿١٨﴾ إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِم رِيحًا صَرْصَرًا فِي يَوْمٍ نَحْسٍ مُّسْتَمِرٍّ ﴿١٩﴾

أرسل الله هودًا عليه السلام إلى القبيلة التي سميت باسم جدّها عاد، وكانوا يسكنون الأحقاف من الربع الخالي في جنوب الجزيرة العربية، وكانوا قومًا يعبدون الأصنام، فأرسل الله تعالى إليهم نبيّه هودًا عليه السلام، فدعاهم إلى توحيد الله تعالى، فكذبوه واتهموه بالسفه والجنون.

والقصة هنا تقتصر على ما لحق بالمكذبين به من عذاب، وقد مرّت القصة أكثر تفصيلًا في سور: الأعراف، وهود، والمؤمنون، والشعراء، والأحقاف.

وقبيلة عاد كانت قبيلة مغرورة متكبرة، آتاهها الله بسطة في الأموال والأجسام، فلم تستح أن تصف نبيّها بالسفاهة، وهو يدعوهم إلى توحيد الله! قالوا له: ﴿إِنَّا لَنَرُّكَ فِي سَفَاهَةٍ وَإِنَّا لَنُظُنُّكَ مِنَ الْكَذَّابِينَ﴾ [الأعراف: ٦٦].

﴿إِنْ نَقُولُ إِلَّا اعْتَرَاكَ بَعْضُ آلِهَتِنَا بِسُوءٍ﴾ [هود: ٥٤].

ولذا فإن الله تعالى يبدأ بذكر تكذيبهم له، وقبل أن تفرغ الآية يلحقها الاستفهام

التعجبي من عذابهم ﴿كَذَّبَتْ عَادٌ﴾ نبيهم هودًا ﷺ، فعاقبنا المكذبين له باستئصال شأفتهم ﴿فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذْرِي﴾ (١٦) أي: كيف كان عذابي لهم على كفرهم؟ وكيف كان إنذاري لهم على تكذيب رسولهم وعدم الإيمان به؟

ثم وصف الله سبحانه ما حلَّ بهم من دمار وهلاك، بأن أرسل عليهم ريحًا عاتية في يوم كله شؤم وعذاب، واستمر هلاكهم سبع ليال وثمانية أيام متتابة.

أي: أرسلنا عليهم ريحًا شديدة الهبوب، شديدة البرودة، ذات صوت عالٍ، كما قال تعالى: ﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِي أَيَّامٍ نَحْسَاتٍ لِّنُذِيقَهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَخْرَىٰ وَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ﴾ (١٦) [فصلت].

وقال سبحانه: ﴿وَفِي عَادٍ إِذْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الرِّيحَ الْعَقِيمَ﴾ (١٦) مَا لَّذَرٍ مِنْ شَيْءٍ أَنْتَ عَلَيْهِ إِلَّا جَعَلْتَهُ كَالرِّيمِ﴾ (١٦) [الذاريات].

وقد استمر عذاب قوم هود ﴿سَبْعَ لَيَالٍ وَفَنِيَّةٍ أَيَّامٍ حُسُومًا فَتَرَى الْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَى كَأَنَّهُمْ أُعْجَازٌ نَّخْلٍ خَاوِيَةٌ﴾ [الحاقة: ٧] فوصفت هذه الأيام بأنها أيام حاسمة، وأنها أيام نحس وشؤم عليهم، استمرَّ فيها عذابهم وهلاكهم، كما قال تعالى: ﴿فِي يَوْمٍ نَحْسٍ مُّسْتَمِرٍّ﴾ فقد استمر عليهم نحسه ودماره، حتى اتصل عذاب الدنيا بالآخرة، ثم وصف الله هذه الريح بأنها:

٢٠، ٢١- ﴿تَرْجُ النَّاسَ كَأَنَّهُمْ أُعْجَازُ نَخْلٍ مُّنْقَعِرٍ﴾ (١٦) ﴿فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذْرِي﴾ (١٦)

أي: وكانت هذه الريح تقتلع الناس من مواضعهم على الأرض فترفعهم إلى جو السماء، ثم تدفعهم إلى الأرض، فترمي بهم وهم منكسئون على رؤوسهم فتدق أعناقهم، وتفصل رؤوسهم عن أجسادهم، فتتركهم كالنخل المنقطع من أصله، كما قال تعالى: ﴿تَرْجُ النَّاسَ﴾ تقتلع رؤوسهم ﴿كَأَنَّهُمْ أُعْجَازُ نَخْلٍ مُّنْقَعِرٍ﴾ أي: كأنهم أصول نخل قد انقطعت من مغارسها على الأرض، وشبَّهوا بالنخل لطول أجسامهم وضخامتهم، وقد كانت الريح تأتي على أحدهم فترفعه حتى تغيبه عن الأبصار، ثم تنكسه على أم رأسه، فيسقط على الأرض، فتقلع رأسه، فيبقى جثة بلا رأس، فما أهون الخلق على الله إذا عصوا أمره؟

ولتهويل ما حلَّ بهم من عذاب، والتعجب من أمرهم، قال تعالى: ﴿فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي﴾ لهم ﴿وَنُذْرِي﴾ أي: وإنذاري إياهم، ألم يكن شيئًا فظيعةً؟! والندارة لا تبقى لأحد على الله حجة.

قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ﴾ [الفجر].

إن هذه الرياح التي دمرت كل شيء بأمر ربها، ولم تبق إلا مساكنهم، هي جند من جند الله، وقوة من قوى هذا الكون يسلطها الله على من يشاء من عباده، لقد كانت الرياح العقيم تجلد الأرض بأجسام هؤلاء العماليق، أو تجلد أجسادهم بالأرض، فإذا هم مُمدّدون على الثرى، كجذوع النخل التي طاحت رؤوسها، لقد هلك قوم نوح بالماء، وهلك قوم هود بالهواء، والماء، والهواء من نعم الله الكبرى على كل الكائنات الحية، فلا حياة لها بدونهما، ولكن الله تعالى إذا شاء أغرق بالماء، ودمّر بالهواء.

﴿وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا بَنَيْنَا هُودًا وَلَازِمُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا﴾ [هود: ٥٨].

وتُختم القصة بما خُتمت به نظائرها في السورة:

٢٢- ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدْكِرٍ﴾ (٧)

وهذا التكرار يراد منه: التأكيد والتحريض وتنبيه الأنفس، ومثله قوله ﷺ في حجة الوداع: «ألا هل بلغت؟ ألا هل بلغت؟»^(١) وقوله ﷺ: «ألا وقول الزور، وشهادة الزور» وما زال يكررها حتى قال الصحابة: ليت سكت^(٢)، وهو من أساليب البلاغة والتركيز الإعلامي.

الْقِصَّةُ الثَّالِثَةُ: قِصَّةُ قَوْمِ ثَمُودَ مَعَ نَبِيِّهِمْ صَالِحٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ

٢٣، ٢٤- ﴿كَذَبَتْ ثَمُودُ بِالنُّذُرِ﴾ (٣٣) ﴿فَقَالُوا أَأُتْرَكُ وَاحِدًا وَنَبْعُهُ إِنَّا إِذَا لَفَى ضَلَالٍ وَسُعْرِ﴾ (٣٤)

وكانت قبيلة ثمود قد خلفت قبيلة عاد في القوة والتمكين في جزيرة العرب، وكانت عاد في جنوب الجزيرة، وثمود في الشمال، في أرض الجبجر، بمدائن صالح، ولم تعتبر ثمود بمصارع المكذبين من قوم عاد، وكان الله سبحانه قد ذكّر بهذا في قوله: ﴿وَأذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِن بَعْدِ عَادٍ وَبَوَّأَكُمْ فِي الْأَرْضِ تَتَّبِعُونَ مِن سُهُولِهَا قُصُورًا وَتَنجُونَ الْجِبَالَ

(١) من حديث سليمان بن عمرو عن أبيه في سنن النسائي الكبرى (٤٠٨٥، ٩١٢٤، ١١١٤٩) وعند أبي داود (٣٣٣٤) وابن ماجه (١٨٥١) والترمذي (١١٦٣) وفي المسند (٢٠٦٩٥) عن أبي حُرّة الرقاشي عن أبيه وهو حديث صحيح لغيره كما قال محققوه.

(٢) من حديث عبدالرحمن بن أبي بكرة عن أبيه في البخاري (٥٩٧٦) ومسلم (٨٧) والترمذي (١٩٠١).

يُؤْتَا فَاذْكُرُوا ءَالَآءَ اللَّهِ وَلَا تَعْتُوا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿٧٤﴾ [الأعراف: ٧٤].

والقصة هنا مقصورة على بيان نوع تكذيب القوم له، فقد فصلته السورة ولم تُجمله كما سبق في قصة عاد، ثم بيّنت العذاب الدنيوي الذي كان نتيجة هذا التكذيب، وقد فصلت القصة في سور: الأعراف، وهود، والشعراء، والنمل.

وبدأت القصة هنا ببيان تكذيب قبيلة ثمود لنبیهم صالح، بعد أن دعاهم إلى توحيد الله تعالى وعبادته، وحذّره عقاب الله إن خالفوه، فكذبوه وقالوا له ﴿قَدْ كُنْتَ فِينَا مَرْجُوًّا قَبْلَ هَذَا﴾ [هود: ٦٢] وقد سقطت من أعيننا بعد أن دعوتنا إلى ترك عبادة آبائنا الأولين.

وتكذيب رسول واحد هو تكذيب لرسول الله جميعاً، ولذا قال تعالى: ﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِالنُّذُرِ﴾ ﴿٢٣﴾ أي: كذبوا بآيات الله ونذره ومواعظه التي أنذرهم بها صالح عليه السلام.

والنُّذُر: جمع نذير، أي: كذبوا بالإنذارات التي أنذرهم الله بها على لسان رسله، كما قال تعالى: ﴿فَكَذَّبُوا رَسُولِي فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ﴾ [سبا: ٤٥].

وكما قال سبحانه: ﴿وَقَوْمَ نُوحٍ لَمَّا كَذَّبُوا الرُّسُلَ أَغْرَقْنَاهُمْ وَجَعَلْنَاهُمْ لِلنَّاسِ آيَةً﴾ [الفرقان: ٣٧].

ثم فصل سبحانه وتعالى مظاهر هذا التكذيب، في تعجبهم أن يكون الرسول بشراً مثلهم، وهي شبهة قال بها السابقون واللاحقون، فهي شبهة مكررة في الناس جيلاً بعد جيل، وهكذا قالت قريش لرسول الله ﷺ: ﴿أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَا إِلَى رَجُلٍ مِنْهُمْ أَنْ أَنْذِرِ النَّاسَ وَبَشِّرِ الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ [يونس: ٢].

وماذا في أن يختار الله واحداً من عباده فيُنزل عليه الوحي؟ والله أعلم حيث يجعل رسالته، وهؤلاء يستنكرون أن يكون الرسول واحداً منهم، وهم جماعة كثيرة ﴿إِنَّا إِذَا﴾ إن أتبعناك يا صالح ﴿لَفِي ضَلَالٍ﴾ أي: شقاء وبُعد عن الصواب.

﴿وَسُعْرٍ﴾ قيل: إن السُّعْر هو العذاب، أو شدته، وقيل: هو الجنون، من قولهم: ناقة مسعورة، كأنها من شدة نشاطها مجنونة، وقد أنف هؤلاء أن يتبعوا رسولاً من البشر، ولم يأنفوا من عبادة الشجر والحجر والصور.

والمعنى: أتتبع واحداً من البشر جاءنا بما يخالف ما كان عليه آبائنا وأجدادنا؟! لقد

خَبْنَا وخسرنا إذا نحن سَلَّمْنَا قيادتنا لواحد منا! وهذا حسد من قوم ثمود لصالح، واستبعاد منهم أن يفضل بعض البشر على بعض، فقالوا: أنكون جَمْعًا ونَتَّبِعَ واحدًا؟ ولم يعلموا أن الفضل بيد الله يؤتیه من يشاء، ويفيض بنور الهدى على من يشاء. قالوا:

٢٥، ٢٦- ﴿أَلَيْكَ^(١) الذِّكْرُ عَلَيْهِ مِنْ بَيْنِنَا بَلْ هُوَ كَذَابٌ أَشَرٌّ ﴿٢٥﴾ سَيَعْمُونَ^(٢) غَدًا مِنَ الْكَذَّابِ الْأَشْرِ﴾

أي: أُنزل على صالح الوحي، وخصَّ بالنبوة من بيننا، وهو واحد منا؟ كيف ذلك، وفينا من هو أحق منه؟! فكيف يخصه الله بالرسالة وينزل عليه الذكر؟ وهذا الاعتراض من المكذبين ببشرية الرسول، وقع من جميع الأمم حيث قالوا لهم ﴿إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا﴾ [إبراهيم: ١٠] فردوا عليهم قائلين ﴿إِنْ نَحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَمُنُّ عَلَىٰ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ﴾ [إبراهيم: ١١] فالرسل قد اختصهم الله بوحيه وزودهم بمؤهلات الرسالة، ثم إن المكذبين ببشرية الرسول، أضربوا عن هذا الكلام، وانتقلوا إلى ما هو أقوى منه وأشد، فقالوا: ﴿بَلْ هُوَ كَذَابٌ أَشَرٌّ﴾ وهكذا وصفوه بأنه قد تجاوز الحد في الكذب، وأنه متكبر متجبر، يريد العلو والتعظيم عليهم بادعاء النبوة، والأشر: هو البطر المتعالي على الناس. ثم إنهم سيرون عندما ينزل بهم العذاب في الدنيا أو الآخرة: مَنْ الكَذَّابِ المتجبر، هل هو صالح أو قومه المكذبون له؟ ولأن العذاب سينزل بالقوم لا محالة، فإن هذا مما لا يخفى على أحد، ولذلك فإن القرآن أورده مورد الإبهام.

معجزة صالح عليه السلام

٢٧- ﴿إِنَّا مَرْسِلُوا نَارَاقَةَ فَتُنَنَّا لَهُمْ فَارْتَقِبْهُمْ وَاصْطَبِرْ﴾

ذكر ﷺ في هذه الآية، معجزة الناقة التي أيد الله بها نبيه صالحًا ﷺ، والتي كانت سببًا في العذاب الذي لحق بقوم ثمود، وكان المكذبون قد سألوا نبيهم صالحًا ﷺ أن يخرج لهم ناقة حلوبًا، عُشراء من صخرة صماء، فإن أجابهم لذلك صدقوه وآمنوا به،

(١) سهَّل الهمزة الثانية مع إدخال ألف بين الهمزتين قالون وأبو جعفر، وسهَّلها مع الإدخال وعدمه أبو عمرو، وسهَّلها من غير إدخال ورش وابن كثير ورويس، ولهشام التسهيل مع الإدخال، والتحقيق مع الإدخال وعدمه، والباقون بالتحقيق بلا إدخال.

(٢) قرأ ابن عامر وحمزة بقاء الخطاب في (سيعلمون)، والباقون بقاء الغيب.

ودعا صالح ربه، فأيده بالمعجزة المطلوبة ولكنهم لم يؤمنوا:

والمعنى: إنا مخرجو الناقة التي سألوها من الصخرة، أو الهضبة الحمراء، محنة واختباراً لهم، كما شأؤوا وطلبوا، فسنخرجها لهم أمام أعينهم لتكون حجة من الله عليهم للتصديق بنبيهم صالح ﴿فَأَرْقَبَهُمْ﴾ ترقب - أيها الرسول - وانتظر ما يحصل لهم من الفتنة عند ظهور الناقة وارتقب هل يؤمنون أو يكفرون؟ ﴿وَأَصْطَرَّ﴾ أي: اصبر على تكذيبهم لك صبراً لا يعترية ملل ولا ضجر، ولا تيأس من النصر عليهم مهما أصابك من أذاهم، وداوم على تبليغ الدعوة لهم. قال تعالى:

٢٨- ﴿وَيَتَّبِعُهُمُ الْآلَاءُ فِئْصَةً يَبْتِغِي كُلُّ شَرْبٍ مُّحَضَّرًا﴾ (١٨)

أي: وأخبر قومك - يا صالح - أن الماء الذي يُمَرُّ بواديهم مقسوم بين القبيلة والناقة، فللناقة يوم تشرب فيه الماء كله لا يشاركها فيه أحد، وأنتم تشربون في هذا اليوم من حليب الناقة، فإنه سيكفي القبيلة كلها، ولكم يوم تشربون فيه الماء ولا تشارككم فيه الناقة ﴿كُلُّ شَرْبٍ مُّحَضَّرٌ﴾ أي: يحضر هذا اليوم إلى بئر الماء من كانت قسمته حاضرة فيه، ويحظر على من ليس له بقسمة أن يحضر، وقد فُسرَت هذه الآية بمثل قوله تعالى:

﴿قَالَ هَذِهِ نَاقَةُ لِهَآ شَرْبٌ وَلَكُمُّ شَرْبٌ يَوْمَ مَعْلُومٍ﴾ [الشعراء].

ومع أن القوم لم يكن ينقصهم شيء، ولم يصيبهم ضرر من جرّاء هذه القسمة، حيث إنهم يشربون حليب الناقة في يوم قسمة الماء لها فيكفيهم، وهو أفضل من الماء، وأكثر من كافٍ لإروائهم، ولكن القوم شحّوا بهذه القسمة، فأضرموا قتل الناقة، فأبلغهم صالح ﷺ أن الله تعالى ينهاهم عن أن يمسوها بسوء. قال تعالى:

٢٩، ٣٠- ﴿فَنَادُوا صَاحِبَهُمْ فَتَعَاطَى فَعَقَرَ﴾ (٢٩) ﴿فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذْرٍ﴾ (٣٠)

أي: إن قوم ثمود أجمعوا على قتل الناقة، فنادوا أشقى القوم، وهو صاحبهم (قُدار بن سالف) نادوه لقتل الناقة، وكان قُدار من سادة القوم وأهل العزة فيهم، جاء في الحديث: «فانتدب لها رجل ذو منعة في قومه، كأبي زَمْعَةَ» وهو الأسود بن المطلب بن أسد، فأجاب نداءهم، فرماها بنبل فقتلها، وهو غير مكترث بما فعل ﴿فَتَعَاطَى فَعَقَرَ﴾ أي: تناول الناقة بيده فنحرها بعد أن رماها بالنبل، قال تعالى: ﴿إِذْ أَبْعَثَ أَشْقَاهَا﴾ (٣٢) [الشمس]:

[١٢] أي: أشقى القوم، وهو قُدار ﴿فَقَالَ لَهُمْ رَسُولُ اللَّهِ﴾ صالح ﴿نَاقَةُ اللَّهِ﴾ أي: احذروا أن تمسوها بسوء ﴿وَسُقِيَهَا﴾ أي: وقسمة الماء بينهم وبين الناقة بالسوية ﴿فَكَذَّبُوهُ فَعَقَرُوهَا فَدَمْدَمَ﴾ أي: غضب ﴿عَلَيْهِمْ رَبُّهُمْ بِذُنُوبِهِمْ فَسَوَّاهَا﴾ ﴿لَا يَخَافُ عُقْبَاهَا﴾ ﴿[الشمس]﴾.

وجاء عقر الناقة منسوباً إلى الرهط الذين اتفقوا على قتلها في قوله تعالى: ﴿فَعَقَرُوهَا فَقَالَ تَمَتَّعُوا فِي دَارِكُمْ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ ذَلِكَ وَعْدٌ غَيْرُ مَكْذُوبٍ﴾ ﴿[هود]﴾.

وفي هذه السورة نُسب العقر إلى من قام بالتنفيذ

وفي سورة النمل نُسب إلى من خططوا ودبروا المكيدة ﴿وَكَانَ فِي الْمَدِينَةِ شَعَّةٌ رَهْطٌ يُفْسِدُونَ

فِي الْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ﴾ ﴿[آية]﴾.

فعاقبهم الله على عقرها، فكيف كان عقابي لهم على كفرهم وتكذيبهم رسول الله، وقتلهم الناقة؟ وكيف كان إنذاري لمن عصى رسلي؟ وهذه الآية ليست تكراراً، ولكنها خاصة بهذه القصة، وهكذا في ختام كل قصة في السورة.

ثم فصل سبحانه العقاب الذي لحق بقوم ثمود فقال:

٣١، ٣٢- ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ صَيْحَةً وَاحِدَةً فَكَانُوا كَهَشِيرِ الْحُمْطِرِ﴾ ﴿[٣١]﴾ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ

فَهَلْ مِنْ مُدَكِّرٍ ﴿[٣٢]﴾

أي: إنا أهلكناهم بصيحة صاح بها جبريل عليه السلام، فلم تبق منهم عيناً تطرف ﴿فَكَانُوا كَهَشِيرِ الْحُمْطِرِ﴾ كالزرع والكلاء اليابس، الذي يجعل تحت أرجل الإبل والمواشي في الحظائر الخاصة بها، وهو الهشيم والشجر البالي الذي تدوسه الأنعام بأقدامها.

وهذه الصيحة هي الصاعقة التي قال الله عنها: ﴿فَإِنْ أَعْرَضُوا فَقُلْ أَنْذَرْتُكُمْ صَاعِقَةً مِثْلَ صَاعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ﴾ ﴿[فصلت]﴾.

والتي قال تعالى عنها: ﴿فَأَخَذَتْهُمْ صَاعِقَةُ الْعَذَابِ الْهُونِ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ ﴿[فصلت: ١٧]﴾.

وهي الطاغية التي قال الله عنها: ﴿فَأَنَّا نُمُودُ فَأَمْلَكُوا بِطَاغِيَةِ﴾ ﴿[الحاقة]﴾.

وهي الرجفة التي قال الله عنها: ﴿فَأَخَذَتْهُمْ الرِّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جِثِيمِينَ﴾ ﴿[الأعراف]﴾.

إن العذاب الذي نزل بقوم ثمود حوّل أشخاصهم إلى غُثاء كالهشيم، وهو ما تهشم وتفتت تحت أرجل البهائم، مما يُفرش في الحظائر، وتطرؤه الدواب بأقدامها!!

فالمحتظر: هو الذي يجعل لغنمه حظيرة من يابس الشجر والشوك، يحفظها فيها من الذئاب والسباع، وما سقط من ذلك فداسته المواشي، فهو الهشيم، والمراد: أن هذه الصيحة صعقتهم وجعلتهم كالعيدان اليابسة.

وفي نهاية القصة يردهم الله تعالى إلى قرآنه ليتدبروه ويتأملوه، فإن في ذلك تجنب الضلال، وسلوك طريق الهدى، ولقد سهلنا لفظ القرآن للتلاوة والحفظ، وسهلنا معانيه للفهم والتدبر، لمن أراد أن يتذكر أو يعتبر، فهل من متعظ به وعامل بما فيه؟

الْقِصَّةُ الرَّابِعَةُ: قِصَّةُ عَذَابِ قَوْمِ لُوطٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ

٣٣-٣٥ ﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ بِالَّذِي﴾ (٣٣) ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ حَاصِبًا إِلَّا آلَ لُوطٍ نَّجَّيْنَاهُمْ بِسَحَرٍ﴾ (٣٤) ﴿نِعْمَةً مِنَّا عِندَنَا كَذَلِكَ يَجْزَىٰ مَن شَكَرَ﴾ (٣٥)

وقد وردت هذه القصة في سور: الأعراف، وهود، والحجر، الشعراء، والنمل، والعنكبوت.

ولوط عليه السلام هو ابن أخي إبراهيم عليه السلام، وكان قد آمن به، وهاجر معه من العراق إلى الشام، فبعثه الله تعالى إلى أهل سدوم بوادي الأردن، ولم يكن لقوم لوط أمة يُعرفون بها، ولذا أضيفوا إليه، وكان هؤلاء القوم قد تفرّدوا من بين العالمين بإتيان الذكور، فدعاهم لوط عليه السلام إلى توحيد الله تعالى، ثم نهاهم عن الفاحشة التي يرتكبونها، ولم يسبقهم إليها أحد من العالمين، فكذبوه وهذّبوه بالطرد من ديارهم إن لم ينته عن دعوته.

﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ بِالَّذِي﴾ (٣٣) ﴿أَي: كذبوا بآيات الله التي أنذروا بها، وكذبوا بالإنذارات التي أنذرهم بها نبيهم لوط عليه السلام، فلم يستجيبوا لإرشاداته ولا لأوامره ونواهيه، حين دعاهم إلى عبادة الله وحده، وترك الفاحشة التي لم يسبقهم إليها أحد من العالمين، فكذبوه واستمروا في شركهم وشركهم، وبالتالي فهم قد كذبوا بالوحي الذي أنزله الله على جميع رسله، وموضوع القصة هنا هو وصف العذاب الذي نزل بهم:

فقد أمر الله تعالى جبريل عليه السلام فاقتلع مدائن قوم لوط، ورفعها حتى وصل بها إلى عنان السماء، ثم قلبها، وأتبع ذلك بقذفهم بحجارة من سجيل منضود متتابع.

فالحاصب: هي الريح التي ترمى بالحصباء، أي: الحجارة دون ملء الكف فترفعها من

الأرض لقوّتها، ثم تنزل على من أريد له أن يُقذف بها، وكان رَمِيهم بها بعد أن جعل جبريل أسفل القرى أعلاها .

وقد نجّى الله لوطاً وبناته، حيث أمره ربه أن يخرج من القرية في وقت السَّحَر، وهو الوقت الذي يختلط فيه ظلام آخر الليل بياض أول النهار قبيل الفجر، وكان إنجائهم قبيل نزول العذاب بالقوم، كما قال تعالى: ﴿إِلَّا مَالُ لُوطٍ نَجَّيْنَاهُمْ بِسَحَرٍ﴾ فقد أوحى الله تعالى إليه ألا يلتفت منهم أحد حين يخرجون من القرية، إلا امرأته، فإنه مصيبها ما أصابهم؛ لأنها لم تؤمن بدعوته ﷺ.

وهذا هو معنى الخيانة التي ذكرها الله تعالى عن امرأة لوط وامرأة نوح: ﴿ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِلَّذِينَ كَفَرُوا امْرَأَتَ نُوحٍ وَامْرَأَتَ لُوطٍ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَالِحِينَ فَخَانَتَاهُمَا فَلَمْ يُغْنِيَا عَنْهُمَا مِنَ اللَّهِ شَيْئًا﴾ [التحريم: ١٠].

ولم تكن امرأة نبيٍّ قط زانية، فخيانتها خيانة في الدين، وكفر بالرسالة.

وقد أرسل الله تعالى على قوم لوط ريحاً شديدة، تحمل الحصباء وترميهم بها فتهلكهم، ولم يؤمن بلوط سوى بناته، ولم يؤمن به رجل واحد، ولا امرأة واحدة، ولا حتى امرأته.

وكانت نجاة لوط وبناته من هذا العذاب الذي استأصل قومه -نعمة أنعم الله بها عليهم.

وبمثل هذه النعمة والنجاة من الهلاك نشيب من آمن بنا وشكرنا.

وفي هذا بشرى للمؤمنين الشاكرين؛ كي يزدادوا من الطاعة، وتعريض بسوء مصير الكافرين؛ كي يشكروا ربهم على نعمه. قال تعالى:

٣٦- ﴿وَلَقَدْ أَنْذَرَهُمْ بَطْشَتَنَا فَتَمَارَوْا بِالنُّذُرِ﴾

وقبل أن يحل العذاب بقوم لوط خوَّفهم نبهم لوطاً ﷺ بأس الله وعذابه:

أي: إن لوطاً حذَّر قومه عذاب الله إن لم يؤمنوا؛ حتى لا يبقى لهم عذر، فما كان منهم إلا أن كذبوه وتشككوا في دعوته وإنذاره لهم ﴿فَتَمَارَوْا بِالنُّذُرِ﴾ أي: شكوا في دعوته وفي دعوة الرسل جميعاً، ولم يصدقوها ولم يلتفتوا إليه ولم يستجيبوا له. قال تعالى:

٣٧- ﴿وَلَقَدْ رَاوَدُوهُ عَنْ صَيْفِهِ فَعَسَىٰ أَغْنَيْهُمْ فَذُوقُوا عَذَابِي وَنُذِرِ ﴿٣٧﴾﴾

أجمل سبحانه في هذه الآيات ما لم ينزل إلا في هذه السورة، مما يتعلق بقصة لوط عليه السلام، وهو أن ضيوف إبراهيم عليه السلام من الملائكة الكرام كانوا في صورة شباب حسان، قيل: وهم جبريل وميكائيل وإسرافيل، ولما أضافهم لوط عليه السلام خرجت امرأته وأعلمت أهل القرية بوجود ضيوف حسان في بيت لوط، فجاءه قومه يهرعون إليه من كل مكان، بقصد فعل فاحشة اللواط بهم، على أنهم شباب حسان من البشر، فأغلق لوط الباب، فحاولوا كسره، فقالت له الملائكة: يا لوط، خلّ بيننا وبينهم، فإنّا رُسل ربك، فلن يصلوا إليك ولا إلينا بسوء، وأخذ يدفعهم ويمنعهم من الدخول، ولكنهم لم يمتنعوا، فعرض عليهم لوط أن يزوجهم بنات أهل القرية، قائلاً لهم: ﴿هَؤُلَاءِ بَنَاتِي هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَلَا تَخْزُونِ فِي صَيْفِي﴾ [هود: ٧٨].

﴿قَالُوا لَقَدْ عَلِمْتُمْ مَا لَنَا فِي بَنَاتِكُمْ مِنْ حَقٍّ وَإِنَّكُمْ لَعَلَّكُمْ مَا تَرِيدُ ﴿٧٩﴾﴾ [هود: ٧٩] فاشتد الحال واحتدم الجدل، وأصروا على الدخول ﴿وَلَقَدْ رَاوَدُوهُ عَنْ صَيْفِهِ﴾ فخرج إليهم جبريل فضربهم بطرف جناحه، فطمس الله أعينهم وأعمأها ﴿فَعَسَىٰ أَغْنَيْهُمْ﴾ فلم يروا الضيوف، وصارت أعينهم مطموسة بمساواة الوجه، ليس لها شق، وقيل: إن عيونهم غارت من وجوههم بالكلية، وأنهم رجعوا على أدبارهم يتحسسون الحيطان، ويتوعدون لوطاً إلى الصباح.

قال قتادة: ذُكر لنا أن جبريل استأذن ربه في عقوبتهم ليلة أنزوا لوطاً، وأنهم عالجوا الباب ليدخلوا عليهم، فصفقتهم بجناحه فتركهم غُمياً يترددون^(١).

قال تعالى: ﴿فَذُوقُوا عَذَابِي وَنُذِرِ﴾ ذوقوا أيها المجرمون عذابي وعقوبة إنذاري الذي أنذركم به لوط عليه السلام، بسبب تكذيبكم له، فضلاً عن عذابنا الشديد الذي سيلحقكم يوم لقاء الله تعالى، ثم حدد سبحانه وقت نزول العذاب بهم، فقال:

٣٨-٤٠- ﴿وَلَقَدْ صَبَحَهمْ بُكَرَةً عَذَابٌ مُّسْتَقَرٌّ ﴿٣٨﴾ فَذُوقُوا عَذَابِي وَنُذِرِ ﴿٣٩﴾﴾ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ

لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُّذَكِّرٍ ﴿٤٠﴾﴾

أي: ولقد نزل بهم عذاب الله في الصباح الباكر، وهو معنى ﴿صَبَحَهمْ بُكَرَةً﴾ أي: في

(١) أخرجه عبد الرزاق (٢/٢٥٩) والطبري (٢٢/١٤٩) وغيرهما.

وقت مبكر من الصباح، وهو عذاب متصل بعذاب الآخرة لا يفارقهم إلى يوم القيامة، فهو معهم في البرزخ بعد هلاك أجسادهم، وهذا معنى ﴿عَذَابٌ مُّسْتَقَرٌّ﴾ أي: ثابت دائم لا ينفك عنهم، ولا ينفكون عنه.

وتحديد موعد نزول العذاب بهم جاء أيضاً في قوله تعالى: ﴿إِنَّ مَوْْعِدَهُمُ الصُّبْحُ أَلَيْسَ الصُّبْحُ بِقَرِيبٍ﴾ [هود: ٨١].

أما العذاب نفسه وهو الخسف ومطر الحجارة فقد جاء في قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَلَىٰهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ مَّنْضُودٍ ﴿٨٢﴾ مُّسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَ وَمَا هِيَ مِنَ الظَّالِمِينَ بَعِيدٍ ﴿٨٣﴾﴾ [هود].

وهذا العذاب استقر فيهم ولازمهم حتى يُفْضِي بهم إلى عذاب الآخرة، فهم في مدة موتهم يُعَذَّبُونَ بانتظار جهنم.

قال الحسن: عذاب في الدنيا استقر بهم في الآخرة.

ثم خاطب الله تعالى الذين أصابهم العذاب المستقر، فقال: ﴿فَذُوقُوا عَذَابِي وَنُذْرِي﴾ أي: تذوقوا عذابي الذي أنزلته بكم لكفركم وتكذيبكم، واستخفافكم بما وُجِّه إليكم من نصائح وتخويف، وذوقوا إنذاري الذي أنذركم به لوط عليه السلام، وهكذا ينتهي مصير المدينة الفاجرة التي طغت عليها شهواتها، واستمرأت الشذوذ الجنسي، وفتحت له نوادي تقارفه فيها، إن نبيها الصالح لوطاً عليه السلام قد أعلن مقتته لهذه الفاحشة، وحاول تهذيب طباعهم، لكنهم أبوا وحاولوا السطو على ضيوفه من الملائكة، فكانت عقوبتهم دمار مدينتهم.

واللواط معروفة في الحضارة الحديثة، وقد أعقبت بوباء الإيدز المُهْلِك، والغريب أن التوبة منها لم تخطر بالبال، بل إنهم يطالبون بالاعتراف الرسمي بفاحشتهم على أنها حق من حقوق الإنسان، والنصيحة المبدولة لهؤلاء: اقضوا شهواتكم واحتاطوا لصحتكم!! ذلك ما يقوله رجال الدين، وهم ينشرون الشفاء الواقعي، وماذا يُنتظر ممن نسي الله واتبع شهواته؟!

ويأتي التنويه الثالث بشأن القرآن، وأن الله تعالى قد سهّل لفظ القرآن للتلاوة والحفظ، وسهّل معانيه للفكر والتدبر، لمن أراد أن يتذكر ويعتبر.

وفي ذكر هذه الآية عقب كل قصة: تجديد الحث على الاستماع لكل نبأ من أنباء

الأولين، فيتعظون ويعتبرون، وتستيقظ نفوسهم، ولا تستولي عليها الغفلة، حتى يتدبروا في أحوال مَنْ سبقهم ويستفيدوا مما حدث لغيرهم.

الْقِصَّةُ الْخَامِسَةُ الْأَخِيرَةُ: قِصَّةُ عَذَابِ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ

٤١، ٤٢ - ﴿وَلَقَدْ جَاءَ آلَ فِرْعَوْنَ النَّذِيرُ ﴿٤١﴾ كَذِبُوا بِآيَاتِنَا كُلِّهَا فَلَخَذْنَاهُمْ أَخَذَ عَزِيزٌ مُّقَدِّرٌ ﴿٤٢﴾﴾

وقد ذكرت قصة فرعون وآله في سور: الأعراف، ويونس، وهود، وطه، والشعراء، والنمل، والقصص، وجاء الحديث عنهم هنا في آيتين اثنتين، ولما كانت دعوة موسى ﷺ موجهة إلى فرعون لدعوته إلى التوحيد، وتخليص بني إسرائيل من ذلّه وقهره، وليست موجهة إلى أهل مصر، لذلك فإن هذه القصة، لم تبدأ بغيرها من القصص بلفظ ﴿كَذَّبَتْ﴾ وإنما جاءت هكذا ﴿وَلَقَدْ جَاءَ آلَ فِرْعَوْنَ النَّذِيرُ ﴿٤١﴾﴾ أي: جاء فرعون وقومه إنذارنا بالعقوبة لهم على كفرهم.

ويراد بالنذر: موسى وهارون عليهما السلام بما أيدهما الله به من الآيات البينات الدالة على صدق الرسالة.

وقد صُدِّرت القصة بالقسم المؤكد لعظم ما فيها من الآيات، ولهول ما لأقوه من العذاب.

فقد شاهد فرعون وقومه جميع الآيات الدالة على وحدانيتنا، ونبوة أنبيائنا، ومنها المعجزات التسع التي أيد الله بها موسى ﷺ، منها خمس في قوله تعالى:

﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الطُّوفَانَ وَالْجَرَادَ وَالْقُمَّلَ وَالضَّفَادِعَ وَالْدَّمَ ءَايَاتٍ مُّفَصَّلَاتٍ﴾ [الأعراف: ١٣٣].

والأربعة الأخر هي: انقلاب العصا حية، وظهور يده البيضاء بخلاف لون جسمه من غير برص، وسنوات القحط، وانفلاق البحر بمرأى من فرعون وجنوده.

فكذبوا بهذه الآيات كلها ﴿فَلَخَذْنَاهُمْ أَخَذَ عَزِيزٌ مُّقَدِّرٌ﴾ أي: عاقبهم الله بالعذاب عقوبة عزيز لا يُغَالَب، قادر على كل شيء، لا يعجزه أمر، ولم يُبق منهم أحداً، بل أهلكهم جميعاً بالغرق، والمراد بذكر القصة هنا تحذير المكذبين بخاتم النبیین ﷺ كي لا يصيبهم ما أصاب أمثالهم:

كُفَّارُ الْيَوْمِ لَنْ يَسْلَمُوا مِنْ مَصِيرِ كُفَّارِ الْأَمْسِ

٤٣، ٤٤ - ﴿أَكْفَارُكُمْ خَيْرٌ مِنْ أُولَئِكَمْ أَمْ لَكُمْ بَرَاءَةٌ فِي الزُّبُرِ﴾ ﴿٤٣﴾ أَمْ يَقُولُونَ نَحْنُ جَمِيعٌ مُنْتَصِرُونَ ﴿٤٤﴾

وبعد أن فرغت الآيات من بيان مصارع الظالمين، توجهت بالخطاب إلى كل كافر مكذب لخاتم الرسل ﷺ في كل زمان ومكان؛ لِيُسْقِطَ كل شبهة، وتُزِيلَ كل شك في صدق ما جاء به محمد ﷺ، وتسدَّ كل ثغرة أو مغالطة تتعلق بيوم الحساب والجزاء على الأعمال والأقوال.

إن أعداء الإسلام لن يَفْلِتُوا من المصير الذي نال أسلافهم ﴿أَكْفَارُكُمْ خَيْرٌ مِنْ أُولَئِكَمْ﴾ لستم -أيها المكذبون- خيراً من قوم نوح، وقوم عاد، وقوم ثمود، ولا من قوم لوط، ولا فرعون وملئه، فقد كانوا أقوى أبدأناً وأكثر أموالاً وأوسع عقولاً، فلستم خيراً منهم، وليست لكم براءة من العذاب نصت عليها الكتب المنزلة من عند الله تعالى، وهذا معنى ﴿أَمْ لَكُمْ بَرَاءَةٌ فِي الزُّبُرِ﴾ أي: أم أعطاكم الله عهداً وميثاقاً فيه إخبار لكم بعدم نزول العذاب بكم، وهذه البراءة تقضي بنجاتكم مما حلَّ بأمثالكم، حتى تظنوا أنكم خير من الأمم السابقة، فأنتم مخطئون في عدم اكتراثكم واتعاظكم بما حل بمن سبقكم.

وقد بيّنت الآية أن حالهم لا يخلو من أمرين:

الأول: أن يكون الكفار الحاليون خيراً من الكفار السابقين، وأفضل منهم عند الله تعالى، وفي هذا ذم وتوبيخ لهم، إذ أنهم ليسوا خيراً منهم بل أسوأ.

الآخر: أن تكون لهم براءة من العذاب مسجلة في الكتب المنزلة من عند الله تعالى!

فإذا انتفى الأمران معاً فلا مأمّن لهم من حلول العذاب بهم في الدنيا والآخرة كما حل بأمثالهم.

ثم وبّخهم القرآن على افتراض ثالث: وهو دعواهم أنهم كثرة من البشر، وأنهم على ثقة من نصر الله لهم، وأنهم يغلّبون الإسلام وأهله، فهم يقولون: نحن أولو حزم ورأي، وأمرنا مجتمع، فنحن جماعة كثيرة منتصرة، لا يغلّبنا من أرادنا بسوء. ﴿نَحْنُ جَمِيعٌ﴾، أي جمع ﴿مُنْتَصِرُونَ﴾.

ومن الأمثلة المعاصرة لنزول القرآن: أن أبا جهل قال يوم بدر: نحن نتنصر اليوم من

محمد وأصحابه .

وما دامت هذه الآية قد نزلت قبل غزوة بدر، وأخبرت عما يقال مستقبلاً، فإنها من الإعجاز المتعلق بعلم الغيب، وقول أبي جهل هذا ينبئ عن غرور الكفار بأنفسهم، واستخفافهم بالنبي ﷺ وتطاولهم عليه بالستهم .

ثم بيّن سبحانه ضَعْف هذا الجمع المنتصر - على حد قولهم - وأخبر أنهم منهزمون .

مِنْ دَلَائِلِ النُّبُوَّةِ

٤٥ ، ٤٦ - ﴿سَيَهْرُمُ الْجَمْعُ وَيُولُونَ الدُّبُرَ ۖ بَلِ السَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ وَالسَّاعَةُ أَدْهَىٰ وَأَمَرٌ ۚ﴾ (٤٦)

هذه آية عامة في البشري بهزيمة الكافرين وإن كان لها سبب خاص .
هذا وعد من الله تعالى لرسوله ﷺ بأنه سيهزم جَمْع قريش المتحزّيين له، ووعد للمؤمنين كافة إلى قيام الساعة، بهزيمة أعدائهم إذا نصرُوا دينه، وأخذوا بأسباب النصر المادية والمعنوية، وقد أجاب الله سبحانه في هذه الآية على قول الكفار المعاصرين للنبي ﷺ: ﴿نَحْنُ جَمِيعٌ مُنْتَصِرُونَ﴾ وهكذا يقول أمثالهم من أهل الكفر في كل مكان وزمان، بأن النصر متحقق لهم، وقد أخبر القرآن عما سيقع في المستقبل القريب من نصر المسلمين وهزيمة الكافرين في قوله: ﴿سَيَهْرُمُ الْجَمْعُ وَيُولُونَ الدُّبُرَ ۖ﴾ (٤٥) .

والجمع: هو تجمع الكفار يوم بدر، وتجمعهم في كل زمان لاحق بهذا اليوم، وقد تحقق هذا الوعد، ونزلت هزيمة مُدْلَلَةٌ بالمشرّكين يوم بدر، في معركة أطاحت برؤوس الكفر، وأرغمت أنوفهم، وما ينتظرهم في الآخرة أقسى وأشد .

وفي هذا بشارة للإسلام وأهله بأن الله تعالى منجز وعده، وأن الكافرين لا يزدادون إلا غروراً، فهم يُعِدُّون العُدَّة دائماً لمقاومة المسلمين، وقد هُزم الكفار يوم بدر وولّوا الأدبار .
وقد ثبت في الصحيح: أن النبي ﷺ لما خرج يوم بدر قرأ هذه الآية قبل قتال العدو، وفي هذا إشارة إلى تحقيق وعد الله تعالى له .

جاء عن عكرمة أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال: لما نزلت: ﴿سَيَهْرُمُ الْجَمْعُ وَيُولُونَ الدُّبُرَ ۖ﴾ (٤٥) جعلت أقول: أيّ جمع يُهزم؟ فلما كان يوم بدر رأيت النبي ﷺ يشب في الدرّ وهو

يقول: ﴿سَيُهَرِّمُ الْجَمْعُ وَيُولُونَ الدُّبُرَ ٤٥﴾ فعرفت تأويلها يومئذ^(١).

أي: أنه ﷺ لم يتبين له المراد بالجمع الذي سيُهزم إلا في هذا اليوم، حيث عرف أنه تجمع المشركين يوم بدر؛ إذ لم يكن يوم نزول الآية قتال، ولم يخطر لهم على بال. والآية من دلائل النبوة؛ لأنها نزلت في مكة، وغزوة بدر كانت بالمدينة، ولم يكن القتال قد شُرع بعد.

فعن عكرمة عن ابن عباس ؓ أن النبي ﷺ قال وهو في قبة له يوم بدر: «اللهم إني أنشدك عهدك ووعدك، اللهم إن شئت لم تُعبد بعد اليوم أبداً»، فأخذ أبو بكر ؓ بيده وقال: حسبك يا رسول الله، فقد ألححت على ربك، فخرج وهو يشب في الدرع ويقول: ﴿سَيُهَرِّمُ الْجَمْعُ وَيُولُونَ الدُّبُرَ ٤٥﴾ بِلِ السَّاعَةِ مَوْعِدُهُمْ وَأَلْسَانُهُ أَذْهَى وَأَمْرُ ٤٦﴾^(٢).

ومثل هذه الآية في الكشف عن أخبار المستقبل قوله تعالى: ﴿قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا سَعْتٌ بَلَّوْنَ وَتُعْصِرُونَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ وَيَقْسِ السَّاعَةُ ٧٧﴾ [آل عمران].

ثم أخبر سبحانه أن عذاب الكفار ليس مقصوراً على عذاب الدنيا، بل هناك العذاب الأكبر الذي ينتظرهم في الآخرة، قال تعالى: ﴿بِلِ السَّاعَةِ مَوْعِدُهُمْ ٤٥﴾ أي: إن موعد عذابهم الأخروي هو قيام الساعة، فهو اليوم الذي يجازون فيه بما يستحقون، وهو عذاب أشد مرارة من القتل والأسر ﴿وَأَلْسَانُهُ أَذْهَى وَأَمْرُ ٤٦﴾ أي: إن عذاب الآخرة أقسى وأشد وأنكى مما لحقهم من عذاب الدنيا، وهذا كقوله تعالى: ﴿وَلَنَذِيقَنَّهُمْ مِنَ الْعَذَابِ الْأَذَىٰ دُونَ الْعَذَابِ الْأَكْبَرِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ٧٧﴾ [السجدة]. وقوله أيضاً: ﴿وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَشَدُّ وَأَبْقَىٰ ٤٧﴾ [طه].

عَذَابُ الْمُجْرِمِينَ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ

٤٧، ٤٨ - ﴿إِنَّ الْمُجْرِمِينَ فِي ضَلَالٍ وَسُعُرٍ ٤٧﴾ يَوْمَ يُسْحَبُونَ فِي النَّارِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ ذُوقُوا مَسَّ سَقَرَ ٤٨

ثم بين سبحانه ألواناً من عذابه تعالى للمجرمين الذين أكثروا من فعل الجرائم، وهي

(١) رواه عبد الرزاق في تفسيره (٢/٢٠٩) من طريق معمر عن أيوب، ورواه الطبري (٢٢/١٥٧) وابن راهويه كما في «المطالب العالية» (٤١٢٧).

(٢) البخاري بأرقام (٢٩١٥، ٣٩٥٣، ٤٨٧٥، ٤٨٧٧) والنسائي في «السنن الكبرى» برقم (١١٥٥٧) والطبراني في «الكبير» (١١٩٧٦) والبيهقي في «الأسماء والصفات» (٣٠٢).

الذنوب العظيمة، كالشرك والكفر والفسق والفجور والظلم ونحو ذلك من المعاصي، وهذا العذاب يحدث لهم يوم القيامة، فبين سبحانه أنهم بالإضافة إلى ما هم فيه في الدنيا من حيرة وتخبُّط، وضلال عن العلم، وضلال عن العمل، وبُعْد عن الاهتداء إلى الحق بسبب انطماس بصائرهم، وإيثارهم الغي على الرشد، فهم في الآخرة في نار مسعرة، تغشاهم من فوقهم، ومن تحت أرجلهم، وهي تشتعل في أجسادهم حتى تصل إلى أفئدتهم، وهذا هو خسران الآخرة.

والنار المسعورة: هي شديدة السرعة كأن بها جنوناً في التهام أهل النار، كما قال تعالى: ﴿وَأَتَّبَعْنَاهُمْ فِي هَٰذِهِ الدُّنْيَا لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيَمَةِ هُمْ مِنَ الْمَقْبُوحِينَ﴾ [٤٩] [القصص]. وهذا العذاب يحدث لهم يوم يجرون في النار على وجوههم عقوبة لهم وإذلالاً، كما قال تعالى: ﴿وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ عُمًى وَنُكِّمًا وَصُمًّا مَّا وَنَّهُمْ جَهَنَّمَ كُلَّمَا خَبَتْ زِدْنَاهُمْ سَعِيرًا﴾ [الإسراء: ٩٧].

ويقال للمجرمين يوم القيامة حين يُجرون على وجوههم في النار توبيخاً وتقريعاً لهم: ﴿ذُوقُوا مَسَّ سَقَرَ﴾ أي: ذوقوا شدة عذاب جهنم التي أنتم بها، وقاسوا حرها ولهيها، وسقر: اسم من أسماء النار، وعلم عليها.

كُلُّ شَيْءٍ يَحْدُثُ فِي الْكَوْنِ بِقُدْرَةِ اللَّهِ تَعَالَى

٤٩، ٥٠- ﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ﴾ [٤٩] وَمَا أَمْرُنَا إِلَّا وَجِدَةٌ كَلَمْحٍ بِالْبَصَرِ [٥٠]

وقد فعل الله بالكافرين ما فعل؛ وَفَقَّ تقديره تعالى السابق في الأزل، حسبما اقتضته الحكمة الإلهية، وكل شيء يحدث في الكون سواء أكان خيراً أم شراً فهو مقدر ومكتوب في اللوح المحفوظ، وفق علم الله تعالى الكاشف عما كان وما سيكون ﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ﴾ من جميع العوالم العلوية والسفلية، خلقناه بمقدار قدرناه وقضيناه، وسبق علمنا به، لا خالق له سواه، ولا مشارك له في خلقه، وقد سبق به القدر، وجرى به القلم.

قال ابن عطية: وهذا المعنى يقتضي أن كل شيء مخلوق، إلا ما قام دليل العقل على أنه ليس بمخلوق كالقرآن والصفات.

وخلَقَ الله تعالى للأشياء مُصَاحِبَ لقوانين جارية على مقتضى حكمته سبحانه:

كما قال تعالى: ﴿وَكُلُّ شَيْءٍ عِنْدَهُ بِمِقْدَارٍ﴾ [الرعد: ٨]

وقال تعالى: ﴿وَلَا يَمُنُّ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا عِنْدَنَا خَزَائِنُهُ وَمَا نُنْزِلُهُ إِلَّا بِقَدَرٍ مَعْلُومٍ﴾ [الحجر: ١٦]

وقال سبحانه: ﴿وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقْدَرَهُ نَقِيرًا﴾ [الفرقان: ٢].

قال ابن عباس رضي الله عنه: إني أجد في كتاب الله قوماً ﴿يُسْحَبُونَ فِي النَّارِ عَلَى وُجُوهِهِمْ﴾؛ لأنهم كانوا يكذبون بالقدر، ويقولون: المرء يخلق أفعاله، وإني لا أراهم، فلا أدري شيء مضى قبلنا، أم شيء بقى؟^(١)

قال أبو عبد الرحمن السلمي: فقال رجل: يا رسول الله، ففيم العمل؟ أفي شيء نستأنفه، أم في شيء قد فرغ منه؟ فقال رسول الله ﷺ: «اعملوا فكلٌ ميسر لما خلق له، سنيسه لليسر، ونيسره للعسر»^(٢).

وقد جاء هذا الحديث موصولاً من حديث علي رضي الله عنه قال: كنا جلوساً مع النبي ﷺ ومعه عود ينكت به في الأرض وقال: «ما منكم من أحد إلا قد كتب مقعده من النار أو من الجنة»، فقال رجل من القوم: ألا نتكل يا رسول الله؟ قال: «لا، اعملوا فكلٌ ميسر لما خلق له»، ثم قرأ: ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى وَاتَّقَى﴾ [الآيات: ٣].

ومن مقتضى الحكمة الإلهية مجازاة العباد على أعمالهم في الآخرة!

قال تعالى: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ﴾ [المؤمنون: ١١٥]

﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَإِنَّ السَّاعَةَ لَآتِيَةٌ﴾ [الحجر: ٨٥].

﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لِعَيْبٍ﴾ [٢٨] مَا خَلَقْنَاهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٩﴾ إِنَّ يَوْمَ الْفَصْلِ مِيقَاتُهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [الدخان: ٤٠].

(١) «المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز» (٥/٢٢١).

(٢) حديث مرسل أخرجه الطبري (١٦١/٢٢) وهو مخرَج في الصحيحين موصولاً من طرق أخرى، ينظر نحوه في صحيح البخاري بأرقام (١٣٦٢، ٦٦٠٥، ٦٦٠٦) ومسلم برقم (٢٦٤٧).

(٣) «صحيح البخاري» (٦٦٠٥) واللفظ له، وراجع (١٣٦٢) و«صحيح مسلم» (٢٦٤٧).

وهكذا نجد أن الآيات المتعلقة بالخلق يعقبها ذكر الساعة وذكر يوم الجزاء؛ لبيان الحكمة من خلق الخلق، وهو الثواب والعقاب في الآخرة على ما قدموه في الدنيا، وبيان أن الله تعالى قد خلق كل شيء بقدر، وليس لمجرد الإعلام بذلك، وإنما هو لبيان الحكمة والعلم المسبق بذلك، فالله تعالى خالق أصول الأشياء، وخالق أسبابها، وموجد القوة فيها، وهذا معنى الحديث: «وتؤمن بالقدر خيره وشره».

وعندما يُعْتَفُ سبْحَانَهُ المشرِّكين على عبادتهم للأصنام، يتمسحون في القدر، ويعتذرون به، فيقولون: ﴿لَوْ شَاءَ الرَّحْمَنُ مَا عَبَدْنَاهُمْ﴾ [الزخرف: ٢٠]

ويقولون: ﴿لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا عَبَدْنَا مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ نَحْنُ وَلَا آبَاؤُنَا﴾ [النحل: ٣٥].

وقدرة الله تعالى تتعلق بكل شيء من الأعمال الصالحة والسيئة، ونسبة الخير إلى الله تعالى دون نسبة الشر هو من الأدب الذي لَقَّنَهُ الله سبحانه لخلقه ﴿قُلْ كُلٌّ مِّنْ عِندِ اللَّهِ﴾ [النساء: ٧٨]. والمجوس هم الذين يجعلون للخير إلهًا وللشر إلهًا.

معاني القدر: والمراد بالقدر: مراد الله تعالى ومشيتته، وما سبق به علمه.

وللقدر من جهة اللغة ثلاثة معانٍ:

أولها: أن القدر هو الأمر المقدَّر، الذي لا يزداد عليه ولا ينقص منه، كما في قوله تعالى: ﴿قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا﴾ [الطلاق: ٣].

وثانيها: أن يراد بالقدر: قدرة الله تعالى، كما في قوله تعالى: ﴿يَكُنْ قَدَرِينَ عَلَىٰ أَن تُسَوَّىٰ بِآَنَهُمُ﴾ [القيامة].

وثالثها: أن يراد بالقدر: إيجاد الشيء في وقته، بأن يقدر الله له وقتًا يخلقه فيه^(١).

وقد وردت أحاديث في القدر منها ما جاء:

١- عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: إن مشركي قريش جاؤوا إلى النبي ﷺ يخاصمونهم في

(١) يُنْظَرُ: «تفسير التحرير والتنوير» (٢١٨/١٢).

القدر، فنزلت: ﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ﴾ (١).

٢- وعن ابن عمر رضي الله عنه: أن رسول الله ﷺ قال: «كل شيء بقدر، حتى العجز والكيس» (٢).

٣- وفي حديث أبي هريرة رضي الله عنه أيضاً أن النبي ﷺ قال: «المؤمن القوي خير وأحب إلى الله من المؤمن الضعيف، وفي كل خير، احرص على ما ينفعك، واستعن بالله ولا تعجز، وإن أصابك شيء فلا تقل: لو أني فعلت كذا كان كذا وكذا، ولكن قل: قدر الله وما شاء فعل، فإن لو تفتح عمل الشيطان» (٣).

٤- وفي حديث ابن عباس رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «واعلم أن الأمة لو اجتمعوا على أن ينفعوك بشيء - لم يكتبه الله لك لم ينفعوك، ولو اجتمعوا على أن يضروك بشيء لم يكتبه الله عليك - لم يضروك، جفت الأقلام وطويت الصحف» (٤).

٥- وأخرج الإمام أحمد، وغيره بسنده عن الوليد بن عباد، حدثني أبي قال: دخلت على (عبادة) وهو مريض، أتخايل فيه الموت، فقلت: يا أبتاه، أوصني، واجتهد لي، فقال: أجلسوني، فلما أجلسوه قال: يا بُنَيَّ، إنك لم تطعم طعم الإيمان، ولم تبلغ حق حقيقة العلم بالله، حتى تؤمن بالقدر خيره وشره.

قلت: يا أبتاه، وكيف لي أن أعلم ما خير القدر وشره؟ قال: تعلم أن ما أخطأك لم يكن ليصيبك، وما أصابك لم يكن ليخطئك.

(١) «المسند» (٤٤٤/٢) (٩٧٣٦) (١٠١٦٤) وإسناده حسن، كما قال محققوه: لأن زياد بن إسماعيل، متكلم فيه، وأخرجه مسلم برقم (٢٦٥٦) والترمذي برقم (٣٢٩٠) وابن ماجه برقم (٨٣) والبيهقي (١٨٣) والطبري (١٦١/٢٢)، والبخاري في خلق أفعال العباد (١٣٤).

(٢) «المسند» (١١٠/٢) برقم (٥٨٩٣) بإسناد صحيح على شرط مسلم ورجاله ثقات (محققوه) ومسلم برقم (٢٦٥٥) وعند مالك في الموطأ (٨٩٩/٢) وابن حبان (٦١٤٩) والبخاري في خلق أفعال العباد ص(٩٥).

(٣) «صحيح مسلم» برقم (٢٦٦٤).

(٤) «المسند» (٢٩٣/١) بأرقام: (٢٦٦٩، ٢٧٦٣، ٢٨٠٣) بإسناد قوي (محققوه) وأخرجه الترمذي (٢٥١٦) وقال: حديث حسن صحيح، وأخرجه أبو يعلى (٢٥٥٦) وابن أبي عاصم في السنة معلّقاً (٣١٦) والبيهقي في الشعب (١٠٠٠٠) وغيرهم.

يا بني، إني سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إن أول ما خلق الله القلم، ثم قال له: اكتب، فجرى في تلك الساعة بما هو كائن إلى يوم القيامة» يا بني، إن متَّ ولستَ على ذلك دخلت النار^(١).

٦- وفي حديث علي بن أبي طالب ؓ أن رسول الله ﷺ قال: «لا يؤمن عبد حتى يؤمن بأربع: يشهد أن لا إله إلا الله، وأني رسول الله بعثني بالحق، ويؤمن بالموت، ويؤمن بالبعث بعد الموت، ويؤمن بالقدر خيره وشره»^(٢).

٧- وفي حديث عبد الله بن عمرو ؓ أن رسول الله ﷺ قال: «كتب الله مقادير الخلائق قبل أن يخلق السموات والأرض بخمسين ألف سنة»، قال: «وكان عرشه على الماء»^(٣).
والمقصود بهذا: تحديد وقت الكتابة في اللوح المحفوظ، وليس أصل القدر، فإن القدر أزلي، لا أول له.

قال الخطابي: قد يحسب كثير من الناس أن معنى القضاء والقدر: إجبار الله تعالى للعبد، وقهره على ما قدره وقضاه، وليس الأمر كما يتوهمونه، وإنما معناه: الإخبار عن تقدُّم علم الله تعالى بما يكون، مما يكتسبه العباد، ويصدر عنهم، عن تقدير منه سبحانه، وخلق لها خيرها وشرها^(٤).

نفاذ قدرة الله تعالى في خلقه:

إن كل حركة في الكون، وكل حركة في التاريخ، وكل انفعال في النفس وكل نفس يخرج من صدر الإنسان، وكل نملة سارية، وكل هبأة طائفة، وكل خلية سابعة في

(١) «المسند» (٣١٧/٥) برقم (٢٢٧٠٥) قال محققوه: وهو حديث صحيح، وهذا إسناد حسن، لأن ليث، ومعاوية، وأيوب، من رجال (التعجيل) والترمذي برقم (٢٣١٩) وقال: حسن صحيح غريب، وأخرجه ابن أبي شيبة (١١٤/١٤) وابن أبي عاصم في «السنن» (١٠٧) وأبو داود (٤٧٠٠) والطيالسي (٥٧٧) وغيرهم.
(٢) الترمذي برقم (٢١٤٥) وابن ماجه برقم (٨١) و«المسند» (١٣٣/١) برقم (٧٥٨) ورجاله ثقات رجال الشيخين أفاده محققوه، وأخرجه الحاكم في «المستدرک» (٣٣/١) عن أبي حذيفة، وصححه الألباني في مشكاة المصابيح عن علي برقم (١٠٤).

(٣) «صحيح مسلم» برقم (٢٦٥٣) و«سنن الترمذي» برقم (٢١٥٦).

(٤) «تفسير الخازن» (٢٠٧/٤).

الماء، وكل فلك أو جِرم في السماء، وكل عود ينبت من الأرض، وكل نسمة في الهواء، وكل ذرة في الكون، كل ذلك وغيره، خلقه الله وقدره تقديرًا، وقدره الله تعالى فيه نافذة وشاملة.

ومن كمال قدرة الله تعالى أنه إذا أراد خلق شيء فإنه يخلقه دفعة واحدة، لا يسبق ذلك إعداده ولا نظر ولا اختبار، ويُخلق بأسرع ما يكون، بمجرد توجه إرادته سبحانه إلى هذا الشيء ﴿إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَا أَرَدْنَاهُ﴾ أي: وما شأننا في الخلق والإيجاد لشيء إذا أردناه إلا ﴿أَن نَّقُولَ لَهُ كُنْ﴾ مرة واحدة، فإذا هو كائن موجود كلمح البصر ﴿فَيَكُونُ﴾ [النحل: ٤٠] ولا يتأخر طرفة عين ﴿إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَن يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ [يس: ٨٢].

وكلمة ﴿كُنْ﴾ تعني: أن الله تعالى إذا توجهت إرادته إلى فعل شيء خلقه مباشرة، ولا يتوقف هذا الخلق على سبب ولا على قول أو مقدمات، ونحو ذلك، قال تعالى: ﴿مَّا خَلَقَكُمْ وَلَا بَعَثَكُمْ إِلَّا كَفَيسٍ وَاحِدَةٍ﴾ [لقمان: ٢٨].

وقال سبحانه: ﴿وَمَا أَمْرُ السَّاعَةِ إِلَّا كَلَمْحِ الْبَصَرِ أَوْ هُوَ أَقْرَبُ﴾ [النحل: ٧٧].

وفي الآية تحذير من مجيء العذاب فجأة عند قيام الساعة بغتة ﴿فَلَا يَسْتَطِيعُونَ تَوْصِيَةً وَلَا إِلَىٰ أَهْلِهِمْ يَرْجِعُونَ﴾ [يس: ٥٥].

فعلى المرء أن يعدّ العدة، ويحاسب نفسه قبل يوم الحساب، والتعبير بلفظ ﴿وَاحِدَةٍ﴾ لإفادة أن ما يريده الله تعالى يوجد في أسرع وقت، بمقدار كلمة واحدة لا زيادة عليها.

أما خلق السموات والأرض وما فيهما وما بينهما، فإن خلقهما ينطوي على مخلوقات أخرى لا حصر لها، كما قال تعالى: ﴿يَخْلُقُكُمْ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ خَلْقًا مِّنْ بَعْدِ خَلْقٍ﴾ [الزمر: ٦] وكل خلق منها يحصل بكلمة كن فيكون كلمح البصر، فخلق السموات بكلمة كن، وخلق الأرض بكلمة كن، وخلق الأقوات بكلمة كن، وهكذا.

والله تعالى قادر على خلقها جميعًا مرة واحدة، ولكنه جلّ شأنه له حكمة في هذا؛ ليعلمنا النظام والتأني في الأمور والتثبت فيها.

هَلَاكُ الْأُمَمِ سَبَقَ بِهِ عِلْمُ اللَّهِ تَعَالَى

٥١- ﴿وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا أَشْيَاعَكُمْ فَهَلْ مِنْ مَّذْكِرٍ﴾ (٥١)

ثم استدل سبحانه على نفاذ قدرته في خلقه وسرعتها، المتمثلة في هلاك الأمم السابقة،

فقد استمر قوم نوح في شركهم حتى أخذهم الطوفان بغتة، واستمر قوم عاد وقوم ثمود غير مصدقين بحلول العذاب بهم حتى أتاهاهم العذاب فجأة، واقتفى فرعون وجنده أثر موسى في البحر وهم واثقون بأنهم مُدْرِكُوهُ، متمكنون من إحكام قبضتهم عليه، فانطبق البحر عليهم، وهذا معنى ﴿وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا أَشْيَاعَكُمْ﴾ أي: أتباعكم وأمثالكم في الكفر من الأمم الماضية، ونُهْلِكُكُمْ كما أهلكناهم، فلستم بأوفر منهم عددًا ولا عتادًا ﴿فَهَلْ مِنْ مُدْكِرٍ﴾ هل من متأمل متعظ يقي نفسه من مغبة ما وقع فيه غيرهم؟

قال تعالى: ﴿وَجِلَ بَيْنَهُمُ وَبَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ كَمَا فُعِلَ بِأَشْيَاعِهِمْ مِّن قَبْلُ﴾ [سبأ: ٥٤] وكما أهلكنا أشياعكم نهلككم أيها المكذبون. قال تعالى:

٥٢، ٥٣- ﴿وَكُلُّ شَيْءٍ فَعَلُوهُ فِي الزُّبُرِ ٥٢﴾ وَكُلُّ صَغِيرٍ وَكَبِيرٍ مُّسْتَطَرٌّ ﴿٥٣﴾

لقد أهلكنا أمثالكم في الكفر وهم في الدنيا، وهيانا لهم عذاب الآخرة، فكتب في صحائف الأعمال كل ما فعلوه من الكفر وفروعه ﴿وَكُلُّ شَيْءٍ فَعَلُوهُ﴾ أي: إن كل ما فعله الأشياء الماضية من خير أو شر مكتوب ومسجل ﴿فِي الزُّبُرِ﴾ لدى الحفظة، فهو كتاب لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها، وكل قول أو فعل حاضر أمامهم في صحف أعمالهم، حين ينشر لهم الكتاب، ويقال لكل إنسان: اقرأ كتابك، ويومئذ تجد كل نفس ما عملته من خير أو شر حاضرًا، ولا يظلم ربك أحدًا.

فالمراد بالزبر: صحف الأعمال، والمراد بلفظ: ﴿مُسْتَطَرٌّ﴾ اللوح المحفوظ.

أي: إن كل صغيرة وكبيرة من الأعمال والأقوال مسطر في أم الكتاب، وهو اللوح المحفوظ، وسيجزون به.

عن عائشة ؓ قالت: قال لي رسول الله ﷺ: «يا عائشة، إياك ومحقرات الأعمال فإن لها من الله طالبًا»^(١).

(١) ابن ماجه برقم (٤٢٤٣) و«المسند» (٧٠/٦، ١٥١) برقم (٢٤٤١٥، ٢٥١٧٧) وإسناده قوي كما قال محققوه، وقال البوصيري: إسناده صحيح ورجاله ثقات، وصححه الألباني في «صحيح ابن ماجه» (٢/ ٤١٦) وحسنه ابن حجر في «الفتح» (٢٨٣/١١) وأخرجه الدارمي (٢٧٢٦) والطحاوي في «مشكل الآثار» (٤٠٠٦) وابن حبان (٥٥٦٨) والطبراني في (الأوسط) (٣٧٨٨، ٢٣٩٨).

قال تعالى: ﴿وَإِنْ كَانَتْ مِشْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَى بِنَا حَسِيبًا﴾ [الأنبياء: ٤٧].
وقال سبحانه: ﴿وَمَا تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ إِلَّا أَلَّا يَعْلَمَهَا وَلَا حَبَّةٌ فِي ظِلْمَتِ الْأَرْضِ وَلَا رَطْبٌ وَلَا يَابِسٌ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ﴾ [الأنعام: ٥٩].

فالأمر الذي يستهين بها العبد ويستصغرها، فيرتكبها ولا يهتم بها، هو مؤاخذ بها، وإن استمر عليها فهي كبيرة بالنسبة له، وهذا كله كائن في علم الله تعالى، وهو الذي يُجازي عليه يوم الحساب والجزاء.

وهكذا فإن الله تعالى عَلم جميع الأشياء، وسَطَرها عنده في اللوح المحفوظ، فما شاء كان وما لم يشأ لم يكن، وما أصاب الإنسان لم يكن ليخطئه وما أخطأه لم يكن ليصيبه، وهذا حقيقة القضاء والقدر.

مَصِيرُ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَاتِ النِّعَمِ

٥٤، ٥٥- ﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَنَهَرٍ ﴿٥٤﴾ فِي مَقْعَدٍ صِدْقٍ عِنْدَ مَلِكٍ مُقَدَّرٍ ﴿٥٥﴾﴾

ولما ذكر جلَّ شأنه أن المجرمين في ضلال وسعر، بيَّن هنا أن المتقين في نعيم الجنات والأنهار التي تجري تحت قصورها وأشجارها، فهم يوم القيامة في بساتين عظيمة، وأنهار واسعة، وشراب متنوع، فإن فيها أنهار الماء واللبن والعسل والخمر، وما تشتهيهِ الأنفس وتلذ الأعين، وهم فيها خالدون، وفيها أنواع المطاعم والمشارب والملابس والمنازل والحدائق العيون..

فالمراد بقوله تعالى ﴿وَنَهَرٍ﴾: الأنهار، وسعة الأرزاق، وحُسن المنازل والإقامة.

وهؤلاء المتقون الذين صانوا أنفسهم عن محارم الله تعالى يكونون يوم القيامة في استقرار وأمن تام، وفي إقامة مطمئنة، ومجلس حق لا لغو فيه، ولا باطل ولا إثم، إنهم ﴿فِي مَقْعَدٍ صِدْقٍ﴾ أي: في مكان مَرْضِيٍّ، ومقام كريم حسن، وهو المقعد الذي صدقهم الله وعده، وهذا المكان في منزلة شريفة عالية، فهو ﴿عِنْدَ مَلِكٍ مُقَدَّرٍ﴾ أي: عند رب عظيم، جليل القدر، رفيع الشأن، قادر في ملكه وسلطانه، لا يعجزه شيء في الأرض ولا في السماء.

قال جعفر الصادق: وصف الله تعالى المكان بالصدق، فلا يقعد فيه إلا أهل الصدق^(١).
وعن عبد الله بن عمرو أن رسول الله ﷺ قال: «إن المقسطين عند الله على منابر من نور عن يمين الرحمن، وكلتا يديه يمين، الذين يعدلون في حكمهم وأهليهم وما ولُّوا»^(٢).
ومن دعاء خليل الرحمن لنفسه: ﴿وَأَجْعَلْ لِي لِسَانَ صِدْقٍ فِي الْآخِرِينَ﴾ [الشعراء].

تم تفسير (سورة القمر) والله الحمد والمنة.



(١) «تفسير الخازن» (٤/٢٠٤).

(٢) «صحيح مسلم» (١٨٢٧) و«سنن النسائي» (٢٢١/٨) ورقمه في «صحيح سنن النسائي» (٤٩٧٣).

تَفْسِيرُ سُورَةِ الرَّحْمَنِ (٥٥)

مُقَدِّمَةُ السُّورَةِ

سورة (الرحمن) هي السورة الخامسة والخمسون في ترتيب المصحف، والثالثة والأربعون في ترتيب النزول على القول بأنها مكية، وهو الأرجح، فيكون نزولها بعد سورة الفرقان وقبل سورة فاطر، وهو قول جمهور الصحابة والتابعين، واستثنى بعضهم قوله تعالى: ﴿يَسْأَلُهُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ ١٩﴾ فقيل: إنها مدنية، والأصح أنها مكية كبقية السورة، بل إن السورة من أوائل ما نزل من القرآن.

فقد أخرج الإمام أحمد والطبراني، عن أسماء بنت أبي بكر رضي الله عنهما قالت: سمعت رسول الله ﷺ وهو يصلي نحو الركن قبل أن يَضْدَعَ بما يؤمر، والمشركون يسمعون، يقرأ: ﴿فَإِنِّي إِلَـهٌ إِلَـهٌ زَكَاةً تُكَذِّبَانِ﴾^(١).

وقيل: إن سورة الرحمن مدنية، وعلى هذا فهي الثامنة والتسعون في ترتيب النزول، كما قال الجعبري، ويكون نزولها بعد سورة الرعد وقبل سورة الإنسان، فهي من السور المختلف في أنها مكية أو مدنية.

وعدد آياتها عند أهل الشام وأهل الكوفة ثمان وسبعون آية^(٢).

وهي ثلاث مئة وإحدى وخمسون كلمة، وألف وست مئة وستة وثلاثون حرفاً. وسميت سورة الرحمن، وهي أول كلمة فيها، وقيل: إنها تسمى أيضاً: عروس القرآن، ومن قال بهذا اعتمد على حديث ضعيف أخرجه البيهقي عن علي رضي الله

(١) «المسند» (٣٤٩/٦) (٢٦٩٥٥) وقال الهيثمي في «مجمع الزوائد» (١٢٠/٧): وفيه ابن لهيعة، وفيه ضعف، وحديثه حسن، وبقيّة رجاله رجال الصحيح، وضعّف إسناده محققو المسند (٥١٧/٤٤) وأخرجه الطبراني في «الكبير» (٢٣١).

(٢) وعدّها أهل مكة والمدينة سبعاً وسبعين، وأهل البصرة ستاً وسبعين آية.

عنه، وفيه: «لكل شيء عروس، وعروس القرآن سورة الرحمن»^(١).

أسباب النزول:

أ - وورد في سبب نزولها قول المشركين الذي حكاه الله تعالى عنهم في قوله: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ اسْجُدُوا لِلرَّحْمَنِ قَالُوا وَمَا الرَّحْمَنُ أَنْسَاجُ لِمَا تَأْمُرُنَا وَزَادَهُمْ نُفُورًا﴾ [الفرقان: ٦٠].

ب - وقيل: إنها نزلت في صلح القضية عندما أبى شهيل بن عمرو أن يكتب بسم الله الرحمن الرحيم في شروط صلح الحديبية.

ج - وقيل أيضاً: إن سبب نزولها قول المشركين ﴿إِنَّمَا يَعْلَمُهُ بَشَرٌ﴾ [النحل: ١٠٣] فردَّ الله تعالى عليهم بأن الرحمن هو الذي علَّم النبي ﷺ القرآن:

في فضل سورة الرحمن:

١ - وفي الحديث: أن النبي ﷺ قام يصلي الصبح بنخلة، فقرأ سورة الرحمن، ومزَّ النفر من الجن، فأمنوا به.

٢ - وعن قاسم بن عاصم المنقري، أنه قال للنبي ﷺ: اتل علي ما أنزل عليك، فقرأ عليه سورة الرحمن، فقال: أعدها، فأعادها ثلاثاً، فقال: إن له لحلاوة (٢).

٣ - وعن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما قال: خرج رسول الله ﷺ على أصحابه فقرأ عليهم سورة الرحمن، من أولها إلى آخرها فسكتوا، فقال: «ما لي أراكم سكوتاً؟ لقد قرأتها على الجن ليلة الجن، فكانوا أحسن مردوداً منكم، كلما أتيث على قوله سبحانه: ﴿فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ قالوا: لا شيء من نعمك ربنا نكذب، فلك الحمد»^(٣).

(١) أخرجه البيهقي في «الشعب» برقم (٢٢٦٥) وإسناده ضعيف، لضعف علي بن الحسين بن جعفر، وأحمد بن الحسن بن علي بن الحسين، وضعفه الألباني في «السلسلة الضعيفة» (١٣٥٠).

(٢) من «تفسير القرطبي» للسورة.

(٣) أخرجه الترمذي برقم (٣٢٩١) وصححه الحاكم (٢٧٣/٢) على شرط الشيخين ووافقه الذهبي، وأخرجه البيهقي في «الدلائل» (٢٣٢/٢) وفي «الشعب» برقم (٢٢٦٤) ورجاله ثقات، والطبري (٧٢/٢٧) وغيرهم، وقال الترمذي عنه: هو حديث غريب، وفي سنده زهير بن محمد وقد ضعفه البخاري وأحمد بن حنبل، يُنظر: «التهذيب» (٣٤٩/٣) وأخرجه أبو الشيخ (١١١٨) وحسنه الألباني في «صحيح سنن الترمذي» (٢٦٢٤) وأخرج البزار في «كشف الأستار» (٢٢٦٩) نحوه عن عبد الله بن عمر، وكذا الدارقطني والخطيب في تاريخه وابن المنذر كما في «الدر الثمور» (١٠١/١٤).

٤- وروى عروة بن الزبير رضي الله عنه قال: أول من جهر بالقرآن بمكة بعد النبي ﷺ عبد الله ابن مسعود، وذلك أن الصحابة قالوا: ما سمعت قريش هذا القرآن يُجهر به قط، فمن رجل يُسمعهم إياه؟ فقال ابن مسعود: أنا، فقالوا: نخشى عليك، إنما نريد رجلاً له عشيرة يمنعونه، فأبى، ثم قام عند المقام، فقال: ﴿الرَّحْمَنُ ۝١ عَمَّ أَفْشَرَانُ﴾ ثم تَمَادَى رافعاً بها صوته، وقريش في أُنْدِيَتِهَا، فتأملوا وقالوا: ما يقول ابن أم عبد؟! قالوا: هو يقول الذي يزعم محمد أنه أنزل عليه، ثم ضربوه حتى أثروا في وجهه، وفي هذا دليل على أن السورة مكية^(١).

٥- وعن ابن مسعود رضي الله عنه أن رجلاً قال له: إني أقرأ المفصل في ركعة، فقال: أهذا كهذه الشعر؟ لكن النبي ﷺ كان يقرأ النظائر سورتين في ركعة: الرحمن والنجم في ركعة، واقتربت والحاقة في ركعة، والطور والذاريات في ركعة، وإذا وقعت (و) (ن) في ركعة، و عَمَّ والمرسلات في ركعة، والدخان وإذا الشمس كورت في ركعة، وسأل سائل والنازعات في ركعة، وويل للمطففين وعبس في ركعة^(٢).

٦- وأخرج ابن حبان عن ابن مسعود أيضاً أن رجلاً قرأ عليه سورة الرحمن بوجه من وجوه القراءات، فأنكر عليه وقال له: من أقرأك هكذا؟ قال: رسول الله، فذهبا إلى النبي ﷺ فأقرَّ كلاً منهما على قراءته، وتغيَّر وجهه ﷺ حين سمع الخلاف بينهما، فأمر عليّاً فقال: إن رسول الله ﷺ يأمركم أن يقرأ كل رجل منكم كما عُلِّم. قال ابن مسعود: فانطلقنا وكل رجل منا يقرأ حرفاً - أي: قراءة - لا يقرأ بها صاحبه^(٣).

(١) «تفسير القرطبي» (١٥١/١٧).

(٢) «صحيح سنن أبي داود» (١٢٤٤) قال الألباني: صحيح دون سرد السور، وهو في الصحيحين، وقال أبوداود: هذا من تأليف ابن مسعود، وأخرجه البيهقي (٦٠/٢) وقد جاء مختصراً في «المسند» (٤١٢/١) عن زَرٍّ: أن رجلاً قال لابن مسعود... الحديث.

(٣) انظر هذا المعنى في: «صحيح ابن حبان» (٧٤٧) وحسنه محققه، وأصل الحديث في البخاري بدون ذكر اسم السورة، وفيه أن النبي ﷺ قال: كلاهما محسن، البخاري (٢٤١٠، ٣٤٧٦، ٥٠٦٢).

آية الآلاء:

وقد ذُكرت آية ﴿فَإِيَّاءِ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ إحدى وثلاثين مرة في السورة، في كل مرة لها معنى يختلف عن غيره، حيث يراد بالآلاء فيها: النعمة التي ذُكرت قبلها، وهي تختلف في كل آية عن الأخرى.

ومعنى ذلك: أن في السورة إحدى وثلاثين نعمة أنعم الله بها على الإنس والجن. وأول آية من ﴿فَإِيَّاءِ﴾ ذُكر قبلها اثنتا عشرة آية، وهي تُذكر بين الصفة والموصوف. قال الزمخشري: أراد الله تعالى أن يقدم في عدد آلائه أسبق شيء، وأهم شيء في آلاء الله: أصناف نعمه، وقد قدّمت السورة نعمة الدين، وبدأت بأعلى مراتبه، وهي نعمة القرآن وتعليمه، وأخرت ذكر خلق الإنسان عن ذكر القرآن، ثم ذكرت الإنسان، وبيّنت ما تميّز به عن سائر الكائنات من أنواع البيان^(١).

وتبع ذلك التنويه بالنبى ﷺ، وبيان أن الله تعالى هو الذي علمه القرآن، ردًا على مزاعم المشركين الذين يقولون: ﴿إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ﴾ وقولهم: ﴿قَالُوا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ﴾ أو أنه سحر، أو أنه كلام كاهن أو شاعر.

ولأن القرآن الكريم هو المنّة الكبرى التي امتنّ الله بها على الإنسان، فقد تقدم ذكره على خلق الإنسان.

ثم استعرضت السورة صفحات الوجود الناطقة بآلاء الله وآثار قدرته، ومنها: الشمس، والقمر، والنجم، والسماء المرفوعة بلا عمد، وما فيها من عظيم المخلوقات، وخلق الأرض وما فيها، من فاكهة ونخل وحبٍ ورمّان وريحان، وأنواع الزروع والثمار، والجن والإنس، والمشرقين والمغربين، والميزان، والبحرين والبرزخ الحاجز بينهما، وما يخرج منهما، وما يجري فيهما، ثم يأتي مشهد الفناء للخلائق، يقابله الوجود المطلق لوجه الله الكريم.

(١) «تفسير الكشاف» بتصرف (٤٣/٤).

وفي يوم القيامة الناس فريقان، حيث: ﴿يَعْرِفُ الْمُجْرِمُونَ بِسِمَتِهِمْ فَيُؤْخَذُ بِالنَّوَصِي وَالْأَقْدَامِ﴾ (٤١) ويقال لهم: ﴿هَذِهِ جَهَنَّمُ الَّتِي يُكَذِّبُ بِهَا الْمُجْرِمُونَ﴾ (٤٢).

أما الفريق الذي خاف هذا الموقف، فمنهم السابقون المقربون، وهؤلاء أعد الله لهم جنتين من الدرجة الأولى.

ومنهم أهل اليمين من عامة المؤمنين، وقد أعد الله لهم جنتين من الدرجة الثانية.

وللجنات الأربع مواصفات ومقاييس تعرف بأدنى تأمل في الآيات.

فمثلاً: يقابل قوله تعالى: ﴿فِيهَا عَيْنَانِ تَجْرِيَانِ﴾ للسابقين بـ ﴿عَيْنَانِ نَضَّاخَتَانِ﴾ لأهل اليمين.

فالعين التي تجري ليست كالعين التي تضخ أو تنبع.

ويقابل قوله تعالى: ﴿فِيهَا مِنْ كُلِّ ثَمَرٍ أَكْثَرُ زَوْجَانِ﴾ للسابقين بـ ﴿فِيهَا ثَمَرٌ وَنَخْلٌ وَرَمَّانٌ﴾ لأهل

اليمين، فالأولى أعم وأشمل.

ويقابل ﴿حُورٌ مَّقْصُورَاتٌ فِي الْخِيَامِ﴾ لأهل اليمين بـ ﴿فِيهِنَّ قَاصِرَاتُ الطَّرْفِ﴾ للسابقين،

فالمقصورات غير القاصرات، كما ترى في الدنيا امرأة عفيفة أو محجبة باختيارها من

تلقاء نفسها، وأخرى مرغمة على ذلك، وهذا من باب التشبيه، وإلا فليست الحور العين

مظنة للشبهات، كنساء الدنيا.

ويمكن تقسيم السورة إلى أربعة فصول:

الأول: عن الخلق والإبداع، وهذا من أول السورة إلى الآية الخامسة والعشرين منها،

وفيه خلق الإنسان، وتعليمه البيان، وتسخير الكون له برًا وبحرًا وجوًا وكواكب وأفلاكًا.

والإنسان مكلف بإقامة العدل والميزان، ومستحق للثواب والعقاب.

الثاني: عن الفناء والبعث والجزاء المعد للمجرمين في الآخرة، وذلك من الآية

السادسة والعشرين إلى الآية الخامسة والأربعين، وفيه فناء العالم، وإعادة الخلق بعد

فناؤه، ومظاهر فناء العالم، ثم أحوال الناس في المحشر، من يُسأل منهم عن ذنبه، ومن

لا يُسأل عنه، بل يؤخذ من ناصيته وقدميه ويُقذف به في جهنم، فيلقى فيها العذاب ألوانًا.

والثالث: عن جَنَّتِي السابقين المقربين عند ربهم، وذلك من الآية السادسة والأربعين إلى الآية الحادية والستين، وفيه وصف لنعيم كُلِّ مَنْ خاف مقام ربه، وصف يشرح الصدور، وتقُرُّ به العيون، لأصحاب الدرجات العلا والنعيم المقيم.

والرابع: عن جَنَّتِي أهل اليمين من عامة المؤمنين، وذلك من الآية الثانية والستين إلى الآية الثامنة والسبعين، وفيه وصف لنعيم جمهور أهل الإيمان، وما أعدّه الله لهم من الخُضرة، وعيون المياه، والفاكهة، والخيرات الحسان، والرفارف الخضر.

وختِمت السورة بتمجيد الله تعالى، والثناء عليه بما أنعم على عباده من مختلف النعم، وفيه تناسق مع بدء السورة في أروع صور البيان.

تَفْسِيرُ السُّورَةِ

الْمَجْمُوعَةُ الْأُولَى مِنَ النُّعَمِ: عَشْرٌ مِنْ مِثْنِ اللَّهِ تَعَالَى عَلَى خَلْقِهِ

١ - ٥ - ﴿الرَّحْمَنُ﴾^(١) عَلَّمَ الْقُرْآنَ ﴿٢﴾ خَلَقَ الْإِنْسَانَ^(٢) ﴿٣﴾ عَلَّمَهُ الْبَيَانَ ﴿٤﴾ الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ ﴿٥﴾^(٣).

في الخمس والعشرين آية الأولى من سورة الرحمن، ذكر الله سبحانه وتعالى خمس عشرة نعمة أنعم بها على خلقه في مجموعتين من الآيات، ذكر في المجموعة الأولى منها، عشر نعم أو منن، في الثلاث عشرة آية الأولى، وذكر في المجموعة الثانية خمساً أخرى في الآيات العشر التي تليها.

ومجمل هذه النعم العشر في المجموعة الأولى، هي: تعليم القرآن، وخلق الإنسان، وتعليمه البيان، وتنسيق الشمس والقمر بحسبان، ورفع السماء، ووضع الميزان، ووضع الأرض للخلق وما فيها من: فاكهة ونخل، ورمان وحب وريحان، وذلك أنه:

(أ) لَمَّا أَنْزَلَ اللَّهُ تَعَالَى قَوْلَهُ: ﴿اسْجُدُوا لِلرَّحْمَنِ﴾ [الفرقان: ٦٠] قَالَ الْمُشْرِكُونَ: ﴿وَمَا الرَّحْمَنُ﴾ فَأَنْكَرُوهُ، وَقَالُوا: لَا نَعْرِفُ الرَّحْمَنَ، فَافْتَتَحَ اللَّهُ تَعَالَى هَذِهِ السُّورَةَ بِمَا أَنْكَرَ الْمَكْذُبُونَ، وَهُوَ اسْمُ: ﴿الرَّحْمَنُ﴾ وَفِي هَذَا دَلِيلٌ عَلَى أَنَّ سُورَةَ الرَّحْمَنِ نَزَلَتْ بَعْدَ سُورَةِ الْفُرْقَانِ.

(ب) وَلَمَّا قَالَ أَهْلُ مَكَّةَ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ: ﴿إِنَّمَا يَعْلَمُهُ بَشَرٌ﴾ [النحل: ١٠٣] أَنْزَلَ اللَّهُ تَعَالَى يَبَيِّنُ أَنَّ الَّذِي عَلَّمَ مُحَمَّدًا الْقُرْآنَ، هُوَ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴿الرَّحْمَنُ﴾^(١) عَلَّمَ الْقُرْآنَ ﴿٢﴾. وَالرَّحْمَنُ اسْمٌ مِنْ أَسْمَاءِ اللَّهِ الْحُسْنَى، وَهُوَ يَعْدِلُ اسْمَ الْجَلَالَةِ ﴿قُلْ أَدْعُوا اللَّهَ أَوْ ادْعُوا الرَّحْمَنَ أَيًّا مَا تَدْعُوا فَلَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى﴾ [الإسراء: ١١٠].

(١) عدُّ الشامي والكوفي ﴿الرَّحْمَنُ﴾ آية وتركها غيرهما.

(٢) لم يعد المدني الأول والمدني الأخير ﴿الْإِنْسَانَ﴾ آية، وعدّها غيرهما.

(٣) قرأ ابن كثير بنقل حركة الهمزة إلى ما قبلها في لفظ ﴿الْقُرْآنَ﴾ وكذا حمزة عند الوقف، والباقون بتحقيقها.

فبدءُ السورة باسم الله العظيم ﴿الرَّحْمَنُ﴾ يقع موقع الحروف الهجائية في أوائل بعض السور، للتعريض بدم الذين أخطؤوا، فأنكروا القرآن الكريم، أو أنكروا اسم ﴿الرَّحْمَنُ﴾. وافتتاح السورة باسم ﴿الرَّحْمَنُ﴾، دون غيره من أسماء الله الحسنى، فيه جمع بين الرذائل على ما سبق ذكره من إنكار المعارضين لاسم الرحمن، وقول بعضهم: ﴿إِنَّ هَذَا إِلَّا إِفْكٌ افْتَرَيْتُهُ وَأَعَانَهُ عَلَيْهِ قَوْمٌ آخَرُونَ﴾ [الفرقان: ٤].

وبالإضافة إلى ذلك، ففيه تشويق إلى الخبر الذي يأتي بعده، فالمنكرون لاسم الرحمن، والمؤمنون به، يترقبون ما سيوصف به بعد.

وقد جاء الإخبار عن الرحمن سبحانه، بعشرة أخبار أومن، جاءت في الآيات تباعاً: الأربعة الأولى جاءت متوالية بدون عطف، والستة التالية جاءت معطوفة بالواو، وكلها دالة على تصرفات الله تعالى في خلقه وإبداعه لهذا الكون، ليُعلم المكذبون أن ما ينكرونه وهو اسم: ﴿الرَّحْمَنُ﴾ هو نفسه اسم الجلالة ﴿الله﴾ وأن المسمى واحد.

واسم الرحمن: يدل على سعة الرحمة، وعموم الإحسان، وجزيل الثواب، وسعة الفضل، وبهذا تنتهي الآية ليرتقب القارئ والمستمع الخبر العظيم الذي تخفق له القلوب، وهو (تعليم القرآن) وبعده أخبار كثيرة، كلها نعم يمتنُّ الله تعالى بها على خلقه، ويحثهم على شكره، وينبههم على تقصيرهم في حقه تعالى.

المنة الأولى: نعمة تعليم القرآن:

أول نعمة للرحمن على الإنسان من النعم الدينية والدينية والأخروية، أنه سبحانه ﴿عَلَّمَ الْقُرْآنَ﴾ أي: علّم عباده ألفاظ القرآن ومعانيه، ويسرها عليهم، وهو أعظم منة على الإنسان، قد اشتمل على خيري الدنيا والآخرة.

وهكذا: قدّم الله تعالى في الذكر: أعظم نعمة أنعم بها على خلقه، وأجلّها قدرًا، وأكثرها نفعًا، وأتمها فائدة، وأعظمها عائداً، وهي نعمة تعليمهم القرآن؛ فإن فيه مدار السعادة في الدارين.

أي: أن الله تعالى لم يترك البشر دون هداية تقودهم إلى رضوانه تعالى، فكان هذا القرآن العظيم جامعًا لِمَا أُودِعَ في صحف الأنبياء الأولين، ومتضمنًا أسباب الرشد للناس حتى قيام الساعة، فهو النعمة الأولى على صاحب الرسالة الخاتمة، وعلى الثقلين: الإنس والجن، وجاء ذلك في مفتح سورة الآلاء والنعم.

وهو نعمة عظمى على كل من درّسه وفقّه الناس فيه: «خيركم من تعلم القرآن وعلمه»^(١)؛ لأنه يخلف الأنبياء في تبليغ الرسالة ومحو الجاهلية، ولذلك فإن أبا عبد الرحمن السلمي قال: فذاك الذي أقعدني هذا المقعد، وقد ورد عنه أنه قال: (صُمْتُ ثمانين رمضان) ومات على الراجح سنة خمس وثمانين، عن تسعين سنة، وقد جلس ﷺ للإقراء أكثر من اثنتين وسبعين سنة.

فالرحمن هو الذي علّم محمدًا ﷺ القرآن، وفي هذا تبكيت لمن زعم أن محمدًا ﷺ علّمه بشر.

والرحمن هو الذي علّم الإنسان القرآن، ويسّر له حفظه وتلاوته، وفهم معانيه. والقرآن كلام الله تعالى المعجز، المنزل على رسوله ﷺ، المتعبّد بتلاوته، المتحدّى بأقصر سورة منه.

وقد ذُكر لفظ القرآن في الكتاب العزيز في أربعة وخمسين موضعًا، لم يصرح في واحد منها أنه مخلوق.

ويتجلّى ذلك واضحًا في أن القرآن الكريم ذكر لفظ الإنسان في ثمانية وعشرين موضعًا كلها تنص على خلقه، ومن ذلك ما جاء في سورة الرحمن، فقد قرّنتِ السورة بين القرآن والإنسان، ونصّت على أن الرحمن سبحانه علّم القرآن وخلق الإنسان.

(١) من حديث عثمان بن عفان ﷺ في البخاري (٥٠٢٨) وأبو داود (١٤٥٢) وابن ماجه (٢١١) و«المسند»

(٤١٢) بإسناد صحيح على شرط الشيخين، والنسائي في «الكبرى» (٧٩٨٢).

المنة الثانية: خلق الإنسان:

كما جاء في قوله سبحانه: ﴿خَلَقَ الْإِنْسَانَ﴾ أي من العدم، وجعله كامل الأعضاء، وصوره فأحسن صورته، وكرمه وميزه على سائر الحيوانات، فمن نعم الله العظيمة أنه خلق جنس الإنسان في أحسن تقويم، خلقه سبحانه سمياً بصيراً ناطقاً، في أجمل صورة، وكرّمه على سائر المخلوقات، فتميّز على الأجناس الأخرى بالنطق والفهم والإفصاح عما يريد، وكان مستعداً لتلقي العلوم، وعبادة الله وتوحيده، والخلافة في أرضه، فعلمه بيان الدنيا والآخرة، وبَيَّن له الحلال والحرام، ليحتج بها عليه، فحمل الأمانة التي عجزت عن حملها السموات والأرض والجبال.

وخلق الله تعالى للإنسان قضية لم يُنازع فيها أحد، ولكن لما كان بعض الناس يتوجه بعبادته لغير الله تعالى، فقد ذكرها الله تعالى تعداداً لنعمه تعالى عليهم، وللدلالة على أنه تعالى هو المستحق للعبادة دون سواه.

وفي خلق الإنسان تشريف له بإخراجه من غياهب العدم إلى حيّز الوجود. وقدّم خلقه على خلق السموات والأرض؛ لأنه المعني بتعليم القرآن.

المنة الثالثة: نعمة النطق والفصاحة

أي: إنه سبحانه جعل الإنسان مخلوقاً ناطقاً، فقد ﴿عَلَّمَهُ الْبَيَانَ﴾ أي: إن الله تعالى فضّل الإنسان بنعمة العلم والإبانة والإفصاح عما في نفسه وضميره، تمييزاً له عن الحيوان والجماد، فألهمه النطق، وعلمه الخط، وميّزه عن سائر الحيوانات، وهو بهذا يفيد ويستفيد، وهذا من أجل النعم، وقد يُغرب الإنسان عما في نفسه عن طريق الإشارة أو الإيماء، أو لمح النظر، وهذا أيضاً من مميزات الإنسان، وإن كان دون النطق.

ومعنى تعليم الإنسان البيان: أن الله تعالى خلق فيه الاستعداد للعلم، وألهمه وسائل التعرف، كما قال تعالى: ﴿وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا﴾ [البقرة: ٣١].

ومن ذلك معرفة التكاليف الشرعية، والعلوم الدينية والدينية، وخصائص اللغة

وآدابها، فمن خصائص الجنس البشري: نعمة البيان، ونقل تعاليم الإسلام ومحاسنه إلى الآخرين بمختلف لغات العالم.

وفي هذا تبكيت للإنسان على ما فيه من عَدَم شكر الله تعالى على نعمه، حيث صرف كثير من الناس عبادتهم لغير الله تعالى ﴿وَاللَّهُ أَخْرَجَكُمْ مِنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْئًا﴾ [النحل: ٧٨].

وفيه إشارة إلى أن الله تعالى خلق الإنسان ليحيط علماً بوحيه وكتبه، ومن ثم لعبادته وتوحيده.

المنة الرابعة: أنه سبحانه خلق الشمس والقمر لنفع الإنسان:

﴿الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ﴾ أي: ومن الدلائل على تفرد الله تعالى بالخلق، وامتنانه على خلقه بالنعم، أنه تعالى خلق الشمس والقمر، وسخرهما يجريان بحسبان دقيق، وتقدير مقدر، وأنهما يجريان متعاقبين في بروجهما ومنازلهما بحساب متقن معلوم، لا يختلف ولا يضطرب، رحمة بالعباد وعناية بهم ليقوم بذلك مصالحهم.

وبدورانهما يعرفُ الناس السنين والشهور والأيام ﴿لِنَعْلَمَوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْأَيَّامِ﴾ [يونس: ٥].

ويعرفون مواعيد الصلاة والصيام والزكاة والحج ﴿فَلَهُ يَمَاقِيَتُ لِلنَّاسِ وَالْحَجِّ﴾ [البقرة: ١٨٩].

﴿لَا الشَّمْسُ يَنْبَغِي لَهَا أَنْ تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلَا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾ [يس: ٤٠].

ولولا الليل والنهار، والشمس والقمر، لم يَدْرِ أحد كيف يحسب، ولولاها ما عرف الإنسان أوقات العبادة، ولا الآجال، ولا وقائع الدهر، فالكون محكوم بشن ضابطة، والكواكب لا تتجول في الفضاء كما يحلو لها، بل لها مسار مرسوم، وسرعة محدودة، وعليها إشراف دقيق!

والشمس ليست أكبر أجرام السماء، ولكنها النجم الأهم بالنسبة لسكان الأرض، فهم يعيشون على ضوءها وحرارتها وجاذبيتها.

والقمر تابع للأرض، وله أثر قوي في حركة المدّ والجزر في البحار. يقول سيد قطب رحمه الله: إن الشمس تبعد عن الأرض باثنين وتسعين مليوناً ونصف المليون ميل، ولو كانت أقرب من ذلك بالنسبة لنا، لاحتقرت الأرض أو انصهرت، وتحولت بخاراً يصعد في الفضاء!! ولو كانت أبعد من ذلك لتجمّد مَنْ في الأرض ومات، والذي يصل إلينا من حرارتها جزء من مليوني جزء من حرارتها، وهو القدر الذي يلائم حياتنا.

ولو كان القمر أكبر من حجمه لكان المدّ الذي يُحدثه في البحار كافياً لِغَمْرِها بطوفان، يعم كل من عليها.

وجاذبية كلّ من الشمس والقمر للأرض لهما حساب دقيق في توازن وضعها، وضبط خطاها في هذا الفضاء الشاسع الرهيب، الذي تجري فيه المجموعة الشمسية بسرعة عشرين ألف ميل في الساعة في اتجاه واحد، ومع هذا لا تلتقي بأي نجم في طريقها على ملايين السنين، ولا يختلّ مدار نجم بمقدار شعرة، ولا يختل حساب التوازن والتناسق في حجم ولا حركة^(١) فسبحان الخلاق العليم!

والله تعالى يَمُنُّ على عباده بما أودع في الشمس والقمر من منافع للناس، كتنظيم معاملاتهم، واستعدادهم للسعي عند تغيّر الأجواء، وتقلّب الأرزاق، وتفرد رب العالمين بتقدير الكون وتدبيره ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَلَيْلُ وَالنَّهَارُ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ﴾ [فصلت: ٣٧].

وقال تعالى: ﴿وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ حُسْبَانًا﴾ [الأنعام: ٩٦].

واكتفى القرآن الكريم بذكر الشمس والقمر دون بقية الكواكب، كالجوزاء والشعرى والثريا والأسد؛ لأن الشمس والقمر هما الباديان لأهل الأرض.

(١) «في ظلال القرآن» (٣٤٤٨/٦) بتصرف، وأقول: لا بأس ببيان ذلك إن لم يوجد في الكتاب وصحيح السنة، ما يعارضه، فإن الحكمة ضالة المؤمن ولو كان القائل غير مسلم، فإن وُجد ما يردّه رفضناه.

الْمِنَّةُ الْخَامِسَةُ لِلرَّحْمَنِ عَلَى الْإِنْسَانِ: أَنَّهُ سَخَّرَ لَهُ النَّبَاتَ وَالشَّجَرَ

٦ - ﴿وَالنَّجْمُ وَالشَّجَرُ يَسْجُدَانِ﴾ (٦)

وجاءت هذه المنة بعد النعم الأربع التي في أول السورة، معطوفة بالواو ﴿وَالنَّجْمُ وَالشَّجَرُ يَسْجُدَانِ﴾ والنعم الست التالية لا يراد بها التعريض بالمشركين ولا غيرهم، وإنما هي امتنان من الله تعالى على خلقه بذكر بعض النعم التي في الأرض، بعد ذكر بعض النعم التي في السماء.

والواسطة في ذلك هي لفظ: ﴿وَالنَّجْمُ﴾ فهو لفظ مشترك يراد به نجم السماء، ويراد به نجم الأرض، وهو النبات والحشيش الذي لا ساق له، وشاهد الأول قوله تعالى: ﴿وَالنَّجْمُ إِذَا هَوَىٰ﴾ [النجم: ١]. قال مجاهد: هو النجم الذي في السماء^(١)، وهو ظاهر اللفظ. و يفسر ابن عباس رضي الله عنهما النجم في هذه الآية بأنه: النبات الذي لا ساق له، وهو ما انبسط على وجه الأرض^(٢) من النبات والحشيش؛ لأنه ينجم، أي: يظهر من الأرض بدون ساق.

والشجر: هو النبات الذي له ساق وارتفاع عن وجه الأرض، ويتنفع بهما الإنسان والحيوان.

وتفسير النجم في الآية بهذا المعنى أنسب لازدواج الآيات، والنبات يناسب الشجر، ولا يناسب النجم السمائي.

وسجود النبات يكون بالتصاقه بالتراب، كالساجد على الأرض. وسجود الشجر يكون بطأطأته عند هبوب الرياح، ودُنُو أعضائه لمن يجني ثمره أو يقطف ورقه.

قال تعالى: ﴿وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَظِلًّا لَهُمْ بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ﴾ [الرعد: ١٥].

(١) يُنظَر: الطبري (١٧٤/٢٢).

(٢) يُنظَر: الطبري (١٧٤/٢٢) وأبو الشيخ (١٢٢٢) والحاكم (٤٧٤/٢) وابن أبي حاتم وابن المنذر.

وقال سبحانه: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَسْجُدُ لَهُ مَن فِي السَّمَوَاتِ وَمَن فِي الْأَرْضِ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ وَالْجِبَالُ وَالشَّجَرُ وَالدَّوَابُّ وَكَثِيرٌ مِّنَ النَّاسِ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ الْعَذَابُ﴾ [الحج: ١٨].

فكل ما ينمو على الأرض من زرع له ساق مرتفعة، أو له ساق تمتد على الثرى، كلاهما خاضع لنظام محكم دقيق، كما قال تعالى: ﴿وَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ شَيْءٍ مَّوْزُونٍ﴾ [الحجر: ١٩]. والنبات والشجر تعرف ربها وتسجد له وتطيعه وتخشاه، وتنقاد لما سخرها له من مصالح العباد ومنافعهم.

المنة السادسة: رفع السماء بلا عمد

٧ - ٨ - ﴿وَالسَّمَاءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ الْمِيزَانَ ﴿٧﴾ أَلَّا تَطْغَوْا فِي الْمِيزَانِ ﴿٨﴾﴾

﴿وَالسَّمَاءَ رَفَعَهَا﴾ أي والسماء خلقها ورفع سقفها بقدرته فوق المخلوقات الأرضية، وهو رفع بلا عمد، وأحكم بناءها، وأنتم ترونها بأعينكم، وأوجد فيها الملائكة والعرش والكرسي وسدرة المنتهى قال تعالى: ﴿اللَّهُ الَّذِي رَفَعَ السَّمَوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا﴾ [الرعد: ٢]. وقال سبحانه: ﴿أَنْتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ السَّمَاءُ بَنَاهَا﴾ [النازعات: ٢٧].

وقال جل شأنه: ﴿أَفَلَا يَنْظُرُونَ إِلَى السَّمَاءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَاهَا وَزَيَّنَّاهَا وَمَا لَهَا مِنْ فُرُوجٍ﴾ [ق: ٦]. ونعمة خلق السماء لنفع الإنسان لا تضاهيها نعمة!

المنة السابعة: إقامة العدل بين الناس:

ويقابل السماء: الأرض، التي وضع الله فيها العدل وأمر به، وشرعه لعباده في الأقوال والأفعال والحكم بين الناس.

وقد شاع بين الناس إطلاق لفظ الميزان على العدل، كما قال تعالى: ﴿وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ﴾ [الحديد: ٢٥].

والمراد: أن الله تعالى أمر بالعدل، وجعله بين الناس لإقامة نظام الخلق وتحقيق العدل في الأرض.

وقدُن العدل برفع السماء، فيه تنويه به، ورفع لشأنه، بنسبته إلى العالم العلوي، ونزوله إلى الأرض لإقامة الحق والفضائل بين الناس.

وقد تكرر اقتران مقتضى العدل بخلق السماء، في كثير من الآيات تحت مسمى ﴿بِالْحَقِّ﴾ في مثل قوله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ﴾ [الحجر: ٨٥] فالحق: هو العدل والإنصاف، وهو ضد الباطل، ومن ذلك الأثر: «بالعدل قامت السموات والأرض»^(١).

وسمي الميزان عدلاً لأنه آلة العدل.

وهو في الأصل: الآلة المعروفة التي يزن بها الناس الحبوب ونحوها، ونحن مكلفون بإقامة العدل بشكل عام، سواء في تبادل السلع أو في إعطاء كل ذي حق حقه من الناحية الإدارية، والاجتماعية، والاقتصادية، والسياسية ﴿وَأَقِيمُوا الْوَزْنَ بِالْقِسْطِ وَلَا تُخْسِرُوا الْمِيزَانَ﴾ [الرحمن: ٩].

ومن ثم يرتبط الحق والعدل في الأرض، بالسماء التي ينزل منها وحي الله تعالى ومنهجه. وقد لا يقوم الناس بالعدل في الأرض، فيظهر الفساد فيها بسبب الظلم والفوضى في البر والبحر والجو ﴿ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُمْ بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا﴾ [الروم: ٤١].

وقد يحدث ثقب في طبقة الأوزون - مثلاً - بسبب الطغيان والفساد، غير أن هذا الكون لن يضطرب في يد الخالق سبحانه، ولن يختل التوازن العام في قوانين المادة، إلى أن يأذن الله بفناء العالم وإعادة الخلق بعد بدئه وفنائه.

الميزان حسي ومعنوي:

وكما سبق فإن الميزان في الآية يراد به: إقامة الحق والعدل بين الناس في الأحكام، ويدخل فيه الميزان المعروف، الذي توضع فيه الأشياء الموزونة ونحوها في البيع

(١) يُنظَر: فيض القدير (٢/ ٢٤٨).

والشراء، ويدخل فيه المكيال الذي تكال به السلع والمقادير، وكذا المساحات التي تضبط بها المجهولات.

كما يشمل الميزان: الخصومات والتزاعات التي تكون بين المخلوقات، ويقام به العدل بينهم، فهو ميزان حسي وميزان معنوي.

وقد أمرنا الله تعالى بالعدل فيهما؛ كي نجتنب الجور والطغيان بتجاوز الحد فيهما زيادة أو نقصاً، وهذا معنى ﴿أَلَّا تَطْغَوْا فِي الْمِيزَانِ﴾. أي أنزل الله تعالى الميزان لثلاث نتجاوز الحد في الميزان، ومن الطغيان في الميزان: دَخُضُ الحق، وإضاعته واحتقار أصحابه، والاستخفاف بهم مهما كانت الأسباب، ولذا قال تعالى: ﴿وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَاٰنُ قَوْمٍ عَلَىٰ أَلَّا تَعْدِلُوا أَعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ﴾ [المائدة: ٨].

وقال سبحانه: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا كُونُوا قَوَّٰمِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَآءَ لِلّٰهِ وَلَوْ عَلَىٰ أَنْفُسِكُمْ أَوِ الْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ﴾ [النساء: ١٣٥].

وقد توعد الله سبحانه المطففين في الكيل والميزان، بالويل والعذاب الشديد، في مثل قوله تعالى: ﴿وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ﴾ ① الَّذِينَ إِذَا أَكَالُوا عَلَى النَّاسِ يَسْتَوْفُونَ ② وَإِذَا كَالُوهُمْ أَوْ وَزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ ③ أَلَا يَظُنُّ أُولَٰئِكَ أَنَّهُمْ مَبْعُوثُونَ ④ لِيَوْمٍ عَظِيمٍ ⑤ يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ ⑥ [المطففين: ١-٦].

فلا تعتدوا، ولا تخونوا، ولا تغلوا، ولا تغدروا. قال تعالى:

٩ - ﴿وَاقِيمُوا الزُّنْتَ بِالْقِسْطِ وَلَا تُخْسِرُوا الْمِيزَانَ﴾

ثم أكد سبحانه وتعالى ضرورة الالتزام بالعدل في جميع الأمور تأكيداً صريحاً في قوله تعالى: ﴿وَاقِيمُوا الزُّنْتَ بِالْقِسْطِ﴾ أي: حققوا العدل وأقيموا بينكم على أكمل وجه وأتمه، واجعلوه ملازماً لكم في جميع أموركم، كما قال تعالى: ﴿وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ﴾ [الأنعام: ١٥٢].

والله تعالى يقيم العدل بين الناس يوم لقائه: ﴿وَنَضَعُ الْمَوَزِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَمَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا﴾ [الأنبياء: ٤٧].

وأمر سبحانه بوفاء الموازين والمكاييل في المعاملات بين الناس، فقال: ﴿وَلَا تَنقُصُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ﴾ [هود: ٨٤] أي: إذا وزنتم للناس أو كلتم لهم، ﴿وَلَا تَخْسِرُوا الْمِيزَانَ﴾ أي: لا تنقصوه ولا تجوروا فيه، واحذروا مقت الله وغضبه. قال تعالى:

١٠، ١١ - ﴿وَالْأَرْضَ وَضَعَهَا لِلْأَنْعَامِ﴾^(١) ﴿فِيهَا فَكْهَةٌ وَالنَّخْلُ ذَاتُ الْأَكْمَامِ﴾

المنة الثامنة: تسخير الأرض لجميع الخلق:

وهذا التسخير نعمة من ﴿الرَّحْمَنِ﴾ سبحانه، الوارد ذكره في أول السورة. أي: إن الله تعالى مهّد الأرض وبسطها وجعلها موضوعة للناس على هذا النظام البديع ليستقر عليها الخلق، وينتفعوا بما على ظهرها، وقد أرساها بالجبال لئلا تميد بهم ﴿وَالْأَرْضَ وَضَعَهَا لِلْأَنْعَامِ﴾.

ولأن الإنسان يألف هذه الأرض فيعيش فوقها مستقراً، ويصبح ويُمسي، وهو يتقلّب في هذه النعمة، فإنه قد لا يشعر بها إلا عندما يحدث زلزال أو بُركان أو خسف في مكان من العالم، وأهل هذا المكان الذي يحدث فيه زلزال هم الذين يشعرون بنعمة الاستقرار فوق هذه الأرض.

فالصحة تاج على رؤوس الأصحاء لا يراه إلا المرضى، وقد يَسّر الله تعالى الحياة فوق هذه الأرض، وقَدَّرَ فيها أقواتها، مع أنها تدور بهم حول نفسها وحول الشمس، فهي تركزض مع الشمس وتوابعها بسرعة مذهلة، والأنام لفظ يشمل الإنس والجن والحيوان.

المنة التاسعة: ثمرات الزروع والنخيل:

ومن نعم الله تعالى على خلقه، ما أوجده في الأرض من الأقوات والفواكه والروائح العطرية، ﴿فِيهَا﴾ أي: في الأرض ﴿فَكْهَةٌ﴾ وهي اسم لما يأكله الإنسان على وجه التلذذ والتفكّه، كالعنب والتفاح والتين والرمّان ونحوها، وليس من باب القوت الضروري ﴿وَالنَّخْلُ ذَاتُ الْأَكْمَامِ﴾ أي: ذات الأوعية التي يكون فيها الثمر فتخرج منه شيئاً فشيئاً ثم

(١) أسقط العدد المكي ﴿لِلْأَنْعَامِ﴾ فلم يعدّه آية، وعدّه الآخرون.

ينضج فيكون قوتاً يؤكل ويُدخَر، ويتزوّد منه المقيم والمسافر.

والكِم - بكسر الكاف - هو وعاء كوز الطلع، وهو القنوّ، الذي يكون فيه بذور الثمر قبل ظهوره وخروج البلح منه.

والكِم في النبات: كل ما له وعاء يلقّهُ ويستره، مثل كِم الزهرة، وكَم الثوم، وهكذا. وعطف النخل على الفاكهة لأهميته، فهو قوت وفاكهة، وهو يثمر أصنافاً من الفاكهة من: رُطَب وبُسْر وتمر، وله أطوار يكتمل فيها بدءاً من الطلع إلى التمر، حيث يُتَنَفَع بكل شيء فيه، من ليف، وسعف، وجريد، وجدوع، وجُمَار، وثمر، وغير ذلك.

الْمِنَةُ الْعَاشِرَةُ: نِعْمَةُ الْحَبِّ وَالرَّيْحَانِ

١٢، ١٣ - ﴿وَالْحَبُّ ذُو الْعَصْفِ وَالرَّيْحَانُ ۚ فَبِأَيِّ آيَةٍ رَّبِّكُمْ تَكْذِبُونَ﴾

أي: وفي الأرض أنواع من الحبوب، كالحنطة والشعير والأرز والفول والعدس، من كل ما هو غذاء للإنسان يُقَاتَات ويُدخَر.

وتشتمل الحبوب على غذاء الحيوان، من القشر الذي يكون الحبُّ بداخلها، وكذا الساق الذي يَبْيَسُ ويكون هشيمًا يَدَاسُ ويُفْتَت، وهو التبن، والقش الذي تعصفه الرياح. فالعصف: هو التبن والقشر، قال تعالى: ﴿جَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَّأْكُولٍ﴾ [الفيل: ٥].

قال ابن عباس: العصف: ورق الزرع إذا يبس، والريحان ما أنبتت الأرض من الريحان الذي يُشَمُّ^(٥).

(١- ٣) قرأ ابن عامر بنصب الألفاظ الثلاثة (والحبُّ ذا العصف والريحان) على إضمار فعل قبل (والحب)، تقديره أخص، أو خلق، و(ذا) صفة (والريحان) معطوف عليه، وقرأ حمزة والكسائي برفع الأول والثاني عطفاً على (فاكهة) وجر (الريحان) عطفاً على العصف، وقرأ الباقر بالرفع في الثلاثة عطفاً على (فاكهة)، و(ذو) صفة (والحب).

(٤) قرأ الأصهباني عن ورش بإبدال همزة (فبأي) ياء، وصلاً ووفقاً في جميع السورة، وكذا حمزة عند الوقف، والباقر بتحقيقها مفتوحة.

(٥) «تفسير الطبري» (١٨٣/٢٢).

ويخرج من الأرض كذلك كل ما له رائحة زكية، من الأزهار والرياحين والورد والياسمين، وهكذا، يمن الله على عبادة بأنواع الروائح الطيبة، وهي من الكماليات ومتع الحياة الزائدة بعد أن منّ عليهم بكل ما هو ضروري من القوت وما يليه في الأهمية من الفواكه التي تؤكل تفكهاً وتلذذاً، فهذه ثلاثة أنواع من النعم: القوت، والفاكهة، والروائح الزكية قال تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُمْ مَّا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا﴾ [البقرة: ٢٩].

وقال تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ ذُلُولًا فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِن رِّزْقِهِ﴾ [الملك: ١٥]. وإلى هنا ينتهي هذا المقطع من تعداد عشرة أنعم من نعم الله تعالى وآلائه، جاء ذكرها في أول السورة، وهي:

تعليم القرآن، وخلق الإنسان، وتعليمه البيان، وتنسيق الشمس والقمر بحسبان، ورفع السماء بلا عمد، ووضع الميزان، ووضع الأرض للأنام، وما فيها من فاكهة ونخل ورطب وحب وريحان.

آية الفصل بين كل نعمتين، ذكرت إحدى وثلاثين مرة في السورة:

ثم يخاطب الله تعالى الجن والإنس؛ ليسجل عليهم النعم السابقة في هذا الكون، ويشهدهم عليها، وخصّ الجن والإنس بالذكر؛ لأنهم المكلفون بعبادة الله تعالى في الأرض ﴿فَإِنِّي ءَالَاءٌ رَّبِّكُمْ أَتُكَذَّبَانِ﴾ فبأي نعمة من نعم الله الدينية والدنيوية - يا معشر الجن والإنس - تكذبان؟ ومن نعمه تعالى تسخير الأرض، وخلق ما فيها من زرع وفاكهة ونخل وحب وريحان... الخ، فالآلاء هي النعم.

وما أحسن جواب الجن، حين تلا عليهم النبي ﷺ هذه السورة، فكلما مرّ بهذه الآية قالوا: «ولا بشيء من نعمك ربنا نكذب، فلك الحمد».

وهكذا ينبغي للعبد إذا تليت عليه نعم الله تعالى وآلاؤه أن يقرّ بها، ويشكر الله ويحمده عليها، ويقوم بحق الله عليه فيها من وجوب توحيد الله تعالى وعبادته.

ومسؤولية الجن كمسؤولية الإنس مقررة في القرآن الكريم في مثل قوله تعالى:

﴿يَمَعَشَرُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ النَّارُ يَأْتِيَكُمْ رَسُولٌ مِّنْكُمْ يَفْضُلُونَ عَلَيْكُمْ مَّا يَأْتِي وَنُذِرُوكُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا﴾
[الأنعام: ١٣٠].

وقد ذكرت هذه الآية إحدى وثلاثين مرة في السورة تقريرًا للنعمة، وتأكيّدًا للتذكير بها، وذلك كقول الرجل لمن أحسن إليه وهو ينكر هذا الإحسان: ألم تكن فقيرًا فأغنيتك؟ أفتنكر هذا؟ ألم تكن عريانًا فكسوتك؟ أفتنكر هذا؟ وهكذا كما يركز رجال الإعلام على أمر هام، فيكرره ويعيدوه ليل نهار، حتى يصل خبره إلى الناس جميعاً، والله المثل الأعلى.

وجاء ذكر هذه الآية، ثماني مرات عقب آيات فيها تعداد عجائب الخلق، مبدئه ومنتهاه. ثم ذكرت سبع مرات، عقب آيات ذكرت فيها النار وشدائدها، وكان ذلك بعدد أبواب جهنم والعياذ بالله.

ثم ذكرت ثماني مرات، في وصف الجنتين وأهلها من السابقين المقربين، وكان ذلك بعدد أبواب الجنة، اللهم اجعلنا من أهلها، ووفقنا للعمل الذي يؤهلنا لها. كما ذكرت ثماني مرات في الجنتين بعدهما لأهل اليمين، وهما دون الجنتين قبلهما. فمن عمل بمقتضى الثماني الأولى، استحق الثماني الأخرى، ووقاه الله السبع الخاصة بجهنم، بفضل الله تعالى وكرمه^(١).

وقد جاءت هذه الآية للفصل بين كل نعمتين، لينبههم الله تعالى عليها، ويقررهم بها؛ وذلك لأن الله تعالى ذكر في هذه السورة ما يدل على وحدانيته تعالى من خلق الإنسان، وتعليمه البيان، وخلق الشمس والقمر، والسماء والأرض، وغير ذلك مما أنعم الله به على خلقه.

وقد خاطب الله تعالى الجن والإنس معاً في السورة، تقريرًا وتذكيرًا بنعم الله تعالى التي لا يستطيع أحد أن يجحدها.

(١) يُنظَر: «حاشية الجمل على الجلالين» (٢٥٤/٤).

الْمَجْمُوعَةُ الثَّانِيَةُ: خَمْسُ مِثْنِ أُخْرَى مِنْ نِعَمِ اللَّهِ تَعَالَى عَلَى خَلْقِهِ

١٤- ﴿خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ صَلْصَلٍ^(١) كَالْفَخَّارِ﴾.

ثم تأتي مجموعة ثانية من النعم، تشتمل على الأصل الذي خلق منه الإنسان والجن، وتبين أن خالقهما هو خالق المشرق والمغرب، وخالق البحار والأنهار، وما يخرج منهما وما يجري فيهما، فهذه خمسة مخلوقات: الإنسان، والجن، والمشرق، والمغرب، والبحار.

الْمِثْنَةُ الْأُولَى: خَلَقَ الْإِنْسَانَ وَالْجِنَّ

وتبدأ الآيات بالإنسان ﴿خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ صَلْصَلٍ كَالْفَخَّارِ﴾ أي: خلق الله آدم -وهو الإنسان الأول- من طين مبلول ثم جف، فصار يابساً كالفخار الذي طبخ على النار، يُسَمَّع له رنين إذا نُقِر.

ومن ذلك قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ صَلْصَلٍ مِنْ حَمَلٍ مَسْنُونٍ﴾ [الحجر: ٢٦].

أي: من طين أسود متغير.

قال مجاهد: الصلصال: التراب اليابس الذي يُسَمَّع له صلصلة، فهو كالفخار.

وفي قوله سبحانه: ﴿إِنَّا خَلَقْتَهُمْ مِنْ طِينٍ لَازِبٍ﴾ [الصفات: ١١] أي يلتصق باليد.

وفي قوله جلَّ شأنه: ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِنْدَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ﴾ [آل عمران: ٥٩]

ولا تنافي بينها إنما هو تدرج في الخلق.

وذلك لأن الله تعالى أخذ قبضة من تراب الأرض، فَعَجَنَ بالماء، فصار طيناً لازباً يلتصق باليد، ثم تركه حتى صار حمأ مسنوناً، أي: طيناً أسوداً ممتثاً، ثم صَوَّرَهُ كما تُصَوَّرُ الألوان، ثم أَيْبَسَهُ حتى صار في غاية الصلابة كالفخار، إذا نُقِر كان له صوت.

فأطوار خلق آدم أربعة: التراب، الطين، صلصال من حمأ مسنون، صلصال كالفخار.

والمذكور هنا: هو آخر الأطوار، فقد خُلِقَتْ ذرية آدم من نقطة، ثم من علقه، ثم من مضغة، ثم يكون عظماً، ثم يُكْسَى العظم باللحم، ثم ينفخ الله فيه من روحه، ثم يصير

(٢) غَلَطَ الأزرق عن ورش لام (صلصال) الأولى ورققها، والباقون بترقيقها قولاً واحداً.

بشرًا سويًا، هذه هي النشأة الأولى.

وسيملاً الإنسان أرجاء الأرض، ثم يغلبهم الموت جميعاً، ثم يستيقظون للحساب والجزاء.

وقد أثبت العلم الحديث أن جسم الإنسان يحتوي على عناصر التراب الذي خُلِق منه، فهو يتكون من: الكربون، والكلور، والأكسجين، والأيدروجين، والفسفور، والكبريت، والكالسيوم، والحديد، ... إلخ، وما أثبتته العلم يقبل الخطأ والصواب، والتعديل والتبديل، والقرآن معجز إعجازاً مطلقاً، سواء وافقه العلم أم خالفه^(١).

١٥، ١٦ - ﴿وَخَلَقَ الْجَانَّ مِنْ مَّارِجٍ مِنْ نَّارٍ ۚ فَيَأْتِيءَ الْآءَ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ (١١)

أي وخلق الله إبليس - وهو أبو الجن - من لهب النار الصافي المختلط بعناصر أخرى كالدخان، لكن النار تغلب عليه، والمراد: لهب النار الخالص الذي لا دخان فيه. قال مجاهد في معنى من ﴿مِنْ مَّارِجٍ مِنْ نَّارٍ﴾: هو اللهب الأصفر والأخضر الذي يعلو النار إذا أُوقِدَتْ^(٢).

وفي الحديث عن عائشة رضي الله عنها: «خُلِقَتِ الملائكة من نور، وخلق الجانُّ من مارج من نار، وخلق آدم عليه السلام مما وصف لكم»^(٣).

وقد فضّل الله الإنسان على الجانِّ، حيث أمر الجانُّ بالسجود للإنسان، والإنسان هو المؤهل لعمران العالم، لكونه مخلوقاً من الطين، وخلق الجانِّ من مارج من نار مسألة خارجة عن حدود العلم البشري، والمصدر الوحيد في ذلك هو الخبر الصادق عن رب العالمين، فهو أعلم بمن خلق ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ﴾ [الملك: ١٤].

(١) «في ظلال القرآن» (٤/٣٤٥١).

(٢) الطبري (١٩٦/٢٢).

(٣) «المسند» (١٦٨/٦) (٢٥١٩٤) بإسناد صحيح على شرط الشيخين وهو مكرر برقم (٢٥٣٥٤) سنداً وممتناً، وأخرجه مسلم برقم (٢٩٩٦)، والبيهقي في الأسماء والصفات، وفي الشعب (١٤٣) و(٨١٨)، وعبد بن حميد (١٤٧٩) «المنتخب»، وعبد الرزاق (٢٠٩٠٤) وابن حبان (٦١٥٥).

والنار التي خلق منها الجان هي محل الخفة والطيش والشر والفساد، بخلاف الطين والتراب الذي خلق منه الإنسان فهو محل الثقل والرزانة والمنافع والتواضع. ثم ويُنح الله المكذبين من الجن والإنس على عدم الاعتراف بنعم الله تعالى، وعدم القيام بشكرها، ومن هذه النعم خلق الإنسان من نقطة، وخلق الجان من نار. قال ابن قتيبة: إن الله تعالى عدّد في هذه السورة نعماء، وذكر خلقه بآلاء، ثم أتبع كل خلّة وضعها ونعمة وصفها بهذه الآية، وجعلها فاصلة بين كل نعمتين؛ لينبههم على النعم ويقررهم بها.

الْمِنَّةُ الثَّانِيَّةُ: خَلَقَ الْمَشَارِقَ وَالْمَغَارِبَ

١٧، ١٨ - ﴿رَبُّ الْمَشْرِقَيْنِ وَرَبُّ الْمَغْرِبَيْنِ﴾ (١٧) ﴿فَيَأْتِي آءَاءُ رَبِّكَمَا تُكَذِّبَانِ﴾ (١٨)

أي: وهو سبحانه رب كل ما أشرقت عليه الشمس والقمر والكواكب النيرة، وكل ما غربت عليه، والكل مخلوق لله تعالى مربوب إليه، والكون كله تحت تدبيره وتصرفه. وقد جاء في القرآن الكريم إفراد المشرق والمغرب، وجاء تثنيتهما، وجمعهما: ١. ففي إفرادهما قال تعالى: ﴿رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَاتَّخِذْهُ وَكِيلًا﴾ (١) [المزمل] والمراد بهذا: جهة الشروق، وجهة الغروب.

٢. والآية التي معنا جاءت بالتثنية، قال تعالى: ﴿رَبُّ الْمَشْرِقَيْنِ وَرَبُّ الْمَغْرِبَيْنِ﴾ والمراد: رب مشرقى الشمس في الصيف والشتاء، ومغربى الشمس في الصيف والشتاء. ٣. وجاء الجمع في قوله تعالى: ﴿فَلَا أُقْسِمُ بِرَبِّ الْمَشَارِقِ وَالْمَغَارِبِ﴾ [المعارج: ٤٠].

قال ابن عباس رضي الله عنهما: للشمس مطلع في الشتاء ومغرب في الشتاء، ومطلع في الصيف ومغرب في الصيف، غير مَطْلَعِيْهَا في الشتاء وغير مَغْرِبِيْهَا في الشتاء^(١). والمعنى: أن للشمس ثلاث مئة وستون مشرقاً، بعدد أيام العام، وأن لكل يوم مشرقاً

(١) أخرجه سعيد بن منصور، وعبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم كما في «الدر المشور» (١١١/١٤).

معينًا تشرق منه الشمس، أي: رب جميع المشارق التي تشرق منها الشمس في كل يوم، على مدار العام، إذ لها في كل يوم مشرق تشرق منه، ولها أيضًا في كل يوم، مغرب تغرب فيه، بعدد أيام العام، ومشرق الشمس في الصيف هو غاية ارتفاعها، ومشرقها في الشتاء هو غاية انخفاضها، فبأي نعم ربكما - أيها الثقلان من الجن والإنس - تكذبان؟ وقد خلق لكم ومن أجلكم المشرقين والمغربين لنفعمكم وفائدتكم.

الْمِنَةُ الثَّالِثَةُ: خَلَطُ الْمَاءِ الْعَذْبِ بِالْمَاءِ الْمَلْحِ وَلَا يُغَيِّرُ أَحَدُهُمَا طَعْمَ الْآخَرِ

١٩ - ٢١ - ﴿مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ ﴿١٩﴾ بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لَا يَبْغِيَانِ ﴿٢٠﴾ فَإِنَِاءَ لَّآءٍ رَّبِّكُمَا تُكَذَّبَانِ ﴿٢١﴾﴾

ومن عظيم قدرة الله تعالى: أنه خلط ماء البحر العذب بماء البحر المالح، فأرسلهما وجعلهما متجاورين يلتقيان ويختلطان ولا يمتزجان، مع أن أحدهما يصب في الآخر، والمياه غمرة كثيرة متدفقة، ومع هذا لا يبغي أحدهما على الآخر، ويحصل النفع بكل منهما، فيشرب الناس والحيوان والزرع والأشجار من الماء العذب، ويطيب الهواء، ويتولد الحوت والسمك واللؤلؤ والمرجان من الماء المالح، ويكون مستقرًا مسخرًا للسفن والمراكب. ﴿مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ﴾ أي: أرسلهما، وجعل كلاً منهما يمشي وفق ما يشاء، ولا يبغي أحدهما على صاحبه ولا يأخذ منه شيئًا، ولا يتأثر به في لونه أو طعمه أو رائحته أو مذاقه، بل حجز سبحانه كلاً منهما عن الآخر بقدرته ولطفه.

قال تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ هَذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ وَهَذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ وَجَعَلَ بَيْنَهُمَا بَرْزَخًا وَحِجْرًا مَّحْجُورًا ﴿٥٢﴾﴾ [الفرقان].

وقال سبحانه: ﴿وَمَا يَسْتَوِي الْبَحْرَانِ هَذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ سَائِغٌ شَرَابُهُ وَهَذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ﴾ [فاطر: ١٢].

ومن ذلك التقاء ماء الفرات بالخليج الفارسي في شاطئ البصرة، أو التقاء البحر الأحمر ببحر العرب، وغير ذلك.

ومع التقاء البحرين واختلاط مائهما ببعض، فإن بين الماء المالح والعذب، فاصلًا، بحيث لا يُغَيِّرُ أحد البحرين طعم الآخر، وذلك بما أودع الله في كل منهما من خصائص

تمنع اختلاط أحدهما بالآخر، بحيث لا يفسد الماء الملح طعام الماء العذب ولا يغيّر طعمه، وهذا ثقل نوعي أودعه الله تعالى في كل من المائين.

والبرزخ هنا تشبيه بليغ، أي: بينهما مثل البرزخ، فلا يغلب أحد المائين الآخر، فيفسد طعمه، وهذا يشمل البحار والمحيطات، ويشمل جميع الأنهار، ويجوز أن يكون البرزخ حاجزاً مادياً، فاصلاً بين الماء العذب والملح، ويكون المراد بذلك: بحرین معيّنين، هما: البحر الأحمر وبحر العرب، ويكون الفاصل بينهما باب المندب^(١).
والماء العذب يُتّفع به في الشراب للإنسان والدواب والنبات، أما الماء الملح فإنه يُتّفع به في أشياء أخرى، كاستخراج الملح منه.

والماء الملح: ثلاثة أرباع سطح الكرة الأرضية، والماء العذب: يمثل الربع، وجميع الأنهار تصب في البحار، ومستوى سطح البحار أعلى من مستوى سطح الأنهار، ومن ثم لا يبغي البحر على النهر الذي يُصب فيه، والبرزخ بينهما من صنع الله سبحانه. فبأي نعم ربكما -أيها الثقلان- تكذبان؟ ومن هذه النعم وجود الماء العذب والماء الملح وعدم اختلاطهما بقدرة الله تعالى.

الْمِنَّةُ الرَّابِعَةُ: خُرُوجُ اللَّؤْلُؤِ وَالْمَرْجَانِ مِنَ الْبَحَارِ

٢٢، ٢٣ - ﴿يَخْرُجُ مِنْهُمَا اللَّؤْلُؤُ وَالْمَرْجَانُ ۚ﴾ (٢٢) ﴿فَإَيُّ آيَةٍ لَّيَكْفُرُ بِكَذِبَانِ﴾ (٢٣)

ويخرج من البحار: اللؤلؤ والمرجان، وهما من نعم الله على الإنسان.
واللؤلؤ: حيوان يهبط إلى أعماق البحر، وهو داخل صدفة من المواد الجيرية لتقيه من الأخطار، فإذا دخلت ذرة رمل، أو قطعة خصى إلى الصدفة، أفرز الحيوان مادة لزجة يغطيها بها ثم تتجمد، وتكون اللؤلؤة على حسب حجم الذرة.

أما المرجان: فهو حيوان يعيش في البحار على عمق يتراوح بين خمسة أمتار وثلاث مئة متر، وفتحة فمه في أعلى جسمه، محاطة بعدد من الزوائد، يستعملها في غذائه من

(١) «تفسير التحرير والتنوير» (١٢/٢٤٤).

الأحياء الدقيقة، كبراغيث الماء، ويتكاثر هذا الحيوان بخروج خلايا تناسلية منه، يتم بها إخصاب البويضات، حيث يتكون الجنين.

وشجرة المرجان تكون ذات ساق سمكية، يبلغ طولها ثلاثين سنتيمتراً، وألوانها مختلفة: صفراء، وحمراء، وبرتقالية، وباهتة... ومن اللؤلؤ والمرجان يتخذ الحلي الذي تتحلى به النساء، وهو يخرج من البحار دون الأنهار^(١).

وقيل: إن اللؤلؤ والمرجان يخرجان من البحار والأنهار معاً وفقاً لظاهر الآية، ولأنهما لما التقيا كانا كالشيء الواحد.

وقد أثبتت البحوث العلمية الحديثة أن اللؤلؤ والمرجان يخرجان من الأنهار العذبة التي في ضواحي ويلز، واسكتلندا في ضواحي بريطانيا^(٢).

قال تعالى: ﴿وَمِنْ كُلِّ تَآكُلُونَ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُونَ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا﴾ [فاطر: ١٢].

أخرج ابن أبي حاتم بسند صحيح إلى ابن عباس رضي الله عنهما قال: إذا أمطرت السماء فتحت الأصداف في البحر أفواهاها، فما وقع فيها من قطر فهو اللؤلؤ^(٣).
وقيل: إن اللؤلؤ صغار الدر، والمرجان كباره.

فبأي نعمة من نعم ربكما - يا معشر الجن والإنس - تكذبان؟ ومن نعم الله تعالى ما يخرج من البحرين كاللؤلؤ والمرجان وغيرهما.

الْمِنَةُ الْخَامِسَةُ: سَيْرُ السُّفُنِ فِي الْبَحَارِ

٢٤، ٢٥ - ﴿وَلَهُ الْجَوَارِ الْمُنشَآتُ^(٤) فِي الْبَحْرِ كَالْأَعْلَامِ^(٥)﴾ ﴿٢٤﴾ فَإِنِّي ءَالَاءُ رَبِّكَ أَكْذَبَانِ ﴿٢٥﴾

(١) يُنظَرُ: «كتاب الله والعلم الحديث» عبد الرزاق نوفل ص ١٥٠ بتصرف.

(٢) «دائرة معارف الشعب» المصرية، العدد ٧٣ ص ٥٣٧.

(٣) الطبري (٢٠٨/٢٢) وابن أبي الدنيا (٨) وغيرهما.

(٤) وقف يعقوب على (الجوار) بالياء، والباقون بدونها.

(٥) كسر الشين من (المنشآت) حمزة وشعبة بخلف عنه، اسم فاعل، والباقون بالفتح، اسم مفعول، وهو الوجه الثاني لشعبة.

ثم ذكر سبحانه نعمة أخرى من نعم البحار، فبيّن أن السفن الضخمة التي تجري في البحر وتمخر فيه وتشقه بإذن الله لمنافع الناس، رافعة قلاعها وأشرعتها كالجبال العظيمة، هي من ملك الله تعالى، ومن نعمه على خلقه، فيركبها الناس ويحملون عليها أمتعتهم وتجاراتهم وغير ذلك مما تدعو إليه الحاجة والضرورة، وقد حفظها الله بحفظه.

واللام من ﴿وَلَهُ﴾ للملك، أي: إن تسخير السفن وهي تسير في البحر بأمر الله تعالى هي من ملك الله وحده، ومن نعمه على خلقه.

والجوار: هي السفن، ومعنى كالأعلام، أي: كالجبال، فالسفن في البحر كالجبال في البر، ومعنى المنشآت: أي: إن السفن مرفوعة الشراع، قال تعالى: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ الْجَوَارِ فِي الْبَحْرِ كَالْأَعْلَامِ﴾ (٣٢) إِنَّ يَسَاءَ يَسْكُنِ الرِّيحَ فَيَظْلَلْنَ رَوَاكِدَ عَلَى ظَهْرِهِ ﴿ [الشورى: ٣٢، ٣٣].

وقال سبحانه: ﴿وَالْفُلُكَ يَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ﴾ [الحج: ٦٥].

قال شيخ زادة: واعلم أن أصول الأشياء أربعة: التراب، والماء، والهواء، والنار، فبيّن تعالى بقوله: ﴿خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ صَلْصَلٍ كَالْفَخَّارِ﴾ (١٤) أن التراب أصل لمخلوق شريف مكرم.

ثم بيّن بقوله تعالى: ﴿وَخَلَقَ الْجَانَّ مِنْ مَّارِجٍ مِنْ نَارٍ﴾ (١٥) أن النار أصل لمخلوق عجيب الشأن.

وبيّن بقوله: ﴿يَخْرُجُ مِنْهَا الدُّوَانُ وَالْمَرَجَاتُ﴾ أن الماء أصل لمخلوق آخر له قدر وقيمة. ثم ذكر سبحانه أن الهواء له تأثير عظيم في جزئ السفن المشابهة للجبال، فقال: ﴿وَلَهُ الْجَوَارِ الْمُنشَآتُ فِي الْبَحْرِ كَالْأَعْلَامِ﴾ (١٤) وخص السفن بالذكر؛ لأن جريها في البحر لا صنع للبشر فيه، وهم معترفون بذلك حيث يقولون: لك الفلك ولك الملك.

وإذا خافوا الغرق دعوا الله خاصة، قال تعالى: ﴿فَإِذَا رَكِبُوا فِي الْفُلِكِ دَعَوْا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ﴾ (١٥) [العنكبوت: ٦٥].

(١) «حاشية شيخ زادة على البضاوي» (٤٣٠/٣).

فبأي نعمة من نعم ربكما - يا معشر الجن والإنس - تكذبان؟ ومن نعمه تعالى هذا السفن التي تجري في البحار مرفوعة الشراع لنقل الإنسان والمتاع والأحمال الثقيلة.

اللَّهُ تَعَالَى هُوَ الْمُتَضَرِّدُ بِالْبَقَاءِ بَعْدَ فَنَاءِ الْعَالَمِ

٢٦ - ٢٨ ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ ﴿٢٦﴾ وَبَقِيَ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ ﴿٢٧﴾ فَبِأَيِّ آيَةٍ رَّبِّكَ يُكَذِّبَانِ ﴿٢٨﴾﴾

وبعد هذه النعم التي استعرضت صفحة الكون، تطوى صفحة الخلق الفاني، وتتوارى أشباح الخلائق، وكان آخرها جزى السفن في البحر بأمر الله تعالى، والإنسان وهو في البحر مُعَرَّضٌ للنجاة والهلاك.

والنجاة: نعمة من الله تعالى على عباده، فإذا قَدَّرَ الله لهم الفناء، فإن هذا هو نهاية أعمارهم، كما قال تعالى: ﴿أَيُّنَمَا تَكُونُوا يُدْرِكْكُمُ الْمَوْتُ وَلَوْ كُنْتُمْ فِي بُرُوجٍ مُّسَيَّدَةٍ﴾ [النساء: ٧٨].

وقال سبحانه: ﴿قُلْ لَّوْ كُنْتُمْ فِي بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ الَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقَتْلُ إِلَى مَضَاجِعِهِمْ﴾ ^(١) [آل عمران: ١٥٤].

وفي كلتا الحالتين يجب على العباد أن يستعدوا للحياة الباقية بفعل الصالحات، وأن يتفكروا في عظيم قدرة الله تعالى، ويقبلوا على توحيده وطلب مرضاته، ولذلك فإن الآيات تَطْوِي صفحة الخلق الفاني، والأشباح المتوارية، لتَفْرَغَ من كل حي، وتُبْرِزَ المتفرد بالبقاء في عليائه.

﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ ﴿٢٦﴾﴾ أي: كل من على وجه الأرض من الخلائق هالك سيموت، فلو كانت الدنيا تدوم لواحد لكان رسول الله حيًا وباقيًا، قال سبحانه: ﴿وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِنْ قَبْلِكَ الْخُلْدَ أَفَإِنْ مِتَّ فَهُمْ الْخَالِدُونَ ﴿٢٦﴾﴾ [الأنبياء]. وقال تعالى: ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُمْ مَيِّتُونَ ﴿٢٠﴾﴾ [الزمر]. فجميع الخلق من إنسان أو حيوان، أو جن، أو دواب، أو حشرات، وغيرها صائر إلى الزوال والفناء، وهذا تذكير بالموت وما بعده من بعث وحساب وجزاء.

قال القرطبي: لما نزلت هذه الآية قالت الملائكة: هلك أهل الأرض، فنزلت: ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ﴾ [الفصص: ٨٨] فأيقنت الملائكة بالهلاك.

(١) «تفسير القرطبي» (١٧/١٦٥).

وبعد أن قضى الله تعالى على جميع الخلائق بالفناء، أثبت البقاء له وحده، وأثبت تفردَه سبحانه بالجلال والدوام، فهو ذو العظمة والجود، والسلطان والكبرياء والفضل، والاستغناء المطلق، وهو الحي الذي لا يموت، وهو سبحانه المنعم على عباده بشتى النعم. والآية تُثبت صفة الوجه لله تعالى على نحو يليق بجلاله، دون تشبيه ولا تأويل، ولا تعطيل ولا تحريف، وليس هذا من باب التجسيم، وإنما هو إثبات لما أثبتَه الله لنفسه، بالإضافة إلى أنه سبحانه ليس كمثله شيء وهو السميع البصير.

والمراد: أن ذاته تعالى هي الباقية، والمخاطب: هو النبي ﷺ أو هو كل إنسان وكل مخاطب، وهو سبحانه ذو العظمة والكبرياء وهو واسع الفضل والجود، فهو الذي يعظم ويبجل، فهو (ذو الجلال) وهو الذي يكرم خواص خلقه وأوليائه بأنواع الإكرام وواسع العطاء، فيحبهم وينيون إليه.

وفي الحديث: عن أنس رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «الظُّوْا بيا ذا الجلال والإكرام»^(١) ومعنى «الظُّوْا»: الزُّمُّوا وداوُمُوا على هذا الدعاء.

وورد في حديث معاذ: أن النبي ﷺ مرَّ على رجل وهو يصلي ويقول: يا ذا الجلال والإكرام، فقال: «قد استجيب لك فسل»^(٢).

قيل: هو اسم الله الأعظم الذي إذا دُعي به أجاب. والفناء نعمة؛ لأنه يُفضي بالمؤمنين إلى النعيم الدائم.

(١) رواه الترمذي (٣٥٢٤) وقال الحاكم: صحيح الإسناد، وأخرجه أبو يعلى (٤٤٥/٦) وهو في «صحيح سنن الترمذي» (٢٧٩٧) وأخرجه أحمد عن ربيعة بن عامر (١٧٥٩٦) بإسناد صحيح كما قال محققوه، وكذا النسائي في «السنن الكبرى» (٧٧١٦، ١١٥٦٣).

(٢) «تفسير النسفي» (٢١١/٤) بحاشية الخازن والحديث في «المسند» (١٧٧/٤)، (٢٢٠١٧) و(٢٢٠٥٦) وإسناده حسن (محققوه)، والنسائي في «الكبرى» (٦٥٦٣) وهو في الترمذي (٣٥٢٧) قال أبو عيسى: هذا حديث حسن. والبيهقي في الشعب (٩٠٤٦) والطبراني في الأوسط (٤٣٧) (١٥٨) والبخاري في «الأدب المفرد» (٧٢٥) وضعفه الألباني في «ضعيف سنن الترمذي» (٧٠٦).

قال يحيى بن معاذ: حبذا الموت فهو الذي يقرب الحبيب إلى الحبيب، ولذا أعقب الله الفناء لخلقه بقوله: ﴿فَإَيَّ آءَاءٍ رَكِبْنَا تُكْذِبَانِ﴾ فبقاء وجه الله الكريم هو أساس النعم؛ لأن الحي الباقي هو الذي يخلق ويُبدع، وهو الذي يبعث ويُدخل الجنة، ويُحاسب ويُجازي، فهو سبحانه مصدر النعم.

وفي الموت تسوية بين الخلائق جميعًا، فلا يبقى على وجه الأرض ولا في جو السماء ملك، ولا سلطان، ولا نبي مرسل، ولا ملك مقرب، إلا تجرع كأس الموت، ولولا الموت ما عبزنا إلى دار الثواب والجزاء، وفي هذا نعمة عظيمة، فكيف تكذبان بهاتين النعمتين أيها الإنس والجن؟

افْتِقَارُ الْخَلْقِ جَمِيعًا إِلَى اللَّهِ وَحْدَهُ

٢٩، ٣٠ - ﴿يَسْأَلُهُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ ۚ ﴿٢٩﴾ فَإَيَّ آءَاءٍ رَكِبْنَا تُكْذِبَانِ ﴿٣٠﴾﴾

وبما أن الناس تنقرض منهم أجيال، وتبقى أجيال، وكل باقٍ يحتاج إلى أسباب بقائه ومقومات حياته، وصلاح أحواله، فهو في حاجة إلى الذي لا يفنى ولا يحتاج إليهم، لأنه سبحانه الغني عن جميع مخلوقاته، وهو واسع الجود والكرم، فكل الخلق مفتقرون إليه، وجميع من في هذا الكون محتاج إليه سبحانه، فالكل يسأله حاجته بالليل والنهار، يسألونه بلسان الحال ولسان المقال، ولا يستغنون عنه طرفة عين حتى الملائكة، فإنهم يسبحون بحمد ربهم، ويستغفرون لمن في الأرض، ويسألون ربهم الرضا عن عباده المؤمنين.

والبشر يسألون ربهم نعم الدنيا، ويسألونه النجاة في الآخرة ورفع الدرجات فيها.

﴿يَسْأَلُهُ﴾ كل ﴿مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ حاجاتهم، فلا غنى لأحد منهم عنه سبحانه،

الكل يسأله:

أهل السموات يسألونه المغفرة، ولا يسألونه الرزق.

وأهل الأرض يسألونه المغفرة، ويسألونه الثراء والصحة والرزق والعون، بلسان

الحال والمقال.

والله تعالى يقضي حاجات عباده كلها كلما سألوه، ولا يستغني عن سؤاله أهل الأرض ولا أهل السماء ﴿كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ﴾ أي: كل لحظة، وكل دقيقة، وكل ساعة، هو سبحانه في شأن من شؤون خلقه، والشأن هو الشيء العظيم والحدث المهم، وما هو أدنى من الشأن الكبير أولى بتصرف الله تعالى له.

وفي كل وقت تتعلق قدرة الله تعالى بأمور يبرزها، ويتعلق أمره بالإيجاد والإعدام. قيل: إن هذه الآية نزلت ردًا على اليهود حيث قالوا: إن الله لا يقضي يوم السبت^(١). قال المفسرون: من شأنه تعالى أن يحيي ويميت، ويرزق ويمنع، ويُعزِّز قومًا ويذلَّ قومًا آخرين، ويشفي مريضًا ويُمرض صحيحًا، ويفكَّ عانيًا، ويفرِّج عن مكروب، ويعطي داعيًا، ويُعطي سائلًا، ويغفر ذنبًا، وينقِّس كربًا، ويُغني محتاجًا، ويضُر ويُنفع، ويعطي ويمنع، يغني فقيرًا ويجبر كسيرًا، ويرفع أقوامًا ويضع آخرين إلى ما لا يحصى من أفعاله تعالى وأحواله مع خلقه في أمور الدنيا، أما أمور الآخرة فهي الحساب والجزاء، والثواب والعقاب، لا يشغله شأن عن شأن، ولا تختلط عليه المسائل، ولا يبرمه إلحاح الملحين، ولا طول مسألة السائلين.

قال الحسين بن الفضل في معنى الشأن: هو سوق المقادير إلى المواقيت، بمعنى: أن الله عزَّ وجلَّ كتب ما يكون في كل يوم، وقَدَّر ما هو كائن، فإذا جاء ذلك الوقت تعلقَت إرادته بالفعل، فيوجده في ذلك الوقت.

ولما سأله عبد الله بن طاهر قائلًا: قد أشكل عليَّ قوله هذا، وقد صح أن القلم جَفَّ بما هو كائن إلى يوم القيامة فقال: إنها شؤون يُبديها لا شؤون يبتديها، وهذه الشؤون لا تخالف ما سطره القلم^(٢).

وهذا العطاء الإلهي يتعلق بكل رطب ويابس: الأسماك في بحارها، والديدان في مساربها، والحشرات في مخابئها، والوحوش في أوكارها، والطيور في أعشاشها، وكل

(١) «تفسير الخازن» بتصرف (٢١١/٤) والألوسي (١١١/٢٧) و«المحرر الوجيز» (٢٣٠/٥).

بيضة وكل فرخ، وكل جناح وكل ريشة، وكل خلية في جسم الحي، وكل سؤال يكون التوجه فيه إلى رب الأرض والسماء، وليس إلى نبي مرسل، ولا وليّ تقي، فماذا يملك الفاني للفاني؟ وماذا يملك المحتاج للمحتاج؟^(١).

سأل بعض الملوك وزيره عن معنى ﴿كُلُّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ﴾ فاستمهله إلى الغد، وذهب كئيباً يفكر فيها، فقال له غلام أسود: يا مولاي، أخبرني عما أهتمك، لعل الله يسهّل لك على يدي، فأخبره، فقال: أنا أفسرها لك، قال له: أيها الملك: شأن الله تعالى أنه يولج الليل في النهار، ويولج النهار في الليل، ويخرج الحي من الميت، ويخرج الميت من الحي، ويشفي سقيماً، ويسقم سليماً، ويتلى معافى، ويعافي مبتلى، ويعز ذليلاً، ويذل عزيزاً، ويفقر غنيّاً، ويغني فقيراً، فقال الأمير: أحسنت، وخلع عليه ثياب الوزارة، فقال: يا مولاي، هذا من شأن الله^(٢).

وعن أبي الدرداء رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال في معنى الآية: «من شأنه أن يغفر ذنباً، ويفرج كرباً، ويرفع قوماً، ويخفض آخرين»^(٣).

وعن عبيد بن عمير قال: من شأنه أن يجيب داعياً، ويعطي سائلاً، ويفك عانيّاً، ويشفي سقيماً^(٤).

وقال قتادة: لا يستغنى عنه أهل السماء والأرض، يحيى حيّاً، ويميت ميتاً، ويربي صغيراً، ويفك أسيراً، ويغني فقيراً، وهو مردّ حاجات الصالحين، ومنتهى شكواهم،

(١) «في ظلال القرآن» (٣٤٥٥/٧).

(٢) «تفسير النسفي» (٢١١/٤) بحاشية الخازن.

(٣) «سنن ابن ماجه» (٢٠٢)، قال البوصيري: هذا إسناد حسن، لتقاصر الوزير - أحد الرواة - عن درجة الحفظ والإتقان «مصباح الزجاجة» (٨٨/١) وحسنه الألباني في «صحيح ابن ماجه» (٤٠/١) برقم (١٦٧) و«في ظلال الجنة» (٣٠١) وأخرجه ابن أبي عاصم في «السنّة» (٣٠١) وابن حبان (٦٨٩) والطبراني في «الأوسط» (٣١٤٠).

(٤) ابن أبي شيبة (٤٤٠/١٣) وابن جرير (٢١٣/٢٢) والبيهقي (١١٠٣).

وصريخُ الأخير^(١).

وتلبيةُ حاجات العباد، وإجابة أسئلتهم، وتدير شؤونهم، من نعم الله تعالى على خلقه. وتدير شؤون الخلق من أعظم نعم الله على الثقلين فسبحان الكريم الوهاب، الذي عمت مواهبه الأرض والسماء، وعم لطفه جميع خلقه الكائنات، لا يمنعه معصية العاصين، ولا جهل الجاهلين، ولا استغناء المحتاجين، وهذه الشؤون والتدابير مقدرة في الأزل، ينفذها سبحانه في أوقاتها بمقتضى أوامره ونواهيه، وهي الأحكام التي قدرها الله على عباده في الحياة الدنيا، فإذا انتهت هذه الحياة، ونقل المكلفون من دار الإبتلاء والامتحان إلى دار الثواب والعقاب، نفذ الله فيهم أحكام الجزاء والعدل والفضل والإحسان، فبأي هذه النعم تكذبان أيها الثقلان؟

لا مَفْرَءَ مِنَ الْحِسَابِ وَالْجَزَاءِ

٣١، ٣٢ - ﴿سَنَفْرُغُ لَكُمْ أَيَّهَ الثَّقَلَانِ^(٣)﴾ فَإِنَّ آيَاءَ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٣٢﴾

وبعد الفراغ من أحوال الدنيا، يُذكِّرنا الله تعالى بأحوال الآخرة، فيبين سبحانه أن الجن والإنس سيعرضون على رب العالمين ﴿سَنَفْرُغُ لَكُمْ أَيَّهَ الثَّقَلَانِ^(٣)﴾ أي: سننظر في شؤونكم يوم القيامة - يا معشر الجن والإنس - فنحاسبكم ونجازيكم على كل ما قدمت أيديكم في الدنيا، فنعاقب أهل المعاصي، ونثيب أهل الطاعة.

والآية بمثابة التهديد والوعيد، ولذلك فإن الله تعالى بدأها بقوله: ﴿سَنَفْرُغُ﴾ أي: نتجرد لحسابكم، وننظر في أمركم، وليس معناها أن الله تعالى مشغول، وأنه سيتفرغ لهم

(١) الطبري (٢٢/٢١٢).

(٢) قرأ حمزة والكسائي وخلف بالياء في (سنفرغ) والفاعل ضمير يعود على اسم الجلالة، والباقون بنون العظمة على الالتفات.

(٣) رُسم لفظ (أيها) في المصحف بدون ألف هكذا (أيه) وقد قرأ ابن عامر بضم الهاء وصلًا وإسكانها وقفًا، وضم الهاء لمناسبة ضم الياء، وقرأ الباقر بفتح الهاء وحذف الألف وصلًا، ووقف عليها بالألف بعد الهاء أبو عمرو والكسائي ويعقوب، ووقف الباقر بحذف الألف وسكون الهاء.

يوم القيامة؛ لأن الله تعالى لا يشغله شأن عن شأن، والتفرغ بعد الشغل من شأن الخلق، وهذا كما يقول إنسان لآخر يتهده: سأفرغ لك، وأستعدُّ للانتقام منك.

والثقلان: هما الإنس والجن.

قال جعفر الصادق: سُمِّيَا كذلك لأنهما مُثْقَلان بالذنوب.

وفي الحديث عن أبي الطفيل أن رسول الله ﷺ قال: «إني تارك فيكم الثَّقَلَيْنِ أحدهما أكبر من الآخر: كتاب الله، وعترتي أهلي بيتي»^(١) فجعلهما ثَقَلَيْنِ إعظامًا لقدرهما.

فبأي نعم ريكما تكذبان أيها الثقلان؟

لَا يُمَكِّنُ لِمَخْلُوقٍ أَنْ يَخْرُجَ مِنْ مُلْكِ اللَّهِ تَعَالَى

٣٣، ٣٤ - ﴿يَمْعَشَرِ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِنَّ اسْتَطَعْتُمْ أَنْ تَنْفُذُوا مِنْ أَقْطَارِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ فَانْفُذُوا لَا

تَنْفُذُونَ إِلَّا بِسُلْطَانٍ ﴿٣٣﴾ فَبِأَيِّ آيَةٍ رَيْكُمَا تُكْذِبَانِ ﴿٣٤﴾

وبعد أن توعد الله تعالى الجن والإنس بالحساب والجزاء في يوم الحشر والنشر، بيّن سبحانه وتعالى أن الخلق يوم القيامة في قبضته جلّ شأنه، وتحت سلطانه، بحيث لا يمكنهم الفرار أو الهرب من هذا الموقف العصيب، فلا ملجأ ولا منجى من الله إلا إليه، ولا قدرة لأحد على الانفلات أو التخلص من ساحة العرض والحساب، فالكون كله ملك الله، فأين يذهبون؟ وأين يفرون؟ فأينما ذهبتم فأنتم في أرض الله وسمائه، وأنتم في قبضته، وتحت قدرته وتصرفه.

وفي يوم الحشر تشقق السماء وتكون أبواباً وطرقاً لنزول الملائكة، فتكون صفوفاً سبعة تحديق بالخلائق من كل جانب، فلا يستطيع أحد الذهاب إلا بأمر الله تعالى وإرادته قال تعالى: ﴿وَيَوْمَ تَشَقُّقُ السَّمَاءُ بِالْغَمَمِ وَيُرْسِلُ الْمُلَئِكَةُ تَنْزِيلًا ﴿٣٥﴾﴾ [الفرقان].

وقال سبحانه: ﴿وَالْمَلَكُ عَلَى أَرْجَائِهَا وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمَنِيَّةٌ ﴿٣٧﴾﴾ [الحاقة].

(١) السلسلة الصحيحة للشيخ الألباني برقم (١٧٥٠) وفي المعجم الكبير للطبراني برقم (٤٩٨٠) من حديث زيد بن أرقم، وهو في المسند برقم (١٥٧٨، ٢١٦٥٤) بنحوه، وهو حديث صحيح بشواهده وأخرجه عبد بن حميد (٢٤٠)، وابن أبي عاصم (٧٥٤).

﴿يَمْعَشَرُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ﴾ المعشر: العدد الكبير الذي يُعد بالعشرات والمئات والآلاف والملايين.

وقدّم الله تعالى في هذه الآية الجن على الإنس؛ لأنهم أقدر من الإنس على الهرب والفرار، وأقوى على ذلك.

فيأبها الثقلان: ﴿إِنْ اسْتَطَعْتُمْ أَنْ تَنْفُذُوا مِنْ أَقْطَارِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ فتجدون منفذاً أو مخرجاً أو مسلكاً تخرجون به عن ملك الله وسلطانه ﴿فَانْفُذُوا﴾ هذا ترويع وتخويف وتعجيز للضالين والمضلين من الجن والإنس، لِمَا ينتظرهم من الجزاء السيئ على أعمالهم السيئة.

وهذا الترويع لا يشمل المؤمنين الصالحين، المختلطين بغيرهم من أهل الضلال في ساحة العرض والحساب.

والنفوذ: هو الخروج والهرب، كما قال تعالى: ﴿يَقُولُ الْإِنْسَانُ يَوْمَئِذٍ أَإِنْ لَأَلْفَرُّ ۖ﴾ [القيامة]، وكما قال تعالى عن أهل النار: ﴿كُلَّمَا أَرَادُوا أَنْ يَخْرُجُوا مِنْهَا مِنْ غَمٍّ أُعِيدُوا فِيهَا﴾ [الحج: ٢٢]. وهل المقصود من التحدي في الآية: الدنيا أم الآخرة؟ قيل: إنها تحكي حال قوم يحاولون الفرار من ساحة الحشر يوم القيامة:

١. قال الضحاك: وذلك أنه - عند قيام الساعة - يفر الناس في أقطار الأرض، والجن كذلك - يفرّون - لِمَا يرون من هول يوم القيامة، فيجدون سبعة صفوف من الملائكة قد أحاطت بالأرض، فيرجعون من حيث جاؤوا، فيقال لهم حينئذ: ﴿يَمْعَشَرُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِنْ اسْتَطَعْتُمْ﴾ الآية.

٢. وقال بعض المفسرين: بل هي مخاطبة في الدنيا، والمعنى ﴿إِنْ اسْتَطَعْتُمْ﴾ الفرار من الموت.

٣. وقال ابن عباس رضي الله عنهما، المعنى: إن استطعتم بأذهانكم وفكركم أن تنفذوا، فتعلموا علم السموات والأرض فانفذوا. والأقطار: الجهات^(١).

(١) هذه الأقوال الثلاثة من «تفسير ابن عطية» (٢٣٠/٥) بتصرف.

والنواحي الواسعة المترامية الأطراف.

قال تعالى: ﴿وَلَوْ دُخِلَتْ عَلَيْهِمْ مِّنْ أَقْطَارِهَا ثُمَّ سُئِلُوا الْفِتْنَةَ لَآتَوْهَا﴾ [الأحزاب: ١٤].

قلت قد يراد بالآية: محاولة الإنس والجن الفرار والهرب من ساحة العرض والحشر، وذلك عند البعث والقيام من القبور، كما قال الضحاك.

وعلى كل حال فإن هذه الآية سيقَّت لبيان أهوال يوم القيامة وشدائده، وأنه لا يمكن للإنسان أن يفر من العرض والحساب والعذاب، إلا إذا أذن الله له في ذلك.

وأقطار السموات والأرض: جوانبها ونواحيها الواسعة، وصفوف الملائكة السبعة محدقة ومحيطة بالخلائق من كل جانب إظهاراً لعظمة الله تعالى، ألا ترى الحُرَّاس يحيطون بالقضاة والملوك في الدنيا، لضبط النظام واستتباب الأمن؟ والله المثل الأعلى.

وهناك جوانب متعددة، وأمكنة كثيرة، لمن حاول أن يخرج من أرض الله وسمائه!! وما هو بفاعل، وما هو بمستطيع! على أن السموات والأرض يوم القيامة قد بُدِّلتا وَغُيِّرَتَا ﴿يَوْمَ بُدِّلُ الْأَرْضُ غَيْرَ الْأَرْضِ وَالسَّمَوَاتُ وَبَرَزُوا لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ﴾ [إبراهيم].

فإن قدرتم - يا معشر الجن والإنس - حين يجمعكم الله في موقف القيامة، على النفاذ من أمر الله وحكمه، هاربين من جوانب السموات والأرض وأطرافها، فافعلوا واذهبوا حيث شئتم لتُعْجِزُوا ربكم؛ حتى لا يقدر عليكم، اخرجوا؛ كي تهربوا من قضائه، وتخرجوا من ملكه وسلطانه، ومن سمائه وأرضه، وليس في مقدوركم ذلك، فأنتم ﴿لَا تَنْفُذُونَ إِلَّا بِسُلْطَانٍ﴾ أي: إلا بقوة قاهرة، وقُدرة فائقة، ولا يملك السلطان إلا صاحب السلطان، فلا يمكنكم النفوذ إلا بقوة وقُدرة وغلبة، وأنى لكم ذلك، وأنتم لا تملكون لأنفسكم نفعا ولا ضرا، ولا موتاً ولا حياة ولا نشوراً، وحيثما توجهتم فأنتم في ملك الله وسلطانه، فكيف ستنفذون من ملكه؟

فقوله تعالى: ﴿لَا تَنْفُذُونَ إِلَّا بِسُلْطَانٍ﴾ تعجيز لهم وإظهار لضعفهم؛ لأن السلطان هو القدرة والقوة، وهذا السلطان لا يقدر عليه إلا الله، فهو سبحانه صاحب القوة القاهرة،

والقدرة الفائقة، والجن والإنس لا يمكنهم الخروج من المأزق الذي هم فيه يوم القيامة، إلا بقدرة عظيمة تفوق قدرة الله تعالى الذي حشرهم في هذا الموقف، وأنى لهم هذه القدرة؟! فهم في حالة لا يتكلم فيها أحد إلا بإذنه تعالى، ولا تسمع إلا همساً من صوت الأقدام ونحوها، ويستوي في ذلك اليوم : الملكوك والممالك، والرؤساء والمرؤوسون، والأغنياء والفقراء، والضعفاء والأقوياء.

وهذه الآية كالقول المأثور: من لم يرضَ بقضائي، فليخرج من تحت سمائي، وليعبد رباً سواي.

وهكذا فإن هذه الآية تفسّر على حسب ما قبلها وما بعدها من الآيات، وهي في سياق الحديث عن القيامة وشدائدها وأحوالها، ولا صلة لها بغزو الفضاء؛ إذ إن رُؤَاد الفضاء، وإن وصلوا إلى أبعد الكواكب من الأرض، فهم داخل ملك الله وسلطانه، ولم يخرجوا من جوانب السموات والأرض، وأنى لهم ذلك؟ وأين يذهبون؟ فمهما تجوّلوا، ومهما بحثوا ووصلوا، فهُم في ملك الله تعالى، داخل أرضه وسمائه، على أن القمر والمريخ والمشتري، وسائر الكواكب دون السماء الأولى، وكذلك الدّوران حول الأرض، والارتفاع في الأجواء، كل ذلك يمكن للإنسان أن يصل إليه عن طريق العلم والبحث.

أما السموات فقد جعلها الله سقفاً محفوظاً، وزيّنها بالمصابيح، وفيها الشهب والرجوم لشياطين الجن والإنس.

أما مقصود الآية لمن في الدنيا فهو تحذير الفاسقين والكافرين من التماذي في كفرهم وشركهم، حتى يُقلعوا عما هم فيه، ويستعدّوا للقاء الله تعالى بالإيمان والعمل الصالح؛ لأنهم لن يفروا من الحساب والجزاء ولن يُفلتوا من عقاب الله العادل ﴿مَّا لَهُم مِّنَ اللَّهِ مِنَّ عَاصِرٍ﴾ [يونس: ٢٧].

ثم يأتي السؤال المتكرر: هل يبقى لهم شيء يكذبون به؟ ﴿فَيَأْتِيْٓءَآلَآءُ رَّبِّكُمْآ تَكْذِبَانِ﴾؟ وفي إثابة المؤمن وعقاب الكافر، الجزاء العادل بين العباد، والعدل في الجزاء نعمة من نعم الله تعالى.

استِحَالَةُ الْخُرُوجِ مِنْ أَيْ مَنَفَعَةٍ فِي الْكُفْرِ

٣٥، ٣٦ - ﴿يُرْسَلُ عَلَيْكُمَا شُوَاظٌ^(١) مِّن نَّارٍ^(٢) وَنُحَاسٌ^(٣) فَلَا تَنْصِرَانِ

تَكْذِبَانِ﴾

والكلام موصول لتوضيح معنى الآية السابقة، وبيان أن الجن والإنس لو حاولوا الخروج يوم القيامة من عرصاتهما، فإن الملائكة وزبانية جهنم، تردّهم، بإرسال اللهب من النار والنحاس المذاب عليهم، ليرجعوا إلى ساحة العرض، ولا يجدون لهم ناصرًا ولا مغيثًا.

﴿يُرْسَلُ عَلَيْكُمَا﴾ يا معشر الجن والإنس، إن حاولتم الهرب من قبضتنا يوم الحشر والنشر فإنه يرسل عليكم ﴿شُوَاظٌ مِّن نَّارٍ وَنُحَاسٌ﴾ الشواظ: لهب النار الخالص الذي لا يخالطه دخان؛ لأنه قد تم اشتعاله، فيكون أقوى وأشدّ إحراقًا.

والنحاس - كما فسرہ ابن عباس وسعيد بن جبیر - هو الدخان الذي لا لهب معه، فيحدث الاختناق بسبب شدته، فهم لا يفلتون من الأمرين: اللهب الذي لا يصحبه دخان، والدخان الذي لا يصحبه نار فيمتزجان.

وفسر مجاهد وقتادة الدخان بأنه: لهب الحديد أو النحاس المذاب، وهي نار خارقة للعادة، كقوله تعالى: ﴿نَارًا وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ﴾ [التحریم: ٦].

(١) قرأ ابن كثير بكسر الشين من (شواظ)، والباقون بضمها، وهما لغتان.

(٢) عد الحجازيين: المدني الأول والأخير والمكي قوله تعالى (من نار) آية، وأسقطها غيرهم من العدد.

(٣) قرأ ابن كثير وأبو عمرو وروح بخفض السين من (ونحاس) عطفًا على (من نار)، والباقون برفعها عطفًا على (شواظ).

قال الضحاك في معنى الآية: هي نار تخرج من قبل المغرب تحشر الناس، حتى إنها لتحشر القردة والخنازير، تبيت معهم حيث باتوا، وتقبل معهم حيث قالوا^(١). والشواظ والدخان يُصبُّ على رؤوسهم، إذا أرادوا الفرار من الموقف العظيم. ولا يوجد من ينصرهم ويمنع عنهم عذاب الله يومئذ ﴿فَلَا تَنْصِرَانِ﴾ يا معشر الجن والإنس، أي فلا ينصر بعضكم بعضاً، ولا ينقذه من عذاب الله، ولو ذهبتم هاربين لردتكم الملائكة وزبانية جهنم بإرسال اللهب من النار والنحاس المذاب عليكم لترجعوا. إنها صورة فوق مألوف البشر وفوق تصوُّرهم، فيها تهديد رهيب، ووعد مرعب، ومصير رديء، ومع ذلك فقد عُذَّتْ من آلاء الله تعالى على خلقه التي لا تُكذَّب ولا تُجحد، فإنَّ وقايتهم من هذه النار نعمة عظيمة، فلا تكذبان بها يا معشر الجن والإنس، ولما كان تخويف الله لعباده سوطاً يسوقهم إلى أعلى المطالب وأكرم المواهب، كان هذا نعمة أنعم الله بها عليهم، فعلى الإنس والجن أن يشكروها ولا يكفروها.

انْشِقَاقُ السَّمَاءِ عِنْدَ قِيَامِ السَّاعَةِ

٣٧، ٣٨ - ﴿فَإِذَا انْشَقَّتِ السَّمَاءُ فَكَانَتْ وَرْدَةً كَالدِّهَانِ﴾ (٣٧) ﴿فَإِذَا آتَىٰ آءَاءُ رَبِّكُمَا تَكْذِبَانِ﴾ (٣٨)

ثم تبدأ مشاهد القيامة بتفصيل ما أجمل في الآيات السابقة، ويبدأ ذلك بانشقاق السماء، فهو من أحوال الحشر ﴿فَإِذَا انْشَقَّتِ السَّمَاءُ﴾ لنزول الملائكة وقيام العدل بين الناس، وذلك عند قيام الساعة، فوقعت الواقعة، وكان العرض والحساب، وشدة الأهوال وخسوف الشمس والقمر، وانتثار النجوم:

وهذا الانشقاق هو المذكور في قوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ نَشَقُّ السَّمَاءَ بِالْغَمِّمْ وَنُزِّلُ الْمَلَائِكَةَ تَنْزِيلًا

﴿الْمَلَكُ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ لِلرَّحْمَنِ وَكَانَ يَوْمًا عَلَى الْكَافِرِينَ عَسِيرًا﴾ (٦١) [الفرقان].

وقوله سبحانه: ﴿وَإِذَا السَّمَاءُ انْشَقَّتْ﴾ (١) [الانشقاق].

(١) ابن أبي شيبة (٧٨/١٥).

وقوله أيضًا: ﴿إِذَا السَّمَاءُ انْفَطَرَتْ﴾ (١) [الانفطار].

وعندما تتشقق السماء تكون كالورد الأحمر، أو الجلد الأحمر، من حرارة النار.

وهذا معنى ﴿فَكَانَتْ وَرْدَةً كَالدِّهَانِ﴾.

قال تعالى: ﴿وَفُتِحَتِ السَّمَاءُ فَكَانَتْ أَبْوَابًا﴾ (١٩) [النبأ].

أي: إن السماء انفرجت يوم القيامة، فكانت أبوابًا لنزول الملائكة منها لتحيط بالخلائق من كل جانب، فتكون عند انشقاقها حمراء كلون الورد، أو كالزيت المغلي، أو الرصاص المذاب، وذلك من شدة أهوال يوم القيامة، ورهبة الموقف العظيم.

قال تعالى: ﴿وَأَنشَقَّتِ السَّمَاءُ فِي يَوْمٍ ذُو مِيزَةٍ﴾ (٢١) [الحاقة].

وقال أيضًا: ﴿يَوْمَ تَكُونُ السَّمَاءُ كَالذَّلِّهِلِ﴾ (٨) وَتَكُونُ الْجِبَالُ كَالْعِهْنِ (١٠) [المعارج].

وانشقاق السماء لنزول الملائكة وفصل القضاء بين الناس، ورحمتهم من الموقف الرهيب، ومعرفة كل منهم مصيره، في ذلك نعمة وأي نعمة، فلا ينبغي لكم معشر الجن والإنس أن تكذبان بها، فبأي نعم ربكما تكذبان أيها الإنس والجن؟

يَوْمُ الْحَشْرِ فِيهِ مَوَاقِفُ مُتَعَدِّدَةٌ فَمِنْ النَّاسِ مَنْ يُسْأَلُ وَمِنْهُمْ مَنْ لَا يُسْأَلُ

٣٩، ٤٠ - ﴿فَوْمِيزٍ لَا يَسْأَلُ عَنْ ذُنُوبِهِ إِنْسٌ وَلَا جَانٌّ﴾ (٣٩) فَإِنَّ آءَاءَ رَبِّكُمْ تَكْذِبَانِ (٤٠)

أي: وفي ساعة العرض والحساب لا يسأل الجن والإنس عن ذنوبهم التي وقعت منهم في الدنيا، أي لا يسألون سؤال استعلام عما وقع منهم، لأنه سبحانه عالم الغيب والشهادة والماضي والحاضر والمستقبل، وفي القرآن آيات تقضي بأن في القيامة سؤالاً، وآيات تقضي بنفي السؤال، فقال قتادة وعكرمة: هو في مواطن دون مواطن.

وقال ابن عباس: يكون السؤال حيث يراد التوبيخ والتقدير، ولا يكون إذا أريد مجرد الاستخبار والاستعلام؛ لأن الله تعالى عليم بكل شيء، والملائكة لا تسأل؛ لأنها تعرف المؤمن من الكافر بعلامات مميزة.

وفي يوم القيامة الذي تتصدع فيه السموات، لا تسأل الملائكة المجرمين من الإنس والجن عن ذنوبهم؛ لأنهم يعرفونهم بعلاماتهم، كزُرقة العيون وسواد الوجوه، وما يغشاهم من الكآبة والحزن، قال تعالى: ﴿وَجُوهٌ يَوْمَئِذٍ مُّسْفِرَةٌ ۖ (٣٨) صَاحِكَةٌ مُّسْتَبْشِرَةٌ ۖ (٣٩) وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ عَلَيْهَا غَبَرَةٌ ۖ (٤٠) تَرْهَقُهَا قَتَرَةٌ ۖ (٤١)﴾ [عبس]، وقال سبحانه: ﴿وَجُوهٌ يَوْمَئِذٍ خَاشِعَةٌ ۖ (٢) عَامِلَةٌ نَّاصِبَةٌ ۖ (٣) تَصَلَّىٰ نَارًا حَامِيَةً ۖ (٤)﴾ [الغاشية]، وقال جل شأنه: ﴿يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ ۖ (١٠٦)﴾ [آل عمران: ١٠٦]، وقال عز وجل: ﴿وَتَحْشُرُ الْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ زُرْقًا ۖ (طه: ١٠٢)﴾.

ومن الناس من يدخل النار يوم القيامة بغير سؤال ولا حساب، ومنهم من يدخل الجنة بغير سؤال ولا حساب، كما قال تعالى: ﴿وَلَا يُسْأَلُ عَنْ ذُنُوبِهِمُ الْمُجْرِمُونَ ۖ﴾ [القصص: ٧٨]. وقال سبحانه: ﴿هَذَا يَوْمٌ لَا يَظْفِقُونَ ۖ (٣٥) وَلَا يُؤْذَنُ لَهُمْ فَيَعْبُدُونَ ۖ (٣٦)﴾ [المرسلات].

ويوم الحشر يوم طويل، فيه مواقف متعددة، وفيه أناس تختلف أحوالهم وفق أعمالهم في الدنيا، فتارة يحتاج الأمر إلى حساب، وتارة لا يتطلب سؤالاً، ومن الناس من يُسأل عند خروجه من القبر، ومنهم من لا يُسأل في هذه الحالة، وإنما يُسأل في ساحة العرض والحشر، ومنهم من يُسأل في الحالتين معاً، وهو معنى قوله تعالى: ﴿فَوَرَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ۖ (١٢) عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ ۖ (١٣)﴾ [الحجر].

وقوله سبحانه: ﴿فَلَنَسْأَلَنَّ الَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْأَلَنَّ الْمُرْسَلِينَ ۖ (٦)﴾ [الأعراف].

وقوله أيضاً: ﴿وَقَفَّوهُمْ فِيْهِمْ مَّسْئُولُونَ ۖ (٢٤)﴾ [الصافات].

والسؤال يختلف، فقد يكون سؤال شكر عن النعمة، كما في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ لَنَسْأَلَنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ النَّعِيمِ ۖ (٨)﴾ [التكاثر].

وقد يكون السؤال عن التبليغ والبلاغ، كما في قوله تعالى: ﴿يَوْمَ يَجْمَعُ اللَّهُ الرُّسُلَ فَيَقُولُ مَاذَا أَجَبْتُمُ ۖ (١٠٩)﴾ [المائدة: ١٠٩].

وقد يكون السؤال للتقريع والتوبيخ، وقد يكون السؤال للتقرير والاعتراف، وتارة يكون السؤال سرّاً، وتارة يكون على رؤوس الأشهاد، وبعد السؤال يكون الحساب والجزاء، وقد جعل الله لأهل الخير علامات يعرفون بها ولأهل النار علامات يعرفون بها.

وعدم السؤال في ساحة العرض والحساب نعمة كبيرة تستحق الشكر والامتنان.
وحكمة السؤال لتظهر حجة الله البالغة للخلق أجمعين، ثم يأتي التعقيب على هذا
التقرير والتوبيخ، وبيان أنه من نعم الله تعالى التي لا تُكذَّب .

مَشْهَدُ الْمُجْرِمِينَ حِينَ يُقَذَّفُ بِهِمْ فِي النَّارِ

٤١، ٤٢ - ﴿يَعْرِفُ الْمُجْرِمُونَ بِسِيمَتِهِمْ فَيُؤْخَذُ بِالنَّوَصِي وَالْأَقْدَامِ ۝٤١﴾ فَإِنَّ الْآءَ رِيكُمَا تُكْذِبَانِ ﴿٤٢﴾

ثم بيّن سبحانه السبب في عدم سؤال الإنس والجن عن ذنوبهم في بعض أحوالهم
يوم القيامة، فذكر هنا أنه يُستغنى عن سؤال المجرمين يوم القيامة بظهور علاماتهم
للملائكة، فيعرفونهم بسيماهم، قال تعالى: ﴿يَعْرِفُ الْمُجْرِمُونَ بِسِيمَتِهِمْ﴾ أي: بعلاماتهم.
و هذه العلامات قال سبحانه عنها: ﴿وَيَوْمَ الْقِيَمَةِ تَرَى الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَى اللَّهِ وُجُوهُهُمْ
مُسْوَدَّةٌ﴾ [الزمر: ٦٠].

و قال جلَّ شأنه: ﴿كَانَمَا أَغْشِيَتْ وُجُوهُهُمْ قِطْعَاتُ لَيْلٍ مُظْلِمًا﴾ [يونس: ٢٧].

وقال: ﴿يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ فَأَمَّا الَّذِينَ اسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ أَكْفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ فَذُوقُوا الْعَذَابَ
بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ ۝٤١﴾ وَأَمَّا الَّذِينَ ابْيَضَّتْ وُجُوهُهُمْ فَفِي رَحْمَةِ اللَّهِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٤٢﴾ [آل عمران]
فالملائكة تعرف المجرمين بعلاماتهم من سواد الوجوه وزرقة العيون، فيضمون أقدامهم
إلى نواصيهم، وهو الشعر الذي يكون في مقدمة الرأس، ويُلْقَى بهم في النار، وهذا
معنى ﴿فَيُؤْخَذُ بِالنَّوَصِي وَالْأَقْدَامِ﴾ أي: تضم نواصيهم إلى أقدامهم، فيلقون في النار ويسحبون
فيها، إنه مشهد عنيف، فيه هوان وذلة، حيث تُجمع الأقدام إلى الجباه في ذل وهوان،
وقهر وانكسار، ويُقذف بهم في النار، فيستمرون فيها.

فهل من مكذَّب؟ وهل من منكر؟ إن عقاب المجرمين وإثابة الطائعين دليل على كمال
عدل الله تعالى، وعلى عظيم فضله ونعمه، وفي إثابة الطائعين وعدم الأخذ بنواصيهم
وأقدامهم نعمة لهم بدخول الجنة والنجاة من النار، ويقال للمجرمين يوم القيامة:

٤٣ - ٤٥ - ﴿هَذِهِ جَهَنَّمُ الَّتِي يُكَذِّبُ بِهَا الْمُجْرِمُونَ﴾^(١) ﴿٤٣﴾ يَطُوفُونَ فِيهَا وَبَيْنَ حَمِيمٍ ءَانٍ ﴿٤٤﴾ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٤٥﴾

وبعد أن يؤخذ بأرجل المجرمين، فتجمع إلى مقدّم رؤوسهم ليلقى بهم في النار، تقول لهم الملائكة: ﴿هَذِهِ جَهَنَّمُ﴾ التي كنتم تكذبون بها في الدنيا، وقد تبين لكم سفه تكذيبكم بها، وها أنتم تشاهدونها عياناً، فذوقوا من عذابها ونكالها وسعيرها وأغلالها ما هو جزاء تكذيبكم.

وأهل النار يترددون ويمشون بين أطراف النار وبين الحميم، فإذا أصابهم حر النار وطلبوا أن يتبرّدوا يظهر لهم الماء ليتبرّدوا منه، فيذهبون إليه، فيصيبهم حره، فينصرفون إلى عذاب النار ﴿وَأِنْ يَسْتَغِيثُوا يُغَاثُوا بِمَاءٍ كَالْمُهْلِ يَشْوِي الْوُجُوهَ﴾ [الكهف: ٢٩].

فتارة يعذبون في الجحيم، وتارة يسقون من الحميم المسمى ﴿ءَانٍ﴾ أي: إنه متناهي الحرارة، يقطع الأمعاء والأحشاء، ويشوي الوجوه، فهو في منتهى الحرارة وشدة البرد والزمهرير، كما قال تعالى: ﴿تَشْقَى مِنْ عَيْنٍ ءَانَةٍ﴾ [الغاشية].

١. والله تعالى يصور عذابهم في مثل قوله تعالى: ﴿إِذِ الْأَغْلَالُ فِي أَعْنَاقِهِمْ وَالسَّلَاسِلُ يُسْحَبُونَ﴾^(٧٦) فِي الْحَمِيمِ ثُمَّ فِي النَّارِ يُسْجَرُونَ ﴿٧٧﴾ [غافر].

٢. وقوله سبحانه: ﴿وَنَرَى الْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ مُّقَرَّنِينَ فِي الْأَصْفَادِ﴾^(١١) سَرَابِلُهُمْ مِنْ فَطْرَانٍ وَتَعْنَى وَجُوهُهُمُ النَّارُ ﴿٥٠﴾ [إبراهيم].

٣. وقوله أيضاً: ﴿فَالَّذِينَ كَفَرُوا قُطِعَتْ لَهُمْ نِيَابٌ مِنْ نَارٍ يُصَبُّ مِنْ فَوْقِ رُءُوسِهِمُ الْحَمِيمُ﴾^(١٩) يُصْهَرُ بِهِ مَا فِي بُطُونِهِمْ وَالْجُلُودُ ﴿٢٠﴾ وَلَهُمْ مَقْلَعٌ مِنْ حديدٍ ﴿١١﴾ كُلَّمَا أَرَادُوا أَنْ يَخْرُجُوا مِنْهَا مِنْ غَمٍّ أُعِيدُوا فِيهَا وَذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ ﴿[الحج: ١٩-٢٢]﴾.

فبأي من هذه النعم تكذبان أيها الثقلان؟ وفي عذاب المجرمين ونعيم المتقين، وإقامة الحق والعدل بين الناس نعمة يجب شكرها وعدم كفرها وتكذيبها، وأي نعمة؟!

(١) أسقط العدد البصري وحده ﴿يُكَذِّبُ بِهَا الْمُجْرِمُونَ﴾ فلم يعد لها آية، وعدها جمهور أهل العدد.

وَصَفُ جَنَّتِي السَّابِقِينَ وَجَنَّتِي أَهْلُ الْيَمِينِ بِخَمْسَةِ أَوْصَافٍ

وبعد أن ذكر سبحانه أهل النار وجزاءهم، ذكر أهل الجنة ونعيمهم، ويُنَّ أنهم درجتان: السابقون المقربون، وأهل اليمين، ولكلٍ منهما جنتان، وجنتا أهل اليمين أدنى مرتبة من جَنَّتِي السابقين المقربين، ولهذه الأوصاف، أوصاف مشابهة في سورة الواقعة. أي: ولمن اتقى الله تعالى، وخاف قيامه بين يدي ربه للحساب والجزاء، فترك الشهوات والمعاصي، وراقب ربه في السر والعلن، فإن تهيات له معصية بعيداً عن أعين الناس تركها خوفاً من الله تعالى، وفعل ما أمره الله به من مختلف وجوه الطاعات، فكان ممن خشي ربه، وقَدَّم لنفسه العمل الصالح، هذا التقى له جنتان يوم القيامة، كلاهما من ذهب، آتيتهما وحِلْيَتُهُما، وبُنيَانُهُما، وما فيهما، إحدى الجنتين جزاءً على ترك المنهيات، والأخرى جزاءً على فعل الطاعات، وهما:

١. جنتان داخل الجنة الكبيرة، قد تكون له جنة عن يمين قصره، وجنة عن يساره.
 ٢. أو جنة لفعل الطاعات، وجنة لترك المعاصي.
 ٣. وقد تكون له جنة لسكّنه، وجنة لزوجاته وخدمه وحشمه، كحال ملوك الدنيا.
 ٤. أو تكون له جنتان في الآخرة، ليضاعف له السرور بالتنقل بينهما من جنة إلى جنة.
 ٥. وبما أن الخطاب في السورة موجه للإنس والجن، فلعل الأرجح في ذلك ما قاله الزمخشري: من أن لكل ممن خاف الله تعالى من الإنس والجن جنة، فمن خاف ربه من الإنس له جنة، ومن خاف ربه من الجن له جنة^(١).
- وسياق السورة كله يتناول الإنس والجن.

وقد ذكر الله تعالى في القرآن ﴿الْجَنَّةَ﴾ بالإنفراد والتثنية والجمع:

أ - فجاءت التثنية في سورة الرحمن.

(١) «تفسير الكشاف» (٤٩/٤).

ب - وجاءت الجنات بالجمع في آيات أخرى، منها قوله تعالى: ﴿إِنَّ الْمُنْفِقِينَ إِتْرَافُهُمْ بِأَعْيُنِهِمْ جَنَّتِ النَّعِيمِ﴾ [٣١] [القلم].

ج - وجاء ذكر الجنة الواحدة في سور كثيرة، منها قوله تعالى: ﴿مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعدَ الْمُتَّقُونَ﴾ [محمد: ١٥].

فذكر الجنة الواحدة: قد يكون لاتصال أشجارها ومساكنها وعدم وجود الفاصل بينها، فكانها جنة واحدة، وذكر الجنتين: نظراً للإنس والجن، وذكر الجنان: نظراً لاختلاف المراتب الموزعة على الجنان الثمان، وفي الآيات دليل على دخول الجن الجنة.

وقال تعالى عن جنات الدنيا: ﴿جَعَلْنَا لِأَحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ مِنْ أَعْنَابٍ﴾ [الكهف: ٣٢].

وقال سبحانه: ﴿إِنَّا بَلَوْنَهُمَا كَمَا بَلَوْنَا أَصْحَابَ الْجَنَّةِ﴾ [القلم: ١٧].

والذي يخاف ربه: هو الرجل يهتُم بالمعصية ثم يتركها خوفاً من الله تعالى، قاله مجاهد.

ومقام الله تعالى هو اليوم الذي يقف فيه العبد للحساب بين يدي الله تعالى.

وقيل: هو إشراف الله تعالى على أحوال خلقه، وإطلاعه على أقوالهم وأفعالهم.

والمقام: هو وقوف العبد بين يدي ربه، كما قال تعالى: ﴿يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [٦].

[المطففين].

والله تبارك وتعالى يقوم على العبد، أي: يراقبه ويعلم أقواله وأفعاله، كما قال تعالى:

﴿أَفَمَنْ هُوَ قَائِمٌ عَلَى كُلِّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ﴾ [الرعد: ٣٣] ولذا أضيف المقام إلى الله تعالى.

والآية عامة في كل من خاف الوقوف بين يدي الله تعالى ﴿وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَىٰ﴾

[النازعات: ٤٠] ولم يؤثر الدنيا على الآخرة، وعلم أن الآخرة خير له وأبقى، فأدى فرائض

الله، واجتنب ما حرم الله، فله يوم القيامة عند ربه جنتان داخل الجنة العامة.

خمسة أوصاف لجنتي السابقين:

ثم وصف الله تعالى كلا من الجنتين بخمسة أوصاف، بينهما تفاضل وتمايز:

فوصف سبحانه جنتي المقربين بأنهما:

- ١- ذواتا أنواع من الشجر والثمار، ففيهما شجر وظلال ﴿ذَوَاتَا أَفْنَانٍ ۝١٨﴾.
 - ٢- وفيهما عينان تجريان بالماء الزلال، قيل: إن إحداهما عين التسنيم، والأخرى عين السلسيل ﴿فِيهَا عَيْنَانِ تَجْرِيَانِ ۝٥٠﴾.
 - ٣- وفيهما من كل نوع من الفاكهة صنفان، نوع مألوف ونوع غير معروف، وكلاهما في منتهى اللذة والحلاوة ﴿فِيهِمَا مِنْ كُلِّ فَاكِهَةٍ زَوْجَانِ ۝٥٢﴾.
 - ٤- وأهل الجنتين يتكئون على فرش مبطنة بالديباج الغليظ، وظواهرها أفضل من بواطنها ﴿مُتَّكِئِينَ عَلَى فُرُشٍ بَطَآئِنُهَا مِنْ إِسْتَبْرَقٍ ۝٥٤﴾.
 - وإن ثمار الجنتين قريبة في تناول يد القائم والنائم والماشي، فليست عالية كالنخل، ولا يحوطها شوك كالورد ﴿وَحَتَّى الْجَنَّتَيْنِ دَانٍ ۝٥٦﴾.
 - ٥- وفي الجنتين نساء طاهرات عفيفات، قصرن عيونهن على أزواجهن، فلا ينظرن إلى غيرهم ﴿فِيهِنَّ قَصِيرَاتُ الْظُرْفِ ۝٥٧﴾.
 - وإنهن أبكاراً لم يفض بكارتهن قبل أزواجهن إنس ولا جان ﴿لَمْ يَطْمِئِنَّ أَنْسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَانٌ ۝٥٩﴾.
 - وإن هؤلاء النسوة كأنهن الياقوت في بياضهن وصفائهن، وكأنهن المرجان في حمرتهن ﴿كَأَنَّهُنَّ الْيَاقُوتُ وَالْمَرْجَانُ ۝٥٨﴾.
- فبأي من هذه النعم كلها تكذبان يا معشر الجن والإنس، وقد خلق الله الجنة للمطيعين المتميزين منكم، وجعلها لهم دار خلود يتنعم فيها أهل الطاعة بالنعيم الذي لا يحول ولا يزول، وهو إحسان من الله تعالى مقابل إحسانكم في الدنيا بامثال الأوامر واجتناب النواهي.
- خمسة أوصاف لجنتي أهل اليمين:

ثم وصف الله سبحانه جنتي أهل اليمين من عامة المؤمنين بأنهما:

- ١- جنتان قد اشتدت خضرتهما لكثرة مائهما، فهما ﴿مُدَّاهَمَتَانِ﴾ (١٤) أي مُخْضِرَتَانِ.
 - ٢- وفيهما عينان تَضُخَّانِ الماء بقوة واندفاع، ويفور منهما الماء الكثير بغزارة لا تنقطع ﴿فِيهِمَا عَيْنَانِ تَضَاحَتَانِ﴾ (١٦).
 - ٣- وفي هاتين الجنتين فواكه يأكلها أهل اليمين لذة وتفكُّها، وعلى الأخص النخيل والرمان، وقد خصهما القرآن بالذكر لكونهما معروفين بكثرة، لمن نزل القرآن بلغتهم ﴿فِيهِمَا فَاكِهَةٌ وَنَخْلٌ وَرَمَانٌ﴾ (١٧).
 - ٤- وفي الجنتين نساء خيرات حسان في الخلق والخلق من الحور العين، ومن نساء الدنيا، فقد أنشأهن الله إنشاءً، وجعلهن أبكارًا متحبيات لأزواجهن، وهن في سن الشباب والحُسن والبهاء ﴿فِيهِنَّ خَيْرَاتٌ حِسَانٌ﴾ (٢٠).
 - والحور العين لا يلجُن المجتمعات ولا النوادي ولا المجالس العامة، ولا الحفلات، ولا غير ذلك، ولا ينظرن لغير أزواجهن، ولا يختلطن بغيرهن، ولا يطلبن المساواة بالرجل فيما خصَّ الله به الرجال، فلا يتمنين ما فضل الله به بعضهم على بعض ﴿حُورٌ مَّقْصُورَاتٌ فِي الْبُيُوتِ﴾ (٢٣).
 - وهؤلاء النسوة لم يمسهن قبل أزواجهن إنس ولا جان ﴿لَمْ يَطْمِئِنَّهُنَّ أَنْسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَانٌ﴾.
 - ٥- وأصحاب الجنتين يتمتعون بالاتكاء على فرش خضر، وثياب عبقرية جميلة غريبة، بلغت منتهى الحسن والجمال ﴿مُتَّكِئِينَ عَلَى رَفْرَفٍ خُضِرٍ وَعَبَقَرِيِّ حِسَانٍ﴾ (٢٦).
 - فهل في وسعكم - أيها الثقلان - تكذيب ما أعدده الله لعامة المؤمنين من النعيم المقيم؟ فسبحان صاحب الفضل، واهب الخير، واسع العطاء، مصدر النعم، جلَّ جلاله وتبارك اسمه.
- خمسة فوارق بين الجنات الأربع:
- ونعود إلى تفسير الآيات لبيان ما بين الجنات الأربع من فوارق، جنتا السابقين، وجنتا أهل اليمين، على ضوء الموازنة بين الآيات، وقد جاءت هذه الموازنة في خمسة أوصاف، ذكرت في كل وصف منها لجنتي السابقين، ما يقابله من وصف جنتي أهل اليمين:

الْوَصْفُ الْأَوَّلُ: لَجْنَتِي السَّابِقِينَ الْمُقَرَّبِينَ

٤٦ - ٤٩ - ﴿وَلَمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّاتٍ ۖ ﴿٤٦﴾ فَإِنَّ آلَاءَ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٤٧﴾ ذَوَاتَا أَفْنَانٍ ﴿٤٨﴾ فَإِنَّ

﴿٤٩﴾ آلَاءَ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٤٩﴾﴾

أي ولمن خاف ربه، وخاف الوقوف بين يديه في يوم العرض والحساب ، فترك ما نهى الله عنه، وفعل ما أمره به ، جنتان من ذهب، جنة على الطاعات، وجنة على ترك المنهيات، ومباني الجنتين من ذهب وكل ما فيهما من السرر والفرش والوسائد والأواني من ذهب.

والجنتان: ذواتا أغصان نضرة من الفواكه والثمار، وأغصان كثيرة تمتاز بالجمال والخضرة والنضرة والشجر الظلال، وفيهما فناء واسع.

فالأفنان: هي الأغصان المستقيمة طولا، وفي كل غصن أنواع من الفاكهة.

فبأي من هذه النعم تكذبان - يا معشر الجن والإنس -؟

ومن هذه الآلاء: هذه الجنان ذات الأفنية الواسعة، والأغصان المثمرة اليبانة، والظلال الوفيرة، والفواكه الكثيرة، وفيهما من نعيم الظاهر والباطن، ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر، ففيهما الأشجار الكثيرة، والغصون الناعمة، والثمار اليبانة، وفيهما من كل نوع أصناف كثيرة، فالأفنان جمع فن وهو الصنف.

الْوَصْفُ الْأَوَّلُ لَجْنَتِي أَهْلِ الْيَمِينِ

٦٢ - ٦٥ - ﴿وَمِنْ دُونِهِمَا جَنَّتَانِ ۖ ﴿٦٢﴾ فَإِنَّ آلَاءَ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٦٣﴾ مُدَّهَامَتَانِ ﴿٦٤﴾ فَإِنَّ

﴿٦٥﴾ آلَاءَ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٦٥﴾﴾

ومن دون الجنتين السابق ذكرهما، جنتان من فضة، بنيانهما، وآيتهما وحليتهما وكذا كل ما فيهما من السرر والأبواب والنمارق وغيرها، وهذا النعيم أعده الله لأهل اليمين من عامة المؤمنين، وهما أدنى درجة من جنتي السابقين المقربين، وهم خواص المؤمنين.

أي: ومن دون جنتي السابقين المقربين: جنتان أقل منهما في الفضيلة والقدر، ويحتمل أن يكون المعنى: وللسابقين المقربين - أيضًا - جنتان أخريان ، فهو من باب ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا لِمُتَىٰ وَزِيَادَةٌ﴾ [يونس: ٢٦]: وكما في قوله تعالى: ﴿جَنَّاتٍ عَنْ يَمِينٍ وَشِمَالٍ﴾ [سبأ: ١٥] ويُقدّم المعنى الأول.

وهاتان الجنتان قد اشتدت خضر تهما حتى مالا إلى السواد، لأن الشجر إذا كان ريانًا بالماء، اشتدت خضرة أوراقه.

فبأي من هذه النعم تكذبان - يا معشر الإنس والجن -.

ومن هذه الآلاء ، أن ما في هاتين الجنتين من الأشجار والأغصان والثمار وغيرهما، من شدة الخضرة وجمال المنظر وبهائه وحسنه، ما يدل على جودة الثمر وجودة ما يُقطف منها، وهذا من أثر الري وكثافة الظلال، والجنتان المخضرتان لأهل اليمين أدنى درجة من الجنتين ذاتي الأفنية الواسعة والأغصان المثمرة للسابقين المقربين.

الوصفُ الثاني لجنتي السابقين المقربين

٥٠، ٥١ - ﴿فِيهَا عَيْنَانِ تَجْرِيَانِ ﴿٥٠﴾ فَإِنِّي ءَالَاءُ رِيكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٥١﴾﴾

في هاتين الجنتين عينان من الماء العذب الفرات تجريان من خلالهما بلا انقطاع، إحداهما عين التسليم، والأخرى عين السلسيل، كما قال الحسن.

يفجرونها كما يريدون ويشتهون، وقد ذكر سبحانه ما يتم به التزهة من خضرة الأشجار، وجريان الأنهار، ثم ما يكون بعد التزهة من أكل الثمار والاستراحة على فرش وثيرة، بطانتها من ديباج.

ونعمة الماء الذي يجري من أجل النعم، فبأي نعمة من هذه النعم تكذبان - يا معشر

الإنس والجن -؟

الوصفُ الثاني لجنتي أهل اليمين

٦٦، ٦٧ - ﴿فِيهَا عَيْنَانِ فَضَاحَتَانِ ﴿٦٦﴾ فَإِنِّي ءَالَاءُ رِيكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٦٧﴾﴾

في هاتين الجنتين عيان تفوران بالماء الذي لا ينقطع.
قال ابن مسعود، وابن عباس: تنضخ على أولياء الله بالمسك والعنبر والكافور في دور الجنة.

والنضخ: هو فوران الماء من العيون، مع حسنه وجماله وتدفقه واستمراره وماء العيون أقل من الماء الجاري.

وعيون المياه المتدفقة نعمة تشكر ولا تكفر، ولا يكذبها إنس ولا جن، وجاء وصف جنتي أهل اليمين بأن فيهما عيان يفور الماء منهما في مقابلة وصف جنتي السابقين بأن الماء يجري فيهما بصفة مستمرة لا ينقطع.

الْوَصْفُ الثَّالِثُ لِجَنَّتِي السَّابِقِينَ

٥٢، ٥٣ - ﴿فِيهِمَا مِنْ كُلِّ فَاكِهَةٍ زَوْجَانِ ۚ﴾ ﴿٥٢﴾ ﴿فَإِتَىٰ آلَاءَ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ ﴿٥٣﴾

في هاتين الجنتين من كل نوع من أنواع الفاكهة صنفان، يُستلذ بكل نوع من أنواعه: بعضه يؤكل رطبًا، وبعضه يؤكل يابسًا، مثل: الرطب والعنب والتمر والزبيب والجوز واللوز، وهي فواكه كثيرة لا مقطوعة ولا ممنوعة. وفيهما من ثمار الجنة. ذكر وأنثى، من كل نوع من أنواع الثمار، وكل ما لذ وطاب.
ومن هذه الآلاء، أن لكل صنف من الفاكهة لذة ولون ليست للنوع الآخر، فبأي نعمة من هذه النعم تكذبان - يا معشر الإنس والجن -؟

الْوَصْفُ الثَّالِثُ لِجَنَّتِي أَهْلِ الْيَمِينِ

٦٨، ٦٩ - ﴿فِيهِمَا فَاكِهَةٌ وَنَخْلٌ وَرُمَّانٌ﴾ ﴿٦٨﴾ ﴿فَإِتَىٰ آلَاءَ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ ﴿٦٩﴾

في هاتين الجنتين أنواع كثيرة من الفواكه، ونخل ورمان، وجاء عطف النخل والرمان على الفاكهة لمزيتهما وفضلهما، فالتمر غذاء وفاكهة، والرمان دواء وفاكهة ﴿كُلَّمَا رُزِقُوا مِنْهَا مِنْ ثَمَرَةٍ رِزْقًا قَالُوا هَذَا الَّذِي رُزِقْنَا مِنْ قَبْلُ﴾ قال تعالى: ﴿وَأُتُوا بِهِ مُتَشَبِهًا﴾ [البقرة: ٢٥].

فبأي نعمة من نعم الله تكذبان أيها الثقلان؟
ومن هذه الآلاء: أصناف الفواكه المختلفة، وخص منها النخل والرمان لما فيهما من
كثرة المنافع، وتخصيص جنتي أهل اليمين بالفاكهة والنخل والرمان، أدنى درجة من
جنتي السابقين، ففيهما من كل فاكهة صنفان.

الْوَصْفُ الرَّابِعُ لِجَنَّتِي السَّابِقِينَ

٥٤، ٥٥ - ﴿مُتَكِّينَ عَلَى فُرُشٍ بَطَآئِنُهَا مِنْ (١) إِسْتَبْرَقٍ وَحَى الْجَنَّتَيْنِ دَانٍ ﴿٥٤﴾ فَإِذَا الْآلَاءُ رَزَقُوا

تُكْذَّبَانِ ﴿٥٥﴾﴾

وللذين خافوا مقام ربهم جنتان يتنعمون فيهما، وهم متكئون على فرش مبطنة من
غليظ الديباج، والاتكاء جلسة المتمتع المتنعم.

وثمر الجنتين قريب إليهم، وأكل أهل الجنة ليس من جوع، والفرش ما يفرش للنوم
أو الجلوس، والمراد به السرير المرتفع عن الأرض.

والبطائن: ما يقابل الظهائر، فالبطائن هي الداخلية، وهي من الديباج السميك الظاهر
وهي ما يظهر للرائي وتكون أفضل عادة.

والاستبرق: الديباج المصنوع من الحرير السميك، فإذا كانت البطائن هكذا، فلا
تسأل عن الظواهر.

وهم يقطعون ما شاؤوا من الثمار، وهم متكئون وفي أي حالة كانوا، حيث تدنو منهم
الفاكهة حيثما كانوا.

والجنى: هو ما يُجَنَّى من الثمار، والداني: هو القريب، يناله القائم والقاعد والمتكى.

جاء عن قتادة: أنه ما من إنسان يقطع ثمرة من الجنة فتصل إلى فيه حتى يبدل الله

مكانها خيراً منها (٢) قال تعالى: ﴿وَدَانِيَةً عَلَيْهِمْ ظِلَالُهَا وَذُلَّتْ أُطُوفُهَا نَذِيلًا﴾ (١٤) [الإنسان]. فبأي نعمة

(١) قرأ ورش ورويس بنقل حركة الهمزة إلى النون، وحذف الهمزة في ﴿مِنْ إِسْتَبْرَقٍ﴾ وحققها غيره.

(٢) الطبري (٢٤٤/٢٢).

من نعم الله تكديبان؟

ومن هذه الآلاء، صفة فرش أهل الجنة وجلوسهم عليها جلوس المتكى كجلوس الملوك على الأسرة، وهي فرش لا يعلم حسنها ووصفها إلا الله، وثمرها قريب متناول.

الْوَصْفُ الرَّابِعُ لِحُجْنَتِي أَهْلِ الْيَمِينِ

٧٧، ٧٦ - ﴿مُتَكِّينَ^(١) عَلَى رَفْرَفٍ خُضْرٍ وَعَبْقَرِيٍّ حَسَانٍ^(٢)﴾ فَإِنِّي ءَالَآءُ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٧٧﴾

وهؤلاء الزوجات من الحور العين، متكئات على وسائد خضر، وفرش حسان، والرفرف: هو ما يوضع على الفرش للنوم عليها.

والعبقري: اسم لكل ما هو فائق في صنعه، نادر الوجود، ويقال لها: زرابي وطنافس، وهي أغطية خضر، ممتازة في صنعها، وفي اليمن قرية يقال لها: عبقر، قيل: كان يسكنها الجن، وكان يُنسج فيها أفخر الثياب والبسط المنقوشة وهي فرش لها رفارف من وراء المجالس لزيادة البهاء.

ومن نعمه تعالى هذه الفرش المنسوجة نسجاً فاخراً لحسن المظهر وجمال الملمس. ولا يكذب بها إنس ولا جن، ولا يجحدها جاحد ولا معاند.

الْوَصْفُ الْخَامِسُ لِحُجْنَتِي السَّابِقِينَ

٥٦ - ٦١ - ﴿فِيهِنَّ قَاصِرَاتُ الطَّرْفِ لَمْ يَطْمِئِنَّ^(١) أَنْسُ قَبْلَهُمْ وَلَا جَانٌّ^(٢)﴾ فَإِنِّي ءَالَآءُ رَبِّكُمَا

تُكَذِّبَانِ ﴿٥٧﴾ كَأَنَّهُنَّ الْيَاقُوتُ وَالْمَرْجَانُ ﴿٥٨﴾ فَإِنِّي ءَالَآءُ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٥٩﴾ هَلْ جَزَاءُ الْإِحْسَنِ إِلَّا الْإِحْسَنُ ﴿٦٠﴾ فَإِنِّي ءَالَآءُ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٦١﴾

على هذه الفرش زوجات قاصرات أبصارهن على أزواجهن، لا ينظرن إلى غيرهم، متعلقات بهم، وقاصرة الطرف أعلى درجة من مقصورة الطرف، فالأولى تغض بصرها

(١) قرأ أبو جعفر بحذف همزة ﴿مُتَكِّينَ﴾ ومثله حمزة عند الوقف، وله التسهيل أيضاً.

(٢) قرأ الكسائي بضم الميم وكسرهما من ﴿يَطْمِئِنَّ﴾ هنا وفي الآية الرابعة والسبعين، والباقون بكسرها.

من نفسها، وهذا خُلِقَ لها وطَبْع، والثانية مُلْزَمَةٌ أَنْ تَغْضُ بصرها من قبل غيرها.
 لم يطأهن إنس ولا جان قبل أزواجهن، وَغَضُّ الطَّرْفِ خِلْقَةٌ فيهن.
 والطَّمْثُ هو فَضُّ البَكَارَةِ، قال تعالى: ﴿جَعَلْنَهُنَّ أَبْكَارًا﴾ (٣٦) [الواقعة] وهن من نساء
 الجنة لا من زوجات الدنيا، وقيل: إن نساء الدنيا كذلك، ينشئن الله إنشاءً.
 وأصل الطمّث: خروج الدم من الحائض، فيقال للحيض طمّث، ثم أُطلق الطمّث
 على جماع الأبكار؛ لأن فيه خروج الدم، ثم أُطلق على كل جماع.
 وفي الآية دليل على أن الجن يدخلون الجنة^(١)، وفيها دليل على مشاركة الجن
 للإنس في الجماع، إذا جامع الرجل أهله ولم يسم الله^(٢).
 وزوجات الجنة من أجلّ النعم، التي لا يكذب بها إنس ولا جن.
 وهؤلاء الزوجات من الحور العين، كأنهن في حسنهن وجمالهن وصفائهن الياقوت
 والمرجان في الصفاء واللمعان، وبياض الوجوه مع حمرة الخدود، كلون الورد.
 والياقوت: هو الحجر المعروف. والمرجان: حجر أحمر يؤخذ من البحر.
 وقد سبق وصف هؤلاء الزوجات في الآية السادسة والخمسين بقوله تعالى: ﴿لَهُنَّ
 يَطَيَّرُهُنَّ إِنْسٌ فَبَأَثَمَهُنَّ وَلَا جَانٌ﴾ بما يعادل الوصف المقابل لأهل اليمين، كما وصفهن الله
 تعالى بقوله: ﴿كَأَنَّهُنَّ بَيْضٌ مَكْنُونٌ﴾ (٤٩) [الصفات].
 وجمال الحور العين وبهائهن ولذة وصالهن من أجلّ النعم، فهل يكذب بهذا إنس أو جن؟
 ثم ختم الله تعالى نعيم أهل الجنة، من عباد الله المقربين، ببيان أنه ما جزاء مَنْ أَحْسَنَ
 بعمله في الدنيا، إلا الإحسان إليه بالجنة في الآخرة.
 فالإحسان الأول: هو القول الطيب، والعمل الصالح، ومخافة القيام بين يدي رب
 العالمين، ونهي النفس عن الهوى.

(١) يُنْظَرُ: «تفسير الطبري» عن ضمرة بن حبيب (٢٤٨/٢٢) وأبو الشيخ (١١٦٢).

(٢) كما ورد الخبر بذلك عند الحكيم الترمذي (٣٨٤/١) عن مجاهد.

والإحسان الثاني: هو الثواب والجنة والنعيم المقيم.

قال ابن عباس رضي الله عنهما: هل جزاء من قال: لا إله إلا الله، وعمل بما جاء به محمد ﷺ إلا الجنة؟

وقد سبق وصف أهل هاتين الجنةين بأنهم ﴿مُتَّكِئِينَ عَلَى فُرُشٍ بَطَائِنُهَا مِنْ إِسْتَبْرَقٍ﴾ بما يعادل الوصف المقابل لأهل اليمين.

ومن نعم الله تعالى على عباده أن من أحسن في عبادة ربه ونفع عباده أحسن الله إليه بالثواب الجزيل، والنعيم المقيم والفوز الكبير، ومقابلة الإحسان بالإحسان محض فضل من الله تعالى لا يكذب بها إنس ولا جن.

الْوَصْفُ الْخَامِسُ لِجَنَّتِي أَهْلِ الْيَمِينِ

٧٠ - ٧٥ - ﴿فِيهِنَّ خَيْرٌ حَسَنٌ ﴿٧٠﴾ فَإِنَّ يَأْيَ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٧١﴾ حُورٌ مَقْصُورَاتٌ فِي الْخِيَامِ

﴿٧٢﴾ فَإِنَّ يَأْيَ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٧٣﴾ لَمْ يَطْمِئِنَّ عَنْ قُلُوبِهِمْ وَلَا جَانٌ ﴿٧٤﴾ فَإِنَّ يَأْيَ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٧٥﴾﴾

ذكر سبحانه في هذه الآيات أن في هذه الجنة: زوجات طيبات الأخلاق، حسان الوجوه، كما في حديث أنس ؓ أن النبي ﷺ قال: «إن الحور العين يتغنين في الجنة يقلن: نحن الخيرات الحسان، خُبُنَّا لأزواج كرام»^(١). والضمير من ﴿فِيهِنَّ خَيْرٌ﴾ يقابله ما جاء في وصف جنتي السابقين ﴿فِيهِنَّ قَصِيرَاتٌ الْظُرْفِ﴾ فكلاهما جاء بضمير الجمع، وكأن فيهما إشارة إلى ما في الجنة الأربع من الحور العين وزوجات الدنيا، فبأي نعمة من نعم الله تعالى تُجحد وتُكذب؟ ومن هذه النعم: ما في الجنة من الحور العين والزوجات الحسان، قد جمعن بين جمال الظاهر والباطن وحسن الخلق والخلق، متحجبات لأزواجهن، قاصرات الطرف عليهم.

(١) ابن أبي شيبة (١٣/١٠٦) و«صحيح الجامع» (١٥٩٨).

وهؤلاء الخيَّرات الحسان: حور، أي شديداً البياض، في عيونهن حور، وهن مستورات في الخيام، محبوسات لا يُتدَلَّن في شارع أو سوق، ولا يخرجن لبيع ولا شراء، ولا يلجُن المجتمعات ولا النوادي، فالنساء تُمدَح إذا لزمْنَ البيوت. ففي هذا صيانتهم وعفتهم وطهارتهم، وخيام الجنة من اللؤلؤ المجوف. وفي الحديث عن عبد الله بن قيس عن أبيه أن رسول الله ﷺ قال: «إن في الجنة خيمة من لؤلؤة مجوفة، عرضها ستون ميلاً، في كل زاوية منها أهل، ما يرون الآخرين، يطوف عليهم المؤمنون»^(١).

فخيام الجنة من الدر المجوف، وهل يكذب بهذه النعم أحد من الجن والإنس؟ والحدور العين المحبوسات في خيام اللؤلؤ المتزهات في بساتين الجنة ورياضها. وهؤلاء الحدور العين لم يقربهن أحد قبل أزواجهن في الجنة، لا إنس ولا جان. وفي هذا دليل على أن الجن يغشاهن مثلما يغشى الإنسان. وسئل ضمرة بن حبيب: هل للجن ثواب؟ فقال: نعم، وقرأ هذه الآية، ثم قال: الإنسيات للإنس، والجنيات للجن. وقال مجاهد: هذه الآية إذا جامع الرجل ولم يسم، انطوى الجنى على إحليله، فجامع معه^(٢). ونعمة الحدور العين لا يكذب بها إنس ولا جن، فكلاهما يقول: ولا بشئ من نعمك ربنا نكذب.

(١) من حديث عبد الله بن قيس عن أبيه، البخاري برقم (٣٦٤٣، ٤٨٧٩) وانظر: «صحيح مسلم» برقم (٢٨٣٨، ١٨٠) من حديث أبي عمران.

(٢) «تفسير الخازن» (٢١٤/٤) والطبري (٢٤٨/٢٢) والحكيم الترمذي (٣٨٤/١).

خَتَامُ نَعِيمِ الْآخِرَةِ بِمَا خُتِمَ بِهِ نَعِيمُ الدُّنْيَا

٧٨ - ﴿نَبِّرْكَ أَتَمَّ رَبِّكَ ذِي الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ﴾ (٧٨)

ثم ختمت السورة بالثناء على الله تعالى: فقد تكاثرت بركاته، وكثرت خيراته، فهو صاحب الجلال الباهر، والمجد الكامل، والإكرام لأوليائه.

والجلال بمعنى: العظمة، وهو وصف جامع لصفات الكمال اللاتئة بالله تعالى، فهو سبحانه المستغني عن عباده على وجه الإطلاق والإكرام، بمعنى: أنه تعالى مُسْدِي النعم والخير، وهو الجدير بالثناء والشكر، وجدير أن يُفرد بالعبادة دون سواه.

ولما ختم الله تعالى نعيم الدنيا بقوله: ﴿وَبَقِيَ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ﴾ (٧٧) ختم نعيم الآخرة بقوله: ﴿نَبِّرْكَ أَتَمَّ رَبِّكَ ذِي الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ﴾ (٧٨).

ومما ورد في فضل الجنات والحدور العين ما جاء:

١- عن عبد الله بن قيس، عن أبيه عليه السلام أن رسول الله ﷺ قال: «جنتان من فضة، أنيتهما وما فيهما، وجنتان من ذهب، أنيتهما وما فيهما، وما بين القوم وبين أن ينظروا إلى ربهم عز وجل إلا رداء الكبر على وجهه في جنة عدن» (٢).

٢- وفي حديث أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «من خاف أدلج، ومن أدلج بلغ المنزل، ألا إن سلعة الله غالية، إلا إن سلعة الله الجنة» (٣).

٣- وعن أبي الدرداء رضي الله عنه أنه سمع رسول الله ﷺ يقص على المنبر وهو يقول: ﴿وَلَمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّاتٍ﴾ (٦٦) فقلت: وإن زنى وإن سرق يا رسول الله؟ فقال ﷺ: ﴿وَلَمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّاتٍ﴾ (٦٦) فقلت الثانية: وإن زنى وإن سرق يا رسول الله؟ فقال ﷺ: ﴿وَلَمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّاتٍ﴾ (٦٦).

(١) قرأ ابن عامر (ذو الجلال) بالرفع، صفة (اسم)، والباقون (ذو) بالخفض صفة (ربك) أما الموضع الأول من السورة فهو بالواو اتفاقاً.

(٢) البخاري (٤٨٧٨، ٧٤٤٤) ومسلم (٢٩٦/١٨٠) والترمذي (٢٥٢٨) وابن ماجه (١٨٢).

(٣) «سنن الترمذي» برقم (٢٤٥٠)، والحاكم وصححه (٧٨٥١)، وقال الألباني: صحيح لغيره، انظر: صحيح

الترغيب والترهيب (٣٣٧٧)، وقال المناوي: صحيح (٢٤٥٠)، و«تفسير البغوي» (٤٥١/٧).

رَبِّهِ جَنَّاتٍ ﴿١٦﴾ فقلت الثالثة: وإن زنى وإن سرق يا رسول الله؟ فقال: «وإن، رغم أنف أبي الدرداء»^(١) قلت: ومن خاف مقام ربه لم يسرق ولم يزن.

٤- وفي الأثر، عن أبي موسى: «جنتان من ذهب للمقربين، وجنتان من ورق لأصحاب اليمين»^(٢).

٥- وفي الصحيحين، وغيرهما، عن أبي هريرة ؓ أن رسول الله ﷺ قال: «أول زمرة تدخل الجنة على صورة القمر ليلة البدر»^(٣).

زاد في رواية: «ثم الذين يلونهم على أشد كوكب دُرِّي في السماء إضاءة، لا ييصقون فيها، ولا يتمخطون، ولا يتغوطون، آتيتهم الذهب والفضة، وأمشاطهم الذهب، ومجارهم الألوة، ورشحهم المسك، ولكل واحد زوجتان، يرى مخ سوقهما من وراء اللحم من الحسن، لا اختلاف بينهم ولا تباغض، قلوبهم رجل واحد، يسبحون الله بكرة وعشيًا»^(٤).

(١) «تفسير البغوي» (٤٥١/٧)، وشرح السنة (٤١٨٩)، والنسائي في «السنن الكبرى» برقم (١١٥٦٠)، وفي ط الرسالة (١١٤٩٦)، و«تفسير الطبري» (٤٩٠/٥)، ورواه النسائي في «السنن» برقم (٥٨٠)، وابن خزيمة برقم (٥٣٣)، وعزاه الهيثمي لأحمد والطبراني، وقال رجال أحمد رجال الصحيح «مجمع الزوائد» (١١٨/٧)، وفي «السنن» عند ابن أبي عاصم، مختصراً برقم (٩٧٥) وهو في «المطالب العالية» (٤١٣٠)، (٤١٣١) وقال محققو المسند (٨٦٨٣) رجاله ثقات رجال الصحيح غير ابن دواد فقد روى له أصحاب السنن وهو ثقة، وأعله الحافظ في الفتح (٢٦١/١١) بالإرسال، لانقطاعه بين عطاء بن يسار وأبي الدرداء.

(٢) «تفسير الطبري» (٨٥/٢٧) بسنده عن أبي موسى، وانظر: ابن أبي شيبه (٣٨٣/١٣) والحاكم (٨٤/١) والبيهقي (٢٤٠)، وانظر: فتح الباري ٤٣١/١٣ عن حماد بن سلمة عن ثابت البناني عن أبي بكر بن أبي موسى عن أبيه، وابن أبي حاتم ورجالهم ثقات في شرح الحديث (٧٠٠٦).

(٣) أخرجه البخاري (٣٢٤٦) من حديث طويل هذا أوله، وأخرجه أيضاً مسلم (٢٨٣٤)، وابن ماجه (٤٣٣٣)، والبغوي في شرح السنة (٤٣٧٣)، وفي التفسير (٥٧/١)، وانظر: «المسند» (٧١٥٢، ١٠١٢٢) بإسناد صحيح على شرط الشيخين، وله طرق عديدة وراته كثر.

(٤) الحديث في البخاري (٣٢٤٥) وهذا لفظه و(٣٣٢٧)، ومسلم (٢٨٣٤)، وابن ماجه (٤٣٣٣)، والبيهقي في «البعث» (٣٢٧، ٤٤٨)، و«المسند» بنحوه (٧١٦٥، ٧٤٨٦).

٦ - وفي حديث أنس، وسهل بن سعد، وأبي أمامة رضي الله عنهم، أن النبي ﷺ قال: «لغدوة في سبيل الله أو روحة خير من الدنيا وما فيها، ولقاب قوس أحدكم، أو موضع قيد - يعني: سوطه - خير من الدنيا وما فيها، ولو طلعت امرأة من نساء أهل الجنة إلى الأرض لمألت ما بينهما ريحاً، ولطاب ما بينهما، ولنصيفها على رأسها خير من الدنيا وما فيها»^(١).

٧ - وفي حديث أبي هريرة أيضاً أن النبي ﷺ قال: «إن أول زمرة تدخل الجنة على صورة القمر ليلة البدر، والتي تليها على ضوء كوكب دُرِّي في السماء، لكل امرئ منهم زوجتان اثنتان، يُرى مخ سوقهما من وراء اللحم، وما في الجنة عزب»^(٢).

٨ - وعن أبي هريرة أيضاً أن النبي ﷺ قال: «للرجل من أهل الجنة زوجتان من حور العين، على كل واحدة سبعون حلة، يُرى مخ ساقها من وراء الثياب»^(٣).

٩ - وأخرج البيهقي في شعب الإيمان عن الحسن أن شاباً على عهد عمر بن الخطاب رضي الله عنه كان يلزم المسجد والعبادة فعشقته جارية فكلمته، فحدّث نفسه، فشهِق شهقة فغشي عليه، فحمله عمه إلى بيته، فلما أفاق، قال: يا عم، اذهب إلى عمر فأقرئه مني السلام، وقل له: ما جزاء من خاف مقام ربه؟ وشهِق شهقة أخرى فمات، فوقف عليه عمر وقال: لك جتان، لك جتان»^(٤).

١٠ - وفي حديث أنس رضي الله عنه قال: كنت مع النبي ﷺ جالساً في الحلقة، ورجل قائم يصلي، فلما ركع وسجد وتشهّد ودعا، فقال في دعائه: اللهم إني أسألك بأن لك الحمد، لا إله إلا أنت، وحدك لا شريك لك، المنان، بديع السموات والأرض، يا ذا

(١) البخاري برقم (٢٧٩٦) وهذا لفظه، وأخرجه مسلم (٨٨٠) أولاً، و«المسند» (١٤١/٣) برقم (١٢٣٥٠)، (١٣٧٨٠).

(٢) «صحيح مسلم» برقم (٢٨٣٤) واللفظ له، والبخاري برقم (٣٢٤٥).

(٣) تفرد به أحمد من هذا الوجه، «المسند» (٣٤٥/٢) برقم (٨٥٤٢) وإسناده صحيح على شرط مسلم كما قال محققوه، وهو قطعة من حديث (٧١٥٢).

(٤) «شعب الإيمان» للبيهقي (٧٣٦).

الجلال والإكرام، يا حي يا قيوم، إني أسألك، فقال النبي ﷺ: «لقد دعا الله باسمه العظيم، الذي إذا دُعي به أجاب، وإذا سئل به أعطى»^(١).

١١- وفي حديث عائشة رضي الله عنها: أن رسول الله ﷺ كان إذا سلّم لا يقعد بعد الصلاة إلا قَدْر ما يقول: «اللهم أنت السلام ومنك السلام، تباركت يا ذا الجلال والإكرام»^(٢).

١٢- وفي حديث ثوبان رضي الله عنه قال: كان رسول الله ﷺ إذا انصرف من صلاته استغفر ثلاثاً، ثم قال: «اللهم أنت السلام، ومنك السلام، تباركت يا ذا الجلال والإكرام»^(٣).

تم تفسير (سورة الرحمن) والله الحمد والمنة

(١) «صحيح سنن أبي داود» (١٣٢٦) والنسائي (١٢٩٩) وابن أبي شيبة (٢٧٢/١٠) و«المستد» (١٢٦١١)،

(١٣٥٧٠) وهو حديث صحيح وإسناده قوي (محققه)، والبيهقي في «الأسماء والصفات» (٢٨، ٣٤، ٢٧١)، والضياء في المختارة (١٨٨٥) وأبوداود وغيرهم.

(٢) «صحيح مسلم» برقم (٥٩٢) وأبو داود برقم (١٥١٢) والترمذي برقم (٢٩٨) و«سنن النسائي» (٦٩/٣) وابن ماجه برقم (٩٢٤).

(٣) مسلم (٥٩١) وأبو داود (١٥١٣) والترمذي (٣٠٠) والنسائي (١٣٣٦) وابن ماجه (٩٢٨) والبيهقي (١٨٣/٢).

تَفْسِيرُ سُورَةِ الْوَاقِعَةِ (٥٦)

مُقَدِّمَةُ السُّورَةِ

سورة الواقعة هي السورة السادسة والخمسون في ترتيب المصحف، والسادسة والأربعون في ترتيب النزول عند جابر بن زيد، نزلت بعد سورة طه وقبل سورة الشعراء، ولا يُعرف لها اسم غير سورة الواقعة.

وهي في العدد الكوفي الذي عليه رواية حفص، ست وتسعون آية^(١).

وعدد كلماتها ثلاث مئة وثمان وسبعون كلمة، وألف وسبع مئة وثلاثة أحرف.

قال ابن عطية: وهي سورة مكية بإجماع من يُعتدُّ به من المفسرين، واستثنى ابن عباس وقتادة قوله تعالى: ﴿وَيَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنْكُمْ تَكْذِبُونَ﴾^(٨٢) فقد نزلت بالمدينة.

وقال الكلبي: إلا أربع آيات: اثنتان نزلتا في سفر النبي ﷺ إلى مكة، وهما قوله

تعالى: ﴿أَفِيْهَذَا الْحَدِيثِ أَنْتُمْ مُّذْهِبُونَ﴾^(٨١) وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنْكُمْ تَكْذِبُونَ^(٨٢).

واثنتان نزلتا في سفره إلى المدينة، وهما: ﴿ثُلَّةٌ مِنَ الْأَوَّلِينَ﴾^(٣٩) وَثُلَّةٌ مِنَ الْآخِرِينَ^(٤٠).

قال ابن عطية: وهذا كله غير ثابت^(٢)، والصحيح أنها كلها مكية.

جاء عن عكرمة، عن ابن عباس رضي الله عنهما أن أبا بكر رضي الله عن الجميع

قال: يا رسول الله، قد شُبِّتَ، قال: «شَيَّبْتَنِي هُودُ، والواقعة، والمرسلات، وعم يتساءلون،

وإذا الشمس كورت»^(٣).

(١) وفي العدد البصري سبع وتسعون آية، وفي العدد المكي والمدني والشامي تسع وتسعون آية.

(٢) يُنظر: «تفسير ابن عطية» (٢٣٨/٥) و«تفسير التحرير والتنوير» (٢٧٩/٢٧) و«تفسير فتح القدير» (١٤٦/٥) و«زاد المسير» (١٣٠/٨).

(٣) أخرجه الترمذي وقال: حسن غريب، برقم (٣٢٧٩) وصححه الحاكم على شرط البخاري ووافقه الذهبي

(٣٤٣/٢) وأخرجه البيهقي في «الشعب» (٧٧٦) ورواه الطبراني في «الأوسط» من طريق مسروق عن أبي

بكر، قال الهيثمي في «مجمع الزوائد» (٤٠/٧): رجاله رجال الصحيح، وأخرجه الطبراني في «الكبير»

(١٠٠٩١)، وانظر: «العلل» للدارقطني (١٩٣/١) وابن أبي حاتم (١٨٢٦، ١٨٩٤).

وعن جابر بن سمرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ كان يصلي الصلوات كنحو من صلاتكم التي تصلون اليوم، ولكنه كان يُخفف، كانت صلاته أخف من صلاتكم، وكان يقرأ في الفجر بالواقعة ^(١).

وورد في سورة الواقعة أحاديث أخرى لم تصح.

قال مسروق: من أراد أن يَعْلَمَ نبأ الأولين والآخرين، ونبأ أهل الجنة، ونبأ أهل النار، ونبأ أهل الدنيا، ونبأ أهل الآخرة، فليقرأ سورة الواقعة ^(٢).

أغراض السورة

موضوع سورة الواقعة: هو اليوم الآخر، وأصناف الناس في الآخرة، وجزاء كل صنف منهم يوم لقاء الله، والحديث عن البعث والحساب والجزاء، وغرس عقيدة التوحيد في نفوس البشر، وهذا من خصائص القرآن المكي.

والواقعة اسم للسورة، وبيان لموضوعها، فليوم القيامة أسماء شتى، منها: الواقعة، والحاقة، والقيامة، والساعة، والقارعة، والصاخة، والطامة، والغاشية، والآفة.

وتختص الآيات الست الأول بحديث وجيز عن انتهاء العالم وبدء الحساب، فالقيامة تقوم بغتة، فتُخْرِسُ ألسنة المكذِبين لها من الكافرين بها، وألسنة الملحدين المعاندين، والماديين والدهريين، وتُبيِّنُ أن القيامة ستخفف رؤوسًا كانت عالية في الدنيا، وترفع رؤوسًا كانت مغمورة.

ومع قيام الساعة تهيج الزلازل التي تهدم كل شيء، وتُحوِّلُ الصخور الصلدة العالية إلى ذرات دقيقة، كالتي نراها تُسْبِج في الشعاع، ولسنا ندري كم بقي من عمر الدنيا، وليس هذا هو المهم، إنما المهم أن يُعَدَّ المرء للسؤال جوابًا، ويستعدَّ بعمله الصالح للموقف العصيب.

(١) «المسند» (١٠٤/٥) (٢٠٩٩٥) قال محققوه: صحيح لغيره، وأخرجه عبد الرزاق (٢٧٢٠) وابن خزيمة

(٥٣١) وابن حبان (١٨١٣) والطبراني في «الكبير» (٤٠٣٦) والحاكم (٢٤٠/١).

(٢) أخرجه عبد بن حميد، وابن المنذر، كما في «الدر المنثور» (١٧٥/١٤).

فقد سأل رجل النبي ﷺ قائلاً: متى الساعة يا رسول الله؟ فأراد النبي ﷺ أن يرشده إلى ما هو أهم من السؤال، فقال له: «وماذا أعددت لها؟» فذكر الرجل أنه يؤدي الفرائض، وليس عنده رصيد كبير من النوافل، قال الرجل: غير أنني أحب الله ورسوله، فقال له النبي ﷺ: «أنت مع من أحببت»^(١).

أصناف الناس يوم القيامة:

وبعد هذه المقدمة، فإن السورة تقسم الناس يوم القيامة إلى ثلاثة أصناف: السابقين، وأصحاب اليمين، وأصحاب الشمال. وتُفَصِّلُ النعيم الذي أعده الله للسابقين وأصحاب الميمنة، ثم تُفَصِّلُ العذاب المعد لأصحاب المشأمة، وهذا من الآية السابعة إلى الآية السادسة والخمسين. وفي نهاية السورة تناول أيضاً هؤلاء الثلاثة تحت مسمى: المقربين، وأصحاب اليمين، والمكذبين الضالين، فتبين ما أعد الله لهؤلاء الثلاثة في الآخرة وعند الاحتضار من نعيم وعذاب على وجه الإجمال. وبين التقسيمين الأول والآخر، ذكرت السورة أربعة أدلة متنوعة من آفاق الكون وتجارب الناس، على أن البعث حق، وهي في الوقت نفسه دلائل على وحدانية الله تعالى وكمال قدرته. وهذه الأدلة الأربعة تتمثل في بديع صنعه تعالى وخلقه للإنسان، وإخراج النبات، وإنزال الماء، وما أودعه الله في النار من قوة.

وجاءت هذه الأدلة في الآيات الأربع التالية، وما يتبع كل منها، وهي قوله تعالى:

١- ﴿أَفَرَأَيْتُمْ مَا تُمْنُونَ ﴿٥٨﴾ أَأَنْتَ تَخْلُقُونَهُ أَمْ نَحْنُ الْخَالِقُونَ ﴿٥٩﴾﴾.

(١) من حديث أنس في «المسند» (١٢٠٧٥، ١٤٠٧٣) بإسناد صحيح على شرط الشيخين (محققوه)، وعن أبي ذر (٢١٣٧٩، ٢١٤٦٣)، ورواه البخاري عن أنس (٣٤٨٥)، وأخرجه مسلم (٥٥٧)، والترمذي (٣٥٣)، وابن ماجه (٩٣٣)، وابن خزيمة (٩٣٤).

- ٢- ﴿أَفَرَأَيْتُمْ مَا تَحْرُثُونَ ﴿١٣﴾ أَأَنْتُمْ تَزْرَعُونَهُ أَمْ نَحْنُ الزَّارِعُونَ ﴿١٤﴾
 ٣- ﴿أَفَرَأَيْتُمْ الْمَاءَ الَّذِي تَشْرَبُونَ ﴿١٥﴾ أَأَنْتُمْ أَنْزَلْتُمُوهُ مِنَ الْمُزْنِ أَمْ نَحْنُ الْمُنْزِلُونَ ﴿١٦﴾
 ٤- ﴿أَفَرَأَيْتُمُ النَّارَ الَّتِي تُورُونَ ﴿١٧﴾ أَأَنْتُمْ أَنْشَأْتُمْ شَجَرَتَهَا أَمْ نَحْنُ الْمُنْشِئُونَ ﴿١٨﴾

وهذه الأدلة من الآية السابعة والخمسين إلى الآية الرابعة والسبعين.

ثم نوهت السورة بشأن القرآن العظيم، وذلك من الآية الخامسة والسبعين إلى الآية الثانية والثمانين.

إن سورة الواقعة تحدثت عن الناس كلهم، مؤمنهم وكافرهم، ووصفت جزاء كل منهم، بما لا يوجد في غيرها.

وزعم بعضهم أن أصناف الناس الثلاثة المذكورون هنا، وهم: السابقون، وأصحاب اليمين، وأصحاب الشمال، هم المذكورون في قوله تعالى: ﴿فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ وَمِنْهُمْ مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ إِذْنِ اللَّهِ﴾ [فاطر: ٣٢].

وليس الأمر كذلك؛ لأن الثلاثة الذين هم في آية سورة فاطر كلهم من المسلمين ومن حملة القرآن، بدليل أول الآية: ﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا﴾ [فاطر: ٣٢].

أما الآيات التي في سورة الواقعة فهي تتحدث عن قسمين من المؤمنين، هما: السابقون بالخيرات، والفائزون بقدر راجح من الحسنات، وما بقي من أصناف الناس، فهم: الكافرون أصحاب الشمال، الذين هم في سموم وحميم، وظل من يحموم. نسأل الله العفو والعافية، والسلامة من النار، والفوز بالجنة.

تقسيم السورة إلى شطرين:

ومع أن موضوع السورة واحد، هو البعث والحساب والجزاء، وبيان اختلاف أحوال الناس فيه، إلا أنه يمكن تقسيمها إلى شطرين:

الشرط الأول: من أولها إلى الآية السادسة والخمسين، فإن السورة في هذا الشرط، تبدأ بما يقطع الطريق على منكري البعث، القائلين: إن هي إلا أرحام تدفع، وأرض

تبع، وما يهلكنا إلا الدهر، وتقطع الطريق على من يُقسِمون بالله جهد أيمانهم لا يبعث الله من يموت، وعلى القائلين: ﴿مَا نَدْرِي مَا السَّاعَةُ إِنْ نَّظُنُّ إِلَّا ظَنًّا وَمَا نَحْنُ بِمُستَقِينَ﴾ [الجاثية: ٣٢] وعلى من قال: ﴿وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً﴾ [الكهف: ٣٦، وفصلت: ٥٠].

إنها تخرس السنة هؤلاء وأولئك، فتقطع كل شك في قيامها، وتزيل كل لبس في ذلك، وتسميها بالواقعة، وليس لهذا الوقوع من مكذب!

ثم تصف السورة القيامة بأوصاف تُشعر بالجزم، وتزلزل النفس، وتذكر أصناف الناس يوم الحشر والنشر، وتُفَصِّل مصير كل منهم تفصيلاً دقيقاً وافياً كأنه معروض للعيان، لاسيما مصير المكذبين أصحاب الشمال، حيث توضح السورة أسباب سوء المصير، بأنهم كانوا في الدنيا من المترفين البطرين، المصرين على الكفر والإشراك بالله تعالى، وكانوا ممن يستبعدون البعث بعد الموت لهم ولآبائهم الأولين.

أما الشطر الآخر من السورة، فهو من الآية السابعة والخمسين إلى الآية السادسة والتسعين في نهاية السورة.

وهذا الشطر يتكلم عن الخلق الأول من مَنِيَّ يُمْنَى، ويقرر النشأة الأولى للإنسان، ويجعل هذه المقدمة تتصدر خمسة أدلة على البعث والنشور.

فتتناول نشأة الحياة في صور أربع، وكلها صور للنشأة الأولى، وللحياة من العدم.

١ - وهي خلق الإنسان من مَنِيَّ يُمْنَى، والله تعالى هو الخالق لهذا المني، وهو الذي يُمَيِّتُنَا بعد حياتنا.

٢ - ومن ذلك حياة الزرع والحرث، من الأرض الميتة.

٣ - وحياة كل كائن حي بالماء الذي أنزله الله تعالى من المزن، وليس لمخلوق دَخَلَ في ذلك، ولو شاء الله تعالى لجعله أجاباً لا يُنبت نباتاً ولا يُخرج كلاً.

٤ - ومن ذلك النار، وأصلها الذي تنشأ منه، وهي تذكر الناس بنار الآخرة، وكلها صور مألوفة في حياة الناس وواقعهم، ولا سبيل لإنكارها.

وبعد التنويه بشأن القرآن العظيم، تتناول السورة مشهد الاحتضار عند الموت، وما ينتظر كل صنف من أصناف الناس من النعيم أو العذاب، في لمسة عميقة الأثر في النفوس حين يقف الطب عاجزاً أمام المحتضر، ويقف الأهل والمال والأحباب مكتوفي الأيدي، لا يملكون أن يزيدوه لحظة من العمر فوق عمره، ولا نفساً فوق أنفاسه.

وقد لخص آخر السورة ما جاء في أولها من المصير الذي أعده الله تعالى للسابقين وأهل اليمين والمكذبين الضالين، وسواء صدق بعض الناس ذلك أو كذّبوه فإن هذا لن يغير من الواقع شيئاً ﴿إِنَّ هَذَا لَهُوَ حَقُّ الْيَقِينِ﴾ ﴿١٥﴾ ﴿فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ﴾ ﴿١٦﴾.

تَفْسِيرُ السُّورَةِ

قِيَامُ السَّاعَةِ وَأَهْوَالُهَا

١ - ٣ - ﴿إِذَا وَقَعَتِ الْوَاقِعَةُ ۖ لَيْسَ لَوْعِنَهَا كَاذِبَةٌ ۖ﴾ (١) ﴿خَافِضَةٌ رَافِعَةٌ ۖ﴾ (٢)

بدأت السورة بتقرير الحقيقة التي لا شك فيها، وهي أن البعث حق، وأن الحساب حق، وأن الجزاء حق، لقد غفل كثير من الخلق عن هذه الحقيقة تحت وطأة الشهوات والشبهات، أو تقليد الآباء والأجداد، أو سكرة الحياة، فقال بعضهم: ﴿وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً﴾ [الكهف: ٣٦ وفصلت: ٥٠].

وقال آخرون: ﴿مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلَّا الدَّهْرُ﴾ [الجاثية: ٢٤] إن هي إلا أرحام تدفع، وأرض تبلع، وما يهلكنا إلا الدهر، وقد يؤكدون ذلك، ويقسمون عليه: ﴿وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَنِهِمْ لَا يَبْعَثُ اللَّهُ مَن يَمُوتُ﴾ [النحل: ٣٨].

(ونحن نرى ميت الغد يشيع ميت اليوم، وهو يحدث صاحبه عن الشهوات والآمال العريضة في الحياة، غير مستفيد من موكب الموت، ومشهد الجنازة بين يديه، وتمضي القرون، وتُدفن جماهير الناس، والمنكرون للبعث موجودون، وصوت الكفر عالٍ في مشارق الأرض ومغاربها^(١)).

وعندما يأتي أمر الله تعالى تقوم الساعة فجأة ﴿إِذَا وَقَعَتِ الْوَاقِعَةُ ۖ﴾ (١) أي: إذا قامت القيامة التي لا بد من وقوعها، وحدثت الطامة التي ينخلع لها قلب الإنسان، كان من أهوالها ما لا يصفه الخيال، ولا يُحيط به الوجدان.

فالواقعة: اسم من أسماء القيامة، وسميت كذلك لتحقيق وقوعها.

والواقعة: هي الحادثة التي وقعت عند النفخ في الصور.

(١) يُنظَر: «نحو تفسير موضوعي لسور القرآن» (ص ٤٢٥).

وافتحاح السورة بـ ﴿إِذَا﴾ وهي ظرف تتضمن معنى الشرط، استهلال بديع، فيه من التهويل بتوقع حدث عظيم يحدث.

وعندما تقوم الساعة، تَقْطَعُ كل شك، وتُلْجِمُ كل لسان، فلا تجد أحداً يَكْذِبُ بها، فيخمد صوت الإلحاد، ويتبدد إلى غير رجعة ﴿لَيْسَ لَوْعَنَهَا كَاذِبَةٌ﴾ (٢) أي: لا شك في ذلك، لأن الأدلة السمعية والعقلية قد تظاهرت عليها، ولأن حكمة الله تعالى تقضى ألا يخلق الناس عبثاً دون حساب ولا جزاء، فمع أن الإنسان أكثر شيء جدلاً، ومع أنه عنيد مكابر، ولكن ماذا عساه أن يقول، وهو يرى القيامة بأم عينيه، وينظر إلى الهول وقد وقع، وقد جفت حلوق الأفاكين، وكذب الواقع لغوهم، ويدد باطلهم؟

وعندما ترى كل نفس كافرة أهوال الساعة عياناً، فإنها تُسارع إلى الإيمان، ولكن هيهات أن ينفع، فالصيف ضيعت اللبن، قال تعالى: ﴿فَلَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا قَالُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَحَدُّهُ وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِ مُشْرِكِينَ﴾ (٨٤) فَلَمْ يَكْ يَنْفَعُهُمْ إِيْمَانُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا ﴿ [غافر: ٨٤، ٨٥].

وإذا قامت الساعة فهي كائنة لا محالة، ولا توجد قوة تدفع قيامها أو تمنعه ﴿اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ يُجَمِّعُنَّكُمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَمَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ حَدِيثًا﴾ (٨٧) [النساء].

فأقلعوا عن اعتقادكم - أيها المكذبون للبعث والنشور - واعلموا أنكم على ضلال وجهل فاضح، وتداركوا ما فاتكم، وأنيبوا إلى ربكم وأسلموا له. وهذا وعيد بتحذير المنكرين لقيام الساعة في وقت المهلة، قبل أن يأتي وقت الحسرة والندامة، والخزي والخيبة في ساحة الحشر والقيامة.

وعندما تقوم الساعة فإنها تخفض أقواماً كانت لهم منزلة رفيعة في الدنيا، يشار إليهم بالبنان، كانوا أعزة، أصحاب مال وجاه، ولكنهم لم يُعِدُّوا العدة لهذا اليوم، غمرتهم الحياة بزخرفها، فنسوا لقاء الله، فيبعثون يوم القيامة سُوقَى وصعاليك، لا يملكون شيئاً من زاد الآخرة، فإن موازين الناس قد اختلفت، وعندما يُساق عزيز الدنيا ذليل الآخرة

إلى النار، يقال له تهكُّمًا: ﴿ذُقْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ﴾ [الدخان] أي: إنك كنت كذلك في الدنيا.

وبالمقابل فإن هناك أقوامًا كانوا في الدنيا من غبرة الناس، مغمورين، يعملون للآخرة في خفاء وبُعد عن الرياء، يكونون يوم القيامة قممًا، في أعلى الدرجات ﴿إِنَّهُ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْ عِبَادِي يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّاحِمِينَ﴾ [١٨] فَاتَّخَذْنَاهُمْ سِخْرِيًّا حَتَّى أَنْسَوْكُم ذِكْرِي وَكُنْتُمْ مِنْهُمْ تَضْحَكُونَ ﴿١٩﴾ إِنِّي جَزَيْتُهُمُ الْيَوْمَ بِمَا صَبَرُوا أَنَّهُمْ هُمُ الْفَآيُزُونَ﴾ [المؤمنون].

ورُبَّ «كاسية في الدنيا عارية يوم القيامة»، إنه يومٌ تصحَّح فيه الأوضاع، فيظهر الحق، ويختفي الزور، ويستقيم أمرها في ميزان الله.

ذلكم قول الله تعالى عن يوم القيامة: ﴿خَافِضَةٌ رَّافِعَةٌ﴾ [٢] أي: خافضة لأناس في أسفل سافلين، رافعة لأناس في أعلى عليين، وهو يومٌ خفضت فيه القيامة صوتها، فأسمعت القريب، ورفعت صوتها فأسمعت البعيد.

قال الحسن: تخفض أقوامًا إلى الجحيم، وإن كانوا في الدنيا أعزة، وترفع الآخرين إلى أعلى عليين، إلى النعيم المقيم، وإن كانوا في الدنيا وُضْعاء^(١). وقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: هذه الساعة خفضت أعداء الله إلى النار، ورفعت أولياء الله إلى الجنة^(٢).

فالآخرة ترفع أهل الصلاح والتقوى، ممن كان أكثر الناس في الدنيا لا يعبأ بهم، وتخفض أقوامًا كانوا في الدنيا في رفعة وسيادة، وهم من الجبابرة المفسدين. ويوم القيامة ترى أماكن من الأرض كانت منخفضة في الدنيا، فإذا هي مرتفعة، وترى أماكن من الأرض كانت في الدنيا مرتفعة، كالجبال والصوامع، فإذا هي منخفضة. فالخفض والرفع يكون في الناس، ويكون أيضًا في سطح هذه الأرض، كما قال

(١) يُنظَر: «تفسير ابن كثير» (٥١٤/٧).

(٢) أخرجه الطبري وابن أبي حاتم عن عثمان بن سراقه (٢٨٠/٢٢) و«فتح الباري» (٦٢٦/٨).

تعالى: ﴿وَسْتَلُونَكَ عَنِ الْجِبَالِ فَقُلْ يَنْسِفُهَا رَبِّي نَسْفًا ۖ ﴿١٥﴾ فَيَذَرُهَا قَاعًا صَفْصَفًا ۖ ﴿١٦﴾ لَا تَرَى فِيهَا عِوَجًا وَلَا أَمْتًا ۖ ﴿١٧﴾﴾ [طه] أي: ليس فيها مرتفع ولا منخفض.

كما جاء في الحديث: عن سهل بن سعد رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «يُحْشَرُ النَّاسُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَى أَرْضٍ بِيضَاءِ عَفْرَاءٍ، كَقُرْصَةِ نَقِيٍّ» قال سهل أو غيره: «ليس فيها معلم لأحد»^(١). وكلا التفسيرين يكمل أحدهما الآخر، ليس بينهما تدافع.

والمعنى الأول: يرغب الناس في العمل الصالح وهم في الدنيا لترتفع منزلتهم يوم لقاء الله تعالى، ويرهب الفاسقين من سوء المصير حتى يقلعوا عما هم فيه قبل أن يأتي يوم لا مرد له من الله.

والمعنى الثاني: فيه التهويل من شأن يوم القيامة، حتى يستعد الخلق لاستقباله. وهنا معنى ثالث: وهو أن القيامة نفسها يكون لها صوت عالٍ، وصوت منخفض، لتسمع القريب والبعيد. قال تعالى في وصف يوم القيامة:

٤ - ٦ - ﴿إِذَا رُجَّتِ الْأَرْضُ رَجًا ۖ ﴿٤﴾ وَبُسَّتِ الْجِبَالُ بَسًا ۖ ﴿٥﴾ فَكَانَتْ هَبَاءً مُنْبَثًا ۖ ﴿٦﴾﴾

وعند قيام الساعة: تُزَلْزَلُ الْأَرْضُ زَلْزَالًا عَنِيفًا، وتضطرب اضطرابًا شديدًا، فيتهدم كل بناء شامخ، وطودٍ راسخ، وينكسر كل ما فيها من جبال وحصون. ﴿إِذَا رُجَّتِ الْأَرْضُ رَجًا ۖ ﴿٤﴾﴾ أي تحركت واضطربت.

وإلى جوار هذا الزلزال المادي، هناك زلزال اجتماعي، أشارت إليه الآية السابقة تُهدم فيه مقاييس الدنيا: من الألقاب، والأنساب، والجاه، والسلطان، ليحل محله ميزان التقوى والعمل الصالح ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَىٰ﴾ [الحجرات: ١٣] ﴿فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ فَلَا أَنْسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَاءَلُونَ﴾ [المؤمنون].

وبما أن هذه الأرض الثابتة المستقرة - في حِسِّ الناس - تُرْجُّ رَجًّا عند قيام الساعة، فإن الجبال الصُّلْبَةَ الرَّاسِيَةَ، التي هي أوتاد للأرض، تتحول صخورها إلى ذرات دقيقة،

(١) البخاري برقم (٦٥٢١) ومسلم (٢٧٩٠).

كالفراش المبثوث، والعهن المنفوش، فتُنفَسُ نسفًا، وتمر مرَّ السحاب، وتستوي مع الوديان والسهول ﴿وَبُسَّتِ الْجِبَالُ بَسًا﴾ ٥ أي: فُتَّتْ تفتيتًا دقيقًا.

فتصير الجبال غبارًا متطايرًا في الجو قد ذره الريح ﴿فَكَانَتْ هَبَاءً مُنْبَثًا﴾ ٦ أي أصبحت الأرض ليس عليها جبل ولا معلم، قاعًا صفصفًا، لا ترى فيها عوجًا ولا أمتًا.

قال ابن عباس رضي الله عنهما: الهباء هو الذي يطير من النار إذا اضطرمت، يطير منها الشرر، فإذا وقع لم يكن شيئًا ^(١).

وقال علي بن أبي طالب عليه السلام: الهباء المنبث: رهج الدواب.

والهباء المنثور: غبار الشمس الذي تراه في شعاع الكوّة ^(٢).

وهكذا قال مجاهد والحسن وغيرهما.

١. قال تعالى في وصف الجبال عند قيام الساعة: ﴿وَسِيرُ الْجِبَالِ سِيرًا﴾ ١٠ [الطور].

٢. وقال: ﴿وَإِذَا الْجِبَالُ سُفَّتْ﴾ ١٠ [المرسلات].

٣. وقال سبحانه: ﴿وَسُيِّرَتِ الْجِبَالُ فَكَانَتْ سَرَابًا﴾ ٢ [النبا].

٤. وقال عز وجل: ﴿يَوْمَ تَرْجُفُ الْأَرْضُ وَالْجِبَالُ وَكَانَتِ الْجِبَالُ كَيْيَاً مَهِيلًا﴾ ١١ [المزمل].

٥. وقال جل شأنه: ﴿يَوْمَ تُبَدَّلُ الْأَرْضُ غَيْرَ الْأَرْضِ وَالسَّمَوَاتُ﴾ [إبراهيم: ٤٨].

فإذا رُجَّتْ الأرض، وبُسَّتِ الجبال قبيل قيام الساعة، وجد كل إنسان أمامه ما عمله في الدنيا من خير أو شر ﴿فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ﴾ ٧ ﴿وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ﴾ ٨ [الزلزلة].

أَصْنَافُ النَّاسِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ثَلَاثَةٌ

٨، ٧ - ﴿وَكُنْتُمْ أَزْوَاجًا ثَلَاثَةً﴾ ٧ ﴿فَأَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ﴾ ^(٣) مَا أَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ ﴿٨﴾

(٢٠١) الطبري (٢٨٥/٢٢).

(٣) ترك الكوفي والحمصي عدّ قوله تعالى ﴿فَأَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ﴾ آية، وكذا قوله تعالى: ﴿الْمُتَّقِينَ﴾ وعدهما غيرهما آية.

وقد بين سبحانه أن أبناء آدم سيكونون يوم القيامة أصنافاً ثلاثة: ﴿وَكُنْتُمْ﴾ أيها الخلق ﴿أَزْوَاجًا ثَلَاثَةً﴾ أي انقسمتم ثلاث فرق، بحسب أعمالكم الحسنة والسيئة.

والأزواج: هي الأصناف التي بعضها من بعض، صنفان في الجنة، وصنف في النار، والزوج يطلق على الصنف وعلى النوع.

ثم فسرت الآيات: الأزواج الثلاثة، وفصلت أحوالهم، وهم: أولاً: ﴿فَأَصْحَابُ الْيَمِينِ﴾ أهل الجنة، وهم الذين يأخذون كتب أعمالهم بأيمانهم، يكونون في الجهة اليمنى يوم الحشر، عن يمين العرش، وليس هذا نسبة إلى اليمين والشمال، وقيل: المراد عن يمين آدم وشماله، كما في حديث الإسراء.

وهؤلاء هم السعداء الذين يأخذون كتبهم يوم القيامة بأيمانهم. وأهل اليمين، هم الذين أطاعوا ربهم، وخالفوا أهواءهم، فكانت عاقبتهم الجنة. وللتعظيم من شأنهم، وبيان علو منزلتهم، وتفخيم لأحوالهم؛ يأتي هذا الاستفهام للتفخيم والتعجب من حالهم ﴿مَا أَصْحَابُ الْيَمِينِ﴾ هل تدري أي شيء هم؟ وما هو حالهم، وصفتهم؟ وقبل أن يفصل القرآن حالهم ذكر الصنف الثاني المقابل لهم، فقال سبحانه:

٩ - ﴿وَأَصْحَابُ الشِّمَالِ^(١) مَا أَصْحَابُ الشِّمَالِ﴾

أي: وأصحاب الشمال أهل النار، وهم الذين يأخذون كتب أعمالهم بشمالهم، ويكونون جهة الشمال في يوم الحشر، عن شمال العرش، وهؤلاء هم الأشقياء الذين عصوا ربهم، وأطاعوا أهواءهم وشياطينهم، فكانت النار عاقبتهم.

ولفظ: ﴿الشِّمَالِ﴾ من الشُّوم، وهو الضر ضد النفع، فهم قد جلبوا الشؤم على أنفسهم؛ لأنهم طغوا وآثروا الحياة الدنيا، وكانت العرب تشاءم من الجهة اليسرى، وتتفاءل بالجهة اليمنى، ويأتي التعجب من شأنهم واحتقارهم وتهويل حالهم في هذا الاستفهام ﴿مَا أَصْحَابُ الشِّمَالِ﴾ هل تدرون من هم؟ وما صفتهم وما حالهم؟ إنهم الذين

(١) ترك الكوفي والحمصي عد قوله تعالى: ﴿الشِّمَالِ﴾ آية وعدّها غيرهما آية.

جلبوا الشقاء على أنفسهم بمخالفة الله ورسوله.

وقبل أن يُفَصِّل القرآن حالهم يذكر الفريق الثالث بوصفهم وبيان حالهم، فيقول تعالى:

١٠ - ١٢ - ﴿وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ ﴿١٠﴾ أُولَئِكَ الْمُقَرَّبُونَ ﴿١١﴾ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ ﴿١٢﴾﴾

السابقون إلى الإيمان والطاعات والخيرات في الدنيا هم السابقون إلى دخول الجنات يوم القيامة، وهم الذين سبقت لهم السعادة، وكانت أعمالهم في الدنيا سبقاً إلى أعمال البر وترك المعاصي، وهم أفضل الأصناف الثلاثة؛ لأنهم سبقوا غيرهم إلى طاعة الله تعالى في كل قول وفعل، وتقربوا إليه بكل عمل صالح، وهم الذين اشتهرت أحوالهم، وعُرفت منزلتهم، وبلغت من الرفعة مبلغاً لا يرقى إليه أحد، كما قال تعالى: ﴿وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ ﴿١٠﴾ أُولَئِكَ الْمُقَرَّبُونَ ﴿١١﴾﴾ [التوبة: ١٠٠].

وقال سبحانه: ﴿أُولَئِكَ يُسْرِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَهُمْ لَهَا سَابِقُونَ ﴿١١﴾﴾ [المؤمنون].

فهم السابقون إلى الخيرات والحسنات، والسابقون إلى النعيم والجنات.

في حديث عائشة رضي الله عنها أن رسول الله ﷺ قال: «أتدرون من السابقون إلى ظل الله يوم القيامة؟» قالوا: الله ورسوله أعلم، قال: «الذين إذا أعطوا الحق قبلوه، وإذا سُئِلوه بذلوه، وحكموا للناس حكمهم لأنفسهم»^(١).

ولما أراد الله تعالى أن يُقَرِّب السابقين أعاد الكلمة ذاتها، كأنه تعالى يقول: إنهم هم؛ إذ ليس هناك من وَصِف آخر يزيدهم شيئاً، فحالهم قد بلغ متتهى الفضل والرفعة، بحيث لا يجد المتكلم خبراً يخبر به عنهم، أدل على مرتبتهم من اللفظ نفسه، فالسابقون هم السابقون وكفى، وهذا أبلغ في الدلالة على شرف قدرهم من جملة ﴿مَا أَصْحَبُ الِّمِئَنَةِ﴾ وجملة ﴿مَا أَصْحَبُ النَّشْءَةِ﴾ فإنها بالنسبة لأصحاب الميمنة للتفخيم

(١) «المسند» (٦٧/٦) برقم (٢٤٣٧٩، ٢٤٣٩٨) وفيه ابن لهيعة قد تفرد به، وهو مما لا يحتمل تفرده وبقية رجاله ثقات رجال الصحيح (محققوه)، وأخرجه البيهقي في الشعب (١١١٣٩) وأبو نعيم في «الحلية» (١٦/١)، (١٨٦/٢) وابن حجر في «الأمالي المطلقة» ص ١١٣، وقال: هذا حديث غريب، ولم أره إلا من حديث ابن لهيعة، وخالد معروف، يُنظر تحقيق: «المسند» (٤٤٠/٤٠).

والتعظيم، وبالنسبة لأصحاب المشأمة للتفضيع والتحقير، وتعجب السامع من شأن الفريقين، فكأنه تعالى قال: فأصحاب الميمنة، ما أحسن حالهم! وأصحاب المشأمة، ما أسوأ حالهم! وفي هذا تشويق للسامع إلى معرفة أحوالهم.

ولمَّا ذكر الله تعالى في أول السورة هول القيامة تخويفاً لعباده، وكان من الناس من هو محسن، ومن هو مسيء، قدّم أصحاب اليمين ليزغبوا أكثر فيما عند الله، ثم ذكر ما يقابلهم، وهم أهل الشمال ليزهبوا ويكفّوا عن كفرهم وتكذيبهم، ثم أّخر السابقين وهم الذين لا يحزّنهم الفرع الأكبر؛ كي يجتهد أصحاب اليمين في القرب منهم، ويتشوق السامعون إلى معرفة أحوالهم، وليبدأ بهم عند تفصيل أحوال الفرق الثلاثة ترغيباً في الاقتداء بهم، وهذا من الأسلوب البلاغي على طريقة اللف والنشر المشوش^(١).

ثم أثنى سبحانه وتعالى على السابقين، فقال: ﴿أُولَٰئِكَ الْمُقَرَّبُونَ﴾ (١١) من الله تعالى، في جنات النعيم في أعلى عليين، في المنازل العالية التي لا منزلة فوقها، يقربهم سبحانه منه في ظل عرشه ودار كرامته.

والمقربون: هم المحبوبون عند الله تعالى، كما جاء في الحديث القدسي: عن أبي هريرة رضي الله عنه، عن رسول الله ﷺ: «قال الله عز وجل: من آذى لي ولياً فقد آذنته بالحرب، وما تقرب إليّ عبدي بشيء أحب إليّ مما افترضت عليه، وما يزال عبدي يتقرب إليّ بالنوافل حتى أحبه، فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به، وبصره الذي يبصر به، ويده التي يبطش بها، ورجله التي يمشي بها، وإن سألني لأعطينه، ولئن استعاذ بي لأعيذه»^(٢).

وإذا أحب الله عبداً أحبه أهل السماء، وأحبه أهل الأرض، ثم يوضع له القبول فيها. وهؤلاء المقربون في جنة الخلد، يخلّدون فيها، وينعمون في النعيم الأكبر والأسنى،

(١) يُنظر: «تفسير التحرير والتنوير» (٢٨٧/١٣) و«تفسير الألوسي» (١٣١/٢٧).

(٢) الحديث في «صحيح البخاري» برقم (٦٥٠٢).

وهو نعيم القرب من ربهم، وكفى بذلك نعمة، وهذا وصف إجمالي للسابقين قبل تفصيل نعيمهم. والسابقون يكونون يوم القيامة:

١٣، ١٤ - ﴿ثَلَاثَةٌ مِنَ الْأَوَّلِينَ ﴿١٣﴾ وَقَلِيلٌ مِنَ الْآخِرِينَ ﴿١٤﴾﴾

يُبين سبحانه وتعالى في هاتين الآيتين، أن السابقين المقربين هم جماعة كثيرة من المتقدمين في هذه الأمة، أي: هم عدد كبير من القرون المفضلة، وسلفنا الصالح من صدر هذه الأمة، وهؤلاء السابقون عدد قليل من متأخري هذه الأمة.

وهذا يدل على فضل صدر هذه الأمة في الجملة، على متأخريها، لكون المقربين من الأولين أكثر من المتأخرين، والمقربون هم خواص الخلق، وقد دلت الأحاديث على ذلك. كما في حديث ابن مسعود رضي الله عنه: أن النبي ﷺ قال: «خير الناس قرني، ثم الذين يلونهم، ثم الذين يلونهم، ثم يجيء قوم تسبق شهادة أحدهم يمينه، ويمينه شهادته» ^(١) وهم الذين نشروا الإسلام في أرجاء المعمورة بعلمهم وعملهم، فهم جماعة كثيرة من الأولين.

وقال الحسن بن أبي الحسن، وغيره: المراد: السابقون من الأمم، والسابقون من هذه الأمة، وذلك: إما أن يقترب أصحاب الأنبياء بمجموعهم إلى أصحاب محمد ﷺ، فأولئك أكثر لا محالة، وإما أن يقترب أصحاب الأنبياء ومن سبق من أبناء الأمم، إلى السابقين من جميع هذه الأمة، فأولئك أكثر ^(٢).

والسابقون في الأمم الماضية، كأصحاب موسى الذين رافقوه في التيه، ومثل الحواريين، وكثير من أصحاب أنبياء بني إسرائيل، ومن ذلك أصحاب النبي ﷺ الذي قال الله فيهم: ﴿وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ أُولَئِكَ مِنْ الْقَدِّمِينَ وَالَّذِينَ آمَنُوا مِنْ بَنِي إِسْرَءِيلَ وَمِمَّنْ سَبَقَ مِنْ بَنِي إِسْرَءِيلَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ﴾ [التوبة: ١٠٠].

والداخلون الجنة من السابقين في هذه الأمة، هم قليل بالنسبة إلى من كان قبلهم،

(١) من حديث عبد الله بن مسعود عند البخاري (٣٦٥١).

(٢) «تفسير ابن عطية» (٢٤٠/٥).

فهم كثيرون، لكثرة الأنبياء فيهم وكثرة مَنْ أجابهم.

وهذا بخلاف أهل اليمين، فإنهم ثلثة من الأولين وثلثة من الآخرين، وعليه: فقد يكون من أصحاب اليمين في هذه الأمة مَنْ هو أكثر من أصحاب اليمين من الأمم الأخرى.

وكان السابقون عددًا قليلًا من الآخرين؛ لأنهم لا يجدون لهم أعوانًا على دينهم، فهم غرباء بين الناس بتقواهم، وسَطَ قُوى مناوئة، وخصومات مؤذية.

والثلثة: هي الجماعة التي لا يُخَصَر عددها.

وعلى هذا: فالثلثان من الأولين والآخرين هما من أمة محمد ﷺ، ويرشحه أن الخطاب في قوله تعالى: ﴿وَكُنْتُمْ أَزْوَاجًا ثَلَاثَةً﴾ لأمة محمد ﷺ وهذا التقسيم خاص بهم:

١. عن أبي بكرة ؓ أن النبي ﷺ قال: «جميعها من هذه الأمة»^(١).

٢. وفي حديث أبي هريرة ؓ أن النبي ﷺ قال: «نحن الآخرون السابقون يوم القيامة»^(٢).

٣. وفي الصحيح: عن أبي سعيد الخدري ؓ أن النبي ﷺ قال: «إني أرجو أن تكونوا ربع أهل الجنة»، ثم قال: «ثلث أهل الجنة»، ثم قال: «نصف أهل الجنة»^(٣).

ويرى بعض المفسرين أن الثلثة من الأولين تعني: الصالحين، وأصحاب الأنبياء الذين سبقوا محمدًا ﷺ برسالاتهم، وأن القلة من الآخرين تعني: المسلمين من هذه الأمة، نظرًا لكثرة من سبق من الأنبياء والأمم، ولعل القول الأول هو الأرجح.

كلمات فيما أعده الله لأصناف الناس يوم القيامة:

وهذه كلمات فيما أعده الله تعالى لكل من السابقين، وأهل اليمين، وأهل الشمال على ضوء ما جاء في آيات السورة:

(١) قال الهيثمي في «مجمع الزوائد» (١٢٠/٧): ورواه الطبراني بإسنادين رجال أحدهما رجال الصحيح، غير علي بن زيد وهو ثقة سيئ الحفظ، وهو في «مسند الطيالسي» (٩٢٧) قال محققه: إسناده ضعيف.

(٢) البخاري (٢٣٨، ٨٩٦، ٧٤٩٥) ومسلم (١٩، ٨٥٥) و«المسند» (٧٣١٠) وابن حبان (٢٧٨٤) و«سنن النسائي الكبرى» (١٦٦٦).

(٣) يُنظَر: حديث أبي سعيد الخدري عند البخاري بأرقام (٣٣٤٨، ٤٧٤١، ٦٥٣٠، ٧٤٨٣) ومسلم (٢٢٢).

أَوَّلًا: مُجْمَلُ مَا أَعَدَّهُ اللَّهُ لِلْسَّابِقِينَ الْمُقَرَّبِينَ بِحَسَبِ رَقَمِ الْآيَةِ:

معنى الآية: ١٠-١٢ إنهم يتمتعون بمختلف أنواع النعيم في جنة الخلد، لا يحولون عنها ولا يزولون، فهم ﴿فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ﴾ (١٣).

الآيتان: ١٥، ١٦- وهم يستريحون على أسرة منسوجة بالذهب، ومرصعة بالدر والياقوت والزبرجد، حال كونهم متكئين عليها في مقابلة بعضهم بعضاً، لإدخال الأنس والسرور عليهم، وحتى لا ينظر بعضهم إلى قفا بعض، إنهم: ﴿عَلَى سُرُرٍ مَوْضُوئَةٍ﴾ (١٥) مُتَّكِئِينَ عَلَيْهَا مُتَقَابِلِينَ.

والآيات: ١٧-١٩- ولتكريمهم وإعزازهم، فإنه يطوف عليهم -في الجنة- ولدان مخلدون فيها، لا يغتريهم ضعف ولا عجز ولا هرم، بل هم دائماً في نضرة الشباب ورقته ونشاطه، يطوفون على أهل الجنة بأكواب من فضة، وأباريق من ذهب، فيها ألوان من الشراب، إلى جوار كؤوس الخمر، من عيونها الجارية التي لا تنقطع، ولا تُخَمَّرُ ولا تُغَصَّرُ، ولا تُسَبَّبُ أَلَمًا ولا صُداعًا، ولا تسبب ضغينة بين الشاربين، ولا تُذهب عقولهم، ولا تُبِيدُ أموالهم، ولا تهدم صحتهم، ولا تحطُّ من كرامتهم ﴿يَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَنٌ مُّخَلَّدُونَ﴾ (١٧) بِأَكْوَابٍ وَأَبَارِيقَ وَكَأْسٍ مِنْ مَّعِينٍ (١٨) لَا يَصَدَّعُونَ عَنْهَا وَلَا يُزْفُونَ (١٩).

الآيتان: ٢٠، ٢١ - وفي الجنة أنواع الفاكهة من كل ما يشتهي المرء ويتخير، وفيها مما لذ وطاب من أنواع اللحوم، وكل ما يتمنونه ويطلبونه من لحوم الطيور خاصة، وهم يأكلون تشهيًا وتلذذًا! إذ إنهم لا يشعرون في الجنة بجوع ولا عطش، ولا تخرج منهم فضلات، ولا يحتاجون إلى علاج أمراض السمنة والتخمة ولا غيرها ﴿وَفَكَهْمُ مِمَّا يَخْتَارُونَ﴾ (٢٠) وَلَحَظَ طَيْرٌ مِمَّا يَشْتَهُونَ (٢١).

الآيات: ٢٢-٢٤- وللسابقين في الجنة حور عين، كأمثال اللؤلؤ المصون في أصدافه، وقد أعدَّ الله لهم ذلك لقاء إيمانهم وإخلاص التوحيد لربهم والسبق إلى صالح الأعمال ﴿وَحُورٌ عِينٌ﴾ (٢٢) كَأَمْثَلِ اللَّوْلُؤِ الْمَكْنُونِ (٢٣) جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (٢٤).

الآيتان: ٢٥، ٢٦- وهم يَسْلَمُونَ في الجنة من كل عيب وضُرٍّ وألم، ولا يسمعون فيها لغواً ولا كذباً ولا باطلاً، وكل منهم يَسْلِمُ على الآخر، وتسَلِّمُ عليهم الملائكة بما صبروا وآمنوا، وإذا طلبوا شيئاً قالوا: سبحانه اللهم، فالتسبيح يجري فيهم مجرى النفس، وإذا فرغوا مما طلبوا كان آخر دعواهم الحمد لله رب العالمين، إنهم: ﴿لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا تَأْثِيمًا﴾ (٢٥) ﴿إِلَّا قِيلًا سَلَامًا سَلَامًا﴾ (٢٦).

والسابقون هم الذين قال الله فيهم في نهاية السورة: ﴿فَأَمَّا إِنْ كَانَ مِنَ الْمُقَرَّبِينَ﴾ (٨٨) ﴿فَرَوْحٌ وَرِيحَانٌ وَجَنَّاتٌ يَجْرِى فِيهَا الْكُوفُورُ﴾ (٨٩) [الواقعة].

فمتاعهم ليس في جنة النعيم فحسب، بل هم في روح وريحان، وهم في رضوان من الله أكبر، ولذة التمتع إلى وجه الله الكريم.

ثَانِيًا: مُجْمَلُ مَا أَعَدَّ اللَّهُ لِأَهْلِ الْيَمِينِ

وهذا يشمل عصاة المؤمنين الذين أخذوا جزاءهم على معاصيهم، أو غُفِيَ عنهم قبل دخول الجنة:

الآيات: ٢٨-٣٠- إن كلاً من أصحاب اليمين يُحْصِلُ في الآخرة ما كان يتمناه في دنياه ولم يستطع الحصول عليه، فيحقق الله له في الجنة كل ما يشتهي ويتمنى. ومن ذلك أن البيئة التي نزل عليها القرآن كان أهلها يحبون أنواعاً من الفاكهة والشجر، وكان شجراً السدر والموز يكثر في بلادهم، فيتمناه بعضهم، وربما تمنى آخرون أن يكون له شجر وافر الظلال يستظل به، والله تعالى يحقق لهم مطلوبهم في الجنة من: السدر، والموز، أو الطلح، والشجر الظليل، وإنه يشبهه في الشكل الذي كان يألفه ويعرفه في الدنيا، ولكن ما في الجنة شيء آخر ﴿وَأَتُوا بِهِمْ مَبْنًى﴾ [البقرة: ٢٥].

وفي الجنة ﴿مَا أَشْتَهَى النَّفْسُ وَتَلَذُّ الْأَعْيُنُ وَأَنْتُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ [الزخرف: ٧١].

قال تعالى عن نعيم أصحاب اليمين ﴿فِي سِدْرٍ مَّخْضُودٍ﴾ (٨٨) ﴿وَطَلْحٍ مَّنْضُودٍ﴾ (٨٩) ﴿وَوَلِّ مَمْدُودٍ﴾ (٩٠).

الآية: ٣١- وقد عرف العرب الذين نزل عليهم القرآن، أن الماء يُصْبُ صَبًّا، ويجري

في الأخاديد، وأهل اليمين يكونون في أماكن خصبة، بين الماء المنسكب المتدفق الذي لا ينقطع ولا يتغير، وبين الشجر الكثيف، والظلال الوارفة، والثمار الكثيرة، وهذا معنى ﴿وَمَاءٌ مَّسْكُوبٌ﴾ (٣١).

الآيتان: ٣٢، ٣٣- وفي الجنة فواكه كثيرة متعددة ومتنوعة، لا تنقطع صيفاً ولا شتاءً ﴿وَفَكَهْمٌ كَثِيرٌ﴾ (٣٢) ﴿لَا مَقْطُوعَةٍ وَلَا مَمْنُوعَةٍ﴾ (٣٣).

الآيات: ٣٤-٤٠ وفي الجنة فرش مرفوعة على الأسرة، وفوق هذه الشُّرُر نساء أهل الجنة، من الحور العين ومن زوجاتهم المحبوبات لهن في الدنيا، لقد خلقهن الله من جديد، فأعادهن إلى سن الشباب، وأبدعهن إبداعاً في أجمل صورة وأحسن هيئة، وجعلهن أبكاراً لا ثيبات، وهن متحبات إلى أزواجهن قد أعدهن الله تعالى لأهل اليمين من جماهير المسلمين، وهم الكثرة الغالبة من المسلمين، قال تعالى: ﴿وَفُرشٍ مَّرْفُوعَةٍ﴾ (٣٤) ﴿إِنَّا أَنشَأْنَهُنَّ إِنشَاءً﴾ (٣٥) ﴿فَجَعَلْنَهُنَّ أَبْكَارًا﴾ (٣٦) ﴿عُرُبًا أَتْرَابًا﴾ (٣٧) ﴿لَأَصْحَابِ الْيَمِينِ﴾ (٣٨).

وهم الذين قال الله فيهم في آخر السورة: ﴿وَأَمَّا إِنْ كَانَ مِنْ أَصْحَابِ الْيَمِينِ﴾ (٤٠) ﴿فَسَلَّمَ لَكَ مِنْ أَصْحَابِ الْيَمِينِ﴾ (٤١) [الواقعة].

ويكفي أنه سلم ونجا ﴿فَمَنْ ذُحِرَ عَنِ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ﴾ [آل عمران].

ثالثاً: مُجْمَلُ مَا أَعَدَّ اللَّهُ لِأَهْلِ الشُّمَالِ الَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَةُ الْعَذَابِ

الآية: ٤١-٤٢ إنهم يعذبون في ريح حارة تفعل فعل السموم، وتدخل في البدن من مسام الجسم، وهم يُعَذَّبُونَ في ماء متناهي الحرارة، فهم: ﴿فِي سَمُومٍ وَحَمِيمٍ﴾ (٤٢).

الآيات: ٤٣-٥٠ وهم يُعَذَّبُونَ في ظل من دخان أسود من نار جهنم، وسماء القرآن ظلاً من باب التهكم، فهو ظل غير كريم المخبر ولا المنظر ﴿لَهُمْ مِنْ قَوْفِهِمْ ظُلَلٌ مِنَ النَّارِ وَمِنْ تَحْتِهِمْ ظُلَلٌ﴾ [الزمر: ١٦]، قال تعالى: ﴿وَطَلَّيْنِ يَحْمُومٍ﴾ (٤٣) ﴿لَا بَارِدٌ وَلَا كَرِيمٌ﴾ والسبب في هذا العذاب:

أ - أنهم كانوا في الدنيا ظالمين لأنفسهم، فكانوا مترفين، يتنعمون بالحرام، ويتكبرون عن الحق ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَلِكَ مُتْرَفِينَ﴾ (٤٥).

ب - وكانوا يُصِرُّون على فعل الذنب العظيم من الشرك بالله تعالى، ومن كل منكر قبيح ﴿وَكَاثُرًا يُصِرُّونَ عَلَىٰ لَعْنَةِ الْعَظِيمِ﴾ (١٦).

ج - وكانوا يُقسمون بالآيمان المؤكدة أنه لا بعث ولا ثواب ولا عقاب. وكانوا يُنكرون الحساب والجزاء، ويستبعدون إعادة الحياة إليهم وإلى من سبقهم من الأولين، ﴿وَكَاثُرًا يَقُولُونَ أَيْدَا مِنَّا وَكُنَّا تُرَاكِبًا وَعَظَمْنَا أَنَّا لَمَبْعُوثُونَ﴾ (١٧) ﴿أَوَّابًا وَأَنَا الْوَلَوْنَ﴾ (١٨). وقد أمر الله رسوله أن يرد على إنكارهم للبعث والنشور، بأن السابقين واللاحقين سيُبعثون من قبورهم في يوم معلوم، لا يتقدمون عنه ساعة ولا يستأخرون. ﴿قُلْ إِنَّ الْوَلَّيْنَ وَالْآخِرِينَ﴾ (١٩) ﴿لَمَجْمُوعُونَ إِلَىٰ مِيقَاتِ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ﴾ (٢٠).

وبعد أن بين الله سبحانه السبب في عذاب أهل الشمال استأنف سبحانه ذِكر ألوان من عذابهم، ومن ذلك:

الآيتان: ٥١-٥٣ - إنهم يأكلون من شجر الزقوم الذي ينبت في قعر جهنم، وقد جعله الله طعامًا للظالمين الضالين عن طريق الحق، إلى جوار الأكل من الضريع وغيره.

والزقوم شجر كريه المنظر والمخبر، مرُّ المذاق، يغض في حُلوقهم، وإنهم ليأكلون منه فيملؤون منه البطون ﴿ثُمَّ إِنَّكُمْ أَنتُمْ أَضْأَلُونَ الْمُكَذِّبُونَ﴾ (٥١) ﴿لَا يَكُونُ مِن شَجَرٍ مِّن زُقُومٍ﴾ (٥٢) ﴿فَالَّذِينَ فِيهَا الْبَطُونَ﴾ (٥٣).

الآيات: ٥٤-٥٦ - ثم إن أكل الزقوم يلجئهم إلى الشراب الكثير، فيستغيثون طالبيين الشراب فيُعَاثُونَ بماء كالمهل يشوي الوجوه ويقطع الأمعاء ﴿وَشُقُوا مَاءً حَمِيمًا فَقَطَّعَ أَمْعَاءَهُمْ﴾ (٥٤) [محمد: ١٥] فيشربون ولا يزتؤون كشأن الإبل الهيم التي تشرب حتى تموت أو تسقم، نسأل الله العافية والسلامة قال تعالى في وصف شراب أهل الشمال: ﴿فَشَرِبُوا عَلَيْهِ مِن لَّعِيمٍ﴾ (٥٥) ﴿فَشَرِبُوا شُرْبَ الْهِيمِ﴾ (٥٦) ﴿هَذَا نَزَمْنَاهُ يَوْمَ الدِّينِ﴾ (٥٧).

وأصحاب الشمال هم من قال الله فيهم في آخر السورة: ﴿وَأَمَّا إِنْ كَانَ مِنَ الْمُكْذِبِينَ﴾ (٥٨) ﴿فَنَزَّلْنَا مِن حَمِيمٍ﴾ (٥٩) ﴿وَنَصْلَةٍ حَمِيمٍ﴾ (٦٠) [الواقعة].

رَابِعًا: مُوَازَنَةٌ بَيْنَ نَعِيمِ السَّابِقِينَ وَأَهْلِ الْيَمِينِ، وَعَذَابِ أَهْلِ الشَّمَالِ

النَّعِيمُ الْأَوَّلُ لِلْسَّابِقِينَ وَأَهْلِ الْيَمِينِ، وَمَا يُقَابِلُهُ مِنْ عَذَابِ النَّارِ لِأَهْلِ الشَّمَالِ

قال تعالى في صفة جلوس السابقين في الجنة:

١٥، ١٦ - ﴿عَلَى سُرُرٍ مَوْضُونَةٍ^(١) ﴿١٥﴾ مُتَّكِئِينَ^(٢) عَلَيْهَا مُتَقَدِّمِينَ ﴿١٦﴾﴾

أي: إنهم جالسين في الجنة على أسرة منسوجة بقضبان الذهب، مصفورة من المعادن النفيسة، مرصعة بالدر واللؤلؤ والياقوت، وهو كرسي متسع يجلس عليه المتكئ والمضطجع، مرتفع عن الأرض.

وملوك الدنيا يتخذونه من ذهب وفضة وعاج وأبنوس، فأهل الجنة أولى بذلك.

والموضونة: هي المصفوفة المسبوك بعضها ببعض، كما تُسبك حلق الدروع، ليكون المفرش وثيراً مريحاً للمضطجع والمتكئ، كما قال تعالى: ﴿مُتَّكِئِينَ عَلَى سُرُرٍ مَّصْفُوفَةٍ﴾ [الطور: ٢٠].

وهكذا فإن السابقين يجلسون على سُرُرٍ وأرائك متكئين عليها في الجنة، يقابل بعضهم بعضاً بوجوههم، وهذا أدخل في السرور، وأكمل في أدب الجلوس، قلوبهم ممتلئة بالنعيم والراحة، ولا يشغل بالهم شاغل مِنْ هَمٍّ وَلَا كَدَرٍ، فهم ﴿فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ﴾^(٤٣) عَلَى سُرُرٍ مُتَقَدِّمِينَ ﴿١١﴾ [الصافات].

وهم ﴿مُتَّكِئِينَ فِيهَا عَلَى الْأَرَائِكِ لَا يَرَوْنَ فِيهَا شَمْسًا وَلَا زَمْهَرِيرًا﴾^(١٣) [الإنسان].

وهم أيضاً ﴿مُتَّكِئِينَ عَلَى فُرُشٍ بَطَائِنُهَا مِنْ إِسْتَبْرَقٍ وَحَى الْجَنَّتَيْنِ دَانٍ﴾ [الرحمن].

ومنهم من يتكئ على رفرف خضر وعبقري حسان، هذه هيئة جلوس السابقين

(١) ترك البصري والشامي عد ﴿عَلَى سُرُرٍ مَوْضُونَةٍ﴾ آية، وعدها الكوفي والحجازي، وقد عد ﴿وَأَصْحَابُ الْيَمِينِ﴾

قبلها المدني الأول والمكي والشامي والبصري، وترك عدها المدني الأخير والكوفي.

(٣) حذف أبو جعفر همزة ﴿مُتَّكِئِينَ﴾ ومثله حمزة عند الوقف، ويزاد له التسهيل بين بين، وقرأ الباقون بهمزة

مكسورة، ولورش ثلاثة وجوه المد في البدل هي: القصر والتوسط والإشباع.

المقربين في الجنة.

وإذا كان هذا حال المقربين، فما حال أهل اليمين؟ إنهم:

٢٨ - ٣١ - ﴿فِي سِدْرٍ مَّخْضُودٍ ﴿٢٨﴾ وَطَلْحٍ مَّنْضُودٍ ﴿٢٩﴾ وَظِلِّ مَمْدُودٍ ﴿٣٠﴾ وَمَاءٍ مَّسْكُوبٍ ﴿٣١﴾﴾

ومن نعيم أهل اليمين في الجنة: جلوسهم في ظلال وارفة، وأكلهم من شجر السدر والطلح: فما أعظم مكانة أصحاب اليمين! وما أجزل جزاءهم! وما أحسن حالهم! إنهم يجلسون تحت أشجار النبق الخالي من الشوك، وهذه الجلسة أمنية يتمناها من نزل القرآن بلسانهم، والقرآن يحدث الناس بما يعرفوه حتى لا يكذبوه.

وفي الحديث: أن أعرابياً جاء إلى النبي ﷺ، فقال: يا رسول الله، إن الله تعالى ذكر في الجنة شجرة تؤذي صاحبها؟ فقال: «وما هي؟» قال: السدر، فإن له شوكاً، فقال ﷺ: «أليس الله يقول: ﴿فِي سِدْرٍ مَّخْضُودٍ﴾ ﴿٢٨﴾ خَضَّدَ الله شوكه، فجعل مكان كل شوكه ثمرة، وإن الثمرة من ثمره تفتق عن اثنين وسبعين لوناً من الطعام، ما فيها لون يشبه الآخر»^(١). أي: إن حدائق الجنة مليئة بشجر النبق منزوع الشوك، ممتلئة بكثرة الثمار والأغصان غير المضرة، وهو شجر مبارك، والمخضود هو الموقر بالثمر الخالي من الشوك. جاء عن عطاء ومجاهد: أن أناساً كان يعجبهم وادي الطائف وما فيه من طلع وسدر، فقالوا: يا ليت لنا في الجنة مثل هذا الوادي، فأنزل الله هذه الآية^(٢). ولما كان السدر معروفاً عند العرب، وكان محبوباً لديهم، ذكره الله تعالى في الآية، ووعدهم الله به.

(١) من حديث أبي أمامة في «المستدرک» (٤٧٦/٢) قال الحاكم: صحيح الإسناد ولم يخرجاه، وصححه الذهبي، ورقمه في ط دار المعرفة (٣٨٣٠) قال محققه: عبدالسلام علوش: سنده جيد، والبيهقي (٣٠٢) في «البعث» وقال المنذري في «الترغيب والترهيب» برقم (٥٥١١): إسناده حسن، وله شاهد صحيح في «المعجم الكبير» للطبراني (١٣٠/١٧) قال الهيثمي في «مجمع الزوائد» (٤١٤/١٠): ورجاله رجال الصحيح، وأخرجه أبو بكر بن أبي داود برقم (٦٩).

(٢) يُنظر: البيهقي (٣٠٣) والطبري (٣١١/٢٢).

والطلح المنضود: هو شجر الموز، المنسَّق المنظم، المتراكم بعضه فوق بعض، فليست له ساق بارزة، وقيل: هو الطلح المعروف، وثمر أشجار الجنة ليست في غلاف كثمر شجر الدنيا، وثمار هذه الأشجار إما مأكولة، وإما مشروبة، وإما مشمومة، وإما منظورة إليها، والموز من الفواكه المأكولة.

عن عقبة بن عبد الله السلمي قال: كنت جالسًا مع النبي ﷺ، فجاء أعرابي فقال: يا رسول الله، تُذكر في الجنة شجرة لا أعلم شجرة أكثر شوكًا منها - يعني: الطلح - فقال رسول الله ﷺ: «إن الله يجعل مكان كل شوكة منها ثمرة مثل خُضِيَّة التيس الملبود - كثير اللحم - فيها سبعون لونا من الطعام لا يشبه لونا آخر»^(١).

قال تعالى: ﴿وَأَنْتَوَا بِهِنَّ مُتَشَبِّهَاتٌ﴾ [البقرة: ٢٥].

هذا: وظل الجنة ظلٌّ دائم ممتد منبسط، لا تنسخه الشمس كظل الدنيا؛ لأن الجنة لا شمس فيها.

عن أبي هريرة ؓ أن النبي ﷺ قال: «إن في الجنة شجرة يسير الراكب في ظلها مئة عام لا يقطعها، اقرؤوا إن شئتم: ﴿وَبِشْرٍ مَّتَدُورٍ﴾^(٢) والظل الممدود هو الذي لا يتقلص، قال تعالى: ﴿أَكُلْهَا دَائِمٌ وَظِلُّهَا تِلْكَ عُقْبَى الَّذِينَ اتَّقَوْا﴾ [الرعد: ٣٥].

وفي حديث أبي سعيد وسهل بن سعد أن رسول الله ﷺ قال: «إن في الجنة شجرة يسير الراكب الجواد المضمر السريع مئة عام ما يقطعها»^(٣).

قال ابن كثير: هذا حديث ثابت عن رسول الله ﷺ، بل متواتر مقطوع بصحته عند أئمة

(١) ابن أبي داود في «البعث» (٦٩) والطبراني في «الكبير» (٣١٨) وأبو نعيم في «الحلية» (١٠٣/٦) قال

الهشمي في «مجمع الزوائد» (٤١٤/١٠): رجاله رجال الصحيح.

والملبود: هو الذي يكتنز اللحم، ويلزم بعضه بعضًا، فيقال: تلبَّد.

(٢) البخاري برقم (٤٨٨١)، وانظر: (٣٢٥٢) ومسلم برقم (٢٨٢٦) والترمذي (٢٥٢٣) وابن ماجه (٤٣٣٥)

و«المسند» (٧٤٩٨) وغيرهم.

(٣) «صحيح البخاري» (٦٥٥٣) و«صحيح مسلم» (٢٨٢٨).

الحديث النقاد، لتعدد طرقه، وقوة أسانيده، وثقة رجاله^(١).

وأهل الجنة ﴿لَا يَرَوْنَ فِيهَا شَمْسًا وَلَا زَمَهْرِيرًا﴾ (١٣) وَدَانِيَةً عَلَيْهِمْ ظِلُّهَا وَذُلَّتْ قُطُوفُهَا نَدِيلًا ﴿ [الإنسان: ١٣، ١٤].

أي: وفي الجنة ماء كثير مصبوب يجري على الأرض في جداول، ويأخذون منه ما شاؤوا دون جهد ولا تعب، وهذا الماء يجري دائماً بلا انقطاع، ويسير في غير أخذود. فالماء المسكوب: هو ما يجري من العيون والأنهار السارحة والمياه المتدفقة، تحت القصور والأشجار في الجنة، أو ما تدفعه النافورات إلى أعلى.

قال القرطبي: كانت العرب أصحاب بادية، والأنهار في بلادهم غزيرة، لا يصلون إلى الماء إلا بالدلو والرشا، فوعدوا في الجنة بأسباب التزهة وهي الأشجار وظلالها، والأنهار وجريانها^(٢).

وفي الجنة أيضاً عيون مياه ممزوجة بمشروبات أخرى تفجر لهم يوم القيامة: ﴿إِنَّ الْأَنْبَارَ يَشْرَبُونَ مِنْ كَأْسٍ كَانَ مِزَاجُهَا كَافُورًا﴾ (٥) عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ اللَّهِ يُفَجِّرُونَهَا تَفْجِيرًا ﴿ (٦) [الإنسان: ٥، ٦] وفي آية أخرى يقول سبحانه: ﴿وَيُسْقَوْنَ فِيهَا كَأْسًا كَانَ مِزَاجُهَا زَنْجَبِيلًا﴾ (٧) عَيْنًا فِيهَا تُسَمَّى سَلْسِيلًا ﴿ (٨) [الإنسان: ١٧، ١٨]، وجاء في سورة المطففين ﴿وَمِزَاجُهُ مِنْ تَسْنِيمٍ﴾ (٢٧) عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا الْمُفَرَّتُونَ ﴿ (٢٨) [المطففين: ٢٧، ٢٨].

وإذا كان هذا حال السابقين وأهل اليمين وهم جلوس في الجنة، يتمتعون بما أعدّه الله لهم من نعيم، فما حال أهل الشمال في مقابل ذلك، قال تعالى في وصف عذابهم:

٤١ - ٤٤ - ﴿وَأَصْحَابُ الشِّمَالِ^(٣) مَّا أَصْحَبُ الشِّمَالِ (٤١) فِي سُمُومٍ وَجَمِيمٍ (٤٢) وَظِلٍّ مِّنْ يَحُمُومٍ (٤٣) لَا يَارِدُ

وَلَا كَرِيرٍ (٤٤)﴾

ما أسوأ حال أصحاب الشمال! وما أفظع جزاؤهم! فهم ﴿فِي سُمُومٍ﴾ أي: في ريح

(١) «تفسير ابن كثير» (٥٢٨/٧).

(٢) «تفسير القرطبي» (٢٠٩/١٧).

(٣) قوله تعالى: ﴿وَأَصْحَابُ الشِّمَالِ﴾ متروك من العدد عند الكوفيين، ومعدود عند غيره.

حارة من حر نار جهنم، تأخذ بأنفاسهم، وتُقلقهم أشد القلق، وتنفذ في مسامهم، تهلك الأبدان، وهي ريح شديدة الحرارة، وليس معها بلل، كأنها السم القاتل، وإلى جوار فيح جهنم، فهم في (حميم) وهو الماء الذي بلغ النهاية في درجة الغليان، يُقَطَّع الأمعاء ويشوي الوجوه، إنهم بين الريح التي تُلْفَحُهُمْ بحرارتها وشدة أذاها، وبين الماء الذي يغلي، كما قال تعالى: ﴿هَذِهِ جَهَنَّمُ الَّتِي يُكَذِّبُ بِهَا الْمُجْرِمُونَ﴾ ﴿٤٣﴾ يَطُوفُونَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ حَمِيمٍ ءَانِي ﴿٤٤﴾ [الرحمن]. وقال تعالى: ﴿وَجُوهٌ يَوْمَئِذٍ خَاشِعَةٌ﴾ ﴿٢﴾ عَامِلَةٌ نَّاصِبَةٌ ﴿٣﴾ تَصَلَّى نَارًا حَامِيَةً ﴿٤﴾ تُشْقَى مِنْ عَيْنِ ءَانِيَةٍ ﴿٥﴾ وهم يغاثون بماء كالمهل يشوي الوجوه.

ولا ظِلٌّ لأهل النار يقيهم من السموم والحميم إلا ظل دخان أسود كثيف، يخنق الأنفاس، وينفذ في المسام، وهو ظل دخان لَهَبِ جهنم، يضر ولا ينفع، تتنفي عنه صفة البرودة، وكرامة الظلال، كما قال تعالى: ﴿أَنْطَلِقُوا إِلَى ظِلِّ ذِي ثَلَاثِ شُعَبٍ﴾ ﴿٣٠﴾ لَا ظَلِيلٍ وَلَا يُغْنِي مِنَ أَلْهَبٍ ﴿٣١﴾ [المرسلات: ٣٠، ٣١]. وذلك لأن فائدة الظل ترجع إلى أمرين: دفع الحرارة وحسن المنظر، مع كون الإنسان مكروماً.

وظل أهل النار ليس كذلك فهو ظلٌّ حارٌّ ضارٌّ، ينبعث من لهب النار المختلط بالدخان، قال تعالى: ﴿لَهُمْ مِنْ فَوْقِهِمْ ظُلَلٌ مِنَ النَّارِ وَ مِنْ تَحْتِهِمْ ظُلَلٌ﴾ [الزمر: ١٦] وهذا العذاب يحيط بهم من كل جانب ﴿يَوْمَ يَغْشَاهُمْ الْعَذَابُ مِنْ فَوْقِهِمْ وَمِنْ تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ﴾ [العنكبوت: ٥٥] ولأهل الجنة ظل من نوع آخر، كما قال تعالى: ﴿وَنُدْخِلُهُمْ ظِلًّا ظَلِيلًا﴾ [النساء: ٥٧].

وقد صف الله ظل أهل النار بأنه ظل لا بارد المنزل، ولا كريم المنظر، فلا يستروح به الإنسان، ولا يستفيء بظله. وهذا إشارة إلى وجود الهم والحزن والغم والشر الذي لا خير فيه، لأن نفي الضد إثبات لضده.

ثَلَاثَةُ أَسْبَابٍ لِعَذَابِ أَهْلِ الشَّمَالِ:

السَّبَبُ الْأَوَّلُ: هُوَ التَّشْرِفُ

٤٥ - ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَلِكَ مُتْرَفِينَ﴾ ﴿٤٥﴾

أي: إن أهل النار استحقوا هذا العذاب؛ لأنهم لم يقدموا لأنفسهم الإيمان والعمل الصالح، وكانت معيشتهم على ظهر الدنيا تشبعا من اللذائذ المتاحة، أو جريا وراءها، سواء وجدت أم لم توجد، لقد ألتهتهم الدنيا عن العمل بالآخرة، وألهاهم الأمل عن إحسان العمل.

وقد وصف الله معيشة الكافر بقوله: ﴿إِنَّهُ كَانَ فِي أَهْلِهِ مَسْرُورًا﴾ (٣١) إِنَّهُ ظَنَّ أَنْ لَنْ يَحُورَ ﴿٣٢﴾ [الانشقاق: ١٣، ١٤] أي: زعم أنه لن يعود إلى ربه. والترف: هو بطر النعمة وعدم شكرها، وشكرها يكون بالاعتراف للخالق سبحانه بالتوحيد، وألا تصدّهم النعمة عن ذكر الله تعالى، وألا يستعملوها في المعاصي ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا يَتَمَنَّوْنَ وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ الْأَنْعَامُ وَالنَّارُ مَثْوًى لَهُمْ﴾ [محمد: ١٢] والترف في العيش ليس ذنبا في حد ذاته، فليس سببا مستقلا للعذاب، إلا إذا انضم إليه التكذيب بخاتم الرسل، أو اليوم الآخر، أو الشرك بالله تعالى، قال سبحانه: ﴿وَذَرْنِي وَالْمُكَذِّبِينَ أُولِيَ النَّعْمَةِ وَمَهَلْهُمْ قِيلًا﴾ (١١) ﴿[المزمل: ١١] أو تعلق به قلب المرء، فاطمأن إليه وأنكر الآخرة ﴿إِنَّ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا وَرَضُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاطْمَأَنَّنُوا بِهَا وَالَّذِينَ هُمْ عَنْ ءَايَاتِنَا غَافِلُونَ﴾ (٧) أُولَٰئِكَ مَا لَهُمْ النَّارُ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ [يونس: ٨، ٧].

السَّبَبُ الثَّانِي هُوَ: الإِصْرَارُ عَلَى كِبَائِرِ الذُّنُوبِ

٤٦- ﴿وَكَاثُرًا يُصْرُونَ عَلَى الْخَنَثِ الْعَظِيمِ﴾ (٤٦)

إن عدم الإيمان باليوم الآخر يجعل الكافر يبنّي حياته على أنه لا بعث ولا حساب! فيوغل في المعاصي، وينكب عليها دون شعور بقبحها، ولا ندم على اقترافها، وهذا هو الخنث العظيم، أي: المعصية الفادحة مع الدوام عليها وسبق الإصرار والترصد لها، وأعظم المعاصي: الكفر والشرك بالله تعالى مع عدم التوبة، وكذا اليمين الغموس، وإنكار البعث والجزاء والجنة والنار.

وكان المكذبون باليوم الآخر يقسمون بالله تعالى أنه لا بعث ولا نشور، ويقسمون بالله أيضًا لو جاءتهم آية كما طلبوا ليؤمنن بها، ثم يحشون في أيماهم.

وهكذا: فإن أهل الشمال يفعلون الذنوب الكبار ولا يتوبون منها، ولا يندمون عليها، بل يصرون على ما يسخط الله عز وجل، فيقدمون على ربهم بأوزار كثيرة قد ماتوا عليها فيكون هذا جزاؤهم.

السَّبَبُ الثَّالِثُ: إِنْكَارُ الْبَعْثِ وَالنُّشُورِ

٤٧- ﴿وَكَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ^(١) أَإِذَا^(٢) مِتْنَا^(٣) وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا إِيَّاكَ^(٤) لَمَبْعُوثُونَ^(٥)﴾

إن أهل الشمال كانوا ينكرون البعث ويعتقدون استحالة، وينظرون في ذلك قائلين: هل سنبعث بعد أن كنا ترابًا وعظامًا نخرة؟ يقولون ذلك على وجه الاستبعاد والتكذيب، وسنبعث نحن ومن سبقنا من الآباء والأجداد.

٤٨-٥٠- ﴿أَوَآبَاؤُنَا الْأَوَّلُونَ^(٦)﴾ ﴿قُلْ إِنَّ الْأَوَّلِينَ وَالْآخِرِينَ^(٧)﴾ ﴿لَمَجْبُوعُونَ^(٨)﴾

إِلَى مِيقَاتٍ يَوْمَ مَعْلُومٍ^(٩)﴾

أي: أُنْبِعث نحن وآباؤنا الأقدمون الذين صاروا ترابًا قد انثر وتفرق في الأرض؟ وقد لقّن الله تعالى رسوله الجواب الشافي بأن جميع الأمم التي سبقت، ومنها آباؤكم الأولون، وجميع الأمم اللاحقة، وأنتم من جملتهم ستحشرون في صعيد واحد ﴿ذَلِكَ يَوْمٌ يَجْمَعُ لَهُ النَّاسُ وَذَلِكَ يَوْمٌ مَّشْهُودٌ^(١٠) وَمَا تُؤَخِّرُهُ إِلَّا لِأَجَلٍ مَّعْدُودٍ^(١١)﴾ [هود: ١٠٣، ١٠٤].

(١) عد المكي والحمصي (وكانوا يقولون) آية، وتركه من العدد غيرهما.

(٢- ٤) قرأ نافع والكسائي وأبو جعفر ويعقوب بهمزتين في (أئذا) على الاستفهام وهمزة واحدة في (إنا) على الخبر، والباقون بالاستفهام فيهما، وكلٌّ على أصله من حيث التسهيل والتحقيق والإدخال وعدمه. فقالون وأبو عمرو بالتسهيل مع الإدخال، وورش وابن كثير ورويس بالتسهيل مع عدم الإدخال، وأبو جعفر يسهل الثانية مع الإدخال، وهشام يحقق مع الإدخال، والباقون بالتحقيق مع عدم الإدخال.

(٥) ترك الحمصي عد قوله تعالى: (أو آباؤنا الأولون) آية، وهو معدود آية عند جمهور أهل العدد.

(٦) ترك الشامي والمدني الأخير عد قوله تعالى: ﴿وَالْآخِرِينَ﴾ آية، وهو معدود آية عند غيرهما.

(٧) عد الشامي والمدني الأخير ﴿لَمَجْبُوعُونَ﴾ آية، وهو متروك لغيرهما من أئمة العدد.

إن الخلائق جميعًا - السابق منهم واللاحق - سيُجمعون ويُحشرون ليوم الحساب الذي حدده الله بوقت معلوم لا يتقدم ولا يتأخر، وليس البعث على أفواج أفواج، أو جماعات جماعات، كموت الناس في الدنيا، بل يبعث الأولون والآخرين في يوم واحد، دفعة واحدة، يجمعهم ربنا فيحاسبهم ويجازيهم على ما قدمت أيديهم.

النَّعِيمُ الثَّانِي لِأَهْلِ الْجَنَّةِ

١٧-١٩ ﴿يَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُّخْلَدُونَ ﴿١٧﴾ يَأْكُوبُ وَأَبَارِقُ ﴿١٨﴾ وَكُلٌّ مِنْ مَّعِينٍ ﴿١٩﴾ لَا يَصَدْعُونَ عَنْهَا وَلَا يُزْفُونَ ﴿٢٠﴾﴾

ويخدم السابقين المقربين في الجنة، ويقوم على قضاء حوائجهم فتية صغار السن، في غاية الحسن والبهاء، يبقون في سن الشباب أبد الآباد، ونضارة الصبا لا يهرمون، ولا يتغيرون لا تزيد أعمارهم، ولا يملئون من كثرة التردد على خدمتهم، وهم ولدان خلُقوا في الجنة لخدمة أهلها كالخور العين، ولم يولدوا.

وقيل: إنهم أولاد الكفار الذين ماتوا قبل سن الحُلُم. قال تعالى: ﴿يَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُّخْلَدُونَ إِذَا رَأَوْهُمْ حَبِئْتُمْ لَوْ أَنَّكُمْ لَوُلُوْا مَنُورًا ﴿١٧﴾ وَإِذَا رَأَيْتُمْ نَعِيمًا وَمُلُكًا كَبِيرًا ﴿٢٠﴾﴾ [الإنسان: ١٩، ٢٠]. وقال سبحانه: ﴿يَطُوفُ عَلَيْهِمْ غِلْمَانٌ لَهُمْ كَأَنَّهُمْ لَوْ لَوْ مَكْنُونٌ﴾ [الطور: ٢٤].

وخدمة الغلمان من باب تعدد ألوان المتع والنعم، وإلا فإنهم يجابون إلى مطالبهم بمجرد توجه رغباتهم إلى الشيء قائلين ﴿سُبْحَنَكَ اللَّهُمَّ﴾ [يونس: ١٠].

والولدان المخلدون في الجنة، يطوفون على أهلها بأقداح لا عرى لها ولا خراطيم، مستديرة القم ﴿وَأَبَارِقُ﴾ لها خرطوم وعروة يوضع فيها الخمر، وهي تبرق من صفاء

(١) عد المكي والمدني الأخير (وأباريق) آية، وتركها غيرهما من العدد.

(٢) قرأ عاصم وحمزة والكسائي وخلف بضم الياء وكسر الزاي من (يُزْفُونَ) مضارع أنزف، بمعنى: ذهب عقله من الشُّكْرِ، والباقون بضم الياء وفتح الزاي مضارع نزف، بمعنى: سكر وذهب عقله.

لونها، فالأكواب ليست لها آذان، والأباريق لها آذان، قال تعالى: ﴿وَيُطَافُ عَلَيْهِمْ بِآنِيَةٍ مِّن فِضَّةٍ وَأَكْوَابٍ كَانَتْ قَوَارِيرًا ۝١٥ قَوَارِيرًا مِّن فِضَّةٍ قَدَّرُوهَا تَقْدِيرًا ۝١٦﴾ [الإنسان: ١٥، ١٦].

﴿وَكَأْسٍ﴾ أي: كوب طويل مملوء بالخمير من عيون جارية في الجنة، يجري فيها الماء والعسل واللبن ﴿وَأَنْهَرُ مِنْ حَرٍّ لَّذَقِّ الشَّرْبِ﴾ [محمد: ١٥] ولا يقال كأس إلا إذا كان فيه خمير. والمعين: هي الخمير الجارية لذينة المشرب، لا آفة فيها، ولا ضرر منها، قال تعالى: ﴿يُطَافُ عَلَيْهِمْ بِكَأْسٍ مِّن مَّعِينٍ ۝١٥ بَيْضَاءَ لَّذَقِّ الشَّرْبِ﴾ [الصافات: ٤٥، ٤٦] وقال جل شأنه: ﴿وَكَأْسًا دِهَاقًا ۝٣١﴾ [النبا: ٣٤] أي ممتلئة.

ومع كثرة الشراب في الجنة من لبن وعسل وماء وخمر، فإن الخمير المعينة خمير أباحها الله تعالى، لا تصيب بالصداع ولا الدوار، ولا تنزف العقل فتجعله يهذي، وتختلط عليه الأمور، كما هو معروف لدى السكارى في الدنيا.

قال ابن عباس رضي الله عنهما: في الخمير أربع خصال: السكر، والصداع، والقيء، والبول. وقد نزه الله خمير الآخرة عن هذه الخصال الذميمة فقال: ﴿لَا فِيهَا غَوْلٌ وَلَا هُمْ عَنْهَا يُنَزَّفُونَ ۝١٧﴾ [الصافات: ٤٧].

فرؤوس أهل الجنة لا تتصدع من شرب الخمير كما هو الحال في الدنيا، ولا تذهب عقولهم، كما يحدث في الدنيا، فخمير الآخرة تأخذ من خمير الدنيا مجرد الاسم، ولها خصائص النعيم في الجنة.

النَّعِيمُ الثَّابِتُ لِأَهْلِ الْجَنَّةِ

٢٠، ٢١- ﴿وَفَكَهَةٍ مِّمَّا يَتَخِفُّونَ ۝٢٠ وَلَحْمِ طَيْرٍ مِّمَّا يَشْتَهُونَ ۝٢١﴾

ويطوف عليهم الولدان بأنواع الفاكهة التي يتخيرونها من الثمار والبقول كاللوز والجوز والفسق، وهي كثيرة متنوعة، لا تنقطع صيفاً ولا شتاءً، وهي تأخذ شكل ثمار الدنيا وفواكهها، كما يألفه الإنسان، ولكن طعمها ألد وأشهى، كما قال تعالى: ﴿كُلَّمَا

رُزِقُوا مِنْهَا مِنْ ثَمَرَةٍ رِزْقًا قَالُوا هَذَا الَّذِي رُزِقْنَا مِنْ قَبْلُ وَأُتُوا بِهِ مُتَشَابِهًا ﴿٢٠﴾ [البقرة: ٢٥]. فاللون واحد والطعم مختلف، والسابقون المقربون لهم في الجنة ما يشتهون وما يتخيرون من أنواع الفواكه المختلفة، دون أن يصابوا بأضرار صحية كالحموضة أو السكرى من كثرة أكل التمر مثلاً، فلهم ما يطلبون في الجنة من لذائذ المطعومات والمشروبات من كل تشتهي الأنفس وتلذ الأعين، ومن كل ما يتخيرون ويروق في أعينهم، وهم فيها خالدون مخلدون منعمون مكرمون.

وفي مقابل الفاكهة المختارة، ولحم الطير المشتهى للمقربين؛ الفاكهة الكثيرة التي لا تنقطع صيفاً ولا شتاءً لأهل اليمين.

ويطوف الغلمان على أهل الجنة بلحم طير مما ترغب فيه نفوسهم أي: من كل صنف من الطيور يشتهون، ومن أي جنس من لحمه أرادوا، مشوياً، أو مطبياً أو مطبوخاً. قال ابن عباس رضي الله عنهما: يخطر على قلبه لحم الطير، فيطير ممثلاً بين يديه على ما اشتهى، وقُدِّمت الفاكهة على اللحم؛ لأن أهل الجنة يأكلون للتفكه والتلذذ وليس عن جوع، فنفوسهم تميل إلى الفاكهة أكثر، وهذا من شأن الشبعان.

عن أنس رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «إن طير الجنة كأمثال البُخت ترعى في شجر الجنة»، فقال أبو بكر: يا رسول الله، إن هذه الطير ناعمة، فقال: «أكلتها أنعم منها - قالها ثلاثاً - وإنني لأرجو أن تكون ممن يأكل منها يا أبا بكر»^(١).

(١) «المسند» (٢٢١/٣) (١٣٣١١) قال محققوه: صحيح، وهذا إسناد ضعيف؛ لضعف سيار بن حاتم، والضياء المقدسي في «المختارة» برقم (١٦١٤) بإسناد حسن، و«الترغيب والترهيب» برقم (٥٥٠٦) قال العراقي في تخريج الإحياء (٢٧٧٠/٦): إسناده صحيح، وقال الهيثمي: رواه أحمد، ورجاله رجال الصحيح غير سيار بن حاتم وهو ثقة «مجمع الزوائد» (٤١٤/٤) وقال الترمذي: حسن غريب، وقال الألباني: حسن صحيح، يُنظر: «صحيح سنن الترمذي» برقم (٢٦٧٨، ٢٠٦٣) و«السلسلة الصحيحة» (٢٥١٤).

والبُخت: جمال طوال الأعناق. قال تعالى: ﴿وَأَمَدَدْنَاهُمْ بِفَاكِهَةٍ وَلَحْمٍ مِّمَّا يَشْتَهُونَ﴾ [الطور: ٢٢]. وإذا كان هذا شأن السابقين المقربين، فما شأن أهل اليمين من عامة المؤمنين، قال تعالى في مقابل ما سبق:

٣٢، ٣٣ - ﴿وَفَاكِهَةٍ كَثِيرَةٍ﴾ (٣٢) ﴿لَا مَقْطُوعَةٍ وَلَا مَمْنُوعَةٍ﴾ (٣٣)

ولما كانت الفواكه في الأرض موسمية، تظهر في بعض الشهور، وتختفي بقية العام، وُصفت فاكهة الجنة بالكثرة والاستدامة. وما في الآخرة من فواكه وثمار وغيرها يشبه شكل ما في الدنيا ويختلف في طعمه. جاء في الحديث عن سدره المنتهى: أن النبي ﷺ قال: «فإذا ورقها كآذان الفيلة، ونبقها مثل قلال هجر»^(١).

وفي حديث ابن عباس رضي الله عنهما: أن رسول الله ﷺ قال: «إني رأيت الجنة فتناولت منها عنقودًا، ولو أخذته لأكلتم منه ما بقيت الدنيا»^(٢). ففاكهة الآخرة لا تنقطع ولا تقل، وجناها قريب يتناوله العبد على أي حال يكون وهي تشبه فاكهة الدنيا في الاسم وتختلف في المذاق والطعم.

أي: إن ثمار الجنة لا تنقطع كما تنقطع ثمار الدنيا في الشتاء، وهي ليست بالقليلة العزيزة، وليست ممنوعة عن أحد، ولا ممنوعة في وقت من الأوقات.

قال ابن عباس رضي الله عنهما: لا تنقطع إذا جُنيَتْ، ولا تمتنع من أحد إذا أراد أخذها. وفي الأثر: «ما قُطِعَتْ ثمرة من ثمار الجنة، إلا عاد مكانها أخرى».

فهي فاكهة لا تنفد، ولا تنقطع، ولا يمنع منها مانع. ولا تفسد ولا تدبل، فهي طازجة بشكل مستمر، وهي كاملة الشُّعرات الحرارية وإن كان البدن لا يحتاج إلى شيء من هذه الشُّعرات لأن ما يؤكل وما يشرب في الآخرة إنما هو للتذوُّق والتفكه، وليس لحاجة الجسم إليها، وهذه الثمار في متناول أيديهم يقطفونها من أصلها كلما أرادوا.

(١) «صحيح البخاري» (٣٢٠٧) و«صحيح مسلم» (١٦٢) من حديث أنس.

(٢) «صحيح البخاري» (١٠٥٢) و«صحيح مسلم» (٩٠٧).

النَّعِيمُ الرَّابِعُ: فِي الْجَنَّةِ لِلْمُقَرَّبِينَ وَأَهْلِ الْيَمِينِ

٢٢ - ٢٤ - ﴿وَحُورٌ عِينٌ^(١) ﴿كَأَمْثَلِ اللَّوْلُوءِ اللَّكُنُونِ﴾ ﴿جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾^(٢)﴾

أي: ويطوف على أهل الجنة من السابقين المقربين نساء عيونهن شديدة البياض والسواد في سعة وجمال، فإن من العلامات البارزة في الجنة الحور العين، خلقهن الله وأبدعهن في الجنة، فتيات ساحرات العيون، يستمتع بهن أهل الجنة.

قال تعالى: ﴿وَزَوَّجْنَاهُمْ بِحُورٍ عِينٍ﴾ [الطور: ٢٠] والهوراء هي التي في عينها كحل وملاحة وحسن وبهاء، و(العين) حسان الأعين واسعات في حُسن وبهاء إلى جوار نساء الدنيا بعد صوغهن في قوالب أخرى تجعل العجائز شواب، والدميمة وسيمة.

والحور العين في الصفاء والنقاء، كاللؤلؤ المصون في أصدافه لم تمسه يد، فهو لؤلؤ أبيض رطب صافي، مستور عن الأعين والريح والشمس، لونه من أحسن الألوان، لا عيب فيه بوجه من الوجوه، وكذلك الحور العين، لا عيب فيهن بوجه، بل هن كاملات الأوصاف، يجد المؤمن فيهن كل ما يتمناه وما يروق له، وما كان يشتهي في دنياه.

إن أصناف النعيم التي حظي بها السابقون في الجنة، كانت جزاءً لأعمالهم الصالحة التي قدّموها في الدنيا، لقد أحسنوا العمل في الدنيا فأحسن الله ثوبتهم، وكانوا من المقربين؛ لأن الله تعالى قربهم إليه بسبب تقربهم منه بالطاعات، وتزكيتهم المحرمات والشبهات، والإكثار من النوافل والقربات، كما في الحديث: «ومن تقرب مني ذراعاً تقربت منه باعاً، ومن أتاني يمشي أتيته هرولة»^(٢) «وما تقرب إليَّ عبدي بشيء أحب إليَّ مما افترضته عليه ولا يزال عبدي يتقرب إليَّ بالنوافل حتى أحبه، فإذا أحببته كنت سمعه

(١) قرأ حمزة والكسائي وأبو جعفر بخفض الراء والنون من (وحور عِين) عطفاً على (جنات النعيم)، والباقون بالرفع فيهما عطفاً على (ولدان) أو مبتدأ، والخبر محذوف تقديره: لهم. وقد عدّها آية المدني الأولى والكوفي وتركها غيرهما من العدد.

(٢) من حديث أبي ذر في «صحيح مسلم» (٢٦٨٧).

الذي يسمع به، وبصره الذي يبصر به، ويده التي يبطش بها، ورجله التي يمشي بها»^(١)
ومنازل الجنة ومراتبها على قدر الأعمال، أما دخول الجنة في حد ذاته فهو محض فضل من الله تعالى، فقد صح في الحديث: «لا يدخل أحد منكم الجنة بعمله» قالوا: ولا أنت يا رسول الله؟ قال: «ولا أنا، إلا أن يتغمدني الله بفضل منه ورحمة»^(٢).

وإذا كان هذا شأن السابقين المقربين، فما شأن أهل اليمين من عامة المؤمنين، قال تعالى في مقابل ما سبق:

٣٤- ٤٠ - ﴿وَفُرْشٍ مَّرْفُوعَةٍ ۝ إِنَّا أَنْشَأْنَاهُنَّ إِنْشَاءً ۝ فَجَعَلْنَهُنَّ أَبْكَارًا ۝ عُرًّا أَزْوَاجًا ۝ لَاَصْحَابِ الْيَمِينِ ۝ ثَلَاثَةٌ مِنَ الْأُولَىٰ ۝ وَثَلَاثَةٌ مِنَ الْآخِرِينَ ۝﴾

أي: وفي الجنة سرر مفروشة منضدة، قد ارتفعت فوق الأسرة عن الأرض ليتكئ عليها أهل الجنة وأزواجهم، وهذه الفرش من نسج خاص بأهل الجنة وليست كفرش الدنيا، ويكنى بالفرش عن المرأة، فتسمى المرأة فراشاً، وهذا أنسب بالآية بعدها، فيكون المعنى أن نساء الجنة رُفِعْنَ بالفضل والجمال عن نساء الدنيا.

وقد جاء وصف هذه الفرش في مثل قوله تعالى: ﴿مُتَكِّينَ عَلَىٰ رَقَرٍ خُضِرَ وَعَبَقَرِي حَسَانِ﴾ [الرحمن: ٧٦] وهذا بالنسبة لأهل اليمين وقوله: ﴿مُتَكِّينَ عَلَىٰ سُرُرٍ مَّصْفُوفَةٍ﴾ [الطور: ٢٠].
إنا خلقنا نساء الجنة خلقاً جديداً غير الذي كنَّ عليه في الدنيا، فهي نشأة كاملة لا تقبل الفناء، وهنَّ في سن الشباب لا يهرمن، كما خُلِقَتْ في الجنة نساء جميلات وسميات أعدهن الله لأهل الجنة مخلوقات فيها.
وهؤلاء النسوة عذارى، كلما أتاهن أزواجهن وجدوهن أبكاراً، وهن في سن الشباب دائماً.

(١) من حديث أبي هريرة في البخاري (٦٥٠٢).

(٢) من حديث أبي هريرة في «المسند» (٧٢٠٣) بنحوه بإسناد صحيح على شرط الشيخين، وانظر: (٧٤٧٩).

(١٠٦١٤) وعن جابر (١٥٢٣٦).

فمن أنس: أن امرأة عجوزًا جاءت إلى النبي ﷺ فقالت: يا رسول الله، ادع الله أن يدخلني الجنة، قال: «لا يا أم فلان، إن الجنة لا يدخلها عجوز»، فولّت تبكي، فقال: «أخبروها أنها لا تدخلها وهي عجوز، إن الله تعالى قال: ﴿إِنَّا أَنشَأْنَهُنَّ إِنثَاءً﴾»^(١). وهذا يشمل الحور العين ونساء الدنيا، والبكارة ملازمة لهن جميعاً في كل الأحوال.

والمرأة العُروب هي المتحبة إلى زوجها بحسن لفظها، وحسن هيئتها، ودلالها وجمالها، ومحبتها، فهي إن تكلمت سبت العقول، وودّ السامع أن كلامها لا ينتهي، وإن نظر إليها ملأت قلبه إعجاباً، وكل ذلك بدون تكلف، فهي كثيرة الضحك والمزاح واللهو والخضوع في القول، والتغزل في الزوج، والمؤانسة في المجالسة، والتدلل، والمعاكسة، واللعب، وكل ما فيه جلبُ محبة الزوج واكتساب قلبه، ونساء الجنة في سن الشباب المستوي مع غيرهن لا تفاوت بينهن في السن، ولا في صفات الحُسن، فأعمارهن ثلاثة وثلاثون عاماً لا يزدن عليها، وقد قبضهن الله إليه في الدنيا عجائز شُمطاً رُمضاً غُمشاً، ثم جعلهن في الجنة أتراباً، على سن ميلاد واحدة في الاستواء.

عن معاذ بن جبل ؓ: «يدخل أهل الجنة الجنة جُزْداً مُزْداً مُكْحَلِينَ، أبناء ثلاث وثلاثين»^(٢)، كما قال تعالى: ﴿وَكَوَاعِبُ أَرْبَابًا﴾ [النبا: ٣٣]. وقد وصف الله نساء الجنة بقوله: ﴿كَانَتهنَّ الْيَاقُوتُ وَالْمَرْجَانُ﴾ [الرحمن: ٥٨] هذا غاية ما يشتهي المرء ويتمنى، نساء راضيات مرضيات، لا تحزن ولا يحزن، ولا نكد ولا كدر، بل فرح وسرور ومحبة وحبور. وكل ما سبق ذكره من ألوان النعيم أعدّه الله لأهل اليمين، وهم جماهير المؤمنين في الجنة، ولأن عمل أهل اليمين أدنى من عمل السابقين لم يقل الله تعالى: ﴿جَزَاءُ بِمَا كَانُوا

(١) أخرجه عبد بن حميد، والترمذي (٢٣٢) والبيهقي (٣٨٢) وحسنه الألباني في «غاية المرام» (٣٧٥).

(٢) «المسند» (٢٢١٠٦) قال محققوه: حسن لغيره، وأخرجه الترمذي (٢٥٤٥) والبخاري في مسنده (٢٦٤٤) والطبراني في «الكبير» (١١٨) وأبو نعيم في «صفة الجنة» (٢٥٧) وحسنه الألباني في «صحيح سنن الترمذي» (٢٠٦٤).

يَعْمَلُونَ ﴿٥١﴾ إشارة إلى أن الفضل في شأن أهل اليمين أكثر، حيث يدخل بعضهم النار عقاباً على معاصي فعلها في الدنيا ولم يثب منها، ثم يدخلون الجنة ^(١).
وأهل اليمين جماعة كثيرة من الأولين في صدر أمة محمد ﷺ.
وقيل من الأمم الماضية.

وجماعة كثيرة من الآخرين وهم من أهل هذه الأمة.
أما السابقون: فهم جماعة كثيرة من الأولين من هذه الأمة، أو الأمم السابقة،
وجماعة قليلة من أمة محمد ﷺ، وقلتها بالنسبة لكثرة الأمم وكثرة الرسل.

طَعَامُ أَهْلِ النَّارِ وَشَرَابُهُمْ

٥١-٥٣ ﴿ثُمَّ إِنَّكُمْ أَتِيهَا الضَّالُّونَ الْمَكْذِبُونَ ﴿٥١﴾ لَا كُؤُنَ مِنْ شَجَرٍ مِنْ رَقْمٍ ﴿٥٢﴾ فَالْتَوْنَ مِنْهَا الْبُطُونَ ﴿٥٣﴾﴾

إنكم أيها الضالون عن الهدى، المنصرفون عن الحق، المكذبون بالبعث والحساب
والجزاء، غير المصدقين بوعد الله ووعيده، تأكلون يوم القيامة من شجر الزقوم،
وتملؤون بطونكم منها.

والزقوم أقبح الطعام، وأقبح الشجر، وهي شجرة تنبت في قعر جهنم، وثمرها كأنه
رؤوس الشياطين، وقد أعدّها الله لعذاب الكافرين في جهنم، فهي طعامهم وغداؤهم.
فيأكل أهل النار من شجرة الزقوم حتى تمتلئ منها بطونهم لشدة ما حلّ بهم من
الجوع، قال تعالى: ﴿إِنَّ شَجَرَةَ الزَّقُومِ ﴿٥٢﴾ طَعَامُ الْأَثِيمِ ﴿٥١﴾ كَالْمُهْلِ يَغْلِي فِي الْبُطُونِ ﴿٥٣﴾ كَغَلِي
الْحَمِيمِ ﴿٥٤﴾﴾ [الدخان: ٤٣-٤٦]. وقال سبحانه: ﴿إِنَّا جَعَلْنَاهَا فِتْنَةً لِلظَّالِمِينَ ﴿٦٣﴾ إِنَّهَا شَجَرَةٌ
تَخْرُجُ فِي أَصْلِ الْجَحِيمِ ﴿٦٤﴾ طَلْعُهَا كَأَنَّهُ رُءُوسُ الشَّيَاطِينِ ﴿٦٥﴾ فَإِنَّهُمْ لَا كُؤُنَ مِنْهَا فَمَالَتْ مِنْهَا الْبُطُونَ ﴿٦٦﴾﴾
[الصافات: ٦٣-٦٦]. والذي أوجب لهم ذلك ما كانوا عليه في الدنيا من الكفر والتكذيب.
قال تعالى في شراب أهل النار بعد أن ذكر طعامهم:

(١) يُنْظَرُ: «تفسير الألوسي» (١٤٣/٢٧).

٥٤ - ٥٦ ﴿ فَشَرِبُوا عَلَيْهِ مِنَ الْحَمِيمِ ٥٤ ﴾ فَشَرِبُوا شَرَبَ ^(١) الْحَمِيمِ ٥٥ ﴿ هَذَا نُزْلُهُمْ يَوْمَ الدِّينِ ٥٦ ﴾

وبعد الأكل من شجرة الزقوم بالنسبة لأهل الشمال، يشربون من ماء قد بلغ منتهى الحرارة، لا يزوي ظمأ، ولكنه يقطع الأمعاء. ويشوي الوجوه فيشربون منه بكثرة، كأنهم مصابون بداء الهيام الذي يصيب الإبل فتشرب ولا تشبع، ولا تزال تشرب حتى تموت، فالهيم هي الإبل العطاش، ثم يقال لهم:

هذا العذاب والطعام والشراب هو المعد لهم زاداً وضيافة يوم القيامة، فبئس الطعام طعامهم، وبئس الشراب شرابهم، وبئس المصير مصيرهم.

النَّعِيمُ الْخَامِسُ لِأَهْلِ الْجَنَّةِ

٢٥، ٢٦ - ﴿ لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا تَأْنِيًا ^(٢) ٢٥ ﴾ إِلَّا قِيلًا سَلَامًا سَلَامًا ٢٦ ﴾

وأهل الجنة من السابقين المقربين لا يسمعون في الجنة كلاماً باطلاً، ولا قبيحاً، ولا ما لا فائدة فيه، ولا ما يُكسب صاحبه إثمًا، من قول أو فعل قبيح، ولا فاحش ولا ساقط، فهم ﴿ لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا كِدَابًا ٢٥ ﴾ [النبا: ٣٥].

وهكذا وصف الله عباد الرحمن، ووصف عباده المؤمنين بأنهم إذا مروا باللغو مروا كراماً، ووصف الذين أوتوا العلم بأنهم إذا سمعوا اللغو أعرضوا عنه، وهكذا أهل الجنة لا يسمعون فيها ما هو لغو ولا ما يؤثم قائله.

والسابقون المسارعون إلى الخيرات لا يسمعون في الجنة إلا قولاً طيباً، يسر النفس ليس فيه لغو ولا إثم، فإن دار الطيبين لا يكون فيها إلا كلاماً طيباً سالماً من الفحش والزور وسائر العيوب، وتسليم بعضهم على بعض، وتحية بعضهم لبعض، ومودة بعضهم لبعض، وسلام الملائكة عليهم، كما قال تعالى: ﴿ وَرَحِمَتْهُمْ فِيهَا سَلَامٌ ﴾ [يونس: ١٠]. ﴿ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ ٢٤ ﴾ [الرعد: ٢٤].

(١) قرأ نافع وعاصم وحمزة وأبو جعفر بضم الشين من (شرب) مصدر، والباقون بفتحها اسم مصدر.

(٢) ترك المكي والمدني الأول ﴿ وَلَا تَأْنِيًا ﴾ فلم يعدانها آية، وعدّها غيرهما.

﴿وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي صَدَقَنَا وَعْدَهُ وَأَوْرَثَنَا الْأَرْضَ نَتَبَوَّأُ مِنَ الْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَاءُ﴾ [الزمر: ٧٤].

أهل الجنة من أمة محمد ﷺ:

١- في الصحيحين: عن ابن عباس رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال: «عُرِضَتْ عليَّ الأمم، فرأيت النبي ومعه الرهيط، والنبي ومعه الرجل والرجلان، والنبي وليس معه أحد، إذ رُفِعَ لي سواد عظيم، فظننتُ أنهم أمتي، فقليل لي: هذا موسى وقومه، ولكن انظر إلى الأفق، فنظرت، فإذا سواد عظيم، فقليل لي: انظر إلى الأفق الآخر، فإذا سواد عظيم، قيل لي: هذه أمتك، ومعهم سبعون ألفاً يدخلون الجنة بغير حساب ولا عذاب»، ثم نهض فدخل منزله، فخاض الناس في أولئك الذين يدخلون الجنة بغير حساب ولا عذاب، فقال بعضهم: فلعلهم الذين صحبوا رسول الله ﷺ، وقال بعضهم: فلعلهم الذين وُلِدُوا في الإسلام ولم يشركوا بالله، وذكروا أشياء، فخرج عليهم رسول الله ﷺ، فقال: «ما الذي تخوضون فيه؟»، فأخبروه، فقال: «هم الذين لا يُزْقُونَ، ولا يَسْتَرْقُونَ، ولا يَتَطَيَّرُونَ، وعلى ربهم يتوكلون»، فقام عكاشة بن محصن، فقال: يا رسول الله، ادع الله أن يجعلني منهم، فقال: «أنت منهم»، فقام رجل آخر، فقال: يا رسول الله، ادع الله أن يجعلني منهم؟ فقال: «سبقك بها عكاشة»^(١).

والمعنى: أنهم (لا يرقون ولا يسترقون) رقية محرمة غير شرعية، كالتعويد من مرض لم يقع بعد، ومثل التمام والتولة، وفي بعض الروايات عند البخاري (لا يكتون) بدل (لا يتطيرون) والتطير محرم اعتقاده شرعاً، فالمنفى في الحديث هو الرقية المحرمة وليس الرقية الجائزة، المندوب إليها.

٢- وعن عبد الله بن مسعود ؓ قال: كنا مع رسول الله ﷺ في قبة نحوًا من أربعين رجلاً، فقال: «أترضون أن تكونوا ريع أهل الجنة؟» قال: قلنا: نعم، فقال: «أترضون أن تكونوا ثلث أهل الجنة؟» قلنا: نعم، فقال: «والذي نفسي بيده إني لأرجو أن تكونوا

(١) البخاري (٣٤١٠، ٦٥٤١)، ومسلم (٢٢٠، ٢٢١).

نصف أهل الجنة، وذاك أن الجنة لا يدخلها إلا نفس مسلمة، وما أنتم في أهل الشرك إلا كالشَّعْرة البيضاء في جلد الثور الأسود، أو كالشَّعْرة السوداء في جلد الثور الأحمر»^(١).

٣- وعن بريدة رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «أهل الجنة عشرون ومئة صَفٍّ: ثمانون منها من أهل هذه الأمة، وأربعون من سائر الأمم»^(٢).

موازنة بين نعيم السابقين وأهل اليمين:

هذا: وإن جميع ما ذكر في الآيات السابقة بالنسبة لأصحاب اليمين، ليس مخالفاً لما ذكر بالنسبة للسابقين، كما أن ما أُعطي للسابقين، لا يُخالف ما أُعطي لأهل اليمين:

١- فالظل الممدود. ٢- والماء المسكوب. ٣- وكون أزواجهم ﴿عُرُبًا أَتْرَابًا﴾^(٣).
هذه الثلاثة ذُكرت لأهل اليمين، ولم تُذكر للسابقين، ولا شك أنهم أعلى منزلة من أصحاب اليمين، فهي ثابتة لهم لا محالة، ويدل على ذلك آيات سورة الرحمن في وصف جنتي من خاف مقام ربه، وما ذكر فيها للسابقين من:

١- طواف الولدان عليهم. ٢- والأكواب والأباريق. ٣- ولحم الطير.
٤- وكون أزواجهم حورًا عِينًا. ٥- وأنهم لا يسمعون في الجنة إلا قِيلاً سلاماً سلاماً.
هذه الخمسة لم يُذكر مثلها لأهل اليمين، مع أن لأهل الجنة على وجه العموم ما تشتهيهِ الأنفس، وتلذ الأعين، وهم فيها خالدون؛ إذ ليس المقصود توزيع النعم أو حضرها وقضرها على كل فريق، وإنما المقصود هو مجرد تعداد بعض النعم، والتشويق إليها.
على أن آيات القرآن الكريم ذُكرت أشياء أخرى لأهل الجنة لم تُذكر هنا بالنسبة للفريقين معاً، وذلك مثل: ﴿دَعَوْنَهُمْ فِيهَا سُبْحَنَكَ اللَّهُمَّ وَنَحْمُكَ فِيهَا سَلَامٌ﴾ [يونس: ١٠].
ومثل: ﴿عَلَيْهِمْ نَبَاطُ سُدُنٍ حُضْرٌ وَاسْتَبْرَقٌ وَحُلُوءٌ أَسَاوِرٌ مِنْ فِضَّةٍ وَسَقَمَهُمْ رُبُّهُمْ شَرَابًا طَهُورًا﴾ [الإنسان: ٢١].

(١) البخاري (٦٥٢٨، ٦٦٤٢) ومسلم (٢٢١) واللفظ له.

(٢) أخرجه الترمذي بإسناد حسن برقم (٢٠٠٦٥) في «صحيح سنن الترمذي»، و«صحيح سنن ابن ماجه» (٤٢٨٩) بتصحيح الألباني فيهما.

ومثل: ﴿يَحْمِلُونَ فِيهَا مِنْ آسَافٍ مِنْ ذَهَبٍ وَيَلْبَسُونَ ثِيَابًا خُضْرًا مِنْ سُنْدُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ﴾ [الكهف: ٣١].

ومثل: ﴿وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ﴾ [فاطر: ٣٣].

وهكذا، فإن الغرض من الآيات هو التنويه بشأن السابقين وأصحاب اليمين معاً.

خَمْسَةٌ مِنْ أَدِلَّةِ التَّوْحِيدِ عَلَى الْبَعْثِ وَالنُّشُورِ

الدَّلِيلُ الْأَوَّلُ: الْقَادِرُ عَلَى بَدْءِ الْخَلْقِ أَقْدَرُ عَلَى إِعَادَتِهِ

٥٧ - ﴿تَعْنُ خَلْقَنَكُمْ فَلَوْلَا تُصَدِّقُونَ﴾ ﴿٥٧﴾

ثم إن أهل الشمال الذين أنكروا وحدانية الله تعالى، وأنكروا خاتمة الرسالات، وأنكروا البعث والنشور، إنهم مع هذا مُقرون ومُعترفون بأن خالقهم ورازقهم هو الله سبحانه ﴿وَلَكِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَهُمْ يَقُولَنَّ اللَّهُ﴾ [الزخرف: ٨٧].

﴿قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أَمَّنْ يَمْلِكُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَرَ وَمَنْ يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَمَنْ يُدِيرُ الْأَمْرَ فَسَيَقُولُونَ اللَّهُ﴾ [يونس: ٣١].

ولكن هذا الاعتراف كالعدم؛ لأنهم أشركوا مع الله غيره، يتوجهون إليه بالدعاء والذبح والنذر، ويطلبون منه المدد والعون، والنفع والضرر، ويتوسلون به إلى الله تعالى لتكون لهم واسطة تقربهم منه تعالى.

ولما كان هذا ونحوه من خصائص الله تعالى، ولا يُقدَّر عليه إلا الله، كان اعترافهم بوجود الخالق لا وزن له، لأنهم إذا لم يتوجهوا إلى الله وحده بجميع أنواع الطاعات، ولم يُحْكِمُوا كتاب الله سبحانه فيما شجر بينهم، فكأنهم لم يقرؤا بوحداية الله تعالى ولم يؤمنوا بالبعث! ولذا قال تعالى: ﴿تَعْنُ خَلْقَنَكُمْ﴾ أيها الناس، فأوجدناكم من العدم ولم تكونوا شيئاً، خلقناكم من غير عجز ولا تعب.

ولعل المقصود بهذه الآية: خلق الإنسان الأول - وهو آدم عليه السلام - من تراب؛ لأن الآية التي بعدها تحدثت عن خلق ذريته من المنى.

وليس المقصود إثبات أن الله تعالى هو الذي خلقهم فهم معترفون بذلك، وإنما المقصود إثبات أن القادر على الإيجاد الأول، قادر على إعادته، وأنه على كل شيء قدير، ولكنهم لما توجهوا بالعبادة إلى غير الله تعالى، ولما أنكروا البعث والنشور، أنزلهم الله تعالى منزلة من يشك في أن الله خلقهم، وهذا من باب إلزام الحجة لهم، والتبكيك والتهكم بهم، ولذا وبخهم الله تعالى على عدم التصديق بالبعث، وهم يشاهدون ما هو أعظم منه. والقرآن الكريم يلح في طلب النظر واستقصاء الفكر في هذا الوجود لمعرفة البدء والعودة، إننا موجودون يقيناً، فكيف وجدنا؟

والمأمل في النشأة الأولى يرى أن استبعاد النشأة الآخرة قصور في الفكر، وطمس في البصيرة ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا كَيْفَ يُبْدِئُ اللَّهُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ﴾ (١٩) ﴿قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ ثُمَّ اللَّهُ يُنْشِئُ النَّشْأَةَ الْآخِرَةَ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ (٢٠) ﴿يُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ وَيَرْحَمُ مَنْ يَشَاءُ وَإِلَيْهِ تُقْلَبُونَ﴾ (٢١) [العنكبوت: ١٩-٢١].

لقد لُخصت هذه المعاني كلها في آية قصيرة: ﴿نَحْنُ خَلَقْنَاكُمْ فَلَوْلَا تُصَدِّقُونَ﴾ (٥٧). وقد أفضت هذه الآيات القصيرة، إلى ذكر أربعة أدلة على إمكانية البعث والنشور، وهذه البراهين الأربعة تتمثل في:

- ١- خلق الإنسان من نطفة.
 - ٢- وخلق الزرع من البذور.
 - ٣- وإنزال الماء من السحاب.
 - ٤- وخلق النار من الشجر الأخضر.
- وكلها حجج موجبة للتصديق بالبعث بعد الموت، وكأن معترضاً من الكفار قال: لم أصدق، فقيل له: أفرأيت كذا وكذا؟

الدليل الثاني: خلق الإنسان من نطفة

٥٨، ٥٩ - ﴿أَفَرَأَيْتُمْ^(١) مَا تُمْنُونَ^(٥٨) أَأَنْتُمْ تَخْلُقُونَهُ أَمْ نَحْنُ الْخَالِقُونَ^(٥٩)﴾.

(١) سهّل الهمزة الثانية من (أفرأيتم) نافع وأبو جعفر، ولورش إبدالها ألفاً مع المد المشبع حالة الوصل، وحذفها الكسائي، وحققها الباقون.

أفأرأيتم ابتداء خلقكم من المني الذي تمنونه؟ فهل أنتم خالقون هذا المني وما ينشأ منه؟ أم الله تعالى هو الذي خلقه، وجعل بين الزوجين مودة ورحمة، كانتا سبباً لهذا التناسل.
إن هذا السائل العجيب، والماء المهيّن تخمّل الدفعة الواحدة منه مئتي مليون حيوان منوي، هذا الحيوان - الذي لا يرى لضالّته - ويخمل في كيانه كل خصائص النوع الإنساني المادية والمعنوية.

وهذا أمر معروف من قديم، ففي قصة الملاعنة التي جاءت في سورة النور من الآية السادسة إلى الآية التاسعة، يقول النبي ﷺ عن المرأة الحامل، المتهمة بالزنى:
«إن جاءت به أكحل العينين، سابغ الإليتين، خذّج الساقين - أي: ممتلئ الساقين - فإنه لشريك بن سحماء»^(١) الذي رُميت به المرأة.

فقد بيّن النبي ﷺ أن الصفات الجسدية تنتقل من الأب إلى الابن عن طريق الحيوانات المنوية.

كذلك تنتقل الصفات العقلية والخلقية، فهل توجد في الخصيتين مصانع عالمية تديرها غُضبة من العباقر، تصنع ذلك؟ إن هذه الغدد تأخذ مادتها من الدم، والدم يأتي من الغذاء، والغذاء يأتي من الطين! والمشرف على هذه الأطوار أولاً وأخيراً هو الله رب العالمين ﴿الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ، وَبَدَأَ خَلْقَ الْإِنْسَانِ مِنْ طِينٍ﴾ (٧) ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ مَّاءٍ مَهِينٍ ﴿٨﴾ ثُمَّ سَوَّاهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِنْ رُوْحِهِ. وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَرَ وَالْأَفْئِدَةَ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ﴿[السجدة: ٧-٩].

نحن خلقناكم - أيها الناس - من سلالَةٍ من طين ﴿ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَكِينٍ﴾ (١٣) ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظْلًا فَكَسَوْنَا الْعِظْلَ لَحْمًا ثُمَّ أَنْشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ ﴿١٤﴾ ثُمَّ إِنَّكُمْ بَعْدَ ذَلِكَ لَمِتُّونَ ﴿١٥﴾ ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ تُبْعَثُونَ ﴿[المؤمنون: ١٣-١٦].

(١) «فتح الباري» (٣٢٦/٦) وهو في «صحيح البخاري» مختصراً برقم (٤٧٤٧) عن ابن عباس وهذا جزء منه، وهو حديث طويل، وفي «المسند» (٢٣٨/١) برقم (٢١٣١) وهو حديث حسن، وعباد بن منصور متكلم فيه، وأبي داود (٢٢٥٦)، والطيالسي (٢٦٦٧)، وأبي يعلى (٢٧٤٠).

فهلّا تصدقون أن الذي بدأ الخلق أقدر على إعادته، وقد أنكر الله عليهم عدم إقرارهم بالبعث، كما جاء في أسلوب الحث والحض على الإيمان باليوم الآخر في قوله تعالى: ﴿فَلَوْلَا تُصَدِّقُونَ﴾ أي: بالبعث والنشور.

ولماذا تتهمون صاحب الخلق الأول بالعجز عن الخلق الثاني؟ إن المدرس - والله المثل الأعلى - عندما يتعب في إعداد درس تكون إعادته أسهل عليه، وتنزلاً على هذا الفكر، يقول تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَتْ عَلَيْهِ﴾ وليس عند الله تعالى هين وأهون، وسهل وصعب، ولذلك فإن الله تعالى أتبع هذا بقوله: ﴿وَلَهُ الْمَثَلُ الْأَعْلَىٰ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [الروم: ٢٧].

وكثيراً ما أنكر الكفار البعث والنشور ﴿وَقَالُوا إِذَا كُنَّا عِظْمًا وَرُفْنًا أَءَنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا﴾ يقول سبحانه: ﴿قُلْ كُونُوا حِجَارَةً أَوْ حَدِيدًا ۝٥٠ أَوْ خَلْقًا مِّمَّا يَكْبُرُ فِي صُدُورِكُمْ فَسَيَقُولُونَ مَن يُعِيدُنَا قُلِ الَّذِي فَطَرَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ فَسَيُنْغِضُونَ إِلَيْكَ رُءُوسَهُمْ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هُوَ قُلْ عَسَىٰ أَن يَكُونَ قَرِيبًا ۝٥١ يَوْمَ يَدْعُوكُمْ فَتَسْتَجِيبُونَ بِحَمْدِهِ وَتَظُنُّونَ إِن لَّبِئْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا ۝٥٢﴾ [الإسراء: ٤٩-٥٢].

وكثيراً ما كذبوا صاحب الرسالة في قوله: إن البعث حق، والجنة حق، والنار حق، وكثيراً ما رموه بالجنون: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا هَلْ نَدُكَّرُ عَلَىٰ رَجُلٍ يَبْتَغِي لَكُمْ إِذَا مَرِضْتُمْ كُلَّ مُمْرَةٍ بِأُنْثَىٰ ۖ فَمَنْ جَدِيدُ ۝٧ أَفَتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَمْ بِهِ جِنَّةٌ ۝﴾.

قال تعالى في الرد عليهم: ﴿بَلِ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ فِي الْعَذَابِ وَالضَّلَالِ الْبَعِيدِ﴾ [سبأ: ٧، ٨].
والمدحش أن الإنسان يُخلق من حيوان منوي واحد فقط، والبقية الأخرى من المئتي مليون، تذهب إلى دورات المياه، كأن الله تعالى يقول للإنسان المتكبر: إن إيجادك وإيجاد مليارات مثلك، لا يكلف الله شيئاً^(١).

فَمَنْ صَنَعَ هذا الحيوان المنوي الذي خلق منه الإنسان؟ ﴿أَمْ تَأْتُرُهُمْ فَتَلْقَوْنَهُ ۖ أَمْ نَخْنُ الْخَلْقُونَ ۝﴾ هذه التطف التي تقذفون بها في أرحام نساءكم، هل أنتم الذين خلقتموها

(١) يُنظَر: «نحو تفسير موضوعي لسور القرآن» للشيخ محمد الغزالي (ص ٤٢٧).

وَكَوْنُكُمْ هَا، وَأُودِعْتُمْ فِيهَا خَصَائِصَ الْإِنْسَانِ المادية والمعنوية؟ وهل أنتم الذين خلقتكم منها بشرًا سويًا؟ أم نحن الخالقون لها، والخالقون لكم؟ فَإِنْ كُنْتُمْ مُقْرُونَ بِأَنَا الْخَالِقُونَ، فلماذا عبدتم غيرنا؟ ولماذا أنكرتم إعادة خلقنا لكم؟ ﴿لَنَحْنُ خَلَقْنَهُمْ وَشَدَدْنَا أَسْرَهُمْ وَإِذَا شِئْنَا بَدَّلْنَا أَمَلَهُمْ تَبْدِيلًا﴾ (٢٨) [الإنسان: ٢٨].

إن دور الإنسان في أمر الخلق، لا يزيد على أن يُودِعَ الرجل نطفته في رحم المرأة، ثم تتولى القدرة الإلهية أطوار خلقه ونشأته، إن الخلية الواحدة في تكوين الإنسان تنقسم إلى خلايا شتى ذات خصائص متعددة، منها: خلايا: العظام والعضلات والجلد والأعصاب، ثم خلايا: لعمل العين واللسان والأذن، وخلايا أخرى للغدد، وكلُّ منها يعرف مكانه ولا يُخطئه، فخلايا العين مثلاً لا تخطئ مكانها فتذهب إلى القدم، ولا تخطئ خلايا الأذن فتذهب إلى البطن مثلاً، وكل الخلايا تأخذ مكانها تحت عين الخالق سبحانه.

إن هذه النطفة إفراز من إفرازات الجسد، كالعرق والدمع والمخاط^(١).

وهذه الخلايا كامنة في الحيوان المنوي الذي خلق منه الإنسان بعظمه ولحمه وعروقه وشعره وأظافره وسماته وملامحه وطباعه واستعداداته، فمن أودعها هذه الخصائص وهذه الاستعدادات؟ من الذي ألهمها الرغبة الكامنة في حفظ نوعها لإعادته مرة أخرى؟ لولا أن هنالك إرادة مدبرة لا عمل للإنسان فيها، تلك هي البداية.

أما النهاية فلا تَقِلُّ إعجازًا ولا غرابة:

٦٠ - ﴿لَنَحْنُ قَدَرْنَا^(٢) يَتَنَكَّرُ الْمَوْتُ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ﴾ (٦٠)

نحن قضينا وحكمنا عليكم بالموت، وساوينا بينكم فيه، وإن أعماركم من طول إلى قصر إلى توسط، وإليه يتتهي كل حي، ولا يفلت منه أحد، ولا يفوته أحد، ومنكم من يموت شيخًا أو شابًا أو طفلًا، وقد ساوى سبحانه في هذا القضاء بين الخلائق جميعًا: أهل الأرض وأهل السماء، الشريف والوضيع، الغني والفقير، الأمير والخفير، الصغير والكبير.

(١) يُنظَر: «في ظلال القرآن» (٦/٣٤٦٧).

(٢) قرأ ابن كثير بتخفيف الدال من (قدرنا)، والباقون بالتشديد، وهما لغتان.

ثم إن الله تعالى لا يعجزه شيء، ومن ذلك استبدال المخلوقات بغيرها ﴿وَمَا نَحْنُ بِمَبْسُوتِينَ﴾ على تبدلكم إن أردنا، وننشئكم بأوصاف أخرى لا يصل إليها علمكم، ولا يوجد من يسبقنا أو يغلبنا على ذلك، فنحن قادرون على تحديد آجالكم قدرة تامة، فمن حضر أجله لا يتقدم ساعة ولا يتأخر، ونحن غير عاجزين:

٦١- ﴿عَلَىٰ أَنْ تُبَدَّلَ أَمْثَلُكُمْ وَتُنتَشِئَكُمْ فِي مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ ﴿١١﴾

أي: نحن قادرون على تبديلهم بخلق أجساد أخرى تُودَع فيها الأرواح. وقادرون على نفخ الروح في الأجساد الميتة: بجمع متفرقها، أو إنشاء أمثالها من ذواتها، أي: من عَجَب الذنب ونحوه.

وقادرون على أن نبذل خلقهم، بخلق آخر مماثل لهم في الدنيا والآخرة.

وقادرون على أن نستأصل شأفتهم ونعوّضهم بأمة أخرى، قال تعالى:

﴿إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ﴾ ﴿١٩﴾ وَمَا ذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ بِعَزِيزٍ ﴿٢٠﴾ ﴿[إبراهيم].

وقال سبحانه: ﴿إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَسْتَخْلِفْ مِنْ بَعْدِكُمْ مَا يَشَاءُ كَمَا أَنْشَأَكُمْ مِنْ

ذُرِّيَّةٍ قَوْمٍ آخَرِينَ﴾ ﴿١٣٣﴾ [الأنعام].

وقال جل شأنه: ﴿إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ أَيُّهَا النَّاسُ وَيَأْتِ بِآخَرِينَ﴾ وَكَانَ اللَّهُ عَلَىٰ ذَٰلِكَ

قَدِيرًا ﴿١٣٣﴾ [النساء].

وهذا معنى ﴿وَتُنتَشِئَكُمْ فِي مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ أي: نعيد خلقكم من جديد، فلسنا بعاجزين على أن نهلككم ونستبدل قومًا غيركم يكونون أطوع منكم، ولسنا بعاجزين أن نعيدكم يوم القيامة في خلقة أخرى لا تعلمونها للبعث والحساب، وفي هذا تهديد لهم واحتجاج عليهم بالبعث.

قال تعالى: ﴿أَيَحْسَبُ الْإِنْسَانُ أَنْ يُتْرَكَ سُدًى﴾ ﴿٣٦﴾ أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِنْ مَنِيٍّ يُنْتَنَىٰ ﴿٣٧﴾ ثُمَّ كَانَ عِلْقَةً فَخَلَقَ فَسَوَّىٰ ﴿٣٨﴾

فَعَمَلَيْتَهُ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالْأُنثَىٰ ﴿٣٩﴾ أَلَيْسَ ذَٰلِكَ بِقَدِيرٍ عَلَىٰ أَنْ يُحْيِيَ الْمَوْتَىٰ ﴿٤٠﴾ [القيامة].

وقال جل شأنه: ﴿وَأَنَّهُ خَلَقَ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالْأُنثَىٰ ﴿٤٤﴾ مِنْ نُطْفَةٍ إِذَا تُمْنَىٰ ﴿٤٦﴾ وَأَنَّ عَلَيْهِ النَّشَأَ الْآخِرَىٰ﴾

[النجم: ٤٥-٤٧]. والخلق الأول دليل الخلق الآخر، قال تعالى:

٦٢- ﴿وَلَقَدْ عَلَّمْتُمُ النَّشَأَ^(١) الْأُولَىٰ فَلَوْلَا تَذَكَّرُونَ^(٢)﴾

لقد علمتم - أيها الناس - النشأة التي خلقتكم منها: من نطفة، فعلقه، فمضغته.. وجعلنا لكم سمعاً وأبصاراً وأفئدة، وعلمتم نشأة أبيكم آدم من طين، فإنه لا يوجد أحد ينكر أنه من ولد آدم، وأن آدم لم يُخلق من تراب.

﴿فَلَوْلَا تَذَكَّرُونَ﴾ هَلَّا تذكرون قدرة الله تعالى على إعادة خلقكم مرة أخرى؟ وهذا أمر عجيب لمن كذب بالنشأة الآخرة وهو يرى النشأة الأولى، وأعجب منه مَنْ يصدّق بالنشأة الآخرة، وهو لا يسعى لدار القرار.

إن الله الذي خلق هذا العالم لم يبذل فيه جهده، ولم يستفرغ طاقته، إنه - سبحانه - في كل طرفة عين يتجدد له خلق، وتستقبل فيه الدنيا ذريات جديدة باستمرار.

والكافر الملحد ينكر هذا: ﴿وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُ، قَالَ مَنْ يُعْزِي الْعَظَمَ وَهِيَ رَمِيمٌ^(٧٨) قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنْشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ^(٧٩) الَّذِي جَعَلَ لَكُم مِّنَ الشَّجَرِ الْأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَا أَنتُم مِّنْهُ تُوقَدُونَ^(٨٠) أَوَلَيْسَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِقَدِيرٍ عَلَىٰ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ بَلَىٰ وَهُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ^(٨١) إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَن يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ^(٨٢) فَسُبْحَانَ الَّذِي يَبْدِئُ مَلَكُوتُ كُلِّ نَفْسٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ^(٨٣)﴾ [يس: ٧٨-٨٣].

الدُّبِيلُ الثَّالِثُ عَلَى الْبَعْثِ وَالنُّشُورِ: خَلْقُ الزَّرْعِ مِنَ الْبُذُورِ

٦٣، ٦٤- ﴿أَفَرَأَيْتُمْ مَا تَحْرُثُونَ^(١) أَنْتُمْ تَزْرَعُونَهُ أَمْ نَحْنُ الزَّارِعُونَ^(٢)﴾

في هذه الآية إشارة إلى ما في الزرع والحصاد من دلائل البعث والنشور، فإحياء الموات وخروج الزرع من الأرض يشبه البعث بعد الموت، وإخراج البشر من الأجداث لا يزيد على إخراج النبات من ظلمات التراب، حاملاً معه صنوف المعادن

(١) قرأ ابن كثير وأبو عمرو بفتح الشين وألف بعدها، من (النشأة) والباقون بإسكان الشين وحذف الألف، وهما لغتان في المصدر.

(٢) قرأ حفص وحزمة والكسائي وخلف بتخفيف الذال، من (تذكرون) والباقون بتشديدها.

والمواد المختلفة قال تعالى: ﴿وَاللَّهُ أَنْبَتَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ نَبَاتًا ۖ ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيهَا وَيُخْرِجُكُمْ إِخْرَاجًا ۖ﴾ [نوح: ١٨].

وقال سبحانه: ﴿وَالْأَرْضُ مَدَدَتْهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوْسِيَ وَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ نَخِيلًا ۖ وَذَكَرْنَا لِكُلِّ عَبْدٍ مُنِيبٍ﴾ [ق: ٧، ٨].

والإنابة هنا تعني يقظة العقل الغافل، الذاهل عن آيات الله تعالى في الكون. إن هذه الأرض التي نحيا فوقها، فيها حدائق وبساتين وحقول وغابات، وأنواع من الزروع والثمار لا تُعدُّ ولا تُحصى، من: حبوب وفواكه وموالح وزيت وأنسجة، وألوان من الأزهار المختلفة الرائحة واللون، فمن منشئ هذا كله؟ إن المزارع يشق الأرض، ويضع البذر، ويتعهده بالماء، ولا يعلم عنه شيئاً بعد ذلك، ثم يشاهد قدرة الله تعالى وهي تُخرج البذر نباتاً وزرعاً قد استوى على سوقه يعجب الزراع، إن في هذا - أي إخراج النبات من الأرض - لدليل على معرفة المنشئ المبدع، فيبحث ذلك على إدراك حقيقة الحياة والموت؟

وبهذا فإن الآيات قد انتقلت من الاستدلال على البعث: بإيجاد الإنسان الأول وهو آدم عليه السلام، ثم خلق نسله من نطفة، ثم إخراج النبات من الأرض، وإنزال الماء من السماء، ثم إخراج النار من الشجر الأخضر، ثم انتقلت الآيات إلى الأمر بتسبيح الله تعالى وتعظيمه وتقديسه، فهو المبدئ المعيد، الفعال لما يريد، وذلك لأن هذا أمر جدير بالتأمل للاستدلال به على بعث الناس بعد موتهم، وفيه امتنان من الله تعالى على عباده بما أنعم عليهم به من الزروع والثمار، كي يوحدوه ويعبدوه ولا يشركوا به شيئاً.

أخبروني - أيها الناس - عن البذر الذي وضَعْتُمُوهُ فِي الْأَرْضِ بَعْدَ حَرْثِهَا، أَنْتُمْ الَّذِينَ تُنْبِتُونَهُ زَرْعًا بِهِيجًا نَضْرًا؟ أَنْتُمْ الَّذِينَ تُنْشِئُونَهُ وَتَضَعُونَهُ فِي السَّبِيلِ وَالْحَبِّ وَالْفَاكِهَةِ، أَمْ نَحْنُ الَّذِينَ نَفْعَلُ ذَلِكَ؟ فَإِذَا أَقْرَرْتُمْ أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى يُخْرِجُ الْحَبَّ وَيَنْبِتُ الزَّرْعَ، فَكَيْفَ تَنْكُرُونَ إِخْرَاجَ الْمَوْتَى مِنَ الْأَرْضِ؟

ويؤخذ من هذه الآية أن الإنسان يقول: حرثت، ولا يقول: زرعت، فإله تعالى هو
الزراع^(١).

إن الخروج للقاء الله تعالى ومواجهة الحساب، كهذه الزروع التي خرجت من التربة
السبخة وهي تحمل السكريات والدهنيات والنشويات، وتحمل جميع الألوان المختلفة،
وكل ذلك من أدلة البعث والنشور لتقريب المعاني إلى الخلق.

ثم نبه سبحانه على أن هذا الحرث معرض للأخطار، لولا حفظ الله له، قال تعالى:
٦٥-٦٧ ﴿لَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَاهُ حُطًا فَظَلْتُمْ تَفَكَّهُونَ^(٢)﴾ ﴿إِنَّا لَمَعْرِضُونَ^(٣)﴾ ﴿بَلْ نَحْنُ مُحْرَمُونَ^(٤)﴾
قد يتصور المزارع أن له عملاً ودوراً في إخراج النبات من الأرض، فبيّن سبحانه أنه
لو شاء لدمّر الزرع والثمر وجعله هشاً يابساً ﴿لَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَاهُ حُطًا﴾ أي لو أراد الله
سبحانه لحطّم هذا الزرع، وجعله هشيمًا تذروه الرياح، بأن يُسلّط عليه ما يُحطّمه من:
بَرَد، أو ريح، أو حشرات، أو آفة، أو غرق، فلا تتفععون به ﴿فَظَلْتُمْ تَفَكَّهُونَ﴾ أي:
أصبّختم، أو صرّتم تتعجبون مما نزل بزرعكم، وأخذتم تتفجّعون وتحزنون على ما نزل
بكم من غُرم، فتتحسرون على ضياع أموالكم، وتندمون على الجهد الذي بذلتموه من
غير فائدة، وتقولون: ﴿إِنَّا لَمَعْرِضُونَ^(٥)﴾ بما أصابنا من مصيبة أو جائحة أتت على زرعنا
وثمرنا.

لقد ذهب زرعنا بغير عوض، فنحن خاسرون هالكون مُعذّبون، بسبب ما أصابنا من
الغُرم وضياع المال، ثم أضربوا عن قولهم هذا، فقالوا: ﴿بَلْ نَحْنُ مُحْرَمُونَ^(٦)﴾.
قد حرّمنا الله الرزق، فغرّمنا قيمة البذر والجهد، وحرّمنا خروج الثمر والنبات.

(١) وقد ورد في هذا حديث ضعيف عند ابن حبان برقم (١١٣٥) والبيهقي في «السنن الكبرى» (١٣٨/٦).

(٢) قرأ البيزي من طريق الداني بتشديد التاء من لفظ ﴿تَفَكَّهُونَ﴾ حال وصلها بما قبلها مع صلة ميم الجمع من
﴿فَظَلْتُمْ﴾ وإشباع المد، لتشديد التاء وصلًا، وإذا وقف على ﴿فَظَلْتُمْ﴾ وبدأ بـ ﴿تَفَكَّهُونَ﴾ خفف التاء كغيره
من القراء، وهو الوجه الثاني له.

(٣) قرأ شعبة (أثنا) بهمزتين على الاستفهام مع التحقيق وعدم الإدخال، والباقون بهمزة واحدة على الخبر.

فاحمدوا الله تعالى أن أخرج لكم النبات من الأرض، ثم أبقاه ونمّاه لكم، ولم يرسل عليه من الآفات ما به تحرمون خيره ونفعه.

قال القرطبي: والمستحب لكل من يلقي البذر في الأرض أن يقرأ بعد الاستعاذة: ﴿أَوْرِئْتُمْ مَا نَحْرُوتُ﴾ (٦٣) ﴿أَنْتُمْ تَزْرَعُونَهُ، أَمْ نَحْنُ الزَّارِعُونَ﴾ (٦٤) ثم يقول: بل الله هو الزارع والمنبت والمبلغ، اللهم صلّ على محمد، وارزقنا ثمر هذا الزرع، وجنّبنا ضرره، واجعلنا لأنعمك من الشاكرين، ولآلائك من الذاكرين، وبارك فيه يا رب العالمين^(١).
إن بعث الأجساد يوم القيامة يشبه خروج النبات من الأرض، وكلاهما عمل تبرّز فيه قدرة فاطر السموات والأرض.

البعث والجزاء يكونان للجسد والروح معاً:

والنعيم والعذاب يوم القيامة، يشمل الجسم والروح معاً، فالإنسان مكون من جسد وروح.

وقد بيّن الله سبحانه أن بني آدم بعد رحلتهم الطويلة في أرجاء الدنيا، وتوارثهم عُمرانها جيلاً بعد جيل، سوف يعودون إلى الله تعالى مرة أخرى ﴿كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُعِيدُهُ﴾ [الأنبياء: ١٠٤].

ولا يتحقق البعث يوم القيامة بقيام الناس بين يدي ربهم، صُورًا لا أرواح فيها، ولا بقيامهم بين يدي الله تعالى أرواحًا لا أجساد لها!

فالناس هم الناس، وسوف يخيّون يوم القيامة بجوارحهم ومشاعرهم التي باشروا بها المعاصي أو الطاعات، وعندما يُنكر الإنسان أنه فعل المعصية، تنطق أركانه وجوارحه فتكذّبه وتشهد عليه.

والذين قالوا: إن الأجساد تَفْنَى ولا تعود، وإن الأرواح وحدها هي التي تُبعث يوم القيامة، وإن الثواب والعقاب يكون للروح دون الجسد.

(١) «تفسير القرطبي» (٢١٨/١٧).

وإن التعذيب والنعيم بهذه الصورة شيء معنوي يشبه تأنيب الضمير أو راحته.
كل ذلك كلام باطل لا أساس له، ويبدو أنه انتقل إلى النصرانية من بعض الديانات
الأرضية الوثنية، فقوّضت أركانها ومحت معالمها!

١ - يقول سبحانه: ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ وَإِنَّمَا تُوَفَّقُونَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ فَمَنْ زُحِرَ
عَنِ الْكَارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ﴾ [آل عمران: ١٨٥].

فهل دخول الجنة والزحزة عن النار تكون للروح دون الجسد؟ إن ثواب الآخرة
وعقابها يكون ماديًا ومعنويًا، دلّت على ذلك حشود من الآيات والأحاديث.

ومن ذلك قوله تعالى: ﴿إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ ﴿١٣﴾ وَإِنَّ الْفُجَّارَ لَفِي جَحِيمٍ ﴿١٤﴾﴾ [الانفطار: ١٣، ١٤].

٢ - وقوله سبحانه: ﴿كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُمْ بَدَّلْنَاهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا الْعَذَابَ﴾ [النساء: ٥٦].

فهل للروح جلد؟! والله تعالى يبيّن أن العذاب يقع على الجلد؛ لأنه مَرَكَزُ الإحساس
في الجسم.

٣ - وقوله جلّ شأنه: ﴿يَوْمَ يُحْمَى عَلَيْهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكْوَى بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُوبُهُمْ
وَيُظْهِرُهُمْ هَذَا مَا كُنْتُمْ لَا تَفْسِكُمْ﴾ [التوبة: ٣٥].

فهل للروح جبهة وجنب وظهر، كما جاء في الآية السابقة؟

٤ - وهل الروح تذوق الثمر: ﴿كُلَّمَا رُزِقُوا مِنْهَا مِنْ ثَمَرٍ رِزْقًا قَالُوا هَذَا الَّذِي رُزِقْنَا مِنْ
قَبْلُ وَأَنُوتُوا بِهِ مُنْشِئِينَ﴾ [البقرة: ٢٥].

فهل الروح تأكل وتشرب وتتزوج الحور العين؟

وهل الحور العين أعدهن الله للروح دون الجسد؟

إن إنكار الجزاء المادي في الآخرة، والتهوين من شأنه، أو التهكم عليه من قِبَلِ
الملحدين والعلمانيين والضالين، جهل فاضح، وتأثر بفلسفات وثنية، مقطوعة المدد
عن الاتصال بالوحي الإلهي.

إن الإنسان مادة وروح لا تُصلحه إلا تعاليم تعترف بمادته وروحه معًا، وهي التعاليم
التي حمل رايتها الأنبياء والمرسلون، والدين الخاتم أراد الله تعالى له ألا يُنسخ، وألا

يُحَرِّفُ، وَلَا يُغَيِّرُ، وَلَا يُبَدِّلُ ﴿ وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴾ [آل عمران: ٨٥].

والإسلام يقرر أن البعث والحساب والنعيم أو العذاب يكون بالجسم والروح معاً.

الدليل الرابع: إنزال الماء من السحاب

٦٨، ٦٩ - ﴿أَفَرَأَيْتُمُ الْمَاءَ الَّذِي تَشْرَبُونَ ﴿٦٨﴾ أَنْتُمْ أَنْزَلْتُمُوهُ مِنَ الْمُزْنِ أَمْ نَحْنُ الْمُنْزِلُونَ ﴿٦٩﴾﴾

وبعد ذكر نعمة الطعام، يأتي ذكر نعمة الشراب، فيمتن الله تعالى على عباده بالماء العذب الذي يشربون منه، وأنه سبحانه أنزله من المزن، وهو السحاب والمطر، فكان منه الأنهار الجارية على وجه الأرض وفي بطنها، ومنه العيون والغدران المتدفقة، وقد جعل الله هذا الماء عذباً فراتاً سائغاً شرابه، وفي هذا دليل على قدرة الله على البعث والنشور.

وقد رتب الله تعالى هذه الأدلة الخمسة - بما يشمل الدليل الآتي - على وحدانيته تعالى، وقيام الناس له تبارك وتعالى يوم لقائه ترتباً بديعاً: فقد بدأها بالخلق، ثم بالرزق الذي يحيا به الإنسان، ثم رتب هذا الرزق ترتباً حسناً، فبدأه بالمأكل من الحب ونحوه؛ لأنه أصل القوت، ثم ثنى بالمشروب؛ لأن به استمرار الحياة، ثم ثلث بما يصلح الحب والماء، وهو النار؛ لأن بها صلاح الأغذية.

وهذا الدليل الذي معنا يتحدث عن الماء، فيقول تعالى: ﴿أَفَرَأَيْتُمُ الْمَاءَ الَّذِي تَشْرَبُونَ ﴿٦٨﴾﴾

أخبروني - أيها الناس - عن الماء الذي تشربونه عذباً فراتاً لتحياؤا به، وتذفعا عن أنفسكم العطش، وهذا انتقال من الاستدلال بتكوين النبات إلى تكوين الماء الذي به حياة الزرع والشجر والنبات والإنسان والحيوان، فالماء أصل الحياة، وأساس بقائها، قال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ﴾ [الأنبياء: ٣٠] فكيف تكوّن هذا الماء؟

هل أنتم الذين أنزلتموه من السحاب على بلادكم وحزركم ودوابكم، ثم أسكنتموه قرار الأرض ﴿أَمْ نَحْنُ الْمُنْزِلُونَ﴾؟ لا شك أنكم لا تُنكرون أننا أنزلناه رحمة بكم ونعمة أنعمنا بها عليكم؛ إذ لا يقدر على ذلك إلا الله، ويوم القيامة ينزل مطر من السماء على

الأجساد البالية فيحييها الله تعالى وتنبت من عَجَب الذَّنْب، كما تنبت الشجرة من أصلها، وهو بمثابة النواة التي يُبعث منها الإنسان، جاء في السُّنَّة: «إن الله تعالى ينزل مطرًا كأنه الطل، فتنبت به أجساد الناس».

إن الماء يُمثِّل أربعة أخماس الأرض، وتمثل اليابسة التي نعيش عليها خمس الكرة الأرضية، وللماء دورة جديرة بالتأمل العميق، فمثلاً: الريح تسوق السحاب من المحيط الهندي لِتَسْقُطَ على أرضنا ودوائنا، ثم يذهب الماء المستعمل إلى مصارفه ومجاربه، ويأخذ سبلاً لا نذريها ليعود إلى البحار والمحيطات مُنْهِياً دورة، ومبتدئاً دورة أخرى، لا تزيد ولا تنقص! والله تعالى قادر على حرماننا منه، قال تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً بِقَدَرٍ فَأَسْكَنَتْهُ فِي الْآرْضِ وَالْأَعْلَىٰ ذَهَابٌ بِهِ لِقَادِرُونَ﴾ (١٨) [المؤمنون: ١٨].

وقال جلُّ شأنه: ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَصْحَحَ مَاؤُكُمْ غَوَا فَمَنْ يَأْتِيكُمْ بِمَاءٍ مَّعِينٍ﴾ (٣٠) [الملك: ٣٠]. وهو سبحانه قادر على أن يجعله أجاباً شديدة الملوحة لا يُتَنَفَّع به. قال تعالى:

٧٠- ﴿لَوْ نَشَاءُ جَعَلْنَاهُ أَجَابًا فَلَوْلَا تَشْكُرُونَ﴾ (٧٠)

إن الله الذي أوجد الماء قادر على الذهاب به ﴿لَوْ نَشَاءُ جَعَلْنَاهُ أَجَابًا﴾ أي: لجعلنا هذا الماء شديد الملوحة، مكروهاً للنفوس لا يُتَنَفَّع به في شرب ولا زرع، إن مشيئة الله وحدها هي التي يُنَاطُ بها وجود الماء والانتفاع به، أو ذهابه وفناؤه ﴿فَلَوْلَا تَشْكُرُونَ﴾ فهلاً تشكرون الله على إنزال الماء العذب لنفْعكم، وشكر الله تعالى يكون بالقول والفعل ووضع النعمة في موضعها، وإخلاص الطاعة والعبادة لله وحده.

إن عذوبة الماء تتم في الجوّ بين تفاعلات قُدْرها رب العالمين، وإنزال الماء من السحاب وتحويله من ماء عذب إلى ماء ملح لا قدرة لأحد عليه سوى الله سبحانه.

وفي الأثر: أن النبي ﷺ كان إذا شرب الماء قال: «الحمد لله الذي سقانا عذبةً فرائاً برحمته، ولم يجعله ملحاً أجاباً بذنوبنا»^(١).

(١) حديث مرسل عن محمد بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب في فيض القدير، قال مصنفه: فيه جابر الجعفي، ثم قال: غريب وأخرجه الطبراني في الدعاء.

الدُّلِيلُ الْخَامِسُ عَلَى الْبَعْثِ وَالنُّشُورِ: خَلْقُ النَّارِ مِنَ الشَّجَرِ الْأَخْضَرِ

٧١، ٧٢- ﴿أَفَرَأَيْتُمُ النَّارَ الَّتِي تُورُونَ ﴿٧١﴾ أَأَنْتُمْ أَنْشَأْتُمْ شَجَرَتَهَا أَمْ نَحْنُ الْمُنْشِئُونَ ﴿٧٢﴾﴾

أخبروني - أيها الناس - عن النار التي توقدونها وتقذحونها من الشجر الرطب، أنتم الذين خلقتهم هذا الشجر الذي ينقدح منه النار، أم رب العالمين هو الذي خلقه؟ فهو ﴿الَّذِي جَعَلَ لَكُم مِّنَ الشَّجَرِ الْأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَا أَنْتُمْ تُوقِدُونَ ﴿٨٠﴾﴾ [يس: ٨٠].

ونعمة النار من الضرورات التي لا غنى للناس عنها، والله تعالى هو الذي أوجدها في مواد كثيرة، ومن قدرته تعالى أنه أنشأها من الشجر الأخضر، فإذا هي نار توقد، فإذا فرغ العباد من حاجتهم أطفئوها وأحمدوها.

وشجرة النار هي شجرة المَرْخ وشجرة العَفَار، وهما شجرتان يُقَدَحُ غُصْنُ إِحْدَاهُمَا بغصن الأخرى، فتولد النار منهما بقدرة الله تعالى.

أنتم الذين أوجدتم شجرتها التي تنقدح منها النار، أم نحن الموجدون لها؟ قال ابن عباس رضي الله عنهما: ما من شجرة ولا عود إلا وفيه النار سوى العُتَابِ ^(١). والشجر الذي ينقدح منه النار هو: شجر الزَّنَاد، ومنه: المرخ، والعفار، والعُشْر، والكُلْخ، وفي كل شجر نار.

وقد تنقدح النار من حَجْرَيْنِ، أو من حَجَرٍ وحديدة.

ومن أمثلة العرب: لكل شجر نار، واستمجد المرخ والعفار. قال تعالى:

٧٣، ٧٤- ﴿نَحْنُ جَعَلْنَاهَا تَذْكِرَةً وَمَتَاعًا لِلْمُقْوِينَ ﴿٧٣﴾ فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ ﴿٧٤﴾﴾

نحن جعلنا نار الدنيا تذكيراً بنار الآخرة، إذا رآها الرائي تذكّر بها نار جهنم، فيخشى الله تعالى ويخاف عقابه، فهي نعمة من الله تعالى، تُذَكِّرُ العباد بالنار التي أعدها للكافرين والعاصين، وجعلها سوطاً يسوق به عباده إلى جنات النعيم.

(١) قرأ أبو جعفر بخلف عن ابن وردان بحذف همزة (المنشئون) مع ضم الشين وصلّاً ووقفاً، ولحمزة ثلاثة

أوجه في الوقف هي التسهيل والحذف والإبدال ياء، والباقون بهمزة محققة مع كسر الشين.

(٢) «حاشية الصاوي على الجلالين» (١٦٦/٤).

والناس تنتفع بالنار في حلّهم وارتحالهم، وفيها المنفعة أكثر للمسافرين في البوادي البعيدة، في طهو الطعام، وهداية الطريق للضال، والتدفئة، ولتهرب منها السباع الضارية، وغير ذلك من المنافع، وفي هذا وغيره منة من الله تعالى على خلقه؛ إذ لا غنى عن النار للثري والفقير على حد سواء، فالمراد بالمقوين: المستمتعين بالنار من الناس جميعاً، وهذا أشمل من أن يراد بها: المسافرون، فإن الحاضر والبادي لا يستغني عن النار، ولكن المسافر يكون أحوج إليها، ولذا خُصّ بالذكر، ومن ذلك أن الدنيا كلها دار سفر، والعبد منذ ولادته مسافر إلى ربه، وقد جعل الله هذه النار متاعاً للمسافرين في هذه الدار، وتذكرة لهم بدار القرار.

وهذا الدليل يكشف عنه العلم الحديث، فنحن عندما نتنفس نأخذ الأوكسجين، ونطرد ثاني أكسيد الكربون، والنبات يفعل عكس ذلك، فهو في تنفسه يأخذ الكربون، ويطرد الأوكسجين، والكربون هو الفحم!

ومن العجيب أن تكون الخضرة مخزناً للوقود! وأن تكون الخضرة سبباً في الاحتراق! إن الشجر في جذوعه وفروعه وأوراقه لا يلبث أن يجف، ويتحول إلى هشيم تتأجج به النار! وهكذا نجد الموت في تضاعيف الحياة.

وعن هذه النار يقول ﷺ فيما يرويه أبو هريرة ؓ: «ناركم جزء من سبعين جزءاً من نار جهنم» قيل: يا رسول الله، إن كانت لكافية؟ فقال: «إنها فضلت عليهن بتسعة وستين جزءاً، كلهن مثل حرهن»^(١).

ولما ذكر سبحانه أدلة التوحيد والقدرة والبعث بعد الموت ممثلة في خلق الإنسان والزرع والماء والنار للاستدلال بها على إمكانية البعث والنشور، أمر جلّ شأنه بتسبيحه، وتحميده، فإن هذا مما يوجب الثناء عليه من عباده، وشكره وعبادته، فقال: ﴿فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ ٧١﴾ فإذا علمتم - أيها الناس - ما أنزلناه من الأدلة، وتذكّرتم

(١) «صحيح البخاري» برقم (٣٢٦٥) ومسلم برقم (٢٨٤٣).

ما في ذلك من النعم، فترّوها ربكم عما لا يليق بجلاله، وعظّموه بقُصارى ما تستطيعون، فهو سبحانه كامل الأسماء والصفات، كثير الإحسان والخيرات، واحمدوه بقلوبكم وألستكم وجوارحكم، لأنه المستحق لأن يُشكر فلا يكفر، ويذكر فلا ينسى، ويُطاع فلا يعصى.

عن عقبة بن عامر رضي الله عنه قال: لما نزلت ﴿فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ﴾ (٧٦) قال ﷺ: «قولوها في ركوعكم» ولما نزلت ﴿سَبِّحْ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى﴾ (١) قال ﷺ: «قولوها في سجودكم»^(١).

قالت عائشة رضي الله عنها: ولما نزلت ﴿فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ﴾ (٧٦) كان ﷺ يقول في سجوده: «سبحانك اللهم ربنا وبحمدك، اللهم اغفر لي» يتأول القرآن^(٢).

وقد أمرنا سبحانه أن نكثر من ذكره وشكره، قال تعالى: ﴿يَتَأْتِيَ الَّذِينَ ءَامَنُوا أَذْكُرُوا اللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا﴾ (٤١) وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا (٤٢) [الأحزاب].

التنويه بشأن القرآن الكريم

٧٥، ٧٦- ﴿فَلَا أَقْسَمُ بِمَوْقِعِ﴾ (٣) النُّجُومِ (٧٥) وَإِنَّهُ لَقَسَمٌ لِّوَعْلَمُونَ عَظِيمٌ ﴿٧٦﴾

أقسم سبحانه وتعالى بمساقط النجوم في مغاربها وأماكن دورانها في أفلاكها وبروجها، وما يحدث في وقت سقوطها من الحوادث الدالة على وحدانية الله تعالى وقدرته، وبعد أن عظم الله هذا القسم ذكر المقسم عليه وهو أن القرآن حق لا ريب فيه هذا.

ولما كانت قضية البعث هي موضوع سورة الواقعة، وكان الماديون الملحدون في كل زمان ومكان قد كذبوا بالبعث، فإن تكذيبهم له تكذيب بالقرآن؛ لأن البعث من أهم ما اشتمل عليه القرآن، ولذلك فقد نوّه الله سبحانه بشأن القرآن، وبين أنه منزّه عن النقائص، وأنه تنزيل من عند الله تعالى، وأن الذي جاء به مُبلّغ عن ربه.

(١) يأتي تخريجه في آخر السورة.

(٢) من حديث عائشة في صحيح البخاري (٤٦٨٤).

(٣) قرأ حمزة والكسائي وخلف (بموقع) بإسكان الواو وحذف الألف، مصدر بمعنى الجمع، وقرأ الباقون (بمواقع) على الجمع.

وهذه النجوم لها أماكن تسقط فيها عند الغروب، ولها بروج ومنازل تسير فيها، ويوم القيامة تتناثر وتتفرق.

وقد أقسم الله تعالى بالنجوم تنويرًا بشأنها، على أنها من دلائل قدرة الله تعالى، وأن هذه الكواكب تسير بدقة ونظام بديع لا يختل ولا يضطرب، فكل نجم له مجاله الذي يغيب فيه، وله مكانه الذي يدور فيه دون أن يصطدم بغيره، ومنها ما يرى بالعين المجردة، ومنها ما لا يرى إلا بالمجهر والأجهزة. ولنا وقفتان مع هذه الآية:

الأولى: مع (لَا) والثانية: مع (مَوَاقِعِ النُّجُومِ).

أمّا الوقفة الأولى (لَا) فإنها قد تكون مؤكدة للقسم، وهذا أحد وجهين فيها كما في قوله تعالى: ﴿ثَلَاثَةً أَهْلِ الْكِتَابِ﴾ [الحديد: ٢٩] أي: ليعلم.

والمعنى: فأقسم بمواقع النجوم، ومن أساليب العرب: نفي ما سوى المقسم عليه، فيفيد الكلام التأكيد.

والوجه الثاني: أن (لَا) للنفي.

والمعنى: أن الأمر أوضح من أن يحتاج إلى قسم^(١) فضلاً عن هذا القسم، وقيل غير ذلك.

الوقفة الثانية: أن يراد بمواقع النجوم ما سبق ذكره من أنها نجوم السماء.

وقيل: إن المراد بمواقع النجوم: أوقات نزول القرآن نجمًا نجمًا، أي: مُفَرَّقًا حسب الوقائع والحوادث والأحوال.

ونجوم القرآن: هي الطائفة من الآيات التي تنزل منه طائفةً طائفةً.

فعن ابن عباس رضي الله عنهما: أن القرآن نزل جملة واحدة من اللوح المحفوظ إلى بيت العزة في السماء الدنيا ليلة القدر، ثم نزل منجمًا^(٢) مُفَرَّقًا، حسب الحوادث والوقائع على مدى ثلاثة وعشرين عامًا.

(١) «تفسير الألوسي» (١٥٢/٢٧).

(٢) يُنظَر: النسائي في «السنن الكبرى» (١١٥٦٥)، وفي ط الرسالة (١١٥٠١) بنحوه و(٧٩٣٧)، والطبري (٣٥٩/٢٢)، والحاكم.

ثم بيّن سبحانه أن القسم بمواقع النجوم قَسَمَ قَدْرُهُ عَظِيمٌ؛ لأن لها مواقع قُدْسِيَّة في السماء، لا يحلف بها إلا بَارٌّ في يمينه، ولو كان عندكم علم نافع لعظمتموه، وآمنتُم بما أقسمنا عليه، وعملتُم بما فيه، وهو قسم عظيم بمنازل النجوم التي في السماء؛ لما فيها من الدلالة على وحدانية الله تعالى، ووظيفتها المنوطة بها في هذا الكون.

والمقسم عليه هو: ﴿إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ ﴿٧٧﴾﴾ ^(١). لا يعتريه شك ولا ريب، فيه آيات وعبر وهدايات لا يمكن حصرها.

حُكْمُ مَسِّ الْمُصْحَفِ وَحَمَلِهِ لِغَيْرِ الْمُتَوَضِّئِ وَلِلْجُنُبِ وَالْحَائِضِ

٧٧-٧٩- ﴿إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ ﴿٧٧﴾﴾ فِي كِتَابٍ مَّكْنُونٍ ﴿٧٨﴾ لَا يَمَسُّهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ ﴿٧٩﴾﴾

ذكر سبحانه وتعالى جواب القسم بمواقع النجوم، فقال: ﴿إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ ﴿٧٧﴾﴾ أي: إن هذا القرآن الذي نزل على محمد ﷺ لقرآن عظيم المنافع، كثير الخير، غزير العلم، وليس بقول ساحر ولا شاعر ولا كاهن، بل هو قرآن كريم نزل من رب العالمين على قلب نبيه محمد ﷺ، وهو معجزة دالة على صدق رسالته إلى يوم الدين، فليس من أساطير الأولين ولا من قول الشياطين: ﴿وَمَا نَزَّلَتْ بِهِ الشَّيَاطِينُ ﴿٨٠﴾﴾ وَمَا يَنْبَغِي لَهُمْ وَمَا يَسْتَطِيعُونَ ﴿٨١﴾﴾ [الشعراء: ٢١٠، ٢١١].

والقرآن: هو كتاب الله المنزل على محمد ﷺ لهداية البشر، المتعبد بتلاوته، المتحدّى بأقصر سورة منه، وهو أفضل الكتب الإلهية.

ولما وصف الله تعالى القرآن بأنه قرآن كريم، أي: نفيس رفيع الشأن، وصفه بوصف آخر، فقال: ﴿فِي كِتَابٍ مَّكْنُونٍ ﴿٧٨﴾﴾ والكتاب المكنون هو اللوح المحفوظ، أي: إن القرآن الذي بلغهم، وسمعوه من النبي ﷺ موافق لما في علم الله تعالى، وهو كتاب ثابت محقق، لا تصل إليه أيدي البشر.

(١) (تفسير الكشاف) (٥٩/٤).

ولا يراد بالكتاب المكنون: القرآن الكريم؛ لأن سورة الواقعة سورة مكية، نزلت في أوائل البعثة، فقد نزل بمكة ست وثمانون سورة، وكانت سورة الواقعة هي السادسة والأربعون في ترتيب النزول، وجلّها سور قصيرة، وهذا القدر لا يمثل ثلث القرآن، فلم يكن هناك قرآن كامل ولا شبه كامل وقت نزول هذه الآية.

فالمراد بالكتاب المكنون قطعاً: هو اللوح المحفوظ^(١) الذي كُتب فيه ما كان وما يكون إلى قيام الساعة، وهو الذي قال الله فيه: ﴿مَافَرَطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ﴾ [الأنعام: ٣٨]. وهو كتاب مستور عن أعين الخلق، مصون ومحفوظ، أن يدنسه أحد، أو تمسه يد غير طاهرة، أي إن هذا القرآن مكتوب في اللوح المحفوظ، معظم عند الله، وعند ملائكته الكرام في الملأ الأعلى.

وهذا الكتاب المكنون الذي هو اللوح المحفوظ ﴿لَا يَمَسُّهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ﴾^(٢) أي: لا يمس اللوح المحفوظ إلا الملائكة المطهرون الذين طهّهم الله تعالى من الآفات والذنوب، وطهّهم من الرجس والنجس والشرك والدنس.

فلفظ ﴿الْمُطَهَّرُونَ﴾ يراد به: الملائكة، أما بنو آدم، فيقال لهم: متطهرون، كما قال تعالى عن أهل مسجد قباء: ﴿فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَنْ يَتَطَهَّرُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُطَهَّرِينَ﴾ [التوبة: ١٠٨]. ويحتمل أن يكون المراد بالكتاب المكنون، هو الكتاب الذي بأيدي الملائكة، ينزل منه وحي الله إلى رسوله، وأنه مستور على الشياطين، لا قدرة لهم على تغييره، ولا على الزيادة فيه أو النقص منه.

وعلى كلا المعنيين، فلا يراد بالكتاب المكنون، القرآن الكريم وإنما يراد أن القرآن بيد الملائكة، وأن جبريل ينزل به على رسول الله ﷺ، فيكون المعنى: لا يمس القرآن إلا الملائكة الكرام الذين طهّهم الله من الآفات والذنوب، وأن الشياطين لا قدرة لهم

(١) بهذا فسرہ الربیع بن أنس ومجاهد وابن عباس وأنس وأبو العالیة وسعيد بن جبیر، انظر: الآثار الواردة في ذلك في «الدر المثور» (١٤/٢٢٠).

على مسه.

والضمير في ﴿يَمْسُهُ﴾ يعود على أقرب مذكور، وهو الكتاب المكنون، أي: المستور عن أعين الخلق، وهو اللوح المحفوظ، على القول الأول.

وعلى هذا فيجوز مس المصحف، وقراءة القرآن - حفظاً ونظراً - لغير المتطهر من الحدث الأصغر، أما حديث: «لا يمس القرآن إلا طاهر» لعمر بن حزم، فهو حديث مرسل منقطع السند^(١).

أما نهى النبي ﷺ: «أن يسافر بالقرآن إلى أرض العدو مخافة أن يناله العدو»^(٢) فالمقصود منه الخوف على القرآن من أن يُمزَّق أو يُهان أو يُداس ونحو ذلك، فإذا أُن هذا الجانب فلا بأس من السفر به إلى أرض العدو.

ولفظ: «طاهر» في حديث عمرو بن حزم يُقصد به المؤمن، لقول النبي ﷺ: «إن المؤمن لا ينجس»^(٣).

وقال قتادة: ﴿لَا يَمْسُهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ﴾ قال: ذاكم عند رب العالمين، لا يمسّه إلا المطهرون، فأما عندكم فيمسّه المشرك النجس والمنافق الرجس^(٤).

وجاء من عدة طرق عن سلمان الفارسي أنه أحدث، ف قيل له: لو توضأت ثم قرأت علينا سورة كذا وكذا، فقال: لا يمسّه إلا الملائكة، ثم قرأ علينا من القرآن ما شئنا^(٥). وفي حديث عبد الله بن عمر رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال: «لا يمس القرآن

(١) عبد الرزاق (١٣٢٨) و«مراسيل أبي داود» برقم (٢٥٧)، و«الموطأ» (١٩٩/١)، وأخرجه ابن حبان، عن ابن حزم الأنصاري، عن أبيه، عن جده برقم (٣٩٥/١) والحاكم (٦٥٥٩) قال محققه: إسناده ضعيف.

(٢) من حديث ابن عمر في البخاري برقم (٢٩٩٠) ومسلم برقم (١٨٦٩).

(٣) من حديث أبي هريرة للشيخين برقم (٢١٠) في «اللؤلؤ والمرجان فيما اتفق عليه الشيخان».

(٤) الطبري (٣٦٦/٢٢).

(٥) أخرجه عبد الرزاق عن علقمة (١٣٢٥) وابن أبي شيبه (١٠٣/١) والحاكم (٤٧٧/٢).

إلا طاهر»^(١). والحديث خبر بمعنى النهي.

وكذلك لما دخل عمر بن الخطاب على أخته قبل أن يُسَلِّمَ فوجدها تقرأ القرآن من صحيفة مكتوبة فيها سورة طه، فطلب الصحيفة ليقرأها فقالت: ﴿لَا يَمَسُّهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ﴾ فقام فاغتسل وقرأ السورة فأسلم.

والمعنى: لا يقرأ القرآن إلا الموحدون، والكافر حين يدخل الإسلام يغتسل من جنابته ويتطهر من شركه.

حكم الجنب والحائض والنفساء في مس المصحف:

ولا يجوز للجنب مس المصحف ولا قراءة القرآن، لأحاديث وردت في ذلك، منها حديث علي عليه السلام قال: رأيت رسول الله ﷺ توضأ ثم قرأ شيئاً من القرآن، وقال: «هكذا لمن ليس بجنب، فأما الجنب فلا، ولا آية»^(٢).

وَيُرْخَصُ للحائض والنفساء في قراءة القرآن من المصحف، أو عن ظهر قلب، ولم يُزَوَّ في هذا حديث صحيح صريح يمنع من ذلك^(٣).

والآيات تنفي ما زعمه المشركون من أن القرآن تنزلت به الشياطين، وثبت أنه نزل من كتاب مصون مستور عن الأعين، وأن الملائكة وحدهم هم الذين يطلعون على اللوح المحفوظ، ويُنزلون بالقرآن على رسول الله ﷺ، ولهذا قال تعالى بعد ذلك:

(١) رواه الطبراني في «الكبير» (١٣٢١٧) وفي «الصغير» (١٣٩/٢)، قال المناوي: وسنده صحيح، وجعله السيوطي في مرتبة الحسن، وكذلك رواه الدارقطني بسنده عن سالم عن أبيه، برقم (٤٣٧) ومن طرق أخرى برقم (٤٣٥-٤٤١) مقطوعاً وموصولاً، ورواه مالك أيضاً عن شرحبيل بن كلال، وصححه الألباني في «إرواء الغليل» (١٢٢).

(٢) رواه أحمد وأبو يعلى، قال الهيثمي في «مجمع الزوائد» (٢٧٦/١): رجاله موثقون، يُنظر: «المسند» (١١٠/١).

(٣) يُنظر تفصيل هذا والذي قبله مع فتوى ابن تيمية في كتابنا: «فن الترتيل وعلومه» (٣٨٨/١) وما بعدها.

٨٠- ﴿تَنْزِيلٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ﴾ ﴿٨٠﴾

أي: إن هذا القرآن الموصوف بهذه الصفات منزل من رب العالمين، الذي يربي العباد بنعمه الدينية والدنيوية، وقد أنزله مشتملاً على ما فيه سعادة الدارين، فهو الحق الذي لا مرية فيه، كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ ﴿١٣٠﴾ نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ ﴿١٣١﴾ عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنذِرِينَ ﴿١٣٢﴾ بِلسَانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ ﴿١٣٣﴾ وَإِنَّهُ لَفِي زُبُرِ الْأَوَّلِينَ ﴿١٣٤﴾﴾ [الشعراء: ١٩٢-١٩٦].

وقال سبحانه: ﴿تَنْزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ ﴿١﴾﴾ [الزمر: ١].

وقال أيضاً: ﴿تَنْزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ ﴿٢﴾﴾ [غافر: ٢].

وقال جل شأنه: ﴿وَمَا نَزَّلَتْ بِهِ الشَّيَاطِينُ ﴿١١٠﴾ وَمَا يَنْبَغِي لَهُمْ وَمَا يَسْتَطِيعُونَ ﴿١١١﴾﴾ [الشعراء: ٢١٠، ٢١١].

وسمي المنزل تنزيلاً؛ لأنه لم ينزل دفعة واحدة على رسول الله ﷺ، بل نزل نجوماً من بين كتب الله تعالى.

الْمُعَارِضُونَ يُكَذِّبُونَ بِالْقُرْآنِ وَمَا فِيهِ، وَمِنْهُ نُزُولُ الْمَطَرِ بِفَضْلِ اللَّهِ تَعَالَى

٨١، ٨٢- ﴿أَفَبِهَذَا الْحَدِيثِ أَنْتُمْ مُذْهَبُونَ ﴿٨١﴾ وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ ﴿٨٢﴾﴾

ثم انتقلت الآيات من التنويه بشأن القرآن وعظيم قدره، إلى مخاطبة المنكرين للقرآن، المكذبين به، ليقول لهم: أفبهذا الكتاب وما يحمله لكم من هدايات وإرشادات وتشريعات أنتم مكذبون لما فيه؟ ولذا: فإنكم تدهنون، أي لا تثقون بما فيه، فتخفونه خوفاً من الناس ولا تضدعون بما فيه، مع أنه الحق الذي لا يغالب ولا يدهن به.

ومن أهم ما تضمنه القرآن: البعث والحساب والجزاء، الذي هو موضوع السورة، حيث قسّمت الناس يوم البعث والحساب والجزاء إلى ثلاثة أقسام:

السابقين، وأصحاب اليمين، وأصحاب الشمال.

واستدلّت الآيات التي في السورة على بعث البشر بعد موتهم بـ: الخلق الأول، وإنزال

الماء من السحاب، وإخراج الزرع من الأرض، وإخراج النار من الشجر الأخضر.

وعلى هذا فالمراد بالحديث في الآية: كل ما سبق ذكره في السورة، مما يتعلق

بالبعث والنشور ونحوهما، والقرآن نفسه يسمى حديثاً، كما قال تعالى:

﴿أَفَنَ هَذَا الْخَبِيرُ تَعَجُّونَ﴾ [النجم: ٥٩].

وقال سبحانه: ﴿فَذَرْنِي وَمَنْ يَكْذِبْ بِهَذَا الْخَبِيرِ﴾ [القلم: ٤٤] أي القرآن.

فالقرآن حديث متضمن للبعث والنشور، والكفار يكذبون بالقرآن ويكذبون بالبعث.

وعلى هذا فحفظ المشركين من القرآن ونصيبيهم منه أنهم كذبوه.

قال الحسن: خسر عبدٌ لا يكون حظه من كتاب الله إلا التّكذيب.

هذا ما يشير إليه قوله تعالى: ﴿وَيَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ﴾ أي: حظكم ونصيبيكم من القرآن

﴿أَنْتُمْ تُكْذِبُونَ﴾ أي: تكذبونه ولا تؤمنون به، وتكفرون ما فيه، كاليوم الآخر، وما فيه من

حساب وجزاء، فأنتم - أيها المشركون - تكذبون بقدرة الله تعالى على إعادة الحياة

للإنسان، وهو الذي خلقه وخلق قوته، ورزقه من الحَبِّ والماء والنار، ولكنكم عدلتم

عن شكره تعالى بما أنعم به عليكم، فأنكرتم الحياة بعد الموت، ونسبتم الزرع

لأنفسكم، وزعمتم أن المطر النازل من المزن، إنما هو بعوامل طبيعية أو فلكية، ينزل

بتأثير النجوم، فنسبتموه لغير الله تعالى، وجعلتم مقابلة نعمه عليكم بالرزق: التّكذيب

والكفر بنعمة الله، فقلتم مُطْرُنَا بنوء كذا، وأضفتم النعمة لغير مُسديها، فهلاً شكرتم الله

على نعمه عليكم؟

وفي الآية توبيخٌ للقائلين عن المطر الذي أنزله الله تعالى رزقاً لعباده: إنه نزل بتأثير

النجوم، وهي الأنواء الواردة في الحديث.

والنوء: هو سقوط نجم من النازل في المغرب مع الفجر، وطلوع رقيه من المشرق

يقابله من ساعته، في كل ثلاثة عشر يوماً ما خلا الجبهة، فإن لها أربعة عشر يوماً.

وكانت العرب تنسب الأمطار والرياح والحر والبرد إلى النجم الساقط منها:

١- فعن زيد بن خالد الجهني رضي الله عنه قال: صلى بنا رسول الله ﷺ صلاة الصبح

بالحديبية، في إثر سماء - أي: مطر - كانت من الليل، فلما انصرف أقبل على الناس

فقال: «هل تدرون ماذا قال ربكم؟» قالوا: الله ورسوله أعلم، قال: «أصبح من عبادي مؤمن بي وكافر، فأما من قال: مُطَرْنَا بِفَضْلِ اللَّهِ وَرَحْمَتِهِ، فَذَلِكَ مُؤْمِنٌ بِي وَكَافِرٌ بِالْكَوَاعِبِ، وَأَمَّا مَنْ قَالَ: مُطَرْنَا بِنَوْءٍ كَذَا وَكَذَا، فَذَلِكَ كَافِرٌ بِي مُؤْمِنٌ بِالْكَوَاعِبِ»^(١).

٢- وعن معاوية الليثي رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «يَكُونُ النَّاسُ مُجَدِّدِينَ، فَيُنْزِلُ اللَّهُ عَلَيْهِمْ رِزْقًا مِنْ رِزْقِهِ، فَيُصْبِحُونَ مُشْرِكِينَ» قيل له: كيف ذاك يا رسول الله؟ قال: «يَقُولُونَ: مُطَرْنَا بِنَوْءٍ كَذَا وَكَذَا»^(٢).

٣- وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: مُطَرَّ النَّاسِ عَلَى عَهْدِ النَّبِيِّ ﷺ، فَقَالَ ﷺ: «أَصْبَحَ مِنَ النَّاسِ شَاكِرٌ، وَمِنْهُمْ كَافِرٌ، قَالُوا: هَذِهِ رَحْمَةُ اللَّهِ، وَقَالَ بَعْضُهُمْ: لَقَدْ صَدَقَ نَوْءُ كَذَا وَكَذَا» قال: فنزلت هذه الآية: ﴿فَلَا أَقْسِدُ بَمَوْفِعِ النُّجُومِ﴾ حتى بلغ ﴿وَيَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ﴾^(٣) أي أن التكذيب والكفر سببان لرفع النعم وحلول النقم. والمعنى: أن الناس مُطَرَّوا في صدر الإسلام بمكة، فقال المؤمنون قولاً، وقال المشركون قولاً.

وكان المشركون إذا أنزل الله عليهم المطر ينسبون ذلك إلى النجوم، فبيّن سبحانه أن من يعتقد ذلك فقد كذب برزق الله ونعمه، ومنها المطر، وكذب بما جاء في القرآن، ومنه البعث بعد الموت، وقد سلب عنه أصل الإيمان وخرج من الملة. أما من اعتقد أن المطر من عند الله، وأن ظهور النجم وقت له، بمعنى: أنا مُطَرْنَا بفضل الله وقت طلوع نجم كذا، فليس في هذا شيء.

(١) «الموطأ» (١٩٢/١) والبخاري برقم (٨٤٦، ١٠٣٨) ومسلم برقم (٧١) وأبو داود برقم (٣٩٠٦) والنسائي

(١٦٤/٣) (١٥٢٤) وفي «الكبرى» (١٠٧٦٠) وعبد الرزاق (٢١٠٠٣) والبيهقي (٤٥٧).

(٢) أخرجه أحمد في «المسند» (٢٩٧/٢٤) (١٥٥٣٧) قال محققوه: إسناده حسن، من أجل عمران القطان،

وبقية رجاله ثقات، رجال الصحيح، وهو عند الطيالسي (١٢٦٢)، والطبراني في الكبير (١٩/١٠٤٣).

(٣) «صحيح مسلم» برقم (٧٣)، وانظر: رواية أبي هريرة برقم (٧١، ٧٢).

ومن ذلك: أن عمر رضي الله عنه استسقى، ثم نادى العباس: كم بقي من نجم الثريا؟ فقال: (إن العلماء يزعمون أنها تعترض في الأفق سبعا بعد وقوعها، فوالله ما مضت تلك السبعة حتى نزل المطر)، فقد أراد عمر بسؤاله: كم بقي من الوقت الذي جرت العادة أنه إذا تم، أتى الله بالمطر، فهذا جائز لا كفر فيه.

عَجَزُ الْبَشَرِ عَنْ إِبْقَاءِ الرُّوحِ فِي الْجَسَدِ أَوْ إِعَادَتِهَا إِلَيْهِ

٨٣-٨٥ ﴿فَلَوْلَا إِذَا بَلَغَتِ الْحُلُقُومَ ﴿٨٣﴾ وَأَنْتَ حِينِيذٍ نَنْظُرُونَ ﴿٨٤﴾ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْكُمْ وَلَكِنْ لَا بُدَّ لَهُمْ ﴿٨٥﴾﴾

ومع قيام الأدلة على أن الله تعالى قادر على إعادة الحياة للناس بعد الموت، ووضوح الحجة في ذلك، إلا أن المعاندين مكابرون، ولذلك فقد ختمت السورة باستدلال آخر على أن إثبات البعث ملزم لهم، ولا محيص لهم عن الاعتراف به، وهذا الدليل هو عجز البشر عن إرجاع الروح إلى الجسد بعد مفارقتها له، وعجزهم عن إبقاء الروح في الجسد وعدم انتزاعها منه، فلو لم تكونوا مجزيين على أعمالكم بعد الموت لبقيت الأرواح في أجسادها، فهل تستطيعون إذا بلغت نفس أحدكم الحلقوم عند النزاع وهي تعالج سكرات الموت أن تمنعوها من الخروج؟

وأنتم يا أهل الميت حضور عنده، محيطون به، تنظرون إليه وهو يحتضر، وقد أحضرتم له الأطباء، ولكنكم لا تملكون دفع الموت عنه، وقد يكون المحتضر أكبر الأطباء في العالم، ولكنه لا يستطيع أن يدفع الموت عن نفسه، وقد يكون المحتضر أكبر ملوك الأرض، وعنده أموال قارون، ولكنه لا يستطيع أن يستبقي الروح فيه ساعة واحدة زيادة على أجله.

وقد يكون المحتضر أكبر علماء الأرض، ولكنه لا يستطيع أن يزيد لحظة في عمره. ونحن أقرب إلى المحتضر بعلمنا وقدرتنا، وأقرب إليه بملائكتنا لقبض روحه، ولكنكم لا ترون مَنْ حضره من الملائكة لقبض روحه، قال تعالى: ﴿كَلَّا إِذَا بَلَغَتِ النَّفْسَ ﴿٨٦﴾﴾

وَقِيلَ مَنْ رَاقٍ ﴿٢٧﴾ وَظَنَّ أَنَّهُ الْفِرَاقُ ﴿٢٨﴾ وَالَّذِي بَلَغَهُ السَّاقُ بِالْسَّاقِ ﴿٢٩﴾ إِلَى رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ الْمَسَاقُ ﴿٣٠﴾ ﴿[القيامة: ٢٦-٣٠].
وقال سبحانه: ﴿حَقَّ إِذَا جَاءَ أَحَدَكُمْ الْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لَا يُفْرِطُونَ ﴿٦١﴾ ثُمَّ رُدُّوا إِلَى اللَّهِ مَوْلَاهُمُ
الْحَقُّ﴾ [الأنعام: ٦١، ٦٢]. قال تعالى:

٨٦، ٨٧- ﴿فَلَوْلَا إِنْ كُنْتُمْ غَيْرَ مَدِينِينَ ﴿٨٦﴾ تَرْجِعُونَهَا إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿٨٧﴾﴾

فهلاً تردون نفس من يعز عليكم فراقه، وتردون رُوحه إلى بدنه إذا أوشك على مفارقة الحياة إن كنتم قادرين على ذلك.

هلاً تستطيعون إن لم يكن هناك بعث ولا حساب ولا جزاء - كما تزعمون - أن تعيدوا الروح إلى الجسد، إن كنتم غير محاسبين وغير مجزيين على أعمالكم - على حدّ زعمكم - إن أمكنكم ذلك فأعيدوا الروح للجسد، وزدوها إلى الميت بعد أن بلغت الحلقوم، إن كان الأمر كما تقولون من أنه لا بعث ولا حساب ولا جزاء على الأعمال والأقوال.

فإن لم يمكنكم ذلك، فاعلموا أن الأمر لغيركم، وهو الله تعالى، فآمنوا به، واعلموا أن مفارقة الروح للجسد إنما هي للحساب والجزاء، وأن تُوفى كل نفس بما كسبت.

النَّاسُ بَعْدَ الْبَعْثِ عَلَى ثَلَاثَةِ مَرَاتِبَ

٨٨، ٨٩- ﴿فَأَمَّا إِنْ كَانَ مِنَ الْمُقَرَّبِينَ ﴿٨٨﴾ فَرُوحٌ ﴿١﴾ وَرِيحَانٌ ﴿٢﴾ وَجَنَّتٌ ﴿٣﴾ نَعِيمٍ ﴿٨٩﴾﴾

وإذا فمراتب الناس عند النزاع وبعد البعث ثلاثة أصناف، وهم: المقربون، وأصحاب اليمين، والمكذبون الضالون، على ضوء ما سبق تفصيله بالنسبة للسابقين، وأصحاب الميمنة، وأصحاب المشأمة، ففي أول السورة تقسيم لطوائف الناس الثلاث، وفي

(١) قرأ رويس بضم راء (فُرُوح) اسم مصدر بمعنى: الرحمة، وقرأ الباقر بفتح الراء، مصدر بمعنى: الاستراحة.

(٢) عد الشامي وحده (وريحان) آية، وهو متروك من العدد لغيره.

(٣) وقف بالهاء على (وجنت) ابن كثير وأبو عمرو والكسائي ويعقوب، ووقف الباقر بالتاء، وأمالها الكسائي وقفاً، وهي مرسومة في المصحف بالتاء المفتوحة.

آخرها ذكر لأحوالهم عند الاحتضار والموت، فهذا إيجاز لمنازلهم ومراتبهم:
الْمَرْتَبَةُ الْأُولَى: الْمُقَرَّبُونَ

فإن كان صاحب النفس التي تفارق الحياة من المقربين إلينا، السابقين بعمل الخيرات، الذين أدوا الواجبات والمستحبات وتركوا المحرمات والمكروهات، وفضول المباحات، فهو ممن قال الله فيهم: ﴿وَالسَّيِّئُونَ السَّيِّئُونَ﴾ ﴿١﴾ فله عند موته الراحة والطمأنينة والرحمة الواسعة والفرح والبهجة والسرور، وما تطيب به نفسه من نعيم القلب والروح، وله في الآخرة جنة النعيم، ويحلُّ عليه رضوان الله تعالى.

فالروح: هو الراحة والنعيم والأمان والاطمئنان، والريحان: هو الطيب والرائحة الزكية. والمعنى: أن لصاحب الفضل والسبق في الدين، رائحة طيبة لا تفارقه في دنياه، ورحمة من الله واسعة في أخراه، وله مثل ذلك عند خروج روحه حيث تبشره الملائكة بجنة النعيم فيطير لها فرحاً، وكذا عند نزوله القبر ووقوفه بين يدي الله تعالى للحساب، وله في الجنة ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر.

قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَمُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ﴾ ﴿٣٠﴾ [فصلت: ٣٠].

وهذه جملة من الأحاديث في هذا المعنى:

- ١ - في حديث أبي هريرة ؓ: أن ملائكة الرحمة تقول له: «اخرجي أيتها النفس الطيبة، في الجسد الطيب، اخرجي حميدة وأبشري بروح وريحان، ورب غير غضبان»^(١).
- ٢ - وعن عبد الرحمن بن كعب بن مالك عن أبيه، أن رسول الله ﷺ قال: «إنما نسمة المؤمن، طائر يغلق في شجر الجنة، حتى يرجعه الله تبارك وتعالى إلى جسده يوم

(١) يُنظَرُ الحديث بكامله في: «المسند» (٨٧٦٩، ٢٥٠٩٠)، قال محققوه: إسناده صحيح على شرط الشيخين، و«سنن ابن ماجه» (٤٢٦٢) بإسناد صحيح والحاكم (٣٥٣/١) وابن حبان (٣٠١٤)، والنسائي في الكبرى (١١٤٤٢)، وأخرجه مسلم بنحوه مختصراً برقم (٢٨٧٢).

يبعثه^(١) والنسمة هي الروح.

٣ - وصحَّ عن رسول الله ﷺ من حديث ابن مسعود ؓ أنه قال: «إن أرواح الشهداء في حواصل طير خضر، تسرح في الجنة حيث شاءت، ثم تأوي إلى قناديل معلقة بالعرش»^(٢).

٤ - وجاء في الحديث: عن عائشة رضي الله عنها أن رسول الله ﷺ قال: «إن العبد إذا بُشِّرَ عند الاحتضار بقوله تعالى: ﴿فَلَمَّا إِنْ كَانَ مِنَ الْمُقَرَّبِينَ﴾ (٨٨) فَرَّجَ وَرَّحَانٌ وَحَنَّتْ نَعِيمُ (٨٩)» فإنه عندئذ يحب لقاء الله، والله عز وجل للقاءه أحب، والمكذب أيضًا إذا بُشِّرَ بذلك عند موته كره لقاء الله، فيكون الله تعالى للقاءه أكره^(٣).

٥ - وعن أبي قتادة قال: كنا مع رسول الله ﷺ إذ مرت جنازة، فقال: «مُسْتَرِيحٌ وَمُسْتَرَاخٌ مِنْهُ» فقلنا: يا رسول الله، ما المستريح، وما المستراح منه؟ قال: «العبد المؤمن يستريح من نصب الدنيا وأذاها إلى رحمة الله، والعبد الفاجر يستريح منه العباد والبلاد والشجر والدواب»^(٤).

٦ - وعن عبادة بن الصامت ؓ أن رسول الله ﷺ قال: «من أحب لقاء الله أحب الله لقاءه، ومن كره لقاء الله كره الله لقاءه» فقالت عائشة: إنا لنكره الموت! فقال: «ليس ذاك، ولكن المؤمن إذا حضره الموت بُشِّرَ برضوان الله وكرامته، فليس شيء أحب إليه مما أمامه، وأحب لقاء الله، وأحب الله لقاءه، وإن الكافر إذا حضر بُشِّرَ بعذاب الله وعقوبته،

(١) «المسند» (٤٥٥/٣) ورقمه (١٥٧٧٨)، قال محققوه: إسناده صحيح، وقال ابن كثير: وهذا إسناد عظيم ومتن قوي، وأخرجه مالك في «الموطأ» (٤٩) والنسائي في «السنن» (١٠٨/٤) وابن ماجه (٤٢٧١) وفي «صحيح سنن ابن ماجه» (٤٢٣/٢).

(٢) من حديث ابن مسعود في البخاري (٢٨٠١).

(٣) «صحيح مسلم» (٢٦٨٤) و«المسند» (٢٥٩/٤).

(٤) أخرجه مالك (٢٤١/١) وأحمد (٢٢٥٣٦، ٢٢٥٩٢) والبخاري (٦٥١٢، ٦٥١٣) ومسلم (٩٥٠) والنسائي

فليس شيء أكره إليه مما أمامه، وكره لقاء الله، وكره الله لقاءه»^(١).

فهذه بشارات للمؤمن السابق بالخيرات وهو في الحياة الدنيا وفي الآخرة، كما قال تعالى: عن أوليائه المتقين: ﴿لَهُمُ الْبُشْرَىٰ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ﴾ [يونس: ٦٤].

المرتبة الثانية: أصحاب اليمين

٩٠، ٩١ - ﴿وَأَمَّا إِنْ كَانَ مِنْ أَصْحَابِ الْيَمِينِ ﴿٩٠﴾ فَسَلِّمْ لَكَ مِنْ أَصْحَابِ الْيَمِينِ ﴿٩١﴾﴾

أي: وإن كان الميت المفارق للدنيا، ممن يؤخذ بهم ذات اليمين، ويأخذون صحيفة عملهم بيمينهم، إن كان ممن أدوا الواجبات وتركوا المحرمات، وإن حصل بعض التقصير الذي لا يخل بإيمانهم ولا بتوحيدهم، فقد تجاوز الله عن سيئاتهم وقبل حسناتهم، وقد ثقلت موازينهم، فإنهم ممن نجاهم الله من النار، وفازوا بدخول الجنة؛ ﴿فَمَنْ زُحِرَ عَنِ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ﴾ [آل عمران: ١٨٥] لأنهم كانوا من الثابتين على كلمة التوحيد في الدنيا، فثبتهم الله وأمنهم من الخوف والفرع يوم لقائه، كما قال تعالى: ﴿يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ﴾ [إبراهيم: ٢٧].

إنه في سلام وأمان، حيث تُسَلِّم عليه الملائكة، يوم لقاء الله تعالى وله الأمن والطمأنينة والسلامة في الآخرة من الآفات ومن كل ما يشغل القلب لكونه من أهل اليمين الذين سَلِمُوا من الذنوب والموبقات.

المرتبة الثالثة: أهل الضلال

٩٢-٩٤ - ﴿وَأَمَّا إِنْ كَانَ مِنَ الْمُكَذِّبِينَ الضَّالِّينَ ﴿٩٢﴾ فَتَرَىٰ مِنْ حَمِيمٍ ﴿٩٣﴾ وَنَصِيلَةٍ جَحِيمٍ ﴿٩٤﴾﴾

أما إذا كان المحتضر من أهل الشمال المكذبين بالبعث والنشور، الضالين عن طريق الهدى وطريق الحق، فضيافته عند الله يوم لقائه: شراب الحميم المغلي المتناهي

(١) «المسند» (٣٧٠/٣٧) (٢٢٦٩٦) والبخاري (٦٥٠٧) ومسلم (٢٦٨٣) والترمذي (١٠٦٦) والنسائي

(١٨٣٥) وفي «الكبرى» (١٩٧٥، ١٩٧٦).

الحرارة، وفي انتظاره نار جهنم يدخلها ويحرق بها، ويقاسي شدائدتها وأهوالها، والعياذ بالله، فهي تحيط به وتصل إلى فؤاده وإذا استغاث من شدة العطش والظما يغاث بماء كالمهل يشوي الوجوه. قال تعالى:

٩٥، ٩٦ - ﴿إِنَّ هَذَا لَهُوَ ^(١) حَقُّ الْيَقِينِ ﴿٩٥﴾ فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ ﴿٩٦﴾﴾

إن هذا الذي قصصناه عليك في هذه السورة - أيها المخاطب - مما أعدّه الله لأوليائه من النعيم، ولأعدائه من العذاب الأليم، لهو القول الحق الذي لا معدل عنه، إنه الحق الثابت الذي لا يحوم حوله شك ولا ريب، بل لا بد من وقوعه.

تنزّه الله تعالى عما يقول الظالمون الجاحدون، وتعالى الله عما يقولون علواً كبيراً، فالأمر بتسبيح الله تعالى معناه: نزّه - أيها المسلم - ذات الله تعالى وأسماءه وصفاته عن كل نقص، وعن الشريك والولد.

١ - عن عقبة بن عامر الجهني رضي الله عنه قال: لما نزلت: ﴿فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ﴾ قال ﷺ: «اجعلوها في ركوعكم» ولما نزلت: ﴿سَبِّحْ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى﴾ قال: «اجعلوها في سجودكم» ^(٢).

٢ - وعن حذيفة رضي الله عنه: أنه صلى مع النبي ﷺ فكان يقول في ركوعه: «سبحان ربي العظيم»، وفي سجوده: «سبحان ربي الأعلى»، وما أتى على آية رحمة إلا وقف وسأل، وما أتى على آية عذاب إلا وقف وتعوّذ ^(٣).

(١) سكّن الهاء من (لهو) قالون وأبو عمرو والكسائي وأبو جعفر، وضمها الباقون، ووقف عليها يعقوب بهاء السكت.

(٢) «المسند» (١٥٥/٤) (١٧٤١٤) وقال محققوه: إسناده محتمل للتحسين، وأبو داود برقم (٨٦٩)، وابن ماجه برقم (٨٨٧)، وابن حبان (١٨٩٥)، والحاكم على شرط الشيخين ووافقه الذهبي (٤٧٧/٢) والبيهقي (٨٦/٢)، والدارمي (٢٩٩/١)، وابن خزيمة (٦٠٠) بإسناد حسن، وضعّفه الألباني في «ضعيف سنن ابن ماجه» (١٨٦).

(٣) أخرجه الترمذي، وصححه الألباني في «صحيح سنن الترمذي» (٧٧٤).

٣ - وفي حديث أبي ذر رضي الله عنه: أن رسول الله ﷺ قال: «ألا أخبرك بأحب الكلام إلى الله؟» فقال: «سبحان الله وبحمده» ^(١).

٤ - وعن أبي هريرة رضي الله عنه: أن النبي ﷺ قال: «كلمتان خفيفتان على اللسان، ثقيلتان في الميزان، حبيبتان إلى الرحمن: سبحان الله وبحمده، سبحان الله العظيم» ^(٢).
وهكذا فإن آخر السورة صدق أولها، ولخص مجملها.

تم تفسير (سورة الواقعة) والله الحمد والمنة

(١) «صحيح مسلم» برقم (٢٧٣١).

(٢) البخاري برقم (٧٥٦٣)، ومسلم برقم (٢٦٩٤)، والترمذي برقم (٣٤٦٧)، والنسائي في «السنن الكبرى»

برقم (١٠٦٦٦)، وابن ماجه برقم (٣٨٠٦).

تَفْسِيرُ سُورَةِ الْحَدِيدِ (٥٧)

مُقَدِّمَةُ السُّورَةِ

١. (سورة الحديد) هي السورة السابعة والخمسون في ترتيب المصحف، والخامسة والتسعون في ترتيب النزول، على أساس أنها سورة مدنية، ويكون نزولها في هذه الحالة بعد (سورة الزلزلة) وقبل (سورة محمد)، وعلى القول بأنها سورة مكية، يكون نزولها قبل (سورتي الحجر وطه) وبعد (سورة غافر).

وسورة الحديد من السور المختلف فيها بين كونها مكية أو مدنية.

وذكر ابن عطية عن النقاش إجماع المفسرين على أن سورة الحديد مدنية.

والأظهر: أن الآيات من أول السورة إلى الآية التاسعة مكية، وبقية السورة منها المكي، ومنها المدني، ومن المدني: الآية السادسة عشرة، والآيتين الأخيرتين في السورة، وفيهما دعوة أهل الكتاب إلى الدخول في الإسلام.

وقد ورد أن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: ما كان بين إسلامنا وبين أن عاتبنا الله بهذه الآية ﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنْ آلِهَةٍ وَلَا يَكُونُوا كَالَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ الْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فَاسِقُونَ﴾ الآية: ١٦ إلا أربع سنين^(١).

ولما ورد أن عمر رضي الله عنه دخل على أخته قبل أن يُسلم، فإذا صحيفة فيها أول (سورة الحديد)، فقرأها حتى بلغ ﴿آمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَأَنْقُضُوا مِمَّا جَعَلَكُمْ مُتَخَلِّفِينَ فِيهِ﴾ الآية: ٧ فأسلم^(٢).

(١) رواه مسلم برقم (٣٠٢٧)، والنسائي في السنن الكبرى برقم (١١٥٦٨)، وابن ماجه برقم (٤١٩٢)، وصحيح ابن ماجه (٣٣٨٠) بإسناد حسن.

(٢) رواه الطبراني والبراز في كشف الأستار (٢٤٩٣)، وفيه أسامة بن زيد بن أسلم، وهو ضعيف كما في مجمع الزوائد (٦٣/٩)، ورواه أبو نعيم في الحلية (٤١/١)، والبيهقي في الدلائل (٢١٦/٢)، وابن عساكر (٣١/٤٤).

وفي رواية أخرى أن الصحيفة التي قرأها عمر رضي الله عنه كان فيها صدر (سورة طه).

٢. وتسمى سورة الحديد: لورود لفظ (الحديد) فيها في قوله تعالى: ﴿وَأَنْزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنْفَعٌ لِلنَّاسِ﴾ الآية ٢٥.

ولما كانت قصة أهل الكهف أبرز من كلمة الحديد التي وردت في سورة الكهف فقد سُميت باسم القصة ولم تسم سورة الحديد، مع ورود لفظ الحديد فيها في قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَابْتَغُوا إِلَهًا غَيْرَ اللَّهِ﴾ [الكهف: ٩٦].

٣. وعدد آيات السورة تسع وعشرون آية عند أهل الكوفة والبصرة، وثمان وعشرون آية عند بقية علماء العدد.

وهي خمس مئة وأربع وأربعون كلمة، وألفان وأربع مئة وستة وسبعون حرفاً.

٤. ومما ورد في فضلها مع غيرها من السور المفتحة بالتسبيح: ما رواه العرياض بن سارية رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم كان يقرأ بالمسبحات قبل أن يرقد ويقول: «إِنَّ فِيهِنَّ آيَةَ أَفْضَلٍ مِنْ أَلْفِ آيَةٍ»^(١).

والمسبحات سبع سور، وهي: سور الحديد والحشر والصف والجمعة والتغابن والإسراء والأعلى.

أغراض السورة:

١- تبدأ الآيات الست الأول من سورة الحديد، فتذكر بجلال الله تعالى، وصفاته العظيمة، وسعة علمه وملكوته، وتذكر اثنان وعشرون دليلاً وصفة من أسماء الله الحسنى بعد الاسم العلم ﴿سَبَّحَ لِلَّهِ﴾ للدلالة على وحدانيته سبحانه، ومن هذه الأسماء: العزيز، الحكيم، المحيي، المميت، الأول، الآخر، الظاهر، الباطن، له مُلك هذا الكون، وهو العالم بكل شيء.

(١) النسائي في السنن الكبرى (٨٠٢٦)، وأبو داود (٥٠٥٧)، والترمذي برقم (٨٤٠٦)، والمسند (١٢٨/٤) برقم

(١٧١٦٠) باسناد ضعيف لجهالة ابن أبي بلال وقد ضعفه الألباني أيضاً في ضعيف سنن أبي داود (١٠٧٣).

فهو سبحانه خالق السموات والأرض ومالكهما، يعلم ما يدخل فيهما وما يخرج منهما، وما ينزل منهما، وما يصعد إليهما، وتبعاً لذلك فإنه سبحانه يُدْخِلُ الليل في النهار، ويدْخِلُ النهار في الليل، وهو قادر على كل شيء، وعلمه محيط بكل شيء، فهو سبحانه خالق كل شيء ومبدعه.

وهو الأول بلا بداية، والآخر بلا نهاية، والظاهر بآثار مخلوقاته، والباطن الذي لا يَعْرِفُ كُنْهَ حقيقته أحد، وهو الخالق لكل ما في الكون، والمتصرف فيه كيف يشاء، وكل ما في هذا الكون من ملك وإنس وجن وحيوان وشجر ومدر وجماد، كل شيء يسبح بحمد الله تعالى، فالكل يشهد بوحديته تعالى، ويشهد بعظمته.

٢ - ثم تضع السورة عنصران رئيسان للأمة الإسلامية حتى تؤدي رسالتها العالمية، وهما:

الإيمان بالله ورسوله، وهو عبادة قلبية، ويظهر أثره على الجوارح واللسان. والإنفاق من مال الله، وهو عبادة مالية ﴿أَمِئُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَأَنْفِقُوا مِمَّا جَعَلَكُمْ مُسْتَعْلِفِينَ فِيهِ﴾ الآية: ٧، وهذا الإنفاق للمال، لتحقيق عزة الإسلام ورفع شأنه، ينفق على التصنيع الحربي، وما يسلح الأمة في مواجهة عدوها بما يكافئ ما عنده من سلاح وعتاد، فلا بد للمؤمن من الجهاد بالنفس والمال واللسان، لينال التمكين والسيادة في الأرض، ومنه النفقة الواجبة والمستحبة، وبذلك ينال العبد السعادة في الدنيا والثوبة في الآخرة، ولذا بينت السورة أن إنفاق المال في أوقات الأزمات والشدائد يفوق كثيراً الإنفاق في أوقات الرخاء والسعة، قال تعالى: ﴿لَا يَسْتَوِي مِنْكُمْ مَنْ أَنْفَقَ مِنْ قَبْلِ الْفَتْحِ وَقَتْلٍ أُولَئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِنَ الَّذِينَ أَنْفَقُوا مِنْ بَعْدِ وَقَتْلٍ وَكُلًّا وََعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَى﴾ [الآية: ١٠] ولذلك فإن السورة جعلت عطاء المؤمن بمشاة القرض الحسن لله عز وجل.

ولما سمع أبو الدحداح هذه الآية وكان له بستان فيه ست مئة نخلة، فقال: إني أقرضت ربي حائطي، اخرجني يا أم الدحداح أنت وعيالك، فقد أقرضت ربي حائطي،

فأجابته على الفور: ربح بيعك يا أبا الدحداح.

والسورة تُعنى بالتشريع والتربية والتوجيه، وتبني المجتمع الإسلامي على أساس العقيدة الصافية والخلق الكريم، والتشريع الحكيم.

٣ - وقد تحدثت آيات السورة عن أهل الإيمان، المنفقين أموالهم في سبيل الله، وبينت أن نورهم يوم القيامة يسعى بين أيديهم وبأيمانهم.

أما أهل النفاق فإنهم يتخبطون في الظلمات على الصراط يوم القيامة، كما كانوا يعيشون في الدنيا في ظلمات الجهل والغي والضلال.

والإيمان المقبول: أساسه معرفة الله تعالى، ونكران الذات، ورحمة الخلق، ورقة القلب. والإسلام يمقت القسوة والجفوة والصلف، وبهذا يعظ القرآن أهله ﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ﴾ [الآية: ١٦] ولا يتشبهوا بغيرهم ممن طالت حياتهم في الدنيا ﴿فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَكَثُرَ مِنْهُمْ فَاسِقُونَ﴾ [الآية: ١٦].

٤ - ثم تتحدث آيات السورة عن الدنيا والآخرة، لتضع كلاً منهما في ميزان الحق، فالدنيا تتمثل في خمسة أهداف: لعب، ولهو، وزينة، وتفاخر، وتكاثر في الأموال والأولاد، فإذا أعطينا لكل من هذه الخمسة، ثمانية أعوام من بداية عمر الإنسان حسب ترتيبها، فسيبلغ إلى نهاية سن الشباب، فالطفل يلعب ثمانية أعوام، ولهو ثمانية أخرى، ويتزين في سن المراهقة في الثمانية التي تليها، ويتفاخر فيما بين ٢٤-٣٢ من عمره، ويتكاثر في المال والولد من ٣٢-٤٠ سنة، وبذا يكتمل عقله ويستكمل شهواته، ولذا كان سن الأربعين هو سن النبوة، هذه هي رحلة الدنيا، كزرع أخصب، ثم ذبل، ثم صار هشيمًا يابساً.

أما رحلة الآخرة، فإنها تتطلب المسارعة، والتسابق إلى الجنات، والتنافس في الخيرات: ﴿سَابِقُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ﴾ [الآية: ٢١] والآخرة دار الخلود والبقاء، لا نصب فيها ولا تعب، ولا هم ولا شقاء.

٥ - ثم تبين آيات السورة أن رسالة الله تعالى إلى خلقه واحده جاء بها الرسل

جميعاً، وأيدهم الله بالمعجزات، وأنزل معهم الكتب، وأنزل مع الكتاب ميزان الأعمال والأقوال في شرع الله، ليقوم الناس بالقسط ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ﴾ [الآية: ٢٥] ولإقامة منهج الله في أرضه، لابد له من القوة الرادعة المهيمنة التي تلزم للمسلمين في السلم والحرب، قال تعالى: ﴿وَأَنْزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنْفَعٌ لِلنَّاسِ﴾ [الآية: ٢٥].

ومن الحديد يكون التصنيع الحربي الذي يغنينا عن عدونا، ويحمي دعوتنا وأرضنا، وينصرنا الله بسببه على من اعتدى علينا، وندفع به الصائل، ونحرس به الحدود، وتُصنع الطائرات والدبابات والمدافع والسفن، ونشر كلمة التوحيد والرسالة الأخيرة، ومن الحديد تُبنى الجسور، والأنفاق، وتُشيد المباني والسدود، وتُقام الحضارات، ويكون العمران والبنيان والمواصلات.

إننا نعيش في عصر العلم، عصر غزو الفضاء وشبكة المعلومات، والفضائيات وطائرات التجسس، وأسلحة الدمار الشامل، وإذا لم يأخذ المسلمون بوسائل العلم المعاصر المكافئة لعدوهم، أو الوسائل المتاحة في حدود الإمكان، فلن تقوم لهم قائمة، ولن تتحقق لهم السيادة في دينهم وأرضهم.

وديار المسلمين غنية بالمال، وغنية بالعقول العلمية، ولا يحتاج الأمر إلا إلى التجرد والتوجه الصحيح.

وبهذا يتبين أن الله تعالى قد وضع للبشر القوة المعنوية، وهي تتمثل فيما جاءت به الرسل من المنهج العملي لتحقيق العبودية والخلافة في الأرض.

وَوَضَعَ لها القوة المادية، الممثلة في الحديد، لحماية الدعوة وإقامة العدل بين الناس. وتُختم السورة بتوصية المسلمين بالعودة إلى الله تعالى، والافتداء برسوله ﷺ فإذا أعاد المسلمون علاقتهم بربهم، ومَشَوْا وراء نبيهم، فإن الله تعالى ناصرهم على عدوهم بمشيئة الله سبحانه.

هذا: ويمكن تقسيم السورة إلى أربعة مقاطع:

المقطع الأول: يتناول جانب التنزيه لله تعالى ودلائل التوحيد، وذلك في الآيات الست الأولى من السورة، وفيه اثنان وعشرون صفة ودليلاً على وحدانية الله تعالى.

المقطع الثاني: هو موجبات الإيمان والنفاق، ومصير المؤمنين الصادقين، والكافرين المكذبين، وذلك من الآية السابعة في السورة، إلى الآية التاسعة عشرة فيها.

فالمؤمنون لهم أجر كريم، والمنافقون في العقيدة، مأواهم النار وبئس المصير.

والمقطع الثالث: يتناول رحلة الدنيا والآخرة، فالدنيا لعب ولهو.. والآخرة تنافس وتسابق إلى وسائل النجاة، وهذا من الآية العشرين إلى الآية الرابعة والعشرين.

المقطع الرابع: حديث عن الرسل والرسالات، ووسائل التمكين في الأرض، ودعوة أهل الكتاب إلى الإيمان بخاتم النبيين، وذلك من الآية الخامسة والعشرين إلى الآية التاسعة والعشرين وهي نهاية السورة، وفي هذا المقطع بيان أن إقامة منهج الله تعالى في أرضه لا بد له من قوة تحميه، فالقوة المعنوية تحتاج إلى قوة مادية تساندها وتحقق لها البقاء في الأرض، والحديد عنوان هذه القوة، وقد جاءت الرسل بما يريد الله من خلقه.

* * *

تفسير السورة

أَحَدَ عَشَرَ صِفَةً لِلَّهِ تَعَالَى، مِنْهَا: صِفَتَانِ فِي هَذِهِ الْآيَةِ

١ - ﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾

ابتدأت سورة الحديد بإثبات أن جميع ما في الكون يسبح بحمد الله تعالى، وينزهه عما لا يليق بجلاله، وهو قانت لربه، خاضع ومنقاد لعظمته، وذلك من كل: إنس وملك وجن وحيوان ونبات وبحار وأنهار ودواب وجماد وشجر وحجر ومدر.

الجميع قد مجّد الله تعالى وعظّمه ونزّهه عن السوء، وعن كل ما لا يليق به قولاً وفعلاً واعتقاداً، الكل يسبح الله تعالى بلسان الحال والمقال، وهو سبحانه ﴿الْعَزِيزُ﴾ أي الغالب على أمره بلا منازع ولا ممانع، وجميع الخلق مفتقر إليه، وهو ﴿الْحَكِيمُ﴾ في تصرفاته وأفعاله يضع الأمور في نصابها وفق ما تقتضيه مصلحة عباده.

فهاتان صفتان لله تعالى هما العزيز الحكيم، إلى جوار الاسم العلم وهو اسم الجلالة ﴿الله﴾.

التسبيح في فواتح السور:

وقد جاء التسبيح في فواتح السور: تارة بالمضدر، في أول سورة الإسراء ﴿سُبْحَنَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ﴾.

ويأتي الافتتاح بالتسبيح، لما يعقبه من أمرٍ جليل، وآية باهرة كحادثة الإسراء.

وتارة بصيغة الفعل الماضي كما في سور: الحديد والحشر والصف.

وتارة بصيغة الفعل المضارع كما في أول سورتي الجمعة والتغابن.

(١) سكن الهاء قالون وأبو عمرو والكسائي وأبو جعفر من (وهو) حيث وقعت، وضمها الباقون، ووقف عليها يعقوب بهاء السكت.

وتارة بصيغة فعل الأمر كما في أول سورة الأعلى. فهذه سبع سور جاءت مفتحة بالتسبيح.

وفي هذا إشارة إلى أن جميع الكائنات تسبح بحمد الله تعالى دائماً وأبداً في الماضي والحاضر والمستقبل.

وأول ما يقتضيه هذا التسبيح، هو تنزيه الله تعالى بنفي الشريك والولد عنه سبحانه، فإن عدم وحدانية الله تعالى أكبر ضلال ضل فيه المشركون ممن أشركوا مع الله غيره، أو توجهوا بالعبادة لغيره، وكذلك من قال بوجود إلهين: إله للخير وإله للشر، كالمانوية.

وكذا أهل التثليث كالنصارى والبراهمة، والوثنيون كعباد البقر والأصنام، والقائلون بأن عيسى ابن الله، أو هو الله، أو أنه ثالث ثلاثة.

ولذلك فإن الله تعالى أتبع اسمه العلم في قوله: ﴿سَبِّحْ لِلَّهِ﴾ باثنتين وعشرين صفة ودليلاً على وحدانية الله تعالى، منها صفتان في هذه الآية، وهي العزة والحكمة إلى جوار لفظ الجلالة قبلهما.

وأربع صفات في الآية بعدها هي: الملك والإحياء والإماتة والقدرة.

وخمس صفات في الآية الثالثة، وهي الأول والآخر والظاهر والباطن والعلم التام.

وأربع صفات في الآية الرابعة، هي: الخالق، الواحد، المدبر، البصير.

وهذه الآية تشتمل على ثمانية من دلائل التوحيد، وهي: الخلق، والاستواء، وما يدخل في الأرض وما يخرج منها، وما ينزل من السماء وما يصعد إليها، ومعية العلم الإحاطة، وإطلاع الله تعالى على جميع خلقه.

وفي الآية الخامسة: أنه تعالى له ملك الدنيا والآخرة.

وفي الآية السادسة دليان على وحدانية الله تعالى هما: إدخال كل من الليل والنهار في الآخر، والعلم بما في الصدور، وذلك كله في فحوى الآيات ومنطوقها.

والتسبيح يعني التوحيد والتعظيم والتمجيد، وإفراد الله تعالى بالعبادة.

ويعني أن جميع المخلوقات متقادة لله تعالى، ويدخل فيه السجود لله عز وجل:

﴿وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَظُلُمًا هُمْ بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ﴾ [الرعد: ١٥]
 ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَسْجُدُ لَهُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ
 وَالْجِبَالُ وَالشَّجَرُ وَالدَّوَابُّ وَكَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ الْعَذَابُ﴾ [الحج: ١٨].

تسبيح الكائنات بلسان الحال والمقال:

وتسبيح الله تعالى من غير العقلاء يكون بكيفية لا يعلمها إلا هو، قال تعالى: ﴿تُسَبِّحُ
 لَهُ السَّمَوَاتُ السَّبْعُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِنْ لَا تَفْقَهُونَ
 تَسْبِيحَهُمْ﴾ [الإسراء: ٤٤]، والأولى حمل هذا التسبيح على ظاهره، وأنه تسبيح حقيقي، بلغة
 وكيفية يعلمها رب العالمين، والأدلة متضاربة على ذلك: منها قوله تعالى: ﴿يَبْجَلُ أَوَّي
 مَعَهُ وَالطَّيْرُ﴾ [سبأ: ١٠] فالجبال والطيور ترجع التسبيح مع داود عليه السلام.

١- وفي صحيح مسلم عن جابر بن سمرة رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «إني لأعرف حجراً بمكة كان يسلم عليّ قبل أن أبعث، وإني لأعرفه الآن»^(١).

٢- ويقول عليّ رضي الله عنه كنت مع رسول الله ﷺ بمكة فخرجنا في بعض نواحيها، فما
 استقبله حجر ولا جبل، إلا وهو يقول: «السلام عليك يا رسول الله»^(٢).

٣- وفي صحيح البخاري عن جابر بن عبد الله رضي الله عنه: (أن رسول الله ﷺ خطب إلى
 الجذع، فلما صنعوا له المنبر، وخطب إليه، حنّ الجذع حنين الناقة، فنزل الرسول ﷺ
 فمسحه فسكن)^(٣).

(١) صحيح مسلم برقم (٢٢٧٧).

(٢) رواه الترمذي برقم (٣٢٢٦) قال أبو عيسى: هذا حديث حسن غريب.

(٣) ينظر الحديث في البخاري برقم (٩١٨، ٤٤٩).

وَأَرْبَعُ صِفَاتٍ فِي هَذِهِ الْآيَةِ

٢ - ﴿لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ يُحْيِي وَيُمِيتُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾

وفي هذه الآية أربع صفات لله تعالى هي: الملك والإحياء والإماتة والقدرة، إنه جل شأنه مالك هذا الكون، يتصرف فيه بعلمه وحكمته، يحيي من يشاء، ويميت من يشاء، وهو الخالق الرازق المدبر القادر فلا يعجزه شيء، ما شاء كان وما لم يشأ لم يكن ﴿لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ يتصرف فيهما وحده، ولا ينفذ غير تصرفه وأمره، فهو الغني عن جميع خلقه، والكل محتاج إليه ﴿يُحْيِي﴾ الأموات للبعث والحساب والجزاء ﴿وَيُمِيتُ﴾ الأحياء في الدنيا، وإن شاء أبقى، وإن شاء أزال، بلا منازع ولا مشارك. ولا يوجد أحد من الخلق يدّعي أنه يحيي ويميت، وإن وُجد ذلك كالذي قال ﴿أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ﴾ [البقرة: ٢٥٨] فهذا من باب المغالطة والمجادلة بالباطل. ثم ختم الله الآية بقوله: ﴿وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ وهذا من باب التعميم بعد التخصيص، فإن الإحياء والإماتة من قدرة الله تعالى وحده.

خَمْسُ صِفَاتٍ لِلَّهِ تَعَالَى فِي هَذِهِ الْآيَةِ

٣ - ﴿هُوَ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾

وهذه الآية فيها خمس صفات لله تعالى لا تحتاج إلى بيان، ومثلك الله تعالى دائم في جميع الأزمنة، وتصرفه تعالى في العالم العلوي والسفلي حاصل في عموم الأحوال؛ وبيان هذه الصفات فيما يأتي:

١ - ﴿هُوَ الْأَوَّلُ﴾ الأزلي، ليس لوجوده بداية، السابق على جميع الموجودات، فهو سبحانه موجد لها ومنشؤها، فقد كان سبحانه ولم يكن قبله شيء، ووصف الله تعالى بالقدم يستلزم وصفه بالغنى المطلق، أي أنه تعالى لا يحتاج إلى غيره في شيء، فليس الغنى بالمال فقط، بل بالاستغناء عن الآخرين، ولا يوجد أحد من الخلق يستغني عن الناس، فرغيف الخبز مثلا يشترك فيه عدد من الناس حتى يصل إلى الإنسان.

ويستلزم وصف القدم: التفرد بصفة الوجود، لأنه لو كان هناك غير الله موجود، لما اتصف سبحانه بأنه الأول مطلقاً.

ووصف الله تعالى بالأول يستلزم أيضاً اتصافه بالوحدانية وجميع صفات الجلال والكمال.

٢ - ﴿وَالْآخِرُ﴾ فليس بعده شيء، وليس لبقائه نهاية، فالكل يفنى، ويبقى الله سبحانه ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ﴾ [الفصل: ٨٨] ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ ﴿٢٦﴾ وَيَبْقَى وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ﴾ [الرحمن: ٢٦، ٢٧] فهو سبحانه الآخر بعد فناء موجودات السموات والأرض، وهو جل شأنه مستمر في وجوده، لا ينتابه العدم.

عن أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي ﷺ كان إذا أراد أن ينام، اضطجع على شقه الأيمن ثم قال: «اللهم رب السموات ورب الأرض، ورب العرش العظيم، ربنا ورب كل شيء، فالق الحب والنوى، ومنزل التوراة والإنجيل والفرقان، أعوذ بك من شر كل شيء أنت آخذ بناصيته، اللهم أنت الأول، فليس قبلك شيء، وأنت الآخر، فليس بعدك شيء، وأنت الظاهر فليس فوقك شيء، وأنت الباطن فليس دونك شيء، اقض عنا الدين، واغننا من الفقر»^(١).

وقد نصح النبي ﷺ ابنته فاطمة رضي الله عنها أن تدعو بهذا الدعاء حينما جاءته تسأله خادماً^(٢).

٣ - ﴿وَالظَّاهِرُ﴾ الذي ليس فوقه شيء، والظهور ضد الخفاء، فهو سبحانه ظاهر لجميع خلقه عن طريق النظر والاستدلال والتدبر في آياته الكونية في السموات والأرض، فهو ظاهر بالأدلة الدالة عليه سبحانه وفي الحديث السابق (وأنت الظاهر

(١) صحيح مسلم برقم (٢٧١٣) وابن أبي شيبة (٢٥١/١٠) والمسند (٨٩٦٠) قال محققوه: إسناده صحيح على شرط مسلم، وأخرجه البيهقي (٥٣)، والترمذي (٣٤٨١)، وأبو داود (٥٠٥١) وابن ماجه (٣٨٧٣)، والنسائي في الكبرى (٧٦٦٩).

(٢) كما في صحيح مسلم في الحديث السابق، وعند ابن أبي شيبة (٢٦٢/١٠) والبيهقي (١٢).

فليس فوقك شيء) أي ليس فوقك شيء في دلالة الأدلة العقلية والنقلية على وجودك واتصافك بصفات الجلال والكمال.

٤ - ﴿وَالْبَاطِنُ﴾ الذي ليس دونه شيء، يعلم بواطن الأمور، وهو سبحانه لا يحيط به البصر ولا التكيف، والله تعالى ظاهر بوجوده، باطن بكنهه ﴿لَا تُدْرِكُهُ الْبَصَرُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْبَاصِرَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ﴾ [الأنعام: ١٠٣] فلا مطمع لأحد في إدراك ذاته، ولا معرفة تفاصيل تصرفاته، والعقول لا تدرك كنه ذاته سبحانه.

٥ - ﴿وَهُوَ يَكُلُّ شَيْءٌ عِلْمٌ﴾ لا تخفى عليه خافية في العالم العلوي والسفلي، قد أحاط علمه بالظواهر والبواطن والخفايا والسرائر والأمور المتقدمة والمتأخرة. ولا يعزب عنه مثقال ذرة في السموات والأرض ولا أصغر من ذلك ولا أكبر، وما يخفى على الله من شيء في الأرض ولا في السماء ﴿يَبْنِيْ اِنَّهَا اِنْ تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ فَتَكُنْ فِيْ صَخْرَةٍ اَوْ فِي السَّمٰوٰتِ اَوْ فِي الْاَرْضِ يٰۤاَتِ بِهَا اللّٰهُ﴾ [لقمان: ١٦].
قال تعالى: ﴿لَا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِي السَّمٰوٰتِ وَلَا فِي الْاَرْضِ وَلَا اَصْفَرُ مِنْ ذٰلِكَ وَلَا اَكْبَرُ﴾ [سبا: ٣].

ثَمَانِيَّةُ أَدَلَّةٍ عَلَى التَّوْحِيدِ فِي هَذِهِ الْآيَةِ

٤ - ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمٰوٰتِ وَالْاَرْضَ فِي سِتَّةِ اَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوٰى عَلَى الْعَرْشِ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي الْاَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا وَهُوَ مَعَكُمْ اَيْنَ مَا كُنْتُمْ وَاللّٰهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾

وفي هذه الآية أربع صفات هي: الخالق، الواحد، المدبر، البصير، وهذه الصفات الأربع يدخل تحتها أربعة أخرى من دلائل وحدانيته تعالى في هذه الآية التي اشتملت على ثمانية أدلة على وحدانية الله تعالى:

أولها: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمٰوٰتِ وَالْاَرْضَ فِي سِتَّةِ اَيَّامٍ﴾ أولها يوم الأحد وآخرها يوم الجمعة أي إنه تعالى خلق الأرض في يومين، ثم استوى إلى السماء فخلقها في يومين،

ثم خلق أقوات الخلق في يومين، فيكون مجموعها ستة أيام.
عن الحسن: أنها من أيام الدنيا، ولو أراد الله أن يجعلها في طرفة عين لفعل، ولكن جعل الستة أيام أصلاً ليكون عليها المدار^(١).

ثانيها: ﴿ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ﴾ أي أنه تعالى استوى على عرشه وفوق جميع خلقه، استواء يليق بجلاله، بلا كيف ولا تشبيه ولا تعطيل ولا تأويل ولا تجسيم.

قال الشعبي وجماعة: الاستواء من متشابه القرآن، يؤمن به المسلم، ولا يعرض لمعناه. وقال مالك بن أنس لرجل سألته عن الاستواء: الاستواء معلوم، والكيفية مجهولة، والسؤال عن هذا بدعة، وأظنك رجل سوء، أخرجوه عني، فأدبر السائل وهو يقول: يا أبا عبد الله، لقد سألت عنها أهل العراق وأهل الشام، فما وُفق أحدٌ توفيقك^(٢).

ثالثها: ﴿يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي الْأَرْضِ﴾ أي يعلم ما يدخل في الأرض من البذور والأمطار والأموات ومن حب وحيوان ومطر وغيرها.

رابعها: ﴿وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا﴾ من نبات وشجر وزرع وثمار وحيوان ومعادن ونفط وأحياء وغيرها.

خامسها: ﴿وَمَا يَنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ﴾ من مطر وبرد وثلج وصواعق، ومن الأرزاق، والأقدار والملائكة، والرحمة والعذاب وغيرها.

سادسها: ﴿وَمَا يَرْجُ فِيهَا﴾ أي من الملائكة والأرواح والأدعية والأعمال الصالحة والسيئة، كما قال تعالى: ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ﴾ [فاطر: ١٠]. وقال سبحانه: ﴿تَرْجُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ﴾ [المعارج: ٤].

وصح في الحديث عن أبي موسى ؓ قال: قام فينا رسول الله ﷺ بأربع: «إن الله لا

(١) تفسير النسفي للآية.

(٢) المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز لابن عطية (٣٧/٤) تفسير أول سورة طه .

ينام ولا ينبغي له أن ينام، يرفع القسط ويخفضه، ويرفع إليه عمل النهار بالليل، وعمل الليل بالنهار^(١).

سابعها: ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ﴾ بقدرته وعلمه وإحاطته، أينما كنتم في البر أو البحر أو الجو، أو الأرض أو السماء، أو الليل أو النهار، أو البيت، أو الصحراء، في جوف الليل وفي وضوح النهار، هو عالم بكم أينما كنتم، يسمع كلامكم، ويرى مكانكم، ويعلم سركم ونجواكم.

قال تعالى: ﴿أَلَا إِنَّهُمْ يَنْتُونُ صُدُورَهُمْ لِیَسْتَخْفُوا مِنْهُ أَلَا حِينَ يَسْتَغْشُونَ ثِيَابَهُمْ يَعْلَمُ مَا يُبْرِتُونَ وَمَا يَظُنُّونَ﴾ [هود: ٥].

وقال جل شأنه: ﴿مَا يَكْشُوتُ مِنْ نَجْوَى ثَلَاثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَا آدَنَى مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْثَرُ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا﴾ [المجادلة: ٧].

وقال سبحانه: ﴿سَوَاءٌ مِنْكُمْ مَنْ أَسْرَ الْقَوْلَ وَمَنْ جَهَرَ بِهِ وَمَنْ هُوَ مُسْتَخْفٍ بِآيِلٍ وَسَارِبٍ بِالنَّهَارِ﴾ [الرعد: ١٠].

ولما سأل جبريل عليه السلام النبي ﷺ عن الإحسان قال: «أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك». وهذه المعية، معية العلم والإحاطة والاطلاع، ولهذا توعد الله المجرمين، ووعد المؤمنين بالمجازاة عليها.

ثامنها: وختمت الآية بما يؤكد مضمونها ﴿وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ يرى أعمالكم ويسمع أقوالكم ولا يغيب عنه منها شيء، وسوف يحاسبكم ويجازيكم عليها.

وفي هذه السورة من أدلة التوحيد أن الله تعالى له ملك الدنيا والآخرة، قال تعالى:

٥ - ﴿لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ﴾^(٢)

وكما أن الله تعالى مالك هذا الكون في الدنيا، فإن سبحانه يملكه أيضا في الدار

(١) جزء من حديث أبي موسى الأشعري في صحيح مسلم برقم (١٧٩).

(٢) قرأ نافع وابن كثير وأبو عمرو وعاصم وأبو جعفر بالبناء للمفعول في ﴿تُرْجَعُ الْأُمُورُ﴾ والباقون بالبناء للفاعل.

الآخرة، وذلك أنه في الآية الثانية من السورة بين سبحانه وتعالى أن ﴿لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ ملكاً وخلقاً وعبيداً، يتصرف فيهم بأوامره القدرية والشرعية وفق حكمته سبحانه أي أن جميع الموجودات مخلوقة ومملوكة لله تعالى، ومنها الموت والحياة، والتصرف الكلي في العالم العلوي والسفلي.

وأكد سبحانه هنا هذا المعنى نفسه لينبني عليه ما يتعلق بالدار الآخرة، وليبين أن الحكم والتصرف المطلق والمرجع والمصير إليه سبحانه فقال: ﴿وَالِلَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ﴾ من الأعمال والعباد، فيميز الخبيث من الطيب، ويجزي المحسن بإحسانه والمسيء بإساءته، كما قال تعالى: ﴿وَإِنَّ لَنَا لَلْآخِرَةَ وَالْأُولَى﴾ [الليل: ١٣] وقال جل شأنه: ﴿مَلِكٌ يَوْمَ الدِّينِ﴾.

فِي هَذِهِ الْآيَةِ دَلِيلَانِ مِنْ دَلَائِلِ التَّوْحِيدِ

٦ - ﴿يُولِجُ اللَّيْلُ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارُ فِي اللَّيْلِ وَهُوَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾

وفي هذه الآية صفتان لله تعالى هما: مطلق التصرف في ساعات الليل والنهار، وعلمه تعالى بما تكنه الصدور من السرائر والضمائر، وما فيها من النوايا والخفايا. وبما أن الله تعالى متصرف في أحوال الدنيا والآخرة، فإن من جملة ذلك: تصرفه في الليل والنهار بالزيادة والنقص، والحرارة والبرودة، فهو جل شأنه يُدخل ما نقص من ساعات الليل في النهار، فيزيد الليل في النهار، فيزيد النهار، ويُدخل ما نقص من ساعات النهار في الليل، فيزيد الليل، ويُدخل كلا منهما في الآخر، ويقلب الليل والنهار، فيسيران وفق نظام محكم دقيق، يغشي الليل بظلامه فيسكن الناس ويهدؤون، ويأتي النهار فيزول الظلام ويضيء الكون، ويقوم الناس إلى معاشهم ومصالحهم، وهكذا يكوّر الليل على النهار، والنهار على الليل، ويداول بينهما في الزيادة والنقص والطول والقصر، ويترتب على ذلك فصول السنة الأربعة، والحرارة والبرودة، وما إلى ذلك.

والله تعالى هو الذي يُفني خلقه، ويتصرف فيهم كيف شاء، وليس الدهر ولا تعاقب

الليل والنهار، كما يزعم المشركون في قولهم: ﴿تَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلَّا الدَّهْرُ﴾ [الجنانية: ٢٤] قال تعالى: ﴿يَقْلِبُ اللَّهُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُولِي الْأَبْصَارِ﴾ [النور: ٤٤] ﴿وَهُوَ﴾ جل شأنه ﴿عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾ أي يعلم الخفايا والنوايا ﴿وَمَا تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٌ فِي ظِلْمَتِ الْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ﴾ [الأنعام: ٥٩].

عن ابن عباس ؓ أن اسم الله الأعظم في ست آيات من أول سورة الحديد ^(١).

وقد اشتملت هذه الآيات الست على تسعة عشر دليلاً وصفة من أسماء الله الحسنى وهي: الله، العزيز، الحكيم، الملك، المحيي، المميت، القدير، الأول، الآخر، الظاهر، الباطن، العليم، الخالق، الواحد، المدبر، البصير، مالك يوم الدين، مصرف الليل والنهار، عليم بذات الصدور، ونتيجة لهذه الدلائل يجب عليكم - أيها الناس - أن تدخلوا في ساحة الإيمان إن كنتم غير مؤمنين.

الإِيمَانُ وَإِنْفَاقُ الْمَالِ عُنْصُرَانِ لَا بُدَّ مِنْهُمَا لِنَجَاحِ الْأُمَّةِ

٧ - ﴿ءَامِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَأَنْفِقُوا مِمَّا جَعَلَكُمْ مُسْتَخْلَفِينَ فِيهِ فَالَّذِينَ ءَامَنُوا مِنْكُمْ وَأَنْفَقُوا لَهُمْ أَجْرٌ كَبِيرٌ﴾

في هذه الآية يأمر الله عباده أن يؤمنوا بالله ورسوله وينفقوا أموالهم في سبيل الله، وبعد أن بين الله سبحانه أنه مطلع على النوايا والخفايا، وأن مصير العباد إلى الله وحده، وسوف يحاسبهم على النقيير والقطمير، ذكّرهم بعد ذلك بالإيمان بالله إيماناً لا يشوبه شرك، وذكّرهم بالإيمان برسوله ﷺ بعد أن قامت الأدلة على صدق ما أخبر به، مما كان محل ارتيابهم وتكذيبهم.

﴿ءَامِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾ اثبتوا على الإيمان، أو ادخلوا في الإيمان إن كنتم غير مؤمنين بالله ورسوله، وداوموا على الإيمان بالله تعالى ورسوله محمداً ﷺ إيماناً حقاً لا

(١) تفسير ابن عطية (٥/٢٥٨).

تشوبه شائبة.

ومن مقتضيات الإيمان: أن تنفقوا من أموالكم في وجوه الخير، فإن هذه الأموال عارية في أيديكم، رزقكم الله إياها، أو وَرِثْتُمُوهَا عَنْ غَيْرِكُمْ، وغيركم سيرثها عنكم، وهي أمانة لديكم، استخلفكم الله عليها ﴿وَأَنْفِقُوا مِمَّا جَعَلَكُمْ مُتَخَلِّفِينَ فِيهِ﴾ فهذه الأموال التي في أيديكم، هي أموال الله، وضعها عندكم للاستمتاع بها في الطرق المشروعة، وجعلكم خلفاء فيها، فأنفقوا منها في حقوق الله، ولا تضيئوها، فإن الله تعالى سيرث الأرض ومن عليها:

١ - جاء في الحديث عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «أيكم مال وارثه أحب إليه من ماله؟ قالوا: يا رسول الله، ما منا من أحد إلا ماله أحب إليه، قال: فإن ماله ما قدم، ومال وارثه ما آخر»^(١).

٢ - وعن مُطَرِّف بن عبد الله بن الشَّحِير عن أبيه قال: انتهيت إلى رسول الله ﷺ وهو يقول: ﴿الْهَنَكُمُ الْكَاتِرُ﴾ يقول ابن آدم: مالي، مالي، قال: وهل لك يا ابن آدم من مالك إلا ما أكلت فأفنت، أو لبست فأبليت، أو تصدقت فأمضيت»^(٢).

٣ - وعن أنس بن مالك رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «يتبع الميت ثلاث، فيرجع اثنان ويبقى واحد، يتبعه أهله وماله وعمله، فيرجع أهله وماله ويبقى عمله»^(٣).

والآية فيمن جمع بين الإيمان بالله والرسول وبين الإنفاق في سبيل الله، ورَبَّتْ عَلَى ذَلِكَ الْأَجْرَ الْكَبِيرَ وَالْفَوْزَ بَدَارَ النِّعَمِ.

(١) البخاري (٦٤٤٢).

(٢) المسند (٢٤/٤) برقم (١٦٣٢٧، ١٦٣٠٦، ١٦٣٢٢، ١٦٣٠٥) وإسناده صحيح على شرط مسلم، وهو في صحيح مسلم برقم (٢٩٥٨)، وابن حبان (٣٣٢٧)، والطيالسي (١١٤٨) وغيرهم.

(٣) صحيح مسلم (٢٩٦٠) وصحيح البخاري (٦٥١٤) ومسند أحمد (١٢٠٨٠) بإسناد صحيح على شرط الشيخين.

وقد كان أهل الجاهلية لا ينفقون إلا في الملذات والمفاخرة والمقامرة وشرب الخمر، وقد جاء وصفهم بالذم في القرآن العظيم في مواطن عدة، منها: قوله تعالى: ﴿وَلَا يَحْضُرُ عَلَى طَعَامِ الْمَسْكِينِ﴾ [الحاقة: ٣٤] وقوله: ﴿كَلَّا بَلْ لَا تَكْرُمُونَ الْيَتِيمَ﴾ (٧) وَلَا تَحْضُرُونَ عَلَى طَعَامِ الْمَسْكِينِ [الفجر: ١٧، ١٨].

﴿فَالَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ﴾ بالله ورسوله وباليوم الآخر وما فيه من ثواب وعقاب ﴿وَأَنْفِقُوا﴾ من أموالهم في سبيل الله ﴿لَهُمْ أَجْرٌ كَبِيرٌ﴾ أي ثواب عظيم، فاغتنموا ذلك وتداركوا ما فاتكم واستعدوا للقاء ربكم.

ثم ذكر سبحانه دواعي الإيمان وعدم المانع منه، وهو دعوة الرسول لنا بالإيمان ووجوب المبادرة إلى إجابته.

مُوجِبَاتُ الْإِيمَانِ الْأَرْبَعَةِ

٨ - ﴿وَمَا لَكُمْ لَا تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالرَّسُولِ يَدْعُوكُمْ لِتُؤْمِنُوا بِرَبِّكُمْ وَقَدْ أَخَذَ مِيثَاقَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ أي: وماذا يمنعكم - أيها الكافرون - من الإيمان بالله؟ إنه لا عذر لكم في ذلك، مع قيام الحجج عليكم، ومنها:

أن الرسول ﷺ قد بين لكم من آيات الكون، وآيات القرآن، ما فيه بلاغ وحجة، على أن الإيمان بالله حق، فإن تقرر ذلك فلا عذر لكم في عدم الإيمان به.

﴿وَمَا لَكُمْ لَا تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ﴾ أي شيء يمنعكم من الإيمان بالله؟ وهذا استفهام للتوبيخ والإنكار، وتوطئة لدعوتهم إلى الإيمان، إذ لا عذر لكم في ألا تصدقوا بوحداية الله تعالى وتعملوا بشرعه.

ثم ذكرت هذه الآية أربعة أدلة، وهي حجج موجبة لوحداية الله تعالى والإيمان به:

(١) قرأ أبو عمرو بالبناء للمجهول في ﴿أَخَذَ﴾ ورفع ﴿مِيثَاقَكُمْ﴾ نائب فاعل، والباقون بالبناء للفاعل في ﴿أَخَذَ﴾ ونصب ﴿مِيثَاقَكُمْ﴾ مفعول به.

الحجة الأولى: دعوة الرسول ﷺ لوحداية الله تعالى: ﴿وَالرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ لِتُؤْمِنُوا بِرَبِّكُمْ﴾ فيما يتلوه عليكم من آيات ربكم، ومن إقامة الحجج والبراهين على صحة ما جاءكم به، فماذا يمنعكم من الإيمان، وقد بين لكم الرسول ﷺ من آيات القرآن ما فيه بلاغ وحجة، على أن الإيمان بالله حق، وأنه لا عذر لكم في عدم الإيمان بالله ورسوله، فتعين أن يكون إصراركم على عدم الإيمان مكابرة وعناد!

والحجة الثانية: أن الله تعالى قد أخذ عليكم العهد والميثاق بتوحيده تعالى حين أخرجكم من ظهور آبائكم، وأعلمكم بأن الله ربكم لا إله إلا هو، لا رب غيره ولا معبود سواه، وقد أخذ عليكم الميثاق فأقررتم بذلك ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى شَهِدْنَا﴾ [الأعراف: ١٧٢].

والحجة الثالثة: أن الله تعالى جعل لكم عقولاً لتمييزوا بها بين الحق والضلال، والغث والسمين، ومع هذا لم يترككم لعقولكم، بل أرسل لكم الرسل، وأنزل عليكم الكتب، لتفرقوا بين الهدى والضلال، والإيمان والكفر، فتخرجوا من الضلالة إلى الهدى، ومن الظلمات إلى النور.

جاء في الحديث عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده أن النبي ﷺ قال لأصحابه: «أي المؤمنين أعجب إليكم إيماناً؟ قالوا: الملائكة، قال: وما لهم لا يؤمنون وهم عند ربهم؟ قالوا: فالأنبياء، قال: وما لهم لا يؤمنون والوحي ينزل عليهم؟ قالوا: فنحن، قال: وما لكم لا تؤمنون وأنا بين أظهركم؟ ولكن أعجب المؤمنين إيماناً، قوم يجيئون بعدكم، يجدون ضحفاً يؤمنون بما فيها»^(١).

وفي بيعة الرسول ﷺ على الإيمان بالله ورسوله يقول سبحانه: ﴿وَأَذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَمِيثَاقَهُ الَّذِي وَاتَّفَقْتُمْ بِهِ إِذْ قُلْتُمْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا﴾ [المائدة: ٧].

(١) ينظر: مسند أبي يعلى (١٤٧/١) والمستدرک (٨٥/٤) والبخاري عن أنس في كشف الأستار (٢٨٤٠) وفي سنده مقال.

ومقتضى الميثاق الذي أخذه الله على بني آدم وهم في عالم الذر: أنه تعالى قد أودع في فطرة كل إنسان: الإيمان بوجود الله تعالى ووحدانيته، فهو ناموس فطري أخذه عليهم في الأزل، وكان شرطاً في التكوين، لأنه الغاية التي خلق الله الخلق من أجلها. فهذه مجموعة من الأدلة توجب الإيمان بالله ورسوله وهي:

- ١- ميثاق التوحيد الأزلي التكويني. ٢- ميثاق الإيمان بالنبى الخاتم.
 - ٣- العقل وهو مناط التكليف. ٤- الرسالة الخاتمة، بما فيها من إنزال القرآن.
- وهي حجج موجبة للإيمان ﴿إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ هذا شرط جوابه محذوف، أي إن كنتم مؤمنين في حال من الأحوال، فآمنوا الآن، فقد توفرت لديكم جميع الأسباب الموجبة للإيمان.

الحجة الرابعة: هي أن الرسول الخاتم نبي مؤيد بالآيات البينات:

٩ - ﴿هُوَ الَّذِي يُنَزِّلُ^(١) عَلَى عَبْدِهِ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ لِيُخْرِجَكُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَإِنَّ اللَّهَ بِكُمْ لَرَءُوفٌ^(٢) رَّحِيمٌ﴾

وبما أن السورة قد وضعت عنصران رئيسان كي تنجح الأمة في بلوغ غايتها وهما: الإيمان بالله ورسوله، والإنفاق في وجوه الخير، وعلى رأسها نشر الدعوة العالمية. وقد أمرت بذلك الآية الثامنة وحثت عليه، وبينت الآية العاشرة موجب الإنفاق في وجوه الخير والبر.

أما هذه الآية - التاسعة - فقد أقامت الدليل على موجب الإيمان بالله والرسول، وهو هذا القرآن المنزل من عند الله تعالى لإخراج الناس من ظلمات الجهل والشرك والضلال، إلى نور الإيمان والتوحيد والهدى ﴿هُوَ الَّذِي يُنَزِّلُ عَلَى عَبْدِهِ مُحَمَّدٌ ﷺ﴾

(١) قرأ ابن كثير وأبوعمر و يعقوب بإسكان النون وتخفيف الزاي من ﴿يُنَزِّلُ﴾ مضارع أنزل والباقون بفتح النون وتشديد الزاي، مضارع نزل.

(٢) قرأ أبوعمر وشعبة وحمزة والكسائي ويعقوب وخلف بحذف الواو التي بعد الهمزة من ﴿رَءُوفٌ﴾ فتكون (رءف) على وزن فغل، والباقون بإثبات الواو على وزن فعول، وهما لغتان.

يَنْتَبِ ﴿ دلائل وحجج مفصلات واضحات، تتمثل في هذا القرآن، فهو أكبرها وأعظمها، ثم ما أيد الله به رسوله ﷺ من المعجزات الأخرى، وما أوحاه إليه في السنة النبوية، وقد أيد الله بذلك ﴿لِيُخْرِجَكُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ﴾ أي من ظلمات الكفر والجهل، إلى نور الإيمان والعلم ﴿وَإِنَّ اللَّهَ بِكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ حيث أنزل عليكم الكتب، وأرسل إليكم الرسل لهدايتكم، ولم يقتصر على ما أودعه فيكم من العقل، والفطرة البشرية.

مُوجِبَاتُ الْإِنْفَاقِ فِي وُجُوهِ الْخَيْرِ

١٠ - ﴿وَمَا لَكُمْ أَلَّا تُنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلِلَّهِ مِيرَاثُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ لَا يَسْتَوِي مِنْكُمْ مَّنْ أَنْفَقَ مِن قَبْلِ الْفَتْحِ وَقَتْلَ أَوْلِيَّتِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِّنَ الَّذِينَ أَنْفَقُوا مِنْ بَعْدُ وَقَتْلُوا وَكَلَّا^(١) وَعَدَ اللَّهُ الْحَسَنَىٰ وَاللَّهُ يَمَّا تَعْمَلُونَ خَيْرٌ﴾

أي: وما الذي يمنعكم - أيها الناس - من الإنفاق في سبيل الله والحال أن أموالكم ستنتقل منكم إلى غيركم، أو أنكم سترحلون عن الدنيا، ثم يعود الملك لمالكه.

والموجب العقلي لإنفاق المال في سبيل الله: أن الإنسان سيموت ويترك المال، فيرثه غيره، ولا يستفيد منه شيئاً، فلماذا لا يستفيد منه قبل مماته، بالإنفاق منه في سبيل الله، لينفعه ذلك يوم لقاء ربه، فاغتنموا فرصة وجود المال في أيديكم وأنفقوا منه في وجوه الخير، كالصدقة الجارية ونفع المسلمين، ولا تترك لأبنائك الوصية أن يُخرجوا عنك بل أخرج أنت بنفسك قبل أن تموت، فأنت لا تدري ما يحدث من أبنائك بعدك.

﴿وَمَا لَكُمْ أَلَّا تُنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ أي شيء يمنعكم - أيها الناس - من الإنفاق في سبيل الله للجهاد في سبيله، والعمل على نشر الدعوة في أرجاء المعمورة، وسد حاجات المعوزين، وإقامة المشاريع الخيرية.. ﴿وَلِلَّهِ مِيرَاثُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ والله تعالى سيرث الأرض ومن عليها، ولا يبقى فيها ملك لأحد، وفي هذا إنكار من الله تعالى على

(١) قرأ ابن عامر (وكل) برفع اللام على أنها مبتدأ، وما بعدها خبر، والعائد محذوف، تقديره (وعده) والباقون ﴿وَكَلَّا﴾ بالنصب، مفعولاً أولاً مقدماً على ﴿وَعَدَ﴾ والمفعول الثاني ﴿الْحَسَنَى﴾.

من لم ينفقوا أموالهم فيما دعاهم الله إليه، وهم سيموتون ويتركونها لغيرهم، ولو أنفقوا بعض أموالهم فيما أمرهم الله به، لنالوا رضاه، وانتفعوا بثواب من سيرته بعدهم، وحققوا التكافل الاجتماعي في المجتمع، فأنفقوا - أيها الناس - ولا تخشوا فقرا ولا إقلا، فإن الذي أنفقتم في سبيله، هو مالك السموات والأرض، ويده المقاليد والخزائن، وهو مالك العرش والكرسي، وهو القائل ﴿وَمَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُ وَهُوَ خَيْرُ الْوَارِثِينَ﴾ [سبأ: ٣٩] والقائل: ﴿مَاعِندَكُمُ يَنْفَقُ مَاعِندَ اللَّهِ بَاقٍ﴾ [النحل: ٩٦].

الإنفاق في الجهاد:

وعدم إنفاق المال العام والخاص في التصنيع الحربي على وجه الخصوص يؤدي بالأنفس إلى التهلكة، وهو مقدم على إقامة المباني وتشيد العمران: إن الأمة الإسلامية أغنى الشعوب، فأحشاء الدنيا في يدها، وأرضها الخصبة تفيض سمناً وعسلاً، وصحراؤها العفراء مليئة بالكنوز والمعادن، فهلاً سخرت الأمة أموالها في نصرة دينها؟ أم غلبت عليها الشهوات والنزوات وحُب الدنيا؟ إن ثروات المسلمين يستفيد منها غيرهم أكثر مما يستفيد المسلمون، والواجب أن يدعم هذا الثراء تسليح الأمة، حتى تتحرر من ذل غيرها، وتستطيع نشر دين ربها، وتحقق خلافتها في الأرض، وتدفع الغوائل عن نفسها. وحسن التصرف في المال لخدمة الإيمان، شيمة الصادقين من أهل اليقين، أما عبيد الحياة، وأهل النفاق فلهم مسالك أخرى!

فضل الإنفاق في وقت الأزمات:

ثم إن إنفاق المال في وقت الأزمات والشدائد التي تُحْدَق بالأمة الإسلامية، أفضل بكثير من الإنفاق في وقت السعة والرخاء، وعلى هذا فإن من أنفق ماله وجاهد في سبيل الله قبل فتح مكة، أعظم درجة وأكثر ثواباً ممن أنفق بعد الفتح وقاتل ﴿لَا يَسْتَوِي مِنْكُمْ مَنْ أَنْفَقَ مِنْ قَبْلِ الْفَتْحِ وَقَلِيلٌ أُولَئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِنَ الَّذِينَ أَنْفَقُوا مِنْ بَعْدُ وَقَتَلُوا﴾.

قال ابن عطية: روي أن هذه الآية نزلت في جماعة من الصحابة أنفقت نفقات كثيرة، حتى قال ناس: هؤلاء أعظم أجراً من كل من أنفق قديماً، فنزلت الآية مبينة أن النفقة قبل الفتح أعظم أجراً^(١).

والمراد بالفتح في الآية: فتح مكة على الأرجح، لأنه الذي أزال الهجرة، وهو الذي قال فيه النبي ﷺ «لا هجرة بعد الفتح ولكن جهاد ونية، وإذا استنفرتم فانفروا»^(٢).

ولما قال رجل للنبي ﷺ بعد فتح مكة: أبايك على الهجرة، فقال ﷺ: «الهجرة قد ذهبت بما فيها، وإن الهجرة شأنها شديد، ولكن أبايك على الجهاد».

وحكم الآية باق فيمن أنفق وجاهد وقت الشدة والعدوان على بقعة من بقاع العالم الإسلامي، أو على إنصاف فئة من أبناء المسلمين المستضعفين في دولة غير إسلامية، أو إسلامية، فيكون هذا المنفق أعظم أجراً ممن أنفق وجاهد في غير هذا الوقت. وقيل: المراد بالفتح، صلح الحديبية، والأول أولى.

ويُراد بالنفقة في سبيل الله: بذل المال للتصنيع الحربي، وأسر الجرحى، والأسرى، والشهداء، وتجهيز المقاتلين بالنفقة والسلاح والعتاد إن كان هناك عجز في موارد الدولة، أو تقاعس عن هذا الباب.

وفي الآية نفي للتسوية في الثواب والفضيلة بين من ينفق في وقت الشدة، ومن ينفق في وقت الرخاء، فإن الأول أكثر ثواباً وأعظم أجراً كما قال تعالى: ﴿لَا يَسْتَوِي الْقَاعِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُولِي الضَّرَرِّ وَالْمُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ عَلَى الْقَاعِدِينَ دَرَجَةً﴾ [النساء: ٩٥].

وهكذا فإن من أسلم قبل الفتح وأنفق وقاتل في سبيل الله أعظم درجة وأكثر أجراً، ممن لم يُسلم ويقاتل وينفق إلا بعد ذلك، وأكثر السابقين الأولين من فضلاء الصحابة

(١) تفسير ابن عطية (٢٥٩/٥).

(٢) من حديث ابن عباس في البخاري برقم (٢٧٨٣، ٢٨٢٥) ومسلم (١٣٥٣).

قد أسلم قبل الفتح.

وخشية أن يتوهم متوهم، أن من ينفق ماله في وقت الرخاء لا يكون له أجر، وخشية أن يتوهم متوهم أيضاً أن مَنْ يستطيع الجهاد بنفسه، ولا يستطيع الإنفاق بماله لا يكون له أجر، قال تعالى: ﴿وَكَلَّا وَعَدَ اللَّهُ الْحُسَيْنَ﴾ أي كل من أنفق قبل الفتح أو بعده، وكل من جاهد في سبيل الله بنفسه، أو قلمه وماله، قد وعده الله الحسنى، وهي الجنة والأجر والمثوبة، وغفران الذنوب، سواء من أنفق في الأزمات أو بعدها، مع التفاوت في الفضل بينهما، وهذا يدل على فضل الصحابة كلهم حيث شهد الله لهم بالإيمان ووعدهم الجنة، وهذه الآية أصل في تفاضل أهل الفضل فيما فُضِّلوا فيه.

﴿وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ فهو سبحانه يعلم سبب الإنفاق وأوقاته وأعداره، ويعلم أحوال الجهاد، وثواب المجاهدين، فيعطي كل عامل على نية عمله، ولا يخفى عليه خافية من أعمالكم الظاهرة والباطنة، فأخلصوا أقوالكم وأفعالكم لتنالوا أجره وثوابه. هذا: ومن المسلم به أن ما أنفقه الصحابة في سبيل الله، يفوق في أجره وثوابه أضعاف ما ينفقه المسلمون في القرون المتأخرة، كما قال ﷺ في حديث أبي سعيد الخدري ﷺ «لا تسبوا أصحابي، فلو أن أحدكم أنفق مثل أحد ذهباً، ما بلغ مدّ أحدكم ولا نصيفه»^(١)، والحديث يشير إلى أن فضل الصحابة ليس في إنفاق المال فحسب بل يدل على فضلهم عموماً عمن سواهم من البشر جميعاً بعد الرسل والأنبياء، وإنفاق المال مثل ضربه النبي ﷺ لهذا الفضل.

وقد كانت النفقة والقتال قبل فتح مكة أعظم أجراً، لأن حاجة الإسلام إليهما وقتها كانت أشد، ثم أعز الله الإسلام بعد الفتح، فكثر ناصروه، ودخل الناس في دين الله أفواجا، وقد كان أبو بكر ﷺ أول من أسلم، وأول من أنفق وأعتق في سبيل الله، وأكثر

(١) صحيح البخاري برقم (٣٦٧٣)، وصحيح مسلم برقم (٢٥٤١)، وابن أبي شيبة (١٧٤/١٢)، وأبوداود

(٤٦٥٨)، والترمذي (٣٨٦١).

من ذب عن الإسلام^(١).

أخرج الإمام أحمد وغيره عن أنس رضي الله عنه قال: كان بين خالد بن الوليد وبين عبدالرحمن بن عوف كلام، فقال خالد لعبد الرحمن: تستطيلون علينا بأيام سبقتمونا بها؟ فبلغ النبي صلى الله عليه وسلم فقال: «دعوا لي أصحابي، فوالذي نفسي بيده، لو أنفقتم مثل أحد، أو مثل الجبال ذهباً، ما بلغت أعمالهم»^(٢).

وقال عكرمة: لما نزلت هذه الآية ﴿لَا يَسْتَوِي مِنْكُمْ مَنْ أَنْفَقَ مِنْ قَبْلِ الْفَتْحِ وَقَتْلٌ﴾ قال أبو الدحداح: والله لأنفقن اليوم نفقة أدرك بها من قبلي، ولا يسبقني بها أحد بعدي، فقال: اللهم: كل شيء يملكه أبو الدحداح، فإن نصفه لله، حتى بلغ فرد نعليه، ثم قال: وهذا^(٣).

الْحَثُّ عَلَى النِّفْقَةِ فِي وُجُوهِ الْخَيْرِ

١١ - ﴿مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَاعِفَهُ^(٤) لَهُ، وَلَهُ أَجْرٌ كَرِيمٌ﴾ (١١)

ثم حث الآيات على الإنفاق في سبيل الله، وجعلته بمثابة من يقرض الله قرضاً حسناً، والقرض الحسن: هو النفقة الطيبة الخالصة لوجه الله تعالى، طلباً لمرضاته، على أن تكون من مال حلال طيب، طيبةً بها نفسه ﴿مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا﴾ من هو المؤمن القوي الإيمان، الذي ينفق ماله في الجهاد من أجل إعلاء كلمة الله، وفي وجوه

(١) ينظر في ذلك الأثر الوارد في (معالم التنزيل) للبغوي (٣٤/٨) عن الكلبي وفيه العلاء بن عمرو وهو ضعيف.

(٢) المسند (٣١٩/٢١) (١٣٨١٢) قال محققوه: إسناده صحيح، وأخرجه الضياء في المختارة (٢٠٤٦)، وهو

عند مسلم (٢٥٤١) (٢٢٢)، وعند البزار (٢٥٩٢ - كشف الأستار).

(٣) أخرجه عبد بن حميد وابن المنذر كما في الدر المنثور (٢٦٤/١٤).

(٤) قرأ نافع وأبو عمرو وحمزة والكسائي وخلف ﴿فَيُضَاعَفُهُ﴾ بالرفع على الاستئناف، أي فهو يضاعفه. وقرأ

ابن كثير وأبو جعفر (فيضعفه) بالرفع وحذف الألف على الاستئناف أيضاً، وقرأ ابن عامر ويعقوب

(فيضعفه) بالنصب والحذف، وقرأ عاصم (فيضاعفه) بالنصب وإثبات الألف، على أن الفعل منصوب بأن

مضمرة بعد الفاء في القرائتين، لوقوعها بعد الاستفهام، والتشديد والتخفيف لغتان.

الخير والبر، محتسبا أجره عند الله تعالى من قلبه، غير مُراءٍ ولا مَنّان ولا مُتَّبِع نفقته أذى. وقد سماه الله قرضاً، والمال ماله والعباد عبادَه، وَوَعَدَ بمضاعفة الأجر عليه في يوم تشتد حاجة العبد إلى ربه ولو بحسنة واحدة، ﴿فِيُضَاعَفْ لَهُ﴾ أي يعطيه الله أجر نفقته أضعافاً في الأجر والمثوبة، الحسنة بعشر أمثالها إلى سبع مئة ضعف، والله يضاعف لمن يشاء.

قال تعالى: ﴿وَإِنْ نَكَ حَسَنَةً يُّضَاعَفْهَا وَيُؤْتِ مِنْ لَدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ [النساء: ٤٠]. ﴿وَلَهُ أَجْرٌ كَرِيمٌ﴾ هو المغفرة والجنة عند ربه، ولا يعلم ما فيها من النعيم إلا هو سبحانه. والآية شَبَّهَتْ عطاء المؤمن في الدنيا وهو يرجو به ثواب الله في الآخرة، بالقرض، فالمقترض هو الله سبحانه، والجزاء على ذلك هو الجنة، وهذا كالبيع والشراء. وأصل القرض الحسن: هو السلف، كأن يعطي الإنسان أخاه، قدراً مُعَيَّناً من المال، على أن يردّه له بعد وقت طويل أو قصير، بلا زيادة ولا منفعة، يبتغي بذلك وجه الله. وهذا المعنى غير مراد في الآية، إنما المراد هو نفقة التطوع ابتغاء وجه الله، والله تعالى هو المجازي عليها بمضاعفة الحسنات أضعافاً كثيرة، قال تعالى: ﴿إِنْ تَقْرَضُوا آلَ اللَّهِ قَرْضًا حَسَنًا يُّضَاعَفْ لَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ شَكُورٌ حَلِيمٌ﴾ [التغابن: ١٧] وقال سبحانه: ﴿إِنَّ الْمُضِدِّينَ وَالْمُضِدِّقَاتِ وَأَقْرَضُوا اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا يُّضَاعَفْ لَهُمْ وَلَهُمْ أَجْرٌ كَرِيمٌ﴾ [الحديد: ١٨]. وهذا الأجر الكريم هو ما فسرهُ النبي ﷺ من حديث أبي أمامة ؓ «صنائع المعروف تقي مصارع السوء، وصدقة السر تطفئ غضب الرب، وصلة الرحم تزيد في العمر»^(١). قال بعض العلماء: ولا يكون القرض حسناً - بالنسبة للناس فيما بينها - حتى تجتمع فيه عشرة أوصاف وهي:

- ١- أن يكون المال حلالاً.
- ٢- وأن يكون القرض من أجود المال، إذا كانت الصدقة، بشيء من الطعام أو

(١) الطبراني ٨٠/٤ وحسنه الألباني في صحيح الترغيب والترهيب (٨٨٠).

اللباس ونحوهما.

- ٣- وأن يتصدق به وهو محتاج إليه.
 - ٤- وأن يصرف صدقته إلى من هو أشد حاجة إليها.
 - ٥- وأن يكتم الصدقة ما أمكنه.
 - ٦- وأن لا يتبعها باليمن والأذى.
 - ٧- وأن يقصد بها وجه الله تعالى.
 - ٨- وألا يُرائي بها الناس.
 - ٩- وأن يستصغر صدقته وإن كانت كبيرة.
 - ١٠- وأن تكون من أحب الأموال إليه.
 - ١١- وألا ترى عز نفسك وذل الفقير^(١).
- وجاء في الآية الأخرى ﴿مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضْعِفُهُ لَهُ أَزْوَاجًا كَثِيرَةً وَاللَّهُ يَقِضُ وَيَبْصُطُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ [البقرة: ٢٤٥].
- وعن عبد الله بن مسعود وأنس وجابر بن سمرة ؓ لما نزلت هذه الآية، قال أبو الدحداح الأنصاري: يا رسول الله، وإن الله ليريد منا القرض؟ قال: نعم يا أبا الدحداح، قال: أرني يدك يا رسول الله، قال: فناوله يده، قال: فإني قد أقرضتُ ربي حائطي، وكان له بستان فيه ست مئة نخلة، وأم الدحداح فيه وعيالها.
- قال: فجاء أبو الدحداح فناداها: يا أم الدحداح، قالت: لبيك، فقال: أخرجي، فقد أقرضتُ ربي، عز وجل.
- وفي رواية: أنها قالت: ربح بيعك يا أبا الدحداح، ونقلتُ منه متاعها وصبيانها، وأن رسول الله ﷺ قال: «كم من عذق ردّاح في الجنة لأبي الدحداح».

(١) تفسير الخازن (٤/٢٢٨).

وفي لفظ: «رب نخلة مدلاة، عروفا دُرٌّ وياقوت لأبي الدحداح في الجنة»^(١).

حَالُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُنَافِقِينَ وَهُمْ عَلَى الصِّرَاطِ

١٢ - ﴿يَوْمَ تَرَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ يَسْعَىٰ نُورُهُم بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِمْ بُشْرَانُكُم الْيَوْمَ جَنَّاتٌ تَجْرَىٰ مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ (١٢)

ثم بين سبحانه أن اليوم الذي تضاعف فيه الحسنات، هو اليوم الذي يثاب فيه المؤمنون، ويُحْرَم فيه المنافقون، مع مساواة المرأة للرجل في العبادات، فقال تعالى ﴿يَوْمَ تَرَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ يَسْعَىٰ نُورُهُم بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِمْ﴾ أي اذكر - أيها المخاطب - يوم القيامة حيث تكوّر الشمس، ويخسف القمر، ويكون الناس في ظلمة، فينصب الصراط على متن جهنم، وعندئذ ترى أنوار المؤمنين والمؤمنات تضيء الطريق أمامهم على الصراط من جميع الجهات فيمشون بأيمانهم ونورهم على الصراط في ذلك الموقف العظيم، كل على قدر إيمانه، ويُبشرون بأعظم بشارة، وذلك بعد أن أخذوا صحف أعمالهم الصالحة في ساحة الحشر بأيمانهم، وتبشرهم الملائكة بالجنات والنعيم المقيم.

وهكذا في يوم القيامة، تُبَصِّرُ كل مؤمن ومؤمنة، ولهم نور حقيقي يضيء لهم الطريق على الصراط من جميع الجهات، وقد خُص الأمام واليمين بالذكر، لأنهما الجهة التي يعطى بها العبد كتاب عمله ويحمله بيمينه، والأيدي هي موضع حاجة الإنسان إلى النور، فهما مبعث النور وأصله، كما قال تعالى: ﴿فَأَمَّا مَنْ أُوْتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ ۖ فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا ۖ (٨) وَنَقَلَبُ إِلَىٰ أَهْلِهِ مَسْرُورًا ۖ (٩)﴾ [الإنشاق].

(١) رواه أبو يعلى في مسنده (٤٠٤/٨) عن محرز بن عون عن خلف بن خليفة، وضعفه ابن حجر في المطالب العالية برقم: (٤٠٨٠) قلت: والحديث صحيح من طرق متعددة، ينظر: المسند عن أنس (١٢٤٨٢) بإسناد صحيح على شرط مسلم (محققه)، وعن جابر بن سمرة (٢٠٨٣٤، ٢٠٨٩٤) وسعيد بن منصور في التفسير (٤١٧) والبخاري (٢٠٣٣) والطبراني في الكبير (٧٦٤) والبيهقي في الشعب (٣٤٥٢) وابن أبي حاتم (٢٤٣٠) والحكيم الترمذي في النوادر (٦١/٢) وغيرها.

ومن الآثار الواردة في ذلك:

١ - ما جاء عن ابن عباس رضي الله عنهما وغيره: أن كل مؤمن ومنافق يعطى يوم القيامة، نوراً، فيطفأ نور المنافق، ويبقى نور المؤمن، حتى إن منهم من نوره يضيء كما بين مكة وصنعاء ^(١).

٢ - وقال عبد الله بن مسعود رضي الله عنه: إن هذا النور يكون على قدر أعمالهم يمرون على الصراط: فمنهم من نوره مثل الجبل، ومنهم من نوره مثل النخلة، ومنهم من نوره مثل الرجل القائم، وأدناهم نوراً من نوره في إبهامه، يتقد مرة، ويطفأ مرة ^(٢).

وحينما يرى المؤمنون نور المنافقين ينطفئ يقولون ﴿رَبَّنَا آتِنَا نُورَنَا﴾ كما جاء ذلك في آية سورة التحريم رقم: ٨

٣ - قال أبو أمامة الباهلي: أيها الناس: إنكم قد أصبحتم وأمسيتم في منزل تَقْتَسِمُونَ فيه الحسنات والسيئات، وتوشكون أن تظعنوا منه إلى منزل آخر وهو القبر، بيت الوحدة، وبيت الظلمة، وبيت الدود، وبيت الضيق، إلا من وسع الله له، ثم تنتقلون منه إلى موطن يوم القيامة، فإنكم لفي بعض تلك المواطن، حتى يغشى الناس أمر الله، فتبيض وجوه وتسود وجوه، ثم تنتقلون منه إلى موضع آخر، فتغشى الناس ظلمة شديدة، ثم يُقَسَّمُ النور، فيعطى المؤمن نوراً، ويترك الكافر والمنافق، فلا يُعطيان شيئاً، وهو المثل الذي ضرب الله في كتابه ﴿أَوْ كَظُلُمَاتٍ فِي بَحْرٍ لُجِّيٍّ﴾ الآية من سورة النور: ٤٠.

ولا يستضيء الكافر والمنافق بنور المؤمن، كما لا يستضيء الأعمى ببصر البصير، ويقول المنافقون للذين آمنوا - عندما يروهم يمشون بنورهم، وقد طفق عنهم النور ووقفوا حائرين: ﴿أَنْظُرُونَا نَقْتِسِمْ مِنْ نُورِكُمْ قِيلَ ارْجِعُوا وَرَاءَكُمْ﴾ - إن كان ذلك ممكناً - ﴿فَالْتَسِبُوا

(١) تفسير ابن عطية (٢٦١/٥).

(٢) نقله ابن كثير عن ابن أبي حاتم وابن جرير ١٥/٧ وصححه الحاكم في المستدرک ٤٧٨/٢ ووافقه الذهبي، وسنده حسن، وأخرجه ابن أبي شيبة (٢٩٩/١٣).

﴿وَرَكَّ﴾ وهي خُدعةُ الله التي خدع بها المنافقين حيث قال ﴿يُخَدِّعُونَ اللَّهَ وَهُوَ خَدِيعُهُمْ﴾ [النساء: ١٤٢] فيرجعون إلى المكان الذي قُسم فيه النور فلا يجدون شيئاً، فينصرفون إليهم وقد ضرب بينهم بسور له باب^(١).

٤ - وقال أبو أمامة: تُبعث ظلمة يوم القيامة، فما من مؤمن ولا كافر يرى كفه، حتى يبعث الله بالنور إلى المؤمنين بقدر أعمالهم، فيتبعهم المنافقون فيقولون: ﴿أَنْظُرُونَا نَقْتَسِ مِنْ نُورِكُمْ﴾^(٢).

٥ - وقال أبو الدرداء: أين أنت من يوم جيء بجهم قد سَدَّتْ ما بين الخافقين.

٦ - وقيل: لن تدخل الجنة حتى تخوض النار، فإن كان معك نور، استقام بك الصراط، فقد والله نجوت وهُديت، وإن لم يكن معك نور تشبَّث بك خطاطيف جهنم أو كلاليتها، فقد والله رَدِيتَ وهَوِيتَ^(٣).

لقد كان الملحدون والمكذبون مع المؤمنين في الدنيا يؤاكلونهم ويعاشرونهم ويصاهرونهم، وماتوا مثل غيرهم، فإذا كان يوم القيامة ميّز الله بين المؤمنين وغيرهم، وحيل بينهم بسور.

٧ - وفي الأثر عن أبي الدرداء وأبي ذر رضي الله عنهما أن النبي ﷺ قال: «أنا أول من يؤذن له يوم القيامة بالسجود، وأول من يؤذن له برفع رأسه، فأَنْظُرَ مَنْ بين يدي ومن خلفي، وعن يميني وعن شمالي، فأعرف أمتي من بين الأمم» فقال له رجل: يا نبي الله، كيف تعرف أمتك من بين الأمم، ما بين نوح إلى أمتك؟ قال: «أعرفهم محجلون من أثر الوضوء، ولا يكون لأحد من الأمم غيرهم، وأعرفهم يؤتون كتبهم بأيمانهم، وأعرفهم

(١) أخرجه ابن المبارك، بدون ما بين الشريطين في المرتين، زوائد أبي نعيم (٣٦٨)، والحاكم (٤٠٠/٢)، والبيهقي (١٠١٥) قال محقق الأسماء والصفات: موقوف صحيح الإسناد.

(٢) أخرجه ابن أبي حاتم كما في تفسير ابن كثير (٤٢/٨).

(٣) أخرجه ابن أبي شيبه (١٣/١٧٨).

بسيماهم في وجوههم، وأعرفهم بنور يسعى بين أيديهم وبإيمانهم»^(١).

وتقول الملائكة للمؤمنين ﴿بُشِّرْكُمْ الْيَوْمَ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا﴾ أي أنهم يشيرونهم بدخول جنات واسعة، تجري من تحت قصورها وأشجارها أنهار المياه العذبة الجارية، وهم لا يخرجون منها أبداً فما أجمل هذه البشارة لقلوبهم وما ألذها لنفوسهم حيث فازوا بكل مطلوب ونجوا من كل مرهوب ﴿ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ الذي لا فوز بعده ولا سعادة بعده.

ولما بين الله تعالى حال المؤمنين أتبعه بذكر حال المنافقين فقال:

١٣ - ﴿يَوْمَ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ لِلَّذِينَ آمَنُوا انظُرُونَا نَقْتَسِمَ مِنْ ثَوَرِكُمْ قِيلَ ارْجِعُوا وَرَاءَكُمْ فَالْتَمِسُوا نُورًا فَضُرِبَ بَيْنَهُمُ سُورٌ لَمْ يَبْطَأْ بَاطِنُهُ فِيهِ الرَّحْمَةُ وَظَاهِرُهُ مِنْ قِبَلِهِ الْعَذَابُ﴾^(٢) (١٣)

يقول المنافقون ذلك وهم في عرصات القيامة، حيث الأهوال والزلازل، فهو يوم شديد، فيه ﴿تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى النَّاسَ سُكَارَىٰ وَمَا هُمْ بِسُكَارَىٰ وَلَٰكِنَّ عَذَابَ اللَّهِ شَدِيدٌ﴾ [الحج: ٢].

وفي هذا اليوم العظيم، يأذن الله تعالى للمؤمنين بالسير على الصراط إلى الجنة فوجاً فوجاً ﴿يَوْمَ تَخْشُرُ الْمُتَّقِينَ إِلَى الرَّحْنِ وَقَدْ أَسْرَفُوا﴾ [مریم: ٨٥] وأما المنافقون الذين كانوا يعيشون بين المؤمنين في الدنيا، فإنهم يسرون وراءهم في الظلمة، كما جاء في حديث الشفاعة «وتبقى هذه الأمة فيها منافقوها»^(٣) وحين يسرون على الصراط في الظلمة ولا يرون

(١) رواه الحاكم في المستدرک (٤٧٨/٢) من طريق عبد الله بن صالح، وهو صحيح لغيره كما في صحيح الترغيب (١٨٠)، وهو في المسند (٢١٧٣٧) بنحوه، قال محققوه: حسن لغيره، وأخرجه البزار (٣٤٥٧) - كشف الأستار، والطبراني في الأوسط (٣٢٥٨).

(٢) قرأ حمزة بهمة قطع مفتوحة في ﴿انظُرُونَا﴾ وصلاً ووفقاً مع كسر الظاء من الإنظار بمعنى الإمهال، والباقون بهمة وصل ساقطة في الوصل مضمومة في البدء مع ضم الظاء، من نظر بمعنى انتظر أو بمعنى أبصر.

(٣) قوله تعالى: ﴿يَنْقِلِبُهُ الْعَذَابُ﴾ معدود آية عند الكوفي وحده، ومترك من العدد عند غيره.

(٤) من حديث أبي هريرة بتصحيح الألباني في صحيح الجامع الصغير (٧٠٣٣).

شيئا، يقولون للمؤمنين: تريثوا، انتظروا قليلا وتمهلوا في سيركم، حتى نلحق بكم ونستضيء بنوركم^(١).

وهكذا: تغشى الناس ظلمة شديدة يوم القيامة، فيعطي الله المؤمنين نورا على قدر أعمالهم يمشون به على الصراط، ويعطي المنافقين أيضا نورا، خديعة لهم - لأنهم كانوا يخادعون الله ورسوله في الدنيا - فبينما هم يمشون على الصراط إذ بعث الله ريحا وظلمة، فانطفأت نور المنافقين، فذلك قوله تعالى: ﴿يَوْمَ لَا يُخْزِي اللَّهُ النَّبِيَّ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ نُورُهُمْ يَسْعَى بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَتِمِّمْ لَنَا نُورَنَا وَاعْفُ رَنَا﴾ [التحریم: ٨] يقولون ذلك مخافة أن يسلب نورهم كما سلب من المنافقين^(٢).

وحين لا يبصر المنافقون مواضع أقدامهم ويقولون للمؤمنين: انتظرونا نستضيء بنوركم، تَرُدُّ عليهم الملائكة تهكما وسخرية ﴿ارْجِعُوا وَرَاءَكُمْ فَالْتَمِسُوا نُورًا﴾ أي ارجعوا إلى الدنيا إن كان ذلك ممكناً فالتمسوا فيها نورا بتصحيح الإيمان والتزود بالعمل الصالح، أو ارجعوا إلى الموقف الذي كنتم فيه حيث قسمت الأنوار، أو ارجعوا خائبين فلا نور لكم عندنا.

وهذا الاستهزاء مقابل استهزاء المنافقين بالمؤمنين في الدنيا، كما حكى الله عنهم في قوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ أَجْرَمُوا كَانُوا مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا يَضْحَكُونَ﴾ (١١) وَإِذَا مَرُّوا بِهِمْ يَتَغَامَزُونَ ﴿٢٠﴾ [المطففين] وقوله: ﴿الَّذِينَ يَلْمِزُونَ الْمُطَّوِّعِينَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ فِي الصَّدَقَاتِ وَالَّذِينَ لَا يَجِدُونَ إِلَّا جُهْدَهُمْ فَيَسْخَرُونَ مِنْهُمْ سَخِرَ اللَّهُ مِنْهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ (٧٩) [التوبة].

وحينئذ يضرب بين المؤمنين والمنافقين بسور كبير - يوجده الله تعالى في هذا الوقت، قطعاً لأطماعهم في الجنة - ويتركهم في ظلمات لا يبصرون، فيكون وضعهم في هذه الحال، كما قال الله تعالى عنهم: ﴿مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْقَدَ نَارًا فَلَمَّا أَضَاءَتْ مَا حَوْلَهُ

(١) تفسير التحرير والتنوير (١٣/٣٨٢).

(٢) تفسير الخازن (٤/٢٢٩) وينظر: تفسير ابن كثير (٧/١٦).

ذَهَبَ اللَّهُ يَسُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِي ظُلُمَاتٍ لَا يَبْصُرُونَ ﴿١٧﴾ [البقرة: ١٧].

وهذا الحائط الذي يحجز بين أهل الجنة وأهل النار: باطنه من جهة المؤمنين فيه الرحمة والجنة، وظاهره من جهة المنافقين فيه العذاب والنار ﴿بَاطِنُهُ فِيهِ الرَّحْمَةُ وَظَاهِرُهُ مِنْ قِبَلِهِ الْعَذَابُ﴾.

وكان هذا السور يمثل أعمال العباد في الدنيا، بأن منها ما يُفْضِي بصاحبه إلى النعيم، ومنها ما يفضي بصاحبه إلى العذاب، وجعل هذا الباب في حائط واحد، كي يزداد المنافقون المحبوسون وراء السور حسرة وندامة كلما رأوا المؤمنين يجتازونه إلى النعيم في باطن السور.

والظاهر أن هذا السور ليس هو الحجاب أو الأعراف الذي بين الجنة والنار المذكور في سورة الأعراف من قوله تعالى: ﴿وَبَيْنَهُمَا حِجَابٌ وَعَلَى الْأَعْرَافِ رِجَالٌ يَعْرِفُونَ كُلًّا سِيمَاهُمْ﴾ [آية: ٤٦].

أَرْبَعَةُ أَسْبَابٍ بَاعَدَتْ بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُنَافِقِينَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ

١٤ - ﴿يُنَادُونَهُمْ أَلَمْ نَكُنْ مَعَكُمْ قَالُوا بَلَىٰ وَلَكِنَّكُمْ فَتَنْتُمْ أَنْفُسَكُمْ وَتَرَبَّصْتُمْ وَارْتَبْتُمْ وَغَرَّتْكُمُ الْأَمَانِيُّ﴾^(١)

حَتَّىٰ جَاءَ أَمْرُ اللَّهِ وَغَرَظُكُمْ بِاللَّهِ الْغُرُورُ ﴿١٤﴾

أي أنه إذا تكامل دخول المؤمنين في باطن السور، أغلق الباب، وبقي المنافقون وراءه في الحيرة والظلمة والعذاب، وحينئذ ينادي المنافقون على المؤمنين قائلين لهم: أَلَمْ نَكُنْ مَعَكُمْ فِي الدُّنْيَا نَنْطِقُ بِالشَّهَادَتَيْنِ وَنُصَلِّي وَنُصُومُ، وَنُؤَدِّي الشَّعَائِرَ مِثْلَكُمْ ﴿يُنَادُونَهُمْ أَلَمْ نَكُنْ مَعَكُمْ﴾ نشارككم في أعمال الإسلام، فقد زعموا أن الآخرة مثل الدنيا يجري فيها التعامل على الصورة الظاهرة، وغاب عنهم أن الإخلاص يكمن في تجرد الإيمان لله تعالى، وهو أساس القبول، وحينئذ يرد المؤمنون على المنافقين ﴿قَالُوا بَلَىٰ﴾ قد كنتم معنا في الدنيا تتظاهرون بالإسلام، ولكن أعمالكم أعمال المنافقين بغير إيمان

(١) قرأ أبو جعفر بتخفيف الياء سطنة من ﴿الْأَمَانِيُّ﴾ وقرأ الباقر بتشديدها مضمومة.

صحيح ولا نية صادقة.

ثم بينوا لهم أن هناك أربعة أسباب هي التي باعدت بين المؤمنين والمنافقين، وهي: الفتنة، والتربص، والارتياب، والاعتذار، وهذه هي أصول النفاق.

السبب الأول: جاء في قوله تعالى: ﴿وَلَكِنَّكُمْ فُتِنْتُمْ أَنْفُسَكُمْ﴾ أهلكتموها بالنفاق والمعاصي، فكنتم على ضلال، حينما تظاهرتن بالإسلام وأبطتتم الكفر، وكنتم في حيرة وتردد وشك وارتياب، ولم يستقر الإيمان في قلوبكم، فكانت خواطر الكفر والبغضاء، تنقض خواطر الإيمان ومحبة المؤمنين، مما ينشأ عنه: الكذب، والخداع، والاستهزاء، والطعن في المسلمين، ومحبة غيرهم، والتحاكم لغير شرع الله تعالى، يوضح هذا قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ آمَنُوا بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَنْ يَتَحَاكَمُوا إِلَى الطَّاغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوا أَنْ يَكْفُرُوا بِهِ﴾ [النساء: ٦٠] والمنافقون يرفضون التحاكم إلى كتاب الله وسنة رسوله، ويريدون التحاكم إلى غير المسلمين من القوانين الوضعية، والرضى بهذا، أو اعتقاد أنه الأفضل والأنسب للعضر، من علامات الكفر، وإن تظاهروا بالإسلام.

السبب الثاني: جاء في قوله تعالى: ﴿وَتَرَبَّصْتُ﴾ أي ترقبتم أن تدور الدائرة على الإسلام وأهله، فالمنافقون في كل زمان ومكان، يترقبون للمؤمنين نزول الأضرار بهم، كالهزائم، والفقر وأنواع الأذى ويودون انقسام المؤمنين وتفرقهم، كما وصفهم الله تعالى في قوله: ﴿وَمِنَ الْأَعْرَابِ مَنْ يَتَّخِذُ مَا يُنْفِقُ مَغْرَمًا وَيَتَرَبَّصُّ بِكُمُ الدَّوَائِرَ عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ السَّوءِ﴾ [التوبة: ٩٨].

السبب الثالث: جاء في قوله تعالى: ﴿وَأَرَبَّصْتُ﴾ أي شككتم في خبر الله تعالى الذي لا يقبل شكاً، وشككتم في الدين، وشككتم في البعث بعد الموت، وشككتم في الاعتماد على المسلمين في ساحات القتال، وثبطتم الناس عن الجهاد في سبيل الله، وقلتم ﴿لَوْ كَانُوا عِنْدَنَا مَا مَاتُوا وَمَا قُتِلُوا﴾ [آل عمران: ١٥٦] وقلتم ﴿لَوْ أَطَاعُونَا مَا قُتِلُوا﴾ [آل عمران: ١٦٨] وهذا الارتياب في الإسلام وأهله وعدم محبتهم هو النفاق بعينه.

السبب الرابع: جاء في قوله تعالى: ﴿وَعَزَّزْتُكُمُ الْأَمَانِ﴾ أي خدعتكم أمانيكم الباطلة، فزعمتم أنكم على حق، وأنكم مصلحون، وأن الدائرة ستدور على المسلمين، وأن

العاقبة ستكون لكم، وتمنيتهم أن تنالوا مثل المؤمنين ولستم منهم.
وهذه الخصال الأربعة تتولد من النفاق، أي وبقيتهم - أيها المنافقون - على الفتنة والارتباب، والتربص، والاعتزاز بالباطل، طيلة أعماركم، على تعاقب السنين، ولم تتدبروا العواقب ﴿حَتَّىٰ جَاءَ أَمْرُ اللَّهِ﴾ وهو الموت، وأنتم على هذه الحالة السيئة، ولم تفلحوا عنها، لأن الشيطان قد خدعكم وضللكم حين مناكم بالمغفرة، وأن الله لا يعذبكم على ما أنتم عليه ﴿وَعَزَّكُم بِاللَّهِ الْعَزُّورُ﴾ فهو الذي زين لكم الكفر والشك، فوثقتم به وصدقتم خبره، واطمأنتم إليه، والغرور بفتح الغين هو الشيطان، وبضم الغين هو الخداع والتمويه، والتغريب هو إظهار الضار في صورة النافع، قال تعالى:

١٥- ﴿فَالْيَوْمَ لَا يُؤْخَذُ^(١) مِنْكُمْ فِدْيَةٌ وَلَا مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مَأْوِيَّتُكُمُ النَّارُ هِيَ مَوْلَاكُمْ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ^(١٥)﴾

أي: ويوم القيامة يرى المنافقون سوء عاقبتهم ونتيجة إصرارهم، حيث لا يقبل منهم عوض، يفقدون أنفسهم به ليخلصوها من عذاب الله ﴿فَالْيَوْمَ﴾ أي يوم القيامة ﴿لَا يُؤْخَذُ مِنْكُمْ﴾ أيها المنافقون ﴿فِدْيَةٌ﴾ مالية تدفعونها لتفدوا أنفسكم من العذاب، ولو كانت ملء الأرض ذهباً ومثله معه، لا يقبل ذلك منكم أيها المنافقون ﴿وَلَا مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ بالله ورسوله، ومصيركم المحتوم الذي ترجعون إليه في الآخرة هو النار، وبئس المصير مصيركم، وبئس المستقر مستقركم ﴿مَأْوِيَّتُكُمُ النَّارُ هِيَ مَوْلَاكُمْ﴾ أي هي أولى بكم من كل منزل، ولن ينصركم منها ناصر، ولن يمنعكم منها مانع ﴿وَبِئْسَ الْمَصِيرُ﴾ الذي صرتم إليه، وهو نار جهنم، كما قال تعالى: ﴿وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ^(٨) فَأُمُّهُ هَاوِيَةٌ^(٩) وَمَا أَدْرَاكَ مَا هِيَّةُ^(١٠) نَارِ حَامِيَةٍ^(١١)﴾ [القارة: ٨ - ١١].

وفي معنى هذه الآية قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ أَنَّهُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُ مَعَهُ لَيَفْتَدُوا بِهِ مِنْ عَذَابِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَا تُقِيلُ مِنْهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ^(٣)﴾ يريدون أن يخرجوا من النار

(١) قرأ ابن عامر وأبو جعفر ويعقوب بناء التانيث في (تؤخذ) والباقون بياء التذكير وجاز التذكير والتانيث لأن الفاعل مؤنث مجازي، وأبدل الهمزة واوا أبو عمر ويخلف عنه وورش وحمزة وقفاً.

وَمَا هُمْ بِخَارِجِينَ مِنْهَا وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّقِيمٌ ﴿٣٧﴾ [المائدة: ٣٦، ٣٧].

وقوله: ﴿وَلَوْ أَنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُ مَعَهُ لَافْتَدَوْا بِهِ مِنْ سُوءِ الْعَذَابِ يَوْمَ الْقِيَمَةِ﴾ [الزمر: ٤٧] وهكذا.

ويوم القيامة يقرر الله الكافر يوم القيامة فيقول له: «أرأيتك لو كان لك أضعاف الدنيا، أكنت تفتدي نفسك بجميع ذلك من عذاب النار؟ فيقول: نعم، يارب، فيقول الله تعالى: قد سألتك ما هو أيسر من هذا وأنت في صلب أبيك آدم، أن لا تشرك بي شيئاً، فأبيت إلا الشرك»^(١).

التَّحْذِيرُ مِنْ قَسْوَةِ الْقُلُوبِ

١٦ - ﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ وَلَا يَكُونُوا كَالَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ^(٥) الْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فَاسِقُونَ ﴿١٦﴾﴾

ولما ذكر الله تعالى أحوال الكافرين والمنافقين يوم القيامة، نبه المؤمنين ألا يكونوا مثلهم، ولا مثل أهل الكتاب، فيغترروا بالحياة الدنيا وينسوا لقاء الله، وحذّره أن يكونوا كاليهود والنصارى حيث قست قلوبهم لَمَّا طال عليهم الزمان، وعاتبهم الله تعالى على عدم الانقياد الكامل لِمَا أنزل الله على رسوله.

(١) ينظر حديث أنس في البخاري (٦٥٣٨) وصحيح مسلم (٢٨٠٥) والمسند (١٢٧/٣) برقم (١٢٢٨٩) وهو صحيح على شرط الشيخين، وغيرهم مع تقارب في الألفاظ.

(٢) قرأ نافع وحفص ورويس بخلف عنه بتخفيف الزاي من ﴿نَزَلَ﴾ والباقون بتشديدها وهو الوجه الثاني لرويس.

(٣) قرأ رويس بقاء الخطاب في (ولا تكونوا) والباقون بياء الغيب.

(٤) قرأ الأزرق بتغليظ اللام وترقيقها من ﴿فَطَالَ﴾ والباقون بترقيقها.

(٥) كسر الميم والهاء وصلًا من ﴿عَلَيْهِمُ الْأَمَدُ﴾ أبو عمرو، وضمهما حمزة والكسائي وخلف ويعقوب والباقون بكسر الهاء وضم الميم، وكلهم يكسرون الهاء من (عليهم) وقفا عدا حمزة ويعقوب فبالضم.

في أسباب النزول:

- ١- عن ابن مسعود رضي الله عنه قال: (ما كان بين إسلامنا وبين أن عاتبنا الله بهذه الآية إلا أربع سنين) ^(١).
- ٢- وقال ابن مسعود أيضاً: لما نزلت هذه الآية جعل بعضنا ينظر إلى بعض ويقول: ما أحدثنا؟ أي شيء صنعنا؟ ^(٢).
- ٣- وقيل: إن هذه الآية نزلت في المنافقين بعد سنة من الهجرة، وذلك أنهم قالوا لسلمان الفارسي ذات يوم: حدثنا عن التوراة فإن فيها من العجائب، فنزل ﴿تَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ﴾ [يوسف: ٣] فأخبرهم أن القرآن أحسن من غيره، فكفُّوا عن سؤال سلمان ما شاء الله.
- ثم عادوا فسألوه مثل ذلك، فنزل ﴿اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُتَشَابِهًا مَثَانٍ﴾ [الزمر: ٢٣] فكفُّوا عن سؤاله ما شاء الله، ثم عادوا فسألوه، فنزلت هذه الآية ^(٣).
- ٤- وقيل أيضاً: إن هذه الآية نزلت في المؤمنين، وذلك أنهم لما قدموا المدينة، أصابوا من لين العيش ورفاهيته، ففتروا عن بعض ما كانوا عليه، فعوتبوا في ذلك ^(٤).
- ٥- وقال ابن عباس رضي الله عنهما: إن الله تعالى استبطناً قلوب المهاجرين فعاتبهم على رأس ثلاث عشرة سنة من نزول القرآن ^(٥).
- ٦- وفي رواية أنس: استبطناً الله قلوب المهاجرين بعد سبع عشرة سنة من نزول القرآن ^(٦).

(١) صحيح مسلم برقم (٣٠٢٧)، وسنن النسائي الكبرى برقم (١١٥٦٨)، وابن ماجه عن عامر بن عبد الله بن الزبير بنحوه برقم (٤١٩٢)، والبخاري برقم (١٤٤٣)، وصحيح سنن ابن ماجه (٤٠٨/٢).

(٢) أبو يعلى (٥٢٥٦).

(٣) أسباب النزول للواحدي (ص ٣٠٣)، وذكره البغوي والخازن وابن الجوزي في تفاسيرهم للآية.

(٤) ابن المبارك (٢٦٤) وعبد الرزاق (٢٧٦/٢).

(٥) الطبراني في الكبير (٩٧٧٣) والحاكم (٤٧٩/٢).

(٦) أخرجه ابن مردويه كما في الدر المنور (٢٧٦/١٤).

٧- وقال أيضاً: إن بعضاً من شبان المسلمين أكثروا من الضحك والمزاح في بعض الأحيان فنزلت الآية^(١).

فهذه سبعة أسباب لنزول الآية، منها ما يشير إلى أن الآية مكية، وهو الأصح، كما جاء في صحيح مسلم، ومنها ما يشير إلى أن الآية مدنية، وأن طائفة من المؤمنين بالمدينة، أصابهم بعض الفتور والكسل عن الاجتهاد في الطاعة، بعد أن فتح الله عليهم البلاد ورزقهم الكثير من خيرات الدنيا ولين العيش، فعاتبهم الله في ذلك من باب التعريض.

وفي الآية حث للمؤمنين أينما كانوا على الاستمرار في الطاعة والحذر من التقصير، وفيها تلميح في عرض الإيمان، كما تقول: أما آن لك أن تتوب إلى الله؟ ومن ذلك قول النبي ﷺ لعمر بن الخطاب رضي الله عنه قبل إسلامه: «أما آن لك يا ابن الخطاب أن تسلم».

والمعنى: ألم يحن الوقت للذين صدقوا الله ورسوله واتبعوا هديه، أن تلين قلوبهم وتخضع عند ذكر الله وسماع القرآن، فترق وتخضع، وتقشعر له جلودهم خوفاً من الله تعالى، فتكثر من ذكره وتسارع في طاعته وتبتعد عن معاصيه وتنقاد لأوامره وزواجره، وللحق الذي جاء به محمد ﷺ ﴿وَلَا يَكُونُوا كَالَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلُ﴾ أي: ولا تقسوا قلوبهم بالانغماس في الشهوات والملذات والبعد عن الطاعات، كحال الذين أوتوا الكتاب الموجب لخشوع القلب والانقياد للحق، ثم لم يشبوا عليه من اليهود والنصارى، الذين طال عليهم الزمان بينهم وبين أنبيائهم، فنسوا ما أوصاهم به أنبيأؤهم، فبدلوا كلام الله، وخالفوا شرائعه، ولم يخافوا عقابه ﴿فَطَالَ عَلَيْهِمُ الْأَمَدُ﴾ واستمرت بهم الغفلة، فاضمحل إيمانهم وزال يقينهم ﴿فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ ولم تتأثر بالترغيب والترهيب، ولم تفرق بين الحلال والحرام، وتمكّن الجفاء من قلوبهم، فانغمست في الضلال،

(١) جاء هذا عن عائشة وغيرها، انظر ابن أبي شيبة (٦٠/١٤) في المصنف، وانظر: الدر المنثور (٢٧٦/١٤)

ورفضت الحق والهدى، والقلوب بحاجة مستمرة إلى تجديد الذكرى حتى لا تكون الغفلة والقسوة.

ثم إن كثيراً منهم تجاوز الحد من قسوة القلب، فنبذ دينه، وبدّل كتاب الله وحرّفه، فأفسد عقيدته وبلغ حد الكفر ﴿وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَسِقُونَ﴾ خارجون عن طاعة الله مفرطون في دينه. وفي الآية حث للمؤمنين ألا يتشبهوا بغيرهم في قسوة القلب والخروج عن طاعة الله تعالى، وفيها حث على أن تخشع قلوبهم عند سماع القرآن، وأن يسارعوا إلى امتثال أمر الله تعالى واجتناب نهيه، كما وصفهم ربهم في قوله: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا﴾ [الأنفال: ٢].

وفيها تحذير للمؤمنين من نبذ كتاب الله تعالى وراء ظهورهم، وعدم اتباع أوامر السلطان في تطويع معانيه للأهواء، ولا يكونوا كمن اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أرباباً من دون الله في تحليل ما حرم الله، وتحريم ما أحل الله، وقد ذم الله قساة القلوب في كثير من آياته:

كقوله تعالى: ﴿فِيمَا نَقُصُّهُمْ مَّيْتَقَهُمْ لَعَنَهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَاسِيَةً﴾ [المائدة: ١٣].

وقوله: ﴿ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُم مِّنْ بَعْدِ ذَلِكَ فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسَوَةً﴾ [البقرة: ٧٣].

آثار في معنى الآية:

١- أخرج ابن أبي شيبة عن أبي حرب بن أبي الأسود عن أبيه أن أبا موسى الأشعري رضي الله عنه بعث إلى قراء البصرة، فدخل عليه ثلاث مئة رجل قد قرؤوا القرآن، فقال: أنتم خيار أهل البصرة وقراؤهم، فاتلوا القرآن، ولا يطولنّ عليكم الأمد، فتقسوا قلوبكم كما قست قلوب أهل الكتاب ^(١).

٢- وسمع الفضل بن موسى قارئاً يقرأ هذه الآية، وكان الفضل يحاول ارتكاب معصية، فكانت الآية سبباً في توبته ^(٢).

(١) تفسير الخازن ٢٣٠/٤ وابن أبي شيبة (٣٨٧/١٣).

(٢) تفسير ابن عطية (٢٦٤/٥).

٣- وأراد ابن المبارك وهو صغير السن، أن يضرب الثعلبي، فحرك العصا ليضربه، فإذا به يقرأ هذه الآية ﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ﴾ فتوقف عن ضربه، وكسر العود، وجاءه التوفيق، فتأب إلى الله تعالى^(١).

٤ - وذهب بعض السابقين ليلاً لارتكاب معصية، فسمع قارئاً يقرأ هذه الآية فارتجف، وعاد أدراجه، وهو يقول: بلى والله، قد آن أوان الخشوع لذكر الله، اللهم إني تبت إليك، وجعلت توبتي إليك جوار بيتك الحرام^(٢).

إِحْيَاءُ الْقُلُوبِ الْقَاسِيَةِ بِذِكْرِ اللَّهِ تَعَالَى، وَتِلَاوَةِ الْقُرْآنِ، وَالْإِنْفَاقِ فِي وُجُوهِ الْخَيْرِ

١٧- ﴿اعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿١٧﴾﴾

ثم بين سبحانه أنه يحيي القلوب القاسية بذكر الله تعالى وأهمها تلاوة القرآن، كما يحيي الأرض القاحلة المجدبة بالمطر، فذكر الله تعالى يؤثر في القلوب القاسية فيحييها، كما يؤثر الغيث في الأرض فتعود مُخصبة بعد أن كانت مُجدبة، وكذلك القلوب النافرة حين تُقبل على الله تعالى ﴿اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُتَشَابِهًا مَثَانِي تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ﴾ [الزمر: ٢٣].

فيا معشر المؤمنين: اعلموا أن الله تعالى يحيي الأرض الهامدة بالمطر، فيخرج منها النبات بعد يُيسه، وهذا أمر معلوم، لا يحتاج إلى تصدير الآية بلفظ ﴿اعْلَمُوا﴾ وإنما جيء بهذا التصدير، لبيان أن ما سِيَلَقِي في هذه الآية، جدير بالاهتمام وتوجه الذهن إليه، كما في قوله تعالى: ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي أَنْفُسِكُمْ فَاحْذَرُوهُ﴾ [البقرة: ٢٣٥] وكما في قول النبي ﷺ لأبي مسعود البصري رضي الله عنه بعد أن رآه قد لطم وجهه عبده له «اعلم

(١) تفسير ابن عطية (٢٦٤/٥).

(٢) تفسير القرطبي (٢٥١/١٧).

أبامسعود، اعلم أبامسعود، أن الله أقدر عليك منك على هذا»^(١).

وافتح الآية بهذا، إشارة إلى احتياج القلوب المؤمنة إلى ذكر الله تعالى، كاحتياج الأرض إلى الماء، ولذا قال تعالى بعدها ﴿قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ أي وضحنا لكم الحجج والبراهين الدالة على كمال قوتنا وقدرتنا ووحدانيتنا، لعلكم تتعظون وتعتبرون، فإن الذي أحيا الأرض بعد موتها، قادر على إحياء القلوب الميتة بما أنزله الله على رسوله من الحق، وفي ختام الآية دليل على أن من لم يهتد بآيات الله ويُنفذ شرائعه لا عقل له ولا خير فيه.

والمقصود من الآية، تعهد النفس بالموعظة، والتذكير بالإقبال على الله تعالى، بين الحين والآخر وتدبر كتابه، واللجوء إليه سبحانه، وإلى سنة رسوله ﷺ ففيهما النجاة، وإليهما يفزع المؤمن، كي يعصمه الله من الزلل، كما قال ﷺ «تركت فيكم ما إن تمسكتم بهما لن تضلوا بعدي أبدا: كتاب الله وسنتي».

وفي الحديث عن أبي موسى ﷺ أن النبي ﷺ قال: «مثل ما بعثني الله به من الهدى والعلم، كمثل الغيث الكثير، أصاب أرضاً، فكان منها نقية، قبلت الماء، فأنبتت الكلأ والعشب، وكانت منها أجادب أمسكت، فنفع الله بها الماء، فشربوا وسقوا وزرعوا، وأصاب منها طائفة أخرى إنما هي قيعان لا تمسك ماءً ولا تبت كلاً، فذلك مثل من فقه في دين الله، ونفعه ما بعثني الله به فعلم وعلم، ومثل من لم يرفع بذلك رأساً ولم يقبل هدى الله الذي أرسلت به»^(٢).

والله تعالى يحيي القلوب بنور الحكمة كما يحيي الأرض بوابل السماء ﴿أَلَا يَذَكِّرُ اللَّهُ تَطْمِئِنَّ الْقُلُوبُ﴾ [الرعد: ٢٨].

(١) من حديث أبي مسعود الأنصاري في مسند الإمام أحمد برقم (١٧٠٨٧، ٢٢٣٥٤) عن عبد الرزاق عن سفيان الثوري، وسنده صحيح على شرط الشيخين، وهو عند عبد الرزاق في المصنف (١٧٩٥٩)، وفي مسلم (١٦٥٩)، والترمذي (١٩٤٨)، وقال: حديث حسن صحيح.

(٢) صحيح البخاري (٧٩) وصحيح مسلم (٢٢٨٢).

١٨ - ﴿إِنَّ الْمُصَّدِّقِينَ^(١) وَالْمُصَدِّقَاتِ وَأَقْرَضُوا اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا يَضَعُ لَهُمْ أَجْرًا كَرِيمًا﴾
وتواضلاً مع الآية السابقة ﴿مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا﴾ يبين سبحانه وتعالى أن من يتصدق كثيراً بماله من الرجال والنساء، وينفق ماله في سبيل الله لإعلاء كلمة الله، وإعانة الفقراء والمحتاجين، والمساهمة في وجوه الخير والبر، عن طيب نفس، يتغني بذلك وجه الله، فإن الله تعالى يضاعف له الأجر والمثوبة، الحسنة بعشر أمثالها إلى سبع مئة ضعف، والله يضاعف لمن يشاء ﴿إِنَّ الْمُصَّدِّقِينَ وَالْمُصَدِّقَاتِ﴾ أي المتصدقين المكثرين من الصدقة بفضول أموالهم في وجوه الخير والبر بشرط الإيمان ﴿وَأَقْرَضُوا اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا﴾ بالنفقة والصدقة وأعمال البر وكل ما يدخروه عند ربهم ﴿يَضَعُ لَهُمْ أَجْرًا كَرِيمًا﴾ هو الجنة ورضوان الله تعالى.

وعلى قراءة تخفيف الصاد يكون المعنى: إن الذين صدقوا رسول الله ﷺ فيما يبلغ عن الله تعالى وآمنوا به، والذين أقرضوا الله قرضاً حسناً بالإنفاق في وجوه الخير والبر، يضاعف الله لهم ثواب صدقاتهم، ولهم عند الله تعالى أجر عظيم وثواب جزيل.

ثَوَابُ أَهْلِ الْإِيمَانِ وَعِقَابُ أَهْلِ الْكُفْرِ

١٩ - ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ أُولَٰئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ وَالشَّهَادَةُ عِنْدَ رَبِّهِمْ لَهُمْ أَجْرُهُمْ وَنُورُهُمْ وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ^(٢)﴾
اشتملت هذه الآية على ثلاثة أصناف من البشر، هم:

١ - الصديقون، المؤمنون بالله ورسوله. ٢ - والشهداء. ٣ - والكافرون الجاحدون.
وقد بينت الآية السابقة فضل المؤمنين المتصدقين بأموالهم في سبيل الله، ولكن بعض المؤمنين قد لا يجد ما يتصدق به، فبين سبحانه وتعالى في هذه الآية أن الذين

(١) قرأ ابن كثير وشعبة بتخفيف الصاد من ﴿الْمُصَدِّقِينَ وَالْمُصَدِّقَاتِ﴾ من التصديق والباقون بالتشديد فيهما من تصديق، والأصل المتصدقين فأدغمت التاء في الصاد.

(٢) قرأ ابن كثير وابن عامر وأبو جعفر ويعقوب (يضعف) بتشديد العين وحذف الألف، مضارع ضعف والباقون (يضاعف) بتخفيف العين وإثبات الألف.

صَدَقُوا بِوَجْهِ اللَّهِ تَعَالَى وَوَحْدَانِيَّتِهِ، وَآمَنُوا بِرَسُولِهِ ﷺ إِيْمَانًا رَاسِخًا، لَهُمْ دَرَجَاتٌ عَالِيَةٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ، وَذَلِكَ أَنَّ الْمُؤْمِنَ قَدْ يَكُونُ فَقِيرًا، لَا يَمْلِكُ مَالًا، وَلَا يَجِدُ مَا يَتَصَدَّقُ بِهِ، وَلَوْ كَانَ عِنْدَهُ مَالًا لَتَصَدَّقَ بِهِ، وَهُوَ صَادِقٌ فِي إِيْمَانِهِ، فَهُوَ كَامِلُ الْإِيْمَانِ وَإِنْ لَمْ يَجِدْ مَا يَتَصَدَّقُ بِهِ. وَهَؤُلَاءِ الْمُؤْمِنُونَ الصَّادِقُونَ فِي إِيْمَانِهِمْ، مِنَ الَّذِينَ لَا يَجِدُونَ مَا يَتَصَدَّقُونَ بِهِ مِنْ فَضُولِ أَمْوَالِهِمْ، قَدْ فَتَحَ اللَّهُ لَهُمْ أَبْوَابًا كَثِيرَةً لِلصَّدَقَاتِ وَالْحَسَنَاتِ، كَمَا جَاءَ فِي الْحَدِيثِ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ؓ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: «كُلُّ سُلَامَى مِنَ النَّاسِ عَلَيْهِ صَدَقَةٌ، كُلُّ يَوْمٍ تَطْلُعُ فِيهِ الشَّمْسُ قَالَ: تَعْدَلُ بَيْنَ الْإِثْنَيْنِ صَدَقَةٌ، وَتَمِيطُ الْأَذَى عَنِ الطَّرِيقِ صَدَقَةٌ، وَبِكُلِّ تَسْبِيحَةٍ صَدَقَةٌ، وَبِكُلِّ تَحْمِيدَةٍ صَدَقَةٌ، وَبِكُلِّ تَكْبِيرَةٍ صَدَقَةٌ، وَأَمْرٌ بِالْمَعْرُوفِ صَدَقَةٌ وَنَهْيٌ عَنِ الْمُنْكَرِ صَدَقَةٌ»^(١).

جاء في بعض الروايات: «ويجزئ عن ذلك ركعتان يركعهما من الضحى». ولما اشتكى فقراء الصحابة إلى النبي ﷺ أن الأغنياء قد ذهبوا بالأجر؛ لأنهم يتصدقون وهم لا يجدون ما يتصدقون به، نصحهم النبي ﷺ بالتسبيح والتحميد والتكبير دُبُر كل صلاة.

فقد ذهب فقراء المهاجرين إلى النبي ﷺ يقولون: يا رسول الله، ذهب أهل الدثور بالدرجات العلى والنعيم المقيم فقال: وما ذاك؟ قالوا: يصلون كما نصلي، ويصومون كما نصوم، ويتصدقون ولا نتصدق، ويعتقون ولا نعتق، قال: «أَفَلَا أَعَلِّمُكُمْ شَيْئًا تُدْرِكُونَ بِهِ مَنْ سَبَقَكُمْ، وَتَسْبِقُونَ بِهِ مَنْ بَعْدَكُمْ، وَلَا يَكُونُ أَحَدٌ أَفْضَلَ مِنْكُمْ إِلَّا مَنْ صَنَعَ مِثْلَ صَنِيعَتِكُمْ، قالوا: بلى يا رسول الله، قال: تسبحون وتكبرون وتحمدون دبر كل صلاة ثلاثاً وثلاثين، قال: فرجعوا فقالوا: سمع إخواننا أهل الأموال ما فعلنا، ففعلوا مثله، فقال ﷺ ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ»^(٢).

(١) صحيح مسلم ١٠٠٩ وصحيح البخاري (٢٧٠٧، ٢٨٩١، ٢٩٨٩).

(٢) البخاري برقم (٨٤٣) ومسلم برقم (٥٩٥) وهذا لفظه.

وبمثل هذا نصّح النبي ﷺ فاطمة وعلي رضي الله عنهما لَمَّا طلبا منه خادماً، بعد أن أفاء الله عليه من الفتوحات والغزوات، فأبى ﷺ أن يعطيها ويترك أهل الضَّفَّة، ونصحهما أن يستعينا على ما يُجهدهما مِنْ حَمْلِ الحُبُوب وطَخْنِهَا ونحو ذلك، بالتسبيح والتحميد والتكبير عَشْراً عند النوم، فإن في هذا راحة للنفوس، وعلاجاً للأبدان.

وهذا الفضل للمؤمنين بكل الرسل، ولم يؤمن بجميع الرسل إلا أمة محمد ﷺ بخلاف الذين قالوا: ﴿تُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَتُكَفِّرُ بِبَعْضٍ﴾ [النساء: ١٥٠].

والمراد من الإيمان بالرسل في الآية: الإيمان بمحمد ﷺ لأن من يؤمن بمحمد ﷺ يؤمن بجميع الرسل.

واليهود آمنوا بالله وأشرك بعضهم فقال: عزيز ابن الله، وآمنوا بموسى عليه السلام، ولكنهم كفروا بعيسى وبمحمد عليهما السلام.

والنصارى أشركوا بالله، وقالوا: عيسى ابن الله، أو ثالث ثلاثة، أو هو الله، وكفروا بمحمد ﷺ.

والمؤمنون حقاً هم الذين آمنوا بالله إلهاً واحداً لا شريك له، وآمنوا برسل الله جميعاً، وأن كل رسول منهم أدى مهمته في وقته، فسَلَّمَ كل منهم راية الدعوة من السابق للأحق، حيث نَسَخَتْ رسالة عيسى رسالة موسى عليهما السلام، ونَسَخَتْ رسالة محمد رسالة عيسى عليهما السلام.

ومن يؤمن برسالة غير رسالة محمد ﷺ في كافة أرجاء العالم من لدن بعثته ﷺ إلى قيام الساعة، فلن يقبل منه هذا الإيمان، وهو من الكافرين، لأن من لم يؤمن بالرسول الخاتم فهو كافر، قد خسر دنياه وآخره.

ولذا: فقد وُصف المؤمنون بالله ورسوله بالصدق فقال تعالى: ﴿أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ﴾ لأنهم لم يشكوا في الرسل حين أخبروهم بل صدَّقوهم تصديقاً كاملاً، وآمنوا بكل رسول جاء في زمانه ومكانه، وآمنوا بخاتم المرسلين والنبیین، والإيمان الذي دل عليه

الكتاب والسنة، هو: قول باللسان وتصديق بالجنان، وعمل بالجوارح والأركان، فهو إيمان يجمع بين عمل القلب واللسان والجوارح، ويشمل شرائع الإسلام الظاهرة والباطنة، والذين جمعوا بين هذه الأمور مجتمعة، هم الصديقون، ومرتبهم فوق مرتبة المؤمنين ودون مرتبة الأنبياء.

وهؤلاء المؤمنون لهم ثواب جزيل، ولهم نور يسعى بين أيديهم وأيمانهم يوم لقاء رب العالمين، وفي مقدمة المؤمنين من سبقوا غيرهم إلى الدخول في الإسلام أول ظهوره وهم: أبوبكر، وعلي، وزيد، وعثمان، وطلحة، والزبير، وسعد، وحمزة، وعمر رضي الله عنهم أجمعين، والآية عامة في كل مؤمن بالله ورسوله.

والصنف الثاني من المؤمنين في الآية هم الشهداء، قال تعالى مستأنفاً:

﴿وَالشُّهَدَاءُ عِنْدَ رَبِّهِمْ لَهُمْ أَجْرُهُمْ وَنُورُهُمْ﴾

١- قد يراد بالشهداء في الآية: الشهداء على الأمم يوم القيامة، كما قال تعالى:

﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾

[البقرة: ١٤٣] وقال سبحانه: ﴿يَكُونُ الرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ﴾ [الحج: ٧٨]

ومؤمنوا هذه الأمة، شهداء على الأمم السابقة.

٢- وقد يراد بالشهداء في الآية: شهداء المعركة الذين قتلوا في سبيل الله، ولا

يتعارض هذا مع ذاك، فالمؤمن يكون صديقاً وشهيداً في سبيل الله، ويكون شاهداً يوم القيامة على الناس.

ومرتبة الصديق أعلى من مرتبة الشهيد، كما جاء في حديث أبي سعيد الخدري

أن رسول الله ﷺ قال: «إن أهل الجنة يترأفون أهل الغرف من فوقهم، كما يترأفون

الكوكب الدرّي الغابر في الأفق من المشرق أو المغرب، لتفاضل ما بينهم» قالوا: يا

رسول الله، تلك منازل الأنبياء، لا يبلغها غيرهم، قال: «بلى، والذي نفسي بيده، رجال

آمنوا بالله وصدّقوا المرسلين»^(١).

(١) صحيح البخاري برقم (٣٢٥٦)، وصحيح مسلم برقم (٢٨٣١).

وجاء في الحديث عن ابن مسعود رضي الله عنه «إن أرواح الشهداء في جوف طير خضر، لها قناديل معلقة بالعرش، تسرح من الجنة حيث شاءت، ثم تأوي إلى تلك القناديل، فاطلع إليهم ربهم اطلاعاً فقال: هل تشتهون شيئاً؟ قالوا: أي شيء نشتهي؟ ونحن نسرح من الجنة حيث شئنا، ففعل ذلك بهم ثلاث مرات، فلما رأوا أنهم لن يتركوا من أن يسألوا، قالوا: يا رب نريد أن ترد أرواحنا إلى أجسادنا حتى نقتل في سبيلك مرة أخرى» ^(١).

والشهداء على درجات، وأعلامهم مقاماً، من قُتل وهو يجاهد العدو بنية خالصة لإعلاء كلمة الله ردّاً لعدوان، أو إزالةً للعوائق أمام نشر الدعوة، أو نُصرةً للضعفاء من المسلمين، وكل من الصديقين والشهداء لهم الأجر والنور التام يوم القيامة.

وفي الحديث عن أبي هريرة رضي الله عنه «إن في الجنة مئة درجة، ما بين الدرجتين كما بين السماء والأرض، أعدها الله للمجاهدين في سبيله» ^(٢).

وهذا يقتضي علو منزلتهم ورفعة شأنهم، وقربهم من الله تعالى.

وعن عمرو بن مَرْة الجُهني رضي الله عنه قال: جاء رجل إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقال: يا رسول الله، أريت إن شهدت أن لا إله إلا الله، وأنت رسول الله، وصليت الصلوات الخمس، وأديت الزكاة، وصمت رمضان وقُمته، فَمَنْ أنا؟ فقال: «من الصديقين الشهداء» ^(٣).

ثم ختم الله الآية بالصنف الثالث فيها، المقابل للمؤمنين الصادقين المتصدقين فقال سبحانه: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا﴾ وجحدوا وحدانية الله تعالى، وجحدوا رسالة خاتم الرسل ﴿وَكَذَبُوا بِآيَاتِنَا﴾ المنزلة على محمد صلى الله عليه وسلم والمؤيدة لصدق رسالته ﴿أُولَئِكَ أَصْحَابُ

(١) صحيح مسلم (١٨٨٧) عن ابن مسعود.

(٢) ابن حبان (٤٦١١، ٧٣٩٠)، وأخرجه أحمد في المسند بأطول من هذا، ورقمه (٨٤١٩، ٨٤٧٤)، قال محققوه: حديث صحيح.

(٣) صحيح ابن حبان (٣٤٣٨) ورواه البزار وابن خزيمة، وصححه الألباني في صحيح الترغيب والترهيب برقم (٣٦١)، والبيهقي في موارد الزمآن برقم (١٩) (٣٦ / ١).

الْجَحِيمِ ﴿١﴾ فِي نَارِ جَهَنَّمَ عَلَى تَفَاوُتِ دَرَكَاتِهِمْ فِيهَا.

وهكذا: جمعت هذه الآية والتي قبلها أصناف الخلق:

١ - المتصدقين، الذين أحسنوا إلى خلق الله.

٢ - والصدّيقين، الذين تميّزوا بالإيمان والعلم النافع، والعمل الصالح، واليقين الصادق.

٣ - والشهداء، وهم الذين قاتلوا في سبيل الله لإعلاء كلمة الله بأنفسهم وأموالهم.

٤ - والكفار، أصحاب الجحيم، الذين كذبوا بآيات الله ورسله.

٥ - وفي سورة فاطر: المقتصدون، وهم الذين أدوا الواجبات وتركوا المحرّمات

وحصل منهم بعض التقصير.

شَهَوَاتُ الدُّنْيَا الثَّمَانِيَةُ وَمَثَلُهَا فِي سُرْعَةِ زَوَالِهَا

٢٠- ﴿١﴾ اَعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهُمْ زِينَةٌ وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ

كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ الْكُفَّارَ نَبَاتُهُ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَاهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَكُونُ حُطَمًا وَفِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ

وَمَغْفِرَةٌ مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٌ^(١) وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ ﴿٢﴾

وبعد أن حثّت الآيات السابقة على الصدقة والإنفاق في سبيل الله، بينت في هذه

الآية أن سبب الشح والحرص على المال، هو استبقاؤه لإنفاقه في اللذائذ والشهوات،

أو الخوف من الفقر، ولذا فإن الله تعالى حصر شهوات الدنيا ومتاعها في خمس نقاط

في هذه الآية، ثم ضرب لها مثلاً لسرعة زوالها، وبيان أن ما عند الله خير وأبقى.

وهذه الأمور الخمسة هي: اللعب في مرحلة الطفولة، واللهو في مرحلة الصبا،

والزينة في مرحلة الفتوة، والتفاخر في مرحلة الشباب، والتكاثر في مرحلة الكهولة،

وكل مرحلة من هذه المراحل، تستغرق ثماني سنوات من عمر الإنسان، وبتمامها يصل

الإنسان إلى سن الأربعين، وهو تمام العقل والرشد واستيفاء الشهوات، ولذا، فإن هذا

(١) قرأ شعبة بضم الراء من (رضوان) والباقون بكسرها، وهما لغتان.

السن، كان بداية نزول الوحي على أكثر الأنبياء.

وقد ذكر سبحانه وتعالى في هذه الآية غالب ما يشغل الناس من شؤون الحياة، ولا يخلو منها إلا مَنْ عصمه الله، فكانت أعماله كلها تقوى وإحسان ومنافع وفصائل، ومن الناس من خلط عملاً صالحاً وآخر سيئاً.

وقد يمارس الإنسان في كل طور من أطوار حياته ما ذكر في الآية، في حدود المباح والمشروع، فلا يتخلل حياته آثام ولا خطايا.

﴿اعْلَمُوا﴾ أيها الناس ﴿أَنَّ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا﴾ تقتصر على الآتي:

أولاً: إنها ﴿لَعِبٌ﴾ واللعب هو: كل قول أو فعل من شأنه المرح والهزل وقضاء الوقت فيما لا فائدة فيه، للترويح عن النفس، وجلب الفرح والمسرّة لها، ومنه المداعبة، وإزالة الوحشة عن النفس.

واللعب هو الغالب على أعمال الأطفال في الطور الأول من أطوار حياتهم، وهو يتفاوت بينهم بحسب راحة العقل وضعفه، وقد يكون اللعب بالبدن والأعضاء.

وقد يكون معنى اللعب في الآية: أن يُثعب الإنسان نفسه في الدنيا، كما يُثعب الأطفال أنفسهم باللعب، فإنه لا فائدة فيها غير تحصيل الزاد ليوم المعاد.

ثانياً: ﴿وَلَهْوٌ﴾ اللهو هو: كل قول أو فعل يُقصد به التلذذ، وصرف الألم والحزن أو التعب والنصب عن الإنسان، فيتشغل به لإلهاء النفس عن الهموم والكآبة.

ويراد باللهو أيضاً ما يشغل الإنسان عن طاعة الله تعالى أو عن تحصيل قوته وقوت من يعول أو يُشغله عن العمل للدار الآخرة.

ثالثاً: ﴿وَزِينَةٌ﴾ الزينة: اسم لما يتزين به الإنسان في ذاته أو في ملبسه أو مركبه أو مسكنه ونحو ذلك، لتحسين نفسه في أعين الناس، والنساء تهتم بهذا الجانب أكثر من الرجال، ويكثر التزيّن في طُور ما قبل الزواج، فيحاول كل من الرجل والمرأة تجميل وتحسين ذاته حسياً ومعنوياً، فيتعلم أسلوب الكلام لجذب الآخرين ونحو ذلك.

رابعاً: ﴿وَتَفَاخُرُ بَيْنَكُمْ﴾ يكون التفاخر بالأموال والعقار والمناصب والأعمال والأحساب والأنساب، فيتحدث المرء عن محامده، ويبالغ في ذلك، ويحب من الناس أن يذكره بالصفات الحميدة.

وقد يتفاخر الأحق بما هو باطل، مما هو مذموم أو محرم شرعاً، وأفحش شيء في ذلك، من يجاهر بالمعصية مفتخراً ومتباهياً بارتكابها.

وقد يفاخر الإنسان غيره بأن يكون هو الغالب في مختلف جوانب الحياة. خامساً: ﴿وَتَكَاثُرُ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ﴾ وذلك في طور الكهولة حيث يحاول الإنسان أن يجمع الأموال، ويبني العقارات، ويكثر من الذرية، ويكثر غيره في المال والولد فهي مرحلة تكوين الثروة وتربية الأولاد وتأمين المستقبل كما يقال، ولا يزال يتفانى في ذلك حتى يأتيه الموت ﴿أَلَهَكُمْ التَّكَاثُرُ ۖ حَتَّىٰ دُرُمُ الْمَقَابِرِ ۚ﴾ [التكاثر: ١، ٢].

وقد حصر سبحانه جُلّ متاع الدنيا في هذه الآية: ﴿زَيْنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنْطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالْأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ۚ ذَٰلِكَ مَتَعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ۗ وَاللَّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الْمَقَابِلِ ۚ﴾ [آل عمران: ١٤].

فاعلموا - أيها الناس - أن غاية ما في الدنيا من متاع، إنما هو لعب بالأبدان ولهو بالقلوب، وغفلة عن ذكر الله وعن الوعد والوعيد، والغافلون عن ذكر الله هم الذين اتخذوا دينهم لعباً ولهواً، أما أهل الذكر واليقظة، فإن قلوبهم معمورة بذكر الله تعالى وبمعرفة ومحبة قد شغلوا أنفسهم بما يقربهم من الله ويسعدهم في دنياهم وأخراهم.

مثل الدنيا في سرعة زوالها:

ثم زجر الله سبحانه الناس عن الركون إلى الحياة الدنيا ركوناً ينسون معه فرائض الله تعالى، وينسون ما أمرهم به من طاعات أو نهاهم عنه من معاصي، فشبه سبحانه الدنيا في سرعة زوالها، وانقضاء نعيمها، وقلة فائدتها، بحال نبات خرج من الأرض، بعد أن هطلت عليه الأمطار، واستمر في نموه وبهجته ونضرتة حتى أتى ثماره وأعجب أهله،

ثم اصفرَ هذا النبات واضمحَلَّ حتى صار حُطاماً هشيماً تذروه الرياح، وهذا معنى: ﴿كَثَلٍ غَيْثٍ﴾ أي مطر غزير أصاب أرضاً، فأنبَت وأينعت وآتت أكلها وأعجب بها أهلها، وهذا معنى ﴿أَعَجَبَ الْكَفَّارَ نَبَاتُهُ﴾.

قال ابن مسعود رضي الله عنه: الكفار: الزُّراع: جمع كافر، وهو الزارع، وسُمُّوا كذلك لأنهم يُكفِّرون الأرض، أي يَحْفَرُونَهَا وَيَضَعُونَ البذر فيها، ثم يسترونه بالتراب، والكفر هو الستر والتغطية، وسمي الكافر بالله كافراً؛ لأنه يستر ويغطي الإيمان الموجود بداخله بمقتضى الميثاق المأخوذ على بني آدم بتوحيد الله تعالى، وهم في أصلاب آبائهم.

وفي تسمية الزراع بالكفار؛ تورية بالكفار بالله تعالى، لأنهم أشد إعجاباً بمتاع الدنيا من المؤمنين إذ لا مطمع لهم في الدار الآخرة ﴿ثُمَّ يَهَيِّجُ﴾ هذا النبات، فيغلُظ ويشتد ويقارب اليبس، ثم يذبل ﴿فَرَنَّهُ مُصَفَّراً﴾ بعد خضرة ونضرة ﴿ثُمَّ يَكُونُ حُطاماً﴾ أي يصير النبات يابساً متفتتاً، يتحطم ويتكسر، ويصبح هشيماً تذروه الرياح، قد جاءها من أمر الله ما جاءها، فعادت إلى حالها الأول، كأنه لم ينبت فيها شيء، ولا رُوِيَ بماء، وهكذا الدنيا تزهر وتحلو في أعين أحبابها، ثم لا تلبث أن تنتهي.

وهكذا الإنسان يكون في أول عمره وعنفوان شبابه غُضاً طرياً، ثم يتحول إلى الكهولة، ومنها إلى الشيخوخة، فتراجع قواه، وتقل حركته، وتضعف ذاكرته، ويعجز عما كان يقدر عليه قبل ذلك، قال تعالى: ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا وَشَيْبَةً﴾ [الروم: ٥٤].

ثم يرحل الإنسان من الدنيا، صفر اليدين، لم يتزوّد منها سوى بالكفن، وما خرج به من عمل يلقي به ربه، فتباً لمن كانت الدنيا غايته، فعمل لها وسعى.

أما العمل للآخرة، فهو الذي ينفع العبد ويصحبه في قبره وفي آخرته.

وبعد أن هوّن سبحانه من شأن الدنيا، فبيّن أنها سريعة الزوال، وأن متاعها قليل، حذر من عذاب الآخرة، لمن اغترّ بالدنيا وانغمس فيها فشغلته عن طاعة الله تعالى وذكره.

وفي الآية ترغيب لمن أطاع الله واتبع رضاه بالجنة والرضوان، فليس في الآخرة إلا أحد أمرين، إما عذاب شديد، وأغلال وسعير، لمن كانت الدنيا غايته، فكذب بآيات وكفر بأنعمه وإما مغفرة من الله ورضوان لمن عرف حقيقة الدنيا وسعى للآخرة سعيها، قال تعالى: ﴿وَفِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ﴾ أي لمن كفر بالله ففسق عن أمره ولم يؤمن بالنبى الخاتم ﴿وَمَغْفِرَةٌ مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٌ﴾ أي لمن آمن بالله واليوم الآخر وآمن بخاتم النبیین وعمل صالحاً واتبع ولم يتدع.

وفي هذا تعبير عن النعيم الأخروي بقسميه: المادي والمعنوي، فالمغفرة والرضوان أصل النعيم الروحاني كما قال تعالى: ﴿وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللَّهِ أَكْبَرُ﴾ [التوبة: ٧٢]. وهما يقتضيان النعيم الجسماني.

وفي نهاية الآية، وَصَفَ الله الدنيا في سرعة انقضائها وزوال متاعها، وبيّن أنها متاع الغرور، الذي ينخدع به الغافل ويغتر به الجاهل ﴿وَمَا الْحَيَوةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَّعُ الْغُرُورِ﴾ لا يغتر بها ويطمئن إليها إلا أهل العقول الضعيفة الذين يغرههم بالله الغرور، وهو الشيطان. قال سعيد بن جبیر: الدنيا متاع الغرور، إن ألهتكَ عن طلب الآخرة، فأما إذا دعوتك إلى طلب رضوان الله، وطلب الآخرة، فنعم المتاع ونعم الوسيلة^(١).

وعن أبي هريرة ؓ أن رسول الله ﷺ قال: «موضع سوطٍ في الجنة خير من الدنيا وما فيها»^(٢). وعن عبد الله بن مسعود ؓ أن رسول الله ﷺ قال: «لِلْجَنَّةِ أَقْرَبُ إِلَى أَحَدِكُمْ مِنْ شَرَاكٍ نَعْلُهُ، وَالنَّارُ مِثْلُ ذَلِكَ»^(٣).

(١) التفسير الكبير (٢٣٤/٢٩).

(٢) من حديث سهل بن بن سعد في البخاري برقم (٦٤٨٨، ٣٢٥٠)، والمسند (١٥٥٦٤) وغيره بإسناد صحيح على شرط الشيخين، والطبراني في الكبير (٥٩١٧)، وأبو يعلى (٧٥١٤).

(٣) البخاري برقم (٦٤١٥، ٦٤٨٨) والمسند (٣٨٧/١) برقم (٤٢١٦) بإسناد صحيح على شرط الشيخين، وأخرجه أبو يعلى (٥٢١١)، وابن حبان (٦٦١).

وَجُوبُ الْمُسَارَعَةِ إِلَى رِضْوَانِ اللَّهِ تَعَالَى

٢١- ﴿سَابِقُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أُعِدَّتْ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ﴾ ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ ﴿٢١﴾

ولما هوّن الله تعالى من شأن الدنيا، وعظّم أمر الآخرة، حث على المسارعة إلى نيل مرضاة الله سبحانه، والمسابقة إلى مغفرة الله وجنته ورضوانه، لأنها سبب السعادة الأبدية في دار الخلود، فقال تعالى: ﴿سَابِقُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ﴾ سابقوا - أيها الناس - في السعي إلى أسباب المغفرة: من التوبة النصوح، والابتعاد عن المعاصي، وأداء الفرائض، والإكثار من النوافل، والأعمال الصالحة، ولا تكونوا من المغترين بالدنيا، اللاهثين وراءها، غير القائمين بما كلفهم الله به من أعمال أو ندبهم إليها.

ومن المسارعة إلى الخيرات: أداء الصلوات في أول وقتها، وإدراك الصف الأول في الصلاة، والتواجد في الروضة التي خلف الإمام، وتكبيرة الإحرام مع الإمام، وأن يكون المرء أول داخل إلى المسجد وآخر خارج منه، وأن يكون في الصف الأول في جهاد العدو، وأول المتصدقين، وأول الساعين إلى الخير والصلح بين الناس، وأول المحافظين على وقت العمل، واجتناب المال الحرام وما إلى ذلك.

قال ابن عطية: وهذه الآية حجة عند جميع العلماء في الندب إلى الطاعات ^(١).

فتنافسوا في أسباب المغفرة - أيها المسلمون - وسارعوا إلى رضوان الله تعالى ﴿وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ﴾ وهذا مبالغة في وصف سعة الجنة، فهي واسعة فسيحة، وقد نص القرآن على عرض الجنة، تنبيهاً على أن الطول أضعاف ذلك، والمراد بالعرض سعة الجنة، والتشبيه بأقصى ما يتصوره الإنسان من الاتساع.

قال الفخر الرازي: المراد، لو جعلت السموات والأرضون طبقاً طبقاتاً، لكان ذلك

(١) تفسير ابن عطية (٢٦٧/١٥).

مثل عرض الجنة، وهذا غاية في السعة لا يعلمها إلا الله ^(١).

وروى الإمام أحمد أن هرقل - ملك الروم - كتب إلى النبي ﷺ فقال: (إنك دعوتني إلى جنة عرضها السموات والأرض، فأين النار؟) فقال ﷺ: «سبحان الله، فأين الليل إذا جاء النهار» ^(٢).

قال مجاهد والسدي (إن السموات السبع في الكرسي كالدرهم في الفلاة، وإن الكرسي في العرش كالدرهم في الفلاة) ^(٣).

وهذه الجنة مُعدة للذين وحدوا الله تعالى، واتبعوا رسوله ﷺ وأقاموا أصول الدين وفروعه، فقد ﴿أُعِدَّتْ﴾ هذه الجنة ﴿لِلَّذِينَ ءَامَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ﴾ ودخول الجنة محض فضل من الله تعالى يعطيه من يشاء، فلن يدخل الجنة أحد بعمله، وإنما يدخلها بفضل الله تعالى ﴿ذَلِكَ﴾ الذي بيّنه لكم من الطرق الموصلة إلى جنة الله، المبعدة عن ناره ﴿فَضَّلُ اللَّهُ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ﴾ وفضل الله تعالى بالثواب الجزيل والأجر العظيم، من أكبر ما يمتن الله تعالى به على عباده ﴿وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾.

وشبهه بهذه الآية قوله تعالى: ﴿وَسَارِعُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [آل عمران: ١٣٣] وقوله: ﴿فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ﴾ [البقرة: ١٤٨].

وعن أبي هريرة ؓ أن رسول الله ﷺ قال: «لن يدخل أحد منكم الجنة عمله، قالوا ولا أنت يا رسول الله؟ قال: ولا أنا إلا أن يتغمدني الله بفضل رحمته» ^(٤).

(١) التفسير الكبير (٤/٩).

(٢) أخرجه أحمد في المسند عن التنوخي برقم (١٥٦٥٥) في حديث طويل بإسناد ضعيف، وهو في مجمع الزوائد (٨/ ٢٣٤)، وقال: رواه عبدالله بن أحمد وأبو يعلى، ورجال أبي يعلى ثقات، ورجال عبدالله بن أحمد كذلك.

(٣) ينظر تفسير سعيد بن منصور (٤٢٥)، وأبو الشيخ (٢٥٠)، والبيهقي في الأسماء والصفات (٨٦٣)، والطبري (٥٣٨/٤)، وابن أبي حاتم (٢٦٠٣).

(٤) البخاري (٥٦٧٣) ومسلم (٢٨١٦).

كُلُّ مَا يَحْدُثُ فِي الْعَالَمِ سَبَقَ بِهِ عِلْمُ اللَّهِ تَعَالَى

٢٢، ٢٣ - ﴿مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي أَنْفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَابٍ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَبْرَأَهَا إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ﴾ (٢٢) لِكَيْلَا تَأْسَوْا^(١) عَلَى مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ^(٢) وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ﴿٢٣﴾

ولما قال سبحانه: ﴿وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْفُرُورِ﴾ كان في هذا إشارة إلى أن كل ما يحدث في الدنيا من استشهاد في سبيل الله، وابتلاء في الأنفس والأموال والثمرات، وقتل وأسر، ومريض وجائحة وهزيمة، وكل ما يصيب الإنسان من مصيبة صغيرة أو كبيرة في دينه أو دنياه، فهو بقوة قاهرة خارجة عن نطاق قدرة الإنسان وكسبه، ولكن هذا الكون يسير وفق نظام محكم دقيق، ترتبط فيه الأسباب بالمسببات.

﴿مَا أَصَابَ﴾ أي ما أصابكم أيها الناس ﴿مِنْ مُصِيبَةٍ فِي الْأَرْضِ﴾ كالقحط والهزيمة والزلازل والبراكين وتلف الأموال والأنعام والثمار ﴿وَلَا فِي أَنْفُسِكُمْ﴾ مما يتعلق بذات الإنسان كالجوع والمرض والأسر، والأسقام وضيق العيش، وقطع الأعضاء، والموت، والفقر، وذهاب الأولاد، وغير ذلك ﴿إِلَّا فِي كِتَابٍ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَبْرَأَهَا﴾ أي إلا وهو في قضاء الله وقدره مكتوب في اللوح المحفوظ، معلوم عند الله تعالى من قبل أن تُخلق الأنفس، فكل الأمور مقدرة في الأزل، وهي مدونة في أم الكتاب من قبل أن تكون، وهذا شامل لعموم ما يصيب الخلق من خير أو شر، صغيرة أو كبيرة، ولا سبيل لدفعها أو منعها، بل لابد من نفوذها ووقوعها.

وعلى هذا فلا يجوز التطير أو التشاؤم، ونسبة ما ينزل بالإنسان من محن وبلايا إلى غير الله تعالى، كمن يتشاءم من المسكن الجديد، أو من المرأة، أو من السيارة، أو من

(١) قرأ ورش وأبوجعفر وأبو عمرو بخلف عنه بإبدال همزة ﴿تَأْسَوْا﴾ ألفاً وصلًا ووقفًا وحمزة وفتحًا، وحققتها باقي القراء.

(٢) قرأ أبو عمرو بقصر همزة ﴿آتَاكُمْ﴾ من الإتيان أي بما جاءكم، وقرأ الباقون بالمد من الإتياء أي بما أعطاكم.

الوظيفة، أو من فلان أو فلانة ونحو ذلك، فكل شيء يحدث بإذن الله تعالى.

كما جاء في الحديث عن عمرو بن العاص رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «كتب الله مقادير الخلائق قبل أن يخلق السموات والأرض بخمسين ألف سنة وعرشه على الماء» ^(١).

وروى الطبري بسنده، أن الحسن رضي الله عنه سئل عن هذه الآية فقال: (سبحان الله، ومن يشك في هذا؟ كل مصيبة بين السماء والأرض، ففي كتاب الله من قبل أن يبرأ النسمات) ^(٢).

وقال قتادة: بلغنا أنه ليس أحد يصيبه خدش عود، ولا نكبة قدم، ولا خلجة عرق إلا بذنب، وما يعفو عنه الله أكثر ^(٣).

وعلم ما كان وما يكون أمر سهل على الله تعالى ﴿إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ﴾ وإن كان عسيراً على العباد، وقدرة الله تعالى لا يعجزها شيء، وعلمه لا يغيب عنه شيء.

وفي هذا يقول تعالى: ﴿قُلْ لَنْ يُصِيبَنَا إِلَّا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَنَا هُوَ مَوْلَانَا وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾ ^(١١) [التوبة].

ويقول جل شأنه: ﴿مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ يَهْدِ اللَّهُ قَلْبَهُ﴾ [التغابن: ١١].

ثم يبين سبحانه وتعالى الحكمة في أن كل ما يصيب الإنسان إنما هو بقضاء الله وقدره، وذلك حتى لا تحزنوا على ما فاتكم من حظوظ الدنيا، ولا تجزعوا لما أصابكم من محن وابتلاءات، فيوطن الإنسان نفسه على ذلك، ويعلم أن ما أخطأه لم يكن ليصيبه، وما أصابه لم يكن ليخطئه، وأن الأمة لو اجتمعت على أن يضروه بشيء لم يضروه إلا بشيء قد كتبه الله له، ولو اجتمعوا على أن ينفعوه بشيء لم ينفعوه إلا بشيء قد كتبه الله عليه.

(١) من حديث عمرو بن العاص وأبي هاني في مسلم برقم: ٢٦٥٣ والمسند ١٦٩/٢ والترمذي برقم: ٢١٥٦ وقال: حسن صحيح.

(٢) تفسير الطبري (١٣٥/٢٧) والبيهقي (٩٧٧٠).

(٣) تفسير القرطبي (١٥٨/١٧).

وقد أعلمنا الله سبحانه بذلك حتى لا نفرح فرح بطل وأشر عندما تقبل علينا الدنيا، فإن ما فيها من حظوظ سيزول عن قريب، وكل شيء يزول لا يستحق الفرح ﴿لِكَيْلَا تَأْسَوْا عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ﴾ مما طمحت له أنفسكم وتشوقتم إليه من زخرف الدنيا ومتاعها ﴿وَلَا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ﴾ فرح أشر وبطل، والأسى أو الحزن العادي هو من من طبيعة الإنسان، يغتر به عندما تحلّ به نكبة، أو يفوته شيء من نعيم الدنيا، وليس هذا هو الحزن المقصود في الآية، إنما المراد: الحزن الشديد الذي يصيب صاحبه باليأس والقنوط، إلا المؤمن صادق الإيمان، فإنه يرضى ويسلم، ولا يجزع ولا يهلع، كما ورد في الحديث: «إن العين لتدمع، وإن القلب ليحزن، ولا نقول إلا ما يرضى ربنا»^(١).

كما أن السرور الذي يعتري الإنسان عندما تحل به نعمة، أو تُرفع عنه نقمة، هو من طبيعة الإنسان، وليس فيه إثم، وإنما الفرح المذموم هو الذي يحمل صاحبه على الطغيان والتكبر وعدم شكر النعمة.

قال ابن عباس رضي الله عنهما: ليس من أحد إلا وهو يحزن ويفرح، ولكن المؤمن يجعل مصيبته صبراً، وغنيمة شكرأ، فلا تحزنوا حزناً يهلككم، ولا تفرحوا فرحاً يطغيكم. قال بعض العارفين: من عرف سر الله في القدر هانت عليه المصائب. وقال عمر رضي الله عنه: ما أصابني من مصيبة إلا وجدت فيها ثلاث نعم: الأولى: أنها لم تكن في ديني.

الثانية: أنها لم تكن أعظم مما كانت.

الثالثة: أن الله يعطي عليها الثواب العظيم، والأجر الكبير.

قال تعالى: ﴿وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ ﴿١٥٥﴾ الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُمُ مُصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ ﴿١٥٦﴾ أُولَٰئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ ﴿١٥٧﴾﴾ [البقرة].

وفي حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «وما يصيب المؤمن من نصب

(١) من حديث أنس بن مالك في البخاري (١٢٤١).

ولا وصب ولا غم حتى الشوكة يشاكها إلا كفر الله بها من خطاياها»^(١).

وإذا علم الإنسان أن ما هو فيه من منصب أو جاه أو مال، هو أمر زائل لا محالة، وصائر إلى غيره، قل جزعه عند فقد، ومن علم أنه لن يفوته شيء من رزقه وأجله بحال من الأحوال، قل فرحه ولم يتعال على الناس.

وفي الحديث عن صهيب رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «عجباً لأمر المؤمن إن أمره كله له خير وليس ذاك لأحد إلا للمؤمن، إن أصابته سراء شكر؛ فكان خيراً له، وإن أصابته ضراء صبر فكان خيراً له»^(٢).

وما في قضاء الله تعالى وقدره هو من باب الغيب قبل أن يحدث، فهو مجهول للإنسان، وبالتالي وجب عليه أن يطرق الأسباب ويأخذ بها، فلا ينتظر رزقاً بدون سعي، ولا ينتظر نجاحاً بدون مذاكرة، ولا ينتظر نصراً على العدو بدون إعداد العدة، وهكذا، فقد ربط الله الأسباب بالمسببات، والنتائج بالمقدمات، وكله مقدر، وكله معلوم عند رب العالمين، فهو خالق السبب والمسبب، وهو الأمر ببذل السبب للحصول على نتيجته، وكلّ ميسر لما خلق له، وقد كتب الله الأمور كلها في الأزل، ولا يقع في ملك الله تعالى إلا ما يريد، وكل شيء بحول الله وقوته.

ثم ذم الله تعالى كل طاغية متكبر فظ غليظ، فقال: ﴿وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ﴾ أي لا يحب كل متكبر في الدنيا بما أوتي، ينسب الفضل إلى نفسه، معجب بما أعطاه الله، فخور به على الناس، مختال في نفسه، وكل من فرح بحظوظ الدنيا وعظمت في نفسه، فقد اختال وافتخر بها، قال تعالى: ﴿فَإِذَا مَنَّ الْإِنْسَنَ صُرُدَعَانَا ثُمَّ إِذَا حَوَّلْنَاهُ نِعْمَةً مِنَّا قَالَ إِنَّمَا

(١) ينظر: البخاري (٥٦٤١) ومسلم (٢٥٧٣) والترمذي (٩٦٦) والمسنَد (١١٠٠٧، ١١٣٣٦) بلفظ مقارب،

قال محققوه: حديث صحيح، وهذا إسناد حسن من أجل محمد بن إسحاق، وجاء أيضاً عن عائشة

(٢٤١١٤) وأخرجه ابن حبان (٢٩٠٦) وسنن النسائي الكبرى (٧٤٤٣-٧٤٤٧).

(٢) صحيح مسلم (٢٩٩٩).

أَوْتِيَتْهُ عَلَى عِلْمٍ بَلْ هِيَ فَتْنَةٌ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٤٩﴾ [الزمر: ٤٩].

أخرج عبد الله بن أحمد في زوائد الزهد عن قزعة، قال: رأيتُ عليَّ ابن عمر، ثياباً خشنة، فقلت يا أبا عبد الرحمن: إني قد أتيتك بثوب لين مما يُصنع بخراسان، وتقَرَّ عيني أن أراه عليك، فإن عليك ثياباً خشنة، قال: إني أخاف أن ألبس فأكون مختالاً فخوراً، والله لا يحب كل مختال فخور.^(١)

وَصَفُ الْمُخْتَالِ الْفَخُورِ

٢٤- ﴿الَّذِينَ يَبْخُلُونَ وَيَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبُخْلِ^(٢) وَمَنْ يَتَوَلَّ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ^(٣)﴾

وصف الله سبحانه أهل الفخر والخيلاء، فبين أنهم إذا رزقوا مالاً أو جاهاً، ضنوا به على الناس، فلا ينفقون منه شيئاً في سبيل الله، ولا في وجوه الخير والبر، وهذا من علامات النفاق، ثم إنهم لم يكتفوا بذلك، بل إنهم يحرضون الناس على البخل، فجمعوا بين أمرين ذميمين وهما: منع الحقوق الواجبة، وأمر الناس بذلك، فلم يكتفوا ببخلهم بل حثوا الآخرين بقولهم وفعلهم على البخل، فهم ﴿الَّذِينَ يَبْخُلُونَ وَيَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبُخْلِ وَمَنْ يَتَوَلَّ﴾ عن طاعة الله تعالى، ويُعرض عن الإنفاق في سبيل الله، فإنه لن يضر الله شيئاً، ولن يضر إلا نفسه، لأنه سبحانه الغني عن خلقه، المستحق للحمد على نعمه وآلائه، وهو جل شأنه الموصوف بكل وصف حسن وفعل جميل ﴿فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ﴾ أي الغني عن العبد وعن إنفاقه للمال والمتاع، وهو سبحانه المحمود في ذاته وصفاته، لا يضره الإعراض عن شكره، ولا تنفعه طاعة الطائعين، وهو الذي أغنى

(١) عبد الله بن أحمد في زوائد الزهد (ص ١٩٢).

(٢) قرأ حمزة وخلف بفتح الباء من (البخل) والباقون بضم الباء وإسكان الخاء وهما لغتان.

(٣) قرأ نافع وابن عامر وأبو جعفر بحذف (هو)، وخير (إن) الغنى، وقرأ الباقون بإثبات (هو) على أنه ضمير الفصل بين الاسم والخبر، وكلاً من القراءتين موافقة لرسم المصحف، فقد حُذِفَ لفظ (هو) من المصحف المدني والشامي وثبت في غيرهما.

عباده، وهو المستحق للحمد دون سواه.

وقد زادت آية سورة النساء وصفاً ثالثاً يتعلق باليهود وهو أنهم كما قال تعالى: ﴿وَيَكْفُرُونَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ﴾ من أوصاف النبي ﷺ في التوراة، فهم ﴿الَّذِينَ يَبْخُلُونَ وَيَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبُخْلِ وَيَكْفُرُونَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُهِينًا﴾ [النساء: ٣٧] قال تعالى على لسان موسى عليه السلام: ﴿إِنْ تَكْفُرُوا أَنْتُمْ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا فَإِنَّ اللَّهَ لَغَنِيٌّ حَمِيدٌ﴾ [إبراهيم: ٨].

تَقَوْمُ الدُّعْوَةُ: عَلَى التَّعَالِيمِ الْإِلَهِيَّةِ وَالْقُوَّةِ الَّتِي تَدْعُمُهَا مَادِيًا وَمَعْنَوِيًا

٢٥ - ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا^(١) بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ وَأَنْزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنْفَعٌ لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ وَرُسُلَهُ بِالْغَيْبِ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ [٢٥]

ثم بين سبحانه وتعالى أنه لا عذر للذين تولوا وأعرضوا عن طاعة الله سبحانه، فقد أرسل إليهم الرسل في كل زمان ومكان، وأنزل معهم الكتب ليسيئون للناس مافيه سعادتهم ومافيه شقاؤهم.

وما جاء به محمد ﷺ هو الذي جاءت به الرسل جميعاً ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ﴾ أي والله لقد بعثنا رسلنا بالحجج الواضحات الدالة على صدق ما جاؤوا به، وعلى أنهم يبلغون للناس رسالات الله، ومن البراهين الساطعة التي أيدهم الله بها: المعجزات الدالة على صدقهم، وهذا كقوله تعالى: ﴿قُلْ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ قَبْلِ الْبَيِّنَاتِ﴾ [آل عمران: ١٨٣].

ثم بين سبحانه أنه أقام الإسلام على أمرين هما: القوة المعنوية، والقوة المادية، وتمثل القوة المعنوية في التشريع الإلهي القائم على الحق والعدل المعبر عنه بالميزان، وتمثل القوة المادية في السلاح الرادع لمن يقف في وجه الدعوة:

الأمر الأول: جاء في قوله تعالى: ﴿وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ﴾ أي أنزلنا جنس

(١) قرأ أبو عمرو بإسكان السين من ﴿رُسُلَنَا﴾ والباقيون بضمها.

الكتب السماوية بالتوحيد والأحكام والشرائع التي فيها سعادة البشر وهدايتهم، وما ينفعهم في دينهم ودنياهم.

وأُنزلنا مع الرسل: الميزان، أي الحكم بالعدل بين الخلائق، والعدل في الأقوال والأفعال، ليتعامل به الناس فيما شجر بينهم بالعدل، وهذا معنى ﴿لَيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ﴾ أي بالحق والعدل في معاملاتهم.

وقد عبر القرآن عن العدل، والقوانين الإلهية التي يُحكم بها بين الناس بالميزان، لأن الميزان شعار الحق والعدل، والدين كله عدل في أوامره ونواهيه، ومعاملاته وحدوده وتعزيراته وجنایاته.

فقد أخرج الطبري عن قتادة بسند حسن أن المراد بالميزان: العدل، قال تعالى: ﴿وَالسَّمَاءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ الْمِيزَانَ﴾ [الرحمن: ٧] أي وضع للناس الحق والعدل الذي جاءت به الرسل وشهدت به الكتب، كما قال تعالى: ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا﴾ [الأنعام: ١١٥]. وهذا يدل على أن الرسل متفقون في القواعد الكلية، ومنها القيام بالقسط، وإن اختلفت أنواع العدل بحسب الأزمنة والأحوال.

وإذا فُسر الميزان بالآلة المعروفة، أي ميزان حقيقي، فإن المعنى يرجع أيضا إلى تحقيق العدل المادي والمعنوي بين الناس، حتى لا يظلم بعضهم بعضا، قال تعالى: ﴿وَإِذَا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ أَنْ تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ﴾ [النساء: ٥٨] وقال سبحانه: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرَاكَ اللَّهُ﴾ [النساء: ١٠٥].

فإنزال الكتاب لتبليغ مراد الله تعالى إلى خلقه بواسطة الرسل.

وإنزال الميزان لتبليغ الأمر بالعدل وتحقيقه بين الناس.

وبالعدل تنتظم أمور البشر وتصلح أحوالهم، وتستقيم أمورهم، وهذا الميزان أو هذا العدل، تُبَيِّنُهُ كتب الله المنزل على رسله، ليحكموا به بين الناس.

والقسط أعم من العدل، لأن العدل يكون بين متنازعين أو متخاصمين، أما القسط فهو العدل العام في جميع الأمور، وإجراء أمور الناس جميعاً على ما يقتضيه الحق.

الأمر الثاني: الذي قام عليه الإسلام هو استعمال القوة لردع الباطل، وهي المشار إليها في الآية بإنزال الحديد وما فيه من بأس شديد، وهذا يكون بعد إخفاق نجاح الدعوة بالحجة والبيان، وهو ردع المعارضين عن طريق قتالهم، لإزالة العقبات من وجه الدعوة، بعد أن أصر الناس على الكفر وتكذيب الرسل، مع وجود الكتب الإلهية، وفيها الحكم بين الناس بما في هذه الكتب من العدل والقسط.

في الحديد منفعتان: البأس الشديد ومنافع للناس:

ومن هنا كان خلق الحديد وإيجاده وتهيئته للناس، لاستخدامه في السلم والحرب معاً، والانتفاع به في النشاط المدني والعسكري، وسيلة للردع عن طريق صنع السلاح من المدافع والدبابات والطائرات والصواريخ والقنابل وما إلى ذلك، بالإضافة إلى المنافع الكثيرة للحديد في حياة الناس، لإقامة معاشهم في المباني والمصانع وآلات الزراعة والأواني والتجارة والمعادن ونحوها، هذا معنى: ﴿وَأَنْزَلْنَا الْحَدِيدَ﴾ أي خلقناه وذلك لئلا يبنى آدم ليردع به المؤمنون الكافرين المعتدين، وينتفعوا به في حياتهم.

قال ابن عباس رضي الله عنهما: نزل آدم من الجنة ومعه السندان والكلبتان والميعة^(١) أي المطرقة.

وقال ابن عطية: قال حذاق المفسرين: أراد بالحديد السلاح، أي أن الله تعالى أنزل كتباً وعدلاً مشروعاً، وسلاحاً يحارب به من لم يهتد بهدى الله تعالى.

وهذا الإنزال كما قال تعالى: ﴿وَأَنْزَلْ لَكُمْ مِنْ الْأَنْعَامِ مَعِينَةً أَزْوَاجَ﴾ [الزمر: ٦] أي خلقها الله تعالى لنا وأوجدناها، وكذلك الحديد خلقه الله لنا لننتفع به في السلم والحرب.

ولما كانت الأحكام تُتلقى من السماء وكان الخلق والإيجاد يأتي أيضاً من قبل السماء، سُمي هذا ونحوه نزولاً.

وهذا الحديد ﴿فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ﴾ فيه قوة البطش، وإيقاع الضرر بمن حاد الله

(١) تفسير ابن عطية (٢٦٩/٥) ونسبه ابن كثير إلى ابن جرير وابن أبي حاتم عن عكرمة عن ابن عباس (٦٨/٨).

ورسوله، قال تعالى: ﴿وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ﴾ [الأنفال: ٦٠] وقال سبحانه: ﴿فَقَاتِلُوهُمْ يُعَذِّبُهُمُ اللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ﴾ [التوبة: ١٤] وقال جل شأنه: ﴿فَإِذَا لَقِيتُمْ الَّذِينَ كَفَرُوا فَضَرْبَ الرِّقَابِ﴾ [محمد: ٤].

وإلى جوار البأس الشديد فإن فيه ﴿وَمَنْفَعُ النَّاسِ﴾ في معاشهم، كالقُدوم والفأس والمنشار ونحو ذلك، وفي صناعة المعادن يقول تعالى: ﴿وَمِمَّا يُؤْتَوْنَ عَلَيْهِ فِي النَّارِ ابْتِغَاءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتَاعٍ زَبَدٌ مِثْلُ بَرَدٍ كَذَلِكَ﴾ [الرعد: ١٧].

وفي ذكر البأس والمنافع، إشارة إلى أن استخدام الحديد في البأس لا يكون إلا في موضعه، حيث لا يوجد حلّ سواه، واستخدامه في المنافع يكون حيث تكون الحاجة، ولا يُساء استخدامه في غير موضعه، فلا يُستخدم ظُلماً، ولا لترويع الآمنين، ولا لقطع الطريق، ولا للثورة على أهل العدل، وإنما يُستخدم لتجهيز الجيوش، وحماية الأوطان من أهل العدوان، وتأديب من يصدون الناس عن دين الله.

فمعنى الآية: أن الله تعالى أرسل الرسل، وزوّدهم بالكتب، وأيدهم بالمعجزات، ووضع لهم الأحكام العادلة، كي يهتدي بها الناس إلى ما يسعدهم في دينهم ودنياهم، وإلى جوار ذلك فقد زوّدهم بالقوة المادية الرادعة، لحماية الحق الذي جاؤوا به، ولرد كيد المعتدين، وتخويف من يريد الاعتداء عليه، وفشح الطريق أمام نشر الدعوة في العالم. وقد أقام النبي ﷺ ثلاثة عشر سنة بمكة، يدعو الناس إلى التوحيد بالبيان والحجة، ولمّا لم تُفد الدعوة بمكة، شرع الله له الهجرة، وأذن له في قتال المشركين ردّاً للعدوان. وفي حديث عبد الله بن عمر رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال: «بعثت بالسيف بين يدي الساعة، حتى يُعبد الله وحده لا شريك له، وجعل رزقي تحت ظل رمحي، وجعل الذلّة والصغار على من خالف أمري، ومن تشبه بقوم فهو منهم»^(١).

(١) المسند (٥٠/٢) برقم (٥٦٦٧، ٥١١٥)، بإسناد ضعيف (محققه)، وسنن أبي داود برقم (٤٠٣١)، والبيهقي

في الشعب (١١٩٩)، وابن أبي شيبة (٣١٣/٥).

فهل وعى المسلمون هذا الدرس، فأعدوا أنفسهم للقاء عدوهم؟ إن المسلمين لا ينقصهم شيئاً حتى يكونوا أقوى قوة في العالم، فالمال فيهم موجود، ولكنه يساء استخدامه، ويوجه في غير وجهته الصحيحة، والعلم فيهم موجود، ولكنه مهاجر إلى الغرب، والعقل المسلم موجود ولكن الآخر هو الذي ينتفع به! ولا يمكن لنا النصر على عدونا إلا إذا صَنَعْنَا الطائفة والصاروخ والدبابة وسائر الآلات الحربية بأنفسنا، وطالما نحن عالة على غيرنا في آلة الحرب، فكيف نتصر عليهم، وهم الذين باعوا لنا الأسلحة وعرفوا مداها، ومقدار صلاحيتها، وكيفية استعمالها، وما هو السلاح الأقوى منها!!

إن اليهود في العالم عددهم أقل من عدد سوريا، وهم مع ذلك يريدون الاستيلاء على مقدرات العالم الإسلامي، الذي يبلغ نحو ربع سكان العالم! وأتباع الملل الأخرى من كتابيين ووثنيين يجتاحوننا في مواطن كثيرة، فهل الذين نزلت عليهم سورة الحديد يشعرون بما تقول؟

وبعد أن ذكر الله سبحانه أنه قد خلق الحديد لمنفعتين هما: البأس الشديد، ومنافع للناس، وضح في نهاية الآية، الغرض الأهم من خلق الحديد، فقال: ﴿وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ وَرُسُلَهُ بِالْغَيْبِ﴾ والواو حرف عطف على محذوف مقدر، أي وأنزلنا الحديد ليقا تل به المؤمنون أعداء الإسلام، ويجاهدوا لأجل إعلاء كلمة الله، ليعلم الله من ينصر دينه ورسله، وهو يؤمن بالغيب، فهم ينصرون ربهم مع أنهم لا يبصرونه، إيماناً منهم بالدار الآخرة وما فيها من ثواب وعقاب، وفي وجود الحديد بين يدي الناس، امتحان لهم بما أنزله الله من الكتاب والحديد، ليتبين من ينصر الله تعالى وينصر رسله حال الغيب دون الشهادة.

﴿إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ﴾ قادر على الانتقام من أعدائه دون حرب ولا قتال، ومن قوته أنه قادر على الانتصار من أعدائه ولكنه يبتلى أوليائه بأعدائه ﴿عَزِيزٌ﴾ لا يُقهر ولا يُغلب، فهو غني بقوته وعزته عن كل مخلوق، وهو قادر على إهلاك من يريد إهلاكه ولا يفتقر إلى نُصرة أحد، وإنما أمرهم بالجهاد ليتنفعوا به ويثابوا عليه، وقد قرن الله بين الكتاب

والحديد، لأن بهما ينصر الله دينه ويُعلَى كلمته، ففي الكتاب الحجة والبرهان، وفي الحديد السيف الناصر بإذن الله، والعدل والقسط في كليهما.

شَيْخُ الرُّسُلِ وَأَبُوهُمْ

٢٦- ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا وَإِبْرَاهِيمَ ^(١) وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِمَا النُّبُوَّةَ ^(٢) وَالْكِتَابَ فَمِنْهُمْ مُهْتَدٍ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَاسِقُونَ ﴿٦﴾﴾

ولما تحدثت الآية السابقة عن رسل الله جميعاً، خَصَّتْ من بينهم في هذه الآية، أول رسل الله، وشيخ الأنبياء، نوحاً عليه السلام، وأبا الأنبياء إبراهيم عليه السلام، فبين سبحانه أنه جعل في ذريتهما النبوة والكتاب ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا وَإِبْرَاهِيمَ﴾ إلى قومهما كما قال تعالى عن نوح عليه السلام: ﴿ذُرِّيَّةً مِّنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ إِنَّهُ كَانَ عَبْدًا شَكُورًا ﴿٢﴾﴾ [الإسراء: ٣] وقال تعالى عن إبراهيم عليه السلام: ﴿وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِ النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ﴾ [العنكبوت: ٢٧] وقال سبحانه عن نوح وإبراهيم معاً عليهما السلام: ﴿وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِمَا النُّبُوَّةَ﴾ كهود وصالح وإسماعيل وشعيب ويعقوب عليهم السلام.

قال تعالى: ﴿وَالْكِتَابَ﴾ أي وأنزلنا عليهم كتباً، كصحف إبراهيم وموسى، ووصايا إسماعيل وإسحاق، والتوراة التي نزلت على موسى، والإنجيل الذي نزل على عيسى، والزبور الذي نزل على داود، عليهم جميعاً أفضل الصلاة وأتم التسليم، وكما جعل الله في ذريتهما النبوة والكتاب، جعل من ذريتهما من اهتدى إلى الحق، فامثل أمر الله تعالى واجتنب نهيه، وكثير من ذريتهما خارج عن الهداية، منغمس في الكفر والضلال، كما قال تعالى: ﴿وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ﴾ [يوسف: ١٠٣].

ومن ذرية نوح: عاد وثمود وقوم لوط وأهل اليمن، والأوس والخزرج، ومن ذرية إبراهيم: مدين والحجاز وتهامة ﴿وَمِنْ ذُرِّيَّتِهِمَا مُحْسِنٌ وَظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ مُبِينٌ﴾ [الصافات: ١١٣].

(١) قرأ ابن عامر بخلف عن ابن ذكوان (إبراهيم) بالألف والباقون ﴿وَأَبْرَاهِيمَ﴾ بالياء وهو الوجه الثاني لابن ذكوان.

(٢) قرأ نافع بالهمز بعد الواو في ﴿النُّبُوَّةَ﴾ والباقون بواو مشددة.

رِسَالَةُ عِيسَى وَرَهْبَانِيَّةِ النَّصَارَى

٢٧- ﴿ثُمَّ قَفَّيْنَا عَلَىٰ آثَرِهِم بِرُسُلِنَا وَقَفَّيْنَا بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ وَآتَيْنَاهُ الْإِنْجِيلَ^(١) وَجَعَلْنَا فِي قُلُوبِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ رَأْفَةً^(٢) وَرَحْمَةً وَرَهْبَانِيَّةً ابْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَاهَا عَلَيْهِمْ إِلَّا آيَاتُهُ رِضْوَانٍ لِّلَّهِ فَمَارِعُوهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا فَتَاتَيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا مِنْهُمْ أَجْرَهُمْ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فَاسِقُونَ ﴿٢٧﴾﴾

أي وبعد نوح وإبراهيم، أتبعناهما برسل كثيرين، أرسلناهم بالهدى ودين الحق، وأيدناهم بالدلائل الواضحة والحجج البينة، ومن هؤلاء الرسل، صلوات الله عليهم: موسى، وإلياس، وداود، وسليمان، وأيوب، واليسع، ويونس، وكانت رسالة يونس في أول القرن الثامن قبل الميلاد.

﴿ثُمَّ قَفَّيْنَا عَلَىٰ آثَرِهِم بِرُسُلِنَا﴾ أي أتبعنا كل رسول من ذرية نوح وإبراهيم برسول آخر، حتى انتهينا إلى آخر رسول من بني إسرائيل قبل الرسالة الخاتمة، وهو عيسى عليه السلام، وكان بينه وبين يونس بن متى وهو آخر رسول قبل عيسى، ثمانية قرون، ولذلك فإن عيسى لم يدخل في جملة ﴿وَقَفَّيْنَا﴾ التي تدل على قرب الوقت بين الرسولين، ولذا أفرد بالذكر لبعد الوقت بينه وبين آخر نبي قبله ﴿وَقَفَّيْنَا بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ وَآتَيْنَاهُ الْإِنْجِيلَ﴾ أي أوحينا إلى عيسى بالإنجيل ليكون هداية لقومه، وهو مشتمل على البشارة ببعثة محمد ﷺ.

والإنجيل هو الوحي الذي أنزله الله تعالى على عيسى عليه السلام، وكتبه الحواريون في أثناء ذكر سيرته، كتبه أناجيل متعددة، ثم دخل عليها التحريف في وقت لاحق ﴿وَجَعَلْنَا فِي قُلُوبِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ رَأْفَةً وَرَحْمَةً﴾ أي جعلنا أتباع تعاليم الإنجيل يتخلقون

(١) عد البصري وحده ﴿وَآتَيْنَاهُ الْإِنْجِيلَ﴾ آية، وتركه من العدد الجمهور.

(٢) قرأ ابن كثير بخلف عن البزي بفتح همزة ﴿رَأْفَةً﴾ والباقون بإسكانها ومعهم البزي في الوجه الثاني، وهما لغتان في المصدر، وأبدل همزتها ألفاً الأصهباني وأبوجعفر وأبو عمرو بخلف عنه وصلاً ووقفاً، ومثلهم حمزة وقفاً.

بالرأفة، وهي اللين وخفض الجناح، والرحمة، وهي العطف والشفقة، بمعنى محبة بعضهم لبعض وتوادهم فيما بينهم، كما وصف الله أمة محمد ﷺ بأنهم ﴿رَحَمَاءٌ بَيْنَهُمْ﴾ [الفتح: ٢٩].
الرهبنة:

ثم قال تعالى: ﴿وَرَهْبَانِيَّةً ابْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَاهَا عَلَيْهِمْ إِلَّا ابْتِغَاءَ رِضْوَانِ اللَّهِ﴾ خُصَّت الرهبانية بالابتداع، لأن الرأفة والرحمة من أعمال القلوب، أما الرهبانية فهي من أفعال البدن، مع شيء من أعمال القلب.

والرهبانية هي: المبالغة في العبادة، وقد ذم الله هذه المبالغة لأنهم ابتدعوها من عند أنفسهم، وألزموا أنفسهم بما لم يلزمهم به الله، يقصدون بذلك رضى الله، ولكنهم لم يقوموا بما ألزموا به أنفسهم، فذمهم الله لأمرين هما: ابتداعهم في الدين، وعدم قيامهم بما فرضوه على أنفسهم، وهذا معنى ﴿فَمَارَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا﴾.

وقد وصف الله أتباع عيسى عليه السلام بالرأفة والرحمة، فهم أليّن من اليهود ومن الوثنيين، وشريعة عيسى أقرب الشرائع إلى الإسلام من الناحية الزمنية، لولا كفرهم بمحمد ﷺ، وقولهم: عيسى ابن الله، أو هو الله، أو أنه ثالث ثلاثة، واليهود أشد وأقسى.
قال تعالى: ﴿لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَدَاوَةً لِلَّذِينَ ءَامَنُوا الْيَهُودَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُم مَّوَدَّةً لِلَّذِينَ ءَامَنُوا الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصْرُكَ﴾.

قال قتادة: هاتان (الرحمة والرأفة) من الله، والرهبانية ابتدعها قوم من أنفسهم ولم تكتب عليهم، ولكن ابتغوا بها رضوان الله فما رعوها حق رعايتها^(١).
والراهب هو: العابد من النصارى المنقطع للعبادة، وسُمي راهباً: لأنه شديد الخوف من غضب الله تعالى وشديد الخوف من مخالفة دين النصارى.
من مظاهر الرهبانية:

١ - وقد أرادوا بالرهبة: التشبه بعيسى عليه السلام في ترك الزواج والزهد في الدنيا، ولذا قال تعالى: ﴿ابْتَدَعُوهَا﴾ أي أحدثوها وليست من شريعة عيسى، أما عدم زواج عيسى

(١) أخرجه الطبري بإسناد حسن.

عليه السلام فهو لحكمة أخرى أرادها الله تعالى، وعدم الزواج ليس من شأن الأنبياء.

٢ - ومن لوازم الرهبانية: العزلة عن الناس، حتى لا يُشغَل عن العبادة، وذلك بسكنى الصوامع والأديرة.

٣ - ومن لوازم الرهبانية: ترك الزواج حتى لا تشغله زوجته عن عبادته.

٤ - ومن ذلك الامتناع عن مخالطة الأصحاب خشية اللهو عن العبادة.

٥ - ومن الرهبة ترك لذائذ المآكل والملابس خشية اكتساب المال الحرام.

٦ - ومنها الاعتزال في الجبال والكهوف والغيران والأديرة خوفاً من الفتنة.

وهذه الرهبانية لم يكتبها الله عليهم، ولكنهم هم الذين أحدثوها بعد رسولهم، فقد

أحدثها القُسس والرُّهبان، فألزموا بها أنفسهم، وابتغوا بها وجه الله تعالى.

ولما لم يحافظوا على ما ألزموا به أنفسهم، وصارت الديانة عندهم طقوساً خالية من

العبادة الحقة، ذمهم الله تعالى، لأنهم بدّلوا وغيّروا ولم يراعوا العبادة حق رعايتها.

والمعنى: أنهم ابتدعوا رهبانية بالغلو في العبادة، ما فرضناها عليهم، بل هم الذين

اختاروها والتزموا بها من تلقاء أنفسهم، وقصدوا بذلك رضا الله تعالى عنهم.

فالله تعالى لم يكتبها عليهم ابتداءً، ولكنهم حين اختاروها وأوجبوها على أنفسهم

صاروا مرتبطين أمام الله تعالى، بأن يُراعوا حقوقها ويحافظوا على مقتضياتها، وهذا شأن

النذر، فمن ألزم نفسه بشيء نذره لزمه أن يفي به كما نذر.

دخل سهل بن أمارة هو وأبوه على أنس بن مالك في المدينة، زمان عمر بن عبد

العزیز، وهو أمير المدينة، فإذا هو يصلي صلاة خفيفة، دقيقة، كأنها صلاة مسافر، أو

قريباً منها، فلما سلّم، قال أبي: يرحمك الله، أرايت هذه الصلاة المكتوبة، أو شيء

تفّلت؟ قال: إنها المكتوبة، وإنها لصلاة رسول الله، ما أخطأت، إلا شيئاً سهوت عنه،

فقال: إن رسول الله ﷺ كان يقول: «لا تشدّدوا على أنفسكم فيشدّد عليكم، فإنّ قوما

شَدُّوا على أنفسهم، فشدد الله عليهم، فتلك بقاياهم في الصوامع والديار»^(١).
والاستثناء في ﴿إِلَّا ابْتِغَاءَ رِضْوَانِ اللَّهِ﴾ استثناء منقطع، بمعنى: ما فرضناها عليهم
رأساً، ولكنهم ألزموا بها أنفسهم ابتغاء رضوان الله.
ويجوز أن يكون الاستثناء متصلاً بمعنى: ما فرضناها عليهم لشيء من الأشياء إلا
ليبتغوا بها رضوان الله تعالى، ويثابوا عليها.

والفرق بين الوجهين: أن الأول يقتضي أنهم لم يؤمروا بها أصلاً.
والثاني: يقتضي أنهم أمروا بها ابتغاء رضوان الله، فما رعوها حق رعايتها^(٢).
وقال ابن عطية: ما كتبناها عليهم إلا في عموم المندوبات، لأن ابتغاء رضوان الله
تعالى بالقرَّب والنوافل، مكتوب على كل أمة، والاستثناء على هذا متصل^(٣).
وعلى كل حال، فإن النصارى بمرور الأيام، لم يحافظ كثير منهم على ما تقتضيه
الرهبانية من زهد وطهر وثقَّى وعفاف، بل صارت الديانة عندهم طقوساً خالية من
العبادة الصحيحة، ولم يصبر على تكاليفها إلا عدد قليل منهم، وهذا معنى: ﴿فَمَارَعَوْهَا
حَقَّ رِعَايَتِهَا﴾ بل قصرُوا فيما ألزموا أنفسهم به، ثم بدَّلوا وغيَّروا دين الله، فلم يحفظوا
حق الرهبانية حفظاً كاملاً، بل ضيعوها وضموا إليها التلثيث، والاتحاد والحلول،
وكفروا بالتوحيد الذي جاء به عيسى، ودخلوا في دين ملوكهم، وأقام أناس منهم على
دين عيسى عليه السلام، ومنهم من أدرك محمداً ﷺ فأمن به.

قال ابن كثير: وهذا ذم لهم من وجهين:
أحدهما: الابتداع في دين الله تعالى ما لم يأمر به.

(١) أبوداود برقم (٤٩٠٤)، والضياء المقدس في المختارة برقم (٢١٧٨) عن عبد الله بن وهب، قال محققه:
وإسناده حسن، وهو في مسند أبي يعلى (٣٦٥/٦) برقم (٣٦٩٤)، وضعفه الألباني في ضعيف سنن أبي
داود (١٠٤٩)، والسلسلة الضعيفة (٣٤٦٨).

(٢) تفسير الألويسي (١٩١/٢٧) بتصرف.

(٣) تفسير ابن عطية (٢٧٠/٥).

وثانيهما: عدم قيامهم بما التزموه مما زعموا أنه قرينة تقربهم إلى الله تعالى^(١).
 وكان أتباع عيسى فريقين: فريق استمر على الإيمان الصحيح، فلم يبدل ولم يغير
 وهؤلاء يؤتون أجرهم مرتين، ذلكم قول الله تعالى: ﴿فَأَتَيْنَا الَّذِينَ ءَامَنُوا مِنَّمْ أَجْرُهُمْ﴾
 وهم الذين ثبتوا على التوحيد الذي جاء به عيسى، وماتوا عليه قبل رسالة محمد ﷺ
 أو أنهم أدركوا محمداً ﷺ فآمنوا به أيضاً.
 أما الفريق الآخر فقد قال الله فيه: ﴿وَكَبِيرٌ مِّنْهُمْ فَسِقُونَ﴾ وهم الذين غيروا وبدلوا
 فأشركوا بالله سبحانه، ولم يراعوا الرهبانية كما ينبغي، بل خرجوا عن الدين الحق، الذي
 جاءهم به عيسى عليه السلام.
 عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه أن رجلاً جاءه فقال: أوصني، قال: سألتُ عما سألتُ عنه
 رسول الله ﷺ من قبلك فقال: «أوصيك بتقوى الله، فإنه رأس كل شيء، وعليك بالجهاد
 فإنه رهبانية الإسلام، وعليك بذكر الله وتلاوة القرآن، فإنه روحك في السماء، وذكر لك
 في الأرض»^(٢).

أَجْرُ مَنْ أَسْلَمَ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ

٢٨- ﴿يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَاْمِنُوا بِرَسُولِهِ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِن رَّحْمَتِهِ وَيَجْعَلْ لَّكُمْ
 نُورًا تَمْشُونَ بِهِ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾^(٣)
 المؤمنون في هذه الآية، إما أن يراد بهم: مؤمنوا هذه الأمة، أو المؤمنين بعيسى
 وموسى عليهما السلام، وذلك لأن لفظ ﴿ءَامِنُوا﴾ له معنى خاص، وهو أن يكون
 المراد به: المؤمنون بمحمد ﷺ، وله معنى لغوي عام، يطلق على كل من آمن برسول
 من رسل الله تعالى زمن سألته.

(١) تفسير ابن كثير (٢٩/٨).

(٢) المسند (٨٢/٣) برقم (١١٧٧) بإسناد ضعيف، وقال الهيثمي في مجمع الزوائد (٢١٥/٤) رجاله أحمد
 ثقات، ورواه ابن حبان عن أبي ذر (٣٦١).

ولما وقعت هذه الآية ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَءَامِنُوا بِرَسُولِهِ﴾ بعد قوله تعالى ﴿فَأَتَيْنَا الَّذِينَ ءَامَنُوا مِنْهُمْ أَجْرَهُمْ﴾ والمراد بهم في آية الرهينة: الذين آمنوا بـعيسى عليه السلام، كان المراد بالذين آمنوا في هذه الآية التي بعدها: هم أهل الكتاب عموماً. فيكون المعنى: يا أيها الذين آمنوا بـعيسى وموسى وعملوا بشريعته: اتقوا الله واخشوا عقابه، وآمنوا بمحمد ﷺ ویرشح هذا المعنى قوله ﷺ فيما يرويه أبو موسى ﷺ أن النبي ﷺ قال: «ثلاثة يؤتهم الله أجرهم مرتين: رجل من أهل الكتاب آمن بنبيه وآمن بي، فله أجران، وعبد مملوك أدى حق الله وحق مَواليه، فله أجران، ورجل أَدَبَ أُمَّتَهُ فَأَحْسَنَ تَأْدِيبَهَا، ثم أَعْتَقَهَا وَتَزَوَّجَهَا فله أجران»^(١).

والمعنى الثاني: أن المراد بالذين آمنوا: مؤمني هذه الأمة؛ أي: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ بالله رباً وإلهاً ومعبوداً واحداً وآمنوا برسوله محمد ﷺ نبياً رسولاً ﴿اتَّقُوا اللَّهَ وَءَامِنُوا بِرَسُولِهِ﴾ أي اثبتوا وداوموا على الإيمان بالرسول الخاتم ﴿يُؤْتِكُمْ كَفَالَيْنِ مِنْ رَحْمَتِهِ﴾ أي يمنحكم ضعفين ونصيبين من رحمة الله بكم، وهو ثواب الجنة ونعيمها. وهذا النصيب المضاعف بالنسبة لأهل الكتاب على المعنى الأول: لأنهم آمنوا بـعيسى ومحمد عليهما السلام، ثم أدركتهم رسالة محمد ﷺ فآمنوا بها، فهم يُعْطَوْنَ أَجْرَيْنِ، لأنهم آمنوا برسولين. أما بالنسبة لأمة محمد ﷺ فإنهم يعطون أجرهم ضعف أجر الأمم قبلهم.

ویرشح المعنى الثاني:

١ - ما ورد أن عمر بن الخطاب ﷺ سأل حبراً من أحبار يهود: كم أفضل ما ضُفِّتْ لکم حسنة؟ قال: ثلاث مئة وخمسون حسنة، قال عمر: الحمد لله الذي ضاعف لنا إلى سبع مئة^(٢).

(١) ينظر: البخاري برقم (٢٥٤٤، ٢٥٥١، ٣٠١١، ٣٤٤٦، ٥٠٨٣) ومسلم (١٥٤).

(٢) تفسير الطبري (١٤١/٢٧) وتفسير ابن عطية (٢٧١/٥) وابن كثير (٣٢/٧).

٢ - وفي حديث أبي موسى وابن عمر وابن مسعود رضي الله عنهم أن النبي ﷺ قال: «مثل المسلمين واليهود والنصارى، كمثل رجل استأجر قوماً يعملون له عملاً يوماً إلى الليل، على أجر معلوم، فعملوا إلى نصف النهار فقالوا: لا حاجة لنا إلى أجرك الذي شرطت لنا، واعتذروا عن العمل معه، فاستأجر غيرهم، فعملوا حتى العصر، واعتذروا عن تكملة اليوم، ثم استأجر قوماً يعملون بقية النهار، فعملوا حتى غربت الشمس، فأخذوا أجر الفريقين معاً»^(١).

٣ - وفي رواية الإمام أحمد أن اليهود عملوا إلى نصف النهار، والنصارى عملوا إلى العصر، على أن يُعطي كلاهما قيراطاً من الأجر، وأن المسلمين عملوا من العصر إلى غروب الشمس، وأعطاهم قيراطان من الأجر، فغضبت اليهود والنصارى وقالوا: نحن أكثر عملاً وأقل عطاء، فقال: هل ظلمتكم من أجركم شيئاً؟ قالوا: لا، قال: إنما هو فضلي أوتيته من أشياء^(٢).

٤ - وقال سعيد بن جبیر: لما افتخر أهل الكتاب بأنهم يؤتون أجرهم مرتين، أنزل الله هذه الآية ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَآمِنُوا بِرَسُولِهِ﴾ محمدًا ﷺ ﴿يُؤْتِكُمْ كَفْلَيْنِ مِنْ رَحْمَتِهِ﴾ أي ضعفين من الأجر، وزادهم: ﴿وَجَعَلَ لَكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِ﴾ على الصراط، كما قال تعالى عن المؤمنين ﴿يَسْعَى نُورُهُمْ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِمْ﴾ [الحديد: ١٢ والتحريم: ٨] ﴿وَيَغْفِرَ لَكُمْ﴾ ما مضى من ذنوبكم ﴿وَاللَّهُ عَفُورٌ﴾ لعباده ﴿رَجِيمٌ﴾ بهم.

وهذه الآية كقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَتَّقُوا اللَّهَ يَجْعَلْ لَكُمْ فُرْقَانًا وَيُكَفِّرَ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَيَغْفِرَ لَكُمْ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾ [الأنفال: ٢٩].

وعلى أن الخطاب في الآية لأهل الكتاب من اليهود والنصارى فإن الله يأمرهم أن

(١) ينظر نص الحديث في البخاري برقم (٥٠٢١، ٣٤٥٩، ٢٢٧١، ٢٢٦٨، ٥٥٨) وغيرها من طرق عدة.

(٢) ينظر نص الحديث في المسند (٦/٢، ١١١/٢) عن ابن عمر عن نافع برقم (٤٥٠٨) وانظر (٥٩٠٢)، وإسناده صحيح على شرط الشيخين، وأخرجه عبد الرزاق (٢٠٥٦٥)، وهو عند البخاري (٢٢٦٨)، والطيالسي (١٨٢٠)، والبخاري في شرح السنة (٤٠١٧) وغيرهم وألفاظه متقاربة.

يعملوا بمقتضى إيمانهم بموسى وعيسى، فیتقوا الله تعالى ویتروا معاصیه، ویؤمنوا بأصول الدین وفروعه وأوامره ونواهیة، ویؤمنوا بمحمد ﷺ، وأنهم إن فعلوا ذلك أعطاهم الله نصیبین من الأجر، نصیب علی إیمانهم بنبیهم ونصیب علی إیمانهم بمحمد ﷺ ولعل هذا المعنى هو المراد فی الآیة، وذلك لأن الآیة تقول: ﴿يَتَأَيَّاهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ أي برسولهم وكتابهم، ثم تقول: ﴿اتَّقُوا اللَّهَ وَءَامِنُوا بِرَسُولِهِ﴾ أي اتقوا الله كما أمركم بذلك وآمنوا برسوله أي بمحمد ﷺ إذ أن كتابكم يأمركم بالإیمان به، فاتقوا الله ولا تخالفوه، فإن لكم أجرین علی ذلك.

لَا حَرَجَ عَلَى فَضْلِ اللَّهِ تَعَالَى

٢٩- ﴿لَئَلَّا^(١) يَعْلَمَ أَهْلُ الْكِتَابِ أَلاَّ يَقْدِرُونَ عَلَى شَيْءٍ مِّنْ فَضْلِ اللَّهِ وَأَنَّ الْفَضْلَ بِيَدِ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ ﴿٢٩﴾﴾

ولما نزل هذا الوعد لمن آمن بكتابه ثم آمن بمحمد ﷺ، بأن الله تعالى يضاعف لهم الأجر مرتین، وكانت اليهود تعظم دینها وتعظم أنفسها، ویزعمون أنهم أحباء الله وأهل رضوانه، وأنه لن یدخل الجنة إلا من كان هوداً أو نصارى، أنزل الله تعالى هذه الآیة، أي أن الله تعالى فعل ذلك، فضاعف الأجر للمؤمنین وأعطاهم نوراً یمشون به علی الصراط، وأعلمهم أنهم یؤتون أجرهم ضعفین، لیعلم أهل الكتاب أنهم لیسوا كما یزعمون، فلا تكثرثوا بجهل أهل الكتاب، واستمرارهم علی الاغترار بأن لهم منزلة عند الله، فإن الله تعالى عالم بذلك، وهو خالقهم، ویعلم أنهم لن یقلعوا عما هم فیة.

وقال الجمل: لما سمع من لم یؤمن من أهل الكتاب، قوله تعالى: ﴿أُولَئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُمْ مَّرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُوا﴾ [القصص: ٥٤] قالوا للمسلمین: أما من آمن منا بكتابكم فله أجره مرتین، لإیمانہ بكتابنا وكتابكم، ومن لم یؤمن منا بكتابكم فله أجر كأجرکم، فبأي شيء فضلتهم

(١) قرأ الأزرق بإبدال الهمزة من ﴿لَئَلَّا﴾ یاء مفتوحة وصلاً ووقفاً، وكذا حمزة عند الوقف بخلف عنه.

علينا؟ فأنزل الله هذه الآية ^(١).

وكان أهل الكتاب يقولون: الوحي والرسالة فينا، والكتاب والشرع ليس إلّا لنا، والله خصنا بهذه الفضيلة، من بين جميع العالمين، فرد الله عليهم بهذه الآية. وقوله تعالى: ﴿وَأَنَّ الْفَضْلَ بِيَدِ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ﴾ مؤكّد ومقرّر لما قبله، ممن اقتضت حكمته أن يؤتیه من فضله، أي ليعلم أهل الكتاب عدم قدرتهم على الظفر بشيء من فضل الله، وأهمّهُ النبوة والهداية، إلّا إذا آمنوا بالله ورسوله، وليعلموا أيضاً أن العطاء بيد الله يمنحه من يشاء، ويختار له من يشاء ﴿وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾ أي هو واسع العطاء والإحسان إلى خلقه.

ومن فضله تعالى أنه جعل الأجرين لمن آمن بمحمد ﷺ بعد إيمانه برسوله، ليعلم من لم يؤمن بمحمد ﷺ، أنه لا أجر له ولا نصيب له في فضل الله، فقد خص الله به من آمن بالله وحده لا شريك له، وآمن بالنبي محمد ﷺ خاتم النبيين والمرسلين، وأن من آمن برسوله وكتابه، ولم يؤمن بمحمد لا حظ له في الأجر، بل هو كافر لا يقبل منه عمل صالح.

والعرب تجعل (لا) صلة في كل كلام دخل في أوله أو آخره جحود غير مصرح به كقوله تعالى: ﴿مَا مَنَعَكَ آلَا تَسْجُدَ﴾ [الأعراف: ١٢] وقوله: ﴿وَحَكَّمْ عَلَى قَرَبِي أَهْلَكْنَهَا أَنَّهُمْ لَا يَرْجِعُونَ﴾ [١٥] [الأنبياء: ٩٥] وقوله: ﴿وَمَا يُشْعِرُكُمْ أَنَّهَا إِذَا جَاءَتْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [الأنعام: ١٠٩].

والمعنى: ليعلم، أو كي يعلم أهل الكتاب أنهم لا يقدرّون على شيء من فضل الله الذي أتاكم وخصكم به وأنهم لا يستطيعون أن يدفعوا أو يمنعوا ما تفضل الله به على أمة محمد ﷺ.

تم تفسير (سورة الحديد) والله الحمد والمنة

(١) حاشية الجمل على الجلالين بتصرف (٤/٢٩٨).

تَفْسِيرُ سُورَةِ الْمُجَادِلَةِ (٥٨)

مُقَدِّمَةُ السُّورَةِ

(سورة المجادلة) هي السورة الثامنة والخمسون في ترتيب المصحف، والثالثة بعد المئة في ترتيب النزول، نزلت بعد (سورة المنافقون)، وقبل (سورة التحريم والحجرات)، ويبدو أن (سورة المجادلة) قد نزلت قبل (سورة الأحزاب)، لأن قول الله تعالى فيها ﴿وَمَا جَعَلَ أَزْوَاجَكُمُ اللَّائِي تُظَاهِرُونَ مِنْهُنَّ أُمَّهَاتِكُمْ﴾ [الأحزاب: ٤] يقتضي أن تكون هذه الآية قد نزلت بعد إبطال حكم الظهار.

وتسمى (سورة المجادلة) بكسر الدال، إشارة إلى المرأة التي جاءت تجادل الرسول ﷺ في شأن زوجها وهو الأولى، لأن فيه إضافة الجدل إلى صاحبة الجدل، أما على فتح الدال فهو مصدر مأخوذ من فعل ﴿تَجَدَّلَكَ﴾ المعبر عنه بالمحاورة في قوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَا﴾.

ويقال لها: سورة (قد سمع) وسُمِّيت في مصحف أبي بن كعب (سورة الظهار)^(١).

فهذه ثلاثة أسماء لها: المجادلة، وقد سمع، والظهار.

وهي سورة مدنية، قال ابن عباس: نزلت سورة المجادلة بالمدينة^(٢).

وكذا جميع سور الجزء الثامن والعشرين، كلها مدنية.

وعدد آياتها اثنان وعشرون آية في العدد الكوفي والبصري والشامي، وإحدى وعشرون آية في العدد المدني والمكي.

وعدد كلماتها أربع مئة وثلاث وسبعون كلمة، وعدد حروفها ألف وسبع مئة واثنان

(١) تفسير التحرير والتنوير (١٣/٥).

(٢) البيهقي في الدلائل ١٤٣/٧ وغيره.

وتسعون حرفاً.

وشأن السور المدنية، أن تُعنى بأحكام التشريع وشؤون المجتمع المسلم. وقد اشتملت هذه السورة على أحكام الظهار والكفارة التي تجب على المظاهر، وحكم التناجي، وآداب المجالس، وتقديم الصدقة عند مناجاة الرسول ﷺ، وعدم مودة أعداء الله تعالى، كما تحدثت عن المنافقين واليهود، وعن الذين يحادون الله ورسوله.

وكل آية في هذه السورة، فيها اسم الجلالة مرة أو أكثر.

وقد كان المجتمع المدني مشتملاً على أصناف من الناس:

١- منهم المؤمنون الذين يُرييهم الوحي، ليُحمِلوا دعوة الله تعالى إلى كافة الناس، في المشارق والمغارب.

٢- ومنهم الوثنيون الذين يقلّدون مَنْ سبقهم دون إعمال فكر ولا نظر، ويتعلّقون بذيل الليل المذبر.

٣- ومنهم اليهود الذين يزعمون أنهم شعب الله المختار، وأنهم أبناء الله وأحباؤه! ويريدون فَرَضَ أهوائهم على العالم، والسيطرة على مقدّراته.

٤- ومنهم المنافقون الذي يَجْزُونَ وراء مصالحهم، ويظهرون في أَلْفِ لَوْن.

موضوعات السورة: على النحو التالي:

أ- وفي الآيات الست الأولى تحدثت السورة عن الظهار وحكمه وكفارته.

ب- وفي الآية السابعة والثامنة تحدثت عن صورة من صور مكر اليهود، حتى في إلقاء التحية على المسلمين، والتناجي فيما بينهم وهم في مجالس المسلمين.

ج- وفي أعقاب ذلك تُوجّه السورة، ثلاث نداءات إلى المؤمنين، تنهاهم في أول نداء عن التشبه باليهود في التناجي بالإثم والعدوان.

وتأمرهم في النداء الثاني أن يفسح بعضهم لبعض في المجالس الخاصة والعامة.

وفي النداء الثالث تأمرهم بتقديم صدقة، عند مناجاة الرسول ﷺ بعد أن تكاثر عليه

الناس متوافدين إلى مجلسه، وذلك حتى الآية الثالثة عشرة.

د- ومن الآية الرابعة عشرة حتى الآية الحادية والعشرون، تحدثت السورة عن المنافقين الذين يوالون اليهود، ويتحالفون معهم ضد المسلمين، وينقلون إليهم أسرارهم، فتفضحهم وتكشف زيفهم.

هـ- وتُختم السورة ببيان حقيقة الحب في الله والبغض فيه، وتبين أن صلة الإيمان أقرب من صلة الدم، وأن المتحايين في الله هم حزب الله تعالى.

وهكذا: فقد بينت السورة حكم الظهار، فأبطلت ما كان شائعاً في الجاهلية من جعل المظاهر منها في حكم الأم، وشرعت له الكفارة، وبينت سوء عاقبة الذين يحادون الله ورسوله، وهم جماعة يعيشون في كبت وقهر في الدنيا، ولهم في الآخرة عذاب مهين، وقد أحصى الله عليهم أعمالهم التي نسوها، وبينت أن الله تعالى لا يخفى عليه شيء في الأرض ولا في السماء، وأن الله تعالى يشهد كل نجوة في خلوة وجلوة.

وحذرت آيات السورة من عاقبة التعاون على الإثم والعدوان، وما يكون من التناجي في هذا المقام، ورغبت في التعاون على البر والتقوى.

وساقت آيات السورة ألواناً من الآداب التي يجب على المؤمنين أن يتحلّوا بها، ويشترطهم برضى الله تعالى متى أخلصوا له الطاعة والعبادة.

ومن ذلك أدب السماحة والتوسع في المجالس، لاسيما مجالس العلم والذكر، وأدب السؤال والحديث.

وبقية السورة تتحدث عن المنافقين الذين يتولّوا اليهود، ويتآمرون معهم على المسلمين، ويدارون تأمرهم بالحلف الكاذب، وهؤلاء يواجهون عذاب الله تعالى وغضبه، مع الذين يحادون الله ورسوله.

وقد كتب الله سبحانه أنه ورسله هم الغالبون، وأنه لا بد أن يتميز الصف المسلم من غيره، تحت راية الله تعالى والاعتزاز بدينه، وهذه هي الصورة الوضيئة لحزب الله تعالى،

في مقابلة الذين استحوذ عليهم الشيطان فأنسأهم ذكر الله.

وقد وردت روايات في أسباب نزول آيات الظهار، منها ما جاء:

١- عن عائشة رضي الله عنها قالت: تبارك الذي وسع سمعه كل شيء، إني لأسمع كلام خولة بنت ثعلبة، ويخفي عليّ بعضه، وهي تشتكي زوجها إلى رسول الله ﷺ وهي تقول: يا رسول الله، أكل شبابي، ونثرت له بطني، حتى إذا كبرث سني، وانقطع ولدي، ظاهر مني، اللهم: إني أشكو إليك، فما برحت حتى نزل جبريل بهذه الآيات ﴿قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِي إِلَى اللَّهِ﴾^(١).

٢- وفي رواية الإمام أحمد عن خويلة بنت ثعلبة قالت: والله فيّ، وفي أوس بن صامت، أنزل الله سورة المجادلة، قالت: كنت عنده، وكان شيخاً كبيراً، قد ساء خلقه وضجر، فدخل عليّ يوماً فراجعته بشيء فغضب، فقال: أنت عليّ كظهر أمي، قالت: ثم خرج، فجلس في نادي قومه ساعة، ثم دخل عليّ، فإذا هو يريدني على نفسي، فقلت: كلا والذي نفس خويلة بيده، لا تخلص إليّ وقد قلت ما قلت حتى يحكم الله ورسوله فينا بحكمه، قالت: فواثني وامتنت منه، فغلبته بما تغلب به المرأة الشيخ الضعيف، فألقيته عني، ثم خرجت إلى بعض جاراتي، فاستعرت منها ثيابها، ثم خرجت حتى جئت رسول الله ﷺ فذكرت له ما لقيت منه، فجعلت أشكو إليه ما ألقى من سوء خلقه، قالت: فجعل رسول الله ﷺ يقول: يا خويلة، ابن عمك شيخ كبير، فاتقي الله فيه، قالت: فوالله ما برحت حتى نزل في القرآن، فتغشى رسول الله ﷺ ما كان يتغشاه، ثم سري عنه، فقال لي: يا خويلة، قد أنزل الله فيك وفي صاحبك، ثم قرأ عليّ الآيات ﴿قَدْ سَمِعَ اللَّهُ﴾

(١) أخرجه ابن ماجه برقم (٢٠٦٣)، وصححه الألباني في صحيح سنن ابن ماجه (٣٥٢/١) برقم (١٥٥) ورقم: (١٦٧٨)، وأخرجه البخاري معلقاً برقم (٧٣٨٥)، ووصله ابن حجر بسنده وصححه، تغليق التعليق (٣٣٨/٥)، وصححه الحاكم ووافقه الذهبي من طريق الأعمش، المستدرک (٤٨١/٢)، والسنن الكبرى للنسائي برقم (١١٥٧٠)، وتفسير الطبري (٦٠٥/٢٨)، والبيهقي في سننه (٣٨٢/٧)، والواحدي في أسباب النزول (٣٠٤) قال ابن حجر في الفتح (٣٧٤/١٣): وهذا أصح ما ورد في قصة المجادلة وتسميتها.

إلى ﴿وَالْكَافِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ فقال لي: مُريه فليعتق رقبة، قالت: فقلت: والله يا رسول الله ما عنده ما يعتق.

قال: فليصم شهرين متتابعين، فقلت: والله يا رسول الله، إنه شيخ كبير ما به من صيام.
قال: فليُطعم ستين مسكينا وُسقاً من تمر، قالت: قلت: والله يا رسول الله، ماذا عنده.
قالت: فقال رسول الله: فإننا سنُعينه بعَرَق من تمر، قالت: فقلت: وأنا يا رسول الله سأُعِنه بعَرَق آخر، قال: قد أصبْتُ وأحسنت، فأذهبي فتصدقِي عنه، ثم استوصي بآبن عمك خيراً، قالت: ففعلت»^(١).

والعَرَق: ستون صاعاً، وخويلة هي خولة بالتصغير، ويقال لها: بنت الصامت وبنت ثعلبة وهي امرأة أوس بن الصامت.

٣- وقال ابن عباس رضي الله عنهما: كان الرجل إذا قال لامرأته في الجاهلية: أنت عليّ كظهر أمي، حُزِمَتْ عليه، فكان أول من ظاهر في الإسلام (أوس) ثم ندم، وقال لامرأته: انطلقِي إلى رسول الله ﷺ فسليه، فأتته، فنزلت هذه الآيات^(٢).

٤- وفي رواية: قال ابن عباس رضي الله عنهما: وكان الظهار في الجاهلية يُحَرِّم المرأة على الرجل تحريماً مؤبداً، فجاءت خولة رسول الله ﷺ وذكرت له ذلك، فقال لها: حُزِمَتْ عليه، فقالت للرسول ﷺ: إن لي صبية صغاراً، إن ضممتهم إليه ضاعوا، وإن ضممتهم إليّ جاعوا، فقال: ما عندي في أمرك شيء، فقالت: يا رسول الله، ما ذكر

(١) المسند (٤١٠/٦) (٢٧٣١٩) قال محققوه: إسناده ضعيف، لجهالة معمر بن عبد الله بن حنظلة، فلم يَزِرْ عنه سوى محمد بن إسحاق، وذكره ابن حبان في الثقات، ورواه أبو داود مختصراً من طريق محمد بن إسحاق برقم (٢٢١٤)، والطبراني في الكبير (٦١٦)، والبيهقي (٣٩١/٧)، وصحيح سنن أبي داود (١٩٣٤)، قال ابن كثير: هذا هو الصحيح في سبب نزول صدر هذه السورة قلت: وفي الباب عن عائشة وابن عباس بإسناد صحيح وهو يؤيد ما قاله ابن كثير وتحسين الألباني له.

(٢) رواه البيهقي في السنن (٣٨٣/٧)، ونسبه السيوطي في الدر المنثور (١٧٩/٦) لابن مردويه والنحاس عن عكرمة، وفيه أبو حمزة الثمالي وهو ضعيف.

طلاقاً، وإنما هو أبو ولدي، وأحب الناس إليّ، فقال: حُرِّمْتُ عليه، فقالت: أشكوا إلى الله فاقتي وُؤْجُدي، وكلما قال رسول الله: حُرِّمْتُ عليه، هتفتُ وشكْتُ إلى الله، فأنزل الله الآيات ^(١).

وجميع الروايات التي استقصاها الطبري كلها متفقة على أن المرأة المجادلة هي: خولة، أو بالتصغير خويلة، أو جميلة، وزوجها: هو أوس بن الصامت، أخو عبادة بن الصامت، وجاء عن عمر بن الخطاب أنها خولة بنت حكيم، وقال أبو العالية والمهدوي: هي خولة بنت ذُلَيْج، وقال ابن إسحاق: هي خولة بنت الصامت، وقيل خولة بنت خويلد ^(٢).

والمشهور قول قتادة أنها خولة بنت ثعلبة ^(٣).

وقد ذكر السيوطي في الدر المنثور عدداً من الروايات في هذا المعنى.

٥- وعاشت هذه المرأة حتى خلافة عمر بن الخطاب رضي الله عنه، فقد ورد أنه مرَّ في خلافته على امرأة، وكان راكباً على حمار، والناس معه، فاستوقفته تلك المرأة طويلاً، ووعظته، وقالت له: عهدي بك يا عمر وأنت صغير، تدعى عُمَيْراً، ثم قيل لك: يا عمر، ثم قيل لك: يا أمير المؤمنين، فاتق الله يا عمر في الرعية، واعلم أن من أيقن بالموت خاف الفوت، ومن أيقن بالحساب خاف العذاب، وعُمر واقف يسمع كلامها، فقيل له: يا أمير المؤمنين، أتقف لهذه العجوز هذا الوقوف، فقال: والله لو حبستني من أول النهار إلى آخره، لا زِلْتُ، إلا للصلاة المكتوبة، أتدرون من هذه العجوز؟! هذه (خولة بنت ثعلبة) التي سمع الله قولها من فوق سبع سموات، أسمع رب العالمين قولها ولا يسمعه عمر ^(٤)؟!

(١) رواه أبو داود في كتاب الظهار بسند صحيح (٢٢١٥)، وهو في صحيح سنن أبي داود (١٩٣٥).

(٢) ينظر: الإصابة (٦١٨/٧) وفتح الباري (٣٧٤/١٣).

(٣) ينظر: تفسير ابن عطية (٣٧٢/٥).

(٤) تفسير القرطبي (٢٦٩/١٧) ورواه الدارمي من طريق أبي يزيد عن عمر، وفيه انقطاع في السند، لأن أبي يزيد لم يدرك عمر، وأخرجه البيهقي في الأسماء والصفات برقم (٨٨٦) وابن أبي حاتم.

٦- وحدثت واقعة مماثلة لقصة خولة، حيث كان السائل فيها رجلاً، هو سلمة بن صخر الأنصاري، وكان قد جامع امرأته بعد أن ظاهر منها، وليس فيها أنها كانت سبباً للنزول، قال سلمة: إنه كان رجلاً قوي الشهوة، لا يصبر على ترك الجماع، فلما دخل شهر رمضان ظاهر من امرأته حتى ينتهي الشهر، وبينما كانت امرأته تخدمه في ليلة تكشف له منها شيء فجامعها، فلما أصبح ذهب للنبي ﷺ فأمره أن يعتق رقبة، قال: فضربتُ صفحة رقبتني بيدي، وقلت: والذي نفسي بيده ما أملك غيرها، قال: فصم شهرين، قلت: وهل أصابني ما أصابني إلا في الصيام، قال: فتصدق، فقلت: والذي بعثك بالحق، لقد بثنا ليلتنا هذه وخشاً - أي بدون طعام - ما لنا عشاء، قال: اذهب إلى صدقة بني زريق فقل له فليدفعها إليك، فأطعم عنك وسقا من تمر، ستين مسكينا، ثم استعن بسائرهما عليك وعلى عيالك، قال: فرجعتُ إلى قومي فقلت: وجدتُ عندكم الضيق وسوء الرأي، ووجدت عند رسول الله ﷺ السعة والبركة، قد أمر لي بصدقتكم، فادفعوها إليّ، فدفعوها إليه^(١).

* * *

(١) ينظر: نص الحديث في المسند (٣٧/٤) (١٦٤٢١) قال محققوه: حديث صحيح بطرقه وشواهده، وأبي داود برقم (٢٢١٣)، وصحيح سنن أبي داود (١٩٣٣)، وابن ماجه برقم (٢٠٦٢)، والترمذي برقم (٣٢٩٩) وحسنه، والطبراني (٦٣٣٣)، والبيهقي (٣٩٠/٧)، وجمع الفوائد (٦٢٠/١)، والحاكم (٣٠٢/٢)، وهو في مصنف عبد الرزاق (١١٥٢٨) بنحوه، قال الترمذي: والعمل على هذا الحديث عند أهل العلم في كفارة الظهار.

تَفْسِيرُ السُّورَةِ

الْمَرَأَةُ الْمُجَادِلَةُ

١ - ﴿قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِي إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَا إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ

بَصِيرٌ ﴿١﴾﴾

نزلت هذه الآيات في رجل من الأنصار، اشتكته زوجته إلى النبي ﷺ لما حرّمها على نفسه بعد العشرة الطويلة ووجود الأولاد بينهما، وكان رجلاً كبيراً فشكت حاله وحالها إلى النبي ﷺ وكررت الشكوى كثيراً^(١).

﴿قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ﴾ خولة أو خويلة، أو جميلة بنت مالك بن ثعلبة، من بني عوف بن مالك بن الخزرج ﴿الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي﴾ شأن ﴿زَوْجِهَا﴾ أوس بن الصامت الخزرجي، أخي عبادة بن الصامت، فتحاورك وتراجعك بخصوص ما حصل منه من الظهار الذي كان يُحرّم المرأة على زوجها في الجاهلية تحريماً أبدياً.

وقيل: تبقى المرأة المظاهر منها معلقة فلا تعود إليه ولا تتزوج غيره، فهو أشد من الطلاق.

ولم يكن للظهار كفارة، قبل نزول آيات الظهار.

ومعنى (أنت عليّ كظهر أمي) أو (أنت عليّ حرام) أي علّوي عليك حرام كعلوي على أمي، وكما يحرم على الرجل حرمة أبدية أن يعلّوا ظهر أمه، فإن امرأته تحرم عليه مثل ذلك، ومثل الأم، لو قال: الأخت، أو غيرها من المحارم، ومثل الظهر لو قال: البطن، أو الفخذ وغيرهما.

ولو ظاهر الرجل عدة مرات في وقت واحد، فهو كواحدة.

والظهار تشبيه للزوجة بالأم، في تحريم الجماع، وهو من أيمان الجاهلية، ولذلك

(١) ينظر: تفسير ابن سعدي للآية.

فقد أخذت المرأة تتضرع إلى الله تعالى أن يفرج كربتها ﴿وَتَشْتَكَى إِلَى اللَّهِ وَلَهُ يُسْمَعُ تَحَاوَرَكُمَا﴾ أي يسمع ما تم بين المرأة ورسول الله ﷺ من تخاطب ومراجعة، فأجاب الله دعاءها وحل شكواها، وجعل لها فرجاً ومخرجاً.

﴿إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ﴾ لكل قول، ولكل مناجاة، ولكل تضرع ﴿بَصِيرٌ﴾ بأعمال العباد، لا يخفى عليه شيء من أمورهم، وهو يُبصر دبيب النملة السوداء على الصخرة الصماء في الليلة الظلماء، وفي هذا إشارة إلى أن الله تعالى سيزيل شكواها ويرفع بلواها.

و﴿قَدْ﴾ حين تدخل على الفعل الماضي تفيد التحقيق ﴿قَدْ سَمِعَ﴾ فهو سماع محقق. قالت عائشة رضي الله عنها: الحمد لله الذي وسع سمعه الأصوات، لقد جاءت المجادلة إلى النبي ﷺ تكلمه، وأنا في ناحية من البيت، ما أسمع ما تقول، فأنزل الله الآية ^(١).

ذَمُّ الظَّهَارِ

٢- ﴿الَّذِينَ يَظَاهَرُونَ^(٢) مِنْكُم مِّن نِّسَائِهِمْ مَا هُنَّ أُمَّهَاتُهُمْ إِنْ أُمَّهُتُهُمْ إِلَّا اللَّائِي^(٣) وَلَدْنَهُمْ وَإِنَّهُمْ لَيَقُولُونَ مُنْكَرًا مِّنَ الْقَوْلِ وَزُورًا وَإِنَّ اللَّهَ لَعَفُوءٌ غَفُورٌ^(٤)﴾

ثم ذم الله تعالى الظهار، وبين أن الزوجة لا تكون أمّاً لمن ظاهر منها بحال، وأن الظهار يبيغضه الله تعالى، فهو كلام منكر، وقول باطل، وزور، إذ يتكلمون بكلام لا حقيقة

(١) صحيح سنن ابن ماجة (١٥٥)، والنسائي في السنن الكبرى (١١٥٧٠)، وعبد بن حميد (١٥١٢) منتخب، والبيهقي (٣٨٢/٧) وغيرهم.

(٢) قرأ نافع وابن كثير وأبو عمرو ويعقوب (يَظَاهَرُونَ) وقرأ عاصم ﴿يُظَاهَرُونَ﴾ وقرأ ابن عامر وحمزة والكسائي وأبو جعفر وخلف (يَظَاهَرُونَ) ومثلها التي في الآية التالية.

(٣) قرأ البزي وأبو عمرو (اللّاء) ولهما في الهمز وصلا: إيدالها ياء ساكنة مع إشباع المد، ولهما أيضا التسهيل مع المد والقصر حالة الوقف. وقرأ ورش وأبو جعفر مثلهما ولكن حالة الوصل، ولهما وقفا: إيدال الهمزة ياء ساكنة مع إشباع المد، ولهما التسهيل بالروم مع المد والقصر، وقرأ قالون وقنبل ويعقوب بحذف الياء أيضا ولكن مع تخفيف الهمزة وصلا ووقفا، وقرأ ابن عامر والكوفيون بهمزة مكسورة بعدها ياء ساكنة وصلا ووقفا، وكل منهم على أصله في مقدار المد المتصل، ولحمزة وقفا تسهيل الهمزة مع المد والقصر.

له، فيشبهون أزواجهم بأمهاتهم ﴿الَّذِينَ يَطْلُوهُنَّ مِنْكُمْ مِنْ نِسَائِهِمْ﴾ فيقول الرجل لزوجته: أنت عليّ كظهر أمي، أو أنت عليّ حرام في حرمة النكاح، هذا القول لا يجعلها أمًّا. واختاروا لفظ (الظهر) مبالغة في التحريم، لأنه كان من عادة اليهود: إتيان المرأة في قبلها من جهة ظهرها، كما جاء في قوله تعالى: ﴿فَأَتُوا حَرْثَكُمْ أَنِّي شَتَّمْتُ﴾ [البقرة: ٢٢٣]. وكان العرب يخالطون اليهود، ويأخذون بعض العادات منهم، ومنها هذا النوع من الجماع، وهو إتيان المرأة في قبلها من جهة ظهرها. وقد جمعوا في صيغة (أنت عليّ كظهر أمي) بين تحريم الأم وركوب الظهر، أي الإتيان من الخلف، فجاءت الصيغة فظيعة شنيعة.

ثم بين سبحانه أن الزوجة ليست أمًّا فقال: ﴿مَا هِيَ أُمَّهُتُهُمْ﴾ بل هن زوجاتهم، وهذا القول مجرد كلام باللسان، لا يجعل الزوجة أمًّا بحال من الأحوال ﴿إِنْ أُمَّهُتُهُمْ إِلَّا الَّتِي وَلَدْنَهُمْ﴾ فالأم الحقيقية هي التي ولدتك من بطنها، أما هذا الظهار فهو كلام منكر، وكذب وزور، لا يصح، ولا يستقيم شرعاً ولا عقلاً ولا عرفاً، وهذا معنى ﴿وَلَا تَكُونُوا مِنْ مَّنْ كَرَأَيْنَ الْقَوْلَ وَزُورًا﴾ فجعل الزوجة كالأم، كلام باطل غير صحيح.

ثم إن الله تعالى عفا عما حدث، وغفر لفاعليه فقال: ﴿وَإِنَّ اللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ﴾ لمن صدر منه بعض هذه المخالفات، وتداركها بالتوبة والرجوع إلى الله تعالى.

قال في التسهيل: أخبر تعالى أن الظهار منكر وزور، فالمنكر هو الذي لا تُعرف له حقيقة. والزور هو الكذب، وإنما جعله كذباً لأن المظاهر يجعل امرأته كأمه. والظهار محرم شرعاً، ويدل على تحريمه أربعة أشياء:

الأول: ما هن أمهاتهم، فإن ذلك تكذيب للمظاهر. والثاني: أنه سماه منكراً.

والثالث: أنه سماه زوراً، والرابع قوله: ﴿وَإِنَّ اللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ﴾ فإن العفو والمغفرة لا تقع إلا عن ذنب، والذنب مع ذلك لازم للمظاهر حتى يرفعه بالكفارة^(١).

(١) التسهيل لعلوم التنزيل (٢٠١/٤).

كَفَّارَةُ الظَّهَارِ

٣، ٤ - ﴿وَالَّذِينَ يُظَاهِرُونَ مِنْ نِسَائِهِمْ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا قَالُوا فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَتَمَاسَّ ذَلِكَ نُوعُظُونَ بِهِ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿٣﴾ فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَتَمَاسَّ فَمَنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فِإِطْعَامُ سِتِّينَ مِسْكِينًا ذَلِكَ لِتُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٤﴾﴾

ثم بين سبحانه كفارة الظهار، ولم يكن له قبل نزول هذه الآية كفارة ولا حلاً، فقال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يُظَاهِرُونَ مِنْ نِسَائِهِمْ﴾ أي يحرمون زوجاتهم على أنفسهم بتشبيههن بالأمهات ﴿ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا قَالُوا﴾ أي يرجعون عن قولهم، ويندمون على فعلهم، ويعزمون على العودة إلى أزواجهم بالمعايشة والمعاشرة الزوجية، فعليهم أن يكفروا عن أيمانهم، حيث يخزم إتيان الزوجة قبل أن يخرج المظاهر كفارة الظهار، وإخراج الكفارة يكون قبل الجماع ومقدماته، وهو شرط قبل مساس المرأة بجماع أو تقبيل أو ضم ونحو ذلك، وهذا أحد قولين في معنى ﴿يَعُودُونَ﴾ أي يعزمون على جماع المظاهر منها، والقول الآخر هو حقيقة الوطء، ففي المعنى الأول مجرد العزم دون فعل، وفي المعنى الآخر هو وقوع الوطء فعلاً، ولعل المعنى الأول هو المراد، وهذه الكفارة واحد من ثلاثة أمور على الترتيب الآتي:

أولاً: عتق الرقبة: ﴿فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَتَمَاسَّ﴾ أي عتق رقبة مؤمنة كما قيدت بذلك في كفارة القتل الخطأ - عبد أو أمة - قبل أن يطأ الرجل زوجته التي ظاهر منها، على الأرجح، وعليه فإن وطئها قبل أن يكفر، فإنه يكون آثماً عاصياً، يلزمه التوبة من هذا الذنب، ولا تسقط عنه الكفارة.

والتماس: هو الجماع ودوايه كالقُبيل والمباشرة.

وقد جاءت الرقبة هنا مُطلقة، وجاءت في كفارة القتل مقيدة في قوله تعالى: ﴿وَمَنْ قَتَلَ مُؤْمِنًا خَطَأً فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُؤْمِنَةٍ﴾ [النساء: ٩٢] وحمل أكثر العلماء المطلق على المقيد، عدا الحنفية، فيصح عندهم عتق الرقبة وإن لم تكن مؤمنة، وهذا الحكم شرعه الله لكم

- أيها المؤمنون - لتعتبروا وتتعضوا وتنزجروا عن مثل هذا القول المنكر، وتحاسبوا أنفسكم قبل أن يحاسبكم الله تعالى.

﴿ذَلِكَ﴾ أي هذه هي الكفارة التي حَكَمَ الله بها على مَنْ ظاهر من زوجته ﴿تُوَعِّظُونَ بِهِ﴾ أي لتعضوا به - أيها المؤمنون - مع الترهيب المقرون به، حتى تتركوا الظهار وقول الزور، وتكفروا عنه إن وقعت فيه، ولا تعودوا إليه، فحافظوا على حدود الله وعلى أوامره ونواهيه ﴿وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ لا يخفى عليه شيء، يعلم ظواهر أموركم وبواطنها، وسيحاسبكم ويجازيكم عليها فاحفظوا حدود الله، واعملوا بشرعه.

ثانيا: صيام شهرين متتابعين: ﴿فَمَنْ لَمْ يَجِدْ رَقَبَةً يُعْتَقُهَا، أَوْ لَمْ يَجِدِ الْمَالَ الَّذِي يَشْتَرِي بِهِ الرَقَبَةَ﴾ ﴿فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَتَمَاسَّ﴾ فإن أفطر يوما انقطع التتابع، ووجب عليه أن يبدأ من جديد، فتتابع الصيام شرط في الكفارة، ولا يمس امرأته قبل تمام الشهرين المتتابعين، فإن مسها ليلاً أو نهاراً في أثناء الشهرين وجب عليه أن يعيد الصيام من جديد مع الإثم، لأنه خالف أمر الله تعالى، وإن حدث شيء خارج عن إرادة الصائم كالحيض أو الصيد، فإنه لا يفسد التتابع، ويعتبر الشهر بالهلال، فإن لم يعرف الهلال صام ستين يوماً.

ثالثا: إطعام ستين مسكيناً: ﴿فَمَنْ لَمْ يَسْتَطِعْ﴾ أي مَنْ عجز عن الصوم لمرض لا يُزْجَى برؤه، أو كبر سن، كالشيخ الكبير ﴿فَإِطْعَامُ سِتِينَ مَسْكِينًا﴾ يطعمهم بما يشبعهم، وجبة واحدة، من أوسط ما يأكل، ولا يجزىء عند أكثر العلماء أن يطعم أقل من ستين مسكيناً، وأجاز الحنفية أن يطعم مسكيناً واحداً لمدة ستين يوماً، ويجوز أن يعطي كل مسكين نحو كيلو ونصف من الأرز، أو من غالب قوت البلد كالبر ونحوه، وهو ما يعادل مدبر أو نصف صاع من غيره مع شيء من الإدام، أو نصف دجاجة لكل مسكين مع الأرز ونحوه، لأن الإنسان لا يأكل الحبوب وحدها.

ولابد أن يتم إطعام المساكين الستين قبل أن يطرأ المظاهر زوجته على القول الراجح.

وجمهور الفقهاء على أن الذي يحرم على المظاهر قبل القيام بالكفارة، هو الجماع فقط، وأضافت الأحناف إلى ذلك كل مقدمات ودواعي الجماع كالقبلة والمباشرة.

﴿ذَلِكَ﴾ الذي شرعه الله لكم من أحكام الظهار ﴿لَتُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾ أي ليكتمل إيمانكم بالله ورسوله، ولا تشوبه شائبة، ولتركوا ما كنتم عليه قبل هذا التشريع فإن التزام أحكام الله والعمل بها هو مقصود الإيمان الكامل ﴿وَتِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ﴾ فلا تتجاوزوها ولا تعتدوها، فالزموها وقفوا عندها، فهي كأحكام الميراث والطلاق والعدة التي لا يجوز مخالفتها، وكل من جحد هذه الأحكام ونبذها وراء ظهره، فإن أمامه عذاب مؤلم ينتظره ﴿وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ أطلق الله تعالى الكفر على من تعدى حدوده زجراً وتغليظاً، حتى لا يتجاوزها العبد ولا ينتقص منها.

ولا يجوز الانتقال من الصيام إلى الإطعام، إلا بالعجز التام عن الصيام، فالشاب القادر على الصيام، لا يتعلل بأنه يعمل بالنهار مثلاً، ومن شأن صاحب الشهوة التي تهيج في أثناء الصيام، أن يكون شخصاً قوياً قادراً على الصيام، فليس له أن يطعم إلا في حالة العجز التام.

ويمكن لأحد الأثرياء أن يطعم ألف مسكين، ولكنه لا يصوم يوماً واحداً، ومن هنا وجب الترتيب في الكفارة، وفق ما جاء في الآيات والأحاديث السابقة في أسباب النزول، فإن لم يجد المظاهر: رقبة، ولم يستطع الصيام ولا الإطعام، فلا تسقط عنه الكفارة، ويصح أن يتصدق عنه بها.

في مصنف عبد الرزاق أن سلمة بن صخر الأنصاري جعل امرأته عليه كظهر أمه حتى يمضي رمضان، فسمنت وتربعت - أي أكلت كيف شاءت وشربت - فوقع عليها في النصف من رمضان، فأتى النبي ﷺ كأنه يعظم ذلك، فقال له النبي ﷺ: «أتستطيع أن تعتق رقبة؟» فقال: لا، قال: «أتستطيع أن تصوم شهرين متتابعين؟» قال: لا، قال: «أفتستطيع أن تطعم ستين مسكيناً؟» قال: لا، فقال النبي ﷺ: «يا فَرْوَةَ بْنَ عَمْرٍو، أعطيه

ذلك العَرَق - وهو مكتل يأخذ خمسة عشر أو ستة عشر صاعاً - فليطعمه ستين مسكيناً» فقال: أَعَلَى أَفقر مني؟ فوالذي بعثك بالحق، ما بين لابتيها أهل بيت أحوجُ إليه مني، فضحك رسول الله ﷺ ثم قال: «أذهب به إلى أهلك»^(١).

وإذا كان النبي ﷺ قد أمر بكفارة (سلمة بن صخر) من أموال بيت المال، فإن على ولاة الأمور أن يدفعوا عن العاجز كفارة ظهارة.

والظاهر أن الكفارة تسقط عنه إن كان مُعدماً، وتعذر إخراجها من بيت المال، أو لم يجد من يتصدق بها عليه، وتبقى ديناً في ذمته كسائر الديون والحقوق التي لا تسقط عن المسلم حتى يتمكن من أدائها، وتُخرَجُ من ميراثه قبل تقسيم التركة حال موته، فإن لم يترك شيئاً، فهو إلى عفو الله الواسع.

ويستفاد من الآيات السابقة:

- ١ - رحمة الله بعباده في إيجاد حلٍّ للمرأة المظاهر منها.
- ٢ - وأن الظهار مختص بالزوجة دون الأمة.
- ٣ - وأن الظهار لا يصح قبل الزواج، وأنه مما حرم الله.
- ٤ - وأن الكفارة بالصيام والعتق تكون قبل المسيس، بخلاف كفارة الإطعام فإنه يجوز المسيس والوطء في أثنائها.
- ٥ - والحكمة في وجوب الكفارة قبل الجماع هو المبادرة والإسراع في إخراجها، ولا يجوز إعطاء طعام ستين مسكيناً لمسكين واحد^(٢).

سُوءُ عَاقِبَةِ الْخَارِجِينَ عَنِ الصَّفِّ الْإِسْلَامِيِّ

٥ - ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُحَادُّونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ كُنُوتًا كَمَا كَتَبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَفَدَّ أَرْلَنَّا آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ وَلِلْكَافِرِينَ

عَذَابٌ مُهِينٌ﴾

(١) مصنف عبد الرزاق برقم (١١٥٢٨) وانظر تخريجه في آخر مقدمة السورة.

(٢) ينظر: تفسير ابن سعدي للآيات.

ولما كانت الأرض لا تخلو من العلمانيين والملحدين والمنافقين، ممن يضادون الله تعالى في حكمه، ولا يتفقدون شرعه، فقد بين سبحانه أن من يخالف أمر الله ورسوله ويتعد حدوده، فإن الله تعالى يخزيه ويذله في الدنيا والآخرة ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُحَادُّونَ﴾ يشاقون ويعادون ﴿اللَّهُ وَرَسُولُهُ﴾ ويخالفون أمر الله ورسوله، فيعصونه ويضادون أمره ونهيه. وسمي ذلك محادة، لأن كلاً من المتخالفين يكون في حدٍّ وجهة، غير الحد الآخر والجهة الأخرى.

هؤلاء المخالفون ﴿كُتِبَ عَلَيْهِمُ﴾ أي خُذِلُوا وَأَذِلُّوا وأهينوا كما حدث لمن سبقهم من الأفراد والجماعات والأمم الذين حادوا الله ورسوله في كل زمان ومكان جزاءً وفاقاً ﴿وَقَدْ أُنْزِلَتْ آيَاتُ بَيِّنَاتٍ﴾ واضحات الحجة والدلالة، تدل على أن شرع الله تعالى وحُدوده حق، فيها الحلال والحرام، والأحكام والفرائض، وقد قامت حجة الله البالغة بإرسال رسله وإنزال كتبه، وليس لهم حجة على الله بعد ذلك ﴿لَئِنْ لَا يَكُونُ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ﴾ [النساء: ١٦٥].

ولمن جحد هذه الآيات ولم يؤمن بها ويعمل بمقتضاها عذاب مؤلم يوم لقاء الله ﴿وَاللَّكَفْرِينَ عَذَابٌ مُهِينٌ﴾ أي ولجاحدي تلك الآيات عذاب في جهنم، يُذَلِّهِمْ ويخزيهم، وَيَذْهَبُ بعزهم، ويفرق مِنْ جَمْعِهِمْ، كما تكبروا على آيات الله، قال تعالى:

٦- ﴿يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا﴾ أَحْصَاهُ اللَّهُ وَنَسُوهُ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴿٦﴾

وهذا العذاب المهين يكون يوم البعث والحشر والنشر ﴿يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ جَمِيعًا﴾ أي: يوم يحيي الله الموتى، ويجمع الأولين والآخرين في صعيد واحد، حيث يُساق المجرمون إلى جهنم ورذا في يوم عظيم الأهوال ﴿فَيُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا﴾ أي: يخبرهم بما عملوه في الدنيا من خير أو شر، وهذه الأعمال قد ضبطها الله سبحانه وحفظها وأحصاها عنده في اللوح المحفوظ، كما أن الملائكة دوَّنوها عليهم في صحف أعمالهم ﴿أَحْصَاهُ اللَّهُ وَنَسُوهُ﴾ فقد سجله الله عليهم، وهم قد نسوه لثناؤهم به عند

ارتكابه، ولطول الوقت والعهد به، أو لأنهم لا يعتقدون أن في الآخرة حساباً ولا جزاء، فإذا أخبروا به يوم القيامة تعجبوا، كما قال تعالى: ﴿وَوُضِعَ الْكِتَابُ فَتَرَى الْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يُوبِلْنَا مَالِ هَذَا الْكِتَابِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا وَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا وَلَا يَظِلُّ رَبُّكَ أَحَدًا ۝١٩﴾ [الكهف: ٤٩].

والله تعالى رقيب ومطلع على كل شيء، لا تخفى عليه صغيرة ولا كبيرة ﴿وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ يطلع على الأمور المشاهدة وغير المشاهدة ويراها ويحاسب عليها.

عِلْمُ اللَّهِ تَعَالَى مُحِيطٌ بِكُلِّ مَا فِي الْكَوْنِ مَا ظَهَرَ مِنْهُ وَمَا خَفِيَ

٧- ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مَا يَكُونُ^(١) مِنْ نَجْوَى ثَلَاثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَا آدَنَ مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْثَرَ^(٢) إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا يَوْمَ الْقِيَمَةِ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ۝٧﴾

وتمضي الآيات في تربية النفس البشرية فتبين سعة علم الله تعالى وإحاطته بجميع الأمور، فهو تعالى يرى الخلق، ويسمع كلامهم، ويرى مكانهم، حيث كانوا وأينما حلُّوا ﴿أَلَمْ تَرَ﴾ ألم تعلم أيها العاقل ﴿أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾ يعلم كل ذرة في الكون، لا يغيب عنه شيء في الأرض ولا في السماء، ولا يخفى عليه سر ولا علانية.

ومن ذلك أن المنافقين في المدينة على عهد النبي ﷺ كان بعضهم يتحدث إلى بعض اليهود سرّاً على مرأى من المسلمين، ليظهروا لهم مودة بعضهم لبعض، ومحبة بعضهم بعضاً، ويظهرُوا أنهم طائفة واحدة، وكلمة واحدة، ليخبيوا آمال المسلمين حتى يتقوا بأسهم، فلا يُقدِّمون على أذاهم أو التعرض لهم.

قال ابن عطية: هذه الآيات نزلت في قوم من المنافقين وقوم من اليهود، كانوا في

(١) قرأ أبو جعفر بناءً التانيث في ﴿مَا يَكُونُ﴾ والباقون بياء التذكير.

(٢) قرأ يعقوب بالرفع في ﴿وَلَا أَكْثَرَ﴾ معطوف على محل ﴿يُنَبِّئُ﴾ لأنه خبر يكون، ومن زائدة والباقون بالفتح عطفاً على لفظ ﴿يُنَبِّئُ﴾ وهو مجرور بالفتحة، لأنه ممنوع من الصرف، للوصفية ووزن الفعل.

المدينة يتمرسون برسول الله ﷺ والمؤمنين، ويتربصون بهم الدوائر، ويتمنون فيهم المكروه، ويتناجون بذلك، فنزلت هذه الآيات إلى آخر أمر النجوى فيهم^(١).

وقال الصاوي: وقد نزلت هذه الآية في كفار مكة يوم الأحزاب، حين أرادوا التحزب على رسول الله ﷺ، والمقصود بها تسلية رسول الله ﷺ وبشارته مع المؤمنين بأن أعداءهم المتحزبين سيذّلون ويُخزّون، ويفرّق جفّعهم، فلا تخشوا بأسهم^(٢).

وقد أنزل الله هذه الآية، ليبين أنه سبحانه يعلم الخبايا ودخائل النفوس، وما يكون بينهم من أسرار وتناجٍ، ويعلم كل ما يُبصر وما يُسمع ﴿مَا يَكْثُوثُ مِنْ تَجَوَّى تِلْكَ إِلَّا هُوَ رَاقِعُهُمْ﴾ أي ما يتناجى اثنان من خلقه بحديث سرّ، إلا والله تعالى رابعهم، بعلمه وإحاطته ومشاهدته لهم فهو حاضر معهم، كما يعلمه ويشاهده شخص رابع لو كان حاضرا معهم - والله المثل الأعلى - ﴿وَلَا خَمْسَةَ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ﴾ أي ولا تقع مناجاة، ولا حديث بالسر بين خمسة من الخلق إلا والله تعالى سادسهم يسمعهم ويراهم، ويكون معهم بعلمه وإحاطته ﴿وَلَا آدَنَ مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْثَرَ﴾ ولا أقل من ثلاثة ولا أكثر من خمسة ﴿إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ﴾ معية علم وإحاطة، لا يعزب عنه شيء من حركاتهم ولا سكناتهم ﴿أَبْنَمَا كَانُوا﴾ وحيثما حلوا، فعلمه تعالى شامل لجميع الأحداث، لا يخفى عليه شيء من أمرهم.

وهذا العدد ليس مقصودا في حد ذاته، لأن الله تعالى يعلم ما يكون بين كلّ عدد من خلقه قلّ أو كثر، فاكتمى القرآن ببعض العدد دون بعض.

وفي يوم القيامة يظهر ما كان مستتراً ﴿ثُمَّ يَنْتَهُم بِمَا عَمِلُوا يَوْمَ الْقِيَمَةِ﴾ أي يخبرهم بكل ما عملوه من خير أو شر، ويجازيهم عليه بما يستحقونه من ثواب أو عقاب.

وقد ابتدأ الله سبحانه هذه الآية بالعلم واختتمها بالعلم، لينبه سبحانه على إحاطة علمه بالكليات والجزئيات، وأنه لا يغيب عنه شيء في الكائنات، فقال سبحانه:

(١) تفسير ابن عطية (٢٧٥/٥).

(٢) حاشية الصاوي على الجلالين (١٨١/٤).

﴿إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾.

ويشبه هذه الآية قوله تعالى: ﴿وإن تجهر بالقول فإنه يعلم السر وأخفى﴾ [طه: ٧].

وقوله: ﴿أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُمْ وَأَنَّ اللَّهَ عَلَّمُ الْغُيُوبِ﴾ [التوبة: ٧٨].

وقوله: ﴿أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لَا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُمْ بَلَىٰ وَرُسُلْنَا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ﴾ [الزخرف: ٨٠].

عن ابن عباس رضي الله عنهما أن هذه الآية نزلت في ربيعة، وحبيب بن عمرو بن عمير، من ثقيف، وصفوان بن أمية السلمي، حليف بني أسد، كانوا يتحدثون، فقال أحدهم: أترى أن الله يعلم ما نقول؟ فقال الآخر: يعلم بعضاً ولا يعلم بعضاً، وقال الثالث: إن كان يعلم بعضاً فهو يعلم كله ^(١).

آيَاتُ التَّنَاجِي

٨- ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ نُهُوا عَنِ النَّجْوَىٰ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا نُهُوا عَنْهُ وَيَتَنَجَّوْنَ^(٢) بِالْأُنْثَىٰ ۚ وَالْعَدُونَ مَعْصِيَتِ الرَّسُولِ وَإِذَا جَاءُوكَ حَيَّوكَ بِمَا لَمْ يُحَيِّكَ بِهِ اللَّهُ وَيَقُولُونَ فِي أَنفُسِهِمْ لَوْلَا يُعَذِّبُنَا اللَّهُ بِمَا نَقُولُ حَسْبُهُمْ جَهَنَّمُ يَصْلَوْنَهَا فَيُتْسِ الْأَمِصِيرُ^(٣)﴾

النجوى هي التناجي بين اثنين فأكثر، وقد تكون في الخير أو الشر، وقد أمر الله المؤمنين أن يتناجوا في الخير ولا يتناجوا في الشر، وقد نزلت هذه الآية في قوم من اليهود، أو من المنافقين واليهود معا، نهاهم النبي ﷺ عن التناجي بحضرة المؤمنين فلم يتتهوا؛ ومما ورد في أسباب النزول:

١- أنه كان بين النبي ﷺ وبين اليهود مودة، وكانوا إذا مرّ بهم رجل من أصحاب النبي ﷺ جلسوا يتناجون بينهم، حتى يظن المؤمن أنهم يتناجون بشيء يكرهه، فإذا رأى المؤمن ذلك ترك طريقه خوفاً منهم، فنهاهم النبي ﷺ عن النجوى، فلم يتتهوا، وعادوا

(١) من تفسير الكشاف للآية.

(٢) قرأ حمزة ورويس (ويَتَنَجُّونَ) على وزن يتهون مشتق من النجوى، وأصله يتنجون نقلت ضمة الياء إلى

الجيم وحذفت وقرأ الباقون ﴿وَيَتَنَجَّوْنَ﴾ مشتق من التناجي وهما بمعنى واحد هو السر.

إلى النجوى، فأنزل الله الآية^(١).

٢- وعن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه أن الصحابة كانوا يتناوبون المبيت عند النبي ﷺ لحراسته وقضاء حاجته، فكثرت المتناوبون ذات ليلة، فخرج عليهم النبي ﷺ فوجدهم يتناجون سراً، فقال: «ما هذه النجوى؟ ألم تنهوا عن النجوى؟» قالوا: تبتنا يا رسول الله، إنا كنا نذكر المسيح - الدجال - خوفاً منه قال: أفلا أخبركم بما هو أخوف عليكم عندي منه؟ قلنا: بلى، يا رسول الله، قال: «الشرك الخفي: أن يقوم الرجل بعمل لمكان رجل»^(٢). أي لأن رجلاً آخر ينظر إليه، فهو يراي بعمله.

وهذا الشرك أخفى من ديب النمل على الصفا في الليلة الظلماء.

٣- وقال ابن عباس ومجاهد: نزلت الآية في اليهود والمنافقين، كانوا يتناجون دون المؤمنين، وينظرون إليهم، ويتغامزون بأعينهم عليهم، يؤهمونهم عند أقاربهم أنهم أصابهم شر، فلما كثر ذلك منهم، شكوا المؤمنون إلى الرسول ﷺ فنهاهم عن التناجي دون المؤمنين فعادوا لمثل فعلهم^(٣).

ولما كانت الآية السابقة قد نهت المنافقين عن التناجي في قوله تعالى: ﴿مَا يَكُونُ مِنْ نَجْوَى ثَلَاثَةٍ إِلَّا هُوَ رَاسِعُهُمْ﴾ الآية، وأنهم قد عادوا إلى النجوى ولم ينتهوا عنها، أنزل الله تعالى في هذه الآية ما يفيد التعجب من حالهم وحال أمثالهم إلى يوم القيامة، فإن شئت

(١) عن مجاهد ومقاتل كما في زاد المسير (١٨٨/٨) وابن كثير (٤٢/٨) والدر المنثور (٣١٨/١٤).

(٢) ينظر النص في المسند (٣٠/٣) برقم (١١٢٥٢) قال محققوه: إسناده ضعيف، لضعف كثير بن زيد، وأخرجه ابن ماجة برقم (٤٢٠٤) من طريق كثير بن زيد، قال البوصيري في الزوائد (٢٩٦/٣) هذا إسناده حسن، وكثير وربيع بن عبد الرحمن، مختلف فيهما، ورواه ابن مردويه كما في الدر المنثور ٣٢١/١٤ مختصراً، وأخرجه البزار مختصراً (٢٤٤٧) زوائد، وقال الهيثمي في مجمع الزوائد (٢٢/٩)، رواه أحمد ورجاله موثقون، ورواه البزار ورجاله ثقات، وفي بعضهم خلاف، قلت: ونظراً لهذا الخلاف فإن الحديث ينزل من مرتبة الصحيح إلى مرتبة الحسن، فلعله أولى كما قال البوصيري.

(٣) تفسير الألوسي (٢٥/٢٨) والخازن (٢٣٨/٤) وأسباب النزول للواحدي ص (٣٠٦) عن ابن عباس ومجاهد بدون سند وتفسير القرطبي (٢٩١/١٧) وزاد المسير (١٨٨/٨) وتفسير ابن كثير (٤٢/٨).

أن تعجب - أيها الرسول - فاعجب من حال اليهود والمنافقين الذين نهيتهم عن التناجي فيما بينهم بما يقلق المؤمنين ويغضبهم، فلم يستجيبوا لَنُصْحِكَ واستمروا على تناجيهم بما فيه إثم وعدوان ومعصية لك، وفي هذه الآية قضيتان:

القضية الأولى: النهي عن التناجي بالشر: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ نُهُوا عَنِ التَّجَوُّيِ﴾ ألم تعلم - أيها الرسول - حال اليهود والمنافقين، الذين نُهوا عن الحديث سراً، بما يثير الشك في نفوس المؤمنين ﴿ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا نُهُوا عَنْهُ﴾ أي ثم يرجعون إلى التناجي الذي نُهوا عنه، ويتحدثون سراً بثلاثة أشياء: الإثم، والعدوان، ومخالفة الرسول ﷺ؛ وهذه الثلاثة هي:

الأول: ﴿وَيَتَّبِعُونَ بِالْإِثْمِ﴾ أي بكل ما فيه معصية وذنوب، بما يشمل التناجي بالكفر ودم المسلمين وغيرهما، والإثم: اسم جامع لكل ما يجب تركه من المحرمات والمكروهات. الثاني: ﴿وَالْعُدْوَانِ﴾ وهو كل ما فيه ظلم للآخرين واعتداء عليهم، ومن ذلك ما يدبره أعداء الإسلام من الكيد للمسلمين.

الثالث: ﴿وَمَعْصِيَةِ الرَّسُولِ﴾ أي كل ما فيه مخالفته ﷺ فيما يأمرهم به، وينهاهم عنه، ومنه النهي عن النجوى السيئة.

قال أبو حيان: بدأ بالإثم لعمومه، ثم بالعدوان لعظمته في النفوس، لما فيه من ظلم العباد، ثم ترقى إلى ما هو أعظم، وهو معصية الرسول ﷺ، وفي هذا طعن على المنافقين إذ كان تناجيهم في ذلك^(١).

هذا: وقد نهى النبي ﷺ أن يتناجى اثنان دون الثالث، فإن كانوا أكثر من ثلاثة، فلا مانع. قالوا: وكان النهي عن هذا النوع من التناجي، حتى لا يستاء الثالث. وكان التناجي الذي يغيب المؤمنين منهياً عنه في بدء الإسلام، فلما انتشر الإسلام، وآمن الناس، زال هذا الحكم لزوال السبب.

وقد ذم الإسلام التناجي بالحديث، عدا: الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والصدقة، والإصلاح بين الناس كما قال تعالى: ﴿لَا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِّنْ نَّجْوَاهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ

(١) تفسير البحر المحيط (٢٣٦/٨) بتصرف.

مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَاحٍ يَبْكُ النَّاسُ ﴿١١٤﴾ [النساء: ١١٤].

ولابد للمسلم أن يستوي ظاهره وباطنه، وأن تكون نصيحته لله، ولرسوله، ولكتابه، ولأئمة المسلمين وعامتهم.

القضية الثانية: تحية اليهود للنبي ﷺ:

وبعد أن تحدثت الآية عن أحوال اليهود والمنافقين فيما بينهم من تناجي آثم، تحدثت بعد ذلك عن نياتهم الخبيثة عند دخولهم على النبي ﷺ وقت التنزيل، أو حضورهم مجلسه، فكانوا إذا دخلوا على النبي ﷺ يخفضون أصواتهم بلفظ (السلام) لأنه شعار الإسلام، ولما فيه من معنى السلامة، ويغدلون عنه إلى قولهم (أنعم صباحاً) وهي تحية العرب في الجاهلية، وهم لا يحبون أن يتركوا عاداتهم، وكانوا يحذفون اللام من لفظ (السلام) في تحية النبي ﷺ فيقولون (السام عليكم) وهو دعاء عليه بالموت، فكشف الله خُبث طويتهم:

أحاديث في المعنى:

- ١- عن عائشة رضي الله عنها أن اليهود دخلوا على النبي ﷺ فقالوا: السام عليك، فَلَعَنَهُمْ، فقال ﷺ: (ما لك؟) قالت: أولم تسمع ما قالوا؟ قال: (فلم تسمعي ما قلت؟ وعليكُم) ^(١).
- ٢- وعن أنس بن مالك رضي الله عنه أن يهودياً أتى على النبي ﷺ وأصحابه، فقال: السام عليكم، فردّ عليه القوم، فقال نبي الله ﷺ: «هل تدرون ما قال هذا؟» قالوا: الله ورسول أعلم، سلّم يا نبي الله، قال: «لا، ولكن قال: كذا وكذا، رُدُّوه عليّ» فردُّوه، قال: (قلت: السام عليكم؟) قال: نعم، قال نبي الله عند ذلك: «إذا سلّم عليكم أحد من أهل الكتاب، فقولوا: عليك» قال: عليك ما قلت، قال: ﴿وَإِذَا جَاءُوكَ حَيَّوكَ بِمَا لَمْ يُحَيِّكَ بِهِ اللَّهُ﴾ ^(٢).

(١) البخاري برقم (٢٩٣٥، ٢٠٢٤، ٦٠٣٠، ٦٢٥٦) وغيره.

(٢) ينظر: المسند (١٢٤٢٧، ١٢٤٦٧) قال محققوه: إسناده صحيح على شرط الشيخين، وهو في البخاري (٦٩٢٦)، وسنن الترمذي برقم (٣٣٠١) واللفظ له، قال أبو عيسى: هذا حديث حسن صحيح، وتفسير الطبري (١١/٢٧)، ورواه ابن ماجه (٣٦٩٧)، والبزار (٢٠١٠)، وأبو يعلى (٢٩١٦).

٣- وقالت عائشة رضي الله عنها: جاء ناس من اليهود إلى رسول الله ﷺ فقالوا: السَّامُ عليك يا أبا القاسم، فقلت: السَّامُ عليكم، وفعل الله بكم، فقال رسول الله ﷺ: «مه يا عائشة، فإن الله لا يحب الفحش، ولا التفحش» فقلت: يا رسول الله، ترى ما يقولون؟ قال: «أَلَسْتُ تَرِينِي أُرَدِّ عَلَيْهِمْ مَا يَقُولُونَ؟ وأقول: وعليكم» قالت: فنزلت هذه الآية ^(١).

٤- وعن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما أن اليهود كانوا يقولون لرسول الله ﷺ سَامَ عليك ثم يقولون في أنفسهم: ﴿لَوْلَا يَعَذِّبُنا اللَّهُ بِمَا نَقُولُ﴾ فنزلت هذه الآية ^(٢).

٥- وعن عائشة رضي الله عنها قالت: دخل رهط من اليهود على رسول الله ﷺ فقالوا: السام عليك، قالت عائشة: ففهمتها فقلت: عليكم واللعنة، قالت: فقال رسول الله ﷺ: «مهلا يا عائشة، إن الله يحب الرفق في الأمر كله» فقلت: يا رسول الله، ألم تسمع ما قالوا؟ قال رسول الله ﷺ: «قد قلت عليكم» ^(٣).

٦- وفي رواية عنها رضي الله عنها أن يهود أتوا النبي ﷺ فقالوا: السام عليكم، فقالت عائشة: عليكم، ولعنكم الله، وغضب الله عليكم، فقال ﷺ: «مهلا يا عائشة عليك بالرفق، وإياك بالعنف والفحش» قالت: أو لم تسمع ما قالوا قال: «أولم تسمعي ما قلت؟ رددت عليهم، فيستجاب لي فيهم، ولا يستجاب لهم في» ^(٤).

وإذاً فإن أهل الكتاب إذا قالوا لنا (السام عليكم) نقول لهم (عليكم) بغير واو كما قال سفيان بن عيينة، فيكون قولهم مردود عليهم، أما إثبات الواو فإنه يقتضي

(١) عبد الرزاق (٢٧٩/٢) ومسلم (٢١٦٥) والبخاري (٦٠٢٤) والبيهقي في شعب الإيمان (٩٠٩٩، ٩٠٩٨) ورواه ابن أبي حاتم من حديث الأعمش عن مسروق عن عائشة.

(٢) المسند برقم (٦٥٨٩) قال محققوه: صحيح، وهذا إسناد حسن، لأن حماد بن سلمة سمع من عطاء قبل الاختلاط وبعده، وقال في مجمع الزوائد (١٢١/٧) رواه أحمد والبخاري (٢٢٧١)، والطبراني، وإسناده جيد، لأن حماداً سمع من عطاء في حالة الصحة، وقال ابن كثير: إسناده حسن، وأخرجه البيهقي في الشعب (٩١٠٠).

(٣) صحيح البخاري برقم (٦٠٢٤).

(٤) الحديث في البخاري برقم (٦٠٣٠) وهذا لفظه وانظر (٢٩٣٥) وفي مسلم (٢١٦٥).

الجمع والاشتراك^(١).

وإذا تحقق المسلم من وجود اللام عند قولهم (السلام عليكم) فإنه يردّ عليهم السلام لعموم قوله تعالى: ﴿وَإِذَا حُيِّتُمْ بِتَحِيَّةٍ فَحَيُّوا بِأَحْسَنَ مِنْهَا أَوْ رُدُّوها﴾ [النساء: ٨٦] ولكن لا نبذوهم بالسلام، فإنه شعار الإسلام وتحيته، ويمكن إلقاء التحية عليهم بما يناسب الصباح أو المساء، وإذا هنؤونا بأعيادنا الدينية أو أهدؤا إلينا فيهما، فلا نفعل مثل ذلك في أعيادهم الدينية، لأن في هذا إقرار واعتراف بها، بخلاف المجاملات الاجتماعية فلا بأس بها.

ونعود إلى الآية، قال تعالى: ﴿وَإِذَا جَاءُوكَ حَيَّوكَ بِمَا لَزَّ بِحَيْثُكَ بِهِ اللَّهُ﴾ في هذا تقرير لإساءة اليهود في تحية النبي ﷺ أي إذا دخل عليك اليهود - أيها الرسول - لأمر من الأمور، حيّوك بغير التحية التي شرعها الله لك، وجعلها تحية لأمتك، فقالوا (السلام عليك) أي الموت لك.

﴿وَيَقُولُونَ﴾ فيما بينهم ﴿لَوْلَا يَعَذِّبُنَا اللَّهُ بِمَا نَقُولُ﴾ هلاً يعاقبنا الله بما نقول لمحمد، إن كان رسولاً حقاً؟ فلو كان نبياً حقاً لعذبنا الله على هذا الكلام، ومعناه: أنهم يستدلّون على جواز ما يقولونه في تحيتهم للنبي ﷺ بعدم تعجيل العذاب لهم في الدنيا.

قال تعالى مبيناً أنه سبحانه يمهّل ولا يهمل: ﴿حَسْبُكُمْ جَهَنَّمُ يَصَلُّونَهَا﴾ تكفيهم جهنم يدخلونها ويقاسون حرها وسعيرها ﴿فَلَيْسَ الْمَصِيرُ﴾ بنست جهنم مرجعاً ومستقراً لهم، وقد أمهلهم الله في الدنيا كرامة للنبي ﷺ لكونه بُعث رحمة للعالمين.

والله تعالى حلیم لا يعاجل بعقوبة مَنْ سبّه أو سبّ نبيه ﷺ كما جاء في الحديث عن أبي موسى ﷺ أن النبي ﷺ قال: «ما أحد أصبر على أذى سمعه، من الله تعالى، يدعون له الولد وهو يعافيههم ويرزقهم»^(٢).

(١) ينظر تفسير الخازن (٢٤٠٠/٤).

(٢) صحيح البخاري (٧٣٧٨، ٦٠٩٩) وهذا لفظه، وصحيح مسلم (٢٨٠٤).

وهؤلاء اليهود كانوا يقولون: لو كان محمد نبياً لما أمهلنا الله بسبه والاستخفاف به، فكشف الله سرائرهم، وفضح بواطنهم، فلا تحزن - يا رسولنا -، لما يقوله ويفعله اليهود والمنافقون ومن لَفَّ ليفهمهم، وهم المعنيون بالآية.

التَّاجِي الْمَحْمُودُ وَالتَّاجِي الْمَذْمُومُ

٩ - ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا تَنَجَّيْتُمْ فَلَا تَنَجَّوْا^(١) بِالْإِنِّرِ وَالْعُدُونِ وَمَعْصِيَةِ^(٢) الرَّسُولِ وَتَنَجَّوْا بِاللَّيْلِ وَالنَّقْوَىٰ وَأَتَقُوا اللَّهَ الَّذِي إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿١﴾﴾

لما ذم الله اليهود والمنافقين على التناجي بالإثم والعدوان، حذر المؤمنين أن يكونوا مثلهم، فنهاهم عن التناجي بالإثم والعدوان، وأمرهم أن يتناجوا بالبر والتقوى، فقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ يا من آمتم بالله حق الإيمان ﴿إِذَا تَنَجَّيْتُمْ﴾ أي إذا تحدثتم فيما بينكم سرا ﴿فَلَا تَنَجَّوْا بِالْإِنِّرِ وَالْعُدُونِ وَمَعْصِيَةِ الرَّسُولِ﴾ أي لا تتحدثوا بما فيه إثم كالقبيح من القول، أو بما هو عدوان وظلم لغيركم، أو بما فيه مخالفة لأمر الرسول ﷺ ﴿وَتَنَجَّوْا بِاللَّيْلِ وَالنَّقْوَىٰ﴾ أي وليكن التناجي فيما بينكم - أيها المؤمنون - على كل ما هو خير وبرّ وطاعة وإحسان، والبر: اسم جامع لكل خير وطاعة وقيام بحق الله وحق العباد. ﴿وَأَتَقُوا اللَّهَ﴾ خافوا الله تعالى وراقبوه في سرهم وجهرهم، واجعلوا بينكم وبين عذاب الله وقاية، وذلك بامثال أوامره واجتناب نواهيه، فالتقوى: اسم جامع لترك جميع المحرمات والمكروهات.

وإلى الله سبحانه تُجمعون يوم القيامة، فهو ﴿الَّذِي إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾ وإليه وحده مرجعكم، بجميع أعمالكم وأقوالكم التي أحصاها عليكم، وسيجازيكم بها. وقيل: إن هذه الآية نزلت في المنافقين، بمعنى: يا أيها الذين آمنوا بألستهم، لا

(١) قرأ رويس (فلا تتنجوا) على وزن تنتهوا وقرأ الباقون ﴿تَنَجَّوْا﴾.

(٢) وقف ابن كثير وأبو عمرو والكسائي ويعقوب بالهاء على ﴿وَمَعْصِيَةِ﴾ بالهاء والباقون بالياء وأمالها الكسائي وقفاً، ووقف الباقون بالتاء وفقاً للرسم، ومثلها في الآية التالية.

تتلاعبوا بالألفاظ ولا تتناجوا بالإثم والعدوان، وقد تعلم المنافقون من اليهود بعض الأمور ومارسوها، كقولهم للنبي ﷺ (راعنا) فقد تعلموها من اليهود وطبقوها، كما تعلموا منهم التناجي بالإثم والعدوان، ونحو ذلك، وقد خاطبهم الله بوصف الإيمان الذي أظهره كما قال تعالى: ﴿مِنَ الَّذِينَ قَالُوا ءَامَنَّا بِأَفْوَاهِهِمْ وَلَمْ تُؤْمِن قُلُوبُهُمْ﴾ [المائدة: ٤١]. قال تعالى:

١٠ - ﴿إِنَّمَا النَّجْوَى مِنَ الشَّيْطَانِ لِيَحْزُنَ^(١) الَّذِينَ ءَامَنُوا وَلَيْسَ بِضَارِّهِمْ شَيْئًا إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ ﴿١٠﴾﴾

ثم أسندت الآية التناجي بالإثم والعدوان إلى الشيطان، لأنه الذي يوسوس للإنسان ويزين له القول السيء، وهدف الشيطان من ذلك هو التأثير على نفوس المسلمين ليدخل الحزن على قلوبهم، ولكن هؤلاء المتناجين لن يضربوا المؤمنين شيئاً إلا بإذن الله تعالى ﴿إِنَّمَا النَّجْوَى مِنَ الشَّيْطَانِ﴾ أي إنما التحدث سراً فيما بين أعداء المؤمنين بالمكر والخديعة بالمؤمنين، لا يكون إلا من الشيطان، فهو الذي يُحَسِّنُهُ وَيُزَيِّنُهُ، ومكره ضعيف غير مفيد، والحامل للشيطان على ذلك هو إغابة المؤمنين والإساءة لهم، قال تعالى: ﴿وَلَا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِ﴾ [فاطر: ٤٣] وهذا معنى: ﴿لِيَحْزُنَ الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ أي ليدخل الحزن على قلوب المؤمنين، قال تعالى: ﴿وَلَيْسَ بِضَارِّهِمْ شَيْئًا إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ أي أن هذا التناجي بالإثم والعدوان لن يؤدي المؤمنين في شيء إلا بمشيئة الله سبحانه.

فلا تحزنوا - أيها المؤمنون - واعلموا أن كيد الشيطان وكيد المنافقين لن يؤذيكُم في شيء إلا بإذن الله، ومهما تناجوا ومكروا، فإن مكرهم عائد عليهم، ولن يضروا المؤمنين في شيء إلا ما قضاه الله وقدره، ومادام الأمر كذلك فاعتمدوا على الله وحده - أيها المؤمنون - ولا تخافوا غير الله سبحانه ﴿وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾ فثقوا بالله، ولا تبالوا بنجوى المنافقين، فإن الله يعصمكم من كيدهم وشرهم، ومن التناجي المؤذي أن

(١) قرأ نافع (وليحزن) بضم الياء وكسر الزاي، مضارع أحزن والباقون بفتح الباء وضم الزاي مضارع حزن.

يتكلم اثنان بلغة لا يفهمها الثالث، إذا كانوا يتكلمون عادة بلغة ثالثهم، فإن ذلك يُحزنه.

وقد وردت السنة بالنهي عن التناجي لأن في ذلك أذى للآخرين:

عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «إذا كنتم ثلاثة فلا يتناجى اثنان دون صاحبهما، فإن ذلك يُحزنه» ^(١).

فإن استأذن المتناجيان من الثالث جاز ذلك، كما جاء عن ابن عمر رضي الله عنهما أن النبي ﷺ قال: «إذا كان ثلاثة فلا يتناجى اثنان دون واحد» ^(٢).

قال قتادة: كان المنافقون يتناجون بينهم، فكان ذلك يغيظ المؤمنين ويكبر عليهم، فأنزل الله ﴿إِنَّمَا النَّجْوَى مِنَ الشَّيْطَانِ﴾ ^(٣).

ومنطوق الآيات: أن النجوى المنهي عنها هي التي يكون فيها إثم وعدوان، أما التناجي بالبر والتقوى، والصدقة، والمعروف، والإصلاح بين الناس، فإن ذلك من أعمال الخير والبر المستحبة، وخير النجوى ما يكون بين العبد وربّه يوم لقاء رب العالمين.

كما جاء عن صفوان بن مُحَرِّز قال: كنت آخذاً بيد ابن عمر، إذ عرض له رجل، فقال: كيف سمعت رسول الله ﷺ يقول في النجوى يوم القيامة؟ قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إن الله يدني المؤمن، فيضع عليه كَفَنه ويستره من الناس، ويقرره بذنوبه، ويقول له: أتعرف ذنب كذا؟ أتعرف ذنب كذا؟ أتعرف ذنب كذا؟ حتى إذا قرره بذنوبه، ورآى في نفسه أنه قد هلك قال: فإني قد سترتها عليك في الدنيا، وأنا أغفرها لك اليوم، ثم يعطى كتاب حسناته، وأما الكفار والمنافقون فيقول الأشهاد: هؤلاء الذين كذبوا على ربهم، ألا لعنة الله على الكاذبين» ^(٤).

(١) المسند (٤٣١/١) برقم (٤٤٢٤، ٤٤٠٧، ٤٠٣٩، ٣٥٦٠) ومسلم برقم (٢١٨٤) واللفظ له والبخاري (٦٢٩٠).

(٢) مسلم برقم (٢١٨٣) والبخاري (٦٢٨٨) والمسند (٥٢٥٨).

(٣) تفسير ابن جرير (٤٧٤/٢٢).

(٤) أخرجه أحمد (٧٤/٢) برقم (٥٤٣٦) والبخاري (٤٦٨٥، ٢٤٤١)، ومسلم (٢٧٦٨).

التَّفَسُّحُ فِي الْمَجَالِسِ

١١- ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا قِيلَ لَكُمْ تَفَسَّحُوا فِي الْمَجَالِسِ﴾ ^(١) لَكُمْ تَفَسَّحُوا فِي الْمَجَالِسِ ^(٢) فَافْسَحُوا يَفْسَحَ اللَّهُ لَكُمْ وَإِذَا قِيلَ انشُرُوا ^(٣) فَانْشُرُوا يَرْفَعَ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿١١﴾

يؤدب الله عباده المؤمنين، فيعلمهم أنهم إذا اجتمعوا في مجلس فيه ضيق، فليفسح بعضهم لبعض، فإن هذا يفيد القادم على المجلس، ولا يضر الفاسح في شيء، وإذا طُلب من الجالس أن ينصرفوا عن المجلس لحاجة عرضت لأهل البيت ونحوهم، فليبادروا بالقيام، فإن من يفعل ذلك يكون من أهل العلم والإيمان، الذين يحتفظون بالحقوق لأهلها، ولا يحدث في نفوسهم شيء من أمثال هذه التصرفات، والله تعالى يرفع أهل العلم والإيمان درجات على قدر ما يتأدبون بآداب الإسلام، وتثمر أحكامه في نفوسهم.

وبهذه الآية يكون قد تم أربع آيات من آيات أحكام النجوى: فالآية السابعة من السورة تحدثت عن إحاطة علم الله تعالى بكل كلام خفي يكون بين اثنين فأكثر. والآية الثامنة تحدثت عن نجوى المنافقين واليهود وأمثالهم، وخداعهم في تحية نبي الإسلام ﷺ.

والآية التاسعة حذرت المؤمنين أن يكونوا مثل اليهود والمنافقين في التناجي بالإثم والعدوان.

وبيّنت الآية العاشرة أن مصدر النجوى السيئة هو الشيطان، وأن الضر والنفع بيد الله وحده.

(١) قرأ هشام والكسائي ورويس بإشمام كسرة القاف للضم وإشمام الياء بعدها للواو في (قيل)، والباقون بالياء الخالصة.

(٢) قرأ عاصم ﴿فِي الْمَجَالِسِ﴾ بالجمع والباقون (في المجلس) بالإفراد.

(٣) قرأ نافع وابن عامر وحفص وأبو جعفر وشعبة بخلف عنه بضم الشين في ﴿انْشُرُوا فَانْشُرُوا﴾ والباقون بكسرها فيها ومعهم شعبة في الوجه الثاني وهما لغتان، ومن ضم الشين ضم الهمزة ابتداءً ومن كسرها كسر الهمزة ابتداءً.

والحديث موصول في موضوع النجوى، فتتناول الآيات الثلاث التالية، بدءاً من هذه الآية: التأدب مع النبي ﷺ عند التناجي معه، وعند الجلوس في مجلسه ﷺ وهو حي، وعند قبره بعد موته:

والآية عامة في كل مجلس اجتمع فيه المسلمون على خير، سواء في مجلس يوم الجمعة، أو في مجلس ذكر، أو في مجالس القرآن والعلم، أو في بيوت الله ومقاعد الجهاد، أو في الولائم، وجميع المجالس العامة والخاصة. حيث أمرتهم الآية أن يتوسعوا في المجالس، ليتسع المسجد أو المجلس، للجميع، ولتقديم أهل الفضل والصلاح.

وقد وردت روايات في أسباب نزول هذه الآية، منها:

١- أنها نزلت في يوم الجمعة، وكان النبي ﷺ يومئذ في الصُفَّة، والمكان ضيقاً، وقد سبق عامة الناس إلى المجلس، فجاء أهل بدر، وكان لهم منزلة خاصة، وكان النبي ﷺ يكرمهم، سواء المهاجرون منهم أو الأنصار، فلما جاؤوا لم يجدوا مكاناً، ووقفوا حيال رسول الله ﷺ وقالوا: السلام عليك أيها النبي ورحمة الله وبركاته، فرد عليهم السلام، ثم سلموا على القوم، فردوا عليهم، وظلوا واقفين على أرجلهم، وشق ذلك على النبي ﷺ فقال لمن حوله ممن ليسوا من أهل بدر: قم يا فلان، قم يا فلان، بعدد الواقفين، فعز ذلك على من أقيموا من مجالسهم، وعرف النبي ﷺ في وجوههم الكراهية، وهنا انتهز المنافقون الفرصة، فقالوا: أَلستم تزعمون أن صاحبكم يعدل بين الناس؟ والله ما رأيناه قد عدل بين هؤلاء، فإن قوماً أحبوا القُرب من نبيهم، فأقامهم، وأجلس مكانهم مَنْ تأخر عنه، وقال ﷺ: «رحم الله رجلاً فسح لأخيه» فأخذوا يقومون سراعاً، وتفسح القوم لإخوانهم، ونزلت هذه الآية يوم الجمعة^(١).

(١) هذا المعنى رواه ابن أبي حاتم عن مقاتل بن حيان كما في القرطبي (٢٩٧/١٧) والألوسي (٢٨/٢٨)، وابن الجوزي (١٩١/٨) والرازي (١٦٤/٨)، وابن كثير (٤٥/٨)، والدر المنثور (٣٢٢/١٤).

وتقديم النبي ﷺ للبدرين، ليعلم أمته أن يتصدّر المجلس أفاضل القوم، أخذاً من حديث النبي ﷺ عن عبد الله بن مسعود ؓ: «يليني منكم أولوا الأحلام والنهى، ثم الذين يلونهم، ثم الذين يلونهم ثم الذين يلونهم وإياكم وهيشات الأسواق»^(١).

والآية تُطِيب خاطر الذين أقيموا من مجالسهم، وفيها تعليم للأمة بوجوب رعاية أهل الفضل وإنزال الناس منازلهم، كما قال تعالى: ﴿وَلَا تَتَمَنَّوْا مَا فَضَّلَ اللَّهُ بِهِ بَعْضَكُمْ عَلَى بَعْضٍ﴾ [النساء: ٣٢] وقال سبحانه: ﴿لَا يَسْتَوِي مِنْكُمْ مَنْ أَنْفَقَ مِنْ قَبْلِ الْفَتْحِ وَقَتْلِ أَوْلِيكَ أَكْثَرَ دَرَجَةً مِنَ الَّذِينَ أَنْفَقُوا مِنْ بَعْدِ وَقَتْلِهِمْ وَلَا وَعَدَ اللَّهُ الْخَسِرَ﴾ [الحديد: ١٠].

٢- وقيل: إن الآية نزلت في ثابت بن قيس بن شماس، وقد تقدمت قصته في سورة الحجرات.

٣- وكان الصحابة يتنافسون في مجلس النبي ﷺ محبة في القرب منه، فأمرهم الله تعالى أن يفسح بعضهم لبعض.

٤- وقال سعيد بن جبیر: كان الناس يتناجون في المجلس عند النبي ﷺ فنزلت الآية^(٢).

٥- وقال زيد بن أسلم وقتادة: نزلت هذه الآية بسبب تضائق الناس في مسجد النبي ﷺ وذلك أنهم كانوا يتنافسون في القرب منه ﷺ لسماع كلامه والنظر إليه، فيأتي الرجل الذي له الحق، والسن، والقدم في الإسلام، فلا يجد مكاناً، فنزلت بسبب ذلك^(٣).

قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ يا من صدقتم بالله ورسوله واهتديتم بهديه ﴿إِذَا قِيلَ لَكُمْ تَفَسَّحُوا فِي الْمَجَالِسِ﴾ أي إذا طُلب منكم أن يوسع بعضكم لبعض في المساجد والمجالس بصفة عامة ﴿فَافْسَحُوا﴾ توسعوا وانضموا لبعضكم ﴿يَفْسَحَ اللَّهُ لَكُمْ﴾ أي يوسع الله عليكم في الدنيا والآخرة، ويشملكم برحمته ويدخلكم جنته.

(١) صحيح مسلم برقم (٤٣٢).

(٢) أخرجه عبد بن حميد كما في الدر المنثور (٣٢١/١٤).

(٣) تفسير ابن عطية (٢٧٨/٥)، وعبد الرزاق (٢٧٩/٢).

وكل من وسَّع على عباد الله أبواب الخير والعلم والراحة، وسع الله عليه خيرات الدنيا، كسعة الرزق، والمسكن، وراحة الصُّدُر، ووسَّع عليه خيرات الآخرة، فيوسَّع عليه قبره ويرفع درجاته في الجنة.

ففي الحديث عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «والله في عون العبد ما كان العبد في عون أخيه»^(١).

والجزاء يكون من جنس العمل، فمن يوسع على غيره يوسع الله عليه، ومن يستر مسلماً يستره الله في الدنيا والآخرة، ومن ييسر على معسر ييسر الله عليه.

وعن نافع عن ابن عمر رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال: «لا يقيم الرجل الرجل من مقعده ثم يجلس فيه ولكن تفسحوا وتوسعوا»^(٢).

قال ابن كثير: وقد اختلف الفقهاء في جواز القيام للوارد إذا جاء، على أقوال:

١- فمنهم من رخص في ذلك محتجاً بحديث: «قوموا إلى سيدكم»^(٣).

٢- ومنهم من منع ذلك محتجاً بحديث: «من أحب أن يُمَثَّلَ له الرجال قياماً فليتبوأ مقعده من النار»^(٤).

٣- ومنهم من فضَّل فقال: يجوز عند القدوم من سفر، وللحاكم في محل ولايته، كما دلَّ عليه قصة سعد بن معاذ، فإنه لما استعمله النبي ﷺ حاكماً في بني قريظة، ورآه مقبلاً قال للمسلمين: (قوموا إلى سيدكم) ليكون هذا أنفذ لحكمه، والله أعلم.

(١) جزء من حديث أبي هريرة في صحيح مسلم برقم (٢٦٩٩).

(٢) البخاري برقم (٦٢٧٠، ٦٢٦٩، ٩١١) ومسلم برقم (٢١٧٧) واللفظ له والترمذي (٢٧٥٠، ٢٧٤٩).

(٣) من حديث أبي سعيد الخدري في البخاري برقم (٦٢٦٢، ٤١٢١، ٣٨٠٤، ٣٠٤٣) ومسلم برقم (١٧٦٨).

(٤) من حديث معاوية عند أبي داود برقم (٥٢٢٩) والترمذي برقم (٢٧٥٥) وقال: إسناده حسن، وأخرجه أحمد في المسند (١٦٨٣٠) إسناده صحيح ورجاله ثقات رجال الشيخين (محققوه)، وأخرجه البخاري في الأدب المفرد (٩٧٧)، والبغوي في شرح السنة (٣٣٣٠)، وابن أبي شيبة (٨ / ٥٨٦)، وعبد بن حميد في المنتخب (٤١٣).

فأما اتخاذه ديناً، فإنه من شعار العجم، وقد جاء في السنن أنه لم يكن شخص أحب إليهم من رسول الله ﷺ وكان إذا جاء لا يقومون له، لما يعلمون من كراهته لذلك^(١).

إنزال الناس منازلهم:

ومما يدل على أنه ينبغي إنزال أهل الفضل منازلهم ما رواه ابن العربي بسنده عن أنس رضي الله عنه أنه قال: بينا رسول الله في المسجد، وقد طاف به أصحابه، إذ أقبل علي بن أبي طالب، فوقف وسلم، ثم نظر مجلساً يشبهه، فنظر رسول الله ﷺ في وجوه أصحابه أيهم يوسع له، وكان أبوبكر جالساً عن يمين النبي ﷺ فترحزح له عن محله، وقال: ها هنا يا أبا الحسن! فجلس بين النبي ﷺ وبين أبي بكر فقال: «يا أبا بكر، إنما يعرف الفضل، لأهل الفضل، ذوو الفضل»^(٢).

وكان عمر رضي الله عنه يقدم ابن عباس وهو صغير السن عن غيره، فكلّمه الصحابة في ذلك، فدعاه ودعاهم، ثم سأله عن معنى ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ﴾ فسكتوا، فقال ابن عباس: هو أجل رسول الله، أعلمه إياه، فقال عمر: ما أعلم منها إلا ما تعلم، ثم قال: بهذا قدّمْتُ الفتى).

ولا يجوز لقادم أن يفرق بين اثنين لحديث عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال: «لا يحل لرجل أن يفرق بين اثنين إلا بإذنهما»^(٣).

وفي الأثر (ثلاث يصفين لك وُدّ أخيك: أن تبدأه بالسلام، وأن توسع له بالمجلس، وأن تدعوه بأحب الأسماء إليه).

وفي حلق القرآن والعلم، ينبغي أن تتزاحم الركب، وتُسدّ الفرج، فقد صح في الحديث عن أبي واقد الليثي قال: بينما رسول الله ﷺ جالس في المسجد، فأقبل ثلاثة

(١) ينظر: حديث أنس في الترمذي برقم (٢٧٥٤).

(٢) أحكام القرآن لابن العربي جزء ٤ والقرطبي (٣٠١/١٧).

(٣) المسند (٢٣١/٢) برقم (٦٩٩٩) بإسناد حسن (محققوه)، وأخرجه البخاري في الأدب المفرد (١١٤٢)،

وأبو داود برقم (٤٨٤٥)، والترمذي برقم (٢٧٥٢) وقال: هذا حديث حسن.

نفر، فأقبل اثنان إلى رسول الله ﷺ وذهب واحد، فأما أحدهما فرآى فرجة في الحلقة فجلس، وأما الآخر، فجلس خلفهم، فلما فرغ رسول الله ﷺ قال: «ألا أنبئكم بخبر الثلاثة، أما أحدهم، فأوى إلى الله، فأواه الله، وأما الآخر: فاستحيا، فاستحيا الله منه، وأما الآخر: فأعرض، فأعرض الله عنه»^(١).

ومن قام من مجلسه لسبب ثم عاد إليه فهو أحق به، كما في صحيح مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «من قام من مجلسه ثم رجع إليه فهو أحق به»^(٢).

الارتقاء عن المجلس لحاجة:

وكما أمر الإسلام بالتوسع في المجالس، أمرنا أنه إذا طُلب منا القيام من المجلس لسبب من الأسباب، كالنهوض للصلاة، أو للجهاد، أو لقادم، أو نحو ذلك فليستجيبوا، وهذا معنى: ﴿وَإِذَا قِيلَ انشُرُوا فَانْشُرُوا﴾ أي إذا دعيتم إلى خير فأجيبوا.

فإذا طُلب منكم - أيها المؤمنون - أن تقوموا من مجالسكم، لأمر من الأمور التي يكون فيها خيراً، فقوموا، فإن دعيتم إلى الجهاد فأجيبوا، وإن دعيتم إلى الأمر بالمعروف فأجيبوا، وإن دعيتم إلى أداء حق فأجيبوا، وإذا دعيتم إلى التوسع لغيركم في المجلس فأجيبوا، وهكذا.

فالنشور هو النهوض والارتقاء، والقيام من المكان الذي يجلس فيه المرء. ولما كان النشور ارتفاعاً عن المكان الذي يكون فيه الإنسان، فإن جزاء من يفعل ذلك يكون من جنس عمله، حيث يرفع الله درجات الذين استجابوا للأمر بالنشور إذا كانوا من المؤمنين، قال تعالى: ﴿يَرْفَعُ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا مِنْكُمْ﴾ أي يرفع مكانة المؤمنين المخلصين المستجيبين لله والرسول، وهذه الاستجابة دليل العلم بالأحكام الشرعية، ولذا: عطف عليهم أهل العلم، ببيان رفع درجاتهم عند الله تعالى، فقال:

(١) البخاري (٤٧٤، ٦٦) وهذا لفظه ومسلم (٢١٧٦).

(٢) مسلم (٢١٧٩).

﴿وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٌ﴾ أي يرفع الله الذين أوتوا العلم من المؤمنين على الذين لم يؤتوا العلم منهم درجات^(١).

فأهل العلم على درجات كثيرة من الثواب ومراتب الرضوان.
﴿وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ لا يخفى عليه شيء منها، وهو مجازيكم عليها.

في فضل العلم والعلماء:

وفي الآية تنويه بفضل العلم والعلماء ورفع درجاتهم عند الله تعالى، وفيها بيان أن المؤمن العالم فوق المؤمن غير العالم، ورفع الشأن عند الله تعالى يكون بالإيمان والعلم.
وفي الحديث عن أبي أمامة رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «فضل العالم على العابد كفضلي على أذناكم...»^(٢).

وجاء في الأثر (يشفع يوم القيامة ثلاثة: الأنبياء ثم العلماء ثم الشهداء).
وعن قيس بن كثير أن رجلاً من المدينة قدم على أبي الدرداء في دمشق، فسأله عن سبب قدومه، قال: حديث بلغني أنك تُحدّثه عن رسول الله ﷺ قال: أما جئت لتجارة ولا لشيء غيره؟ قال: ما جئت إلا في طلب هذا الحديث، قال: فإني سمعت رسول الله ﷺ يقول: «من سلك طريقاً يتبغي فيه علماً سلك الله له به طريقاً إلى الجنة، وإن الملائكة تضع أجنحتها رضا لطالب العلم، وإن العالم ليستغفر له من في السموات ومن في الأرض، حتى الحيتان في الماء، وفضل العالم على العابد كفضل القمر على سائر الكواكب، وإن العلماء ورثة الأنبياء، وإن الأنبياء لم يورثوا ديناراً ولا درهماً، وإنما ورثوا العلم، فمن أخذه فقد أخذ بحظ وافر»^(٣).

(١) هذا تفسير ابن عباس كما في المستدرک (٤٨١/٢) والبيهقي في المدخل (٣٤١).

(٢) سنن الترمذي ٢٩٨٥ وصححه الألباني في صحيح سنن الترمذي برقم (٢١٦١) وهو في السلسلة الصحيحة (٧٨)، وفي المشكاة (٢١٩) التحقيق الثاني.

(٣) ينظر بعضه في: كتاب العلم باب (١٠) في صحيح البخاري قبل الحديث رقم (٦٨) وهو في المسند برقم (٢١٧١٥) حسن لغیره، وهذا لفظه، وأخرجه الترمذي (٢٦٨٢)، وأبوداود وابن ماجه (٢٣٩)، والحديث بعضه في المسند أيضاً عن أبي هريرة برقم (٨٣١٦) بإسناد صحيح على شرط البخاري وهذا إسناد حسن.

وروى البغوي بسنده عن عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ مرّ بمجلسين في مسجده، أحدهما المجلسين يدعون إلى الله تعالى ويَرْغَبُونَ إليه، والآخر يتعلمون الفقه ويعلمونه، فقال: «كَلَّا المجلسين على خير، وأحدهما أفضل من صاحبه، أما هؤلاء فيدعون الله ويرغبون إليه، وأما هؤلاء فيتعلمون الفقه ويعلمون الجاهل، فهؤلاء أفضل، وإنما بعثت معلماً» وجلس معهم.

وأخرج مسلم بسنده أن نافعاً بن عبد الحارث لقي عمر بن الخطاب، وكان عمر يستعمله على مكة، فقال: من استعملت على أهل البوادي؟ فقال: ابن أبيزى، قال: ومن ابن أبيزى؟ قال: مولى من موالينا، قال: فاستخلفت عليهم مولى؟ قال: إنه قارئ لكتاب الله، وإنه عالم بالفرائض، قال عمر: أما إن نبيكم ﷺ قد قال: «إن الله يرفع بهذا الكتاب أقواماً ويضع به آخرين»^(١).

وفي الصحيحين عن معاوية رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «من يرد به الله خيراً يفقهه في الدين»^(٢).

تَقْدِيمُ الصَّدَقَةِ عِنْدَ مُنَاجَاةِ النَّبِيِّ ﷺ بَيْنَ الرُّخْصَةِ وَالْعَزِيمَةِ

١٢، ١٣ - ﴿يَتَأْتِيَ الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نَجَّيْتُمُ الرُّسُولَ فَقَدِمُوا بَيْنَ يَدَيْ نَجْوَتِكُمْ صَدَقَةٌ ذَلِكَ خَيْرٌ لَكُمْ وَأَطْهَرُ فَإِنْ لَمْ تَجِدُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ۝١٢﴾ ﴿أَشْفَقْتُمْ ۝١٣﴾ ﴿أَنْ تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيْ نَجْوَتِكُمْ صَدَقَةٌ فَإِذَا لَمْ تَفْعَلُوا وَتَابَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ۝١٣﴾

(١) مسلم برقم (٨١٧).

(٢) البخاري (٣١١٦، ٧١)، ومسلم (١٠٣٧).

(٣) قرأ قالون وأبو عمرو وأبو جعفر بتسهيل الهمزة الثانية مع الإدخال في ﴿أَشْفَقْتُمْ﴾ وقرأ الأصبهاني وابن كثير ورويس بالتسهيل مع عدم الإدخال، وللأزرق تسهيل الثانية مع عدم الإدخال وإبدالها حرف مد مشبع لالتقاء الساكنين، ولهشام ثلاثة أوجه: تسهيل الثانية مع الإدخال، وتحقيقها مع الإدخال وعدمه، والباقون بالتحقيق مع عدم الإدخال.

في حياتنا العامة توجد مراسم لمقابلة كبار الشخصيات كمقابلة مدير المكتب، وتفتيش الداخل وكتابة معروض يلخص فيه القادم حاجته، تخفيفاً للزحام، ورداً لمن ليس حاجة، وعدم إشغال المسؤول أكثر من اللازم، ولما ازدحم الناس على رسول الله ﷺ شرع الإسلام لمن يريد مقابلة النبي ﷺ والتحدث معه أن يقدم صدقة ليست لمصلحة النبي ﷺ وإنما هي لنفع الفقراء والمحتاجين، إن كان قادراً، فمن لم يجد فلا حرج عليه، فإذا شق تقديم هذه الصدقة على بعض الناس، فعليهم أن يكثرُوا من الأعمال الصالحة، ويقوموا بما أوجبه الله عليهم من إقام الصلاة وإيتاء الزكاة وطاعة الله والرسول، فإن في هذا عوضاً عن الصدقة، وقد جاء هذا العوض بعد عشرة أيام فحسب من مشروعية الصدقة بين يدي مناجاة النبي ﷺ.

هذا: ولاستيفاء أنواع النجوى؛ المحمود منها والمذموم، تتحدث هذه الآية عن تقديم الصدقة بين يدي مناجاة النبي ﷺ فأمر الله عباده المؤمنين إذا أرادوا مناجاة النبي ﷺ لأمر من الأمور أن يتصدقوا قبل هذه المناجاة:

- ١- تعظيماً لشأن الرسول ﷺ.
- ٢- وتخفيفاً للزحام عليه.
- ٣- ونفعاً يومياً للفقراء، وكانوا كثرة، من أهل الصُّفَّة ومعظم المهاجرين.
- ٤- وتمييزاً بين المؤمن المخلص والمنافق المراوغ.
- ٥- وعدم الإشغال للنبي ﷺ بما لا يكون من أمور الرسالة.
- ٦- وتمييزاً بين محب الدنيا ومحب الآخرة، فإن ذلك أذكى للنفوس وأطهر للقلوب، وأكرم عند الله تعالى.
- ٧- فإن لم يتيسر للمؤمن الصدقة، فلا بأس عليه ولا حرج من أسباب النزول:

١- ورد عن ابن عباس وقتادة: أن قوماً من المسلمين كثرت مناجاتهم للنبي ﷺ في غير

- حاجة، إلا لتظهر منزلتهم، وكان ﷺ سمحاً لا يردّ أحداً، فنزلت الآية مشددة أمر المناجاة^(١).
- ٢- وعن مقاتل أن الأغنياء كانوا يأتون النبي ﷺ فيكثرون مناجاته، ويغلبون الفقراء على المجالس، حتى كره ﷺ طول جلوسهم ومناجاتهم، فنزلت الآية^(٢).
- ٣- وورد أن علياً عليه السلام قال: إن في كتاب الله لآية، ما عمل بها أحد قبلي، ولا يعمل بها أحد بعدي، كان لي دينار، فاشتريته به عشرة دراهم، فكلما ناجيت الرسول ﷺ قدّمت بين يدي نجواي درهماً، ثم نُسخت فلم يعمل بها أحد فنزلت ﴿أَشْفَقْتُمْ﴾^(٣) لكن استقر حكمها بالعزم عليه، كأمر إبراهيم بذبح ولده.
- ٤- قال مجاهد: نهوا عن مناجاة النبي ﷺ حتى يقدموا صدقة، فلم ينجيه إلا علي بن أبي طالب، فإنه قدّم ديناراً فتصدق به، ثم ناجى النبي ﷺ فسأله عن عشر خصال، ثم نزلت الرخصة^(٤).
- ٥- وصح عن علي عليه السلام أنه قال: ما عمل بها أحد غيري، وأنا كنت سبب الرخصة والتخفيف عن المسلمين، وذلك أني أردت مناجاة النبي ﷺ في أمر ضروري، فصرفته ديناراً بعشرة دراهم، ثم ناجيته عشر مرات، أقدم في كل مرة درهماً، قال علي: ثم أدراك رسول الله ﷺ أن هذه العبادة قد شقت على الناس، فقال لي: يا علي، كم ترى أن يكون حدّ هذه الصدقة؟ أتراه ديناراً؟ قلت: لا، قال: نصف دينار؟ قلت: لا، قال: فكم؟ قلت: حبة من شعير، قال: إنك لزهيد، فأنزل الله الرخصة، قال مقاتل: بقي هذا الحكم عشرة أيام. وقال قتادة: بقي ساعة من نهار^(٥).

(١) البحر المحيط (٢٣٧/٨) والألوسي (٣٠/٢٨) والقرطبي (٣٠١/١٧) وتفسير ابن عطية (٢٧٩/٥).

(٢) الألوسي (٣٠/٢٨)، وزاد المسير (١٩٥/٨)، والخازن (٢٤٢/٤)، وابن عطية (٢٧٩/٥)، والدر المنثور (٣٢٦/١٤).

(٣) أحكام القرآن للجصاص (٤٢٨/٣)، والألوسي (٣١/٢٨)، والقرطبي (٣٠٢/٧)، وابن كثير (٥٠/٧)، وابن أبي شيبة (٨١/١٢)، والحاكم (٤٨١/٢).

(٤) أخرجه عبد بن حميد، وابن المنذر، وابن أبي حاتم كما في الدر المنثور (٣٢٥/١٤).

(٥) تفسير ابن عطية (٢٨٠/٥).

٦- وقال ابن عباس رضي الله عنهما: نزلت هذه الآية بسبب أن المسلمين كانوا يُكثِرُونَ المسائل على رسول الله حتى شقوا عليه، فأراد الله تعالى أن يخفف عن نبيه، فلما نزلت هذه الآية، كف كثير من الناس، ثم وسع الله عليهم بالآية التي بعدها^(١).

ذلكم قول الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نَجَّيْتُمُ الرَّسُولَ﴾ أي إذا أردتم أن تكلموه سراً بينكم وبينه ﴿فَقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيْ جُؤْنَكُمْ صَدَقَةً﴾ تقدّموا قبل المناجاة بصدقة مطلقة، قليلة أو كثيرة، إلى الفقراء وأصحاب الحاجات ﴿ذَلِكَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَأَظْهَرُ﴾ أي فيه ثواب لكم، وفيه منفعة للفقراء، وفيه تعظيم لمقام النبي ﷺ وفيه تطهير لقلوبكم من المآثم ﴿فَإِنْ لَّمْ تَجِدُوا﴾ ما تتصدقون به فلا حرج عليكم ﴿فَإِنَّ اللَّهَ عَفُورٌ﴾ لعباده ﴿رَحِيمٌ﴾ بهم.

قال أهل العلم: إن هذه الآية منسوخة بالآية التي بعدها، قال ابن عباس رضي الله عنهما: إن صدقة المناجاة شُرعت قبل مشروعية الزكاة، ونُسخت بوجوبها، أي أنها نُسخت اكتفاءً بالزكاة، وأبطل فرض الزكاة كُلَّ حَقٍّ كان واجباً في المال.

قلت: والأولى حمل هذه الآية على الرخصة، والآية التي بعدها على العزيمة، كما قال أبو مسلم الأصفهاني، هذا من جهة.

ومن جهة أخرى فإن هذه الصدقة فرضها الله تعالى على من يجد ما يتصدق به، وأسقطها عمن لا يجد، فهي تجب على القادر وتسقط عن غيره، حيث قال تعالى: ﴿فَإِنْ لَّمْ تَجِدُوا فَإِنَّ اللَّهَ عَفُورٌ رَحِيمٌ﴾.

ووقتها هو وقت التوجه إلى مناجاة النبي ﷺ أي قبله بقليل.

وقد شق على بعض المسلمين القادرين تقديم الصدقة قبل مناجاة الرسول ﷺ فأسقط الله وجوبها، وأنزل بعد عشرة أيام من نزول الآية السابقة قوله تعالى:

﴿مَا أَشْفَقْتُمْ أَنْ تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيْ جُؤْنَكُمْ صَدَقَتٍ﴾.

أي: أخشيتم - أيها المؤمنون - من الفقر، إذا قدّمتم صدقة قبل مناجاتكم رسول الله

(١) تفسير القرطبي (١٧/٣٠١).

﴿فَإِذَا لَمْ تَفْعَلُوا﴾ ما أمرتم به من الصدقة وشق عليكم ذلك ولم يهن عليكم تقديم الصدقة، فأكثروا من الفرائض والنوافل بدلاً منها، وقد قيدت الآية عدم تقديم الصدقة بالتوبة فقال تعالى: ﴿وَتَابَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ﴾ أي رخص لكم في ألا تفعلوا، وعفا عنكم، فأكثروا من الصلاة والزكاة عوضاً عنها، واثبتوا، وداوموا عليها، وهذا معنى: ﴿فَأَقِمْوْا الصَّلَاةَ﴾ بأركانها وشروطها وواجباتها ومستحباتها ﴿وَأَتُوا الزَّكَاةَ﴾ المفروضة، وهاتان العبادتان أما العبادات البدنية والمالية، فمن قام بهما فقد قام بحقوق الله وحقوق العباد، وبعد تخصيص هاتين العبادتين عمم سبحانه جميع الأوامر فقال: ﴿وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾ في كل ما أمرتم به، وكل ما نهيتم عنه، وفي جميع أحوالكم ﴿وَاللَّهُ خَيْرٌ مِمَّا يَكْمُلُونَ﴾ أي محيط بأعمالكم ونياتكم وسيجازيكم على أقوالكم وأفعالكم، فيجزى الذين أساءوا بما عملوا ويجزي الذين أحسنوا بالحسنى.

حَزْبُ الشَّيْطَانِ مِنَ الْمُنَافِقِينَ وَالْيَهُودِ

١٤ - ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ تَوَلَّوْا قَوْمًا غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مَّا هُمْ مِنْكُمْ وَلَا مِنْهُمْ وَيَحْلِفُونَ عَلَى الْكَذِبِ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾

ثم ذكر سبحانه حالة أخرى من أحوال أهل النفاق، الذين اتخذوا اليهود وغيرهم حلفاء لهم، ينقلون إليهم أسرار المؤمنين، فيبين سبحانه أنهم ليسوا من المؤمنين ولا من الكافرين، لأن باطنهم مع الكفار وظاهرهم مع المؤمنين، فكان جزاؤهم أن أعد الله لهم عذاباً شديداً لا يعلم وصفه ولا يقادر قدره وهذا تعجب من حالهم.

قال قتادة: هم المنافقون تولوا اليهود وناصحوهم.

والذين غضب الله عليهم هم اليهود، والذين تولوهم، هم المنافقون، وأمثالهم كثير في العالم الإسلامي، ممن يتظاهرون بالإسلام ويحلفون كذباً أنهم مؤمنين، ويحبون غير المسلمين ويتعاونون معهم ضد المسلمين.

والمعنى: ألم تر - أيها المخاطب - إلى المنافقين الذين اتخذوا غير المسلمين حلفاء وأصدقاء لهم ضد المسلمين وأولوهم؟ ألا تعجب من حال هؤلاء الذين يزعمون

الإيمان، وقد اتخذوا اليهود المغضوب عليهم أولياء، يناصحونهم وينقلون إليهم أسرار المؤمنين، وهؤلاء اليهود هم الذين قال الله فيهم ﴿مَنْ لَعْنَهُ اللَّهُ وَعَظِبَ عَلَيْهِ وَجَعَلَ مِنْهُمْ الْقِرَدَةَ وَالْخَنَازِيرَ وَعَبَدَ الطَّاغُوتَ﴾ [المائدة: ٦٠] .

والمنافقون ليسوا من المسلمين، ولا من اليهود ﴿مَا هُمْ مِنْكُمْ﴾ أيها المسلمون ﴿وَلَا مِنْهُمْ﴾ أي اليهود، لا هم من المسلمين، ولا من اليهود، فليسوا بمسلمين خلّص، ولا بكافرين خلّص ﴿مُذَبِّبِينَ بَيْنَ ذَلِكَ لَا إِلَى هَؤُلَاءِ وَلَا إِلَى هَؤُلَاءِ﴾ [النساء: ١٤٣] .

وهؤلاء المنافقون يحلفون كذبا أنهم مسلمون، وأنت رسول الله، والحلف على ما يُعلم أنه كذب، في غاية القبح، والله تعالى يُنكر في هذه الآية على المنافقين موالاتهم لغير المسلمين في الباطن، وهم في الواقع مخادعون لهم، يظهرون ما لا يبتنون.

سبب النزول:

قال السدي: كان (عبد الله بن نبتل) المنافق، يجالس رسول الله ﷺ ويرفع حديثه إلى اليهود، فبينما رسول الله ﷺ في حجرة من حجراته إذ قال: يدخل عليكم الآن رجل قلبه قلب جبار، وينظر بعيني شيطان، فدخل عبد الله بن نبتل، وكان أزرق العينين، فقال له النبي ﷺ: «علام تشتمني أنت وأصحابك؟» فحلف بالله ما فعل ذلك، فقال له النبي ﷺ: «بل فعلت» فانطلق، فجاء بأصحابه، فحلفوا بالله ما سئوه، فأنزل الله الآية ^(١) .

وقد جاء هذا المعنى عن ابن عباس رضي الله عنهما بإسناد حسن أن رسول الله ﷺ كان جالسا في ظل حُجرة من حُجَرِه، وعنده نفر من المسلمين فقال: «إنه سيأتيكم إنسان ينظر إليكم بعين شيطان، فإذا جاءكم فلا تكلموه» فلم يلبثوا أن طلع عليهم رجل أزرق، فقال حين رآه: «علام تشتمني أنت وأصحابك...» ^(٢) .

(١) ينظر: الفخر الرازي (٢٨/٢٨) والقرطبي (٢٩٧/٧) والخازن (٢٤٢/٤) وابن كثير (٥٢/٧).

(٢) أخرجه الطبراني برقم (١٢٣٠٧)، وقد صححه الحاكم على شرط الشيخين في المستدرک (٤٨٢/٢) وأقره الذهبي، ورواه أحمد بإسناد جيد (٢٤٠/١) برقم (٣٢٧٧، ٢١٤٧)، والبزار (٢٢٧٠ كشف)، قال محققو المسند: إسناده حسن برقم (٣٢٧٧)، وقال الهيثمي في مجمع الزوائد (١٢٢/٧): رجاله رجال الصحيح، وهو عند البزار (٢٢٧٠ كشف).

فكان هذا اليهودي يجالس النبي ﷺ وينقل أخباره إلى اليهود، ويسبه، فإذا بلغ النبي ﷺ خبره، أو أطلعه الله عليه، جاء فاعتذر، وأقسم أنه ما فعل.

ثم بين سبحانه ما أعد لهؤلاء المنافقين من عذاب في الآخرة فقال:

١٥ - ﴿أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ (١٥)

أي هيا الله لهم - بسبب نفاقهم - عذابا بالغ الشدة والألم، فهم في الدرك الأسفل من النار ﴿إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ من النفاق والكذب والحلف عليه، فبئس ما فعلوا، وبئس ما صنعوا، فقد عملوا ما يسخط الله، ويوجب عليهم العقوبة واللعة، وهذا تعليل لنزول شدة العذاب بهم. قال تعالى:

١٦ - ﴿اتَّخَذُوا أَيْمَانَهُمْ جُنَّةً فَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ فَلَهُمْ عَذَابٌ مُهِينٌ﴾ (١٦)

ولما كان المسلمون في كل زمان ومكان في حالة جهاد مستمر مع اليهود والنصارى والمشركين، وقد أمر المسلمون شرعاً أن يقاتلوا الكفار حتى يشهدوا ألا إله إلا الله، وأن محمداً رسول الله، فإن من شأن المنافقين أن يتظاهروا بالإسلام، ويوهموا المسلمين أنهم مسلمين حتى لا يقاتلوهم، وحتى يحققوا دماءهم ويحفظوا أموالهم بهذا النفاق، وبهذه الأيمان الكاذبة ﴿اتَّخَذُوا أَيْمَانَهُمْ جُنَّةً﴾ أي جعلوا أيمانهم الكاذبة ترساً ووقاية لهم من القتل، ومن لوم المؤمنين لهم لو أنهم أظهروا كفرهم، فكانوا بذلك سبباً لمنع الناس من الدخول في الإسلام، بإلقاء الشبهات في قلوب الضعفاء، وبالخداع والمكر بالمسلمين ﴿فَصَدُّوا﴾ غيرهم وصدوا أنفسهم ﴿عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ﴾ وهو الطريق الموصل إلى جنات النعيم، ومن صد عنه فليس أمامه إلا الصراط الموصل إلى نار الجحيم، وبسبب ذلك فإن للمنافقين عذاباً مذللاً ومخزياً في نار جهنم، لنفاقهم وعدم إيمانهم بالله ورسوله واستكبارهم عن الانقياد لآيات الله، ولصدهم الناس عن دين الله. قال تعالى:

١٧ - ﴿لَنْ تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئاً أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ (١٧)

لقد كان المنافقون وهم في الدنيا أكثر أولاداً وأكثر أموالاً من المسلمين، ويزعمون

أنهم بسبب ذلك لن يعذبوا في الآخرة - إن كان ثمة قيامة، على حد قولهم - فنفى سبحانه في هذه الآية، هذه المزاعم، لأن يوم القيامة، يوم لا ينفع فيه مال ولا بنون إلا من أتى الله بقلب سليم، أي أن هذه الأموال وهذه الأولاد، وهذا الجاه والسلطان، لن تدفع عنهم شيئاً من عذاب الله تعالى، ولن يحصل لهم قسط من الثواب.

ومن المعروف أن عبد الله بن أبي بن سلول - زعيم المنافقين - كان من أغنياء المدينة، وكان يوطن نفسه أن يكون ملكاً عليها، وكانوا يُعِدُّون له تاج الملك، قبل مقدم النبي ﷺ إلى المدينة، وهو القائل ﴿لَئِنْ رَجَعْنَا إِلَى الْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ الْأَعَزُّ مِنَّا الْأَذَلَّ﴾ [المنافقون: ٨].

وكان المنافقون على وجه العموم من أهل الثراء في المدينة، وكان ثراؤهم سبب إعراضهم عن الإسلام، فكانوا أهل سيادة وجاه، يخافون على ضياع منزلتهم بين الناس، وكانوا يفتخرون على المسلمين بوفرة أموالهم وكثرة عشائهم، فإذا لم تُغن عنهم هذه الأموال والأولاد في الدنيا فهي أجدر ألا تنفعهم في الآخرة ﴿أَوَلَيْكَ أَصْحَابُ النَّارِ﴾ الملازمون لها ﴿هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ لا يخرجون منها أبداً، ولا يموتون فيها، وهذا الجزاء يعم كل من صد الناس عن دين الله بقوله أو فعله في كل زمان ومكان ﴿أَفَمَنْ حَقَّ عَلَيْهِ كَلِمَةُ الْعَذَابِ أَفَأَنْتَ تُنْقِذُ مَنْ فِي النَّارِ﴾ [الزمر: ١٩] إنه خلود أبدي ﴿لَا يَقْضَىٰ عَلَيْهِمْ فِيمَوْتُوا وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ مِنْ عَذَابِهَا﴾ [فاطر: ٣٦] و﴿كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُمْ بَدَّلْنَاهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا الْعَذَابَ﴾ [النساء: ٥٦]. قال تعالى:

١٨ - ﴿يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ جَمِيعًا فَيَحْلِفُونَ لَهُ كَمَا يَحْلِفُونَ لَكَ وَحَسْبُ^(١) أَنَّهُمْ عَلَىٰ شَيْءٍ أَلَّا إِنَّهُمْ هُمُ الْكَاذِبُونَ﴾

تقرر هذه الآية أن من عاش على شيء مات عليه، ومن مات على شيء بُعث عليه، ويوم القيامة سوف يكون حال المنافقين كما كان في الدنيا، فيحلفون لله تعالى في الآخرة بأنهم مسلمون، كما كانوا يحلفون لكم في الدنيا بأنهم مسلمون، وهم يتوهمون

(١) قرأ ابن عامر وعاصم وحزمة وأبو جعفر بفتح السين من ﴿وَحَسْبُ﴾ والباقون بكسرها.

أن أيمانهم هذه ستفعلهم في تخفيف شيء من العذاب عنهم ﴿يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ جَمِيعًا﴾ أي اذكر - أيها المخاطب - يوم القيامة حين يبعث الله المنافقين جميعاً، ويحشرهم للحساب والجزاء ﴿فَيَحْلِفُونَ لَهُ﴾ في الآخرة أنهم كانوا مؤمنين ﴿كَمَا يَحْلِفُونَ لَكُمْ﴾ أي كما كانوا يحلفون لكم في الدنيا - أيها المؤمنون - أنهم مؤمنون ﴿وَيَحْسِبُونَ أَنَّهُمْ عَلَىٰ شَيْءٍ﴾ أي: ويعتقدون أن ذلك ينفعهم عند الله، كما كان ينفعهم في الدنيا عند المسلمين، ويزعمون بحلفهم هذا أنهم على شيء يعتد به، ويُعلّق عليه الثواب، وهم كاذبون في ذلك، فإن عقائدهم الباطلة لم تزل راسخة في أذهانهم حتى غرتهم وظنوا أنهم على شيء.

وهذا شأن المشركين بالله أيضاً في الآخرة، فإنهم يحلفون لله كذباً أنهم لم يكونوا مشركين، وهذا ما حكاه الله عنهم في قوله: ﴿ثُمَّ لَمْ تَكُنْ فَتَنْهُمْ إِلَّا أَنْ قَالُوا وَاللَّهِ رَبَّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾ ﴿٢٣﴾ انْظُرْ كَيْفَ كَذَبُوا عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ ﴿٢٤﴾ [الأنعام].

فالكفر والنفاق باق فيهم بعد موتهم وبعثهم ﴿وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾ [الأنعام: ٢٨] ومعلوم أن الأيمان الكاذبة لا تروج على عالم الغيب والشهادة. إن النفاق متوغل فيهم، فقد مرّدوا عليه، وقد خرجت نفوسهم وهم في الدنيا مع بقاءه في أرواحهم.

كما جاء في صحيح مسلم عن جابر رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «يبعث كل عبد على ما مات عليه»^(١).

ثم إن الكذب على الله تعالى ليس كالكذب على الناس، ولذا فإن الله تعالى وصف المنافقين بأنهم الكاذبون حقاً، البالغون في الكذب حدّاً لم يبلغه غيرهم ﴿إِلَّا إِلَهُهُمْ هُمْ أَلْكَذِبُونَ﴾ لقد تجاسروا فكذبوا على علام الغيوب وتصوّرُوا أن كفرهم يخفى على رب العالمين، وهذا أمر عجيب، وجرأة بالغة!!

(١) صحيح مسلم برقم (٢٨٧٨).

سَبَبُ انْغِمَاسِ الْمُنَافِقِينَ فِي النِّفَاقِ وَعُقُوبَتِهِمْ

١٩ - ﴿أَسْتَحْذِرُ عَلَيْهِمُ^(١) الشَّيْطَانَ فَأَنْسَهُمْ ذَكَرَ اللَّهُ أُولَئِكَ حِزْبُ الشَّيْطَانِ أَلَا إِنَّ حِزْبَ الشَّيْطَانِ هُمُ

الْمُخْشَرُونَ ﴿١٩﴾﴾

ثم بين سبحانه الأسباب التي جعلت المنافقين ينغمسون في نفاقهم، فالشيطان قد استولى على قلوبهم، وتملك نفوسهم، فاستحوذ عليهم وزين لهم أعمالهم حتى أنساهم ذكر ربهم، وصاروا تابعين لوساوسه وتزيينه ﴿أَسْتَحْذِرُ عَلَيْهِمُ الشَّيْطَانَ فَأَنْسَهُمْ ذَكَرَ اللَّهُ﴾ لقد تغلب الشيطان على المنافقين، وتملك قلوبهم من كل جهة، حتى تركوا أوامر الله تعالى والعمل بطاعته، فصاروا طوع أمره ورهن إشارته، والشيطان هو العدو المبين لا يريد بهم إلا الشر ﴿إِنَّمَا يَدْعُوا حِزْبَهُ لِيَكُونُوا مِنْ أَصْحَابِ السَّعِيرِ﴾ [فاطر: ٦].

والموصوفون بهذه الصفات: هم أنصار الشيطان وأعوانه وجنوده، الذين قوّتوا على أنفسهم نعيم الدنيا والآخرة ﴿أُولَئِكَ حِزْبُ الشَّيْطَانِ﴾ الذين استجابوا له ولَبُّوا نداءه بسبب ضعف إيمانهم ﴿أَلَا إِنَّ حِزْبَ الشَّيْطَانِ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾ في الدنيا والآخرة. ومن سبل استحواذ الشيطان على الإنسان ترك صلاة الجماعة.

فعن أبي الدرداء رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «ما من ثلاثة في قرية ولا بدو، لا تقام فيهم الصلاة، إلا استحوذ عليهم الشيطان، فعليك بالجماعة، فإنما يأكل الذئب من الغنم القاصية»^(٢).

(١) قرأ أبو عمرو بكسر الهاء والميم من ﴿عَلَيْهِمُ الشَّيْطَانُ﴾ وضمهما حمزة والكسائي ويعقوب وخلف والباقون بكسر الهاء وضم الميم، وضم الهاء من ﴿عَلَيْهِمْ﴾ وصلاً ووقفاً حمزة ويعقوب.

(٢) سنن أبي داود برقم (٥٤٧) وحسنه الألباني في صحيح الترغيب برقم (٤٢٥) وفي صحيح سنن أبي داود (٥١١)، وصححه الحاكم ووافقه الذهبي، المستدرک (٤٨٢/٢)، والنسائي (١٠٦/٢) (٨٤٦)، وابن حبان في صحيحه برقم (٢٠٩٨)، وقال النووي: إسناده صحيح، نصب الراية (٢٤/٢)، والمسنَد (٢٧٥١٤)، (٢١٧١٠)، قال محققوه: إسناده حسن من أجل السائب بن حبيش، وباقي رجاله ثقات رجال الصحيح.

الدِّئَةُ وَالْهَوَانُ لِحِزْبِ الشَّيْطَانِ، وَالنَّصْرُ وَالْغَلْبَةُ لِحِزْبِ الرَّحْمَنِ

٢٠، ٢١ - ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُحَادُّونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ فِي الْأَذَلِّينَ^(١)﴾ ﴿كَتَبَ اللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي^(٢)﴾ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴿١٣﴾﴾

ذكر صدر هذه الجملة، في الآية الخامسة من السورة، صفة لغير المسلمين المعلنين مضادتهم لله والرسول، وذكرنا هنا مرة أخرى في شأن المنافقين المسيرين مضادتهم لله والرسول، وفيها بيان للخسران الدنيوي والأخروي، الذي يلحق بحزب الشيطان، والمذلة والهزيمة أشد أنواع الخسران في الدنيا.

وفي هذه الآية وعيد شديد لمن حاد الله ورسوله بالكفر والمعاصي وبيان أنه مخذول مهان، لا عاقبة له محمودة، ولا راية له منصوره.

والذين يحادون الله ورسوله، هم المخالفون لأمر الله ورسوله، المشاقون لما أنزل الله على رسوله بمخالفة الأوامر والنواهي ﴿أُولَئِكَ فِي الْأَذَلِّينَ﴾ المغلوبين المهانين في الدنيا والآخرة، قال تعالى: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ شَاقُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ. وَمَنْ يُشَاقِقِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ [الأنفال: ١٣].

وبعد هذا الوعيد يأتي وعد من الله تعالى لمن آمن بالله ورسوله، واتبع ما جاء به رسل الله، فصار من حزب الله، وقد وعدهم الله بالفتح والعزة في الدنيا والآخرة، والله تعالى لا يخلف وعده.

وقد كتب الله وقدر أن تكون الغلبة والنصر لرسول الله، على أعدائهم، لاسيما خاتمهم محمد ﷺ المعني بهذه الآيات، وهذا من آثار قدرة الله تعالى التي لا يغلبها شيء ﴿كَتَبَ اللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي﴾ أي قدر الله وحكم ودون في اللوح المحفوظ وفق سابق علمه تعالى، بأن النصر له سبحانه وكتبه، ورسوله، وعباده المؤمنين، كما قال تعالى:

(١) ترك عد ﴿فِي الْأَذَلِّينَ﴾ المكي والمدني الأخير وعدها غيرهما.

(٢) قرأ نافع وابن عامر وأبو جعفر بفتح ياء الإضافة من ﴿وَرُسُلِي﴾ والباقيون بإسكانها.

﴿إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ﴾ [غافر: ٥١] .

وقال سبحانه: ﴿وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ﴾ (٣١) ﴿إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنْصُورُونَ﴾ (٣٢) ﴿وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مِنْ ذَلِكَ﴾ (٣٣) .

﴿الْقَائِلُونَ﴾ (٣٤) [الصفات: ١٧١-١٧٣] .

والله تعالى لا يعجزه شيء ﴿إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ قوي على نصر رسله وأوليائه، غالب على أعدائه، لا يُقهر ولا يُغلب، ولا يعجزه شيء يريد.

قال مقاتل: لما فتح الله مكة والطائف وخير للمؤمنين قالوا: نرجو الله أن يظهرنا على فارس والروم، فقال عبد الله بن أبي بن سلول: أتظنون أن الروم وفارس، كبعض القرى التي غلبتم عليها؟ والله إنهم لأكثر عدداً، وأشد بطشاً من أن تظنوا فيهم ذلك، فنزلت ﴿كَتَبَ اللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي﴾ (١) .

الإِيمَانُ وَمَحَبَّةُ أَعْدَاءِ اللَّهِ لَا يَجْتَمِعَانِ

٢٢- ﴿لَا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ أُولَئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمَانَ وَأَيَّدَهُمْ بِرُوحٍ مِّنْهُ وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ أُولَئِكَ حِزْبُ اللَّهِ أَلَا إِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ (٢٢) .

تشير الآية إلى أن من لوازم الإيمان بالله واليوم الآخر، محبة المؤمنين وموالاتهم وبغض الكافرين وعداوتهم، ولا يكون العبد مؤمناً إلا إذا كان عاملاً بمقتضى الإيمان، والحب في الله والبغض في الله من ثمرات الإيمان ولوازمه.

ولما كان لأكثر المنافقين قرابة بأصحاب النبي ﷺ وكان نفاقهم لا يخفى، فقد حذر الله تعالى المؤمنين الخُلَص من مودة ومحبة من يُعادي الله ورسوله، لأن الإيمان ومحبة أعداء الله لا يجتمعان في قلب واحد، فإذا حصل في القلب محبة أعداء الله، فقد انتفى عنه الإيمان الكامل، فَحُبُّ اللَّهِ وَحُبُّ أَعْدَائِهِ لَا يَجْتَمِعَانِ، كما لا تجتمع الظلمة والنور.

(١) البحر المحيط (٢٣٨/٨) والتفسير الكبير (٢٧٦/٢٩) والألوسي (٣٤/٢٨).

وقد جاء النهي عن محبة أعداء الله تعالى بطريقة الخبر، مبالغة في النهي، والآية عامة في الولاء والبراء، سواء أكانت قد نزلت في أشخاص بأعينهم أم لا، فلا يلزم أن يكون لها سبب نزول، وقد ذكر القرطبي ثمانية أقوال في سبب نزولها وذكر المفسرون بعض ذلك، ومما ورد في أسباب النزول أنها نزلت في:

١- أبي عبيدة عامر بن الجراح، فقد قتل أباه يوم بدر، بعد أن تصدّى له والده، فأخذ أبو عبيدة يحيد عنه، فلما أكثر، قصّده أبو عبيدة فقتله ^(١).

٢- ونزلت في أبي بكر رضي الله عنه، دعا ابنه - قبل إسلامه - إلى المبارزة يوم بدر، وطلب من النبي ﷺ أن يجعله في المقدمة، فقال ﷺ: «متّعنا بنفسك يا أبا بكر، أما تعلم أنك عندي بمنزلة سمعي وبصري؟»

٣- ونزلت في مصعب بن عمير، فقد قتل أخاه: عبيد بن حمئة، يوم أحد.

٤- ونزلت في عمرو بن العاص قتل أخاه العاص بن هشام يوم بدر.

٥- ونزلت في علي وحمزة، فقد قَتَلَا عُتْبَةَ وشيعة ابنا ربيعة يوم بدر ^(٢).

٦- وقيل: نزلت في أبي بكر الصديق، فقد لطم أباه حين سب النبي ﷺ ولما بلغ ذلك النبي ﷺ قال له: «لا تعدّ» فقال أبو بكر: لو كان السيف قريباً مني لقتلته ^(٣).

٧- وقيل: نزلت في عبد الله بن عبد الله بن أبيّ، كان جالساً إلى جنب النبي ﷺ فشرب الرسول ماءً، فقال عبد الله: يا رسول الله، ابقْ فَضْلَةً من شرابك، قال: «وما تصنع بها؟» قال: أسقيها أبي، لعل الله سبحانه يطهر قلبه، ففعل، فأتى بها أباه، فقال: ما هذا؟ قال: فَضْلَةٌ من شرابٍ، من رسول الله ﷺ جئتُك بها لتشربها، لعل الله يطهر قلبك، فقال:

(١) الطبراني في الكبير ٣٦٠ والحاكم ٢٦٤/٣ وابن عساكر ٤٤٦/٢٥ والبيهقي في السنن (٢٧/٩).

(٢) أسباب النزول للواحد ص ٣٠١ بغير سند، والمستدرک ٢٦٥/٣ والطبراني بسند جيد كما في الإصابة ٢٤٤/٢ والسيوطي (٢٨٨).

(٣) أسباب النزول للواحد ص ٣١٠، وقال الحافظ في تخریج الکشاف (١٦٦) نقله الثعلبي عن ابن جريج.

هَلَّا جِئْتَنِي بِبُولِ أَمِّكَ! فَرَجَعَ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ، فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، ائْذَنْ لِي فِي قَتْلِ أَبِي، قَالَ: فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ: «ارْفُقْ بِهِ، وَأَحْسِنْ إِلَيْهِ» فَنَزَلَتِ الْآيَةُ، قَالَهُ السُّدِّيُّ.

٨- وَقِيلَ: إِنَّهَا نَزَلَتْ فِي حَاطِبِ بْنِ أَبِي بَلْتَعَةَ، حِينَ كَتَبَ إِلَى أَهْلِ مَكَّةَ، يَخْبِرُهُمْ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَدْ عَزَمَ عَلَى قَضْدِهِمْ، قَالَهُ مَقَاتِلُ، وَاخْتَارَهُ الْفَرَاءُ وَالزَّجَاجُ.

٩- وَمِنْ ذَلِكَ أَنَّهُ حِينَ اسْتَشَارَ النَّبِيَّ ﷺ أَصْحَابَهُ فِي أَسَارَى بَدْرٍ، فَأَشَارَ أَبُو بَكْرٍ أَنَّ يُؤَسِّرُوهُمْ وَتَوَخَّذَ مِنْهُمْ الْفَدْيَةَ، فَهَمُّ بَنُو الْعَمِّ وَالْعَشِيرَةِ، وَلَعَلَّ اللَّهَ تَعَالَى أَنْ يَهْدِيَهُمْ، وَأَشَارَ عُمَرُ بِأَنْ يَمَكَّنَّ كُلَّ قَرِيبٍ مِنْ قَرِيبِهِ فَيَقْتُلَهُ.

وَأَيُّ مَا كَانَ الْأَمْرُ، فَقَدْ بَيَّنَّتِ الْآيَةُ أَنَّ مَوَدَّةَ الْكُفَّارِ تَقْدَحُ فِي صِحَّةِ الْإِيمَانِ، وَأَنَّ الْمُؤْمِنَ لَا يُوَالِي الْكَافِرَ، وَلَوْ كَانَ أَبًا، أَوْ ابْنًا، أَوْ أَخًا، أَوْ زَوْجًا، أَوْ أَحَدًا مِنْ عَشِيرَتِهِ:

﴿لَا يَحْذُرُ﴾ أَيُّهَا الرَّسُولُ ﴿قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾ حَقَّ الْإِيمَانِ، وَيَعْمَلُونَ بِمَا شَرَعَهُ اللَّهُ لَهُمْ، وَيَصْدُقُونَ بِيَوْمِ الْقِيَامَةِ وَمَافِيهِ مِنْ بَعْثٍ وَحِسَابٍ وَجَزَاءٍ، لَا تَجْدُهُمْ ﴿يُؤَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾ أَيُّ لَا يَحِبُّونَ وَيُؤَالُونَ مِنْ عَادَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ، وَخَالَفَ أَمْرَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿لَا يَتَّخِذِ الْمُؤْمِنُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَلَيْسَ مِنَ اللَّهِ فِي شَيْءٍ إِلَّا أَنْ تَتَّقُوا مِنْهُمْ تُقَةً﴾ [آل عمران: ٢٨].

لَقَدْ أَمَرَ اللَّهُ تَعَالَى نَبِيَّهُ ﷺ أَنْ يَبْلُغَ الْمُؤْمِنِينَ بِأَنْ مَنْ يَجَاهِرُ بِمُخَالَفَةِ مَا شَرَعَ اللَّهُ، أَوْ يَجَاهِرُ بِسُوءِ مُعَامَلَةِ الْمُسْلِمِينَ مِنْ أَجْلِ إِسْلَامِهِمْ، وَلَيْسَ لِعِدَاوَةِ دُنْيَوِيَّةٍ، فَعَلَى الْمُسْلِمِينَ أَنْ يُظْهِرُوا عِدَاوَتَهُمْ لَهُمْ، إِلَّا إِذَا كَانُوا أَوْلَى بِأَسْ شَدِيدٍ، فَإِنَّهُ يَرْخِصُ لَهُ فِي اتِّقَاءِ شَرِّهِمْ، وَهَذَا مَعْنَى: ﴿إِلَّا أَنْ تَتَّقُوا مِنْهُمْ تُقَةً﴾ وَهَذِهِ التَّقِيَّةُ لَا تَكُونُ مَعَ الْمُسْلِمِينَ، إِنَّمَا تَكُونُ مِنْ ذَوِي الْبَطْشِ وَالنَّفُوذِ مِنْ غَيْرِ الْمُسْلِمِينَ.

وَقَدْ ذَكَرْتُ الْآيَةَ أَرْبَعَةَ أَصْنَافٍ مِنَ الْمُحَادِّينَ لِلَّهِ وَرَسُولِهِ لَا تَجُوزُ مَوَالَاتُهُمْ:

أَوَّلًا: الْأَصُولُ ﴿وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ﴾ أَيُّ أَنَّهُ لَا يَجُوزُ لِلْأَبْنَاءِ الْمُسْلِمِينَ أَنْ يُؤَالُوا وَيُؤَادُّوا آبَاءَهُمْ غَيْرَ الْمُسْلِمِينَ وَهُمْ الَّذِينَ أَتَوْا بِأَبْنَاهُمْ إِلَى الْحَيَاةِ وَكَانُوا السَّبَبَ الْمُبَاشَرَ

في ذلك، فإن رابطة الدين أقوى من رابطة الدم، فقد قتل أبو عبيدة أباه الكافر، واستأذن عبد الله بن عبد الله، النبي ﷺ في قتل أبيه المنافق، فنهاه النبي ﷺ، وضرب أبوبكر أباه لما سب النبي ﷺ وهذا لا ينفي حُسْنُ صُحْبَتِهِمْ في الدنيا معروفاً.

ثانياً: الفروع ﴿أَوْ أَبْنَاءَهُمْ﴾ الذين هم قطعة منهم، وפלذات أكبادهم، لا تجوز موالاتهم إذا كانوا غير مسلمين، كما ورد أن أبابكر طلب مبارزة ابنه عبد الرحمن، يوم بدر، وكان ذلك قبل إسلامه، فقد أسلم أيام الهدنة.

ثالثاً: الحواشي ﴿أَوْ إِخْوَنَهُمْ﴾ وهم الذين تربطهم بهم رابطة الدم، فلا تجوز مودتهم لعدم إسلامهم، كما ورد أن مصعب بن عمير، قتل أخاه عبيد بن عمير، وقيل: إنه مَرَّ بأخيه يأسره رجل من المسلمين، فقال له: شُدُّوا وثاقه.

رابعاً: العائلة ﴿أَوْ عَشِيرَتَهُمْ﴾ وهم الذين ينتسبون إليهم، وتربطهم بهم رابطة الدم، ومع ذلك فلا تجوز موالاتهم إذا كانوا غير مسلمين، فإن حمزة، وعلي، وعبيدة بن الحارث، قتلوا: عتبة، وشيبة، والوليد بن عتبة، يوم بدر.

وقدم الله سبحانه الآباء في الآية: لأنهم أول من تجب طاعتهم، وثنى بالأبناء: لأنهم ألصق الناس بهم، وثلث بالإخوان: لأنهم الناصرون المؤازرون لهم، وختم بالعشيرة: لأن الانتماء يكون إليهم، والاعتزاز يكون بهم.

ثم أثنى سبحانه على الذين يوالون في الله ويعادون في الله فقال: ﴿أُولَٰئِكَ﴾ المؤمنون الذين لا يوادون من حاد الله ورسوله، هم المؤمنون حقاً، المستحقون لجنة الله ورضوانه، ويشبه هذه الآية قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنْ كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسْكَنٌ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُمْ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرٍ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴾ [التوبة: ٢٤].

ثم ذكر الله تعالى لهؤلاء المخلصين في إيمانهم خمس مزايا:

أولاً: أن الله تعالى ﴿كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمَانَ﴾ أي: رَسَمَهُ وَثَبَّتَهُ وَغَرَسَهُ وَقَوَّاهُ، فهو

إيمان لا يتزلزل ولا تؤثر فيه الشبه والشكوك فاختلط الإيمان بهم، وأصبحت قلوبهم تحب من أحبه الله، وتبغض من أبغضه الله، فالإيمان ثابت في قلوبهم متمكن منها.

ثانياً: ﴿وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ﴾ أي قواهم بوحيه ومعونته ومدده الإلهي، وأمدهم بنصر من عنده، وأيدهم على عدوهم في الدنيا، ويسمى النصر على العدو رُوحاً، لأن الأمة تحيا به، فهو بمعنى عناية الله ولطفه، والله تعالى ثبتهم وقواهم بنور من عنده، فصاروا أشداء على الكفار رحماء بينهم.

ثالثاً: ﴿وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا﴾ أي إنهم يهنئون بالحياة الطيبة في هذه الدار، ولهم جنات النعيم يهنئون فيها بحداثق ويساتين تجري من تحت أشجارها وقصورها ﴿الَّتِي فِيهَا خُلْدٌ أَبَدِيًّا﴾ خلوداً أبدياً، ماكثين فيها زمناً ممتداً لا ينقطع، ولهم فيها ما تشتهيهِ الأنفس من كل ما لذ وطاب، وفوق ذلك فإنهم ينعمون برضوان الله تعالى فلا يسخط عليهم أبداً.

رابعاً: ﴿رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ﴾ أي أحل الله عليهم رضوانه، فلا يسخط عليهم أبداً، لأنه سبحانه قبل أعمالهم وأثابهم عليها.

خامساً: ﴿وَرَضُوا عَنْهُ﴾ أي أنهم رضوا بما أعطاهم الله من أجر ومثوبة وكرامة، ورفع درجات.

وذكر سبحانه رضوان الله عليهم بعد دخولهم الجنة، لأن رضوان الله تعالى أكبر النعم. قال تعالى: ﴿وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللَّهِ أَكْبَرُ﴾ [التوبة: ٧٢].

ثم أشار سبحانه إلى الذين أعطاهم الله هذا النعيم المقيم، والفوز العظيم، فقال: ﴿أُولَٰئِكَ حِزْبُ اللَّهِ﴾ الذين يشرف المرء بالانتساب إليهم، فهم أولياء الله ومُحِبُّوه، وهم جماعة الله وخاصته. وحزب المرء: أنصاره وجنده ومن يواليه ﴿أَلَا﴾ فانتبهوا يا قوم ﴿إِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ الفائزون بسعادة الدنيا والآخرة، وشتان ما بين حزب الله وحزب الشيطان! فالأول له الفلاح والنجاح، والآخر له الخسران والوبال.

جاء في الحديث «إن الله يحب الأخفياء - أي الخامل ذكرهم - الأتقياء، الأبرياء، الذين إذا غابوا لم يُفتقدوا، وإذا حضروا لم يُدعوا، قلوبهم مصابيح الهدى، يخرجون من كل فتنة سوداء مظلمة» فهؤلاء أولياء الله، الذين قال فيهم ﴿أُولَٰئِكَ حِزْبُ اللَّهِ أَلَا إِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾^(١).

وجاء في الأثر (اللهم لا تجعل لفاجر ولا لفاسق عندي يداً ولا نعمة)^(٢).
وذلك لأن الإحسان يستعبد القلب، ويكسر العين، وربما يؤدي العطاء والإحسان إلى موالاة غير المسلمين.

ومن يزعم أنه يؤمن بالله واليوم الآخر، وهو محب لأعداء الله يواليهم ويترك المسلمين، فإن إيمانه مزعوم لا حقيقة له، لأن لكل أمر برهان يصدقه ومجرد الدعوى لا تكفي، محبة المؤمنين وبغض غيرهم من ثمرات الإيمان الخالص، ومن علامات الفلاح في الدنيا والآخرة.

تم تفسير (سورة المجادلة) والله الحمد والمنة

(١) الحاكم (٣٢٨/٤) وقال: هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه، وسنن ابن ماجة ٣٩٨٩ من طريق ابن لهيعة، وقد توبع، وانظر حديث سعد بن أبي وقاص في مسند أحمد (١٥٢٩)، وفيه: «إن الله يحب الغنى الخفي النقي».

(٢) أخرجه ابن مردويه عن كثير بن عطية عن رجل، كما في تخريج أحاديث الكشاف (٤٣٢/٣) وبنحوه أخرجه الديلمي (٢٠١١) من طريق الحسن عن معاذ عن النبي ﷺ.

تَفْسِيرُ سُورَةِ الْحَشْرِ (٥٩)

مُقَدِّمَةُ السُّورَةِ

(سورة الحشر)، هي السورة التاسعة والخمسون في ترتيب المصحف، والثامنة والتسعون في ترتيب النزول، نزلت بعد سورة البينة، وقبل سورة النصر، في السنة الرابعة من الهجرة، وكان نزولها عقب إخراج بني النضير من القرية التي كانوا يسكنون فيها، واسمها (الزَّهْرَة) في ضواحي المدينة، وكان اليهود قد ذهبوا إلى المدينة، قرب هجرة النبي ﷺ إليها، انتظارا لقدمه، كما كانوا يقرؤون في التوراة، فلما جاءهم محمد ﷺ بأوصافه وعلاماته التي عرفوها في كتبهم كفروا به، فلعنة الله على الكافرين.

وتسمى (سورة الحشر)، لوقوع لفظ الحشر في أولها، ويسمى ابن عباس: سورة بني النضير، لأن قصتهم ذُكرت فيها.

فعن سعيد بن جبير، قال: قلت: لابن عباس رضي الله عنهما: (سورة الحشر، قال: قل: بني النضير) ^(١).

وفي البخاري عن سعيد بن جبير، قال: قلت لابن عباس رضي الله عنهما: سورة التوبة؟ قال: التوبة هي الفاضحة، مازالت تنزل: ومنهم، ومنهم، حتى ظنوا أنها لم تُبق أحدا منهم إلا ذكر فيها، قال: قلت: سورة الأنفال؟ قال: نزلت في بدر، قال: قلت: سورة الحشر؟ قال: نزلت في بني النضير) ^(٢). وقد أراد ابن عباس أن يكون للسورة اسمين.

وسماها النبي ﷺ سورة الحشر كما في حديث معقل بن يسار ؓ عند الترمذي وغيره أن النبي ﷺ قال: «من قال حين يصبح ثلاث مرات: أعوذ بالله السميع العليم من

(١) صحيح البخاري برقم (٤٨٨٣، ٤٠٢٩).

(٢) البخاري برقم (٤٨٨٣)، وصحيح مسلم برقم (٣٠٣١).

الشیطان الرجیم، وقرأ ثلاث آیات من آخر سورة الحشر وكُلَّ الله به سبعین ألف ملك یصلُّون علیه حین یمسی، وإن مات فی ذلك الیوم مات شهیداً، ومن قالها حین یمسی كان بتلك المنزلة»^(١).

وهی سورة مدنیة باتفاق، وعدد آیاتها أربع وعشرون آیه باتفاق علماء عدَّ الآی. وعدد كلماتها: أربع مئة وخمس وأربعون كلمة، وهی ألف وتسع مئة وثلاثة عشر حرفاً.

أغراض السورة:

بدأت السورة بتمجید الله تعالى وتنزیهه، فالكون كله یشهد بوحدانیه الله تعالى وعظیم قدرته، والمحور الرئيس الذي تدور علیه السورة: هو قصة یهود بنی النضیر، الذين أجلاهم النبی ﷺ عن المدینة، فأخرجهم من حصونهم وقلاعهم المنیعة، بعد أن نقضوا عهد النبی ﷺ وكانوا یرون أنه لا تُردَّ له رایة، فلما كانت محنة یوم أحد ارتابوا فی شأنه، وتحالفوا مع قریش وغَدَروا، فلما رجع النبی ﷺ من غزوة أُحد تبین له معتقد بنی النضیر وغَدَرِهِم وموالاتهم للکفار، فحاصرهم وعاهدهم علی أن یُجلیهم عن أرضهم فارتحلوا إلى خیبر والشام وغیرهما.

وتَبَّع ذلك موضوع الفیء والغنیمة وما یتعلق بهما من شروط وأحكام، ومن ذلك أن الفیء - وهو الذي حصل للمؤمنین بدون حرب ولا قتال - یختص بالفقراء دون غیرهم. وفی أعقاب ذلك نَوَّهت السورة بفضل المهاجرین والأنصار والذین اتبعوهم بإحسان. وفی مقابل ذلك تحدثت السورة عن المنافقین الذین تحالفوا مع الیهود ضد الإسلام، فبینت جُنْیَ الیهود، وضربت للمنافقین أسوأ الأمثال، حیث مثلتهم بالشیطان الذي یُغري الإنسان بالکفر والضلال ثم یتبرأ منه.

ووجهت السورة نداء إلى المؤمنین تأمرهم فیہ بتقوی الله تعالى، وترهبهم من الیوم

(١) المسند (٢٦/٥) برقم (٢٠٣٠٦) بإسناد ضعیف؛ لضعف خالد بن طهمان، ضعفه ابن معین، وانظر آخر

السورة وأخرجه الترمذی برقم (٢٩٢٢) قال أبو عیسی: هذا حدیث حسن غریب لا نعرفه إلا من هذا الوجه.

الذي لا ينفع فيه حسب ولا نسب ولا مال ولا بنون، وتبين أن مصير السعداء والأشقياء لا يستويان، وأن الفارق كبير بين أهل الجنة وأهل النار، وتنهاهم عن التشبه بالفاسقين الذين خرجوا عن طاعة ربهم فكان عاقبة أمرهم خُسرًا.

وختمت السورة بذكر نحو عشرين اسماً من أسماء الله الحسنی، وصفاته العليا، وفيها تنزيه الله تعالى عن كل نقص، حتى يتناسق بدء السورة مع ختامها.

هذا: وقد تحدثت الآيات الخمس الأولى من السورة عن قصة إجلاء بني النضير.

وتحدثت الآية السادسة والسابعة عن حكم الفيء وكيفية توزيعه.

وتحدثت الآية الثامنة عن المهاجرين، والآية التي بعدها تحدثت عن الأنصار، أما

الآية العاشرة فتحدثت عن التابعين ومن بعدهم من أهل الإيمان.

والسبع آيات التي تتوسط السورة من الآية ١١-١٧ تناولت الحديث عن المنافقين

الذين لا يرون حرجاً في أن يعيشوا مع اليهود، ويقاسموهم حياة خشة أو ناعمة ويطلبون علاقاتهم بهم.

وثبرز السورة، طبيعة اليهود التي لا تختلف في الحاضر والمستقبل عن الماضي،

فهم ناقضون للعهود دائماً ﴿أَوْكَلِمَا عَاهَدُوا عَهْدًا بَيْنَهُمْ﴾ [البقرة: ١٠٠] يُغَرِّزُونَ بمن تحالف معهم ويخذلونه، وشأنهم شأن غيرهم من الكفار، والنار عاقبة كل منهم.

ويأتي التعقيب في آخر السورة على أحداث اليهود ومن سار في ركابهم، بتوجيه

الخطاب للمؤمنين أن يتقوا الله تعالى ويعملوا ليوم الحساب والجزاء، ولا يكونوا

كغيرهم ممن نسوا الله تعالى فأنساهم أنفسهم، لأن أهل النار وأهل الجنة لا يستويان.

وتشير الآية الحادية والعشرون إلى أن لهذا القرآن أثر كبير في النفوس، فهو يهزُّ

القلب هزاً، ويحرك الضمير والوجدان، ولو نزل على الصخرة الجامدة لتأثرت به وخشعت له.

وفي الآيات الثلاث الأخيرة عود على ما بدأت به السورة من تسييح الله تعالى في

ظلال نخبة من أسماء الله الحسنی وصفاته العليا.

قصة بني النضير:

بنو النضير: هم جماعة من اليهود، من ذرية الكاهن بن هارون، هم وبنو قريظة، وكان يقال للقبيلتين: الكاهنان^(١).

والكاهن هو الذي يحفظ الديانة بيده ويد ذريته، وكان هارون عليه السلام يحفظ الملة الإسرائيلية، وكان هؤلاء اليهود قد نزلوا المدينة على إثر فتن في بني إسرائيل، انتظاراً منهم لمقدم محمد ﷺ^(٢).

سبب تواجد اليهود في المدينة:

وذلك أن موسى عليه السلام كان قد أرسل طائفة من بني إسرائيل لقتال العماليق فتقاعسوا، فلما مات موسى عليه السلام رجعوا إلى أريحا وما حولها، فقال لهم قومهم: أنتم عصيتُم أمر موسى فلا تدخلوا بلادنا، ولما كانوا يعلمون بظهور نبي جديد كما في كتبهم، خرجوا إلى موطن هجرته ﷺ ليقيموا فيها حتى يظهر النبي الخاتم، فيكونوا أول من يؤمن به، فلما ظهر النبي ﷺ كانوا أول من كفر به، فلعنة الله على الكافرين، وكانوا قد نزلوا في قرية يقال لها: الزُّهْرَة، قُرب المدينة في شمال قباء، وصار لهم فيها نخل وأموال كثيرة، وكان لهم فيها ستة حصون.

ولما بُعث النبي ﷺ وهاجر إلى المدينة، كتب كفار قريش إلى عبد الله بن أبي بن سلول وغيره يهددونهم بسبب إيوائهم للنبي ﷺ وأصحابه، ويتوعدونهم بالحرب، هم والمسلمون معهم، فنصحهم النبي ﷺ بأن قريشا تريد أن تجعل بأسهم بينهم، فلما كانت غزوة بدر وانتصر المسلمون، قال بنو النضير: إنه النبي الأمي الذي نجد نعتة في التوراة، وكان النبي ﷺ حين قدم إلى المدينة، كتب بينه وبينهم صلحا على أن يكونوا محايدين، ليسوا معه ولا عليه.

(١) تفسير ابن عطية (٢٨٣/٥).

(٢) تفسير فتح القدير (١٩٢/٥).

جبريل يأمر الرسول بقتل كعب بن الأشرف:

فلما وقعت غزوة أحد، ارتاب اليهود في شأن النبي ﷺ ونقضوا العهد الذي بينهم وبينه، وأظهروا العداوة للنبي ﷺ فخرج كعب بن الأشرف، ومعه أربعون رجلاً إلى مكة، وحالفوا قريشاً عند الكعبة، ورجع كعب إلى المدينة، ونزل جبريل، فأخبر النبي ﷺ بما تعاهد عليه كعب وأبوسفيان وأمره بقتل كعب بن الأشرف، فقتله محمد بن مسلمة غيلة في حصنه، وكان أخاً له من الرضاع.

تأمر اليهود على قتل النبي ﷺ:

وكان النبي ﷺ قد اطلع على خيانة منهم حين أتاهم في دية المسلمين اللذين قتلتهما عمرو بن أمية الضمري بعد انصرافه من غزوة بدر معونة التي استشهد فيها سبعون من قراء الصحابة، ونجا عمرو من القتل، وأسره المشركون، فأطلقه عامر بن الطفيل، ولمّا كان في طريقه إلى المدينة، قتل عمرو رجلاً من بني عامر، يظن أنه يثار بهما، وكان لبني عامر عقد أمان، مع النبي ﷺ فلما قدم عمرو، وأخبر النبي ﷺ بذلك، قال له: لقد قتلت قتيلين، وسوف أدفع ديتهما، فخرج إلى بني النضير يطلب منهما المشاركة في دفع دية الرجلين بمقتضى ما بينهما من اتفاق، فتأمروا على الغدر بالنبي ﷺ وهو عندهم.

١ - وقال: عمرو بن جحاش: أنا أظهر على البيت الذي يجلس تحته، فأطرح عليه صخرة، فجاء جبريل وأخبر النبي ﷺ بما أراد القوم، فنهض من مجلسه متوجهاً إلى المدينة، وكان سلام بن مشكم قد قال لهم: لا تفعلوا فوالله ليُخْبِرَنَّ بما هممتم به، وإنه لنقض للعهد الذي بيننا وبينه.

٢ - ومرة أخرى بيّثوا نية الغدر بالنبي ﷺ حيث طلبوا منه أن يخرج إليهم في ثلاثين من أصحابه، ثم رأوا أن هذا العدد كثير، فطلبوا تعديله إلى ثلاث، قالوا: ويلقاك ثلاثة من علمائنا، فإن آمنوا بك اتبعناك، ففعل، واشتمل اليهود الثلاثة على الخناجر، فأرسلت امرأة من بني النضير إلى أخ لها من الأنصار، مسلم، تخبره بأمر بني النضير، فأخبر أخوها النبي ﷺ قبل أن يصل إليهم، فرجع، وأرسل إليهم محمد بن مسلمة، يطلب منهم الخروج، وأمهلهم عشراً.

حصار بني النضير وخروجهم من المدينة:

وفي ربيع الأول سنة أربع من الهجرة، سار إليهم النبي ﷺ والمسلمون معه، وأمرهم أن يخرجوا من قريتهم، ولا يساكنوه فيها، وقال لهم: قد أمهلتكم عشراً، فمن وجدته بعد ذلك ضربت عنقه، وأخذوا يتجهزون للخروج، فأرسل إليهم زعيم المنافقين عبدالله ابن أبي يقول لهم لا تخرجوا وسوف أمدكم بألفين، يدخلون معكم حصنكم، فيموتون دونكم، وتنصركم قريظة وحلفاءكم من غطفان، فاشتد ساعدكم، وقال رئيسهم حُيي بن أخطب: إنا لن نخرج، واصنع ما بدا لك، فحاصرهم النبي ﷺ يحمل اللواء علي بن أبي طالب، ولم ينصرهم أحد ممن وعدوهم أن يكونوا معهم، فلما رأوا ذلك قذف الله في قلوبهم الرعب، فطلبوا من النبي ﷺ الصلح، فأبى إلا الجلاء عن ديارهم، فأخذوا يُخْرِبون بيوتهم بأيديهم، ويحملوا معهم ما يتفعون به من الأبواب والأخشاب، فحمل كل ثلاثة آليات، حِمْلَ بعير، وخرجوا، فمنهم من لَحِقَ بخيبر، ومنهم من لَحِقَ بأريحا وأذرعات، وخرج قليل منهم إلى الحيرة.

ولم يَسْلَمْ من بني النضير إلا أهل بيتين هما: آل أبي الحقيق، وآل حُيَيَّ بن أخطب، فإنهم لَحِقُوا بخيبر، ولحقت طائفة منهم بالحيرة.

وأسلم من بني النضير رجلان هما: يامن بن عُمَيْر، وأبوسعد بن وهب، وترك بنوا النضير خمسين درعاً، وخمسين بيضة، وثلاث مئة وأربعين سيفاً، وقد قسمها النبي ﷺ على المهاجرين دون الأنصار، لأنهم هم الذين تركوا ديارهم وأموالهم، وأصبحوا بحاجة إلى المعونة، ولم يُعط من الأنصار إلا ثلاثة أظهروا حاجتهم وهم: سهل بن حنيف، وأبو دجانة، والحارث بن الصمة، أما النخيل فقد خص الله به رسوله ^(١).

(١) ينظر في هذا: أبوداود برقم (٣٠٠٤)، وفتح الباري (٢٥٥/٧) عن ابن مردويه بإسناد صحيح عن الزهري، وشرح المواهب اللدنية للزرقاني (٩٥/٢)، وطبقات ابن سعد (٥٧/٢)، وابن هشام (١٩٠/٢)، وتفسير الطبري (٢١/٢٨)، والبداية لابن كثير (٧٥/٤).

قال عروة بن الزبير رضي الله عنهما: كانت بني النضير بعد بدر بستة أشهر^(١). هذا: ولم يُخمس النبي ﷺ أموال بني النضير، بل جعلها خالصة له يُنفقها في مصالح المسلمين، لأن الله تعالى قد أفاء عليه بها، ولم يوجف المسلمون عليها من خيل ولا ركاب، وكان النبي ﷺ قد استولى على أرضهم وديارهم، وأخرجهم من حصونهم صاغرين مُهانين. وهكذا كان اليهود أذلاء في مقابلة المسلمين لا شوكة لهم ولا قوة، ولا عزة لهم ولا منعة، فما بالهم اليوم يشمخون بأنوفهم ويشترطون على المسلمين أصحاب الأرض في فلسطين ما يشاؤون، ولا يريدون أن تقوم لهم قائمة، ولا أن يعود اللاجؤون إلى ديارهم، ولا يكون لهم كيان ولا قوة، إنه لمن عجائب الزمن أن يُصبح العدو المحتل هو سيد الموقف الذي يُملئ شروطه. وأن يكون صاحب الأرض تحت رحمة المغتصب!!^(٢)

* * *

(١) البخاري مع الفتح (٣٢٩/٧).

(٢) في ٢١ / ٦ / ١٤٣٠ هـ أعلن رئيس وزراء الكيان الصهيوني (نتنياهو) أن القدس عاصمة أبدية لإسرائيل، وأنه لا عودة لللاجئين الفلسطينيين، وأن على أهل فلسطين أن يعترفوا بالدولة اليهودية العبرية، وأنه يوافق على قيام دولة فلسطينية منزوعة السلاح على ساحة الأرض التي يريدونها بعد الاعتراف بهم! فاللهم ارحم ضعفنا، واجبر كسرنا، وغيّر ما بنا، وهيء لنا أسباب النصر.

تَفْسِيرُ السُّورَةِ

التَّمْهِيدُ لِإِخْرَاجِ الْيَهُودِ مِنَ الْمَدِينَةِ بِشُكْرِ اللَّهِ تَعَالَى

١ - ﴿سَبِّحْ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ (١)

بدأت سورة الحشر بالإخبار عن تسبيح هذا الكون شكراً لله تعالى على ما أفاء به من فتح بلاد بني النضير، لأنَّ خُلِقَ الأرض من الطغاة وتطهيرها منهم، نعمة جليلة، جديرة بحمد الله تعالى وتمجيده.

وحرية الإنسان في أرضه، واستمتاعه بحقوقه خير عظيم، يستحق الثناء على الله تعالى، فما أجمل أن يُصبح المرء آمناً في سربه، معافى في بدنه، عنده قوت يومه، لا يتسلط عليه ظالم، ولا يسلب أرضه محتل.

إنَّ تسبيح الله تعالى هنا قبل حكاية طرد اليهود من ديارهم، يشبه تحميده سبحانه في سورة الأنعام بعد استئصال الظلّمة وقطع دابر القوم الذين ظلموا وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٤٥﴾.

وتسبيح العالم العلوي والعالم السفلي، جاء كله في القرآن الكريم بلفظ (ما) دون (من) إلا في موضعين هما قوله تعالى: ﴿تُسَبِّحُ لَهُ السَّمَوَاتُ السَّبْعُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ﴾ [الإسراء: ٤٤] وفي سورة النور: ٤١ ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُسَبِّحُ لَهُ، مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالطَّيْرُ صَفَّتْ كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلَاتَهُ، وَتَسْبِيحَهُ﴾ وهو يدل على أن هذا التسبيح يشمل العقلاء وغير العقلاء، فقد أثبتت الآية تسبيح السموات والأرض بذاتهما، وهن من غير العقلاء، وهذا يشمل: الأفلاك والكواكب، والبروج، والجبال والوديان، والوهاد، والبحار، والفجاج.

ثم عطف - سبحانه - على غير العقلاء بلفظ ﴿مِنْ﴾ ليشمل جميع العقلاء، فضلاً عن أن كلمة ﴿شَيْءٍ﴾ من قوله تعالى: ﴿وَلَا يَنْفَعُ شَيْءٌ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ﴾ تشمل جميع الكائنات، فلا تبقى ذرة في فلاة إلا شملتها.

وبهذا فإن التسييح يشمل كل من في الكون، عاقل وغير عاقل، فيشمل الملائكة، والإنس، والجن، والطير، والحيوان، والنبات، والشجر، والحجر، والمدر، وكل مخلوق لله تعالى.

قال ابن عاشور: في عدم ذكر لفظ (ما) في أول سورة الحديد بالنسبة لتسييح أهل الأرض ﴿سَبِّحْ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ إنها تضمنت الاستدلال على عظمة الله تعالى وصفاته وانفراذه بخلق السموات والأرض، فكان دليل ذلك مجموع ما احتوت عليه السموات والأرض من أصناف الموجودات.

وأما أول سورة الحشر فقد سيقّت للتذكير بمنة الله تعالى على المسلمين في حادثة أرضية هي خذلان بني النضير، فناسب ذلك تخصيص أهل الأرض بزيادة (ما) ^(١).

جميع الكائنات تسبح بحمد الله:

١- وقد جاء تسييح الله تعالى نفسه - ليعلمنا كيف نسبحه -

فقال تعالى: ﴿فَسَبِّحْ لِلَّهِ حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ﴾ [الروم].

وأمرنا بتسييحه فقال: ﴿سَبِّحْ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى﴾.

وقال: ﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ حِينَ تَقُومُ﴾ [١٨] وَمِنَ اللَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَإِدْبَرَ الْجُورِ [١٩] [الطور].

٢- والملائكة تسبح بحمد الله تعالى:

قال جل شأنه: ﴿وَرَأَى الْمَلِكَةَ حَافِينَ مِنْ حَوْلِ الْعَرْشِ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ﴾ [الزمر: ٧٥].

وقال سبحانه على لسان الملائكة: ﴿وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ﴾ [البقرة: ٣٠].

وقال تعالى: ﴿فَإِنْ أَسْتَكْبَرُوا فَالَّذِينَ عِنْدَ رَبِّكَ يُسَبِّحُونَ لَهُ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَهُمْ لَا يَسْأَمُونَ﴾

[أفصلت: ٢٨]، وقال أيضاً: ﴿يُسَبِّحُونَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ﴾ [الأنبياء].

وقال سبحانه: ﴿إِنَّ الَّذِينَ عِنْدَ رَبِّكَ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ وَيُسَبِّحُونَهُ، وَلَهُ يَسْجُدُونَ﴾ [الأعراف: ٢٠٦].

٣- والرعد يسبح بحمد الله ﴿وَيُسَبِّحُ الرَّعْدُ بِحَمْدِهِ وَالْمَلَكُ مِنْ خِيفَتِهِ﴾ [الرعد: ١٣].

(١) تفسير التحرير والتنوير (٦٥/٢٧).

- ٤- والجبـال تسبح بحمد الله ﴿إِنَّا سَخَرْنَا الْجِبَالَ مَعَهُ يُسَبِّحْنَ بِالْعُشِيِّ وَالْإِشْرَاقِ﴾ [ص: ١٨].
- ٥- والطير تسبح بحمد الله ﴿وَسَخَرْنَا مَعَ دَاوُدَ الْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَالطَّيْرَ﴾ [الأنبياء: ٧٩].
- ٦- والإنسان يسبح بحمد الله ﴿فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَكُنْ مِنَ السَّاجِدِينَ﴾ [الحجر: ١٨].
- ﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ الْغُرُوبِ﴾ [٣٩] وَمِنَ اللَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَأَدْبَرَ الشُّجُورِ ﴿١٠﴾﴾ [ق].
- ٧- والسموات والأرض ومن فيهما يسبحن بحمد الله ﴿نُسَبِّحُ لَهُ السَّمَوَاتِ السَّبْعَ وَالْأَرْضَ وَمَنْ فِيهِنَّ وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِنْ لَا نَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ﴾ [الإسراء: ٤٤].
- ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُسَبِّحُ لَهُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالطَّيْرِ صَفَّاتٌ كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلَاتَهُ وَتَسْبِيحَهُ﴾ [النور: ٤١].
- والكون كله يسجد لله تعالى ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَسْجُدُ لَهُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ﴾.
- وهذا للعقلاء: الملائكة، والإنس، والجن.
- ثم ذكر غير العقلاء بأسمائها فقال: ﴿وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ وَالْجِبَالُ وَالشَّجَرُ وَالْدَّوَابُّ﴾.
- ولأن من الناس مؤمن وكافر، قال تعالى: ﴿وَكَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ الْعَذَابُ﴾ [الحج: ١٨].

للمجمادات والحيوانات نُطق وفهْم وإدراك:

- والتسبيح والسجود محمولان على الحقيقة، فقد أخبر تعالى أن لجميع الكائنات إدراك كإدراك الإنسان:
- ١- وذلك حين تخلَّت السموات والأرض والجبـال عن حمل الأمانة، وحملها الإنسان.
- ٢- وحين قال تعالى للسموات والأرض ﴿أَتَتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ﴾ [فصلت: ١١].
- ٣- وأثبت سبحانه أن الجبال تتصدع من خشية الله، ﴿لَوْ أَنزَلْنَا هَذَا الْقُرْآنَ عَلَى جَبَلٍ لَّرَأَيْنَهُ خَشِعًا مُّصَدَّعًا مِّنْ خَشْيَةِ اللَّهِ﴾ [الحشر: ٢١].
- وأن الحجارة تهبط من خشية الله ﴿وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ﴾ [البقرة: ٧٤].
- وفي الحديث أن الحجر ينطق ويتكلم وكذا الشجر: عن أبي هريرة ؓ أن النبي ﷺ قال: «لا تقوم الساعة حتى يقاتل المسلمون اليهود، فيقتلهم المسلمون، حتى يختبئ

اليهودي من وراء الحجر والشجرة، فيقول الحجر أو الشجرة: يا مسلم، يا عبدالله، هذا يهودي خلفي فتعال فاقتله، إلا الغرقد، فإنه من شجر اليهود»^(١).

٤ - وفي الحديث عن أبي سعيد رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «لا يسمع مدى صوت المؤذن جن ولا إنس ولا شيء إلا شهد له يوم القيامة»^(٢).

٥ - وقد ارتجف جبل أخذ لصعود النبي ﷺ وأبي بكر وعمر وعثمان عليه، فقال ﷺ من حديث أنس رضي الله عنه: «أُتِبْتُ أَخُذُ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ نَبِيٌّ وَصَدِيقٌ وَشَهِيدَان»^(٣).

والإخبار باستشهاد عمر وعثمان رضي الله عنهما من معجزات النبي ﷺ.

٦ - وقد صح في الحديث أن عرش الرحمن اهتز لموت سعد بن معاذ، فاهتزاز العرش على عظمته دليل فهم وإدراك.

٧ - وقال الهدهد لسليمان ﷺ: ﴿أَحَطْتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِ، وَحِثُّكَ مِنْ سَيِّئِ بَنِي يَاقِينَ﴾ [النمل: ٢٢].

٨ - وقالت النملة: ﴿يَأْتِيهَا النَّملُ ادْخُلُوا مَسْكِنَكُمْ لَا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَنُ وَجُنُودُهُ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ [النمل: ١٨].

٩ - وفي البخاري وغيره عن أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي ﷺ صَلَّى الصبح، ثم أقبل على الناس فقال: «بينما رجل يسوق بقرة، إذ ركبها فضربها فقالت: إنا لم نُخلق لهذا، وإنما خُلِقْنَا للحَرْث» فقال الناس: سبحان الله، بقرة تتكلم؟ فقال ﷺ: «فإني أومن بهذا أنا وأبوبكر وعمر، وما هُما ثَمٌّ»^(٤) أي أن أبابكر وعمر لم يكونا في القوم وقتئذ.

١٠ - ولَمَّا أَخَذَ الذئب شاة من غنم الراعي واستنقذها - أي أن الراعي استخلص

(١) المسند بإسناد صحيح (٩٣٩٨)، وانظر: (٧٣٠٥ و ١٠٥٨٦).

(٢) من حديث أبي سعيد الخدري في البخاري (٧٥٤٨، ٣٢٩٦، ٦٠٩).

(٣) من حديث أنس في البخاري برقم (٣٦٩٧، ٣٦٨٦، ٣٦٧٥).

(٤) ينظر الحديث في البخاري عن أبي هريرة (٢٣٢٤) بنحوه و(٣٤٧١) وهذا لفظه (٣٦٦٣)، ومسلم

(٢٣٨٨)، والترمذي (٣٦٩٥، ٣٦٧٧)، والمسند (٧٣٥١)، وابن حبان (٦٤٨٥)، والنسائي في الكبرى

(٨٠٥٧-٨٠٦٠).

الشاة من الذئب واستردّها منه - قال له الذئب، فَمَنْ لها، يومَ السَّبع يوم لا راعي لها غيري، فقال الناس: سبحان الله، ذئب يتكلم؟ فقال ﷺ: «إني أؤمن بهذا، أنا وأبوبكر وعمر، وما هما ثم»^(١).

واشتكى جمل إلى النبي ﷺ أن صاحبه يؤذيه ويضربه.

وعلى كل فالآية تذكير للمسلمين أن يشكروا نعمة الله تعالى عليهم، ويشكروه على نصرهم على عدوهم، وفيها تمهيد لموضوع السورة، وهو إخراج بني النضير وقسمة أموالهم. والله تعالى هو العزيز الذي قهر كل شيء، ولا يمتنع عليه شيء، ولا يستعصي عليه أمر، وهو الحكيم في خلقه وأمره، فلا يَخْلُق شيئاً عبثاً، ولا يشرع إلا ما فيه مصلحة لعباده، ولا يفعل إلا ما هو مقتضى حكمته، ومن ذلك إخراج بني النضير إلى خير وغيرها.

إِجْلَاءُ بَنِي النَّضِيرِ مِنْ ضَوَاحِي الْمَدِينَةِ وَسَبَبُهُ

٢- ﴿هُوَ الَّذِي أَخْرَجَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِنْ دِيَارِهِمْ لِأَوَّلِ الْحَشْرِ مَا ظَنَنْتُمْ أَنْ يَخْرُجُوا وَظَنُّوا أَنَّهُمْ مَانِعَتُهُمْ حُصُونُهُمْ مِنَ اللَّهِ فَأَتْنَهُمُ اللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ^(٢) الرُّعْبَ يُجْرِبُونَ^(٣) يَوْمَهُم^(٤) بِأَيْدِيهِمْ^(٥) وَأَيْدِي الْمُؤْمِنِينَ فَاعْتَبِرُوا يَا أُولِيَ الْأَبْصَارِ ﴿٢﴾﴾

لإخراج يهود بني النضير من ضواحي المدينة المنورة قصة:

(١) ونص الحديث في البخاري تنمة الحديث السابق برقم (٣٤٧١، ٣٦٦٣، ٣٦٩٠)، ومسلم (٢٣٨٨)،

وحديث البقرة والذئب حديث واحد في الصحيحين.

(٢) قرأ ابن عامر والكسائي وأبو جعفر ويعقوب بضم العين من ﴿الرُّعْبَ﴾ والباقون بإسكانها، وكسر الهاء والميم وصلا من ﴿قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ﴾ أبو عمرو ويعقوب، وضم الهاء والميم حمزة والكسائي وخلف، وكسر الهاء وضم الميم الباقيون.

(٣) قرأ أبو عمرو بفتح الخاء وتشديد الراء من ﴿يُجْرِبُونَ﴾ مضارع خرب، والباقون بإسكان الخاء وتخفيف الراء مضارع أخرج.

(٤) كسر الباء من ﴿يَوْمَهُم﴾ قالون وابن كثير وابن عامر وشعبة وحمزة والكسائي وخلف، وضمها الباقيون.

(٥) ضم الهاء من ﴿بِأَيْدِيهِمْ﴾ يعقوب وكسرها غيره.

وذلك أن كفار قريش في مكة أرسلوا إلى اليهود في المدينة بعد غزوة بدر، يحرضونهم على قتال النبي ﷺ فعزمت بنو النضير على الغدر برسول الله ﷺ فأرسلوا إليه يقولون: اخرج إلينا في ثلاثين رجلاً من أصحابك، وليخرج معنا ثلاثون خَبِراً، حتى نلتقي بمكان نَصَف بيننا وبينك، ليسمعوا منك، فإن صدَّقوك وآمنوا بك، صدَّقناك وآمنا بك، فلما خرج إليهم قالوا فيما بينهم: كيف تَصِلُون إليه ومعه ثلاثين رجلاً، ثم قالوا: اخرج إلينا في ثلاثة من أصحابك، فخرج إليه ثلاثة من اليهود مشتملين على الخناجر يريدون الفتك برسول الله ﷺ وكان لامرأة منهم أخ مسلم، فأخبرته بما عزم عليه بنو النضير، فأقبل مسرعاً على رسول الله ﷺ وأخبره، فخرج إليهم النبي ﷺ وحاصره حتى صالحوه على الجلاء، وَحَمَل ما أَقَلَّت الإبل إلا السلاح وأنزل الله الآيات ^(١).

ومن جهة أخرى فإن النبي ﷺ لما قدم المدينة صالح اليهود على أن لا يكونوا معه ولا عليه، فلما انتصر يوم بدر، قالوا: إنه النبي المنعوت في التوراة، فلما هُزم يوم أحد شكَّوا في نبوته، فنكثوا عهدهم، فخرج كعب بن الأشرف إلى أهل مكة في أربعين راكبا، وحالفوا أبا سفيان فأمر النبي ﷺ (محمد بن مسلمة) أخا كعب بن الأشرف من الرضاعة، فقتله غيلة، ثم صَبَّحهم بالكتائب وحاصره، حتى صالحوه على الجلاء، فجلَّى أكثرهم إلى أرض الشام، وطائفة منهم إلى خيبر ^(٢).

قالت عائشة رضي الله عنها: كانت غزوة بني النضير على رأس ستة أشهر من وقعة بدر، وكان منزلهم ونخلهم بناحية المدينة، فحاصره رسول الله ﷺ حتى نزلوا على الجلاء، وعلى أن لهم ما أَقَلَّت الإبل، من الأمتعة والأموال إلا الحلقة - يعني السلاح - فأنزل الله أول سورة الحشر، فقاتلهم النبي ﷺ حتى صالحهم على الجلاء، فأجلاهم إلى الشام، وكانوا من سَبِطٍ لم يُصَبِّهْهم جلاء فيما خلا، وكان الله قد كتب عليهم ذلك، ولولا

(١) انظر هذا المعنى في سنن أبي داود (٣٠٠٤)، وأسباب النزول للواحدي (ص ٣٤٣)، والسيوطي (٢٩٠)، وعبد الرزاق وغيرهم.

(٢) ينظر: تفسير البضاوي (٤٦٩/٣).

ذلك لعذبهم في الدنيا بالقتل والسبي.

وأما قوله: ﴿لَأَوَّلُ الْحَشْرِ﴾ فكان جلاؤهم ذلك أول حشر في الدنيا إلى الشام^(١).

ونمضي مع الآيات: وذلك أن الله سبحانه هو الذي طهر المدينة من يهود بني النضير، الذين جحدوا نبوة محمد ﷺ ولم يؤمنوا به، وقد سماهم القرآن كفارا، لأن من لم يؤمن بمحمد ﷺ فهو كافر، وقد أسند الله تعالى إخراج اليهود إلى نفسه، مع أن المسلمين محاصرين لهم، لأن إخراجهم كان بوعده سابق من الله تعالى، وكفى الله ورسوله مؤونة القتال، فقد فاجأهم بأس الله وعذابه، من حيث لم يكن في حسابهم ولم يخطر لهم على بال، وكان هذا أمر مقدر عند الله تعالى.

قال تعالى في الوعد السابق: ﴿فَإِنْ ءَامَنُوا بِمِثْلِ مَا ءَامَنُتُمْ بِهِ فَقَدِ اهْتَدَوْا وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا هُمْ فِي شِقَاقٍ فَسَيَكْفِيكَهُمُ اللَّهُ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ [البقرة: ١٣٧].

معنى لأول الحشر:

لقد أخرجهم الله ﷻ من ديارهم ﷻ أي من مساكنهم التي جاؤوا فيها المسلمين حول المدينة، حيث قدموا إليها ينتظرون ما بشرت به توراتهم، من ظهور النبي الخاتم في المدينة، وكان هذا الإخراج ﴿لَأَوَّلُ الْحَشْرِ﴾ أي إلى أول الأرض التي حُشروا إليها بالشام، وخيبر، وأذرعات، وأريحا، وكان هذا أول إخراج لليهود من جزيرة العرب.

وقد تعاقب حشرهم بعد هذا، حتى اكتمل إخراج جميع اليهود من الجزيرة في خلافة عمر ﷻ تنفيذاً لوصية النبي ﷺ «لا يبقى دينان في جزيرة العرب» كما في صحيح مسلم وغيره عن جابر ﷻ قال: أخبرني عمر بن الخطاب ﷻ أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: «لَأُخْرِجَنَّ اليهود والنصارى من جزيرة العرب حتى لا أدع إلا مسلماً»^(٢).

(١) صححه الحاكم في المستدرک (٤٨٣/٢) ووافقه الذهبي، وهو على شرط الشيخين والبيهقي (١٧٨/٣).

(٢) صحيح مسلم برقم (١٧٦٧)، وأبوداود (٣٠٣٠)، والترمذي (١٦٠٦)، والمسند (٢٠١) قال محققوه:

إسناده صحيح على شرط مسلم، والطحاوي في شرح مشكل الآثار (٢٧٥٦)، والنسائي في الكبرى

(٨٦٣٣)، ومصنف عبدالرزاق (٩٩٨٥)، والبغوي (٢٧٥٦)، والبخاري (٢٣٠).

قال مُرَّةُ الهمداني: كان أول الحشر من المدينة، والحشر الثاني من خيبر وجميع جزيرة العرب، إلى أذرعات وأريحاء من الشام في أيام عمر.

وقال الكلبي: إنما قال: لأول الحشر، لأنهم كانوا أول من أُجلى من أهل الكتاب من جزيرة العرب، ثم أُجلى آخرهم عمر بن الخطاب (١).

وقيل: إن أول الحشر: إخراجهم من حصونهم إلى خيبر، وآخر الحشر: إخراجهم من خيبر إلى الشام، أو أن آخر الحشر هو حشر الناس جميعاً إلى أرض المحشر. وقد تم جلاء اليهود من فلسطين بعد ذلك مرتين: مرة في زمن (بختنصر) ومرة في زمن (طيطس) سلطان الروم.

وفي الأثر عن ابن عباس رضي الله عنهما أن النبي (ص) قال لبني النضير: «اخرجوا، قالوا: إلى أين؟ قال: إلى أرض المحشر» (٢).

وقد كانوا أهل حصون ومنعة ونخيل وأموال وعقار وعز، فكان إخراجهم من حصونهم أمر بعيد المنال، ولذا قال تعالى: ﴿مَا ظَنَنْتُمْ﴾ أيها المسلمون ﴿أَن يَخْرُجُوا﴾ أي من ديارهم وأموالهم بهذا الذل والهوان، لشدة بأسهم وقوة منعتهم، وحصانة ديارهم، مع أنهم أهل عدد وعتاد، ولهم حلفاء من المنافقين الذين قالوا لهم سرّاً ﴿لَئِن أَخْرِجْتُمُ الْيَهُودَ مِنْ دِيَارِهِمْ وَلَهُمْ حَلْفَاءُ مِنْهُم مَّنْ يَمُنَّ بِهِمْ﴾ ومن بني عمومته، وهم بنو قريظة. هذا من جانبكم أيها المسلمون.

أما من جانب اليهود فقد قال تعالى عنهم ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ مَانَعَتُهُمْ حُصُونُهُمْ مِنَ اللَّهِ﴾. لقد ظن اليهود أن حصونهم المنيعة تدفع عنهم بأس الله تعالى، ولا يقدر عليهم أحد، فأعجبوا بها، وغرّتهم، وحسبوا أنه لا يقدر عليهم أحد، ولا ينال منهم شيء. وكان اليهود يتخذون حصوناً يأوون إليها عندما يغزوهم العدو، وكان لبني النضير

(١) من تفسير البغوي والشوكاني وغيرهما للآية.

(٢) حديث مرسل عن الحسن عن ابن عباس في تفسير الطبري (٢٨/٢٠). وطبقات ابن سعد (٢/٤٢).

سنة حصون هي: الكتيبة، والوطيح، والسلاكم، والنطأة، والوخذه، وشق^(١).

وكانوا يظنون أن الأمر لن يصل إلى إجلائهم، لأنهم كانوا في أنفسهم أعز وأقوى. فكانت النتيجة أن الله تعالى خذل بني النضير من حيث لم يخطر لهم على بال، وجاءهم عذاب الله وعقابه من حيث لم يتوقعوا، وأوقع الله في قلوبهم القتل والشريد، وملأها بالجزع والفرع، فاستسلموا لحكم الرسول فيهم ﴿وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ﴾ وهو شدة الخوف والفرع، فلم تغن عنهم حصونهم ولا قلاعهم، ولم ينفعهم قوة ولا دفاع. والرعب سلاح من أسلحة نصر النبي ﷺ على العدو كما في قوله ﷺ: «نصرت بالرعب مسيرة شهر»^(٢) وذلك من خصائصه صلوات الله وسلامه عليه.

وكان الرعب من أسلحة النصر في غزوة بدر، قال تعالى: ﴿سَأَلْتِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ﴾ والرعب جند الله الأكبر الذي لا ينفع معه عدد ولا عدة ولا قوة ولا شدة. وقد ألقى الله الرعب في قلوب اليهود فأصابهم الخور والضعف، وأزال قوتهم وشدتهم، ونصر المسلمين عليهم، وبمفهوم المخالفة فإن الله تعالى يلقي بالطمأنينة والثبات في قلوب المؤمنين كما قال تعالى: ﴿فَتَنَبَّأُوا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ [الأنفال: ١٢]. ثم وصف الله حال بني النضير عند الجلاء فقال ﴿يُخْرِوْنَ بِيُوتَهُمْ بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِي الْمُؤْمِنِينَ﴾ وكانوا قد صالحوا النبي على أن لهم ما حملت الإبل، أي أنه لما أيقن اليهود بالجلاء، حسدوا المسلمين أن يسكنوا منازلهم، فأخذوا يهدمون بيوتهم من الداخل بأيديهم، ومن الخارج بأيدي المؤمنين.

قال الزهري: وذلك أن النبي ﷺ لما صالحهم على أن لهم ما حملت الإبل، فكانوا ينظرون إلى أحسن الخشب فينزعون ويأخذونه، ويخرب المؤمنون البقية، وكانوا يقلعون

(١) التحرير والتنوير (٦٩/١٣)، وقد أخرجه ابن مردويه عن ابن عباس كما في الدر (٣٥٦/١٤).

(٢) من حديث ابن عباس في المسند (٢٧٤٢)، والطبراني (١١٠٤٧) بإسناد حسن وعن جابر في المسند

(١٤٢٦٤)، وأبي ذر (٢١٤٣٥، ٢٢٥٦) بإسناد صحيح على شرط الشيخين، وأخرجه ابن أبي شيبة (٤٠٢/٢)،

وله شاهد في البخاري (٣٣٥)، ومسلم (٥٢١).

الْعُمْد، وَيَنْقُضُونَ السَّقْف، وَيَنْقُبُونَ الْجُدْرَانَ حَتَّى لَا يَسْكُنَهَا الْمُسْلِمُونَ ^(١).

قلت: وهكذا فعل اليهود عندما خرجوا من سيناء بعد حرب العاشر من رمضان، فأزالوا منها معالم الحياة، من ماء وكهرباء وأشجار وبناء ومرافق عامة، وتركوها صحراء قاحلة، ويا ليت المستردين لها قد عمروها وخضروا أرضها، كما فعل عدوهم بها من قبل!! فتأملوا - أيها المؤمنون - ما نزل ببني النضير، وانظروا أسباب ما حل بهم حتى تنتفعوا من التاريخ ﴿فَاعْتَبِرُوا يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ اتعظوا يا أصحاب البصائر السليمة، والعقول الراجحة، بما جرى لهم، حيث دبر الله أمر إخراجهم من ديارهم تدبيراً حكيماً، ونصر المؤمنين عليهم بأيسر الطرق، وجعل ديارهم من بعدهم عبرة وعظة.

لقد كان من الممكن أن يبقى بنو النضير في مساكنهم لو لم يتآمروا مرتين على اغتيال النبي ﷺ وهو بينهم آمن مسترسل، فكان من نتائج ذلك أن أُخرجوا في أول حشرٍ لهم.

الكيان الصهيوني:

إن اليهود - في غفلة من المسلمين - أقاموا لأنفسهم دولة مدججة بالسلاح والعتاد، ونحن نتنظر حشراً آخر في الغد القريب يأتي عليهم إن شاء الله تعالى، ولكي يتحقق ذلك لابد للمسلمين أن يأخذوا بأسباب النصر المادية والمعنوية، وفي مقدمة ذلك أن يثوب المسلمون إلى رشدهم ويصطلحوا مع ربهم، وعندئذ يورثهم الله ديار بني إسرائيل، ويرجع اليهود شتاتاً في العالم كالبدو الرحل، بلا وطن ولا مأوى، كما هو مكتوب عليهم في التوراة والقرآن، عقوبة لهم، قال تعالى: ﴿وَقَطَّعْنَاهُمْ فِي الْأَرْضِ أُمَمًا﴾ [الأعراف: ١٦٨].

وقال سبحانه: ﴿وَقُلْنَا مِنْ بَعْدِهِ لِبَنِي إِسْرَءِيلَ أَكُنُوا الْأَرْضَ فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الْآخِرَةِ جِئْنَا بِكُمْ لَفِيفًا﴾ [الإسراء: ١٠٤].

(١) تفسير الخازن (٤/٤٤٥) وينحوه قال ابن زيد في تفسير البغوي للآية.

وقال جل شأنه: ﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكَ لِيُبْعَثَنَّ عَلَيْهِمْ إِلَى يَوْمِ الْفَيْصَةِ مَن يَسُوءُهُمْ سُوءَ الْعَذَابِ﴾ [الأعراف: ١٦٧].

وقد أُرِخ يوسف عليه السلام لإخوته وبين أنهم قوم رُحِّل كالبدو، حين قال كما حكاه عنه رب العالمين ﴿وَقَدْ أَحْسَنَ فِي إِذْ أَخْرَجَنِي مِنَ السِّجْنِ وَجَاءَ بِكُمْ مِنَ الْبَدْوِ﴾ [يوسف: ١٠٠].

٣- ﴿وَلَوْلَا أَن كَتَبَ اللَّهُ عَلَيْهِمُ^(١) الْجَلَاءَ لَعَذَّبُكُمْ فِي الدُّنْيَا وَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابُ النَّارِ ۖ﴾

أي: ولولا أن الله تعالى قضى وقدر على بني النضير الخروج من ديارهم عقاباً لهم على كفرهم وتكذيبهم بالنبي ﷺ، ولولا أن الله تعالى قذف في قلوبهم الرعب حتى استسلموا، لعاقبهم الله في الدنيا بالجوع والعطش وهم في الحصار، وفُتحت ديارهم غنوة، فعذبوا بالقتل والأسر والجرح والإهانة، كما فعل ببني عموماتهم.

فلولا أن الله كتب على يهود بني النضير الجلاء الذي قضاه وقدره عليهم، لكان لهم شأن آخر من عذاب الدنيا ونكالها، ولكنهم إن فاتهم العذاب الدنيوي فإن لهم في الآخرة عذاب لا يعلم شدته إلا الله، قال تعالى: ﴿وَلَوْلَا أَن كَتَبَ اللَّهُ عَلَيْهِمُ الْجَلَاءَ﴾ من ديارهم ﴿لَعَذَّبُكُمْ فِي الدُّنْيَا﴾ ولكن الله قدر لهم الجلاء دون التعذيب والقتل، لمصلحة اقتضتها حكمته تعالى، ولعل منها أن يأخذ المسلمون أرضهم وديارهم، دون إزهاق للأرواح، استبقاء لقوة المسلمين لما ينتظرهم من فتوح أكبر.

ثم إن ما أصابهم في الدنيا لن يعفيهم من عذاب الآخرة ﴿وَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابُ النَّارِ﴾ فلا يخطر ببالهم أن عقابهم قد انتهى، فما أعدّه الله لهم في الآخرة أشد وأعظم.

عن ابن عمر رضي الله عنهما أن يهود بني النضير وقريظة حاربوا رسول الله ﷺ فأجلى رسول الله ﷺ بني النضير، وأقر قريظة، ومنّ عليهم، حتى حاربت قريظة بعد ذلك، فقتل رجالهم، وقسم نساءهم وأولادهم وأموالهم بين المسلمين، إلا أن بعضهم لحقوا برسول الله ﷺ فأمنهم وأسلموا، وأجلى رسول الله ﷺ يهود المدينة كلهم: بني

(١) ضم الهاء من ﴿عَلَيْهِمْ﴾ وصلأً ووفقاً حمزة ويعقوب وكسرها باقي القراء.

قينقاع، وهم قوم عبد الله بن سلام، ويهود بني حارثة، وكل يهودي كان بالمدينة^(١). قال ابن عباس رضي الله عنهما: كان النبي ﷺ قد حاصرهم حتى بلغ منهم كل مبلغ، فأعطوه ما أراد منهم، فصالحهم على أن يحقن لهم دماءهم، وأن يخرجهم من أرضهم وأوطانهم وأن يسيّرهم إلى أذرعات الشام وجعل لكل منهم بعيرا وسقاء^(٢).

والجلاء: مفارقة الوطن، ويأتي الجلاء والإخراج بمعنى الإبعاد من وجهين: الأول: أن الجلاء يكون مع الأهل والولد، والإخراج يكون مع بقاء الأهل والولد. الثاني: أن الجلاء لا يكون إلا لجماعة، والإخراج يكون لواحد ولجماعة^(٣). قال تعالى:

٤ - ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ شَاقُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ. وَمَنْ يُشَاقِ اللَّهَ فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ ﴿٤﴾

أي: والسبب فيما حدث لبني النضير أنهم خالفوا الله وعصوا أمره، وكذبوا رسوله وخانوه ونقضوا عهده ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ شَاقُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾ أي أن ما أصاب اليهود في الدنيا وما ينتظرهم في الآخرة، قد حدث لهم لأنهم خالفوا أمر الله وأمر رسوله أشد المخالفة، وحاربوهما، وسعوا في معصيتهما، ومن يخالف أمر الله ونهيه، فإن عقاب الله شديد لمن أعرض عن طاعته وذكره ﴿وَمَنْ يُشَاقِ اللَّهَ فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ والمشاقة هي المعارضة والمعاندة.

إِنْجَاءُ الْعُدُوِّ إِلَى الْإِسْتِسْلَامِ حَقْنًا لِلْدِّمَاءِ

٥ - ﴿مَا قَطَعْتُمْ مِنْ لِيْنَةٍ أَوْ نَزَعْتُمْهَا فَأَيْمَةٌ عَلَى أَصُولِهَا فَيَاذَنْ اللَّهَ وَلِيُخْرِجَ الْفَاسِقِينَ﴾ ﴿٥﴾

لما حاصر رسول الله ﷺ بني النضير، شرع بعض الصحابة في قطع وحرق بعض نخيلهم، إرهاباً لقلوبهم وإهانةً لهم، وحملوا لهم على الاستسلام، فقالوا: يا محمد إنك تنهى عن الفساد، فما بالك تأمر بقطع الأشجار؟ فأنزل الله الآية^(٤).

(١) هذا المعنى في مسلم برقم (١٧٦٦)، والمسند (٧/٢)، والبخاري (٤٠٢٨).

(٢) الطبري (٥٠٥/٢٣)، والبيهقي (٣٥٩/٣)، وابن عساكر (١٧٩/١).

(٣) ينظر: تفسير القرطبي (٦/١٨).

(٤) ينظر: البحر المحيط (٢٤٤/٨)، وابن كثير (٦٢/٨) وغيرهما.

هذا: وقد شرع - سبحانه - في بيان ما حدث في حصار بني النضير حين استسلموا وتحصنوا بحصونهم، حيث حاصرهم المسلمون، وعمد بعضهم إلى بعض نخيلهم فقطعها، قيل: نخلتان، وقيل: ستة، لتخويف بني النضير، وليوسّعوا مكاناً لمعسكرهم، وليكون فيه إذلال وخزي لهم في الدنيا، وعلامة على عجزهم التام عن إنقاذ نخلهم، وهو مادة قوتهم، فقالت اليهود: يا محمد، ألسنت تزعم أنك نبي تريد الصلاح؟ أفمن الصلاح قطع النخل، وهل وجدت فيما أنزل عليك إباحة الفساد في الأرض، فأنزل الله تعالى ﴿مَا قَطَعْتُمْ مِنْ لَيْنَةٍ﴾ أي نخلة، فاللينة، اسم يشمل سائر النخيل ﴿أَوْ تَرَكَتُمْوهَا قَائِمَةً عَلَى أُصُولِهَا﴾ أي على ساقها من غير أن تتعرضوا لها ﴿فَيَاذَنْ اللَّهَ﴾ أي أن الحرق أو القطع أو الترك بأمر الله وإرادته، وليذل ويهين أهل الفسق والضلال، وهذا معنى: ﴿وَلِيُخْزِيَ الْفَاسِقِينَ﴾ أي يذل الخارجين عن طاعة الله، وأمره ونهيه من اليهود وغيرهم، حيث سلط الله المسلمين على قطع نخيل بني النضير، وكان لهم بستان معروف يسمى (البؤيرة).

قال ابن عباس رضي الله عنهما في الآية إلى ﴿وَلِيُخْزِيَ الْفَاسِقِينَ﴾ يستزِلونهم من حصونهم، وأمرؤا بقطع النخل، فحاك في صدورهم، فقال المسلمون: قطعنا بعضاً وتركنا بعضاً، فلنسألن رسول الله ﷺ: هل لنا فيما قطعنا من أجر؟ وهل علينا فيما تركنا من وزر؟ فأنزل الله الآية^(١).

وعن ابن عمر رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ حرق نخل بني النضير وقطع، فأنزل الله الآية^(٢).

والذي تم في ذلك هو قطع نخلتين اثنتين، وقيل ستة، فلا تختلفوا - أيها المؤمنون - في شأن ما قطعتموه من نخيل بني النضير، فإن من قطع شيئاً منه فلا إثم عليه، ومن لم يقطع فلا إثم عليه، فالكل بإذن الله، وفي كليهما مصلحة، لأن من فعل، فليحمل العدو

(١) سنن النسائي الكبرى برقم (١١٥٧٤).

(٢) البخاري برقم (٤٨٨٤)، ومسلم برقم (١٧١٦).

على الاستسلام بفعل ما يغيظه ويذله، ومن ترك فقد فعل ما يعود بالخير عليكم، لأن النخلة الباقية سيعود نفعها عليكم.

وقطع النخيل أريد به إلجاء العدو إلى الاستسلام وإلقاء الرعب في قلبه، وما بقي منه فهو آيل للمسلمين، وكان المسلمون قد اختلفوا بين القطع والترك فتساءل بعضهم: هل علينا من إثم فيما قطعنا؟ أو علينا وزر فيما تركنا؟ فنزلت الآية تُصدّق مَنْ نَهَى عن القطع، وتُحلّل من قطعهُ من الإثم.

وقد أخذ الفقهاء من ذلك جواز تحريق دار العدو وتخريبها وقطع ثمارها، وجواز هدم حصون العدو ومعسكراته وأسلحته للقضاء على قوته، لأن إتلاف بعض المال لإبقاء بعضه، مصلحة.

واللينة هي النخلة الكريمة ذات الثمر الطيب، وقيل النخلة القصيرة، أو التي لها ثمر خاص يقال له: اللون شديد الصفرة، لا تخرج منه العجوة، ولم يرد في القرآن أن المسلمين أحرقوا شجراً أو نخلاً، ولم يحدث هذا لغير بني النضير، وكانت بسايتهم بعيدة عن بيوتهم، وكانت لهم حصون، فاعتصموا فيها قبل أن يستسلموا، فحاصرهم المسلمون فيها.

والمقصود بالآية: إدخال المسرة والبهجة في قلوب المؤمنين، حتى لا يحزنوا ولا يتأثروا بما حدث بالنسبة لنخيل بني النضير، وحتى يتركوا الخلاف في هذه المسألة بعد صدور حكم الله فيها، وهو أن القطع والترك بإذن الله، ولأن كلا الأمرين يغرس الحسرة في قلوب الأعداء، وفيه عزة للمؤمنين وخزي للكافرين.

قيل: إن ما قطع من نخيل كان بأمر من النبي ﷺ وقيل: بدون أمره، ولكنه لم ينكر عليهم، ثم أمرهم بالكف عنه.

أَمْوَالُ بَنِي النَّضِيرِ خَاصَّةٌ بِالنَّبِيِّ ﷺ تُنْفَقُ بَعْدَهُ فِي الْمَصَالِحِ الْعَامَّةِ

٦- ﴿وَمَا آفَاءَ اللَّهِ عَلَى رَسُولِهِ مِنْهُمْ فَمَا أَوْجَفْتُمْ عَلَيْهِ مِنْ خَيْلٍ وَلَا رِكَابٍ وَلَكِنَّ اللَّهَ يُسَلِّطُ رُسُلَهُ﴾

عَلَىٰ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٦﴾

ولما خرج بنوا النضير، طلب المسلمون من النبي ﷺ تخميس أموال بني النضير مثل غنائم بدر، على ما جاء في قوله تعالى: ﴿وَأَعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَإِنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسْكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ﴾ [الأنفال: ٤١] فنزل تشريع الله تعالى فيمن يستحق هذه الأموال، فجعلها خالصة لرسول الله ﷺ في حياته، وتُنْفَق على مصالح المسلمين بعده، وذلك نظراً لأنها حصلت لرسول الله ﷺ بدون قتال ﴿وَمَا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ مِنْهُمْ﴾ أي واعلموا - أيها المؤمنون - أن ما أعطاه الله تعالى لرسوله ﷺ من أموال يهود بني النضير ﴿فَمَا أَوْجَفْتُمْ عَلَيْهِ مِنْ خَيْلٍ وَلَا رِكَابٍ﴾ أي لم تركبوا لتحصيله خيلاً ولا إبلًا، وإنما آل لكم بدون قتال ولا جهد ولا مشقة.

والفيء في اصطلاح الفقهاء، هو ما أخذ من مال الكفار بحق من غير قتال، كأموال بني النضير الذين فرّوا من ديارهم وتركوها خوفاً من المسلمين. وسُيِّيَ فيئاً: لأنه رجع من الكفار إلى المسلمين، والمسلمون هم أصحاب الحق فيه، والكفار غير مستحقين له، فهو: مِنْ فاء، أي رجع. وإيجاف الخيل: هو سيرها وركضها السريع، مع الإيقاع الذي يكون منها حين تُغِير على العدو.

والركاب هي الإبل التي تُركب، فأنتم لم تَلْقُوا حرباً ولا مشقة، وإنما فتحها الله صلحاً، وأجلاهم عنها.

ومن سنة الله تعالى أن ينصر رسله بقذف الرعب في قلوب أعدائهم حتى لا يقاسوا شدائد الحرب وويلاته، قال تعالى: ﴿وَلَكِنَّ اللَّهَ يَسْلُطُ رُسُلَهُ عَلَىٰ مَنْ يَشَاءُ﴾ أي أن الله تعالى لم يسلطكم على أموال بني النضير، وإنما سلط عليه رسوله، فقد حصلت لكم هذه الأموال بتسليط الله رسوله ﷺ عليهم، وإلقاء الرعب في قلوبهم، فلا حَقَّ لكم فيها، إنما هي من مال الله تعالى، يتصرف فيه رسول الله ﷺ كما أمره الله تعالى، وكذا ولاة الأمر بعده.

تقسيم أموال بني النضير وأدلتة:

ورسول الله ﷺ لم يقسم أموال بني النضير على جميع الجيش، وإنما خص بها المهاجرين، سواء من خرج منهم لبني النضير، ومن لم يخرج، وذلك حتى يعيد التوازن في المجتمع الإسلامي بالمدينة، فإن المهاجرين هم الذين صُودرت أموالهم وبيوتهم في مكة، وتحملوا هذه المحنة في ذات الله تعالى، فكان الحل الأمثل توريث المهاجرين ما ترك اليهود.

ولم يعط النبي ﷺ من الأنصار إلا ثلاثة، لشدة حاجتهم وهم: أبو دجانة، وسهل بن حنيف، والحارث بن الضمة، وأعطى سعد بن معاذ سيف أبي الحقيق^(١).

١ - قال صهيب بن سنان ؓ: لما فتح رسول الله بني النضير، أنزل الله هذه الآية، فكانت للنبي ﷺ خاصة، فقسمها للمهاجرين، وأعطى رجلين من الأنصار، هما: سهل بن حنيف، وأبا لبابة بن عبد المنذر^(٢).

٢ - وقال الزهري: صالح النبي ﷺ أهل فدك - وهي بلدة في شمال المدينة - وبلاداً أخرى سمّاها، وهو محاصر قوماً آخرين، فأرسلوا بالصلح، فأفاءها الله عليهم من غير قتال، لم يوجفوا عليه خيلاً ولا ركاباً ... وقال: كانت أموال بني النضير للنبي ﷺ خاصة، لم يفتحوها عنوة، وإنما افتتحوها عن صلح، فقسمها النبي ﷺ بين المهاجرين، ولم يعط الأنصار منها شيئاً إلا رجلين كانت بهما حاجة؛ أبو دجانة، وسهل بن حنيف^(٣).

٣ - وعن عمر بن الخطاب ؓ قال: كان لرسول الله ﷺ صفايا بني النضير وخير وفدك، فأما بنوا النضير فكانت حُبساً لنوائبه، وأما فدك فكانت لابن السبيل، وأما خير فجزأها ثلاثة أجزاء، فقسم منها جزئين بين المسلمين، وحبس جزءاً لنفسه ولنفقة أهله،

(١) تفسير التحرير والتنوير (٨٠/١٣).

(٢) تاريخ البخاري (٣١٥/٤)، وسنن البيهقي (٢٩٧/٦).

(٣) هذا المعنى عند عبد الرزاق (٢٨٣/٢)، والبيهقي (٢٩٦/٦).

فما فضل عن نفقة أهله ردها على فقراء المهاجرين^(١).

والصفايا: ما يأخذه رئيس الجيش ويختاره لنفسه من الغنيمة قبل القسمة.

فهذه الآية خاصة بأموال بني النضير، يضعها حيث يشاء، وبهذا قال أبو بكر في خلافته، وقال عمر في خلافته.

٤ - كما جاء في حديث مالك بن أوس المتفق على صحته من حديث الزهري، حين جاء علي والعباس رضي الله عنهما يطلبان من عمر بن الخطاب ميراثهما من رسول الله ﷺ فأشهدهما وأشهد جمعا من الصحابة على أن النبي ﷺ قال: «نحن معاشر الأنبياء لا نورث، ما تركناه صدقة» قالوا: نعم، ثم قال: إن الله خص رسوله ﷺ بخاصة لم يخص أحدا من الناس، وقرأ الآية، فوالله ما أحرزها دونكم، ولا استأثر بها عليكم، لقد أعطاكموها وبثها فيكم، حتى بقي منها هذا المال.

وكان النبي ﷺ قد قسم أموال بني النضير المنقولة على المهاجرين، وأبقى الثابت منها كالدور والنخل والشجر لنفسه، وفق تشريع الله تعالى له في الآية التالية ﴿مَّا أَفَاءَ اللَّهُ﴾ بدون واو، فكان النبي ﷺ ينفق على أهله من هذا المال نفقة سنته، ثم يأخذ ما بقي، فيجعله في مال الله، ثم قال لهما عمر: فإن شئتما أعطيتكما على أن تفعلوا به ما كان رسول الله يفعل، وإلا رُدُّوه علي^(٢).

فكان مال بنو النضير، مال الله تعالى، وضَعُهُ في يد رسوله ﷺ ليضربه على مستحقِّيه من غير الجيش، وهذا حكم خاص به ﷺ.

٥ - وعن عمر بن الخطاب ؓ قال: كانت أموال بني النضير مما أفاء الله تعالى على رسوله ﷺ مما لم يوجف المسلمون عليه بخيل ولا ركاب، وكانت لرسول الله

(١) صحيح سنن أبي داود (٢٥٧١) بإسناد حسن وفي السنن (٢٩٦٧).

(٢) ينظر الحديث في البخاري برقم (٤٨٨٥، ٣٠٩٤)، ومسلم برقم (١٧٥٧)، وأبوداود برقم (٢٩٦٣)، والنسائي في الصغرى (٤١٤٥)، والترمذي (١٦١٠).

خاصة، فكان ينفق على أهله منها نفقة سنة، ثم يجعل ما بقي في السلاح والكراع عدة في سبيل الله ^(١).

وعلى هذا فليس لكم الحق - أيها المؤمنون - في أموال بني النضير، لأنكم لم تظفروا بها عن طريق القتال، فلا تُخَمَّس كَأَمْوَالِ الْغَنَائِمِ وَمَصْرُفُ الْفِيءِ بعد رسول الله ﷺ، وقد قال قوم: هو للأئمة بعده، وقيل: ينفق في مصالح المسلمين، الأهم فالأهم، وأولها المقاتلون.

وقد ختم الله الآية بقوله ﴿وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ لا يعجزه شيء، ولا يغالب ولا يُمَانَع.

مَصَارِفُ الْفِيءِ الْعَامِّ وَالْغَنَائِمِ

٧- ﴿مَا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ مِنْ أَهْلِ الْقُرَى فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسْكِينِ وَآلِ السَّبِيلِ كَيْ لَا يَكُونَ دُولَةً بَيْنَ الْأَغْنِيَاءِ مِنْكُمْ وَمَا أَنْتُمْ إِلَّا رُسُلُ اللَّهِ فَخُذُوهُ وَمَنْ نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْهَوْا وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴿٧﴾﴾

المراد بالفيء في هذه الآية ما غنمه المسلمون عموماً من أعدائهم بدون حرب ولا قتال في غير بني النضير، ويدخل في ذلك ما كان في وقت الرسول ﷺ، أو بعده لمن يتولى شؤون الأمة.

وذلك أنه لما كانت الآية السابقة خاصة بأموال بني النضير، ذكر سبحانه في هذه الآية، حكم الفيء في سائر القرى التي فتحت بعد بني النضير وهي: قريظة، وفدك، وفُرى: عُرَيْنَة، ويُنْبَع، ووادي القرى، وخيبر، والصفراء، وغيرها، وكلها فتحت في عهد

(١) ينظر الحديث بطوله في البخاري (٤٨٨٥، ٢٩٠٤)، ومسلم (١٧٥٧)، وأبوداود (٢٩٦٥)، والترمذي (١٧١٩)، والمسند (٣٣٧، ١٧١) وإسناده صحيح على شرط الشيخين، والنسائي في الكبرى (٦٣١٠).

(٢) قرأ أبوجعفر بالتاء في ﴿يَكُونُ﴾ ورفع ﴿دُولَةً﴾ على أن كان تامة ودولة فاعل، ولهشام ثلاثة أوجه: الأول مثل قراءة أبي جعفر، والثاني والثالث بتذكير (يكون) وعليه الرفع والنصب في (دولة)، والباقون بياء التذكير في (يكون) ونصب (دولة)، على أن كان ناقصة، واسمها ضمير الفيء، و(دولة) خبرها.

النبي ﷺ ومنها ما فُتح عنوة، ومنها ما فُتح صلحاً.

وأكثر أهل العلم على أن أموال (فذك) خاصة، حكمها حكم بني النضير، خاصة برسول الله ﷺ أما بالنسبة لسائر القرى فقد جاء حكمها في هذه الآية: ﴿مَا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ مِنْ أَهْلِ الْقُرَى﴾ أي من أموال مشركي أهل القرى، من غير ركوب خيل، ولا إبل، ولا استخدام أسلحة في قتل العدو، فإنه يقسم إلى خمسة أقسام؛ كما هو الشأن في آية سورة [الأنفال ٤١] ﴿وَأَعْلَمُوا﴾.

الأول: سهم الله تعالى، وسهم رسوله ﷺ في حياته، حيث كان يُنفقُ منه على نفسه وأهله، وما بقي منه يُنفق في مصالح المسلمين، وبعد موت النبي ﷺ يصرف في المصالح العامة للمسلمين، فيكون حكمه حكم سهم الله تعالى، فهما سهم واحد، جاء في قوله تعالى: ﴿فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ﴾ أي أن هذا السهم، وهو سهم الله ورسوله، يُنفق في مصالح المسلمين العامة.

الثاني: سهم أقارب النبي ﷺ ﴿وَلِذِي الْقُرْبَى﴾ من بني هاشم وبني المطلب حيث كانوا، وكل من بقي من نسلهم إلى يوم القيامة، يُسوي فيهم بين الذكور والإناث، وإنما دخل بنو المطلب في خُمس الخُمس مع بني هاشم، ولم يدخل بقية بني عبد مناف في القرابة، لأنهم شاركوا بني هاشم في دخولهم الشَّعب، حين اتفقت قريش على حصار المسلمين، وعلى هجرتهم وعداوتهم، فنصر بنو المطلب رسول الله ﷺ مع بني هاشم، دون بني عبد مناف، ولهذا قال ﷺ في بني المطلب «إنهم لم يفارقوني في جاهلية ولا إسلام»^(١). ولأن بنو هاشم وبنو المطلب مُنعوا الصدقة، فجعل لهم حقاً في الفيء.

الثالث: سهم لليتامى الفقراء، ﴿وَالْيَتَامَى﴾ وهم أطفال المسلمين الذين مات آبائهم وهم دون سن الحلم، وقد يكون اليتيم غنياً إذا كان وارثاً لأموال أبيه، فلا يكون من الفقراء فاليتيم في حد ذاته ليس مقصوداً وإنما يضم إليه الحاجة، فإن كان محتاجاً وإلا فلا.

(١) ينظر بتصرف: تيسير الكريم الرحمن لابن سعدي (٣٣٨/٢).

الرابع: سهم للمساكين، ﴿وَالْمَسْكِينِ﴾ وهم الذين ليس لهم مال يكفيهم ضرورات الحياة.

الخامس: سهم لأبناء السبيل، ﴿وَأَبْنِ السَّبِيلِ﴾ وهم المسافرون الغرباء ممن نفذت أموالهم أو فقدت، وليس لهم وسيلة توصلهم إلى ديارهم ولو كانوا أغنياء في بلادهم. ويرى بعض العلماء أن هذه الآية موضحة ومفسرة للآية السابقة، ففيها تفصيل لما أجمل فيها، ولعل الرأي الأول هو الأصوب، لأنه ثبت في صحيح السنة أن النبي ﷺ لم يخمس أموال بني النضير، وأنها كانت له خاصة يوزعها كما يشاء، وقد أثر بها المهاجرين ولم يعط من الأنصار إلا ثلاثة، وأعطى سعد بن معاذ سيف أبي الحقيق، وكل ذلك تصرف باجتهاد الرسول ﷺ لأن الله تعالى جعل تلك الأموال له يتصرف فيها كما يشاء، ولم يكن بين ديار بني النضير وبين المدينة سوى ميلين في ذلك الوقت، ولم يركب إليها سوى رسول الله ﷺ فقد كان راكباً على جمل، ولم يكن للمسلمين فيها خيل ولا ركاب.

آيات الفبي والغنائم:

ومعلوم أن الفبي: هو ما حصل عليه المسلمون بدون حرب ولا قتال. وأن الغنائم ما غنمه المسلمون من العدو بسبب القتال. هذا: وفي القرآن ثلاث آيات تتعلق بتقسيم الفبي والغنائم. وهذه الآيات الثلاث هي: آية الأنفال ﴿وَأَعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُمْ مِنْ شَيْءٍ﴾ [آية: ٤١]. وآيتا سورة الحشر: ٧، ٦.

وقد نصت آية سورة الأنفال على أن الغنينة ما كانت بقتال، وذكر فيها لفظ الخمس. وأما آية الحشر الأولى فهي خاصة بأموال بني النضير وفذك، وقد نُصّ فيها على أن أموالهم حصلت بدون قتال.

أما الآية الثالثة وهي ما نحن بصدها، فلم يُذكر فيها أن ما أفاء الله به على رسوله،

هل هو بقتال أم بغير قتال؟ ولم يُذكر فيها لفظ الخمس كآية سورة الأنفال، ولذلك فإن من العلماء من ألحقها بآية سورة الأنفال، ومنهم من ألحقها بالآية التي قبلها.

قلت: إن الآية الأولى في سورة الحشر، نزلت في فَيءٍ خاص برسول الله ﷺ هو فَيءُ بني النضير، لأن ضمير ﴿مِنْهُمْ﴾ من قوله تعالى: ﴿وَمَا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ مِنْهُمْ﴾ يعود على بني النضير فحسب، وللحيثيات السابق ذكرها.

أما الآية الثانية في سورة الحشر أيضاً فهي في الفَيء العام، لبقية البلاد التي فُتحت في الماضي وتُفتح في المستقبل من غير قتال.

وآية الأنفال تخص غنائم الحرب.

فالغنيمة ما أخذت بالقتال، والفَيء ما أخذ صلحاً، وكل منهما يقسم خمسة أخماس.

ومصرف آية بني النضير خاص برسول الله ﷺ في حياته، وبعد مماته يُصرف في

مصالح المسلمين.

ومصرف الغنائم والفَيء العام واحد، يقسم أخماساً كما سبق.

علماً بأن سورة الأنفال، نزلت قبل سورة الحشر، حيث نزلت سورة الأنفال عقب غزوة بدر في السنة الثانية للهجرة، أما سورة الحشر فقد نزلت في أوائل السنة الرابعة للهجرة، حيث كانت غزوة بني النضير بعد غزوة بدر بستة أشهر.

هذا: وقد كان تقسيم الفَيء العام على هذا النحو، ليشمل مختلف طبقات المجتمع، حتى لا يستأثر به الأغنياء دون الفقراء، وهذا معنى ﴿كَيْ لَا يَكُونَ دُولَةً بَيْنَ الْأَغْنِيَاءِ مِنْكُمْ﴾ أي حتى لا يكون المال مُلكاً متداولاً بين الأغنياء وحدهم، ويُحرم منه الفقراء والمساكين.

قال القرطبي: فعلنا ذلك كي لا يتقاسمه الرؤساء والأغنياء بينهم دون الفقراء والضعفاء، لأن أهل الجاهلية كانوا إذا غنموا، أخذ الرئيس ربعها لنفسه، وهو ما يسمى - المربع - ثم يضطفي القائد منها أيضاً ما يشاء ^(١).

(١) تفسير القرطبي (١٨/١٦).

والمرباع هو ربع الغنائم يعطى لقائد الجيش، وقد أبطله الإسلام.
 وأبطل أيضاً: الصفايا، وهو أخذ القائد أو من يراه، النفيس من الغنائم.
 كما أبطل النسيطة، وهي ما يصيبه الجيش من العدو، وهو في طريقه إلى أرض المعركة.
 وأبطل الفضول، وهو ما يبقى بعد القسمة لا يُقسم ولا يُجزأ^(١).
 فهذه أربع حالات أبطلها الإسلام، وهي المرباع والصفايا والنسيطة والفضول.
 وهكذا أبطل الإسلام ما كان شائعاً في الجاهلية من استئثار قواد الجيش، ورؤساء
 القبائل، بالكثير من الغنائم، دون غيرهم ممن اشترك معهم في الحرب.
 وأموال الفياء أو الغنيمة أموال عامة، فتصرف لعموم المسلمين.

ليس في الآية دليل على الاشتراكية البائدة:

أما أموال الناس الخاصة، فليس للإسلام فيها سوى الزكاة، ولا يجوز استيلاء الدولة
 عليها، وتوزيعها على الفقراء، وهو ما عرف في العهد البائد بالاشتراكية الشيوعية.
 ومما استدل به بعضهم على الاشتراكية قوله تعالى: ﴿فَمَا لِلَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْ شَيْءٍ عِندَ اللَّهِ﴾^(٢)
 مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَهُمْ فِيهِ سَوَاءٌ ﴿[النحل: ٧١] وهو استدلال خاطئ فيه تطويع وتوظيف
 للنصوص في غير وجهها لموافقة الهوى والحكم.
 وقد أُلِّفَ كتب في ذلك وقتها، منها ما زعموه (اشتراكية الإسلام) وجعلوا عمر رضي الله عنه
 أبو الاشتراكيين، ومن ردّ على هذه المزاعم فألّف تحت عنوان (لا اشتراكية في
 الإسلام) كان نصيبه الشهادة في سبيل الله، وقد ذهبت الاشتراكية إلى غير رجعة، وقُضِيَ
 عليها في مهدها، ولكن أذنانها المتتبعين بمبادئها الفاسدة قد أعلنوا تمسكهم بها!!
 فاللهم أرنا الحق حقاً وارزقنا اتباعه وأرنا الباطل باطلاً وارزقنا اجتنابه.

ولا ينافي هذا ما جاء في الأثر «الناس شركاء في ثلاث: الماء والنار والكلأ» فإن
 هذه الثلاث إذا كانت في مورد عام، فالناس شركاء فيها، أما إذا كان فرع أو جزء منها

(١) التحرير والتنوير (١٨/٨٥).

في حيازة شخص معين، فهي ملك خاص به.
والإسلام يحترم الملكية الفردية ويصونها، ولا يجوز تأميمها بحال.

القاعدة الكلية والأصل العام في اتباع الرسول ﷺ:

ثم أمر القرآن بامثال أمر الرسول ﷺ واجتناب نهيه في كل ما أمر به ونهى عنه، ومن ذلك مصارف الفيء قال تعالى: ﴿وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ﴾ أي ما أعطاه لكم الرسول من مال، وما شرعه لكم من شرع، فخذوه بقوة واعملوا به ﴿وَمَا نَهَاكُمُ عَنْهُ فَأَنْتَهُوا﴾ والرسول ﷺ يأمر بكل خير، وينهى عن كل شر، وهذا الأمر شامل لأصول الدين وفروعه، ظاهره وباطنه وأن ما جاء به النبي ﷺ يتعين على العباد الأخذ به واتباعه ولا تجوز مخالفته.

والآية عامة في كل أمر: واجب، أو مندوب، أو مستحب، أو نهى محرم أو مكروه، ويدخل في ذلك التشريع والأحكام والسنن والآداب والأخلاق في كل قول أو فعل.
ونظرا لأن المال صنو النفس، وهو موطن الشح والحرص، والنفس تتطلع إليه، وتبذل المهج للوصول إليه، ومن ذلك أموال بني النضير، فقد توقع الصحابة قسمة بينهم، وإذ به يُمنع عنهم، ويحال بينهم وبينه، ويقسم المنقول منه على المهاجرين، ولا يقسم العقار الثابت، ويقال لهم: حدث هذا ﴿كَيْ لَا يَكُونَ﴾ المال ﴿دُولَةً﴾ أي متداولاً ﴿بَيْنَ الْأَغْنِيَاءِ مِنْكُمْ﴾ ويستوي في ذلك الأغنياء بأبدانهم أو بأموالهم.

ولذا: كان لابد للنفس أن تتحرك نحو هذا المال، وفعلاً ناقشوا عمر رضي الله عنه فيه، ولكن سوط الطاعة، وأمر التشريع الملجم جاء ليقول: إن هذا الحكم صادر عن الله تعالى، جاء به رسول الله ﷺ ﴿وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمُ عَنْهُ فَأَنْتَهُوا﴾ وشأن المؤمنين الاستجابة الفورية لأمر الله ورسوله: ﴿إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ الْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَنْ يَقُولُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا﴾ [النور: ٥١].

﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ﴾ [الأحزاب: ٣٦].

هذه جملة من الأحاديث في وجوب الاتباع:

١ - عن مسروق قال: جاءت امرأة إلى ابن مسعود رضي الله عنه فقالت: بلغني أنك تنهى عن الواشمة والواصلة، أشيء وجدته في كتاب الله، أو عن رسول الله ﷺ؟ قال: بلى، شيء وجدته في كتاب الله، وعن رسول الله ﷺ قالت: والله لقد تصفحت ما بين دفتي المصحف فما وجدت الذي تقول! قال: فما وجدت فيه ﴿وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا﴾؟ قالت: بلى، قال: فإني سمعت رسول الله ﷺ ينهى عن الواشمة والواشمة، والنامصة، قالت، فلعله في بعض أهلك؟ قال: فادخلي فانظري، فدخلت، فنظرت ثم خرجت، قالت: ما رأيت بأساً، فقال لها: أما حفظت وصية العبد الصالح ﴿وَمَا أُرِيدُ أَنْ أَمْلِكَكُمْ إِلَّا مَا أَنَهَاكُمْ عَنْهُ﴾^(١) [هود: ٨٨].

٢ - وفي لفظ آخر عن علقمة عن عبد الله بن مسعود أيضاً أنه قال: لعن الله الواشمات والمستوشمات، والمتنمصات، والمتفلجات للحسن، المغيرات خلق الله، فبلغ ذلك امرأة من بني أسد يقال لها: أم يعقوب، وكانت تقرأ القرآن، فأثته، فقالت: ما حديث بلغني عنك أنك تقول كذا وكذا، وذكرته، فقال عبد الله: وما لي لا ألعن من لعن رسول الله ﷺ وهو في كتاب الله، فقالت المرأة: لقد قرأت لَوْحِي المصحف فما وجدته، فقال: إن كنت قرأته لقد وجدته، قال الله عز وجل ﴿وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا﴾^(٢).

والوشم هو: غرز الإبرة في عضو من الجسم، ثم يحشى بالكحل.
والمستوشمة هي التي تطلب أن يفعل بها ذلك.
والنامصة هي التي تنتف شعر الحاجبين.

(١) مسند أحمد (٣٩٤٥) بإسناد قوي، والطبراني في الكبير (٩٤٦٨، ٩٤٧٠)، والنسائي في المجتبى (١٤٦/٨).

(٢) البخاري (٥٩٤٨، ٤٨٨٦، ٤٨٨٧)، ومسلم (٢١٢٥)، وأحمد (٤١٢٩) إسناده صحيح على شرط الشيخين،

والترمذي (٢٧٨٢)، والنسائي (١٤٦/٨)، وسنن النسائي الكبرى برقم (١١٥٧٨)، وابن ماجه (١٩٨٩).

والمفلةجة هي التي تُوسّع ما بين الشايتا طلباً للحسن.

٣ - وفي حديث أبي هريرة ؓ أن النبي ﷺ قال: «دعوني ما تركتكم، إنما هلك من كان قبلكم بسؤالهم واختلافهم على أنبيائهم، فإذا نهيتكم عن شيء فاجتنبوه، وإذا أمرتكم بأمر فأتوا منه ما استطعتم»^(١).

٤ - وعن ابن عمر وابن عباس ؓ، أنهما شهدا على رسول الله ﷺ أنه نهى عن الدُّبَاء، والحِثْم، والنَّقِير، والمزَفْت، ثم تلا ﴿وَمَاءَ أَنْتُمْ الرُّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا﴾^(٢). والدُّبَاء هو القرع، كانوا يصنعون منه نبيذاً.

والحِثْم جرار من خَذَف مدهونة باللون الأخضر، يُخْمَل فيها الخمر. والنَّقِير أصل النخلة، ينقر وسطه ويوضع فيه التمر ويلقى عليه الماء ليصير نبيذاً. والمزَفْت: إناء يطلى بالزفت وهو نوع من القار ثم يوضع فيه النبيذ. ٥ - وعن أبي رافع ؓ أن رسول الله ﷺ قال: «لا ألفين أحداً متكئاً على أريكته، يأتيه أمر مما أمرت به، أو نهيت عنه، فيقول: لا أدري، ما وجدنا في كتاب الله اتَّبَعْنَاهُ»^(٣). وهذا الحديث من أعلام النبوة، فقد وقع هذا من بعض الجاهلين. والآية دليل على وجوب الأخذ بصحيح السنة في كل الأمور.

٦ - وعن عائشة رضي الله عنها قالت: صنع رسول الله ﷺ أمراً، فترخص به، فبلغ ذلك ناساً من أصحابه، فكأنهم كرهوه وتزهدوا عنه، فبلغه ذلك، فقام خطيباً فقال: «ما بال رجال بلغهم عني أمر ترخصت فيه، فكرهوا وتزهدوا عنه، فوالله، لأنا أعلمهم

(١) البخاري برقم (٧٢٨٨)، وهذا لفظه، ومسلم برقم (١٣٣٧).

(٢) الحديث بدون الآية في صحيح مسلم برقم (١٩٩٧)، والنسائي (٥٩٥٩)، ومع الآية عند ابن أبي شيبة (٤٧٧/٧)، والنسائي (٥٦٦٠).

(٣) أبوداود (٤٦٠٥)، والترمذي (٢٦٦٣) وقال: هذا حديث حسن، وابن ماجه (١٣) والمسند (٢٣٨٦١) بنحوه، قال محققوه: حديث صحيح، وهذا إسناده حسن، وابن حبان (١٣)، والحاكم (١٠٨/١)، وصحيح سنن أبي داود (٣٨٤٩)، والطبراني (٩٣٦، ٩٧٥).

بالله وأشدّهم له خشية»^(١).

٧ - ورأى ابن مسعود ؓ رجلاً مُخْرِماً في ثيابه المخططة، فقال له: اطرح عنك هذا، فقال الرجل: أتقرأ عليّ بذلك آية من كتاب الله، فقال ابن مسعود: نعم، وتلا هذه الآية ﴿وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا﴾^(٢).

وكل ما أتى به الرسول ؓ فهو من عند الله تعالى، وهو بمنزلة القرآن في التشريع. والسنة تستقل بالتشريع، كما جاءت بتحريم لحوم الحمر الأهلية، وكل ذي مخلب من الطير، وناب من السباع، وتحريم الجمع بين المرأة وعمتها أو خالتها، ومع ابنة أخيها، أو ابنة أختها.

والآية عامة في الأخذ بكل ما أمرنا به الرسول ؓ وترك ما نهانا عنه. وفُرق الحديث بين عموم الأمر وعموم النهي، فالنهي يُجتنب كله دفعة واحدة، والأمر يُؤتى منه بالمستطاع (إذا أمرتكم بشيء فأتوا منه ما استطعتم، وإذا نهيتكم عن شيء فانتهوا) ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ﴾ أيها المؤمنون بامثال أوامره واجتنب نواهيه ﴿إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ لمن عصاه وخالف أمره ونهيه.

فِي فَضْلِ الْمُهَاجِرِينَ وَأَوْصَافِهِمْ

٨ - ﴿لِلْفُقَرَاءِ الْمُهَاجِرِينَ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا﴾^(٣) وَيَنْصُرُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَٰئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ ﴿٨﴾

هذه الآية متعلقة بما سبق من حكم الفيء، فقد أثنى الله سبحانه وتعالى في هذه الآيات الثلاث على: المهاجرين والأنصار والذين اتبعوهم بإحسان، وبين سبحانه في هذه الآية أن فقراء المهاجرين هم أولى الناس بالأخذ من المال الذي أفاءه الله على

(١) مسلم برقم (٢٣٥٦).

(٢) تفسير ابن عطية (٢٨٦/٥).

(٣) قرأ شعبة بضم الراء في ﴿وَرِضْوَانًا﴾ والباقون بالكسر.

رسوله ﷺ من بني النضير ونحوها فهم الذين اضطهرهم كفار مكة للخروج من ديارهم وأموالهم، قال تعالى: ﴿لِلْفُقَرَاءِ الْمُهَاجِرِينَ﴾ أي ما أفاء الله على رسوله من فيء أهل القرى المفتوحة صلحاً فهو لله ولرسوله ولذي القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل، من فقراء المهاجرين، لأنهم تركوا الديار والأموال، والأحباب والخلان وألجأهم الكفار إلى ترك الأهل والوطن، فهم ﴿الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ﴾ لأنهم آمنوا بالله والرسول.

ثم بين سبحانه دوافع هجرتهم فذكر لها سبب وغاية، أما السبب فلأنهم ﴿يَتَنَغَوْنَ فَضْلاً مِنْ اللَّهِ وَرِضْوَاناً﴾ أي لأنهم يطلبون من الله تعالى أن يتفضل عليهم بالرزق في الدنيا، والرضوان في الآخرة، أما غايتهم من هذه الهجرة، فهي نصرة دين الله تعالى، ونصرة رسوله ﷺ كما قال تعالى: ﴿وَيَنْصُرُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾ أي بالجهاد في سبيل الله لإقامة دولة الإسلام وإعلاء كلمة الله، هذا هو قضدهم من الهجرة، وقد وصف الله المهاجرين في هذه الآية بستة أوصاف، فهم:

- ١- فقراء. ٢- مهاجرون. ٣- أخرجوا من ديارهم وأموالهم.
 - ٤- يتنغون فضلاً من الله ورضواناً. ٥- وينصرون الله ورسوله بأنفسهم وأموالهم.
 - ٦- وهم الصادقون مع الله تعالى في دينهم.
- ولذا: فإن الله تعالى حكم في نهاية الآية بأنهم صادقون مع الله تعالى في هجرتهم، فقد خرجوا حُباً في الله ورسوله، مؤثرين ذلك على ملذات الدنيا وشهواتها ﴿أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ﴾ في أقوالهم وأفعالهم، فقد صدقوا إيمانهم بالأعمال الصالحة ومنها الهجرة والجهاد.
- قال قتادة في وصفهم: هم المهاجرون الذين تركوا الديار والأموال والعشائر، خرجوا حباً لله ورسوله، واختاروا الإسلام على ما كانوا فيه من شدة، حتى ذكر لنا أن الرجل كان يَعْضِبُ الحجر على بطنه، ليقيم به ضلُبه من الجوع، وكان الرجل يتخذ الحصيرة في الشتاء، ما له دينار غيرها^(١).

(١) تفسير الخازن (٢٤٨/٤)، والقرطبي (٢٠/١٨)، وقد أخرجه عبد بن حميد وبن المنذر كما في الدر المنثور (٣٦٦/١٤).

في صحيح مسلم عن عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إن فقراء المهاجرين يسبقون الأغنياء يوم القيامة إلى الجنة بأربعين خريفاً»^(١). وعن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «أبشروا صعاليك المهاجرين بالنور يوم القيامة، تدخلون الجنة قبل أغنياء الناس بنصف يوم، وذلك خمس مئة سنة»^(٢).

فِي فَضْلِ الْأَنْصَارِ وَأَوْصَافِهِمُ الْأَرْبَعَةَ

٩- ﴿وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِنْ قَبْلِهِمْ يُحْجِزُونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ^(٣) وَلَا يَحْدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَنْ يُوقِ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿١﴾﴾

أما الذين سكنوا دار الهجرة قبل المهاجرين، من الأوس والخزرج، الذين آمنوا بالله ورسوله طوعاً ومحبة واختياراً، وأووا رسول الله ﷺ ومنعوه من أهل الكفر والطغيان، فقد أخلصوا دينهم وعبادتهم لله، ومن صفاتهم أنهم يحبون إخوانهم الذين هاجروا إليهم حباً شديداً، وهكذا فقد مدح الله سبحانه الأنصار، وبين فضلهم وشرفهم، ووصفهم بأربعة أوصاف:

الوصف الأول: أن الإيمان قد تمكن من قلوبهم فحلّ فيها واتخذها مسكناً له: ﴿وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِنْ قَبْلِهِمْ﴾ وهم الأنصار الذين سكنوا المدينة قبل المهاجرين واتخذوها داراً لهم، كما أنهم اتخذوا الإيمان ديناً لهم في بيعة العقبة الأولى والآخرة، واستوطنوا المدينة، وآمنوا بالله ورسوله قبل هجرة المهاجرين إليها، وتمكن الإيمان من قلوبهم، وأخلصوا دينهم لله، حتى صارت المدينة دار الهجرة والإيمان، يأوى إليها

(١) مسلم برقم (٢٩٧٩).

(٢) ينظر: المسند (١١٦٠٤)، وهو حديث حسن، وأبوداود مطولاً (٣١٦٦)، والبغوي في شرح السنة (٣٩٩٢)، والطبراني في الأوسط (٨٤)، وأبو يعلى (١١٥١)، والترمذي (٢٣٥١)، وابن ماجه (٤١٢٣).

(٣) ضم حمزة ويعقوب الهاء من ﴿إِلَيْهِمْ﴾ وكسرها الباقون.

المؤمنون، ويلجأ إليها المهاجرون تحت حماية الأنصار لهم، إذ كانت البلاد كلها بلاد حرب وشرك وشر، ولم يزل أهل الإيمان يفدون على الأنصار حتى انتشر الإسلام وعمّ، وقويت شوكته، وقامت دولته، وفتح أهلها البلاد بالعلم والإيمان، والسيف والسنان.

وهذه الآية يصح أن تكون عطفاً على ما قبلها، فيكون للأنصار حق في الفياء كالمهاجرين، ويصح أن تكون استئنفا للثناء على الأنصار.

الوصف الثاني: أنهم ﴿يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ﴾ حباً شديداً، فقد ربط الإيمان بين قلوبهم برباط الأخوة والمحبة والمودة، فأنزلوهم منازلهم، وشاركوهم أموالهم، ومن كان له امرأتان عرض على أخيه إحداهما، لقد أحبوا الله ورسوله، وأحبوا أحبابهما، وأحبوا من نصر دينهما.

الوصف الثالث: ﴿وَلَا يَحِدُّونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّا أُوتُوا﴾ أي ولا يجد الأنصار في نفوسهم حزاة ولا غيظاً ولا حسداً، مما أخذ المهاجرون من مال الفياء أو الغنيمة أو غيرهما، بل طابت أنفسهم بذلك، فكان المهاجرون في دور الأنصار، دون حقد ولا حسد ولا ضغينة.

هذا: ولما غنم النبي ﷺ أموال بني النضير، دعا الأنصار وشكرهم فيما صنعوا مع المهاجرين، من إنزالهم إياهم في منازلهم، وإشراكهم لهم في أموالهم، ثم قال: «إن أحببتهم قسمت ما أفاء الله علي من بني النضير، بينكم وبين المهاجرين، وإن أحببتهم أعطيتهم ذلك وخرجوا من دياركم» فرضوا بقسمتها على المهاجرين وطابت أنفسهم بذلك، وبقاء الأنصار في دورهم والترحيب بهم، فمع أن النبي ﷺ قسم أموال بني النضير على المهاجرين دون الأنصار، فقد طابت نفوس الأنصار بهذه القسمة، ولم تتشوف نفوسهم أو تتطلع لشيء منها.

وسلامة الصدر من الضغائن، أقرب طريق يوصل إلى الجنة مع الإيمان، كما في قصة الرجل الذي أخبر عنه النبي ﷺ ثلاث مرات أنه من أهل الجنة، لأنه لا يبيت وفي

قلبه ضغينة لأحد^(١).

الوصف الرابع: ﴿يُؤْتِرُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ﴾ أي أن من صفات الأنصار: أنهم يقدمون المهاجرين وذوي الحاجات على أنفسهم، ولو كان بهم فقر وحاجة. وإيثار الأنصار للمهاجرين على أنفسهم، ليس عن غنى وعدم حاجة، بل هو عن حاجة ماسة، وفقر واضح، وذلك لأن محبتهم لله ورسوله وقُدِّمَتْ على محبة شهوات النفس وملذاتها، ومن ذلك قصة الأنصاري الذي نزلت الآية بسببه حين أثر ضيفه بما عنده من طعام وبات هو وأهله وأطفاله جوعاً^(٢).

وقد وصف الله قوماً بقوله: ﴿وَيُطْعَمُونَ الطَّعَامَ عَلَى حَيْدٍ مَسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا﴾ [الإنسان: ٨]. وفي الأثر (أفضل الصدقة جهد المقل).

وأفضل الصدقة (أن تصدق وأنت صحيح صحيح، تخشى الفقر وتأمل الغنى). والإيثار عكس الأثرة في المعنى، فالأول وصف للكريم والآخر وصف للبخيل.

وهذه جملة من الأحاديث والآثار في فضل الأنصار

١ - قال أنس رضي الله عنه: لما قدم النبي ﷺ المدينة، أتاه المهاجرون، فقالوا: يا رسول الله ما رأينا قوماً أبذل من كثير، ولا أحسن مواساة من قليل، من قوم نزلنا بين أظهرهم، لقد كفونا المؤنة، وأشركونا في المهنة، حتى خفنا أن يذهبوا بالأجر كله، فقال النبي ﷺ: «لا، ما دَعَوْتُمُ اللهَ لَهُمْ، وَأَنْتُمْ عَلَيْهِمْ»^(٣).

(١) ينظر الأثر عن أنس عند الحكيم الترمذي (١٦٧/٢)، والنسائي (١٠٦٩٩)، وضعيف الترغيب (١٧٢٨).

(٢) سيأتي ذكره قبل نهاية الآية تحت عنوان: أمثلة من إيثار الأنصار.

(٣) سنن الترمذي (٦٥٣/٤) في كتاب صفة القيامة باب ٤٤ قال الترمذي: حديث صحيح حسن غريب من هذا الوجه وصححه إسناده محقق المختارة للضياء المقدسي برقم (١٩٣٠-١٩٣٤) وصححه الحاكم ووافقه الذهبي (٣٦/٢)، وصححه إسناده الألباني في المشكاة (١١٩/٢)، وانظر: مسند أحمد (١٣٠٧٥) بإسناد صحيح على شرط الشيخين، وأخرجه أبو داود (٤٨١٢)، وأبو يعلى (٣٧٧٣)، والبخاري في الأدب المفرد (٢١٧)، والنسائي في عمل اليوم والليلة (١٨١).

٢ - وعن يزيد بن الأصم: أن الأنصار قالوا: يا رسول الله، اقسم بيننا وبين إخواننا من المهاجرين الأرض نصفين، قال: (لا)، ولكنهم يكفونكم المؤونة، وتُقاسمونهم الثمرة، والأرض أرضكم) قالوا: رضينا، فأنزل الله الآية^(١).

٣ - وقال قتادة في الآية: هم هذا الحي من الأنصار، أسلموا في ديارهم، فابتنوا المساجد قبل قدوم النبي ﷺ بسنتين، وأحسن الله الثناء عليهم في ذلك، وهاتان الطائفتان الأولتان من هذه الأمة، أثبت الله حظهما في الفيء، ثم ذكر الطائفة الثالثة، وأمروا أن يستغفروا لأصحاب النبي ﷺ ولم يؤمروا بسبهم.

٤ - وقال عمر رضي الله عنه: أوصي الخليفة من بعدي بالمهاجرين الأولين خيراً، أن يعرف لهم حقهم، وأن يحفظ لهم حرمتهم، وأوصيه بالأنصار الذين تبوءوا الدار والإيمان أن يقبل من محسنهم ويعفو عن سيئهم^(٢).

٥ - وقال سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه، عن المهاجرين: هذه منزلة قد مضت، وقال عن الأنصار: وهذه منزلة قد مضت، ثم قال عن التابعين ومن يأتي بعدهم: وبقيت هذه المنزلة، فأحسن ما أنتم كائنون عليه أن تكونوا بهذه المنزلة^(٣).

الوقاية من الشح سبب للفلاح:

ومن سلّم من البخل، ومنع الفضل من المال، ووقاه الله شر الحرص والشح، فقد أفلح ونجا ﴿وَمَنْ يُوقْ شَحَّ نَفْسِهِ﴾ أي الذي يوقه الله تعالى ويقيه شح نفسه ﴿فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ الذين فازوا بمطلوبهم وانتصروا على أنفسهم، والشح هو البخل الشديد مع الجشع والطمع، وهو غريزة سيئة في النفس، تحتاج إلى قمع وترويض على البذل والعطاء، والوقاية من شح النفس يشمل وقايتها من الشح في جميع ما أمرت به،

(١) تفسير القرطبي (٢٠/١٨)، وقد أخرجه عبد بن حميد وابن المنذر كما في الدر المنثور (٣٦٨/٤).

(٢) ابن أبي شيبة (٥٧٤/١٤)، والبخاري (٤٨٨٨، ١٣٩٢)، واللفظ من الأخير.

(٣) ينظر: الأثر في المستدرك (٤٨٤/٢) بتصحيح الحاكم له.

فإذا وُقي العبد شح نفسه، سمحت نفسه بأداء أوامر الله عز وجل طواعيه وانقياداً، وترك ما نهى الله عنه وإن كان محبوباً للنفس، وسمحت نفسه بإخراج الزكاة وبذل الصدقات وإنفاق المال ابتغاء وجه الله، وبذلك يحصل الفلاح للعبد في دنياه وأخراه، ومن لم يوق شح نفسه كان شحيح النفس بكل أنواع الخير، وبالتالي فهو ليس من المفلحين الفائزين.

أحاديث في الوقاية من الشح:

١ - جاء في الحديث عن جابر بن عبد الله رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال:

«اتقوا الظلم، فإن الظلم ظلمات يوم القيامة، واتقوا الشح، فإن الشح أهلك من كان قبلكم، حملهم على أن سفكوا دماءهم، واستحلوا محارمهم»^(١).

٢ - قال ابن عمر رضي الله عنهما: (ليس الشح أن يمنع الرجل ماله، إنما الشح أن تطمع عينه فيما ليس له)^(٢).

٣ - عن ابن مسعود رضي الله عنه أن رجلاً قال له: إني أخاف أن أكون قد هلكت! قال: وما ذاك؟ قال: إني سمعت رسول الله ﷺ يقول: ﴿وَمَنْ يُوقْ شَحَّ نَفْسِهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ وأنا رجل شحيح، لا يكاد يخرج مني شيء، فقال له ابن مسعود: ليس ذلك بالشح، ولكنه البخل، ولا خير في البخل، وإن الشح الذي ذكره الله في القرآن أن تأكل مال أخيك ظلماً^(٣).

٤ - ونقل عن ابن عمر رضي الله عنهما أن الشحيح يشح بما في يده، ويحرص على

(١) مسلم برقم (٢٥٧٨)، والمسند (٣٣٣/٣) من حديث جابر بن عبد الله ورقمه في المسند (١٤٤٦١) بإسناد صحيح، وهو في البخاري برقم (٤٨٨، ١٨٣)، والبيهقي في الشعب (١٠٨٣٢)، وعبد بن حميد (١١٤٣)، والبيهقي (٤١٦١).

(٢) حاشية الصاوي (١٩٠/٤)، وقد أخرجه عبد بن حميد وابن المنذر وابن مردويه عن ابن عمر كما في الدر (٣٧١/١٤).

(٣) أخرجه ابن أبي شيبة (٩٨/٩)، والطبري (٥٢٩/٢٢)، والطبراني (٩٠٦٠)، والحاكم (٤٩٠/٢)، والبيهقي (١٠٨٤١) وغيرهم.

(١)

أخذ ما في أيدي الناس، أما البخيل، فإنه ييخل بما في يده فحسب .

٥ - وعن أبي هريرة ؓ أن رسول الله ﷺ قال: «شر ما في الرجل: شح هالع، وجبن خالع»^(٢).

والهالع هو المحزن، والخالع هو الجبن المخيف الذي يخلع القلب من شدته، قال تعالى: ﴿إِنَّ الْإِنْسَانَ خُلِقَ هَلُوعًا﴾ ثم فسر سبحانه هذا الهلع فقال: ﴿إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعًا ۖ وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعًا﴾^(٣) [المعارج: ١٩ - ٣٥].

واستثنى من ذلك أهل الإيمان ممن يحافظون على الصلاة وغيرها من شرائع الإسلام.

٦ - وفي حديث عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال: «إياكم والشح، فإنه أهلك من كان قبلكم، أمرهم بالظلم فظلموا، وأمرهم بالفجور ففجروا، وأمرهم بالقطيعة فقطعوا»^(٤).

٧ - وعن أبي هريرة ؓ أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: «لا يجتمع غبار في سبيل الله، ودخان جهنم في جوف عبد أبداً، ولا يجتمع الشح والإيمان في قلب عبد أبداً»^(٥).
ومن اخرج زكاة ماله، وأكرم ضيفه، وواسى أهل المصائب فليس شحيحاً.
وكان عبد الرحمن بن عوف ؓ يطوف بالكعبة ويقول: اللهم قني شح نفسي، ولا يزيد على ذلك.

(١) أخرجه الخرائطي في مساويء الأخلاق (٣٥٣).

(٢) صحيح سنن أبي داود (٢١٩٢)، وابن أبي شيبة (٩٨/٩)، والبخاري في الأدب المفرد (٨/٦)، والبيهقي في الشعب (١٠٨٣١).

(٣) ينظر: المسند (١٥٩/٢) برقم (٦٨٣٧، ٦٤٨٧) بإسناد صحيح، من حديث طويل، وابن حبان (٥١٧٦)، والطيالسي (٢٢٧٢)، والبيهقي في الشعب (٧٤٥٨)، والسنن (١/ ٢٤٣)، وأبوداود برقم (١٦٩٨)، والنسائي في السنن الكبرى برقم (١١٥٨٣).

(٤) رواه النسائي (١٣/٦) برقم (٣١١٥، ٣١١٠) وهو في صحيح سنن النسائي (٢٩١٣)، وابن أبي شيبة (٣٣٤/٥)، والحاكم (٧٢/٢)، والبيهقي في الشعب (١٠٨٢٨، ٤٢٥٧) والمسند (٨٥١٢) حديث صحيح بطرقه وشواهده، فيه القعقاع بن اللجلاج وباقي رجال الإسناد ثقات من رجال الصحيح.

٩ - وجاء في الأثر عن أنس ؓ مرفوعاً «بريء من الشح من أدى الزكاة، وقرى الضيف، وأعطى في النائة»^(١).

ولقد ضرب الأنصار ؓ أروع الأمثال وأسماءها، في هذا المضممار، من ذلك:

١- أن هذه الآية نزلت في رجل من الأنصار، قيل: هو ثابت بن قيس، وكنيته أبو طلحة، أوهم هو وزوجه الضيف أنهما يأكلان، ونوما الصبيان وأطفأ السراج حتى أكل. فقد روى أبوهريرة ؓ قال: أتى رجل رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله، أصابني الجهد، فأرسل إلى نسائه فلم يجد شيئاً، فقال ﷺ: «ألا رجل يضيف هذا الليلة، ضيف رسول الله، رحمه الله» فقام رجل من الأنصار - وفي رواية أنه أبو طلحة - فقال: أنا يا رسول الله، فذهب به إلى أهله، فقال لامرأته: أكرمي ضيف رسول الله، قالت: والله ما عندي إلا قوت الصبئية، قال: إذا أراد الصبئية العشاء، فتؤميهن، وتعالين، فأطفئي السراج، ونطوي بطوننا الليلة، لضيف رسول الله ﷺ ففعلت، ثم غدا الضيف إلى رسول الله ﷺ فقال ﷺ: لقد عجب الله - أو ضحك - من فلان وفلانة، وأنزل الله عز وجل ﴿وَيُؤْتِرُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ﴾^(٢).

٢- ومن ذلك ما عرضه سعد بن الربيع على عبد الرحمن بن عوف أن يقاسمه ماله، وأن يتنازل له عن إحدى زوجتيه، وبمقدار ما يعجب المرء من كرم سعد، بمقدار ما يعجب من ثبل عبد الرحمن، وهو يقول لسعد: بارك الله لك في أهلك ومالك، أين السوق؟!

٣- ولما دعا النبي ﷺ الأنصار، لتقطع لهم قطائع بنخل البحرين، فقالوا: لا، إلا أن تقطع لإخواننا من المهاجرين مثلها؟

(١) تفسير الطبري (٢٨/٢٩)، وأبو يعلى كما في الإصابة (٢/٢٣٦)، والبيهقي في شعب الإيمان برقم (١٠٨٤٢)، والطبراني في الكبير (٤/١٨٨، ٤٠٩٦، ٤٠٩٧) وهو حديث مرسل.

(٢) البخاري برقم (٤٨٨٩، ٣٧٩٨)، ومسلم برقم (١٧٣، ٢٠٥٤)، والترمذي برقم (٣٣٠٤)، والنسائي في السنن الكبرى برقم (١١٥٨٢)، وابن أبي شيبة (١٣/٣٥٠)، والحاكم (٤/١٣٠)، والبيهقي (٩٧٩)، والطبري (٢٢/٥٢٨).

٤- ومن صور الإيثار: أن حذيفة العدوي أخذ يبحث يوم اليرموك، عن ابن عم له بين الجرحى، ومعه شيء من ماء، ولما وجدته، عرض عليه الماء، فوجده في حاجة شديدة إليه، ولكنه سمع رجلاً آخر يصيح، يطلب الماء فأثره على نفسه، قال حذيفة: فوجدته هشام بن العاص، فقلت له: اشرب، فإذا آخر يقول: آه، فأشار هشام أن انطلق إليه، فجئته، فإذا هو قد فاضت روحه، فرجعت إلى هشام، فإذا هو قد مات، فرجعت إلى ابن عمي، فإذا هو قد مات، فعجبت من إيثارهم، رحمهم الله ^(١).

٥ - قال ابن عمر رضي الله عنهما: أهدى لرجل من أصحاب رسول الله ﷺ رأس شاة، فقال: إن أخي فلاناً وعياله أحوج إلى هذا منا، فبعث به إليه، فلم يزل يبعث به واحد إلى آخر حتى تداولها أهل سبعة أبيات حتى رجعت إلى الأول، فنزلت ﴿وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ﴾ ^(٢).

٦- وقال أبو يزيد البسطامي: قدم علينا شاب من بلخ حاجاً، فقال: ما حدُّ الزهد عنكم؟ فقلت: إذا وجدنا أكلنا، وإذا فقدنا صبرنا، قال: هكذا عندنا كلاب بلخ، فقلت له: فما هو عنكم؟ فقال: إذا فقدنا صبرنا، وإذا وجدنا آثرنا ^(٣).

التَّابِعُونَ وَمَنْ بَعْدَهُمْ

١٠- ﴿وَالَّذِينَ جَاءُوا مِنْ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًّا لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ﴾ ^(١)
في الآيتين السابقتين وهذه الآية، رتب الله سبحانه وتعالى المؤمنين على ثلاثة منازل: المهاجرين، ثم الأنصار، ثم التابعون ومن تبعهم بإحسان إلى قيام الساعة، فإن من شأن من جاء بعد المهاجرين والأنصار أن يذكروا السابقين عليهم بالرحمة والدعاء، وأن من

(١) تفسير ابن عطية (٢٨٧/٥).

(٢) أخرجه الحاكم وصححه (٤٨٢/٢)، والبيهقي في شعب الإيمان (٣٤٧٩).

(٣) تفسير ابن عطية (٢٨٧/٥).

ذَكَرَهُمْ بِسُوءِ فَهُوَ خَارِجٌ عَنْ أَقْسَامِ الْمُؤْمِنِينَ الْوَارِدَةِ فِي هَذِهِ الْآيَاتِ، فَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَالَّذِينَ جَاءُوا مِنْ بَعْدِهِمْ﴾ وَهُمْ الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ جَاءُوا بَعْدَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ.

وَيَجْمَعُ هَذِهِ الْفُرُقَ الثَّلَاثَ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَالسَّيِّئُونَ الْأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُمْ بِإِحْسَنٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ﴾ [التوبة: ١٠٠] كَمَا فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿مَا آفَاءَ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ مِنْ أَهْلِ الْقُرَى﴾ أَيِ فِي سَائِرِ الْفَتْوحَاتِ بَعْدَهُ ﷺ وَلَا يَخْتَصُّ بِالْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ، بَلْ يَشْمَلُ كُلَّ مَنْ يَوْجَدُ مِنَ الْمُسْلِمِينَ أَبَدَ الدَّهْرِ، وَبِهَذَا فَهَمُ عَمْرٍ ﷺ مِنْ هَذِهِ الْآيَاتِ، ثُمَّ قَالَ: مَا بَقِيَ أَحَدٌ مِنْ أَهْلِ الْإِسْلَامِ إِلَّا وَقَدْ دَخَلَ فِي ذَلِكَ.

وَحُسْبُهُمْ مِنَ الْفَضْلِ أَنْ يَسِيرُوا خَلْفَ أَصْحَابِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَأَنْ يَقْتَتِلُوا أَثَرَهُمْ وَيَهْتَدُوا بِهَدْيِهِمْ.

ثُمَّ بَيْنَ سَبْحَانَهُ وَتَعَالَى أَنْ التَّابِعِينَ وَمَنْ بَعْدَهُمْ مِنْ شَأْنِهِمْ أَنْهُمْ يَسْأَلُونَ اللَّهَ تَعَالَى الْمَغْفِرَةَ لَهُمْ، وَلَمَنْ سَبَقَهُمْ مِنْ إِخْوَانِهِمْ فِي الدِّينِ، وَيُكُونُونَ لَهُمْ فِي أَنْفُسِهِمُ الْمُحِبَّةَ وَالْمُودَةَ، فَهُمْ ﴿يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ﴾ إِنَّهُمْ يَدْعُونَ لَهُمْ، وَيَعْتَرِفُونَ بِأَنْهُمْ أَهْلُ السَّبْقِ فِي الْإِيمَانِ، وَأَهْلُ الْفَضْلِ، وَأَنْ أَخَوْتَهُمْ أَعَزُّ وَأَشْرَفُ مِنْ أَخَوَةِ النَّسَبِ.

وَهَذَا الدُّعَاءُ يَشْمَلُ جَمِيعَ الْمُؤْمِنِينَ، السَّابِقِينَ مِنَ الصَّحَابَةِ، وَاللَّاحِقِينَ مِمَّنْ جَاءُوا بَعْدَهُمْ، بِسَبَبِ الْمَشَارَكَةِ فِي الْإِيمَانِ الْمَقْتَضَى لِعَقْدِ الْأَخَوَةِ بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ، وَهُمْ يَسْأَلُونَ اللَّهَ تَعَالَى أَلَّا يَجْعَلَ فِي قُلُوبِهِمْ غِلًّا وَلَا حَقْدًا وَلَا حَسَدًا لِإِخْوَانِهِمْ فِي الْعَقِيدَةِ فَيَدْعُونَ رَبَّهُمْ قَائِلِينَ: ﴿وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًّا﴾ أَيِ غِشًّا وَبَغْضًا وَحَسَدًا ﴿لِلَّذِينَ آمَنُوا﴾ وَيَدْخُلُ فِي ذَلِكَ الصَّحَابَةُ دُخُولًا أَوَّلِيًّا، فَمَنْ وَجَدَ فِي قَلْبِهِ غِلًّا عَلَى وَاحِدٍ مِنْهُمْ فَقَدْ أَصَابَهُ نَزْغٌ مِنَ الشَّيْطَانِ، وَكَذَا مَنْ سَبَهُمْ أَوْ أَذَاهُمْ أَوْ انْتَقَصَ مِنْ شَأْنِهِمْ، وَإِذَا انْتَفَى الْغِلُّ عَنِ الْقَلْبِ ثَبَتَ ضِدُّهُ وَهُوَ الْمُحِبَّةُ وَالْإِيمَانُ ﴿رَبَّنَا إِنَّكَ رَءُوفٌ﴾ بِعِبَادِكَ ﴿رَحِيمٌ﴾ بِهِمْ، وَمِنْ كَمَالِ الرَّأْفَةِ وَالرَّحْمَةِ تَوْفِيقُهُمْ لِلْقِيَامِ بِحَقُوقِ اللَّهِ وَحَقُوقِ الْعِبَادِ.

ومعنى الآيات: وما أفاء الله على رسوله من أهل القرى التي فتحت ضلحاً فلله وللرسول، ولهؤلاء المسلمين من المهاجرين والأنصار، وللذين يجيئون من بعدهم إلى يوم القيامة، ما أقاموا على محبة أصحاب رسول الله ﷺ.

من سب الصحابة أو أساء إليهم ليس له حق في الشيء ولا في الخمس: فمن ترضى على أصحاب رسول الله ﷺ وترحم على من بعدهم، ولم يكن في قلبه غل لهم، فله حظ من فئ المسلمين، ومن سبهم، أو سب بعضهم، ولم يترحم عليهم، وكان في قلبه غل لهم، أو لبعضهم فليس له حق في شيء من فئ المسلمين بنص الكتاب.

وهذه جملة من الأحاديث والآثار في المعنى:

١- قال مالك بن أنس رحمته الله: من تنقص أصحاب رسول الله ﷺ أو كان في قلبه غل عليهم، فليس له حق في فئ المسلمين ^(١). ومن لم يستغفر للصحابة عموماً، ولم يطلب رضوان الله تعالى لهم، فقد خالف ما أمره الله به في هذه الآية.

٢- وقال ابن عطية: جاء عراقيون على علي بن الحسين، فسبوا أبا بكر وعمر وعثمان، فقال لهم: أمن المهاجرين الأولين أنتم؟ قالوا: لا، قال: أفمن ﴿وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ﴾ قالوا: لا، قال: فقد تبرأتم من هذين الفريقين، وأنا أشهد أنكم لستم من الذين قال الله فيهم: ﴿وَالَّذِينَ جَاءُوا مِنْ بَعْدِهِمْ﴾ الآية، قوموا، فعل الله بكم وفعل ^(٢).

٣- وقال الحسن: أدركت ثلاث مئة من الصحابة، منهم سبعون بذرياً، كلهم يحدثني أن النبي ﷺ قال: «من فارق الجماعة قيد شبر، فقد خلع ربة الإسلام من عنقه» ^(٣).

(١) زاد المسير (٢١٦/٨)، وتفسير الخازن (٢٥٠/٤).

(٢) تفسير ابن عطية (٢٨٨/٥)، وانظر الدر المنثور (٣٨٤/١٤) كما أخرجه ابن مردويه عن ابن عمر.

(٣) والحديث في المسند عن أبي ذر برقم (٢١٥٦١)، قال محققوه: صحيح لغيره، وهذا إسناد ضعيف لجهالة خالد بن وهبان، وأخرجه ابن أبي عاصم (١٠٥٤).

وفي حديث ابن عباس رضي الله عنهما: «من فارق الجماعة شبراً فمات، إلا مات ميتة جاهلية»^(١).

٤- وفي الصحيحين عن أبي سعد الخدري رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال:

«لا تسبوا أصحابي، فلو أن أحدكم أنفق مثل أحد ذهباً ما بلغ مدّ أحدهم ولا نصيفه»^(٢).

٥- وفي صحيح مسلم عن عروة بن الزبير رضي الله عنه قال: قالت عائشة رضي الله عنها:

(يا ابن أختي، أمروا أن يستغفروا لأصحاب رسول الله ﷺ فسبّوهم)^(٣).

٦- وعن عبد الله بن مغفل رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «الله الله في أصحابي

لا تتخذوهم غرضاً بعدي، فمن أحبهم فبحبي أحبهم، ومن أبغضهم فببغضي أبغضهم، ومن آذاهم فقد آذاني، ومن آذاني فقد آذى الله، ومن آذى الله يوشك أن يأخذه»^(٤).

وما وقع من بعض الصحابة من مخالفات، وما حدث بين بعضهم من نزاع، وما جرى بين عائشة وعلي، وبين علي ومعاوية، كان انتصاراً للحق في نظر كل منهما.

فيجب علينا أن نمسك عن ذلك ولا نخوض فيه، فلن يترتب عليه شيء في حياتنا، وغير الأنبياء من البشر يقع منهم الصواب والخطأ.

٧ - ذكر القرطبي أن عمر رضي الله عنه دعا المهاجرين والأنصار واستشارهم فيما فتح الله عليه من البلاد، ثم قال لهم: لقد مررت بآيات سورة الحشر الثلاث فما بقي أحد من أهل الإسلام إلا وقد دخل فيها.

التَّحَالُفُ الْكَاذِبُ بَيْنَ الْمُتَافِقِينَ وَالْيَهُودِ عَلَى النَّيْلِ مِنَ الْإِسْلَامِ وَأَهْلِهِ

١١ - ﴿لَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ نَافَقُوا يَقُولُونَ لِإِخْوَانِهِمُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَئِنْ أُخْرِجْتُمْ

(١) الحديث أخرجه البخاري (٧٠٥٤)، ومسلم (١٨٤٩) عن ابن عباس، وهو عن عمر في المسند (٦١٦٦)، وعن عامر بن ربيعة (١٥٦٨١، ١٥٦٩٣).

(٢) البخاري (٣٦٧٣)، ومسلم (٢٥٤١).

(٣) مسلم (٣٠٢٢).

(٤) الترمذي برقم (٣٨٦٢) قال أبو عيسى: هذا حديث حسن غريب لا نعرفه إلا من هذا الوجه.

لَنُخْرِجَنَّكُمْ وَلَا تُطِيعُ فِيكُمْ أَحَدًا أَبَدًا وَإِنْ قُوتِلْتُمْ لَنَنْصُرَنَّكُمْ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴿١١﴾

هذه الآية وما بعدها، حكاية لما جرى ويجري بين أهل الكفر وأهل النفاق، في كل زمان ومكان، من تحالف وتعاون على المكر بالمسلمين وتدمير المكاييد للإسلام وأهله، وتعجب من أحوالهم وسلوكهم.

ولما ذكر سبحانه أوصاف المؤمنين الصادقين، أتبع ذلك بذكر أوصاف المنافقين المخادعين الذين صادقوا اليهود وحالفوهم على حرب المسلمين، وكان المنافقون قد أرسلوا إلى بني النضير سرّاً يقولون لهم: لا تخرجوا من حصونكم، فنحن معكم، ومصيرنا مصيركم.

ومعنى الآية: ألم يصل إلى علمك - أيها الرسول - حال أهل النفاق، الذين يقولون لإخوانهم في الكفر من أهل الكتاب، أثناء محاصرتهم في حصون بني النضير، كي تقوى نفوسهم على مواجهة محمد ﷺ وقتاله وهم كاذبون فيما قالوه، وهذا أمر يدعو إلى العجب، فقد طمّعوا إخوانهم في نصرتهم، ثم خذلوهم: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ نَافَقُوا﴾ هؤلاء المنافقون هم فريق من بني عوف، من الخزرج، منهم: عبد الله بن أبي، وعبد الله بن نبتل، ورافعة بن زيد، ورافعة بن تابوت، وأوس بن قيطي، ووديعه، وسويد، وداعس. هؤلاء المنافقون ومن معهم، أرسلوا إلى بني النضير حين حاصرهم المسلمون في حصونهم، يقولون لهم: اثبتوا في معاقلكم وحصونكم، فنحن معكم، إن قوتلتهم قاتلنا معكم، وإن أخرجتم خرجنا معكم.

فانتظروا نصرهم لهم كما وعدوهم، فلم يفعلوا، وقذف الله في قلوبهم الرعب، فسألوا النبي ﷺ أن يُجْلِيَهُمْ وَيُكَفَّ عَنْ دَهَائِهِمْ، ففعل، وهذا معنى: ﴿يَقُولُونَ لِإِخْوَانِهِمُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ﴾ وهم بنو النضير، إخوان المنافقين في الكفر، وهذه الأخوة ليست أخوة في النسب، وإنما هي أخوة في الدين، فهم متحدين معهم في الكفر بمحمد ﷺ يقولون لهم: ﴿لَئِنْ أُخْرِجْتُمْ﴾ أي من ضواحي المدينة ﴿لَنُخْرِجَنَّكُمْ﴾ ونصاحبكم

في الخروج منها ﴿وَلَا تُطِيعُ فِيكُمْ أَحَدًا أَبَدًا﴾ أي لا نطيع أحداً في عدم نصرتكم، أو يسألنا أن نخذلكم، ولا نخرج مع أحد يقاتلكم، أو يمنعنا من نصرتكم، أو يخوفنا ويعد لنا عنكم، ولن نسمع لمحمد ﷺ أن يأمرنا بخذلانكم، ولن نطيعه في قتالكم ﴿وَلِنْ قُوتِلْتُمْ لَنَنْصُرَنَّكُمْ﴾ أي وإن قاتلكم المسلمون فسوف نعاونكم عليهم، ونقاتلهم معكم.

قال تعالى: ﴿وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾ فيما وعدوا به يهود بني النضير، وغرورهم به، فإن الكذب والغرور والخداع وصفهم والنفاق والجبن مصاحباً لهم.

وفي مثل هذه الموالاة يقول سبحانه ﴿فَتَرَى الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ يُسْرِعُونَ فِيهِمْ يَقُولُونَ نَحْشَى أَنْ تُصِيبَنَا دَائِرَةٌ﴾ [المائدة: ٥٢] قال تعالى مكذبا لهم:

١٢- ﴿لِنْ أُخْرِجُوا لَا يَخْرُجُونَ مَعَهُمْ وَلِنْ قُوتِلُوا لَا يَنْصُرُونَهُمْ وَلِنْ نَصْرُوهُمْ لَوْلَاكَ آلَاذْبَرْنَا لَهُمْ لَا يَنْصُرُونَ﴾ ﴿١٢﴾

لقد كذب الله المنافقين في وعدهم لليهود بمناصرتهم لهم في قوله: ﴿لِنْ أُخْرِجُوا لَا يَخْرُجُونَ مَعَهُمْ﴾ أي: لئن أخرج المؤمنون اليهود من مساكنهم بالمدينة - على سبيل الفرض - فلن يخرج معهم المنافقون لمحبتهم للأوطان، وعدم صبرهم على القتال، وعدم وفائهم بوعدهم.

﴿وَلِنْ قُوتِلُوا لَا يَنْصُرُونَهُمْ﴾ أي: ولئن قاتل المؤمنون اليهود، فإن المنافقين لا ينصرونهم، بل يستولى عليهم الجبن، ويملكهم الفشل، ويخذلون إخوانهم، وهم أحوج ما يكون إليهم. ﴿وَلِنْ نَصْرُوهُمْ لَوْلَاكَ آلَاذْبَرْنَا لَهُمْ﴾ أي: ولئن قاتل المنافقون مع اليهود لينصروهم ويدفعوا عنهم على سبيل الفرض والتقدير، لئولن الأدبار فراراً منهزمين من المسلمين.

﴿ثُمَّ لَا يَنْصُرُونَ﴾ أي: لن تنفعهم نضرة المنافقين لهم، ولن ينصرهم الله، بل يخذلهم ويذلهم، ولن ينفعهم نفاقهم.

والذي أخبر به القرآن من الأمور الغيبية التي تحققت، فإن بني النضير حين أخرجوا من حصونهم، لم يخرج معهم المنافقون الذين وعدوهم بذلك، ولم يقاتلوا معهم، ولم

ينصروهم، وكذلك الشأن بالنسبة ليهود بني قريظة وخير في المستقبل، فإن المنافقين لن يفعلوا لهم شيئاً بل يضروهم، كما قال تعالى: ﴿لَوْ خَرَجُوا فِيكُمْ مَا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا وَلَا وُضْعُوا خِلَالَكُمْ﴾ [التوبة: ٤٧].

وهذا النفاق الذي نزلت بسببه الآيات، لا يقتصر على العصر النبوي فحسب، فهو موجود وحاصل في كل زمان ومكان.

وأكثر ما تُمنى به البلاد من تدهور أمني وسياسي وعسكري واقتصادي هو بسبب هؤلاء المنافقين.

ونحن نعيش عصر الانتفاضة الفلسطينية - وقت كتابة هذه السطور - ونرى كيف يستعين اليهود بغيرهم للتعرف على أماكن تواجد من يريدون قتلهم من المسلمين، وبعض المنافقين لا يرون حرجاً في أن يعيشوا مع اليهود ويقاسمونهم حياة خشة أو ناعمة، وكلاهما قد أَلِفَ الآخر، لأن الفريقين لا دين لهم.

مِنْ أَوْصَافِ الْمُنَافِقِينَ وَالْيَهُودِ فِي الْحُرُوبِ

١٣ - ﴿لَأَنْتُمْ أَشَدُّ رَهَبَةً فِي صُدُورِهِمْ مِنَ اللَّهِ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَفْقَهُونَ﴾ (١٣)

ثم كشف الله سبحانه عن طبيعة المنافقين وبين السبب الموجب لعدم نُصرة المنافقين لليهود، وذلك بأنهم في خوفهم من المؤمنين، أشد من خوفهم من الله تعالى ﴿لَأَنْتُمْ﴾ أيها المسلمون ﴿أَشَدُّ رَهَبَةً﴾ أي خوفاً وخشية ﴿فِي صُدُورِهِمْ﴾ أي في صدور المنافقين ﴿مِنَ اللَّهِ﴾ لخوف المنافقين واليهود منكم، فإن خَشْيَتُهُمْ إياكم في السر - أيها المؤمنون - أعظم وأشد في صدورهم، من خوفهم وخشيتهم من الله تعالى، فهم يرهبونكم ويخافون منكم سراً أشد من رهبتهم من الله تعالى، وذلك لعدم وجود الإيمان في قلوبهم، ولأنهم لا يعرفون حقائق الأمور، ولا يدركون عواقبها.

وإذا علم المسلمون أن عدوهم يرهّبهم، قويث نفوسهم، وأقدموا على لقاءه.

وهذه بشرى من الله تعالى للمؤمن بأنه أوقع الرعب منهم في قلوب عدوهم،

وبَيَّن سبحانه أنها رهبة خفية داخل صدورهم، مع أنهم يتظاهرون بالشجاعة والاستعداد للمواجهة.

وقد أطلع الله رسوله على دخائلهم، ثم ذمهم سبحانه، مبينا أن خوفهم من الناس أشد من خوفهم من الله تعالى بسبب قلة فقههم، ولو أنهم كانت لهم عقول تُحسِّن الإدراك، لكان خوفهم من الله تعالى أشد وأعظم، وهذا معنى: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَفْقَهُونَ﴾ أي: لا يعقلون عظمة الله تعالى ويدركون حقيقة الإيمان به، ولا يرهبون عقابه، ولا يرجون ثوابه.

والفقه: فهم المعاني الخفية، كما قال تعالى: ﴿فَالْهُوَ لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثًا﴾ [النساء: ٧٨] وهذه الرهبة التي في نفوسهم علامة النفاق، لأنهم يُظهرون خوفهم من الله تعالى، ويُبطنون خوفهم من المؤمنين، ورهبتهم السرية أشد من رهبتهم العلنية. وقد وصف الله تعالى قوماً بقوله: ﴿إِذَا فُزِقُوا مِنْهُمْ يَخْشَوْنَ النَّاسَ كَخَشْيَةِ اللَّهِ أَوْ أَشَدَّ خَشْيَةً﴾ [النساء: ٧٧].

١٤ - ﴿لَا يُقَاتِلُونَكُمْ جَمِيعًا إِلَّا فِي قُرَى مُحَصَّنَةٍ أَوْ مِنْ وَرَاءِ جُدُرٍ^(١) بِأَسْهُمٍ^(٢) يَنْتَهُمُ شَدِيدٌ تَحْسَبُهُمْ جَمِيعًا وَقُلُوبُهُمْ شَتَّى ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَعْقِلُونَ

وصف الله اليهود في هذه الآية بوصفين:

الوصف الأول: أنهم جناء: لا يقدرّون على قتال المسلمين إلا وهم متحصنين في قلاعهم وحصونهم، من وراء الحيطان والأسوار، ولا يقاتلونكم مجتمعين من موطن واحد، بل يتحصنون بالخنادق والأنفاق، لأنهم يَعْجُزُونَ عن مبارزتكُم ومواجهتكم وجهاً لوجه.

ولقد رأينا هذا بأعيننا، رأينا الجندي الإسرائيلي وهو يختبئ وراء باب سيارته أو

(١) قرأ ابن كثير وأبو عمرو بكسر الجيم وفتح الدال بعدها على الأفراد (جدار) والباقون بالجمع ﴿جُدُرٍ﴾ بضم الجيم والدال وحذف الألف.

(٢) أبدل الهمزة من ﴿بِأَسْهُمٍ﴾ ألفاً أبو عمرو بخلف عنه، وأبو جعفر، وسكنها الباقون.

مدرّعته، حاملاً مدفعه في مواجهة طفل الحجارة، وهو يُصوّب رصاصته من خلف الباب! ﴿لَا يَقْنَلُونَكُمْ جَمِيعًا﴾ أي لا يواجهكم اليهود في ساحة القتال وهم مجتمعين أو منفردين وجهاً لوجه ﴿إِلَّا فِي قُرَى مُحَصَّنَةٍ﴾ بالأسوار والبيوت والخنادق والحواجز ﴿أَوْ مِنْ وَرَاءِ جُدُرٍ﴾ أي من خلف الحيطان والأبواب، وهذا قتال من لا يقيمون في قراهم، فيقاتلونكم متفرقين، كل فريق في قريته، خائف مترس، وقد وصفهم القرآن بهذا لأنهم شعب بلا وطن، فهم قوم رحل أهل بداعة، كما أرخ لهم أخوهم يوسف عليه السلام في قوله: ﴿وَقَدْ أَحْسَنَ بِي إِذْ أَخْرَجَنِي مِنَ السِّجْنِ وَجَاءَ بِكُمْ مِنَ الْبَدْوِ﴾ [يوسف: ١٠٠] فقوله: ﴿مِنَ الْبَدْوِ﴾ تشير إلى أنهم متقلون لا وطن لهم.

وهم لا يبدؤونكم بهجوم بريّ فيه مواجهة، وإن هاجمتموهم لا يبرزون لقتالكم. وفي هذا دليل على أن مصيرهم في النهاية هو الهزيمة، كما قال عليّ ؑ: ما حُورب قوم في عُقر دارهم إلا ذلّوا.

الوصف الثاني: ﴿بِأَسْهُمٍ يَبْتَغِيهِمْ شَدِيدٌ﴾ أي أن عداوتهم فيما بينهم، عداوة شديدة، فهم لا يتفقون على رأي، ولا يجتمعون على كلمة، وهم مختلفون فيما بينهم، متخاصمون أشد الخصام، ومع هذا فهم متفقون على عداوة المسلمين. قال قتادة: أهل الباطل مختلفة أراؤهم، مختلفة أهواؤهم، مختلفة شهادتهم، وهم مجتمعون في عداوة أهل الحق^(١).

ولقد رأينا اختلافهم فيما بينهم، عندما هاجر يهود الفلاشا من السودان إلى الأرض المحتلة، حيث وجدوا أنفسهم منبوذين مضطهدين، مواطنين من الدرجة الثالثة، مما جعلهم يرتكبون بعض الجرائم، ويعودون من حيث أتوا.

وقد يراهم الرائي في ظاهر حالهم متفقين، ولذلك فإن الله تعالى قد نفى ذلك عنهم في قوله ﴿تَحْسَبُهُمْ جَمِيعًا وَقُلُوبُهُمْ شَتَّى﴾ تظن أنهم طائفة واحدة، وهم شيع وأحزاب، لا

(١) تفسير القرطبي (٣٥/١٨)، والخازن (٢٥٠/٤).

يجتمعون على كلمة واحدة، وقلوبهم متفرقة متخاصمة متنازعة.

وما دام الأمر كذلك فلا تبالوا بهم - أيها المؤمنون - بل أغلظوا عليهم وجاهدوهم بكل شدة، كما قال تعالى: ﴿يَأَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ﴾ [التحريم: ٩].
وقال سبحانه: ﴿يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا قَاتِلُوا الَّذِينَ يَلُونَكُمْ مِنَ الْكُفَّارِ وَلْيَجِدُوا فِيكُمْ غِلْظَةً﴾ [التوبة: ١٢٣].

والسبب في أن بأس اليهود بينهم شديد، وأن قلوبهم شتى: أنهم انساقوا وراء الأحقاد والتشقي، وأهملوا النظر في عواقب الأمور، وما تقتضيه المصلحة، فصارت عقولهم كأنها معدومة ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَعْقِلُونَ﴾ أمر الله ومراده، ولا يتدبرون آياته، ولو كانت عقولهم تدرك الحقائق لكانت كلمتهم مجمعة، وقلوبهم مؤتلفة، ولما آثروا المفضول على الفاضل، ولآمنوا بخاتم النبيين.

وختمت هذه الآية بـ ﴿لَا يَعْقِلُونَ﴾ لأن العقل هو أداة النظر في عواقب الأمور.
أما ﴿لَا يَفْقَهُوهُ﴾ الذي ختمت به الآية السابقة، فلأن الفقه هو فهم المعاني الخفية بالنظر الثاقب، فكان هذا الختام مناسباً للآية قبلها.

لِلْمُنَافِقِينَ مَعَ بَنِي قَيْنُقَاعٍ وَعَدٌّ كَاذِبٌ أَيْضاً

١٥ - ﴿كَمَثِلِ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ قَرِيبًا ذَاقُوا وَبَالَ أَمْرِهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾

ولم يكن حادث بني النضير هو الأول من نوعه، فقد سبقه حادث بني قينقاع الذي تشير إليه هذه الآية، أي مثل يهود بني النضير الذين حلّ بهم عقوبة الله، كمثّل يهود بني قينقاع الذين سبقوهم، وكان خروجهم من المدينة قبل خروج بني النضير بزمن ليس بطويل، وقد كان بينهم وبين رسول الله ﷺ عهد وأمان كذلك، فلما انتصر المسلمون على المشركين في غزوة بدر، حققوا على المسلمين، وخافوا أن يضعف مركزهم أمام المسلمين، وبلغ رسول الله ﷺ ما يتهامسون به، وما يخفونه من الشر، فذكّرهم النبي ﷺ بالعهد الذي بينه وبينهم، وحذّرهم من مغبة نقضه، فردّوا عليه ردّاً شديداً، حيث قالوا:

يا محمد، لا يغرنك أنك لقيت قوماً لا علم لهم بالحرب فأصبت منهم فرصة، والله لئن حاربناك لتعلمن أننا نحن الناس.

وأخذوا يتحرشون بالمسلمين، ومن ذلك أن امرأة من العرب جلست إلى صائغ يهودي في سوق بني قينقاع، فأخذ اليهودي يطلب منها كشف وجهها فأبت، فعقد الصائغ طرف ثوبها الفضفاض في أعلى ظهرها وهي لا تشعر، فلما قامت تكشففت وضحك الناس، فصاحت، فوثب رجل من المسلمين على الصائغ فقتله، وقتل اليهودي المسلم، واستنجد كل فريق بذويه، وحدث بينهم قتال، فحاصرهم الرسول ﷺ حتى نزلوا على حكمه.

وقبل النبي ﷺ أن يجلؤا عن المدينة، وأن يأخذوا مالهم ومتاعهم إلا السلاح، ورحلوا إلى الشام.

وكما حلّ بيني قينقاع من الخزي والنكال، فتركوا منازلهم ورحلوا، حلّ أيضاً بالمشركين يوم بدر من القتل والأسر، فقد زين الشيطان لكفار قريش سوء أعمالهم وقال لهم ﴿لَا غَالِبَ لَكُمْ الْيَوْمَ مِنَ النَّاسِ وَإِنِّي جَارٌّ لَكُمْ فَلَمَّا تَرَآتِ الْاَفْئَتَانَ نَكَصَ عَلَىٰ عَقَبَيْهِ وَقَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِّنْكُمْ إِنِّي أَرَىٰ مَا لَا تَرَوْنَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ وَاللَّهُ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ [الأنفال: ٤٨].

فقد حدث من كفار قريش مع النبي ﷺ كما حدث من بني قينقاع.

والقرآن الكريم يضرب المثل لبني النضير بمن أخرجوا من ديارهم قبلهم بسبب غدرهم، وبمن حلّت بهم الهزيمة المنكرة بسبب كفرهم، فذاق كل منهما عاقبة أمره ذلاًّ وعذاباً في الدنيا، ويضرب المثل أيضاً بما حدث من كفار قريش يوم غزوة بدر، حين اغتروا بأنفسهم واغتروا بمن وعدوهم المساعدة والمؤازرة، وبما غرهم به الشيطان، فلم ينفعوهم ولم يدفعوا عنهم شيئاً من العذاب، وأذاقهم الله عاقبة كفرهم وشركهم، وهذا معنى: ﴿ذَاقُوا وَبَالَ أَمْرِهِمْ﴾ أي ذاقوا سوء عاقبة إجرامهم في الدنيا، ولم يُغن عنهم هذا من عذاب الآخرة، فأمامهم عذاب مؤلم ينتظرهم يوم لقاء الله ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ وهكذا

كان للمنافقين مع بني قينقاع دور، كما حدث بينهم وبين بني النضير، وكما حدث بين المسلمين وكفار قريش، وكما يحدث بين المسلمين وغيرهم في كل زمان ومكان.

إِغْرَاءُ الْمُنَافِقِينَ لِلْيَهُودِ كِإِغْرَاءِ الشَّيْطَانِ لِلْإِنْسَانِ وَالتَّخْلِي عَنْهُ

١٦ - ﴿كَمَثَلِ الشَّيْطَانِ إِذْ قَالَ لِلْإِنْسَانِ اكْفُرْ فَلَمَّا كَفَرَ قَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِنْكَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ

رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٦﴾﴾

لقد أغرى المنافقون اليهود، فخدعوه وأوهموهم بأنهم سيقفون معهم، فزعموا أنهم إن أخرجهم المؤمنون من ديارهم خرجوا معهم، وإن قاتلوهم، قاتلوا معهم، وكان هذا مجرد خداع وتضليل، فلم يخرجوا معهم، ولم يدافعوا عنهم، وانتهى بهم الأمر إلى هذه الحال البائسة.

وهذا الإغراء يشبه إغراء الشيطان للإنسان حتى يقع في المعصية، ثم يتخلى عنه ويتبرأ منه ﴿كَمَثَلِ الشَّيْطَانِ إِذْ قَالَ لِلْإِنْسَانِ اكْفُرْ﴾ أي ومثل هؤلاء المنافقين في إغراء اليهود على القتال، ووعدهم لهم بالنصر على رسول الله ﷺ، مثلهم في تخاذلهم وعدم تنصرهم كمثل الشيطان حين يُزين للإنسان الكفر، ويدعوه إليه في الدنيا ثم يتبرأ منه يوم القيامة ﴿فَلَمَّا كَفَرَ﴾ الإنسان ومات على كفره، وبُعث يوم القيامة ليوافقه مصيره السيء، ندم وتحسر، وألقى بالتبعية على الشيطان، بعد أن اغتر به وكفر، وكان من أهل الشقاء، ولم ينفعه الشيطان الذي تولاه واتبع إشارته، فما كان من الشيطان إلا أن تبرأ من الإنسان الذي أغراه وأغواه، فأظهر خوفه من ربه، و﴿قَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِنْكَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ﴾ وليس المراد بالإنسان في الآية شخص معين، كما جاء في بعض التفاسير من قصص غير صحيحة فيها وسوسة الشيطان لإنسان معين في الدنيا فارتكب بعض المعاصي.

وهذا كقوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعَدَ الْحَقِّ وَوَعَدُكُمْ فَآخَلَفْتُمْ وَمَا كَانَ لِي عَلَيْكُمْ مِنْ

(١) قرأ نافع وابن كثير وأبو عمرو وأبو جعفر بفتح ياء الإضافة من {إني أخاف} والباقيون بإسكانها

سُلْطٰنٍ اِلَّا اَنْ دَعَوْتُمْ فَاَسْتَجَبْتُ لِيْ فَلَا تَلُوْمُوْنِيْ وَلَوْ مُوَاْ اَنْفُسَكُمْ ﴿٢٢﴾ [إبراهيم: ٢٢].

قال في التسهيل: هذا مثلٌ، مثل الله به للمنافقين الذين أغووا يهود بني النضير، ثم خذلوهم بعد ذلك، بالشیطان الذي يُغوي ابن آدم، ثم يتبرأ منه والمراد: جنس الإنسان وجنس الشیطان^(١).

وتبرء الشیطان من الإنسان لا يكون في الدنيا لأنه لا يحدث بينهما فيها كلام. فيكون المراد: أن الشیطان أغرى الإنسان بالكفر، فلما كفر وهو في الدنيا، ثم لقي الله يوم القيامة بكفره، قال كل شیطان لقرينه من الإنس: إني بريء منك، وهو يطمع أن ينجو بهذا من العذاب.

والمعنى: فلما كفر، واستمر على كفره، حتى فارق الدنيا وجاء يوم الحشر، اعتذر بأن الشیطان قد أضله، وقال الشیطان: إني بريء منك، وهذا كقوله تعالى: ﴿قَالَ قَبِلْتُهُ رَبَّنَا مَا أَطَفَيْتُهُ وَلَكِنْ كَانَ فِي ضَلَالٍ بَعِيدٍ﴾ ﴿٢٧﴾ [ق: ٢٧].

وهذه المحاجة، لا تكون إلا في يوم الجزاء بعد موت الكافر على الكفر دون أن يسلم. قال تعالى مبيناً مصير الفريقين:

١٧ - ﴿فَكَانَ عَاقِبَتُهُمَا أَنَّهُمَا فِي النَّارِ خَالِدِينَ فِيهَا وَذَلِكَ جَزَاءُ الظَّالِمِينَ﴾ ﴿١٧﴾

أي ثم تكون النتيجة يوم القيامة أن يدخل الكافر والشیطان النار، وبُست العقابة عاقبتهم ﴿فَكَانَ عَاقِبَتُهُمَا﴾ أي عاقبة الشیطان الذي دعا إلى الضلال، والإنسان الذي أطاعه فكفر ﴿أَنَّهُمَا فِي النَّارِ خَالِدِينَ فِيهَا﴾ ماكثين فيها أبداً ﴿وَذَلِكَ جَزَاءُ الظَّالِمِينَ﴾ أي مصير كل معتدٍ ظالم متجاوز لحدود الله.

والمعنى: فكان عاقبة الشیطان وعاقبة الإنسان أنهما في نار جهنم خالدين فيها، وذلك جزاء من ظلم نفسه بالشرك والكفر، فضل وأضل.

(١) التسهيل لعلوم التنزيل (١١٠/٤).

تَحْصِيلُ الزَّادِ لِيَوْمِ الْمَعَادِ

١٨ - ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَلْتَنْظُرْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ

بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٨﴾﴾

أمر الله عباده بمقتضى إيمانهم أن يلزموا تقواه في جميع أحوالهم، في سرهم وعلاانيتهم، وأن يمثلوا أوامره ويجتنبوا نواهيه، ويلزموا حدوده وشرائعه، وينظروا ما لهم وما عليهم، وما ينفعهم وما يضرهم، وأن يجعلوا الآخرة نصب أعينهم في كل صغيرة وكبيرة، ويجتهدوا في كثرة الأعمال الموصلة إلى جنة الله ورضوانه، ويجتهدوا في صرف العوائق والشهوات والشبهات التي تحول بينهم وبين الأعمال الصالحة، وأن يحاسبوا أنفسهم قبل أن يحاسبوا، ويزنوا أعمالهم قبل أن توزن عليهم، والله تعالى لا تخفى عليه أعمال العباد، وهو رقيب ومطلع عليهم في جميع أحوالهم، وسوف يحاسبهم ويجازيهم على ما قدمت أيديهم.

ولما ذكر الله سبحانه وتعالى صفات اليهود والمنافقين، وضرب لهم الأمثال، توجهت الآيات بعد ذلك بالخطاب إلى المؤمنين، تعظهم وتذكّرهم قُرب قيام الساعة، وتُحذّرهم ممن لا تخفى عليه خافية، كي يُعدّوا العدة لليوم الآخر، بعد أن امتن الله عليهم بما أفاء وأفاض به عليهم من منافع دنيوية فقال: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ﴾ أي يا من صدقتم بالله رباً واحداً، وصدّقتم بمحمد ﷺ نبياً ورسولاً، ختم الله به النبوات، ويا من عملتم بهُدي الله ورسوله: صونوا أنفسكم عن كل ما يغضب الله تعالى، وراقبوه في السر والعلن، وقفوا عند حدوده، ولا تتجاوزوا أمره ونهيه، واحذروا عقاب الله، وخافوا يوم لقائه، واجعلوا بينكم وبين عذاب الله وقاية، بامتنال أمره واجتناب نهيه.

﴿وَلْتَنْظُرْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍ﴾ أي وعلى كل نفس مؤمنة أن تتدبر وتتفحص الأعمال

التي قدمتُها ليوم القيامة، والتي ستلقى بها ربها لتحاسب عليها، فتتأمل في الأعمال التي عملتها لآخرتها؟ هل هي موافقة لهُدي الله تعالى وهُدي رسوله ﷺ أم فيها مخالفة

وعصيان؟ فإن كانت خيراً تزوّدت منه، وإن كانت شراً أفلعت عنه، وهذه محاسبة للنفس في الدنيا قبل الحساب الآخروي، لتدارك جوانب النقص والتقصير، ومراجعة ما أذخره العبد ليوم المعاد.

قال قتادة: قرّب الله القيامة حتى جعلها غداً، وذلك أنها آتية لا محالة، وكل آت قريب. وعلى المرء أن ينظر ما قدم لنفسه من أعمال، فإذا نظرها تزود بالعمل الصالح وكف عن السيئات، وأذخر لنفسه من صالح عمله ليوم عَرْضِهِ على ربه.

قال تعالى: ﴿وَمَا تَفْعِلُوا لِأَنْفُسِكُمْ مِنْ خَيْرٍ يَجِدُوهُ عِنْدَ اللَّهِ﴾ [المزمل: ٢٠].

وقال جل شأنه: ﴿عَلِمْتَ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ وَأَخَّرَتْ﴾ [الانفطار: ٥].

وقال سبحانه: ﴿يَبْنُوا الْإِنْسَانُ يَوْمَئِذٍ بِمَا قَدَّمَ وَأَخَّرَ﴾ [القيامة: ١٣].

﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ﴾ أي اثبتوا وداوموا على تقواه، فإنها وصية الله للأولين والآخرين كما

قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ وَصَّيْنَا الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَإِيَّاكُمْ أَنْ اتَّقُوا اللَّهَ﴾ [النساء: ١٣١].

وكررت التقوى لتأكيد الاستمرار والمداومة عليها، كما قال تعالى:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ءَامِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾ [النساء: ١٣٦].

والتقوى: جماع كل خير، وملاك كل بر، وبها وصى كل رسول أمته قائلاً:

﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا﴾ [الشعراء: ١٠٨].

وبتقوى الله تعالى يسعد العبد في دنياه وآخره:

قال تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَى ءَامَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَنَحْنَا عَلَيْهِمْ بَرَكَاتٍ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ﴾

[الأعراف: ٩٦].

وقال سبحانه: ﴿وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا﴾ [٢] وَبَرْزُقُهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ﴾ [الطلاق: ٣٠٢].

وأصدقاء الدنيا يكونون أعداء يوم القيامة، إلا من كان تقياً:

قال تعالى: ﴿الْأَخِلَاءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا الْمُتَّقِينَ﴾ [الزخرف: ٦٧].

والمنزلة العالية في الدار الباقية، لمن اتقى وبر:

قال سبحانه: ﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَنَهَرٍ ﴿٥١﴾ فِي مَقْعَدٍ صِدْقٍ عِنْدَ مَلِكٍ مُّقْدَرٍ ﴿٥٢﴾﴾ [القمر].

والله تعالى لا تخفى عليه خافية من أعمالكم وسيجازيكم عليها، ومن ذلك اجتهدكم في التقوى.

وفي حديث المنذر بن جرير عن أبيه قال: كنا عند رسول الله ﷺ في صدر النهار، فجاء قوم حفاة عراة، متقلدي السيوف، وهم من مُضَر، فتغير وجه النبي ﷺ لِمَا رَأَى بِهِمْ مِنَ الْفَاقَةِ، فدخل ثم خرج، ثم أمر بلالاً، فأذن وأقام الصلاة، فصلّى وخطب، ثم قرأ أول سورة النساء ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ﴾ وقرأ هذه الآية ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَانْتَظِرْ نَفْسَ مَا قَدَّمْتُمْ لِغَدٍ﴾ ودعا الناس إلى الصدقة وقال: «تصدقوا قبل أن يُحال بينكم وبين الصدقة» فكان منهم من تصدق بديناره، بدرهمه، بثوبه، بصاع بُره، حتى قال: ولو بشق تمره، فجاء رجل من الأنصار، بِضُرَّةٍ كادت كَفَّهُ تَعْجِزُ عَنْهَا، ثم تتابع الناس حتى جاؤوا بِكَوْمَيْنِ من طعام وثياب، حتى تهلل وجه النبي ﷺ كأنه مُذْهَبَةٌ، فقال ﷺ «من سن في الإسلام سنة حسنة، فله أجرها وأجر من عمل بها بعده، من غير أن ينقص من أجورهم شيء، ومن سن في الإسلام سنة سيئة، كان عليه وزرها ووزر من عمل بها من غير أن ينقص من أوزارهم شيء»^(١) ثم قسم بينهم ما جمع من هذه الصدقات، وهذا الحديث يدخل تحت قوله تعالى: ﴿وَلْتَنْظُرْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍ﴾.

التَّحْذِيرُ مِنَ الْإِعْرَاضِ عَنِ دِينِ اللَّهِ تَعَالَى

١٩ - ﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ نَسُوا اللَّهَ فَأَنْسَاهُمْ أَنْفُسَهُمْ أُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴿١٩﴾﴾

وبعد أن أمر الله المؤمنين بتقواه والتزود للآخرة، حذرهم من الإعراض عن دين الله، والتغافل عن التقوى، لأن ذلك يؤدي إلى الفسوق والخسران، فقال تعالى: ﴿وَلَا تَكُونُوا﴾ أيها المؤمنون ﴿كَالَّذِينَ نَسُوا اللَّهَ﴾ فتركوا أداء حق الله الذي أوجبه عليهم، فكان

(١) ينظر الحديث في المسند (٣٥٨/٤) برقم (١٩١٥٦، ١٩١٧٤) بإسناد صحيح على شرط مسلم، وهو في صحيح مسلم برقم (١٠١٧)، وابن أبي شيبة (١٠٩/٣)، والنسائي (٢٥٥٢)، وابن ماجه (٢٠٣).

عاقبة ذلك أن الله تعالى أنساهم حقوق أنفسهم بالنظر فيما يصلحها ﴿فَأَنسَهُمْ﴾ حظوظ ﴿أَنفُسَهُمْ﴾ من الخيرات والأعمال التي تنجيهم من عذاب الله يوم القيامة، وهذا من عقوبة الذنب بالذنب.

ثم وصف الله هذا الصنف من الناس بالفسق والخروج عن طاعة الله تعالى فقال ﴿أُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ أي هم الفجرة الخارجون عن طاعة الله تعالى وطاعة رسوله ﷺ. وقد حذرنا الله تعالى من ذلك في كثير من آياته، منها قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾ [المنافقون: ٩].

وقوله تعالى عن المنافقين ﴿سُوا اللَّهِ فَنَسِيَهُمْ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ [التوبة: ٦٧].

والسبب في هذا أنهم لم يتفطنوا لفهم الهدي الإسلامي فعملوا بما يُنجيهم من عذاب الله في الآخرة وما يصلحهم في الدنيا، فسيانهم لأنفسهم بسبب نسيانهم دين الله والإعراض عنه، ولذا! فإنه ينبغي على العبد أن يتفقد نفسه، فإن رأى زللاً أقلع عنه من فوره، وتاب توبة نصوحاً، وإن رأى تقصيراً بذل جهده في إصلاحه وإتقانه ... وهكذا. وهذا الإعراض عن دين الله، له مراتب تنتهي بالكفر، والذين نسوا الله بلغوا منتهى الفسق الذي لا فسق بعده، ولذا فإنهم يتركون في عذاب النار يوم القيامة عقوبة لهم ﴿وَقِيلَ الْيَوْمَ نَنسَاكُمْ كَمَا نَسَيْتُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا وَمَا وَكُتِبَ النَّارُ وَمَا لَكُمْ مِنْ نَصِيرٍ﴾ [الجاثية: ٣٤].

الْبُونُ شَاسِعٌ بَيْنَ السُّعْدَاءِ وَالْأَشْقِيَاءِ

٢٠- ﴿لَا يَسْتَوِي أَحَبُّ النَّارِ وَأَحَبُّ الْجَنَّةِ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمُ الْفَائِزُونَ﴾ [٢٠]

ثم بين جل شأنه الفرق بين من اتقى الله تعالى، وبين من نسي لقاء الله سبحانه، فقال: ﴿لَا يَسْتَوِي أَحَبُّ النَّارِ وَأَحَبُّ الْجَنَّةِ﴾ أي لا يستوي المعدبون والمنعمون، ولا يستوي الأشقياء والسعداء، لا يستوي من حافظ على تقوى الله، ونظر ما قدمه لغد، فاستحق

جنات النعيم، وكان ممن أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين، ومن غفل عن حقوق الله وحقوق عباده، فشقى في دنياه، واستحق العذاب في آخره، فالبون شاسع بين العاقبة التي ينتهي إليها كل فريق.

وفي هذا تنبيه للناس، وإيقاظهم من غفلتهم لترك الشهوات، وإيثار الآجلة على العاجلة، وفي هذا المعنى جاء قوله تعالى:

١- ﴿وَمَا يَسْتَوِي الْأَعْمَىٰ وَالْبَصِيرُ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَلَا الْمُسِيءُ﴾ [غافر: ٥٨].

٢- وقوله سبحانه: ﴿أَمْ يَجْعَلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَالْمُفْسِدِينَ فِي الْأَرْضِ أَمْ يَجْعَلُ الْمُتَّقِينَ كَالْفُجَّارِ﴾ [ص].

٣- وقوله جل شأنه: ﴿أَفَجَعَلَ الْمُسْلِمِينَ كَالْمُجْرِمِينَ﴾ [٣٥] مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴿٣٦﴾﴾ [القلم].

٤- وقوله عز وجل: ﴿قُلْ لَا يَسْتَوِي الْخَبِيثُ وَالطَّيِّبُ وَلَوْ أَعْجَبَكَ كَثْرَةُ الْخَبِيثِ﴾ [المائدة: ١٠٠].

٥- وقوله تعالى: ﴿وَمَا يَسْتَوِي الْأَعْمَىٰ وَالْبَصِيرُ ﴿١٩﴾ وَلَا الظُّلُمَاتُ وَلَا النُّورُ ﴿٢٠﴾ وَلَا الظُّلُمَاتُ وَلَا النُّورُ ﴿٢١﴾﴾ [فاطر].

٦- وقوله أيضاً: ﴿أَفَمَنْ كَانَ مُؤْمِنًا كَمَنْ كَانَ فَاسِقًا لَا يَسْتَوُونَ﴾ [١٨]﴾ [السجدة].

ثم قرر سبحانه أن أهل الجنة هم أهل الفوز والفلاح فقال ﴿أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمُ الْفَائِزُونَ﴾ أي أنهم الظافرون بكل مطلوب، الناجون من كل مكروه، ونفي الاستواء بين الفريقين كناية عن البون الشاسع بين أهل السعادة الأبدية والشقاء الأبدية.

تَأْثِيرُ الْقُرْآنِ عَلَى الشُّمِّ الرَّأْسِيَّاتِ، فَمَا بَالُ الْإِنْسَانِ؟

٢١- ﴿لَوْ أَنزَلْنَا هَذَا الْقُرْآنَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْنَهُ خَشِيعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ اللَّهِ وَتِلْكَ

الْأَمْثَلُ نُصْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَفْكُرُونَ﴾ [١١]﴾

وبعد هذا الكلام، على فتح قُرى اليهود، وما ينال المنافقين من خسران في الدنيا

(١) نقل حركة الهمزة إلى الساكن قبلها من ﴿الْقُرْآنَ﴾ ابن كثير وحزمة عند الوقف وحققها غيرهما.

(٢) أخفى النون عند الخاء في ﴿مِّنْ خَشْيَةِ﴾ أبو جعفر والباقون بالإظهار.

والآخرة، وبعد تحذير المسلمين من الوقوع في الغفلة ونسيان الله تعالى، كما حدث للفاسقين، وبعد بيان أن الشيطان هو الذي سول لهم الكفر، وأنهم أطاعوه واتبعوا وسوسته، بعد ذلك أرشد الله سبحانه إلى أن طريق النجاة من المهالك ومسالك الشر، هو هذا القرآن، فعلى العباد أن يبادروا إلى تدبره والعمل به، فإن قلوبهم لو كانت في غاية الصلابة والقسوة لتأثرت بمواعظ القرآن وأوامره ونواهيه ليسرها وسهولتها، وخلوها من التناقض والاختلاف، وإصلاحها لكل زمان ومكان، ولو أنزل الله هذا القرآن على جبل لخشع وتصدع من خشية الله، فما بالكم بالإنسان؟

والمعنى: لو أن الناس تدبروا القرآن وتأملوه، وعملوا بما فيه، فإن من روعة هذا القرآن، أنه يؤثّر على الصُّمِّ الراسيات من الجبال، فلو كان المخاطب بهذا القرآن جبلاً، وكان لهذا الجبل عقلاً وتمييزاً يفهم الخطاب، لتأثّر الجبل بخطاب القرآن، تأثراً ناشئاً من خشية الله تعالى بسبب تأثره بمعاني القرآن.

﴿لَوْ أَنزَلْنَا هَذَا الْقُرْآنَ عَلَى جَبَلٍ﴾ من الجبال، وفهم مافيه من الوعد والوعيد، والهدايات والمواعظ، والأحكام والآداب ﴿لَرَأَيْتَهُ﴾ مع كونه في غاية الصلابة والقسوة والقوة ﴿خَشِعًا مُّصَدَّعًا﴾ متشققاً ﴿مِّنْ خَشْيَةِ اللَّهِ﴾ أي لأبصرت الجبل على قوته وشدته وصلابته وضخامته، خاضعاً متطامناً ذليلاً مشققاً من خشية الله تعالى، حذراً من عقابه وخوفاً من عذابه.

ولو كان الجبل في موضع هؤلاء الذين نسوا الله، وأعرضوا عن فهم القرآن، ولم يتعظوا بمواعظه، لاتعظ الجبل، وتصدّع صخره وتربّته، لشدة تأثره بكلام الله تعالى. وتصدّع الجبل يضرب مثلاً لشدة الانفعال وقوة التأثير، لأن الأجسام الصلبة إذا تأثرت، تشققت وتصدّعت، ولا يحصل هذا بسهولة.

وهذا توبيخ للإنسان على قسوة قلبه، وقلة خشوعه، وعدم تدبره لما في القرآن، وترك العمل بما فيه.

وفيه تصوير لعظمة القرآن، وقوة تأثيره، ونفاذه في القلوب.

ثم بين سبحانه أن هذا من باب ضرب المثل للناس لتقريب المعاني، وتوضيح الحلال والحرام، ومعرفة الخير والشر، ومحاسن الأخلاق ومساوئها، فقال ﴿وَلَيْكَ الْأَمْثَلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ في قدرة الله وعظمته، ويتأملوا آثار قدرته الله تعالى فيؤمنوا به ويوحده، فإن التفكير في آيات الله يفتح للعبد خزائن العلم ونور الحكمة. فالغرض من هذا التمثيل: التنبيه على فساد قلوب الكفار وقساوتها، وغلظ طباعهم، وعدم التأثر بالقرآن.

وثبت أن النبي ﷺ كان يقف يوم الجمعة إلى جانب جذع من جذوع النخل، فلما وُضع له المنبر، وجاء ليخطب عليه، ترك الجذع مكانه وتوجه نحو المنبر، وأخذ يحنّ ويئنّ، كما يئنّ الصبي، لما كان يسمعه من الذكر والوحي عنده.

وكان الحسن البصري إذا حدث بهذا الحديث بكى، ثم قال: يا عبد الله، الخشبة تحنّ إلى رسول الله شوقاً إليه، لمكانه من الله تعالى، فأنتم أحق أن تشاققوا إلى لقاءه.

فإذا كانت الجبال الصم، والجمادات، تخشع من خشية الله تعالى، فكيف بالإنسان؟ ﴿وَلَوْ أَنَّ قُرْءَانَا سُيِّرَتْ بِهِ الْجِبَالُ أَوْ قُطِعَتْ بِهِ الْأَرْضُ أَوْ كُمِّ بِهَ الْمَوْتُ﴾ [الرعد: ٣١] أي لكان هذا القرآن قال تعالى: ﴿وَأَنَّ مِنَ الْجِبَارَةِ لَمَا يَنْفَجِرُ مِنْهُ الْأَنْهَارُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشْفَقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ الْمَاءُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ﴾ [البقرة: ٧٤].

إن القلوب المؤمنة وحدها هي التي تخشع لذكر الله تعالى، قال جل شأنه: ﴿اللَّهُ نَزَلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُتَشَابِهًا مَثَانًى نَقَّصِرُ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ﴾ [الزمر: ٢٣].

وقال عز من قائل: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا﴾ [الأنفال: ٢].

أخرج ابن المنذر عن الضحاك في معنى الآية: لو أنزلت هذا القرآن على جبل،

فَأَمَرْتُهُ بِالَّذِي أَمَرْتَكُمْ بِهِ، وَخَوَّفْتُكُمْ بِالَّذِي خَوَّفْتُكُمْ بِهِ، إِذَا لَخَشَعُ وَتَصَدَّعَ مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ، فَأَنْتُمْ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَعُوا وَتَذَلُّوا وَتَلِينَ قُلُوبَكُمْ لَذِكْرِ اللَّهِ ^(١).

الاستشفاء بهذه الآية:

روى الخطيب البغدادي في تاريخه بسنده إلى إدريس بن عبد الكريم الحداد قال: قرأتُ على خلف - وهو القاريء العاشر، من أئمة القراءات العشر، وشيخه حمزة - فلما بلغتُ هذه الآية ﴿لَوْ أَنْزَلْنَا هَذَا الْقُرْآنَ عَلَى جَبَلٍ﴾ إلى آخر السورة قال: ضع يدك على رأسك، فإني قرأتُ على الأعمش.

فلما بلغتُ هذه الآية قال: ضع يدك على رأسك، فإني قرأتُ على يحيى بن وثاب.
فلما بلغتُ هذه الآية قال: ضع يدك على رأسك، فإني قرأتُ على علقمة والأسود.
فلما بلغتُ هذه الآية قال: ضع يدك على رأسك، فإنا قرأنا على عبد الله بن مسعود.
فلما بلغنا هذه الآية قال: ضعاً أيديكما على رؤوسكما، فإني قرأتُ على النبي ﷺ
فلما بلغتُ هذه الآية قال: «ضع يدك على رأسك فإنها شفاء من كل داء، إلا السام» ^(٢).
والسام الموت.

وأخرج الديلمي عن علي وابن مسعود رضي الله عنهما عن النبي ﷺ قال: ﴿لَوْ أَنْزَلْنَا هَذَا الْقُرْآنَ﴾ إلى آخر السورة، هي رقية الصداق.

عِلْمُ الْغَيْبِ، وَالرَّحْمَةُ الْمُطْلَقَةُ، مِنْ خَصَائِصِ الْإِلَهِ الْحَقِّ

٢٢- ﴿هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَلِيمٌ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ﴾ (٢٢)

بدأت سورة الحشر بتسبيح العوالم كلها لله تعالى، على أعظم حدِّ شَهِدَتِهِ المدينة

(١) ينظر: الدر المنثور (٣٩٧/١٤) وما بعدها.

(٢) قال الطاهر بن عاشور في تفسيره (١٢٨/١٣)، هذا حديث أغر مسلسل إلى جبريل عليه السلام، وهو في تاريخ الخطيب (٣٧٧/١)، وقد نقله الشوكاني في فتح القدير (٢٠٥/٥) بسياق آخر، ونقل عن الذهبي قوله: باطل، قلت: ربما يقصد اللفظ الذي أورده الشوكاني.

النبوية بعد الهجرة، وهو خروج اليهود منها، ولم يكن هذا مظلوناً. وبعد ذُكر المؤمنين والمنافقين واليهود، ذكرت السورة أخطر حدث في حياة كل أمة، وهو تقرير مصيرها، فبينت أنه لا يستوي أهل النعيم وأهل الجحيم، وأن في اتباع هذا القرآن، النجاة من الهلاك.

وقد اشتملت السورة على ذكر اسم الله تعالى صريحاً، أربعاً وعشرين مرة. وذكرته تعالى بالصفات والضمائر الظاهرة ست عشرة مرة. وآخر آية قبل الآيات الثلاث الأخيرة في السورة، ذُكر فيها اسم الجلالة ثلاث مرات ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَلْتَنْظُرْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٨﴾﴾. ثم جاء ضمير الغيبة في أول الآيات الثلاث الأخيرة من السورة، عوداً على ألفاظ الجلالة في هذه الآية التي نحن بصددتها، إشارة إلى أن ما جاء في السورة، أخبر به عالم الغيب والشهادة، الموصوف بصفات الجلال والكمال.

وقد اشتملت هذه الآيات الثلاث، على كلمة التوحيد مرتين، وعلى تسييح الله تعالى مرتين، وعلى أربعة عشر اسماً من أسماء الله تعالى وصفاته. قال تعالى: ﴿هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾ أي هو الله سبحانه وتعالى المعبود بحق، لا رب غيره، ولا معبود سواه، فلا تنبغي العبادة والإلهية إلا له سبحانه.

والتوحيد هو الأصل، ولذا بدأ الله تعالى به بعد اسم الجلالة، الذي هو عَلَّمَ على الذات الإلهية، إذ هو سبحانه الموجود أزلاً وأبداً، الإله المعبود، الذي لا إله غيره ولا رب سواه، ثم ذكر جل شأنه اثنتين من خصائص الإله الحق:

الخاصية الأولى: أنه سبحانه ﴿عَلِيمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ﴾ يعلم السر والعلن، ويعلم ما غاب وما ظهر.

والمراد بالغيب: ما غاب عن إحساس الناس ومداركهم. والمراد بالشهادة: ما يشاهدونه بعيونهم، ويدركونه بعقولهم.

فهو سبحانه لا يخفى عليه شيء في هذا الكون، يستوي في علمه تعالى: ما ظهر وما بطن، وما هو موجود، وما هو معدوم. ويستوي عنده سبحانه علم الدنيا والآخرة. وعلم الغيب والشهادة دليل إفراد الله تعالى بالألوهية، لا يشاركه في ذلك أحد، لأنه من خصائص الإلهية.

والخاصية الثانية: من خصائص الإله الحق، أنه سبحانه: ﴿هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ﴾ فهذا دليل على وحدانية الله تعالى، كما قال سبحانه: ﴿وَالْهَكَرُ إِلَهٌُ وَحْدٌ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ﴾ [البقرة: ١٦٣] ورحمته تعالى وسعت كل شيء، وقد ألزم الله نفسه بها فضلاً منه وكرماً، قال تعالى: ﴿كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ﴾ [الأنعام: ٥٤] وبهذا وصفته ملائكة الرحمن فقالت كما حكى الله عنها: ﴿رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْماً﴾ [غافر: ٧].

والرحمن أكثر مبالغة من الرحيم، فهو سبحانه رحمن الدنيا ورحيم الآخرة، وسعت رحمته في الدنيا: الكافر والمؤمن، وهو رحيم في الآخرة رحمة خاصة بالمؤمنين. ومعنى الرحمة: إسباغ الخير والنعمة والإحسان على خلقه، وعدم مؤاخذتهم بذنوبهم في الدنيا.

وفي الحديث: أن الله تعالى جعل الرحمة مئة جزء، فأمسك عنده تسعة وتسعين جزءاً، وأنزل في الأرض جزءاً واحداً، ومن ذلك الجزء، يتراحم الخلق كلهم، حتى إن الفرس لترفع حافرها عن ولدها خشية أن تصيبه.

أَحَدَ عَشَرَ اسْمًا مِنْ أَسْمَاءِ اللَّهِ تَعَالَى وَصِفَاتِهِ فِي خَتَامِ السُّورَةِ

٢٣- ﴿هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْمَلِكُ الْقُدُّوسُ السَّلَامُ الْمُؤْمِنُ الْمُهَيْمِنُ الْعَزِيزُ الْجَبَّارُ الْمُتَكَبِّرُ سُبْحَنَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [١٣]

في هذه الآية جاءت كلمة التوحيد مرة أخرى، يسبقها لفظ الجلالة، وعود الضمير في لفظ ﴿هُوَ﴾ على ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ﴾ وقد أعقب ذلك عدداً من الصفات الجامعة، وكُرِّرَ هذا، اهتماماً بالتوحيد، وزيادة في التعظيم، فهو الله سبحانه المتفرد

بالحُدانية، المعبود بحق دون سواه.

وقد جاء في هذه الآية ثمانية من أسمائه الحسنی وصفاته العليا، وجاءت ثلاثة أخرى في الآية التالية، وبيانها فيما يأتي:

الأول: ﴿أَلَمَلِكُ﴾ أي المالك لجميع المخلوقات، في العالمين العلوي والسفلي، بلا منازع ولا مشارك، الحاكم فيهم، المتصرف في جميع شؤونهم بلا ممانعة ولا مدافعة، فالكون كله تحت قهره ومُلكه وتديره وإرادته، بيده الأمر والنهي، والموت والحياة.

الثاني: ﴿أَلْقُدُّوسُ﴾ أي المنزه عن كل نقص، المبرأ من كل عيب، الذي تُقدَّسه الملائكة الكرام، وتقول في تسييحها (سبح قدوس رب الملائكة والروح).

ومعنى القدوس: بالغ الغاية في الطهارة، المعظم الممجّد.

الثالث: ﴿أَلَسَلَمٌ﴾ أي الذي سَلِمَ من كل عيب وآفة في الماضي والحاضر والمستقبل، فلا يطرأ عليه سبحانه تغيير، وصفة القدوس تدلّ على أنه تعالى منزّه في ذاته عن النقائص، وصفة السلام تدلّ على أنه سبحانه منزّه في معاملة خلقه عن الجور والحيث والظلم، وفي الحديث (إن الله هو السلام).

الرابع: ﴿أَلْمُؤْمِنُ﴾ أي المصدق رسله وأنبياءه بما أرسلهم به من الآيات البينات والمعجزات الباهرات، والمصدق للمؤمنين بما وعدهم به من الثواب، وما أوعده الكافر به من العذاب، والمؤمن هو واهب الطمأنينة والأمن لخلقّه، الذي أَمَنَ الخلق من ظُلمه، وأَمَنَ المؤمن من عذابه.

الخامس: ﴿أَلْمُهَيِّمُ﴾ أي الرقيب على خلقه في أعمالهم، الحافظ لأقوالهم وأفعالهم وأحوالهم، الشهيد على عباده بأعمالهم، الذي لا يغيب عنه شيء، قال تعالى ﴿أَفَنَنْهَوْا قَوْمَهُ عَلَى كُلِّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ﴾ [الرعد: ٣٣] فهو القائم بأرزاق العباد وآجالهم وأحوالهم.

السادس: ﴿أَلْعَزِيزُ﴾ أي الذي لا يُغالب ولا يُقهر، ولا يتناول على مقامه أحد، بل إنه قهر كل شيء، وخضع له كل شيء، وعنت الوجوه لعظمته.

السابع: ﴿الْجَبَّارُ﴾ أي الذي قهر جميع العباد، وأذعن له سائر الخلق، فهو الذي يَجْبُرُ خلقه على ما يريده منهم، ولا يستطيع مخلوق أن يتجاوز ما حدّده الله له، فالإنسان مثلاً لا يستطيع الطيران، والحيوان من ذوات الأربع لا يمشي على رجلين، وهكذا. والجبار صفة ذم بالنسبة للإنسان، لأنها صفة خاصة بالله تعالى، وهي صفة مدح بالنسبة لله تعالى، ومن معانيها أنه سبحانه يجبر الكسير من خلقه ونحو ذلك. وهو جل شأنه لا يسأل عما يفعل.

الثامن: ﴿الْمُتَكَبِّرُ﴾ أي الذي له الكبرياء والعظمة والجلال، والكبرياء صفة من صفات الله تعالى لا يشاركه فيها أحد، كما في الحديث القدسي عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم عن رب العزة جل في علاه: «الكبرياء ردائي، والعظمة إزاري، فمن نازعني واحداً منهما ألقيته في جهنم»^(١) والكبرياء صفة ذم في حق الناس، والله تعالى له جميع أنواع العلو والكبرياء.

وبعد هذه الصفات الثمانية، نزه نفسه سبحانه عن الشركاء له في عبادته، وعلمنا كيف نُسَبِّحُه فقال: ﴿سُبْحَنَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ أي تنزه سبحانه عما يصفه به المشركون مما لا يليق بجلاله، وتعالى جل شأنه عما يشركونه معه في العبادة، وتنزه سبحانه عن مشابهته في أسمائه وصفاته وأفعاله.

وفي بقية الأسماء والصفات التي في آخر هذه السورة قال تعالى:

٢٤ - ﴿هُوَ اللَّهُ الْخَلِيقُ الْبَارِئُ الْمُصَوِّرُ لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ يُسَبِّحُ لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ

وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٢٤﴾﴾

وصف الله تعالى نفسه في الآية الأخيرة من السورة بثلاثة أوصاف تضاف إلى الصفات الثمانية التي ذكرت في الآية السابقة، مع إعادة الضمير، وإعادة اسم الجلالة

(١) المسند (٩٥٠٨، ٧٣٨٢)، حديث صحيح، وأخرجه من طرق أخرى الحميدي (١١٤٩)، والطيالسي (٢٣٨٧)، وأبو داود (٤٠٩٠)، وابن ماجه (٤١٧٤)، والبغوي (٣٥٩٢)، ومسلم (٢٦٢٠).

﴿هُوَ اللَّهُ﴾ أي الواحد الأحد، وهذه الصفات هي:

التاسع: ﴿الْخَلِيقُ﴾ أي الموجد لجميع المخلوقات والمنشئ لها من العدم على مقتضى حكمته تعالى وإرادته، وفي هذا إبطال لإلهية مَنْ لَا يَخْلُقُ؛ كما قال تعالى: ﴿أَفَمَنْ يَخْلُقُ كَمَنْ لَا يَخْلُقُ﴾ [النحل: ١٧] وقال جل شأنه: ﴿وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَا يَخْلُقُونَ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ﴾ [النحل: ٢٠].

العاشر: ﴿الْبَارِئُ﴾ أي المنشئ المبدع لما يخلقه، كما في الحديث «من شر ما خلق وذراً ويراً».

ومن كلام علي عليه السلام (والذي فلق الحبة، وبرأ النسمة).

قال ابن العربي: الباري: خالق الناس من البرى، وهو التراب، فيكون هذا المعنى خاصاً بخلق الإنسان، كما قال تعالى: ﴿أُولَئِكَ هُمْ شَرُّ الْبَرِيَّةِ﴾ وقال: ﴿أُولَئِكَ هُمْ خَيْرُ الْبَرِيَّةِ﴾ أي الخليفة.

الحادي عشر: ﴿الْمُصَوِّرُ﴾ أي الذي يصور خلقه كيف يشاء، على هيئات وأشكال مختلفة، كما قال تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي يُصَوِّرُكُمْ فِي الْأَرْحَامِ كَيْفَ يَشَاءُ﴾ [آل عمران: ٦]. وقال جل شأنه: ﴿وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ﴾ [التغابن: ٣].

وقال سبحانه: ﴿الَّذِي خَلَقَكَ فَسَوَّاكَ فَعَدَلَكَ﴾ [٧] فِي أَيِّ صُورَةٍ مَا شَاءَ رَكَّبَكَ ﴿٨﴾ [الانفطار: ٨، ٧]. وهو سبحانه: ﴿لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى﴾ والصفات العلى، والحسنى بمعنى الأحسن، أي له أحسن الأسماء الدالة على أفضل المعاني، وله الأسماء الحسنى الكثيرة التي لا يحصيها ولا يعلمها إلا هو، وعلمنا أن نؤمن وندعو بما جاء منها في كتاب الله، وما علمنا إياه رسول الله، مما صح وثبت عنه ﷺ.

وكما بدأت السورة بتسبيح الله تعالى، خُتِمت كذلك بالتسبيح ﴿يُسَبِّحُ لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ الكون كله يلهجُ بالشَّاء على الله تعالى، ويتزهره عن كل ما لا يليق بجلاله من صفات العجز والنقص بلسان الحال والمقال.

وقد خُتِمت الآية الأخيرة بما خُتِمت به الآية الأولى من السورة ﴿وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ أي وهو شديد الانتقام من أعدائه، كما حدث لبني النضير، وهو سبحانه حكيم في تدبير شؤون خلقه، يضع الأمور في نصابها.

والعبد يسأل ربه بأسمائه الحسنى، فيكون هذا الدعاء مظنة الإجابة، قال تعالى: ﴿وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ فَادْعُوهُ بِهَا﴾ [الأعراف: ١٨٠].

هذا: وأسماء الله تعالى وصفاته لا حصر لها في كتاب ولا سنة، فمنها ما استأثر الله به ولم يطلعنا عليه.

كما جاء في الأثر عن ابن مسعود رضي الله عنه عند أحمد وغيره أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «ما أصاب أحدا قط، هم ولا حزن فقال: اللهم إني عبدك، ابن عبدك، ابن أمتك، ناصيتي بيدك، ماضٍ في حكمك، عدل في قضاؤك، أسألك بكل اسم هو لك، سميت به نفسك، أو أنزلته في كتابك، أو علمته أحداً من خلقك، أو استأثرت به في علم الغيب عندك، أن تجعل القرآن الكريم ربيع قلبي، ونور صدري، وجلاء حزني، وذهاب همي، إلا أذهب الله حزنه وهمه» الحديث ^(١).

وهكذا: فقد خص الله سبحانه بعض خلقه بمعرفة بعض أسمائه، كما أن هناك أسماء استأثر الله بها في علم الغيب.

وصح عن رسول الله صلى الله عليه وسلم من حديث أبي هريرة رضي الله عنه أنه قال: «إن لله تسعاً وتسعين اسماً، مئة إلا واحداً، من أحصاها دخل الجنة، وهو وتر يحب الوتر» ^(٢).

وقد حاول بعض أهل العلم استخراج هذا العدد من القرآن فزادوا ونقصوا، ومنهم

(١) المسند (٣٩٢/١) برقم (٣٧١٢)، قال محققوه: إسناده ضعيف كما قال الدارقطني في العلل (٥/ ٢٠١)، وهو في صحيح ابن حبان (٢٣٧٢ موارد)، وانظر: السلسلة الصحيحة للألباني (١٩٨)، وأخرجه ابن أبي شيبه (٢٥٣/ ١٠)، وأبو يعلى (٥٢٩٧)، والطبراني في الكبير (١٠٣٥٢)، والبخاري (٣١٢٢ موارد).

(٢) من حديث أبي هريرة في صحيح مسلم برقم (٢٦٧٧) والمسند (١٠٥٣٢، ٧٥٠٢) حديث صحيح، وأخرجه البخاري (٦٤١٠)، والترمذي (٣٥٠٨)، والنسائي في الكبرى (١٦٥٩) وغيرهم.

من أفردھا بالتأليف. ومن هذه الأسماء والصفات:

- ١- صفات الأخلاق: كالحلم، والعفو، والرأفة، والرحمة، والكرم ... الخ.
- ٢- صفات القوة مثل: الجبار، القهار، العزيز، المذل، المتكبر.
- ٣- صفات المراقبة لخلقه، مثل: الرقيب، الحسيب، الخبير.
- ٤- صفات الرحمة والعطاء مثل: التواب، الغفار، الرزاق، الفتاح، الباسط، الهادي، الرافع، المعز، اللطيف * وهكذا بقية الأسماء والصفات.

حديث سرد أسماء الله التسعة والتسعين ضعيف:

وأسماء الله الحسنی كما في حديث الترمذي وأحمد عن أبي هريرة رضي الله عنه هي:

(هو الله الذي لا إله إلا هو، الرحمن، الرحيم، الملك، القدوس، السلام، المؤمن، المهيمن، العزيز، الجبار، المتكبر، الخالق، الباري، المصور، الغفار، القهار، الوهاب، الرزاق، الفتاح، العليم، القابض، الباسط، الخافض، الرفع، المعز، المذل، السميع، البصير، الحكيم، العدل، اللطيف، الخبير، الحليم، العظيم، الغفور، الشكور، العلي، الكبير، الحفيظ، المقيت، الحسيب، الجليل، الكريم، الرقيب، المجيب، الواسع، الحكيم، الودود، المجيد، الباعث، الشهيد، الحق، الوكيل، القوي، المتين، الولي، الحميد، المحصي، المبدئ، المعيد، المحيي، المميت، الحي، القيوم، الواجد، الماجد، الواحد، الصمد، القادر، المقتدر، المقدم، المؤخر، الأول، الآخر، الظاهر، الباطن، الولي، المتعالي، البر، التواب، المنتقم، العفو، الرؤوف، مالك الملك، ذو الجلال والإكرام، المقسط، الجامع، الغني، المغني، المانع، الضار، النافع، النور، الهادي، البديع، الباقي، الوارث، الرشيد، الصبور) ^(١).

وأخرج ابن مردويه عن أبي أيوب الأنصاري رضي الله عنه أنه كان في موضع يجف فيه التمر،

(١) وفي سنن ابن ماجة (٣٨٦١) زيادة ونقص وتقديم وتأخير، وانظر تخريجه في الآية (١٨٠) الأعراف، وهو حديث ضعيف بسرد هذه الأسماء.

فلما كان الليل شعر بوجود رجل، فقال له: من أنت؟ قال: رجل من الجن، أردنا زاداً من هذا البيت فنفذ زاده، فأصبنا من تمركم، فقال له أبو أيوب: إن كنت صادقاً فناولني يدك، فإذا بشعر كذراع الكلب، فقال له أبو أيوب: ما أصبت من تمرنا فأنت في حلّ، أفلا تخبرني بأفضل ما تتعوذ به الإنس من الجن؟ قال: هذه الآية آخر سورة الحشر^(١).

وعن معقل بن يسار رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «من قال حين يصبح ثلاث مرات: أعوذ بالله السميع العليم من الشيطان الرجيم، ثم قرأ الثلاث آيات من آخر سورة الحشر ﴿هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ السُّلْطَانُ﴾ إلى آخر السورة، وكلّ الله به سبعين ألف ملك يصلّون عليه حتى يُمسي، وإن مات ذلك اليوم، مات شهيداً، ومن قالها حين يمسي كان بتلك المنزلة»^(٢).

تم تفسير (سورة الحشر) والله الحمد والمنة

(١) كما في الدر المنثور (٣٩٨/١٤).

(٢) المسند (٢٦/٥) برقم (٢٠٣٠٦) بإسناد ضعيف لضعف خالد بن طهمان، والترمذي برقم (٢٩٢٢)، وقال: حديث غريب لا نعرفه إلا من هذا الوجه، والدارمي (٤٥٨/٢) (٣٤٢٥)، والطبراني (٢٢٩/٢٠)، والبيهقي في الشعب (٢٧٧٢)، وقد حسن إسناده بعضهم وضعفه بعضهم، وممن وضعفه الألباني في ضعيف سنن الترمذي (٥٦٠)، وهو في الترمذي (٢٩٢٢)، والطبراني في الكبير (٥٣٧).

تَفْسِيرُ سُورَةِ الْمُمْتَحِنَةِ (٦٠)

مُقَدِّمَةُ السُّورَةِ

(سورة الممتحنة) هي السورة الستون في ترتيب المصحف، والثانية والتسعون في ترتيب النزول عند جابر بن زيد، نزلت سنة ست من الهجرة، بعد (سورة العقود) وقبل (سورة النساء).

وهي سورة مدنية خالصة، وعدد آياتها ثلاث عشرة آية باتفاق، وهي ثلاث مئة وثمان وأربعون كلمة، وألف وخمسة مئة وعشرة أحرف.

وتُسمَّى سورة الممتحنة، بفتح الحاء، أي سورة المرأة التي امتُحنت في إيمانها، وهي التي حملت كتاب حاطب بن أبي بلتعة إلى أهل مكة، ويشير إلى هذا أول آية في السورة. ويقال: سورة الممتحنة، بكسر الحاء، أي السورة التي امتحنت المهاجرات في إيمانهن، فأُسند الامتحان إلى السورة، كما سُيِّت سورة براءة، الفاضحة، أي التي فضحت المنافقين، وينظر في هذا المعنى إلى الآية العاشرة من السورة ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا جَاءَ كُفُّ الْمُؤْمِنَاتِ مَهْجَرَتٍ فَأَمْتَحْنُوهُنَّ﴾.

وقال السخاوي في كتابه جمال القراء: وتسمى سورة الامتحان، وسورة المودة. فهذه أربعة أسماس.

موضوع السورة:

إن الوفاء للعقائد والمبادئ، يفرض الولاء لمن يواليها، والبراء ممن يعاديها، واعتراض من يعترضها، وهكذا فعل أتباع الأنبياء في كل عصر ومصر. ومن الناس من يرفض الاستسلام، ويصبر ويصابر حتى يتحقق له النصر، ومنهم من يستبعد طريق الكفاح، فيقبل الواقع المر، ويسقط أمام عدوه، ويمدُّ إليه يده حرصاً على

سلامته وسلامة أهله.

وموضوع هذه السورة هو الولاء والبراء، فهي تنهى عن موالة غير المسلمين، واتخاذهم أصدقاء وأحباباً وأمناء من دون المؤمنين، وتبين أن غير المسلم لا يصفوا للمسلم أبداً، وأنه إن ظفر به ظهرت له عداوته.

والسورة تدعو إلى التآسي بإبراهيم عليه السلام في وجوب الولاء والمحبة بين من جمعتهم كلمة التوحيد.

وتدعو إلى عدم موالة غير المسلمين في شيء، أما حسن معاملة غير المحاربين منهم، فهو شيء آخر يأمر به الإسلام، والولاء غير حسن المعاملة. وينسحب هذا الحب في الله والبغض في الله، على كل قريب وبعيد في النسب والصلة. وبينت السورة أن الإنسان لا ينفعه إلا عمله الصالح، وأن أقاربه وأصهاره لن تغني عنه من الله شيئاً.

كما ذكرت السورة مبايعة النبي ﷺ للنساء، وشروط هذه البيعة.

وفي السورة ثلاث نداءات للمؤمنين:

النداء الأول: ينهى عن موالة غير المسلمين الذين يقاتلون المسلمين ويعادونهم ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ﴾ الآية.

والنداء الثاني: يبين حكم النساء المؤمنات اللاتي يتركن أزواجهن من غير المسلمين، وما يتعلق بذلك من وجوب الفراق بينهما، وتحريم الزواج من المشركات الوثنيات ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا جَاءَكُمُ الْمُؤْمِنَاتُ مُهَاجِرَاتٍ فَامْتَحِنُوهُنَّ﴾ الآية.

والنداء الثالث للمؤمنين: ينهى عن موالة أعداء الله وأعداء المؤمنين مرة أخرى في ختام السورة كما في بدايتها ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَوَلَّوْا قَوْمًا غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ﴾.

وفيها نداء خاص للنبي ﷺ وهو يبايع النساء كما يبايع الرجال ويأخذ عليهن العهود على طاعة الله تعالى والبعد عن محارمه ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا جَاءَكَ الْمُؤْمِنَاتُ يُبَايِعْنَكَ عَلَى أَنْ لَا يَشْرِكْنَ

بِاللَّهِ شَيْئًا وَلَا يَسْرِفَنَّ وَلَا يُزَيِّنَنَّ ﴿١٠﴾ الآية.

وللربط بين أول السورة وآخرها، فقد خُتمت السورة بما بدأت به عن الولاء والبراء، ليتناسب الكلام في البدء والختام.

قصة حاطب بن أبي بلتعة:

جاء في هذه القصة روايات كثيرة في كتب الحديث والتفسير والسيرة والتاريخ وأسباب النزول ونحوها، وسوف أقصر في قصة حاطب بن أبي بلتعة على بعض روايات القصة، وبعض روايات سبب النزول:

أولاً: مما جاء في قصة حاطب:

١ - في الصحيحين وغيرهما عن أبي عبد الرحمن السلمي، عن عليّ ؓ قال: بعثني رسول الله ﷺ وأبا مَرْثَدَ، والزبير بن العوام، وكلنا فارس، وقال: «انطلقوا حتى تأتوا روضة خاخ، فإن بها امرأة من المشركين، معها كتاب من حاطب إلى المشركين» فأدركناها تسير على بعير لها، حيث قال رسول الله ﷺ فقلنا: الكتاب؟ فقالت: ما معي كتاب، فأنخناها، فالتمسنا فلم نر كتاباً، فقلنا: ما كَذَبَ رسول الله ﷺ لُتُخْرِجَنَّ الكتاب أو لُتُجَرِّدَنَّك، فلما رأت الجَدَّ أهوت إلى حُجْزَتِها، وهي مختجزة بكساء فأخرجته، فانطلقا بها إلى رسول الله ﷺ فقال عمر: يا رسول الله، قد خان الله ورسوله والمؤمنين، فدعني لأضرب عنقه، فقال النبي ﷺ لحاطب: «وما حملك على ما صنعت؟» قال حاطب: والله ما بي إلا أن أكون مؤمناً بالله ورسوله، أردتُ أن تكون لي عند القوم يدٌ، يدفع الله بها عن أهلي ومالي، وليس أحد من أصحابك إلا له هنالك من عشيرته من يدفع الله به عن أهله وماله، فقال النبي ﷺ: «صدق، ولا تقولوا له إلا خيراً» فقال عمر: إنه قد خان الله ورسوله والمؤمنين، فدعني فلاضرب عنقه، فقال «أليس من أهل بدر؟» فقال: «لعل الله قد اطلع إلى أهل بدر فقال: اعملوا ما شئتم فقد وجب لكم الجنة، أو: قد غفرت لكم،

فَدَمَعْتُ عَيْنَا عَمْرٍ، وَقَالَ: اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ»^(١).

٢ - وفي رواية عمر بن الخطاب ؓ قال: كتب حاطب بن أبي بلتعة إلى المشركين بكتاب، فجاء به إلى النبي ﷺ فقال: «يا حاطب، ما دعاك إلى ما صنعت؟» قال: يا رسول الله، كان أهلي فيهم، فخشيت أن يضرهموا عليهم، فقلت: أكتب كتاباً لا يضر الله ورسوله، فقال عمر: أضرب عنقه يا رسول الله فقد كفر؟ فقال ﷺ: «وما يدريك يا ابن الخطاب أن الله اطلع على أهل هذه العصابة من أهل بدر، فقال: اعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم»^(٢).

٣ - وفي حديث أنس ؓ أن النبي ﷺ أَمَّنَ النَّاسَ يَوْمَ فَتَحَ مَكَّةَ إِلَّا أَرْبَعَةً: عَبْدَ الْعُزَّى بْنَ خَطْلٍ، وَمِقْيَسَ بْنَ صُبَابَةَ، وَعَبْدَ اللَّهِ بْنَ سَعْدِ بْنِ أَبِي سَرْحٍ، وَأُمَّ سَارَةَ وَهِيَ الْمَرْأَةُ الَّتِي حَمَلَتْ كِتَابَ حَاطِبٍ إِلَى قَرِيشٍ، وَلَمَّا أَدْرَكَهَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ أَنْكَرَتْ وَفَتَشَاهَا وَلَمْ يَجِدْ شَيْئاً، وَلَمَّا هَدَّ دَاها بِالسَّيْفِ أَخْرَجَتْ الْكِتَابَ مِنْ قُرُونٍ شَعْرَهَا فَدَفَعَتْهُ إِلَيْهِمَا^(٣).

قال الحافظ ابن حجر: قلت: قد ذكروا أن النبي ﷺ كان أهدر دمها ثم أمنها يوم الفتح. قال ابن حجر: وهي أم سارة التي أعطاها حاطب بن أبي بلتعة الكتاب إلى قريش فنزلت فيه ﴿لَا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ﴾ سَمَّاها قتادة عن أنس في حديث مختصر أخرجه ابن مندة من طريق عن قتادة عن أنس، أن أم سارة أمة لقريش، أتت النبي ﷺ فشكت إليه الحاجة، ثم إن رجلاً بعث معها كتاباً إلى أهل مكة ليحفظوا عياله، فنزلت

(١) صحيح البخاري برقم (٤٨٩، ٣٩٨٣، ٣٠٠٧)، وصحيح مسلم برقم (٢٤٩٤)، وينظر: المسند (٧٩/١) (٨٢٧، ٦٠٠) ٣٠٠٧، ٤٨٩، وإسناده صحيح على شرط الشيخين، وأبو داود برقم (٢٦٥١)، والترمذي برقم (٣٣٠٥)، والنسائي في السنن الكبرى برقم (١١٥٨٥)، والطبري (٣٨/٢٣)، وابن حبان (٦٤٩٩)، والبيهقي (١٥٢/٣)، وعبد بن حميد (٨٣).

(٢) أخرجه أبو يعلى كما في المطالب العالية (٤١٥٢)، والحاكم (٧٧/٤)، والضياء المقدسي (١٧٥-١٧٧)، وقال الحافظ: إسناده صحيح.

(٣) ينظر: تمام الحديث عند ابن مردويه كما في تخريج أحاديث الكشاف للزبيعي (٤٥١/٣).

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ﴾ قال أبو نعيم: ذكرها في الصحابة ونسبها إلى الإسلام^(١). وقوله (أمة لقريش) أي لعمر بن هاشم بن المطلب.

ثانيا: جاء في أسباب النزول: أن الآية الأولى من هذه السورة نزلت في حاطب بن أبي بلتعة، وذلك أن سارة مولاة أبي عمرو بن صيفي بن هاشم، أتت رسول الله ﷺ من مكة إلى المدينة، ورسول الله ﷺ يتجهز لفتح مكة، فقال لها: أمسلمة جئت؟ قالت: لا، قال: فما جاء بك؟ قالت: أنتم الأهل والعشيرة والموالي، وقد احتججت حاجة شديدة، فجئت إليكم لتعطوني، قال لها رسول الله ﷺ: «فأين أنت من شباب أهل مكة؟» وكانت مغنية، فقالت: ما طلب مني شيء بعد وقعة بدر، فحث رسول الله ﷺ بني عبد المطلب، فكسوها، وحملوها، وأعطوها، فأتاها حاطب بن أبي بلتعة، فكتب معها كتاباً إلى أهل مكة، وأعطاه عشرة دنانير، على أن تُوصِّل الكتاب إلى أهل مكة، وكتب في الكتاب: من حاطب إلى أهل مكة، إن رسول الله يريدكم، فخذوا حذرکم، فخرجت به سارة، ونزل جبريل عليه السلام، فأخبر رسول الله ﷺ بما فعل حاطب، فبعث رسول الله ﷺ علياً، وعماراً، والزبير، وطلحة، والمقداد، وأبا مرثد، وقال: «انطلقوا، حتى تأتوا روضة خاخ - وهي مكان قريب من المدينة - فإن فيها ظعينة - أي امرأة مسافرة - معها كتاب من حاطب إلى المشركين، فخذوه منها، واخلوا سبيلها، فإن لم تدفعه لكم فاضربوا عنقها»، فخرجوا حتى أدرکوها، فقالوا لها: أين الكتاب؟ فحلفت بالله ما معها من كتاب، ففتشوا متاعها فلم يجدوا شيئاً، فهتؤا بالرجوع، فقال علي: والله ما كذبنا، ولا كذب رسول الله ﷺ، وسل سيفه، وقال: أخرجي الكتاب، وإلا ضربت عنقك، فلما رأت الجذ أخرجته من ذؤابتها - أي من ضفيرة شعرها - فخلوا سبيلها، ورجعوا بالكتاب إلى رسول الله ﷺ فأرسل إلى حاطب، فأثاء، فقال له: (هل تعرف الكتاب؟) قال: نعم، قال: «فما حملك على ما صنعت؟» فقال: يا رسول الله، والله ما كفرْتُ منذ أسلمت، ولا

(١) الإصابة في تمييز الصحابة (١٤ / ٣٧٤) رقم (١٢١٧٨).

غَشَّشْتُكَ مِنْذُ نَصَحْتُكَ - أي منذ أخلصت لله - ولا أحببْتُهُمْ مِنْذُ فَارَقْتُهُمْ، ولكن، لم يكن أحد من المهاجرين إلا وَلَهُ بِمَكَّةَ مِنْ يَمْنَعُ عَشِيرَتَهُ، وكنتُ غريباً فيهم، وكان أهلي بين ظَهْرَانِيهِمْ، فخشيتُ على أهلي، فأردتُ أن أَتَّخِذَ عِنْدَهُمْ يَدًا، وقد علمتُ أن الله يُنْزِلُ بِهِمْ بِأَسَهِ، وكتابي لا يُغْنِي عَنْهُمْ شَيْئًا، فصَدَّقَهُ رسول الله ﷺ وعَذَرَهُ.

ونزلت هذه السورة تنهي حاطباً عما فعل، وتنهاي المؤمنين أن يفعلوا كفعله، فقام عمر ابن الخطاب فقال: يا رسول الله، دغني أضرب عُنُقَ هذا المنافق، فقال رسول الله ﷺ: «وما يدريك يا عمر، لعل الله اطلع على أهل بدر، فقال: اعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم»^(١).

ورد أن حاطباً كتب إلى قريش يقول لهم: إن رسول الله ﷺ يريد غزوكم في مثل الليل والليل، وأقسم بالله لو غزاكم وحده لُنْصِرَ عليكم، فكيف وهو في جمع كثير^(٢). ولنا مع قصة حاطب أربع وقفات:

الأولى: أن أول سورة الممتحنة نزلت أولاً في شأن حاطب، حليف بني أسد بن عبد العزى، وكان من المهاجرين، ومن أهل بدر، وكان مُلْصَقًا بقريش، ولم يكن منهم، ولكن الحكم عام في كل من يُوالي أعداء الله تعالى، فالعبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب.

الثانية: أن المرأة التي حملت الكتاب، جاء في بعض الروايات أنها أم سارة كَنُود، أمة

(١) ذكره الواحدي في أسباب النزول (٣١٥) ولم ينسبه لأحد، وقد ذكره ابن الجوزي في زاد المسير (٢٣١/٨)، وهو في تفسير الخازن (٢٥٥/٤)، والألوسي (٦٥/٢٨)، وغيرهم، والقصة عند السيوطي في الدر المنثور ٢٠٢/٦ وممن نسبها إليهم: الحميدي، وعبد بن حميد، وأبي عوانة، وابن حبان (٤٧٩٧)، وابن المنذر، وابن مردويه، والبيهقي، وأبي نعيم في الدلائل، وهذا بالإضافة إلى ما سبق ذكره في الحاشية السابقة، وانظر: رواية جابر بن عبد الله في المسند برقم (١٤٧٧٤) بإسناد صحيح على شرط مسلم، وأبي يعلى (٢٢٦٥).

(٢) تفسير ابن عطية (٢٩٣/٥).

لقريش، وفي بعض الروايات أنها سارة مولاة عمرو بن هاشم بن المطلب التي كان معها كتاب حاطب، أمها النبي ﷺ يوم الفتح^(١)، وهكذا فقد اختلف في اسمها وكنيتها، وكانت امرأة مُشركة مُغنية في مكة، وأن هذه المرأة جاءت مُتجسدة.

الثالثة: أما الوقت الذي حدث فيه هذه القصة، فقيل: إنه كان قبل فتح مكة، وقيل إنه كان قبل صلح الحديبية، وهو الأرجح، لِمَا في رواية الحارث عن عليّ عند الطبري: أن النبي ﷺ لَمَّا أراد أن يأتي مكة أفشى في الناس أنه يريد خير، وأَسْرَ إلى ناس من أصحابه، منهم حاطب، أنه يريد مكة، فكتب حاطب إلى أهل مكة، وكَوَّنَهُ ﷺ أفشى في الناس أنه يريد خير، يدل على أن ذلك كان قبل عمرة الحديبية، لا قبل فتح مكة، لأن خير فُتحت سنة سبع، أي قبل فتح مكة، ويؤيده أن هذه المرأة التي أرسل معها حاطب كتابه، قَدِمَتْ إلى المدينة بعد غزوة بدر بستين، كما رواه الطبري^(٢).

الرابعة: إن سعة صدر النبي ﷺ جعلته لم يتعجل في عقاب حاطب، وإنما سأله وعذَّره على لحظة ضعفه الطارئة فقال له: (ما حملك على ما صنعت؟) وأقال عثرته، والتمس له العذر، ليعينه ويجعله ينهض من عثرته...

جاء عن الحسن أن حاطباً قال: أما والله إني لمؤمن بالله وبرسوله، وما كفرْتُ منذ أسلمت، ولا شككت منذ استيقنت، ولكني كنت امرأة لا نسب لي في القوم، فكتبْتُ إليهم أذراً عن أهلي ومالي، وقد علمتُ أن ذلك لن يغني عنهم من الله شيئاً^(٣).

(١) كذا قال ابن حجر العسقلاني في الإصابة (١٣/ ٤٥٥) برقم (١١٤٠٥).

(٢) تفسير التحرير والتنوير (١٣/ ١٣٠)، وتفسير الطبري (٢٣/ ٣٨)، وابن كثير (٨/ ٨٤).

(٣) وأخرجه عبد بن حميد عن الحسن كما في الدر المنثور (١٤/ ٤٠٧).

تَفْسِيرُ السُّورَةِ

النُّهْيُ عَنْ مَوَالَاةِ غَيْرِ الْمُسْلِمِينَ الْمُحَارِبِينَ

١ - ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ تَلْقَوْنَ إِلَيْهِم بِالْمَوَدَّةِ وَقَدْ كَفَرُوا بِمَا جَاءَكُمْ مِنَ الْحَقِّ يُخْرِجُونَ الرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْ أَنْ تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ رَبِّكُمْ إِنْ كُنْتُمْ خَرَجْتُمْ جِهَادًا فِي سَبِيلِي وَابْتِغَاءَ مَرْضَاتِي تُسِرُّونَ إِلَيْهِم بِالْمَوَدَّةِ وَأَنَا أَعْلَمُ بِمَا أَخْفَيْتُمْ وَمَا أَعْلَنْتُمْ وَمَنْ يَفْعَلْهُ مِنْكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ ۝١﴾

بدأت سورة الممتحنة بنهي المؤمنين عن اتخاذ غير المسلمين أصدقاء وأولياء وأحباء، فإن من علامة الإيمان: حب المؤمنين وبغض الكافرين، ومودة الكافرين ومحبتهم منافٍ للإيمان، ومخالف لملة إبراهيم، ومناقض للعقل الذي يوجب الحذر كل الحذر من المخالف في الدين، لأنه لا يألو جهداً في إيصال الضرر إلى من خالفه في العقيدة، قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ يا من آمنت بالله رباً، وبمحمد نبياً ورسولاً، وعملتكم بشرع الله، واهتديتم بهدي رسوله ﴿لَا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ﴾ أي: اعملوا بمقتضى إيمانكم، من ولاية من قام بالإيمان ومعاداة من عاداه، فإنه عدو لله وعدو للمؤمنين، والمراد بالعداوة: عداوة الدين، والمؤمنون لم يبدؤوا بعداوة غير المسلمين، وإنما هم الذين بدؤوا بالعداوة، انتصاراً لكفرهم وشركهم.

والمشركون السابقون متفاوتون في عداوتهم للمسلمين، فخرّاعة مثلاً كانوا مشركين، وكانوا موالين للنبي ﷺ، والكفار أعداء الله وأعداء للمؤمنين، ولذا قال تعالى ﴿عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ﴾. وقد قدّم الله سبحانه عداوته للمشركين على عداوة المؤمنين لهم، لأن عداوة المشركين لله تعالى أشدّ وأقبح، فهم قد عبدوا غير خالقهم، وشكروا غير رازقهم، وكذبوا رسل ربهم وآذوهم.

جاء في الحديث القدسي (إني والجن والإنس في نأ عظيم، أخلق ويُعبَد غيري، وأرزق ويُشكر سواي، خيرني إلى العباد نازل، وشركهم إليّ صاعد، أتُحبب إليهم بنعمي

وأنا الغني عنهم، ويتبغضون إليّ بالمعاصي وهم أفقر ما يكون إليّ^(١).
ولو أن الكفار آمنوا بالله تعالى، وانتفت عداوتهم له، لأصبحوا إخوانا للمؤمنين،
وانتفت العداوة بينهم.

وقد جاء النهي عن محبة غير المسلمين في آيات كثيرة منها قوله تعالى:
﴿لَا يَتَّخِذِ الْمُؤْمِنُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَلَيْسَ مِنَ اللَّهِ فِي شَيْءٍ إِلَّا أَنْ
تَكُونُوا مِنْهُمْ قُتْلًا﴾ [آل عمران: ٢٨] بأن تكون لهم صولة وجولة، وسلطان وهيمنة، فليس
من الحكمة نطح الصخر، ولكن ينبغي تجنبه والوقاية منه، وفيما عدا ذلك فإن من
يواليهم على حساب عقيدته يكون منهم: ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى أَوْلِيَاءَ بَعْضُهُمْ
أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ فإِنَّهُ مِنْهُمْ﴾ [المائدة: ٥١].

وقد وصف الله تعالى من يسارعون في مودتهم ومحبتهم، تحسباً لنوائب الدهر،
للاختماء بهم، بأن هذا مرض ونفاق، ودلالة على عدم صحة الإيمان ﴿فَرَى الَّذِينَ فِي
قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ يُسْرِعُونَ فِيهِمْ يَقُولُونَ نَخْشَى أَنْ تُصِيبَنَا دَآئِرَةٌ﴾ [المائدة: ٥٢].

أي ترى أهل النفاق يسارعون في مودتهم والقرب منهم، وربما يكون هذا الولاء
لغير المسلمين خوفاً من إخوة لهم في العقيدة!! فيكون في هذا حجة ودليلاً على عدم
صحة إيمانكم: ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ أُرِيدُونَ أَنْ يُبْغِلُوا
اللَّهَ عَلَيْكُمْ سُلْطَانًا مُبِينًا﴾ [النساء: ١٤٤].

فالمحبة القلبية الخالصة لا ينبغي أن تتعدى المسلمين إلى غيرهم.
واتخاذ المستشارين والمؤمنين على أسرار البلاد والعباد، والمطلعين على الخطط
الأمنية للبلاد، لا يصح أن تتجاوز المسلمين إلى غيرهم، فقد توعد الله تعالى بالعقاب
من يفعل ذلك في مثل قوله تعالى: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تُتْرَكُوا وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ
وَلَمْ يَتَّخِذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَا رَسُولِهِ وَلَا الْمُؤْمِنِينَ وَلِجَنَّةً﴾ [التوبة: ١٦].

(١) رواه البيهقي والحاكم عن معاذ، وابن عساكر عن أبي الدرداء.

ومعنى وليجة: موضع سر وبطانة، وسكرتازية.

والعداوة الظاهرة تكون مع المحاربين لنا، والمُعِينِينَ على حَرْبِنَا، أما غير المسلمين في بلاد الإسلام، وهم في الأصل من أهل هذه البلاد، أو من المقيمين فيها بمقتضى عقد وأمان، فإنهم يعاملون معاملة حسنة، من البر والصلة والعدل، لا سيما الأرحام والأقارب والجيران، أما من أخرجونا من ديارنا، واغتصبوا أرضنا، هم ومن عاونهم على ذلك، فكيف نتخذهم أولياء؟ وكيف نطبع معهم العلاقات؟ ونحن لا نأمن شرهم وفسادهم وإهلاكهم للحرث والنسل؟ وكيف نتقرب إليهم بالمودة والمحبة؟ وكيف ﴿تَلْقَوْنَ إِلَيْهِم بِأَلْمُودَةِ﴾ وتسارعون في مودتهم، والحال أنهم كافرون بدينكم، وبما أنزل على نبيكم من الحق الواضح، والمودة إذا حصلت تبعتها النصرة والموالة، فخرج العبد من الإيمان وانفصل عنه وصار من جملة الكافرين.

ومما يدعو المؤمن إلى عداوة الكفار أنهم قد كفروا بما جاء به المؤمنين من الحق، وهذا أعظم مشاقة ومخالفة، فإنهم قد كفروا بأصل دينكم وزعموا أنكم على ضلال، ومن رد الحق فليس له دليل على صحة قوله وهذا معنى: ﴿وَقَدْ كَفَرُوا بِمَا جَاءَكُمْ مِنَ الْحَقِّ يُخْرِجُونَ الرَّسُولَ﴾ أي محمد ﷺ ﴿وَإِيَّاكُمْ﴾ أي ويخرجونكم أيضاً من دياركم ظلماً وعدواناً، أو لا ذنب لكم إلا أنكم تؤمنون بالله ربكم، وهذا أمر يجب على الخلق جميعاً أن يؤمنوا به.

فسبب النهي عن موالة الأعداء كما جاء في الآية أمران:

الأول: هو الكفر، وكل من لم يؤمن بمحمد ﷺ فهو كافر، ويدخل في هذا ملل ونحل كثيرة، من الشيوعيين، والملحدين، والعلمانيين، والهندوك، والبوذيين، واليهود والنصارى وغيرهم، وقد أخذ هذا من قوله تعالى: ﴿وَقَدْ كَفَرُوا بِمَا جَاءَكُمْ مِنَ الْحَقِّ﴾.

والسبب الآخر: هو إخراج الرسول ﷺ وأصحابه من مكة، موطنهم ومسقط رؤوسهم. وهذا السبب مطرد في كل زمان ومكان بالنسبة لكل مَنْ أخرج من بلده، وأول ما ينطبق هذا على اليهود، فقد أَخْرَجُوا أهل فلسطين من ديارهم، واحتلُّوها ودنسوا

مقدسات المسلمين فيها، وقد أخذ هذا من قوله تعالى: ﴿يُخْرِجُونَ الرُّسُولَ وَإِيَّاكُمْ﴾.

هل لليهود حق في فلسطين؟

ولو أن كل أمة تمسكت بسُكُنَى آبائها حِقْبَةً من الزمن في مكان من العالم، لحدّث تسلسل وخلل، واضطراب لا نهاية له.

والمقياس الحق في هذا: هو أن الحكم في كل زمان ومكان من العالم، يكون لآخر الشرائع السماوية، والإسلام هو كلمة الله الأخيرة إلى خلقه، وبيت المقدس قد فُتِحَتْ فتحاً إسلامياً كغيرها من البلاد التي فتحها المسلمون، ومحمد ﷺ هو الذي صُلّي إماماً بالأنبياء والمرسلين جميعاً في المسجد الأقصى، ومنهم موسى وعيسى عليهما السلام، وقد نسخ الإسلام كل شريعة سماوية قبله، فأورشليم، والقدس الشرقية والغربية، أو الجديدة والقديمة، وفلسطين كلها، دولة إسلامية، منذ أن فتحها عمر رضي الله عنه، وهي دولة عربية على مدى التاريخ قبل ذلك بآلاف السنين، واغتصاب اليهود لها فترة من الزمن لا يعطيهم حق التملك فيها، واليهود شعب بلا وطن، كتب الله عليهم ذلك عقوبة لهم على امتناعهم من دخول الأرض المقدسة حين طلب ذلك منهم نبيهم موسى عليه السلام، وهذا هو ما تقرره التوراة، ويؤمن به اليهود غير الصهاينة^(١).

وعداوة اليهود للإسلام وأهله أشد من غيرها، لأنهم كفروا برسولين هما (عيسى ومحمد) عليهما السلام، وكفروا بكتابين هما (الإنجيل والقرآن) أما النصارى فقد كفروا برسول واحد وكتاب واحد، ولذلك كانوا أقرب إلى المسلمين من اليهود، وسبب هذه العداوة كما قال تعالى: ﴿وَمَا نَقَمُوا مِنْهُمْ إِلَّا أَنْ يُؤْمِنُوا بِاللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ﴾ [البروج: ٨].

وهذا معنى ﴿يُخْرِجُونَ الرُّسُولَ وَإِيَّاكُمْ أَنْ تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ رَبِّكُمْ﴾ أي من أجل إيمانكم بالله ورسوله. فإن كانت هجرتكم وجهادكم أيها المسلمون في سبيل الله، وطلباً لمرضاة الله، فلا تُؤاؤا أعداء الله وأعداءكم، وهذا معنى: ﴿إِنْ كُنْتُمْ خَرَجْتُمْ جِهَادًا فِي سَبِيلِي وَابْتِغَاءَ مَرْضَاتِي﴾.

(١) راجع تفسير آيات سورة المائدة (٢٠ - ٢٦).

أي إن كان مقصود خروجكم هو الجهاد في سبيل الله لإعلاء كلمة الله، وابتغاء مرضاته، فوالأولاء أولياء الله وعادوا أعداءه، فإن هذا من الجهاد في سبيل الله، وهو من أعظم ما يتقرب به المتقربون إلى ربهم، فجواب الشرط وهو ﴿إِنْ﴾ محذوف، دل عليه ما قبله، أي إن كان إيمانكم خالصاً صادقاً لله تعالى، فتركوا مودتهم وصدقاتهم، ولا تُفضوا إليهم بالمودعة سرّاً، فتظهرون للناس أنه لا علاقة بينكم وبينهم، مع أنكم تُخفون مودتهم وتُفضون إليهم بأسرار المسلمين، فأنتم ﴿تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِالْمُودَةِ﴾ و﴿تُثِرُونَ إِلَيْهِم بِالْمُودَةِ﴾ وفي هاتين الجملتين تفسير وتوضيح لهذه الموالاة التي نهوا عنها.

وإلقاء المودة: إيصالها والإفضاء بها في السر أو العلن. فالجملة الأولى أعم من الثانية. قوله تعالى: ﴿وَإِنَّا أَعْلَمُ بِمَا أَخْفَيْتُمْ وَمَا أَعْلَنْتُمْ﴾ فاخذروا أن تظهروا القطيعة لهم، وتُبطنوا العلاقة معهم، فإن علام الغيوب سبحانه، لا يخفى عليه شيء من أحوالكم وسيحاسبكم عليه ﴿وَمَنْ يَفْعَلْهُ مِنْكُمْ﴾ فيوالي أعداء الله، ويلقي إليهم بالمودة، ويتعامل معهم سرّاً فيخفي مودتهم ويفشي أسرار المسلمين إليهم ويُبطن ما لا يُظهر في هذا المضمار وغيره ﴿فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ﴾ أي أخطأ طريق الحق والصواب، وضل عن قصد السبيل، والله تعالى سيحاسبه ويجازيه.

الْكَشْفُ عَنْ نَوَايَا أَعْدَاءِ الْإِسْلَامِ

٢- ﴿إِنْ يَتَّقَوْكُمْ يَكُونُوا لَكُمْ أَعْدَاءً وَيَبْسُطُوا إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ وَأَلْسِنَتَهُم بِالسُّوءِ وَوَدُّوا لَوْ تَكْفُرُونَ﴾ (٢) ثم كشف الله سبحانه عن حقيقة الأعداء، وبين أنهم عندما يتمكنون من المؤمنين، تظهر العداوة الكامنة في نفوسهم، المستحكمة في قلوبهم، فهم ﴿إِنْ يَتَّقَوْكُمْ﴾ أي إن يظفر بكم هؤلاء الذين تُسرون إليهم بالمودة ويتمكنون منكم، ويحكمون قبضتهم عليكم ﴿يَكُونُوا لَكُمْ أَعْدَاءً﴾ أي يكونون حرباً عليكم، ويظهر لكم منهم ما انطوت عليه نفوسهم من بُغْضٍ لكم، وليس هذا فحسب، بل ﴿وَيَبْسُطُوا إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ وَأَلْسِنَتَهُم بِالسُّوءِ﴾ أي يمدّون إليكم أيديهم بالقتل والسب، ويمدّون ألسنتهم بالسب والشتم، وهذا من باب

التهييج وشدة التحذير، فقد يظن ظان أن موالاة غير المسلمين من باب الدهاء والحزم، رجاء نفعهم إن دالت لهم الدولة.

وقد بين سبحانه في هذه الآية، وفي آية سورة المائدة: ٤٦ خطأ هذا الزعم، وبين أن العدو يستفيد من هذه المودة: الاطلاع على قوة المسلمين، ومعرفة أسرارهم الحربية، حتى يتأهبوا لهم ليظفروا بهم ﴿يَتَأَيَّمُوا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَتَّخِذُوا بِطَانَةً مِّن دُونِكُمْ لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالًا وَدُّوا مَا عَنِتُّمْ قَدْ بَدَتِ الْبَغْضَاءُ مِّنْ أَفْوَاهِهِمْ وَمَا تُخْفِي صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ﴾ [آل عمران: ١١٨].

وهؤلاء الأعداء في نهاية الأمر يتمنون أن تصيروا كفارا مثلهم وهذا غاية ما يريدون منكم ﴿وَوَدُّوا لَوْ تَكْفُرُونَ﴾ أي تمنوا لو تكفرون كما كفروا، لتكونوا مثلهم، كما قال تعالى: ﴿وَدُّوا لَوْ تَكْفُرُونَ كَمَا كَفَرُوا فَتَكُونُونَ سَوَاءً﴾ [النساء: ٨٩] أي متساوين معهم في الكفر. وقال سبحانه: ﴿وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّوكُم مِّنْ بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّارًا﴾ [البقرة: ١٠٩].

وقال جل شأنه: ﴿وَلَن رَّضَىٰ عَنْكَ الْيَهُودُ وَلَا النَّصْرَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ﴾ [البقرة: ١٢٠].

وفي ذلك بيان لعداوتهم وتمنيهم لهم الارتداد من الإيمان إلى الكفر.

الْمُخَالِفُونَ فِي الدِّينِ لَا تَجُوزُ مَوَالَاتُهُمْ وَلَوْ كَانُوا أَقْرَبَ النَّاسِ

٣- ﴿لَن تَنفَعَكُمْ أَرْحَامُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ يَفْصِلُ^(١) بَيْنَكُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٢﴾﴾

وبعد أن بين سبحانه سوء عاقبة موالاة أعداء الدين في الحياة الدنيا، وبين أن موالاتهم تؤدي إلى إذلال المسلمين وذهاب قوتهم، وتؤثر على عقيدتهم، بين سبحانه بعد ذلك سوء عاقبة موالاتهم في الآخرة، وأنها لا تنفع ولا تفيد عند الله تعالى في

(١) قرأ نافع وابن كثير وأبو عمرو وأبو جعفر (يُفْصِلُ) بالبناء للمجهول ونائب الفاعل ﴿بَيْنَكُمْ﴾ وقرأ ابن ذكوان (يُفْصِلُ) بفتح الصاد المشددة، وقرأ عاصم ويعقوب ﴿يَفْصِلُ﴾ بكسر الصاد المخففة، مبنياً للمعلوم والفاعل ضمير يعود على الله تعالى، وقرأ حمزة والكسائي وخلف (يُفْصِلُ) بكسر الصاد المشددة مبنياً للمجهول، ولهشام قراءتان: الأولى كابن ذكوان، والأخرى كنافع ومن معه، فهذه أربع قراءات.

شيء، فمداراة الكفار غير نافعة في الدنيا وهي ضارة في الآخرة، ولو كان هؤلاء المخالفين في الدين أقرب الناس إلى الإنسان، فإن احتججتكم وقتلتكم: نوالي غير المسلمين لأجل القرابة أو السياسة والاقتصاد، فلن يغني عنكم ذلك من الله شيئاً، ولن يقدّموا مصلحتكم على مصلحتهم، وقد حذركم الله من موالاتهم، وهذا لا يمنع جواز التعامل السياسي وتبادل المنافع بين جميع الدول، من غير محبة قلبية.

وفي هذا تعريض بحاطب بن أبي بلتعة حين اعتذر للنبي ﷺ بأنه أراد أن يتخذ له عند المشركين يداً يحمي بها أمه وإخوانه الذين كانوا في مكة.

والحكم عام في كل من أفشى أسرار المسلمين للكفار خوفاً على نفسه وأهله، وأن ذلك لا يجوز، كما لا تجوز محبتهم ولا التقرب منهم، وعفو النبي ﷺ عن حاطب، حالة خاصة به، لكونه من أهل بدر، ولأن النبي ﷺ صدّقه فيما قال، وأخذ بظاهر حاله، وحسابه على الله.

قال تعالى: ﴿لَنْ تَنفَعَكُمْ﴾ يوم القيامة ﴿أَرْحَامُكُمْ﴾ وأقاربكم ﴿وَلَا أَوْلَدُكُمْ﴾ من غير المسلمين الذين رغبتهم في وذلهم، ولن يدفعوا عنكم شيئاً من عذاب الله، فلا تُفشوا أسراركم للكفار لأي سبب من الأسباب ﴿يَوْمَ الْقِيَمَةِ يَفْصِلُ بَيْنَكُمْ﴾ أي في يوم الحساب والجزاء يفرق الله بينكم، فيدخل أهل طاعته الجنة، وأهل معصيته النار، فلا تُغضبوا الله تعالى بسبب أولادكم وأرحامكم، فإنهم سيفرّون منكم، يوم يشتد الهول ﴿يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ﴾ وَأُمِّهِ وَأَبِيهِ ﴿وَصَحْبِهِ وَبَنِيهِ﴾ لِكُلِّ امْرِئٍ مِنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ ﴿[عبس: ٣٤-٣٧].

وعلى هذا المعنى، فيوم القيامة متعلق بما بعده، أي أن الفصل بينهم موعده يوم القيامة. ويصح أن يكون ﴿يَوْمَ الْقِيَمَةِ﴾ متعلق بما قبله، فيصح الوقف عليه، أي أن الأموال والأولاد لا تنفعهم يوم القيامة، ولعل المعنى الأول أرجح.

ثم بين سبحانه أنه لا يخفى عليه شيء، وأنه مطلع على جميع الأمور، وسيجازي عباده على ما عملوا ﴿وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ وفي هذا وعد لمن أحب في الله وأبغض في الله، ووعد لمن خالف ذلك، وفيه بيان للآثار السيئة التي تترتب على من ضل سواء السبيل.

والآية صريحة في أن صلة الدين والعقيدة يجب أن تُقدّم على صلة الأرحام والأولاد، لأن الاستجابة لله والرسول، هي التي تنفع يوم القيامة، وليس الأهل والعشيرة. عن أنس رضي الله عنه أن رجلاً قال: يا رسول الله، أين أبي؟ قال: «في النار» فلما قَفَّى دعاه فقال: «إن أبي وأباك في النار»^(١).

وفي لفظ آخر: «إذا مررت بقبر كافر فبشره بالنار»^(٢).

وعن سعد بن أبي وقاص وابن عمر رضي الله عنهما أن أعرابياً أتى النبي صلى الله عليه وسلم فقال: يا رسول الله، أين أبي؟ قال: «في النار» قال فأين أبوك؟ قال: «حيثما مررت بقبر كافر فبشره بالنار»^(٣). وفي هذه الآيات الثلاث التي سبقت: النهي عن موالاة الأعداء، والنهي عن إفشاء أسرار المؤمنين إليهم، مع بيان السبب في ذلك وهو كفرهم بنبي الإسلام، ومحاربة المسلمين، وإخراجهم من ديارهم والتعدي على أموالهم.

الْوَلَاءُ وَالْبِرَاءُ فِي الدِّينِ سُنَّةُ أَتْبَاعِ الْأَنْبِيَاءِ فِي كُلِّ عَصْرِ وَمَصْنَرٍ

٤ - ﴿فَدَكَانَتْ لَكُمْ أَسْوَةٌ﴾^(٤) حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ^(٥) وَالَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَءُؤُكُمْ وَمِمَّا

(١) المسند (٢٦٨/٣) برقم (١٣٨٣٤، ١٢١٩٢) قال محققوه: رجاله ثقات، رجال الشيخين غير حماد - ابن سلمة - فمن رجال مسلم، وقد تفرد أحمد بهذا اللفظ، وهو في صحيح مسلم برقم (٢٠٣)، وسنن أبي داود برقم (٤٧١٨).

(٢) (مسالك الحنفاء في والدي المصطفى) للسيوطي عن معمر عن ثابت، قال السيوطي: واللفظ الذي في رواية حماد - أي الحديث السابق - من تصرف الراوي، رواه بالمعنى على حسب فهمه، ينظر: تحقيق المسند (٢٢٩ / ١٩).

(٣) قال محققو المسند: هذا إسناد صحيح على شرط الشيخين، وأعلّاه بعضهم بالإرسال، كما في العلل لابن أبي حاتم (٢٥٦ / ٢)، والدارقطني (٣٣٤ / ٤)، وقد أخرج حديث سعد، البزار (١٠٨٩)، والطبراني (٣٢٦)، وابن السني في عمل اليوم والليلة (٥٩٥)، والبيهقي في الدلائل (١ / ١٩١)، وجاء مثل هذا عن ابن عمر في ابن ماجه (١٥٧٣)، قال البوصيري في مصباح الزجاجة (١٠١)، هذا إسناد صحيح.

(٤) قرأ عاصم بضم الهمزة من ﴿أَسْوَةٌ﴾ والباقون بكسرها والضم لغة قيس وتميم، والكسر لغة أهل الحجاز.

(٥) قرأ ابن عامر بخلف عن ابن ذكوان (إبراهيم) والباقون ومعهم ابن ذكوان في الوجه الثاني ﴿إِبْرَاهِيمَ﴾.

تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاءُ^(١) أَبَدًا حَتَّى تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَحَدُّهُ إِلَّا قَوْلَ إِبْرَاهِيمَ^(٢) لِأَيُّوبَ لَا اسْتَغْفِرَنَّ لَكَ وَمَا أَمْلِكُ لَكَ مِنَ اللَّهِ مِن شَيْءٍ رَّبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ ﴿٤﴾

ولما حذر سبحانه من مضار موالات أعداء الله في الدنيا والآخرة، ضرب مثلاً بقصة إبراهيم عليه السلام للاقتداء به في براءته من كل صلة تربطه بغيره، سوى صلة الإيمان والإخلاص لله تعالى: ﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ﴾ أيها المؤمنون ﴿أُسْوَةٌ﴾ أي قدوة ﴿حَسَنَةٌ﴾ صالحة، وخصلة حميدة للتبرؤ من الكفر ﴿فَإِذْ يُرَاهِمَهُ وَالَّذِينَ مَعَهُ﴾ من أنبياء الله ورسله وكل من آمن به، فكلهم أمروا باتباع ملة إبراهيم في وجوب الحب في الله والبغض في الله، وعدم موالات الكفار، فإن ذلك من أوثق عرى الإسلام، ومن خالف ذلك فقد عرّض نفسه لذل الدنيا وخزي الآخرة.

وقد اقتدى الناس بخليل الرحمن، أبي الأنبياء، الذي سمانا المسلمين، فكونوا مثلهم - أيها المسلمون - في التأسي برسولكم، فإنه يحب أحباب الله، ويبغض أعداءه.

ثم بين سبحانه أن التأسي بإبراهيم عليه السلام في الولاء والبراء يكون في ثلاثة أمور:

أولها: وجوب التبرؤ من غير المسلمين، ومما يعبدونه من دون الله، وهذا ما يشير إليه قوله تعالى ﴿إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ﴾ أي قد كانت لكم - أيها المؤمنون - أسوة حسنة في إبراهيم، وفي الذين آمنوا معه وقت أن قالوا لقومهم الكفار بكل شجاعة وقوة ﴿إِنَّا بَرَاءُؤُا مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ﴾ أي إنا بريئون منكم ومن كل ما تعبدونه غير الله تعالى، فلا أنتم منا ولا نحن منكم.

وثانيها: إنكار المؤمنين لما عليه الكافرون من عبادة غير الله تعالى لقوله سبحانه: ﴿كَفَرْنَا بِكُمْ﴾ وبآلهتكم التي تعبدونها، وهذا تصريح بعداوة الكافرين غاية التصريح،

(١) قرأ نافع وابن كثير وأبو عمرو وأبو جعفر ورويس بإبدال الهمزة الثانية واوا من ﴿وَالْبَغْضَاءُ أَبَدًا﴾ وتسهيلها بين بين والباقون بالتحقيق.

(٢) اتفق القراء على قراءتها ﴿إِبْرَاهِيمَ﴾.

والكفر بالقوم، غير الكفر بما يعبده القوم، والمؤمنون يكفرون بمن يعبد غير الله، ومن يُعبد من دون الله.

وثالثها: إظهار المؤمنين لعداوة الكافرين وبُغضهم، وإعلان ذلك بلا مواربة ولا مداينة، ولا تورية، فهي عداوة بالقلب، وعداوة بالقول، وعداوة بالفعل، بشكل واضح، ويتجلى ذلك في سوء معاملة العدو لنا والاعتداء علينا، وهذا معنى ﴿وَبَدَا﴾ أي ظهر وبان علناً واضحاً ﴿يَتَنَبَّأُ بَيْنَكُمْ أَلْعَدُوُّ أَلْبَغْضَاءِ﴾ وهي النفور منكم وكراهيتكم، أي فنحن نسيء معاملتكم، ونضمر لكم الكراهة في نفوسنا، وهذه العداوة مستمرة وقائمة مادمتم على الكفر دائماً و﴿أَبَدًا﴾ أي: أن هذه البغضاء ليس لها وقت محدد، بل ما دمتم مستمرين على كفركم.

ولن تزول هذه القطيعة بيننا وبينكم ﴿حَتَّى تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَحَدَهُ﴾ فالإيمان بوحداية الله تعالى هو الغاية، وهو الحاجز بيننا وبينكم، فإن آمتتم بالله وحده زالت العداوة والبغضاء، وانقلبت مودة ومحبة وولاية ونصرة.

وهذه الأمور الثلاثة من قول إبراهيم وأبنائه وإخوانه المؤمنين، إلى الكفار من قومه، وقد أمرنا الله تعالى أن نتأسى بها.

قال الطبري وغيره: إن المراد بالذين آمنوا مع إبراهيم: هم الأنبياء الذين كانوا في عصره، والذين كانوا قريباً من عصره.

وقال ابن عطية: وهذا القول أرجح، لأنه لم يُزَوَّ أن إبراهيم كان له أتباع مؤمنون في مكافحته للنمرود^(١).

وفي البخاري: أن إبراهيم عليه السلام قال لسارة حين رحل بها إلى الشام مهاجراً من بلد النمرود: (ما على الأرض من يُعبد الله غيري وغيرك).

(١) تفسير ابن عطية (٢٩٥/٥).

قلت: وممن آمن إبراهيم: ابن أخيه لوط عليه السلام، لقوله تعالى ﴿فَأَمَّنَ لَهُ لُوطٌ﴾ [العنكبوت: ٢٦].

وهذه الأسوة مقيدة بالتبرئ من الشرك، وهو مطرد في كل ملة، وفي نبينا عليه السلام أسوة حسنة على الإطلاق، في العقائد وفي أحكام الشرع كلها. وفي حديث ابن عمر رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال: «أمرت أن أقاتل الناس حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله، وأن محمداً رسول الله، ويقيموا الصلاة، ويؤتوا الزكاة، فإذا فعلوا ذلك، عصموا مني دماءهم وأموالهم إلا بحق الإسلام، وحسابهم على الله»^(١). والمراد بالناس في الحديث: خصوص الكفار، ولعل ذلك كان قبل أن يفرض الحج، ولذا: لم يأت ذكره في الحديث.

منع الاستغفار لغير المسلمين:

هذا: وقد كان من عادة الناس قبل رسالة إبراهيم ﷺ، أن يستغفروا لأبائهم الذين ماتوا، ولذا، فإن إبراهيم عليه السلام وعد أباه بالاستغفار له، بعد أن أعرض عن دعوة التوحيد، فلما نهاه الله عن الاستغفار لأبيه تبرأ منه، وبهذا جاء الاستثناء في هذه الآية، وهو استثناء منقطع على الأرجح في قوله تعالى: ﴿إِلَّا قَوْلَ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ لَأَسْتَغْفِرَ لَكَ﴾ أي لا يدخل في هذا الاقتداء، استغفار إبراهيم لأبيه، فإن ذلك إنما كان قبل أن يتبين لإبراهيم أن أباه عدو لله ﴿فَلَمَّا بَيَّنَّ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ﴾ فلکم أيها المؤمنون أسوة حسنة في إبراهيم ومن معه في القيام بالتوحيد ولوازم الإيمان ومقتضياته، إلا في خصلة واحدة هي الاستغفار للكافر ولو كان أقرب الناس إليك.

ومعنى الجملة: اقتدوا بإبراهيم في كل أحواله، إلا في قوله لأبيه المشرك: ﴿لَأَسْتَغْفِرَ لَكَ﴾ فإن استغفاره له كان بسبب وعد سابق وعده إياه قال تعالى ﴿وَمَا كَانَتْ اسْتَغْفَارُ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَنْ مَوْعِدَةٍ وَعَدَهَا إِيَّاهُ فَلَمَّا بَيَّنَّ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ﴾ [التوبة: ١١٤].

(١) البخاري برقم (٢٥)، ومسلم برقم (٢٢).

فليس لكم أن تدعوا للمشركين وتقولوا : إنا متبعون لإبراهيم في ذلك، فإن الله تعالى قد ذكر عُذر إبراهيم في ذلك، وبين أن دعاءه له كان بسبب وعده له بالدعاء، ولما نهاه ربه عن ذلك تبرأ منه.

قال سبحانه: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ إِنَّنِي بَرَاءٌ مِمَّا تَعْبُدُونَ ﴿٢٦﴾ إِلَّا الَّذِي فَطَرَنِي فَإِنَّهُ سَيَهْدِينِ ﴿٢٧﴾ وَجَعَلَهَا كَلِمَةً بَاقِيَةً فِي عَقِبِهِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٢٨﴾﴾ [الزخرف: ٢٦-٢٨].

وهذه قضية عامة بالنسبة للخلق جميعاً ألا يستغفر المؤمنون للمشركين ولو كانوا أقرب الناس إليهم، قال تعالى: ﴿مَا كَانِ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَنْ يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوا أُولَىٰ قُرْبَىٰ مِنْ بَعْدِ مَا بَيَّنَّ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ ﴿١١٣﴾﴾ [التوبة: ١١٣].

ثم ذكر سبحانه بقية كلام إبراهيم لأبيه في قوله ﴿وَمَا أَمْلِكُ لَكَ مِنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ﴾ لكنني أدعو ربي عسى ألا أكون بدعاء ربي شيئاً، أي ليس في قدرتي وطاقتي إلا الاستغفار لك، ولا أستطيع أن أغني عنك أو أدفع عنك شيئاً من عذاب الله إن أشركت به وعصيته، فالأمر كله لله، إن شاء عذبك وإن شاء عفا عنك، والذي يملك ذلك هو الله وحده: ﴿يَوْمَ يَأْتِي بَعْضُ أَيْدِيكَ لَا يَنْفَعُ نَفْسًا إِيْمَانُهَا لَمْ تَكُنْ ءَامَنَتْ مِنْ قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِي إِيمَانِهَا خَيْرًا﴾ [الأنعام: ١٥٨].

ثم ذكر سبحانه جانباً من تضرع إبراهيم إلى خالقه سبحانه حين دعا ربه قائلاً: ﴿رَبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا﴾ أي: اعتمدنا عليك في جلب ما ينفعنا ودفع ما يضرنا ﴿وإِلَيْكَ أَنَبْنَا﴾ أي رجعنا إلى طاعتك ومرضاتك ﴿وإِلَيْكَ الْمَصِيرُ﴾ عليك وحدك يا ربنا اعتمدنا وفوضنا أمورنا، وإليك وحدك رجعنا بالتوبة، وأنت الذي تقبل توبتنا، وإليك لا إلى غيرك المرجع والمصير يوم القيامة، فعليكم أن تتأسوا بإبراهيم ومن معه في مثل هذا الدعاء أيضاً، فإن فيه توكل على الله، وإنابة إليه، واعتراف بالعجز والتقصير.

وفي هذا تعليم للمؤمنين أن يضرعوا وتوجههم إلى الله تعالى بإرضائه، ولا يلتفتوا إلى ما لا يرضيه سبحانه، فإن رضى الله تعالى مقدم على كل شيء، والمسلم يسأل ربه النجاح في جميع أحواله، وأعظم النجاح هو العمل لمصير ما بعد البعث في الحياة الأبدية.

ويُكْمَل إبراهيم عليه السلام دعاءه لربه فيقول:

٥- ﴿رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِلَّذِينَ كَفَرُوا وَاعْفِرْ لَنَا رَبَّنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾

أي ربنا لا تظهر الكفار وتسلبهم علينا بذنوبنا ومعاصينا فتضرهم وتخذلنا فيظنوا أنهم على حق، ويقولون عنا: لو كان هؤلاء على حق، ما أصابهم هذا العذاب بأيدينا، فيكون هذا سبباً في زيادة كفرهم وإصرارهم عليه، وسبباً في تحوّل غيرهم إلى الكفر، ويظنون أننا على الباطل، فيزدادوا كفراً وطغياناً ويفتنونا في ديننا، ويمنعونا مما يقدرنا عليه من أمور الدين.

وقال قتادة: ربنا لا تظهرهم علينا فيفتنوا بذلك.

وقال ابن عباس رضي الله عنهما في معنى هذه الآية: ربنا لا تسلبهم علينا فيفتنونا

عن ديننا، أي لا تجعلنا مفتونين بهم^(١).

﴿وَاعْفِرْ لَنَا رَبَّنَا﴾ أي استر علينا ذنوبنا بعفوك عنها يا ربنا ﴿إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ﴾ القاهر لكل شيء ﴿الْحَكِيمُ﴾ الغالب الذي لا يذلّ من التجأ إليه، وأنت (الْحَكِيم) الذي لا يفعل إلا ما فيه الخير والمصلحة، ويضع الأمور في نصابها، فبعزتك وحكمتك انصرنا على أعدائنا واغفر لنا ذنوبنا.

فهذه خمس دعوات من إبراهيم عليه السلام، اثنتين في هذه الآية، وثلاثة في الآية

التي قبلها.

تَأْسِي هَذِهِ الْأُمَّةَ بِخَلِيلِ الرَّحْمَنِ فِي الْوَلَاءِ وَالْبَرَاءِ وَعَقِيدَةِ التَّوْحِيدِ

٦- ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِيهِمْ^(٢) أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَمَن يَتَوَلَّ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ﴾

حث سبحانه وتعالى على الاقتداء بإبراهيم عليه السلام مرة أخرى، ليبين في هذه المرة أن هذا التأسّي يسهل على كل من يطلب الأجر والمثوبة من الله تبارك وتعالى،

(١) قال ابن عطية: وهذا أرجح الأقوال (٢٩٦/٥)، وانظر تفسير الطبري (٥٦٩/٢٢) وغيره.

(٢) ضم الهاء من ﴿فِيهِمْ﴾ يعقوب وكسرها غيره.

فإن من يرجو لقاء الله يسهل عليه كل عسير، ويرى نفسه مفتقراً إلى الاقتداء بأنبياء الله ورسله، وعباده الصالحين.

وبعد الفراغ من وصايا إبراهيم ومن معه فيما يتعلق بالولاء والبراء، توجه سبحانه وتعالى بالخطاب إلى أمة محمد ﷺ لتأكيد التآسي بخليل الرحمن، مع تقرير أنه لا ينتفع بهذي القرآن إلا المؤمن بالله واليوم الآخر ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ﴾ أيها المؤمنون ﴿فِيهِمْ﴾ أي في إبراهيم والذين معه ﴿أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾ قدوة طيبة، وسيرة حميدة، في التبرؤ من الكفر وأهله ﴿لَنْ كَانَ يَرْجُوا اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ﴾ أي أن هذا التآسي إنما ينتفع به من يطمع في الخير وجزيل الثواب من الله تعالى، فإن في هذا دلالة على صدق الإيمان ﴿وَمَنْ يَتَوَلَّ﴾ أي ومن يعرض عما ندبه الله إليه من التآسي بأنبيائه ويوالي أعداء الله فلن يضر إلا نفسه، ولن يضر الله شيئاً ﴿فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ﴾ عن عباده غنى مطلقاً، والكل مفتقر إليه ﴿الْحَمِيدُ﴾ أي المحمود في ذاته وصفاته، وأقواله وأفعاله، والذي يُحمد: يُمثل أمره ويُجتنب نهيه، وهذا تحذير عام لمن عاد إلى ما نهى عنه كما قال سبحانه: ﴿إِنْ تَكْفُرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنْكُمْ وَلَا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ الْكُفْرَ وَإِنْ تَشْكُرُوا يَرْضَهُ لَكُمْ﴾ [الزمر: ٧].

وقال جل شأنه: ﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِنْ كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ﴾ [إبراهيم: ٧].

وَعَدُ الْمُؤْمِنِينَ بِانْقِلَابِ عداوة أَقْرِبَائِهِمْ إِلَى مَحَبَّةٍ

٧- ﴿عَسَى اللَّهُ أَنْ يَجْعَلَ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ الَّذِينَ عَادَيْتُمْ مِنْهُمْ مَوْدَّةً وَاللَّهُ قَدِيرٌ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾

أخبر سبحانه أن عداوة المؤمنين لغيرهم قائمة ما داموا على الكفر والشرك، فإذا انتقلوا إلى الإيمان تحولت العداوة إلى محبة، ولما أمر الله المؤمنين بعبادة الكافرين في الآيات السابقة، عادى المؤمنون أقرباءهم من المشركين، وأظهروا لهم البراءة والبغضاء، وقد علم الله سبحانه شدة ذلك على المسلمين، فوعدهم بأن هذه القطيعة ستؤول إلى مودة، بحيث يُسلم أقرباؤهم، ويوالونهم في الله، فقال تعالى ﴿عَسَى اللَّهُ أَنْ

يَجْعَلُ يَنْتَكُرُ ﴿١﴾ أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ ﴿٢﴾ وَيَا الَّذِينَ عَادَيْتُمْ مِنْهُمْ ﴿٣﴾ أَيُّ مَنْ أَقَارِبِكُمُ الْمَشْرِكِينَ ﴿٤﴾ مَوَدَّةٌ ﴿٥﴾ أَيُّ
 محبة بعد البغضاء، وألفة بعد الشحنة، بانسراح صدورهم للإسلام، وتحولهم إلى الإيمان
 فتتحول عداوتكم لهم إلى صلة ومحبة وأخوة ﴿٦﴾ وَاللَّهُ قَدِيرٌ ﴿٧﴾ بليغ القدرة على تغيير
 القلوب، قادر على أَنْ يَقْبَلَ بِقُلُوبِ الْمُعَانِدِينَ عَلَيْهِ لِيَدْخُلَهُمْ فِي مَغْفِرَتِهِ وَرَحْمَتِهِ، فَالْقُلُوبُ
 بَيْنَ إصْبَعَيْنِ مِنْ أَصَابِعِ الرَّحْمَنِ يُقَلِّبُهَا كَيْفَ شَاءَ، وَمَنْ قُدْرَتُهُ تَعَالَى أَنْ يَتَحَوَّلَ الْكَافِرُ إِلَى
 مُؤْمِنٍ، وَالْعَدُوُّ إِلَى صَدِيقٍ ﴿٨﴾ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٩﴾ لَمَنْ امْتَثَلَ أَمْرَهُ، فَأَقْلَعَ عَنِ الْكُفْرِ وَتَحَوَّلَ إِلَى
 الْإِيمَانِ، وَهُوَ سَبْحَانَهُ لَا يَتَعَاطَمُ عَلَيْهِ ذَنْبٌ أَنْ يَغْفِرَهُ، وَلَا يَكْبُرُ عَلَيْهِ عَيْبٌ أَنْ يَسْتَرَهُ ﴿١٠﴾ قُلْ
 يَعْبادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا ﴿١١﴾ [الزمر: ٥٣].

ولفظ ﴿عَسَى﴾ فِي جَانِبِ اللَّهِ تَعَالَى، لِتَحَقُّقِ الْوَقُوعِ، فَهِيَ وَغْدٌ وَعَدٌ اللَّهُ بِهِ الْمُؤْمِنِينَ،
 وَقَدْ أَنْجَزَ اللَّهُ وَعْدَهُ، فَهَدَى كَثِيرًا مِنَ الْكُفَرَاءِ إِلَى الْإِيمَانِ فِي يَوْمِ فَتْحِ مَكَّةَ، مِنْهُمْ:
 أَبُو سَفْيَانَ، وَالْحَارِثُ بْنُ هِشَامٍ، وَسُهَيْلُ بْنُ عَمْرٍو، وَحَكِيمُ بْنُ حَزَامٍ.

فَفِي الْآيَةِ بَشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ وَإِشَارَةٌ إِلَى دُخُولِ غَيْرِ الْمُسْلِمِينَ فِي الْإِسْلَامِ.

وَمِنْ أَمْثَلَةِ حُصُولِ الْمَوَدَّةِ مَعَ غَيْرِ الْمُسْلِمِينَ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ كَانَ قَدْ تَزَوَّجَ أُمَّ حَبِيبَةَ بِنْتَ
 أَبِي سَفْيَانَ بَعْدَ وَفَاةِ زَوْجِهَا عَبْدِ اللَّهِ بْنِ جَحْشٍ فِي أَرْضِ الْحَبَشَةِ، فَلَمَّا تَزَوَّجَهَا النَّبِيُّ ﷺ
 لَانَتْ عَرِيكَةَ أَبِي سَفْيَانَ، فَصَرَّحَ بِفَضْلِ النَّبِيِّ ﷺ حِينَ قَالَ: ذَلِكَ الْفَحْلُ لَا يُقْدَحُ أَنْفُهُ،
 أَيُّ لَا يُضْرَبُ أَنْفُهُ بِالرَّمْحِ.

وَلَمَّا أَسْلَمَ أَبُو سَفْيَانَ، وَقَبِضَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ كَانَ أَبُو سَفْيَانَ أَوَّلَ مَنْ قَاتَلَ فِي حُرُوبِ
 الرِّدَّةِ، وَجَاهَدَ عَنِ الدِّينِ ^(١).

وَالْأَمْثَلَةُ الْمَعَاصِرَةُ عَلَى هَذَا كَثِيرَةٌ، مِنْ ذَلِكَ أَنَّ مَنْ يَدْخُلُ فِي الْإِسْلَامِ حَدِيثًا يَعَادِيهِ
 أَهْلُهُ، وَقَدْ يَسْتَمِرُّ هَذَا لِبَعْضِ الْوَقْتِ، ثُمَّ يُسْلِمُونَ غَالِبًا، وَهَنَّاكَ الْآبَاءُ الصَّالِحُونَ أَوْ
 الطَّالِحُونَ، وَلَهُمْ أَبْنَاءٌ عَلَى عَكْسِ ذَلِكَ، فَتَحْدُثُ بَيْنَهُمُ الْقَطِيعَةُ، ثُمَّ تَتَحَوَّلُ إِلَى مَوَدَّةٍ.

(١) ينظر: الدر المنثور (٤١٠/١٤) عن ابن شهاب عند ابن أبي حاتم بسند مرسل وعن أبي هريرة عند ابن مردويه.

وهكذا: فالآية بشرى عامة للمؤمنين، ووعد لهم بانقلاب العداوة إلى محبة.

حُسْنُ التَّعَامُلِ مَعَ غَيْرِ الْمُسْلِمِينَ الْمُسَالِمِينَ

٨ - ﴿لَا يَنْهَكُكُمْ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُمْ مِنْ دِينِكُمْ أَنْ تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ

اللَّهُ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ ﴿٨﴾﴾

رخص الله سبحانه وتعالى في صلة الذين لم يحاربوا المسلمين، ولم يخرجوهم من ديارهم، أو يغتصبوا أرضهم، أو يقفوا في وجه دعوتهم، فأجاز برّهم، وحسن معاملتهم، والصدقة على فقيرهم دون أن يؤدي ذلك إلى موالاة ومحبة قلبية.

والمعنى: أن الله تعالى لا ينهى عن بر أهل العهد من الكفار الذين عاهدوا المؤمنين على ترك القتال، وعلى أن لا يظاهروا الكفار عليهم، ولا ينهى عن معاملتهم بالعدل والقسط ﴿لَا يَنْهَكُكُمْ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ﴾ أيها المؤمنون ﴿فِي الدِّينِ﴾ أي من أجل دينكم، وهم الكفار ﴿وَلَمْ يُخْرِجُوكُمْ مِنْ دِينِكُمْ﴾ فيطردوكم منها ويحتلوا أرضكم، لا ينهاكم الله عن فعل ما هو من البر، كصلة الرحم، ونفع الجار، والتعامل بالحسنى معهم، والضيافة، وحسن الخلق ﴿وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ﴾ أي تعدلوا فيما بينكم وبينهم بأداء ما لهم من الحق كالوفاء بالوعد معهم، وأداء الأمانة لهم، وحسن التعامل في البيع والشراء، والبر والإحسان إليهم، فكرمواهم وتصدقوا على المحتاج منهم، وتعدلوا في برّكم بهم ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾ الذين يعدلون في أقوالهم وأفعالهم، وبين أهلهم، ومن ولاهم الله عليهم.

وهذه الآية استثناء ممن ذكرتهم السورة في أولها، فهم ليسوا من الأعداء المحاربين لنا، ولم يتسلطوا علينا ويخرجونا من ديارنا.

وقد دخل في هذه الآية في عصر التنزيل حلفاء للنبي ﷺ ممن يخالفونه في العقيدة، وكانوا يحبون نُصْرته على قريش مثل: خزاعة، وبنو الحارث بن كعب بن مناة بن كنانة، ومُزينة، وغيرهم، ومما ورد في أسباب نزول هذه الآية:

١- ما جاء عن أسماء بنت أبي بكر رضي الله عنهما: قالت: قَدِمْتُ أُمِّي وهي مشركة، في عهد قريش إذ عاهدوا، فَأَتَيْتُ النَّبِيَّ ﷺ فقلت: يا رسول الله، إِنَّ أُمِّي قَدِمَتْ وهي راغبة، أَفَأَصْلُهَا؟ قال: «نعم، صلي أمك»^(١).

وأما هي: (قَتِيلَةُ بِنْتُ عَبْدِ الْغَزَى الْقُرَشِيَّةِ الْعَامِرِيَّةِ) ويقال (قَتْلَةٌ) والدَّةُ أَسْمَاءُ بِنْتُ أَبِي بَكْرٍ مِنْ بَنِي عَامِرِ بْنِ لُؤَيٍّ، مِنْ قُرَيْشٍ، وَكَانَتْ مُشْرِكَةً، فَقَدِمَتْ الْمَدِينَةَ مِنْ مَكَّةَ، فِي مَدَّةِ الْهَدَنَةِ الَّتِي كَانَتْ بَيْنَ النَّبِيِّ ﷺ وَبَيْنَ كِفَارِ قُرَيْشٍ، بَعْدَ صَلَاحِ الْحُدَيْبِيَّةِ، لَزِيَارَةِ ابْنَتِهَا، وَمَعَهَا هَدَايَا، فَلَمْ تُدْخِلْهَا أَسْمَاءُ بَيْتَهَا، وَلَمْ يَقْبَلْ هَدَايَاهَا، فَسَأَلَتْ عَائِشَةَ النَّبِيَّ ﷺ فَنَزَلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ، فَأَمَرَهَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ أَنْ تُدْخِلَهَا مَنْزِلَهَا، وَتَقْبَلَ هَدِيَّتَهَا، وَتُكْرِمَهَا، وَتَحْسِنَ إِلَيْهَا^(٢) وهذه المرأة كانت خالة لأسماء فسمَّتها أُمًّا^(٣).

قال أبو موسى: ولو كانت مسلمة لما احتاجت أسماء أن تستأذن في صلتها إلا أن تكون أسلمت بعد ذلك.

قال ابن حجر العسقلاني: إن كانت عاشت إلى الفتح فالظاهر أنها أسلمت^(٤).

أما أم عائشة رضي الله عنها فهي (أم رومان) وكانت مسلمة مهاجرة، وكانت عائشة من أم، وأسماء من أم أخرى، قال تعالى: ﴿وَإِنْ جَاهِدَاكَ عَلَىٰ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا وَصَاحِبُهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفٌ وَأَتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَيَّ﴾ [لقمان: ١٥].

(١) المسند (٣٤٤/٦-٣٤٧) ورقمه (٢٦٩١٥، ٢٦٩١٣) حديث صحيح، والبخاري برقم (٢٦٢٠، ٣١٨٣،

٥٩٧٨)، ومسلم برقم (١٠٠٣)، والبيهقي في شعب الإيمان (٧٩٣١) وغيرهم

(٢) أسباب النزول للواحدي عن عبد الله بن الزبير (ص ٣١٧) وهو في المسند (٤/٤) (١٦١١١)، والطيالسي

(١٧٤٤)، والمستدرك (٤٨٥/٢)، ومجمع الزوائد (١٢٣/٧)، والدر المنثور (٤١٢/١٤)، والطبري

(٤٣/٢٨)، والبخاري في كشف الأستار برقم (١٨٧٣) وضعفه محققوا المسند لضعف مصعب بن ثابت،

وهو ابن عبد الله بن الزبير، وبقية رجاله ثقات رجال الشيخين.

(٣) تفسير ابن عطية (٢٩٧/٥).

(٤) الإصابة (١٣٠/١٤).

٢- وقيل: إن هذه الآية نزلت في خزاعة وبني مدلج، وكانوا قد صالحوا النبي ﷺ على ألا يقاتلوه، ولا يعينوا عليه أحداً^(١).

وبهذا يتبين أن الإسلام دين محبة وسلام، يستهدف أن يظلل العالم كله بظله، وأن يجمع الناس تحت لوائه، ويقيم فيهم منهجه، ويعيشوا إخوة متحابين متعارفين متعاونين. والإسلام لا يجبر الناس على اعتناق الإسلام، ولم يتخذهم أعداء، ماداموا لم يقفوا حَجَر عثرة في وجه الدعوة، ولم يعتدوا علينا، وهو يفرق في التعامل بين الكافر المسالم والكافر المحارب.

الْعُدُوْ غَيْرُ الْمُسَالِمِ مِنَ أَعْدَاءِ الدِّينِ يُعَامَلُ بِالْمِثْلِ

٩- ﴿إِنَّمَا يَنْهَكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ قَاتَلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَأَخْرَجُوكُم مِّن دِيَارِكُمْ وَظَهَرُوا عَلَىٰ إِخْرَاجِكُمْ أَن تَوَلَّوْهُمْ^(٢) وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾

وبعد الحديث عن القسم الأول، وهو عدو مسالم، لم يقاتل المسلمين، ولم يخرجهم من ديارهم، وبالتالي لم ينه الإسلام عن برّهم والإقساط إليهم. بعد ذلك يأتي القسم الآخر، وهو عدو غير مسالم، يقاتل المسلمين، ويخرجهم من ديارهم، ويظهر على إخراجهم، وهؤلاء نهى الله تعالى عن موالاتهم ومودتهم، مع ملاحظة الفرق بين البر والقسط، وبين الموالاة والمودة.

قال تعالى: ﴿إِنَّمَا يَنْهَكُمُ اللَّهُ عَنِ إِكْرَامِ وَصْلَةٍ وَبَرٍّ مِّن قَاتِلِكُمْ عَلَى الْإِيمَانِ، وَأَخْرَجِكُم مِّن الْأَوْطَانِ، وَعَاوَنَ عَلَيْكُمُ عِبْدَةَ الْأَوْثَانِ، فَلَا تَصَالِحُوهُمْ وَلَا تَلِيْنُوا لَهُمْ، فَإِنِ الْإِسْلَامُ يَنْهَاكُم عَنِ مَوَدَّةِ الْكَافِرِينَ﴾ الَّذِينَ قَاتَلُوكُمْ فِي الدِّينِ ﴿فَنَاصِبُوكُمُ الْعَدَاءَ، وَقَاتَلُوكُم مِّنْ أَجْلِ

(١) ذكره ابن الجوزي عن ابن عباس كما في زاد المسير (٢٣٦/٨).

(٢) قرأ البزي بخلف عنه بتشديد التاء وصلًا من ﴿أَن تَوَلَّوْهُمْ﴾ والباقون بتخفيفها، واتفق القراء على تخفيف التاء عند الابتداء بها.

أنهم على غير دينكم، ووقفوا في وجه انتشار الدعوة ﴿وَأَخْرِجُوهُمْ مِّن دِينِكُمْ﴾ التي تسكنوها ﴿وَلَا تَهْرُؤُوا﴾ أي عاونوا غيرهم ﴿عَلَىٰ إِخْرَاجِكُمْ﴾ من دياركم، فعداوتهم لكم عداوة لدين الله وللمن قام به.

وقد كان أهل مكة فريقان: منهم من يأتي بالأسباب التي لا يحتمل المسلمون البقاء معها بمكة، ومنهم من يعين على ذلك ويغري عليه، والله تعالى ينهاكم ﴿أَن تَوَلَّوْهُمْ﴾ بالنصرة والمودة، فلا توالوا من قاتلوكم لأجل دينكم، ولا من اغتصبوا أرضكم، أو استولوا على أموالكم، أو مقدساتكم.

ثم توعد الله سبحانه من يتخذهم أنصارا وأحبابا ويفضلهم على المؤمنين فقال ﴿وَمَن يَتَوَلَّمْ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ لأنفسهم، الخارجون عن حدود الله، المعادون لله والرسول، المعرّضون أنفسهم لعذاب الله، فإن من أحبهم وتولاهم فهو ظالم، لأنه جعل الأمر في غير موضعه، وتعدى الحدود في العهود والمواثيق كما قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَىٰ أَوْلِيَاءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَمَن يَتَوَلَّهُمْ فإِنَّهُ مِنَّهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴿٥١﴾﴾ [المائدة: ٥١].

وقال سبحانه: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِن دُونِ الْمُؤْمِنِينَ ءَأُرِيدُونَ أَن تَجْعَلُوا لِلّٰهِ عَلَيْكُمْ سُلْطٰنًا مُّبِينًا ﴿٥٢﴾﴾ [النساء: ١٤٤].

وهكذا رسمت الآيات المنهج الذي يتعامل به المسلمون مع غيرهم، فقد رخصت الآية الأولى في حُسن التعامل مع غير المسلمين المسالمين. ونهت الآية الثانية عن ذلك بالنسبة للمحاربين المعتدين.

وسورة التوبة تقرر ما في الآية الثانية فتأمر بقتال المعتدين المقاتلين ﴿وَقَاتِلُوا الْمُشْرِكِينَ كَافَّةً كَمَا يُقَاتِلُونَكُمْ كَافَّةً﴾ [التوبة: ٣٦] وهي ناطقة بقتال من قاتل.

الإِسْلَامُ يُفَرِّقُ بَيْنَ الْمُسْلِمَةِ وَزَوْجِهَا غَيْرِ الْمُسْلِمِ

١٠ - ﴿يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا جَاءَكُمْ الْمُؤْمِنَاتُ مُهَاجِرَاتٍ فَامْتَحِنُوهُنَّ^(١) ۚ اللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَانِهِنَّ فَإِنْ عَلِمْتُمُوهُنَّ مُؤْمِنَاتٍ فَلَا تَرْجِعُوهُنَّ إِلَى الْكُفَّارِ لَا هُنَّ حِلٌّ لَّهُمْ وَلَا هُمْ يَحِلُّونَ لَهُنَّ وَءَاتُوهُنَّ مَا أَنفَقُوا وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ أَنْ تَنكِحُوهُنَّ إِذَا ءَاتَيْتُمُوهُنَّ أَجْرَهُنَّ وَلَا تُمْسِكُوا^(٢) بِعِصَمِ الْكُوفَرِ وَاسْأَلُوا^(٣) مَا أَنفَقْتُمْ وَلَيْسَ لَكُمْ أَنْفَقُواذِلَّكُمْ حُكْمُ اللَّهِ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ۝١٠﴾

في هذه الآية حُكْمَان، الحكم الأول: هو التفرقة بين المسلم وزوجته الوثنية. والحكم الثاني: ردّ المهر لمن فارق زوجته الوثنية أو لمن فارقت زوجها الكافر. والحكم الثاني منسوخ، لأنه شرع لحالة خاصة في وقت خاص. أما الحكم الأول فالعمل به قائم إلى يوم القيامة، ولا خلاف في أن هذه الآيات نزلت بعد صلح الحديبية.

هذا: ولما نهى الله تعالى عن موالاة غير المسلمين، وكان هذا يشمل المصاهرة، وعقود النكاح التي بين المسلمين وغيرهم، وقد يكون المسلم متزوجاً من مشركة، وقد تكون المسلمة متزوجة من مشرك، وقد تختلف الدارين بين الزوجين، بأن يكون كلا منهما في بلد، وقد حدثت حالات في العصر النبوي من هذا القبيل، فكان بعض الأزواج في المدينة من المسلمين المهاجرين، وزوجاتهم المشركات في مكة. وكان من شروط صلح الحديبية، أن مَنْ جَاءَ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ من المشركين مسلماً، ردّه النبي ﷺ إليهم، سواء أكان رجلاً أو امرأة، فأراد الله سبحانه أن يُخرج النساء من هذا

(١) وقف يعقوب بهاء السكت بخلف عنه في {فامتحنوهن، علمتموهن، ترجعوهن، تنكحوهن، آتيتموهن، أجورهن} والباقون بدونها ومعهم يعقوب في الوجه الثاني.

(٢) قرأ أبو عمرو ويعقوب بفتح الميم وتشديد السين من ﴿وَلَا تُنْكِحُوا﴾ مضارع مسك، والباقون بإسكان الميم وتخفيف السين مضارع أمسك.

(٣) قرأ ابن كثير والكسائي وخلف بنقل حركة همزة ﴿وَسَأَلُوا﴾ إلى السين قبلها وحذف الهمزة وصللاً ووقفاً، وكذا حمزة عند الوقف.

الشرط بهذه الآية، لما في ردهنّ إلى غير المسلمين من مفسدات كثيرة، وشرع الإسلام امتحان هؤلاء النسوة في إيمانهنّ، ليبين للناس صدق إيمانهنّ من عدمه، فإن كنّ غير صادقات في إيمانهنّ تعيّن ردهنّ إلى الكفار وفاء بالشرط من غير حصول مفسدة، وإن كنّ صادقات في إيمانهنّ فلا يرجعوهنّ إلى الكفار، وليعطوهنّ ما دفعوه من مهر لهنّ.

فحكم الله سبحانه في هذه الآية أن المرأة المسلمة المهاجرة لا تُردّ إلى الكفار في مكة، بل تبقى في المدينة، تقضي عدتها، لأن الإسلام قد فُزق بينها وبين زوجها الكافر، ثم تتزوج، ويُعطى زوجها الكافر الصداق الذي كان قد دفعه إليها.

كما أن من فرّت زوجته المشركة من المؤمنين إلى الكفار، فله أن يطلب الصداق الذي دفعه لها، وكان صلح الحديبية سنة ست من الهجرة.

أخرج ابن إسحاق، وابن سعد، وابن المنذر، عن عروة بن الزبير، أنه سُئل عن هذه الآية، فكتب أن رسول الله ﷺ كان قد صالح قريشاً يوم الحديبية على أن يُردّ من قريش مَنْ جاء، فلما هاجر النساء، أبى الله أن يُردّذنّ إلى المشركين، إذا هُنّ امْتَحَنَ بمحنة الإسلام، فعُرفوا أنهم إنّما جئنّ رغبة فيه، وأمر برد صدقاتهنّ إليهم إذا حُسِنَ عنهم، وأنهم يردّوا على المسلمين صداق من حَبَسُوا عنهم من نسائهم، ثم قال ﴿ذَلِكَ حُكْمُ اللَّهِ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ﴾ فأمسك رسول الله ﷺ النساء وردّ الرجال، ولولا أن هذا حُكْمُ الله لردّ النساء كما ردّ الرجال، ولولا الهدنة والعهد، لأمسك النساء ولم يرد لهنّ صداقاً^(١).

حالات ممن تنطبق عليهن الآية:

١- وحدث عقب توقيع شروط الصلح، والنبى ﷺ لم يزل في الحديبية أن جاء (أبو جندل) بن سهيل بن عمرو، الذي تولّى كتابة الشروط نيابة عن المشركين، جاء مسلماً يزُسف في الحديد، وكان مقيداً فيها عند أبيه بمكة، فأنفَلت من قيده، وجاء إلى النبى ﷺ فردّه النبى ﷺ إليهم، بموجب الشرط الذي بينه وبينهم^(٢).

(١) ابن إسحاق، سيرة ابن هشام (٢/٣٢٦)، وابن سعد (٨/١٢).

(٢) القصة في البخاري (٤١٨٢، ٢٧١١)، والبيهقي في السنن (٧/١٧١).

٢- كما جاءت أيضا (سُبيعة الأسلمية) للنبي ﷺ وهو لم يزل في الحديبية، فجاء زوجها يطلب ردها، وقال للنبي ﷺ: إن طينة الكتاب الذي بيننا وبينك لم تجف بعد، فنزلت هذه الآية، فأبى النبي ﷺ أن يردها عليه.

٣- ولما رجع النبي ﷺ إلى المدينة جاءته أم كلثوم بنت عقبة، وأميمة بنت بشر، هاربتان من زوجهما، وكان زوج الأولى: عمرو بن العاص، وزوج الآخر: ثابت بن الشمراخ، أو حسان بن الدحداح، ولحق بالأولى أخوها: عمارة والوليد، فرد النبي ﷺ أخوينها، وأبقاها في المدينة، فقالوا للنبي ﷺ: رُدّها علينا بالشرط، فقال: كان الشرط في الرجال لا في النساء، وبقيتا عند النبي ﷺ فتزوج زيد بن حارثة: أم كلثوم بنت عقبة، وتزوج سهل بن حنيف: سبيعة وأميمة^(١).

٤- وحدث أيضا أن زينب بنت النبي ﷺ وهي مسلمة بطبيعة الحال، وكان زوجها أبو العاص بن الربيع بن عبد الغزى مشركاً، فلحق بها زوجها بعد مدة، ثم أسلم وهو في المدينة، فردّها إليه النبي ﷺ وكانت هجرتها قبل إسلامه بست سنوات.

وكان أبو العاص قد تزوج زينب وهي مسلمة، ولما وقع أبو العاص ضمن الأسرى المشركين يوم بدر، أرسلت زينب بقلادة لها لتفدي زوجها من الأسر، فلما رأى النبي ﷺ القلادة رَقَّ لها رقة شديدة، وقال للمسلمين: «إن رأيتم أن تُطلقوا لها أسيرها فافعلوا»، ففعلوا، فأطلقه النبي ﷺ على أن يبعث له بابنته، فوقى بذلك وأرسلها إليه مع زيد بن حارثة ؓ، فبقيت في المدينة من سنة اثنين للهجرة، إلى أن أسلم زوجها سنة ثمان، فردّها عليه بالعقد الأول، ولم يُحدث لها صداقاً^(٢).

وقد ورد أن النبي ﷺ قال للذين سألوه إرجاع النساء المؤمنات بمقتضى شروط

(١) ينظر: ابن سعد (٢٣١/٨) عن ابن شهاب وابن دُرَيْد في أماليه عن الواقدي.

(٢) ينظر: المسند (٢٦١/١)، وصحيح سنن أبي داود برقم (١٩٥٧)، والترمذي برقم (١١٤٣)، وابن ماجه برقم (٢٠٠٩) مختصراً.

الصلح (إنما الشرط في الرجال لا في النساء) فكانت هذه الآية تشريعاً للمسلمين، وبياناً للحكم في هذه الحالة.

امتحان المهاجرات المؤمنات:

قال تعالى: ﴿يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ يا من آمنتم بالله تعالى حق الإيمان ﴿إِذَا جَاءَكُمْ﴾ النساء ﴿الْمُؤْمِنَاتُ﴾ ممن شهدن أن لا إله إلا الله، وأن محمداً رسول الله، جئن ﴿مُهَاجِرَاتٍ﴾ من دار الكفر إلى دار الإسلام، وهن راغبات في فراق أزواجهن والبقاء معكم ﴿فَأَتَّخِذُوهُنَّ﴾ أي اختبروهن، لتعلموا صدق إيمانهن، ومدى رغبتهن في الإسلام، حتى يغلب على ظنكم أنهن صادقات في إيمانهن وهجرتهن، وأن الأقوال موافقة للأفعال، وأنهن لم يهاجزن رغبة في زواج أو نحوه.

قال ابن عباس وغيره: كانت المرأة تُستحلف أنها ما هاجرت بُغضاً لزوجها ولا هرباً بذنب، ولا طمعاً في الدنيا، وأنها ما خرجت إلا حُباً لله والرسول، ورغبة في دين الإسلام، فإذا حلفت بالله الذي لا إله إلا هو على ذلك أعطى النبي ﷺ زوجها مهرها، وما أنفق عليها، ولم يردّها^(١).

فكان هذا الامتحان لتحري سبب الهجرة، بحيث لا تكون الهجرة تخلُّصاً من زوج مكروه، ولا جرياً وراء حب آخر، ولا طلباً لمنفعة دنيوية، وكانت المرأة إذا غضبت من زوجها بمكة قالت: لألحقن بمحمد ﷺ.

وكان النبي ﷺ يأمر عمر بن الخطاب ؓ أن يتولى تحليفهن، فإذا تبين صحة إيمان المرأة لم يردّها النبي ﷺ إلى دار الكفر.

وفي صحيح البخاري عن عائشة رضي الله عنها أن النبي ﷺ كان يأمر من هاجر من المؤمنات بأية بيعة النساء ﴿يَأَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا جَاءَكَ الْمُؤْمِنَاتُ يُبَايِعَنَّكَ﴾.

(١) تفسير البحر المحيط (٢٥٦/٨)، والخازن (٢٥٨/٤)، والتحريم والتنوير (١٥٦/٢٨)، وابن عطية (٢٩٧/٥)، وغيرهم كثير.

أما الرجال فإنهم لا يُمتحنون في إيمانهم، والهجرة وحدها كافية في الحكم على صدق إيمانهم، لأن هجرة الرجل تستلزم تحمُّل تبعه الهجرة، والتضحية بترك الديار والأوطان والأموال والأهل والعشيرة، وعليه مناصرة الدعوة والمشاركة في الجهاد. وهجرة المرأة يترتب عليها ضياع حق مع طرف آخر، هو الزوج، وإسقاط حقه في النكاح، وإيجاب حقه في العوض، والمرأة هي التي يُخشى عليها من الفتنة، ولذا قال تعالى ﴿اللَّهُ أَكْلَمُ بِإِيمَانِكُمْ﴾ أي يعلم حقيقة حالهنّ، فخفايا القلوب مردّها إلى علام الغيوب، وهو الذي سيحاسب ويجازي عباده.

وبعد اجتياز هذا الامتحان الخاص بالنساء المهاجرات من مكة إلى المدينة، كان النبي ﷺ يُمسك من جاءه من النساء، ويعطي أزواجهن مهورهن، ويردّ من جاء من الرجال، قال تعالى: ﴿فَإِنْ عَلِمْتُمُوهُنَّ مُؤْمِنَاتٍ﴾ بحسب ما ظهر لكم من العلامات والدلائل، وغلب على ظنكم أنهن صادقات فأبقوهن عندكم ﴿فَلَا تَرْجِعُوهُنَّ إِلَى﴾ أزواجهن ﴿الْكَافَرِ﴾ وذلك لأن المؤمنة لا تحل للمشرك.

ولا يحلّ للمؤمن نكاح المشركة الوثنية، ولا يصح الارتباط بينهما في هاتين الحالتين، وفي هذا تحريم لزواج المؤمنين من الوثنيات، وكان ذلك جائزاً قبل الإسلام. التفرقة بين المؤمنة وزوجها الكافر ورد المهر له:

والآية توجب التفرقة بين المرأة المؤمنة وزوجها الكافر، والذي يقوم بتنفيذ هذه التفرقة هو القاضي أو وليّ الأمر، والآية تقرر عدم رجوع المرأة المؤمنة إلى زوجها الكافر في حالتين:

إحدهما: أن لا ترجع المرأة المؤمنة إلى زوجها الكافر في بلاد الكفر، ولا تعود إلى ذمته، لما في هذا من مفسدة كبيرة، وهذا معنى ﴿لَا هُنَّ حِلٌّ لَّهُمْ﴾.

وثانيهما: أن لا ترجع المرأة المؤمنة إلى زوجها الكافر، فيقيم معها في دار الإسلام، وهو باق على كفره، وهذا معنى ﴿وَلَا هُمْ يَحِلُّونَ لَهُنَّ﴾.

وكلا الصورتين لا تجوز، لأن اختلاف الدين فرق بينهما.
والزوج الكافر إذا أسلمت زوجته يُردّ إليه ما أنفقهُ عليها من مهر وخلافه، حتى لا يُجمع عليه خسران الزوجة والمال، كما أن الفرقة بين الزوجين إذا كانت بسبب الزوجة، فإنها تُردّ ما أنفقهُ عليها الزوج من مهر وخلافه، وهذا معنى ﴿وَأَتَوْهُمْ مَا أَنْفَقُوا﴾ أي وأعطوا أزواج اللاتي أسلمن مثل ما أنفقوا عليهن من المهور.

للمسلمة حق المهر إذا تزوجت بآخر:

وقد يظن ظان أن ما دفعه الرجل من مهر للمرأة التي أسلمت وبقي زوجها على كفره وتم التفريق بينهما: أن ذلك يُسقط حقها في المهر، إذا أرادت أن تتزوج بزواج آخر مسلم، بعد براءة رحمها، فدفع الله هذا التوهم بقوله تعالى: ﴿وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ أَنْ تَنْكِحُوهُنَّ إِذَا آتَيْتُمُوهُنَّ أَجْرَهُنَّ﴾ أي لا إثم ولا حرج عليكم - أيها المؤمنون - أن تتزوجوهن إذا دفعتم لهن مهورهن بعد انقضاء عدة المرأة من زوجها الكافر، بعد أن فرّق الإسلام بينهما.
وقد سُمّي المهر نفقة، وسُمّي أجراً، لأنه مقابل الاستمتاع بالبضع.

قطع العلاقة بين الزوج المسلم وزوجته الوثنية:

ثم قطع الإسلام العلاقة بين الزوج المسلم، والزوجة المشركة الوثنية، فقال تعالى: ﴿وَلَا تُنْكِحُوا بِعِصْمِ الْكَافِرِ﴾ أي ولا تُبقوا على زوجاتكم الكافرات في عصمتكم، فمن كانت له امرأة كافرة فليست له بامرأة، لانقطاع عصمتها باختلاف الدين.
عن يزيد بن الأخنس أنه لما أسلم، أسلم معه جميع أهله إلا امرأة واحدة، أبت أن تُسلم، فأنزل الله ﴿وَلَا تُنْكِحُوا بِعِصْمِ الْكَافِرِ﴾ فقيل له: قد أنزل الله آية، فرّق بها بينها وبين زوجها، إلا أن تُسلم، فضرب لها أجل سنة، فلما مضت السنة، إلا يوم، جلست تنظر الشمس حتى إذا دنت للغروب أسلمت^(١).

(١) أخرجه الطبراني في مسند الشاميين (٩٣٣)، وابن عساكر (٩٣/٦٥).

وقد كان الزواج من الكافرات جائزاً قبل ذلك، ثم نسخ بهذه الآية. وكانت المرأة بالخيار، إن شاءت فسخت الزواج من زوجها الكافر وذهبت لتتزوج بآخر، وإن شاءت بقيت على ذمة زوجها^(١).

ولما نزلت هذه الآية طلق المسلمون مَنْ كان في ذمتهم من زوجات، فطلق عمر امرأتين مشركتين كانتا له بمكة، وهما: قُرْبَةُ بنت أبي أمية، وأم كلثوم بنت عمرو الخزاعية، وقد تزوج الأولى معاوية بن أبي سفيان، وتزوج الأخرى: صفوان بن أمية، وهما على شركهما.

وطلق طلحة بن عبيد الله، أزوى بنت الحارث بن ربيعة بن عبد المطلب، وتزوجها خالد بن سعيد بن العاص^(٢).

ومن أحكام الآية أن كل مسلم كانت له امرأة كافرة لم تهاجر معه فإنه لا يُعتدّ بها كزوجة، لأن العصمة بينهما قد زالت بسبب الكفر، وانتهى عقد النكاح، لأن الإسلام لا يبيح الزواج بالمشركة.

ولما كانت هذه الآية تخص الزوجات المشركات دون الأزواج، فإن آية البقرة: ٢٢١ قد عمت الرجال والنساء معا فقالت ﴿وَلَا تَنْكِحُوا الْمُشْرِكَةَ حَتَّىٰ تُؤْمِنَ﴾. وقالت: ﴿وَلَا تُنْكَحُوا الْمُشْرِكِينَ حَتَّىٰ يُؤْمِنُوا﴾.

زواج الكتابية وزواج الكتابي:

وخرج من هذا العموم الكتابية من اليهود والنصارى، فإنه يصح الزواج منها لقوله تعالى ﴿وَطَعَامُ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حَلَّ لَكُمْ وَطَعَامُكُمْ حَلٌّ لَهُمْ وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الْمُؤْمِنَاتِ وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ إِذَا آتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ﴾ [المائدة: ٥]. وجاز ذلك بالنظر إلى أصل الديانة وهو التوحيد.

(١) تفسير ابن كثير (٩٤/٨)، وهو ما حُمل عليه حديث ابن عباس.

(٢) تفسير الطبري (٤٧/٢٨).

ولم يَجْزُ العكس، وهو زواج المسلمة بالكتابي، لأن المسلم يعترف بالديانات السابقة، وأهل هذه الديانات لا يعترفون بالإسلام، فالرجل المسلم يكون مأموناً على ديانة زوجته الكتابية، أما المرأة المسلمة فإنها لا تأمن على دينها مع غير المسلم، وهذا إلى جوار أن أبناء الكتابية يكونون مسلمين لأبيهم، والإسلام يطمع في إسلام أمهم، وكثيرا ما يحدث هذا.

رد المهر إلى الزوج مسلماً كان أو كافراً:

ومن عدالة الإسلام أنه سوى في الحقوق والواجبات الزوجية بين المسلم والمشركة فلو أن المسلم ارتدت زوجته، ولحققت بقومها المشركين، فإن لزوجها المسلم أن يطلب مهره الذي دفعه إليها، وهذا معنى ﴿وَسَأَلُوا مَا أَنْفَقْتُمْ﴾ فالمراد بالنفقة في الآية، هو المهر المدفوع للزوجة التي ارتدت عن الإسلام، أي اطلبوا أيها المؤمنون ما دفعتموه من مهر نساءكم اللاتي انفصلتم عنهن بسبب كفرهن.

وكذلك الحكم بالنسبة للمشرک الذي أسلمت زوجته، ولحققت بالمسلمين، فانفصلت عن زوجها بهذا السبب، فإن لزوجها المشرک أن يطلب المهر الذي كان قد دفعه إليها وهذا معنى: ﴿وَلَيْسَ لَكُمْ أَنْفَقُوا﴾ أي وليطلب المشركون مهر نساءهم اللاتي أسلمن، ففرق الإسلام بين الزوجين.

قال ابن العربي: كان مَنْ ذَهَبَ مِنَ الْمُسْلِمَاتِ مُزْتَدَاتٍ إِلَى الْكُفَّارِ، يُقَالُ لَهُمْ: هَاتُوا مَهْرَهَا، وَيُقَالُ لِلْمُسْلِمِينَ إِذَا جَاءَتْ إِحْدَى الْكَافِرَاتِ مُسْلِمَةً، مُهَاجِرَةً، رُدُّوا إِلَى الْكُفَّارِ مَهْرَهَا، وَكَانَ ذَلِكَ نَصْفًا وَعَدْلًا بَيْنَ الْحَالَتَيْنِ ^(١).

وهذا الحكم العدل بين الفريقين، هو بمقتضى علم الله تعالى بحاجات العباد، وما تقتضيه الحكمة الإلهية من إعطاء كل ذي حق حقه، إلى جوار ما في الآية من أحكام وتشريعات أخرى ﴿ذَلِكَكُمْ﴾ المذكور في الآية، هو ﴿حُكْمُ اللَّهِ﴾ العادل ﴿يَحْكُمُ﴾ به

(١) نقلاً عن القرطبي (٦٨/١٨).

﴿يَتَنَكَّمُ﴾ فلا تخالفوه واعملوا بما فيه ﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ﴾ بأحوال عباده، لا يخفى عليه شيء منها ﴿حَكِيمٌ﴾ في تشريعاته وأقواله وأفعاله.

ولما نزلت هذه الآية، وفيها تقرير الحكم على الكفار والمسلمين معاً، قال المسلمون: رضينا بحكم الله، وكتبوا إلى المشركين في مكة يخبرونهم بذلك، فقالت قريش: لا نرضى بهذا الحكم، ولا نلتزم به، ولا ندفع لأحد من المسلمين صداقاً. قال تعالى:

١١ - ﴿وَإِنْ فَاتَكُمْ شَيْءٌ مِّنْ أَزْوَاجِكُمْ إِلَى الْكُفَّارِ فَعَاقِبْتُمْ فَتَأْتُوا الَّذِينَ ذَهَبَتْ أَزْوَاجُهُمْ مِّثْلَ مَا أَنْفَقُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي أَنْتُمْ بِهِ مُؤْمِنُونَ ﴿١١﴾﴾

أنزل الله تعالى يأمر المؤمنين أن يدفعوا إلى من ارتدت زوجته من المسلمين وفرت إلى الكفار: صداقه الذي أعطاه لها ^(١).

وقيل: يؤخذ هذا المهر من الغنائم التي يغنمها المسلمون من المشركين في الغزوات. ذلكم قول الله تعالى ﴿وَإِنْ فَاتَكُمْ شَيْءٌ مِّنْ أَزْوَاجِكُمْ إِلَى الْكُفَّارِ فَعَاقِبْتُمْ﴾ ﴿فَاتَكُمْ﴾ بمعنى: إن فارقكم، ولم يسلّموا لكم مهورهن، فخذوه من غنائم المشركين، والمراد بالكفار الذين ليس لهم عهد ولا ذمة و﴿شَيْءٌ﴾ بمعنى: بغض أزواجكم، أي: وإن فارقكم - أيها المؤمنون - بعض أزواجكم الكافرات أو فارقكم بعض مهوركهم. ومعنى ﴿فَعَاقِبْتُمْ﴾ أحد أمرين:

١ - أي إن حصل التعاقب بينكم وبين الكفار، وأراد كل فريق أن يتزوج من الآخر، فلا تدفعوا - أيها المؤمنون - شيئاً لزوج مَنْ قَدِمْتُ من المشركين حتى يدفعوا هم لزوج من فرت من المسلمين مهره الذي دفعه فيها.

٢ - أو أن معنى ﴿فَعَاقِبْتُمْ﴾ أي إن كانت لكم العقبى، فغزوتهم الكفار وانتصرتهم عليهم، وأصبتم منهم غنيمة، فخذوا من الغنائم بقدر ذلك المهر. سورة الممتحنة: ١١ ومعنى الآية على القول الثاني: وإن أنفقت منكم - أيها المؤمنون - بعض أزواجكم

(١) بهذا قال محمد بن شهاب الزهري، قال ابن عطية (٢٩٨/٥): وهو قول صحيح.

وَهَزَنَ مِنْكُمْ مُزْتَدَاتٍ وَلِحَقْنَ بِالْكَفَارِ، وَلَمْ يَدْفَعْ لَكُمْ الْمَشْرُكُونَ مَا تَسْتَحِقُونَهُ مِنْ مَهْوَرَهْنِ، ثُمَّ ظَفَرْتُمْ بِهَؤُلَاءِ الْكَفَارِ، فَانْتَصَرْتُمْ عَلَيْهِمْ، وَغَنِمْتُمْ مِنْهُمْ ﴿فَتَأْتُوا الَّذِينَ ذَهَبَتْ أَزْوَاجُهُمْ بِمَثَلِ مَا أَنْفَقُوا﴾ أَيِ فَأَعْطُوا الْأَزْوَاجَ مِنْ رَأْسِ الْغَنِيمَةِ، مَا أَنْفَقُوا مِنَ الْمَهْرِ، بِمَقْدَارٍ مُسَاوٍ لِمَا أَعْطَاهُ الزَّوْجُ لَزَوْجِهِ مِنْ قَبْلُ، دُونَ نَقْصٍ فِيهِ.

ثُمَّ حَرَّضَ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى الْوَفَاءِ بِمَا أَمَرَهُمُ اللَّهُ بِهِ، وَأَلَّا يَمْنَعَهُمْ مِنْ ذَلِكَ جُورُ الْمُشْرِكِينَ، فَالْإِيمَانُ يَحْمِلُ صَاحِبَهُ عَلَى التَّقْوَى، أَمَّا الْمَشْرِكُ فَلَيْسَ لَدَيْهِ وَازِعٌ يَحْمِلُهُ عَلَى الْوَفَاءِ وَالْعَدْلِ، قَالَ تَعَالَى: ﴿وَأَنْفِقُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ فِي مَوَاطِنَ الْأَنْفِقَةِ﴾ خَافُوا اللَّهَ فِي جَمِيعِ شُؤْنِهِمْ، وَنَقَذُوا مَا أَمَرْتُمْ بِهِ أَوْ نُهِيْتُمْ عَنْهُ.

عدد من لحق بالمشركون من نساء المؤمنين تسع:

هذا: وجميع من لحق بالمشركون من نساء المؤمنين المهاجرين ممن لم يُسلمن تسع:

- ١- أم الحكم بنت أبي سفيان، كان زوجها عياض بن شداد الفهري.
- ٢- فاطمة بنت أبي أمية بن المغيرة، ويقال لها (قُرَيْيَّة) أخت أم سلمة، كان زوجها عمر بن الخطاب رضي الله عنه فلما أراد الهجرة، أبت، وارتدت.
- ٣- أم كلثوم بنت عمرو بن جُروْل الخزاعية (أم عبيد الله) كانت زوجة لعمر بن الخطاب أيضاً.

٤- بَرْوَع بنت عقبة، كان زوجها شماس بن عثمان.

٥- شَهْبَةُ بنت غيلان، لم أعرف اسم زوجها.

٦- عبدة بنت عبد العُزَّى، كانت تحت هشام بن العاص بن وائل.

وقيل: تحت عمرو ابن عبد.

٧- هند بنت أبي جهل، كانت تحت هشام بن العاص بن وائل أيضاً.

٨- أَرْوَى بنت ربيعة بن الحارث بن عبد المطلب، كانت تحت طلحة بن عبيد الله،

وكان قد هاجر، وبقيت زوجه مشركة بمكة، فلما نزلت الآية طلقها.

٩- عزة بنت عبد العزيز بن نقيلة، كانت تحت عمرو بن عبد ود.

وقد أعطى النبي ﷺ من الغنائم والأخماس: عمر، وعياض، وشماس، وهشام، مهور نسائهم اللاحقات بالمشركين^(١).

ولما نزل قول الله تعالى: ﴿وَلَا تُنكِحُوا بَعْضَ الْكَافِرِ﴾ طلق كل من المسلمين زوجته، وهي بمكة، فلحقّت بالمشركين، وبعد نزول هذه الآية ﴿وَإِنْ فَاتَكُمْ﴾ ردّ المؤمنون إلى كل امرأة ذهبت من أزواج المؤمنين إلى المشركين النفقة التي أنفقت عليها من العقب، أي من المال الذي بأيديهم، مما أمروا أن يردوه على المشركين، وإن بقي شيء من هذا العقب ردّوه عليهن أيضاً.

قال الطبري: والعقب: ما كان بأيدي المؤمنين من صداق نساء الكفار حين آمنن وهاجزن^(٢).

حكم الآية باق :

ومن المعلوم أن العمل بهذا الحكم كان في الفترة من صلح الحديبية إلى فتح مكة، وبعد فتحها لم يعد هناك بالنسبة لمكة والمدينة بلد كفر وبلد إسلام. وأصبحت كلها دار إسلام، والمعتبر في هذا ليس اختلاف الدارين، وإنما هو اختلاف الديانة، وهذا يسري إلى أن تقوم الساعة على كل امرأة ارتدت عن الإسلام، وعلى كل رجل أسلم وله زوجة وثنية.

بَيِّنَةُ النِّسَاءِ وَشُرُوطُهَا السُّتَّةُ

١٢- ﴿يَأْتِيهَا النَّبِيُّ^(٣) إِذَا جَاءَكَ الْمُؤْمِنَاتُ يَبَيِّنُكَ عَلَى أَنْ لَا يُشْرِكَنَ بِاللَّهِ شَيْئًا وَلَا يَسْرِقْنَ وَلَا يَزْنِينَ وَلَا يَقْتُلْنَ أَوْلَادَهُنَّ وَلَا يَأْتِينَ بِيْهْتَنٍ يَفْتَرِيْنَهُ. بَيْنَ أَيْدِيْنَهُنَّ وَأَرْجُلِهِنَّ وَلَا يَعْصِيْنَكَ فِي مَعْرُوفٍ فَلْيَاْمَعْهُنَّ

(١) تفسير التحرير والتنوير (١٦٣/١٣)، وتفسير الخازن (٢٥٩/٤)، وتفسير ابن عطية (٢٩٨/٥).

(٢) تفسير الطبري (٤٨/٢٨).

(٣) قرأ نافع بالهمز في ﴿النَّبِيُّ﴾ وفي حالة الوصل يحقق الهمزة الأولى ويسهل الثانية بين بين، ويبدلها واوا خالصة، وكل من قالون وورش على حسب مذهبه في المد، وقرأ الباقون بياء مشددة.

وَأَسْتَغْفِرُكَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿١٢﴾

في هذه الآية شروط مشتركة بين الرجال والنساء معاً كما ثبت في حديث عبادة ابن الصامت في البخاري (٤٨٩٤) وفيه بيعة الرجال قبل بيعة النساء في نفس اليوم بحيث يلتزم بها المسلم في جميع الأوقات، وتسمى بيعة النساء، لأنها نزلت في مبايعتهن، فإذا التزمت المرأة بهذه الشروط بايعهن النبي ﷺ واستغفر لهن الله بالنسبة لما يحدث منهن من تقصير، وأدخلهن في جملة المؤمنين، وكان هذا في بدء الإسلام، والعمل بهذه الشروط قائم إلى قيام الساعة، تلتزم به كل مؤمنة وكل مؤمن، فهو من أحكام الإسلام العامة التي لا تفارق المسلم والمسلمة في كل زمان ومكان.

هذا: وبعد أن فرغ سبحانه وتعالى من ذكر ما يتعلق بامتحان النساء المهاجرات، شرع جل شأنه يفصل بيعة النساء ويبين بنودها وآثارها، فقد صح أن عائشة رضي الله عنها أخبرت عروة ؓ أن النبي ﷺ كان يمتحن من هاجر إليه من المؤمنات بهذه الآية ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا جَاءَكَ الْمُؤْمِنَاتُ يَبْعِنَكَ﴾ فمن أقر بهذا الشرط من المؤمنات، قال لها ﷺ: قد بايعتُك، كلاماً، ولا والله ما مسّت يده يد امرأة قط في المبايعة، ما يُبايعهن إلا بقوله «قد بايعتُك على ذلك»^(١).

قال الحافظ ابن حجر: قوله: (قد بايعتُك كلاماً) أي يقول ذلك كلاماً فقط، لا مصافحة باليد، كما جرت به العادة من مصافحة الرجال عند البيعة^(٢).

أخرج الإمام أحمد عن سلمى بنت قيس - إحدى نساء بني عدي بن النجار - قالت: جئت رسول الله ﷺ نبايعه في نسوة من الأنصار، فشرط علينا: (أن لا نشرك بالله شيئاً، ولا نسرق، ولا نزن، ولا نقتل أولادنا، ولا نأتي ببهتان نفترقه بين أيدينا وأرجلنا، ولا

(١) هذا لفظ البخاري برقم (٧٢١٤، ٥٢٨٨، ٤٨٩١، ٢٧١٣)، وفي مسلم برقم (١٨٦٦)، والترمذي (٣٣٠٦)، وابن ماجه (٢٨٧٥).

(٢) فتح الباري (٤٨٨/٨)، وهو في البخاري (٤١٨٢، ٤٨٩١)، والبغوي في شرح السنة (٢٧٤٨)، ومسلم (١٨٦٦)، والحديث في مسند أحمد (٢٦٣٢٦) وهو حديث صحيح.

نعصيه في معروف) ثم قال ﷺ: «ولا تغشُشُن أزواجكن» قالت: فبايعناه ثم انصرفنا، فقلت لامرأة منهن: ارجعي إلى رسول الله ﷺ فسله ما غش أزواجنا؟ فسأله فقال: «تأخذ ماله فتحابي غيره»^(١).

وكانت هذه البيعة بعد أن دخل الناس في الإسلام، واستقرت أحكام الدين وشرائعه، خلال سنوات لم تشهد فيها النساء - سيما اللاتي في مكة - ما شهده الرجال من اتساع التشريع شيئاً فشيئاً.

وقد بايع النبي ﷺ بهذه الآية: النساء المهاجرات اللاتي قَدِمْنَ عليه من مكة، وأجرى هذه البيعة أيضاً على نساء الأنصار، كما قالت أم عطية رضي الله عنها: بايَعَنَا رسول الله ﷺ فقرأ علينا ﴿أَنْ لَا يَشْرِكَنَّ بِاللَّهِ شَيْئًا﴾ ونهانا عن النياحة، فقبضت امرأة يدها، فقالت: (أسعدتني فلانة - يعني بالنياحة - أريد أن أجزيها، فما قال لها النبي شيئاً، فانطلقت ورجعت، فبايعها)^(٢) ومعنى أسعدتني في المناحة أي أن المرأة تقوم معها امرأة أخرى من جاراتها أو قرياتها فتساعدنها على النياحة، وهي مجاملة عندهن ينبغي ردها في زعمهن. وكانت هذه المبايعة قد أُجريت على الرجال قبل النساء، فعن عبادة بن الصامت رضي الله عنه قال: كنا عند النبي ﷺ فقال: «أَتُبَايَعُونِي عَلَى أَلَا تَشْرِكُوا بِاللَّهِ شَيْئًا، وَلَا تَزْنُوا وَلَا تَسْرِقُوا، وَقَرَأَ آيَةَ النَّسَاءِ، فَمَنْ وَقَى مِنْكُمْ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ، وَمَنْ أَصَابَ مِنْ ذَلِكَ شَيْئًا فَعُوقِبَ بِهِ فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَهُ، وَمَنْ أَصَابَ مِنْهَا شَيْئًا مِنْ ذَلِكَ فَسْتَرَهُ اللَّهُ، فَهُوَ إِلَى اللَّهِ إِنْ شَاءَ عَذِّبَهُ، وَإِنْ شَاءَ غَفَرَ لَهُ»^(٣).

(١) المسند (٣٧٩/٦) برقم (٢٧١٣٣) قال محققوه: إسناده ضعيف وهو أيضاً برقم (٢٧٣٧٥) مختصراً، وأخرجه الطبراني في الكبير ٢٤ (٧٥١ و ٢٧٥٢) من طريق آخر.

(٢) هذا لفظ البيهقي في السنن (٤/ ٦٢)، وقد أخرجه البخاري برقم (٤٨٩٢)، ومسلم برقم (٩٣٦)، وانظر: مسند أحمد (٢٠٧٩٦)، والنسائي في الكبرى (١١٥٨٧)، وابن حبان (٣١٤٥)، وأبو داود (٣١٢٧)، والطبراني في الكبير (١٣٣/ ٢٥).

(٣) البخاري برقم (٤٨٩٤).

وقوله: وآية النساء، أي الآية النازلة في بيعة النساء.

وقد استمر العمل بهذه المبايعة إلى يوم فتح مكة حيث أسلم أهلها: رجالاً ونساءً، فجلس النبي ﷺ ثاني يوم فتح مكة على جبل الصفا يأخذ البيعة من الرجال على ما في هذه الآية.

ولما فرغ من بيعة الرجال وهو على الصفا، أثنى النساء وجلس عمر بن الخطاب رضي الله عنه في أسفل الجبل يأخذ البيعة من النساء على ذلك ويُلغهن عنه ﷺ وكان عدد النسوة اللاتي أخذت عليهن البيعة: أربع مئة وسبع وخمسون امرأة^(١).

وكان منهن: هند بنت عتبة زوج أبي سفيان، وكبشة بنت رافع. وهذه البيعة اشتملت على ستة أمور، كانت متفشية في الجاهلية، وكانت هند زوج أبي سفيان متنكرة مع النساء، خوفاً من رسول الله ﷺ أن يعرفها فيقتص منها، على شقها بطن حمزة رضي الله عنه وإخراجها كبده يوم أحد.

قال تعالى: ﴿يَأْتِيهَا النَّبِيُّ إِذَا جَاءَكَ﴾ النساء ﴿الْمُؤْمِنَاتُ﴾ بالله ورسوله ﴿يَايَعْنَكَ﴾ على ما شرعه الإسلام من أحكام وآداب، ويلتزمْنَ بأمر الله ونهيه، والمبايعة في الأصل هي المعاوضة.

ومعناها في الآية: أن الناس قد التزموا شرع الله، وقاموا بما كلفهم به، طمعاً في ثواب الله وخوفاً من عقابه، وقد ضمن لهم الإسلام الجنة، مقابل وفائهم بالعهد، والتزامهم بما في البيعة من شروط وأحكام، فإذا جاءك النساء المؤمنات - أيها الرسول - للبيعة فبايعهن على هذه الأمور الستة وهي:

أولاً: ﴿أَنْ لَا يُشْرِكْنَ بِاللَّهِ شَيْئًا﴾ بأن يُفردن الله بالعبادة، فالشرك أعظم الذنوب، ولا يقبل الله معه عملاً، ولا يُغفر للعبد إذا لقي الله به دون توبة، وكان النبي ﷺ قد بايع الرجال يومئذ على الإسلام والجهد والسمع والطاعة.

(١) زاد المسير (٢٤٦/٨).

وعند ذِكر هذا الشرط رفعتُ (هند) رأسها، وقالت للنبي ﷺ والله إنك لتأخذ علينا أمراً ما رأيـناك أخذته على الرجال، وكيف نطمع أن يقبل الله منا شيئاً لم يقبله من الرجال؟ ومن المعلوم أن عدم الشرك بالله تعالى هو البند الأول في الإسلام، وهو أول شرط يؤخذ على الناس قاطبة، الرجال والنساء معاً.

وكون النبي ﷺ قد بايع الرجال على الإسلام والجهاد والسمع والطاعة، فإن الإسلام لا يكون إسلاماً إلا بالتوحيد وعدم الشرك بالله تعالى، والجهاد يُنـاط بالرجال قبل النساء. ولما بايع النبي ﷺ على عدم الشرك بالله تعالى، وضعتُ فاطمة بنت عتبة يدها على رأسها حياءً، فأعجب النبي ﷺ بما رأى فيها، فقالت عائشة: أَقْرِري أيتها المرأة، فوالله ما بايعنا إلا على هذا، قالت: فنعم إذاً، فبايعها النبي ﷺ بالآية^(١).

ثانياً: ﴿وَلَا يَسْرِقَنَّ﴾ أي ويباعنك على عدم ارتكاب فاحشة السرقة، وكانت السرقة في النساء قديماً، أكثر منها في الرجال، وهي كذلك في بعض المجتمعات المعاصرة، ولا يلزم أن تكون السرقة عن طريق السطو المسلح ونحوه، بل للنساء طرق أخرى للسرقة عن طريق الإغراء والإغواء والخداع ونحو ذلك.

ولما قال النبي ﷺ ﴿وَلَا يَسْرِقَنَّ﴾ قالت هند: إن أباسفيان، رجل شحيح، وإنني أصبتُ من ماله هنأت، فلا أدري أيحل لي أم لا؟ وفي رواية قالت: وهو لا يعطيني من النفقة ما يكفيني ويكفي بَيْتي، فهل علي جناح إن أخذتُ من ماله بغير علمه؟ فقال ﷺ: «خذي من ماله بالمعروف، ما يكفيك ويكفي بنيك»^(٢).

ولما قالت هند ذلك عرفها النبي ﷺ فضحك، وقال: قد عرفتك، وإنك لهند بنت عتبة، قالت: نعم، فاعف يا رسول الله عما سلف، عفا الله عنك، فدعاها النبي ﷺ لِمَا

(١) ينظر: المسند (١٥١٥/٦) عن عائشة رضي الله عنها برقم (٢٥١٧٥، ٢٤٨٢٩) قال محققوه: حديث صحيح، رجاله ثقات، رجال الشيخين، وهو في مصنف عبد الرزاق (٩٨٢٧)، وابن حبان (٤٥٥٤)، وزوائد البزار (٧٠).

(٢) ينظر: صحيح البخاري برقم (٧١٨٠، ٢٢١١)، وصحيح مسلم برقم (١٧١٤).

عرفها، فأتته واستعادت به أن يمسه بسوء، فأعازها النبي ﷺ وقبل أوبتها.
ومعنى هذا أن الرجل إذا كان لا ينفق على أهله وولده في الضرورات، بحيث لا يكفيهم في المأكل والمشرب والملبس والسكن والتعليم والرعاية الطبية بالمعروف، إن كان يقصر في شيء من هذا، فيجوز أن تأخذ الزوجة بما يكفيها وأولادها فيما ذكرنا، فإن أخذت للتوسع والتبذير أو لتعطي أهلها، أو لتصدق دون علمه، فإنه لا يجوز، فإن فعلت ذلك أثمت وله الأجر.

ثالثاً: ﴿وَلَا يَزِينَنَّ﴾ أي ولا يرتكبن فاحشة الزنى، ولما قال النبي ﷺ ذلك، استنكرت هند من المرأة الحرة المحصنة أن تزني، فقالت: أو تزني الحرة؟ أي إن هذا أمر مستبعد!! قلت: رضي الله عنك يا هند، أو ما علمت أن الزنى سيكون خرية شخصية، تنص عليه موثيق حقوق الإنسان والمؤتمرات الدولية؟

أو ما علمت أن الزنى برضا الطرفين لا تُعاقب عليه نُظُم البشر! أو ما علمت أن الزنى إذا وقع في الطريق العام، فإن الفاعل يدفع نحو ربع دينار، لا لأنه زنى، ولكن لأنه خدش الحياء العام!

أو ما علمت أن بعض الدول الإسلامية تبيح الزنى وتستحلّه، وتمنع تعدّد الزوجات. وبعض الحكام كان يقول: إنه أب لكل طفل وُلد من سفاح!

(أو تزني الحرة؟) يا لها من كلمة تخرج من فم امرأة أسلمت بالأمس، ولاكت قبل ذلك كبد حمزة - عم رسول الله ﷺ - في فمها، إنها امرأة كانت كافرة أول أمس، ونشأت في بيئة جاهلية، ومع ذلك فهي تستبعد وقوع الزنى من المرأة الحرة!

رابعاً: ﴿وَلَا يَقْتُلَنَّ أَوْلَدَهُنَّ﴾ وقتل الأولاد، إما أن يكون بالوَأْد، الذي كان يفعله أهل الجاهلية بأولادهم خوف الفقر، وبيناتهم خوف العار، وكان بعض الرجال يفعلون ذلك، كما كانت بعض النسوة تضع مولودها إلى جوار حفرة، فإن كان ولداً أخذته، وإن كانت بنتاً أسقطتها في الحفرة ووارثها التراب! يا سبحان الله!! ﴿وَإِذَا الْمَوْءِدَةُ سُئِلَتْ (٨) بِأَيِّ ذَنْبٍ

قُتِلَتْ ﴿١﴾ [التكوير: ٨، ٩] وقد يكون القتل بالإجهاض، وإسقاط الأجنة، لسبب من الأسباب. وكان (حنظلة بن أبي سفيان) قد قُتل يوم بدر، ومن أجل ذلك فإن أمه هند استأجرت (وخشيًا) وكان يجيد الرمي، استأجرت له ليقتل حمزة ؑ يوم أحد، فلما قال النبي ﷺ: ﴿وَلَا يَقْتُلَنَّ أَوْلَادَهُنَّ﴾ قالت هند: ربيناهم صغاراً وقتلتموهم كباراً، فأنتم وهم أعلم.

وفي رواية أنها قالت: قتل الآباء وتوطينا بالأبناء؟ وحيث ضحك عمر ؓ حتى استلقى، وتبسم النبي ﷺ وقال: «لقد عرفتك، وإنك لهند بنت عتبة».

قال الأعرابي لما ولدت زوجته بنتاً: والله، ما هي بنعم الولد، برّها بكاء، ونصرها سرقة^(١). خامساً: ﴿وَلَا يَأْتِينَ بِيْهَتَيْنِ يَفْتَرِيَهُ بَيْنَ أَيْدِيْهِ وَأَرْجُلَيْهِ﴾ أي ولا تلحق المرأة بزوجها ولداً ليس منه، والمراد بذلك: الولد اللقيط، وكانت المرأة العقيم، إذا خافت أن يفارقها زوجها لعدم الإنجاب، نفخت بطنها، ثم التقطت مولوداً، وقالت لزوجها: هذا ولدي منك، وشأن الأم إذا وضعت المولود أن يسقط بين يديها ورجليها، والبهتان هو الافتراء على الآخر، أي لا يفترين على غيرهن سواء مع الأزواج أو مع غيرهم، وقد ينفي الرجل عن نفسه ابنه من صلبه، فيكون داخلاً في معنى الآية، على أن ﴿بَيْنَ أَيْدِيْهِ وَأَرْجُلَيْهِ﴾ ليس شرطاً في البهتان، وإنما هو لبيان واقع المرأة في هذه الحالة، والافتراء هو الكذب الشنيع، ومنه هذه الحالة، ولما سمعت هند ذلك قالت: والله إن البهتان لأمر قبيح، وما تأمرنا إلا بالرشد ومكارم الأخلاق.

عن أبي هريرة ؓ أنه سمع رسول الله ﷺ يقول حين نزلت آية الملاعنة: «أيما امرأة أدخلت على قوم من ليس منهم، فليست من الله في شيء، ولن يدخلها الله جنته، وأيما رجل جحد له ولده وهو ينظر إليه، احتجب الله منه، وفضحه على رؤوس الأولين والآخرين»^(٢).

(١) تفسير التحرير والتنوير (١٦٧/١٣).

(٢) سنن أبي داود برقم (٢٢٦٣)، وابن ماجه (٢٧٤٣)، والنسائي (٦ / ١٧٩)، وفي الكبرى (٥٦٧٥)، وفي

التحفة (١٢٩٧٢)، وابن حبان (٤١٠٨).

سادساً: ﴿وَلَا يَعْصِيَنَّكَ فِي مَعْرُوفٍ﴾ هذا تعميم بعد تخصيص، وهو قول جامع يشمل كل ما يأمر به الإسلام، أو ينهى عنه وعن الاقتراب منه. ولما سمعتُ هند ذلك قالت: والله ما جلسنا مجلسنا هذا وفي أنفسنا أن نعصيك في شيء، فأقر النسوة بما أخذ عليهن من البيعة.

وكان النبي ﷺ يتعاهد النساء بهذه البيعة في العيد، كما في حديث ابن عباس رضي الله عنهما قال: شهدت الصلاة يوم الفطر مع رسول الله ﷺ وأبي بكر وعمر وعثمان رضي الله عنهم كان يصليها قبل الخطبة، ثم يخطب بعد، فتزل نبي الله ﷺ فكأنني أنظر إليه حين يجلس الرجال بيده، ثم أقبل يشقهم حتى أتى النساء مع بلال فقال: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا جَاءَكَ الْمُؤْمِنَاتُ﴾ حتى فرغ من الآية، ثم قال: «أنتن على ذلك؟» وقالت امرأة واحدة لم يجبه غيرها، نعم يا رسول الله ... قال: «فتصدقن» وبسط بلال ثوبه، فجعلن يلقين الفتح والخواتيم في ثوب بلال^(١).

أحاديث في تحريم النياحة:

النياحة: ومما يشمله هذا الحكم: النياحة، ودعوى الجاهلية، وشق الجيوب، ولطم الخدود، فإنها معاصي تختص بها المرأة غالباً:

١ - ولذلك فإن أم عطية رضي الله عنها قالت: أخذ علينا رسول الله ﷺ عند البيعة، ألا ننوح، فما وقت منا امرأة، غير خمس نسوة: أم سليم، وأم العلاء، وابنة أبي سبرة، وامرأة معاذ، وامرأة أخرى^(٢).

٢ - وقالت أم عطية أيضاً: كان فيما اشترط علينا من المعروف حين بايعنا: ألا ننوح، فقالت امرأة: إن بني فلان أشعدوني، فلا، حتى أجزيهم، فانطلقت فأسعدتهم، ثم جاءت

(١) البخاري برقم (٤٨٩٥).

(٢) ينظر: صحيح البخاري برقم (٧٢١٥، ١٣٠٦)، ومسلم (٩٣٦).

- فبايعت، قالت: فما وفّى منهن غيرها وغير أم سليم بنت ملحان، أم أنس بن مالك^(١).
 قال ابن عاشور: وهذه رخصة خاصة بأم عطية، وبمن سمّتهم، وفي يوم معين^(٢).
 ٣ - وعن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده قال: جاءت أميمة بنت رقيقة إلى رسول الله ﷺ تبايعه على الإسلام، فقال: أبايك على أن لا تشركي بالله شيئاً، ولا تسرقِي، ولا تزني، ولا تقتلي ولدك، ولا تأتي ببهتان تفتريه بين يديك ورجلينك، ولا تتوحي، ولا تبرّجي تبرّج الجاهلية الأولى^(٣).
 ٤ - وفي الحديث عن ابن مسعود ؓ أن رسول الله ﷺ قال: «ليس منا من ضرب الخدود، وشق الجيوب، ودعا بدعوى الجاهلية»^(٤).
 ٥ - وفي حديث أبي موسى ؓ أن النبي ﷺ بريء من (الصالقة، والحالقة، والشاقة)^(٥).
 ٦ - وعن أنس ؓ أن رسول الله ﷺ أخذ على النساء حين بايعهن ألاّ ينخن، فقلن: يا رسول الله، نساء أسعدتنا في الجاهلية، فنُسعدهن، فقال رسول الله ﷺ: «لا إسعاد في الإسلام»^(٦) وهذا الحديث يخص حديث أم عطية السابق.
 ٧ - وعن مالك الأشعري ؓ أن رسول الله ﷺ قال: «أربع في أمتي من أمر الجاهلية

(١) ينظر: صحيح البخاري برقم (٤٨٩٢)، وتفسير الطبري (٥٢/٢٨)، والحديث في المسند برقم (٢٠٧٩٦)،

(٢) ٢٧٢٩٨، ٢٧٣٠٧، بإسناد صحيح على شرط الشيخين، وقد سبق تخريجه بأكثر من هذا في حديثها السابق.

(٣) التحرير والتنوير (١٦٨/١٣).

(٤) أخرجه أحمد (٤٣٧/١١) (٦٨٥٠). قال محققو المسند: صحيح لغيره، وهذا إسناد حسن، وله شاهد من

أميمة بنت رقيقة عن ابن حبان (٤٥٥٣) بإسناد صحيح على شرط الشيخين، وقال الهيثمي في مجمع

الزوائد (٣٧/٦)، رواه الطبراني ورجاله ثقات.

(٥) البخاري برقم (١٢٩٤، ١٢٩٧، ١٢٩٨)، ومسلم برقم (١٠٣).

(٦) البخاري برقم (١٢٩٦)، ومسلم برقم (١٠٤).

(٧) أخرجه النسائي وعبد الرزاق (٦٦٩٠)، وأحمد (١٣٠٣٢) بأطول منه، قال محققو المسند: إسناده صحيح

على شرط الشيخين، ومصنف عبد الرزاق (٦٦٩٠)، وأبو داود (٣٢٢٢)، والترمذي (١٦٠١)، وابن حبان

(٣١٤٦)، وعبد بن حميد (١٢٥٣).

لا يتركونهن: الفخر في الأحساب، والطعن في الأنساب، والاستسقاء بالنجوم، والنياحة» وقال: «النائحة إذا لم تتب قبل موتها، تُقام يوم القيامة، وعليها سربال من قَطْران، ودرع من جَرَب»^(١).

حكم مصافحة النساء الأجنبيات:

١ - عن أميمة بنت رقيقة، أخت خديجة رضي الله عنها قالت: أتيت رسول الله ﷺ في نسوة يبايعنه على الإسلام، فقلن: يا رسول الله، نبايعك على ألا نشرك بالله شيئاً، ولا نسرق، ولا نزن، ولا نقتل أولادنا، ولا نأتي ببهتان نفتره بين أيدينا وأرجلنا، ولا نعصيك في معروف، فقال رسول الله ﷺ: «فِيمَا اسْتَطَعْتُنَّ وَأَطَقْتُنَّ» قالت: فقلن: الله ورسوله أرحم بنا من أنفسنا، هلم نبايعك يا رسول الله، فقال ﷺ: «إني لا أصافح النساء، إنما قولني لمنة امرأة، كقولني لامرأة واحدة»^(٢).

لم يصافح النبي ﷺ في البيعة ولا في غيرها امرأة أجنبية، وإنما بايعهن كلاماً، ومن ذلك قوله ﷺ في الحديث السابق «إني لا أصافح النساء».

٢ - وقول عائشة رضي الله عنها (والله ما مسّت يده يد امرأة قط في المبايعة، وما يبايعهن إلا بقوله: قد بايعتكم على ذلك)^(٣).

٣ - وقالت أسماء بنت يزيد: كنت في النسوة المبايعات، فقلت: يا رسول الله، ابسط يدك نبايعك، فقال عليه السلام: «إني لا أصافح النساء، لكن آخذ عليهن ما آخذ الله عليهن»^(٤).

(١) مسند أبي يعلى (١٤٨/٣)، وصحيح مسلم برقم (٩٣٤)، ومسند أحمد (٢٢٩١٢)، وهو حديث صحيح، وابن أبي شيبة (٣/٣٩٠)، والبيهقي في السنن (٤/٦٣)، وانظر في المسند (٢٢٩٠٣) وما بعده.

(٢) الموطأ برقم (٢)، والترمذي برقم (١٥٩٧)، وسنن النسائي (٧/١٤٩) (٤١٩٢)، وابن ماجه برقم (٢٨٧٤)، وصححه الألباني في صحيح سنن ابن ماجه (٢/١٤٥)، وهو في السنن برقم (٢٨٧٤)، وصحيح سنن الترمذي (١٣٠٠)، والمسند (٢٧٠٠٦-٢٧٠١٠)، قال محققوه: إسناده صحيح، رجاله ثقات، رجال الشيخين، وابن سعد (٥/٨).

(٣) البخاري برقم (٤٨٩١، ٢٧١٣)، ومسلم (١٨٦٦).

(٤) المحرر الوجيز (٥/٣٠٠).

شبهات مردودة، وآثار ضعيفة:

وأما ما ورد من أحاديث تفيد أن المبايعة كانت مصافحة باليد، ومنها:

١- حديث أم عطية في قصة المبايعة قالت: فمد عمر يده من خارج البيت، ومدد أيديهن من داخل، ثم قال « اللهم اشهد »^(١) فهو حديث ضعيف بقصة عمر.

٢- ومن ذلك حديث أم عطية في البخاري وغيره، وفيه: (فقبضت منا امرأة يدها) حين نهاهن عن النياحة، والمراد بقبض اليد: الامتناع عن البيعة بسبب نهى النبي ﷺ عن النياحة، كما هو في الحديث، وليس المراد أنها قبضت يدها من مصافحة النبي ﷺ لها، فليس المراد بشط اليد، والتي قبضت يدها هي أم عطية، أبهمت نفسها أولاً، وتأخرت عن البيعة، ثم جاءت فبايعت^(٢).

٣- وأخرج ابن أبي حاتم بسنده عن عامر هو الشعبي قال: بايع رسول الله ﷺ النساء، وعلى يده ثوب قد وضعه على كفه ثم قال: «ولا تقتلن أولادكن» فقالت امرأة: تقتلن آبائهم، وتوصيننا بأولادهم؟ قال: وكان بعد ذلك إذا جاء النساء يُبايعنه، جمعهنّ فعرض عليهن، فإذا أقررن رجفن^(٣) وهذا أثر مرسل، والمرسل ضعيف.

قال ابن عطية: ورؤي عن الشعبي أيضاً أن النبي ﷺ لَفَ ثوباً كثيفاً قَطَرِيّاً على يده، وجاء نسوة فلمسن يده كذلك^(٤).

٤- ورؤي عن الكلبي: أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قدّم يده فلمس نساءً يده، وهو خارج

(١) ينظر الحديث كاملاً في شرح ثلاثيات مسند الإمام أحمد (٢/٩٢٨)، وفي المسند (٢٧٣٠٩، ٢٠٧٩٧) قال محققوه: حديث صحيح دون ذكر قصة عمر فيه، وهذا إسناد ضعيف، وتفسير الطبري (٢٨/٥٣)، ومثله عند ابن خزيمة (١٧٢٢)، وابن حبان (٣٠٤١)، والبزار، والطبراني في الكبير (١٣٦)، والأوسط (١٥٠٦)، والبيهقي في الشعب (٩٣١٧) وهو حديث ضعيف كما في ضعيف سنن أبي داود (٢٤٥).

(٢) البخاري برقم (٤٨٩٢، ١٣٠٦)، ومسلم في الغنائم (٩٣٦)، والترمذي برقم (٣٣٠٧).

(٣) تفسير ابن كثير (١٠٠/٨)، وقد أخرجه سعيد بن منصور وابن سعد بنحوه (٩٢٥/٨)، وهو أثر مرسل.

(٤) تفسير ابن عطية (٣٠٠/٥).

من بيت، وهُنَّ فيه، بحيث لا يراهن ^(١) وما يروى عن الكلبي غير صحيح.

٥- وذكر النقاش وغيره أن النبي ﷺ بايع النساء على الصفا بمكة، وعمر بن الخطاب يصافحهن وذكر في بيعة نساء الأنصار، أن النبي ﷺ مَدَّ يده من خارج بيت ومدَّ نساء من الأنصار أيديهن من داخله فبايعهن ^(٢).

٦- وفي حديث عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده، ورفع النقاش عن ابن عباس، وعن عروة بن مسعود الثقفي: أنه ﷺ غمس يده في إناء فيه ماء، ثم دفعه إلى النساء، فغمسن أيديهن فيه ^(٣)، ولا يصح من هذه الروايات شيء تقوم به حجة.

ومن مجموع هذه الروايات يتبين الآتي:

أولاً: أن النبي ﷺ لم تمس يده يد امرأة أجنبية قط، وهذا الذي تشهد له الأدلة الصحيحة. ثانياً: يُردُّ على أن المبايعة كانت مصافحة باليد من داخل البيت وخارجه، بأنه مروى عن الكلبي، ومعلوم أن ما يروى عنه لا يصح.

وحديث قبض اليد، معناه: الامتناع من البيعة في هذا الوقت، وكان ذلك بسبب رغبة أم عطية في رد الجميل للنائحات بدليل أنها قد جاءت وبايعت بعد ذلك.

ثالثاً: وفي رواية الشعبي أن المبايعة كانت بالمصافحة مع وجود حائل، وهي غير صحيحة لانقطاع السند فيها بين الشعبي وبين النبي ﷺ.

رابعاً: والقول بأن المبايعة كانت بغمس اليد في ماء غمس فيه النبي ﷺ يده، فإن هذه روايات لم تثبت، قال عنها ابن عطية: والذي قدمته - أي من عدم مصافحة النبي ﷺ للنساء الأجنيات مطلقاً - أثبت ، بعد الإجماع على أنه لم تمس يده يد امرأة أجنبية قط ^(٤).

وفي نهاية آية البيعة يوجه الله تعالى رسوله أن يطلب للمبايعات المغفرة من الله تعالى فيقول: ﴿وَاسْتَغْفِرْ لَهُنَّ اللَّهُ﴾ عن تقصير صدر منهن وتطيباً لخاطرهن والله تعالى

(١- ٤) تفسير ابن عطية (٢٢٩/٥) بتصرف.

يغفر ذنوب عباده التائبين ويرحمهم ﴿إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ كثير الرحمة للعاصين، وكثير الإحسان للمذنبين، وقد وسعت رحمته كل شيء وعم إحسانه جميع خلقه.

عَوْدُ عَلَى بَدْءٍ فِي النَّهْيِ عَنْ مُوَالَاةِ الْأَعْدَاءِ

١٣ - ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَوَلَّوْا قَوْمًا غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ قَدْ يَئِسُوا مِنَ الْآخِرَةِ كَمَا يَئِسَ الْكُفَّارُ

مِنْ أَصْحَابِ الْقُبُورِ ﴿١٣﴾﴾

وتختتم السورة بما بدأت به من النهي عن موالة أعداء الله، ويدخل فيهم دخولاً أولياً: اليهود، فهم كثيراً ما يوصفون بالمغضوب عليهم، وكان من فقراء المسلمين من يوالي اليهود، ويعطونهم أسرار المسلمين، ويتنفعون منهم ببعض الثمار، فنهى الله تعالى عن موالاتهم في قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ يا من صدقتم الله ورسوله ﴿لَا تَتَوَلَّوْا قَوْمًا غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ﴾ أي لا تتخذوا من غضب الله عليهم أصدقاء وأحباباً توالونهم من دون المؤمنين، قال الحسن البصري: هم اليهود.

وجاء في أسباب النزول: أن قوماً من فقراء المؤمنين كانوا يواصلون اليهود ليصيبوا من ثمارهم، وربما أخبروهم عن شيء من أخبار المسلمين، فنزلت الآية تنهاهم عن ذلك^(١). والآية عامة بالنسبة لغير المسلمين، ممن عرفوا أن محمداً رسول الله ﷺ فكذبوه ولم يؤمنوا به، ولا يرجون ثواباً في الآخرة، وحالهم كحال الكفار الذين ماتوا على الكفر، فلا مطمع لهم في ثواب الآخرة، لأنهم ﴿قَدْ يَئِسُوا مِنْ﴾ ثواب الله في ﴿الْآخِرَةِ كَمَا يَئِسَ الْكُفَّارُ مِنْ أَصْحَابِ الْقُبُورِ﴾ وهم المقبورون من الكفار، إذ لا أمل لهم في رحمة الله تعالى يوم لقائه، عندما يروا حقيقة الأمر، ويعلموا علم اليقين أنهم لا نصيب لهم في الجنة.

والكافر إذا دخل القبر، أيس من رحمة الله، وأيس من العودة إلى الدنيا مرة أخرى، وتبين له فُتْحُ حاله وسوء منقلبه حين يرى مقعده من النار الذي سيصير إليه، ومقعده من

(١) أسباب النزول للواحدي (ص ٣٥٠)، والسيوطي (٢٩٦)، وزاد المسير (٢٤٧/٨).

الجنة لو كان مؤمناً، قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا يَزِيدُ اللَّهُ وَلَقَائِهِ أُولَئِكَ يَئِسُوا مِنْ رَحْمَتِي وَأُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [العنكبوت: ٢٣].

ويحتمل أن يكون المعنى: قد يئسوا من الآخرة، أي: أنهم أنكروها وكفروا بها، فلا يستغرب منهم الإقدام على ما يوجب سخط الله تعالى وعظيم عذابه، كما يئس منكرو البعث من رجوع أصحاب القبور إلى الله تعالى يوم لقائه.

وهذه الآية مؤكدة للآية الأولى في السورة، فإن أعداء الله تعالى مغضوب عليهم، ويأس الكفار الأحياء من رحمة الله، كيأس الكفار الأموات من قيام الساعة، لأنهم لا يؤمنون بها، وينكرون عودتهم إلى الحياة مرة أخرى، ولا يعتقدون ببعث ولا حساب، ولا ثواب ولا عقاب.

والكافر إذا مات له قريب أو صديق يقول: هذا آخر العهد به، أي فلا بعث بعد ذلك ولا حياة.

وهذه الآية تجمع أغراض السورة وتوجُّهاتها، ولا يدخل فيها قوله تعالى ﴿عَسَى اللَّهُ أَنْ يَجْعَلَ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ الَّذِينَ كَفَرْتُمْ مَوَدَّةً﴾ فهي ممن استثنى الله سبحانه بالنسبة لمن يدخل من الكفار في الإسلام.

وعليه: فلا يطمع المؤمنون في موالاة اليهود والمنافقون، لأنهم لا تربطهم بهم رابطة الإيمان، ولا يدخلون في الرجاء المشار إليه بـ ﴿عَسَى﴾ فيأس المؤمنون من إيمان اليهود والمنافقين، كيأس اليهود والمنافقين من قيام الساعة، فلا يطمعوا في الانتفاع منهم بشيء، ولا في معرفة أخبارهم وأسرارهم، ولن تعود موالاة المؤمنين لهم إلا بالضرر على المؤمنين في الدنيا والآخرة، والمخبر بذلك هو علام الغيوب.

تم تفسير (سورة الممتحنة) والله الحمد والمنة

تَفْسِيرُ سُورَةِ الصَّفِّ (٦١)

مُقَدِّمَةُ السُّورَةِ

(سورة الصف) هي السورة الحادية والستون في ترتيب المصحف، والثامنة بعد المئة في ترتيب النزول، نزلت بعد (سورة التغابن) وقبل (سورة الفتح). وهي سورة مدنية عند الجمهور، كان نزولها بعد وقعة أحد. وعدد آياتها أربع عشرة آية باتفاق أهل العدد. وهي مثنان وإحدى وعشرون كلمة، وتسع مئة حرف. وتسمى سورة الصف، لوقوع لفظ ﴿صَفًّا﴾ فيها، وهي التسمية المشتهرة من عهد النبوة، وذكر السيوطي والألوسي أنها تسمى أيضاً (سورة الحوارين)، لذكر لفظ الحوارين فيها. فقد أخرج ابن مردويه عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: نزلت سورة الحوارين بالمدينة.

ومما ورد في سبب النزول أن عبد الله بن سلام ﷺ قال: قعدنا نفراً من أصحاب رسول الله ﷺ فتذاكرنا، فقلنا: لو نعلم أي الأعمال أحب إلى الله تعالى لعملناه، فأنزل الله سورة الصف، قال عبد الله بن سلام: فقرأها علينا رسول الله ﷺ^(١). ومن ذلك ما جاء عن مقاتل: أن المؤمنين قالوا: لو علمنا أحب الأعمال إلى الله لعملناه، ولبدلنا فيه أموالنا وأنفسنا، فأنزل الله عز وجل: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي

(١) سنن الترمذي برقم (٣٣٠٩)، وصحيح سنن الترمذي (٢٦٣٦)، وبنحوه في المسند (٤٥٢/٥) برقم (٢٣٧٨٩، ٢٣٧٨٨) وهو إسناد صحيح على شرط الشيخين (محققه)، والحاكم في المستدرک (٤٨٦/٢) وقال: حديث صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه، والدارمي في سننه (٢٠٠/٢) برقم (٢٣٩٠)، قال ابن حجر في الفتح (٤١٩/٨): وإسناده صحيح، وأخرجه ابن حبان برقم (١٥٨٩)، والبيهقي في الشعب برقم (٣٩٠٧)، والسنن (١٥٩/٩).

سَبِيلِهِ صَفًا ﴿الآية: ٤﴾ وَأَنْزَلَ ﴿هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى مَجْرَمٍ تُجِيزُونَ عَذَابَ الْإِلْمِ﴾ ﴿الآية: ١٠﴾.

ولما ابتلاههم الله بيوم أخذ وَلَوْ مَدْبِرِينَ، وكرهوا الموت، وأحبوا الحياة، فأنزل الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ ﴿٢﴾ كَبُرَ مَقْتًا عِنْدَ اللَّهِ أَنْ تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ ﴿٣﴾﴾ (الآيتان: ٢، ٣).

وقد نزل الأمر بالجهاد في سور أخرى قبل نزوله في هذه السورة. ويكاد يكون موضوع السورة، هو الجهاد في سبيل الله، فهو الذي تدور حوله أسباب النزول. وقد بدأت السورة بتزيه الله تعالى عن كل ما لا يليق بجلاله، ثم حذرت المؤمنين من خُلف الوعد، وعدم مطابقة الأقوال للأفعال. وبعد أن ذكرت السورة جانباً مما قاله موسى ﷺ لقومه، وما قاله عيسى ﷺ لقومه، أتبعته ذلك ببيان ما جُبل عليه الكافرون من تكذيب للحق، ومن كراهية لظهور نور الإيمان. وقد استهدفت السورة أمرين هامين:

الأمر الأول: من أول السورة إلى الآية التاسعة، وفي هذا المقطع إشارة إلى المنهج الإلهي للبشر الذي جاءت به الرسالات الثلاث الرئيسة: اليهودية والنصرانية والإسلام. أما اليهود فقد آذوا موسى عليه السلام وأتعبوه، وفقدوا الشجاعة في مقاتلة عدوّه، وضيّعوا كتاب الله تعالى الذي نزل عليهم..

أما عيسى عليه السلام فهو صاحب رسالة محدودة الزمان والمكان، وقد أرسله الله تعالى ليمهد للرسالة العامة التي تهدي البشر كلهم إلى توحيد الله تعالى، وكان لولادة عيسى عليه السلام على نحو فريد من نوعه، سبب في انتشار رسالته في طول الأرض وعرضها. وقد انتهت هذه الخطوات إلى استقرار دين الله تعالى في أرضه على يد رسوله الأخير ﴿هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ ﴿١﴾﴾ ﴿الآية: ٩﴾.

أما الأمر الآخر، فهو من الآية العاشرة إلى نهاية السورة، وهو مقطع يتكلم عن القوة

(١) أخرجه ابن أبي حاتم كما في الدر المنثور (٤٤٥/١٤).

التي لا بد منها لمساندة الحق ودعمه، فالجهاد ماضٍ إلى يوم القيامة. وقد حفلت السورة بآيات الجهاد في سبيل الله لإعزاز دينه، وإعلاء كلمته، وعُدَّتْ ذلك بعد الإيمان بالله ورسوله، هو التجارة الرباحة التي يتحقق بها سعادة المرء في الدنيا والآخرة، وعلى المجاهدين في سبيل الله أن يكونوا يداً واحدة، وصفاً واحداً، ضد عدو الله وعدوهم، وأن يقتدوا في بذل النفس والنفس، لنصرة دين الله تعالى، بالحواريين في نُصرتهم لنبي الله عيسى عليه السلام..

وقد شرع الإسلام الجهاد لتأمين نشر الدعوة، ولمنع الحيلولة بين الناس وبين ظهور دين الإسلام على الديانات التي سبقته ومهدت له في أطوارٍ من تاريخ البشرية، ولإقامة منهج الله تعالى في أرضه إلى قيام الساعة، بعد أن انحرف أتباع الرسالات السابقة عن توحيد الله تعالى وزاغت قلوبهم عن الحق..

ولذا: فقد ذكرت السورة مثليْن على ذلك هما رسالة موسى ورسالة عيسى عليهما السلام، وكانت رسالة عيسى، امتداداً لرسالة موسى عليهما السلام، وقد انتهت قوامة قوم موسى على دين الله، لَمَّا زاغوا وانحرفوا وضلُّوا عن سبيله، ولم يعودوا أمناء على شرع الله تعالى.

وقد جاء عيسى عليه السلام ليصل بين الدين الكتابي الأول، والدين الكتابي الأخير، فيمهد للرسالة الأخيرة ويبشر بها، ويُسلِّم أمانة الوحي الإلهي التي حملها موسى وعيسى عليهما السلام إلى الرسول الذي بشر به، وهو محمد ﷺ.

وقد خُتِمت السورة بدعوة أهل الإيمان إلى نصرة دين الرحمن، كما فعل الحواريون مع عيسى عليه السلام حين دعاهم إلى نصرة دين الله، فاستجابوا له ونصروا دينه..

تَفْسِيرُ السُّورَةِ

التَّسْبِيحُ بِحَمْدِ اللَّهِ تَعَالَى عَلَى أَمْرِهِ بِجِهَادِ الْعَدُوِّ

١- ﴿سَبِّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ (١)

افتتحت سورة الصف بما افتتحت به سورتا الحديد والحشر ﴿سَبِّحَ لِلَّهِ﴾ أي نزه الله تعالى ومجده وقده عن كل ما لا يليق بجلاله، كل ﴿مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾ من ملك وإنسان ونبات وجماد، فجميع المخلوقات شهدت له بالوحدانية والربوبية، وبأنه صاحب العزة والحكمة، متصف بكل صفات الجلال والكمال ﴿وَهُوَ الْعَزِيزُ﴾ الذي لا يغلبه غالب ولا يقهره قاهر، وجميع ما في الكون خاضع لعزته وسلطانه ﴿الْحَكِيمُ﴾ في كل أقواله وأفعاله، فلا يفعل إلا ما تقتضيه الحكمة.

وهذا بيان لعظمته تعالى، وأن جميع ما في الكون ومن في الكون يسبح بحمد الله تعالى ويعبده ويسأله حوائجه.

ومن حكمته تعالى أن الكافرين يستحقون القتال، لأنهم شذوا عن مخلوقات الله تعالى، فلم يسبحوا بحمده، ولم يصفوه بصفات الكمال، وإنما جعلوا له شركاء في وحدانيته. فكان هذا مناسبة افتتاح السورة بهذه الآية، لبيان أن الله تعالى لم يأمر بجهاد العدو عبثاً، وأنه تعالى هو الغالب لعدوه، فلا تزهبوا - أيها المسلمون - أعداء الله، ولا تفروا منهم عند اللقاء.

وفي الآية تعريض بأن الذين أخلفوا الله ما وعدوه، لم يؤدوا حق تسبيح الله عليهم، لأنه سبحانه هو المستحق أن يؤفى بعهده، وفيها إرشاد إلى مشروعية التسبيح في كل وقت.

دَمٌ مُخَالَفَةُ الْقَوْلِ لِلْعَمَلِ

٢، ٣- ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ﴾ (٢) كَبُرَ مَقْتًا عِنْدَ اللَّهِ أَنْ تَقُولُوا

(١) وقف البزي ويعقوب على ﴿لَمْ﴾ بهاء السكت بخلف عنهما، والباقون بدونها، ومعهم البزي ويعقوب في الوجه الآخر.

مَا لَا تَقُولُونَ ﴿٣﴾

ثم أنكر سبحانه وتعالى على من يقول قولاً، أو يعدّ وعداً ثم لا يفي به، فقال: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ يا من آمنتم بالله والرسول حق الإيمان، ناداهم سبحانه بوصف الإيمان، لأن من شأن الإيمان أن يكون وازعاً للعبد من مخالفة القول للعمل، والمنافقون عكس ذلك، فيا من صدقتم بالله، واتبعتم هذي رسوله ﷺ ﴿لَمْ تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ﴾ لِمَ تَعْدُونَ وعداً، أو تقولون قولاً، ولا توفون به؟ لِمَ تقولون الخير وتحثون غيركم عليه ولا تفعلونه؟ لم تنهون غيركم عن الشر وأنتم ملوثون به؟ فهل يليق بالمؤمنين أن يكونوا بهذه الحالة الذميمة؟ إن هذا من أكبر المقت عند الله.

وفي هذا تعريض بالمنافقين الذين يُظهرون الإيمان بأقوالهم، ولا يعملون أعمال أهل الإيمان بالقلب ولا بالجوارح.

قال ابن زيد: نزلت في المنافقين، لأن جملةً منهم، كانوا يقولون للمؤمنين: نحن منكم ومعكم، ثم يظهروا من أفعالهم خلاف ذلك، فنزلت الآية عتاباً لهم، وحكمها عام في كل زمان ومكان.

وفي حديث أبي هريرة ؓ أن رسول الله ﷺ قال: «آية المنافق ثلاث: إذا حدث كذب، وإذا وعد أخلف، وإذا أؤتمن خان»^(١).

وفي الحديث الآخر عن عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال: «أربع من كن فيه كان منافقاً خالصاً، ومن كانت فيه واحدة منهن، كانت فيه خصلة من نفاق حتى يدعها...» وذكر منها «إخلاف الوعد»^(٢).

وخلف الوعد لا يجوز حتى مع الصبيان ولا مع الدواب:

ومن ذلك ما ورد عن عبد الله بن عامر بن ربيعة ؓ قال: أتانا رسول الله ﷺ في بيتنا،

(١) صحيح البخاري برقم (٣٣)، وصحيح مسلم برقم (٥٩).

(٢) صحيح البخاري برقم (٣٤)، وصحيح مسلم برقم (٥٨).

وأنا صبي، قال: فذهبتُ لأخرج لألعب، فقالت أُمِّي: يا عبد الله: تعال أعطك، فقال لها رسول الله ﷺ: «وما أردتُ أن تعطيه؟» قالت: تمرًا، فقال: «أما إنك لو لم تفعلني، كُتبتُ عليك كَذِبَةٌ»^(١).

ولهذا فإن أحد رجال الحديث امتنع عن أخذ الرواية من رجل سافر إليه مسافات شاسعة ليأخذ عنه حديثاً، يُعضدُّ بها الروايات الأخرى للحديث، فلما وجد الرجل يَضُمُّ حِجْرَهُ، يُوهَمُ بغلته أن به طعاماً لها، وهو فارغ، فدلّس عليها حتى أمسكها، فلما رأى ذلك، رجع من حيث أتى، دون أن يسأله في شيء، مادام قد كذب على بغلته! والذي عليه جمهور أهل العلم أنه يجب الوفاء بالوعد سواء ترتب عليه، غرم للموعد أم لا^(٢).

في سبب النزول:

وهذه الآية كما قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس ؓ: أن ناساً من المؤمنين سألوا عن أحب الأعمال إلى الله تعالى ليعملوا به، فلما نزل الجهاد كرهوه وشق عليهم^(٣). وقال مجاهد: نزلت هذه الآية في نفر من الأنصار، منهم عبد الله بن رواحة، قالوا في مجلس لهم: لو نعلم أيَّ عمل أحب إلى الله تعالى لعملناه حتى نموت، فأنزل الله هذا فيهم، فقال ابن رواحة: لا أبرح حبيساً في سبيل الله حتى أموت، فقتل شهيداً^(٤). ثم صرح سبحانه بالمعنى المراد، وشدد النكير على من يخالف قوله فعله فقال:

(١) المسند (٤٤٧/٣) برقم (١٥٧٠٢)، قال محققوه: حسن لغيره، وهذا إسناد ضعيف لإبهام مولى عبد الله بن عامر، وبقية رجاله رجال الشيخين، غير محمد بن عجلان، فقد أخرج له مسلم متابعة، وهو في سنن أبي داود برقم (٤٩٩١)، والبيهقي في السنن (١٠ / ١٩٨)، وفي الشعب (٤٨٢٢).

(٢) تفسير ابن كثير (١٠٥/٨).

(٣) تفسير الطبري (٥٦/٢٨).

(٤) ابن عساكر (٩٠/٢٨).

﴿كَبُرَ مَقْتًا﴾ أي عظم بغضاً وإثماً ﴿عِنْدَ اللَّهِ أَنْ تَقُولُوا﴾ بالسُّتُكُم ﴿مَا لَا تَفْعَلُونَ﴾ بأعمالكم.

والمقت: أشد الغضب، ومنه نكاح المقت، وهو أن يتزوج الرجل امرأة أبيه.
قال تعالى: ﴿وَلَا تَنْكِحُوا مَا نَكَحَ آبَاؤُكُمْ مِنَ النِّسَاءِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ إِنَّهُ كَانَ فَحِشَةً وَمَقْتًا وَسَاءَ سَبِيلًا﴾ [النساء: ٢٢].

قيل لبعض السلف: حدثنا، فقال: أتأمروني أن أقول ما لا أفعل، فأستعجل مقت الله^(١).
وقد ذم الله تعالى الذين يقولون ما لا يفعلون هنا، وفي قوله تعالى عن بني إسرائيل ﴿أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنْسَوْنَ أَنْفُسَكُمْ وَأَنْتُمْ نَتْلُونَ الْكِتَابَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ [البقرة: ٤٤].
وفي قول شعيب عليه السلام إلى قومه: ﴿وَمَا أَرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَى مَا أَنْهَكُمْ عَنْهُ﴾ [هود: ٨٨].

الثَّبَاتُ فِي مُوَاجَهَةِ الْعَدُوِّ

٤ - ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفًّا كَانَهُمْ بُيُوتٌ مَرْمُوضَةٌ﴾ [٤]
بين جل شأنه في هذه الآية الوعد، الذي أخلفه من سألوا عن أحب الأعمال إلى الله تعالى، وذلك أنهم لما ذكروا أن الجهاد يشق عليهم، أنكر الله عليهم ذلك، وأثنى على المجاهدين الصادقين، الذين يثبتون في مواجهة عدوهم ثباتاً لا يضطرب ولا يتزلزل، وأكد سبحانه محبته للمقاتلين في سبيله، ومحبة الله تعالى تَظَهَّرَ على عبادته في نصره لهم وكرامته إياهم.

والجهاد ذروة سنام الإسلام، وهو أعلى ما يحبه الله تعالى من عبادته، قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفًّا﴾ أي أن الله تعالى يحب المجاهدين الذين يَصُفُّون أنفسهم عند القتال صفّاً واحداً، ويثبتون في أماكنهم عند لقاء العدو، فيكون

(١) من تفسير النسفي للآية.

أمرهم واحداً، وكلمتهم واحدة، يوالي بعضهم بعضاً ﴿كَأَنَّهُمْ بَتِينٌ مَّرْصُوسٌ﴾ قد رُصَّ بعضه ببعض، وأُلصق بعضه ببعض، حتى صار شيئاً واحداً، فثبت كل منهم في جهاده، ويلزم مكانه وموقعه الذي تتطلبه ظروف المعركة، كثبوت البناء ولزومه.

وفي هذه الآية حث من الله تعالى لعباده على الجهاد في سبيله، وتعليم لهم كيف يثبتون ويصفون في مواجهة العدو حتى يحصل لهم المراد، فيفوزوا بنصر الله عز وجل، وقد نزلت هذه الآية جواباً لمن سألوا عن أحب الأعمال إلى الله تعالى، فكان الجواب هو الجهاد في سبيله.

كلمات في الجهاد:

وهذا تعليم من الله تعالى للمؤمنين، كيف يكونون عند قتال عدوهم قوة واحدة، وكلمة واحدة، وقد كان النبي ﷺ يحدّد مواقع الجيش وتقسيماته، من اليمين والميسرة والأجنحة، والألوية، كما وضع الرماة في غزوة أحد لحماية ظهر الجيش، حتى لا يلتف العدو به، قال تعالى: ﴿وَإِذْ عَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ تُبَوِّئُ الْمُؤْمِنِينَ مَقْعِدَ لِلْقِتَالِ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [آل عمران: ١٢١].

وفي غزوة بدر أخذ ﷺ يرص الصفوف ويسويها بقضيب في يده، وقد غيّر موقع الجيش من مكان إلى مكان نزولاً على رأي أحد أفراد الجيش (الحباب بن المنذر) لأنه الأصلح، وفي الحديث عن أبي موسى ﷺ أن النبي ﷺ قال: «المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضاً»^(١).

وفي سورة الأنفال يتبين سبحانه أن من أهم عوامل النصر على العدو ستة أمور هي: الثبات عند اللقاء، وذكر الله تعالى، والطاعة، والامثال، وعدم التنازع وعدم الاختلاف، والصبر والمجادة، وعدم الإعجاب بالنفس، فالمجاهدون يحملون على العدو حملة

(١) أخرجه مسلم (٢٥٨٥)، وابن أبي شيبة (٢١ / ١١)، وأحمد في المسند (١٩٢٤) بإسناد صحيح، وانظر: البخاري (٤٨١)، ٢٤٤٦، ٦٠٢٦، والطبراني في مكارم الأخلاق (٨٩).

رجل واحد، وفي هذا يقول تعالى ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَاثْبُتُوا وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ ﴿٤٥﴾ [الأنفال: ٤٥-٤٧].

ويقول سبحانه: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا لَقِيتُمْ الَّذِينَ كَفَرُوا زَحَفًا فَلَا تُولُوهُمْ الْأَدْبَارَ﴾ ﴿٤٥﴾ [الأنفال: ١٥، ١٦].

وقد ذم الله تعالى من يتمنى الجهاد، فإذا دُعي إليه تكاسل وتخاذل، وذلك في كثير من آياته، منها قوله تعالى: ﴿وَيَقُولُ الَّذِينَ ءَامَنُوا لَوْلَا نُزِّلَتْ سُورَةٌ فَإِذَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ مُحْكَمَةٌ وَذُكِرَ فِيهَا الْقِتَالُ رَأَيْتَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ نَظَرَ الْمَغْشَىٰ عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ﴾ [محمد: ٢٠].

وقوله: ﴿فَإِذَا جَاءَ الْحُوفُ رَأَيْتَهُمْ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ كَالَّذِي يُغْنِي عَنْهُ مِنَ الْمَوْتِ فَإِذَا ذَهَبَ الْحُوفُ سَلَفُواكُمْ بِالسِّنَةِ حَدَادٍ﴾ [الأحزاب: ١٩].

وقوله: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ قِيلَ لَهُمْ كُفُّوا أَيْدِيَكُمْ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ إِذَا فَرِيقٌ مِنْهُمْ يَخْشَوْنَ النَّاسَ كَخَشْيَةِ اللَّهِ أَوْ أَشَدَّ خَشْيَةً وَقَالُوا رَبَّنَا لِمَ كُتِبَ عَلَيْنَا الْقِتَالُ لَوْلَا أَخَّرْنَا إِلَىٰ أَجَلٍ قَرِيبٍ﴾ [النساء: ٧٧].

ولقد ذم الله تعالى الذين يُعطون العهود على الثبات وعدم الفرار أمام العدو، فإذا حدث القتال لم يوفوا بما عاهدوا الله عليه ﴿وَلَقَدْ كَانُوا عَاهَدُوا اللَّهَ مِنْ قَبْلُ لَا يُولُونَ الدِّبَارَ وَكَانَ عَهْدُ اللَّهِ مَسْئُولًا﴾ ﴿١٥﴾ [الأحزاب: ١٥].

وفي مقابل ذلك فإن الله تعالى امتدح المؤمنين الصادقين في إيمانهم والوفاء بعهودهم فقال تعالى: ﴿مَنْ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُمْ مَنْ قَضَىٰ نَحْبَهُ وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْتَظِرُ وَمَا بَدَلُوا تَبَدُّلًا﴾ ﴿٢٣﴾ [الأحزاب: ٢٣].

وفي حديث أبي ذر رضي الله عنه عن النبي ﷺ أنه قال «ثلاثة يحبهم الله تعالى: وذكر منهم رجلاً غزا في سبيل الله، خرج محتسباً مجاهداً، فلقى العدو فقتل»، قال ﷺ: وأنتم تجدونه في كتاب الله المنزل ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفًا كَانَهُمْ مُتَيْنٌ مَّرْصُوسٌ﴾ الحديث ^(١).

(١) في سنن الترمذي برقم (٢٥٦٨) وقال: هذا حديث صحيح، وفي سنن النسائي الكبرى (١٣١٦)، وانظر: المسند (٢١٣٥٥)، وهو حديث صحيح، وأخرجه الترمذي (٢٥٦٨) وصححه، وابن خزيمة (٢٤٥٦)، والحاكم (٤١٦/١)، وابن حبان (٣٣٤٩) بالفاظ متقاربة.

قال قتادة في معنى الآية: ألم تروا إلى صاحب البناء، كيف لا يحب أن يختلف أمره، وإن الله صف المسلمين في قتالهم وصفهم في صلاتهم، فعليكم بأمر الله، فإنه عصمة لمن أخذ به^(١).

وعن البراء بن عازب رضي الله عنه قال: كان رسول الله ﷺ إذا أقيمت الصلاة يمسح مناكبنا وضدورنا ويقول: «لا تختلفوا فتختلف قلوبكم، إن الله وملائكته يصلون على الصفوف الأولى، وصلوا المناكب بالمناكب، والأقدام بالأقدام، إن الله يحب في الصلاة ما يحب في القتال ﴿صَفَا كَأَنَّهُمْ بُنَيْنٌ مَّرْصُومٌ﴾»^(٢).

وفي هذه الآيات الثلاث: نرى - أولاً - أن السورة تحدثت في أولها عن لحظات الضعف البشري الطارئ على نفس المؤمن، ليغلم أنه لا بد له من تعاهد النفس بتقوى الله تعالى، لتقوى على مواجهة الصعاب.

ونرى - ثانياً - إغراء الله تعالى لعبده المقاتل في سبيله، بأنه فاز بحب الله تعالى له، وهو غاية ما يتمنى المؤمن.

ونرى - ثالثاً - أن الله تعالى يأمر الفرد في صورة جماعة أن يقاتلوا في سبيله صفا واحدا كالبنيان المرصوص.

وبين سبحانه جزاء من وفى بعهده الذي قطعه على نفسه في شأن الجهاد وغيره، فاستوجب الثناء من الله تعالى والأجر الجزيل، كما بين جزاء من لم يف بعهده ووعدته. فقال تعالى: ﴿لِيَجْزِيَ اللَّهُ الصَّادِقِينَ بِصِدْقِهِمْ وَيُعَذِّبَ الْمُنَافِقِينَ إِنْ شَاءَ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ﴾ [الأحزاب: ٢٤].

وكما مدح الله المؤمنين في قتالهم للعدو، وشبهم في وحدتهم وقوتهم بالبنيان المرصوص، فقد ذم اليهود على عدم ثبات قلوبهم وتفرقها عند القتال فقال تعالى:

(١) أخرجه عبد بن حميد، وابن المنذر كما في الدر المنثور (٤٤٦/١٤).

(٢) صحيح سنن أبي داود (٦١٨)، وصححه الألباني في صحيح سنن أبي داود (٦١٨)، وانظر سنن ابن ماجه (٩٩٧) والنسائي في الكبرى (٨٨٧)، وانظر المسند (١٨٥١٦) وهو حديث صحيح (محققه)، وأخرجه الطبراني في الأوسط (٢٦١١)، وابن حبان (٢١٥٧).

﴿تَحْسَبُهُمْ جَمِيعًا وَقُلُوبُهُمْ شَتَّى﴾ [الحشر: ١٤].

هذه هي القاعدة العامة بالنسبة للمسلمين في قتالهم اليهود، فإن حدث خلاف ذلك في بعض فترات التاريخ، فهو عرض سيزول، لأنه مخالف للقاعدة.

وحماية الحق، ونصرة الدين، يتطلبان الصدق والجد، ولا يصلح لهذا، من كان حريصاً على الحياة، غارقاً في النزوات والشهوات، جباناً، متخاذلاً، إذا دنت ساعة الجهاد وحمي الوطيس، دارث عينه، ولقت رأسه، كالذي يخاف الموت.

فأصحاب الأهواء، والمبادئ الهدامة، لا يقهرهم إلا المؤمنون، الذين يستميتون في نصرة الحق، وي بذلون في سبيله النفس والمال، ويتراضون في مواجهة العدو، كلما استشهد بطل حل مكانه بطل آخر.

وفي الآية بيان فضل الجهاد والمجاهدين، وتقدير محبة الله تعالى لعباده المؤمنين إذا كانوا قوة واحدة، ويدا واحدة في مواجهة أعداء الله تعالى، يقاتلونهم في سبيله، فإما النصر وإما الشهادة ﴿فَلْيَقْتُلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يَشْرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا بِالْآخِرَةِ وَمَنْ يُقْتَلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلْ أَوْ يَغْلِبْ﴾ أي يستشهد أو يتنصر، ولا ثالث لهما ﴿فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ [النساء: ٧٤].

تَوْبِيخُ الْيَهُودِ عَلَى إِيْذَانِهِمْ لِنَبِيِّهِمْ وَخُذْلَانِهِمْ لَهُ

٥- ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يَنْقُورِ لِمَ تُوذُّونَنِي وَقَدْ تَعْلَمُونَ أَنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴾

وبخ الله تعالى في هذه الآية، اليهود الذين آذوا موسى عليه السلام وأتعبوه، وفقدوا الشجاعة في مواجهة العدو، وأصابهم الجزع والخور، فخذلوا نبيهم، وخرجوا عن تعاليم كتابه، ولم يُطيعوا رسولهم فيما ندبهم إليه من دخول الأرض المقدسة لقتال العماليق، فاستخفوا به وقالوا له ﴿فَاذْهَبْ أَنْتَ وَرَبُّكَ فَقَتِلَا إِنَّا هَهُنَا قَاعِدُونَ﴾ [المائدة: ٢٤] فحذر الله أمة محمد ﷺ أن يخذلوا نبيهم مثلهم، ولا يطيعوه كما فعل اليهود

مع نبيهم موسى عليه السلام، ومن حق الرسول أن يطاع، ويمثل أمره، ويعظم شأنه. ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ﴾ أي اذكر - أيها الرسول - لقومك قصة عبده ووكيله (موسى بن عمران) سليل خليل الرحمن: إبراهيم عليه السلام، من أولي العزم من الرسل، أرسله الله إلى بني إسرائيل، وإلى فرعون وقومه، اذكر حين قال لهم ﴿يَقُولُ لِمَ تُوذَوْنَ﴾ والإيذاء المناسب لسياق الآيات: هو أخذ لانهم لنبيهم عن الخروج معه لقتال عدوهم، واستخفافهم به، لمّا قالوا له: اذهب أنت وربك فقاتلا، ونحن هنا جالسون ننتظر النتيجة! كما جاء ذلك مفصلاً في سورة المائدة.

صور أخرى من إيذاء قوم موسى له:

وهناك ألوان أخرى كثيرة من إيذائهم له:

منها: أنهم وصفوه بأنه ساحر، وأنه مهين ولا يكاد يبين.

ومنها: أنه لما دعاهم إلى طاعته والاستجابة لدعوته قالوا له ﴿سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا﴾ [النساء: ٤٦].

ومنها: أنهم قالوا عنه: إنه مصاب بمرض في جسده، إما بآفة، أو برص، أو تضخم

في الخصية، وهذا اللون من الإيذاء، هو الذي قال الله تعالى عنه في سورة الأحزاب

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ ءَادَوْا مُوسَى فَبَرَّاهُ اللَّهُ مِمَّا قَالُوا وَكَانَ عِنْدَ اللَّهِ وَجِيهاً﴾ (١١).

وكانت هذه التبرئة كما جاء في صحيح البخاري وغيره: أن موسى عليه السلام قد

خلع ثيابه يوماً ولم يكن حوله أحد، فوضع ثيابه على حجر واغتسل، فلما فرغ من

غسله، وجد أن الحجر قد أخذ ثيابه وذهب بعيداً عنه، فأخذ يبحث عنه، حتى وجدته في

مكان، رآه فيه ملأ من بني إسرائيل غرياناً، أحسن ما خلق الله عز وجل، فبرّاه الله من هذا

قولهم، وفي هذا وغيره يقول النبي ﷺ: «رحمة الله على موسى، لقد أودى بأكثر من هذا

فصبر»^(١). أي أن موسى عليه السلام قد أودى أكثر من إيذاء المشركين للنبي ﷺ فصبر.

(١) من حديث عبد الله بن مسعود في البخاري برقم (٣٤٠٥)، ومسلم برقم (١٠٦٢).

قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُؤْذُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَأَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا مُهِينًا ٥٧﴾ [الأحزاب].

فلعنة الله وغضبه على كل من يسخر أو يستهزئ بالنبي ﷺ في صورة من الصور، سواء في الأفلام كما فعل اليهود، أو بالرسومات الساخرة كما فعل أهل الدنمارك وغيرهم، أو بالهمز واللمز بالنسبة لزوجات النبي ﷺ فضلاً عن سب بعضهن أو اتهامهن بما لا يليق برعاع البشر، بله أهل بيت النبوة!!

وقال سبحانه: ﴿وَمِنْهُمْ الَّذِينَ يُؤْذُونَ النَّبِيَّ وَيَقُولُونَ هُوَ ذُنَّ ۖ﴾ [التوبة: ٦١] أي يسمع لكل شيء.

وقال جل شأنه: ﴿وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ رَسُولَ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [التوبة: ٦١].

وقد حدث للنبي ﷺ من الإيذاء المذكور في الآية كما حدث لموسى ﷺ وأكثر منه. ومن ذلك أنه ﷺ لما رجع عبد الله بن أبي ثلث الجيش يوم أحد، وخالف الرماة أمر نبيهم، ففارقوا موقعهم طلباً للغنيمة، فكان الدرس القاسي، وكسرت رباعيته ﷺ وشج وجهه الكريم في هذه الغزوة.

وقد جمع الله تعالى إيذاء الكفار لرسول الله ﷺ وإيذاء قوم موسى ﷺ له في قوله تعالى: ﴿يَسْأَلُكَ أَهْلُ الْكِتَابِ أَنْ تُنَزِّلَ عَلَيْهِمْ كِتَابًا مِّنَ السَّمَاءِ فَقَدْ سَأَلُوا مُوسَىٰ أَكْبَرَ مِنْ ذَلِكَ فَقَالُوا أَرِنَا اللَّهَ جَهْرَةً﴾ [النساء: ١٥٣].

فكفار قريش طلبوا من النبي ﷺ أن ينزل عليهم آية، وقوم موسى ﷺ طلبوا منه أن يريهم الله جهرة.

إيذاء قوم موسى له في رسالته:

وأكثر ما يدل عليه أذى قوم موسى له في هذه السورة، يتعلق بخصوص الرسالة، فهو ليس أذى في شخصه، وكأن موسى ﷺ يقول لقومه: يا قوم لم تفعلون ما يؤذيني، وأنتم تعلمون قطعاً من المعجزات الباهرات، أني رسول الله إليكم، وأني صادق تمام الصدق فيما أخبرتكم به من عند الله سبحانه.

ذلكم قوله تعالى على لسان موسى عليه السلام ﴿وَقَدْ تَعْلَمُونَ أَفَى رَسُولِ اللَّهِ إِلَيْكُمْ﴾ أي: ومع هذا العلم اليقيني بصدق رسالتي إليكم، فقد خالفتم ما جئتكم به، ومثلتم عن طريق الحق، فتمكّن الزيف من قلوبكم ولم تنفكوا عن الضلال ﴿فَلَمَّا زَاغُوا﴾ أي: عدلوا عن الحق مع علمهم به، وانحرفوا عن طريق الهدى وأصروا على ذلك ﴿أَزَاعَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ﴾ أي صرف الله قلوبهم عن قبول الهداية، فأصبحت المواعظ لا تؤثر فيها، عقوبة لهم على زيغهم الذي اختاروه لأنفسهم، حين آثروا الباطل على الحق، والضلالة عن الهدى ﴿نَسُوا اللَّهَ فَنَسِهُمُ أَنْفُسَهُمْ﴾ [الحشر: ١٩].

كما قال تعالى: ﴿وَمَنْ يُشَاقِقِ الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ مَا بَيَّنَّ لَهُ الْهُدَى وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ تُولِهِ مَا نَوَىٰ وَنُصْلِهِ جَهَنَّمَ ۖ وَسَاءَتْ مَصِيرًا﴾ [النساء: ١١٥].

وهكذا فإن الكفر والتكذيب شؤم وهلاك يؤدي إلى شقاء صاحبه:

- ١ - كما قال تعالى: ﴿فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضًا﴾ [البقرة: ١٠].
 - ٢ - وقال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا﴾ [الإسراء: ٤٦].
 - ٣ - وقال جل شأنه: ﴿فَمَا كَانُوا لِلْيَوْمِئَا بِمَا كَذَّبُوا مِنْ قَبْلُ كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِ الْكَافِرِينَ﴾ [الأعراف: ١٠١].
 - ٤ - وقال سبحانه: ﴿وَنَقَلِبْ أَوْدَتَهُمْ وَأَبْصَرَهُمْ كَمَا لَوْ يُؤْمِنُونَ بِهِ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَنَذَرَهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ [الأنعام: ١١٠].
 - ٥ - وقال أيضاً: ﴿وَمَا يُضِلُّ بِهِ إِلَّا الْفَاسِقِينَ﴾ [البقرة: ٢٦].
- والعكس صحيح، فإن الإيمان يزيد القلب إيماناً وهدى قال تعالى: ﴿وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ يَهْدِ اللَّهُ قَلْبَهُ﴾ [التغابن: ١١].

وقال سبحانه: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا زَادَهُمْ هُدًى وَآثَنَهُمْ تَقْوَاهُمْ﴾ [محمد: ١٧].

ولذلك فإن المؤمن يحرص على هذا الدعاء ﴿رَبَّنَا لَا تُخِزْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ﴾ [آل عمران: ٨].

والله تعالى لا يهدي من سبق في علمه أنه فاسق خارج عن طاعته وهدايته.
﴿وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴾ وهم الذين اختاروا طريق الشقاء، وخرجوا عن طاعة الله
والرسول، وخرجوا عن منهاج الحق والنور.
قال الفخر الرازي: وفي هذا تنبيه على عظم إيذاء الرسل، حتى إنه يؤدي إلى الكفر
وزيغ القلوب عن الهدى^(١).

وهذه الآية تفيد أن إضلال الله للعباد، سببه أنهم أغلقوا على أنفسهم طريق الهداية
بعد أن عرفوه، فهم الذين اختاروا الزيغ، فلما زاغوا بأنفسهم أزاع الله قلوبهم، فختم
عليها بعدم قبول الهدى، عقوبة لهم وعدلاً منه بهم، لقد ملؤوا قلوبهم بالفسق، فطبع الله
على هذه القلوب، فهم الذين ضلوا أنفسهم وظلموها. وكان ذلك مطابقاً لعلم الله عنهم
قبل وجودهم في هذه الحياة.

رِسَالَةُ عِيسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ تَرْبِطُ مَا بَيْنَ مُوسَى وَمُحَمَّدٍ عَلَيْهِمَا السَّلَامُ

٦ - ﴿وَإِذْ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ يَبْنِي إِسْرَءِيلَ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَةِ وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ
يَأْتِي مِنْ بَعْدِي ^(٢) أَتَمُّهُ أَحَدٌ فَلَمَّا جَاءَهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ قَالُوا هَذَا سِحْرٌ مُبِينٌ ^(٣)﴾

ثم تمم الله تعالى مثل موسى مع قومه، بمثل آخر لقوم منهم، خرجوا عن طاعة
رسولهم، وهم قوم عيسى عليه السلام، فبيّنت الآية أن عيسى ﷺ صاحب رسالة
محدودة الزمان والمكان، فهو مبعوث إلى خِراف بني إسرائيل الضالة، وهو يربط
رسالته بالتوراة التي تمرّدوا عليها، ويعالج أمراضهم النفسية والاجتماعية، ويُمهد لنبوة
عامة تُهدي البشر كلهم إلى وحدانية الله تعالى.

وبنو إسرائيل، كان يُطلق عليهم في عهد موسى ﷺ أنهم (قوم موسى) وقد اشتهروا

(١) التفسير الكبير (٣١٣/٢٩).

(٢) قرأ نافع وابن كثير وأبو عمرو وشعبة وأبو جعفر ويعقوب بفتح ياء الإضافة من ﴿بَعْدِي أَتَمُّهُ﴾ والباقون بإسكانها.

(٣) قرأ حمزة والكسائي وخلف (ساحر) اسم فاعل والباقون ﴿سِحْرٌ﴾ مصدر.

بعد موسى ببني إسرائيل، ولذلك فإن موسى ﷺ في الآية السابقة خاطب أمته بقوله ﴿يَقُولُ﴾ وعيسى خاطبهم في هذه الآية بقوله ﴿يَبْنَئِ إِسْرَءِيلَ﴾ وقد أرسل عيسى عليه السلام لتأييد شريعة موسى عليه السلام، وتغيير بعض أحكام التوراة تخفيفاً عن بني إسرائيل، وعيسى عليه السلام يقول لبني إسرائيل: ﴿إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ﴾ لست إلهاً، ولا ابناً للإله، ولا أقنوماً من أقانيم الإله، وإنما أنا عبد الله ورسوله، وقد بشرت بي التوراة، فأنا مصدق لما أخبرت به، وفي الوقت نفسه، فأنا مبشر بالرسول النبي الأمي العربي المكي، الذي يأتي من بعدي.

تصديق عيسى لرسالة موسى عليهما السلام:

فاذكر يا رسولنا لقومك وقت أن قال عيسى ابن مريم لسلالة أبناء يعقوب عليه السلام: إني عبد الله ورسوله إليكم لأُخْرِجَكُم من ظلمات الكفر والشرك إلى نور التوحيد والإيمان، وأنا حلقة اتصال بين صاحب الشريعة السابقة، فأصدقها وأعمل بما فيها، وبين صاحب الرسالة الخاتمة، فأبشِّرُ بها بوضفي آخر رسول قبله، فأنا رسول الله إليكم ﴿مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَةِ﴾ أي جئتُ بما جاء به موسى من التوراة والشرائع السماوية مُقَرَّراً ومعترفاً بأحكام التوراة، ويكتبُ الله جميعاً التي نزلت على رسل الله قبلي، وأنا لن آتيكم بشيء يخالف ما فيها حتى تنفروا عني، ولو كنتُ مدّعياً النبوة لَجِئْتُ بغير ما جاءت به الأنبياء.

وكان قوم موسى يعتقدون أن أحكام التوراة لا تُنسخ، فهم متمسكون بها، ولذا: فقد ابتدأ عيسى دعوته إليهم باستمالتهم لتقريب إجابتهم.

ولم تزد دعوة عيسى عن دعوة سلفه موسى عليهما السلام إلا بما قاله لهم ﴿وَلَا أُحْدِلُ لَكُمْ بَعْضَ الَّذِي حُرِّمَ عَلَيْكُمْ﴾ [آل عمران: ٥٠] ولم يأمر الله عيسى في أول الدعوة بنسخ بعض أحكام التوراة.

وهكذا شأن التشريع في الأمم، كما في حديث عائشة رضي الله عنها في البخاري

أنها قالت: (إنما أنزل أول ما أنزل منه - أي القرآن - سورة من المفصل، فيها ذكر الجنة والنار، حتى إذا ثاب الناس إلى الإسلام، نزل الحلال والحرام، ولو أنزل أول شيء: لا تشربوا الخمر، لقالوا: لا نترك الخمر أبداً، ولو نزل: لا تزنوا، لقالوا: لا ندع الزنى أبداً، لقد نزل بمكة على محمد ﷺ وإني لجارية ألعب: ﴿بَلِ السَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ وَالسَّاعَةُ أَذَىٰ وَآمُرُ﴾ [القمر: ٤٦] وما نزلت سورة البقرة والنساء إلا وأنا عنده) ^(١).

فتصديق ما جاء به موسى عليه السلام هو المهمة الأولى من رسالة عيسى عليه السلام.

الإعلام المبكر بالرسالة الأخيرة:

أما المهمة الأخرى لرسالة عيسى عليه السلام، فقد جاءت في قوله تعالى على لسانه عليه السلام ﴿وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنْ بَعْدِي أَتَمُّهٖ أَتَمُّهُ﴾ أي فأنا شاهد بصدق رسول يأتي من بعدي هو محمد ﷺ فقد جئت لأبشر العالم بمقدمه، وأدعو الناس إلى التصديق به، وكل نبي قد بشر قومه بالرسول الخاتم، فعيسى عليه السلام كسائر الأنبياء، أرسله الله ليصدق بالنبى السابق، ويبشر بالنبى اللاحق.

وإنما أفرد عيسى عليه السلام بالبشارة في هذا الموضع، لأنه آخر نبي قبل محمد ﷺ وليبين أن البشارة عمت جميع الأنبياء واحداً واحداً، حتى انتهت إلى عيسى آخر أنبياء بني إسرائيل.

ومن جهة أخرى فإن بني إسرائيل كانوا يترقبون دائماً من يخلصهم من براثن المتسلطين عليهم، وقد وعدهم أنبياء الله بعد موسى عليه السلام بهذا المخلص، فجاء عيسى عليه السلام ليفاتحهم في أول دعوته بأن من أول اهتماماته: الاعتناء بوصية موسى والأنبياء بعده، فنتبهم على أنه ليس هو المخلص الموعود به، وإنما الذي يخلصهم من تسلط الجبارين عليهم هو الرسول الخاتم الذي يأتي بعده، ويحكم بشرع الله فيهم الذي جاء به محمد ﷺ إلى قيام الساعة، وهذا لمن آمن به واتبعه.

(١) يُنظر: صحيح البخاري (٤٩٩٣، ٤٨٧٦).

وقد صرح القرآن الكريم بالتعريف بمحمد ﷺ وأصحابه، وذكر أوصافهم في التوراة والإنجيل معاً في آية واحدة، هي قوله تعالى: ﴿تُحَمَّدُ رَسُولَ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ﴾ وهم أصحابه رضوان الله تعالى عليهم، فوصفهم في التوراة: بالشدة على الكفار والرحمة فيما بينهم، وكثرة الركوع والسجود، وتحريهم فضل الله تعالى ورضوانه، ثم قال تعالى: ﴿ذَلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَةِ﴾.

ثم وصفهم في الإنجيل بزرع ﴿أَخْرَجَ شَطَكُهُ فَتَازَرَهُ فَاسْتَغْلَظَ فَاسْتَوَى عَلَى سُوقِهِ﴾ [الفتح: ٢٩].
فهذا إثبات لرسالة محمد ﷺ في الكتابين معاً.

وقد أخذ الله العهد والميثاق على جميع الأنبياء والمرسلين، بالإيمان بصاحب الرسالة الأخيرة، والإقرار بذلك، وإبلاغه إلى أممهم، فشهدوا بذلك، وشهد الله تعالى على شهادتهم ﴿وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَا آتَيْتُكُمْ مِنْ كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ، وَلَتَنْصُرُنَّهُ، قَالَ أَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِي قَالُوا أَقْرَرْنَا قَالَ فَاشْهَدُوا وَأَنَا مَعَكُمْ مِنَ الشَّاهِدِينَ﴾ [آل عمران: ٨١].

وفي هذه الآية التي نحن بصددناها: ﴿وَإِذْ قَالَ عِيسَىٰ﴾ إعداد مبكر للبشر، بقبول هذه الرسالة الأخيرة، الموعود بها على لسان كل رسول، وقد جاءت أوصاف محمد ﷺ وعلاماته في كتبهم، وبهذا كانت دعوة خليل الرحمن ﴿رَبَّنَا وَأَبْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [البقرة: ١٢٩].

عن العرياض بن سارية ؓ قال: قال رسول الله ﷺ: «إني عند الله لخاتم النبيين، وإن آدم لمنجدل في طيئته، وسأنبئكم بتأويل ذلك، دعوة أبي إبراهيم، وبشارة عيسى بي، ورؤيا أمي التي رأت، وكذلك أمهات النبيين يَرَيْنَ»^(١).

(١) المسند (١٢٧/٤) وفيه سعيد بن سويد، لم يوثقه غير ابن حبان، وقد ورد هذا الحديث من طرق أخرى، منها أيضاً: المسند (١٧١٥١)، ومن طريق خالد بن معدان، وهو من خيار التابعين عند الحاكم في المستدرک (٦٠٠/٢) وقال محققو المسند (١٧١٥٠، ١٧١٦٣): صحيح لغيره، وأخرجه الطبري في التفسير (٢٠٧١)، والبيهقي في الدلائل (٨٣/١).

قال ابن عباس رضي الله عنهما: ما بعث الله نبياً إلا أخذ عليه العهد، لئن بعثه وهو حي ليتبعه، وأخذ عليه أن يأخذ على أمته: لئن بعث محمد وهم أحياء، ليتبعه وينصرنه ^(١).

وقد وصف الله تعالى بعض صفات محمد ﷺ لنبه موسى عليه السلام في ثانياً إجابة دعائه: حيث قال تعالى ﴿وَرَحِمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالَّذِينَ هُمْ بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٥٦﴾ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْنُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ﴾ [الأعراف: ١٥٦، ١٥٧].

ولم تزل جميع الأنبياء تنعته ﷺ وتذكره لأممها، وتأمرهم باتباعه ونصره، ومؤازرته عندما يُبعث.

وقد اشتهر ذلك واستفاض على السنة رسل الله جميعاً:

١ - وجاء مصداق ذلك في قصة النجاشي حين هاجر إلى أرضه نحو ثمانين رجلاً من الصحابة، فأرسلت قريش على أثرهم وفداً ليأتي بهم، ووقف الطرفان أمام النجاشي، فسجد له وفد قريش، ولم يسجد وفد النبي ﷺ ولما سُئلوا عن ذلك، قال جعفر بن أبي طالب متحدثاً عن الوفد: إنا لا نسجد إلا لله عز وجل، قال النجاشي: وما ذاك؟ قال جعفر: إن الله بعث إلينا رسوله، فأمرنا ألا نسجد لأحد إلا لله عز وجل، وأمرنا بالصلاة والزكاة..

ثم قال عمرو بن العاص ؓ للنجاشي متحدثاً عن وفد قريش: فإنهم يخالفونك في عيسى ابن مريم.

قال النجاشي: فما تقولون فيه؟ قالوا: نقول كما قال الله عز وجل: هو كلمة الله، وروحه ألقاها إلى العذراء البتول، التي لم يمسها بشر، فرفع النجاشي عوداً من الأرض، ثم قال: يا معشر الحبشة والقسيسين والرهبان، والله ما يزيدون على الذي نقول فيه ما يساوي هذا، مرحباً بكم وبمن جئتم من عنده، أشهد أنه رسول الله، وأنه الذي نجده في

(١) تفسير ابن كثير (١١٠/٨).

الإنجيل، وأنه الذي بشر به عيسى ابن مريم، انزلوا حيث شئتم، والله لولا ما أنا فيه من الملك، لأتيتُه حتى أكون أنا، أحمِل نعليه وأوضئه، وأمر بهدايا وفد قريش فزدت إليهم^(١).

٢ - ولما أرسل النبي ﷺ كتابه إلى النجاشي مع عمرو بن أمية الضمري، يدعوهُ إلى الإسلام، ردّ قائلاً: (أشهد أنك رسول الله صادقاً ومصدقاً، وقد بايعتُك، وبايعتُ ابن عمك، وأسلمتُ على يديه لله رب العالمين)^(٢).

٣ - أما المقوقس عظيم مصر، فإنه كان نصرانياً أيضاً، ولم يُسلم، ولكنه أقر في ردّه على النبي ﷺ أنه يعلم أن نبياً قد بقى، وأرسل له جارتين: مارية، وسيرين، وبغلة، وكسوة، وقد اتخذ النبي ﷺ مارية فولدت له إبراهيم، وأعطى حسان بن ثابت سيرين^(٣).

٤ - وكان الجارود ابن العلاء، سيد عبد القيس، نصرانياً، فقدم على النبي ﷺ في عام الوفود مسلماً، وكان مما قال للنبي ﷺ: والله لقد جئت بالحق، ونطقت بالصدق، والذي بعثك بالحق نبياً، لقد وجدتُ وضمفك في الإنجيل، وبشّر بك ابن البتول^(٤).

بشرى الأناجيل برسالة محمد ﷺ:

وعن كعب الأحبار: أن الحواريين قالوا لعيسى ﷺ: يا روح الله، هل بعدنا من أمة؟ قال: نعم، يأتي بعدكم أمة حكماء علماء أبراراً أنقياء، كأنهم في الفقه أنبياء، يرضون من

(١) ينظر: المسند (٤٦١/١) برقم (٤٤٠٠) عن ابن مسعود، وقد ضعف إسناده محققوه، وحسنه الحافظ في الفتح (٨٩/٧) وجوّده ابن كثير في البداية والنهاية (٣/٦٩)، وتضعيفه لأن فيه خديج بن معاوية متكلم فيه، وبقية رجاله ثقات رجال الشيخين، وأخرجه الطيالسي (٣٤٦)، والبيهقي في الدلائل (٢/٢٩٨)، وهو خبر مستفيض مشتهر.

(٢) فتح الباري (١١٦/٣)، في الأحاديث (٣٨٧٧-٣٨٨١)، وصحيح مسلم في كتاب الجنائز (٢١/٧)، والسيرة النبوية لابن هشام (٣٣٣/١)، وفي الرحيق المختوم (ص ٣٥٢).

(٣) الإصابة (٢١٦/١)، والاستيعاب (٢٤٧/١)، وينظر: الرحيق المختوم (ص ٣٥٤).

(٤) فتح الباري (١٢٩/١) حديث ٥٣، وصحيح مسلم (١٧٩/١)، والسيرة النبوية لابن هشام (٢٧٥/٢)، وانظر: تهذيب سيرة ابن هشام (ص ٢٤٣).

الله باليسير من الرزق، ويرضى الله منهم باليسير من العمل^(١).

فبشارة عيسى بمحمد عليهما السلام ثابتة ثبوتاً قطعياً، وعندما ننظر في الكتب التي ألفها تلاميذ عيسى من بعده والتي سميت بالإنجيل، نجد أن بعض هذه الإنجيل قد خلّت من هذه البشارة، بسبب ما اعترأها من تحريف وتبديل، على أيدي علماء أهل الكتاب، وبعضها الآخر قد تضمن ذلك تصريحاً أو تلميحاً:

١- ففي إنجيل متى في الإصحاح الرابع والعشرين يقول عيسى عليه السلام: ولكن الذي يصير إلى المنتهى، فهذا يخلص ويكرز - أي يدعو - ببشارة الملكوت هذه في كل المسكونة، شهادة لجميع الأمم، ثم يكون المنتهى.

والذي يدعو الملكوت - أي العالم كله - في أرجاء المسكونة - أي المعمورة - فيعرض دعوته على العالم أجمع، وتبقى رسالته حتى ينتهي العالم، هو محمد ﷺ.

٢- وجاء في إنجيل يوحنا في الإصحاح الرابع عشر: (إن كنتم تحبونني فاحفظوا وصاياي، وأنا أطلب من الأب «الله» فيعطيكُم فازقليط آخر ليثبت معكم إلى الأبد). والفارقليط: كلمة رومية، تعني النبي المبشّر به، رسول الرحمة والحق الذي يدفع الأحران ويخلص من المصائب.

ثم قال: (وأما الفارقليط الروح القدس، الذي سيُرسله الأب «الله» باسمي، فهو يعلمكم كل شيء، ويذكركم بكل ما قلته لكم).

٣- وفيه أيضاً: (والكلام الذي تسمعون ليس لي، بل الذي أرسلني، وبهذا كلمتكم، وأنا عندكم).

أي أن هذه المعلومات هي من عند الله تعالى، وليست من عندي، وقد كلم عيسى الناس بهذا وهو في الدنيا.

(١) تفسير الخازن (٤/٢٦٢).

٤- وفي الإصحاح الخامس عشر في إنجيل يوحنا: (ومتى جاء الفارقليط الذي سأرسله أنا إليكم من الأب «الله» روح الحق الذي من عند الأب ينبثق فهو يشهد لي).
 ٥- وفي سفر التثنية في الباب الثالث والثلاثين: (جاء الرب من سيناء، وأشرق لنا من ساعير، واستغلن من جبل فاران).

ومجيء الرب من سيناء، يعني إعطائه موسى التوراة، وإشراقه من ساعير يعني إعطاء عيسى الإنجيل، وساعير: اسم لجبال فلسطين، واسم لقرية من قرى الناصرة بين طبرية وعكا، وفاران اسم لجبال مكة، واستعلاؤه منها يعني نزوله القرآن على محمد ﷺ.

٦- وفي إنجيل يوحنا، الإصحاح السادس عشر: ... لكن أقول لكم الحق، إنه لكم أن أنطلق، لأنه إن لم أنطلق لا يأتيكم المعزى، ولكن إن ذهبت أرسله إليكم.
 ولفظ (المعزى) معناه: خاتم الأنبياء.

فريّة صلب عيسى عليه السلام (من إنجيل برنابا):

٧- ومن أعظم البشارات التي فيها التصريح باسم النبي محمد ﷺ ما جاء في إنجيل برنابا، وكانت هذه البشارة في حوار دار بين عيسى عليه السلام، وبين تلميذه برنابا، ومما جاء فيه: (لكنّ بعض الناس لما قالوا في حقي: إنه الله، وابن الله، كره الله هذا القول، واقتضت مشيئته ألا تضحك الشياطين يوم القيامة عليّ، ولا يستهزؤون بي، فاستحسن بمقتضى لطفه ورحمته أن يكون الضحك والاستهزاء في الدنيا بسبب موت يهوذا، ويظن كل شخص أنني صُلبت، لكن هذه الإهانة والاستهزاء تبقيان إلى أن يجيء محمد رسول الله، فإذا جاء في الدنيا يتبه كل مؤمن على هذا الغلط، وترتفع هذه الشبهة من قلوب الناس).

وكما يتضح من النص، فإن عيسى ينطق بوحدانية الله تعالى، ويبطل قول من قال: إن عيسى هو الله، أو ابن الله، وينطق إنجيل برنابا ببطلان قصة الصلب، ويثبت أن الذي صُلب هو يهوذا الذي دلّ اليهود على مكان عيسى عليه السلام، ويُصرح أخيراً بمجيء

محمد ﷺ بعده نبيا ورسولا^(١).

وفيما يزيد من توضيح مسألة الصلب أن عيسى عليه السلام قال: (فاعلم يا برنابا أنه لأجل هذا يجب عليّ التحفظ، وسيُيغني أحد تلاميذي بثلاثين قطعة من نقود، وعليه فإني على يقين، من أن مَنْ يَبِيعُنِي يُقْتَلُ باسمي، لأن الله سيُصعدني من الأرض، وسيُغيّر منظر الخائن حتى يظنه كل أحد إياي، ومع ذلك فإنه لمّا يموت شرّ ميتة، أمكث في ذلك العار زمناً طويلاً في العالم، ولكن متى جاء محمد رسول الله المقدس تُزال عني هذه الوصمة^(٢)) وهذا الذي جاء في إنجيل برنابا هو ما قاله القرآن الكريم ﴿وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَكِنْ شُبِّهَ لَهُمْ﴾ [النساء: ١٥٧].

بشرى التوراة برسالة محمد ﷺ:

وكما بشر الإنجيل ببعثة النبي ﷺ فإن التوراة بشرت بها قبل ذلك:

١- جاء في حديث مُخَيَّرِيق النَّصْرِي الإسرائيلي، وكان من كبار علماء اليهود: ولمّا كان يوم غزوة أُحُد، وهو يوافق يوم السبت قال: (يا معشر اليهود، والله إنكم لتعلمون أن نضر محمد عليكم لحق، قالوا: فإن اليوم يوم السبت، قال: (لا سبت) ثم أخذ سلاحه في يوم السبت، وخرج حتى أتى النبي ﷺ في جبل أُحُد، وكان قد أوصى قومه إن قُتل في هذا اليوم، فمأله لمحمد ﷺ يصنع فيه ما أراه الله، وكان لِمُخَيَّرِيقِ حَدَاتِقِ سَبْع، ونخل كثير ... فقاتل حتى قُتل، فكان ﷺ يقول: مُخَيَّرِيقُ خَيْر يَهُود).

وقبض رسول الله أمواله وعقاراته، وكان معظم صدقاته في المدينة منها^(٣).

(١) نقله من إنجيل برنابا القس سيل في مقدمة ترجمته للقرآن، ومثله ترجمة الدكتور خليل سعادة، نشر: محمد رشيد رضا، وانظر ثمانني عشر بشارة عن كتب البروستانت في كتاب إظهار الحق للعلامة رحمت الله الهندي (١١١٥/٤-١٢١٣).

(٢) من الفصل (١١٢) من ترجمة الدكتور خليل سعادة.

(٣) ينظر: الوفا بأحوال المصطفى (١/١٠٣)، والشفاء للقاضي عياض (١/٣٦٣)، وسيرة ابن هشام (١/٥١٨).

٢- وكان لليهود بيت يتعلمون فيه، يقال له: بيت المدارس، فأتاه النبي ﷺ وقال: (اخرجوا إليّ أعلّمكم) فخرج إليه (عبد الله بن سوريا) وهو عالم من أحبارهم، وهو الذي أقرّ بوجود حكم الرجم للزاني المخضن في التوراة، سأله النبي ﷺ بمن أطعمهم المن والسلوى، وظللهم الغمام (أتعلم أنني رسول الله)؟ فقال: اللهم نعم، وإن القوم يعرفون ما أعرف، وإن صفتك ونعتك لمبيّن في التوراة، ولكنهم حسدوك، قال: (فما يمنعك أنت؟ قال: أكره خلاف قومي، عسى أن يتبعوك، ويُسلموا فأسلم)^(١).

وقد أسلم ابن سوريا بعد ذلك وشهد بنبوّة محمد ﷺ.

٣- قالت أم المؤمنين صفية رضي الله عنها - وكان هذا قبل أن تُسلم، ويتزوجها النبي ﷺ وهي بنت خُيّي بن أخطب، زعيم يهود بني النضير - (لما قدم النبي ﷺ المدينة ونزل قباء، ذهب إليه أبي وعمّي في وقت الغلس - أول النهار - فلم يزوجا إلا عند غروب الشمس، وأتيا مُتعبين يمشيان الهوينا، فهششتُ لهما، فلم يلتفت إليّ أحد منهما مع ما بهما من الهَمّ، فسمعتُ عمي يقول لأبي: أهو، هو - أي أهو محمد المبشّر به في التوراة؟- قال: نعم والله، قال: أثبتّه وتعرفه؟ قال: نعم، قال: فما في نفسك منه؟ قال: عداوته - والله- ما بقيت أبداً)^(٢).

ويكفي ما ينطق به القرآن الكريم ﴿الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْنُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ﴾

[الأعراف: ١٥٧].

وقوله سبحانه: ﴿الَّذِينَ آتَيْنَهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ وَإِنَّ فَرِيقًا مِنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ الْحَقَّ

وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ١٤٦].

ولما سئل عبد الله بن سلام عن هذه الآية قال: إني لأعرف أن محمداً رسول الله، عن طريق الوحي الإلهي القطعي، وهذا أشد من معرفتي لابني، فأنا لا أدري ماذا تفعل النساء؟

(١) الوفا (٩٢/١)، وابن هشام (٥٦٤/١).

(٢) ينظر: سيرة ابن هشام (٥١٨/١، ٣٣٦/٢)، والوفا (١٠٢/١)، والبداية والنهاية (٣٣٠/٣)، ودلائل النبوة

للبهقي (٥٣٣/٢)، وللأصبهاني (٨٩/١) برقم (٣٧).

من أسماء النبي ﷺ:

أما كون النبي ﷺ اسمه (أحمد) فهذا أحد أسمائه ﷺ بمعنى أنه المحمود كثيراً، والذي يحمدُه الناس كلهم، فهو ذو ذِكرٍ محمود، وسُنةٌ محمودة، ويبعثه الله يوم القيامة مقاماً محموداً، وفي الحديث «أنا حامل لواء الحمد يوم القيامة»^(١).
وقد ذُكر النبي ﷺ هنا باسمه (أحمد) وذكر باسمه (محمد) في سور: محمد والفتح والأحزاب.

وذكر رب العالمين عدداً من صفات النبي ﷺ في قوله تعالى ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [التوبة: ١٢٨].
وفي حديث جُبَيْر بن مُطْعِم عن أبيه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إن لي أسماء: أنا محمد، وأنا أحمد، وأنا الماحي، الذي يمحو الله به الكفر، وأنا الحاشر الذي يُحشر الناس على قدمي، وأنا العاقب الذي ليس بعده نبي»^(٢).
وعن أبي موسى ؓ قال: سَمَى لنا رسول الله ﷺ نفسه أسماء، منها ما حفظنا فقال: «أنا محمد، وأحمد، والمقفّي، والحاشر، ونبي التوبة، ونبي الرحمة، والملحمة»^(٣).
موقف بني إسرائيل من دعوة محمد ﷺ:

ثم ختم الله تعالى الآية بقوله ﴿فَلَمَّا جَاءَهُمْ﴾ محمد الذي بشر به عيسى ﴿إِلَّا يَنفَرُوا﴾ أي: الأدلة الواضحة الدالة على أنه هو، وأنه رسول الله حقاً ﴿قَالُوا﴾ معاندين للحق مكذّبين له ﴿هَذَا سِحْرٌ مُّيْنٌ﴾ وبما أن الضمير يعود على أقرب مذكور وهو في الآية (أحمد) ﷺ فيكون المعنى: فلما جاءهم محمد ﷺ بالآيات الواضحات الدالة على صدق دعواه،

(١) المصادر السابقة.

(٢) صحيح البخاري برقم (٤٨٩٦، ٣٥٣٢)، وصحيح مسلم برقم (٢٣٥٤)، والدارمي (٣١٧/٢)، والترمذي (٢٨٤٠)، والنسائي في السنن الكبرى (١١٥٩٠)، ومالك مراسلاً (١٠٠٤/٢).

(٣) مسند الطيالسي عن جبير بن مطعم بنحوه برقم: ٤٩٢ قال محققه: حديث صحيح، وهو في صحيح مسلم برقم (٢٣٥٥)، ومسند أحمد (١٩٥٢٥) بإسناد صحيح، وابن أبي شيبة (٤٥٧/١١).

اتهموه بالسحر البين، ولما جاء محمد ﷺ إلى أهل الكتاب، بأوصافه التي عرفوها في كتبهم كفروا به، فلعنة الله على الكافرين.

ومن العجب أن يقال عن الرسول الذي بشرت به كتبهم وعُلِمَ صدقه يقيناً أنه ساحر!!
ويصح أن يعود الضمير على عيسى عليه السلام لأنه المتحدّث عنه في الآية، وقد جاء عيسى قومه بالمعجزات الظاهرات على يديه: كإحياء الموتى، وإبراء الأكمه والأبرص بإذن الله، ومع ذلك فقد قالوا عن هذه المعجزات إنها سحر ولم يصدقوه.
ولقد وقف بنو إسرائيل في وجه الدين الجديد دعوة محمد ﷺ وقفة العداء والكيد والتضليل، وحاربوه بشتى الوسائل والطرق حرباً شعواء، ولم تضع الحرب أوزارها حتى اليوم، فقد قالوا عن الإسلام: إنه سحر مبين، وحاربوه بالدس والوقعة، بين طوائف المسلمين لتفتيت وحدتهم، وتمزيق صفهم، وحاربوه بالتآمر مع غيرهم، لضرب الإسلام في مقتل، حاربوه بترويج الإشاعات الباطلة على الإسلام للنيل منه، وهي حرب مستمرة.

وهكذا، دأبت الصهيونية العالمية، والصليبية الماكرة على الكيد للإسلام وأهله، في كل جيل من الأجيال: في الحروب الصليبية في المشرق، وفي الأندلس بالمغرب، وقوّضوا الخلافة العثمانية في الوسط.
وها نحن نعيش عصر الانتفاضة في القدس لمقاومة الاحتلال الإسرائيلي الذي مضى عليه ستون عاماً.

ونعيش عصر التسلط على حريات الشعوب في منع امتلاكهم قوى حربية ونووية، يدافعون بها عن أنفسهم، فهي تجوز لإسرائيل ولا تجوز لغيرهم.

ونعيش عصر استجواب العلماء والحكام في امتلاك ذلك وتصنيعه..

ونعيش عصراً يسمى فيه الدفاع عن النفس والدين والوطن، إرهاباً!

يا له من عصر انفرد فيه قوم عاد بالقوة المادية والعسكرية.

وأن من لم يكن معهم فهو ضدهم،، وسنّوا قانوناً للعقوبات لمن يعادون السامية.

أما من يسخرون من سيد الأنبياء والمرسلين فإن هذا من باب حرية الرأي والصحافة يجب حمايتهم والتعطف معهم؟! وفضلاً عن ذلك فقد تجسسوا على أموال الشعوب وحررياتهم، وتدخلوا في شؤونهم الداخلية، وأحلوا لأنفسهم ما حرموه على غيرهم!!

أَظْلَمُ النَّاسِ مَنْ كَذَّبَ رَسُولَ مُحَمَّدٍ ﷺ

٧- ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُوَ يُدْعَى إِلَى الْإِسْلَامِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴿٧﴾﴾

ولما كانت دعوة عيسى ومحمد، دعوة واحدة، وكان جواب القوم عليهما واحداً، أفرد الله تعالى رسالة محمد ﷺ بالذكر، فشنع جل شأنه على من كذب برسالة محمد ﷺ وبين أنهم أظلم الناس، ولا يوجد من هو أظلم منهم، فقال تعالى: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ﴾ أي لا أحد أشد ظلماً وعدواناً ممن اختلق على الله الكذب، وجعل له شركاء في عبادته، ولا أحد أقبح ظلماً ممن يدعو ربه إلى الإسلام، على لسان نبيه ﷺ فيجعل مكان إجابته للدعوة، افتراء الكذب على الله، فيسمى نبيه ساحراً، ويسمى كتابه سحراً. فالمراد بالتكذيب في الآية هو تكذيب دعوة النبي ﷺ وتكذيب رسول الله ﷺ تكذيب لله عز وجل ﷻ:

- ١ - وهؤلاء قد ظلموا الرسول بقولهم: هو ساحر أو كاهن أو شاعر.
- ٢ - وظلموا أنفسهم، حيث لم يسلكوا طريق النجاة، وأعرضوا عن النظر الصحيح في صدق نبوة محمد ﷺ.
- ٣ - وظلموا ربهم حين سئوا هدى الله وآياته سحراً أو شعراً أو كهانة.
- ٤ - وظلموا الناس بحملهم على التكذيب، وإخفاء ما جاءت به التوراة والإنجيل من صدق النبي ﷺ.

ولا يزال هؤلاء على ظلمهم مستقيمين عليه، لا تردهم عنه موعظة، ولا يزرهم عنه برهان، فهم يردون الحق وينصرون الباطل.

فافتراؤهم الكذب على الله تعالى، لأنهم كذبوا رسوله ﷺ وهو يقول لهم: إنه مرسل

من عند الله، وهم يعلمون صدقه كما في كتبهم ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَتَبَ شَهَادَةً عِنْدَهُ مِنْ اللَّهِ﴾ [البقرة: ١٤٠] ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِذْ قَالُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَى بَشَرٍ مِنْ شَيْءٍ قُلْ مَنْ أَنْزَلَ الْكِتَابَ الَّذِي جَاءَ بِهِ مُوسَى نُورًا وَهَدًى لِلنَّاسِ﴾ [الأنعام: ٩١].

فقد عليم من افتري على الله الكذب، أن ما جاء به محمد ﷺ حق وصدق من عند الله، فكذبه وأعرض عنه.

فلا أحد أعظم ظلماً ممن يكذب محمداً ﷺ ﴿وَهُوَ يُدْعَى إِلَى﴾ الدخول في ﴿الْإِسْلَامِ﴾ وإخلاص العبادة لله وحده.

لقد عرف المسلم ربه بعقله بعد النظر في الأنفس والآفاق، فإذا كان كتاب محمد ﷺ لا يصلح دليلاً على رسالته، فلن يصح في الأذهان شيء، ولن تصدق رسالة بشر. على أن العقل لا يقبل أن يزعم شخص أنه نبي يدعو الناس إلى الدخول في الإسلام وهو يفترى الكذب على ربه، فما أقبح قولهم!

والله تعالى لا يوفق الذين ظلموا أنفسهم بالكفر والشرك والتكذيب إلى مافيه فلاحهم وسعادتهم ﴿وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ وهؤلاء الذين كذبوا محمداً ﷺ من جملتهم. وفي الآية بيان أن موسى وعيسى أمرا بالتوحيد، وجاهدا في سبيل الله، وأن العقاب قد حل بمن خالفهما، لتحذر أمة محمد ﷺ أن يفعلوا مع نبيهم كما فعل قوم موسى وعيسى مع نبيهما.

الْمُسْتَقْبَلُ لِلْإِسْلَامِ إِنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى

٨- ﴿يُرِيدُونَ لِيُطْفِئُوا^(١) نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَاللَّهُ مُتِمُّ^(٢) نُورِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ ﴿٨﴾﴾

(١) قرأ أبو جعفر بحذف الهمزة وضم الفاء من (ليطفثوا) ومثله حمزة عند الوقف، مع جواز إبدال الهمزة ياء وتسهيلها بين يين.

(٢) قرأ ابن كثير وحفص وحمزة والكسائي وخلف بعدم التنوين في ﴿مُتِمُّ﴾ وخفص ﴿نُورِهِ﴾ على الإضافة، والباقون بتنوين ﴿مُتِمُّ﴾ ونصب ﴿نُورِهِ﴾ على أنه مفعول ﴿مُتِمُّ﴾.

وهؤلاء الظالمون لأنفسهم ولغيرهم، يريدون أن يُطلوا الحق بأقوالهم الكاذبة، وهو القرآن الذي بُعث به محمد ﷺ فهم ﴿يُرِيدُونَ لِيُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَقْوَامِهِمْ﴾ أي يريد هؤلاء الكافرون المشركون أن يَقْضُوا على دين الإسلام، وَيَطْمِسُوا شرعه وتعاليمه التي جاء بها هذا القرآن عن طريق أقاويلهم الباطلة الخارجة من أفواههم، وهي أقوال فاسدة يردون بها الحق، دون أن يكون لها مصداق من الوقائع.

وقد شَبَّه حالهم بحال من ينفخ في نور الشمس فيه ليطفئه.^(١)

قال تعالى: ﴿وَاللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ﴾ أي والله تعالى مظهر دين الإسلام بآتمامه وانتشاره في الآفاق، ولو كره ذلك الجاحدون والمبطلون، أي أن دين الإسلام سوف ينتشر في المشارق والمغارب، وسوف يُعَزِّز الله هذا الدين رغم أنف الكافرين، وسوف يذلهم بإظهار ما يكرهون من الحق، وكراهيتهم لا أثر لها.

وإنَّ شيئاً تولى الله فعله لا يستطيع أحد أن يزيله، فلا يزال هذا الدين في ازدياد مستمر، حتى يتم المراد بمشيئة الله تعالى.

وهذا بخلاف دين عيسى عليه السلام فقد ناله من القمع والخفت في أول أمره ما ناله، واستمرَّ زماناً طويلاً حتى تنصَّر قُسطنطين سلطان الروم، فانتشرت النصرانية على يديه، بعدما ناله من التحريف والتغيير ما ناله.

وقد أنجز الله وعده، وظهر هذا الدين في العالمين، وإن عرضت له عوارض من آثار تفريط بعض المسلمين في إقامة الدين، وعدم الأخذ بأسباب النصر المادية والمعنوية على الوجه المطلوب، فغلبت عليهم أمم، والعاقبة أولاً وآخرًا للإسلام وأهله بمشيئة الله تعالى، جاء في الحديث عن ثوبان أن رسول الله ﷺ قال: «إن الله زوى لي الأرض، فرأيت مشارقها ومغاربها، وإن ملك أمتي سيبلغ ما زوى لي منها»^(٢). قال تعالى:

(١) التفسير الكبير (٣١٤/٢٩).

(٢) جزء من حديث في صحيح مسلم برقم (٢٨٨٩).

٩- ﴿هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ ۚ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ ﴿٩﴾﴾

ثم إن محمداً ﷺ لم يأت للناس يدعوهم إلى الله سبحانه من قبل نفسه، بل إن الله تعالى هو الذي أرسله وحدد له المنهج ﴿هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ ﷺ﴾ محمد ﷺ ﴿بِالْهُدَىٰ﴾ وهو القرآن ﴿وَدِينِ الْحَقِّ﴾ وهو الإسلام جاء بالعلم النافع والعمل الصالح، فالعلم يهدي إلى جنة الله ورضوانه ودين الحق الذي يتعبد به العباد لربهم، وهو دين لا نقص فيه ولا خلل ﴿لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ﴾ أي ليُعْلِي هذا الدين على كل الأديان المخالفة له بالحجة والبرهان والسيف والسنان، ولابد للقائمين بهذا الدين أن يهتدوا بهديه، ويستنبطوا بنوره، في جميع شؤونهم الدينية والدنيوية، وإلا فإن مجرد الانتساب إلى هذا الدين مع التقصير والإهمال لا يفيد شيئاً، وإظهار هذا الدين مع القيام به يكون بإذن الله ﴿وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ﴾ ذلك.

وفي هذا تأكيد لأمر الرسالة وشد لأزرها، فمن يقدر على معارضته فليعارض!!

التَّجَارَةُ الرَّابِحَةُ فِي الْإِيمَانِ وَالْجِهَادِ

١٠- ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ تَجَرَّةٍ تَنْجِيكُمْ^(١) مِنْ عَذَابِ أَلِيمٍ ﴿١٠﴾﴾

وكما ابتدأت السورة بالحديث عن الجهاد، فقد خُتِمت بالحديث عن الجهاد أيضاً، بعد أن ضربت له الأمثال، وعَتَقَتْ من يكذب دين الله، وبينت أنه سبحانه مُعْلِي دينه ومظهره على سائر الأديان، بحيث لا يبقى موضع في الأرض فيه دين غير الإسلام، وهذا يتم عند نزول عيسى عليه السلام كما قال أبوهريرة ومجاهد^(٢).

ثم أجاب الله تعالى في هذه الآية، الذين سألوا - في أول السورة - عن أحب الأعمال إلى الله تعالى، فبيّن جل شأنه أن الحياة الرابحة إيمان وجهاد، وأن شأن المؤمن أن يكون مستعداً في كل وقت وفي كل موطن، لنصرة الإسلام وإعلاء كلمته، إنه يعيش

(١) قرأ ابن عامر ﴿تُجِيكُمْ﴾ بفتح النون وتشديد الجيم، والباقون بإسكان النون وتخفيف الجيم.

(٢) تفسير ابن عطية (٣٠٤/٥).

في الحياة مُضْغِي السَّمْع، فإذا بلغته صِيْحَةٌ تدعو إلى الله تعالى هرع إليها، ولَبَّى: حيّ على الجهاد، فيرجع صده، كما يجيب صوت المؤذن، وهو يشق الأجواء داعياً إلى الصلاة والفلاح.

وقد سمى الله تعالى هذا العمل تجارة مع الله سبحانه، لأن المؤمن بالله، المجاهد في سبيل الله، قد ربح رضوان الله تعالى وجنته، وفاز بالنجاة من النار، فإذا كان المشركون والكافرون يريدون أن يطفئوا نور الله، فإن المؤمنين يجاهدون أعداء الله بالنفس والمال. قال عثمان بن مظعون: وددت يا نبي الله أن أعلم، أي التجارات أحب إلى الله تعالى، فأتجر فيها، فأنزل الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ أي يا من صدقوا الله وآمنوا به حق الإيمان، واتبعوا رسوله وعملوا بهديه، وآمنوا بالله وملائكته وكتبه ورسله ﴿هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ تِجَارَةٍ﴾ هل أرشدكم إلى تجارة رابحة جليلة الشأن، وهذه التجارة ﴿تُجِيزُكُمْ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ أي إنكم إن زاولتم هذه التجارة وباشرتموها فإنها تنجيكم من عذاب شديد الألم. وفي هذه الآية وصية من الله تعالى لعباده أن يقوموا بأعظم تجارة معه سبحانه عن طريق الإيمان بالله ورسوله والجهاد في سبيل الله، فإن في هذا، النجاة من النار والفوز بالنعيم المقيم.

وقد فسر سبحانه هذه التجارة ووضحها، فذكر أنها تجمع بين الإيمان بالله ورسوله، والجهاد في سبيل الله ببذل النفس والمال. فقال تعالى:

١١ - ﴿تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١١﴾﴾

أي تداومون مداومة كاملة على الإيمان ﴿بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾ إيماناً صادقاً لا يشوبه شك ولا نفاق والإيمان التام هو التصديق القلبي الجازم بما أمر الله به، وظهور ذلك على اللسان وسائر الجوارح ﴿وَتُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ أعداء الله لنصرة دينه وإعلاء كلمته، بأن تبذلوا نفوسكم ومهجكم لقمع أعداء الله ونصر دينه ﴿بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ﴾ وقُدِّم الجهاد بالمال هنا على الجهاد بالنفس، لأن المقام مقام مربحة ومعاوضة، وبالأموال تُشترى الأسلحة

والمعدات، ويجهّز الجيش.

وقد كان المجاهد قديماً يجهز نفسه بالسلاح والعدة والعتاد واللباس والطعام والشراب. وأصبحت الدولة في الوقت الحاضر هي التي تُعدّ الجندي وتجهزه للقتال، ولكن قد تُعجز الدولة عن هذا لفقرها، وقوة عدوّها، وحينئذ فلا غنى عن الجهاد بالمال لدعم الأفراد والجماعات المسلمة، ولذا: جاء في الحديث عن زيد بن خالد الجهني رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «من جهز غازياً في سبيل الله فقد غزا، ومن خلف غازياً في أهله بخير فقد غزا»^(١).

وجاء في حديث أنس رضي الله عنه مرفوعاً: «جاهدوا المشركين بأنفسكم وأموالكم وألستكم»^(٢). وقد يجاهد بالمال من لا يستطيع الجهاد بالنفس.

وحقيقة الجهاد: بذل الجهد والطاقة، وفي الحديث عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «من مات ولم يغز، ولم يحدث به نفسه مات على شعبة من نفاق»^(٣).

أما المعاوضة في هذه التجارة، فالثمن هو الجنة، وإذا كانت النفس أعزّ ما يملكه الإنسان، فإن الجنة هي أعز ما يهبه الله للإنسان، وأسمى ما تتطلع إليه النفوس ﴿إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنْ لَهُمُ الْجَنَّةُ يُقَرِّبُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعَدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ وَالْفُرْقَانِ وَمَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ فَاسْتَبِشِرُوا بِيَعِّكُمْ الَّذِي بَايَعْتُمْ بِهِ وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ [التوبة: ١١١].

قال الفخر الرازي: والجهاد ثلاثة أنواع:

١ - جهاد فيما بينه وبين نفسه، وهو قهر النفس ومنعها عن اللذات والشهوات.

(١) صحيح مسلم برقم (١٨٩٥)، وصحيح البخاري (٢٨٤٣).

(٢) أبوداود (٢٥٠٤)، والمسند (١٣٦٣٨، ١٢٢٤٦) بإسناد صحيح على شرط الشيخين، وابن حبان (٤٧٠٨)

وسنن النسائي الكبرى (٤٢٨٩)، وصحيح سنن أبي داود (٢١٨٦)، والحاكم (٨١/٢)، والنسائي (٣٠٩٦)،

(٣١٩٢)، والدارمي (٢٤٣١)، والضياء في المختارة (١٩٠٥).

(٣) صحيح مسلم برقم (١٩١٠).

٢- وجهاد فيما بينه وبين الخلق، وهو أن يدع الطمع منهم ويشفق عليهم ويرحمهم.

٣- وجهاد أعداء الله بالنفس والمال نصرة لدين الله ^(١).

ثم ختم الله الآية بقوله: ﴿ذَلِكَ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ أي هذا الذي أرشدناكم إليه من التجارة الرباحة خير لكم من مختلف التجارات في الدنيا، وخير من الدنيا وما فيها، فإن في الجهاد النصر على العدو، ودفع الذل عن النفس، وفيه الفوز بالأجر العظيم ﴿إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ الضار من النافع، والخير من الشر، فامثلوا ذلك، ومن يخالف أمر الله تعالى فليس من أهل الإدراك في شيء، ومن فاتته هذه الصفقة الرباحة، فهو خاسر لا محالة، كما قال تعالى: ﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الضَّلَالَةَ بِالْهُدَىٰ فَمَا رَبِحَتْ تِجَارَتُهُمْ وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ﴾ [البقرة: ١٦].

وفي الحديث عن أبي مالك الأشعري رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال في نهاية حديث الطهور شطر الإيمان: «كل الناس يغدوا فبائع نفسه فمعتقها أو موبقها» ^(٢).

فهي تجارة مع الله، إيماناً بالله ورسوله، وجهاداً بالمال والنفس والعمل الصالح، ومن ذا الذي لا يشاق إلى هذه التجارة، وهي أربح تجارة في الدنيا والآخرة.

لقد تمت هذه البيعة بين رسول الله ﷺ وبين عبد الله بن رواحة، حين قال ابن رواحة للنبي ﷺ: اشترط لربك ولنفسك ما شئت، فقال ﷺ: «أشترط لربي أن تعبدوه ولا تشركوا به شيئاً، وأشترط لنفسي أن تمنعوني مما تمنعون منه أنفسكم وأموالكم» قال: فمالنا إذا فعلنا ذلك؟ قال: «الجنة» قالوا: ربح البيع، لا نقيلاً ولا نستقيلاً ^(٣).

جَزَاءُ التِّجَارَةِ الرَّابِحَةِ، سِتَّةُ أُمُورٍ

١٢، ١٣- ﴿يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَيُدْخِلْكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَمَسْكِنٌ طَيِّبٌ فِي جَنَّاتٍ عَدْنٍ ذَلِكَ

(١) التفسير الكبير (٢٩/٣١٦).

(٢) حديث صحيح، رجاله ثقات في المسند (٢٢٩٠٢)، وابن أبي شيبة (٦/١)، ومسلم (٢٢٣)، والترمذي

(٣٥١٧)، والنسائي في عمل اليوم والليلة (١٦٨)، وابن ماجه (٢٨٠)، والطبراني في الكبير (٣٤٢٤)،

والبيهقي في السنن (٤٢/١).

(٣) عبد الرزاق (٢/٢٩٠).

الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿١٢﴾ وَأُخْرَىٰ تُحِبُّونَهَا نَصْرٌ مِّنَ اللَّهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ وَبَشِيرٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٣﴾

يُبين سبحانه وتعالى أن ثمن هذه المبايعة مع الله تعالى للنفس والمال، ستة أمور هي: غفران الذنوب، ودخول الجنات، والقصور العالية فيها، والنصر على العدو، والفتح العاجل، ويشري المؤمنين.

أولاً: قال تعالى: ﴿يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ﴾ أي إنكم إن فعلتم ما أمركم الله به - أيها المؤمنون - من الإيمان بالله تعالى، والجهاد في سبيله بالنفس والمال، فإنه يستر عليكم عيوبكم، ويتجاوز عن سيئاتكم، فيزيل ذنوبكم ويبدلها حسنات، وهذه المغفرة تشمل صغائر الذنوب وكبائرها، فإن الجهاد في سبيل الله مكفر لجميع الذنوب إلا حقوق العباد، فقد استثنى النبي ﷺ ذلك حين قال «يغفر للشهيد كل ذنب إلا الدين هكذا قال لي جبريل آنفاً».

ثانياً: ﴿وَيَدْخُلُوكُمْ حَتَّىٰ تَبْغَىٰ مِنْ حَتَّىٰ الْأَنْهَارِ﴾ أي تجري هذه الأنهار من تحت قصور الجنات وأشجارها في الحدائق والبساتين، والغرف، وهي أنهار من ماء غير آسن وأنهار من لم يتغير طعمه وأنهار من خمر لذة للشاربين، وأنهار من عسل مصفى، ولهم فيها من كل الثمرات.

ثالثاً: ﴿وَسَكَنٌ طَيِّبٌ فِي حَتَّىٰ عَدْنٍ﴾ أي ويسكنكم في مساكن عالية، وقصور فخمة، مشتملة على كل ما هو طيب ونافع، فهي مساكن طاهرة زكية في دار إقامة دائمة، لا تحول ولا تزول، وقد جمعت هذه الجنات كل طيب، من علو وارتفاع، وحسن بناء وزخرفة، بعضها من ذهب وبعضها من فضة، وخيامها من اللؤلؤ والمرجان، وبعض منازلها من الزمرد والجواهر، ومن صفاء بناء الجنة أنه يرى ظاهرها من باطنها، وباطنها من ظاهرها، وفيها ما لا يخطر على قلب أحد من العالمين. وسميت جنة عدن: لأن أهلها مقيمون فيها لا يخرجون منها ولا يبغون عنها حولاً.

وأهل الجنة يتراءون فيها كما يتراءى الكوكب الدري في الأفق.

وُخِصَّت المساكن بالذكر من بين نعيم الجنة: لأن المجاهدين قد فارقوا مساكنهم عندما خرجوا للجهاد، ومنهم من استشهد بعيداً عن وطنه وفيها أهله وماله، فوعدهم الله

تعالى في الآخرة بما هو خير منها ﴿قَدْ إِنْ كَانَ ءَابَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسْكَنٌ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُمْ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرٍ﴾ [التوبة: ٢٤].

ثم بين سبحانه أن ما وعد الله به المؤمنين المجاهدين في سبيله من مغفرة الذنوب، ودخول الجنات، وسكنى القصور العالية، هو الفوز الذي ما بعده فوز، فقال تعالى: ﴿ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ إنه السعادة الدائمة التي لا تدانيها سعادة، هذا هو الثواب الأخروي، فماذا عن الثواب الدنيوي لهذه التجارة.

رابعاً: ﴿وَأُخْرَى تُحِبُّونَهَا﴾ ونعمة أخرى عاجلة في الدنيا سوى ما تقدم، يعطيكم الله إياها، ونفوسكم تتطلع إليها وهي ﴿نَصْرٌ مِّنَ اللَّهِ﴾ يأتيكم في الدنيا يحصل به العز والفرح إذا قاتلتم في سبيله ونصرتُم دينه، فإن الله تعالى يتكفل بنصركم، كما قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنْ نَصَرُوا اللَّهَ يَنْصُرْكُمْ وَلَيَبَيِّنَنَّ ءَاقِبَاتُكُمْ﴾ [محمد: ٧].

وقال سبحانه: ﴿وَلَيَنْصُرَنَّكُمُ اللَّهُ مَن يَنْصُرْهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ [الحج: ٤٠].
خامساً: ﴿وَفَتْحٌ قَرِيبٌ﴾ وبالإضافة إلى هذا النصر الموعود به على مدى التاريخ، فقد وعد الله المؤمنين فتحاً قريباً عاجلاً في الدنيا قبل نعيم الآخرة، تتسع به دائرة الإسلام ويحصل به الرزق الواسع.

والنصر المذكور في هذه الآية أعده الله للمجاهدين في سبيله، فقد تقدم التحريض عليه في آية الإيمان والجهاد، وهو أيضاً نصر دين الله بالثبات عليه وانتشاره في الآفاق. وهو يشبه نصر الحواريين لدين الله تعالى.

سادساً: ﴿وَيَبْشِرُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ ثم أمر الله رسوله أن يبشر المؤمنين بصفة عامة بالنصر القريب والفتح المبين في الدنيا، وبالجنة في الآخرة، وهذه بشرى عامة لسائر المؤمنين غير المجاهدين في سبيل الله، فقد وعدهم الله بالثواب العاجل والآجل، كل على حسب إيمانه، وإن لم يبلغوا مبلغ المجاهدين في سبيل الله. ففي الحديث «من رضي بالله رباً

وبالإسلام ديناً وبمحمد ﷺ رسولاً وجبت له الجنة» فعجب لها أبو سعيد الخدري - راوي الحديث - فقال: أعدها عليّ يا رسول الله، فأعادها عليه ثم قال: «وأخرى يرفع الله بها العبد مئة درجة في الجنة، ما بين كل درجتين كما بين السماء والأرض» فقال: وما هي يا رسول الله؟ قال: «الجهاد في سبيل الله، الجهاد في سبيل الله»^(١).

حَتُّ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى الْإِنْتِصَارِ لِدِينِ اللَّهِ وَالثَّبَاتِ عَلَيْهِ

١٤ - ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا أَنْصَارَ^(٢) اللَّهِ كَمَا قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ لِّلْحَوَارِيِّينَ مَنْ أَنْصَارِي^(٣) إِلَى اللَّهِ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنْصَارُ اللَّهِ فَتَأَمَّتْ طَائِفَةٌ مِّنْ بَنِي إِسْرَءِيلَ وَكَفَرَتْ طَائِفَةٌ فَأَيَّدْنَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَىٰ عُدُوِّهِمْ فَأَصْبَحُوا ظَاهِرِينَ ﴿١٤﴾﴾

وبعد أن أمر الله تعالى عباده المؤمنين بنصر دينه عن طريق الجهاد في سبيله، ووعدهم النصر على عدوهم، أمرهم ثانياً أن ينصروا دين الله تعالى بالثبات عليه، وعدم الاكتراث بما يصيبهم من أذى في سبيل الدعوة إلى الله تعالى، وهذا هو وجه الشبه بنصر الحواريين لدين الله الذي جاء به عيسى عليه السلام، فإن الحواريين نصرُوا دعوة عيسى عليه السلام بالصبر والمصابرة والثبات، ولم يجاهدوا عدوياً لهم.

قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ يا من صدقتم بالله رباً، وإلهاً معبوداً واحداً، واتبعتم رسول الله ﷺ ﴿كُونُوا أَنْصَارَ اللَّهِ﴾ أي كونوا أنصاراً لدين الله بإعلاء كلمته ونشر دعوته وبثها في الآفاق بالأقوال والأفعال، وجهاد من حارب الدعوة، ومن نصر الباطل.

﴿كَمَا قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ لِّلْحَوَارِيِّينَ﴾ عندما رأى اليهود يرتابون في دعوته وينصرفون عنه،

(١) رواه مسلم برقم (١٨٨٤، ١١٦)، وسعيد بن منصور (٢٣٠١)، والبيهقي (٢٦١١)، والنسائي في الكبرى (٩٨٣٤).

(٢) قرأ نافع وابن كثير وأبو عمرو وأبو جعفر بتنوين (أنصاراً) و (الله) بلام الجر، والباقون بعدم تنوين ﴿أَنْصَارَ﴾ وإضافتها إلى اسم الجلالة (الله) بدون لام الجر.

(٣) قرأ نافع وأبو جعفر بفتح ياء الإضافة من ﴿أَنْصَارِي إِلَى اللَّهِ﴾ والباقون بإسكانها.

فصاح قائلاً لتلاميذه: ﴿مَنْ أَنْصَارِي إِلَى اللَّهِ﴾ أي من يتولى منكم نصري وإعانتِي فيما يُقَرَّب إلى الله تعالى؟

وهذا ينطبق على كل مسلم ينصر الحق، ويؤنس وحشته، ويرفع رايته من أهل الرسالة، ويساهم في قيامها ونشرها وبقائها، ويقوم بواجبه تجاه نصر دين الله تعالى.

والمعنى: انصروا دين الله - أيها المسلمون - كما نصر الحواريون دين الله تعالى حين قال لهم عيسى: مَنْ أَنْصَارِي إِلَى اللَّهِ؟ فكونوا كذلك عندما يدعوكم الإسلام إلى نشره في الآفاق، وتحمل الأذى في سبيله، كما فعل الحواريون مع عيسى ﷺ فاستجابوا له وتحملوا الابتلاء في النفس والمال، كما قال تعالى: ﴿لَتَبْلُوكُمْ فِي أَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا أَذًى كَثِيرًا وَإِنْ تَصَبَرُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ﴾ [آل عمران: ١٨٦].

وهكذا فقد استجاب الحواريون لدعوة نبيهم عيسى ﷺ ﴿قَالَ الْخَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنْصَارُ اللَّهِ﴾ أي نحن على استعداد لبذل أنفسنا وأموالنا في سبيل تبليغ الدعوة من أجل إعلاء كلمة الله تعالى، وقد مضى عيسى عليه السلام، ينفذ أوامر الله تعالى وينصر دينه هو ومن معه من الحواريين.

وحواريُّوا عيسى كأصحاب محمد، والحواري: هو الصاحب الصفي والخلّ الوفي، وهي كلمة حبشية معربة، وقد أُطلق هذا اللفظ على أصحاب عيسى الاثني عشر، وهم أول من آمن به.

وقد سَمَّى النبي ﷺ الزبير بن العوام: حواريُّه، فقال: «لكل نبي حواري والزُّبَيْر حَوَارِيٌّ وابن عَمَتِي»^(١) وعمته صفية بنت عبدالمطلب.

(١) من حديث عبدالله بن الزبير في المسند (١٦١١٣) قال محققوه: حديث صحيح، ورواه البزار (٢٥٩٨ زوائد)، وابن أبي عاصم في السنة (١٣٩٢)، وجاء عن علي بإسناد حسن في المسند أيضاً (٦٨٠، ٦٨١) لأن فيه عاصم بن أبي النجود، وأخرجه الترمذي (٣٧٤٤)، وابن أبي شيبة (٩٣ / ١٢)، وابن أبي عاصم (١٣٨٩).

وهذا على التشبيه بحواري عيسى عليه السلام، وكان عيسى ﷺ يرسل هؤلاء الحواريين دعاة إلى الناس في بلاد الشام.

وهكذا كان النبي ﷺ يتلمس في موسم الحج من يبلغ الناس رسالة ربه، فيقول: «من رَجُل يؤويني حتى أبلغ رسالة ربي، فإن قريشاً قد منعوني أن أبلغ رسالة ربي» فقيض الله له الأوس والخزرج من المدينة فبايعوه وآزروه، واشتروا على أنفسهم أن يمنعوه من الأسود والأحمر، إن هو هاجر إليهم، فوقوا بعهدهم معه، وسماهم الله أنصاراً. عن عبد الله بن أبي بكر بن محمد بن عمرو بن حزم قال: قال رسول الله ﷺ للنفر الذين لقوه بالعقبة: «أخرجوا إلي اثني عشر منكم، يكونون كفلاء على قومهم، كما كفلت الحواريون لعيسى ابن مريم»^(١).

وعن محمود بن لبيد قال: قال رسول الله ﷺ للنقباء: «إنكم كفلاء على قومكم ككفالة الحواريين لعيسى ابن مريم، وأنا كفيل قومي، قالوا: نعم»^(٢). قال قتادة: والحواريون - يعني في هذه الأمة - كلهم من قريش: أبوبكر، وعمر، وعلي، وحمزة، وجعفر، وأبو عبيدة بن الجراح، وعثمان بن مظعون، وعبد الرحمن بن عوف، وسعد بن أبي وقاص، وعثمان بن عفان، وطلحة بن عبيد الله، والزبير بن العوام^(٣). ثم إن بني إسرائيل بالنسبة لدعوة عيسى عليه السلام افترقوا على طائفتين: طائفة آمنت بعيسى وبما جاء به من عند ربه، وطائفة كفرت به وبرسالته.

والطائفة التي آمنت هي التي نصرته دعوته وصبرته وصابرت عليها، والذين استجابوا

(١) سيرة ابن هشام (٩٢/٢)، وطبقات ابن سعد (٢٢٢/١)، وابن إسحاق (٤٤٦/١)، وانظر حديث كعب بن مالك في المسند برقم (١٥٧٩٨) بنحوه في آخره من حديث قوى، إسناده حسن، لأن فيه ابن إسحاق وقد صرح بالسماع، وهو حديث طويل جداً، أخرجه ابن حبان (٧٠١١)، والطبراني في الكبير (١٧٥/١٩)، والحاكم (٤٤١/٣) مختصراً وغيرهم.

(٢) طبقات ابن سعد (٢٢٢/١).

(٣) أخرجه عبد الرزاق (٢٩٠/٢)، وعبد بن حميد وابن المنذر كما قال السيوطي في الدر (٤٥٠/١٤).

لعيسى عليه السلام عدد قليل.

جاء في إنجيل لوقا: أن أتباع عيسى ﷺ كانوا أكثر من سبعين.

ذلكم قوله تعالى ﴿فَأَمَّنَتْ طَائِفَةٌ مِّنْ بَنِي إِسْرَءِيلَ﴾ أي أن جماعة منهم صدقت بدعوته

واهتدت بهديه.

طوائف النصارى:

﴿وَكَفَرَتْ طَائِفَةٌ﴾ قال قتادة: والطائفة الكافرة ثلاث فرق: اليعقوبية، وهم الذين قالوا:

عيسى هو الله، والإسرائيلية - الملكانية - وهم الذين قالوا: عيسى ابن الله، والنسطورية، وهم الذين قالوا بأن عيسى إله، وأمه إله، والله ثالثهما^(١). تعالى الله عما يقولون علواً كبيراً.

وذلك أنه لما رُفع عيسى عليه السلام تفرق قومه ثلاث فرق: فرقة قالوا: كان الله

فارتفع، وفرقة قالوا: كان ابن الله فرفعه، وفرقة قالوا: كان عبد الله ورسوله، فرفعه، وهم المؤمنون، واتبع كل فرقة منهم طائفة من الناس^(٢)...

وجاء عن سعيد بن جبير عن ابن عباس رضي الله عنهما أن الله تعالى لما أراد أن يرفع عيسى إلى السماء بعد أن تأمر اليهود على قتله وصلبه خرج إلى أصحابه الاثني عشر، وقال لهم: أيكم يُلقَى عليه شبهي فيُقتل مكاني، ويكون معي في درجتي؟ فقام شاب من أحدثهم سناً فقال: أنا، فقال له: اجلس، ثم كرر ذلك ثلاث مرات، والشاب يقول: أنا، فقال عيسى: نعم، أنت ذاك، قال: فألقى عليه شبه عيسى، وُرفِع عيسى من رُوزنة في البيت إلى السماء، وجاء الطلب من اليهود، فأخذوا شبهه فقتلوه، وصلبوه، وكفر بعيسى بعضهم بعد أن آمن به، فتفرقوا ثلاث فرق، قالت فرقة: كان الله فينا ما شاء، ثم صعد إلى السماء، وهؤلاء هم اليعقوبية، وقالت فرقة: كان فينا ابن الله ما شاء، ثم رفعه إليه، وهم النسطورية، وقالت فرقة: كان فينا عبد الله ورسوله، ما شاء الله، ثم

(١) تفسير ابن عطية بتصرف (٣٠٥/٥).

(٢) تفسير الخازن (٢٦٤/٤) عن ابن عباس رضي الله عنهما.

رفعه إليه، وهؤلاء هم المسلمون، فتظاهرت الكافرتان على المسلمة فقتلوهما، فلم يزل الإسلام طامساً حتى بعث الله محمداً ﷺ^(١).

وكان اليهود قد قتلوا من أتباع عيسى خلق كثير ومثلوا بهم، وألقوهم إلى السباع تفتريهم، وكان ممن قُتل: الحواربي الأكبر، الذي سماه عيسى: بطرس، أي الصخرة في ثباته في الله^(٢).

قال تعالى: ﴿فَإِذَا الَّذِينَ ءَامَنُوا عَلَىٰ عَدُوِّهِمْ فَاصْبَحُوا ظَاهِرِينَ﴾ أي نصرنا وقوتنا المؤمنين على مَنْ عداهم من فرق النصارى، فأظهرهم الله عليهم ببعثة محمد ﷺ حيث ظهرت كلمة التوحيد، وبطل القول بألوهية عيسى ﷺ وبنوته، وأنه ثالث ثلاثة.

وأظهر الله أيضاً صِدْقَ حُجَّةٍ من آمن بعيسى عليه السلام، فأمن به واهتدى بهديه، وظهر بطلان الفرق الكافرة، وبعد فترة من رَفْعِ عيسى عليه السلام، ارتفع شأن من آمن به، فغلبوا الكافرين من اليهود الذين قتلوا صاحبه حين أُلقي عليه الشبه.

وعلى هذا: فإن ظهور من آمن بعيسى، ولم يُدْخَل في دينه انحرافات في العقيدة، على من كفر به من اليهود الذين لم يؤمنوا به أصلاً، وعلى من انحرف عن التوحيد إلى القول بالتثليث أو البنوة، يُحتمل أن هذا الظهور كان قبل بعثة محمد ﷺ ويحتمل أنه كان بعد بعثته ﷺ.

والمقصود من ذلك: حض المؤمنين في كل زمان ومكان من أمة محمد ﷺ على التمسك بدينها ونصرتها، وأن يكونوا أنصاراً لله، دعاة لدينه، ينصرهم الله كما نصر مَنْ قبلهم، ويظهرهم على عدوهم، والعاقبة في النهاية للمتقين.

قال إبراهيم النخعي في ﴿فَاصْبَحُوا ظَاهِرِينَ﴾ أي أصبحت حجة من آمن بعيسى، ظاهرةً بتصديق محمدٍ أن عيسى كلمة الله وروحه^(٣).

(١) ينظر هذا المعنى في سنن النسائي الكبرى برقم (١١٥٩١)، وتفسير الطبري (٦٠/٢٨).

(٢) تفسير التحرير والتنوير (٢٠٣/١٣).

(٣) أخرجه عبد بن حميد وابن المنذر كما في الدر المنثور (٤٥٢/١٤).

وقال ابن كثير: لما بلغ عيسى ابن مريم رسالة ربه: اهتدت طائفة من بني إسرائيل بما جاءهم به، وضلّت طائفة، فجحدوا نبوته ورموه وأمه بالعظائم، وهم اليهود، وغلّت فيه طائفة من أتباعه حتى رفعوه فوق ما أعطاه الله من النبوة، وافترقوا فيه فرقاً وشيعاً، فمنهم من زعم أنه ابن الله، ومنهم من قال: إنه ثالث ثلاثة (الأب والابن وروح القدس) ومنهم من قال: إنه الله، تعالى الله عما يقولون علواً كبيراً، فنصر الله المؤمنين على من عاداهم من فرق النصارى^(١).

تم تفسير (سورة الجاثية) والله الحمد والمنة

(١) تفسير ابن كثير بتصرف (١١٣/٨).

الآية	فهرس الموضوعات	الصفحة
	تفسير سورة الذاريات - مقدمة السورة وأغراضها ومقاطعها الثلاثة	٥
٤-١	خمس أنواع من القسم على أن القيامة حق، وأن الرسول حق، حديث ابن الكوّاء،	٨
	اختصاصات القسم في أوائل السور	١٠
٩-٥	جواب القسم - القسم على تناقض المكذبين بالوحي والبعث	١٢
١٤-١٠	عقوبة المكذبين بالبعث ويخاتم المرسلين	١٤
١٩-١٥	نعيم المتقين وصفاتهم الخمس: الإحسان، قيام الليل، الاستغفار، بذل المال	١٥
٢١، ٢٠	ثلاثة من براهين التوحيد: الأرض والنفس والسماء	٢٢
٢٣، ٢٢	لن تموت نفس حتى تستوفي رزقها وأجلها	٢٣
٣٧-٢٤	قصة ضيف إبراهيم والاعتبار بما حدث لقوم لوط	٢٤
٤٠-٣٨	الاعتبار بما حدث لفرعون وجنوده	٣٢
٤٢، ٤١	الاعتبار بما حدث لقوم عاد	٣٣
٤٥-٤٣	الاعتبار بما حدث لقوم ثمود	٣٥
٤٦	الاعتبار بما حدث لقوم نوح	٣٧
٤٧	ثلاثة براهين أخرى على البعث والتوحيد: البرهان الأول: خلق السماء واتساعها	٣٨
٤٨	البرهان الثاني: صلاحية الأرض لمنافع الناس	٣٩
٤٩	البرهان الثالث: خلق نوعين متقابلين من جميع أجناس المخلوقات	٣٩
٥٠	وجوب الفرار من المعصية إلى الطاعة	٤٠
٥١	وجوب الفرار من الشرك إلى التوحيد	٤١
٥٣، ٥٢	موقف الأقوام من الرسل	٤٢
٥٥، ٥٤	الدعوة إلى الله تعالى لا يعوقها عائق	٤٣
٥٦	العبادة هي الغرض من خلق الجن والإنس	٤٤
٥٧	ثمرة العبادة تعود على الخلق، لا على الخالق	٤٧
٥٨	ثلاثة أوصاف لله رب العالمين	٤٨
٦٠، ٥٩	العبرة المستفادة من هلاك الظالمين	٤٩
	تفسير سورة الطور - مقدمة السورة، أحاديث فيها، ومحاورها - الاستفهامات الخمسة عشر	٥١
٨-١	خمس أنواع من القسم على أن عذاب الله واقع لا محالة، أحاديث في البيت المعمور	٥٥
١٢-٩	الفناء المؤذن بقيام الساعة	٦٠
١٦-١٣	مشهد عذاب المكذبين وهم يساقون إلى نار جهنم	٦١
١٧	عشرة ألوان من نعيم أهل الجنة	٦٣
١٨	أولاً: إنهم في فرح وسرور بما أعطاهم الله من النعيم - ثانياً: فوزهم بالنجاة من النار	٦٣
١٩	ثالثاً: تهتة أهل الجنة بطعامهم وشرابهم	٦٤
٢٠	رابعاً: هيئة أهل الجنة حال اتكائهم على السرر - خامساً: الحور العين	٦٤

الآية	فهرس الموضوعات	الصفحة
٢١	سادساً: إلحاق الأدنى درجة في الجنة بالأعلى من الأصول والفروع، أحاديث في معنى الآية	٦٦
٢٢	سابعاً: أهل الجنة يتزودون من اللحوم والفاكهة ما يشتهون	٦٨
٢٣	ثامناً: خمر الآخرة لا تؤثر على العقل ولا على اللسان	٦٩
٢٤	تاسعاً: خدم أهل الجنة غلمان كاللؤلؤ المصون في أصدافه	٧٠
٢٨ - ٢٥	عاشراً: أهل الجنة يتجاذبون أطراف الحديث عما كان في الدنيا	٧٠
٢٩	وجوب المثابرة على الدعوة إلى الله تعالى وإن أُوذي الداعي	٧٢
٣١، ٣٠	فدائف الحق تدمغ الباطل في استهفامات خمسة عشر: الأول عن ترقب نزول الموت بالداعية	٧٤
٣٢	الثاني عن تسفيه الداعية وإصاق التهم به - الثالث الطغيان هو الباعث على تكذيب الدعاة	٧٥
٣٤، ٣٣	الاستهفام الرابع: لو كان القرآن كلام بشر، فماذا يمنح البشر من الإتيان بمثله؟	٧٦
٣٥	الاستهفام الخامس: هل خلق الناس من غير خالق؟ السادس: هل خلق الإنسان نفسه؟	٧٨
٣٦	الاستهفام السابع: هل خلق أحد العالم العلوي أو السفلي؟	٧٩
٣٧	الاستهفام الثامن: هل يملك أحد خزائن الله؟ التاسع: هل يملك أحد قهر الخلق جميعاً؟	٨٠
٣٨	الاستهفام العاشر: هل اطلع أحد على ما قسمه الله لعباده في الملأ الأعلى؟	٨١
٣٩	الاستهفام الحادي عشر: هل اختص الله بالبنات - على حد زعمهم -	٨٢
٤٠	الاستهفام الثاني عشر: هل يطلب الداعية أجراً على تبليغ الدعوة؟	٨٢
٤١	الاستهفام الثالث عشر: هل عند الكفار اطلاع على ما عند الله يخالف دعوة الإسلام؟	٨٣
٤٢	الاستهفام الرابع عشر: هل يريدون المكر بالإسلام؟ فالعاقبة للأصلح	٨٤
٤٣	الاستهفام الخامس عشر: ألهم معبود يستحق العبادة غير الله؟	٨٤
٤٤	الكافر لن يؤمن ولو كان الهلاك فوق رأسه والسيوف على عنقه	٨٥
٤٦، ٤٥	عليك البلاغ وعلينا الحساب والعقاب	٨٦
٤٧	عذاب الظالمين في الدنيا قبل الآخرة	٨٧
٤٩، ٤٨	التسلح بالصبر والصلاة والتسبيح على مشاق تبليغ الدعوة	٨٧
٩٠	تفسير سورة النجم - مقدمة السورة - وأحاديث في سجدة سورة النجم، موضوعات السورة	٩٠
٤ - ١	قسم الله سبحانه على صدق ما يصدر عن النبي ﷺ من قرآن وسنة	٩٣
١٢ - ٥	من صفات جبريل وهو ينزل بالوحي - رؤية النبي ﷺ لجبريل على صورته الحقيقية مرتين	٩٧
١٦ - ١٣	الرؤية الثانية	١٠٣
١٨، ١٧	ثبات بصر النبي ﷺ عند رؤية الآيات الكبرى	١٠٥
٢٢ - ١٩	أشهر أصنام أهل الجاهلية ثمانية	١٠٧
٢٣	عبادة الأصنام في العالم أوهام	١١٢
٢٥، ٢٤	خمس شهادات للمشركين في عبادتهم غير الله تعالى	١١٤
٢٦	للشفاعة عند الله تعالى شرطان	١١٥
٢٨، ٢٧	فرية القول بأنوثة الملائكة	١١٦

الآية	فهرس الموضوعات	الصفحة
٣٠، ٢٩	وعيد الكفار ووعد المؤمنين	١١٧
٣١	عدالة الجزاء الأخروي	١١٨
٣٢	الكبائر والفواحش والصغائر واللمم، أحاديث وآثار في المعنى، النهى عن تزكية النفس، النهى عن مدح الآخرين تملُّقاً	١١٩ ١٢٤
٣٣ - ٣٥	لا يؤاخذ أحد بذنب غيره	١٢٦
٣٦، ٣٧	الكفر بمحمد ﷺ كفر بجميع الأنبياء	١٢٨
٣٨ - ٤١	عشرة أحكام مما في صحف إبراهيم وموسى ما يتنفع به الميت من عمل غيره وما لا يتنفع به، عشرون دليلاً لابن تيمية، أحاديث في المعنى	١٣٠ ١٣٣
٤٢ - ٤٨	النهى عن التفكير في ذات الله تعالى، بقية ما في صحف إبراهيم وموسى	١٣٨
٤٩	كوكب الشعرى	١٤١
٥٠ - ٥٥	الاعتبار بمصارع أربعة من الغابرين وهم أقوام: عاد وثمود ونوح ولوط	١٤٣
٥٦ - ٥٨	إنذار وتخويف قبل قيام الساعة	١٤٥
٥٩ - ٦١	ذم من لم يخشم قلبه بالقرآن في إنكارات أربعة	١٤٧
٦٢	سجود التلاوة في المفصل	١٤٨
١	تفسير سورة القمر - مقدمة السورة - والأحاديث الواردة في انشقاق القمر، مقاطع السورة الأربع معجزة انشقاق القمر بمنى ليلة أربع عشرة من ذي الحجة سنة خمس قبل الهجرة، الشق الأول من الآية (اقتراب الساعة) الشق الثاني (انشقاق القمر)، هل انشقاق القمر ظاهرة فلكية؟	١٤٩ ١٥٣
٢، ٣	موقف المعارضين للدعوة من معجزة انشقاق القمر	١٥٨
٤، ٥	قلوب المجاحدين لا تتأثر بالزواج والمواظ	١٥٩
٦ - ٨	سبعة من أهوال يوم القيامة	١٦٠
٩ - ١٧	الاعتبار بما نزل بخمسة أقوام من العذاب أولاً: قصة عذاب قوم نوح، دعوة الرسل إلى أقوامهم	١٦٣
١٨ - ٢٢	ثانياً: قصة عذاب عاد قوم هود	١٧٠
٢٣ - ٢٦	ثالثاً: قصة قوم ثمود مع نبهم صالح عليه السلام	١٧٢
٢٧ - ٣٢	معجزة صالح عليه السلام	١٧٤
٣٣ - ٤٠	رابعاً: قصة عذاب قوم لوط عليه السلام	١٧٧
٤١، ٤٢	خامساً: قصة عذاب فرعون وملئه	١٨١
٤٣، ٤٤	كفار اليوم لن يسلموا من مصير كفار الأمس	١٨٢
٤٥، ٤٦	من دلائل النبوة	١٨٣
٤٧، ٤٨	عذاب المجرمين في الدنيا والآخرة	١٨٤
٤٩، ٥٠	كل شيء يحدث في الكون بقُدرة الله، أحاديث في القدر، معاني القدر، نفاذ قدرة الله في خلقه	١٨٥
٥١ - ٥٣	هلاك الأمم سبق به علم الله تعالى	١٩٠
٥٤، ٥٥	مصير المتقين في جنات النعيم	١٩٢

الآية	فهرس الموضوعات	الصفحة
١٣ - ١	تفسير سورة الرحمن - مقدمة السورة وما ورد فيها من أحاديث، تقسيم السورة إلى أربعة فصول المجموعة الأولى: عشر من منن الله تعالى على خلقه هي (تعليم القرآن وخلق الإنسان وتعليمه البيان، ورفع السماء، ووضع الميزان، ووضع الأرض للخلق، وما فيها من حب وفاكهة ونخل ورمان) آية الفصل بين كل نعمتين	١٩٤
٢٥ - ١٤	المجموعة الثانية: خمسة أخرى من نعم الله تعالى على خلقه وهي (خلق الإنس والجن والمشرق والمغرب، والماء العذب والملح، واللؤلؤ والمرجان، وجري السفن في البحار)	٢١٤
٢٨ - ٢٦	الله تعالى هو المتفرد بالبقاء بعد فناء العالم	٢٢١
٣٠، ٢٩	افتقار الخلق جميعاً إلى الله وحده	٢٢٣
٣٢، ٣١	لا مفر من الحساب والجزاء	٢٢٦
٣٤، ٣٣	لا يمكن لمخلوق أن يخرج من ملك الله تعالى	٢٢٧
٣٦، ٣٥	استحالة الخروج من أي متفد في الكون	٢٣١
٣٨، ٣٧	انشقاق السماء عند قيام الساعة	٢٣٢
٤٠، ٣٩	يوم الحشر فيه مواقف متعددة، فمن الناس من يسأل ومنهم من لا يسأل	٢٣٣
٤٥ - ٤١	مشهد المجرمين حين يُقذف بهم في النار	٢٣٥
	وصف جنتي السابقين وجنتي أهل اليمين بخمسة أوصاف - خمسة أوصاف لجنتي السابقين خمسة أوصاف لجنتي أهل اليمين، خمسة فوارق بين الجنات الأربع	٢٣٧ ٢٤٠
٤٩ - ٤٦	الوصف الأول لجنتي السابقين وأهل اليمين	٢٤١
٦٥ - ٦٢ و		
٥١، ٥٠	الوصف الثاني لجنتي السابقين وأهل اليمين	٢٤٢
٦٧، ٦٦ و		
٥٣، ٥٢	الوصف الثالث لجنتي السابقين وأهل اليمين	٢٤٣
٦٩، ٦٨ و		
٥٥، ٥٤	الوصف الرابع لجنتي السابقين وأهل اليمين	٢٤٤
٧٧، ٧٦ و		
٦١ - ٥٦	الوصف الخامس لجنتي السابقين وأهل اليمين	٢٤٥
٧٥ - ٧٠ و		
٧٨	ختام نعيم الآخرة بما خُتم به نعيم الدنيا - بعض ما ورد في الجنة والحدود العينية من أحاديث	٢٤٩
	تفسير سورة الواقعة - مقدمة السورة وأغراضها، أصناف الناس يوم القيامة، وتقسيم موضوعاتها	٢٥٣
٦٠ - ١	قيام الساعة وأحوالها	٢٥٩
	أصناف الناس يوم القيامة ثلاثة - كلمات فيما أعده الله لأصناف الناس يوم القيامة	
	أولاً: مجمل ما أعده الله للسابقين المقربين بحسب رقم الآية	٢٦٣
١٤ - ٧	ثانياً: مجمل ما أعده الله لأهل اليمين	٢٦٩
	ثالثاً: مجمل ما أعده الله لأهل الشمال	
	رابعاً: موازنة بين نعيم السابقين وأهل اليمين وعذاب أهل الشمال	

الآية	فهرس الموضوعات	الصفحة
١٥ - ٥٦	النعيم الأول وأهل اليمين وما يقابله من عذاب لأهل الشمال	٢٧٣
٤٥ - ٤٧	ثلاثة أسباب لعذاب أهل الشمال هي: الترف، والإصرار على الكبر، وإنكار البعث والحساب	٢٧٧
١٧ - ١٩	النعيم الثاني لأهل الجنة	٢٨٠
٢٠، ٢١	النعيم الثالث لأهل الجنة	٢٨١
٢٢ - ٢٤	النعيم الرابع للمقربين وأهل اليمين	٢٨٤
٥١ - ٥٣	طعام أهل النار وشرابهم	٢٨٧
٢٥، ٢٦	النعيم الخامس لأهل الجنة - أهل الجنة من أمة محمد	٢٨٨
	موازنة بين نعيم السابقين وأهل اليمين	٢٨٩
٥٧	خمسة من دلائل التوحيد على البعث والنشور: الأول: القادر على بدء الخلق أقدر على إعادته	٢٩١
٥٨ - ٦٢	الدليل الثاني: خلق الإنسان من نطفة	٢٩٢
٦٣ - ٦٧	الدليل الثالث: خلق الزرع من البذور - البعث والجزاء يكون للجسد والروح	٢٩٧
٦٨ - ٧٠	الدليل الرابع: إنزال الماء من السحاب	٣٠٢
٧١ - ٧٤	الدليل الخامس: خلق النار من الشجر الأخضر	٣٠٤
٧٥، ٧٦	التنويه بشأن القرآن الكريم	٣٠٦
٧٧ - ٨٠	حكم من المصحف وحمله لغير المتوضيء وللجنب والحائض والنفساء	٣٠٨
٨١، ٨٢	المعارضون يكذبون بالقرآن وما فيه، ومن ذلك نزول المطر بفضل الله تعالى	٣١٢
٨٣ - ٨٧	عجز البشر عن إبقاء الروح في الجسد أو إعادتها إليه	٣١٥
٨٨ - ٩١	الناس بعد البعث على ثلاث مراتب: المقربون وأهل اليمين وأهل الضلال	٣١٦
٩٢ - ٩٦	مصير أهل الضلال	٣١٩
	تفسير سورة الحديد - مقدمة السورة وأغراضها	٣٢٢
١ - ٣	أحد عشرة صفة من صفات الله تعالى في آيات ثلاث: صفتان في الآية الأولى، وأربع في الثانية، وخمس في الثالثة	٣٢٨
	التسييح في فواتح السور - تسييح الكائنات بلسان الحال والمقال	
٤، ٥	ثمانية أدلة على التوحيد في هذه الآية	٣٣٣
٦	وفي هذه الآية دليلان من دلائل التوحيد	٣٣٦
٧	الإيمان وإنفاق المال عنصران لا بد منهما لتنجح الأمة	٣٣٧
٨، ٩	موجبات الإيمان الأربعة	٣٣٩
١٠	موجبات الإنفاق في وجوه الخير، فضل الإنفاق في الجهاد وفي وقت الأزمات	٣٤٢
١١	الحث على النفقة في وجوه الخير	٣٤٦
١٢، ١٣	حال المؤمنين والمنافقين وهم على الصراط، آثار في ذلك	٣٤٩
١٤، ١٥	أربعة أسباب باعدت بين المؤمنين والمنافقين يوم القيامة	٣٥٤
١٦	التحذير من قسوة القلوب، أسباب النزول، آثار في معنى الآية	٣٥٧

الآية	فهرس الموضوعات	الصفحة
١٨، ١٧	إحياء القلوب القاسية بذكر الله تعالى وتلاوة القرآن والإنفاق في وجوه الخير	٣٦١
١٩	ثواب أهل الإيمان وعقاب أهل الكفر - أصناف الخلق	٣٦٣
٢٠	شهوات الدنيا الثمانية ومثلها في سرعة زوالها	٣٦٨
٢١	وجوب المسارعة إلى رضوان الله تعالى	٣٧٣
٢٣، ٢٢	كل ما يحدث في العالم سبق به علم الله تعالى	٣٧٥
٢٤	وصف المختال الفخور	٣٧٩
٢٥	تقوم الدعوة على التعاليم الإلهية والقوة التي تدعمها مادياً ومعنوياً، في الحديد منفعتان: البأس الشديد ومنافع للناس	٣٨٠
٢٦	شيخ الرسل وأبوهم	٣٨٥
٢٧	رسالة عيسى ورهبانية النصارى - من مظاهر الرهبانية	٣٨٦
٢٨	أجر من أسلم من أهل الكتاب	٣٩٠
٢٩	لا حرج على فضل الله	٣٩٣
	تفسير سورة المجادلة - مقدمة السورة - موضوعاتها - أسباب النزول	٣٩٥
١	المرأة المجادلة	٤٠٢
٢	ذم الظهار	٤٠٣
٤، ٣	كفارة الظهار	٤٠٥
٦، ٥	سوء عاقبة الخارجين عن الصف الإسلامي	٤٠٨
٧	علم الله تعالى محيط بكل ما في الكون، ما ظهر منه وما خفى	٤١٠
٨	آيات التناجي، أسباب النزول، النهي عن التناجي بالشر، تحية اليهود للنبي ﷺ، أحاديث في المعنى	٤١٢
١٠، ٩	التناجي المحمود والتناجي المذموم	٤١٨
١١	التفصح في المجالس، أسباب النزول، إنزال الناس منازلهم، الارتفاع عن المجلس لحاجة، فضل العلم والعلماء	٤٢١
١٣، ١٢	تقديم الصدقة عند مناجاة النبي ﷺ بين الرخصة والعزيمة - أسباب النزول	٤٢٨
١٨-١٤	حزب الشيطان من المنافقين واليهود، سبب النزول	٤٣٢
١٩	سبب انغماس المنافقين في النفاق وعقوبتهم	٤٣٧
٢١-٢٠	الذلة والهوان لحزب الشيطان والنصر والغلبة لحزب الرحمن	٤٣٨
٢٢	الإيمان ومحبة الله تعالى لا يجتمعان - أسباب النزول	٤٣٩
	أربعة أصناف من المحاربين لله ورسوله لا تجوز موالاتهم - خمس مزايا لحزب الرحمن	٤٤١
٤٤٥	تفسير سورة الحشر - مقدمة السورة وأغراضها. قصة بني النضير، سبب تواجد اليهود في المدينة - جبريل يأمر الرسول بقتل كعب بن الأشرف، تأمر اليهود على قتل النبي ﷺ	
١	التمهيد لإخراج اليهود من المدينة بشكر الله تعالى - جميع الكائنات تسبح بحمد الله للجُمادات والحيوانات فهم وإدراك	٤٥٢
٤-٢	إجلاء بني النضير من ضواحي المدينة وسببه - الكيان الصهيوني - الحشر الأول	٤٥٦
٥	إلجاء العدو إلى الاستسلام حقناً للدماء	٤٦٣

الآية	فهرس الموضوعات	الصفحة
٦	أموال بني النضير خاصة بالنبي ﷺ تنفق بعده في المصالح العامة - تقسيم أموال بني النضير وأدلتها	٤٦٥ ٤٦٧
٧	مصارف الفيء العام والغنائم، آيات الفيء والغنائم ليس في الآية دليل على الاشتراكية البائدة، القاعدة الكلية والأصل العام في اتباع الرسول ﷺ، جملة من الأحاديث في وجوب الاتباع	٤٦٩ ٤٧٤
٨	في فضل المهاجرين وأوصافهم الستة	٤٧٧
٩	في فضل الأنصار وأوصافهم الأربعة - أحاديث في فضل الأنصار	٤٧٩
١٠	أمثلة فريدة من إثار الأنصار - الوقاية من الشح سبب الفلاح التابعون ومن بعدهم	٤٨٥ ٤٨٦
١٢، ١١	من سب الصحابة ليس له حق في الفيء ولا في الخمس - أحاديث وآثار في ذلك	٤٨٨
١٤، ١٣	التحالف الكاذب بين المنافقين واليهود على النيل من الإسلام وأهله	٤٨٩
١٥	من أوصاف المنافقين واليهود في الحروب	٤٩٢
١٧، ١٦	للمنافقين مع بني قينقاع وعد كاذب أيضا	٤٩٥
١٨	إغراء المنافقين لليهود كإغراء للشيطان للإنسان والتخلي عنه	٤٩٧
١٩	تحصيل الزاد ليوم المعاد	٤٩٩
٢٠	التحذير من الإعراض عن دين الله تعالى	٥٠١
٢١	البؤن شاسع بين السعداء والأشقياء	٥٠٢
٢٢	تأثير القرآن على الصمم الراسيات، فما بال الإنسان؟ الاستشفاء بهذه الآية -	٥٠٣
٢٤، ٢٣	علم الغيب، والرحمة المطلقة، من خصائص الإله الحق	٥٠٦
	أحد عشر اسماً من أسماء الله تعالى وصفاته في ختام السورة	٥٠٨
	حديث سرد أسماء الله التسع والتسعين ضعيف	٥١٣
	تفسير سورة الممتحنة - مقدمة السورة - موضوعها ونداءاتها - قصة حاطب بن أبي بلتعة	٥١٥
	أسباب النزول، وقفات مع قصة حاطب	
١	النهى عن موالاة غير المسلمين المحاربين وسببه، هل لليهود حق في فلسطين	٥٢٢
٢	الكشف عن نوايا أعداء الإسلام	٥٢٦
٣	المخالفون في الدين لا تجوز موالاتهم ولو كانوا أقرب الناس	٥٢٧
٥، ٤	الولاء والبراء في الدين سنة أتياع الأنبياء في كل عصر ومصر	٥٢٩
٦	منع الاستغفار لغير المسلمين، خمس دعوات لإبراهيم ﷺ	٥٣٢
٧	تأسي هذه الأمة بخليل الرحمن في الولاء والبراء وعقيدة التوحيد	٥٣٤
٨	وعد المؤمنين بانقلاب عداوة أقربائهم إلى محبة	٥٣٥
٩	حُسن التعامل مع غير المسلمين المسالمين، سبب النزول	٥٣٧
	العدو غير المسالم من أعداء الدين يعامل بالمثل	٥٣٩

فاحِشَةُ النَّفْسِ

تأليف :

أحمد بن أحمد محمد عبد الله الطويل

عضو الدَّجَنَةِ الْعِلْمِيَّةِ لِمُرَاجَعَةِ مُصْحَفِ الْمَدِينَةِ النَّبَوِيَّةِ
وَلَجَنَةِ الْإِشْرَافِ عَلَى التَّسْجِيلَاتِ الْقُرْآنِيَّةِ
بِمُجْمَعِ الْمَلِكِ فَهْدٍ لَطَبَاعَةِ الْمُصْحَفِ الشَّرِيفِ

قَدَّمَ لَهُ : مَعَالِي الدُّكْتُور / عَبْدُ اللَّهِ بْنُ عَبْدِ الْمُحْسِنِ التُّرَيْكِي
وَالْأَسْتَاذَ الدُّكْتُور / صَالِحُ بْنُ غَانِمِ السَّدْلَانِ
وَنُحْبَةَ مِنَ الْعُلَمَاءِ الْمُتَخَصِّصِينَ

المجلد الرابع عشر

من أول سورة الجمعة إلى آخر سورة المرسلات

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

تَفْسِيرُ سُورَةِ الْجُمُعَةِ (٦٢)

مُقَدِّمَةُ السُّورَةِ

سورة الجمعة هي السورة الثانية والستون في ترتيب المصحف، والسادسة بعد المئة في ترتيب النزول، نزلت غالباً دفعة واحدة سنة ست من الهجرة بعد سورة التحريم وقبل سورة التغابن.

وسميت سورة الجمعة: لورود لفظ يوم الجمعة فيها، ولا يُعرف لها اسم غير ذلك، وهي سورة مدنية عند الجمهور، وعدد آياتها إحدى عشرة آية باتفاق علماء العدد، وهي ثمانون كلمة، وسبع مئة وعشرون حرفاً.

وكانت صلاة الجمعة قد فرضت قبل نزول هذه السورة، وصلى النبي ﷺ أول جمعة بعد يوم الهجرة في دارِ لبني سالم بن عوف، كما أن أهل المدينة صلّوا الجمعة قبل قدوم النبي ﷺ إليها مهاجراً.

ومن الأحاديث الواردة في القراءة بها مع غيرها في صلاة الجمعة وغيرها:

١- حديث أبي هريرة ؓ أن رسول الله ﷺ كان يقرأ في صلاة الفجر، يوم الجمعة ﴿الْأَلَمَ ۝ تَنْزِيلُ الْكِتَابِ ۝ [السجدة]، وَهَذَا آتٍ عَلَى الْإِنْسَانِ حِينَ يَنْزِلُ الدَّهْرُ﴾ [الإنسان] وأن النبي ﷺ كان يقرأ في الجمعة بسورة الجمعة والمنافقين^(١).

٢- وعن جابر بن سمرة ؓ قال : كان رسول الله ﷺ يقرأ في صلاة المغرب ليلة الجمعة: ﴿قُلْ يَتَّخِذُ الْكَافِرُونَ ۝ [١]﴾ و﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ۝ [١]﴾ وكان يقرأ في صلاة العشاء الآخرة ليلة الجمعة : سورة الجمعة والمنافقون^(٢).

(١) صحيح مسلم برقم (٨٧٩)، وأبوداود برقم (١٠٧٤، ١٠٧٥)، والترمذي برقم (٥١٩)، وقال: حديث حسن صحيح، وابن ماجه برقم (١١١٨)، والنسائي (١١١/٣)، والبيهقي (٢٠٠/٣)، وابن أبي شيبة (١٤٢/٢)، والنسائي في السنن الكبرى (١٧٣٥).

(٢) ابن حبان برقم (١٨٣٨) والبيهقي (٢٠٠/٣) وهو عند البزار (٣٧٥٩) قال الهيثمي في مجمع الزوائد (١٩١/٢) وفيه أبو مهدي سعيد بن سنان وهو ضعيف.

٣- وعن النعمان بن بشير رضي الله عنه قال: كان رسول الله ﷺ يقرأ في العيدين، وفي الجمعة بـ ﴿سَبِّحْ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى﴾ ﴿١﴾ و﴿هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ الْفَنَشِيَةِ﴾ ﴿١﴾ قال: وإذا اجتمع العيد والجمعة في يوم واحد يقرأ بهما في الصلاة^(١)

٤- وعن سمرة بن جندب رضي الله عنه قال: كان رسول الله ﷺ يقرأ في الجمعة بـ ﴿سَبِّحْ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى﴾ ﴿١﴾ و﴿هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ الْفَنَشِيَةِ﴾ ﴿١﴾^(٢).

٥- وعن عبيد الله بن أبي رافع قال: استخلف مروان أبا هريرة على المدينة، وخرج إلى مكة، فصلى بنا أبو هريرة الجمعة، فقرأ بعد الحمد: سورة الجمعة في الأولى، و﴿إِذَا جَاءَكَ الْمُتَقِفُونَ﴾ في الثانية، قال: فأدركت أبا هريرة حين انصرف فقلت له: إنك قرأت بسورتين كان علي بن أبي طالب يقرأ بهما في الكوفة، فقال أبو هريرة: إني سمعت رسول الله ﷺ يقرأ بهما يوم الجمعة^(٣).

موضوع السورة:

١- الآيات الأربع الأول من السورة تتناول بعثة خاتم الرسل، محمد ﷺ وتبين أنه الرحمة المهداة، الذي أنقذ الله به الناس من الشرك والضلال إلى العلم والإيمان، وأن هذه الرسالة كانت من بين العرب الأُميين، ولكنها ليست خاصة بهم، بل هي لهم وللناس جميعاً، من كان موجوداً منهم على وجه الأرض وقت بعثته ﷺ في شرق الأرض وغربها وشمالها وجنوبها، ومن يأتي بعدهم من الأجيال المتتابعة على مدى التاريخ إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها.

(١) صحيح مسلم برقم (٨٧٨) وأبوداود (١١٢٢) وابن ماجه (١٢٨١) والترمذي (٥٣٣) والمسند (١٨٣٨٣) وهو حديث صحيح وانظر (١٨٣٨١) وابن حبان (٢٨٢١) والنسائي في الكبرى (١٧٥٠).

(٢) أخرجه أبوداود (١١٢٥) والنسائي في الكبرى (١٧٨٧، ١٧٥١) والمسند (٢٠١٥٠) بإسناد صحيح ورجال ثقات وابن حبان (٢٨٠٨) والطيالسي (٨٨٨) وابن خزيمة (١٨٤٧) والطبراني في الكبير (٦٧٧٩).

(٣) صحيح مسلم برقم (٨٧٧) وأبو داود (١١٢٤) وابن ماجه (١١١٨) والترمذي (٥١٩) والمسند (٩٥٥٠) وإسناده صحيح على شرط مسلم ورجاله ثقات، وأخرجه ابن خزيمة (١٨٤٣) والنسائي في الكبرى (١٧٣٥).

وسورة الجمعة تقرر أن أمة الإسلام: هي الأمة المختارة لحمل الرسالة إلى عموم الجن والإنس إلى أن تقوم الساعة، وذلك بعدما تخلى بنو إسرائيل عن حمل هذه الأمانة، فخانوها بالتحريف والتغيير، وانقطعت صلتهم بالسماء، وصاروا كالذي يحمل أسفارا، وهذه الحقيقة تحدثت عنها صدر السورة ووسطها، فبينت أن الله تعالى صرف الرسالة العامة عن أهل الكتاب، وابتعث الرسول الخاتم من بين العرب الأميين، ليلبغ رسالته إلى العالمين، وهذا فضل الله يؤتيه من يشاء.

٢- وكان في هذا توطئة لذم اليهود الذين جاء ذكرهم في الآيات الأربع التالية، لأنهم حسدوا هذه الأمة على تشريفهم بحمل راية هذا الدين، وفيه إبطال لزعمهم أنهم أولياء الله، وبيان أنهم لما انحرفوا عن دين الله ولم يعملوا بما في التوراة شبههم القرآن بالحمار الذي يحمل أسفارا، لأنه لا يعلم ماذا فيها، ولا يعمل بها.

ومن جملة ما حسد اليهود المسلمين عليه : أن الله تعالى أعطاهم يوم الجمعة، بعد أن كان يوم السبت هو المفضل في الأسبوع.

والسورة تطلب من اليهود أن يدعوا على أنفسهم بالموت إن كانوا شعب الله المختار كما يزعمون، مع أن الموت آت لا محالة، فلا فرار ولا مهرب منه لكل مخلوق.

٣- ومن أول أغراض السورة التي نزلت من أجله: هو التحذير من التخلف عن صلاة الجمعة، وترك كل ما يشغل عنها عند النداء لها، فإن ما عند الله تعالى خير من اللهو ومن التجارة، والله خير الرازقين، وقد دعت السورة في الآيات الثلاث الأخيرة منها إلى المسارعة لأداء صلاة الجمعة، وحزمت عليهم العمل حين ينادى لها.

فصلاة الجمعة هو موضوع السورة الأساس، ولعل افتتاحها بالتسبيح تحريضا للمؤمنين على أداء الفريضة وسماع الخطبة، فيوم الجمعة فيه الاجتماع الحاشد للمسلمين، وفيه ساعة مباركة لا يوافقها عبد مقبل على الله تعالى بدعوة أو عبادة أو تسبيح إلا تقبل الله منه وغفر له، واستحب الإسلام الغسل والطيب لهذا اليوم. وفي الآيات توبيخ لمن ينشغل عن صلاة الجمعة لسبب من الأسباب غير مشروع.

تَفْسِيرُ السُّورَةِ

بِرَاعَةِ الاسْتِهْلَالِ تَتَّضَمَّنُ أَرْبَعَةَ أَوْصَافٍ لِلَّهِ عَزَّ وَجَلَّ

١- ﴿يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ الْمَلِكُ الْقُدُّوسُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ ﴿١﴾

أُفْتُتِحَتْ سورتا الجمعة والتغابن بالفعل المضارع للتسبيح، وكان افتتاح سور: الحديد والحشر والصف، بالفعل الماضي.

وافتح هذه السورة بالإخبار عن تسبيح أهل السموات وأهل الأرض لله تعالى، من براعة الاستهلال، وفيه تحريض للمؤمنين على أداء فريضة الجمعة وسماع الخطبة.

إن جميع المخلوقات من إنسان وملائكة وجن وحيوان ونبات وشجر ووحوش وطيور وحشرات وشمس وقمر وجماد وغيرها كلها تسبح الله تعالى بحمده، وتقده وتنزهه عن كل ما لا يليق بجلاله، وكلها تنقاد لأمره وتتوجه له بالعبادة والتقديس والتعظيم، وإذا كان كل شيء يحمد الله تعالى فَلِمَ يتأخر المسلمون عن المشاركة في هذا الحفل الأسبوعي الجماعي العام، وفيه مغفرة ذنوبهم، وتحقيق إيمانهم، وتكثير سواد المسلمين، وتقوية صفوفهم؟

وفي هذا توبيخ للذين خرجوا من المسجد لما سمعوا قدوم قوافل التجارة. وفيه تنويه بأن هذا الكون دائم التسبيح لله تعالى بصفة متجددة لا يَمَلُّ ولا يفتر.

ثم وصف الله تعالى نفسه بأربعة أوصاف:

١- فهو سبحانه ﴿الْمَلِكُ﴾ أي المالك لهذا الكون بما فيه ومن فيه، له ملك العالم العلوي والعالم السفلي المدير لشؤونه، المتصرف فيه تصرف المالك في ملكه بلا منازع.

٢- وهو سبحانه ﴿الْقُدُّوسُ﴾ المعظم المنزه عن كل نقص وعن كل آفة، المتصف بصفات الجلال والكمال.

٣- وهو سبحانه ﴿الْعَزِيزُ﴾ الذي لا يُغَالَبُ، ولا يُقهر، ولا يُذل، يَعْتَزُّ به كل من يَلْتَفُّ

حوله ويلوذ بجنابه، ويفقد العزة والكرامة كل من فارق حضرته ولاذ بغيره.

٤- وهو جل شأنه ﴿الْكَبِيرُ﴾ في صنعه وتدبيره، وفي أقواله وأفعاله، يضع الأمور في نصابها، وصاحب هذه الأوصاف العظيمة هو المستحق للعبادة ون غيره.

أُمِّيَّةُ الْعَرَبِ، وَوَصَفُ الرُّسُولِ ﷺ بِأَرْبَعَةِ أَوْصَافٍ

٣، ٢- ﴿هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيَّةِنَ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ۝٢﴾ وَأَخْرَجَ مِنْهُمْ لَمَّا يَلْحَقُوا بِهِمْ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٣﴾

ومن حكمته سبحانه أنه أرسل في العرب رسولا منهم، وهم أمة أمية، لم يرسل فيهم رسولا قبل ذلك، وهم أمة أمية في مجموعها، وليسوا جميعا أميين، فقد كان منهم كتاب الوحي، وهم يُعدّون بالعشرات، ومنهم كتاب التنزيل على وجه الخصوص.

فعن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما أن النبي ﷺ قال: «إنا أمة أمية لا نكتب، ولا نحسب، الشهر هكذا وهكذا» يعني مرة تسعة وعشرين، ومرة ثلاثين^(١).

وأخرج الطبري بسند حسن عن قتادة قال: كان هذا الحي من العرب، أمة أمية، ليس فيها كتاب يقرؤونه، فبعث الله نبيه محمدا ﷺ رحمة وهدى، يهديهم به^(٢):

أ- فالأُمِّيُّ: نسبة إلى أمّه يوم ولدته، وهو لا يعرف القراءة والكتابة وبقي على أميته، على المعنى الدارج بين الناس.

والمراد بالأميين في الآية: الذين لا كتاب لهم، وليس عندهم أثر رسالة، لا من العرب ولا من غيرهم، فليسوا من أهل الكتاب.

والأميون على هذا المعنى هم العرب كما قال تعالى ﴿وَقُلْ لِلَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَالْأُمِّيَّةَ ۖ أَسْلَمْتُمْ فَإِنْ أَسْلَمُوا فَقَدِ اهْتَكَدُوا ۖ وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ﴾ [آل عمران: ٢٠].

وتخصيص الأميين بالذكر لا ينفي من عداهم، ولكن المنّة عليهم أكد وأبلغ، كما

(١) البخاري برقم (١٩١٣) ومسلم (١٠٨٠) وأبو داود (٢٣١٩) والنسائي (٢١٤٠)

(٢) عبد الرزاق (٢٩١/٢) وابن جرير (٦٢٦/٢٢)

قال تعالى ﴿وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ وَسَوْفَ تُشْكَلُونَ ۝١٤﴾ [الزخرف] وذلك لأنهم كانوا عادمين للعلم والخير، وكانوا قبل الرسالة في ضلال مبين، يعبدون الأصنام والأشجار والأحجار، وكانوا غلاظاً قساة، يأكل القوي فيهم الضعيف، ويسيثون الجوار، ويأكلون الميتة، ويأتون الفواحش، وكانوا في غاية الجهل بعلوم الأنبياء، وفي أقبح الأخلاق وأسوأها، فبعث الله إليهم رسولاً منهم، يعرفون حسبه ونسبه وصدقه وأمانته وعفافه، فدعاهم إلى التوحيد ومكارم الأخلاق وصدق الحديث وأداء الأمانة ..

ولا ينافي ذلك عموم الرسالة إلى العالم أجمع لقوله تعالى ﴿قُلْ يَأَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا ۝١٩﴾ [الأعراف: ١٥٨] وقوله ﴿وَأَوْحَىٰ إِلَيَّ هَذَا الْقُرْآنُ لِأُنذِرَكُمْ بِهِ وَمَنْ بَلَغَ﴾ [الأنعام: ١٩] أي وأرسلت إلى كل من بلغه هذا القرآن من الناس جميعاً إلى قيام الساعة، ومن لم يؤمن بهذا القرآن فهو في نار جهنم، قال تعالى ﴿وَمَنْ يَكْفُرْ بِهِ مِنَ الْأَحْزَابِ فَالنَّارُ مَوْعِدُهُ ۝١٧﴾ [هود: ١٧]، والعرب هم نقطة انطلاق الدعوة، وهم الذين اختارهم الله تعالى لحمل الرسالة العالمية إلى العالم.

ب- وكان اليهود ينتقصون المسلمين بأنهم أميون، كما قال تعالى عنهم ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لَيْسَ عَلَيْنَا فِي الْأُمِّيِّينَ سَبِيلٌ ۝٧٥﴾ [آل عمران: ٧٥] فتحدى الله اليهود بأن يبعث من هؤلاء الأميين رسولاً منهم، وأعلمهم أن ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء، وأن هذا الفضل ليس خاصاً بالأميين ولا باليهود ولا بغيرهم ﴿... قُلْ إِنْ أَلْهَدْتُمُ هَدَىٰ اللَّهُ أَن يُؤَفِّقَ أَحَدٌ مِّثْلَ مَا أُوتِيتُمْ أَوْ يُعَاجِزْكُمْ عِنْدَ رَبِّكُمْ قُلْ إِنْ أَلْفَضَلَ بِيَدِ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَسِعَ عَلَيْهِ ۝٧٦﴾ [آل عمران: ٧٦] يَخْنَصُ بِرَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ ﴿٧٦﴾ [آل عمران: ٧٦].

وهكذا رد الله عليهم بأنه سبحانه بعث محمداً نبياً أمياً، ومع كونه أمياً فقد أتى بجميع ما جاء به الرسل غير الأميين، وزاد عليهم، وهذا فضل الله يؤتيه من يشاء. وقد كان اليهود يقولون عن غيرهم من الأمم، إنهم (جُوييم) وهي كلمة عبرية معناها بالعربية: (أمميون) نسبة إلى الأمم، فهم يسمون أنفسهم: (شعب الله المختار) ويقولون على غيرهم (الأمم)

جـ وكان اليهود ينتظرون مبعث النبي الأخير، المبشر به في كتبهم، ليجمعهم بعد فرقة، وينصرهم بعد هزيمة، ويُعزّزهم بعد ذل، وكانوا يقولون للعرب: نحن أول من سيفتح عليه بالدخول في دينه، فلما وَجَدَ اليهود أن هذا النبي الخاتم بُعث من العرب، حقدوا عليه وحسدوه، وكفروا به، لأنه ليس من بني إسرائيل؛ كما قال تعالى ﴿وَلَمَّا جَاءَهُمْ كِتَابٌ مِّنْ عِندِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا...﴾ أي يقولون للكفار الوثنيين من غير أهل الكتاب : نحن أول من سيفتح عليه ويؤمن به عندما يبعث، كما جاء هذا في كتبهم، قال تعالى ﴿فَلَمَّا جَاءَهُمْ مَا عَرَفُوا﴾ أي فلما جاءهم محمد الذي عرفوه بأوصافه كما هي عندهم ﴿كَفَرُوا بِهِ فَלَعَنَهُ اللَّهُ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾ [البقرة].

قال تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ﴾ الله سبحانه هو الذي أرسل في العرب الذين ليس عندهم كتاب سماوي سابق، ولا يوجد لديهم أثر رسالة، فأرسل فيهم ﴿رُسُلًا مِّنْهُمْ﴾ ليس غريبا عنهم، بل إنهم يعرفون حسبه ونسبه، وصدقه وأمانته وعفافه، أرسله إلى الناس كافة بشيرا ونذيرا، وهذا نص في استجابة دعوة إبراهيم عليه السلام فيهم حين قال ﴿رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رُسُلًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [البقرة]. وهو ﷺ أمي مثل قومه، لم يقرأ كتابا سماويا قبل ذلك، وليس لديه أثر من آثار الرسل السابقين، وقد جاء نعتُه في كتب الأنبياء السابقين بـ (النبي الأمي) وهذه الأمية أقرب إلى تصديق رسالته، لدفع توهم أنه ﷺ استعان بكتب من قبله، ولا بالكتابة والقراءة على ما يأتيه من الوحي، كما قال تعالى ﴿وَمَا كُنْتَ تَتْلُوا مِنْ قَبْلِهِ مِنْ كِتَابٍ وَلَا تَخُطُّهُ، يَمِينُكَ إِذَا لَا تَرْتَابَ الْمُبْطِلُونَ﴾ [العنكبوت] وقال سبحانه : ﴿وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ وَلَكِنْ جَعَلْنَاهُ نُورًا نَّهْدِي بِهِ مَن نَّشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا...﴾ [الشورى: ٥٢].

وقال جل شأنه: ﴿قُلْ لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا تَلَوْتُهُ عَلَيْكُمْ وَلَا أَدْرَاكُمْ بِهِ فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِّن قَبْلِهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ [يونس] فكانت معجزته ﷺ في أميته.

وقد وصف الله اليهود بالأميين أيضا:

قال تعالى عن بني إسرائيل:

﴿وَمِنْهُمْ أُمِّيُونَ لَا يَعْلَمُونَ الْكِتَابَ إِلَّا أَمَانِي وَإِنَّهُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ﴾ (٧٨) [البقرة] فقد وصف الله

سبحانه اليهود أيضا بالأمية في هذه الآية.

وفي هذا رد على من قال منهم عن النبي ﷺ: (هو رسول الأمين وليس رسولا إلينا) فهم أميون أيضا.

قال ابن صياد للنبي ﷺ لما قال له: (أشهد أني رسول الله) قال: أشهد أنك رسول الأمين، وكان ابن صياد يهوديًا متدينًا باليهودية.

أَرْبَعَةُ أَوْصَافٍ لِلنَّبِيِّ ﷺ فِي الْآيَةِ:

وكما وصف الله تعالى نفسه في الآية السابقة بأربعة أوصاف، فقد وصف رسوله محمدًا ﷺ في هذه الآية بأربعة أوصاف هي جماع البلاغ النبوي للأمة، وتعداد لنعم الله تعالى عليهم، وبيان لبعض ما حباهم به من فضل:

الوصف الأول: أنه ﷺ ﴿يَسْلُوا عَلَيْهِمْ ءَايَتُهُ﴾ أي يقرأ عليهم القرآن الموجب للإيمان واليقين، مع كونه أميًا، وفيه منهج الله تعالى إلى خلقه بما يحقق سعادتهم في الدنيا والآخرة، إن هم استجابوا له، وأحلّوا حلاله وحرّموا حرامه، وأقاموا حدوده.

والتلاوة: هي القراءة المتتابعة المرتلة، يتلو بعضها بعضا مع إقامة الحروف وتدبر المعاني.

الوصف الثاني: ﴿وَيُزَكِّيهِمْ﴾ أي يطهرهم من العقائد الفاسدة، وعلى رأسها: الكفر والشرك، ويدعوهم إلى التوحيد وإخلاص العبادة لله، ويطهرهم من الأخلاق الذميمة ويزجرهم عنها، كأكل الميتة وشرب الخمر، وواد البنات، وقطع الطريق، ويرغبهم في الأخلاق الفاضلة.

لقد دعا إبراهيم ربه أن يبعث في هذه الأمة رسولا منهم، يتلو عليهم آياته ويعلمهم الكتاب والحكمة ويزكيهم، كما جاء ذلك في آية سورة البقرة ﴿رَبَّنَا وَاتَّبَعْنَا فِيهِمْ رَسُولًا وَمِنْهُمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ ءَايَتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [البقرة: ١٢٩]

فكان طلب تركية الأخلاق في نهاية دعائه، ولمّا أجاب الله دعوة إبراهيم كان أول بند من بنود الرسالة الخاتمة، هو تركية الأخلاق، كما جاء ذلك في آية سورة البقرة ﴿كَمَا أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولًا مِنْكُمْ يَتْلُوا عَلَيْكُمْ ءَايَاتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ١٥١] وفي هذا إشارة إلى مكانة حسن الخلق في الإسلام.

ونظير ذلك قوله تعالى: ﴿لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْ أَنْفُسِهِمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ ءَايَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾ [آل عمران: ١٠٣].
الوصف الثالث: ﴿وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ﴾ الكتاب هو القرآن، والحكمة هي السنة، وقيل: الكتاب: الخط بالقلم، والحكمة: الفقه في الدين، وعلم الكتاب والسنة يشتمل على علوم الأولين والآخرين.

وبتركية الأخلاق، وعلم الكتاب والسنة يكونون أئمة أهل العلم والدين، وأكمل الناس خلقاً، وأحسنهم هدياً، اهتدوا في أنفسهم، وصاروا أئمة في الهدى لغيرهم، فكانوا هداة مهدين، وهذه أكمل نعمة وأعظم منحة.

قال تعالى: ﴿وَأَذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَمَا أُنْزِلَ عَلَيْكُمْ مِنَ الْكِتَابِ وَالْحِكْمَةِ يَعِظُكُمْ بِهِ...﴾ [البقرة: ٢٣١].
وليست رسالة محمد ﷺ قاصرة على تخلي الأمة عن النقائص والردائل، وتحليلها بالفضائل والكمالات، بل إنها مُنقذة للأمة مما كانت فيه من ضلال أهل الشرك والوثنية.
الوصف الرابع: جاء في قوله تعالى: ﴿وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾ أي وإن أمة العرب كانوا قبل رسالة محمد ﷺ في شرك وجاهلية عمياء وضلال بين.

وهذا الضلال المبين وصفه جعفر بن أبي طالب للنجاشي في قوله:

(أيها الملك: كنا قومًا أهل جاهلية، نعبد الأصنام، ونأكل الميتة، ونأتي الفواحش، ونقطع الأرحام، ونسيء الجوار، ويأكل القوي منا الضعيف، فكنا على ذلك حتى بعث الله إلينا رسولاً منا، نعرف نسبه وصدقه وأمانته وعفافه، فدعانا إلى الله تعالى لنؤخّده ولنغيبه، ونخلع ما كنا نعبد نحن وآباؤنا من دونه، من الحجارة والأوثان، وأمرنا بصدق الحديث، وأداء الأمانة، وصلة الرحم، وحسن الجوار، والكف عن المحارم والدماء،

ونهاننا عن الفواحش وقول الزور، وأكل مال اليتيم، وقذف المحصنات، وأمرنا أن نعبد الله ولا نشرك به شيئاً، وأمرنا بالصلاة والزكاة والصيام^(١).

عالمية الرسالة : ومع هذا كله فقد عَلِمَ الله سبحانه أن هذا الضلال سيزول، وأن هذه الأمة هي المؤهلة لأن يختم الله بها الرسائل السماوية، وَعَلِمَ جل شأنه أن جزيرة العرب هي أفضل البقاع لتحرير العالم من هذا الضلال، وأنها أقرب إلى قبول الصلاح والإصلاح من غيرها ، فاختارها للرسالة الخاتمة وإصلاح البشرية.

وقد كان العرب قديماً متمسكين بدين إبراهيم عليه السلام، ولكنهم بدّلوه وغيروه، فجعل أكثرهم: التوحيد شركاً، واليقين شكاً، وابتدعوا أشياء لم يأذن بها الله.

وأهل الكتاب كذلك بدّلوا كتبهم وحرفوها، فبعث الله محمداً ﷺ بشرع شامل كامل، فيه الهداية والبيان لكل ما يحتاجه الناس في معاشهم ومعادهم، وجمع له جميع المحاسن، ليخرج هذا العالم من الظلمات إلى النور، ومن الضلال إلى الهدى..

وكان بدء انطلاق هذا الدين إلى العالم: من جزيرة العرب إلى العالم كله، وإلى الأجيال المتتابعة من العرب والعجم وسائر البشر، فقد بعث الله تعالى محمداً ﷺ من الأميين في مكة إلى من سواهم، وفي آخرين من العرب لم يكونوا في عصر النبي ﷺ، وآخرين من غير العرب يتصلّون بهم، ويصيّرون في جملتهم من كل من يدخل في الإسلام شرقاً وغرباً، وشمالاً وجنوباً، فيصيرون من أبناء الإسلام ويصبحون أقرب إلى المسلمين من العربي غير المسلم، وإن كان من الأهل والعشيرة.

﴿وَأَخْرَجْنَا مِنْهُمْ لَمَّا يَلْحَقُوا بِهِمْ﴾ أي وأرسل الله تعالى محمداً ﷺ إلى قوم آخرين لم يجيئوا بعد، وسيجيئون تبعاً من العرب ومن غيرهم، وهذا يصدق على كل من أسلم ويُسلم إلى يوم القيامة في أي بقعة من العالم.

(١) ينظر : المسند (١٧٤٠) بإسناد حسن، رجاله ثقات رجال الشيخين غير محمد بن إسحاق، وهو في سيرة ابن هشام (١ / ٣٥٧) وعند البيهقي في الدلائل (٢ / ٣٠١).

فليست هذه الرسالة خاصة بالعرب كما يزعم من يجهل حقيقة الديانات، وإنما هي رسالة عامة للعرب ولغيرهم من الإنس والجن إلى قيام الساعة، كما قال تعالى: ﴿وَأَوْحَىٰ إِلَيْنَا هَذَآ الْقُرْآنَ لِأُنذِرَكُمْ بِهِ وَمَنْ بَلَغَ ...﴾ [الأنعام: ١٩] أي وأنذر كل من بلغته الرسالة من البشر من كل جنس ولون ولغة، ومنهم أهل الكتاب فقد أمروا في الدخول في الإسلام كما في قوله تعالى: ﴿وَقُلْ لِلَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَالْأُمِّيِّينَ أَسْلَمْتُمْ فَإِنْ أَسْلَمُوا فَقَدْ أَهْتَدُوا﴾ [آل عمران: ٢٠]. وجاء عموم الرسالة إلى الناس كافة في مثل قوله تعالى: ﴿قُلْ يَتَّيْبَهَا النَّاسُ إِلَيَّ رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا ...﴾ [الأعراف: ١٥٨].

وقوله جل شأنه: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا ...﴾ [سبأ: ٢٨].

بل إنها رسالة رحمة إلى العالم كله، بما يتجاوز الإنس والجن إلى غيرهم، كما في قوله تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾ [الأنبياء: ١٠٧].

وقوله: ﴿تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا﴾ [الفرقان: ١].

والآية فيها بشارة غيبية بأن دعوة النبي ﷺ ليست للعرب وحدهم، بل هي إلى: فارس، والروم، والأكراد، والبربر، والسودان، والأرمن، والترك، والتتار، والمغول، والصين، والهند، وأمريكا، وبريطانيا، وفرنسا، والحبشة، والبلقان، وروسيا، والشيشان، والفلبين، وغير ذلك من سائر أرجاء الدنيا في قارات العالم كله، سواء من أجاب منهم دعوة النبي ﷺ أو ممن هو مدعو إلى الدخول فيها، ومطالب بالانتماء إليها.

عن أبي هريرة ؓ قال: كنا جلوساً عند النبي ﷺ فأنزلت عليه سورة الجمعة، فلما بلغ ﴿وَأَخْرَجْنَا مِنْهُمْ لَمَّا يَلْحَقُوا بِهِمْ﴾ قال له رجل: من هم، يا رسول الله؟ فلم يراجعهُ حتى سأل ثلاثاً، قال: - وفينا سلمان الفارسي، فوضع رسول الله يده على رأس سلمان - ثم قال: «لو كان الإيمان عند الثريا، لناله رجال من هؤلاء»^(١)

(١) البخاري برقم (٤٨٩٧) ومسلم برقم (٢٥٤٦) والترمذي (٣٩٣٣، ٣٣١٠) والنسائي في الكبرى (٨٢٧٨)، (١١٩٢) والطبري (٦٣٠/٢٢) والبيهقي (٣٣٣/٦) في الدلائل والمسنَد (٩٤٠٦) وابن حبان (٧٣٠٨) وشرح مشكل الآثار للطحاوي (٢٢٩٦).

والمراد: أن أمة فارس من بين الأمم التي تدخل في الإسلام، وهذا يفيد أن نزول هذه السورة كان بعد إسلام أبي هريرة رضي الله عنه عام خيبر.

وعن سهل بن سعد رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إِن فِي أَصْلَابٍ، أَصْلَابٍ، أَصْلَابٍ رِجَالٍ مِنْ أَصْحَابِي رِجَالًا وَنِسَاءً يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ بِغَيْرِ حِسَابٍ» ثم قرأ الآية ^(١). وقال مجاهد: هم الناس كلهم الذين بعث إليهم محمد ﷺ.

وفي الآية إشارة إلى أن ﴿وَالْآخَرِينَ﴾ أي من غير العرب، وفي ﴿مِنْهُمْ﴾ إشارة إلى العرب، وفي هذا امتنان من الله تعالى على كل من يدخل في الإسلام من العالم أجمع من أهل الكتاب ومن غيرهم، ممن لم يلحقوا بمن سبقهم من أهل الإيمان في الفضل، ولم يلحقوا بهم في الزمان، فإن الوقت الذي بعث فيه محمد ﷺ حصل لأهله من الفضائل والخصائص مالم يحصل لغيرهم.

ثم ختم الله الآية بقوله ﴿وَهُوَ الْعَزِيزُ﴾ أي: الذي لا يغلب ولا يقهر ﴿الْحَكِيمُ﴾ في أقواله وأفعاله، ومن عزته وحكمته أنه لم يترك عباده شدى، بل ابتعث فيهم رسوله فأمرهم ونهاهم. قال تعالى:

٤- ﴿ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾

أشار سبحانه إلى أن ما اختص به محمدا ﷺ من هذه الرسالة الخاتمة، هو محض فضل من الله تعالى، وهو أعلم حيث يجعل رسالته، كما أشار سبحانه إلى توفيق من وفق إلى الدخول في الإسلام فقال تعالى: ﴿ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ﴾.

وهذه الإشارة تشمل صاحب الرسالة ﷺ وتشمل من أرسل إليهم النبي ﷺ من العرب ومن سائر الأمم، ممن سيلحقون بهم زمن البعثة وبعدها، فوصلتهم الدعوة وأدركوا فضلها واعتنقوها.

(١) رواه الطبراني في المعجم الكبير (٢٠١/٦) (٦٠٠٥) وصححه الألباني في كتاب السنة برقم (٣٠٩) وقال الهيثمي: رواه الطبراني وإسناده جيد، المجمع (٤٠٨/١٠).

وقد امتن الله تعالى على رسوله ﷺ بهذه الرسالة فقال ﴿... وَأَنْزَلَ اللَّهُ عَلَيْكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ وَكَانَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا ۝١٣﴾ [النساء: ١٣].

وامتن سبحانه وتعالى على المؤمنين بهذه الرسالة في قوله ﴿لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْ أَنْفُسِهِمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ۝١٦﴾ [آل عمران: ١٦].

وختم الله الآية ببيان سعة فضله وعظيم إنعامه فقال: ﴿وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾ أي هو صاحب الإحسان والفضل والعطاء الجزيل، ومن ذلك: إفاضة التعليم على الأمة، ببركة هذه الرسالة، بعد أن كانت أمة أمية، ولا نعمة أفضل من نعمة الدين، فهي مادة الفوز والسعادة الأبدية، ومن هذه النعمة: اتساع رقعة الإسلام بحيث شمل العالم بأسره. ومنها: زوال اختصاص بني إسرائيل بالرسالة، كما قال تعالى ﴿وَلَا تُؤْمِنُوا إِلَّا لِمَنْ تَبِعَ دِينَكَ قُلُوبُ إِنْ الْهَدَى اللَّهُ أَنْ يُؤْتِيَ أَحَدٌ مِثْلَ مَا أُوتِيتُمْ أَوْ يُعَاجِزْكُمْ عِنْدَ رَبِّكُمْ قُلْ إِنْ الْفَضْلُ بِيَدِ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَسِعَ عَلَيْهِ ۝٧٣﴾ يَخْنُصُ بِرَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ ۝٧٤﴾ [آل عمران: ٧٣-٧٤].

الَّذِي لَا يَنْتَفِعُ بِمَا يَعْلَمُ كَالْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا

٥- ﴿مَثَلُ الَّذِينَ حُمِلُوا الثَّوْرَةَ^(١) ثُمَّ لَمْ يُحْمِلُوهَا كَمَثَلِ الْحِمَارِ^(٢) يَحْمِلُ أَسْفَارًا يَنْسُ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ۝٥﴾

ولما منَّ الله تعالى على حبيبه محمدا ﷺ بختم النبوة، حسده اليهود على تحوُّل الرسالة منهم إلى العرب، قال تعالى ﴿أَمْ يَحْسُدُونَ النَّاسَ عَلَى مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ﴾ [النساء: ٥٤] وكان اليهود يفتخرون على العرب بأنهم أهل كتاب، والعرب لا كتاب لهم.

(١) أمال الأصهباني وأبو عمرو وابن ذكوان والكسائي وخلف ألف ﴿الثَّوْرَةَ﴾ وقللها الأزرق وبالفتح والتقليل لقالون، وبالتقليل فقط للأزرق، وبالتقليل والإمالة لحمزة، وبالفتح الباقيين.

(٢) أمال ألف ﴿الْحِمَارِ﴾ أبو عمرو ودوري الكسائي وابن ذكوان بخلف عنه، وبالتقليل للأزرق، وللوسوسي وقفا الإمالة والفتح والتقليل، والباقيون بالفتح.

لذا: شرعت الآيات في ذم اليهود، فقد بين سبحانه وتعالى أنه قد أعطى اليهود التوراة، ولكنهم لم ينتفعوا بها، ولم يعملوا بما فيها، فلم يهتدوا بهديها، ولم يُزَكُّوا أنفسهم بما فيها، بل كانوا يحملون التوراة، وينتقلون بها من مكان إلى مكان، ويزعمون أن مجرد حملهم لها وافتخارهم بها كافٍ عن القيام بما فيها، فأبطل الله سبحانه زعمهم هذا، وبين أنهم لا حظَّ لهم من التوراة في مجرد حملها دون علم ولا فهم ولا عملٍ بمقتضاها، وفي مقدمة ذلك مقاومتهم لدعوة محمد ﷺ ومظاهرة المشركين عليه، مع علمهم بأنه رسول الله حقًا وصدقًا، ولكنهم كتموا ذلك.

فأفاد سبحانه وتعالى أن اليهود قد انتهى ذورهم في حمل أمانة الله تعالى، لأن هذه الأمانة لا يحملها إلا ذوو القلوب الحية الواعية التي تعقل عن الله أمره ونهيه، وتُزجِّمها إلى عمل وواقع.

ولهذا شبههم الله تعالى بالحمار، لأنه لا ينتفع بما يحمله، وشبه التوراة بأسفار الكتب الجامعة للعلوم للنافعة.

وشبه تكليف اليهود بالعمل بما في التوراة، بما يحمله الحمار من تلك الأسفار. وكما أن الحمار لا ينتفع بما يحمله على ظهره من العلوم النافعة، وليس له إلا ثقل الحمل من غير فائدة، فهو يتعب في حملها ولا ينتفع بما فيها، فكذلك اليهود كُلفوا في التوراة، باتباع محمد ﷺ وإظهار صفاته للناس حين يأتي، فخانوا وحرفوا وبدلوا، ولم ينتفعوا بسائر ما فيها من الهدى والنور.

فوجهُ الشبه: هو عدم انتفاع اليهود بما كُلفهم الله به في التوراة مع علمهم بما فيها، فهم يعرفون محمدًا أكثر مما يعرفون أبناءهم، ومع هذا كفروا به.

وفي هذا غاية التحذير للمؤمنين ألا يعملوا بما كُلفهم الله به وألا يبلِّغوه للناس.

﴿مَثَلُ﴾ أي حال اليهود في البلادة والغباء، وهم الذين أنزل الله عليهم التوراة لهدايتهم ثم لم يعملوا بها ﴿كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا﴾ أي يحمل كُتُبًا لا يدري ما فيها.

قال الضحاك: وأنتم إن لم تعملوا بهذا الكتاب، كان مثلكم كمثليهم.
 قال تعالى في آية مماثلة: ﴿أُولَئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ...﴾ [الأعراف: ١٧٩].
 وفي آية أخرى قال تعالى: ﴿فَثَلَّهُ كَثَلِ الْكَلْبِ إِنْ تَحِيلَ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَثْ...﴾ [الأعراف: ١٧٦].

ثم ذم الله تعالى من كان مثليهم هذا، ونفر سبحانه من حالهم، فقال: ﴿يَسْ مَثَلُ الْفُؤَادِ
 الَّذِينَ كَذَبُوا بِعَايَةِ اللَّهِ﴾ فلم ينتفعوا بها ولم يعملوا بما فيها، بس المثل مثلهم؛ لأنهم كذبوا
 بآيات الله الدالة على صدق رسوله، ﴿وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ أي لا يوفق لطاعته وهدايته
 القوم الظالمين، لأنهم تجاوزوا حدود الله، وخرجوا عن أمره ونهيه، ومن ظلم اليهود أنهم
 يعلمون أنهم على باطل، ويزعمون أنهم على حق وأنهم أولياء لله من دون الناس.
 قال ميمون بن مهران: يا أهل القرآن، اتبعوا القرآن، قبل أن يتبعكم، ثم تلا هذه الآية.
 وجاء عن ابن عباس ؓ أن رسول الله ﷺ قال: «من تكلم يوم الجمعة والإمام
 يخطب، فهو كمثل الحمار يحمل أسفارا، والذي يقول له: أنصت، ليست له جمعة»^(١).
 فكل من يحمل اسمًا من أسماء أبناء المسلمين، ولا يعمل بعمل أهل الإسلام فهو
 داخل في هذه الآية.

وكل من يقرأ القرآن ولم ينهض للعمل بما فيه فهو كالحمار الذي يحمل أسفارا.
 وهكذا ذم الله اليهود لعدم العمل بما في التوراة، وشبههم بهذا التشبيه الذي يود يهود
 اليوم أن يتخلصوا منه فضلا عن يهود الأمس، وأنى لهم ذلك؟
 وهو قرآن يتلى إلى قيام الساعة، وفيه هذا الوصف الذي يلحقهم في كل زمان
 ومكان، وهم مستحقون له بجدارة.

(١) المسند (٢٣٠/١) برقم (٢٠٣٣) بإسناد ضعيف لضعف مجالد بين سعيد الهمداني وابن أبي شيبة
 (١٢٥/٢) قال الهيثمي في مجمع الزوائد (١٨٤/٢) فيه مجالد بن سعيد وقد ضعفه بعضهم ووثقه
 النسائي في رواية، ورواه الطبراني في الكبير (١٢٥٦٣) وضعفه الألباني في السلسلة الضعيفة (١٧٦٠).

مَنْ كَانَ مِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ أَحَبَّ التَّخْلَصَ مِنْ دَارِ الْأَكْدَارِ

٦- ﴿قُلْ يَأَيُّهَا الَّذِينَ هَادُوا إِنْ زَعَمْتُمْ أَنَّكُمْ أَوْلِيَاءُ لِلَّهِ مِنْ دُونِ النَّاسِ فَتَمَنَّوْا الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ

صَادِقِينَ ﴿٦﴾﴾

ثم أظهر الله تعالى كذب اليهود، في زعمهم أنهم أولياء الله من دون الناس، وأنهم أبناؤه وأحبائه وافتخارهم بذلك على سائر الناس، فقال تعالى ﴿قُلْ يَأَيُّهَا الَّذِينَ هَادُوا﴾ قل - أيها الرسول - لهؤلاء الذين تمسكوا بالديانة اليهودية المحرفة، وادعوا أنهم متبعون لها ﴿إِنْ زَعَمْتُمْ أَنَّكُمْ أَوْلِيَاءُ لِلَّهِ مِنْ دُونِ النَّاسِ﴾ أي إن كنتم صادقين في زعمكم أنكم على حق وادعيتكم كذباً أنكم أحباء الله، كما قال تعالى عنكم ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ وَالنَّصْرَانِيَّةُ نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ وَأَحِبُّوهُ﴾ إن كنتم كذلك فاطلبوا لقاءه، وتمنوا الموت مادمتهم صادقين في دعواكم. فإن كنتم على حق في زعمكم أنكم أبناء الله وأحبائه ﴿فَتَمَنَّوْا الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ في ادعائكم حب الله لكم، لتنتقلوا سريعاً إلى دار كرامته التي أعدها لأوليائه كما قلتم ﴿لَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَنْ كَانَ هُودًا أَوْ نَصْرِيًّا...﴾ [البقرة: ١١١].

ولو أن أحدهم تمنى الموت لأصابه شُرقة فمات بها ورأى مقعده من النار^(١).

وفي الآية الأخرى ﴿قُلْ إِنْ كَانَتْ لَكُمْ الدَّارُ الْآخِرَةُ عِنْدَ اللَّهِ خَالِصَةً مِنْ دُونِ النَّاسِ فَتَمَنَّوْا الْمَوْتَ

إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿١٧﴾﴾

ولما لم يطلبوا ذلك أبطل سبحانه زعمهم هذا، وبيّن أنهم كغيرهم، وأنهم ليسوا أفضل من الناس في شيء، فقال في تنمة الآية من سورة المائدة ﴿قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُمْ بِذُنُوبِكُمْ بَلْ أَنْتُمْ بَشَرٌ مِمَّنْ خَلَقَ يَغْفِرُ لِمَن يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ...﴾ [المائدة: ١٨].

وقد أبطل الله تعالى قول اليهود في ثلاث نقاط من هذه السورة وهي:

١- أنهم لما افتخروا بأنهم أولياء الله وأحبائه، كذبهم الله في قوله ﴿فَتَمَنَّوْا الْمَوْتَ إِنْ

كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾

(١) ينسب هذا إلى ابن عباس رضي الله عنهما كما في تفسير الطبري (٤٢٧/١).

٢- ولما افتخروا بأنهم أهل كتاب، والعرب لا كتاب لهم، شبههم الله بالحمار الذي يحمل أسفاراً.

٣- ولما افتخروا بيوم السبت، وأنه ليس للمسلمين مثله، شرع الله لهم يوم الجمعة ثم رفعه عنهم.

٤ - وقد بين القرآن أن اليهود والنصارى مثل جميع الناس يجري عليهم ما يجري على غيرهم في الدنيا والآخرة كما قال تعالى ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ وَأَحِبُّوهُ قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُمْ بِذُنُوبِكُمْ بَلْ أَنْتُمْ بَشَرٌ مِمَّنْ خَلَقَ...﴾ [المائدة: ١٨]

ثم نفى الله سبحانه تمنيه لقاءه تعالى بسبب سوء أعمالهم من الذنوب والمعاصي التي يخافون من الموت بسببها فقال ﴿وَلَنْ يَسْمَنُوهُ أَبَدًا يَمَّا قَدِمَتْ أَيْدِيهِمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ﴾ وقد بين سبحانه أنهم أحرص الناس على حياة، أي مهما كانت هذه الحياة، ومهما كانت قليلة أو قصيرة فقال ﴿وَلَنَجْذِثَهُمْ أَحْرَصَ النَّاسِ عَلَى حَيَاتِهِ مِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا يَوَدُّ أَحَدُهُمْ لَوْ يُعَمَّرَ أَلْفَ سَنَةٍ وَمَا هُوَ بِمُزَحَّزَجِهِ مِنَ الْعَذَابِ أَنْ يُعَمَّرَ...﴾ [البقرة: ٩٦].

وفي الحديث عن عبادة بن الصامت رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «من أحب لقاء الله أحب الله لقاءه، ومن كره لقاء الله كره الله لقاءه»، قالت عائشة أو بعض أزواجه: إنا لنكره الموت، قال: «ليس ذاك ولكن المؤمن إذا حضره الموت بُشِّرَ برضوان الله وكرامته، فليس شيء أحب إليه مما أمامه، فأحب لقاء الله وأحب الله لقاءه، وإن الكافر إذا حضر بشر بعذاب الله وعقوبته، فليس شيء أكره إليه مما أمامه كره لقاء الله وكره الله لقاءه»^(١).

ويحتمل أن تكون هذه الآية من باب طلب المباهلة، وهي أن يقف الفريقان المتنازعان وجهًا لوجه، ويتوجهان بالدعاء إلى الله تعالى أن يخذل المبطل منهما، ويحتمل أيضاً أن يكون هذا من باب التحدي لهم.

(١) صحيح البخاري (٦٥٠٧) عن عبادة، وجاء عن عبادة في صحيح مسلم برقم (٢٦٨٣)، وعن عائشة بنحوه برقم (٢٦٨٤).

عن عكرمة عن ابن عباس ؓ قال: قال أبو جهل -لعنه الله- إن رأيتُ محمدًا عند الكعبة لآتيته حتى أطأ على عنقه، قال: فقال رسول الله ﷺ: «لو فعل لأخذته الملائكة عياناً، ولو أن اليهود تمّتوا الموت، لماتوا، ورأوا مقاعدهم من النار، ولو خرج الذين يباهلون رسول الله ﷺ لرجعوا، لا يجدون مالاً ولا أهلاً»^(١).

فماذا يخيف اليهود إذن من الموت، ويجعلهم أجبن خلق الله؟ وهم عندما يموتون يلقون ما يلقاه أولياء الله المقربون، على حدّ زعمهم أنهم أولياء الله من دون الناس!! فإن من أيقن بأنه من أهل الجنة أحب التخلص من دار الأكدار.

ورد أنه لما ظهر النبي ﷺ كتب يهود المدينة إلى يهود خيبر: إن اتبعتم محمدًا أطعناه، وإن خالفتموه خالفناه، فقالوا: - أي يهود خيبر: - نحن أبناء خليل الرحمن، ومنا عزيز ابن الله، ومنا الأنبياء، ومتى كانت النبوة في العرب؟ نحن أحق بها من محمد، ولا سبيل إلى اتباعه، فنزلت هذه الآيات^(٢).

وقد سُمّي اليهود: يهودا، نسبة إلى أبيهم (يهوذا) أحد أبناء يعقوب، فهم من نسله، وهو الذي أشار بقتل يوسف عليه السلام، أو أنهم سُمّوا يهودا من قوله تعالى حكاية عنهم ﴿إِنَّا هَذَا آلَيْكَ...﴾ [الأعراف: ١٥٦] أي رجعنا إليك وتبنا من عبادة العجل.

مِنْ أَسْبَابِ عَدَمِ تَمَنُّي الْيَهُودَ لِلْمَوْتِ

٧- ﴿وَلَا يَتَمَنَّوْنَهُ أَبَدًا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ﴾ (٧)

كشف الله سبحانه في هذه الآية عن سبب عدم تمني اليهود للموت، فبين أنهم يذكرون الموت بألستهم، ولكنهم لن يتمنوه لسببين:

(١) المسند (٢٤٨/١) برقم: (٢٢٢٥، ٣٤٨٣) عن ابن عباس بإسناد صحيح على شرط البخاري، رجاله ثقات رجال الشيخين غير عكرمة فمن رجال البخاري، والبخاري برقم (٤٩٥٨) والترمذي برقم (٣٣٤٨)، وقال حديث حسن صحيح غريب، والنسائي في السنن الكبرى برقم (١١٦٨٥).

(٢) تفسير الألوسي (٩٦/٢٨).

أحدهما: شدة حرصهم على الحياة، لِعَلِّمِهِمْ أَنَّهُمْ إِذَا تَمَنَّوْا الْمَوْتَ مَاتُوا مِنْ فُورِهِمْ، وَأَنَّهُمْ إِذَا مَاتُوا دَخَلُوا النَّارَ، كَمَا تَقَرَّرُ ذَلِكَ آيَةُ سُورَةِ الْبَقَرَةِ ﴿وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمُ النَّاسِ عَلَى حَيَاتِهِمْ مِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا يَوْمَئِذٍ أَحَدُهُمْ لَوْ يُعَمَّرُ أَلْفَ سَنَةٍ وَمَا هُوَ بِمُرَزَّحٍ مِنْهُ مِنَ الْعَذَابِ أَنْ يُعَمَّرَ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ﴾ (١١).

وثانيهما: ما قدمته أيديهم من الكفر والمعاصي، كقولهم ﴿إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَاءُ...﴾ [آل عمران: ١٨١] وقولهم ﴿قُلُوبُنَا غُلْفٌ﴾ [البقرة: ٨٨].

وقولهم ﴿يَدُ اللَّهِ مَغْلُولَةٌ...﴾ [المائدة: ٦٤]، وقولهم ﴿عُزِّرُوا بِنُورِ اللَّهِ...﴾ [التوبة: ٣٠].

وجاء عن ابن عباس ؓ أنه قال (لو تمنوا الموت، لشرق أحدهم بريقه) ^(١).

وجاء عنه أيضا: (لو تمنوا الموت ما بقي على ظهرها يهودي إلا مات) ^(٢).

ولم يتمن أحدهم الموت، لأنهم موقنون في واقعهم بصدق النبي ﷺ، فعلموا أنهم لو تمنوا الموت لغص أحدهم بريقه فمات مكانه، ولماتوا جميعا من ساعتهم، وهذا من معجزات القرآن الكريم.

ولو أن أحدا من اليهود تمنى الموت لثقل ذلك عنهم واستفاض، ولو أن يهوديا نطق بتمني الموت مع حرصه على الحياة فإن هذا لا يعارض الآية.

قال الألوسي: لم يتمن أحد منهم الموت، لأنهم كانوا موقنين بصدقه ﷺ، فعلموا أنهم لو تمنوه لماتوا من ساعتهم، وهذه إحدى المعجزات، وجاء في سورة البقرة نفى هذا التمني بلفظ ﴿وَلَنْ يَتَمَنَّوْهُ أَبَدًا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ...﴾ [آية: ٩٥] وهو من باب التفنن، على القول المشهور ^(٣). ذلكم قوله تعالى: ﴿وَلَا يَتَمَنَّوْهُ أَبَدًا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ﴾ أي ولا يتمنى اليهود الموت أبدا بحال من الأحوال، إيثارا للحياة الدنيا على الآخرة، وخوفاً من عقاب الله لهم، وذلك

(١) تفسير الطبري ٢/٢٦٨ وابن أبي حاتم (١٧٧/١) (٩٣٦).

(٢) ابن إسحاق، سيرة ابن هشام (٥٤٢/١) والطبري (٢٧٣، ٢٦٩/٢) وابن أبي حاتم (٧٧/١) (٩٣٧، ٩٤٠).

(٣) تفسير الألوسي (٩٦/٢٨).

بسبب ما قدموه من الكفر والمعاصي وسوء الفعال ﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ﴾ ﴿٧﴾ وما يصدر عنهم من فنون الظلم والمعاصي لا يخفى عليه - سبحانه - من ظلمهم شيء.

وقد وصف الله اليهود بالظالمين في مواطن كثيرة من كتابه، كقوله تعالى عن عبادتهم للعجل: ﴿اتَّخَذُوهُ وَكَانُوا ظَالِمِينَ﴾ ﴿١٢٨﴾ [الأعراف].

وقوله تعالى في عقوبتهم: ﴿... فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِجْزًا مِنْ السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَظْلِمُونَ﴾ ﴿١٣٢﴾ [الأعراف].

وقوله سبحانه: ﴿... ثُمَّ اتَّخَذْتُمُ الْعِجْلَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَنْتُمْ ظَالِمُونَ﴾ ﴿٥١﴾ [البقرة].

وقوله جل شأنه: ﴿... وَمَا ظَلَمُونَا وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ ﴿٥٧﴾ [البقرة].

لَا فِرَارَ مِنَ الْمَوْتِ

٨- ﴿قُلْ إِنْ أَلَمْتُ أَلَّذِي تَفِرُّونَ مِنْهُ فَإِنَّهُ مُلَاقِيكُمْ ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَىٰ عِلِّيِّ الْعَالَمِ وَالشَّهَادَةُ فَبَيْنَاكُمْ

بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ ﴿٨﴾

ومهما حرص اليهود على الحياة ولم يتمنوا الموت، فإنهم لن يفروا من قبضة الله تعالى، ولن ينجو أحد منهم من الموت، فهو مدرکہم لا محالة ﴿قُلْ إِنْ أَلَمْتُ أَلَّذِي تَفِرُّونَ﴾ أي تهربون ﴿مِنْهُ﴾ لا مفر من لقائه، ولن ينجو منهم صغير ولا كبير، ولا طيب ولا مريض، ولا رئيس ولا مرؤوس.

كما قال تعالى ﴿أَيْنَمَا تَكُونُوا يُدْرِكْكُمُ الْمَوْتُ وَلَوْ كُنْتُمْ فِي بُرُوجٍ مُشِيدَةٍ...﴾ [النساء: ٧٨].

وقال سبحانه ﴿قُلْ لَوْ كُنْتُمْ فِي بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ الَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقَتْلُ إِلَىٰ مَضَاجِعِهِمْ...﴾ [آل عمران].

فالموت نازل بكم إن عاجلاً أو آجلاً، وبعد موتكم سترجعون إلى عالم السر والعلانية، فيجازيكم بما تستحقون، وهذا معنى ﴿تُرَدُّونَ﴾ أي يوم البعث والنشور ﴿إِلَىٰ عِلِّيِّ الْعَالَمِ وَالشَّهَادَةِ﴾ أي ترجعون بعد الموت واستكمال الآجال إلى العالم بما غاب وما حضر، فيخبركم يوم القيامة بأعمالكم وأقوالكم، خيرها وشرها ويجازيكم عليها.

عشرة مباحث في يوم الجمعة

٩- ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نُودِيَ لِلصَّلَاةِ مِنْ يَوْمِ الْجُمُعَةِ فَاسْعَوْا إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ وَذَرُوا الْبَيْعَ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١﴾﴾

يأمر الله عباده المؤمنين بالمبادرة إلى صلاة الجمعة حين يُنادى لها، وأن يهتموا بذلك ويجعلوها من أهم الأمور، وأن يتركوا أعمالهم من تجارة وصناعة وزراعة وغير ذلك ويمضوا إليها، فإن في هذا خير لهم وأبقى من أعمالهم الدنيوية، وليس المراد بالسعي إليها: العدو وسرعة المشي، وإنما المراد: المبادرة إليها والاهتمام بها.

هذا: وكان اليهود يفتخرون على المسلمين بيوم السبت، حيث يتفرغون فيه للعبادة ويمتنعون من العمل فيه، فشرع الله للمسلمين يوم الجمعة، وقد ثبت أن الأمم قبلنا أمروا بيوم الجمعة فضّلوا عنه.

واختار اليهود يوم السبت لأنه لم يقع فيه خلق، واختار النصارى يوم الأحد، الذي ابتدئ فيه الخلق، واختار الله لهذه الأمة يوم الجمعة، وهو اليوم الذي أكمل الله فيه الخلق.

ففي حديث أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ: «نحن الآخرون ونحن السابقون يوم القيامة، يُبَدَأُ بهم أوتوا الكتاب من قبلنا، وأوتيناهم من بعدهم ثم هذا يومهم الذي فرض الله عليهم، فاختلفوا فيه، فهدانا الله له، فالتاس لنا فيه تبع، اليهود غداً، والنصارى بعد غد»^(١). والمراد: نحن الآخرون من أهل الدنيا، والأولون يوم القيامة، المقضي بينهم قبل الخلائق. والآيات الثلاث الأخيرة من سورة الجمعة هي الغرض الأساس من السورة، وما قبلها من الآيات توطئة ومقدمة لهذا الغرض. وفي ذلك مباحث:

(١) صحيح مسلم برقم (٨٥٥) والبخاري (٢٣٨، ٨٧٦) والصحيحة للألباني (٧٠٣٦، ٦٦٢٤) والمسند (٧٣١٠) بإسناد صحيح على شرط الشيخين، وابن حبان (٢٧٨٤) والنسائي في الكبرى (١٦٦٥، ١٦٦٦) وأبو يعلى (٦٢٦٩) والحميدي (٩٥٤).

أولاً: أيام الأسبوع:

ويوم الجمعة هو اليوم السابع من أيام الأسبوع، وهو عيد المسلمين الأسبوعي، وقد أمر الله تعالى عباده باستئناف العمل والانتشار في الأرض سعياً على طلب الرزق، عقب الفراغ من صلاة الجمعة، فترك العمل في يوم الجمعة كله ليس أمراً شرعياً. وأيام الأسبوع عند العرب قديماً كانت تُسمى هكذا: أوّل، أهون، جُبَار، دُبَار، مُؤيس، عَزُوبَة، شِيَار.

ثم أحدثوا أسماء لهذه الأيام هي: الأحد، الإثنين، الثلاثاء، الأربعاء، الخميس، الجمعة، وهي التي تسمى عَرُوبَة، والسبت، معناه القطع، واليهود يقطعون فيه العمل فيمتنعون عنه تدثُّناً، وقد شاعت هذه الأسماء عند العرب^(١).

وقد اختص المسلمون بالاجتماع في يوم الجمعة، وشرع الله لهم فيه صلاة الجمعة، والاستماع إلى خطبة الجمعة لتذكيرهم بفضل الله تعالى ونعمه عليهم.

واختص النصارى بيوم الأحد لأنهم زعموا أن عيسى عليه السلام قام من قبره في يوم الأحد، فأمر قسطنطين سلطان الروم سنة ٣٢١م بجعل يوم الأحد عوضاً عن يوم السبت، وصار هذا ديناً لهم، بأمر أحبارهم^(٢)، وما أنزل الله به من سلطان.

وكان الله تعالى أمر عباده أن يجتمعوا في يوم من أيام الأسبوع، ليشكروه على نعمه، وعلى عظيم فضله، فكان لأهل كلِّ ملة يوماً يجتمعون فيه لهذا، فليهود يوم السبت، وللنصارى يوم الأحد، وللمسلمين يوم الجمعة.

ثانياً: أول جمعة في الإسلام:

كانت العرب تسمى يوم الجمعة، يوم (عَزُوبَة) ومعناه: الرحمة، وأول من سمّاها جمعة: (كعب بن لؤي) جد أبي قصي.

(١) ينظر: تفسير التحرير والتنوير (٢٨/٢٢١)، (٢٢٢)

(٢) ينظر: تفسير التحرير والتنوير (٢٨/٢٢٢)

وسبب ذلك: أن أهل المدينة اجتمعوا قبل قدوم النبي ﷺ إليها، فقالت الأنصار: لليهود يوم يجتمعون فيه كل سبعة أيام، وللنصارى مثل ذلك، فلنجعل لنا يوماً نجتمع فيه فنذكر الله تعالى ونشكره، فقالوا: يوم السبت لليهود، ويوم الأحد للنصارى، فاجعلوه يوم العروبة، فاجتمعوا إلى (أسعد بن زُرارة) فصلّى بهم يومئذ ركعتين، وذكرهم، فسُميت الجمعة حين اجتمعوا إليه، فذبح لهم شاة، فتعدّوا وتَعَشَوْا منها، فهي أول جمعة كانت في الإسلام^(١)، وبهذا يُعلم أن الأنصار هم الذين سمّوها (الجمعة) وأن الإسلام أقر ذلك، وأن صلاة الجمعة كانت مشروعة من أول أيام الهجرة، وأن الصحابة قد صلّوها في المدينة قبل قدوم النبي ﷺ إليهم.

روى البيهقي عن الزهري أن مُصعب بن عمير ؓ، كان أول من جمّع الجمعة بالمدينة، قبل أن يُقدّمها النبي ﷺ، فعن أبي مسعود الأنصاري قال: أول من قدم من المهاجرين بالمدينة مصعب بن عمير، وهو أول من جمّع بها يوم الجمعة، جمّع بهم قبل أن يُقدّم رسول الله ﷺ وهم اثنا عشر رجلاً^(٢)، فأول من صلاها من الأنصار سعد ابن زرارة، وأول من صلاها من المهاجرين مصعب بن عمير.

ويتعين أن يكون النبي ﷺ قد بلغه ذلك، وأن الأنصار بلغهم حديث فضل يوم الجمعة، وأنه يوم المسلمين.

ثالثاً: أول جمعة صلاها النبي ﷺ:

وأول جمعة صلاها النبي ﷺ كانت في خامس يوم وصل فيه إلى المدينة مهاجراً، فقد كان قدومه إليها ﷺ في يوم الإثنين، الثاني عشر من شهر ربيع الأول، وكان أول وصوله إلى قباء، وفي يوم الجمعة خرج إلى المدينة فأدركه وقت الجمعة في وادٍ لبني

(١) تفسير الألوسي (١٠٠/٢٨) وتفسير أبي السعود (٢٠٦/٨) وفتح الباري (٢٩٤/٢) ورواه بنحوه عبد الرزاق بإسناد صحيح عن محمد بن سيرين (٥١٤٤).

(٢) أخرجه الطبراني في الأوسط (٦٢٩٤).

سالم بن عوف، وكان لهم فيه مسجد، فجمع الناس، وصلى بهم الجمعة، وخطب فيهم أول خطبة بالمدينة^(١).

فدل هذا على أن صلاة الجمعة كانت مشروعة قبل الهجرة، لأن النبي ﷺ أدركه وقتها وهو في طريقه إلى المدينة فصلاها، ثم صلى الجمعة الثانية في مسجده بالمدينة، وهي أول جمعة أقيمت في المسجد النبوي، وثاني جمعة صلاها الرسول ﷺ بالمدينة.

رابعاً: أول جمعة أقيمت خارج المدينة:

وكان أول جمعة ضلّيت في بلاد الإسلام في مسجد (جُوَاثَا) في الإحساء، وكانت تسمى البحرين، وكانت لعبد القيس^(٢) وكان أهل (جُوَاثَا) قد ثبتوا على الإسلام، لَمَّا ارتدّ بعض العرب بعد وفاة النبي ﷺ.

خامساً: في فضل يوم الجمعة: ومما ورد في ذلك ما جاء:

١- عن أبي هريرة ؓ أن النبي ﷺ قال: «خير يوم طلعت عليه الشمس يوم الجمعة، فيه خلق آدم، وفيه أدخل الجنة، وفيه أخرج منها، ولا تقوم الساعة إلا في يوم الجمعة»^(٣).

٢- وعنه ؓ أن رسول الله ﷺ قال: «خير يوم طلعت عليه الشمس يوم الجمعة، فيه خلق آدم، وفيه أهبط من الجنة، وفيه تيب عليه، وفيه مات، وفيه تقوم الساعة، وما من دابة إلا وهي مُصِيخة -أي مُضغية لنفخة الساعة- يوم الجمعة، من حين تصبح حتى تطلع الشمس شفقاً من الساعة، إلا الإنس والجن، وفيها ساعة لا يصادفها عبد مسلم وهو يصلي يسأل الله شيئاً إلا أعطاه إياه»^(٤).

(١) ذكر نصها القرطبي في تفسيره وقد أخرجه الزبير بن بكار في أخبار المدينة عن ابن شهاب.

(٢) ينظر حديث أبي هريرة في سنن النسائي الكبرى (١٦٦٧).

(٣) صحيح مسلم (٥٨٥، ٨٥٤/٢) والمسند (١٠٩٧٠، ٩٢٠٧) وإسناده صحيح، والترمذي (٤٨٨) والبيهقي في الشعب (٢٩٧٠) والنسائي في الكبرى (١٦٦٢).

(٤) رواه مالك في الموطأ بسند صحيح (١٠٨/١) وقال الترمذي (٣٦٣/٢) هذا حديث صحيح.

٣- وعن أوس بن أبي أوس رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إن من أفضل أيامكم يوم الجمعة، فيه خلق آدم، وفيه قبض، وفيه النفخة، وفيه الصعقة، فأكثروا علي من الصلاة فيه، فإن صلاتكم معروضة علي»، قال: قالوا: يا رسول الله، كيف تُعرض صلاتنا عليك وقد أَرَمْتَ؟ يقولون: بَلَيْت، فقال: «إن الله عز وجل حَرَّمَ على الأرض أن تأكل أجساد الأنبياء»^(١).

٤- وفي صحيح مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «من توضأ فأحسن الوضوء، ثم أتى الجمعة، فاستمع وأنصت غُفر له ما بينه وبين الجمعة الأخرى، وزيادة ثلاثة أيام، ومن مس الحصا فقد لغا»^(٢).

٥- وفي صحيح البخاري وغيره عن عُبَايَةَ بْنِ رِفَاعَةَ قال: أدركني أبوعيسى وأنا أذهب إلى الجمعة فقال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «من اغْبَرَّتْ قدماه في سبيل الله، حَرَّمَهُ الله على النار»^(٣).

٦- وفي البخاري وغيره عن سلمان رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «لا يغتسل رجل يوم الجمعة، ويتطهر ما استطاع من طهر، ويدهن من دهنه، أو يمس من طيب بيته، ثم يخرج، فلا يفرق بين اثنين، ثم يصلي ما كتب له، ثم ينصت إذا تكلم الإمام، إلا غُفر له ما بينه وبين الجمعة الأخرى»^(٤).

(١) أبوداود بسند صحيح برقم (١٠٤٧) وفي صحيح أبي داود (٩٦٢) وابن ماجه برقم (١٠٨٥) عن شداد بن أوس، وصححه الألباني (١٧٩/١) برقم (٨٨٩) والمسنَد ٨/٤ (١٦١٦٢) بإسناد صحيح ورجاله رجال الصحيح وابن أبي شيبة (١٤٩/٢) والحاكم (٢٧٨/١) وصحيح سنن أبي داود (٩٢٥) والطبراني في الكبير (٥٨٩) وابن خزيمة (١٧٣٣).

(٢) صحيح مسلم برقم (٨٥٧).

(٣) صحيح البخاري برقم (٩٠٧)، وانظر (٢٨١١).

(٤) صحيح البخاري برقم (٩١٠، ٨٨٣) والمسنَد (٢٣٧٢٥، ٢٣٧١٠) وإسناد صحيح على شرط البخاري ورجاله ثقات، وابن أبي شيبة (١٥٢/٢) والطبراني في الكبير (٦١٩٠) والبيهقي في شرح السنة (١٠٥٨).

٧- وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال أبو القاسم عليه السلام: «في يوم الجمعة ساعة، لا يوافقها مسلم، وهو قائم يصلي يسأل الله خيراً، إلا أعطاه، وقال بيده قلنا: يقللها، يزهدا»^(١).

٨- وعن أبي سعيد وأبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «إن في الجمعة ساعة لا يوافقها عبد مسلم يسأل الله عز وجل فيها خيراً إلا أعطاه الله إياه، وهي بعد العصر»^(٢).

٩- عن أبي لبابة بن عبد المنذر رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «يوم الجمعة سيد الأيام وأعظمها عند الله، وأعظم عند الله من يوم الفطر ويوم الأضحى، وفيه خمس خلال: خلق الله فيه آدم، وأهبطه فيه إلى الأرض، وفيه توفى الله آدم، وفيه ساعة لا يسأل العبد فيها شيئاً إلا أعطاه الله، ما لم يسأل حراماً، وفيه تقوم الساعة، ما من ملك ولا أرض ولا سماء، ولا رياح، ولا جبال ولا بحر، إلا هُنَّ يُشفقن من يوم الجمعة أن تقوم فيه الساعة»^(٣).

١٠- وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إن في يوم الجمعة لساعة ما دعا الله فيها عبد مسلم بشيء إلا استجاب له»^(٤).

١١- وعن هلال بن يساف رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إن في الجمعة لساعة لا يوافقها مسلم يسأل الله فيها خيراً إلا أعطاه» فقال رجل: يا رسول الله، ماذا أسأل؟ قال: «سل الله العافية في الدنيا والآخرة»^(٥).

سادساً: فضل الاغتسال في يوم الجمعة:

ويستحب للمسلم أن يغتسل قبل صلاة الجمعة بنية غسل الجمعة:

(١) صحيح البخاري برقم (٦٤٠٠، ٥٢٩٤) وصحيح مسلم برقم (٨٥٢).

(٢) المسند (٧٦٨٨) حديث صحيح بشواهده، (محققوه) ومصنف عبد الرزاق (٥٥٨٤)، والطبراني في الدعاء (١٧٩) بدون (وهي بعد العصر)، والبزار (٦١٩)، وموطأ مالك (١/ ١٠٩).

(٣) ابن أبي شيبة (١٥٠/٢) والمسند (١٥٥٤٨) وأبو الشيخ في العظمة (١١٩١) وصحيح سنن ابن ماجه (٨٨٨).

(٤) ابن أبي شيبة (١٤٩/٢) قال الألباني في السلسلة الصحيحة (١٩٣٣) الحديث صحيح بمجموع طرقه، وانظر البخاري (٩٣٥) ومسلم (٨٥٢).

(٥) السلسلة الصحيحة (١٥٢٣) وابن أبي شيبة (٢٠٧/١٠).

١- فقد صح عن عبد الله بن عمر رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «إذا جاء أحدكم الجمعة فليغتسل»^(١).

٢- وعن أبي سعيد رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «غُسل يوم الجمعة واجب على كل محتلم، وأن يستنّ وأن يمس طيباً إن وجد»^(٢).

٣- وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «حق على كل مسلم أن يغتسل في كل سبعة أيام يوماً يغسل فيه رأسه وجسده»^(٣).

وحمل بعض أهل العلم الأمر على الوجوب، إذ لا صارف يصرفه عن ذلك، ومن اغتسل يوم الجمعة للنظافة دون أن ينوي غُسل الجمعة، فلا ثواب له.

كما يسن للمسلم أن يتطيب ويتسوك لصلاة الجمعة، كما في حديث أبي سعيد السابق. سابعاً: ويسن للمسلم أن يلبس أحسن ثيابه كما جاء:

١- عن عبد الله بن سلام أنه سمع رسول الله ﷺ يقول على المنبر: «ما على أحدكم لو اشترى ثوبين ليوم الجمعة سوى ثوبي مهتته»^(٤).

٢- وعن عائشة رضي الله عنها أن النبي ﷺ خطب الناس يوم الجمعة، فرأى عليهم ثياب النمار فقال: «ما على أحدكم إن وجد سعة أن يتخذ ثوبين لجمعتهم، سوى ثوبي مهتته»^(٥).

ثامناً: فضل البكور إلى الجمعة:

قالوا: أول بدعة أحدثت في الإسلام ترك البكور إلى الجمعة، وأن أهل الجنة يجلسون في الجنة، للنظر إلى وجه الله الكريم، على قدر تبكيرهم إلى صلاة الجمعة:

(١) صحيح البخاري برقم (٨٧٧) وصحيح مسلم برقم (٨٤٤).

(٢) صحيح البخاري برقم (٨٨٠، ٨٧٩) وهذا لفظه وصحيح مسلم برقم (٨٤٦).

(٣) صحيح البخاري برقم (٨٩٧) وصحيح مسلم برقم (٨٤٩).

(٤) أبوداود برقم (١٠٧٨) وسنن ابن ماجه برقم (٨٥٠).

(٥) سنن ابن ماجه برقم (١٠٩٦) قال البوصيري في الزوائد (٣٥٦/١١) هذا إسناد صحيح رجاله ثقات.

١- عن ابن مسعود رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إن الناس يجلسون يوم القيامة على قدر تزواحهم إلى الجمعات، الأول، ثم الثاني، ثم الثالث، ثم الرابع، وما رابع أربعة من الله ببعيد».

أي: ولما وجد عبد الله بن مسعود رضي الله عنه ثلاثة قد سبقوه إلى المسجد يوم الجمعة أخذ يؤنب نفسه، ويقول: رابع أربعة، ثم عزى نفسه قائلاً: وما رابع أربعة من الله ببعيد.

٢- وعن أوس بن أبي أوس الثقفي رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «من غُسل واغتسل يوم الجمعة، وبكر وابتكر، ومشى ولم يركب، ودنا من الإمام، واستمع، ولم يَلْغُ، كان له بكل خطوة أجر سنة: صيامها وقيامها»^(١).

٣- قال أبو هريرة رضي الله عنه سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إذا قلت لصاحبك: أنصت والإمام يخطب يوم الجمعة فقد لغوت»^(٢).

٤- وعنه رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «لا تطلع الشمس ولا تغرب، على يوم، أفضل من يوم الجمعة، وما من دابة إلا تفزع ليوم الجمعة، إلا هذين الثقلين من الجن والإنس، على كل باب من أبواب المسجد ملكان يكتبان الأول فالأول، فكَرَجُلٍ قَدَمٌ بَدَنَةً، وَكَرَجُلٍ قَدَمٌ بَقَرَةً، وَكَرَجُلٍ قَدَمٌ شَاةً، وَكَرَجُلٍ قَدَمٌ طَائِرًا، وَكَرَجُلٍ قَدَمٌ بَيْضَةً، فإذا قعد الإمام طويت الصحف»^(٣).

(١) المسند (١٠٤/٤) برقم (١٦١٧٢) بإسناد صحيح ورجال ثقات (محققوه) ويرقم (١٦١٦١) وأبوداود برقم (٣٤٥) والترمذي برقم (٤٩٦) وسنن النسائي (٩٥/٣) وابن ماجه برقم (١٠٨٧) والنسائي في الكبرى (١٦٩٧) وابن حبان (٢٧٨١) وابن خزيمة (١٧٥٨) وعبد الرزاق (٥٥٧٠) والطبراني في الأوسط (١٧٧٤).

(٢) المسند (٧٦٨٦) قال محققوه: هذا الحديث له إسنadan : الأول صحيح على شرط مسلم، والإسناد الثاني على شرط الشيخين، ويجمع الإسنادين معاً حديث رقم (٧٧٦٤) وذلك لأن إبراهيم بن عبد الله بن قارظ من رجال مسلم، وهو في إسناد الحديث الأول، والحديث في مصنف عبد الرزاق (٥٤١٤) وابن خزيمة (١٨٠٥) وأبي يعلى (٥٨٤٦)، وأخرجه مسلم (٨٥١) والبخاري (٩٣٤) والترمذي (٥١٢).

(٣) المسند (٢٧٢/٢) برقم (٧٦٨٧) بإسناد صحيح على شرط مسلم، وصحيح ابن خزيمة برقم (١٧٢٧) بإسناد صحيح، ومصنف عبد الرزاق (٥٥٦٣) وعبد بن حميد (١٤٤٣).

٥- وعن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «من اغتسل يوم الجمعة غسل الجنابة، ثم راح، فكأنما قرب بدنة، ومن راح في الساعة الثانية، فكأنما قرب بقرة، ومن راح في الساعة الثالثة، فكأنما قرب كبشاً أقرن، ومن راح في الساعة الرابعة، فكأنما قرب دجاجة، ومن راح في الساعة الخامسة، فكأنما قرب بيضة، فإذا خرج الإمام، حضرت الملائكة يستمعون الذكر»^(١).

والمراد بغسل الجنابة: أنه اغتسل للجمعة كغسله للجنابة، وهذه الساعات الخمس، إذا عُذِّت من بعد صلاة الضحى، أي من الساعة الثامنة مثلاً إلى الساعة الثانية عشرة فهي خمس ساعات فعلاً من الساعات المعروفة اليوم -كما أرى -، وفيها مجال للتنافس والتسابق على هذا الأجر، فلا يستوي من تصدَّق بدنة، بمن يتصدق ببيضة.

ثم إن الأجر المعدَّ على البكور لصلاة الجمعة، وكون العبد ضمن العدد الذي تنعقد به الجمعة، مقيد بصعود الإمام إلى المنبر، فإذا حضر العبد بعد أن يصعد الإمام إلى المنبر، فإنه يكون قد جاء بعد أن طويت الصحف، وجفَّت الأقلام، وجلست الملائكة يستمعون الخطبة!

ولا ينطبق عليه غفران صغائر الذنوب ما بين الجمعيتين كما جاء في الحديث.

وإن صلى الجمعة دون أن يستمع إلى الخطبتين، لا يُعَدُّ من أهل الجمعة، لأن الخطبتين يقومان مقام الركعتين في صلاة الظهر.

تاسعاً: عقوبة من ترك صلاة الجمعة:

١- عن عبد الله بن عمرو بن العاص وابن العباس وأبي هريرة رضي الله عنهم أنهم سمعوا رسول الله ﷺ يقول على منبره: «لينتهين أقوام عن وذعهم الجُمُعات، أو ليخْتَمَنَّ الله على قلوبهم، ثم ليكونن من الغافلين»^(٢).

(١) صحيح البخاري برقم (٨٨١) وصحيح مسلم برقم (٨٥٠) والمسند (٩٩٢٦) بإسناد صحيح على شرط الشيخين، وابن حبان (٢٧٧٥) وأبوداود (٣٥١) وابن حبان (٢٧٧٥) والترمذي (٤٩٩) والنسائي في الكبرى (١٧٠٨) والموطأ (١/١٠١).

(٢) صحيح مسلم برقم (٨٦٥) وابن أبي شيبة (١٥٤/٢) والطيالسي (٢٨٥٨، ٢٠٦٤) والمسند (٢٢٩٠، ٢١٣٢) حديث صحيح ورجاله ثقات والنسائي (١٣٦٩) وفي الكبرى (١٦٥٩) وابن ماجه (٩٧٤) وابن حبان (٢٧٨٥) وشرح مشكل الآثار للطحاوي (٣١٨٦، ٣١٨٧).

٢- وعن أبي الجعد الضمري - وكان له صحبة - أن رسول الله ﷺ قال: «من ترك ثلاث جُمع تهاوُنًا طبع الله على قلبه»^(١).

٣- وعن ابن مسعود ؓ أن النبي ﷺ قال لقوم يتخلّفون عن الجمعة: «هممتُ أن أمر رجلاً أن يصلي بالناس، ثم أخرج على رجال يتخلّفون عن الجمعة بيوتهم».

عاشراً: من لا تجب عليهم الجمعة:

ولا تجب الجمعة على المرأة، ولا على الصبي، ولا على المسافر، ولا على المريض، وإن صلاها أحدهم أجزأته عن صلاة الظهر، وصحت منه، ومن حال بينه وبين المسجد وحلّ وطين ومطر فإنه يُعذر.

٤- فقد جاء عن ابن عباس ؓ أنه خطب في يوم ذي رَدْغ، فلما بلغ المؤذن حي الصلاة قال: قل: الصلاة في الرحال، فنظر بعضهم إلى بعض، كأنهم أنكروا ذلك، فقال: كأنكم أنكرتم هذا؟ إن هذا فعله من هو خير مني، يعني النبي ﷺ وإنها عزمة، وإني كرهت أن أخرجكم^(٢)، أي فتمشون في الطين والدحض والزلق.

ولا يجوز للرجل أن يُنشىء سفراً غير ضروري يوم الجمعة، يتعارض مع صلاتها.

مشروعية الأذان في الإسلام:

أولاً: شرع الأذان في المدينة بعد الهجرة:

١- في الصحيحين وغيرهما من حديث ابن عمر ؓ قال: كان المسلمون حين قدموا المدينة، يجتمعون فيتحيّثون الصلاة، وليس ينادي بها أحد، فتكلموا يوماً في ذلك، فقال بعضهم: اتّخذوا ناقوساً مثل ناقوس النصارى، وقال بعضهم: قزناً مثل قزن اليهود،

(١) ابن أبي شيبة (١٥٤/٢) والمسند (١٥٤٩٨) وابن حبان (٢٥٨) قال محققوا المسند: إسناده حسن وأخرجه أبو داود (١٠٥٢) والترمذي (٥٠٠) وابن خزيمة (١٨٥٨) والنسائي في الكبرى (١٦٥٦).

(٢) صحيح البخاري (٦٦٨، ٦١٦) وصحيح مسلم (٦٩٩).

فقال عمر: أولاً تبعثون رجلاً ينادي بالصلاة؟ فقال رسول الله ﷺ: «يا بلال، قم فناد بالصلاة»^(١).

دون أن يعين له ألفاظاً.

٢- وفي الموطأ أن النبي ﷺ كان قد أراد أن يتخذ خشبتين يُضْرَبُ بهما ليجمع الناس للصلاة، فرأى عبد الله بن زيد الأنصاري خشبتين في النوم فقال: إن هاتين لَنَحْوُ مما يريد رسول الله ﷺ فقيل: أفلا تؤذَنُون بالصلاة؟ فأتى رسول الله ﷺ حين استيقظ، فذكر له ذلك، فأمر رسول الله ﷺ بالأذان^(٢) دون تعيين للألفاظ كذلك.

٣- وفي حديث عبد الله بن زيد عند أبي داود وغيره أنه: لما أمر رسول الله ﷺ بالناقوس يُعمل ليضرب به للناس لجميع الصلوات، طاف بي وأنا نائم، رجل يحمل ناقوساً في يده، فقلت: يا عبد الله، أتبيع هذا الناقوس؟ قال: وما تصنع به؟ قلت: ندعو به إلى الصلاة، قال: أفلا أدلك على ما هو خير من ذلك؟ فقلت: بلى، فقال: تقول:

(الله أكبر، الله أكبر، الله أكبر، أشهد أن لا إله إلا الله، أشهد أن لا إله إلا الله، أشهد أن محمداً رسول الله، أشهد أن محمداً رسول الله، حي على الصلاة، حي على الصلاة، حي على الفلاح، حي على الفلاح، الله أكبر، الله أكبر، لا إله إلا الله).

ثم استأخر مني غير ببعيد، ثم قال: تقول إذا أقمت للصلاة: (الله أكبر، الله أكبر، أشهد أن لا إله إلا الله، أشهد أن محمداً رسول الله، حي على الصلاة، حي على الصلاة، حي على الفلاح، قد قامت الصلاة، قد قامت الصلاة، الله أكبر، الله أكبر، لا إله إلا الله).

فلما أصبحت أتيت النبي ﷺ فأخبرته بما رأيت، فقال: «إنها لرؤيا حق إن شاء الله، فقم مع بلال فآلق عليه ما رأيت، فليؤذن به، فإنه أندى صوتاً منك»، فقمْتُ مع بلال،

(١) صحيح البخاري برقم (٦٠٤) ومسلم برقم (٣٧٧) وابن ماجه (٧٠٧) والترمذي (١٩٠) والمسنَد (٦٣٥٧) وإسناده صحيح على شرط الشيخين.

(٢) أخرجه مالك في الموطأ من رواية أبي مصعب الزهري المدني برقم (١٧٩).

فجعلت ألقية عليه، ويؤذن به، فسمع عمر وهو في بيته، فخرج يجزّ رداءه ويقول: يا رسول الله، والذي بعثك بالحق، لقد رأيتُ ما رأى، فقال ﷺ: «فلله الحمد»^(١).

ورؤيا عبد الله في حد ذاتها لا تجعل الأذان مشروعاً، وإنما مشروعيته جاءت من إقرار النبي ﷺ بهذه الألفاظ، ومن قوله لعبد الله بن زيد (ولقد أراك الله حقاً) ومن قوله لعمر «فلله الحمد» فهي سنة تقريرية.

٤- ثم إن النبي ﷺ علّم أبا محذورة هذا الأذان، وفيه: أنه سمع مؤذن النبي ﷺ فأخذ هو ونفّر معه يحاكوه استهزاءً، فسمعهم النبي ﷺ فأحضرهم، وكان ذلك في يوم حنين، وقال لهم: أيكم الذي سمعتُ صوته قد ارتفع، فأشاروا إلى أبي محذورة، فحبسه وأرسلهم، ثم قال له: قم فأذن بالصلاة فعلمه^(٢) فصار ذلك سنة ثابتة.

٥- وفي مراسيل أبي داود أن الوحي قد جاء بالأذان.

ولما أخبر عمر النبي ﷺ بما رأى قال له: سبقك بذلك الوحي.

ثانياً: ومما يتعلق بالأذان من أحكام:

١- أنه من أفضل الأعمال (والمؤذنون أطول الناس أعناقاً يوم القيامة) كما جاء ذلك

في صحيح مسلم عن معاوية^(٣).

والمؤذن يشهد له كل من سمع صوته من شجر أو حجر أو مدر، كما في حديث أبي صعصعة أن أبا سعيد قال له: أراك تحب الغنم والبادية، فإذا كنت في غنمك أو باديتك،

(١) رواه أبو داود برقم (٤٩٩) وصححه الألباني في صحيح سنن أبي داود (٤٦٩) وهو في المسند (١٦٤٧٨) بإسناد حسن من أجل محمد بن إسحاق، وبقية رجاله ثقات رجال الصحيحين، وأخرجه ابن خزيمة (٣٧١) وابن حبان (١٦٧٩) وابن ماجه (٧١٦) والترمذي (١٨٩) وقال: حديث حسن صحيح وأخرجهم غيرهم.

(٢) ينظر صحيح مسلم برقم (٣٧٩) وصحيح سنن أبي داود (٤٧٢-٤٧٧) وسنن النسائي الكبرى (١٦٠٨، ١٦٠٩) والحديث بطوله في المسند (١٥٣٨٠).

(٣) جاء هذا في حديث معاوية بن أبي سفيان في صحيح مسلم (٣٨٧).

فأذّنت للصلاة، فارتفع صوتك بالنداء، فإنه لا يسمع مدى صوت المؤذن جن ولا إنس، ولا شيء، إلا شهد له يوم القيامة، سمعته من رسول الله ﷺ^(١).
وفي حديث أبي هريرة ؓ أن النبي ﷺ قال: «ولو يعلم الناس ما في الأذان والصف الأول لاستهموا عليهما»^(٢).

٢- و(الإمام ضامن، والمؤذن مؤتمن، اللهم أرشد الأئمة، واغفر للمؤذنين).
ويؤم الناس أقرؤهم لكتاب الله، وأعلمهم به، وأكثرهم عملاً بما فيه، ويؤذن لهم خيارهم.
٣- وكان النبي ﷺ يُغير على الناس إذا طلع الفجر، فيستمع إلى الأذان، أولاً، فإذا سمع أذاناً أمسك، وإلا أغار، فسمع رجلاً يقول: الله أكبر، الله أكبر، قال ﷺ: «على الفطرة»، ثم قال: أشهد أن لا إله إلا الله، قال ﷺ: «خرجت من النار» فنظر فإذا هو راعي مِعْزَى^(٣).
ألفاظ الإقامة: وفي حديث أنس ؓ أن النبي ﷺ أمر بلالاً أن يشفع الأذان، ويوتر الإقامة^(٤).

وجاءت روايات بمساواة ألفاظ الإقامة لألفاظ الأذان، كما هو عند الحنفية ودليلهم في ذلك حديث أبي محذورة أن النبي ﷺ قال: «الأذان تسعة عشرة كلمة، والإقامة سبعة عشرة كلمة، ثم عددها»^(٥).

وفي حديث الروقي عن أبي محذورة في آخره (وعلمني الإقامة مرتين مرتين)^(٦).

(١) رواه البخاري (٣٤٨٠، ٣٢٩٦، ٦٠٩) ومالك من رواية أبي مصعب برقم (١٨٣) والنسائي.

(٢) ينظر: الموطأ من رواية أبي مصعب برقم (١٨١) عن أبي هريرة وصحيح البخاري برقم (٦١٥) وصحيح مسلم برقم (٤٣٧).

(٣) انظر: صحيح البخاري برقم (٦١٠) وصحيح مسلم برقم (٣٨٢) واللفظ له.

(٤) مسلم (٣٧٨) والبخاري (٦٠٧، ٦٠٥) ومسند أحمد (١٢٠٠١) بإسناد صحيح على شرط الشيخين، وابن خزيمة (٣٦٦) وعبد الرزاق (١٧٩٤) والبخاري (٤٠٥) وابن حبان (١٦٧٥) وغيرهم.

(٥) رواه النسائي في الكبرى (٦٣٠) وقال الألباني: حسن صحيح، وسنن النسائي.

(٦) صحيح ابن خزيمة (٣٨٥) باب الثوب في أذان الصبح، وذكر يزيد بن سنان الإقامة مرتين.

ودليل الحنابلة ومن وافقهم: حديث أنس بن مالك رضي الله عنه «... فأمر بلال أن يشفع الأذان ويوتر الإقامة»^(١).

وفي حديث عبد الله بن عمر رضي الله عنه قال: كان الأذان على عهد رسول الله مرتين، والإقامة مرة، غير أنه كان يقول: (قد قامت الصلاة، قد قامت الصلاة)^(٢).

ترجيع ألفاظ الأذان :

وجاء ترجيع الأذان بصوت منخفض في قول النبي ﷺ لأبي محذورة «ثم ارجع»، ويمد المؤذن صوته بالشهادتين، جاء ذلك بسند صحيح وكان بعد فتح مكة^(٣).

قال السندي: قوله : ثم أرجع، صريح في الترجيع، وقد ثبت الترجيع في أذان أبي محذورة ثبوتاً لا مردّ له، كما ثبت عدمه في أذان بلال، فالوجه جواز الوجهين، والأقرب الترجيع إن كان المؤذن جديداً للإسلام، وتركه إن كان قديماً للإسلام، كأبي محذورة وبلال.

الثوب في صلاة الفجر:

وُثِبَ الثوب من حديث بلال وأبي محذورة في أذان الفجر فيقول المؤذن (الصلاة خير من النوم) بعد الحيعلتين وهو خاص بالفجر^(٤).

من البدع في الأذان:

وألفاظ الأذان ثابتة في الصحيحين والسنن وليس فيها (حي على خير العمل) وكان ابن عمر يقولها أحياناً، وليس في ألفاظ الأذان (أشهد أن علياً ولي الله).

(١) صحيح البخاري (٥٧٨).

(٢) عند أحمد في المسند (٥٥٦٩) وهو حديث صحيح وإسناد قوي بزيادة في ألفاظه، وأبوداود (٥١٠، ٥١١) والنسائي في الكبرى (١٦٠٥) وابن حبان (١٦٧٤) والبخاري (٤٠٦) والطحاوي (٩٢٣).

(٣) النسائي في الكبرى ١٦٢٣ والمسند ١٥٣٧٩ وشرح مشكل الآثار للطحاوي ٦٠٨٠ والحديث صحيح.

(٤) انظر حديث أبي محذورة بطوله في مسند أحمد برقم (١٥٣٧٦، ١٥٣٧٨، ١٥٣٧٩) وهو حديث صحيح بطرقة، ومصنف عبد الرزاق (١٧٧٩)، وأبوداود (٥١٠) وابن خزيمة (٣٨٥).

ومن البدع: الصلاة على النبي ﷺ في نهاية الأذان، بصيغة أو بأخرى.
حكم الأذان:

والأذان فرض كفاية، فإذا قام به بعض الناس سقط الإثم عن الباقين، وقد يتعين على الإنسان إذا لم يوجد غيره، وليس على النساء أذان ولا إقامة.
ثالثاً: الأذان لصلاة الجمعة:

المراد بأذان الجمعة: هو الأذان إذا جلس الإمام على المنبر، إذ لم يكن في عهد النبي ﷺ أذان سواه، أما الأذان الذي قبله فقد أراد به عثمان ؓ تنبيه أهل السوق حتى يستعدوا ويذهبوا إلى صلاة الجمعة، إذ لا يوجد ساعات ولا تقاويم ولا وسائل إعلام، وكان ذلك بمحضّر من الصحابة لما اتسعت المدينة، فأراد ؓ أن يبلغ الأذان أرجاءها، إذ لم يكن وقتها مكبرات للصوت، وقد ابتدع بعض الناس في بعض القرى أذاناً ثالثاً قبل هذين الأذنين لتنبيه الناس حتى يستعدوا لصلاة الجمعة:

عن السائب بن يزيد ؓ أنه قال: كان النداء يوم الجمعة: أوّلُهُ، إذا جلس الإمام على المنبر، على عهد النبي ﷺ وأبي بكر وعمر رضي الله عنهما، فلما كان زمن عثمان رضي الله عنه وكثر الناس، زاد النداء الثالث على الزوّراء، فثبت الأمر على ذلك^(١).

قلت: إنما أراد عثمان إعلام أهل السوق بقرب وقت صلاة الجمعة.
وهذا الأذان نُقل من الزوراء إلى باب المسجد، ثم من فوق المآذن، وأخيراً من مكبرات الصوت.

والمراد بالنداء الأول، هو أذان الظهر، الذي كان ينادى إليه والنبي ﷺ على المنبر، أي بين يدي الخطيب.

والمراد بالأذان الثاني: الإقامة للصلاة، فيقال لها أيضاً: أذان.

(١) صحيح البخاري برقم: ٩١٢، ٩١٣، ٩١٥، ٩١٦.

أما الأذان الذي حدث في عهد عثمان رضي الله عنه، فكان لما كثر الناس بالمدينة، فجعل المؤذن يؤذن أذاناً قبل الأذان الذي بين يدي الخطيب، وقبل الإقامة للصلاة، لإعلام الناس بدخول الوقت، وكان هذا الأذان يؤذن له في مكان يقال له : الزوراء، وهو مكان تجمع الناس بسوق المدينة بمكان مرتفع عند قبر مالك بن سنان، مكان المسجد المعروف الآن بمسجد فاطمة، على بُعد مئتين وخمسين متراً من المسجد النبوي.

والأذان الذي أحدثه عثمان رضي الله عنه، هو الأول من حيث الترتيب، والأذان الذي بين يدي الخطيب هو الثاني، والإقامة هي الأذان الثالث، فيكون المقصود من الأذان الذي أمر به عثمان ﷺ هو إعلام الناس بالوقت وذهابهم للمسجد، وهو اجتهد منه ﷺ.

وجاء في بعض الروايات أنه الأذان الثاني وليس بالثالث، فقد أخرج البخاري عن ابن شهاب أن السائب بن يزيد أخبره أن التأذين الثاني يوم الجمعة، أمر به عثمان بن عفان ﷺ حين كثر أهل المسجد، وكان التأذين يوم الجمعة حين يجلس الإمام^(١). قلت: ولعل هذا الحديث لم يُنظر فيه إلى الإقامة، واعتبر أذان الزوراء هو الأول وأذان جلوس الإمام على المنبر هو الثاني.

ولما كان عليّ بن أبي طالب رضي الله عنه بالكوفة، لم يؤذن للجمعة إلا أذاناً واحداً على الأصل، كما كان في عهد النبي ﷺ فلعل بعض خلفاء بني أمية أرجعه بعد ذلك^(٢). قلت: وإذا كان الحكم يدور مع العلة وجوداً وعدمًا فإن وسائل الإعلام المختلفة، ومتابعة الوقت بالدقيقة والثانية في الحضر والبدو، في وقتنا الحاضر في الساعات والتقاويم، جعل الناس يعتمدون عليها في معرفة الوقت، فضلاً على مكبرات الصوت، وكذا الأذان الذي يُرفع من أجهزة الإعلام المسموعة والمرئية، فالتنبية حاصل بطرق متعددة والتقصير إنما هو من بعض الناس.

(١) صحيح البخاري برقم (٩١٥).

(٢) ينظر: تفسير التحرير والتنوير (٢٨/٢٢٤).

وَمَنْ صَلَّى رَكَعَتَيْنِ بَيْنَ الْأَذَانِ الْأَوَّلِ وَالْأَذَانِ الَّذِي بَيْنَ يَدَيِ الْخُطْبِ، فَهُوَ مِنْ بَابٍ (بَيْنَ كُلِّ أَذَانَيْنِ صَلَاةً قَالَهَا ﷺ ثَلَاثًا ثُمَّ قَالَ فِي الثَّلَاثَةِ: لِمَنْ شَاءَ)^(١) وَمَنْ لَمْ يَفْعَلْهَا فَهُوَ عَلَى الْأَصْلِ الْأَوَّلِ. وَلنَرْجِعَ إِلَى تَفْسِيرِ الْآيَاتِ: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ يَا مَعْشَرَ الْمُؤْمِنِينَ الْمَصْدِقِينَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ﴿إِذَا تُدْعَى لِلصَّلَاةِ مِنْ يَوْمِ الْجُمُعَةِ﴾ أَيِ إِذَا سَمِعْتُمُ الْمُؤَذِّنَ ينادي لصلوة الجمعة، وَيَغْلَمُكُمْ بِحُلُولِ وَقْتِهَا ﴿فَاسْعَوْا إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ﴾ أَيِ اذْهَبُوا إِلَى سَمَاعِ خُطْبَةِ الْجُمُعَةِ وَأَدَاءِ الصَّلَاةِ، وَبَادَرُوا إِلَيْهَا وَاهْتَمُّوا بِهَا، وَاجْعَلُوهَا أَهْمَ مَا يَشْغَلُكُمْ.

وَالسَّعْيُ هُوَ الْمَشْيُ الْمَتَوَسِّطُ إِلَى الصَّلَاةِ بِسَكِينَةٍ وَوَقَارٍ دُونَ إِفْرَاطٍ وَلَا تَفْرِيطٍ، كَمَا فِي حَدِيثِ أَبِي هُرَيْرَةَ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: «إِذَا أُقِيمَتِ الصَّلَاةُ فَلَا تَأْتُوهَا وَأَنْتُمْ تَسْعَوْنَ، وَأَتُوهَا وَأَنْتُمْ تَمْشُونَ وَعَلَيْكُمْ السَّكِينَةُ وَالْوَقَارُ، فَمَا أَدْرَكْتُمْ فَصَلُّوا، وَمَا فَاتَكُمْ فَأَتَمُّوا»^(٢) فَهُوَ سَعْيُ الْقُلُوبِ وَالنِّيَّةِ وَالْخُشُوعِ، وَلَيْسَ الْمُرَادُ بِالسَّعْيِ إِلَى صَلَاةِ الْجُمُعَةِ: السَّعْيُ الْحَثِيثُ وَسُرْعَةُ الْمَشْيِ، بَلِ الْمُرَادُ بِهِ: الْمُبَادَرَةُ إِلَيْهَا وَالْإِهْتِمَامُ بِهَا وَأَلَّا يَشْغَلَهُمْ شَاغِلٌ عَنْهَا، وَلِذَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَذَرُوا الْبَيْعَ﴾ أَيِ اتْرَكُوا الْبَيْعَ وَالشِّرَاءَ، وَجَمِيعَ مَا يَشْغَلُكُمْ عَنِ الصَّلَاةِ إِذَا نُودِيَ لَهَا ﴿ذَلِكَ﴾ الَّذِي أَمَرْتُمْ بِهِ مِنَ السَّعْيِ إِلَى مَرْضَاةِ اللَّهِ، وَتَرْكِ الْبَيْعِ وَالشِّرَاءِ وَالشَّوَاغِلِ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ تَعَالَى ﴿خَيْرٌ لَكُمْ﴾ وَأَنْفَعُ مِنْ تِجَارَاتِ الدُّنْيَا وَكُلِّ مَا فِيهَا، لِمَا فِي الصَّلَاةِ مِنَ الْمَثُوبَةِ وَغُفْرَانِ الذُّنُوبِ.

فَ ﴿إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ ﴿١﴾ مَصَالِحَ أَنْفُسِكُمْ، وَأَنْ مَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَى فَافْعَلُوا ذَلِكَ، وَاتْرَكُوا أَعْمَالَ الدُّنْيَا وَاسْعَوْا إِلَى مَرْضَاةِ اللَّهِ، فَهَذَا هُوَ شَأْنُ أَهْلِ الْفَهْمِ الصَّحِيحِ وَالْعَقْلِ السَّلِيمِ.

(١) مِنْ حَدِيثِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَغْفَلٍ الْمَزْنِيِّ فِي الْبُخَارِيِّ (٦٢٧) وَمُسْلِمٍ (٨٣٨) وَهَذَا لَفْظُهُ وَأَخْرَجَهُ أَبُو دَاوُدَ (١٢٨٣) وَابْنُ مَاجَةَ (١١٦٢) وَالتِّرْمِذِيُّ (١٨٥) وَالْمُسْنَدُ (١٦٧٩٠) بِإِسْنَادٍ صَحِيحٍ عَلَى شَرْطِ الشَّيْخَيْنِ، وَابْنُ حِبَّانَ (١٥٥٩) وَابْنُ خُزَيْمَةَ (١٢٨٧).

(٢) صَحِيحُ مُسْلِمٍ بِرَقْمٍ (٦٠٢) وَصَحِيحُ الْبُخَارِيِّ بِرَقْمٍ (٩٠٨، ٦٣٦).

لَيْسَ لِعُظَلَّةٍ يَوْمَ الْجُمُعَةِ أَصْلٌ فِي الْإِسْلَامِ

١٠- ﴿فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلَاةُ فَانْتَشِرُوا فِي الْأَرْضِ وَابْتَغُوا مِنْ فَضْلِ اللَّهِ وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَعَلَّكُمْ

تُفْلِحُونَ ﴿١٠﴾﴾

أي أن ترك البيع والشراء في يوم الجمعة أمر مؤقت مدة الخطبة والصلاة، ثم إن المسلم له في بقية النهار - بعد صلاة الجمعة وقبل النداء لها - وقتاً طويلاً يبتاع فيه ويشترى، ويطلب رزق الله تعالى، ويؤدي عمله المشروع، على أن يكون ذلك بعد الاستماع إلى خطبة الجمعة وأداء الصلاة ﴿فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلَاةُ﴾ أي إذا سمعتم الخطبتين، وفرغتم من أداء الصلاة، وذكركم الله تعالى بعدها ﴿فَانْتَشِرُوا فِي الْأَرْضِ﴾ لأداء أعمالكم التي تركتموها عند النداء للصلاة والخطبة، واذهبوا لمكاسبكم وتجاركم ونحوها ﴿وَابْتَغُوا مِنْ فَضْلِ اللَّهِ﴾ أي اطلبوا رزق الله تعالى بسعيكم في منابها، فإن الرزق بيد الله، وهو سبحانه المنعم المتفضل على عباده، الذي لا يُضَيِّعُ سعي من أخذ بالأسباب وبذل جهده فيما يسعى إليه.

وهذا الأمر الوارد في الآية للإباحة وليس للوجوب، لأنه وارد بعد حظر، وهو كقوله تعالى ﴿وَإِذَا حَلَلْتُمْ فَاصْطَادُوا...﴾ [المائدة: ٢] على ألا يشغلكم هذا السعي عن ذكر الله تعالى والإكثار منه، وفي مقدمة ذلك عندما ينادي المنادي لأداء فرض من فرائض الله، فإن في الإكثار من ذكر الله تعالى، والمواظبة على أداء الفرائض في أوقاتها، والإكثار من النوافل، فيها الفلاح كل الفلاح، وهذا معنى ﴿وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا﴾ أي في جميع أحوالكم، في تقلباتكم وسكناتكم، قياماً وقعوداً وعلى جنوبكم، ولما كان الاشتغال بأمور الدنيا مظنة الغفلة عن ذكر الله، فقد أمر سبحانه بالإكثار من ذكره، وألا يشغل العبد السعي على المعاش عن ذكر الله؛ لأن فيه الفوز والفلاح في الدنيا والآخرة، ولذا كان ختام الآية بقوله تعالى: ﴿لَعَلَّكُمْ تَفْلِحُونَ﴾ ﴿١٠﴾ وتفوزون بخير الدنيا والآخرة عندما تكثرون من ذكر الله تعالى وطاعته.

ومن أكثر من ذكر الله تعالى بلسانه، ولكنه لم يَقم بأداء الفرائض، ولم يجتنب المحرمات، فإن ذكره هذا تمثيل ودَجَل، لأنه بدون تطبيق عملي، وهو إيهام وتضليل للناس بالصلاح. وكان عمران بن مالك إذا صلى الجمعة، انصرف فوقف على باب المسجد وقال: اللهم أجبت دعوتك، وصليت فريضتك، وانتشرت كما أمرتني، فارزقني من فضلك، وأنت خير الرازقين.

مَشْرُوعِيَّةُ الْخُطْبَةِ قَبْلَ صَلَاةِ الْجُمُعَةِ

١١- ﴿وَإِذَا رَأَوْا تِجَارَةً أَوْ لَهْوًا انفَضُّوا إِلَيْهَا وَتَرَكُوكَ قَائِمًا قُلْ مَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ مِنَ اللَّهْوِ وَمِنَ التِّجَارَةِ وَاللَّهُ خَيْرُ الرَّازِقِينَ ﴿١١﴾﴾

أسباب النزول:

- ١- عن جابر بن عبد الله رضي الله عنه قال: بينما النبي ﷺ يخطب يوم الجمعة قائماً، إذ قدمت غير إلى المدينة، فابتدريها أصحاب رسول الله ﷺ حتى لم يبق منهم أحد، إلا اثنا عشر رجلاً، أنا فيهم، وأبوبكر وعمر، فأنزل الله ﷻ ﴿وَإِذَا رَأَوْا تِجَارَةً أَوْ لَهْوًا انفَضُّوا إِلَيْهَا﴾^(١).
- ٢- وأخرج عبد بن حميد عن ابن عباس رضي الله عنه قال: جاءت غير عبد الرحمن بن عوف، تحمل الطعام، فخرجوا من الجمعة، بعضهم يريد أن يشتري، وبعضهم يريد أن ينظر إلى دحية، وتركوا رسول الله ﷺ قائماً على المنبر، وبقي في المسجد اثنا عشر رجلاً وسبع نسوة، فقال رسول الله ﷺ: «لو خرجوا كلهم لاضطرم المسجد عليهم ناراً»^(٢).
- ٣- وعن مجاهد ومقاتل: كان النبي ﷺ يخطب، فقدم دحية بن خليفة الكلبي بتجارة، فتلقاه أهله بالدفوف، فخرج الناس^(٣).

(١) البخاري برقم (٤٨٩٩) ومسلم برقم (٨٦٣) والترمذي برقم (٣٣١١) وقال: حديث حسن صحيح، وأخرجه النسائي برقم (٦١٣) وابن أبي شيبة (١١٣/٢) وأحمد في المسند (١٤٣٥٦) بإسناد صحيح على شرط الشيخين والبيهقي (١٨١/٣) والطبري (٦٤٧/٢٢).

(٢) تفسير الشوكاني (٢٢٦/٥) وأخرجه ابن مردويه عن ابن عباس.

(٣) تفسير التحرير والتنوير (٢٢٨/١٣).

٤- وقال الحسن وأبومالك: أصاب أهل المدينة جوع وغلاء أسعار، فقدم دحية بن خليفة الكلبي بتجارة: زيت وطعام من الشام، والنبى ﷺ يخطب، فلما رأوه بالبيع، قاموا إليه خشية أن يسبقوا إليه، فلم يبق مع النبى ﷺ إلا رهط فيهم أبوبكر وعمر، فنزلت الآية، فقال النبى ﷺ: «والذي نفس محمد بيده: لو تابعتكم حتى لم يبق منكم أحد، لسال بكم الوادي ناراً»^(١).

٥- وعن عبد الرحمن بن كعب بن مالك أن أباه كان إذا سمع النداء يوم الجمعة ترخّم على أسعد بن زُرارة، فقلت له: يا أبتاه، أرايت استغفارك لأسعد بن زُرارة كلما سمعت الأذان للجمعة، ما هو؟ قال: لأنه أول من جمّع بنا في نقيع يقال له: نقيع الخضّمات - موضع من أودية الحجاز يدفع السيل إلى المدينة - من حرة بني بياضة، قلت: كم كنتم يومئذ؟ قال: أربعين رجلاً^(٢).

٦- قال مقاتل: وكانت تجارة الشام إذا قدمت لم تبق عاتق بالمدينة إلا أثنه، وكان (دحية) يقدم بكل ما يحتاج إليه من دقيق وبر وزيت وغيره، ويُنزل بها عند أحجار الزيت، وهو مكان في سوق المدينة، ثم يُضرب بالطل، لإعلام الناس بحضوره، فخرج إليه الناس ليلتاعوا منه، فقدم دحية ذات جمعة، وكان ذلك قبل أن يُسلم، ورسول الله ﷺ قائم على المنبر يخطب، فخرج إليه الناس، ولم يبق في المسجد إلا اثنا عشر رجلاً وامرأة، فقال ﷺ: «لولا هؤلاء لسوّمت بهم الحجارة من السماء» وأنزل الله الآية^(٣).

ثم إن الله تعالى وبَّخَ الذين انفضّوا عن نبيه وهو يخطب، وجاء هذا التوبيخ عن طريق صرّف الخطاب عنهم في السياق، والالتفات إلى مخاطبة النبى ﷺ، حِزْماناً لهم بنقل الكلام من أسلوب الخطاب إلى الغيبة.

(١) أخرجه عبد بن حميد كما في الدر المنثور (٤٨٦/١٤) ومسنّد أبي يعلى (٤٦٨/٣).

(٢) صحيح سنن أبي داود (٩٤٤) بإسناد حسن، وسنن أبي داود (٩٨٠)، وابن ماجه (١٠٨٢)، وصحيح ابن ماجه (٨٨٦) بإسناد حسن، وابن حبان (٧٠١٣) والبيهقي (١٧٦/٣).

(٣) تفسير الخازن (٢٦٩/٤) والبحر المحيط (٢٦٨/٨).

وفي هذا بيان أن من الناس من يؤثر الدنيا على الآخرة، فإذا وجد أمراً دُنيوياً يخشى فواته، فإنه سرعان ما يتجه إليه تاركاً ما هو فيه من أمر الآخرة.

وفيه أيضاً عتاب صارم لمن ينصرف عن حظوظ الآخرة إلى حظوظ الدنيا. ذلكم قول الله تعالى ﴿وَلَا ذَارَ أَوْ لَا تَحَرَّ﴾ أي وإذا رأى بعض المسلمين أو سمع بتجارة رابحة أو صفقة حاضرة ﴿أَوْ﴾ رأى أو سمع ﴿هَؤُلَاءِ﴾ خرجوا إليه حرصاً على ذلك اللهو، وتركوا الاستماع إلى الخطبة، وذلك لأنَّ خروجهم كان تارة لمجيء العير من الشام، وتارة لحضور اللهو.

قيل: وقد تكرر ذلك ثلاث مرات^(١).

قال جابر بن عبد الله ؓ: (كانت الجواري إذا نُكُحْنَ أي تزوجن، يَمْرُزْنَ بالمزامير والطبل فلا يقفن عندها).

فإذا رأوا شيئاً من ذلك ﴿أَنفَضُوا إِلَيْهَا﴾ أي تفرقوا إليها، وتوجهوا نحوها، وخرجوا من المسجد ﴿وَتَرَكُوا﴾ أيها الرسول ﴿قَائِمًا﴾ واقفاً على المنبر تخطب للصلاة الجمعة. قال الجمل: والذي سوغ لهم الخروج وترك الرسول ﷺ يخطب، أنهم ظنوا أن الخروج بعد تمام الصلاة جائز، لانقضاء المقصود وهو الصلاة، وذلك لأن الناس في أول الإسلام كانت تصلي الجمعة قبل الخطبة كالعيدين، فلما نزلت هذه الآية، قدَّم الرسول ﷺ الخطبة، وأخَّر الصلاة^(٢).

ونقل أبوداود في مراسيله عن مقاتل بن حيان قال: كان رسول الله ﷺ يصلي يوم الجمعة قبل الخطبة مثل العيدين، حتى إذا كان يوم، والنبي ﷺ يخطب، وقد صلى الجمعة، فدخل رجل فقال: إن دحية بن خليفة، قد قدَّم بتجارة فانفضوا^(٣) ولم يبق معه إلا نفر يسير والذين خرجوا كانوا يظنون أنه ليس في ترك الخطبة شيء.

(١) تفسير التحرير والتنوير (٢٨/٢٢٨).

(٢) حاشية الجمل على الجلالين (٤/٣٤٥).

(٣) مراسيل أبي داود برقم: (٦٢ ص ٩٤).

فالسبب في انصراف بعض المسلمين وقت أداء الخطبة أمران:
الأمر الأول: هو ظنهم أن الأمر فيه سعة بالنسبة لمن يجلس أو ينصرف بعد الصلاة،
كما هو الحال الآن في أداء خطبة العيد بعد الصلاة، فبعض الناس ينصرف من المصلّى
بعد الفراغ من الصلاة ولا يجلس للخطبة، وهكذا كانت الجمعة قبل هذه الحادثة.
الأمر الثاني: أن الناس كانوا في غلاء أسعار، وحاجة ماسة إلى ما تَحْمِلُهُ هذه العير
من القوت الضروري الذي لا غنى للإنسان عنه، فقد كان أهل مكة يعيشون على رحلتي
الشتاء والصيف، وهذه إحداهما.

العدد الذي تنعقد به الجمعة :

وهذا النفر اليسير الذي بقي مع النبي ﷺ وصلى بهم الجمعة، مختلف في عدده،
وبعض الروايات على أنهم كانوا أربعين رجلاً، وقيل: اثني عشر رجلاً كما جاء في
حديث البخاري وقيل: غير ذلك، وذكر ابن حجر في العدد الذي تنعقد به صلاة الجمعة
خمسة عشر قولاً، لأن الآية لم تحدد ذلك، ولم تحدد السنة كذلك عدداً معيناً باتفاق.
وقد صح في حديث جابر بن عبد الله ﷺ السابق ذكره قال: أقبلت عير يوم الجمعة ونحن
مع النبي ﷺ فثار الناس إلا اثنا عشر رجلاً، فأنزل الله ﷻ ﴿وَإِذَا رَأَوْا تِجَارَةً أَوْ نَفْسًا مِّنْ آلِهِمْ﴾^(١).
وذكر الدارقطني في حديث جابر ﷺ أنه قال: (ليس مع رسول الله إلا أربعون رجلاً
أنا فيهم)^(٢).

وجاءت روايات أخرى أنه بقي مع النبي ﷺ: الخلفاء الأربعة، وطلحة، والزبير،
وسعد بن أبي وقاص، وعبد الرحمن بن عوف، وأبو عبيدة، وسعيد بن زيد، وبلال، وابن
مسعود، وعمار بن ياسر، وجابر بن عبد الله، فهؤلاء أربعة عشر^(٣).

(١) ينظر: صحيح البخاري برقم (٤٨٩٩، ٢٠٦٤، ٩٣٦) وصحيح مسلم برقم (٨٦٣) والترمذي (٣٣١١) وسنن
الدارقطني (١٥٨٤) والمسند (١٤٣٥٦، ١٤٩٧٨) وابن حبان (٦٨٧٦). وقد سبق ذكره بأوسع من هذا.

(٢) سنن الدارقطني برقم (١٥٨٣).

(٣) تفسير التحرير والتنوير (٢٢٨/١٣).

قلت: والمختار ما تشير إليه أصح الأحاديث من أن الجمعة تنعقد باثنى عشر رجلاً. ولا يجوز أن يُصلي الظهر بعد صلاة الجمعة، كما يفعله بعض الناس من أتباع المذهب الشافعي مثلاً في بعض البلاد، نظراً لأن العدد لم يكتمل أربعين.

ثم أرشد الله تعالى خلقه إلى ما هو أنفع لهم، وإلى ما فيه سعادتهم وصلاحهم فقال ﴿قُلْ﴾ يا رسولنا لمن يؤثر الفانية على الباقية، فتشغله دنياه عن أخراه، قل لهم ﴿مَا عِنْدَ اللَّهِ﴾ من الثواب العظيم، والنعيم المقيم ﴿خَيْرٌ﴾ لكم وأنفع ﴿مِنَ اللَّهِ وَمِنَ الْبَعْثِ﴾ فرب مال كثير لم ينتفع به صاحبه، ورب رزق وفير لم ينتفع به من كان حريصاً على جمعه، ورب رزق قليل انتفع به صاحبه، وكان مليئاً بالخير والبركة، فالعبرة بالبركة في الرزق والرضى به، وليس بكثرة المال والحرص عليه والصبر على أداء طاعة الله تعالى لا يفوت الرزق، ومن اتقى الله تعالى رزقه من حيث لا يحتسب ﴿وَاللَّهُ خَيْرُ الرَّازِقِينَ﴾ أي خير مَنْ رَزَقَ، وخير من أعطى، فاطلبوا منه الرزق، واستعينوا بطاعته على نيل ما عنده من خير الدنيا والآخرة ﴿يَفْتَحُ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِنْ رَحْمَتِهِ مَا يُمْسِكُ لَهَا وَمَا يُمْسِكُ لَهُمْ يَدٌ﴾ وهو العزيز الحكيم ﴿٢﴾ [فاطر].

﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّنْ ذَكَرٍ أَوْ أَنَّىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهٗ حَيٰوةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ ﴿٣٧﴾ [النحل].

وقد نهى الله تعالى أن تشغلنا الدنيا على الآخرة في مثل قوله تعالى ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾ ﴿١﴾ [المنافقون].

ووصف الله قوما بأنهم ﴿رِجَالٌ لَا تُلْهِهِمْ بَعْدَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ...﴾ [النور: ٣٧].

ومما يتعلق بالآية: أن صلاة الجمعة فريضة - على المكلف الصحيح المقيم - وأن المبادرة إليها والاهتمام بها والسعي إليها واجب، وأن المراد بالذكر في الآية: هو الخطبتان، وأن الخطبتين شرط في صلاة الجمعة، فهما فريضتان يجب حضورهما، وأنه يشرع النداء للإعلام بوقت الجمعة.

وفي الآية ذم لمن لم يحضر الخطبتين وأن الاشتغال بالبيع والشراء، أو أي عمل آخر عندما ينادى لها، أمر محرم، يجب على الدولة المسلمة أن تغلق فيه المحال التجارية وتعطل فيه جميع الأعمال.

شروط صحة الخطبتين :

وقد اشترط الشافعية والحنابلة لخطبتي الجمعة أربعة شروط هي: حمد الله تعالى، والصلاة والسلام على رسول الله ﷺ، وقراءة آية من كتاب الله، والوصية بالتقوى. زاد الشافعية: والدعاء للمؤمنين والمؤمنات. ولم يشترط الحنفية في الخطبتين سوى ذكر الله تعالى، فأى كلام يشتمل على الحمد والثناء، يسمى خطبة.

واشترط المالكية شرطاً واحداً هو الترغيب والترهيب، وهو ما يسمى بالموعظة^(١) قلت: الموعظة هي أساس الخطبة، بالإضافة إلى أن الموعظة تبدأ بحمد الله، والصلاة والسلام على رسول الله، كما هو مقرر شرعاً، ولا بد لهذه الموعظة أن تكون غنية بالمادة العلمية من الكتاب والسنة، وإلا كانت كلاماً أجوفاً لا روح له. ومما ورد من الأحاديث في الخطبتين ما جاء:

- ١- في الصحيحين وغيرهما عن ابن عمر رضي الله عنهما أن النبي ﷺ كان يخطب خطبتين يقعد بينهما^(٢).
- ٢- وفي صحيح مسلم وغيره عن جابر بن سمرة ؓ قال: كانت للنبي ﷺ خطبتان يجلس بينهما، يقرأ القرآن ويذكر الناس^(٣).
- ٣- وعنه أيضاً قال: كنت أصلي مع النبي ﷺ فكانت صلاته قصداً، وخطبته قصداً^(٤).
- ٤- وفي الصحيحين وغيرهما عن أبي هريرة ؓ أن النبي ﷺ قال: «إذا قلت لصاحبك أنصت يوم الجمعة، والإمام يخطب فقد لغوت»^(٥).

(١) ينظر في ذلك: الفقه على المذاهب الأربعة (١/٣٩٠).

(٢) صحيح البخاري (٩٢٨) وصحيح مسلم (٨٦١) وابن أبي شيبة (١١٣/٢) والترمذي (٥٠٦) والنسائي في الكبرى (١٤١٥) وابن ماجه (١١٠٣).

(٣) أحكام القرآن للجصاص (٥٤٨/٣) والحديث في مسلم (٨٦٢) والمسند (٢٠٨١٣) وابن أبي شيبة (١١٣/٢) والترمذي (٥٠٦) والنسائي (١٤١٤) وابن ماجه (١١٠٦).

(٤) صحيح مسلم برقم (٨٦٦) وابن أبي شيبة (١١٤/٢).

(٥) صحيح مسلم (٨٥١) وصحيح البخاري (٩٣٤) وأبو داود (١١١٢) وابن ماجه (١١١٠) والترمذي (٥١٢) والمسند (٧٦٨٦) وابن حبان (٢٧٩٣) والنسائي في الكبرى (١٧٤٠).

وقت صلاة الجمعة:

ووقت صلاة الجمعة يبدأ من وقت الضحى إلى دخول وقت العصر.
وفي البخاري عن أنس رضي الله عنه أن النبي ﷺ كان يصلي الجمعة حين تميل الشمس^(١).
وكانت صلاة الجمعة ركعتين: لقيام الخطبتين مقام الركعتين الأخيرتين.
قال مكحول: إنما قُصرت الجمعة لأجل الخطبة^(٢).

بم تدرك صلاة الجمعة :

وتدرك صلاة الجمعة بإدراك ركعة كاملة مع الإمام، ومن فاتته الجمعة صلاتها ظهراً.

ساعة الإجابة :

وفي حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال أبو القاسم عليه السلام: «في يوم الجمعة ساعة، لا يوافقها مسلم وهو قائم يصلي يسأل الله خيراً إلا أعطاه، وقال بيده، قلنا: يقللها، يزهدا»^(٣).

الخطبة من قيام :

وكان النبي ﷺ يخطب قائماً، فقد سئل ابن مسعود رضي الله عنه : أكان النبي ﷺ يخطب قائماً أو قاعداً؟ قال: أما تقرأ ﴿وَتَرَكُوكَ قَائِمًا﴾^(٤).

وعن جابر بن سمرة رضي الله عنه قال: كان النبي ﷺ يخطب قائماً غير أنه كان يقعد قعدةً ثم يقوم^(٥).

(١) صحيح البخاري (٩٠٤).

(٢) ابن أبي شيبة (١٢٢/٢).

(٣) صحيح مسلم (٨٥٢) وصحيح البخاري (٥٢٩٤، ٦٤٠٠).

(٤) ابن أبي شيبة (١١٢/٢) وابن ماجه (١١٠٨) وصحيح سنن ابن ماجه (٩٠٩) بإسناد صحيح، والطبراني (١٠٠٣).

(٥) صحيح سنن ابن ماجه (٩٠٧) والمسند (٢٠٨١٨)، وهو حديث صحيح لغيره، وأخرجه الطيالسي (٧٥٧)، (٧٥٧)، وابن حبان (٢٨٠١).

وأخرج ابن أبي شيبة عن الشعبي قال: إنما خطب معاوية قاعدا حين كثر شحم بطنه ولحمه^(١).
سورة الجمعة: ١١

من خطب النبي ﷺ :

أ- ومن خطب النبي ﷺ أنه كان يقول: «كل ما هو آت قريب، لا يُغد لما هو آت، لا يعجل الله لعجلة أحد، ولا يخف - أي يسرع - لأمر الناس، ماشاء الله لا ماشاء الناس، يريد الناس أمراً ويريد الله أمراً، وما شاء الله كان ولو كره الناس، لا مُبَعَّد لما قَرَّب الله، ولا مقَرَّب لما بَعَدَ الله، ولا يكون شيء إلا بإذن الله»^(٢).

ب- وعن الحسن عن رجل من أصحاب النبي ﷺ أنه كان يقول في خطبته يوم الجمعة «يا أيها الناس، إن لكم علماً فانتهاوا إلى علمكم، وإن لكم نهاية فانتهاوا إلى نهايتكم، فإن المؤمن بين مخافتين، بين أجل قد مضى لا يذري كيف صنع الله فيه، وبين أجل قد بقى، لا يذري كيف الله بصانع فيه، فليتزود المرء من نفسه لنفسه، ومن دنياه لآخرته، ومن الشباب قبل الهرم، ومن الصحة قبل السقم، فإنكم خلقتُم للآخرة، والدنيا خلقت لكم، والذي نفس محمد بيده ما بعد الموت من مُستَغْتَب، وما بعد الدنيا دار إلا الجنة والنار، وأستغفر الله لي ولكم»^(٣).

ج- وفي صحيح مسلم عن جابر بن عبد الله ﷺ قال: كانت خطبة رسول الله ﷺ يوم الجمعة: يحمد الله، ويشني عليه، بما هو أهله، ثم يقول على إثر ذلك، وقد علا صوته، واشتد غضبه، حتى كأنه مُنذر جيش، صبحكم ومساكم، ويقول: بعثت أنا والساعة كهاتين، ويُقرن بين أصبعيه، السبابة والوسطى، ويقول: أما بعد: فإن خير الحديث كتاب الله، وخير الهدي هدي محمد، وشر الأمور محدثاتها، وكل بدعة ضلالة، ثم يقول: «أنا أولى بكل مؤمن من نفسه، من ترك مالا فله، ومن ترك ديناً أو ضياعاً فإلي وعلي»^(٤).
تم تفسير (سورة الجمعة) والله الحمد والمنة

(١) ابن أبي شيبة (١١٣/٢).

(٢) أخرجه البيهقي عن ابن شهاب في الأسماء والصفات برقم (٣٤٦) وإسناده صحيح.

(٣) ابن أبي الدنيا في قصر الأمل (٩٠) والبيهقي في الشعب (١٠٥٨١) والديلمي (٨١٧٨) عن الدر المنثور (٤٩٠/١٤).

(٤) صحيح مسلم (٨٦٧).

تَفْسِيرُ سُورَةِ الْمُنَافِقُونَ (٦٣)

مُقَدِّمَةُ السُّورَةِ

(سورة المنافقون) هي السورة الثالثة والستون في ترتيب المصحف، والثانية بعد المئة في ترتيب النزول، نزلت بعد (سورة الحج) وقبل (سورة المجادلة)، وكان ذلك سنة خمس من الهجرة، في أعقاب غزوة بني المصطلق على الأصح. وهي سورة مدنية بالإجماع، وعدد آياتها إحدى عشرة آية باتفاق أهل العدد. وهي مئة وثمانون كلمة، وتسع مئة وستة وسبعون حرفاً. وسميت (سورة المنافقون) - بالرفع، على حكاية اللفظ الذي في أولها - لأنها تختص بذكر أحوال المنافقين وصفاتهم، وهكذا جاء اسمها في كتب التفسير والحديث، ومن ذلك حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال: كان رسول الله ﷺ يقرأ في صلاة الجمعة بسورة الجمعة، فيحزّض بها المؤمنين، وفي الثانية بسورة المنافقين فيقرّع بها المنافقين^(١). وفي حديث زيد بن أرقم رضي الله عنه قال: فلما أصبحنا - وكانوا في سفر - قرأ رسول الله ﷺ سورة المنافقين^(٢)، وهذا على الجر موافقة للغة.

وقد فضحت هذه السورة أحوال المنافقين، وكشفت عن صفاتهم الذميمة، ومقالاتهم الشنيعة في شأن الإسلام وأهله، وبينت دخائل نفوسهم، وحقدهم على الإسلام وأهله. وحذّرت السورة في نهايتها الذين آمنوا أن لا يشوبهم شائبة من النفاق - ولو في أدنى درجاته - ويكون ذلك بالتجرد إلى الله تعالى، وعدم الغفلة عن ذكره سبحانه لأي

(١) قال الهيثمي في مجمع الزوائد (١٩٤/٢) رواه الطبراني في الأوسط (٩٢٩٧) وإسناده حسن، ومحمد بن

عمار هو الوازعي، وهو وشيخه عبد الصمد من أهل الرأي، وثقهما ابن حبان وأخرجه البزار (٣٧٥٩)

والطبراني في الكبير (٩٢٧٩) ورواه مسلم بنحوه (٨٧٧).

(٢) أخرجه الترمذي برقم (٣٣١٣) من حديث طويل، قال أبو عيسى: هذا حديث حسن صحيح.

سبب من الأسباب، وعدم التقاعس عن البذل في سبيل الله، قبل أن يأتي يوم لا ينفع فيه الندم، وذلك لأن النفاق ازدواج في الشعور والسلوك، حيث يلقي صاحبه الناس بوجهين، يُظهر وجهاً ويبطن آخر، ولا يزال ينمو النفاق في نفسه حتى يصطبغ بألوان شتى يستخدمها حسب المقام، والحلف الكثير والكذب من أول أخلاق المنافقين.

حديث القرآن عن المنافقين:

وقد كثر الحديث عن النفاق والمنافقين في كثير من سور القرآن المدنية، كما في سورة البقرة، بدءاً من الآية الثامنة إلى الآية العشرين، وما يتخلل السورة من الآيات الكثيرة. وفي (سورة آل عمران) توبيخ شديد لمن تقاعسوا من المنافقين يوم أحد وثبتوا همم المؤمنين عن الجهاد في سبيل الله. وفي (سورة النساء) آيات كثيرة تتحدث عن قبائحهم وتحاكمهم لغير الله ورسوله، وتذنبهم بين الكفر والإيمان، ثم تُبين أنهم في الدرك الأسفل من النار يوم لقاء الله رب العالمين.

ومعظم (سورة التوبة) تتحدث عن المنافقين، وتفضحهم، وتكشف عن مكنون صدورهم، وتُبغِث أسرارهم، ولذا سُميت (الفاضحة) فلا زالت تقول: ومنهم، ومنهم، ومنهم، حتى أتت على جميع أحوالهم، وكشفت زيفهم وفضحت سرائرهم. وهكذا لا تخلو سورة مدنية من الحديث عنهم وعن سوء أحوالهم وسلوكهم. وقد ظهرت حركة النفاق في المدينة بعد أن قوي المؤمنون وانتصروا في غزوة بدر، وأصبح لهم شأن ودولة، وقد استمر النفاق في عصر التنزيل إلى قرب وفاة النبي ﷺ وهو لم ينقطع على مدى التاريخ وإن تغيرت مظاهره ووسائله بين الحين والحين. والنفاق من أخس الصفات، وكثرة الحلف والكذب المتكرر من مظاهره، والمواقف لا تدع النفاق مستوراً، بل تكشفه في فلتات اللسان ولحن القول وتقاسيم الوجه، والتعليق المفاجيء على الأحداث.

وهذه السورة تحمل الاسم الخاص بالمنافقين، وهو يدل على موضوعها، فقد فضحت زعماء النفاق في عصر التنزيل، وسجّلت عليهم ما حاولوا الفرار منه، فقد حملت عليهم حَمْلَةً عَنيفَةً كشفت عن دسائسهم ومُناوراتهم، وقد كانوا حريصين على أن تكون صورهم جميلة، ومظاهرهم خلابة، لتستُرْ خباياهم، ولكن حقدهم غلبهم، فخرج منهم ما يسيء إلى المهاجرين والأنصار، ممّا سجّله الله عليهم في كتابه إلى يوم القيامة. وتُختم السورة بما يجعل العقلاء يُؤثرون ما عند الله، ولا يَتَزَلُّون إلى حُطام الدنيا الفاني، فما عند الله خير وأبقى.

سبب نزول السورة:

يدور سبب نزول هذه السورة على أمر تافه في حد ذاته، كثيرًا ما يقع بين بعض الخدم، ولكنه يكشف عن خبايا المنافقين، ويُظهر مكنون صدورهم تجاه الإسلام وأهله. وذلك: أن عبد الله بن أبيّ بن سلول ومعه جمع من المنافقين خرجوا مع النبي ﷺ إلى «المُرَيْسِع» وهو مكان به ماء لبني الْمُضْطَلِق، وقد خرجوا طلباً للغنيمة، لا رغبة في الجهاد، وكانت مسافة السفر قصيرة، فلما فرغ النبي ﷺ من الغزوة، اُزْدَحَمَ الناس على الماء، ومنهم أجير لعمر بن الخطاب اسمه «جهجاه بن سعيد» وحليف لعبد الله بن أبيّ، اسمه «سنان الجهني» ودار بينهما كلام، فرفع (غلام عمر) يده ولطم بها (الجهني)، فصرخ الأول قائلاً: يا للمهاجرين، وصرخ الثاني قائلاً: يا للأنصار، فأقبلوا، فلما بلغ ذلك النبي ﷺ غضب وقال: «ما بال دعوى الجاهلية، دعوها فإنها متنة» أي اتركوا هذه العصبية لعشيرتكم، فقد أعزكم الله بالإسلام، ووحد صفكم، وجمع كلمتكم، وأصلح الأمر بينكم. ولما بلغ الخبر عبد الله بن أبيّ، قال: وعنده جماعة من المنافقين: أَوْ قَدْ فَعَلُوهَا، والله ما مثلكم ومثُل هؤلاء الرهط من قريش، إلا كما قال الأول: (سَمَنَ كُلُّكَ يَأْكُلُكَ) فقد أويتموهم في منازلكم، وأنفقتم عليهم أموالكم، ولو أمسكتهم أيديكم عنهم لتفرقت جموعهم، أما والله لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل، ويعني بالأعز نفسه، وبالأذل رسول الله ﷺ.

زيد بن أرقم يرد على زعيم المنافقين :

وكان في القوم «زيد بن أرقم» غلام صغير، فقال لعبد الله بن أبي: أنت والله الذليل القليل، وأخبر النبي ﷺ بما قال، فعرض عليه عمر أن يضرب عنقه، فقال ﷺ: «إذن ترتعد له أنفٌ كبيرة»، أي يغضب من أجله قوم كبار، فالنبي ﷺ يدفع دائما بأخف الضررين، ويرجح المصلحة العامة، ولذا فإنه ﷺ قال لعمر بعد أن انتهت أحداث القصة، «أبي عمر، أكنت قاتله لو أمرتك بقتله»؟ قال: نعم، فقال ﷺ: «والله لو قتلت يومئذ لرغمت أنوف رجال، لو أمرتهم اليوم بقتله امثلوا» قال عمر: فإن كرهت أن يقتله رجل من المهاجرين، فمُر سعد بن عباد، أو محمد بن مسلمة، أو عباد بن بشر، فليقتله، فقال ﷺ: «إذن يتحدث الناس أن محمدا يقتل أصحابه».

فأرسل النبي ﷺ إلى عبد الله بن أبي، فأتاه، فقال: «أنت صاحب هذا الكلام؟» قال: والذي أنزل عليك الكتاب، ما قلت شيئا من هذا، وإن زيدا لكاذب.

وقال الحاضرون: إنه غلام صغير، فعذره رسول الله ﷺ ولام الناس زيدا، وأراد النبي ﷺ أن يطفىء نار الفتنة، فمشى بالناس يوما وليلة ليشغلهم عن الحديث الذي كان بالأمس. وقال أسيد بن الحضير للنبي ﷺ: ارفق به يا رسول الله، فوالله لقد جاء الله بك، وإننا لننظم له الخرز لتوجه ملكا، وإنه ليرى أنك قد استلبته ملكه. فأنزل الله تعالى هذه السورة في ابن أبي تكذبه وتصدق زيدا.

فلما نزلت قال ﷺ لزيد: يا غلام إن الله قد صدّقك وكذب المنافقين، وفرك النبي ﷺ أذن زيد وضحك في وجهه، قال زيد: فما كان يسرني أن لي بها الخلد في الدنيا. وقيل لعبد الله بن أبي: لقد نزلت فيك آيات شداد، فاذهب إلى رسول الله يستغفر لك؟ فلو رأته، وقال: لقد أمرتموني أن أؤمن فأمنت، وأمرتموني أن أزكي فزكيت، وما بقي لي إلا أن أسجد لمحمد.

عبد الله بن عبد الله بن أبي :

وكان لعبد الله بن أبي ولد صالح من خيار الصحابة هو (عبد الله بن عبد الله بن أبي) فجاء إلى النبي ﷺ يقول له: والله لقد عَلِمْتُ الخزرج، ما كان لها من رجل أبر بوالده مني، وأني والله لا أصدق عيني في وجهه هيبة له، ولقد بلغني ما كان من أبي، وبلغني أنك تريد قتله، فإن كنت فاعلاً، فمرني، فأنا أحمل إليك رأسه، فإني أخشى أن يقتله غيري، فلا تدعني نفسي حتى أقتل قاتله، فأكون قد قتلْتُ مسلماً بكافر فأدخل النار، فقال ﷺ: «بل تُحسن صحبته ما بقي معناً» فخلَّ سبيله حتى يصل إلى منزله.

الابن يرفع السيف في وجه أبيه نصرة لرسول الله ﷺ :

ولما رجع الناس إلى المدينة وقف عبد الله (الابن) على باب المدينة واستل سيفه، فجعل الناس يمرون عليه، فيتركهم، فلما جاء أبوه قال له: وراءك قال: ويملك، ما لك؟ قال: والله لا تجوز من ها هنا، حتى يأذن لك رسول الله ﷺ فإنه العزيز وأنت الذليل. وكان الرسول ﷺ يسير في مؤخرة الجيش، فلما وصل إلى مدخل المدينة، اشتكى إليه عبد الله (الأب) ما يفعله الابن، فقال عبد الله : والله يا رسول الله، لا يدخلها حتى تأذن له، فأذن له النبي ﷺ فقال عبد الله (الابن): أما إذ أذن لك رسول الله، فجز الآن. ولم يلبث عبد الله بن أبي إلا أياماً حتى اشتكى ومات^(١).

ولما مات (ابن أبي) جاء ابنه (عبد الله) إلى النبي ﷺ يطلب قميصه ليكفنه فيه برأً بأبيه، وخوفاً عليه من عذاب النار، فأعطاه النبي ﷺ قميصه، ثم طلب منه أن يصلي عليه، فصلى عليه النبي ﷺ ومشى معه، وقام على قبره حتى فرع منه، رغم معارضة عمر رضي الله عنه.

(١) ينظر فيما سبق: السيرة النبوية لابن هشام (٢/١٠٥، ٢٩٠) وتفسير الطبري (٧١/٢٨) والطبراني (٥٠٤١) والحاكم (٤٨٨/٢) والبيهقي في الدلائل (٤/٥٤) وابن عساكر (٢٦٩/١٩) وصحيح سنن الترمذي (٢٦٤٠) وصحيح البخاري برقم (٤٩٠٢، ٤٩٠٧) وصحيح مسلم برقم (٢٧٧٢٤، ٢٥٨٤) وسنن الترمذي برقم (٣٣١٤) وسنن النسائي الكبرى برقم (١١٥٩٤) والمسند (٣/٣٩٢، ٤/٣٧٣) برقم (١٩٢٨٥، ١٩٢٩٥) والواحدي في أسباب النزول: ٣٢١ وكلها من طرق متعددة.

وذلك تطبيقاً لخاطر ولده، فأنزل الله تعالى: ﴿وَلَا تَصْلُ عَلَى أَحَدٍ مِنْهُمْ مَاتَ أَبَدًا وَلَا تَقُمْ عَلَى قَبْرِهِ إِنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَمَاتُوا وَهُمْ فَتْسِقُونَ﴾ (٨٤) [التوبة] فما صلى رسول الله ﷺ بعده على منافق، ولا قام على قبره حتى قبضه الله عز وجل^(١).

خطورة النفاق:

وشأن (عبد الله بن أبي) شأن سائر المنافقين في العقيدة، في عدم جواز الصلاة عليهم، وعدم الدعاء لهم أو الترحم عليهم، ومع هذا فإن النبي ﷺ لم يخرج المنافقين من الصف الإسلامي، ماداموا يُظهرون الإسلام، ويؤدون فرائضه في الظاهر، لأن الله وحده هو الذي يعلم ما في القلوب وهو الذي يحاسب على ما فيها.

وكان النبي ﷺ يَعْرِفُ المنافقين بِلَحْنِ القول، وما يبدو على ألسنتهم من أساليب الالتواء والمداراة، ولم يَعْرِفْهم الله له بأسمائهم وأعيانهم إلا قُرْبَ وفاته ﷺ.

وكان حذيفة بن اليمان صاحب سر النبي ﷺ فعَرَفَ بهم واحداً واحداً، وكنم حذيفة ذلك ولم يُفْشِه بين الناس، حتى إن عمر رضي الله عنه على جلالة قدره، كان يأتي حذيفة ليطمئن منه على نفسه من أن الرسول ﷺ لم يُسَمِّه له ضمن المنافقين! فكان يقول له: يا عمر، لست منهم، ولا يزيد! وكان الصحابة يعرفون المنافق عندما يرون النبي ﷺ لا يصلي عليه إذا مات. ولما مات النبي ﷺ كان حذيفة رضي الله عنه لا يصلي على من عرف أنه منهم.

وكان عمر رضوان الله عليه لا ينهض للصلاة على الميت إلا إذا رأى حذيفة قد قام للصلاة عليه.

وذكر بعض أهل العلم أن هذه السورة نزلت في غزوة تبوك، في السنة التاسعة للهجرة، وهو قول ضعيف، لأن المنافقين وقتها قد زالت دولتهم وضعف شأنهم، ولم يكن لهم جُرْأة على مثل قولهم الذي قالوه عن النبي ﷺ وأصحابه.

(١) ينظر مسند الإمام أحمد برقم (٩٥) بإسناد حسن، ورجال ثقات، وانظر البخاري برقم (٤٦٧٢) ومسلم برقم (٢٧٧٤) والترمذي برقم (٣٠٩٨) وقال: حسن صحيح والنسائي برقم (٢٤٤) وابن ماجه برقم (١٥٢٣)، وانظر القصة في سورة التوبة عند الآية (٨٤)، من هذا التفسير.

تَفْسِيرُ السُّورَةِ

الْمُنَافِقُ يَسْتَرُّ بِالْإِيمَانِ الْكَاذِبَةَ وَاللَّهُ تَعَالَى يَكْشِفُ سِتْرَهُ

١- ﴿إِذَا جَاءَكَ الْمُنَافِقُونَ قَالُوا نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللَّهِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ

لَكَذِبُونَ ﴿١﴾

لما قدم النبي ﷺ المدينة، وكثر المسلمون، وصاروا أعزة أقوياء، أخذ بعض الناس من الأوس والخزرج يُظهرون الإسلام ويُبطنون الكفر، ليحقنوا دماءهم، وتسلم أموالهم، ويبقى جاههم، فذكر الله أوصافهم ليعرفهم المسلمون ويحذروهم. وتبدأ السورة بوصف طريقة المنافقين في إخفاء ما في قلوبهم، وتوثيق ذلك بالإيمان الكاذبة، ليصدقهم الناس، وليخدعُوهم بهذه الأيمان الكاذبة، لتكون وقاية لهم يخفون وراءها حقيقة أمرهم.

والآية الأولى من هذه السورة، تُعرِّض بكذب عبد الله بن أبي وأضرابه من المنافقين الذين يسيؤون إلى الإسلام وأهله، وذلك بصيغة العموم لتجنب التصريح بالمقصود. ومن هذا القبيل في تعميم الخطاب أن مولى «بريرة» لما أراد أن يبيعها لعائشة رضي الله عنها، اشترط أن يكون الولاء له، فقال النبي ﷺ «ما بال أناس يشترطون شروطا ليست في كتاب الله، من اشترط شرطاً ليس في كتاب الله فليس له، وإن شرط مئة مرة»^(١) فعمم ولم يخصص. وقد اشتملت هذه الآية على قضايا ثلاث: القضية الأولى: الإخبار عن المنافقين أنهم يشهدون للرسول ﷺ بالرسالة. والقضية الثانية: المبادرة بتثبيت رسالة محمد ﷺ.

(١) من حديث عائشة في المسند (٢٤٥٢٢) بإسناد صحيح على شرط مسلم، وهو في البخاري (٢٥٦١) ومسلم (١٥٠٤) وأبي داود (٣٩٢٩) والترمذي (٢١٢٤) وقال: حسن صحيح، وابن ماجه ٢٥٢١ وابن حبان ٤٢٧٢ والنسائي في الكبرى (٤٩٩٦).

والقضية الثالثة: تكذيب الله للمنافقين في دعوى الإيمان.
والمنافق هو: من يظهر خلاف ما يُبطن من الأقوال والأفعال، وأعظم ذلك أن يظهر الإسلام ويبطن الكفر. والكذب هو الإخبار بخلاف الواقع.
وقد خاطب الله تعالى رسوله ﷺ مبينا له أنه إذا حضر المنافقون مجلسه في حياته ﷺ أو حضروا في مجلس القضاء أو العلماء أو الحكام أو الدعاة بعد مماته، فشهدوا بألستهم خوفاً ونفاقاً بأن الإسلام حق، وأن الرسول صادق فيما يبلغه عن ربه، وهم يضمرون خلاف ذلك، فإنهم كاذبون في دعواهم التي أكدوها بآن واللام، للإشعار بأن شهادتهم صادرة من صميم قلوبهم، وصدق اعتقادهم، ووفرة رغبتهم ونشاطهم^(١) وهي شهادة تجري مجرى القسم.

ذلكم قول الله تعالى: ﴿إِذَا جَاءَكَ الْمُتَنَفِقُونَ قَالُوا﴾ كذباً ونفاقاً ﴿شَهِدْنَاكَ لِرَسُولِ اللَّهِ﴾ وهنا تم الخبر عنهم، ثم ابتداء سبحانه وتعالى فبين أن الرسول ﷺ ليس في حاجة إلى هذه الشهادة التي تخالف بواطنهم، فكانت هذه الجملة الاعتراضية للفصل بين كلام الله تعالى وكلام المنافقين، أي بين الصدق والكذب، فقال تعالى: ﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُ﴾ حقاً وصدقاً، فهو الذي أرسلك رحمة للعالمين، ويعلم صدق قولك وفعلك.

ثم أعلم الله نبيه وأعلم المسلمين كافة، بحقيقة أهل النفاق، وأنهم كاذبون في شهادتهم بأنك رسول الله، فقال ﴿وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ الْمُتَنَفِقِينَ لَكَاذِبُونَ﴾ فيما أظهره من شهادتهم لك، وحلفوا عليه بألستهم، وأضمروا الكفر بك، وأن قولهم ليس على وجه الحقيقة منهم.
ولفظ ﴿شَهِدُ﴾ خبر مؤكد، لأن الشهادة هي الإخبار عن أمر مقطوع به، وهي مشتقة من المشاهدة، والمعاينة أقوى طرق العلم.

والإيمان الحق لا يتم إلا إذا وافق اللسان ما في القلب، وهؤلاء قالوا بألستهم ما ليس في قلوبهم، فالمقصود هو تكذيب إقرار المنافقين بالرسالة، وبيان أنهم لا يقرون

(١) ينظر: تفسير أبي السعود (١٦٤/٥).

بها حقًا، ولا يشهدون بها صدقًا، وفي هذا مبادرة بثيت الرسالة قبل تكذيب مقالة المنافقين، حتى لا يتوهم أن المقصود هو تكذيب المنافقين في شهادتهم بالرسالة، لأن حلفهم مُنصَّب على دعوى إيمانهم.

وإذا كان المنافقون كاذبون فيما قالوه، فكيف بهذه الإيمان التي يحلفونها؟ لقد أجاب الله تعالى عن ذلك بقوله:

٢- ﴿اتَّخَذُوا أَيْمَانَهُمْ جُنَّةً فَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٢﴾﴾

أي إنما جعل المنافقون أيمانهم الفاجرة التي أقسموا بها سُترة ووقاية لهم من المؤاخذه والعذاب، فهم يستترون بالحلف الكاذب حتى لا يصيبهم أذى من المؤمنين، وهم يجعلونها ترسًا يمنع نسبتهم إلى النفاق.

كما جاء ذلك في آيات كثيرة، منها قوله تعالى: ﴿يَخْلِفُونَ بِاللَّهِ مَا قَالُوا وَلَقَدْ قَالُوا كَلِمَةً الْكُفْرِ وَكَفَرُوا بَعْدَ إِسْلَامِهِمْ وَهُمْ أَوِيَّا لَمْ يَسْأَلُوا﴾ [التوبة: ٧٤].

وقوله سبحانه: ﴿وَيَخْلِفُونَ بِاللَّهِ إِيَّاهُمْ لِمَنْكُم مَّا هُمْ بِكُمْ وَلَكِنَّهُمْ قَوْمٌ يَفْرُقُونَ﴾ [التوبة].

وقوله جل شأنه: ﴿يَخْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ لِيَرْضَوْكُمْ وَاللَّهُ وَرَسُولُهُ أَحَقُّ أَنْ يُرْضَوْهُ إِنْ كَانُوا

مُؤْمِنِينَ ﴿١٢﴾﴾ [التوبة].

قال قتادة: كلما ظهر شيء منهم يوجب مؤاخذتهم حلفوا كاذبين عصمة لدمائهم وأموالهم^(١)

وقد تمكن المنافقون بأيمانهم الكاذبة من صدّ بعض الناس عن الطريق القويم، وتشكيكهم في صحة ما جاء به النبي ﷺ لأنهم اغتروا بظاهرهم، فاعتقدوا أنهم مسلمون وصدّقوهم، فهم بهذا قد أعرضوا عن دين الله الذي بُعث به محمد ﷺ ومنعوا أنفسهم من الإيمان به ﷺ، ومنعوا غيرهم - ممن اغترّ بهم - عن دين الله القويم، وجمعوا بين ثلاث رذائل هي: تعمّد الأيمان الكاذبة، وإعراضهم عن الحق، وصرف الناس عنه،

(١) تفسير الألوسي (١٠٩/٢٨).

وهذا هو معنى ﴿فَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ﴾ أي صدوا أنفسهم وصدوا غيرهم عن دين الله، ممن كان يريد الإيمان أو الجهاد، فأنكروا عليهم، وثبطوهم.

ثم ذم الله فعلهم وقبح سلوكهم، لظهورهم بمظهر الإيمان، وهم كاذبون منافقون معرضون عن دين الله، يقفون في وجه الدعوة إلى الله والجهاد في سبيله ﴿إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ أي فبئست أعمالهم القبيحة وساءت أخلاقهم الذميمة، فقد أظهروا الإيمان لكم، والكفر لأعدائكم، وأقسموا على ذلك، وأوهموكم بالصدق، وبئس الكفر بعد الإيمان.

رَسُوخُ الْكُفْرِ فِي قُلُوبِ الْمُنَافِقِينَ

٣- ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ ءَامَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا فَطَغَىٰ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ﴾ (٣)

ثم بين سبحانه سبب إقدام المنافقين على الأعمال السيئة، وسبب استخفافهم بإيمان الله تعالى، وذلك أنهم آمنوا في الظاهر وكفروا في الباطن، وصرّحوا بالكفر عند شياطينهم كما قال تعالى: ﴿وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ ءَامَنُوا قَالُوا ءَامَنُوا وَإِذَا خَلَوْا بِكُنُوزِهِمْ قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزَءُونَ﴾ (١١) [البقرة].

ثم أظهر الله كفرهم لرسوله ﷺ وللمؤمنين، فهم يترددون على الكفر مرة بعد مرة، فرسخ الكفر في نفوسهم، وتجروا عليه، حتى صارت قلوبهم كالمطبوع عليها لا يصل إليها خير ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ ءَامَنُوا﴾ نطقوا بكلمة الكفر في الظاهر وفعلوا أفعال المسلمين في العلن ﴿ثُمَّ كَفَرُوا﴾ في الباطن فيما بينهم وبين أنفسهم، وفيما بينهم وبين إخوانهم في الكفر والنفاق، فهم مترددون بين الكفر والإيمان، يظهرون الإيمان كذباً ثم يرجعون إلى الكفر باطناً.

وهذا أعظم من الكفر الصريح ﴿فَطَغَىٰ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ﴾ أي ختم الله عليها، فلا يصل إليها هدى ولا خير ولا نور ﴿فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ﴾ (٢) مافيه صلاحهم، ولا يميزون بين الحسن والقبيح، والخير والشر، فإن من يتذوق الإيمان، ويتفياً ظلاله، ويحى في نور الإيمان، ثم يعود إلى الكفر، فهو مطموس البصر والبصيرة، لا يحس ولا يشعر.

وكان الطبع على قلوبهم نتيجة كفرهم، فهم السبب، كما قال تعالى ﴿بَلْ طَبَعَ اللَّهُ عَلَيْهَا

يَكْفُرَهُمْ ﴿النساء: ١٥٥﴾ وقال سبحانه ﴿فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ﴾ [الصف: ٥].

وهم مع هذا الختم على القلوب لا يعقلون، كما قال تعالى ﴿... إِنَّا جَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا وَإِنْ تَدْعُهُمْ إِلَى الْهُدَى فَلَنْ يَهْتَدُوا إِذًا أَبَدًا ﴿٥٧﴾﴾ [الكهف].

وَصَفُ أَجْسَادِ الْمُنَافِقِينَ بَعْدَ وَصْفِ عُقُولِهِمْ

٤- ﴿وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ وَإِنْ يَقُولُوا تَسْمَعُ لِقَوْلِهِمْ كَأَنْهُمْ ﴿١﴾ خُشُبٌ مُسْنَدَةٌ يَخْسِبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ هُمُ الْعَدُوُّ فَاحْذَرْهُمْ فَوَلَّيَهُمُ اللَّهُ أَنْ يَكُونُوا يَحْشَبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ هُمُ الْعَدُوُّ فَاحْذَرْهُمْ فَوَلَّيَهُمُ اللَّهُ أَنْ يَكُونُوا يَحْشَبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ﴾

وبعد أن وصف القرآن عقول المنافقين وما يخفى من أحوالهم في قوله تعالى ﴿وَإِذَا جَاءَكَ الْمُتُنَفِّقُونَ﴾ وصف أجسادهم وأشكالهم التي تظهر للناظر بقوله تعالى ﴿وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ﴾ فوصفهم الله تعالى بأربعة أوصاف:

الوصف الأول: يتعلق بأشكالهم ومظاهرهم، فأجسامهم ضخمة، وهيئتهم حسنة، ومظهرهم جميل، فيهم حُسن ونضارة ﴿وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ﴾ أي إنك إذا نظرت إلى المنافقين تعجبك هيأتهم ومناظرهم، لحسنها وسلامتها ونضارتها ووسامتها، فلا تُفْتِن ولا تغتر بحُسن صورهم، فإنها أجسام البغال وأحلام - أي عقول - العصافير. وصاحب الهيئة الحسنة، والجسم الضخم، يظل موضع إعجاب الناظرين مادام صامتاً، فإذا تكلم أفصح عن محتوى هذه الهيئة، فإما أن يكون ذا قيمة كبيرة في عقله وجسمه، فتزداد مهابته لدى الناس، وإما أن يفقد هيئته وقيمه بجهله، والجهل يفضح صاحبه.

ولذا : فإن أبا حنيفة رحمه الله كان يَمُدُّ رجله بين طلابه لما فيها من الألم، ولما دخل عليه رجل ذو مهابة، قبض رجله، وصبر على تعبها، تقديرًا له، فلما تكلم الرجل

(١) ٢) قرأ الأصهباني بتسهيل الهمزة في ﴿رَأَيْتَهُمْ﴾ و ﴿كَأَنْهُمْ﴾ وصلاً ووقفاً، وكذا حمزة عند الوقف بخلف عنه في ﴿كَأَنْهُمْ﴾.

(٣) قرأ أبو عمرو والكسائي وقبل بخلف عنه بإسكان الشين من ﴿خُشُبٌ﴾ والباقون بضمها، وهو الوجه الثاني لقبيل.

وأفصح عن مستواه العقلي والعلمي، قال أبو حنيفة قوله المشهورة: **آن لأبي حنيفة أن يمدّ رجله، أي ليتخلّص مما يلحق به من ألم حال قبضها!**

الوصف الثاني: يتعلق بفصاحة لسان المنافقين، وحسن منطقهم وقوة حجّتهم، وقد جاء ذلك في قوله تعالى: ﴿وَإِنْ يَقُولُوا تَسْمَعُ لِقَوْلِهِمْ﴾ أي وإن يتحدثوا تسمع لحديثهم، وتصغي لقولهم، لفصاحة ألسنتهم، وبلاغة حجّتهم، وحسن منطقهم.

قال ابن عباس: كان ابن أبيّ، جسيماً صحيحاً ذلق اللسان.

وقال الكلبي: المراد: ابن أبيّ، والجدّ بن قيس، ومتعب بن قشير، كانت لهم أجسام ومنظر وفصاحة.

وهكذا كل منافق عليم اللسان، فصيح البيان، حذر منه الإسلام كما جاء في حديث عمر رضي الله عنه مرفوعاً: **(إن أخوف ما أخاف على أمتي كل منافق عليم اللسان)** ^(١).

وفي الحديث عن أم سلمة (فلعل بعضكم أن يكون ألحن بحجّته من بعض فأقضي له بنحو ما أسمع، فمن قضيت له بشيء من حق أخيه، وإنما أقطع له قطعة من النار) ^(٢).

وكم من محامٍ فصيح اللسان أخرج القاتل بريئاً، وقلّب الحق باطلاً والباطل حقاً، ولا أنسى هذا البدوي الذي حضر بنفسه أمام القاضي لوثوقه أنه صاحب الحق ولا يحتاج إلى من يحامي عنه، فلما سمع فصاحة محامي الخصم يدافع بقوة وجراً عن الباطل، قال للقاضي: يا حضرة القاضي: **أجل القضية حتى أحضر لي كذاباً مثل هذا!!**

الوصف الثالث: أن قلوبهم فارغة من الإيمان، وعقولهم خاوية من الفهم والعلم النافع، ثم إن المنافقين مع أن أجسامهم تعجب الناظر، وأقوالهم تغري السامع، إلا أنهم لعدم الانتفاع بهم، كالأخشب الملقى على الحائط، وهو جماد لا حياة فيه ﴿كَأَنَّهُمْ خُشْبٌ

(١) المسند برقم (٣١٠، ١٤٣) بإسناد قوي، وأخرجه عبد بن حميد (١١)، والبخاري (٣٠٥)، والبيهقي في الشعب (١٧٧٧).

(٢) جزء من حديث أم سلمة في البخاري (٦٩٦٧، ٢٤٥٨) ومسلم (١٧١٣).

مُسْنَدَةً ﴿فَقُلُوبُهُمْ تَخَلُّوْا مِنَ الْهَدْيِ وَالْأَخْلَاقِ الْفَاضِلَةِ، وَقَدْ شَبِهَ اللَّهُ الْمُنَافِقِينَ وَهُمْ فِي مَجْلِسِ النَّبِيِّ ﷺ كَأَنَّهُمْ يَسْتَنْدُونَ إِلَى خُشْبٍ مُسْنَدَةٍ إِلَى حَائِطٍ، وَهِيَ لَا تَفْهَمُ وَلَا تَعْلَمُ شَيْئًا، وَهَكَذَا الْمُنَافِقُونَ تَخَلُّوْا قُلُوبُهُمْ مِنَ الْفَقْهِ النَّافِعِ وَالْفَهْمِ الصَّحِيحِ، فَهُمْ لَخَلْوَهُمْ مِنَ الْعِلْمِ وَالنَّظَرِ الصَّحِيحِ، كَأَنَّهُمْ أَشْبَاحُ بِلَا أَرْوَاحٍ، وَأَجْسَامُ بِلَا عُقُولٍ.

وقد جاء هذا الوصف للتنفير منهم، وعدم الاغترار بمظهرهم، ولئلا يتوهم أن المراد مدحهم بحُسن الهيئة وفصاحة اللسان، وإنما هو ذم وتوبيخ لهم، والعلم الذي أوتوه علم ضار، يأخذ بيد صاحبه إلى الضلال والإضلال.

الوصف الرابع: أن المنافقين - مع حسن أشكالهم وحلاوة منطقتهم - في غاية الضعف والجنون والخور، كلما وقع أمر، أو حدث شيء، يعتقدون - لجبنهم - أنه نازل بهم، فهم ﴿يَحْسُبُونَ كُلَّ صَاحِبَةٍ عَلَيْهِمْ﴾ أي يظنون كل صوت عال واقعا عليهم، وضارا بهم، لعلمهم بحقيقة حالهم، ولفرط خوفهم، أن يطلع عليهم أحد، والرعب الذي تمكن من قلوبهم. وقد وصفهم الله تعالى بذلك في قوله ﴿فَإِذَا جَاءَ الْخَوْفُ رَأَيْتَهُمْ يَقْرَعُونَ إِلَيْكَ تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ كَالَّذِي يُغْنَى عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ فَإِذَا ذَهَبَ الْخَوْفُ سَلَقُوكُمْ بِالسِّنَةِ جَدَادٍ...﴾ [الأحزاب: ١٩].

وهم أيضاً في خوف ووجل من أن ينزل فيهم من القرآن ما يهتك أسرارهم، ويستبيح أموالهم ودماءهم، فكانوا يتوقعون أن يأمر النبي بقتلهم، وهنا تم الكلام في الآية. ثم حذر الله تعالى رسوله ﷺ وحذر المسلمين إلى يوم القيامة من الذين يظهرون ما لا يبطنون في أقوالهم وأفعالهم ليصلوا إلى أغراضهم وأهدافهم، فقال تعالى ﴿هُرُّ الْعَدُوِّ فَاحْذَرُوهُمْ﴾ أي هم ألد الأعداء الذين تناهت عداوتهم للإسلام وأهله، فهم يُظهِرون المودة للمسلمين، ويتربصون بهم الدوائر، ويتمنّون الوقعة بهم، وهم الكاملون في عداوتهم للمسلمين، الراسخون في بُغْضهم لهم، وذلك لأن العدو البارز الظاهر في أحواله، أهون من العدو المخادع الماكر الذي لا يشعر به أحد، يظهر محبته ويبطن عدوانه، فكن على حذر منهم، ولا تأمنهم على سرّ، فإنهم عيون لأعدائك، ولا تترك لهم فرصة

يتمكنون من خلالها: الاطلاع على أحوالك حتى لا يُفْشَوْها لأعدائك.
ثم إن الله تعالى دعا عليهم بالطرد من رحمته فقال ﴿قَتَلَهُمُ اللَّهُ﴾ أي أخزاهم ولعنهم وأبعدهم من رحمته، بسبب أفعالهم القبيحة، وصفاتهم السيئة،
ثم تعجب سبحانه من حالهم، كيف ينصرفون عن الحق إلى ما هم فيه من النفاق والضلال فقال ﴿أَفَيُؤْفَكُونَ﴾ أي كيف ضلَّت عقولهم مع وضوح الدلائل والبراهين فانصرفوا عن الحق إلى الباطل، وعن الهدى إلى الضلال،
في الأثر عن أبي هريرة ؓ (إن للمنافقين علامات يعرفون بها: تحيُّتهم لَعنة، وطعامهم نُهبه، وغنيمتهم غُلُول، لا يقربون المساجد إلا هُجْراً، ولا يأتون الصلاة إلا دُبْراً، مستكبرين، لا يَأْلَفُونَ ولا يُؤْلَفُونَ، خُشِبَ بالليل، صُحِبَ بالنهار).^(١)

التَّكْبَرُ وَالْإِعْرَاضُ عَنِ الْحَقِّ مِنْ صِفَاتِ الْمُنَافِقِينَ

٥- ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا يَسْتَغْفِرْ لَكُمْ رَسُولُ اللَّهِ لَوَّاْ^(٢) وَهُمْ مُسْتَكْبِرُونَ﴾
إذا طلب من المنافق أن يعتذر عما صدر منه امتنع واستكبر بغياً وعناداً، وهكذا كان حال المنافقين وقت التنزيل إذا طُلب منهم أن يذهبوا للنبي ﷺ ليدعو الله لهم أنفوا وتكبروا.
ولما نزلت هذه الآيات التي تفضح المنافقين وتكشف أستارهم، مشى إليهم أقرباؤهم من المؤمنين يقولون لهم: لقد افتضحتم بالنفاق وأهلكتم أنفسكم به، فتوبوا إلى الله منه، واذهبوا إلى رسول الله ﷺ يستغفر لكم، فأبوا وحركوا رؤسهم، سخرية واستهزاء، ثم ذهبوا إلى ابن أبيي وسأله ذلك، فلوى رأسه تكبراً، فأنزل الله تعالى ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا يَسْتَغْفِرْ لَكُمْ رَسُولُ اللَّهِ﴾ أي إذا قيل لهم: أقبلوا تائبين معتردين عما بدر منكم

(١) المسند (٢٩٣/٢) برقم (٧٩٢٦) بإسناد ضعيف، قال محققوه : لضعف عبد الملك بن قدامة، وجهالة إسحاق بن أبي الفرات، وأخرجه البزار (٨٥) - كشف الأستار، وابن حبان في المجروحين (١٣٥ / ٢)
(٢) قرأ نافع وروح بتخفيف الواو الأولى من ﴿لَوَّاْ﴾ من لَوَّى الثلاثي مخففاً، والباقون بتشديدها على التكثير من لوى الرباعي.

من سيء القول وسفّه الحديث، كي يطلب لكم رسول الله ﷺ من ربه أن يعفو عنكم، حتى تحسن أحوالكم، وتقبل أعمالكم، فتوبوا من النفاق، وأخلصوا الإيمان لله، وسلوا رسول الله ﷺ أن يستغفر لكم على ما فرط منكم، فإذا قيل لهم ذلك ﴿لَوْ أَنَّهُمْ﴾ أي حرّكوها، وأعرضوا عمن قال لهم ذلك استكبارًا واستهزاءً.

فالمنافقون عندما عرفوا أن مقولتهم السابقة في النبي ﷺ وصحبه الكرام بلغت رسول الله ﷺ جنبوا وتخاذلوا، وعندما قيل لهم: اعترفوا بخطئكم، استكبروا وأعرضوا. وهاتان صفتان لأهل النفاق، فأنت - أيها المخاطب - تُبصرهم حين يتكبروا ويُعرضوا عن الامتثال، وقد لَوَّزَا أعناقهم تكبراً، وانصرفوا عنك مدبرين، لَمَّا طُلب منهم الندم والتوبة والاعتراف بخطئهم، وهذا معنى ﴿وَأَنَّهُمْ يَصُدُّونَ وَهُمْ مُسْتَكْبِرُونَ﴾ فهم يرون أنفسهم أكبر من ذلك، ويحتقرونها لو فعلوا.

وقد تكرر هذا الموقف من (ابن أبيي): فقد ذكر ابن إسحاق أن النبي ﷺ لما رجع من غزوة أُحُد قام عبد الله ابن أبيي، والرسول ﷺ يخطب للجمعة فقال: يا أيها الناس: هذا رسول الله ﷺ أكرمكم الله به وأعزكم، فانصروه وعزروه واسمعوا له وأطيعوا.

فأخذ بعض المسلمين بشيابه من نواحيه، وقالوا له: اجلس يا عدو الله، فلست لهذا المقام بأهل، وقد صنعت ما صنعت، يَعْثُونَ مَزْجَعَهُ بثُلث الجيش دون الاشتراك في الغزوة، فخرج يتخطى رقاب الناس وهو يقول: لكأني قلت مُنْكَرًا، فلقيه رجل من الأنصار، فقال له: ارجع للنبي ﷺ يستغفر لك، فقال: والله ما أبغي أن يستغفر لي^(١)

وجاء في الحديث أن النبي ﷺ دعا المنافقين ليستغفر لهم فلوّوا رؤوسهم.

شَقَاءُ الْمُنَافِقِ سَبَقَ بِهِ عِلْمُ اللَّهِ تَعَالَى فَلَا يَنْفَعُهُ اسْتِغْفَارُهُ

٦- ﴿سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَسْتَغْفَرْتَ لَهُمْ أَمْ لَمْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ لَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ

الْفَاسِقِينَ ﴿١﴾﴾

(١) ينظر البيهقي في الدلائل عن الزهري (٣/٣١٨).

بين سبحانه وتعالى في هذه الآية أنه لا فائدة في الاستغفار للمنافقين، لأنهم مردوا على النفاق وثبتوا عليه، فقال تعالى ﴿سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَسْتَغْفَرْتَ لَهُمْ أَمْ لَمْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ﴾ أي يستوي بالنسبة للمنافقين أن تطلب لهم - يا رسولنا - المغفرة من الله تعالى أم لم تطلبها، فإن استغفارك لهم لن ينفعهم بشيء، لفسقهم وخروجهم عن طاعة الله تعالى، وسبق الشقاوة عليهم، فهم قوم قد آثروا الكفر على الإيمان فلا ينفع فيهم استغفار الرسول لهم، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أُنذِرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [البقرة] وقال سبحانه: ﴿أَسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ إِنْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ...﴾ [التوبة: ٨٠] فهم لرسوخهم في الكفر وإصرارهم على العصيان (لَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ) أي لن يصفح عن ذنوبهم أبداً، لتأصل الجحود فيهم، وعدم إيمانهم بالثواب والعقاب، وعدم تفرقتهم بين الحق والباطل، لذلك فإن الله تعالى لن يغفر لهم مهما كنت حريصاً على هدايتهم.

ثم علل سبحانه ذلك بقوله ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴾ فإن من سنة الله تعالى في خلقه أنه لا يوفق للإيمان من كفر به وجحد طاعته، وآثر الباطل على الحق، والمنافقون يدخلون في الفاسقين دخولاً أولياً.

ورد أنه لما نزلت آية سورة التوبة ﴿أَسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ إِنْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ...﴾ [التوبة: ٨٠] قال ﷺ: «لَا زَيْدَنَّ عَلَى السَّبْعِينَ»^(١) فبين الله تعالى في هذه الآية أن العدد غير مقصود، وأن المراد أنه مهما استغفرت لهم فلن يغفر الله لهم، وكانت آية سورة المنافقين هذه، هي السابقة في النزول على آية سورة التوبة التي وضحت هذا المعنى. ولهذا فإن النبي ﷺ قال: «لو علمتُ أنني إن زدت على السبعين غُفر لهم لزدت»^(٢) فقد شدد الله عليهم في هذه السورة، وأعلم الله رسوله أنه لن يغفر لهم مهما استغفروا لهم الرسول ﷺ.

(١) تفسير الطبري (٦٠١/١١، ٦٥٩/٢٢) عن عروة وابن عباس.

(٢) أحمد (١٦/٦) ورقمه (٩٥) عن عمر، بإسناد حسن ورجال ثقات، وانظر البخاري بأرقام: (٤٦٧١، ١٣٦٦).

(٤٦٧٢) والترمذي برقم (٣٠٩٧) وقال: حسن صحيح غريب، والنسائي برقم (٢٤٥).

في سياسة التجويع والحصار الاقتصادي:

ثم ذكر سبحانه وتعالى في هذه الآية طرفاً من سياسة المنافقين في تجويع المؤمنين مما استوجب قضاء الله تعالى فيهم، بعدم جدوى الاستغفار لهم، فقال جل شأنه في وصفهم:

٧- ﴿ هُمْ الَّذِينَ يَقُولُونَ لَا تُنْفِقُوا عَلَىٰ مَنْ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ حَتَّىٰ يَنْفَضُوا ۚ وَاللَّهُ خَزَائِنُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَا يَفْقَهُونَ ۚ ﴾

من شأن المنافقين أنهم يمنعون خيرهم عن المؤمنين، ومن ذلك المنافقين في وقت التنزيل، لما رأوا اجتماع الصحابة وتآلفهم ومسارعتهم في مرضاة الرسول ﷺ، وقد زعموا أن أموالهم لها سبب في وحدة المسلمين، فقال بعضهم: لا تنفقوا عليهم حتى ينفضوا من حول رسول الله ﷺ، فأخبر سبحانه أن خزائن الرزق بيده ولكنهم لجهلهم لا يفقهون ذلك.

عن زيد بن أرقم ؓ قال: خرجنا مع رسول الله ﷺ في سفر، أصاب الناس فيه شدة، فقال عبد الله بن أبيي ؓ ﴿ لَا تُنْفِقُوا عَلَىٰ مَنْ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ حَتَّىٰ يَنْفَضُوا ۚ ﴾ وقال: ﴿ يَقُولُونَ لَيْنَ رَجَعْنَا إِلَى الْمَدِينَةِ لِيُخْرِجَنَا الْأَعَزُّ مِنْهَا الْأَذَلُّ ۚ ﴾ ، فأتيت النبي ﷺ فأخبرته بذلك، فأرسل إلى عبد الله بن أبيي فسأله، فاجتهد يمينه ما فعل، فقالوا: كذب زيد رسول الله ﷺ، فوقع في نفسي مما قالوا شدة حتى أنزل الله تصديقي ﴿ إِذَا جَاءَكَ الْمُنَافِقُونَ ۖ فَاذْهَبْ عَنْهُمْ ۚ لَيْسْتَ مُسْتَفِيدٌ مِنْهُمْ ۖ وَخَشِبٌ يُنَافِقُونَ ۚ ﴾ قال: كانوا رجالاً أجمل شيء^(١).

و ﴿ مَنْ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ ۚ ﴾ هم من كانوا في رعايته ﷺ مثل أهل الصفة، ومن كانوا يلحقون بالمدينة من الأعراب.

وكان في غزوة بني المصطلق فريق من الأعراب يؤمنهم النبي ﷺ.

(١) البخاري برقم (٤٩٠٢، ٤٩٠٣) ومسلم برقم (٢٧٧٢) والنسائي برقم (٦١٨) وفي الكبرى (١١٥٩٧، ١١٥٩٤) والترمذي (٣٣١٤) والمسنند (١٩٢٨٥، ١٩٢٩٥) بإسناد صحيح على شرط الشيخين، وابن سعد (٦٥/٢) والطبراني (٥٠٥٠) وغيرهم.

فقال هذه المقالة هو عبد الله بن أبي بن سلول، وهو رأس المنافقين، وأسند القول إلى ضمير المنافقين، لأنه شاع بينهم ولم ينكروه.

لقد ابتلى الله المهاجرين بترك أموالهم وبيوتهم في مكة، وابتلى الأنصار باستقبال المهاجرين في المدينة، فما وجه كلام ابن أبي، فيمن خرجوا من ديارهم وأموالهم ابتغاء وجه الله؟

إن سياسة التجويع والحصار الاقتصادي، سياسة معروفة في كل زمان ومكان من أعداء الإسلام، وخصوم الحق، ومن ذلك خطة قريش في شعب أبي طالب بمكة، لمقاطعة بني هاشم وتضييق الخناق عليهم اقتصادياً لينفضوا عن نُصرة رسول الله ﷺ وهي نفس الخطة التي تستعملها القوى الكبرى في العالم نحو ما يسمى بالعالم الثالث، أو الدول النامية في العصر الحاضر، وكلها خطط يراد بها الشر للإسلام وأهله، وتمزيق الشمل، وبعثرة الصفوف، والخضوع لهم، والسير في ركابهم، والاستيلاء على ثرواتهم. وقد كان عبد الله بن أبي مرشحاً لزعامة المدينة قبل الهجرة، فلما قدم النبي ﷺ إليها ابتعد عنه التاج الذي كانوا ينظمونه له ليتوج به ملكاً على البلاد، وذهب عنه هذا الحلم، فحقق على الإسلام ورسوله، وأضمر له المكائد، ولو أن ابن أبي، آمن بالله ورسوله، لكان له من المجد ما هو أرجح من الدنيا وما فيها، ولو أنه عندما أخطأ، جاء لرسول الله ﷺ معذراً، لا شتغفر له الرسول، وتاب الله عليه، ولكنها حماقة الكفر، وعمى البصيرة.

وهؤلاء المنافقون هم الذين يقولون لأهل المدينة: لا تنفقوا على أصحاب رسول الله من المهاجرين، حتى ينفروا عنه، فرد الله تعالى عليهم بأن مفاتيح الرزق، وخزائن الملك بيده سبحانه، فهو المعطي المانع، المعز المذل، ولا يملك أحد أن يمنع فضل الله تعالى عن أحد، لأنه مجرد السبب الذي يجري على يديه العطاء، والله تعالى هو المعطي المانع، النافع الضار، والمنفقون لا يفقهون هذا المعنى، ولذا فهم يهرفون بما لا يعلمون قال تعالى: ﴿وَلِلَّهِ خَزَائِنُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ أي بيده وحده خزائن العالم العلوي والسفلي وما فيهما وما بينهما من أرزاق.

والمراد بالخزائن: مقار أسباب حصول الأرزاق، كالمطر، وأشعة الشمس، والرياح الصالحة، وتربة الأرض، وكنوزها، فهو سبحانه المتصرف فيها، قال تعالى: ﴿وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا عِنْدَنَا خَزَائِنُهُ وَمَا نُنْزِلُهُ إِلَّا بِقَدَرٍ مَعْلُومٍ﴾ [الحجر: ٢١] وقال سبحانه: ﴿وَفِي السَّمَاءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ﴾ (٢٢) فَرَبِّ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ لَحَقٌّ مِثْلَ مَا أَنَّكُمْ تَنْطِقُونَ﴾ [الذاريات: ٢٢، ٢٣].

وأمر الله تعالى إذا أراد شيئاً أن يقول له كن فيكون، وهكذا يُطمئن الله المؤمنين: بَأَنَّ ﴿الَّذِينَ يَقُولُونَ لَا تُنْفِقُوا عَلَى مَنْ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ حَتَّى يَنْفَضُوا﴾ لم يخلقوا رزق أنفسهم حتى يتحكموا في رزق غيرهم، ويقطعوه عن الآخرين، فما أغابهم وما أجهلهم ﴿وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَا يَفْقَهُونَ﴾ أن الذي يعطي أعداءه لا ينسى أوليائه.

ومن رحمة الله تعالى بخلقه أنه لا يقطع رزقه عن أعدائه ويُجوعهم، ولا يفكر في سياسة التجويع إلا أخس خلق الله.

وأخلاق النبي ﷺ على النقيض من هذا، وهي سياسة الإسلام في كل زمان ومكان. فقد كان ﷺ لا يرد سائلاً وإن جاء على فرس، وكان يعطي الأقوياء من الأعراب الذين آوؤا إليه، ولا يقطع عنهم عطاءه.

كما جاء في حديث عمر بن الخطاب ؓ أن رجلاً جاء إلى رسول الله ﷺ فسأله أن يعطيه، فقال ﷺ: «ما عندي شيء، ولكن ابتغ عليّ - أي اشتر على حسابي ما تحتاجه - فإن جاءني شيء قضيتُهُ» فقال عمر: يا رسول الله، ما كلّفك الله ما لا تقدر عليه، فكره النبي ﷺ قول عمر، فقال رجل من الأنصار: يا رسول الله، أنفق ولا تخش من ذي العرش إقلالا، فتبسم النبي ﷺ وعُرف في وجهه البشر لقول الأنصاري، ثم قال: «بهذا أمرت»^(١). وعن أبي مسعود ؓ أنه قال: أتى رجل النبي ﷺ فسأله، فقال: «ما عندي ما أعطيك، ولكن انت فلاناً» فأتى الرجل فلاناً فأعطاه، فقال رسول الله ﷺ: «من دل على خير فله مثل أجر فاعله» أو «عامله»^(٢).

(١) رواه الترمذي في كتاب الشمائل.

(٢) أخرجه أحمد في المسند (٢٢٣٥١) بإسناد صحيح على شرط الشيخين، وأخرجه مسلم (١٨٩٣)، وابن حبان (٢٨٩)، والطيالسي (٦١١)، والترمذي (٢٦٧١).

وعن المنهال بن عمرو قال: بعثت امرأة إلى النبي ﷺ بابنها فقالت: قل له: اكسني ثوباً، فقال: (ما عندي شيء) فقالت: ارجع إليه فقل له: اكسني قميصك، فرجع إليه، فتنزع قميصه فأعطاه إياه...^(١).

يا الله! ما هذه الأخلاق؟ ما هذا الإيثار؟ إنه رسول الله صاحب الخلق العظيم، ينزع قميصه من على جسده ليعطيه للسائل، ويقول للآخر: اشتر على حسابي ما يلزمك من البائع وسأدفع له الثمن!

وهذا جانب آخر من فسق المنافقين:

ثم ذكر سبحانه مقولة عبد الله بن أبي الثانية، وهي مقولة حاضرة متجددة، يبسها أعداء الإسلام لأبنائه، ويصرّحون بها في كل زمان ومكان، لإخراجهم من ديارهم، والتحكم في مواردهم، والتسلط عليهم:

٨- ﴿يَقُولُونَ لَئِنْ رَجَعْنَا إِلَى الْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ الْأَعَزُّ مِنْهَا الْأَذَلَّ وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ (٨)

أي أن العزيز منا سيخرج الدليل من المدينة ويبيعه عنها عند العودة إليها، وفي قراءة غير متواترة^(٢) (ليُخْرِجَنَّ الْأَعَزُّ مِنْهَا الْأَذَلَّ) بالنصب على الحال، أي نحن الذين كنا أعزة سنخرج منها أذلاء.

والمعنى الثاني هذا ضعيف، والقائل هو عبد الله بن أبي بن سلول كما سبق، وتُسببت هذه المقالة إلى المنافقين جميعاً لأنهم رضوا بها، وجاءت المقالة بلفظ المضارع لاستحضار تجددتها وصورتها البغيضة في النفوس، لمن يمكرون بالإسلام وأهله في كل عصر ومصر.

فالمنافقون يقولون: لئن عُذنا من غزوة بني المصطلق، ليخرجنّ فريقنا الأعز، من

(١) أخرجه ابن أبي حاتم كما في الدر المنثور (٣٢٥/٩).

(٢) ينظر: تفسير ابن عطية (٣١٥/٥).

المدينة، فريق المؤمنين الأذل، حتى لا يبقى منهم أحد، فتخلو المدينة منهم، وقد رأينا كيف تحقق عكس ذلك على يد ابن القائل، فلم يدخل الأذل وهم المنافقون، إلا بإذن الأعز وهو رسول الله ﷺ.

موقف عبدالله بن عبدالله من أبيه:

في حديث مرسل عن عكرمة من طريق الحكم، أن عبد الله بن أبي بن سلول، كان له ابن يقال له: حُباب، فسماه رسول الله ﷺ عبد الله، فقال للنبي ﷺ: إن والدي يؤذي الله ورسوله، فذرني حتى أقتله، فقال له النبي ﷺ: (لا تقتل أباك)، وكرر ذلك مرتين.

ثم قال: يا رسول الله، فذرني حتى أسقيه من وضوئك، لعل قلبه أن يلين، فتوضأ رسول الله ﷺ وأعطاه إليه فسقاه، ثم قال له: هل تدري ما سقيتك؟ قال: نعم، سقيتني بول أمك، فقال له ابنه: لا، والله، ولكن سقيتك وضوء رسول الله ﷺ.

قال عكرمة: وكان عبد الله بن أبي (الأب) عظيم الشأن فيهم، وفيه أنزلت هذه الآية ﴿هُم الَّذِينَ يَقُولُونَ لَا تُنْفِقُوا عَلَى مَنْ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ حَتَّى يَنْفَضُوا﴾ وهو الذي قال ﴿لَئِنْ رَجَعْنَا إِلَى الْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ الْأَعَزُّ مِنْهَا الْأَذَلَّ﴾^(١).

وأخرج عبد بن حميد عن محمد بن سيرين، أن النبي ﷺ كان مُعَسِّكراً، وأن رجلاً من قریش كان بينه وبين رجل من الأنصار كلام، فاشتد الأمر بينهما، فبلغ ذلك عبد الله بن أبي، فخرج فنَادَى: غَلَبَنِي عَلَى قَوْمِي مِنْ لَا قَوْمَ لَهُ، فبلغ ذلك عمر بن الخطاب ﷺ فأخذ سيفه ثم خرج عامداً ليضربه، فذكر هذه الآية ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْدُمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾ [الحجرات: ١] فرجع فدخل على النبي ﷺ وأخبره فقال ﷺ: قم فنَادِ فِي النَّاسِ يَرْتَحِلُوا، فَارْتَحِلُوا، وَتَعْجَلْ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ أَبِي (الابن) حَتَّى أَنَاخَ بِجَامِعِ طَرَقِ الْمَدِينَةِ، وَدَخَلَ النَّاسُ، حَتَّى جَاءَ أَبُوهُ، فَقَالَ: وَرَاءَكَ، وَاللَّهِ لَا تَدْخُلُهَا أَبَدًا إِلَّا أَنْ يَأْذَنَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ.

(١) قال ابن حجر في الفتح (٦٥٠/٨): مرسل عن عكرمة، وأخرجه عبد بن حميد كما في الفتح (٦٤٨/٨) وهو عند الطبري (٦٢٢/٢٢) وعبد الرزاق (٦٦٢٧).

ولتعلمن اليوم من الأعز من الأذل، فرجع حتى لقي رسول الله ﷺ فشكا إليه ما صنع ابنه، فأرسل إليه النبي ﷺ أن خل عنه حتى يدخل، ففعل، ثم لم يلبث إلا أياماً قلائل حتى اشتكى عبد الله واشتد وجعه، فقال لابنه عبد الله: يا بني، ائت رسول الله ﷺ فادعُه، فجاء النبي ﷺ ومعه نفر من أصحابه، فقال لأهله حين دخل النبي ﷺ: أجلسوني، فأجلسوه، فبكى، فقال ﷺ: (أجزعاً يا عدو الله الآن؟) فقال: يا رسول، إني لم أدعك لتؤنبنني، ولكن دعوتك لتزحمني، فاغرورقت عينا رسول الله ﷺ فقال: ما حاجتك؟ قال: حاجتي إذا مت، أن تشهد غسلي وتكفني في ثلاثة أثواب من أثوابك، وتمشي مع جنازتي وتصلي علي، ففعل النبي ﷺ فنزلت ﴿وَلَا تَصَلِّ عَلَى أَحَدٍ مِّنْهُمْ مَّتَّ أَبَدًا وَلَا تَقُمْ عَلَى قَبْرِهِ﴾^(١) [التوبة: ٨٤].

وهذا الموقف يشير إلى أن ابن أبي كان يعتقد أن محمداً رسول الله، ولكن الكبر والعناد والحرص على الزعامة كان يمنعه من التسليم والاذعان.

وقد ختم الله الآية بقوله ﴿وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ﴾ فالمذلة والهوان للكافرين والمنافقين، وللشيطان وأهله.

والمؤمن يستمد عزته من إيمانه، فالعزة صنو الإيمان في قلب المؤمن، وعزة المؤمن من عزة الله تعالى.

رأى بعض الناس امرأة صالحة في هيئة رثة، فقال لها: ألسنت على الإسلام؟ وهو العز الذي لا ذل معه؟ والغنى الذي لا فقر معه؟

فالعزة المطلقة، والقوة التي لا تقهر هي التي حباها الله بها رسوله ﷺ والمؤمنون ﴿وَلَكِنَّ الْمُتَفَقِّهِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ ذلك، فلا ينبغي للمؤمن أن يذل نفسه لغير الله تعالى، ولا ينبغي له أن يتلمس النصرة والعزة لدى أعداء الله سبحانه كما قال تعالى: ﴿أَيَبْنَعُونَ عِنْدَهُمُ الْعِزَّةُ فَإِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا﴾ [النساء: ١٣٩].

(١) الدر المشور (٥٠٦/١٤) وانظر القصة في صحيح البخاري (٤٩٠٠، ٤٩٠٣، ٤٩٠٤) وصحيح مسلم (٢٧٧٢)، وانظر ما سبق في مقدمة السورة.

والعزة: أن يعرف الإنسان حقيقة نفسه فيكرمها، ويضعها في موضعها اللائق بها، وهذا يختلف عن الكبر، فإن المتكبر يجهل حقيقة نفسه، فيضعها فوق منزلتها. كما أن التواضع يختلف عن الضعة، فالمسلم يتواضع، ولكنه لا يكون ضيعاً، يضع نفسه حيث يهان، ولا يضعها حيث تكرم^(١).

نهي المؤمنين عن التشبه بالمنافقين:

وبعد ذكر قبائح المنافقين حذر الله سبحانه المؤمنين أن يتشبهوا بهم في الاغترار بالأموال والأولاد والإعراض عن ذكر الله تعالى، فقال:

٩ - ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴿١﴾﴾

يا من صدقتم بالله ربا ومعبودا واحداً لا شريك له، واتبعتم رسوله محمداً ﷺ لا تشغلکم الدنيا وما فيها من مال وجاه وولد عن عبادة الله تعالى وطاعته، وأداء ما افترضه عليكم من الصلاة والزكاة والحج كما شغل المنافقون. وذكّر الله تعالى عام يشمل التسييح والتحميد والتهليل والتكبير وتلاوة القرآن وسائر الطاعات.

والاشتغال بالمال يكون عن طريق كسبه ونمائه، والاشتغال بالأولاد يكون بتربيتهم، وتعليمهم، وتحصيل القوت لهم، وتدبير شؤونهم، والأنس بهم، وكل هذا مطلوب، وغير مذموم في حد ذاته، ولكن الاشتغال به عن طاعة الله الواجبة هو المذموم. وخُصّت الأموال والأولاد بالذكر، لأنهما أكثر ما يُلْهي الإنسان ويُشغله، وقد يُقضي الإنسان معظم أوقاته في جمع المال بطرق مشروعة أو غير مشروعة مُضْحِياً بما يفرضه عليه الإسلام من واجبات وأخلاق وآداب! ومن أجل تربية الأولاد وتعليمهم قد يضحي الآباء براحتهم ومروءاتهم، فإذا اشتغل

(١) ينظر: تفسير الفخر الرازي (١٥١/٨).

الإنسان بحسن تربية أبنائه، وبتحصيل المال من حله ولم يصرفه ذلك عن أداء حقوق الله تعالى وحقوق العباد، فإن هذا لا يكون مذموماً، قال تعالى: ﴿إِنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ وَاللَّهُ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ [التغابن: ١٥].

أما من كان عكس ذلك فقد خسر دنياه وأخراه، وخسر السعادة الأبدية والنعيم المقيم كما قال تعالى: ﴿وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾ أي هم الذين غبنوا حظهم من كرامة الله ورحمته، وبلغوا غاية الخسران والغفلة، لأنهم آثروا ما ينفعهم في العاجلة، عما ينفعهم في الآجلة.

أَمْرُ الْمُؤْمِنِينَ بِالْمُدَاوِمَةِ عَلَى إِنْفَاقِ الْمَالِ فِي وُجُوهِ الْخَيْرِ

١٠- ﴿وَأَنْفِقُوا مِنْ مَّا رَزَقْنَاكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِكُمْ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ فَيَقُولَ رَبِّ لَوْلَا أَخَّرْتَنِي إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ فَأَصَّدَّقَ وَأَكُنْ مِنَ الصَّالِحِينَ﴾ (١)

وبعد أن نقض سبحانه وتعالى كيد المنافقين وأبطل قولهم السابق ﴿لَا تُنْفِقُوا عَلَى مَنْ عِنْدَ رَسُولٍ﴾ أمر المؤمنين بالمدادومة على إنفاق المال في وجوه الطاعات والخيرات، من الزكاة المفروضة، ومن الصدقات المستحبة، ويدخل في ذلك نفقة الزوجات والأبناء وكل من يعول، ويدخل فيه بذل المال في مصالح المسلمين العامة. وليكن ذلك بسخاء وسماحة نفس، أنفقوا مما رزقكم الله من نعمه التي لا تعد ولا تُحصى، على عكس سياسة التجويع التي ينتهجها أعداء الإسلام.

قال تعالى: ﴿وَأَنْفِقُوا﴾ أيها الناس ﴿مِنْ مَّا رَزَقْنَاكُمْ﴾ أي من بعض ما أعطاكم الله من نعمه، في وجوه الخير والبر، والله تعالى لا يكلف الناس ما لا يطيقون ولا ما يشق عليهم، وإنما طلب منهم الإنفاق بجزء من أموالهم لا بكله، أنفقوا ﴿مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِكُمْ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ﴾ بظهور دلائله وعلاماته، وحيث إن الندم، وطلب الإمهال، أو طلب

(١) قرأ أبو عمرو (وَأَكُونُ) عطفاً على ﴿فَأَصَّدَّقَ﴾ والباقيون ﴿وَأَكُنْ﴾ لالتقاء الساكنين وإسكان النون للجزم.

الرجعة إلى الدنيا لا ينفع ﴿فَيَقُولُ﴾ نادماً متحسراً على ما فرط منه، سائلاً ربه الرجعة ﴿رَبِّ لَوْلَا أَخَّرْتَنِي إِلَىٰ أَجَلٍ قَرِيبٍ﴾ أي ألتبس منك يارب أن تؤخر أجلي إلى وقت قريب كي أتدارك ما فاتني ﴿فَأَصْدَقَ وَأَكْنَ مِنَ الصَّالِحِينَ﴾ أي أتصدق من مالي ما أنجو به من العذاب، وأستحق به جزيل الثواب، وأحسن عملي، فأكون من الصالحين الأتقياء الممثلين للأوامر المجتنبين للنواهي.

وجاء مثل ذلك في قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ارْجِعُونِ ۚ ۞ لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحًا فِيمَا تَرَكْتُ﴾ [المؤمنون: ٩٩، ١٠٠].

وهكذا يقول كل ظالم عندما يحتضر للموت حيث يقول الظالمون ﴿رَبَّنَا أَخِّرْنَا إِلَىٰ أَجَلٍ قَرِيبٍ مُّحِبِّ دَعْوَتِكَ وَتَتَّبِعِ الرَّسُولَ﴾ [إبراهيم: ٤٤].
فكل مفرط يندم عند الاحتضار، ويسأل طول المدة في الدنيا، ولو وقتاً يسيراً جداً يستدرك فيه ما فاته.

وما من إنسان إلا ويندم يوم القيامة: المحسن يتمنى لو ازداد من حسناته، ولو بتسيحة أو تهليلة، ولو بخطوة يخطوها إلى المسجد، ولو بكلمة طيبة، ولو بإمطة الأذى عن الطريق، والمسيء يندم على تقصيره وتفريطه في جنب الله تعالى.

الْعُمُرُ مَحْدُودٌ، لَا يَتَقَدَّمُ وَلَا يَتَأَخَّرُ

١١ - ﴿وَلَنْ يُؤَخِّرَ ٱللَّهُ نَفْسًا إِذَا جَاءَ أَجْلُهَا ۚ وَٱللَّهُ خَبِيرٌۭ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ (١١)

ثم بين جل شأنه أنه لن يمهل أحداً شيئاً كان، إذا انتهى أجله، ولن يزيد في عمره ولا لحظة ﴿وَلَنْ يُؤَخِّرَ ٱللَّهُ نَفْسًا إِذَا جَاءَ أَجْلُهَا ۚ﴾ وحن وقت موتها بانتهاء عمرها، كما قال تعالى: ﴿إِذَا جَاءَ أَجْلُهُمْ فَلَا يَسْتَعْجِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِرُونَ﴾ [يونس: ٤٩].

(١) قرأ ورش وأبو جعفر بإبدال همزة ﴿يُؤَخِّرَ﴾ واوا، وصلاً ووقفاً وكذا حمزة عند الوقف، وورق الأزرق راءها والباقون بالتفخيم.

(٢) قرأ شعبة بياء الغيب في ﴿تَعْمَلُونَ﴾ والباقون بباء الخطاب

والأجل هو المدة المحددة لحياة الإنسان التي يتصل فيها الروح بالجسد. وهذا إرشاد من الله تعالى للمؤمنين، ليكونوا على استعداد للموت في كل وقت، وليحترسوا من التفريط والتقصير في حق الله تعالى وحق العباد، فإن الله سبحانه محيط بهم ﴿وَاللَّهُ خَيْرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ من خير أو شر، وسيحاسبكم ويجازيكم عليه.

روى الترمذي بسند فيه انقطاع عن الضحاك عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: (من كان له مال يُبْلَغُه حج بيت ربه، أو تجب فيه عليه زكاة، فلم يفعل، سأل الرجعة عند الموت، فقال رجل: يا ابن عباس، اتق الله، فإنما يسأل الرجعة الكفار، فقال: سأتلو عليك بذلك قرآنًا، وقرأ هذه الآيات الثلاث، قال الرجل: فما يوجب الزكاة؟ قال: إذا بلغ المال مئتين فصاعداً، قال: فما يوجب الحج؟ قال: الزاد والبعير^(١).

فالأية من باب التهيب والوعيد لكل من حضره الموت وهو تارك لما عليه من فرائض. ومعنى الأثر صحيح وإن كان في سنده ضعف.

على أن الندم عند الاحتضار لا يلزم منه العذاب الأخروي إلا في شأن الكافرين والمنافقين.

في حديث أبي هريرة ؓ قال: جاء رجل إلى رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله، أي الصدقة أعظم أجراً؟ قال: «أَنْ تَصَدَّقَ وَأَنْتَ صَاحِبُ شَيْءٍ، تَخْشَى الْفَقْرَ وَتَأْمَلُ الْغِنَى، وَلَا تُنْهَلِ حَتَّى إِذَا بَلَغْتَ الْحُلُقُومَ، قُلْتَ لِفُلَانٍ كَذَا، وَلِفُلَانٍ كَذَا، وَقَدْ كَانَ لِفُلَانٍ»^(٢).

تم تفسير (سورة المنافقون) والله الحمد والمنة

(١) سنن الترمذي برقم (٣٣١٦).

(٢) صحيح البخاري برقم (١٤١٩، ٢٧٤٨) وصحيح مسلم (١٠٣٢).

تَفْسِيرُ سُورَةِ التَّغَابِنِ (٦٤)

مُقَدِّمَةُ السُّورَةِ

(سورة التغابن) هي السورة الرابعة والستون في ترتيب المصحف، والسابعة بعد المئة في ترتيب النزول. نزلت بعد (سورة الجمعة) وقبل (سورة الصف)، على القول بأنها سورة مدنية، ولعل الأصح أن الآيات الثلاث الأخيرة من السورة مدنية، نزلت في قوم أسلموا وأرادوا الهجرة من مكة فأبى أزواجهم وأولادهم:

أخرج النحاس عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: نزلت سورة التغابن بمكة إلا آيات من آخرها نزلت بالمدينة، في عوف بن مالك الأشجعي، شكا إلى رسول الله ﷺ جفاء أهله، فأُنزل الله الآيات^(١).

والسورة من أولها يبدو عليها طابع القرآن المكي، فهي تتحدث عن دلائل التوحيد واليوم الآخر، وتضرب الأمثال بالقرون الماضية والأمم الخالية، التي كذبت رسل الله، وتبين ما حلّ بالمكذبين من الهلاك والدمار نتيجة كفرهم وضلالهم.

وسميت سورة التغابن لورود هذا اللفظ فيها، ولم يُذكر في غيرها من السور. وعدد آياتها ثمان عشرة آية باتفاق.

وهي مثنان وإحدى وأربعون كلمة، وألف وسبعون حرفاً.

مقاصد السورة:

ومن مقاصد السورة: غرس حقيقة التوحيد في قلوب البشر، وتنزيه الله تعالى عن الشركاء، وتقوية الصلة بين الخالق والمخلوق، فكل ما في هذا الكون يسبح الله تعالى ويقدسه، وينزهه عن جميع النقائص، لأنه الخالق الرازق، الجدير بالحمد والشكر.

(١) تفسير الشوكاني (٢٣٢/٥) وينظر: تفسير الطبري (٨١/٢٨) وهو عند النحاس (ص ٧٤٥).

والآيات تشير إلى قدرة الله المطلقة، وتبين أثر هذه القُدرة في خلق الإنسان، وإبداع صورته، واختيار توجهه، وأثرها في إبداع خلق السموات والأرض، وتبين إحاطة علمه تعالى بجميع ما في الكون. هذا ما تضمنته الآيات الأربع الأولى من السورة. وفي هذا المقطع: تذكير بمصارع الغابرين من المكذبين لرسول الله، المعترضين على بشرية الرسل، آية ٦٥.

وبعد ذلك يأتي ذكر المكذبين للبعث والنشور، وتوثيق الرد عليهم بالآيمان المغلظة، ومن ثم إلى بيان ما في يوم القيامة من بعث وحساب وجزاء على الأعمال وذلك من الآية ٧-١١.

وفي أعقاب ذلك دعوة الخلق جميعاً إلى طاعة الله تعالى ورسوله آية ١٢، ١٣ فإن أرادوا النجاة، فليؤمنوا بالله وحده، وليصدقوا برسوله ﷺ وبالكتاب الذي نزل عليه، ويؤمنوا بالبعث والحساب والجزاء، ثم تحذر الآيات من فتنة الأزواج والأبناء والأموال. وتُختم السورة بالدعوة إلى تقوى الله تعالى قدر الطاقة، والسمع والطاعة، وبذل المال في سبيل، الله وقاية للنفس من الشح والبخل، فإن في هذا، الفوز والفلاح، وهذا من الآية ١٤-١٨.

وهكذا فإن سورة التغابن فيها ثلاثة مقاطع:

١- ففي الآيات الست الأولى تسبيح الله تعالى، تنبيهاً على شذوذ المعصية، ووضاعة مرتكبيها، فالكون كله يعرف ربه وينقاد لأمره.

أما الناس: فمنهم من يجحد حقوق الله تعالى ويحارب رسله، مع أن الله تعالى قد خلقه وأحسن صورته، وأسبغ عليه نعمه ظاهرة وباطنة.

ومنهم المؤمن المعترف بربه المسيح بحمده، المطيع لله والرسول.

وللجاحدين المكذبين عبرة وعظة فيمن سبقهم بما نزل بهم من عذاب دنيوي، فيرجعوا إلى ربهم ويثوبوا إلى رشددهم.

٢- وفي الآيات السبع بعدها قَسَمَ على أن البعث حق لا بد منه، سواء أقرّ به الجاحدون أم أنكروه، فكثير من الناس في زحمة الحياة وحضارتها لا يوجد لليوم الآخر مكان في قلوبهم بالاستعداد له.

٣- وفي الآيات الخمس الأخيرة، بيان أن الضلال والعدوان يحتاجان إلى توضيحات ينبغي أن يتحملها أهل الإيمان بصبر ومصابرة وجلد، ومقاومة إغواء الأبناء والأزواج، وضرورة البذل والكفاح ...

وهكذا: فإن السورة تحدثت عن العقيدة في مطلعها، وتلا ذلك الحديث عن الوحي والرسالة في الآيتين الخامسة والسادسة، ثم تحدثت عن اليوم الآخر بدءاً من الآية السابعة، وهذه العناصر الثلاثة هي عناصر القرآن المكي.

وفي نهاية السورة دعوة إلى طاعة الله ورسوله، وألاً يثنيهم عن ذلك فتنة المال والجاه والولد، والله تعالى لم يكلفنا فوق الطاقة بل أمرنا بالسمع والطاعة والاستجابة الفورية لأمر الله ورسوله، ومن ذلك الإنفاق في سبيل الله، وعلاج الشح والبخل في النفس البشرية، والله تعالى يضاعف الأجر والجزاء لمن يُقرض الله قرضاً حسناً، ويغفر لهم ذنوبهم، ويكفر عنهم سيئاتهم، والله شكور حلیم، يعلم ما غاب وما شوهد، وهو العزيز الذي لا يغلب، الحكيم في تدبير شؤون خلقه.

* * *

تَفْسِيرُ السُّورَةِ

جَمِيعُ الْكَائِنَاتِ تُوحِّدُ اللَّهَ تَعَالَى وَتُنَزِّهُهُ عَنْ كُلِّ نَقْصٍ

١- ﴿يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ لَهُ الْمُلْكُ وَلَهُ الْحَمْدُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ۝﴾

ابتدأت سورة التغابن وسورة الجمعة بتسبيح الله تعالى، بلفظ المضارع: للدلالة على التجدد والاستمرار في التسبيح بحمد الله من جميع الكائنات.

وابتدأت سور: الحديد والحشر والصف بصيغة الماضي: للدلالة على أن التسبيح قد استقر وثبت من جميع الكائنات لله وحده من قديم الزمان.

والتسبيح بلفظ الماضي يعقبه حديث عن العالم العلوي وأوصاف الله تعالى ، والتسبيح بلفظ المضارع يعقبه حديث عن العالم السفلي .

ولمّا كان مقصود السورة الأعظم: هو إبطال الشرك، ومقاومة إنكار البعث، والرد على تكذيب خاتم الرسل ﷺ والقرآن الذي نزل عليه، وهذه الثلاث هي أصول الضلال.

لما كان الأمر كذلك، ابتدأت السورة بالإعلان عن ضلال المكذبين المنكرين، الكافرين بالنعم التي أنعم الله بها عليهم، فبينت أن جميع ما في السموات والأرض، ينزه الله تعالى عن جميع النقائص بلسان المقال ولسان الحال، فكلها مربية لله تعالى، ومسخرة لما أَرَادَهُ منها ﴿يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾ فالكل يعرف أن الله تعالى خالقُه ومُوجِدُه، وأن بقاءه مستمدّ منه سبحانه، ولذلك فهم يسبحون الله بحمده، وينقادون لأمره ونهيه، وينزهونه عن كل ما لا يليق بجلاله.

وهو جل شأنه المتصرف في ملكه كيف يشاء، تصرّف اختصاص لا شريك له فيه.

أحد عشر وصفاً لله تعالى في السورة:

وقد اشتملت الآيات الأربع الأول من السورة على أحد عشر وصفاً ودليلاً لله تعالى وهي: الملك والحمد والقدرة. وهذه الثلاثة في الآية الأولى.

ثم ذكرت خلق العباد، وأنه تعالى بصير بهم، وهاتان الصفتان في الآية الثانية.

ثم ذكرت خلق العلم العلوي والسفلي، وتصوير الإنسان في أحسن صورة، وإليه المرجع

والمصير، وهذه الثلاثة في الآية الثالثة.

ثم يَبْنِئُ إحاطة علم الله تعالى بالكون، وعلمه على وجه الخصوص بالسر والعلن، وما هو بداخل الصدور، وهذا في الآية الرابعة.

فهذه أوصاف لله تعالى، ودلالات بارزة على أن خالق هذه الكائنات هو الجدير بالتنزيه والتقديس والتعظيم والتوجه له وحده بالعبادة، ولذا: فإن جميع الكائنات تسبح بحمده.

وقد وصف الله تعالى نفسه في الآية الأولى بثلاثة أوصاف:

الوصف الأول: أنه سبحانه ﴿لَهُ الْمُلْكُ﴾ الكامل التام المطلق لهذا الكون كله، فلا يخرج مخلوق عن ملكه، وله الثناء الحسن. والذكر الجميل، وهو الغني عن خلقه، وجميع الخلائق مفتقر إليه.

الوصف الثاني: ﴿وَلَهُ الْحَمْدُ﴾ لأن أصول النعم وفروعها كلها منه سبحانه، ولا يُحمد في جميع الأحوال إلا هو عز وجل، فالحمد كله له، حمد على مآله من صفات الكمال، وحمد على ما أوجده من المخلوقات، وحمد على ما شرعه لعباده من الأحكام، وما أسداه عليهم من نعم، فهو القادر على كل شيء، يفعل ما يشاء كما يشاء، بلا مانع ولا مدافع.

الوصف الثالث: ﴿وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ وقدرته شاملة لا يندُّ عنها مخلوق، ولا يشق عليه شيء يريد، ما شاء الله كان، وما لم يشأ لم يكن، إذا أراد شيئاً قال له كن فيكون، وهو القادر على كل شيء، لا يعجزه شأن في الأرض ولا في السماء.

وهذه المخلوقات تسبح بحمد الله تعالى، وجميع الكائنات تدين لله تعالى بالولاء والربوبية وتدل على صفة القدرة.

ومن يشاهد المخلوقات في جنبات هذا الكون الفسيح يعلم أن خالقها قادر على كل شيء ولهذه القدرة آثار كثيرة:

أَرْبَعَةٌ مِنْ آثَارِ الْقُدْرَةِ الإِلَهِيَّةِ: خَلَقَ الْإِنْسَانَ هُوَ الْأَوَّلُ

٢- ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ فَنُكِرْتُمْ كَافِرًا وَمِنْكُمْ مُؤْمِنٌ وَاللَّهُ يَمَّا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ (٢)

هو الذي خلقكم - أيها الناس - بقدرته وزودكم بالعقول التي تُعينكم على معرفة الضلال من

الهدى، وأرسل لكم الرسل، وأنزل عليكم الكتب، ومع ذلك فقد وُجد منكم من اختار الإيمان، ومنكم من اختار الكفر، فالله تعالى قد خلق الكافر، وكُفِّرهُ مِنْ كُشْبِهِ، وخلق المؤمن، وإيمانه من كُشْبِهِ، وقد علم الله كفر الكافر وإيمان المؤمن في الأزل.

فالإنسان له شأن آخر أرادَه الله منه ليثيبه ويعاقبه عليه، غير الانقياد الشامل كسائر المخلوقات، فقد بدأت السورة بهذا التسييح، من جميع الكائنات إشارة إلى شذوذ من يخالف هذا الانقياد، ولا يخالفه إلا الثقلان من الإنس والجان فيعصي الله تعالى ويخالف أمره ونهيه.

ومن النقائص أن يخلق الله العبد ويُحسن صورته، ويسبغ عليه نعمه ظاهرة وباطنة، ثم يكون من الذين يتجرؤون على الله تعالى، ويجحدون وحدانيته، ويحاربون رسله، كما قال تعالى: ﴿خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ نُطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُبِينٌ﴾ [النحل: ٤] وخلق الإنسان أثر من آثار قدرة الله تعالى، وخلق الإيمان والكفر، أثر من آثار قدرة الله تعالى أيضاً.

ومن الناس من اختار الإيمان عقيدةً له ومنهجاً، ومنهم من اختار الكفر طريقاً له ومسلكاً، وتحقق كل منهما في الوجود وفق علم الله الأزلي، أمر كائن لا محالة، فقد تم تقدير ذلك وتدوينه في أم الكتاب عند نفخ الروح في الإنسان قبل أن يكون بشراً سوياً.

﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ﴾ أيها الناس من العدم في هذا الشكل البديع المحكم، فكان من الواجب عليكم ألا تجحدوا حق الخالق سبحانه، بأن تكونوا مؤمنين قاطبة، ولكن كان منكم الجاحد لألوهية الخالق، ومنكم المصدق به العامل بشرعه ﴿فَنَكُمْ كَافِرٌ وَمِنْكُمْ مُؤْمِنٌ﴾ أي ﴿فَمِنْهُمْ مَنْ هَدَى اللَّهُ وَمِنْهُمْ مَنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلَالَةُ﴾ [النحل: ٣٦].

وقدِّم الكفر على الإيمان، لأنه الأكثر، مع أن الله تعالى خلق لنا عقولاً، تُعين على معرفة الخير والشر، والنافع والضار، وأرسل الرسل، وأنزل الكتب، ليخرج الناس من الظلمات إلى النور، ومع ذلك فمنكم من اختار طريق الكفر، ومنكم من اختار طريق الإيمان، ولو شاء الله لصرف أهل الكفر جميعاً إلى الإيمان، ولكنه سبحانه خلق البشر

خلقاً مختلفاً عن الملائكة والحيوانات، فجعل له حرية وإرادة فيما يكتسبه من أعمال وأقوال، وهذا مقتضى انكشاف علم الله تعالى بما سيكون عليه العبد من الإيمان أو الكفر، وهو كالعالم المشاهد الذي لا خفاء فيه بالنسبة لله تعالى، ولا دخل لهذا العلم في اختيار العبد وتصرفه، ولا يحاسب على ما لا اختيار له فيه، كالطول والقصر، والسواد والبياض. وهذا ما تفسره الأحاديث:

١ - كقول النبي ﷺ فيما روته عائشة رضي الله عنها أن رسول الله ﷺ قال: «إن الله خلق للجنة أهلاً، خلقهم لها وهم في أصلاب آبائهم، وخلق للنار أهلاً، خلقهم لها وهم في أصلاب آبائهم»^(١).

٢ - وعن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: حدثنا رسول الله ﷺ وهو الصادق المصدوق قال: «إن أحدكم يجمع خلقه في بطن أمه أربعين يوماً، ثم يكون في ذلك علقه مثل ذلك، ثم يكون في ذلك مضغة مثل ذلك، ثم يرسل الملك، فينفخ فيه الروح، ويؤمر بأربع كلمات، بكتب رزقه وأجله وعمله وشقي أو سعيد، فوالله الذي لا إله غيره، إن أحدكم ليعمل بعمل أهل الجنة، حتى ما يكون بينه وبينها إلا ذراع، فيسبق عليه الكتاب، فيعمل بعمل أهل النار فيدخلها، وإن أحدكم ليعمل بعمل أهل النار حتى ما يكون بينه وبينها إلا ذراع فيسبق عليه الكتاب فيعمل بعمل أهل الجنة فيدخلها»^(٢).

٣ - وفي حديث أنس رضي الله عنه، أن رسول الله ﷺ قال: «وكل الله بالرحم ملكاً، فيقول: أي رب نطفة، أي رب علقه، أي رب مضغة، فإذا أراد الله أن يقضي خلقها، قال: أي رب، أذكر أم أنثى؟ أشقي أم سعيد؟ فما الرزق؟ فما الأجل؟ فيكتب ذلك وهو في بطن أمه»^(٣).

٤ - وفي أثر موقوف على أبي ذر رضي الله عنه أن المنى إذا مكث في الرحم أربعين ليلة، أناه

(١) صحيح مسلم برقم (٢٦٦٢).

(٢) صحيح مسلم برقم (٢٦٤٣) وصحيح البخاري برقم (٦٥٩٤، ٣٢٠٨، ٧٤٥٤).

(٣) صحيح البخاري برقم (٦٥٩٥، ٣١٨) وصحيح مسلم (٢٦٤٦).

ملك النفوس، فخرج به إلى الرب، فيقول: يارب، أذكر أم أنسى؟ فيقضي الله ما هو قاض، فيقول: أشقي أم سعيد؟ فيكتب ما هو لاقٍ، وقرأ أبوذر من فاتحة التغابن خمس آيات إلى ﴿وَصَوَّرَكَ فَأَخْسَنَ صُورَكَ وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ﴾^(١).

وقد ذكر الله تعالى خلق الخلق في هذه الآية، ثم وصفهم بفعلهم وكسبهم وهو الإيمان والكفر.

قال في تفسير الخازن: وجملة القول فيه: (أن الله تعالى خلق الكافر، وكفره فعلاً له وكسباً، وخلق المؤمن، وإيمانه فعلاً له وكسباً، فلكل واحد من الفريقين كسب واختيار، وكسبه واختياره بتقدير الله تعالى ومشيئته، فالمؤمن بعد خلق الله إياه، يختار الإيمان، لأن الله تعالى أراد ذلك منه وقدره عليه، وعلمه منه.

والكافر بعد خلق الله إياه، يختار الكفر، لأن الله تعالى قدر ذلك عليه، وعلمه منه)^(٢). وعلم الله تعالى سابق على اختيار العبد، وهذا العلم لا يجبر العبد على اختيار أحد النجدين، ولذا: فقد ختم الله الآية بما يفيد انكشاف علمه تعالى في الأزل عما سيكون عليه العبد قبل أن يخلق، فقال تعالى: ﴿وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ يعلم كفر الكافر قبل أن يكون بشراً سوياً، ويعلم إيمان المؤمن كذلك، وهو سبحانه مطلع على كل شيء وسيجازيكم بأعمالكم وأقوالكم (وكل عبد يبعث على ما مات عليه)^(٣).

الْأَثَرُ الثَّانِي مِنْ آثَارِ الْقُدْرَةِ: خَلْقُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ

٣- ﴿خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ وَصَوَّرَكَ فَأَخْسَنَ صُورَكَ وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ﴾

ثم ذكر الله سبحانه أثراً ثانياً من آثار قدرة الله تعالى، وهو خلق السموات والأرض،

(١) أخرجه الطبري موقوفاً (٦/٢٣) وابن أبي حاتم، وعبد بن حميد، وابن المنذر، وابن مردويه كما في الدر المنثور (٥١٢/١٤).

(٢) تفسير الخازن (٢٧٤/٤).

(٣) من حديث جابر في المستدرک (٤٩٠/٢) وصححه الحاكم والذهبي.

بعد أن ذكر خلق الإنسان المكلف بالأوامر والنواهي، وبين أن من الناس كافر يحدد عن طريق الحق الذي أقيم عليه هذا الكون، ومنهم مؤمن.

وهذا الحق الذي خلق الله به السموات والأرض هو: أن يؤمن الناس كلهم بخالقهم ويُفردوه بالعبادة، وهو الهدف الذي أراده الله منهم، كما جاء في قوله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات: ٥٦] وقوله: ﴿فَأَقْمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا يَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَٰلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ﴾ [الروم: ٣٠].

فمن حاد عن الإيمان ومال إلى الكفر، فقد حاد عن الحق والفطرة، ذلكم قول الله تعالى: ﴿خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ﴾ أي بالحكمة البالغة المتضمنة لمصالح العباد في الدنيا والآخرة، وهي حكمة لا يشوبها عبث ولا لهو.

والمراد بالسموات والأرض ذواتهما، وما فيهما من الملائكة والجن وسائر العوالم. والمعني بلفظ الحق في الآية، هو الإنسان، لأن بعض الناس يخرج عن هذه الحكمة أو الغاية التي خُلق لأجلها، وهي توحيد الله تعالى وطاعته، فالإنسان هو الذي يعمل بهذا الحق، ويقوم بهذه الحكمة، ليحقق الغاية التي خُلق لأجلها.

وقوله تعالى: ﴿بِالْحَقِّ﴾ إشارة إلى أن كلاً من المؤمن والكافر، سيُبعث ويحاسب ويجازى يوم القيامة على ما قدمت يداه، ولو لم يكن هناك بعث ولا حساب ولا جزاء، لاستوى المؤمن والكافر، والمطيع والعاص، والبر والفاجر، ولكان تكليف الناس بالطاعات، ونهيهم عن المعاصي عبثاً ولهواً.

وهذا ما يشير إليه قوله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَطْلًا﴾ [ص: ٢٧].

وقوله: ﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لِيَعْبُدَ﴾ (٣٨) مَا خَلَقْنَاهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ [الدخان: ٣٨، ٣٩].

وما وجود الفساد في الدنيا، إلا بسبب عدم مجازاة الناس على أعمالهم بالعقوبات المستحقة شرعاً، وعدم تحقيق العدل بينهم، فكثيراً ما نرى أهل الصلاح في السجون،

وفي الفقر والكروب، ونرى أهل الفساد في نعمة وحياة عريضة.

الأثر الثالث من آثار قدرة الله تعالى: خلق الإنسان في أحسن صورة:

ثم امتن الله تعالى على عباده بأنه خلقهم في أحسن صورة، وأجمل هيئة فجعل الإنسان منتصباً غير منكب على وجهه، مع استقامة وتناسب أعضائه ﴿وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ﴾ فالإنسان أحسن المخلوقات صورة وأبهاها منظراً، كما قال تعالى: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾ [التين: ٤]. وقال سبحانه: ﴿اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ الْأَرْضَ قَرَارًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ وَرَزَقَكُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ﴾ [غافر: ٦٤].

وقال جل شأنه: ﴿الَّذِي خَلَقَكَ فَسَوَّاكَ فَعَدَلَكَ ﴿٧﴾ فِي أَيِّ صُورَةٍ مَّا شَاءَ رَكَّبَكَ﴾ [الانفطار: ٨٠٧].

وما يعرض لبعض الناس من تشويه، أو نقص في صورته، فهو من عوارض يتعرض لها الجنين مدة تكوينه، كأمراض أو علل أو صدمات وهو في بطن أمه.

ولأن الآية تشير إلى البعث والنشور، فقد ختمها الله بقوله ﴿وَالْيَوْمَ الْمَصِيرُ﴾ أي المرجع والمآب يوم لقاء رب العالمين، فيسألهم عما أنعم عليهم به من نعم، ويسألهم عن إيمانهم وكفرهم، ثم يحاسبهم ويجازيهم على ما قدمت أيديهم.

الأثر الرابع من آثار القدرة: علم ما ظهر وما بطن في الكون كله

٤ - ﴿يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُسْرُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴿٤﴾﴾

هذه الآية اشتملت على ثلاثة أمور، كل منها أثر من آثار القدرة الإلهية:

الأمر الأول: أن الله تعالى لا يخفى عليه شيء في جوف الأرض ولا في جو السماء، ولا ما بينهما، يعلم السرائر والظواهر، والغيب والشهادة، فعلمه تعالى شامل ومحيط لكل ما في الكون، من الكليات والجزئيات، ومن ذلك ما تأكله الأرض من أجساد الموتى، قال تعالى: ﴿قَدْ عَلِمْنَا مَا تَنْقُصُ الْأَرْضُ مِنْهُمْ وَعِندَنَا كِتَابٌ حَفِيزٌ﴾ [ق: ٤].

ولما كان الكافرون ينكرون البعث والنشور، ويقولون: إن الإنسان إذا مات وتفرقت أجزاء جسده في الأرض، فإنه لا يمكن جمعها وإعادة مرة أخرى، كما قال الله تعالى

عنهم: ﴿وَقَالُوا أَإِذَا ضَلَلْنَا فِي الْأَرْضِ﴾ أي دُفِنَّا فيها وَغُيِّبْنَا تحت التراب ﴿أَإِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ﴾ [السجدة: ١٠].

وقال سبحانه عنهم: ﴿وَقَالُوا إِذَا كُنَّا عِظَمًا وَرَفُنَا أَإِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا﴾ [الإسراء: ٤٩].

وقد دحض الله شبهتهم وكذب مقولتهم في قوله ﴿يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ فلا يغيب عن علمه ما تفرق من أجزاءهما أو تناثر فيهما، ويعلم ما فيهما من أجرام وكائنات ومخلوقات، ومن ذلك جميع الموتى الذين احترقوا بالنار، أو غرقوا في البحار، أو أكلتهم السباع، أو صاروا أشلاء ممزقة في الحروب، أو أتت عليهم أسلحة الدمار الشامل ﴿أَبَحْسَبُ الْإِنْسَانُ أَن يَجْمَعَ عِظَامُهُ﴾ ﴿بَلَىٰ قَدَرِينٌ عَلَىٰ أَن تُسَوَّىٰ بِئَانَهُ﴾ [القيامة: ٤٣].

وكثيراً ما استبعد الملحدون هذه الإعادة، كما قال تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا هَلْ نَدُلُّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ يُنْبِئُكُمْ إِذَا مُزِقْتُمْ كُلٌّ مُّزِقٍ إِنَّكُمْ لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ﴾ ﴿أَفَتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَمْ بِهِ جِنَّةٌ بَلِ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ فِي الْعَذَابِ وَالضَّلَالِ الْبَعِيدِ﴾ [سبا: ٨٧].

الأمر الثاني: أن علم الله تعالى شامل لكل شيء، لا تخفى عليه خافية في ظاهر النفس البشرية وباطنها، فهو يعلم الأسرار الطيبة، والخبايا الخبيثة، والنيات الصالحة، والمقاصد الفاسدة.

وهو علم شامل محيط بالكليات والجزئيات، لا يعزب عنه شيء ﴿وَيَعْلَمُ مَا تُسْرُونَ وَمَا تُنْصِرُونَ﴾ أي يعلم ما تخفونه فيما بينكم ويعلم ما تظهرونه لغيركم كما قال تعالى: ﴿وَإِنْ يَجْهَرُوا بِالْقَوْلِ فَإِنَّهُ يَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفَى﴾ [طه: ٧] أي يعلم السر والنجوى، ويعلم ما هو أخفى من السر، مما تكنه الصدور، وما تضمرة النفوس.

الأمر الثالث: ﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾ ومن ذلك علمه سبحانه بالخبايا والنوايا والخواطر، وما تخفيه الصدور، وتكنه القلوب، يستوي في علمه ما ظهر وما بطن ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ﴾ [الملك: ١٤].

والذي يعلم ذلك، لا يعجزه جمع ما تفرق من أجزاء الجسد في الأرض أو البحر أو الجو، فإن معرفة السر أدق وأخفى من معرفة الأجزاء المتفرقة.

قال أبو حيان: نبه تعالى بعلمه بما في السموات والأرض، ثم بعلمه بما يخفيه العباد وما يعلنونه، ثم بعلمه بما أكتته الصدور، على أنه تعالى لا يغيب عن علمه شيء، لا من الكليات ولا من الجزئيات، فابتدأ بالعلم الشامل، ثم بسِرِّ العباد وعلاانيتهم، ثم بما تنطوي عليه صدورهم، وهذا كله في معنى الوعيد، إذ هو تعالى المجازي عليها بالثواب والعقاب^(١).

وَجُوبُ الْاِعْتِبَارِ بِمَا حَدَثَ لِأُمَمٍ الْكَافِرَةِ مِنْ عَذَابٍ دُنْيَوِيٍّ

٥- ﴿أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَبْلُ فَذَاقُوا وَبَالَ أَمْرِهمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ۝﴾

وبعد أن توعدت الآيات الفريق الذي كفر بالله ورسوله بالعذاب الأخروي في قوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ يَمَّا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ وقوله: ﴿وَالْيَوْمَ الْمَصِيرُ﴾ وقوله: ﴿وَيَعْلَمُ مَا تُشْرُونَ وَمَا تَعْلَمُونَ﴾ توعدهم الله بعد ذلك في هذه الآية بالعذاب الدنيوي الذي حل بأمثالهم ممن كذب رُسل الله، تحذيراً لهم من تكذيب خاتم المرسلين، حتى لا يصيبهم ما أصاب من سبقهم. والخطاب في هذه الآية موجه للفريق الذي تقدم ذكره في قوله تعالى في الآية الثانية ﴿فَنَكَّمْ كَافِرٌ﴾ بعد أن ذكر سبحانه من أوصافه ما به يُعرف ويُعبد، ويُبدل الجهد في مرضاته وتجنب سخطه.

ذلكم هو قوله تعالى: ﴿أَلَمْ يَأْتِكُمْ﴾ أي ألم يصل إلى علمكم أيها الجاحدون المكذبون ﴿نَبَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَبْلُ﴾ أي خبر الذين كفروا بالله ورسله من الأمم الماضية قبلكم، الذين لم تزل أنباؤكم يتحدث بها المتأخرون، ويخبر بها الصادقون، وأنهم حين جاءتهم الرسل بالحق من عند الله كذبوهم وعاندونهم فأذاقهم الله وبال أمرهم في الدنيا وعاقبهم في الآخرة، كقوم نوح وقوم عاد وقوم ثمود وقوم لوط وأصحاب الأيكة...

(١) تفسير البحر المحيط (٢٧٧/٨).

(٢) رسمت (نبؤ) بالواو في المصحف، وقد وقف عليها حمزة وهشام بخلف عنه بخمسة أوجه هي:

١- الإبدال ألفا، ٢- التسهيل بالروم، ٣- الإبدال واوا على الرسم مع السكون المحض والروم والإشمام.

فكان عاقبتهم الدمار والهلاك، لقد وصل إلى علمكم خبر هؤلاء وغيرهم، وعلمتم أن إصرارهم على الكفر قد أدى بهم إلى الهلاك في الدنيا، فعليكم أن تعتبروا بهم، وأن تفيئوا إلى رشدكم، وأن تتبعوا هذا الرسول الذي ختم الله به النبوة، فإن من سبقكم قد مسهم سوء عاقبة كفرهم، وسوء أفعالهم وهم في الدنيا ﴿فَذَاقُوا وَآلَ أَمْرِهِمْ﴾ أي نالهم عاقبة كفرهم في الدنيا ﴿وَلَهُمْ﴾ بعد ذلك ﴿عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ أي عذاب موجه مؤلم في الدار الآخرة.

التكذيبُ بخاتمِ الرُّسلِ ﷺ وَجَهٌ مِنْ وَجُوهِ الْكُفْرِ

٦- ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُ كَانَتْ تَأْتِيهِمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَقَالُوا أَبَشَرٌ يَهْدُونَنَا فَكُفِرُوا وَقُولُوا وَاللَّهِ غَيٌّ حَمِيدٌ﴾ بين سبحانه وتعالى في الآية السابقة أن عدم الاستفادة من دراسة التاريخ أدت إلى سوء عاقبة المكذبين، فقد أنكر بعض الناس الإيمان بالله واليوم الآخر وأنكر بعضهم الوحي، لأن الذين حملوه إليهم بشر مثلهم، وقالوا ﴿لَوْ شَاءَ رَبُّنَا لَأَنْزَلَ مَلَائِكَةً﴾ [فصلت: ١٤] إنه يصعب على نفوسهم أن يعبدوا إلهاً واحداً ويصعب عليهم أن يتفوق عليهم غيرهم من البشر، ولذا: فإنهم يسعون في هدم ما جاؤوا به، ويتطاولون عليهم، ولا يعترفون بتميز غيرهم عليهم، ولهذا فقد كفروا بالله تعالى ورسله، وتكبروا عليهم، وأعرضوا عن دعوتهم.

وفي هذه الآية تقرير لهذه الحقيقة، وهي عدم الإيمان بالله والتكذيب لرسله، لاسيما تكذيبهم لخاتم الرسل ﷺ الذي نزلت عليه هذه الآيات، وهو المعني بها، إذ ليس بعده نبي يبعث: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُ كَانَتْ تَأْتِيهِمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ﴾ أي أن الهلاك الذي لحق بمن كذب برسل الله في الدنيا، وما سيحل بهم في الآخرة، سببه: أنه كانت تأتيهم رسل الله بالآيات البينات، والمعجزات الواضحات، الدالة على صدقهم، فيكذبونهم، معتقدين استحالة أن يرسل الله إليهم بشراً مثلهم ﴿فَقَالُوا أَبَشَرٌ يَهْدُونَنَا﴾ أي قالوا منكبين: أبشر مثلنا يرشدوننا؟ وليس لهم فضل علينا، فلا شيء خصهم الله دوننا، قال تعالى: ﴿قَالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ إِنْ

نَحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَمُنُّ عَلَىٰ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ ﴿١١﴾ [إبراهيم: ١١] إِنَّهُمْ يَنْكُرُونَ أَنْ
يَكُونَ الرَّسُولُ بَشَرًا وَلَا يَنْكُرُونَ أَنْ يَكُونَ الْإِلَهِ حَجَرًا!! كما قال المكذبون بمحمد ﷺ:
﴿ أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَا إِلَىٰ رَجُلٍ مِّنْهُمْ ﴾ [يونس: ٢].

وقال تعالى عنهم: ﴿ وَحِجْبُوا أَنْ جَاءَهُمْ مُنْذِرٌ مِّنْهُمْ ﴾ وَقَالَ الْكَافِرُونَ هَذَا سَجَرٌ كَذَّابٌ ﴿ [ص: ٤].

وقال أيضا: ﴿ بَلْ يَحِجُّوا أَنْ جَاءَهُمْ مُنْذِرٌ مِّنْهُمْ فَقَالَ الْكَافِرُونَ هَذَا شَيْءٌ عَجِيبٌ ﴾ [ق: ٢٠].

ومن العجب لديهم أن يكون الرسول بشراً مثلهم، يأكل ويشرب، ويتزوج النساء،
ويقضي حاجاته بنفسه: ﴿ وَقَالُوا مَا هَذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ وَيَمْشِي فِي الْأَسْوَاقِ ﴾ [الفرقان: ٧].
لقد جهلوا أنه لا يصلح لإرشاد الناس إلا من كان من نوعهم ﴿ قُلْ لَوْ كُنَّا فِي الْأَرْضِ
مَلَكَةٌ يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِمْ مِنَ السَّمَاءِ مَلَكًا رَسُولًا ﴾ [الإسراء: ٩٥].

والسبب أن البشر لا يقوى على مخالطة الملك، ولا يفهم كلامه، ولا يقدر على
التلقي عنه، ونتيجة لهذا الجهل، فقد كفروا بالله، وجحدوا رُسله، وأعرضوا عن الحق
فلم يقبلوه ﴿ فَكْفَرُوا وَتَوَلَّوْا ﴾ وهكذا قال قوم صالح له ﴿ فَقَالُوا أَبَشَرًا مِّثْلَنَا وَجِدًا نَّبْعُهُ إِنَّا إِذَا لَفِئَ
ضَلَّلِلْ وَسُعُرٍ ﴿٢٤﴾ أَلَفِئَ الذِّكْرِ عَلَيْهِ مِنْ بَيْنِنَا بَلْ هُوَ كَذَّابٌ أَشِرٌّ ﴾ [القمر: ٢٤، ٢٥].

قال الفخر الرازي: أنكروا أن يكون الرسول بشراً، ولم ينكروا أن يكون معبودهم حجراً^(١).
﴿ وَاسْتَعْنَىٰ اللَّهُ ﴾ عنهم وعن إيمانهم، وعن طاعتهم، فهو صاحب الغنى التام المطلق
كما قال تعالى: ﴿ إِنْ تَكْفُرُوا فَإِنَّ اللَّهَ عَنِّي عَنكُمْ وَلَا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ الْكُفْرَ ﴾ [الزمر: ٧].

وقال سبحانه: ﴿ يَتَأَيَّهَا النَّاسُ أَنْتُمْ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ ﴾ [فاطر: ١٥].

﴿ وَاللَّهُ غَنِيٌّ ﴾ عنهم، لا يبالي بهم، ولا يضره ضلالهم في شيء، وهو سبحانه ﴿ حَمِيدٌ ﴾
أي محمود على كل حال في أقواله وأفعاله وذاته وأسمائه وصفاته.

إِنْكَارُ الْبَعْثِ وَالْحِسَابِ وَالْجَزَاءِ ضَرْبٌ مِنْ ضُرُوبِ الْكُفْرِ

٧- ﴿ زَعَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنْ لَّنْ يُبْعَثُوا قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتُبْعَثُنَّ ثُمَّ لَتُنَبَّيَنَّ بِمَا عَمِلْتُمْ وَذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ ﴿٧﴾ ﴾

(١) تفسير الفخر الرازي (٢٣/٣٠).

وبعد أن ذكرت السورة كُفِّرَ من كَفَّرَ بخالق السموات والأرض، وبصاحب الرسالة الخاتمة، وبالكتاب الذي نزل عليه، ذكرت ضرباً ثالثاً من ضروب الكفر، وهو كفرهم بالبعث والجزاء، بغير علم ولا هدي ولا كتاب منير، وقد أمر الله رسوله أن يقسم لهم على بعثهم وجزائهم بالسوء سوءاً وبالإحسان إحساناً.

وبدأت الآية، بتسمية مقالة الكفار هذه زُغْماً، وهذا تكذيب لهم ولزعمهم في أول كلمة من الآية ﴿زَعَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنْ لَنْ يُعْثُوا﴾ وبين الزعم والكذب عموم وخصوص، فالزعم هو القول الخاطيء المخالف للواقع.

والكذب: هو الذي يتعمد قائله أن يخالف الواقع في ظن السامع.

وكُتِبَ الكذب: الزعم كما قال شريح، وفي الأثر (بُسْ مطية الرجل إلى الكذب: زَعُمُوا)^(١).

فالزاعم يتوهم أنه صادق فيما قال، كما يزعم الكفار انتفاء البعث والنشور، وأن الله تعالى لن يبعثهم من قبورهم، وهو ادّعاء باطل أمر الله رسوله أن يقسم على عدم صحته ﴿قُلْ﴾ لهم يا رسولنا ﴿بَلَىٰ وَرَبِّي لَتُبْعَنَّ﴾ أي والله لتخرجن من قبوركم أحياء ﴿ثُمَّ لَتُنَبَّيَنَّ بِمَا عَمَلْتُمْ﴾ أي ووالله ليخبركم ربكم بما عملتموه في الدنيا من خير أو شر.

وأحياء الناس بعد موتهم أمر سهل يسير على الله تعالى؛ وإن كان أمراً مستحيلاً بالنسبة للبشر، قال تعالى: ﴿وَذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ﴾ وكل شيء هين على الله تعالى، إذا أراد شيئاً قال له: كن فيكون، ولكن لما كانت الإعادة أهون من البدء في عرف الناس، عبر سبحانه بها، كما قال تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَتْ عَلَيْهِ﴾ [الروم: ٢٧].

وقد أكد القرآن ذلك بأعظم توثيق، إذ ليس بعد قسم الرسول بربه توكيد.

وهذه هي الآية الثالثة التي يأمر الله فيها رسوله أن يقسم بربه جل وعلا على صدق البعث.

(١) رواه أبو داود عن حذيفة بن اليمان بسند فيه انقطاع، ورواه ابن مسعود عند ابن أبي شيبة (٤٤٩/٨) وأحمد في المسند (١٧٠٧٥، ٢٣٤٠٣) والبيهقي في الشعب معلقاً (٥٢٢٥) وضعفه محققو المسند، لأن أبا قلابه لم يدرك أبا مسعود البدرى، وأخرجه البغوي في شرح السنة (٣٣٩٢).

والآيتان قبلها هما قوله تعالى: ﴿وَسَتَبَشِّرُونَكَ أَحَقُّهُ قُلُّ إِي وَرَبِّي إِنَّهُ لَحَقٌّ﴾ [يونس: ٥٣].
وقوله: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَأْتِينَا السَّاعَةُ قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتَأْتِيَنَّكُمْ﴾ [سبأ: ٣].

يقول الشيخ محمد الغزالي رحمه الله: إنكار البعث جريمة قديمة، ولكنها لم تلق الانتشار الذي أتيح لها في هذا العصر، فالحضارة التي تُظِلُّنا زينت الحياة الدنيا، وأهالت التراب على ما بعدها، بل إن الكلام عن اليوم الآخر وَهُمْ، لا يجوز أن يجري على ألسنة العقلاء! وأهل الكتاب يقودهم اليهود في هذا الإنكار، وملاحدة العرب يُجَرِّثُونَ الجماهير على نسيان الله وجحد لقائه، وَيُضَيِّقُونَ بالقرآن وهو يصور مشاهد الآخرة، إن قضايا الدين كلها تحتاج إلى عرض جديد يقاوم الإلحاد السائد^(١).

وَجُوبُ الْاِعْتِصَامِ بِالْاِيْمَانِ وَالتَّمَسُّكِ بِالْقُرْآنِ

٨- ﴿فَتَأْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَالنَّورَ الَّذِي أَنْزَلْنَا وَاللَّهُ يَمَّا تَعْمَلُونَ خَيْرٌ﴾ (٨)

وفي ظل هذا التوكيد الموثق على وجوب الإيمان بالبعث والنشور، تأتي الدعوة إلى التمسك بالإيمان بالله ورسوله، وبالكتاب المنزل عليه قبل فوات الأوان، فإن الإيمان بالله ورسوله، هو الذي يعصم من الزلل، وينجي من الهلاك والشقاء، وفيه الخروج من موجبات الكفر السابق ذكرها، وهو نور يهدي به الله من يشاء، فإن ما في هذا الكتاب من الأحكام والشرائع والأخبار، نور يبدد ظلمات الجهل، وإذا علمتم ما حل بالمكذبيين قبلكم ﴿فَتَأْمِنُوا﴾ أيها الجاحدون المكذبون ﴿بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾ لئلا ينزل بكم ما نزل بغيركم من العقوبة، واهتدوا بالقرآن الذي أنزله الله على رسوله، فهو جبل الله المتين، وصراطه المستقيم، وهو النور الوضاء، المبدد للشبهات، كما يُبَدِّد النور الظلام.

ولا يوجد كلام موثق مِنْ أَلْفِهِ إِلَى يَأْتِي، محفوظ بحفظ الله تعالى من التحريف والتغيير والتبديل، إلا هذا القرآن، فقد أحصى العقائد المنجية، وساقها في حشد من الأدلة تورث اليقين.

(١) نحو تفسير موضوعي لسور القرآن الكريم ص (٤٦٣).

وقد سماه الله نورا في كثير من آياته، فقال هنا: ﴿وَالنُّورَ الَّذِي أُنْزِلْنَا﴾^(١) ومما ورد في غير هذه السورة قوله تعالى: ﴿قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ لَكُمْ كَثِيرًا مِمَّا كُنْتُمْ تُخْفُونَ مِنَ الْكِتَابِ وَيَعْفُو عَنْ كَثِيرٍ قَدْ جَاءَكُمْ مِنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُبِينٌ ﴿١٥﴾ يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلَامِ وَيُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ وَيَهْدِيهِمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ [المائدة: ١٥، ١٦].

وقوله سبحانه: ﴿وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ وَلَكِن جَعَلْنَاهُ نُورًا نَّهْدِي بِهِ مَن نَّشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا﴾ [الشورى: ٥٢].

وقوله عز وجل في وصفه بالهداية والرحمة: ﴿يَتَأْتِيهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَتْكُمْ مَوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَاءٌ لِّمَا فِي الصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ [يونس: ٥٧].

ثم ختم الله سبحانه الآية ببيان أنه تعالى مُطَّلِعٌ على جمع أحوالكم، لا يخفى عليه شيء منها، وهو مجازيكم عليها يوم القيامة ﴿وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ فأنتم مكشوفون أمام الله تعالى، وسوف يمنحكم الخير إن آمتم، ويُلقِي بكم في النار إن كفرتم.

والخير هو العليم بالمحسوسات وغير المحسوسات، كالمعتقدات، والإيمان بالبعث والحساب والجزاء، أما البصير فهو يخص المحسوسات.

عن عائشة رضي الله عنها قالت: خرج رسول الله ﷺ قَبْلَ بدر، فلما كان بِحَرَّةِ الْوَبَرَةِ، أدركه رجل قد كان يُذَكَّرُ منه جُرْأَةً وَنَجْدَةً، وفرح أصحاب رسول الله ﷺ حين رأوه، فلما أدركه قال: يا محمد، جئتُ لَأَتَّبِعَكَ وَأُصِيبَ مَعَكَ، فقال له رسول الله ﷺ: «أَتُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ؟» قال: لا، قال: «فارجع فلن نستعين بمشرك» ثم مضى حتى إذا كنا بالشجرة أدركه، فقال له كما قال أول مرة، فقال له رسول الله ﷺ: كما قال أول مرة، قال: لا، قال: «فارجع فلن أستعين بمشرك» فرجع، ثم أدركه بالبيداء، فقال له كما قال أول مرة، فقال له النبي ﷺ: «أَتُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ؟» قال: نعم، قال: «فانطلق»^(٢).

(١) أخرجه مسلم (١٨١٧) وأبو داود (٢٧٣٢) والترمذي (١٥٥٨) وسنن النسائي الكبرى (١١٥٣٦) والمسند (٢٤٣٨٦) بإسناد صحيح على شرط مسلم، وابن حبان (٤٧٢٦)، والدارمي (٢٤٩٧)، والطحاوي في شرح مشكل الآثار (٢٥٧٢).

وبهذا يعلم أنه لا تجوز الاستعانة بغير المسلمين في الحرب، فالنبي ﷺ لم يقبل مشاركة الرجل معه في المعركة إلا بعد أن أسلم، وكان قد رفض مشاركته قبل ذلك ثلاث مرات. وليس هذا على إطلاقه، فهناك أدلة أخرى مخالفة في بعض المواقف، كما استعان النبي ﷺ بعبد الله بن أريقط، في رحلة الهجرة لخبرته بالطريق، وهو غير مسلم.

يَوْمُ التَّغَابُنِ

وبعد هذه الدعوة إلى الإيمان بالله ورسوله واليوم الآخر وما فيه من ثواب وعقاب، تستكمل الآيات، مشهد البعث الموثق، لتحذير الناس من أهوال يوم القيامة، قال تعالى:

٩- ﴿يَوْمَ يَجْمَعُكُمْ^(١) لِيَوْمِ الْجَمْعِ ذَلِكَ يَوْمُ التَّغَابُنِ وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ وَعَمَلْ صَالِحًا يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّئَاتِهِ وَيُدْخِلْهُ^(٢) جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿١٠﴾﴾

أي اذكر يوم يجمع الله الأولين والآخرين، فيقفون بين يديه، وينبئهم بما عملوا، فيظهر الفرق والتفاوت بين الخلائق، ويرفع الله أقواماً ويضع آخرين بسبب ما قدموه لأنفسهم في الحياة الدنيا. ويوم الجمع هو يوم الحشر، الذي يجمع الله فيه الأولين والآخرين، كما قال تعالى

﴿وَنُنْذِرَ يَوْمَ الْجَمْعِ لَا رَيْبَ فِيهِ فَرِيقٌ فِي الْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِي السَّعِيرِ﴾ [الشورى: ٧].

وقال جل شأنه: ﴿هَذَا يَوْمُ الْفَصْلِ جَمَعْنَاكُمْ وَالْأُولَىٰ﴾ [المرسلات: ٣٨].

وهو اليوم الذي يحاسب الله فيه الخلائق، ويجازيهم على أقوالهم وأعمالهم:

قال تعالى: ﴿ذَلِكَ يَوْمَ تَجْمَعُ لَهُ النَّاسُ وَذَلِكَ يَوْمَ مَشْهُودٌ﴾ [هود: ١٠٣].

وقال سبحانه: ﴿قُلْ إِنَّا الْأُولَىٰ وَالْآخِرِينَ ﴿١١﴾ لَمَجْمُوعُونَ إِلَىٰ مِيقَاتِ يَوْمٍ مَعْلُومٍ﴾ [الواقعة: ٤٩، ٥٠].

ويوم القيامة يسمى يوم التغابن ﴿ذَلِكَ يَوْمُ التَّغَابُنِ﴾ أي ذلك يوم يغيب فيه المؤمنون الفاسقين، ويعرف المجرمون أنهم الخاسرون، والغيب في الأصل هو الشعور بالنقص والخسران، وأكثر ما يستعمل الغيب في البيع والشراء.

(١) قرأ يعقوب بنون العظمة في ﴿يَجْمَعُكُمْ﴾ والباقون بالياء.

(٢) قرأ نافع وابن عامر بالنون في ﴿يُدْخِلْهُ﴾ و﴿يُدْخِلْهُ﴾ وهي نون العظمة، والباقون بالياء لموافقة السياق.

ومعناه في الآية: غبنُ أهل الحق لأهل الباطل، أو غبنُ المؤمنين للكافرين، حيث يأخذ السعداء منازل الأشقياء لو كانوا سعداء، وبالعكس.

وقد بيّن العلماء حقيقة الغبن في هذا المقام، بأن كل إنسان له مكان في الجنة ومكان في النار، فإذا دخل أهل النار النار، بقيت أماكنهم في الجنة فيأخذها أهل الجنة، وإذا دخل أهل الجنة الجنة، بقيت أماكنهم في النار فيأخذها أهل النار، وعندئذ تكون منازل أهل الجنة في النار لأهل النار، ومنازل أهل النار في الجنة لأهل الجنة يتوارثونها عنهم، فيكون الغبن الأليم، وهو استبدال مكان في النار بمكان في الجنة، لأنهم ورثوا أماكن الآخرين الذين ذهبوا إلى النار^(١).

وهذا هو معنى الأثر (ما من عبد يدخل الجنة إلا أرى مقعده في النار - لو أساء - ليزداد شكراً، وما من عبد يدخل النار إلا أرى مقعده من الجنة - لو أحسن - ليزداد حسرة). ولا غبن أعظم من غبن أهل الجنة أهل النار، فكأن أهل النار استبدلوا الخير بالشر والجيد بالرديء، والنعيم بالعذاب، وأهل الجنة على العكس.

ومعنى هذا: أن يوم القيامة هو اليوم الذي تظهر فيه خسارة الكافر الذي اشترى النار بالجنة، ففقد منزله في الجنة بسبب تزكه للإيمان، كما قال تعالى: ﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ اشْتَرُوا الضَّلَالَةَ بِالْهُدَىٰ فَمَا رَبِحَتْ تِجَارَتُهُمْ وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ﴾ [البقرة: ١٦] والكافر هو الذي يأتي مفلساً يوم القيامة، وهذا هو الغبن الحقيقي، والخسران المبين، وليس غبن الأسواق، ولا خسارة المال والأهل والأسهم ﴿قُلْ إِنَّ الْخَاسِرِينَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَأَهْلِيَهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ أَلَا ذَلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ﴾ [الزمر: ١٥].

ثم بين سبحانه وتعالى موجب الغبن، وهو الإيمان، بالنسبة للغائب، والكفر بالنسبة للمغيبون، فقال تعالى بالنسبة للأول ﴿وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ﴾ أي يصدق به وبرسله وكتبه واليوم الآخر ﴿وَيَعْمَلْ صَالِحًا﴾ أي يعمل عملاً صالحاً خالصاً من الشرك، متبوعاً فيه هذي محمد

(١) ينظر بتصرف: تمة اضواء البيان للشيخ عطية سالم (٣٤١/٨).

﴿ من الفرائض والنوافل، وأداء حقوق الله وحقوق العباد، ويستمر على الإيمان والعمل الصالح إلى أن يموت ﴾ يَكْفُرُ ﴿ الله ﴾ عَنْهُ سَيِّئَاتُهُ ﴿ أي يمح عنه ذنوبه التي عملها في الدنيا، بأن يزيلها من صحيفة عمله، ويبدلها حسنات فضلاً منه وكرماً ﴾ وَيُدْخِلُهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ﴿ أي يدخله بمنه وإحسانه جنات النعيم فيها ما تشتهيهِ الأنفس وتلذ الأعين، تجري الأنهار من تحت قصورها وأشجارها وثمارها ﴾ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ﴿ أي خلوداً أبدياً بلا انقطاع، كما قال تعالى: ﴿ خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِمَا يُرِيدُ ﴾ [هود: ١٠٧].

وهذا الخلود في جنات النعيم هو أعظم الفوز وأجزل الجزاء ﴿ ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴾ وهي حياة أبدية لا يموتون فيها ولا يخرجون منها. ثم ذكر سبحانه النوع المغبون، فقال:

١٠ - ﴿ وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ خَالِدِينَ فِيهَا وَبِئْسَ الْمَصِيرُ ﴾ ﴿ وَالَّذِينَ كَفَرُوا ﴾ أي جحدوا وحدانية الله تعالى ﴿ وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا ﴾ التي أرسل الله بها رسله وأيدهم بها ﴿ أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ خَالِدِينَ فِيهَا ﴾ ماكثين فيها أبداً لا يحولون عنها ولا يزولون ﴿ لَا يُقْضَىٰ عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا وَلَا يُخَفَّفَ عَنْهُمْ مِنْ عَذَابِهَا ﴾ [فاطر: ٣٦]. ﴿ كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُمْ بَدَّلْنَاهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا الْعَذَابَ ﴾ [النساء: ٥٦].

وقد ختم الله الآية بضم مصيرهم الذي آلوا إليه فقال: ﴿ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ ﴾ أي وساء المرجع الذي صاروا إليه وهو جهنم إذا استمروا على كفرهم وتكذيبهم إلى أن يموتوا. وفي يوم التغابن يقول بعض الناس ﴿ يَلَيِّتَنِي فَذَنَّبْتُ لِحَيَاتِي ﴾ [الفجر: ٢٤]. ويندم بعض الناس لأنهم قوتوا على أنفسهم فُرْصَ النجاة ﴿ زُبَيْمًا يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ كَانُوا مُسْلِمِينَ ﴾ [الحجر: ٢]. وهيهات، لقد مضت أيام العمل، وأتت أيام الحساب. ويندم آخرون على صداقات كانت سبباً في ضلالهم ﴿ وَيَوْمَ يَعْصُ الظَّالِمُ عَلَىٰ يَدَيْهِ يَقُولُ يَلَيِّتَنِي أَخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَيْلًا ﴾ ﴿ يَوَلَّىٰ يَتَنِىٰ لَمْ أَخَذْ فَلَانَا خَلِيلًا ﴾ ﴿ لَقَدْ أَضَلَّنِي عَنِ الذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَاءَنِي وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِلْإِنْسَانِ خَذُولًا ﴾ [الفرقان: ٢٧-٢٩].

ويندم قوم لأنهم أضاعوا أوقاتهم هذرا، وبددوا طاقاتهم في غير فائدة (نعمتان مغبون فيهما كثير من الناس: الصحة والفراغ)^(١).

كُلُّ شَيْءٍ بِقَضَاءِ اللَّهِ وَقَدَرِهِ، وَمَنْ يُؤْمِنُ بِهِمَا يُوفِّقَهُ اللَّهُ لِلرِّضَا وَالتَّسْلِيمِ

١١- ﴿مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ يَهْدِ اللَّهُ قَلْبَهُ، وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾

أي ما أصاب أحدا مصيبة في نفسه أو ماله أو ولده إلا بعلم الله تعالى وتقديره، فجميع ما أصاب العباد إنما هو بقضاء الله وقدره، ومن يثبت الله على الإيمان، يهد قلبه لليقين، فيعلم أن ما أصابه لم يكن ليخطئه وما أخطأه لم يكن ليصيبه.

وإذا كان الله تعالى قد توعد مَنْ كفر به وكذب رسله بالعذاب الأليم في الآخرة، يوم يجمع الله الناس للحساب، فماذا بالنسبة لمن أساء إلى خلق الله، ولم يُتَصَفَّ منه في الدنيا، كالذين يؤذون المسلمين المستضعفين في أرجاء العالم، والذين يؤذون الإسلام وأهله، ومن ذلك ما حدث لضعفاء المسلمين في مكة في بدء الدعوة، فكيف يكون التشفي منهم؟ ولم ينزل بهم - في كثير من الحالات - من المصائب، ما فيه عقوبة لهم في الدنيا؟ والجواب من الله تعالى: ﴿مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ﴾ أي ما نزل بأحد شيء من البلاء في نفسه أو ماله أو ولده أو أهله ﴿إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ أي بأمره وإرادته، لأن كل شيء بقضاء الله وقدره، سبق به عمله، ونفذت فيه مشيئته، واقتضته حكمته.

والمصيبة في الأصل: كل ما يصيب الإنسان من خير أو شر، كما قال تعالى:

﴿مَا أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَبِمَا أَصَابَكَ مِنْ نَفْسِكَ﴾ [النساء: ٧٩].

واختصت المصيبة في الاستعمال اللغوي بما يلحق الإنسان من شر وضرر.

وفي الآية تعليم الصبر للمسلمين على ما ينالهم من المصائب.

ويشبه هذه الآية قوله تعالى: ﴿مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي أَنْفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَابٍ مِنْ

قَبْلِ أَنْ تَبْرَأَهَا﴾ [الحديد: ٢٢].

(١) من حديث ابن عباس في البخاري (٦٤١٢).

ومن آثار الإيمان بالقضاء والقدر: هداية القلب، فإذا علم العبد أن الخير والشر من الله تعالى اطمأن قلبه واستراح، وأدرك أن ما أصابه لم يكن ليخطئه وما أخطأه لم يكن ليصيبه، فيصبر إذا مسه الضر، ويشكر إذا مسه الخير، وهو مأجور في كلا الحالتين ﴿وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ يَهْدِ اللَّهُ قَلْبَهُ﴾ أي يوفقه للتسليم بأمر الله تعالى والرضا بقضائه، فيصبر على البلاء، ويشكر عند الرخاء، وفي الحديث عن صهيب «عجباً لأمر المؤمن، إن أمره كله له خير، وليس ذلك لأحد إلا للمؤمن، إن أصابته سراء شكر فكان خيراً له، وإن أصابته ضراء صبر، فكان خيراً له»^(١).

فإذا آمن العبد وأيقن أن ما أصابه هو من عند الله، فرضى به وسلم، هدى الله قلبه وورقه الثبات، ولم تزعه النكبات، فيحصل له بذلك الأجر العظيم في الدنيا والآخرة. قال تعالى: ﴿إِنَّمَا يُوفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [الزمر: ١٠].

ومن لم يصبر على ما يصيبه من نكبات، ولم يلحظ قضاء الله وقدره، فإنه يُخذل، ويكفه الله إلى نفسه، فيصاب بالجزع والهلع، وهو عقوبة عاجلة في الدنيا قبل الآخرة. قال ابن عباس رضي الله عنهما: يهد قلبه لليقين، حتى يعلم أن ما أصابه لم يكن ليخطئه، وما أخطأه لم يكن ليصيبه^(٢).

وقال علقمة: هو الرجل تصيبه المصيبة فيعلم أنها من عند الله، فيرضى بها ويسلم لقضاء الله^(٣)، ويثبتته الله في أحواله وأقواله وأفعاله، وهذا الثبات أفضل ما يُجزى به العبد على الصبر واليقين في الدنيا والآخرة.

ومعنى الآية أشمل من كل هذا: إن علماء المسلمين وحكامهم مكلفون بإقامة دولة الإسلام في كل مكان، ونشر كلمة الله الأخيرة إلى خلقه في أرجاء المعمورة، وهذا يحتاج إلى صعوبات بالغة، وخصومات عنيفة، وقوة إيمان، وصبر ويقين، والمسلم

(١) صحيح مسلم برقم (٢٩٩٩) عن صهيب الرومي.

(٢) أخرجه الطبري (١٢/٢٣).

(٣) تفسير الطبري (٧٩/٢٨) والبيهقي (٩٩٧٦) وعبد بن حميد وابن المنذر.

الذي يفارق وطنه وأهله نصره لدين الله، يحتاج إلى صبر شاق لا يقوى عليه كل إنسان. وكأنني بهذه الآية في مكانها من السورة بالنسبة إلى الآيات المكية السابقة والآيات المدنية اللاحقة: تشير إلى هذه المعاني، وتضع قاعدة من قواعد العقيدة، وهو الإيمان بالقدر خيره وشره.

ثم ختم الله الآية ببيان شمول علمه تعالى فقال: ﴿وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ لا يخفى عليه تسليم من انقاد لأمر الله، ولا كراهية من لم يرض بقضاء الله. فالمؤمن لا يجزع ولا يهلع، وإذا أصابته مصيبة قال: ﴿إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ﴾ [البقرة: ١٥٦] وهو لا يحزن ولا يفزع قال تعالى: ﴿وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنْتُمْ الْأَعْلَوْنَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ [١٣] إِنْ يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِّثْلُهُ وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ ﴿[آل عمران: ١٣٩، ١٤٠].

عِقَابُ اللَّهِ تَعَالَى لِمَنْ خَالَفَ طَاعَةَ اللَّهِ وَالرَّسُولِ

١٢- ﴿وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَإِنَّمَا عَلَى رَسُولِنَا الْبَلْغُ الْمُبِينُ﴾ [١٢]

وتمضي آيات الدعوة إلى الإيمان، فتدعوا الناس إلى طاعة الله والرسول، بعد أن بينت مصير الذين تولّوا عن ذلك، فقال تعالى: ﴿وَأَطِيعُوا اللَّهَ﴾ أي امتثلوا أمره واجتنبوا نهيه، وانقادوا له انقياداً تاماً، فإن الطاعة فرع عن الإيمان ﴿وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ﴾ فيما بلغكم به عن ربه، ففي ذلك السعادة والفوز بنعيم الجنة والبعد عن النار.

﴿فَإِن تَوَلَّيْتُمْ﴾ وأعرضتم عن طاعة الله والرسول، فإن مهمة الرسول هي البلاغ ﴿فَإِنَّمَا عَلَى رَسُولِنَا الْبَلْغُ الْمُبِينُ﴾ وقد أدى الرسول ﷺ ما عليه، فبلغ الرسالة وأدى الأمانة ونصح الأمة، وبهذا البلاغ تقوم الحجة على العباد، وليس بيد الرسول هدايتهم وحسابهم على الله.

والله سبحانه يعاقب من كذب وخالف، قال تعالى: ﴿وَإِن تَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوا أَمْثَلَكُمْ﴾ [محمد: ٣٨] وقال: ﴿يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَا تَوَلَّوْا عَنْهُ وَأَنْتُمْ تَسْمَعُونَ﴾ [٢] وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ قَالُوا سَمِعْنَا وَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ﴿[الأنفال: ٢٠، ٢١].

﴿قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ فَإِن تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْهِ مَا حُمِّلَ وَعَلَيْكُمْ مَا حُمِّلْتُمْ وَإِن تُطِيعُوهُ تَهْتَدُوا وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا أَلْبَانُ الْبَيْتِ ﴿٥٤﴾﴾ [النور: ٥٤].

وَحَدَانِيَّةُ اللَّهِ تَعَالَى تُوجِبُ الْاعْتِمَادَ عَلَيْهِ

١٣- ﴿اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ ﴿١٣﴾﴾

هذا تذكير للمؤمنين بأن من آمن بالله وحده لا شريك له، كان حقاً عليه أن يطيعه، وأن لا يعبأ بما يصيبه في جانب الله تعالى من أذى، وطاعة الرسول ترجع إلى طاعة الله تعالى: هذا: ولما دعت الآية السابقة إلى طاعة الله والرسول، ذكرت هذه الآية، بما يجب على الناس جميعاً أن يغلموه، ذكرتهم بحقيقة التوحيد ﴿اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾ لا رب غيره، ولا معبود سواه، وهو المستحق للعبادة دون سواه، فعليه وحده توكلوا - أيها المؤمنون - في جميع أموركم ﴿وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾ وفي هذا تعليم للأمة، ألا يلجؤوا إلا إلى الله تعالى، وألا يثقوا إلا بالله تعالى، وألا يعتمدوا إلا عليه سبحانه بعد بذل الأسباب في كل شيء، وحسن الظن بالله والوثوق في كفايته، وكلما قوى إيمان العبد قوى اعتماده على ربه.

فِتْنَةُ أَمْوَالٍ وَالزُّوْجِ وَالْوَلَدِ وَعَدَاوَتِهِمْ لِلْإِنْسَانِ

١٤- ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا مِن أَزْوَاجِكُمْ وَأَوْلَادِكُمْ عَدُوًّا لَّكُمْ فَأَحْذَرُوهُمْ وَإِن تَعَفَّوْا وَتَصَفَّحُوا وَتَغْفِرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٤﴾﴾

يحذر الله عباده من الاغترار بالأزواج والأولاد، فإن بعضهم عدو للإنسان، والنفس مجبولة على محبة الزوجة والأولاد، فنصح الله عباده ألا تسبب لهم هذه المحبة، الوقوع في المحاذير الشرعية إن هم استجابوا لمطالبهم ورغباتهم، فعليهم أن يقدموا رضا الله تعالى على رضا أزواجهم وأولادهم، وأن يؤثروا الآخرة على الدنيا، وفي حالة عدم تلبية رغباتهم لا تغلظو عليهم ولا تعاقبوهم، فإن في العفو والصفح غفران الذنوب ورحمة علام الغيوب.

سبب النزول:

١ - أخرج الترمذي وغيره عن ابن عباس رضي الله عنهما أن رجلاً سأله عن هذه الآية، فقال: هؤلاء رجال من أهل مكة أسلموا، وأرادوا أن يأتوا النبي ﷺ في المدينة، فأبى أزواجهم وأولادهم أن يدعوه، فلما هاجروا بعد مدة، وكان معهم أزواجهم وأولادهم، رأوا الناس قد سبقوهم في التفقه في الدين، لتأخرهم عنهم في الهجرة، فهتؤوا أن يعاقبوا زوجاتهم وأولادهم لأنهم السبب في ذلك، فأنزل الله هذه الآية^(١).

٢ - وعن عطاء بن يسار أنها نزلت في شأن عوف بن مالك الأشجعي، كان ذا أهل وولد، فكان إذا أراد الغزو اجتمعوا حوله وبكوا إليه ورققوه، وقالوا: إلى من تدعنا، فبرق لهم ويقعد عن الغزو، فشكا ذلك إلى النبي ﷺ فنزلت هذه الآية^(٢).

وفي السبب الأول: أن أناساً لبوا نداء الهجرة لأول وهلة، فسبقوا سنباً بعيداً في الفضل والتفقه في الدين، وأن آخرين تقاعسوا عنها بعض الوقت بسبب الأهل والأبناء، وصموا آذانهم عن نداء الواجب تعلقاً بالحياة وخباً فيها، ففاتهم خير كثير، ثم إنهم أرادوا عقابهم، لأنهم كانوا السبب في تأخرهم عن الهجرة، وفوات خير كثير عليهم من التفقه في دين الله ونحوه، ولكن الله تعالى أمرهم بالعفو والصفح، ليبين سبحانه أن علاج مشكلات الحياة الزوجية، وتربية الأبناء، لا تقابل إلا بالعفو والصفح والغفران، وأن هذا العفو يخفف، أو يُذهب، أو يُجَنَّب الزوج والوالد نتائج هذا العداء، وأنه خير من المشاحنة والخصام.

أما السبب الآخر: فإنه يبين أثر فتنة الأهل والأبناء في التخلف عن الجهاد في سبيل الله، ونحو ذلك من عظام الأمور، مما يجب الحذر منه.

(١) سنن الترمذي برقم (٣٣١٧) وقال: حسن صحيح وابن جرير (٨٠/٢٨) والطبراني في الكبير برقم (١١٧٢٠) وصححه الحاكم (٤٩٠/٢) ووافقه الذهبي، والواحد في أسباب النزول (٣٢٢) والسيوطي في الدر (٢٢٨/٦) وهو في صحيح سنن الترمذي (٢٦٤٢).

(٢) تفسير ابن عطية (٣٢٠/٥) وتفسير الخازن (٢٧٦/٤) والطبري (١٥/٢٣).

ورد أن الرجل كان يريد الهجرة فتحبسه امرأته وولده، فيتوعدّهم إن جمعه الله بهم في دار الهجرة ليفعلن كذا وكذا، فأنزل الله ﴿وَإِنْ تَعَفُّوا وَتَصْفَحُوا وَتَغْفِرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾^(١).

فيا معشر المؤمنين بالله والرسول، إن بعض الزوجات والأولاد:

١- قد يصدّر منهم ما يُعدّ بمثابة العداوة لكم، قد يصدّدونكم عن الجهاد في سبيل الله، أو يُبْطِئُونكم عن طاعته، أو يحملونكم على الكسب الحرام، فكونوا على حذر منهم، ولا تطيعوهم، ولا تستجيبوا لداعي النفس والهوى، فليس المراد حقيقة العداوة على هذا المعنى، وإنما المراد أنه قد يصدر منهم ما يصدر من الأعداء.

٢- وعداوة الزوجة والأبناء، قد تكون عداوة حقيقية بسبب سوء التعامل والعشرة، أو سوء التفكير والانحراف.

٣- ويجوز أن يكون المراد بالعداوة؛ أنهم كالعدوّ في المعاملة، فيتعاملون معكم كما يتعامل الأعداء، وشموا أعداء: لأنهم حالوا بين الرجل وبين حصول الخير، فعُدوّي هو الذي يباعدني عن الخير، ويُقرّبني من الشر.

ثم ختمت الآية ببيان علاج هذا العداء في محيط الأسرة:

فقال تعالى: ﴿وَإِنْ تَعَفُّوا وَتَصْفَحُوا وَتَغْفِرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ فهذه ثلاثة عوامل:

١. العفو: وهو ترك المعاقبة على الذنب بعد الاستعداد لها.

٢. والصفح: وهو الإعراض عن المذنب دون عتاب ولا تأنيب.

٣. والغفر: وهو ستر الذنب وعدم إشاعته.

والمعنى: إنكم إن تعفّوا عن معاتبة أزواجكم وأولادكم بسبب تشييطهم لكم عن الخير، أو حملكم على الشر فتجاوزوا عن سيئاتهم، وتعرضوا عنها، وتستروها عليهم، فإن الله تعالى واسع الرحمة بكم، عظيم المغفرة لكم، وسوف يثيبكم على ذلك أحسن الجزاء. قال تعالى:

(١) أخرجه عبد بن حميد وابن مردويه عن ابن عباس كما في الدر المنثور (١٧٥/١٤).

١٥ - ﴿ إِنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ وَاللَّهُ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴾

المراد بالفتنة: ما يفتن الإنسان ويشغله ويلهيه عن المداومة على طاعة الله عز وجل، وقد حذرت هذه الآية من فتنة الأموال والأولاد، وقُدِّم فيها المال على الولد، لأن فتنة المال أشد، ولم يُذكر المال في الآية السابقة، واكتفى في هذه الآية بذكر الأولاد عن الزوجات: لدلالة فتنة الأولاد عليهن، فإن فتنة الأزواج أشد من فتنة الأولاد، لأن جُرأتهم على التسويل لأزواجهن ما يُرذِّنه منهن، أعظم من جُرأة الأولاد^(١).

وكلمة ﴿ فِتْنَةٌ ﴾ إما أن يراد بها: الابتلاء والاختبار، والمقصود: التحذير من عدم التجرد والإخلاص لله تعالى.

وإما أن يراد بها: أنها تُوقع في المخالفة والمعصية، ويقصد بذلك: التحذير من البعد عن الله تعالى.

وكلا المعنيين قريب من بعضه، فما أموالكم ولا أولادكم إلا ابتلاء واختبار لكم. وأصل الفتنة: اختبار الذهب بالنار لتخليصه من الشوائب، وهذا الاختبار للعباد، ليظهر الله في عالم الوجود: المؤمن والكافر، والطائع والعاصي، حيث تسجل عليه الملائكة أقواله وأعماله، فيكون هذا حجة عليه في صحيفة أعماله يوم لقاء رب العالمين. في حديث كعب بن عياض رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إن لكل أمة فتنة، وإن فتنة أمتي المال»^(٢).

والمقصود: جمع المال من طرق غير مشروعة وإنفاقها في وجوه غير مشروعة.

وإلا ففي حديث عمرو بن العاص رضي الله عنه: «نعم المال الصالح للرجل الصالح»^(٣).

(١) تفسير التحرير والتنوير (٢٨/٢٨٥).

(٢) صحيح سنن الترمذي (١٩٠٥) والمسند (١٧٤٧١) وهو حديث صحيح بإسناد قوي، وفي الترمذي (٢٣٣٦)، والبيهقي في الشعب (١٠٣٠٩)، والطبراني (٤٠٤) والحاكم (٣١٨/٤).

(٣) مسند أحمد بإسناد صحيح على شرط مسلم برقم (١٧٧٦٣)، وأخرجه الطحاوي في شرح مشكل الآثار (٦٠٥٦)، وابن حبان (٣٢١٠)، والطبراني في الأوسط (٣٢١٣)، والحاكم (٢/٢٣٦)، والبيهقي (٢٤٩٥).

ولما سمع عمر رضي الله عنه رجلاً يقول: اللهم إني أعوذ بك من الفتن، قال: أتحب أن لا يرزقك الله مالا ولا ولدا؟ أيكم استعاذ من الفتن فليستعذ من مضلاتها^(١).

ومن فتنه المال والأولاد: الانشغال بهما عن الطاعات، والأحفاد في حكم الأولاد: عن عبد الله بن بريدة قال: سمعت أبي، بريدة يقول: كان رسول الله ﷺ يخطبنا، إذ جاء الحسن والحسين عليهما السلام، عليهما قميصان أحمران، يمشيان ويغثران، فنزل رسول الله ﷺ من المنبر فحملهما ووضعهما بين يديه ثم قال: «صدق الله ﷻ إِنَّمَا آمَنَ لَكُمْ وَأَوْلَدُكُمْ فِتْنَةٌ» فنظرْتُ إلى هذين الصبيَّين يمشيان ويغثران، فلم أصبر حتى قطعْتُ حديثي ورفعتهما^(٢).

وهذا الذي حدث من النبي ﷺ هو من باب الشفقة، والحب، والحنان، والرحمة، مما جعله ﷺ يعطف على حفيديه، ولا يصبر على تركهما يتعثران بين الناس، فدفعه هذا الحب إلى قطع حديثه وحملهما شفقةً بهما وخوفاً عليهما، وعَدَّ ذلك فتنه لأنهما أشغلاه عن حديثه.

وفي رواية عبد الله بن عمر رضي الله عنهما عند ابن مردويه أن النبي ﷺ قال: «والذي نفسي بيده، ما دريتُ أنني نزلت عن منبري!..».

وذكر ابن عطية: أن عمر رضي الله عنه قال لحذيفة رضي الله عنه: كيف أصبحت؟ فقال: أصبحت أحب الفتنة، وأكره الحق، فقال عمر: ما هذا؟ فقال: أحب ولدي، وأكره الموت^(٣).

(١) أخرجه ابن أبي شيبة عن أبي الضحى (٤٣/١٥).

(٢) قال الترمذي: حديث حسن غريب، إنما نعرفه من حديث الحسين بن واقد، السنن برقم (٣٧٧٤)، وأبو داود برقم (١١٠٩)، والنسائي (١٠٨/٣)، وابن ماجه برقم (٣٦٠٠)، وابن خزيمة برقم (١٨٠)، وابن حبان (٦٠٣٨)، وقال الحاكم: صحيح الإسناد ووافقه الذهبي (٢٨٧/١)، وصححه الألباني في صحيح سنن ابن ماجه (٢٩٠٠)، وهو في المسند ٣٥٤/٥ (٢٢٩٩٥) حديث صحيح وإسناد قوي، وفي صحيح سنن أبي داود (٩٨١) وعند ابن أبي شيبة (١٨٠/٨).

(٣) تفسير ابن عطية (٣٢٠/٥) وتفسير التحرير والتنوير (٢٨٦/٢٨).

ومن يصبر على مُضَلَّاتِ الفتن، ويقاوم عوامل الانحراف عن مرضاة الله تعالى، فإن أجره عظيم عند الله سبحانه كما جاء في ختام الآية: ﴿وَاللَّهُ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ وأعظم هذا الأجر ما يكون على إعطاء حق الله تعالى من المال في الزكاة ونحوها، وما يكون في تربية الأبناء والرافة بهم.

كما في الحديث عن أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «دينار أنفقت في سبيل الله، ودينار أنفقت في رقبة، ودينار تصدقت به على مسكين، ودينار أنفقت على أهلك، أعظمها أجراً الذي أنفقت على أهلك»^(١).

قال تعالى: ﴿يَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنْفِقُونَ قُلْ مَا أَنْفَقْتُ مِنْ خَيْرٍ فَلِلَّهِ وَالَّذِينَ وَالْأَقْرَبِينَ﴾ [البقرة: ٢١٥]. وفي الحديث الحث على الإنفاق على الأهل، وبيان عظم الأجر عليه: (حتى اللقمة يضعها الرجل في في امرأته).

وجاء في الحث على تربية البنات على وجه الخصوص: (من ابثلي من هذه البنات بشيء كنَّ له ستراً من النار)^(٢).

وفي الأثر أيضاً (إن الصبر على سوء خلق الزوجة عبادة).

فلا تشغلکم - أيها المؤمنون - الأموال والأولاد عن طاعة الله تعالى، لما فيهما من الفتن واللهو: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾ [المنافقون: ٩].

خَمْسَةُ أَسْبَابٍ لِلْفَلَاحِ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ

١٦ - ﴿فَاقْبَلُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ وَأَسْمِعُوا وَأَطِيعُوا وَأَنْفِقُوا خَيْرًا لِّأَنْفُسِكُمْ وَمَنْ يُوقِ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾^(١٦)

في هذه الآية خمسة أسباب للفوز والفلاح في الدارين، وهي:

(١) صحيح مسلم (٩٩٥).

(٢) من حديث عائشة في البخاري (١٤١٨، ٥٩٩٥)، ومسلم (٢٦٢٩).

١- تقوى الله تعالى قدر الاستطاعة، ٢- حُسن التلقي والاستماع لأحكام الشريعة،
 ٣- العمل والطاعة، ٤- إنفاق المال في وجوهه المشروعة، ٥- وقاية النفس من الشح.
 فمعنى الآية: وإذا كانت الأموال والأولاد فتنة، فابذلوا الجهد والطاقة - أيها المسلمون- في تقوى الله تعالى بامثال المأمورات واجتناب المنهيات، فإن في ذلك وقاية لكم من النار، واتقوا الله في معاملة الأزواج والأولاد، وإنفاق المال في وجوهه المشروعة، ولا يشغلكم حب ذلك عما يجب عليكم من طاعات، ولا يُجَزِّئكم على اقتراف المنهيات، ولا يُخرجكم الغضب عن العدل بين الناس، وفي مقدمتهم: الأهل والعشيرة، ولا يصرفكم حب المال عن إخراج حق الله تعالى منه.

وفي الآية خمس توجيهات، وهي:

١- ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ﴾ أي ابذلوا نهاية قُدرتكم واستطاعتكم في طاعة الله تعالى، ويسقط عن العبد كل واجب يؤمر به عند العجز عن أدائه، وداوموا على ذلك إلى الممات.
 وهذه الآية كما أفاد أبو جعفر النحاس أنها مُبيّنة لقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تَقَاتِهِ﴾ [آل عمران: ١٠٢].

فإن مقصده: في ﴿مَا اسْتَطَعْتُمْ﴾ ولا يُعقل أن يطيع أحد فوق طاقته واستطاعته^(١).
 وتقوى الله تعالى قُدر الطاقة، يكون في المأمورات وفضائل الأعمال، أما في المحرمات والمحظورات، فلا بد من تركها بالكلية مرة واحدة، كما جاء في الحديث عن أبي هريرة ؓ أن رسول الله ﷺ قال: «... إذا أمرتكم بشيء فأتوا منه ما استطعتم، وما نهيتكم عن شيء فدعوه»^(٢).

فلا تتحقق التقوى في المنهيات إلا بتركها جملة وتفصيلاً، أما في المأمورات فتتحقق بفعل المستطاع.

(١) تفسير ابن عطية (٣٢١/٥).

(٢) صحيح البخاري برقم (٧٢٨٨) وصحيح مسلم برقم (١٣٣٧).

وعن جابر بن عبد الله رضي الله عنه قال: بايعت رسول الله ﷺ على السمع والطاعة فلقنني: «فيما استطعت والنصح لكل مسلم»^(١).

وعن ابن عمر رضي الله عنهما قال: كنا إذا بايعنا النبي ﷺ على السمع والطاعة يقول لنا «فيما استطعتم»^(٢).

وكون هذه الآية مبينة لآية سورة آل عمران ١٠٢ ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾ أولى من القول بالنسخ بينهما، كما جاء عن سعيد بن جبير أنه لما نزل قول الله تعالى: ﴿اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ﴾ اشتد على القوم العمل، فقاموا حتى ورمت عراقبيهم، وتقرّحت جباههم، فأنزل الله تخفيفاً على المسلمين ﴿فَأَنْقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ﴾^(٣). قال قتادة في الآية: هي رخصة من الله، قد أنزل الله في سورة آل عمران ﴿اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ﴾ وحق تقاته: أن يطاع فلا يعصى، ويذكر فلا ينسى، ويشكر فلا يكفر، ثم خفف الله عن عباده فأنزل الرخصة ﴿فَأَنْقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ وَأَسْمِعُوا وَأَطِيعُوا﴾ قال: والسمع والطاعة فيما استطعت يا ابن آدم، عليها بايع النبي ﷺ أصحابه، على السمع والطاعة فيما استطاعوا^(٤)، اسمعوا ما شرعه الله لكم وما يعظكم به.

وعن الحَكَم بن حَزَن الكَلَفِي قال: وفَدْنَا إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَلَبِثْنَا أَيَّامًا شَهِدْنَا فِيهَا الْجُمُعَةَ مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَقَامَ مُتَوَكِّئًا عَلَى قَوْسٍ، فَحَمَدَ اللَّهَ، وَأَثْنَى عَلَيْهِ كَلِمَاتٍ خَفِيفَاتٍ، طَيِّبَاتٍ مَبَارَكَاتٍ، ثُمَّ قَالَ: «أَيُّهَا النَّاسُ: إِنَّكُمْ لَنْ تُطِيقُوا كُلَّ مَا أَمَرْتُمْ بِهِ، فَسَدِّدُوا وَأَبْشُرُوا»^(٥).

(١) صحيح البخاري برقم (٧٢٠٤) وانظر (٥٧)، وصحيح مسلم برقم (٥٦).

(٢) صحيح البخاري (٧٢٠٢)، ومسلم (١٨٦٧).

(٣) أخرجه ابن أبي حاتم بإسناد فيه ابن لهيعة (٧٢٢/٣) (٣٩١١).

(٤) أخرجه عبد بن حميد، وابن المنذر كما في الدر (٥٢١/١٤).

(٥) صحيح سنن أبي داود (٩٧١)، والمسند (١٧٨٥٦، ١٧٨٥٧)، إسناده قوي وابن سعد (٥١٦/٥)، وأخرجه

أبو يعلى (٦٨٢٦)، وابن خزيمة (١٤٥٢).

٢- ولما كان ترك المأمورات يؤدي إلى إتيان المنهيات، لأن الأمر بالشيء نهي عن ضده، فقد أمر سبحانه وتعالى بالسمع والطاعة فقال: ﴿وَأَسْمَعُوا﴾ أي أطيعوا الله تعالى بالاستماع إلى رسوله ﷺ وتلقي الشريعة عنه، والإقبال على سماع أحكامه ومواعظه، فإن ذلك وسيلة للتقوى، كما قال تعالى ﴿فَبَشِّرْ عِبَادِ ۖ ﴿١٧﴾ الَّذِينَ يَسْمَعُونَ الْكَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ﴾ [الزمر: ١٧، ١٨] أي يفكرون فيه ويتدبرونه ويعملون بمقتضاه.

٣- ﴿وَأَطِيعُوا﴾ الله ورسوله في كل ما سمعتم من أمر أو نهي.

٤- ثم خص بالذكر مما سمعوه: الإنفاق في سبيل الله وهو يشمل النفقات الشرعية الواجبة والمستحبة فقال: ﴿وَأَنْفِقُوا خَيْرًا لِّأَنْفُسِكُمْ﴾ أي أنفقوا مما رزقكم الله، لما فيه من الخير لكم، فإن من سلم من الشح والبخل والطمع، فقد فاز وأفلح، والخير كله في امتثال أوامر الله تعالى واجتناب نهيه وقبول نصائحه والشر كل في مخالفة ذلك.

٥- ﴿وَمَنْ يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ﴾ أي مَنْ يقيه الله من شح نفسه ويُخلِّها فتسمح نفسه بالإنفاق في وجوه الخير والبر ﴿فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ الظافرون بكل مطلوب والناجون من كل مرهوب. وذلك لأن إنفاق المال في الخير يقي صاحبه من الشح المنهي عنه، فيكون من الفائزين، لأن الشح من الطباع الخسيسة، قال تعالى: ﴿وَأُخْصِرَتِ الْأَنْفُسُ الشُّحَّ﴾ [النساء: ١٢٨]. ولما سئل النبي ﷺ عن أفضل الصدقة قال: «أن تتصدق وأنت صحيح صحيح، تخشى الفقر وتأمل الغنى، وأن لا تمهل، حتى إذا بلغت الحلقوم قلت: لفلان كذا، ولفلان كذا، وقد كان لفلان»^(١).

قال تعالى في وصف الأنصار: ﴿وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِنْ قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَنْ يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [الحشر: ٩].

(١) البخاري (١٤١٩، ٢٧٤٨)، ومسلم (١٠٣٢) عن أبي هريرة.

وقد اشتملت هذه الآية على خمس صفات هي: التقوى، والسمع، والطاعة، والإنفاق، ووقاية النفس من الشح. وفيها تخصيص بعد تعميم، لأن السمع والطاعة من التقوى، ثم تخصيص للإنفاق بعد التعميم، لأنه من المأمورات، وتُوج ذلك بثمرة الإنفاق، وهو الوقاية من الشح، ورُتب عليه الفوز والفلاح، فإن كانت النفس بما في يدها حريصة على ما في يد الآخرين، فهي من أهل الخسران في الدنيا والآخرة، وإن كانت النفس سمحة كريمة فازت بالرضا والرضوان.

التَّوْبَةُ فِي إِنْفَاقِ الْمَالِ فِي وَجْهِ الْخَيْرِ

١٧- ﴿إِنْ تُقْرِضُوا اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا يَضْعَفْهُ^(١) لَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ شَكُورٌ حَلِيمٌ ﴿١٧﴾﴾

رَغِبَ سبحانه وتعالى في إنفاق المال في شتى وجوه الخير، وتلطف في طلبه، إذ سَمَّى النفقة قرضاً، وكأن المنفق للمال على الفقراء والمساكين والمنفق له في أبواب البر والجهاد، كأنه يعطي المال لله تبارك وتعالى، قال عز وجل: ﴿إِنْ تُقْرِضُوا اللَّهَ﴾ أي إن تنفقوا المال في سبيل الله، بإخلاص وطيب نفس، ابتغاء وجه الله تعالى، من أطيب كسبكم، فإن هذا القرض يكون من الإحسان في معاملة العبد لربه، ويسمى ﴿قَرْضًا حَسَنًا﴾ فالقرض الحسن هو: ما يكون من الكسب الطيب، خالصاً لوجه الله تعالى، لا يريد العبد من ورائه فائدة دنيوية، مادية ولا معنوية، ولا منفعة خاصة ولا عامة، ولا سمعةً ولا رياءً، وإنما يطلب الأجر من الله وحده، فهو قرض حسن خالص لله سبحانه دون مقابل دنيوي، والقرض الحسن لا يتبعه مَنْ ولا أذى، كما قال تعالى: ﴿يَتَأَيَّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تُبْطِلُوا صَدَقَتِكُمْ بِالْمَنِّ وَالْأَذَى﴾ [البقرة: ٢٦٤].

(١) قرأ ابن كثير وابن عامر وأبوجعفر ويعقوب بحذف الألف وتشديد العين من (يضعفه) مضارع ضَعَفَ، والباقيون بإثبات الألف وتخفيف العين، مضارع ضَاعَفَ.

وهذا القرض الحسن يضاعف الله لصاحبه الأجر والجزاء ﴿يُضَاعِفُهُ لَكُمْ﴾ أي يضاعف لكم ثواب ما أنفقتم، على قدر إخلاصكم ورغبتكم فيما عند الله كما قال تعالى: ﴿مَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنْبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنبُلَةٍ مِائَةُ حَبَّةٍ وَاللَّهُ يُضَاعِفُ لِمَنْ يَشَاءُ﴾ [البقرة: ٢٦١].

وقال سبحانه: ﴿مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَاعِفَهُ لَهُ أَضْعَافًا كَثِيرَةً﴾ [البقرة: ٢٤٥]. وعن أبي هريرة ؓ قال: قال رسول الله ﷺ يقول الله تعالى: «استقرضت عبدي فأبى أن يقرضني، وشتمني عبدي وهو لا يدري، يقول: وادهره! وادهره! وأنا الدهر، ثم تلا الآية»^(١). ثم بين سبحانه أن الإنفاق في سبيل الله يسبب غفران الذنوب ومحو الخطايا والسيئات، فقال تعالى ﴿وَيَغْفِرْ لَكُمْ﴾ كما في الحديث: (الصدقة تطفىء الخطايا كما يطفىء الماء النار) وقال تعالى: ﴿إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ أَلْسِيَّاتٍ﴾ [هود: ١١٤]. ﴿وَاللَّهُ شَكُورٌ﴾ يجزل الأجر والمثوبة على فعل الصالحات. وقد سَمَّى الله تعالى الثواب شُكْرًا، وجعل نفسه شاكراً، تعليماً لخلقه أن يشكروا مَنْ أنعم عليهم.

وعمل الصالحات من العباد، ليس فيه نعمة منهم على الله تعالى حتى يشكرهم عليها، ولكن هذا من باب التشبيه لفعل المتفضل بالجزاء، ولذا فقد أعقب ذلك بصفة الحلم، فبين سبحانه أنه ﴿حَلِيمٌ﴾ أي أن هذا الجزاء من الله تعالى لعباده، من حلمه بهم، وليس لهم حق عليه، ومن حلمه تعالى بعباده أنه لا يعجل العقوبة في الدنيا لمن عصاه بل يمهلهم ويُنظرهم.

(١) أخرجه الحاكم (٤١٨/١)، (٤٩١، ٤٥٣/٢)، والطبري (٦٤٢/٢)، وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة (٣٤٧٧).

خَتَامُ السُّورَةِ

١٨ - ﴿عَلِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ ﴿١٨﴾

ثم ختم الله السورة مذكراً بعظمته سبحانه، ومبيناً أنه يعلم أحوال العباد، ما ظهر منها وما بطن، ويجازي عليها جميعاً، ولا يعجزه شيء في الأرض ولا في السماء، فهو يعلم ما غاب وما حضر، وما هو محسوس وما هو غير محسوس وهو ﴿الْعَزِيزُ﴾ الذي لا يُغلب ولا يُقهر ولا يغالب ﴿الْحَكِيمُ﴾ في أقواله وأفعاله، وإتقان صنعه ومعاملته، وهو الذي يضع الأمور في نصابها وفق مناسباتها.

تم تفسير (سورة التخابن) والله الحمد والمنة

تَفْسِيرُ سُورَةِ الطَّلَاقِ (٦٥)

مُقَدِّمَةُ السُّورَةِ

(سورة الطلاق) هي السورة الخامسة والستون في ترتيب المصحف، والسادسة والتسعون في ترتيب النزول، نزلت بعد (سورة الإنسان) وقبل (سورة البيئنة). وهي سورة مدنية خالصة.

وسُمِّيت سورة الطلاق: لأنها صُدِّرت بلفظ الطلاق، وسماها عبد الله بن مسعود رضي الله عنه سورة النساء القصرى^(١) والمراد الصغرى والأخيرة، وهذا في مقابلة سورة النساء الكبرى التي بعد سورة آل عمران، لأن كليهما تتحدثان عن الأحكام الخاصة بالنساء غالباً. وهي إحدى عشرة آية في المصحف البصري، وثلاث عشرة آية في الحمصي، وفيما عداهما اثنتا عشرة آية، وهم: الحجازيون والكوفي والدمشقي. وعدد كلماتها مئتان وتسع وأربعون كلمة، وهي ألف وستون حرفاً.

موضوع السورة:

هي سورة كاملة، موقوفة على تنظيم أحكام الطلاق وما يترتب عليه، مع ربط ذلك بأضخم حقائق الإيمان في المجال النفسي والكوني، وهذا يدل على خطورة شأن الأسرة في الإسلام، وقد أودع الله سبحانه في سورة الطلاق جملة أحكام تتصل بالأسرة، وتقيم كيانها على أسس سليمة، وتعالج ما قد يَغرِض لها من علل ومتاعب. وأسلوب السورة كلها وحدة موضوعية مترابطة الآيات، متماسكة السياق، جديرة بالتأمل العميق، فهي تتناول أحكام الطلاق، والإشهاد عليه وعلى المراجعة، وتبين أحكام الطلاق السني والبدعي، ثم أحكام العدة، والإرضاع، والإنفاق، والسكن، ونَهَتْ

(١) صحيح البخاري (٥٠٢/٨) برقم (٤٥٣٢) ومعلقاً برقم (٤٩١٠)، والنسائي في الكبرى (٥٦٨٥، ٥٦٨٧،

السورة عن الإضرار بالمطلقات، والتضييق عليهن، وأمرت بالتشاور والائتمار في شأن الأولاد، وقد وضع الله لكل شيء حُكْمه، ولا يعجزه سبحانه تنفيذ أحكامه، وتخلل كل ذلك الأمر بتقوى الله تعالى بالترغيب تارة وبالترهيب تارة أخرى، لئلا يقع حيف أو ظلم من أحد الزوجين.

وتبين السورة حُسن عاقبة التوكل على الله تعالى، وتيسير تشريعاته، وأنه سبحانه لا يكلف نفساً إلا ما آتاها، وأعقبت ذلك بوجوب الاعتاض بالأمم التي خالفت أمر ربها، وحذرت من تعدى حدود الله، وبينت السورة أن الله جل شأنه أرسل رسوله محمداً ﷺ يتلو عليهم آيات الله تعالى ويخرجهم من ظلمات الكفر إلى نور الإيمان. وختمت السورة بالإشارة إلى قدرة الله تعالى في خلق السموات والأرض، وهما من البراهين الدالة على وحدانيته تعالى وعظيم قدرته.

والسورة بهذا تحتفي بالعلاقات الزوجية والعائلية احتفاءً كبيراً، وتهتم اهتماماً بالغاً بالأسرة في الإسلام، وتبين أن الأصل في الرابطة الزوجية هو الاستقرار والاستمرار، وتضع السورة جميع الضمانات التي تكفل ذلك، للرفع من شأن الأسرة والمجتمع، وقيام العلاقات الإنسانية على أسس قوية.

وتوزيع الموضوعات على آيات السورة هكذا:

- ١- الآيات الثلاث الأولى تتحدث عن الطلاق في الوقت المناسب، وعلى الوجه المشروع.
- ٢- الآية الرابعة والخامسة تتحدثان عن العدة وضبط أيامها لئلا تختلط الأنساب.
- ٣- الآيتان السادسة والسابعة تتحدثان عن السكن بالنسبة للمرأة المطلقة والنفقة للحمل والرضاع.

٤- الآيات الثلاث: ٨، ٩، ١٠ فيها تعقيب يحمل الوعيد لمن يخالف أمر الله تعالى.

٥- الآية الحادية عشرة تُثني على رسول الله ﷺ.

٦- والآية الأخيرة تبين جانباً من قدرة الله تعالى وشمول علمه.

أسباب النزول:

١- عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما أنه طلق امرأته وهي حائض، فذكر ذلك عمر لرسول الله ﷺ فتغيظ رسول الله ﷺ ثم قال: ليراجعها، ثم يمسكها حتى تطهر، ثم تحيض وتطهر، فإن بدا له أن يطلقها، فليطلقها طاهراً قبل أن يمسها، فتلك العدة التي أمر الله أن يطلق لها النساء، وقرأ صدر السورة^(١).

٢- وعن أنس رضي الله عنه قال: طلق رسول الله ﷺ حفصة، فأنت أهلها، فأنزل الله: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَطَلِّقُوهُنَّ لِعَدَّتِهِنَّ﴾ فقيل له: (راجعها فإنها صوامة قوامة، وهي من أزواجك في الجنة)^(٢).

وقيل: إن النبي ﷺ لم يطلق حفصة ولم يراجعها، إنما هي قضية الإيلاء، فقد آلى النبي ﷺ من نسائه، فقال الناس: طلق نساءه، ولما سأله عمر قال: لا، آليت منهن شهراً، وكان هذا بسبب حفصة.

سنة أحكام عامة في الطلاق:

أولاً: الأصل في الطلاق هو الحظر:

لقوله تعالى: ﴿فَإِنْ أَطَعْتُمْ كُمْ فَلَا تَبْغُوا عَلَيْهِنَّ سَبِيلًا﴾ [النساء: ٣٤].
ولما جاء في الأثر «أبغض الحلال إلى الله الطلاق»^(٣).

(١) صحيح البخاري برقم (٤٩٠٨، ٥٢٥١، ٧٦١٠)، وصحيح مسلم برقم (١٤٧١)، وأبوداود (٢١٨٥)، والنسائي (٦٢١، ٣٣٨٩)، وابن ماجه (٢٠١٩)، وأبي يعلى (٥٥٦١) والترمذي (١١٧٥)، والمسند (٥١٦٤)، ٥٢٩٩، ٦١٤١) بإسناد صحيح على شرط الشيخين، وعبد الرزاق (١٠٩٥٢)، ومالك (٥٧٦/٢)، والشافعي (١٠٤)، والطيلاسي (١٨٥٣)، وابن حبان (٤٢٦٣).

(٢) أخرجه ابن أبي حاتم، وابن المنذر، وجاء من طرق أخرى فيها ضعف عند ابن ماجه. قال الهيثمي في مجمع الزوائد (٣٣٦/٤): رواه البزار وأبو يعلى ورجال أبي يعلى رجال الصحيح.

(٣) حديث مرسل أخرجه أبوداود عن ابن عمر برقم (٢١٧٨)، وابن ماجه (٢٠١٨)، والحاكم (١٩٦/٢)، والبيهقي (٣٢٢/٧)، وقد ضعفه الألباني في ضعيف سنن أبي داود (٤٧٢)، وضعيف سنن ابن ماجه (٤٤١)، وجاء عن معاذ عند عبد الرزاق (١١٣٣١)، وانظر ما قاله ابن الجوزي في العلل المتناهية (١٥٥/٢).

ووجه الدلالة في الآية: أن المرأة إذا كانت مطيعة، فإن طلاقها يكون ظُلماً. ووجه الدلالة في الأثر: أن بُغض الشيء دليل على كراهيته، وإن كان الطلاق جائزاً في حد ذاته.

قال ابن عطية: الطلاق على الجملة مكروه، ونقل عن أنس رضي الله عنه قوله (ما حلف بالطلاق ولا استحلف به إلا منافق)^(١).

وعن ثوبان رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «أيما امرأة سألت زوجها الطلاق من غير ما بأس حرمت عليها رائحة الجنة»^(٢).

ثانياً: الطلاق على قسمين:

أحدهما: طلاق سني، وهو أن يُطلق الرجل المرأة طليقة واحدة في طهر لم يجامعها فيه، أي وهي غير حائض، ولا نفّساء، ولا يطلقها بعد جماع لم تطهر بعده، وهذا معنى استقبالها للعدة.

ومن الطلاق السني: أن تكون المرأة حاملاً، قد استبان حملها. فإذا أراد الرجل أن يطلق المرأة طلاقاً موافقاً للسنة، انتظرها حتى تحيض وتطهر، فإن طهرت طلقها قبل أن يمسه، طليقة واحدة، وهذا هو الطلاق السني. وطلاق الصغيرة، والأيسة، وغير المدخول بها، لا يوصف بأنه سني ولا بدعي. وثانيهما: طلاق بدعي، وهو أن يطلق الرجل المرأة في أثناء الحيض أو النفاس، أو في أثناء طهر جامعها فيه، أو بلفظ الثلاث، مجموعة أو متفرقة. فإن حدث الطلاق في شيء من هذه المخالفات، فإنه يقع مع الإثم، عند الجمهور.

(١) تفسير ابن عطية (٣٢٢/٥).

(٢) أبوداود (٢٢٢٦)، والترمذي (١١٧٨)، وابن ماجه (٢٠٥٥)، والطبري (١٥١/٤)، والحاكم (٢٠٠/٢)، والبيهقي (٣١٦/٧)، وصححه الألباني في صحيح سنن ابن ماجه (١٦٧٢)، وهو في المسند (٢٢٤٤٠، ٢٢٣٧٩) حديث صحيح ورجال ثقات رجال الصحيح.

ثالثاً: وجوب شهادة عدلين على الطلاق والرجعة:

لقوله تعالى: ﴿فَأَتَسَكُوهُنَّ يَمَعْرُوفٍ أَوْ فَارِقُوهُنَّ يَمَعْرُوفٍ وَأَشْهِدُوا ذَوَى عَدْلٍ مِّنكُمْ وَأَقِيمُوا الشَّهَادَةَ لِلَّهِ﴾ الآية: ٢.

أي أشهدوا رجلين عدلين على الإمساك وعلى الفراق، والإمساك هو الرجعة، والفراق هو الطلاق.

هذا هو ظاهر الآية، وقيل: بوجوب الشهادة على الرجعة، وأنها مندوبة عند الطلاق.

رابعاً: الطلاق يكون بائناً ورجعياً:

والطلاق البائن: هو ما لا يملك المطلق معه حق الرجعة، كمن طَلَّقَ امرأته ثلاثاً، أو انقَضَتْ عدتها وليس لها رجعة، أو طَلَّقَتْ قبل الدخول بها، أو حدث خُلْع. والطلاق الرجعي: هو ما يملك الزوج معه حق المراجعة، وما كان دون الثلاث، ولم يطلقها على عوض.

خامساً: الطلاق الصريح والكناية:

ومن الطلاق ما هو صريح لا يحتاج إلى نية، مثل: أنت طالق. ومنه: ما هو كناية يحتاج إلى النية، مثل: إلحقي بأهلك، اخْرُجِي من البيت. ومنه الطلاق بلفظ الحرام، فهو يحتمل الظهار، فتحرم المرأة حرمة أبدية، ويحتمل الطلاق كل ذلك حسب نيته.

وفي الحديث عند مسلم عن ابن عباس رضي الله عنهما «إذا حَرَّمَ الرجل امرأته فهي يمين يَكْفَرُهَا، وقال: لقد كان لكم في رسول الله أسوة حسنة»^(١). وفي لفظ عند البخاري «إذا حرم امرأته ليس بشيء»^(٢).

(١) من حديث ابن عباس في الصحيحين عند مسلم برقم (١٤٧٣)، وهذا لفظه وفي البخاري برقم (٤٩١١).

(٢) البخاري (٥٢٦٦)، ومسلم (١٤٧٣).

سادساً: الطلاق المنجز والمعلق:

ومن الطلاق ما هو منجز، يقع في الحال، كقوله: أنت مطلقة، ومنه ما هو معلق على فعل شيء أو تركه، يقع بعد وقوع الشيء المعلق عليه.

وعلى هذا فإن الحلف بالطلاق على فعل شيء أو تركه، يعود إلى نية الحالف، فإن كان يقصد الطلاق فعلاً إن حدث هذا الشيء، فهو طلاق إن تحقق المحلوف عليه، وإلا فلا، أي: وإن كان يقصد التهديد ومنع المرأة من فعل هذا الشيء أو يقصد حملها على فعل شيء معين، فهو بمثابة اليمين بالله تعالى، وفيه كفارة اليمين، وعلى هذا جرت الفتوى، ولا ينبغي التوسع في ذلك بحمله على الحلف بالله تعالى مطلقاً.

ومن زعم أن الحلف بالطلاق أعظم من الحلف بالله، أو أكثر تأثيراً منه في النفس، يكون قد أتى باباً من أبواب الشرك، ووقع في محذور أكبر من الطلاق.

* * *

تَفْسِيرُ السُّورَةِ

سِتَّةُ أَحْكَامٍ مِنَ الْآيَةِ فِي الطَّلَاقِ وَالتَّغْيِيبِ عَلَيْهَا

١ - ﴿يَأْتِيهَا النَّبِيُّ^(١) إِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَطَلَقْتُمُنَّ لِعَدَّتِهِنَّ وَأَحْصُوا الْعِدَّةَ وَاتَّقُوا اللَّهَ رَبَّكُمْ لَا تُخْرِجُوهُنَّ مِنْ بُيُوتِهِنَّ^(٢) وَلَا يَخْرُجْنَ إِلَّا أَنْ يَأْتِيَنَّ بِفَاحِشَةٍ مُبَيَّنَةٍ^(٣) وَتِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ وَمَنْ يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ لَا تَدْرِي لَعَلَّ اللَّهَ يُحْدِثُ بَعْدَ ذَلِكَ أَمْرًا^(٤)﴾

يا أيها النبي ويا أيها المؤمنون إذا أردتم طلاق النساء، فلا تبادروا بطلاقهن من غير سبب، والتمسوا لطلاقهن الحالة المشروعة، بأن تطلقوهن في طهر لم تجمعهن فيه حتى لا تطول عليهن العدة، فإن طلقتموهن في حيض أو في طهر جامعتموهن فيه يحتمل أن يحدث معه حمل، فإن العدة تطول بسبب ذلك، وقد أمر الله بضبط العدة بعدد الحيضات أو الأطهار ثلاثاً، أو بالأشهر إن لم تكن تحيض، أو بوضع الحمل إن كانت حاملاً، لأن إحصاء العدة يترتب عليه الوفاء بالحقوق والواجبات، ولا تخرجوهن من بيوتهن مدة العدة في الطلاق الرجعي فإن هذا من حقوقها، ولا يجوز لهن الخروج إلا إذا أتين بفاحشة من القول أو الفعل، وهذا بالنسبة للمطلقة طلاقاً رجعياً، أما البائن بينونة كبرى فليس لها حق السكنى ولا النفقة، وهذه حدود الله فلا تتجاوزوها، وقد شُرِعَ بقاء المطلقة رجعياً في بيت الزوجية لعل المياه تعود إلى مجاريها، وتستأنف العشرة بينهما.

هذا: وقد ابتدأت سورة الطلاق بتوجيه الخطاب إلى النبي ﷺ، ثم توجهت بالخطاب

(١) قرأ نافع بالهمز بدل الياء في (النبي) فيجتمع همزتان، ويقرأ فيهما بتحقيق الأولى وتسهيل الثانية وإبدالها واوا خالصة.

(٢) قرأ ورش وأبو عمر وابن عامر وحفص وأبو جعفر ويعقوب بضم الباء من ﴿بُيُوتِهِنَّ﴾ والباقون بكسرها.

(٣) قرأ ابن كثير وشعبة بفتح الياء من ﴿مُبَيَّنَةٍ﴾ على أنها اسم مفعول، والباقون بكسرها، اسم فاعل.

له ﷺ مع أمته، لأنه المبلّغ عن ربه، المنفّذ للشرعة فيها، والمبين لأحوالها لهم، والحكم عام له ﷺ ولجميع الأمة، وخُصّ النبي ﷺ بالنداء تشريفاً له، كما ينادى رئيس القوم لأمرهم يهّم الجماعة، ومناداة قائد الأمة وإمام الهدى في شأن، يشير إلى أهمية هذا الأمر، ويتجاوز أفراد الأمة إلى النطاق الجماعي العام.

هذا: وخطاب النبي ﷺ في القرآن الكريم:

١ - تارة يكون خاصاً به، كقوله تعالى: ﴿يَأْتِيهَا الرُّسُولُ يَلْغُ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ﴾ [المائدة: ٦٧].

٢ - وتارة يكون شاملاً له ﷺ ولأمته، كما في قوله تعالى: ﴿يَأْتِيهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ﴾ [التوبة: ٧٣].

٣ - وتارة يكون الخطاب للأمة وحدها، كما في قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَلْعَنُ عِنْدَكَ الْكِبَرُ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُلْ لَهُمَا أَمْرٌ﴾ [الإسراء: ٢٣] فإن من المعلوم أن النبي ﷺ لم يكن له والدين ولا أحدهما وقت نزول هذه الآية.

ولذلك فإن الخطاب في هذه الآية انتقل من مخاطبة النبي ﷺ في قوله تعالى: ﴿يَأْتِيهَا النَّبِيُّ﴾ إلى مخاطبته مع الأمة في قوله تعالى: ﴿إِذَا طَلَقْتُمْ﴾ أي أنت وأمتك، وأمرهم بستة أحكام:

الحكم الأول: أن يكون الطلاق سُنِّيًّا:

والمعنى: يا أيها النبي، ويا أيها المؤمنون، إذا أردتم تطليق النساء في المستقبل ﴿فَطَلِّقُوهُنَّ لِعَدَّتِهِنَّ﴾ أي طلقوهن وهن مستقبليات للعدة، أو قبل العدة، أي في طهر لم يقع فيه جماع، حتى تكون المرأة مستعدة للدخول في العدة مباشرة بعد وقوع الطلاق عليها، فتنتهي عدتها في الطهر الثالث، ولا تطول عليها المدة، وهذا هو طلاق السنة.

وذلك لما صح أن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما طلق امرأته وهي حائض، فأمره النبي ﷺ أن يراجعها، ثم يمسكها حتى تطهر، ثم تحيض فتطهر، فإن بدا له أن يطلقها،

فليطلقها طاهراً قبل أن يمسه، فتلك العدة التي أمر الله عز وجل^(١).

فالطلاق السني هو: أن يطلق الرجل امرأته في غير حيض ولا نفاس وهي طاهر قبل أن يجامعها، ويطلقها طليقة واحدة، والطلاق في غير هذه الحالات محل خلاف بين أهل العلم.

قال مجاهد: سأل ابن عباس يوماً رجلاً، فقال: يا ابن عباس: إني طَلَّقْتُ امرأتِي ثلاثاً. فقال ابن عباس: عصيت ربك، وَخَرَّمْتُ عَلَيْكَ امرأتَكَ، ولم تتق الله فيجعل لك مخرجاً. يَطلِّقُ أحدكم ثم يقول يا أبا عباس؟ وقرأ الآية^(٢).

والطلاق البدعي عكس هذه الحالات، بأن يطلق الرجل المرأة وهي حائض أو نفساء، أو يطلقها في طهر جامعها فيه، أو يطلقها ثلاثاً، ومع أن الطلاق في هذه الحالات يكون غير مشروع، إلا أنه يقع مع الإثم.

ومعنى هذه الآية: ألا يطلق أحد امرأته إلا في طهر لم يمسه فيها، وهذا على مذهب مالك وغيره ممن قال: بأن الإقراء، هو الإطهار، فيطلق الرجل في طهر لم يمسه فيها، ثم تحيض حيضتين، تعتد بالطهر الذي بعدهما، فإذا رأت أول الحيضة الثالثة حلت.

ومن قال: بأن الإقراء هو الحيض، وهم العراقيون، قال: ﴿لِعَدَّتِهِنَّ﴾ معناه: أن تُطلِّق المرأة طاهراً، فتستقبل ثلاث حيضات كوامل، فإذا رأت الطهر بعد الثالثة حلت^(٣). ولا يجوز طلاق الحائض، لأنَّ العدة تطوّل عليها، والآية حجة لمالك والشافعي والجمهور على أن العدة تكون بالإطهار لا بالحيض.

(١) ينظر الحديث في صحيح البخاري برقم (٤٩٠٨) وأهل السنن والمسانيد.

(٢) أخرجه عبد الرزاق (١١٣٥٢)، والطبراني (١١١٣٩، ١١١٥٧)، والبيهقي (٣٣١/٧)، وهو في صحيح سنن أبي داود (١٩٢٣)، وفي هذا الأثر عند ابن عمر أيضاً قراءة الآية هكذا (فطلقوهن في قُبُلِ عدتهن) وهي قراءة غير متواترة.

(٣) تفسير ابن عطية (٣٢٣/٥) باختصار.

الحكم الثاني: إحصاء العدة:

ثم أمر سبحانه بضبط وإحصاء أيام العدة أو انقضاء ثلاثة قروء، وذلك لأن التسهل في هذا قد يؤدي إلى زواج المعتدة قبل انتهاء عدتها، فيختلط النسب، أو أن المدة قد تطول على المطلقة، فتمنعها من الزواج بعض الوقت، أو تفوت مدة المراجعة إن كان الزوج سيراجعها، وله حق الرجعة، ففي إحصاء مدة العدة كثير من المصالح، ولذا قال تعالى: ﴿وَأَحْصُوا الْعِدَّةَ﴾ أي احفظوا وقت العدة وعدد أيامها ولا تتساهلوا في ذلك، واعرفوها لتعلموا وقت الرجعة، أو تمام البينونة، ومعرفة حق النفقة والسكنى.

ثم يربط الله تعالى المطلق لزوجته بربه، بأن يخشى الله تعالى ويخافه في أمر الطلاق، فإن ضرره يتجاوز الرجل الذي أوقع الطلاق إلى أولادهما وأسرتهما، فلا بد له أن يتق الله تعالى لدفع الضرر عنه وعن أسرته.

﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ رَبَّكُمْ﴾ أي صونوا أنفسكم عن معاصي الله، ومنها إلحاق الضرر بالزوجة، بتطليقها في أثناء الحيض أو النفاس أو بعد طهر مسها فيه، فامثلوا أمر الله تعالى واجتنبوا نهيه.

الحكم الثالث: النهي عن خروج المطلقة من بيت الزوجية حتى تنتهي العدة:

وهذا معنى ﴿لَا تُخْرِجُوهُنَّ مِنْ بُيُوتِهِنَّ﴾ أي لا تخرجوا المطلقات طلاقاً رجعيّاً من البيوت اللاتي يسكنن فيها، ولا تخرج باختيارها، فلا يجوز لها المبيت خارج البيت، ولا تخرج نهاراً إلا لضرورة، فلا تخرج بنفسها ولا يخرجها غيرها إلا لحاجة ماسة إلى أن تنقضي عدتهن، وهي ثلاث حيضات لغير الصغيرة والأيسة والحامل.

والمطلوب من المرأة المطلقة طلاقاً رجعيّاً أن تبقى أمام زوجها في بيت الزوجية، مع التزين له وطيب العشرة، لعل الله يغير القلوب، فتتقلب العداوة إلى محبة، وتتم العودة في مدة العدة (لعل الله يحدث بعد ذلك أمراً).

أما التي بانث بينونة كبرى، بمجرد وقوع الطلاق، فتبقى في بيت الزوجية أيضاً إلى انتهاء العدة، دون التعرض للرجل، لأنها قد بانث منه ولا رجعة لها، وبهذا قال مالك

والشافعي وأبو حنيفة، وعند أحمد أنه لا سكنى لها.

فلا ينبغي للرجل أن يُخرج المرأة المطلقة طلاقاً رجعيّاً وهي في العدة غضباً عليها أو كراهة لتواجدها في البيت، أو للحاجة إلى المسكن، فإن كان للمرأة سكن آخر، فيه بعض محارمها، فلا مانع من أن تخرج إليه.

ولا يجوز للمرأة أن تبيت خارج بيتها وهي في أثناء العدة، وليس لها أن تخلع ثيابها خارج بيتها بغير إذن زوجها، ولا يجوز لها أن تغيب عن بيتها نهاراً إلا بمقدار الضرورة، لعلاج أو تعليم أو عمل ونحو ذلك.

وفي عدم خروج المرأة من بيتها أثناء العدة، استصحاب لحال الزوجية، فإن لها حكم الزوجة مادامت في العدة وفي طلاق رجعي.

ولا يجوز للمرأة المطلقة أن تخرج بنفسها من بيت الزوجية قبل انقضاء عدتها لغير ضرورة، فإن خرجت لغير ضرورة أثمت، وإن كان هناك ضرورة فلا بأس، وقد أذن النبي ﷺ لخالة جابر أن تخرج وهي في العدة لجذاذ نخلها^(١).

الحكم الرابع: خروج المرأة من بيت الزوجية في العدة لسبب فاحش:

فإن فعلت المرأة فعلاً منكراً ظاهراً كالزنى أو سوء القول أو الفعل، فيحل إخراجها لسوء خلقها، وذلك لإقامة الحد عليها، ثم تعود مادامت في العدة، قال تعالى:

﴿وَلَا يَخْرُجَنَّ﴾ أي باختيارهن في مدة العدة ﴿إِلَّا أَنْ يَأْتِيَنَّ بِفَحِشَةٍ مُّبَيَّنَةٍ﴾.

ولفظ الفاحشة: إذا جاء مُعرفاً: يراد به الزنى وما يشبهه كاللواط والسحاق، وإذا جاء منكراً يراد به المعاصي الكبيرة، من كل ما فحش من الذنوب، كالسرقة والقتل وكذا النشوز، وخروج المرأة من بيت زوجها بغير إذن.

والفاحشة في الآية بمعنى الزنى، وقيل: سوء الكلام وبذاءة اللسان، فيباح لكم إخراجهن في هذه الحالة.

(١) تفسير الخازن (٤/٢٧٨).

وعلى هذا فإن لكل امرأة معتدة حق السكنى في بيت زوجها مدة العدة، لأنها معتدة لأجل حفظ نسبه وعرضه، وفي هذا جبر لخاطر المطلقة وحفظ لعرضها، وهذا إن كان الطلاق رجعياً، وذلك عند جميع الفقهاء، فإن كان الطلاق بائناً فلا سكنى لها عند أحمد ولها السكنى عند غيره من الأئمة الأربعة.

والمطلقة يكثر التفات العيون إليها، وقد يتسرب سوء الظن إليها، ويدور الكلام حولها، ولذا شرع لها السكنى وعدم الخروج إلا للحاجة، لأنها ممنوعة من الزواج مدة العدة. فالمراد نهى الأزواج عن إخراج المطلقات المعتقدات من مساكنهن عند الطلاق إلا لضرورة حتى تنتهي عدتهن، ونهى المعتقدات عن الخروج من البيت إلا عند ارتكابهن الفاحشة الشديدة القبح وهي الزنى.

وقد تضمنت هذه الآية تحذيران للتخويف من غضب الله تعالى في التعامل مع الزوجات: التحذير الأول يتوسط الآية، وهو قوله تعالى: ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ رَبَّكُمْ﴾.

والتحذير الآخر يأتي عند نهايتها، وهو قوله تعالى: ﴿وَتِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ﴾ أي أن هذه أحكام الله تعالى التي شرعها لعباده فيما يتعلق بأحكام الطلاق، يجب عليكم الالتزام بها، ولا يجوز لكم أن تتجاوزوها، بل قفوا عند حدودها، ونفذوا ما أمرتكم به ونهيتكم عنه، وفي هذا نهى عن طلاق الثلاث بلفظ واحد، وعن الطلاق في الحيض.

والحدود لغة: ما يُمنع اجتيازها أو اقتحامها إلى ما وراءها ﴿وَمَنْ يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ﴾ أي يتجاوز أحكامه إلى غيرها ولا يَأتمر بها ﴿فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ﴾ وأوردها المهالك، وعرضها للعقاب، وأضر بها.

وبعد الترهيب من مخالفة أمر الله تعالى، رغب سبحانه في امتثال أحكامه، وأمر بفتح باب المصالحة بين الرجل وزوجه، وعدم قفله، فالقلوب بين أصبعين من أصابع الرحمن يقلبها كيف يشاء، قال تعالى: ﴿لَا تَدْرِي﴾ أيها المطلق ﴿لَعَلَّ اللَّهَ يُحْدِثُ بَعْدَ ذَلِكَ﴾ النزاع الذي بلغ ذروته بينك وبين زوجك ﴿أَمْرًا﴾ آخر، يحول البغض إلى حب،

والخصام إلى وئام، والغضب إلى رضا، فتعود المياه إلى مجاريها، وَيَزْغَبُ كُلًّا من الطرفين في الآخر بعد أن كان كارهاً له، كما قال تعالى: ﴿فَإِنْ كَرِهْتُمُوهُنَّ فَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَيَجْعَلَ اللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا﴾ [النساء: ١٩] وكما في حديث أبي هريرة ؓ أن النبي ﷺ قال: «لا يفرك مؤمن مؤمنة إن كره منها خلقاً رضي منها خلقاً آخر»^(١).

وقد خلقت المرأة من ضلع أعوج، فاستمتعوا بهن على عوج، ونسبة النجاح في عامة الطلاب - مثلاً - من خمسين، فإن أخذت المرأة ٥٠% فهي ناجحة، ولا تطلب منها الكمال، فالكمال لله وحده، وكما أن في الزوجة مساوئ فإن في الزوج مساوئ يعرفها منه الآخرون.

ومن أجل هذا فقد أبقي الإسلام على المرأة المطلقة طلاقاً رجعيّاً في منزل الزوج مدة العدة، لعل أحدهما أو كلاهما يندم، ويخلق الله في قلبه حب الرجعة والمودة ..

الْحُكْمُ الْخَامِسُ: الطَّلَاقُ أَوْ الْإِمْسَاكُ بِالْمَغْرُوفِ

٣، ٢ - ﴿فَإِذَا بَلَغَ الْأُمُّهُنَّ فَامْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ فَارِقُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ وَأَشْهِدُوا ذَوَى عَدْلٍ مِنْكُمْ وَأَقِيمُوا الشَّهَادَةَ لِلَّهِ ذَلِكَ كُمْ يُوعِظُ بِهِ مَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ^(٢) وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا^(٣) وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ^(٤) إِنَّ اللَّهَ بَلِّغُ أَمْرِهِ^(٥) قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا^(٦)﴾

فإذا وصلت المطلقة إلى آخر فترة العدة، فإذا أن يمسكها الزوج ويعيدها إلى عصمته إن كان لها رجعة، وإما أن يطلقها، والرجل مأمور بعدم المضارة، وأن يعاملها

(١) صحيح مسلم برقم (١٤٦٩).

(٢) عد الدمشقي وحده ﴿وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾ آية، وتركه سائر أئمة العدد.

(٣) عد الكوفي والمكي والمدني الأخير لفظ ﴿مَخْرَجًا﴾ آية، فيكون متروكاً لغيرهم.

(٤) قرأ حفص بعدم التنوين في ﴿يَبْلُغُ﴾ وبالجذر في ﴿أَمْرِهِ﴾ من إضافة اسم الفاعل إلى مفعوله، وقرأ الباقر بالتنوين والنصب على الأصل في إعمال اسم الفاعل.

بالمعروف في حالتي الرجعة أو الفراق.

﴿ فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ ﴾ أي إذا قاربت المطلقات على انقضاء الأجل، وشارفت على نهاية العدة، لأن العدة لو انتهت لم يكن الزوج مخيراً بين الإمساك والفراق ﴿ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ ﴾ أي أرجعوهن إلى عصمتكم مع حسن الصحبة والمعاشرة وعدم إرادة الضر أو الشر أو الحبس ﴿ أَوْ فَارِقُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ ﴾ أي اتركوهن من غير سب ولا شتم ولا قهر، ولا إساءة لهن، ولا أخذ شيء من مالهن، مع الوفاء بأداء حقوقهن، وعدم المضارة، لإطالة العدة، بأن يراجعها في أواخر العدة، ثم يطلقها في نهايتها، إيذاء لها، وليس لكم عند نهاية العدة إلا الإمساك بمعروف أو الفراق بمعروف، وهذا كقوله تعالى: ﴿ وَإِذَا طَلَقْتُمُ النِّسَاءَ فَلْيُنَّ أَجَلَهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ سَرِّحُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ وَلَا تُمْسِكُوهُنَّ ضِرَارًا لِّتَعْتَدُوا وَمَن يَفْعَلْ ذَلِكَ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ ﴾ [البقرة: ٢٣١].

والمعروف في حالة الرجعة: يكون بحسن اللقاء، والاعتذار، وحُسن العشرة والصُّحبة. والمعروف في حال الطلاق: يكون بكف اللسان عن ذكر المساوىء، وعدم إظهار الفرحة بالاستراحة منها، وإعطائها حقوقها المشروعة.

الحكم السادس: الإشهاد على الرجعة وعلى الطلاق:

ثم أمر سبحانه بالإشهاد على الإمساك وهو الرجعة، وعلى الفراق وهو الطلاق، فقال تعالى: ﴿ وَأَشْهِدُوا ذَوَىٰ عَدْلٍ مِّنكُمْ ﴾ أي وأشهدوا على الرجعة وعلى المفارقة: رجلين عدلين مسلمين منكم، مشهود لهما بالاستقامة والأمانة والعدالة ممن تثقون فيهما، لأن في الإشهاد سداً لباب الخصام والكتمان والكذب.

والأمر بالإشهاد على الطلاق وعلى الرجعة، سببه: مخافة الإنكار من أحد الطرفين، ولئلا يتهم الرجل في إعادة المرأة إليه أو مفارقتها، ولئلا يموت أحدهما فيدعي الآخر ثبوت الزوجية ليرث، ولشرعية الإنجاب الذي يحدث منهما، وغير ذلك.

قال أبو حيان: وهذا الإشهاد مندوب إليه عند أبي حنيفة، وعند الشافعية واجب في

الرجعة، مندوب إليه في الفرقة^(١).

وللفقهاء كلام في وجوب أو ندب هذه الشهادة في حالتي الطلاق والإمساك فيهما أو في أحدهما، وقاسه الأحناف على الشهادة في البيع والشراء في قوله تعالى: ﴿وَأَشْهِدُوا إِذَا تَبَايَعْتُمْ﴾ [البقرة: ٢٨٢].

قلت: لا وجه للمقارنة، لأن الشهادة ليست واحدة في جميع أحوالها، فالشهادة على ثبوت الزنى تكون بأربع، والشهادة على ثبوت الحقوق تكون باثنين، كما أن الأمر يكون للوجوب ما لم يصرفه صارف، ولا صارف له عن ظاهره في هذه الآية، ويشهد لهذا ما جاء عن عمران بن حصين رضي الله عنه أنه سئل عن رجل يطلق امرأته ثم يقع بها، ولم يُشهد على طلاقها ولا على رجعتها، فقال: «طلقت لغير سنة وراجعت لغير سنة، أشهد على طلاقها، وعلى رجعتها ولا تعد»^(٢).

قال ابن عباس رضي الله عنهما: إذا أراد مراجعتها قبل أن تنقضي عدتها، أشهد رجلين، عند الطلاق وعند الرجعة، فإن راجعها فهي عنده على تطليقتين، وإن لم يراجعها فإذا انقضت عدتها فقد بانّت منه بواحدة، وهي أملك لنفسها ثم تتزوج من شاءت، هو أو غيره^(٣).

ثم أمر سبحانه وتعالى بأداء الشهادة على وجهها الصحيح بالحق والعدل والأمانة، خالصة لوجهه الكريم، امثالاً لأمره سبحانه فقال: ﴿وَأَقِيمُوا﴾ أي أدّوا أيها الشهود ﴿الشَّهَادَةَ﴾ خالصة لِلَّهِ من غير زيادة ولا نقص، واقصدوا بإقامتها وجه الله تعالى لا ليهوى في النفس، ولا قصداً لصالح أحد الطرفين، فلا تراعوا قريباً لقرابته ولا صاحباً لمحبهته، وأدوا الشهادة دون تحريف ولا تبديل ولا تغيير، ودون مراعاة للمشهود له أو المشهود عليه.

(١) تفسير البحر المحيط (٢٨٢/٨).

(٢) سنن أبي داود برقم (٢١٨٦)، وسنن ابن ماجة برقم (٢٠٢٥)، وإسناده صحيح، وينحوه عند عبد الرزاق (١٠٢٥٥، ١٠٢٥٧).

(٣) أخرجه الطبري عند تفسير الآية، بسند حسن عن علي بن أبي طلحة عن ابن عباس.

التعقيب على أحكام الطلاق بالموعظة الحسنة:

ثم أشار سبحانه إلى جميع ما تقدم من أحكام فيها موعظة للمؤمنين فقال ﴿ذَلِكَ كُمْ﴾ أي الذي أمركم الله به، وشرعه لكم من أحكام وحدود ﴿يُوعِظُ بِهِ مَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾ أي يتعظ به من يخشى الله تعالى ويخاف عقابه فهو الذي ينتفع ويتعظ. والوعظ هو التذكير الملائم للقلوب المحذّر مما يضر، قال تعالى: ﴿ذَلِكَ يُوعِظُ بِهِ مَنْ كَانَ مِنْكُمْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾ [البقرة: ٢٣٢].

ويتخلل هذه الأحكام: الأمر بتقوى الله تعالى، والتوكل عليه، لأن الطلاق يوقع في الضيق والكرب والغم فقال تعالى هنا ﴿وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ﴾ أي يخف ربه فيعمل بما أمره به ويجتنب ما نهاه عنه، ومن ذلك أحكام الطلاق والرجعة ﴿يَجْعَلُ﴾ الله ﴿لَهُ مَخْرَجًا﴾ ويجعل له من كل ضيق مخرجاً.

وهذه الجملة وإن ختم بها أحكام الطلاق إلا أنها عامة في كل من اتقى الله تعالى وطلب مرضاته في جميع أحواله، فإن الله تعالى يجعل له من كل هم فرجاً ومن كل ضيق مخرجاً. ومن لم يتق الله يقع في الشدائد والكروب ولا يقوى على التخلص منها والخروج من تبعتها، ومن ذلك من لم يتق الله في الطلاق فيوقعه على غير وجهه المشروع.

قيل: نزلت هذه الجملة والتي بعدها في عوف بن مالك الأشجعي، كان له ابن، وأن المشركين أسروه، فاشتكى ذلك لرسول الله ﷺ كما اشتكى إليه حاجته وفقره، قال له النبي ﷺ: اتق الله واصبر، وأكثر من قول: لا حول ولا قوة إلا بالله، ففعل الرجل ذلك، وأخبر زوجته أن النبي ﷺ يأمره وإياها بالإكثار من الحوالة، فقالت: نعم ما أمرنا به، فبينما هو في بيته إذ أتاه ابنه، بعد أن انتهز فرصة غفلة العدو واستاق غنمهم، فجاء إلى أبيه بأربعة آلاف شاة، فذهب الأب إلى النبي ﷺ يسأله: أيجلّ له أن يأكل ما أتى به ابنه، قال ﷺ: نعم، ونزلت ﴿وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا ۖ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ﴾^(١).

(١) ينظر: تفسير الطبري (٨٩/٢٨) عن سالم بن جعد، مرسلاً، والحاكم في المستدرک (٤٩٢/٢) عن جابر، بإسناد تكلم فيه الذهبي وضعفه.

أي يجعل له مخرجاً من وجه لا يخطر له على بال، ولا يكون في حسبانته، ويسوق الله له الرزق من طرق لا يعرفها، ومن وجوه لا يحتسبها ولا يشعر بها، ولم يكن في حسبانته ولا ظنه.

وجاء في معنى: ﴿يَجْعَلُ اللَّهُ مَخْرَجًا﴾ أي مخرجاً من شُبُهات الدنيا، ومن غمزات الموت، ومن شدائد يوم القيامة، وجاءت هذه القصة من طريق آخر أكثر وضوحاً. فعن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما قال: نزلت هذه الآية في رجل من أشجع، كان فقيراً، خفيف ذات اليد، كثير العيال، فأتى رسول الله ﷺ فسأله فقال: (اتق الله واصبر) فرجع إلى أصحابه، فقالوا: ما أعطاك رسول الله ﷺ؟ فقال: ما أعطاني شيئاً، قال: (اتق الله واصبر) فلم يلبث إلا يسيراً حتى جاء ابن له بغنم، أصابها من العدو، فسأل رسول الله ﷺ عنها وأخبره خبرها، فقال رسول الله ﷺ: (يا كها)^(١). أي خذها وانتفع بها.

وقد وردت أحاديث وآثار كثيرة تبين أن تقوى الله تعالى من أسباب فتح أبواب الرزق: ١- جاء في الأثر عن أبي ذر رضي الله عنه: (إني لأعلم آية لو أخذ الناس بها لكفتهم) ﴿وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا﴾ وأخذ يكررها^(٢).

٢- وقال عبد الله بن مسعود رضي الله عنه: إن أجمع آية في القرآن ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ﴾ [النحل: ٩٠] وإن أكثر آية فرجاً ﴿وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا﴾^(٣).

٣- وعن ابن عباس رضي الله عنهما أن النبي ﷺ قال: «من أكثر من الاستغفار جعل الله له من كل همّ فرجاً، ومن كل ضيق مخرجاً، ورزقه من حيث لا يحتسب»^(٤).

(١) أخرجه الحاكم (٤٩٢/٢)، وضعفه الذهبي، وهو في أسباب النزول للواحدي (٣٥٦)، والسيوطي ص (٣٠٥)، وتفسير القرطبي (١٦٠/١٨) وغيرهم وقد روي من عدة طرق.

(٢) من حديث طويل بنحوه في المسند (٢١٥٥١)، والمستدرک (٤٩٢/٢)، وأبونعیم في الحلیة (١٥٦٩)، والبيهقي (٤٩٤/٦)، وقد ضعف رفعه محققو المسند لانقطاعه، لأن أبا السليل لم يدرك أبا ذر.

(٣) تفسير ابن كثير (١٤٦/٨).

(٤) المسند (٢٤٨/١) (٢٢٣٤) بسند ضعيف، لجهالة الحكم بن مصعب، والنسائي في الكبرى (١٠٢٩٠)، وابن ماجه (٣٨١٩)، وضعيف سنن أبي داود (٣٢٧)، وهو في الطبراني (١٧٧٤) وغيرهم.

٤- وعن ثوبان رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «إن العبد ليحرم الرزق بالذنب يصيبه، ولا يرد القدر إلا الدعاء، ولا يزيد في العمر إلا البر»^(١).

٥- وعن ابن مسعود رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «من نزلت به فاقة، فأنزلها بالناس، لم تُسدَّ فاقته، ومن نزلت به فاقة فأنزلها بالله، فيوشك الله برزق عاجل أو آجل»^(٢).

٦- وفي حديث ابن عباس رضي الله عنهما أنه كان خلف النبي ﷺ يوماً فقال له: «يا غلام إني أعلمك كلمات: احفظ الله يحفظك، احفظ الله تجده تجاهك، إذا سألت فاسأل الله، وإذا استعنت فاستعن بالله، واعلم أن الأمة لو اجتمعوا على أن ينفعوك، لم ينفعوك إلا بشيء قد كتبه الله لك، ولو اجتمعوا على أن يضروك، لم يضروك إلا بشيء قد كتبه الله عليك، رفعت الأقلام، وجفت الصحف»^(٣).

٧- قال مجاهد: كنت عند ابن عباس رضي الله عنهما فجاءه رجل فقال: إنه طلق امرأته ثلاثاً، فسكت حتى ظننت أنه رادها إليه، ثم قال: ينطلق أحدكم فيركب أخموقته، ثم يقول: يا ابن عباس، يا ابن عباس، والله تعالى يقول: ﴿وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا﴾ وإنك لم تتق الله، فلا أجد لك مخرجاً، عصيت ربك، وبانت منك امرأتك^(٤).

٨- ورد أن رجلاً جاء إلى عمر رضي الله عنه فقال: ولّني مما ولّاك الله، فقال له عمر: أتقرأ القرآن؟ قال: لا، قال: فأنا لا أولي من لا يقرأ القرآن؟ فتعلّم الرجل القرآن رجاء الولاية، فلما حفظ كثيراً من القرآن، تخلف عن عمر، فلقيه يوماً، فقال له عمر: ما أبطأ بك؟ قال

(١) أخرجه أحمد (٢٢٤٣٨، ٢٢٣٨٦)، قال محققو المسند: حسن لغيره، دون قوله (إن العبد ليحرم الرزق)، وصحيح سنن ابن ماجة دون الشطر الأول (٣٢٤٨، ٢٧٣)، وابن حبان (٨٧٢)، والنسائي في السنن الكبرى كما في تحفة الأشراف (١٣٣/٢).

(٢) صحيح سنن أبي داود (١٤٤٨)، والترمذي (٢٣٢٦)، والحاكم (٤٠٨/١).

(٣) قال الترمذي: حديث حسن صحيح (٢٣٢٦)، ورواه أحمد (٢٩٣/١) برقم (٢٦٦٩) بإسناد قوي وأبو (٢٥٥٦)، والطبراني (١٢٩٨٨)، وابن أبي عاصم في السنة معلقاً (٣١٦)، والبيهقي في الشعب (١٩٥) وغيرهم.

(٤) محاسن التأويل (٥١٣٨/١٦).

له: لقد تعلمت القرآن، فأغنانني الله تعالى عن عمر وعن بابه، ثم قرأ هذه الآيات^(١).

وهكذا قال الإمام الغزالي: طلبنا العلم لغير الله فأبى أن يكون إلا لله.

ثم إن من يعتمد على الله تعالى، ويثق به في كل ما أصابه وأنابه، فإن الله تعالى يكفيه همه وغمه، مع وجوب الأخذ بالأسباب، لأنها سنة الله تعالى في خلقه، قال تعالى: ﴿وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ﴾.

٩- وفي الحديث عن عمر بن الخطاب ؓ أن رسول الله ﷺ قال: «لو أنكم توكلون على الله حق توكله لرزقكم كما يرزق الطير تغدوا خماسا وتروح بطانا»^(٢).

فإذا أخذ العبد بالأسباب، وتحقق له أن الأمور بيد الله، لا يعجزه شيء، ولم يُعَوَّل على ماسواه، فإنه يبلغ ما يريد، ويصل إلى مبتغاه ﴿إِنَّ اللَّهَ بَلِّغُ أَمْرٍ﴾ فأمره نافذ في جميع خلقه، لا يفوته شيء، ولا يعجزه مطلوب، وكل شيء في هذا الكون له أجل ينتهي إليه، وله قدر لا يتجاوزه ﴿قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا﴾ أي مقداراً معلوماً، ووقتاً محدداً لا يزداد عليه ولا ينقص منه وفق الحكمة الإلهية، ومن ذلك الشدة والرخاء، والصحة والمرض، والفقر والغنى ..

لِلْمَرْأَةِ سِتَّةُ أَنْوَاعٍ مِنَ الْعُدَّةِ

٤- ﴿وَالَّتِي^(٣) يَسْنَنَ مِنَ الْمَحِيضِ مِنْ نِسَائِكُمْ إِنْ ارْتَبَتْ فَعِدَّتُهُنَّ ثَلَاثَةُ أَشْهُرٍ وَالَّتِي لَمْ يَحِضْ

(١) تفسير ابن عطية (٣٢٤/٥).

(٢) ابن المبارك في الزهد (٥٥٩)، والطيالسي (٥٢)، وأحمد (٣٠/١) (٣٧٣، ٣٠٧، ٢٠٥) بإسناد قوي ورجال ثقات، والترمذي (٢٣٤٤)، والحاكم (٤١٨/٢)، وابن ماجه (٤١٦٤)، وصحيح سنن ابن ماجه (٣٣٥٩)، والسلسلة الصحيحة (٣١٠)، وأبويعلى (٢١٢/١)، والكبرى للنسائي (١١٨٠٥)، وابن حبان (٧٣٠).

(٣) قرأ ابن عامر وعاصم وحزمة والكسائي وخلف بهمة مكسورة بعدها ياء ساكنة مدية، وصلا ووقفا في ﴿وَالَّتِي﴾ ووقف حمزة بتسهيل الهمة مع المد والقصر، وقرأ البزي وأبو عمرو بهمة مكسورة وصلا من غير ياء. ولهما وصلا ووقفا إبدال الهمة ياء مع المد المشبع، وتسهيلها مع المد والقصر، وقرأ ورش وأبو جعفر بهمة مسهلة مع المد والقصر وصلا وبدون ياء، فإذا وقف كان لهما أوجه ثلاثة مثل البزي وأبي عمرو، وقرأ قبل وقالون ويعقوب بحذف الياء، وهمة محققة وصلا ووقفا، وكل على أصله في المد.

وَأُولَئِ الْأَحْمَالِ أَجَلُهُنَّ أَنْ يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مِنْ أَمْرِهِ يُسْرًا ^(١) ﴿٤﴾

ولما ذكرت العدة من الطلاق الجائز شرعاً في قوله تعالى: ﴿فَطَلِّقُوهُنَّ إِعْدَّتِهِنَّ﴾ تحدثت هذه الآية عن ثلاثة أنواع من عدة المرأة، وهي الصغيرة التي لم تحض، واليائس التي انقطع عنها الحيض، فعدة كل منهما ثلاثة أشهر، والنوع الثالث هو الحامل وعدتها بوضع الحمل.

وسبق في سورة البقرة أن الحائض، عدتها ثلاثة قروء، أي ثلاث حيضات أو ثلاثة أطهار، وأن المتوفي عنها زوجها، عدتها أربعة أشهر وعشراً. وفي سورة الأحزاب أن غير المدخول بها لا عدة عليها، فهذه ستة أنواع من العدة.

سبب النزول:

أولاً: لما نزلت عدة المطلقة والمتوفي عنها زوجها في الآيتين من سورة البقرة [٢٢٧ و ٢٣٢] قال أبي بن كعب: يا رسول الله، إن نساءً من أهل المدينة يَقْلُن: قد بقي من النساء ما لم يُذكر فيه شيء، قال: وما هو؟ قال: الصغار والكبار وذوات الحمل، فنزلت هذه الآية ^(٢).

ثانياً: لما نزل قوله تعالى: ﴿وَالْمُطَلَّقَاتُ يَرْجِعْنَ بِأَنفُسِهِنَّ ثَلَاثَةَ قُرُوءٍ﴾ [البقرة: ٢٢٨] قال خلاد بن النعمان الأنصاري: يا رسول الله، فما عدة التي لا تحيض؟ وعدة التي لم تحض؟ وعدة الحبل؟ فنزلت هذه الآية ^(٣).

عدة الكبيرة والصغيرة:

قال تعالى: ﴿وَالَّتِي يَسْنَ مِنَ الْمَحِيضِ مِنْ نِسَائِكُمْ﴾ أي والنساء المطلقات اللاتي انقطع عنهن دم الحيض لكبر سنهن، من العجائز اللاتي لا يُزجي لهن أن يحضن ﴿إِنْ أَرَبْتُمْ﴾

(١) ضم السين من ﴿يُسْرًا﴾ أبوجعفر، وأسكنها الباقون.

(٢) قاله عمرو بن سالم كما في أسباب النزول للواحيدي ٣٢٤ وانظر: تفسير الطبري (١٤١/٢٨)، والحاكم

(٤٩٢/٢)، وقال: صحيح الإسناد ولم يخرجاه، ووافقه الذهبي، وهو عند السيوطي في الدر (٦٢٣٤).

(٣) قاله مقاتل بغير سند كما في أسباب النزول للواحيدي ٣٢٤ ونقله البغوي والخازن في تفسيرهما عن قتادة.

أي إن شككتهم وجَهِلْتُم مقدار العدة بالنسبة لهن ﴿فَعِدَّتُهُنَّ ثَلَاثَةُ أَشْهُرٍ﴾ قمرية، ويشارك معهن في الحكم: الصغيرات اللاتي لم ينزل عليهن الحيض، فعِدَّتُهُنَّ ثلاثة أشهر أيضاً، وكذا البالغات اللاتي لم ينزل عليهن الحيض أبداً، وهذا معنى ﴿وَالَّتِي لَمْ يَحِضْنَ﴾ عطفاً على ﴿وَالَّتِي يَسْنَ﴾ أي أنهما يشتركان في حكم واحد.

والمراد بالريبة في الآية: هو ما حصل من التردد في معرفة عدة غير الحائض كما جاء في سبب النزول، وليس المراد الارتياب في شأن المرأة، بل الارتياب في مقدار العدة. عدة الحامل: ثم انتقلت الآية إلى بيان عدة الحامل فقال تعالى: ﴿وَأُولَئِكَ الْأَحْمَالُ أَجَلُهُنَّ أَنْ يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ﴾ أي أن ذوات الحمل من النساء عدتهن بوضع الحمل، فإذا وضعت المرأة ما في بطنها واحداً أو أكثر، فقد انقضت عدتها وبرىء رحمها

عدة المتوفى عنها زوجها وهي حامل:

والحكم السابق يشمل المطلقة، والمتوفى عنها زوجها، ولو بعد لحظات من وضع الحمل في قول جمهور العلماء من السلف والخلف:

- ١- فقد ورد أن سُبَيْعَةَ الْأَسْلَمِيَّةِ قُتِلَ زَوْجُهَا وَهِيَ حُبْلَى، فوضعت بعد موته بأربعين ليلة، فحُطِّبَتْ، فأنكحها رسول الله ﷺ، وكان أبو السنابل فيمن خطبها^(١).
- ٢- وفي رواية لمسلم أن زوجها توفى في حجة الوداع، وهي حامل، فلم تنسب أن وضعت حملها بعد وفاته، فلما رآها أبو السنابل تجملت للخطاب، قال لها: والله ما أنتِ بناكح حتى تمر عليك أربعة أشهر وعشرا، قالت سُبَيْعَةُ: فلما قال لي ذلك، جمعتُ عليّ ثيابي حين أمسيت، فأتيت رسول الله ﷺ فسألته عن ذلك «فأفتاني بأني قد حللتُ حين وضعتُ حملي، وأمرني بالتزوج إن بدا لي»^(٢).

(١) صحيح البخاري برقم (٤٩٠٩)، وأورده من طرق أخرى منها (٥٣١٨)، ومسلم (١٤٨٥)، وسنن النسائي (١٩١/٦).

(٢) صحيح مسلم (١٤٨٤)، والبخاري (٥٣١٩، ٣٩٩١)، وعبد الرزاق (١١٧٢٢).

٣- وعن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه أنه لما بلغه أن علياً رضي الله عنه يقول: تعتد آخر الأجلين، فقال: من شاء لا عنة، إن الآية التي في سورة النساء القصوى، هي آية ﴿وَأُولَئِكَ الْأَحْمَالُ أَجْلُهُنَّ أَنْ يَضَعَنَّ حَمْلَهُنَّ﴾ نزلت بعد سورة البقرة بكذا وكذا شهر، فكل مطلقة أو متوفي عنها زوجها، فأجلها أن تضع حملها^(١).

وسورة النساء القصوى هي سورة الطلاق، والآية التي نزلت في سورة البقرة في عدة المتوفي عنها زوجها هي قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنْكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا يَرِيضَنَ بِأَنْفُسِهِنَّ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ﴾ [البقرة: ٢٣٤].

٤- وعن ابن مسعود رضي الله عنه قال: (أتجعلون عليها التغليظ ولا تجعلون لها الرخصة؟ أنزلت سورة النساء القصوى بعد الطولى ﴿وَأُولَئِكَ الْأَحْمَالُ أَجْلُهُنَّ أَنْ يَضَعَنَّ حَمْلَهُنَّ﴾ إذا وضعت فقد انقضت العدة)^(٢).

٥- وسئل ابن عمر رضي الله عنهما عن المرأة يتوفى عنها زوجها وهي حامل، فقال: إذا وضعت حملها فقد حلت، فأخبره رجل من الأنصار أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال: لو ولدت وزوجها على سريريه لم يُدفن لحلت^(٣).

٦- وقال الشعبي: ذُكِرَ عند ابن مسعود آخر الأجلين فقال: من شاء قاسمته بالله أن هذه الآية التي في سورة النساء القصوى، نزلت بعد الأربعة الأشهر والعشر، ثم قال: (أجل الحامل أن تضع ما في بطنها)^(٤).

والمراد بأبعد الأجلين: أطول المدتين من عدة الحامل أو من عدة المتوفي عنها زوجها، أي أن المرأة الحامل المتوفي عنها زوجها تعتد بأطول المدتين من الحمل أو

(١) أخرجه عبد الرزاق (١١٧١٤)، وابن أبي شيبة (٢٩٧/٤)، وصحيح سنن أبي داود (٢٠٢٢)، والنسائي (٣٥٢٢)، وابن ماجه (٢٠٣٠) مختصراً، وفي صحيح ابن ماجه (١٦٥٠)، والطبراني (٩٦٤٦، ٩٦٤١).

(٢) البخاري (٤٥٣٢، ٤٩١٠)، والطبراني (٩٦٤٧).

(٣) مالك (٥٨٩/٢)، والشافعي (١٠٠/٢) (١٧٠) وعبد الرزاق (١١٧١٨)، وابن أبي شيبة (٢٩٧/٤).

(٤) تفسير الطبري (٩٢/٢٨).

من الأشهر، وبهذا قال علي وابن عباس رضي الله عنهما.

والأدلة السابقة ترجح ما عليه الجمهور، وهو أن عدة الحامل، بوضع حملها، سواء أكانت معتدة من طلاق أم معتدة من وفاة، لأن هذه الآية نزلت بعد آية سورة البقرة فهي مخصصة لها، ولأن النبي ﷺ قضى في عدة سبيعة الأسلمية بذلك.

ثم ختم الله آية العدة كما ختم آية الطلاق بالحث على تقوى الله سبحانه، والتحذير من مخالفة أمره تعالى، لاسيما فيما يتعلق بشؤون الأسرة، والترغيب في حسن المعاملة بين الزوجين، ولو كان ذلك عند الفراق، فقال تعالى: ﴿وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ﴾ أي من يخف ربه في السر والعلانية، ويخافه في معاملة زوجه المطلقة خاصة ﴿يَجْعَلْ لَهُ مِنْ أَمْرِهِ يُسْرًا﴾ أي يسهل الله له أموره في الدنيا والآخرة، ويسهل له كل أمر عسير.

التعقيب على أحكام العدة بالموعظة الحسنة

٥- ﴿ذَلِكَ أَمْرُ اللَّهِ أَنْزَلَهُ إِلَيْنَا وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّئَاتِهِ وَيُعْظِمْ لَهُ أَجْرًا﴾

أي هذا الذي أنزله الله إليكم من أحكام الطلاق والعدة، لتعملوا به، ومن يخف ربه في كل شؤونه وأحواله، فإن الله تعالى يمح عنه ذنوبه، ولا يؤاخذة عليها، ويضاعف له الأجر والمثوبة يوم لقائه ﴿وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ﴾ بأداء فرائضه واجتناب نواهيه ﴿يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّئَاتِهِ﴾ أي يغفر له ذنوبه ولا يؤاخذة عليها ﴿وَيُعْظِمْ لَهُ أَجْرًا﴾ أي يُجْزِل له الثواب في الدار الآخرة ويدخله الجنة.

وهذه الآية تعقيب على حكم العدة كالتعقيب السابق على حكم الطلاق، وفي كليهما الأمر بتقوى الله تعالى لكل من الزوج والزوجة.

وقد كرر الله تعالى التقوى في نهاية الآية الأولى والثانية والرابعة والخامسة، لأنه لا يصبر على كيد النساء إلا أهل التقوى، ولأن الطلاق لا يحدث إلا عن بغض ونفور، وتقوى الله تعالى هي التي تجعل الزوج يحكم العقل ويخاف الله، فيحسن إلى المطلقة ولا ينسى ما بينهما من فضل ومودة سابقة.

تَفْصِيلُ أَحْكَامِ السُّكْنَى وَالنَّفَقَةِ وَالرُّضَاعَةِ

٦- ﴿أَسْكِنُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ سَكَنْتُمْ مِنْ وَجْدِكُمْ^(١) وَلَا نَضَارُوهُنَّ لِنُضِيقُوهُنَّ عَلَيْهِنَّ وَإِنْ كُنَّ أُولَئِكَ حَمَلَ فَاَنْفِقُوا عَلَيْهِنَّ حَتَّى يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ فَإِنْ أَرْضَعْنَ لَكُمْ فَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ وَأَتَمُّوا رِيَّتَكُمْ بِمَعْرُوفٍ وَإِنْ تَعَاسَرْتُمْ فَسَتَرْضِعْ لَهُنَّ أُخْرَى ۖ﴾

وبعد ذكر أحكام الطلاق والعدة، وبعد أن نهى سبحانه عن إخراج المطلقات من بيوتهن، ونهاهن عن الخروج بأنفسهن، أمر سبحانه بسكنانهن حسب المستوى الاجتماعي للزوج، وتذكر هذه الآية أربعة أحكام بالنسبة للمرأة المطلقة، وهي: حقها في السكنى وعدم مضاربتها، والنفقة عليها مدة العدة، وحق الرضاع والحضانة.

الحكم الأول: فيه ثلاث وقفات:

الوقفة الأولى: هو حق السكنى والنفقة بالنسبة للمطلقة طلاقاً رجعيّاً.

وقد جاء ذكر ذلك في قوله تعالى: ﴿أَسْكِنُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ سَكَنْتُمْ مِنْ وَجْدِكُمْ﴾ أي أسكنوا المطلقات من نساكنكم في أثناء عدتهن، مما تجدونه، أي مثل سكناكم، على قدر فقركم وغناكم، فإن كان المطلق مُوسراً وَسَّعَ عليها في مستوى السكن، وإن كان فقيراً فعلى قدر الطاقة، والجمهور على أن المطلقة طلاقاً رجعيّاً لها حق السكنى والنفقة مادامت في العدة، أما السكن فللقوله تعالى: ﴿أَسْكِنُوهُنَّ﴾ وقوله: ﴿لَا تَخْرِجُوهُنَّ مِنْ بُيُوتِهِنَّ وَلَا يَخْرِجَنَّ﴾ أما النفقة فلأن المطلقة طلاقاً رجعيّاً كالزوجة في بقاء العلاقة الزوجية وسلطان الزوج عليها، ولو لم تكن حاملاً.

الوقفة الثانية: بالنسبة للمتوفى عنها زوجها:

وأما المعتدة عن وفاة زوجها، فلا نفقة لها ولا سكنى عند أكثر أهل العلم، وقال بعضهم: لها حق السكنى والنفقة مدة العدة، كما قال النبي ﷺ للفريرة بنت مالك بن سنان، أخت أبي سعيد الخدري ؓ، لما مات زوجها: «امكثي في بيتك حتى يبلغ

(١) قرأ روح بكسر الواو من ﴿وُجْدِكُمْ﴾ والباقون بضمها، وهما لغتان بمعنى الوسع.

الكتاب أجله»^(١).

الوقفه الثالثة: حكم النفقة والسكنى للمطلقة طلاقاً بائناً:

أما المطلقة طلاقاً بائناً بالثلاث، أو بالخلع، أو باللعان، فإن لها حق السكنى مدة العدة، سواءً كانت حاملاً أم غير حامل عند أكثر أهل العلم.

أما النفقة، فظاهر القرآن يفيد أنه لا نفقة للمطلقة إلا إن كانت حاملاً، قال تعالى:

﴿وَإِنْ كُنَّ أُولَئِكَ حَمَلَ فَنَفِقُوا عَلَيْهِنَّ حَتَّى يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ﴾.

ولأن أبا عمرو بن حفص، طلق زوجته فاطمة بنت قيس، طلاقاً ثالثاً غيابياً، حيث إنه كان في اليمن مع علي بن أبي طالب عليه السلام، فأرسل لها وكيله بشعير (نفقة) فسخطته، فقال: والله ما لك علينا من شيء، فجاءت رسول الله صلى الله عليه وسلم فذكرت له ذلك فقال: «ليس لك عليه نفقة» وأمرها أن تعتد في بيت أم شريك، ثم قال: «تلك امرأة يغشاها أصحابي، فاعتدي عند ابن أم مكتوم، فإنه رجل أعمى تضعين ثيابك عنده فإذا حللت فأذنيني»^(٢).

وإنما أمرها النبي صلى الله عليه وسلم أن تعتد في بيت ابن أم مكتوم، لأنها كما قالت عائشة: كانت في مكان موحش، فخيف عليها منه وهذه رخصة خاصة بها^(٣).

وقال سعيد بن المسيب: إنما نُقلت فاطمة لطول لسانها على أحمائها.

وعن أبي إسحاق قال: كنت مع الأسود بن يزيد، جالساً في المسجد الأعظم، ومعنا الشعبي، فحدث الشعبي بحديث فاطمة بنت قيس، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لم يجعل لها سكنى ولا نفقة، ثم أخذ الأسود، كفاً من حصي فحصبه بها، فقال: ويلك! تُحدث بمثل هذا؟ قال عمر: لا نترك كتاب الله وسنة نبينا صلى الله عليه وسلم لقول امرأة، لا ندري، لعلها حفظت أو نسيت،

(١) رواه أبو داود (٢٣٠٠)، والترمذي (١٢٠٤)، والنسائي (٣٥٢٨)، ومالك (٥٩١/٢)، وعبد الرزاق (١٢٠٧٥)، وابن ماجه (٢٠٣١) من حديث طويل، صححه الألباني (١٦٥١)، وفي إرواء الغليل (٢١٣١) التحقيق

الثاني، وصحيح سنن أبي داود (٢٠١٦).

(٢) ينظر صحيح مسلم برقم (١٤٨٠).

(٣) البخاري (٥٣٢٦، ٥٣٢٥)، ومسلم (١٤٨١).

لها السكنى والنفقة، قال الله عز وجل: ﴿لَا تَخْرُجُوهُنَّ مِنْ بُيُوتِهِنَّ وَلَا يَخْرُجْنَ إِلَّا أَنْ يَأْتِيَنَّ بِفَحِشَةٍ مُبَيَّنَةٍ﴾^(١).

وقد اختلف أهل العلم في المطلقة ثلاثاً: فذهب مالك والشافعي إلى أن لها حق السكنى، ولا نفقة لها، وذهب أبو حنيفة وأصحابه أن لها السكنى والنفقة معاً، وذهب أحمد وإسحاق وأبو ثور، أنه لا نفقة لها ولا سكنى، قال الشوكاني: وهذا هو الحق^(٢).

الحكم الثاني: عدم المضارة لقوله تعالى: ﴿وَلَا تُضَارُّوهُنَّ لِضَيِّقِهِنَّ عَلَيْهِنَّ﴾.

أي لا تؤذوا المطلقات في أثناء العدة، وتلحقوا بهن الضرر، فلا تنقصوهن حقهن في النفقة، ولا تضيقوا عليهن في السكن، ولا تطيلوا عليهن في العدة حتى لا تبقى كالمعلقة، ولا تؤذوهن بقول أو فعل، فتلجئوهن للخروج، أو التنازل عن حقهن. والإضرار بالمطلقات منهي عنه مطلقاً، لأن فيه عدوان عليهن، ولو لم يكن القصد منه التضيق عليهن، كما قال تعالى: ﴿وَلَا تُسْكُوهُنَّ ضَرَارًا لِنَعْدُوَّ﴾ [البقرة: ٢٣١].

الحكم الثالث: النفقة على الحامل حتى تضع حملها:

قال تعالى: ﴿وَإِنْ كُنَّ أُولَاتٍ حَمْلٍ﴾ أي وإن كان نساؤكم المطلقات ذوات حمل ﴿فَأَنْفِقُوا عَلَيْهِنَّ﴾ وهن في عدتهن ﴿حَتَّى يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ﴾ وهذا بالنسبة لمن طُلق طلاقاً بائناً، لأن المطلقة طلاقاً رجعيّاً، لها حق النفقة، سواء أكانت حاملاً أم غير حامل، وقد نُصّ على الحامل البائن، لأن الحمل تطول مدته، فالبائن بينونة كبرى لها حق النفقة حتى تضع الحمل، فإن أرضعت المولود بعد وضعه، فلها حق الحضانة على ما يأتي تفصيله، فإن لم ترضعه فلا نفقة لها.

أخرج الطبري بسند حسن عن علي بن أبي طلحة عن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله تعالى: ﴿وَأُولَاتُ الْأَحْمَالِ أَجَلُهُنَّ أَنْ يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ﴾ قال: هذه المرأة يطلقها زوجها

(١) ينظر حديث فاطمة بنت قيس برواياته في صحيح مسلم (١٤٨٠) كتاب الطلاق، باب المطلقة ثلاثاً لا نفقة لها.

(٢) فتح القدير (٢/٤٣٥).

فبِتُّ طلاقها وهي حامل، فيأمره الله أن يُسكنها وينفق عليها حتى تضع، وإن أرضعت، فحتى تُفطم.

وإن أبان طلاقها وليس بها حَبْل، فلها السكنى حتى تنقضي عدتها ولا نفقة. وكذلك المرأة يموت زوجها، فإن كانت حاملاً أنفق عليها من نصيب ذي بطنها إذا كان له ميراث، وإن لم يكن له ميراث أنفق عليها الوارث حتى تضع وتفطم ولدها كما قال تعالى: ﴿وَعَلَى الْوَارِثِ مِثْلُ ذَلِكَ﴾ فإن لم تكن حاملاً، فإن نفقتها تكون من مالها.

الحكم الرابع: على مَنْ يجب الرضاع؟ على الرجل أو المرأة؟

لما كان الحمل ينتهي بالوضع، يَبْنِ سبحانه ما يجب للمطلقات بعد الوضع، ومنه أن رضاع الولد لا يلزم الزوجة، إلا إذا لم يَقْبَلِ الطفل ثدي غيرها ولم يوجد بديل صناعي. ورضاع الزوجة لولدها وهي في عصمة الزوج من باب التشريف وحنان الأمومة، وليس من باب الوجوب والتكليف، ذلكم ما يشير إليه قوله تعالى: ﴿فَإِنْ أَرْضَعْنَ لَكُمْ﴾ أي أولادهن منكم ﴿فَأَتَوْهُنَّ أَجُورَهُنَّ﴾ أي وقوهن أجورهن على الإرضاع، والتزموا بدفعه لهن ﴿وَأَتِمُّوا بَيْنَكُمْ بِمَعْرُوفٍ﴾ هذا خطاب للأزواج والزوجات اللاتي وقع الفراق بينهما بالطلاق، أي ليأمر كل من الزوجين الآخر بما فيه منفعة ومصلحة في الدنيا والآخرة، وما فيه تعاون على البر والتقوى، لأن عدم الائتمار بالمعروف يؤدي إلى النزاع والشر والضرر، وإن اختلفتم على أجرة الرضاع والحضانة، فليتراضى الأب والأم على الأجر بالمعروف السائد بين الناس، وليتشاوروا ويتبادلوا الرأي في هذه المسألة، وليقبل بعضهم من بعض المعروف والجميل في شأن الولد، وليأمر بعضهم بعضاً بما عُرف عن سماحة وطيب نفس، وهذا كقوله تعالى: ﴿فَإِنْ أَرَادَا فِصَالًا عَنْ تَرَاضٍ مِنْهُمَا وَتَشَاوُرٍ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا﴾ [البقرة: ٢٣٣].

فإن اشتد الخلاف بينكم ولم تصلوا إلى حل، بأن امتنع الأب عن دفع الأجرة، وامتنعت الأم عن الإرضاع إلا بأجر معين، فعلى الأب أن يبحث له عن مرضعة أخرى حتى لا يبقى الولد جائعاً ﴿وَإِنْ قَسَرْتُمُوهَا﴾ أي تضايقتم وتشددتم، وعسر الاتفاق بين

الزوجين، فأبى الزوج أن يدفع وأبت الزوجة أن ترضع ﴿فَسَرِّضْ لَهُ أُخْرَى﴾ أي وإن لم تتفقوا على إرضاع الأم، فسترضع للأب مرضعة أخرى بأجر، غير الأم المطلقة.

قال تعالى ﴿وَلِإِذَا أَرَدْتُمْ أَنْ تَسَرِّضُوا وَلَدَكُمْ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِذَا سَلَّمْتُمْ مَا ءَاتَيْتُم بِالْمَعْرُوفِ﴾ [البقرة: ٢٣٣].

قال السدي: إن أبت الأم أن ترضع ولدها إذا طلقها أبوه، التمس له مرضعة أخرى، والأم أحق إذا رضيت من أجر الرضاع بما يرضى به غيرها، فلا ينبغي له أن يتزع الولد منها، وليس لأحد أن يمنعها من إرضاع ولدها محتسبة أجرها عند الله تعالى، قياما بواجب الأمومة، أو إذا أرضعته بأجر المثل.

أما إذا لم يقبل المولود إلا ثدي أمه ولم يقبل البديل الصناعي، فإن إرضاعه يتحتم عليها، فتجبر إن امتنعت، ولها أجر المثل إن لم يتفقا على مسمى، وهذا مأخوذ من معنى الآية، لأن المولود لما كان في بطن أمه تعين على والده النفقة عليها، فكذاك الشأن لما خرج إلى الدنيا ولم يقبل ثدي أمه يتعين عليها إرضاعه، ولما كانت النفقة عليها وهي حامل على قدر طاقة الرجل، فكذاك يكون أجر الرضاع على قدر طاقته.

وقد أخذ العلماء من هذه الآية أن الأم المطلقة طلاقاً بائناً، إذا أرادت أن ترضع ولدها بأجر المثل، فليس لأحد أن يمنعها من ذلك، لأنها أحق به من غيره، لشدة شفقتها عليه، وليس للأب أن يسترضع غيرها في هذه الحالة.

ويؤخذ من ذلك أن نفقة الولد الصغير على أبيه واجبة، لأن أجره الرضاع لزمته، فبقية النفقات من باب أولى، وفي هذا عتاب للأم إن هي لم تقبل إلا بأجر معين، وعتاب للأب لأنه كان عليه أن يسترضي الأم.

النَّفَقَةُ تَخْتَلِفُ بِاخْتِلَافِ مُسْتَوَى مَعِيشَةِ الْمُنْفِقِ

٧- ﴿لِيُنْفِقَ ذُو سَعَةٍ مِّن سَعَتِهِ وَمَن قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُ فَلْيُنْفِقْ مِمَّا ءَاتَاهُ اللَّهُ لَا يَكْفِلُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا مَّا ءَاتَاهَا سَيَجْعَلُ اللَّهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسْرًا﴾ (٧)

ثم وضع سبحانه المعيار لنفقة المعتدة والمرضع، فقال تعالى: ﴿لِيُنْفِقَ ذُو سَعَةٍ مِّن

سَعَتِهِ ﴿﴾ أي أن من وسع الله عليه في الرزق، فلينفق على زوجته المطلقة، ويُنفق على ولده، بمقدار ما وسع الله عليه، ولا يبخل في النفقة على المعتدة، ولا على أولاده، ولا يبخل في أجره الرضاع، أما من كان رزقه قليلاً - وهو الفقير - فلينفق على قدر ما أعطاه الله من الرزق ﴿وَمَنْ قُدِرَ﴾ أي ضيق ﴿عَلَيْهِ رِزْقُهُ، فَلْيُنْفِقْ مِمَّا آتَاهُ اللَّهُ﴾ من الرزق، ولهذا فإن النبي ﷺ قال لهند بنت عتبة زوج أبي سفيان: «خذي من ماله ما يكفيك ويكفي ولدك بالمعروف».

والمعروف: هو ما تعارف عليه الناس في نفقاتهم وتصرفاتهم المعتادة في غير ما يحرمه الله، أو يبطله الشرع كالتدخين، وآلات اللهو، والكماليات الزائدة. والنفقة تكون في الطعام واللباس والشراب والمسكن، وهي لا تتحدد بمقادير معينة لاختلاف أحوال الناس في كل زمان ومكان.

ثم وضع الله سبحانه قاعدة عامة فقال تعالى: ﴿لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا مَاءً آتِنَهَا﴾ فالفقير لا يكلف نفقة الغني، ولا يطلب المنفق عليه من المنفق ما هو فوق قدرته، فلينفق كل إنسان على نفسه وعلى زوجته وعلى ولده، وعلى من تلزمه نفقتهم، على حسب عسره ويسره، بقدر ما أعطاه الله من رزق.

روى ابن جرير أن عمر بن الخطاب ؓ سأل عن أبي عبيدة، فقيل له: إنه يلبس الغليظ من الثياب، ويأكل الخشن من الطعام، فبعث إليه بألف دينار، وقال للرسول: انظر ماذا يصنع إذا أخذها، فلما أخذها، ما لبث أن لبس ألين الثياب، وأكل أطيب الطعام، فجاء الرسول فأخبره، فقال عمر: رحم الله أبا عبيدة، لقد عمل بهذه الآية ﴿لِيُنْفِقَ ذُو سَعَةٍ مِّن سَعَتِهِ وَمَنْ قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُ، فَلْيُنْفِقْ مِمَّا آتَاهُ اللَّهُ﴾^(١).

ومثل هذه الآية قوله تعالى: ﴿لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ [البقرة: ٢٨٦].

ثم ختم الله الآية ببشرى عظيمة، وهي أن اليسر يعقب العسر، والسعة تكون بعد الضيق، والغنى يكون بعد الفقر ﴿سَيَجْعَلُ اللَّهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسْرًا﴾ أي عسى أن يجعل الله بعد

(١) تفسير الطبري (١٤٩/٢٨).

عسركم يسراً لكم، فمن كان في عسر، فعليه أن يرجو فضل الله، كما قال تعالى: ﴿فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا ۖ إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا﴾ [الشرح: ٦٠:٥] ولن يغلب عُسْرُ يُسْرَيْنِ، وفي هذا إشارة للمعسرين أن الله تعالى سيزيل عنهم الشدة ويرفع عنهم المشقة. وليس في الآية وعد لكل معسر، بأن يحول الله عسره يسراً، وإن تحقق ذلك في أحوال كثيرة.

فعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: (دخل رجل على أهله، فلما رأى ما بهم من الفاقة خرج إلى البرية، فلما رأت امرأته ذلك، قامت إلى الرحي فوضعتها، وإلى التنور فسجّرتها، ثم قالت: اللهم ارزقنا، فنظرت فإذا الجفنة قد امتلأت، وذهبت إلى التنور فوجدته ممتلئاً، قال: فرجع الزوج، فقال لأهله: أأصبتم بعدي شيئاً؟ قالت امرأته: نعم، من ربنا، فذكر الرجل ذلك إلى النبي ﷺ فقال: «أما إنه لو لم ترفعها، لم تزل تدور إلى يوم القيامة»^(١).

التَّحْذِيرُ مِنَ الْخُرُوجِ عَلَى طَاعَةِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ

٨- ﴿وَكَانَ ۖ مِنْ قَرِيْبٍ عَنَّتْ عَنْ أَمْرِ رَبِّهَا وَرُسُلِهِ ۚ فَحَاسَبْنَهَا حِسَابًا شَدِيدًا وَعَذَّبْنَاهَا عَذَابًا ثَقِيْرًا ۝﴾ (٨)

وخلال ذكر أحكام الطلاق والعدة والحضانة، حذر الله تعالى عباده من مخالفة هذه الأحكام في مواطن ستة هي:

١- قوله تعالى: ﴿وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا ۚ﴾.

٢- وقوله: ﴿وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مِنْ أَمْرِهِ يُسْرًا ۚ﴾.

(١) المسند (٥١٣/٣) برقم (١٠٦٥٨)، ورجاله ثقات رجال الشيخين، غير أبي بكر بن عياش، فمن رجال البخاري، وأخرجه البزار (٣٦٨٧)، والطبراني في الأوسط (٥٥٨٤)، والبيهقي في الشعب (١٣٣٩)، والدلائل (١٠٥/٦).

(٢) قرأ ابن كثير وأبوجعفر (وكائن) ويسهل أبوجعفر الهمزة مع المد والقصر، وقرأ الباقون ﴿وَكَانَ﴾ ويقف أبو عمرو ويعقوب على الياء فيها ساكنة، فهي كلمة مركبة من كاف التشبيه وأي المنونة، ولحمزة عند الوقف التسهيل والتحقيق.

(٣) قرأ نافع وابن ذكوان وشعبة وأبوجعفر ويعقوب بضم الكاف من ﴿ثَقِيْرًا﴾ والباقون بإسكانها.

٣- وقوله: ﴿وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَكْفِرْ عَنْهُ سَيِّئَاتِهِ وَيُعْظِمْ لَهُ أَجْرًا﴾ .

٤- وقوله: ﴿سَيَجْعَلُ اللَّهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسْرًا﴾ .

٥- وقوله: ﴿وَلَئِكَ حُدُودُ اللَّهِ وَمَنْ يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ﴾ .

٦- وقوله: ﴿ذَلِكَ كُمْ يُوعَظُ بِهِ مَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾ .

بعد هذه التحذيرات الست من مخالفة أحكام الله ورسله، يُذَكِّر الله سبحانه بما حلّ بكثير من الأمم من عقاب كبير، بسبب أنهم لم يكثرثوا بأمر الله ورسله، وتهاونوا في شريعته ولم يعملوا بها، وبين سبحانه أن كثرة أهل هذه الأمم، وقوتهم، وشدة بطشهم، لم تنفعهم شيئاً حين نزل بهم عقاب الله، قال تعالى: ﴿وَكَايْنٍ مِّن قَرْيَةٍ﴾ أي وكثير من القرى والأمم الخالية ﴿عَنَّتْ عَنْ أَمْرِ رَبِّهَا وَرُسُلِهِ﴾ أي عصى أهلها أمر الله تعالى وأمر رسله ﷺ وتمادوا في طغيانهم وكفرهم ﴿فَحَاسَبْنَهَا حِسَابًا شَدِيدًا﴾ أي جازئناها على عصيانها وطينانها بألوان من الجوع والقحط وعذاب الاستئصال ﴿وَعَذَّبْنَاهَا عَذَابًا ثَكْرًا﴾ أي عذبناهم عذاباً عظيماً منكرًا يفوق التصور، بسبب خروجهم عن طاعة ربهم وعصيان رسله.

للخارجين على حدود الله تعالى عقاب دنيوي وآخروي:

قال تعالى فيما لحق بالمكذبين من عذاب دنيوي:

٩- ﴿فَذَاقَتْ وَبَالَ أَمْرِهَا وَكَانَ عِقَبُهُ أَمْرًا خُسْرًا﴾ ﴿٩﴾

أي فترتب على هذا العقاب، أن ذاق أهل تلك القرى سوء عاقبة بغيتهم وجحودهم لنعم الله تعالى وتجرعوا سوء عاقبة غتوتهم وكفرهم، ومرارة جرمهم ﴿وَكَانَ عِقَبُهُ أَمْرًا خُسْرًا﴾ أي وكان جزاء كفرها هلاكاً وخسراناً لا خسران بعده، أما العذاب الآخرى فقد جاء ذكره في الآية التالية.

عَلَى كُلِّ عَاقِلٍ أَنْ يَحْذَرَ عَذَابَ الْآخِرَةِ

١٠- ﴿أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا فَاتَّقُوا اللَّهَ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ الَّذِينَ آمَنُوا قَدْ أَنزَلَ اللَّهُ إِلَيْكُمْ ذِكْرًا﴾ ﴿١٠﴾

(١) انفرد المدني الأول بعد ﴿يَا أُولِي الْأَلْبَابِ﴾ آية، وتركه جمهور أهل العدد.

وإلى جوار العقاب الذي لحق بمن خالف الله ورسوله في الدنيا، فإن أمامهم عذاب أخروي أشد وأفظع ﴿أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ﴾ أي أن لهؤلاء القوم، الذين طغوا وخالفوا أمر الله ورسله ﴿عَذَابًا شَدِيدًا﴾ بالغ الشدة، فاحذروا - أيها الناس - عقاب الله وسخطه عليكم يا أصحاب العقول الراجحة من أمة محمد ﷺ، وهذا معنى: ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ يَكُونِ الْآتِبِ﴾ واعلموا أنه لا فرق بينكم - أيها المخاطبون بهذه الآيات - وبين هذه الأمم التي أهلكها الله بسبب تكذيبهم لرسول الله، فاحذروا أن تكونوا مثلهم، وتكذبوا خاتم النبيين حتى لا يصيبكم ما أصابهم، فقد أرسل الله محمداً بالقرآن ليخرج من صدق به من الظلمات إلى النور.

ثم وصف الله سبحانه أهل العقول السليمة، بأنهم الذين يخافون الله تعالى، ويتجنبون غضبه فقال: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا﴾ أي يا مَنْ صدّقوا الله تعالى واتبعوا رسله، وأيقنوا بهما حق اليقين، كونوا صادقين في إيمانكم، ولا تكونوا مثل مَنْ عتا وتجبّر من الأمم، فتحاسبون أشد الحسَاب وتُعذبون من جنس عذابهم فإن فيكم كتاب الله وسنة رسوله.

والمعنى: فاتقوا الله يا أصحاب العقول السليمة، يا من آمنتم بالله حق الإيمان، فالله سبحانه هو الذي أنزل عليكم القرآن، فيه تذكير لكم عما غفلتم عنه من صحيح العقيدة والأخلاق الكريمة ﴿قَدْ أَنْزَلَ اللَّهُ إِلَيْكُمْ ذِكْرًا﴾ هو القرآن ينبهكم إلى الإيمان بالله والعمل بطاعته.

وقد سمى الله تعالى القرآن ذكرا في كثير من آيات الكتاب العزيز، منها:

قوله تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ [الحجر: ٩].

وقوله: ﴿وَقَالُوا يَكُونُ الَّذِي نُزِّلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ﴾ [الحجر: ٦].

والمؤمنون هم المتفعون بهذا الذكر، ولهذا خصهم الله تعالى بالذكر في الآية، وإن كان القرآن قد نزل إلى الناس كافة، وهذا القرآن فيه خيركم وسعادتكم في الدنيا والآخرة، وقد حمّله إليكم خاتم النبيين محمد ﷺ، فقد:

أَرْسَلَ اللَّهُ مُحَمَّدًا لِيُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ

١١ - ﴿رَسُولًا يَتْلُو عَلَيْكُمْ آيَاتِ اللَّهِ مُبَيِّنَاتٍ^(١) لِيُخْرِجَ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَمَنْ يُؤْمِن بِاللَّهِ وَيَعْمَلْ صَالِحًا يُدْخِلْهُ^(٢) جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا قَدْ أَحْسَنَ اللَّهُ لَهُ رِزْقًا^(٣)﴾

ذكر الله عباده بكتابه الذي أنزله على محمد ﷺ ليجري به الناس من ظلمات الكفر والجهل والمعصية، إلى نور الإيمان والعلم والطاعة، وبين أن من يؤمن بالله ويعمل صالحاً فله جنات النعيم تجري من تحت قصورها الأنهار، وهو مخلد فيها دائماً وأبداً، وما أحسن هذا الرزق.

هذا: وبين القرآن والرسول، ملازمة وملازمة، فإن الرسالة تحققت للرسول عند نزول القرآن عليه، ولذا فُسر الذكر بأنه الرسول، على أنه بدل اشتغال، لأن الرسول هو الذي أنزل الله عليه الذكر، وهو الذي يتلوه على الناس^(٤).

وهذا معنى ﴿رَسُولًا يَتْلُو عَلَيْكُمْ آيَاتِ اللَّهِ مُبَيِّنَاتٍ﴾ أي أن هذا الرسول يقرأ عليكم آيات الله موضحة لكم الحق من الباطل، والهدى من الضلال، والحلال من الحرام.

ويمكن أن يكون ﴿رَسُولًا﴾ منصوب بفعل محذوف، تقديره: وأرسل رسولاً^(٥).

فيكون المعنى: فاتقوا الله - أيها المؤمنون - فقد أنزلنا إليكم قرآناً فيه ما يذكركم بخيري الدنيا والآخرة، وفيه شرفكم وعزتكم وكرامتكم، وأرسلنا إليكم رسولاً هو محمد ﷺ كي يتلوا عليكم آياتنا، تبين لكم الكفر من الإيمان، والسعادة من الشقاء، وهذا معنى: ﴿لِيُخْرِجَ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ﴾ أي كي يخرج الله بهذا

(١) قرأ نافع وابن كثير وأبو عمرو وشعبة وأبو جعفر ويعقوب بالبناء للمفعول في ﴿مُبَيِّنَاتٍ﴾ والباقون للفاعل.

(٢) قرأ نافع وابن عامر وأبو جعفر بالنون في (تدخله) والباقون بالياء.

(٣) ومنم ذهب إلى هذا الطبري وأبو السعود وابن عاشور.

(٤) ومنم اختار هذا ابن عطية وأبو حيان والألوسي.

القرآن مَنْ صَدَّقَ اللهَ وَاتَّبَعَ رِسُولَهُ مِنْ ظُلُمَاتِ الْكُفْرِ وَالضَّلَالِ إِلَى نُورِ الْهُدَى وَالْإِيمَانِ،
 كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿كَتَبْنَا أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ﴾ [إبراهيم: ١] وَقَالَ
 سُبْحَانَهُ: ﴿اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ﴾ [البقرة: ٢٥٧].
 ﴿وَمَنْ يُؤْمَرْ بِاللَّهِ﴾ حَقَّ الْإِيمَانِ ﴿وَيَعْمَلْ﴾ عَمَلًا ﴿صَالِحًا يَدْخُلْهُ﴾ بِفَضْلِهِ وَإِحْسَانِهِ
 ﴿جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾ أَيَّ مَنْ تَحْتَ أَشْجَارِهَا وَقُصُورِهَا، أَنْهَارُ الْخَمْرِ وَالْعَسَلِ
 وَاللَّبَنِ وَالْمَاءِ، وَهُمْ مَّا كَثُورُونَ فِي الْجَنَّةِ دَائِمًا أَبَدًا، لَا يَخْرُجُونَ مِنْهَا، وَلَا يَتَحَوَّلُونَ عَنْهَا
 ﴿خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا﴾ أَيَّ مُقِيمِينَ فِيهَا بِصِفَةِ دَائِمَةٍ، وَهَذَا هُوَ أَفْضَلُ رِزْقٍ لِلْوَثَنِ، وَأَوْسَعُ
 نِعْمَةٍ يَمْنَحُهَا اللَّهُ إِيَّاهُ، فَيُشْرَحُ بِهَا صَدْرُهُ، وَيَدْخُلُ السَّرُورُ عَلَى نَفْسِهِ ﴿قَدْ أَحْسَنَ اللَّهُ لَكَ رِزْقًا﴾
 فَمَا أَحْسَنَهُ مِنْ نَعِيمٍ دَائِمٍ لَا يَنْقُطُ.

تُرْجُلُ الْأَوَامِرِ الْإِلَهِيَّةِ بَيْنَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ

١٢ - ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَوَاتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَنْزِلُ الْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِنَعْلَمَ أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ
 قَدِيرٌ^(١) وَأَنَّ اللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا

ثُمَّ خَتَمَ اللَّهُ السُّورَةَ بِبَيَانِ عَظِيمِ آثَارِ قُدْرَتِهِ، فَقَالَ تَعَالَى: ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَوَاتٍ وَمِنَ
 الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ﴾ أَيُّ أَنَّ اللَّهَ وَحْدَهُ هُوَ الَّذِي خَلَقَ بِقُدْرَتِهِ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طَبَاقًا، كَمَا قَالَ
 تَعَالَى: ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا كَيْفَ ظَنُّوا أَنَّهُ سَبْعَ سَمَوَاتٍ طَبَاقًا

تَعَالَى: ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا كَيْفَ ظَنُّوا أَنَّهُ سَبْعَ سَمَوَاتٍ طَبَاقًا﴾ [نوح: ١٥] مَا بَيْنَ كُلِّ سَمَاءٍ وَسَمَاءٍ مَسِيرَةٌ
 خَمْسَ مِائَةِ عَامٍ، كَمَا صَحَّ فِي حَدِيثِ الْإِسْرَاءِ، وَخُلِقَ مِنَ الْأَرْضِ مِثْلُهُنَّ فِي الْعَدَدِ قَالَ
 تَعَالَى: ﴿وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ﴾ بَعْضُهَا دُونَ بَعْضٍ بَدُونِ فُتُوقٍ وَلَا صُدُوعٍ، وَخُلِقَ مَا فِيهِنَّ
 وَمَنْ فِيهِنَّ مِنَ الْعَوَالِمِ وَغَيْرِهَا.

وَقَدْ جَاءَ لَفْظُ السَّمَاءِ مَجْمُوعًا كَمَا فِي الْآيَةِ الَّتِي مَعْنَاهَا، وَجَاءَ بِلَفْظِ الْمَفْرَدِ أَيْضًا كَمَا
 فِي سُورَةِ الذَّارِيَّاتِ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَالسَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا بِأَيْدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ﴾ [الذَّارِيَّاتِ: ٤٧]. وَكَمَا فِي
 سُورَةِ النَّازِعَاتِ: ﴿إِنَّمَا أَشَدُّ خَلْقًا أَمَّ السَّمَاءِ﴾ [النَّازِعَاتِ: ٢٧].

(١) انفرد الحمصبي بعد لفظ ﴿قَدِيرٌ﴾ آية، فيكون متروكاً لغيره.

ولم يأت لفظ الأرض في القرآن إلا مفرداً، ولكنه جاء في السنة بلفظ الجمع كما في حديث عائشة رضي الله عنها أن النبي ﷺ قال: «من ظلم قيد شبر من أرض طَوَّقَهُ من سبع أرضين»^(١).

وفي حديث أبي موسى ﷺ لما قال: (يا رب علمني شيئاً أدعوك به، فقال: قل لا إله إلا الله، فقال: يا رب كل الناس يقولون ذلك، قال: يا موسى لو أن السموات السبع وعامرهن غيري، والأرضين السبع في كفة، ولا إله إلا الله في كفة، لمالت بهن لا إله إلا الله)^(٢).

وفي الأثر (ما السموات السبع وما فيهن وما بينهن والأرضون السبع وما فيهن وما بينهن في الكرسي إلا كحلقة ملقاة بأرض فلاة)^(٣). وفي حديث سالم عن أبيه أن النبي ﷺ قال: «من أخذ من الأرض شيئاً بغير حقه خُسِفَ به يوم القيامة إلى سبع أرضين»^(٤).

فثبت في الأحاديث الصحيحة أن الأرضين سبع، ولم يأت تفصيل للكيفية ولا للهيئة. فثبت العدد ولم يثبت غيره قال تعالى: ﴿مَا أَشْهَدُهُمْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَا خَلَقَ أَنْفُسَهُمْ﴾ [الكهف: ٥١] فهم عاجزون عن معرفة حقيقتهم.

وعلى هذا: فقد أجمع أهل العلم على أن السموات سبع، أما الأرض فهي سبع أرضين أيضاً لظاهر الآية وللأحاديث الواردة في ذلك، ولا يعلم حقيقة الأمر إلا الله، وقد يكون تعدد الأرض باعتبار أصول الطبقات الطينية والصخرية والمائية والمعدنية،

(١) صحيح البخاري برقم (٣١٩٥، ٢٤٥٣، ٢٤٥٢)، وصحيح مسلم برقم (١٦١٢).

(٢) سنن النسائي.

(٣) أخرجه ابن مردويه عن أبي إدريس الخولاني عن أبي ذر الغفاري، وفي إسناده محمد بن أبي السري العسقلاني، ضعفه أبوحاتم ووثقه ابن معين، وهو أثر موقوف على أبي ذر، وفي رفعه ضعف في السند، وهو في تفسير الطبري (٣٩ / ١٢)، والمستدرک (٢ / ٢٨٢)، ورفع ابن أبي شيبة في صفة العرش برقم (٥٨).

(٤) صحيح البخاري (٣١٩٦، ٢٤٥٤).

ولا يعلم ذلك إلا الله.

وأجمع أهل العلم أيضاً على مماثلة الأرض للسماء في دلالة خلقها على عظيم قدرة الله تعالى، فليست الأرض أضعف في الدلالة على قدرة الخالق سبحانه من السموات، وكلاً منهما كوكب من الكواكب السبعة يسير حول الشمس، مثل سائر الكواكب، فالأرض مماثلة للسماء في الكروية أيضاً ومماثلة لها في العدد، ومماثلة لها في الخلق العظيم.

ثم بين سبحانه أن الوحي ينزل إلى خلق الله تعالى من السماء العليا، إلى الأرض السفلى، فهو ينزل بينهن، ويتنزل أيضاً ما يدبره الله لخلقه من إنزال المطر والرزق، والمرض والشفاء، والحياة والموت، وخروج النبات، والصيف والشتاء، وما إلى ذلك، وهذا معنى: ﴿يَنْزِلُ الْأَمْرُ﴾ أي ينزل الوحي وتدبير شؤون الخلق بين السماء والأرض، والأمر المنزل هو الشرائع والأحكام التي أوحاها الله إلى رسله لتذكير العباد ووعظهم، وكذلك الأوامر الكونية والقدرية التي يدبر الله بها شؤون خلقه، وهي تنزل ﴿يَنْهَنَ﴾ من السموات السبع إلى الأرضين السبع، ففي كل سماء وفي كل أرض: خلق من خلقه سبحانه، وأمر من أمره، وقضاء من قضائه، وما يدبر فيهن من عجائب الأمور، وذلك ﴿لِنَعْلَمَ﴾ أيها الناس ﴿أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ لا يعجزه شيء ولا يفوته أمر ﴿وَأَنَّ اللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْماً﴾ لا تخفى عليه خافية، ولا يخرج شيء عن علمه وقدرته في الأرض ولا في السماء، وأن العباد إذا علموا إحاطة قدرة الله تعالى بهذا الكون وما فيه، عبده حق العبادة، وهذا هو الغاية والقصد من خلق الثقلين.

تم تفسير (سورة الطلاق) والله الحمد والمنة

تَفْسِيرُ سُورَةِ التَّحْرِيمِ (٦٦)

مُقَدِّمَةُ السُّورَةِ

(سورة التحريم) هي السورة السادسة والستون في ترتيب المصحف، والخامسة بعد المئة في ترتيب النزول، نزلت بعد (سورة الحجرات) وقبل (سورة الجمعة). وهي سورة مدنية باتفاق.

وسميت سورة التحريم لورود لفظ {لَمْ تُحَرِّمْ} في أولها. وتسمى (سورة النبي) وسماها ابن الزبير (سورة النساء). وعدد آياتها اثنتا عشرة آية عند غير الحمصي، وهي عنده ثلاث عشرة آية. وهي مثنان وسبع وأربعون كلمة، وألف وستون حرفاً.

أغراض السورة:

هذه السورة تَغْرِضُ في أولها، صفحة من داخل بيوت النبي ﷺ وتذكر الانفعالات الإنسانية بين بعض زوجاته، لمعالجة قضايا الأسرة، وتهيئة البيت الأمثل للأسرة المسلمة السعيدة.

تناولت السورة ما حرّمه الرسول ﷺ على نفسه مما أحله الله له، استرضاء لبعض زوجاته، فعاتبه الله تعالى على هذا، وبَيَّنَّ له أن الحلال لا يكون حراماً بتحريم الإنسان له، وَمَنْ فَعَلَ ذلك فعليه كفارة يمين.

وعَلَّمَ الله تعالى الزوجات ألا يضايقن أزواجهن حتى لا يؤدي ذلك إلى الفراق. وتناولت السورة أمراً خطيراً يهدد كيان الأسرة، وهو إفشاء السر الذي يكون بين الزوجين. وحملت السورة حملة عنيفة على من تُفْشِي أسرار الزوجية، وتوعدها الله تعالى باستبدالها بغيرها إن لم تتب.

وهكذا: فإن الآيات الخمس الأول من السورة تتناول جانباً خاصاً من حياة النبي ﷺ مع

زوجاته، وتُعطينا حُكماً عاماً، وهو أنه ليس لأحد أن يُحرّم على نفسه ما أحله الله له، وعندما يحدث مثل هذه الحالة، كمن يحرم الطعام على نفسه مثلاً، فإن عليه كفارة يمين. وفي الآيات الأربع التي تليها أربع نداءات: اثنين للمؤمنين، ونداء واحد للكفار، ونداء للنبي ﷺ خاصة.

وفي الآيات الثلاث الأخيرة من السورة: ما ضربه الله تعالى مثلاً للذين كفروا بامرأة نوح وامرأة لوط، وللذين آمنوا بامرأة فرعون ومريم. وبالجملة فقد وجهت السورة خمس نداءات: نداءان للمؤمنين، ونداء للكافرين، ونداءان للنبي ﷺ :

١- أما نداء المؤمنين الأول فهو أن يحفظوا أنفسهم وأهليهم من عذاب الله تعالى يوم لقائه، وذلك بالثبات على الإيمان، ومداومة العمل الصالح، والبعد عما حرمه الله تعالى. ٢- والنداء الثاني للمؤمنين أيضاً: بالتوبة النصوح، الخالصة لله تعالى حتى يفوزوا بجنة النعيم.

٣- والنداء الثالث، هو النداء الوحيد للكفار في القرآن بلفظ ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ وهو لبيان أن الله تعالى لا يقبل منهم عذر عندما يرون يوم القيامة النار بأعينهم لأنهم ماتوا على الكفر.

٤- والنداء الرابع للنبي ﷺ أن يجاهد الكفار والمنافقين ويقاتلهم في كل زمان ومكان، وليشدّد وطأته عليهم، فإن مصيرهم جهنم وبئس المصير، وأمرته بعده مطالبة بهذا. ٥- أما النداء الخامس فهو في أول آية في السورة، وفيها عتاب الله تعالى لرسوله ﷺ لأنه شدد على نفسه فمنعها مما هو مباح له.

وضربت السورة مثلين للزوجة الكافرة التي في عصمة الرجل المؤمن، ومثلين آخرين، أحدهما: للزوجة المؤمنة في عصمة الرجل الكافر، والآخر: للمرأة المؤمنة المفترى عليها، في إشارة إلى أنه في يوم القيامة لا يغني أحد عن أحد، ولا ينفع حسب

ولا نسب، إذا لم يكن عمل الإنسان صالحاً.

وختمت السورة بالثناء على مريم بنت عمران التي صانت نفسها وحفظت فرجها، فكافأها الله بأن حملت بكلمة الله تعالى وإرادته بعيسى عليه السلام، للدلالة على كمال قدرة الله تعالى في خلقه للإنسان بدون حاجة إلى تلقيح الذكر للأنثى، وأثنى الله تعالى على مريم بصفتي الصلاح والقنوت، وهو ختام رائع يماثل جوّ السورة وهدفها.

أسباب النزول:

وسبب نزول السورة حادثان حدثا بين أزواج النبي ﷺ:

أحدهما: ما روثه عائشة رضي الله عنها أن النبي ﷺ كان يشرب عسلاً عند أم المؤمنين زينب رضي الله عنها ويمكث عندها، قالت: (فتواطأت أنا وحفصة على: أيثنا دخل عليها، فلتقل له: أكلت مغافير؟ إني أجد منك ريح مغافير، قال: لا، ولكني كنت أشرب عسلاً عند زينب بنت جحش، فلن أعود له، وقد حلقتُ، فلا تخبري بذلك أحداً^(١)). والمغافير: صمغ خلّو، له رائحة كريهة، يخرج من شجر العُرفط أي الطلح، وكان النبي ﷺ يحب العسل والحلوى، ويكره أن يوجد منه رائحة كريهة.

وصح في الحديث أن ابن عباس رضي الله عنهما سأل عمر رضي الله عنهما (من المرأتان اللتان تظاهرتا على رسول الله ﷺ؟ فما أتممتُ كلامي حتى قال: عائشة وحفصة)^(٢).

وهذا هو أصح الروايات في الباب، وأصل القصة ثابت، وإن اختلفت الرواية فيمن شرب النبي ﷺ عندها العسل، ومن تظاهرتا عليه، ويشهد لهذا أن النبي ﷺ سئل عن

(١) صحيح البخاري برقم (٤٩١٢، ٥٢٦٧، ٦٦٩١)، وصحيح مسلم برقم (١٤٧٤)، وبنحوه في المسند (٢٥٨٥٢) بإسناد صحيح على شرط الشيخين، وأبوداود برقم (٣٧١٤)، والنسائي (٦٢٨)، وفي الكبرى (١١٥٤٤، ٤٧١٨)، وابن حبان (٤١٨٣)، وابن سعد (١٠٧/٨).

(٢) صحيح البخاري برقم (٨٩، ٤٩١٤)، وصحيح مسلم (١٤٧٩)، وسنن الدارقطني (٤٠١٤)، والمسند (٣٣٩، ٢٢٢) مطولاً؛ بإسناد صحيح على شرط الشيخين، وابن حبان (٤٢٦٨)، وأبوداود (٥٢٠١)، والترمذي (٢٦٩١)، وابن ماجه (٤١٥٣) مطولاً ومختصراً.

شيء حَرَّمَهُ عَلَى نَفْسِهِ، فَقَالَ: «عَكَةٌ مِنْ عَسَلٍ»^(١).

ثانیهما: ما جاء عن نافع عن ابن عمر رضي الله عنهما أن النبي ﷺ قال لحفصة رضي الله عنها: لا تحدثي أحداً، وإن أم إبراهيم حرام عليّ، فقالت: أتحريم ما أحل الله لك؟ قال: فوالله لا أقربها، فلم يقربها حتى أخبرت عائشة، فأنزل الله تعالى: ﴿قَدْ فَرَضَ اللَّهُ لَكُمْ تَحِلَّةَ أَيْمَانِكُمْ﴾^(٢).

وكانت حفصة رضي الله عنها قد وجدت النبي ﷺ مع مارية رضي الله عنها في حجرتها. وتفصيل هذا الخبر ما رواه الدارقطني عن ابن عباس عن عمر رضي الله عنه قال: دخل رسول الله ﷺ بأم ولده مارية في بيت حفصة، فوجدته حفصة معها، فقالت حفصة: تدخلها بيتي، ما صنعت بي هذا من بين نساءك إلا من هواني عليك، فقال لها: (لا تذكرني هذا لعائشة، فهي عليّ حرام إن قربتها) قيل: فقالت له حفصة: وكيف تحرم عليك وهي جاريتك، فحلف لها أن لا يقربها، فقال النبي ﷺ لحفصة: لا تذكره لعائشة، فذكرته لعائشة، فآلى أن يدخل على نسائه شهراً، فاعتزلهن تسعاً وعشرين ليلة، فأنزل الله هذه الآية ﴿يَأْتِيهَا النَّبِيُّ لِمَحْظَرٍ مَّا أَحَلَّ اللَّهُ لَكَ﴾^(٣).

وعن أنس رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ كانت له أمة يطؤها، فلم تزل به عائشة وحفصة حتى حرّمها، فأنزل الله ﴿يَأْتِيهَا النَّبِيُّ لِمَحْظَرٍ مَّا أَحَلَّ اللَّهُ لَكَ﴾^(٤).
والأمة هي أم إبراهيم (مارية القبطية) التي أهداها له عظيم مصر.

(١) أخرجه ابن سعد عن عبد الله بن عتبة (١٧١/٨)، وأخرجه عبد بن حميد كما في الدر (٥٦٩/١٤).

(٢) المختارة للضياء المقدسي برقم (١٨٩) من مسند الهيثم بن كليب، قال ابن كثير: وهذا إسناد صحيح لم يخرج له أحد من أصحاب الكتب الستة (٥٩/٨)، وصححه ابن حجر في الفتح (٢٩٢/١١)، وأخرجه ابن سعيد بن منصور بإسناد صحيح إلى مسروق.

(٣) سنن الدارقطني (٧٦/٥) برقم (٤٠١٣)، وهو في أسباب النزول للواحدي (ص ٣٥٨)، والسيوطي (٣٠٧)، وفي إسناده: عبد الله بن شبيب، وهو ضعيف، وأخرجه الطبري في جامع البيان (١٥٥/٢٨) بسند صحيح.

(٤) السنن الكبرى للنسائي برقم (١١٦٠٧)، وفي السنن برقم (٣٩٦٩)، والحاكم (٤٩٣/٢)، وإسناده صحيح ورجاله ثقات وصحيح سنن النسائي (٣٦٩٥).

قال الشوكاني: فهذا سببان صحيحان لنزول الآية، والجمع ممكن بوقوع القصتين: قصة العسل، وقصة مارية، وأن القرآن نزل فيهما جميعاً، وفي سبب كل منهما أنه ﷺ أسرَّ الحديث إلى بعض أزواجه^(١).

قال الشيخ محمد الغزالي رحمه الله تعالى:

أمهات المؤمنين خيرة نساء الأمة، وأعلاهن طهراً ومكانة وتقوى، وقد صحبن النبي الكريم وعاونته على أداء رسالته، وارتفعن إلى ما يتلى في بيوتهن من آيات الله والحكمة، وقد آخذهن الله بأمرين معروفين في السيرة:

الأول: اتفقهنَّ على طلب النبي ﷺ بالمزيد من النفقة، وضيقهنَّ بالمعيشة الناشئة التي التزمها، وقد رضين جميعاً بالبقاء معه عندما أكد لهن أنه مابدُّ من هذه الحياة لمن يريد الله ورسوله والدار الآخرة.

أما الأمر الثاني: فإن النبي ﷺ كان لطيف العشرة، لين الجانب، دمث الأخلاق، فأطمع ذلك بعض نسائه في الجرأة عليه، وكانت الغيرة هي السبب، فزعمت إحداهن أنها شمت منه رائحة غير طبيعية، فقال: شربت عسلاً عند زينب! فقالت: لعلّ نحله وقع على نبات سييء فقال: لا أعود، ولا تخبري أحداً، ثم ظهر أن القصة مفتعلة وأنها مؤامرة لتزهيده في فلانة!! وغضب الرسول لِمَا وقع، وهجر نساءه جميعاً، حتى شاع أنه طلقهن، ونزلت سورة التحريم تطفئ هذه الفتنة، وتؤدب مَنْ أخرج الرسول، وأساء المسلك^(٢).

* * *

(١) فتح القدير (٢٥٠/٥).

(٢) نحو تفسير موضوعي لسور القرآن الكريم (ص ٤٦٨).

تَفْسِيرُ السُّورَةِ

التَّحْلِيلُ وَالتَّحْرِيمُ حَقُّ اللَّهِ وَحْدَهُ

١ - ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكَ تَبْلَغْ مَرْضَاتَ أَزْوَاجِكَ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ (١)

في هذه الآية عتاب من الله تعالى لرسوله ﷺ حين حرم على نفسه أمته (مارية) أو شرب العسل، مراعاةً لخاطر بعض زوجاته.

لم يخاطب الله نبيه باسمه العلم، كما خاطب سائر الرسل بقوله: يا إبراهيم، يا عيسى، يا موسى، وإنما خاطبه بلفظ النبوة والرسالة، تنوياً بمقامه الرفيع، وإشعاراً له في هذه السورة خاصة، أنه نبيء بأسرار التحليل والتحريم، فكيف يمتنع مما أحله الله له؟ ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ﴾ الموحى إليه بواسطة جبريل الأمين ﴿لِمَ تُحَرِّمُ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكَ﴾.

والخطاب للنبي ﷺ لأن سبب النزول يتعلق به، فيا أيها الرسول الكريم لماذا حرمت على نفسك ما أحله الله لك ومنعت نفسك من شراب العسل، أو مِنْ وَطْءِ جَارِيَتِكَ، إنه لا يحل لك أن تفعل ذلك، لأن ما أباحه الله لك لا يصح أن تُحَرِّمَهُ على نفسك، فتشقى عليها من أجل إرضاء بعض زوجاتك، ولا يوجد ما يدعو إلى أن تُحَرِّمَ على نفسك ما أحل الله لك، فأرح نفسك من هذا العناء، ولا تُضَيِّقْ عليها، ولا تُتْعِبْهَا في سبيل إرضائهن.

أ - ورد أن حفصة رضي الله عنها زارت أباهَا ذات يوم، وكان يومها، فجاء النبي ﷺ فلم يجدها في المنزل، فأرسل إلى أمته مارية، فأصاب منها في بيت حفصة، وجاءت حفصة على تلك الحال، فقالت: يا رسول الله، أتفعل هذا في بيتي وفي يومي، قال: «فإنها علي حرام، ولا تخبري بذلك أحداً» فانطلقت إلى عائشة فأخبرتها بذلك، فأنزل الله الآية وأمر نبيه أن يكفر عن يمينه، ويراجع أمته^(١).

(١) أخرجه سعيد بن منصور برقم (١٧٠٧)، وأخرجه أيضاً ابن المنذر عن الضحاك.

ب - وورد أنه ﷺ كان يشرب عسلاً عند زينب بنت جحش، فتواطأت عائشة وحفصة أن تقولاً له إذا دخل عليهما: إنا نجد منك ريحاً، فحرّم العسل على نفسه^(١).

وسند هذه الرواية أقوى، فلعلها هي المرادة بالآية.

ثم عذر الله نبيه بأنه أراد بذلك خيراً، وهو جلب رضا الأزواج، لأنه أعون على حسن العشرة، فأخبر الله رسوله بأن هذا الاجتهاد غير صحيح، وقال له: ﴿تَبْنِىْ﴾ بذلك التحريم ﴿مَرْضَاتِ أَزْوَاجِكَ﴾ أي تطلب رضا زوجاتك بامتناعك عن العسل كراهة رائحته، أو امتناعك من مارية تطيباً لخاطر حفصة.

وبعد هذا العتاب اللطيف سامح الله رسوله وعفا عنه ورفع عنه اللوم فقال: ﴿وَاللّٰهُ غَفُوْرٌ رَّحِيْمٌ﴾.

وقد كانت هذه الحادثة لحكمة عظيمة وهي تشريع حكم عام للأمة يتعلق بجميع الأيمان.

فِي تَحْرِيمِ الْحَلَالِ كَفَّارَةُ يَمِيْنٍ

٢- ﴿قَدْ فَرَضَ اللّٰهُ لَكُمْ مِحْلَةً اٰتَمْنَٰكُمْ وَاللّٰهُ مَوْلَاكُمْ وَهُوَ الْعَلِيْمُ الْمَخِيْمُ﴾ (٢)

ثم بين سبحانه وتعالى الحكم الشرعي فيمن حرّم على نفسه شيئاً أحله الله تعالى له، فقد شرع الله له ما تنحل به يمينه قبل الحنث، وما به الكفارة بعد الحنث، فقال: ﴿قَدْ فَرَضَ اللّٰهُ لَكُمْ مِحْلَةً اٰتَمْنَٰكُمْ﴾ أي شرع الله لكم - أيها المؤمنون - تحليل أيمانكم التي هي من هذا القبيل، بأداء الكفارة عنها، وهي: إطعام عشرة مساكين، أو كسوتهم، أو تحرير رقبة، فمن لم يجد فصيام ثلاثة أيام، إذ ليس لأحد أن يحرم على نفسه ما أحله الله له، فإن فعل، فإن يمينه لا ينعقد، ولا يلزم صاحبه الوفاء به، لأن التحليل والتحريم حق لله وحده، قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَحْرِمُوا طَيِّبَاتِ مَا أَحَلَّ اللّٰهُ﴾ [المائدة: ٨٧] فإن حرم الإنسان على نفسه ثوباً أو طعاماً أو شرباً أو شيئاً مباحاً ونحو ذلك فهو بمنزلة اليمين،

(١) ينظر: صحيح البخاري برقم (٤٩١٢).

فإن فعل، انحلت يمينه وكفر عنها.

فتحليل اليمين التي عُقدت على هذا النحو يكون بالتكفير عنها، إذا كان العدول عنها إلى غيرها أفضل، كما في الحديث عن أبي موسى أن النبي ﷺ قال: «إني والله لا أحلف على يمين فأرى غيرها خيراً منها، إلا كفرْتُ عن يميني، وفعلْتُ الذي هو خير»^(١).

أخرج الطبري بسند حسن عن علي بن أبي طلحة عن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله تعالى: ﴿قَدْ فَرَضَ اللَّهُ لَكُمْ تَحِلَّةَ أَيْمَانِكُمْ﴾ أي أمر الله النبي والمؤمنين إذا حرموا شيئاً مما أحله الله لهم أن يكفروا عن أيمانهم بإطعام عشرة مساكين، أو كسوتهم، أو تحرير رقبة، ولا يدخل في ذلك طلاق.

قال تعالى: ﴿لَا يُؤَاخِذُكُمُ اللَّهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ وَلَكِنْ يُؤَاخِذُكُمْ بِمَا عَقَّدْتُمُ الْأَيْمَانَ فَكَفَرْتُمْ بِهِ إِطْعَامُ عَشْرَةِ مَسْكِينٍ مِنْ أَوْسَطِ مَا تُطْعَمُونَ أَهْلِيكُمْ أَوْ كَسَوْتُمْهُمْ أَوْ تَحْرِيرُ رَقَبَةٍ فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ ذَلِكَ كَفَرْتُمْ أَيْمَانَكُمْ إِذَا حَلَفْتُمْ وَاحْفَظُوا أَيْمَانَكُمْ﴾ [المائدة: ٨٩].

وهذه الكفارة على أساس أن التحريم يمين وليس ظهاراً، ويشهد له حديث ابن عباس رضي الله عنهما في الصحيحين قال: «إذا حرم الرجل امرأته فهي يمين يكفرها» وقال: ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾^(٢).

وفي رواية: «إذا حرم امرأته ليس بشيء» وقال: ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾^(٣). وفي كفارة اليمين وفاء بتعظيم الحلف بالله تعالى، كما قال تعالى لأيوب عليه السلام ﴿وَحُذِرْ بِدُوكَ ضَعْفًا فَأُضْرِبْ بِهِ، وَلَا تَحْنُتْ﴾ [ص: ٤٤].

وقد أمر الله نبيه أن يكفر عن قوله، لأن ما يحرمه الإنسان على نفسه يجري مجرى اليمين، أو لأنه ملحق باليمين، وكان ذلك تطيئاً لخاطر زوجته، وجمعاً لشمْل البيت النبوي.

(١) من حديث أبي موسى الأشعري في البخاري (٧٥٥٥، ٣١٣٣)، ومسلم (١٦٤٩).

(٢) ينظر: تفسير الطبري (١٠١/٢٨)، وصحيح البخاري برقم (٤٩١١)، وصحيح مسلم برقم (١١٧٣).

(٣) للحميدي وانظر سنن النسائي الكبرى برقم (١١٦٠٩).

فإن حلف الرجل أن لا يأكل طعاماً معيناً، أو لا يلبس ملابس معينة، أو لا يدخل مكاناً معيناً، ونحو ذلك، بأن حلف على فعل شيء، أو ترك شيء، ثم حنث في يمينه أو أراد أن يحنث في يمينه، فله أن يأكل ويلبس ويفعل أو يترك ويكفر عن يمينه، لأن الحلال لا يكون حراماً بتحريمه له.

واختلف الفقهاء فيمن حرم على نفسه شيئاً مما أحله الله له على أقوال:

- ١ - منها: أنه لا يلزمه شيء، وهو قول الشعبي ومسروق وربيعة ..
 - ٢ - ومنها: أنه تجب فيه كفارة يمين، وبه قال الجمهور.
 - ٣ - ومنها: أنه لا يلزمه شيء في غير ما يتعلق بالزوجة ويلزمه في الزوجة.
 - ٤ - ويرى أبو حنيفة أن تحريم الزوجة يكون ظاهراً أو طلاقاً حسب نية من حرّمها على نفسه.
- ثم ختم الله الآية بقوله: ﴿وَاللَّهُ مَوْلَاكُمْ﴾ أي هو سبحانه وليكم وناصركم ومتولي أموركم في دينكم ودنياكم ولذلك شرع لكم كفارة اليمين لتبرأ ذممكم.
- ﴿وَهُوَ الْعَلِيمُ﴾ بشؤون خلقه وما يصلحها الذي أحاط علمه بطواهركم وبواطنكم.
- ﴿لَكُمْ﴾ في صنعه وفي أقواله وأفعاله، فلا يأمر ولا ينهى إلا بما تقتضيه الحكمة والمصلحة، فلذلك شرع لكم من الأحكام ما يناسب أحوالكم ويوافق مصالحكم.

قِصَّةُ مَا حَرَّمَهُ النَّبِيُّ ﷺ عَلَى نَفْسِهِ

- ٣ - ﴿وَإِذْ أَسْرَأَ النَّبِيُّ إِلَى بَعْضِ أَزْوَاجِهِ حَدِيثًا فَلَمَّا نَبَأَتْ بِهِ وَأَظْهَرَهُ اللَّهُ عَلَيْهِ عَرَفَ^(١) بَعْضَهُ. وَأَعْرَضَ عَنْ بَعْضٍ فَلَمَّا نَبَأَهَا بِهِ قَالَتْ مَنْ أَنْبَأَكَ هَذَا قَالَ نَبَأَنِيَ الْعَلِيمُ الْخَبِيرُ ﴿٣﴾﴾

شرعت السورة في بيان القصة التي حدثت لرسول الله ﷺ مع بعض زوجاته فقال تعالى: ﴿وَإِذْ أَسْرَأَ النَّبِيُّ إِلَى بَعْضِ أَزْوَاجِهِ حَدِيثًا﴾ أي اذكر - أيها المخاطب - حين أسر النبي محمداً ﷺ إلى زوجته حفصة رضي الله عنها خبراً، وطلب منها أن تكتمه ولا تفضيه،

(١) قرأ الكسائي بتخفيف الراء من ﴿عَرَفَ﴾ على معنى المجازاة لا على حقيقة العرفان لأنه كان عارفاً بالجميع والباقون بتشديدها أي عرف الرسول حفصة بعض ما فعلت، والمفعول الأول محذوف.

فذكرته لعائشة رضي الله عنها، وأفشت سر رسول الله ﷺ.

وكما جاء في الحديث السابق أيضاً أن النبي ﷺ قال لها: «بل شربتُ غسلاً عند زينب ولن أعود، وقد حلفتُ فلا تخبري بذلك أحداً».

والتي أسر إليها النبي ﷺ بهذا الحديث هي حفصة.

فقد جاء في الصحيح عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: (مكثتُ سنة، وأنا أريد أن أسأل عمر بن الخطاب عن آية، فما أستطيع أن أسأله، هنية له، حتى خرج حاجاً فخرجتُ معه، فلما رجع ببعض الطريق قلت: يا أمير المؤمنين، من اللتان تظاهرتا على رسول الله ﷺ من أزواجه؟ فقال: تلك حفصة وعائشة^(١)).

وجاءت طائفة من الآثار تفيد أن ما أسر به النبي ﷺ إلى حفصة يتعلق بأمر الخلافة بعده، وهي أقوال لا ترقى إلى مرتبة الصحة، ومنها:

١- أخرج الطبراني وابن مردويه عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: دخلتُ حفصة على النبي ﷺ في بيتها، وهو يطأ مارية، فقال لها رسول الله ﷺ: (لا تخبري عائشة حتى أبشرك ببشارة، فإن أبأك يلي الأمر بعد أبي بكر، إذا أنا مت)، فذهبتُ حفصة فأخبرت عائشة، فقالت عائشة للنبي ﷺ: «من أنباك هذا؟» قال: ﴿تَبَأَى الْغَلِيْمُ الْخَبِيرُ﴾ فقالت عائشة: لا أنظر إليك حتى تُحَرِّم مارية، فحرّمها فأنزل الله الآية^(٢).

٢- وعن علي وابن عباس رضيهما الله، قالوا: والله، إن إمارة أبي بكر وعمر لفي الكتاب ﴿وَإِذْ أَسْرَأَ النَّبِيُّ إِلَى بَعْضِ أَزْوَاجِهِ حَدِيثًا﴾ قال لحفصة: «أبوك وأبوعائشة، واليا الناس بعدي، فإياك

(١) صحيح البخاري برقم (٢٤٦٨، ٤٩١٣)، ومسلم (١٤٧٩)، وأحمد (٢٢٢) بأطول من ذلك، وإسناده صحيح على شرط الشيخين، والترمذي (٢٤٦١)، والنسائي (٢١٣١)، وفي الكبرى (٢٤٤٢)، وابن حبان (٤٢٦٨).

(٢) أخرجه الطبراني في الكبير برقم (١٢٦٤٠)، وابن مردويه كما في فتح الباري (٢٨٩/٩)، وقال الهيثمي: فيه إسماعيل بن عمرو البجلي وهو ضعيف، وقد وثقه ابن حبان، والضحاك بن مزاحم لم يسمع من ابن عباس وبقيّة رجاله ثقات، مجمع الزوائد (١٧٨/٥).

أن تخبري أحداً»^(١).

٣- وعن ميمون بن مهران قال: أسرَّ النبي ﷺ إليها: «إن أبا بكر خليفتي من بعدي»^(٢).

٤- وقال حبيب بن أبي ثابت: أخبر النبي ﷺ عائشة أن أباها الخليفة من بعده، وأن أبا حفص الخليفة من بعد أبيها^(٣).

٥- وقال الضحاك: أسرَّ النبي ﷺ إلى حفصة بنت عمر أن الخليفة من بعده أبو بكر، ومن بعد أبي بكر عمر^(٤).

قال الفخر الرازي: لما رأى النبي ﷺ الغيرة في وجه حفصة، أراد أن يترضاها، فأسرَّ إليها بشيئين: تحريم الأمة (مارية) على نفسه، والبشارة بأن الخلافة بعده في أبي بكر وعمر^(٥).
فالحديث الذي أسرَّه النبي ﷺ إلى حفصة وأمرها بكتمانه يتعلق بالعسل أو بالخلافة، أو بالجارية.

وقد كنى القرآن عن حفصة ببعض أزواجه ولم يصرح باسمها ﴿فَلَمَّا بَيَّنَّاتُ بِهِ﴾ أي لما أخبرت حفصة عائشة رضي الله عنهما بالخبر ﴿وَأَظْهَرَهُ اللَّهُ عَلَيْهِ﴾ أي أطلع الله نبيه بواسطة جبريل على إفشاء حفصة لسره ﴿عَرَفَ بَعْضُهُ﴾ وهو تحريم مارية عليه ﴿وَأَعْرَضَ عَنْ بَعْضٍ﴾ وهو أمر الخلافة، كراهة أن يتفشى ذلك في الناس، وذلك أنه عندما أراد النبي ﷺ أن يعاتب حفصة على ما كان منها، أخبرها ببعض الحديث الذي أفشته، ولم يخبرها بجميع ما حدث، حياء منه وتكروماً، فإن من عادة أهل الفضل التغافل عن الزلات والتقصير في اللوم والعتاب.

(١) أخرجه ابن عدي (١٢٧٢/٣)، وأبونعيم في فضائل الخلفاء الأربعة (١٧٨)، وابن عساكر (٢٢٢/٣٠).

(٢) ابن عساكر (٢٢٢/٣٠).

(٣) أبونعيم في فضائل الصحابة (١٧٧) فضائل الخلفاء الأربعة.

(٤) قاله ابن عباس، ينظر: التفسير الكبير (٤٣/٣٠)، وتفسير الخازن (٢٨٤/٤)، وجاء ذلك عن أبي هريرة عند الطبراني في الأوسط (٢٣١٦)، وابن مردويه كما في فتح الباري (٦٥٧/٨)، وتخرج أحاديث الكشف للزيلعي (٦٠/٤).

قال الخازن: والمعنى: أن النبي ﷺ أخبر حفصة ببعض ما أخبرت به عائشة وهو تحريم الأمة، وأعرض عن ذكر الخلافة، لأنه ﷺ كره أن يتشر ذلك في الناس^(١). وقال النسفي: روى أنه قال لها: ألم أقل لك اكنمي عليّ، قالت: والذي بعثك بالحق، ما ملكت نفسي فرحا بالكرامة التي خص الله بها أباه^(٢). ولعل حفصة قد فعلت ذلك ظنا منها أنه لا حرج في إخبار عائشة بذلك، أو أنها اجتهدت فأخطأت، ثم تابت وندمت.

﴿فَلَمَّا بَيَّنَّاهُ بِهِ﴾ أي لما أخبر النبي ﷺ حفصة بالحديث الذي أفشته إلى عائشة ﴿قَالَتْ مَنَ أَبَاكَ هَذَا﴾ أي من أخبرك يا رسول الله بما قلته، وكانت حفصة قد استكتمتها، فأرادت أن تثبت من أن عائشة لم تخبره بما دار بينهما من كلام، فهي تعلم أن عائشة لن تفشي سرها، وتعلم أنه لا قبل للرسول ﷺ بمعرفة ذلك إلا من طريق عائشة أو عن طريق الوحي، فأرادت التحقق فأجابها النبي ﷺ بأن الذي أخبره بذلك هو علام الغيوب ﴿قَالَ نَبَأَنِي الْعَلِيُّ الْخَيْرُ﴾ الذي لا تخفى عليه خافية في الأرض ولا في السماء. قال تعالى: ﴿عَلِمُ الْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَى غَيْبِهِ أَحَدًا ۝ (٦) إِلَّا مَنَ ارْتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ فَإِنَّهُ يَسْلُكُ مِن بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ رَصَدًا﴾ [الجن: ٢٦، ٢٧].

هل طلق النبي ﷺ حفصة ٩

قيل: إن النبي ﷺ غضب من إفشاء حفصة لسره وطلقها، فلما بلغ ذلك عمر قال: لو كان في آل الخطاب خير، ما طلقك رسول الله ﷺ وأتاه جبريل فأمره بمراجعتها. وقيل: إنه ﷺ لم يطلقها، وإنما هم بطلاقها، فجاءه جبريل عليه السلام فقال: لا تطلقها فإنها صوامه قوامه، وإنها من نسائك في الجنة^(٣).

(١) تفسير الخازن (٢٨٤/٤).

(٢) تفسير النسفي بحاشية الخازن (٢٨٤/٤).

(٣) تفسير الخازن (٢٨٤/٤)، ورواه ابن جرير عن قتادة مرسلاً، كما في تفسيره (٨٥/٢٨)، واختلف أهل العلم هل طلق النبي ﷺ حفصة أم لا؟ ولم يثبت طلاقها في حديث صحيح، ولكن حدثت قضية الإيلاء بسبب حفصة، ينظر: تفسير التحرير والتنوير للآية (٣٩٦/٢٨).

اعتزال النبي ﷺ لزوجاته:

وفي قصة اعتزال النبي ﷺ لزوجاته أن عمر رضي الله عنه قال لابن عباس رضي الله عنهما: كنا معشر قريش نغلب النساء، فلما قدمنا المدينة، وجدنا قوماً تغلبهم نساؤهم، فأخذ نساؤنا يتعلمن من نسائهم، فغضبتُ على امرأتي يوماً وأنكرتُ عليها مراجعتها لي، فقالت: والله إن أزواج النبي ﷺ يراجعنه، وتهجرُهُ إحداهن اليوم إلى الليل، قال عمر: وكان لي جار من الأنصار نتاوب النزول على رسول الله ﷺ نأتي بخبر الوحي، قال: وكنا نخشى من غزو غسان لنا، فجاء الأنصاري يوماً عشاءً، فضرب الباب، فخرجتُ، فقال: حدث أمر عظيم، فقلت: أ جاء غسان؟ قال: أعظم من ذلك، طلق رسول الله ﷺ نساءه، فقلت في نفسي: خابت حفصة وخسرت، فلما أصبحتُ، انطلقتُ ودخلتُ على حفصة، فإذا هي تبكي، فقلت: أطلقكُ رسول الله ﷺ؟ قالت: لا أدري، هو ذا معتزل في المشربة - أي الغرفة المرتفعة - قال عمر: فاستأذنت في الدخول عليه، فأذن لي في المرة الثالثة، قال: فدخلت، فإذا النبي ﷺ متكئاً على حصير قد رأيت أثره في جنبه.

ثم إن عمر قال لابنته حفصة: أترجعن رسول الله؟ قالت: نعم، وتهجرُهُ إحدانا اليوم إلى الليل، فقلت: قد خابت من فعلت ذلك منك وخسرت، أأأمن إحدان أن يغضب الله عليها لغضب رسول الله ﷺ فإذا هي قد هلكت؟ فتبسم رسول الله ﷺ، قال عمر لحفصة: ولا تسأليه شيئاً وسليني مابدا لك، ولا يغرنك أن صاحبك أوسم منك، وأحب إلى رسول الله ﷺ فتبسم أخرى، فقلت: يا رسول الله، أستأنس؟ - يعني أتوسع في الحديث؟ - قال: (نعم)، فرفعت رأسي فما رأيتُ إلا ثلاث قطع من الجلد، فقلت: يا رسول الله، ادع الله أن يوسع على أمتك فقد وَسَّع على فارس والروم وهم لا يعبدونه، فاستوى رسول الله ﷺ جالساً، فقال: «أوفي شك أنت يا بن الخطاب؟ أولئك قوم قد عجلت لهم طيباتهم في الحياة الدنيا» وكان ﷺ قد أقسم ألا يدخل على نسائه شهراً،

فعاتبه الله في ذلك وجعل له كفارة يمين^(١).

إِثَابَةُ التَّائِبِ وَعُقُوبَةُ الْمُصِرِّ عَلَى الذَّنْبِ

٤ - ﴿إِنْ تَوْبَا إِلَى اللَّهِ فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا وَإِنْ تَظَاهَرَا^(٢) عَلَيْهِ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ مَوْلَاهُ وَجِبْرِيلُ^(٣) وَصَلِّحُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمَلِئِكَةَ بَعْدَ ذَلِكَ ظَهِيرٌ ﴿٤﴾﴾

ثم يتوجه القرآن بالخطاب إلى حفصة وعائشة فيأمرهما بالتوبة على ما صدر منهما ﴿إِنْ تَوْبَا إِلَى اللَّهِ﴾ وتزجعا إليه وتندما عما بدر منكما ﴿فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا﴾ أي مالت إلى الخير وحُسن المعاشرة بعد الانحراف عن آدابها، وقد بدر منكما ما يوجب التوبة.

قال تعالى: ﴿وَلْيَصْغَحْ إِلَيْهِ أَفْعِدَةُ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ﴾ [الأنعام: ١١٣]. أي يُميل سَمْعَهُ إلى مَنْ يُكَلِّمُهُ، وكان قلب عائشة وحفصة قد ما لا إلى محبة ما كرهه النبي ﷺ من إفشاء سره ﴿وَإِنْ تَظَاهَرَا عَلَيْهِ﴾ أي وإن تتعاوننا على إيذاء النبي ﷺ وإساءته من الواقعة بينه وبين سائر نسائه ويستمر ذلك منكما ﴿فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ مَوْلَاهُ﴾ هو وليه وناصره وليس بعد نصر الله له نصر.

وهنا يقف القارىء، ثم يبدأ بالمبتدأ بعد ذلك وهو جبريل ومن غُطف عليه. والمعنى: ثم إن جبريل والمؤمنين الصالحين المخلصين نُصراء له أيضاً وأعواناً، وهذا معنى: ﴿وَجِبْرِيلُ وَصَلِّحُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ الجميع أعوان الرسول، ومن كان هؤلاء عوناً

(١) ينظر الحديث في البخاري (٢٤٦٨، ٤٩١٣، ٥١٩١)، ومسلم (١٤٧٩)، وابن سعد (١٨٢/٨)، والترمذي (٢٤٦١، ٣٣١٨)، والنسائي (٢١٣١)، وفي الكبرى (٩١٥٧، ٢٤٤٢)، وابن حبان (٤٢٦٨).

(٢) قرأ عاصم وحزمة والكسائي وخلف بتخفيف الظاء من ﴿تَظَاهَرَا﴾ على حذف إحدى التائين، والباقون بالتشديد على إدغام التاء في الظاء.

(٣) قرأ نافع وأبو عمرو وابن عامر وحفص وأبو جعفر ويعقوب ﴿وَجِبْرِيلُ﴾ بكسر الجيم، وبدون همزة على لغة الحجازيين، وقرأ ابن كثير (وجبريل) بفتح الجيم، وقرأ حمزة والكسائي وخلف وشعبة بخلف عنه (وجبرئيل) بفتح الجيم وهمزة بعد الراء، والوجه الثاني لشعبة (وجبرئيل) بحذف الياء بعد الهمزة وكلها لغات، وفيه لحمزة وقفا التسهيل فقط.

فهو المنصور وغيره ممن يُناوئه هو المخذول.

ثم نبه جل شأنه على أنه يوجد نصر ثالث لرسول الله ﷺ غير ظاهر لنا، وهو تأييد الملائكة له بالنصر، وهذا أمر خفي بالنسبة لنا، كما نصر الله المؤمنين بالملائكة يوم بدر وهم لا يرونهم. قال تعالى: ﴿وَالْمَلَائِكَةُ بَعْدَ ذَلِكَ ظَهِيرٌ﴾ أي أن الملائكة أعوان للنبي ﷺ ينصرونه ويؤيدونه.

أي والملائكة نُصراء له أيضاً بعد نصر الله تعالى وكذا جبريل والصالحين من عباد الله. ونُصرة جبريل للنبي ﷺ لأن الوحي يأتي بواسطته، ونصرة المؤمنين الصالحين للنبي ﷺ بمعنى أن الله تعالى ينصره بواسطتهم.

فماذا يفيد تظاهر امرأتين على من هؤلاء أعوانه وأنصاره؟ وجبريل عليه السلام يدخل ضمن عموم الملائكة، وإفراده بالذكر تشريفاً له. وتوسيط ﴿وَصَلِّحُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ بين جبريل والملائكة، اعتناء بهم، وإشادة بفضل صلاحهم.

التَّحْذِيرُ مِنْ إِفْشَاءِ أَسْرَارِ الزَّوْجِيَّةِ

٥- ﴿عَسَى رَبُّهُ إِنْ طَلَّقَكُنَّ أَنْ يُبَدِّلَهُ^(١) أَزْوَاجًا خَيْرًا مِنْكَ مُؤْمِنَاتٍ مُؤْمِنَاتٍ قُنَّاتٍ تَلْبَسْنَ عِذَاتِ سَخِرَ لِيَنَّاتٍ وَأَنْكَارًا﴾

ولما أفادت الآية السابقة التحذير لعائشة وحفصة رضي الله عنهما من العذاب الأخروي إن لم يتوبا إلى الله تعالى، أفادت هذه الآية التحذير لهما من عقوبة دنيوية، وهي عقوبة الطلاق لهن جميعاً واستبدالهن بأزواج أخريات خيراً منهن.

في حديث عمر رضي الله عنه أن النبي ﷺ اعتزل نساءه، وحلف ألا يدخل عليهن شهراً، قال: «فاستأذنت في الدخول على رسول الله، فقلت: يا رسول الله، ما يشق عليك من أمر النساء، فإن كنت طلقتهن، فإن الله معك وملائكته وجبريل وميكائيل، وأنا وأبوبكر،

(١) قرأ ابن كثير وابن عامر وعاصم وحزمة والكسائي ويعقوب وخلف ﴿يُبَدِّلُهُ﴾ بسكون الباء وتخفيف الدال مضارع أبذل، وقرأ الباقون بفتح الباء وتشديد الدال مضارع بذل.

والمؤمنون معك، قال: فنزلت آية التخيير ﴿عَسَى رَبُّهُ إِنْ طَلَّقَكُنْ أَنْ يُبْدِلَهُ أَزْوَاجًا خَيْرًا مِنْكَ﴾ ﴿وَإِنْ تَظَاهَرَا عَلَيْهِ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ مَوْلَاهُ وَجِبْرِيلُ وَصَالِحُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمَلَائِكَةُ بَعْدَ ذَلِكَ ظَهِيرٌ﴾ فقلت: أطلقتهن؟ قال: لا، فقامت على باب المسجد، فناديت بأعلى صوتي: لم يطلق رسول الله نساءه، ونزلت هذه الآية ﴿وَإِذَا جَاءَهُمْ أَمْرٌ مِنَ الْأَمْنِ أَوِ الْخَوْفِ أَذَاعُوا بِهِ وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى الرَّسُولِ وَإِلَى أُولَى الْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ الَّذِينَ يَسْتَنْبِطُونَهُ مِنْهُمْ﴾ [النساء: ٨٣] فكنت أنا استبطت ذلك الأمر^(١).

وعن عمر رضي الله عنه قال: وافقت ربي في ثلاث: قلت: يا رسول الله، لو اتخذت من مقام إبراهيم مصلی، فنزلت ﴿وَإِخِذُوا مِنْ مَقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى﴾ [البقرة: ١٢٥]. وقلت: يدخل عليك البر والفاجر، فلو أمرت أمهات المؤمنين بالحجاب، فأنزل الله آية الحجاب.

وبلغني معاتبه النبي ﷺ بعض نسائه فدخلت عليهن فقلت: إن انتهيتن، أو ليبدلن الله رسوله خيراً منكن، فأنزل الله ﴿عَسَى رَبُّهُ إِنْ طَلَّقَكُنْ أَنْ يُبْدِلَهُ أَزْوَاجًا خَيْرًا مِنْكَ﴾^(٢). والمعنى: عسى رب محمد إن طلقكُن - أيتها الزوجات - أن يزوجه بدلاً منكن، وهذا وعد من الله تعالى لرسوله ﷺ لو طلقهن لأبدله الله خيراً منهن ديناً وجمالاً. قال ابن سعدي: وهذا من باب التعليق الذي لم يوجد، ولا يلزم وجوده، فإنه ما طلقهن، ولو طلقهن لكان ما ذكره الله من هذه الأزواج الفاضلات الجامعات بين الإسلام والإيمان^(٣). والله تعالى عالم بأنه لن يطلقهن، ولكنه سبحانه خوّفهن، وأخبر عن قدرته جل شأنه على ذلك.

ثم وصف الله تعالى هؤلاء الزوجات اللواتي سيبدله بهن بثماني صفات:

١- فهن ﴿مُسْلِمَاتٌ﴾ متصفات بالإسلام، عاملات به، قائمات بأركانه وحدوده،

(١) ينظر: صحيح مسلم برقم (١٤٧٩)، والبخاري (٥١٩١، ٢٤٦٨، ٨٩).

(٢) صحيح البخاري برقم (٤٠٢)، وانظر (٤٤٨٣، ٤٧٩٠، ٤٩١٦)، ومسلم (٢٣٩٩).

(٣) من تفسير ابن سعدي للآية بتصرف.

خاضعات لله تعالى بالطاعة والاستجابة.

٢- وهن ﴿مُؤْمِنَاتٍ﴾ مصدقات بالله، وملائكته، وكتبه، ورسله، واليوم الآخر، وبالقدر خيره وشره، تصديقاً بالقلب، ونطقاً باللسان، وعملاً بالجوارح.

٣- وهن ﴿فَتَنَاتٍ﴾ مطيعات لله ورسوله، على وجه الدوام والاستمرار، قائمات بالطاعة أحسن قيام، كما وصفهن الله تعالى في قوله: ﴿وَمَنْ يَقْنُتْ مِنْكِنَّ لِلَّهِ وَرَسُولِهِ﴾ [الأحزاب: ٣١] وقوله: ﴿وَقَوْمُوا لِلَّهِ قَنِينِينَ﴾ [البقرة: ٢٣٨].

٤- وهن ﴿تَيَبَّاتٍ﴾ عما يكرهه الله، قائمات بما يحبه الله، مقلعات عن الذنب إذا وقعن فيه، راجعات إلى طاعة الله تعالى، ومن ذلك ما وقعت فيه حفصة وعائشة من تأمرهما على رسول الله ﷺ.

٥- وهن ﴿عِدَاتٍ﴾ مقبلات على عبادة الله تعالى، كثيرات الطاعة له سبحانه.

٦- وهن ﴿سَّيَحَرْنَ﴾ قال ابن عباس رضي الله عنهما: صائمات، واستدل بالأثر (سياحة هذه الأمة: الصيام) فهن ناسكات صائمات مجاهدات، مهاجرات .. وقال زيد بن أسلم: مهاجرات، وتلا ﴿الَّتِي يَتُوبْنَ إِلَى اللَّهِ ذَاتُ الْبُحْرَيْنِ﴾ [التوبة: ١١٢] أي المهاجرون.

ولعل المراد: الهجرة في طلب العلم ونحوه، وأنهن ذاهبات في طاعة الله تعالى كل مذهب.

٧- وهن ﴿تَيَبَّاتٍ﴾ والثيب هي التي سبق لها الزواج، وسميت كذلك لأنها ثابتت أي رجعت إلى بيت أبويها بعد زواجها، أو رجعت إلى زوج آخر بعد زواجها الأول. أي بعضهن ثيبات وبعضهن أبكاراً

ثم عطف بالواو للتغاير بين الثيب والبكر فقال تعالى:

٨- ﴿وَأَبْكَارًا﴾ وهي الفتاة العذراء التي لم يسبق لها الزواج، وسميت بكراً: لأنها لا تزال على حالها التي خلقت عليها من البكارة، وذُكِرَ البكر والثيب ليكون ذلك أشهى إلى النفس.

فلما سمعن هذا التخويف بادرن إلى رضا رسول الله ﷺ، فكُنَّ بهذا أفضل نساء المؤمنين، ولما اختار الرسول بقاءهن معه دل على أنهن خير النساء وأكملهن. عن ابن عمر رضي الله عنهما قال: جاء جبريل إلى رسول الله ﷺ بموت خديجة فقال: «إن الله يُقرؤها السلام، ويبشرها بيت في الجنة من قَصَب، بعيد من اللهب، لا نصب فيه ولا صَحْب، من لؤلؤة جوفاء، بين بيت مريم بنت عمران، وبيت آسية بنت مزاحم»^(١).

التعريف بزوجات النبي ﷺ وهن:

- ١- خديجة بنت خويلد رضي الله عنها، تزوجها النبي ﷺ وهو ابن خمس وعشرين سنة، وسنها أربعون سنة، وماتت رضي الله عنها قبل الهجرة بثلاث سنوات، ولم يتزوج النبي ﷺ غيرها حتى ماتت، وقد تجاوز سنُّه الخمسين.
- ٢- سودة بنت زفعة رضي الله عنها، كان زوجها السكران بن عمرو بن عبد شمس، من السابقين إلى الإسلام، ومن مهاجري الحبشة، فلما تُوفي عنها، تزوجها النبي ﷺ.
- ٣- عائشة بنت الصديق رضي الله عنها، لم يتزوج النبي ﷺ بكرةً غيرها، وقد دخل عليها في المدينة بعد الهجرة، وكانت أحب نسائه إليه.
- ٤- حفصة بنت عمر رضي الله عنها، تزوجها النبي ﷺ بعد الهجرة بستين وأشهر، بعد أن عرضها أبوها على أبي بكر وعلى عثمان، وكانت ثيباً.
- ٥- زينب بنت خزيمة رضي الله عنها، قُتل زوجها عبدة بن الحارث بن عبد المطلب يوم بدر، فتزوجها النبي ﷺ وماتت في حياته.
- ٦- أم سلمة رضي الله عنها، تُوفي زوجها أبوسلمة على إثر جرح أصابه يوم أحد، فتزوجها رسول الله ﷺ وضم إليه عيالها منه.
- ٧- زينب بنت جحش رضي الله عنها، ابنة عمة النبي ﷺ تزوجها النبي ﷺ إبطالاً لقاعدة

(١) ينظر الحديث عن أبي هريرة، وعن عبد الله بن أبي أوفى، وعائشة، وابن عمر في البخاري (١٧٩٢)،

٣٨١٦، ٣٨١٧، ٣٨١٩، ٣٨٢٠، ٧٤٩٧، ومسلم (٢٤٣٢، ٢٤٣٣، ٢٤٣٤).

التبني بعد أن طلقها متبناه زيد بن حارثة ﷺ.

٨- جُوَيْرِيَة بنت الحارث رضي الله عنها، بنت سيد بني المصطلق، تزوجها النبي ﷺ سنة ست من الهجرة، كانت من سبايا غزوة بني المصطلق، ووقعت في سهم ثابت بن قيس بن شماس، فكاتبته على نفسها، فذهبت إلى النبي ﷺ تستعين به في قضاء ما عليها لشماس، ففضى عنها النبي ﷺ وتزوجها.

٩- أم حبيبة بنت أبي سفيان رضي الله عنها، أسلمت وهاجرت إلى الحبشة، فارتد زوجها عبد الله بن جحش إلى النصرانية وتركها، فخطبها النبي ﷺ وهي في الحبشة وأمهرها النجاشي وقدمت إلى المدينة.

١٠- صفية بنت حُيَيِّ بن أخطب رضي الله عنها، بنت زعيم بني النضير، كانت زوجة لكنانة بن أبي الحقيق، وبينما كان بلال يمرّ بها على قتلى اليهود، ألقى النبي ﷺ عليها ثيابه، فعرف الناس أن رسول الله ﷺ اصطفاهما لنفسه وكان ذلك بعد فتح خيبر.

١١- ميمونة بنت الحارث رضي الله عنها، وهي خالة خالد بن الوليد وعبد الله بن عباس ؓ، وهي أرملة حويطب بن عبد العزى، وكانت آخر من تزوج النبي ﷺ.

الْأَمْرُ بِوَقَايَةِ النَّفْسِ وَالْأَهْلِ مِنَ عَذَابِ النَّارِ

٦- ﴿يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا قُوا أَنْفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ عَلَيْهَا مَلَائِكَةٌ غِلَاطٌ شِدَادٌ لَا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ﴿٦﴾﴾

وبعد أن وعظ الله سبحانه أمهات المؤمنين موعظة خاصة، أتبع ذلك بموعظة عامة للمؤمنين جميعا، فيها تحذير لهم بالوقاية من النار، وترهيب شديد من عذاب الله، فقال تعالى: ﴿يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ يا معشر من صدق الله واتبع رسوله، ومنّ عليه بالإيمان، قوموا بلوازمه وشروطه ﴿قُوا أَنْفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا﴾ احفظوا أنفسكم وأهليكم، وصونوا أزواجكم وأولادكم، وأبعدوهما عن عذاب النار، بفعل الحسنات والطاعات، وترك السيئات والمعاصي، وامتنال الأوامر واجتناب النواهي، وتوبوا مما يسخط الله، وأرشدوا

أبناءكم وبناتكم وزوجاتكم إلى ذلك وعلموهم وأدبوهم، وأمروهم بالخير، وأنهوهم عن الشر حتى تقوهم من النار، فلا يسلم العبد إلا إذا قام بما أمره الله به في نفسه، وفيمن يدخل تحت ولايته من الزوجية والأبناء وغيرهم، كما جاء في حديث ابن مسعود رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «كلكم راع وكلكم مسؤول، فالإمام راع وهو مسؤول، والرجل راع على أهله وهو مسؤول، والمرأة راعية على بيت زوجها وهي مسؤولة، والعبد راع على مال سيده وهو مسؤول، ألا فكلكم راع وكلكم مسؤول»^(١).

وفي الحديث عن عبد الله بن عمرو رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «مروا أبناءكم بالصلاة لسبع، واضربوهم عليها لعشر، وفرقوا بينهم في المضاجع»^(٢). ولما نزلت هذه الآية، قال عمر: يا رسول الله، نقي أنفسنا، فكيف بأهلينا؟ فقال: «تنهونهم عما نهاكم الله عنه، وتأمرونهم بما أمركم الله به»^(٣).

أخرج الطبري بسند حسن عن قتادة في معنى الآية قال: يقيهم: أي يأمرهم بطاعة الله، وينهاهم عن معصيته، وأن يقوم عليهم بأمر الله، يأمرهم به، ويساعدهم عليه، فإذا رأيت لله معصية، ردعتهم عنها، وزجرتهم عنها.

ثم بين سبحانه أن نار جهنم لا توقد بالحطب كما يوقد غيرها من نيران الدنيا، وإنما مادة اشتعالها تتكون من الناس - أهل النار - ممن مات على الكفر في الدنيا، وتتكون من الحجارة التي كانت تعبد في الدنيا من دون الله، فهذه النار ﴿وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ﴾. وهذا أمر قد تقرر قبل نزول هذه الآية، بما جاء في سورة البقرة ﴿فَأَتَقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ﴾ [البقرة: ٢٤].

(١) صحيح البخاري (٥١٨٨) عن ابن مسعود رضي الله عنه وهذا لفظه، وانظر (٨٩٣)، وصحيح مسلم (١٨٢٩).

(٢) المسند (٤٠٤/٣) رقم (٦٧٥٦) بإسناد حسن، وكذا (٦٦٨٩)، وأبوداود (٤٩٤)، والترمذي (٤٠٧)، وابن

أبي شيبة (٣٤٧/١)، وهو حديث حسن صحيح كما في صحيح سنن أبي داود (٤٦٦، ٤٦٥).

(٣) تفسير الخازن (٢٨٧/٤)، والقرطبي (١٩٤/١٨).

وفي سورة الأنبياء ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنْتُمْ لَهَا وَرَدُونَ﴾ [آية: ٩٨].

أربع صفات لملائكة العذاب:

ثم وصف الله تعالى هذه النار بقوله ﴿عَلَيْهَا مَلَكُوتٌ غَلَاطٌ شِدَادٌ لَا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ أي يقوم على تعذيب أهل النار ملائكة قساة، نزع الله الرحمة من قلوبهم، وقد وصفهم ربنا بأربع صفات:

فهم أولاً: ﴿غَلَاطٌ﴾ في الأقوال والأفعال، جفاة، قساة، فيهم فظاظة على أهل النار، يفرع أهل النار من أصواتهم، ويخافون من مناظرهم.

وهم ثانياً: ﴿شِدَادٌ﴾ أقوياء في معاملة أهل النار الذين وُكِّلوا بهم وبعذابهم، قوتهم تُرهِّب أهل النار وتزعجهم.

وهم ثالثاً: ﴿لَا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ﴾ أي لا يخالفون أمر الله تعالى بحال من الأحوال.

وهم رابعاً: ﴿وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ فينفذون كل ما أمرهم الله تعالى به بلا إمهال. إنهم يتقبلون أوامر الله تعالى ويلتزمون بها، وينفذونها ويؤدون ما أمروا به، لا يتشاقلون عنه ولا يتوانون فيه.

عن أبي عمران الجوني قال: بلغنا أن خزنة النار تسعة عشر، ما بين منكب أحدهم مسيرة مئة خريف، ليس في قلوبهم رحمة، إنما خلُقوا للعذاب، يضرب الملك منهم الرجل من أهل النار الضربة، فيتركه طحيماً من لدن قوّته إلى قدمه^(١).

عَذْرُ الْكَافِرِ لَا يُقْبَلُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ

٧- ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَعْتَذِرُوا الْيَوْمَ إِنَّمَا تُجْرُونَ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٧﴾﴾

وعندما يقف أهل النار على النار، فإنهم يعتذرون عما فعلوه في الدنيا، ويقدمون الحجج التي تُبرِّؤهم من تبعة الذنوب، عندئذ تقول لهم الخزنة تبكيتاً وتوبيخاً ﴿يَا أَيُّهَا

(١) أخرجه عبد الله بن أحمد في زوائد الزهد (ص ٣١٢).

الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَعْدِرُوا الْيَوْمَ ﴿١﴾ يَا مَنْ جَحَدْتُمْ وحدانية الله تعالى، ولم تتبعوا خاتم الرسل ﷺ لا تلتمسوا المعاذير في هذا اليوم عن كفركم وشرككم بأن تقولوا ﴿٢﴾ مَا جَاءَنَا مِنْ بَشِيرٍ وَلَا نَذِيرٍ ﴿٣﴾ [المائدة: ١٩] أو تقولوا ﴿٤﴾ وَاللَّهُ رَبُّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ ﴿٥﴾ [الأنعام: ٢٣] أو تقولوا: إِنَّ غَيْرَنَا أَضْلُنَا، فَإِنَّ هَذِهِ الْأَعْدَارُ لَن تَنْفَعَكُمْ، وَلَن تُغْنِي عَنْكُمْ شَيْئاً فَقَدْ ذَهَبَ وَقْتُ الْعِزِّ وَالْإِعْتِدَارِ، فَلَمْ يَبْقَ إِلَّا الْجَزَاءُ عَلَى الْأَعْمَالِ، وَأَنْتُمْ لَمْ تَقْدُمُوا إِلَّا الْكَفْرَ بِاللَّهِ وَالتَّكْذِيبَ بِآيَاتِ اللَّهِ، وَمُحَارَبَةَ رَسُولِ اللَّهِ ﴿٦﴾ إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٧﴾ أي إنما تُعْطَوْنَ جزاء الذي تعملونه في الدنيا من الكفر الذي مَثَمَ عليه.

طَرِيقُ الْوَقَايَةِ مِنَ النَّارِ وَالْفَوْزِ بِالنَّجَاةِ

٨- ﴿يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا تُوبُوا إِلَى اللَّهِ تَوْبَةً نَّصُوحًا^(١) عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُكَفِّرَ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَيُدْخِلَكُم جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ^(٢) يَوْمَ لَا يُخْزِي اللَّهُ النَّبِيَّ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَهُ نُورُهُمْ يَسْعَىٰ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا آتِنَا أَمَّا لَنَا نُورُنَا وَاعْفِرْ لَنَا إِنَّا كُنَّا عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرِينَ^(٣)﴾
ثم أرشد الله سبحانه إلى طريق الوقاية من النار، وذلك بالتوبة النصوح، فقد وعد الله عليها، بتكفير السيئات ودخول الجنات والفوز والفلاح، ولأن المؤمنين هم الذين ينتفعون بهذه الوقاية، فقد وُجِهَ الخطاب إليهم.

وبداية طريق النجاة من النار: هو التوبة النصوح، بالإقلاع الفوري عن جميع الذنوب، والعزم الأكيد على عدم العودة إليها، والندم الذي يتقطع له القلب حسرة على ما مضى من الذنوب، وأداء الفرائض، ورد المظالم والحقوق إلى ذويها، وإخلاص الأوبة إلى الله عز وجل.

﴿يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ يا معشر من صدق الله واتبع رسوله ﴿تُوبُوا إِلَى اللَّهِ تَوْبَةً نَّصُوحًا﴾ أي ارجعوا عن ذنوبكم إلى طاعة الله عز وجل، رُجُوعاً لا معصية بعده، وجنبوا أنفسكم

(١) قرأ شعبة بضم النون من ﴿نَّصُوحًا﴾ مصدر نصح نصحا، والباقون بفتح النون صيغة مبالغة كضروب.

(٢) عد الحمصي وحده لفظ ﴿الْأَنْهَارُ﴾ آية، فيكون متروكاً لغيره.

وأهليكم ما يَزِجُ بهم في النار.

والتوبة النصوح هي التي تصنع ضميراً يأمر بالخير، ويزجر عن الشر، ويذكر بالله تعالى:
عن النعمان بن بشير أن عمر بن الخطاب رضي الله عنهما سئل عن التوبة النصوح
فقال: أن يتوب الرجل من العمل السيء ثم لا يعود إليه أبداً^(١).

والتوبة النصوح تكفّر كل سيئة، كما صح عن ابن مسعود رضي الله عنه^(٢).
والمراد بها التوبة العامة الشاملة للذنوب كلها التي أخلص فيها العبد لله واستمر
عليها في جميع أحواله.

وأخرج الطبري بسند صحيح عن مجاهد قوله: ﴿تَوْبَةً نَّصُوحًا﴾ قال: يستغفرون ثم
لا يعودون.

وورد عن علي رضي الله عنه أنه قال: يَجْمَعُ التوبة ستة أشياء:

- ١- الندامة على الماضي من الذنوب.
 - ٢- وإعادة الفرائض.
 - ٣- ورد المظالم.
 - ٤- واستحلال الخصوم.
 - ٥- وأن تذيب نفسك في طاعة الله كما ريبتها في المعصية.
 - ٦- وأن تذيقها مرارة الطاعات كما أدقّتها حلاوة المعاصي^(٣).
- وقال محمد بن كعب القرظي: التوبة النصوح يجمعها أربعة أشياء:
الاستغفار باللسان، والإقلاع بالأبدان، وإضمار ترك العود بالجنان، ومهاجرة
سيء الإخوان^(٤).

(١) ورد هذا بإسناد صحيح موقوف على عمر رضي الله عنه كما في ابن جرير (١٠٧/٢٨)، وصححه الحاكم (٤٩٥/٢) ووافقه الذهبي، وهو عند ابن حجر في المطالب العالية (٣٧٨٥)، والبيهقي في الشعب (٧٠٣٤)، وأخرجه عبد الرزاق (٣٠٣/٢)، وابن أبي شيبة (٢٧٩/١٣).

(٢) صححه الحاكم (٤٩٥/٢) وتعقبه الذهبي بقوله: (عباية) - أحد رواه -، لا ذكر له في الكتب الستة.

(٣) تفسير التحرير والتنوير (٣٦٨/٢٨).

(٤) تفسير الخازن (٢٨٧/٤).

والله تعالى يقبل التوبة بدءاً من الكفر ﴿قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ يَنْتَهُوا يُغْفَرْ لَهُمْ مَا قَدْ سَلَفَ﴾ [الأنفال: ٣٨].

ويقبل توبة المشرك القائل عزيز ابن الله، أو المسيح ابن الله، فقد قال تعالى عنهم ﴿أَفَلَا يَتُوبُونَ إِلَى اللَّهِ وَيَسْتَغْفِرُونَهُ﴾ [المائدة: ٧٤].

ويقبل سبحانه التوبة من جميع الذنوب كبيرها وصغيرها ﴿قُلْ يَعِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعاً﴾ [الزمر: ٥٣].

ومن الأحاديث الواردة في التوبة:

١- ما رواه مسلم عن الأغر بن يسار المزني رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «يا أيها الناس توبوا إلى الله واستغفروه فإني أتوب إليه في اليوم مئة مرة»^(١).

٢- وفي الصحيحين عن أنس بن مالك رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «الله أفرح بتوبة عبده المؤمن من أحدكم سقط على بعيره وقد أضله في أرض فلاة...»^(٢).

٣- وفي صحيح مسلم عن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «إن الله ييسط يده بالليل ليتوب مسيء النهار، وييسط يده بالنهار ليتوب مسيء الليل، حتى تطلع الشمس من مغربها»^(٣).

٤- وأخرج الترمذي بإسناد حسن عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال: «إن الله يقبل توبة العبد ما لم يغرغر»^(٤).

٥- وفي الحديث القدسي عن أبي ذر «يا عبادي إنكم تخطئون بالليل والنهار وأنا أغفر الذنوب جميعاً فاستغفروني أغفر لكم»^(٥).

(١) صحيح مسلم (٢٧٠٢).

(٢) صحيح مسلم (٢٧٤٧)، وصحيح البخاري (٦٣٠٩).

(٣) صحيح مسلم (٢٧٥٩).

(٤) أخرجه الترمذي في صحيح سننه (٢٨٠٢)، وصحيح سنن ابن ماجه (٤٢٥٣).

(٥) من حديث أبي ذر عن النبي ﷺ في صحيح مسلم (٢٥٧٧، ٥٥).

قال تعالى: ﴿وَمَنْ يَعْمَلْ سُوءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ اللَّهَ يَجِدِ اللَّهَ غَفُورًا رَحِيمًا﴾ [النساء: ١١٠].

ثم رغب الله عباده في التوبة وأطمعهم في رحمته فقال: ﴿عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَنْ يُكَفِّرَ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ﴾ أي إنكم إن تبتم إلى الله تعالى توبة نصوحاً، فإن الله تعالى يمحو عنكم سيئات أعمالكم ﴿وَيُدْخِلَكُم جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾ أي يدخلكم في الآخرة حدائق وبساتين تجري من تحت أشجارها وقصورها الأنهار.

ثم أثنى الله تعالى على رسوله ﷺ وعلى المؤمنين وبين أنه سبحانه لا يخزيهم ولا يفضحهم، ولا يدخلهم النار في هذا اليوم العصيب، بل يكرمهم ويرفع من شأنهم ﴿يَوْمَ لَا يُخْزِي اللَّهُ النَّبِيَّ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ﴾ وهذا على عكس الذين لم يؤمنوا، فإن الله تعالى يخزيهم ويدخلهم النار.

والخزي هو عذاب النار، وقد دعا إبراهيم ربه أن يقيه هذا الخزي فقال: ﴿وَلَا تُخْزِنِي يَوْمَ يُنْعَثُونَ﴾ [الشعراء: ٨٧].

وقال تعالى: ﴿فَمَنْ ذُخِرَ عَنِ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ﴾ [آل عمران: ١٨٥].

وأهل الكفر والفسوق هم أهل الخزي بعذاب النار يوم القيامة، يتخبطون في الظلمات ولا يبصرون الطريق وهم يمرّون على الصراط.

أما أهل الإيمان والتقوى فإن ﴿نُورُهُمْ يَسْعَىٰ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَنْفُسِهِمْ﴾ فهم يسرون على الصراط في نور يُضيء لهم الطريق، ويشطع أمامهم وخلفهم، وعن أيمنهم وعن شمائلهم، كإضاءة القمر في سواد الليل، فهم يمشون في نور إيمانهم.

وهو نور حقيقي يجعله الله تعالى للمؤمنين يوم القيامة، وهم يقولون على سبيل الحمد والشكر: ﴿رَبَّنَا آتِنَا لَنَا نُورَنَا﴾ حتى نجتاز الصراط، ونهتدي إلى الجنة.

وتمام النور: دوامه والزيادة فيه، ولذا: فإنهم يُشفقون على أنفسهم عند ما يرون نور المنافقين يُطفأ، ويسألون ربهم أن يتم لهم نورهم، فيستجيب الله دعوتهم، ويوصلهم بنورهم إلى جنات النعيم، وذلك بسبب التوبة النصوح.

كما يطلب المؤمنون من ربهم أن يستر عليهم ذنوبهم ويتجاوز عنها، فيقولون ﴿وَاغْفِرْ لَنَا﴾ أي امح عنا ما فرط من الذنوب، فأنت القادر على كل شيء، بيدك الرحمة والمغفرة والعذاب ﴿إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ لا يعجزك شيء في الأرض ولا في السماء.

جِهَادُ الْكُفَّارِ وَالْمُنَافِقِينَ

٩- ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ وَأَعْلِزْهُمْ جَهَنَّمَ وَيَسِّرْ^(١) الْمَصِيرَ﴾

ولما بين الله عز وجل فيما سبق، ما سيحل بالكفار من العذاب يوم القيامة في قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَعْدُوا الْيَوْمَ﴾ وعرض بهم في قوله ﴿يَوْمَ لَا يُخْزِي اللَّهُ النَّبِيَّ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَهُ﴾ أمر رسوله ﷺ في هذه الآية، بتطهير الأمة من الخُبَاء، وجهاد الكفار والمنافقين جهاداً كبيراً ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ﴾ أي جاهد الذين أظهروا الكفر وأعلنوه، وقَاتِلْهُمْ بكل ما أتيح لك من وسائل القتال إذا احتلوا شبراً من أرض الإسلام، أو وقفوا حائلاً في وجه نشر الدعوة، والخطاب للنبي ﷺ وإلى قادة الأمة الإسلامية من بعده حكاماً وعلماء.

وكما أمر النبي ﷺ بجهاد الكافرين، أمر كذلك بجهاد المنافقين، فقال سبحانه: ﴿وَالْمُنَافِقِينَ﴾ أي وجاهد أيضاً المنافقين الذين أبطنوا الكفر وأخفوه، ولكن جهاد المنافقين يكون بالحجة والبرهان، والموعظة الحسنة، وإبطال ما هم عليه من أنواع الضلال وإقامة الحدود، وأداء شعائر الإسلام، ولا تقاتلوهم بالسيف لأنهم مسلمون في الظاهر، وقد أمرونا أن نأخذ بالظاهر، فمن شهد أن لا إله إلا الله، وأن محمداً رسول الله، فقد عصم ماله ودمه إلا بحق الإسلام: كالقصاص والحدود والتعزيرات، وحسابه على الله، فيما أضمر في نفسه من إظهار الإسلام وإبطان الكفر، فهو الذي يحاسبه ويجازيه لأنه وحده الذي يعلم دخائل النفوس.

(١) أبدال همزة ﴿وَيَسِّرْ﴾ ياء أبو عمرو بخلف عنه وأبو جعفر، وحمزة، وقفاً، وحققها غيرهم.

وجهاد المنافقين أيضا يكون بإلقاء الرعب في قلوبهم، ليشعروا بأن النبي ﷺ والمؤمنون من بعده لهم بالمرصاد، فلو بدت من أحدهم بادرة، يُعلم منها نفاقه، فإنه يعامل معاملة الكفار في الجهاد بالقتل والأسر، فليحذروا وليكفوا عن الكيد للمسلمين ﴿لَئِنْ لَّمْ يَنْتَهِ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ وَالْمُرْجِفُونَ فِي الْمَدِينَةِ لَنُغْرِيَنَّكَ بِهِمْ ثُمَّ لَا يُجَاوِرُونَكَ فِيهَا إِلَّا قَلِيلًا﴾ [الأحزاب: ٦٠].

ثم أمر الله تعالى رسوله ﷺ أن يستعمل الشدة والخشونة في جهاد الكفار والمنافقين في قوله: ﴿وَأَغْلَظْ عَلَيْهِمْ﴾ أي كن غليظا شديدا عليهم في إقامة ما أمر الله به، ولا تعاملهم بالرفقة والتسامح واللين إرعاباً وإذلالاً لتتكسر صلابتهم، وتلين شوكتهم، كما قال تعالى: ﴿وَلِيَجِدُوا فِيكُمْ غِلْظَةً﴾ [التوبة: ١٢٣].

قال قتادة: أمر الله تعالى نبيه ﷺ أن يجاهد الكفار بالسيف، ويُغْلِظ على المنافقين بالحدود. فجهد الكفار يكون بقتالهم ودعوتهم إلى الإسلام حتى يدخلوا فيه، فإن لم يستجيبوا ولم يتعرضوا للدعوة فإنهم يتركون، وإن صدوا الناس عن الإسلام فإنهم يُقاتلون. وجهد المنافقين يكون بتأديبهم وزجرهم وإلقاء الرعب في قلوبهم حتى يأمن المؤمنون من شرهم، ويعلمون أن للحق قوة تحميه، هذا في الدنيا، أما في الآخرة، فقد بين سبحانه وتعالى أن مسكن الكفار والمنافقين في الآخرة هو جهنم، فهي مصيرهم ومستقرهم، وبئس المرجع والمصير ﴿وَمَا أَوْفَوْهُمْ جَهَنَّمَ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ﴾ وهذا هو النداء الثاني للنبي ﷺ في السورة.

الْكَافِرُ لَا يَنْفَعُهُ إِيمَانُ أَقْرَبِ النَّاسِ إِلَيْهِ

١٠- ﴿ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِلَّذِينَ كَفَرُوا امْرَأَتَ ثُوْجٍ وَامْرَأَتَ لُوطٍ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ

(١) رسمت ﴿امْرَأَتَ﴾ بالتاء المفتوحة في هذه الآية والتي بعدها، ووقف عليها ابن كثير وأبو عمرو والكسائي ويعقوب بالهاء وأمالها الكسائي عند الوقف بخلفه ووقف عليها الباقر بالتاء تبعا للرسم.

عِبَادِنَا صَالِحِينَ فَخَانَتَاهُمَا فَلَمْ يُغْنِيَا عَنْهُمَا مِنَ اللَّهِ شَيْئًا وَقِيلَ ^(١) ادْخُلَا النَّارَ مَعَ الدَّٰخِلِينَ ﴿١٠﴾ وبعد أن وجه الله تعالى النداء لكل من الكفار والمؤمنين، ضرب مثلاً لكل منهما، وبدأ بالمثل المضروب للكفار، لبيان أنه لا يغني أحد عن أحد شيئاً يوم لقاء الله، لأن الأسباب كلها تنقطع يوم القيامة، ولا ينفع إلا العمل الصالح، فالكافر لا يستفيد من صلة القرابة أو المصاهرة أو النكاح، إن كانوا مؤمنين، فإن إبراهيم ﷺ وهو خليل الله وأبو الأنبياء لم ينفع أباه الكافر، ونوح عليه السلام وهو شيخ الأنبياء، وأول الرسل ﷺ لم ينفع ابنه الكافر، لأن طاعة الله تعالى تتبع طاعة رسوله ﴿مَنْ يُطِيعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ﴾ [النساء: ٨٠].

ولما كانت أول السورة تتحدث عن زوجتي النبي ﷺ وكان عملهما فيه بارقة من مخالفة، جاء هذين المثلين في نهاية السورة توضيحاً للمقام، فإن ضرب الأمثال، فيه تقريب للبعيد، وتوضيح للغريب، وتشبيه للمعقول بالمحسوس، حتى يرسخ في الأذهان ﴿ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِلَّذِينَ كَفَرُوا أَمْرَاتِ نُوحٍ وَأَمْرَاتِ لُوطٍ﴾ أي مثل الله تعالى لحال الكفار، في عدم استفادتهم بقرابتهم للمؤمنين، أو مخالطتهم ومعاشرتهم لهم، بأن ذلك لن ينفعهم يوم لقاء ربهم لكفرهم بالله تعالى، وقد مثل الله حالهم بحال زوجة نبي الله نوح ونبي الله لوط عليهما السلام بأنهما ﴿كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَالِحِينَ﴾ أي كانتا في عصمتهم وتحت رعايتهما وأشد الناس التصاقاً بهما.

خيانة امرأة نوح ولوط كانت في الدين:

﴿فَخَانَتَاهُمَا﴾ في الدين، بأن كانتا كافرتين، لا خيانة النسب والفراش، ولم تحن زوجة نبي قط بفاحشة الزنى.

كما قال ابن عباس رضي الله عنهما: (ما بغت امرأة نبي قط، وإنما كانت خيانتها أنهما كانتا على غير دينهما وكانتا مشركتين).

(١) قرأ بالإشمام في ﴿وَقِيلَ﴾ هشام والكسائي ورويس والباقون بالكسرة الخالصة.

وجاء عن عطاء الخراساني يرفعه (ما بغت امرأة نبي قط)^(١).
 وقال الضحاك: إنما كانت خيانة امرأة نوح ولوط النيمة^(٢).
 وفي رواية لابن عباس أيضاً قال: (كانت خيانتهم أن امرأة نوح، كانت تفشي سره،
 فإذا آمن مع نوح أحد أخبرت الجبابة من قومه.
 وأما امرأة لوط فكانت إذا أضاف لوط أحداً أخبرت به أهل المدينة ممن يعملون
 السوء)^(٣).

فخانت امرأة نوح زوجها بالكفر وعدم الإيمان، وكانت تخبر أنه مجنون.
 وخانت امرأة لوط زوجها بالكفر وعدم الإيمان، وكانت تدل قومها على الضيوف^(٤).
 قال تعالى: ﴿فَلَمْ يُغْنِ عَنْهُمَا مِنَ اللَّهِ شَيْئًا﴾ أي أن العلاقة الزوجية لا تنفع مع الكفر،
 كما قال تعالى: ﴿يَوْمَ لَا يَنْفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ﴾ [الشعراء: ٨٨].

وقال: ﴿يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ﴾ وَأُمِّهِ وَأَبِيهِ ﴿وَصَحْبِهِ وَبَنِيهِ﴾ [عبس: ٣٤-٣٦].
 وذلك ليعلم المسلم أن أحداً لا يملك نفع أحد يوم القيامة ولو كان أقرب قريب، إلا
 بواسطة الإيمان، قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُمْ بِإِيمَانٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ﴾ [الطور: ٢١].
 ويقال لزوجتي نوح ولوط عليهما السلام يوم القيامة، بواسطة خزنة النار: ادخلا نار
 جهنم مع سائر الداخلين من الكفرة المجرمين ﴿وَقِيلَ ادْخُلَا النَّارَ مَعَ الدَّٰخِلِينَ﴾ وبهذا
 يتبين أنه لا يغني أحد عن أحد شيئاً مهما كان، وفي هذا المثل دليل على أن القريب،
 ولو كان من الأنبياء والأولياء، فإنه مع العمل السيء لا يفيد شيئاً، فالمطيع لا يضره
 معصية غيره، والعاصي لا ينفعه طاعة غيره.

(١) أخرجه ابن عساكر (٣١٨/٥).

(٢) أخرجه ابن عدي (٤٩٢/٢)، والبيهقي في الشعب (١١٢٠)، وابن عساكر (٣١٩/٥٠).

(٣) تفسير ابن كثير (١٧١/٨).

(٤) ينظر: عبد الرزاق (٣١٠/١)، والطبري (٤٣٠/١٢)، والحاكم (٤٩٦/٢).

الْمُؤْمِنُ لَا يَضُرُّهُ كُفْرُ أَقْرَبِ النَّاسِ إِلَيْهِ

١١- ﴿وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِلَّذِينَ ءَامَنُوا امْرَأَتَ فِرْعَوْنَ إِذْ قَالَتْ رَبِّ ابْنِ لِي عِنْدَكَ بَيْتًا فِي الْجَنَّةِ وَنَجِّنِي مِنْ فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِ وَنَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿١١﴾﴾

ثم ضرب الله المثل الآخر للمؤمنين، مبيناً أن معصية العاصي لا تضر المطيع، وأن صلة القرابة بالكافر لا تضر المؤمن، فقد كانت آسية زوجة لأعدى أعداء الله (فرعون) ومع ذلك فهي في أعلى غرف الجنة ﴿وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِلَّذِينَ ءَامَنُوا امْرَأَتَ فِرْعَوْنَ﴾. أي ومثل الله للمؤمنين الموحدين المتبعين لرسول الله، العاملين بشرعه، بأنهم لا تضرهم قرابتهم أو مخالطتهم للكفار.

قال قتادة: كان فرعون أعتى أهل الأرض على الله، وأبعده من الله، فوالله ما ضرَّ امرأته كفر زوجها حين أطاعت ربها، لتعلموا أن الله حكّم عدل، لا يؤاخذ عبده إلا بذنبه. وقد مثل الله حالهم بحال زوجة فرعون التي كانت في عصمة أشد الناس كُفراً، مع قوة إيمانها بالله تعالى، واسمها (آسية بنت مزاحم) زوجة منفتح الثالث، آمنت بموسى عليه السلام، فلما بلغ ذلك فرعون أمر بقتلها، فنجّاها الله من شره. وهي ليست امرأة فرعون التي تبنت موسى حين التقطه من اليم، لأن ذلك كان في زمن رمسيس الثاني.

أما فرعون الذي أرسل الله إليه موسى فهو منفتح الثالث، وزوجته آسية، وكان بينهما ثمانون سنة، ولم يكن عندهم علم بدين، قبل أن يرسل الله إليهم موسى عليه السلام. ولعل امرأة فرعون كانت من بنات بني إسرائيل، تزوجها فرعون. وذكر بعض المفسرين أنها كانت عمة موسى ﷺ فهداها الله للإيمان به، كمؤمن آل فرعون^(١).

وقد آمنت آسية بموسى عليه السلام لما غلب السحرة بمعجزته، وتبيّن لها أنه على

(١) تفسير التحرير والتنوير (٣٧٦/٢٨).

الحق، ولم تضرها علاقة الزوجية بينهما، ولم ينفع فرعون إيمان زوجته، فكل امرئ بما كسب رهين.

وقد وصف الله آسية بنت مزاحم بالإيمان والتضرع إلى الله عز وجل أن يدخلها الجنة، وأن ينجيها من فتنة فرعون وأعماله الخبيثة، وينجيها من فتنة كل ظالم، فاستجاب الله دعائها وثبتها على الإيمان ونجاها من الفتن ووعدا جنته.

روى الشيخان عن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «كُمُلُ من الرجال كثير، ولم يكمل من النساء إلا آسية امرأة فرعون، ومريم بنت عمران، وإن فضل عائشة على النساء كفضل الثريد على سائر الطعام»^(١).

وعن ابن عباس رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال: «أفضل نساء أهل الجنة: خديجة بنت خويلد، وفاطمة بنت محمد، ومريم بنت عمران، وآسية بنت مزاحم، امرأة فرعون»^(٢).
لقد عذبها فرعون، فربطها بالأوتاد، وألقاها في الشمس، وأمر بالصخرة لِثُلُقَى عليها، فكشف الله لها عن بيتها في الجنة، فلما أبصرت ذلك سألت ربها قائلة: ﴿رَبِّ آتِنِي لِي عِنْدَكَ بَيْتًا فِي الْجَنَّةِ﴾.

قال بعض العلماء: ما أحسن هذا الكلام، فقد اختارت الجار قبل الدار، وقد قالت ذلك عندما صدّها فرعون وقومه عن الإيمان بالله تعالى، وذكّروا لها أنها إن آمنت بموسى عليه السلام، فسوف تُضَيِّع على نفسها ملكاً عظيماً، وقصراً فخماً، هو ملك فرعون وقصره، فطلبت من ربها أن يُبدلها بخير من ذلك في الجنة، وأن ينقذها من سلطان فرعون وظلمه وجبروته، ويخلصها من الشر الذي يصدر من أتباعه قائلة ﴿وَيَجِّنِي مِنْ فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِ﴾ أي أنقذني من كفره وضلاله ﴿وَيَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ أتباع

(١) صحيح البخاري برقم (٣٤١١، ٣٤٣٣)، وصحيح مسلم (٢٤٣١).

(٢) المسند (٢٩٠١، ٢٦٦٨) بإسناد صحيح ورجال ثقات رجال الصحيح، والطبراني (١١٩٢٨)، والحاكم

(١٨٥/٣) وصححه، وأخرجه أبو يعلى (٢٧٢٢)، وعبد بن حميد (٥٩٧)، وابن حبان (٧٠١).

فرعون الطاغين التابعين له في الضلال.

وعن أبي هريرة رضي الله عنه أن فرعون وتَدَّ لامراته أربعة أوتاد في يديها ورجليها، فكانوا إذا تفرقوا عنها أظللها الملائكة فقالت ﴿رَبِّ ابْنِ لِي عِنْدَكَ بَيْتًا فِي الْجَنَّةِ﴾ فكشف لها عن بيتها في الجنة^(١). قال أبو العالية: كان إيمان امرأة فرعون، قبل إيمان امرأة خازن فرعون، وذلك أنها جلست تمشط ابنة فرعون، فوق المشط من يدها، فقالت: تعس من كفر بالله، فقالت لها ابنة فرعون: أو لك رباً غير أبي، قالت: ربي ورب أبيك ورب كل شيء، الله، فلطمثها ابنة فرعون وضربتها وأخبرت أباه، فأرسل إليها وعذَّبها^(٢).

الثَّاءُ عَلَى مَرْيَمَ ابْنَتِ عِمْرَانَ ثَلَاثَةَ مَحَامِدَ

١٢ - ﴿وَمَرْيَمَ ابْنَتِ عِمْرَانَ الَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهِ مِنْ رُوحِنَا وَصَدَقَتْ بِكَلِمَاتِ رَبِّهَا وَكُنْتِ مِنْ الْغَنِيِّينَ﴾^(٣) وَكَانَتْ مِنَ الْقَنِينِ ﴿١٣﴾

وضرب الله مثلاً آخر للذين آمنوا بمريم بنت عمران التي حفظت فرجها وصانته عن الزنى، فهي العفيفة الشريفة الطاهرة وليس كما يزعم اليهود فيما يتهمونها به ﴿وَمَرْيَمَ ابْنَتِ عِمْرَانَ الَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا﴾ فحفظته عن الفاحشة لكمال دينها وعفتها ونزاهتها. والفرج في اللغة: كل فرجة بين شيئين^(٤).

قال القاضي عياض في الشفاء: لم يذكر الله امرأة في القرآن باسمها، إلا مريم، للتنبيه على أنها أمة الله، إبطالاً لعقائد النصارى.

(١) أخرجه أبو يعلى (٦٤٣١)، والبيهقي (١٦٣٨) بسند صحيح، قال ابن حجر في المطالب العالية (ص ٦٢/٩): صحيح موقوف، وبنحوه عند عبد بن حميد، وعن سلمان عند ابن أبي شية (٣٣١/١٣)، والطبري ١١٥/٢٣ وغيرهم.

(٢) ينظر بقية الخبر في تفسير الطبري (١٠/٢٨).

(٣) قرأ أبو عمرو وحفص ويعقوب بضم الكاف والياء من ﴿وَكُنْتِ﴾ جمع كتاب والباقون بكسر الكاف وفتح التاء وألف بعدها على الأفراد.

(٤) ينظر: تفسير الألوسي (١٦٤/٢٨).

وبعد أن أثنى الله تعالى على مريم في طهرها وصيانتها، بين جل شأنه أنه كافأها على ذلك بأن كَوّن فيها نبياً بطريق خارق للعادة، فخلّد بذلك ذكرها في الصالحين وهذا معنى: ﴿فَنَفَخْنَا فِيهِ مِنْ رُوحِنَا﴾ أي نفخ جبريل عليه السلام في جيب درعها فوصلت النفخة إلى مريم فحملت بعيسى.

قال قتادة: فنفعنا في جيبها من روحنا، أي أمر الله جبريل عليه السلام أن ينفخ في فتحة قميصها من فتحة العنق، فوصلت النفخة إلى رحمها بحول الله تعالى، فأودع الله الحياة في المخلوق الذي كوّنه في رحمها دون الأسباب المعتادة، كما قال تعالى: ﴿وَالَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهَا مِنْ رُوحِنَا﴾ [الأنبياء: ٩١].

وقال سبحانه: ﴿فَأَرْسَلْنَا إِلَيْهَا رُوحَنَا﴾ أي جبريل ﴿فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا﴾ [مريم: ١٧]. وهذه النفخة التي أحيا الله بها عيسى عليه السلام ليست خاصة به، بل هي ذات النفخة التي خلق الله بها آدم كما قال عز وجل: ﴿فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ﴾ [الحجر: ٢٩] فنفخة الروح هي مصدر الحياة، وإضافة الروح إلى الله تعالى لأنه الخالق سبحانه.

وفتحة الصدر من فتحة القميص في أعلاه يقال لها: الجيب. ثم أثنى الله تعالى على مريم ثناءً ثانياً فقال: ﴿وَصَدَقَتْ بِكَلِمَتِ رَبِّهَا﴾ أي أيقنت بأن ما أبلغها به الملك، هو من إرادة الله تعالى بذلك الحمل على هذا النحو الفريد، كما أنها صدقت بالشرائع التي شرعها الله تعالى لعباده، وصدقت بكتبه التي أنزلها على أنبيائه ورسله، وعملت بما فيها.

ومن هذه الكتب: الإنجيل الذي أنزله الله على ابنها عيسى عليه السلام، ولم يكن الإنجيل موجوداً في زمن عيسى ﷺ، ولكن الحواريين كتبوه من حفظهم بعد رفعه عليه السلام، وكان ذلك في حياة مريم وقد صدقت مريم بكلمات الله تعالى ﴿وَكُتِبَ﴾ التي نزلت قبل عيسى، كالتوراة والزيور ..

ثم أثنى الله تعالى على مريم ثناءً ثالثاً بأنها كانت من المطيعين لله تعالى المختبين له. والقائمت هو المنقطع للعبادة، المكثرت منها، وكانت مريم كذلك، وكانت سليلة قوم صالحين، وهذا معنى: ﴿وَكَاَنَتْ مِنَ الْقَانِتِينَ﴾ المطيعين لله، المداومين على طاعته بخشية وخشوع. عن أنس بن مالك رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «حسبك من نساء العالمين: مريم ابنة عمران، وخديجة بنت خويلد، وفاطمة بنت محمد، وآسية امرأة فرعون»^(١). وقد وصف الله مريم بالعلم والمعرفة والتصديق، فهي من الصديقين، ومرتبها تلي مرتبة النبيين وتعلو مرتبة الشهداء.

تم تفسير (سورة التحريم) والله الحمد والمنة

(١) أخرجه الترمذي وقال: حديث صحيح وهو في صحيح سنن الترمذي برقم (٣٠٥٣)، وفي مشكاة المصابيح (٦١٨١).

تَفْسِيرُ سُورَةِ الْمُلْكِ (٦٧)

مُقَدِّمَةُ السُّورَةِ

(سورة الملك) هي السورة السابعة والستون في ترتيب المصحف، والسادسة والسبعون في ترتيب النزول. نزلت بعد (سورة المؤمنون) وقبل (سورة الحاقة). وعدد آياتها إحدى وثلاثون آية في المصحف المكي، والمدني الأول، وثلاثون آية في غيرهما.

وعدد كلماتها ثلاث مئة وثلاثون كلمة، وهي ألف وثلاث مئة وثلاثة عشر حرفاً.

أَسْمَاؤُهَا:

- ١ - وسميت سورة الملك، لورود لفظ ﴿الْمُلْكُ﴾ في أولها.
- قال الألوسي: ٢ - وتسمى: (تبارك) ٣ - و(المانعة).
- ٤ - و(المنجية) ٥ - و(المجادلة) أخذاً من الآثار التي وردت فيها، لأنها تُنجي قارئها من النار وتمنعه من العذاب، وتجادل عنه يوم القيامة.
- ٦ - وتسمى سورة (تبارك الملك) للفرق بينها وبين (تبارك الفرقان).
- ففي حديث أبي هريرة ؓ الآتي بعد قليل، أن النبي ﷺ سماها سورة ﴿تَبَرَّكَ الَّذِي بِيَدِهِ الْمُلْكُ﴾.
- وأخرج الطبراني عن ابن مسعود ؓ قال: كنا نسميها على عهد النبي ﷺ (المانعة)^(١).
- ٧ - وتسمى (سورة الواقعة)، ٨ - و(المناعة) بصيغة المبالغة^(٢).

(١) الطبراني في الكبير (١٠٢٥٤)، وابن مردويه كما صححه الألباني في صحيح الجامع (٣٥٣٧)، والسلسلة الصحيحة (١١٤٠)، وعن ابن عباس في الترمذي (٢٨٩٠)، والطبراني (١٢٨٠١)، والبيهقي (٤١/٧).

(٢) ينظر: الفخر الرازي في تفسيره لأول السورة

وفي تاريخ ابن عساكر عن أنس رضي الله عنه أن النبي ﷺ سماها (المنجية)^(١).
وسماها ابن عباس (المجادلة) لأنها تجادل عن قارئها سؤال الملكين^(٢).
فهذه ثمانية أسماء لها - بدون المكرر - وردت فيها.
وسورة الملك سورة مكية باتفاق.

وجميع سور جزء ﴿تَبَارَكَ﴾ سور مكية، كما أن جميع سور جزء ﴿قَدْ سَمِعَ﴾ سور مدنية.
ومطلع سورتي المدثر والمزمل من أول ما نزل من القرآن، كما أن سورة القلم نزلت
بعد البعثة بثلاث سنوات، أما سورة الجن فقد نزلت بعد عشر سنوات من البعثة، في
عودة النبي ﷺ من الطائف بعد وفاة خديجة وأبي طالب.

ومما ورد في فضل سورة الملك، ما جاء:

- ١- عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «إن سورة من القرآن، ثلاثين آية،
شفعت لرجل حتى غفر له ﴿تَبَارَكَ الَّذِي يَدْرِءُ الْمُلْكَ﴾»^(٣).
- ٢- وعن أنس رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «سورة في القرآن خاصمت عن صاحبها
حتى أدخلته الجنة ﴿تَبَارَكَ الَّذِي يَدْرِءُ الْمُلْكَ﴾»^(٤).

(١) الأثر عند ابن عساكر (٤٦/٦) وغيره من طرق متعددة.

(٢) جاء هذا في مسند عبد بن حميد (٦٠١)، والطبراني (١١٦١٦)، والحاكم (٥٦٥/١)، وقد جاء هذا المعنى
عند سعيد بن منصور عن عمرو بن مرة، وحسنه الألباني عن ابن مسعود عند الطبراني والحاكم.

(٣) المسند ٣٢١/٢ (٨٢٧٦، ٧٩٧٥) حسن لغیره، رجاله ثقات رجال الشيخين غير عباس الجشمي، فمن
رجال السنن وهو مقبول، وأبوداود برقم (١٤٠٠)، والترمذي برقم (٢٨٩١) وحسن مثله، وسنن النسائي
الكبرى برقم (١١٦١٢)، وابن ماجه برقم (٣٧٨٦)، والحاكم (٥٦٥/١)، (٤٩٧/٢)، والبيهقي في شعب
الإيمان (٢٥٠٦)، وحسنه الألباني في صحيح سنن أبي داود (١٢٤٧)، وفي صحيح الترغيب والترهيب
(١٤٧٤)، وقال: حسن لغیره.

(٤) المعجم الأوسط للطبراني (١٧٦/١) والمعجم الكبير (٣٦٥٤)، والمختارة للضياء المقدسي برقم
(١٧٣٩، ١٧٣٨)، وقال الهيثمي: رجاله رجال الصحيح، مجمع الزوائد (١٣٠/٧)، وحسنه الألباني في
صحيح الجامع الصغير (٣٥٣٨).

- ٣- عن ابن مسعود رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «تبارك هي المانعة من عذاب القبر»^(١).
- ٤- وعن جابر رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ كان لا ينام حتى يقرأ ﴿الْمَ تَنْزِيلُ﴾ [سورة السجدة]، و﴿تَبَارَكَ الَّذِي بِيَدِهِ الْمُلْكُ﴾^(٢).
- ٥- قال ابن مسعود رضي الله عنه: يُؤْتَى الرجل في قبره، فيؤتى من قِبَل رجله، فتقول رجلاه: ليس لكم على ما قبلي سبيل، قد كان يقوم علينا بسورة الملك، ثم يؤتى من قبل صدره فيقول: ليس لكم على ما قبلي سبيل، قد كان وَعَى فِي سورة الملك، ثم يؤتى من قِبَل رأسه، فيقول: ليس لكم على ما قبلي سبيل، قد كان يقرأ بي سورة الملك، فهي المانعة، تمنع من عذاب القبر، وهي في التوراة سورة الملك، من قرأها في ليلة فقد أكثر وأطيب^(٣).
- وفي النسائي مختصراً: من قرأ ﴿تَبَارَكَ الَّذِي بِيَدِهِ الْمُلْكُ﴾ كل ليلة، منعه الله عز وجل بها من عذاب القبر، وكنا في عهد رسول الله ﷺ نسميها (المانعة) وأنها في كتاب الله عز وجل سورة من قرأ بها في كل ليلة فقد أكثر وأطاب^(٤).

موضوعات السورة:

وشأن هذه السورة شأن السور المكية في معالجة قضايا العقيدة، والرسالة، واليوم الآخر. وهي تقيم الأدلة والبراهين على عظمة الله تعالى وقدرته: فهو الذي خلق الموت والحياة، وخلق سبع سماوات طباقاً، وهو الذي خلق الطير صافات، وهو الذي يرزق خلقه، ولا يُمسك رزقه عنهم، وهو الذي يجري هذا الماء، وإن شاء جعله غوراً، فلا

- (١) النسائي في السنن الكبرى برقم (١٠٥٤٧)، وصححه الحاكم (٤٩٨/٢) ووافقه الذهبي، وصححه الألباني في صحيح الجامع (٣٥٣٧)، والسلسلة الصحيحة (١١٤٠).
- (٢) سنن الترمذي برقم (٣٤٠٤، ٢٨٩٢)، والبخاري في الأدب المفرد (١٢٠٧، ١٢٠٩)، والمسند (١٤٦٥٩) وهو حديث صحيح (محققوه)، وسنن النسائي الكبرى (١٠٤٧٤-١٠٤٧٧)، والبيهقي في الشعب (٢٤٥٥)، وعبد بن حميد (١٠٤٠)، والبغوي (١٢٠٧، ١٢٠٨).
- (٣) الأثر بسند حسن في صحيح الترغيب والترهيب (١٤٧٥)، وأخرجه الطبراني (٨٦٥١)، والبيهقي في الشعب (٢٥٠٩)، والحاكم (٤٩٨/٢) وقال: صحيح الإسناد وغيرهم.
- (٤) صحيح الترغيب والترهيب (١/ ١٩٣) بإسناد حسن كما قال الألباني.

تستطيعون الحياة بدونه.

وفيما يتعلق باليوم الآخر: فإن الإيمان بالغيب جزء من عقيدة المسلم، وقد أعد الله للكفار عذاب نار السعير وهي تتقطع غيظاً وحنقاً على مَنْ كفر بالله ورسله، وعِلْمُ قيام الساعة عند رب العالمين، ويوم يرونها تسود وجوه الكفار ويقال لهم: هذا الذي كنتم به تكذبون.

وحذرت آيات السورة من سخط الله تعالى لئلا يخسف بهم الأرض، كما حذرت المكذبين برسل الله أن يهلكهم الله بعذابه، فلا يجدون لهم مجيراً ولا منجياً، والرسول ﷺ هو المبلغ عن ربه.

وعقيدة التوحيد هي المحور الذي تدور حوله السورة، فتسوق ثلاثة عشر دليلاً على وحدانية الله تعالى، سبعة منها بأسلوب الخبر، وهي:

- ١- خلق الموت والحياة.
- ٢- وخلق السموات السبع الطباق.
- ٣- وعِلْمُ السر والنجوى.
- ٤- وخلق الإنسان والإحاطة به.
- ٥- وتذليل الأرض له.
- ٦- وتحليق الطيران في الفضاء.
- ٧- ورزق الله تعالى للكائنات.

ويتخلل هذه البراهين مَشاهد من عذاب أهل النار وبيان نعيم أهل الجنة، وأن الكفر يحوّل النعم إلى نقم تتمثل في الخسف والزلازل والبراكين والريح الحاصبة.

وهكذا فسورة الملك، سورة زاخرة بالحديث عن وحدانية الله تعالى، وعظيم قدرته، ومظاهر فضله ورحمته بعباده، وبديع خلقه في الكون، إلى جوار الحديث عن أحوال الكافرين والمؤمنين يوم القيامة، ووجوب التأمل والتدبر في ملكوت السموات والأرض، بالإضافة إلى مجموعة من الحجج والبراهين التي لَقَّنها الله تعالى لنبيه ﷺ ليَقْذف بها في وجوه المبطلين، وهي تلقينات تتعلق بخلق نعمة السمع والبصر والفؤاد، والاستدلال ببداء الخلق على إعادته، وبيان أن علم قيام الساعة عند الله تعالى لا يعلمها إلا هو، وأنه لا مفر من عذاب الكافر، وأن المؤمن جدير برحمة الله تعالى ورضوانه، ثم

التهديد بالحرمان من نعمة الماء الذي هو سبب الحياة لكل كائن حي.
وفي نهاية السورة أمر الله تعالى رسوله ﷺ أن يلقين أمته ستة أدلة على وحدانية الله تعالى من فروع المخلوقات بلفظ ﴿قُلْ﴾ وهي:

- | | |
|--|--|
| ١- ﴿قُلْ هُوَ الَّذِي أَنْشَأَكُمْ﴾ | ٢- ﴿قُلْ هُوَ الَّذِي ذَرَأَكُمْ﴾ |
| ٣- ﴿قُلْ إِنَّمَا أَعْلَمُ عِنْدَ اللَّهِ﴾ | ٤- ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَهْلَكْنِي اللَّهُ﴾ |
| ٥- ﴿قُلْ هُوَ الرَّحْمَنُ أَمَّنَّا بِهِ﴾ | ٦- ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَصْبَحَ مَاؤُكُمْ غَوْرًا﴾ |

* * *

تَفْسِيرُ السُّورَةِ

اَلْكُوْنُ كُلُّهُ مُلْكٌ لِلّٰهِ وَحْدَهُ

١ - ﴿تَبَرَّكَ الَّذِي بِيَدِهِ الْمُلْكُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ (١)

في مطلع السورة يمجّد الله تعالى نفسه، ويعلمنا أنه سبحانه وتعالى وتعاظم عن صفات المخلوقين، فالخالق لا يشبه المخلوقين في ذاته ولا في صفاته ولا في أفعاله إذ ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ [الشورى: ١١] وقد تكاثر خير الله تعالى وبره وإحسانه، وثبت فضله على جميع خلقه، فهو الذي بيده وقدرته تدبير الأمور وتصريفها، لا يعجزه شيء في الأرض ولا في السماء، فهو الذي خلق هذا الكون، وأجرى عليه أحكامه الشرعية وأحكامه المقدّرة عنده، وهو سبحانه كامل القدرة التي أوجد بها هذه المخلوقات العظيمة، ومنها السموات والأرض.

﴿تَبَرَّكَ الَّذِي بِيَدِهِ الْمُلْكُ﴾ وبيده الفضل، وبيده الخير، والأرض جميعاً قبضته يوم القيامة، والسموات مطويات بيمينه، مالك الدنيا والآخرة، وسلطانهما بيده، وأمره نافذ فيهما وفي غيرهما، يتصرف في الكون كيف يشاء، يعز من يشاء، ويذل من يشاء، يؤتي الملك من يشاء، وينزع الملك ممن يشاء، يحيي ويميت، يغني ويفقر، ويعطي ويمنع. ﴿وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ له القدرة التامة، والتصرف الكامل بلا منازع ولا مدافع، فأحيا من شاء، وأمات من شاء، وأفقر من شاء وأغنى من شاء، وله الحمد في الأولى والآخرة: ﴿قُلِ اللَّهُمَّ مَلِكُ الْمُلْكِ تُوتِي الْمُلْكَ مَنْ تَشَاءُ وَتَنْزِعُ الْمُلْكَ مِمَّنْ تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَنْ تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَنْ تَشَاءُ﴾ [آل عمران: ٢٦].

الاستدلال بأصول المخلوقات في سبعة أدلة على وحدانية الله تعالى بأسلوب الخبر تتخللها عبر ومواقف، قال تعالى:

٢ - ﴿الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا وَهُوَ الْعَزِيزُ الْغَفُورُ﴾ (٢)

وتقيم آيات السورة سبعة أدلة على وحدانية الله تعالى، جاءت كلها بأسلوب الخبر،

ويتخلل هذه البراهين عبر ومشاهد ودلائل فإن من آثار قدرته تعالى ودلائل وحدانيته، ما تشتمل عليه هذه الأدلة من براهين ساطعة، وحجج قاطعة، وهي:

الدليل الأول: خلق الحياة والموت: ﴿الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ﴾.

أي: أن الله تعالى قدّر لعباده أنه يحييهم ويميتهم، ليختبركم - أيها الناس - في حال الحياة، ويجازيكم بعد الموت، والموت والحياة أمران معروفان ومألوفان للبشر، ولكن السورة ترمي إلى ما وراء الموت والحياة من الحكمة في خلق الإنسان، وما يتبع ذلك من الحساب والجزاء في الدار الآخرة.

أي أن الله تعالى جعل الدنيا دار حياة وفناء، يحيي من يشاء، ويميت من يشاء، وهو الواحد القهار.

وقدّم الموت على الحياة، لأن ذكر الموت أولاً أقرب إلى وعظ الإنسان وزجره وتخويفه من لقاء الله تعالى.

ولأن الموت قبل الحياة، فالناس كانوا في حكم العدم: تراب، أو نطفة، أو علقّة، ثم أحياهم الله تعالى، فأوجد الخلائق من العدم، قال تعالى: ﴿كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَكُنْتُمْ أَمْوَاتًا فَأَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ [البقرة: ٢٨].

وقد جعل الله الدنيا دار حياة ثم دار موت، وجعل الآخرة دار جزاء، ثم دار بقاء في نعيم أو عذاب، والموت نعمة، لأنه يفصل بين دار التكليف ودار الجزاء.

والحياة نعمة، لأن الثواب والنعيم الأخروي لم يصل إلى الإنسان إلا عن طريق العمل في الدنيا.

وخلق الحياة بمعنى خلق كل كائن حي، وخلق الموت معناه: إيجاد أسبابه.

فالأحياء يعملون الصالحات، والأموات يخلّصون ليوم الجزاء، فيجزّون على أعمالهم.

قال ابن عباس رضي الله عنهما: خلق الموت على صورة كبش أملح، لا يمرّ بشيء، ولا يجد ريحه شيء إلا مات، وخلق الحياة على صورة فرس بلقاء، هي التي كان جبريل والأنبياء يركبونها، لا تمرّ بشيء، ولا تجد ريح شيء إلا حيي، وهي التي أخذ

السامري قبضة من أثرها فألقاها في العجل فخار وحَيَّي^(١).

وقد ثبت في الصحيح أن الميت يسمع ويرى، ويَحْسُ وهو في قبره، كما قال ﷺ في حديث أنس ﷺ «إن العبد إذا وضع في قبره، وتولى عنه أصحابه، وإنه ليسمع قرع نعالهم»^(٢). وقال ﷺ عن أهل القلب فيما يرويه أنس ﷺ أيضاً «والذي نفسي بيده ما أنتم بأسمع لما أقول منهم، لكنهم لا يقدرون أن يجيبوا»^(٣).

والموت ليس فناء، ولا انقطاعاً عن الحياة بالكلية، ولكنه مجرد انفصال بين الروح والجسد، ومفارقة لها، وهي تتصل به بين الحين والآخر.

وفي الحديث عن أبي سعيد ﷺ أن النبي ﷺ قال: «يؤتى بالموت في هيئة كبش أملح، فينادي مناد ..» وفي نهاية الحديث «فيذبح - أي الموت - ثم يقول - أي المنادي -: يا أهل الجنة خلود فلا موت، يا أهل النار خلود فلا موت»^(٤).

وهذا بعد انتهاء الدنيا، حيث تكون الآخرة، خلود بلا موت، فيرى الناس الموت الذي ذاقوه في الدنيا، في صورة كبش يُذبح، ليعلم الخلق أن الموت قد انتهى. أخرج ابن أبي حاتم عن قتادة قال: إن الله أذل بني آدم بالموت، وجعل الدنيا دار حياة، ثم دار موت، وجعل الآخرة دار جزاء، ثم دار بقاء.

وهذه الدنيا لها ما بعدها، فليست هي النهاية، وليست غاية في حد ذاتها، ولكن خلق الله الموت والحياة في الدنيا، ليقوم الناس فيها بالوظيفة التي خُلِقُوا من أجلها، كما قال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِعِبَادُونَ﴾ [الذاريات: ٥٦] وهذا معنى ﴿لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ أي ليمتحنكم ويختبركم، فيظهر المحسن منكم والمسيء، والمطيع والعاص، وليظهر أيكم أحسن عملاً، وأشد خوفاً من الله تعالى.

(١) تفسير الخازن (٢٨٩/٤).

(٢) من حديث أنس في صحيح مسلم (٢٨٦٩)، وفي صحيح البخاري (١٣٧٤، ١٣٣٨).

(٣) من حديث أنس في صحيح مسلم (٢٨٧٤).

(٤) من حديث أبي سعيد في البخاري (٤٧٣٠)، ومسلم (٢٨٤٩).

وقد خلق الله الخلق، وأخرجهم إلى هذه الدار، وأخبرهم أنهم سيقتلون منها، وأمرهم ونهاهم، وابتلاهم بالشهوات المعارضة لأمره ونهيه، فمن انقاد لله وأحسن العمل لله، أحسن الله له الجزاء في الدارين، ومن أتبع نفسه هواها واتبع خطوات الشيطان فله ما يستحق من عقوبة يوم لقاء الله.

قال الفضيل بن عياض: ﴿أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ أخلصه وأصوبه.

وقال أيضاً: العمل لا يقبل إلا إذا كان خالصاً صواباً.

فالخالص: هو الذي لا يشوبه رياء ولا شرك ولا سمعة.

والصواب: أن يكون العمل على السنة، أي موافقاً لهدي النبي ﷺ ليس فيه بدعة.

وجميع الأقوال والأعمال تحت قدرة الله تعالى وتصرفه ﴿وَهُوَ الْعَزِيزُ﴾ الذي لا يعجزه

شيء، المنتقم ممن عصاه، الذي انقادت له جميع المخلوقات ﴿الْفُورُ﴾ لمن تاب من

عباده ورجع إليه وأناب من إساءته وتقصيره، فإنه سبحانه غفار الذنوب ستار العيوب.

قال تعالى: ﴿وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِّمَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا ثُمَّ اهْتَدَى﴾ [طه: ٨٢].

وفي الآية ترغيب في فعل الطاعات، وزجر عن اقتراف المعاصي والسيئات.

الدليل الثاني: خَلَقُ السَّمَوَاتِ السَّبْعِ الطَّبَاقِ بِدِقَّةٍ وَإِحْكَامٍ

٣- ﴿الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَوَاتٍ طِبَاقًا مَّا تَرَىٰ فِي خَلْقِ الرَّحْمَنِ مِن تَفَوتٍ﴾ ^(١) فَارْجِعِ الْبَصَرَ هَلْ تَرَىٰ

مِن فُتُورٍ ﴿٢﴾

ثم ذكر سبحانه أثراً ثانياً من آثار قدرته تعالى، فربط الموت والحياة بصفحة الكون

العلوية، ليرتب الجزاء الآخروي على الموت والحياة ﴿الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَوَاتٍ طِبَاقًا﴾ بعضها

فوق بعض، بطريقة متقنة محكمة، كل سماء فوق الأخرى كالقبة عليها، وسماء الدنيا

كالقبة على الأرض، وكلها متوافقة متماثلة على سُنَّةٍ واحدة، والسماء خلق ثابت تراه

(١) قرأ حمزة والكسائي بحذف الألف وتشديد الواو من ﴿تَفَوتٍ﴾ فتقرأ هكذا (تَفُوت) والباقون بإثبات

الألف وتخفيف الواو، وهما لغتان، كالتعهد والتعاهد.

الأعين، وتألف رؤيته صباح مساء، ولكن الآية تهدف إلى التأمل والتدبر في هذا الكون، للوصول إلى معرفة الخالق سبحانه، والتوجه له وحده بالعبادة دون سواه.

وهذه السماء محكمة الصنع: ﴿مَا تَرَىٰ فِي خَلْقِ الرَّحْمَنِ مِن تَفَوُّتٍ﴾ أي لا ترى أيها الناظر في شيء مما خلقه الرحمن، اختلاف ولا تباين ولا اعوجاج ولا اضطراب، ولا ترى فيه تناقض ولا عدم تناسب ﴿صُنِعَ اللَّهُ الَّذِي أَنفَقَ كُلَّ شَيْءٍ﴾ [النمل: ٨٨] ﴿الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ﴾ [السجدة: ٧] فهي متناسبة في لونها وهيئتها وارتفاعها وما فيها من كواكب وأفلاك، ولما كان هذا التناسب كاملاً من كل وجه أمر سبحانه بإعادة النظر والتأمل فيها ﴿فَأَنبِصِرْ﴾ أي كرر النظر وردده في هذا الكون المحكم، وفي السماء فوقك ﴿هَلْ تَرَىٰ مِن فُطُورٍ﴾ هل ترى في السموات من صدوع أو شقوق، أو نقص أو خلل، إنها مستوية مستقيمة، سليمة من الخلل والتفاوت، قال تعالى:

٤ - ﴿ثُمَّ أَنبِصِرْ كَرَيْنٍ يَنقَلِبْ إِلَيْكَ الْبَصَرُ خَاسِئًا^(١) وَهُوَ حَسِيرٌ﴾

أمر الله تعالى بالنظر إلى السماء وخلقها، ثم أمر بإعادة النظر وتكراره إليها، وفي هذه الآية تعجيز بعد تعجيز، وتحذ عقب تحذ، على معاودة النظر مرة بعد مرة ﴿ثُمَّ أَنبِصِرْ كَرَيْنٍ﴾ وانظر مرة أخرى بعين الاعتبار فيما يمتد إليه بصرك مما علاك ﴿يَنقَلِبْ﴾ أي يرجع ﴿إِلَيْكَ الْبَصَرُ خَاسِئًا﴾ ذليلاً صاغراً، دون أن يرى نقصاً أو خللاً ﴿وَهُوَ حَسِيرٌ﴾ متعب قليل من معاودة النظر، قد أعياه الطلب بعد طول نظر وتأمل.

وأمر بإعادة النظر مرتين، لأن الإنسان يعاود النظر فيما لم يتحقق من رؤياه، وليس المراد مرتين بالتحديد، بل المراد كثرة معاودة النظر، ثم صرح سبحانه وتعالى بحسن السماء في الآية التالية.

النُّجُومُ زِينَةُ السَّمَاءِ وَرُجُومٌ لِلشَّيَاطِينِ

٥ - ﴿وَلَقَدْ زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصْبِيحٍ وَجَعَلْنَاهَا رُجُومًا لِلشَّيَاطِينِ وَأَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابَ السَّعِيرِ﴾

(١) قرأ الأصبهاني وأبوجعفر بإبدال الهمزة ياء من (خاسئاً) وصلاً ووقفاً، وكذا حمزة عند الوقف.

في هذه الآية بيان أن الله تعالى خلق النجوم زينة للسماء الأولى، ورجوماً للشياطين، وذلك أنه بعد أن ذَكَرَ سبحانه كمال خلق السموات وإتقان صنعها وانتفاء الخلل فيها، بَيَّنَّ جل شأنه جمال السماء القريبة منا، فقال ﴿وَلَقَدْ زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَيِّحٍ﴾ أي والله لقد جَمَّلْنَا السماء التي ترونها بنجوم عظيمة مضيئة ساطعة، تضيء إضاءة الشُّجَر، كمشهد النجوم في سماء الصحراء ليلاً، إنه جميل جداً يأخذ بالألباب، على ما في هذه النجوم من اختلاف في النور والضيء، ولولا ما في السماء من النجوم لكانت سقفاً مظلماً، لا حُسن فيه ولا جمال، ولكن الله تعالى جعل هذه النجوم نوراً وهداية يهتدى بها في ظلمات البر والبحر.

وهو جمال يختلف من الصباح إلى المساء، ومن الشروق إلى الغروب، ومن الليلة القمرء إلى الليلة الظلماء، ومن مشهد الصفاء إلى مشهد الضباب والسحاب، وكله جمال يأخذ بالعقول:

هذه نجمة منفردة، وهاتان نجمتان منفردتان، وهذه مجموعة متناثرة أو متضامة هنا وهناك تجتمع وتفترق.

والقرآن يوجه الإنسان إلى جمال السماء، ليدرك جمال الوجود، فيصل إلى جمال خالق الوجود، وهذا الإدراك يرتفع بالإنسان إلى أعلى الآفاق^(١).
والزينة التي تحصل للسماء الدنيا تأتي منها ومن السموات السبع، فإنها شفافة، وأنوارها تصل إلى السماء الدنيا وإن لم تكن الكواكب فيها.

ثم ذكر سبحانه فائدة أخرى للسماء الدنيا فقال ﴿وَجَعَلْنَاهَا رُجُوماً لِلشَّيَاطِينِ﴾ أي جعلنا من نجوم السماء الأولى شُهْباً مُخْرِقة تنفصل عنها، تُرْجَمُ بها الشياطين التي تسترق السمع.
كما قال تعالى: ﴿إِنَّا زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِزِينَةِ الْكَوَاكِبِ ۖ وَحَفَظْنَاهَا مِنْ كُلِّ شَيْطَانٍ مَّارِدٍ﴾ [الصفافات: ٦، ٧].
وقال سبحانه: ﴿إِلَّا مَنْ خِطَفَ الْخُطْفَةَ فَاتَّبَعَهُ، رِشَابٌ ثَاقِبٌ﴾ [الصفافات: ١٠].

(١) مقتبس من كتاب (في ظلال القرآن) للأستاذ سيد قطب في تفسيره للآية.

والرجم يكون بالشهب لا بالكواكب.

وقد جعل الله هذه النجوم حراسة للسماء من تلقف الشياطين أخبار أهل الأرض.
قال قتادة: خلق الله النجوم لثلاث: زينة للسماء، ورجوماً للشياطين، وعلامات يهتدى بها في البر والبحر. كما قال تعالى: ﴿وَالنَّجْمُ هُمْ يَسْتَدُونَ﴾ [النحل: ١٦].
وقد كانت الشياطين تسترق السمع قبل الإسلام، فلما بعث النبي ﷺ منعوا من ذلك،
كما قال تعالى على لسانهم ﴿وَأَنَّا لَمَسْنَا السَّمَاءَ فَوَجَدْنَاهَا مُلِئَتْ حَرَسًا شَدِيدًا وَشُهُبًا ۖ وَأَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقْعِدًا لِّلسَّمِيعِ فَمَن يَسْمَعُ آلَآنَ يَجِدُ لَهُ شِهَابًا رَّصَدًا﴾ [الجن: ٩، ٨].

ثم بينت الآية أن الله تعالى قد أعد للشياطين عذاب جهنم في الآخرة، بعد الإحراق بالشهب في الدنيا فقال ﴿وَأَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابَ السَّعِيرِ﴾ أي النار الموقدة يضلونها ويقاسون حرها.
والنار التي يعذب بها الشياطين أشد من النار التي خلقوا منها، لأن السعير أشد أنواع النار التهاباً واشتعالاً وإحراقاً، وهي أشد طبقات النار حرارة وتوقدًا، فإن جهنم طبقات، فإذا أصابتهم نار السعير كانت عذاباً لهم، لأنهم تمرّدوا على الله وأضلوا عباده.
ومثل ذلك قوله تعالى عن الشياطين ﴿وَمَن يَزِغْ مِنْهُمْ عَنْ أَمْرِنَا نَذِقْهُ مِنْ عَذَابِ السَّعِيرِ﴾ [سبأ: ١٢].
وقوله سبحانه: ﴿إِنَّمَا يَدْعُوا حِزْبَهُ لِيَكُونُوا مِنْ أَصْحَابِ السَّعِيرِ﴾ [فاطر: ٦].
والآية تشير إلى أن الحياة ليست نهاية المطاف، وهي تكشف الستار عما وراءها من عالم آخر، يثاب فيه المؤمن، ويعاقب فيه الكافر:

جَوْزَةٌ مَعَ عَذَابٍ مُنْكَرٍ دَلَالِ التَّوْحِيدِ

٦- ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَيَسُورُ الْمَصِيرُ﴾

تضمنت هذه الآية، أن عذاب نار جهنم قد أعدت للكافرين، يخلّدون فيها، بعد أن مرّ على جهنم زمن تخفق فيه أبوابها.

وجهنم اسم للطبقات العليا من النار، وقد تسمى الطبقات كلها جهنم باسم بعضها.
وليس العذاب الأخروي مختص بالشياطين وحدهم، بل يعذب بالنار كل كافر بالله

تعالى، من الإنس والجن، قال تعالى: ﴿وَلِلَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ﴾ أي وكما هيأنا للشياطين عذاب السعير، فقد هيأنا لكل من كفر بخالقه من الثقلين عذاب جهنم، وبئست مصيرا للذين كفروا بربهم.

مَشْهَدُ جَهَنَّمَ وَهِيَ تَسْتَقْبِلُ أَهْلَهَا فِي غَيْظٍ وَحَنَقٍ

٧- ﴿إِذَا الْقَوَايِمُ سَمِعُوا لَهَا شَيْقًا وَهِيَ تَفُورُ﴾

وهذا مشهد من مشاهد جهنم، وهي تستقبل أهلها في غيظ وحنق، لأنهم كفروا بربهم ولم يستجيبوا له.

والشهيق: هو تردد النفس في الصدر بصعوبة وعناء، ويكون ذلك بصوت عالٍ فظيع بالنسبة لجهنم وهي تستقبل أهلها - والعياذ بالله - ، والفور: هو شدة الغليان.

والمعنى: أن الكفار إذا طُرحوا في النار، فإنهم يسمعون لها صوتاً منكراً شديداً، وهي تغلي غلياناً قوياً، كما يغلي الماء في القدر.

خَزَنَةُ النَّارِ يَسْأَلُونَ أَهْلَهَا عَنْ مَجِيءِ الرُّسُلِ إِلَيْهِمْ فِي الدُّنْيَا

٨- ﴿تَكَادُ تَمَيِّزُ مِنَ الْغَيْظِ كُلَّمَا أُلْقِيَ فِيهَا فَوْجٌ سَأَلْتُمْ خَزَنَتَهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ﴾

وبعد أن وصف الله تعالى جهنم بوصفين هما: الشهيق والغليان، وصفها بوصف ثالث، وهو أنها تكاد تتمزق وتتقطع من شدة غضبها وغيظها على الكفار ﴿تَكَادُ تَمَيِّزُ مِنَ الْغَيْظِ﴾ أي تكاد جهنم يفصل بعضها عن بعض حنقاً وغيظاً على أعداء الله.

وكلما طُرح فيها جماعة من الناس، سألهم الخزانة الموكلون بها على سبيل التوبيخ والتقريع كأنهم لم يُخبروا بها، ولم تحذرهم الرسل منها، فيقولون لهم: ﴿أَلَمْ يَأْتِكُمْ﴾ في الدنيا رسول ينذركم ويحذركم هذا العذاب الذي أنتم فيه؟ وذلك لأن الله تعالى لا يعذب أحداً إلا بعد إقامة الحجة عليه كما قال تعالى: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا﴾

وقال سبحانه: ﴿حَتَّىٰ إِذَا جَاءَهَا فَتَحَتْ أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِ رَبِّكُمْ وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا قَالُوا بَلَىٰ وَلَكِنْ حَقَّتْ كَلِمَةُ الْعَذَابِ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾ [الزمر: ٧١].

وأهل الفترة لا يدخلون النار، لأنهم لم يأتهم نذير، وأطفال المؤمنين في الجنة، أما أطفال المشركين فقليل هم في الجنة، لأنهم لم يبلغوا سن التكليف، وقيل غير ذلك.

أَهْلُ النَّارِ يُجِيبُونَ الْخِزْنَةَ بِالاعْتِرَافِ وَالْإِقْرَارِ

٩- ﴿قَالُوا بَلَىٰ قَدْ جَاءَنَا نَذِيرٌ^(١) فَكَذَّبْنَا وَقُلْنَا مَا نَزَّلَ اللَّهُ مِن شَيْءٍ إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا فِي ضَلَالٍ كَبِيرٍ﴾^(٢) ويأتي جواب الكفار على سؤال خزنة جهنم عن إرسال الرسل إليهم في ذلة وانكسار واعتراف، بعد الإنكار والتبجح، وتكذيب الرسل في الدنيا ﴿قَالُوا بَلَىٰ قَدْ جَاءَنَا نَذِيرٌ﴾ أي جاءنا رسول من عند الله وحذرننا مما نحن فيه ﴿فَكَذَّبْنَا وَقُلْنَا مَا نَزَّلَ اللَّهُ مِن شَيْءٍ﴾ أي كذبنا الرسول الذي أرسل إلينا، فأنكرنا رسالته، وقلنا عما جاء به من عند ربه: ما أنزل الله على أحد من البشر شيئاً، وقلنا لهم أيضاً ﴿إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا فِي ضَلَالٍ كَبِيرٍ﴾ أي ما أنتم إلا في بُعد عن الحق. وهكذا يقول أهل الكفر والضلال ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِذْ قَالُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ عَلَىٰ بَشَرٍ مِّن شَيْءٍ﴾ [الأنعام: ٩١].

وكانوا قد جمعوا في الدنيا بين التكذيب بالرسل، والتكذيب بكل ما أنزل الله، وفضلاً عن ذلك فإنهم قد وضموا الرسل بالضلال البين، أو أن هذا خطاب من الله لهم بأنهم في ضلال وعناد وتكبر. وقد وُصف ضلالهم بأنه ضلال كبير، يبلغ الغاية في القبح.

أَهْلُ النَّارِ يَنْدَمُونَ وَيَتَحَسَّرُونَ عَلَىٰ مَا كَانُوا فِيهِ مِنْ ضَلَالٍ

١٠- ﴿وَقَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ﴾^(٣)

(١) عد المكي وشيبة ونافع بن أبي نعيم ﴿قَدْ جَاءَنَا نَذِيرٌ﴾ آية، فيكون متروكاً عند بقية علماء العدد.

ثم إن الكفار عادوا على أنفسهم بالملامة، وندموا حيث لا تنفعهم الندامة ﴿وَقَالُوا﴾ معترفين متحسرين عما كانوا فيه من ضلال ﴿لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ﴾ إلى ما جاءت به الرسل سماع من يطلب الحق ويتلمس الهدى ﴿أَوْ نَعْقِلُ﴾ ونفكر فيما يوجه إلينا من هدايات وإرشادات، لو كنا كذلك ﴿مَا كُنَّا﴾ اليوم ﴿فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ﴾ أي في جملة المعذبين بالنار الموقدة.

والآية تشير إلى أن السمع والعقل هما مدار التكليف في الإنسان، وتشير إلى أن أهل النار نَفُوا عن أنفسهم طرق الهداية، ومنها أنهم لا يستمعون بفهم لما أنزل الله، ولا يعقلون ما ينفعهم، ولا يوفقون إلى حقائق الأمور، ولا يؤثرون الخير، ولا ينزجرون عن الشر، فكانهم لا سمع لهم ولا عقل، وهذا بخلاف أهل الإيمان واليقين، فإنهم ينتفعون بما أنزل الله على رسوله ويميزون بين الهدى والضلال والحسن والقبيح، والخير والشر. وإعراض الكفار عن تلقي دعوة الرسل جاء في كثير من الآيات، منها قوله تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَسْمَعُوا لِهَذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [فصلت: ٢٦].

ولما أعرضوا عن تعقل حُجج الله تعالى وآياته ﴿خَتَمَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَعَلَى سَمْعِهِمْ﴾ [البقرة: ٧]. وجعل على قلوبهم أغطية لئلا يفقهوه ﴿إِنَّا جَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا﴾ [الكهف: ٥٧].

وقد نهانا الله تعالى أن نكون كالذين قالوا سمعنا وهم لا يسمعون، وتوعد الله المعرض عن آياته بالويل والشور، قال تعالى: ﴿وَبَلِّغْ لِكُلِّ آفَاقٍ أَمْرَ﴾ ﴿يَسْمَعُ آيَاتِ اللَّهِ تُنْزِلُ عَلَيْهِ ثُمَّ يُصِرُّ مُسْتَكْبِرًا كَانُ لَمْ يَسْمَعْهَا فَبَشِّرُهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [الجاثية: ٨٧].

وقال جل شأنه: ﴿وَإِذَا تُنْزِلُ عَلَيْهِ آيَاتُنَا وَلَّى مُسْتَكْبِرًا كَانُ لَمْ يَسْمَعْهَا كَانُ فِي أَذْنِهِ وَقْرًا﴾ [لقمان: ٧] ولا شك أن أقل الناس عقلاً هو مَنْ ترك سبب نجاته لغير معارض يعارضه في دينه ﴿أَمْ تَأْمُرُهُمْ أَخْلَعُهُمْ بِهِذًا أَمْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ﴾ [الطور: ٣٢].

عن الحكيم الترمذي أن رجلاً قال: يا رسول الله، ما أعقل فلان النصراني؟ فقال ﷺ: «مَهْ، إِنَّ الْكَافِرَ لَا عَقْلَ لَهُ، أَمَا سَمِعْتَ قَوْلَهُ تَعَالَى: ﴿وَقَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ﴾».

وفي حديث ابن عمر رضي الله عنهما، فزجره النبي ﷺ وقال: «مَهْ، إن العاقل من يعمل بطاعة الله».

ومن أسباب إعراض العقل عن الهدى: الانغماس في الشهوات والملذات والعكوف عليها، والاستماع إلى ما يؤدي إلى الهزائم الروحية والمادية، كَمَنْ يقول: عَشْ يومك - يعني في الهزل واللهو- فإن هذا اليوم لن يعود، على حد زعمه. وَمَنْ يقول: الدنيا ضحك ولعب وجَدْ وحبْ، عَشْ أيامك، عَشْ لياليك، فإن مثل هذه الكلمات أصابت الأمة في مقتل، وأخرجت لنا جيلاً شهوانياً، لا ينفع نفسه ولا مجتمعه، فضلاً عن أن يجاهد عدواً، أو يرفع لواء الإسلام! ونتيجة لذلك، فإن العقل المسلم أصبح جهولاً بالكون، ضعيف القدرة على استغلال ثروات الأرض.

ومن المفروض أن عقل المؤمن أكثر خبرة بالحياة من العقل الملحد. فالإسلام كله دعوة إلى التأمل والنظر وإعمال الفكر والسير في الأرض، واستخراج كنوزها والانتفاع بثرواتها ﴿قُلْ أَنْظَرُوا مَاذَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا تُغْنِي الْآيَاتُ وَالنَّذْرُ عَنْ قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [يونس: ١٠١] قال تعالى:

١١- ﴿فَاعْتَرَفُوا بِذَنبِهِمْ فَسُحْقًا^(١) لِأَصْحَابِ السَّعِيرِ ۝١١﴾

والذي يسمع ويعقل لا يورد نفسه المهالك، ولا يجحد في يومه ما يعترف به غداً، وهذا حال أهل السعير حين يعترفون يوم القيامة بما كانوا فيه في الدنيا من ضلال ﴿فَاعْتَرَفُوا بِذَنبِهِمْ﴾ أي: أقرؤا بتكذيبهم لرسول الله، وكُفْرهم بآيات الله، وأن هذا كان السبب في تعذيبهم يوم الحسرة والندامة ﴿فَسُحْقًا لِأَصْحَابِ السَّعِيرِ﴾ بعداً لأهل النار عن رحمة الله، فما أشقاهم وأرداهم حيث فاتهم ثواب الله، ولازموهم عذاب السعير، وهي تستعر في

(١) قرأ ابن جماز والكسائي وابن وردان بخلفهما بضم الحاء من ﴿فَسُحْقًا﴾ والباقون بإسكانها وهو الوجه الثاني للكسائي وابن وردان.

أبدانهم وتطلع على أفئدتهم، فلا رجاء لهم في مغفرة، ولا خروج لهم من العذاب في جهنم التي تشهق بأنفاسها وهي تفور، لأن هذه الأنفس كفرت بربها بعد أن أودع الله في فطرتها حقيقة الإيمان ودلائله، فهي أنفس فُرِغَتْ من كل خير، وانتكست وارتكست، وانحطت إلى أسفل الدركات، والآية دعاء عليهم.

وفي حديث أبي هريرة رضي الله عنه «لا يدخل أحد النار إلا أُرِي مقعده من الجنة لو أحسن، ليكون عليه حسرة، ولا يدخل أحد الجنة إلا أُرِي مقعده من النار لو أساء، ليزداد شكراً»^(١).

وَقَفَّةٌ مَعَ السَّعْدَاءِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ

١٢ - ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِالْغَيْبِ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ﴾ (١٢)

وبعد أن ذكر الله سبحانه حال الأشقياء، أتبعه بذكر حال السعداء، وقد وصفتهم الآية، بأبرز صفات المؤمنين، في الحالة التي لا يطلع عليها إلا الله، وهي الإيمان بالغيب، وذلك لمناسبة ذكر العقل في الآية السابقة، حيث إن الإيمان بالغيب، يكون عن طريق العقل، والمسلم يضحّي بروحه استجابة لهذا الغيب فلا يقدم على معصية الله ولا يقصّر فيما أمر الله ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِالْغَيْبِ﴾ أي يخافون ربهم فيعبدونه ولا يعصونه، وهم غائبون عن أعين الناس، فهم يطيعون الله ويتركون معاصيه في السر والعلن، خوفاً من عذابه، دون أن يروه سبحانه، لأنهم آمنوا بوعده ووعيده، فامثلوا أمره واجتنبوا نهيه، وهؤلاء المؤمنون ﴿لَهُمْ مَغْفِرَةٌ﴾ ومحو لذنوبهم وإذا غفر الله ذنوبهم وقاهم شرها ووقاهم عذاب الجحيم ﴿وَأَجْرٌ كَبِيرٌ﴾ أي لهم ثواب كبير وعظيم هو الجنة، ورضوان من الله أكبر.

ومن الأمثلة على ذلك ما رواه أبو هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «سبعة يظلهم الله في ظله يوم لا ظل إلا ظله: الإمام العادل، وشاب نشأ في عبادة ربه، ورجل قلبه معلق بالمساجد، ورجلان تحابا في الله، اجتمعا عليه وتفرقا عليه، ورجل طلبته امرأة

(١) المسند (٥٤١/٢) برقم (١٠٩٨٠) وهو حديث صحيح، أخرجه البخاري (٦٥٦٩)، والبيهقي في البعث والنشور (٢٤٤).

ذات منصب وجمال، فقال: إني أخاف الله، ورجل تصدق، أخفى حتى لا تعلم شماله ما تنفق يمينه، ورجل ذكر الله خالياً ففاضت عيناه»^(١).

والذين يخشون ربهم بالغيب: هم الذين يعرفون حق الله تعالى عليهم، فيراقبوه في السر والعلن، كما قال تعالى: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾ [فاطر: ٢٨].

وقال سبحانه: ﴿هَذَا مَا تُوعَدُونَ لِكُلِّ أَوَّابٍ حَفِيزٍ ﴿٣٢﴾ مَنْ خَشِيَ الرَّحْمَنَ الْغَيْبَ وَجَاءَ بِقَلْبٍ مُنِيبٍ﴾ [ق: ٣٢، ٣٣].

وقد وصف الله تعالى أنبياءه بقوله: ﴿الَّذِينَ يُلَاقُونَ رِسَالَاتِ اللَّهِ وَيَخْشَوْنَهُ وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلَّا اللَّهَ﴾ [الأحزاب: ٣٩].

كما وصف الله المنافقين بأنهم ﴿يَسْتَخْفُونَ مِنَ النَّاسِ وَلَا يَسْتَخْفُونَ مِنَ اللَّهِ وَهُوَ مَعَهُمْ﴾ [النساء: ١٠٨].

والمؤمن بالغيب، يعبد الله تعالى كأنه يراه، فإن لم ير العبد ربه، فإن ربه يراه.

ولذا كان أول صفة من صفات المتقين أنهم ﴿يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ﴾ [البقرة: ٣].

ولفظ (الغيب) يحتمل معنيان:

المعنى الأول: أن المراد بالغيب: ما أخبر الله به من البعث، والحشر، والصراط، والميزان، والجنة والنار، والعرش والكرسي والملائكة، فأمنوا بذلك وخافوا ربهم، كما أخبرهم دون أن يروا ذلك بأعينهم.

والمعنى الثاني: أنهم يخشون ربهم إذا غابوا عن أعين الناس في خلواتهم وجلواتهم.

الدليل الثالث من دلائل وحدانية الله تعالى: علم السر والنجوى

١٣ - ﴿وَأَسِرُّوا قَوْلَكُمْ أَوِ اجْهَرُوا بِهِ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾ [١٣]

ومن الغيب: علم الله تعالى بالسر والعلن، فهو الذي خلق الخلق، ويعلم دخالها

(١) حديث السبعة الذين يظلهم الله في ظله عن أبي هريرة في صحيح مسلم (١٠٣١)، وصحيح البخاري (١٤٢٣، ٦٦٠).

وكوامنها وما أودعه فيها ﴿وَأَسْرُوا قَوْلَكُمْ أَوِ اجْهَرُوا بِهِ﴾ أخفوا كلامكم - أيها الناس - أو أظهروه، فسواء أخفيتموه أو أعلنتموه فإن الله تعالى يعلمه، والكل يستوي في علم الله، والكل مكشوف أمام الله تعالى ﴿إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾ فهو الذي خلقها ويعلم ما أودعه فيها، لا يخفى عليه شيء من أحوالكم، يعلم النيات والإرادات، فكيف بالأقوال والأفعال؟ قال تعالى: ﴿سَوَاءٌ مِنْكُمْ مَنْ أَسَرَ الْقَوْلَ وَمَنْ جَهَرَ بِهِ وَمَنْ هُوَ مُسْتَخْفٍ بِاللَّيْلِ وَسَارِبٌ بِالنَّهَارِ﴾ [الرعد: ١٠].

وقال سبحانه: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ وَفَعَّلْنَا مَا تَشَاءُونَ بِهِ نَفْسَهُ وَيَنْحَرِبُ إِلَيْنَا مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ﴾ [ق: ١٦].
وقال جل شأنه: ﴿أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لَا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُمْ بَلَىٰ وَرُسُلُنَا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ﴾ [الزخرف: ٨٠].
ومن الإيمان بالغيب: أن يعلم المؤمن أن الله تعالى يعلم سره ونجواه:
أخرج البزار وابن مردويه عن أنس رضي الله عنه قال: قالوا: يا رسول الله، نكون عندك على حال، فإذا فارقناك كنّا على غيره، فنخاف أن يكون ذلك النفاق، قال: (كيف أنتم وربكم؟) قالوا: الله ربنا في السر والعلانية، قال: (كيف أنتم وبيكم؟) قالوا: أنت نبينا في السر والعلن قال: (ليس ذلكم النفاق)^(١).

أما الكافر فهو لا يؤمن بأن الله تعالى يعلم سره ونجواه، ومن ذلك ما قاله ابن عباس رضي الله عنهما في سبب نزول الآية، أن المشركين كانوا ينالون من النبي صلى الله عليه وسلم - أي يؤذونه بالقول في غيبته - وكان جبريل يخبره بما قالوا، فقال بعضهم لبعض: أسروا قولكم حتى لا يسمعكم إله محمد، فأخبره الله تعالى أنه لا تخفى عليه خافية^(٢).
والمعنى: أن الأمر سواء عند الله تعالى، لأنه يعلم ما هجس في الصدور، دون أن يُنطق به، فكيف إذا نُطق به سراً أو جهراً.

(١) الدر المنثور (٤١٦/٨).

(٢) ينظر: تفسير ابن عطية (٣٤٠/٥)، وتفسير الخازن والنسفي (٢٩١/٤)، والألوسي (١٣/٢٩)، والقرطبي (٢١٤/١٨).

الدليل الرابع: خلق الإنسان والإحاطة بظاهريه وباطنيه

١٤ - ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ﴾ ﴿١٤﴾

وكيف لا يستوي في علمه سبحانه سر خلقه ونجواهم، وعلمه شامل ومحيط بهم ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ﴾ ألا يعلم ما في صدور خلقه، وهو الذي أتقن خلقهم وأحسنه ويعلم خباياهم ونواياهم ﴿وَهُوَ اللَّطِيفُ﴾ يعلم دقائق الأمور وغوامضها، ومن لطفه تعالى أنه يسوق البر والإحسان إلى عبده من حيث لا يشعر، وهو ﴿الْخَبِيرُ﴾ الذي لا يعزب عن علمه شيء، فلا تتحرك ذرة ولا تسكن إلا وعنده خبرها.

١ - قال تعالى: ﴿وَمَا سَقَطُ مِنْ رَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٌ فِي ظِلْمَتِ الْأَرْضِ وَلَا رَطْبٌ وَلَا يَأْسٌ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ﴾ [الأنعام: ٥٩].

٢ - وقال لقمان لابنه: ﴿يَبْنِيْ إِنَّهَا إِنْ تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ فَتَكُنْ فِي صَخْرَةٍ أَوْ فِي السَّمَوَاتِ أَوْ فِي الْأَرْضِ يَأْتِ بِهَا اللَّهُ﴾ [لقمان: ١٦].

٣ - وقال سبحانه: ﴿وَإِنْ كُنْتُمْ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا﴾ [الأنبياء: ٤٧].

٤ - وقال جل شأنه: ﴿وَمَا تَخْرُجُ مِنْ ثَمَرَةٍ مِنْ أَكْمَامِهَا وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنْثَى وَلَا تَضَعُ إِلَّا يَعْلَمُهُ﴾ [فصلت: ٤٧].

الدليل الخامس: خلق الأرض وتذليلها لمنفعة الإنسان

١٥ - ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ ذَلُولًا فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِنْ رِزْقِهِ وَإِلَيْهِ النُّشُورُ﴾ ﴿١٥﴾

في هذه الآية دعوة حارة للمسلمين كي يتنفعوا بما في الأرض من كنوز حتى يستغنوا عن غيرهم في حربهم وسلمهم وأمور معاشهم ومعادهم.

ولما ذكر سبحانه خلق الإنسان في قوله ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ﴾ أعقبه بذكر خلق الأرض وتذليلها للإنسان، فهي التي خلقت منها، وإليها يعود، ومنها يبعث، فقال تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ ذَلُولًا﴾ من حيث جاذبيتها، ومن حيث سطحها، ومن حيث تكوينها، ومن حيث إحاطة الهواء بها، ومن حيث حجمها، فالله وحده هو الذي خلق لكم

الأرض وجعلها سهلة ممهدة للاستقرار عليها، والمشي في جنباتها، والانتفاع بما فيها، وهو الذي ذللها وسخرها لكم لتنتفعوا بها في الحرث والغرس والزرع والبناء وغيرها وتنتفعوا بها في شق الطرق التي تصل بين البلاد النائية والشاسعة.

﴿فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا﴾ سافروا حيث شئتم، وترددوا في أقطارها، واسعوا في نواحيها وجوانبها، وأطرافها وفجاجها، ملتصقين برزق الله فيها ﴿وَكُلُوا مِنْ رِزْقِهِ﴾ الذي يخرجها لكم منها، واستغلوا ما فيها من نعم وكنوز، كما جاء في الأثر (التمسوا الرزق في خبايا الأرض). والعبد يبذل السبب لتحصيل الرزق ويتوكل على الله، وهذا التوكل لا يتنافى مع بذل الأسباب.

والآية تحث على الكسب المشروع، واتخاذ الأسباب اللازمة لذلك: وقد مرَّ عمر رضي الله عنه بقوم، فقال: من أنتم؟ فقالوا: المتوكلون، فقال: بل أنتم المتوكلون، إنما المتوكل، رجل ألقي حبة في بطن الأرض، وتوكل على ربه عز وجل^(١). ومن تسخير الله تعالى للأرض أن جعلها كِفَاتاً للإنسان في حياته، بتسهيل معيشتها فيها، وحياته على ظهرها، فإذا مات كانت له كِفَاتاً أيضاً بدفنه فيها ﴿أَنزَلَ نَجَمٍ مِنَ السَّمَاءِ كِفَاتاً﴾ [المرسلات: ٢٥، ٢٦].

ولو شاء الله لجعلها حديداً ونحاساً فلا يستطيع الإنسان أن يحراثها أو يزرعها ﴿فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ إِلَى طَعَامِهِ﴾ (١٢) أَنَا صَبَبْنَا الْمَاءَ صَبّاً (١٣) ثُمَّ شَقَقْنَا الْأَرْضَ شَقّاً (١٤) فَأَبْيْنَا فِيهَا حَبّاً (١٥) وَعَبْنَا وَقَضَّيْنَا (١٦) وَزَيَّنَّا وَخَلَلْنَا (١٧) وَحَدَّيْنَا عُلْباً (١٨) وَفَكَهَهُ وَأَبَّأ (١٩) مَتَّعْنَاكُمْ وَلَئِنَّمِكُمُ ﴿[عبس: ٢٤-٣٢].

فهو يسعى فيها وهو حي، ويدفن فيها بعد موته.

وقد أمر الله المسلم إذا فرغ من عبادته أن يسعى لتحصيل رزقه فقال: ﴿فَإِذَا قُضِيَتْ الصَّلَاةُ فَانْتَشِرُوا فِي الْأَرْضِ وَابْتَغُوا مِنْ فَضْلِ اللَّهِ﴾ [الجمعة: ١٠] فقد ذلل الله الأرض للإنسان والحيوان، بما تحتويه من هواء وماء وتربة تصلح للزرع والإنبات والجَنِّي والحصاد.

(١) تفسير الألوسي (١٥/٢٩)، والأثر أخرجه الحكيم الترمذي (٤٠٥/١).

وجعل هذه الأرض ثابتة مستقرة ساكنة لا تُلْقَى بمن عليها عن ظهرها، مع أنها تدور حول نفسها بسرعة ألف ميل في الساعة، وتدور حول الشمس بسرعة خمسة وستين ألف ميل في الساعة، وقد جعل الله للأرض جاذبية تشدّ مَنْ فوقها إليها في أثناء حركتها الكبرى، وجعل لها ضغطاً جويّاً يسمح بسهولة الحركة فوقها، وجعل الله الهواء المحيط بالأرض محتوياً للعناصر التي تحتاج إليها الحياة، والنص القرآني يشير إلى هذه الحقائق^(١). وفي الآية إشارة إلى ضرورة طلب الرزق والمكاسب، وفيها دلالة على وحدانية الله تعالى، وقدرته، والتذكير بنعمه، والتحذير من الركون إلى الدنيا.

وهكذا أمر الإسلام أبناءه بالاستثمار والانتاج، وطلب الثراء، والاستغناء عن الناس ولم ينقص شيء مِنْ دُخُلِ الأمة ونتاجها إلا بمقدار تقصيرها وإضاعة حقها في الوجود، إذ القدرة الإنتاجية هي المتحكمة في العالم اليوم، وهي ذات السيادة، وقد أعطى الإسلام أهله الأولوية في هذا ليكونوا سادة وقادة وأحراراً.

ولما كانت الأرض هي مَثْوَى الناس بعد الموت، ختم الله الآية بقوله: ﴿وَالْيَوْمَ النُّشُورُ﴾ أي وإليه وحده البعث من قبوركم للحساب والجزاء، وقد جعل الله الدنيا دار ابتلاء وامتحان ومعبراً يوصل إلى الآخرة حيث تبعثون بعد موتكم وتحشرون إلى الله فيحاسبكم ويجازيكم على ما قدمت أيديكم من الحسنات والسيئات، وهذا البعث يكون من الأرض، كما قال تعالى: ﴿مِنَّا خَلَقْتَكُمْ فِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنَّا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَى﴾ [طه: ٥٥].

الْكَفْرُ يُحَوِّلُ النُّعْمَ إِلَى نِقَمٍ تَنْزِلُ بِالْإِنْسَانِ مِنْ تَحْتِهِ أَوْ مِنْ فَوْقِهِ

١٦ - ﴿ءَأَمِنْتُمْ^(٢) مَنْ فِي السَّمَاءِ أَنْ يَخِفَّ بِكُمْ الْأَرْضُ فَإِذَا هِيَ تَمُورُ^(٣)﴾

(١) ينظر: في ظلال القرآن (٣٦٣٩/٦).

(٢) قرأ قالون وأبو عمرو وأبو جعفر بتسهيل الهمزة الثانية مع الإدخال في (ءأمنتم) وقرأ الأصهباني والبيزي ورويس بالتسهيل مع عدم الإدخال، وللأزرق وجهان هما: التسهيل مع عدم الإدخال، وإبدال الهمزة ألفاً مع القصر، ولهشام ثلاثة أوجه هي: التسهيل مع الإدخال، والتحقيق مع الإدخال وعدمه، والباقون بتحقيق الهمزتين من غير إدخال.

ولما قرر الله سبحانه أنه خلق الأرض ودلّلها للإنسان، بيّن جل شأنه أن الكفر يُحوّل النعم إلى نقم، وأن هذه الأرض الذلول الحلوب، قد تتحول إلى أرض غير ذلول ولا حلوب، بأن تضطرب قليلاً، فيرتج كل شيء فوقها ويتحطم، فيكون الناس وهم في هول الزلازل والبراكين والخسف، كالقثران الصغيرة المحصورة في قفص الرعب، فتتحول هذه الأرض إلى جند من جنود الله، يعاقب بها من لم يؤمن به، فاستحق غضبه سبحانه.

والله تعالى يوبخ من كفر به وأساء معاملته، فهو يعصي ربه وكأنه في مأمن من أن يأمر الله ملائكته أن يخسفوا الأرض بكل من كفر به وأشرك معه غيره.

والآية فيها تهديد ووعد لمن طغى وتكبر وعصى الله تعالى فاستحق عقوبته ﴿ءَأَمِنُمْ مَن فِي السَّمَاءِ﴾ وهو الله سبحانه كما جاء في حديث الجارية التي سئلت: أين الله؟ فأشارت، في السماء، قال: «اعتقها فإنها مؤمنة»^(١).

قال القرطبي: إن ﴿فِي السَّمَاءِ﴾ بمعنى فوق السماء، كقوله ﴿فَسَبِّحُوا فِي الْأَرْضِ﴾ [التوبة: ٢] أي فوقها، وهذه الآية كقوله تعالى: ﴿أَفَأَمِنَ الَّذِينَ مَكَرُوا السَّيِّئَاتِ أَنْ يَخْسِفَ اللَّهُ بِهِمُ الْأَرْضَ أَوْ يَأْتِيَهُمُ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ﴾ (١٥) أَوْ يَأْخُذَهُمْ فِي تَقْلُبِهِمْ فَمَا هُمْ بِمُعْجِزِينَ (١٦) أَوْ يَأْخُذَهُمْ عَلَى تَخَوُّفٍ فَإِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَحِيمٌ﴾ [النحل: ٤٥-٤٧].

فهل أمتهم ﴿أَنْ يَخْسِفَ﴾ الله ﴿بِكُمْ الْأَرْضَ﴾ أيها الجاحدون المكذبون ﴿فَإِذَا هِيَ تَمُورُ﴾ تضطرب بكم وتنزل، فينقلب ظاهرها باطنها، وباطنها ظاهرها، وتعلو فوقكم، وهي تهتز بكم هزاً شديداً، فتتحرك وترتج بكم ارتجاجاً قوياً، تزول معه حياتكم فتهلككم وتُتلفكم، كما خسف الله بقارون وبيداره الأرض. قال تعالى:

(١) ينظر المسند (١٧٩٤٥، ١٩٤٥٥) عن الشريد بن سويد، و(٢٣٧٦٢، ٢٣٧٦٧) عن معاوية بن الحكم السلمي، وإسناده صحيح على شرط مسلم ورجاله ثقات، كما قال محققوه، وأخرجه مسلم (٥٣٧)، وأبو داود (٩٣٠)، وابن حبان (١٦٥)، والنسائي في الكبرى (١١٤١) وغيرهم

١٧ - ﴿أَمْ أَمِنْتُمْ مَنِ فِي السَّمَاءِ^(١) أَنْ يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا فَسَتَعْلَمُونَ كَيْفَ نَذِيرِ^(٢)﴾

فإذا كنتم يا معشر الكفار آمنين من أن يأتيكم العذاب من تحتكم، فهل أنتم آمنون من أن يأتيكم العذاب من فوقكم، بأن يرسل الله عليكم ريحاً ترجمكم بالحجارة الصغيرة ﴿أَمْ أَمِنْتُمْ مَنِ فِي السَّمَاءِ أَنْ يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا﴾ أي يرسل عليكم حجارة من السماء، كما أرسلها على قوم لوط وأصحاب الفيل ﴿فَسَتَعْلَمُونَ﴾ عند معاينة العذاب ﴿كَيْفَ نَذِيرِ﴾ أي كيف كان تحذيري وعقابي للمكذبين، وتهديدي ووعيدي لهم بنزول العذاب؟ وستعلمون حقيقة ما أخبرتكم به الرسل والكتب، قال تعالى: ﴿وَلَوْ يَأْخُذُ اللَّهُ النَّاسَ بِظُلْمِهِمْ مَا تَرَكَ عَلَيْهِمْ مِنْ دَابَّةٍ وَلَكِنْ يُؤَخِّرُهُمْ إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى فَإِذَا جَاءَ أَجْلُهُمْ لَا يَسْتَحْضِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِرُونَ﴾ [النحل: ٦١ ونظيرها في سورة فاطر: ٤٥].

وفي الآية تحذير لهم من أن يخسف الله بهم الأرض، أو يرسل عليهم حاصباً إن لم يؤمنوا، فإن آمنوا وأقلعوا عن كفرهم فإنهم يسلمون من ذلك.

العقَابُ الدُّنْيَوِيُّ لِلْأُمَمِ الْمُكَذِّبَةِ لِرُسُلِ اللَّهِ تَعَالَى

١٨ - ﴿وَلَقَدْ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ^(١)﴾

ثم أخبر سبحانه أن كل من كذب الرسل من الأمم السابقة، أصابهم من عذاب الاستئصال ما قد علموا أخباره، كقوم نوح، وقوم لوط، وأصحاب الرس، وقوم ثمود.. وغيرهم ممن كذب رسل الله ﴿فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ﴾ أي كيف أنكرنا عليهم كفرهم وتكذيبهم بما نزل بهم من عقاب، كما قال تعالى: ﴿فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذُنُوبِهِ فَمِنْهُمْ مَنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُمْ مَنْ أَخَذَتْهُ الصَّيْحَةُ وَمِنْهُمْ مَنْ خَسَفْنَا بِهِ الْأَرْضَ وَمِنْهُمْ مَنْ أَغْرَقْنَا وَمَا كَانَ اللَّهُ

(١) قرأ نافع وابن كثير وأبو عمرو وأبو جعفر ورويس بإبدال الهمزة الثانية ياء مفتوحة من ﴿السَّمَاءِ أَنْ﴾ معاً، والباقيون بتحقيقها.

(٢) قرأ ورش بإثبات الياء وصلاً من ﴿نَذِيرِ﴾ وأثبتها يعقوب في الحاليين وحذفها الباقيون، ومثلها ﴿نَكِيرِ﴾ في الآية التالية.

لِيُظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٤٠﴾ [العنكبوت: ٤٠] فانظروا كيف كان إنكار الله عليهم، لقد عاجلهم بالعقوبة في الدنيا قبل الآخرة، فاحذروا أن يصيبكم ما أصابهم. لقد كان عقابي لهم في غاية الهول والفظاعة! وشأن المؤمن أن يكون ذا إحساس يقظ، دائم الاتصال بالله تعالى حتى ينجو من عذاب الله تعالى.

في الحديث أن عائشة رضي الله عنها قالت: ما رأيت رسول الله ﷺ قطُّ مُستجمِعاً ضاحكاً، حتى أرى منه لهوآته، إنما كان يبتسم، وقالت: كان رسول الله ﷺ إذا رأى غيماً أو ريحاً عُرِفَ ذلك في وجهه، قالت: يا رسول الله، إن الناس إذا رأوا الغيم فرحوا، رجاء أن يكون فيه المطر، وأراك إذا رأيته عُرِفَتْ في وجهك الكراهية، فقال رسول الله ﷺ: «يا عائشة، وما يؤمنني أن يكون فيه عذاب؟ قد عَذَّب قوم بالريح، وقد رأى قوم العذاب وقالوا: هذا عارض ممطرنا»^(١).

الدليل السادس: الطيور وأحوالها في الفضاء

١٩ - ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ فَوْقَهُمْ صَفًى وَيَقْبِضْنَ مَا يُمَسِّكُهُنَّ إِلَّا الرَّحْمَنُ إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ بَصِيرٌ ﴿١٩﴾﴾ وتمضي آيات الدعوة إلى التأمل في مظاهر قدرة الله تعالى، فتنتقل من أحوال البشر إلى أحوال الطير، للاستدلال بخلقها ونظام حركاتها وطيرانها على عظيم قدرة الله تعالى، واستحقاقه للعبادة دون سواه، فهل غفل هؤلاء الجاحدون لوحداية الله تعالى، المكذبون لخاتم الرسل عن التأمل في عالم الطير، وهو يطير فوق رؤوسهم بقدرة الله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ﴾ أغفل الكفار، فلم ينظروا نظر تأمل وتدبر إلى عالم الطيور، ففي الآية حث على النظر في حالة الطير وهي تصف أجنتها في الهواء للطير، وتقبضها للوقوع، فتظل طائفة في الجو تتردد فيه إلى حيث تريد وهي ﴿فَوْقَهُمْ صَفًى وَيَقْبِضْنَ﴾.

(١) أخرجه أحمد في المسند عن عائشة برقم (٢٤٣٦٩) بإسناد صحيح على شرط الشيخين، وهو في البخاري (٤٨٢٨، ٦٠٩٢) مختصراً، ومسلم (٨٩٩)، وأبوداود (٥٠٩٨)، والطبراني في الأوسط (٢١٧)، والحاكم (٤٥٦/٢)، والبيهقي في شرح السنة (١١٥٠).

هذه ثلاثة أوصاف للطير:

الوصف الأول: قوله تعالى ﴿فَوَقَّهُمْ﴾ أي أن جميع الدواب تمشي، بما فيها الطير، ولكنها تخالف بقية المخلوقات، وتنفرد عنه بحالة عجيبة، وهي الطيران فوق رؤوسهم ﴿وَمِمَّنْ دَابَّتْ فِي الْأَرْضِ وَلَا طَيْرٌ يَبْتَغِي بَحَاجِدٍ إِلَّا أُمَمٌ أَمْثَلُكُمْ﴾ [الأنعام: ٣٨].

الوصف الثاني: قوله تعالى ﴿صَفَّتْ﴾ أي أن هذه الطيور تطير وهي صافة أجنحتها، أي باسطات لها عند طيرانها وتحليقها في الهواء، كما قال تعالى: ﴿وَالطَّيْرُ صَفَّتْ﴾ [النور: ٤١] والأصل في الطيران هو صف الأجنحة، فبسط الجناح يمكن الطير من الطيران، لأن الطيران في الهواء كالسباحة في الماء.

الوصف الثالث: قوله تعالى ﴿وَيَقْبِضْنَ﴾ أي يضممن أجنحتهن إلى جنوبهن أحياناً، والطير يقبض أجنحته ليجدد القدرة على زيادة التحرك، ويتغلب على جاذبية الأرض. ثم قال تعالى ﴿مَا يُمَسِّكُهُنَّ﴾ أي في حال القبض والبسط، ويحفظهن من الوقوع على الأرض ﴿إِلَّا الرِّجْنَ﴾ بقدرته وحكمته، حيث أودع فيها من الخصائص ما جعلها تطير في الهواء، وفي هذا دلالة على قدرة الخالق سبحانه ﴿إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ بَصِيرٌ﴾ لا يرى في خلقه نقص ولا تفاوت، ومنه الطيور في دقة صنْعها، وخفة أجسامها، وكسوتها بالريش، ونشره بطريقة تساعده على الطيران في الهواء والارتفاع في الجو، وهو المدبر لعباده ما تقتضيه حكمته بما ينفعهم في دنياهم وأخراهم.

وشبيه بهذه الآية قوله تعالى: ﴿أَلَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ مُسَخَّرَاتٍ فِي جَوِّ السَّمَاءِ مَا يُمَسِّكُهُنَّ إِلَّا اللَّهُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ [النحل: ٧٩].

ومن آيات القدرة فيما هو أكبر من ذلك قوله تعالى:

﴿إِنَّ اللَّهَ يُمْسِكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ أَنْ تَزُولَا وَلَئِنْ زَالَتَا إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِّنْ بَعْدِهِ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا﴾ [فاطر: ٤١].

وقوله: ﴿وَيُمَسِّكُ السَّمَاءَ أَنْ تَقَعَ عَلَى الْأَرْضِ إِلَّا بِإِذْنِهِ﴾ [الحج: ٦٥].

عَذَابُ اللَّهِ لَا يَدْفَعُهُ دَافِعٌ

٢٠- ﴿أَمَّنْ هَذَا الَّذِي هُوَ جُنْدٌ لَّكَ يَصْرِفُ^(١) مِّنْ دُونِ الرَّحْمَنِ إِنِ الْكَافِرُونَ إِلَّا فِي غُرُورٍ ﴿٢٠﴾﴾

ثم إنكم يا معشر الكفار، مفتقرون إلى الله تعالى في جميع أحوالكم، ومن ذلك أنه لا يوجد أحد يدفع عنكم العذاب الذي توعدكم الله به، فأخبروني أيها المشركون والمنكرون المكذبون: من هذا الذي ينصركم عند احتياجكم إلى من يدفع عنكم العذاب، غير الله سبحانه، إن أراد بكم سوءاً فيدفعه عنكم؟ فالله تعالى هو الناصر، وهو المعز المذل.

ومن شأن الجند أن يكون على استعداد للدفاع عمن يحميه بصفة دائمة عندما يُطلب منه ذلك.

قال ابن عباس رضي الله عنهما في معنى الآية: من ينصركم مني إن أردت عذابكم وقد خوَّفكم الخسف والقذف بالحجارة^(٢)؟

والجواب: إنه لا ناصر لكم غير الله، كما قال تعالى: ﴿وَإِنْ يَمْسَسْكَ اللَّهُ يَضْرِبْكَ فَلَكَ أَشْفٌ لَهُ إِلَّا هُوَ وَإِنْ يَمْسَسْكَ يَخِیرْ فَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٧﴾﴾ [الأنعام: ١٧].

ولو اجتمع الخلق على أن ينفعوك مثقال ذرة لم ينفعوك إلا بإرادة الله تعالى. وكما قال أيضاً ﴿مَا يَفْتَحِ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِنْ رَّحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا وَمَا يُمْسِكْ فَلَا مُرْسِلَ لَهُ مِنْ بَعْدِهِ ﴿٢﴾﴾ [فاطر: ٢]. ثم بين سبحانه أن الكافرين في زعمهم وجود من يدفع عنهم عذاب الله تعالى، لفي خداع وضلال من الشيطان ﴿إِنَّ الْكَافِرُونَ ﴿١﴾﴾ أي ما الكافرون ﴿إِلَّا فِي غُرُورٍ ﴿٢﴾﴾ من الشيطان، أي في وهم وجهل فاضح، فاستمرارهم على الكفر مع علمهم أنهم لا ينصرهم من دون الله أحد، غرور وسفه.

(١) قرأ السوسي بإسكان الراء واختلاس ضميتها من ﴿يَصْرِفُ﴾ وقرأ الدوري بالإسكان والاختلاس والضممة الكاملة، وقرأ الباقون بالضممة الخالصة.

(٢) تفسير الخازن (٢٩٣/٤).

الدِّلِيلُ السَّابِعُ: رِزْقُ اللَّهِ لِلْكَائِنَاتِ الْحَيَّةِ

٢١- ﴿أَمَّنْ هَذَا الَّذِي يَرْزُقُكَ إِنْ أَمْسَكَ رِزْقَهُ، بَلْ لَجُوا فِي عُتُوٍّ وَنُفُورٍ ۝﴾

ثم انتقلت الآيات إلى دليل سابع من أدلة الوجدانية والقدرة في السورة، لإلزام الجاحدين المكذبين الحجة، لبيان أنه لا مدخل لمخلوق في رزق الخلق.

فالرزق: كالخلق والإحياء والإماتة، من خصائص الإلهية، فهل بمقدور أحد أن يرزق أحدا من خلق الله، إن حبس الله عنهم رزقه من المطر والطعام ﴿أَمَّنْ هَذَا الَّذِي يَرْزُقُكَ إِنْ أَمْسَكَ رِزْقَهُ﴾ من هذا الذي يرزقكم غير الله، إن منع الله عنكم رزقه؟ لا أحد يعطي ويمنع، ويخلق ويرزق، وينصر ويخذل، غير الله سبحانه، إن الإنسان لا يستطيع أن يرزق نفسه، فكيف يرزق غيره؟ والخالق الرازق هو الذي يستحق العبادة دون غيره.

ثم بين تعالى أن السبب في هذا الزعم الفاسد، هو استمرار الكفار في طغيانهم وضلالهم فقال تعالى: ﴿بَلْ لَجُوا﴾ أي تهادوا ﴿فِي عُتُوٍّ﴾ أي عناد واستكبار ﴿وَنُفُورٍ﴾ أي شروء عن سماع الحق واتباعه.

مَثَلُ الْكَافِرِ وَالْمُؤْمِنِ

٢٢- ﴿أَمَّنْ يَمْشِي مَكْبَأً عَلَى وَجْهِهِ أَهْدَىٰ أَمَّنْ يَمْشِي سَوِيًّا عَلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ۝﴾

هذا مثل ضربه الله تعالى للمؤمن والكافر، فالكافر كمن يمشي منكباً على وجهه، منحنياً، لا يدري أين يذهب، ولا إلى أين يتجه، فهو تائه حائر ضال، والمؤمن كمن يمشي معتدل القامة، يعرف طريقه واتجاهه، هذا في الدنيا.

فإذا كان يوم القيامة، فالمؤمن يُحْشَرُ مستوياً مهتدياً، يعرف طريقه إلى الجنة، والكافر يُحْشَرُ على وجهه إلى نار جهنم.

وهذا لأن الكافر لما انكب على المعاصي في الدنيا وعمل بها، حشره الله على وجهه يوم القيامة، فإن الذي أمشاه على رجليه في الدنيا قادر على أن يحشره يوم القيامة على وجهه، وأن يكبه في النار على وجهه، كما في الحديث عن معاذ ؓ «وهل يكب الناس

في النار على وجوههم، أو قال على مناخرهم، إلا حصائد ألسنتهم^(١) وقال تعالى: ﴿أَخْشِرُوا الَّذِينَ ظَلَمُوا وَأَزْوَاجَهُمْ وَمَا كَانُوا يَعْبُدُونَ﴾ (٢٢) مِنْ دُونِ اللَّهِ فَاهْدُوهُمْ إِلَى صِرَاطِ الْجَحِيمِ ﴿[الصفات: ٢٢، ٢٣].

وبعد أن ذكر سبحانه سبعة أدلة على وحدانيته تعالى وقدرته وهي:

١- الموت والحياة ٢- السماوات السبع الطباق.

٣- علم السر والنجوى ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ﴾ ٤- خلق الإنسان.

٥- تذليل الأرض ٦- تحليق الطير في الهواء ٧- رزق الله للكائنات الحية.

وهي أدلة من شأن الكافر أن يُسلم إذا تأمل فيها، ولذا: فقد ضرب الله سبحانه بعد هذه الأدلة مثلاً للكافر الذي يجحد وحدانية الله تعالى، ولا يصدق خاتم الرسل ﷺ ومثلاً آخر للمؤمن بالله ورسوله.

وقد شبهت الآية: الكافر بمن يمشي منكس الرأس، لا يُبصر طريقه، كالأعمى الذي يتعثر في مشيته فيختر على وجهه، أما المؤمن، فهو يمشي منتصب القامة مهتدياً إلى الطريق السوي.

﴿أَفَنْ يَتَّبِعُوا مُكْبَأً﴾ أي منكباً ﴿عَلَى وَجْهِهِ﴾ لا يدرى أين يسلك، ولا كيف يذهب، هل هذا أشد استقامة على الطريق ﴿وَأَهْدَى أَمَّنْ يَشَى سَوَاءً﴾ معتدلاً، سالماً على ﴿صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ أي على طريق واضح لا اعوجاج فيه، أي الرجلين أهدى؟ من كان تائهاً في الضلال، غارقاً في الكفر، قد انقلبت عنده الحقائق، فصار الباطل حقاً والحق باطلاً؟ هل يستوي هذا بمن كان عالماً بالحق عاملاً به، يمشي على طريق الاستقامة في جميع أقواله وأفعاله وأحواله، الفرق بينهما واضح، فلا يستوي الضال بالمهتدي ولا الكافر بالمؤمن. وكما هو حال المؤمن والكافر في الدنيا، فإنه يكون كذلك في الآخرة، فالمؤمن

(١) من حديث معاذ في الترمذي (٢٦١٦) بإسناد صحيح، وابن ماجه (٣٩٧٣)، والمسند برقم (٢٢٠١٦)، (٢٢٠٦٨)، وهو حديث صحيح بطرقه وشواهده، وهذا إسناد منقطع، لأن أبا وائل لم يسمع من معاذ (محققوه)، وهو في مصنف عبدالرزاق (٢٠٣٠٣)، والنسائي في الكبرى (١١٣٩٤)، والبيهقي في الشعب (٣٣٥٠) وغيرهم.

يُحْشَرُ وَهُوَ يَمْشِي عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ، مُفْضِياً بِهِ إِلَى الْجَنَّةِ كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿سَيَبْدِيهِمْ وَيُصْلِحُ بَالَهُمْ ۖ وَيُدْخِلُهُمُ الْجَنَّةَ عَرَفَهَا هُمْ﴾ [محمد: ٦٥].

أما الكافر فإنه يحشر على وجهه إلى نار جهنم، كما قال تعالى: ﴿وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ عُمِيَآ وَبِكَمَا وَصَّأْنَا مَاؤُهُمْ جَهَنَّمَ كُلَّمَا خَبَتْ زِدْنَاهُمْ سَعِيرًا﴾ [الإسراء: ٩٧].

وقال سبحانه: ﴿الَّذِينَ يُحْشَرُونَ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ إِلَىٰ جَهَنَّمَ أُولَٰئِكَ سُوءُ مَكَانًا وَأَضَلُّ سَبِيلًا﴾ [الفرقان: ٣٤].

وقال جل شأنه: ﴿وَنَحْشُرُ الْمُتَجَرِّمِينَ يَوْمَئِذٍ زُرْقًا﴾ [طه: ١٠٢].

وفي حديث أنس بن مالك ؓ أن رجلاً قال: يا نبي الله، كيف يحشر الكافر على وجهه يوم القيامة؟ قال: «إن الذي أمشاه على رجله، قادر على أن يمشيه على وجهه في النار»^(١).
والحالة الأولى هي حالة المؤمن السعيد، والحالة الثانية هي حالة الكافر الشقي.

سِتَّةُ أَدَلَةٍ عَلَى وَحْدَانِيَةِ اللَّهِ تَعَالَى بِأَسْلُوبِ التَّلْقِينِ مِنْ فُرُوعِ الْمَخْلُوقَاتِ

٢٣- ﴿قُلْ هُوَ الَّذِي أَنْشَأَكُمْ وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَرَ وَالْأَفْئِدَةَ ۖ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ﴾ (٢٣)

السبب في شقاء الكافر، أنه لم ينتفع بوسائل الهدى وأدوات الإدراك، ومنها السمع والبصر والفؤاد، وهذا انتقال من الاستدلال بأصول المخلوقات إلى الاستدلال بفروعها، فمن الاستدلال بخلق السموات والأرض، والحياة والموت، إلى الاستدلال بخلق الإنسان ومداركه.

وفي الآيات التالية، ست آيات بدأت بلفظ: ﴿قُلْ﴾ وكلها أدلة على وحدانية الله تعالى بطريق التلقين وهي:

١- ﴿قُلْ هُوَ الَّذِي أَنْشَأَكُمْ﴾ ٢- ﴿قُلْ هُوَ الَّذِي ذَرَأَكُمْ﴾

(١) المسند (١٦٧/٣) بإسناد صحيح على شرط الشيخين، والبخاري برقم (٤٧٦٠) واللفظ له، ومسلم (٢٨٠٦)، وعبد بن حميد (١١٨٢)، والنسائي في الكبرى (١٣٦٧)، وابن حبان (٧٣٢٣)، والبيهقي في شرح السنة (٤٣١٥).

- ٣- ﴿قُلْ إِنَّمَا أَعْلَمُ عِنْدَ اللَّهِ﴾ ٤- ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَهْلَكْنِي اللَّهُ وَمَنْ مَعِيَ﴾
 ٥- ﴿قُلْ هُوَ الرَّحْمَنُ أَمَّنَّا بِهِ﴾ ٦- ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَصْبَحَ مَاؤُكُمْ غَوْرًا﴾

التلقين الأول: خلق الإنسان وتزويده بالسمع والبصر والفؤاد:

وتبدأ الآية الأولى: ﴿قُلْ﴾ يا رسولنا لكل جاحد مكذب بآيات الله، داعياً له إلى توحيد الله وشكره وإخلاص العبادة له: ﴿هُوَ الَّذِي أَنْشَأَكُمْ﴾ الله الذي خلقكم وأوجدكم من العدم، وأنشأكم في كل طَورٍ من أطوار حياتكم ﴿وَجَعَلَ لَكُمْ السَّمْعَ﴾ أي: ولما أنشأكم جعل لكم السمع لتسمعوا به ما ينفعكم ويفيدكم في دنياكم وأخراكم، وخلق لكم الأبصار لتبصروا بها الكائنات، وخلق لكم الأفئدة، وهي القلوب، لتعقلوا وتذكروا بها الأمور، ولكنكم مع هذه النعم ﴿فَلَيْلًا مَا تَشْكُرُونَ﴾ ربكم الذي أنعم عليكم بها.

وقد أفرد الله السمع، وجمع الأبصار والأفئدة: لأن الأذن تسمع حجة واحدة، ودليلاً واحداً، لا يتعدد، أما العقول، فإنها تتفاوت وتتعدد في المفاهيم، وتختلف باختلاف قُدُرات الناس، وكذا الأبصار ترى الشيء ضحلاً أو تراه فخماً، وأنظار الناس تختلف وتتعدد، وهكذا، قال تعالى: ﴿حَتَّمَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَعَلَى سَمْعِهِمْ وَعَلَى أَبْصَارِهِمْ غِشًوَةٌ﴾ [البقرة: ٧].

وإطلاق القلب على العقل شائع في لغة العرب، وخُصِّصَت هذه الجوارح الثلاث بالذكر، لأنها أداة العلم والفهم، ومن شُكِرَ الله تعالى على الجوارح ما علّمنا إياه النبي ﷺ أن نقوله في السجود، وكان ﷺ يكثر أن يقول: «سجد وجهي للذي خلقه وصوره وشق سمعه وبصره»^(١) ومن ذلك هذا الدعاء الجميل «ومتعنا اللهم بأسماعنا وأبصارنا وقواتنا أبدا ما أبقيتنا، واجعله الوراث منا»^(٢).

(١) من حديث عائشة في أبي داود (١٤١٤)، والترمذي (٥٨٠) وقال: هذا حديث حسن صحيح، والمسند (٢٤٠٢٢) وهو حديث صحيح (محققه)، والنسائي في الكبرى (٧١٤)، والحاكم (٢٢٠/١)، وقال: هذا حديث صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه، ووافقه الذهبي، وأخرجه ابن أبي شيبه (٢٠/٢)، وجاء مثله عن عليّ وجابر ومحمد بن مسلمة وغيرهم.

(٢) من حديث ابن عمر في الترمذي (٣٥٠٢)، والحاكم (٥٢٨/١)، وهو في صحيح سنن الترمذي (٢٧٨٣) بإسناد حسن.

التِّلْقَيْنُ الثَّانِي: الْقَادِرُ عَلَى الْبَدْءِ قَادِرٌ عَلَى الْإِعَادَةِ

٢٤ - ﴿قُلْ هُوَ الَّذِي ذَرَأَكُمْ فِي الْأَرْضِ وَإِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٢٤﴾﴾

ثم إن الله تعالى لم يخلق الخلق عبثاً ولا جُزافاً لغير قصد ولا غاية، وإنما خلقهم في هذه الحياة، للابتلاء، ثم للحساب والجزاء يوم الحشر والنشور فلقد بشكم الله - أيها الناس - في أقطار الأرض وأسكنكم أرجاءها، وأمركم ونهاكم، وأسدى عليكم النعم، ثم تحشرون يوم القيامة، ويتحقق وعد الله لكم بالحساب والجزاء.

﴿قُلْ﴾ يا رسولنا للخلق أجمعين، من أمة الدعوة وأمة الإجابة ﴿هُوَ الَّذِي ذَرَأَكُمْ﴾ خلقكم وبشكم ونشركم وكثركم ﴿فِي الْأَرْضِ﴾.

وبعد انتهاء حياتكم في الدنيا تموتون، ثم يكون البعث والحشر ﴿وَإِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾ فالحشر لا يكون إلا بعد البعث، والبعث لا يكون إلا بعد الموت، ثم يأتي الحساب والجزاء، فإما جنة وإما نار، على وفق ما كان العمل في الدنيا. والآية تبين مصير العباد بعد انتهاء آجالهم في الدنيا، وجمع ما تفرق وتشتت من أجسادهم.

ومعنى الآية أن القادر على البدء قادر على الأعادة.

الْكَافِرُ يَسْتَبْعِدُ وَقُوعَ الْبَعْثِ وَالْحِسَابِ

٢٥ - ﴿وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿٢٥﴾﴾

ثم بين سبحانه وتعالى أن بعض الناس أنكروا البعث وجحدوه، وتعجبوا من إنذار القرآن به، وقالوا للنبي ﷺ على سبيل السخرية والاستهزاء: متى يكون هذا الحشر والحساب والجزاء الذي تعدنا به؟ فأت به إن كنت صادقاً فيما تقول ﴿وَيَقُولُونَ﴾ أي يقول الكفار ﴿مَتَى﴾ يتحقق ﴿هَذَا الْوَعْدُ﴾ بالحشر والحساب والثواب والعقاب، أخبرونا عن زمان وقوعه ﴿إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ فيما تدعون، فأين هو؟ إننا لا نراه! وهكذا:

فقد جعلوا علامة صدق الرسول ﷺ، أن يخبرهم بوقت مجيء العذاب الذي وعدهم به. وقولهم: ﴿مَتَىٰ هَٰذَا الْوَعْدُ﴾ يحتمل أنهم يسألون عن يوم القيامة، ويحتمل أنهم يسألون عن موعد نزول العذاب الذي يتوعدهم به الإسلام، والوعد بالبعث، يتضمن بالضرورة الوعيد بالعذاب، بالنسبة لمن كفر بالبعث والجزاء.

وكان بعض الكفار يقول لبعض: ﴿هَلْ نَدُلُّكَ عَلَىٰ رَجُلٍ يَبْتَئِثُكُمْ إِذَا مَرَّقَتْكُمْ كُلُّ مَفْزٍ إِنَّا لَنَافِي خَلْقٍ جَدِيدٍ﴾ [سبأ: ٧].

ومن ذلك ما ذكره الله تعالى عن المنكرين للبعث والنشور في قوله تعالى: ﴿فَسَيَقُولُونَ مَن يُعِيدُنَا قُلِ الَّذِي فَطَرَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ [الإسراء: ٥١].

وقوله: ﴿وَإِن تَعَجَّبَ فَعَجَبٌ قَوْلُكُمْ أَيْ ذَا كُنَّا تَرْبًا أَيْ نَا لَنَافِي خَلْقٍ جَدِيدٍ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ وَأُولَٰئِكَ الْأَغْلُلُ فِي أَعْنَاقِهِمْ وَأُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ [الرعد: ٥].

التلقيث الثالث: عِلْمُ قِيَامِ السَّاعَةِ عِنْدَ اللَّهِ تَعَالَى

٢٦- ﴿قُلْ إِنَّمَا أَعْلَمُ عِنْدَ اللَّهِ وَإِنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾ (٣)

وقد أمر الله تعالى رسوله ﷺ أن يجيب منكري البعث والحساب والجزاء في كل زمان ومكان، بأن عِلْمُ قِيَامِ السَّاعَةِ عند الله تعالى، لا يعلمها إلا هو، فهي من الغيب الذي اختص به ﴿قُلْ إِنَّمَا أَعْلَمُ عِنْدَ اللَّهِ﴾ أي أَنَّ عِلْمَ وقت القيامة، ووقت نزول العذاب بالجاحدين والمكذابين، لا يعلمه إلا الله كما قال تعالى: ﴿يَسْأَلُكَ النَّاسُ عَنِ السَّاعَةِ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ اللَّهِ﴾ [الأحزاب: ٦٣].

وقال سبحانه: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ رَبِّي لَا يُجِيبُهَا لَوْفَهَا إِلَّا هُوَ﴾ [الأعراف: ١٨٧].

وقال جل شأنه: ﴿يَسْأَلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِيٌّ عَنْهَا﴾ أي عليم بها ﴿قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ اللَّهِ﴾ [الأعراف: ١٨٧]. فمعرفة قِيَامِ السَّاعَةِ مما استأثر الله تعالى به، ومهمة النبي ﷺ تنحصر في البلاغ والبشارة والإنذار، كما أخبر الله تعالى بذلك في قوله: ﴿وَإِنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾ أخوفكم

عذاب الله إن لم تؤمنوا، وأوضح لكم عاقبة كفركم، وأبين لكم ما أمرني الله به غاية البيان.

حَالُ الْكَافِرِ عِنْدَ قِيَامِ السَّاعَةِ

٢٧- ﴿فَلَمَّا رَأَوْهُ زُلْفَةً سَيِّئَتْ^(١) وُجُوهُ الَّذِينَ كَفَرُوا وَقِيلَ هَذَا الَّذِي كُنْتُمْ بِهِ تَدْعُونَ^(٢)﴾

أي وسيظل الجاحدون للبعث والحساب في شكهم وإنكارهم أمر قائم وهم في الدنيا، وتظل الإجابة اليقينية بحتمية وقوعه أمر قائم أيضاً إلى قيام الساعة، حتى يرونها رأى العين، وعندما يرونها قريباً منهم، فإن وجوههم تعلوها الكآبة والحزن، والآية تصور هذا المشهد كأنه يحدث اليوم:

﴿فَلَمَّا رَأَوْهُ زُلْفَةً﴾ أي لما رأى الكفار عذاب الله تعالى قريباً منهم، وعانوا ما كانوا يستعجلونه، ورأوه قد حلّ ونزل بهم ﴿سَيِّئَتْ وُجُوهُ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ بما رأت من عذاب الله وهوانه، وقد علثها الكآبة والغم والندم، وظهر على وجوههم الذل والانكسار والفترة والسواد، خوفاً من العذاب الذي أنكروه وهم في الدنيا، وصاروا كمن يُساق إلى القتل وهو ينظر ﴿وَبَدَأَهُم مِّنَ اللَّهِ مَا لَمْ يَكُونُوا يَحْتَسِبُونَ﴾ [الزمر: ٤٧].

وتقول لهم خزنة جهنم تقريباً وتوبيخاً على تكذيبهم ﴿هَذَا الَّذِي كُنْتُمْ بِهِ تَدْعُونَ﴾ أي هذا هو العذاب الذي كنتم تطلبون تعجيله في الدنيا إمعاناً منكم في التكذيب، وتقولون كما قال قوم نوح لنيهم عليه السلام: ﴿فَأَنَّا بِمَا نَعُدُّنَا إِن كُنْتُمْ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ [هود: ٣٢]. وقد كنتم في الدنيا تتمنون وقوعه وتدعون أنه باطل.

(١) قرأ نافع وابن عامر والكسائي وأبو جعفر ورويس بالإشمام في سين ﴿سَيِّئَتْ﴾ أي بإتمام حركة الكسر في السين بحركة الضم، فيتولد منهما حرف فرعي، تختلط فيه حركة الكسر بحركة الضم، والباقون بالكسرة الخالصة ولحمزة وقفا النقل والإدغام.

(٢) قرأ يعقوب بإسكان الدال من ﴿تَدْعُونَ﴾ من الدعاء بمعنى تطلبون، وقرأ الباقر بالتشديد من الدعوى، أي تدعون أنه لا جنة ولا نار.

التِّلْقَيْنِ الرَّابِعُ: لَا مَفْرَءَ لِلْكَافِرِ مِنَ الْعَذَابِ سَوَاءَ رُفِعَتْ رَايَةُ الْإِسْلَامِ أَمْ لَا

٢٨- ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَهْلَكْنِي^(١) اللَّهُ وَمَنْ مَعِيَ^(٢) أَوْ رَحِمْنَا فَمَنْ يُجِيرُ الْكَافِرِينَ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ^(٣)﴾

وكان من بداءة المشركين أنهم يجهرون بتمني هلاك النبي ﷺ وهلاك من معه من المسلمين، فأمر الله نبيه أن يبين لهم: أن موت النبي ﷺ أو حياته لن يدفع عنهم عذاب الله تعالى، فهم كافرون، ولا مفر لهم من العقاب، وهكذا فإن من شأن المكذبين أنهم ينتظرون وقوع الهلاك بالمؤمنين، ويتربصون بالنبي ﷺ ريب المنون.

وقد بينت الآية أن أمانهم لو تحققت، فأهلك الله النبي ومن معه - كما يريدون - فإن ذلك لن ينفعهم في شيء، لأنهم كفروا بالله ورسوله، واستحقوا عقاب الله، ولا يوجد من يمنعهم من عذاب الله، فحرصهم على إيقاع الضرر بالنبي ﷺ، ومن معه لا يفيدهم في شيء.

﴿قُلْ﴾ لمن يتمنى القضاء على الإسلام وأهله، ولمن كان يتمنى موت النبي ﷺ في حياته، أو يتمنى القضاء على دعوته بعد مماته ﴿أَرَأَيْتُمْ﴾ أخبروني ﴿إِنْ أَهْلَكْنِي اللَّهُ﴾ أي أمانتي ﴿وَمَنْ مَعِيَ﴾ من المسلمين، وكل من وافقني في العقيدة والدين كما تتمنون.

﴿أَوْ رَحِمْنَا﴾ فلم يميّتنا الآن، بل آخر آجالنا، فمن يجير الكافرين من عذاب الله؟

وقد يكون المعنى: أخبروني أيها الجاحدون المكذبون، إن عذبي الله أنا ومن معي من المؤمنين بذنوبنا، أو غفر لنا ذنوبنا وشمّلنا برحمته، فلو تمّ فينا شيء من ذلك، فهل ينفعكم هذا في رفع العذاب عنكم؟ وهل أنتم ناجون من العذاب إن هلكتم وهلك من معي؟ فهلاكنا لا يدفع عنكم العذاب، كما أن نجاتنا لن تجيركم من النار.

وهذا معنى: ﴿فَمَنْ يُجِيرُ الْكَافِرِينَ﴾ أي من يحميهم ويمنعهم ﴿مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ موجه؟ فهل تظنون - أيها الجاحدون المنكرون - أن الأصنام ونحوها تُخلّصكم أو تُنقذكم من العذاب الأليم، إنه لا منقذ لكم من عذاب الله سبحانه إلا التوبة والإنابة والرجوع

(١) قرأ حمزة بإسكان ياء الإضافة من ﴿أَهْلَكْنِي اللَّهُ﴾ والباقون بفتحها.

(٢) قرأ نافع وابن كثير وأبو عمرو وابن عامر وحفص وأبو جعفر بفتح ياء الإضافة من ﴿مَنْ مَعِيَ﴾ والباقون بإسكانها.

إليه تعالى. فخلّصوا أنفسكم مما أنتم فيه، فإنه لا مُنقذ لكم من الله تعالى إلا بالعودة إليه سبحانه، فسواء عذبنا الله أو رحمنا فلا مفرّ لكم من عذابه.

قال تعالى: ﴿فَإِمَّا نَذْهَبَنَّ بِكَ فَإِنَّا مِنْهُمْ مُنْقِمُونَ ﴿٥١﴾ أَوْ نُرِيَنَّكَ الَّذِي وَعَدْتَهُمْ فَإِنَّا عَلَيْهِم مُّقْتَدِرُونَ ﴿٥٢﴾﴾ [الزخرف: ٤١، ٤٢].

وقال سبحانه: ﴿وَإِنَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الَّذِي نَعْلَمُ أَوْ نَتَوَقَّعَ فَإِنَّا مَرَجِعُهُمْ إِلَى اللَّهِ شَهِيدٌ عَلَى مَا يَفْعَلُونَ ﴿٤٦﴾﴾ [يونس: ٤٦].

وفي الحديث (حياتي خير لكم، وموتي خير لكم).

التِّلْقَيْنُ الْخَامِسُ: الْمُؤْمِنُ جَدِيرٌ بِرَحْمَةِ اللَّهِ تَعَالَى وَرِضْوَانِهِ

٢٩- ﴿قُلْ هُوَ الرَّحْمَنُ أَمَنَّا بِهِ وَعَلَيْهِ تَوَكَّلْنَا فَسْتَعْلَمُونَ ﴿١﴾ مَنْ هُوَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ﴿٢﴾﴾

ثم إن هؤلاء المسلمين الذين تتمنوا هلاكهم، على النقيض منكم أيها المشركون المكذبون، فهم لم يشركوا مع الله غيره، بل أخلصوا عبادتهم للرحمن، وآمنوا به حق الإيمان، واعتمدوا عليه، وفوضوا أمورهم له، فهم جديرون برحمته تعالى ورضوانه.

﴿قُلْ﴾ يا رسولنا لكل من كفر بالله وأشرك معه غيره: الله هو الرحمن ﴿أَمَنَّا بِهِ﴾ صدّقنا به وأطعناه، والتصديق يشمل التصديق الباطن، والأعمال الباطنة والظاهرة.

ولما كانت الأعمال تتوقف على التوكل، خصه الله بالذكر، لأنه داخل في الإيمان، فقال: ﴿وَعَلَيْهِ تَوَكَّلْنَا﴾ أي عليه وحده اعتمدنا في جميع أحوالنا، كما قال تعالى: ﴿فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ﴾ [هود: ١٢٣] وقال سبحانه: ﴿وَعَلَى اللَّهِ فَتَوَكَّلُوا إِن كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ [المائدة: ٢٣] وأنتم قد كفرتم بالله وأشركتم به.

وعند معاينة العذاب يوم القيامة، سوف يتبين لكم من منا على باطل، نحن أم أنتم؟ وهذا معنى ﴿فَسْتَعْلَمُونَ﴾ أي وقت قيام الساعة، وعند رؤية العذاب ﴿مَنْ هُوَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾ أي الفريقين منا ومنكم في ذهاب بعيد عن الحق؟ والذين في ضلال مبين هم الذين

(١) قرأ الكسائي بياء الغيبة في ﴿فَسْتَعْلَمُونَ﴾ لمناسبة ﴿فَمَنْ يُحِجُّ﴾ وقرأ الباقون بياء الخطاب لمناسبة ﴿نَدْعُونَ﴾.

جحدوا وحدانية الله تعالى، وتوكلوا على أنفسهم وعلى قوتهم المادية، وعلى حلفائهم المعاونين لهم من أهل الكفر والإلحاد.

التلقين السادس: التهديد بالحرمان من سبب الحياة الأول وهو نعمة الماء

٣٠- ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَصْبَحَ مَاؤُكُمْ غَوْرًا فَمَنْ يَأْتِيكُمْ بِمَاءٍ مَعِينٍ ﴿٣٠﴾﴾

وتختتم السورة فتذكر الناس بنعمة من أجل نعم الله تعالى عليهم، وتلمح لهم بعذاب الدنيا قبل عذاب الآخرة، بأن يحرمهم الله من سبب الحياة الأول وهو الماء عقوبة لهم. ﴿قُلْ﴾ - يا رسولنا - لعبيد المادة، الذين ينكرون أن الله تعالى قد سخر لهم نعمة الماء ﴿أَرَأَيْتُمْ﴾ أخبروني ﴿إِنْ أَصْبَحَ مَاؤُكُمْ غَوْرًا﴾ أي إن صار ماؤكم الذي تشربون منه ذاهباً في الأرض غائراً فيها، لا تصلون إليه بوسيلة من الوسائل ﴿فَمَنْ﴾ غير الله ﴿يَأْتِيكُمْ بِمَاءٍ مَعِينٍ﴾ يجري على وجه الأرض ظاهراً للعيون؟ فتشربون منه وتسقون أنعامكم وزروعكم وأشجاركم، وهذا استفهام بمعنى النفي، والجواب: لا يقدر على ذلك إلا الله. وإذا كان الأمر كذلك، فلم تجعلون مع الله شريكاً له في العبودية؟

قال تعالى: ﴿وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً بِقَدَرٍ فَأَسْكَنَتْهُ فِي الْأَرْضِ وَلِنَاعِلَىٰ ذَهَابٍ بِهِ لِقَدَرُونَ﴾ [المؤمنون: ١٨].

والماء المعين هو الماء الجاري الظاهر.

ذكر أن بعض الملاحدة سمع هذه الآية فقال: تأتي به الفؤوس والمعاول، أي أن تعميق الحفر في الأرض سيخرج الماء حتماً، وشاء الله أن يغيض ماء عينه فعمى! فهل استطاع أحد أن يرد عليه بصره! نعوذ بالله من الخذلان، ومن الجرأة على الله!

وانحباس المطر، يتبعه غور مياه الآبار، لأن استمدادها من الماء النازل على الأرض.

قال تعالى: ﴿الَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَلَكَهُ يَنْبِيعٍ فِي الْأَرْضِ﴾ [الزمر: ٢١].

وقال سبحانه: ﴿وَأَنَّ مِنَ الْجِبَارَةِ لَمَا يَنْفَجِرُ مِنْهُ الْأَنْهَارُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَسْقَىٰ فَيَخْرُجُ مِنْهُ أَلْمَاءٌ﴾

[البقرة: ٧٤].

تم تفسير (سورة الملك) والله الحمد والمنة

تَفْسِيرُ سُورَةِ الْقَلَمِ (٦٨)

مُقَدِّمَةُ السُّورَةِ

(سورة القلم) هي السورة الثامنة والستون في ترتيب المصحف، والرابعة في ترتيب النزول على الأصح، فقد سبقتها سور: العلق، والمدثر، والمزمل. وعدد آياتها: اثنتان وخمسون آية باتفاق. وهي ثلاث مئة كلمة، وألف ومئتان وستة وخمسون حرفاً. وهي سورة مكية، من أوائل ما نزل بمكة على رسول الله ﷺ قال ابن عباس رضي الله عنهما: نزلت سورة ﴿تَّ وَالْقَلَمِ﴾ بمكة^(١). وقيل: إن قصة أصحاب الجنة مدنية، وكذا الآيات: من ٤٨-٥٠ التي فيها ذكر صاحب الحوت عليه السلام، والأرجح أن السورة كلها مكية. قال ابن عباس: (كانت إذا نزلت فاتحة سورة بمكة، كُتبت بمكة، ثم يزيد الله فيها ما يشاء، وكان أول ما نزل ﴿أَقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ﴾ ثم ﴿تَّ﴾ ثم ﴿الزَّيْلُ﴾ ثم ﴿الْمَدَنِيُّ﴾^(٢). وتسمى سورة ﴿تَّ وَالْقَلَمِ﴾ واقتصر بعضهم على تسميتها سورة ﴿تَّ﴾ وبعضهم يسميها سورة ﴿تَّ وَالْقَلَمِ﴾ فهذه ثلاثة أسماء لها.

مقاصد السورة:

المحور الأساس الذي تدور حوله السورة هو إثبات نبوة محمد ﷺ وردّ الشبه التي يثيرها أهل الباطل حول الرسالة الخاتمة، ومن أجل ذلك تبدأ السورة بالقسم على رفع قدر النبي ﷺ وعلوّ شأنه، وبراءته مما يُلصقه به أعداء الإسلام. وتبين السورة أن أعداء الحق يقفون دائماً في وجه الدعوة في كل زمان ومكان، ثم

(١) أخرجه النحاس (ص ٧٤٩)، والبيهقي (١٤٢/٧)، وأخرجه ابن مردويه عن عائشة.

(٢) تفسير الشوكاني (٢٦٥/٥) عن ابن الضريس (١٧).

يندمون على عداوتهم للإسلام، بعد أن تَكْشَفَ لهم الأيام عن زيف باطلهم، وصِدَقَ الإسلام، وهذا ما تَحْمِلُهُ قصة أصحاب الجنة، فقد نَدِمُوا على شُحِّهم ويُخْلَهُم بعد أن أَهْلَكَ الله ثمرهم، نتيجة الكفر بنعمة الله عليهم، وهكذا فقد أعز الله قريشاً بالإسلام بعد أن أَهَانَهُم بالكفر.

أما المَصْرُون على باطلهم، فإنهم يتعلّقون بأوهام وماديات ذاهبة، لا مستند لهم فيها من عقل ولا نقل، وأمامهم حساب شاق دقيق، يندمون فيه ولات ساعة مندم، ولا عذر للكافرين في هذا الموقف، فقد أعذرهم القرآن وأنذرهم، وأعطاهم فرصاً شتى فأضاعوها وعاندوا وأصرّوا على باطلهم.

وقد أمر الله تعالى نبيه ﷺ بالبلاغ والصبر على متاعب الدعوة وتحمل الأذى، فهو رسول أرسله الله للعالم أجمع، كما جاء ذلك في باكورة الرسالة ﴿وَمَا هُوَ إِلَّا ذَكْرٌ لِلْعَالَمِينَ﴾ الآية: ٥٢.

وقد أشارت السورة إلى اليوم الآخر في عدم التسوية بين المسلمين والمجرمين. وتناولت موقف المكذّبين للدعوة واتهامهم لصاحبها بالجنون، وذكرت عَزْضَهُم على النبي ﷺ أن يَلِينَ لهم ليلينوا له، كما يطلب أعداء الإسلام من أهل الدعوة في كل عصر ومصر: التخلي عن آيات الجهاد، وعن آيات الولاء والبراء، للتعايش السلمي وتطبيع العلاقات مع غير المسلمين، فالتاريخ يعيد نفسه!

ولو أن غير المسلمين قديماً وحديثاً فهموا تعاليم الإسلام الهادية للبشر، لَمَا وَقَفُوا منه موقف العداء، فالفجوة بين الإسلام وبين الإلحاد والشرك والعلمانية .. فجوة كبيرة لا يفقهها من حُرِّمُوا نور الإسلام، ومن هذه الفروق الجاهلية في القديم والحديث ما يلي:

أولاً: الفجوة كبيرة بين التوحيد الذي جاء به الإسلام، وبين الشرك وتعذد الأرباب والآلهة بين كثير من أبناء الشعوب، ومنهم من نفي الألوهية والرسالات، وقال: بأن الدين أفيون الشعوب.

ثانياً: والفجوة كبيرة أيضاً بين أخلاق الإسلام، في حفظ الدين والمال والعقل والنسب وما إلى ذلك، وبين أخلاق الجاهلية في القديم والحديث، كالخمر والجنس، والشذوذ، وسيطرة القوي على الضعيف.

ثالثاً: والفجوة كبيرة كذلك بين المساواة بين الناس جميعاً إلا بالتقوى، وبين الاعتبار الاجتماعية، التي تُصنّف الناس إلى طبقات فيها سيّد ومُسود، وشريف ووضيع ..

هذه بعض أسباب التصادم بين هذي الإسلام وضلال أهل الجاهلية، وهذه الأسباب هي التي جعلت كفار قريش لم ينقادوا للدعوة فقالوا: ﴿لَوْلَا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَى رَجُلٍ مِّنَ الْفَرِيقَيْنِ عَظِيمٍ﴾ [الزخرف: ٢١] لأن النبي ﷺ لم تكن له رئاسة قبل البعثة، مع شرف نسبه وعلو مكانته، واشتهاره بالصدق والأمانة، وكانوا في قرارة أنفسهم يسلّمون بصدقه وأمانته وعفافه، ولكنهم يرفضون ذلك لأنه من بني عبد مناف.

كما جاء في قصة أبي جهل، والأخنس، وأبي سفيان، حين خرجوا ثلاث ليال متتابعة، يستمعون إلى القرآن خفية، كل واحد منهم من وراء الآخر، فيلتقون صدفة ويتفقون على عدم العودة، ثم يعودون، فسأل الأخنس أباجهل، عن رأيه فيما سمع من محمد ﷺ فقال: تنازعنا نحن وبنو عبد مناف الشرف: أطعموا فأطعمنا، وحملوا فحملنا، أي قاتلوا فقاتلنا، وأعطوا فأعطينا، حتى إذا تجاثينا على الركب، وكُنَّا كَفَرَسِي رَهَان قالوا: منا نبي يأتيه الوحي من السماء، فمتى ندرك مثل هذه؟ والله لا نؤمن به أبداً ولا نصدقه!

وهذه الأسباب نفسها هي التي جعلت بني إسرائيل يقفون من الدعوة موقف الرفض والعناد، حسداً منهم للنبي ﷺ بعد أن انتقلت الرسالة منهم إلى العرب، ومن بيت المقدس إلى مكة، لأنهم لم يعودوا أهلاً لها.

وسورة القلم تشير إلى هذا كله في عروض المشركين على النبي ﷺ للالتقاء في منتصف الطريق والتهادن فيما بينهم ﴿وَدُّواْ لَوْ تُدْهِىَ فُجُوهُكُمْ﴾ الآية: ٩.

﴿وَلَا يَكَاذُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَبِئْسَ نَكَلُكَ بِأَبْصَرِهِ لَمَّا سَمِعُوا الذِّكْرَ وَيَقُولُونَ إِنَّهُ لَمَنْجُونٌ﴾ الآية: ٥١.

والسورة تردّ على المكذبين للنبي ﷺ بمثل هذه الآيات: ﴿وَلَا يَكَاذُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَبِئْسَ نَكَلُكَ بِأَبْصَرِهِ لَمَّا سَمِعُوا الذِّكْرَ وَيَقُولُونَ إِنَّهُ لَمَنْجُونٌ﴾ الآية: ٥١. وترد على السبّ الموجه للنبي ﷺ في مثل قوله تعالى: ﴿وَلَا تَقْطَعْ كُلَّ جَلَدٍ مِّنْهُمْ﴾ الآية: ١٠. ﴿هَازِمٌ مِّثْلَ بَنِي إِسْرَءِيلَ﴾ الآية: ١٠، ١١.

وثبّن السورة أنه لا يوجد لدى المكذبين بالرسالة دليل من عقل ولا نقل ولا عهد ولا مشاركة يستندون إليها في تكذيبهم للنبي ﷺ ﴿أَمْ لَكُمْ كِتَابٌ فِيهِ تَدْرُسُونَ﴾ الآية: ٣٧. ﴿إِنْ لَكُمْ فِيهَا لَمَحَبَرَةٌ﴾ الآية: ٣٨. ﴿أَمْ لَكُمْ آيَاتُنَا عَلَيْنَا بَلَاغَةٌ إِلَى يَوْمِ الْقِيَمَةِ إِنْ لَكُمْ لَمَحَبَرَةٌ﴾ الآية: ٣٩. ﴿سَلِّمُوا إِلَيْهِمْ إِنَّهُمْ بِذَلِكَ زَعِيمٌ﴾ الآية: ٣٧-٤٠. وبعد نزول هذه السورة، تمضي الدعوة عشرين عاما، ثم تعم الأرجاء وتقود البشرية، ومن خرج من البشر عن هذا الإطار، فهو في ضلال مبين.

ويمكن تقسيم موضوعات السورة إلى تسعة أقسام:

١- الآيات التسع الأول، فيها القسم على تبرئة النبي ﷺ مما ألصقه به المكذبون من السفه والجنون، وبيان أخلاقه العظيمة ومناقبه السامية، وفيها بيان ما أعده الله تعالى للمجرمين من العذاب والنكال ..

٢- ومن الآية العاشرة إلى الآية السادسة عشرة، الحديث عن الوليد بن المغيرة وأمثاله إلى قيام الساعة.

٣- ومن الآية السابعة عشرة إلى الآية الثانية والثلاثين عن قصة أصحاب الجنة ذات الأشجار والزروع المثمرة، فقد أحرقها الله تعالى لَمَّا منع أهلها حق الله منها، وجعلها عبرة للمعتبرين.

٤- ومن الآية الثالثة والثلاثين إلى الآية الثالثة والأربعين في الرد على شبه المكذبين بالوحي المنزل وتفنيدهم بأباطيلهم.

٥- وبقيّة السورة لتسليّة النبي ﷺ وأمره بالصبر على أذى المعارضين، وعدم التبرم والتضجر مما يلقاه في سبيل تبليغ الدعوة، كما حدث من نبي الله يونس ﷺ حين ترك

قومه وسارع إلى ركوب البحر.

٦- وأشارت السورة في نهايتها إلى عالمية الإسلام، وأن هذه العالمية قد بدأت بأوائل آيات الوحي نزولاً بمكة المكرمة، ثم مرّت على النبي ﷺ ليالي كالحِجّة، عانى فيها من الحرج والألم ما يهز الجبال الرواسي، ولكنه ﷺ ثبت حتى أدى الأمانة وترك الرسالة تحملها أجيال الدعوة بعده فنشرها رب العالمين على أيديهم.

الحروف المقطعة في أوائل السور:

وسورة القلم هي آخر سورة في ترتيب المصحف افتتحت بحرف واحد من حروف الهجاء، وهي أول سورة في ترتيب النزول افتتحت بحرف واحد من حروف الهجاء. وقد وردت هذه الحروف تارة مفردة، وتارة مركبة من حرفين، أو ثلاثة، أو أربعة، أو خمسة:

- ١- والسور التي بدئت بحرف واحد هي ثلاث سور: ص، ق، ن.
- ٢- والسور التي بدئت بحرفين، تسع سور هي: طه، يس، طس، حم في ست سور: هي (غافر وفصلت والزخرف والدخان والجنّاثية والأحقاف).
- ٣- والسور التي بدئت بثلاثة أحرف، ثلاث عشرة سورة هي: (الم) في ست سور هي: (البقرة وآل عمران والعنكبوت والروم ولقمان والسجدة).
- و(الر) في خمس سور هي: (يونس وهود ويوسف وإبراهيم والحجر).
- و(طسم) في سورتين هما (الشعراء والقصص).
- ٤- وسورتان ابتدأتا بأربعة أحرف وهما: الرعد (الر) والأعراف (المص).
- ٥- وسورتان بدئتاً بخمسة أحرف وهما: مريم (كهيعص) والشورى (حم عسق).
- فيكون مجموع السور المفتتحة بالحروف المقطعة تسعاً وعشرين سورة.
- وهذه الحروف ومنها حرف (ن) من المتشابه الذي لا يعلمه إلا الله.
- فقد سئل الشعبي عن فواتح السور فقال: إن لكل كتاب سرّاً، وإن سر هذا القرآن في

فواتح السور.

وفي رواية أخرى قال: سر الله فلا تطلبوه.

وقد اجتهد أهل العلم في تأويلها، فمنهم من قال: إنها أسماء للسور، كما في الأثر (من قرأ حم السجدة حُفِظَ إلى أن يُصبح) وقيل غير ذلك.

١ - ولعل الأقرب إلى الصواب: أن هذه الحروف هي أصل الكلام المركب الذي يتألف منه الكلام العربي، وقد تحدى الله به المشركين أن يأتوا بمثل أقصر سورة منه فعجزوا، فدل هذا على صدق القرآن الكريم.

٢ - ثم إن تصدير السور بهذه الحروف يجذب أنظار المعارضين للقرآن إلى الإنصات له والتدبر فيه، لأنها ألفاظ غير مألوفة لديهم، فإذا لُفتت أنظارهم إليها وتأملوها، ربما كان هذا سبباً في هدايتهم واستجابتهم للحق.

٣ - وهذه الحروف تجعل المسلم ينقاد لأمر ربه، فيتمثل أمره ويجتنب نهيه دون سؤال عن السبب والعلة، بل يقول: سمعنا وأطعنا، فإذا كان لا يفهم لهذه الحروف معنى واضحاً، فهو كذلك لا يفهم لبعض العبادات معنى أو سبب وعلة، فيعبد الله تعالى كما أمره، وينتهي عما نهاه، وإن لم يفهم للأمر ولا للنهي علة.

تَفْسِيرُ السُّورَةِ

اِنْقَسَمُ بِحُرُوفِ الْهَجَاءِ وَيَا نَقْلَمَ وَيَا كِتَابَةَ فِيهِ تَنْوِيَةً بِشَانَ الْعِلْمِ

١ - ﴿تَّ وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ﴾ ﴿١﴾

أقسم الله تبارك وتعالى بحرف الهجاء ﴿تَّ﴾ وهو اسم للحرف، وليس ذات الحرف، وهذا القسم للتنبيه على إعجاز القرآن. وأقسم الله تعالى بأداة الكتابة وهي القلم.

كما أقسم سبحانه بالكتابة نفسها، في قوله ﴿وَمَا يَسْطُرُونَ﴾ وهي الأسطر المكتوبة. وجواب القسم عن هذه الثلاثة: نفي الجنون عن النبي ﷺ، وإثبات الأجر له، وبيان أنه على خلق عظيم، وكل ذلك لدفع التهم الباطلة عن رسول الله ﷺ وإثبات أنه رسول من عند الله.

كما جاء التنويه بالقراءة والكتابة والقلم، في الآيات الأولى التي نزلت من هذا الكتاب العزيز، في قوله تعالى: ﴿أَفَرَأَيْتُمُ اللَّيْلَ الَّتِي خَلَقَ ﴿١﴾ خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ ﴿٢﴾ أَفَرَأَيْتُمُ اللَّيْلَ الَّتِي خَلَقَ ﴿٣﴾ عَلَقٌ الْإِنْسَانُ مَا لَمْ يَتَّمِ ﴿٤﴾﴾ [العلق: ١-٥] وذلك لبيان أن الإسلام دين يدعو إلى العلم، وإلى محو الأمية في أول آياته نزولاً، وفيه إشارة إلى منزلة العلم والقراءة والكتابة في الإسلام، لم يسبق لها مثيل في التعاليم السماوية الأخرى، ولا في التعاليم الأرضية.

١ - والقلم الأول: هو الذي كُتِبَ به علم الله تعالى في اللوح المحفوظ بالموجودات الكائنة، والتي ستكون، والمخاطبون بالقرآن لا يعرفون إلا القلم الذي هو آلة الكتابة، عند أهل الكتاب، وعند من يعرفون الكتابة من العرب وقت نزول القرآن العظيم.

(١) سكت أبوجعفر على نون من ﴿تَّ وَالْقَلَمِ﴾ سكتة خفيفة بدون تنفس، وأدغم النون في الواو هشام والكسائي ويعقوب وخلف قولاً واحداً، وأدغمها بخلاف عنهم ورش والبزي وابن ذكوان وعاصم، وأظهرها الباقلون، وهم قالون وقنبل وأبو عمرو وحمزة وأبوجعفر.

٢ - والقلم الثاني بعد أن نزل القرآن على النبي ﷺ هو الأقلام التي كُتِبَ بها الوحي، فكان القلم أداة المعرفة العامة، وكان القرآن أول كتاب ظهر في الدنيا مع بقاءه إلى قيام الساعة، وهو الكتاب الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، وقد اختار الله لتبليغه للناس: الإنسان الأول في الفضل والتميز في هذا الوجود، وهو محمد ﷺ الذي اصطفاه الله لهذه المهمة.

٣ - والمراد بالقلم في الآية: أنه اسم جنس، يشمل جميع الأقلام التي تكتب بها العلوم، ويُسطَرّ بها المنشور والمنظوم، فهو جنس القلم الذي يُكتب به، لتنبيه الخلق على أن القلم أخو اللسان، وبه قوام العلوم والمعارف، وهو نعمة من الله تعالى لتعليم الكتابة التي تُنال بها العلوم، والقلم على هذا آية من آيات الله، أقسم به على براءة محمد ﷺ مما نسبته إليه أعداؤه من الجنون.

أما القلم الأول الذي كتبت به المقادير، فقد قال الترمذي عنه: حدثنا يحيى بن موسى، حدثنا أبوداود الطيالسي، حدثنا عبد الواحد بن سليم، قال: قدمت مكة فلقيتُ عطاء بن أبي رباح، فقلت له: يا أبا محمد، إن أناساً عندنا يقولون في القدر، فقال عطاء: لقيتُ الوليد بن عباد بن الصامت قال: حدثني أبي قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إن أول ما خلق الله القلم، فقال له: اكتب، فجرى بما هو كائن إلى الأبد»^(١).

وقال ابن عباس رضي الله عنهما: إن أول شيء خلقه الله تعالى القلم، فقال له: اكتب، قال: يارب، وما أكتب؟ قال: اكتب القدر، فجرى من ذلك اليوم بما هو كائن إلى أن تقوم الساعة، ثم طُوِيَ الكتاب وُزِعَ القلم، وكان عرشه على الماء، ففُتِّق منه

(١) الترمذي برقم (٣٣١٩، ٢١٥٥)، والمسند (٣١٧/٥) (٢٢٧٠٧، ٢٢٧٠٥) عن عباد بن الصامت، وهو حديث صحيح (محققه)، وانظر: ابن أبي شيبة (١١٤/١٤)، وأبا داود برقم (٤٧٠٠)، والطبري في التفسير (١٦/٢٩)، وعند هؤلاء الثلاثة زيادة ليست عند الترمذي، وصححه الألباني في صحيح الترمذي برقم (٢٦٤٥، ١٧٤٩)، وصححه أيضا في صحيح أبي داود برقم (٣٩٣٣)، وصححه ابن حجر في كشف الخفا (٢٦٣/١).

السموات، ثم خلق النون، فبسطت الأرض عليه، والأرض على ظهر النون، فاضطرب النون، فمادت الأرض، فأثبتت بالجبال، فإن الجبال لتفخر على الأرض إلى يوم القيامة، ثم قرأ ابن عباس ﴿تَ وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ﴾^(١).

وأخرج الرافي في تاريخ قزوين من طريق جوير عن الضحاك عن ابن عباس رضي الله عنهما مرفوعاً: أن النون هو اللوح المحفوظ، والقلم من نور ساطع^(٢).
وورد أيضاً أن النون هو الحوت^(٣).

جَوَابُ الْقَسَمِ فِيهِ ثَلَاثَةُ مَحَامِدَ لِلنَّبِيِّ ﷺ:

٢-٤ - ﴿مَا أَنْتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ﴾^(٢) وَإِنَّ لَكَ لَأَجْرًا غَيْرَ مَمْنُونٍ^(٢) وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ^(٤) ﴿٤﴾
وجواب الأقسام الثلاثة، وهي حروف الهجاء، وأدوات الكتابة، والخير، أو العلم النافع الذي يسطره القلم، جواب ذلك يتكون من ثلاثة أمور:
الأمر الأول: قوله تعالى: ﴿مَا أَنْتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ﴾.
والنعمة التي أنعمها الله تعالى على نبيه هي نعمة النبوة والرسالة، أي لست يا محمد ضعيف العقل، ولا سفيه الرأي، كما يقول الجاهل، لأن الجنون لا يتصف به عبد أنعم الله عليه بالنبوة، وقربه واصطفاه لحمل الرسالة وتبليغ الدعوة.
فالمقسم عليه: نفى الجنون عن النبي ﷺ كما قالوا فيما حكاه القرآن عنهم ﴿يَقُولُونَ إِنَّهُ لَمَجْنُونٌ﴾ [القلم: ٥١] ﴿وَقَالُوا يَتَّبِعُهَا الَّذِي نَزَلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ﴾ [الحجر: ٦].
وقد نفى الله تعالى ذلك عن نبيه ﷺ صراحة في مثل قوله تعالى: ﴿وَمَا صَاحِبُكُمْ بِمَجْنُونٍ﴾ [التكوير: ٢٢].

(١) أخرجه عبد الرزاق (٣٠٧/٢)، والطبري (١٤٠/٢٣)، وأبو الشيخ في العظمة (٩٠٠)، والبيهقي في الأسماء والصفات (٨٠٤)، والخطيب في تاريخه (٥٩/٩)، والضياء في المختارة (١٨/١٠) (٨).
(٢) الرافي (٤١٤/٢).

(٣) أخرجه عبد بن حميد وابن مردويه عن ابن عباس أيضاً.

وقوله: ﴿فَذَكِّرْ فَمَا أَنْتَ بِنِعْمَتِ رَبِّكَ بِكَاهِنٍ وَلَا مَجْنُونٍ﴾ [الطور: ٢٩].

ومن عجب أن يقولوا ذلك وقد كانوا يأتُمونهُ ﷺ على ودائعهم، ويحكمونه فيما بينهم، ويشهدون له بالصدق والأمانة.

الأمر الثاني: ثبوت الأجر العظيم له ﷺ:

ولمَّا ثبت الله نبيه، ودفع عنه بُهتان أعدائه، أعقب ذلك بيان إكرام الله له بسبب ما يُلْقاه من أذى المشركين، أي وإن لك يا أيها الرسول على ما تُلْقاه من شذائد على تبليغ الرسالة، لثواباً عظيماً غير منقوص ولا مقطوع، ولا ممتناً به عليك من أحد، أي أنه ثواب ليس فيه أذى ولا من، وهو عطاء دائم مستمر موصول وغير مقطوع، كما قال تعالى عن نعيم أهل الجنة ﴿عَطَاءٌ غَيْرٌ يُجْذَوْنَ﴾ [هود: ١٠٨].

الأمر الثالث: تخلّقه ﷺ بخلق القرآن:

ثم أثنى سبحانه وتعالى على نبيه بأطيب ثناء، ينفي تسفيه الأعداء له ﷺ مؤكداً ذلك بثلاثة مؤكدات هي: إن ولام الابتداء، والجملة الاسمية، كما في الآية السابقة، فقال تعالى ﴿وَإِنَّكَ﴾ يا رسولنا ﴿لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ والخلق هو طبع النفس وسجيتها في حب الخير، والعظيم هو عالي الشأن، رفيع القدر، البالغ نهاية الكمال، المحمود في طبع الإنسان. والخلق العظيم أرفع من الخلق الحسن، والخلق العظيم يبدأ من التوحيد والاستقامة، ويُمُرُّ بالحلم والحياء، والعدل والصبر، والسخاء والتواضع، والزهد والشكر، والعفة والشجاعة، والوقار والعطف، والرفقة والرحمة، والشفقة، وحسن المعاملة والمعاشرة، وما إلى ذلك.

وجماع ذلك ما اشتمل عليه القرآن من مكارم الأخلاق، فقد كان امثال القرآن عند النبي ﷺ سجية له يَأْتُمِرُ بأمره، وينتهي عما ينهى عنه.

والمعنى: إنك يا محمد لعلی أدب رفیع جم، وخلق فاضل كريم، فقد جمع الله فيك الفضائل والكمالات.

وقد وصف الله تعالى نبيه ﷺ بقوله ﴿فِيمَا رَحِمَهُ مِنَ اللَّهِ لَنْتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ

لَا تَنْفُضُوا مِنْ حَوْلِكَ ﴿١﴾ [آل عمران: ١٥٩].

وقال: ﴿ خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ ﴾ [الأعراف: ١٩٩].

وقال: ﴿ لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَجِيمٌ ﴾ [التوبة: ١٢٨].

وهذه طائفة من الأحاديث تفسر خُلِقَ النبي ﷺ بالإضافة إلى الآيات السابقة وأمثالها:

- ١- ولما سُئِلَت عائشة رضي الله عنها عن خلق النبي ﷺ قالت للسائل، وهو (سعد بن هشام): أَلَسْتُ تَقْرَأُ الْقُرْآنَ؟ قال: بلى، قالت: فَإِنْ خُلِقَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ كَانَ الْقُرْآنُ^(١).
- ٢- وقال أنس رضي الله عنه: خَدَمْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ عَشْرَ سَنِينَ، فَمَا قَالَ لِي (أَف) قَطْ، وَلَا قَالَ لشيءٍ فَعَلْتَهُ لَمْ فَعَلْتَهُ، وَلَا لشيءٍ لَمْ أَفْعَلْهُ إِلَّا فَعَلْتَهُ؟ وَكَانَ أَحْسَنَ النَّاسِ خُلُقًا، قَالَ: وَلَا مَسَسْتُ خَزًّا وَلَا حَرِيرًا وَلَا شَيْئًا أَلَيْنَ مِنْ كَفِّ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَلَا شَمَمْتُ مِسْكًَ وَلَا عِطْرًا، كَانَ أَطْيَبَ مِنْ عَرَقِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ^(٢).

- ٣- وعن عائشة رضي الله عنها قالت: «مَا ضَرَبَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ بِيَدِهِ خَادِمًا لَهُ قَطْ، وَلَا امْرَأَةً، وَلَا ضَرَبَ بِيَدِهِ شَيْئًا قَطْ، إِلَّا أَنْ يَجَاهِدَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ، وَلَا خَيْرَ بَيْنَ شَيْئَيْنِ قَطْ إِلَّا كَانَ أَحَبَّهُمَا إِلَيْهِ أَيْسَرُهُمَا، حَتَّى يَكُونَ إِثْمًا، فَإِذَا كَانَ إِثْمًا كَانَ أَبْعَدَ النَّاسِ مِنَ الْإِثْمِ، وَلَا انْتَقَمَ لِنَفْسِهِ مِنْ شَيْءٍ يُوْتَى إِلَيْهِ، إِلَّا أَنْ تُتْهَكَ خُرْمَاتُ اللَّهِ، فَيَكُونَ هُوَ يَنْتَقِمُ لِلَّهِ عِزًّا وَجَلًّا»^(٣).
- ٤- وعن أنس رضي الله عنه قال: كُنْتُ أَمْشِي مَعَ النَّبِيِّ ﷺ وَعَلَيْهِ بَرْدٌ نَجْرَانِي غَلِيظُ الْحَاشِيَةِ،

(١) تفسير عبد الرزاق (٢/٢٤٥)، وصحيح مسلم برقم (٧٤٦)، وانظر: المسند (٦/٢١٦)، (٢٥٣٠٣، ٢٥٨١٣) وإسناده صحيح على شرط الشيخين، وجاء مطولاً برقم (٢٥٣٤٧، ٢٤٢٦٩) والحاكم (٢/٤٩٩)، وابن أبي شيبة (١٤/٢١٤).

(٢) صحيح البخاري برقم (١٩٧٣، ٢٧٦٨، ٣٥٦١، ٦٠٣٨)، وصحيح مسلم برقم (٢٣٣٠)، وأخرجه أحمد برقم (١٣٤١٨، ١٣٤١٩) بنحوه وهو حديث صحيح، ورجاله رجال الصحيح، وأخرجه البيهقي في الشعب (٨٠٧٠)، والضياء في المختارة (١٨٣٤).

(٣) ينظر: المسند (٦/٢٣٢) برقم (٢٤٠٣٤) قال محققوه: حديث صحيح وأخرجه مسلم (٢٣٢٧)، والنسائي في الكبرى (٩١٦٥)، والترمذي في الشمائل (٣٤١)، والطبراني في الأوسط (٢٩٣٩)، وابن أبي شيبة (٩/٦٠).

فأدركه أعرابي، فجبذه جبذة شديدة، حتى نظرت إلى صفحة عاتق رسول الله ﷺ وقد أثرت بها حاشية البُزْد من شدة جبذته، ثم قال: «يا محمد، مُز لي من مال الله الذي عندك، فالتفت إليه النبي ﷺ وضحك، وأمر له بعتاء»^(١).

٥- وعن الأسود قال: سألت عائشة رضي الله عنها ما كان رسول الله ﷺ يفعل في بيته؟ قالت: «كان يكون في مهنة أهله، فإذا حضرت الصلاة خرج يتوضأ ويخرج إلى الصلاة»^(٢).

٦- وعن عائشة رضي الله عنها قالت: «لم يكن رسول الله ﷺ فاحشاً، ولا متفحشاً، ولا صخباً في الأسواق، ولا يجزي السيئة بالسيئة، ولكن يعفو ويصفح»^(٣).

٧- وبلغ من خلق النبي ﷺ أن زيد بن حارثة لما أخذ أسيراً، وأهدنهُ خديجة لخدمة رسول الله ﷺ وجاء أهله بالفداء يدفعونه للنبي ﷺ ويأخذونه، فقال ﷺ ادعوه واسألوه، فإن اختاركم فهو لكم بدون فداء، فقال زيد: والله لا أختار على صُخبك أحداً أبداً، فقال له أهله: ويحك، أتختار الرق على الحرية؟ قال: نعم، والله لقد صحبتته ﷺ فلم يقل لي شيء فعلته لم فعلته قط، ولا شيء لم أفعله لم لم تفعله قط، فرجع قومه، وبقي هو عند رسول الله ﷺ فأخذ بيده وأعلن تبنيّه له على ما كان معهوداً قبل البعثة، ثم أبطل الإسلام هذا التبني فيما بعد.

٨- وعن النّوّاس بن سَمْعان رضي الله عنه قال: سألت رسول الله ﷺ عن البر والإثم، فقال: «البر: حسن الخلق، والإثم ما حاك في صدرك وكرهت أن يطلع عليه الناس»^(٤).

٩- وعن عائشة رضي الله عنها قالت: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إن المؤمن

(١) البخاري برقم (٦٠٨٨، ٥٨٠٩، ٣١٤٩)، ومسلم برقم (١٠٥٧).

(٢) صحيح مسلم (٧٢٤)، والمسند (٢٠٤٩٤٨، ٢٤٢٢٦) بإسناد صحيح على شرط الشيخين، والبخاري (٦٧٦)، والطيالسي (١٥٨١)، والبعوي في شرح السنة (٣٦٧٨).

(٣) ابن أبي شيبة (٣٣٠/٨)، والترمذي (٢٠١٦)، وصحيح الترمذي (١٦٤٠)، ومسند أحمد (٢٥٤١٧) بإسناد صحيح ورجال ثقات (محققوه)، والطيالسي (١٥٢٠)، وله شاهد من حديث ابن عمرو في البخاري (٦٠٢٩)، ومسلم (٢٣٢١).

(٤) صحيح مسلم برقم (٢٥٥٣).

ليدرک بحسن خلقه درجة الصائم القائم»^(١).

١٠- وعن أبي الدرداء ؓ أن رسول الله ﷺ قال: «ما من شيء أثقل في ميزان المؤمن يوم القيامة من خلق حسن، وإن الله تعالى يُبغض الفاحش البذيء»^(٢).

١١- وعن جابر ؓ أن رسول الله ﷺ قال: «إن من أحبكم إلي وأقربكم مني مجلساً يوم القيامة، أحاسنكم أخلاقاً»^(٣).

١٢- وعن عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما قال: «لم يكن رسول الله فاحشاً ولا متفحشاً، وكان يقول: خياركم أحاسنكم أخلاقاً»^(٤).

١٣- وفي الحديث عن أبي ذر ؓ أن النبي ﷺ قال: «اتق الله حيثما كنت، وأتبع السيئة الحسنة تمحها، وخالف الناس بخلق حسن»^(٥).

١٤- وفي الحديث عن أبي هريرة ؓ أن النبي ﷺ قال: «إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق»^(٦).

١٥- وقال ﷺ: فيما يرويه أبو مسعود الأنصاري ؓ «إن مما أدرك الناس من كلام

(١) سنن أبي داود (٤٧٩٨)، وابن حبان (٤٨٠)، والحاكم (٦٠/١)، والمسنند (٢٤٣٥٥، ٢٥٥٣٧)، قال محققوه: صحيح لغيره، وأخرجه الحاكم (٦٠/١)، والطحاوي في شرح مشكل الآثار (٤٤٢٧)، والبيهقي في الشعب (٧٩٨٨).

(٢) أخرجه الترمذي وقال: حديث حسن صحيح (٢٠٠٢)، وصحيح سنن الترمذي (١٦٢٨)، وأبوداود (٤٧٩٩)، والبخاري (١٩٧٥)، كشف، وابن حبان (٤٨١)، وابن أبي شيبة (٣٢٣/٨).

(٣) سنن الترمذي (٢٠١٨) وهو حديث صحيح كما في صحيح سنن الترمذي (١٦٤٢).

(٤) البخاري برقم (٦٠٣٥، ٣٥٥٩)، ومسلم برقم (٢٣٢١)، والترمذي (١٩٧٥)، وابن أبي شيبة (٣٢٦/٨).

(٥) المسند (٢١٣٥٤، ٢١٤٠٣)، والترمذي (١٩٨٨) وقال: حديث حسن، والحاكم (٥٤/١) قال محققو المسند: حسن لغيره.

(٦) المسند (٣٨١/٢) برقم (٨٩٥٢) قال محققوه: صحيح، وهذا إسناد قوي، رجاله رجال الصحيح غير محمد بن عجلان، فقد روى له مسلم متابعة، وهو قوى الحديث، وأخرجه المستدرک (٦١٣/٢) صححه الحاكم وافقه الذهبي، وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة (٤٥)، وقال ابن عبد البر: حديث صحيح متصل من وجوه صحاح عن أبي هريرة وغيره.

النبوة الأولى: إذا لم تستح فاصنع ما شئت»^(١).

والمؤمن يدرك بحسن خلقه درجة قائم الليل وصائم النهار، وما من شيء أثقل في ميزان العبد من خلق حسن.

وهكذا: فقد كان النبي ﷺ هَيِّنًا لِّبَنَّا سَهْلًا، قريباً من الناس، يجيب دعوة من دعه، ويقضي حاجة من سألته، لا يرد سائلاً، يشاور أصحابه، ويعفو عن سيئهم، ولا يعبس في وجه أحد، ولا يسيء إلى أحد، ولا يغلظ له في القول، ولهذا وصفه ربنا بأنه كان مستعلياً بخلقه.

المُسْتَقْبِلُ لِلْإِسْلَامِ

٥-٧ - ﴿فَسَبِّحْهُ وَبُحِّرْهُ وَبُحِّرْهُ﴾ (٥) ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ (٦) ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ﴾ (٧)

وبعد هذا الثناء الحسن من الله تعالى على رسوله ﷺ فإن الله تبارك وتعالى يُطْمِئِنُّهُ على مستقبل الدعوة بانكشاف الباطل وثبات الحق، فبين سبحانه أنه عما قريب سترى أيها الرسول، ويرى مكذبوك عند نزول العذاب، أن أيا منكما هو المفتون المجنون ﴿فَسَبِّحْهُ وَبُحِّرْهُ وَبُحِّرْهُ﴾ أي سترى وتعلم، ويرى المكذبون والمشركون ويعلمون من المفتون الضال أنت أم هم ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ أي فريق منكم مصاب بالجنون، حتى يتميز الحق من الباطل، كما قال تعالى: ﴿سَيَعْلَمُونَ غَدًا مِّنَ الْكَذَّابِ الْآثِرِ﴾ [القمر: ٢٦] وكما قال سبحانه: ﴿وَلِنَّا أَوْلِيَاكُمْ لَعَلَّ هُدًى أَوْ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ [سبأ: ٢٤] والمفتون هو المجنون، وقد تبين أن النبي ﷺ هو أهدي الناس وأكملهم وأحسنهم خلقاً، وأن أعداءه هم أضل الناس، وهم الذين فتنوا الناس وأضلّوهم عن سبيله.

وممن وصف النبي ﷺ بالجنون: (الوليد بن المغيرة) و(أبوجهل) ومعظم السور قد

(١) البخاري (٣٤٨٣، ٣٤٨٤، ٦١٢٠)، والمسند (١٧٠٨٩، ١٧٠٩٠)، وعن حذيفة (٢٣٢٥٤).

(٢) قرأ الأصبهاني بتحقيق همزة ﴿يَا أَيُّهَا﴾ وإبدالها ياء وصلًا ووقفًا، ومثله حمزة عند الوقف.

نزل في الرد عليهما، وكان المشركون يقولون: إن محمداً قد اختلط عقله من جرّاء مس الشيطان له بالجنون، فأخبر تعالى أنهم سيعلمون غداً من هو المصاب بالجنون؟ وفي هذا تعريض بأبي جهل والوليد، وكل من كان على شاكلتهما.

والذي أنبأك - يا رسولنا - بأن الحق سيتضح، ويظهر لكل ذي عين، هو رب العالمين، فهو الذي يعلم مَنْ هو على هدى، ومن هو على ضلال، فالمتصفون بالجنون هم الضالون ﴿إِنَّ رَبَّكَ﴾ هو أعلم بالشقي المنحرف عن دين الله، وعن طريق الهدى وهو أعلم بالتقي المهتدي إلى دين الحق، وهذا تعليل لما قبله، لأن المجنون هو الذي له عقل لا يتفهم به، ولا يستعمله فيما ينجيه ويُسعده، ومادام الأمر كذلك فامض في طريقك - يا رسولنا - فإن العاقبة لك، وذّرهم في طغيانهم يعمهون. وفي الآية تهديد ووعد لمن ضل عن سبيل الله، ووعد لمن اهتدى وسلك طريق الحق والاستقامة.

النُّهْيُ عَنْ قَبُولِ مُسَاوَمَةٍ غَيْرِ الْمُسْلِمِينَ فِي أُمُورِ الدِّينِ

٨، ٩ - ﴿فَلَا تَطْعِ الْمُكَذِّبِينَ ۝٨ وَذُؤَا لَوْ تَذَّهْنُ فَيَذْهَبُونَ ۝٩﴾

والضلال الذي عليه المكذبون، يجعلهم لا يلينون للحق، بل يريدون أن يستميلوا الحق لجانبهم، وقد حذر الله نبيه من الاستجابة لمقترحات المكذبين، وهو مثال يُحتذى في عدم طاعة غير المسلمين للتخلي عن شيء من مبادئهم وأخلاقهم في كل زمان ومكان. ﴿فَلَا تَطْعِ الْمُكَذِّبِينَ﴾ بل اثبت أيها الرسول، وأيها الداعية إلى الله على ما أنت عليه من مخالفة المكذبين لدعوتك، فإن هؤلاء ليسوا أهلاً لأن يُطاعوا، فهم لا يريدون إلا الباطل، والمطيع لهم يضر نفسه.

فإنهم تَمَنَّوْا وأَحَبُّوا لو ثَلَاينهم وتَصَانَعهم بعض الشيء، فترك بعض ما لا يرضونه مدارة لهم، فيفعلون هم مثل ذلك ﴿وَذُؤَا﴾ تمنوا ﴿لَوْ تَذَّهْنُ﴾ تجاملهم وتوافق أهواءهم بترك بعض دينك، وترك ما أنت عليه من الحق، وتوافقهم على ما هم عليه بالقول أو

الفعل أو السكوت عما يتعين الكلام عنه ﴿فَيَذْهَبُونَ﴾ فيميلون لك ويمالئونك، ويتركون بعض ما لا ترضى به، ولكن أصدع بأمر ربك ولا تخش في الله لومة لائم، وافعل ما أمرك به دينك.

والآية تشير إلى بعض المساومات التي عرضها وعرضها غير المسلمين على بعض الناس وعلى دعاة الإسلام، وهم يريدون التدرج في الملاينة والمداينة حتى يصلوا إلى تعطيل الدعوة، وقد قرر الله ذلك في كتابه فقال تعالى: ﴿وَلَوْلَا أَنْ تُبَنَّكَ لَقَدْ كِدْتَ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْنًا قَلِيلًا﴾ [الإسراء: ٧٤].

وقال سبحانه: ﴿وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّنْ بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّارًا﴾ [البقرة: ١٠٩].

وقال جل شأنه: ﴿قُلْ يَتَّيْنَاهَا الْكَافِرُونَ ۖ لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ ۚ﴾ ❶ وَلَا أَنْتَ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ ۚ [الكافرون: ١-٣] وهذه أمثلة من طلب المخالفين في الدين بعض المداينات:

١- ومن تلك المساومات ما ذكره ابن إسحاق وابن هشام في السيرة، أن زعماء قريش قالوا للنبي ﷺ: يا محمد، هلم، فلنعبد ما تعبد، وتعبد ما نعبد، فنشترك نحن وأنت في الأمر، فإن كان ما نعبد خيراً مما تعبد، كنا قد أخذنا بحظنا منه، وإن كان ما تعبد خيراً مما نعبد، كنت قد أخذت بحظك منه، فنزلت سورة الكافرون.

٢- ومن ذلك أن زعماء قريش ذهبوا إلى أبي طالب، وقالوا له: إن ابن أخيك قد سب آلهمنا، وعاب ديننا، وسفّه أحلامنا، وضللّ آبائنا، فإما أن تكفّه عنا، وإما أن تخلي بيننا وبينه، فردّهم رداً جميلاً، ثم جاؤوا إليه مرة أخرى وقالوا له: يا أبا طالب: إن لك سناً وشرفاً ومنزلة، وإنا والله لا نصبر على شتم آبائنا، وتسفيه أحلامنا، وعيب آلهمنا، حتى تكفّه عنا، أو ننازله وإياك، حتى يهلك أحد الفريقين، فبعث أبو طالب للنبي ﷺ وذكر له ما حدث، ثم قال له: فأبق عليّ وعلى نفسك، ولا تحملي من الأمر ما لا أطيق، فقال ﷺ: «والله يا عم، لو وضعوا الشمس في يميني، والقمر في يساري، على أن أترك هذا الأمر، حتى يظهره الله أو أهلك فيه، ما تركته»، فلما ولّى، ناداه أبو طالب وقال

له: اذهب يا ابن أخي فقل ما أحببت، فوالله لا أسلمك لشيء أبداً.

٣- ومن ذلك أن زعماء قريش فوضوا سيدهم (عتبة بن ربيعة) أن يعرض على النبي ﷺ أموراً لعله يقبل بعضها، ويكف عن دعوته، وكان ذلك بعد إسلام حمزة وتكاثر المسلمين، فجاء عتبة إلى النبي ﷺ وقال له: اسمع مني، أعرض عليك أموراً تنظر فيها، لعلك تقبل بعضها.

فقال ﷺ: قل يا أبا الوليد، فقال: يا ابن أخي، إن كنت تريد بما جئت من هذا الأمر مالا، جمعنا لك من أموالنا حتى تكون أكثرنا مالا، وإن كنت تريد شرفاً سودناك علينا، فلا نقطع أمراً دونك.

وإن كنت تريد ملكاً، ملكناك علينا، وإن كان هذا الذي يأتيك رثياً - أي مساً من الجن - لا تستطيع رده، طلبنا لك الطب، وبذلنا لك من أموالنا حتى تبرأ.

فلما فرغ عتبة قرأ عليه النبي ﷺ صدر سورة فصلت، فلما سمعها أنصت، وألقى بيده خلف ظهره، فلما انتهى النبي ﷺ إلى السجدة سجد، ثم قال: قد سمعت يا أبا الوليد ما سمعت، فأنت وذاك.

فلما رجع عتبة إلى أصحابه قالوا: لقد رجع بغير الوجه الذي ذهب به، ثم قال لهم: لقد سمعت قولاً، والله ما سمعت مثله قط، والله ما هو بالشعر، ولا بالسحر، ولا بالكهانة، يا معشر قريش أطيعوني، واخلوا بين هذا الرجل وبين ما هو فيه، فوالله ليكون له شأن عظيم، فإن تصبه العرب فقد كفيتموه بغيركم، وإن يظهر على العرب فملكه ملككم، وعزه عزمكم، فقالوا: سحرك والله يا أبا الوليد بلسانه، قال: هذا رأيي، فاصنعوا ما بدا لكم.

وفي رواية أن النبي ﷺ لما بلغ قوله تعالى: ﴿فَإِنْ أَعْرَضُوا فَقُلْ أَنْذَرْتُكُمْ صَاعِقَةً مِثْلَ صَاعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ﴾ [فصلت: ١٣] من سورة فصلت، قام عتبة مذعوراً، فوضع يده على فم النبي ﷺ وهو يقول: أنشدك الله والرحم يا محمد، مخافة أن يقع النذير.

والنبي ﷺ لم يساوم على دينه، حتى في أخرج المواقف العصيبة، في مكة وهو

محاصر هو وقومه في شعب أبي طالب، ولم يسكت ﷺ عن كلمة الحق لحظة واحدة.

سِتُّ آيَاتٍ فِي شَأْنِ الْوَلِيدِ بْنِ الْمُغِيرَةِ فِيهَا تِسْعُ صِفَاتٍ لَهُ وَلِأَمْثَالِهِ

١٠-١٢- ﴿وَلَا تُطِيعُ كُلَّ حَلْفٍ مِّنْهُمْ﴾ ١٠ ﴿هَآؤِنِ مَّا مَشَاءَ بَنِي إِسْرَءِيلَ﴾ ١١ ﴿مَتَاعٌ لِّلْخَيْرِ مُعْتَدٍ أَتَمِّمُ﴾ ١٢

نزلت هذه الآيات الست في شأن كل من اتصف بشيء من الصفات التسع الموجودة فيها: من كل مكذب للقرآن ورسول الإسلام، فنهت الآية الأولى عن طاعة كل أحد كذب بالرسالة، وقد قيل: إن هذه الآيات نزلت في الوليد بن المغيرة، وقال بعضهم: نزلت في الأخنس بن شريق، وقال آخرون: في الأسود بن عبد يغوث.

والآيات قد أفادت العموم والشمول بلفظ ﴿كُلِّ﴾ من قوله تعالى ﴿وَلَا تُطِيعُ كُلَّ حَلْفٍ مِّنْهُمْ﴾. ويدخل هؤلاء الثلاثة وكذا أبو جهل وأمثاله في الآيات دخولاً أولياً.

وقد نهى الله تعالى رسوله ﷺ ونهى كل مسلم عن طاعة الذين يكيدون للإسلام وأهله، ممن وُصفوا بشيء من هذه الصفات التسع:

وأولها ﴿وَلَا تُطِيعُ كُلَّ حَلْفٍ﴾ أي كثير الحلف بالله تعالى كذباً، فاليمين على لسانه في الحق والباطل، وهو لا يبالي بالأيمان الفاجرة، وتعتمد الكذب في وعوده وأخباره، مستهيناً بعظمة الله تعالى، فيكثر من الحلف، ليداري كذبه، ويستجلب ثقة الناس به.

ثانيها: أنه ﴿مِّنْهُمْ﴾ أي حقير ذليل، خسيس النفس، ناقص الهمة، لا يهتم إلا شهوات نفسه، ولا يحترم نفسه، وكثرة الحلف علامة مهانته، وعدم ثقته بنفسه، وعدم ثقة الناس فيه، ولو كان من أصحاب المال والجاه، فالمهانة صفة لصيقة به، ولو كان سلطاناً أو طاغية جباراً.

ثالثها: أنه ﴿هَآؤِنِ﴾ كثير العيب والطعن في أعراض الناس، بالغية والسخرية، فهو يهمز الناس ويستهزئ بهم ويعيبهم بالقول والإشارة في حضورهم وفي غيبتهم بأكل لحومهم.

قال تعالى: ﴿وَيْلٌ لَّكُم مِّنْ هَؤُلَاءِ هُمْزُوا لَكُمْ﴾ [الهمزة: ١].

وقال سبحانه: ﴿وَلَا تَلْمِزُوا أَنفُسَكُمْ وَلَا تَنَابَزُوا بِاللِّقَابِ﴾ [الحجرات: ١١].

وقال جل شأنه: ﴿إِنَّ الَّذِينَ أَجْرَمُوا كَانُوا مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا يَضْحَكُونَ ﴿١١﴾ وَإِذَا مَرُّوا بِهِمْ يَتَغَامَزُونَ ﴿١٢﴾﴾ [المطففين: ٢٩، ٣٠].

رابعها: أنه ﴿مَشَاءٌ بَيْنِي﴾ ينقل الكلام بين بعض الناس على وجه الإفساد بينهم، بما يفسد القلوب، ويقطع الصلات، ويذهب بالموذات، ويُلقي بينهم العداوة والبغضاء.

١ - قال حذيفة بن اليمان ؓ: سمعت النبي ﷺ يقول: «لا يدخل الجنة قتات»^(١).

وفي لفظ آخر عن حذيفة أيضاً «لا يدخل الجنة نمام»^(٢).

٢ - وفي حديث أسماء بنت يزيد بن السكن رضي الله عنها أن النبي ﷺ قال: «ألا أخبركم بخياركم؟» قالوا: بلى يا رسول الله، قال: «الذين إذا رُؤوا ذَكَرَ الله عز وجل» ثم قال: «ألا أخبركم بشراركم؟ المشاؤون بالنميمة، المفسدون بين الأحبة، الباغون للبراء العنت»^(٣).

والذين يفتحون آذانهم للسمع، مشاركون للقائلين في الوزر، كما في الأثر (المغتتاب والمستمع شريكان في الإثم).

٣ - وكان النبي ﷺ ينهي أصحابه أن ينقل إليه أحد من الناس ما يُغَيِّرُ صدره على غيره، وكان ﷺ يقول كما في حديث ابن مسعود ؓ: «لا يبلغني أحد عن أحد من أصحابي شيئاً، فإني أحب أن أخرج إليكم وأنا سليم الصدر»^(٤).

-
- (١) صحيح البخاري برقم (٦٠٥٦)، وفي الأدب المفرد، له (٣٢٢)، ومسلم (١٠٥، ١٧٠)، وأبوداود (٤٨٧١)، والترمذي (٢٠٢٦)، والمسند (٢٣٢٤٧) بإسناد صحيح على شرط الشيخين، وابن حبان (٥٧٦٥).
- (٢) المسند (٣٩١/٥) برقم (٢٣٤٥١، ٢٣٣٢٥) وإسناده صحيح على شرط الشيخين، وأخرجه مسلم (١٠٥)، والبزار في مسنده (٢٨٩٨)، والبيهقي في الشعب (١١١٠١) وغيرهم.
- (٣) المسند (٤٥٩/٦) برقم (٢٧٥٩٩) وهو حديث حسن بشواهد، وفيه شهر بن حوشب ضعيف (محققوه)، وأخرجه عبد بن حميد (١٥٨٠)، والبيهقي في الشعب (١١١٠٧)، والبخاري في الأدب المفرد (٣٢٣)، وابن ماجه برقم (٤١١٩)، وقال البوصيري في الزوائد ٢٧٣/٣ هذا إسناد حسن.
- (٤) من حديث طويل عن ابن مسعود في المسند (٣٧٥٩)، والبعوي في شرح السنة (٣٥٧١)، وأبي داود (٤٨٦٠)، والترمذي (٣٨٩٣، ٨٩٦)، وفي سنده مجهولان فهو ضعيف بهذا السياق (محققو المسند).

٤ - وصح عن ابن عباس رضي الله عنهما أن النبي ﷺ مرّ بقبرين فقال: «إنهما ليعذبان، وما يعذبان في كبير، أما أحدهما فكان لا يستتر من البول، وأما الآخر فكان يمشي بالنميمة، ثم دعا بعسيب - جريدة من النخل - فشقه باثنين، فغرس على هذا واحداً وعلى هذا واحداً، ثم قال: «لعله يخفف عنهما ما لم ييبسا»^(١).

فالنميمة خلق ذميم، يفسد بين الأفراد والجماعات، ويُقوّض سلامة المجتمع. خامسها: أنه ﴿مَنَاعٌ لِلْخَيْرِ﴾ أي شديد المنع لكل ما هو خير، بخيل بالمال، ضنين به في وجوه البر، ويمنعه عمن تلزمه نفقته، ويمنعه في النفقات الواجبة والمستحبة والكفارات والزكوات ونحو ذلك، فهو يمنع الخير عن نفسه وعن غيره، وأهم الخير الذي يمنعه الكافر عن نفسه، هو الإيمان، فهو جماع الخير، كما يشمل من يمنع أهله وأبناءه وعشيرته من التوجه الديني.

سادسها: أنه ﴿مُعْتَدٍ﴾ يتجاوز الحد في المحرمات والعدوان على الناس، فهو يظلمهم في دمائهم وأموالهم وأعراضهم، ويصدّهم عن الهدى، ويمنعهم من الإسلام وتعاليمه، فهو ظالم لنفسه ولغيره.

سابعها: أنه ﴿أَثِيمٌ﴾ كثير الآثام، والذنوب المتعلقة بحق الله تعالى، شديد في فحشه وكفره، يُكثر من ارتكاب المعاصي، حتى لكانها طَبْعٌ وخلق فيه، قال تعالى في تنمة الأوصاف: ١٣-١٥ - ﴿عُتِلَ بَعْدَ ذَلِكَ زَيْمٌ ﴿١٣﴾ أَنْ ﴿١٤﴾ كَانَ ذَا مَالٍ وَبَنِينَ ﴿١٥﴾ إِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِ آيَاتُنَا قَالَ كُفْرًا﴾

(١) البخاري (٢١٨)، ومسلم (٢٩٢)، وأبوداود (٢٠)، والترمذي (٧٠)، والنسائي (٢٨/١)، وفي الكبرى (١٥٤٩، ٢٧)، وابن ماجه (٣٤٧)، والمسند (١٩٨٠) بإسناد صحيح على شرط الشيخين، وابن خزيمة (٥٦)، وابن حبان (٣١٢٨).

(٢) قرأ نافع وابن كثير وأبو عمرو وحفص والكسائي وخلف بهمة واحدة على الخبر في ﴿أَنْ كَانَ﴾ وقرأ الباقون بهمزة على الاستفهام، وهم ابن عامر وشعبة وحزمة وأبوجعفر ويعقوب وحقق الهمزتين شعبة وحزمة وروح، وسهل الثانية مع الإدخال: أبوجعفر وابن عامر بخلف عنه، وسهلها بدون إدخال رويس وهو الوجه الآخر لابن عامر.

أَسْطَرُ الْأَوَّلِينَ ﴿١٥﴾

ثامنها: أنه ﴿عُتِلَ بَعْدَ ذَلِكَ﴾ العتل هو الغليظ الجافي، شديد القسوة، شرس فظ الأخلاق، لا ينقاد للحق، وغالباً ما يكون كثير اللحم، أكلوا شروباً، لا يميز بين الحلال والحرام، وهو لئيم في نفسه، سيء المعاملة لغيره.

قال أبو الدرداء رضي الله عنه: العتل: كل رحيب الجوف، وثيق الخلق، أكل شروب، جموع للمال، منوع له.

ومعنى ﴿بَعْدَ ذَلِكَ﴾ أي أنه علاوة على ما عُدَّ له من الأوصاف، فهو سيء الخلقة، سيء المعاملة، شديد الخصومة.

عن حارثة بن وهب الخزاعي رضي الله عنه قال: سمعت النبي ﷺ يقول: «ألا أخبركم بأهل الجنة؟ كل ضعيف متضعف، لو أقسم على الله لأبره، ألا أخبركم بأهل النار؟ كل عتل جواظ مستكبر»^(١).

تاسعها: أنه ﴿زَنِيمٌ﴾ أي ليس له أصل، قبيح الأخلاق، لا يُرجى منه خير ولا فلاح، وهو منسوب لغير أبيه، لصيق في قومه، لا نسب له فيهم، فقد تبناه الوليد ونسبه إليه بعد ثماني عشرة سنة من عمره، وكان لا يُعرف له أب.

وهو بينهم كأنه (زنمة) وهو الجلد المتدلي في حلق الماعز أو الشاة، فهي علامة على الشر يُعرف بها الوليد.

وهذه خاتمة الصفات وأقبحها، قال نافع بن الأزرق: الزنيم: ولد الزنى.

عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال في معنى الآية: هو رجل من قريش كانت له زَنَمَةٌ مثل زَنَمَةِ الشاة يعرف بها^(٢).

(١) صحيح البخاري برقم (٤٩١٨، ٦٠٧١، ٦٦٥٧)، وصحيح مسلم برقم (٢٨٥٣) والنسائي في الكبرى (١١٥٥١)، وأحمد في المسند (١٨٧٢٨، ١٨٧٣٠، ١٨٧٣٢)، وإسناده صحيح على شرط الشيخين، والطيالسي (١٣٣٤)، وابن ماجه (٤١١٦)، وابن حبان (٥٦٧٩)، والطحاوي في شرح مشكل الآثار (٦٧٩).

(٢) صحيح البخاري برقم (٤٩١٧)، والنسائي في السنن الكبرى (١١٥٥٢)، وأبو نعيم في مستخرجه كما في فتح الباري (٦٦٣/٨) واللفظ له

وقال: هو الرجل يعرف بالشر كما تعرف الشاة بزئمتها^(١).

والزئمة شيء يُقطع من أذن الشاة، ويترك معلقاً بها^(٢).

قال المفسرون: نزلت في الوليد بن المغيرة، كان دعياً في قريش وليس منهم، تبنّاه المغيرة بعد أن كان لا يُعرف له أب.

وقال ابن عباس: لا نعلم أحدا وصفه الله بهذه العيوب غير هذا، فألحق به عاراً لا يفارقه أبداً، وإنما دُم بذلك: لأن النطفة إذا خُبِثت خُبِث الولد.

ورد أن الآية لما نزلت جاء الوليد إلى أمه فقال لها: إن محمداً وصفني بتسع صفات، كلها ظاهرة فيّ، أعرفها، غير التاسع فيها، فإن لم تُصدّقني ضربتُ عُتْكَ بالسيف، فقالت له: إن أباك كان عتينا، فخفتُ على المال، فمكّنتُ راعياً من نفسي، فأنت ابن ذلك الراعي، فلم يعرف أنه ابن زنى، حتى نزلت هذه الآية^(٣).

وكان الوليد بن المغيرة كثير المال، كثير الأبناء، وهو المعني في قوله تعالى:

﴿ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا ۖ وَجَعَلْتُ لَهُ مَالًا مَمْدُودًا ۖ وَبَنِينَ شُهُودًا﴾ [المدثر: ١١-١٣].

فهل لأن الوليد من أرباب الأموال والأولاد، كان إذا قرأ عليه أحد آيات القرآن، كذب بها، وقال: ما هذه إلا خرافات وأباطيل السابقين؟ هذا معنى: ﴿أَنْ كَانَ﴾ أي من أجل أنه كان ﴿ذَا مَالٍ وَبَنِينَ﴾ تهكم بالقرآن ونسبه إلى الخرافات والأساطير، وكان ﴿إِذَا تَتْلَى عَلَيْهِ﴾ يَتْلُو قَالَ: أَسْطِيرُ الْأَوَّلِينَ ﴿وما أشأم هذه النعمة إذا كانت استدراجاً لمن كذب بآيات الله، وسخر برسوله﴾.

والمعنى: لا تطع كل من اتصف بهذه الصفات أو بعضها، فطغى وتكبر عن الحق، ووصف القرآن بما لا يليق به، ولو كان ذا مال وبنين، فإن ماله وولده لن يغني عنه من الله شيئاً، لا تطعه، فإنه فضلاً عما اتصف به من صفات قبيحة، تراه إذا تتلى عليه آياتنا

(١) أخرجه الخرائطي في مساوىء الأخلاق (٢٢٩)، والحاكم (٤٩٩/٢).

(٢) النهاية لابن الأثير (٣١٦/٢).

(٣) ينظر: تفسير الطبري وابن كثير والنسفي وغيرهم للآية.

الدالة على وحدانيتنا وقدرتنا، والدالة على صدقك - أيها الرسول - فيما تبليغه عتاً، كفر بها وكذبها ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ مَآذَا أُنزِلَ رَبُّكُمْ قَالُوا اسْطِيزُ الْآوَلِينَ ﴾ [النحل: ٢٤] لا تطع كل كذاب كثير الحلف، خسيس النفس، معجباً بنفسه، معرضاً عن الحق، متكبراً على خلق الله، محتقراً للناس، كثير المعاصي، يطعن في الناس، فهو يغتابهم ويسعى بينهم بالفساد. والآيات عامة في كل من اتصف بهذه الصفات.

الْوَعِيدُ الشَّدِيدُ لِكُلِّ مَنْ انْطَبَقَتْ عَلَيْهِ الْأَوْصَافُ سَائِلَةَ الذِّكْرِ

١٦ - ﴿سَنَسِفُهُ عَلَى الْخُرُوطِ﴾ ﴿١٦﴾

قال تعالى متوعداً للوليد ولأمثاله بالعذاب الشديد، والتشهير بين الناس في الدنيا والآخرة، بأن يجعل الله له علامة على أنفه بالخطم عليها، يُعرف بها بين الناس إلى موته، كما يعبر عن شفاه الناس بالمشافر، وعن أيديهم وأرجلهم بالأظلاف والحوافر، وهذا في غاية الإذلال والإهانة، فإن العلامة الظاهرة في الوجه أشق شيء على النفس. قال ابن عباس رضي الله عنهما: سنخطم أنفه بالسيف، فنجعل ذلك علامة باقية على أنفه ما عاش، وقد خُطم الوليد بالسيف يوم بدر^(١). والخطم على الأنف غاية الذل والإهانة، لأن الأنف أعلى شيء في الوجه، والوجه أكرم موضع في الجسد. وهذا وعيد أيضاً بتشويه أنفه يوم القيامة، تشهيراً له في الموقف، فضلاً عما ابتلاه الله به في نفسه وماله وأهله، من سوء وذل وصغار في يوم بدر. وهذه الآيات قاصمة الظهر بالنسبة للوليد بن المغيرة وأمثاله إلى يوم القيامة، بتمزيق كيانه، وهدم ما كانوا يفتخرون به من أمجاد زائفة.

(١) تفسير الطبري (١٨/٢٩).

قِصَّةُ أَصْحَابِ الْجَنَّةِ

١٨، ١٧ - ﴿إِنَّا بَلَوْنَهُمْ كَمَا بَلَوْنَا أَصْحَابَ الْجَنَّةِ إِذْ أَقْسَمُوا لَيَصْرِمُنَّهَا مُصْبِحِينَ ﴿١٧﴾ وَلَا يَسْتَنْوُونَ ﴿١٨﴾﴾

ولما بين سبحانه وتعالى أن سعة الرزق قد يكون سبباً للفتنة والغرور، فيفضي إلى الاستخفاف بالدعوة، أو إهمال النظر في كنهها ودلائلها، لَمَّا كان الأمر كذلك، بين سبحانه أن الثراء قد أوقع الناس من قديم في بطر النعمة وإهمال الشكر، فجزّ ذلك عليهم شر العواقب .. ولذلك فقد ضرب الله مثلاً بحال أصحاب الجنة، لكل مكذب بالرسالة، كما ضرب جل شأنه المثل بقصة قارون، وبالقرية الآمنة التي كفرت بأنعم الله، فأذاقها الله لباس الجوع والخوف.

ولمّا بعث الله محمداً ﷺ إلى هذه الأمة، فقابل بعضهم رسالته بالتكذيب والصدّة والمحاربة، ضرب الله لهم مثلاً بقوم أنعم عليهم بالخيرات والأرزاق، ولكنهم منعوا حق الله منها، فحرّمهم الله هذا الرزق بسبب معاصيهم، وهي قصة كانت معروفة لديهم. وقد وقعت أحداث هذه القصة بعد رسالة عيسى عليه السلام بقليل، أي قبل أن تنتشر النصرانية في اليمن، لأن النصرانية لم تدخل اليمن إلا بعد دخول الأحباش إليها، وكان ذلك عام الفيل، وكانوا إخوة ثلاثة.

١ - قال قتادة: كانت الجنة لشيخ من بني إسرائيل، وكان يمسك قوت سنة، ويتصدق بالفضل، وكان بَنُوهُ يَنْهَوْنَهُ عن الصدقة، فلما مات أبوهم غَدَوْا عليها فقالوا: لا يدخلنّها اليوم عليكم مسكين^(١).

٢ - وقال سعيد بن جبیر: كانوا في قرية يقال لها: (ضَرَوَانُ) على بعد ستة أميال من صنعاء باليمن.

وقد سميت باسم وادٍ يقع على طرف صنعاء، وهي من أحسن بقاع الله في الأرض

(١) أخرجه عبد الرزاق (٣٠٩/٢)، وعبد بن حميد وابن المنذر كما في الدر (٦٣٧/١٥).

وأكثرها نخلاً وفاكهة، تقع شمال غرب صنعاء على بُعد ٢٦ كيلو من صنعاء^(١).
وقيل: كانوا من أهل الحبشة، وكان أبوهم رجلاً صالحاً من أهل الكتاب، قد ترك لهم هذه الجنة، وكان قبل موته يدّخر لعياله قوت سنة، ويتصدق بما بقي على المساكين، فلما مات قال أبنائه الثلاثة: إن أبانا كان رجلاً أحمقاً يترك للفقراء من ماله، ولو أنا منعناهم، لتوفر ذلك علينا.

وكانت زكاة الثمار من شريعة التوراة، فلمّا عزموا على ذلك، عاقبهم الله تعالى بنقيض قضدهم، فأذهب رأس المال وربحه.

وذلك أن الأبناء الثلاثة كان بعضهم أشح من بعض، فاتفقوا على حرمان اليتامى والمساكين والأرامل، الذين كانوا يدخلون الحديقة مع أبيهم ليأخذوا ما تساقط من ثمارها، فذهبوا إلى الحديقة ليلاً، قبل ظهور الصبح ليقطعوا ثمارها قبل أن يراها أحد، وأقسموا على ذلك ليلزموا أنفسهم بتنفيذ ما تحالفوا عليه، لأن بعضهم كان متردداً في ذلك! ﴿قَالَ أَوْسَطُهُمْ أَلْزَأْلُ لَكُمْ لَوْلَا تُسَيِّحُونَ﴾ فذكرهم بتقوى الله تعالى، وإعطاء حق المساكين، وحذّره من مغبة ذلك، ومضوا في طريقهم إلى الحديقة، فلما وصلوا إليها وجدوها مسودة، قد احترقت، فعلموا أن ما أصابهم كان عقوبة لهم، فأنابوا إلى الله تعالى رجاء أن يعطيهم خيراً منها ..

وهذه القصة استغرقت من الآية السابعة عشرة في السورة إلى الآية الثانية والثلاثين منها.

ونمضي مع أول الآيات فيها:

لقد أمد الله أهل مكة بنعمة الأمن، ونعمة الرزق، ويسّر لهم سبيل التجارة، برحلة الشتاء والصيف، فكان الرزق يأتيهم من كل جهة، فلما أكمل الله عليهم النعمة، بإرسال محمد ﷺ ليُصلح لهم أحوالهم ويهديهم إلى سعادة الدنيا والآخرة، أعرضوا عنه ولم يلتفتوا لدعوته، فابتلاهم الله كما ابتلى أصحاب الجنة.

(١) ينظر: معجم البلدان (٣/ ٤٥٦)، وأطلس القرآن (١٥٢).

﴿إِنَّا بَلَوْتَهُمْ كَمَا بَلَوْنَا أَصْحَابَ الْجَنَّةِ﴾ أي إنا بلونا المكذبين بك - أيها الرسول - بالخير والنعم وأمهلتناهم، وأمددناهم بالمال والولد، لا لكرامتهم على الله، ولكنه استدراج لهم، فآغرتوا بذلك، كما آغتر أصحاب الحديقة المثمرة قبلهم، حين أينعت وآتت أكلها، ولما جاء وقت حصادها منعوا حق الله فيها، فعاقبهم الله بأن جعلها حصيداً كان لم تكن بالأمس. وهكذا: فقد آخبرنا المشركين في مكة - وقت التنزيل - بالقحط والجوع حتى أكلوا الجيف، وهكذا نبلي أمثالهم في كل عصر ومصر، بسبب كفرهم بنعمتنا، وتكذيبهم لرسولنا. ولقد ابتلينا من قبل أصحاب الحديقة التي دمرناها تدميراً بسبب بخلهم وامتناعهم عن أداء حقوق الله منها.

وقصة أهل الجنة كانت معروفة لأهل مكة، وكان هذا الابتلاء وقت أن حلف الأبناء الثلاثة، أن يقطعوا ثمار حديقتهم في الصباح الباكر قبل أن يراهم أحد، حتى لا يُطعمُوا منها أحداً، وهذا معنى ﴿إِذْ أَقْسَمُوا لَيَصْرُنَّهَا﴾ أي يقطعون ثمارها ﴿مُصْبِحِينَ﴾ أي في الصباح الباكر، قبل أن يشعر بهم المساكين وفق ما اعتادوه أيام أبيهم. لقد عزموا على أن يمنعوا زكاة الثمار، ولا يعطوا أحداً من المساكين، وحين عقدوا النية لم يقولوا إن شاء الله، كما قال تعالى: ﴿وَلَا تَقُولَنَّ لِيْ أَرَأَيْتَ إِذْ قَالَ ذَلِكَ غَدًا ۚ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ﴾ [الكهف: ٢٣، ٢٤] قال تعالى:

٢٠، ١٩ - ﴿فَطَافَ عَلَيْهَا طَائِفٌ مِّن رَّبِّكَ وَهُمْ نَائِمُونَ ۚ فَأَصْبَحَتْ كَالصَّرِيمِ ۚ﴾

ثم بين الله تعالى ما ترتب على عزمهم من حرمان المساكين حق الله تعالى في ثمارهم، فقال: ﴿فَطَافَ عَلَيْهَا طَائِفٌ مِّن رَّبِّكَ﴾ أي أنزل الله عليها ناراً أحرقتها ليلاً فأبادتها وأتلفتها ولم يبق منها شيء ينفع، وكان ذلك ﴿وَهُمْ نَائِمُونَ﴾ أي قبل أن يصلوا إليها في الموعد المتفق عليه فيما بينهم، والطائف يكون ليلاً، ويكون في الشر. قال الكلبي: أرسل الله عليهم ناراً من السماء فاحترقت وهم نائمون.

وأصبحت الحديقة محترقة سوداء كالليل المظلم، والزرع المحصود، ليس فيها شيء ينفع، فقد ذهبت ثمارها وأشجارها وهم لا يشعرون، وقد تم ذلك ليلاً قبل أن يخرج

أهل الحديقة لقطع ثمارها. قال تعالى:

٢١، ٢٢- ﴿فَنَادَا مُصْبِحِينَ ﴿٢١﴾ أَنْ أَغْدُوا عَلَىٰ حَرْثِكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَارِمِينَ ﴿٢٢﴾﴾

وفي الصباح الباكر نادى بعضهم بعضاً ليذهبوا إلى البستان وفق خطتهم، وحرّض كل منهم الآخر على الغدوّ إلى حديقتهم مبكرين، قائلين لهم: اذهبوا مبكرين إلى زرعكم إن كنتم مصريين على قطع الثمار، قبل أن يشعر بكم فقراء الحي. قال تعالى:

٢٣، ٢٤- ﴿فَانْطَلَقُوا وَهُمْ يَخْفَوْنَ ﴿٢٣﴾ أَنْ لَا يَدْخُلَهَا الْيَوْمَ عَلَيْكُمْ مَسْكِينٌ ﴿٢٤﴾﴾

أي فخرجوا من بيوتهم واندفعوا مسرعين متوجهين نحو الحديقة، وهم يتحدثون سراً يتكلمون بصوت خافت حتى لا يسمعهم المساكين، أما الكلام الذي كانوا يتسارون به فهو قولهم: لا تمكّنوا أحداً من المساكين اليوم من دخول حديقتكم، فتواصوا فيما بينهم بمنع الفقراء والمساكين، ومن شدة بخلهم وحرصهم أنهم يتخافتون بهذا الكلام مخافة أن يسمعهم أحد. قال تعالى:

٢٥-٢٧- ﴿وَعَدُوا عَلَىٰ حَرْثٍ قَدِيرٍ ﴿٢٥﴾ فَلَمَّا رَأَوْهَا قَالُوا إِنَّا لَضَالُونَ ﴿٢٦﴾ بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ ﴿٢٧﴾﴾

أي وساروا إلى حديقتهم في الصباح الباكر، مضمّرين قصدهم السيء في منع المساكين من أخذ شيء من ثمار الحديقة، وظنوا أنهم متمكنين غاية التمكن من تنفيذ زعمهم ﴿وَعَدُوا﴾ أي خرجوا من بيوتهم في أول النهار بسرعة ونشاط ﴿عَلَىٰ حَرْثٍ﴾ أي على جدّ من أمرهم، قاصدين منع المحتاجين حق الله منها، وهم يزعمون أنهم ﴿قَدِيرٍ﴾ على جني ثمارها، لا يحول بينهم وبينها أحد.

والحرد في الأصل هو الغضب والحقن، وكأن المعنى يقول: إنهم غدّوا لا قدرة لهم إلا على الحقن والغضب على المساكين ومنعهم أن لا يقتحموا عليهم بسايتهم، فاحتالوا على ذلك بكتم سرهم، والتبكير إلى تنفيذ قصدهم. فلما وصلوا إلى حديقتهم وجدوها محترقة فأنكروها، وقال بعضهم لبعض: لقد

(١) قرأ أبو عمرو وعاصم وحمة ويعقوب بكسر نون ﴿أَنْ أَغْدُوا﴾ وصلا والباقون بضمها.

أخطأنا الطريق، فهذه ليست حديقتنا، لقد فقدنا مكان الحديقة وغاب عنا، ثم اتضح لهم أنها هي، وأنه قد أصابها من عقاب الله تعالى ما أذهب خيرها فضاعت معالمها.

ثم رجعوا إلى أنفسهم فندموا، وألقى بعضهم باللائمة على بعض، فأدركوا أن ما أصاب الحديقة كان بسبب عدم شكرهم للنعمة، وعزمهم على منع حق الفقير منها، فقال بعضهم لبعض: لقد خُرمنا خير الحديقة، لأننا أردنا حرمان الفقير من ثمارها.

قال تعالى: ﴿وَبَلَوْنَهُمْ بِالْحَسَنَاتِ وَالسَّيِّئَاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ [الأعراف: ١٦٨].

ومن لم يشكر نعم الله تعالى فقد عَرَضَها للزوال، وَمَنْ شَكَرَهَا فَقَدْ قَيَّدَها بعقالها، قال تعالى: ﴿لَئِنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِنْ كَفَرْتُمْ﴾ بعدم شكر النعمة ﴿إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ﴾ [إبراهيم: ٧].

وتمضي الأحداث في سرد أحداث القصة، فيقول تعالى:

٢٨-٢٩ ﴿قَالَ أَوْسَطُهُمْ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ لَوْلَا تُسَبِّحُونَ﴾ (٢٨) ﴿قَالُوا سُبْحَنَ رَبِّنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ﴾ (٢٩)

وهنا انبرى أحد الأخوة الثلاثة للحق، وهو أفضلهم وأقربهم إلى الخير ﴿قَالَ أَوْسَطُهُمْ﴾ أي أعدلهم وأعقلهم ﴿أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ لَوْلَا تُسَبِّحُونَ﴾ هَلَّا كُنْتُمْ تنزهون الله عما لا يليق به، ولا تعتقدون أن لكم قدرة مستقلة على جني ثمار الحديقة، هَلَّا كُنْتُمْ تستنصرون وتقولون ﴿إِنْ شَاءَ اللَّهُ﴾ عند عزمكم على جني الثمار، وهَلَّا تذكرون الله تعالى وتتوبون إليه من خُبث نيتكم.

وكان أوسطهم هذا قد قال لهم حين عزموا على قطع ثمار الحديقة: اتقوا الله وخافوا عقابه وارجعوا عن عزمكم، فعصوه، فذكّرهم في هذا الموقف بما قال لهم بالأمس.

قال أبو حيان: نبههم ووبخهم على تركهم ما حَصُّهم عليه من التسبيح، ولو ذكروا الله تعالى، وذكروا إحسانه إليهم، لا امتثلوا ما أمروا به من مواساة المساكين، واقتفوا سنة أبيهم في ذلك، فلما غفلوا عن ذكر الله، وعزموا على منع المساكين، ابتلاهم^(١).

(١) البحر المحيط (٣١٣/٨).

ثم إنهم اشتغلوا بالتوبة، ولكن بعد خراب البصرة، وبعد أن اعترفوا بظلمهم وجرمهم ﴿قَالُوا سُبْحَنَ رَبِّنَا﴾ أي قالوا بعد أن عادوا إلى رشدهم: تنزه ربنا عن الظلم فيما أصابنا، نحن كنا الظالمين لأنفسنا بترك تقديم المشيئة، وبالعزم على حرمان المساكين. ﴿إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ﴾ لأنفسنا وظالمين لغيرنا بمنعهم حق الله تعالى.

وعندئذ أخذ بعضهم يلقي باللوم على الآخر:

٣٠، ٣١ - ﴿فَاقْبَلْ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَلَوَّمُونَ﴾ ﴿٣٠﴾ ﴿قَالُوا يَرْثُنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ﴾ ﴿٣١﴾

أي أخذ بعضهم يلوم بعضاً على حرمانهم حق المسكين، وعلى تركهم تفويض الأمر إلى الله تعالى، وعلى سوء نيتهم وعزمهم، فيقول أحدهم: أنت أشزت بهذا. ويقول آخر: أنت خوفتنا الفقر ورغبتنا في جمع المال وهكذا. ثم اعترفوا جميعاً بعد أن لام كل منهم الآخر، ف﴿قَالُوا﴾ جميعاً ﴿يَرْثُنَا﴾ يا حسرتنا ويا هلاكنا ﴿إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ﴾ متجاوزين الحد، خارجين عن أمر ربنا، عندما تركنا سنة أبينا، ولم نعتمد على ربنا.

٣٢ - ﴿عَسَىٰ رَبُّنَا أَنْ يُبَدِّلَا^(١) خَيْرًا مِّنْهَا إِنَّا إِلَىٰ رَبِّنَا رَاغِبُونَ﴾ ﴿٣٢﴾

ثم إنهم تابوا ورجعوا إلى أنفسهم مرة أخرى، فقالوا بعد أن اعترفوا أنهم قد تجاوزوا الحد، وخرجوا عن طاعة ربهم: لعل الله أن يعطينا أفضل من حديقتنا بسبب توبتنا واعترافنا بخطئنا.

قال ابن مسعود رضي الله عنه: بلغني أن القوم أخلصوا، وعرف الله منهم الصدق، فأبدلهم بها جنة أخرى يقال لها: (الحيوان) فيها عنب، يحمل البغل منه عنقوداً^(٢). وعن أبي خالد اليماني قال: دخلت تلك الجنة، فرأيت كل عنقود منها كالرجل

(١) قرأ نافع وأبو عمرو وأبو جعفر بفتح الباء وتشديد الدال من ﴿يُبَدِّلَا﴾ مضارع بدل، والباقون بإسكان الباء وتخفيف الدال، مضارع أبدل.

(٢) تفسير الخازن (٢٩٧/٤) والنسفي بحاشيته.

الأسود القائم^(١).

وكان من تنمة كلامهم ﴿إِنَّا إِلَٰك رَبِّنَا رَغِبُونَ﴾ أي طالبون منه الخير، راجون منه العفو والغفران، فهم رجوا ربهم أن يُبدلهم خيراً منها، وأعدوا أنفسهم بأنهم سيزغبون إلى ربهم، ويلتحن عليه وهم في الدنيا، قيل: إنهم وقوا بما وعدوا، وأن الله تعالى أبدلهم في الدنيا خيراً منها. وكل من دعا الله صادقاً ورغب فيما عنده ورجاه، أعطاه الله سؤله.

وفي هذه القصة بيان أن مصير مال البخيل ومانع الزكاة إلى التلف، وأنه يضنّ ببعض ماله، فيهلك كله، مصحوباً بغضب الله تعالى، وفيها أن الله تعالى يؤاخذ الإنسان بما يعزم عليه، لأن هؤلاء القوم عزموا على أن يفعلوا وعاقبهم الله قبل فعلهم، وهذا كقوله تعالى: ﴿وَمَنْ يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍ بِظُلْمٍ نُذِقْهُ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [الحج: ٢٥].

وفي الحديث عن أبي بكرة ؓ أن النبي ﷺ قال: «إذا التقى المسلمان بسيفهما فالقاتل والمقتول في النار»^(٢).

وقد عوقب المقتول بالنار لأنه كان حريصاً على قتل صاحبه.

الْعِبْرَةُ الْمُسْتَفَادَةُ مِنْ قِصَّةِ أَصْحَابِ الْجَنَّةِ

٣٣- ﴿كَذَٰلِكَ الْعَذَابُ وَلَٰعَذَابُ الْآخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾ (٣٣)

أي وبمثل ذلك العقاب الذي عاقبنا به أهل الحديقة، يكون عقابنا في الدنيا لكل من خالف أمر الله تعالى، وبخل بما آتاه الله تعالى من النعم، وهذا معنى ﴿كَذَٰلِكَ الْعَذَابُ﴾ أي ومثل ذلك العذاب الدنيوي يحصل لكل من كان كأصحاب الجنة، كما قال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرْآنَ وَهُوَ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ﴾ [هود: ١٠٢].

فكل من أتى بأسباب العذاب، فإن الله تعالى يسلبه هذه النعمة التي كانت سبباً في طغيانه وبغيه وإيثار الدنيا على الآخرة.

(١) تفسير التحرير والتنوير (٩/٢٩).

(٢) صحيح مسلم (٢٨٨٨)، وصحيح البخاري (٧٠٨٣، ٦٨٧٥، ٣١).

أما عذاب الآخرة فهو أشد وأعظم من عذاب الدنيا ﴿وَلَعَلَّآ الْآخِرَةُ أَكْبَرُ﴾
ولما كان المكذبون ينكرون عذاب الآخرة هدّدهم الله تعالى بعذاب الدنيا.
ثم بين سبحانه أن عذاب الآخرة أكبر ﴿لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾ ولكنهم لا يؤمنون.
وهؤلاء المكذبون هم الذين ضرب الله لهم المثل في قوله تعالى: ﴿إِنَّا بَلَوْنَهُمْ﴾ وبلّونا
مِثْلَهُمْ؛ مِنْ كُلِّ مَنْ جحد وحدانية الله تعالى، وكذّب خاتم رسل الله، ولو أنهم كانوا
يعلمون أن عذاب الآخرة حق، لانزجروا عن كل سبب يوجب عقاب الله سبحانه.
أما أصحاب الجنة فكانوا يؤمنون بأن عذاب الآخرة حق، فهم قد قالوا: ﴿سُبْحَنَ رَبِّنَا إِنَّا
كُنَّا ظَالِمِينَ﴾ ولاموا أنفسهم، ورجعوا إلى الله تائبين وسألوه أن يبدلهم خيراً من جنتهم.

كَرَامَةُ الْمُتَّقِينَ عِنْدَ رَبِّهِمْ

٣٤- ﴿إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ عِنْدَ رَبِّهِمْ جَنَّتِ النَّعِيمِ﴾ ﴿٣٤﴾

ولما فرغ سبحانه من تشبيه حال الكفار بحال أصحاب الجنة في الابتلاء، وبين سوء
عاقبتهم، ذكر حال المتقين المقابلة لهم في العاقبة، من باب تقابل النقيضين فقال تعالى
﴿إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ﴾ أي إن الذين اتقوا عقاب الله، فتركوا الكفر والمعاصي، وخافوا لقاءه،
بفعل ما أمرهم به، وترك ما نهاهم عنه، لهم ﴿عِنْدَ رَبِّهِمْ﴾ في الدار الآخرة ﴿جَنَّتِ النَّعِيمِ﴾
ليس فيها كد ولا نَصَب، بل هي نعيم خالص بدون تكاليف ولا متاعب، كالشوك الذي
يكون في الورد، أو الحرّ الذي يكون في بعض الأوقات، فالنعيم ملازم للجنة لا
يفارقها، وليست كبساتين الدنيا، تارة تثمر أشجارها وتارة لا تثمر، وتارة تكون الثمرة
سليمة، وتارة تكون معطوبة ..

أَرْبَعَةُ أَدَلَّةٍ عَقْلِيَّةٍ وَنَفْسِيَّةٍ عَلَى نَفْيِ الْمُسَاوَاةِ بَيْنَ الْمُؤْمِنِ وَالْمُجْرِمِ

٣٥، ٣٦- ﴿أَفَجْعَلِ الْمُتَّقِينَ كَالْمُجْرِمِينَ﴾ ﴿٣٥﴾ مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴿٣٦﴾

ولما نزلت هذه الآية قال المشركون: إن الله فضلنا عليكم في الدنيا، فلا بد أن يفضلنا

عليكم في الآخرة، فسيعد الدنيا سعيد الآخرة - على حد زعمهم - فإن لم نُفَضِّل عليكم، فلا أقل من المساواة، فنزل قوله تعالى ﴿أَفَنَجْعَلُ الْتَائِبِينَ كَالْمُجْرِمِينَ﴾ أي أفنجعل الخاضعين لله بالطاعة، المخلصين له، كالمجرمين؟ فحكمة الله تعالى تقضي ألا يجعل القانتين لربهم، المنقادين له المتبعين لمرضاته، كالمجرمين العاصين لله، الكافرين بآياته، المعاندين لرسله، المحاربين لأوليائه، فمن ظن التسوية بينهما في الثواب والعقاب فقد حكم حُكماً جائراً فيه فساد وبُطلان.

وقد نفى سبحانه التسوية بين المؤمن والمجرم، لأن التسوية بينهم ظلم.

ثم نفى سبحانه أن تحدث هذه التسوية بأربعة أدلة وهي:

أن يكون لديهم دليل عقلي، أو نقلي، أو عهد، أو وعد بذلك، أو يكون لهم شركاء في الرأي، وبمعنى آخر: ألهم آلهة غير الله تعالى تكفلت لهم بهذه التسوية، وهذه الأدلة هي: أولاً: الدليل العقلي: أن المسلم والكافر لا يستويان، وكيف يحدث هذا، إنه أمر مستبعد، إذ كيف تكون المساواة بين الأخيار والأشرار، والأطهار والفجار، ومن أخلصوا لله عبادتهم وكفروا به ﴿مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ﴾ كيف حكمتكم هذا الحكم الجائر، فساويتهم بينهم في الثواب والجزاء؟ هذا جهل فاضح.

ثانياً: الدليل النقلي

٣٨، ٣٧ - ﴿أَمْ لَكُمْ كِتَابٌ فِيهِ تَدْرُسُونَ﴾ (٣٧) ﴿إِنْ لَكُمْ فِيهِ مَا تَخْتَرُونَ﴾ (٣٨)

وبعد أن وبخهم الله تعالى على جهلهم في الآية السابقة، وبخهم في هذه الآية على كذبهم، فقرّرهم: ألهم كتاب منزل من عند الله تعالى، تجدون فيه أن المطيع يستوي مع العاصي، فأنتم تقرؤون فيه ذلك، وتأخذون منه ما اخترتم من أحكام: إنه لا يوجد كتاب سماوي ولا غير سماوي، لهم فيه مستند يوافقهم على التسوية بين

(١) قرأ البزي بخلف عنه بتشديد التاء وصلًا من ﴿لَا تَخْتَرُونَ﴾ مع إشباع المد للساكين، والباقون بالتخفيف مع القصر وهو الوجه الآخر للبزي.

المتقين والمجرمين، وليس عندهم كتاب يدرسون فيه أنهم من أهل الجنة، وأن لهم ما طلبوا وما تخيروا، فأنتم تُضدرون أحكاماً كاذبة ما أنزل الله بها من سلطان.

ثَالِثًا: نَفْيُ الْعُهْدِ وَالْمَوَاقِيقِ

٣٩، ٤٠ - ﴿أَمْ لَكُمْ أَيمَنُ عَلَيْنَا بِلِغَةِ الْيَوْمِ الْقِيَمَةِ إِنَّ لَكُمْ لَمَا تَحْكُمُونَ ﴿٣٩﴾ سَلِّمُوا إِلَيْهِمْ بِذَلِكَ زَعِيمٌ ﴿٤٠﴾﴾

وبعد أن أبطل سبحانه وتعالى أن يكون للمشركين حجة سماوية، تقول بالتسوية بين المسلمين والمجرمين، وبخهم مرة أخرى أن يكون لهم عهود أو موثائق أخذوها على الله تعالى، ومقتضاها: أنهم يحضّلون على كل ما يطلبون وما يشتهون ﴿أَمْ لَكُمْ أَيمَنُ﴾ أي عهود وموثائق مؤكدة، وأيمان بالغة إلى يوم القيامة، أي: وهذه العهود والأيمان بلغت أقصى مداها في التوكيد، وهي سارية المفعول ﴿إِلَى يَوْمِ الْقِيَمَةِ﴾ بأننا قد سوّينا بين المسلمين والمجرمين في أحكامنا، إن كان لكم علينا شيء من هذه العهود والموثائق فأظهروها، ومن حقكم أن تحكموا بها لأنفسكم ﴿إِنَّ لَكُمْ لَمَا تَحْكُمُونَ﴾ أي إن لكم الذي تريدونه وتحكمون به.

والمعنى: هل عندكم عهد موثق أخذتموه على الله تعالى لأنفسكم أن يعاملكم يوم القيامة بما تحكمون به لأنفسكم، وحيث لا يوجد شيء من هذا القبيل، فلا عهود لهم ولا موثائق، فعلى أي شيء تستندون، وعن أي شيء تتكلمون؟ وهذا توبيخ وتقريع لهم لأنهم يتمنون الأمان الكاذبة.

ومن المعلوم أنهم ليست لهم عهود عند الله بما زعموه من أحكام، وإنما المقصود بيان كذبهم في أقوالهم وأنهم لا يستطيعون أن يأتوا بجواب يثبتون به دعواهم.

فلما أنكر تعالى أن يكون لهم عهود، طلب منهم أن يُبينوا الكفيل الذي تكفل لهم بأن للمجرمين في الآخرة مثل ما للمسلمين فقال تعالى: ﴿سَلِّمُوا إِلَيْهِمْ﴾ أي سل يا أيها الرسول هؤلاء المكابرين على سبيل السخرية والتهكم ﴿أَيْتُهُمْ بِذَلِكَ زَعِيمٌ﴾ أي منكم كفيل وضامن لما يزعمونه؟

والزعيم: هو المتكلم عن القوم، الناطق بلسانهم، المتحمل للمسؤولية، الضامن بأن المجرم سيكون مثل المسلم في المصير عند الله يوم لقائه.

رابعاً: نفي الشركاء

٤١ - ﴿أَمْ لَمْ شُرَكَاءُ فُلْيَأْتُوا بِشُرَكَائِهِمْ إِنْ كَانُوا صَادِقِينَ ﴿٤١﴾﴾

ثم ألزمهم الله الحجة عن طريق آخر، فقال ﴿أَمْ لَمْ شُرَكَاءُ﴾ أي ألهم آلهة وأعوان يساعدونهم على تحقيق ما طلبوا، ويكفلون لهم ما يقولون، أو لهم أناس يوافقونهم على هذا الحكم الباطل ﴿فُلْيَأْتُوا بِشُرَكَائِهِمْ﴾ ليعينوهم على إدراك ما طلبوا ﴿إِنْ كَانُوا صَادِقِينَ﴾ في دعواهم، وفي كل هذا تعجيز للكفار، فإن كان لهم أعوان وشركاء فليأتوا بهم إن كانوا صادقين.

والم تأمل في هذه الآيات يرى أن الله تعالى قد وبخهم باستفهامات سبعة وهي:

١- ﴿أَفَنَجْعَلُ﴾ ٢- ﴿مَا لَكُمْ﴾ ٣- ﴿كَيْفَ تَحْكُمُونَ﴾ ٤- ﴿أَمْ لَكُمْ كِتَابٌ﴾.

٥- ﴿أَمْ لَكُمْ أَيْمَنُ﴾ ٦- ﴿أَيُّهُمْ بِذَلِكَ زَعِيمٌ﴾ ٧- ﴿أَمْ لَمْ شُرَكَاءُ﴾.

قال الألوسي: وقد نبه سبحانه في هذه الآيات على نفي جميع ما يمكن أن يتعلّقوا به في تحقيق دعواهم، حيث نبه سبحانه على نفي الدليل العقلي بقوله ﴿مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ﴾ وعلى نفي الدليل النقلي بقوله ﴿أَمْ لَكُمْ كِتَابٌ﴾ وعلى نفي العهد والوعد بقوله ﴿أَمْ لَكُمْ أَيْمَنُ﴾ وعلى نفي التقليد بقوله ﴿أَمْ لَمْ شُرَكَاءُ﴾^(١).

ومن المعلوم أن جميع ما ذكر في الآية منتفٍ، فليس لهم كتاب، وليس لهم عند الله عهد بالنجاة، وليس لهم شركاء يساعدونهم، فعلم أن دعواهم باطلة فاسدة.

مِنْ عُقُوبَةِ تَارِكِ الصَّلَاةِ يَوْمَ يُكْشَفُ عَنْ سَاقٍ

٤٢ - ﴿يَوْمَ يُكْشَفُ عَنْ سَاقٍ وَيُدْعَوْنَ إِلَى السُّجُودِ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ ﴿٤٢﴾﴾

(١) تفسير الألوسي (٣٤/٢٩).

ولما أبطل سبحانه مزاعم المكذبين المكابرين، أتبع ذلك ببيان أهوال القيامة وشدائدها، وبلوغ أحوالها منتهى الرُوع والكُزْب وشدة الحال، وصعوبة الخطْب والهول، فقال تعالى ﴿يَوْمَ يُكْشَفُ عَنْ سَاقٍ﴾ أي أن يوم القيامة، يوم يشتد فيه الأمر، ويصعب فيه الهول، وذلك حين يأتي الله تعالى لفصل القضاء بين الخلائق، فيكشف ربنا عن ساقه الكريمة التي لا يشبهها شيء^(١).

وليس في هذا تجسيم وإنما هو إثبات لما أثبتته الله لنفسه، مع نفى المماثلة والمشابهة، كما قال تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ [الشورى: ١١]. ويكون في هذا اليوم من القلاقل والزلازل والأهوال ما لا يحيط به الوصف، ويكون فيه فصل القضاء بين العباد ومجازاتهم على أقوالهم وأعمالهم، ويرى الخلائق من جلال الله وعظمته ما لا يمكن التعبير عنه.

وعندئذ يُطلب ممن كانوا لا يسجدون في الدنيا أن يسجدوا لله تعالى، فيسلَّب منهم القدرة على السجود، حيث تيسر ظهورهم، وتكون طبقاً واحداً فلا تطاوعهم ظهورهم في الانحناء ﴿وَيُدْعَوْنَ إِلَى السُّجُودِ﴾ امتحاناً وابتلاءً، وليس على سبيل العبادة، لأن التكليف بالطاعات قد انتهى في الدنيا، وهذه الدعوة في ساحة الحشر والنشر، لتمييز المؤمنون من غيرهم في الموقف، حيث يسجد كل مؤمن ومؤمنة، أما المنافق والكافر فيكون ظهره كصياصي البقر - أي قرونها = لا يقبل الانحناء، فتبس أصلابهم ولا تلين للسجود، عقوبة وفضيحة لهم في عرصات القيامة، حيث لم يكونوا قد آمنوا في الدنيا، ولا سجدوا لله تعالى، وهذا الجزاء من جنس العمل، لامتناعهم من السجود في الدنيا، قال تعالى:

٤٣ - ﴿خَشِيعَةً أَبْصَرُهُمْ تَرَاقِبُهُمْ ذُلٌّ وَقَدْ كَانُوا يَدْعُونَ إِلَى السُّجُودِ وَهُمْ سَلِيمُونَ﴾ (٤٣)

ثم وصف الله تعالى من استعصى عليه السجود يوم القيامة بقوله ﴿خَشِيعَةً أَبْصَرُهُمْ﴾ أي

(١) التفسير الميسر نخبة من العلماء (ص ١٦٥) بتصرف.

أن أبصارهم تكون منكسرة ذليلة، لا يستطيعون رفعها من شدة الرهبة والذعر، والحال أنهم كانوا وهم في الدنيا - أصحاب الأجسام - يُطلب منهم أداء الصلاة فيمتنعون، فكافأهم الله بمثل ذلك في الموقف العظيم بعدم استطاعة الانحناء وأن ظهورهم تكون كصيافي البقر ﴿وَقَدْ كَانُوا﴾ وهم في الدنيا ﴿يُدْعَوْنَ إِلَى السُّجُودِ﴾ أي إلى الصلاة لله تعالى وعبادته، بالأذان والإقامة ﴿وَمِنْ سَلْمُونَ﴾ أصحاب قادرون، فلا يسجدون تعاضماً واستكباراً، ولهذا فإنه يُحال بينهم وبين السجود في الآخرة، ليزدادوا حسرة وندامة على ما فرطوا في جنب الله تعالى، فلا تسأل عن حالهم وسوء مآلهم، فإن الله تعالى قد سخط عليهم وحقت عليهم كلمة العذاب، وتقطعت بهم الأسباب، ولم تنفعهم الندامة ولا الاعتذار يوم القيامة.

جاء في الأثر عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه: «فمن كان يعبد الله مخلصاً يخسر ساجداً له، ويبقى المنافقون لا يستطيعون أن في ظهورهم السفافيد»^(١).

والذين يدعونهم إلى السجود، هم الملائكة الموكلون بالمحشر، يدعونهم بأمر الله تعالى. فالآية تبين حال الكفار والمنافقين حين كانوا يدعون وهم في الدنيا إلى السجود وهم آمنون، فلا يُجيبون، وحيث يُدْعَوْنَ إليه في الآخرة وهم خائفون فلا يستطيعون، وأبصارهم خاشعة ذليلة، في مقابل حالهم في الدنيا ﴿مَا كَانُوا يَسْتَطِيعُونَ السَّمْعَ وَمَا كَانُوا يُبْصِرُونَ﴾ [هود: ٢٠].

أما المؤمنون فإنهم يسجدون دون إعاقة، كما كانوا يسجدون في الدنيا طوعية واختياراً. هذا: وليس في ظاهر القرآن ما يدل على أن لفظ (الساق) صفة من صفات الله تعالى، لأن اللفظ جاء منكراً للتفخيم والتعظيم، ولم يُصَفَ لله تعالى، كاليدين والوجه، وقد صح ذلك في حديث الشفاعة وفيه «فيكشف الرب عن ساقه فيخرون له سجداً» وهذا الحديث يفسر الآية، فلا معدل عنه إلى تأويل السابق بالجذّ والشدة ونحو ذلك. ولذا: فقد وجب الإيمان بظاهر ما نطق به الآية، وهو أن الله تعالى يكشف عن ساقه

(١) من تفسير القرطبي للآية عن قيس بن السكن.

يوم القيامة، كما وردت، ويوضع أمام لفظ الساق: القاعدة العامة ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ [الشورى: ١١] فتؤمن بها من غير تأويل ولا تحريف ولا تعطيل ولا تشبيه.

أما تأويلها بأنه تمثيل لشدة الحال وكشف الأهوال، فإنه يوجد فرق بين المكشوف والمكشوف عنه، فالساق مكشوف عنها، أما العذاب والأهوال فهي مكشوفة كما قال تعالى ﴿فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمْ الْعَذَابَ إِذَا هُمْ يَنْكُثُونَ﴾ [الزخرف: ٥٠].

وقوله: ﴿وَلَوْ رَحِمْنَاهُمْ وَكَشَفْنَا مَا بِهِمْ مِنْ ضُرٍّ﴾ [المؤمنون: ٧٥].

وفي غزوة أحد قال أنس بن مالك ؓ: انهزم الناس عن النبي ﷺ ولقد رأيت عائشة وأم سليم وإنهما لمشمرتان، أرى خدَم سوقهما، تنقلان القرب على متونهما ثم تُفْرِغانه في أفواه القوم، ثم ترجعان فتملأنها).

وكشفُ الساق في مثل هذه الحالة يكون من شدة الهول والكرب.

والناس يوم القيامة تكون في هول وكرب، ما بعده هول ولا كرب.

وقد جاء كشف الساق في عدد من الأحاديث الصحيحة الصريحة منها:

١- حديث أبي سعيد الخدري ؓ قال: سمعت النبي ﷺ يقول: «يكشف ربنا عن ساقه، فيسجد له كل مؤمن ومؤمنة، فيبقى مَنْ كان يسجد في الدنيا رياء وسمعة، فيذهب ليسجد، فيعود ظهره طبقاً واحداً»^(١).

٢- ومنها: حديث عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما، وفيه خروج الدجال، ونزول عيسى، والريح الباردة التي لا تَبْقَى مَنْ كان في قلبه مثقال ذرة من خير إلا قبضته، وأن الساعة تقوم على شرار الناس، وأن أول من يسمع النفخ في الصور، رجل يلوط حوض إبله فيُضْعَق، ويُضْعَق الناس.

ثم يرسل الله مطراً فتنبت معه أجساد الناس، فينفخ في الصور مرة أخرى، فإذا هم قيام ينظرون، ثم يُحْشَر الناس للحساب، قال: (فذاك يوم يجعل الولدان شيباً، وذلك يوم

(١) صحيح البخاري برقم (٤٩١٩).

يُكشَفُ عَنْ سَاقٍ^(١).

٣- ومنها: حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه وهو حديث طويل وفيه: أن قوما سألوا النبي ﷺ: هل يرون ربهم يوم القيامة؟ فأخبرهم ﷺ بأنهم يرون ربهم رؤية الشمس وقت الظهيرة، ورؤية القمر ليلة البدر، كلاهما في وقتٍ صحوٍ ليس فيه سحب، وإذا كان يوم القيامة، يؤذن مؤذن أن تتبع كل أمة ما كانت تعبُد في الدنيا، فكل من عبد غير الله تعالى يتساقط في النار، ولا يبقى إلا من كان يعبد الله تعالى من برٍّ أو فاجر، وأهل الكتاب: أما اليهود الذين يقولون: عزيز ابن الله فإنهم يحشرون إلى النار فيتساقطون فيها. وأما النصارى فلهم نفس المصير، بعد أن يقال لكل منهما: ما اتخذ الله من صاحبة ولا ولد.

أما المؤمنون: فيأتيهم ربهم في صورة أدنى من الصورة التي رآوه فيها، فيقول: أنا ربكم، فيُنكِرُون، لاختلاف صورته تعالى عن الصورة التي رآوها من قبل، فيقول سبحانه: هل بينكم وبين ربكم آية فتعرفونه بها؟ فيقولون: نعم، فيكشف عن ساق، فلا يبقى مَنْ كان يسجد لله تعالى من تلقاء نفسه إلا مَنْ أذن له بالسجود، ولا يبقى من كان يسجد اتقاءً ورياءً إلا جعل الله ظَهْرَهُ طبقةً واحدةً، كلما أراد أن يسجد خرَّ على قفاه، ثم يرفعون رؤوسهم، وقد تحول سبحانه في صورته التي رآوه فيها أول مرة.

ثم يُضْرَبُ الجسر على مثن جهنم، وتحل الشفاعة، وفي الجسر خطاطيف وكلايب فيمر المؤمنون كطرف العين، والبرق، والريح، وكأجاويد الخيل، والركاب، فنادى مسلّم، ومخدوش مرسل، ومكدوس في نار جهنم.

ثم يشفع المؤمنون لقوم في النار من إخوانهم في الدين، منهم من أخذته النار إلى نصف ساقه، ومنهم من أخذته إلى ركبته، ثم يخرج من النار كل من كان في قلبه مثقال دينار من خير، ثم من كان في قلبه مثقال نصف دينار من خير، ثم من كان في قلبه

(١) ينظر الحديث في صحيح مسلم برقم (٢٩٤٠) من حديث عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما.

مثقال ذرة من خير، فيخرج خلق كثير.

وكان أبو سعيد يقول: إن لم تصدقوني فاقروا إن شئتم: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ وَإِنْ تَكَ حَسَنَةً يُّضْعِفْهَا وَيُؤْتِ مِنْ لَدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ [النساء: ٤٠] فيقول الله عز وجل: شفعت الملائكة، وشفع النبيون، وشفع المؤمنون، ولم يبق إلا أرحم الراحمين، فيقبض قبضة من النار، فيخرج قوماً لم يعملوا خيراً قط، فيخرجون كاللؤلؤ، في رقابهم الخواتيم، يعرفهم أهل الجنة بها فيقولون: (هؤلاء عتقاء الله الذين أدخلهم الله الجنة بغير عمل عملوه، ولا خير قدّموه، ثم يحل عليهم رضوانه فلا يسخط أبداً)^(١).

١ - ويعبر في لغة العرب عن كشف الساق بشدة الكرب وعظيم الهول، ويعبر به عن شدة الأمر وجده، وأشد ساعة يوم القيامة، وقد جاء ذلك عن ابن عباس^(٢).

٢ - كما أن العرب تقول إذا اشتد القتال وعظم الأمر: كشفت الحرب عن ساق^(٣). وقال الشاعر: قد قامت الحرب بنا على ساق.

٣ - وقال سعيد بن جبیر: إن أقواما يزعمون أن الله يكشف عن ساقه، وإنما يكشف عن الأمر الشديد^(٤) قلت: وبهذا أخذ من فسر الساق بشدة الكرب وعظيم الهول، ولكن حديث الشفاعة وغيره من الأحاديث السابقة فيها نص صريح صحيح.

إِمَهَالُ الْمَكْذِبِينَ بِخَاتِمِ الْمُرْسَلِينَ

٤٤، ٤٥ - ﴿فَذَرْنِي وَمَنْ يُكَذِّبْ بِهَذَا الْحَدِيثِ سَنَسْتَدْرِجُهُمْ مِنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٤٤﴾ وَأُمْلِي لَهُمْ إِنَّ كَيْدِي

مَتِينٌ ﴿٤٥﴾﴾

وبعد استيفاء الغرض من وعظ المكذبين بالله ورسوله، أعقبه بتسليية النبي ﷺ وطمأنته

(١) ينظر الحديث في صحيح مسلم برقم (١٨٣) من كتاب الإيمان وهو في البخاري بمعناه برقم (٧٤٣٧).

(٢) كما أخرجه البيهقي في الأسماء والصفات (٧٤٩، ٧٤٨)، والحاكم (٤٩٩/٢).

(٣) البيهقي (٧٥١) الأسماء والصفات.

(٤) الدر المنثور (٦٤٧/١٥) عن عبد بن حميد وابن المنذر.

بأن الله تعالى قد تكفل بالانتصاف له من المكذبين ونضره عليهم، كأن الله تعالى يقول له: حسبك - يا محمد- أن تكل أمرهم إليّ، فأنا أعلم كيف أنتصف منهم، فلا تشغل نفسك بهم وتوكل على الله، وامض في طريق الدعوة ولا تعباً بمعارضيك، فأنا أكفيك أمرهم، فإذا كان أحوال المكذبين المعاندين كما ذكرت: ﴿فَذَرْنِي وَمَنْ يُكَذِّبُ بِهَذَا الْحَدِيثِ﴾ أي اتركني ومن يكذب بهذا القرآن الذي جئت به، ولا تشغل نفسك بهم، فإن عليّ حسابهم وجزاءهم، ونحن ﴿سَنَسْتَدْرِجُهُمْ﴾ أي نمدهم بالأموال والأولاد والنعمة استدراجاً لهم، ثم نأخذهم بالعذاب على غفلة، فلا تستبطيء وقوع الانتقام منهم، فإنه أمر محقق لا محالة، وسوف يفاجمهم هذا الهلاك ﴿مَنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ﴾ أي من حيث لا يشعرون ولا يتوقعون.

قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا سَنَسْتَدْرِجُهُمْ مِنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الأعراف: ١٨٢]. وسوف نمهلهم، ونطيل أعمارهم، ونمتعهم بالحياة الرغيدة، ليزدادوا إثماً، ثم نأخذهم أخذ عزيز مقتدر ﴿وَأُمْلِي لَهُمْ﴾ أمهلهم ﴿إِنْ كَذِبَى﴾ بأهل الكفر ﴿مَتِينٌ﴾ قوي وشديد، يبلغ بهم من الضرر والعذاب فوق كل مبلغ، وهذا الاستدراج من كيد الله لأعدائه ومكره بهم، جزاءً وفاقاً لسوء أعمالهم. وهذا كقوله تعالى: ﴿يَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُم بِهِ مِنْ مَالٍ وَبَيْنَ ۖ ۝٥٥ شَارِعٌ لَهُمْ فِي الْخَيْرَاتِ بَلْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ [المؤمنون: ٥٦، ٥٥].

قال تعالى: ﴿فَلَمَّا سَأَوْا مَا دُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّى إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً فَإِذَا هُمْ مُبْلِسُونَ﴾ [الأنعام: ٤٤].

وقال سبحانه: ﴿إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْدًا ۖ ۝٥٥ وَأَكِيدُ كَيْدًا ۖ ۝٥٦ فَمَهْلُ الْكَافِرِينَ أَنَّهُمْ يُرَوَّنَا﴾ [الطارق: ١٥-١٧].

وفي حديث أبي موسى ؓ أن النبي ﷺ قال: «إن الله ليملئ للظالم، حتى إذا أخذه لم يفلته، ثم قرأ ﴿وَكَذَلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَىٰ وَهِيَ ظَالِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُ أَلَمٌ شَدِيدٌ﴾^(١) [هود: ١٠٢].

(١) صحيح البخاري برقم (٤٦٨٦)، وصحيح مسلم برقم (٢٥٨٣).

قال الحسن البصري: كم من مستدرج بالإحسان، وكم من مفتون بالثناء، وكم من مغرور بالستر عليه.

إِبْطَالُ مَعَاذِيرِ الْمُكَذِّبِينَ بِخَاتِمِ الْمُرْسَلِينَ

٤٦، ٤٧ - ﴿أَمْ قَسَتْ لَهُمْ أَجْرًا فَهُمْ مِنْ مَغْرَمٍ مُثْقَلُونَ ﴿٤٦﴾ أَمْ عِنْدَهُمُ الْغَيْبُ فَهُمْ يَكْتُمُونَ ﴿٤٧﴾﴾

ثم أبطل القرآن معاذير المكذبين وإعراضهم عن الاستجابة لدعوة النبي ﷺ بعد أن نفى وجود أي حجة أو عهد لهم، أو أولياء ينصرونهم.

فهل عدم استجابتهم للإيمان، بسبب أن النبي ﷺ سألهم أجراً مادياً على تبليغ الرسالة، فهم بسبب هذا الغرم المالي قد تحمّلوا حملاً ثقيلاً جعلهم يُعرضون عن دعوتك، فعجزوا عن أداء هذا الدين، وثبّطهم عن الإيمان بك وبرسالتك؟ بل إنك تعلمهم وتدعوهم إلى الله لمصلحتهم وسعادتهم من غير أن تطلب من أموالهم مغرمًا يثقل كاهلهم. أم إنهم يستندون إلى شيء من علم الغيب الذي استأثر الله به، فقرؤوا فيه ونقلوا منه أن السعادة في ترك الإسلام، وأن ما هم فيه خير من الإيمان، وأنهم على حق، وأن لهم الأجر والمثوبة عند الله، فأصروا على الكفر والطغيان؟

﴿أَمْ عِنْدَهُمُ الْغَيْبُ فَهُمْ يَكْتُمُونَ﴾ أي: أ هم يطلعون على ما سطرناه في اللوح المحفوظ، فيكتبون عنه ما يحكمون به لأنفسهم، وأنهم أفضل منزلة عند الله تعالى من أهل الإيمان بك؟ فليس لنفورهم عنك وعدم تصديقهم لما جئت به سبب يوجب ذلك، وإنما حالهم حال الظالم المعاند، فلم يبق أمامك إلا الصبر.

الْأَمْرُ بِالصَّبْرِ عَلَى أَدَى الْمُعَارِضِينَ وَالنَّهْيُ عَنِ الْغَضَبِ مِنْهُمْ

٤٨ - ﴿فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تَكُنْ كَصَاحِبِ الْحُوتِ إِذْ نَادَى وَهُوَ ^(١) مَكْظُومٌ ﴿٤٨﴾﴾

(١) سكن الهاء من ﴿وَهُوَ﴾ قالون وأبو عمرو والكسائي وأبو جعفر، وضمها الباقون، ووقف عليها يعقوب بهاء السكت.

أي ومادام الأمر كذلك، وأنت لم تطلب منهم أجراً على تبليغ الرسالة، وهم لم يطلعوا على علم الله تعالى، فيحكموا لأنفسهم أنهم على حق، فامض - أيها الرسول - في تبليغ رسالة ربك، واصبر على أذاهم ﴿فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ﴾ أي اصبر - يا رسولنا - لما حكم به ربك وقضاه، وتحمل أذاهم، فإن الله تعالى سيحكم لك عليهم، ويجعل العقابة لك ولأتباعك في الدنيا والآخرة، اصبر على أحكام الله القدرية وأحكامه الشرعية، فإن الأحكام القدرية تتطلب الصبر على أذاهم والرضا وعدم السخط، والأحكام الشرعية يجب تلقيها بالقبول والتسليم والانقياد.

ومن الصبر: إمهالهم، وتأخير نضرتك عليهم، واستمر في تبليغ الدعوة، فإن في ذلك رفع لدرجاتك، ولا يكن حالك كحال صاحب الحوت، وهو يونس عليه السلام وقت أن ناداه ربه وهو ممتلىء غضباً وغيظاً، لما حدث من قومه وهو يتعجل نزول العذاب بهم. وهذا معنى ﴿وَلَا تَكُنْ﴾ أي في السرعة والعجلة ﴿كَصَاحِبِ الْحُوتِ إِذْ نَادَى﴾ أي وقت أن نادى ربه طالباً نزول العذاب بهم، لأنهم لم يؤمنوا ﴿وَهُوَ مَكْظُومٌ﴾ ممتلىء غمّاً وكرباً، وكان انحباسه في بطن الحوت، لأنه ذهب من قومه غاضباً وركب البحر، فثقلت السفينة على من فيها، فاقترعوا لتخفيف بعض ما فيها من الركاب، فخرج السهم على يونس، فالتقمه الحوت وهو ملام على فعله.

وكانت مؤاخذه يونس عليه السلام على ضجره من تكذيب قومه له، وهم أهل نينوى من أرض الموصل بالعراق، قال تعالى: ﴿وَذَا النُّونِ إِذْ ذَهَبَ مُغْضِبًا فَظَنَّ أَنْ لَنْ نَقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَى فِي الظُّلُمَاتِ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ ﴿٨٧﴾ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَبَعَثْنَاهُ مِنَ الْغَمِّ وَكَذَلِكَ نُشَجِّي الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الأنبياء: ٨٧، ٨٨].

وقد خرج هذا الدعاء من يونس عليه السلام وهو في ظلمة الليل وظلمة البحر وظلمة بطن الحوت، فخرجت هذه الدعوات تحفّ حول العرش، قالت الملائكة: يارب، هذا صوت ضعيف معروف من بلاد غريبة، فقال تعالى: أما تعرفون هذا؟ قالوا: لا، قال: هذا يونس، قالوا: يارب، عبدك الذي لا يزال يُرفع له عمل صالح ودعوة

مجابة؟ قال: نعم، قالوا: أفلا ترحم ما كان يعمل في الرخاء فتنجيه من البلاء؟ فأمر الله الحوت فألقاه بالعراء^(١) قال تعالى: ﴿فَلَوْلَا أَنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُسَبِّحِينَ ﴿١٧٣﴾ لَلَيْتَ فِي بَطْنِهِ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾ [الصافات: ١٤٣، ١٤٤].

مِحْنَةُ يُونُسَ عَلَيْهِ السَّلَامُ

٥٠، ٤٩ - ﴿لَوْلَا أَن تَذَرِكُمْ نِعْمَةً مِنْ رَبِّهِ لَئِيدٌ بِالْعَرَاءِ وَهُوَ مَذْمُومٌ ﴿٤٩﴾ فَاجْتَبَاهُ رَبُّهُ فَجَعَلَهُ مِنَ الصَّالِحِينَ ﴿٥٠﴾﴾
وكان يونس عليه السلام قد وقع في كرب لا يدري متى ينفرج، فتداركه لطف الله ورحمته، وأجاب الله دعاءه، وقذفه الحوت من بطنه بالعراء وهو سقيم، وأنبت الله عليه شجرة من يقطين، ولولا ذلك لطرح على ساحل البحر في الفضاء الواسع، الخالي من الأشجار والجبال من غير أن تظله شجرة اليقطين بظلها البارد، و﴿لَوْلَا أَن تَذَرِكُمْ نِعْمَةً مِنْ رَبِّهِ﴾ فوقه للتوبة وقبيلها منه ﴿لَئِيدٌ﴾ أي لقذفه الحوت من بطنه ميتاً أو حياً منبوذاً ﴿بِالْعَرَاءِ﴾ في الأرض الفضاء المهلكة ولا يجد من يسعفه ﴿وَهُوَ مَذْمُومٌ﴾ أي مُلام ومُؤاخَذ على ما حدث منه، ولكن الله تعالى أنعم عليه بأن أنبت عليه شجرة من يقطين تُظله وثقيته وتخميه.

لقد اصطفى الله يونس عليه السلام مرة أخرى لرسالته، وجعله من عباده الصالحين الذين خلصت نياتهم وأقوالهم وأعمالهم لله تعالى.

قال ابن عباس رضي الله عنهما: (رد الله إليه الوحي وشفّعه في قومه)^(١).

فقبل الله توبته وأجاب دعاءه، وأعاد إليه الوحي، وأرسله إلى مئة ألف أو يزيدون، ورفع العذاب عن قومه بعد أن رأوه بأعينهم لَمَّا آمَنُوا ورجعوا إلى الله تعالى ﴿فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ ءَامَنَتْ فَفَعَلَهَا إِيْمَانُهَا إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ لَمَّا ءَامَنُوا كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَى حِينٍ﴾ [يونس: ٩٨].

(١) تفسير ابن كثير (٢٠١/٨).

(٢) التفسير الكبير (٩٩/٣٠) وفتح القدير في تفسير الآية.

وقد ختم الله الآية ببيان أن الله تعالى قد اجتنبى يونس واصطفاه ونقاه من كل كدر، وجعله ممن صلحت أعمالهم وأقوالهم ونياتهم وأحوالهم، فاصبر - يا خاتم النبيين - لحكم ربك صبراً لا يدركه أحد من العالمين، فإن العاقبة للمتقين الصابرين.

وفي حديث ابن عباس رضي الله عنهما أن النبي ﷺ قال: «ما ينبغي لعبد أن يقول: «إني خير من يونس بن متى» ونسبه إلى أبيه»^(١).

نَفَاذُ الصَّبْرِ بِالْعِدَاوَةِ وَالْحَسَدِ

٥١ - ﴿وَإِنْ يَكَادُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَيُزْلِقُونَكَ^(٢) بِأَبْصَرِهِمْ لَمَّا سَمِعُوا الذِّكْرَ وَيَقُولُونَ إِنَّهُ لَمَجْنُونٌ﴾ (٥١)

وتُختم السورة ببيان ما تنطوي عليه نفوس المشركين والمكذبيين نحو النبي ﷺ من الحقد والغیظ وإضممار الشر، عندما يسمعون القرآن، وذلك أنهم لما لم يجدوا في القرآن الذي يسمعون مذكلاً للطعن في الرسالة، توجهوا بالطعن في النبي ﷺ فقالوا: إنه مجنون، ليصرفوا الناس عن الاستماع إليه، ويفقدونهم الثقة فيما يقول: ﴿وَإِنْ يَكَادُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَيُزْلِقُونَكَ بِأَبْصَرِهِمْ﴾ أي يصيبوك بأعينهم من حسدهم وغيظهم وحنقهم عليك لئیسقطونك عن مكانك بنظرهم إليك عداوة وبغضاً ﴿لَمَّا سَمِعُوا الذِّكْرَ﴾ أي حين سمعوا القرآن، حسداً منهم لك، وهذا هو منتهى ما قدروا عليه من الإيذاء الفعلي، والله حافظك وناصرك منهم، أما الإيذاء القولي منهم فقد وصفوا النبي ﷺ بأنه ساحر أو شاعر أو مجنون ﴿وَيَقُولُونَ إِنَّهُ لَمَجْنُونٌ﴾ ليصرفوا الناس عنه.

والزَّلَق: هو الزلل وعدم التوازن الذي يحدث للإنسان عندما تلامس رجله الأرض الملساء المبتلة، أو يكون بها طين أو زيت ونحو ذلك، وهذا يُفضي إلى السقوط.

والعين تُصيب الإنسان فتكون بمثابة السهم النافذ فيه.

(١) صحيح البخاري (٣٤١٣، ٤٦٠٣)، وصحيح مسلم (٢٣٧٦)، وفي المسند (٣٩٠/١) برقم (٢٢٩٨)،

(٢٦٥٤) بإسناد صحيح على شرط الشيخين، وابن حبان (٦٢٤١)، وابن أبي شيبة (٥٤١/١١).

(٢) قرأ نافع وأبو جعفر بفتح الباء من ﴿لَيُزْلِقُونَكَ﴾ مضارع زلق، والباقون بضم الياء، مضارع أزلق.

وكان الكفار من شدة عداوتهم للنبي ﷺ يكادون يضرعونه ويهلكونه بأعينهم. ومن هنا فقد فسره بعضهم بالحسد عن طريق النظر بالعين، ولولا وقاية الله تعالى وحمايته لنبيه لناله منهم شر، ومن الأحاديث المتعلقة بالحسد والعين وعلاجهما، ما رواه:

١- بريدة الأسلمي قال: قال رسول الله ﷺ: «لا رقية إلا من عين أو حمة»^(١). وفي هذا مشروعية الرقية بالأدعية المشروعة من العين والحمة.

علاج الحسد:

- ٢- وعن ابن عباس رضي الله عنهما أن النبي ﷺ قال: «ولو كان شيء سابق القدر، سبقت العين، وإذا اغتسلتم فاغتسلوا»^(٢).
- فالقدر لا يسبقه شيء، والاعتسال يكون من الحاسد للمحسود، إن كان الحاسد معروفاً، فيكون في هذا شفاء المحسود بإذن الله تعالى.
- ٣- وجاء عن أبي أمامة بن سهل بن حنيف، أن سهلاً كان رجلاً أبيضاً، حسن الجسم والجلد، فنظر إليه عامر بن ربيعة وهو يغتسل، فحسده، فذكروه للنبي ﷺ، وهو لا يرفع رأسه ولا يفيق، فأدركه النبي ﷺ صريعاً، فقال: «من تتهمون به؟» قالوا: عامر بن ربيعة، قال: «علام يقتل أحدكم أخاه؟ إذا رأى أحدكم من أخيه ما يعجبه فليذع له بالبركة».
- ثم دعا بماء، فأمر عامراً أن يتوضأ، فيغسل وجهه ويديه إلى المرفقين، وركبتيه، وداخله إزاره، وأمره أن يصب عليه، وعن الزهري: وأمر أن يكفأ الإناء من خلفه^(٣).
- ٤- وأخرج النسائي وغيره عن عبد الله بن عامر بن ربيعة عن أبيه قال: (خرجت أنا

(١) سنن ابن ماجه برقم (٣٥١٣) وسنن الترمذي (٣٤٥/٤) برقم (٢٤٤٦)، والمسند (٢٤٤٨) من حديث طويل بإسناد صحيح على شرط البخاري (محققه)، وأخرجه البخاري عن أسيد بن زيد (٦٥٤١)، ومسلم (٢٢٠)، والبيهقي في الشعب (١١٦٣) وغيرهم.

(٢) صحيح مسلم برقم (٢١٨٨).

(٣) ينظر: سنن ابن ماجه برقم (٣٥٠٩)، والنسائي في الكبرى (٩٩٦٥، ٧٥٧٠، ٧٤٦٩) والمسند (٤٨٦، ٤٤٧/٣) برقم (١٥٩٨٠) وهو حديث صحيح، وابن حبان (٦١٠٥)، ومالك في الموطأ (٩٣٩/٢).

وسهلُ بنُ حُثَيْفٍ، فوجدنا غديراً، وكان أحدنا يستحي أن يراه أحد، فاستتر مني، حتى إذا رأى أنه قد فعل، نزع جُبَّةً عليه، فدخل الماء، فنظرتُ إليه نظرة فأعجبني خَلْقُهُ، فأصْبَتْهُ بعين، فأخذته قعقعة، فدَعَوْتُهُ، فلم يُجِبْنِي، فَأَتَيْت رسول الله ﷺ فأخبرته الخبر، قال: (قُمْ بنا) فَأَتَاه فرفع عن ساقه، كأنني أنظر إلى بياضٍ وَضَحٍ ساقه وهو يخوض الماء، فَأَتَاه فقال: (اللهم أَذْهَبْ حَزْأَها وَوَضَبَها) ثم قال: (قُمْ) فقال رسول الله ﷺ: «إذا رأى أحدكم من نفسه، أو ماله، أو أخيه، ما يُعْجِبُهُ، فَلْيَذْغُ بالبركة»^(١).

٥- وعن عائشة رضي الله عنها قالت: (كان يؤمر العائن فيتوضأ، ويغسل منه المَعِين)^(٢).

٦- وكان رسول الله ﷺ يتعوذ من أعين الجان وأعين الإنس، فلما نزل المعوذتان أخذهما وترك ما سواهما^(٣).

٧- وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: كان رسول الله ﷺ يعوذ الحسن والحسين يقول: أُعِيدُكُمَا بكلمات الله التامة، من كل شيطان وهامة، ومن كل عين لامة، ويقول: هكذا كان إبراهيم يعوذ إسماعيل وإسحاق عليهما السلام^(٤).

٨- وعن أبي سعيد ؓ أن جبريل عليه السلام أتى النبي ﷺ فقال: (اشتكت يا محمد؟ قال: نعم، قال: بسم الله أرقيك، من كل شيء يؤذيك، من شر كل نفس وعين يشفيك، باسم الله أرقيك)^(٥).

٩- وعن عبادة بن الصامت ؓ أن رسول الله ﷺ اشتكى، فَأَتَاه جبريل وهو يُزْعِدُ فقال:

(١) سنن النسائي الكبرى (٩٩٦٨، ٧٤٦٩)، والمسند (١٥٧٠٠) صحيح لغيره، وأخرجه ابن أبي شيبه (٨/ ٥٧)، وابن ماجه (٣٥٠٦)، وأبو يعلى (٧١٩٥) وغيرهم.

(٢) أبوداود (٣٨٨٠).

(٣) ابن ماجه (٣٥١١)، والترمذي (٢٠٥٨)، وسنن النسائي (٢٧١/٨) عن أبي سعيد، والكبرى برقم (٧٨٠٤)، ومشكل الآثار للطحاوي (٢٩٠٢).

(٤) البخاري (٣٣٧١)، وأبوداود (٤٧٣٧)، والترمذي (٢٠٦٠)، والسنن الكبرى للنسائي (١٠٨٤٤)، وابن ماجه (٣٥٢٥).

(٥) المسند (٥٦، ٢٨/٣) برقم (١١٥٣٤، ١١٢٢٥) إسناده صحيح على شرط مسلم، ومسلم (٢١٨٦)، والترمذي (٩٧٥)، وسنن النسائي الكبرى (١٠٨٤٣)، وابن ماجه (٣٥٢٣)، وأبو يعلى (١٠٦٦).

(بسم الله أرقبك، من كل شيء يؤذيك، من كل حسد حاسد وعين، واسمُ الله يشفيك)^(١).

١٠- وعن أبي هريرة أن النبي ﷺ قال: «إن العين حق»^(٢).

١١- وقالت أسماء بنت عميس للنبي ﷺ: إن بني جعفر تصيبهم العين، أفأسترفي

لهم؟ قال: «نعم، فلو كان شيء يسبق القدر لسبقته العين»^(٣).

١٢- وعن جابر رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «العين تُدخل الرجل القبر، والجمل القدر»^(٤).

هذا: وقد يشتهر شخص أو أشخاص بالعين، ويعرف عنهم ذلك، وللوقاية منهم: فإن

على المرء أن يُكَبِّر الله تعالى إذا رآهم، فإنهم لا يضرّونه بمشيئة الله تعالى.

وممن اشتهر بالعين في وقت النبي ﷺ بنو أسد، فكانت الناقة أو البقرة تمر عليهم فلا

تسلم منهم.

وكان رجلاً من العرب معروفاً بالعين، فسأله الكفار أن يصيب النبي ﷺ بالعين،

فعصم الله نبيه منه وأنزل تعالى ﴿وَإِنْ يَكَادُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَيَرْفُؤُنَا بِأَبْصَرِهِ﴾.

قال ابن عباس رضي الله عنهما معناه: يُنْفِذُونَكَ. وقيل يُصَيِّبُونَكَ بعيونهم، كما يصيب

العائن بعينه ما يعجبه، وقيل يَصْرَعُونَكَ، أو يصرفونك عما أنت عليه، والمعاني متقاربة.

قال الحسن: دواء من أصابته العين أن تُقرأ عليه هذه الآية^(٥).

(١) المسند (٢٢٧٦٠) قال محققوه: صحيح لغيره وهذا إسناد حسن، وأخرجه الحاكم (٤١٢/٤) من طريق

عبد الله بن أحمد عن أبيه بهذا الإسناد، وأخرجه ابن أبي شيبة (٤٧ / ٨)، وابن حبان (٩٥٣)، وعبد بن

حميد (١٨٧)، وابن ماجه (٣٥٢٧)، والبزار (٢٦٨٤) من طرق متعددة.

(٢) المسند (٣١٨/٢) برقم (١٥٧٠٠) عن عامر بن ربيعة، وهو حديث صحيح لغيره (محققوه)، وهو عن

عائشة في البخاري (٥٧٤٠)، ومسلم (٢١٨٧) وغيرهما، وأخرجه البخاري أيضاً في تاريخه (٢٥١/٣).

(٣) المسند (٤٣٨/٦)، والترمذي (٢٠٥٩)، وابن ماجه (٣٥١٠)، وسنن النسائي الكبرى (٧٥٣٧).

(٤) أبونعيم في الحلية (٩٠/٧)، وحسنه الألباني في السلسلة الصحيحة (٢٥٠/٣).

(٥) ينظر: تفسير الخازن (٣٠١/٤).

هُدَايَةُ الْقُرْآنِ لِلْعَالَمِ أَجْمَعِ

٥٢- ﴿وَمَا هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ﴾ ﴿٥٢﴾

ثم أبطل الله تعالى قول من وصف النبي ﷺ بالجنون ليكذب القرآن ويصل بهذا إلى أنه كلام مجنون، فبين تعالى أن هذا القرآن كتاب هداية وتذكرة، ليس للعرب وحدهم، بل للعالم أجمع ﴿وَمَا هُوَ﴾ أي ما القرآن ﴿إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ﴾ أي شرف وموعظة وهداية وتذكير بالخير للبشرية أجمع، فكيف يُنسب من نزل عليه القرآن إلى الجنون؟ وكما بُدئت السورة بالثناء على القرآن، ختمت بالثناء على النبي ﷺ ليتناسق البدء والختام.

تم تفسير (سورة القلم) والله الحمد والمنة

تَفْسِيرُ سُورَةِ الْحَاقَّةِ (٦٩)

مُقَدِّمَةُ السُّورَةِ

(سورة الحاقة) هي السورة التاسعة والستون في ترتيب المصحف، والسابعة والسبعون في ترتيب النزول. وعدد آياتها إحدى وخمسون آية في المصحف البصري والدمشقي، واثنان وخمسون آية في بقية المصاحف العثمانية. وهي مئتان وست وخسون كلمة، وألف وأربعة وثلاثون حرفاً، نزلت بعد (سورة الملك) وقبل (سورة المعارج)، وهي سورة مكية باتفاق، نزلت في السنة الخامسة قبل الهجرة. وهذه السورة سميت (سورة الحاقة) من العهد النبوي، باسم أول كلمة فيها، وسماها الجعبري (الواعية) أخذاً من قوله تعالى ﴿وَنَعِيهَا أَذُنٌ وَعِيَةٌ﴾ [الآية: ١٢] وتسمى (سورة السلسلة) لقوله تعالى: ﴿ثُمَّ فِي سِلْسِلَةٍ ذَرْعُهَا﴾ [الآية: ٣٢] فهذه ثلاثة أسماء لها. وعن أبي برزة رضي الله عنه أن النبي ﷺ كان يقرأ في الفجر بـ ﴿الْحَاقَّةُ﴾ ونحوها^(١). ورد أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال: خرجت يوماً بمكة، أتعرضُ لرسول الله ﷺ قبل أن أسلم، فوجدته قد سبقني إلى المسجد الحرام، فوقفْتُ خلفه، فاستفتح سورة الحاقة، فجعلتُ أعجبُ من تأليف القرآن، فقلت: هذا والله شاعر، فقرأ ﴿وَمَا هُوَ يَقُولُ شَاعِرٌ قَلِيلًا مَّا تُؤْمِنُونَ﴾ [الآية: ٤١] قلت: كاهن، فقرأ ﴿وَلَا يَقُولُ كَاهِنٌ قَلِيلًا مَّا نَذْكُرُونَ﴾ [الآية: ٤٢] ﴿نَزِيلٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [الآيتان: ٤٣، ٤٢] إلخ السور، فوق الإسلام في قلبي كل موقع^(٢).

(١) الطبراني كما في فتح الباري (٢/٢٥٢).

(٢) رواه أحمد في المسند ٢٦٢/١ (١٠٧) وقال محققوه: إسناده ضعيف لانقطاعه، شريح ابن عبيد، لم يذكر عمر. وأورده الهيثمي في مجمع الزوائد (٩/٦٢)، وقال: رواه الطبراني في الأوسط، ورجاله ثقات، إلا أن شريح بن عبيد لم يدرك عمر.

وقد أسلم عمر بعد الهجرة إلى الحبشة، وكانت هذه الهجرة سنة خمس، قبل الهجرة إلى المدينة^(١).

مقاصد السورة:

١- وشأن (سورة الحاقة)، شأن السور المكية، في تثبيت العقيدة والإيمان من خلال الحديث عن اليوم الآخر وذكر مصارع الأمم المكذبة، وعقاب الله تعالى لها في الدنيا، قوما بعد قوم، وجماعة بعد جماعة، وجاء ذلك من أول السورة إلى الآية الثانية عشرة.

٢- ثم تحدثت آيات السورة عن القيامة، وما يسبقها من خراب العالم، مع بيان حال السعداء والأشقياء، أو الناجين والهالكين، وذلك من الآية الثالثة عشرة إلى الآية السابعة والثلاثين.

٣- ثم تحدثت آيات السورة عن إثبات صدق الرسول الخاتم، وصدق كتابه المنزل عليه، وأنه ليس بشعر ولا سحر ولا كهانة، وذلك من الآية الثامنة والثلاثين إلى آخر السورة. وهذه العناصر الثلاثة: التوحيد، والبعث، والوحي، هي مهمة السور المكية.

ولكن المحور الأساس الذي تهتم به السورة هو اليوم الآخر، وقد بدأت السورة بذكر أحد أسمائه وهو ﴿الْحَاقَّةُ﴾ ثلاث مرات، وأتبع ذلك بالإشارة إلى العقوبة الدنيوية التي لحقت بمن كذب بالبعث والنشور ليكون لنا فيهم عبرة وعظة فنؤمن باليوم الآخر ونتزود له بالإيمان والعمل.

فهي سورة رهيبة تهز الأعماق هزاً، وتُلقي في النفس قوة إحساس بأن هذا الدين حازم وجازم، لا مجال للهزل فيه، وأن عقاب الله تعالى صارم لا يفلت منه مستحق له، حتى ولو كان سيد الخلق ﷺ فيما يخص أمانة التبليغ وصدق الوحي والرسالة: ﴿وَلَوْ نَقُولَ عَلَيْنَا بَعْضُ الْأَقَاوِلِ ﴿٤٤﴾ لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ ﴿٤٥﴾ ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ ﴿٤٦﴾ فَمَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَاجِيزٍ ﴿٤٧﴾﴾ [الآيات: ٤٤-٤٧] وتُصور آيات السورة نهاية الكون المروعة، بالنفخ في الصور، فتعم

(١) ينظر: تفسير الألوسي (٢٨/٢٩)، وتفسير التحرير والتنوير (١١٠/٢٩).

العالم العلوي والسفلي خراب ودمار، يتمثل في دك الأرض والجبال، وانشقاق السماء، وحفوف الملائكة بها.

ثم تُصور السورة مشهد الحساب، فالأبرار يأخذون كتب أعمالهم بأيمانهم ويطلبون من غيرهم قراءتها، والدنيا لا تسع فرحتهم وسعادتهم، والفجار يأخذون كتب أعمالهم بشمالهم، والحسرة تملأ قلوبهم، فلا المال نفعهم، ولا السلطة أو الجاه شفع لهم، وتتسابق الخزنة إلى تنفيذ القضاء الرهيب فيهم، وهو مشهد تنخلع له النفوس، ويرتعش له الحس والوجدان ﴿ خُذُوهُ فَعُلُوهُ ۖ ﴿٣٠﴾ ثُمَّ لَجِّجِمْ سَلَوُۥهُ ۖ ﴿٣١﴾ ثُمَّ فِي سِلْسِلَةٍ ذَّرَعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعًا فَاسْلُكُوهُ ۖ ﴿٣٢﴾ إِنَّهُ كَانَ لَا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ الْعَظِيمِ ۖ ﴾ [الآيات: ٣٠-٣٣].

إنها مشاهد مروعة ومتعددة، فيها مشهد الناجي، ومشهد الهالك، مشهد الملائكة وحملة العرش، ومشهد الأرض وهي تدك، والسماء وهي تنشق، ومشهد العرض والحساب، فداوم - أيها الرسول ويا أيها المؤمن - على تسبيحك لله وحده واعبد ربك حتى يأتيك اليقين.

* * *

تَفْسِيرُ السُّورَةِ

قِيَامُ السَّاعَةِ حَدَثٌ هَائِلٌ

١-٣- ﴿ٱلْحَاقَّةُ﴾^(١) ﴿١﴾ مَا ٱلْحَاقَّةُ ﴿٢﴾ وَمَا أَدْرَاكَ مَا ٱلْحَاقَّةُ ﴿٣﴾

الحاقة اسم من أسماء يوم القيامة، سميت كذلك، لأنه اليوم الحق الذي يتحقق فيه وقوع البعث والحساب والجزاء، وتظهر فيه الحقائق، وما تخبئه الصدور، وهو يوم ثابت محقق الوقوع، يكون الناس فيه فريقان:

كما قال تعالى ﴿وَنُنذِرَ يَوْمَ ٱلْجَمْعِ لَأَرْبَبَ فِيهِ فَرِيقٌ فِي ٱلْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِي ٱلسَّعِيرِ﴾ [الشورى: ٧].

وقال تعالى: ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يَوْمَ يَفْعَلُونَ﴾ [الروم: ١٤].

وقال سبحانه: ﴿إِنَّ ٱلسَّاعَةَ لَأَيُّمٌ لَّآرَبٍ فِيهَا وَلَكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [غافر: ٥٩].

ويوم القيامة يوصف بالوعد الحق، قال تعالى: ﴿وَأَقْرَبَ ٱلْوَعْدِ ٱلْحَقُّ فَإِذَا هِيَ شَاخِصَةٌ أَبْصَرُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا﴾ [الأنبياء: ٩٧] فهو اليوم الذي يتحقق فيه الوعد والوعيد، والجزاء على الأعمال، كأن الله تعالى يقول: القيامة التي يخوض في شأنها الخائضون، هي التي يتحقق فيها الجزاء على الأعمال والأقوال كما قال الله تعالى: ﴿وَلَا تُظْلَمُونَ فَنِيلاً﴾ [النساء: ٧٧] وقال سبحانه: ﴿فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ﴾ ﴿٧﴾ وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ﴾ [الزلزلة: ٨، ٧].

ومن أسماء القيامة: الغاشية والقارعة والواقعة والطامة والصاخة، والآزفة، والساعة.

ثم يتبع هذا اللفظ المفرد، وهو لفظ ﴿ٱلْحَاقَّةُ﴾: استفهام حافل بالتفخيم والتهويل والتعظيم، لهذا الحدث العظيم ﴿مَا ٱلْحَاقَّةُ﴾ ما القيامة الواقعة حقاً؟ ما صفتها؟ وما حالتها؟ إنها شيء مريع، وخطب فظيع.

(١) انفرد الكوفي بعد (الحاقة) آية، فيكون متروكاً لغيره.

لقد حصد الموت جميع الخلق، ولم يبق على ظهر الأرض أحد ممن عمّر هذه الحياة، كل الذين جاؤوا ذهبوا، وأغلبهم باغته الموت دون أن يستعدّ له، وأمام الجميع يوم واحد يلتقي فيه الأولون والآخرون، ويعرف كل منهم حقه فيما قدم وأخر.

ثم يزيد الله تعالى من شأن هذا التهويل، ببيان أن الناس يجهلون حال يوم القيامة، وأنها فوق حدود العلم والإدراك، وأنها خارجة عن دائرة علم المخلوقين، فيقول تعالى ﴿الْحَاقَّةُ ۝١ مَا الْحَاقَّةُ ۝٢ إِنَّ لَهَا شَأْنًا عَظِيمًا ۝٣ وَهِيَ جَسِيمًا ۝٤ وَقَدْرًا كَبِيرًا ۝٥﴾.

والمعني: أي شيء أعلمك - أيها المخاطب - وعرفك حقيقة القيامة، وصوّر لك أهوالها وشدائدها؟ إنك لم تعانيتها، ولم تر ما يحدث فيها، فإن أمرها لا يدركه أحد، وهي أعظم من أن يحيط بها مخلوق.

وكل موضع جاء فيه لفظ: ﴿وَمَا أَدْرَاكَ ۝٦ طُوبَىٰ عَنَّا عِلْمُهُ ۝٧ وَأَعْقَبَهُ بَيَانٌ لَهُ كَمَا قَالَ تَعَالَىٰ ﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا لَيْلَةُ الْقَدْرِ ۝٨﴾ ثم فسرهما وبينها فقال ﴿لَيْلَةُ الْقَدْرِ خَيْرٌ مِّنْ أَلْفِ شَهْرٍ ۝٩﴾.

وقال ﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا الطَّارِقُ ۝١٠﴾ ثم وضعه وبينه في قوله ﴿النَّجْمُ الثَّاقِبُ ۝١١﴾ [الطارق: ٣، ٢].

والآيات الثلاث ﴿الْحَاقَّةُ ۝١﴾، ﴿الْحَاقَّةُ ۝٢﴾، ﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْحَاقَّةُ ۝٣﴾ يعقبها سكوت، دون إجابة على السؤال، ليذهب القارئ والمستمع كل مذهب في أن القيامة أعظم من أن يحيط بها علم ولا إدراك، وهذا من الأساليب العربية التي تشوّق المخاطب للبحث عن الإجابة، وله نظائر في القرآن الكريم كقوله تعالى ﴿الْفَارِعَةُ ۝١﴾، ﴿مَا الْفَارِعَةُ ۝٢﴾، ﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْفَارِعَةُ ۝٣﴾ [الفارعة: ١-٣].

وقوله: ﴿فَأَصْحَبُ الْيَمِينِ مَا أَصْحَبُ الْيَمِينِ ۝٨﴾، ﴿وَأَصْحَبُ الْمَشْأَمِ مَا أَصْحَبُ الْمَشْأَمِ ۝٩﴾ [الواقعة: ٩، ٨].

وقوله: ﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمُ الدِّينِ ۝٧﴾، ﴿ثُمَّ مَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمُ الدِّينِ ۝٨﴾ [الانفطار: ١٧، ١٨].

عِقَابُ سَيِّئَةٍ مِنَ الْأُمَمِ انْفَابَرَةٌ كَذَبُوا بِقِيَامِ السَّاعَةِ

٥، ٤ - ﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِوَاعْدِ الْفَارِعَةِ ۝١﴾، ﴿فَأَمَّا ثَمُودُ فَاتَّبَعُوا أَمْرًا غَايِبًا ۝٢﴾.

وبعد أن عظم القرآن أمر القيامة، وفحّم من شأنها، ذكر سبحانه بعض من كذب بها،

وبيّن ما حل بهم بسبب هذا التكذيب، تذكيراً لمن هم على شاكلتهم إلى يوم الساعة، فذكر تعالى ستة أقوام هم: قوم عاد، وقوم ثمود، وفرعون، والأمم التي سبقته، وقوم لوط، وأصحاب المؤتفكة، ثم قوم نوح.

وجاء ذكرهم في السورة على خلاف الترتيب التاريخي.

واكتفت السورة بذكر نوع العذاب الذي لحق بكل قوم من هذه الأقوام الستة، بصورة مجملة سريعة، مناسبة لسياق السورة، وآياتها وموضوعها.

وابتدأت الآيات بالتذكير بما حل بقوم ثمود وعاد، بسبب تكذيبهم للبعث والنشور ﴿كَذَّبَتْ ثُمُودُ بِطَغْوَاهُمْ إِذْ يَقُولُ أَفْلَاحَةٌ﴾ والقارعة مرادفة للفظ الحاقة، فهي من أسماء القيامة، وسميت كذلك لأنها تفرع القلوب بأهوالها، وتُصيب الناس بأهوالها، وتُصيب الموجودات بالقرع، فهي تفرع الجبال وتخسف الأرض، وتطمس النجوم، وتكسف الشمس، وهكذا.

وكان الابتداء بقوم ثمود وعاد، من بين الأقوام المكذبين للبعث والحساب، لأنهما أشهر الأمم العربية المكذبة لرسول الله، وديارهما تُجاور مكة من الشمال والجنوب.

وتمود هم قوم صالح عليه السلام، سُمُوا باسم جدّهم ثمود، والتمد هو الماء القليل، وكانت مساكنهم قليلة المياه، وديارهم تسمى الآن: مدائن صالح، في شمال المدينة المنورة، بالحجر، بين الحجاز والشام، وقد ذُكرت قصتهم في سور: الأعراف، وهود، والشعراء، والنمل، والقمر وغيرها.

وعاد هم قوم هود عليه السلام، سُمُوا باسم جدّهم، ومساكنهم بالأحقاف، في جنوب الجزيرة، شمال حضرموت وشرق عمان. قال ابن عباس: إن هوداً أول من نطق العربية.

والمعنى: كذبت قبيلة ثمود، وكذبت قبيلة عاد، بالقارعة وهي القيامة التي تفرع القلوب وتزلزل النفوس.

أولاً: الاعتبار بما أصاب قوم ثمود:

أرسل الله نبيه صالحاً إلى قوم ثمود يأمرهم بالتوحيد وينهاهم عن الشرك، فقد كانوا يعبدون الأصنام، فردّوا دعوته وكذبوه، وكذبوا ما أخبرهم به عن يوم القيامة: وطلبوا منه

معجزة تدل على صدقه، فأيده الله بالمعجزة التي طلبوها وهي الناقة، ومع ذلك لم يصدقوه وعقروا الناقة، فأهلكهم الله تعالى بعذاب استأصل شأفتهم، وقد ذكر سبحانه ما أصاب قوم ثمود من الهلاك فقال ﴿فَأَمَّا ثَمُودُ فَأَمْلِكُوا بِالطَّاغِيَةِ﴾ وهي الصيحة، أو الصاعقة، أو الرجفة، وُسِّيت الطاغية: لأنها جاوزت الحد في شدتها فانصدعت منها قلوبهم، وزهقت لها أرواحهم، فأصبحوا موتى لا يرى إلا مساكنهم وجثثهم:

١ - قال تعالى: ﴿وَأَخَذَ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةَ فَأَصْبَحُوا فِي دِيَرِهِمْ جِثِيمًا﴾ [هود: ٦٧] .

٢ - وقال سبحانه: ﴿وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَهُمْ فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَى عَلَى الْهُدَى فَأَخَذَتْهُمْ صَنِيعَةُ الْعَذَابِ الْهُونِ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ [فصلت: ١٧] .

٣ - وقال جل شأنه عنهم: ﴿فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جِثِيمًا﴾ [الأعراف: ٧٨] .

٤ - وقال سبحانه عنهم أيضاً: ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ صَيْحَةً وَاحِدَةً فَكَانُوا كَهَشِيمِ الْحُمْظِرِ﴾ [القمر: ٣١] .

وهكذا: فقد رجفت الأرض بهم، وصاح الملك من فوقهم، فضعقوا، كما قال تعالى:

٥ - ﴿وَفِي ثَمُودَ إِذْ قِيلَ لَهُمْ تَنَبَّأُوا حِينَ ۖ ۝٤٣ فَمَتَّوْا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ وَهُمْ يَنْظُرُونَ ۝٤٤ فَمَا اسْتَطَاعُوا مِنْ قِيَامٍ وَمَا كَانُوا مُنْصَرِينَ﴾ [الذاريات: ٤٣-٤٥] .

وفي فراغ الأرض منهم بعد هلاكهم، قال تعالى:

٦ - ﴿فَإِنَّكَ يُؤْتِيهِمْ خَاوِبَةً بَمَآ ظَلَمُوا﴾ [النمل: ٥٢] ، فاحذروا يا أمة محمد أن تكذبوا رسولكم، فيصيبكم مثل ما أصابهم، واعتبروا بما حدث لغيركم تفوزوا وتفلحوا.

ثانياً: الاعتبار بمصارع قوم عاد

٦ - ﴿وَأَمَّا عَادُ فَأَمْلِكُوا بِرِيحِ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ﴾ .

أرسل الله إلى قوم عاد نبيهم هوداً يدعوهم إلى عبادة الله وحده، فقد كانوا يعبدون صنماً يقال له: (الهتار) فكذبوا نبيهم هوداً ولم يؤمنوا به، وكذبوا ما أخبرهم به من البعث والنشور، فأهلكهم الله بالعقاب العاجل في الدنيا.

وسورة الحاقة تبين ما لحق بقوم عاد من العذاب الدنيوي، فقد أهلكهم الله بالريح

الباردة، شديدة الهبوب، فهي تحرق من شدة بزدها، وهي ريح الدبور، كما في الحديث عن ابن عباس رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «نُصِرْتُ بِالْضُّبَا وَأَهْلَكْتُ عَادَ بِالْذَّبُورِ»^(١).

والمعنى: ﴿وَأَمَّا﴾ قبيلة ﴿عَادٌ فَأُهْلِكُوا بِرِيحٍ صَرْصَرٍ﴾ لها صوت شديد قوى الهبوب أبلغ من صوت الرعد القاصف، وفيها برد شديد وهي ريح ﴿عَاتِيَةٍ﴾ أي قاسية شديدة العصف، تجاوزت كل حد في قوتها، وهي التي قال الله عنها ﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِي أَيَّامٍ نَحْسَاتٍ لِنَبْلُوهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَخْزَىٰ وَهُمْ لَا يُنصَرُونَ﴾ [فصلت: ١٦].

وقال عنها أيضا: ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِي يَوْمٍ نَحْسٍ مُّسْتَمِرٍّ ﴿١٩﴾ نَزِغُ النَّاسَ كَانْتُمْ أَعْجَازُ نُحُلٍ مُّتَفَعِّفٍ﴾ [القمر: ١٩-٢٠].

وقال سبحانه: ﴿وَفِي عَادٍ إِذْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الرِّيحَ الْعَقِيمَ ﴿٥١﴾ مَا تَذَرُ مِنْ شَيْءٍ أَنْتَ عَلَيْهِ إِلَّا جَعَلْنَاهُ كَالرَّمِيمِ﴾ [الذاريات: ٤١، ٤٢].

ورد عن علي بن أبي طالب وابن عباس رضي الله عنهم قالا: (إنه لم ينزل من السماء قطر ماء إلا بمكيال على يد ملك، ولا هبت ريح إلا كذلك، إلا ما كان من طوفان نوح وريح عاد، فإن الله أذن لهما في الخروج دون إذن الخزان)^(٢).

وسميت الريح عاتية لأنها عتت على الخزان، فاندفق منها شيء، لا يعلمون قدره، وكانت هذه الريح شديدة متتابعة وهو معنى حسوما، وكانت عقيم، لأنها لا تأتي بخير.

٧- ﴿سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَانِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا ﴿٣٧﴾ فَتَرَى الْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَى كَانْتُمْ أَعْجَازُ نُحُلٍ خَاوِيَةٍ ﴿٧﴾﴾

وهذه الريح العقيم سلطها الله عليهم سبع ليال وثمانية أيام متتابعة مستمرة لا تنقطع ولا تهدأ ﴿سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ﴾ أي قهرها وسلطها وذلّلها على قوم عاد ﴿سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَانِيَةَ

(١) البخاري برقم (١٠٣٥، ٣٢٠٥، ٣٣٤٣)، ومسلم برقم (٩٠٠)، والمسند (٤٦١/٣) (٢٠١٣)، وإسناده صحيح على شرط الشيخين، وأخرجه الطيالسي (٢٤١)، وعبد بن حميد (٦٣٧) وغيرهم.

(٢) تفسير ابن عطية (٣٥٧/٥)، وتفسير الطبري (٣٢/٢٩)، وأبو الشيخ في العظمة (٨٦٠، ٨٧٢).

(٣) انفرد الحمصي بعد لفظ ﴿حُسُومًا﴾ آية، فيكون متروكاً عند غيره.

﴿أَيَّامٍ﴾ غلب الأيام على الليالي، لأنها أكثر عدداً، فالمدة ثمانية أيام ﴿حُسُومًا﴾ متتابعة ليس بينها فصل، لا تفتر ولا تنقطع، حتى أتت عليهم فاستأصلتهم وقطعت دابرهم، فأفتتهم وأذهبتهم، وهي أيام نحس وشر وشؤم عليهم، لقد أهلكهم الله عن آخرهم. فأنت ترى قوم عاد في تلك الليالي والأيام موتى في ديارهم ﴿فَتَرَى الْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَى﴾ هلكى لا يتحركون ﴿كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ﴾ شبههم بأصول النخل المتأكلة الجوفاء التي سقطت رؤوسها، فقد كانت الريح تقطع رؤوسهم، كما تقطع رؤوس النخل، فتدخل من أفواههم وتخرج من أدبارهم حتى تصرعهم، فيصبحوا كجذع النخل الخاوي، التي قطعت رؤوسها.

٨- ﴿فَهَلْ تَرَى لَهُمْ مِنْ بَاقِيَةٍ﴾ (٨)

إنه مشهد حاضر شاخص، لقد أصبحوا موتى في اليوم الثامن، ولم يبق منهم أحد ﴿فَهَلْ تَرَى لَهُمْ مِنْ بَاقِيَةٍ﴾ هل ترى أحداً من بقاياهم، أو تجد لهم أثراً؟ لقد أهلكوا عن آخرهم، وهو استفهام بمعنى النفي.

ويصور الله تعالى هذا الهلاك في قوله ﴿فَلَمَّا رَأَوْهُ﴾ أي الريح ﴿عَارِضًا﴾ في الأفق ﴿مُتَسْقِلًا أَوْدِيَّتِهِمْ قَالُوا هَذَا عَارِضٌ مُّطَرِنًا﴾ قال تعالى ﴿بَلْ هُوَ مَا اسْتَعْجَلْتُمْ بِهِ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ (٢١) تُدْمِرُ كُلَّ شَيْءٍ بِأَمْرِ رَبِّهَا فَأَصْبَحُوا لَا يُرَى إِلَّا مَسَكِنُهُمْ كَذَلِكَ نَجْزِي الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ﴾ [الأحاف: ٢٤، ٢٥].

رود أن الريح بدأت صباح يوم الأربعاء لثمان بقين من شهر شوال وتمادت بهم إلى آخر الأربعاء التالي، تكملة الشهر.

ثَالِثًا وَرَابِعًا: هَلَاكُ فِرْعَوْنَ وَقَوْمِ لُوطٍ

٩، ١٠ - ﴿وَجَاءَ فِرْعَوْنُ وَمَنْ قَبْلَهُ﴾ (١) وَالْمُؤْتَفِكْتُ (٢) بِالْمُطَايَةِ (٣) ﴿فَعَصَوْا رَسُولَ رَبِّهِمْ فَأَخَذَهُمْ أَخَذَةً رَابِيَةً﴾ (٤)

(١) قرأ أبو عمرو والكسائي ويعقوب بكسر القاف وفتح الباء من ﴿وَمِنْ قَبْلِهِ﴾ أي من عنده وهم أجناده وأهل طاعته، وقرأ الباقون بفتح القاف وسكون الباء، أي: من تقدمه من الأمم.

(٢) قرأ روش وأبو جعفر وقالون وأبو عمرو بخلف عنهما، يبدال همزة ﴿وَالْمُؤْتَفِكْتُ﴾ واو في الوصل والوقف، وكذا حمزة عند الوقف.

(٣) قرأ أبو جعفر يبدال همزة ﴿بِالْمُطَايَةِ﴾ ياء في الوصل والوقف، وكذا حمزة عند الوقف وأمال هاءها الكسائي عند الوقف، وكذا حمزة بخلف عنه.

أي: وكما جاءت هاتين القبيلتين (عاد وثمود) الطاغية والريح الصرصر، فأهلكوا بهما، لأنهم كذبوا رُسل الله، وهما من الأمم الطاغية العاتية، فقد جاء فرعون مصر، الذي أرسل الله إليه موسى عليه السلام، وأراه من الآيات البينات ما يؤمن على مثله البشر، ولكنه جحد وكفر ظلماً وعلواً، فغشيه من اليم ما غشيه.

وجاء من قَبْلِ فرعون أُمم مكذبة لرسَل الله وهم كثيرون. وجاء أهل المؤتفكة وهم قوم لوط بفاحشة اللواط، فقلب الله قُراهم رأساً على عقب، وأتبعوا بحجارة من سجيل. وقد بين الله سبحانه وتعالى النهاية السيئة لأقوام آخرين على وجه الإجمال، وهم أُمم تقدمت على بعثة موسى عليه السلام، وأُمم جاءت بعده، وأمة أرسل هو إليهم، وخُصَّ اثنان بالتصريح من بين هؤلاء جميعاً وهما: قوم فرعون، والمؤتفكات.

والمراد بفرعون: فرعون الذي أرسل إليه موسى، وهو مفتاح الثاني، الذي قال:

﴿أَنَا رَبُّكُمْ الْأَعْلَى﴾ [النازعات: ٢٤] وقال ﴿مَا عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرِي﴾ [القصص: ٣٨].

وقال لموسى: ﴿لَئِنْ أَخَذْتُ إِلَهاً غَيْرِي لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ الْمَسْجُونِينَ﴾ [الشعراء: ٢٩].

قال تعالى: ﴿وَمَا ظَنُّوا بِالطَّاغِيَةِ﴾ وَمِنْ قَبْلُ ﴿من الأمم الكافرة التي سبقته، جاء هو وجنوده وحاشية وأهل طاعته، جاؤوا بالفعللة الخاطئة، فكذبوا موسى وأنكروا رسالته، وكان هذا سبب هلاكهم وغرقهم. وكما كفر فرعون بموسى عليه السلام، فقد كفر أهل سدُوم بنبي الله لوط عليه السلام، قال تعالى: ﴿وَالْمُؤْتَفِكْتُ﴾ وهي قرى قوم لوط الخمس التي انقلبت ديارها، جاؤوا ﴿بِالْخَاطِئَةِ﴾ أي جاؤوا بالفعللة الفاحشة المنكرة، فكان هلاكهم كما قال تعالى ﴿جَعَلْنَا عَلَيْهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَاباً مِنْ سِجِّيلٍ مَنضُودٍ﴾ (هود: ٨٢، ٨٣) وكان ذلك بسبب كفرهم وشركهم بالله تعالى، وتكذيبهم لنبي الله لوط عليه السلام، وإتيانهم فاحشة اللواط المنكرة التي لم يسبقهم إليها أحد من العالمين، وهي الفعللة الخاطئة.

وقد عصى فرعون وقومه نبي الله موسى عليه السلام، كما عصى أهل المؤتفكة نبي الله لوطاً عليه السلام، وعصى قوم ثمود نبيهم صالحاً عليه السلام، كما عصى قوم عاد

نبيهم هودا عليه السلام ﴿فَعَصَا رَّسُولَ رَبِّهِمْ﴾ أي عصت كل أمة منهم الرسول الذي أرسله الله إليهم ﴿كُلُّ كَذَّبَ الرُّسُلَ فَحَقَّ وَعِيدُ﴾ [ق: ١٤] فكان نتيجة هذا العصيان هو الهلاك والاستئصال ﴿فَأَخَذَهُمُ أَخَذَةً رَّابِيَةً﴾ أي أخذهم الله أخذة بالغة الشدة، زائدة على عذاب غيرهم، لزيادة قبح خطيئتهم وفحشها. وتكذيب رسول واحد تكذيب لجميع الرسل، كما قال سبحانه ﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ الْمُرْسَلِينَ﴾ [الشعراء: ١٠٥] وهكذا كل رسول من رسل الله.

خامساً: الاعتبار بمشهد الطوفان

١٢، ١١ - ﴿إِنَّا لَمَّا طَغَا الْمَاءُ حَمَلْنَاكِ فِي الْجَارِيَةِ﴾ ﴿لِنَجْمَلَهَا لَكَ تَذَكُّرًا وَنَعِيًا أَذُنٌ﴾ (١) وَنَعِيَةٌ ﴿

ومن الأمم التي عصت رسلها، قوم نوح عليه السلام، فقد كذبوا رسولهم نوحاً فأهلكهم الله بالغرق.

وفي سورة الحاقة، يذكر القرآن مشهد الطوفان، ومصرع قوم نوح، وهم أول أمة كذبت رسولها، وأول أمة عبدت الأوثان من دون الله.

ومن خلال هذا المشهد، يمتنّ الله تعالى على جميع خلقه الذين تناسلوا من الفئة التي نجاها الله من الغرق، فقال: ﴿إِنَّا لَمَّا طَغَا الْمَاءُ﴾ أي لما كثر وعلا وارتفع فوق كل شيء في زمن الطوفان، أيام نوح عليه السلام، نجيناكم من الغرق حين حُمِلْتُمْ في سفينة النجاة وأنتم في أصلاب آبائكم وأرحام أمهاتكم، فاحمدوا الله على ذلك واشكروه، واعتبروا بآيات الله الدالة على وحدانيته، كما قال تعالى: ﴿فَفَتَحْنَا أَبْوَابَ السَّمَاءِ بِمَاءٍ مُّنْهَرٍ﴾ ﴿وَفَجَّرْنَا الْأَرْضَ عُيُونًا فَالْتَقَى الْمَاءُ عَلَى أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ﴾ [القمر: ١١، ١٢].

وهكذا يمتن الله على الله مَنْ نَجَّاهُمْ مع نبي الله نوح عليه السلام في السفينة الجارية. وهذا معنى: ﴿حَمَلْنَاكِ فِي الْجَارِيَةِ﴾ أي حملنا أصولكم، وهم آبائكم وأنتم في أصلابهم، في السفينة التي تجري في الماء بأمر الله، وطغيان الماء كثرته، ونزوله بغير كيل ولا وزن.

(١) قرأ نافع بإسكان الذال من ﴿أَذُنٌ﴾ والباقون بضمها.

وقد فعلنا بكم ذلك لتعتبروا وتتعضوا بما جرى للكافرين، فإنهم لما كفروا أهلكتهم الله بالطوفان، ولتذكروا نعمة الله عليكم حين أنجاكم من الغرق وأنتم في أصلاب آبائكم، فتشكروا فضل الله عليكم وتُفردوه وحده بالعبادة، وهذا معنى: ﴿لِنَجْعَلَهَا لَكُمْ﴾ أي لنجعل الواقعة التي كان فيها نجاة المؤمنين وإغراق الكافرين ﴿نَذْرَةً﴾ عبرة وعظة ﴿وَعِبَاءً﴾ أي تحفظها ﴿أُذُنٌ وَعِيَّةٌ﴾ تحفظ وتعقل عن الله ما سمعت، وتتفنع بما تسمع، فالضمير يعود على جنس السفينة لدلالة المعنى عليه، أي اذكروا قصة أول سفينة صنعت، كيف نجى الله عليها من آمن به واتبع رسوله، وأهلك أهل الأرض كلهم في أصلاب من هلكوا، كما قال تعالى ﴿وَجَعَلْ لَكُمْ مِنْ أَفْلَاقٍ وَالْأَنْعَامِ مَا تَرْكَبُونَ ۝١١﴾ لِيَسْتَوُوا عَلَى ظُهُورِهِ ثُمَّ تَذْكُرُوا نِعْمَةَ رَبِّكُمْ إِذَا اسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ ﴿الزخرف: ١٢، ١٣﴾ .

وقال سبحانه: ﴿وَمَا يَكْفُرُ لَكُمْ أَنْتُمْ بِآيَاتِنَا فِي الْأَفْلَاقِ الْمَشْحُونِ﴾ [يس: ٤١] .

سادساً: الاعتبار بإهلاك الأقوام السابقين:

وفي هذا الذي سبق ذكره توبيخ لمن لم ينتفع بما يستمع من الموعظة والهدى، ولم يعتبر بما حدث للأمم المكذبة من أهل الإعراص والغفلة والأذن الواعية. اذكروا أن فرعون هو الذي قال ﴿الْيَسَ لِي مُلْكٌ مِصْرَ وَهَذِهِ الْأَنْهَارُ تَجْرِي مِنْ تَحْتِي﴾ [الزخرف: ٥١] .

فلما تناول على الله تعالى، جعل هلاكه في الماء الذي ادعى ملكه! وقد دعا نوح قومه ألف سنة إلا خمسين عاماً، ولما أخبره ربه بأنهم لن يلدوا إلا فاجراً كفاراً كآبائهم، لزم تطهير الأرض منهم بالطوفان. وعن علي بن أبي طالب عليه السلام قال: قال لي رسول الله ﷺ: «سألت الله أن يجعلها أذنك يا علي» فقال علي: ما سمعتُ من رسول الله ﷺ شيئاً فنسيته^(١).

(١) أخرجه أبونعيم في المعرفة (١/١٠٥، ٣٤٥)، وسعيد بن منصور كما في فتح الباري (١٣/٥٢٦)، والطبري (٢٣/٢٢٢)، وابن مردويه كما في الدر المنثور (١٤/٦٦٨)، وهو حديث مرسل من طريق مكحول.

وأما قوم ثمود: فأهلكوا بالصيحة الطاغية، لأنهم عقروا الناقة، وعَتَوْا عن أمر ربهم،
وأما قوم عاد فهم الذين قالوا ﴿مَنْ أَشَدُّ مَنَاوَةً﴾ [فصلت: ١٥] واغتروا بحضارتهم ﴿الَّتِي
لَمْ يَخْلُقْ مِثْلَهَا فِي الْبَلَدِ﴾ [الفجر: ٨].

ولما قلب قوم لوط الأوضاع، بإتيان الذكور دون الإناث، كان الجزاء من جنس
العمل، بأن قلب الله عليهم ديارهم، فجعل عاليها سافلها، وأتبعوا بحجارة من سجيل.
وهكذا لما جاء أبرهة بجيشه وعدده وعُدته، ومنها الفيلة، أقوى الحيوانات، سلط الله
عليهم أضعف المخلوقات، وهي الطيور الأبايل ترميهم بحجارة من سجيل.
وفي كل هذا عبرة وعظة، لكل من جحد وحدانية الله تعالى، ولم يؤمن بخاتم الرسل
ﷺ بأنه لن يفلت من عقاب الله تعالى له في الدنيا والآخرة.

خَرَابُ الْعَالَمِ عِنْدَ قِيَامِ السَّاعَةِ

١٣، ١٥- ﴿فَإِذَا يُنْفَخُ فِي الصُّورِ نَفْخَةٌ وَاحِدَةٌ ۚ وَخُلَّتِ الْأَرْضُ وَالْجِبَالُ فَكَانَا دَكَّةً وَاحِدَةً ۚ﴾ ﴿١٥﴾ فَيَوْمَئِذٍ
وَقَعَتِ الْوَاقِعَةُ ۚ

بعد أن ذكر الله تعالى العذاب العاجل في الدنيا لمن كَذَّبَ بيوم القيامة، أتبعه بذكر
عقوبتهم في الآخرة، ولما بدأت السورة بذكر اليوم الذي يحق فيه وعد الله تعالى
بالبعث والجزاء، وهو ﴿الْحَاقَّةُ﴾ وذكر ستّة من الأقسام الذين كذبوا بالبعث والحساب،
وما لحق بهم من العذاب الدنيوي، فرّع القرآن على ذلك ما ينتظرهم من العذاب الذي
يحل بهم في الآخرة، ويبدأ هذا العذاب، بعد خراب الدنيا، وقيام الساعة، عندما يُنْفَخُ
إسرافيل في الصور، النفخة الأولى التي يكون عندها هلاك العالم ﴿فَإِذَا يُنْفَخُ فِي الصُّورِ نَفْخَةٌ
وَاحِدَةٌ﴾، حين تعود الأرواح إلى الأجساد فإذا الناس قيام لرب العالمين.

والصور هو البوق أو القرن، الذي ينفخ فيه الملك الموكل بالنفخ، عند أمر الله تعالى
له كما قال سبحانه: ﴿وَيَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ فَفَرِّعْ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَنْ شَاءَ اللَّهُ وَكُلُّ
أَنفَةٍ دَاخِرِينَ﴾ [النمل: ٨٧].

والنفخة المرادة هنا هي النفخة الثانية التي تكون للبعث والفرع من القبور. وهذه النفخة الواحدة، تتأثر بها السموات والأرض والجبال، فتزول عن أماكنها، وتخرج بأمر الله عن مداراتها المعتادة، فترتطم بالأجرام الأخرى في الفضاء، فتحمل الأرض والجبال، كما تحمل الكرة بين اللاعبين، وتختل جاذبية الأرض التي جعلها الله لحفظ نظام العالم إلى أمدٍ معلوم، والله تعالى ملائكة كرام موكلون باختلال نظام العالم عند قيام الساعة، ومن ذلك إذا رُفعت الأرض والجبال عن أماكنها، فكُسرتا ودُقَّتا دقة واحدة، وصارتا كشيئا مهيلا، وهباء منثورا .

وفي ذلك الحين تقوم القيامة، وتقع الواقعة، فتزول الأرض والجبال عن أماكنهما وتتفتت أجزاءهما، وتنسف الجبال فتصير مع الأرض قاعاً صفصفاً لا ترى فيها عوحاً ولا أمتاً، وعندئذ تقوم القيامة، كما قال تعالى: ﴿إِذَا وَقَعَتِ الْوَاقِعَةُ ۚ (١) لَيْسَ لَوْعِنَهَا كَاذِبَةٌ﴾ [الواقعة: ١، ٢] .

١٦ - ﴿وَأَنشَقَّتِ السَّمَاءُ فَهِيَ يَوْمَئِذٍ وَاهِيَةٌ﴾

وكما تُدك الأرض والجبال، فإن السماء تتصدع وتتشقق وتضطرب وتمور، ويتغير لونها ﴿وَأَنشَقَّتِ السَّمَاءُ﴾ أي انصدعت وانفتحت أبوابها بنزول من فيها من الملائكة ﴿فَهِيَ يَوْمَئِذٍ وَاهِيَةٌ﴾ ضعيفة مسترخية، لا تماسك فيها ولا صلابة، لقد كانت قبل ذلك صلبة متماسكة، لا ترى فيها من فطور ولا صدوع ولا شقوق، فإذا هي أوهى من بيوت العنكبوت، بسبب الرثق الذي لحق بها، لتكون مطروقة مسلوكة، وهذا كقوله تعالى ﴿وَيَوْمَ تَشَقَّقُ السَّمَاءُ بِالْغَمَمِ وَيُزَلُّ الْمَلَكُ تَنْزِيلًا ۚ (٢٥) أَلَمْ تَكُنْ يَوْمَئِذٍ آلْحَقُّ لِلرَّحْمَنِ وَكَانَ يَوْمًا عَلَى الْكَافِرِينَ عَسِيرًا﴾ [الفرقان: ٢٥، ٢٦] وعندئذ تكون السماوات مسارات للملائكة، فتفتح أبوابها للصعود والنزول، كما قال تعالى: ﴿وَفُتِحَتِ السَّمَاءُ فَكَانَتْ أَبْوَابًا﴾ [النبا: ١٩] .

فتقوم الملائكة بإنزال أهل الجنة في الجنة، وسوق أهل النار إلى النار.

يَوْمُ الْقِيَامَةِ: تَقِفُ الْمَلَائِكَةُ عَلَى أَطْرَافِ الْأَرْضِ وَتَحْمِلُ عَرْشَ الرَّحْمَنِ

١٧ - ﴿وَالْمَلَكُ عَلَى أَرْجَائِهَا وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمَنِيَةٌ﴾

وعندما تشقق السماء، تقف الملائكة، على أركانها وأطرافها، خاضعة لربها، مستكينة لعظمته لتحيط بها من كل جانب.

قال الضحاك: إذا انشقت السماء كانت الملائكة على حافتها، حتى يأمرهم الله تعالى، فينزلون إلى الأرض، فيحيطون بها ومن عليها^(١).

ذلكم قول الله تعالى ﴿وَالْمَلَكُ عَلَى أَرْجَائِهَا﴾ أي على أطرافها وجوانبها.

ورد أن الله تعالى يأمر ملائكة سماء الدنيا، فيقفون صفًا واحدًا مترابطين على حافات الأرض، ثم يأمر ملائكة السماء الثانية فيصفون خلفهم، ثم يأمر ملائكة كل سماء كذلك، فكلما فرّ أحد من الجن والإنس، وجد الأرض قد أحيط بها، فهذا تفسير الآية.

وهو معنى قوله تعالى: ﴿وَجَاءَ رَبُّكَ وَالْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا﴾ [الفجر: ٢٢].

وهو أيضاً تفسير لقوله تعالى: ﴿وَيَقُومُ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ يَوْمَ النَّادِ﴾ (٣٢) يَوْمَ تُولُونَ مُدِيرِينَ مَا لَكُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ عَاصِرٍ﴾ [غافر: ٣٢، ٣٣].

وتفسير قوله تعالى: ﴿يَمْعَرُ السُّجُنَ وَالْإِنسُ إِنَّ اسْتَطَعْتُمْ أَنْ تَفْذُوا مِنْ أَقْطَارِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ فَافْذُوا لَا تَنْفُذُونَ إِلَّا إِلَىٰ سُلْطَانٍ﴾ [الرحمن: ٣٣].

قال تعالى: ﴿وَيَجْعَلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمَانِيَةً﴾ أي ثمانية صفوف من الملائكة العظام، في غاية القوة، ذلك عند الفصل بين العباد، والقضاء بعدل الله وقسطه وفضله.

قال ابن عباس: رضي الله عنهما هي ثمانية صفوف من الملائكة لا يعلم عددهم إلا الله.

وقال ابن زيد: هم ثمانية أملاك^(٢). قيل ثمانية من الملائكة، وقيل ثمانية صفوف منهم.

ورد أن العرش يحمله اليوم أربعة من الملائكة، فإذا كان يوم القيامة أمدهم الله بأربعة آخرين^(٣).

(١) زاد المسير (٣٥٠/٨)، وفتح القدير (٢٨٠/٥).

(٢) تفسير ابن عطية (٣٥٩/٥) بتصرف يسير، وتفسير الطبري (٢٢٨/٢٣).

(٣) رواه الطبري من طريق ابن اسحاق عن ابن زيد الطبري (٢٢٩/٢٣).

وفي حديث جابر بن عبد الله رضي الله عنهما أن النبي ﷺ قال: «أُذن لي أن أحدث عن ملك من ملائكة الله من حملة العرش، أن ما بين شحمة أذنه إلى عاتقه مسيرة سبع مئة عام»^(١).

النَّاسُ فِي سَاحَةِ الْعَرْضِ وَالْحِسَابِ

١٨ - ﴿يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ لَا تَخْفَى^(١) مِنْكُمْ خَافِيَةٌ﴾

وفي يوم القيامة يُعرض الناس على رب العالمين للسؤال والحساب والجزاء، دون أن يخفي منهم أحد، فالكل: مكشوف الجسد والنفس والضمير، مكشوف العمل والمصير، كل شيء في الكون بارز، فالجبال تُنسف، والأرض مستوية، لا ارتفاع فيها ولا انخفاض، والله تعالى لا تخفى عليه خافية في الدنيا والآخرة معاً.

﴿يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ﴾ أيها الناس للحساب والجزاء ﴿لَا تَخْفَى مِنْكُمْ خَافِيَةٌ﴾ أي لا يخفى عليه تعالى شيء من أجسادكم ولا من أعمالكم ولا من أسراركم وأحوالكم، وكل ما كان خافياً على الخلائق في الدنيا، فإنه يظهر يوم القيامة، ومن ذلك من كان يُرائي بعمله وقوله، فإن الله تعالى يكشفه للجميع، ويحشر العباد حفاة عراة غرلاً، في أرض مستوية، يسمعون الداعي، وينفذهم البصر، وعندئذ يكون الحساب ثم الجزاء.

أَهْلُ الْيَمِينِ وَنَعِيمِهِمْ

٢٠، ١٩ - ﴿فَأَمَّا مَنْ أَوْفَ كُتِبَتْ يُسْمِنُ، فَيَقُولُ هَؤُلَاءِ^(٣) أَقْرَبُ وَكِتَابُهُ^(٤) ﴿إِنِّي ظَنَنْتُ أَنِّي مُلَاقٍ حِسَابِيَّةٍ﴾^(٥)

(١) أبوداود برقم: (٤٧٢٧) ورجال إسناده ثقات.

(٢) قرأ حمزة والكسائي وخلف بياء التذكير في ﴿لَا تَخْفَى﴾ والباقون بقاء التأنيث، وجاز تذكير الفعل وتأنيثه، لأن الفاعل مؤنث مجازي ومفصول من الفعل.

(٣) وقف حمزة بالتسهيل في ﴿هَؤُلَاءِ﴾ مع المد والقصر، وهي مد متصل، وكل حسب مذهبه فيه.

(٤) قرأ ورش بنقل حركة همزة ﴿إِنِّي﴾ إلى الهاء قبلها في ﴿كِتَابُهُ﴾ بخلف عنه، حال وصل الآيتين ببعضهما، وحذف يعقوب هاءها وصلأً، وجميع القراء بإثباتها وقفاً.

(٥) قرأ يعقوب بحذف هاء ﴿حِسَابِيَّةٍ﴾ وصلأً، وإثباتها وقفاً، والباقون بإثباتها في الحالين.

وبعد العرض والحساب، يأتي مشهد الناجين والمعذبين، كأنه حاضر تراه العيون: ﴿فَأَمَّا مَنْ أُوْتِيَ﴾ أي أعطي ﴿كِتَابَهُ﴾ أي صحيفة عمله ﴿بِيَمِينِهِ﴾ وهو من السعداء الناجين، يعطون كتابهم بأيمانهم تمييزاً وتنوياً بشأنهم، ورفعاً لمقدارهم ﴿فَيَقُولُ﴾ ابتهاجاً وسروراً ورغبة في أن يَظْهَرَ هذا لغيره، ليفرحوا له، ويقول لهم ﴿هَؤُلَاءِ﴾ أي خذوا ﴿أَقْرَبُوا كِتَابَهُ﴾ الذي فيه نتيجة امتحاني، وفيه البشرى بالجنة ومغفرة الذنوب وستر العيوب، ويخص بذلك أقاربه وأصدقاءه وعشيرته، كالتألم الذي نجح في الامتحان، وأي امتحان؟! إنه الامتحان الأخير.

ثم علل الذي أخذ كتابه بيمينه، لفرحه وبهجته، بأنه كان قد أيقن وهو في الدنيا بالبعث والحساب فقال: ﴿إِنِّي ظَنَنْتُ﴾ أي علمت علماً يقينياً قبل الموت ﴿أَنِّي مُلَتِّي حِسَابِي﴾ أي سألقى هذا اليوم، وأعطى كتاب أعماله وأجازى على ما قدمت يداي، ولذلك فقد أعددتُ العدة بالإيمان والعمل الصالح، وقد من الله عليّ بحسن العاقبة.

قال الضحاك: كل ظن في القرآن من المؤمن فهو يقين، ومن الكافر فهو شك^(١). وقال الحسن: إن المؤمن أحسن الظن بربه فأحسن العمل، وإن المنافق أساء الظن بربه فأساء العمل^(٢).

وأصل الظن: علم لم يتحقق، أو علم مخلوط بشك، فهو علم غير متيقن، ويستعمل بمعنى اليقين مجازاً.

وهذا الذي أخذ كتابه بيمينه، لا يناقش الحساب يوم القيامة، لأن مناقشة الحساب تعني العذاب، وكان يتوقع أنه سيناقش الحساب، فلما أخذ صحيفة عمله بيمينه، ملأت الفرحة جوانحه، فأخذ يهتف بلسانه ﴿هَؤُلَاءِ أَقْرَبُوا كِتَابَهُ﴾.

عن عائشة رضي الله عنها أن النبي ﷺ قال: «من نوقش الحساب يوم القيامة فقد عذب» فقلت: أليس يقول الله تعالى ﴿فَأَمَّا مَنْ أُوْتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ﴾ ﴿٧﴾ فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا

(١، ٢) تفسير القرطبي (١٨/٢١٠).

﴿٨﴾ وَنَقَلِبُ إِلَىٰ أَهْلِهِ مَسْرُورًا ﴿[الانشقاق: ٧-٩] فقال: «إن ذلك العرض، وليس أحد يحاسب يوم القيامة إلا هلك»^(١).

وفي حديث ابن عمر رضي الله عنهما حين سئل عن النجوى: فقال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «يُدْنِي الله المؤمن يوم القيامة، فيقرره بذنوبه كلها، حتى إذا رأى أنه قد هلك، قال الله تعالى: إني سترتها عليك في الدنيا، واليوم أغفرها لك، ثم يعطى كتاب حسناته بيمينه، وأما الكافر والمنافق فيقول الأشهاد ﴿هَؤُلَاءِ الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَىٰ رَبِّهِمْ أَلَا لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ﴾»^(٢) [هود: ١٨].

وَصَاحِبُ الْيَمِينِ فِي نَعِيمٍ لَا يَزُولُ وَلَا يَحُولُ

٢١-٢٣- ﴿فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَاضِيَةٍ ﴿٢١﴾ فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ ﴿٢٢﴾ قُطُوفُهَا دَانِيَةٌ ﴿٢٣﴾﴾

ثم بين سبحانه وتعالى: ما أعده في الدار الآخرة لمن نجا وفاز بالنعيم المقيم، وبين أنه يكون في حالة مرضية من العيش، جامعة لما تشهيه الأنفس وتلذ الأعين ويكون في مأمنٍ من العقاب، فالحياة التي يحياها المؤمن في الجنة تكون في أكمل درجات الجور والسرور، وهو من الفائزين برضى الله تعالى، والرضى عن معيشتهم.

وهذا الذي قد أخذ كتابه بيمينه يكون يوم القيامة ﴿فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ﴾ مرتفعة المكان والقصور والمنازل والدرجات، لأن العلو، وجمال المناظر، مما يسر النفس. وأهل الجنة يعيشون فيها فلا يموتون أبداً، وَيَصْحَوْنَ فلا يَمْرُضُونَ أبداً، وَيَتَنَعَّمُونَ فلا يروُن بؤساً أبداً.

وهذه الجنة ﴿قُطُوفُهَا دَانِيَةٌ﴾ أي أن ثمارها قريبة يتناولها القائم والقاعد والمضطجع.

وَيُقَالُ لَهُؤُلَاءِ الْمُؤْمِنِينَ الصَّادِقِينَ

٢٤- ﴿كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا أَسْلَفْتُمْ فِي الْأَيَّامِ الْخَالِيَةِ ﴿٢٤﴾﴾

(١) الحديث في البخاري (٤٩٣٩، ٦٥٣٧)، ومسلم (٢٨٧٦)، وعند الترمذي وأبي داود وغيرهما.

(٢) ينظر صحيح البخاري برقم (٤٤١، ٤٨٥)، وصحيح مسلم برقم (٢٨٧٨).

بعيداً عن الأذى، سالمين من كل مكروه، بسبب ما قدمتم لأنفسكم من صالح الأعمال فيما مضى من أيام الدنيا، كلوا مما لذ وطاب، واشربوا شرباً شهياً خالياً من المكدرات والمنغصات.

ففي حديث عائشة رضي الله عنها أن رسول الله ﷺ قال: «سددوا وقاربوا وأبشروا، فإنه لا يدخل أحداً الجنة عمله، قالوا: ولا أنت يا رسول الله؟ قال: ولا أنا إلا أن يتغمدني الله بمغفرة ورحمة»^(١).

وهذه النعيم والجزاء قد حصل للمؤمنين بسبب إيمانهم وأعمالهم الصالحة التي قدّموها لأنفسهم في الدنيا: كالصلاة والزكاة والصدقة والحج والذكر والإنابة، والإحسان إلى خلق الله، فهي سبب دخول الجنة، ومادة نعيمها وأصل سعادتها. قال قتادة: إن أيامكم هذه أيام خالية، هي أيام فانية، تؤدي إلى أيام باقية، فاعملوا في هذه الأيام، وقدموا فيها خيراً إن استطعتم.

أَهْلُ الشَّمَالِ وَعَذَابُهُمْ

٢٥، ٢٦ - ﴿وَأَمَّا مَنْ أُوِّيَ كِنْبَهُ بِشِمَالِهِ^(٢) فَيَقُولُ يَلَيِّنِي لَرَأَوْتُ كِنْبِيَّةً^(٣)﴾ ﴿٥٥﴾ وَلَرَأَدَرٍ مَاجِسِيَّةٍ ﴿٥٦﴾

وبعد أن أخبر جل شأنه عن حال السعداء، ذكر حال الأشقياء فقال ﴿وَأَمَّا مَنْ أُوِّيَ كِنْبَهُ بِشِمَالِهِ﴾ أي أعطي صحيفة عمله بشماله من وراء ظهره، كما قال تعالى ﴿وَأَمَّا مَنْ أُوِّيَ كِنْبَهُ وَرَاءَ ظَهْرِهِ﴾ ﴿١٠﴾ فَسَوْفَ يَدْعُوا ثُبُورًا ﴿١١﴾ وَيَصْلَى سَعِيرًا ﴿١٢﴾ [الانشقاق: ١٠-١٢] وذلك بأن تُلوى يده اليسرى خلف ظهره، وهذا دليل على عذابه وهلاكه، يؤتى كتاب أعماله بشماله تمييزاً له وخزياً وعاراً وفضيحة في الموقف العظيم ﴿فَيَقُولُ﴾ وهو في همٍّ وغمٍّ على نهايته الأليمة، نادماً متحسراً متفجعاً على مصيره ﴿يَلَيِّنِي لَرَأَوْتُ كِنْبِيَّةً﴾ أي ياليتني لم أعط هذا الكتاب بما

(١) صحيح البخاري برقم (٦٤٦٧) وهذا لفظه، وانظر (٦٤٦٤)، وصحيح مسلم برقم (٧٨٢، ٢٨١٨).

(٢) عد المدني الأول والأخير والمكي لفظ (بشماله) آية، وتركه الشامي والبصري والكوفي.

(٣) قرأ يعقوب بحذف هاء ﴿كِنْبِيَّةٍ﴾ وصلأ وإثباتها وقفاً، والباقون بإثباتها في الحاليين.

اشتمل عليه من قبائح أعماله، وسوء مصيري، وفضيحتي على رؤوس الأشهاد.
ويا ليتني لم أعلم ما جزائي، ولم أعرف حسابي، فإني لم أحسن الاستعداد له، حتى
كانت هذه النتيجة المؤلمة، ياليتني كنت نسيًا منسيًا، لم أبعث وأحاسب:
٢٧-٢٩ ﴿يَلَيْتَهَا كَانَتِ الْقَاضِيَةَ ۚ﴾ ﴿مَا أَغْنَىٰ عَنِّي مَالِي﴾ ﴿هَلْكَ عَنِّي سُلْطَانِيَّةٌ﴾^(١)

أي يقول الكافر حين يأخذ كتاب عمله بشماله يوم القيامة ويرى مصيره المشؤوم:
ياليت الموتة التي متها في الدنيا كانت القاطعة لأمري، ولم أبعث بعدها، تمنى دوام
الموت وعدم البعث لِمَا شاهده من سوء عمله وما يصير إليه من العذاب.
قال قتادة: تمنى الموت، ولم يكن عنده شيء في الدنيا أكره منه، وشر من الموت ما
يُطلب منه الموت^(٢).

ثم التفت إلى ماله وسلطانها، فوجدهما وبالاً عليه، لم يقدم منهما ما ينفعه في هذا
الموقف العصيب، ولا يمكنه أن يفتدي بهما نفسه من عذاب الله، لذا أخذ يتحسر على ما
فرط فيه من الخير وهو في الدنيا، فلا شيء اليوم ينفعه، لا المال الذي جمعه، ولا
السلطان، ولا الجاه الذي وصل إليه، ولا فصاحته وبلاغته التي كانت في الدنيا، كل ذلك
ذهب سدى، فشهدت عليه الجوارح، ونطقت الأعضاء، وتحدثت الأرض بما جرى فوق
ترابها.

﴿مَا أَغْنَىٰ عَنِّي مَالِي﴾ أي لم تغن عني هذه الأموال التي كنت أملكها في الدنيا شيئاً،
ولم تنفعني في قليل ولا كثير.

(١) قرأ حمزة ويعقوب بحذف هاء ﴿مَالِي﴾ وصلأ، والباقون بإثباتها.

وكل من أثبت الهاء وصلأ له وجهان: الأول: إدغام الهاء في الهاء والثاني: الإظهار، وهو لا يتأتى إلا مع
السكت على الهاء سكتة خفيفة بدون تنفس. وإذا قرأ ورش بالنقل في ﴿كَيْتِيَّةٌ﴾ إلى ﴿تَعِينِ﴾ الإدغام في
﴿مَالِي﴾ هَلْكَ هاءاً وإذا قرأ بعدم النقل تعين الإظهار فيها. وجميع القراء يثبت ها ﴿مَالِي﴾ وقفاً.

(٢) قرأ حمزة ويعقوب بحذف الهاء وصلأ وإثباتها وقفاً من ﴿سُلْطَانِيَّةٌ﴾ والباقون بإثباتها في الحالين.

(٣) تفسير الطبري (٣٩/٢٩)، والخازن (٣٠٥/٤).

سورة الحاقة: ٣٠-٣٢ - به من سلطة وجاه، وحجج أدافع بها عن نفسي، وأخاصم بها المؤمنين لم يحضرني شيء منها اليوم، فقد ﴿هَلَكَ عَنِ سُلْطَانِيَّةٍ﴾ أي غاب عني كل هذا، فالمال الكثير قد ذهب، ويا ليتني أنجو من تبعاته، والجاه العريض قد ذهب فلم أنتفع بشيء من مُلكي ولا نسبي ولا حسبي، وليس لي مُجير ولا معين إلا الله، وحيثُ يُقال لزبانية جهنم الغلاظ الشدائد:

٣٠-٣٢ - ﴿خُذُوهُ فَعَلُوهُ﴾ ﴿٣٠﴾ ﴿ثُمَّ الْجَحِيمَ صَلُّوهُ﴾ ﴿٣١﴾ ﴿ثُمَّ فِي سِلْسِلَةٍ ذَرْعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعًا فَاسْلُكُوهُ﴾

أي يقول الله تعالى لزبانية جهنم الغلاظ : خذوا هذا المجرم الأثيم، فشدوه في الأغلال، واجمعوا يديه إلى عنقه، واجعلوا في عنقه غُلاً يخنقه ﴿خُذُوهُ فَعَلُوهُ﴾ إنه أمر يصدر من أحكم الحاكمين على من أخذ كتابه بشماله، فسرعان ما تتسابق إليه الملائكة لجعل الغُل في عنقه، وكل ما في الكون غضبان عليه.

ثم يقال للملائكة بعد تقييده بالأغلال: ألقوه في جهنم، وأدخلوه فيها، ليقاسي حرها، ويُشوى بنارها ﴿ثُمَّ الْجَحِيمَ صَلُّوهُ﴾ اقدفوه في النار، وقلّبوه على جمرها ولهبها كما تُشوى الشاة على النار! نعوذ بالله من النار، ومن عذاب النار.

وبعد أن يقيّد الكافر بالأغلال، ويُقدف به في الجحيم، تقول الخزنة: أدخلوه في سلسلة من حديد طولها سبعون ذراعاً.

قال سفيان: بلغنا أنها تدخل في دبره حتى تخرج من فيه.

وتقول زبانية جهنم: خذوا هذا الكافر فقيدوه، ثم أعدّوه للنار المحرقة، ثم اجعلوه مغلولاً في سلسلة طولها سبعون ذراعاً، بحيث تُحيط به إحاطة تامة، وهو مكبل في أغلاله، فلا يزال في هذا العذاب الفظيع بلا انقطاع ولا إمهال ولا فتور.

والسلسلة: مجموعة حلق من حديد بعضها داخل بعض، يقيد فيها المجرم حتى لا يتحرك من مكانه، كما قال تعالى ﴿إِذَا الْأَغْلَالُ فِي أَعْنَاقِهِمْ وَالسَّلْسِلُ﴾ [غافر: ٧١].

عن عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «لو أن رُضاضة مثل هذه - وأشار إلى مثل الجُمُجمة - أُرسلت من السماء إلى الأرض، وهي مسيرة خمس

مئة سنة، لبلغت الأرض قبل الليل، ولو أنها أرسلت من رأس السلسلة الحاقة: ٣٣، ٣٤ خريفاً، الليل والنهار، قبل أن تبلغ أصلها أو قعرها»^(١).
والرُّضاضة هي الحصوة الصغيرة. ولفظ أحمد: (لو أن رصاصة).

السَّبَبُ فِي عَذَابِ أَهْلِ الشَّمَالِ

٣٣، ٣٤ - ﴿إِنَّهُ كَانَ لَا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ الْعَظِيمِ ﴿٣٣﴾ وَلَا يَحْضُ عَلَى طَعَامِ الْمَسْكِينِ﴾

ثم بين سبحانه السبب في هذا العذاب الشديد لأهل الشمال، فذكر سببان لهذا العقاب:
السبب الأول: ﴿إِنَّهُ كَانَ لَا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ الْعَظِيمِ﴾:

أي إنه كان لا يوحد الله تعالى، ولا يعمل بهديه، بل كفر بربه، وعاند رسله، ورد ماجأؤوا به من الحق، لقد حل بهذا الشقي ما حل به من عذاب، لأنه كان في الدنيا مصرّاً على الكفر، وعدم الإيمان بالله تعالى، والإيمان رأس الأمر، فلا يقبل عمل صالح بدون إيمان، وقد بدأ سبحانه بأقوى أسباب العذاب، وهو عدم الإيمان بالله تعالى، ثم أتبعه بما هو دونه:

والسبب الثاني: ﴿وَلَا يَحْضُ عَلَى طَعَامِ الْمَسْكِينِ﴾:

أي أنه كان وهو في الدنيا لا يحث الناس على إطعام المحتاجين من المساكين وغيرهم، فليس في قلبه رحمة يرحم بها الفقراء والمساكين، فلا هو يطعمهم ولا يحث غيره على إطعامهم، لعدم وجود الوازع الديني في قلبه.

أي: فهذا المعذب في النار، كان لا يصدق بوحدانية الله تعالى، ولا يحث الآخرين على البذل والعطاء لكل محتاج، وعدم الحث على إطعام المسكين، يقتضي بطريق الفحوى، أنه في حد ذاته لا يُطعم المسكين من ماله، فهو لا يطعم المسكين، ولا يأمر الناس بإطعامه، وهذا كناية عن شدة البخل.

(١) سنن الترمذي برقم (٢٥٨٨) وقال: هذا حديث حسن صحيح، والمسند (١٩٧/٢) بإسناد صحيح، والمستدرک (٤٣٢/٢) بتصحيح الحاكم وموافقة الذهبي، وحسنه محققو المسند برقم (٦٨٥) بإشراف د/ التركي.

سورة الجاثية: ٣٥-٣٧ ، عن منع المساكين حقهم في أموال الأغنياء، وبيان أن السعادة تقوم على أصليين، هما: الإيمان بالله والإحسان إلى خلق الله، ومن أعظمها دفع ضرورة المحتاجين بما يسد كفايتهم.

ونظير هاتين الآيتين قوله تعالى عن المجرمين ﴿مَا سَلَكَكُمْ فِي سَقَرٍ ۚ قَالُوا لَوْ نَكَّرْنَا مِنْ الْمَصْلِينَ ۚ﴾ (١٣) وَلَوْ نَكَّرْنَا نَطْعُمُ الْمَسْكِينِ ﴿[المدثر: ٤٢-٤٤] .

والإيمان قرين الصلاة، وتخصيص إطعام المسكين بالذكر يدل على أهمية إطعام المسكين، وسد حاجة الفقير في الإسلام.

والكفر بالله تعالى أكبر الذنوب، والبخل وقسوة القلب، أقبح شيء في طباع البشر، وهذا المجرم المعذب في النار، لم يحم بحق الله تعالى عليه، ولم ينفع خلقه، ويؤدي حقهم.

فإن لله تعالى حق التوحيد والعبادة، وللعباد حق الإحسان والمعاونة.

ولذا: فقد قبض النبي ﷺ وهو يقول: «الصلاة، الصلاة، وما ملكت أيمانكم» كما

جاء في حديث أنس رضي الله عنه (١).

عقَابُ الْكَافِرِ الْبَخِيلِ

٣٥-٣٧- ﴿فَلَيْسَ لَهُ الْيَوْمَ هُنَا حِمٌّ ۚ وَلَا طَعَامٌ إِلَّا مِنْ غِسْلِينٍ ۚ لَا يَأْكُلُهُ إِلَّا الْخِطُؤُنَ ۚ﴾

ثم إن من يُعطى صحيفة عمله بشماله، لا يجد له يوم القيامة شفعاً ولا ناصراً، ولا مدافعاً يدفع عنه ما يجده من العذاب الشديد، وهذا معنى قوله تعالى ﴿فَلَيْسَ لَهُ الْيَوْمَ هُنَا حِمٌّ﴾ أي ليس لهذا الكافر يوم القيامة قريب يدفع عنه العذاب، لأن كل قريب وصديق يفر منه.

(١) المسند برقم (١٢١٦٩) بإسناد صحيح ورجال ثقات رجال الصحيح، وأبوداود برقم (٥١٥٤) عن أنس، وفي الكبرى للنسائي (٧٠٥٧)، وابن ماجه (٢٦٩٧)، وابن حبان (٦٦٠٥)، وأبو يعلى (٢٩٣٣)، والبيهقي الشعب (٨٥٥٢)، وفي الدلائل (٧/ ٢٠٥) .

كما قال تعالى: ﴿يَوْمَ يَفِرُّ الْرُّءُوسُ مِنْ أَخِيهِ ۖ وَأُمَمٌ وَأَيْمَةٌ ۖ وَأَنبِيَاءٌ ۖ وَصَحْبَهُ وَبَنُوهُ ۖ لِكُلِّ أُمَرٍ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ﴾ [عبس: ٣٤-٣٧] وقال تعالى: ﴿يَوْمَ لَا يَنْفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ۖ إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾ [الشعراء: ٨٨، ٨٩] وقال سبحانه: ﴿وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَادَىٰ كَمَا خَلَقْتَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ ۖ اسْمُ السَّحَابَةِ: ٣٥-٣٧﴾ وقال جل شأنه: ﴿وَلَا تَنْفَعُ الشَّفَعَةُ عِنْدَهُ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُ ۖ﴾ [سبا: ٢٣].

وقال أيضاً: ﴿مَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ حِمٍ وَلَا شَفِيعٍ يُطَاعُ﴾ [غافر: ١٨].

وليس لهذا المجرم في جهنم من طعام سوى صديد أهل النار، يغسل بطونهم، ويخرج من أحشائهم.

وفي الحديث عن أبي سعيد ؓ (لو أن دلوا من غسلين يهراق في الدنيا لأنتن أهل الدنيا)^(١).

وفي سورة الغاشية: ﴿لَيْسَ لَهُمْ طَعَامٌ إِلَّا مِنْ ضَرِيعٍ ۖ لَا يَسْتَوُونَ وَلَا يَغْنَىٰ مِنْ جُوعٍ﴾ [آية: ٦، ٧].

وفي سورة الدخان: ﴿إِنَّ شَجَرَتَ الزُّقُومِ ۖ طَعَامُ الْأَثِيمِ ۖ كَالْمُهْلِ يَغْلِي فِي الْبُطُونِ ۖ كَغَلَى الْحَمِيمِ﴾ [آية: ٤٣-٤٦].

وفي سورة الصافات: ﴿أَذَلَّ خَيْرٌ نَزَّلَا أَمْ شَجَرَةُ الزُّقُومِ ۖ إِنَّا جَعَلْنَاهَا فِتْنَةً لِلظَّالِمِينَ ۖ إِنَّهَا شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِي أَصْلِ الْجَحِيمِ ۖ طَلْعُهَا كَأَنَّهُ رُءُوسُ الشَّيَاطِينِ ۖ فَإِنَّهُمْ لَا كُفُونَ مِنْهَا فَأَلْتَوْنَ مِنْهَا الْبُطُونَ ۖ ثُمَّ إِنَّ لَهُمْ عَلَيْهَا لَشَوَابًا مِّنْ حَمِيمٍ ۖ ثُمَّ إِنَّ مَرْجِعَهُمْ لَإِلَى الْجَحِيمِ﴾ [الصافات: ٦٢-٦٨].

هذا هو طعام أهل النار: الغسلين، والضريع، والزقوم.

وهذا الطعام في جهنم ﴿لَا يَأْكُلُهُ إِلَّا الْخَاطِئُونَ﴾ الذين أخطؤوا الصراط المستقيم، وسلکوا سبيل المجرمين، فاستحقوا العذاب الأليم، وهم المذنبون المصرون على الكفر بالله تعالى: والخطيء هو الذي يرتكب الذنب عن عمد وإصرار، والمخطيء هو الذي يرتكب الذنب من غير عمد ولا إصرار.

(١) صححه الحاكم (٥٠١/٢) ووافقه الذهبي، وفي المسند (١١٢٣٠، ١١٧٨٦)، ولفظه «من غساق» وهو حديث حسن لغيره، وأخرجه أبو يعلى (١٣٨١)، والبيهقي في البعث (٥٦٦).

وهذا العرض للآيات قد بلغ الذروة في قوة التأثير لأهوال يوم القيامة بالنسبة للكافرين، وليبان حسن العقابة بالنسبة للمتقين.

سورة الحاقة: ٣٨-٤٠

الْبُرْهَانُ الْقَاطِعُ عَلَى صِدْقِ الْقُرْآنِ وَأَمَانَةِ الرَّسُولِ ﷺ

٣٨-٤٠ - ﴿فَلَا أَقْسِمُ بِمَا تُبْصِرُونَ﴾ (٣٨) ﴿وَمَا لَا تُبْصِرُونَ﴾ (٣٩) إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ﴿

ثم أقسم الله تبارك وتعالى على أن القرآن منزل من عند الله، لنفي تكذيب الملحدين بالبعث، وتكذيبهم للرسول ﷺ وهو قَسَمٌ عام يشمل كل ما يرى في هذا الكون، كالأرض، والجبال، والبحار، والإنسان، والسموات، والكواكب، وغير ذلك.

ويشمل أيضاً كل ما لا يرى في الكون، كالأرواح، والملائكة، والجن، وأمور الآخرة. ﴿فَلَا أَقْسِمُ بِمَا تُبْصِرُونَ﴾ من كل ما هو مرئي ﴿وَمَا لَا تُبْصِرُونَ﴾ مما غاب عنكم ولم تروه، واللام لتأكيد القسم على الأرجح، والمقسم عليه هو: صدق الرسول ﷺ بما جاء به من عند الله.

قال الفخر الرازي: والآية تدل على العموم والشمول، لأنها لا تخرج عن قسمين: مُبْصَرٌ وغير مُبْصَرٍ، فشملت الخالق والمخلوق، والدنيا والآخرة، والأجسام والأرواح، والإنس والجن، والنعم الظاهرة والباطنة^(١).

وقد أقسم الله تعالى بجميع الأشياء، المرئية وغير المرئية، على أن القرآن كلام الله تعالى، يبلغه للناس، ويتلوه عليهم رسول عظيم الشرف والفضل، فالقرآن كلام الله، والناطق به المبلّغ عن ربه، هو رسول الله ﷺ، وهو منزّه عما وصفه به المكذبون من أنه سحر أو شعر أو كهانة.

﴿إِنَّهُ﴾ أي القرآن ﴿لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ﴾ تُسَبُّ القول إلى الرسول محمد ﷺ لأنه يتلوه ويبلغه عن ربه، ولينفي عنه كونه سحراً أو شعراً أو كهانة، كما يزعم المبطلون الذين يقولون عنه أساطير الأولين.

(١) التفسير الكبير (٣٠/١١٦).

قال تعالى: ﴿فَإِنَّمَا يَسْتَرْزَنُهُ لِسَانُكَ لَمَّا هُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ [الدخان: ٥٨] أي يسرناه بواسطتك - يا رسولنا - وجعلناه بلعيتك عن طريق الوحي إليك، ويدل عليه قوله تعالى ﴿وَلَوْ نَقُولُ عَلَيْنَا بَعْضُ الْأَقَاوِيلِ﴾ وقد وصف الله تعالى موسى عليه السلام، بأنه رسالة الجاقة: ٤١-٤٣ قوله سبحانه: ﴿وَلَقَدْ فَتَنَّا قَبْلَهُمْ قَوْمَ فِرْعَوْنَ وَجَاءَهُمْ رَسُولٌ كَرِيمٌ﴾ [الدخان: ١٧].

روى مقاتل أن أبا جهل قال: إن محمدا شاعر، وأن عقبة بن أبي معيط قال: هو كاهن، فقال الله تعالى ﴿إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ﴾، ثم نفى سبحانه قولهم هذا، فقال:

٤١-٤٣- ﴿وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ قَلِيلًا مَّا تُؤْمِنُونَ﴾ (١) ﴿وَلَا يَقُولُ كَاهِنٌ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ﴾ (٢) ﴿نَزِيلٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ﴾ نفى سبحانه أن يكون هذا القرآن قول شاعر كما يزعمون فقال ﴿وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ﴾ لأنه مغاير لأوزان الشعر، وليس بإمكان الشعراء الإتيان بمثله، فليس شعرا ولا نثرا، ولكنكم لا تؤمنون أصلاً، ولا تؤمنون إيماناً يسيراً فأنتم ﴿قَلِيلًا مَّا تُؤْمِنُونَ﴾ ولو آمتتم لعلمتم ما يضرركم وما ينفعكم، ولأدرتكم أن محمداً ﷺ لا ينطق عن الهوى إن هو إلا وحي يوحى.

وليس القرآن أيضاً بسجع الكهان الذين يدعون معرفة الغيب ﴿وَلَا يَقُولُ كَاهِنٌ﴾ ولكنكم لا تعتبرون ولا تتعظون، فأنتم ﴿قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ﴾ فليس عندكم أدنى تأمل للفرق بين هذا القرآن، وبين الشعر والكهانة، وقد أقر أعداء الإسلام بنفي هذه الافتراءات على القرآن وعلى رسول الإسلام منذ فجر الرسالة.

فهذا النضر بن الحارث، طلب منه زعماء قريش أن يذلي برأيه في شأن محمد ﷺ فقال: يا معشر قريش، والله قد نزل بكم أمر، ما أتيتم له بحيلة بعد، وقد كان محمد فيكم غلاماً حدثاً، أرضاكم فيكم، وأصدقكم حديثاً، وأعظمكم أمانة، حتى إذا رأيتم في

(١) قرأ ابن كثير وهشام ويعقوب وابن ذكوان بخلف عنه بياء الغيب في ﴿يَتَذَكَّرُونَ﴾ و﴿تَذَكَّرُونَ﴾ والباقون بتاء الخطاب فيهما، وهو الوجه الآخر لابن ذكوان، وقرأ حفص وحزمة والكسائي وخلف بتخفيف الذال من ﴿تَذَكَّرُونَ﴾ وشددوا الباقيين.

صدغه الشيب، وجاءكم بما جاءكم به، قلتم: ساحر! لا والله ما هو بساحر، لقد رأينا السحرة ونفثهم وعقدتهم.

وقلتم: كاهن! لا والله ما هو بكاهن، قد رأينا الكهنة وتخالجهم، وسمعنا سجعهم. سورة الجاثية: ٤٣-٤٧ ما هو بشاعر، قد رأينا الشعر، وسمعنا أصنافه كلها، هزجه وزجره. وقلتم: مجنون! لقد رأينا الجنون، فما هو بخنقه ولا وشوسته ولا تخليطه، يا معشر قريش، فانظروا في شأنكم، فإنه والله قد نزل بكم أمر عظيم^(١). ومع ذلك فلا يزال في العالم جماهير غفيرة، تتوارث الزعم أن محمداً ﷺ ليس برسول، أو أنه رسول إلى العرب خاصة.

وقد جاء القسم من رب العالمين بما هو مرئي في العالم وما هو غير مرئي، على صدق رسالة محمد ﷺ إلى العالم أجمع، وأنه لو افتعل الوحي وكذب على الله، لكان العقاب صارماً.

ولما ذكر سبحانه أن هذا القرآن قول رسول كريم، أتبعه ببيان أنه منزل من عند الله فقال ﴿نَزِيلٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ﴾ أنزله على رسوله محمد ﷺ كما قال تعالى ﴿وَلَنُزِيلُ رَّبِّ الْعَالَمِينَ﴾ ﴿١١٣﴾ نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ ﴿١١٣﴾ عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنذِرِينَ ﴿١١٤﴾ بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ ﴿١١٥﴾ وَلَنُزِيلْنَاهُ لِقَافٍ ذُرٍّ الْأَوَّلِينَ﴾ [الشعراء: ١٩٢-١٩٦].

ورب العالمين: هو رب الشعراء والكهان، والكفار، ورب المخاطبين بالقرآن، ورب محمد ﷺ كما قال تعالى: ﴿رَبُّكُمْ وَرَبُّ آبَائِكُمُ الْأَوَّلِينَ﴾ [الدخان: ٨].

النَّوْعِيدُ الشَّدِيدُ لِمَن يَتَقَوَّلُ عَلَى اللَّهِ تَعَالَى

٤٤-٤٧ - ﴿وَلَوْ نَقُولَ عَلَيْنَا بَعْضُ الْأَقَاوِيلِ ﴿٤٤﴾ لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ ﴿٤٥﴾ ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ ﴿٤٦﴾ فَمَا مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَاجِيزٍ﴾

(١) ابن إسحاق في السيرة.

ولو لم يكن القرآن منزل من عند الله تعالى، وادّعى محمد أنه منزل من عندنا، لما أقررناه على ذلك، ولعجلنا بإهلاكه، ولو نسب محمد إلينا شيئاً لم نقله وافتري علينا بعض الأكاذيب، لانتقمنا منه وعجلنا بعقوبته، وأخذناه أخذ عزيز مقتدر، وقتلناه صبراً، بأن يؤخذ من يده اليمنى بالقوة وتُقطع رقبته، وهذا معنى: ﴿لَاخَذْنَا مِنْهُ سُورَةَ الْحَاقَّةِ: ٤٧-٥٠﴾ منه باليد اليمنى من يديه، وهو كناية عن الإذلال والإهانة، وسلب القوة وانتزاعها منه، وأخذناه أخذاً عاجلاً دون إمهال، فقطعنا منه نياط القلب، وهو العِزْق المعلق به القلب، يسقي الجسد بالدم، فإذا قُطع مات صاحبه ﴿وَالْوَيْتَنَ﴾ هو هذا العرق المسمى بالأبهر، كما في الحديث «ما زالت أكلة خيبر تعاودني، فهذا أوان انقطاع أبهري». وهذا التهديد والوعيد يشمل كل من يتلاعب في هذا الدين بالتغيير والتبديل كائناً من كان.

وإذا عاقبنا محمداً مثل هذه العقوبة، فإنه ليس في مقدور أحد أن يحول بيننا وبين عقابه، ومعنى هذه الآية يحوم حول قوله تعالى ﴿وَلَنْ كَادُوا لَيَفْتَنُونَكَ عَنِ الَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ لِتَفْتَرِيَ عَلَيْنَا غَيْرَهُ وَإِذَا لَا تَخَذُوكَ خِلَلاً ۝٧٣﴾ وَلَوْلَا أَنْ تُبَيِّنَنَّكَ لَقَدْ كُذِّتَ تَرَكُّنُ إِلَيْهِمْ شَيْئاً قَلِيلاً ۝٧٤﴾ إِذَا لَا ذِفْنَكَ ضِعْفَ الْحَيَوةِ وَضِعْفَ الْمَمَاتِ ثُمَّ لَا تَجِدُكَ عَلَيْنَا نَصِيراً ﴿[الإسراء: ٧٣-٧٥] .

القرآن الكريم هدى للمُتَّقِينَ وحسرة على المُكذِّبِينَ

٤٨-٥٠- ﴿وَأَنذَرْتُكَ لِلْمُتَّقِينَ ۝٥٨﴾ وَأَنَا نَعْلَمُ أَنَّ مِنْكُمْ مُكَذِّبِينَ ۝٥٩﴾ وَأَنَّهُ لَحَسْرَةٌ عَلَى الْكَافِرِينَ ﴿ثم إن الله تعالى أنزل هذا القرآن عظة لمن يتقي الله ويخشى عقابه: ﴿وَأَنَّهُ﴾ أي القرآن العظيم ﴿لَذِكْرٌ لِلْمُتَّقِينَ﴾ يُذَكِّرُ النَّاسَ بِمَا يَفْعَلُونَ عَنْهُ مِنَ الْعِلْمِ بِاللَّهِ تَعَالَى، وَمَا يَلِيقُ بِجَلَالِهِ، يَذَكِّرُهُمْ بِمَا يُصْلِحُهُمْ فِي الدِّينِ وَالْدُنْيَا، يَذَكِّرُهُمْ بِالْعُقَاثِدِ وَالْأَحْكَامِ الشَّرْعِيَّةِ وَالْأَخْلَاقِ الْحَمِيدَةِ، حَتَّى يَكُونُوا الْعُلَمَاءُ الْعَامِلِينَ، وَالْعِبَادُ الْعَارِفِينَ، وَالْأُئِمَّةُ الْمَهْدِيِّينَ. وَالَّذِي يَنْتَفِعُ بِهَذِهِ التَّذَكُّرَةِ، هُمُ الْمُتَّقُونَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْبَعْثِ وَالْجَزَاءِ، فَالْقُرْآنُ هَادِياً لِلْمُتَّقِينَ ﴿فِيهِ هُدًى وَنُورٌ﴾ [البقرة: ٢] فهم المنتفعون به المهتدون بهديه.

أما غير المؤمنين فقلوبهم مغلقة دونه ﴿قُلْ هُوَ الَّذِي ءَامَنُوا هُدًى وَشَفَاءٌ وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِي ءَاذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى﴾ [فصلت: ٤٤]، وهداية القرآن عامة للخلق أجمعين، فهو ﴿هُدًى لِلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِّنَ الْهُدَى وَالْفُرْقَانِ﴾ [البقرة: ١٨٥] وإن كان لا سورة الحاقة: ٤٨-٥٢

وقد بعث الله تعالى رسوله محمداً ﷺ بهذا القرآن، وهو جل شأنه يعلم أنه سيكون من البشر مكذبين به، ومع علم الله تعالى بوجود المكذبين، فإن هذا لا يمنع من توجيه التذكير به لخلقه أجمعين مع وضوح آياته وحججه، وكان هذا ﴿لِيَهْلِكَ مَن هَلَكَ عَن بَيِّنَةٍ وَيَحْيَىٰ مَن حَيَّ عَن بَيِّنَةٍ﴾ [الأنفال: ٤٢].

فقد أرسل الله تعالى رسوله بهذا الدين ليلبغه للناس كافة ﴿فَمَن شَاءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَاءَ فَلْيُكْفُرْ﴾ [الكهف: ٢٩] وسيُجازى كلًّا بما يستحق من ثواب أو عقاب. وإن هذا القرآن سيكون يوم القيامة سبب حسرة وندامة على كل من كفر بالله تعالى، وجحد نبوة خاتم النبيين، وذلك عندما يرون أنفسهم في عذاب أليم، ويرون المؤمنين في نعيم مقيم.

وهذه الحسرة تكون في الدنيا، لأنه تعالى فضحهم، وكشف خفاياهم، وبين عجز آلهمتهم. وهو حسرة عليهم أيضاً في الآخرة، لأن مخالفته كانت سبباً لعذابهم في نار جهنم. وهذه الحسرة تكون في نفوس الكفار بسبب عدم إيمانهم به كما قال تعالى ﴿كَذَٰلِكَ سَلَكْنَاهُ فِي قُلُوبِ الْمُجْرِمِينَ ﴿٢٠٠﴾ لَا يُؤْمِنُونَ بِهِ حَتَّىٰ يَرَوُا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ﴾ [الشعراء: ٢٠٠، ٢٠١]. فإنهم لما رأوا في الآخرة ما كفروا به الدنيا، وثبت لديهم صدق ما أخبرهم به النبي ﷺ تحسروا على عدم هدايتهم، وعلى ما فاتهم من نعيم، وما استبدلوه من الجحيم، وقد حكم الله بين العباد وتقطعت بهم الأسباب.

خَتَامُ السُّورَةِ

٥١، ٥٢ - ﴿وَإِنَّهُ لَحَقُّ الْيَقِينِ ﴿٥١﴾ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ﴾

وهذا القرآن هو الحق الثابت الذي لاشك في أنه من عند الله تعالى، وأن محمداً ﷺ قد بلغه للناس دون زيادة حرف ولا نقص حرف ﴿وَأَنَّهُ﴾ أي القرآن ﴿لَحَقُّ الْيَقِينِ﴾ الذي لا مرية فيه ولا ريب، فحق اليقين أعلى مراتب العلم الذي لا يتزلزل ولا يزول، وفي هذا نفي لقولهم: سحر وشعر وكهانة.

سورة الجاقة: ٥١، ٥٢

وقد قالوا: إن العلم ثلاثة: حق اليقين، ويليه عين اليقين، ويليه علم اليقين:

١. فحق اليقين: كعلم الإنسان بالموت عند نزوله به، وبلوغ الروح الحلقوم.
 ٢. وعين اليقين: كالعلم بقرب حلول علامات الموت وأماراته.
 ٣. وعلم اليقين: كالعلم بأن الموت سيأتي لا محالة مهما طال الأجل.
- وحق اليقين جاء في هذه السورة، وفي آخر سورة الواقعة، ﴿إِنَّ هَذَا لَهُوَ حَقُّ الْيَقِينِ﴾ وعين اليقين وقع في سورة التكاثر، ﴿لَتَرَوُنَّ عَيْنَ الْيَقِينِ﴾.
- وما دام القرآن في أعلى درجات اليقين، وما جاء به حق، فتزّه الله تعالى عن كل ما لا يليق بجلاله، واذكره باسمه العظيم ﴿فَسَبِّحْ﴾ يا رسولنا، وسبح أيها المخاطب ﴿يَاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ﴾ وقُدس ربك بذكر أوصاف جلاله وجماله وكماله، واشكر ربك على ما أعطاك من النعم العظيمة، وهذا القرآن من أجلها.
- وفي هذا تنزيه للقرآن عن مطاعن المكذبين وافتراءات المفترين.
- جاء في الأثر أنه لما نزلت هذه الآية قال ﷺ: «اجعلوها في ركوعكم»^(١).
- وهذا مؤذن بانقضاء السورة.

تم تفسير (سورة الجاقة) والله الحمد والمنة

(١) من حديث عقبة بن عامر الجهني في المسند (١٧٤١٤)، قال محققوه: إسناده محتمل للتحسين، وأبي داود (٨٦٩)، وفي سنده ضعف كما في ضعيف سنن ابن ماجه (١٨٦)، وأخرجه الدارمي (١٣٠٥)، وأبو يعلى (١٧٣٧)، وابن خزيمة (٦٠٠)، وغيرهم.

تَفْسِيرُ سُورَةِ الْمَعَارِجِ (٧٠)

مُقَدِّمَةُ السُّورَةِ

(سورة المعارج) هي السورة السبعون في ترتيب المصحف، والثامنة والسبعون في ترتيب النزول، نزلت بعد (سورة الحاقة) وقبل (سورة النبأ).

وعدد آياتها أربع وأربعون آية، ماعدا المصحف الدمشقي. فهي ثلاث وأربعون آية عنده. وعدد كلماتها مئتان وأربع وعشرون كلمة، وتسع مئة وتسعة وعشرون حرفاً.

وسميت سورة المعارج في المصاحف، وفي كتب السنة والتفسير، وتسمى أيضاً سورة ﴿سَالِّ سَائِلٌ﴾ وذكر السيوطي في الإتيان، أنها تسمى سورة (الواقع) وهذه الأسماء الثلاثة مقتبسة من كلمات وقعت في الآيتين من أول السورة، وهي سورة مكية باتفاق، ويمكن تقسيم السورة إلى ثلاثة أقسام:

القسم الأول: هو الرد على منكري البعث والنشور، بما في ذلك ذكر أهوال القيامة وما فيها من راحة ونصب، وسعادة وشقاء، وذكر أحوال المؤمنين والمجرمين في دار الجزاء والخلود، سيما حال المجرمين في ذلك اليوم الذي تنفطر فيه السماء، وتتطاير فيه الجبال في الهواء، وذلك بسبب استهزاء المكذبين بالدعوة والرسالة.

وقد جاء هذا من أول السورة إلى الآية الثامنة عشرة.

والقسم الثاني: يتحدث عن طبيعة الإنسان، وجزعه عند الشر، ومنعه للخير، وبطّره للنعمة، ثم تستثني السورة من ذلك المؤمنين، وتصفهم بتسع صفات، هي:

- ١- المداومة على الصلاة.
- ٢- وإخراج الزكاة.
- ٣- والإيمان بالبعث والنشور.
- ٤- والخوف من الجليل.
- ٥- وحفظ الفرج.
- ٦- وأداء الأمانة.
- ٧- والوفاء بالعهد.
- ٨- وعدم كتمان الشهادة.
- ٩- والمحافظة على الصلاة.

وَتُعَقَّبُ السورة بذكر الكافرين بعد المؤمنين، لبيان حرمانهم من نعيم أهل الجنة. وهذا من الآية التاسعة عشرة إلى الآية الحادية والأربعين.

والقسم الثالث: فيه تسلية للنبي ﷺ للمضي في طريق الدعوة، وشحذ همته لمواجهة مصاعبها وعنّت المكذبين لها، وتزكّهم في باطلهم حتى يلقوا ربهم فيجازيهم بأعمالهم. وختمت السورة بالقسم على أن البعث والجزاء حق لا ريب فيه، وأن الله تعالى قادر على أن يخلق خلقاً آخر، هم أطوع لله تعالى وأكثر استجابة ممن كذب بالبعث والنشور.

* * *

تَفْسِيرُ السُّورَةِ

إِنْكَارُ الثَّوَابِ وَالْعِقَابِ فِي الدَّارِ الْآخِرَةِ كُفْرٌ

١-٣- ﴿سَأَلَ^(١) سَائِلٌ بِعَذَابٍ وَاقِعٍ^(٢) لِلْكَافِرِينَ لَيْسَ لَهُ دَافِعٌ^(٣) مِنْ اللَّهِ ذِي الْمَعَارِجِ﴾

السؤال هنا معناه الدعاء على النفس، بمعنى: دعا داع على نفسه وقومه بعذاب يقع عليه وينزل به، وهو عذاب سيقع به لا محاله.

أو أن المراد بالسؤال معناه الحقيقي، بمعنى: سأل أحد الناس النبي ﷺ عن موعد وقوع العذاب بالكافرين المكذبين إذا استمروا على كفرهم وعنادهم، وهو سؤال على وجه التهكم والاستبعاد، والسائل هو النضر بن الحارث، أو الحارث بن علقمة^(٤) أو أبو جهل.

وقد ورد فيما سبق أن أول هذه السورة نزل في النضر بن الحارث، وذلك حين قال ﴿اللَّهُمَّ إِنْ كَانَتْ هَذَا هُوَ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَابَةً مِنَ السَّمَاءِ أَوْ آتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾^(٥) [الأنفال: ٣٢] فأهلكه الله يوم بدر، وتحقق فيه وعد الله تعالى. وقد نزلت الآية تَذَمُّهُ وَتَذَمُّ أَمْثَالَهُ.

وشأن النضر بن الحارث، كشأن منكري البعث في كل زمان ومكان، ممن يسخرون ويستهزئون من الحديث عن اليوم الآخر ولا يؤمنون بالغيبات.

وهكذا كانوا يقولون للنبي ﷺ (متى هذا الوعد) أي بالبعث والعذاب الذي تعدنا به إن كنت صادقاً فيما تقول، ثم أعلمهم الله تعالى أن العذاب الذي استعجلوه واستهزؤوا

(١) قرأ نافع وابن عامر وأبوجعفر بإبدال همزة ﴿سَأَلَ﴾ ألفاً، فتكون مثل (قال) وهي لغة قريش، من السؤال أو من السيلان، والباقيون بالهمز من السؤال، ويقف عليها حمزة بالتسهيل.

(٢) كما أخرجه عبد بن حميد عن عطاء، ينظر الدر المنثور (١٤/٦٨٧).

(٣) المستدرک (٢/٥٠٢) عن سعيد بن جبیر، عن ابن عباس وقال الحاكم: هذا حديث صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه، وتعبه الذهبي بقوله: على شرط البخاري فقط، كما أخرجه النسائي في السنن الكبرى (١١٦٢٠) وابن أبي حاتم (٥/١٦٩٠).

به واقع بهم لا محالة، وليس هناك ما يدفعه عنهم أو يحول بينهم وبينه.

وكانوا يستعجلون نزول العذاب بهم على وجه الاستبعاد، لجهلهم وعنادهم كما قال تعالى:

﴿وَسْتََعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَلَوْلَا أَجَلٌ مُّسَمًّى لَّجَاءَهُمُ الْعَذَابُ وَلَيَأْتِيَنَّهُمْ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ [العنكبوت: ٥٣].

ومن المفروض أن يسأل العبد ربه أن يرفع عنه نزول العذاب، ويسأله أن يهديه ويخرجه من ضلاله ويتوب عليه، ولكن أصحاب القلوب القاسية يطلبون من الله تعالى إن كان ما يقوله محمداً حقاً وصدقاً فليبادر بهلاكهم، ويأنزل العذاب بهم، وهذا ما قاله النضر بن الحارث وأبوجهل وأمثالهما.

والآية جاءت بصيغة العموم، لتشمل كل سائل، وكل منكّر ليوم القيامة، أو منكر للعذاب المتوعد به، إلى قيام الساعة، وتشمل الآية كل من دعا على نفسه وعلى قومه بنزول العذاب، كحال النضر بن الحارث.

﴿سَأَلَ سَائِلٌ﴾ أي دعا داع من المشركين على نفسه وعلى قومه أن ينزل بهم عذاب الله إن كان هناك عذاب - على حد زعمهم -!

أو أن المعنى: سأل سائل عن موعد وقوع العذاب المتوعد به ﴿بِعَذَابٍ وَاقِعٍ﴾ أي وهو عذاب واقع بهم لا محالة، إما أن يعجل لهم به في الدنيا، وإما أن يؤخر عنهم إلى الدار الآخرة. والسؤال في الآية على أحد المعنيين السابقين بمعنى الدعاء باستعجال نزول العذاب، كما يفسره ما صح في سبب النزول، وهو سؤال تهكم وإنكار منهم، والنضر ابن الحارث وهو الذي طلب نزول العذاب، قُتل يوم بدر، ومات شراً ميتة.

ثم بين سبحانه أن هذا العذاب واقع بالكفار ولا بد، سواء أطلبوه أم لا، وليس هناك ما يمنع نزوله بهم أو يدفعه عنهم في الدنيا ولا في الآخرة.

فمعنى: ﴿لِلْكَافِرِينَ﴾ أي أن هذا العذاب خاص بالكافرين الذين استعجلوا وقوعه وهو نازل بهم ولا بد، واللام في ﴿لِلْكَافِرِينَ﴾ لشبه الملك، كأن عذاب النار من خصائصهم، كما قال تعالى: ﴿فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ﴾ [البقرة: ٢٤].

وهو عذاب: ﴿لَيْسَ لَهُ دَافِعٌ﴾ يدفعه، ولا مانع يمنعه، فإذا أراد الله وقوعه بأحد فلا راد له، وإذا

نزل بهم فلن يرفع، ولن يدفع، قال تعالى: ﴿إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَاقِعٌ ۝٧ مَالَهُ مِنْ دَافِعٍ﴾ [الطور: ٨٠، ٧٠].
ولو أن هؤلاء الكفار عرفوا الله حق معرفته، وعظّموه حق عظّمته، لما استعجلوا
نزول العذاب بهم، ولتأدّبوا مع الله تعالى: وانقادوا له سبحانه، فبؤساً لقوم جهلوا عظمة
الله تعالى ولم يقدرّوه حق قدره، فاستعجلوا نزول العذاب على وجه التعجيز والامتحان،
وسبحان الحليم الذي أمهلهم، وآذوه فصبر عليهم، وعافاهم ورزقهم!!

قال جبير بن مطعم: قدمت المدينة لأسأل رسول الله ﷺ في أسارى بدر، فسمعتُه يقرأ
﴿وَالطُّورِ ۝١ وَكَتَبَ مَسْطُورٍ﴾ إلى قوله ﴿إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَاقِعٌ ۝٧ مَالَهُ مِنْ دَافِعٍ﴾ فكانما ضدع قلبي،
فأسلمتُ خوفاً من نزول العذاب، وما كنتُ أظن أن أقوم من مقامي حتى يقع العذاب^(١).

وعن هشام بن حسان قال: انطلقتُ أنا ومالك بن دينار إلى الحسن، وعنده رجل يقرأ
والطور حتى بلغ ﴿إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَاقِعٌ﴾ فبكى الحسن وبكى أصحابه، فجعل مالك
يضطرب حتى غشي عليه^(٢).

وهذا العذاب النازل بالكفار هو ﴿يَتَنَزَّلُ اللَّهُ ذِي الْمَعَارِجِ﴾ أي صاحب العظمة والعلو
والجلال، وتدير أمور خلقه.

والمعارج أيضاً هي المصاعد التي تصعد فيها الملائكة وتنزل بأمر الله تعالى ووحيه.
وقد وصف الله تعالى نفسه بأنه صاحب المعارج، كما وصف نفسه بأنه صاحب
العرش في قوله تعالى: ﴿رَفِيعُ الدَّرَجَاتِ ذُو الْعَرْشِ﴾ [غافر: ١٥].

والمراد: أن الذي دعا ربه بعذاب واقع، لم يدعُ بشيء صعب، إن إهلاكه ليس
بأصعب من إهلاك بعوضة، وهو أحق كافر، لا يصدق بعذاب قريب ولا بعيد، وإن
العذاب سيأتيه حتماً، ولا يمكنه دفعه أو منعه، لأنه أمر إلهي نافذ، لا مردّ له. ثم فصل

(١) ينظر: البخاري (٤٠٢٣، ٤٨٥٤)، ومسلم (٥٧٨)، وأبو داود (٨١١)، وابن ماجه (٨٣٢)، والنسائي في
الكبرى (١١٤٦٥)، والمسنَد (١٦٧٣٥)، وابن حبان (١٨٣٣).

(٢) ينظر: تفسير القرطبي للآية.

سبحانه هذا العروج في الآية التالية:

عُرُوجُ الْمَلَائِكَةِ وَعُرُوجُ أَمْرِ اللَّهِ تَعَالَى

٥، ٤ - ﴿تَعْرُجُ^(١) الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ^(٢)﴾ ﴿٤﴾ فَاصْبِرْ صَبْرًا جَبِيلًا ﴿٥﴾

وبعد هذا الافتتاح للسورة، يأتي وصف اليوم الذي سيقع فيه العذاب، فبين تعالى أن هذا اليوم، هو يوم القيامة، حين تصعد الملائكة وتنزل، ومعهم جبريل، للقيام بالمهام المكلفين بها في هذا اليوم.

﴿تَعْرُجُ﴾ أي تصعد إليه ﴿الْمَلَائِكَةُ﴾ لتنفيذ أوامر الله تعالى في تدبير شؤون خلقه. لعروج الروح معنيان:

﴿وَالرُّوحُ﴾ هو جبريل يصعد إلى الله عز وجل لتنفيذ أوامره، وخص جبريل وهو الروح بالذكر، لمزيد فضله ومزيته على غيره.

وقد سماه الله روحاً في كثير من الآيات، منها قوله تعالى: ﴿نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ﴾ [الشعراء: ١٩٣] وهذا أحد تفسيرين لمعنى الروح.

كما تطلق الروح على ما به حياة الإنسان، وهذا هو المعنى الآخر.

ربما شملت الآية، عروج أرواح أهل الجنة، على اختلاف درجاتها في المعارج. ويكون المراد بالروح على هذا اسم جنس يشمل جميع الأرواح، فأرواح الأبرار تعرج عند وفاتها إلى السماء وتحظى بالقرب من رب العالمين، وأرواح الفجار لا يؤذن لها في الوصول إلى السماء فتعاد إلى الأرض. وعلى هذا فإن العروج يكون في الدنيا.

ويحتمل أن يكون هذا العروج في يوم القيامة، وأن العباد يشاهدون الملائكة وهي صاعدة ونازلة لتدبير الأوامر الإلهية.

(١) قرأ الكسائي بياء التذكير في ﴿تَعْرُجُ﴾ والباقون بياء التأنيث، وجاز تأنيث الفعل وتذكيره لأن الفاعل جمع تكسير.

(٢) عدّ لفظ (سنة) آية جميع علماء العدد ما عدا الدمشقي، فيكون متروكاً له.

يوم العروج:

١ - ثم ذكر سبحانه في هذه الآية: المسافة التي تعرج فيها الملائكة والروح إلى الله تعالى فيكون المراد أن مسافة العروج قدرها خمسون ألف سنة.

أو أن المراد باليوم: هو يوم القيامة نفسه الذي يحاسب فيه العباد.

وهذا العروج كائن ﴿فِي يَوْمٍ﴾ هو يوم القيامة ﴿كَانَ مِقْدَارُهُ﴾ أي مقدار هذا اليوم، وهو مدة موقف العباد للحساب في هذا المقدار ﴿خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ﴾ من سني الدنيا، بالسير المعتاد، من بدء العروج إلى ما تنتهي إليه في الملائكة الأعلى، وهو يوم الموقف العظيم، ثم يستقر أهل الجنة في الجنة، وأهل النار في النار.

وقيل: إن مقدار يوم القيامة على الكافر خمسون ألف سنة، وهو على المؤمن أخف من صلاة مكتوبة، أي أن عروج الملائكة إلى أماكنهم في السموات يوم القيامة يكون في وقت يقدر بخمسين ألف سنة من أيام الدنيا، بالنسبة للإنسان، والمَلَك يقطع ذلك في لحظات، فالملكوت الإلهي من الفرش إلى العرش، أو من أسفل الأرض إلى سدرة المنتهى، قد يقطعه الإنسان في خمسين ألف سنة، أما الروح الأمين وجمهور الملائكة، فإنهم يقطعونه في زمن يسير جداً.

وقد رأينا كيف انتقل عرش بلقيس من اليمن إلى الشام في لمح البصر!

وفي حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «في يوم كان مقداره خمسين ألف سنة» فقلت: ما أطول هذا؟ فقال ﷺ: «والذي نفسي بيده إنه ليخف عن المؤمن حتى يكون أخف عليه من صلاة المكتوبة يصلّيها في الدنيا»^(١).

وعن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «ما قدّر طول يوم القيامة على المؤمنين،

(١) وهو حديث ضعيف لضعف دراج عن أبي الهيثم وابن لهيعة، وهو في المسند (٧٥/٣) (١١٧١٧)، والطبري (٤٥/٢٩)، وأبو يعلى (١٣٩٠)، وابن حبان (٧٣٣٤)، والبيهقي في الشعب معلقاً (٣٢٤/١)، وقال الهيثمي في المجمع (٣٣٧ / ١٠): إسناده حسن على ضعف في رواية، وحسن إسناده الحافظ في الفتح (٤٤٨ / ١١).

إلا كقدر ما بين الظهر والعصر»^(١). والمراد بهذا اليوم هو يوم القيامة.

٢ - أما اليوم الذي في سورة السجدة المقدر بألف سنة، وفيه يقول تعالى ﴿يَذِكرُ الْأَمَرَ مِنَ السَّمَاءِ إِلَى الْأَرْضِ ثُمَّ يَرْجِعُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ أَلْفَ سَنَةٍ مِمَّا تَعُدُّونَ﴾ [آية: ٥].
فالمراد به: مقدار سير الأمر الإلهي في نزوله وعروجه إليه تعالى، في يوم يقدر بألف سنة، ولكنه يعرج إليه ويصله في لحظة.

٣ - واليوم الذي في سورة الحج بألف سنة أيضاً، وفيه يقول تعالى: ﴿وَإِنَّ يَوْمًا عِنْدَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِمَّا تَعُدُّونَ﴾ [آية: ٤٧] فالمراد به أحد الأيام الستة التي خلق الله فيها السموات والأرض.

فهي أيام مختلفة، إذ أن يوم عروج الملائكة، يختلف عن يوم عروج الأمر إليه تعالى، ويختلف عن الأيام التي خلق الله فيها الكون، فالأول بخمسين ألف سنة، والثاني والثالث بألف سنة.

٤ - وصح في الحديث وضُفَّ يوم القيامة بخمسين ألف سنة، كما في حديث أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «ما من صاحب كثر لا يؤدي حقه إلا جعل له صفائح يُحْمَى عليها في نار جهنم، فتكوى بها جبهته وجنبه وظهره، حتى يحكم الله بين عباده في يوم كان مقداره خمسين ألف سنة مما تعدون، ثم يرى سبيله إما إلى الجنة وإما إلى النار»^(٢).

وقد عُلِمَ بهذا أن يوم القيامة فيه مواطن ومواقف، وبينت سورة السجدة أن في القيامة خمسين موطناً كل موطن يقدر بألف سنة.

فالجَمع بين الآيات الواردة في هذا المقام، أن يكون المراد بها أحد أمور ثلاثة:

(١) أخرجه الحاكم (٨٤/١)، والبيهقي في الشعب معلقاً (١٨٤/١)، وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة (٢٤٥٦).

(٢) ينظر: المسند (٢٦٢/٢) برقم (٧٥٦٣) من حديث طويل، إسناده صحيح ورجاله ثقات، وهو في صحيح مسلم برقم (٩٨٧).

الاحتمال الأول: أن اليوم المقدر بألف سنة الذي في سورة الحج يراد به أحد الأيام الستة التي خلق الله فيها السموات والأرض وهو قوله تعالى ﴿وَلَيْكَ يَوْمًا عِنْدَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ﴾ [الحج: ٤٧] .

واليوم المقدر بألف سنة الذي في سورة السجدة من قوله تعالى ﴿يُدِيرُ الْأَمْرَ مِنْ أَسْمَاءَ إِلَى الْأَرْضِ ثُمَّ يَرْجِعُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ أَلْفَ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ﴾ [السجدة: ٥] .

يراد به مقدار سير الأمر وعروجه إليه سبحانه وتعالى.

ويوم الخمسين ألف سنة الذي في آية سورة المعارج، وهو قوله تعالى ﴿تَرْجِعُ الْمَلَائِكَةَ وَالرُّوحَ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ﴾ [المعارج: ٤] يراد به يوم القيامة، حيث ترجع الملائكة إليه سبحانه بما فيهم جبريل عليه السلام.

قال ابن عباس: لو قدرتموه لكان خمسين ألف سنة من أيامكم. يعني يوم القيامة^(١) الاحتمال الثاني: أن يكون المراد بالآيات الثلاث: يوم القيامة، وأن الاختلاف فيه باعتبار حال المؤمن والكافر، ويدل لهذا المعنى قوله تعالى ﴿فَذَلِكَ يَوْمٌ عَسِيرٌ ۝ عَلَى الْكَافِرِينَ غَيْرُ يَسِيرٍ﴾ [المدثر: ٩، ١٠] والأحاديث السابق ذكرها.

والاحتمال الثالث: أن يكون المراد بآية سورة المعارج، خمسين ألف سنة: هو يوم القيامة، وأن في هذا اليوم خمسين موطنًا، كل موطن تقديره ألف سنة، كما يفسره آية سورة السجدة وآية سورة الحج.

وما دامت القيامة آتية لا محالة ﴿فَاصْبِرْ﴾ أيها الرسول على تكذيب قومك لك وكفرهم بما جئت به، واصبر على استعجالهم نزول العذاب، وعلى استبعادهم وقوعه، واصبر على دعوتك لقومك صبراً جميلاً لا تضجر فيهم ولا ملل، ولا يمنعك من دعوتهم عدم انقيادهم لك وعدم رغبتهم في اتباعك، فإن الله ناصرهم عليهم، ورافع شأنك، ومظهر دينك على جميع الأديان، اصبر يا رسولنا على إنكارهم واستهزائهم، واصبر على

(١) البيهقي في البعث وابن أبي حاتم، قال ابن كثير (٢٤٩/٨): إسناده صحيح.

جهلهم وغرورهم وجحودهم صبراً لا جزع فيه، ولا شكوى منه لغير الله تعالى، وهو الصبر الجميل، ولا تتبرم بقضاء الله وقدره.

فِي أَحْوَالِ الْكَوْنِ وَالنَّاسِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ

٦-١٠- ﴿إِنَّهُمْ^(١) يَرَوْنَهُ بَعِيدًا^(٢) وَنَرَهُ قَرِيبًا^(٣) يَوْمَ تَكُونُ السَّمَاءُ كَالْهَلِ ۖ وَتَكُونُ الْجِبَالُ

كَالْعِهْنِ^(٤) وَلَا يَسْتَلُ حِمِيمًا^(٥)﴾

إن الكفار يستبعدون وقوع العذاب بهم، ويرونه غير واقع، ويرون أن مجيء يوم القيامة، الذي مقداره خمسون ألف سنة مستحيلاً ومستبعداً. وأن عذاب الله غير واقع بهم، ولذا فإنهم كذبوا به وأنكروه، والضمير في (يرونه) يعود على يوم البعث. ونحن نراه قريباً واقعاً لا محالة، يأتي في الوقت الذي تقتضيه حكمة الله تعالى ومشيتته، وهو قريب بالنسبة لما مضى من الزمن، وكل آت قريب، والله تعالى رفيق حلیم لا يعجل بالعقوبة.

ثم أخبر سبحانه عن بعض أهوال القيامة، فوصف السماء أولاً بأنها تكون يوم القيامة سائلة غير متماسكة، فتحلل أجزاءها وتكون مثل حثالة الزيت، أو الرصاص المذاب، فالمهل هو ما أذيب من النحاس أو الفضة ونحوهما، أو هو دُرْدِي الزيت. أما الجبال فإنها تكون يوم القيامة كالصوف المصبوغ المنفوش، الذي ذرته الريح، متناثراً متطيراً في الهواء، والعهن هو الصوف المنفوش، كما في سورة القارعة ﴿وَتَكُونُ الْجِبَالُ كَالْعِهْنِ الْمَنْفُوشِ﴾ [آية: ٥].

وجاء في سورة المزمل ﴿يَوْمَ تَرْجُفُ الْأَرْضُ وَالْجِبَالُ وَكَانَتِ الْجِبَالُ كَغِيًّا مَهِيلاً﴾ [آية: ١٤].

قال القرطبي: العهن: الصوف الأحمر، أو ذو الألوان، شبه الجبال به في تلونها

(١) قرأ أبو جعفر والبزي بخلف عنه بالبناء للمفعول في ﴿وَلَا يَسْتَلُ﴾ و﴿حِمِيمٌ﴾ نائب فاعل، و﴿حِمِيمٌ﴾ بعدها منصوب بنزع الخافض أي عن حميم. والباقون بالبناء للفاعل، و﴿حِمِيمٌ﴾ فاعل، و﴿حِمِيمًا﴾ مفعول به، وهو الوجه الثاني للبزي.

ألواناً، وأول ما تتغير الجبال تصير رملاً مهياً، ثم عهنًا منقوشاً، ثم هباءً منثوراً. فهذه ثلاثة أحوال للجبال يوم القيامة، كل حالة تمثل مرحلة من مراحل تغيرها، وإذا كان هذا حال الأجرام الكبيرة يوم لقاء الله تعالى، فما بالك بالإنسان الضعيف المثقل بالذنوب والأوزار، أليس حقيقاً بأن ينخلع قلبه، ويذهب لبه، ويذهل عن أقرب الناس إليه؟ وبعد أن ذكر سبحانه حال السماء والأرض في يوم القيامة، ذكر حال الخلائق، فبين تعالى أن كل إنسان يكون مشغولاً بنفسه، فلا يوجد أحد يسأل أحداً مساعدة أو معونة أو نصرة ﴿وَلَا يَسْتَلْ حَمِيماً حَمِيماً﴾ أي لا يسأل قريب قريبه، ولا صديق صديقه عن شأنه، فعدم السؤال ناشئ عن شدة الهول، لأن كل واحد مشغول بنفسه، فلا يسأل غيره عن حاله ولا يكلمه، ولا يسأله أن يشفع له أو يأخذ بيده.

لَا بَرِيلَ لِعَذَابِ اللَّهِ تَعَالَى يَوْمَ لِقَائِهِ

١٢، ١١ - ﴿يَبْصُرُونَهُ يَوْمَ الْمُجْزِمِ لَوْ يَقْدِرُ مِنْ عَذَابِ يَوْمِئِذٍ^(١) بَيْنَهُ ۖ وَصَحْبَتَهُ وَأَخِيهِ﴾ ومع أن كل واحد يرى الآخر يوم القيامة ويعرفه، ولكنه لا يكلمه، ولا يسأله، لأنه لا يملك له شيئاً، ولا يستطيع أن ينفعه، وهذا معنى ﴿يَبْصُرُونَهُ﴾ أي أن كل حميم يرى حميمه، ولكنه مشغول عنه لا يتمكن من سؤاله شيئاً، فهو يشاهد ولده وزوجه ووالده ووالدته، ولكنه لا يجد متسعاً في قلبه لسؤاله عن حاله، فلا يهتم إلا بنفسه، كحال الطوفان حين يعم البشر، فيشغل كل إنسان بنجاة نفسه.

والمجرم هو الذي فعل الجُرم، وهو الذنب العظيم، وهذا المجرم يتمنى في هذا اليوم، أن يفدي نفسه من عذاب الله تعالى ولو بأقرب الناس إليه وأعزهم عليه ﴿يَوْمَ الْمُجْزِمِ﴾ يتمنى الكافر والمشرِك بالله ﴿لَوْ يَقْدِرُ مِنْ عَذَابِ يَوْمِئِذٍ﴾ يوم القيامة ﴿بَيْنَهُ﴾ وهذا أغلى ما يكون على الإنسان، ومع ذلك فهو يتمنى لو كان ابنه تحت يده ليدفعه فداءً

(١) قرأ نافع والكسائي وأبو جعفر بفتح الميم من ﴿يَوْمِئِذٍ﴾ على أنها حركة بناء، لإضافتها لغير متمكن، والباقون بكسرها، إجراء لها مجرى الأسماء.

لنفسه من العذاب لفعل.

أو يفدي نفسه بزوجه وإخوانه ﴿وَصَجَبْتَهُ﴾ أي زوجته ﴿وَأَخِيهِ﴾ فهو يتمنى لو افتدى نفسه بأحب الناس إليه، وأقربهم له، من أهله وعشيرته لشدة هول ذلك اليوم، ولذا قال تعالى:

١٣، ١٤ - ﴿وَفَصِّلَهِ آلِي تُوْبِهِ﴾ ^(١) ﴿وَمَنْ فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ يُنْجِيهِ﴾

أي يتمنى الإنسان لو يفدي نفسه بقبيلته وعشيرته التي ينتمي إليها في القرابة، وتضمه في النسب، كي تحميه وتنصره، كما كان يأوي إليها وهو في الدنيا عند الشدائد.

بل ويتمنى الكافر لو كان يملك الدنيا كلها ليفدي بها نفسه من عذاب الله يوم القيامة لفعل ﴿وَمَنْ فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا﴾ من البشر والمال والمتاع وغير ذلك ﴿ثُمَّ يُنْجِيهِ﴾ أي ثم ينجو هو من عذاب الله، لو ملك ذلك لفعل، وعندئذ ﴿يَقُولُ الْكَافِرُ يَلَيْتَنِي كُنْتُ ثَرْبًا﴾ [النبا: ٤٠] ويتمنى لو يسوى بالتراب قال تعالى: ﴿يَوْمَ يَدْعُ الَّذِينَ كَفَرُوا وَعَصَوُا الرَّسُولَ لَوْ تُسَوَّى بِهِمُ الْأَرْضُ وَلَا يَكْتُمُونَ اللَّهَ حَدِيثًا﴾ [النساء: ٤٢].

وقال سبحانه: ﴿يَوْمَ يَنْظُرُ الْمَرْءُ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ وَيَقُولُ الْكَافِرُ يَلَيْتَنِي كُنْتُ ثَرْبًا﴾ [النبا: ٤٠].

وقد قرر الله تعالى هذا المعنى في آيات كثيرة منها.

١ - قوله تعالى: ﴿لِكُلِّ أَمْرٍ مِنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ﴾ [عبس: ٣٧].

٢ - وقوله: ﴿يَتَأْتِيهَا النَّاسُ أَنْقَاؤُ رَبِّكُمْ وَأَخْشَاؤُ يَوْمًا لَا يَجْزِي وَالِدٌ عَنْ وَلَدِهِ وَلَا مَوْلُودٌ هُوَ جَانٍ عَنْ وَالِدِهِ شَيْئًا﴾ [لقمان: ٢٣].

٣ - وقوله: ﴿وَإِنْ تَدْعُ مُثْقَلَةٌ إِلَىٰ جَمِلِهَا لَا يَحْمِلُ مِنْهُ شَيْءٌ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ﴾ [فاطر: ١٨].

ويومئذ لا يقبل من الكافر فداء ولو جاء بأهل الأرض جميعاً، ولو افتدى بملىء الأرض ذهباً ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ أَنَّ لَهُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُ مَعَهُ لَيَفْتَدُوا بِهِ مِنْ عَذَابِ يَوْمِ الْقِيَمَةِ مَا تُقْبَلُ مِنْهُمْ وَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [المائدة: ٣٦].

(١) قرأ أبو جعفر بإبدال همزة ﴿تُوبِهِ﴾ واوا ساكنة بلا إدغام، ولحمزة وقفا الإبدال واوا مع الإظهار والإدغام.

وَصَفُ النَّارِ وَأَهْلِهَا

١٥-١٨ ﴿كَلَّا إِنَّهَا لَأَطَىٰ ۖ﴾ (١) ﴿نَزَّاعَةً ۖ لِّلشَّوَىٰ﴾ (٢) ﴿تَدْعُوا مَنَ أَدْبَرَ وَتَوَلَّىٰ﴾ (٣) ﴿وَجَمَعَ فَأَوْعَىٰ﴾

ثم يجيب الله تعالى الكافر على ما يتمناه، بما يبطل كلامه ويمنع عنه إجابة ما يتمنى ويطلب، فيقول ﴿كَلَّا﴾ ليس الأمر كما تتمنى أيها الكافر، من أنك تفدى نفسك من عذاب الله بالمال والولد، فلا حيلة ولا مناص من حلول العذاب بك نتيجة عدم إيمانك، وإنما الذي في انتظارك هو النار شديدة اللهب ﴿إِنَّهَا لَأَطَىٰ﴾ إن نار جهنم تتلظى وتلتهب، وتترع بشدة حرها جلدة الرأس وأطراف البدن، فهي ﴿نَزَّاعَةً ۖ لِّلشَّوَىٰ﴾ وهو فروة الرأس، أو جوارح الإنسان وأطرافه، فهذه النار تُقْلِعُ جلدة الرأس وأطراف اليدين والرجلين، وكذا الأعضاء الظاهرة والباطنة ولا تترك منها شيئاً، فهي تطلع على الأفئدة ثم تعود كما كانت.

وهذه النار الملتهبة تنادي من أعرض عن الحق في الدنيا، وترك طاعة الله ورسوله، فهي ﴿تَدْعُوا﴾ الكافر لدخولها وتنادي من كذب بالرحمن وأعرض عن دعوة خاتم المرسلين، تدعو من ﴿مَنَ أَدْبَرَ﴾ عن دين الإسلام ﴿وَتَوَلَّىٰ﴾ أي أعرض عن الإيمان بالله ورسوله وما في اليوم الآخر من سؤال وثواب وعقاب.

قال ابن عباس رضي الله عنها: تدعو الكافرين والمنافقين بأسمائهم، تقول بلسان فصيح: إلي يا كافر، إلي يا منافق، ثم تلتقطهم كما يلتقط الطير الحب^(١).

وهذا جزاء من أعرض عن ذكر الرحمن، ممن قال: ﴿لَا تَسْمَعُوا لِهَذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوَافِیْ لَعَلَّكُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [فصلت: ٢٦] وممن إذا تليت عليهم آيات الرحمن قالوا أساطير الأولين.

(١) أمال رؤوس الآي الياثية من الآيات المتفق على عداها أبو عمرو وحمزة والكسائي وخلف، وقللها الأزرق، وأمال أبو عمرو ما بعد راء، وقلل ما عداه بالخلاف.

(٢) قرأ حفص بنصب ﴿نَزَّاعَةً﴾ على الحال من الضمير المستكن في ﴿لَأَطَىٰ﴾ لأنها جارية مجرى المشتقات، بمعنى المتلظى، والباقون بالرفع خبر ثان لأن، أو خبر لمبتدأ محذوف أي هي نزاعة.

(٣) تفسير الطبري (٤٦/٢٩).

وتنادي النار أيضاً للدخول فيها: مَنْ كَثَرَ الْأَمْوَالَ وَجَمَعَهَا وَلَمْ يُوَدِّدِ حَقَّ اللَّهِ وَحَقَّ النَّاسِ فِيهَا ﴿وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلَا يَنْفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [التوبة: ٣٤] ، وهذا معنى ﴿وَجَمَعَ فَأَوْعَى﴾ أي جمع المال فوعاه ووضعه في خزائن البنوك ونحوها، ولم يخرج منه الزكاة المفروضة، والنفقة الواجبة والمستحبة في وجوه الخير. وفي ذلك وعيد شديد لمن يبخل بالمال، فيمتنع عن إخراج حق المساكين منه. وكان الحسن البصري يقول: يا ابن آدم، سمعت وعيد الله، ثم جمعت الدنيا من حلال وحرام!

مَا جُبِلَ عَلَيْهِ الْإِنْسَانُ مِنَ الْهَلَعِ

١٩-٢١- ﴿إِنَّ الْإِنْسَانَ خُلِقَ هَلُوعًا﴾ [١٩] إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعًا ﴿٢٠﴾ وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعًا ﴿٢١﴾

ثم كشف الله سبحانه عن طبيعة الإنسان، فبين سبحانه تعالى أنه مجبول على الهلع، والهلع: طبيعة كامنة في النفس، تظهر عندما يصاب الإنسان بالنفع أو الضرر، فلا يملك أن يكف عن الهلع، عندما يحل به ما يحزنه أو يسره، بل تبدو آثاره عليه، ولا يتأمل عواقب الأمور، والجزع من آثار الهلع، وقد فسر الله تعالى المراد بالهلع في الآيتين التاليتين. والمعنى المراد: أنه لا يصبر على الشر، ولا يشكر على الخير، فهاتان

صفتان للإنسان الهلوع:

الصفة الأولى: ﴿إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعًا﴾:

أي أن الإنسان جبِل على شدة الحرص وجمع الحطام، إذا أصابه عُسر ومكروه كان كثير الأسى والشكوى والجزع، ويستولي عليه اليأس والقنوط، فهو لا يصبر على البلاء والضراء، ولا يشكر على النعماء والسراء، يجزع إن أصابه فقر أو مرض أو ذهاب مال أو ولد أو محبوب ونحو ذلك، فلا يصبر ولا يرضى ولا يسلم لقضاء الله وقدره. والمراد بالشر: ما يشمل الفقر والمرض والهزيمة، وكل ما يسوء الإنسان.

سئل ابن عباس رضي الله عنها عن الهلوع؟ فقال: هو كما قال الله: إذا مسه الشر كان

جزوعاً، وإذا مسه الخير كان منوعاً، فهو الهلوع^(١).

والصفة الثانية: أنه لا يشكر على النعماء ﴿وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعًا﴾:

أي أنه إذا أصابه اليسر والنعمة أمسك ومنع، وتظاهر بالفقر والمرض، خوفاً من طمع الناس أو حسدهم، ولم ينفق فيما أوجبه الله عليه ولا يشكر فضل الله ونعمته عليه. والمراد بالخير ما يشمل الصحة والغنى والنصر وغير ذلك من كل ما يحبه الإنسان. ومن صفات المؤمن الصادق: أن يكون شكوراً عند الرخاء، صبوراً عند الضراء. وفي الحديث عن أبي هريرة ؓ أن رسول الله ﷺ قال: «شر ما في الرجل: شح هالع، وجبن خالع»^(٢).

وفي حديث صهيب ؓ أن النبي ﷺ قال: «عجباً لأمر المؤمن، إن أمره كله له خير، إن أصابته سراء شكر، فكان خيراً له، وإن أصابته ضراء صبر، فكان خيراً له»^(٣). وعن عليّ ؓ أن أنين المريض يكتب، فإن كان صابراً كان أنينه حسنات، وإن كان جزوعاً كتب هُلوعاً لا أجر له^(٤).

وليس معنى أن الهلع صفة كامنة في الإنسان، أنه لا يستطيع دفعها والتغلب عليها ومقاومتها؟ كلا، بل إن الله تعالى جعل للإنسان عقلاً وحكمة، وأرسل الرسل، وأنزل الكتب، لتهديه وهدايته، فإن هو أحسن التلقّي والاتباع، واستعمال عقله وجوارحه فيما خلقت من أجله، حَسُنَتْ أخلاقه، وتهذبت صفاته، ولانت قناته، وصار من المؤمنين المتصفين بالصفات المذكورة في الآيات التالية:

(١) تفسير الطبري (٢٣/٢٦٦).

(٢) المسند (٢/٣٢٠)، برقم (٨٠١٠) بإسناد صحيح ورجال ثقات، وابن أبي شيبة (٩/٩٨)، وعبد بن حميد (١٤٢٨)، وأبوداود (٢٥١١).

(٣) صحيح مسلم (٢٩٩٩).

(٤) أخرجه الديلمي (٩٠١٤).

عِلَاجُ الْهَلَعِ فِي تِسْعَةِ أَوْصَافٍ لِلْمُؤْمِنِ

٢٢، ٢٣ - ﴿إِلَّا الْمُصَلِّينَ ۖ الَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَاتِهِمْ دَائِمُونَ﴾

ثم استثنى الله سبحانه من جنس الإنسان الموصوف بالهلع، من كان مؤمناً مؤدياً للصلاة، فإن صلاته تحمله على قلة الاكتراث بالدنيا، فقال ﴿إِلَّا الْمُصَلِّينَ﴾ أي فإنهم لا يجزعون عند الشر، ولا ييخلون بالخير، إنهم ﴿يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ الْقُلُوبُ وَالْأَبْصَارُ﴾ [النور: ٣٧] فالمدامون على الصلاة ليسوا على تلك الصفات من الهلع والجزع والمنع، وإنما هم على صفات محمودة، لأن إيمانهم يدفعهم إلى الفضائل ويمنعهم من الرذائل.

ثم وصف الله سبحانه من استثناهم من الهلع بتسع صفات، الصفة الأولى والأخيرة: تتعلق بالصلاة، لما للصلاة من أهمية في الإسلام، ولأنها أصل لكل خير، ومن شأنها أن تنهى صاحبها عن الفحشاء والمنكر، وهي الفارق العملي بين الإيمان والكفر.

وهذه الأوصاف التسعة جمعت أصول الإيمان وحقائقه، فقد اشتملت على:

- ١- إقامة الصلاة.
- ٢- وأداء الزكاة.
- ٣- والإيمان باليوم الآخر.
- ٤- وتقوى الله تعالى والخوف منه.
- ٥- وترك الكبائر كالزنا واللواط وغيرها.
- ٦- وأداء الأمانة.
- ٧- والوفاء بالعهود.
- ٨- وأداء الشهادة.
- ٩- والمحافظة على أداء الصلاة في أوقاتها.

الوصف الأول: أداء الصلاة: ﴿الَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَاتِهِمْ دَائِمُونَ﴾ أي أنهم يقيمون الصلاة، ويدامون على أدائها في جميع الأوقات، لا يشغلهم عنها شاغل، فهم يحسنون وضوءها، ويؤدونها مع الجماعة في أول وقتها، وهم من الخاشعين فيها، متمين ركوعها وسجودها، والقراءة فيها، فهم مداومون عليها في أول وقتها يؤدونها بشروطها وأركانها

وواجباتها وسننها، وليسوا كمن يتهاون فيها فيفعلها أحياناً ويتركها أحياناً، ولا ممن يصلّيها في البيت كالنساء، ولا فيمن لا يخشع فيها، فيؤديها ناقصة غير كاملة.

١ - في حديث عائشة رضي الله عنها أن رسول الله ﷺ قال: «أحب الأعمال إلى الله، أدومها وإن قل»^(١).

٢ - وفي الحديث أيضاً أن النبي ﷺ دخل على عائشة رضي الله عنها وعندها امرأة، قال: «من هذه؟» قالت: فلانة، تُذكر من صلاتها، قال: «مه، عليكم بما تطيقون، فوالله، لا يملّ الله حتى تملّوا»^(٢).

٣ - وعن عائشة رضي الله عنها قالت: لم يكن النبي ﷺ يصوم شهراً أكثر من شعبان وكان يصوم شعبان كله، وكان يقول ﷺ: «خذوا من العمل ما تطيقون، فإن الله لا يملّ حتى تملّوا، وأحب الصلاة إلى الله، ما دُوم عليه وإن قلت، وكان إذا صلى صلاة داوم عليها»^(٣).

وأول سبب يُسأل عنه أهل النار يوم القيامة هو ترك الصلاة، كما قال تعالى ﴿كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ إِلَّا أَهْبَآءَ الْيَتِيمِ﴾ (٣٩) ﴿فِي جَنَّةٍ يَسَرُّونَ﴾ (٤٠) ﴿عَنِ الْمُجْرِمِينَ﴾ (٤١) ﴿مَا سَلَكَكُمْ فِي سَقَرٍ﴾ (٤٢) ﴿قَالُوا لَوْ نَكُنَّ مِنَ الْمَصْلِينَ﴾ [المدرثر: ٣٨-٤٣].

وغير المصلين يُطلب منهم السجود يوم القيامة فلا يستطيعون لأن ظهورهم تيبس فلا تطاوعهم، عقوبة لهم على تركهم السجود في الدنيا، فقد كانوا يدعون إلى السجود وهم سالمون فيمتنعون.

الْوَصْفُ الثَّانِي: إِخْرَاجُ الزُّكَاةِ

٢٤، ٢٥ - ﴿وَالَّذِينَ فِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ مَّعْلُومٌ﴾ (٢٤) ﴿لِلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ﴾

أي أن المؤمنين في أموالهم نصيب معيّن، فرضه الله عليهم، وهو إخراج الزكاة ﴿لِلسَّائِلِ﴾ أي لمن يسألهم المعونة ﴿وَالْمَحْرُومِ﴾ أي ولمن يتعفف عن السؤال، وسُمّي

(١) صحيح البخاري (٦٤٦٥)، وصحيح مسلم (٧٨٢).

(٢) صحيح البخاري (١١٥١، ٤٣)، وصحيح مسلم (٧٨٥).

(٣) البخاري برقم (٦٤٦٥، ١٩٧٠، ٧٣٠)، ومسلم برقم (٧٨٢)، وابن حبان (١٥٧٨، ٣٥٣).

محروماً لأنه يتعفف عن السؤال فيحرم كما قال تعالى في شأن أصحاب الصفة:
﴿يَحْسَبُهُ الْجَاهِلُ أَغْنِيَاءَ مِنَ التَّعَفُّفِ﴾ [البقرة: ٢٧٣].

والحق المعلوم هو الزكاة التي فرضها الله تعالى على عباده بمقدار معين في نصاب معين، والحق المعلوم أيضاً ما أوجبه الإنسان على نفسه بأن يدفع جزءاً من ماله للمحتاجين، أو في وجه من وجوه الخير، أو كفارات أو نذر ونحو ذلك.

ومعلوم أن الزكاة قد فرضت مطلقة بمكة، وحُدِّدت مقاديرها وأنصبت بها بالمدينة.
أما آية سورة الذاريات ﴿وَفِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ لِّلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ﴾ [١٩] [الذاريات آية: ١٩] فليس فيها ذكر لكون هذا الحق معلوماً ومحدداً، وهذا يعني أن المراد بها الصدقة بشكل عام.
وهذه الآية في وصف المؤمن المخرج للزكاة، مقابل وصف الكافر المانع لها المتقدم ذكره في قوله تعالى: ﴿وَجَمَعَ فَأَوْعَى﴾.

وأصول الأموال التي تجب فيها الزكاة أربعة وهي:

- ١- النقود، والذهب والفضة، ٢- وما يخرج من الأرض من حبوب وركاز ونفط ومعادن.
- ٣- وعروض التجارة. ٤- والإبل والبقر والغنم والخيول.

الوصف الثالث: الإيمان باليوم الآخر

٢٦- ﴿وَالَّذِينَ يُصَدِّقُونَ بَيِّمَ الدِّينِ﴾

أي والمؤمنون المصلون هم الذين يؤمنون بيوم الحساب والجزاء، وبالجنة والنار، فيستعدون له بالعمل الصالح قبل الممات، وهذا الوصف يقابل وصف الكافر المتقدم في قوله تعالى: ﴿إِنَّهُمْ يَرَوْنَهُ بَعِيدًا﴾، والتصديق بيوم الدين يلزم منه التصديق بالرسول وبما جاؤوا به من الكتب، وما أخبروا به من البعث والنشور.

الوصف الرابع: الخوف من عذاب الله تعالى

٢٧، ٢٨- ﴿وَالَّذِينَ هُمْ مِّنْ عَذَابِ رَبِّهِمْ مُّشْفِقُونَ﴾ [٢٧] إِنَّ عَذَابَ رَبِّهِمْ غَيْرُ مَأْمُونٍ ﴿

أي: أن من صفات المؤمنين أنهم يخافون من عذاب الله تعالى ويرجون ثوابه، فهم مع قوة إيمانهم وكثرة عملهم الصالح، لا يجزمون بأنهم ناجون من النار، وإنما يكونون بين الرجاء والخوف، لأن العاقل لا يأمن مكر الله تعالى مهما كان قوِّي الإيمان كثير الطاعة، ولا يقنط من رحمة الله تعالى مهما أسرف على نفسه بالمعاصي.

فلا ينبغي لأحد أن يأمن عذاب الله، بل حق عليه أن يخافه ويرجوه ولا ييأس من رحمة الله قال تعالى: ﴿فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ﴾ [الأعراف: ٩٩].

وقال سبحانه: ﴿إِنَّهُ لَا يَأْتِئُشُّ مِنْ رَوْحِ اللَّهِ إِلَّا الْيُوسُفُ الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ﴾ [يوسف: ٨٧].

وهذه الآية تشبه قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَاءً آتَاَوْ قُلُوبَهُمْ رِجْلَةً أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَاجِعُونَ﴾ [المؤمنون: ٦٠].

الْوَصْفُ الْخَامِسُ: حِفْظُ الْفَرْجِ

٣٠، ٢٩- ﴿وَالَّذِينَ هُمْ لِأَعْيُنِهِمْ هَحْفُظُونَ ۖ ﴿٢٩﴾ إِلَّا عَلَىٰ أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ﴾

إن المؤمنين يصونون أنفسهم عن الحرام، ويحفظون فروجهم عن الزنى، ويتعففون عما حرم الله، ولا يُلَوِّثُونَ أنفسهم بالفواحش، ويحفظون أنفسهم من دواعي الزنى ومقدماته: كالنظرة والقبلة والخلوة واللمس والكلمة والهمسة والغمزة ونحو ذلك.

ثم استثنى الله تعالى من ذلك: الزوجة وملك اليمين، فقد أحلهما الله تعالى للمؤمن، وهو غير مؤاخذ في قضاء شهوته معهما.

وملك اليمين هي: الأمة التي اشتراها الإنسان بماله، أو أُسِرَتْ في حرب مشروعة بين المسلمين وغيرهم، ويخطئ من يعتبر الخادمة ونحوها من هذا القبيل، فالحرية لا تكون أمة بحال، ويدخل في ذلك نكاح المتعة فإنه قد أبيع لظروف معينة في وقت معين، ثم حرمه الإسلام. قال تعالى:

٣١- ﴿فَمَنْ ابْنَحْ وَرَلَّ ذَلِكْ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْعَادُونَ﴾

وما وراء الزوجة وملك اليمين، هو الزنى، أو الاستمناء باليد، أو اللواط، أو السحاق، أو إتيان المحارم، أو إتيان البهائم، أو أي لون من ألوان الشذوذ الجنسي، كالوطئ في الدبر أو أثناء الحيض ونحو ذلك فكل ذلك مما حرمه الله تعالى.

قال تعالى ﴿فَنِ ابْنَعِ رَدَّةَ ذَلِكْ﴾ أي من طلب لقضاء شهوته طريقا غير الزوجات وملك اليمين ﴿فَأُولَئِكَ هُمُ الْعَادُونَ﴾ أي المتجاوزون الحلال إلى الحرام، لأنه تعدى حدود الله تعالى، وعرض نفسه لعذاب الله سبحانه.

قال الطبري: من التمس لفرجه منكحاً سوى زوجته أو ملك يمينه، ففاعلوا ذلك هم العادون، الذين تعدوا حدود ما أحل الله إلى ما حرمه عليهم، فهم المذمومون^(١).

الوصف السادس: أداء الأمانة

٣٢- ﴿وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمْتِنِهِمْ^(٢) وَعَهْدِهِمْ رَعُونَ﴾

الأمانات هي التي تكون بين العبد وبين الله تعالى، كأداء الفرائض وترك المحرمات، والتي تكون بينه وبين الناس: كالعقود والودائع والأسرار، والمؤمنون يؤدون الأمانات التي ائتمنوا عليها، سواء أكانت هذه الأمانات بينهم وبين الله تعالى: أو بينهم وبين الناس، أو بينهم وبين أنفسهم، ولا يخونون شيئاً منها، كما قال تعالى ﴿يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَخُونُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ وَتَخُونُوا أَمْتِنَكُمْ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [الأنفال: ٢٧] وإذا ائتمنوا لم يخونوا.

الوصف السابع: الوفاء بالعهود: إنهم يحفظون العهود التي بينهم وبين الله تعالى، ويحفظون العهود التي بينهم وبين الناس، فهم إذا عاهدوا لم يغدروا، ويحافظون على العهود والمواثيق ولا ينقضوها، كما قال تعالى: ﴿وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ إِنَّ الْعَهْدَ كَانَتْ مَسْئُولًا﴾ [الإسراء: ٣٤].

وقد ذم الله اليهود لأن نقض العهود والمواثيق من شأنهم قال تعالى: ﴿فِيمَا نَقَضِهِمْ مِيثَقَهُمْ لَعْنَهُمْ﴾ [المائدة: ١٣] وقال سبحانه: ﴿أَوْكَلَمَا عَاهَدُوا عَهْدًا نَبَذَهُ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ﴾ [البقرة: ١٠٠].

(١) تفسير الطبري (٥٣/٢٩).

(٢) قرأ ابن كثير بالإفراد في ﴿لِأَمْتِنِهِمْ﴾ على إرادة الجنس، والباقيون بالجمع على إرادة أنواع الأمانات المختلفة.

وفي الحديث عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «آية المنافق ثلاث: إذا حدث كذب، وإذا وعد أخلف، وإذا اتّمن خان». وفي رواية: «وإذا عاهد غدر، وإذا خاصم فجر»^(١).

الْوَصْفُ الثَّامِنُ: الْقِيَامُ بِالشَّهَادَةِ

٣٣- ﴿وَالَّذِينَ هُمْ بِشَهَادَتِهِمْ قَائِمُونَ﴾

ومن صفات المؤمنين أنهم يؤدون الشهادة بالحق دون تغيير ولا كتمان، فهم لا يشهدون إلا بما يعلمون، من غير زيادة ولا نقص ولا محاباة ولا مجاملة.

كما قال تعالى: ﴿وَلَا تَكُونُوا الشَّاهِدَةَ وَمَنْ يَكْتُمْهَا فَإِنَّهُ آثِمٌ قَلْبُهُ﴾ [البقرة: ٢٨٣] وقال سبحانه ﴿وَلَا يَأْبَ الشُّهَدَاءُ إِذَا مَا دُعُوا﴾ [البقرة: ٢٨٢] وقال جل شأ من ﴿وَأَقِيمُوا الشَّهَادَةَ لِلَّهِ﴾ وقال أيضاً: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَى أَنْفُسِكُمْ أَوِ الْوَالِدِينَ وَالْأَقْرَبِينَ﴾ [النساء: ١٣٥] إنهم يشهدون بالحق على القريب والبعيد والرفيع والوضيع، ولا يغدلون عن الحق لهوى أو بغض في النفس كما قال تعالى ﴿وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَاٰنُ قَوْمٍ عَلَىٰ أَلَّا تَعْدِلُوا ءَعْدِلُوا﴾ ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّهِ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ﴾ [المائدة: ٨].

وأداء الشهادة من الأمانات، ولكنها تتعلق بحقوق العباد، وفي تركها تضييع للحقوق فهم يقومون بالشهادة على نحو ما قال ﷺ: «على مثل الشمس فاشهد». وجاء في الحديث (عن زيد بن خالد الجهني رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «خير الشهود من يأتي بالشهادة قبل أن يسألها»^(٢)).

وذلك في حالة عدم وجود شهود عدول آخرين، وفي حالة توقف حق شرعي على هذه الشهادة، كالطلاق أو الرضاع، أو النفقة ونحو ذلك.

(١) صحيح البخاري (٣٣)، وانظر (٦٠٩٥، ٢٧٤٩، ٢٦٨٢)، وصحيح مسلم (٥٩).

(٢) قرأ حفص ويعقوب بالجمع في ﴿يَشْهَدُونَ﴾ على تعدد أنواع الشهادة، والباقون بالإنفراد لإرادة الجنس.

(٣) ينظر: المسند (١٧٠٤٠، ٢١٦٨٣) حديث صحيح وإسناد رجاله ثقات رجال الصحيح (محققوه)، وأخرجه

مسلم (١٧١٩)، وأبو داود (٣٥٩٦)، والترمذي (٢٢٩٦).

وفي الحديث الآخر عن عمران بن الحصين رضي الله عنه عن النبي ﷺ وفيه ذم لمن يبادر بالشهادة من تلقاء نفسه دون أن تُطلب منه «سيأتي قوم يخونون ولا يؤتمنون ويشهدون قبل أن يستشهدوا»^(١).

وهذا في حالة وجود شهود آخرين، أو كانوا شهودا غير عدول، أو كانوا شهود الزور، وفي ذلك جمع بين هذا الحديث والحديث الذي قبله وفيه أن (خير الشهود من يأتي بالشهادة قبل أن يسألها).

وقيل: المراد بالآية: القيام بشهادة التوحيد، كما قال تعالى ﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَمُوا﴾ [فصلت: ٣٠].

الْوَصْفُ الثَّاسِعُ وَالْأَخِيرُ: الْمُحَافَظَةُ عَلَى الصَّلَاةِ، وَثَوَابُ أَهْلِ الْإِيمَانِ

٣٥، ٣٤ - ﴿وَالَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَاتِهِمْ^(٢) يُحَافِظُونَ ﴿٣٤﴾ أُولَٰئِكَ فِي جَنَّاتٍ مُّكْرَمُونَ﴾

ومن صفات المؤمنين، المحافظة على الصلاة، فهم يؤدونها في أوقاتها، ولا يُخلّون بشيء من واجباتها، ويحافظون على أركانها وشروطها والقراءة فيها، وسنتها وآدابها، والخشوع والطمأنينة فيها، ومراقبة الله عز وجل.

فالمداومة على الصلاة التي هي أول صفة من صفات المؤمنين في هذه الآيات، ليست هي المحافظة عليها، الواردة في هذه الآية.

قال القرطبي: والدوام غير المحافظة، فدوامهم عليها: أن يحافظوا على أدائها، ولا يُخلّون بها، ولا يشغلهم عنها شاغل.

ومحافظتهم عليها: أن يراعوا إسباغ الوضوء لها ومواقيتها، وقيموا أركانها، ويكملوها بسنتها وآدابها، ويحفظوها من اقتراف الآثام، فالدوام يرجع إلى نفس الصلوات، والمحافظة

(١) ينظر: نص الحديث في البخاري (٦٤٢٨، ٢٦٥١)، ومسلم (٢٥٣٥).

(٢) اتفق القراء على قراءة ﴿صَلَاتِهِمْ﴾ بالإنفراد.

ترجع إلى أحوالها^(١).

وقد بُدئت هذه الصفات بالصلاة وختمت بالصلاة.

ثم بين الله سبحانه أن المتصفين بهذه الأوصاف الجليلة، مستقرون في جنات النعيم، مكرّمون فيها بكل أنواع التكريم والملاذ والمشتهيات، تستقبلهم الملائكة بالحفاوة والتكريم وتقول لهم ﴿سَلَامٌ عَلَيْكُمْ بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ﴾ [الرعد: ٢٤].

وهكذا ختم الله صفات المؤمنين في سورة (المؤمنون) بقوله ﴿أُولَئِكَ هُمُ الْوَارِثُونَ﴾^(١٠) الَّذِينَ يَرِثُونَ الْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿[١١، ١٠].

وختم صفات المتقين في سورة البقرة بقوله ﴿أُولَئِكَ عَلَى هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [لقمان: ٥].

وهكذا: فقد وصف الله المؤمنين بأداء العبادات البدنية كالصلاة والمحافظة . عليها ووصفهم بأداء العبادات المالية كالزكاة والنفقة، ووصفهم بالأعمال القلبية كالخشية والخوف، ووصفهم بالعقائد الصحيحة والأخلاق الفاضلة، وحسن التعامل مع الله ومع الناس، وحفظ العهود وأداء الأمانة وحفظ الفروج ونحو ذلك.

لَا مَطْمَعَ لِكَافِرٍ فِي دُخُولِ الْجَنَّةِ

٣٧، ٣٦ - ﴿قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا قِبَلِكُمْ مَهْطَعِينَ﴾^(١١) عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ عِزِينَ ﴿

أما الكفار فلا مَطْمَعَ لهم في دخول الجنة، فمال هؤلاء الكفرة مسرعين نحوك - يا رسول الله - ماذنين أعناقهم إليك، مجتمعين حولك حِلَقًا حِلَقًا، يسمعون كلامك، ويستهزؤون بك وبأصحابك، فهم يسرعون إلى تكذيبك والاستهزاء بك، ويديمون النظر إليك ويمدّون أعناقهم نحوك، فأئني دافع يدفع الكفار إلى أن يسيروا نحوك مسرعين، مقبلين بأبصارهم عليك.

(١) تفسير القرطبي (١٨/٢٩٢).

(٢) كلمة ﴿قَالَ﴾ مفصولة رسماً، ويجوز الوقف عند الحاجة على ﴿قَمًا﴾ ويبدأ بها.

جاء في سبب نزول الآية: أن المشركين كانوا يجتمعون حول النبي ﷺ ويستمعون إليه، ثم يكذبونه ويستهزؤون به وبالمؤمنين، ويقولون: لئن دخل هؤلاء الجنة كما يقول محمد ﷺ فلندخلنها قبلهم، وليكون لنا فيها أكثر مما لهم^(١). فكان الجواب عليهم: ما لهم ينظرون إليك، ويجلسون عندك، وهم لا ينتفعون بما يسمعون منك^(٢).

قال تعالى: ﴿فَمَا لَهُمْ عَنِ التَّذِكْرِ مُعْرِضِينَ ﴿٣٨﴾ كَانَتْهُمْ حُمْرٌ مُّسْتَنْفِرَةٌ﴾ [المذثر: ٤٩، ٥٠]. وكان المشركون أيضاً يتجمعون عن يمين النبي ﷺ وعن شماله حلقاً متعددة، وجماعات متفرقة، يتحدثون ويتعجبون؟ وهم جالسون حوله ﴿عَزِينَ﴾ أي: جماعات ومتفرقين. كما في الحديث عن جابر بن سمرة ؓ أن رسول الله ﷺ خرج على أصحابه يوماً، فرآهم حلقاً فقال: «ما لي أراكم عزين؟ ألا تصفون كما تصف الملائكة عند ربها، قالوا: وكيف تصف الملائكة عند ربها؟ قال: يثيئون الصفوف الأول، ويتراصون في الصف»^(٣). قال تعالى:

٣٨، ٣٩ - ﴿أَطِيعُ كُلَّ أَمْرٍ مِّنْهُمْ أَن يَدْخَلَ جَنَّةَ نَعِيمٍ ﴿٣٨﴾ كَلَّا إِنَّا خَلَقْنَاهُمْ مِّمَّا يَعْلَمُونَ﴾

أي: فبأي سبب يطمع الكفار في دخول الجنة، وهم لم يقدموا سوى الكفر والجحود برب العالمين؟ وكيف يطمع كل واحد من هؤلاء الكفار، أن يدخله الله جنات النعيم مع أنه قد كذب خاتم المرسلين؟ إنهم يطمعون في ذلك جهلاً منهم وغروراً، ولكن جنة الله تعالى لا يدخلها أحد بدون إيمان صادق، ولا عمل صالح.

قال تعالى ردا لمزاعمهم ﴿كَلَّا﴾ أي ليس الأمر كما يزعمون، فإنهم لن يدخلوها أبداً، ثم بين السبب، فقال: ﴿إِنَّا خَلَقْنَاهُمْ﴾ كما خلقنا بني آدم كلهم ﴿مِّن مَّاءٍ مَّهِينٍ﴾ أي من

(١) تفسير الألوسي (٦٤/٢٩) وزاد المسير (٣٥٧/٨) والمستدرک (٥٠٢/٢).

(٢) تفسير الخازن (٣١٠/٤).

(٣) ينظر المسند: (٩٣/٥) برقم (٢٠٨٧٤) بلفظ: «مالى أراكم عزين وهم قعود»، وصحيح مسلم برقم (٤٣٠)، وأبو داود (٤٨٢٣)، والنسائي في السنن الكبرى (١١٦٢٢)، والطبراني (١٨٢٣)، والبخاري (٢٢٢٧).

نطفة قدرة، من ماء دافق يخرج من بين الصلب والترائب، فهم ضعفاء، لا يملكون لأنفسهم نفعا ولا ضرا ولا موتا ولا حياة ولا نشورا، فهم متساوون مع غيرهم في أصل الخلقة، فكيف يطمعون في دخول الجنة بلا إيمان ولا عمل.

قال قتادة: إنما خُلِقْتُ من قدر يا ابن آدم فاتق الله.

وكان أبوبكر إذا خطب، يذكر مني ابن آدم، ومُروِّره من مجرى البول مرتين، وكونه نطفة في الرحم، ثم علقة، ثم مضغة، إلى أن يخرج فيتلوث في نجساته طفلاً، فلا يقلع أبوبكر حتى يستقذر أحدنا نفسه^(١).

وقال علي رضي الله عنه: مال ابن آدم والكبر، أوله نطفة قدرة، وآخره جيفة مذرة، وبين الإثنين حامل العذرة. وهو البطن الذي يحمل الغائط.

وكيف يتطلع الكفار إلى التميز على غيرهم، ويدعون أنهم سيدخلون الجنة قبل المؤمنين؟ بل سيكون مأواهم جهنم وبئس المصير.

عن بشر بن جحاش القرشي رضي الله عنه قال: تلا رسول الله ﷺ هذه الآية .. ثم بزق في كفه ووضع عليها إصبعه ثم قال: يقول الله: (يا ابن آدم أني تعجزني، وقد خلقتك من مثل هذه، حتى إذا سويتك وعدلتك، مشيت بين بُردين، وللأرض منك وئيد - يعني شكوى - فجمعت ومنعت، حتى إذا بلغت التراقي قلت: أتصدق، وأنني أوان الصدقة)^(٢).

وفي معنى الآية قوله تعالى ﴿أَلَمْ نَخْلُقْكَ مِنْ مَّاءٍ مَّهِينٍ﴾ [المرسلات: ٢٠].

وقوله جل شأنه: ﴿فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ مِمَّ خُلِقَ﴾ ⑤ خُلِقَ مِنْ مَّاءٍ دَافِقٍ ⑥ يَخْرُجُ مِنْ بَيْنِ الصُّلْبِ وَالتَّرَائِبِ ⑦

[الطارق: ٥-٧].

(١) تفسير ابن عطية (٣٧٠/٥).

(٢) قال الحاكم في المستدرک (٥٠٢/٢): هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه، وصححه الذهبي، وأخرجه ابن ماجه برقم (٢٧٠٧)، قال البوصيري في الزوائد: إسناده صحيح ورجاله ثقات، وقال الألباني في الأحاديث الصحيحة برقم (١٠٩٩) إسناده حسن، وهو في المسند (١٧٨٤٢، ١٧٨٤٥) بإسناد حسن، صححه البوصيري في مصباح الزجاجة ورقة (١٧٣)، وعند ابن ماجه (٢٧٠٧)، وابن سعد (٤٢٧١٧).

وقال سبحانه: ﴿أَوَلَمْ يَرِ الْإِنْسَانُ أَنَّا خَلَقْتَهُ مِنْ نُطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُبِينٌ ۝۷۷﴾ وَصَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَنْ يُعِى الْعِظَمَ وَهِيَ رَمِيمٌ ۝۷۸﴾ قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ ﴿[يس: ٧٧-٧٩] .

التَّهْدِيدُ وَالْوَعِيدُ لِمَنْ كَذَّبَ بِالْيَوْمِ الْآخِرِ

٤٠، ٤١ - ﴿فَلَا أَقْسِمُ رَبِّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ إِنَّا لَقَدِيرُونَ ۝٤٠﴾ عَلَى أَنْ تَبْدِلَ خَيْرًا مِنْهُمْ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ ﴿

ثم أقسم سبحانه وتعالى: على إمكانية إعادة الخلق، وعلى استبدال الكافرين بآخرين هم أطوع منهم لله تعالى ﴿فَلَا أَقْسِمُ﴾ اللام مؤكدة للقسم ﴿رَبِّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ﴾ أي رب العالم كله، لأن العالم منحصر في جهات شروق الشمس وغروبها، وهذا شامل للشمس والقمر والكواكب وما فيها من الآيات الباهرة، وهذا القسم على البعث وعلى قدرته تعالى على تبديل أمثال المنكرين له، كما قال تعالى: ﴿وَنُنشِئُكُمْ فِي مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ وذكر المشارق والمغارب بالجمع، باعتبار تعدد مطالع الشمس ومغاربها في فصول السنة، ويمكن أن يكون الجمع باعتبار مشارق الشمس والقمر والكواكب ومغاربها.

وجاء في سورة الرحمن ﴿رَبُّ الْمَشْرِقَيْنِ وَرَبُّ الْمَغْرِبَيْنِ﴾ [آية: ١٧] باعتبار الشتاء والصيف.

وفي سورة المزمل ﴿رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ﴾ [آية: ٩] أي جهة الشروق وجهة الغروب.

والمقسم عليه قوله تعالى: ﴿إِنَّا لَقَدِيرُونَ ۝٤٠﴾ عَلَى أَنْ تَبْدِلَ خَيْرًا مِنْهُمْ ﴿أي قادرون على إهلاكهم واستبدالهم بقوم أفضل منهم وأطوع لله، وذلك بتبديل ذواتهم خلقاً آخر، أو بخلق خير منهم، كما قال تعالى ﴿إِنْ يَشَاءُ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ ۝١٦﴾ وَمَا ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ بِعَزِيزٍ ﴿[فاطر: ١٦، ١٧] .

وقال سبحانه: ﴿وَإِنْ تَتَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوا أَمْثَلَكُمْ﴾ [محمد: ٣٨] .

وقال عز وجل: ﴿إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ أَيُّهَا النَّاسُ وَيَأْتِ بِآخَرِينَ ۚ وَكَانَ اللَّهُ عَلَى ذَلِكَ قَدِيرًا﴾ [النساء: ١٣٣] .

وقال أيضاً: ﴿إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَسْتَخْلِفْ مِنْ بَعْدِكُمْ مَا يَشَاءُ﴾ [الأنعام: ١٣٣] .

وإذا أراد الله تعالى هلاك الكافرين واستبدالهم بأفضل منهم، فإنه لا يوجد ما يمنع

ذلك، وهو أمر يسير لا يعجز الله تعالى إذا أراد ذلك، وهذا معنى: ﴿وَمَا تَحْنُ يَسْبِقُونَ﴾، أي لا يوجد من يسبقنا ويفوتنا أو يعجزنا إذا أردنا أن نعيده.

والمسبوق هو المغلوب على أمره، والله تعالى لا يغلبه غالب، ولا يسبقه شيء إلى إرادته، فإذا أراد شيئاً قال له: كن فيكون، فلا يفوته شيء ولا يعجزه أمر، سبحانه وتعالى. قال تعالى متوعداً ومهدداً:

٤٢ - ﴿فَذَرَهُمْ يَخُوضُوا وَيَلْعَبُوا حَتَّى يُلَاقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِي يُوْعَدُونَ﴾

وبعد أن رد القرآن على قول المشركين: إنا سندخل الجنة قبل المؤمنين، أمر الله رسوله أن يتركهم في طغيانهم يعمهون، فإنهم مصرّون على العناد، ولن يدخل الهدى قلوبهم ﴿فَذَرَهُمْ﴾ أي اتركهم ﴿يَخُوضُوا﴾ في باطلهم بالأقوال الباطلة والعقائد الفاسد ﴿وَيَلْعَبُوا﴾ في دنياهم، فياكلوا ويتمتعوا ويلعبوا بدينهم واشتغل أنت بتبليغ الدعوة، فإنه لا فائدة تُرجى منهم، فليستمرّوا على ما هم فيه من باطل ﴿حَتَّى يُلَاقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِي يُوْعَدُونَ﴾ فيه بالعذاب، فإن الله قد أعد لهم من العقاب ما يكافئ خوضهم ولعبهم. وفي هذا تهديد ووعيد لهم بما يحدث لهم يوم القيامة من سوء المصير.

وفي سورة الطور ﴿فَذَرَهُمْ حَتَّى يُلَاقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِي فِيهِ يُصْعَقُونَ﴾ [آية: ٤٥].

ومثل ذلك قوله تعالى ﴿فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسْرَتٍ﴾ [فاطر: ٨].

وَصَفَّ الْكَافِرِينَ حِينَ يَخْرُجُ مِنْ قَبْرِهِ إِلَى الْمَحْشَرِ

٤٣ - ﴿يَوْمَ يَخْرُجُونَ مِنَ الْأَجْدَاثِ سِرَاجًا كَانَتْهُمْ إِلَى نَضَبٍ يَوْمَئِذٍ﴾

وهذا اليوم الذي يلقوا فيه العذاب الموعود به، هو يوم القيامة حين تخرج أجسادهم من قبورهم ﴿يَوْمَ يَخْرُجُونَ مِنَ الْأَجْدَاثِ﴾ وهي القبور ﴿سِرَاجًا﴾ أي مسرعين مجيبين لدعوة

(١) قرأ أبو جعفر (يُلَاقُوا) مضارع لقي، والباقون ﴿يُلَاقُوا﴾ من الملاقة.

(٢) قرأ ابن عامر وحفص بضم النون والصاد من ﴿نَضَبٍ﴾ جمع نَضَبٍ أو نَضَابٍ، والباقون (نَضَبٍ) اسم مفرد، بمعنى منصوب للعبادة.

الداعي، كما كانوا وهم في الدنيا يذهبون إلى آلهتهم التي يعبدونها من دون الله، وهذا معنى قوله تعالى ﴿كَانَتْهُمْ إِلَٰهٌ يُصْبِحُونَ﴾ أي يَهْرَوُلُونَ ويسرعون متسابقين إلى أماكن عبادتهم، كما قال تعالى: ﴿يَخْرُجُونَ مِنَ الْأَجْدَاثِ كَانَتْهُمْ حَرَادٌ مُنْتَشِرَةٌ﴾ [القمر: ٧].

قال تعالى يصف حالهم عند الخروج من القبور:

٤٤ - ﴿خَشَعَةً أَبْصَرُهُمْ زَهْفُهُمْ ذَلَّةٌ ذَلِكَ الْيَوْمُ الَّذِي كَانُوا يُوعَدُونَ﴾

أي: ثم إن الكفار يخرجون من قبورهم، وأبصارهم منكسرة على الأرض، تغشاهم شدة المهانة والقلق والحقارة ﴿خَشَعَةً﴾ أي ذليلة ﴿زَهْفُهُمْ زَهْفُهُمْ﴾ أي تغشاهم وتعلوهم ﴿ذَلَّةٌ﴾ لا يمكن دفعها، وهذا هو اليوم الذي وعدوا فيه بالعذاب على ألسنة الرسل وهم في الدنيا ﴿ذَلِكَ الْيَوْمُ الَّذِي كَانُوا يُوعَدُونَ﴾ أي هذا هو اليوم الذي سأل عنه سائل في أول السورة، وهذا هو العذاب الواقع، وهذا هو اليوم الذي مقداره خمسين ألف سنة، وهذا هو اليوم الذي أنكروه وهم في الدنيا، فاستهزؤوا به، واستبعدوه، فاليوم يرون جزاءهم وعقابهم. وقد ختمت السورة بالإجابة عما جاء في بدايتها.

تم تفسير (سورة الماعز) والله الحمد والمنة

تَفْصِيرُ سُورَةِ نُوحٍ (٧١)

مُقَدِّمَةُ السُّورَةِ

(سورة نوح) هي السورة الحادية والسبعون في ترتيب المصحف، والثالثة والسبعون في ترتيب النزول، نزلت بعد (سورة النحل) وقبل (سورة الطور)، أو إبراهيم. وعدد آياتها في العدد الكوفي ثمان وعشرون آية^(١). وهي مئتان وأربع وعشرون كلمة، وتسع مئة وتسعة وتسعون حرفاً. وسميت سورة نوح: لعدم اشتغالها على موضوع آخر سوى قصة نوح عليه السلام. وهي سورة مكية باتفاق. وقد وردت قصة نوح مع قومه في سور: الأعراف ويوسف وهود والشعراء والعنكبوت والقمر.

وجاء ذكر اسم نوح في القرآن في ثلاثة وأربعين موضعاً. وقد تكلمت بالتفصيل عن قصة نوح في سورتي الأعراف وهود بما أغنى عن إعادته. ومن المشتهر أن نوحاً عليه السلام كان يسكن أرض الكوفة بالعراق، وهناك أرسل، واسم نوح غير عربي، وينتهي نسبه إلى شيث بن آدم عليهم السلام. وهو من كبار الرسل وأولي العزم منهم وهم: نوح وإبراهيم وموسى وعيسى ومحمد صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين.

موضوع السورة:

وسورة نوح كسورة يوسف في وحدة الموضوع، ففيها تفصيل لقصة نوح عليه السلام منذ بدء دعوته إلى حادثة الطوفان وإغراق المكذبين، فذكرت جهاده وصبره

(١) وفي العدد المكي والمدني والحمصي ثلاثون آية، وفي العدد البصري والشامي تسع وعشرون آية.

وتضحيته في سبيل تبليغ الرسالة، ودعوته لقومه ليلاً ونهاراً، وسراً وجهاراً، في أطول مدة للرسالة، بلغت تسعة قرون ونصف، وهو زمن طويل، يتسع لازدهار دُول وانهارها، ويتسع لظهور مبادئ وزوالها، ومع ذلك فإن قوم نوح ﷺ ظلوا على ضلالهم، لا يتوبون، ولا يفكرون في توبة، وكان الرجل منهم يأخذ بيد ولده، ويذهب به إلى نوح ﷺ ويقول لابنه: احذر هذا، فإنه كذاب، وإن أبي حذرني منه.

وبعد هذه القرون الطويلة التي أمضاها نوح ﷺ في البلاغ والتذكير، أعلمه ربه أنه لن يؤمن من قومه إلا من قد آمن، وأنهم لن يلدوا إلا فاجراً كفاراً، فدعا عليهم نوح بالهلاك، فأغرقهم الله بالطوفان.

وفي أثناء دعوة نوح لقومه، ظهرت عبادة الأصنام، وبدأ منشؤها في العالم، وكان من وسائل الإيضاح التي استخدمها نوح عليه السلام في دعوة قومه، أن عرض عليهم بعض دلائل التوحيد وآثار قدرة الله تعالى في هذا الكون، وهي موجبة لتوحيده جل شأنه ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا كَيْفَ أَخْلَقَ اللَّهُ سَبْعَ سَمَوَاتٍ طِبَاقًا ۖ ﴿١٥﴾ وَجَعَلَ الْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا وَجَعَلَ الشَّمْسُ سِرَاجًا ۖ ﴿١٦﴾ وَاللَّهُ أَنْبَتَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ نَبَاتًا ۖ ﴿١٧﴾ ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيهَا وَيُخْرِجُكُمْ إِخْرَاجًا ۖ ﴿١٨﴾ وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ بِسَاطًا ۖ ﴿١٩﴾ لَتَسْلُكُوا مِنْهَا سُبُلًا فِجَاجًا ۖ﴾ [الآيات: ١٥-٢٠].

وقد أرست سورة نوح أصول العقيدة وثبتت قواعد الإيمان، وأشارت إلى عذاب القبر واليوم الآخر، وقد بين نوح ﷺ لقومه أن توحيد الله تعالى هو الأصل والأساس في دعوة الرسل، فذكر لهم خمسة من آثار قدرته تعالى وهي:

- ١- مغفرة الذنوب.
- ٢- وتهيئة أسباب الرزق.
- ٣- وكثرة الأموال والأولاد.
- ٤- وكثرة المزارع والبساتين.
- ٥- وتفجير المياه العذبة من الأنهار والعيون.
- ثم أقام نوح لقومه سبعة أدلة على وحدانية الله تعالى وهي:
- ١- تدرج خلقهم.
- ٢- وخلق السبع الطباق.

٣- وجعل القمر نوراً.

٤- والشمس ضياء.

٥- وإخراجهم من الأرض.

٦- وعودتهم إليها.

٧- وتمهيد الأرض للسعي في مناكبها.

وقد تلوّنت حكاية أقوال نوح، وأقوال قومه، وأقوال الله تعالى في السورة، وبلغ

مجمّلها ثمانى مقالات وهى:

١- ﴿أَنْ أَنْذِرَ قَوْمَكَ﴾ [الآية: ١].

٢- ﴿قَالَ يَنْفُورِ إِنِّي لَكُمُ نَذِيرٌ مُبِينٌ﴾ [الآية: ٢].

٣- ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلًا وَنَهَارًا﴾ [الآية: ٥].

٤- ﴿فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ﴾ [الآية: ١٠].

٥- ﴿قَالَ نُوحٌ رَبِّ إِنِّهْم عَصَوْنِي﴾ [الآية: ٢١].

٦- ﴿وَلَا نَزِدُ الظَّالِمِينَ إِلَّا ضَلَالًا﴾ [الآية: ٢٤].

٧- ﴿وَقَالَ نُوحٌ رَبِّ لَا تَذَرْنِي عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا﴾ [الآية: ٢٦].

٨- ﴿رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلِوَلَدَيَّ﴾ [الآية: ٢٨].

هذا: وإن وحدانية الله تعالى أمر مركوز في فطر البشر، بمقتضى الميثاق المأخوذ عليهم وهم في عالم الذر، ولكن هذا الإيمان يحتاج إلى جهد بشري لإقراره في النفوس، وقد اختار الله تعالى لهذه المهمة صفوة من البشر، أرسلهم إلى خلقه، عندما انحرف الناس عن هذه الفطرة.

وقوم نوح عليه السلام هم أول من عبد الأصنام، وكان الناس قبل ذلك أمة واحدة على دين واحد، هو التوحيد، ثم بدأ الاختلاف في التوحيد من عهد نوح عليه السلام، وكانت المدة بين آدم ونوح عليهما السلام نحو ست مئة عام، وكان عدد الناس وقتئذ لا يتجاوز بضعة آلاف.

تَفْسِيرُ السُّورَةِ

دَعْوَةُ شَيْخِ الْمُرْسَلِينَ قَوْمَهُ إِلَى إِخْلَاصِ التَّوْحِيدِ وَالْخَوْفِ مِنَ اللَّهِ تَعَالَى

١- ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ أَنْ أَنْذِرْ قَوْمَكَ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾

يخبر الله تبارك وتعالى أنه أرسل نوحاً إلى قومه، رحمة بهم وإنذاراً لهم من عذاب مؤلم، وخوفاً عليهم من استمرارهم على الكفر، فيهلكهم الله ويستأصل شأفتهم. وقال له: حذر قومك وخوفهم عذاب الله كي يتركوا عبادة الأصنام ويتوجَّهوا إلى عبادة الله وحده قبل أن ينزل بهم عذاب لا طاقة لهم بدفعه، هو عذاب الطوفان في الدنيا وعذاب النار في الآخرة، فالمراد بالعذاب في الآية: عذاب الدنيا والآخرة معاً.

وقد أمر الله نوحاً أن ينذر قومه قبل حلول العذاب بهم، حال بقائهم على الشرك، وبشرهم نوح عليه السلام، إن هم آمنوا واتقوا الله وتركوا عبادة الأوثان، فإن الله تعالى سيغفر لهم ما فرط من ذنوبهم، ويطيل في أعمارهم على طاعة الله تعالى، ويمتّعهم بما سخر لهم من خيرات في هذه الحياة إلى الوقت المضروب لموتهم.

امْتَثِلْ نُوحٌ أَمْرَ رَبِّهِ فِدَعَا قَوْمَهُ إِلَى تَوْحِيدِ اللَّهِ

٢، ٣- ﴿قَالَ يَنْفِرُوا بِيَ لَكُمْ نَذِيرٌ مُبِينٌ ﴿٢﴾ أَنْ أَعْبُدُوا اللَّهَ وَأَتَّقُوهُ وَأَطِيعُوا (٣)﴾

بين سبحانه وتعالى في هذه الآيات جانباً من دعوة نوح ﷺ إلى قومه، وما ترتب على عدم إجابتهم له، فقد أمرهم بعبادة الله وحده، والخوف من عقابه لهم عند مخالفة أمره ونهيه، وعدم طاعته تعالى فيما أمر ونهى.

وقد رتب سبحانه على هذه الأمور الثلاثة، التي هي: عبادة الله تعالى، وتقواه، وطاعته مغفرة الذنوب، ورفع العذاب عنهم إلى أجل محدد.

(١) كسر النون وصلا من ﴿أَنْ أَعْبُدُوا﴾ أبو عمرو وعاصم وحزمة ويعقوب، والباقون بضمها.

(٢) قرأ يعقوب بإثبات ياء بعد النون في ﴿وَأَطِيعُوا﴾ وصلا ووقفاً، والباقون بحذفها في الحالين.

قال نوح لقومه: أنا أبلغكم رسالة ربي، وأخوفكم عذابه المؤلم، إن عصيتموه فلم تؤخّذوه ولم تطيعوه، وأبين لكم مافيه نجاتكم إن أدبتم حق الله عليكم، فامثلتم أمره واجتنبتم نهيه، وإنذار نوح لقومه امثالاً لقول الله تعالى له ﴿أَنْذِرْ قَوْمَكَ﴾ بما فيهم أبناؤه وقرباته وأحبته، وهو إنذار واضح لما أنذر به وأنذر عنه، وبامثال هذا الإنذار تحصل النجاة من النار والفوز بالجنة.

وكان نوح شديد الحرص على نجاتهم من العذاب، وكان الكفر قد شاع في زمانه، واشتهر قومه بعبادة الأصنام، وأكثروا من الظلم والبغي.

ثم أمر نوح قومه بالعبادة والتقوى والطاعة لله تعالى فقال:

١- ﴿أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ﴾ أي وحدوه، وأدوا حقه عليكم، ولا تشركوا به شيئاً، وأخلصوا له العبادة، وحده بعيداً عن الشرك ووسائله وطرقه.

٢- ﴿وَاتَّقُوا﴾ أي اتركوا ما حرم الله تعالى، واجتنبوا ما يوقعكم في عذابه، وخافوه في كل أقوالكم وأفعالكم، فإنكم إن فعلتم ذلك غفر الله لكم ذنوبكم، وحصل لكم النجاة من الفار والفوز بالجنة وطاعتي طاعة لله تبارك وتعالى.

٣- ﴿وَأَطِيعُوا﴾ أي في كل ما أمركم به وأنهاكم عنه، فإني رسول الله إليكم.

وفي الآية أمر بطاعة النبي ﷺ بعد الأمر بعبادة الله تعالى وتقواه، لأن طاعتهم للنبي ﷺ طاعة لله تعالى، كما قال سبحانه ﴿مَنْ يُطِيعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ﴾ [النساء: ٨٠].

وقال هنا على لسان نوح عليه السلام: ﴿وَأَطِيعُوا﴾ وقد نسب الطاعة إلى نفسه؛ لأن الطاعة قد تكون لغير الله تعالى، بخلاف العبادة فإنها لا تكون إلا لله وحده.

وقد أرسل الله المرسلين كي يُعبد الله وحده، وتُتقى محارمه، ويطاع أمره ويجتنب نهيه.

مَا يَتَرْتَبُ عَلَى إِخْلَاصِ التَّوْحِيدِ وَالْعِبَادَةِ

٤- ﴿يَغْفِرْ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ وَيُخْرِجْكُمْ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى إِنَّ أَجَلَ اللَّهِ إِذَا جَاءَ لَا يُؤَخَّرُ﴾^(١) لَوْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿

(١) قرأ ورش وأبوجعفر بإبدال الهمزة واواً وصلاً ووقفاً، وحمزة وقفاً فقط في ﴿يُؤَخَّرُكُمْ﴾ و﴿لَا يُؤَخَّرُ﴾.

ثم بشر نوح قومه بأنهم إن فعلوا ذلك فعبدوا الله تعالى واتقوه وأطاعوه، فإن ذنوبهم التي اقترفوها قبل أن يؤمنوا، يصفح الله تعالى عنها فيما يتعلق بحقوقه تعالى، فقال: ﴿يَغْفِرْ لَكُمْ مِّنْ ذُنُوبِكُمْ﴾ أي يكفر عنكم سيئاتكم التي سلفت قبل طاعة الله والرسول وإجابة دعوته، ولفظ ﴿مِّنْ﴾ في الآية للتبعض، لأن الإسلام يجب ما قبله من الذنوب دون ما بعده، هذا أمر.

والأمر الآخر: أن الله تعالى يؤخر عقابكم إلى وقت معين، علمه عند الله سبحانه، وبارك لكم في أعماركم ويزيد فيها، وهذا معنى: ﴿وَيُؤَخِّرْكُمْ﴾ أي يطيل أعماركم ويمتدكم في هذه الدار ويدفع عنكم العذاب ﴿إِلَّا أَجَلٌ مُّسَمًّى﴾ هو منتهى أعماركم في الدنيا، ويكون ذلك بقضاء الله وقدره، ولا يكون هذا المتاع أبدا الدهر فإن الموت آت لا محالة، ولذا ختم الله الآية بقوله: ﴿إِنَّ أَجَلَ اللَّهِ﴾ وهو الموت ﴿إِذَا جَاءَ﴾ وأنتم باقون على الكفر أو غير باقين عليه، فإنه ﴿لَا يُؤَخَّرُ﴾ أبداً بل يقع لا محالة، و ﴿لَوْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ ذلك لما كفرتم بالله ولما عاندم الحق، ولأجبت داعي الله، وانقذتم لأمره، ولسارغتم وبادرتم إلى الإيمان والطاعة واستجبت لنصائحي وامثلتم أمري.

والمعنى: آمنوا - أيها الناس - قبل الموت تسلموا من العذاب، فإن الموت إذا جاء فلا سبيل لإمهاله، فبادروا بالطاعة في وقت المهلة، فإنكم إن آمتم يتبين لكم أنكم ممن قضي لهم بالإيمان والتأخير، وإن لم تؤمنوا يتبين لكم أنكم ممن قضي لهم بالكفر والتعجيل. والأجل المذكور في الآية هو الأجل المسمى، الذي هو أجل كل نفس عند الله تعالى.

وقد أندر نوح قومه باستئصال الله لهم إن ظلوا على كفرهم، وعندما جاءهم الطوفان كانوا على علم بذلك، ونظير هذه الآية قوله تعالى ﴿وَأَنِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُغْفِرْكُمْ مِّنْ ذُنُوبِكُمْ وَأَنَّهٗ يُعَذِّبُهُمْ وَأَنَّهٗ يُغْفِرُهُمْ﴾ [هود: ٣].

وقد حدد الله تعالى لهلاك قوم نوح وقتاً معيناً هو وقت أمر الله بالطوفان الذي عم المعمورة، وهذا الوقت لم يتقدم ولم يتأخر، وتقدير الآجال في علم الله تعالى لا يتغير، كما قال تعالى: ﴿وَمَا يَعْزُبُ عَنْهُ مِغْزِيهِمْ وَلَا يُنْظَرُ إِلَيْهِ سَاعَةً﴾ [فاطر: ١١].

قال سبحانه: ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ فَإِذَا جَاءَ أَجْلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ﴾ [الأعراف: ٣٤].

أما ربط الأسباب بالمسببات، كترتيب زيادة العمر أو البركة فيه، على صلة الرحم، كما في حديث أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ: «من سره أن يبسط له في رزقه، وأن ينسأ له في أثره فليصل رحمه»^(١). وفي الأثر (صدقة المرء المسلم تزيد في العمر).

فإن هذا ونحوه من باب المخو والإثبات الذي جاء في قوله تعالى ﴿يَمَحُوا اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثَبِّتُ وَعِنْدَهُ أُمُّ الْكِتَابِ﴾ [الرعد: ٣٩].

هذا: وقد تمنى نوح ﷺ أن لو كان قومه يعلمون هذه السنن من عقوبة الأعم والشعوب عندما تخرج عن دين الله وتعصى أمره ونهيه، لآمنوا بنبي الله نوح واتبعوه ووعدهم أن يرسل الله عليهم السماء مدرارا فينتفعون بالمياه في الشرب والزرع وحياة الحيوان، ويجعل لهم البساتين والأنهار العذبة الجارية، وغير ذلك من النعم، إن هم آمنوا وأطاعوه، ولكن القوم لم يتعظوا ولم يعتبروا، وتمادوا في كفرهم:

عَدَمُ جَدْوَى دَعْوَةِ نُوحٍ لِقَوْمِهِ

٦٥- ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلًا وَنَهَارًا ﴿٥﴾ فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَايَ ﴿٦﴾ إِلَّا فِرَارًا ﴿٧﴾﴾

هذه المقالة قالها نوح ﷺ بعد أن طال عمره، وتحقق اليأس من قومه، فقد عرض نوح عليه السلام على ربه عز وجل حصيلة دعوته لقومه بعد ألف سنة إلا خمسين عاما، قضاه مع قومه في جهد مُضْنِي، وعناء مرهق، فذكر أنه دعا قومه إلى توحيد الله تعالى ليلا ونهاراً، وسراً وجهاراً، فلم يزدادوا إلا كفراً وطغياناً ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلًا وَنَهَارًا﴾ وقد بذلت غاية الجهد، واستنفذت جميع الحيل، من غير فتور ولا توان، وتحينت جميع الفرص المناسبة

(١) البخاري (٥٩٨٥)، وجاء عن أنس يرقم (٥٩٨٦)، وفي مسلم (٢٥٥٧).

(٢) قرأ نافع وابن كثير وأبو عمرو وابن عامر وأبو جعفر بفتح ياء الإضافة من ﴿دُعَايَ﴾ وصلوا والباقون بإسكانها.

(٣) قرأ الأزرق عن ورش بترقيق الراء من ﴿فِرَارًا﴾ وكذا ﴿إِشْرَارًا﴾ و﴿يَذْرَارًا﴾ بعد ذلك، وتفخم لسائر القراء حتى لا تكور.

في وقت النشاط والراحة، والإسرار تارة، والإعلان أخرى، فدعوتهم إلى ما أمرتني أن أدعوهم إليه من الإيمان والتوحيد، دعاء دائماً في الليل والنهار من غير تقصير. وقد رأى نوح قوماً، تجزعت أعناقهم حرصاً على الدنيا، فقال: هلموا إلى طاعة الله، فإن فيها درك الدنيا والآخرة.

﴿فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَايَ﴾ لهم بأن يعبدوا الله تعالى ويطيعوه ﴿إِلَّا فِرَارًا﴾ أي هرباً وإعراضاً عن الدعوة، وبُعْداً عن الإيمان والهدى مع وضوح الأدلة وقيام الحجج. وهذا تمهيد من نوح عليه السلام لطلب النصرة عليهم من الله تعالى. قال قتادة: بلغني أنه كان يذهب الرجل بابنه إلى نوح، فيقول لابنه: احذر هذا لا يَغُرَّتْكَ، فإن أبي قد ذهب بي، وأنا مثلك، فحذرنى كما حذرتك^(١).

نُوحٌ يَصِفُ إِعْرَاضَ قَوْمِهِ عَنْهُ بِأَرْبَعَةِ أَوْصَافٍ فَيَقُولُ

٧- ﴿وَإِنِّي كَلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوا أَصْبِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ وَاسْتَغْشَوْا ثِيَابَهُمْ وَأَصْرُوا وَاسْتَكْبَرُوا اسْتِكْبَارًا﴾

واسترسل نوح عليه السلام في بيان خلاصة تجربته في الدعوة لمدة تسعة قرون ونصف فقال: ﴿وَإِنِّي كَلَّمَا دَعَوْتُهُمْ﴾ إلى سبب المغفرة، وهو الإيمان بالله تعالى، وإخلاص العبادة له دون سواه، وطاعتي فيما أمرتهم به ليكون ذلك سبباً في محو ذنوبهم لم يزدهم ذلك إلا نفوراً أو إعراضاً، عن الحق وتمادياً في الباطل. ثم صور نوح عليه السلام عناد قومه وجحودهم للحق تصويراً بالغ الغاية في استحبابهم العمى على الهدى. فوصفهم بأربعة أوصاف:

الوصف الأول: أنهم ﴿جَعَلُوا أَصْبِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ﴾ أي وضعوا أصابعهم في آذانهم كي لا يسمعوا قولي، إعراضاً عن الحق، وقد جرت عادة بعض الناس إذا أراد أن يظهر كراهيته لكلام من يتكلم: أن يجعل أصبعه في أذنيه.

(١) أخرجه عبد الرزاق (٣١٩/٢).

وهكذا يقول المعرضون عن القرآن ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَسْمَعُوا لِهَذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [فصلت: ٢٦].

وقد وصف الله المنافقين بقوله ﴿يَجْعَلُونَ أَصْنَعَهُمْ فِيءًا ذَاتَهُمْ مِنْ الصَّوَاعِقِ حَذَرَ الْمَوْتِ﴾ [البقرة: ١٩].
الوصف الثاني: ﴿وَأَسْتَغْشَوْا ثِيَابَهُمْ﴾ أي غطّوا وجوههم بثيابهم وجعلوها أغشية على رؤوسهم كي لا يروا مَنْ يتلو القرآن عليهم، كراهية النظر إليه، بعداً عن الحق وبغضاً له، وهذا من عادة بعض الناس، يسرّ عينيه بمنديل أو بطرف ثوبه، حتى لا يرى من ينصحه أو يتلو عليهم كتاب الله تعالى، وهذا يدل على شدة العداوة ومنتهى الإعراض.

الوصف الثالث: أنهم ﴿وَأَصْرُوا﴾ على الكفر والشرك، والاستمرار عليه، فأقاموا على ما هم فيه من الشرك وعبادة الأوثان، والإصرار هو العزم وعقد النية على الشيء.

الوصف الرابع: جاء في قوله تعالى: ﴿وَأَسْتَكْبَرُوا اسْتِكْبَارًا﴾ أي استكبروا عن قبول الحق استكباراً شديداً، فازداد شرهم، وبغد خيرهم، ومن مبالغتهم في التكبر أنهم قالوا: ﴿مَا نَزَّلَكَ إِلَّا بَشَرًا مِثْلَنَا وَمَا نَزَّلَكَ أَتَبَعَكَ إِلَّا الَّذِينَ هُمْ أَرَأَيْنَا بُادِئَ الرّأْيِ وَمَا زَيَّ لَكُمْ عَلَيْنَا مِنْ فَضْلٍ بَلْ نَظُنُّكُمْ كَاذِبِينَ﴾ [هود: ٢٧].

وجملة ﴿كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ﴾ تدل على أنّ هذا الذي حدث لنوح عليه السلام يشمل كل دعوة، ويتكرر في كل وقت، على أيدي الدعاة إلى الله تعالى.

نُوحٌ يُنَوِّعُ أَصَالِيْبَ الدَّعْوَةِ: فَيُحَذِّرُ وَيُنذِرُ، وَيُرْغِبُ وَيُرْهَبُ فَيَقُولُ:

٩، ٨ - ﴿ثُمَّ إِنِّي دَعَوْتُهُمْ جَهَارًا ۝٨ ثُمَّ إِنِّي أَتْلُو لَّهُمْ وَاسْتَرْتُ لَهُمْ إِسْرَارًا﴾

أي أن نوحاً عليه السلام نوّع دعوته لقومه، وتوخّى ما يظنه أقرب إلى قلوبهم، فجهر بالدعوة في المجامع العامة حين يكون الجهر أجدى، وأسرّ بالدعوة لمن كان الإسرار مناسباً لحاله، لقد دعاهم إلى الإيمان والتوحيد علناً في غير خفاء، فظهرت دعوته للجميع، ثم قال ما معناه:

(١) فتح نافع وأبو عمرو وأبو جعفر ياء الإضافة وصلوا من ﴿إِنِّي أَتْلُو لَّهُمْ﴾ وسكنها الباقون.

ثم إني كررتُ دعوتي لهم بالتوحيد مُعلنًا ذلك بأعلى صوتي تارة، وفي حالة أخرى أسررتُ لهم بالدعوة، بصوت خفي عندما توقَّعتُ أن ذلك أجدى.

لقد سلك نوح مع قومه طريقة السر المحضة، ثم طريقة الجهر المحضة، ثم اتخذ طريقًا ثالثًا فصار يجهر بالدعوة مرة ويسرها مرة حيث يرى الأنفع، فسلك معهم كل طريق، كما يفعل الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، فيبدأ بالأهون، ثم الأقوى فالأقوى، دعاهم سرًا، ثم جهرًا، ثم جمع بين السر والعلن، فنوّع الدعوة إلى قومه، وفاوت بين الأساليب، فمرة يخوف، وأخرى يُبشِّر ومرة يشتد، وأخرى يلين، ومرة يُذكرهم بالنعم، وأخرى يذكرهم بآيات الله في الآفاق وفي أنفسهم، فلم تنفعهم الموعظة، ولم تُفدِّهم الذكرى، فمكروا بدعوته، وأصروا على عصيانه ومخالفته، وأوصى بعضهم بعضًا بالتمسك بالباطل وعبادة الأصنام.

كَثْرَةُ الْاسْتِغْفَارِ سَبَبٌ لِسَعَةِ الرِّزْقِ وَهَنَاءِ الْعَيْشِ

١١، ١٠ - ﴿فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا ﴿١٠﴾ يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا ﴿١١﴾﴾

ثم وضح نوح عليه السلام ما وعظ به قومه وأرشدهم إليه سرا وعلانية: حيث طلب منهم أن يستغفروا الله، ويتوبوا إليه من شركهم، فإنهم إن فعلوا ذلك غفر الله لهم ذنوبهم، ورزقهم من حيث لا يحتسبوا، وغمرتهم الخيرات من فوقهم ومن تحت أرجلهم. وبعد ذلك وبخهم وعنفهم على عدم خوفهم من عظمة الله سبحانه، وهكذا فقد ذكرهم نوح عليه السلام بكثرة الاستغفار وبين لهم ما يترتب عليه من كثرة الأرزاق وهناء العيش:

الاستغفار من الشرك:

والمراد بالاستغفار: التوبة والرجوع عن الكفر إلى الإيمان، فإنهم إن أقبلوا عن كفرهم، وآمنوا بربهم، يغفر الله لهم ما سلف من كفرهم وشركهم، كما قال تعالى: ﴿قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ يَنْتَهُوا يُغْفَرْ لَهُمْ مَا قَدْ سَلَفَ﴾ [الأنفال: ٣٨] وكما دعا سبحانه وتعالى

المشركين القائلين: عزيز ابن الله، والمسيح ابن الله، إلى التوبة من شركهم، فإن هم فعلوا ذلك قبل الله توبتهم وغفر لهم ذنوبهم، فقال تعالى عنهم ﴿أَفَلَا يَتُوبُونَ إِلَى اللَّهِ وَيَسْتَغْفِرُونَهُ وَاللَّهُ عَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [المائدة: ٧٤]، وهكذا يغفر الله للكافر والمشرِك إذا هو تاب من شركه وكفره قبل الموت.

جاء عن سلمان: أكثروا من الاستغفار، فإن الله لم يعلمكم الاستغفار، إلا وهو يريد أن يغفر لكم^(١)، ومن ذلك: الاستغفار من سائر الذنوب والمعاصي، والاستغفار تعبداً لله تعالى، وقد رتب الله تعالى على كثرة الاستغفار أربعة أمور:

أولها: تهيئة أسباب الرزق: وبعد قبول التوبة ومغفرة الذنوب فإن الله تعالى: ﴿يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكَ مِدْرَارًا﴾ أي مطراً متتابعاً، يروي الشعاب والوهاد، ويسقي العباد والبلاد، وهكذا: يهيء لكم أسباب الرزق، وأهمها نزول الماء، والماء عنصر لابد منه لإخراج الزروع والثمار والنبات من الأرض، ولحياة الإنسان والطيور والحيوان.

والمعنى: يرسل الله المطر عليكم غزيراً متتابعاً لتستفعدوا به في مختلف شؤون حياتكم، ويراد بالسماء في قوله تعالى ﴿يُرْسِلِ السَّمَاءَ﴾ أي المطر.

كما جاء ذلك في حديث زيد بن خالد الجهني ؓ أنه قال: (صلى لنا رسول الله ﷺ صلاة الصبح بالحديبية، على إثر سماء كانت من الليلة)^(٢) أي على إثر مطر نازل من السماء.

وذلك أن قوم نوح لما كذبوا رسولهم زمناً طويلاً، حبس الله عنهم المطر مدة طويلة، حتى هلكت أموالهم ومواشيهم، فقال لهم: استغفروا ربكم من الشرك بالتوحيد، حتى يفتح الله عليكم أبواب الخير والنعمة.

روى الشعبي أن عمر بن الخطاب ؓ، خرج يستسقي بالناس، فلم يزد على الاستغفار حتى رجع^(٣).

(١) أخرجه ابن مردويه كما في الدر المنثور (٧٠٦/١٤).

(٢) الحديث في البخاري (١٠٣٨، ٨٤٦، ٤١٤٧، ٧٥٠٣)، ومسلم (٧١).

(٣) ينظر تفسير ابن كثير (٢٣٢/٨)، وابن عطية (٣٧٤/٥).

وعن بكر بن عبد الله أن أكثر الناس ذنباً، أقلهم استغفاراً، وأكثرهم استغفاراً أقلهم ذنباً^(١).

وعن الحسن أن رجلاً شكاً إليه الجذب، فقال له: استغفر الله، وشكاً آخر إليه الفقر وقلة النسل، واشتكى آخر قلة ريع أرضه، فأمرهم كلهم بالاستغفار، فقال له الربيع بن صبيح: أتاك رجال يشكون أنواعاً، فأمرتهم كلهم بالاستغفار، فتلا هذه الآيات.

ففي الآية دليل على أن الاستغفار من أعظم أسباب حصول الرزق، ويؤخذ منها أن الاشتغال بالاستغفار، سبب لانفتاح أبواب الخير، وأن الكفر سبب لخراب العالم.

قال جل شأنه: ﴿مَنْ عَمِلْ صَالِحًا مِّنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهٗ حَيَوةً طَيِّبَةً﴾ [النحل: ٩٧].

وإذا كان واقع الحياة يشهد بأن الدول غير المسلمة أكثر أمنًا وسعادة ورفاهية، فإن ذلك من باب الامتحان والابتلاء، وتعليمنا ضرورة الأخذ بالأسباب، وهذا لا يتعارض مع كون العاقبة الطيبة لعباد الله المؤمنين، وأنهم في الدنيا أكثر اطمئناناً وسعادة من أهل القلق النفسي، والشقاء القلبي، والاكتئاب والاضطراب الذي يعيشه غيرهم.

وَتَأْتِيهَا: كَثْرَةُ الْأَمْوَالِ وَالذَّرِّيَّةِ

١٢- ﴿وَيُمْدِدْكُمْ بِأَمْوَالٍ وَيَبْنِ وَيَجْعَلْ لَّكُمْ جَنَّاتٍ وَيَجْعَلْ لَّكُمْ أَنْهَارًا﴾

أي: وفضلاً عن مغفرة الذنوب، وتيسير أسباب الرزق، فإن الله تعالى يرزقكم بالأموال والبنين التي تدركون بهما من الدنيا ما تطلبون.

وثالثها: ﴿وَيَجْعَلْ لَّكُمْ جَنَّاتٍ﴾ أي بساتين من أشجار مظلة، وحدائق ذات نخيل وأعنان تتمتعون بشمارها وجمالها.

ورابعها: ﴿وَيَجْعَلْ لَّكُمْ أَنْهَارًا﴾ تجري من خلال البساتين، تشربون منها، وتسقون منها رزقكم ومواسيكم، وهذا أبلغ ما يكون من لذائذ الدنيا ومطالبها.

(١) تفسير الخازن (٤/٣١٢).

في رحاب دعوة نوح لقومه:

ونوح عليه السلام يُحزّك دواعي الإيمان في نفوس قومه بما جُبل عليه الإنسان من محبة الأموال والبنين والحدائق والمياه • بعد أن وُضّح لهم خلاصة الدعوة إلى الله تعالى في جميع الأجيال، وهي عبادة الله تعالى، وتقواه، وطاعة رسوله.

لقد أطمع نوح قومه بنزول المطر الغزير المتتابع، وكثرة الأموال والأولاد وكثرة الحدائق والبساتين الواسعة الفسيحة، ذات الأشجار المظلة المثمرة والأنهار العذبة التي تتخللها، أطمعهم في بركات الأرض والسماء إن هم آمنوا بالله الذي بيده مفاتيح خزائن الأرض والسماء.

وأثاهم نوح عليه السلام من طريق إثارة القلب والمشاعر لتحريك العواطف، وليبان أن ما هم فيه من قلة الأمطار، وما حُرّموه من الرزق والذرية، إنما سببه كفرهم بالله تعالى صاحب النعم، مغدق الرزق، فلا ينبغي لأحد أن يكفر بالإله القادر، ويعبد آلهة لا تضر ولا تنفع ولا تملك موتاً ولا حياة ولا نشوراً.

ثم بين نوح عليه السلام لقومه الجزاء المترتب على ذلك، وهو التخلص من الذنوب التي سلفت، وتأخير عذاب الاستئصال في الدنيا إلى الأجل المضروب في علم الله تعالى، وهو اليوم الآخر.

وبهذا فإن نوحاً عليه السلام قد بذل غاية جهده بجميع الوسائل المتاحة في دعوة قومه دون كلل ولا ملل، ولم يجد لدعوته جدوى، بعد أن رَغِبهم في مغفرة الله تعالى، وسعة الأرزاق، وكثرة الرخاء، إن هم رجعوا عن كفرهم وشركهم، وهذه سنة من سنن الله تعالى قررها القرآن في كثير من آياته:

١ - كقوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْكِتَابِ ءَامَنُوا وَاتَّقَوْا لَكَفَرْنَا عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلَدْخَلْنَاهُمْ جَنَّاتِ النَّعِيمِ ﴿٦٥﴾ وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا التَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِمْ مِنْ رَبِّهِمْ لَأَكَلُوا مِنْ فَوْقِهِمْ وَمِنْ تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ ﴿٦٦﴾﴾ [المائدة: ٦٥، ٦٦].

٢ - وقوله سبحانه: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَى ءَامَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ

وَلَكِنْ كَذَّبُوا فَأَخَذْنَاهُمْ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿٩٦﴾ [الأعراف: ٩٦].

٣ - وقوله عز وجل: ﴿وَأَنْ أَسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُغْفِرْ لَكُمْ مَنَعًا حَسَنًا إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى وَيُؤْتِ كُلَّ ذِي فَضْلٍ فَضْلَهُ﴾ [هود: ٣].

٤ - وقوله أيضا: ﴿وَيَقُولُوا أَسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا وَيَزِدَّكُمْ قُوَّةً إِلَىٰ قُوَّتِكُمْ﴾ [هود: ٥٢].

وما من أمة من الأمم أقامت شرع الله تعالى، وتوجهت توجُّهاً حقيقياً إلى ربها، إلا حقق الله لها العدل والأمن والرخاء كما قال تعالى: ﴿وَأَلَّوِ اسْتَغْنَوْا عَلَى الطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْنَهُمْ مَّاءً عَذَقًا﴾ [الجن: ١٦].

وما يخالف هذه القاعدة في الواقع، فهو لسبب وحكمة يعلمها الله سبحانه.

نُوحٌ يَتَعَجَّبُ مِنْ إِعْرَاضِ قَوْمِهِ وَيُلْفِتُ أَنْظَارَهُمْ إِلَى ثَمَانِيَةٍ مِنْ دَلَائِلِ التَّوْحِيدِ

١٣، ١٤ - ﴿مَالِكُ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا ﴿١٣﴾ وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا ﴿١٤﴾﴾

هذا أسلوب آخر من أساليب دعوة نوح لقومه يهز بها نفوسهم هزاً، ويعطفها نحو الإيمان والتوحيد حيث يتعجب نوح ﷺ من عدم إجابة قومه، ويُنكر عليهم سوء أدبهم مع الله تعالى، فيُلْفِت أنظارهم إلى آيات الله تعالى في أنفسهم وفي الكون من حولهم، فقال لهم: أي شيء يمنعكم من تعظيم الله تعالى وتقديره حق قدره، فتعبدوه وحده ولا تشركوا به شيئاً؟

عن علي بن أبي طالب ؑ أن النبي ﷺ رأى أناساً يغتسلون غرة، ليس عليهم أزر، فوقف فنادى بأعلى صوته: ﴿مَالِكُ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا﴾^(١).

ما لكم لا تعظمون الله حق عظمته، أليس الله عندكم قدراً؟

ما لكم - أيها القوم - لا تستحيون من الله، ولا تعرفون له قدراً ولا عظمة، ولا تبالون باطلاعه عليكم.

(١) مصنف عبد الرزاق (١١٠٢).

ما لكم لا ترجون ثواباً من الله تعالى، ولا تخافون عقابه، فلا تعرفون الله حقاً، ولا تشكرون له نعمة، والواجب عليكم أن تعبدوه رجاء ثوابه بعبادتكم له، وتوقيركم إياه، إنه لا عذر لكم يضر فكم عن تعظيم الله تعالى، وفي الوقت ذاته، فأنتم تعظمون أوثانكم وتلتمسون منها النفع والضرر، والأولى بكم أن تخافوا عظمة الله تعالى وقدرته على معاقبتكم.

ثم دعاهم نوح عليه السلام إلى التأمل في ثمانية من آثار قدرة الله تعالى، لعلهم يثوبون إلى رشدهم ويرجعون عن كفرهم، وأخذ نوح يرغب قومه في طاعة الله تعالى وتوحيده والوقوف عند حدوده بمجموعة أخرى من آيات الله تعالى في سمائه وأرضه وما جعل فيهما من نور القمر وضوء الشمس، وكيف أنبتهم الله من الأرض، ثم يعيدهم فيها ويخرجهم يوم البعث والنشور، وكيف مهد الله لهم الأرض وسلك فيها السبل لاستخراج المعادن والزرع، وأول دليل في هذه الأدلة، يتعلق بالإنسان:

الدليل الأول: النظر في خلق الإنسان: ﴿وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا﴾

لقد خلقكم الله طوراً بعد طور: خلقاً من بعد خلق في بطن الأم، ثم في الرضاع، ثم الطفولة، ثم في سن التمييز، ثم سن الشباب ثم في سن الشيخوخة: نطفة ثم علقة ثم مضغة ثم عظماً ثم كسوة هذا العظم باللحم، ثم يصير العظم المختلط باللحم بشراً سوياً مكوناً من جسد وروح في أحسن تقويم، حيث تكونون صبيانا ثم شباباً ثم شيخوخاً، فتبارك الله أحسن الخالقين:

وهذا كقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ طِينٍ ۝١٣ ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَكِينٍ ۝١٤ ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظْمًا فَكَسَوْنَا الْعِظْمَ لَحْمًا ثُمَّ أَنْشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ ۝١٥﴾ [المؤمنون: ١٢-١٤] وقوله سبحانه: ﴿الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ وَبَدَأَ خَلْقَ الْإِنْسَانِ مِنْ طِينٍ ۝٧ ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ مَاءٍ مَهِينٍ ۝٨ ثُمَّ سَوَّاهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِنْ رُوْحِيٍّ وَجَعَلَ لَكُمْ السَّمْعَ وَالْأَبْصَرَ وَالْأَفْئِدَةَ قَلِيلًا مِمَّا تَشْكُرُونَ ۝٩﴾ [السجدة: ٧-٩].

ومن هذه الأطوار قوله تعالى ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا وَشَيْبَةً ۝٥٤﴾ [الروم: ٥٤].

فكيف تقصرون في توقير مَنْ خَلَقَكُمْ على هذه الأطوار البديعة، وبعدها يأتي طور الموت، ثم طور البلى على الأجساد، ثم البعث بعد الموت، وكلها تحتاج إلى إعمال فكر ونظر، فالذي انفرد بالخلق والرزق والتدبير، يتعين إفراده بالتوحيد والعبادة، وفي بدء الخلق علامة على إعادته، فالذي أنشأهم من العدم قادر على بعثهم بعد موتهم.

الدليل الثاني من دلائل القدرة: النظر في العالم العلوي

١٥- ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا كَيْفَ خَلَقَ اللَّهُ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقًا﴾

وبعد أن نبههم نوح عليه السلام إلى النظر في أنفسهم، وجههم في الدليل الثاني إلى النظر في العالم العلوي وما فيه من عجب قدرة الله تعالى حيث خلق سبع سموات، فوق بعض، بين كل أرض وسمااء خلق وأفر، أستم ترون بأعينكم كيف أن الله تعالى خلق سبع سماوات متطابقة بعضها فوق بعض، فكل سمااء جُعِلَتْ طبقاً للآخرى، وهي في غاية الإتقان والإبداع، فكيف لا تنظرون وتفكرون وتعتبرون، وخلق السموات أكبر من خلق الناس، والخالق لهذا العالم هو الجدير بالعبادة دون سواه.

الدليل الثالث والرابع: التدبر في تسخير الشمس والقمر

١٦- ﴿وَجَعَلَ الْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا^(١) وَجَعَلَ الشَّمْسُ سِرَاجًا﴾

ومن قدرة الله تعالى أنه جعل القمر نوراً في هذه السماوات، منوراً لوجه الأرض دون حرارة فيه، وجعل الشمس مصباحاً مضيئاً فيها حرارة وضياء، يستضيء به أهل الأرض في السماء الأولى، وهي محاطة بسائر السماوات، ولذا قال تعالى ﴿وَجَعَلَ الْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا﴾ أي: جعل نور القمر في مجموع السماوات، ليُعرف الليل والنهار بمطلع الشمس ومغيبها، ويعرف بهما الصيف والشتاء كذلك، وعبر عن الشمس بالسراج، لأنه

(١) قرأ يعقوب بضم الهاء من ﴿فِيهِنَّ﴾ ووقف عليها بهاء السكت بخلف عنه، وكسر الهاء باقي القراء، ووقفوا عليها بنون مشددة فيها عنه.

(٢) عذ الحمصى وحده ﴿فِيهِنَّ نُورًا﴾ آية، وأسقطها غيره من العدد.

أقوى وأكمل من نور القمر.

ونور الشمس يضيء بنفسه، أما نور القمر فإنه يستمد نوره من الشمس، حيث تنعكس أشعة الشمس على ما يستقبلها من وجه القمر، كلاً أو بعضاً، وهذا سبب ظهوره هلالاً ثم بَدْراً ثم يعود كالعرجون القديم، فنور الشمس ذاتي، ونور القمر عَرَضِي، وجعل الله القمر منازل وبروجاً، وفاوت بين نوره، فتارة يزداد حتى يتناهى، ثم يشرع في النقص حتى يستتر، ليدل على مضيّ الشهور والأعوام.

قال تعالى ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسُ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُورًا وَقَدَرَهُ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا عَدَدَ السَّيِّنِ وَالْحِسَابِ﴾ [يونس: ٥].

قال الفخر الرازي: القمر في السماء الدنيا، وليس في السموات بأسرها، وهذا كما يقال: السلطان في العراق، فليس المراد أن ذات السلطان حاصلة في كل أنحاء العراق، بل إن ذاته في حيز من جملة أنحاء العراق، فكذلك القمر^(١).

وقال أبوحيان: والقمر في السماء الدنيا، وصح كون السموات ظرفاً للقمر، لأنه لا يلزم الظرف أن يملأ المظروف، تقول: زيد في المدينة، وهو في جزء منها^(٢).

وفي الآية دليل على كثرة منافع الشمس والقمر، وعلى عظيم قدرة الله تعالى، التي يستحق أن يُشكر عليها، ويُعبد ويُخاف ويُرجى.

وإذا كان الله تعالى قد زَيَّن السماء الأولى بالكواكب، وأن القمر منير فيها، فإن وصول الإنسان إلى القمر أمر ممكن، ويقال مثل ذلك في الكواكب الأخرى. وهذا هو الدليل الثالث والرابع من دلائل قدرة الله تعالى في هذا السياق.

الدليل الخامس والسادس: نشأة الإنسان من الأرض وعودته إليها وخروجه منها

١٨، ١٧ - ﴿وَاللَّهُ أَنْبَتَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ نَبَاتًا ۖ ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيهَا وَيُخْرِجُكُمْ إِخْرَاجًا ۖ﴾

(١) التفسير الكبير (١٤٠/٣٠) بتصرف.

(٢) البحر المحيط (٣٤٠/٨).

ثم لفت نوح عليه السلام أنظار قومه إلى التأمل في نشأتهم، وعودتهم إلى الأرض عند الموت، ليستدلوا بذلك على وحدانية الخالق سبحانه.

أي والله أنشأ أصلكم آدم من الأرض وأنبتكم منها إنباتاً عجيباً، حيث أخرجكم من الأرض كما يخرج النبات.

فنشأة الإنسان تشبه نشأة النبات في الكبر بعد الصغر، والطول بعد القصر، فكلاً منهما ينمو بتناول الغذاء الحيواني والنباتي المستمد من الأرض، ولذا سمي الله تعالى هذا الخلق إنشَاءً، كما أن آدم عليه السلام خُلِقَ من تراب، والنبات خرج من التراب، وحين خلق الله آدم كنتم في صلبه أيها الناس.

وفي الآية إشارة إلى خلق آدم عليه السلام، فصح نسبة نشأة الإنسان إلى الأرض. وكما أن الله تعالى خلقكم من الأرض، بخلق أبيكم آدم منها، فإنكم تعودون إليها لتُدفنوا فيها بعد موتكم، فتتحلل أجزاءكم حتى تعود تراباً وتختلط بالأرض وتندمج فيها. ﴿ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيهَا﴾ وبعد إعادتكم إلى الأرض - أيها الناس - ودفنكم فيها، تخرجون منها للبعث والنشور، فالله تعالى هو الذي بملك الحياة والممات والنشأة الأخرى.

وهذا معنى: ﴿وَنُخْرِجُكُمْ إِخْرَاجًا﴾ أي بالبعث والنشور، دفعة واحدة، وليس على سبيل التدرج كالمرّة الأولى، قال تعالى ﴿مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَى﴾ [طه: ٥٥].

وقال سبحانه: ﴿يَتَأَيُّهَا النَّاسُ إِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِّن تَرَابٍ ثُمَّ مِّن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِّن عِلْقَةٍ ثُمَّ مِّن مُّضْغَةٍ مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لِّنُبَيِّنَ لَكُمْ وَنُقَرُّ فِي الْأَرْحَامِ مَا نَشَاءُ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشَدَّكُمْ وَمِنْكُمْ مَّن يُّوَفَّىٰ وَمِنْكُمْ مَّن يُّرَدُّ إِلَىٰ أَرْدَلِ الْعُمُرِ لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِن بَعْدِ عِلْمٍ شَيْئًا وَتَرَى الْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَا أَنزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنْبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ﴾ [الحج: ٥].

وهذا والذي قبله هو الدليل الخامس والسادس من دلائل آثار قدرة الله تعالى في السورة.

الدَّلِيلُ السَّابِعُ وَالْثَامِنُ مِنْ دَلَائِلِ الْقُدْرَةِ: بَسَطَ الْأَرْضَ وَتَمَهَّدَهَا لِلْسَّعْيِ وَالْمَعَاشِ

٢٠، ١٩ - ﴿وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ بِسَاطًا ۝١٩ لَتَسْلُكُوا مِنْهَا سُبُلًا فِجَاجًا﴾

ثم لفت نوح عليه السلام أنظار قومه إلى الأرض التي يعيشون فوقها، وكيف أن الله تعالى مهّدها للسير فيها، وجعلها واسعة فسيحة للسعي في مناكبها والأكل من رزق الله، فقد جعل الله الأرض مبسوطة ممتدة في عين الرائي، مستوية كالبساط، وهو ما يُفرش للنوم والجلوس عليه، فهي لا توجع أرجل المشاة فوقها، ولا تقصّ مضاجع النائمين عليها، وقد شُبِّهت الأرض بالبساط في امتدادها واستقرار الناس عليها.

وليس في الآية دليل على عدم كروية الأرض، لأن الكرة الكبيرة يُرى كل ما عليها مسطحاً، والناس تتعلق عليها كالبساط، فلفظ بساطا يقتضي أن الأرض بسيطة كروية.

وقد خص الله تعالى بالذكر من منافع الأرض: اتخاذ الطرق الضيقة والواسعة للأسفار والسعي في أرجائها، كي تتخذوا منها - أيها الناس - طرقاً واسعة، والفج هو المسلك بين جبلين، أي: لتسلكوا في الأرض طرقاً واسعة في تقلباتكم وتنقلاتكم في أرجاءها. وكل هذه الأدلة حقائق مشاهدة وثابتة على وجه القطع ولا يمكن إنكارها.

ولو لا أن الله تعالى بسط الأرض ومهّدها لما أمكن حرثها وزرعها والبناء عليها والسكون على ظهرها، واستغلال خيراتها والعيش فوقها.

إن دلائل وحدانية الله تعالى تنبيهات للعقل النائم حتى يصحو، إننا نأكل نبات الأرض فيتحول في أجسامنا إلى عضلات ودماء، فمن الذي يقوم بتحويلها، أهو الله سبحانه، أم ودّاً وسواعاً؟

نُوحٌ عَلَيْهِ السَّلَامُ يَشْكُو قَوْمَهُ إِلَى رَبِّهِ

٢٢، ٢١ - ﴿قَالَ نُوحٌ رَبِّ إِنَّهُمْ عَصَوْنِي وَأَتَّبِعُوا مِلَّةَ بَنِي آدَمَ ۖ وَكُفُّوا أَعْيُنَكَ عَنِ آلِ خَارِجٍ ۝٢١﴾

(١) قرأ ابن كثير وأبو عمرو وحزمة والكسائي ويعقوب وخلف بضم الواو الثانية من ﴿وَلَدَهُ﴾ وإسكان اللام، وقرأ الباقيون بفتح الواو واللام، وهما لغتان كالبخل والبخل، وقيل: المضموم جمع المفتوح.

وبعد أن سلك نوح جميع الطرق التي تحمل قومه على الإيمان والاستجابة لدعوته، لم يجد منهم إلا عنادا وإصرارا على الكفر، ولم ينجع فيهم وعظ ولا تذكير، فالتمس من ربه أن يقطع دابرهم، بعد أن قطع الله رجاءه في إيمانهم حين قال له ﴿لَنْ يُؤْمِنَ مِنْ قَوْمِكَ إِلَّا مَنْ قَدْ آمَنَ﴾ [هود: ٣٦] فاستنصر نوح ربه قائلاً ﴿أَنِّي مَغْلُوبٌ فَأَنْصِرْ﴾ [القمر: ١٠] ﴿قَالَ نُوحٌ رَبِّ إِنِّي هُمْ عَصَوْنَ﴾ إن قومي قد كذبوني فيما أمرتهم به، ولم يستجيبوا لدعوتي وخالفوا أمري، وأصروا على كفرهم، فسدوا مسامعهم، وتغطوا بشياهم، حتى لا يسمعوا قول الداعي ولا يبصروه، وهذا معنى: ﴿وَاتَّبِعُوا مَنْ لَزَّ بَزْدُهُ مَالُهُ، وَلَدُّهُ إِلَّا خَسَارًا﴾ أي واتبع الضعفاء منهم، الرؤساء الضالين الذين أبطرتهم الأموال والأولاد، ولم تزدهم النعم التي أنعم الله بها عليهم إلا جحودا وضلالا في الدنيا وعقبا في الآخرة، فهلكوا وخسروا في الدارين.

كما قال تعالى ﴿وَذَرْنِي وَالْمُكَذِّبِينَ أُولِيَ النَّفْسِ وَمَنْ عَصَاكُمْ فَلِيَا﴾ [المزمل: ١١].

والذين يتبعونهم، يكونون مثلهم في الخسارة، وهم يحسبون أنهم أرشدوهم إلى النجاح، ولكنهم كانوا أسوة لهم في الضلال.

ثم إن الزعماء من قوم نوح لم يكتفوا بتحريض غيرهم على الكفر، بل إنهم أضمووا الكيد لنوح عليه السلام، فكانوا يدبرون الحيل لكيدته، ويحرشون الناس على إيذائه وإيذاء من اتبعه ﴿وَمَكْرُوا مَكْرًا كُبَارًا﴾ أي ومكر رؤساء الضلال بنوح مكرًا عظيمًا متناهيًا في الكبر، كما مكروا بالضعفاء من قومه مكرًا عظيمًا، فصدوهم عن الدين، وحرصوهم على أذى نوح عليه السلام.

ويوم القيامة يقول الأتباع للمتبعين ﴿بَلْ مَكْرٌ آلِيلٌ وَالنَّهَارِ إِذْ تَأْمُرُونَنَا أَنْ نَكْفُرَ بِاللَّهِ وَنَجْعَلَ لَهُ أَنْدَادًا وَأَسْرُوا النَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا الْعَذَابَ وَجَعَلْنَا الْأَغْلَلَ فِي آعْنَاقِ الَّذِينَ كَفَرُوا هَلْ يُحْزَنُونَ إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [سبا: ٣٣].

أَصْنَامُ قَوْمِ نُوحٍ الْخَمْسَةِ

٢٣- ﴿وَقَالُوا لَا تَذَرُنَّ آلِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا^(١) وَلَا سُوَاعًا^(٢) وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا^(٣)﴾

أي وقال الرؤساء للضعفاء من قوم نوح: لا تتركوا عبادة آلِهتكم إلى عبادة الله وحده، التي يَدْعُوكُم إليها نوح عليه السلام، فدعوهم إلى التعصب والاستمرار على ما هم عليه من الشرك، وألا يتركوا عبادة مَنْ قبلهم، فاحذروا أن تتركوا عبادة آلِهتكم التي وجدتم عليها آباءكم، واستمروا على ما أنتم عليه، ومن ذلك عبادة الآلهة الخمسة على وجه الخصوص وهي: ود، وسواع، ويغوث، ويعوق، ونسراً، وهذه أسماء لرجال صالحين، كانوا بين آدم ونوح، فلما ماتوا أوحى الشيطان إلى قومهم أن أقيموا في مجالسهم التي كانوا يجلسون فيها، تماثيل لهم، وسُمُّوها بأسمائهم، ليكون هذا أذعى إلى التشبه بهم في العبادة، فصوَّروهم، ولما مات هذا الجيل وجاء جيل ثان وثالث، نسي الناس أصل المسألة، وعبدوا هذه التماثيل من دون الله، وهكذا يحدث مثل هذا، أو قريباً منه في مواطن من العالم.

والآية تقتضي أن هذه الأنصاب عُبدت قبل الطوفان، ثم إنها قد اندثرت، وجرفها الطوفان زمن نوح ﷺ ولكن أسماءها بقيت محفوظة عند الذين نجَّوا مع نوح من المؤمنين، فكانوا يعظون أبناءهم بما حلَّ بأسلافهم بسبب عبادة تلك الأصنام، وأخذ العرب الأقدمون يتحدثون بها، حتى جاء عمرو بن لُحَي الخزاعي، فأعاد لهم عبادتها، وسمى لهم أصنامهم، بأسماء أصنام قوم نوح وغيرها:

١- فكان في دومة الجندل، بلاد كلب، صنم اسمه «ود» وكان هذا الصنم على صورة رجل، مصنوعاً من رصاص.

(١) قرأ نافع وأبوجعفر بضم الواو من ﴿وَدًّا﴾ والباقون بفتحها، وهما لغتان بمعنى واحد، اسم صنم

(٢) ترك الحمصي، والكوفي ﴿وَلَا سُوَاعًا﴾، فليست آية عندهما، وهي آية عند بقية أهل العدد.

(٣) عد الحمصي والكوفي والمدني الأخير قوله تعالى ﴿وَنَسْرًا﴾، آية، وتركها غيرهم.

٢- وكان لهذيل صنم اسمه «سواع».

٣- وكان لقييلة مراد، وُعْطَيْف، وهي بطن من مراد بالجرف عند سبأ، كان لهم صنم على صورة أسد، اسمه «يغوث» عبدته غطفان وأهل جرش وبعض قبائل طيء.
قال عثمان النهدي: رأيت يغوث من رصاص، وكانوا يحملونه على جمل أمرد، أي يخطب بيديه إذا مشى، ويسرون معه ولا يُهَيِّجونه حتى يكون هو الذي يبرك، فإذا برك نزلوا، وقالوا: قد رضى لكم هذا المنزل، فيضربون عليه بناء، ينزلون حوله.

٤- وكان لهمدان صنم اسمه «يعوق» وهو على صورة فرس.

٥- وكان لحِمْير، وذي الكلاع منهم، صنم اسمه «نسر» على صورة النسر من الطير^(١).
وهذا معنى قول ابن عباس رضي الله عنهما: صارت الأوثان التي كانت في قوم نوح في العرب، أما «ود» فكانت لكلب بدومة الجندل، وأما «سواع» فكانت لهذيل، وأما «يغوث» فكانت لمراد، ثم لبني عُطَيْف بالجرف عند سبأ، وأما «يعوق» فكانت لهمدان، وأما «نسر» فكانت لحِمْير، لآل ذي الكلاع.

وكانت هذه الأصنام أسماء رجال صالحين من قوم نوح، فلما هلكوا أوحى الشيطان إلى قومهم: أن انصبوا إلى مجالسهم التي كانوا يجلسون فيها أنصاباً، وسموها بأسمائهم، ففعلوا فلم تُعبد، حتى إذا هلك أولئك، ونُسى العلم عُبدت^(٢).

وقال محمد بن كعب، عن «ود وسواع ويغوث ويعوق ونسراً»: هذه أسماء قوم صالحين، كانوا بين آدم ونوح، فلما ماتوا، كان لهم أتباعاً يقتدون بهم، ويأخذون مأخذهم في العبادة، فجاءهم إبليس وقال لهم: لو صوّزتم صورهم، كان أنشط لكم وأشوق إلى العبادة، ففعلوا، ثم نشأ قوم بعدهم، فقال لهم إبليس: إن الذين كانوا قبلكم، كانوا يعبدونهم، فعبدوهم^(٣).

(١) ينظر: تفسير التحرير والتنوير (٢٠٨/٢٩) وغيره.

(٢) صحيح البخاري برقم: (٤٩٢٠) وفتح الباري (٦٦٩/٨).

(٣) ينظر: تفسير الطبري (١٢/٢٩) وتفسير الخازن (٣١٣/٤).

وروى البخاري عن ابن عباس قال: (كان اللات رجلاً يَلْتُ السَّوَيْق للحجاج)^(١). وقال ابن الكلبي: واللات بالطائف، وهي أحدث من مناة، وكانت صخرة مُرَبَّعة، وكان يهودي يَلْتُ السَّوَيْق عندها^(٢). وكان للعرب أصنام أخرى مثل: العزى، لقبيلة سُليم وِغَطْفَان وِجُشِيم. ومناة كانت لخزاعة بقديد، وإساف ونائلة وهبل، كانت لأهل مكة. وسَمَت العرب أنفسها بأسماء هذه الأصنام، فقالوا: عبد العزى، وعبدوُد، وعبد يغوث وهكذا.

وعبادة الأصنام، هي السبب في تحريم صنع التماثيل، وتحريم بناء القباب على القبور، لأنها تصير مع تطاول الزمن معبوداً للجهال. وهذا أمر حاصل عند أصحاب الأضرحة، حيث يعتقد العامة فيهم، فيذبحون لهم، أو عندهم وينذرون لهم، ويسألونهم كشف الضر وجلب النفع، ويطلبون منهم العون والمدد. ولا يرفع هذه الغمة عن الأمة بعد الله تعالى، إلا جرّة قَلَم حاكم مسلم مُوَحِّد، يبتغي بها وجه الله تعالى. قال سبحانه حكاية عن قول نبي الله نوح عليه السلام:

٢٤- ﴿وَقَدْ أَضَلُّوا كَثِيرًا^(٣) وَلَا نَزِدِ الظَّالِمِينَ إِلَّا ضَلَالًا﴾

واصل نوح مناجاته لربه بعد أن يؤس من إيمان قومه فقال ﴿وَقَدْ أَضَلُّوا كَثِيرًا﴾ أي أن الأصنام التي اتخذوها أضلوا بها خلقاً كثيراً من العرب والعجم وسائر بني آدم، ولذا دعا إبراهيم ربه أن يجنبه وبنيه عبادتها فقال ﴿وَأَجْنِبْنِي وَبَنِيَّ أَنْ نَعْبُدَ الْأَصْنَامَ﴾ [إبراهيم: ٣٥] أو يكون المعنى أن زعماءهم قد أضلوا كثيراً من الناس، بما زينوا لهم من طرق الغواية والضلال، فحبّبهم في الكفر وكرّهوا لهم الإيمان.

ثم سأل نوح ربه أن يزيد الكافرين ضللاً على ضلالهم فقال ﴿وَلَا نَزِدِ الظَّالِمِينَ﴾

(١) صحيح البخاري (٤٨٥٩).

(٢) كتاب الأصنام (ص ١٦) عن ابن عباس.

(٣) عدّ المدني الأول والمكي لفظ (كثيراً) آية، فيكون متروكاً لغيرها.

لأنفسهم بالكفر والعناد ﴿إِلَّا ضَلَالًا﴾ أي: بُغْدًا عن الحق، فهم لا يزيدون بدعوتهم إلى الحق إلا كُفْرًا وعنادًا، فلم يبق مجال لصلاحهم واستجابتهم، واستحقوا بهذا الضلال العقوبة في الدنيا والآخرة.

وكان دعاء نوح على قومه بعد أن قال له ربه ﴿أَنْتَ لَنْ يُؤْمِنَ مِنْ قَوْمِكَ إِلَّا مَنْ قَدْ ءَامَنَ﴾ [هود: ٣٦] وهذا كدعاء موسى على قومه حين قال ﴿رَبَّنَا أَطْمِسْ عَلَيَّ أَمْوَالِيهِمْ وَاشْدُدْ عَلَيَّ قُلُوبَهُمْ فَلَا يُؤْمِنُوا حَتَّى يَرَوْا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ﴾ [يونس: ٨٨].

استجابة الله تعالى لدعاء نوح على قومه

٢٥ - ﴿مِمَّا خَطَبْتَهُمْ^(١) أَغْرِقُوا فَأَدْخِلُوا^(٢) نَارًا فَلَمْ يَجِدُوا لَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَنْصَارًا﴾

وقد استجاب الله تعالى دعاء نوح عليه السلام، فأغرقهم بالطوفان في الدنيا، وأدخلهم النار في الآخرة، وكان ذلك بسبب كفرهم وذنوبهم، قال تعالى ﴿مِمَّا خَطَبْتَهُمْ﴾ أي فسبب ذنوبهم وإصرارهم على الكفر والطغيان ﴿أَغْرِقُوا﴾ بالطوفان الذي أحاط بهم ﴿فَأَدْخِلُوا نَارًا﴾ أي أدخلوا عقب الإغراق ناراً عظيمة اللهب والإحراق، فذهبت أبدانهم في الغرق، وذهبت أرواحهم للنار والحرق، وكان هذا بسبب طغيانهم لما لم يقبلوا دعوة نبيهم. وقد فعل الله بهم ذلك ليُعَلِّمَ أن الله تعالى لا يقَرُّ عباده على الشرك، بعد أن يرسل إليهم رسولا، وقد أظهر الله تعالى كرامة نوح عند ربه، فأجاب دعوته فيهم، كما أجاب دعوة موسى على قومه فأنزل بهم عقوبته.

ثم إن هذه الأصنام، لم تدفع الكوارث عمن عبدوها، حين نزل بهم عقاب الله تعالى، فعندما نزل بهم الطوفان الذي أهلكهم، لم تُغْنِ عنهم آلهتهم من الله شيئا، وعندما ينزل بهم عذاب الله في الآخرة، لن يجدوا أحداً ينصرهم أو يُغيثهم ويدفع عنهم عذاب الله

(١) قرأ أبو عمرو (خطاياهم) والباقون ﴿خَطَبْتَهُمْ﴾ والأول جمع تكسير لخطيئة، والثاني جمع بالالف والتاء لخطيئة أيضاً.

(٢) لم يعد الكوفي ﴿فَأَدْخِلُوا نَارًا﴾ آية، فيكون معدوداً لغيره من علماء العدد.

تعالى، لا في الدنيا ولا في الآخرة، لا من الأصنام ولا من غيرها، كما قال تعالى: ﴿لَا عَاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِلَّا مَنْ رَحِمَ﴾ [هود: ٤٣] فلم يجد المغرقون أحدا سوى الله تعالى ينصرهم ويصرف عنهم بأسه وانتقامه.

واستدل بعضهم بهذه الآية على عذاب القبر، لأن الفاء من قوله تعالى ﴿أَغْرِقُوا فَأَدْخَلُوا نَارًا﴾ للتعقيب، أي أن دخول النار كان عقب الإغراق، وهذا لا يكون إلا في القبر، أما بالنسبة للآخرة فإن المعنى: سيدخلون ناراً.

وهذه الآية معترضة بين دعاء نوح على قومه، وهي إخبار من الله تعالى لرسوله محمداً ﷺ بأنه تعالى قدّر النصر لنوح، والعقاب لقومه الذين عصوه، وكان ذلك قبل أن يسأل نوح ربه استئصالهم.

نُوحٌ يَسْأَلُ رَبَّهُ أَنْ يَسْتَأْصِلَ كُفَّارَ قَوْمِهِ

٢٦- ﴿وَقَالَ نُوحٌ رَبِّ لَا تَذَرْنِي عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا﴾

وواصل نوح مناجاته لربه بالدعاء على قومه بعد أن يأسه الله من إيمانهم، فقال: يارب لا تترك من الكافرين بك، أحداً حياً على وجه الأرض يدور ويتحرك فيها، فمعنى ﴿دَيَّارًا﴾ أي يدور في الأرض، فيذهب ويجيء، من الدوران، أو من الدار بمعنى: لا تترك أحداً نازلاً في دار من الدور حياً، فإن أئمة الضلال ورؤوس الكفر خطر على كل موحد، وحجر عثرة في سبيل الإصلاح، فهم يضلون العباد، ويقاؤهم مفسدة محضة لهم ولغيرهم.

قال قتادة: أما والله ما دعا عليهم حتى أتاه الوحي من السماء ﴿أَنَّهُ لَنْ يُؤْمِنَ مِنْ قَوْمِكَ إِلَّا مَنْ قَدْ آمَنَ﴾ [هود: ٣٦] فعندئذ دعا نوح عليهم، ثم دعا ربه دعوة عامة. فقال تعالى:

٢٧- ﴿إِنَّكَ إِنْ تَذَرَهُمْ يُضِلُّوا عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوا إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا﴾

ثم علّل نوح عليه السلام دعاءه على قومه بما أخبره به ربه: أنه لن يؤمن من قومه إلا من قد آمن، فقال ﴿إِنَّكَ﴾ إن تركهم يارب دون إهلاك، فإنهم يضلوا عبادك الذين آمنوا بك. وقد أعلم الله تعالى نوحاً بأن أبناءهم سيكونون مثلهم على دينهم، فقال: ﴿وَلَا يَلِدُوا إِلَّا

فَاجْرًا كَفَّارًا ﴿٢٨﴾ أَي لَا يَأْت مِنْ أَصْلَابِهِمْ وَأَرْحَامِهِمْ إِلَّا صَادًّا عَنْ الْحَقِّ، شَدِيدَ الْكَفْرِ بِكَ، وَالْعَصِيانِ لَكَ، فَإِنْ أَوْلَادُهُمْ يَنْشَوُونَ عَلَى الشَّرْكِ، وَيَتَرَبَّوْنَ عَلَى الْكَفْرِ، وَكَانَ نُوحٌ قَدْ اسْتَقْرَأَ أَحْوَالَ قَوْمِهِ بِحُكْمِ إِقَامَتِهِ بَيْنَهُمْ أَكْثَرَ مِنْ أَلْفِ عَامٍ.

قال ابن عباس رضي الله عنها وغيره: كان الرجل ينطلق بابنه إلى نوح، فيقول له: احذر هذا فإنه كذاب، وإن أبي حذرني، فيموت الكبير وينشأ الصغير على ذلك. وكان دعاء نوح على قومه قبل نزول الطوفان بهم بأربعين سنة، وقيل: أكثر، بعد أن أخبر الله نوحاً أنهم لا يؤمنون، ولا يلدون مؤمناً، فدعا عليهم وأهلكهم الله تعالى استجابة لدعائه. جاء في الأثر عن ابن عباس رضي الله عنها: لو رحم الله من قوم نوح أحداً، لرحم امرأة لَمَّا رأت الماء حملت ولدها، ثم صعدت الجبل، فلما بلغها الماء، صعدت به منكبها، فلما بلغ الماء منكبها، وضعت ولدها على رأسها، فلما بلغ الماء رأسها، رفعت ولدها بيديها، فلو رحم الله منهم أحداً لرحم هذه المرأة. وفي حديث عائشة رضي الله عنهما أن النبي ﷺ قال: «لو رحم الله من قوم نوح أحداً لرحم أم الصبي»^(١).

نُوحٌ يَدْعُو لِّلْمُؤْمِنِينَ وَيَدْعُو عَلَى الْكَافِرِينَ

٢٨- ﴿رَبِّ آغْفِرْ لِي وَلِوَلَدَيَّ^(٢) وَلِمَنْ دَخَلَ بَيْتِي^(٣) مُؤْمِنًا وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَلَا تَزِدِ الظَّالِمِينَ إِلَّا نَبَارًا﴾

ثم ختم نوح عليه السلام مناجاته ربّه بالدعاء لنفسه ولوالديه، ولكل أهله وذويه، من كل من دخل بيته وسكن دياره، من كل مؤمن ومؤمنة، فقال: ﴿رَبِّ آغْفِرْ لِي﴾ ما صدر

(١) أخرجه ابن أبي حاتم، وشاهده حديث عائشة في المعجم الأوسط للطبراني برقم: (٣٥٩١) والحاكم في المستدرک بنحوه (٢٤٢/٢) وقال: صحيح الإسناد ولم يخرجاه، وتعقبه الذهبي بقوله إسناده مظلم، وموسى بن يعقوب المذكور في إسناده ليس بذاك، وقال ابن كثير: حديث غريب ورجاله ثقات.

(٢) وقف يعقوب بهاء السكت على ﴿وَلِوَلَدَيَّ﴾ بخلف عنه.

(٣) قرأ هشام وحفص بفتح ياء الإضافة وصلا من ﴿بَيْتِي﴾ والباقون بإسكانها.

مني من ذنب، أو من مخالفة الأولى ﴿وَلَوْلَدَتِّي﴾ وكانا مؤمنين به.
 وكان بين آدم ونوح عشرة آباء لنوح، لم يكن منهم أحد كافراً، ثم دعا لكل من دخل بيته فقال: ﴿وَلَمَنْ دَخَلَ بَيْتِي﴾ من كل من يسكن المعمورة من الأرض آنذاك، وهو من أهل الإيمان بأن كان ﴿مُؤْمِنًا وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ﴾ أي واغفر يارب لكل من آمن بالله إلهاً واحداً في أرجاء المعمورة، إنه سميع مجيب الدعاء.
 في حديث أبي سعيد ؓ أنه سمع النبي ﷺ يقول: «لا تصحب إلا مؤمناً ولا يأكل طعامك إلا تقي»^(١).

أما الكافرون، الذين ظلموا أنفسهم بالشرك، فلا تزدهم يارب إلا هلاكاً وخسراناً في الدنيا والآخرة ﴿وَلَا تَزِدِ الظَّالِمِينَ إِلَّا بَارًا﴾ أي دماراً وهلاكاً.
 وكان نوح عليه السلام قبل أن يوحى إليه أنه لن يؤمن من قومه إلا من قد آمن، يتحمل الأذى طمعاً في إيمانهم، فربما ضربه ناس منهم أحياناً حتى يَغشى عليه، فإذا أفاق قال: (اللهم اغفر لقومي فإنهم لا يعلمون) ولذا فإن الله تعالى استجاب لنوح عليه السلام فأغرق بدعوته كفار أهل الأرض، ورحم المؤمنين بدعوته.
 روى محمد بن كعب، والربيع وابن زيد: أن نوحاً عليه السلام لم يَدْعُ بهذه الدعوة إلا بعد أن أخرج الله تعالى كل مؤمن من أصلابهم، وأعقم أرحام النساء قبل العذاب بسبعين سنة^(٢).

وفي كلام نوح عليه السلام ما يشير إلى أن الرسل والمصلحين يهتمون بإصلاح الجيل الحاضر ويضعون أسس إصلاح الأجيال القادمة، وأنهم لا يعملون لأنفسهم ولا لأهلهم، إنما يعملون لصالح الأمة والأجيال المتعاقبة.

تم تفسير (سورة نوح) والله الحمد والمنة

(١) المسند (٣٨/٣)، برقم (١١٣٣٧) بإسناد حسن، وأبوداود برقم (٤٨٣٢)، والترمذي برقم (٢٣٩٥)، وأبو يعلى (١٣١٥)، وابن حبان (٥٦٠)، والبغوي في شرح السنة (٣٤٨٤)، والطيالسي (٢٢١٣).
 (٢) تفسير ابن عطية (٣٧٧/٥).

تَفْسِيرُ سُورَةِ الْجِنِّ (٧٢)

مُقَدِّمَةُ السُّورَةِ

(سورة الجن) هي السورة الثانية والسبعون في ترتيب المصحف، والأربعون في ترتيب النزول، نزلت بعد (سورة الأعراف) وقبل (سورة يس). وهي ثمان وعشرون آية باتفاق، ومئتان وخمس وثمانون كلمة، وثمان مئة وسبعون حرفاً. وسميت سورة الجن: لأنفرادها بالحديث عنه. وتزجّم لها البخاري في كتاب التفسير: سورة ﴿قُلْ أَوْحَى إِلَيَّ﴾ وهي سورة مكية باتفاق، أخرج ابن مردويه عن عائشة رضي الله عنها أنها قالت: نزلت سورة ﴿قُلْ أَوْحَى﴾ بمكة.

وقال ابن عباس رضي الله عنهما: نزلت سورة الجن بمكة^(١). نزلت سنة عشر من البعثة، عندما ذهب النبي ﷺ إلى سوق عكاظ، وصلى بأصحابه صلاة الفجر في نخلة، واستمع إليه فريق من الجن، فرجعوا إلى قومهم يقولون ﴿إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا﴾ كما سيأتي. وحدث مثل ذلك عندما سافر النبي ﷺ إلى الطائف يطلب النصرة من ثقيف، فأذوه وأعرضوا عنه، وفي عودته إلى مكة، أرسل الله إليه نفراً من الجن، يستمعون إليه، ويجيبون دعوته، وكان هذا تطييباً لخاطر النبي ﷺ وتعويضاً له عن إعراض أهل الطائف عنه، وكأن الله تعالى يقول له: إن أعرض عن الإيمان بك عالم الإنس، فقد أرسلت لك عالماً آخر - هو عالم الجن - يؤمن بك ويصدقك.

موضوع السورة: وفي ذلك ستة مباحث:

أولاً: سورة الجن تعالج موضوعات القرآن المكي الثلاث: وهي الوحداية، والرسالة،

(١) أخرجه ابن الضريس (١٧)، والنحاس (ص ٧٤٩)، والبيهقي في الدلائل (١٤٣/٧).

والبعث والجزاء، وقد جاء ذلك في صورة موجهة إلى الجن، كما جاء في سور أخرى كثيرة موجهة إلى الإنس، للدلالة على أن محمداً ﷺ قد أرسل إلى الجن كما أرسل إلى الإنس، فهو رسول الثقلين.

١- أما ما يتعلق بالتوحيد فقد جاء في هذه السورة في مثل قوله تعالى على لسان الجن:

أ- ﴿وَلَنْ نُشْرَكَ بِرَبِّنَا أَحَدًا﴾ [الآية: ٢].

ب- وقوله ﴿وَأَنَّهُ تَعَلَّى جَدُّ رَبِّنَا مَا اتَّخَذَ صَاحِبَةً وَلَا وَلَدًا﴾ [الآية: ٣].

ج- وقوله ﴿وَأَنَّ الْمَسْجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُوا مَعَ اللَّهِ أَحَدًا﴾ [الآية: ١٨].

د- وقوله ﴿قُلْ إِنَّمَا أَدْعُوا رَبِّي وَلَا أُشْرِكُ بِهِ أَحَدًا﴾ [الآية: ٢٠].

هـ- وقوله ﴿قُلْ إِنِّي لَنْ يُخَيِّرَنِي مِنَ اللَّهِ أَحَدٌ وَلَنْ أَجِدَ مِنْ دُونِهِ مُلْتَحَدًا﴾ [الآية: ٢٢].

٢- أما ما يتعلق باليوم الآخر، فقد جاء في هذه السورة في مثل قوله تعالى على

لسان الجن:

أ- ﴿وَأَنَّهُمْ ظَنُّوا كَمَا ظَنَنْتُمْ أَنْ لَنْ يَبْعَثَ اللَّهُ أَحَدًا﴾ [الآية: ٧].

ب- وقوله ﴿وَأَمَّا الْفَاسِقُونَ فَكَانُوا لِجَهَنَّمَ حَطَبًا﴾ [الآية: ١٥].

ج- وقوله ﴿وَمَنْ يُعْرِضْ عَنْ ذِكْرِ رَبِّهِ يَسْلُكْهُ عَذَابًا صَعَدًا﴾ [الآية: ١٧].

د- وقوله ﴿وَمَنْ يَعِصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ، فَإِنَّ لَهُ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدًا فِيهَا أَبَدًا﴾ [الآية: ٢٣].

٣- أما ما يتعلق بالرسالة والوحي، فقد جاء في مثل قوله تعالى على لسان الجن:

أ- ﴿فَقَالُوا إِنَّا سَمِعْنَا قُرْءَانًا عَجَبًا﴾ [الآية: ١].

ب- ﴿وَأَنَّا لَمَّا سَمِعْنَا آهْدَىٰءَ مَنَابِئِهِ﴾ [الآية: ١٣].

ج- ﴿وَأَنَّهُ لَمَّا قَامَ عَبْدُ اللَّهِ يَدْعُوهُ كَادُوا يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِبَدًا﴾ [الآية: ١٩].

د- ﴿إِلَّا مَنِ ارْتَضَىٰ مِنْ رَسُولٍ﴾ [الآية: ٢٧].

ومحور السورة الأساس يدور حول عالم الجن، وما يتعلق بهم، وقد بدأت ذلك بالإخبار عن استماع فريق منهم للقرآن، وتأثرهم به، وإيمانهم بخاتم المرسلين، ودعوتهم أقوامهم إلى الإيمان به، وتمجيدهم لله تعالى. وإفرادهم له بالعبادة، ومنعهم

من استراق السمع، بإرسال الشهب عليهم وإحراقهم، وبينت السورة أن الجن منهم المؤمنون ومنهم الكافرون ومنهم الأذكياء والأغبياء.

و بمقتضى الآيات السابقة، فإن في هذه السورة شهادة من الجن بوجوب إخلاص التوحيد والعبادة لله وحده، ووجوب الإيمان برسالة محمد ﷺ وباليوم الآخر وما فيه من ثواب وعقاب.

وقد كان العرب يعتقدون أن للجن سلطاناً في الأرض بالنفع والضرر، وأنهم يعلمون الغيب، فصحح القرآن هذه المفاهيم.

وقد أعطت السورة صورة واضحة عن عالم الجن، وصححت عقيدتهم التي أخذوها عن النصارى، في جعل المسيح ابناً لله، أو إلهاً معه، أو ثالث ثلاثة. فقد انتشرت هذه الفرية، في أرجاء الأرض، وبلغت الجن فعرفوها، ثم إنهم لما استمعوا إلى القرآن عرفوا ما يناقضها، وعرفوا أن الله تعالى واحد أحد، ليس له والد ولا ولد، فأمنوا بربهم قائلين ﴿وَلَنْ نُشْرِكَ بِرَبِّنَا أَحَدًا﴾ [الآية: ٢].

ولما عرفوا خطأ ما كانوا يعتقدونه، رجعوا عنه مقرين أن الله تعالى ليس له زوجة وليس له ولد: ﴿وَأَنَّهُ تَعَالَى جَدُّ رَبِّنَا مَا اتَّخَذَ صَاحِبَةً وَلَا وَلَدًا﴾ [الآية: ٣].

ولكن رجالاً من الإنس، استمعوا إلى هذا اللغو الذي ينطوي على عقيدة التثليث أو البنوة، فنشروه في الأرض، وضللوا به الجماهير الغفيرة.

يقول الشيخ محمد الغزالي رحمه الله: والواقع أن الخطأ إذا سلّحت الدولة بعنفوانها، وأقامت له أبراجاً تدرسه وتحميه، تركّ ظلّاله في النفوس، واستقرت أوضاعه قروناً، وقد نشر الاحتلال الروماني عقيدة التثليث، واستطاع بالرغبة والرغبة أن يوطئ لها الأكناف، ولولا أن محمداً ﷺ درّع الحق الذي بُعث به، وفداه بالنفس والمال، لجعله الرومان في خبر كان، ومن أين كان يغلم الجن أن الله واحد، لا ولد له ولا والد، لولا الدعاة الذين حملوا الكتاب هنا وهناك، وقرعوا به الأذان^(١).

(١) نحو تفسير موضوعي لسور القرآن الكريم (ص ٤٨٢).

وقد ختمت السورة ببيان اختصاص الله تعالى بعلم الغيب، وإحاطته بجميع ما في الكائنات والتبرىء إلى الله تعالى من الحول والطول.

وتنتهي السورة بما بدأت به من إخلاص التوحيد لله تعالى، فقد بُعث النبي ﷺ لمجاهدة الشرك والخرافة ومقاومة الضلال والانحراف.

ثانياً: عالم الجن:

وعالم الجن من المخلوقات الخفية اللطيفة، فهو عالم غير مرئي لنا، مخلوق من عنصر ناري، وله حياة وإرادة وإدراك، وهو منتشر في أماكن مجهولة، ليست على سطح الأرض ولا في السموات، وهو من عالم الغيب، لا تراه الأبصار، ولا تدركه الأسماع في العادة، وقد أعطى الله الجن قدرة على التشكل بأشكال مختلفة.

وكان العرب يعتقدون في الجن، وينسبون إليهم بعض التصرفات، فيعتقدون أن لهم سلطة وقدرة على النفع والضرر، ولذا فقد كانوا يتقونهم، ويتعوذون منهم، ويذبحون لهم القرابين، ويعتقدون أن الكاهن تأتيه الجن بالخبر من السماء، وأن الشاعر له شيطان يوحى إليه بالشعر، ومن العرب من زعم أن الملائكة بنات الله، أمهاتهم سرّوات الجن - أي أشرفهم - وهم قريش وجُهينة وبنو سلمة وخزاعة وبنو مُلِيح.

وبعض مجوس العرب عبدوا الشيطان، وزعموا أنه إله الشر، والتاريخ يعيد نفسه، فهي نحن نجد عبدة الشيطان في زماننا، قالوا: مادام الشيطان يوسوس للإنسان ويتسلط عليه، فلماذا لا نرضيه ونعبده؟!

قال القرطبي: واختلف الناس في أصل الجن، فعن الحسن البصري: أن الجن - أي المتمردون منهم - ولد إبليس، والإنس ولد آدم.

ومن هؤلاء، وهؤلاء مؤمنون وكافرون، وهم شركاء في الثواب والعقاب، فمن كان مؤمناً فهو ولي الله، ومن كان كافراً فهو شيطان.

وعن ابن عباس رضي الله عنهما: أن الجن هم ولد الجان، وليسوا بشياطين، ومنهم

المؤمن والكافر، والشياطين هم ولد إبليس، لا يموتون إلا مع إبليس^(١) عند النفخة الأولى. وقد أخبر الله تعالى أن الجن خلقوا من مارج من نار، وأن منهم الصالح والطالح، والعاقل والأبله، ومنهم المسلم والكافر، كما جاء على لسانهم: ﴿كُنَّا طَرَائِقَ قَدَدًا﴾ [الآية: ١١] وهم قادرون على الأعمال الشاقة، وعلى فعل الخير والشر.

وقد سخر الله الشياطين لسليمان، يعملون له ما يشاء من محاريب وتماثيل وجفان كالجواب وقدور راسيات، ومنهم مردة الجن، كمردة الإنس، ومنهم الشيطان المارد، العات الطاغية، ومنهم العفريت سريع الحركة والتنقل، وهم يأكلون ويشربون، ويتناكحون ويتناسلون كالإنسان.

ثالثاً: رسول الثقلين:

وقد بُعث النبي ﷺ إلى الجن، كما بعث إلى الإنس، فدعاهم إلى التوحيد، وأنذرهم، وبلغهم القرآن، وبلغهم أنهم محاسبون على أعمالهم يوم القيامة كما يحاسب الناس، كما صرح بذلك الكتاب والسنة، مما يفيد القطع بأن الجن والشياطين موجودون، متعبدون بالأحكام الشرعية، وأن من دخل منهم في الإسلام فهو من المؤمنين، ومن لم يدخل فيه فهو من الكافرين.

وقد تعددت الروايات في لقاء النبي ﷺ بالجن، منها ما يفيد أنهم استمعوا إليه صُدفة دون أن يراهم، ومنها ما يفيد أنه التقى بهم قَصداً وقرأ عليهم القرآن.

قال الألوسي: وقد دلت الأحاديث على أن وفادة الجن على النبي ﷺ كانت ست مرات، ويُجمع بذلك بين اختلاف الروايات في عددهم، وأسمائهم، وأماكن الالتقاء بهم، وأنه كان تارة قصداً، وتارة مصادفة.

رابعاً: من الأحاديث الواردة في قصة الجن:

١- ما جاء في الصحيحين عن علقمة أنه سأل عبد الله بن مسعود رضي الله عنه عن لقاء النبي

(١) تفسير القرطبي (٥/١٩).

ﷺ بالجن، فقال: كنا مع رسول الله ﷺ ذات ليلة، ففقدناه فالتمسناه في الأودية والشعاب، وقلنا: إنه اغتيل، فبُتنا شرّ ليلة، فلما أصبحنا إذ به قدم علينا من جهة جبل حراء، فلما سألناه قال: «أتاني داعي الجن، فذهبتُ معهم، فقرأتُ عليهم القرآن»، ثم أخذهم النبي ﷺ فأراهم آثارهم، وسألوه عن زادهم فقال: «كل عَظْمُ ذَكَرَ اسمَ الله عليه، يقع في أيديكم أوفر ما يكون لحماً، وكل بغرة أو رُوثة، عَلَفٌ لدوابكم» قال ﷺ: «فلا تستنجوا بهما فإنهما طعام لإخوانكم»^(١) فالعظم يتحول في أيدي الجن إلى لحم.

وهذا الحديث يفيد أن النبي ﷺ كان وحده حين قرأ القرآن على الجن وأن هذه الحادثة مختلفة عما:

٢- جاء في الصحيحين وغيرهما عن ابن عباس رضي الله عنهما، وفيه: أن الشياطين كانوا يسترقون السمع من السماء، فلما بُعث النبي ﷺ مُنعوا من استراق السمع، وأُرسِلت عليهم الشُّهُبُ، فلما حدث ذلك قال لهم سيدهم: لا بدّ وأن يكون قد حدث أمر، حال بينكم وبين خبر السماء، فانطلق الشياطين في مشارق الأرض ومغاربها ينظرون ما حدث؟ فتوجَّهوا إلى تِهامة، فوجدوا رسول الله ﷺ قد قصد سوق عكاظ، وهو يصلي بأصحابه الفجر، في مكان اسمه نخلة بين مكة والطائف، فلما سمعوا القرآن، تسمَّعوا له، فقالوا: هذا الذي حال بينكم وبين خبر السماء، فرجعوا إلى قومهم يقولون لهم ﴿إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا﴾ وأنزل الله سورة الجن^(٢).

٣- وأخرج الترمذي وغيره عن ابن عباس رضي الله عنها قال: كان الجن يصعدون إلى السماء يسمعون الوحي، فإذا سمعوا الكلمة زادوا فيها تسعاً وتسعين، فأما الكلمة

(١) ينظر الحديث في صحيح مسلم برقم (٤٥٠، ١٥١)، والبخاري (٣٨٥٩)، وأبوداود (٨٥)، والترمذي (٣٢٥٨)، والكبرى للنسائي (١١٥٥٩، ٣٩)، والمسند (٤١٤٩)، وابن حبان (١٤٣٢).

(٢) ينظر الحديث في صحيح البخاري برقم (٤٩٢١، ٧٧٣)، وصحيح مسلم (٤٤٩)، والترمذي برقم (٣٣٢٣، ٤٢٧)، والمسند بتصحیح أحمد شاکر برقم (٢٤٣١)، وبتحقيق د/ التركي وغيره (٢٢٧١)، والنسائي في السنن الكبرى (١١٦٢٤، ١١٥٦٠)، والحاكم (٥٠٣/٢)، والطبراني في الكبير (١٢٤٤٩).

فتكون حقاً، وأما ما زاد فيكون باطلاً، فلما بُعث رسول الله ﷺ مُنعوا مقاعدهم، فذكروا ذلك لإبليس، ولم تكن النجوم يُرمى بها قبل ذلك، فقال لهم إبليس: ما هذا إلا أمر قد حدث في أرض، فبعث جنوده، فوجدوا رسول الله ﷺ قائماً يصلي بين جبلين، أراه قال بمكة، فأتوه فأخبروه فقال: هذا الذي حدث في الأرض^(١).

٤- وروى الترمذي وغيره عن جابر رضي الله عنه قال: خرج رسول الله ﷺ على أصحابه فقراً عليهم سورة الرحمن إلى آخرها فسكتوا، فقال: «لقد قرأتها على الجن فكانوا أحسن رداً منكم، كلما أتيت على قوله تعالى: ﴿فَإِنِّيَ آءَاءٌ رَيْكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ قالوا: ولا بشيء من نعمك ربنا نكذب، فلك الحمد»^(٢).

٥- وعن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه أن الجن هبطوا على النبي ﷺ وهو يقرأ القرآن ببطن نخلة، فلما سمعوه قالوا أنصتوا، وكانوا تسعة، أحدهم زوبعة، فأنزل الله آية الأحقاف^(٣). قال عبد العزيز بن عمر: أما الجن الذي لقوه بنخلة، فجن نينوى، وأما الجن الذين لقوه بمكة، فجن نصيبين^(٤).

٦- وأخرج ابن المنذر عن عبد الملك قال: لم تُحرَس السماء في الفترة بين عيسى ومحمد عليهما السلام، فلما بعث الله محمداً ﷺ حُرِسَت السماء الدنيا، ورُمِيت الجن بالشهاب، فاجتمعت إلى إبليس فقال: لقد حدث في الأرض حدث، فتعرّفوا، فأخبرونا ما هذا الحدث؟ فبعث هؤلاء نفر إلى تهامة، وإلى جانب اليمن، وهم أشراف الجن وسادّتهم، فوجدوا النبي ﷺ يصلي صلاة الغداة بنخلة، فسمعوه يتلوا القرآن ﴿فَلَمَّا حَضَرُوهُ

(١) سنن الترمذي (٤٢٧/٥) برقم (٣٣٢٤)، والنسائي (٦٤٦)، وصحيح سنن الترمذي (٢٦٤٦)، وصححه محققو المسند (٢٤٨٢)، وأخرجه ابن أبي شيبة (٢٨٨/١٤)، والنسائي في الكبرى (١١٥٦٢)، والطبراني (١٢٤٣١).

(٢) سنن الترمذي برقم (٣٢٩١)، وصححه الحاكم على شرط الشيخين (٢٧٣/٢) ووافقه الذهبي، والبيهقي في الشعب (٢٢٦٤)، وفي الدلائل (٢٣٢/٢) ورجاله ثقات.

(٣) رواه الحاكم في المستدرک (٤٥٦/٢) من طريق أبي بكر بن أبي شيبة، وقال: صحيح الإسناد ولم يخرجاه، ووافقه الذهبي.

(٤) تفسير ابن كثير (٢٩٦/٨).

﴿قَالُوا أَنْصِتُوا فَلَمَّا قُضِيَ﴾ يعني بذلك أنه فرغ من صلاة الصبح ﴿وَلَوْ إِلَى قَوْمِهِمْ مُنْذِرِينَ﴾ [الأحقاف: ٢٩] مؤمنين، لم يشعر بهم حتى نزل ﴿قُلْ أَوْحَى إِلَيَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ الْجِنِّ﴾ أي: سبعة من أهل نصيبين^(١).

٧- وفي سيرة ابن إسحاق وابن هشام: ثم إن رسول الله ﷺ انصرف من الطائف راجعاً إلى مكة حين يئس من ثقيف، حتى إذا كان بنخلة، قام من جوف الليل يصلي، فمر به نفر من الجن الذين ذكرهم الله تعالى، وهم - فيما ذكر لي - سبعة نفر من جن نصيبين، فاستمعوا له، فلما فرغ من صلاته، ولّوا إلى قومهم منذرين، قد آمنوا، وأجابوا إلى ما سمعوا، فقص الله خبرهم عليه.

فهذه الروايات إلى جوار غيرها، مما هو في الباب، تفيد كثرة التقاء النبي ﷺ بالجن، لدعوتهم إلى الإسلام، وأن أعدادهم كانت تختلف في كل مرة، وكان النبي ﷺ يقصد دعوتهم أحياناً، وكانوا يستمعون إليه مصادفة أحياناً أخرى، ويخبره ربه بذلك، كما يظهر من مطلع هذه السورة.

والأحاديث يفسر بعضها بعضاً، فالرواية التي تقول (ما قرأ رسول الله ﷺ على الجن ولا رأيهم)^(٢) توضحها الروايات الأخرى، بتعدد لقاءه بهم ووفادتهم عليه ﷺ. والمعنى: أن النبي ﷺ لم يكن عنده علم حين استمع الجن إليه وهو يقرأ القرآن، فهو لم يرههم ولم يقصد القراءة عليهم في هذه المرة.

خامساً: مصير الجن:

واختلفوا في جزاء الجن يوم القيامة:

فقال أبو حنيفة: ليس للجن ثواب، إلا أن يُجَازَوْا من عذاب النار، ثم يقال لهم: كونوا تراباً، مثل البهائم.

(١) الدر المشور (٦/١٥)، وأخرجه الطبري (١٦٤/٢١)، والبيهقي في الدلائل (٢٤١/٢)، وكلاهما عن ابن عباس.

(٢) كما جاء في رواية ابن عباس عند الترمذي (٤٢٦/٥)، وصححه الألباني وأحمد شاكر في المسند (٢٤٣١) وسبق تخريجه في آخر سورة الأحقاف.

وقال مالك والشافعي: كما يُجَزَّوْنَ على الإساءة، يُجْزَوْنَ على الإحسان، ويدخلون الجنة^(١).

سادساً: لا يوجد رسل من الجن:

ورسل الله تعالى إلى الإنس والجن، لا يكونون إلا من الإنس، ولم يثبت أن الله تعالى أرسل رسلاً من الجن إلى البشر، ولا إلى الجن ورسالة النبي ﷺ إلى الجن من خصائصه ﷺ.

ومعنى قوله تعالى: ﴿يَمَعَشَرِ الْجِنَّ وَالْإِنْسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ﴾ [الأنعام: ١٣٠] أي رسل تعرفونهم وتسمعونهم، و﴿مِّن﴾ في قوله تعالى ﴿مِّنكُمْ﴾ ليست للتبعيض، وإنما هي ﴿مِّن﴾ الاتصالية، مثل قولهم (لست مني ولست منك).

* * *

(١) التحرير والتنوير (٦٢/٢٩).

تَفْسِيرُ السُّورَةِ

إِيْمَانُ الْجِنِّ بِخَاتَمِ النَّبِيِّينَ

١ - ﴿قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ^(١) اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ الْجِنِّ فَقَالُوا إِنَّا سَمِعْنَا قُرْءَانًا عَجَبًا﴾

بدأت السورة بأمر الله تعالى لرسوله محمداً ﷺ أن يُعَلِّمَ الناس إلى يوم القيامة، بأنه قد أوحى إليه بحدث عظيم في تاريخ الدعوة، وهو أن الله تعالى قد سخر له جماعة من الجن يستمعون القرآن الكريم وهو يتلوه في صلاته، دون أن يشعر بهم، ولا باستماعهم إليه، وأن الدعوة قد بلغتهم، فآلهمهم الله الرشد والصواب، فأقلعوا عن الشرك، وآمنوا بالله تعالى ووحدوه، وآمنوا بالبعث والجزاء، ورجعوا إلى قومهم ينذروهم، ويبلغوهم مجيء الرسالة الخاتمة التي نسخت ما جاء به موسى وعيسى عليهما السلام، ومن لم يؤمن بما جاء به محمد ﷺ فهو كافر لا يقبل الله منه صرفاً ولا عدلاً.

﴿قُلْ﴾ يا رسولنا لأمتك ﴿أُوحِيَ إِلَيَّ﴾ على لسان جبريل ﴿أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ الْجِنِّ﴾ أي أوحى الله إليّ أن جماعة من الجن قد استمعوا لتلاوتي، وأنا أقرأ القرآن في صلاة الفجر بطن نخلة، لتقوم عليهم الحجة، وتتم عليهم النعمة، ويكونون نذراً إلى قومهم، وأمر الله رسوله أن يقص خبرهم على الناس، وكان ﷺ يقرأ بسورة العلق، وقد أخبره الله تعالى بذلك عن طريق أمين الوحي، جبريل عليه السلام.

أخرج البخاري عن معن بن عبد الرحمن قال: سمعت أبي قال: سألت مسروقاً: مَنْ أَذِنَ النَّبِيُّ - أي أعلمه - بالجن ليلة استمعوا القرآن؟ فقال: حدثني أبوك - يعني عبد الله - أنه أَذِنْتُ أي أعلمت بهم شجرة^(٢).

(١) قرأ ابن عامر وحفص وحزمة والكسائي وخلف بفتح همزة ﴿أَنَّهُ﴾ في هذا الموضع وأحد عشر موضعاً بعده، عطفاً على الضمير قبله من غير إعادة الجار، وقرأ أبو جعفر بالفتح في ثلاثة منها هي: (وأنه تعالى) (وأنه كان يقول) (وأنه كان رجال) جمعا بين اللغتين، وقرأ الباقون بالكسر في الجميع عطفاً على ﴿إِنَّا سَمِعْنَا﴾ في أول آية من السورة، فيكون الجميع مقولاً للقول.

(٢) صحيح البخاري (٣٨٥٩).

أي أن الذي أعلم النبي ﷺ بحضور الجن واستماعهم إليه، شجرة من الأشجار، يا سبحان الله!!

والنفر من الثلاثة إلى العشرة، فلما استمع الجن إلى القرآن قالوا لقومهم ﴿إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا﴾ بديعاً في بلاغته وفصاحته، وحسن نظمه، ومواعظه وبركته، فهو قرآن جليل الشأن، عظيم القدر، بديع الأسلوب.

والجن مع تمؤدهم تأثروا بالقرآن، وعرفوا إعجازه، فاهتدوا بهديه، وقال بعضهم لبعض: أنصتوا، فلما أنصتوا فهموا معانيه وتأثروا به ووصلت حقائقه إلى قلوبهم، فرجعوا إلى قومهم يخوفونهم عذاب الله إن لم يؤمنوا.

وفي هذا توبيخ وتقريع لمن كفر بالقرآن من الإنس، فستان بين موقف الإنس الذين نزل القرآن بلغتهم فكذبوه واستهزؤوا به، وبين موقف الجن الذين أسرعوا إلى الإيمان به وكانوا رُسل خير إلى قومهم بعد سماعهم إلى القرآن مرة واحدة.

وجاء في سورة الأحقاف ﴿وَإِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ الْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ الْقُرْآنَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوا أَنصِتُوا فَلَمَّا قُضِيَ وَلَّوْا إِلَىٰ قَوْمِهِمْ مُنْذِرِينَ ﴿٢٩﴾ قَالُوا يَنْقُومُنَا إِنَّا سَمِعْنَا كِتَابًا أُنزِلَ مِن بَعْدِ مُوسَىٰ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ وَإِلَىٰ طَرِيقٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٣٠﴾ يَنْقُومُنَا لَاجِبُوا دَاعِيَ اللَّهِ وَآمَنُوا بِهِ يَغْفِرَ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُجِرْكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣١﴾ وَمَنْ لَا يُجِبْ دَاعِيَ اللَّهِ فَلَيْسَ بِمُعْجِزٍ فِي الْأَرْضِ وَلَيْسَ لَهُ مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءُ أُولَٰئِكَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ [الأحقاف: ٢٩-٣٢].

وهذه الآيات من سورة الأحقاف تُذكر النبي ﷺ بما حدث ليلة نزول سورة الجن إذ أن النبي ﷺ لم يعلم بحضور الجن واستماعهم للقرآن إلا بإعلام الله له.

وبهذا فقد حصل لكل من آمن من الجن شرف المعرفة بالله تعالى، وصِدْقُ رسوله ﷺ وصِدْقُ القرآن، فصاروا من خيرة الخلق، ولم يكونوا ممن ذرأهم الله تعالى لجحهم من الجن والإنس.

وَصَفُ الْجِنِّ الْقُرْآنَ بِأَنَّهُ كِتَابٌ هِدَايَةٌ

٢- ﴿يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ فَآمَنَّا بِهِ وَلَنْ نُشْرِكَ بِرَبِّنَا أَحَدًا﴾

أي إن القرآن كتاب يدعو الناس إلى التوحيد والإيمان والصواب والرشاد، وقد استمعنا إليه ﴿فَآمَنَّا بِهِ﴾ أي صدقنا بهذا القرآن تصديقاً لا يخالطه ريب ولا شك. والرشد: اسم جامع لكل ما يرشد الناس إلى مصالح دينهم ودنياهم، وقد جمع الجن بين الإيمان الذي يدخل فيه جميع الأعمال الصالحة، وبين التقوى المنضمة لعدم الشرك بالله، فقالوا: ﴿وَلَنْ نُشْرِكَ بِرَبِّنَا أَحَدًا﴾ أي لن نعود إلى ما كُنَّا عليه من الشرك بعد اليوم، ولن نجعل لله شريكاً من خلقه بعد اليوم، وهذا يفيد أنهم كانوا مشركين، وأن الأحرى بالإنس أن يوحدوا الله تعالى وينبذوا الشرك وأهله، وأن يكون لهم أسوة في مؤمني الجن!

الْجِنُّ يَتَّبِعُونَ مِنْ كَافَّةِ أَنْوَاعِ الشُّرُكِ

٣- ﴿وَأَنَّهُ تَعَالَى جَدُّ رَبِّنَا مَا اتَّخَذَ صَاحِبَةً وَلَا وَلَدًا﴾

ثم أخذ هذا النفر من الجن في الثناء على الله تعالى، والتبرؤ مما كانوا عليه من الشرك، وبيان أنه لا يسوغ أن تكون لله تعالى صاحبة، ولا أن يكون له ابناً فقالوا: ﴿وَأَنَّهُ تَعَالَى جَدُّ رَبِّنَا﴾ أي تعالت عظمته وجلاله، وتقدمت أسماؤه، فالجدُّ هو العظمة والجلال، قال ابن عباس رضي الله عنهما: عظمت قدرة ربنا.

ومن ذلك قول أنس ؓ: كان الرجل إذا قرأ البقرة وآل عمران جدًّا فينا. أي عظم قدره، وكبر في أعيننا، وجاء (الجدُّ) بمعنى الغنى، كما في الحديث «ولا ينفع ذا الجدِّ منك الجدُّ»^(١) أي لا ينفع صاحب الغنى غناه، ومن شأن الغني أنه لا يحتاج إلى صاحبة ولا ولد، فلا يفتقر إلى الولد، ولا يتلذذ بالزوجة، ولا يحتاج إلى عون من أحد، والله

(١) من حديث المغيرة بن شعبه في صحيح البخاري (٨٤٤)، وصحيح مسلم (٥٩٣).

تعالى غَنِيٌّ مطلقاً لا يحتاج إلى غيره أبداً، ولذلك فقد نفى الجن الشرك بأنواعه عن رب العالمين فقالوا ﴿مَا اتَّخَذَ صَاحِبَةً﴾ أي زوجة ﴿وَلَا وَلَدًا﴾ كما يقول كفار الجن والإنس، لأن اتخاذ الزوجة والولد ينافي الكمال المطلق، ويضاد الغني الكامل سبحانه: ﴿أَفَنُكُونُ لَهُمْ أَوْلَادٌ وَلَمْ تَكُنْ لَهُمْ صَاحِبَةً﴾ [الأنعام: ١٠١].

وَصَفُّ الْجِنِّ لِكَبِيرِهِمْ بِالسَّفْهِ وَالْحُمَقِ لِأَنَّهُ أَشْرَكَ بِاللَّهِ تَعَالَى

٤- ﴿وَأَنَّهُ كَانَ يَقُولُ سَفِيهُنَا عَلَى اللَّهِ شَطَطًا﴾

ثم إن الجن تبرؤوا مما يقوله كبيرهم على الله تعالى حين نسب له سبحانه الشريك، حُمَقًا وسفهاً وجهلاً منه بقدر الله تعالى ﴿وَأَنَّهُ كَانَ يَقُولُ سَفِيهُنَا﴾ وهو إبليس، وكذا كل كافر متمرد من الجن موصوفاً بالحمق والسفه، يقول ﴿عَلَى اللَّهِ شَطَطًا﴾ أي قولاً بعيداً عن الحق والصواب، لا يليق بجلال الله وقُدسيته، كنسبة الصاحبة والولد له سبحانه. والشطط هو مجاوزة الحد في كل شيء، وهو من باب الكذب والعدوان، وقد حسب الجميع، أن أبواب السماء قد أغلقت، وأنه لن ينزل وحي من السماء يكشف زيفهم، فقالوا ما قالوه.

اعْتَذَرُوا الْجِنُّ عَنْ قَبُولِ الشَّائِعَاتِ

٥- ﴿وَأَنَّا ظَنَنَّا أَن لَّنْ نَقُولَ^(١) الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا﴾

ثم اعتذر الجن عن غفلتهم في قبول الشائعات، بأنهم لم يكونوا يتصورون أن يَجْزُءَ أحد بالكذب على الله تعالى فقالوا: ﴿وَأَنَّا ظَنَنَّا﴾ أي وأنا كنا نحسب أن الإنس والجن لا يكذبون على الله تعالى وكنا مغترين بما قاله لنا رؤساء الجن والإنس، فأخسنا بهم الظن، وظننا ﴿أَن لَّنْ نَقُولَ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا﴾ أي لن يكذب أحد على الله تعالى، ويتجرأ عليه لا من الإنس ولا

(١) قرأ يعقوب بفتح القاف وتشديد الواو من ﴿نَقُولُ﴾ مضارع نقول، على حذف إحدى التاءين والأصل تتقول، والباقون بضم القاف بعدها واو مدية، مضارع قال.

من الجن، فينسب له الشريك والولد، وكان ذلك قبل سماعنا للقرآن، فلمّا تحققنا أن الله تعالى واحد أحد، علمنا أن الجن قد كذبوا على الله تعالى، فلن نبال بقول أحد بعد اليوم يعارض الحق والهدى، ولم يكن يخطر ببالنا أن أحداً يجترىء على الله تعالى بالكذب، كما صنع دعاة الشرك بالله تعالى.

وهذا اعتذار منهم عن كفرهم السابق، لأنه كان بسبب اتباعهم لسفهاءهم، وكان الجن يظنون أن إبليس صادق فيما يقوله قبل أن يتبين لهم كذبه، فلما أيقنوا أنه كاذب سمّوه سفياً.

لَيْسَ لِلْجِنِّ تَأْثِيرٌ عَلَى الْإِنْسِ بِنَفْعٍ أَوْ ضَرٍّ

٦ - ﴿وَأَنَّهُ كَانَ رِجَالٌ مِنَ الْإِنْسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِنَ الْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا﴾.

وقد كان العرب - وهم أول من نزل عليهم القرآن - كانوا يعتقدون أن للجن تأثيراً وسلطاناً في الأرض، فكان أحدهم إذا نزل بواد أو مكان موحش استعاذ بعظيم الجن من شر هذا المكان، وكانوا يتوهمون أن الجن يسكنون هذه الأماكن فيقول أحدهم: أعوذ بسيد هذا الوادي من سفهاء قومه، ثم يتوهم أنه قد بات آمناً، وقد علم الجن أن ذلك ضرب من السفه ومجاوزة الحد، وأول من سن لهم ذلك قوم من أهل اليمن، ثم بنو حنيفة، ثم فشا ذلك بينهم، وإلى جوار ذلك، فإن قوماً من المشركين كانوا يعبدون الجن اتقاء شرهم، ويعتقدون فيهم القدرة على النفع والضرر ﴿وَأَنَّهُ كَانَ رِجَالٌ مِنَ الْإِنْسِ يَعُوذُونَ﴾ أي يستجيرون و﴿يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِنَ الْجِنِّ﴾ فيلتجئون إليهم، ويعبدونهم ويستعيذون بهم عند المخاوف ليدفعوا عنهم الأضرار التي يزعمون أنها تقع عليهم من صغار الجن، فزاد الجن الإنس خوفاً وذعراً.

قال قتادة: إن الجن كانت تحتقر بني آدم وتزدريهم لما ترى من جهلهم، فكانوا يزدونهم خوفاً، ويتعرضون للتخيل لهم بمتهى طاقاتهم ويغفونهم، ويزيدوهم بلاءً وخوفاً وضعفاً لما رأوا من قلة عقولهم، فهذا هو الرهق.

وقال أبو السعود: كان الرجل إذا أمسى في وادٍ قفر وخاف على نفسه قال: أعوذ بسيد

هذا الوادي من سفهاء قومه - يريد الجن وكبيرهم - فإذا سمعوا ذلك استكبروا وقالوا: سُذْنَا الْإِنْسَ وَالْجَنِّ، فزاد الرجال الجن تكبرا وعُتُوا، فذلك قوله ﴿فَزَادُوهُمْ رَهَقًا﴾ وكان بعضهم يصيح بأعلى صوته وهو خائف يقول: يا عزيز هذا الوادي، إني أعوذ بك من السفهاء الذين في طاعتك، فيُخَيَّلُ له أن كبير الجن بهذا الوادي يمنعه، فإذا رأى الجن ضعفهم وخورهم زادوهم خوفاً على خوف، ورعباً على رعب، وزادوهم رهقاً بإغوائهم وإضلالهم لاستعادتهم بهم، وفي الوقت نفسه فإن الجن يزدادون طغياناً وتسلطاً على الإنسان^(١).

وعلى هذا فإن الضمير من ﴿فَزَادُوهُمْ﴾، إما أن يعود على الإنسان، فيكون المعنى: فزاد الإنسان الجن طغياناً وتكثراً، وإما أن يعود على الجن، فيكون المعنى: زاد الجن الإنسان ذُوراً وتخويفاً لَمَّا رأوهم يستعيدون بهم ليلجئوهم إلى الاستعاذة بهم. قلت: وهذا هو المختار.

وهذه الاستعاذة بغير الله تعالى غير مشروعة، وهي من التوجه بالعبادة لغيره تعالى، فهي من باب الشرك، وفي الآية تحذير شديد من اللجوء إلى الكهنة والمشعوذين وأشباههم.

إِيمَانُ الْجِنِّ بِالْيَوْمِ الْآخِرِ

٧- ﴿وَأَنَّهُمْ ظَنُّوا كَمَا ظَنَنْتُمْ أَن لَّنْ يَبْعَثَ اللَّهُ أَحَدًا﴾

إما أن يراد بالبعث في الآية: أن كفار الجن ظنوا كما ظن كفار الإنسان أن الله تعالى لن يبعث رسولاً إلى البشر.

أو يراد بالبعث في الآية بعث الناس من قبورهم بعد الموت.

بمعنى أن الجن تحدثت عن البعث والنشور، فأخبروا قومهم بأن من الإنسان من لا يؤمن باليوم الآخر وما فيه من بعث وحساب وجزاء، كما هو الحال عندهم ﴿وَأَنَّهُمْ ظَنُّوا كَمَا ظَنَنْتُمْ﴾ أي أن كفار الإنسان حسبوا كما حسبتم - يا معشر الجن - ﴿أَن لَّنْ يَبْعَثَ اللَّهُ أَحَدًا﴾ بعد الموت، بما يفيد أن الجن كانوا ينكرون البعث ككفار الإنسان، وأنهم آمنوا به بعد أن

(١) تفسير أبي السعود (٥/٢٠٠).

استمعوا للقرآن، وهذا الظن من الطرفين خاطيء، فإن البعث حق، والحساب حق، والجزاء حق.

وفي هذا تعريض بمن أنكر البعث من الإنس، من الدهريين والملحدِين ﴿وَقَالُوا مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلَّا الدَّهْرُ﴾ [الباقية: ٢٤].

ويصح أن يكون المراد بالآية: أنهم حسبوا ألن يبعث الله إليهم رسولاً، وكلا الزغمين فاسد، فإن الله تعالى لا يعذب أحداً إلا بعد قيام الحجة عليه، ولو لم يكن هناك بعث ولا حساب ولا جزاء، لكان خلق الناس لهو وعبث، وضرب من الباطل.

مَنْعُ الْجِنِّ مِنْ اسْتِرَاقِ السَّمْعِ بَعْدَ بَعْثَةِ مُحَمَّدٍ ﷺ

٨- ﴿وَأَنَّا لَمَسْنَا السَّمَاءَ فَوَجَدْنَهَا مِلْئَتْ^(١) حَرَسًا شَدِيدًا وَشُهَبًا﴾

ثم إن الجن قبل مبعث النبي ﷺ كانت تسترق السمع، فلما بعث الله محمداً، وأنزل عليه القرآن، أراد سبحانه أن يحفظ هذا القرآن من استراق السمع، لئلا يسرقوا منه شيئاً يلقوه على ألسنة الكهنة، فيختلط القرآن بغيره.

لذا: فبمجرد بعثة النبي ﷺ ومع بدء نزول القرآن مُنعت الشياطين من استراق السمع. وقد تبين لهم ذلك عندما ذهبوا كعادتهم يتلمسون السماء لالتقاط أخبار أهل الأرض من وحي الله تعالى إلى الملائكة بتصريف أمور الخلق، فوجدوا السماء قد ملئت بالشهب لإحراقهم، كما ملئت بالحرس الشديد من الملائكة.

أخرج البخاري وغيره عن ابن عباس رضي الله عنهما أن الجن كانوا يستمعون وحي الله تعالى إلى الملائكة، بتصريف أمور العباد، فلما بُعث النبي ﷺ مُنَعُوا، فقالوا: ما هذا إلا لأمر حدث في الأرض، فأخذوا يبحثون عن السبب فوجدوا النبي ﷺ قائماً يصلي بمكة، فقالوا: إنا سمعنا قرآناً عجباً، وأوحى الله إلى رسوله بقول الجن.

﴿وَأَنَّا﴾ معشر الجن ﴿لَمَسْنَا السَّمَاءَ﴾ أي أردنا الوصول إليها لاستماع كلام أهلها كما

(١) قرأ الأصبهاني وأبو جعفر بإبدال همزة ﴿مِلْئَتْ﴾ ياء وصلًا ووقفًا، وكذا حمزة وقفًا.

كنا نفعل من قبل ﴿فَوَجَدْنَاهَا مُلِئَتْ حَرَسًا شَدِيدًا وَشُهُبًا﴾ أي ملئت بالملائكة الكثرين الذين يحرسونها، كما أنها ملئت بالشهب المحرقة التي يرمى بها مَنْ يُحاول الاقتراب منها، فتتنقُصُ عليه فتُحرقه، وتقع في الجو أو البحر أو على الأرض، فعَلِمَتِ الجن، وعَلِمَ الإنس، أن الوحي النازل من السماء يحيط به حرس شديد حتى يصل إلى الرسول ﷺ دون أن يحدث له أي تغيير أو نقص أو زيادة.

والعجيب أن الحراسة التي صاحبت نزول القرآن من السماء لم تتركه في الأرض، بل تحولت هذه الحراسة إلى تواتر السند، وتدوين القرآن في ملايين الصدور، وملايين المصاحف، صيانة له حرفاً بحرف، وحركة بحركة، وغنة بغنة، ومدّاً بمد، وهكذا.

قَالَ تَعَالَى عَلَى لِسَانِ الْجِنِّ

٩- ﴿وَإِنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقْعِدًا لِّلسَّمْعِ فَمَنْ يَسْمَعُ الْآنَ^(١) يَحْدِلُهُ شَهَابًا رَّصَدًا﴾

ثم ذكر الجن ما كان يحدث منهم قبل البعثة، وأن كل واحد منهم كان يَرْكَبُ فوق الآخر، حتى يصلوا إلى السماء، فيستمعوا إلى الكلمة الواحدة من الملائكة، ثم يزدون عليها تسعة وتسعين كذبة، ويُلْقُونَ ذلك إلى الكهنة، فتكون الكلمة الواحدة الصحيحة سبباً في قبول بقية الكلام الكذب، ولكنهم لا يستطيعونه الآن بعد بعثة محمد ﷺ، ومن يحاول ذلك يُحْرَقُ بالشهب.

﴿وَإِنَّا﴾ يا معشر الجن ﴿كُنَّا﴾ قبل بعثة محمد ﷺ ﴿نَقْعُدُ مِنْهَا﴾ أي من السماء ﴿مَقْعِدًا لِّلسَّمْعِ﴾ نستمع إلى الأخبار التي يوحى الله بها إلى الملائكة مما يتعلق بشؤون العباد، فتتلقف من أخبار السماء ما شاء الله، ونُلْقِيهَا إلى الكهان، وذلك باتخاذنا من السماء مواضع خالية من الحرس والشهب، وقد انقضى هذا الوقت وانتهى بمبعث النبي ﷺ ﴿فَمَنْ يَسْمَعُ الْآنَ﴾ بعد بعثة النبي ﷺ ويحاول الاقتراب من السماء والاستماع إلى كلام الملائكة ﴿يَحْدِلُهُ شَهَابًا رَّصَدًا﴾ أي يجد له شهاباً بالمرصاد ينتظره فيحرقه ويهلكه.

(١) قرأ ورش وابن وردان بخلفه بالنقل في ﴿الآن﴾ وللأزرق تثليث البدل.

وفي هاتين الآيتين إبطال مزاعم السحرة والمشعوذين، الذين يزعمون أنهم يعرفون شيئاً من الغيب، ويغررون بضعة الإيمان والعقول كذبا وافتراء، والجن بهذا يؤكدون إيمانهم بالغيب، ويؤكدون صيانه الوحي المنزل.

وهل كانت الشياطين ترمى بالشهب قبل مبعث النبي ﷺ أم لا؟

- ١ - قال ابن قتيبة: إن الرجم كان قبل مبعثه ﷺ ولكنه لم يكن في شدة الحراسة التي كانت بعد بعثته، وكانوا يسترقون في بعض الأحوال، فلما بعث النبي ﷺ مُنعوا أصلاً^(١).
- ٢ - وقال عبد الملك بن سابور: لم تكن السماء تُحرس في الفترة بين عيسى ومحمد، فلما بعث محمد ﷺ حُرست السماء، ورُميت بالشهب، ومُنعت الشياطين من الدنو إلى السماء^(٢).

- ٣ - وقال نافع بن جبير: كانت الشياطين في الفترة، تسمع فلا تُرمى، فلما بُعث رسول الله ﷺ رُميت بالشهب^(٣).

ومختلف الآثار تفيد: أنها كانت تُرمى بالشهب قبل البعثة، وأنهم مُنعوا أصلاً من استراق السمع بعد البعثة، ومن يحاول منهم استراق السمع بعد البعثة، تحرقه الشهب من على بُعد، كما قال ابن قتيبة.

اعْتِرَافُ الْجِنِّ بِأَنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ شَيْئًا مِنَ الْغَيْبِ

١٠ - ﴿وَأَنَا لَا نَدْرِي أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَنْ فِي الْأَرْضِ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا﴾

ومنع الشياطين من استراق السمع حدثٌ جسيم، ولهذا فإن الجن جزموا بأن الله تعالى أراد أن يُحدث في الأرض حدثاً كبيراً، هو منعهم من استراق السمع بسبب بعثة محمد ﷺ. ثم ذكر الجن أنهم لا يعلمون شيئاً من الغيب، ولا يدرون هل أراد الله بأهل الأرض خيراً أم أراد بهم شراً، وأنهم قبل ذلك كانوا يعرفون بعض تصريف الأمور، بما كانوا

(١-٣) فتح القدير للشوكاني (٣٠٣/٥).

يتلقَّونه من خبر السماء، أما الآن فلا سبيل لهم إلى معرفة شيء من ذلك، بعدما حرس الله الوحي المنزل من السماء، من أن يطلع عليه أحد قبل أن يصل إلى الرسول الموحى إليه، فقالوا ﴿وَأَنَا﴾ يا معشر الجن ﴿لَا نَدْرِي﴾ أي لا نعلم بعد هذه الحراسة المشددة للسماء، والحيلولة بيننا وبين خبر السماء، فلا نعلم: ﴿أَشْرَأُيَدِ يَمَنٍ فِي الْأَرْضِ أَمَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا﴾. لأنهم رأوا أن الأمر قد تغير، فعرفوا أن هذا التغير لأمر يريد الله إحداثه في الأرض، من خير أو شر.

قال ابن زيد: قال إبليس: لا ندري أراد الله بهذا المنع أن يُنزل على أهل الأرض عذاباً أو يرسل إليهم رسولاً، أي هل المقصود بمنع استراق السمع شرٌّ يراد بأهل الأرض، أم يراد بهم الصلاح والخير، وكانت الشهب يرمى بها الشياطين قبل ذلك، فأخذ الجن يبحثون في مشارق الأرض ومغاربها عن السبب الذي منعه من استراق السمع، فرأوا النبي ﷺ يصلي ويقرأ بأصحابه فعرفوا أن السماء قد حُفظت من أجله، فأسلموا.

وفي قول الجن هذا: تأدب مع الله تعالى حيث صرَّحوا بنسبة الخير إلى الله تعالى، ولم ينسبوا له الشر، وهذا حُسن أدب، وحُسن اعتقاد منهم.

ويستفاد من الآية: أن الجن يعتقدون أن الله تعالى أراد الخير بأهل الأرض، حينما صرفهم عن استراق السمع، وأكرمهم بهذا الدين، لأنهم قالوا ﴿إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا ۝ يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ فَآمَنَّا بِهِ ۝﴾ فهم يعلمون أن منعهم بالشهب، فيه الخير للبشرية، لأنهم قالوا بعد ذلك ﴿وَأَنَّا لَمَّا سَمِعْنَا الْمُدَىٰءَ آمَنَّا بِهِ ۝﴾ وقالوا: ﴿وَأَنَّا مِنَّا الصَّالِحُونَ وَمِمَّا دُونَ ذَلِكَ ۝﴾ فهم يقولون كما ذكر الله عنهم في الآية التالية:

الْجِنُّ طَوَائِفَ وَفِرَقَ وَطِبَاعٍ مُّخْتَلِفَةٍ كَالْإِنْسِ

١١ - ﴿وَأَنَّا مِنَّا الصَّالِحُونَ وَمِمَّا دُونَ ذَلِكَ كُنَّا طَرَائِقَ قَدَدًا ۝﴾

ثم إن الجن بعد أن بلغتهم الرسالة الخاتمة، أدركوا أنهم أصبحوا فريقين، فريق مؤمن، وفريق غير مؤمن ﴿وَأَنَا﴾ يا معشر الجن ﴿مِمَّا الصَّالِحُونَ﴾ الأبرار المتقون، وهم يصفون

أنفسهم بالصالحين ﴿وَمَنَّا ذُوْنَ ذَٰلِكَ﴾ كفَّاراً وَفُسَّاقاً، ولم يصرِّحوا بذلك تلطفاً مع بعضهم. وغير الصالح يدخل فيه الكافر وغيره ﴿كُنَّا﴾ أي قبل الإسلام ﴿طَرَائِقَ قَدَدَا﴾ فرقاً شتى، ومذاهب مختلفة، وجماعات متفرقة، وأهواء متباينة، كل حزب بما لديهم فرحون، منا الصالح ومنا الطالح، ومنا الفاسق، ومنا الفاجر، وهنا الكافر ومنا المؤمن ومنا الشقي ومنا السعيد، ومنا العاقل ومنا الأبله، قال سعيد: كانوا مسلمين ويهوداً ونصارى ومجوساً. والجن بهذا يذمون الاختلاف والتفرق، ويدعون إخوانهم إلى وحدة الاعتقاد، واقتفاء هذي الإسلام، فقد كنا قبل الإسلام، مذاهب مختلفة في حُسنها وقُبْحها واستقامتها واعوجاجها، أما الآن فقد وفقنا الله إلى الإيمان، وإخلاص العبادة له وحده، فالآية تدم الطالحين، وتمدح الصالحين، وتدعو إلى الوحدة، ونبذ الفرقة.

الْجَنُّ يُعِزُّونَ عِزَّهُمُ الْمُطْلَقَ أَمَامَ قُدْرَةِ اللَّهِ تَعَالَى

١٢ - ﴿وَأَنَّا ظَنَنَّا أَن لَّن نُّعْجِزَ اللَّهَ فِي الْأَرْضِ وَلَن نُّعْجِزَهُ هَرَبًا﴾

ثم ذكر الجن عِزَّهُمُ الْمُطْلَقَ، أمام قدرة الله تعالى، فأخبروا أنهم يعلمون علم اليقين، أنهم في قبضة الله تعالى وتحت سلطانه، وأنه إذا أراد بهم أمراً فلن يفلتوا من عقابه. ﴿وَأَنَّا﴾ معشر الجن ﴿ظَنَنَّا أَن لَّن نُّعْجِزَ اللَّهَ فِي الْأَرْضِ﴾ أي وأنا أيقنا في وقتنا هذا، بعد أن آمنا بالله ورسوله وتبين لنا أن المستحق لعقاب الله تعالى لن ينجو من الجزاء، فهو تحت قهره تعالى وقدرته، ولن يفلت من يده وسلطانه، وهو لا يستطيع أن يهرب من السماء أو الأرض، إن أراد الله به سوءاً، وهذا معنى: ﴿وَلَن نُّعْجِزَهُ هَرَبًا﴾ أي فلن نعجز الله تعالى في الأرض ولا في السماء، ولن نفوته بهرب ولا غيره، ولن نغلبه بقوة، فإن نواصينا بيده، فلا ملجأ ولا منجأ منه إلا إليه، مهما أخذنا بأسباب الفرار والخروج عن قدرة الله تعالى.

فالمقصود بالآية: إظهار عجز الجن وعدم تمكنهم من الهرب من قضاء الله تعالى، لا في الأرض ولا في السماء، وهذا كقوله تعالى ﴿وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ﴾

وَمَا لَكُمْ مِّنْ دُونِ اللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿العنكبوت: ٢٢﴾ .

الْمُؤْمِنُ لَا يُنْقَصُ مِنْ حَسَنَاتِهِ وَلَا يُزَادُ عَلَى سَيِّئَاتِهِ

١٣ - ﴿وَأَنَا لَمَّا سَمِعْنَا الْمَدَىٰ ءَامَنَّا بِهِ فَمَن يُؤْمِنُ بِرَبِّهِ فَلَا يَخَافُ بَخْسًا وَلَا رَهَقًا﴾

لقد آمن الجن بالله تعالى عن تصديق واقتناع، فشكروا ربهم على ما جباهم به من نعمة الإيمان، والاهتداء بسماع القرآن فقالوا ﴿وَأَنَا﴾ معشر الجن ﴿لَمَّا سَمِعْنَا الْمَدَىٰ﴾ أي: لما سمعنا القرآن الهادي إلى صراط مستقيم، وعرفنا هدايته وإرشاده ﴿ءَامَنَّا بِهِ﴾ دون تردّد ولا شك، وصدقنا محمداً ﷺ في رسالته، ثم ذكروا ما يرغب العبد في الإيمان، وقرروا أن من يعبد الله وحده، ويصدق بالرسالة الخاتمة، فإنه لا يخاف نقصاً من حسناته ولا زيادة فيها ﴿فَمَن يُؤْمِنُ بِرَبِّهِ﴾ إلها واحداً إيماناً صادقاً ﴿فَلَا يَخَافُ بَخْسًا وَلَا رَهَقًا﴾ أي لا ينقص شيئاً من عمله وثوابه، ولا يرهق ظلماً بزيادة سيئاته، فالبخس هو النقصان، والرهق هو الظلم والعدوان، كما قال تعالى ﴿وَمَن يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا يَخَافُ ظُلْمًا وَلَا هَضْمًا﴾ [طه: ١١٢]، وإذا أسلم الإنسان من الشر حصل له كل الخير، وبالإيمان يحصل كل خير.

مَصِيرُ الْمُؤْمِنِ وَالْكَافِرِ مِنَ الْجِنِّ

١٤، ١٥ - ﴿وَأَنَا مِنَّا الْمُسْلِمُونَ وَمِنَّا الْقَاسِطُونَ فَمَن أَسْلَمَ فَأُولَٰئِكَ تَحَرَّوْا رَشَدًا ﴿١٤﴾ وَأَمَّا الْقَاسِطُونَ

فَكَانُوا لِلْجَهَنَّمَ حَطَبًا﴾

ثم بينت الآيات مصير كل من المؤمنين والكافرين من الجن، فقال تعالى على لسانهم: ﴿وَأَنَا﴾ معشر الجن ﴿مِنَّا الْمُسْلِمُونَ﴾ الذين آمنوا بالله والرسول، وانقادوا لأمر الإسلام، وخضعوا لطاعته ﴿وَمِنَّا الْقَاسِطُونَ﴾ الجائرون الظالمون، الذين حادوا عن طريق الحق، وعدلوا عنه إلى غيره. وقَسَطَ بمعنى جار وظلم، وأَقْسَطَ بمعنى عدل، فالقاسط هو الجائر الظالم، والمقسط هو الذي يحكم بالعدل.

ومن ذلك أن الحجاج قال لسعيد بن جبير حين أراد قتله، ما تقول في؟ قال: قاسط عادل، فقام القوم: ما أحسن ما قال! - ظنوا أنه وصفه بالقسط والعدل - فقال الحجاج: يا جهلة، إنه سماني: ظالماً مشركاً، وتلا لهم قوله تعالى ﴿وَأَمَّا الْقَاسِطُونَ فَكَانُوا لِجَهَنَّمَ حَطَبًا﴾. ومن ذلك قوله تعالى ﴿ثُمَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ﴾ [الأنعام: ١].

وقال عن المشركين ﴿وَهُمْ بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ﴾ [الأنعام: ١٥٠] أي يعدلون عنه إلى غيره. وبعد أن بين سبحانه وتعالى أن الجن منهم المسلمون ومنهم الكافرون، قالوا ﴿فَمَنْ أَسْلَمَ فَأُولَئِكَ تَحَرَّوْا رَشَدًا﴾ أي أن من آمن منّا بالله وخضع له، فقد قصد طريق الحق والصواب، واجتهد في اختيار الحق، وتوخى سبب النجاة وما يحصل به من الثواب، فهداه الله إليه وفاز بالسعادة والنجاة.

ويمكن أن تكون هذه الجملة وما بعدها من كلام الله تعالى، وليست من كلام الجن. وأما الجائرون الظالمون الذين كفروا بالله ورسوله، فهم حطب جهنم يوم القيامة. ﴿وَأَمَّا الْقَاسِطُونَ﴾ الذين عدلوا عن الإسلام إلى الكفر ﴿فَكَانُوا لِجَهَنَّمَ حَطَبًا﴾ أي وقوداً للنار، كما قال تعالى ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنْتُمْ لَهَا وَرَدُونَ﴾ [الأنبياء: ٩٨].

وقال سبحانه ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قُوا أَنْفُسَكُمْ وَأَهْلِكُوا نَارًا وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ﴾ [التحريم: ٦] وإلى هنا ينتهي كلام الجن.

الرِّبْطُ بَيْنَ الاستِقَامَةِ وَالرِّخَاءِ وَالْبَلَاءِ

١٦ - ﴿وَالْوِاسْتَقَامَةُ عَلَى الطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْنَهُمْ مَاءً عَذَقًا﴾

ثم بين سبحانه وتعالى أن الإنس والجن الذين عدلوا عن طريق الحق إلى طريق الباطل، لو أنهم استقاموا على منهج الله تعالى، والتزموا بما جاءهم به رسول الله ﷺ لفتح الله عليهم أبواب الخير والرزق، وأغدق عليهم بالماء الكثير، لأن الاستقامة على أمر الله تعالى، تؤدي إلى السعادة التي ليس بعدها سعادة، أما رخاء العيش وشظفه فهو

لون من ألوان الابتلاء والاختبار ﴿وَأَلَوْ اسْتَقَمُوا عَلَى الطَّرِيقَةِ﴾ أي ولو أن القاسطين من الجن على وجه الخصوص، استقاموا فأسلموا، لفتح الله عليهم أبواب الرزق والخير، وخصّ المطر بالذكر، لأن الماء سبب الأرزاق.

وفي الآية إنذار للجميع - أي الإنس والجن - أن يحبس الله عنهم الرزق، إذا لم يستقيموا على طريق الحق والهدى.

وقد حدث هذا عندما دعا النبي ﷺ على كفار قريش في القنوت، وهو بالمدينة بعد الهجرة، أن يجعلها الله عليهم سنين كسني يوسف، فأصيبوا بالقحط والجوع مدة سبع سنوات، وكانوا قبل ذلك في بحبوحة من العيش، ونخيل وجنات، ولو أنهم داوموا على الاستقامة لأدام الله عليهم نعمته، ومنها الماء العذب، ولو سلكوا طريق الاعوجاج، فإنه يوشك أن يمسك الله عنهم رزقه.

والمعنى: لو أن الكفار من الإنس والجن ساروا على طريقة الإسلام، ولم يحيدوا عنها ﴿لَأَسْقَيْنَهُمْ مَاءً عَذْقًا﴾ أي: لأنزلنا عليهم ماء كثيراً هنيئاً مريئاً، ولو سغنا عليهم الرزق في الدنيا، وهذا كقوله تعالى: ﴿وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا ۖ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ﴾ [الطلاق: ٢، ٣]، ولم يمنعهم من ذلك إلا الظلم والعدوان.

وقوله سبحانه: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا التَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِمْ مِنْ رَبِّهِمْ لَأَكَلُوا مِنْ فَوْقِهِمْ وَمِنْ تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ﴾ [الأعراف: ٩٦] وقوله عن أهل الكتاب: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا التَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِمْ مِنْ رَبِّهِمْ لَأَكَلُوا مِنْ فَوْقِهِمْ وَمِنْ تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ﴾ [المائدة: ٦٦].

والآية تربط بين استقامة الأفراد والجماعات والأمم، وبين إغداق النعم، وتهيئة أسباب الرزق. قال تعالى:

١٧ - ﴿لَقَدْ أَنزَلْنَاهُمْ فِيهِ وَمَنْ يُعْرِضْ عَنْ ذِكْرِ رَبِّهِ، يَسْلُكْهُ ۖ عَذَابًا صَعَدًا﴾

أي: لأسقيناهم ماءً عذقاً لنختبرهم ونمتحنهم فيه ليظهر الصادق في إيمانه من الكاذب،

(١) قرأ عاصم وحزمة والكسائي ويعقوب وخلف بياء الغيبة في ﴿يَسْلُكْهُ﴾ والفاعل ضمير يعود على ربه، والباقون بنون العظمة على الالتفات.

وتربط هذه الآية بين الرخاء والابتلاء، فإن شُكِرَ النعمة والقيام بحق الله فيها، ابتلاء من الله تعالى لعباده، كما أن الصبر على القحط والجوع، ابتلاء من الله جل شأنه أيضاً.

قال تعالى: ﴿وَتَبْلُوكُم بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً﴾ [الأنبياء: ٣٥] وقال تعالى هنا ﴿لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ﴾ أي لنختبرهم ونظهر في عالم الوجود كيف يشكرون نعمة الله عليهم، فنعطيهم ما نعطيهم من الخيرات والنعمة ليظهر للملائكة وغيرهم، جحودهم وبطَرهم، من شكرهم وحمدهم، فيسجل ذلك عليهم في صحائف أعمالهم.

قال عمر بن الخطاب ؓ: أينما كان الماء، كان المال، وأينما كان المال كانت الفتنة. وفي صحيح مسلم وغيره عن أبي سعيد الخدري ؓ أن رسول الله ﷺ قال: «إن أكثر ما أخاف عليكم، ما يُخرج الله لكم من بركات الأرض»، قيل: ما بركات الأرض؟ قال: «زهرة الدنيا»^(١).

وفي الحديث - أيضاً - عن المشور بن مخزومة ؓ أن رسول الله ﷺ قال: «فوالله ما الفقر أخشى عليكم، ولكن أخشى أن تُبسط عليكم الدنيا كما بُسطت على من كان قبلكم، فتنافسوها كما تنافسوها فتهلككم كما أهلكتهم»^(٢).

وقد ربط سبحانه بين فتنة الابتلاء بالرخاء، وبين الإعراض عن ذكر الله تعالى، وبين أن ذلك يؤدي إلى عذاب الله سبحانه، فقال ﴿وَمَنْ يُعْرِضْ عَنْ ذِكْرِ رَبِّهِ﴾ أي أن من يعرض عن طاعة الله تعالى، والاستماع للقرآن وتدبره والعمل بما فيه فلم يتبعه ولم يستجب له، بل غفل عنه وأعرض ﴿يَسْلُكُهُ عَذَابًا صَعَدًا﴾ أي يدخله يوم القيامة عذاباً شديداً شاقاً لا راحة فيه، ومن عذابه يوم القيامة أنه يكلف الصعود في نار جهنم، فإذا انتهى إلى أعلاها انحدر منها، وفي هذا من المشقة ما فيه.

(١) من حديث طويل في البخاري برقم (٦٤٢٧)، ومسلم برقم (١٠٥٢).

(٢) من حديث طويل في البخاري (٤٠١٥)، ومسلم (٢٩٦١).

لَا يُدْعَىٰ غَيْرُ اللَّهِ فِي بُيُوتِ اللَّهِ وَلَا فِي غَيْرِهَا

١٨ - ﴿وَأَنَّ الْمَسْجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُوا مَعَ اللَّهِ أَحَدًا﴾

أي: ومما أوحاه الله تعالى لرسوله: أن بيوت العبادة مختصة بالله وحده، لا يُعبد فيها غيره، ولا يسأل إلا الله، لا سؤال عبادة، ولا سؤال مسألة، لأن المساجد وهي محال العبادة، مبنية على الإخلاص لله تعالى:

أسباب النزول:

- ١- عن سعيد بن جبیر رضي الله عنه أن الجن قالوا للنبي ﷺ: كيف لنا أن نأتي المسجد، ونحن نأوون عنك؟ وكيف نشهد الصلاة، ونحن نأوون عنك؟ فنزلت الآية^(١).
- ٢- وقال مجاهد: كان اليهود والنصارى إذا دخلوا كنائسهم وبيعهم، أشركوا بالله فيها، فأمر الله نبيه والمؤمنين أن يخلصوا عبادتهم لله تعالى، إذا دخلوا المساجد كلها، أو سجدوا لله تعالى في كل مكان من الأرض^(٢).
- ٣- وقال ابن عباس رضي الله عنهما: لم يكن يوم نزلت هذه الآية في الأرض مسجد، إلا المسجد الحرام، ومسجد إيليا: بيت المقدس^(٣).
- ٤- وقال سعيد بن جبیر: نزلت في أعضاء السجود، كما صح في حديث ابن عباس رضي الله عنهما أن النبي ﷺ قال: «أُمِرْتُ أَنْ أَسْجُدَ عَلَى سَبْعَةِ أَعْظَمَ: عَلَى الْجَبْهَةِ - وَأَشَارَ بِيَدَيْهِ إِلَى أَنْفِهِ - وَالْيَدَيْنِ وَالرَّكْبَتَيْنِ وَأَطْرَافِ الْقَدَمَيْنِ، وَلَا تَكْفِفُ الثِّيَابَ، وَلَا الشَّعْرَ»^(٤).
- ٥- وعن العباس بن عبد المطلب رضي الله عنه أنه سمع النبي ﷺ يقول: «إِذَا سَجَدَ الْعَبْدُ، سَجَدَ مَعَهُ سَبْعَةُ آرَابَ: وَجْهُهُ وَكَفَاهُ وَرَكْبَتَاهُ وَقَدَمَاهُ» والآراب هي الأعضاء.

(١) اتفق القراء على فتح همزة ﴿وَأَنَّ الْمَسْجِدَ﴾.

(٢) تفسير الطبري (٧٣/٢٩)، والخازن (٣١٨/٤).

(٣) (٤٠٣)، ينظر تفسير ابن كثير (٢٤٤/٨)، والخازن (٣١٨/٤)، والطبري عن قتادة، وعبد الرزاق (٣٢٣/٢).

(٤) صحيح البخاري برقم (٨١٢)، وصحيح مسلم (٤٩٠).

وإذا: فهذه الآية، نزلت جواباً للجن الذين سألوا: كيف يصلون مع النبي ﷺ وهم ليسوا معه، فبين سبحانه أن كل مكان أعَدَّ للصلاة والعبادة فيه فهو مسجد، وأن الأرض كلها مسجداً وطهوراً.

ولما كان الجن قد أَلْفُوا الشرك بالله تعالى في بيوت العبادة، من أهل الكتاب قبل الإسلام، فقد وبَّخهم الله تعالى على هذا، وبيّن أن المساجد لا يُدْعَى فيها غير الله تعالى. ومن ذلك توبيخ المشركين الذين وضعوا الأنصاب في المسجد الحرام، ومنها صنم هُبل، وصنم إساف ونائلة، على الصفا والمروة، ولم يكن في الأرض وقتئذٍ إلا المسجد الحرام والمسجد الأقصى.

قال تعالى: ﴿وَأَنَّ الْمَسَاجِدَ لِلَّهِ﴾ أي لعبادة الله وحده ﴿فَلَا تَدْعُوا مَعَ اللَّهِ أَحَدًا﴾ لا تعبدوا غير الله فيها، ولا تدعوا غير الله، وأخلصوا له الدعاء والعبادة، فإن المساجد لم تُبَنِّ إلا لهذا، ولا تطلبوا العون من غير الله فيما لا يقدر عليه إلا الله، فإن الدعاء عبادة، وفي هذا وجوب تنزيه المساجد من كل ما يشوب الإخلاص لله تعالى، ومتابعة الرسول ﷺ ووجوب تطهيرها من الأضرحة والقبور، حتى تخلص العبادة لله وحده. والأماكن التي تُهي عن الصلاة فيها هي: المذبة، والمجزرة، والمقبرة، وقارعة الطريق، وفوق الحمام، ومعاطن الإبل، والبيع، والمكان المغصوب. واختص المسجد الحرام، والمسجد النبوي، والمسجد الأقصى، ومسجد قباء، بمزيد أفضلية ليست في بقية المساجد.

ازْدَحَامُ الْجِنِّ حَوْلَ النَّبِيِّ ﷺ لِإِسْتِمَاعِ الْقُرْآنِ

١٩ - ﴿وَأَنَّهُ^(١) لَمَّا قَامَ عَبْدُ اللَّهِ يَدْعُوهُ كَادُوا يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِيَدًا^(٢)﴾

(١) قرأ نافع وشعبة بكسر همزة ﴿وَأَنَّهُ﴾ والباقون بفتحها.

(٢) قرأ هشام بخلف عنه بضم اللام من ﴿لِيَدًا﴾ جمع لُبد، كغرفة وغرف، والباقون بكسر اللام جمع لُبد، كسدرة وسدر وهو الوجه الثاني لهشام.

ثم بين سبحانه وتعالى حرص الجن على الاستماع للقرآن، وازدحامهم عند النبي ﷺ وهو يصلي الفجر في بطن نخلة، تعجباً من صلاته، وحسن تلاوته، واقتداء أصحابه به، فقال تعالى: ﴿وَأَنَّهُ﴾ أي وأوحى إلي أنه ﴿لَمَّا قَامَ عَبْدُ اللَّهِ﴾ وهو محمد ﷺ ﴿يَدْعُوهُ﴾ أي يعبد الله تعالى ويقرأ القرآن في صلاة الصبح، كاد الجن يركب بعضهم بعضاً من الازدحام عليه، وهذا معنى: ﴿كَادُوا يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِيَدًا﴾ أي جماعات متراكمة بعضها فوق بعض من شدة الازدحام، لسماع القرآن فيه، والموحى إليه هو النبي ﷺ، والموحى به هو دعوة الإنس والجن إلى عبادة الله وحده، وكان ذلك حال ازدحام الجن حوله وتألب العرب عليه، وقد وُصف النبي ﷺ بالعبودية دون ذكر اسمه الصريح تشريفاً له.

قال ابن عباس رضي الله عنهما: لما أتى الجن على رسول الله ﷺ وهو يصلي بأصحابه، يركعون بركوعه، ويسجدون بسجوده، فعجبوا من طوعية أصحابه له^(١)، والضمير في ﴿كَادُوا﴾ يعود على الجن في الأرجح.

قال الزبير بن العوام: هم الجن حين استمعوا القرآن من النبي ﷺ كادوا يركب بعضهم بعضاً ازدحاماً عليه^(٢).

وقال الحسن في معنى الآية: لما قام رسول الله ﷺ يقول: (لا إله إلا الله) ويدعو الناس إلى ربهم، كادت العرب تلبّد عليه جميعاً.

أَرْبَعَةُ أَوَامِرَ لِلنَّبِيِّ ﷺ وَلِلْأُمَّةِ، مُصَدَّرَةٌ بِلَفْظِ (قُلْ)

٢٠ - ﴿قُلْ إِنَّمَا^(٣) أَدْعُوا رَبِّي وَلَا أَشْرِكُ بِهِ أَحَدًا﴾

ثم أمر الله تعالى رسوله ﷺ قرب نهاية السورة بأربعة أوامر: أولها: وجوب توحيد الله تعالى وتوجيه العبادة إليه وحده.

(١) صحيح سنن الترمذي (٢٦٤٧)، والطبري (٣٤٤/٢٣)، والحاكم (٥٠٤/٢).

(٢) تفسير القرطبي (٤٣/١٩).

(٣) قرأ عاصم وحمة وأبوجعفر ﴿قُلْ إِنَّمَا﴾ فعل أمر والباقون ﴿قَالَ إِنَّمَا﴾ فعل ماضٍ.

وثانيها: أن النبي ﷺ لا يملك لنفسه ولا لغيره ضرراً ولا نفعاً.
وثالثها: أن النبي ﷺ لا يملك أن يدفع العذاب عن نفسه ولا عن غيره، والذي يملكه فقط هو البلاغ والإنذار.

ورابعها: أن قيام الساعة، ووقت حلول العذاب بالمكذابين، علّمه عند رب العالمين.

أما الأمر الأول: وهو عدم الإضرار بالله تعالى:

فقد ورد أن كفار قريش قالوا للنبي ﷺ: إنك جئت بأمر عظيم، وقد عادت الناس كلهم، فارجع عن هذا، فنحن نجيرك وننصررك، فنزلت الآية^(١).
والمعنى: قل يا رسولنا لجميع من أرسلناك إليهم من الإنس والجن، مُبيناً حقيقة ما تدعو إليه: إني أعبد الله وحده، وأتوجه إليه بالدعاء والطلب، ولا أشرك معه أحداً في عبادتي أو صلاتي أو نسكي من بشرٍ أو صنم، أو كوكب أو حيوان، وكل ما يتخذه المشركون إلهاً وكل ما يُعبد من دون الله.

الأمر الثاني: أن النبي ﷺ لا يملك لنفسه ولا لغيره ضرراً ولا نفعاً

٢١- ﴿قُلْ إِنِّي لَا أَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا رَشَدًا﴾

إن الذي يقدر على دفع الضرر وجلب النفع هو الله وحده: ﴿قُلْ﴾ لهم يا رسولنا: إني لا أستطيع أن أرفع عنكم ضرراً ينزل بكم، ولا أسوق إليكم رشداً، فإنني عبد ليس لي من الأمر شيء، وإنما الضار والنافع والمرشد هو الله تبارك وتعالى.
والرشد هو الخير والنفع، وهو في مقابلة الضرر، وقد يراد به الرشاد والصواب في مقابلة الضلال، فتقدير الآية: إني لا أملك لكم ضرراً ولا نفعاً، ولا ضلالاً ولا رشداً.
أي ولا أملك لكم شيئاً، والذي يملك ذلك هو الله تعالى.

(١) حاشية الصاوي على الجلالين (٤/٢٥٧)، وتفسير الخازن (٤/٣١٩).

الْأَمْرُ الثَّانِي: أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ لَا يَدْفَعُ الْعَذَابَ عَنْ نَفْسِهِ لَوْ كَانَ عَاصِيًا لِرَبِّهِ

٢٢- ﴿قُلْ إِنِّي لَنْ يُخِيرَنِي مِنَ اللَّهِ أَحَدٌ^(١) وَلَنْ أَجِدَ مِنْ دُونِهِ مُلْتَحَدًا^(٢)﴾

قل - يا رسولنا - لن ينصرني ويمنعني من عذاب الله أحد من خلقه ولو كان رسول الله ﷺ، وهو أكمل الخلق، ولن أجد أحد أفرُّ إليه إلا الله سبحانه، ولو أراد الله بأحد سوءاً فليس بقدرة الرسول ﷺ أن يحول دون وقوعه.

﴿قُلْ﴾ يا رسولنا للناس جميعاً ﴿إِنِّي لَنْ يُخِيرَنِي﴾ أي لن ينقذني ويحميني ﴿مِنَ اللَّهِ أَحَدٌ﴾ إن أنا عصيته، ولن أجد لي نصيراً ولا ملجأً أفرُّ إليه من عذابه، فكيف أجيبكم إلى ما طلبتم؟ ﴿وَلَنْ أَجِدَ مِنْ دُونِهِ مُلْتَحَدًا﴾ الملتحذ: هو الملجأ والمكان الذي يأوي إليه العبد فراراً من العذاب، أي ولن أجد غير الله تعالى ملجأً ولا نصيراً يمنعي من عذابه.

البلاغُ مهمةُ الرُّسالةِ

٢٣- ﴿إِلَّا بَلَاغًا مِّنَ اللَّهِ وَرِسَالَةً^(١) وَمَن يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ، فَإِنَّ لَهُ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدًا فِيهَا أَبَدًا﴾

أي لكن الرسول المرتضى عند الله تعالى: هو الذي يُظهر الله له بعض علوم الغيب المتعلقة برسالته من باب المعجزة الدالة على صدق رسالته، وإذا كان النبي ﷺ لا يملك لأحد ضراً ولا نفعاً، ولا يملك أن يمنع نفسه أو غيره من عذاب الله تعالى إن كان مستحقاً له، فماذا يملك ﷺ؟

لقد حددت هذه الآية مهمة النبي ﷺ وهي البلاغ، فالذي يملكه ﷺ هو أن يبلغ الإنس والجن عن الله تعالى ما أمر بتبليغه، ويوصل لهم الرسالة التي أرسله الله بها. والمعني: ليس لي مزية على الناس إلا أن الله تعالى قد خصني بالبلاغ ودعوة الخلق إلى الله كي تقوم عليهم الحجة.

(١) عد المكي وحده لفظ ﴿أَحَدٌ﴾ آية، وتركها غيره.

(٢) لم يعد المكي لفظ ﴿مُلْتَحَدًا﴾ آية، فيكون آية عند غيره.

فاستثنى الله سبحانه مما ذكر في الآيتين السابقتين، من عدم القدرة على دفع الضرر أو جلب الخير، أو الحيلولة دون وقوع العذاب بمن يستحقه، استثنى من ذلك بيان مهمة الرسول ﷺ وهي تبليغه رسالة ربه، مبشراً من أطاعة بدخول الجنة، ونذيراً لمن عصاه بدخول النار، وهذا البلاغ هو واجب الرسالة، وليس في مقدور أي رسول التقصير فيه، فقال تعالى: ﴿إِلَّا بَلَاغًا مِّنَ اللَّهِ وَرِسَالَةً﴾ أي لن يجبرني أحد من عذاب الله تعالى إذا لم أبلغ رسالة ربي، وفي قيامي بواجب البلاغ عن ربي الملجأ والملاذ الآمن، والنجاة من عذاب الله تعالى.

أما من لم يؤمن بالله تعالى، وأعرض عن رسالة ربه، ولم يصدق بالجنة والنار، فإن هذا لا نجاة له من عذاب النار، ولا خروج له منها إن مات على ذلك. ذلكم قول الله تعالى: ﴿وَمَن يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾ فأعرض عن دين الله، ولم يقبل ما جاء به محمد ﷺ فهو من أهل النار، فالمراد بالمعصية في الآية: معصية الكفر، كما دل على ذلك الوعيد بالعذاب المخلّد في نار جهنم، كما هو مذكور في آخر الآية، وهو لا يكون إلا للكافر، قال تعالى في وصف عذابه: ﴿فَإِنَّ لَهُ نَارَ جَهَنَّمَ﴾ يلقي فيها جزاء كفره، ويخلّد فيها خلوداً أبدياً، فهم ﴿خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا﴾ لا يحولون عنها ولا يزولون. أما سائر المعاصي عدا الكفر والشرك والنفاق الاعتقادي، فإنه لا يوجب الخلود في النار كما هو مقرر شرعاً.

إِنهَالُ الْعَصَاةِ الْمُكَذِّبِينَ إِلَى الْيَوْمِ الْمَوْعُودِ

٢٤ - ﴿حَتَّىٰ إِذَا رَأَوْا مَا يُوعَدُونَ فَسَيَعْلَمُونَ مَنْ أَضَعَفَ نَاصِرًا وَأَقَلُّ عَدَدًا﴾

وهذا العذاب الذي أعده الله تعالى في الدار الآخرة لكل من كفر به، وكل من لم يؤمن بخاتم الرسل من الجن والإنس، واقع لا محالة، وهو حق وصدق، وعندما يروا هذا العذاب بأعينهم، سيعلمون علم اليقين، مَنْ مِنَ الْفَرِيقَيْنِ - الْمُؤْمِنِينَ أَوِ الْكَافِرِينَ - يؤيده الله بنصره يوم القيامة، فيفوز برضاه في جنات النعيم؟

والمكذبون بالبعث والنشور يستخرون من عذاب الآخرة، وإذا سمعوا الوعد به كذبوه.
 فقالوا: ﴿وَمَا نَحْنُ بِمُعَذِّبِينَ﴾ [سبأ: ٣٥] وقالوا: ﴿مَتَى هَذَا الْفَتْحُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ [السجدة: ٢٨].
 وقالوا أيضاً: ﴿مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ [الملك: ٢٥].
 وقالوا: ﴿رَبَّنَا عَجِّلْ لَنَا قِطْعَانًا قَبْلَ يَوْمِ الْحِسَابِ﴾ [ص: ١٦].

وقد أمهل الله القائلين بهذا إلى يوم لقائه ﴿حَتَّىٰ إِذَا رَأَوْا مَا يُوعَدُونَ﴾ أي حتى إذا تحقق وعد الله لهم بالعذاب فشاهدوه عياناً وجزموا أنه واقع بهم ﴿فَسَيَعْلَمُونَ﴾ عند حلوله بهم حق المعرفة ﴿مَنْ أضعُفُ ناصِراً﴾ ومعينا ﴿وَأَقْلَ عَدَدًا﴾ حين لا يتصرون بأنفسهم ولا ينصرهم غيرهم.
 أي: سيعلمون من هو أقل نفراً وجندا، أهم، أم المؤمنون؟ وكثيراً ما كانوا يستبعدون وقوع العذاب بهم.

وكان النبي ﷺ كلما خوف المكذبين نار جهنم وحذّرهم من قيام الساعة أظهروا الاستخفاف به وسألوه: متى هذا العذاب؟ فأمره الله أن يقول لهم: لا أدري متى يقع.

الْأَمْرُ الرَّابِعُ: أَنَّ عِلْمَ قِيَامِ السَّاعَةِ عِنْدَ اللَّهِ تَعَالَى

٢٥ - ﴿قُلْ إِنْ أَدْرِيٓ أَقْرَبُٓ مَا تُوعَدُونَ أَمْ يَجْعَلُ لَهُ رَبِّيٓ ۙ أَمَدًآ﴾

أي أن الرسول ﷺ على جلالة قدره لا يدري أقرب قيام الساعة، أم بعيد؟ فهو لا يدري موعد حلول العذاب بالمكذبين أقرب هو أم بعيد؟ ﴿قُلْ﴾ يا رسولنا للجاحدين المنكرين للبعث والنشور: إن سألوكم عن قيام الساعة أو عن وقت حلول العذاب بهم ﴿إِنْ أَدْرِيٓ﴾ أي ما أدري، أهذا العذاب الذي وعدكم الله به قريب هو أم بعيد قد جعل الله له مدة طويلة، فنضّر الله تعالى قريب، والعذاب نازل بالكفار قطعاً، ولكن مواعده عند الله تعالى، ولا يعلم وقت مجيئه إلا هو سبحانه.

ولما سئل النبي ﷺ عن موعد قيام الساعة قال «ما المسؤول عنها بأعلم من السائل»^(١).

(١) قرأ نافع وابن كثير وأبو عمرو وأبو جعفر بفتح ياء الإضافة من ﴿رَبِّيٓ أَمَدًا﴾ والباقون بإسكانها.

(٢) جزء من حديث عمر الطويل في صحيح مسلم برقم (٨).

وقد وجه النبي ﷺ نظر من يسأل عن قيام الساعة، إلى ما هو أهم من السؤال، وهو العمل لها والإعداد لهذا اليوم، فقد نادى أعرابي جمهوري الصوت، قال: يا محمد، متى الساعة؟ قال: (ويحك، إنها كائنة، فما أعددت لها؟) قال: (أما إني لم أعد لها كثير صلاة ولا صيام، ولكني أحب الله ورسوله) قال: (فأنت مع من أحببت)، قال أنس: فما فرح المسلمون بشيء فرحهم بهذا الحديث^(١).

وعن أبي ثعلبة الخشني ؓ أن رسول الله ﷺ قال: «لن يعجز الله هذه الأمة من نصف يوم»^(٢).

فَعِلْمُ وقت نزول العذاب غيب لا يعلمه إلا الله.

عِلْمُ الْغَيْبِ عِنْدَ اللَّهِ تَعَالَى

٢٦- ﴿عَلِمُ الْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَى غَيْبِهِ أَحَدًا﴾

وهو سبحانه علام الغيوب، ولا يُطْلَعُ أحداً من خلقه على غيبه، بل انفرد سبحانه بعلم الظواهر والبواطن والسرائر والضمائر ﴿عَلِمُ الْغَيْبِ﴾ أي كل ما غاب عن الأبصار، وخَفِيَ عن الأنظار ﴿فَلَا يُظْهِرُ عَلَى غَيْبِهِ أَحَدًا﴾ من خلقه، فقد اقتضت حكمته تعالى أن ينفرد بعلم الغيب، ولا يطلع أحداً على شيء منه، ومن ذلك: الأرزاق، والأعمار، ونزول الغيث، وقيام الساعة، وما في الأرحام، وماذا يكون غداً، إلخ.

إِخْبَارُ اللَّهِ إِلَى بَعْضِ رُسُلِهِ بِشَيْءٍ مِنَ الْغَيْبِ يُحَاطُ بِحِرَاسَةٍ مُشَدَّدَةٍ

٢٧- ﴿إِلَّا مَنِ ارْتَضَىٰ مِنْ رَسُولٍ فَإِنَّهُ يَسْلُكُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَيَمْنُ خَلْفَهُ رَصَدًا﴾

ثم استثنى الله تعالى من هذا النفي، المتعلق بمعرفة علم الغيب مَنْ اختاره من رسله وارتضاه لرسالته، فإنه يُطْلَعُ على شيء من الغيب، ليكون هذا معجزة له، فإن الرسل

(١) من حديث أنس في صحيح مسلم برقم (٢٦٣٩)، وفي صحيح البخاري برقم (٣٦٨٨).

(٢) أبوداود برقم (٤٣٤٩)، والمستدرک (٤/٤٢٤)، قال الحاكم: صحيح على شرطهما ولم يخرجاه.

يؤيدون بالمعجزات، ومنها: الإخبار ببعض المغيبات، وفي هذه الحالة فإن الله تعالى يحيط هذا الغيب بالملائكة الحراس من أمام هذا الرسول ومن خلفه، ومن فوقه ومن تحته، كي يحفظونه من الجن، حتى يصل الغيب مضبوطاً إلى الرسول، بلا زيادة ولا نقص، والرسول وحدهم، هم المخصوصون بالمعجزات، أما الأولياء فقد يَظْهَرُ على أيديهم بعض الكرامات:

وفي حديث أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «لقد كان فيمن كان قبلكم من الأمم ناس محدثون من غير أن يكونوا أنبياء، وإن يكن في أمتي أحد، فإنه عمر بن الخطاب»^(١).
والفرق بين معجزة النبي، وكرامة الولي:

أن المعجزة أمر خارق للعادة مقرون بالتحدي مع عدم المعارضة، ولا يجوز للولي أن يدعي خرق العادة مع التحدي، ولو ادعى ذلك لكفر من ساعته، قال الله تعالى على لسان عيسى عليه السلام: ﴿وَأَنبِئْكُمْ بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدْخُرُونَ فِي بُيُوتِكُمْ﴾ [آل عمران: ٤٩].
ذلكم قول الله تعالى: ﴿إِلَّا مَنِ ارْتَضَىٰ مِنْ رَسُولٍ﴾ فإن الله تعالى يظهر على يديه ما شاء من الغيب القليل، في حدود ما يعينه على تبليغ الدعوة، وما يثبت صدق دعواه الرسالة، وفي هذه الحالة: ﴿فَإِنَّهُ يَسْلُكُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ رَصَدًا﴾ أي أن الله تعالى يحيط هؤلاء الرسل بالأرصاد والحراس للحفظ والرقابة، يحمونهم من وسوسة الشيطان ونزغاته، ومن النسيان أو الانحراف، وسائر ما يعترض البشر من الضعف والنقص.

وما يدعيه الكهنة والمنجمون، فهو كذب وتخريص، وفيه دليل على أن من ادعى علم شيء من الغيب يتعلق بالموت أو الحياة ونحوهما، فهو كُفْر بما أنزل الله على محمد ﷺ.
وقد انسدّ باب الكهانة بمبعث النبي ﷺ فمن ادعى منهم شيئاً من الغيب فقد كفر ومن الغيب الذي أطلع الله عليه رسوله: ما يحدث من الفتن وأشرط الساعة، وما يكون يوم القيامة من نعيم وعذاب.

(١) صحيح البخاري برقم (٣٤٦٩، ٣٦٨٩)، ومن حديث عائشة في صحيح مسلم .

وثبت أن عمر رضي الله عنه سأل عن الفتنة التي تموج كموج البحر، فقال رضي الله عنه: «إن بينك وبينها باباً» قال عمر: هل يفتح أو يكسر؟ قال: «بل يكسر» فعلم عمر أنه الباب، وأن كسره قتله^(١). وكذا قوله رضي الله عنه للحسين رضي الله عنه: «ستقتلك الفئة الباغية» وهكذا.

الْعِلْمُ الشَّامِلُ وَالْإِخْصَاءُ الدَّقِيقُ

٢٨- ﴿لَيَعْلَمَنَّ﴾^(٢) أَنْ قَدْ أَتَلَّغُوا رِسَالَاتِ رَبِّهِمْ وَأَحَاطَ بِمَا لَدَيْهِمْ وَأَخْصَى كُلَّ شَيْءٍ عَدَدًا ﴿﴾
وهذه الرقابة المحكمة للرسول ﷺ وهو يبلغ الرسالة، ليقع منه البلاغ مُصَانًا محفوظاً فيتعلق به علم الله تعالى في الواقع المشاهد، بعد أن حفظ الله هذا الوحي بملائكته حتى وصل إلى رسله، والله تعالى أعلم بما كان وما يكون، والمراد بالعلم: علم المشاهدة الذي يترتب عليه الجزاء.

فالضمير في ﴿لَيَعْلَمَنَّ﴾ يعود على الله تعالى، أي يفعل الله ذلك ليبلي ما يشاء من الغيب إلى الرسول المختار، دون أن يخالطه شيء آخر.
ويصح أن يعود الضمير على الرسول، فيكون المعنى: ليعلم الرسول محمد ﷺ أن الرسل قبله كانوا على مثل حاله، وأنهم قد بلغوا رسالات ربهم بكل أمانة ودقة، وأن الوحي كان محفوظاً ومحاطاً بسياج من الملائكة، يحرسونه من استراق السمع.
ذلكم قول الله تعالى ﴿لَيَعْلَمَنَّ أَنْ قَدْ أَتَلَّغُوا رِسَالَاتِ رَبِّهِمْ﴾ وأن الوحي الذي أوحاه الله إليهم قد حُفِظَ من الجن، ولم يسترقوه، ويهمسوا به إلى الكهنة.
وقد ختم الله السورة بأمرين:

الأمر الأول: أن علم الله تعالى محيط بجميع خلقه، وشامل لما عندهم من ظواهر الأمور وبواطنها، من الشرائع والأحكام وغيرها، لا يفوته منها شيء، وهذا معنى

(١) ينظر الحديث في صحيح مسلم (٢٨٩٣/٢٦).

(٢) قرأ رويس بالبناء للمجهول في ﴿لَيَعْلَمَنَّ﴾ ونائب الفاعل هو المصدر المؤول من أن وما بعدها، والباقون بالبناء للمعلوم، والفاعل هو النبي الموحى إليه.

﴿وَأَحَاطَ بِمَا لَدَيْهِمْ﴾ أي ما أمامهم وما خلفهم، وهذا تعميم بعد تخصيص.

الأمر الثاني: أن الله تعالى أحصى كل شيء عدداً، فلم يخف عليه منه شيء، لقد أحصى الله ما خلق، وعرف دقائق ما خلق، ولا يغيب عنه منه شيء، حتى مثقال الذرة ﴿وَأَحْصَى كُلَّ شَيْءٍ عَدَدًا﴾.

وهذا تعميم أشمل من سابقه، فهو علم ضابط واستقصاء لجميع الأشياء في السموات والأرض، من القطر، والرمل، وورق الأشجار، وزبد البحار، وكل رطب ويابس، وكل ما في البر، والبحر والجو، لا يخفى عليه منه شيء، قال تعالى:

﴿وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَا تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٌ فِي ظُلُمَاتِ الْأَرْضِ وَلَا رَطْبٌ وَلَا يَابِسٌ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ﴾ [الأنعام: ٥٩].

وإذا كان علم الله تعالى شاملاً محيطاً. فكيف لا يحيط علمه جل شأنه بما أمر به رُسله أن يبلغوه إلى خلقه، وكيف لرسله أن يفرطوا في هذا الوحي، فيزيدوا فيه أو ينقصون؟! ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ [الحجر: ٩].

هذا: ويعلم من هذه السورة، أن الجن عالم مخلوق كعالم الإنس، وأنهم مكلفون بالأوامر والنواهي كالإنس، وأنهم مجزيون بأعمالهم يوم لقاء الله، وأن النبي ﷺ مرسل إليهم كما هو مرسل إلى الإنس، وأنهم يميزون بين الصالح والطالع والخبيث والطيب، ومن ذلك أن الشياطين لا يسترقون السمع، وأن السماء محروسة محفوظة، وقد اشتملت السورة على الأمر بالتوحيد والنهي عن الشرك، وأن الرسول لا يملك لنفسه نفعا ولا ضرا، وأن الغيب لا يعلمه إلا الله إلا من خصه الله من الرسل بشيء منه.

تم تفسير (سورة الجن) والله الحمد والمنة

تَفْسِيرُ سُورَةِ الْمَزْمَلِ (٧٣)

مُقَدِّمَةُ السُّورَةِ

١- (سورة المزمل) هي السورة الثالثة والسبعون في ترتيب المصحف، وهي السورة الثالثة في ترتيب النزول على الأرجح، نزلت بعد (سورة المدثر) وقبل (سورة القلم). وعدد آياتها عشرون آية في العدد الكوفي^(١)، وهي مئتان وخمس وثمان مئة كلمة، وثمان مئة وثمانية وثلاثون حرفاً، ولم يُعرف لها اسم آخر سوى سورة المزمل. وهي سورة مكية بما فيها الآية الأخيرة على الأرجح، فقد قيل إنها نزلت بعد سنة، من نزول بقية السورة قبلها، وقيل: نزلت بعد عشر سنين.

٢- موضوع السورة:

أ - تناولت السورة في أولها جانباً من تبثّل النبي ﷺ في قيام الليل قبل أن تُفرض الصلاة عليه وعلى أمته، وقد تضمن ذلك طول تلاوة النبي ﷺ للقرآن في صلاته، وحُسن ترتيله له، واغتنام ساعات الليل في التهجد والعبادة، فهي ممارسة شاقة على النفس، تُروّضها وتهذّبها، وتشدّ عزمها، وتشحذ همتها. وفي النهار وقت طويل متسع لشؤون الدنيا، وقد جاء هذا في الآيات التسع الأولى من السورة.

ب - وبعد هذا الإعداد الروحي والبدني، أمر الله رسوله أن يصبر على أذى المكذّبين له، ويترك أمرهم لربه، فإنه المتكفل بنصره عليهم، والله تعالى سيتولى جزاءهم الذي توعدّهم به من النكال والعذاب يوم القيامة، فعند الله تعالى: ﴿أَنكَالًا وَحِجَابًا ۖ وَطَعَامًا ذَا غَضَّةٍ وَعَذَابًا أَلِيمًا﴾ [الأنعام: ١٢، ١٣] ويتم هذا في يوم ترجف فيه الأرض والجبال، وتشيب فيه رؤوس الأطفال، وتتفطر فيه السماء.

(١) وتسع عشرة آية في العدد المكي والبصري والشامي، وثمانية عشرة آية في العدد المدني.

فأمّنوا - أيها الناس - بالله ورسوله حتى لا يصيبكم مثل ما أصاب فرعون وقومه من العذاب بالغرق، حين كذبوا نبيهم موسى عليه السلام.

وقد جاء هذا من الآية العاشرة في السورة إلى الآية التاسعة عشرة.

والآية الأخيرة نزلت لتخفيف قيام الليل على الأمة، وتقليل القراءة فيه، وجعله نافلة بعد أن كان فريضة، والاكتفاء بقيام بعض الليل، مراعاة لمختلف أحوال الناس كالمرضى، والمجاهدين في سبيل الله، والساعين على أرزاقهم، ووعد الله تعالى بالجزاء العظيم على فعل الخيرات من فرائض ونوافل.

٣ - سبب النزول:

أ - جاءت روايات مشتركة بين سورتي المدثر والمزمل في سبب النزول، تتحدث عن نزول الوحي، وذلك أن النبي ﷺ كان يتعبد شهر رمضان من كل عام في غار حراء بجبل النور، قبل البعثة بثلاث سنوات، وبينما هو نائم ﷺ ذات ليلة، إذ نزل عليه جبريل عليه السلام، ومعه كتاب في نمط من ديباج، فقال له: اقرأ، قال: ما أنا بقارىء، فضمه جبريل إليه حتى بلغ منه الجهد، ثم أرسله وقال له: اقرأ، قال: ما أنا بقارىء، أي لا أعرف القراءة، فأعاد ذلك للمرة الثالثة، ثم قال له: ﴿اقْرَأْ بِأَسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ۝١ خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ ۝٢ اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ ۝٣ الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ ۝٤ عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾ [العلق: ١-٥] قال: فقرأها، وابتعد جبريل، فسمعت صوتاً من السماء يقول: يا محمد، أنت رسول الله، وأنا جبريل، فكلما رفعت رأسي في الأفق وجدت جبريل، فما زلت واقفاً في مكاني حتى بعثت خديجة في طلبي، فرجعت، فقالت: يا أبا القاسم: أين كنت؟ فحدثتها بالذي رأيت فقالت: أبشّر يا بن عم واثبت، فوالذي نفس خديجة بيده: إني لأرجو أن تكون نبي هذه الأمة، وفتّر الوحي مدة، إلى أن جاء مرة أخرى، فأدركنني رجفة، ورجعت إلى أهلي أقول: زملوني، دثروني، ففعلوا وهو يرفف، وإذا بجبريل يناديه ﴿يَا أَيُّهَا الْمَرْمَلُ﴾ وقيل ﴿يَا أَيُّهَا الْمَدَنِيُّ﴾^(١).

(١) مختصراً من رواية ابن إسحاق عن وهب بن كيسان عن عبيد، ومن الروايات الواردة في بدء نزول الوحي في الصحيحين وغيرهما.

ب - وورد أن قريشاً اجتمعت في دار الندوة تُدبّر كيداً للنبي ﷺ فاغتم لذلك، والتف بشيابه، وتزمل ونام مهموماً فنزل عليه جبريل بالسورة^(١) ما عدا الآية الأخيرة منها فقد تأخر نزولها عاماً كاملاً، بعد أن تورمت قدما النبي ﷺ من طول القيام، للتخفيف عنه وعن أمته^(٢).

ج - وعن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال: «جاورثُ بحراء، فلما قضيتُ جوارِي، هبطت، فثوديت، فنظرتُ عن يميني فلم أر شيئاً، ونظرت عن شمالي فلم أر شيئاً، فرفعتُ رأسي، فإذا الذي جاءني بحراء، جالس على كرسي بين السماء والأرض، فرجعتُ فقلت: دثروني، زملوني»^(٣).

وهذه الرواية تفيد أن جبريل عليه السلام نزل هذه المرة بعد أن قضى النبي تحته في غار حراء، وأنه ﷺ قد بنى بـ ﴿أَقْرَأْ﴾ كما في الرواية الأولى، وأرسل بـ ﴿الْمَذِيرُ﴾ كما في هذه الرواية.

٤ - قيام الليل له معنيان:

الأول: قيام الليل، بمعنى صلاة التراويح في شهر رمضان، وهو سنة مستحبة، منذ كان، ولم يفرض هذا القيام قط، لما جاء في الحديث أن النبي ﷺ قام ليلة في رمضان خلف حصير احتجره، فصلّى، وصلى بصلاته ناس، ثم كثروا في الليلة القابلة، ثم غص المسجد بهم في الثالثة أو الرابعة، فلم يخرج إليهم، فغصوا ببابه، فخرج مغضباً، وقال: «إنما تركت الخروج لأنني خفت أن يفرض عليكم»^(٤).

(١) جاء هذا عن جابر عند البزار (٢٢٧٦)، كشف، والطبراني في الأوسط (٢٠٩٦)، وأبو نعيم في الدلائل، كما في الدر المنثور (٣٥/١٥)، وفي سنده مقال، ينظر: مجمع الزوائد (١٣٠/٧).

(٢) جاء هذا في صحيح سنن أبي داود (١١٥٧)، وعند ابن أبي شيبة (١١٨/١٤)، والطبري (٣٥٨/٢٣)، والطبراني (١٢٨٧٧)، والحاكم (٥٠٥/٢)، والبيهقي في السنن (٥٠٠/٢) عن ابن عباس.

(٣) ينظر صحيح البخاري (٤٩٢٢) وما بعده، وصحيح مسلم (١٦١).

(٤) ينظر الأحاديث في صحيح مسلم عن عائشة (٧٨٢، ٧٦١)، والبخاري (٧٢٩، ٥٨٦١، ١١٢٩، ٧٣٠).

أما اجتماع الناس لها، فكان ذلك بالمدينة بعد أن فُرض الصيام في السنة الثانية الثاني: أما قيام الليل بمعنى صلاة التهجد، فقد فُرض على الأمة في الأصح بنزول أول سورة المزمل، ثم خفف الله عنهم بعد عام أو أكثر، فجعله تطوعاً، وخفف من وقته، وكان هذا بمكة قبل أن تفرض الصلاة،

وارتباط أول السورة بآخرها يشير إلى أن قيام الليل كان مفروضاً على الأمة أيضاً، لأن الله تعالى قال فيها ﴿وَلَا يَفُتُّ مِنَ الَّذِينَ مَعَكَ﴾ [الآية: ٢٠].

ولم يمت النبي ﷺ إلا وقد كان القيام تطوعاً، وقبل ذلك كان الرجل لا يدري متى ثلث الليل ومتى ثلثه، فيقوم الليل كله حتى يصبح، مخافة ألا يتم القدر المطلوب، واشتد ذلك عليهم، حتى انتفخت أقدامهم، فرحمهم الله وخفف عنهم.

وكان بين نزول أول السورة وآخرها، سنة، أو ستة عشر شهراً، على قول، فنسخت فرضية قيام الليل بالنسبة للأمة، وبقيت هذه الفرضية بالنسبة للنبي ﷺ لقوله تعالى: ﴿وَمِنَ اللَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِ نَافِلَةً لَّكَ عَسَىٰ أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا﴾ [الإسراء: ٧٩].

قال ابن عباس رضي الله عنهما: لما نزل أول المزمل، كانوا يقومون نحواً من قيامهم في شهر رمضان حتى نزل آخرها، وكان بين أولها وآخرها نحو من سنة^(١).

وفي حديث سعد بن هشام، أنه سأل عائشة رضي الله عنها عن قيامه ﷺ بالليل فقالت: أأست تقرأ: يا أيها المزمل؟ إن الله افترض قيام الليل في أول هذه السورة، فقام رسول الله ﷺ وأصحابه حَوْلًا، حتى انتفخت أقدامهم، وأمسك الله ختامها في السماء اثني عشر شهراً، ثم أنزل التخفيف، في آخر هذه السورة، فصار قيام الليل تطوعاً من بعد الفريضة^(٢).

(١) أبوداود (١٣٠٥)، وقد حسنه الألباني في صحيح سنن أبي داود (١١٥٧)، والبيهقي في السنن (٥٠٠/٢)، والطبراني (١٢٨٧٧)، والحاكم (٥٠٥/٢)، وابن أبي شيبة (١١٨/١٤).

(٢) من حديث طويل في صحيح مسلم برقم (٧٤٦)، والمسند (٥٤/٦)، وأبي داود (١٣٤٢، ١٣٤٣)، والنسائي (١٦٠٠)، والبيهقي في السنن (٣٥٨/١).

ووصف الله قوام الليل بقوله: ﴿نَجَافٍ جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ﴾ [السجدة: ١٦].
وبأنهم ﴿كَانُوا قَلِيلًا مِّنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَمُونَ﴾ (١٧) ﴿وَبِالْأَتْعَارِ لَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾ [الذاريات: ١٧، ١٨].
ونفى القرآن التسوية بينهم وبين غيرهم في قوله ﴿أَمَّنْ هُوَ قَنِيتُ عَائَةَ آلِئِلٍ سَاجِدًا وَقَائِمًا
يَحْذَرُ الْآخِرَةَ وَيَرْجُو رَحْمَةَ رَبِّهِ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الزمر: ٩].
وعدهم سبحانه من عباد الرحمن فقال ﴿وَالَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَمًا﴾ [الفرقان: ٦٤].
هذا: صلاة التراويح تخص شهر رمضان وتكون بعد صلاة العشاء، أما صلاة
التهجد أو صلاة القيام فتكون بعد منتصف الليل، ويطلق عليهما صلاة الوتر، لأن النبي
ﷺ لم يزد في رمضان ولا في غيره عن أحد عشر ركعة، إلا أنها كانت صلاة طويلة،
فمن زاد في عدد ركعاتها كان ذلك نظراً لخفة الصلاة وقلة القراءة فيها، والله أعلم.

٥ - ومن الأحاديث الواردة في فضل قيام الليل:

أ - عن عائشة رضي الله عنها قالت: كان النبي ﷺ يقوم من الليل حتى تتفطر قدماه
فقلت له: لم تصنع هذا يا رسول الله؟ وقد غفر لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر؟ فقال:
«أفلا أكون عبداً شكوراً»^(١).

فصلاة الليل من شكر المنعم سبحانه على ما أسبغ الله على العبد من نعم ظاهرة وباطنة.

ب - وصلاة الليل هي أفضل النوافل بعد الفريضة لحديث أبي هريرة ؓ أن رسول
الله ﷺ قال: «أفضل الصيام بعد الفريضة، شهر الله المحرم، وأفضل الصلاة بعد الفريضة
صلاة الليل»^(٢).

ج - وفي الليل ساعة إجابة: عن جابر ؓ أن رسول الله ﷺ قال: «إن في الليل ساعة لا
يوافقها رجل مسلم يسأل الله خيراً من أمر الدنيا والآخرة إلا أعطاه الله إياه، وذلك كل ليلة»^(٣).

(١) صحيح البخاري (٤٨٣٧)، وصحيح مسلم برقم (٢٨٢٠)، وعن المغيرة بن شعبة برقم (٢٨١٩)، والبخاري
(٤٨٣٦، ١١٣٠).

(٢) صحيح مسلم برقم (١١٦١٢، ١١٦٣).

(٣) صحيح مسلم برقم (٧٥٧).

د - وبدأ المسلم صلاة الليل بركعتين خفيفتين:

عن أبي هريرة وعائشة رضي الله عنهما أن النبي ﷺ قال: «إذا قام أحدكم من الليل فليفتح الصلاة بركعتين خفيفتين»^(١).

هـ - وقيام الليل مسؤولية الزوجين: كما في حديث أبي هريرة ؓ أن النبي ﷺ قال: «رحم الله رجلاً قام من الليل، فصلّى وأيقظ امرأته، فإن أبت نضح في وجهها الماء، ورحم الله امرأة قامت من الليل فصلت، وأيقظت زوجها، فإن أبى نضحت الماء في وجهه»^(٢).

و - وقد ربط النبي ﷺ بين الثناء على العبد وبين صلاة الليل:

فعن سالم بن عبد الله بن عمر بن الخطاب عن أبيه ؓ أن رسول الله ﷺ قال: «نعم الرجل (عبد الله) لو كان يصلي من الليل»، قال سالم: فكان (عبد الله) بعد ذلك لا ينام من الليل إلا قليلاً^(٣).

ز - وتزيد عدد الركعات أو تنقص حسب طول الصلاة وقصرها:

عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: بت عند خالتي ميمونة، فقام النبي ﷺ يصلي من الليل، فصلّى ثلاث عشرة ركعة، منها ركعتا الفجر، فحرزْتُ قيامه في كل ركعة بقدر ﴿بَتَّانِيهَا الْمَدِيرُ﴾^(٤).

ح - وفي حديث عائشة رضي الله عنها أن النبي ﷺ ما كان يزيد في رمضان ولا في غيره، عن إحدى عشرة ركعة^(٥)، وهذا بالنسبة لصلاة الوتر.

٦ - الحياة الجادة:

وقد حددت آية سورة الأنعام سيرة النبي ﷺ في قوله تعالى: ﴿قُلْ إِن صَلَائِي وَنُكْحِي

(١) صحيح مسلم برقم (٧٦٨)، وأبوداود (١٣٢٣، ١٣٢٤).

(٢) أبوداود برقم: (١٣٠٨)، وابن ماجه برقم (١٣٣٦)، وابن حبان برقم (٦٤٦)، والمسند (٧٤١٠) بإسناد قوى (محققه)، وأخرجه ابن خزيمة (١١٤٧)، والحاكم (٣٠٩ / ١)، والبيهقي في السنن (٥٠١ / ٢).

(٣) البخاري برقم (١١٢١، ٣٧٤٠)، ومسلم برقم (٢٤٧٩)، والنسائي (٢٥٣ / ٣).

(٤) صحيح سنن أبي داود (١٢١٦)، والبيهقي في السنن (٨ / ٣)، وسنن أبي داود (١٣٦٥).

(٥) البخاري (١١٤٧، ٣٥٦٩)، ومسلم (٧٣٨).

وَحَيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٦٢﴾.

فإذا كانت حياة بعض الناس خليط من الحق والباطل، والجد والهزل، والراحة والتعب، فإن النبي ﷺ كانت حياته كلها كذحاً موصولاً، وسنبحاً طويلاً، ولم يكن ذلك استكمالاً لأمجاد النبوة، بل كان لتكوين جيل يغيّر مسار البشر إلى يوم الساعة، ويقيم للحق مناراً لا تطفئه العواصف.

إن السنوات التي قضاها النبي ﷺ في هذه الدنيا لم تكن لإصلاح عصر معين، بل كانت لإعداد رجال يحرسون عقيدة التوحيد في كل زمان ومكان.

إن محمداً ﷺ كان أخشى الناس لله، وأشدهم إحساساً بقرب لقاء ربه، وكان الجيل الذي يحفّ به يتأسى به، ويحيى على غراره، فليس غريباً أن يقوم الليل مثله، ويشد أزره في مكافحة الضلال.

ولكن الله سبحانه رحم الأمة، واستبقى فريضة قيام الليل على نبيه خاصة، واكتفى من المؤمنين بما تيسر^(١).

قال الفخر الرازي: وإنما كُلف رسول الله ﷺ وأصحابه بقيام الليل، ليكون ذلك حافزاً لهم على الاستعداد الكامل لمجابهة خصوم الدعوة، وتربيتهم التربية الجسمية والروحية، على أكمل الوجوه، حتى يصبروا على تحمل المشاق والصعاب، وتجشّم الأهوال والأخطار، ويستفيدوا من هذه التربية بما يجعلهم يتغلبون على كل أمر عسير يعرض لهم، وقد كان من أثر هذه التربية الروحية، أن ملّك المسلمون مشارق الأرض ومغاربها بجهادهم وصبرهم وتحملهم للأذى في سبيل الله^(٢).

* * *

(١) ينظر: نحو تفسير موضوعي لسور القرآن (ص ٤٨٥).

(٢) التفسير الكبير (٣/١٧١).

تَفْسِيرُ السُّورَةِ

قِيَامُ اللَّيْلِ فِي مَطْلَعِ الدَّعْوَةِ

١-٤- ﴿يَا أَيُّهَا الْمَرْمَلُ^(١) ﴿١﴾ قُرْ أَلَيْلَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٢﴾ نَضْفَهُ^(٢) أَوْ^(٣) أَنْقَضْ مِنْهُ قَلِيلًا ﴿٣﴾ أَوْزِدْ عَلَيْهِ وَرَيْلَ الْقُرْآنِ تَرَيْلًا ﴿٤﴾

كان النبي ﷺ عندما يأتيه الوحي ويسمع صوت الملك، تأخذه رعدة ورعدة، فيعود لأهله ويقول: زملوني، دثروني، والمزمل هو المتلفف بثيابه.

وقد ابتدأت السورة بتوجيه النداء إلى النبي ﷺ وهو في باكورة الدعوة، فتؤانس وتلاطفه، وتنبه التوام إلى قيام الليل، وتقول للنبي ﷺ: يا أيها المتلفف بثيابه: انفض عنك ثيابك، وأعد نفسك لحياة جديدة، هي: حياة العبادة، والدعوة، والجهد الشاق.

﴿يَا أَيُّهَا الْمَرْمَلُ﴾ الذي تَزْمَلُ في ثيابه وتلفف بها، لقد حُمِلَتْ أمراً عظيماً فتهايا للقيام به، ودع عنك زمان النوم، والتلفف في الفراش. وفي هذا النداء ملاطفة للنبي ﷺ وعدم معاتبته له.

وكانت العرب تسمي الإنسان باسم مشتق من حالته التي هو عليها، كما قال ﷺ لعليؑ، وكان التراب قد لصق بجنبه، فقال: (قم أبا تراب) ملاطفاً له. وقال لحذيفة يوم الخندق (قم يا نومان) وكان عبد الرحمن بن صخر يحمل هرة صغيرة في كُمه، فقال له النبي ﷺ (يا باهر)^(٣).

وفي الآية بيان أن الله تعالى غير عاتب على نبيه ﷺ في تزمله وتلففه بثيابه. وابدأ - يا رسولنا - رسالتك بالإعداد الروحي والبدني، فانشط لصلاة الليل، والقيام فيه ساعات طوال، ودع عنك هذا التزمّل والتلفّف ﴿قُرْ أَلَيْلَ﴾ كله في الصلاة متعبداً.

(١) لفظ ﴿الْمَرْمَلُ﴾ معدود آية عند المدني الأول والدمشقي والكوفي، وغيره معدود عند غيرهم.

(٢) قرأ عاصم وحمة بكسر الواو من ﴿أَنْقَضْ﴾ والباقون بضمها.

(٣) ينظر: حديث طويل في المسند عن أبي هريرة ؓ (١٠٦٧٩)، وفيه (أباهر) وإسناده صحيح على شرط

البخاري وانظر: صحيح البخاري (٦٢٤٦)، والترمذي (٢٤٧٧)، وغيرهم.

﴿إِلَّا قَلِيلًا﴾ أي إلا شيئاً يسيراً منه، استعداداً للمهمة الشاقة، وهي تبليغ دعوة ربك للعالمين وتبصيرهم بالدين الجديد، فقد انتهى زمان النوم المشبع، والاستجمام العميق، وإذا فرغت من قيام الليل فاستقبل كدح النهار في تبليغ الدعوة ومجاهدة الخصوم. ثم وضع الله سبحانه هذا القليل المستثنى في الآية، وهو المقدار الذي يجب أن يصرفه النبي ﷺ في عبادة ربه ليلاً فقال: ﴿نُصَفُهُ﴾ أي قم نصف الليل، واجعل النصف الآخر لراحتك ونومك، والأمر فيه سعة بالتقليل من هذا النصف: ﴿أَوْ انْقُصْ مِنْهُ قَلِيلًا﴾ أي انقص من نصف الليل في التهجد إلى ثلث الليل بدلاً من النصف.

أو زد على النصف قليلاً إلى الثلثين، وهكذا فقد أمر الله تعالى في الآيتين بقيام نصف الليل، ثم ثلثه، ثم ثلثيه، فهذه أحوال ثلاثة، فيها توسعة على النبي ﷺ وعلى المؤمنين لرفع الحرج في التحديد، حتى يتمشى ذلك مع طول الليل وقصره صيفاً وشتاءً، ولا يضيع حظ النهار لأحوال الدنيا ومهام الدعوة.

وتخصيص الليل بالقيام دون النهار، لأن في الليل زيادة إقبال على الله تعالى بالمناجاة، حيث السكون والهدوء، ونوم الناس عادة.

والنصف الثاني من الليل، هو الأكثر قرباً من الله تعالى، لأنه وقت النوم والراحة، فتكون العبادة أكثر خشوعاً، وأدعى لصفاء النفس، وراحة القلب، وحُسن الصلة بالله تعالى. وهكذا أمر الله نبيه بقيام الليل إلا قليلاً، فشق ذلك على المؤمنين، ثم خفف عنهم ورحمهم، كما جاء في آخر السورة.

وفي الآية تنبيه لكل راقد أو غافل أو لاهٍ بقيام جزء من الليل، فهي من أفضل النوافل.

قيام الليل كان فريضة:

وكان الله تبارك وتعالى قد فرض على الرسول ﷺ وعلى أمته قيام الليل كله في أول الدعوة قبل أن تُفرض الصلوات الخمس، فقام رسول الله ﷺ وأصحابه اثني عشر شهراً حتى انتفخت أقدامهم، ثم أنزل الله تعالى التخفيف في آخر السورة، فصار قيام الليل تطوعاً بعد أن كان فرضاً.

قال ابن عباس رضي الله عنهما: إن قيام الليل كان فريضة على رسول الله ﷺ لقوله تعالى ﴿وَأَتْلُ﴾ ثم نسخ بقوله ﴿فَأَقْرَهُوْا مَا يَنْسَرِمْنَهُ﴾ وكان بين أول هذا الوجوب ونسخه سنة^(١).

وهذه هي السورة التي نسخ آخرها أولها.

وصار قيام الليل نافلة بعد ذلك في حق الأمة، كما في قوله تعالى ﴿وَمِنْ أَلِيلٍ فَتَهَجَّدْ بِهِ نَافِلَةً لَّكَ﴾ [الإسراء: ٧٩].

ترتيل القرآن:

ولما أمر الله تعالى نبيه ﷺ بقيام الليل، أتبع ذلك بأمره له بترتيل القرآن، حتى يتمكن المصلي من حضور القلب، ومن التفكير والتأمل في حقائق الآيات ومعانيها.

فعند وصول القارئ إلى ذكر الله تعالى في تلاوة القرآن، يستشعر العبد بقلبه عظمة الله تعالى وجلاله، فيذكره ويشكره

وعند ذكر الوعد والوعيد، يحصل له الخوف والرجاء.

وعند ذكر القصص والأمثال، يحصل له الاعتبار، فيستنير القلب بنور معرفة الله تعالى.

والإسراع في القراءة يدل على عدم الوقوف على المعاني. فظهر بذلك أن المقصود من الترتيل، إنما هو حضور القلب عند التلاوة^(٢) للتدبر والتأمل، بالإضافة إلى حسن الأداء وإقامة الألفاظ، ومن ثم إلى التطبيق العملي بامثال أوامر القرآن واجتناب نواهيه، فهذه ثلاثة معانٍ لترتيل القرآن أو تلاوته، وهي: حضور القلب، والقراءة المرتلة المجودة، والتطبيق العملي لما يقرأ.

وقد أمر الله تعالى رسوله ﷺ أن يقرأ القرآن أثناء قيام الليل بتؤدة وترسل وتثبت، ليكون عوناً له على فهمه وتدبره فقال تعالى ﴿وَرَتِّلِ الْقُرْآنَ تَرْتِيلاً﴾ والترتيل هو تجويد الحروف ومعرفة الوقوف.

(١) التفسير الكبير (١٧١/٣٠).

(٢) ينظر: تفسير الخازن (١٦٥/٤).

اللحن الجلى في القراءة يجعل الكلمة ليست قرآناً وإن لم يغير المعنى:

والأمة متعبدة بإقامة الألفاظ وصفة الأداء المتواتر عن رسول الله ﷺ كما نقله إلينا أئمة القراءة، كما هي متعبدة بفهم القرآن، وتدبره، والعمل بما فيه، ولا سبيل لفهم المعاني إلا بإقامة الحروف وتصحيح الألفاظ.

واللحن في كتاب الله تعالى، فيما يتعلق بالحروف، أو الحركات، أو الإخلال بحق التلاوة، يُخرج الكلمة عن كونها قرآناً، ولو لم يغير المعنى.

ولا يصح التجوُّز بالنسبة لللحن الذي لا يُغير المعنى، لأن هذا تبديل وتحريف في كتاب الله تعالى يتناقض مع قوله تعالى ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ [الحجر: ٩].

حق التلاوة:

والإخلال بحق التجويد ردّ لما جاء به رسول الله ﷺ وفي الحديث عن عائشة رضي الله عنها النبي ﷺ قال: «من عمل عملاً ليس عليه أمرنا فهو رد»^(١).

والمنسوب من التجويد إلى أئمة القراءة، هو القواعد التي ضبّطت الاستقراء المستخلص من صفة تلاوة النبي ﷺ أما التطبيق العملي فهو صفة تلاوة رسول الله ﷺ.

قراءة القرآن بالصوت والنغم محدثة:

والقراءة المرتلة، هي المأثورة عن رسول الله ﷺ، أما القراءة التي هي بالصوت والنغم، فهي محدثة، مأخوذة عن إنشاد الشعر الفارسي، وأول ما قرئ بها في مجلس هارون الرشيد.

التلقى والمشافهة:

والنبي ﷺ لم يترك الصحابة يتعلمون القرآن من المصحف، بل كان يُعَيِّن من يُعَلِّم الناس القرآن في مكة والمدينة وغيرهما، ولم يتركهم لألستهم وضُحُفهم.

(١) من حديث عائشة عند الشيخين وأبي داود وابن ماجة، كما في صحيح الجامع الصغير (٢/٢٣٠) برقم:

(٥٨٤٦)، والمسند (٢٨/٢٥).

وهكذا لما نسخ عثمان المصاحف، وأرسلها إلى الأمصار الإسلامية، لم يرسلها وحدها ليقراها الناس منها، بل أرسل مع كل مصحف مُعلِّماً، يقرأ بقراءتهم، وما ذلك إلا لأن القرآن يؤخذ بالتلقي والمشافهة، لمعرفة الغنة، والمد والقصر، والمخارج والصفات، وهي مصطلحات التجويد التي دُوت في القرن الثالث الهجري لتضبط لنا الأداء المتواتر عن رسول الله ﷺ.

وعلى القارئ أن يتأمل عظمة الله تعالى، بحضور قلب وخشوع، عند ذكر الوعد والوعيد، والقصص والأمثال، والجنة والنار، ليحصل الخوف والرجاء، فيستنير القلب بنور الإيمان والمعرفة.

وقد كانت قراءة النبي ﷺ مفسرة حرفاً حرفاً، يمد المدود، ويقف على رؤوس الآي، ورجع ﷺ سورة الفتح على ناقته يوم فتح مكة.

وتحسين الصوت بالقراءة أمر مطلوب، من غير مبالغة، ولا إفراط، ولا غلو بالتمطيط والتحوير في القراءة، بحيث يتولد من الحركات حروف، ومن الحروف حركات. ولِيَحْذَرُ القارئ من الرياء، فإن أول من تُسْعَرُ عليهم النار يوم القيامة ثلاثة، هم: القارئ للقرآن رياءً، والمتصدق رياءً، والمقاتل رياءً، ومنهم الخوارج الذين لا تجاوز القراءة حناجرهم.

وإذا مرَّ القارئ بآية رحمة، وقف، وسأل ربه، وإذا مرَّ بآية عذاب، وقف، واستعاذ بالله، إذا كان يقرأ وحده أو يصلي وحده^(١).

من أدلة حق التلاوة:

١- وقد سئل أنس رضي الله عنه عن قراءة النبي ﷺ فقال (كانت مدّاً، ثم قرأ ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾ يمدّ بسم الله، ويمدّ بالرحمن، ويمدّ بالرحيم)^(٢) والمراد بالمد في الحديث: المد الطبيعي.

(١) ينظر للمؤلف: فن الترتيل وعلومه، الجزء الأول ط مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف (١٩٩٩م).

(٢) صحيح البخاري (٥٠٤٦).

٢- أما المد المتصل (الواجب) فقد جاء عن ابن مسعود رضي الله عنه أنه كان يقرئ رجلاً، فقراً ﴿ إِنَّمَا الصَّدَقَتُ لِلْفُقَرَاءِ ﴾ مرسله - لم يمدّها - فقال ابن مسعود ما هكذا أقرأنيها النبي ﷺ، قال: وكيف أقرأها؟ قال: أقرأنيها ﴿ إِنَّمَا الصَّدَقَتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسْكِينِ ﴾ فمدّها^(١).

٣- أما الوقف على رؤوس الآي فقد جاء في حديث أم سلمة رضي الله عنها أن النبي ﷺ كان يقطع قراءته آية آية^(٢).

٤- وقد شرع الإسلام تحسين الصوت بالقراءة، كما جاء في مثل حديث أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «ليس منا من لم يتغنّ بالقرآن، يجهر به»^(٣)، فالتغني هو رفع الصوت بالقراءة. وعن أبي موسى رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال له: «يا أبا موسى، لقد أوتيت زمماراً من مزامير آل داود»^(٤).

٥- وفي حديث البراء بن عازب رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «زينوا القرآن بأصواتكم»^(٥).

٦- وفي حديث عبد الله بن عمر، رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال: «يقال لصاحب القرآن اقرأ، وازتق، ورتل، كما كنت ترتل في الدنيا، فإن منزلتك عند آخر آية تقرؤها»^(٦).

(١) صححه ابن الجزري في (النشر) (٣١٥/١)، وصححه الألباني في كتاب (دفاع عن القرآن) (ص ٢٢)، وقال الهيثمي في مجمع الزوائد (١٥٥/٧): رواه الطبراني ورجاله ثقات.

(٢) ينظر: صحيح سنن الترمذي (١٣/٣)، وفي السنن (٢٩٢٧)، وأبي داود (٤٠٠١)، وأبي يعلى (٧٠٢٢)، وصححه الألباني في الإرواء (٣٤٣) والحاكم (٢٣١/٢)، وصححه على شرط الشيخين ووافقه الذهبي، والمسنند (٢٦٥٨٣) بإسناد رجاله ثقات (محققوه)، قال الدارقطني: إسناده صحيح وكلهم ثقات.

(٣) البخاري (٧٥٢٧).

(٤) صحيح مسلم (٧٩٣)، وصحيح البخاري (٥٠٤٨).

(٥) صحيح سنن ابن ماجه (٢٢٤/١)، وأبو داود (١٤٦٨)، والأحاديث الصحيحة للألباني (٧٧٢)، والمسنند (٢٨٣/٤) برقم (١٨٤٩) بإسناد صحيح ورجاله ثقات (محققوه)، والبخاري في خلق أفعال العباد (ص ٤٩)، والنسائي في الكبرى (١٠٨٨)، والمستدرک (٥٧١/١).

(٦) أبوداود (١٤٦٤)، وصحيح سنن أبي داود (١٣٠٠)، وصحيح سنن الترمذي (٢٣٢٩) بإسناد حسن صحيح، وابن حبان، الإحسان (٧٦٦)، والحاكم (٥٥٢/١)، والمسنند (١٩٢/٢) (٦٧٩٩) قال محققوه: صحيح لغيره وهذا إسناده حسن، وقال الهيثمي في المجمع (١٦٢/٧): رجاله رجال الصحيح، والنسائي في الكبرى (٨٠٥٦).

٧ - وجاء عن عليّ ؓ في معنى الترتيل: بيّنه تبيناً، ولا تنثره نثر الدّقل، ولا تهذه هذّ الشّعر، قفوا عند عجائبه، وحركوا به القلوب، ولا يكن همّ أحدكم آخر السورة^(١).

الْقَوْلُ الثَّقِيلُ يَتْلَى فِي قِيَامِ اللَّيْلِ بَعْدَ نَوْمٍ

٦،٥ - ﴿إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا ﴿٥﴾ إِنَّ نَاشِئَةَ ﴿٦﴾ اللَّيْلِ هِيَ أَشَدُّ وَطْكَ ﴿٧﴾ وَأَقْوَمُ قِيلًا﴾

وبعد أن أمر الله تعالى نبيه ﷺ بترك النوم، وقيام الليل، وتدبر القرآن، بيّن السبب في هذه الأوامر الثلاث، حيث بين سبحانه السبب في الأمر بقيام الليل على النحو السابق، بأنه لإعداد الرسول ﷺ للقول الثقيل الذي سينزل عليه، أي إنا سننزل عليك - يا رسولنا - قرآنًا عظيمًا، له هبة وروعة وجلال، وقدر عظيم، مشتملاً على الأوامر والنواهي، والأحكام الشرعية، والتكاليف الشاقة، والجهد المضني، فاستعدّ لتلقي هذا القول الثقيل، واستعنّ على ذلك بقيام الليل، فإن دعوة الناس تحتاج إلى جهد ومصابرة، لحملهم على ترك ما ألفوه من العقائد الفاسدة، والعادات السيئة، فأنت - يا رسول الله -، معرض لأخطار جمّة، ومتاعب كثيرة، فكيف يمكنك القيام بها مع ما أنت عليه من السكون والراحة والبعد عن المشاق، وجاهد نفسك بطول العبادة وكثرة التهجد، ودراسة آيات القرآن دراسة تفهم وتدبر، فإن فيه مجاهدة النفس، ومصابرة العدو، وحملها على ما ورثته من فساد العقيدة والأخلاق.

ثَقُلُ الْقُرْآنُ:

فانشط من مضجعتك - أيها الرسول - واسهر معظم ليلك في مناجاة ربك، استعداداً لتحمل مشاق الدعوة، وشمر عن ساعد الجد، واستعد لهذا القول الثقيل، فالقرآن ثقيل بما فيه من تكاليف، ووعد ووعيد، وحلال وحرام، وحدود، وأحكام، وفرائض، وأخلاق وآداب.

(١) أخرجه العسكري في المواعظ كما في الدر المنثور (٤١/١٥).

(٢) قرأ أبو جعفر بإبدال همزة ﴿نَاشِئَةَ﴾ ياء وصلًا ووقفًا، ومثله حمزة عند الوقف، وأمالها الكسائي وقفًا وحمزة بخلفه.

(٣) قرأ أبو عمرو وابن عامر ﴿وَطْكَ﴾ بكسر الواو وفتح الطاء وألف بعدها ممدودة، ثم همزة منونة منصوبة، فتكون من قبيل المد المتصل، والباقون ﴿وَطْكَ﴾ بفتح الواو وسكون الطاء ثم همزة منونة منصوبة مصدر وطىء، ووقف عليها حمزة بالنقل.

والقرآن ثَقِيلٌ في حَدِّ ذاته ثَقُلَ حَقِيقِي، كما ثبت ذلك في أحاديث كثيرة، تصف ثَقُلَ الوحي وهو ينزل بالقرآن على رسول الله ﷺ ومن هذه الأحاديث:

١- قول زيد بن ثابت ؓ: (أُنزل على رسول الله ﷺ شيء من القرآن وَفَخُذْهُ على فخذِي، فَكَادَتْ تُرَضُّ فخذِي، ثُمَّ سُرِّيَ عَنْهُ)^(١) تَرْضَى أي تكسر.

٢- وروى هشام بن عروة عن أبيه ؓ أن النبي ﷺ كان إذا أُوحِيَ إِلَيْهِ، وهو على ناقته، وَضَعَتْ جَرَانَهَا - أي باطن عنقها - فما تستطيع أن تتحرك حتى يُسْرَى عَنْهُ^(٢).

٣- وفي حديث عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما أن النبي ﷺ قال: «فما من مرة يوحى إِلَيَّ إِلَّا ظَنَنْتُ أَنْ نَفْسِي تَفِيضُ»^(٣).

٤- وسأل الحارث بن هشام رسول الله ﷺ: كيف يأتيك الوحي؟ فقال: «أحياناً يأتيني في مثل صلصلة الجرس، وهو أشده عليّ، فَيَفْصِمُ عَنِّي وَقَدْ وَعَيْتُ عَنْهُ مَا قَالَ، وَأحياناً يُمَثِّلُ لِي الْمَلَكُ رَجُلًا فَيَكَلِّمُنِي فَأَعْيِي مَا يَقُولُ» قالت عائشة رضي الله عنها: ولقد رأيته ينزل عليه الوحي ﷺ في اليوم الشديد البرد فَيَفْصِمُ عَنْهُ، وإن جبينه ليتفصد عرقاً^(٤).

٥- وعن عبادة بن الصامت ؓ قال: كان رسول الله ﷺ إذا أنزل عليه الوحي، كرب لذلك وتربّد وجهه^(٥).

وفي لفظ له كان النبي ﷺ إذا أنزل عليه الوحي نكّس رأسه، ونكّس أصحابه رؤوسهم، فلما أثلني عنه، رفع رأسه^(٦).

(١) ينظر: صحيح البخاري برقم (٤٥٩٢).

(٢) المسند (١١٨/٦)، وتفسير الطبري (٨٢/٢٩)، والحاكم في المستدرک (٥٠٥/٥)، والبيهقي في الدلائل (٥٣/٢)، قال الهيثمي: رجاله رجال الصحيح (٢٥٧/٧).

(٣) المسند (٢٢٢/٢).

(٤) صحيح البخاري برقم (٢)، وانظر (٣٢١٥)، وأخرجه مسلم مختصراً (٢٣٣٣).

(٥) صحيح مسلم برقم (٢٣٣٤).

(٦) صحيح مسلم (٢٣٣٥).

٦- وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: كان رسول الله ﷺ إذا أوحى إليه، لم يستطع أحد منا أن يرفع طرفه إليه حتى ينقضي الوحي^(١).

٧- وفي حديث عائشة رضي الله عنها أنها قالت: إن كان ليوحى إلى رسول الله ﷺ وهو على راحلته فتضرب بجرانها^(٢) والجران: باطن العنق.
ناشئة الليل: (الصلاة بعد نوم):

ثم إن قيام الليل والناس نيام، والانقطاع عن عيش الحياة، والاتصال بالله تعالى، وترتيل القرآن والكون ساكن، هو الزاد لاحتمال القول الثقيل، الذي ينتظر صاحب الدعوة، وينير القلب للطريق الشاق الطويل، ويعصمه من وسوسة الشيطان، ومن التيه في ظلمات الطريق.

والسبب في ذلك أن الصلاة التي يُنشئها العبد بعد هدوء الليل، وينشئها بعد النوم الذي يكون بعد العشاء، أشدّ وقعاً على النفس، وأقوى أثراً، وأوفق لاجتماع القلب واللسان، وتواطئهما على نطق الألفاظ وتفهم المعاني، وأعون على مزيد التذكير والتدبر.

ولما كان هذا القرآن الثقيل، عظيم المعاني، جليل الأوصاف، قوى التأثير، كان جديداً أن يتهياً له المعلم كي يرتل ويتدبر، ويتأمل حكمة الله تعالى من قيام الليل.

وهذا معنى: ﴿إِنَّ نَاشِئَةَ اللَّيْلِ﴾ أي القيام لصلاة التهجد بعد النوم، والصلاة التي تنشأ في جوف الليل، حيث الفراغ والصفاء، وحضور القلب، لأن الأصوات هادئة، والدنيا ساكنة، هي أشد على المصلي وأثقل من صلاة النهار، وما يُنشئه المرء من طاعة وعبادة، يقوم لها من مضجعه ﴿هِيَ أَشَدُّ وَطْأً﴾ أي أقوى تأثيراً في القلب، وأكثر موافقة لتهذيب النفس، وهي من الممارسات الصعبة التي تُقوّي النفوس، وتشدّ العزائم، وتُصلّب

(١) قال الحاكم في المستدرک (٢/٢٢٢)، هذا حديث صحيح على شرط مسلم ووافقه الذهبي وله شاهد عند مسلم كما في صحيح الجامع الصغير برقم (٤٥٦٢).

(٢) المسند (٦/١١٨)، والمستدرک (٢/٥٠٥)، والبيهقي في الدلائل (٢/٥٣)، قال الهيثمي: رجال أحمد رجال الصحيح، مجمع الزوائد (٧/٢٥٧).

الأبدان، وتشحذ الهمم، لأن مجابهة أعداء الله تعالى تحتاج إلى نفوس قوية، وأبدان صلبة، وهذه الصلاة من الليل أبين في القول، لفراغ القلب من مشاغل الدنيا، وهذا معنى ﴿وَأَقُمْ قِيلاً﴾ أي أثبت وأبين قولاً وأعون على التدبر والتأمل في أسرار القرآن ومقاصده، حيث يتواطأ على القرآن: القلب واللسان، وتقل الشواغل، ويصفو الذهن، ويقوى الاتصال بالله والقرب منه.

فِي النَّهَارِ مُتَّسِعٌ لِّشُؤْنِ الْحَيَاةِ

٧- ﴿إِنَّ لَكَ فِي النَّهَارِ سَبْحًا طَوِيلًا﴾

أي فتنفرغ - يا رسولنا - بالليل لعبادة ربك، ويكفيك النهار ذهاباً ومجيئاً، وإقبالاً وإدباراً، للتصرف والتقلب في مصالحك وحوائجك وأشغالك، وتبليغ الدعوة للناس ولك متسعاً بالنهار للاشتغال بأمور الرسالة، ومتسعاً لمطالب الحياة، قال تعالى:

﴿وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ خِلْفَةً لِّمَنۢ أَرَادَ أَن يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ شُكُورًا﴾ [الفرقان: ٦٢].

وهذه الآيات نزلت قبل أن تفرض الصلوات الخمس، وثبت أن النبي ﷺ كان يصلي نوافل بالنهار من أول البعثة، كما أشارت إلى ذلك سورة الجن، وفيها أن الجن استمعوا إلى القرآن من النبي ﷺ وكان يصلي بأصحابه في وادي نخلة، وهو في طريقه إلى عكاظ.

ومن ذلك قوله تعالى ﴿أَرَأَيْتَ الَّذِي يَنْهَى ۞ عَبْدًا إِذَا صَلَّى ۞﴾ [العلق: ١٠، ٩].

وكان أبو جهل قد تهدد النبي ﷺ لئن صلى في المسجد الحرام ليفعلن به كذا وكذا. وسورتا الجن والعلق نزلتا قبل أن تفرض الصلاة.

الْتَّعَامِلُ مَعَ الْخَالِقِ بِالْعِبَادَةِ وَإِخْلَاصِ التَّوْحِيدِ

٨، ٩- ﴿وَذَكَرِ اسْمَ رَبِّكَ وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلًا ۞ رَبُّ ۞ الشَّرِّ وَالْغَرِبِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَاتَّخِذْهُ وَكِيلًا ۞﴾

(١) قرأ ابن عامر وشعبة وحمزة والكسائي ويعقوب وخلف بخفض ﴿رَبُّ﴾ بدل من ﴿رَبِّكَ﴾ والباقون بالرفع على الابتداء، والخبر الجملة بعده، أو خبر لمبتدأ محذوف، أي هو رب.

وبعد أن مهدت الآيات السابقة بالاستعداد للقيام بمهام الدعوة، أمر الله نبيه أن يبلغ دعوة ربه وعلمه كيفية السير فيها عملاً:

أي واستعن - يا رسولنا - على تبليغ رسالة ربك، وعلى أمر المعيشة والتماس الرزق، بالمداومة والإكثار من ذكر الله تعالى ليلاً ونهاراً، واسأل الله تعالى في جميع أمورك بأسمائه الحسنی، وبتوحيده وتنزيهه، وتحميده وتهليله وتكبيره، وتفرغ لعبادته بعد تبليغ الرسالة والنظر في شؤون المسلمين، وأقبل على الله تعالى، وتوكل عليه، ولا تعتمد على غيره في شأن من شؤونك.

وهذا معنى ﴿وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلًا﴾، وذلك بانفصال القلب عن الخلائق، والإنابة إلى الله سبحانه والاتصال به والقرب منه، وإذا فرغت من أشغالك فانقطع لعبادته تعالى وأخلص له التوحيد، كما قال تعالى ﴿فَإِذَا فَرَغْتَ فَانصَبْ﴾ [الشرح: ٧].

وأعظم التبتل إلى الله تعالى: هو الانقطاع عن الشرك بالله، وهو معنى الحنفية التي جاء بها إبراهيم عليه السلام.

وليس المراد بالتبتل: الإعراض عن تزوج النساء، فإن هذا من الرهبانية المذمومة. وقد صح من حديث سعد أن النبي ﷺ ردّ على عثمان بن مظعون التبتل، قال سعد: ولو أذن له لاختصيناً.

كما أن التبتل لا ينافي تدبير أمور الحياة وتقلبات المعيشة. والمراد بالآية: المداومة على الطاعة، وألا تخلو أوقات العبد من مراقبة الله تعالى، والإقبال عليه بالقلب واللسان، فالذكر يكون باللسان، والتبتل يكون بالقلب، والعمل يكون بالجوارح.

ثم وصف الله تعالى نفسه بأنه مالك المشرق والمغرب، الخالق المتصرف في شؤون خلقه، والتبتل ومداومة الذكر لا يكون إلا إلى خالق هذا الكون فهو ﴿رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ﴾ أي جهة الشرق وجهة الغرب، وهو رب المشارق والمغارب، وهي ثلاث مئة وستون مشرقاً، وثلاث مئة وستون مغرباً.

وهو رب مشرقى الصيف والشتاء، ومغربى الصيف والشتاء ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾ لا رب غيره ولا معبود سواه، فهو الذى يستحق المحبة والتعظيم والإجلال.
ومادام الأمر كذلك ﴿فَاتَّخِذْهُ وَكِيلًا﴾ أي اعتمد عليه، وفوض أمرك إليه، فهو القائم بشؤونك، المتولى جميع أمورك، الحافظ والمدير لها.
والوكيل هو الذى يؤكل إليه جميع الأمور، ويفوض إليه تصرفها.
وكان النبي ﷺ في بعض أحيانه قد اغتم لما بلغه ما قاله المشركون عنه، فترمل وتلف في ثيابه.

وهذا كقوله تعالى ﴿فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ﴾ [هود: ١٢٣].

وقوله ﴿إِيَّاكَ تَعَبَّدُ وَإِيَّاكَ تَسْعَيْتُ﴾ وهو سبحانه كفيل بنصر نبيه ورفع شأنه.

التَّعَامُلُ مَعَ الْخَلْقِ بِالصَّبْرِ عَلَى أَذَاهُمْ وَهَجْرِ الْمُعَانِدِينَ مِنْهُمْ

١١، ١٠ - ﴿وَأَصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَاهْجُرْهُمْ هَجْرًا جَمِيلًا ۖ وَذَرْنِي وَالْكَافِرِينَ أَزِلَى النَّعْمَةِ وَمَهْلَهْز قَلِيلًا﴾

ولما أمر الله سبحانه بالصلاة خصوصاً، وبالذكر عموماً وأن بهما معاً يحصل للعبد ملكة قوية في تحمُّل الأثقال من الأعمال.

لذا: أمر الله بعد هما بالصبر على أذى الأعداء، وهجرهم، والمُضِيِّ في طريق الدعوة.
فاصبر - أيها الرسول - واصبر يا من تدعو إلى الله - على ما يقوله أعداء الإسلام من أكاذيب وخرافات، وسبّ وشتم واستهزاء، وقولهم: ساحر وكاهن وشاعر... وخالفهم في أفعالهم الباطلة، مع الإعراض عنهم، وعدم الانتقام منهم، أو الاشتغال بعقابهم، فإن الله تعالى مؤيدك، ومظهر دينك، وناصرك عليهم.

والهجر الجميل هو الذى لا عتاب معه، ولا يصحبه شتم ولا أذى، كما قال تعالى: ﴿وَإِذَا رَأَيْتَ الَّذِينَ يَخُوضُونَ فِي آيَاتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ﴾ [الأنعام: ٦٨].

وهذه الآيات بينت معاملة العبد مع ربه في عبادته والتبتل إليه، وبينت معاملته مع

خلق الله بالصبر على أذاهم عند مخالطته لهم، فإن كان مجانباً لهم فليهجروهم هجراً جميلاً بقلبه وهواه، ويخالفهم في أفعالهم المخالفة لشرع الله، مع الإغضاء عن هفواتهم وزلاتهم، ولا يقابل السيئة بمثلها، بل يعفو ويصفح، وهذا معنى الصبر الجميل.

والصبر على أذى الأعداء من غير المسلمين يكون في حال ضعف المسلمين، وعدم القدرة على مواجهتهم فيما يتعلق بالدعوة إلى الله تعالى، كما كان حال المسلمين في مكة، فلما اشتدَّ حالهم، وصارت لهم دولة أمرهم الله بقتال مَنْ قاتلهم.

ويدل على ذلك أن الله تعالى أمر رسوله ﷺ أن يترك عقابهم له، فهو القادر عليهم في كل زمان ومكان، وعادة ما يكون الجاحدون المكذبون هم الطبقة المثرفة من الناس، ولذا قال تعالى: ﴿وَذَرْنِي وَالْمُكَذِّبِينَ أُولِيَ النَّعْمَةِ﴾ دعني - أيها الرسول - واطركني - أيها الداعية إلى الله - وهؤلاء المكذبين بآياتي، أصحاب النعيم والترف في الدنيا، وانتظر عليهم قليلاً من الوقت، فإن الأيام دول، وسوف أكفيك أمرهم، وأنتقم لك منهم، كما أن عذاب الله في الآخرة بانتظارهم.

وهذا معنى: ﴿وَمَهْلَهٗز قَلِيلاً﴾ أي زمناً قليلاً حتى يبلغ الكتاب أجله، وسترى سوء عاقبتهم، ولن ينفعهم هذا المال ولا هذه النعمة، قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا يَسْتَنَعُونَ بِمَا كَانُوا يَكُلُونَ﴾ وَالنَّارُ مَتَوًى لَهُمْ ﴿[محمد: ١٢] ولفظ ﴿النَّعْمَةِ﴾ جاء بفتح النون المشددة وكسرها وضمها:

١- فالنَّعْمَةُ بفتح النون: اسم للتنعم والترف، ونضارة العيش، أي اسم للنعمة في حد ذاتها، وجمعها: أنعم.

٢- والنَّعْمَةُ بكسر النون: اسم للحالة التي تلائم حال الإنسان وتُلبي رغباته، كالعافية والرزق والأمن، وجمعها: نَعَم، فهي تشير إلى النعمة وإلى المتنعم بها، أما التي قبلها فهي تشير إلى النعمة فقط.

٣- والنَّعْمَةُ بضم النون: اسم للمسرّة وهي الفرح والسرور الذي يصاحب النعمة، فيقال: فلان في فرح وسرور، وجمعها: نَعَم أو نُعَم.

عَذَابُ أَهْلِ النَّارِ وَطَعَامُهُمْ

١٢، ١٣ - ﴿إِنَّ لَدَيْنَا أَنْكَالًا وَحَجِيمًا^(١)﴾ وَطَعَامًا ذَا غُصَّةٍ وَعَذَابًا أَلِيمًا ﴿

ثم تواعد سبحانه الجاحدين لتوحيد الله تعالى، والمكذبين لخاتم النبیین ﷺ، ووصف عذابهم بأشد العقوبات يوم لقاء الله سبحانه، فتوعدهم جل شأنه بالقيود والأغلال الثقيلة التي تلازمهم ولا تنفك عنهم، في النار المستعرة التي يُحرقون بها ﴿إِنَّ لَدَيْنَا أَنْكَالًا﴾ قيوداً من حديد، مقابل كفرهم بنعمة الصحة والعافية ﴿وَحَجِيمًا﴾ وهي نار جهنم المؤججة، مقابل ما كانوا عليه من لذة الظلال والهواء البارد.

أما طعامهم فإنه من الضريع والزقوم والغسلين، ينشب في الحلق ويغض فيه، فلا ينزل ولا يخرج، ولا يكاد يسيغه ﴿وَطَعَامًا ذَا غُصَّةٍ﴾ لا يستساغ، لبشاعته وكراهته ومرارته، زيادة على النكال والأغلال.

والغصة اسم لما يتردد من الطعام والشراب في الحلق، فلا يستطيع المرء بلعه من سقم. قال ابن عباس رضي الله عنهما: شوك من نار يعترض في حلوهم، لا يخرج ولا ينزل^(٢). وفوق ذلك كله: العذاب المؤلم الذي ينتظرهم في الآخرة، مقابل ما تلذذوا به من نعم في الدنيا، لم يشكروا الله عليها.

زَلْزَلَةُ الْأَرْضِ وَتَنَاقُصُ الْجِبَالِ مَعَ قِيَامِ السَّاعَةِ

١٤ - ﴿يَوْمَ تَرْجُفُ الْأَرْضُ وَالْجِبَالُ وَكَانَتِ الْجِبَالُ كَيْبًا مَّهِيلاً﴾

أي يوم تضطرب الأرض والجبال، وتزلزل وتحرك، فتهتز بما عليها اهتزازاً شديداً بعد أن كانت حجارة صماء ﴿وَكَانَتِ الْجِبَالُ كَيْبًا مَّهِيلاً﴾ أي تلاً من الرمل متناثراً، بعد أن كانت صلبة جامدة.

(١) انفرد الحمصي بعدم عد ﴿وَحَجِيمًا﴾، وعدّها جمهور أهل العدد آية.

(٢) البحر المحيط (٣٦٤/٨) وابن كثير (٢٥٦/٨).

وتلّ الرمل المهيل: هو الذي يُحرّك أسفله فينهار أعلاه، ويتساقط بسرعة، بل إن الجبال تنسف نفسها ﴿وَسْتُلُونَكَ مِنَ الْجِبَالِ فَكُلٌّ يَسِيفُهَا رَبِّي سَفًا﴾ [طه: ١٠٥] وتكون كالصوف المنفوش لخفتها وتناثرها ﴿وَتَكُونُ الْجِبَالُ كَالْعِهْنِ الْمَنفُوشِ﴾ [القارعة: ٥] وفي هذا تهديد للمكذّبين بمحمد ﷺ وتخويف لهم بأن الله تعالى سيعاقبهم إن بقوا على كفرهم به ، ثم أعقب سبحانه ذلك ببيان ما حل بقوم فرعون، لما كذبوا موسى عليه السلام كي يعتبروا بهم، حتى لا يلحقهم من العذاب ما لحق من سبقهم.

التَّهْدِيدُ وَالْوَعْدُ لِمَنْ كَفَرَ بِخَاتَمِ الْمُرْسَلِينَ

١٥ - ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَا إِلَيْكُمْ رَسُولًا^(١) شَهِدًا عَلَيْكُمْ كَمَا أَرْسَلْنَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ رَسُولًا﴾

ثم ذكر سبحانه أمة محمد ﷺ بما حلّ بالأمم التي كذبت رسلها، كما حدث لفرعون وجنده، فبيّن سبحانه أنه أرسل إلى هذه الأمة، رسولاً عظيم الشأن، رفيع القدر، يشهد على الناس بما صدر منهم من الكفر والعصيان، ويشهد كذلك أنه بلغ الناس رسالة ربه، ويشهد أيضاً بصدق شهادة المسلمين في شهادتهم أن رسل الله قد بلغوا أممهم مراد الله تعالى منهم ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَا إِلَيْكُمْ﴾ أيها الناس جميعاً إلى يوم القيامة ﴿رَسُولًا﴾ هو محمد ﷺ الذي ختم الله به النبوات ﴿شَهِدًا عَلَيْكُمْ﴾ بإيمان من آمن، وكفر من كفر ﴿كَمَا أَرْسَلْنَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ رَسُولًا﴾ هو موسى عليه السلام أرسله الله إلى فرعون الطاغية، وإلى بنى إسرائيل.

وخص موسى وفرعون بالذكر، لوجود الشبه في الإيذاء والاستخفاف الذي حدث لكل من موسى ومحمد عليهما السلام من قومهما.

فاحمدوا الله واشكروه على إرسال هذا النبي الأمي البشير النذير. الشاهد على الأمة بأعمالهم، وقوموا بهذه النعمة ولا تكفروها بمعصية رسولكم، فتكونوا كفرعون حين أرسله الله إلى موسى، فدعاه إلى التوحيد فكفر وعصى، فأخذه الله أخذاً وبيلاً. قال تعالى:

(١) انفرد المكي بعد ﴿رَسُولًا﴾ آية، ولم يعدها غيره.

١٦- ﴿فَعَصَى فِرْعَوْنُ الرَّسُولَ فَأَخَذْنَاهُ أَخْذًا وَبِيلًا﴾

ولما أرسل الله تعالى موسى إلى فرعون، كذبه ولم يؤمن به، فاستهزأ به وتناول عليه، وهذا معني: ﴿فَعَصَى فِرْعَوْنُ الرَّسُولَ﴾ كما عصى من كذب محمداً ﷺ من هذه الأمة، وقد كانت النتيجة بالنسبة لفرعون أن أهلكه الله إهلاكاً شديداً ﴿فَأَخَذْنَاهُ أَخْذًا وَبِيلًا﴾ بأن أغرقناه وجنده، وهي نهاية وخيمة وفظيعة.

وفي الآية تحذير من معصية الرسول محمد ﷺ حتى لا يُصاب العاصون بمثل ما أصاب فرعون وقومه، حيث لم ينفعه ملكه وجبروته، ولم يدفع عنه شيء من عذاب الله تعالى: ﴿فَأَخَذَهُ اللَّهُ نَكَالَ الْآخِرَةِ وَالْأُولَى﴾ [النازعات: ٢٥].

هذا هو أخذ الدنيا: أي العذاب الذي لحق بفرعون وقومه فيها، حيث أخذناه أخذاً وبيلاً وجاء بعده أخذ الآخرة: يوم ترجف الأرض والجبال:

الْكَافِرُ لَا يَتَحَمَّلُ نَارَ الدُّنْيَا فَكَيْفَ يَصْنِرُ عَلَى نَارِ الْآخِرَةِ؟

١٧، ١٨- ﴿فَكَيْفَ تَتَّقُونَ إِنْ كَفَرْتُمْ يَوْمًا يَجْعَلُ الْوِلْدَانَ شِيبًا﴾^(١) ﴿٧﴾ السَّمَاءُ مُنْفَطِرٌ بِهِ ۚ كَانَ

وَعَدُهُ مَفْعُولًا ﴿﴾

أي فكيف تنجون بأنفسكم وكيف يحصل لكم الفكاك - أيها المكذبون لخاتم النبيين - في هذا اليوم، شديد الأحوال إن بقيتم على كفركم، ولو أنكم تحملتم عذاب الدنيا، فكيف تتقون عذاب الآخرة، وأنتم مداومون على ما أنتم عليه من الكفر والعصيان ﴿فَكَيْفَ تَتَّقُونَ إِنْ كَفَرْتُمْ﴾ أي كيف تقون أنفسكم وتحفظونها من عذاب يوم القيامة، إن أنتم بقيتم على كفركم في الدنيا ووافيتم الله كفاراً، كيف تكون النجاة يوم لقائه؟

ومن صفات يوم القيامة، أنه يوم شديد هوله، فظيع أمره، عظيم قدره، ومن شدة كربته أن الأطفال يشيرون فيه ﴿يَوْمًا يَجْعَلُ الْوِلْدَانَ شِيبًا﴾ وتذوب له الجمادات فتفطر السماء وتتشجر النجوم، وفي هذا وعيد وتهديد، لكل من بقى كفره وتكذيبه لخاتم النبيين ﷺ.

(١) انفرد المدني الأخير بعدم ﴿شِيبًا﴾ آية، وعدّها غيره.

ومن أهوال يوم القيامة ما يقال لآدم: قم وابعث بعث النار، أي ميّز أهل الجنة من أهل النار، كما جاء في الصحيحين وغيرهما عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «يقول الله عز وجل يوم القيامة، يا آدم، فيقول: لبيك وسعديك، فينادي بصوت: إن الله يأمرك أن تخرج من ذريتك بعث النار، قال: يارب، وما بعث النار؟ قال: من كل ألف، تسع مئة وتسعة وتسعون، فحينئذ تضع الحامل حملها، ويشيب الوليد ﴿وَوَرَى النَّاسَ سُكْرَىٰ وَمَا هُمْ بِسُكْرَىٰ وَلَٰكِنَّ عَذَابَ اللَّهِ شَدِيدٌ﴾﴾ [الحج: ٢] فشق ذلك على الناس حتى تغيرت وجوههم» قالوا: يا رسول الله أينا ذلك الرجل؟ فقال ﷺ: «أبشروا، فإن من يأجوج ومأجوج تسع مئة وتسعاً وتسعين، ومنكم واحد، ثم قال: أنتم في الناس، كالشعرة السوداء في جنب الثور الأبيض، أو كالشعرة البيضاء في جنب الثور الأسود، وإني لأرجو أن تكونوا ربع أهل الجنة، فكبرنا، ثم قال: ثلث أهل الجنة، فكبرنا، ثم قال: شطر أهل الجنة، فكبرنا»^(١).

وقد تدرج النبي ﷺ من الربع إلى النصف، ليكون هذا أوقع في نفوسهم، وأبلغ في كرامتهم، وفيه بشارة بعد بشارة، وهذا الشيب للولدان يكون عند قيام الساعة. وبعد أن وصف الله تعالى يوم القيامة بأن فيه من الأهوال ما تشيب منه رؤوس الولدان الصغار، فيبلغون فيه أو ان الشيخوخة، وصفه ثانياً بأنه من شدة هوله أيضاً تتصدع السماء وتشقق، فما ظنكم بأنفسكم وأمثالكم من الخلائق ﴿إِذَا السَّمَاءُ انْفَطَرَتْ﴾﴾ أي أن السماء يوم القيامة تكون متصدعة لنزول الملائكة وعروجها، كما قال تعالى: ﴿إِذَا السَّمَاءُ انْفَطَرَتْ﴾﴾ [الانفطار: ١].

و ﴿إِذَا السَّمَاءُ انشَقَّتْ﴾﴾ [الانشقاق: ١] وقال سبحانه: ﴿وَيَوْمَ تَشَقَّقُ السَّمَاءُ بِالْغَمَمِ﴾﴾ [الفرقان: ٢٥]. ثم إن ذلك اليوم متحقق الوقوع، فهو كائن لا محالة ﴿كَانَ وَعْدُهُ مَفْعُولًا﴾﴾ أي كان وعد الله تعالى بمجيء ذلك اليوم، وبحصول الثواب والعقاب فيه أمر حاصل ولا بد.

(١) صحيح البخاري برقم (٤٧٤١، ٣٣٤٨، ٧٤٨٣، ٦٥٣٠)، وصحيح مسلم برقم (٢٢٢)، وانظر حديث عبد الله بن عمرو في سنن النسائي الكبرى (١١٥٦٥)، وصحيح مسلم (٢٩٤٠)، والمسند (٦٥٥٥)، وابن حبان (٧٣٥٣).

الْعَاقِلُ مَنْ اتَّعَظَ بِغَيْرِهِ

١٩ - ﴿إِنَّ هَذِهِ تَذْكِرَةٌ فَمَنْ شَاءَ اتَّخَذْ إِلَىٰ رَبِّهِ سَبِيلًا﴾

وفي ختام هذه الآيات المخوفة التي فيها القوارع والزواجر، بين سبحانه وتعالى أن هذه الآيات فيها عظة وعبرة للناس، فمن أراد طريق الخير، وسلوك سبيل النجاة، باتباع شرع الله سبحانه، فلا حائل يحول بينه وبين توحيد الله تعالى وطاعته، بعد هذا البيان الواضح، فإن ذلك أهم طريق توصله إلى رضوان الله تعالى وجنته.

وفي هذا تحريض على الإيمان، وتحذير من الكفر، فكل من كان غافلاً أو ساهياً، فعليه أن يستفيد من هذه التذكرة قبل فوات الأوان، فيسلك الطريق الموصّل إلى الرحمن بالإيمان والطاعة، فالأسباب ميسرة، والسبل معبدة، وهذا من باب التحريض وليس من باب التخخير، وفيه دليل على أن الله تعالى جعل للعباد قدرة على اختيار أفعالهم ومكنهم منها.

التَّخْفِيفُ عَلَى الْأُمَّةِ فِي صَلَاةِ التَّهَجُّدِ وَأَسْبَابُ التَّخْفِيفِ

٢٠ - ﴿إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدْنَىٰ مِنْ ثُلُثِي^(١) اللَّيْلِ وَنِصْفَهُ^(٢) وَثُلُثَهُ^(٣) وَطَائِفَةٌ مِّنَ الَّذِينَ مَعَكَ وَاللَّهُ يُقَدِّرُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ عَلِمَ أَن لَّنْ نَّحْصُوهُ فَتَابَ عَلَيْكَ فَاقْرَأْ وَامَّا تَسْتَرُ^(٤) مِنَ الْقُرْآنِ عَلِمَ أَن سَيَكُونُ مِنكُمْ مَّرْضَىٰ وَءَاخِرُونَ يَضْرِبُونَ فِي الْأَرْضِ يَلْتَمِسُونَ^(٥) مِن فَضْلِ اللَّهِ وَءَاخِرُونَ يُقْتَلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَاقْرَأْ وَامَّا تَسْتَرُ مِنْهُ^(٦)﴾

ثم عادت السورة للحديث عن قيام الليل الذي بُدئت به، لتبين أن ترك قيام الليل ليس إجازة مفتوحة، ولا عطلة سائغة، إنه تقدير لأعمال أخرى، وقد كان قيام الليل واجباً على النبي ﷺ وعلى أصحابه، حيث كلفهم الله تعالى أن يقوموا ساعات من الليل: لا تقلّ على ثلثه ولا تزيد على ثلثيه، لتقوية أبدانهم، وتركيز أرواحهم، وتربيتهم على الخشونة وشظف

(١) قرأ هشام بسكون اللام من ﴿ثُلُثِي﴾ والباقون بضمها.

(٢) قرأ ابن كثير وعاصم وحزمة والكسائي وخلف بنصب الفاء والثاء من ﴿وَنِصْفَهُ وَثُلُثَهُ﴾ وهما معطوفان على

﴿أَدْنَىٰ﴾ المنصوب والباقون بخفضهما وكسر الهاء فيهما معطوفان على ﴿ثُلُثِي﴾ المجرور بمن.

العيش، واجتناب ما عليه المترفون من الراحة، والانغماس في الشهوات والملذات، للقيام بأعباء الدعوة ونشر الإسلام، والجهد في سبيل الله.

وبعد أن استمر الحال على ذلك سنة أو أكثر، امثل فيها النبي ﷺ أمر ربه، هو وطائفة معه من المؤمنين نزلت هذه الآية للتخفيف عن الأمة، وقد جاء في الحديث: عن عائشة رضي الله عنهما (أن النبي ﷺ كان يقوم الليل حتى تورمت قدماه)^(١).

وكان السبب في هذا التخفيف: كثرة أشغال النبي ﷺ بتدبير مصالح الأمة، وحماية المدينة، وتجهيز الجيوش.

وفي حديث علي بن أبي طالب ؓ أنه سئل عن النبي ﷺ إذا أوى إلى منزله فقال: (كان إذا أوى إلى منزله جزءاً دخوله ثلاثة أجزاء: جزءاً لله، وجزءاً لأهله، وجزءاً لنفسه، ثم جزءاً جزءه بينه وبين الناس، فيرد ذلك بالخاصة على العامة، ولا يدخر عنهم شيئاً، فمنهم ذوا الحاجة، ومنهم ذوا الحاجتين، ومنهم ذوا الحوائج، فيتشغل بهم ويشغلهم، فيما يصلحهم ويصلح الأمة، من مسألته عنهم، وإخبارهم بالذي ينبغي لهم)^(٢).

وقد نسخت هذه الآية، تحديد مدة قيام الليل بنصفه أو ثلثيه، بما يتيسر من القيام من غير تحديد مدة.

﴿إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ﴾ في صلاة التهجد ﴿أَذَىٰ مِنْ ثُلَاثِي اللَّيْلِ﴾ أي أقل من ثلثيه حيناً ﴿وَنُصْفُهُ﴾ حيناً آخر ﴿وَتُلُثُهُ﴾ حيناً ثالثاً، وهذا يدل على أن قيام النبي ﷺ كان متفاوتاً في طوله وقصره، على حسب ما يتيسر له ﷺ وعلى حسب طول الليل وقصره.

وكان ﷺ يصلي معه طائفة من أصحابه كما قال تعالى: ﴿وَطَائِفَةٌ مِّنَ الَّذِينَ مَعَكَ﴾ وبقية أصحاب النبي ﷺ كانوا يصلون في منازلهم.

وممن ورد أسماؤهم في أحاديث متفرقة في باب صلاة التهجد، من صحيح البخاري

(١) ينظر: الحديث في البخاري (٤٣٣٧)، ومسلم (٢٨٢٠) عن عائشة رضي الله عنها.

(٢) التحرير والتنوير (٢٨٠/٢٩).

سبعة: عبد الله بن مسعود، وعبد الله بن عمرو، وسلمان الفارسي، وأبو الدرداء، وزينب بنت جحش، وعبد الله بن عمر، والحولاء بنت ثويب الأسدية.

والله تعالى يَغْلَمُ مقادير الليل والنهار، بالزيادة فيها أو النقص منها، ويغْلَمُ أن قيام ثلثي الليل أو نصفه قد يكون شاقاً، لاسيما في ليالي الصيف ﴿وَاللَّهُ يَقْدَرُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ﴾ يحدد زمانهما وفق مقتضى حكمته ومشيتته، ويعلم ما يذهب منهما وما يبقى.

قيام الليل بصلاة ما تيسر:

وقد علم الله سبحانه أنكم لن تطيقوا المداومة على قيام هذه الساعات الطويلة من الليل، فقد انتفخت أقدام بعضكم من طول القيام، وشق ذلك عليكم ﴿عَلِمَ أَنْ لَنْ تُحْصَوْهُ﴾ أي لن تستطيعوا قيام الليل كله أو جله ولن تطيقوه ولن تعرفوا مقداره من غير زيادة ولا نقص ﴿فَنَابَ عَلَيْكُمْ﴾ أي سهل عليكم غاية التسهيل، وخفف عنكم ويسر عليكم القيام بقدر الطاقة، ورخص لكم في ترك القيام كله إن عجزتم عنه ﴿فَاقْرَءُوا مَا يَسَّرَ مِنَ الْقُرْآنِ﴾ أي صلّوا ما تيسر لكم، بأن تقرأوا في صلاة الليل ما تيسر لكم قراءته من القرآن، والمسلم يصلى مادام نشيطاً، فإذا فتر أو كسل أو نعى فليسترح حتى تحصل الطمأنينة.

والسنة في ذلك أن يقرأ المسلم بعد الفاتحة بسورة قصيرة من المفصل، أو آية طويلة، كآية المداينة، أو آية البر، أو آية صلاة الخوف، أو ثلاث آيات على الأقل من أواسط السور.

ولم يُعرف عن السلف تجزئة السور القصيرة على ركعتين كسور: التكوير والانفطار والبلد والليل.

ولم يعرف عنهم أيضاً قراءة بعض آيات من أواخر السور في الصلاة، كختم سور: البقرة وآل عمران والأنعام والتوبة والنحل ونحو ذلك، وعبر عن الصلاة في الآية بالقراءة؛ لأن القراءة بعض منها.

جاء في الصحيحين عن عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما قال: قال لي رسول الله ﷺ: «ألم أُخْبِرْ أنك تصوم الدهر، وتقرأ القرآن كل ليلة؟» قلت: بلى، يا رسول

الله، ولم أرِدْ بذلك إلا الخير، قال: «فَصُم صَوْمَ دَاوُدَ، وَكَانَ أَعْبَدَ النَّاسِ، وَاقْرَأَ الْقُرْآنَ فِي كُلِّ شَهْرٍ مَرَّةً»، قال: قلت: يا نبي الله، إني أطيق أفضل من ذلك، قال: «فاقرأه في كل عشرة»، قال: قلت: يا نبي الله، إني أطيق أفضل من ذلك، قال: «فاقرأه في سبع ولا تزيد على ذلك»^(١).

وقد جاءت هذه الجملة ﴿فَاقْرَأُوا مَا يَنْتَسِرُ مِنَ الْقُرْآنِ﴾ في أحاديث الأحرف السبعة، ويراد بها: اقرؤوا بأي وجه من وجوه القراءات التي نزل بها القرآن الكريم على رسول الله ﷺ فكلها صحيحة، وكلها قرآن، وذلك بالنسبة للقراءات العشر المتواترة، أما الأربعة الشواذ، التي بعد العشر فإنها تُعلم، ويؤخذ منها التفسير، ووجوه الإعراب، والأحكام الفقهية، ولا يقرأ بها على سبيل التعبد، ولا في الصلاة.

ويراد أيضاً بهذه الجملة من الآية: قراءة ما يتيسر من القرآن، أي القليل منه في الصلاة كما في حديث أبي سعيد قال: (أمرنا رسول الله ﷺ أن نقرأ بفاتحة الكتاب وما تيسر)^(٢).

أسباب التخفيف في صلاة القيام:

ثم ذكر سبحانه وتعالى أعذار الناس، والأحوال التي طرأت عليهم بعد وجوب قيام الليل عليهم، فذكر منها ثلاثة أسباب تقتضي الترخيص، ورفع وجوب قيام الليل عن الأمة، وهي: المرض والسفر للتجارة المشروعة أو التماس الرزق، والجهد في سبيل الله، وبيانها فيما يلي:

الأول: أعذار اختلال الصحة: ﴿عَلِمَ أَنَّ سَيَكُونُ مِنْكُمْ مَرَضٌ﴾ أي علم الله تعالى أنه سيوجد فيكم من يعجزه المرض عن قيام الليل، فيشق عليه صلاة ثلثي الليل أو ثلثه، فخفف عنكم قيامه رحمة بكم، لأجل ضعفكم وعجزكم، والمريض لا يستطيع قيام الليل لمرضه.

الثاني: الأعمال التي تدعو إليها ضرورة العيش: من تجارة وصناعة وزراعة، ووظيفة

(١) مسلم (١١٥٩)، والبخاري (٥١٩٩، ١٩٧٤) وغيرهما.

(٢) المسند (٣٠/١٧) (١٠٩٩٨) قال محققوه: إسناده صحيح على شرط مسلم، وأخرجه البيهقي في السنن

(٦٠/٢)، وأخرجه أبو يعلى (١٢١٠)، وابن حبان (١١٩٠)، والبخاري في القراءة خلف الإمام (١٦)،

وأبو داود (٨١٨)، والترمذي (٨٣٩) من طرق متعددة.

وولاية، وغير ذلك، وهي تتطلب السفر والتنقل، وقد خفف الله عن المسافر، فشرع له قِصر الصلاة الرباعية، ولأن العبد يكون مشغولاً في النهار بالأعمال الشاقة، ويشق عليه قيام نصف الليل أو نحوه ﴿وَأَخْرُوجْ يَضْرِبُونَ فِي الْأَرْضِ﴾ أي ويوجد قوم آخرون يتنقلون ويسافرون في جوانب الأرض طلباً للرزق.

﴿يَتَّبِعُونَ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ﴾ وَفَضْلُ اللَّهِ المذكور في الآية، هو الرزق، أي يلتمسون رزق الله الحلال الطيب، قال تعالى: ﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَبْتَغُوا فَضْلاً مِنْ رَبِّكُمْ﴾ [البقرة: ١٩٨].

قال ابن مسعود رضي الله عنه: أيما رجل جلب شيئاً إلى مدينة من مدائن المسلمين، صابراً محتسباً، فباعه بسعر يومه، كان عند الله بمنزلة الشهداء، ثم قرأ ﴿وَأَخْرُوجْ يَضْرِبُونَ فِي الْأَرْضِ يَتَّبِعُونَ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ وَأَخْرُوجْ يَقْتُلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ ^(١).

وقال ابن عمر رضي الله عنهما: ما خلق الله موتة بعد الموت في سبيل الله، أحب إلي من أن أموت بين شُعْبَتَيْ رَحْلي، أبتغي من فضل الله ضارباً في الأرض.

وقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: ما من حال يأتيني عليه الموت بعد الجهاد في سبيل الله، أحب إلي من أن يأتيني وأنا بين شُعْبَتَيْ رَحْلي، أَلْتَمَسُ من فضل الله تعالى، ثم تلا هذه الآية ﴿وَأَخْرُوجْ يَضْرِبُونَ فِي الْأَرْضِ﴾ ^(٢).

الثالث: رعاية مصالح الأمة: كالقائمين على أمن البلاد، وحراسة الحدود، والرباط في الثغور، والوفود، والسفراء، والمجاهدو بن في سبيل الله لدفع الصائل، ورد العدوان عن الأمة، أو لتأمين نشر الدعوة، وإزالة العوائق من طريقها، ويشمل هذا كله ونحوه قوله تعالى ﴿وَأَخْرُوجْ يَقْتُلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾.

أي ويوجد قوم مشغولون بالجهاد في سبيل الله، لإعلاء كلمته ونشر دينه، ولو لم يَنَمْ المسافر والمجاهد بالليل لتوالت عليه أسباب المشقة، فخفف الله عنهم، من

(١) تفسير الخازن (٣٢٥/٤)، والقرطبي (٥٥/١٩).

(٢) أخرجه البيهقي في شعب الإيمان (١٢٥٦)، كما أخرجه سعيد بن منصور، وعبد بن حميد، وابن المنذر.

غير أن يكلفهم تحديد وقت معين للصلاة.

فكل من الفرق الثلاثة يُشَقُّ عليهم قيام معظم الليل، فخفف الله عنهم، وجعل قيامه على سبيل التطوع، وليس على سبيل الفريضة، وبالمقدار الذي يمكن للعبد أن يقومه، تخفيفاً على المريض والمسافر للتجارة أو الحج أو العمرة أو طلب العلم أو طلب الرزق، أو الجهاد ونحو ذلك، فله الحمد والمنة أنه راعى أحوال العباد ومصالحهم ورفع عنهم الحرج والمشقة.

وذكر القتال في سبيل الله، يوحي بأن هذه الآية مدنية، وبه قال بعضهم، حيث قيل: إن هذه الآية نزلت بعد عشر سنين من نزول أول السورة. وعلى القول بأنها مكية، فيكون المعنى: باعتبار ما سيكون عليه أحوال المسلمين في المستقبل.

والآية اقتضت رفع وجوب قيام الليل عن المسلمين، على القول بوجوبه عليهم أولاً، أو أنهم التزموه تأسيّاً برسول الله ﷺ دون أن يفرض عليهم.

ثَلَاثَةُ أَوْامِرَ تَعْقُبُ التَّرْخِيصَ فِي قِيَامِ اللَّيْلِ

﴿وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَأَقْرِضُوا اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا﴾

وقد أعيدت جملة ﴿فَأَقْرَهُوْا مَا يَنْسَرُ مِنَ الْقُرْآنِ﴾ ليأمر سبحانه بصلاة ما تيسر من الليل دون مشقة، وليأمر بقراءة ما تيسر من القرآن في صلاة الليل، ثم ليؤكد سبحانه الترخيص في قيام الليل، وليعطف عليها ما بعدها من الأوامر الثلاثة وهي: إقام الصلاة، وإيتاء الزكاة، وصدقة التطوع:

وأولها: ﴿وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ﴾ أي أدوا الصلاة المفروضة على أكمل وجه، بأركانها وشروطها وسننها وواجباتها لأن الصلاة ﴿كَانَتْ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ كِتَابًا مَوْقُوتًا﴾ [النساء: ١٠٣].

والنص على الصلوات الخمس، يشير إلى أن قيام الليل نافلة وليس فريضة.

في حديث طلحة ؓ أن رسول الله ﷺ قال له: «خمس صلوات في اليوم والليلة»،

قال: هل علي غيرها؟ قال: «لا، إلا أن تطوع»^(١).

وثانيها: ﴿وَأَتُوا الزَّكَاةَ﴾ أي أعطوا الزكاة الواجبة عليكم لمستحقها. فالصلاة أعظم العبادات البدنية، والزكاة أعظم العبادات المالية، والصلاة عماد الدين بين العبد وربّه، والزكاة عماد الدين بين العبد وخلق الله.

قال أبو بكر رضي الله عنه: (والله لأقاتلن من فرق بين الصلاة والزكاة).

وثالثها: ﴿وَأَقْرِضُوا اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا﴾ أي تصدقوا في وجوه البر والإحسان من أموالكم ابتغاء وجه الله تعالى.

والقرض هو الصدقة غير الواجبة، يقدمها العبد لوجه الله تعالى، لا يريد من ورائها نفعاً ولا فائدة دنيوية، وكأنه بهذا أقرض الله تعالى وهو يتغني الأجر والجزاء منه وحده. وهو قرض حسن، لأنه يسلم من المن والأذى والرياء والسمعة، كما قال تعالى ﴿مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضْعِفُهُ لَهُ أَضْعَافًا كَثِيرَةً﴾ [البقرة: ٢٤٥] وقوله ﴿إِنْ تُقْرِضُوا اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا يَضْعِفْهُ لَكُمْ﴾ [التغابن: ١٧].

وَصِيَّتَانِ فِي خَتَامِ السُّورَةِ

﴿وَمَا تَقْدِمُوا أَنْفُسَكُمْ مِنْ خَيْرٍ تُجِدُوهُ عِنْدَ اللَّهِ هُوَ خَيْرٌ وَأَعْظَمُ أَجْرًا وَاسْتَغْفِرُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾

ثم ختم الله تعالى السورة بوصييتين:

الأولى: الحث على فعل الخيرات والمبرات بوجه عام:

﴿وَمَا تَقْدِمُوا أَنْفُسَكُمْ مِنْ خَيْرٍ﴾ في وجوه البر وعمل الطاعات، وفي هذا حث على عموم الخير وأفعاله وأقواله ﴿تَجِدُوهُ عِنْدَ اللَّهِ﴾ أي تلقوا ثوابه وجزاءه عند الله تعالى يوم القيامة ﴿هُوَ خَيْرٌ﴾ مما قدمتم في الدنيا ﴿وَأَعْظَمُ أَجْرًا﴾ أي أكثر ثواباً، الحسنة بعشر أمثالها إلى سبع مئة ضعف إلى أضعاف كثيرة، والخير والبر في هذه الدنيا هما مادة الخير والبر في

(١) صحيح البخاري برقم (٤٦)، وصحيح مسلم برقم (١١).

الآخرة وسبب السعادة فيها فإن الدنيا فانية، والآخرة باقية، وما عند الله خير وأبقى.
صح عن رسول الله ﷺ من حديث عبدالله بن مسعود ؓ أنه قال: «أيكم ماله أحب إليه من مال وارثه؟» قالوا: يا رسول الله، ما مِنَّا من أحد إلا ماله أحب إليه من مال وارثه، قال: «اعلموا ما تقولون؟» قالوا: ما نعلم إلا ذلك يا رسول الله؟ قال: «إنما مال أحدكم ما قدم، ومال وارثه ما آخر»^(١).

أي أنّ ما يقدّمه الإنسان لنفسه في الدنيا من وجوه الإنفاق في سبيل الله، هو ماله الذي قدّمه لنفسه، والذي ينفعه يوم لقاء الله تعالى، أما الميراث الذي تركه خلفه، فهو مال وارثه، وليس له منه شيء بعد موته.

والمسلم لا يحتقر من المعروف شيئاً، ولو بكلمة طيبة، ولو بشق تمرّة، وتبسمك في وجه أخيك صدقة، وإمالة الأذى عن الطريق صدقة.

والوصية الثانية: ﴿وَأَسْتَغْفِرُوا اللَّهَ﴾:

أكثرُوا من ذكره، واطلبوا مغفرة الله في جميع أحوالكم، وواظبوا على التوبة والتضرع إلى الله تعالى، فإن في هذا ما يسد مسد قيام الليل، الذي قد يَغرِض لكم تركه، وإذا انتبه المسلم من نومه في جزء من أجزاء الليل، فليستغفر الله، كما قال تعالى ﴿وَيَا لَأَشَدَّ حُمِّ

يَسْتَغْفِرُونَ﴾ [الذاريات: ١٨].

وفي الحديث عن أبي هريرة ؓ أن النبي ﷺ قال: «ينزل ربنا تبارك وتعالى كل ليلة إلى سماء الدنيا حين يبقى ثلث الليل الآخر، فيقول: من يدعوني فأستجيب له، من يسألني فأعطيه، من يستغفرني فأغفر له»^(٢).

وفي الحديث عن عبادة بن الصامت ؓ أن رسول الله ﷺ قال: «من تعازّ من الليل فقال: لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الملك، وله الحمد، وهو على كل شيء قدير،

(١) من حديث عبد الله بن مسعود ؓ مسند أبي يعلى (٩٧/٩) وصحيح البخاري برقم: (٦٤٤٢) وسنن النسائي الكبرى برقم: (٦٤٣٩).

(٢) البخاري (١١٤٥، ٦٣٢١، ٧٤٩٤) ومسلم (٧٥٨).

الحمد لله، وسبحان الله، ولا إله إلا الله، والله أكبر، ولا حول ولا قوة إلا بالله» ثم قال: «اللهم اغفر لي، أو دعا، استُجِبتَ له، فإن تَوْضُأً وَصَلَّى قَبِلْتَ صَلَاتَهُ»^(١).

إنكم إن طلبتم مغفرة الله تعالى، فإنه سبحانه واسع الرحمة والمغفرة لمن تاب إليه وأناب ﴿إِنَّ اللَّهَ عَفُورٌ رَحِيمٌ﴾.

وقد أرشد الله المنفقين في سبيله أن يطلبوا العفو والصفح من الله تعالى، إذ ربما لم يُخلصوا له النية في الإنفاق، أو لم يضعوها في موضعها، أو أنفقوها في أغراض شخصية، فناسب هذا طلب المغفرة من الله تعالى، لجبر الخلل الذي قد يحدث في القرض، أو الصدقة، أو الزكاة، أو أعمال البر الأخرى.

وفي الأمر بالاستغفار بعد الحث على أفعال الخير والطاعة جَبْر لما يكون في هذه الطاعات من نقص أو تقصير، والاستغفار يجبر هذا الخلل، والعبد يذنب آثاء الليل وأطراف النهار، ومن لم يتغمده الله برحمته ومغفرته، فهو من الهالكين. فاللهم اغفر ذنوبنا واسترعيوبنا وقنا عذاب النار، وأدخلنا الجنة مع الأبرار.

تم تفسير (سورة المزمل) والله الحمد والمنة

تَفْسِيرُ سُورَةِ الْمُدَّثِّرِ (٧٤)

مُقَدِّمَةُ السُّورَةِ

(سورة المدثر) هي السورة الرابعة والسبعون في ترتيب المصحف، والثانية في ترتيب النزول، فلم ينزل قبلها إلا صدر (سورة العلق) في غار حراء، وبها نبىء النبي ﷺ، ثم نزلت (سورة المدثر)، وبها أرسل ﷺ وكان نزولها في السنة الأولى من البعثة. وسميت سورة المدثر، باسم ثاني كلمة فيها، وهي سورة مكية باتفاق. وعدد آياتها ست وخمسون آية عند أهل البصرة والكوفة والمدني الأول، وخمس وخمسون آية عند المكي والدمشقي والمدني الأخير. وهي مثنان وخمس وخمسون كلمة، وألف وعشرة أحرف.

سبب النزول:

في حديث جابر بن عبد الله رضي الله عنهما أنه سمع رسول الله ﷺ يُحَدِّثُ عَنْ فِتْرَةِ الْوَحْيِ قَالَ: «فِينَا أَنَا أَمْشِي إِذْ سَمِعْتُ صَوْتًا مِنَ السَّمَاءِ، فَرَفَعْتُ بَصْرِي قِبَلَ السَّمَاءِ، فَإِذَا الْمَلَكُ الَّذِي جَاءَنِي بِحَرَاءِ، قَاعِدٌ عَلَى كُرْسِيٍّ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ، فَجِثْتُ مِنْهُ حَتَّى هَوَيْتُ إِلَى الْأَرْضِ، فَجِثْتُ إِلَى أَهْلِي، فَقُلْتُ: زَمَلُونِي، زَمَلُونِي، فَزَمَلُونِي، فَأَنْزَلَ اللَّهُ ﴿يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ﴾ إِلَى ﴿فَاقْبُرْ﴾ ثُمَّ حَمِيَ الْوَحْيُ وَتَابَعُ»^(١).

والحديث ينطق أن الوحي قد نزل بالمدثر بعد فترة انقطاع من نزول أول سورة العلق، وأن هذه هي المرة الثانية له، وكانت بعد أربعين يوما على الأرجح.

وفي حديث جابر أيضاً أن رسول الله ﷺ قَالَ: «جَاوَرْتُ بِحَرَاءِ، فَلَمَّا قُضِيَتْ جَوَارِي هَبَطْتُ، فَتَوَدَيْتُ، فَنَظَرْتُ عَنْ يَمِينِي فَلَمْ أَرْ شَيْئًا، وَنَظَرْتُ عَنْ شِمَالِي فَلَمْ أَرْ شَيْئًا،

(١) ينظر: صحيح مسلم برقم: (٢٥٥، ١٦١) وصحيح البخاري برقم: (٤٩٢٤، ٤٩٢٦، ٤٩٥٤) والترمذي (٣٣٢٥) وأحمد في المسند (١٤٢٨٧) وعبد الرزاق (٣٢٧/٢) وابن أبي شيبة (٢٩٤/١٤) وابن حبان (٣٥، ٣٤).

ونظرت أمامي فلم أر شيئاً، ونظرت خلفي فلم أر شيئاً، فرفعت رأسي، فرأيت شيئاً، فأتيت خديجة، فقلت دثروني، وضَبُّوا عليّ ماءً بارداً، قال: فدثروني، وضَبُّوا عليّ ماءً بارداً، قال: فنزلت: ﴿يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ ۝١ قُمْ فَأَنذِرْ ۝٢ وَرَبِّكَ فَكَذِبٌ ۝٣﴾^(١).

فهي أول ما نزل بعد فترة الوحي، وقد جاء جبريل هذه المرة وهو جالس على كرسي بين السماء والأرض.

ونزل فيهما بالرسالة على النبي ﷺ، أما المرة الأولى فقد نزل فيها بالنبوة، وكان ذلك في غار حراء.

موضوع السورة في خمس نقاط:

١- المحور الأساس الذي تدور حوله السورة، هو تكليف النبي ﷺ بأعباء الرسالة، والقيام بالتبليغ، وإنذار المشركين بالله تعالى، للإقلاع عن شركهم، والصبر على الأذى في سبيل الله، والاستعداد لهذا الكفاح الشاق بترك النوم والتدثر، وذلك في الآيات السبع الأول من السورة.

٢- وفي الآيات الثلاث التي تليها حديث عن يوم القيامة، تشير إلى النفخ في الصور وعُسر هذا اليوم على الكافرين، وقد تحدثت السورة عن تهديد ووعد الجاحدين المنكرين للتوحيد، المكذبين للرسالة، بيوم عصيب يشتد عذابه وأهواله وشدائده.

٣- والآيات من (١١ - ٣٠)، تتحدث عن الوليد بن المغيرة، الذي اغتر بماله وجاهه وولده، فكذب القرآن، وأنكر خاتمة الرسالات، وزعم أن القرآن من السحر الذي تعرفه البشر، فكانت ﴿سَقَرٌ﴾ نهايته.

٤- ثم تحدثت آيات السورة عن النار التي توعد الله بها الكفار، و تحدثت عن زبانياتها وخزنتها وعددهم، وبينت الحكمة في تخصيص هذا العدد، وأقسم سبحانه

(١) ينظر: صحيح البخاري برقم: (٤٩٢٢، ٣٢٣٨) وصحيح مسلم (٢٥٦-٢٥٨) والطيالسي (١٧٩٣) والبيهقي في الدلائل (١٥٥/٢) وأبو نعيم في الدلائل (٢١٥/١).

وتعالى بالقمر والليل والصبح، على أن النار أكبر البلايا وأعظم الدواهي التي يُنذر الله بها البشر، وذلك في الآيات من واحد وثلاثين إلى السابعة والثلاثين.

٥ - وبينت آيات السورة أن كل نفس مرهونة بعملها عدا أصحاب اليمين، فذكرت الحوار الذي يجري بين المؤمنين والمجرمين عن أسباب استحقاق المجرمين لعذاب جهنم وهي أربعة أمور:

أ - عدم الصلاة. ب - وعدم إطعام المسكين.

ج - والخوض مع الخائضين. د - والتكذيب بيوم القيامة.

وأنهم استمروا على ذلك حتى الموت، وكان هذا من الآية السابعة والعشرين إلى الآية السابعة والأربعين.

٦ - وختمت السورة ببيان أسباب إعراض المكذبين، وعدم استجابتهم للحق، فبين تعالى أنهم لم يتفعلوا بالمواعظ، فانصرفوا عنها كالحُمر الوحشية، وحسدوا صاحب الرسالة، فطمعوا أن يكونوا مثله في الوحي والرسالة، وهم فضلاً عن ذلك لا يؤمنون بالبعث والنشور. ولذا: فإنهم لا يتفعلون بشفاعه أحد يوم لقاء الله، وهذا من الآية الثامنة والأربعين إلى نهاية السورة.

وبهذا فإن السورة تناولت موضوعات القرآن المكي، فأمرت بوحداية الله تعالى، والتطهير من الشرك، وترك عبادة الأوثان، وهذا هو جانب التوحيد.

وتحدثت عن الوحي والرسالة: فأمرت النبي ﷺ أن يبلغ رسالة ربه، وهذا هو الجانب الثاني.

وتناولت اليوم الآخر وما فيه من نعيم لأهل اليمين، ونار سقر للمجرمين، وهذا هو الجانب الثالث من موضوعات القرآن المكي.

تَفْسِيرُ السُّورَةِ

سِتُّ وَصَايَا لِلنَّبِيِّ ﷺ فِي ابْتِدَاءِ الدَّعْوَةِ

١-٤ - ﴿يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ ۝١ قُمْ فَأَنْذِرْ ۝٢ وَرَبِّكَ فَكَبِّرْ ۝٣ وَيَا بَلَدَكَ فَنُفِّرْ ۝٤﴾

نزل جبريل على النبي ﷺ في المرة الثانية ليأمره بتبليغ الرسالة إلى العالمين، فرآه النبي ﷺ بين السماء والأرض كالنور المتلألئ، ففرغ ووقع مغشياً عليه، فلما أفاق دخل على خديجة رضي الله عنهما ودعا بماء فصبه عليه، وقال: دثروني، دثروني، فدثروه بقطيفة. والمزمل والمدثر بمعنى واحد.

وقد بدأت السورة بتوجيه نداء فيه ملاطفة ومؤانسة للنبي ﷺ حين رجع إلى خديجة رضي الله عنها، يرجف فؤاده، لما نزل عليه الوحي، وهو يقول: دثروني، دثروني، فتدثر، أي تغطى بثياب فوق الثياب الملامس للجسد، أما الثياب الذي يلي البدن فيقال له: شعار، ومن هنا جاء الحديث: (الأنصار شعار والناس دثار).

والله تعالى ينادي رسوله ﷺ في أول خطاب له يكلفه فيه بالرسالة قائلاً ﴿يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ﴾ يا أيها المتغطي بقطيفته يريد الراحة والنوم، لقد انقضى وقت الراحة، وجاء وقت تحمل أعباء الدعوة، وفي هذا النداء ملاطفة في الخطاب، إذ ناداه الله تعالى بوصفه ليستشعر اللين والملاطفة.

ومثل هذا النداء: لما خرج عليّ ﷺ مغاضباً لفاطمة رضي الله عنها، فسقط عنه رداءه، وأصابه التراب، فناداه النبي ﷺ مداعباً وملاطفاً له قائلاً: (قم أبا تراب) ومثله (يا أبا هر) وهكذا، ليستشعر كلا منهما الملاينة والمداعبة والملاطفة فيستأنس وتزول عنه الوحشة ثم أمر الله تعالى نبيه بستة أشياء:

أولاً: البلاغ وإنذار المشركين: ﴿قُمْ فَأَنْذِرْ﴾:

أي: أنذر الناس بالأقوال والأفعال التي يحصل بها المقصود.

والمعنى: يا أيها المدثر من آثار الرغب الذي لحق بك، لرؤية ملك الوحي، فلا تخف، وأقبل على الإنذار، واصدع بأمر ربك، وحذر الناس من عذاب الله إن لم يؤمنوا، فانهض - أيها الرسول - وبادر بعزم وتصميم، وجدّ ونشاط على إنذار الناس وتخويفهم من سوء عاقبتهم، إذا استمروا في كفرهم، وبلغ رسالة ربك دون أن تخشى أحداً. والإنذار: هو الإعلام مع تخويف، وبدأ به دون التبشير، لأنه الأنسب لمجتمع الشرك والكفر، ودرء المفاسد مقدم على جلب المصالح.

والمراد بلفظ ﴿قُرْ﴾ اشرع وابدأ في تبليغ ما أمرك به.

وسورة العلق ليس فيها أمر بتبليغ الدعوة، ولكنها تخبر باختيار النبي ﷺ خاتم النبيين، فقد نُبئ بـ (اقرأ) وأرسل بالمدثر. وسورة المزمل تشير إلى أن الأمر بتبليغ الرسالة كان سابقاً على نزولها ولذا جاء فيها ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَا إِلَيْكَ رَسُولًا شَهِدًا عَلَيْكَ﴾ [المزمل: ١٥] وجاء فيها ﴿وَدَرْيَ وَالْمُكْذِبِينَ﴾ [المزمل: ١١] فهذه أول آية من سورة المدثر تأمر النبي ﷺ بدعوة الناس إلى دين الله تعالى.

ثانياً: إعلان التوحيد: ﴿وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ﴾:

أي: عظمه بالتوحيد، واجعل قصدك وجه الله. ولا تُفتر - أيها الرسول - عن إعلان التوحيد في كل زمان ومكان، وعلى كل حال، مهما يكن من شيء، ومهما يقابلك من إنكار وجحود وإيذاء، فلا يثنيك هذا عن وصف ربك بصفات التعظيم والجلال والتقديس، وتنزيهه سبحانه عما يقوله الجاهلون من وصفه بالشرك والولد ﴿وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ﴾ كبره في اعتقادك، ونزهه عما يقوله عبدة الأوثان، وخُصّه وحده بالتوحيد والتعظيم والعبادة في أقوالك وأفعالك.

ومجيء هذه الآية بعد الأمر بالإنذار، تنبيهاً للنبي ﷺ في أول الدعوة، ألا يبالي ولا يكثر بمن لا يؤمن به، فإن نواصي الخلق بيد الله تعالى، ولا يُرهب سوى الله سبحانه، فإن جميع الخلق تحت قهر الله تعالى وكبريائه وعظمته.

ثالثاً: طهارة الثياب: ﴿وَبِئَابِكَ فَطَهِّرْ﴾:

وهذا يشمل طهارة الثوب بالماء من النجاسات والمستقذرات، لمخالفة غير المسلمين الذين لا يتحرزون عن النجاسات، وقد جعل الإسلام إزالة النجاسة من الثياب شرط من الصلاة.

كما يشمل طهارة الثوب بتقصيره إلى الكعبين، فإنه أتقى وأنقى، حتى لا يصل إلى النجاسات التي يمر بها في الأرض، وطول الثياب من مظاهر الكبر والخيلاء. ومن طهارة الثياب أن يكون من كسب طيب، وألا يكون مسروقاً ولا مغصوباً، فلا يدنسها بمكسب خبيث.

وكل هذا من الطهارة الظاهرة الحسية للثياب، ولا يوجد في القرآن أمر بطهارة الثوب إلا في هذه الآية، وكانت العرب تسمي الرجل إذا نكث ولم يف بعهده أنه دنس الثياب، وإذا أوفى وأصلح قالوا: طاهر الثياب. فطهارة الثياب يعبر بها عن النقاء من العيوب والصفات الذميمة.

ويحتمل أن يكون المراد طهارة الأعمال بالإخلاص فيها، والإتيان بها على أكمل وجه، وتنقيتها من المبطلات والمفسدات، ومن الشرك والنفاق والرياء والعجب والتكبر والغفلة ونحو ذلك، ففي الآية أمر بطهارة الظاهر والباطن. قال تعالى:

٥-٧- ﴿وَالرِّجْزَ^(١) فَاهْجُرْ^(٥) وَلَا تَمْنُنْ تَسْتَكْثِرُ^(٦) وَلِرَبِّكَ فَاصْبِرْ﴾

رابعاً: طهارة العقيدة: ﴿وَالرِّجْزَ فَاهْجُرْ﴾ :

وذلك بتطهير النفس من الذنوب، وتركيتها من عبادة غير الله تعالى، فقد جاء ذلك في قوله تعالى: ﴿وَالرِّجْزَ﴾ وهي الأصنام والأوثان وجميع أبواب الشرك ﴿فَاهْجُرْ﴾ أي دم على هجرها، واترك مخالطة أهلها، ولا تقترب منهم، واترك جميع المآثم والمعاصي من الأقوال والأعمال، وقد قرئت هذه الكلمة بضم الراء وكسرهما وهما لغتان.

قال تعالى: ﴿فَاجْتَنِبُوا الرِّجْسَ مِنَ الْأَوْثَانِ وَاجْتَنِبُوا قَوْلَ الزُّورِ^(٣٠) حُنَفَاءَ لِلَّهِ غَيْرَ مُشْرِكِينَ بِهِ﴾ [الحج: ٣٠، ٣١].

(١) قرأ حفص وأبو جعفر ويعقوب بضم الراء من ﴿وَالرِّجْزَ﴾ لغة أهل الحجاز وقرأ الباقر بكسرهما لغة أهل تميم.

والأصل في كلمة الرجز أنها تستعمل في العذاب كما قال تعالى ﴿فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمْ الرِّجْزَ إِلَى أَجَلٍ هُمْ بِلُغْوِهِ إِذَا هُمْ يَنْكُتُونَ﴾ [الأعراف: ١٣٥] .

والمراد هنا الأصنام والأوثان والمعاصي التي يؤدي اقترافها إلى العذاب. وعلى هذا فإن ﴿الرِّجْزَ﴾ الأوثان والأصنام وكل ما يعبد من دون الله، وهو يشمل جميع المعاصي والذنوب صغيرها وكبيرها، فأمر المسلم في بداية الدعوة أن يتطهر من ذلك. خامساً: الترفع عن أخلاق المعارضين للدعوة: ﴿وَلَا تَمْنُنْ تَسْتَكْثِرُ﴾ وهذا ينطبق على خمسة أحوال:

أحدها: المنّ في العطية، ويكون ذلك بتذكير المنعم عليه بالعطية، بين الحين والحين، وإفشاء ذلك بين الناس، وكذا المراءاة أو المباهاة به، فإن المن يحبط العمل. ثانيها: أن يستكثر الإنسان الصدقة أو فعل الخير الذي أداه لغيره، فيستعظمه ويستكثره، وكأن أحداً لم يفعل مثله، والكريم يستقل ما يعطي وإن كان كثيراً. فابذل الكثير من مالك - أيها المسلم - فإن ثواب الله أعظم وأجزل، وكان النبي ﷺ يعطي عطاء من لا يخشى الفقر.

ثالثها: أن يعطي الإنسان غيره هدية أو عطية، ويضمّر في نفسه انتظار أن يُعطى أكثر منها، فلا تعط عطية تلمس أفضل منها، فإن العطاء يجب أن يكون خالياً من انتظار العوض، تعففاً وكمالاً، والإسلام يأمر بأشرف الآداب وأكمل الأخلاق.

رابعها: أن يستكثر الإنسان عمله الصالح، فيرى أنه أفضل من غيره، أو أنه هو وأمثاله على حق، وغيره من أهل الملة أيضاً على باطل.

خامسها: وقد يمتنّ الإنسان على الناس بما يعلمهم من أمور دينهم، ويتعالى ويترفع عليهم بعلمه أو ماله، خاصة لو كان ذو جاه ومنصب، وقد يمتنّ عليهم بما أسدى إليهم من معروف، وبرى أنه صاحب فضل عليهم.

ذلكم ما يشير إليه قوله تعالى ﴿وَلَا تَمْنُنْ تَسْتَكْثِرُ﴾ أي لا تعط العطية لتلمس خيراً منها، ولا تمن، واقصد وجه ربك، وتجنّب القبائح كلها، وأحسن إلى الناس ما أمكنك، واطلب

أجرك من الله، ولا تذكر إحسانك إلى الناس، واجعل من أحسنت إليه وغيره سواء.

سادسا: وجوب الصبر: ﴿وَلِرَبِّكَ فَاصْبِرْ﴾ على الأوامر والنواهي، واصبر على ما يصيب الداعية من أذى، وعلى ما يلقي من مشاق ومتاعب.
فوطن نفسك - أيها الرسول - على التكاليف التي تُكَلَّفُ بها، وتحمل الآلام في سبيل دعوة الحق، بعزيمة صادقة، وصبر جميل، وثبات لا يخالطه تردد ولا ضعف، واصبر على فعل الطاعات، وعلى ترك المحرمات، وعلى ما جرى به القضاء، وعلى ما تصاب به من أذى، فقد حُمِلَتْ أمراً عظيماً تنوء عن حمله الجبال.
فاحتسب أجرك عند الله، واقصد بعملك وجه الله، واصبر على طاعة الله وعن معاصيه وعلى أقداره المؤلمة، وعلى قبول الحق من الناس.

قال تعالى: ﴿فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تَطْعَمْ مِنْهُمْ، إِنَّمَا أَزْكَوٰهُ﴾ [الإنسان: ٢٤].

وقال سبحانه: ﴿وَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا﴾ [الطور: ٤٨].

فهذه ست وصايا أوحى الله تعالى بها إلى رسوله ﷺ في مبدأ رسالته، وهي من جوامع كلام القرآن، أراد الله بها تزكية رسوله، وأن تكون قدوة لأمته، ومعظم هذه الوصايا يراد بها الأمانة سيما في بدء الدعوة، فهم مأمورون بالطهارة الحسية والمعنوية، ومأمورون بترك عبادة الأصنام، وعدم المن على الآخرين، ولم يكن النبي ﷺ عابد وثن ولا نجس الثياب، ولا ماناً على أحد بشيء.

الإخبار بأحوال القيامة أول واجبات الداعية بعد التوحيد

٨-١٠ - ﴿فَإِذَا نُفِرَ فِي النَّاقُورِ ﴿٨﴾ فَذَلِكَ يَوْمَئِذٍ يَوْمٌ عَسِيرٌ ﴿٩﴾ عَلَى الْكَافِرِينَ غَيْرُ يَسِيرٍ﴾

أنذر - أيها الرسول - الناس، وبلغهم رسالة ربك، وأخبرهم أن أمامهم يوم شديد الأهوال، لكل من كفر بالله ورسوله، وتبدأ مسيرة هذا اليوم بنفخ إسرافيل في البوق النفخة الثانية للبعث والنشور، حيث يقوم الناس لرب العالمين ﴿فَإِذَا نُفِرَ فِي النَّاقُورِ﴾ أي إذا نفخ الملك الموكل بالنفخ في القرن، نفخة البعث والنشور، والقيام من القبور وعبر عن

ذلك بالنفث في الناقور: لبيان أهوال الأمر وشدته، وهو يُطْلَق على الصوت إذا اشتد وصار مفزعاً، والمَلَك مستعد للنفخ في أي وقت، كما في حديث ابن عباس رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال: «كيف أنعم، وصاحب القرن قد التقم القرن، وحني جبهته، ينتظر متى يؤمر، فينفخ؟» فقال أصحاب رسول الله ﷺ: فما تأمرنا يا رسول الله؟ قال: «قولوا: حسبنا الله ونعم الوكيل، على الله توكلنا»^(١).

وهذا اليوم الذي يلقي فيه المكذبون عاقبة تكذيبهم، يوم يشتد فيه الهول، ويعسر فيه الأمر ﴿فَذَلِكَ﴾ الوقت ﴿يَوْمِذٍ﴾ أي يوم القيامة ﴿يَوْمَ عَسِيرٍ﴾ يشيب من هوله الولدان. وهو يوم هين ويسير على المؤمنين، وغير يسير على الكافرين، فلا يسهل عليهم أن يخلصوا مما هم فيه من مناقشة الحساب، وأخذ كتابهم بشمالهم من وراء ظهورهم، وسواد وجوههم، وحشرهم زرق العيون، من شدة الكمد والنكد، وفضيحتهم على رؤوس الأشهاد، وقد يسوا من كل خير وأيقنوا بالهلال والبوار. قال الصاوي: ودلت الآية على أنه يوم يسير على المؤمنين، لأنه قيد عُشره بالكافرين، وفيها زيادة وعيد وغنظ للكافرين، وبشرى وتسلية للمؤمنين^(٢).

قال تعالى: ﴿يَقُولُ الْكَافِرُونَ هَذَا يَوْمٌ عَسِيرٌ﴾ [القمر: ٨]، ومفهوم ذلك أنه يسير على المؤمنين.

أَرْبَعٌ مِّنْ يَّمَنُ اللَّهُ بِهَا عَلَى الْوَلِيدِ بْنِ الْمَغِيرَةِ وَأَمْثَالِهِ

١١-١٥ - ﴿ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا ۖ ﴿١١﴾ وَجَعَلْتُ لَهُ مَالًا مَمْدُودًا ۖ ﴿١٢﴾ وَبَيْنَ شُهُودًا ۖ ﴿١٣﴾ وَمَهَّدْتُ

لَهُ تَمْهِيدًا ۖ ﴿١٤﴾ ثُمَّ يَطْمَعُ أَنْ أَزِيدَ ۖ ﴿١٥﴾﴾

هذه الآيات من الآية الحادية عشرة إلى الآية الثلاثين، أي في عشرين آية نزلت في

(١) ينظر: المسند (٣٢٦/١) برقم (٣٠٠٨)، وابن أبي شيبة (٣٥٢/١٠)، والطبراني في الكبير (١٢٦٧١)، قال: محققو المسند: حسن لغيره، وهذا إسناد ضعيف.

(٢) حاشية الصاوي على الجلالين (٢٦٥/٤).

الوليد بين المغيرة، فتذكر نعم الله عليه، وتبين غروره، وتكذيبه لرسول الله وللكتاب المنزل عليه، وتذكر مصيره الذي آل إليه في عذاب جهنم:

قال سعيد بن جبير: هو الوليد بن المغيرة بن هشام المخزومي، وكان له ثلاثة عشر ولداً، كلهم رب بيت، فلما نزلت ﴿كَلَّا إِنَّهُ كَانَ لِإِيْتِنَا عِنْدًا﴾ لم يزل في إدمار من الدنيا في نفسه وماله وولده حتى أخرجه الله من الدنيا^(١).

هذا: وزعماء الكفر في كل زمان ومكان يقفون في وجه الحق، لتبقى لهم زعامتهم ومكانتهم بين الناس، ومن ذلك أنه لما فشا في مكة أن رسول الله ﷺ عاوده الوحي بعد فترة انقطاعه، وأن الله تعالى قد أرسله للناس بشيراً ونذيراً، وكان نزول الوحي في المرة الأولى في شهر رمضان، وانقطع أربعين يوماً على الأصح، ثم نزل بعد ذلك بالمدثر، وكان ذلك في منتصف شهر ذي القعدة، أي في موسم الحج، حيث يستعد أهل مكة لاستقبال وفود الحج، وسوف يسألونهم عن خبر محمد ﷺ، لذلك رأى المعارضون للدعوة أن يتفقوا على كلام موحد ينفرون به الناس منه، ويصرفونهم عن الاستجابة لدعوته. فاجتمع نفر من قريش، فيهم هؤلاء السبعة: أبو لهب، وأبوسفيان، والوليد بن المغيرة، والنضر بن الحارث، وأمّية بن خلف، والعاص بن وائل، والمطعم بن عدي، واقترحوا أن يصفوا محمداً ﷺ بالكذب أو بالشعر، أو الكهانة، أو الجنون، وكلما ذكروا وصفاً، نفاه الوليد بن المغيرة، قائلاً: إن محمداً ﷺ لا ينطبق عليه هذا الوصف.

وانصرف الوليد إلى بيته، فدخل عليه أبو جهل وقال له: ما لك يا أبا عبد شمس، أصبأت؟ فقال الوليد: فكّرتُ في أمر محمد، وقدّرتُ، وإن أقرب القول فيه أن تقولوا: ساحر، جاء يفرق بين المرء وزوجه، وبين المرء وأبيه وأخيه وعشيرته.

وفي رواية عن ابن عباس رضي الله عنهما أن الوليد مرّ بالنبي ﷺ وهو يصلي ويقرأ القرآن، فاستمع لقراءته وتأثر بها، فأتى مجلس قومه وقال: والله لقد سمعتُ من محمد ﷺ أنفاً كلاماً، ما هو من كلام الإنس، ولا من كلام الجن، والله إن له لحلاوة، وإن عليه

(١) أخرجه سعيد بن منصور، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، كما قاله السيوطي في الدر المنثور (٧١/١٥).

لطلاوة، وإن أعلاه لمثمر، وإن أسفله لمغدق، وإنه ليعلو وما يُعلى عليه، فقالت قريش: لقد صبأ والله الوليد، ولتصبأ قريش، فقال أبوجهل: أنا أكفيكموه، فذهب وجلس إلى جنب الوليد حزناً، فقال له: ما لي أراك حزناً يا ابن أخي؟ فقال: وكيف لا أحزن، وهذه قريش تجمع لك مالاً ليُعينوك به على كبر سنك، ويزعمون أنك صبأت لتصيب من فضل طعام محمد، وتنال من ماله، وعندئذ غضب الوليد، وقال: ألم تعلم قريش أنني أكثرهم مالاً وولداً، وهل شبع محمد وأصحابه من الطعام، حتى يكون لهم فضل طعام؟ ثم قام الوليد مع أبي جهل حتى أتى مجلس قومه فقال لهم: تزعمون أن محمداً مجنون، فهل رأيتموه يخنق؟ قالوا: اللهم لا.

فقال: تزعمون أنه كاهن، فهل رأيتموه تكهن قط؟ قالوا: اللهم لا.

فقال: تزعمون أنه شاعر، فهل نطق بشعر قط؟ قالوا: اللهم لا.

قال: تزعمون أنه كذاب، فهل جرّبتهم عليه كذباً قط؟ قالوا: اللهم لا.

فقالت قريش للوليد: فما هو؟ ففكر في نفسه ثم قال: ما هو إلا ساحر، أما رأيتموه يفرق بين الرجل وأهله وولده؟ وما هذا الذي يقوله إلا سحر يؤثر، ثم فكر وقدر، واستقرّ على وصف النبي ﷺ بالسحر، وفيه نزلت الآيات^(١) وفيها أربع منن على الوليد:

المنة الأولى: أن الوليد له شأن ومكانة بين الناس ﴿ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا﴾:

أي: دعني - يا رسولنا - أنا والذي خلقته في بطن أمه وحيداً فريداً لا مال له ولا ولد، فلم أزل أنميّه وأعطيه حتى صار له أهل ومال وولد، وهو الوليد بن المغيرة، فقد كان يلقب بين قومه بالوحيد، وريحانة قريش، ولم يكن له نظير في ماله وشرفه، لتوحده وتفرد به باجتماع مزايا له لم تجتمع لغيره من طبقته، وهي كثرة الولد وسعة المال، وعظم

(١) ينظر فيما سبق سيرة ابن إسحاق وابن هشام، وأسباب النزول للواحدي (ص ٣٣٠) عن عكرمة عن ابن عباس بسند صحيح، كما صححه الحاكم في المستدرک (٥٠٧/٢) ووافقه الذهبي، والبيهقي في الدلائل (١٩٨/٢)، وانظر تفسير القرطبي (٧٣/١٩)، والخازن (١٧٦/٤)، والتفسير الكبير (٢٠١/٣٠)، وعبد الرزاق (٣٢٨/٢)، والطبري (٤٢٩/٢٣)، وأبونعيم في الدلائل (١٨٦).

مجده ومجد أبيه من قبله، وكان الوليد مرجع قريش في أمورهم، لأنه كان أسنّ من أبي جهل وأبي سفيان، وفيه نزلت آيات سورة القلم ﴿وَلَا تُطِيعُ كُلَّ حَلَّافٍ مَّهِينٍ﴾ إلى ﴿سَنَسِفُهُ عَلَى أَلْقُوطٍ﴾ وهكذا كل من كان على شاكلته إلى يوم القيامة.

ولفظ ﴿وَجِدًا﴾ في الآية بمعنى أن الله تعالى أوجده في هذه الحياة بلا مال ولا ولد، فهو مفتقر إلى الله تعالى في كل شيء، كما قال تعالى ﴿وَاللَّهُ أَخْرَجَكُمْ مِنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْئًا﴾ [النحل: ٧٨].

وهكذا يعودون إلى الله تعالى بلا مال ولا ولد ﴿وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرْدَىٰ كَمَا خَلَقْتُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ [الأنعام: ٩٤].

وهكذا حال كل مخلوق يأتي إلى الحياة، وعندما يخرج منها أيضاً. وهذا فضلاً عما كان للوليد من منزلة وجاه بين قومه. المنة الثانية: كثرة الأموال ﴿وَجَعَلْتُ لَهُ مَالًا مَمْدُودًا﴾:

وتمضي الآيات في وصف الوليد بن المغيرة، فتبين أن الله تعالى قد أغدق عليه من الرزق، وأعطاه مالاً مبسوطاً، ورزقاً واسعاً، فكان له بساتين وزرع وضرع، وثمر وتجارة، وإبل وخيل، وأغنام كثيرة، وعبيد وجواري، وكان له بستان في الطائف لا ينقطع ثمره صيفاً ولا شتاءً، ذلكم قوله تعالى ﴿وَجَعَلْتُ لَهُ مَالًا مَمْدُودًا﴾ ولكنه بدل نعمة الله كفراً، وقابلها بالجحود بآيات الله والافتراء عليها.

المنة الثالثة: كثرة الأولاد ﴿وَبَيْنَ شُهُودًا﴾:

أما فيما يتعلق بكثرة البنين، فقد امتن الله على الوليد بكثرة الذرية، فكانوا من الكثرة بحيث لا يغيبون عنه في مجلس من المجالس ﴿وَبَيْنَ شُهُودًا﴾ أي حضوراً معه لا يفارقونه، ويحضرهم معه جميع المحافل، قيل كانوا عشرة أو ثلاثة عشرة، منهم هؤلاء السبعة: الوليد بن الوليد، وخالد، وعمارة، وهشام، والعاص، وقيس، وعبد شمس، وقد أسلم منهم ثلاثة: خالد، وهشام، والوليد^(١).

(١) تفسير التحرير والتنوير (٣٠٤/٢٩)، وحاشية الجمل على الجلالين (٤/٤٣٧)، وحاشية الشهاب (٢٧٤/٨).

وكان لهم عزة ومنعة، وكان أبوهم يستأنس بهم في سفره وحضره.

المنة الرابعة: تيسير سبل العيش له ﴿وَمَهَّدْتُ لَهُ تَهَيْدًا﴾:

وبعد أن امتن الله عليه بالمال والبنين، بين سبحانه أنه يسّر له سبل العيش تيسيراً، وبسط له الجاه العريض، والرياسة في قومه، وهياً له وسائل الراحة بدون عناء ولا تعب، وجعله نافذ الكلمة في قومه، بما يغنيه عن الأخذ والرد معهم، فقد أعطى الله الوليد جماع ما يحتاجه الإنسان في حياته، أعطاه المال الوفير، والبنين الشهود، والجاه التام، الذي وصل إليه بلا جهد ولا تعب، ومع ذلك فهو يطمع في المزيد من المال والمتاع، ويطمع أن ينال نعيم الآخرة كما نال نعيم الدنيا، هذا معنى (ومهدت له تمهيد) أي مكنته من الدنيا وأسبابها، حتى حصل له في دنياه كل ما يشتهي ويريد.

موازنة بين وصف الوليد في سورتي القلم والمدثر:

أي: ومع إمداد الله تعالى بالنعم الوفيرة للوليد بن المغيرة، فإنه يطمع في الزيادة، ومثله كل طاغية جبار، فإنه لا يشبع، بل يطمع في المزيد لشدة حرصه وشره، وهو مع ذلك يقابل هذه النعم بالكفر والجحود، وعدم إسنادها لله تعالى ﴿ثُمَّ يَطْمَعُ أَنْ أَزِيدَ﴾.

ولما كانت هذه الآيات في مقام الامتنان على الوليد، فقد ذكر الله تعالى ألوان نعمه عليه في الدنيا تمهيداً لتوبيخه وتهديده بسوء المصير في الدنيا والآخرة.

أما الآيات التي في سورة القلم، فقد وصفت الوليد بجملة من النقائص، وهي أنه: حلاف، أي كثير الحلف، مهين، هماز، نام، مناع للخير، ظالم، أثيم، غليظ وجاف، غير شرعي الولادة، لأن المقام هناك مقام تحذير من شره وغدره، والمقام هنا مقام امتنان عليه وعلى أولاده.

وَصَفُ الْوَلِيدِ بِالْعِنَادِ وَالْفُجُورِ

١٦ - ﴿كَلاَّ إِنَّهُ كَانَ لِإِيْتِنَاعِنِدَا﴾

قال تعالى ﴿كَلاَّ﴾ ليس الأمر كما يزعم هذا الفاجر الأثيم، فلن أزيده من النعم، ولن

أعطيه ما يتمنى، بل سأمحق هذه النعم وأزيلها عنه، والسبب في هذا ﴿إِنَّهُ كَانَ لِإِبْنَتَا عَيْنِدَا﴾ أي كان معانداً مكذباً لآيات الله وحججه على خلقه، مقابلاً لهذه النعم بالجحود والبطر، وقد عرف الحق ثم أنكره وأعرض عنه وتولى، بل وأخذ يحاربه ويسعى في إبطاله، وكان عليه أن يحمد الله ويشكر فضله عليه.

ومن شكر نعم الله تعالى زاده، ومن لم يشكرها فقد عرضها للزوال، كما قال تعالى ﴿لَيْنَ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ﴾ [إبراهيم: ٧].

ومن شكر النعم، فقد قيدها بعقالها، ومن لم يشكرها فقد عرضها للزوال. وبعد نزول هذه الآيات لم يزل الوليد في نقصان من ماله وولده حتى هلك. وبهذا فإن الله تعالى طمأن النبي ﷺ بأنه سيقطع مدده عن الوليد بن المغيرة، لئلا يكون فتنة لغيره، فيغتروا به في كفرهم وعنادهم، كما قال تعالى حكاية عن موسى عليه السلام ﴿رَبَّنَا إِنَّكَ آتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلَأَهُ زِينَةً وَأَمْوَالًا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا رَبَّنَا لِيُضِلُّوا عَنْ سَبِيلِكَ رَبَّنَا اطْمِسْ عَلَى أَمْوَالِهِمْ وَاشْدُدْ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُوا حَتَّى يَرَوُا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ﴾ [يونس: ٨٨].

وكان من عناد الوليد: محاولة الطعن في القرآن، ووضفه له بالسحر، مع علمه وتحققه بأنه ليس كذلك، وكان معانداً في دلائل التوحيد والقدرة والبعث والنبوة. والكافر المعاند قد يعترف بقلبه وينكر بلسانه، وهو أقبح الكفر وأفحشه.

الْجَزَاءُ مِنْ جَنْسِ الْعَمَلِ

١٧ - ﴿سَأَرْفِقُهُ، صَعُودًا﴾

ثم بين سبحانه ما أعدّه للوليد وأمثاله من عذاب أخروي، فقال تعالى ﴿سَأَرْفِقُهُ، صَعُودًا﴾ أي سأكلفه وألجئه إلى عذاب مرهق شاق، تضعف دونه قواه كما تضعف قوة من يصعد الجبل، أي أن حال الوليد سينقلب من راحة وتنعم إلى حالة سيئة في الدنيا والآخرة. والإرهاق: الإتعاب الشديد وتحميل الإنسان فوق طاقته، والمرهق هو الذي حلّ به أمر لا يقوى على دفعه، ومن ذلك قوله تعالى ﴿وَالَّذِينَ كَسَبُوا السَّيِّئَاتِ جَزَاءُ سَيِّئَةٍ يَبْتَئِلُهَا وَنَزَّهَتْهُمْ

ذَلَّةً مَّا لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مِنَّ عَاصِرٍ ﴿٢٧﴾ [يونس: ٢٧] قيل: إن الوليد طال به النزح، فكانت نفسه تتصاعد ثم لا يموت، أو أن الصعود هو العقبة الشديدة التي لا يصل إليها الصاعد إلا بمشقة كبيرة. وجاء في الأثر: (أن صعوداً: جبل في جهنم يتصعد فيه سبعين خريفاً، ثم يهوى فيه كذلك أبداً)^(١).

وهكذا فقد بدل الله غنى (الوليد) فقراً، وبدّل عزه ذلاً، ويوم القيامة يبلغ أشد العذاب. قال مقاتل: مازال الوليد بعد نزول هذه الآية في نقص من ماله وولده حتى هلك.

خُلَاصَةُ مَا وَصَلَ إِلَيْهِ فِكْرُ الْوَلِيدِ

١٨-٢٥- ﴿إِنَّهُ فَكَّرَ وَقَدَّرَ ﴿١٨﴾ فَقِيلَ كَيْفَ قَدَّرَ ﴿١٩﴾ ثُمَّ قِيلَ كَيْفَ قَدَّرَ ﴿٢٠﴾ ثُمَّ نَظَرَ ﴿٢١﴾ ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ ﴿٢٢﴾ ثُمَّ أَدْبَرَ وَاسْتَكْبَرَ ﴿٢٣﴾ فَقَالَ إِنَّ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ يُؤْتَرُ ﴿٢٤﴾ إِنَّ هَذَا إِلَّا قَوْلُ الْبَشَرِ ﴿٢٥﴾﴾

ثم علّل سبحانه لما أصاب هذا الشقي، فبين تعالى أنه فكّر ملياً، وأطال النظر والتأمل، ورتّب كلاماً وهياً للطعن في نبوة محمد ﷺ ﴿إِنَّهُ فَكَّرَ﴾ في نفسه ماذا يخلق من مقال ﴿وَقَدَّرَ﴾ أي دبر وهياً ما يقوله في محمد ﷺ وفي القرآن، ليقول قولاً يبطل به القرآن، فاخترار القول بأنه ساحر، وأن القرآن سحر.

وهو بهذا التفكير والتقدير قد استحق اللعن والطرده من رحمة الله تعالى، وهو مقهور معذب مستحق للعقوبة، هذا معنى ﴿فَقِيلَ﴾ أي قاتله الله وأخزاه على حماقته وتفكيره وتقديره، فما أعجب تفكيره، وما أغرب تقديره، إذ ﴿كَيْفَ قَدَّرَ﴾ فوصف الرسول بأنه ساحر، ووصف القرآن بأنه سحر، إنه كلام بالغ السوء والتناقض، إذ كيف ينفي عن محمد ﷺ: فعل السحرة ونفثهم، وعقدتهم، وأنه لا يفعل فعلهم، وما رأينا منه ذلك، وبعد أن راجعه أبوجهل، فكّر وتأمل ثم قال ﴿إِنَّ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ يُؤْتَرُ﴾ وبهذا يكون قد ناقض نفسه.

(١) رواه الترمذي برقم (٢٥٧٦ و ٣١٦٤)، وأبو يعلى (١٣٨٣)، وابن حبان (٧٤٦٧)، وأحمد عن أبي سعيد الخدري برقم (١١٧١٢) بإسناد ضعيف (محققه)، وقال الترمذي: حديث غريب، وأخرجه البغوي في شرح السنة (٤٤٠٩).

ثم كرر سبحانه ذلك مبالغة في ذمه، وإعادة للدعاء عليه ﴿ثُمَّ قِيلَ﴾ أي عُدِّبَ وقُهر ولُعِنَ، والوقوف على ﴿قِيلَ﴾ و﴿ثُمَّ قِيلَ﴾ أمر جيد، إذ يبدأ القارئ بعد هما بالاستفهام: ﴿كَيْفَ قَدَّرَ﴾ وفي هذا توضيح للمعنى وكما أعاد القرآن الدعاء على الوليد، أعاد التساؤل مرة أخرى ﴿كَيْفَ قَدَّرَ﴾؟ أي كيف دبر وأعدّ مقالته من الطعن في القرآن، وفي رسول الإسلام، وارتقى مرتقى صعباً لا يرقى إليه هو ولا غيره.

لقد أجال الوليد بن المغيرة نظره متفكراً في شأن القرآن ﴿ثُمَّ نَظَرَ﴾ أي أعاد النظر والتروي مرة أخرى متأملاً في وجوه قومه الحاضرين معه، يستتج آراءهم، ويقرأ أفكارهم التي يصفون بها القرآن ونبي الإسلام.

ثم قطب وجهه وقبض بين عينيه، كالمتهم الذي يفكر في شيء يدبره وقد استعصى عليه الحل ﴿ثُمَّ عَبَسَ﴾ واشتد عبوسه لمّا ضاقت عليه الحيل، ولم يجد مطعناً يطعن به في القرآن، فكلح وجهه، وقبض ما بين عينيه، وتغيّر لونه، وارتعشت أطرافه ﴿وَبَسَرَ﴾ أي كلح وكرهت نفسه ذلك.

والبسور أشد من العبوس في تقطيب الوجه وكلوحه.

قال تعالى: ﴿وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ بَاسِرَةٌ ﴿٢٤﴾ تَظُنُّ أَنْ يُفْعَلَ بِهَا فَاقَةٌ﴾ [القيامة: ٢٤، ٢٥].

ثم أعرض الوليد عن الإيمان والهدى بعد أن اقترب منه، وتعاضم عليه أن يعترف بالقرآن، وبخاتم النبيين.

أي فقال الوليد عن النبي ﷺ بعد أن فكّر وتأمل: ما هذا الذي يقوله محمد إلا سحر يُنقل عن الأولين ويتداوله السحرة، فقصر تعيين الأقوال التي جالت في نفسه والتي يقولها القوم على القول بأنه ساحر، وترك وصفه بأنه شاعر، أو كاهن، أو مجنون، وقال عن القرآن: ما هو إلا كلام سحرة!

ثم إن السحرة لهم أقوال وأفعال، وهذا من السحر القولي، فهو من كلام البشر - على حدّ زعمه - تعلّمه منهم محمد ﷺ ثم ادّعى أنه من عند الله وهو ليس وحياً من عند الله تعالى، فهو يقول: إن القرآن ليس بكلام الله، بل هو كلام البشر، وليس كلام

البشر الأخيار، بل هو كلام الفجار والأشرار من السحرة والكذابين.
وقد قال الوليد ذلك عناداً وحمية، جاهلية وتكبراً عن اتباع الحق والهدى.

عَذَابُ الْكَافِرِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ

٢٦-٢٩ ﴿سَأُصْلِحُ سَقَرًا ۖ وَمَا أَدْرَاكَ مَا سَقَرٌ ۚ لَا بُقْيَ وَلَا نَذْرٌ ۚ لَوَاحَةٌ لِلْبَشَرِ ۚ﴾

ثم بين سبحانه مصير هذا الكافر يوم لقاء الله فقال ﴿سَأُصْلِحُ سَقَرًا ۚ﴾ سأدخله جهنم يصلى حرها ويحترق بنارها، وهي نار متأججة شديدة الاشتعال.

وسقر: اسم لطبقة من طبقات جهنم، وهي لا تبقى شيئاً ممن يعذب فيها إلا ابتلغته.

ذكر ابن عطية أنها الدرك السادس من دركات جهنم، وقد وصف الله النار بقوله:

﴿سَيَصْلَىٰ نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ﴾ [المسد: ٣] وقوله: ﴿فَأَنْذَرْتُكُمْ نَارًا تَلَظَّى﴾ ۖ لَا يَصْلَاهَا إِلَّا الْأَشْقَى﴾ [الليل: ١٥، ١٤]

وقوله: ﴿وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا﴾ [النساء: ١٠].

ثم هَوَّل سبحانه في وصف هذه النار، وعظَّم من أمرها فقال ﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا سَقَرٌ﴾ أي ما أعلمك أي شيء هي جهنم؟ إنها شيء فظيع، إنها نار الله الموقدة، التي تطلع عليها الأفئدة، وهي مُطَبَّقة على من فيها.

فهي لا تُبقي شيئاً إلا أهلكته، ولا تترك أحداً من الكفار إلا دمرته، ولا تُبقي لحماً ولا تترك عظماً إلا أحرقتة، وكلما أُحرق أُعيد خَلَقه كما كان، ثم يعاد إحراقه من جديد، وهي في إحراقها لأهلها لا تبقى من اللحم والدم والعظم شيء إلا أهلكته ومحقته، قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا سَوْفَ نُصْلِيهِمْ نَارًا كَمَا بُدِّلَتْهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا الْعَذَابَ﴾ [النساء: ٥٦] وقال سبحانه: ﴿ثُمَّ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَىٰ﴾ [الأعلى: ١٣].

ثم إن هذه النار تُسَوِّدُ الجلد وتحرقه، وتغيّر لون البشرة، فهي ﴿لَوَاحَةٌ لِلْبَشَرِ﴾ أي تُغيّر ألوان الجلود، فالمراد بالبشر على هذا المعنى: البشرة.

وقيل المعنى: إنها تُلَوِّح وتُظْهِرُ لأنظار الناس من مسافات بعيدة، وهي بارزة لأنظارهم يرونها عياناً من غير عناء ولا استشراف، ولا مد أعناق، كما قال تعالى:

﴿وَيُزَيِّتُ الْجَحِيمُ لِمَنْ يَرَى﴾ [النازعات: ٣٦] .

نُقَبَاءُ الْمَلَائِكَةِ الْمُؤَكَّلُونَ بِالْعَذَابِ

٣٠- ﴿عَلَيْهَا تِسْعَةَ عَشَرَ^(١)﴾

ويتولى هذه النار خزنة لها، يتسلطون على أهلها بالعذاب، تسعة عشر ملكاً من الزبانية الأشداء، هم نقباء الملائكة المؤكلون بالعذاب، قيل إنهم بعدد حروف (بسم الله الرحمن الرحيم) التسعة عشر، وهم موزعون على دركات جهنم، لكل درك ملك، وكل درك منها لشعبة من شعب الكفر، والدرك الأسفل منها لمنافقي العقيدة الإسلامية.

﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي الدَّرَكِ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ﴾ [النساء: ١٤٥] .

ومن أحوال الناس في الكفر: من يُنكر وجود الله تعالى، ومنهم من يقول بتعدد الآلهة، ومنهم من يقول بالبنوة، ومنهم من يعبد الكواكب، ومنهم من يعبد الأوثان والأصنام، ومنهم عبدة الشيطان والجن والبقر، ومنهم من ينكر إرسال الرسل بشكل عام، ومنهم من يُنكر رسالة خاتم الرسل على وجه الخصوص.

ومن طوائف الكفر: المجوسية، والمانوية، والمزدكية، والزندقة، ومن الناس من يعبد الملوك كالفرأعنة، وهكذا، فدركات جهنم لهذه الشُعَب المختلفة من ألوان الكفر. وقيل: المراد بالتسعة عشر: تسعة عشر صفاً، أو تسعة عشر صنفاً من الملائكة.

وقد وصف الله خزنة النار بقوله ﴿عَلَيْهَا مَلَكِيَّةٌ غَلَاطٌ شِدَادٌ لَا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ [التحریم: ٦] .

وجاء عدد خزنة جهنم، بأنهم تسعة عشر في الحديث النبوي أيضاً^(٢).

قال ابن عباس رضي الله عنهما: لما نزلت هذه الآية، قال أبو جهل لقريش: ثكلتكم

(١) قرأ أبو جعفر بإسكان العين من ﴿عَشَرَ﴾ حال وصلها مع ما قبلها، والباقون بفتحها، وهما لغتان.

(٢) وذلك في سنن الترمذي برقم (٣٣٢٧) عن جابر وسنده ضعيف، كما في ضعيف سنن الترمذي (٦٥٨)،

وفي المسند (٣٦١/٣) عن علي بن المديني عن سفيان.

أمهاتكم، أسمع من ابن أبي كبشة - يريد النبي ﷺ - يُخبر أن خزنة النار تسعة عشر، وأنتم الشجعان، أفيعجز كل عشرة منكم أن يبطش بواحد منهم، فقال: أبو الأشد بن أسيد بن كلدة بن خلف الجمحي: أنا أكفيكم منهم سبعة عشر، عشرة على ظهري، وسبعة على بطني، واكفوني أنتم اثنين^(١).

وورد أن أبا الأشد قال: أنا أمشي بين يديكم على الصراط، فأدفع عشرة بمنكبي الأيمن، وتسعة بمنكبي الأيسر في النار، ونمضي فندخل الجنة^(٢).

وبلغ من قوة أبي الأشد الجمحي أنه كان يقف على جلد البقرة، فيجذبه عشرة من الناس ليتزعه من تحت قدميه، فيتمزق الجلد ولا يتزحزح عنه^(٣).

قال السهيلي: وهو الذي دعا إلى مصارعة النبي ﷺ وقال: إن صرعتني آمنت بك، فصرعه النبي ﷺ مراراً، فلم يؤمن، ونسب ابن إسحاق هذه المصارعة إلى ركانة بن عبد يزيد بن هاشم بن المطلب^(٤).

تَحْدِيدُ خَزْنَةِ النَّارِ بِأَنَّهُمْ تِسْعَةُ عَشَرَ، مِنْ بَابِ الْفِتْنَةِ وَالْإِبْتِلَاءِ

٣١- ﴿وَمَا جَعَلْنَا أَحْسَبَ النَّارِ إِلَّا مَلَائِكَةً وَمَا جَعَلْنَا عَدِيَّتَهُمْ إِلَّا فِتْنَةً لِلَّذِينَ كَفَرُوا لِيَسْتَفِينَ الَّذِينَ أُوْتُوا الْكِتَابَ وَيزَادَ الَّذِينَ ءَامَنُوا ءِيمَتًا وَلَا يَرْنَابَ الَّذِينَ أُوْتُوا الْكِتَابَ وَالْمُؤْمِنُونَ وَلِيَقُولَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ وَالْكَافِرُونَ مَاذَا أَرَادَ اللَّهُ بِهَذَا مَثَلًا كَذَلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي مَن يَشَاءُ وَمَا يَعْلَمُ جُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ وَمَا هِيَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْبَشَرِ﴾

ولما قال أبوجهل لقومه عن خزنة النار: أيعجز كل عشرة منكم أن يبطش بواحد منهم، أنزل الله تعالى ﴿وَمَا جَعَلْنَا أَحْسَبَ النَّارِ إِلَّا مَلَائِكَةً﴾ غلاظ شداد، وليسوا من البشر، حتى يمكن مصارعتهم أو مغالبتهم، وإن ملكاً واحداً منهم لو أمره الله تعالى لا قتل هذه

(٢٠١) ينظر: تفسير الخازن (٣٢٩/٤) وتفسير الألوسي (١٢٩/٢٩) وتفسير الشوكاني (٣٢٧/٥) وغيرهم وقد أخرجه ابن أبي حاتم عن السدي بنحوه كما في الدر المنثور (٧٨/١٥).

(٣) تفسير ابن كثير (٢٦٩/٧).

(٤) الروض الأنف (٢٠٠/١).

الأرض وقلبها على مَنْ فيها، وقد نزع الله من قلوبهم الرحمة والشفقة، وما بين منكبي أحدهم مسيرة عام، وليس في قدرة أحد من البشر أن يغلب واحداً منهم، فهم أشد بأساً وأقوى بطشاً من كافة الإنس والجن، وما جعل الله عدد الخزنة تسعة عشر إلا فتنة وابتلاء للخلق.

الناس أربعة أصناف تجاه هذا الابتلاء:

والناس تجاه هذا الاختبار أربعة أصناف هم:

الكفار الوثنيون، واليهود والنصارى (أهل الكتاب)، والمؤمنون، والمنافقون:

١- أما بالنسبة للكفار: فإن الله تعالى جعل هذا العدد فتنة لهم، حيث استقلوا عددهم، واستهزؤوا بهم، وظنوا أن بالإمكان مغالبتهم.

والفتنة، قد يراد بها العذاب، أي: وما جعلنا عدد الملائكة تسعة عشر إلا لعذاب الكفار وعقابهم في الآخرة، فالعذاب يسمى فتنة، قال تعالى: ﴿يَوْمَ هُمْ عَلَى النَّارِ يُفْتَنُونَ﴾ وقد يراد بها اختبار الصادق من الكاذب قال تعالى: ﴿وَمَا جَعَلْنَا عِدَّتَهُمْ﴾ أي عدد ملائكة العذاب ﴿إِلَّا فِتْنَةً لِلَّذِينَ كَفَرُوا﴾ وقد زادهم هذا الاختبار جحوداً وضلالاً، حيث قالوا: لِمَ لَمْ يكونوا عشرين، بدلاً من تسعة عشر، وقالوا: كيف يمكن لهذا العدد القليل، أن يعذب العدد الكثير من الإنس والجن؟ ولم يعلموا أن جبريل اقتلع بجناحه مدائن قوم لوط، وجعل عاليها سافلها، وظنوا أن أحوال الآخرة تقاس على أحوال الدنيا.

٢- أما أهل الكتاب من اليهود والنصارى: فإن هذا العدد موجود في كتبهم، فإذا بحثوا وجدوه بعينه في التوراة والإنجيل، وعلموا أن محمداً ﷺ صادق فيما يبلغه عن ربه، وعلموا أنه رسول من عند الله.

وهذا معنى قول الله تعالى ﴿لَيْسَتِغْفَرَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ﴾ أي ليحصل لهم اليقين بأن ما جاء في القرآن حق، وما قاله محمد صادق، لأنه نطق بما في أيديهم، فإذا وافق هذا العدد ما عندهم وطابقه ازداد يقينهم بالجن.

أخرج الترمذي وابن مردويه عن جابر ﷺ قال: قال ناس من اليهود لأناس من

المسلمين، هل يعلم نبيكم عدد خزنة جهنم؟ فأخبروا بذلك رسول الله ﷺ فقال: «هكذا وهكذا، في مرة عشرة، وفي مرة تسعة»^(١).

وقد حدث هذا السؤال من يهودي لصحابي، لعله اجتمع به في سفر، ولا يعني هذا أن الآية مدنية.

فقد كان اليهود في المدينة يترددون على أهل مكة، ويتردد أهل مكة على أهل المدينة، للتجارة والميسرة، فيسأل بعضهم بعضاً عما يقوله محمد ﷺ، لعل المشركين يجدون عند اليهود ما يكذبون به محمداً ﷺ، وكان الأجدر بهم أن يصدقوا محمداً ﷺ، لأن الإنسان إذا تيقن شيئاً آمن به، كما حدث من عبد الله بن سلام وأمثاله ممن أسلموا، فقد أعقب كفرهم إيماناً، وقد لا يحدث التصديق مع وضوح البراهين، لمكابرة أو حسد، أو خوفاً من ضياع سلطان أو جاه أو مال، وهو شأن كثير من اليهود الذين عرفوا محمداً ﷺ أكثر مما يعرفون أبناءهم، ولكنهم لم يؤمنوا به مكابرة وعناداً.

٣- أما المؤمنون المصدقون بالله ورسوله، العاملون بشرعه، فإن عدد خزنة النار، يزيدهم إيماناً على إيمانهم، وهذا معنى قوله تعالى: ﴿وَيَزِدَادَ الَّذِينَ آمَنُوا إِيمَانًا﴾ فهم يؤمنون إيماناً مطلقاً بكل ما يصدر عن الله ورسوله، ويعتقدون بأن الله تعالى حكمة في هذا العدد، وإن لم تدركها عقولهم، فكلما أنزل الله آية فآمنوا بها وصدقوا، ازداد إيمانهم.

ثم أكد سبحانه ما سبق تقريره، من أن شأن أهل الكتاب ألا يكون في قلوبهم أدنى شك أو رية فيما يقوله القرآن، لأنه موجود عندهم، فيزول عنهم الريب والشك، وقد جعل الله ما أنزل له على رسوله مميّزاً للكاذبين من الصادقين.

أي: ومن شأن المؤمنين وأهل الكتاب أن يزدادوا إيماناً على إيمانهم، فيما يتعلق بعدد خزنة أهل النار وغيرهم، فقال تعالى: ﴿وَلَا يَزَابَ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْكِتَابِ وَالْمُؤْتُونَ﴾ فانتفاء الريب عن أهل الكتاب في صدق ما جاء به محمد ﷺ هو الذي يجب أن يكون، ولا يصح

(١) أخرجه الترمذي (٣٣٢٧)، وضعفه الألباني في ضعيف سنن الترمذي (٦٥٨).

منهم أن يكذبوه، ولكنهم علموا وعاندوا فكانوا من الضالين.

أما المؤمنون حقاً فإنهم علموا وعملوا، وازدادوا يقيناً على يقينهم، وإيماناً على إيمانهم، فهذه الجملة من الآية تعود على أهل الكتاب والمؤمنين معاً.

٤- أما النوع الرابع فهم مرضى القلوب، وهم المنافقون الذين يتعجبون من هذا العدد، ويقولون: ما المراد به؟ ولماذا لا يكون أكثر أو أقل؟ وهؤلاء في قلوبهم سوء نية للقرآن ورسول الإسلام، وهم في تردد بين الإسلام وبين ما هم فيه من شرك، وحالهم كحال الكفار سواء بسواء، ولذا: قرن الله المنافقين بالكافرين في قوله تعالى: ﴿وَلَيَقُولَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ﴾ أي شك وشبهة ونفاق ﴿وَالْكَافِرُونَ مَاذَا أَرَادَ اللَّهُ بِهَذَا مَثَلًا﴾ فهم في حيرة وتردد وكفر بآيات الله، وكل هذا من هداية الله لمن أراد هدايته، ومن إضلاله لمن أراد أن يضلّه.

وكما ضل هؤلاء الكفار والمنافقون عن طريق الحق، يضل الله من أراد إضلاله، ويهدي من أراد هداه ﴿كَذَلِكَ﴾ أي بمثل ما ذكر ﴿يُضِلُّ اللَّهُ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ﴾.

وإسناد الضلال والهدى إلى الله تعالى، لأنه خالق أسبابهما الأصلية، ولكل نفس ما كسبت، وعليها ما اكتسبت، فمن هداه الله جعل ما أنزل الله على رسوله رحمة له وزيادة في إيمانه، ومن أضله الله جعل ما أنزله على رسوله زيادة شقاء في حقه، والواجب هو تلقى ما أنزل الله على رسوله بالتسليم والاذعان.

ثم أجاب الله سبحانه إجابة جامعة، تُبطل تخرصات الضالين، ومرضى القلوب، بأن عليهم أن يقفوا عند سماع الأخبار عن عالم الغيب والشهادة وأمور الآخرة، ويتركوها إلى الله تعالى، فهي فوق مداركهم ﴿وَمَا يَلْمِزُكَ إِلَّا هُوَ﴾ أي لا يعلم عدد الملائكة وقوتهم وضخامتهم وكثرتهم، إلا رب العالمين، فمنهم سبعون ألف ملك يطوفون كل يوم بالبيت المعمور، لا يعودون إليه أبداً، ولا يوجد في السموات السبع موضع قدم ولا شبر، إلا وفيه ملك قائم، أو ملك ساجد، أو ملك راکع، فإذا كنتم جاهلين بجنود الله، فقد أخبركم بها علام الغيوب، فعليكم أن تصدقوا خبره من غير شك ولا ارتياب.

والملائكة جند من جنود الله، والجن جند من جنوده، والريح جند من جنوده، وإلقاء

الرعب في قلب العدو جند من جنود الله أيضاً.

وهكذا فالله تعالى إذا أراد أن ينصر عبده سخر له أضعف المخلوقات لتكون سبياً

في نصره.

أما ورود ذكر النار في القرآن، فهو للاتعاظ والاعتبار والابتعاد عن محارم الله تعالى

﴿وَمَا هِيَ﴾ أي النار ﴿إِلَّا ذِكْرٌ لِلْبَشَرِ﴾ أي: ليخافوا الله تعالى ويطيعوه، ويتذكروا ما ينفعهم

فيفعلونه، وما يضرهم فيتركونه.

ثَلَاثَةُ أَيْمَانٍ عَلَى أَنَّ نَارَ جَهَنَّمَ إِحْدَى الدَّوَاهِي الْكِبَارِ

٣٢-٣٥- ﴿كَلَّا وَالْقَمَرَ﴾ (٣٢) ﴿وَاللَّيْلَ إِذَا أَدْبَرَ﴾ (٣٣) ﴿وَالصُّبْحَ إِذَا أَشْفَرَ﴾ (٣٤) ﴿إِنَّهَا إِحْدَى الْكَبَرِ﴾

ثم أقسم سبحانه ثلاثة أيمان بمالك الملك، وخالق الكون، ونور السماوات والأرض،

على أن (سقر) التي يسخر منها المجرمون ويتكلمون بها وبخزنتها، هي إحدى الأمور

العظام، والدواهي الكبار، قل أن يوجد لها نظير في شدة عذاب من يصطلي بنارها.

فليرتدع هؤلاء المستهزؤون بالوحي والقرآن عن فعلهم وسوء صنيعهم.

﴿كَلَّا﴾ بمعنى حقاً أو بمعنى (ألا) الاستفتاحية، ويصح أن يكون المعنى:

أي ليس الأمر كما زعموا من تكذيبهم لرسول الله ﷺ فيما جاء به من عند الله.

ثم أقسم سبحانه بالقمر، وبالليل إذا ولّى وذهب، بسبب إقبال النهار.

وأقسم سبحانه بالصبح إذا أضاء وانكشف نوره وسطع في الصباح الباكر وقت الإسفار.

أقسم سبحانه بهذه المخلوقات الثلاث لأنها من آيات الله العظيمة الدالة على كمال قدرة

الله تعالى وحكمته - والله تعالى أن يقسم بما شاء من خلقه، وليس للخلق أن يقسموا إلا بالله

(١) قرأ نافع وحفص وحزمة ويعقوب وخلف ﴿إِذَا﴾ بسكون الدال، ظرف لما مضى من الزمان، و﴿أَدْبَرَ﴾

بهمز قطع مفتوحة، ودال ساكنة، فعل رباعي على وزن أكرم. والباقون ﴿إِذَا﴾ بفتح الدال وألف بعدها،

ظرف لما يستقبل من الزمان، و﴿دُبِّرَ﴾ بدون همزة قبل الدال، وفتح الدال، فعل ثلاثي على وزن ضرب،

وهما لغتان بمعنى واحد.

تعالى - والمقسم عليه هو أن النار إحدى الأمور العظام، والدواهي الكبار، والخطوب الجسم، فيكيف تستهزؤون بها وتسخرون منها؟ قال تعالى في بيان مهمة جهنم :

٣٦، ٣٧- ﴿نَذِيرًا لِلْبَشَرِ ﴿٣٦﴾ لِمَنْ شَاءَ مِنْكُمْ أَنْ يَتَقَدَّمَ أَوْ يَتَأَخَّرَ﴾

والله تعالى يخوف عباده بهذه النار ليتقوه ويفردوه بالعبادة، فقد أوجدها الله تعالى إنذاراً وتخويفاً للناس، كما جاء في وصف رسالة النبي ﷺ في قوله تعالى له ﴿يَأْتِيهَا الْمَدِيرُ ﴿١﴾ قُرْآنٌ نَذِيرٌ﴾ أي خوفهم عذاب النار إن لم يؤمنوا.

وهذا الإنذار يتوجه لكل إنسان، سواء آمن أو كفر ﴿لِمَنْ شَاءَ مِنْكُمْ أَنْ يَتَقَدَّمَ﴾ إلى الإيمان ويعمل ما يقربه من ربه ﴿أَوْ يَتَأَخَّرَ﴾ عنه، فيعمل ما يقربه من النار، أي لمن أراد أن يتقرب إلى ربه بفعل الطاعات، أو يتأخر عنه بفعل المعاصي، كقول تعالى ﴿فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيُكْفُرْ﴾ [الكهف: ٢٩] فالتقدم هو السبق إلى الخيرات، والتأخر هو التخلف عنها.

الْكَافِرُ مَرْهُونٌ بِعَمَلِهِ السَّيِّئِ وَالْمُؤْمِنُ قَدْ فَكَ رَقَبَتُهُ مِنَ النَّارِ بِالْإِيمَانِ

٣٨-٣٩- ﴿كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ ﴿٣٨﴾ إِلَّا أَصْحَابَ الْيَمِينِ﴾

وكل إنسان يوم القيامة مرتهن بما كسب، مما قدم لنفسه أو أخر، فنفسه محبوسة بعملها، مرهونة عند الله تعالى بكسبها أعمال السوء والشر، فهي موثقة بسعيهما لا تنفك من الموقف إلا إذا أدت ما عليها، وأخذت ما لها من عقوبات وحقوق وواجبات.

وهذه النفس المرهونة بكسبها السيء هي النفس الكافرة التي حقت عليها كلمة العذاب.

ولا يرتهن أحد بعمله من أهل الجنة، لأنه لم يكتسب ما هم مرتهنون به.

لأن الله تعالى استثنى المسلمين المخلصين، الذين يأخذون صحف أعمالهم بأيمانهم، فإنهم قد فكوا رقابهم بالطاعة وخلصوها من هذا الرهن بالإيمان والأعمال الصالحة، قال تعالى: ﴿إِلَّا أَصْحَابَ الْيَمِينِ﴾ فإنهم لم يرتهنوا. بل أطلقوا وفرحوا وهم أهل الخير والكرامة، ولهم علامات يعرفون بها في أرض المحشر والمنشر، منها أنهم يكونون عن يمين العرش، بيض الوجوه، ويتناولون الصحف بأيمانهم.

كما أن أهل الشر يكونون عن شمال العرش، سود الوجوه، ويتناولون صحفهم بشمائلهم من وراء ظهورهم.

الْمُؤْمِنُونَ يَتَسَاءَلُونَ عَنْ أَسْبَابِ عَذَابِ أَهْلِ الشَّقَاءِ وَأَهْلِ الْيَمِينِ

٤٠-٤٢ ﴿فِي جَنَّتِ يَسْأَلُونَ﴾ ^(١) ﴿عَنِ الْمُجْرِمِينَ﴾ ^(٢) ﴿مَا سَلَكَكُمْ فِي سَقَرٍ﴾

وأصحاب اليمين وهم في الجنات التي لا يُدرِك وصفها، يسأل بعضهم بعضاً عن الذين أجرموا في حق أنفسهم، وظلموها بالكفر والمعاصي، ما الأسباب التي أدت بهم إلى دخولهم النار؟ وهذا السؤال فيه تبكيت لهم، وإدخال للحسرة على نفوسهم. وهو سؤال من أهل اليمين عن مصير الكافرين، ويكون هذا السؤال قبل أن يروهم وهم في النار، فإذا رَأَوْهم سألوهم عن أحوالهم، وعن سبب ولُوجهم النار، وهو سؤال توبيخ وتحقير، وإلا فهم يعلمون السبب الذي أدخلهم النار.

أَرْبَعَةُ أَسْبَابٍ لِدُخُولِ الْمُجْرِمِينَ النَّارِ

٤٣-٤٧ ﴿قَالُوا لَمْ نَكُ مِنَ الْمُصَلِّينَ﴾ ^(٣) ﴿وَلَمْ نَكُ نَقُطِعُ الْبَسِيقِينَ﴾ ^(٤) ﴿وَكُنَّا نَخُوضُ مَعَ الْفَاطِنِينَ﴾

﴿وَكُنَّا نَكْذِبُ يَوْمَ الدِّينِ﴾ ^(٥) ﴿حَتَّى أَتَيْنَا الْيَقِينَ﴾

أي أن أهل النار يجيبون أهل اليمين معترفين ومقرّين على أنفسهم أنهم قد استحقوا دخول النار لأسباب أربعة:

أولها: أنهم لم يكونوا يؤدون الصلاة في الدنيا، والصلاة رمز الإيمان، وإنكارها كفر، وهي فرق المسلم من الكافر، ويدخل في ترك الصلاة نفي الإيمان بالله تعالى، ويدخل فيها ترك جميع العبادات، لأن الصلاة تشمل تعظيم الدين وامتنال أوامر الله تعالى واجتناب نواهيه، وما يتعلق بأمور العقيدة.

(١) قوله تعالى: ﴿فِي جَنَّتِ يَسْأَلُونَ﴾ معددة آية عند جميع علماء العدد ما عدا المدني الأخير فليست بآية عنده.

(٢) قوله تعالى: ﴿عَنِ الْمُجْرِمِينَ﴾، غير معدود آية عند الدمشقي والمكي، فيكون آية عند غيرهما.

وثانيها: قولهم: لم نكن ونحن في الدنيا نتصدق ونطعم الفقراء والمساكين، فلم نعبد ربنا ولم نحسن إلى خلقه، وهذا الإطعام يشمل الزكاة وصدقة التطوع في وجوه الخير والبر.

وثالثها: قولهم: وكنا نتحدث بالباطل مع أهل الغواية والضلال، فنجادل بالباطل، ونخوض في الأقوال السيئة والأفعال الباطلة، مع الخائضين فيها دون أن نتورع عن ترك شيء منها، أو ننهأهم عنها.

ورابعها: قولهم: إنا كنا في الدنيا ننكر يوم البعث والحساب، وننكر الجزاء على الأقوال والأعمال، والمكذب بيوم الدين، تختل في يده جميع الموازين، وينتهي إلى شر مصير، وهؤلاء قد جمعوا بين الكفر بتكذيبهم بيوم القيامة، وبين الكفر بفروع الشريعة، وهي الصلاة والزكاة وإطعام المساكين، فالكافر مطالب إلى جوار القيام بأصول الشريعة، القيام بفروعها، ولا تقبل الفروع إلا بعد وجود الأساس، وهو التوحيد والإيمان الجازم بالله ورسوله وبالיום الآخر ومافيه من بعث وحشر وحساب وجزاء.

وفي هذه الآية إشارة إلى أن المسلم الذي أضاع إقامة الصلاة، وأداء الزكاة، وخاض مع الخائضين، له نصيب من عذاب سقر بمقدار ما ضيع وخاض، وفق ما يكون من معادلة حسناته وسيئاته.

وقد ظل المجرمون على التكذيب بيوم الدين، وترك الصلاة والزكاة، واستمروا على الخوض في الباطل حتى جاءهم الموت وهو معنى ﴿حَتَّىٰ أَتَنَّا لَيَقِينُ﴾ وهو الموت فاستحقوا بذلك عذاب النار.

ويصح أن يكون معنى اليقين، أنهم قد علموا وأيقنوا صحة ما كانوا يكذبون به في الدنيا، من عذاب النار، وأن الريب والشك فيه قد زال عنهم، فأيقنوا الآن باليوم الآخر، ومافيه من بعث وحساب وجزاء بعد أن رأوه بأعينهم.

لَا شَفَاعَةَ لِكَافِرٍ

٤٨- ﴿فَمَا تَنْفَعُهُمْ شَفَاعَةُ الشَّافِعِينَ﴾

وهؤلاء المجرمون الكافرون، حَرَّمَ الله قبول الشفاعة فيهم، وسيظلون مرتين بأعمالهم في سقر ﴿فَمَا تَنْفَعُهُمْ شَفَاعَةُ الشَّافِعِينَ﴾ والآية تفيد أن هناك شفعاء، كما جاء في الحديث أن الملائكة تشفع، ثم النبيون، ثم العلماء، ثم الشهداء، ثم الصالحون، ثم يقول الله تعالى: شفع عبادي، وشفع الجميع، وبقيت شفاعة أرحم الراحمين، فلا يبقى في النار من كان في قلبه مثقال ذرة من إيمان.

ولا شفاعة لأهل النار، ولو شفع فيهم أهل الأرض جميعاً ما قبلت شفاعتهم. وكل من اتصف بالصفات الأربع السابقة لا تنفعه شفاعة شافع، لأن من وافى الله تعالى كافراً فهو مخلد في النار، وليس محلاً لقبول الشفاعة فيه، وإنما ينتفع بالشفاعة عصاة المؤمنين، وكل من رضي الله قبول الشفاعة فيه، وأذن لشفيعه أن يشفع له، سواء أكان من الملائكة أو النبيين أو من غيرهم.

الْكَافِرُ يَنْفَرُ مِنْ أَسْبَابِ الْهَدَايَةِ

٤٩-٥١- ﴿فَمَا لَهُمْ عَنِ التَّذِكْرِ مُعْرِضِينَ﴾ (١٩) ﴿كَانَهُمْ حُمْرٌ مُّسْتَنْفِرَةٌ﴾ (٥٠) ﴿فَرَّتْ مِنْ قَسْوَرَةٍ﴾

ثم إن الفرصة لم تزل متاحة لهؤلاء المجرمين وهم في الدنيا قبل مواجهة عذاب سقر، وإن إعراضهم عن مواظب القرآن وإرشاداته، هو السبب الذي أخذ بأيديهم إلى النار، ولهذا فإن إصرارهم على الكفر أمر يدعو إلى العجب، فما لهؤلاء المكذبين منصرفين عن الحق الذي دعاهم إليه محمد ﷺ؟

﴿كَانَهُمْ﴾ من شدة نفورهم ﴿حُمْرٌ﴾ وحشية شديدة الهرب من أهلها، فهي، أي هذه

(١) قرأ نافع وابن عامر وأبو جعفر بفتح الفاء من ﴿سْتَنْفِرَةٌ﴾ اسم مفعول، أي ينفرها القناص، والباقون بكسر الفاء، اسم فاعل، أي نافرة.

الحمرة ﴿سُتَنْفِرَةٌ﴾ شاردة هائجة عند رؤيتها للأسد الكاسر قد ﴿فَرَّتْ مِنْ قَسْوَرَةٍ﴾ أى هربت من الأسد القوي الضاري الذي يطارد الحمرة الوحشية، وهذا يفيد ضعف عقولهم، وأنهم كالحمار الذي يحمل أسفاراً.
ومن شأن الحمرة الوحشية أنها إذا رأت الأسد هربت منه، وكذلك هؤلاء المكذبون، إذا سمعوا القرآن نفروا منه وأعرضوا عنه.

الْمُعَارِضُونَ يَطْلُبُونَ نَزُولَ كِتَابٍ عَلَيْهِمْ يَأْمُرُهُمْ بِاتِّبَاعِ مُحَمَّدٍ ﷺ

٥٢- ﴿بَلْ يُرِيدُ كُلُّ امْرِئٍ مِنْهُمْ أَنْ يُؤْتَى صُحُفًا مُنَشَّرَةً﴾

ثم ذكر سبحانه سبباً من أسباب عدم إيمان المكذبين بمحمد ﷺ وهو أنهم يخافون على زعامتهم ومنزلتهم بين الناس، فيحسدون محمداً ﷺ على الرسالة، ويطمعون أن ينزل على كل زعيم منهم قرآناً مثل الذي نزل على محمد ﷺ والقرآن الكريم يرد عليهم زعمهم: أي أيطمع كل واحد من المشركين والمكذبين برسول الهدى أن ينزل الله عليه كتاباً منشوراً من السماء، كما أنزل على محمد ﷺ؟ فهو يزعم أنه لن يؤمن إلا إذا نزلت عليه صحف من السماء، والله تعالى يكذبهم، فإنهم لوجاءتهم كل آية لم يؤمنوا حق يروا العذاب الأليم، وأن الله تعالى يقلب أفئدتهم وأبصارهم ويعلم أنهم لن يؤمنوا مهما جاءتهم من آيات.

سبب النزول:

ومما ورد في أسباب النزول، أن المشركين قالوا للنبي ﷺ: (لن نتبعك حتى تأتي لكل واحد منا بكتاب من السماء، عنوانه: من رب العالمين، إلى فلان بن فلان، نُؤمر في هذا الكتاب باتباعك)^(١).

وقالوا: إن كان محمد صادقاً فليُصبح عند رأس كل واحد منا صحيفة فيها براءته

(١) أخرجه عبد بن حميد وابن المنذر عن مجاهد كما في الدر المنثور (٩٢/١٥).

وأمنه من النار^(١).

وقالوا: يا محمد، بلغنا أن الرجل من بني إسرائيل كان يُضبح وعند رأسه ذنبه وكفارته، فأتنا بمثل ذلك، وهذا كقوله تعالى حكاية عن المشركين ﴿أَوْ يَكُونُ لَكَ بَيْتٌ مِّنْ ذُخْرٍ أَوْ تَرْقَىٰ فِي السَّمَاءِ وَلَنْ نُؤْمِنَ لِرُفَيْكَ حَتَّىٰ تَنْزِلَ عَلَيْنَا كِتَابًا نَّقْرُؤُهُ﴾ [الإسراء: ٩٣].
قال تعالى: ﴿اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ﴾ [الأنعام: ١٢٤].

السَّبَبُ فِي عَدَمِ إِيْمَانِ الْمُكْذِبِينَ: اسْتِيْلَاءُ الْكُفْرِ وَالْعِنَادِ عَلَى قُلُوبِهِمْ

٥٣-٥٥- ﴿كَلَّا بَلْ لَا يَخَافُونَ الْآخِرَةَ﴾ (٥٣) ﴿كَلَّا إِنَّهُ تَذَكَّرٌ﴾ (٥٤) ﴿فَمَنْ شَاءَ ذَكَّرْهُ﴾ (٥٥)

ثم بين سبحانه أن هذه المقترحات التي يقترحونها ليست هي السبب في عدم إيمانهم، بل السبب هو استيلاء الكفر والعناد على قلوبهم، فقال تعالى ﴿كَلَّا﴾ إبطال لمزاعمهم وردع لهم، فليس ما اقترحوه إلا تنصلاً من الإيمان، ولو أنهم أُجيبوا إلى ما طلبوا، ما آمنوا، بل الحقيقة أنهم لا يخافون الله تعالى، ولا يصدقون بالبعث والحساب والجزاء، وهذا معنى: ﴿بَلْ لَا يَخَافُونَ الْآخِرَةَ﴾ ﴿ولو أنهم خافوا لقاء الله، لا ازتدعوا عما قالوه، ولآمنوا بما أنزل على محمد ﷺ، فالذي أفسدهم أنهم كانوا لا يصدقون بالآخرة ولا يخافون عذابها.﴾

ثم أخبر تعالى أن هذا القرآن الذي أعرضوا عن سماعه ونفروا منه، فيه الموعظة البليغة الكافية لاتعاضهم، ولكنهم لا يتفعلون ﴿كَلَّا﴾ حقاً ﴿إِنَّهُ﴾ أي القرآن ﴿تَذَكَّرٌ﴾ يتنفع بها من كان عنده استعداد لذلك.

فمن أراد الاتعاض، اتعظ بما فيه وانتفع بهداه، فإنَّ نفع ذلك يعود إليه، ثم إن الانتفاع بهدي القرآن طَوَّعَ مشيئتهم أيها الناس، وهو مشتمل على ما يُسعد المرء في الدنيا والآخرة.
قال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَىٰ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ [العنكبوت: ٥١].

(١) أخرجه عبد بن حميد والطبري وابن المنذر عن السدي عن أبي صالح. المرجع السابق.

وقال سبحانه: ﴿إِنَّ هَذِهِ تَذْكِرَةٌ فَمَنْ شَاءَ اتَّخَذَ إِلَيْكَ رَبِّهِ سَبِيلًا﴾ [المزمل: ١٩].

كُلُّ شَيْءٍ بِمَشِيئَةِ اللَّهِ تَعَالَى

٥٦- ﴿وَمَا يَذْكُرُونَ^(١) إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ هُوَ أَهْلُ النَّقْوَى وَأَهْلُ الْغَفَرَةِ﴾

ثم ختم الله تعالى السورة بما يدل على نفاذ مشيئته تعالى وإرادته، وأنه لا يند عنها قليل ولا كثير، وبيان أن التذكر والانتفاع بالموعظة يتم بمشيئة العبد، وفق مشيئة الله تعالى وإرادته ﴿وَمَا يَذْكُرُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ﴾ أي وما يتتبعون بهذي القرآن، ولا يتعظون بما فيه، إلا أن يشاء الله لهم الهدى، فيتذكروا ويتتبعوا، وهذا موافق لاختيارهم وإرادتهم.

وذلك أن للناس مشيئة، يتعلق بها ما يكتسبونه من الطاعات والمعاصي، ويتعلق بها الجزاء في الدنيا والآخرة، والله تعالى المشيئة العظمى التي لا يمنعها مانع، ولا يحول دونها حائل، وهذه المشيئة هي توفيق الله تعالى للعبد، ولا تخرج أفعال العباد عن مشيئة الله أبداً، لأنها تقع وفق علم الله الأزلي لما يكون عليه العبد من الإيمان أو الكفر، ومن الطاعة أو العصيان.

١ - كما قال تعالى: ﴿وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ [التكوير: ٢٩].

٢ - وقال سبحانه: ﴿فَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ وَمَنْ يُرِدْ أَنْ يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصْعَدُ فِي السَّمَاءِ﴾ [الأنعام: ١٢٥].

٣ - وقال جل شأنه: ﴿أَفَمَنْ شَرَحَ اللَّهُ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ فَهُوَ عَلَى نُورٍ مِنْ رَبِّهِ قَوْلٌ لِلْفَاسِقِ قُلُوبُهُمْ مِنْ ذِكْرِ اللَّهِ﴾ [الزمر: ٢٢].

٤ - وقال عز وجل: ﴿وَإِنْ تُصِيبَهُمْ حَسَنَةٌ يَقُولُوا هَذِهِ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَإِنْ تُصِيبَهُمْ سَيِّئَةٌ يَقُولُوا هَذِهِ مِنْ عِنْدِكَ قُلْ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ فَإِنَّ هَؤُلَاءِ الْقَوْمَ لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثًا^(٧٨) مَا أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ اللَّهِ وَمَا أَصَابَكَ مِنْ سَيِّئَةٍ فَمِنْ نَفْسِكَ﴾ [النساء: ٧٨، ٧٩].

وما دام الأمر كذلك، فعليكم بالتذكير وتقوى الله، فإنه سبحانه ﴿هُوَ أَهْلُ النَّقْوَى﴾ أي هو أهل لأن يتقى ويطاع ﴿وَأَهْلُ الْغَفَرَةِ﴾ أي وهو أهل لأن يغفر لمن آمن به وأطاعه.

(١) قرأ نافع بناء الخطاب في ﴿وَمَا يَذْكُرُونَ﴾ على الالتفات، والباقون بياء الغيب جرياً على الساق.

فمغفرة الذنوب من خصائص الله سبحانه، لمن أفلح عن كفره أو شركه، أو معاصيه وذنوبه ﴿قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ يَنْتَهُوا يُغْفَرْ لَهُمْ مَا قَدْ سَلَفَ﴾ [الأنفال: ٣٨] ﴿إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا﴾ [الزمر: ٥٣] وذلك بالنسبة لمن لم يمت على الكفر، أما من مات على الكفر والشرك فلا توبة له: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ﴾ [النساء: ٤٨].

وعن أنس بن مالك ؓ أن رسول الله ﷺ قال في هذه الآية ﴿أَهْلُ النَّفْوَى وَأَهْلُ الْمَغْفِرَةِ﴾ قال الله تعالى: «أنا أهل أن أتقى، فمن اتقاني فلم يجعل معي إلها، فأنا أهل أن أغفر له»^(١). وأخرج الطبري بإسناد حسن عن قتادة في معنى: ﴿أَهْلُ النَّفْوَى وَأَهْلُ الْمَغْفِرَةِ﴾ (ربنا محقوق أن نتقى محارمه، وهو أهل المغفرة، يغفر الذنوب).

وأيضاً فالله تعالى أهل بصفاته العلى، ونعمه التي لا تحصى، ونقمه التي لا تُدفع، لأن يتقى، ويُحذر معاصيه، ومخالفة أمره، وهو بفضلله وكرمه أهل لأن يغفر لعباده إذا اتقوه.

تم تفسير (سورة المائدة) والله الحمد والمنة

(١) رواه الترمذي، وقال: حسن غريب، وفي سنده سهل، ليس بالقوي، وهو برقم (٣٢٢٨)، وأخرجه أحمد في المسند (١٤٢/٣) (١٣٥٤٩، ١٢٤٤٢) بإسناد ضعيف، وابن ماجة برقم (٤٢٩٩)، ومسند أبي يعلى (٦٦/٦)، والبغوي في التفسير (٢٧٦/٨)، وتفسير النسائي (٤٧٥/٢)، وفي السنن الكبرى له (١١٥٦٦).

تَفْسِيرُ سُورَةِ الْقِيَامَةِ (٧٥)

مُقَدِّمَةُ السُّورَةِ

(سورة القيامة) هي السورة الخامسة والسبعون في ترتيب المصحف، والحادية والثلاثون في ترتيب النزول. نزلت بعد (سورة القارعة) وقبل (سورة الهُمزة). وعدد آياتها في المصحف الكوفي والحنصي أربعون آية، وتسع وثلاثون آية في بقية المصاحف.

وهي مئة وتسع وتسعون كلمة، وست مئة واثنان وخمسون حرفاً. وتسمى (سورة القيامة) لذكر هذا اللفظ في أولها، وسماها بعضهم (سورة لا أقسم). وهي سورة مكية خالصة، نزلت في أوائل العهد المكي.

موضوع السورة:

١- المحور الأساس للسورة: هو الحديث عن يوم القيامة وما فيه من بعث وحساب وجزاء على الأعمال والأقوال، وما يلقاه الناس، لاسيما الكافر، من الأهوال والشدائد، ومن علامات هذه الأهوال: خسف القمر، وتحير البصر، وجمع الشمس والقمر. والإيمان باليوم الآخر ركن من أركان الإيمان، والحديث عنه من علامات القرآن المكي. إلى جوار الحديث عن الوحي والرسالة في قوله تعالى: ﴿لَا تَحْزَنْكَ بِهِ لِسَانُكَ لِتَعْجَلَ بِهِ﴾ (١٦) ﴿إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ﴾ (١٧) ﴿فَإِذَا قَرَأْتَهُ فَاسْتَعِزْ بِهِ﴾ (١٨) ﴿ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ﴾ [الآيات: ١٦-١٩]. وتخلص السورة إلى توحيد الخالق سبحانه في قوله تعالى ﴿أَلَيْسَ ذَلِكَ بِقَدِيرٍ عَلَى أَنْ يُجِئَ الْمَوْتُ﴾ [الآية: ٤٠].

وهذه العناصر الثلاثة، هي مكونات القرآن المكي.

٢- وقد بدأت السورة بالقسم بالقيامة، والقسم بالنفس اللوامة، عن أن البعث حق لا ريب فيه، ومضت الآيات في الحديث عنهما من مطلع السورة إلى ختامها، وفي ثانياً

ذلك ذكرت السورة، ثلاثاً من علامات الساعة، هي: تحيّر البصر، وذهاب نور القمر، وطلوع الشمس والقمر معاً من المغرب.

وفي ثنايا السورة أيضاً أربع آيات عن اهتمام النبي ﷺ بتلقي الوحي، وإجهاد نفسه في متابعة جبريل عليه السلام. واهتمام النبي ﷺ بتلقي القرآن عند تلاوة جبريل عليه حرصاً على حفظه وضبطه، فأمره ربه ألا يسرع في تلقيه، ولا يعجل في ذلك.

٣- وفيما عدا ذلك فقد بينت السورة أن القيامة حق، وأن الإنسان يُنبأ فيها بما قدم وآخر، وأن الناس فيها إما سعداء، تتلأأ وجوههم نوراً، ويَحْظُونَ بالنظر إلى وجه الله الكريم، وإما أشقياء، وجوههم قاتمة مظلمة يعلوها الذل والقرّة.

٤- وتحدثت آيات السورة عن وقت الاحتضار، والإنسان يعالج سكرات الموت، ويبحث الناس له عن علاج دون جدوى، حيث تيقن أنه مفارق للدنيا، مقبل على ربه.

﴿وَالْفَنَاءُ السَّاقُ وَالسَّاقُ﴾ [الآية: ٢٩] إلى أين؟ ﴿إِلَىٰ رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ الْمَسَاقُ﴾ [الآية: ٣٠].

فإن كان المحتضر من الكافرين، فإنه يلقى من الشدائد عند خروج الروح، ومن العذاب يوم القيامة، ما لا يعلمه إلا الله، ذلكم لأن الإنسان لم يُخلق عبثاً في هذه الحياة، بلا هدف ولا غاية، فقد أوجده الله تعالى من العدم، ومنحه نعمة الحياة، وقال له: افعل، ولا تفعل، لئلا يستوي يوم القيامة من أطاع ومن عصى، ومن آمن، ومن كفر، والذي بدأ خلقه من نطفة، قادر على إعادته بعد الموت، للحساب والجزاء، حيث يكون الناس فريقان: سعداء وأشقياء، إلى جنة أو نار.

٥- قال عمر بن الخطاب ؓ: من سأل عن القيامة، أو أراد أن يعرف حقيقة وقوعها، فليقرأ هذه السورة^(١).

وقال المغيرة بن شعبة ؓ: يقول الناس: القيامة، القيامة، وإنما قيامة المرء موته^(٢).

(١) من تفسير ابن عطية (٤٠١/٥).

(٢) من تفسير ابن عطية (٤٠١/٥).

وحضر ابن جبير جنازة رجل، فقال: أما هذا فقد قامت قيامته^(١).

وقد ذكر لفظ ﴿الْإِنْسَانُ﴾ في السورة خمس مرات.

وهكذا فإن السورة تعرضت إلى حقائق خمس:

أولها: حقيقة النشأة الأولى، حيث لا يدعي أحد ممن يكذب باليوم الآخر أنه خلق

الإنسان، أو شارك في صنعه ﴿أَلَمْ يَكُنْ تُطْفَئُ مِنْ مَنِّ يَتَّى﴾؟ [الآية: ٣٤].

ثانيها: أهوال القيامة، ومشاهد خراب العالم عند قيامها، وما يعتري الإنسان من

الاضطراب والحيرة في مواجهة أحداث القيامة.

ثالثها: أدب تلقي الوحي، والتأني في الاستماع إليه، واتباع تلاوته في صفة قراءة

القرآن بإقامة حروفه وحركاته، وصفة الأداء المتواتر، وهو ما عُرف فيما بعد بالغنة

والمد والقصر والإخفاء والإدغام، وما إلى ذلك.

رابعها: التعرض لحقيقة الموت التي لا تخطئ الإنسان، والنهاية المحتومة لجميع

البشر، وهي حقيقة تتكرر كل يوم، ويواجهها الكبار والصغار، والفقراء والأثرياء،

والرؤساء والمرؤوسين، ويقف الجميع من الموت موقفاً واحداً، فلا حيلة ولا وسيلة

لدفعه أو تفاديه!

خامسها: مشهد أصحاب النفس المطمئنة واللوامة والأمارة، يوم لقاء الله تعالى، وهو

يتمثل في حال السعداء والأشقياء، يوم تبيض وجوه وتسود وجوه.

ومع أن الناس قد تقدموا كثيراً في مجال العلم التجريبي والحضارة المادية في القرن

الآخر، إلا أنهم فيما يتعلق بالعلم بالله تعالى والدار الآخرة والاستعداد لها شيء لا

يذكر، فهم في علم ضحل، وغفلة وإهمال!

وقد ختمت السورة بإثبات الحشر والمعاد بالأدلة والبراهين العقلية.

* * *

(١) من تفسير ابن عطية (٤٠١/٥).

تَفْسِيرُ السُّورَةِ

الْقَسَمُ عَلَى بَعْثِ النَّاسِ بَعْدَ مَوْتِهِمْ

١-٣- ﴿لَا أَقِيمُ^(١) يَوْمَ الْقِيَمَةِ^(٢) وَلَا أَقِيمُ^(٣) بِالنَّفْسِ الْوَامَةِ^(٤)﴾ أَيْحَسَبُ^(٥) الْإِنْسَانُ أَنْ يَجْمَعَ عِظَامَهُ^(٦)﴾

في مطلع السورة، ومن باب براعة الاستهلال، أقسم الله تبارك وتعالى باليوم الآخر، وما اشتمل عليه من بعث وحساب وجزاء، وهذا هو القسم الأول لتعظيم يوم القيامة وتفخيمه. وأقسم سبحانه ثانياً بالنفس التقيّة المؤمنة، التي تلوم صاحبها على التقصير، وعلى ترك الطاعات وفعل الموبقات.

والمقسم عليه بهما: أن البعث حق، وأن الحساب والجزاء حق. ومن شأن المؤمن إذا وقع في خطأ أن يُصاب بهمٍ ثقیل، وتضيّق عليه الأرض بما رحبت، فيلوم نفسه على فعل الشر، ويلومها على عدم الاستكثار من الخير. والإيمان الكامن في النفس، يأخذ بيد صاحبه إلى التسامي، ويزجره عن الإسفاف والتردي، ويلومه على ما بدر منه أولاً بأول، لأنه لا يألّف النقائص، وسرعان ما يتجاوزها إلى عالم أزكى إذا ألمّ بشيء منها.

وقد أقسم الله تبارك وتعالى بهذه النفس، لِمَا وَفَّرَ فيها من الإيمان بالله واليوم الآخر. أما النفوس التي لا تعرف الله تعالى، ولا تنتظر لقاءه، فإنها لا تكثرث برذيلة، ولا تخاف من يوم الحساب، وهذا هو شأن غالب الناس اليوم.

(١) قرأ ابن كثير بخلف عن البزي بحذف الألف التي بعد اللام من ﴿لَا أَقِيمُ﴾ فيقرأها (لأقسم) على أنها لام الابتداء للتأكيد، والباقون بإثبات الألف على أن لا نافية لكلام مقدر كأن الكفار قالوا للنبي ﷺ: إنما أنت مُفْتَرٍ في الإخبار عن البعث، فرد عليهم بلا، ثم ابتداءً فقال: أقسم، وهو الوجه الثاني للبزي، ولا خلاف بين القراء في إثبات الألف في الموضع الثاني وهو ﴿وَلَا أَقِيمُ بِالنَّفْسِ الْوَامَةِ﴾.

(٢) قرأ ابن عامر وعاصم وحمزة وأبو جعفر بفتح السين من ﴿أَيْحَسَبُ﴾ والباقون بكسرها.

النفوس أنواع ثلاثة:

النوع الأول: النفس اللوامة: وهي التي تلوم صاحبها على ما حصل منها من تفريط أو تقصير في حق من الحقوق، أو على غفلة وسهو عن بعض الواجبات والمستحبات، فهي إن فعلت خيراً تقول: هلاًّ ازددت؟ وإن فعلت شراً تقول: يا ليتني لم أفعل، فالمؤمن يلوم نفسه على كل حال، ويحاسبها على التقصير، وهي التي تلوم صاحبها على عدم ثبوتها على حال من الأحوال.

قال الحسن: إن المؤمن لا تراه إلا يلوم نفسه: ما أردت بكلمتي؟ ما أردت بأكلمتي؟ ما أردت بحديث نفسي؟ ولا أراه إلا يعاتبها، وإن الفاجر يمضي قدماً ولا يعاتب نفسه، وفي يوم القيامة تظهر أحوال النفس اللوامة، من الشقاء أو السعادة للنفس اللوامة. وتشريفاً لها قرنّها الله تعالى بيوم القيامة في القسم.

النوع الثاني: النفس الأمارّة: وهي التي تأمر صاحبها بفعل المعاصي والذنوب، فتقع فيها دون اكتراث بها، ولا ندم عليها، لأن الهوى والشيطان قد استولى عليها. قال تعالى: ﴿إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالشُّوْءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّي إِنَّ رَبِّي﴾ [يوسف: ٥٣].

النوع الثالث: النفس المطمئنة، أي التي لا تقع في شيء من المعاصي والذنوب، كأنفس الأنبياء والصالحين، وهي التي يقال لها عند الاحتضار ﴿أَجِئْ إِلَىٰ رَبِّكَ رَاضِيَةً مُّرْضِيَةً﴾ [الفجر: ٢٨-٣٠].

﴿وَلَا﴾ من ﴿وَلَا أَقِيمُ﴾ حرف نفي، يقصد به المبالغة في تحقيق القسم، فلا يقصد به نفي القسم، بل يقصد به تأكيد القسم، وتقوية الكلام، وهذا على عادة العرب في الإتيان بـ ﴿لَا﴾ لتعظيم المقسم به وتفخيمه، من غير قصد لمعناها الأصلي، ويؤتى بها - غالباً - للاستفتاح والاهتمام بما بعدها، ويكثر الإتيان بها مع اليمين.

وقد جاء تأكيدها للكلام كثيراً في القرآن الكريم، من ذلك قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَتَّبِعُ أَهْلَ الْكِتَابِ﴾ [الحديد: ٢٩] أي ليعلم، وقوله سبحانه: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [النساء: ٦٥] أي فوربك، وقوله أيضاً: ﴿قَالَ يَهْرُونُ مَا مَنَعَكَ إِذْ رَأَيْتَهُمْ ضَلُّوا﴾ [١٢] ﴿أَلَا تَتَّبِعُنِي﴾ [طه: ٩٢، ٩٣].

أي: أن تتبني، وهذا أرجح ما قيل فيها.
 ودليل جواب القسم بيوم القيامة وبالنفس اللوامة قوله تعالى ﴿يَحْسَبُ الْإِنْسَانُ أَن يُتَّخَذَ عِظَامُهُ﴾ أي أيظن الكافر المكذب بالبعث والنشور، أن لن نقدر على جمع عظامه بعد تفرُّقها وصيرورتها رميمًا ورفاتًا، مختلطة في التراب، وما عَلِمَ هذا المكذب أن القادر على البدء قادر على الإعادة:

سبب النزول:

نزلت هذه الآية في عدي بن أبي ربيعة، والأخنس بن شريق، وكان النبي ﷺ يقول عنهما: اللهم اكفني جاري السوء، وذلك أن عدياً أتى النبي ﷺ فقال: حدثني متى تقوم القيامة، وكيف أمرها وحالها؟ فأخبره النبي ﷺ عنها، فقال عدي: لو عاينت ذلك اليوم لم أصدقك، ولم أومن بها! أويجمع الله العظام، فأنزل الله هذه الآية^(١).

وعودة الإنسان إلى الحياة بعد تناثر الجسد، لا يستقيم إلا باستواء العظام، لأنها قالب البدن وبها قوامه، فالمراد بالعظام: الجسد، كما قال تعالى حكاية عمن أنكر البعث: ﴿قَالَ مَنْ يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ﴾ [يس: ٧٨] وقال سبحانه عن المكذبين بالبعث: ﴿أَوَدَّا كُنَّا عِظَامًا وَرُفُنًا أَءَنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا﴾ [الاسراء: ٤٩].

وقد احتج المنكرون للبعث، على استحالة قبول العظام بعد البلى والتفتت، على أن استحالة إعادة اللحم والعصب من باب أولى.

قال تعالى في الرد عليهم: ﴿وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَبُ عَلَيْهِ﴾ [الروم: ٢٧]، ولكن الكافر يستبعد عودته إلى الحياة مرة أخرى لجهله وكفره وعناده.

قُدْرَةُ اللَّهِ تَعَالَى أَعْظَمُ مِنْ إِعَادَةِ الْحَيَاةِ إِلَى الْمَوْتِ

٤- ﴿بَلَىٰ قَدَرِينَ عَلَىٰ أَن سُورَىٰ بَنَانُهُ﴾

قال تعالى رداً على من أنكر البعث والنشور: ﴿بَلَىٰ﴾ إن الله قادر على تسوية أطراف

(١) تفسير الخازن (٤/٣٣٣)، وتفسير القرطبي والبغوي والبحر المحيط للآية.

أصابعه وعظامه، وهذا يستلزم إعادته جميع أجزاء البدن، لأن الأنامل والبنان إذا وجدت فقد تمت أجزاء البدن، فالله تعالى قادر على أن يعيد الإنسان إلى الحياة مرة أخرى بالملامح نفسها، وبآلاف الخطوط الموجودة في الأصابع، التي لا يتشابه فيها اثنان على ظهر الأرض ﴿قَدَرِينَ عَلَى أَنْ تُسَوَّى بَنَانَهُ﴾ أي قادرين على أن نجعل أصابع يديه ورجليه شيئاً واحداً مستوياً، كخف البعير، وقادرين على أن نعيد الشلّاميات، على صغرها إلى أماكنها. قال قتادة: لو شاء لجعله كخف البعير، أو كحافر الدابة، ولكن جعله الله خلقاً سوياً حسناً جميلاً، تَقْبِضُ بِهِ وَتَبْسِطُ يَا بَنَ آدَمَ.

وقال الحسن: إن الله أعفّ مطعم ابن آدم، ولم يجعله خُفّاً ولا حافراً، فهو يأكل بيديه، ويتقي بها، وسائر الدواب إنما يتقي الأرض بفمه.

والتسوية: إعادة خلق البنان مقومة مثقنة، وَمَنْ يُسَوِّي أَطْرَافَ الْأَعْضَاءِ الَّتِي فِي نَهَايَةِ الْجَسَدِ، يسوي بالضرورة ما قبلها من أعضاء الجسد. ومن يسوي أدق الأعضاء وأصغرها، يسوي كبارها من باب أولى.

وقد ثبت علمياً أن بشرة الأصابع فيها خطوط وتجاويف متناهية الدقة، على أشكال مختلفة، لا يمكن أن يتشابه فيها إنسان بآخر، ولهذا فهي أقوى دليل في تحقيق الشخصية، وتمييز الإنسان عن غيره ببصمة أصابعه، فهي تشتمل على المفاصل والعظام الدقيقة، والأظافر والعروق، وفي هذا تنبيه من الله تعالى على أن بنان كل إنسان تختلف عن بنان غيره من الناس في تخطيط بصمتها، ولو شاء تعالى لجعلها متوافقة.

السَّبَبُ الْحَقِيقِيُّ فِي إِنْكَارِ الْبَعْثِ وَالنُّشُورِ

٦٥- ﴿بَلْ يُرِيدُ الْإِنْسَانُ لِيَفْجُرَ أَمَامَهُ ۚ ۝٦٥ يَسْتَلْ أَيَّانَ يَوْمَ الْقِيَمَةِ ۚ﴾

بين سبحانه وتعالى السبب الحقيقي في إنكار الكافر للبعث والنشور، وهو أنه يريد الاستمرار على كفره وفجوره فيما بقي من أيام عمره ﴿بَلْ يُرِيدُ الْإِنْسَانُ﴾ أي الكافر ﴿لِيَفْجُرَ أَمَامَهُ﴾ أي يُكَذِّبُ بالحساب، ويداوم على كفره وإنكار البعث والجزاء، كي يبرّر لنفسه

الاستمرار على الشهوات والمعاصي فيما يُستقبل من عمره، فيسترسل فيها كالحيوان الهائج، ولذلك فهو ينكر يوم القيامة ويكذب بها، ويفعل المعاصي ولا يتوب، ولا يذكر الموت، يُقَدِّمُ الذنب، ويؤخر التوبة، يريد أن يفجر ما امتد من عمره، فالفاجر يميل بطبعه إلى الاستكثار من اللذات، والاسترسال في الشهوات، ولا يقرّ بيعث ولا حشر ولا حساب ولا جزاء.

والدليل على فجور الكافر، أنه يسأل عن يوم البعث على وجه التهكم، ويطلب معرفة وقت حدوثه ﴿يَسْأَلُ﴾ هذا الكافر المنكر للبعث ﴿إِنَّ﴾ أي متى ﴿يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ مستبعدا قيامها، قال تعالى ﴿قُلْ لَكُمْ مِعَادٌ يَوْمَ لَا تَسْتَعِزُّونَ عَنْهُ سَاعَةٌ وَلَا تَسْتَفِيدُونَ﴾ [سبا: ٣٠]. وقد شغل الكافرون عن العمل ليوم القيامة، بالسؤال عنها، كما ورد أن رجلاً سأل النبي ﷺ قائلاً: متى الساعة؟ قال ﷺ: «ماذا أعددت لها؟»^(١).

فلفت نظره إلى ما هو أهم من السؤال وما فيه نفعه وفائدته، وهو العمل والاستعداد له.

مِنْ أَهْوَالِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ

٧-١٠- ﴿فَإِذَا بَرِقَ الْبَصَرُ^(٧) وَخَسَفَ الْقَمَرُ^(٨) وَجُمِعَ الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ^(٩) يَقُولُ الْإِنْسَانُ يَوْمَئِذٍ أَيْنَ الْمَفَرُّ﴾
والإجابة على السؤال عن يوم القيامة، يكون بتحديد وقت قيام الساعة، ولكن الله تعالى عدل عنه إلى بيان شيء من أهوالها، بأنه إذا قامت القيامة فإنه لا شيء يعصمهم من الله تعالى، لا حصن، ولا جبل، ولا ملجأ يفرون إليه من النار، بل إنهم يكونون في عَرَصات القيامة مندهشين متحيرين، لا ملجأ لهم من الله إلا إليه: ﴿فَإِذَا بَرِقَ الْبَصَرُ﴾ زاغ وتحير وأذهش، وشخص أمامه فلا يَطْرِف، عندما يرى العجائب من أهوال القيامة، ومن بروز جهنم للنظرين وهذا كقوله تعالى ﴿وَاقْتَرَبَ الْوَعْدُ الْحَقُّ فَإِذَا هِيَ شَخَصَةٌ أَبْصَرُ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ [الأنبياء: ٩٧] وقوله: ﴿إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الْأَبْصَارُ﴾^(١٢) مُهْطِعَاتٍ مُنْعِي رُءُوسِهِمْ

(١) من حديث أنس في البخاري (٣٦٨٨)، ومسلم (٢٦٣٩)، ومسنده أحمد (١٣٣٧١)، وأبو يعلى (٣٤٦٥).

(٢) قرأ نافع وأبوجعفر بفتح الراء من ﴿يَقُ﴾ والباقون بكسرهما، وهما لغتان بمعنى واحد، هو التحير والدهشة.

لَا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ وَأَفْنِدْتُمْ هَؤُلَاءِ ﴿٤٣﴾ [إبراهيم: ٤٢-٤٣].

ومن أهوال يوم القيامة: انطماس القمر وظلمته، بذهاب نوره واختفائه، وهذا معنى: ﴿وَحَسَفَ الْقَمَرُ﴾ إذ ليس المراد بذلك خسوف القمر المعتاد عندما تَحُول الأرض بينه وبين الشمس، لأن القمر ينزل يوم القيامة من مداره حول الأرض، فلا ينعكس عليه ضوء الشمس، ولا يظهر للناس نوره، فيختفى ويظلم، ولا يعود كما كان في الدنيا.

ثم تختل الجاذبية التي وضع الله عليها النظام الشمسي، فيلتصق القمر بالشمس، ويُجمع بينهما في جهة الغرب، وهما مُظْلَمين، حيث يقرن الله بينهما في الطلوع من المغرب، ثم يلقي بهما في النار، ليكونان عذاباً على الكفار، فيجمع بينهما بعد أن كانا متفرقين، ويلتصقان بعد أن كانا بعيدين، ويذهب ضوءهما بعد أن كانا نيرين، قال تعالى: ﴿إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ ۝ (١) وَإِذَا النُّجُومُ انْكَدَرَتْ ۝﴾ [التكوير: ٢، ١]، فهذا الجمع بين الشمس والقمر يحدث لأول مرة منذ خلقهما الله تعالى، فيخسف القمر، وتكور الشمس، ثم يُقذفان في النار، ليرى العباد أنهما من مخلوقات الله المسخرة، وأن من عبدهما في الدنيا كان على ضلال.

قال عطاء بن يسار: يجمعان يوم القيامة، ثم يقذفان في البحر، فيكونا نار الله الكبرى^(١).

وعندما يرى الكافر أهوال القيامة يتساءل في نفسه: كيف ينجو، وإلى أين يفر؟ ﴿يَقُولُ الْإِنْسَانُ﴾ عندما يشخص بصره، ويذهب نور القمر، ويُجمع بين الشمس والقمر يقول: ﴿أَيْنَ الْمَفَرُّ﴾ أين المهرب والخلاص من عذاب الله، وأين الفرار والمنجي من أهوال الساعة.

لَا فِرَارَ وَلَا مَنَاجَا مِنَ اللَّهِ إِلَّا إِلَيْهِ

١١-١٣- ﴿كَلَّا لَا وَزَرَ ۝ (١١) إِلَىٰ رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ الْمُسْتَقَرُّ ۝ (١٢) يُبْنَوْنَ ۝ (١٣) الْإِنْسَانُ يَوْمَئِذٍ بِمَا قَدَّمَ وَأَخَّرَ ۝﴾

يقول تعالى مجيباً على سؤال الكافر: ﴿كَلَّا﴾ أي ليس الأمر كما تتمناه - أيها الكافر -

(١) تفسير الطبري (٤٨٢/٢٣).

(٢) رسمت ﴿يُبْنَوْنَ﴾ بالواو تحت الهمزة، وفيها لحمزة وقفنا وهشام بخلفه الإبدال ألفا والتسهيل بالروم والإبدال واوا على الرسم مع السكون والروم والإشمام.

من طلبك للفرار والنجاة من عذاب الله، فإنه لا سبيل إلى ذلك، فازتدع وانزجر، فإنه ﴿لَا وَرَىٰ﴾ أي لا ملجأ لك ولا منجاً إلا إلى الله وحده، فليس في إمكان أحد أن يستتر أو يهرب من هذا الموضع، بل لا بد من وقوفه بين يدي الله عز وجل.

فالوزر: هو المكان والملجأ الذي يحتمي فيه الإنسان مما يخاف. والوزر في الأصل هو الجبل المنيع المرتفع.

فالمعنى أنه لا يجد جبلاً يتحصن به، ولا يجد أى حاجز يحتمي خلفه.

والكافر ينظر يوم القيامة في جميع الجهات، فلا يرى إلا النار، كما ينظر الإنسان يوم القيامة عن يمينه وعن شماله، ومن أمامه ومن خلفه، فلا يرى إلا ما قدّم (فاتقوا النار ولو بشق تمرة) ﴿مَا لَكُمْ مِّن مَّلْجَأٍ يَوْمَئِذٍ وَمَا لَكُمْ مِّن نَّكَيرٍ﴾ [الشورى: ٤٧].

ومهما عمّر الإنسان في الدنيا، ومهما رقد في قبره، فإن مصيره إلى رب العالمين، ومستقره بعد الحساب إما إلى الجنة وإما إلى النار، فلا ملجأ ينتهي إليه الإنسان إلا إلى العذاب أو النعيم، وإلى الله وحده المرجع والمصير واستقرار العباد.

وفي يوم القيامة يُخبر الإنسان بجميع أعماله من خير أو شر، أو حسن أو سيء، سواء ما فعله في أول حياته أو في آخرها من كل ما قدم وأخر، أي يخبر بأعماله كلها، قديمها وحديثها، وأولها وآخرها، وصغيرها وكبيرها، وهى أخبار لا تنكر.

ومما ينبؤ به الإنسان: ما سنّهُ في الناس من سنّة حسنة أو سيئة كما في الحديث «من سن في الإسلام سنة حسنة فله أجرها وأجر من عمل بها إلى يوم القيامة من غير أن ينقص من أجورهم شيء ومن سن سنة سيئة فعليه وزرها ووزر من عمل بها من غير أن ينقص من وزرهم شيء»^(١).

قال ابن مسعود وابن عباس ؓ في معنى الآية: ينبؤ الإنسان بما قدّم قبل موته من عمل صالح أو سيء، وما أخره بعد موته من سنة حسنة أو سنة سيئة يُعمل بها.

ومن ذلك ما قدمه الإنسان من ماله لنفسه قبل الموت، وما أخره من ماله لورثته بعد

(١) الحديث في صحيح مسلم برقم (١٠١٧).

موته، وكل ما عمله الإنسان من خير أو شر يجده مكتوباً يوم القيامة في صحيفته.

قال تعالى: ﴿وَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا﴾ [الكهف: ٤٩].

وقال سبحانه: ﴿يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِنْ سُوءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا

وَبَيْنَهُ أَمَدًا بَعِيدًا﴾ [آل عمران: ٣٠].

وقال جل شأنه: ﴿قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتُبْعَثُنَّ ثُمَّ لَتُنَبَّيَنَّ بِمَا عَمِلْتُمْ وَذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ﴾ [التغابن: ٧].

وعندما يجازى الإنسان على عمله يقال له: هذا جزاء العمل الفلاني، وهذا جزاء العمل

الفلاني، وفي هذا تفريع له وفضح لحاله، ولذلك فإن من نوقش الحساب فقد عُذِبَ.

ومن الدعاء الذي علّمنا إياه رسول الله ﷺ «اللهم اغفر لي ما قدمت وما أخرت، وما

أسررت وما أعلنت، وما أنت أعلم به مني، أنت المقدم وأنت المؤخر، لا إله إلا أنت»^(١).

ومنه أيضاً: «اللهم اغفر لي ذنبي كله، دقه وجله، وأوله وآخره وعلانيته وسره»^(٢).

الْإِنْسَانُ يَعْرِفُ حَقِيقَةَ نَفْسِهِ وَلَا يَقْبَلُ اعْتِدَارَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ

١٥، ١٤ - ﴿بَلَىٰ الْإِنْسَانُ عَلَىٰ نَفْسِهِ بَصِيرَةٌ^(٣) ﴿١٤﴾ وَلَوْ أَلْقَىٰ مَعَاذِيرَهُ﴾

أي أن الإنسان يعرف حقيقة ما هو عليه من إيمان أو كفر، وطاعة أو معصية،

واستقامة أو اعوجاج، والإنسان يوم القيامة لاسيما الكافر، لا يحتاج إلى أحد يخبره بما

عمل في حياته، بل هو يشهد على نفسه، ولا يحتاج إلى شاهد آخر ﴿بَلَىٰ الْإِنْسَانُ عَلَىٰ نَفْسِهِ

بَصِيرَةٌ﴾، فهو يعرف حقيقة نفسه، وجوارحه تشهد عليه يوم القيامة.

قال قتادة: إذا شئت رأيته بصيراً بعيوب الناس، غافلاً عن عيبه.

قال: وكان يقال في الإنجيل مكتوب: يا بن آدم أتبصر القذاة في عين أخيك، ولا

(١) صحيح مسلم (٧٧١) عن علي ؓ.

(٢) صحيح مسلم (٤٨٣) عن أبي هريرة ؓ.

(٣) رقق الأزرق الرء من ﴿بَصِيرَةٌ﴾ و﴿مَعَاذِيرُهُ﴾ و(ناضرة) و(باسرة) و(فاقرة) والباقون بتفخيمها، وأمالها

الكسائي وقفا، وكذا حمزة بخلف عنه.

تبصر الجِذْل - أي جذع الشجرة - المعترض في عينيك؟

وصحيفة عمل الإنسان حجة واضحة على نفسه، تلزمه بكل ما فعل أو ترك، فالحجة تقوم عليه من نفسه حين يقال له: ﴿ أَقْرَأْ كَتَبَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا ﴾ [الإسراء: ١٤].
 وحين يقول ﴿ مَا لَ هَذَا الْكِتَابِ لَا يَغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا ﴾ [الكهف: ٤٩].
 وحين ﴿ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ [النور: ٢٤].
 فالمعنى الأول للآية أن الإنسان يعرف حقيقة ما هو عليه.
 والمعنى الآخر: أن جوارحه تشهد عليه.

والكافر يَغْلَمُ أعماله التي استحق عليها العذاب يوم القيامة، فيحاول الاعتذار والجدال عن نفسه ليبرّر إجرامه وفجوره ويتنصل من أقواله وأفعاله، ولكن عذره غير مقبول، ولن ينفعه ذلك، ولو أفصح عن جميع أعذاره ما قبل منه، هذا معنى ﴿ وَلَوْ أَلْقَىٰ مَعَاذِرُهُ ﴾ أي ولو اعتذر، فإن معاذيره لا تقبل، ولو جاء لكل ذنب بعذر يعتذر به عن إجرامه، فإنه لا ينفعه ذلك مهما جادل عن نفسه، لأن شاهده من نفسه يكذب عذره، ولو أنه كان في دنياه قد أرخى الستور، وأغلق الأبواب ليخفي ما يعمل، فلا يمكن للإنسان أن يهرب من نتائج عمله مهما حاول، لأن جوارحه شاهدة عليه، ولأن أعذاره غير مقبولة، لأنها جاءت في غير وقتها بعد أن فات وقت الندم والتوبة:

﴿ يَوْمَ لَا يَنفَعُ الظَّالِمِينَ مَعَذِرَتُهُمْ وَلَهُمُ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ ﴾ [غافر: ٥٢].

فالعبد إن أنكر أعماله أو اعتذر عنها، فإن هذا لا يفيد له لأن سمعه وبصره ولسانه وسائر جوارحه تشهد عليه بما عمل، ولو أنه طلب العتبي لا يقبل منه، لأنه قد ذهب وقتها ﴿ فَيَوْمَذِي لَا يَنفَعُ الَّذِينَ ظَلَمُوا مَعَذِرَتُهُمْ وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ ﴾ [الروم: ٥٧].

ومن معاذير الكفار يوم القيامة قولهم ﴿ رَبِّ ارْجِعُونِ ۖ ﴿١١﴾ لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحًا فِيمَا تَرَكْتُ ﴾

[المؤمنون: ٩٩، ١٠٠].

وقولهم: ﴿ مَا جَاءَنَا مِنْ بَشِيرٍ وَلَا نَذِيرٍ ﴾ [المائدة: ١٩].

وقولهم: ﴿ رَبَّنَا هَؤُلَاءِ أَضَلُّونَا فَتَاهُمْ عَذَابًا ضِعْفًا مِنَ النَّارِ ﴾ [الأعراف: ٣٨].

وقولهم: ﴿وَاللَّهِ رَبَّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾ [الأنعام: ٢٣].

وهكذا: ﴿يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ جَمِيعًا فَيَحْلِفُونَ لَهُ كَمَا يَحْلِفُونَ لَكَ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ عَلَىٰ شَيْءٍ إِلَّا إِنَّهُمْ هُمْ الْكَاذِبُونَ﴾

[المجادلة: ١٨].

كَيْفِيَّةُ تَلَقِّي رَسُولِ اللَّهِ ﷺ لِلْوَحْيِ

١٧، ١٦ - ﴿لَا تَحْرُكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ﴾^(١) ﴿إِنْ عَلَيْنَا جَمْعُهُ وَقَرَأْنَاهُ﴾^(٢)

جاء في أسباب النزول:

١- عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: (كان رسول الله ﷺ إذا نزل عليه القرآن يحرك به لسانه، يريد أن يحفظه، مخافة أن يتفلت منه، أو من شدة رغبته في حفظه، فكان يلاقي من ذلك شدة، فأنزل الله تعالى ﴿لَا تَحْرُكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ﴾^(٣)).

٢- وعن سعيد بن جبير عن ابن عباس ؓ قال: كان رسول الله ﷺ يعالج من التنزيل شدة، فكان يحرك شفتيه، فقال ابن عباس: أنا أحرك شفتي كما كان رسول الله ﷺ يحرك شفتيه، وقال سعيد: وأنا أحرك شفتي كما رأيت ابن عباس يحركهما فحرك شفتيه، فأنزل الله الآية^(٤).

٣- وفي لفظ لهما: كان رسول الله ﷺ إذا نزل عليه الوحي يلقي منه شدة، وكان إذا نزل عليه، عُرف في تحريك شفتيه، يتلقى أوله، ويحرك شفتيه خشية أن ينسى أوله قبل أن يفرغ من آخره، فأنزل الله الآية^(٥).

٤- قال الشعبي: كان رسول الله ﷺ لحرصه على أداء الرسالة، والاجتهاد في ذات الله

(١) عد الكوفي والحمصي ﴿لِتَعْجَلَ بِهِ﴾ آية، وتركها غيرهما.

(٢) قرأ ابن كثير بنقل حركة همزة ﴿قُرْآنًا﴾ إلى الساكن قبلها وكذا حمزة وقفاً.

(٣) ينظر: صحيح البخاري برقم (٤٩٢٧، ٤٩٢٨، ٤٩٢٩)، وصحيح مسلم برقم (٤٤٨)، والطيايلى (٢٧٥٠).

(٤) المسند (٣٤٣/١) برقم (٣١٩١) بإسناد صحيح على شرط الشيخين، والترمذي (٣٣٢٩)، والنسائي

(٩٣٤)، والطيايلى (٢٦٢٨)، والبخاري (٥٧٢٤)، ومسلم (٤٤٨)، ألفاظه متقاربة.

(٥) ابن كثير (٢٧٩/٤)، والمراجع السابقة.

تعالى، ربما أراد النطق ببعض ما أُوحي إليه قبل كمال إيراد الوحي^(١).

٥- وقال الضحاك: سببها أن رسول الله ﷺ كان يخاف أن ينسى القرآن، فكان يدرسه حتى غلب ذلك عليه وشق، فنزلت الآية في ذلك^(٢).

وفي الآية تعليم من الله تعالى لرسوله ﷺ في كيفية تلقي الوحي، فلا يبادره، ولا يسابقه، وقد تكفل الله له بجمعه في صدره، فلا تعجل يا رسولنا بالقرآن حين نزول الوحي عليك، مخافة أن يتفلت منك، بل تريث وتمهل حتى يفرغ جبريل من قراءته، ثم اقرأ بعده.

وكذلك الحال بالنسبة لمن يتلقى القرآن على شيخه، عليه ألا يعاجله في النطق وسرعة التقاط الألفاظ قبل أن يكمل الشيخ قراءتها أو تصويبها له.

وعليه ألا يبادر ويسابق المعلم قبل أن يفرغ مما شرع فيه، فإذا فرغ وأكمل كلامه، سأل عما أشكل عليه، وكذلك إذا كان في بدء كلام المعلم ما يوجب الرد أو الثناء عليه، فعليه أن ينتظر حتى يفرغ من كلامه حتى يتبين له أنه على حق أو على باطل فيما بداله.

والضمير في ﴿يَذَكِّرْ﴾ يعود على القرآن المفهوم من مقام التعجّل بالقراءة.

معنى آخر للآية:

ونقل الفخر الرازي عن القفال: إن الخطّاب في ﴿لَا تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ﴾ يعود على الإنسان السابق ذكره في ﴿يُبَيِّنُ الْإِنْسَانُ﴾ بمعنى أن الإنسان عندما يُخَبَّرُ بقبائح أعماله يوم القيامة، ويأخذ في قراءة كتابه، يتلجلج لسانه، فيقال له: إنا سنجمع لك أعمالك ونقرئك إياها، فإذا قرأناه عليك فاتبع قراءته بالإقرار بما فيه، وعلينا بيان مراتب عقوبته. قال القفال: فهذا وجه حسن، ليس في العقل ما يدفعه.

قلت: هو تفسير يناسب سياق الآيات قبله، ولكن الأحاديث الواردة في سبب نزول الآية، توحى بأن هذه الآيات الأربع، معترضة في السورة، وهي في ثنايا الحديث عن يوم القيامة، لبيان الغرض الذي أنزلت من أجله، وهو كيفية تلقي الوحي، فأمر الله

رسوله ألا يسارع في أخذ الآيات من الوحي حتى يفرغ من قراءتها عليه، والقرآن هو الذي أعلمنا بأحوال يوم القيامة وما فيه، فالمناسبة قائمة.

ثم طمأن الله تعالى رسوله ﷺ بأنه سيحفظ القرآن كله، ويجمعه الله له في صدره، ويقرئه إياه ﴿إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ﴾ وهذا وعد من الله تعالى لرسوله ﷺ بتحفيظه حروفه وكلماته وألفاظه وعدم نسيانها، كما قال تعالى ﴿سَنُقْرِئُكَ فَلَا تَنْسَى﴾ [الأعلى: ٦] وقرأه بعد ذلك بلسانك ماشئت، وكان رسول الله ﷺ لا يعلم ختم السورة حتى تنزل عليه بسم الله الرحمن الرحيم.

كَيْفِيَّةُ تَلْقَى النَّاسِ الْقُرْآنَ الْكَرِيمَ

١٩، ١٨ - ﴿فَإِذَا قَرَأْتَهُ^(١) فَانصتْ لِقُرْآنِهِ^(٢)﴾ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ ﴿

أي: فإذا قرأنا القرآن عليك - أيها الرسول - بقراءة جبريل ﴿فَإِذَا قَرَأْتَهُ﴾ فاستمع لقراءته وأنصت له، ثم اقرأه كما أقرأك إياه، وبهذا فإن جبريل عليه السلام هو الذي علم الرسول ﷺ كيف يقرأ القرآن، والرسول ﷺ علم أصحابه كذلك، وكان النبي ﷺ يوكل بكل من أسلم أو هاجر من يعلمه القرآن.

وهكذا أرسل عثمان ؓ معلماً مع كل مصحف مُرْسَلٍ إلى الأمصار، ليعلمهم إياه بلسانهم، الذي هو وجه من وجوه القراءات التي نزل بها القرآن.

ونُقل القرآن بالتواتر من الصحابة إلى التابعين، وجاء عصر القراء في القرن الثاني الهجري، وأكثرهم كان بينه وبين الصحابي شخص واحد أو اثنين، وقد تفرغ هؤلاء القراء وتصدّوا للقراءة والإقراء، فنسبت القراءات إليهم لأنهم اشتهروا بها، وضبط لنا القراء الأداء المتواتر عن رسول الله ﷺ ووضعوا له القواعد التي تحفظ صفته المنقولة عن رسول الله ﷺ كما وُضعت قواعد اللغة والبلاغة وغيرهما، وهذه الآية لبيان كيفية تلاوة القرآن الكريم.

(١) قرأ أبو جعفر وأبو عمرو بإبدال همزة ﴿قُرْآنَهُ﴾ ألفاً وصلًا ووقفًا وحمزة وقفًا.

(٢) نقل ابن كثير حركة الهمز في ﴿قُرْآنَهُ﴾ إلى الساكن قبلها، ووافقه حمزة وقفًا.

وبعد أن ضَمِنَ الله لرسوله حِفْظَ أَلْفَاظِ الْقُرْآنِ وَمَبْنَاهُ، تكفل له أيضاً ببيان وتوضيح ما أُشْكَلَ عليه فهمه من معانيه وأحكامه، وهذه الآية تتعلق بتفسير القرآن وتوضيح معانيه وأحكامه، فاتبع حلاله واجتنب حرامه، واعمل بطاعته واترك معصيته.

ونظير هذه الآيات قوله تعالى: ﴿وَلَا تَعْجَلْ بِالْقُرْآنِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يُقْضَىٰ إِلَيْكَ وَحْيُهُ ۚ وَقُلْ رَبِّ زِدْنِي عِلْمًا﴾ [طه: ١١٤] وهكذا وعد الله رسوله بثلاثة أشياء هي:

١- جمع القرآن في صدره ﷺ. ٢- وتلاوته له كما أنزل. ٣- وتفسيره وإيضاحه له وفهم معانيه.

حُبُّ الدُّنْيَا وَالانْغِمَاسُ فِي الشَّهَوَاتِ هُوَ سَبَبُ انْكَارِ الْبَعْثِ

٢٠، ٢١- ﴿كَلَّا بَلْ يُحِبُّونَ ^(١)الْعَاجِلَةَ ﴿٢٠﴾ وَيَذُرُونَ الْآخِرَةَ﴾

وبعد هذه الآيات الأربع المتعلقة بحفظ القرآن وتلاوته وتدبر معانيه، تعود السورة إلى تنمة الكلام عن معاذير الكفار الباطلة التي يُبدونها حين يُخْبَرُ كل منهم بما قدم وأخر، وأن الحجة على الإنسان تقوم عليه من نفسه وليس من خارجه، وأنه مهما قدم من معاذير فلن يُقبل منه ﴿وَلَوْ أَلْقَىٰ مَعَاذِيرُهُ﴾.

بعد ذلك قال تعالى ﴿كَلَّا﴾ أي ليس الأمر كما زعمتم - أيها المكذبون - أنه لا بعث ولا حساب ولا جزاء، وإنما السبب في تكذيبهم بيوم الدين، هو حب الدنيا والانغماس في شهواتها وملذاتها، والغفلة والإعراض، وعدم الإيمان بالآخرة والعمل لها ﴿بَلْ يُحِبُّونَ الْعَاجِلَةَ﴾ أي أنكم تحبون الدنيا وزينتها وتعملون لها، وتسعون في تحصيلها وتؤثرونها على الآخرة، لأن لذتها عاجلة، والآخرة لذتها آجلة، فلهذا غفلتم عنها، ولو أنكم آثرتُم الآخرة على الدنيا ونظرتُم في عواقب الأمور، لفزتم وسعدتم سعادة مابعد شقاء.

قال تعالى: ﴿إِنَّ هَؤُلَاءِ يُحِبُّونَ الْعَاجِلَةَ وَيَذُرُونَ وَرَاءَهُمْ يَوْمًا نَقِيلًا﴾ [الإنسان: ٢٧].

إنكم تتركون العمل لما بعد الموت، وتنسون دار القرار والنعيم المقيم.

(١) قرأ ابن كثير وأبو عمرو وابن عامر ويعقوب بياء الغيب في ﴿يُحِبُّونَ وَيَذُرُونَ﴾ والباقون بياء الخطاب فيهما.

وحب العاجلة مع ترك العمل للآخرة هو المذموم، أما حب الدنيا مع محبة الآخرة، بامثال الأوامر واجتناب النواهي فهو غير مذموم، بل فيه الموازنة المطلوبة بين الدنيا والآخرة. كما قال تعالى: ﴿وَابْتَغِ فِيمَا ءَاتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ وَلَا تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا﴾ [القصص: ٧٧].

وقال سبحانه: ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ﴾ [الأعراف: ٣٢]. ثم ذكر سبحانه وتعالى ما يدعو إلى إيثار الآخرة على الدنيا، ببيان حال أهلها واختلاف جزاء من يحبون الدنيا ومن يحبون الآخرة:

الْوُجُوهُ النَّاصِرَةُ تَسْعَدُ بِرُؤْيَا رَبِّهَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ

٢٣، ٢٢ - ﴿وُجُوهُ يُؤْمِرُ نَاصِرَةٌ ﴿٢٢﴾ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاطِرَةٌ﴾

ثم وصف الله تعالى ما يكون في يوم القيامة من انقسام الناس إلى فريقين: أبرار وفجار، أو سعداء وأشقياء، حيث تشرق وجوه المؤمنين وتسود وجوه الكافرين، علامة لكل منهما على خاتمته ﴿فَرِيقٌ فِي الْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِي السَّعِيرِ﴾ [الشورى: ٧] ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُنْفِرُونَ﴾ [الروم: ١٤] ﴿وُجُوهُ يُؤْمِرُ﴾ يوم القيامة ﴿نَاصِرَةٌ﴾ مشرقة حسنة مضيئة من بشاشة السرور وأثر النعيم، وهم أهل السعادة الذين قال الله فيهم ﴿تَعْرِفُ فِي وُجُوهِِهِمْ نَضْرَةَ النَّعِيمِ﴾ [المطففين: ٢٤].

من النضرة، وهي الحسن والجمال، وقد نضر الله تلك الوجوه وحسنها للنظر إليه سبحانه. وهذه الوجوه الناصرة، تسعد برؤية خالقها، وتتمتع بالنظر إلى وجهه الكريم، حسب مراتبها، منهم من يتمتع بالنظر، بكرة وعشيا، ومنهم من ينظر كل أسبوع مرة، وهكذا فإذا رأوا ربهم أنساهم ذلك كل نعيم، وحصل لهم من البهجة والسرور ما لا يمكن وصفه فهي في يوم القيامة ﴿إِلَىٰ رَبِّهَا نَاطِرَةٌ﴾ وهذه الرؤية أعظم نعيم لأهل الجنة، كما قال تعالى ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ﴾ [يونس: ٢٦] وفُسرَت الزيادة بأنها النظر إلى وجه الله الكريم.

وبهذا صحت الأحاديث عن رسول الله ﷺ:

١- كما في الصحيحين وغيرهما عن أبي سعيد الخدري، وأبي هريرة رضي الله عنهما

أَنْ نَاساً قَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ، هَلْ نَرَى رَبَّنَا. يَوْمَ الْقِيَامَةِ؟ قَالَ: «هَلْ تَصَارُونَ فِي رُؤْيَةِ الشَّمْسِ وَالْقَمَرِ إِذَا كَانُوا صَحْوًا؟» قُلْنَا: لَا، قَالَ: «فَإِنَّكُمْ لَا تَصَارُونَ فِي رُؤْيَةِ رَبِّكُمْ يَوْمَئِذٍ، إِلَّا كَمَا تَصَارُونَ فِي رُؤْيَيْهِمَا»^(١).

ومعنى تضارون: ينالكم ضرر، بحيث يراهما بعضكم ولا يراهما الآخرون.

٢- وفي البخاري وغيره عن جرير بن عبد الله رضي الله عنه قال: كنا جلوساً عند النبي ﷺ إذ نظر إلى القمر ليلة البدر، قال: «إِنَّكُمْ سَتَرُونَ رَبِّكُمْ كَمَا تَرُونَ هَذَا الْقَمَرَ لَا تَضَامُونَ فِي رُؤْيَيْهِ، فَإِنْ اسْتَطَعْتُمْ أَنْ لَا تُغْلِبُوا عَلَى صَلَاةٍ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَصَلَاةٍ قَبْلَ غُرُوبِ الشَّمْسِ فَافْعَلُوا، ثُمَّ قَرَأَ ﴿وَسَيَحْمَدُ رَبَّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا﴾»^(٢) [طه: ١٣٠].

ومعنى لا تضامون أي لا ينضم بعضكم إلى بعض، ولا تزدهمون وقت النظر إليه وورد بتخفيف الميم، أي لا ينالكم ضيم في رؤيته، فيراه بعضكم دون بعض. وعلى هذا فإن معنى تضامون وتضارون واحد.

٣- وعن الزهري قال: أخبرني سعيد بن المسيب، وعطاء بن يزيد الليثي، أن أبا هريرة رضي الله عنه أخبرهما: أن الناس قالوا: يا رسول الله، هل نرى ربنا يوم القيامة؟ قال: «هَلْ تُمَارُونَ فِي الْقَمَرِ لَيْلَةَ الْبَدْرِ لَيْسَ دُونَهُ حِجَابٌ؟» قالوا: لَا، يَا رَسُولَ اللَّهِ، قال: «فَهَلْ تُمَارُونَ فِي الشَّمْسِ لَيْسَ دُونَهَا سَحَابٌ؟» قالوا: لَا، قال: «فَإِنَّكُمْ تَرُونَهُ كَذَلِكَ»^(٣).

٤- وعن عبادة بن الصامت رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «إِنِّي قَدْ حَدَّثْتُكُمْ عَنِ الدَّجَالِ أَنَّهُ أَعُورٌ، وَإِنْ رَبِّكُمْ لَيْسَ بِأَعُورٍ، وَإِنَّكُمْ لَنْ تَرَوْا رَبَّكُمْ حَتَّى تَمُوتُوا»^(٤).

(١) صحيح البخاري برقم (٧٤٣٧، ٧٤٣٨)، وصحيح مسلم برقم (١٨٢)، والطحاوي (٢٢٩٣)، والمسند (١١١٢٠).

(٢) صحيح البخاري برقم (٧٤٣٤، ٧٤٣٦)، وصحيح مسلم برقم (٦٣٣).

(٣) البخاري (٨٠٦)، ومسلم (١٨٢).

(٤) ينظر: المسند (٢٢٧٦٤)، وفيه ابن الوليد ضعيف، وانظر سنن أبي داود (٤٣٢٠)، والبخاري في مسنده (٢٦٨١)، والنسائي في الكبرى (٧٧٦٤) وابن أبي عاصم في السنة (٤٢٨) وغيرهم، وقد جاء وصف الدجال عن عدد كبير من الصحابة صحت بها الأحاديث منهم: جابر وأنس وابن عمر والناس وعائشة وابن عباس وأبي بكرة وغيرهم، وبعضها في المسند بأرقام (٢٠٤٠، ١٧٦٢٩، ١٤١١٢، ١٢٠٠٤، ٤٨٠٤، ٢١٤٨)، وغيرها.

٥- وروى مسلم عن صهيب بن سنان رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «إذا دخل أهل الجنة الجنة، يقول الله تعالى: تريدون شيئاً أزيدكم؟ فيقولون: ألم تبيض وجوهنا، ألم تدخلنا الجنة وتنجنا من النار؟ قال: فيكشف الحجاب، فما يُعطون شيئاً أحب إليهم من النظر إلى ربهم»^(١).

٦- وفي الصحيحين عن أبي موسى رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «جنتان من فضة، أنيتهما وما فيهما، وجنتان من ذهب أنيتهما وما فيهما، وما بين القوم وبين أن ينظروا إلى الله، إلا رداء الكبرياء على وجهه في جنة عدن»^(٢).

والمؤمنون يرون ربهم في عرصات القيامة، وفي رؤصات الجنات كما في صحيح مسلم وغيره عن جابر رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «إن الله يتجلى للمؤمنين يضحك»^(٣). وفيه إثبات الضحك لله تعالى، وهو سبحانه ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ [الشورى: ١١].

٧- عن أبي رزّين قال: قلت: يا رسول الله، أكلنا يرى ربه يوم القيامة، مُخْلِياً - أي مُتَفَرِّداً - به؟ قال: «نعم» قلت: وما آية ذلك؟ قال: «أليس كلكم يرى القمر ليلة البدر مُخْلِياً به؟» قلت: بلى، قال: «فالله أعظم»^(٤).

٨- وعن عمار بن ياسر رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يدعو بهؤلاء الدعوات: (اللهم بعلمك الغيب، وقدرتك على الخلق، أخيني ما علمت الحياة خيراً لي، وتوفني إذا كانت الوفاة خيراً لي، اللهم إني أسألك خشيتك في الغيب والشهادة، وأسألك كلمة الحُكم في الغضب والرضا، وأسألك القصد في الفقر والغنى، وأسألك نعيماً لا يبيد، وقرة عين لا تنقطع، واسألك الرضا بعد القضاء، وأسألك بزد العيش بعد الموت،

(١) صحيح مسلم برقم (١٨١).

(٢) صحيح البخاري برقم (٧٤٤٤)، وصحيح مسلم برقم (١٨٠).

(٣) ينظر حديث جابر في صحيح مسلم (١٩١)، والمسند (١٤٧٢١)، والدارقطني في الصفات (٣٣).

(٤) أبوداود (٤٧٣١)، وابن ماجه (١٨٠)، وحسنه الألباني في صحيح سنن أبي داود (٣٩٥٧).

وَأَسْأَلُكَ لَذَّةَ النَّظَرِ إِلَى وَجْهِكَ، وَالشَّوْقَ إِلَى لِقَائِكَ فِي غَيْرِ ضَرَاءٍ مُضِرَّةٍ، وَلَا فِتْنَةٍ مُضِلَّةٍ، اللَّهُمَّ زَيِّنَا بِزِينَةِ الْإِيمَانِ، وَاجْعَلْنَا هِدَاةَ مَهْتَدِينَ^(١).

وفسر بعضهم ﴿إِنَّ رَبَّهَا نَاطِرَةٌ﴾ بمعنى منتظرة، تتوقع ما يحكم الله به عليها، وتنتظر الثواب من ربها، وهذا تأويل بعيد، يصادم الأخبار المتواترة عن رسول الله ﷺ فيما يدل عليه سياق الآية.

كما قال الحسن: تنظر إلى الخالق، وحُق لها أن تنظر^(٢).

وقال ابن عباس رضي الله عنهما: تنظر إلى ربها عياناً بلا حجاب.

وأجمع أهل السنة على أن رؤية الله تعالى غير مستحيلة عقلاً، وأجمعوا على أنها تقع في الآخرة، وأن المؤمنين يرون ربهم دون الكافرين لقوله تعالى عنهم ﴿كَلَّا إِنَّهُمْ عَنْ رَبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَمَحْجُورُونَ﴾ [المطففين: ١٥].

قال الشافعي: ما حَجَبَ الفجَار، إلا وقد علم أن الأبرار يرونه عز وجل.

وقد ثبتت رؤية الله تعالى في الآخرة للمؤمنين عن عشرين من أصحاب رسول الله ﷺ.

ولا يشترط في هذه الرؤية مقابلة المرئي، ولا اتصال الأشعة، ولا الإحاطة بالمرئي،

ولا نحو ذلك، بل ينظرون إلى ربهم بلا كيفية، ولا حدٍّ محدود، ولا صفة معلومة،

وأكرم أهل الجنة على الله تعالى من ينظر إلى وجهه تعالى غَدَوَةً وَعَشِيًّا.

الْوُجُوهُ الْعَابِسَةُ تَتَيَقَّنُ الْهَلَكَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ

٢٥، ٢٤ - ﴿وُجُوهٌُ يَوْمَئِذٍ بِآسِرَةٍ ﴿٢٤﴾ تَتَنَبَّأُ أَنْ يُفْعَلَ بِهَا فَاقِرَةٌ﴾

هذا هو الفريق الآخر، وهم أهل الشقاء، فإن وجوههم يوم القيامة تكون عابسة

كالحة مسودة، قد أدركها اليأس، وعَدِمَتْ آثار النعمة والسرور، فهي شديدة العبوس،

(١) حديث صحيح، في صحيح النسائي (١٢٣٧، ١٢٣٨)، وفي سنن النسائي (١٣٠٤، ١٣٠٥)، والبيهقي في

الأسماء والصفات (٢٢٧، ٢٤٤)، وابن أبي شيبة (١٠/٢٦٤).

(٢) تفسير الطبري (٢٩/١١٩).

وهي وجوه الأشقياء أهل الجحيم.

وهذه الوجوه العابسة تتوقع أن تنزل بها مصيبة عظيمة تفصم فقار الظهر، وتتيقن أنها هالكة فلذلك تغيرت وجوههم وعبست، فهي ﴿تَنْظُنُّ﴾ أي توقن ﴿أَنْ يَفْعَلَ بِهَا فَاقِرَةٌ﴾ أي تحل بها داهية.

١ - قال تعالى ﴿وَجُوهٌ يَوْمَئِذٍ مُّسْفِرَةٌ ۖ صَاحِكَةٌ مُّسْتَبْشِرَةٌ ۖ وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ غَاسِقَةٌ ۖ تَهْفِئُهَا فَتْرَةٌ ۚ أُولَٰئِكَ هُمُ الْكَافِرَةُ الْفَجَرَةُ﴾ [عبس: ٣٨-٤٢].

٢ - وقال سبحانه: ﴿وَجُوهٌ يَوْمَئِذٍ خُشِعَةٌ ۚ عَامِلَةٌ نَّاصِبَةٌ ۚ تَصَلَّىٰ نَارًا حَامِيَةً﴾ [الغاشية: ٢-٤].

٣ - وقال جل شأنه: ﴿وَجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاعِمَةٌ ۚ لِّسَعْيِهَا رَاضِيَةٌ ۚ فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ﴾ [الغاشية: ٨-١٠].

٤ - وقال أيضا: ﴿يَوْمَ بَيَضَ وُجُوهٌ وَاسْوَدَّ وُجُوهٌ﴾ [آل عمران: ١٠٦].

لَا أَحَدَ يَمْلِكُ رَدَّ الرُّوحِ لِمُحْتَضَرٍ إِلَّا اللَّهُ

٢٦-٢٨ - ﴿كَلَّا إِذَا بَلَغَتِ التَّرَاقِيَ ۖ وَقِيلَ ۖ مَنْ رَاقٍ ۖ وَظَنَّ أَنَّهُ الْفِرَاقُ ۖ

وهذا اليوم، يوم حق، فيا من تحبون العاجلة، وتذرون الآخرة، تأكدوا أن الدنيا دار فناء، وأنكم لن تخلدوا فيها، بل لابد أن تتجرعوا كأس المنية، وذلك حين تصل الروح إلى أعلى الصدر، فلفظ ﴿كَلَّا﴾ بمعنى حقا ﴿إِذَا بَلَغَتِ التَّرَاقِيَ﴾ أي إذا حُشِرت الروح أو النفس في الحنجرة، حيث تخرج الأنفاس الأخيرة، فلا يُسمع لها صوت إلا في جهة التزقوة، فحينئذ يشتد الكرب، ويعظم الهول، وذلك في آخر حالات الاحتضار. ولكل إنسان تزقوتان عن يمينه وعن شماله في ثغرة النحر، في العظام المحيطة بأعلى الصدر.

قال تعالى: ﴿فَلَوْلَا إِذَا بَلَغَتِ الْحُلُقُومَ ۖ وَأَنْتُمْ حِينِيذٍ نُّظُرُونَ ۖ وَإِنَّكُمْ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْكُمْ وَلَكِنْ لَا

(١) قرأ هشام والكسائي ورويس بالإشمام في ﴿يَقِيلُ﴾ والباقون بالكسرة الخالصة.

(٢) قرأ حفص بخلف عنه بالسكت على نون ﴿مَنْ﴾ سكتة لطيفة من غير تنفس، لئلا يتوهم أنها اسم فاعل من المروق، وقرأ الباقون بعدم السكت على الأصل، وهو الوجه الثاني لحفص.

تُبْصِرُونَ ﴿٨٥﴾ فَلَوْلَا إِن كُنتُمْ غَيْرَ مَدِينِينَ ﴿٨٦﴾ تَرْجِعُونَهَا إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿٨٧﴾ [الواقعة: ٨٣-٨٧].

وحين تبلغ الروح الحلقوم، يُبحث للمريض عن كل سبب، وكل وسيلة يحصل بها الشفاء، ويطلب للمحتضر، الأطباء والعلاج، ويتلمس الحاضرون حوله سبل الشفاء بأية وسيلة، فيبحثون له عن راق يرقيه ليشفى ﴿وَقِيلَ مَنْ رَاقٍ﴾ وذلك عند أول مرحلة من مراحل الآخرة، فاذكروا - أيها الناس - وقت بلوغ الروح نهايتها، واتعظوا وتأملوا حين يقف من يهتمهم أمر المحتضر، مستسلمين لقضاء الله تعالى، متلمسين له كل معالج بالطب أو الرقية لإنقاذه، مما هو فيه، ولكنهم لا يجدون من يحقق لهم آمالهم.

الرقية عادة قديمة:

والرقية عادة عربية قديمة، ورثها العرب، للتبرك بأهل الصلاح، وطلب الشفاء من الله تعالى، وأصلها وارد في الشرائع السماوية، ومن ذلك حديث الذين أتوا على حيٍّ من أحياء العرب وقد لدغ سيدهم، فالتمسوا له راقياً، وسألوا أهل السرية، هل فيكم من راق؟ فقرأ عليه أحدهم سورة الفاتحة فشفاه الله^(١).

وقد دخل على الرقية، كثير من البدع والشعوذة والسحر، واستغلها قوم فاتخذوها حرفة، وخلّوا بالرجال تارة، وبالنساء تارة، واختلط فيها الخبيث بالطيب، وصارت مصدراً للتكسب ومهنة وحرفة، والأولى أن يقرأ الإنسان على نفسه، ويقرأ عليه من هم معه في البيت، إذ ليس للرقية أشخاص معينة، وإنما يتقبل الله من المتقن، والله أعلم بأهل التقوى والولاية.

وعندئذ يتيقن الإنسان أنه مشرف على الموت، مودّع للدينا، مفارق أهله وأحبابه، فراق لا لقاء بعده إلى يوم الساعة، وهذا معنى: ﴿وَنَظَّ﴾ أي أيقن وعلم الذي بلغت روحه التراقي ﴿أَنَّهُ أَفْرَاقُ﴾ من الدنيا ومن الأهل والمال والولد، فقد شاهد ملائكة الموت وهو يحتضر، ورأى مقعده من الجنة لو كان مؤمناً، ومقعده من النار لو كان

(١) الحديث في البخاري، وغيره عن أبي سعيد وابن عباس في الرقية بفاتحة الكتاب، ينظر نصه وتخرجه في تفسير الفاتحة، مبحث الرقية بالفاتحة.

كافراً، ويكون هذا في آخر يوم من الدنيا وأول يوم من الآخرة فتلتقي الشدة بالشدة إلا من رحم الله.

وعندما تنقطع الآمال من الأسباب العادية، ولا يبقى إلا الأسباب الإلهية، ولكن قضاء الله وقدره إذا جاء فلا مرد له:

فِي الطَّرِيقِ إِلَى الْقَبْرِ لَا يَنْحَبُ الْإِنْسَانُ إِلَّا عَمَلُهُ

٣٠، ٢٩ - ﴿وَأَلْفَتْ السَّاقُ السَّاقَ ۖ إِنَّ رَبَّكَ يَوْمَئِذٍ الْمَسَاقُ﴾

وعندما يُذكر الموت الإنسان، تلتف إحدى ساقيه بالأخرى فتلتصق بها، وتُلوّى عليها، حيث تُلفّ الأكفان على ساقيه، وتوضع الساق على الساق في الكفن وهو في إدبار عن الدنيا وإقبال على الله تعالى، فيعظم الأمر ويشد الكرب، وتتوالى على المرء الشدائد في أول يوم من أيام الآخرة، وآخر يوم من أيام الدنيا، حيث يكون السؤال في البرزخ، ويستشعر العبد مصيره إما إلى الجنة وإما إلى النار.

قال سعيد بن المسيب: (هما ساقا العبد حين تُلفَّان في أكفانه)^(١).

لقد ماتت ساقاه فلم تحملاه، وقد كان عليهما جؤالاً.

لقد ألّفت الروح البدن، وامتزجا وقتاً طويلاً، فعزَّ عليهما الفراق، وشق عليهما الافتراق،

ولم تزل مع صاحبها وهو يساق إلى ربه، حتى يُسأل ويُجازى بعمله ويقرر بأفعاله.

ثم يؤخذ بالميت إلى قبره، إلى أين يا عبد الله؟ يا من كنت تحب الدنيا، وتنكر الحساب والجزاء في الآخرة؟ إلى أين أنت ذاهب الآن؟ وقد التفت إحدى ساقيك بالأخرى، وتركت المال والجاه والزوجه والولد، ورجعت إلى ربك فرداً وحيداً، عارياً من كل شيء إلا من الكفن الذي يستر عورتك، إلى أين أنت متجه؟ ﴿إِنَّ رَبَّكَ يَوْمَئِذٍ الْمَسَاقُ﴾ حيث تساق الأرواح إلى ربها بعد قبضها من الأجساد، إلى الله المرجع والمصير، وإليه ينساق العباد في يوم التناد، إما إلى الجنة وإما إلى النار، بعد الفصل والقضاء.

(١) تفسير الكشاف (٤/٦٦٣).

صحَّ عن عبادة بن الصامت رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «من أحب لقاء الله أحب الله لقاءه، ومن كره لقاء الله كره الله لقاءه» قالت: عائشة أو بعض أزواجه: إنا نكره الموت؟ قال: «ليس ذاك، ولكن المؤمن إذا حضره الموت بُشِّرَ برضوان الله وكرامته، فليس شيء أحب إليه مما أمامه، فأحب لقاء الله، وأحب الله لقاءه، وإن الكافر إذا خُضر، بُشِّرَ بعذاب الله وعقوبته، فليس شيء أكره إليه مما أمامه، فكره لقاء الله، وكره الله لقاءه»^(١).

هذه الذكرى وهذه الموعظة، وهذا الردع والزجر، الذي جاء في هذه السورة، من شأنه أن يسوق القلوب إلى ما فيه نجاتها، وتجنب ما فيه هلاكها، ولكن المكذب المعاند لا ينتفع ويظل مستمرا على كفره وبغيه وعناده:

مَصِيرُ الشَّقِيِّ الْجَاهِدِ لَوَحْدَانِيَّةِ اللَّهِ الْمُكَذِّبِ بِلِقَائِهِ

٣١-٣٣- ﴿فَلَا صَدَقَ وَلَا صَلَّى﴾ (٣١) وَلَكِنْ كَذَّبَ وَتَوَلَّى (٣٢) ثُمَّ ذَهَبَ إِلَى أَهْلِهِ يَتَمَطَّى ﴿٣٣﴾

ثم أخبر سبحانه عن حال الجاهد لوحدانية الله، المكذب بلقاء ربه، المنكر للحساب والجزاء، الذي لم يؤمن بقلبه ولم يعمل ببدنه، فلا هو آمن بالرسول والقرآن، ولا أدى لله تعالى فرائض الصلاة، وكان يحسب أن الله لن يجمع عظامه، فلم يستعد للحساب والجزاء. وكذب هذا الشقي بالرسول الخاتم، وبكتابه المنزل عليه، وكذب بالبعث والنشور، وأعرض عن الاستجابة لشرائع الإسلام، وأعرض عن النظر والتدبر في آيات الله الكونية، وآيات الله المسطورة، وتولى عن الطاعة والإيمان.

ثم إن الكافر لم يكتف بعدم الاستعداد للآخرة، ولم يعبأ بدعوة رسول الله ﷺ فحسب، بل كان يعود إلى بيته وهو يتبختر في مشيته إعجاباً بنفسه وشعوراً بالزهو والخيلاء ﴿ثُمَّ ذَهَبَ﴾ أي مضى ﴿إِلَى أَهْلِهِ يَتَمَطَّى﴾ أي يختال في مشيته، ويمد خطاه فخراً وتكبراً وتبختراً، وثاقلاً عن داعي الحق وتكاسلاً عن الطاعة والخير، ولم يُبال بشيء.

قال زيد بن أسلم: كانت مشية بني مخزوم مشية تبختر، كما قال تعالى: ﴿وَإِذَا أَنْقَلَبُوا

(١) أخرجه البخاري (٦٥٠٧)، ومسلم (٢٦٨٣).

إِلَىٰ أَهْلِهِمْ أَنْقَلِبُوا فَكَيْهِنَّ ﴿المطففين: ٣١﴾ .

وقال سبحانه: ﴿إِنَّهُ كَانَ فِي أَهْلِهِ مَسْرُورًا﴾ (١٣) إِنَّهُ ظَنَّ أَنْ لَنْ يَحُورَ ﴿[الانشقاق: ١٣، ١٤]﴾ . قال تعالى:

٣٥، ٣٤ - ﴿أَوَلَيْكَ فَالُوكَ ﴿٣٤﴾ ثُمَّ أَوَلَيْكَ فَالُوكَ ﴿٣٥﴾﴾

أصل هذه الكلمة: أُولَئِكَ الله ما تكرهه، أي وَلَيْكَ الويل وتكرر عليك مراراً وتكراراً، فهي جملة وعيد، وردت في لغة العرب، وجرت مجرى المثل في التخويف والتحذير والتهديد. ومعناها: ويل لك، دعاء عليه بأن يليه المكروه، و﴿فَالُوكَ﴾ أفعل تفضيل منها: أي أشد هلاكاً لك.

وقد توعد الله تعالى في الآية مَنْ كانت هذه صفته، فهَدَّده بالهلاك والويل، والدعاء عليه بأنه سيجد أمامه ما يكره، فهو الأَجْدَرُ والأَحَقُّ بنزول العذاب به، فويل له ثم ويل له. ويل له يوم يموت، وويل له في قبره، وويل له يوم يُبعث، وويل له في النار. أي: أولى بك أيها الكافر، هذا العذاب الذي ينتظرك قريباً، فهو الأَجْدَرُ بك، لأنك مَتَّ مصراً على الكفر.

وقد أكد الله تعالى هذا الوعيد مرة أخرى، ليتنبه كل كافر، ويحذر الآخرة قبل أن تنزل به العقوبة ﴿ثُمَّ أَوَلَيْكَ فَالُوكَ﴾ والآيات تعم كل من لم يؤمن بالله ورسوله واليوم الآخر، ولم يؤد فرائض الصلاة.

سبب النزول:

ومما جاء في أسباب النزول أن أبا جهل (عمرو بن هشام) كان يأتي إلى النبي ﷺ أحياناً يسمع منه القرآن، ثم يذهب عنه فلا يؤمن ولا يطيع، ويؤذي رسول الله ﷺ بالقول، ويصد عن سبيل الله، ثم يعود إلى أهله فخوراً مُعْجَباً بما ارتكب من شر. وعن قتادة أن النبي ﷺ أخذ بخناق أبي جهل مرة، وهزه وهو يقول له: ﴿أَوَلَيْكَ فَالُوكَ﴾ (٣٤) ثُمَّ أَوَلَيْكَ فَالُوكَ ﴿٣٥﴾ فقال أبو جهل: أتتوعدني يا محمد؟ والله لا تستطيع أنت ولا ربك شيئاً، وإني لأعزَّ مَنْ مشى بين جبليها - أي بين جبلي مكة - فأخذه الله يوم بدر على يد

أصحاب محمد ﷺ^(١).

وكان ﷺ يقول: «إن لكل أمة فرعوناً، وإن فرعون هذه الأمة أبو جهل»^(٢).

وكم في كل عصر ومصر، من أبي جهل وفرعون؟

عن سعيد بن جبير قال: (قلت لابن عباس رضي الله عنهما: ﴿أَوَلَيْكَ فَأُولَئِكَ﴾ أشيء قاله

رسول الله ﷺ لأبي جهل من قبل نفسه، أم أمره الله به؟ قال: بل قاله رسول الله، ثم أنزله الله)^(٣).

الْحِكْمَةُ مِنَ الْبَعْثِ وَالْثَوَابِ وَالْعِقَابِ

٣٦- ﴿يَحْسَبُ الْإِنْسَانُ أَنْ يُتْرَكَ سُدًى﴾

ثم ختم الله تعالى السورة ببيان الحكمة من البعث والجزاء، وتذكير الإنسان بخلقه الأول، فهل يظن الإنسان أن الله تعالى يتركه مهملاً كالبهائم المرسلة، فلا يكلفه في الدنيا بالأوامر والنواهي، ثم يتركه في الآخرة بلا حساب ولا جزاء، فيستوي من آمن بمن كفر، ويستوي من أطاع بمن عصى، ومن امثل بمن عاند وطغى، لا ينبغي للإنسان ولا يليق به أن يظن هذا الظن، فإن عدل الله تعالى يقتضي أن يثيب المحسن ويعاقب المسيء.

﴿يَحْسَبُ الْإِنْسَانُ﴾ أيظن المنكر للبعث ﴿أَنْ يُتْرَكَ سُدًى﴾ أي أن يترك هملاً، فلا يؤمر ولا

يُنهى، ولا يحاسب ولا يعاقب؟ ﴿أَفَجَعَلْنَا لِلظَّالِمِينَ كَالْغَيْرِمِينَ﴾ (٣٥) مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴿[القلم: ٣٥، ٣٦].

وقال سبحانه: ﴿أَفَمَنْ كَانَ مُؤْمِنًا كَمَنْ كَانَ فَاسِقًا لَا يَسْتَوُونَ﴾ [السجدة: ١٨].

وقال جل شأنه: ﴿أَمْ يَجْعَلُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَالْمُفْسِدِينَ فِي الْأَرْضِ أَمْ يَجْعَلُ الْمُتَّقِينَ

كَالْفُجَّارِ﴾ [ص: ٢٨].

(١) تفسير ابن كثير (٢٧١/٨)، والقرطبي (١١٤/١٩)، وابن عطية (٥)، والخازن (٣٣٧/٤)، وعبد الرزاق (٣٣٤/٢).

(٢) المصدران الآخران.

(٣) النسائي برقم (٦٥٨) قال محققه: إسناده صحيح ورجال إسناده ثقات، وفي الكبرى (١١٦٣٨)، والطبري

(٥٢٥/٢٣)، والطبراني في المعجم الكبير برقم (١٢٢٩٨)، وصححه الحاكم في المستدرک (٥١٠/٢)،

على شرط الشيخين ووافقه الذهبي وقال الهيثمي في مجمع الزوائد: (١٣٢/٧) رجاله ثقات.

هذا حسابان باطل، وظن لا يليق بالله تعالى، فإن من العدل والإنصاف عدم التسوية بين المؤمن والكافر، والمطيع والعاصي.

الخلق الأول دليل الخلق الثاني

٣٧-٣٩ ﴿الزَّيْطُ نُطْفَةٌ مِنْ مَنِيِّ يَتَنَّى^(١)﴾ (٣٧) ثُمَّ كَانَ عِلْقَةً فَخَلَقَ فَسَوَّى (٣٨) جَعَلَ مِنْهُ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالْأُنْثَى ﴿﴾

ثم ذكر سبحانه دليلاً بارزاً على قدرة الله تعالى على البعث بعد الموت، وليس في مقدور منكر البعث أن يرفضه، وهو بدء خلقه من نطفة، تُصَبُّ من ذكر الرجل في رحم المرأة، وهو ماء مهين ضعيف يخرج من مخرج البول، ويُراق أو يُصَب في الأرحام، وهذه هي المرحلة الأولى في خلق الإنسان.

ثم صارت هذه النطفة علقة تشبه الدودة، وهي قطعة دم متجمد، وهي المرحلة الثانية في خلق الإنسان، ثم كانت قطعة لحم بمقدار ما يمضغه الإنسان ﴿فَخَلَقَ﴾ الله منها الإنسان ﴿فَسَوَّى﴾ أي فعدله وأكمل نشأته ونفخ فيه الروح، وجعل صورته في أحسن تقويم ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾ [التين: ٤].

وقد خلق الله من هذا الإنسان: الرجل والمرأة، لتنظم الحياة، ويتم التناسل والتوالد منهما ﴿جَعَلَ مِنْهُ﴾ أي من الإنسان ﴿الزَّوْجَيْنِ﴾ أي الصنفين من البشر وهما ﴿الذَّكَرَ وَالْأُنْثَى﴾ بقدرته تعالى، هذا هو أصل الإنسان وتركيبه، فهل يليق بهذا الإنسان الضعيف أن يتكبر على طاعة الله تعالى، ويتمرد على خالقه، وينكر البعث والنشور؟ قال تعالى:

٤٠ ﴿أَلَيْسَ ذَلِكَ بِقَدِيرٍ عَلَى أَنْ يُحْيِيَ الْمَوْتَى﴾

والنتيجة المستخلصة من هذا الدليل أن من خلق الإنسان من نطفة، قادر على أن يعيد إليه الحياة بعد الموت، سواء بقي الجسم غير ناقص عند الموت، أو انتقص منه شيء عند الموت، أو تفتت أوصاله، أو احترق، أو ذُرِّي في الهواء، أو أكلته السباع، أو

(١) قرأ حفص ويعقوب وهشام بخلف عنه بالياء في ﴿يَتَنَّى﴾ على أن الضمير يعود على ﴿مَنِيِّ﴾ والباقون بالياء على أن الضمير يعود على النطفة، وهو الوجه الثاني لهشام.

أَغْرَقَ فِي الْمِيَاهِ ﴿أَلَيْسَ ذَلِكَ﴾ الَّذِي أَوْجَدَ الْإِنْسَانَ مِنْ مَاءٍ مِهِينٍ ﴿يَقْدِرُ عَلَى أَنْ يُخَيِّئَ الْوَلَقَّ﴾ بَعْدَ فَنَائِهِمْ؟ بَلَى إِنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ، وَسَيُعِيدُهُمْ إِلَى الْحَيَاةِ مَرَّةً أُخْرَى ﴿لِيَجْزِيَ الَّذِينَ أَسْتَوُوا يَمَّا عَلُوا وَيَجْزِيَ الَّذِينَ أَحْسَنُوا بِالْحُسْنَى﴾ [النجم: ٣١] ﴿قُلْ يُخَيِّبُهَا الَّذِي أَشْأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ [يس: ٧٩] وَإِعَادَةَ الْخَلْقِ أَهْوَنُ مِنَ الْبَدَايَةِ بِالنِّسْبَةِ لِمَفْهُومِ النَّاسِ، وَلِذَا قَالَ تَعَالَى ﴿وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ﴾ [الروم: ٢٧].

جاء في الأثر عن أبي هريرة رضي الله عنه: من قرأ منكم ﴿وَالَّذِينَ وَالَّذِينَ﴾ فانتهى إلى ﴿أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ الْخَوَكِيمِينَ﴾ فليقل: بلى وأنا على ذلك من الشاهدين.

ومن قرأ: ﴿لَا أَقِيمُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ﴾ فانتهى إلى ﴿أَلَيْسَ ذَلِكَ يَقْدِرُ عَلَى أَنْ يُخَيِّئَ الْوَلَقَّ﴾ فليقل: بلى.

ومن قرأ: ﴿وَالْمُرْسَلَاتِ﴾ فبلغ ﴿فَيَأْتِي حَدِيثٌ بَعْدَهُ يُؤْمِنُونَ﴾ فليقل: آمنا بالله^(١).

وعن موسى بن أبي عائشة قال: كان رجل يصلي فوق بيته، فكان إذا قرأ ﴿أَلَيْسَ ذَلِكَ يَقْدِرُ عَلَى أَنْ يُخَيِّئَ الْوَلَقَّ﴾ قال: سبحانك، بلى، فسأله عن ذلك فقال: سمعته من رسول الله ﷺ^(٢).

تم تفسير (سورة القيامة) والله الحمد والمنة

(١) سنن أبي داود برقم (٨٨٧)، والمسند (٢٤٩/٢) برقم (٧٣٩١) بإسناد ضعيف لجهالة الرواي عن أبي هريرة رضي الله عنه (محققوه)، والترمذي (٣٣٤٧)، والحاكم (٥١٠/٢)، والبيهقي (٣١٠/٢)، وفي إسناده: يزيد بن عياض، كذاب، وهو في ضعيف سنن أبي (داود ١٨٨).

(٢) أبوداود برقم (٨٨٤)، والبيهقي في السنن الكبرى (٣١٠/٢)، وهو في صحيح سنن أبي داود (٧٨٦).

تَفْسِيرُ سُورَةِ الْإِنْسَانِ (٧٦)

مُقَدِّمَةُ السُّورَةِ

(سورة الإنسان) هي السورة السادسة والسبعون في ترتيب المصحف، والثلاثون أو الحادية والثلاثون في ترتيب النزول، نزلت قبل (سورة القيامة) وبعد (سورة الرحمن). وعدد آياتها إحدى وثلاثون آية باتفاق، وهي مثنان وأربعون كلمة، وألف وأربعة وخمسون حرفاً.

أ - وسميت سورة ﴿هَذَا آقَ عَلَى الْإِنْسَنِ﴾ في زمن الصحابة، وبهذا جاء حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال: كان رسول الله ﷺ يقرأ في الفجر بـ (الم السجدة) و﴿هَذَا آقَ عَلَى الْإِنْسَنِ﴾^(١).

ب - واقتصر السيوطي على تسميتها بـ (سورة الإنسان).

ج - وتسمى في بعض المصاحف: (سورة الدهر).

ولفظاً: الإنسان، والدهر: وردا في الآية الأولى من السورة.

د - وسماها بعضهم (سورة الأمشاج). هـ - وسماها آخرون (سورة الأبرار).

فهذه خمسة أسماء لها هي: ﴿هَذَا آقَ عَلَى الْإِنْسَنِ﴾ والإنسان، والدهر، والأمشاج، والأبرار.

وهي من السور المختلف في كونها مكية أو مدنية، وقد وردت آثار عن الزبير تفيد أنها مدنية^(٢).

والأصح أنها مكية كما جاء عن ابن عباس^(٣) فإن موضوعها ومقاصدها من خصائص السور المكية.

(١) صحيح مسلم برقم (٨٨٠)، وصحيح البخاري (١٠٦٨، ٨٩١)، وابن ماجه (٨٢٣)، والنسائي في الكبرى (١١٣٢٩، ١٠٢٩)، والمسند (٩٥٦١)، وهو عن ابن عباس في مسلم (٨٧٩)، وأبي داود (١٠٧٤)، وابن ماجه (٨٢١)، والترمذي (٥٢٠)، والكبرى للنسائي (١١٥٧٥، ١٠٣٠)، والمسند (١٩٩٣)، وابن حبان (١٨٢٠).

(٢) كما في الدر المنثور (١٤٢/١٥).

(٣) وأخرجه النحاس (ص ٧٥٧).

موضوع السورة:

١- بدأت السورة ببيان قدرة الله تعالى في خلق الإنسان أطواراً، وتهيئته وإعدادة ليقوم بما كُلف به من أنواع العبادة، وقد زوّده الله تعالى بالسمع والبصر وسائر الحواس وأرشده إلى طريقي الهدى والضلال.

والمحور الأساس الذي تدور حوله السورة، هو اليوم الآخر، حيث تتناول بوجه خاص: المتقين الأبرار في دار الخلد والإقامة، فهم في جنة يتكئون فيها على الأرائك، تدنو منهم الظلال والقطوف.

وتشرد آيات السورة نعيمهم في الجنة من مأكّل ومشرب وملبس وخدمة مستمرة. وذكرّت السورة أهل السعادة بإسهاب، فوصفتهم: بالوفاء بالنذر، وإطعام الفقراء ابتغاء مرضاة الله تعالى، خوفاً من عذابه، وأشادت بما لهم عند الله تعالى من الأجر والكرامة في دار النعيم، وبينت ما حباهم الله به من الفضل والنعيم يوم الدين. وقد استغرقت هذه المعاني المتعلقة باليوم الآخر من الآية الرابعة إلى الآية الثانية والعشرين، وهو ثلاثة أرباع السورة غالباً.

٢- أما الآيات الثلاث الأولى من السورة، فإنها تمهد للحديث عن اليوم الآخر، فتبدأ بلمسة عن الإنسان، أين كان قبل أن يجيء؟ من الذي أوجده؟ ومن الذي جعله يسمع ويبصر؟ ومن الذي جعل له ذكراً في هذا الوجود، ولم يكن له وجود من قبل؟ فإذا سأل الإنسان نفسه: أين كان قبل مئة عام؟ وأين كان هذا الجيل الذي هو فيه قبل مئتي عام؟ أدرك أنه لم يكن شيئاً مذكوراً.

وكما نحن نعيش فوق هذه الأرض، فإن أهل القبور كانوا مثلنا، وغداً نكون معهم، وهكذا دواليك إلى انتهاء الدنيا، وهذا ما تشير إليه الآية الأولى، أما الآية الثانية: فهي تتحدث عن أصل نشأة نسل الإنسان الأول، وحكمة الله في خلقه، وتزويده بالطاقات والمدارك.

وتشير الآية الثالثة: إلى سلوك الإنسان بعد أن أصبح سميعاً بصيراً، واختياره إما

طريق الهدى وإما طريق الضلال.

وتشير الآية الرابعة: إلى المصير المؤلم الذي ينتظر أهل الضلال في الآخرة من السلاسل والأغلال والسعير.

وتمضي السورة بعد ذلك في وصف نعيم أهل الجنة وصفاتهم في ثماني عشرة آية تليها.

٣- وتتوجه السورة في أربع آيات بعدها إلى تثبيت النبي ﷺ والرباط على قلبه، والاستعانة على جهاد الدعوة، بالإكثار من ذكر الله تعالى والسجود له وتسبيحه ليلاً طويلاً.

عن أبي ذر رضي الله عنه قال: قرأ رسول الله ﷺ ﴿هَذَا أَقْبَى عَلَى الْإِنْسَانِ﴾ حتى ختمها، ثم قال: «إني أرى ما لا ترون، وأسمع ما لا تسمعون، أظت السماء، وحُق لها أن تتط، ما فيها موضع أربع أصابع إلا ملكٌ واضع جبهته ساجداً لله، والله لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلاً، ولبكيتم كثيراً، وما تُلذذتم بالنساء على الفرش، ولخرجتم إلى الصعداء تجأرون إلى الله»^(١).

ولما سمع ابن مسعود رضي الله عنه هذه الآية ﴿هَذَا أَقْبَى عَلَى الْإِنْسَانِ﴾ الآية قال: يا ليتها تمت، فعوتب في قوله هذا، فأخذ عوداً من الأرض فقال: يا ليتني كنت مثل هذا^(٢).

وهكذا تذكر السورة حقيقة أن الإنسان لم يكن له وجود مدة من الزمن، ثم تذكر حقيقة أصل الإنسان ونشأته وتزويده بالطاقات والمدارك، ثم تتحدث عن هدايته إلى الطريق وعونه على الهدى.

وبعد هذه النقاط الثلاث تحذره من النار وترغبه في الجنة، وتذكر العذاب والنعيم الذي أعده الله لكل منهما.

٤- وتُختم السورة بالتذكير باليوم الثقيل، وبيان أن هذا القرآن تذكرة لمن كان له قلب يعي، وفكر ثاقب يستضيء بنوره.

(١) أخرجه أحمد (٢١٥١٦)، وهو حديث حسن لغيره، لأن (مُورِق) لم يسمع من أبي ذر، وأخرجه ابن ماجه

(٤١٩٠)، والحاكم (٥١٠/٢)، وصححه الألباني في صحيح سنن الترمذي (١٨٨٢)، وهو في الترمذي

(٢٣١٢)، والحاكم (٥١٠/٢)، وأبي الشيخ (٥٠٩).

(٢) أخرجه ابن أبي شيبة (٢٩٨/١٣).

تَفْسِيرُ السُّورَةِ

آدَمُ قَبْلَ نَفْخِ الرُّوحِ فِيهِ كَانَ عَدَمًا

١ - ﴿هَٰذَا أَنَا عَلَى الْإِنْسَانِ حِينٌ مِّنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُن شَيْئًا مَّذْكُورًا ۝١﴾

ذكر الله تعالى في الآيات الثلاث الأول أطوار حياة الإنسان من بدايتها إلى متنها، فذكر أنه قد مرَّ عليه وقت طويل كان فيه عدماً قبل وجوده، ولما أراد الله إيجاداً في هذه الحياة، خلق أباه آدم من طين، ثم خلق نسله من نطفة الرجل وبويضة المرأة، وجعله إنساناً مكلفاً، فأرسل إليه الرسل وأنزل عليه الكتب، ورغبه ورهبه، فممنهم من آمن ومنهم من كفر، ويوم القيامة يُجزى كل منهما بما يستحق، إما إلى نعيم وإما إلى جحيم. تبدأ السورة بتذكير الإنسان بأصل نشأته، فقد كان في العدم لا يعلم به أحد، ومضى عليه وقت طويل من الزمان، قبل أن تُنفخ فيه الروح، لم يكن شيئاً يُذكر ولا يُعرف له أثر. ولفظ ﴿الْإِنْسَانِ﴾ يشمل جميع بني آدم، ولكن المراد به في هذه الآية، هو آدم عليه السلام على الأرجح، ولذا فقد جاء في الصحيح عن أنس رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «لما صَوَّرَ اللهُ آدَمَ فِي الْجَنَّةِ، تَرَكَهُ مَا شَاءَ اللهُ أَنْ يَتْرَكَهُ، فَجَعَلَ إِبْلِيسَ يُطِيفُ بِهِ وَيَنْظُرُ إِلَيْهِ، فَلَمَّا رَأَاهُ أَجُوفَ عَرَفَ أَنَّهُ خُلِقَ خَلْقًا لَا يَتِمَالِكُ»^(١).

أي: أن إبليس أخذ يدور حول آدم، فلما رأى له بطناً مجوّفاً عرف أنه لن يخبس نفسه عن شهوات: البطن والفرج والغضب، ولا يملك دفع الوسوس عنها. ومن المدة التي لم يكن الإنسان فيها شيئاً يُذكر، ما قيل: إن آدم عليه السلام ظل أربعين سنة طيناً، وأربعين سنة حمأً مسنوناً، وأربعين سنة صلصالاً كالفخار، ثم خلقه الله بعد مئة وعشرين سنة.

و﴿هَٰذَا﴾ حرف استفهام تقرير يفيد التحقيق، بمعنى (قد) كما تقول: هل رأيت

(١) صحيح مسلم برقم (٢٦١١).

صنيع فلان؟ وأنت تعلم أنه رآه، ومقصودك أن تقرره بذلك.

والمعنى: قد أتى على الناس في شخص أبيهم آدم أنه كان معدوماً مدة طويلة، ليس له ذكر بين الخلق، فلا يُعرف له وجود، ولا يُدرى ما اسمه قبل أن يُنفخ فيه الروح. ورد أن عمر ﷺ سمع رجلاً يقرأ هذه الآية ﴿هَذَا أَنَا عَلَى الْإِنْسَانِ حِينٌ مِّنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُن شَيْئًا مَّذْكُورًا﴾ فقال: ليته تمت^(١).

أي ليته بقي في العدم، وهذا من الإشفاق على النفس من المعاصي، ومن الورع والتقوى. والغرض من الآية: تذكير الإنسان بأصل نشأته، فقد كان في العدم منسياً، ماء مهيناً، لا يعلم به إلا الذي يريد خلقه، وقد مرّ عليه وقت من الزمن كانت الكرة الأرضية خالية منه، ثم خلقه الله وأبدع تكوينه وإنشاءه، بعد أن كان جسداً مصوراً لا يُذكر ولا يُعرف، ولا يُدرى ما اسمه، ولا ما يُراد به.

فالمراد بالإنسان في الآية: هو آدم عليه السلام، والحين هو المدة التي بقي عليها تراباً ثم طيناً ثم صلصالاً وحمأً مسنوناً قبل أن ينفخ الله فيه الروح. أو أن يراد بالإنسان بنو آدم جميعاً، والحين هو مدة الحمل، وليس هناك ما يمنع من حمل الآية على المعنيين معاً.

خَلَقَ اللَّهُ جِنْسَ الْإِنْسَانِ مِنْ نُطْفَةٍ مُّخْتَلَطَةٍ لِلْإِبْتِلَاءِ بِالْعِبَادَةِ

٢- ﴿إِنَّا خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ نُطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَاهُ سَمِيعًا بَصِيرًا﴾ (٢)

وعلى أن المراد بالإنسان في الآية الأولى هو آدم عليه السلام، وأنه قد مر عليه وقت يقدر بمئة وعشرين سنة، قبل أن يُنفخ فيه الروح ويكون بشراً سوياً، فقد تحدثت الآية الثانية من هذه السورة، عن جنس الإنسان الذي هو نسل آدم، كيف خُلِقَ؟ وكيف نشأ؟ وكيف صار إنساناً له سمع وبصر؟ بعد أن مر بعدة أطوار هي: النطفة والعلقة والمضغة

(١) ابن المبارك (٢٣٥)، وأبو عبيد في فضائله (ص ٧٠).

والعظام، وكسوة العظام باللحم، ثم إنشاء خلقا آخر، فقال تعالى: ﴿إِنَّا خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ﴾ أي خلقنا ذرية آدم وحواء ﴿مِنْ نُطْفَةٍ﴾ هي مني الرجل وبويضة المرأة ﴿أَمْشَاجٍ﴾ أي إن ماء الرجل وماء المرأة يختلطان في رحم المرأة، فيكون منهما الولد. وماء الرجل أبيض غليظ، وماء المرأة أصفر رقيق، فأيهما علا الآخر، خرج المولود شبيهاً به.

وما كان من عصب وعظم فمن نطفة الرجل، وما كان من لحم ودم وشعر، فمن ماء المرأة.

واختلاف لون المني بين الرجل والمرأة، من الأمشاج، أي اختلاف الألوان. ومني الرجل يختلط بدم حيض المرأة، فإذا حملت المرأة ارتفع دم الحيض، وهذه النطفة تحمل الخصائص والطباع التي يكون عليها الإنسان بما هي عليه من الحرارة والرطوبة والبرودة واليبوسة^(١).

ويفسر هذا الخلط الذي يكون بين مني الرجل وبويضة المرأة قوله تعالى: ﴿سُبْحَنَ الَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنْبِتُ الْأَرْضُ وَمِنْ أَنْفُسِهِمْ وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ﴾ [يس: ٣٦]. حيث يتكون من ذلك عناصر قوى الحياة: نباتية وترايبية وكيميائية .. ومادام الأمشاج، يعني الأخلاط، فهو يشمل تكوين النطفة من خلية الذكر وبويضة الأنثى بعد التلقيح، ويشمل عوامل الوراثة الكامنة في النطفة، والتي تسمى (جينات) وهي الوحدة الوراثية التي تحمل الصفات المميزة للإنسان، ثم صفات الجنين العائلية. قال ابن عباس رضي الله عنهما ﴿مِنْ نُطْفَةٍ أَمْشَاجٍ﴾ يعني ماء الرجل وماء المرأة إذا اجتماعا واختلطا، ثم ينتقل بعد من طور إلى طور، وحال إلى حال، ولون إلى لون. وهكذا قال عكرمة ومجاهد والحسن^(٢).

(١) تفسير الخازن (٣٣٨/٤)، والشوكاني (٣٤٠/٥) وغيرهما.

(٢) تفسير ابن كثير (٢٨٥/٨)، والدر المنثور (١٤٨/١٥)، وفتح الباري (٦٨٤/٨).

والحين الذي مر على ذرية آدم قبل أن يكون شيئاً مذكوراً، هو أربعون يوماً نطفة، ثم أربعون يوماً علقه، ثم أربعون يوماً مضغة، وهو في كل ذلك لم يكن شيئاً يذكر، كما قال تعالى: ﴿وَقَدْ خَلَقْنَاكَ مِنْ قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْئًا﴾ [مريم: ٩] ﴿أَوَلَا يَذْكُرُ الْإِنْسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِنْ قَبْلُ وَلَمْ يَكُ شَيْئًا﴾ [مريم: ٦٧].

قال ابن مسعود رضي الله عنه: إذا جئناكم بحديث أتيناكم بتصديقه من كتاب الله، إن النطفة تكون في الرحم أربعين، ثم تكون علقه أربعين، ثم تكون مضغة أربعين، فإذا أراد الله أن يخلق الخلق نزل الملك فيقول له: اكتب، فيقول: ماذا أكتب؟ فيقول: اكتب شقياً أو سعيداً، ذكراً أو أنثى، وما رزقه وأثره وأجله، فيوحي الله بما يشاء، ويكتبه الملك، ثم قرأ عبد الله رضي الله عنه: ﴿إِنَّا خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ نُطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَبْتَلِيهِ﴾ ثم قال عبد الله: أمشاجها: عروقه^(١).

ولم يخلق الله الإنسان من نطفة أمشاج عبثاً ولا جُزافاً ولا لهواً ولا تسلية، وإنما خلقه ليبتيه بالأوامر والنواهي وسائر التكاليف الشرعية، أي خلقناه من نطفة أمشاج لـ ﴿نَبْتَلِيهِ﴾ بالطاعة والعبادة، ثم نحاسبه ونجازيه على ما قدم، ومن أجل ذلك فإن الله تعالى زوّده بوسائل الإدراك ليتمكن من التلقي والاستجابة ﴿فَجَعَلْنَاهُ سَمِيعًا بَصِيرًا﴾ أي خلقنا له القوى الظاهرة والباطنة حيث ركبنا فيه الحواس ليُعظم إدراكه فيمكن ابتلاؤه. والسمع والبصر هما أنفع الحواس للإنسان، وعن طريقهما يكون العلم والفهم والتمييز، والنظر في أدلة وحدانية الله تعالى، وصدق ما جاءت به رسل الله، فهما أصل التفكير والتدبير.

وَعِيدُ مَنْ كَفَرَ وَوَعْدُ مَنْ آمَنَ مِنْ بَنِي آدَمَ

٣- ﴿إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا﴾ ﴿٢﴾

وتخلص الآية السابقة إلى وعيد من كفر، ووعد من آمن، نتيجة التكليف بالأوامر

(١) الدر المنثور (١٤٥/١٥) عن عبد بن حميد وابن المنذر وابن أبي حاتم وجاء أيضاً عن سعيد بن منصور كما في فتح الباري (٦٨٤/٨).

والنواهي، بعد أن زوّده الله تعالى بالعقل، وأرسل له الرسل، وأنزل عليه الكتب، ودلّه على طريق الهدى والرشاد ﴿إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ﴾ عَرَفْنَاهُ وَبَيَّنَّا لَهُ طريق الهدى والضلال، والخير والشر، والمنافع والمضار التي يهتدي إليها بطبعه وكمال عقله، وبعثة الرسل وإنزال الكتب ليختار الإيمان أو الكفر، ثم هو بعد ذلك إما أن يشكر وإما أن يكفر فهو ﴿إِمَّا شَاكِرًا﴾ مؤمنًا تقياً مطيعاً ﴿وَأِمَّا كَفُورًا﴾ جاحداً شقيّاً فاجراً.

وهذا كحال رجلين يرشدهما مرشد إلى طريق النجاة، فسار أحدهما في هذا الطريق ولم يتعثر، أما الآخر فقد عَرَضَ نفسه للهلاك، وبهذا فإنه لا ينبغي للإنسان أن يُعَلِّق أفعاله على قضاء الله تعالى وقدره، فيقول كما قال المشركون: ﴿لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا﴾ [الأنعام: ١٤٨] لو أراد الله لي الهداية لهداني، فإن قضاء الله وقدره في علمه سبحانه، وليس للإنسان عليهما اطلاع، حتى يحكم أن الله تعالى قضى عليه ذلك أم لا؟ والله تعالى قد أمرنا بالخير ونهانا عن الشر، وبين لنا جزاء كل منهما، وأمرنا أن نأخذ بالأسباب.

وبعد تمام وقوع الشيء، نعلم أن هذا هو قضاء الله وقدره، أما قبل وقوعه، فنحن مأمورون بفعل الخير، منهيون عن فعل الشر. والآية تدل على أن للإنسان حرية واختياراً، وهما مناط التكليف قال تعالى: ﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعَاجِلَةَ عَجَلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَاءُ لِمَنْ نُرِيدُ﴾ [الإسراء: ١٨] وقال سبحانه: ﴿وَمَنْ أَرَادَ الْآخِرَةَ وَسَعَى لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَئِكَ كَانَ سَعْيُهُمْ مَشْكُورًا﴾ [الإسراء: ١٩].

وقال جل شأنه: ﴿وَقُلِ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيُكْفُرْ﴾ [الكهف: ٢٩]. وقال عز وجل: ﴿قَدْ جَاءَكُمْ بَصَائِرُ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنْ أَبْصَرَ فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ عَمِيَ فَعَلَيْهَا﴾ [الأنعام: ١٠٤]. فلا إجبار لأحد على شيء، والإنسان يختار لنفسه الطاعة أو المعصية كما في حديث أبي مالك الأشعري رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «كل الناس يغدو فبائع نفسه فمعتقها أو موبقها»^(١).

(١) من حديث طويل في صحيح مسلم برقم (٢٢٣) وأوله (الطهور شرط الإيمان).

وفي الأثر عن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما (كل مولود يولد على الفطرة، حتى يُعرب عنه لسانه، فإذا أعرب عنه لسانه، فإما شاكراً وإما كفوراً)^(١).

جَزَاءُ الْكَافِرِ

٤ - ﴿إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ سَكِينًا^(٢) وَأَغْلَلََّا وَسْعِيرًا^(٣)﴾

ثم بدأ تعالى بما أعده للأشقياء الفجار من: الأغلال والقيود والسلاسل والنار المحرقة المسعرة، واللهب، والحريق في نار جهنم، فقال: ﴿إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ سَكِينًا^(٢)﴾ أي: هيأنا لمن كفر بالله وكذب رسله وتجراً على معاصيه، قيوداً من حديد تُشدّ بها أرجلهم ﴿وَأَغْلَلََّا^(٣)﴾ تغلّ بها أيديهم إلى أعناقهم ﴿وَسْعِيرًا^(٤)﴾ أي ناراً شديدة موقدة يُحرقون بها، كما قال تعالى: ﴿إِذْ الْأَغْلَالُ فِي أَعْنَاقِهِمْ وَالسَّلْسِلُ يُسْحَبُونَ^(٥)﴾ فِي الْحَمِيمِ ثُمَّ فِي النَّارِ يُسْجَرُونَ^(٦)﴾ [غافر: ٧١، ٧٢].

وقال سبحانه عن أهل الشمال: ﴿خُذُوهُم فَعْلُوهُ^(٧)﴾ ثُمَّ لَجِمِمْ صَلَوَهُ^(٨) ثُمَّ فِي سِلْسِلَةٍ ذَرْعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعًا فَاسْلُكُوهُ^(٩)﴾ إِنَّهُ كَانَ لَا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ الْعَظِيمِ^(١٠)﴾ [الحاقة: ٣٠ - ٣٣] وقال جل شأنه: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا سَوْفَ نُصْلِيهِمْ نَارًا كَمَا فَصَّحَتْ جُلُودُهُمْ بَدَلْنَاهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا الْعَذَابَ^(١١)﴾ [النساء: ٥٦].

وهو عذاب دائم يُخلّدون فيه، واكتفت السورة بذكر هذا العقاب المجمل بالنسبة للكفار. أما المتقون الأبرار فقد ذكرت جملة من نعيمهم وصفاتهم:

(١) أخرجه أحمد في المسند (١٤٨٠٥) وقال محققوه: إسناده ضعيف، قلت: ويستأنس به من ناحية المعنى، وقد صح هذا الحديث عن أبي هريرة دون قوله (فإذا أعرب عنه ..) إلخ وهو في المسند برقم (٧٤٤٥) وفي غيره.

(٢) قرأ نافع وهشام وشعبة والكسائي وأبو جعفر بتنوين ﴿سَكِينًا^(٢)﴾ وصلأ وإبدالها ألفاً وفقاً، والباقون بعدم التنوين وصلأ، واختلفوا وفقاً، فوقف أبو عمرو وروح بالألف، ووقف قبل وحمة ورويس وخلف بسكون اللام من غير ألف، ووقف البزي وابن ذكوان وحفص بالألف وإسكان اللام والوقف بالألف للتناسب مع بقية الآيات، وعدم التنوين على أنه من صيغ منتهى الجموع، ممنوع من الصرف، والتنوين لأن بعض العرب كبنى أسد يصرفون جميع ما لا ينصرف إلا أفعال التفضيل.

جَزَاءُ الشَّاكِرِينَ (الْأَبْرَارِ)

٥، ٦ - ﴿إِنَّ الْأَبْرَارَ يَشْرَبُونَ مِنْ كَأْسٍ ^(١) كَانَتْ مِرَاجُهَا كَافُورًا ۖ عَيْنَا يَشْرَبُ بِهَا عَبْدُ اللَّهِ يُفَجِّرُونَهَا تَفْجِيرًا ۖ﴾

ذكرت السورة شراب أهل الجنة، وأعقبته ببيان أن الله تعالى قد أعطاهم هذا الشراب، مكافأة لهم لأنهم كانوا وهم في الدنيا يوفون بالنذر، ويخافون اليوم الآخر، وَيُطْعَمُونَ المحتاج ابتغاء وجه الله تعالى، فهذه أوصاف ثلاثة للأبرار الذين وعدهم الله تعالى بهذا الشراب في دار النعيم.

والأبرار هم من برت قلوبهم بمحبة الله ومحبة رسوله، وتحلوا بالأخلاق الحميدة، فبرت أعمالهم وأقوالهم، وقد ذكرت أوصافهم في سورة البقرة الآية ١٧٧.

﴿إِنَّ الْأَبْرَارَ﴾ وهم أهل الإيمان والبر والطاعة والشكر والإخلاص، الذين يؤدون حق الله تعالى وحق العباد ﴿يَشْرَبُونَ﴾ يوم القيامة ﴿مِنْ كَأْسٍ﴾ إناء فيها خمر، لا تغتال العقل، ولا تصدع الرأس.

والكأس هو الإناء الذي يكون فيه خمرًا، ولا يسمى كأساً إلا إذا كان فيه خمر.

قال تعالى: ﴿وَيُسْقَوْنَ فِيهَا كَأْسًا كَانَ مِرَاجُهَا زَنْجَبِيلًا﴾ [الإنسان: ١٧] وهذه الخمر قد مزجت بالكافور، كما قال تعالى: ﴿كَانَتْ مِرَاجُهَا كَافُورًا﴾ أي أنها ممزوجة بأحسن أنواع الطيب، وهو ماء الكافور، وهو في الدنيا طيب معروف في الهند والصين وجاوه، وهو من أنفاس الطيب عند العرب.

وقد خلطت الخمر بالكافور، ليبرد ويكسر حدته، وهذا الكافور قد سلم من كل مكدر ومُنْعَص موجود في كافور الدنيا، فلا يوجد في الآخرة مما هو موجود في الدنيا إلا الأسماء.

والكافور: زيت يُخْرَج من شجرة - إذا طالت مُدَّتُهُ نحواً من مئتي سنة - فيُغلى حطبه

(١) أبْدَل أبو عمرو بخلف عنه وأبو جعفر همزة ﴿كَأْسٍ﴾ ألفاً، ومثلها حمزة عند الوقف، وحققها غيرهم.

ويستخرج منه زيت الكافور، وقد يتصلّب فيكون كالزبدة، وإذا وقع حطب شجرة الكافور في الماء، تخمر وصار نبيذا مسكرا، والكافور أبيض اللون ذكي الرائحة منعش^(١).
ويُختم على آنية الخمر بخاتم من مسك كما قال تعالى في صفة أهل الجنة ﴿يُسْقَوْنَ مِنْ رَحِيقٍ مَخْمُومٍ ۝ خَتَمُهُ مِسْكٌ﴾ [المطففين: ٢٥، ٢٦].

وقد ذُكر الكافور والزنجبيل في هذه السورة لترغيب الناس في العمل للأخرة.
ونعيم الآخرة في دوامه ولذته لا يقاس على نعيم الدنيا، ولكن الله تعالى يقرب إلينا المعاني بما نعرف كما قال تعالى: ﴿كُلَّمَا رُزِقُوا مِنْهَا مِنْ ثَمَرَةٍ رِزْقًا قَالُوا هَذَا الَّذِي رُزِقْنَا مِنْ قَبْلُ وَأَنُؤُوا بِهِ مُتَشَبِهًا﴾ [البقرة: ٢٥].

والمعنى: إن المؤمنين الصادقين الذين أخلصوا لله تعالى الطاعة والعبادة والشكر، يكافئهم ربهم بأن يجعلهم يوم القيامة في جنات عالية، ويتمتعون بالشرب من خمر مخلوطة بالكافور الذي تنتعش له النفوس، لطيب رائحته وجمال شكله.

ثم بين سبحانه أن الكافور يتدفق من عين جارية من عيون الجنة يشرب منها الأبرار المتقون ﴿عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ اللَّهِ﴾ أي أن هذا الشراب الذي مُزج من الكافور هو عين في الجنة، يشرب بها عباد الله المؤمنون المتقون، فهم يشربون الخمر ممزوجة بماء تلك العين.
قال ابن عباس رضي الله عنهما: اسم لعين ماء في الجنة، يقال له (عين الكافور) تمتزج الكأس بماء هذه العين، وتختم بالمسك، فتكون ألد شراب.

وهذه العين من السعة والكثرة والسهولة بحيث يتصرفون فيها كيف شاؤوا، فيتوجه ماؤها ويتبعهم حيث كانوا، وهي عين دائمة الفيضان والجريان لا تنقطع ولا يخشى نفاذها.
فالكافور: اسم لعين في الجنة تجري فيها، كأنهار اللبن والعسل والخمر والماء، والينابيع تنفجر منها من غير حفرة ولا ضرب كما قال تعالى: ﴿وَجَزَّانًا يَلِئْلُهُمَا نَهَرًا﴾ [الكهف: ٣٣].

وأهل الجنة يقودون هذه المياه من منازلهم وقصورهم، وهي لا تمتنع عنهم، فإن

(١) تفسير ابن عاشور (٢٩/٣٨٠).

شاؤوا صرفوها إلى البساتين، وإن شاؤوا صرفوها إلى جوانب مساكنهم، فيجرونها إلى حيث أرادوا، ويتفنون بها كما شاؤوا، دون أن يكون لها شق في الأرض كشق النهر.

لِلْأَبْرَارِ صِفَاتٌ ثَلَاثٌ

٧- ﴿يُوفُونَ بِالنَّذْرِ وَيَخَافُونَ يَوْمًا كَانَ شَرُّهُ مُسْتَطِيرًا ۝٧ وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَى حُدِّهِ مَسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا ۝٨﴾

ثم وصف الله تعالى هؤلاء الأبرار الذين استحقوا النعيم في الجنة بثلاثة أوصاف هي: أنهم يوفون بالنذر، ويخافون ربهم، ويطعمون الطعام.

الوصف الأول: الوفاء بالنذر: قال تعالى: ﴿يُوفُونَ بِالنَّذْرِ﴾.

أي يؤدون ما أوجبه على أنفسهم من نذر، في طاعة الله تعالى، فإذا نذروا وقوا بنذرهم، من صلاة أو صيام، أو حج أو صدقة، أو أعمال خير وبر، وإذا وقوا بما أوجبه على أنفسهم، وقوا من باب أولى بما أوجبه الله عليهم.

والنذر غير مستحب في حد ذاته، وهو لا يقدم ولا يؤخر، ولا يجلب نفعاً ولا يدفع ضرراً، ولكن إذا أوجبه الإنسان على نفسه، وجب عليه الوفاء به إن كان نذر طاعة، فإن كان نذر معصية فلا يجوز الوفاء به:

أحاديث في النذر:

١- في البخاري وغيره عن عائشة رضي الله عنها أن رسول الله ﷺ قال: «من نذر أن يطيع الله فليطعه، ومن نذر أن يعصي الله فلا يعصه»^(١).

٢- وفي حديث عمران بن حصين رضي الله عنهما أن النبي ﷺ قال: «لا نذر في معصية الله، ولا فيما لا يملك ابن آدم»^(٢).

(١) صحيح البخاري برقم (٦٦٩٦، ٦٧٠٠)، وأبوداود (٣٢٨٩)، وابن ماجه (٢١٢٦)، والترمذي (١٢٥٦)، والمسنند (٢٤٠٧٥)، وابن حبان (٤٣٨٧)، والكبرى للنسائي (٤٧٢٩).

(٢) أخرجه مسلم (١٦٤١)، وأبوداود (٣٣١٦)، والترمذي (١٥٦٨)، والنسائي في الكبرى (٤٧٣٥)، وابن (٢١٢٤)، والمسنند (١٩٨٨٨)، وابن حبان (٤٣٩١).

٣- وعن عقبة بن عامر رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «كفار النذر كفارة يمين»^(١).

٤- وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: (استفتى سعد بن عباد رسول الله ﷺ في نذر كان على أمه فتوفيت قبل أن تقضيه عنها، فأمره أن يقضيه عنها، فكانت سنة بعد)^(٢).

الوصف الثاني: الخوف من عقاب الله يوم القيامة:

قال تعالى: ﴿وَيَخَافُونَ يَوْمًا كَانَ شَرُّهُ مُسْتَطِيرًا﴾ أي أن عباد الله الأبرار، يخافون عقاب الله لهم يوم القيامة على ما اقترفوه من اللوم، أو خالفوا فيه الأولى، وهذا اليوم شديد الأحوال، ضرره خطير، وشره متفشي ومنتشر على الناس أجمعين، إلا من رحم الله فهم يخافون على أنفسهم منه.

والخوف من هذا اليوم، أمر عام، حيث يخافه من في السموات ومن في الأرض، فقد انشقت السماء، وتناثرت الكواكب، وفزعت الملائكة، وكوّرت الشمس والقمر، ونُسفت الجبال، وغارت المياه، فهو يوم شره مستطير.

قال قتادة: استطار والله شر ذلك اليوم حتى ملأ السموات والأرض^(٣).

الوصف الثالث: للأبرار: إطعام الطعام مع الحاجة الماسة إليه:

أي أن عباد الله الصادقين في إيمانهم، من شأنهم أنهم يطعمون الطعام لكل من يحتاجه، مع حبهم له وحاجتهم إليه، كما قال تعالى: ﴿وَيُؤْتِرُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ﴾ [الحشر: ٩] فهم يواسون به أهل الحاجة، مع قلة الطعام واشتغالهم له لكنهم قدّموا محبة الله على محبتهم لأنفسهم، وتحزّروا أشد الناس حاجة له.

وخص الله تعالى بالذكر ثلاثة أنواع من المحتاجين، هم أولى الناس بالرعاية والمساعدة، وهم ﴿مُسْكِينًا وَبَيْنًا وَأَسِيرًا﴾.

(١) صحيح مسلم (١٦٤٥).

(٢) صحيح البخاري برقم (٢٧٦١، ٦٦٩٨)، وصحيح مسلم برقم (١٦٣٨)، والنسائي في الكبرى (٤٧٤٠ -

٤٧٤٢)، وأبو داود (٣٣٠٧)، وابن ماجه (٢١٣٢)، والترمذي (١٥٤٦)، والمسند (١٨٩٣)، وابن حبان (٤٣٩٣).

(٣) عبد الرزاق (٣٣٦/٢)، والطبري (٥٤١/٢٣).

النوع الأول: المسكين وهو: الفقير العاجز عن الكسب، الذي لا يملك شيئاً من حطام الدنيا، فهو محتاج إلى غيره لفقره وقعوده عن الحركة والكسب أو هو الذي يملك ما لا يكفيه من ضرورات الحياة.

والنوع الثاني: اليتيم، وهو الطفل الذي مات أبوه وهو دون سن البلوغ، وليس له مال يسد حاجته.

والنوع الثالث: الأسير، وهو العبد المسلم المملوك لغير المسلمين، فإن أمره بيد غيره، كشأن بلال وعمار وأمه، فالعبودية تنشأ من الأثر، ومثله المسجون من المسلمين عند غير المسلمين:

أحاديث وآثار في المعنى:

١- فقد جاء في الحديث عن أبي موسى رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «فكوا العاني وأطعموا الجائع، وعودوا المريض»^(١).

٢- وفي الحديث عن أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «ثلاثة حق على الله عونهم: المكاتب الذي يريد الأداء، والناكح الذي يريد العفاف، والمجاهد في سبيل الله»^(٢).

٣- وفي حديث أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «أفضل الصدقة، أن تصدق وأنت صحيح شحيح، تأمل الغنى وتخشى الفقر»^(٣).

٤- وقد يراد بالأسير: المرأة، كما في الحديث عن أبي حُرّة الرقاشي عن أبيه:

(١) البخاري برقم (٧١٧٣، ٥٣٧٣، ٣٠٤٦)، وأبوداود (٣١٠٥)، والنسائي في الكبرى (٨٦١٣، ٧٤٥٠)، والمسند (١٩٥١٧)، وابن حبان (٣٣٢٤).

(٢) ابن ماجه (٢٥١٨)، والترمذي (١٦٥٥)، والنسائي في الكبرى (٥٣٠٧، ٤٩٩٥، ٤٣١٣)، والمسند (٧٤١٦) بإسناد قوي ورجال ثقات، وابن حبان (٤٠٣٠)، وعبدالرزاق (٩٥٤٢)، وأبو يعلى (٦٥٣٥)، والبيهقي في الشعب (٤٢٨٧).

(٣) صحيح مسلم برقم (١٠٣٢)، وصحيح البخاري (٢٧٤٨، ١٤١٩)، وأبوداود (٢٨٦٥)، والنسائي (٢٥٤١)، وابن حبان (٣٣١٢)، والمسند (٩٧٦٨، ٧١٥٩).

«اتقوا الله في النساء فإنهن عوانٍ عندكم»^(١).

وقال الحسن: (ما كان أسراهم إلا مشركين، لأن كل كبد رطبة فيها أجراً)^(٢).

وقال أيضاً: كان رسول الله ﷺ يؤتى بالأسير، فيدفعه إلى بعض المسلمين ويقول له:

(أحسن إليه، فيكون عنده اليومين والثلاثة، فيؤثره على نفسه)^(٣).

وعن نافع قال: مرض ابن عمر رضي الله عنهما، فاشتبهى عنباً، فأرسلت امرأته صفية،

فاشتريت عنقوداً بدرهم، فأتبع الرسول الذي اشتراه سائلاً، فقال ابن عمر: أعطوه إياه،

وهكذا حدث مرة ثانية، وفي المرة الثالثة، قالت صفية للسائل: إن عدت، لا تصيب منه

خيراً أبداً، وأرسلت بدرهم ثالث، فاشتريت عنقود عنب^(٤).

والشاهد أن ابن عمر أعطى السائل مرتين عنقود العنب الذي يشتهي.

ومما ورد في سبب النزول:

أن رجلاً من الأنصار يقال له: أبو الدحداح، صام يوماً، فلما كان وقت الإفطار،

جاء مسكين ویتيم وأسیر، فأطعمهم ثلاثة أرغفة، وبقي له ولأهله رغيفاً واحداً، فنزلت

هذه الآية^(٥). والآية عامة في كل من اتصف بهذا الإيثار.

قال أبو سعيد الخدري رحمه الله، قرأ رسول الله ﷺ ﴿وَيُطْعَمُونَ أَلْطَعَامَ عَلَىٰ حَيْثُ مَسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا﴾

فقال: (المسكين: الفقير، والیتيم: الذي لا أب له، والأسير: المملوك والمسجون)^(٦).

(١) من حديث طويل عن أبي حُرَّة الرَّقَاشِي عن أبيه في مسند أحمد (٢٠٦٩٥)، وهو حديث صحيح لغيره،

وأخرجه الطبراني في الكبير (٣٦٠٩)، والدارمي (٢٥٣٤).

(٢) تفسير ابن عطية (٤١٠/٥).

(٣) تفسير روح المعاني (١٥٥/٢٩).

(٤) ينظر سنن البيهقي الكبرى (١٨٥/٤).

(٥) تفسير الخازن (٣٣٩/٤)، والقرطبي (١٣٠/١٩).

(٦) ذكره القرطبي عن الثعلبي بدون سند (١٣٠/١٩)، وذكره الواحدي في أسباب النزول (٣٣١)، والبخاري

بغير سند والدر المنثور (٢٩٩/٦).

الْأَبْرَارُ لَا يُرِيدُونَ بِعَمَلِهِمْ إِلَّا وَجْهَ اللَّهِ تَعَالَى

٩، ١٠- ﴿إِنَّمَا نَطْمَعُكَ لَوَجْهِ اللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنْكَ جَزَاءً وَلَا شُكْرًا ۝٩﴾ إِنَّا نَخَافُ مِنْ رَبِّنَا يَوْمًا عَبُوسًا قَتَطِيرًا ﴿١٠﴾

ثم إن الله تعالى علم إخلاص الأبرار، وصدق نياتهم في برّهم وتصدقّ قلوبهم، فأثنى الله عليهم وقال عنهم ﴿إِنَّمَا نَطْمَعُكَ لَوَجْهِ اللَّهِ﴾ نحسن إليكم ابتغاء مرضاته وطلب ثوابه ﴿لَا نُرِيدُ مِنْكَ جَزَاءً وَلَا شُكْرًا﴾ لا نبتغي عوضاً منكم، ولا نقصد حمداً ولا ثناءً من أحد.

وقيل: إنهم قالوا ذلك في أنفسهم، أو قالوه علناً ليقنّدي بهم غيرهم، وذلك لأن الإحسان إلى الناس:

١ - إما أن يكون لوجه الله تعالى لا يراد به غيره، فهذا هو الإخلاص وهو معنى: ﴿إِنَّمَا نَطْمَعُكَ لَوَجْهِ اللَّهِ﴾.

٢ - وإما أن يراد به طلب المكافأة من الناس، وهذا معنى ﴿لَا نُرِيدُ مِنْكَ جَزَاءً﴾.

٣ - وإما أن يراد به: حمدُ الناس وثناؤهم، وهذا معنى ﴿وَلَا شُكْرًا﴾.

إن الأبرار المتقين لا يريدون جزاءً ولا شكوراً ممن يحسنون إليهم، إنهم يخافون يوماً شديداً تغبس فيه الوجوه، وتتقطّب فيه الجباه من فظاعة أمره وشدة هوله فيقولون: إنا نحسن إليكم للخوف من يوم نلقى فيه ربنا، لا لطلب المكافأة، ولا لطلب الحمد والثناء. ووصف اليوم بالعبوس: نظراً لما فيه من الشدة.

والقمطرير هو اليوم الكريه الذي يُقطّب فيه الجبين، من كثرة ما فيه من شدائد.

أَرْبَعَةَ عَشَرَ لُونًا مِنْ نَعِيمِ الْأَبْرَارِ فِي الْجَنَّةِ

١١- ﴿فَوَقَّهْمُ اللَّهُ شَرَّ ذَلِكَ الْيَوْمِ وَلَقَّهْمُ نَضْرَةً وَسُرُورًا ۝١١﴾

ثم ذكر الله سبحانه أربعة عشر لونا من النعيم المقيم حبي الله بها عباده المتقين الأبرار، وهي على وجه الإجمال:

١- الخوف من عذاب يوم القيامة. ٢- ما يعلو وجوههم من النضرة والسرور.

- ٣- مكافأة الأبرار على صبرهم.
 ٥- اعتدال المناخ في الجنة.
 ٧- قرب ثمار الجنة لأهلها.
 ٩- خمر الجنة ممزوج بالكافور.
 ١١- وفرة النعيم واتساع الجنان.
 ١٣- خلّي أهل الجنة.
 ٤- مساكنهم في الجنة.
 ٦- ظلال أشجار الجنة.
 ٨- آنية الجنة.
 ١٠- خدمة الأبرار في الجنة.
 ١٢- ملابس الأبرار في الجنة.
 ١٤- شراب الأبرار في الجنة.

أولاً: الخوف من عذاب الله تعالى يوم القيامة:

قال تعالى: ﴿فَوَقَّعَهُمُ اللَّهُ سَرَ ذَلِكَ الْيَوْمِ﴾ أي أن الله تعالى حفظهم ووقاهم من أهوال اليوم العبوس القمطير، فقد دفع الله عنهم شر يوم القيامة وجنبهم عذابه فلا يحزنهم الفزع الأكبر وتلقاهم الملائكة، هذا يومكم الذي كنتم توعدون.

ثانياً: ما يعلوا وجوههم من النضرة والسرور:

قال تعالى: ﴿وَلَقَدْهُمْ نَضْرَةٌ وَسُرُورٌ﴾ أي أن الله تعالى أكرمهم وأعطاهم بدل العبوس الذي في وجوه الكفار نضرة، أي: نوراً وحُسناً وبهاءً في وجوههم، وأعطاهم فرحاً وبهجة وسروراً في قلوبهم فجمع لهم بين نعيم الظاهر والباطن.

ثالثاً: مكافأة الأبرار على صبرهم

١٢- ﴿وَجَزَّيْنَهُمْ بِمَا صَبَرُوا جَنَّةً وَحَرِيرًا﴾

أي أن الله تعالى كافأ الأبرار، فأثابهم بصبرهم في الدنيا على طاعة الله تعالى التي فعلوها، وعن معاصيه التي تركوها، وعلى أقداره المؤلمة التي تحمّلوها فلم يسخطوا، وأثابهم جنة عظيمة في الآخرة، ينعمون فيها بما تشتهي الأنفس وتلذ الأعين، ويلبسون فيها الحرير الناعم، كما قال تعالى: ﴿وَلَبَّاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ﴾ [الحج: ٢٣] صدقة الله وقال سبحانه: ﴿وَفِيهَا مَا نَشْتَهِيهِ الْأَنْفُسُ وَتَلَذُّ الْأَعْيُنُ وَأَنْتُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ [الزخرف: ٧١].

رَابِعاً: مَسَاكِنُ الْأَبْرَارِ فِي الْجَنَّةِ

١٣ - ﴿مُتَّكِئِينَ^(١) فِيهَا عَلَى الْأَرَائِكِ لَا يَرَوْنَ فِيهَا شَمْسًا وَلَا زَمْهَرِيرًا^(٢)﴾

ولما وصف الله تعالى شراب أهل الجنة وطعامهم ولباسهم، وصف مساكنهم فقال: ﴿مُتَّكِئِينَ فِيهَا عَلَى الْأَرَائِكِ﴾ أي أن أهل الجنة يتكئون فيها على أَسِرَّةٍ مُزَيَّنَةٍ بفاخر الكسوة والثياب. والالتكاء: هو التمكن من الجلوس في حال الرفاهية والطمأنينة والراحة. والأرائك جمع أريكة، وهي السرير، يلقي عليه الشراشف والستور التي تزينه. وكل ما يُفترش ويُتوسد عليه مما له حشو، فهو أريكة، وإن لم يكن في حَجَلَةٍ، ولا يسمى السرير أريكة إلا إذا كان معه حَجَلَةٌ، والحَجَلَةُ: هي ما زُيِّنَ بالثياب والنقوش والستور. خامساً: اعتدال المناخ في الجنة:

وهواء الجنة معتدل، ليس فيه حر ولا برد، فهم لا يرون في الجنة ضوء الشمس، ولا نور القمر، إنهم ﴿لَا يَرَوْنَ فِيهَا شَمْسًا وَلَا زَمْهَرِيرًا﴾ لا شدة حر ولا شدة برد، فتتلاذذ أبدانهم في جميع الأوقات، فلا يتضررون ولا يتألمون من حر ولا من برد. في حديث أبي هريرة ؓ أن رسول الله ﷺ قال: «اشتكت النار إلى ربها فقالت: رَبِّ أَكَلْ بَعْضِي بَعْضًا، فَأَذِنَ لَهَا فِي الْعَامِ بِنَفْسَيْنِ: نَفْسٌ فِي الصَّيْفِ، وَنَفْسٌ فِي الشِّتَاءِ، فَشَدَّةٌ مَا تَجِدُونَ مِنَ الْبَرْدِ مِنْ زَمْهَرِيرِهَا، وَشَدَّةٌ مَا تَجِدُونَ فِي الصَّيْفِ مِنَ الْحَرِّ، مِنْ سُمُومِهَا»^(٣).

سَادِساً: ظِلَالُ الْأَشْجَارِ فِي الْجَنَّةِ

١٤ - ﴿وَدَانِيَةً عَلَيْهِمْ ظِلُّهَا وَذُلَّتْ قُطُوفُهَا نَذِيلًا^(٤)﴾

إن ظلال الأشجار في الجنة قريبة من الأبرار قال تعالى: ﴿وَدَانِيَةً عَلَيْهِمْ ظِلُّهَا﴾

(١) قرأ أبو جعفر بحذف همزة ﴿مُتَّكِئِينَ﴾ وصلأً ووقفأً، ولحمزة وقفأً وجهان: الحذف والتسهيل بين يمين.

(٢) البخاري برقم (٥٢٧، ٣٢٦٠)، ومسلم برقم (١٨٥، ٦١٧)، ومالك (١٦/١)، وابن أبي شيبة (١٣/١٥٨)،

والترمذي برقم (٢٥٩٢) وقال: حسن صحيح، وابن ماجه برقم (٤٣١٩)، وعبد الرزاق (٢/٣٣٧)،

والمسند (٧٧٢٢)، وابن حبان (٧٤٦٦).

أي أن أشجار الجنة تُظِلُّهم بِقُرْبِها منهم، وهو ظل طبيعي لا يضر ولا يكلف. سابعاً: قُرْب ثمار الجنة وسهولة أخذها: قال تعالى: ﴿وَذَلَّلْتُ قُطُوفَهَا نَدِيلًا﴾ أي أن ثمار الجنة قريبة منهم في تناول أيديهم، فهم يأكلون من ثمار الجنة قياماً وعوداً ومضطجعين، يتناولونها كيف شاؤوا، على أي حال، وكلما أرادوا.

ثامناً: آنية الجنة

١٦، ١٥ - ﴿وَيُطَافُ عَلَيْهِم بِآنِيَةٍ مِّن فِضَّةٍ وَأَكْوَابٍ كَانَتْ قَوَارِيرًا ﴿١٥﴾ قَوَارِيرًا ﴿١٦﴾ مِّن فِضَّةٍ قَدَّرُوهَا تَقْدِيرًا ﴿١٧﴾﴾ ثم وصف الله تعالى آنية الجنة في قوله ﴿وَيُطَافُ عَلَيْهِم بِآنِيَةٍ مِّن فِضَّةٍ﴾ أي يدور عليهم الخدم بأواني الطعام الفضية، وهي في صفاء القوارير من كثافتها وشفاء جواهرها وطيب معدنها، أما الأكواب التي يشربون فيها، فهي رقيقة شفافة كالزجاج ﴿وَأَكْوَابٍ كَانَتْ قَوَارِيرًا﴾ والكوب: هو الذي لا عروة له ولا خرطوم. والقارورة: لا تكون إلا من زجاج. وهي من صفاء اللون والرقّة تَشْفُ عما فيها، كما في قوله تعالى: ﴿قَالَ إِنَّهُ صَرَخَ مُنْمَرًا مِّن قَوَارِيرٍ﴾ [النمل: ٤٤].

وفي آية أخرى: ﴿يُطَافُ عَلَيْهِم بِصِحَافٍ مِّن ذَهَبٍ وَأَكْوَابٍ﴾ [الزخرف: ٧١]. والمعنى: أن الآنية تأتيهم في بعض الأوقات من فضة، وفي بعضها من ذهب، فهي متنوعة متزاوجة، لثلا يفوتهم ما في المَعْدِنِينَ من الحُسْنِ والجمال، وما تشتهي النفس مما كانوا يتمنونه في الدنيا، ولَمَّا في ذلك من إدخال السرور على أنفسهم، وهذا يحدث أيضاً فيما يُحَلُّون به، قال تعالى: ﴿وَحُلُّوا أَسَاوِرَ مِّن فِضَّةٍ﴾ [الإنسان: ٢١].

(١) قرأ نافع وشعبة والكسائي وأبو جعفر بالتثنية في ﴿قَوَارِيرًا ﴿١٥﴾ قَوَارِيرًا﴾ معاً، وإبدالهما ألفاً وقفاً. وقرأ ابن كثير وخلف بالتثنية في الأول وتركه في الثاني وصلاً، ووقفاً على الأول بالألف، وبإسكان الراء وحذف الألف في الثاني. وقرأ أبو عمرو وابن عامر وحفص وروح بترك التثنية فيهما وصلاً، ووقفوا على الأول بالألف وعلى الثاني بالحذف إلا هشاماً فوقف بالألف على الثاني أيضاً. وقرأ حمزة ورويس بترك التثنية فيهما وصلاً، وبالحذف وقفاً، وهما مثل (سلاسل) في التوجيه.

وفي الآية الأخرى: ﴿يُحَلَّلُونَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِنْ ذَهَبٍ﴾ [الكهف: ٣١].

وهذه القوارير بيضاء في صفاء الزجاج وشفافيته، يُرى باطنها من ظاهرها.

والعرب تطلق القارورة على إناء الزجاج خاصة.

وهي مقدرة بعدد الشارين بلا زيادة ولا نقصان، وهذا معنى: ﴿قَدَرُوهَا نَقْدِيرًا﴾ أي قدرها السقاة الذين يطوفون على أهل الجنة على مقدار عدد الشارين، وبمقدار ما يشتهون، بلا زيادة ولا نقص لأنها لو نقصت لا تكفيهم، ولو زادت لنقصت لذتها، وهي ما يوافق لذتهم وما هو مقدّر في خواطرهم.

قال ابن عباس رضي الله عنهما: أثوا بها على قدر الحاجة، لا يُفَضِّلُونَ شيئاً عليها، ولا يشتهون بعدها شيئاً^(١) وقد جعلت لهم على قدر إراداتهم.

وقال ابن عباس رضي الله عنهما أيضاً (ليس في الدنيا شيء مما في الجنة إلا الأسماء، ولو أخذت فضة من فضة الدنيا، فضربتها حتى جعلتها مثل جناح الذباب، لم ير الماء من ورائها، ولكن قوارير الجنة ببياض الفضة مع صفاء القوارير)^(٢).

تاسعاً: شراب أهل الجنة

١٨، ١٧ - ﴿وَيُسْقَوْنَ فِيهَا كَأْسًا كَانَ مِزَاجُهَا زَنْجَبِيلًا﴾ (١٧) ﴿عَيْنًا فِيهَا تُسَمَّى سَلْسِيلًا﴾ (١٨)

أي إن الأبرار يشربون في الجنة كأساً مملوءة خمرًا، مُزجت بالزنجبيل، وهي عين يشرب منها الأبرار، فيها طعم الزنجبيل، يشرب بها المقربون خاصة.

وَيُمَزَجُ هذا الشراب لسائر أهل الجنة، فتارة يمزج لهم الشراب بالكافور، وهو بارد، وتارة يمزج بالزنجبيل، وهو حار، ليحصل الأمران معاً.

وقد كان العرب يمزجون الخمر بالماء المنقوع فيه الزنجبيل لطيب رائحته وحسن طعمه.

والكأس هو الإناء المملوء من خمر ورحيق ولا يُسمى كأساً إلا إذا كان فيه خمر.

(١) تفسير الألوسي (١٦٠/٢٩).

(٢) تفسير الألوسي (١٥٩/٢٩)، وقد أخرجه عبد الرزاق (٣٣٨/٢)، والبيهقي في البعث (٣٤٨).

وعين الزنجبيل التي يشرب منها الأبرار المقربون في الجنة، تسمى عين السلسبيل، سلامة شرابها وسهولة مساعه وطيبه ﴿عَيْنَايَهَا﴾ أي أن عين الزنجبيل في الجنة ﴿تُسَمَّى سَلْسِيلًا﴾ سميت كذلك لسلاستها ولذة حُسنها.

والسلسبيل هو الماء العذب، سهل المذاق، سُمِّي كذلك لعذوبته وصفائه، وهو يكون في طعم الزنجبيل، ولكن ليس فيه لَذَعْتُهُ وَلَا حُرْقَتُهُ، بل يكون سهل المساع في الحلق. في حديث ثوبان رضي الله عنه أن حَبْرًا من اليهود سأل النبي ﷺ قال له: أين يكون الناس يوم تبدل الأرض غير الأرض والسماوات؟ قال ﷺ: «هم في الظُّلْمَةِ دون الجسر» قال: فمن أول الناس إجازة؟ قال: «فقراء المهاجرين» قال اليهودي: فما تُخَفِّتُهُمْ حتى يدخلون الجنة؟ قال: «زيادة كبد النون» قال: فما غذاؤهم على إثرها؟ قال: «يتحر لهم ثور الجنة الذي كان يأكل من أطرافها» قال: فما شرابهم عليه؟ قال: «من عين فيها تسمى سلسيلاً»^(١).

عَاشِرًا: خِدْمَةُ الْأَبْرَارِ فِي الْجَنَّةِ

١٩ - ﴿وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُّخَلَّدُونَ إِذَا رَأَيْتَهُمْ حَسِبْتَهُمْ لُؤْلُؤًا مَّنشُورًا ۖ﴾

أما خَدَم أهل الجنة، فهم غلمان كاللؤلؤ المتناثر هنا وهناك، حيث يدور على أهل الجنة غلمان في سن الصبا، دائمون على حالهم، لا يهرمون ولا يشيبون، يُنَشِّئُهُم الله في الجنة لخدمتهم، ويظلون على حالهم من الشباب والنضرة والحُسن، ويقفون على سن واحدة على طول الأزمنة ﴿إِذَا رَأَيْتَهُمْ﴾ في الجنة ﴿حَسِبْتَهُمْ﴾ لحسنهم، وصفاء ألوانهم، وإشراق وجوههم ﴿لُؤْلُؤًا مَّنشُورًا﴾ أي كأنهم لحسن منظرهم وتفرقهم وانتشارهم في الجنة لخدمة أهلها لؤلؤاً مُضِيئاً موزعاً في كل مكان يأتون لأهلها بما يطلبون ويشتون.

(١) ينظر الحديث بتمامه في صحيح مسلم برقم (٣١٥)، وانظر الحاكم (٤٨١/٣)، والبيهقي في الدلائل (٢٦٣/٦)، والطبري (٧٣٨/١٣) وغيرهم.

(٢) قرأ أبو عمرو بخلف عنه وشعبة وأبو جعفر بإبدال الهمزة الأولى من ﴿لُؤْلُؤًا﴾ واوا ساكنة، وكذا حمزة وقفاً، وله في الثانية الإبدال أيضاً، وحققهما الآخرون.

قال الفخر الرازي: وهذا من التشبيه العجيب، لأن اللؤلؤ إذا كان متفرقاً يكون أحسن في المنظر، لوقوع شعاعه بعضه على بعض، فيكون أروع وأبدع.
وفي آية أخرى: ﴿وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ غِلْمَانٌ لَهُمْ كَأَنَّهُمْ لُؤْلُؤٌ مَّكُونٌ﴾ [الطور: ٢٤].
وإذا نُثر اللؤلؤ على البساط كان أكثر منه جمالاً فيما لو كان منظوماً.

حَادِي عَشَرَ: وَفَرَةُ النُّعِيمِ وَاتِّسَاعُ الْجَنَّةِ

٢٠- ﴿وَإِذَا رَأَيْتَ ثَمَّ^(١) رَأَيْتَ نَعِيمًا وَمُلْكًا كَبِيرًا﴾

ثم شوق الله سبحانه عباده إلى نعيم الجنة ورغب فيها فقال ﴿وَإِذَا رَأَيْتَ ثَمَّ﴾ أي وإذا أبصرت - أيها المخاطب - وأول المخاطبين هو رسول الله ﷺ، إذا أبصرت أي مكان في الجنة ﴿رَأَيْتَ نَعِيمًا﴾ أي أبصرت نعيماً لا يدركه الوصف، ﴿وَمُلْكًا كَبِيرًا﴾ عظيماً واسعاً لا نهاية له، فتجد الواحد منهم عنده من القصور والمسكن والغرف ما لا يدركه الوصف، ولديه من البساتين والثمار والأنهار والفواكه والطيور ما يأخذ بالألباب، وعنده من الزوجات مَنْ هُنَّ في غاية الحسن، والطاعة، ومن الخدم والولدان ما تتم به الراحة والسرور، وفوق ذلك رضا رب العالمين والنظر إلى وجهه الكريم، قيل: إن أدناهم منزلة من ينظر في ملكه مسيرة ألف عام، يرى أقصاه كما يرى أدناه.

أخرج ابن المنذر عن عكرمة قال: دخل عمر بن الخطاب رضي الله عنه على النبي ﷺ وهو راقد على حصير من جريد، وقد أثر في جنبه، فبكى عمر، فقال ﷺ: «ما يبكيك؟» قال عمر: ذكرت كِسْرَى ومُلْكَه، وهُزْمُز ومُلْكَه، وصاحب الحبشة ومُلْكَه، وأنت رسول الله على حصير من جريد؟ فقال رسول الله ﷺ: «أما ترضى أن لهم الدنيا ولنا الآخرة؟» فأنزل الله ﴿وَإِذَا رَأَيْتَ ثَمَّ رَأَيْتَ نَعِيمًا وَمُلْكًا كَبِيرًا﴾^(٢).

(١) وقف رويس بهاء السكت على ﴿ثَمَّ﴾ بخلف عنه، والباقون بدونها.

(٢) ينظر النيسابوري (ص ٣٦٤)، وأخرجه عبد بن حميد وابن المنذر كما في الدر المنثور (١٥/١٦٦)، والحديث بدون الآية أخرجه أحمد في المسند عن أنس (١٧/١٢٤) وهو حديث صحيح لغيره (محققه)، وأخرجه البخاري في الأدب المفرد (١١٦٣)، وأبو يعلى (٢٧٨٢)، وابن حبان (٦٣٦٢) وغيرهم.

جاء في الحديث القدسي عن أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: قال الله تعالى: (أعددت لعبادي الصالحين، ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر)^(١). وفي الحديث: (أقل أهل الجنة منزلة، من له قدر الدنيا وعشرة أمثالها) حيث يقال لآخر أهل الجنة دخولا: (إن لك مثل الدنيا وعشرة أمثالها)^(٢). فقد ثبت في الصحيح أن الله تعالى يقول لآخر أهل النار خروجاً منها، وآخر أهل الجنة دخولا إليها: (إن لك مثل الدنيا وعشرة أمثالها). فإذا كان هذا عطاء الله تعالى لأدنى من يكون في الجنة، فما ظنك بمن هو أعلى منزلة وأحظى عند الله تعالى.

ثاني عشر: ملابس الأبرار في الجنة

٢١- ﴿عَلَيْهِمْ سُنْدُسٌ خُضْرٌ وَإِسْتَبْرَقٌ﴾^(٣) وَحُلُوءٌ مِّنْ فَضَّةٍ وَسَقَمُهُمْ رِبُّهُمْ شَرَابًا طَهُورًا ﴿٢١﴾ أي أن ملابس أهل الجنة الخارجية ظاهرها من الحرير الغليظ، وباطنها من الحرير الرقيق الأخضر ﴿عَلَيْهِمْ﴾ أي أن الأبرار، أصحاب النعيم المقيم، والمُلْك الكبير، يعلو

(١) المسند (١٠٠١٧، ٨١٤٣)، والبخاري (٤٧٨٠)، ومسلم (٢٨٢٤)، والترمذي (٣٩٩٢)، وابن ماجه (٤٣٢٨)، وابن أبي شيبة (١٠١/١٣).

(٢) هذا المعنى ثابت في الصحيح.

(٣) قرأ نافع وحزمة وأبو جعفر بسكون الياء وكسر الهاء من ﴿عَلَيْهِمْ﴾ على أنه خبر مقدم، وثياب مبتدأ مؤخر، والباقون بفتح الياء وضم الهاء على أنه ظرف خبر مقدم وثياب مبتدأ مؤخر، كأنه قال: فوقهم ثياب. (٤) قرأ نافع وحفص برفع ﴿خُضْرٌ وَإِسْتَبْرَقٌ﴾ معاً، على أن ﴿خُضْرٌ﴾ صفة لثياب و﴿وَإِسْتَبْرَقٌ﴾ عطف نسق على ثياب، على حذف مضاف، أي وثياب استبرق.

وقرأ ابن كثير وشعبة بخفض ﴿خُضْرٌ﴾ ورفع ﴿وَإِسْتَبْرَقٌ﴾ على أن ﴿خُضْرٌ﴾ صفة لسندس، وجاز وصف المفرد بالجمع على رأي الأخفش، وقيل: إن ﴿سُنْدُسٍ﴾ اسم جنس، واسم الجنس يوصف بالجمع. وقرأ أبو عمرو وابن عامر وأبو جعفر ويعقوب برفع ﴿خُضْرٌ﴾ وخفض ﴿وَإِسْتَبْرَقٌ﴾ فخضر صفة لثياب، وإستبرق عطف نسق على سندس، أي ثياب خضر من سندس ومن إستبرق. وقرأ حمزة والكسائي وخلف بخفضهما، فخضر نعت لسندس، وإستبرق عطف نسق على سندس.

أجسامهم ثياب ظاهرة، من أفخر الثياب، لأنهم يجمعون في لباسهم بين الديباج الغليظ، وهو الاستبرق، والديباج الرقيق وهو السندس، أخضر اللون، وهما أعظم أنواع الحرير ﴿ثِيَابُ سُندِسٍ خُضْرٌ وَإِسْتَبْرَقٌ﴾ كما في سورة الكهف أيضاً ﴿وَيَلْبَسُونَ ثِيَابًا خُضْرًا مِّنْ سُندِسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ﴾ [آية: ٣١] والسندس هو الطيلسان الأخضر، واللون الأخضر أمتع للعين. والاستبرق فيه بريق ولمعان وهو مما يلي الظاهر.

وكلمة سندس هندية في الأصل، والاستبرق كلمة فارسية الأصل. وباستعمال القرآن لهما صارتا عربيتين، وهما لباس الملوك والمثرفين.

ثالث عشر: خلّي أهل الجنة:

قال تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْجَنَّةِ يُحْلَوْنَ فِي أَيْدِهِمْ بِأَسَاوِرَ مِنَ الْفِضَّةِ ذُكُورًا أَوْ إِنَاثًا وَهَذَا وَعْدٌ مِّنَ اللَّهِ لَهُمْ، وَكَانَ وَعْدُهُ مَفْعُولًا. وَفِي سُورَةِ الْحَجِّ: ﴿يُحَاكَوْنَ فِيهَا مِّنْ أَسَاوِرَ مِّنْ ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا﴾ [آية: ٢٣] ومثلها في سورة فاطر: [٣٣].

وفي سورة الكهف: ﴿يُحْلَوْنَ فِيهَا مِّنْ أَسَاوِرَ مِّنْ ذَهَبٍ﴾ [آية: ٣١].

فتارة يلبسون الفضة، وتارة يلبسون الذهب، وتارة يلبسون اللؤلؤ.

قال سعيد بن المسيب: ما من أحد من أهل الجنة إلا وفي يده ثلاثة أساور: واحدة من فضة، وأخرى من ذهب، وأخرى من لؤلؤ.

رابع عشر: من شراب الأبرار في الجنة: قال تعالى: ﴿وَسَقَنَهُمْ رَبُّهُمْ شَرَابًا طَهُورًا﴾.

أي أن شراب أهل الجنة، شراباً لا رجس فيه ولا كدر، ولا دنس، فالأيدي لم تدنسه، ولم ينجس كخمر الدنيا، ومن طهره أنه لا يصير بؤلاً نجساً، بل رشحاً من أبدانهم كرشح المسك، وهذا الشراب مطهر لما بطونهم من كل مرض وأذى.

جاء في تفسير الطبري: إن الرجل من أهل الجنة، يُقسم له شهوة مئة رجل من أهل الدنيا، فإذا أكل سقي شراباً طهوراً، فيصير رشحاً يخرج من جلده أطيّب ريحاً من

المسك الإذخر^(١).

وخمر الآخرة، شراب لذيد طاهر من كل خبث وقذر وسوء، كما أن قلوبهم تخلو من الغل والحقد والحسد والبغضاء والعداء.

تَكْرِيمُ الْأَبْرَارِ وَالثَّنَاءُ عَلَيْهِمْ

٢٢- ﴿إِنَّ هَذَا كَانَ لَكُمْ جَزَاءً وَكَانَ سَعْيُكُمْ مَشْكُورًا ۝﴾

ويقال لأهل الجنة عند رؤيتهم وتذوقهم لهذا النعيم ﴿إِنَّ هَذَا﴾ الجزاء الجزيل والعطاء الجميل ﴿كَانَ لَكُمْ جَزَاءً﴾ على ما قدّمتموه في الدنيا من عمل صالح، أي: أعد الله لكم هذا النعيم المقيم، مقابل إيمانكم وأعمالكم الصالحة في الدنيا، وهذا ثناء عليهم وتكريم لهم بما قدموه من تقوى الله تعالى وخوف لقائه، لقد كان عملكم عند الله تعالى مرضياً مقبولاً ﴿وَكَانَ سَعْيُكُمْ مَشْكُورًا﴾ فجوزيتم أحسن الجزاء مع الشكر والثناء، وأعطاكم الله على السعي القليل من النعيم المقيم ما لا يمكن وصفه وحصره، فازدادوا أيها الأبرار سرورا على سروركم، وبهجة على بهجتكم.

لقد شكرتم فضل الله تعالى فأثاباكم أفضل منه، ورضي منكم بالقليل وأعطاكم عليه الكثير.

قال تعالى: ﴿وَمَنْ أَرَادَ الْآخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَٰئِكَ كَانَ سَعْيُهُمْ مَشْكُورًا ۝﴾

[الإسراء: ١٩].

وقال سبحانه: ﴿كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا أَسْلَفْتُمْ فِي الْأَيَّامِ الْخَالِيَةِ ۝﴾ [الحاقة: ٢٤].

وقال جل شأنه: ﴿وَتِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ۝﴾ [الزخرف: ٧٢].

تَثْبِيْتُ قَلْبِ النَّبِيِّ ﷺ

٢٣- ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ تَنْزِيلًا ۝﴾

(١) تفسير الطبري (١٣٧/٢٩).

وبعد أن فرغ سبحانه من ذكر نعيم أهل الجنة، شرع في تثبيت النبي ﷺ والربط على قلبه، لدفع آثار الغم الذي قد يلحق بالنبي ﷺ من جزاء كُفر بعض الناس وتكذيبهم له ﷺ فإن هذا من شأنه أن يوهن عزيمة البشر من الدعاة إلى الله تعالى.

ومما قاله المكذبون الجاحدون للوحي والرسالة ﴿لَوْ نَشَاءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَذَا إِنْ هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ﴾ [الأنفال: ٣١].

وقالوا أيضاً: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً﴾ [الفرقان: ٣٢].

فكان رد الله تعالى عليهم وعلى أمثالهم ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ﴾ يا رسولنا ﴿الْقُرْآنَ تَرْتِيلًا﴾ من عندنا، نزلناه عليك آية آية، وجملة جملة، مفرقاً حسب الوقائع والحوادث والأحوال، ° لحكمة بالغة، منها: تدرج الشريعة، وتثبيت قلب النبي ﷺ وتيسير حفظه وفهمه، وللتذكير بالوعد والوعيد، والثواب والعقاب، وفيه كل ما يحتاج إليه العباد من أمور دينها ودنياها، وفيه الأمر بالقيام بأوامر الدين وشرائعه، والسعي في تنفيذها والصبر على ذلك.

مَنْهَجُ الدُّعَاةِ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى

٢٤، ٢٥- ﴿فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تَطْعَمْ مِنْهُمْ إِيمًا أَوْ كُفُورًا ۖ ﴿٢٥﴾ وَادْكُرْ اسْمَ رَبِّكَ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴿٢٤﴾﴾

الدعاة إلى الله تعالى يحتاجون إلى الصبر على تبليغ الدعوة، وتحمل الأذى من المعارضين، والاستعانة على ذلك بكثرة العبادة من فرائض ونوافل، وعلى رأسها الصلاة والتسبيح.

وفي هذه الآية والآيتين بعدها أمر الله تعالى إمام الدعوة ﷺ بأربعة أمور هي:

١- الصبر، ٢- وعدم طاعة المخالفين.

٣- والإقبال على الله سبحانه بكثرة الذكر والصلاة.

٤- وذكر الله جل وعلا في جوف الليل. وهذه كلمات عن كل منها:

أولاً: الصبر على جهاد الدعوة:

جاء في سبب النزول أن الله تعالى لما فرض الصلاة على نبيه ﷺ نهاه أبوجهل عن

الصلاة، وقال: لئن رأيتُ محمداً يصلي لأطأن عنقه^(١).

وورد أن عتبة بن ربيعة، والوليد بن المغيرة، قالا للنبي ﷺ: إن كنت صنعت ما صنعت لأجل النساء والمال، فارجع عن هذا الأمر، قال عتبة: أنا أزوجك ابنتي وأسوقها إليك بغير مهر، وقال الوليد: أنا أعطيك من المال حتى ترضى، فارجع عن هذا الأمر، فأنزل الله هذه الآية^(٢).

قيل: والمراد بالآثم في الآية وقت التنزيل: عتبة بن ربيعة، وبالكفور: الوليد بن المغيرة. والآية تتناول كل من كان على شاكلتهما إلى يوم القيامة.

والآثم هو: الذي يُقَدِّم على المعاصي أيّاً كانت. والكفور هو: الجاحد لوحداية الله تعالى، فكل كفور آثم، ولا عكس، لأن من عبد غير الله تعالى فقد عصاه وجحد نعمه. وعلى هذا فقد أمر الله تعالى رسوله ﷺ بالصبر على جهاد الدعوة وتبليغ الرسالة: ﴿فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ﴾ أي اصبر على قضاء الله تعالى وقدره، واصبر على أداء شرائع الله وأحكامه، واصبر على ما ينالك من أذى، وانتظر حكم الله فيمن خالفك، فلا بد أن ينتقم الله لك منهم، ويُقر عينك بإهلاكهم إن عاجلاً أو آجلاً، ولا بد أن ينصرك عليهم، فلا تلتفت لمن يشيك عن الدعوة ويصرفك عنها.

ثانياً: عدم طاعة المخالفين: قال تعالى: ﴿وَلَا تَطْعَمْهُمْ إِنَّمَا﴾ منغمساً في الشهوات، غارقاً في الموبقات، داعياً إلى الإثم والفجور، ولا تطعم منهم من كان مبالغاً في الكفر والجحود، ممن لا ينزجر ولا يرتدع، فإن طاعة الكفار والفجار والفساق لابد أن تكون في المعاصي وفي هوى النفس والشيطان.

والآية عامة في كل آثم كافر فاسق، وفيها تبييس لمن عرض على النبي ﷺ وسائل، لِيَصْرِفَهُ عن الدعوة، كي يستجيب لما عرضه عليه.

(١) تفسير الخازن (٣٤٢/٤)، وعبد الرزاق (٣٣٩/٢)، والطبري (٥٧٢/٢٣).

(٢) التحرير والتنوير (١٠٤/٤٩)، والخازن (٣٤٢/٤)، والتفسير الكبير (٢٥٨/٣٠)، والقرطبي (١٤٧/١٩)،

وحاشية الصاوي (٢٧٨/٤).

ثالثاً: الإقبال على الله تعالى بكثرة الذكر والصلاة:

ثم أرشد الله رسوله إلى ما يُعينه على الصبر والثبات، وهو الإقبال على الله تعالى بكثرة الذكر صباحاً ومساءً في الصلاة وخارجها ﴿وَاذْكُرْ أَمَّ رَبِّكَ﴾ داوم على ذكر اسم ربك ودعائه ﴿بُكْرَةً وَأَصِيلًا﴾ في أول النهار وآخره، فأول النهار صلاة الصبح، وآخره صلاة العصر، ويدخل في ذلك جميع الصلوات المفروضة وما يتبعها من نوافل وذكر وتسبيح وتحميد وتهليل وتكبير في هذه الأوقات.

رابعاً: الصَّلَاةُ وَالتَّسْبِيحُ فِي جَوْفِ اللَّيْلِ

٢٦- ﴿وَمِنَ اللَّيْلِ فَاسْجُدْ لَهُ، وَسَبِّحْهُ لَيْلًا طَوِيلًا﴾

اسجد لربك في صلاتك، واخضع لعظمته وجبروته وأكثر من السجود له ولا يكون ذلك إلا في الصلاة ﴿وَسَبِّحْهُ لَيْلًا طَوِيلًا﴾ متهجداً مستغرقاً في مناجاته في جناح الليل والناس نيام، كقوله تعالى: ﴿وَمِنَ اللَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِ، نَافِلَةً لَّكَ عَسَىٰ أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّخْمُودًا﴾ [الإسراء: ٧٩] فكن عابداً لله تعالى، ذاكراً له في جميع الأوقات، في الليل والنهار، والصباح والمساء، بقلبك ولسانك، لتقوى على مجابهة الأعداء.

وهاتان الآيتان تشتملان على الصلوات الخمس:

فقوله تعالى: ﴿بُكْرَةً﴾ يدخل فيها صلاة الفجر والظهر.

وقوله: ﴿وَأَصِيلًا﴾ يعني صلاة العصر.

أما المغرب والعشاء فيشملهما قوله تعالى: ﴿وَمِنَ اللَّيْلِ فَاسْجُدْ لَهُ﴾.

أما صلاة التهجد فتدخل في قوله تعالى: ﴿وَسَبِّحْهُ لَيْلًا طَوِيلًا﴾ وتسبيح الليل الطويل

مقيد بقوله تعالى: ﴿فَاقْرَأْ مَا يَنْشُرُ مِنَ الْقُرْآنِ﴾ على نحو ما سبق في سورة المزمل.

ومن الآيات التي تشبه ذلك قوله تعالى: ﴿وَأَقِمِ الصَّلَاةَ طَرَفِي النَّهَارِ وَزُلْفًا مِّنَ اللَّيْلِ إِنَّ

الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ ذَلِكَ ذِكْرَى لِلذَّاكِرِينَ﴾ وَأَصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ ﴿١١٤﴾

[هود: ١١٤، ١١٥].

وقوله: ﴿وَلَقَدْ عَلَّمُكَ أَنَّكَ يَصِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ ﴿١٧﴾ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَكُنْ مِنَ السَّاجِدِينَ﴾ [الحجر: ٩٧، ٩٨].

والتسبيح هو تنزيه الله تعالى بالقول والاعتقاد، ويشمل الصلوات الخمس، والأقوال الطيبة وكل ما فيه تنزيه الله تعالى.

تَهْدِيدُ وَوَعِيدُ مَنْ انْهَمَكَ فِي الدُّنْيَا وَنَسِيَ الْآخِرَةَ

٢٧- ﴿إِنَّ هَؤُلَاءِ يُحِبُّونَ الْعَاجِلَةَ وَيَذَرُونَ وَرَاءَهُمْ يَوْمًا ثَقِيلًا ﴿٢٧﴾﴾

ثم بين سبحانه بعض الأسباب التي تجعل النبي ﷺ لا يطع منهم آثماً أو كفوراً، ومنها: أنهم منهمكون في طلب الدنيا معرضون عن الآخرة ﴿إِنَّ هَؤُلَاءِ﴾ الكفرة الجاحدون المكذبون لك - أيها الرسول - بعد أن بينت لهم الآيات البينات ورغبتهم ورهبتهم، ومع ذلك فلا يزالون ﴿يُحِبُّونَ الْعَاجِلَةَ﴾ أي يؤثرون الدنيا وينشغلون بها، وينهمكون في لذائذها الفانية، ويفضلونها على الآخرة، فهم يحبون الدنيا ﴿يَذَرُونَ وَرَاءَهُمْ يَوْمًا ثَقِيلًا﴾ أي أنهم يتركون خلف ظهورهم العمل للآخرة، ويتركون ما فيه نجاتهم في يوم عظيم الشدائد، هو يوم القيامة.

وهو يوم يقدر بخمسين ألف سنة مما تعدون، وهو يوم عسير على الكافرين، وكأنهم ما خلقوا إلا للدنيا والاستمتاع بها والإقامة فيها.

وفي الآية توبيخ وتجهيل لهم، حيث آثروا الفاني على الباقي، والعاجل على الآجل. ووضف يوم القيامة بالثقل، لشدة ما يقع فيه من أهوال وكروب، فهو كالشيء الثقيل الذي لا يستطيع حمله.

وفي الآية أيضاً تحذير لكل مؤمن أن يتخلق بأخلاقهم.

قال تعالى: ﴿وَدُّوا لَوْ تَكْفُرُونَ كَمَا كَفَرُوا فَتَكُونُونَ سَوَاءً﴾ [النساء: ٨٩].

وقال سبحانه: ﴿وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّنْ بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّارًا﴾

[البقرة: ١٠٩].

وحب الدنيا بما لا يُلْهي عن الآخرة حب غير مذموم.
كما قال تعالى: ﴿وَابْتَغِ فِيمَا ءَاتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ وَلَا تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا﴾
[القصص: ٧٧].

وعلم الدنيا، مقطوع الصلة عن الله تعالى، فهو علم مذموم.
كما قال تعالى: ﴿يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِّنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ الْآخِرَةِ هُمْ غَفْلُونَ﴾ [الروم: ٧].
٢٨- ﴿ثُمَّ نَخْنُ خَلَقْنَاهُمْ وَشَدَدْنَا أَسْرَهُمْ وَإِذَا شِئْنَا بَدَلْنَا أَمْتَلَهُمْ تَبْدِيلًا﴾
وهؤلاء الذين يتركون وراءهم يوماً ثقيلاً، يتركونه لأنهم لا يؤمنون بالبعث والنشور،
ولذا: فإن الله تعالى يذكرهم ويذكر كل منكر للبعث إلى يوم القيامة، بأن الذي بدأ
خلقهم وأحكمه أيما إحكام، هو الذي يعيدهم للحساب والجزاء ﴿ثُمَّ نَخْنُ خَلَقْنَاهُمْ﴾
بقدرتنا وأوجدناهم من العدم ﴿وَشَدَدْنَا أَسْرَهُمْ﴾ أي أحكمنا خلقهم، وقوينا أجسادهم،
ومنخناهم السمع والبصر والفؤاد، وربطنا بين مفاصلهم وأجزاء أجسادهم ربطاً عجيباً،
معجزاً متقناً بديعاً فزودناهم بالقوى الظاهرة والباطنة حتى استكمل الجسم قواه بعظامه
وأعصابه وعروقه وأوتاره، وتمكّن من كل ما يريده.

والأشر هو الحبل الذي تُربط به الأحمال، ويراد به في الآية: أن الله تعالى يمنّ على
عباده بأنه قد أحكم خلقهم وأتقنه وربط بين مفاصلهم وشرائينهم وعروقههم وأعصابهم،
ربطاً لا قبل للإنسان بمعرفة أسرار.

والشدّ هو الإحكام، وإتقان ارتباط أجزاء الجسد بعضها ببعض، بواسطة العظام
والأعصاب والعروق، فكانت مشدودة بعضها إلى بعض.

ثم إن الله تعالى هدّدهم على إعراضهم وجحودهم للبعث، بأن يهلكهم ويستبدل بهم
غيرهم مطيعين لله تعالى، فقال: ﴿وَإِذَا شِئْنَا بَدَلْنَا أَمْتَلَهُمْ تَبْدِيلًا﴾ أي وإذا أردنا عقابهم
أهلكناهم، وجئنا بأطوعَ لله منهم، وبدّلناهم تبديلاً معجزاً لا يقدر عليه غير الله تعالى،
كما قال سبحانه: ﴿إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ﴾ ﴿وَمَا ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ بِعَزِيزٍ﴾ [فاطر: ١٦، ١٧]
وإبراهيم: ٢٠، ١٩].

وفي هذا تهديد ووعد لكل من أنكر البعث والنشور، بتبديل (أَمْثَالَهُمْ) أي أشباههم ونظائرهم، في أشكالهم وقوة أجسادهم، بقوم آخرين مماثلين لهم في الخلق، ولكنهم أكثر طاعة لله تعالى.

ومثله قوله تعالى: ﴿وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ ﴿٦٠﴾ عَلَىٰ أَنْ نُبَدِّلَ أَمْثَلَكُمْ وَنُنْشِئَكُمْ فِي مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [الواقعة: ٦٠، ٦١].

وقوله: ﴿فَلَا أَقِمْ رِيبَ الشَّرِّ وَالْقَرْبِ إِنَّا لَقَدِيرُونَ ﴿٦١﴾ عَلَىٰ أَنْ نُبَدِّلَ خَيْرًا مِنْهُمْ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ﴾ [المعارج: ٤٠، ٤١].

وقوله: ﴿إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ أَيُّهَا النَّاسُ وَيَأْتِ بِآخَرِينَ﴾ وَكَانَ اللَّهُ عَلَىٰ ذَلِكَ قَدِيرًا ﴿[النساء: ١٣٣]﴾. ويستدل بالآية على أن القادر على خلق الناس من العدم، قادر على أن يعيدهم بعد الموت لحسابهم وجزائهم، والذي خلقهم أطواراً في هذه الحياة، لا يتركهم سدى، بدون أمر ونهي، وثواب وعقاب، وجنة ونار.

يَنْتَفِعُ بِمَا فِي هَذِهِ السُّورَةِ مَنْ سَلِمَتْ فِطْرَتُهُ وَسَلِمَ عَقْلُهُ

٢٩- ﴿إِنَّ هَذِهِ تَذْكِرَةٌ ۖ فَمَنْ شَاءَ اتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِ سَبِيلًا ﴿٢٩﴾﴾

ثم ختم الله تبارك وتعالى السورة ببيان أن ما جاء فيها من آيات كريمات، موعظة وذكرى، يتذكر بها العاقل، وينتجزر بها الجاهل ﴿إِنَّ هَذِهِ تَذْكِرَةٌ﴾ إن هذه السورة عظة للعالمين، وتذكرة للناس أجمعين، فمن أراد الانتفاع بها والعمل بما فيها، من الترغيب والترهيب وأحب الخير لنفسه في الدنيا والآخرة، فعليه أن يسلك طريق النجاة بالإيمان والتقوى، للوصول إلى مغفرة الله تعالى ورضوانه، وهذا معنى: ﴿فَمَنْ شَاءَ اتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِ سَبِيلًا﴾ أي: طريقاً موصلاً إلى جنة الله ورضوانه بالتوبة والإنابة، وفي هذا حث على المبادرة والإقبال على صالح الأعمال، وتعريض بمن أصر على كفره وجحوده. والله تعالى يخير الناس بين الاهتداء إلى سبيل الله أو النفور عنها.

واختيار طريق الرشاد يكون بما أودع الله في الإنسان من العقل وحرية الاختيار والتفكير، وما وضح له من سبيل النجاة، عن طريق الرسل والكتب، فللعبد مشيئته وإرادته وكسبه، ومشية الله نافذة، وله الحكمة البالغة في ضلال من ضل وهداية من اهتدى.

مَشِيئَةُ الْعَبْدِ مُرْتَبِطَةٌ بِمَشِيئَةِ اللَّهِ تَعَالَى

٣٠- ﴿وَمَا تَشَاءُونَ^(١) إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿٣٠﴾﴾

وقد علم الله تعالى اختيار العبد، وتوجه مشيئته، قبل أن يوجد في هذه الحياة، عندما يكون إنساناً بالغاً رشيداً، فتم تدوين ذلك في اللوح المحفوظ وفق انكشاف علم الله تعالى بما كان وما يكون، ومن هنا فإن مشيئة العبد مرتبطة بمشيئة الله تعالى لا تخرج عنها، فعلم الله تعالى لا يتخلف، وهذا معنى: ﴿وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ﴾ أي وما تشاؤون أن تتخذوا إلى الله سبيلاً إلا أن يشاء الله، وما تريدون أمراً من الأمور إلا بتقدير الله تعالى ومشيئته، فهو الخالق لكل شيء، وهو العالم بما خلق، وهو صاحب الخلق والأمر، تبارك الله رب العالمين.

فمن اختار سبيل مرضاة الله تعالى، يسر له ما يعينه على ذلك قال تعالى: ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى وَافَّقَى ﴿٥﴾ وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى ﴿٦﴾ فَسَنِيَرُهُ لِلْعُسْرَى ﴿٧﴾﴾ [الليل: ٥-٧].

ومن اختار سبيل الشر، وكله الله إلى نفسه وأحواله التي تعودها، فافتحَم طريق الضلال:

قال تعالى: ﴿وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ وَاسْتَغْنَى ﴿٨﴾ وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَى ﴿٩﴾ فَسَنِيَرُهُ لِلْعُسْرَى ﴿١٠﴾﴾ [الليل: ٨-١٠].

وكل ذلك وفق علم الله تعالى وحكمته ﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾.

وهذه الآية قد جمعت بين مشيئة العبد ومشية الله تعالى، وبهذا فإنها أثبتت مشيئة للناس، وجعلت مشيئة الله تعالى شرطاً فيها، فمشيئة الله تعالى مستلزمة لفعل العبد، وجميع ما يصدر منه يكون بمشيئة الله تعالى وإرادته، فلا تشاؤون شيئاً إلا بمشيئة الله

(١) قرأ ابن كثير وأبو عمرو وابن عامر بخلف عنه بياء الغيب في ﴿تَشَاءُونَ﴾ لمناسبة ﴿تَخُنَّ خَلْقَهُمْ﴾ والباقون بقاء الخطاب على الالتفات وهو الوجه الثاني لابن عامر.

تعالى، والعبد يُؤَجَّر على مجرد قصد الخير وإن لم يفعله، كما في حديث عمر رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «إنما الأعمال بالنيات وإنما لكل امرئ ما نوى»^(١).

مَا أَعَدَّهُ اللَّهُ لِمَنْ سَلَكَ طَرِيقَ الْهُدَى وَطَرِيقَ الضَّلَالِ

٣١- ﴿يَدْخُلُ مَنْ يَشَاءُ فِي رَحْمَتِهِ وَالظَّالِمِينَ أَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ (٣١)

وقد أعد الله تعالى لكلا الفريقين: - من اتخذ طريق الحق، ومن اتخذ طريق الضلال - منزله في الجنة أو النار ﴿يَدْخُلُ مَنْ يَشَاءُ فِي رَحْمَتِهِ﴾ ورضوانه، من عباده المؤمنين فيوفقه لأسباب السعادة ويهديه لطرقها.

﴿وَالظَّالِمِينَ﴾ المتجاوزين حدود الله تعالى الذي اختاروا طريق الشقاء ﴿أَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ موجعاً في الدار الآخرة، لأنهم أصرُّوا على الكفر، وآثروا الباطل على الحق، وهو سبحانه يهدي من يشاء ويضل من يشاء وفق الاستعداد الفطري لكل منهما، ومن يضل الله فلا هادي له، ومن يهد الله فلا مضل له، فلا مانع لما أعطى، ولا معطي لما منع. وهذا الختام للسورة يتوافق مع مطلعها ﴿إِنَّا هَدَيْنَا السَّبِيلَ إِنَّمَا شَاكَرُوا وَإِمَّا كَفَرُوا﴾. والشاكر هو من يَدْخُلُ في رحمة الله، والكفور هو الذي أعد الله له عذاباً أليماً. ومن الوقف الذي يغيّر المعنى: أن يقف القارئ على ﴿يَدْخُلُ مَنْ يَشَاءُ فِي رَحْمَتِهِ وَالظَّالِمِينَ﴾ فإن هذا يدل على عدم فقه القاري وعدم فهمه للمعنى، حيث أشرك الظالمين في دخول الرحمة مع المؤمنين.

ومثله الوقف على ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَالَّذِينَ آمَنُوا﴾ [فاطر: ٧]، والوقف على ﴿لِلَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمُ الْحُسْنَى وَالَّذِينَ لَمْ يَسْتَجِيبُوا﴾ [الرعد: ١٨] ونحو ذلك في القرآن. وهذا معنى الحديث: «ما لم تختتم آية رحمة بآية عذاب أو آية عذاب بآية رحمة».

تم تفسير (سورة الإنسان) والله الحمد والمنة

(١) البخاري برقم (١)، ومسلم (١٥٥/١٩٠٧).

تَفْسِيرُ سُورَةِ الْمُرْسَلَاتِ (٧٧)

مُقَدِّمَةُ السُّورَةِ

(سورة المرسلات) هي السورة السابعة والسبعون في ترتيب المصحف، والثالثة والثلاثون في ترتيب النزول.

نزلت بعد (سورة الهمزة) وقبل (سورة ق)، عندما كان النبي ﷺ مختفياً في غارِ بمنى مع بعض أصحابه.

وسُميت في العهد النبوي (سورة والمرسلات عرفاً):

١- كما في الصحيحين وغيرهما عن ابن مسعود ؓ قال: بينما نحن مع رسول الله ﷺ في غارِ بمنى، إذ نزلت عليه (سورة والمرسلات عرفاً) فإنه ليتلوها، وإنني لأتلقاها من فيه، وإن فاه لَرَطَبٌ بها، إذ وثبت علينا حية فقال ﷺ: اقللوها، فابتدرناها، فذهبت، فقال ﷺ: «وُقيث شرُّكم، كما وقيتم شرها»^(١).

٢- وفي الصحيح عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: قرأت (سورة والمرسلات عرفاً) فسمعتني أم الفضل (امراة العباس) فبكث وقالت: (يا بُنَيَّ أذكرتني بقراءتك هذه السورة، إنها لآخر ما سمعتُ من رسول الله ﷺ يقرأُ بها في صلاة المغرب)^(٢).

٣- وجاء في رواية أبي داود عن ابن مسعود ؓ تسميتها بسورة المرسلات قال: كان النبي ﷺ يقرأُ النظائر، السورتين في ركعة: (الرحمن والنجم، في ركعة، واقتربت

(١) المسند (٣٧٧/١) برقم (٣٥٨٦)، والبخاري (٣٣١٧، ١٨٣٠)، ومسلم (٢٢٣٤)، والنسائي في السنن الكبرى (١١٥٧٨، ٣٨٥٢)، وغيرهم.

(٢) الموطأ (٧٨/١)، والبخاري (٤٤٢٩، ٧٦٣)، ومسلم (٤٦٢)، وابن ماجه (٨٣١)، وابن أبي شيبة (١٥٧/١)، والمسند (٢٦٨٦٨)، وأبوداود (٨١٠)، والترمذي (٣٠٨)، وابن حبان (١٨٣٢)، وعبد بن حميد (١٥٨٥)، وعبد الرزاق في المصنف (٢٦٩٤).

والحاقة، في ركعة، وعم يتساءلون والمرسلات، في ركعة^(١).

وفي هذه الأحاديث بيان لفضل السورة.

وتسمى أيضاً سورة الغُزف، لقوله تعالى ﴿وَالْمُرْسَلَاتِ غُرَفًا﴾ فهذه ثلاثة أسماء لها:

١- والمرسلات عرفاً، ٢- المرسلات، وهو الأشهر، ٣- الغُزف.

وهي سورة مكية، وعدد آياتها خمسون آية باتفاق، منها عشر آيات ﴿وَلَبِئْسَ يَوْمِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ﴾

وهي مئة وثمانون كلمة، وثمان مئة وستة عشر حرفاً.

موضوع السورة:

١- (سورة المرسلات) كسائر السور المكية، تعالج أمور العقيدة، وتقيم دلائل الوحداية والقدرة، وتركّز على اليوم الآخر بوجه خاص.

وقد ابتدأت السورة بخمسة أنواع من القسم: بالرياح وتقلباتها، أو بأنواع الملائكة المكلفين بتدبير شؤون الكون، والمقسم عليه، أن البعث حق، والثواب والعقاب حق، وأن الهلاك واقع على المكذبين لا محالة.

ثم تذكر السورة أربعة من مظاهر القيامة، والوقت الذي يكون فيه قيام الساعة، والعذاب الذي وعد به المجرمون، وهو اليوم الذي يكون فيه: طمس النجوم، وتصدع السماء، ونسف الجبال، وموعد الفصل والقضاء بين الرسل والأمم، وهذا من أول السورة إلى الآية الرابعة عشرة منها.

٢- وقد ذكر في السورة ﴿وَلَبِئْسَ يَوْمِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ﴾ عشر مرات، يأتي كل منها بعد مقطع من مقاطع السورة، وفي كل مقطع منها إخبار عن شيء من أحوال الآخرة، وتذكير بأحوال الدنيا، فناسب ذلك أن يذكر عقب كل مقطع منها تهديد ووعد بالويل والعذاب للمكذبين، وهذه المقاطع العشرة هي:

(١) أبوداود برقم (١٣٩٦)، وهو في المسند برقم (٣٩٦٨، ٣٦٠٧)، وهو حديث صحيح، وأخرجه الطبراني في الكبير (٩٨٥٥، ٩٨٥٧).

المقطع الأول: جاء ذكره في أربعة عشر آية، ذكر فيها خمسة أنواع من القسم على أن البعث حق، وأن مشاهد يوم الفصل حق، وهذا من [الآية ١-١٤].

والمقطع الثاني: فيه ذكر مصارع الغابرين، وهذا من [الآية ١٦-١٩].

والمقطع الثالث: فيه ذكر النشأة الأولى وتكوين خلق الإنسان، وهذا من [الآية ٢٠-٢٤].

والمقطع الرابع: فيه ذكر الأرض وهي تضم أبنائها إليها في حياتهم وبعد مماتهم، وهذا من [الآية ٢٥-٢٨].

والمقطع الخامس: فيه بيان ما يلقاه المكذبون من عذاب وتأنيب في يوم الفصل، وهذا من [الآية ٢٩-٣٤].

والمقطع السادس: فيه بيان عدم الإذن للكفار في النطق يوم القيامة، وعدم قبول الاعتذار من المكذبين، وهذا من [الآية ٣٥-٣٧].

والمقطع السابع: فيه تحدى المنكرين المكذبين بخاتم النبيين، وبيان ما أخبرهم الله به من البعث والنشور، إن كان لديهم حيلة للتخلص من عذاب يوم الدين، وهذا من [الآية ٣٨-٤٠].

والمقطع الثامن: فيه ذكر المتقين وما أعد الله لهم من نعيم، وهذا من [الآية ٤١-٤٥].

والمقطع التاسع: فيه تأنيب المكذبين على موقفهم من الدعوة، وهذا في [الآيتين: ٤٦، ٤٧].

والمقطع العاشر: فيه ذكر السبب في عذاب المجرمين، وهذا من [الآية ٤٨-٥٠].

حديث المقاطع العشرة عن اليوم الآخر:

في المقاطع العشرة بيان قدرة الله تعالى على إحياء الناس بعد موتهم: فقد استدلت آيات السورة على ذلك كما يأتي.

أولاً: بمصارع الغابرين، ومن بعدهم ممن يلحق بهم وهو على شاكلتهم.

واستدلت السورة ثانياً ببدء خلق الإنسان من ماء مهين، ومروره بأطواراً الخلق إلى أن صار بشراً سوياً بقدرة الله تعالى.

واستدلت ثالثاً على أن الله تعالى جعل هذه الأرض تضم أبنائها إليها، أحياء وأمواتاً، وقد ثبتها الله تعالى بالجبال، وأجرى فيها المياه لحياة الإنسان والحيوان.

وقد تخلل هذه النقاط الثلاث: الويل لمن كذب بكل منها.

واستغرق هذا من الآية الخامسة عشرة إلى الآية الثامنة والعشرين من السورة.

٣ - ثم تحدثت آيات السورة عما يلقاه المكذبون بيوم الفصل، من عذاب في نار جهنم، وبينت أن الشرارة التي تتطاير منها كالقصر العظيم، إلى جوار ما يلقوه من التأنيب والتوبيخ، وعدم السماح لهم في النطق والاعتذار، ثم يقال لهم: هذا يوم الفصل والعقاب، فإن كان لديكم حيلة في الخلاص من العذاب فافعلوا.

وفي أثناء الحديث عن المكذبين المجرمين تأتي السورة بالوجه المقابل لاستحضار صورة المتقين، وهم على النقيض من أهل الجحيم، فهم في ظلال وعيون، وفواكه وتمتع. ثم تعود الآيات إلى استكمال جزاء المجرمين، ومن ثم إلى بيان السبب فيما يلقونه من عذاب، وهو أنهم كانوا لا يصلُّون وهم في الدنيا، ولا يؤمنون بهذا القرآن وما فيه، وإذا كانوا لم يؤمنوا به، فبأي كتاب آخر يؤمنون؟ ويتخلل كل فقرة مما سبق: الوعيد لمن كذب بلقاء الله تعالى.

وكما اهتمت سورة الإنسان فأطنبت في ذكر أوصاف المتقين ونعيمهم في الدار الآخرة، فإن هذه السورة أطنبت في ذكر أوصاف الكفار وعذابهم، إلى جوار ذكر الطرف المقابل بصورة مجملّة موجزة في كل منهما.

وختمت السورة ببيان أسباب امتناع الكفار عن عبادة الواحد القهار، وهو عدم الإيمان بالله تعالى وباليوم الآخر، وبخاتم المرسلين. وهي سورة زاخرة بالحديث عن أهوال القيامة، وعن مظاهر قدرة الله تعالى، وعن حسن عاقبة المتقين.

تَفْسِيرُ السُّورَةِ

الْقَسَمُ بِالرِّيَّاحِ فِي أَحْوَالِهَا الْمُخْتَلِفَةِ عَلَى أَنْ الْبَعَثَ حَقٌّ

١-٧- ﴿وَالْمُرْسَلَاتِ عُرْفًا ۝١﴾ فَأَلْصَقْنَ عَصْفًا ۝٢﴾ وَالنَّشْرِ نَشْرًا ۝٣﴾ فَأَلْفَرَقْنَ فَرَقًا ۝٤﴾ فَأَلْمُحِيطِ ذِكْرًا ۝٥﴾ عَذْرًا ^(١) أَوْ نَذْرًا ^(٢) ۝٦﴾ إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَوَفْعٍ ۝٧﴾

تعددت أقوال المفسرين في المراد بأنواع القسم الخمس التي أقسم الله تعالى بها في أول هذه السورة، كالقسم الذي في أول سورتي: الذاريات، والنازعات:

فبعض الأقوال المأثورة، يفيد أن المراد بها كلها: الرياح.

وبعضها يفيد أن المراد بها كلها: الملائكة.

وقال بعضهم: المراد بالمرسلات والعاصفات: الرياح.

أما الناشرات والفارقات والملقيات، فهم الملائكة.

على اختلاف في المراد بالناشرات، هل يراد بها الرياح أو الملائكة؟

ولعل الأرجح الذي لا يقطع المعنى ولا يفصله بين الآيات، أن المراد بالمرسلات

والعاصفات والناشرات والفارقات والملقيات، كلها وُصف للرياح التي تخبرنا النشرات

الجوية عن مصادر هبوبها، وتحديد وجهاتها.

والهواء أساس الحياة البشرية، سواء وقف ساكناً، أو هبَّ عليلًا، أو اشتد عاصفًا، فهو

يتنقل شرقاً وغرباً وشمالاً وجنوباً. وعندما يهدأ الجو تشعر بالهواء لطيفاً، وعندما يثور

في الأفطار، تراه يقصف الأشجار، ويقذف بالسيارات من مكان لآخر، وهو يُعْثِر

السحب هنا وهناك، ويفرقها لتحمل الغيث حيث شاء الله.

(١) قرأ روح بضم الدال من ﴿عَذْرًا﴾ والباقون بإسكانها.

(٢) قرأ أبو عمرو وحفص وحمزة والكسائي وخلف بإسكان الدال من ﴿نَذْرًا﴾، وضمها غيرهم.

والرياح هي واسطة النقل للأمواج الصوتية التي تنقل القرآن هنا وهناك، ومن يستمعون إلى هذا الوحي، منهم المتفجع ومنهم المعرض.

ونقل الأصوات بواسطة الهواء، حقيقة علمية لا ينكرها أحد في عالم يموج بوسائل الاتصالات المتعددة والمتنوعة.

وسوف نمضي في تفسير الآيات على أن المراد بأنواع القسم الخمسة: الرياح. وعلى هذا: فقد أقسم الله تبارك وتعالى بالمرسلات، وهي الرياح المتتابعة في أحوالها العادية حين تهبّ لتنفيذ أمر الله تعالى بالعذاب وغيره، يقسم بها وهي متتابعة، يَقْفُو بعضها بعضاً، وهذا معنى ﴿عُرْفًا﴾ أي أن الرياح يتبع بعضها بعضاً كعرف الفرس.

وقد جاء التعبير عن سوق الرياح بلفظ الإرسال في آيات كثيرة، منها:

- ١ - قوله تعالى ﴿وَأَرْسَلْنَا الرِّيحَ لَوَاقِحَ﴾ [الحجر: ٢٢].
- ٢ - وقوله ﴿وَهُوَ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ﴾ [الأعراف: ٥٧].
- ٣ - وقوله: ﴿اللَّهُ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيحَ فَتُبْرِئُ سَحَابًا﴾ [الروم: ٤٨].
- ٤ - وقوله: ﴿وَمَنْ أَيْنَئِذٍ أَنْ يُرْسِلَ الرِّيحَ مُبَشِّرَاتٍ﴾ [الروم: ٤٦] وهكذا.

وقد أقسم الله سبحانه - أولاً - : في هذه السورة بالرياح في أحوالها العادية، حال هبوبها حين يتبع بعضها بعضاً، كعرف الفرس في التتابع، والله تعالى هو الذي أرسلها ﴿وَأَلْمَسْنَ عُرْفًا﴾ يقسم الله تعالى بها وهي تحمل أمره تعالى ونهيه، ويقسم بها في أحوالها المختلفة، لا سيما وهي تحمل الرحمة وتحمل العذاب.

وأقسم الله تعالى - ثانياً - بالرياح وهي شديدة الهبوب، عنيفة السير، تعصف بالأشجار فتقلعها، وبالديار فتخربها، وبالأثار فتغيرها، وتثير الخوف والذعر في قلوب الناس. فتهلك وتدمر وهي أعتى الريح ﴿فَالْعَصْفَتِ عَصْفًا﴾ والأنسب بالعاصفات أن يراد بها الرياح ولا يراد بها الملائكة.

وأقسم سبحانه ثالثاً بالرياح وهي تفرق السحب وتنشرها وتسوقها ليسقي بها بلمدमित، وتلقح الشجر، وتحمل البذر، وتدفع السفن وتبدد الهواء هنا وهناك، فتشرها

وتسوقها حيث شاء الله تعالى في أي جهة من العالم، فتأتي بالمطر وتُفرقه وتذرو السحب ذروا، وتشره نشرا، فيحيي به الله العباد والبلاد، ﴿وَالنَّشْرَ نَشْرًا﴾.

والواو لعطف القسم بالناشرات على القسم بالعاصفات، وهي الآية الوحيدة التي بدئت بالواو، والأربعة الباقية بدئت بالفاء.

ولفظ ﴿نَشْرًا﴾ يقرأ في الآيات التي تتحدث عن الرياح، - كآية سورة الفرقان ﴿وَهُوَ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيحَ بُشْرًا بَيِّنَاتٍ يَدُّ رَحْمَتُهُ وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً طَهُورًا﴾ [الفرقان: ٤٨] بالنون وبالباء، وفي هذا دلالة على أن الأليق بالناشرات، أن يراد بها الرياح التي تنشر السحب.

جاء في الأثر أن الرياح ثمان: أربع منها عذاب، وأربع منها رحمة:

فالعذاب منها: العاصف، والصرصر، والعقيم، والقاصف.

والرحمة منها: الناشرات، والمبشرات، والمرسلات، والذاريات.

فيرسل الله تعالى المرسلات فتثير السحاب، ثم يرسل المبشرات فتلقح السحاب، ثم يرسل الذاريات فتجمل السحاب، فتدُّرُّ كما تدُّرُّ اللقحة، ثم تمطر، وهن اللواقح، ثم يرسل الناشرات، فتشر ما أراد^(١).

وأقسم - رابعاً بالرياح - وهي تنقل الأمواج الصوتية عبر الأثير، وتوزع أصوات القراء وهم يتلون كتاب الله تعالى في الآفاق وتنشره هنا وهناك ﴿فَالْفَرْقَتِ﴾ أي الرياح وهي تحمل الأصوات بآي الذكر الحكيم في العالم، فتفرقه ﴿فَرَقًا﴾ بما يحمل من الحلال والحرام، والحق والباطل، والهدى والضلال.

وكما تنقل الرياح تلاوات القرآن الكريم إلى العالم فإنها تنقل أيضاً النشرات الأخبارية ونحوها، وتنقل أصوات اللهو ونحوها وتبثه هنا وهناك.

وقد يراد بالفارقات: الملائكة أو الرسل الذين يبلغون وحي الله تعالى إلى خلقه،

﴿فَالْفَرْقَتِ فَرَقًا﴾.

(١) أخرجه ابن مردويه عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده كما في الدر المنثور (١٥/١٧٤).

وأقسم - خامساً بهبوب - الرياح، وهي تخمّل أي الذكر الحكيم، ونحوه فتلقّيه في مسامع الناس، وتذكّرهم بالأمر والنهي، والوعد والوعيد، والجنة والنار ﴿فَالْمُنْقَبِحَاتِ ذِكْرًا﴾ أي أقسم بالذي يُلقَى إلى الناس لترغيبهم وترهيبهم، وهو آيات القرآن الكريم لتبشّرهم وتنذرهم، وتعظّمهم وتذكّرهم وتهديهم وتثبتهم.

وقال قتادة في الملقيات: هي الملائكة تُلقِي الذكر على الرسل، وتلقّيه الرسل على بني آدم، عذراً من الله تعالى ونذراً منه إلى خلقه^(١).

وأهل التأويل على أن المراد بالملقيات: الملائكة، ولعل هذا هو الأولى في هذا القسم، وحده، حيث يراد بها الملائكة وهي تُلقِي الوحي من الله إلى أنبيائه.

وهذا القرآن أنزله الله تعالى إلى خلقه لإزالة أعدار المعتذرين عن الإيمان، حتى لا يقولوا ﴿مَا جَاءَنَا مِنْ بَشِيرٍ وَلَا نَذِيرٍ﴾ [المائدة: ١٩] وإنذار الكافرين حتى يُفْلَعُوا عن كفرهم، فهو إعلام لهم بقبول إيمان المؤمنين بعد كفرهم، وإعلام بقبول توبة التائبين بعد الذنب، وهذا معنى ﴿عُذْرًا﴾ أي إعداراً من الله تعالى للعباد ﴿لِتَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ﴾ [النساء: ١٦٥].

فالقرآن نزل إما عُذْراً للناس، لئلا ينكروا الوحي والرسالة، ولئلا يكون لهم حجة في عدم الإيمان به ﴿أَوْ نَذْرًا﴾ أي إنذاراً من الله تعالى بالعقاب الوخيم، لكل من لم يؤمن بالله ورسوله وكتابه واليوم الآخر، فالخلاصة أن الوحي إعدار من الله إلى خلقه، وإنذار منه إليهم.

وقد أقسم الله تعالى في الآيات الست السابقة بخمسة أحوال لتصريف الرياح:

وهي تحمل الرحمة والعذاب، والخير والشر، لإعدار الناس أو إنذارهم.

والمقسم عليه في هذه الآيات، أن الساعة آتية لا ريب فيها ﴿إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَوَاقِعٌ﴾ أي أن أمر القيامة حق لا شك فيه، وأن ما توعد الله به المكذبين الجاحدين، من مجيء الساعة، والثواب والعقاب، أمر كائن لا محالة.

وهذا هو جواب القسم، أي: ﴿إِنَّمَا تُوعَدُونَ﴾ به في هذا اليوم، من قيام الساعة وما فيها

(١) ينظر: عبد الرزاق (٢/٣٤٠)، والطبري (٢٣/٥٨١).

من بعث وحساب وجزاء ﴿لَوْعَ﴾ أي لنازل بكم لا محالة، من غير شك ولا ارتياب، وإنكم لمبعوثون ومحاسبون ومجزئون على أعمالكم وأقوالكم. وهذا التأكيد: بالقسم، وإنّ، واللام، لأن القرآن يخاطب عند نزوله أقواماً ينكرون البعث ويكذبون به.

ولله تعالى أن يقسم بما شاء من مخلوقاته، وليس لأحد أن يقسم إلا بالله تعالى.

أَرْبَعَةٌ مِنْ مُقَدِّمَاتِ السَّاعَةِ

٨-١٤- ﴿فَإِذَا النُّجُومُ طُمِسَتْ﴾ ٨ ﴿وَإِذَا السَّمَاءُ فُرِجَتْ﴾ ٩ ﴿وَإِذَا الْجِبَالُ سُفَّتْ﴾ ١٠ ﴿وَإِذَا الرُّسُلُ أَقْنَتْ﴾ ١١ ﴿لَا يَوْمَ أُحِلَّتْ﴾ ١٢ ﴿لِيَوْمٍ أَلْفَضِلْ﴾ ١٣ ﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمَ أَلْفَضِلْ﴾.

ثم ذكر سبحانه أربعة من علامات الساعة عند قيامها هي من مقدمات البعث، التي يحدث معها من التغيير في العالم والأحوال الشديدة، ما يشد له الكرب وينزعج له القلب، فتساقط النجوم وتزول عن أماكنها، وتُسف الجبال فتكون كالهباء المشور، وتصير مع الأرض قاعاً صفصفاً، وهو يوم أُقْت فيه للحكم بين الرسل وبين أممها، وهذه العلامات الأربع هي:

أولها: طمس النجوم وزوال ضوئها ﴿فَإِذَا النُّجُومُ طُمِسَتْ﴾ أي مُحِقت ومُحِي نورها، كما قال تعالى: ﴿وَإِذَا النُّجُومُ انْكَدَرَتْ﴾ [التكوير: ٢] ﴿وَإِذَا الْكَوَاكِبُ انْتَرَتْ﴾ [الانفطار: ٢] أي تناثرت وزالت عن أماكنها، وطُمِس النجوم يقتضي طمس نور الشمس، وزوال انعكاس أشعتها حين احتجاب ضوء الشمس على الجانب المظلم من الأرض.

وثانيها: تصدع السماء وانشقاقها وفتح أبوابها لصعود الملائكة وهبوطهم، قال تعالى: ﴿وَإِذَا السَّمَاءُ فُرِجَتْ﴾ بانفطارها حتى يحدث فيها فروج، فصارت طرائق مختلفة الألوان، كأنها شقوق في الهواء، كما قال تعالى: ﴿إِذَا السَّمَاءُ انشَقَّتْ﴾ [الانشقاق: ١] و﴿إِذَا السَّمَاءُ انْفَطَرَتْ﴾

(١) قرأ أبو عمرو بالواو بدل الهمزة في (وقتت) مع تشديد القاف، على الأصل، من الوقت، وقرأ أبو جعفر بخلف عن ابن جمار بالواو وتخفيف القاف، والباقون بالهمزة ﴿أَقْنَتْ﴾ ومعهم ابن جمار في وجهه الآخر، وهو من الوقت أيضاً.

[الانفطار: ١]. وقال سبحانه: ﴿وَفُتِحَتِ السَّمَاءُ فَكَانَتْ أَبْوَابًا﴾ [النبا: ١٩].

وثالثها: تطاير الجبال وتناثرها حتى تصبح هباءً مثيراً تذروه الرياح، قال تعالى: ﴿وَإِذَا الْجِبَالُ سُيِّفَتْ﴾ أي اقتلعت وأزيلت عن أماكنها، ففترقت أجزاءها، وخفّ وزنها وصارت كالصوف المنفوش، كما قال تعالى: ﴿وَتَكُونُ الْجِبَالُ كَالْعِهْنِ الْمَنفُوشِ﴾ [القارعة: ٥]. وقال سبحانه: ﴿وَسُيِّرَتِ الْجِبَالُ فَكَانَتْ سَرَابًا﴾ [النبا: ٢٠] وقال أيضاً: ﴿وَسُيِّرَتِ الْجِبَالُ سَبًا ۝ فَكَانَتْ هَبَاءً مُنْبَثًا﴾ [الواقعة: ٦٠، ٥]، وتكون مع الأرض قاعاً صافصفاً لا ترى فيها عوجاً ولا أمثاً. ورابعها: مجيء الوقت الذي خُدد للقضاء والفصل بين الرسل وأممهم ﴿وَإِذَا الرُّسُلُ أَقْنَتْ﴾ أي وإذا الرسل عُتِنَ لهم وقت وأجل، للفصل بينهم وبين أممهم، فبلغت الأمم والرسل وقتها الذي كانت تنتظره، وهو يوم القيامة الذي تشهد فيه الرسل على الأمم، كما قال تعالى: ﴿يَوْمَ يَجْمَعُ اللَّهُ الرُّسُلَ فَيَقُولُ مَاذَا أُجِبْتُمْ قَالُوا لَا عِلْمَ لَنَا إِنَّكَ أَنْتَ عَلَّمُ الْغُيُوبِ﴾ [المائدة: ١٠٩]. قال مجاهد: هو الوقت الذي يحضرون فيه للشهادة على أممهم.

ويوم القيامة لا يُعْفَى فيه أحد من السؤال، حتى الرسل والأنبياء، فإنهم يشهدون على أنفسهم بالبلاغ، ويشهدون على أممهم، مبرئين أنفسهم مِنْ تَبِعة التقصير في التبليغ. قال تعالى: ﴿فَلَنَسْأَلَنَّ الَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْأَلَنَّ الْمُرْسَلِينَ﴾ [الأعراف: ٦]. وقد أُجِّلَ وقت جمع الرسل والأمم ليوم خاص، هو اليوم الذي يتم فيه الفصل والقضاء بين الخلائق ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾ هذا استفهام للتهويل والتعظيم من شأن هذا اليوم. وكان سائلاً سأل: لأي يوم عظيم أُخِرَتِ الأمور المتعلقة بالرسل والأمم؟ ولأي يوم أُجِّلَ إثابة من آمن وتعذيب من كفر، وإظهار أنّ من كانوا يدعون الناس إلى الإيمان والخير على حق فيما كانوا يدعونهم إليه؟

فكان الجواب ﴿لِيَوْمِ الْفَصْلِ﴾ أي أن هذه الأحوال، قد أُخِرَتِ ليوم معين هو يوم الفصل والقضاء، وهو اليوم الذي يفصل الله فيه بين الخلائق، بعضهم لبعض، ويحاسب كلا منهم منفرداً ويفصل فيه بين الأنبياء وأممهم المكذبين لهم، بحكمه العادل، كما قال تعالى: ﴿وَأَشْرَقَتِ الْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا وَوُضِعَ الْكِتَابُ وَجِئَ بِالنَّبِيِّينَ وَالشُّهَدَاءِ وَقُضِيَ بَيْنَهُم بِالْحَقِّ وَهُمْ لَا

يُظْلَمُونَ ﴿[الزمر: ٦٩].

ثم فخم سبحانه وهول من شأن يوم الفصل فقال ﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمُ الْفَصْلِ﴾ أي ما أعلمك أيها الإنسان - أي شيء هو يوم الفصل، وشدته وهوله، إنه يوم هائل لا يعلم حقيقة ما فيه من أهوال جسام، إلا رب العالمين.

الآية المذكورة عشر مرات في السورة

١٥- ﴿وَيْلٌ يَوْمَذِلِّ الْمُكَذِّبِينَ﴾

أي الهلاك العظيم لمن كذب بهذا اليوم الموعود به، ولم يستعد للقاء ربه فيه، يا حسرته ويا شدة عذابه وياسوء منقلبه، ويل لمن كذب بالرسول الخاتم، وما أنزل عليه، وكذب بالبعث والنشور، ويل وهلاك له، وشدة عذاب يوم القيامة، لقد أخبرهم الله بهذا اليوم وأقسم لهم عليه فلم يصدقوه، ولذلك استحقوا هذه العقوبة الأليمة.

قيل: إن ﴿وَيْلٌ﴾ وادي في جهنم يسيل منه صديد أهل النار، فجعل داراً ومستقراً للمكذبين.

قال القرطبي: كرر قوله ﴿وَيْلٌ يَوْمَذِلِّ الْمُكَذِّبِينَ﴾ عشر مرات للتخويف والوعيد.

وقيل: إنه ليس بتكرار، لأنه أراد بكل قول منه غير الذي أراده بالآخر، كأنه ذكر شيئاً، فقال: ويل لمن يكذب بهذا، ثم ذكر شيئاً آخر فقال: ويل لمن يكذب بهذا، وهكذا إلى آخر السورة^(١).

قلت: وهذا ما اتبعناه في تفسيرنا للسورة، فلكل من الآيات العشر ارتباط بما قبلها، كما في آية سورة الرحمن ﴿فَإِنِّيْءَالَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾.

وقد ذكرت هذه الآية عشر مرات، فهي تأتي أحياناً بعد نذير إلهي، وأحياناً بعد آية كونية، أو بعد مرحلة تاريخية، أو نصيحة إنسانية، وكل ذلك للترغيب والترهيب، والتذكير بأحوال الدنيا.

(١) تفسير القرطبي (١٩/١٦٧).

إن هذا الكون المحبوك، سيتمزق شمله، وتبدأ إعادة تشكيله من جديد على نحو آخر، ففي أيام الدنيا كان الأراذل يرتفعون، والأنبياء يهانون ويكذبون! أما في الآخرة، فلا تكذيب لصادق، ولا تكريم لكذوب!

ثَلَاثُ مَجْمُوعَاتٍ مِنَ الْأَدْلَةِ عَلَى إِمْكَانِيَّةِ الْمَبْعَثِ

المجموعة الأولى: الاعتبار بما حدث للأمم البائدة:

١٦-١٩- ﴿أَلَمْ تُهْلِكِ الْأَوَّلِينَ ﴿١٦﴾ ثُمَّ تُبْعَثُهُمُ الْآخِرِينَ ﴿١٧﴾ كَذَلِكَ نَفْعَلُ بِالْمُجْرِمِينَ ﴿١٨﴾ وَيَلْ

يَوْمِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿١٩﴾

في هذه الآيات تصدّي لإثبات البعث بثلاث مجموعات من الأدلة. المجموعة الأولى: التذكير بما لحق بالأولين والآخرين من عذاب دنيوي، لما كذبوا رسل الله تعالى وأنكروا البعث والنشور.

والمجموعة الثانية: الاستدلال ببدء خلق الإنسان وتكوينه على إعادته مرة أخرى.

والمجموعة الثالثة: مع الأرض التي تضم أبناءها إليها أحياء وأمواتاً.

وبعد تهديد المكذبين، يأتي تذكيرهم بما لحق بأمثالهم في الدنيا من نكال وعقوبة، وبيان أن ما أصاب الأولين لن يفوت الآخرين ﴿أَلَمْ تُهْلِكِ الْأَوَّلِينَ﴾ ألم نهلك من سبق من الأمم الماضية ممن كذب الرسل، كقوم نوح وعاد وthumbود.. ثم تُبْعَثُهُمُ بِإِهْلَاكِ مَنْ كَذَّبَ من الآخرين، فلم لا تعتبروا بما رأيتم؟ وسنة الله في خلقه لا تتخلق، فكل مجرم مكذب لابد أن يلحق جزاءه. وهذا الاستفهام للتقرير واستخراج الاعتراف والإقرار من المكذبين بالبعث والنشور، ليقرّوا بأن القادر على البدء قادر على الإعادة.

ثم نُلْحِقُ بِالْمُهْلَكِينَ السَّابِقِينَ مَنْ تَأَخَّرَ وَكَانَ مِثْلَهُمْ فِي الْجُحُودِ وَالْعَصْيَانِ، مِمَّنْ جَاءَ من الآخرين بعد الأولين، كقوم لوط وشعيب، وفرعون وقومه، وكان إهلاك الآخرين أشد من إهلاك الأولين، لأنهم لم يعتبروا بمن سبقهم.

وكما فعلنا بهؤلاء وأولئك من الأمم السابقة واللاحقة، نفعل بكل مجرم مكذب بالله

ورسوله واليوم الآخر، وننزل به عقابنا في الدنيا قبل عقاب الآخرة.
﴿كَذَلِكَ﴾ أي مثل هذا الإهلاك الفظيع ﴿نَفْعَلُ بِالْمُجْرِمِينَ﴾ الذين أصروا على كفرهم
وعنادهم حتى أدركهم الموت، فإجرامهم هو سبب هلاكهم.
﴿إِنَّ الَّذِينَ أَجْرَمُوا كَانُوا مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا يَضْحَكُونَ﴾ [المطففين: ٢٩].
﴿إِنَّ الْمُجْرِمِينَ فِي ضَلَالٍ وَسُعُرٍ﴾ (١٧) يَوْمَ يُسْحَبُونَ فِي النَّارِ عَلَى وُجُوهِهِمْ ذُوقُوا مَسَّ سَقَرَ﴾ [القمر: ٤٧، ٤٨].
فالهلاك والدمار يوم القيامة لكل جاحد مكذب بالتوحيد والنبوة، والبعث والحساب،
والجنة والنار، لأنه لم يعتبر بما حدث لغيره من العقوبة والنكال.

المَجْمُوعَةُ الثَّانِيَّةُ: الاستدلالُ بِبَدْءِ الْخَلْقِ عَلَى إِعَادَتِهِ

٢٠-٢٣- ﴿أَلَمْ نَخْلُقْكُمْ^(١) مِنْ مَّاءٍ مَّهِينٍ﴾ (٢٠) فَجَعَلْنَاهُ فِي قَرَارٍ مَكِينٍ﴾ (٢١) إِلَى قَدَرٍ مَعْلُومٍ﴾ (٢٢) فَقَدَرْنَا^(٢)
فَنِعْمَ الْقَادِرُونَ﴾

وكيف تنكرون البعث والنشور، وقد أوجدكم الله في الدنيا بعد العدم، إيجاداً متقناً
دالاً على كمال الحكمة والقدرة الإلهية، فاستدلوا بذلك - أيها الناس - على أن إعادة
الخلق للبعث والحساب، أيسر وأسهل بالنسبة لمقاييس البشر ﴿أَلَمْ نَخْلُقْكُمْ﴾ يا معشر
المكذابين لليوم الآخر ﴿مِنْ مَّاءٍ مَّهِينٍ﴾ أي من جزء يسير من نقطة صغيرة ضعيفة، تلتقي
ببويضة الدم في رحم المرأة، خرجت هذه النطفة من بين الصلب والترائب، ثم أودعها
الله في رحم المرأة إلى وقت معين، ثم خرجت إلى الحياة وصارت بشراً سوياً مكلفاً.
وفي هذا تعجب من غفلتهم وذهولهم عن أبسط الأمور المشاهدة، وهي أن مَنْ
خَلَقَهُمْ من النطفة الضعيفة، قادر على إعادة خلقهم للبعث والجزاء.

(١) لجميع القراء في ﴿أَلَمْ نَخْلُقْكُمْ﴾ وجهان، هما إدغام القاف في الكاف إدغاماً كاملاً، فينطق القارئ بكاف
مشددة ولا يظهر للقاف أثر، وهذا هو الأرجح، ويُعمل به على قصر المد المنفصل، والوجه الثاني
بالإدغام الناقص وهو بقاء صفة الاستعلاء في القاف، ومن يقرأ من القراء بالإدغام الكبير ليس له إلا
الإدغام المحض.

(٢) قرأ نافع والكسائي وأبوجعفر بتشديد الدال من ﴿فَقَدَرْنَا﴾ من التقدير، والباقون بتخفيفها من القدرة.

وهكذا بصق رسول الله ﷺ يوماً في كفه، فوضع عليها أصبعه، ثم قال: «يقول الله عز وجل: ابن آدم أني تعجزني وقد خلقتك من مثل هذه؟ حتى إذا سويتك وعدلتك مشيت بين بُرديك وللأرض منك وئيد، فجمعت ومنعت، حتى إذا بلغت التراقي قلت: أتصدق، وأني أوان الصدقة؟»^(١).

ثم إن الله تعالى جعل هذا الماء المهيئ في مكان حصين محروز، وقرار محفوظ، هو رحم المرأة ﴿فَجَعَلْنَاهُ فِي قَرَارٍ مَّكِينٍ﴾ أي في مستقر أمين بحكمتنا وقدرتنا. وأبقينا هذه النطفة في رحم المرأة إلى مقدار محدد من الزمن، معلوم عند الله تعالى، هو وقت الولادة، وانتهاء مدة الحمل، ومدته من ستة أشهر إلى تسعة، إلى أكثر من ذلك. فقدّرنا أطوار خلقكم في بطون أمهاتكم: نطفة فعلقه فمضغة، فعظاماً، ثم كسونا العظام باللحم، ثم النفخ فيه بالروح، ثم قدّرنا أعضائه وصفاته حتى كان إنساناً سمياً بصيراً، وتم كل ذلك حتى أخرجناكم أطفالاً على الصفة التي أردنا ﴿فَقَدَرْنَا﴾ على خلقكم وتصويركم وإخراجكم ﴿فَنَعَمَ الْفُتُورُ﴾ نحن، حيث خلقناكم في أحسن تقويم وصورناكم في أحسن صورة، فنعم المقدر، وهو الله سبحانه. قال تعالى:

٢٤- ﴿وَبَلَّغْنَا يَوْمَئِذٍ الْمَكَذِبِينَ﴾

وكل من كذب بهذه النعم المتعلقة بخلق الإنسان من العدم، له الهلاك وشدة العذاب يوم القيامة، وهكذا: فقد ذكر الله تعالى الكافرين بإنعامه عليهم وقدرته على ابتداء خلقهم، وتوعّدهم بالعذاب الشديد على جحودهم لوحدانية الله تعالى وتكذيب رسله.

المَجْمُوعَةُ الثَّالِثَةُ مِنْ دَلَائِلِ الْبَعْثِ وَالنُّشُورِ تَعْلُقُ بِالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ وَالْمِيَاهِ الْعَذْبَةِ

٢٥، ٢٦- ﴿أَرَأَيْتُمْ أَتَرْتَجِمِلِ الْأَرْضَ كِفَاتًا ۖ﴾ ﴿٥٠﴾ أَحْيَاءٌ وَأَمْوَاتًا ﴿٥١﴾

وتأتي مجموعة ثالثة في مقام الاستدلال على إمكانية البعث والنشور، وقد كانت

(١) المسند (٣١٠/٤) برقم (١٧٨٤٤، ١٧٨٤٢) من حديث بسر بن جحاش بإسناد حسن (محققوه)، وابن ماجه (٢٧٠٧)، والحاكم (٥٠٢/٢)، وحسنه الألباني في صحيح سنن ابن ماجه (٢١٨٨)، وينظر السلسلة الصحيحة (١١٤٣، ١٠٩٩).

المجموعة الأولى تتعلق بإهلاك السابقين واللاحقين، والمجموعة الثانية تتعلق بأطوار خلق الإنسان في بطن أمه، ثم هذه المجموعة الثالثة مكونة من الأرض والجبال والماء. وجاء التعقيب بعد كل منها بالويل والهلاك، لمن كذب بآيات الله تعالى ولقائه، وكلها جاءت بأسلوب الاستفهام التقريري، للامتنان على الخلق بما أنعم الله عليهم به، فقد امتن الله تعالى على عباده بهذه الأرض بأن جعلها مصيراً لكل من عليها، فهي صالحة لدفن الأموات فيها بعد أن كانت مستقرّاً ومعاشاً لهم.

﴿أَلَّا تَجْعَلَ الْأَرْضَ كِفَاتًا﴾ الكفت هو الضم والجمع، وقيل: الكفت هو قلب الشيء ظهراً لبطن، فهم يعيشون على ظهرها زماناً ثم يكونون أمواتاً في بطنها، تضمهم إليها وتجمعهم فيها، إنها تضم على ظهرها أحياء من البشر لا يُحْصَوْنَ، وتجمع في بطنها أمواتاً لا يحصون ﴿أَحْيَاءَ وَأَمْوَاتًا﴾ فالأرض كالأم بالنسبة للإنسان، تجمع الأحياء على ظهرها والأموات في بطنها، وكما أنعم الله علينا بنعمة الدور والقصور، أنعم علينا بنعمة القبور رحمة بالأبدان وستراً لها من أكل السباع والكلاب ونحوهما. قال الشعبي: بطنها لأمواتكم وظهرها لأحيائكم^(١).

وقال بنان: خرجنا مع الشعبي إلى جنازة فنظر إلى الجبانة، فقال: هذه كفات الموتى. ثم نظر إلى البيوت فقال: هذه كفات الأحياء^(٢).

قال تعالى: ﴿مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَى﴾ [طه: ٥٥].

وأول من دفن في الأرض هو هابيل بن آدم، حيث ألهم الله أخاه قابيل أن يدفنه فيها بعد أن قتله، وأرسل الله له غراباً يبحث في الأرض ليعلمه طريقة الدفن.

والدَّفْنُ في الأرض هو الأصل، أما من يموت في البحر أو يُخْرَق جثمانه، أو تُقَطَّع أشلاؤه في الحروب ونحو ذلك، فإنه يكون كالمقبورين في الأرض، في الفترة البرزخية،

(١) حاشية الصاوي على الجلالين (٤/٢٨٠).

(٢) تفسير ابن عطية (٥/٤١٩)، وأخرجه عبد بن حميد وابن المنذر عن مجاهد وانظر الطبري (٢٣/٥٩٦).

ويوم القيامة يجمع الله الأولين والآخرين.

﴿يَحْسَبُ الْإِنْسَانُ أَنْ يُتَّخَذَ عَلَيْهِ قَدِيرٌ ۚ بَلْ قَدِيرِينَ عَلَيْنَا أَنْ تُسَوَّىٰ بَنَانُهُ﴾ [القيامة: ٤٣].

﴿قُلْ إِنَّ الْأَوَّلِينَ وَالْآخِرِينَ ﴿٦١﴾ لَمَجْمُوعُونَ إِلَىٰ مِيقَاتِ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ﴾ [الواقعة: ٤٩، ٥٠]. قال تعالى:

٢٧، ٢٨- ﴿وَجَعَلْنَا فِيهَا رُوسًا شِخَاطٍ وَأَسْقَيْنَاكُمْ مَاءً فُرَاتًا ﴿٢٧﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ﴾

وامتن الله على عباده بأن جعل لهم جبلاً ثوابت مرتفعات ارتفاعاً كبيراً، لئلاً تضطرب الأرض بالناس وهم على ظهرها، فالجبال كالأوتاد للأرض تثبتها لئلا تميد في المياه، كما تثبت الأوتاد أركان الخيمة، قال تعالى: ﴿وَأَلْقَىٰ فِي الْأَرْضِ رَوْسًا أَنْ يَنْبِذَ بِكُمْ﴾ [النحل: ١٥]، والجبال الشامخات هي: الطوال المرتفعات الشاهقات ناطحات السحاب.

ولولا هذه الجبال الشاهقة لكانت الأرض دائمة الاضطراب، كالريشة في مهب الريح.

وفي الجبال نعمة أخرى هي نشوء السحب فوقها، وهطول الأمطار والثلوج عليها.

ومن نعم الله تعالى عليكم - أيها الناس - أن أسقاكم ماءً عذباً زلالاً سائغاً شرباً

﴿وَأَسْقَيْنَاكُمْ مَاءً فُرَاتًا﴾ وهذا الماء الحلو أنزلناه لكم من السحاب، وأخرجناه لكم من

العيون والآبار، لتشربوا منه أنتم ودوابكم، وتَسْقُونَ منه زرعكم وأشجاركم.

قال تعالى: ﴿أَفَرَأَيْتُمُ الْمَاءَ الَّذِي تَشْرَبُونَ ﴿٦٨﴾ أَنْتُمْ أَنْزَلْتُمُوهُ مِنَ الْمُزْنِ أَمْ نَحْنُ الْمُنْزِلُونَ ﴿٦٩﴾ لَوْ نَشَاءُ جَعَلْنَاهُ

أَجَاجًا فَلَوْلَا تَشْكُرُونَ﴾ [الواقعة: ٦٨ - ٧٠].

﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ﴾ هلاك شديد ﴿لِلْمُكَذِّبِينَ﴾ الذين يكذبون بنعم الله تعالى، ويكذبون بيوم

الدين، ويول لمن تأمل هذه المخلوقات الدالة على عظمة خالقها، ثم يستمر على

تكذيبه وكفره.

الْمَصِيرُ الْمُؤَلِّمُ الَّذِي يَنْتَظَرُ الْمُكَذِّبِينَ

٢٩-٣٤- ﴿أَنْطَلِقُوا إِلَىٰ مَا كُنْتُمْ بِهِ تُكَذِّبُونَ ﴿٣٩﴾ أَنْطَلِقُوا ^(١) إِلَىٰ ظِلٍّ ذِي ثَلَاثِ شُعَبٍ ﴿٤٠﴾ لَا ظِلِيلٍ وَلَا

(١) قرأ رويس بفتح لام ﴿أَنْطَلِقُوا﴾ على أنه فعل ماضٍ، والباقيون بكسرها، فعل أمر، أما ﴿أَنْطَلِقُوا﴾ التي قبلها فلا خلاف في كسر لامها.

يُغْنِي مِنَ اللَّهِ (٣١) إِنَّهَا تَرْمِي بِشَرِّ (١) كَالْقَصْرِ (٣٢) كَأَنَّهُ جِمْلَتٌ (٢) صُفْرٌ (٣٣) وَيَلْ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿٣٤﴾

ثم شرعت السورة في بيان المصير المؤلم الذي ينتظر هؤلاء المكذبين بالبعث والنشور حيث يقال لهم في يوم الحشر ﴿أُطْلِقُوا إِلَى مَا كُنتُمْ بِهِ تُكَذِّبُونَ﴾ توجهوا إلى عذاب جهنم الذي كنتم تكذبونه في الدنيا، وسيروا إلى العذاب الذي توعدكم الله به في الدنيا، تقول لهم الخزنة ذلك تأنيباً وتوبيخاً ودفعاً بهم إلى جهنم.

ثم بين سبحانه هذا العذاب فقال ﴿أُطْلِقُوا إِلَى ظِلٍّ﴾ من دخان نار جهنم يتصاعد من وقودها، ثم يرتفع ويتفرق إلى ﴿ذِي ثَلَاثِ شُعَبٍ﴾ أي اذهبوا، فاستظلوا بدخان جهنم الكثيف، حيث يسطع، ثم يتفرع منه ثلاث قطع من النار، فإن النار إذا عظم اشتعالها تصاعد دخانها من طرفيها ووسطها، لشدة انضغاطه في خروجه منها، وهكذا النار يوم القيامة تكون لها ثلاث شعَب، تميزاً لها عن نار الدنيا، وهذه الشعَب من النار تجتمع على مستحقيها، فتتناوب عليهم وتلتهمهم من كل جانب.

وقيل: يخرج من النار عنق فيتشعب ثلاث شعَب: على رؤوسهم، وعن أيمانهم، وعن شمائلهم.

وتسمية نار جهنم ودخانها بالظل: من باب التهكم، لأن المكذبين في هذا اليوم في حاجة شديدة إلى ظل يأوون فيه، فيكون هذا الظل في سموم وحميم، وظل من يحموم، أي من دخان أسود قاتم.

(١) رقق الأزرق عن ورش، الراء الأولى من ﴿بِشَرِّ﴾ وفخمها غيره، وفخم الجميع الراء الثانية وصلاً، أما في الوقف فقد رققها ورش مطلقاً سواء أوقف بالسكون أو بالروم، وفخمها غيره إن وقف بالسكون، ورفقها إن وقف بالروم.

(٢) قرأ حفص وحمزة والكسائي وخلف بكسر الجيم وحذف الألف من ﴿جِمْلَتٌ﴾ جمع جمل، أو اسم جمع لا واحد له من لفظه، وقرأ رويس بضم الجيم وألف بعدها وهي الجبال الغليظة من حبال السفينة، والباقون بكسر الجيم وألف بعدها جمع الجمع لجمالة أو جمال، وهي الإبل، وكل من قرأ بالجمع وقف بالثاء كالرسم، أما من قرأ بالإنفراد فكل على أصله، الكسائي يقف بالهاء مع الإمالة، وحفص وحمزة وخلف يقفون بالثاء.

وهذا التهكم في مقابلة أن المؤمنين في ظلال وعيون وفواكه مما يشتهون.
ثم إن الظل الذي يستظل به الكفار في نار جهنم ودخانها، لا يدفع حرَّ ذلك اليوم، ولا يقي شيئاً من سموم اللهب ﴿لَا ظِلُّهُ﴾ أي لا يظل مَنْ تَحْتَهُ ولا يقيه حرَّ النار، فلا راحة فيه ولا طمأنينة ﴿وَلَا يُغْنِي مِنَ اللَّهِ﴾ أي لا يدفع ألسنة النار المندلعة من كل جانب، فقد أحاط اللهب به يمناً ويسرة ومن كل جهة.

قال تعالى: ﴿لَهُمْ مِنْ فَوْقِهِمْ ظُلَلٌ مِنَ النَّارِ وَمِنْ تَحْتِهِمْ ظُلَلٌ﴾ [الزمر: ١٦].
وقال سبحانه: ﴿لَهُمْ مِنْ جَهَنَّمَ مِهَادٌ وَمِنْ فَوْقِهِمْ غَوَاشٍ﴾ [الأعراف: ٤١].
وشأن الظل أن يقي من يأوي إليه من ألم الحر، ولكن ظل جهنم قد سلب منه خصائص الظلال، فهو ليس كظل الجدار أو الشجرة، وإنما هو ظل نار جهنم ودخانها المتصاعد منها، فهو ظل قد فقد خصائصه المعروفة من البرودة والشعور بالراحة عنده، وهكذا وصف الله تعالى هذا الظل بثلاثة أوصاف:

- ١- فهو دخان عظيم كثيف يصعد إلى أعلى ثم يفرق إلى ثلاث شعب.
 - ٢- وهو ليس بظل على الحقيقة، بل دخان خائق لا يقي من البرد.
 - ٣- وهو لا يدفع عنهم حر لهب جهنم.
- إن جهنم تقذف من النار بشرر عظيم، كل شرارة منه كالبناء المشيد في العظم والارتفاع، كأن شرر جهنم المتطاير منها: إبل سود يميل لونها إلى الصفرة: ﴿إِنَّمَا﴾ أي جهنم ﴿تَرْمِي بِشَرِّ﴾ من نارها ﴿كَالْقَصْرِ﴾ وفي هذا تشبيه للشرر بالقصر العظيم.
- في البخاري عن عبد الرحمن بن عباس قال: سمعت ابن عباس رضي الله عنهما يقول: كنا نعلم إلى الخشبة ثلاثة أذرع، وفوق ذلك، فنرفعه للشتاء، فنسميه القصر، وقال في ﴿حَمَلَتْ صُفْرًا﴾ حبال السفن، تُجمع حتى تكون كأوساط الرجال^(١).
- وفي هذا تشبيه للشرر المتطاير من النار، في كثرتة وسرعة حركته ولونه، بالإبل

(١) البخاري (٤٩٣٣)، وعبد الرزاق (٣٤١/٢)، والحاكم (٥١١/٢)، والطبري (٦٠٢/٢٣).

الْصُّفْرُ ﴿كَأَنَّهُ﴾ أي شرر النار ﴿جَمَلْتُ﴾ جمع جمل، مثل حجر وحجارة، وهي جمال ﴿صُفْرٌ﴾ أي: سود تميل إلى الصفرة، وهذا يدل على أن النار مظلمة، لهبها وجمرها وشررها، وأنها سوداء كريهة المنظر شديدة الحرارة، وإذا كان هذا حال الشرر؟ فكيف تكون حال النار الملتهبة؟ والجماليات: طائفة من الجمال، وهو اسم جمع.

والوقف على ﴿جَمَلْتُ﴾ بقاء ساكنة وعدم مد اللام، تبعاً لرسمها بقاء مفتوحة.

والمعنى: إن جهنم ترمي المكذبين بشرر كبير متطاير منها، كأنه في لونه وهيبته، جمال لوئها أسود أصفر، والعرب تسمي سود الإبل صفر، لأن سواده يشوبه شيء من الصفرة. وجاء في الأثر (إن شرر نار جهنم أسود كالقير).

وفي هذا ترويع وتهويل ووعد لكل من كذب بالحساب والجزاء.

ويل للكافر من عذاب الله، وهلاك له يوم لقاء ربه، وكذا كل من كذب بيوم الحساب والجزاء.

يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَوْمٌ طَوِيلٌ تَخْتَلَفُ فِيهِ الْمَوَاقِفُ

٣٥-٣٧- ﴿هَذَا يَوْمٌ لَا يَنْطِقُونَ﴾ (٣٥) وَلَا يُؤْذَنُ لَهُمْ فَيَعْتَذِرُونَ ﴿٣٦﴾ وَيَلْ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ ﴿٣٧﴾

ويوم القيامة يوم تختلف فيه المواقف والأحوال، فتارة ينطق فيه الناس، وتارة لا ينطقون، وتارة يعتذرون، وتارة لا يقبل منهم اعتذار، ففي بعض المواطن بالنسبة للكفار يُسألون وينطقون، كما قال تعالى: ﴿وَقَفُّهُمْ إِنَّهُمْ مَسْئُولُونَ﴾ [الصافات: ٢٤].

ويتساءلون فيما بينهم ﴿وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ﴾ [الصافات: ٢٧].

ويتلومون على ما حدث منهم ﴿فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَلَوَّمُونَ﴾ [القم: ٣٠].

وفي بعض المواطن يُختم على أفواههم وتكلم الجوارح:

﴿الْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَى أَفْوَاهِهِمْ وَتُكَلِّمُنَا أَيْدِيهِمْ وَنَشْهَدُ أَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ [يس: ٦٥].

والآية التي معنا، من الآيات التي تُقرر أن الكفار لا يتكلمون في بعض المواطن.

كما قال تعالى: ﴿هَذَا يَوْمٌ لَا يَنْطِقُونَ﴾.

وكذا في آية سورة النمل ﴿وَوَقَعَ الْقَوْلُ عَلَيْهِمْ بِمَا ظَلَمُوا فَهُمْ لَا يَنْطِقُونَ﴾ [النمل: ٨٥].

فهم ينطقون أحياناً ويختصمون أحياناً ويختم على أفواههم أحياناً فلا ينطقون.
إنهم لا يقدرّون على الكلام ولا يؤذن لهم في الاعتذار، فقد قامت عليهم الحجة ﴿وَوَقَعَ الْقَوْلُ عَلَيْهِمْ بِمَا ظَلَمُوا فَهُمْ لَا يَنْطِقُونَ﴾ [النمل: ٨٥].

وقال تعالى: ﴿فَيَوْمَئِذٍ لَا يُشْعَلُ عَنْ ذُنُوبِهِمْ إِنْشٌ وَلَا جَانٌّ﴾ [الرحمن: ٣٩].

وقال سبحانه: ﴿وَلَا يُشْعَلُ عَنْ ذُنُوبِهِمْ الْمُجْرِمُونَ﴾ [القصص: ٧٨].

وقال أيضاً: ﴿فَيَوْمَئِذٍ لَا يَنْفَعُ الَّذِينَ ظَلَمُوا مَعْذِرَتُهُمْ وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ﴾ [الروم: ٥٧].

وكما أن من الناس من يدخل الجنة بدون حساب، ومنهم من يناقش الحساب، فإن أهل النار كذلك، منهم من بلغت ذنوبه مبلغاً كبيراً بحيث لا فائدة من الكلام معه، ولا يسمح له بالاعتذار عما سلف ﴿وَلَا يُؤْذَنُ لَهُمْ فَيَعْذِرُونَ﴾ إذ ليس هناك من حجة تنفعهم ﴿يَوْمَ لَا يَنْفَعُ الظَّالِمِينَ مَعْذِرَتُهُمْ وَلَهُمُ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ﴾ [غافر: ٥٢] ولا ينافي هذا أنهم يتكلمون في بعض المواطن، جواباً عن سؤال، لأن يوم القيامة يوم طويل ذو مواقف، فلا ينافي هذا آية ﴿وَاللَّوْنِ بِنَامَا كُأَمْشَرِكِينَ﴾ [الأنعام: ٢٣] وحين ينكشف الأمر لا يبقى لديهم كلام يكتبونه:

﴿وَلَا يَكْتُمُونَ اللَّهَ حَدِيثًا﴾ [النساء: ٤٢] ويتوقف الكلام وعدمه على إذن رب العالمين.

كما قال تعالى ﴿يَوْمَ يَقُومُ الرُّوحُ وَالْمَلَائِكَةُ صَفًّا لَا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ وَقَالَ صَوَابًا﴾ [النبأ: ٣٨].
والويل والعذاب لمن كذب بيوم القيامة وما فيه من ثواب وعقاب.

مَنْ عِنْدَهُ حِيلَةٌ لِلْخَلَاصِ مِنْ عَذَابِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ فَلْيَفْعَلْ

٣٨-٤٠- ﴿هَذَا يَوْمُ الْفَصْلِ جَمَعْتُمْكُمْ وَالْأَوَّلِينَ﴾ (٣٨) ﴿فَإِنْ كَانَ لَكُمْ كَيْدٌ فَكِيدُوا﴾ (٣٩) ﴿وَيَلَّيْمُ الْكَاذِبِينَ﴾

ويقال يوم القيامة لمن في أرض المحشر والمنشر ﴿هَذَا يَوْمُ الْفَصْلِ﴾ الذي يفصل الله فيه بين الخلائق، ويتميز فيه الحق من الباطل، والسعداء من الأشقياء ﴿جَمَعْتُمْكُمْ﴾ فيه أيها الكفار من هذه الأمة، أنتم ﴿وَالْأَوَّلِينَ﴾ أي مع الكفار السابقين من الأمم الماضية، فأنتم في صعيد واحد، ومصيركم واحد.

(١) أثبت يعقوب الباء من ﴿فَكِيدُوا﴾ وصلا ووقفا والباقيون بحذفها.

فإن كان لكم حيلة للخلاص من هذا المصير المؤلم، فاحتالوا وأنقذوا أنفسكم من عذاب الله وعقابه إن استطعتم ذلك ﴿فَإِنْ كَانَ لَكُمْ﴾ أيها الكفار ﴿كَيْدٌ﴾ أي مخرج ومنفذ من العذاب الذي حل بكم ﴿فَكِيدُونِ﴾ افعلوا ما بوسعكم وأنقذوا أنفسكم، إن كنتم تستطيعون الخروج من مُلكي وتنجون من عذابي، ولا قدرة لكم على ذلك.

وفي هذا تعجيز لهم، وبيان أنهم لا قدرة لهم على شيء من ذلك كما قال تعالى: ﴿يَنْعَشَرُ الْإِنِّ وَالْإِنْسَ إِنْ أَسْطَقْتُمْ أَنْ تَنْفُذُوا مِنْ أَقْطَارِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ فَانْفُذُوا لَا تَنْفُذُونَ إِلَّا بِسُلْطَانٍ﴾ [الرحمن: ٣٣].

وفي الحديث عن أبي ذر رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال فيما يرويه عن ربه عز وجل: يا عبادي إنكم لن تبلغوا نفعي فتتفعوني، ولن تبلغوا ضري فتضرروني^(١). وفي يوم القيامة تبطل حيل الظالمين، ويضمحل مكرهم وكيدهم، ويستسلمون لعذاب الله، ويتبين تكذيبهم لرسول الله وفي البعث والجزاء يوم لقاء الله. ومن كذب بيوم القيامة وأنكر لقاء الله تعالى في هذا اليوم العظيم، له الوعيد الشديد بالعذاب الأليم.

حَالُ الْمُتَّقِينَ وَنَعِيمُهُمْ

٤١-٤٣- ﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي ظِلِّلٍ وَعُيُونٍ^(٢) ﴿٤١﴾ وَفُورِكَ مِمَّا يَشْتَهُونَ ﴿٤٢﴾ كُلُّوْا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا^(٣) بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾

وبعد أن بيّن سبحانه حال المجرمين في الدار الآخرة، بيّن حال المتقين ونعيمهم، فإذا كان المجرمون في سموم وحميم، وظل من يحموم، لا بارد ولا كريم، وهو دخان جهنم الأسود الذي لا يقي حرّاً ولا يدفع عطشاً، فإن المتقين الذين خافوا ربهم في الدنيا، واتقوا عذابه، فامثلوا أمره واجتنبوا نهيه: في ظلال الأشجار الوارفة، وعيون المياه الجارية،

(١) من حديث طويل في صحيح مسلم (٢٥٧٧، ٥٥) وأوله (يا عبادي إني حرمت الظلم على نفسي..)

(٢) كسر العين من ﴿وَعُيُونٍ﴾ ابن كثير وابن ذكوان وشعبة وحمزة والكسائي والباقون بضمها.

(٣) وقف حمزة بإبدال همزة ﴿هَنِيئًا﴾ ياء مع الإدغام في الياء قبلها.

يتنعمون في دار الخلد والكرامة، لا يصل إليهم شرر ولا لهب ولا دخان، وهم يتمتعون في أنهار الماء والعسل والخمر واللبن، وعيون جارية من الرحيق والسلسيل.

وهم أيضاً في فواكه كثيرة من ثمار الجنة مما تشتهي أنفسهم بلا كد ولا تعب.

كما قال تعالى: ﴿لَكُمْ فِيهَا فَاكِهَةٌ كَثِيرَةٌ مِنْهَا تَأْكُلُونَ﴾ [الزخرف: ٧٣].

وتقول لهم الملائكة تكريماً لهم وحسن ضيافة ﴿كُلُوا﴾ أي أكلًا لذيذاً شهياً ﴿وَشَرِبُوا﴾ شرباً هنيئاً من غير آفة ولا نغص وهو شراب دائم لا ينقطع ﴿يَمَّا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ أي بسبب ما كنتم تعملون في الدنيا من الطاعة والأعمال الصالحة، فأعمالهم هي التي أوصلتهم إلى هذا النعيم.

قال تعالى: ﴿وَنُودُوا أَنْ تِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [الأعراف: ٤٣].

ودخول الجنة محض فضل من الله تعالى، وليس بالأعمال كما في الحديث عن عائشة أن رسول الله ﷺ قال: «لَنْ يَدْخُلَ أَحَدًا عَمَلُهُ الْجَنَّةَ» قالوا: ولا أنت يا رسول الله؟ قال: «ولا أنا إلا أن يتغمدني الله عز وجل منه برحمة...»^(١).

أما مراتب الناس في الجنة وتفاوت درجاتهم ونعيمهم فيها فهو على وفق أعمالهم في الدنيا. قال تعالى:

٤٤، ٤٥- ﴿إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ﴾ ﴿وَلَيُّومِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ﴾

وبمثل هذا الجزاء العظيم يجزي الله كل مَنْ أخلص في دينه وأحسن في عمله وطاعته وقوله وفعله، وحَفِظَ نفسه عما يغضب الله تعالى، ومن شأننا أن نعطي هذا الجزاء الطيب للمؤمنين الذين أحسنوا في أقوالهم وأفعالهم، فأحسنوا في عبادة الله وأحسنوا إلى خلق الله. وكل هذا النعيم يكون في يوم القيامة، لأهل التقوى والإحسان، ومن كَذَّبَ بهذا اليوم، فهو مهدد ومتوعد بعذاب الله تعالى. ولو لم يكن له من الويل إلا الحرمان من هذا النعيم لكفاه خسراناً.

(١) المسند (٢٤٩٤١) عن عائشة، وفي مسلم (٢٨١٨)، والبخاري (٦٤٦٤، ٣٤٦٧)، وأول الحديث «سدوا وقاربوا»، وفي الباب عن أبي هريرة في المسند (٧٢٠٣)، وعن غيره من الصحابة.

ثَلَاثَةُ أَسْبَابٍ لِعَذَابِ أَهْلِ النَّارِ

السَّبَبُ الْأَوَّلُ هُوَ: التَّمَتُّعُ الْإِجْرَامِي

٤٦، ٤٧- ﴿كُلُوا وَتَمَنَّوْا قَلِيلًا إِنَّكُمْ تُجْرِمُونَ ﴿٤٦﴾ وَيَلُوكُمُ اللَّامُكْذِبِينَ﴾

وإذا كان المتقون يتمتعون بنعيم الجنة أكلاً وشراباً، وتُهنَّئهم الملائكة بذلك، فإن المجرمين يقال لهم وهم في الدنيا ﴿كُلُوا وَتَمَنَّوْا قَلِيلًا﴾ كلوا من لذائذ الدنيا واستمتعوا بشهواتها الزائلة زمناً قليلاً ومدة قصيرة إلى منتهى آجالكم، فإنكم ستلقون في آخرتكم أشد أنواع العذاب، وتساقون إلى نار جهنم. وهذا تهديد ووعد للمكذبين.

والسبب الأول في ذلك: هو عدم الإيمان بالله تعالى: وذلك أنكم كنتم في الدنيا مصرون على الكفر والفسوق والعصيان ﴿إِنَّكُمْ تُجْرِمُونَ﴾ لأنكم أشركتم بالله وكفرتُم به، وغفلتم عما يقربكم من الله، فكنتُم مستحقين لما يستحقه المجرمون من العذاب وعدم التمتع بالملذات.

١ - قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا يَتَنَبَّهُونَ وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ الْأَنْعَامُ وَالنَّارُ مَثْوًى لَّهُمْ﴾ [محمد: ١٢].

٢ - وقال سبحانه: ﴿لَا يَغْرَنَكَ تَقَلُّبُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي الْآلَمِ ﴿١٣١﴾ مَتَّعٌ قَلِيلٌ ثُمَّ مَا لَهُمْ جَهَنَّمَ

وَيَسَّسَ الْمِهَادُ﴾ [آل عمران: ١٩٦، ١٩٧].

٣ - وقال جل شأنه: ﴿نُتِنِعُ لَهُمْ قَلِيلًا ثُمَّ نَضْطَرُّهُمْ إِلَىٰ عَذَابٍ غَلِيظٍ﴾ [لقمان: ٢٤].

٤ - وقال عز وجل: ﴿مَتَّعٌ فِي الدُّنْيَا ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ﴾ [يونس: ٧٠].

كلوا وتمتعوا الآن أيها المجرمون، وأنتم في الدنيا، وويل لكم يوم القيامة من عذاب شديد.

السَّبَبُ الثَّانِي: تَرْكُ الصَّلَاةِ

٤٨، ٤٩- ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ارْكَعُوا لَا يَرْكَعُونَ ﴿٤٨﴾ وَيَلُوكُمُ اللَّامُكْذِبِينَ﴾

وهؤلاء المكذبون كانوا إذا طُلب منهم الإيمان بالله تعالى، وأداء ما يترتب على هذا الإيمان، من صلاة وخشوع لله تعالى، وخضوع لجلاله، لا يجيئون ولا يؤمنون، ولا يخشعون فهم يتحملون اليوم تبعات هذا الإجمام ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ﴾ أي للمشركين المكذبين على سبيل النصيح والإرشاد ﴿ارْكَعُوا﴾ أي صلُّوا لله واخشعوا في صلاتكم لعظمة الله تعالى وجلاله، فهم ﴿لَا يَرْكَعُونَ﴾ ولا يستجيبون، بل يصرون على استكبارهم، فلا يخشعون ولا يخضعون، ولا

يصلون مع المصلين. لقد تمردوا على خالقهم ولم يستجيبوا لأمره ونهيه.

سبب النزول:

قال مقاتل: نزلت هذه الآية في ثقيف، لأنهم امتنعوا عن الصلاة، وقالوا للنبي ﷺ: حُطَّ عنا الصلاة، فإننا لا ننحني، إنها مَسَبَّةٌ علينا، فأبى ﷺ وقال: «لا خير في دين لا ركوع فيه»^(١).

وقال ابن عباس رضي الله عنهما: يُدْعَوْنَ يوم القيامة إلى السجود فلا يستطيعون السجود، من أجل أنهم لم يكونوا يسجدون في الدنيا^(٢).
ومن لم يمثل أمر الله تعالى فلا يؤمن ولا يخشع، ولا يؤد الصلوات المفروضة، فهو متوعد بالهلاك والعقاب الأليم. لقد سد على نفسه منافذ الخير وحرمها من التوفيق للهدى، بتكذيبه لله والرسول.

السَّبَبُ الثَّالِثُ: عَدَمُ الْإِيمَانِ بِمَا جَاءَ بِهِ مُحَمَّدٌ ﷺ

٥٠- ﴿فَيَأْتِي حَدِيثٌ بَعْدَهُ يُؤْمِنُونَ﴾

فإذا لم يؤمن هؤلاء المجرمون بالبعث والنشور، وبالقرآن وما فيه من الهدى والنور، فبأي شيء يؤمنون ﴿فَيَأْتِي حَدِيثٌ بَعْدَهُ﴾ أي بأي كلام وبأي كتاب بعد هذا القرآن المعجز الواضح ﴿يُؤْمِنُونَ﴾ إن لم يؤمنوا بالقرآن، وسواء أكان هذا الحديث الذي يؤمنون به موجوداً قبل القرآن، كالتوراة والإنجيل، أو موجوداً بعده من المواعظ والأخبار، فإن ذلك لن يفيدهم شيئاً، ولن تقوم لهم شبهة، فضلاً عن دليل.
والمعنى: أنهم إن لم يؤمنوا بهذا القرآن، فإنهم لن يؤمنوا بكل حديث، إذ ليس بعد النور إلا الظلام، ولا بعد الصدق إلا الكذب، فنبأ لهم، ما أشقاهم وما أعماهم وما أشد خسranهم!

تم تفسير (سورة المرسلات) والله الحمد والمنة

(١) تفسير البحر المحيط (٤٠٨/٨)، والحديث في المسند (٢١٨/٤) برقم (١٧٩١٣)، رجاله ثقات رجال الصحيح (محققوه)، وأخرجه ابن خزيمة (١٣٢٨)، والطيالسي (٩٣٩)، وأبو داود (٣٠٢٦) عن عثمان بن أبي العاص، وهو في مصنف ابن شيبه (١٩٧/٣).

(٢) الطبري (٦١٣/٢٣).

الآية	فهرس الموضوعات	الصفحة
	تفسير سورة الجمعة - مقدمة السورة - ما ورد في القراءة بها في الصلاة - موضوعها	٥
١	براعة الاستهلال تتضمن أربعة أوصاف لله عز وجل	٨
٢ - ٤	أمية العرب ووصف الرسول ﷺ بأربعة أوصاف، عالمية الرسالة	٩
٥	الذي لا يتفهم بما يعلم كالحمار يحمل أسفارا	١٧
٦	من كان من أهل الجنة أحب التخلص من دار الأكدار	٢٠
٧	من أسباب عدم تمنى اليهود للموت	٢٢
٨	لا فرار من الموت	٢٤
٢٥	تسعة مباحث في يوم الجمعة: ١- أيام الأسبوع، ٢- تسميتها بيوم الجمعة، ٣- أول جمعة صلاها الرسول ﷺ ٤- أول جمعة أقيمت خارج المدينة، ٥- فضل يوم الجمعة، ٦- فضل الاغتسال في يوم الجمعة، ٧- يسن للمسلم أن يلبس أحسن ثيابه للجمعة، ٨- فضل البكور إلى الجمعة، ٩- عقوبة من ترك صلاة الجمعة تهاوناً. أحاديث في المعنى.	٢٥
٩	مشروعية الأذان في الإسلام: ١- شرع الأذان في المدينة بعد الهجرة، ٢- بعض الأحكام المتعلقة بالأذان، ألفاظ الإقامة، ترجيع الأذان، الثويب في أذان الفجر، ٣- الأذان لصلاة الجمعة من البدع في الأذان، ٣- الأذان لصلاة الجمعة.	٣٤
١٠	ليس لغطلة يوم الجمعة أصل في الإسلام	٤٢
١١	مشروعية الخطبة قبل صلاة الجمعة، سبب النزول العدد الذي تتعقد به الجمعة، سبب النزول، من الأحاديث الواردة في الخطبتين، وقت صلاة الجمعة، بعض أحكام الخطبة بم تدرك صلاة الجمعة، الخطبة من قيام، من خطب النبي ﷺ	٤٣
	تفسير سورة المنافقون - مقدمة السورة - سبب النزول - حديث القرآن عن المنافقين - زيد بن أرقم يرد على زعيم المنافقين عبدالله بن أبي	٥١
٢٠، ١	الابن يرفع السيف في وجه أبيه نصرته لرسول الله ﷺ، خطورة النفاق	٥٧
٣	المنافق يستتر بالإيمان الكاذبة، والله تعالى يكشف ستره	٦٠
	رسوخ الكفر في قلوب المنافقين	٦٠
٤	وصف أجساد المنافقين بعد وصف عقولهم: ١- أشكالهم ومظاهرهم ٢- فصاحة ألسنتهم	٦١
٥	٣- فراغ قلوبهم من الإيمان وعقولهم من الفهم والعلم ٤- أنهم في غاية الضعف والجبن والخور	٦٤
٦	التكبر والإعراض عن الحق من صفات المنافقين	٦٤
٧	شقاء المنافق سبق به علم الله تعالى فلا ينفعه استغفار	٦٥
٨	في سياسة التجويع والحصار الاقتصادي	٦٧
٩	جانب آخر من فسق المنافقين: عبدالله بن أبي يكذب نفسه عند الاحتضار، موقف ابنه منه	٧٠
١٠	نهى المؤمنين عن التشبه بالمنافقين	٧٣
١١	أمر المؤمنين بالمداومة على إنفاق المال في وجوه الخير	٧٤
	العمر محدود، لا يتقدم ولا يتأخر	٧٥
	تفسير سورة التغابن - مقدمة السورة، ومقاصدها، ومقاطعها الثلاث	٧٧

الآية	فهرس الموضوعات	الصفحة
١	جميع الكائنات توحد الله تعالى وتنزهه عن كل نقص، أحد عشر وصفاً لله تعالى في السورة	٨٠
٢	أربعة من آثار القدرة الإلهية: خلق الإنسان هو الأثر الأول، أحاديث في المعنى	٨١
٣	الأثر الثاني: خلق السموات والأرض - الأثر الثالث: خلق الإنسان في أحسن صورة	٨٤
٤	الأثر الرابع: علم ما ظهر وما بطن في الكون كله	٨٦
٥	وجوب الاعتبار بما حدث للأمم الكافرة من عذاب دنيوي	٨٨
٦	التكذيب بخاتم الرسل وجه من وجوه الكفر	٨٩
٧	إنكار البعث والحساب والجزاء ضرب من ضروب الكفر	٩٠
٨	وجوب الاعتصام بالإيمان والتمسك بالقرآن	٩٢
١٠، ٩	يوم التغابن	٩٤
١١	كل شيء بقضاء الله وقدره، ومن يؤمن بهما يوفقه الله للرضا والتسليم	٩٧
١٢	عقاب الله تعالى لمن خالف طاعة الله والرسول	٩٩
١٣	وحدانية الله تعالى توجب الاعتماد عليه	١٠٠
١٥، ١٤	فتنة المال والزواج والولد وعداوتهم للإنسان، سبب النزول ثلاثة عوامل لعلاج مشكلات الأسرة، المراد بالفتنة	١٠٠
١٦	خمس أسباب للفلاح في الدنيا والآخرة	١٠٥
١٧	الترغيب في إنفاق المال في وجوه الخير	١٠٩
١٨	ختام السورة	١١١
١١٢	تفسير سورة الطلاق - مقدمة السورة - موضوعها - أسباب النزول، ستة أحكام عامة الطلاق ستة أحكام من الآية في الطلاق وهي: ١- أن يكون الطلاق مُتَيَّماً، ٢- إحصاء العدة، ٣- النهي عن خروج المطلقة من البيت، ٤- خروجها للتقاضي وإقامة الحدود، ٥- الطلاق أو الإمساك بالمعروف، ٦- الإشهاد على الطلاق وعلى الرجعة، التعقيب على أحكام الطلاق بالموعظة الحسنة، أحاديث وآثار في أسباب فتح أبواب الرزق	١١٨
٤	للرأة ستة أنواع من العدة، عدة الكبيرة والصغيرة والحامل، عدة المتوفي عنها زوجها وهي حامل	١٣٠
٥	التعقيب على أحكام العدة بالموعظة الحسنة	١٣٤
٦	تفصيل أحكام السكنى والنفقة والرضاعة للمطلقة طلاقاً رجعيًا وبائناً - والمتوفي عنها زوجها - عدم المضارة - النفقة على الحامل - وجوب الإرضاع على الأب لا على الأم	١٣٥
٧	النفقة تختلف باختلاف مستوى معيشة المتوفى	١٣٩
٩، ٨	التحذير من الخروج على طاعة الله ورسوله	١٤١
١٠	على كل عاقل أن يحذر عذاب الآخرة	١٤٢
١١	أرسل الله محمداً ليخرج الناس من الظلمات إلى النور	١٤٤
١٢	نزول الأوامر الإلهية بين السموات والأرضين السبع	١٤٥
١٤٨	تفسير سورة التحريم - مقدمة السورة، أغراضها، خمس نداءات فيها، سبب النزول	١٤٨
١	التحليل والتحريم حق لله وحده	١٥٣

الآية	فهرس الموضوعات	الصفحة
٢	في تحريم الحلال كفارة يمين	١٥٤
٣	قصة ما حرمه النبي ﷺ على نفسه - أسر النبي إلى حفصة أو مارية بأمر العسل، وأمر الخلافة بعده	١٥٦
	هل طلق النبي حفصة - اعتزال النبي ﷺ لزوجاته	١٥٩
٤	إثابة النائب وعقوبة المصير على الذنب	١٦١
٥	التحذير من إفشاء أسرار الزوجية - ثمانية أوصاف للزوجة الصالحة - نبذة عن زوجات النبي ﷺ	١٦٢
٦	الأمر بوقاية النفس والأهل من عذاب النار - أربع صفات لملائكة العذاب	١٦٦
٧	عذر الكافر لا يقبل يوم القيامة	١٦٨
٨	طريق الوقاية من النار والفوز بالجنة - من أحاديث التوبة	١٦٩
٩	جهاد الكفار والمنافقين	١٧٣
١٠	الكافر لا ينفعه إيمان أقرب الناس إليه، خيانة امرأة نوح ولوط كانت في الدين	١٧٤
١١	المؤمن لا يضربه كفر أقرب الناس إليه	177
١٢	الثناء على مريم بنت عمران بثلاثة محامد	١٧٩
	تفسير سورة الملك - مقدمة السورة، ثمانية أسماء لها، فضلها، موضوعاتها	١٨٢
	ثلاثة عشر دليلاً على التوحيد	
١	الكون كله ملك لله وحده	١٨٧
٢	الاستدلال بأصول المخلوقات في سبعة أدلة على وحدانية الله تعالى بأسلوب الخبر تتخللها عبر ومواقف - الدليل الأول: خلق الموت والحياة	١٨٧
٤،٣	الدليل الثاني: خلق السموات السبع الطباق بدقة وإحكام	١٩٠
٥	النجوم زينة للسماء ورجوم للشياطين	١٩١
٦	جولة مع عذاب منكري دلائل التوحيد:	١٩٣
٧	مشهد جهنم، وهي تستقبل أهلها في غيظ وحقن	١٩٤
٨	خزنة النار يسألون أهلها عن مجيء الرسل إليهم في الدنيا	١٩٤
٩	أهل النار يجيئون الخزنة بالاعتراف والإقرار	١٩٥
١١،١٠	أهل النار يندمون ويتحسرون على ما كانوا فيه من ضلال	١٩٥
١٢	وقفة مع السعداء يوم القيامة	١٩٨
١٣	الدليل الثالث من دلائل التوحيد: علم السر والنجوى	١٩٩
١٤	الدليل الرابع: خلق الإنسان والإحاطة بظاهره وباطنه	٢٠١
١٥	الدليل الخامس: خلق الأرض وتذليلها لمنفعة الإنسان	٢٠١
١٧،١٦	الكفر يحول النعم إلى نقم تنزل بالإنسان من تحته أو من فوقه	٢٠٣
١٨	العقاب الدنيوي للأمم المكذبة لرسول الله تعالى	٢٠٥
١٩	الدليل السادس: الطيور وأحوالها في الفضاء - ثلاثة أوصاف للطيور	٢٠٦
٢٠	عذاب الله لا يدفعه دافع	٢٠٨
٢١	الدليل السابع: رزق الله تعالى للكائنات الحية	٢٠٩

الآية	فهرس الموضوعات	الصفحة
٢٢	مثل المؤمن والكافر	٢٠٩
٢٣	سنة أدلة على وحدانية الله تعالى بأسلوب التلقين من فروع المخلوقات التلقين الأول: خلق الإنسان وتزويده بالسمع والبصر والفؤاد	٢١١
٢٤	التلقين الثاني: القادر على البدء قادر على الإعادة	٢١٣
٢٥	الكافر يستبعد وقوع البعث والحساب	٢١٣
٢٦	التلقين الثالث: علم قيام الساعة عند الله تعالى	٢١٤
٢٧	حال الكافر عند قيام الساعة	٢١٥
٢٨	التلقين الرابع: لا مفر للكافر من العذاب، سواء رفعت راية الإسلام أم لا	٢١٦
٢٩	التلقين الخامس: المؤمن جدير برحمة الله تعالى ورضوانه	٢١٧
٣٠	التلقين السادس: التهديد بالحرمان من سبب الحياة الأول، وهو نعمة الماء	٢١٨
٢١٩	تفسير سورة القلم - مقدمة السورة - مقاصدها - موضوعاتها، تسعة أقسام - الحروف المقطعة في أوائل السور	٢١٩
١	القسم بحروف الهجاء وبالقلم وبالكتابة، فيه تنويه بشأن العلم	٢٢٥
٢ - ٤	جواب القسم فيه ثلاثة محامد للنبي ﷺ - أحاديث في الحث على حسن الخلق	٢٢٧
٥ - ٧	المستقبل للإسلام	٢٣٢
٩، ٨	النهى عن قبول مساومة غير المسلمين في أمور الدين	233
١٥ - ١٠	أمثلة من طلب المخالفين في الدين بعض المداهنات	٢٣٤
١٦	ست آيات في شأن الوليد بن المغيرة فيها تسم صفات له ولأمثاله	٢٣٦
٣٢ - ١٧	الوعيد الشديد لكل من انطبقت عليه الأوصاف التسع	٢٤١
٣٣	قصة أصحاب الجنة - تفسير الآيات	٢٤٢
٣٤	العبرة المستفادة من القصة	٢٤٨
٣٥ - ٤١	كرامة المتقين عند ربهم	٢٤٩
٤٣، ٤٢	أربعة أدلة عقلية ونقلية على نفي المساواة بين المؤمن والمجرم	٢٤٩
٤٥، ٤٤	من عقوبة تارك الصلاة يوم يكشف عن ساق - أحاديث في كشف الساق يوم القيامة ومعناه	252
٤٧، ٤٦	إمهال المكذبين بخاتم المرسلين	٢٥٧
٤٨	إبطال معاذير المكذبين بخاتم المرسلين	٢٥٩
٥٠، ٤٩	الأمر بالصبر على أذى المعارضين والنهي عن الغضب منهم	٢٥٩
٥١	محنة يونس عليه السلام	٢٦١
٥٢	نفاذ الصبر بالعداوة والحسد، علاج الحسد - أحاديث في المعنى	٢٦٢
٣ - ١	هداية القرآن للعالم أجمع	٢٦٦
٥٤	تفسير سورة الحاقة - مقدمة السورة، مقاصدها	٢٦٧
٥٤	قيام الساعة حدث هائل	٢٧٠
٥٤	عقاب ستة من الأمم الغابرة، الاعتبار بما حدث لقوم ثمود	٢٧١

الآية	فهرس الموضوعات	الصفحة
٨-٦	الاعتبار بمصارع قوم عاد	٢٧٣
١٠،٩	هلاك فرعون وقوم لوط	٢٧٥
١٢-١١	الاعتبار بمشهد الطوفان وبإهلاك السابقين	٢٧٧
١٦-١٣	خراب العالم عند قيام الساعة	٢٧٩
١٧	يوم القيامة تقف الملائكة على أطراف الأرض وتحمل عرش الرحمن	٢٨٠
١٨	الناس في ساحة العرض والحساب	٢٨٢
٢٤-١٩	أهل اليمين ونعيمهم	٢٨٢
٣٢-٢٥	أهل الشمال وعذابهم	٢٨٥
٣٣ - ٣٤	السبب في عذاب أهل الشمال	٢٨٨
٣٧ - ٣٤	عقاب الكافر البخيل	٢٨٩
٤٣-٣٨	البرهان القاطع على صدق القرآن وأمانة الرسول ﷺ	٢٩١
٤٧-٤٤	الوعيد الشديد لمن يتقول على الله تعالى	٢٩٣
٥٠ - ٤٨	القرآن الكريم هدى للمتقين وحسرة على المكذبين	٢٩٤
٥٢،٥١	ختام السورة	٢٩٥
	تفسير سورة المعارج - مقدمة السورة وتقسيم موضوعاتها	٢٩٧
٣-١	إنكار الثواب والعقاب في الدار الآخرة كُفّر	٢٩٩
٥،٤	عروج الملائكة وعروج أمر الله تعالى - الآيات الواردة في مقدار يوم العروج	302
١٠-٦	في أحوال الكون والناس يوم القيامة	٣٠٦
١٤-١١	لا بدليل لعذاب الله يوم لقائه	٣٠٧
١٨-١٥	وصف النار وأهلها	٣٠٩
٢١-١٩	ما جُبل عليه الإنسان من الهلم	٣١٠
	علاج الهلع في تسعة أوصاف للمؤمنين	
٣٤-٢٢	هي: ١- إقامة الصلاة ٢- أداء الزكاة ٣- الإيمان باليوم الآخر ٤- تقوى الله تعالى والخوف منه ٥- ترك الكبائر كالزنى واللواط ٦- أداء الأمانة ٧- الوفاء بالمعهود ٨- أداء الشهادة ٩- المحافظ على الصلاة	٣١٢
٣٥	ثواب أهل الإيمان	٣١٨
٣٩-٣٦	لا مطعم لكافر في دخول الجنة	٣١٩
٤١،٤٠	التهديد والوعيد لمن كذب باليوم الآخر	٣٢٢
٤٤،٤٣	وصف الكافر حين يخرج من قبره إلى المحشر	٣٢٣
	تفسير سورة نوح - مقدمة السورة وموضوعها - من آثار القدرة ودلائل التوحيد	٣٢٥
١	دعوة شيخ المرسلين قومه إلى إخلاص التوحيد والخوف من الله تعالى	٣٢٨
٣، ٢	نوح يدعو قومه إلى توحيد الله	٣٢٨
٤	ما يترتب على إخلاص التوحيد والعبادة	٣٢٩

الآية	فهرس الموضوعات	الصفحة
٦٥	عدم جدوى دعوة نوح لقومه	٣٣١
٧	نوح يصف إغراض قومه عنه بأربعة أوصاف	٣٣٢
٩٨	نوح يُنَوِّع أساليب الدعوة: فيُحَذِّر وينذِر، ويُرْعَب ويُرْهَب	٣٣٣
١٢-١٠	كثرة الاستغفار سبب لسعة الرزق وهناء العيش: ١- الاستغفار من الشرك ٢- تهيئة أسباب الرزق ٣- كثرة الأموال والأولاد ٤- كثرة البساتين ٥- شق الأنهار وتفجير العيون في رحاب دعوة نوح لقومه	٣٣٤ ٣٣٧
٢٠-١٣	نوح يتعجب من إغراض قومه، ويلفت أنظارهم إلى ثمانية من دلائل التوحيد وهي: ١- النظر في خلق الإنسان ٢- النظر في العالم العلوي ٤،٣- التدبر في تسخير الشمس والقمر ٥- خلق الإنسان من تراب ٦- البعث بعد الموت ٧- بسط الأرض ٨- تمهيدها للسعي والمعاش	٣٣٨
٢٢،٢١	نوح عليه السلام يشكو قومه إلى ربه	٣٤٣
٢٤،٢٣	أصنام قوم نوح الخمسة	٣٤٥
٢٥	استجابة الله تعالى لدعاء نوح على قومه	٣٤٨
٢٧،٢٦	نوح يسأل ربه أن يستأصل كفار قومه	٣٤٩
٢٨	نوح يدعو للمؤمنين، ويدعو على الكافرين	٣٥٠
	تفسير سورة الجن - مقدمة السورة - موضوعها وفيه ستة مباحث: ١- الوحي والرسالة والبعث ٢- عالم الجن ٣- رسول الثقلين ٤- من الأحاديث الواردة في قصة الجن ٥- مصير الجن، ٦- لا يوجد رسل من الجن	٣٥٢
١	إيمان الجن بخاتم النبيين	٣٦١
٢	وصف الجن للقرآن بأنه كتاب هداية	٣٦٣
٣	الجن يتبرؤون من كافة أنواع الشرك	٣٦٣
٤	وضف الجن لكبيرهم بالسفه والحمق، لأنه أشرك بالله تعالى	٣٦٤
٥	اعتذار الجن عن قبول الشائعات	٣٦٤
٦	ليس للجن تأثير على الإنس بنفع أو ضرر	٣٦٥
٧	إيمان الجن باليوم الآخر	٣٦٦
٩٨	منع الجن من استراق السمع بعد بعثة محمد ﷺ	٣٦٧
١٠	اعتراف الجن بأنهم لا يعلمون شيئاً من الغيب	٣٦٩
١١	الجن طوائف وفرق وطباع مختلفة كالإنس	٣٧٠
١٢	الجن يعلنون عجزهم المطلق أمام قدرة الله تعالى	٣٧١
١٣	المؤمن لا يُنقص من حسناته ولا يزداد على سيئاته	٣٧٢
١٥،١٤	مصير المؤمن والكافر من الجن	٣٧٢
١٧،١٦	الربط بين الاستقامة والرخاء والبلاء	٣٧٣
١٨	لا يُدعى غير الله في بيوت الله ولا في غيرها	٣٧٦
١٩	ازدحام الجن حول النبي ﷺ للاستماع للقرآن	٣٧٧

الآية	فهرس الموضوعات	الصفحة
٢٢-٢٠	أربعة أوامر للنبي ﷺ وللأمة مصدرة بلفظ (قل)	٣٧٨
٢٣	البلاغ مهمة الرسالة	٣٨٠
٢٤	إمهال العصاة المكذبين إلى اليوم الموعود	٣٨١
٢٥	علم قيام الساعة عند الله	٣٨٢
٢٦	علم الغيب عند الله تعالى	٣٨٣
٢٧	إخبار الله إلى بعض رسله بشيء من الغيب، يُحاط بحراسة مشددة	٣٨٣
٢٨	العلم الشامل والإحصاء الدقيق	٣٨٥
	تفسير سورة المزمل - مقدمة السورة وفيها ستة مباحث: ١- معلوماتها العامة ٢- موضوعها	
	٣- سبب النزول ٤- قيام الليل له معنيان ٥- من الأحاديث الواردة في فضل قيام الليل	٣٨٧
	٦- الحياة الجادة	
٤-١	قيام الليل في مطلع الدعوة - ترتيب القرآن له ثلاثة معان، قيام الليل كان فريضة، اللحن الجلي في القراءة يجعل الكلمة ليست قرآنًا وإن لم يغير المعنى، حق التلاوة، قراءة القرآن بالصوت والنعم محدثة، التلقي والمشافهة، من أدلة حق التلاوة	٣٩٤
٦،٥	القول الثقيل يثقل في قيام الليل - ثقل القرآن - ناشئة الليل (الصلاة بعد نوم) أحاديث في ثقل الوحي	٤٠٠
٧	في النهار متسع لشؤون الحياة	٤٠٣
٩،٨	التعامل مع الخالق بالعبادة وإخلاص التوحيد	٤٠٣
١١،١٠	التعامل مع الخلق بالصبر على أذاهم وهجر المعاندين منهم	٤٠٥
١٣،١٢	عذاب أهل النار وطعامهم	٤٠٧
١٤	زلزلة الأرض وتناثر الجبال مع قيام الساعة	٤٠٧
١٦،١٥	التهديد والوعيد لمن كفر بخاتم المرسلين	٤٠٨
١٨،١٧	الكافر لا يتحمل نار الدنيا فكيف يصبر على نار الآخرة	٤٠٩
١٩	العاقل من اتعظ بغيره	٤١١
٢٠	التخفيف عن الأمة في صلاة التهجد وأسباب التخفيف	411
	ثلاثة أوامر تعُقب التخفيف في قيام الليل - وصيتان في ختام السورة	
٤٢٠	تفسير سورة المدثر - مقدمة السورة، سبب نزولها، موضوع السورة في خمس نقاط	٤٢٠
٧-١	وصايا ست للنبي ﷺ في ابتداء الدعوة وهي: (١- البلاغ، ٢- إعلان التوحيد، ٣- وطهارة الثياب، ٤- وطهارة العقيدة، ٥- والترفع عن أخلاق المعارضين للدعوة له خمسة أحوال ٦- والصبر)	٤٢٣
١٠-٨	الإخبار بأحوال القيامة أول واجبات الداعية بعد التوحيد	٤٢٧
١٥-١١	أربع من يمتن الله بها على الوليد بن المغيرة وأمثاله وهي: ١- شأنه ومكانته بين الناس، ٢- كثرة أمواله وأولاده، ٤- تيسير سبل العيش له	٤٢٨
١٦	وُضِف الوليد بالعناد والفجور	٤٣٢
١٧	الجزاء من جنس العمل	٤٣٣
٢٥-١٨	خلاصة ما وصل إليه فكر الوليد	٤٣٤

الآية	فهرس الموضوعات	الصفحة
٢٩-٢٦	عذاب الكافر يوم القيامة	٤٣٦
٣٠	نقباء الملائكة الموكلون بالعذاب	٤٣٧
٣١	تحديد خزنة النار بأنهم تسعة عشر من باب الفتنة والابتلاء	٤٣٨
٣٧-٣٢	ثلاثة أيمان على أن نار جهنم إحدى الدواهي الكبار	٤٤٢
٣٩، ٣٨	الكافر مرهون بعمله السيء، والمؤمن قد فك رقبة من النار	٤٤٣
٤٢-٤٠	المؤمنون يتساءلون عن أسباب عذاب أهل الشقاء	٤٤٤
٤٧-٤٣	أربعة أسباب لدخول المجرمين النار وهي (ترك الصلاة، وترك الزكاة، والخوض في الباطل، والتكذيب باليوم الآخر)	٤٤٤
٤٨	لا شفاعة لكافر	٤٤٦
٥١-٤٩	الكافر ينقذ من أسباب الهداية	٤٤٦
٥٢	المعارضون يطلبون نزول كتاب عليهم يأمرهم باتباع محمد ﷺ - سبب النزول	٤٤٧
٥٥-٥٣	السبب في عدم إيمان المكذبين: استيلاء الكفر والعناد على قلوبهم	٤٤٨
٥٦	كل شيء بمشيئة الله تعالى	٤٤٩
٤٥١	تفسير سورة القيامة - مقدمة السورة - موضوعها - خمس حقائق تعرضت لها السورة	٤٥١
٣-١	القسم على بعث الناس بعد موتهم - النفوس أنواع ثلاثة	٤٥٤
٤	قدرة الله تعالى أعظم من إعادة الحياة إلى الموتى	٤٥٦
٦، ٥	السبب الحقيقي في إنكار البعث والنشور	٤٥٧
١٠-٧	من أهوال يوم القيامة	٤٥٨
١٣-١١	لا فرار ولا منجاة من الله إلا إليه	٤٥٩
١٥، ١٤	الإنسان يعرف حقيقة نفسه، ولا يُقبل اعتذاره يوم القيامة	٤٦١
١٧، ١٦	كيفية تلقى رسول الله ﷺ للوحي - سبب النزول	٤٦٣
١٩، ١٨	كيفية تلقي الناس القرآن الكريم	٤٦٥
٢١، ٢٠	حب الدنيا والانغماس في الشهوات هو سبب إنكار البعث	٤٦٦
٢٣، ٢٢	الوجوه الناضرة تسعد بروية ربها يوم القيامة - أحاديث في ذلك	٤٦٧
٢٥، ٢٤	الوجوه العابسة تتيقن الهلاك يوم القيامة	٤٧٠
٢٨-٢٦	لا أحد يملك رد الروح للمحتضر إلا الله، الرقية عادة قديمة	٤٧١
٣٠، ٢٩	في الطريق إلى القبر لا يصحب الإنسان إلا عمله	٤٧٣
٣٥-٣١	مصير الشقي العاجد لوحداية الله المكذب بلفظه - سبب النزول	٤٧٤
٣٦	الحكمة من البعث والثواب والعقاب	٤٧٦
٤٠-٣٧	الخلق الأول دليل الخلق الثاني	٤٧٧
١	تفسير سورة الإنسان - مقدمة السورة، موضوعها	٤٧٩
	آدم قبل نفخ الروح فيه كان عدماً	٤٨٢

الآية	فهرس الموضوعات	الصفحة
٢	خَلَقَ الله جنس الإنسان من نطفة مختلطة للإبتلاء بالعبادة	٤٨٣
٣	وعيد من كفر، ووعد من آمن من بنى آدم	٤٨٥
٤	جزاء الكفور	٤٨٧
٦٥	جزاء الشاكرين (الأبرار)	٤٨٨
٨٧	للأبرار صفات ثلاث: أولاً: الوفاء بالنذر، أحاديث في النذر، ثانياً: الخوف من عقاب الله ثالثاً: إطعام الطعام مع الحاجة إليه، أحاديث وآثار في المعنى، في سبب النزول	٤٩٠
١٠، ٩	الأبرار لا يريدون بعملهم إلا وجه الله تعالى	٤٩٤
١١	أربعة عشر لونا من نعيم الأبرار في الجنة وهي: أولاً: الخوف من عذاب الله. ثانياً: ما يعلو وجوههم من النضرة والسرور.	٤٩٤
١٢	ثالثاً: مكافأة الأبرار على صبرهم.	٤٩٥
١٣	رابعاً: مساكن الأبرار في الجنة، خامساً: اعتدال المناخ في الجنة.	٤٩٦
١٤	سادساً: ظلال الأشجار في الجنة. سابعاً: قرب ثمار الجنة من أهلها.	٤٩٦
١٦، ١٥	ثامناً: آنية الجنة	٤٩٧
١٨، ١٧	تاسعاً: شراب أهل الجنة	٤٩٨
١٩	عاشراً: خدمة الأبرار في الجنة	٤٩٩
٢٠	حادي عشر: وفرة النعيم واتساع الجنان	٥٠٠
٢١	ثاني عشر: ملابس الأبرار في الجنة - ثالث عشر: حُلِي أهل الجنة - رابع عشر: من شراب الأبرار في الجنة	٥٠١
٢٢	تكريم الأبرار والثناء عليهم	٥٠٣
٢٣	تثبيت قلب النبي ﷺ	٥٠٣
٢٥، ٢٤	منهج الدعوة إلى الله: أولاً: الصبر على جهاد الدعوة، ثانياً: عدم طاعة المخالفين ثالثاً: الإقبال على الله تعالى بكثرة الذكر والصلاة	٥٠٤
٢٦	رابعاً: الصلاة والتسبيح في جوف الليل	٥٠٦
٢٨، ٢٧	تهديد ووعيد من انهلك في الدنيا ونسى الآخرة	٥٠٧
٢٩	يتنعم بما في هذه السورة من سلمت فطرته وسلم عقله	٥٠٩
٣٠	مشيئة العبد مرتبطة بمشيئة الله تعالى	٥١٠
٣١	ما أعدده الله تعالى لمن سلك طريق الهدى وطريق الضلال	٥١١
٧-١	تفسير سورة المرسلات - مقدمة السورة، موضوعها ومقاطعها العشرة	٥١٢
١٤-٨	القسم بالرياح في أحوالها المختلفة على أن البعث حق أربعة من مقدمات الساعة هي:	٥١٦
١٥	طمس النجوم، وتصدع السماء، وتناثر الجبال، ومجيء وقت سؤال الرسل والأمم	٥٢٠
١٩-١٦	الآية المذكورة عشر مرات في السورة والحكمة من ذلك ثلاث مجموعات من الأدلة على إمكانية البعث المجموعة الأولى: الاعتبار بما حدث للأمم البائدة	٥٢٢ ٥٢٣

الآية	فهرس الموضوعات	الصفحة
٢٤-٢٥	المجموعة الثانية: الاستدلال ببدء الخلق على إعادته	٥٢٤
٢٨-٢٥	المجموعة الثالثة: من دلائل البعث والنشور تتعلق الأرض والجبال والمياه العذبة	٥٢٥
٣٤-٢٩	المصير المؤلم الذي ينتظر المكذبين	٥٢٧
٣٧-٣٥	يوم القيامة، يوم طويل تختلف فيه المواقف	٥٣٠
٤٠-٣٨	من عنده حيلة للخلاص من عذاب يوم القيامة فليفعل	٥٣١
٤٥-٤١	حال المتقين ونعيمهم	٥٣٢
٤٧، ٤٦	ثلاثة أسباب لعذاب أهل النار - السبب الأول: التمتع الإجرامى	٥٣٤
٤٩، ٤٨	السبب الثانى: ترك الصلاة	٥٣٤
٥٠	السبب الثالث: عدم الإيمان بما جاء به محمد ﷺ	٥٣٥
	فهرس الموضوعات	٥٣٦

فأحضر النفس

تأليف :

أحمد بن أحمد محمد عبد الله الطويل

عُضْوُ اللَّجَنَةِ الْعِلْمِيَّةِ لِمُرَاجَعَةِ مُصْحَفِ الْمَدِينَةِ النَّبَوِيَّةِ
وَلَجَنَةِ الْإِشْرَافِ عَلَى التَّسْجِيلَاتِ الْقُرْآنِيَّةِ
بِمُجْمَعِ الْمَلِكِ فَهْدٍ لَطَبَاعَةِ الْمُصْحَفِ الشَّرِيفِ

قَدَّمَ لَهُ : مَعَالِي الدُّكْتُور / عَبْدُ اللَّهِ بْنُ عَبْدِ الْمُحْسِنِ الشُّرَيْكِي
وَالْأُسْتَاذُ الدُّكْتُور / صَالِحُ بْنُ غَانِمِ السَّدْلَانِ
وَنُخْبَةٌ مِنَ الْعُلَمَاءِ الْمُتَخَصِّصِينَ

المجلد الخامس عشر

من أول سورة النبأ إلى آخر سورة الناس

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

تَفْسِيرُ سُورَةِ النَّبَأِ (٧٨)

مُقَدِّمَةُ السُّورَةِ

(سورة النبأ) هي السورة الثامنة والسبعون في ترتيب المصحف، وهي بداية الجزء الثلاثين، والسورة الثمانون في ترتيب النزول .

نزلت بعد (سورة المعارج) وقبل (سورة النازعات).

ولها خمسة أسماء أشهرها الأول، والثالث، فتسمّى: سورة النبأ، وسورة عمّ يتساءلون، وسورة عمّ، وسورة التساؤل، وسورة المعصرات، وكل هذه الألفاظ وردت فيها، وهي سورة مكية خالصة.

وعدد آياتها إحدى وأربعون آية في العدد المكي والبصري، وأربعون آية في غيرهما، وهي مئة وثلاث وسبعون كلمة، وتسع مئة وسبعون حرفاً.

موضوع السورة وفصولها الخمسة:

يدور محور السورة حول إثبات البعث الذي يجحده المكذبون، وتوبيخ من ينكر يوم القيامة، وتهديدهم بسوء المصير إن ظلوا على زعمهم. وتتكون السورة من خمسة فصول:

الفصل الأول: يبدأ بالإجابة على تساؤل المكذّبين بالقرآن وباليوم الآخر، ويهددهم بسوء العقاب يوم لقاء الله، جزاء جحودهم وإنكارهم ، وذلك في الآيات الست الأول .

ثم تقيم آيات السورة تسعة أدلة على إمكانية البعث، تُبرز قدرة الله تعالى في الإنسان والكون، وجاءت هذه الأدلة في عشر آيات تشمل خلق الأرض، والجبال، والإنسان، وكون النوم قطعاً للعمل، والليل راحةً للبدن، والنهار سعيًا للمعاش، وخلق السموات الشداد، والسراج الوهاج، ونزول المطر من السحب لإخراج الحب والنبات والحدائق .

فهذه تسعة أدلة في عشر آيات، جاءت إجابة على التساؤل عن النبأ العظيم، وجاء التهديد به في ست آيات قبلها.

الفصل الثاني: وصف موجز ليوم الحساب وبداياته، بالنفخ في الصور، وانفراج السموات لنزول الملائكة، وتسيير الجبال.

وجاء هذا في أربع آيات تلي الآيات الستة عشر السابقة.

الفصل الثالث: في وصف العقاب الذي ينتظر المجرمين يوم القيامة، وقد جاء ذكره في عشر آيات، من الآية العشرين إلى الآية الثلاثين، فجهنم ترصد الطاغين، وهم يقيمون فيها أزماناً غير متناهية، طعامهم فيها الصيد، وشرابهم فيها اللهب، لا يَبْزُد حرُّ سعيها، وهذا العذاب جزاءً موافقاً لكفرهم باليوم الآخر، وتكذيبهم بآيات الله تعالى.

الفصل الرابع: في وصف النعيم الذي ينتظر المؤمنين الصالحين، وجاء ذلك في ست آيات بعد الآيات الثلاثين السابقة، فهم في بساتين، وفواكه وزوجات، وشراب غير ضار، وليس في الجنة لغو ولا كذب، ويُكَال لهم فيها العطاء من الله تعالى حتى يكتفوا تماماً، ويقول كل منهم: حسبي، حسبي.

الفصل الخامس: في وصف يوم القيامة وأهواله، فهو يوم لا يُسمح فيه لأحد بالكلام ولا بالشفاعة إلا بإذن الله تعالى، وأن يكون المشفوع له أهلاً للشفاعة. ويوم القيامة يوم فظيع الأهوال، يتمنى فيه الكافر أن يكون مصيره كمصير البهائم حين تكون تراباً بعد أن يُقْتَصَّ لها ويُقْتَصَّ منها، وقد جاء هذا في الآيات الخمس الأخيرة.

وهذا الجزء الأخير من القرآن يشتمل على سبع وثلاثين سورة، كلها مكية سوى سورتين: البينة، والنصر، وكلها تتميز بِقَصَرِ الآيات، وتُرْكَز على النشأة الأولى للإنسان، وعلى مشاهد القيامة العنيفة فهي: الطامة، والصاخة، والغاشية، والقارعة، كما تركز على مشاهد الحساب والجزاء، والثواب والعقاب، وأهوال الساعة عند قيامها.

تَفْصِيرُ السُّورَةِ

اِخْتِلَافُ النَّاسِ فِي الْبُعْثِ وَالنُّشُورِ

١ - ٣ - ﴿عَمَّ^(١) يَتَسَاءَلُونَ^(٢) عَنِ النَّبَاِ^(٣) الْعَظِيمِ^(٤) الَّذِي هُوَ فِيهِ يُخْتَلَفُونَ﴾

عن أي شيء يسأل المكذبون بآيات الله وبالبعث والنشور بعضهم بعضاً؟ ثم يبين سبحانه وتعالى ما يتساءلون عنه: إنهم يتساءلون عن الخبر العظيم الهائل الذي طال نزاعهم فيه، وانتشر فيه خلافهم على وجه التكذيب والاستبعاد، وهو أمر البعث الذي يختلفون في تصديقه وتكذيبه والشك فيه، ويتساءلون أيضاً عن صدق رسالة محمد ﷺ فهم بين مصدق ومكذب، ويتساءلون عن القرآن الذي جاء به محمد ﷺ وفيه البعث والنشور والحساب والجزاء، وهو يوم لا يقبل الشك ولا يدخله ريب، ولكن المكذبين بلقاء الله تعالى لا يؤمنون ولو جاءتهم كل آية.

قال ابن عباس رضي الله عنهما: كانت قريش تجلس لَمَّا نزل القرآن، فتتحدث فيما بينها، فمنهم المصدق، ومنهم المكذب به، فنزلت: عم يتساءلون. وعن الحسن: لما بُعث النبي ﷺ جعلوا يتساءلون بينهم، فأنزل الله: ﴿عَمَّ يَتَسَاءَلُونَ^(١) عَنِ النَّبَاِ الْعَظِيمِ^(٢)﴾.

والمعنى: أن النبي ﷺ لما دعا الناس إلى التوحيد والرسالة، وأخبرهم بالبعث بعد الموت، وتلا عليهم القرآن - جعلوا يتساءلون فيما بينهم، فيقول بعضهم لبعض: ماذا جاء به محمد ﷺ ويتجادلون ويختصمون فيما بُعث به^(٣).

(١) وقف البزي ويعقوب على (عم) بهاء السكت، بخلف عنهما، وبقيّة القراء يقفون بميم مشددة مع الغنة وليست محلاً للوقف وإنما يكون هذا عند السؤال أو الإضطرار.

(٢) وقف حمزة وهشام بخلف عنه بإبدال الهمزة ألفاً من (النبا) وبتسهيلها بالزّوم، وحققها باقي القراء ومعهم هشام في وجهه الآخر.

(٣) «تفسير الطبري» (١/٣)، و«الدر المشثور» (٣٠٥/٦)، و«فتح القدير» (٣٥٩/٥).

ومن حق كل قوم إذا جاء إليهم مَنْ يدَّعي النبوة أن يتفحصوا أقواله، وينظروا في دلائل صدقه، ثم يَحْكُمُوا له أو عليه، فإذا ثبت لديهم أنه صادق فيما يدَّعيه، فعليهم أن يطيعوه ويتبعوه.

ولقد جاء محمد ﷺ بالتوحيد الخالص، وأقام الأدلة على وحدانية الله تعالى، وعلى أن كل من في السموات والأرض سيأتي ربه يوم القيامة عبداً، لا استثناء للإنس ولا لجنٍ ولا لملك، وأن لقاء الله تعالى حتم لمحاسبة كل مكلف على ما قدم، والمشركون يقرون بوجود الخالق سبحانه، ولكنهم لا يفرّدونه بالعبادة، ويتقربون إليه بالأوثان، ويعبدون آلهة شتى، ولا يؤمنون بالبعث والنشور.

فلما أخبرهم محمد ﷺ في بدء الدعوة أن هناك بعثاً وحساباً وجزاءً، أنكروا هذا، وأخذوا يتساءلون فيما بينهم عن هذا الخبر الهائل، وهذا الخبر الهائل هو القرآن، وما اشتمل عليه من البعث والنشور الذي تدور حوله السورة.

﴿عَمَّ يَتَسَاءَلُونَ﴾ عن أي شيء يسأل المنكرون الجاحدون، فيتجادلون ويتساءلون تهكُّماً وسُخْرِيَةً بما جاء به محمد ﷺ؟ وفي هذا تعجيب للسامعين من سؤالهم، إنهم يسألون: ﴿عَنِ النَّبِئِ الْعَظِيمِ﴾. وهو الخبر عظيم الشأن، الذي جاء به محمد ﷺ في القرآن الكريم، من بعث الناس بعد موتهم، فهو من أول ما أنبأ به محمد ﷺ.

وقد ذكر الله تعالى تكذيبهم له في مثل قوله سبحانه: ﴿هَلْ نَدْكُرُ عَلَى رَجُلٍ يَبْتَئِثُكُمْ إِذَا مَرَقْتُمْ كُلَّ مِرْقٍ إِنَّكُمْ لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ﴾ (٧) أَفَتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَمْ بِهِ جِنَّةٌ بَلِ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ فِي الْعَذَابِ وَالضَّلَالِ الْبَعِيدِ﴾ [سبأ: ٧-٨].

وقال بعضهم: ﴿أَءَاكُنَّا تُرَابًا وَأَبَاؤُنَا إِنَّمَا تَخْرُجُونَ﴾ [النمل: ٦٧]. وهكذا ..

فالنبا العظيم الذي اختلفوا فيه هو القرآن قال تعالى: ﴿قُلْ هُوَ نَبَأٌ عَظِيمٌ﴾ (١٧) أَنْتُمْ عَنْهُ مُعْرِضُونَ﴾ [ص: ٦٧، ٦٨] حيث قال تعالى قل هو نبا عظيم أنتم عنه معرضون، قال بعضهم: إنه سحر، وقال آخرون: إنه شعر، وقال غيرهم: أساطير الأولين وهكذا.

ومما جاء به القرآن: البعث، فأنكره الكفار والملحدون والعلمانيون والشيوعيون

وغيرهم وآمن به المؤمنون:

واختلف أهل الكتاب فيه: فقالت اليهود يكون البعث بالجسد، وقالت النصارى: يكون البعث بالروح، وفيه نعيم للمطيعين وعذاب للعاصين.
وكان كفار العرب ينكرون البعث تماماً، فيقولون: ﴿إِنَّ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ﴾ [المؤمنون: ٣٧].

وقال الدهريون: ﴿وَقَالُوا مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُدْخِلُكُمُ إِلَّا الدَّهْرُ﴾ [الجنانية: ٢٤].
والكفار في كل زمان ومكان ينكرونه، قال تعالى: ﴿وَقَالُوا إِن هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ﴾ [الأنعام: ٢٩].

ومنهم من يشك فيه، كما قال تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَالسَّاعَةُ لَا رَيْبَ فِيهَا قُلْتُمْ مَا نَدْرِي مَا السَّاعَةُ إِنْ نَظُنُّ إِلَّا ظَنًّا وَمَا نَحْنُ بِمُستَقْبِرِينَ﴾ [الجنانية: ٣٢].

أما المؤمنون فهم يزدادون يقيناً وثباتاً، ويصدقون بالبعث والحساب والثواب والعقاب.
وهذا التساؤل يزيد المؤمنين خشيةً واستعداداً، ويزيد الكافرين إنكاراً واستهزاءً، ويزيد الشاكين مرضاً وارتياباً.

قال قتادة: هو البعث بعد الموت، صار الناس فيه رجلين: مصدقاً ومكذباً، فأما الموت فأقروا به كلهم، لمعاينتهم إياه، واختلفوا في البعث بعد الموت^(١).

التَّهْدِيدُ وَالْوَعْدُ لِمُنْكَرِي الْبَعْثِ

٤، ٥ - ﴿كَلَّا سَيَعْلَمُونَ﴾ ① ﴿كَلَّا سَيَعْلَمُونَ﴾

ثم توعد الله تعالى منكري البعث بأنهم سيلقون عاقبة تكذيبهم، فهم سَيَرُونَ قريباً سوء عاقبة إنكارهم حين يروا البعث أمراً حقيقياً، وهذا معنى ﴿كَلَّا﴾ أي: ليس الأمر كما يزعم منكرو البعث والنشور، من أنه لا بعث ولا حساب ولا جزاء، فليرتدعوا ويتزجروا عما قالوه، فإنهم ﴿سَيَعْلَمُونَ﴾ إذا نزل العذاب بهم عاقبة تكذيبهم، ويظهر لهم

(١) «تفسير الطبري» (٧/٢٤).

ما الله فاعل بهم يوم لقائه.

قال تعالى: ﴿يَوْمَ يَدْعُوتُ إِلَى نَارِ جَهَنَّمَ دَعَا﴾ ويقال لهم ﴿هَذِهِ النَّارُ الَّتِي كُنتُمْ بِهَا تُكْذِبُونَ﴾ [الطور: ١٣، ١٤].

ولم يبين الله تبارك وتعالى: هل علموا سوء عاقبتهم أم لا؟ ولكن دلائل القدرة الآتي ذكرها في الآيات التالية بمثابة إعلامهم فيما اختلفوا فيه.

والمعنى: إن كنتم مختلفين في إثبات البعث ونفيه فهذا دلائله، والعلم الحقيقي به سيكون بالمعاينة له كما جاء في قوله تعالى: ﴿كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ ٢ ﴿ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ ٤ ﴿كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ الْيَقِينِ﴾ ٥ ﴿لَتَرَوُنَّ الْجَحِيمَ﴾ ٦ ﴿ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ الْيَقِينِ﴾ [التكاثر: ٣ - ٧]، وهو يوم الفصل المنصوص عليه في سياق هذه الآيات.

وسوف يتأكد لهم أن محمداً ﷺ صادق في كل ما بلغه عن ربه -عز وجل- من القرآن والبعث والجنة والنار، وسيعلمون ما يحل بهم من العذاب والنكال ﴿إِنَّهُمْ يَرَوْنَهُ بَعِيدًا﴾ ٦ ﴿وَنَرْنَهُ قَرِيْبًا﴾ [المعارج: ٦ - ٧]. فهم سيوقعون بوقوعه، ويعاقبون على إنكاره.

والفرق بين ﴿سَيَعْلَمُونَ﴾ الأولى والثانية، أن المراد بالأولى: العلم اليقيني بوقوع البعث، والمراد بالثانية: العلم اليقيني بالعقوبة على إنكار البعث. ثم بين سبحانه أن من نعمه ما يدل على صدق ما أخبر به الرسل:

تسعة أدلة كونية على إمكانية البعث والنشور

٦ - ٩ - ﴿أَلَمْ تَجْعَلِ الْأَرْضَ مِهْدًا﴾ ٦ ﴿وَالْجِبَالَ أَوْتَادًا﴾ ٧ ﴿وَخَلَقْتَ كُرُوزًا وَجَعَلْنَا نَوْمًا سُبَاتًا﴾ ٨

ثم أقام سبحانه لمنكري البعث تسعة من الأدلة الكونية على قدرة الله تعالى على إحياء الخلق بعد الموت، لإقامة الحجة عليهم بصدق الرسل فيما أخبروا به من البعث والحساب والجزاء، وللدلالة على أن القادر على هذه المخلوقات العظام، قادر على إحياء الناس بعد موتهم:

ومجمل هذه الأدلة هو: خلق الأرض والجبال والناس، وجعل النوم سباتاً، والليل

لباسًا، والنهار معاشًا، وخلق السبع الشداد، والسراج الوهاج، وإنزال المطر من السحب. فَمَنْ قَدِرَ عَلَى خَلْقِ مَا ذَكَرَ فَهُوَ مِنْ بَابِ أُولَى قَادِرٍ عَلَى الْبَعْثِ وَإِحْيَاءِ النَّاسِ مِنْ قُبُورِهَا.

الدَّلِيلُ الْأَوَّلُ تَذْيِيلُ الْأَرْضِ لِلْبَشَرِ:

قال تعالى: ﴿أَلَمْ نَجْعَلِ الْأَرْضَ مِهْدًا﴾ أي: ألم نجعل لكم - أيها الناس - الأرض التي تسكنونها فراشًا وبساطًا؛ لتستقر عليها الأقدام، للمشي في مناكبها، والتقلب في أنحائها والاستقرار على ظهرها، والأكل من رزقه تعالى، والانتفاع بكنوزها وخيراتها، ولكي يسعى المرء ويتقلب فيها كما يتقلب الطفل في مهده، فالمهاد هو الفراش الممهد الموطأ للاستقرار عليه والتقلب فيه، وجعلها صالحة للحرث والزرع والمساكن والطرق. وفي هذا امتنان من الله تعالى على خلقه وتذكير لهم بفضله عليهم؛ فالقادر على تذييل الأرض للناس قادر على إحيائهم بعد الموت.

الدَّلِيلُ الثَّانِي تَثْبِيْتُ الْجِبَالِ لِلْأَرْضِ:

قال تعالى: ﴿وَالْجِبَالُ أَوْتَادًا﴾ أي: وجعلنا الجبال كالأوتاد للأرض؛ تُمسِكُ بها حتى لا تتحرك وتميد بكم، كما يُثَبِّتُ البيت بالأعمدة الخرسانية، فمن يُمسِكُ الماء على سطح الأرض، وهو أربعة أخماس الكرة الأرضية يمسك السماوات والأرض أن تزولا، ويمسك السماء أن تقع على الأرض إلا بإذنه.

والوتد: هو ما يُشَدُّ به الشيء؛ حتى لا يتحرك أو يضطرب، وقد شُبِّهَتِ الجبال بالأوتاد؛ لأنها تُمسِكُ الأرض أن تميد، قال تعالى: ﴿وَالْقَى فِي الْأَرْضِ رَوْسًا أَنْ يَمِيدَ بِكُمْ﴾ [النحل: ١٥]، وقال سبحانه: ﴿وَالْأَرْضَ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوْسًا﴾ [ق: ٧]. وفي الجبال: تسيل الأودية، ويستقر الماء في سفوحها، وترعى الأنعام، ويختفى فيها من العدو، ويُراقب منها الغازي وهكذا.

الدَّلِيلُ الثَّالِثُ أَصْنَافُ الْبَشَرِ:

قال تعالى: ﴿وَخَلَقْنَاكُمْ أَزْوَاجًا﴾ أي: وجعلناكم - أيها الناس - أصنافًا، ذكورًا وإناثًا من جنس واحد، ليسكن كل منكما إلى الآخر، فتكون المودة والرحمة، وتنشأ بينكما الذرية

لبقاء التناسل، وحفظ النوع الإنساني من الانقراض، وتنظيم أمر المعاش في الأرض؛ ليستمتع كل نوع بالآخر ﴿هُنَّ لِيَاسٌ لَكُمْ وَأَنْتُمْ لِيَاسٌ لَهُنَّ﴾ [البقرة: ١٨٧]، ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً﴾ [الروم: ٢١].

والناس أزواج وأصناف كثيرة في اللون والصورة واللسان.

وقد جاء الاستدلال على البعث بخلق الناس، بعد الاستدلال عليه بخلق الأرض والجبال للجمع بين أن الله وحده هو الخالق، وهو المحيي المميت، وأنه تعالى قادر على إعادتهم للبعث والنشور، وفي هذا رد على من أنكر البعث من السابقين والمعاصرين واللاحقين، كما قال تعالى: ﴿وَقَوْلُ الْإِنْسَانِ إِذَا مَا مِتُّ لَسَوْفَ أُخْرَجُ حَيًّا ۖ أَوْ لَا يَذْكُرُ الْإِنْسَانُ أَنَا خَلَقْتُهُ مِنْ قَبْلُ وَلَسَ بِيكُ شَيْئًا﴾ [مريم: ٦٦ - ٦٧].

الدليل الرابع: نعمة النوم لإنهاء التعب والتعب:

قال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا نَوْمَكُمْ سُبَاتًا﴾ أي: وجعلنا النوم قاطعاً لأشغالكم، وراحة لأبدانكم، تتخلّصون به من مشاق العمل في النهار، وذلك أنه بعد الاستدلال على البعث بخلق الناس، يأتي الاستدلال عليه بأحوالهم، ومنها أن النوم يقطع الحركة، ويقطع التصرف في الأعمال، فينهي التعب ويزيله، وبذلك تحصل الراحة والسكون للبدن.

فالسبت هو القطع، ومنه أن اليهود ينقطعون عن العمل يوم السبت راحة لأبدانهم. وهذا النوم نعمة من الله تعالى لأخذ قسط من الراحة، يستطيع المرء بعدها أن يستأنف عمله.

وهكذا عند القيام من النوم، فإنه يشبه إعادة الحياة إلى الإنسان بعد الموت، والنوم يأتي للإنسان قسراً بدون اختياره؛ إذ لا بد أن يغلبه النوم، قال تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ آيَاتٍ لِتَسْكُنُوا فِيهِ﴾ [يونس: ٦٧].

الدليل الخامس جعل الله الليل راحة للأبدان

١٠ - ١٢ - ﴿وَجَعَلْنَا لَيْلَ لِيَاسًا ۖ ۝ وَجَعَلْنَا النَّهَارَ مَعَاشًا ۖ ۝ وَبَنَيْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعًا شِدَادًا ۖ ۝﴾

قال تعالى : ﴿ وَجَعَلْنَا أَيْلَ لِبَاسًا ﴾ أي: وقد جعل الله لكم الليل مهياً لتكيف النوم، معيناً عليه؛ لأنه ظلمة مزيلة لضوء الشمس، حيث تُحجَب الرؤيا، ويعسر العمل.

والليل يستر الإنسان ويغشاه بظلامه كما يستره اللباس ويغشاه، وقد شبه الله الليل بالثياب التي تلبس؛ لأنه ستر له عن العيون ﴿ وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ أَيْلَ لِبَاسًا وَالتَّوَمَّ سُبَاتًا وَجَعَلَ النَّهَارَ نُشُورًا ﴾ [الفرقان: ٤٧].

وهذه الآية جمعت بين معنى الآيات الثلاث من التاسعة إلى الحادية عشرة في هذه السورة.

والليل يُبعد الإنسان من الأخطار والاعتداءات عادة، وكان العرب لا يُغير بعضهم على بعض في الليل، والنوم يقي الإنسان ويحفظه كما يقيه ثيابه.

ولا تقاس الكهرباء التي تضيء على الناس الظلمة، بضوء النهار، فالكهرباء لا تعم الأرض، ولا تضيء من نفسها، وإنما يتحكم فيها الإنسان كما يشاء، واستغلال الليل في العمل على ضوء الكهرباء ليس هو الأصل، بل هو أمر طارئ مخالف للسنن الكونية، إلا ما كان للضرورة كحفظ الأمن ونحوه.

وقد كان بعض المجوس من الثنوية والمائوية والمزدكية، يثبتون أن للكون إلهين، إلهًا للظلمة، هو إله الشر، وإلهًا للنور هو إله الخير.

والله تعالى يمتن على عباده بأن جعل الليل سكناً لهم ﴿ أَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا أَيْلَ لِبَاسًا لِيَسْكُنُوا فِيهِ ﴾ [النمل: ٨٦]، ﴿ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ النَّهَارَ سَرْمَدًا إِلَى يَوْمِ الْقِيَمَةِ مَنْ إِلَهُ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيَكُمْ بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴾ [القصص: ٧٢].

فالليل كاللباس، يغشاكم ويستركم بظلامه، كما يغطي الثوب لابسه، فهو وقت الراحة والسكون والهدوء ﴿ وَمِنْ رَحْمَتِهِ جَعَلَ لَكُمْ أَيْلًا وَالنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ ﴾ [القصص: ٧٣].

﴿ وَهُوَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُمْ بِالْأَيْلِ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُمْ بِالنَّهَارِ ثُمَّ يَبْعَثُكُمْ فِيهِ ﴾ [الأنعام: ٦٠].

﴿ اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا ﴾ [الزمر: ٤٢].

الدليل السادس: النهار وقت العمل والنشاط:

جاء ذلك في قوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا النَّهَارَ مَعَاشًا﴾ وكما أن الله تعالى جعل الليل للنوم والراحة، فقد جعل النهار وقتًا للسعي والحركة والانتشار لقضاء المصالح وتحصيل الأرزاق، والابتغاء من فضل الله تعالى، فالنهار مشرق مضيء؛ ليتمكن الناس فيه من التصرف ومن الذهاب والمجيء ﴿قُلْ أَزِيدُكُمْ مَعَالَيَ فَكُلُّكُمْ عَلَى اللَّهِ عَالِمٌ﴾ [القصص: ٧١].

الدليل السابع: السبع الطباق:

قال تعالى: ﴿وَبَنَيْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعًا شِدَادًا﴾ أى وأوجدنا بقدرتنا فوقكم - أيها الناس - سبع سماوات قوية متينة، محكمة الخلق، ليس فيها صدوع ولا فطور، ولا يتطرق إليها شيء من التغيير على مر الأزمان، حتى يأتي أمر الله تعالى بقيام الساعة، والسماء كالسقف للأرض، قال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا السَّمَاءَ سَقْفًا مَحْفُوظًا وَهُمْ عَنْ آيَاتِهَا مُعْرِضُونَ﴾ [الأنبياء: ٣٢].

وقد أمسك الله السماء أن تقع على الأرض إلا بإذنه، وجعلها سقفًا للأرض، وزينها بالنجوم، وجعلها رجومًا للشياطين.

قال سبحانه: ﴿أَفَلَمْ يَنْظُرُوا إِلَى السَّمَاءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَاهَا وَزَيَّنَّاهَا وَمَا لَهَا مِنْ فُرُوجٍ﴾ [ق: ٦].

والكون في ازدياد، والسماء في اتساع: ﴿وَالسَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا بِأَيْدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ﴾ [الذاريات: ٤٧]، فهي متينة الخلق، قوية الأجرام، لا يختل بناؤها ولا يتصدع على مر الأزمان.

ويجوز أن يراد بالسموات السبع: الكواكب السبعة المشهورة، وهي: زُحَل، والمشتري، والمريخ، والشمس، والزهرة، وعطارد، والقمر، وهذا ترتيبها بحسب ارتفاع بعضها فوق بعض، وخلق السموات والأرض أعظم من خلق غيرهما:

﴿لَخَلْقُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ﴾ [غافر: ٥٧].

الدليل الثامن: كوكب الشمس

١٣ - ﴿وَجَعَلْنَا سِرَاجًا وَهَّاجًا﴾

أي: وخلقنا بقدرتنا في السماء سراجاً متوهجاً من شدة حرارته، كالمصباح لمعانه وضياءه، وهو شمس منيرة ساطعة، يتوهج ضوءها ويتوقد لأهل الأرض كلهم، وهي دائمة الحركة والتوقد، وقد نبه سبحانه بلفظ السراج على نعمة النور، وهو ضروري لحياة الناس، ونبه بلفظ الوهاج على شدة حرارتها وما في هذه الحرارة من منافع للناس.

فالسراج الوهاج: هو المصباح المتوقد شديد الإضاءة، وهو يضطرم ويلتهب من شدة لهبه وتلألؤه، قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَوْا كَيْفَ خَلَقَ اللَّهُ سَبْعَ سَمَوَاتٍ طِبَاقًا ۖ وَجَعَلَ الْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا وَجَعَلَ الشَّمْسَ سِرَاجًا﴾ [نوح: ١٥ - ١٦].

وقال سبحانه: ﴿نَبَارَكُ الَّذِي جَعَلَ فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا وَجَعَلَ فِيهَا سِرَاجًا وَقَمَرًا مُنِيرًا﴾ [الفرقان: ٦١]، وقال جل شأنه: ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسُ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُورًا﴾ [يونس: ٥].

الدليل التاسع: نعمة الماء

١٤ - ١٦ - ﴿وَأَنْزَلْنَا مِنَ الْمُعْصِرَاتِ مَاءً ثَجَّاجًا ۖ لِنُخْرِجَ بِهِ حَبًّا وَنَبَاتًا ۖ وَجَنَّاتٍ أَلْفَافًا ۝﴾ المعصرات: هي السحب قبل أن تُمطر، والمعصرات أيضاً هي السحب الممتلئة بالماء، فهو ينهمر منها ويتدفق بشدة وقوة؛ وسميت كذلك لأن السحاب ينعصر فينزل منه الماء، وهذا معنى ﴿ثَجَّاجًا﴾ فهو الماء الكثير المتتابع المتصعب بقوة. والعرب تقول: إذا جُعل السحاب ركاماً، جاء بالريح، عصر بعضه بعضاً، فيخرج الودق منه.

قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُزْجِي سَحَابًا ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُ ثُمَّ يَجْعَلُهُ رُكَّامًا فَتَرَى الْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَالِهِ وَيُنَزِّلُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ جِبَالٍ فِيهَا مِنْ بَرَدٍ فَيُصِيبُ بِهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَصْرِفُهُ عَنْ مَنْ يَشَاءُ ۚ يَكَادُ سَنَا بَرْقُهُ يَذْهَبُ بِالْأَبْصَارِ﴾ [النور: ٤٣]. وقال سبحانه: ﴿اللَّهُ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَّحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَيَبْسُطُهُ فِي السَّمَاءِ كَيْفَ يَشَاءُ وَيَجْعَلُهُ كِسْفًا فَتَرَى الْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَالِهِ ۚ فَإِذَا أَصَابَ بِهِ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ﴾ [الروم: ٤٨]. فالمعنى: وأنزلنا من السحب التي حان وقت مطرها ماء متدفقاً منهمراً بشدة وقوة.

وقد جاء هذا المعنى في آيات كثيرة، منها قوله تعالى:

﴿وَنَزَّلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً مُبَارَكًا فَأَنْبَتْنَا بِهِ جَنَّاتٍ وَحَبَّ الْحَصِيدِ ۝١ وَالنَّخْلَ بَاسِقَاتٍ لَهَا طَلْعٌ نَضِيدٌ ۝١٠ رِزْقًا لِلْعِبَادِ وَأَحْيَيْنَا بِهِ بَلَدَةً مَيِّتًا كَذَلِكَ الْخُرُوجُ ۝﴾ [ق: ٩ - ١١].

وقوله جلَّ شأنه: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْكَ تَرَى الْأَرْضَ خَاشِعَةً فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ إِنَّ الَّذِي أَحْيَاهَا لَمُحْيِي الْمَوْتِ إِنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ۝﴾ [فصلت: ٣٩].

وقوله تعالى: ﴿وَتَرَى الْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنْبَتَتْ مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ ۝٥ ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْمُخْلِقُ وَأَنَّهُ يُحْيِي الْمَوْتِ وَأَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ۝٦ وَأَنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ لَا رَيْبَ فِيهَا وَأَنَّ اللَّهَ يَبْعَثُ مَنْ فِي الْقُبُورِ ۝﴾ [الحج: ٥ - ٧].

وهذا الماء النازل من السحب بغزارة، يُخرج الله به حبًّا ليققات به الناس من سائر أنواع الزروع والثمار، والحشائش والعشب، وكل ما هو غذاء للإنسان والحيوان ﴿لَنُخْرِجَ بِهِ ۝﴾ أي: بالمطر ﴿حَبًّا ۝﴾ كالقمح والشعير، والذرة والأرز، وكل ما يققات به الإنسان ﴿وَبَنَاتًا ۝﴾ كالتبن والعشب والكلأ للدواب.

ونخرج به أيضًا الحقائق والبساتين كثيرة الأغصان، والأشجار والنخيل والأعنان، ﴿وَجَنَّاتٍ أَلْفَافًا ۝﴾، وهذه الجنات لتشعب أغصانها يلتف بعضها ببعض لتقارب أشجارها وتشابكها، فكيف لا يستدل بهذه النعم على البعث والنشور؟ وكيف يستعان بنعم الله على معاصيه؟

وهذا الاستدلال على البعث بإنزال المطر على الأرض، حيث يُخرج الله به سنابل الحب كالقمح والذرة والأرز والفول وغير ذلك مما يأكله الإنسان، وأخرجنا به الشجر والكلأ، لحياة الإنسان والنبات لحياة الحيوان، ويحيي الله بهذا الماء الأرض بعد موتها، كذلك يحيي الله الخلق بعد موتهم.

فهذه تسعة أدلة مقنعة، مشاهدة محسوسة، لا يستطيع عاقل أن ينكر أنها دالة على قدرة الله تعالى، ومنها البعث والنشور.

تَغْيِيرُ مَعَالِمِ الْكَوْنِ عِنْدَ قِيَامِ السَّاعَةِ

١٧، ١٨ - ﴿إِنَّ يَوْمَ الْفَصْلِ كَانَ مِيقَتًا ﴿١٧﴾ يَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ فَتَأْتُونَ أَفْوَاجًا﴾

أما وقد تهَيَّأت النفوس للحديث عن القيامة، بعد ذكر أدلتها، فقد ذكر سبحانه في هذه الآيات ثلاثاً من علامات الساعة الكبرى وأماراتها، وهى: النفخ في الصور، وتشقق السماء، وتسير الجبال، وسمّاه يوم الفصل؛ لأنه اليوم الذي يُفصل فيه بين المحق والمبطل، والمحسن والمسيء ﴿إِنَّ يَوْمَ الْفَصْلِ كَانَ مِيقَتًا﴾ جعله الله وقتاً محدداً للفصل فيه بين الخلائق، لا يتقدّم ولا يتأخّر.

والآية فيها إثبات لما تساءل عنه المنكرون، وما جحدّه المكذبون من البعث والجزاء، وفيها إثبات للقضاء بين الناس يوم القيامة فيما اختلفوا فيه، وما ظلم فيه بعضهم بعضاً، وليس تأخّر وقوعه دالاً على انتفاء حصوله، فهو واقع في وقته لا محالة ﴿ذَلِكَ يَوْمٌ يَجْمُوعُ لَهُ النَّاسُ وَذَلِكَ يَوْمٌ مَّشْهُودٌ ﴿١٨﴾ وَمَا تُؤَخِّرُهُ إِلَّا لِأَجَلٍ مَّعْدُودٍ﴾ [هود: ١٠٣-١٠٤].

١- ويبدأ قيام الساعة بالنفخ في الصور، حيث يأمر الله تعالى إسرافيل بالنفخ في البوق، فيخرج منه الصوت قوياً لنداء الناس للاجتماع في أرض المحشر ﴿يَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ فَتَأْتُونَ أَفْوَاجًا﴾ أي: تخرجون من قبوركم: مؤمنين وكافرين، طوائف وجماعات، وأحزاباً وفرقاً وزُمَراً للحساب والجزاء، وهو يوم شديد الأهوال، يتم فيه الفصل والقضاء بين الخلائق بحكم الله العادل، وفيما كان بينهم من مظالم في الدنيا.

وليس بوسع أحد أن يتخلف عن الحضور إلى أرض المحشر، مهما كان وأياً كان، من الأمم أو الرسل وغيرهم: ﴿يَوْمَ نَدْعُوا كُلَّ أُنَاسٍ بِإِمْئِهِمْ﴾ [الإسراء: ٧١] وهذه هي النفخة الثانية.

وفي حديث أبي هريرة ؓ أن رسول الله ﷺ قال: «ما بين النفختين أربعون، قال: أربعون يوماً؟ قال: أبيت، قال: أربعون شهراً؟ قال: أبيت، قال: أربعون سنة؟ قال: أبيت قال: ثم يُنزلُ الله من السماء ماء فينبتون كما ينبت البقل، ليس من الإنسان شيء إلا

يلى، إلا عظماً واحداً، وهو عَجْبُ الذَّنْبِ، ومنه يَرْكَبُ الخلق يوم القيامة»^(١).

١٩، ٢٠- ﴿وَفُتِحَتْ^(٢) السَّمَاءُ فَكَانَتْ أَبْوَابًا^(٣)﴾ وَسِيرَتِ الْجِبَالُ فَكَانَتْ سَرَابًا ﴿

وبعد النفخ في الصور يبدأ تغييرُ معالمِ هذا الكون، لإعداده إلى حياة أخرى تختلف عن هذه الحياة، حيث تُبَدَّلُ الأرض غير الأرض والسموات، فالسموات هي أكبر المخلوقات وأعظمها، وبِذءِ التغيير يكون بها.

٢- ﴿وَفُتِحَتْ السَّمَاءُ﴾ تشققت من كل جانب وصارت طرقاً ومسالك ﴿فَكَانَتْ أَبْوَابًا﴾ كثيرة لنزول الملائكة، كالأبواب التي في الجدران، حيث تفتح في السماء أبواب لصعود الملائكة ونزولهم، فَفُتِحَ السماء: انشققاها بنزول الملائكة من بعض السموات التي هي مقرهم، حيث ينزلون منها لتنفيذ أمر الجزاء الذي يقضي الله به بين العباد.

كما قال تعالى: ﴿وَيَوْمَ تَشَقُّ السَّمَاءُ وَنُزِّلَ الْمَلَائِكَةُ تَنْزِيلًا﴾ [الفرقان: ٢٥].

﴿تَنْجُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ﴾ [المعارج: ٤].

وإذا انفتحت السموات بعد أن كانت محكمة قوية، شديدة البنيان، اختل نظام العالم وتغيرت معالمه، والسماء هي أقوى ما في العالم العلوي بالنسبة للإنسان.

أما أقوى ما في الأرض فهي الجبال، الشُّم الرواسي، وهي الأوتاد الممسكة بالأرض؛ لئلا تميد بالناس في البحار والمحيطات، وهي أربعة أضعاف مساحة اليابسة.

٣- فإذا جاءت القيامة فإن هذه الجبال تُقْلَعُ وتُزَالُ عن أماكنها ﴿وَسِيرَتِ الْجِبَالُ فَكَانَتْ سَرَابًا﴾ أي: نُسِفَتِ الجبال بعد أن كانت ثابتة، فكانت كالسراب، أي: أنها تُنْقَلُ وتُقْلَعُ من مقارها، وهذا النقل يصحبه تفتيت لها، حتى تظهر للرائي كأنها سراب يشبه الماء في الصحراء، فتخفُ جزئياتها حتى تكون في خفة الصوف المنفوش، أو الهباء المثار ﴿وَسَأَلُونَكَ عَنِ الْجِبَالِ فَقُلْ يَنْسِفُهَا رَبِّي نَسْفًا^(٤) فَيَذَرُهَا قَاعًا صَفْصَفًا^(٥) لَا تَبْقَى فِيهَا جَبَلٌ وَلَا

(١) صحيح البخاري) برقم (٤٨١٤، ٤٩٣٥)، وصحيح مسلم برقم (٢٩٥٥).

(٢) قرأ عاصم وحزمة والكسائي وخلف بتخفيف تاء (وفتحت) الأولى، على الأصل، والباقون بتشديدها للتكثير.

﴿أَمَّا﴾ [طه: ١٠٥ - ١٠٧]، ﴿يَوْمَ نَرْجُفُ الْأَرْضَ وَالْجِبَالَ وَكَانَتِ الْجِبَالُ كَيْبًا مَّهِيلًا﴾ [المزمل: ١٤].

الْحَدِيثُ عَنْ جَهَنَّمَ وَصِفَاتِهَا وَعَذَابِ أَهْلِهَا

٢١-٢٣- ﴿إِنَّ جَهَنَّمَ كَانَتْ مِرْصَادًا ﴿٢١﴾ لِلطَّاغِينَ مَنَابًا ﴿٢٢﴾ لِيَبْثُنَ ﴿٢٣﴾ فِيهَا أَخْقَابًا﴾.

وبعد النفخ في الصور، وجعل السماء طُرْقًا وفجاجًا، ونسف الجبال وتفتيتها، يتهيأ المقام للحديث عن الجنة والنار، ولأن السورة تخاطب منكري البعث. لذا: فإن البدء بالحديث عن جهنم وصفاتها وعذاب أهلها هو الأنسب.

وجهنم: اسم لدار العذاب في الآخرة، وهي مهيئة ومعدة للكافرين، وهي ترصدهم وتنتظر نزولهم فيها، وتطلع إلى من يمر عليها من الكفار؛ لتلتقطهم إليها، وهي ترقبهم فلا يستطيعون الهرب منها، كالحارس يقظ الذي لا يتجاوزه أحد ﴿إِنَّ جَهَنَّمَ كَانَتْ مِرْصَادًا﴾ ترصد أهل الكفر وتمنعهم من دخول الجنة، وهي ترقب أهلها وتطلع عليهم فتلتقطهم من حيث كانوا. وفي يوم القيامة توقد نار جهنم التي أرصدها الله وأعدّها للطاغين وجعلها مثوى لهم ومآبًا.

جاء في الحديث: «إن الصراط جسر يُنْصَبُ على متن جهنم، ثم يجوز عليه الناس، فجاج ومكدوس»^(١).

وقال الحسن بن أبي الحسن: لا يدخل أحد الجنة حتى يجوز على متن جهنم، فمن كان عنده أسباب نجاة نجا، وإلا هلك^(٢).

وجهنم هي مرجع الطغاة والجبابرة، ومأواهم ومستقرهم في الآخرة، فقد أعدّها الله ﴿لِلطَّاغِينَ﴾ المتجاوزين حدود الله في الظلم والعدوان، وجعلها لهم ﴿مَنَابًا﴾ أي: مأوى ومنزلاً، يأوي إليها مَنْ سُئِلَ عن الشهادتين، ثم الصلاة، ثم الزكاة، ثم الصيام، ثم الحج، ثم العمرة، ثم المظالم، ثم النوافل، فإن لم يكن عنده رصيد من الإيمان والعمل

(١) قرأ حمزة وروح بغير ألف في (لابثين) صفة مشبهة، والباقون بإثبات الألف، اسم فاعل من لبث.

(٢) (٣، ٢) تفسير ابن عطية (٤٢٥/٥).

الصالح، وإجابة تامة لكل ما سبق، كان مصيره النار.

ثم إن أهل النار يقيمون فيها إقامة دائمة، لا يزولون عنها ولا يحولون، حيث يبقى العذاب سرمداً، فهم ﴿لَيْثِينَ فِيهَا﴾ أي: مقيمين في جهنم ﴿أَحْقَابًا﴾ أزمنة متطاولة، لا نهاية لها، كما قال تعالى: ﴿فَالْيَوْمَ لَا يُخْرَجُونَ مِنْهَا وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ﴾ [الجاثية: ٣٥].

وقال سبحانه: ﴿يُرِيدُونَ أَن يُخْرَجُوا مِنَ النَّارِ وَمَا هُمْ بِخَارِجِينَ مِنْهَا وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّقِيمٌ﴾ [المائدة: ٣٧]، وقال أيضاً: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ أَتَّبَعُوا لَوْ أَنَّنَا كَرَّرْنَا فَنَنْتَبِرَ مِنْهُمْ كَمَا تَنْتَبِرُوا مِنَّا كَذَلِكَ يُرِيدُهُ اللَّهُ أَعْمَلَهُمْ حَسَرَاتٍ عَلَيْهِمْ وَمَا هُمْ بِخَارِجِينَ مِنَ النَّارِ﴾ [البقرة: ١٦٧].

وقال سبحانه: ﴿قَالَ النَّارُ مَوْتُكُمْ خَالِدِينَ فِيهَا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ﴾ [الأنعام: ١٢٨].

قال الحسن: إن الله تعالى لم يجعل لأهل النار مدة، بل قال سبحانه: ﴿لَيْثِينَ فِيهَا أَحْقَابًا﴾ فوالله ما هو إلا أنه إذا مضى حقب دخل حقب آخر، ثم آخر، إلى الأبد، فليس للأحقاب عدة إلا الخلود^(١).

أي: ليس له أجل ينتهي إليه، كلما مضى حُقب دخل آخر.

قال بعض أهل العلم: الحقب، ثمانون سنة.

وقال عبد الله بن مسعود رضي الله عنه: لو علم أهل النار أنهم يلبثون في النار عدد حصي الدنيا لفرحوا، ولو علم أهل الجنة أنهم يلبثون في الجنة عدد حصي الدنيا لحزنوا^(٢). قال تعالى: ٢٤ - ٢٦ - ﴿لَا يَذُوقُونَ فِيهَا بَرْدًا وَلَا شَرَابًا ۖ إِلَّا حَمِيمًا وَغَسَّاقًا ۖ﴾ ﴿٢٥﴾ جَزَاءً وَفَاقًا ۖ

ومع هذه الأحقاب المتطاولة، فإن أهل جهنم لا يذوقون فيها برودة تُخَفِّف عنهم حر النار، ولا شراباً يسكِّن عطشهم فيها، وإذا أرادوا شيئاً يخفف عنهم حر النار - كالماء البارد، أو الهواء البارد، أو النسيم العليل، أو أي شيء آخر - فإنهم لا يجدون إلا ما هو أشد، وهذا معنى قوله تعالى: ﴿لَا يَذُوقُونَ فِيهَا بَرْدًا وَلَا شَرَابًا﴾ أي: أن هذه البرودة لا

(١) تفسير الخازن (٤/٣٤٧).

(٢) قرأ حفص وحمزة والكسائي وخلف بتشديد السين من (وغساقاً) صيغة مبالغة، والباقون بتخفيفها، اسم مصدر.

يتذوقها أهل النار مجرد تذوق، ولا مجرد إحساس ولا شعور، وإذا أرادوا شراباً يُطفئ عطشهم، ويخفف عنهم حر النار، فليس أمامهم إلا الحميم والغسلين.
إنهم يُغاثون بأمرين جاء ذكرهما في قوله تعالى: ﴿إِلَّا حَمِيمًا وَغَسَّاقًا﴾.
أحدهما: الحميم، وهو الماء الذي بلغ منتهى الحرارة يشوي الوجوه ويقطع الأمعاء فيراق على أجسادهم.

وثانيهما: الغساق، وهو الصديد الذي يسيل من جروح أهل النار، فيسيل على مواضع الحروق فيهم، فيزيدهم ألماً وهو في غاية التنن وكرهه المذاق.
والحميم والغساق من جنس النار التي يعذبون بها، وليس فيهما برد ينفع ولا شراب يزوي ﴿إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادُهَا وَإِنْ يَسْتَغِيثُوا يُغَاثُوا بِمَاءٍ كَالْمُهْلِ يَشْوِي الْوُجُوهَ بِئْسَ الشَّرَابُ وَسَاءَتْ مُرْتَفَقًا﴾ [الكهف: ٢٩].

وهذا العذاب في نار جهنم، جزاء عادلاً موافقاً لأعمالهم السيئة التي عملوها في الدنيا، فهو ﴿جَزَاءٌ وَفَاءً﴾ ولا ذنب أكبر من الشرك، ولا عقوبة أعظم من النار، والله تعالى لم يظلمهم بالقائم في جهنم، وإنما كان هذا العقاب موافقاً لأعمالهم القبيحة فهم الذين ظلموا أنفسهم ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ النَّاسَ شَيْئًا وَلَكِنَّ النَّاسَ أَنْفُسُهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ [يونس: ٤٤]. ثم ذكر سبحانه بعض أعمال أهل جهنم، التي استحقوا بها هذا الجزاء، فهم كانوا لا يؤمنون بالبعث، وكذبوا بآيات الله.

عَذَابُ أَهْلِ النَّارِ سَبَبَانِ

٢٧، ٢٨- ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا لَا يَرْجُونَ حِسَابًا﴾ ٢٧ ﴿وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا كِذَابًا﴾

ثم بيّن سبحانه أن ما أصاب الكفار من عذاب جهنم له سببان:

السبب الأول: هو إصرارهم على الكفر، بإنكار البعث، إلى نهاية أعمارهم، وهذا ما يشير إليه قوله تعالى: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا لَا يَرْجُونَ حِسَابًا﴾ أي: إنهم كانوا في الدنيا لا يخافون يوم الحساب، ولم يؤمنوا به، ولم يصدقوا بالثواب والعقاب، فلم يعملوا له، ولم

يستعدّوا للقاء الله؛ ،أهمّلوا العمل للآخرة، لأنهم لم يكونوا معتقدين أن هناك دارًا يحاسب فيها العباد ويُجازون على أقوالهم وأعمالهم، فعاقبهم الله تعالى على هذا بحرمانهم في الآخرة من البرد والشراب.

وفُسر الرجاء بمعنى: الخوف؛ لأنه لا رجاء بدون خوف، ولا خوف بدون رجاء، وهؤلاء لا يرجون ولا يخافون.

والسبب الآخر: هو تكذيبهم للرسول ﷺ والوحي الذي جاء به من عند الله، وهذا ما يشير إليه قوله تعالى: ﴿وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا كِذَابًا﴾ أي: أن تكذيبهم لرسول الله ﷺ قد بلغ منتهاه، فكذبوا بما اشتملت عليه آيات الله تعالى من إثبات الوحانية، وإثبات رسالة محمد ﷺ، وإثبات البعث والجزاء، بالجنة أو النار، تكذيباً واضحاً صريحاً، مع وجود البينات ودلائل التصديق فعاندوها ولم يؤمنوا بها، كما حكى الله تعالى عنهم في قوله: ﴿وَقَالُوا قُلُوبُنَا فِيْ أَكِنَّةٍ مِّمَّا نَدْعُونَآ إِلَيْهِ وَفِيْ ءَاذَانِنَا وَقْرٌ وَمِنْ بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ﴾ [فصلت: ٥]. قال تعالى:

٢٩، ٣٠- ﴿وَكُلُّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ كِتَابًا ۖ فَذُوقُوا فَلَنْ نَّزِيدَكُمْ إِلَّا عَذَابًا﴾

وكل ما فعله الكفار من جرائم صغيرة أو كبيرة في الدنيا أحصاه الله عليهم وسجله في اللوح المحفوظ، وهذا معنى ﴿وَكُلُّ شَيْءٍ﴾ أي مما عملوه وقالوه قليلاً أو كثيراً ﴿أَحْصَيْنَاهُ﴾ أي: ضبطانه ضبطاً محكماً وأودغناه ﴿كِتَابًا﴾ محفوظاً ﴿لَا يَضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنْسَى﴾ [طه: ٥٢] ولا يعزب شيء عن علمه تعالى مهما قل أو كثر.

١- كما قال تعالى: ﴿وَلَإِنْ كَانَتْ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَىٰ بِنَا حَاسِبِينَ﴾

[الأنبياء: ٤٧].

٢- وفي وصايا لقمان لابنه: ﴿يَبْنَىٰ إِنَّمَا إِنْ تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ فَتَكُنْ فِي صَخْرَةٍ أَوْ فِي السَّمَوَاتِ أَوْ فِي الْأَرْضِ يَأْتِ بِهَا اللَّهُ﴾ [لقمان: ١٦].

٣- ومن ذلك قوله تعالى: ﴿عَلِيمُ الْغَيْبِ لَا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ وَلَا أَصْغَرُ مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْبَرُ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ﴾ [سبا: ٣].

٤- وقوله سبحانه: ﴿وَيَقُولُونَ بَوَيْلُنَا مَالِ هَذَا الْكِتَابِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا﴾ [الكهف: ٤٩].

٥- وقوله جل شأنه: ﴿أَحْصَاهُ اللَّهُ وَسُوهُ﴾ [المجادلة: ٦].

٦- وقوله أيضاً: ﴿وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ فِي إِمَامٍ مُبِينٍ﴾ [يس: ١٢].

٧- وقوله كذلك: ﴿وَأَحَاطَ بِمَا لَدَيْهِمْ وَأَحْصَى كُلَّ شَيْءٍ عَدَدًا﴾ [الجن: ٢٨].

٨- وقوله أيضاً: ﴿مَا يَلْفِظُ مِنْ قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾ [ق: ١٨].

فلا يظن المجرمون أن الله تعالى معذبهم بذنوب لم يعملوها، ولا يظنون أن الله تعالى يضيع أو ينسى شيئاً من أعمالهم، فكلها محفوظة ومسجلة في كتاب لا يضل ربي ولا ينسى ﴿وَوُضِعَ الْكِتَابُ فَتَرَى الْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ بَوَيْلُنَا مَالِ هَذَا الْكِتَابِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا﴾ [الكهف: ٤٩].

ويقال لأهل النار يوم القيامة: ﴿فَذُوقُوا﴾ أيها المكذبون سوء عاقبة كفركم وعنادكم، ذوقوا نار جهنم ﴿فَلَنْ نَزِيدَكُمْ﴾ إذا استغثتم وطلبتم التخفيف ﴿إِلَّا عَذَابًا﴾ فوق عذابكم الذي أنتم فيه وهو عذاب دائم ومتجدد في كل وقت وحين.

وقد تكون هذه الزيادة بنوع آخر من أنواع العذاب، كما قال تعالى: ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ زِدْنَاهُمْ عَذَابًا فَوْقَ الْعَذَابِ بِمَا كَانُوا يُفْسِدُونَ﴾ [النحل: ٨٨].

عن عبد الله بن عمرو بن العاص، وأبي برزة الأسلمي، وأبي هريرة ؓ: أن هذه الآية أشد ما نزل في أهل النار؛ وذلك لأنهم كلما استغاثوا بنوع من العذاب أغيثوا بأشد منه فهم في مزيد من عذاب الله أبداً^(١).

وهي نهاية الحديث في هذه السورة عن أهل جهنم وعذابهم، أعادنا الله منها ومن عذابها.

أَرْبَعَةُ أَلْوَانٍ مِنْ نَعِيمِ الْمُتَّقِينَ فِي الْجَنَّةِ

٣١ - ٣٤ - ﴿إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ مَفَازًا (٣١) حَدَائِقَ وَأَعْنَابًا (٣٢) وَكَوَاعِبَ أَزْوَاجًا (٣٣) وَكَأْسًا دِهَاقًا (٣٤)﴾

(١) يُنْظَرُ: تفسير الطبري (٣٦/٢٤)، وفتح الباري (٣٣٣/٦).

ثم يأتي الحديث عن نعيم المتقين الأخيار - جعلنا الله منهم - بعد ذكر عذاب أهل الطغيان والكفر، وإذا كان السبب في عذاب أهل النار، هو عدم الخوف من لقاء الله تعالى، وعدم الإيمان برسول الله ﷺ، فإن المتقين الذين آمنوا باليوم الآخر، واستعدوا بالعمل الصالح للقاء الله، وآمنوا بما جاء به رسول الله ﷺ، واتقوا ما يُسخط ربهم، فتمسكوا بطاعته وتركوا معاصيه، هؤلاء هم الذين يظفرون يوم القيامة بالنجاة من النار، والفوز بالجنة ونعيمها.

﴿إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ﴾ الذين صانوا أنفسهم عما لا يُرضي الله تعالى، وتقربوا له بأنواع الطاعات، لهم يوم القيامة ﴿مَفَازًا﴾ أي: فوزًا بدخول الجنة، والنجاة من النار، كما قال تعالى: ﴿فَمَنْ زُحِرَ عَنِ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ﴾ [آل عمران: ١٨٥].

ثم فصل سبحانه شيئاً من هذا النعيم الذي يفوز به المتقون، فذكر منه أربعة هي: الحدائق، والأعنان، والكواكب الأتراب، والكأس الدهاق، وسماع الطيب من القول.

النَّعِيمُ الْأَوَّلُ : الْحَدَائِقُ وَالْبَسَاتِينُ:

ففي الجنة ﴿حَدَائِقُ﴾ من نخيل، وأشجار وأزهار، وزروع وثمار ورياحين، وبساتين محاطة بالأسوار، تتفجر فيها الأنهار ﴿وَأَعْنَابًا﴾ والعنب من أحسن الفواكه، وأحبها للنفوس، وأنفعها للأبدان، ولذا خص العنب بالذكر في هذه الآية، وفيه إشارة إلى بقية الفواكه، اكتفاء بذكر البعض عن الكل.

وقد نهى الإسلام أن نقول للعنب: (شجر الكرم)، كما في حديث أبي هريرة ؓ أن النبي ﷺ قال: «لا يقل أحدكم الكرم، وإنما الكرم: الرجل المسلم، ولكن قولوا: حدائق الأعنان»^(١).

النَّعِيمُ الثَّانِي : الْحُورُ الْعِينُ:

ومن نعيم أهل الجنة: زوجات من الحور العين، ومن نسائهم اللاتي كنَّ في الدنيا

(١) البخاري (٦١٨٢)، ومسلم (٢٢٤٧)، وأبو داود (٤٩٧٤)، والمسند (٧٢٥٧)، وابن حبان (٥٨٣٢)، والنسائي في الكبرى (١١٥٨٠).

بعد أن يُنشئَهُنَّ الله إنشاءً، فيعيد خلقهن من جديد، ويجعلهن متحبيات لأزواجهن.

﴿إِنَّا أَنشَأْنَهُنَّ إِنشَاءً ۝٣٥ فَعَلَّمْنَهُنَّ أَبْكَارًا ۝٣٦ عُرُبًا أَتْرَابًا ۝٣٧ لِأَصْحَابِ الْيَمِينِ﴾ [الواقعة: ٣٥-٣٨].

وقد نزع الله ما في قلوبهن من الغل والحقد والحسد، كما قال تعالى: ﴿وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِمْ مِّنْ غِلٍّ إِخْوَانًا عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَابِلِينَ﴾ [الحجر: ٤٧].

وقال سبحانه: ﴿وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِمْ مِّنْ غِلٍّ تَجْرَىٰ مِنْ تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ ۝٤٣﴾ [الأعراف: ٤٣].

ذلكم قول الله تعالى: ﴿وَكَوَّعَ أَبْصَارًا ۝٤٤﴾ والكواعب: جمع كاعب، وهي الجارية التي بلغت سن الخامسة عشرة، قد تكعب ثديها واستدار استدارة الكعب.

والكواعب هي النواهد، والناهد هي التي لم ينكسر ثديها من شبابها ونضارتها وقوتها. والأتراب: جمع تَرَبٍّ، وهو المساواة في السن، والمراد: أنهم إناث عذارى، نواهد، قد برزت أندائهن، وهن في سن واحدة. ومن عادة الأتراب أن يكن متآلفات متعاثرات، وهو سن الثالثة والثلاثين، وهذا السن هو أفضل سن الشباب.

النَّعِيمُ الثَّالِثُ خَمْرُ الْجَنَّةِ:

ومن نعيم أهل الجنة: ما حَرَمُوا أنفسهم منه في الدنيا؛ حيث منعوها من شرب الخمر، فيكافئهم الله تعالى على ذلك بخمر الآخرة الخالية من أضرارٍ ومفاسدٍ خمر الدنيا ﴿وَكَسَادَهَا قًا ۝٤٥﴾ أي: إناء مملوء بالخمر من رحيق مختوم، ختامه مسك، لذة للشاربين. والدهاق: هو الإناء المملوء بالماء حتى يفيض من جوانبه.

قال ابن عباس رضي الله عنهما: هي الممثلة المثرعة المتتابعة، وربما سمعتُ العباس عليه السلام يقول: يا غلام، اسقنا واذهق لنا^(١)، وهي كأس مملوءة قد عُصرت وُضِئَت.

النَّعِيمُ الرَّابِعُ سَمَاعُ الطَّيِّبِ مِنَ الْقَوْلِ

٣٥، ٣٦- ﴿لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا كِذَابًا ۝٣٦﴾ جَرَاءَ مِّن رَّبِّكَ عَطَاءٌ حِسَابًا ﴿٣٦﴾

(١) الطبري (٣٩/٢٤)، والحاكم (٥١٢/٢)، والبيهقي في «البعث» (٣٥٨)، وقول العباس في «البخاري» (٣٨٤٠).

(٢) قرأ الكسائي بتخفيف الذال من (ولا كذابًا) مصدر كاذب مثل قاتل قتالًا، أو مصدر كذب مثل كتب كتابًا، والباقون بتشديد الذال، مصدر كَذَبَ تكذيبًا.

ومن نعيم أهل الجنة: أنهم لا يسمعون فيها كذباً ولا نفاقاً ولا خداعاً، ولا كلاماً ساقطاً ولا باطلاً ﴿لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا﴾ أي: في الجنة ﴿لَغَوْاً﴾ كلاماً خالياً من الفائدة ﴿وَلَا كِذْباً﴾ أي: ولا كذباً أو زوراً من القول؛ يؤثم قائله، لأن الجنة دار السلام، وكل ما فيها سالم من النقص والباطل.

قال تعالى: ﴿لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغَوْاً وَلَا تَأْيِيماً﴾ (٢٥) ﴿إِلَّا قِيلاً سَلَامًا سَلَامًا﴾ [الواقعة: ٢٥، ٢٦].

فأهل الجنة لا يكذب بعضهم بعضاً، ولا يسخر بعضهم من بعض، ولا يغتاب بعضهم بعضاً، ولا يتقص بعضهم بعضاً، لقد نزع الله من قلوبهم الغل والحقد والحسد والبغضاء والعداء.

وما سبق ذكره من الحقائق والأعنان والكواعب والخمر وغيرها مما ذكر في آيات أخر، مما أعده الله تعالى للمتقين في الآخرة، هو محض فضل من الله تعالى ومِنَّة، جزاء لهم على صالح أعمالهم، وهو عطاء محسوب لكل منهم بمقدار ما عمل، حتى يرضى ويكتفي ويقول: حسبي، حسبي.

فهذا النعيم ﴿جَزَاءً﴾ أي: مكافأة صادرة ﴿مِنْ رَبِّكَ﴾ - يا رسولنا - لأهل الجنة على سبيل العطية ﴿عَطَاءً حِسَاباً﴾ أي: كافياً وافياً تفضلاً من الله تعالى وإحساناً. وإيمانهم وأعمالهم الصالحة في الدنيا كانت سبباً لهذا النعيم المقيم. وهذا الحساب الذي جاء ذكره في الآية، بيّنه قول الله تعالى: ﴿مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا﴾ [الأنعام: ١٦٠].

وقوله سبحانه: ﴿مَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أُنْثِثَتْ سَبْعَ سَنَابِلٍ فِي كُلِّ سُبُلَةٍ مِائَةٌ حَبَّةٌ وَاللَّهُ يُضَاعِفُ لِمَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٦١].

وهذا الحساب لعطاء الله، لا يحترز به عن تجاوز حد معين من الأجر والثوبة، لقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يُوفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [الزمر: ١٠] فدخل الجنة يكون برحمة الله تعالى وفضله، وليس بالعمل، والنعيم فيها يكون على قدر الأعمال، فكل من المكثّر أو المقل يضاعف له من الحسنات على قدر عمله، فالحساب موازنة الأعمال بالحسنات.

ويصح أن يكون ﴿حِسَابًا﴾ بمعنى: أن الله تعالى يُعطي العبد الصالح ما يكفيه حتى يقول: حسبي، حسبي، كما يقال: أحسبني هذا الأمر، أي: كفاني^(١).

لَا كَلَامَ وَلَا شَفَاعَةَ فِي الْيَوْمِ الرَّهِيبِ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ تَعَالَى

٣٧- ﴿رَبِّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا الرَّحْمَنُ﴾^(٢) لَا يَمْلِكُونَ مِنْهُ خِطَابًا ﴿٣٧﴾

ثم إن هذا العطاء والنعيم صادر من الرحمن الذي وسعت رحمته كل شيء، فهو ربك وربهم، الذي رباهم ورحمهم وأعطاهم هذا النعيم، وهو ﴿رَبِّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا﴾ من مخلوقات لا يعلمها إلا الله، ولكن المشركين عبدوا غيره جهلاً وكفراً لنعمته، مع أنه سبحانه رحمن الدنيا والآخرة، فهو ﴿الرَّحْمَنُ﴾ الذي وسعت رحمته كل شيء، وهو الذي أنكر المشركون اسمه الوارد في القرآن، فكانوا كما قال تعالى: ﴿وَلِذَا قِيلَ لَهُمْ اسْجُدُوا لِلرَّحْمَنِ قَالُوا وَمَا الرَّحْمَنُ أَنْسَاجُ لِمَا نَأْمُرُنَا وَزَادَهُمْ نُفُورًا﴾ [الفرقان: ٦٠].

ومع أنه سبحانه رحمن الدنيا والآخرة، فهو شديد العقاب ﴿أَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ وَأَنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [المائدة: ٩٨].

وفي يوم القيامة لا يقدر أحد على مخاطبته سبحانه في طلب دفع البلاء، أو رفع العذاب، رهبة منه وإجلالاً له، فهم ﴿لَا يَمْلِكُونَ مِنْهُ خِطَابًا﴾ إلا من أذن له الرحمن، أي: لا يقدر أحد -كائنًا من كان- أن يخاطب ربه إلا بإذنه، ولا يملك أحد أن يفعل ذلك إلا بمشيئته ﴿يَوْمَ يَأْتِ لَا تَكَلَّمُ نَفْسٌ إِلَّا بِإِذْنِهِ﴾ [هود: ١٠٥]. قال تعالى:

٣٨- ﴿يَوْمَ يَقُومُ الرُّوحُ وَالْمَلِكَةُ صَفًّا لَا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ وَقَالَ صَوَابًا﴾ ﴿٣٨﴾

(١) وبهذا قال جمهور المفسرين واللغويين، وبالأول قال مجاهد، يُنظر: تفسير ابن عطية (٤٢٨/٥).

(٢) قرأ ابن عامر وعاصم ويعقوب بخفض الباء من (رَبِّ) والنون من (الرحمن) على أنهما بدل من (رَبِّكَ) بدل كل من كل، وقرأ حمزة والكسائي وخلف بخفض باء (رَبِّ) بدل من (رَبِّكَ) ورفع النون من (الرحمن) على أنه مبتدأ، والجملة بعده خبر، أو على أنه خبر لمبتدأ محذوف، أي: هو الرحمن، وقرأ نافع وابن كثير وأبو عمرو وأبو جعفر برفعهما، خبر لمبتدأ محذوف، أي: هو رب وهو الرحمن.

ومن هذا الخطاب طلبُ الشفاعة؛ فإنها لا تكون إلا بالإذن للشافع في الشفاعة والرضى عن المشفوع له، فالقول الصواب، هو قول الحق المشتمل على هذين الشرطين، الإذن والرضى كما قال تعالى: ﴿يَوْمَئِذٍ لَا نَنْفَعُ الشَّفَعَةُ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ وَرَضِيَ لَهُ قَوْلًا﴾ [طه: ١٠٩]، كما قال تعالى: ﴿مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ﴾ [البقرة: ٢٥٥].

وقال سبحانه: ﴿وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ارْتَضَى﴾ [الأنبياء: ٢٨].

وهذا اليوم الذي لا يملك فيه أحد أن يخاطب الرحمن إلا بإذنه، هو يوم القيامة، حيث تقوم الملائكة عامة وجبريل بوجه خاص، بين يدي خالقهم خضوعاً وتذلاً، وهم في صفوف منتظمة، بأدب وخشوع ﴿يَوْمَ يَقُومُ الرُّوحُ﴾ وهو جبريل عليه السلام وهو أشرف الملائكة كما صرّحت بذلك الآيات الأخر في مثل قوله تعالى: ﴿وَلَنَزَّلُ الرَّبُّ الْقَلَامَ﴾ نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ ﴿عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنْذِرِينَ﴾ [الشعراء: ١٩٢-١٩٥].

وقوله سبحانه: ﴿قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ مِنْ رَبِّكَ بِالْحَقِّ لِيُثَبِّتَ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَهُدًى وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ﴾ [النحل: ١٠٢].

وقوله جلّ شأنه: ﴿نَزَّلَ الْمَلَكُ وَالرُّوحُ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِمْ مِنْ كُلِّ أَمْرٍ﴾ [القدر: ٤].

فيقوم جبريل ﴿وَالْمَلَكُ صَفًّا﴾ واحداً أو صفوفاً منتظمة، وقيل: إن المراد بالروح: أرواح بني آدم، حيث تقوم الأرواح في أجسادها يوم البعث والنشور كما صح عن مجاهد: الروح خلق على صورة بني آدم^(١).

وكان ﷺ يقول في ركوعه وسجوده: «سُبُّوحٌ قُدُّوسٌ ربُّ الملائكة والروح»^(٢).

فالناس في هذا اليوم الرهيب ﴿لَا يَتَكَلَّمُونَ﴾ أي: لا يتكلم الخلق كلهم بين يدي خالقهم إجلالاً لعظمته، ورهبة لجلاله، إلا بشرطين:

الشرط الأول: أن يأذن الرحمن بالكلام أو الشفاعة لمن يريد الاستئذان في ذلك،

(١) أخرجه عبد الرزاق (٣٤٤/٢)، والطبري (٤٨/٢٤)، وأبو الشيخ (٤١٤)، وصححه محقق «الأسماء والصفات» للبيهقي برقم (٧٨٣).

(٢) صحيح مسلم (٤٨٧)، وأبو داود (٨٧٢)، والنسائي (١١٣٣)، والبيهقي في «الأسماء والصفات» (٥٧).

وهذا معنى: ﴿إِلَّا مَنْ أَدْنَىٰ لَهُ الرَّحْمَنُ﴾ بأن يلهمه الاستئذان، ويُلقيه في نفسه، فتزول عنه الرهبة فيستأذن فيأذن الله له.

والشرط الآخر: أن يكون المشفوع له قد نطق بالصواب في الدنيا، بأن كان مؤمناً موحّداً متّبِعاً لما جاء به محمد ﷺ، فالقول بالصواب هو كلمة التوحيد: لا إله إلا الله، وهو أيضاً قول الحق والسداد الذي يُرضي رب العالمين.

والمعنى: أن الخلق كلهم بما فيهم الملائكة الكرام، والروح الأمين، لا يشفعون إلا في شخص أذن له الرحمن في الشفاعة، وكان في الدنيا ممن يقول قولاً صواباً.

النَّجَاةُ مِنْ أَهْوَالِ الْآخِرَةِ بِالْإِيمَانِ وَالْعَمَلِ الصَّالِحِ

٣٩- ﴿ذَٰلِكَ الْيَوْمُ الْحَقُّ فَمَنْ شَاءَ اتَّخَذْ إِلَىٰ رَبِّهِ مَآبًا ۖ﴾

وهذا اليوم الذي يُفصل فيه بين الخلائق، والذي تقوم فيه الروح والملائكة صفًا بين يدي ربهم، هو يوم كائن لا محالة، ولا ريب في مجيئه ﴿ذَٰلِكَ﴾ هو ﴿الْيَوْمُ الْحَقُّ﴾ الثابت وقوعه، ولا يكون فيه باطل ولا كذب، وهو يوم يقوم فيه الخلائق للحساب والجزاء، وهو أعظم يوم يجتمع فيه الناس كلهم، ويُعطى فيه كل واحد منهم ثوابه وعقابه. فإذا علمتم ما في ذلك اليوم من الخير والشر، وحسن العاقبة أو سوء العاقبة -فليختر كل إنسان ما يريده من المصير الحسن، أو المصير السيئ ﴿فَمَنْ شَاءَ اتَّخَذْ إِلَىٰ رَبِّهِ مَآبًا﴾ أي: فمن أراد النجاة من أهوال ذلك اليوم، فليتخذ إلى ربه مرجعًا، بالإيمان والعمل الصالح، وقد تقدّم أن مرجع الطاغين جهنم، والحرمان من النعيم المقيم، ومرجع المتقين الفوز بالجنة، والنجاة من النار، وليس هذا بمقام تخيير، وإنما هو إلى التهديد والوعيد أقرب، كما قال تعالى: ﴿فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيُكْفُرْ﴾ [الكهف: ٢٩].

فليس في الآية تخيير بين الإيمان والكفر، وإنما فيها تهديد ووعيد لمن كفر.

فعلى المرء أن يتدارك نفسه من قبل أن يأتي يوم لا ينفع فيه مال ولا بنون إلا من أتى

الله بقلب سليم.

إِنذَارُ النَّاسِ قَطْعٌ لِلْأَعْذَارِ قَبْلَ الْمَوْقِفِ الْعَصِيبِ

٤٠ - ﴿إِنَّا أَنْذَرْتَكُمْ عَذَابًا قَرِيبًا^(١) يَوْمَ يَنْظُرُ الْمَرْءُ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ وَيَقُولُ الْكَافِرُ يَلَيْتَنِي كُنْتُ ثَرِيًّا ﴿٤٠﴾﴾

وبعد استعراض ما في السورة من أهوال يوم القيامة، وما فيها من نعيم لأهل التقوى، وعذابٍ موجعٍ لأهل الضلال، تُختم السورة بإنذار الناس وهم في الدنيا، أن يعملوا بطاعة الله تعالى، قبل أن يأتي ذلك اليوم، قطعاً لأعذار الخلائق، حتى يأخذوا جذرهم مما أُنذروا به، كما يقول النذير عند الإنذار: «أنا النذير العريان» ﴿إِنَّا أَنْذَرْتَكُمْ عَذَابًا قَرِيبًا﴾ حذرناكم عذاب اليوم الآخر، وسماه الله قريباً بالنظر إلى عمر الدنيا، ولأن كل آتٍ قريب، ولأن بعثة النبي ﷺ من علامات الساعة ﴿إِنَّهُمْ يَرَوْنَهُ بَعِيدًا﴾ ﴿وَرَوْنَهُ قَرِيبًا﴾ [المعارج: ٦، ٧].

والإنذار: هو الإخبار بحصول شيء تسوء عاقبته في وقت لا يستطيع المرء أن يجتنب نفسه هذا الخطر.

وهذا اليوم الذي تسوء عاقبته هو ﴿يَوْمَ يَنْظُرُ الْمَرْءُ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ﴾ يرى فيه كل امرئ ما عمل من خير، أو اكتسب من إثم، ونظر المرء ما قدمت يده يعلم عند حصول الجزاء له يوم القيامة، كما قال تعالى: ﴿يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّخَضَّراً وَمَا عَمِلَتْ مِنْ سُوءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُ أَمَدًا بَعِيدًا﴾ [آل عمران: ٣٠].

وقال أيضاً: ﴿يَوْمَ يَصْدُرُ النَّاسُ أَشْتَاتًا لِّيُرَوْا أَعْمَالَهُمْ﴾ [الزلزلة: ٦].

ويوم القيامة يفرغ المرء لما كان قد عمله في الدنيا من سيئ الأقوال والأعمال، ولهذا فإن الله تعالى يأمرنا أن نستعد لهذا اليوم بالعمل الصالح ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَلْتَنْظُرَ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍ﴾ [الحشر: ١٨] فمن وجد خيراً فليحمد الله ومن وجد غير ذلك فلا يلو من إلا نفسه.

وبعد تعميم هذا الإنذار لكل ذكر وأنثى، وهو مقتضى لفظ ﴿الْمَرْءُ﴾ في الآية، وهو يشمل جميع الخلق مؤمنهم وكافرهم، بعد ذلك يخص الله تعالى الكافرين بالذكر، مبيناً

(١) عدّ المكّي والبصري (عذاباً قريباً) آية، فيكون متروكاً لغيرهما.

سوء خاتمته، وهم منكرو البعث، وجاحدو وحدانية الله تعالى، ومكذبو الرسالة الخاتمة، فهو يوم يتمنى فيه الكافر أن لو كان في الدنيا بغير عقل ولا إدراك؛ حتى لا يعاقب في الآخرة ﴿وَيَقُولُ الْكَافِرُ﴾ على وجه الحسرة والندامة ﴿يَلَيْتَنِي كُنْتُ﴾ في الدنيا ﴿تُرَابًا﴾ ولم أخلق بشراً، ولم أبعث أو أحاسب، فيتمنى أنه لم يخلق ولم يكلف من باب الحسرة والندامة.

قيل: إن الكافر يقول ذلك حين يحشر الله الحيوانات يوم القيامة فيقتض للجماء من القرناء، وبعد ذلك يصيرها تراباً، فيتمنى الكافر أن لو كان كذلك حتى لا يعذب. قال عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما: إذا كان يوم القيامة، مُدَّت الأرض مدَّ الأديم، وحُشِر الدواب والبهائم والوحوش، ثم يُجعل القِصاص بينها حتى يقتص للشاة الجماء من الشاة القرناء نطحتها، فإذا فرغ من القِصاص، قيل لها: كوني تراباً، فعند ذلك يقول الكافر: يا ليتني كنت تراباً^(١).

قال أبو هريرة رضي الله عنه: يقول التراب: لا، ولا كرامة لك من جَعَلِكَ مثلي^(٢). وجاء في حديث الصور الطويل ما يؤيد هذا المعنى، قال عليه السلام: «فيقضي الله عز وجل بين خلقه إلا الثقلين: الجن والإنس، فيقضي بين الوحوش والبهائم، حتى إنه ليقضي للجماء من ذات القرن، فإذا فرغ من ذلك، فلم تبق تبعه عند واحدة لأخرى، قال الله لها: كوني تراباً، فعند ذلك يقول الكافر: ﴿يَلَيْتَنِي كُنْتُ تُرَابًا﴾ ثم يقضي الله عز وجل بين العباد فأول ما يقضي فيه الدماء»^(٣).

وقيل: إن الكافر إذا رأى ما أنعم الله به على المؤمنين من الخير والرحمة قال: يا ليتني كنت متواضعاً مطيعاً لله في الدنيا، ولم أكن جباراً متكبراً^(٤).

(١) تفسير الخازن (٣١٩/٤) وابن عطية (٤٣٩/٥).

(٢) يُنظر الحديث بطوله كما أورده ابن كثير في التفسير (٢٨٥/٣)، وهو من الأحاديث الطوال للطبراني برقم

(٣٦)، والبيهقي في «البعث» برقم (٦٦٩) وأبو الشيخ (٣٨٧).

(٤) تفسير الخازن (٣١٩/٤).

أخرج الطبري بسند حسن عن قتادة قال في هذا الكافر: هو الهالك المفرط العاجز، وما يمنعه أنه يقول ذلك، وقد راج عليه عورات عمله، وقد استقبل الرحمن وهو عليه غضبان، فتمنى الموت يومئذ، ولم يكن في الدنيا شيء أكره عنده من الموت.

تم تفسير (سورة النبأ) والله الحمد والمنة

تَفْصِيرُ سُورَةِ النَّازِعَاتِ (٧٩)

مُقَدِّمَةُ السُّورَةِ

(سورة النازعات) هي السورة التاسعة والسبعون في ترتيب المصحف، والحادية والثمانون في ترتيب النزول، نزلت بعد سورة النبأ وقبل سورة الانفطار. وتسمى سورة النازعات، وهو الأشهر، وسميت سورة الساهرة، وسورة الطامة. وهي سورة مكية باتفاق.

وعدد آياتها عند أهل الكوفة ست وأربعون آية، وخمس وأربعون آية عند بقية علماء العدد، والخلاف في موضعين عما ﴿مَنْ لَكَ وَلَاقِمِكَ﴾ ﴿فَأَمَّا مَنْ طَغَى﴾ وهي مئة وسبع وتسعون كلمة، وسبع مئة وثلاثة وخمسون حرفاً.

موضوع السورة:

١- أُبْرِزُ ما تتميز به السورُ المكية: إزساء قواعد التوحيد، والإيمان بالنبى الخاتم، والإيمان باليوم الآخر، وقد اهتمت هذه السورة بترسيخ التصديق بالبعث والحساب والجزاء، وبيان مآل المتقين، ومآل الفجار، بالإضافة إلى نضب دلائل الوجدانية، والإيمان بخاتم الرسل ﷺ.

٢- وقد بدأت السورة بالقسم بخمسة طوائف من الملائكة هي: النازعات، والناشطات، والسابحات، والسابقات، والمدبرات، وجواب القسم أن البعث حق، وهذا البعث يأتي ﴿يَوْمَ تَرْجُفُ الرَّاجِفَةُ﴾ الآية: ٦ فتضطرب الأرض، ويُنفخ في الصور، ويقوم الناس لرب العالمين، وأبصار المنكرين للبعث منكسرة، خاشعة ذليلة، وقلوبهم ترجف من الفزع والخوف لأنهم كانوا يستبعدون هذا اليوم ويُنكرونها، وقد صوّر القرآن حالهم ليعتبر الناس فيعملوا لذلك اليوم.

٣- ثم تضرب آيات السورة مثلاً لمن جحد وحادانية الخالق سبحانه، فطغى وتجبر

في الأرض، وأنكر اليوم الآخر وما فيه، وهو فرعون الطاغية الذي أنكر رسالة موسى عليه السلام، وادّعى الربوبية والألوهية، فأخذه الله أخذاً وبيلاً، وفي ذلك عبرة لمن يخاف لقاء ربه، وينتفع بما حدث لغيره.

٤- ثم تمضي آيات السورة في الحديث عن القيامة، وتُقدّم لذلك بيان أن مُخَيّ الناس بعد موتهم، هو خالق السموات والأرض، والليل والنهار، والمياه والجبال، وكلها من أعظم المخلوقات، وعند مجيء الطامة، يُعرض على الإنسان عمله، وتبرز جهنم للناظرين، ويكون الناس فريقان: فتسوء خاتمة من تجبّر واتبع هواه، وآثر الحياة الدنيا على الآخرة، وتحسّن خاتمة من خاف لقاء ربه ونهى نفسه عن هواها السيء.

٥- وتُختم السورة ببيان أن علم قيام الساعة عند الله وحده، وأن الرسول ﷺ - فضلاً عن سائر البشر - لا علم له بها، وعندما تقوم الساعة يتصور الإنسان أنه لم يلبث في الدنيا أو في قبره وبرزخه إلا عشية أو ضحاها.

وهكذا فإن السورة تأخذ بيد الإنسان إلى الدار الآخرة، بدءاً بخروج الروح من الجسد، إلى المشهد الأول من مشاهد القيامة، حيث القلوب الواجفة، والأبصار الذليلة المنكسرة، لمن أنكر لقاء الله تعالى ولم يتزوّد لمعاده. ومن ثمّ تعرض بعض آيات السورة صورة المكذّبين بالله ورسوله واليوم الآخر، لكبير من أكابر المجرمين، هو فرعون الطاغية، فتذكّر عاقبته الوخيمة لمن أراد أن يذكر أو يخشى.

ومن صفحة التاريخ إلى كتاب الكون المفتوح في مشهد يطوف بالعبد من السماء إلى الأرض والجبال، والليل والنهار، والماء والمرعى، ليستدل بذلك على أن القادر على خلق هذه المخلوقات أقدر على ما دونها، وهو إحياء الناس بعد موتهم، وبعد هذه التمهيدات يأتي مشهد الطامة الكبرى وما يصاحبها من جزاء على ما كان في الدنيا من قول وفعل.

ثم يعود السياق إلى المكذّبين بقيام الساعة وسؤالهم عن موعد ما برّد علمها إلى الله تعالى، ولكنها وشيكة الوقوع، وهي تأتي فجأة، وعلى المرء أن يستعد لها بالإيمان

والعمل الصالح، فإن متاع الدنيا لا يساوي غمسة واحدة في نار جهنم، والدنيا تمرّ سريعاً كأنها لحظة من ليل أو نهار، والعاقل من لا يُضَيِّع مستقبله الدائم بلحظات عابرة، لا يبقى لها أثر في النفس، بل تمضي وراءه وكأن شيئاً لم يكن!

وعلى هذا فيمكن تقسيم السورة إلى أربعة مقاطع:

المقطع الأول: من أول السورة إلى الآية الرابعة عشرة وهذا المقطع فيه قسم بطوائف من الملائكة على أن البعث حق، وأن القيامة تقوم على المكذبين بها المنكرين لها، فلا يسعهم إلا الاعتراف بها حين يروا أنفسهم في عرصات القيامة، بعد أن لفظتهم الأرض للعرض والحساب والجزاء.

المقطع الثاني: من الآية الخامسة عشرة إلى الآية السادسة والعشرين، وهذا المقطع يتناول جانباً من قصة موسى مع فرعون الذي ادّعى الربوبية والألوهية فأغرقه الله في اليمّ، وجعله عبرة لمن يتعظ.

المقطع الثالث: من الآية السابعة والعشرين إلى الآية الثالثة والثلاثين، وهو مقطع يتناول جانباً من آثار قدرة الله في الكون، يتمثل في خلق السماء والأرض والمياه والنبات والمرعى والجبال، وهي نعم متّع الله بها الإنسان والحيوان.

المقطع الرابع: من الآية الرابعة والثلاثين إلى نهاية السورة، وهو مقطع يتناول اليوم الآخر وما فيه من نعيم وشقاء، أعدهما الله تعالى لمن خاف مقام ربه، ولمن طغى وفضل دنياه على آخرته، وهذا يحصل عند قيام الساعة، ولا يعلم موعدها إلا رب العالمين، وعندما يراها الناس كأنهم لم يلبثوا في الدنيا إلا ساعة من نهار.

تَفْسِيرُ السُّورَةِ

انْقَسَمَ بِالْمَلَائِكَةِ فِي أَحْوَالِهَا الْمُخْتَلِفَةِ عَلَى أَنَّ الْبَعْثَ حَقٌّ

١ - ٥ ﴿وَالنَّازِعَاتِ غَرَقًا ۝١﴾ وَالنَّشِيطَاتِ نَشْطًا ۝٢﴾ وَالسَّيِّحَاتِ سَبْعًا ۝٣﴾ فَالسَّيِّغَاتِ سَبْعًا ۝٤﴾

فَالْمُدَبِّرَاتِ أَمْرًا ۝٥﴾

تعددت أقوال المفسرين في المراد بالنازعات وما بعدها، من الناشطات والسابحات والسابقات والمدبرات:

- ١- فقال بعضهم: المراد بها كلها: الملائكة وهو المختار.
 - ٢- وقال آخرون: هي النجوم تنتقل من مكان إلى مكان.
 - ٣- وقال غيرهم: المراد بالمدبرات الملائكة، وبالأربعة الباقية: النجوم.
 - ٤- أو أن المراد بالسابقات والمدبرات: الملائكة، وبالثلاثة الباقية: النجوم.
- وبكل من الأقوال الأربعة قال بعض السلف، وكلهم متفقون على أن المراد بالمدبرات: الملائكة.

والقول الأول الذي هو البعث هو المناسب لموضوع السورة، وهو يستغرق أنواع القسم الخمس ولا يفرق بينها، فقد أقسم الله تبارك وتعالى بخمسة طوائف من طوائف الملائكة:

الطائفة الأولى: الملائكة وهي تنزع أرواح الكفار عند خروجها من الجسد، نزاعاً شديداً بقوة وعنف، كما يُسلَخ عن الشاة جلدها، وكما يُنزع سيخ الحديد كثير الشُعَب، من الصوف المبتل، فتخرج روح الكافر من أقصى جسده، حتى تخرج من أنامله وأظفاره، فيبلغ النزع غايته في الشدة، حتى يكون الإنسان، كالغريق في الماء، وتستعصي روحه على الخروج، وتغرق الملائكة وتعاني في نزعها لروح الكافر، لِمَا ترى من سوء الخاتمة، حين يُعرض عليها مقعدها من النار.

كما قال تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَىٰ إِذِ يَتَوَقَّى الَّذِينَ كَفَرُوا الْمَلَائِكَةَ يَصْرِيحُونَ وَجُوهَهُمْ وَأَدْبَارَهُمْ وَذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ ٥٠﴾ ذَلِكَ بِمَا قَدَّمْتَ أَيْدِيكُمْ وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَمٍ لِّلْعَبِيدِ ﴿٥١﴾ [الأنفال: ٥٠ - ٥١].

٢- وقال سبحانه: ﴿فَكَيْفَ إِذَا تَوَفَّتْهُمُ الْمَلَائِكَةُ يَصْرِيحُونَ وَجُوهَهُمْ وَأَدْبَارَهُمْ﴾ [محمد: ٢٧].

٣- وقال أيضاً: ﴿وَلَوْ تَرَىٰ إِذِ الظَّالِمُونَ فِي غَمَرَاتِ الْمَوْتِ وَالْمَلَائِكَةُ بَاسِطُوا أَيْدِيهِمْ أَخْرِجُوا أَنفُسَكُمُ الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ بِمَا كُنتُمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ وَكُنتُمْ عَنْ آيَاتِهِ تَسْتَكْبِرُونَ﴾ [الأنعام: ٩٣].

والطائفة الثانية: طائفة من الملائكة تجذب أرواح المؤمنين عند الموت بنشاط وخفة ورفق وسهولة ويسر، فتقبضها كما يُنشط العقال من يد البعير، وكما تُسَلُّ الشعرة من العجين، وهذه الأرواح تنشط للخروج عند الموت من أجسادها، فتجذبها الملائكة بسرعة، لما ترى لها من الكرامة عند ربها، حين يُعرض عليها مقعدها في الجنة، وتُبَشِّرُ به، كما قال تعالى: ﴿يَأْتِيهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ ٢٧﴾ أَرْجِعِي إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً ﴿٢٨﴾ فَادْخُلِي فِي عِذِّي ﴿٢٩﴾ وَادْخُلِي جَنَّتِي ﴿٣٠﴾ [الفجر: ٢٧ - ٣٠]. وقيل: إن النشط يكون لأرواح الكفار والنزع يكون لأرواح المؤمنين، ولعل الأول هو الأصوب.

والطائفة الثالثة: طائفة من الملائكة تسبح في نزولها من السماء وصعودها إليها، كالذي يسبح في الماء، مسرعين في التنقل إلى تنفيذ أمر الله تعالى إسرعاً شديداً - كالفرس الجواد - وهي تسبح بحمد الله تعالى وتكبره وتقده.

الطائفة الرابعة: طائفة من الملائكة:

١- تسبق بأرواح المؤمنين إلى الجنة.

٢- وتسبق غيرها إلى المكان المقصود لتنفيذ أمر الله تعالى.

٣- وتسبق الشياطين بالوحي إلى الأنبياء، لئلا يسرقوه ويوصلوه إلى الكهان.

فهذه ثلاث صور من السبق.

والطائفة الخامسة: طائفة من الملائكة تُنفَّذُ أمر ربها فيما أُوكل إليها تدبيره من شؤون الكون: كالرياح، والأمطار، والأرزاق، والأعمار، وتنظيم أحوال الخلق، وتنفيذ قضاء الله

تعالى وقدره في العالم العلوي والعالم السفلي، من الأمطار والنبات والأقوات والأرزاق، والآجال والأعمال، والرياح والبحار والأجنة والحيوانات، والجنة والنار وما إلى ذلك.

أخرج سعيد بن منصور، وابن المنذر عن عليّ عليه السلام في قوله تعالى:

﴿وَالنَّازِعَاتِ﴾ الملائكة تنزع أرواح الكفار.

﴿وَالنَّاشِطَاتِ﴾ الملائكة تنشط أرواح الكفار ما بين الأظفار والجلد حتى تخرجها.

﴿وَالسَّيِّحاتِ﴾ الملائكة تسبح بأرواح المؤمنين بين السماء والأرض.

﴿فَالسَّيِّقاتِ﴾ الملائكة يسبق بعضها بعضاً بأرواح المؤمنين إلى الله تعالى.

﴿فَالْمُدَبِّرَاتِ﴾ الملائكة تدبر أمر العباد من السنة إلى السنة.

قال عبد الرحمن بن سابط: يدبر الأمر في الدنيا أربعة أملاك:

جبريل وميكائيل وإسرافيل وملك الموت.

فأما جبريل فوكل بالرياح والجنود. وأما ميكائيل فوكل بالقطر والنبات.

وأما إسرافيل فينزل عليهم بالأمر من الله تعالى.

وأما ملك الموت فقد وكل بقبض الأنفس^(١).

وقد أقسم الله تعالى بالملائكة لشرفهم وعلو منزلتهم عند الله تعالى، وله جل شأنه أن

يقسم بما شاء من مخلوقاته، وليس للعبد أن يقسم إلا بالله تعالى.

وقد غُطف القسم الرابع والخامس بالفاء، للإعلام بأن هاتين الصفتين متفرعتين عما

قبلهما، وليستا مستقلتين كالتي قبلهما، وكلها صفات لموصوف واحد، تمشياً مع ما

سبق بيانه.

وجواب الأقسام الخمسة محذوف تقديره: لتبعثن ولتحاسبن، ولتجزؤن بالإحسان

إحساناً وبالسوء سوءاً.

(١) أخرجه البيهقي في شعب الإيمان (١٥٨)، وأخرجه عبد بن حميد عن الحسن.

حَالُ النَّاسِ وَانْكَوْنِ عِنْدَ النَّفْخِ فِي الصُّورِ

٦-٩- ﴿يَوْمَ تَرْجُفُ الرَّاجِفَةُ ﴿٦﴾ تَتَّبِعُهَا الرَّاَدَةُ ﴿٧﴾ قُلُوبٌ يَوْمَئِذٍ وَاجِفَةٌ ﴿٨﴾ أَبْصَرُهَا خَشِيعَةٌ ﴿٩﴾﴾

وقد دل على جواب القسم دلالة صريحة، قوله تعالى بعد أنواع القسم الخمس: ﴿يَوْمَ تَرْجُفُ الرَّاجِفَةُ﴾ فتضطرب الأرض وتزلزل، ويصعق من في السموات والأرض إلا من شاء الله، أي أن هذا اليوم الذي يموت فيه العباد، يجيء عند نهاية أجل هذا العالم، حيث يحدث الزلزال الكبير الذي يفقد كل شيء توازنه، وذلك عند النفخة الأولى التي يموت فيها كل حي إلا ما شاء الله:

١ - ومن نظائر هذه الآية قوله تعالى: ﴿إِذَا رُجَّتِ الْأَرْضُ رَجًا﴾ [الواقعة: ٤].

٢ - وقوله: ﴿يَوْمَ تَرْجُفُ الْأَرْضُ وَالْجِبَالُ﴾ [المزمل: ١٤].

٣ - وقوله: ﴿إِذَا زُلْزِلَتِ الْأَرْضُ زِلْزَالَهَا ﴿١﴾ وَأُخْرِجَتِ الْأَرْضُ أَثْقَالَهَا﴾ [الزلزلة: ١ - ٢].

٤ - وقوله: ﴿يَتَأْتِيهَا النَّاسُ أَتَقُورًا رَيْبَ كُفٍّ إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ﴾ [الحج: ١].

وهذه الرجفة للأرض تحدث من قوة صوت النفخ في الصور وشدته، فترتج الأرض وتهتز وتضطرب، ويموت الخلق كلهم إلا من شاء الله.

وبعد أربعين عاماً، تتبع هذه النفخة، نفخة أخرى لإحياء الموتى من قبورهم، وهي الرادفة التي تتبع الراجفة، وتأتي بعدها.

قال ابن عباس رضي الله عنهما: الراجفة والرادفة، هما النفختان: الأولى والثانية، أما الأولى: فتميت كل شيء بإذن الله تعالى، وأما الثانية: فتحيي كل شيء بإذن الله تعالى^(١).

قال تعالى: ﴿وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَعِقَ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَنْ شَاءَ اللَّهُ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنْظُرُونَ﴾ [الزمر: ٦٨].

وفي حديث الطفيل بن كعب عن أبيه أن رسول الله ﷺ كان إذا ذهب ثلثا الليل قام فقال: «يا أيها الناس، اذكروا الله، جاءت الراجفة تتبعها الرادفة، جاء الموت بما فيه» قال

(١) تفسير القرطبي (١٩/١٩٣).

أُبيّ: قلت: يا رسول الله، إنني أكثر الصلاة عليك، فكم أجعل لك من صلاتي؟ فقال: «ما شئت» قال: قلت: الربع؟ قال: «ما شئت، فإن زدت فهو خير لك» قلت: النصف؟ قال: «ما شئت، فإن زدت فهو خير لك» قال: قلت: فالثلثين؟ قال: «ما شئت، فإن زدت فهو خير لك» قلت: أجعل لك صلاتي كلها، قال: «إذا تكفى همك، ويغفر لك ذنبك»^(١).

وعندما ينفخ في الصور النفخة الثانية، تترادف المزعجات، من هول ما ترى وتسمع، قد ملّك الخوف قلوبهم، وأذهل الفزع أفئدتهم، وغلب عليهم الأسف، واستولت الحسرة على نفوسهم، فإذا قلوب من كانوا ينكرون البعث في الدنيا مضطربة من شدة الخوف، وأبصارهم منكسرة ذليلة، لما أيقنوا بسوء المصير، وعلموا أنهم كانوا في الدنيا على ضلال، وعانوا أهوال القيامة، ورأوا الجحيم قد برزت للغاوين، لقد كان عملهم في الدنيا في غير موضعه.

وقد وصف الله هذه الوجوه بقوله: ﴿وُجُوهُ يَوْمٍ ذُخْرِهِمْ يَنْصَرِفُ ۚ أُولَٰئِكَ هُمْ الْكَافِرُ الْفَجَرُ ۚ﴾ [الغاشية: ٢ - ٣]. وخشوع البصر: ذلته وانكساره وما يعلوه من السواد والغبرة.

قال تعالى: ﴿وُجُوهُ عَلَيْهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ ۚ تَرْهَقُهَا قَتَرٌ ۚ أُولَٰئِكَ هُمُ الْكَافِرُ الْفَجَرُ ۚ﴾ [عبس: ٤٠ - ٤٢]. وقال سبحانه: ﴿وُجُوهُ يَوْمٍ بِأَسْرَةٍ ۚ تَنْظُرُونَ أَنْ يُفْعَلَ بِهَا فَاقِرَةٌ ۚ﴾ [القيامة: ٢٤ - ٢٥] هذا هو حال الكفار. أما قلوب المؤمنين فإنها تكون مطمئنة اطمئناناً متفاوت بحسب درجة التقوى وقوة الإيمان. وهم بوجه عام ﴿لَا يَحْزَنُهُمُ الْفَزَعُ الْأَكْبَرُ وَتَتَلَقَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ هَذَا يَوْمُكُمْ الَّذِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ﴾ [الأنبياء: ١٠٣].

كما قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَمُوا فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [الأحقاف: ١٣].

(١) قال الترمذي في السنن (٢٤٥٧)، حديث حسن صحيح، وأخرجه البيهقي في الشعب (١٠٥٧٩، ٥١٧)، وقال الحاكم في المستدرک (٥١٣/٢)، صحيح الإسناد ولم يخرجاه، ووافقه الذهبي، وحسنه محقق المختارة للضياء المقدسي (١١٨٥، ١١٨٤)، وحسنه الألباني في السلسلة الصحيحة برقم (٩٥٤)، وفي صحيح سنن الترمذي (١٩٩٩).

أَقْوَالُ الْمَكْذِبِينَ بِالْبَعْثِ وَالرَّدِّ عَلَيْهِمْ

١١، ١٠ - ﴿يَقُولُونَ أَءَنَّا لَمَرْدُودُونَ فِي الْحَافِرَةِ ﴿١٠﴾ أَإِذَا كُنَّا عِظْمًا نَّخِرَةً ﴿١١﴾﴾

لقد كان المكذبون بالبعث وهم في الدنيا إذا قيل لهم: اتقوا ما بين أيديكم وما خلفكم، واعملوا لما بعد الموت، يقولون على وجه التهكم والاستبعاد: أنرد إلى الحياة مرة أخرى، بعد أن مئنا وصننا في قبورنا عظاماً بالية متعفنة؟

أنعود أحياء بعد الموت، كما كنا أول مرة؟ فالحافرة هي الدنيا أو الأرض، أو الحالة التي كانوا عليها قبل الموت، يقال: رجع فلان في حافرتة، أي رجع من حيث جاء. والحافرة اسم من أسماء النار، ومن أسمائها أيضاً:

الجحيم، وسقر، وجهنم، والهواية، ولظى، والحطمة.

والمعنى: أراجعون نحن إلى الطريق التي جئنا منها؟ أعائدون إلى الحياة مرة أخرى؟ وكان من أقوال قريش: لئن حيينا بعد الموت لنخسرن فنزل القرآن^(٤) يحكي قولهم:

١٢-١٤ - ﴿قَالُوا نِلْكَ إِذَا كَرَّةٌ خَاسِرَةٌ ﴿١٢﴾ فَإِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ ﴿١٣﴾ فَإِذَا هُمْ بِالسَّاهِرَةِ ﴿١٤﴾﴾

أي لئن حدث هذا وعُدنا إلى الحياة مرة أخرى، فهي عودة خاسرة بكل المقاييس، إنها رجعة يتحقق فيها خسران كل شيء، فقد كذبنا محمداً، وتبين صدق ما أنذرنا به، فالمصير إلى النار، والكرّة هي العودة والرجعة فقد استبعدوا أن يبعثهم الله ويعيدهم بعد ما كانوا عظاماً نخرة، جهلاً منهم بقدره الله تعالى وتجرؤاً عليه.

(١) قرأ نافع وابن عامر والكسائي ويعقوب بالاستفهام في الأول والإخبار في الثاني وقرأ أبو جعفر بهمزة واحدة في (إنا) على الإخبار، وهمزتين في ﴿إِذَا﴾ على الاستفهام وقرأ الباقون وهم ابن كثير وأبو عمرو وعاصم وحمزة وخلف بالاستفهام في الأول والإخبار في الثاني، وكل على أصله في التسهيل والتحقيق والإدخال وعدمه حال الاستفهام.

(٢) قرأ شعبة وحمزة والكسائي بخلف عن الدوري، ورويس، وخلف، بآلف بعد النون من (ناخرة) والباقون بحذفها، وهما لفتان بمعنى بالية.

(٤) أخرجه سعيد بن منصور عن محمد بن كعب وعبد بن حميد وابن المنذر كما في أسباب النزول للسيوطي (ص ٣٢٦)، وتفسير ابن كثير للآية، والدر (٢٢٥/١٥).

وهنا يأتي الرد الحاسم من رب العزة والجلال، فليس الأمر كما زعموا من أنه لا بعث ولا جزاء، بل إن العودة إلى الحياة لا تكلف شيئاً، فهي في غاية السهولة واليسر، فما هي إلا نفخة واحدة من الملك الموكل بالنفخ، يصيح بها وأنتم في عالم البرزخ، فإذا الأرواح تحلّ في الأجساد التي كانت فيها في الدنيا، وإذا هم أحياء بعد أن كانوا أمواتاً، وعلى وجه الأرض بعد أن كانوا في بطنها، فيحضرون بسرعة إلى ساحة الحشر للعرض والحساب.

كما قال تعالى: ﴿يَوْمَ يَسْمَعُونَ الصَّيْحَةَ بِالْحَقِّ ذَلِكَ يَوْمُ الْخُرُوجِ﴾ (١٢) ﴿إِنَّا نَحْنُ نُحْيِي وَنُمِيتُ وَإِلَيْنَا الْمَصِيرُ﴾ (١٣) ﴿يَوْمَ تَشَقُّقُ الْأَرْضُ عَنْهُمْ سِرَاعًا ذَلِكَ حَشْرٌ عَلَيْنَا يَسِيرٌ﴾ [ق: ٤٢ - ٤٤].
وقال أيضاً: ﴿يَوْمَ يُخْرِجُونَ مِنَ الْأَجْدَاثِ سِرَاعًا كَانَتْهُمْ إِلَى نُفُسٍ يُوَفِّضُونَ﴾ (١٤) ﴿خَشَعَةً أَبْصَرُهُمْ تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ ذَلِكَ الْيَوْمَ الَّذِي كَانُوا يُوعَدُونَ﴾ [المعارج: ٤٣ - ٤٤].

فالزجرة هي النفخة الثانية، وقد وُصِفَتْ بذلك لأن ذِكْرَهَا جاء في محل الاعتبار والاتعاظ، والساهرة هي القيامة، كما أن الراجفة هي النفخة الأولى، والرادفة هي النفخة الثانية التي يكون عندها البعث.

قال تعالى: ﴿وَمَا أَمْرُ السَّاعَةِ إِلَّا كَلَمْحِ الْبَصَرِ أَوْ هُوَ أَقْرَبُ﴾ [النحل: ٧٧].
وقال سبحانه: ﴿يَوْمَ يَدْعُوكُمْ فَتَسْتَجِيبُونَ بِحَمْدِهِ وَتَظُنُّونَ إِن لَّبِئْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [الإسراء: ٥٢].
وقال أيضاً: ﴿يَوْمَ تَبْدُلُ الْأَرْضُ غَيْرَ الْأَرْضِ وَالسَّمَوَاتُ وَبَرَزُوا لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ﴾ [إبراهيم: ٤٨].
وعند قيام الساعة (الساهرة) يكون الخلائق كلهم على وجه الأرض قياماً ينظرون، فيجمعهم الله تعالى، ويقضي بينهم بحكمه العادل، ويجازيهم على ما قدمت أيديهم.

نَمُودَجٌ مِنْ مَصِيرِ الطُّغَاةِ

١٦، ١٥ - ﴿هَلْ أَنْتَ حَدِيثُ مُوسَى﴾ (١٥) ﴿إِذْ نَادَاهُ رَبُّهُ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى﴾ (١٦) ﴿

(١) وقف يعقوب على (بالوادي) بياء بعد الدال وحذفها وصلأ، والباقون بحذفها في الحاليين

(٢) قرأ ابن عامر وعاصم وحمزة والكسائي وخلف بتتوين واو ﴿طُوًى﴾ وصلأ على أنه اسم مكان معروف وقرأ الباقر بدون تنوين وصلأ ووقفاً ممنوعاً من الصرف للعلمية والتأنيث أو العلمية والعجمة.

ويتوسط الحديث عن القيامة، ضرب المثل بأقوى كفار الأرض «فرعون» لبيان كيف كانت عاقبته، حين كذب نبي الله موسى عليه السلام، وأنكر البعث والنشور، حيث انتقم الله منه في الدنيا والآخرة، وكان بهذا عبرة لمن يعتبر.

وبعد هذه القصة المختصرة تعود آيات السورة للحديث عن القيامة مرة أخرى، وفي هذا وعيد وتهديد لكل منكر للبعث إلى يوم القيامة.

وفيه تثبيت وتسلية للنبي ﷺ ليمضي في دعوته وهو موقن من نصر الله له، وانتقامه ممن كذب الله ورسوله، وأنكر لقاء يوم يقوم الناس لرب العالمين.

وتبدأ هذه الجولة بتشويق السامع - عن طريق الاستفهام - إلى ما يُلقى عليه: هل أتاك - يا رسولنا - ووصل إلى علمك خبر موسى حين أرسله الله إلى فرعون وقومه؟ إن كان لم يصل إلى علمك خبره، فهذا جانب من خبره نقصه عليك، فتنبه له، لتزداد ثباتاً على ثباتك، وثقة على ثقتك في نصر الله تعالى لك.

ثم بين سبحانه وتعالى هذا الخبر، وموضوعه ومكانه فقال: ﴿إِذْ نَادَاهُ رَبُّهُ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى﴾ أي اذكر - يا رسولنا - حين ناجى موسى ربه بالوادي المبارك المطهر، المسمى «طوى» في أسفل جبل طور سيناء، حيث كلمه ربه دون واسطة ملك، قائلاً ﴿يَمُوسَىٰ ۖ إِنَّكَ أَنَا رَبُّكَ فَخَلَعْ نَعْلَيْكَ إِنَّكَ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى ۚ﴾ ﴿١٣﴾ ﴿وَأَنَا اخْتَرْتُكَ فَاسْتَمِعْ لِمَا يُوحَىٰ﴾ [طه: ١١ - ١٣] فأوحى الله تعالى إليه بالرسالة، واختصه من بين قومه بالوحي واجتباه، وفي هذا امتنان من الله تعالى عليه.

وكان ذلك حين خرج موسى بأهله من مدين متوجهاً إلى مصر، وقد ضل الطريق في ليلة شاتية مظلمة، فأبصر في جانب جبل الطور الغربي الأيمن، في صحراء سيناء، ناراً حيثند ﴿قَالَ لِأَهْلِهِ امْكُثُوا إِنِّي آنَسْتُ نَارًا لَّعَلِّي آتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ جَذْوَةٍ مِّنَ النَّارِ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ﴾ ﴿١٤﴾ فَلَمَّا أَتَاهَا نُودِيَ مِنْ شَاطِئِ الْوَادِ الْأَيْمَنِ فِي الْبُقْعَةِ الْمُبَارَكَةِ مِنَ الشَّجَرَةِ أَنْ يَمُوسَىٰ ۖ إِنَّكَ أَنَا اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴿١٥﴾ [القصص: ٢٩ - ٣٠].

وفي هذا المكان أطلع الله موسى على معجزة العصا التي يحملها في يده ليهش بها

على غنمه، إلى جوار معجزة اليد التي يضعها تحت إبطه ويخرجها، فإذا هي بيضاء يختلف لونها عن لون جسده، ثم يضعها تحت إبطه مرة أخرى فتعود كما كانت.

أيد الله موسى بهاتين المعجزتين ثم قال له:

١٧-١٩ - ﴿أَذْهَبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَىٰ ﴿١٧﴾ فَقُلْ هَلْ لَكَ إِلَٰهٌ إِلَّا أَن تَزُكَّ ﴿١٨﴾ وَأَهْدِكَ إِلَىٰ رَبِّكَ فَتَخْشَىٰ ﴿١٩﴾﴾

اذهب إلى فرعون رسولاً مؤيداً بالمعجزات فاذعه إلى التوحيد، وانته عن الشرك وخلّص بني إسرائيل من طغيانه وجبروته، فقد أفرط في العصيان وجاوز الحد في الظلم والغرور، ولتكن دعوتك له بقول طيب وكلام لطيف، لعله يتعظ ويقلع عما هو فيه.

ولفظ «فرعون» معرّب عن اللغة العبرانية، ولم يطلقه القرآن إلا على مَلِكٍ مصر الذي أرسل إليه موسى وهو «منفتح بن رمسيس الثاني» أما حاكم مصر الذي كان في زمن يوسف عليه السلام، فقد أطلق عليه القرآن لقب «الملك» ولم يصرح بأنه فرعون.

ولم يوجد على وجه الأرض في زمن موسى عليه السلام ولا بعده، مَنْ هو أشد طغياناً من فرعون، حيث ادعى الربوبية والألوهية معاً فقال: ﴿مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَٰهِ غَيْرِي﴾ [القصص: ٣٨]، وقال: ﴿أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَىٰ﴾ [النازعات: ٢٤].

كما أنه لا يوجد على وجه الأرض آنئذ من هو أكرم على الله تعالى من نبي الله موسى وأخيه هارون عليهما السلام.

ومع ذلك فإن الله تعالى حين أرسل موسى إلى فرعون، أمره أن يحسن عرض الدعوة عليه بأسلوب حكيم هادئ لين، ليس فيه شدة، ولا تعالٍ ولا زجر، ولا تأنيب، فأمره أن يقول له: ﴿هَلْ لَكَ إِلَٰهٌ إِلَّا أَن تَزُكَّ﴾ هل لك رغبة في أن أرشدك إلى الطريق الذي يوصلك إلى رضى ربك، ويزكك ويطهرك من النقائص، ومن كل ما يغضب الله تعالى من الذنوب والآثام؟ هل لك في خصلة حميدة، ومخمدة جميلة، يتنافس فيها أهل الخير والصالح؟ وهي أن تزكى نفسك من الشرك وتطهرها من الكفر إلى الإيمان والعمل

(١) قرأ نافع وابن كثير وأبوجعفر ويعقوب بتشديد الزاي من ﴿تَزُكَّ﴾ والباقون بالتخفيف على حذف إحدى التائين.

الصالح؟ فقال تعالى لموسى وهارون: ﴿أَذْهَبَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَىٰ﴾ (١٣) فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ ﴿ [طه: ٤٣ - ٤٤].

وهذا المنهج تحقيق لقول الله تعالى: ﴿ادْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَحَدِّثْ لَهُم بِآيَاتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ [النحل: ١٢٥] وقوله بالنسبة لليهود والنصارى: ﴿وَلَا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ﴾ [العنكبوت: ٤٦].

قال موسى لفرعون: وهل تودّ أن أدلك على معرفة الله تعالى كي تُطيعه وتُتقيه، فيؤدي ذلك بك إلى الخشية منه سبحانه، فإن الخوف من الله تعالى ملاك كل أمر، ورأس كل خير، كما في حديث أبي هريرة وأبي بن كعب رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال: «من خاف أدلج، ومن أدلج بلغ المنزل، ألا إن سلعة الله غالية، ألا إن سلعة الله الجنة، جاءت الراجفة تتبعها الرادفة، جاء الموت بما فيه»^(١).

وفي هذا العرض، حثّ لفرعون على التخلص من العقيدة الضالة، وقبول ما يرشده إليه موسى، حتى يعالج نفسه ويروّضها على الهداية والتزكية، وفي هذا من الرفق والتلطف ما يستميله ويستنزله من عتوه.

وكان فرعون يعلم من الآلهة الباطلة التي يعبدها أن له ربّاً، فلم يُرد القرآن أن يصطدم معه في أول لقاء مع نبي الله موسى عليه السلام، فأتى بلفظ ﴿وَاهْدِيكَ إِلَىٰ رَبِّكَ﴾ أي: أدلك عليه، وأبين لك مواقع رضاه من سخطه، ولم يقل أهديك إلى الله حتى لا ينافي عقيدته، وتستطير نفسه غضباً ونفوراً، فيصغي إليه بسمعه، فإذا استمع إليه دخل الإيمان قلبه تدرّجاً. وإذا علم الصراط المستقيم خشي الله تعالى وخاف عقابه. وبدأ موسى بدعوة فرعون، لأنه رأس الدولة ودعوته دعوة لقومه. قال تعالى:

(١) أخرجه الحاكم عن أبي بهذا اللفظ (٣٠٨/٤)، وأخرجه عن أبي هريرة إلى (غاليه) (٣٠٧/٤)، والترمذي وحسنه (٢٤٥٠)، وصححه الألباني في صحيح سنن الترمذي (١٩٩٣)، وفي السلسلة الصحيحة (٩٥٤)، (٢٣٣٥)، ومشكاة المصابيح (٥٣٤٨) التحقيق الثاني.

٢٠-٢٢ ﴿فَآرِئُهُ الْآيَةَ الْكُبْرَىٰ ۚ ﴿٢٠﴾ فَكَذَّبَ وَعَصَىٰ ﴿٢١﴾ ثُمَّ أَذْبَرَ يَسْعَىٰ ﴿٢٢﴾﴾

ذهب موسى إلى فرعون ودعاه إلى ربه، ولمّا لم يستجب لدعوته وكذّبه، عرض عليه أن يُطلعه على معجزة تدل على صدقه، لعله يوقن، قال موسى لفرعون: ﴿أَوَلَوْ جِئْتُكَ بِشَيْءٍ مُّبِينٍ ﴿٢٠﴾ قَالَ فَأْتِ بِهِ ۚ إِنَّ كُنْتَ مِنَ الصّٰدِقِينَ ﴿٢١﴾﴾ فَأَلْقَىٰ عَصَاهُ فَإِنَّا هِيَ تَدَبَّءُ تُبَيِّنُ ﴿٢٢﴾ وَنَزَعَ يَدَهُ فَإِذَا هِيَ بِيَضَاءٍ لِلنَّظِيرِينَ ﴿٢٣﴾﴾ [الشعراء: ٣٠ - ٣٣].

أطلع موسى فرعون على الآية الكبرى التي أيده الله بها، وهي معجزة العصا واليد، فألقى أمامه عصاه، فإذا هي حية تسعى، وأخرج يده من جيبه، فإذا هي بيضاء من غير برص. ولكن فرعون لم يتمهل حتى يتأمل في معجزة موسى عليه السلام، بل حمله عناده وشدة مكابرتة على التكذيب والعناد من أول لحظة، فكذب موسى وعصى أمر الله عصياناً كبيراً، وأبى أن يُطلق سراح بني إسرائيل من الاستعباد والتسخير في خدمة بلاده. وبالإضافة إلى ذلك فقد تولى فرعون عن موسى معرضاً عن الإيمان به والاستجابة له، مجتهداً في إبطال دعوته، ساعياً في ذلك سعيّاً حثيثاً. قال تعالى:

٢٣-٢٥ ﴿فَحَشَرَ فَنَادَىٰ ﴿٢٣﴾ فَقَالَ أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَىٰ ﴿٢٤﴾ فَأَخَذَهُ اللَّهُ نَكَالَ الْآخِرَةِ وَالْأُولَىٰ ﴿٢٥﴾﴾

استمع فرعون إلى دعوة التوحيد، ثم خرج غاضباً مسرعاً يخشى شيوع دعوة موسى بين قومه، فجمع أهل مملكته وجنوده وأتباعه، ووقف في الناس خطيباً، ونادى بصوت جهوري قائلاً لهم: ﴿أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَىٰ﴾ ولا رب غيري، وليس لكم إله سواي، فلا تستمعوا لما يقوله موسى، فأذعنوا له وأقروا بباطله وأطاعوه حين استخفهم.

قال ابن عباس ومجاهد: وهذه الكلمة قالها فرعون بعد قوله: ﴿مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَهِ غَيْرِي﴾ [القصص: ٣٨] بأربعين سنة^(١).

ولمّا جمع لفرعون جنوده وأتباعه قالوا له: ﴿أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَأَبْنَيْتَ فِي الدِّينِ حَشِيرِينَ ﴿٢٦﴾﴾ يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَحَابٍ عَلِيمٍ ﴿٢٧﴾﴾ [الشعراء: ٣٦ - ٣٧] وكان ما كان من أمر إيمان السحرة،

(١) تفسير ابن كثير (٨/٣١٥).

وإصرار فرعون على طغيانه وجبروته بعد جمع السحرة لمعارضة موسى.

فكانت النتيجة أنه لم يُقْلِتْ هو وجنده من عقاب الله تعالى: ﴿فَغَشِيَهُمْ مِنَ اللَّيْلِ مَا غَشِيَهُمْ﴾

[طه: ٧٨].

وكما قال تعالى: ﴿فَأَخَذَتْهُ وَجُودُهُ فَبَذَلَتْهُمْ فِي اللَّيْلِ وَهُوَ مُلِيمٌ﴾ [الذاريات: ٤٠] وهذا فضلاً عما ينتظره في الآخرة من سوء العذاب، حيث انتقم الله منه في الدنيا بالغرق، مع بقاء جُسمانه، عبرة على مر الزمن، وهو في مرحلة البرزخ يُعرض على النار صباحاً ومساءً، وسوف يعذب في الآخرة بأشد أنواع الإحراق في النار. قال تعالى: ﴿وَحَاقَ بِعَالِ فِرْعَوْنَ سُوءُ الْعَذَابِ ٤٥﴾ ^{٤٥} النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ ﴿٤٦﴾ ^{٤٦} غافر: ٤٥٤٦ وهذا معنى ﴿فَأَخَذَهُ اللَّهُ نَكَالَ الْآخِرَةِ وَالْأُولَى﴾ بأن جعل عقوبته في الدنيا دليلاً على عقوبته في الآخرة.

ولأن فرعون من أشد المتمردين على الله تعالى، فقد جعله الله عبرة لأمثاله في الدنيا.

قال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَاهُمْ آيَةً يَدْعُونَ إِلَى النَّكَارِ وَيَوْمَ الْقِيَمَةِ لَا يُنصَرُونَ ٤١﴾ ^{٤١} وَأَتَّبَعْنَاهُمْ فِي هَذِهِ الدُّنْيَا لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيَمَةِ هُمْ مِنَ الْمَقْبُوحِينَ ﴿٤٢﴾ [القصص: ٤١ - ٤٢].

وفي يوم القيامة يقود جماعته إلى النار كما كان قائداً لهم في الدنيا ﴿يَقْدُمُ قَوْمَهُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ فَأَوْرَدَهُمُ النَّارَ وَيُئْسَ أَلْوَرْدُ الْمَوْرُودُ﴾ [هود: ٩٨]. قال تعالى:

٢٦- ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لِمَن يَخْشَى﴾ ^{٢٦}

ثم ختم الله تعالى القصة: ببيان أن ما حدث لفرعون وجنده عبرة وعظة لكل من يخشى الله تعالى ويتعظ، فينزجر ويرتدع، وهو الذي ينتفع بالآيات والعبر، فإذا علم ما حدث لفرعون، عرف أن هذا هو نهاية كل من طغى وتجبر، وبارز الله ورسوله، أما من لم يخش الله تعالى فإنه لن يؤمن ولو جاءت كل آية، وفي هذا تهديد ووعد لكل من كذب الله ورسوله.

وكم في الأرض من الفراعنة؟ وأساس الفرعنة بطر الحق وغمط سورة النازعات: ٢٧-٢٨

خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَعْظَمُ مِنْ بَعَثِ النَّاسِ بَعْدَ مَوْتِهِمْ

٢٧، ٢٨ - ﴿أَنْتُمْ^(١) أَشَدُّ خَلْقًا أَوْ السَّمَاءُ بَنَاهَا^(٢٧) رَفَعَ سَمَكَهَا فَسَوَّيْنَاهَا^(٢٨)﴾

وبعد ذكر قصة موسى مع فرعون ، عادت آيات السورة إلى تهديد كل من أنكر البعث والنشور، إذ كيف ينكرون البعث بعد الموت، على صغرهم وضعفهم، بالنسبة إلى خلق السموات والأرض، والليل والنهار، والمياه والجبال، وهي مخلوقات أكبر وأعظم من خلق الإنسان كما قال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَمْ يَكُنْ لِيَخْلُقْهُنَّ يَقْدِرُ عَلَى أَنْ يُخْزِيَ الْمَوْتَى بَلَى إِنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [الأحقاف: ٣٣].

وقال سبحانه: ﴿أَوَلَيْسَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ يَقْدِرُ عَلَى أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ بَلَى وَهُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ﴾ [يس: ٨١].

فهل بعثكم بعد الموت - أيها الناس - أعظم وأشد في تقديركم من خلق السموات، مع عظم أحوالها؟ فكيف تُنكرون البعث، ولا تُنكرون خلق السموات، وهو أعظم؟ فإذا كان الله تعالى قد قدر على ما هو أعظم من البعث، فقد رتبته على البعث من باب أولى ﴿لَخَلْقُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [غافر: ٥٧].

وإفراد السماء في الآية، يمكن أن يراد به السماء الدنيا، الظاهرة للناس.

والمراد بالسماء: الكرة الفضائية المحيطة بالأرض، ويبدو فيها ضوء النهار وظلمة الليل. وقد أتقن الله تعالى خلق السماء، فليس فيها صدوع ولا شقوق، ورفعها فوقكم كالبناء بلا عمد، وجعلها سقفاً للأرض، وأعلى هذا السقف في الهواء ، فقد ﴿رَفَعَ سَمَكَهَا﴾ أي أعلى جرمها وسقفها في الفضاء ﴿فَسَوَّيْنَاهَا﴾ أي جعلها مستوية الأرجاء، خالية من الثقوب متقنة بإحكام يحير العقول ويأخذ بالألباب ﴿مَا تَرَى فِي خَلْقِ الرَّحْمَنِ مِنْ تَفَوتٍ﴾ [الملك: ٣] وجعلها مُزدانة بالكواكب للناظرين في ظلم الليل ﴿وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا وَزَيَّنَّاهَا لِلنَّظِيرِينَ﴾ [الحجر: ١٦] . قال تعالى :

(١) سهل الهمزة الثانية مع الإدخال في (ءأنتم) قالون وأبوعمر وأبوجعفر، وسهلها بدون إدخال الأصبهاني وابن كثير ورويس، وللأزرق التسهيل مع عدم الإدخال وإبدالها حرف مد. ولهشام التسهيل مع الإدخال، والتحقيق مع الإدخال وعدمه.

٢٩- ﴿وَأَغْطَشَ لَيْلَهَا وَأَخْرَجَ ضُحَاهَا﴾ ﴿٢٩﴾

ولما كانت الأرض هي التي يبدو فيها ضوء النهار وظلمة الليل، فقد أضاف سبحانه الليل والنهار إلى السماء، لأنهما يجريان بسبب غروب الشمس وشروقها، والشمس في السماء، ولذا قال تعالى ﴿وَأَغْطَشَ﴾ أي أظلم ﴿لَيْلَهَا﴾ أي ليل السماء، فجعل الليل مظلماً عند غروب الشمس فعمت الظلمة أرجاء الدنيا ﴿وَأَخْرَجَ﴾ أي أظهر وأبرز ﴿ضُحَاهَا﴾ أي أن النهار يبرز بإشراقه بعد احمرار شعاع الشمس، حيث تتشر أشعتها من جهة المشرق، فتقع على وجه الأرض، ثم ترتفع شيئاً فشيئاً، إلى أن تكون في كبد السماء، ثم يتقلص شعاعها شيئاً فشيئاً إلى أن يصير ليلاً مظلماً محيطاً بجزء من الكرة الأرضية.

دَحَوُ الْأَرْضِ وَتَسْخِيرُهَا لِنَفْعِ الْعِبَادِ وَالْبِلَادِ

٣٠، ٣١- ﴿وَالْأَرْضَ بَعْدَ ذَلِكَ دَحَاهَا﴾ ﴿٣٠﴾ أَخْرَجَ مِنْهَا مَاءَهَا وَمَرْعَاهَا ﴿٣١﴾

وبعد أن ذكر سبحانه خلق السماء والأرض، والليل والنهار، في مقام الاستدلال على وقوع البعث بعد الموت، ذكر سبحانه دحى الأرض بعد خلق السماء، أمّا خلق الأرض نفسها، فقد كان قبل خلق السماء كما في قوله تعالى: ﴿قُلْ أَيْنَكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ﴾ [فصلت: ٩] إلى أن قال: ﴿ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ﴾ [فصلت: ١١]. وقال سبحانه: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ فَسَوَّاهُنَّ سَبْعَ سَمَوَاتٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٩].

قال رجل لابن عباس: آيتان في كتاب الله، تُخالف إحداهما الأخرى؟ فقال: إنما أتيت من قبل رأيك، اقرأ. قال ﴿قُلْ أَيْنَكُمْ لَتَكْفُرُونَ﴾ حتى بلغ ﴿ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ﴾ [فصلت: ١١]. وقوله: ﴿وَالْأَرْضَ بَعْدَ ذَلِكَ دَحَاهَا﴾ [النازعات: ٣٠] قال ابن عباس: خلق الله الأرض قبل أن يخلق السماء، ثم خلق السماء، ثم دحى الأرض بعدما خلق السماء^(١).

(١) أخرجه عبد بن حميد وابن أبي حاتم عن ابن عباس كما في الدر المنثور (٢٣٣/١٥).

فخلق الأرض متقدّم على خلق السماء، ودُخِيَ الأرض متأخر عن خلق السماء، وتم خلق الأرض في يومين، وتقدير أوقاتهما في يومين، ثم خلق الله السموات في يومين ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ﴾ [الأعراف: ٥٤].

كروية الأرض:

وقد وُصفت الأرض في هذه السورة بأن الله تعالى دحاها.

وجاء في آية أخرى أنه طحاها فقال ﴿وَالْأَرْضَ وَمَا طَحَّهَا﴾ [الشمس: ٦] وذكر سبحانه في آية ثالثة أنه بسطها فقال: ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ ذُلُولًا فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِن رِّزْقِهِ﴾ [الملك: ١٥].

وقال جال شأنه: ﴿وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ بِسَاطًا لِتَسْلُكُوا مِنْهَا سُبُلًا فِجَاجًا﴾ [نوح: ١٩ - ٢٠] وجاء في آية رابعة أنها مسطحة فقال تعالى: ﴿وَالِی الْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ﴾ [الغاشية: ٢٠].

والمعنى: أنه سبحانه مهّد الأرض للتنقل والسكنى والاستقرار، والسعي فيها للمعيشة، وذلك ببسط قشرتها وسطحها. والطخو بمعنى الدحو، وليس في كتب اللغة ما يدل على أن الدحو بمعنى التكوير، والدحية هي مبيض النعام، وسمي بذلك، لأنها تذخوه بيدها لتبيض فيه، إذ لا عَشَّ لها، وليس معناها البيضة نفسها.

وقد ثبت في الكتاب والسنة أن الأفلاك مستديرة كما قال: ﴿يُكْوِّرُ الْقِلْعَ عَلَى النَّهَارِ وَيُكْوِّرُ النَّهَارَ عَلَى الْقِلْعِ﴾ [الزمر: ٥] والتكوير هو التدوير، ومنه تكوير العمامة أي لفها.

وقال أحمد بن جعفر المنادي من أصحاب الإمام أحمد: لا خلاف بين العلماء في أن السماء على مثال الكرة، وأنها تدور بجميع ما فيها من الكواكب، كدورة الكرة على قُطْبَيْنِ ثابتين غير متحركين، أحدهما في الشمال والآخر في الجنوب.

قال: ويدل على ذلك أن الكواكب تدور من المشرق، تقع قليلاً على ترتيب واحد في حركتها ومقادير أجزائها إلى أن تتوسط السماء، ثم تنحدر على ذلك الترتيب، فكانها ثابتة في كرة، تُديرها جميعها دَوْرًا واحدًا^(١).

(١) جاء هذا في رسالة الهلال لابن تيمية، ينظر: تفسير تمة أضواء البيان للشيخ عطية سالم (٣٧/٩) وما بعدها.

ويدل على أن الأرض مثل الكرة، أن الشمس والقمر والكواكب لا تطلع وتغرب على جميع من في الأرض في وقت واحد، بل على المشرق قبل المغرب. قال ابن تيمية: فكرة الأرض مثبتة في وسط كرة السماء، كالنقطة في الدائرة: يدل على أن جزم كل كوكب، يرى في جميع نواحي السماء على قدر واحد، ف يدل ذلك على بُعد ما بين السماء والأرض من جميع الجهات بقدر واحد^(١). والشمس تغرب وتستمر في الأفق في جهة أخرى حتى تصل إلى مطلعها في صبيحة اليوم الثاني.

فالبسط والتمهيد في عين الرائي ، يكون بالنظر لكل إقليم ، وليس للأرض كلها، وبالنظر إلى جزء من الشمس، وذلك لسعتها وعظم جرمها^(٢). وكما أن السماء يتفرع عنها ظلمة الليل ونور النهار، فإن الأرض يخرج منها الماء والمرعى، وقد أودع الله في الأرض منافعها، وفجر فيها عيون الماء، وأجرى فيها الأنهار والبحار والمحيطات والآبار، وأنبث فيها ما يفتتات به الناس من الحبوب والثمار، وما يقتات به الحيوان من الكأ والمرعى. قال تعالى:

٣٢، ٣٣- ﴿وَالْجِبَالِ أَرْسَاهَا ۖ (٣٢) مِّنَّا لَكُوْٓفٌ وَّلَا نَعْمِيْكُمْ ۖ (٣٣)﴾

وكما أحكم الله تعالى بناء السماء، وذلّل الأرض لنفع الإنسان، فقد أرسى سبحانه الجبال، فثبت بها الأرض وجعلها أوتاداً لها، وذلك بتغلغل صخورها وعروق أشجارها في الأرض. ومعنى إرساء الأرض: جعلها منحدره ، ليتمكن الناس من الصعود فيها بسهولة، كما يتمكن الراكب من ركوب السفينة الراسية، ولو كانت في داخل البحر ما تمكن من ركوبها إلا بمشقة. وقد خلق الله سبحانه كل هذه النعم فجعل في الأرض أقواتها، وبسطها ومهدّها، وأخرج منها الماء والمرعى لنفع الإنسان والحيوان، بالتمتع في الدنيا إلى انتهاء

(١، ٣) جاء هذا في رسالة الهلال لابن تيمية، ينظر: تفسير تمة أضواء البيان للشيخ عطية سالم (٣٧/٩) وما بعدها.

(٣) قوله تعالى: ﴿مِّنَّا لَكُوْٓفٌ وَّلَا نَعْمِيْكُمْ﴾ معدود آية عند الحجازيين وهم المدني الأول والمدني الأخير والمكي وعند الكوفي، فيكون متروكاً للبصري والشامي.

أعمارهم، فكيف للإنسان أن يستبعد قيام الساعة، والأمر لا يكلف سوى صيحة واحدة، يقوم بها الملك الموكل بها، فإذا هم قيام ينظرون، فالذي خلق السموات العظام، وما فيها من الأنوار والأجرام، والذي خلق الأرض الكثيفة الغبراء وما فيها من ضرورات الحياة ومنافع العباد، والذي خلق الجبال الشم الراوسى لثلا تميد الأرض بالمخلوقات، قادر على أن يبعث الخلق بعد موتهم فيحاسبهم ويجازيهم بما يستحقون، فمن أحسن فله الحسنى، ومن أساء فلا يلومن إلا نفسه.

عَرَضُ الْأَعْمَالِ وَيُرْوُزُ جَهَنَّمَ فِي سَاحَةِ الْحَشْرِ

٣٦-٣٤ ﴿فَإِذَا جَاءَتِ الطَّامَةُ الْكُبْرَىٰ (٣٦) يَوْمَ يَتَذَكَّرُ الْإِنْسَانُ مَا سَعَىٰ (٣٥) وَبُرُزَتِ الْجَحِيمُ لِمَنْ يَرَىٰ (٣٦)﴾ وبعد أن استدل سبحانه على وقوع البعث بعد الموت، بما هو أشد خلقاً من الإنسان، عادت الآيات لتبين حال السعداء والأشقياء عند مجيء الطامة الكبرى، والداهية العظمى التي يهون عندها كل شدة بعد النفخة الثانية، حيث يغمر الناس أحوالها فلا يفكرون في شيء سوى الحشر والجزاء حيث لا يغني الوالد عن ولده، ولا الزوج عن زوجة، ولا والصاحب عن صاحبة، ولا المحب عن حبيبه. إن أتباع الإلحاد والفلسفة المادية المعاصرة لا يزدون شيئاً على مشركي الصحراء الأقدمين عندما يقولون: إن هي إلا أرحام تدفع، وأرض تبلع، وما يهلكنا إلا الدهر! ﴿بَلِ السَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ وَالسَّاعَةُ أَذْهَىٰ وَأَمْرٌ﴾ [القمر: ٤٦].

فما هو موقفهم عندما يقومون من قبورهم، ويجد أحدهم نفسه أحد رجلين:

١- إما عبد لشهوته قد عاش لإشباعها، فينظر أمامه وخلفه فلا يرى إلا جهنم قد برزت لمن يرى.

٢- وإما رجل قد عبد ربه وراقبه في السر والعلن، ولم ينس حقه وحق العباد، فيجد الجنة مأواه، والنعيم مثواه.

فما هو الموقف حين يُعرض على الإنسان عمله من خير وشر، فيتذكره ويعترف به،

فإذا أنكر، ختم الله على فيه وشهدت عليه جوارحه وأعضاؤه، وشهدت عليه الأرض التي كان يطيع الله تعالى عليها أو يعصاه فوقها، فيحاسبهم ويجازيهم بما يستحقون، فمن أحسن فله الحسنی، ومن أساء فلا يلومنّ إلا نفسه:

كما قال تعالى: ﴿أَقْرَأْ كِتَابَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا﴾ [الإسراء: ١٤].

وقال جل شأنه: ﴿يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَىٰ لَهَا﴾ [الزلزلة: ٤ - ٥].

وقال سبحانه: ﴿يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [النور: ٢٤].

وفي ساحة الحشر والنشور تظهر جهنم لكل ذي عين، ويكشف عنها الغطاء، فيراها

كل إنسان، وهي: ﴿إِذَا رَأَتْهُمْ مِّن مَّكَانٍ يَبْعِدُ سَمِعُوا لَهَا نَفْثًا وَزَفِيرًا﴾ [الفرقان: ١٢].

و﴿إِذَا أُلْقُوا فِيهَا سَمِعُوا لَهَا شَهِيقًا وَهِيَ تَفُورٌ﴾ (٧) تَكَادُ تَمَيِّزُ مِنَ الْغَيْظِ ﴿[الملك: ٧ - ٨].

ويوم القيامة يتذكر الإنسان ما قدمه في الدنيا من خير وشر، فيتمنى زيادة حسناته ويتحسر

ويحزن على سيئاته، ويعلم أن ما قدمه لنفسه في دنياه هو مادة سعادته أو شقائه في الآخرة.

عَبِيدُ الشَّهْوَةِ وَعِبَادُ اللَّهِ

٣٧-٣٩ ﴿فَأَمَّا مَنْ طَغَىٰ﴾ (٣٧) ﴿وَأَثَرُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ (٣٨) ﴿فَإِنَّ الْجَحِيمَ هِيَ الْمَأْوَىٰ﴾ (٣٩) ﴿

والناس يومئذ فريقان: فأما من تمرد على أمر الله تعالى وطاعته، وتجراً عليه بإرتكاب

كبائر الذنوب، وجاوز الحد في الطغيان والكفر.

وفضل الحياة الدنيا على الآخرة، فانهمك في شهواته المحرمة، وأتبع نفسه هواها،

وكان سعبه كله لدنياه ولم يستعد لآخرته بالإيمان والعمل الصالح، فكان ممن قال الله

فيهم: ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ اتَّبَعَ هَوَاهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ اللَّهِ﴾ [القصص: ٥٠].

فإن مصيره ومستقره هو النار، لا منزل له سواها، يضلّى حرها وسعيرها. قال تعالى:

٤٠، ٤١- ﴿وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَىٰ﴾ (٤٠) ﴿فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَىٰ﴾ (٤١) ﴿

وأما من استعد للقاء ربه بالإيمان والعمل الصالح، فخاف القيام بين يدي ربه

(١) قوله تعالى ﴿فَأَمَّا مَنْ طَغَىٰ﴾ معدد آية عند الشامي والعراقي أي البصري والكوفي ومترك من العدد عند الحجازين.

لحساب والجزاء، فقام وهو في الدنيا بحقوق الله تعالى وحقوق عباده، ونهى نفسه عما حرم الله تعالى، فزجرها وكفها عن السيئات والمعاصي والتوجه نحو الأهواء الفاسدة الضالة المضلة، وكان هواه تبعاً لما جاء به محمد ﷺ، وجاهد النفس والهوى والشهوة والشیطان، فإن الجنة هي مسكنه، ودار النعيم هي مأواه، ليس له منزلاً سواها.

﴿ذَلِكَ لِمَنْ خَافَ مَقَامِي وَخَافَ وَعِيدِ﴾ [إبراهيم: ١٤].

عِلْمُ السَّاعَةِ عِنْدَ اللَّهِ وَحْدَهُ

٤٢-٤٤- ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا﴾ (٤٢) ﴿فِيمَ﴾ (٤٣) ﴿أَنْتَ مِنْ ذِكْرِنَهَا﴾ (٤٤) ﴿إِلَىٰ رَبِّكَ مُنْهَلَا﴾ (٤٥) ﴿يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾، الذي هو موضوع السورة: محل إنكار واستخفاف واستهزاء من المكذبين، لأن الكافر به قد عقد قلبه على استحالة وقوعه، فربما طلب التعجيل به إن كان حقاً، وربما أزهم نفسه بأن عدم قيام الساعة في الزمن الذي هو فيه، دليل على عدم وقوعها، قَالَ تَعَالَى: ﴿وَرَبُّكَ الْغَفُورُ ذُو الرَّحْمَةِ لَوْ يُؤَاخِذُهُمْ بِمَا كَسَبُوا لَعَجَلَهُمُ الْعَذَابُ بَلْ لَهُمْ مَوْعِدٌ لَّنْ يَجِدُوا مِنْ دُونِهِ مَوْعِدًا﴾ (٥٨) [الكهف: ٥٨] وكثيراً ما يسأل المنكرون للبعث عن وقت حلول الساعة التي يتوعد بها القرآن من لم يصدق بها بأن مصيره النار ﴿يَسْأَلُونَكَ﴾ أيها المخاطب عن وقت مجيء ﴿السَّاعَةِ﴾ استخفافاً بها، وإنكاراً لها: ﴿أَيَّانَ مُرْسَاهَا﴾ متى تحل؟ ومتى تقع؟

والجواب يَحْمِلُ توبيخاً لهم: بأن الرسول نفسه لا يعلم عنها شيئاً، ومرد علمها إلى الله وحده ﴿فِيمَ أَنْتَ﴾ يا رسولنا ﴿مِنْ ذِكْرِنَهَا﴾ أي أنت لا تعلم عنها شيئاً، وما فائدة علمك وعلمهم بمعرفة وقت مجيئها؟

ولما لم يكن هناك مصلحة دينية ولا دنيوية في تعيين وقتها أخفاها الله سبحانه عنا واستأثر بعلمها، بل إن المصلحة تقتضي عدم معرفتهم لها، حتى يكونوا على تمام الاستعداد لها في كل وقت، كأنها ستقوم الآن.

(١) وقف البزي ويعقوب بخلف عنهما بهاء السكت على ﴿فِيمَ﴾ والباقون بدونها.

والخطاب وإن كان موجهاً إلى النبي ﷺ فإن المقصود بلوغه إلى مسامع المكذبين.

وفي هذا الجواب، وهو ﴿فِيمَ أَنْتَ مِنْ ذِكْرِنَا﴾ صرّف للأنظار عن السؤال عن موعد قيام الساعة، والتوجه إلى ما هو أهم من ذلك بصرف العناية إلى الإعداد لها، بكثير من الرصيد الذي ينفع العبد يوم لقاء ربه، كما قال ﷺ لمن سأل عنها: «ماذا أعددت لها»؟

أما علم قيام الساعة نفسه، فهذا من الغيب الذي حجبته الله عنا، وإليه وحده منتهى علم قيامها، كما قال الله تعالى: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسِنُهَا قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ رَبِّي لَا يُجِيبُهَا لِوَفَّيْنَا إِلَّا هُوَ نَقُلْتُ فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لَا تَأْتِيكُمُ إِلَّا بَغْتَةً﴾ [الأعراف: ١٨٧] وقال ﴿إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ﴾ [لقمان: ٣٤].

عن عائشة رضي الله عنها قالت: مازال رسول الله ﷺ يسأل عن الساعة حتى أنزل الله تعالى ﴿فِيمَ أَنْتَ مِنْ ذِكْرِنَا﴾ (٤٢) إِلَى رَبِّكَ مِنْهُنَّ ﴿٤٤﴾ فانتهى فلم يسأل عنها^(١).

لأن الآية تقرر أن منتهى علمها عند الله وحده كما قال تعالى: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسِنُهَا قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ رَبِّي لَا يُجِيبُهَا لِوَفَّيْنَا إِلَّا هُوَ نَقُلْتُ فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لَا تَأْتِيكُمُ إِلَّا بَغْتَةً يَسْأَلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِيٌّ عَنْهَا قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ اللَّهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الأعراف: ١٨٧].

وعن طارق بن شهاب ؓ أن رسول الله ﷺ كان يكثر من ذكر الساعة حتى نزلت ﴿فِيمَ أَنْتَ مِنْ ذِكْرِنَا﴾ فكف عنها^(٢).

وفي حديث سهل بن سعد ؓ قال: رأيت رسول الله ﷺ قال بأصبعيه هكذا: بالوسطى والتي تلي الإبهام «بعثت والساعة كهاتين»^(٣).

(١) تفسير الطبري (٤٩/٣٠) والبخاري في كشف الأستار برقم: (٢٢٧٩) وقال الهيثمي: رجاله رجال الصحيح المجمع (١٣٣/٧) وصححه الحاكم (٥١٣/٢) ووافقه الذهبي.

(٢) النسائي بسند حسن (٦٦٥) وفي الكبرى (١١٦٤٥) وفي ط الرسالة (١١٥٨١) والطبراني في الكبير (٨٢١٠) وقال ابن كثير: إسناده جيد (٣١٥/٨).

(٣) صحيح البخاري برقم: (٤٩٣٦).

الاستعداد لليوم الآخر

٤٦، ٤٥ - ﴿إِنَّمَا أَنْتَ مُنذِرٌ^(١) مَن يَخْشَهَا^(٤٥) كَانَتْهُمْ يَوْمَ يُؤْتَوْنَ بِهَا لَبِثُوا إِلَّا عَشِيَّةً أَوْ ضُحَاهَا^(٤٦)﴾
 أي فليس من مهماتك - يا رسولنا - معرفة وقت قيام الساعة، وإنما مهمتك أن تحذّر
 وتنذر من لا يخاف قيام الساعة ويخشى الوقوف بين يدي ربه، فهو يستعدّ لها ويعمل
 لأجلها، فوظيفتك - أيها الرسول - دعوة الناس إلى الاستعداد لهذا اليوم، وهذا الإنذار
 يتنفع به صاحب الفطرة السليمة ممن كان عنده استعداد للإيمان بالله ورسوله واليوم الآخر.
 أمّا من عطلّ حواسه ومداركه عن الانتفاع بما يسمع من الخير والهدى، ممن علم
 الله تعالى أنه لن يؤمن، فإنه لن يتنفع بشيء لأنه مطموس البصيرة.
 والآية تبين أن مهمة النبي ﷺ هي التحذير من مجيئها بغتة، والاستعداد لمجيئها في
 أي وقت، وليس مهمة النبي ﷺ أن يُعلم الناس بزمان قيامها.
 وقيام الساعة مهما طال أو تأخر، فإنها آتية لا محالة، ويكون الناس عند قيامها كأنهم
 لم يمكثوا في انتظارها إلا بعض يوم، فهم يستقصرون مدة الحياة الدنيا، أو مدة البرزخ،
 وكأنها ساعة من نهار عندما يقوم الناس لرب العالمين ﴿كَانَتْهُمْ يَوْمَ يُؤْتَوْنَ مَا يُوعَدُونَ لَمْ
 يَلْبَثُوا إِلَّا سَاعَةً مِّن نَّهَارٍ﴾ [الأحقاف: ٣٥].
 ووقت العشي: من الزوال إلى الغروب، ووقت الضحى: من شروق الشمس إلى
 وقت الزوال.
 والمعنى: أن هذه الدنيا قصيرة عاجلة سريعة الزوال.

تم تفسير (سورة النازعات) والله الحمد والمنة

(١) نون أبو جعفر لفظ ﴿مُنذِرٌ﴾ و ﴿مَن﴾ مفعول به، والباقون بعدم التنوين على إضافة اسم الفاعل إلى مفعوله.

تَفْسِيرُ سُورَةِ عَبَسَ (٨٠)

مُقَدِّمَةُ السُّورَةِ

(سورة عبس) هي السورة الثمانون في ترتيب المصحف، والرابعة والعشرون في ترتيب النزول، نزلت بعد (سورة النجم) وقبل (سورة القدر).
ومما ورد في أسمائها: سورة ابن أم مكتوم، وسورة الأعمى، وسورة الصاخة، وسورة السفرة، فهذه خمسة أسماء، سميت بها لورود هذه الألفاظ فيها، وأشهرها: الأول ﴿عَبَسَ﴾ وهي سورة مكية باتفاق، وهي أول سورة من أواسط المفصل. وعدد آياتها اثنتان وأربعون آية في العدد الكوفي والمكي والمدني الأول، وأربعون آية في العدد الدمشقي، وإحدى وأربعون آية في العدد البصري والحمصي والمدني الأخير. وهي مئة وثلاثون كلمة، وخمس مئة وثلاثة وثلاثون حرفاً.

موضوع السورة:

١- تناولت السورة قضية الوحي والرسالة في قصة عبد الله بن أم مكتوم ﷺ، حين كان النبي ﷺ مشغولاً بدعوة كبار قريش إلى الإسلام، لأنهم إذا اهدؤا، استنّ بهم غيرهم من جماهير الناس، ولما جاء ابن أم مكتوم يطلب التحدث مع النبي ﷺ ظل مهتماً بدعوة الزعماء، فعاتبه ربه في ذلك.

وكان عبد الله إذا قدم على رسول الله ﷺ بعد ذلك قام إليه وأحسن استقباله، وبسط له رداءه، وقال: مرحباً بمن عاتبني فيه ربي، وإذا غاب عن المدينة بعد الهجرة ولّاه عليها.

٢- وتمضي الآيات فتشرح طبيعة البلاغ الإلهي بأنه آيات تُسمع للتذكرة، وتُقرأ من صحف ملائكة كرامٍ بررة، يدونها كتبة الوحي، ويستظهرها حفظة القرآن، وعلى من يَبْلُغُه الوحي أن يتدبر ويعمل، ويفرّ إلى الله تعالى، ويستعدّ للاقائه.

وكم من إنسان مُغلق الذهن، يضرب الأرض بقدميه، ولا يدري كيف جاء إلى الدنيا، ولماذا خُلِق، وما مصيره بعد الموت؟ ﴿قُلْ الْإِنْسَانُ مَا أَكْفَرُهُ﴾ [الآية: ١٧].

٣- وتتناول السورة جانب العقيدة، فتقيم جملة من دلائل الوجدانية، ممثلة في خلق الإنسان من نطفة، ثم موته بعد استغراق منهج حياته، وقد يسر الله للإنسان سبل العيش، فصب له الماء، وشق له الأرض، وأنبت له الزرع وأخرج له الضرع، كما يسر له الطريق إلى الإيمان وهداه إليه.

٤- ثم تناولت السورة الجانب الثالث من عناصر القرآن المكي، وهو الحديث عن يوم القيامة، فبينت حال المؤمنين وحال الكافرين يوم يكون كل إنسان مشغولاً بنفسه عن غيره، ولو كان ابنه فلذة كبده، وذلك حين تبيضّ وجوه وتسودّ وجوه! وهكذا بدأت السورة بعلاج حادثة معينة تتعلق بالضعفاء والفقراء وذوي العاهات، للرفق بهم في مجال الدعوة إلى الله تعالى وعدم الإعراض عنهم، أو تفضيل الأثرياء وذوي الجاه عليهم.

ثم عالجت جحود الإنسان وكفره، فذكرته ببدايته ونهايته وأصل نشأته، وتيسير حياته، ومقابلة ذلك بالتقصير وعدم شكر المنعم سبحانه. ثم عرّجت آيات السورة على أمّس شيء بالإنسان، يتعلق بطعامه وشرابه وتدبير أموره وتقديرها.

وفي نهاية السورة حديث عن الصاخة وأهوالها، وأحوال الناس فيها، وذ هول كل إنسان عن غيره لأنه مشغول بنفسه، وفي هذا دعوة للاستعداد لها في وقت الرخاء. إن البشر اليوم مشغولون بالدنيا، وقليل منهم من يصرف بعض همه للآخرة، ومن المؤسف أن التقدم العلمي يبحث مكانه، ولا يريد أن يعرف ما أمامه.

نبذة عن ابن أم مكتوم

٥- عبد الله بن أم مكتوم: هو ابن خال السيدة خديجة رضي الله عنها، واسمه: عمرو ابن قيس، كان كفيف البصر، وأم مكتوم: كنية أمه، نُسب إليها لشرفها وشرف قومها،

واسمها: عاتكة بنت عبد الله المخزومية.

وقد استخلفه النبي ﷺ على المدينة في خروجه إلى الغزوات ثلاث عشرة مرة، وقيل مرتين^(١).

فكان النبي ﷺ يوليه إمارة المدينة حتى يعود، مع أنه كيف البصر. وهو من المهاجرين الأولين: كان مؤذناً للنبي ﷺ هو وبلال، ومن ذلك حديث عبد الله بن عمر أن النبي ﷺ كان يقول: «إن بلالاً يؤذن بليل فكلوا واشربوا حتى تسمعوا أذان ابن أم مكتوم، وهو الأعمى الذي أنزل الله فيه ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّى﴾ وكان يؤذن مع بلال، وكان رجلاً ضرير البصر، فلم يك يؤذن حتى يقول له الناس»^(٢).

قيل: إنه مات شهيداً بالقادسية يوم فتح المدائن، في خلافة عمر رضي الله عنه سنة أربع عشرة^(٣). وفيه نزل قوله تعالى: ﴿غَيْرُأُولِي الضَّرَرِ﴾ [النساء: ٩٥]. قال أنس: رأيت يوم القادسية، وعليه درع، ومعه راية^(٤).

مقاطع السورة:

- ١ - فالآيات العشر الأول من السورة تتحدث عن ابن أم مكتوم.
- ٢ - والآيات الست بعدها تتحدث عن الوحي والرسالة.
- ٣ - ومن الآية السابعة عشرة إلى الآية الثانية والثلاثين تتحدث عن جانب العقيدة وأدلة التوحيد، وهي تمثل في خلق الإنسان وموته، وتمثل في طعام الإنسان والحيوان ومراحل تكوينه.
- ٤ - والآيات الأخيرة من الثالثة والثلاثين إلى نهاية السورة تتناول جانب الإيمان باليوم الآخرة، يوم يفر المرء من أقرب الناس إليه، ويكون الناس فريقين: فريق في الجنة وفريق في السعير.

(١) وهو الذي جاء عند ابن سعد (٢٠٩/٤).

(٢) انظر الحديث في صحيح مسلم (١٠٩٢) والبخاري (٧٢٤٨، ٦١٧) والترمذي (٢٠٣) والكبرى للنسائي

(١٦١٣) والمسنند (٤٥٥١) وابن حبان (٣٤٦٩-٣٤٧١).

(٣) ينظر: تفسير الألوسي (٣٩/٣٠) وابن عاشور (١٠٤/٣٠).

(٤) تفسير الخازن (٣٥٣/٤) وابن عطية (٤٣٦/٥).

سبب النزول:

عن عائشة رضي الله عنها قالت: أنزلت ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّى﴾ في ابن أم مكتوم الأعمى، أتى رسول الله ﷺ فجعل يقول: يا رسول الله، أرشدني، وعند رسول الله ﷺ رجل من عظماء المشركين، فجعل رسول الله ﷺ يُعرض عنه ويُقبل على الآخر، ويقول: أترى بما أقول بأساً، فيقال: لا، ففي هذا أنزل^(١).

وابن أم مكتوم كان ممن أسلم قديماً، وقد رأى النبي ﷺ أن من لم يدخل في الإسلام أحوج إلى الإقبال عليه، لاسيما إذا كان ممن يقتدي به غيره. وإلى جوار اجتهاد النبي ﷺ فإن ابن أم مكتوم كان رجلاً أعمى، لا يرى ما كان مشغولاً به النبي ﷺ من دعوة أشراف قريش.

قال ابن عطية وغيره عن ابن أم مكتوم: وهو رجل أعمى، جاء يقوده رجل آخر، فأوماً رسول الله ﷺ إلى قائده أن يؤخره عنه، ففعل، فدفعه عبد الله نحو رسول الله ﷺ وقال: علمني مما علمك الله، وكان رسول الله ﷺ مع الرجل المذكور يقرأ عليه القرآن، ويقول له: أترى بما أقول بأساً؟ فيقول الرجل: لا، والأصنام، فلما ألح عليه عبد الله، عبس النبي ﷺ وأعرض عنه، وانصرف الرجل، فلما ذهب النبي ﷺ إلى بيته، لوى رأسه وشخص بصره فأنزل الله عليه السورة^(٢). وفهم الآيات التالية يتوقف على معرفة سبب النزول هذا.

وابن أم مكتوم هو الذي قال للنبي ﷺ: إني أسمع النداء، ولعلي لا أجد قائداً، فقال ﷺ: «إذا سمعت النداء فأجب»^(٣).

(١) صححه الألباني في صحيح سنن الترمذي برقم (٢٦٥١)، وهو في الترمذي برقم (٣٣٣١)، وأخرجه ابن حبان في الإحسان برقم (٥٣٥) بتصحيح الأرناؤوط، كما صححه الحاكم ووافقه الذهبي في المستدرک (٥١٤/٢) وكلاهما من طريق آخر.

(٢) تفسير ابن عطية (٤٣١/٥)، ورواه مالك في الموطأ مرسلًا عن هشام بن عروة عن أبيه ومُسند أبي يعلى (٢٦١/٨) وتفسير الطبري (٣٢/٣٠).

(٣) صححه الألباني في السلسلة الصحيحة عن كعب بن عُجرة برقم (١٣٥٤)، وهو عند الطبراني في الكبير برقم (٣٠٤).

تَفْسِيرُ السُّورَةِ

قِصَّةُ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ أُمِّ مَكْتُومٍ

٢٠١- ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّى ۖ (١) أَنْ جَاءَهُ الْأَعْمَى ۚ﴾

بدأ الله تعالى عتاب رسوله محمداً ﷺ في شأن عبد الله بن أم مكتوم، مسنداً إلى ضمير الغائب، فقال سبحانه ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّى﴾ ولم يقل (عبست وتوليت) وفي هذا تطمين من الله تعالى لرسوله، وعَفُوٌّ مُسَبِّقٌ قبل إخباره بالذنب، حتى يسكن قلبه، لأن المشافهة بتاء الخطاب فيها شدة وصعوبة.

ومثل ذلك قوله تعالى: ﴿عَفَا اللَّهُ عَنْكَ لِمَ أَذِنَتْ لَهُمْ حَتَّى يَتَّبِعَ لَكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَتَعْلَمَ الْكَذِبِينَ﴾ [التوبة: ٤٣].

والعبوس: تقطيب الوجه وإظهار الغضب.

والتولى: استدارة البدن والإعراض عن المخاطب.

والمعنى: ظهر التقطيب والعبوس في وجه الرسول ﷺ والاشتغال بما هو فيه، من الحرص على تبليغ الدعوة إلى من يرجو إسلامه، مع اطمئنانه على إسلام عبد الله. فمواصلة الحديث مع من كان يتحدث إليه، أولى من قطعه لمن طرأ عليه قادمًا، ومع هذا فالنبي ﷺ لم يُسْمِعْهُ شيئاً يزعجه، وتقطيب الجبين، حركة مرئية لا مسموعة، والرجل أعمى. وكان هذا العبوس لأجل أن الأعمى: عبد الله بن أم مكتوم جاءه مُسْتَرْشِداً، وكان ﷺ منشغلاً بدعوة كبار القوم إلى الإسلام، وفي ذكر لفظ الأعمى دون غيره، ترقيق لقلب النبي ﷺ لبيان أن هذا العتاب ملحوظ فيه أن ابن أم مكتوم كان أجدر بالعناية والاهتمام،

(١) سورة عبس من السور الإحدى عشرة التي تمال رؤوس أيها، وقد أمال ﴿تَوَلَّى﴾ وما بعدها من نظائرها حمزة والكسائي وخلف، وقللها الأزرق وأبو عمرو، إلا كلمة (الذكرى) بالنسبة لأبي عمرو فقد أمالها، وفتحها الباقون.

لأنه كيف البصر، ومثله يكون سريع انكسار الخاطر.

ومن جهة ثانية: فإن لفظ ﴿الْأَعْمَى﴾ يشعر بعذره في الإقدام على قطع كلام الرسول ﷺ وأنه لو لم يكن كذلك، لرأى انشغال النبي ﷺ مع صناديد قريش، ولم يقطع كلامه، على أن النبي ﷺ لم يكن مشغولاً بأمر دنيوي، ولا بشيء خاص، ولا بأمر له فيه مصلحة. وعتاب الله تعالى لرسوله ﷺ من باب أنه كان عليه أن يترفق به مراعاة لظروفه، مع أن ابن أم مكتوم كان يسمع، ومقتضى هذا ألا يقدم على قطع كلام النبي ﷺ لاسيما وأن معه قائداً يعلمه ويرشده.

ومن جهة ثالثة: فإن في هذا العتاب تعريضاً بغير عبد الله بن أم مكتوم ممن لم يقبلوا على الإسلام ورفضوه، وكأن الله تعالى يقول لهم: ﴿فَإِنَّمَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَرُ وَلَكِن تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ﴾ [الحج: ٤٦] فهذا رجلٌ كيف البصر، ولكنه وقاد البصيرة. أبصر الحق وآمن، ومع أنه أعمى فقد جاء يطلب المزيد من العلم.

وهؤلاء القوم من المشركين قد أغلقت قلوبهم وعميت أبصارهم، فلم يبصروا الحقيقة، ولم يبصروا نور الإيمان (١).

وفي هذه القصة درس للدعاة إلى الله تعالى، كي يصبروا على ضعف المسلمين، ولا يفرقوا بين غني وفقير، فقد حث الله تعالى رسوله ﷺ على أن يصبر نفسه مع الضعفاء والمساكين، ولا يطردهم عن مجلسه، ولا يتعداهم إلى غيرهم.

قال تعالى: ﴿وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَنْ ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُتُورًا﴾ [الكهف: ٢٨]

وهكذا قال نوح عليه السلام: ﴿وَمَا أَنَا بِطَارِدِ الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ [هود: ٢٩].

بعد أن قال له قومه: ﴿وَمَا نَرَاكَ اتَّبَعَكَ إِلَّا الَّذِينَ هُمْ أَرَادُوا بُادِيَ الرَّأْيِ﴾ [هود: ٢٧].

(١) تتمة أضواء البيان (٤٨/٩).

وشأن الأنبياء أن يتبعهم ضعفاء القوم لا سادتهم، كما جاء في سؤال هرقل لأبي سفيان حين سأله عن أتباع محمد ﷺ: أهم سادة القوم أم ضعفاؤهم؟ قال: بل ضعفاؤهم، فقال: هكذا هم أتباع الرسل.

وهكذا كان بلال وعمار وصهيب وخبيب وابن أم مكتوم، فأكرم الناس على الله تعالى أتقاهم، ولا يوجد مع ذلك قيم أخرى من مال أو جاه أو سلطان.

ولفظ (أعمى) لم يذكر للتقيص، بل للتعريف، وإذا قيل: فلان قصير، أو أفتس، أو أعرج، أو أعمى، ونحو ذلك، فهذا من باب الغيبة والهمز واللمز، وقد سمع النبي ﷺ عائشة تقول عن حفصة: إنها لقصيرة، فقال لها: «لقد قلت كلمة لو مُزجت بماء البحر لمزجته»^(١).

قال تعالى مبيناً الفائدة في الإقبال على طالب الهداية الحريص على طلب العلم والزيادة منه:

٤،٣- ﴿وَمَا يَذْكُرُ لَعَلَّهٗ يَرْكَى ۚ﴾ (٢) أَوْ يَذْكُرُ فَنَنْفَعَهُ (٣) الذِّكْرَى ﴿٤﴾

وبعد أن جاء العتاب للنبي ﷺ بضمير الغائب مراعاة لمشاعره ﷺ خاطب الله تعالى رسوله مباشرة فقال له: ﴿وَمَا يَذْكُرُ لَعَلَّهٗ يَرْكَى ۚ﴾ أي وما أعلمك بحال هذا الأعمى الذي عبست في وجهه ﴿لَعَلَّهٗ يَرْكَى ۚ﴾ أي لعله يتطهر من ذنوبه، ويزداد خشية لربه بما يتلقاه عنك من علم ومعرفة، فتنفعه الموعظة التي استمع إليها.

ولعلك - أيها الرسول - إذا أقبلت عليه بالإرشاد، يزداد الإيمان رسوخاً في نفسه، ويُقبل على التحلي بفضائل الشريعة ومكارم الأخلاق، والهدى الذي يزداد به المؤمن

(١) قال الترمذي: حديث حسن صحيح (٢٥٠٤، ٢٥٠٥)، وأخرجه أيضاً أبو داود (٤٨٧٥)، وأحمد في المسند

(١٨٩/٦) بإسناد صحيح، وصححه الألباني في صحيح سنن أبي داود (٤٠٨٠)، وصحيح سنن الترمذي

(٢٦٣٦، ٢٦٣٧)، ومشكاة المصابيح (٤٨٥٣، ٤٨٥٧)، وغاية المرام (٤٢٧).

(٢) قرأ عاصم بفتح العين من ﴿فَنَنْفَعَهُ﴾ وهي منصوبة بأن مضمرة بعد الفاء وقرأ الباقون برفعها عطفًا على ﴿يَذْكُرُ﴾.

رفعة، كاهتداء الكافر إلى الإيمان، وهذا معنى ﴿أَوْ يَذَّكَّرُ﴾ أي يتذكر بما ينفعه ﴿فَنَنْفَعَهُ﴾^(١) الذِّكْرُ أي يحصل له المزيد من الاعتبار والانزجار، ويعمل بتلك الموعظة.

مَنْهَجُ الدَّاعِيَةِ فِي دَعْوَةِ الْفُقَرَاءِ وَالْأَثْرِيَاءِ

٥-٧- ﴿أَمَّا مَنْ أَسْتَفْتَى﴾ ٥ ﴿فَأَنْتَ لَهُ تَصَدَّى﴾ ٦ ﴿وَمَا عَلَيْكَ أَلَّا يَزْكَى﴾ ٧ ﴿

وأشهر الأقوال أن الذي تصدى النبي ﷺ لدعوته وعرض القرآن عليه، هو الوليد بن المغيرة المخزومي، وهو ممن عدّ نفسه غنيا عن هديك يا رسولنا، وممن استغنى بالمال والولد والجاه، فمع أنه لا يرى بأساً بما جاء في القرآن، يرى أنه غير محتاج إليه، وهكذا كل من كان على شاكلته إلى يوم القيامة.

وعلى هذا: فلا ينبغي للإنسان أن يترك أمراً معلوماً لأمر موهوم، ولا يترك مصلحة متحققة لمصلحة متوهمة، وينبغي الإقبال على طالب العلم، الحريص عليه أكثر من غيره. ﴿أَمَّا مَنْ أَسْتَفْتَى﴾ عن الإيمان بالله ورسوله مغترأ بثروته وجاهه، فأنت تتعرض له بالإقبال عليه، والإصغاء لكلامه، مع أنه يظهر الاستغناء عنك للإعراض عما جئت به، ووعظ الوعاظ يكون لمن جاء بنفسه مقبلاً عليه مفتقراً إليه، فهو الذي ينبغي التصدى له، ولست مسؤولاً عما عرض ولم ينتفع بما جئت به.

فالمراد: وأي حرج عليك - يا أيها الرسول - في ألا يتطهر هذا الكافر وأمثاله من دنس الكفر والمعاصي، وأنت غير مطالب بهدايته، إنما عليك البلاغ.

وهذا معنى: ﴿وَمَا عَلَيْكَ﴾ أي: وأي شيء، أو: وأي تبعة أو مسؤولية تقع عليك - أيها الرسول - إذا لم يتزكى الكافر ويتطهر من كفره، فلست مؤاخذاً بعدم اهتدائه، حتى تزيد من الحرص على الإقبال عليه، وهذا رفق من الله تعالى برسوله ﷺ كما قال تعالى: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ﴾ [القصص: ٥٦]. قال تعالى:

٨-١٠- ﴿وَأَمَّا مَنْ جَاءَكَ يَسْعَى﴾ ٨ ﴿وَهُوَ يَخْشَى﴾ ٩ ﴿فَأَنْتَ عَنْهُ تَلَهَّى﴾ ١٠ ﴿

(١) قرأ نافع وابن كثير وأبوجعفر بتشديد الصاد من ﴿صَلَّى﴾ والباقون بالتخفيف على حذف إحدى التائين.

وبعد أن عاتب الله رسوله في شأن من استغنى وامتنع من التصدي لدعوته، عاتبه ربه مرة أخرى بصورة أشد في شأن ابن أم مكتوم الذي جاء يسعى، ويشتد في مشيئته، حرصاً على لقائه ﷺ طالباً تزكية نفسه، لأنه يخشى الله تعالى من التقصير، ويرغب في التزود من الهدى الذي لا يرغب فيه المستغنى.

وعلى هذا فإن في هذه الحادثة إرشاد كل كافر إلى الإسلام، عساه أن يسلم.

وإرشاد كل مؤمن إلى شعب الإسلام عساه أن يزداد تزكية.

وكان اجتهاد النبي ﷺ قد أداه إلى أن دعوة الكافر أهم وأولى من دعوة المؤمن، لأن في إيمان الكافر نفع عام للأمة بزيادة عدد المسلمين وعزتهم، أما تزكية المؤمن فهو نفع خاص به. والرسول ﷺ معني بالمصالح العامة والخاصة، إلا أن الكافر صاحب هذه القضية - وهو الوليد بن المغيرة - يضعف الرجاء في إيمانه بالنظر إلى سيرته الطويلة.

ولذا: فقد أعلم الله تعالى رسوله ﷺ أن هذا المشرك الذي أخلص في نُضحه لا يُرجى منه صلاح هو وأمثاله، وأن هذا المؤمن الذي أرجأ نُضحه حتى يفرغ مما هو فيه، قد جاء متلهفاً على النصيحة مستعداً لها، فازدياد صلاحه أمر مضمون، ولذا وجب التصدي له.

وهذه الأسرار والحكم التي في دخائل النفوس، لا يعلمها إلا الله، وقد أطلع الله رسوله عليها ليُعلمه محل العتاب وسببه، مع ما له من الأجر على اجتهاده فيما لم يُوح إليه فيه. وقد أمَرنا أن نأخذ بالظاهر، والله يتولى السرائر، ولا سبيل لمعرفة الأمور الغيبية إلا بإخبار الله تعالى لنا.

وهذا المشرك يُضْمِر الكفر والعناد في قلبه، والله وحده هو الذي يعلم أنه لن يؤمن، أما المؤمن فقد حانت له لحظة صفاء نفس، وإشراق قلب، قد لا يحصلان له في وقت آخر، لذا: عاتب الله رسوله ﷺ.

(١) شدّد البري بخلف عنه التاء من ﴿تَلَقَّ﴾ حال وصلها بما قبلها، مع صلة هاء الضمير قبلها ومدها مداً مشبعا لالتقاء الساكنين، والباقون بعدم التشديد.

وبعد هذا العتاب، كان النبي ﷺ يحتفي بابن أم مكتوم، فيفرش له رداءه ويقول: مرحباً بمن عاتبني فيه ربي.

وبهذا يتبين أن ما أوحاه الله تعالى إلى نبيه ﷺ في هذه السورة، بما كان مغيباً عنه ﷺ حين أقبل على دعوة المشرك، وأرجأ إرشاد المؤمن هو من باب الوحي.

ومناط المعاتبة هو العبوس في وجه المؤمن، بحضرة المشرك، الذي يستصغر أمثال ابن أم مكتوم، وفيه تنويه بشأن المؤمن، وجمع بين التعليم والمعاتبة.

ذلكم قول الله تعالى ﴿وَأَمَّا مَنْ جَاءَكَ يَسْعَى﴾ أي حريصاً على لقائك لطلب العلم والهداية، ولم يمنعه فقدان بصره من الحرص على التفقه في الدين، ﴿وَهُوَ يَخْشَى﴾ أي يخشى الله تعالى من التقصير في طلب العلم، ويخاف عقاب الله، ويرجو ثوابه باتقاء محارمه، وامثال أمره واجتناب نهيه، فأنت تتشاغل عنه، وتنصرف إلى رؤساء الكفر وزعماء القوم، وتفرغ جهدك معهم طمعاً في إيمانهم، قالوا: كان النبي ﷺ بعد هذا العتاب لا يعبس في وجه فقير قط، ولا يتصدى لغني أبداً، وكان الفقراء في مجلسه أمراء.

وهذه الآيات أشد عتاباً من سابقتها لأنها في صورة التعجب ممن يفعل ذلك.

قال ابن زيد وعائشة وغيرهما من الصحابة رضي الله عنهم: لو كان رسول الله ﷺ كاتماً شيئاً من الوحي لكتم هذه الآيات، وآيات قصة زيد وزينب بنت جحش^(١).

آيَاتُ الْقُرْآنِ هِدَايَةٌ وَمَوْعِظَةٌ

١٢، ١١ - ﴿كَلَّا إِنَّهَا لَنَذْكُرُهُ﴾ (١١) ﴿مَنْ شَاءَ ذَكَرُهُ﴾ (١٢)

﴿كَلَّا﴾ أي: حقاً إن هذه الموعظة تذكروا من الله لعباده المؤمنين، كي يبين لهم الرشد من الغي والهدى من الضلال، فلا تظن - يا رسولنا - أنك مسؤول عن إيمان من لم

(١) تفسير ابن عطية (٤٣٦/٥)، وانظر الحديث في المسند (٢٦٠٤١، ٢٤٢٢٧)، وهو حديث صحيح كما قال محققوه، وأخرجه الترمذي (٣٢٠٨)، وابن خزيمة في التوحيد (ص ٢٢٤)، وهو في مسلم (٢٨٨، ١٧٧)، والنسائي في الكبرى (١١٤٠٨)، والطبراني في الكبير (١١١).

يؤمن، فليس الأمر كذلك ، فإن ما أمرت به هو البلاغ، وقد أدت هذه المهمة على أكمل وجه.

وقد أنزل الله عليك آيات هذا القرآن لتذكير الناس ودعوتهم إلى التوحيد، وهذا معنى: ﴿إِنَّمَا تَذَكَّرُ﴾ أي إن آيات هذه السورة موعظة لمن شاء أن يتعظ، وفيها تذكير لك بما غفلت عنه.

فمن شاء اتعظ وانتفع بهذا القرآن ، فذكر الله تعالى وتوخي مرضاته، وعمل بما فيه ومن شاء خسر ديناه وأخراه، وهذا للتهديد والوعيد، وليس للتخيير بين الاتعاض وعدمه كما قال تعالى ﴿وَقُلِ الْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَمَن شَاءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَاءَ فَلْيُكْفُرْ﴾ [الكهف: ٢٩].

وقال تعالى: ﴿وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ﴾ [الزخرف: ٤٤].

وقال سبحانه: ﴿وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لِّلْمُتَّقِينَ﴾ [الحاقة: ٤٨].

وقال أيضا: ﴿فَمَا لَهُمْ عَنِ التَّذِكْرِ مُعْرِضِينَ﴾ [المدثر: ٤٩].

صُحُفُ الْمَلَائِكَةِ وَصُحُفُ الْقُرْآنِ

١٣-١٦ - ﴿فِي صُحُفٍ مُّكْرَمَةٍ﴾ (١٣) مَرْفُوعَةٌ مُّطَهَّرَةٌ (١٤) بِأَيْدِي سَفَرَةٍ (١٥) كِرَامٍ بَرَرَةٍ (١٦)

ثم وصف الله سبحانه آيات القرآن التي فيها الاتعاض بأنها آيات كائنة ﴿فِي صُحُفٍ مُّكْرَمَةٍ﴾ أي معظمة موقرة عند الله تعالى، والصحف هي القِطَع التي كان يكتب فيها أي الذكر الحكيم، من جلد أو ورق أو خِزَق، أو جريد ونحو ذلك، والصحف المكتوب فيها القرآن حالياً هي ما بين دفتي المصحف، وهي صحف عظيمة الشأن، رفيعة القدر.

وَتُطْلَقُ الصحف على الكتب المنزلة على الرسل السابقين، كما قال تعالى ﴿إِنَّ هَذَا لَنِيَ الصُّحُفِ الْأُولَى﴾ (١٨) صُحُفٍ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى (١٩) [الأعلى: ١٩، ٢٠].

فيراد بالصحف في هذه الحالة ما ينسخ من اللوح المحفوظ.

وهي صحف مقدسة عالية القدر، منزهة عن الدنس والنقص والزيادة، فهي ﴿مَرْفُوعَةٌ﴾ الشأن عند الله تعالى ﴿مُطَهَّرَةٌ﴾ عما ليس من كلام الله تعالى، لا يمسها إلا المطهرون.

ولا تنالها الشياطين، ولا يقربها مسترقو السمع، ولا يتطرق إليها التغير ولا التحريف ولا التبديل.

وهذه الصحف ﴿بِأَيِّ﴾ ملائكة كتّبة، وهؤلاء الملائكة وُصفوا بأنهم: ﴿سَفَرَةٌ﴾ أي سفراء بين الله تعالى وبين خلقه، وهم الذين ينسخون هذه الصحف من اللوح المحفوظ.

وهؤلاء الملائكة ﴿كِرَامٌ﴾ أي كرام الخلق على الله تعالى، وهم كثيرو الخير والبركة، لهم منزلة عظيمة عند الله تعالى من بين خلقه، وهم عباد له سبحانه، موصوفون بأنهم ﴿بِرَرَّةٍ﴾ أي: في قلوبهم وأعمالهم، فهم أتقياء صالحون مطيعون لله تعالى: ﴿لَا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ [التحريم: ٦].

ومن حَفِظَ الله تعالى لكتابه أن جعل السفراء بينه وبين رسله: الملائكة الكرام الأتقياء الأقوياء، ولم يجعل للشياطين عليهم سبيلاً.

١ - وبناء عليه: فإن هذه الأوصاف الثلاثة ﴿سَفَرَةٌ﴾ ﴿كِرَامٌ﴾ ﴿بِرَرَّةٍ﴾ إما أن تكون للملائكة كما جاء في الحديث عن عائشة رضي الله عنها «مثلُ الذي يقرأ القرآن وهو حافظ له مع السفرة الكرام البررة»^(١).

ولفظ مسلم: «الماهر بالقرآن مع السفرة الكرام البررة والذي يقرأ القرآن ويتتعتع فيه وهو عليه شاق له أجران»^(٢).

على أن المراد بالصحف ما نسخته الملائكة من اللوح المحفوظ.

٢ - وإما أن يراد بالأوصاف الثلاثة كُتَّابُ الوحي: مثل زيد بن ثابت، وعبد الله بن عمرو، وعمر، وعثمان، وعلي، فيكون المراد بالصحف: ما كتب فيه آيات التنزيل في

(١- ٢) من حديث عائشة عند أحمد (٢٤٢١١)، والبخاري (٤٩٣٧) واللفظ الأول له، ومسلم (٧٩٨) واللفظ الثاني له، وانظر: أبوداود (١٤٥٤)، والترمذي (٢٩٠٤)، وابن ماجه (٣٧٧٩)، والنسائي في الكبرى (٧٩٩٢، ٨٠٤٧، ٨٠٤٥)، وابن حبان (٧٦٧).

القديم والحديث.

والقول الأول أرجح، لدلالة الدليل عليه، ونزوله بهذه الكيفية توجب الإيمان به وتلقيه بالقبول، ولكن الإنسان يأبى إلا كفوراً.

أَصْلُ الْإِنْسَانِ وَمُنْتَهَاهُ

١٧-١٩ - ﴿قُلِ الْإِنْسَانُ مَا أَكْفَرُهُ ﴿١٧﴾ مِنْ أَيِّ شَيْءٍ خَلَقَهُ ﴿١٨﴾ مِنْ نُطْفَةٍ خَلَقَهُ فَقَدَرَهُ ﴿١٩﴾﴾

ولما كانت القصة السابقة تشتمل على ترفع الثري على الفقير، واستعلاء الكافر واستغنائه عن طريق الحق والنور، مع أن جنس الإنسان قد خلق من نطفة قدرة، وينتهي أمره إلى جيفة مذرة، وهو في حياته كان يتبختر على الأرض متكبراً، وهو يحمل في بطنه أسوأ القاذورات.

أفلا يُستدل بهذا الخلق على وحدانية الخالق سبحانه، وعلى أن الناس مبعوثون بعد موتهم للحساب والجزاء، ومن كان هذا شأنه فهو جاحد لنعم ربه، مستحق للطرد واللعن من رحمة الله تعالى: ﴿قُلِ الْإِنْسَانُ﴾ لعن كل كافر وعذّب، وطُرد من رحمة الله تعالى، وفي هذا تحقير لشأنه وتهديد له، وتعجيب من إفراطه في الكفر، مع كثرة نعم الله عليه ﴿مَا أَكْفَرُهُ﴾ أي ما أشد كفره لأنعم الله وما أشنع ذلك، وما أشد معاندته للحق بعد ما تبين، وفي هذا أكبر مذمة وأغلظ أسلوب، وأدل على سخط الله تعالى على الكافر. والآية عامة في كل كافر إلى يوم القيامة.

وهذا الإنسان الكافر المعاند، من هو؟ إنه أضعف المخلوقات، فقد خلق من ماء مهين: ثم بين سبحانه أصل هذه الإنسان ومنتهاها، فتساءل جل شأنه على وجه التعجب عن مادة خلق الإنسان قائلاً ﴿مِنْ أَيِّ شَيْءٍ خَلَقَهُ﴾ ألم ير هذا الإنسان الكافر من أي شيء خلقه الله أول مرة؟ حتى يتكبر ويتعظم على خلق الله، ويجحد وحدانيته، وينكر البعث والنشور، وهل يتكبر على الله أو على الناس من خرج من مجرى البول مرتين؟ قيل: إن هذه الآية نزلت في عتبة بن أبي لهب، وذلك أنه غاضب أباه، فأتى النبي ﷺ

ثم إن أباه استصلحه وأعطاه مالاً، وجهزه إلى الشام، فبعث غنبة إلى النبي ﷺ وقال: إني كافر برب النجم إذا هوى، فَيُزَوَّى أن رسول الله ﷺ قال: «اللهم ابعث عليه كلباً من كلابك»^(١) أو قال: «أما يخاف أن يرسل الله عليه كلبه»^(٢).

ثم إن غنبة خرج في سفرة (فجاء الأسد فأكله بين الرفقة)^(٣).

والآية عامة في كل من حارب الله ورسوله، وهذه النشأة للإنسان تشمل الكافر والمؤمن. ثم أوضح سبحانه هذا الشيء الذي خُلق منه الإنسان فقال ﴿مِنْ نُطْفَةٍ خَلَقَهُ﴾ أي أن الله تعالى خلقه من ماء قليل، هو المني الذي يخرج من الرجل إلى رحم المرأة، ثم قدر خلقه، وسواه بشراً، وأتقن قواه الظاهرة والباطنة، وليس في هذا الخلق من نطفة، تحقير لأصل نشأة الإنسان، بل فيه تقرير للمادة التي خلق منها، كما في قوله تعالى ﴿فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ يَوْمَ يُخْلَقُ مِنْ مَّاءٍ دَافِقٍ﴾^(٤) يخرج من بين الصلب والترائب ﴿[الطارق: ٥-٧] وقوله: ﴿أَلَمْ تَخْلُقْهُمْ مِنْ مَّاءٍ مَهِينٍ﴾ [المرسلات: ٢٠] أي ضعيف، وقد جعل الله خلق الإنسان أطواراً: فقد خلقه من نطفة، ثم من علقه، ثم من مضغة، ثم جعلها عظماً، ثم كساه لحماً، فتبارك الخلاق العليم.

وقد تم هذا الخلق بمقدار مضبوط منظم، وهذا معنى: ﴿فَقَدَرَهُ﴾ أي وقد جعله الله إنساناً عاقلاً مهياً للزيادة، ينظر ويتأمل ويتصرف، فقد قدر الله رزقه وأجله وعمله، وشقي أو سعيد ﴿فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ﴾ [المؤمنون: ١٤].

(١) جاء هذا عن عكرمة كما في كتاب الأغاني لأبي فرج الأصفهاني (١٧٦/١٦) وعن أبي نعيم عن طاووس (٣٨٠)، وابن عساكر (٣٠٢/٣٨).

(٢) أخرجه أبو نعيم عن أبي الضحى.

(٣) تفسير ابن عطية (٤٣٨/٥)، وأخرجه ابن المنذر عن عكرمة كما في الدر (٢٤٦/١٥).

تيسيرُ الله للإنسانِ سُبُلَ معاشِهِ ومَعَادِهِ

٢٠-٢٢- ﴿ثُمَّ السَّيْلِ يَسْرُهُ ۖ ﴿٢٠﴾ ثُمَّ أَمَانَهُ ۖ فَأَقْبَرَهُ ۖ ﴿٢١﴾ ثُمَّ إِذَا شَاءَ أَنْشَرَهُ ۖ ﴿٢٢﴾﴾

وبعد أن خلق الله الإنسان في أحسن تقويم، ومنحه العقل والتفكير، وجعله يميز بين الحق والباطل، والخير والشر، والهدى والضلال، وضح الله له طريق الإيمان والكفر، والطاعة والمعصية، والأمر والنهي، عن طريق العقل وإرسال الرسل، وإنزال الكتب، ليختار ما يوافق الفطرة، ويفي بعهد الميثاق المأخوذ عليه وهو في صلب آبائه، كما قال تعالى: ﴿إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا﴾ [الإنسان: ٣] فالسبيل هو النظر الصحيح المؤدي إلى الإيمان، وتيسيره بهبة العقل وإرسال الرسل، فإن اختار غيره فقد ضل السبيل وخالف الفطرة.

وبعد أن يأخذ العبد طريقه في الدنيا إلى الحق أو الباطل، ويكون في حياته رصيذاً من الإيمان أو الكفر، والطاعة أو المعصية، يموت الإنسان، ويُجعل له مكاناً يُقبر فيه وهذا معنى: ﴿ثُمَّ أَمَانَهُ ۖ فَأَقْبَرَهُ﴾ أي أَمَاتَ هذا الإنسان، بأن سلبه الحياة، وجعله صاحب قبر يوارى فيه جسده تكريماً له، ولم يجعله كسائر الحيوانات بحيث تُلقى جثته جيفة على وجه الأرض.

ودفنُ الجسد في القبر من سنن الإسلام، أما تركه بدون دفن، أو حرقه، أو تحنيطه، ونحو ذلك، فليس فيه تكريم للإنسان.

والله تعالى يجمع ذرات جسد عبده للبعث يوم القيامة، على أي مصير كانت نهاية حياته: تدرية في الهواء، أو مواراةً في بطون السباع، أو تقطيع أشلاء في الحروب، أو غير ذلك. ولأن الدفن في القبر هو الأكثر، وهو الوضع الطبيعي، فإن القرآن يعبر به دون غيره.

والقبر فترة يسميها الإسلام «البرزخ» فتشمل كل الصُّور التي تنتهي بها حياة الإنسان. وبعد انتهاء حياة البرزخ يأتي البعث والنشور ﴿ثُمَّ إِذَا شَاءَ أَنْشَرَهُ﴾ أي إذا شاء الله أحياء

بعد الموت للحساب والجزاء، وقال تعالى: ﴿إِذَا شَاءَ﴾ لأن وقت البعث غير معلوم لأحد، فهو إلى مشيئة الله تعالى، متى أراد أن يحيي الخلق أحياءهم، قال تعالى: ﴿وَاللَّهُ أَتَبْتَكُرُ مِنَ الْأَرْضِ نَبَاتًا ۖ﴾ ﴿١٧﴾ ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيهَا وَيُخْرِجُكُمْ إِخْرَاجًا ﴿[نوح: ١٧، ١٨].

وقال سبحانه: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ إِذَا أَنْتُمْ بَشَرٌ تَنْتَشِرُونَ﴾ [الروم: ٢٠]
وقال جل شأنه: ﴿وَأَنْظُرْ إِلَى جِوَارِكِ وَلِجَعَلِكَ آيَةً لِلنَّاسِ ۖ وَأَنْظُرْ إِلَى الْعِظَامِ كَيْفَ نُنْشِزُهَا ثُمَّ نَكْسُوها لَحْمًا﴾ [البقرة: ٢٥٩].

وفي حديث أبي هريرة ؓ أن النبي ﷺ قال: «كل ابن آدم يأكله التراب إلا عجب الذئب، منه خلقت، وفيه يركب»^(١).

والقبور تكون في بطن الأرض، والأرض أمُّ الخلق، فإذا خلق الله ما أراد، ومُلئت هذه القبور، انتهت الدنيا ومات كل من عليها، بعدها يأذن الله بالقيامة فتلفظ الأرض ما في جوفها وتخرج ما فيها، وتتحدث عن أخبارها وما جرى من الناس وهم فوق سطحها! فالله تعالى هو المتفرد بالإحياء والإماتة وتدير شؤون خلقه، لا يشاركه مشارك، ومع هذا فالإنسان لا يقوم بما أمره الله به، ولم يقض ما فرضه الله عليه، بل لا يزال مقصراً في حق الله تعالى:

الْإِنْسَانُ لَمْ يَقُمْ بِجَمِيعِ مَا أَمَرَهُ اللَّهُ بِهِ

٢٣- ﴿كَلَّا لَمَّا يَقِضْ مَا أَمَرُهُ﴾ ﴿٢٣﴾

أي: إن الإنسان الكافر، قد حُكِمَ عليه بالعذاب واللعن لشدة كفره، وإنكاره البعث والنشور، بسبب استدلاله الباطل بأن الله تعالى لم يبعث أحداً منذ القدم إلى الآن، هذا الإنسان، لم يزل مُعْرِضاً عن الإيمان الذي أمره الله به، ولو أنه أدى ما أمره الله به لَعَلِمَ بُطْلان زَعْمِهِ، فليس الأمر كما يزعم من إنكاره للبعث والنشور، ولكنه لم يؤد ما أمره الله به من الإيمان والعمل بطاعته.

(١) صحيح البخاري برقم (٤٨١٤)، وصحيح مسلم برقم (٢٩٥٥) واللفظ له.

﴿كَلَّا﴾ فليرتدع هذا الكافر، وليتزرع عن جهله وغروره وجحوده، لأنه ﴿لَمَّا يَقْضِ مَا أَمَرَهُ﴾ أي لم يقم بما أمره الله به من التكاليف الشرعية، وشكر الخالق على نعمه، وأداء فرائضه وأوامره، واجتناب نواهيه، فقد أحل به، فكان خلل بعض الناس بالكفر وبعضهم بالعصيان، ولم يقم بما أمر الله به إلا قليل.

ثم أرشد الله الإنسان إلى النظر والتأمل في طعامه، وكيف وصل إليه، بعد ما مرّ بأحوال عديدة واشترك في إعداده أعداد من البشر لا يعلم عددهم إلا الله .

قِصَّةُ نَشْأَةِ الطَّعَامِ وَتَكْوِينِهِ

٢٤-٢٦ - ﴿فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ إِلَى طَعَامِهِ﴾^(١) ﴿أَنَا صَبَبْنَا الْمَاءَ صَبًّا﴾^(٢) ثُمَّ شَقَقْنَا الْأَرْضَ شَقًّا^(٣) ﴿

فإذا أراد الإنسان أن يؤدي ما أمره الله به من أوامر ونواه، فعليه أن ينظر إلى تكوين الطعام ونشأة خلقه، وينظر إلى تهيئة الماء لنفعه، وشق الأرض لإخراج أنواع الغذاء للإنسان والحيوان، إبقاء على حياتهم، وليتدبر كيف أوجد الله طعامه، ورزقه إياه ومكّنه منه، ويسر له تحصيله، وجعله سبباً لحياته.

وليتأمل الإنسان مدخل ومخرج هذا الطعام، كيف يتلذذ به في دخوله، ويتقزز منه في خروج فضلاته، وكيف امتصّ الجسد منه ما به قوام حياته، ففي هذا ما يأخذ بيده إلى الإيمان، ويُعينه على طاعة الله تعالى، وإخلاص العبادة له.

ورد أن رجلاً استضافه عابد، فقدم إليه رغيفاً قفاراً، فكأن الرجل استخشنه، فقال له: كُلْهُ، فإن الله تعالى لم يُنعم به عليك وكَمَلَهُ لك حتى سَخَّرَ فيه ثلاث مئة وستين عاملاً منهم الماء والرياح والشمس^(٣).

(١) قوله تعالى: ﴿إِلَى طَعَامِهِ﴾ معدود آية عند جميع علماء العدد إلا المديني الأخير فلم يعده آية.

(٢) قرأ عاصم وحزمة والكسائي وخلف بفتح همزة ﴿أَنَا﴾ على تقدير لام العلة، أي لأننا، وقرأ الباقون عدا رويس بالكسر، وقرأ رويس بالفتح وصلاً، والكسر بدءاً.

(٣) تفسير ابن عطية (٤٣٩/٥).

ثم فصل سبحانه مراحل نشأة طعام الإنسان فقال: ﴿أَنَا صَبَّأُ لَمَّةٌ﴾ أي أنزلنا المطر بقوة وغزارة على الأرض، فصبيناه ﴿صَبَّأٌ﴾ أي أنزلناه بقُدْرَتنا إنزالاً غزيراً عجباً لحاجتكم الشديدة إليه، حيث لا تستطيعون الحياة بدونه.

﴿ثُمَّ شَقَقْنَا﴾ سطح ﴿الْأَرْضَ﴾ بالنبات ﴿شَقَقْنَا﴾ بديعاً محكماً، فخرج الزرع من باطن الأرض خروجاً يبهر النفوس، وتقر به العيون، كما قال تعالى: ﴿وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْ نَبَاتٍ شَتَّى﴾ [طه: ٥٣]. قال تعالى:

٢٧-٣٢- ﴿فَأَنْبَتْنَا فِيهَا حَبًّا (٢٧) وَعِنَبًا وَقَضْبًا (٢٨) وَزَيْتُونًا وَنَخْلًا (٢٩) وَحَدَائِقَ غُلَبًا (٣٠) وَفَلَكَهًى وَأَنَابًا (٣١) مَنَّاعًا لَكُمْ وَلِيَأْتَمِرْكُمُ (٣٢)﴾

أي: فأنبطنا في الأرض من هذا الماء حباً كثيراً، تقتاتون منه وتذخرون لحاجتكم، كالأرز والفول والعدس والحنطة والشعير والذرة، وسائر البقول مما يُقتات ويُذخر. فلفظ الحب: يشمل جميع الحبوب على اختلاف أصنافها.

وأخرجنا من الأرض ضمن الفواكه الكثيرة: عِنَباً شهيئاً لذيد الطعم والمذاق، كما أخرجنا من الأرض ما تأكله الدواب وترعاه من العشب والكلأ وهو «القضب» لأنه يُقَضَّب أي يُقَطَّع مرة بعد مرة، وقيل: القضب: كل ما يؤكل رطباً من النبات.

وأخرجنا من الأرض أشجار الزيتون والنخيل، يخرج منها الزيت، والرطب والبُسْر والتمر، وتخصيصهما بالذكر لما فيهما من الثمار المفيدة والمنافع الجمة.

وخص هذه الأربعة بالذكر وهي: (العنب والقضب والزيتون والنخل) لكثرة منافعها وفوائدها.

وأنبتنا في الأرض حدائق كثيرة، وبساتين مليئة بالزروع والثمار، مُلْتَفَّة الأشجار.

ومعنى ﴿غُلَبًا﴾ أي بساتين كثيرة وضخمة، متلاقية الأغصان والأطراف ملتفة الأشجار الكثير.

(١) عَذَّ ﴿لِيَأْتَمِرْكُمُ﴾ آية: الحجازيون والكوفي، وتركه البصري والشامي.

وأنبئنا في الأرض بقدرتنا وفضلنا: ألواناً من الفواكه والثمار، تؤكل للتفكه والتلذذ لا للقوت: كالتفاح والبرتقال والموز والمانجو والبطيخ.. الخ،،، كما أنبئنا الكلاً والعُشب الذي ترعاه الدواب، وهذا معنى الأب.

١ - سئل أبوبكر رضي الله عنه عن قوله تعالى: ﴿وَفَكَّهُ أَبًا﴾ فقال: أي سماء تظلني وأي أرض تقلني إذا قلت في كتاب الله ما لا أعلم^(١).

٢ - وعن أنس أن عمر رضي الله عنهما قرأ ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّى﴾ فلما أتى على هذه الآية ﴿وَفَكَّهُ أَبًا﴾ قال: عرفنا ما الفاكهة، فما الأب؟ فقال أنس: لعمرُك يا ابن الخطاب، إن هذا لهو التكلف^(٢).

قال ابن كثير: وهو محمول على أنه أراد أن يعرف شكله وجنسه وعينه، وإلا فإن كل من قرأ هذه الآية يعلم أنه من نبات الأرض.

٣ - وعن عمر رضي الله عنه بلفظ فيه زيادة، أنه قرأ هذه الآية فقال: كل هذا قد عرفناه، فما الأب؟ ثم رفع عصاً كانت في يده وقال: هذا لعمرُ الله التكلف، وما عليك يا بن أم عمر أن لا تدري ما الأب؟ ثم قال: اتبعوا ما تبين لكم من هذا الكتاب وما لا فدعوه^(٣).

قال الزمخشري: إن الآية مسوقة في الامتنان على الإنسان بمطعمه واستدعاء شكره، وقد غلم من فحوى الآية أن الأب بعض ما أنبته الله للإنسان متاعاً له ولأنعامه، فعليك بما هو أهم من النهوض بالشكر لله تعالى، ولا تتشاغل عنه بطلب معنى الأب، ومعرفة النبات الخاص الذي هو اسم له، واكتف بمعرفته في الجملة إلى أن يتبين لك في غير هذا الوقت^(٤).

(١) فضائل القرآن لأبي عبيد (ص ٢٢٧)، وفي إسناده انقطاع بين إبراهيم التيمي وأبي بكر، وأخرجه عبد بن حميد كما في تخريج الكشاف (١٥٨/٤) وهو في فتح الباري (٢٧١/١٣).

(٢) تفسير الطبري (٣٨٠/٣)، وابن أبي شيبة في المصنف (١٨٠/٧)، قال ابن كثير: فهذا إسناد صحيح، وقد رواه غير واحد عن أنس برقم (٣٢٥).

(٣) ينظر: ابن سعد (٣٢٧/٣)، والحاكم (٢٩٠/٢)، وتفسير سعيد بن منصور (٤٣)، والبيهقي في الشعب (٢٢٨١).

(٤) تفسير الكشاف (٧٠٥/٤).

ويبدو أن الأب يطلق على أشياء كثيرة من النبات الذي ترعاه الأنعام، ومنها: التبن، ويابس ورق الشجر، والبرسيم وحشيش الأرض ونحو ذلك.

في حديث ابن عباس رضي الله عنهما قال: كان عمر رضي الله عنه يدعوني مع أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم فيقول لي: لا تتكلم حتى يتكلموا، قال: فدعاهم فسألهم عن ليلة القدر، فقال: رأيتم قول رسول الله صلى الله عليه وسلم (التمسوها في العشر الأواخر) أي ليلة ترونها؟ فقال: بعضهم: ليلة إحدى، وقال بعضهم: ليلة ثلاث، وقال آخر: خمس، وأنا ساكت، قال: - أي عمر - ما لك لا تتكلم؟ قال: قلت: إن أذنت لي يا أمير المؤمنين تكلمت؟ قال: فقال: ما أرسلت إليك إلا للتكلم، قال: فقلت: أحدثكم برأيي؟ قال: عن ذلك نسألك، قال: فقلت: السبع، رأيت الله عز وجل ذكر سبع سموات، ومن الأرض سبعا، وخلق الإنسان من سبع، ونبت الأرض سبع، قال: فقلت: إن الله يقول: ﴿ثُمَّ شَقَقْنَا الْأَرْضَ شَقًّا﴾ إلى قوله: ﴿وَنَكَبَهُ أَبًا﴾ والأب نبت الأرض، ما يأكله الدواب ولا يأكله الناس، قال: فقال عمر: أعجزتم أن تقولوا كما قال هذا الغلام الذي لم تجتمع شؤون رأسه بعد، إني والله ما أرى القول إلا كما قلت، وقال: (قد كنت أمرتك ألا تتكلم حتى يتكلموا، وإني أملك أن تتكلم معهم)^(١).

وقد خلق الله هذه الفواكه، وخلق الحب والغشيب، كي تنعموا بها أنتم وأنعامكم. هذه هي قصة نشأة الطعام وتكوينه، والمبدع لها هو الله الذي خلق الإنسان، فأنشأها وتعهدها في كل مراحلها، حتى الحبوب والبذور التي يضعها الإنسان في الأرض ﴿أَن تَزْرَعُونَهُ أَتَمْنَعُونَ﴾ [الواقعة: ٦٤].

إن التربة واحدة، والماء واحد، والبذر واحد ﴿يُسْقَى يَمَاءً وَاحِدٍ وَنُفِضَ لِبَعْضِهَا عَلَى بَعْضٍ فِي الْأَكْلِ﴾ [الرعد: ٤].

(١) صحيح ابن خزيمة برقم (٢١٧٢) قال محققه: إسناده صحيح، وأخرجه الحاكم في المستدرک (٤٣٧/١) من طريق عبد الله بن إدريس عن عاصم به، وقال صحيح على شرط مسلم ولم يخرجاه، ووافقه الذهبي، وذكره ابن حجر مختصرا في تفسيره أبًا، وصححه إسناده في الفتح (٢٧١/١٣).

﴿ وَهُوَ الَّذِي أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ نَبَاتَ كُلِّ شَيْءٍ فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِرًا مَخْرُجًا مِنْهُ حَبًّا
مُتَرَاجِبًا وَمِنَ النَّخْلِ مِنْ طَلْعِهَا قِنْوَانٌ دَانِيَةٌ وَجَنَّتٍ مِنْ أَعْنَابٍ وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَّانَ مُشْتَبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَبِهٍ انظُرُوا
إِلَى ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَيَنْعِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ [الأنعام: ٩٩] .

وهذه النعم خلقها الله لكم، وسخرها من أجلكم، لتتمتعوا بها أنتم وأنعامكم، فوجب
عليكم شكر المنعم بها وإفراده بالعبادة والإقبال عليه بالطاعة.

إنها أدلة على وحدانية الله تعالى في وجه الملاحظة ومن لا دين لهم، إنها أدلة على
البعث، ليتعرف العباد على ربهم، ويأخذوا الأهبة للقائه، فيفكرون: كيف خلقت هذه السنابل
الحافلة، والعناقيد الزاهية؟ وكيف توزعت عليها الحلاوة والعطور والأذواق؟ إن مبدع ذلك
من الأتربة والأرواث، هو الذي سيثبت الأجساد مرة أخرى، ثم يواجه كل إنسان بما قدّم!

الْقِيَامَةُ وَأَهْوَالُهَا وَانشغال كل إنسان بنفسه

٣٣-٣٧ - ﴿ فَإِذَا جَاءَتِ الصَّاعَةُ ^(١) (٣٣) يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ ^(٢) مِنْ أَخِيهِ ^(٣) وَأُمِّهِ وَأَبِيهِ ^(٤) وَصَحْبِهِ وَنَسَبِهِ

(٣٦) لِكُلِّ امْرِئٍ ^(٥) مِنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ ^(٦) ﴾

ثم ذكر الله تعالى بعض أهوال الصاعقة، وهي صيحة يوم القيامة التي تُصمّ من أهوالها
الأسماع، وذلك عند النفخة الثانية التي يخرج الناس بعدها من قبورهم للحساب والجزاء.
وسميت كذلك لأنها تصخّ الأذان أي تزلزلها لشدة صوتها.

فإذا جاءت صيحة القيامة، التي تنفطر منها القلوب وتنزعج لها الأسماء، من شدة
أهوالها وأحوالها، عندئذ يفر كل إنسان من أقرب الناس إليه، لأن مشغول بفكاك نفسه
وتخليصها مما هو فيه.

ويومئذ يكون الناس في كرب عظيم، وكل واحد يهرب من ألصق الناس به وأقربهم

(١) قوله تعالى: ﴿ فَإِذَا جَاءَتِ الصَّاعَةُ ﴾ معدود آية عند جميع علماء العدد إلا الدمشقي فلا يعده.

(٢) المرء (فيه لحمزة وقفاً وهشام بخلف عنه : النقل مع السكون المحض والروم والإشمام .

(٣) وقف حمزة وهشام بخلف عنه بإبدال همزة ﴿ امْرِئٍ ﴾ ياء مكسورة، ثم تسكن للوقف مع السكون المحض

والروم والتسهيل بالروم..

إليه، فمبلغ كل إنسان أن ينجو بنفسه، ويهرب من أخيه وأمه وأبيه وزوجته وبنيه. وخص هؤلاء نفر بالذكر لأنهم أخص القربات، وأولاهم بالحنو والرأفة، فالفرار منهم لا يكون إلا في أشد حالات الخوف والفرع، وهذا الفرار أو هذا التباعد خوفاً من المطالبة بالحقوق، حتى لا يطلب أحد من أحد مواساة، ولا تحمّل تبعات، ولا أوزار، ولا شيء من حسنات، أو التنازل عن حقوق وواجبات، وفي الدنيا كانوا يَحْتَمُونَ فيهم، ويتعززون بهم، ويتودّدون إليهم، وهم اليوم يفرون عنهم.

أخرج ابن عساكر عن الحسن قال: إن أول من يفر يوم القيامة من أبيه، إبراهيم، وأول من يفر من أمه، إبراهيم، وأول من يفر من ابنه، نوح، وأول من يفر من أخيه، هابيل، وأول من يفر من صاحبه، نوح ولوط، وتلا هذه الآية، فيرون أن هذه الآية نزلت فيهم^(١).

قال في التسهيل: ذكر تعالى فرار الإنسان من أحبابه، وربّهم على مراتبهم في الحنو والشفقة، فبدأ بالأقل وختم بالأكثر، لأن الإنسان أشد شفقة على بنيه من كل ما تقدم ذكره^(٢). فابتدأ بالأخ، لأنه أشد اتصالاً بأخيه في زمن الصبا، ثم ارتقى إلى الأبوين، لأنهما أشد قرباً، وقُدّمت الأم على الأب لكثرة حنوها على أبنائها، ثم انتقل إلى الزوجة، لأن أحوالها كثيرة، فقد تكون حسنة العشرة، أو سيئة العشرة.

والأقرب أن يكون المراد بالفرار من هؤلاء الأقارب الخمسة: إذا كانوا غير مسلمين، خشية أن يؤخذ بِحُزْمِهِمْ إذا ماتوا على الكفر.

ثم بين سبحانه أن سبب الفرار: هو انشغال كل إنسان بنفسه، وعدم التفكير في غيره، لشدة الهول، وعظم الخطب، كما صح في حديث الشفاعة أن كُلاً من أولي العزم من الرسل، حين تُطلَبُ منهم الشفاعة في الخلائق يوم القيامة يقول كل منهم: (نفسي، نفسي، لا أسأل اليوم إلا نفسي، حتى إن عيسى ابن مريم يقول: لا أسأله اليوم إلا نفسي، لا أسأله مريم التي ولدني).

(١) ابن عساكر (٨/٦٤).

(٢) التسهيل لعلوم التنزيل (١٨٠/٤).

وعن عكرمة عن ابن عباس ؓ أن النبي ﷺ قال: «تحشرون حفاة عراة غرلاً» فقالت امرأة: أيبصر بعضنا عورة بعض؟ قال: «يا فلانة ﴿لِكُلِّ امْرِئٍ مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ﴾»^(١).

وعن سودة زوج النبي ﷺ قالت: قال رسول الله ﷺ: «يُبْعَثُ النَّاسُ حَفَاةً عُرَاةً غُرَلًا، قَدْ أَجْمَهُمُ الْعِرْقُ، وَبَلَغَ شَحُومُ الْأَذَانِ»، فقلت: يا رسول الله، واسوأُتاه، ينظر بعضنا إلى بعض؟ فقال: «قد شُغِلَ النَّاسُ ﴿لِكُلِّ امْرِئٍ مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ﴾»^(٢).

ويوم القيامة يلقي الرجل زوجته، فيذكرها بما كان بينهما في الدنيا من حسن العشرة، ويطلب منها حسنة واحدة تهبها له، فتقول له: لعلي أنجو، إني أخاف ما تخاف.

ويلقى الرجل ابنه فيتعلق به، ويذكره بخُسن تربيته له، ثم يطلب منه حسنة ينجو بها، فيقول الولد: إني أتخوف مما تتخوف منه، فلا أستطيع أن أعطيك شيئاً^(٣).

ثم بين سبحانه أن الناس في هذا اليوم: سعداء وأشقياء، أما السعداء فقد ظهر في وجوههم السرور والبهجة، عند ما يعرفون نجاتهم من النار وفوزهم بالجنة، وأما الأشقياء، فتكون وجوههم سوداء مظلمة لما عرفت شقاءها وهلاكها.

وَصَفُّ وُجُوهِ أَهْلِ السَّعَادَةِ وَأَهْلِ الشَّقَاءِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ

٣٨-٤٢ - ﴿وُجُوهُ يَوْمَئِذٍ مُّسْفِرَةٌ ۖ ضَاحِكَةٌ مُّسْتَبْشِرَةٌ ۖ وَوُجُوهُ ۖ يَوْمَئِذٍ عَلَيْهَا غَبَرَةٌ ۖ تَرْفَعُهَا قَرَّةٌ ۖ

أُولَٰئِكَ هُمُ الْكَافِرَةُ الْفَجَرَةُ ۚ﴾^(٤٢)

(١) قال الترمذي: هذا حديث حسن صحيح برقم (٣٣٣٢)، وهو في صحيح سنن الترمذي (٢٦٥٢)، وعند

الحاكم (٢٥١/٢)، والنسائي في السنن الكبرى برقم (١١٦٤٧، ١١٦٤٨) عن عائشة.

(٢) معالم التنزيل للبغوي (٣٤٠/٨)، والحاكم بنحوه في المستدرک (٥١٤/٢)، وقال: صحيح على شرط مسلم

ولم يخرجاه بهذا اللفظ وأخرجه الطبراني (٩١)، قال الهيثمي: رجاله رجال الصحيح غير محمد بن عباس

وهو ثقة، مجمع الزوائد (٣٣٣/١٠)، والحديث عن عائشة في البخاري (٦٥٢٧)، ومسلم (٢٨٥٩)، وابن ماجه

(٤٢٧٦)، والمسند (٢٤٢٦٥)، والنسائي في الكبرى (١١٥٨٤، ٢٢٢١)، وجاء أيضاً عن ابن عباس وغيره.

(٣) جاء هذا المعنى عن عكرمة كما في تفسير ابن كثير (٣٢٥/٨).

ثم إن الناس يوم القيامة: إما مؤمنون، وجوههم مبيضة، وإما كافرون، وجوههم مسودة ﴿وَجُوهٌ يَوْمَئِذٍ مُّسْفِرَةٌ﴾ أي أن وجوه أهل النعيم مستبشرة، مسرورة، فرحة، من حُسن استقبال الملائكة، ومن حُسن العاقبة التي يرونها، وهؤلاء هم الذين خافوا مقام ربهم، ونهوا أنفسهم عن الهوى، ممن ذُكروا في آخر سورة النازعات في قوله تعالى: ﴿وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَىٰ ۖ﴾ ﴿٤٠﴾ فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَىٰ ﴿٤١﴾﴾ النازعات: ٤٠ - ٤١

فوجوههم يوم القيامة تتهلل إشراقاً وضياءً من أثر النعيم، فهي وجوه ﴿صَاحِكَةٌ مُّسْتَبْشِرَةٌ﴾ بهذا النعيم الدائم، وما ترى من كرامة الله ورضوانه. أما الصنف الآخر، وهم الكفار، فإن وجوههم تكون مغبرة مُكْفَهَرَةٌ، يعلوها السواد والكآبة، وتغشاها الذلة والمهانة ﴿وَجُوهٌ يَوْمَئِذٍ عَدُوَّةٌ﴾ مظلمة، عليها غبار، من شدة الهم والغم والكرب.

يغلب عليها الدخان والغبار والسواد، لشدة ما أصابها من خزي وخسران. وأصحاب هذا الوصف هم الذين كفروا بنعم الله تعالى، وكذبوا بآياته، وتَجَرَّؤُوا على محارمه بالفجور والطغيان ﴿أُولَٰئِكَ﴾ أي: أصحاب الوجوه التي يغلوها الغبار والسواد ﴿هُمُ الْكَافِرُ الْفَجْرُ﴾ الجامعون بين فساد الاعتقاد، وفساد القول والعمل، فجمعوا بهذا بين الكفر والفجور. وبهذا ذم الله تعالى قوم نوح عليه السلام كما جاء على لسانه ﴿وَلَا يَلِدُوا إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا﴾ [نوح: ٢٧].

لأنهم غير مؤمنين بالله ورسوله، وقد خرجوا عن حدوده تعالى، وانتهكوا حرمانه. وهؤلاء هم الذين جاء ذكرهم في سورة النازعات في قوله تعالى ﴿فَأَمَّا مَنْ طَغَىٰ﴾ ﴿٣٧﴾ وَأَثَرَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ ﴿٣٨﴾ فَإِنَّ الْجَحِيمَ هِيَ الْمَأْوَىٰ ﴿٣٩﴾﴾ [النازعات: ٣٧-٣٩].

تم تفسير (سورة عبس) والله الحمد والمنة

تَفْسِيرُ سُورَةِ التَّكْوِيرِ (٨١)

مُقَدِّمَةُ السُّورَةِ

(سورة التكويد) هي السورة الحادية والثمانون في ترتيب المصحف، والسابعة في ترتيب النزول، نزلت بعد (سورة الفاتحة) وقبل (سورة الأعلى)، فهي من أوائل ما نزل من القرآن. وتسمى سورة التكويد، وهو المشهور ويقال: سورة كُورَت، وعُثُون لها البخاري والترمذي والطبري (سورة إذا الشمس كورت) وهي سورة مكية باتفاق. وعدد آياتها تسع وعشرون آية عند الجميع، إلا المدني الأخير، فهي عنده ثمان وعشرون آية، وهي مئة وأربع كلمات، وخمس مئة وثلاثون حرفاً. وسورة التكويد على نصفين:

النصف الأول يتحدث عن يوم القيامة ومقدماته. وجاء ذلك في الأربع عشرة آية الأولى من السورة.

والنصف الآخر يتحدث عن أن القرآن الكريم وحى من عند الله تعالى، وأنه بلاغ وتذكرة لمن شاء أن يستقيم من العالمين. وجاء ذلك من الآية الخامسة عشر إلى نهاية السورة. أما النصف الأول فهو يتناول حقيقة القيامة وما يصاحبها من تغييرٍ لمعالم الكون في العالم العلوي والسفلي، فقد جاء عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال: «من سره أن ينظر إلى يوم القيامة كأنه رأي عين، فليقرأ: ﴿إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ﴾ و﴿إِذَا السَّمَاءُ انْفَطَرَتْ﴾ و﴿إِذَا السَّمَاءُ أُنشَقَّتْ﴾^(١).

(١) المسند (٣٦/٢) (٥٧٥٥، ٤٨٠٦) بإسناد حسن (محققه)، والترمذي (٣٣٣٣) وقال: حسن غريب، وصحيح سنن الترمذي (٢٦٥٣) بتصحيح الألباني له، وصححه الحاكم ووافقه الذهبي في المستدرک (٥٧٦/٤)، وقال الهيثمي في مجمع الزوائد (١٣٤/٧): رواه أحمد بإسنادين ورجالهما ثقات، ونقله عن الطبراني، وصححه الألباني في سلسلة الأحاديث الصحيحة برقم (١٠٨١)، وفي صحيح الترغيب والترهيب (١٤٧).

وأخرج الطبري وغيره بسند جيد عن أبي العالية قال: حدثني أبي بن كعب رضي الله عنه، وقال: ست آيات قبل يوم القيامة، بينما الناس في أسواقهم، إذ ذهب ضوء الشمس، فبينما هم كذلك، إذ تناثرت النجوم، فبينما هم كذلك إذ وقعت الجبال على وجه الأرض، فتحركت واضطربت واحترقت، وفزعت الجن إلى الإنس، والإنس إلى الجن، واختلطت الدواب والطير والوحوش، وماجوا بعضهم في بعض ﴿وَإِذَا الْوُحُوشُ حُشِرَتْ﴾ قال: اختلطت، و ﴿وَإِذَا الْعِشَارُ عُطِّلَتْ﴾ قال: أهملها أهلها ﴿وَإِذَا الْيَحَارُ سُجِّرَتْ﴾ قال: قالت الجن للإنس: نحن نأتيكم بالخبر، قال: فانطلقوا إلى البحار، فإذا هي نار تتأجج، قال: فبينما هم كذلك إذ تصدعت الأرض صدعة واحدة إلى الأرض السابعة السفلى، وإلى السماء السابعة العليا، قال: فبينما هم كذلك إذ جاءتهم الرياح فأماتتهم^(١).

وقد ذكرت سورة التكويد في الأربعة عشر آية الأولى، اثني عشر حدثاً، ستة منها تقع في آخر الحياة الدنيا، تصاحب قيام الساعة، وعودة الناس إلى ربهم للحساب الكبير، وهذه الأحداث هي:

١- توقف إشعاع الشمس، و مجيء الظلام الذي يسود العالم ﴿وَإِذَا النُّجُومُ كُورَتْ﴾ [التكويد: ١].

٢- تساقط النجوم واختلال نظامها ﴿وَإِذَا النُّجُومُ انْكَدَرَتْ﴾ [التكويد: ٢].

٣- نسف الجبال وتفتتها ﴿وَإِذَا الْجِبَالُ سُيِّرَتْ﴾ [التكويد: ٣].

٤- توقف الإنسان والحيوان عن الإنجاب، وتوقف عجلة الحياة عن الحركة،

وامتناع نزول المطر ﴿وَإِذَا الْعِشَارُ عُطِّلَتْ﴾ [التكويد: ٤].

٥- تلاقي الوحوش من مقارها البعيدة ﴿وَإِذَا الْوُحُوشُ حُشِرَتْ﴾ [التكويد: ٥].

٦- امتلاء البحار وفيضانها، وانفجارها حتى تطارد الإنسان والحيوان، وتؤجج بالنار

﴿وَإِذَا الْيَحَارُ سُجِّرَتْ﴾ [التكويد: ٦].

(١) تفسير الطبري (٤٣/٣٠)، وابن أبي الدنيا (٢٣)، وابن أبي حاتم كما في تفسير ابن كثير (٣٥٣/٨)، ونقله السيوطي في الدر (٢٥٩/١٥) عن عبد بن حميد وابن المنذر.

وستة أخرى تحصل في الآخرة وهي:

- ١- عودة الأرواح إلى أبدانها بعد فراقها أمداً بعيداً، وتلاقي كل نظير بنظيره.
﴿وَإِذَا النُّفُوسُ زُوِّجَتْ﴾ [التكوير: ٧].
- ٢- تطيب خاطر المؤودة وتبكيث وائدها: ﴿وَإِذَا الْمَوْءِدَةُ سُئِلَتْ ﴿٨﴾ بِأَيِّ ذَنْبٍ قُتِلَتْ﴾ [التكوير: ٨-٩].
- ٣- نُشْرُ الصحف، وتسلم كل إنسان كتاب أعماله بما فيه من خير أو شر.
﴿وَإِذَا الصُّحُفُ نُشِرَتْ﴾ [التكوير: ١٠].
- ٤- مخوُُ معالم السماء، بعد أن فُتِحَتْ أبواباً لعروج الملائكة، إلى أن يتم الفصل والقضاء ﴿وَإِذَا السَّمَاءُ كُشِطَتْ﴾ [التكوير: ١١].
- ٥- استقبال جهنم للمجرمين ﴿وَإِذَا الْجَحِيمُ سُعِرَتْ﴾ [التكوير: ١٢].
- ٦- وتقريب النعيم من أهل الجنة ﴿وَإِذَا الْجَنَّةُ أُنْزِلَتْ﴾ [التكوير: ١٣].
فهذا تلخيص لما يقع عند قيام الساعة، وتوزيع للناس على مصيرهم المحتوم بعد قيامها.
وقد شمل هذا التغيير: الشمس، والنجوم، والجبال، والبحار، والأرض، والسماء، والأنعام، والوحوش، والبشر.
وبدئ كل منها بلفظ ﴿إِذَا﴾ لأن كل حدث منها مستقل بنفسه.
وجواب الشرط في الجميع قوله تعالى: ﴿عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّا أَحْضَرَتْ﴾.
أما النصف الثاني: من السورة، فهو يتناول حقيقة الوحي وما يتعلق به، من صفة الملك الذي يخمُله، وصفة النبي الذي يتلقاه، وصفة القرآن المنزل عليه، وشأن القوم المخاطبين به.
فيبدأ هذا النصف بالقسم بالنجوم، وبالليل والصبح، على أن كتاب الله تعالى، هو الكتاب الحق الوحيد الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه.
وقد حَمَلَ هذا الوحي إلى الأرض ملك أمين عليه، مقرب عند الله تعالى، صاحب قوة وبطش، وصاحب ثبات في تنفيذ أمر الله تعالى، وقد رآه النبي ﷺ على صورته الحقيقية حين نزل عليه أول مرة بالأفق المبين.

وهذا النبي الكريم منزّه عما يصفه به المكذبون من السحر والجنون، وقد جاء بكتاب يُنذِر البشر أجمعين ويأمرهم بالانخراط في طريق الاستقامة والحق والإيمان، وهذا الكتاب يقرر عالمية الرسالة، والذين يَخْرُجُونَ عنه عاقِبُونَ لُوحِي السماء.

وقد خُتِمت السورة ببطلان مزاعم المكذِبين المعارضين للقرآن، في أنه ليس من عند الله تعالى، وإنما ينتفع به من فَتَحُوا قلوبهم للحق، ولم يُعْطَلُوا حواسهم ومداركهم عما خُلِقَتْ لأجله.

والسورة تهزّ النفس البشرية هزاً عنيفاً، وتروّع الآمن، وينخلع لها القلب، ويقشعر لها البدن، فتأخذ بيد الإنسان إلى الملاء الآمن في كَنَفِ الله تعالى، وتجعله يأوي إلى حِمَاه، ويطلب عنده الأمن والطمأنينة.

* * *

تفسيرُ السُّورةِ

المَوْضُوعُ الْأَوَّلُ فِي السُّورةِ: سِنَةُ أَحْدَاثٍ تَقَعُ فِي الدُّنْيَا عِنْدَ قِيَامِ السَّاعَةِ

الحدث الأول: توقف شعاع الشمس:

١ - ﴿إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ﴾ (١)

يبدأ انفراط عِقد نظام هذا الكون، وتناثر أجزائه، وانتهاء صفحة الحياة الدنيا، وتبديل الأرض غير الأرض والسموات، يبدأ كل ذلك بالظلام الذي يسود العالم، فإذا الشمس تبزّد، وتنطفئ شعلتها، وتنكمش ألسنتها الملتهبة، فتحول إلى حالة تجمّد، كقشرة الأرض، ويكون ذلك عندما تكور الشمس، أي تُجمع وتُلف، ويُخسف القمر، ويُلقيان في النار.

وقد أفاد الزمخشري أن التكويد له معنيان:

أحدهما: أن يكون التكويد من كُوِّرَت العمامة، إذا لَفَفْتُها، وهو عبارة عن إزالتها والذهاب بها.

وثانيهما: أن يكون لَفُها بمعنى رَفَعها وسَثَرها، لأن الثوب إذا أريد رَفَعه: لُف وطُوى^(١).
﴿إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ﴾ أي لُفَّت وجُعِلَت كالكرة، كما تُلف العمامة، فكُورت وذهب ضوؤها، لأن الله تعالى جعل لها أجلاً مسمى تنتهي إليه، وتتوقف عن حركتها فيه، كما قال تعالى ﴿وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ [الزمر: ٥] فإذا جاء هذا الأجل توقفت عن جريانها.

وهذا معنى اجتماع الشمس والقمر عند قيام الساعة في قوله تعالى: ﴿وَجُمِعَ الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ﴾ [القيامة: ٩] وما كان لهما أن يجتمعا قبل ذلك ﴿لَا الشَّمْسُ يَنْبَغِي لَهَا أَنْ تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلَا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ كُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾ [يس: ٤٠].

ويكون اجتماع الشمس مع القمر عندما يقال لها: عودي من حيث جئت، فتطلع من

(١) ينظر تفسير الكشاف (٧٠٧/٤).

مغربها، وتجتمع مع القمر، ويضم بعضها إلى بعض، ثم تُلَف ويذهب ضوءها بعد أن كان منبسطاً غير ملفوف.

عن أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «الشمس والقمر يُكَوِّران يوم القيامة»^(١).

قيل: إن الشمس والقمر جمادان، فإلقاؤهما في النار يكون سبباً لازدياد الحر في جهنم.

وقيل: إن لف الشمس يعني رفعها وسترها وطبها كما في قوله تعالى: ﴿يَوْمَ نَطْوِي

السَّمَاءَ كَطَيِّ السِّجِلِّ لِلْكُتُبِ﴾^(٢) [الأنبياء: ١٠٤].

والمعنى: إذا الشمس أزيل ضوءها بعد انتشاره وانبساطه، فأصبحت مظلمة بعد أن كانت

مضيئة، ومستترة بعد أن كانت بارزة، فعند ذلك تقوم الساعة، ويعرف كل إنسان مصيره.

الْحَدِيثُ الثَّانِي: تَسَاقُطُ النُّجُومِ

٢ - ﴿وَإِذَا النُّجُومُ انْكَدَرَتْ﴾^(٣)

أي أن النجوم تتناثر من السماء وتساقط من أفلاكها وتتغير وتنقلب هيئاتها، كما قال تعالى: ﴿وَإِذَا الْكَوَاكِبُ انْتَرَتْ﴾ [الانفطار: ٢] فإذا تناثرت ذهبت من أماكنها، وتغير نظامها، فتطمس ويذهب نورها، كما قال تعالى: ﴿فَإِذَا النُّجُومُ طُمِسَتْ﴾ [المرسلات: ٨] وهذا معنى الانكدار، وهو التغير لأحوالها، حينما يتغير لونها من اللمعان والظهور، إلى الظلام الدامس، ثم تنقُض وتتصبب، وهي تهوى وتسقط.

الْحَدِيثُ الثَّالِثُ: زَوَالُ الْجِبَالِ عَنْ أَمَاكِنِهَا

٣ - ﴿وَإِذَا الْجِبَالُ سُيِّرَتْ﴾^(٤)

أي أن الجبال تقلع من أماكنها فتفتت، وتتناثر، وتصير كشيء مهيلاً، ثم تصير كالعهن المنفوش، وتُسَيَّر في الفضاء بقدرة الله تعالى، فتكون هباءً مثوراً وتسير عن أماكنها:

(١) أخرجه البخاري برقم (٣٢٠٠)، وأخرجه البزار في مسنده بزيادة «في النار».

(٢) أخرجه مسلم برقم (٢٥٨٢)، والمسند (٧٢٠٤، ٧٩٩٦، ٨٨٤٧)، وصحيح سنن الترمذي (١٩٧٢)، والسلسلة الصحيحة (١٥٨٨).

- ١- كما قال تعالى: ﴿وَسُيِّرَتِ الْجِبَالُ فَكَانَتْ سَرَابًا﴾ [النبا: ٢٠].
- ٢- وقال سبحانه: ﴿وَيَوْمَ نُسَيِّرُ الْجِبَالَ وَتَرَى الْأَرْضَ بَارِزَةً وَحَشَرْنَاهُمْ فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَدًا﴾ [الكهف: ٤٧].
- ٣- وقال جل شأنه: ﴿وُسِّتِ الْجِبَالُ بَسًا﴾ ⑤ ﴿فَكَانَتْ هَبَاءً مُتَّبِنًا﴾ [الواقعة: ٥ - ٦].
- ٤- وقال عز وجل: ﴿يَوْمَ تَرْجُفُ الْأَرْضُ وَالْجِبَالُ وَكَانَتِ الْجِبَالُ كَيْبًا مِهِيلًا﴾ [المزمل: ١٤].
- ٥- وقال تعالى: ﴿وَتَكُونُ الْجِبَالُ كَالْعِهْنِ الْمَنفُوشِ﴾ [القارعة: ٥].

الحدث الرابع: توقف الحمل والإنجاب

٤ - ﴿وَإِذَا الْعِشَارُ عُطِّلَتْ﴾ ⑥

وعند قيام الساعة، تتوقف عجلة الحياة، فالسعي على المعاش لا حاجة له، حيث يعطل الناس أنفس أموالهم من تجارات وأسهم وزراعة وصناعة، ويترك كل عامل عمله، ويُهمل كل راع ما كان يرعاه، وتتوقف حركة الحمل والإنجاب في الإنسان والحيوان، كما أن السحب المحملة بالأمطار تخلو من المياه، فتتوقف السماء عن الأمطار.

والعشار هي: النوق الحوامل. والناقة العُشراء، هي الحامل، إذا بلغ حملها عشرة أشهر، وأوشكت على وضع الحمل، لأن الناقة تحمل عاماً كاملاً، ومع أنها أنفس الأموال عند أصحابها، فإنها تُعطل عن الحركة وعن الحمل، وتُهمل ولا تجد من يرعاها عندما تقوم الساعة، والتعبير بالعشار، وهي النوق التي تتبعها أولادها، للتنبيه بها على ما عداها، فقد جاء للناس ما يذهلهم عن أموالهم وعن معاشهم.

ويُستعار معنى العشار: للسحب الممتلئة بالماء عندما يُحبس عن النزول، أو أن السحاب الثقيل لا تتجمع ولا تحمل ماء، فيتعطل تكوينها وذلك عندما يهلك الناس والأنعام.. والآية محتملة لهذا وذاك.

الحدث الخامس: حشر الوحوش والحيوانات

٥ - ﴿وَإِذَا الْوُحُوشُ حُشِرَتْ﴾ ⑦

ويوم القيامة تُجمع الحيوانات الوحشية كالأسد والنمر، وتختلط في صعيد واحد، لِيَقْتَصَّ الله من بعضها لبعض، حتى إنه لَيَقْتَصَّ للشاة الجماء من الشاة القرناء وذلك أنه عند اقتراب فناء العالم، يغمُر الأرض فيضان البحار، فكلما غمر جزءاً من الأرض، فَرَّتْ وحوشهُ حتى تجتمع في مكان واحد، تطلب النجاة من الهلاك، فإن مِنْ طَبَع الوحوش أن ينفِرَ بعضها عن بعض، ولكنها من شدة الهول تتجمع في مكان واحد، ولا يعتدي بعضها على بعض، ولا يفترس بعضها بعضاً، لأنها قد أذهلت عما في طبعها.

وتسجير البحار في الآية التالية يرشح هذا المعنى، ويوصى به. وهذا الحشر للحيوانات من أشراط الساعة، وليس هو اليوم الذي يحشر الناس فيه للحساب. جاء في حديث أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «لَتُؤَدَّنَ الحقوق إلى أهلها يوم القيامة حتى يُقَادَ للشاة الجماء من الشاة القرناء»^(١).

والوحش هو الحيوان البري غير المستأنس بالناس. وفي حشر الوحوش يوم القيامة خلاف:

١- فقال ابن عباس: تحشر بالموت، ولا تُبعث في القيامة، ولا يحضر القيامة غير الثقلين.

٢- وقال قتادة وجماعة: تحشر يوم القيامة، ويُقتَصَّ للجماء من القرناء، فجعلوا الحديث الوارد في ذلك على الحقيقة، وليس مثلاً في العدل.

٣- وقال أبي بن كعب: تحشر في الدنيا في أول أهوال القيامة، فتجتمع إلى بني آدم تأنيساً، بهم ولا تفرّ في الأرض^(٢).

الْحَدِيثُ السَّادِسُ: تَسْجِيرُ الْبَحَارِ

٦ - ﴿وَإِذَا أَلْبَحَارُ سُجِّرَتْ^(٣)﴾

(١) صحيح مسلم برقم (٢٥٨٢)، والمسند (٧٢٠٤، ٧٩٩٦، ٨٨٤٧)، وصححة الألباني في صحيح سنن الترمذى (١٩٧٢)، والسلسلة الصحيحة (١٥٨٨).

(٢) تنظر هذه الأقوال في تفسير ابن عطية (٤٤١/٥).

(٣) قرأ ابن كثير وأبو عمرو ويعقوب بخلف عن رويس بتخفيف الجيم من ﴿سُجِّرَتْ﴾ على الأصل، والباقون بتشديدها على التكثير.

أما تسجير البحار، فمعناه أنها تمتلئ بالمياه، حتى يفيض من جوانبها، ويتجاوز معدله سطح الأرض، فيختلط بعض البحار ببعض، وتتفجر وتسيل، ويختلط الماء بالرمال فيتغير لونها، ويختلط العذب بالملح، وتصير بحراً واحداً، وذلك باختلال قوة الهواء الضاغطة عليها، قال تعالى: ﴿وَإِذَا الْبِحَارُ فُجِرَتْ﴾ [الانفطار: ٣].
وتدفق مياه البحار بعضها في بعض، يكون بالزلازل والبراكين التي تُزيل الحواجز بين البحار.

قال تعالى: ﴿وَالْبَحْرِ الْمَسْجُورِ﴾ [الطور: ٦].
قال ابن عباس في معنى ﴿سُجِّرَتْ﴾ أوقدت، فصارت ناراً تضطرم^(١).
وأثبت العلم أن تحت البحر ناراً، فإذا فاضت البحار ظهرت النيران في أماكنها، وحينئذ تتأجج النار، فتلتهب، ويضطرم بعضها في بعض.
وفي الأثر عن عبد الله بن عمرو رضي الله عنه: (لا يركب البحر إلا حاج أو معتمر أو غازٍ في سبيل الله، فإن تحت البحر ناراً، وتحت النار بحراً...) ^(٢).
وقال علي رضي الله عنه لرجل من اليهود: أين جهنم؟ قال: البحر، فقال: ما أراه إلا صادقاً
﴿وَالْبَحْرِ الْمَسْجُورِ﴾ [الطور: ٦] ﴿وَإِذَا الْبِحَارُ سُجِّرَتْ﴾ ^(٣).

سَيِّئَةُ أَحْدَاثٍ أُخْرَى تَقَعُ فِي الْآخِرَةِ بَعْدَ قِيَامِ السَّاعَةِ

الحدث الأول: عودة الأرواح إلى الأبدان وتلاقي كل نظير بنظيره

٧ - ﴿وَإِذَا النُّفُوسُ رُويَتْ﴾ ﴿٧﴾

تزويج النفوس له معنيان:

أحدهما: إعادة الروح إلى الجسد عند البعث.

(١) تفسير الخازن (٣٥٥/٤).

(٢) أبوداود برقم (٢٤٨٩) باب ركوب البحر في الغزو، وفي رفعه مقال.

(٣) تفسير الطبري (٤٣/٣٠).

وثانيهما: أن كل قرين يتبع قرينه، فالمسلمون مع المسلمين، واليهود مع اليهود، وهكذا، يقرن كل صاحب عمل مع نظيره: الأبرار مع الأبرار، والفجار مع الفجار.

ومن ذلك أن كل من كان يعبد غير الله تعالى فإنه يتبعه.

ومن ذلك أيضاً أن المؤمنين يزوجون بالحوار العين، وأن الكفار يُقرنون بالشياطين.

وهكذا شرع سبحانه وتعالى في ذكر الأحوال الستة الحاصلة في الآخرة يوم القيامة،

وهي التي تقع عقب الأحوال الستة السابق ذكرها.

وأول شيء يحدث هو: تزويج الأرواح بالأجساد المخصصة لها، وعودتها لها، فيصير

الروح زوجاً بعد أن كان فرداً لا جسم له في عالم الأرواح، فتعطى الأرواح للأجساد،

ويُعاد خلقها، فأول منازل البعث وتحقق وقوعه يكون باقتران الأرواح بالأجساد.

ثم إن الناس في عرصات القيامة، بالنسبة إلى مراتبهم في الحشر على قسمين:

حيث يساق الكفار مع الكفار إلى جهنم زمراً، ﴿وَسِيقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَىٰ جَهَنَّمَ زُمَرًا﴾

[الزمر: ٧١] ويساق المتقون مع المتقين إلى الجنة زمراً، ﴿وَسِيقَ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ إِلَىٰ الْجَنَّةِ

زُمَرًا﴾ [الزمر: ٧٣].

وفي أول سورة الواقعة ونهايتها تصنيف الناس يوم الحشر إلى ثلاثة أصناف:

١- السابقون المقربون. ٢- وعامة المؤمنين من أصحاب اليمين.

٣- ثم الكفار الفجار المكذبون الضالون، وهم أصحاب المشأمة.

وحينئذ فإن كل صنف يُضم إلى طائفته ممن هو في طبقته، فالصالح مع الصالح،

والطالح مع الطالح، والعاصي مع العاصي، وأهل الجنة مع أهل الجنة، كل مع من

يمثله في الدرجة والمنزلة، وأهل النار كذلك، فكل إنسان يقرن بنظيره.

وهذا معنى: تزويج النفوس، كما قال تعالى: ﴿وَكُنْتُمْ أَزْوَاجًا ثَلَاثَةً﴾ [الواقعة: ٧].

والمرء على دين خليله فلينظر أحدكم من يخالل، والمرء مع من أحب.

قال تعالى ﴿الْأَخِلَاءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا الْمُتَّقِينَ﴾ [الزخرف: ٦٧].

قال عمر رضي الله عنه في معنى النفوس زوجت: يزوج كل نظير نظيره من أهل الجنة والنار، ثم قرأ: ﴿أَخْشَرُوا الَّذِينَ ظَلَمُوا وَأَزْوَاجَهُمْ وَمَا كَانُوا يَعْبُدُونَ﴾ (٢٢) مِنْ دُونِ اللَّهِ فَاهْدُوهُمْ إِلَى صِرَاطِ الْجَحِيمِ ﴿٢٣﴾ وَقَفَّوهُمْ فِيهِمْ مَسْئُولُونَ ﴿٢٤﴾ [الصفات: ٢٢ - ٢٤].

ولفظ الحاكم: هما الرجلان يعملان العمل، يدخلان به الجنة والنار: الفاجر مع الفاجر، والصالح مع الصالح. فيقرن بين الرجل الصالح مع الرجل الصالح في الجنة، ويقرن بين الرجل السوء مع الرجل السوء في النار^(١).

ومن ذلك أن المؤمنين يُزَوَّجون بالحوار العين، ويزوَّج الكافرون بالشياطين^(٢).

الْحَدَّثُ الثَّانِي: تَطْيِيبُ خَاطِرِ الْمُؤْوَدَةِ وَتَبْكِيَتِ مَنْ وَأَدَهَا

٨، ٩ - ﴿وَإِذَا الْمَوْءِدَةُ^(٤) سَلَّتْ^(٥) بِأَيِّ^(٦) ذَنْبٍ قُتِلَتْ^(٧)﴾

ويوم القيامة يتوجه سؤال عجيب غريب إلى المؤودة: فقد جرت العادة أن الظالم هو الذي يُسأل، أما هذا السؤال فإنه يُوجَّه للمظلوم، فكيف بالظالم؟ إن الطفلة التي دُفنت وهي حية، تُسأل يوم القيامة سؤال تطيب لها، وتبكي لوائدها: بأي ذنب دُفنت

(١) أخرجه ابن مردويه عن النعمان بن بشير (٦٩٤/٨)، قال ابن حجر: وصله عبد بن حميد، والحاكم وأبو نعيم في الحلية ثم قال: وهذا إسناد متصل صحيح، وهو أيضا في تغليق التعليق (٣٦١/٤).

(٢) ورد هذا عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه كما أخرجه عبد الرزاق (٣٥٠/٢) وابن أبي شيبة (٢٧٩/١٣) والطبري (١٤٢/٢٤) والحاكم (٥١٥/٢).

(٣) التذكرة في أحوال الموتى وأمور الآخرة للقرطبي (ص ٢١٣).

(٤) وقف حمزة على ﴿الْمَوْءِدَةُ﴾ بالنقل والإدغام، ووقف الكسائي بإمالة هاء التأنيث قولاً واحداً، والباقون بتحقيق الهمزة وعدم إمالة الهاء.

(٥) وقف حمزة على ﴿سَلَّتْ﴾ بالتسهيل بين بين، وله أيضاً الإبدال ياء، على مذهب الأخفش، ووقف باقي القراء بتحقيق الهمزة.

(٦) قرأ الأصبهاني بإبدال الهمزة ياء في ﴿بِأَيِّ﴾ بخلف عنه، ولحمزة وقفا: التحقيق والإبدال ياء، وباقي القراء بتحقيق الهمزة وصلأ ووقفاً.

(٧) قرأ أبو جعفر بتشديد التاء من ﴿قُتِلَتْ﴾ على التكثير، والباقون بالتخفيف على الأصل.

في التراب؟ ما هو ذنبها حتى قُتلت؟

ولا شك أنها لم ترتكب ما يوجب قتلها، وإنما القصد من ذلك: إلزام قائلها بالحجة، وتقريعه وتوبيخه.

قال تعالى: ﴿وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِالْأُنثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ ﴿٥٨﴾ يَتَوَارَىٰ مِنَ الْقَوْمِ مِنْ سُوءِ مَا بُشِّرَ بِهِ ۖ أَيُمْسِكُهُ عَلَىٰ هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُ فِي التُّرَابِ ۗ أَلَا سَاءَ يَحْكُمُونَ ﴿٥٩﴾﴾ [النحل: ٥٨، ٥٩].

وقال سبحانه: ﴿وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِمَا ضَرَبَ لِلرَّحْمَنِ مَثَلًا ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ ﴿١٧﴾﴾ [الزخرف: ١٧].
وكان الكثير من قبائل العرب لا يفعلون هذا الواد، وينكرونه ولا يرضون عنه، وقد عُرف الواد في قبائل ربيعة وكندة وتميم، وكانوا يفعلون ذلك خوفاً من الفقر والعار، وهذه صور من الواد في الجاهلية:

١- جاء عن ابن عباس رضي الله عنهما أن المرأة كانت في الجاهلية إذا حملت، وحن وقت ولادتها، حفرت لها حفرة، وجعلت المخاض يأتيها على رأس هذه الحفرة، فإن خرج المولود بنتاً رمث بها في الحفرة، ووارثها التراب، وإن كان ولداً أبقتة^(١) نحمد الله على نعمة الإسلام !!

٢- وعن سلمة بن يزيد الجعفي قال: ذهبْتُ أنا وأخي إلى رسول الله ﷺ قلت: يا رسول الله: إن أمتنا كانت في الجاهلية تقري الضيف، وتصل الرحم، هل ينفعها عملها ذلك؟ قال: لا، قال: فإنها أودت أختاً لها في الجاهلية لم تبلغ الحنث؟ فقال ﷺ «الموودة والوائدة في النار، إلا أن تدرك الوائدة الإسلام»^(٢) وكونهما في النار لأنهما أهل كفر وشرك.

٣ - وكان بعض الرجال إذا وُلدت له بنت، وأراد بقاءها، ألبسها جبة من صوف أو من شعر، وجعلها ترعى الإبل والغنم في البادية، فإن عَزم على وأداها تركها حتى تبلغ السادسة، ثم قال لأُمها: طيِّبها، وزَيِّنْها، حتى أذهب بها إلى أحمائها، فيأخذها إلى بئر

(١) ينظر: الدر المنثور (٢٦٢/١٥).

(٢) السنن الكبرى للنسائي (١١٥٨٥)، والطبراني في الكبير (٦٣١٩)، وأحمد في المسند (١٥٩٣٢)
قال محققوه: رجاله ثقات رجال الشيخين غير داود بن أبي هند فمن رجال مسلم.

أعدّها، ثم يقول لها: انظري، فإذا نظرت، دفعها من ورائها وهال عليها التراب، حتى تستوي البئر بالأرض^(١).

٤- جاء قيس بن عاصم إلى النبي ﷺ فقال يا رسول الله: إني وأذت بنات لي في الجاهلية، في بعض الروايات أنهن: ثمان، وفي بعضها: عشر، وفي بعضها: ثلاث عشرة، فقال: «اعتق عن كل واحدة منهن».

وفي رواية: «اعتق عددهن نَسْماً»، فأعتق عددهن نَسْماً، فلما كان العام القادم جاء بمئة ناقة، فقال: يا رسول الله، هذه صدقة قومي على إثر ما صنعتُ بالمسلمين^(٢).
والوَاد أفطع أعمال أهل الشرك، لأن الفطرة تقضي بحرص الآباء على أبنائهم، وهو أفطع طريقة لإزهاق الروح.

٥- وكان صعصة «جَدّ الفرزدق» من بني تميم: يفتدي من يعلم أنه يريد وأد ابنته، فكان يعطيه ناقتين عُشراوين وجَمَل^(٣).

٦- وأخرج مسلم وغيره بسنده عن عائشة، عن أخت عكاشة «جذامة بنت وهب» قالت: حضرت رسول الله ﷺ في أناس وهو يقول: «لقد هممتُ أن أنهي عن الغيلة، فنظرت في الروم وفارس، فإذا هم يغيلون أولادهم، فلا يضر أولادهم ذلك شيئاً» ثم سأله عن العزل؟ فقال رسول الله ﷺ: «ذلك الوَاد الخفي»^(٤).

٧- وقد جاء عن عمر ؓ قال: أمران في الجاهلية:
أحدهما يُبكي، والآخر يضحك، أما الذي يبكي فقد ذهب بابه لي لِوَادها،

(١) من تفسير الكشاف والخازن للآية (٣٥٦/٤).

(٢) ينظر الأثر: في مسند البزار (كشف الأستار) برقم (٢٢٨٠، ٢٣٨)، والطبراني في المعجم الكبير (٣٣٨/١٨)، والبيهقي في السنن (١١٦/٨).

(٣) تفسير التحرير والتنوير (١٤٦/٣٠)، قال الهيثمي في مجمع الزوائد (١٣٤/٧): رجال البزار رجال الصحيح غير حسين بن مهدي الإيلي، وهو ثقة.

(٤) صحيح مسلم برقم (١٤٤٢)، وأبوداود (٣٨٨٢)، والترمذي (٢٠٧٧)، والنسائي (٣٣٦٦)، وابن ماجه (٢٠١١)، والطبراني (٢٠٩/٢٤)، وأحمد (٢٧٠٣٦، ٢٧٠٣٧).

فكنث أحفر لها الحفرة، وتنفض التراب عن لحيتي، وهي لا تدري ماذا أريد لها، فإذا تذكرت ذلك بكيت.

والأخرى: كنت أصنع إلهاً من التمر، أضعه عند رأسي، يحرسني ليلاً، فإذا أصبحت معافى أكلته، فإذا تذكرت ذلك ضحك من نفسي^(١).

والمؤودة: هي المثقلة بالتراب الذي يهال عليها وهي حية حتى تموت.

وآية سؤال المؤودة تفيد أن الواد: أول ما يقضى فيه من الحقوق يوم القيامة.

وإذا كان الواد للبنات صورة من صور إهانة المرأة قبل الإسلام، فعلى من يقولون بأن المرأة مهضومة الحقوق، أن ينظروا كيف رفع الإسلام من شأنها بعد أن كانت متاعاً يورث، وكلاً مباحاً، ومخلوقاً غير مرغوب فيه! وكان أهل الجاهلية يقتل أحدهم ابنته ويغذوا كلبه!

تنظيم النسل:

وقد نهى القرآن عن الواد، وما يشبه الواد، من تحديد النسل أو تنظيمه، أو الإجهاض المبكر، خوفاً من الفقر في المستقبل، أو خشية إملاق حاصل، قال تعالى:

﴿وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ خَشْيَةً إِمَّا نَحْنُ نَرْزُقَهُمْ وَإِنَّا كَرُ﴾ [الإسراء: ٣١].

وقال سبحانه: ﴿وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ مِمَّنْ إِمَّا نَحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِنَّا هُمْ﴾ [الأنعام: ١٥١].

وقد كان الصحابة يعزلون والقرآن ينزل فسألوا النبي ﷺ عن ذلك فرد عليهم بجواب هو أقرب إلى النهي، حيث قال: «لا عليكم ألا تفعلوا، ما كتب الله خلق نَسمة هي كائنة إلى يوم القيامة إلا ستكون»^(٢).

مع أن هذا العزل كان في ظرف يحتاج إلى الرخصة، هو غزوة بني المصطلق، وقد تم لهم سبي من كرائم العرب، وكانوا في غربة، ورغبوا في الفداء، قالوا: فأردنا أن نستمتع ونعزل، فقلنا: كيف نفعل، ورسول الله بين أظهرنا؟

(١) تنمة أضواء البيان للشيخ عطية سالم (٦٣/٩).

(٢) صحيح مسلم عن أبي سعيد برقم (١٤٣٨)، والبخاري (٧٤٠٩، ٤١٣٨، ٢٥٤٢).

والدعوة إلى تحديد أو تنظيم النسل، دعوة يهودية، وهم يبذلون الأموال الطائلة لتفشي هذا الأمر بين المسلمين، وفي المنطقة العربية بوجه خاص.

ولقد كان الناس قديماً يُعْمَى عليهم من الجوع على قلتهم، والناس في وقتنا يشكون التخمة، وتملاً المصححات دراسة وسائل نقص الوزن في كل مكان، وأكثر الناس في ترف وكماليات، وكثرة من وسائل الترفيه والفسق أحياناً، فهل الناس في فقر يضطرونهم إلى تحديد النسل؟ اللهم لا.

الْحَدَّثُ الثَّالِثُ: تَوْزِيعُ صُحُفِ الْأَعْمَالِ

١٠- ﴿وَإِذَا الصُّحُفُ نُشِرَتْ ۖ﴾ (١٠)

ويوم القيامة تُنشر صحف الأعمال، المشتملة على ما عمله العاملون من حسنات وسيئات، وتوزع على أهلها، ويُقرأ كل إنسان كتابه بنفسه، وهذه الصحف بأسماء أصحابها في سجلات الملائكة، قد طُويت على ما فيها من خير أو شر عند موت أصحابها، فإذا كان يوم القيامة فإنها تُنشر للعرض وإقامة الحجة على العباد للحساب والجزاء، ويأخذ كل منهم كتابه إما بيمينه وإما بشماله بعد أن تُلوى من وراء ظهره: قال تعالى: ﴿فَأَمَّا مَنْ أَوْفَى كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ ۖ فَقُولُ هَؤُلَاءِ أَقْرَبُ وَأَكْنِيَّةُ﴾ [الحاقة: ١٩].

وقال سبحانه: ﴿وَأَمَّا مَنْ أَوْفَى كِتَابَهُ بِشِمَالِهِ ۖ فَقُولُ يَلْتَنِي لَوْ أَوْفَى كِتَابَهُ﴾ [الحاقة: ٢٥].

وقال جل شأنه: ﴿وَكُلَّ إِنْسَانٍ أَلْزَمْنَاهُ طَلْعَهُ فِي عُنُقِهِ ۖ وَنُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ كِتَابًا يَلْقَاهُ مَنشُورًا﴾ (١٣)

أَقْرَأَ كِتَابَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا﴾ [الإسراء: ١٣-١٤].

قال قتادة: صحيفتك يا ابن آدم يُملَى ما فيها، ثم تُطوى، ثم تُنشر عليك يوم القيامة^(١).

(١) قرأ ابن كثير وأبو عمرو وحزمة والكسائي وخلف بتشديد الشين من ﴿نُشِرَتْ﴾ على التكثير، والباقون بالتخفيف على الأصل.

(٢) أخرجه الطبري بسند حسن وعبد بن حميد وابن أبي حاتم، انظر: الدر المنثور (٢٦١/١٥).

الْحَدَّثُ الرَّابِعُ: مَحْوُ مَعَالِمِ السَّمَاءِ

١١ - ﴿وَإِذَا السَّمَاءُ كُشِطَتْ ۝﴾

ويوم القيامة تُقْلَعُ السماء وتُنزَعُ من مكانها كما ينزع الجلد عن الشاة، ويزال عنها، فلا تبقى على هيأتها التي كانت عليها في الدنيا، والظاهر من النصوص أن السماء تبقى عند قيام الساعة منشقة منفطرة، تعرج الملائكة بينها وبين أرض المحشر حتى يتم الحساب، فإذا قُضِيَ الحساب، أُزيلت عن مكانها، حيث يكون الناس في عالم الخلود، والأحوال تتغير، والسماء والأرض تتبدل.

قال تعالى: ﴿يَوْمَ يُبَدَّلُ الْأَرْضُ غَيْرَ الْأَرْضِ وَالسَّمَوَاتُ ۝﴾ [إبراهيم: ٤٨].

وقال سبحانه: ﴿وَيَوْمَ تَشَقَّقُ السَّمَاءُ بِالْغَمَمِ يُزِيلُ الْمَلَكُ تَنْزِيلًا ۝﴾ [الفرقان: ٢٥].

وقال أيضاً: ﴿وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ وَالسَّمَوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ ۝﴾ [الزمر: ٦٧].

الْحَدَّثُ الْخَامِسُ: تَأْجِيجُ النَّارِ وَاسْتِقْبَالُهَا لِلْمُجْرِمِينَ

١٢ - ﴿وَإِذَا الْجَحِيمُ سُعِرَتْ ۝﴾

وبعد قراءة الصحف، ومناقشة الحساب توقد النار وتسعر، وتُعدَّ لعذاب مَنْ حَقَّ عليه العذاب.

والجحيم هي النار ذات الطبقات المتعددة من الوقود، بعضها بالحطب، وبعضها بالحجارة، وبعضها بالناس ﴿يَتَأَيَّأُ الَّذِينَ ءَامَنُوا قُوا أَنْفُسَكُمْ وَأَهْلِكُم نَارًا وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ ۝﴾ [التحريم: ٦].

ويُساق أهل النار إليها كما تُساق الإبل العطشى إلى موارد المياه ﴿وَسَوْفَ الْمُجْرِمِينَ إِلَى جَهَنَّمَ وَرِثًا ۝﴾ [مریم: ٨٦] وكان لهبها قد امتد إليهم، وسمعوا لها شهيقاً وزفيراً وغلينا، وهي تتقطع غيظاً ولهفاً عليهم، وقد برزت للنظرين ﴿وَبَرَزَتِ الْجَحِيمُ لِلْغَاوِينَ ۝﴾ [الشعراء: ٩١].

(١) قرأ نافع وابن ذكوان وحفص وأبو جعفر ورويس وشعبة بخلف عنه بتشديد السين من ﴿سُعِرَتْ﴾ للمبالغة، والباقون بالتخفيف على الأصل، ومعهم شعبة في وجهه الثاني.

ثم أوقد عليها فاستعرت والتهبت التهاباً لم يحدث لها من قبل.

الْحَدَّثُ السَّادِسُ: تَقْرِيبُ النَّعِيمِ مِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ

١٣ - ﴿وَإِذَا الْجَنَّةُ أُزْلِفَتْ﴾ (١٣)

أي أن دار النعيم تقرب من المتقين، وتكون بالقرب من أرض المحشر، كرامة لأهلها، فلا تَعَبَ عليهم في الوصول إليها، كما قال تعالى: ﴿وَأُزْلِفَتِ الْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [الشعراء: ٩٠] وقال سبحانه: ﴿وَأُزْلِفَتِ الْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ غَيْرَ بَعِيدٍ﴾ [ق: ٣١]. وفيها ما تشتهيهِ الأنفس وتلذ الأعين، وهم فيها خالدون.

جَوَابُ الْحَوَادِثِ الْاِثْنِي عَشَرَ

١٤ - ﴿عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّا أَحْضَرَتْ﴾ (١٤)

وجواب الشرط لكل لفظ ﴿إِذَا﴾ من أول السورة، وقد ذُكرت اثنتي عشرة مرة، هو قوله تعالى: ﴿عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّا أَحْضَرَتْ﴾.

أي: أن هذه الآية ﴿عَلِمَتْ نَفْسٌ﴾ هي جواب الشرط، وهو علم يحصل به اليقين بما لم يكن للإنسان به علم، مما نسيه، أو فهمه على غير وجهه، أو جهله، أو جهل عاقبته. فإذا حدثت تلك الأمور قبل وبعد قيام الساعة، علمت كل نفس ما قدمته من صالح الأعمال أو فاسدها: ﴿يُنَبِّئُ الْإِنْسَانُ يَوْمَئِذٍ بِمَا قَدَّمَ وَأَخَّرَ﴾ [القيامة: ١٣].

وقد كثر ذكر الجُمْلِ السابقة تشويقاً لهذا الجواب، أي إذا وقع كل ما سبق من الحوادث الاثنتي عشرة، تيقنت ووجدت كل نفس ما قدمت من خير أو شر حاضراً بين يديها: ﴿يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّخَضَّراً وَمَا عَمِلَتْ مِنْ سُوءٍ تَوَدُّ لَوْ بَيَّنَّهَا وَبَيَّنَّهٗ أَمَدًا بَعِيدًا﴾ [آل عمران: ٣٠]. فكل نفس تُعلم بما أحضرت في هذا الموقف العظيم، من خير أو شر، فتعلمه. عن عمر بن الخطاب ؓ أنه قرأ أول هذه السورة، فلما بلغ هذه الآية قال: (لهذا أُجريت القصة)^(١).

(١) ينظر: تفسير ابن عاشور (١٥١/٣٠) وينظر: تفسير ابن كثير (٣٣٥/٨) عن زيد بن أسلم عن أبيه.

وهذه الأوصاف التي وصف الله بها يوم القيامة، أوصاف تنخلح لها القلوب، وتعظم الكروب، وترتعد الفرائض، وتحث كل صاحب عقل على الاستعداد لذلك اليوم. فمعنى: تكوير الشمس: ذهاب ضوئها فلا ضوء لها، وانكدار النجوم: تساقطها وتهافتها. وتعطيل العشار: ترك أهلها لها، فلم تُحلب ولم تحمّل، لانشغال الناس عنها، وقد كانت في الدنيا أحب أموالهم، أما أحب أموال الناس اليوم فهي الأسهم والسندات والذهب وأموال البنوك، وكل هذا ونحوه لا يجد عند قيام الساعة من يديره، ولا من يلتفت إليه، فالناس مشغولون بما هو أهم، مشغولون بالمصير الدائم، إلى الجنة أو النار، نسأل الله السلامة.

أما الوحوش وسائر البهائم والحيوان فإنه يتم فصل القضاء بينها، وماء البحار يذهب فلا يبق فيها قطرة.

وكل إنسان يلحق بنظيره، اليهودي مع اليهودي، والنصراني مع النصراني، والمسلم مع المسلم، وكل زوج مع زوجه وهكذا.

ويوم القيامة تُسأل كل نفس قُتلت ظلماً بأي ذنب كان سبب قتلها، يُسأل من خافوا الفقر وهم في الدنيا، لماذا حدّدوا نسلهم، لماذا قلّلوا منه، ولماذا كانت حوادث الإجهاض في العالم، وهذا العدد الكبير، للأبناء غير الشرعيين من أين جاؤوا؟

وفي يوم القيامة تنشر الصحف، ويقرأ كل إنسان كتابه بنفسه، ولا سبيل إلى الإنكار، فإن الشهود ليسوا من خارج الإنسان!

وبالباب مفتوح أمام كل إنسان إما إلى النار المستعرة - عياذا بالله - وإما إلى الجنة المقربة من أهلها، نسأل الله من فضله، ومن أراد أن ينظر ليوم القيامة كأنه رأى العين فليتدبر هذه السورة.

المَوْضُوعُ الثَّانِي فِي السُّورَةِ: ثَلَاثَةُ أَقْسَامٍ عَلَى صِدْقِ الْقُرْآنِ وَصِحَّةِ الرِّسَالَةِ

١٥ - ١٨ - ﴿فَلَا أَقْسِمُ بِالْخُنُسِ﴾ (١٥) الْجَوَارِ (١٦) الْكُنُسِ (١٧) وَاللَّيْلِ إِذَا عَسَسَ (١٧) وَالصُّبْحِ إِذَا نَفَسَ (١٨) ﴿﴾

وبعد أن تحدثت الآيات السابقة عن البعث والجزاء الذي أنكره المكذبون، فأنذرتهم وحذرتهم، وبيّنت أحوال الساعة وأشراتها، شرعت في الحديث عن هذا القرآن العظيم الذي حذّره وأنذرهم، فإن الجاحدين لا يؤمنون به، ولذا فقد أقسم الله سبحانه بالنجوم حين تختفي وتظهر، وبالليل إذا أقبل بظلامه، وبالصبح إذا ظهر ضوؤه، وأقسم بهذه الكواكب المسخرة بأمر الله تعالى على أن القرآن حق، وأن محمداً ﷺ أرسله الله تعالى رحمة وهداية للناس أجمعين، كلها قسم من الله تعالى بعظمة هذا الكون للتأكيد على عظمة هذا القرآن، والكون والقرآن، كلاً منهما دليل على وحدانية الله تعالى وعظمته.

فهذه آية صامتة، وتلك آية ناطقة، ﴿وَلَا﴾ من ﴿فَلَا أَقْسِمُ﴾ مؤكدة للقسم.

والمعنى: أن الله تعالى أقسم بالنجوم التي تختفي أنوارها بالنهار، وتظهر بالليل.

أخرج الطبري بسند صحيح عن علي بن أبي طالب ؓ ﴿فَلَا أَقْسِمُ بِالْخُنُسِ﴾ قال: هي النجوم تخنس بالنهار، وتكنس بالليل^(١).

وهذه الكواكب هي: زحل والمشتري والمريخ والزهرة وعطارد، وبهزام، والشمس والقمر، قاله ابن عباس. وقيل: الخنس: الكواكب كلها لأنها تختفي بالنهار. وقال قتادة: هي النجوم تبدو بالليل، وتخنس بالنهار، يقال: خنست الظبية والبقرة، إذا اختفت في بيتها.

فالخنوس هو: الاستتار والاستخفاء، فهي تختفي بالنهار وتظهر في الليل.

أما الجواري فهي النجوم تجري وتسير مع الشمس والقمر ثم تستتر وقت غروبها. وقد شُبّهت النجوم الجواري حين يذهب نورها بالظباء تختفي في بيوتها، ولا تظهر

(١) وقف يعقوب بالياء على ﴿الْجَوَارِ﴾ والباقون بالحذف.

(٢) وأخرجه أيضاً: سعيد بن منصور بسند حسن كما في فتح الباري (٦٩٤/٨).

إلا في أوقات معينة، فهي كالوحش الذي يجري بعد خنوسه.

والكنس: جمع كانس، والكانس هو البيت الذي يتخذ للمبيت.

والجوار: أي التي تجري بسرعة، فهذه ثلاثة أحوال للنجوم:

١- الخنس، أي التي يختفي نورها بالنهار.

أو هي الكواكب التي تتأخر عن سيرها المعتاد إلى جهة المشرق.

٢- الكنس وهي النجوم حين تأوي إلى بيتها ليلاً.

٣- الجوار، وهي النجوم حين تجري وتسير بسرعة.

وقد أقسم الله بالنجوم حال خنوسها أي تأخرها، واختفائها حال كنوسها، أي جريانها

وإنارتها.

ثم أقسم سبحانه تعالى بالليل إذا عسعس، أي أقبل بظلامه حتى غطى الكون.

والعسعسة: رقة الظلام في طرف الليل، قال تعالى: ﴿وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَى﴾ [الليل: ١] وقال:

﴿وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَى﴾ [الضحى: ٢].

كما أقسم جل شأته بالصبح إذا تنفس، أي انشق نوره شيئاً فشيئاً حتى تكامل وظهر

ضؤوه وتلألأ، وبدأ أوله حتى صار نهاراً واضحاً، فقد شبه الليل بالمكروب المحزون،

فإذا تنفس وجَدَ راحة، كأنه تخلص من الحزن، فعبّر عنه بالتنفس، وإذا بدأ الصباح أقبل

معه نسيم، كأنه نفس، قال تعالى: ﴿وَالنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّى﴾ [الليل: ٢].

والمعنى: أقسم بالنجوم التي تغيب بالنهار، وبالليل حين يقبل بظلامه، وبالنهار إذا

أقبل بضياءه:

جَوَابُ الْقَسَمِ

١٩ - ٢١ - ﴿إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ﴿١٩﴾ ذِي قُوَّةٍ عِنْدَ ذِي الْعَرْشِ مَكِينٍ ﴿٢٠﴾ مُطَاعٍ ثَمَّ ﴿٢١﴾ أَمِينٍ ﴿٢٢﴾﴾

أي: أقسم على أن هذا القرآن، لتبليغ جبريل الأمين إلى الرسول محمد ﷺ نزل به من

(١) وقف رويس بخلف عنه على ﴿ثُمَّ﴾ بهاء السكت والباقون بدونها

عند الله تبارك وتعالى.

وإذا كانت المجموعة الشمسية شيئاً ضئيلاً في هذا العالم الضخم، فإن الله تعالى يقسم بالكواكب المسخرة بأمره تعالى على أن القرآن حق، وأن محمداً أرسل به هداية ورحمة للعالمين، إنه سبحانه أقسم بعظمة الكون على عظمة الوحي.

والضمير في ﴿إِنَّهُ﴾ يعود على القرآن، وهو عائد على غير مذكور، ولكنه معلوم من المقام.

والمراد بالقول في ﴿لَقَوْلُ﴾ هو القرآن، والرسول الكريم هو جبريل عليه السلام، أي إن هذا القرآن لكلام الله المنزل على محمد ﷺ بواسطة جبريل الأمين، وأضيف القرآن في الآية إلى جبريل لأنه الذي نزل به، كما قال تعالى: ﴿نَزَّلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ﴾ (١٣) عَلَى قَلْبِكَ لِنَكُونَنَّ مِنَ الْمُنذِرِينَ ﴿١٤﴾ [الشعراء: ١٩٣ - ١٩٥].

وصف جبريل عليه السلام بخمسة أوصاف:

ثم وصف الله تعالى جبريل عليه السلام بخمسة أوصاف، تزكية من الله تعالى وتشريفاً له، وهذه الأوصاف تفيد أن المراد بالرسول في الآية هو جبريل:

الوصف الأول: أنه رسول كريم، والكريم هو النفيس الفريد في نوعه. فهو ملك شريف، حَسَنَ الخلق، بهي المنظر، كريم عند ربه. كثير الخصال الحميدة، وهو أفضل الملائكة وأعظمهم رتبة عند ربه.

الوصف الثاني: أن جبريل عليه السلام يبلغ وحي ربه، وينفذ ما أمر به بقوة، كما قال تعالى: ﴿عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَى﴾ (٥) ذُورِمَرَّةٌ [النجم: ٥ - ٦] أي أنه موصوف بالقوة، ولديه مقدرة فائقة على القيام بأعمال عظيمة، فهو الذي اقتلع قرى قوم لوط على جناحه وقلبها، وصاح بقوم عاد وثمود صيحة فأهلكتهم، فجبريل صاحب بطش وقوة ذاتية، وهو ذو ثبات ورباطة جأش في أداء ما أرسل به.

الوصف الثالث: أنه صاحب مكانة رفيعة عند الله تعالى، وله كرامة واستجابة، ومنزلة سامية، عند صاحب العرش، وهو رب العالمين. فجبريل مقرب من ربه، له منزلة رفيعة،

وخاصیة اختصه الله بها من بین الملائكة.

وجملة ﴿ذِي الْمَرْتَبِ﴾ يتنازعها الوصف الذي قبلها وهو القوة، والوصف الذي بعدها وهو المكانة العالية.

والوصف الرابع: أن جبریل ﷺ مطاع بین الملائكة، كما يطیع الجيش القائد، وأمره نافذ في جنوده المقربين منه، ومن ذلك أنهم فتحوا له الأبواب، ليلة المعراج، فهو ﴿مُطَاعٌ تَمَّ﴾ أي هناك في الملأ الأعلى، فيما يأمر به الملائكة الكرام.

والوصف الخامس: أنه أمين على الوحي، يحفظ كل ما عهد إليه بتبليغه حتى يؤديه دون زيادة ولا نقص، وهذا نص في تمكينه من حفظ ما أرسل به، وصيانتة عن التغير والتبديل، فلا يصل إليه ما يخل برسالته، فالمطاع: لا يؤثر عليه شيء، والأمين لا يخون ولا يبدل، وقد حمل جبریل الوحي إلى محمد فأقام به دولة ضمت المشارق والمغارب. وهذا كله يدل على شرف القرآن وعظيم مكانته.

إِبْطَالُ بُهْتَانِ الْمُكَذِّبِينَ بِخَاتَمِ الْأَنْبِيَاءِ

۲۲- ﴿وَمَا صَاحِبُكُمْ بِسَجُنٍ ۝۲۲﴾

وبعد أن أثنى الله سبحانه على جبریل عليه السلام، وأثنى على القرآن العظيم، أعقب ذلك بإبطال بهتان المكذبين للنبي ﷺ فأثنى عليه ﷺ بأنه صادق فيما بلغه عن ربه.

قال تعالى: ﴿وَمَا صَاحِبُكُمْ﴾ أي محمد ﷺ الذي تربى بينكم، وتعرفون نسبه وصدقه وأمانته وعفافه، ولا يخفى عليكم دقائق أحواله، فأنتم متأكدون أنه ليس بمجنون، كما يقول أعداؤه المكذبون، ومتأكدون أن هذا القرآن سالماً من وساوس المجانين، والذي بلغه إليكم قد لازمتموه، وتعرفون حقيقة حاله، ونفي الجنون عن النبي ﷺ داخل في جواب القسم السابق، فقد أقسم تعالى على أن القرآن نزل به جبریل ﷺ وأن محمداً ﷺ ليس بمجنون. بل أكمل الناس عقلاً وأرجحهم رأياً، وأصدقهم لهجة.

رَأَى الرَّسُولُ جَبْرِيلَ عَلَى صُورَتِهِ الْحَقِيقِيَّةِ مَرَّتَيْنِ

۲۳- ﴿وَلَقَدْ رَآهُ بِالْأَفْقِ الْمُبِينِ﴾ ﴿٢٣﴾

ولما بلغ المشركون أن الرسول ﷺ نزل عليه جبريل بالوحي في غار حراء، استهزؤوا به وقالوا: إن ذلك الذي يتراءى له جنّي، فكذبهم الله تعالى بنفي الجنون عنه، ثم بإثبات وتحقيق أن الذي رآه النبي ﷺ في غار حراء، هو جبريل الأمين.

وقد وصف النبي ﷺ الملك الذي رآه عند نزول سورة المدثر عليه، بأنه جالس على كرسي بين السماء والأرض، فأقسم سبحانه على أن محمداً ﷺ رأى جبريل عليه السلام في صورته التي خلقه الله عليها، له ست مئة جناح قد سد ما بين المشرق والمغرب، وكان ذلك بالأفق العظيم الواضح من ناحية المشرق، وكان الرسول ﷺ قد سأل جبريل عليه السلام في المرة الأولى أن يراه على حقيقته.

روى البغوي بإسناد الثعلبي عن ابن عباس رضي الله عنهما أن النبي ﷺ قال لجبريل: أحب أن أراك في صورتك التي تكون عليها في السماء؟ قال: (لن تقوى على ذلك)، قال: بلى، قال: فأين تشاء أن أتخيل لك؟ قال: بالأبطح، قال: لا يسعني ذلك، قال: فبعرفات، قال: لا يسعني، قال: فبحراء، فواعده، وجاء إليه جبريل في مواعده، فلما رآه النبي ﷺ خر مغشياً عليه، فتحول جبريل عن صورته وضمه إليه، وقال: فكيف لو رأيت إسرافيل^(١).

ورؤية الرسول ﷺ لجبريل عليه السلام بالأفق المبين هي التي قال الله تعالى عنها: ﴿فَاسْتَوَىٰ ۖ وَهُوَ بِالْأَفْقِ الْأَعْلَىٰ﴾ ﴿٧﴾ ثُمَّ دَفَعْنَاكَ ﴿٨﴾ فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ ﴿٩﴾ فَأَوْحَىٰ إِلَىٰ عَبْدِهِ مَا أَوْحَىٰ ﴿النجم: ٦- ١٠﴾ وقد رأى النبي ﷺ جبريل عليه السلام مرة أخرى على صورته الحقيقية عند سدره المنتهى ليلة المعراج كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ ۖ عِنْدَ سِدْرَةِ الْمُنْتَهَىٰ﴾ ﴿النجم: ١٣، ١٤﴾ وكان ينزل عليه بعد ذلك في صورة دحية الكلبي، وكان يأتيه مثل صلصلة الجرس وغير ذلك من صور نزول الوحي.

(١) باختصار من تفسير الخازن (٤/ ٣٥٧).

نَفِي كُثْمَانِ شَيْءٍ مِنَ الْوَحْيِ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ

۲۴- ﴿وَمَا هُوَ عَلَىٰ أَغْيَبِ بِضَيْنٍ﴾^(۱)

وليس من صفة النبي ﷺ أن يبخل بتبليغ الرسالة، فهو لم يقصّر في تبليغها، ولم يبخل بتعليم الناس الخير، بل بلغ رسالة ربه بكل صدق وأمانة، وهذا بخلاف أهل السحر والشعر والكهانة، فإنهم لا يُطلعون غيرهم على ما في جُعبتهم خوفاً من تفشيهِ بين الناس، احتكاراً للمعلومات حتى تبقى وفقاً على الساحر أو الكاهن يستدرّ بها الأموال والمنافع من الناس، ومحمد ﷺ لا يسأل الناس أجراً على البلاغ، ولا يحتكر علماً، بل يحرص النبي ﷺ على تعليم الجاهل، وزيادة علم المتعلم.

ولفظ ﴿بِضَيْنٍ﴾ بالضاد، معناه: البخل الشديد، وعلى قراءة ﴿بِضَيْنٍ﴾ بالظاء يكون المعنى: وما هو بمتهم في شيء، فلا يزيد في الوحي ولا ينقص منه، ولا يكتُم شيئاً منه، بل هو أمين أهل السماء وأهل الأرض، وقد بلغ القرآن للإنس والجن، ولم يحجب شيئاً عن غني ولا فقير، ولا حاكم ولا محكوم، ولا ذكر ولا أنثى، ولا حضري ولا بدوي. فمحمد ﷺ ليس ببخيل في تبليغ الوحي، بل بلغ رسالة ربه على أكمل وجه، وليس بمتهم فيما يبلغه عن ربه، فهو ﷺ سيد الصدق والأمانة.

وسُمِّي القرآن غيب: لأن الوحي من الغيب، والغيب هو الذي استأثر الله بعلمه، والنبي ﷺ لا يضمنُ بما أطلعه الله عليه منه، أمّا ما لم يُطلعه عليه، فلا علم له به، حتى يضمنَ به أو يتَّهم بعدم تبليغه.

الْقُرْآنُ كَلَامُ اللَّهِ وَوَحْيُهُ يَنْتَفِعُ بِهِ مَنْ يَتَّبِعُ الْحَقَّ

۲۵-۲۶- ﴿وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَيْطَانٍ رَجِيمٍ﴾^(۲) ﴿فَإِنَّ تَذَاهِبُونَ﴾^(۳)

(۱) قرأ ابن كثير وأبو عمرو والكسائي ورويس بالظاء في ﴿بِضَيْنٍ﴾ من الظن وهو التهمة، فعيل بمعنى مفعول والباقون بالضاد، اسم فاعل من ضمن بمعنى بخل.

(۲) قوله تعالى ﴿فَإِنَّ تَذَاهِبُونَ﴾ معدود آية عند جميع علماء العدد، عدا المدني الأخير فيتركه.

وبعد أن أثنى سبحانه على رسول الملائكة ورسول البشر، أثنى على القرآن الكريم فنفى عنه كل نقص وآفة.

وما دام القرآن قول رسول كريم، فهو ليس من أقوال الكهنة، تلقنهم لهم الشياطين، وليس بقول شيطان ملعون يسترق السمع، بل هو كما قال تعالى: ﴿إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ﴿٤٠﴾ وَمَا هُوَ يَقُولُ شَاعِرٌ قَلِيلًا مَّا تُؤْمِنُونَ ﴿٤١﴾ وَلَا يَقُولُ كَاهِنٌ قَلِيلًا مَّا نَذْكُرُونَ ﴿٤٢﴾ نَزِيلٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٤٣﴾ وَلَوْ نَقُولُ عَلَيْنَا بَعْضُ الْأَقَاوِيلِ ﴿٤٤﴾ لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ ﴿٤٥﴾ ثُمَّ لَقَطْنَا مِنْهُ الْآوِينَ ﴿٤٦﴾ فَمَا يَنْكُرُونَ لَاحِدِ عَنَّا حَجْرِينَ ﴿٤٧﴾﴾ [الحاقة: ٤٠ - ٤٨].

وكما قال سبحانه: ﴿وَمَا نَزَّلَتْ بِهِ الشَّيَاطِينُ ﴿٦٠﴾ وَمَا يَلْبِغِي لَهُمْ وَمَا يَسْتَطِيعُونَ ﴿٦١﴾ إِنَّهُمْ عَنِ أَسْمَٰعٍ لَّمَعَزُولُونَ ﴿٦٢﴾﴾ [الشعراء: ٢١٠ - ٢١٢] فهو كلام الله ووحيه.

فأين تذهب عقولكم في التكذيب بالقرآن، وكيف يخطر ببالكم التنقيص من شأن القرآن بعد هذه الحجج القاطعة، والأدلة الدامغة، وأي طريق تسلكونه أوضح وأبين من هذا الطريق الذي أرشدناكم إليه، لقد تركتم الحق وذهبتُم إلى الباطل، وعدلتُم عن القرآن، وفيه الهدى والنور إلى ما أنتم فيه من ضلال {فَأَيُّنَ تَذْهَبُونَ} عن هذا الطريق الواضح؟ وماذا بعد الحق إلا الضلال وانقلاب الحقائق.

لما قدم وفد بني حنيفة مسلمين، طلب منهم أبو بكر رضي الله عنه أن يقرؤوا عليه شيئاً من أقوال مسيلمة، فلما سمع مافيه من ركاكة وهذيان قال: ويحكم، أين يذهب بعقولكم؟ والله إن هذا الكلام لم يخرج من إلّ، أي من إله^(١). قال تعالى:

٢٧، ٢٨ - ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ ﴿٢٧﴾ لِمَن شَاءَ مِنْكُمْ أَن يَسْتَقِيمَ ﴿٢٨﴾﴾

وبعد أن بين الله تعالى ضلال المكذبين، أرشدهم إلى حقيقة القرآن، وبين لهم أنه تذكير لجميع الناس، ينتفعون به في صلاح اعتقادهم، وطاعة ربهم، وتهذيب أخلاقهم، وأداء حق الله عليهم وحق عباده، وكيف يتعامل المسلمون مع بعضهم، ومع غيرهم من الأمم الأخرى، فما هذا القرآن إلا موعظة وتذكرة للخلق أجمعين. يتذكرون به ربهم،

(١) تفسير ابن كثير (٨/٣٤٠).

ويتذكرون أوامره ونواهيه، ويتذكرون به ما يسعدهم في الدارين.
وينتفع بهذه الموعظة من يتبع الحق، ويستقيم على الإيمان، فمن شاء اتعظ واعتبر،
والذين استجابوا لهذي القرآن، قد شأوا لأنفسهم الإيمان والاستقامة، وفي هذا ثناء
عليهم، وتنويه بشأنهم، وتعريض بغيرهم ممن لم يهتدوا بهدي القرآن، فمن أراد الهداية
فعليه بهذا القرآن، فإنه منجاة وهداية له، ولا هداية له فيما سواه.

لِلْعَبْدِ مَشِيئَةً وَإِرَادَةً عَلِمَهَا اللَّهُ مِنْ عَبْدِهِ قَبْلَ أَنْ يَخْلُقَهُ

۲۹- ﴿وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ (١٩)

ولما نزلت الآية السابقة قال أبوجهل: الأمر إلينا، إن شئنا استقمنا، وإن شئنا لم
نستقم، فأنزل الله تعالى هذه الآية^(١) ليبين سبحانه أن المشيئة ليست موكولة لنا، وإنما
تتبع مشيئة الله تعالى وتكون في إطارها، فأنتم لا تقدرُونَ على شيء إلا بتوفيق الله
ولطفه، فاطلبوا منه التوفيق والهداية، وهذا كقوله تعالى: ﴿إِنَّ هَذِهِ تَذْكِرَةٌ فَمَنْ شَاءَ اخْتِذْ
إِلَىٰ رَبِّهِ سَبِيلًا﴾ (٢٩) ﴿وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ [الإنسان: ۲۹ - ۳۰].

ومعنى هذا: أن للعبد مشيئة وإرادة، يكتسب بها أعماله، وقد بين الله له الخير والشر،
ومنحه نعمة العقل، وهذه الإرادة أو المشيئة لا تخرج عما علمه الله تعالى عن توجهه
العبد بعد بلوغه سن التكليف قبل أن يوجد في هذه الحياة.

وعِلْمُ الله تعالى لا يتخلف، ومشيتته نافذة، وقضاؤه لا يرد، وما على العبد إلا أن يضع
البذرة الصالحة، وسيُنْضِجُ الله له ما بذر، وما زرع أحد تفاحاً، فأخرجه الله له بصلاً،
فالإنسان يَجْنِي ما غرس، والعبد في توجهه إلى ربه عدة مرات في اليوم الواحد يطلب منه
أن يهديه إلى الصراط المستقيم، وذلك لأن مشيئة الله تعالى محيطة بما كان وما يكون.

تم تفسير (سورة التكوین) والله الحمد والمنة

(١) رواه الطبري بسنده عن سفيان الثوري في تفسيره (۵۳/۳۰)، وعبد الرزاق (۳۵۳/۲)، والشوكاني (۳۹۰/۵)
عن أبي هريرة عند ابن أبي حاتم وابن مردويه.

تَفْسِيرُ سُورَةِ الْإِنْفِطَارِ (٨٢)

مُقَدِّمَةُ السُّورَةِ

(سورة الانفطار) هي السورة الثانية والثمانون في ترتيب المصحف وترتيب النزول، نزلت بعد (سورة النازعات) وقبل (سورة الانشقاق). وتشتهر بأنها (سورة الانفطار) وفي حديث ابن عمر الآتي (سورة إذا السماء انفطرت) وربما سميت (سورة انفطرت)، أو (المنفطرة)، أي السماء المنفطرة. فهذه أربعة أسماء لها أشهرها الأول.

وهي سورة مكية باتفاق.

وعدد آياتها تسع عشرة آية باتفاق، وهي ثمانون كلمة، وثلاث مئة وسبعة وعشرون حرفاً.

وسورة الانفطار ذات مقاطع ثلاث:

المقطع الأول: يبين فيه سبحانه شيئاً من مشاهد القيامة، وما يحدث في هذا اليوم من أحداث جسام، فقد كان الإنسان وهو في الدنيا ينظر فوقه فما يجد في خلق الرحمن من تفاوت، السماء محبوكة الأطراف، فلا فتور ولا شقوق، والكواكب تتهاذى فلا تتعطل ولا تتوقف.

وعند قيام الساعة، يتغير كل شيء: الشقوق تملأ الآفاق، وأبواب السماء تُفتح فيما بينها وبين أرض المحشر، لنزول الملائكة وصعودهم، والكواكب ينفرط عقدتها، ويختل توازنها، فلا يمسكها نظام، والبحار تَطْغَى على الشواطئ، وتتأجج بالنيران، وأهل القبور يستعدون للخروج، وهم شاعرون بالخرج والحيرة! وتقف كل نفس على ما عملت من خير أو شر. وهذا من أول السورة إلى الآية الخامسة.

أما المقطع الثاني من السورة في الآيات الثلاث التي تليها فهو: عتاب مريد مؤسف، يتضمن الوعيد وسوء المصير، لمن جحد وخذانية الله تعالى، ولم يعرف قدر ربه، فقابل فضله ونعمه بالجحود والعصيان، فيقال له: ماذا فعلت بالأمس الفائت؟ وماذا قدمت

لمستقبلك الخالد؟

لقد كانت وصايا الله إليك أهون شيء عليك - أيها الإنسان - وكنت إذا كُلفت بصلاة أو زكاة أو جهاد.. تقاعست واسترخيت ومرقت منها كما يمرق السهم من الرمية، ولم تشكر فضل ربك ونعمه عليك.

والمقطع الثالث: من الآية التاسعة إلى آخر السورة، وهي عشر آيات يقرر الله تعالى فيها علة الجحود والطغيان، فبعد أن بيّن سبحانه أن الدار الآخرة، سيكون فيها مفاجآت كثيرة لأغلب الناس، بيّن سبحانه أن التكذيب بيوم الحساب، هو الذي جعلهم يُهملون العمل للقاءه، فسجلت عليهم الملائكة كل ما عملوه في دنياهم، ليواجهون به أمام ربهم في هذا اليوم، بلا زيادة ولا نقصان.

وبعد فصل القضاء، يذهب الخلائق إلى مستقرهم العتيد، في نعيم أهل الأبرار، أو جحيم أهل الفجار، وهو يوم عظيم يتفرد فيه رب العالمين بالحكم والسلطان، وتتجرد فيه النفوس من كل حول وطول، فالمُلك يومئذ لله، وليس لسواه أدنى مُلك ولا حُكم ولو كان حكماً صورياً.

عن جابر رضي الله عنه قال: قام معاذ فضلى العشاء الآخرة فطَوّل، فقال النبي ﷺ: «أفتان أنت يا معاذ؟ أين أنت عن سبّح اسم ربك الأعلى، والضحى، وإذا السماء انفطرت؟»^(١). وفي حديث عبد الله بن عمر رضي الله عنهما أن النبي ﷺ قال: «من سرّه أن ينظر إلى يوم القيامة رأي العين، فليقرأ ﴿إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ﴾ و﴿إِذَا السَّمَاءُ انفطرت﴾ و﴿إِذَا السَّمَاءُ انشقت﴾»^(٢).

* * *

(١) سنن النسائي الكبرى برقم (١١٦٥٢)، والسنن (٩٩٦)، وهو في البخاري برقم (٧٠١، ٧٠٥)، ومسلم برقم (٤٦٥)، وصحيح سنن النسائي (٩٥٣).

(٢) سنن الترمذي برقم (٣٣٣٣)، وهو في صحيح سنن الترمذي (٢٦٥٣)، والمسند (٥٧٥٥، ٤٨٠٦) بإسناد حسن، والحاكم (٥١٥/٢)، وقال: صحيح الإسناد ولم يخرجاه ووافقه الذهبي، وأخرجه الطبراني.

تَفْصِيرُ السُّورَةِ

أَرْبَعَةُ أَحْدَاثٍ إِذَا تَمَّتْ قَامَتِ الْقِيَامَةُ

١-٥ - ﴿إِذَا السَّمَاءُ انْفَطَرَتْ ﴿١﴾ وَإِذَا الْكَوَاكِبُ انْتَرَتْ ﴿٢﴾ وَإِذَا الْبِحَارُ فُجِرَتْ ﴿٣﴾ وَإِذَا الْقُبُورُ بُعْثِرَتْ

﴿٤﴾ عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ وَأَخَّرَتْ ﴿٥﴾﴾

ذكر الله تبارك وتعالى في أول هذه السورة مخلوقين من العالم العلوي هما: السماء والكواكب، ومخلوقين من العالم السفلي هما: البحار والقبور.

وبيّن سبحانه أنه إذا حدث تصدّع السماء وتشققها، وتهاوى النجوم وتساقطها، وإزالة الحواجز التي بين البحار، حتى يختلط بعضها ببعض وتصير بحراً واحداً.

وإذا تم بعثرة القبور بحيث يصير باطنها ظاهرها، وأُخرج ما في جوفها من الموتى، وحُشروا بين يدي ربهم للحساب والجزاء.

إذا تمت هذه الأربع على هذا النحو، قامت القيامة، وكان الحشر والنشر، وأخذ كل إنسان صحيفة عمله، فقرأ فيها ما تقدم من أعماله وأقواله وما تأخر، وانكشف له الغطاء، وزال عنه كل ما كان خفياً، وعلم كل إنسان ما معه من الأرباح والخسائر، هنالك يعرض الظالم على يديه عند ما يرى أعماله السيئة، ويرى أن ميزانه قد خف، وأن الشقاء قد أقبل، وأن النعيم قد أدبر، فليس أمامه إلا العذاب.

ومن شأن من يقرأ هذه السورة وأمثالها، أن ينخلع من كل ما يركن إليه في هذا الوجود، ويتجه بقلبه وروحه إلى الله وحده، حتى يجد نفسه ثابتاً مستقراً في مواجهة أحداث الاضطراب والانقلاب يوم لقاء الله، وسورة التكويد من أول السور نزولاً، فهي السورة السابعة في ترتيب النزول، أما سورة الانفطار فهي السورة الثانية والثمانون.

ولذا: فإن جُمل العطف في سورة التكويد كثيرة، لأن المقام فيها يتطلب الإطناب، أما سورة الانفطار فإن بينها وبين نزول سورة التكويد أربع وسبعون سورة، وقد تكرر

إثبات البعث والحساب والجزاء والإنذار، وتقرّر ذلك في أذهان المخاطبين، فأغنى عن تطويل الإطناب والتهويل في هذه السورة^(١).

وقد ذكرت الآيات أنه إذا تم في العالم العلوي: انفطار السماء وتشققها، واختلال نظامها، وانتشار الكواكب وزوالها عن بروجها وأماكنها، ضمن علامات الساعة الكبرى، وإذا تم في العالم السفلي: انفجار البحار، ففتح بعضها على بعض، واختلط عذبها بملحها، وخرجت النار منها، وبُعثت القبور، فصار ما في بطن الأرض على ظهرها، وتشققت الأرض عنهم سراعاً وتم انقلاب الأرض وانخسافها، ضمن علامات الساعة الكبرى.

إذا حدثت هذه الأربع، وفني العالم، وانقطعت التكاليف، قامت الساعة، وعلمت كل نفس ما قدمت من خير أو شر، وما أخرت من سنة حسنة أو سيئة، يُعمل بها بعد موته، وما قدّمت من الصدقات، وما أخرت من الميراث. وعندئذ يكون الحساب والجزاء.

عن حذيفة بن اليمان رضي الله عنه قال: قام سائل على عهد النبي ﷺ فسأل، فسكت القوم، ثم إن رجلاً أعطاه، فأعطاه القوم، فقال النبي ﷺ: «من استنّ خيراً، فاستنّ به، فله أجره، ومثل أجور من اتبعه، غير متقص من أجورهم شيئاً، ومن استنّ شراً، فاستنّ به، فعليه وزره، ومثل أوزار من اتبعه، غير متقص من أوزارهم شيئاً» قال: وتلا حذيفة بن اليمان ﴿عَلِمْتَ نَفْسٌ مَا قَدَّمَتْ وَأَخَّرَتْ﴾^(٢).

ولفظ مسلم: «من سن في الإسلام سنة حسنة، فله أجرها وأجر من عمل بها إلى يوم القيامة، من غير أن ينقص من أجورهم شيء، ومن سن سنة سيئة، فعليه وزرها ووزر

(١) تفسير ابن عاشور (١٧٠/٣٠).

(٢) قال الحاكم: هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه بهذا اللفظ، المستدرک (٥١٦/٢) وافقه الذهبي، وله شاهد من حديث أبي هريرة، ورواه ابن ماجة وقال البوصيري: إسناده صحيح (٢٠٤) وصححه الألباني في صحيح سنن ابن ماجة برقم: (١٦٩) والتعليق الرغيب (١/ ٤٨)، وهو عند ابن المبارك في الزهد عن ابن مسعود (١٤٦٩) بنحوه.

من عمل بها إلى يوم القيامة، من غير أن ينقص من أوزارهم شيء»^(١).

والمناسبة التي قيل فيها هذا الحديث، هي المناسبة نفسها التي جاءت في الحث على الصدقة، وفيها بيان أجر من بدأ بها في ملائمة الناس بقصد ترغيبهم، وليس من باب الرياء والمفاخرة.

وهكذا كل عمل صالح كان الإنسان فيه قدوة لغيره، فإن له أجر من عمل به في حياة من سن هذه السنة وبعد مماته، وهكذا العمل السيء، نسأل الله العفو والعافية. وكل هذا من باب ما يؤخره العبد لنفسه من الخير أو الشر، كلما عمل به من اقتدى. ويظهر أثر ذلك عندما تُنشر الصحف وتُقرأ الكتب، ومن ذلك ما يقدمه الإنسان لنفسه من الصدقات والخيرات في الدنيا، وما يؤخره لنفسه من الميراث الذي يتركه وراءه. وهذا علم تفصيلي لما قدّمته كل نفس وما أخرته، وقبل ذلك يكون هناك علم إجمالي يحصل العلم به في أول الحشر، فيعلم أنه من أهل السعادة أو من أهل الشقاء. وعلم الناس بما قدّموه في الدنيا من عمل، يكون بعد حصول هذه الأحداث المذكورة في الآيات، وهي تؤذن بفناء العالم، فيعلم الإنسان ما نسيه، وما جهله، ويعلم ما لم يكن معلوماً لديه.

وفي هذا وعيد بالحساب على جميع الأقوال والأعمال، للمكذبين الضالين، ووعد حسن للمتقين، ووعد مبشر لمن خلط عملاً صالحاً وآخر سيئاً.

إِقَاطُ الْقُلُوبِ وَالضَّمَائِرِ وَتَذْكِيرُ الْغَافِلِ بِعَجِيبِ خَلْقِ اللَّهِ فِيهِ

٦-٨- ﴿يَأَيُّهَا الْإِنْسَانُ مَا غَرَكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ ﴿٦﴾ الَّذِي خَلَقَكَ فَسَوَّنَكَ فَعَدَّلَكَ ﴿٧﴾ فِي أَيِّ صُورَةٍ

مَا شَاءَ رَكَّبَكَ ﴿٨﴾﴾

(١) من حديث جرير بن عبد الله البجلي في مسلم برقم: (١٠١٧).

(٢) قرأ عاصم وحزمة والكسائي وخلف بتخفيف الدال من ﴿فَعَدَّلَكَ﴾ بمعنى صرفك عن الخلقة المكروهة، والباقون بالتشديد بمعنى سوى خلقك وعدّله وجعله متناسب الأطراف.

وبعد تهيئة النفوس لقبول الموعظة، وترقيق القلوب بما سبق ذكره من التهويل والتخويف، أصبحت النفس مستعدة لزوال خطر الطغيان والمكابرة عنها، فجاءت هذه الآيات لتنبية الحواس والمشاعر، وإيقاظ القلوب والضمائر، ليغدل الإنسان عمّا هو فيه من غفلة، فيشكر نعم الله عليه ويسلك الطريق السوي.

والآية عامة في كل كافر تجرّأ على الله تعالى وعلى رسوله ﷺ فغره جهله وشيطانه وتجاوز حده وتناول على محارم الله تعالى.

قيل: إن الأسود بن شريق، أو كلدة بن خلف، أو الوليد بن المغيرة، أساء إلى النبي ﷺ وآذاه، ولم ينزل به عقاب، فنزلت هذه الآية^(١) وورد فيها بعض الآثار:

١- قال ابن مسعود ﷺ: ما منكم من أحد إلا سيخّلوا الله عز وجل به يوم القيامة، فيقول: يا ابن آدم، ما غرك بي، يا ابن آدم، ماذا عملت فيما علمت؟ يا ابن آدم، ماذا أجبتم المرسلين؟

٢- وقيل للفضيل بن عياض: لو أقامك الله يوم القيامة، فيقول لك: يا ابن آدم، ما غرك بربك الكريم؟ ماذا كنت تقول؟ قال: أقول: غربي ستورك المرخاة.

٣- وقال يحيى بن معاذ: لو أقامني الله بين يديه، وقال: ما غرك بي؟ أقول: غربي برك بي سالفاً وآناً.

٤- وقال أبو بكر الورّاق: لو قال لي: ما غرك بربك الكريم؟ لقلت: غربي كرم الكريم.

٥- وقال بعضهم: إنما قال ﴿بِرِّكَ الْكَرِيمِ﴾ دون سائر أسمائه وصفاته، كأنه لقّنه حجته في الإجابة، حتى يقول: غربي كرم الكريم^(٢).

٦- وعن ابن أبي حاتم وغيره أن عمر ﷺ سمع رجلاً يقرأ ﴿يَتَأْتِيهَا الْإِنْسَنُ مَا غَرَّكَ بِرِّكَ الْكَرِيمِ﴾ فقال: عمر: غره والله جهله^(٣) وهكذا قال ابن عمر رضي الله عنهما.

(١) ينظر: تفسير ابن الجوزي (٤٧/٩)، والخازن (٣٥٨/٤)، ومعالم التنزيل للبغوي (٣٥٦/٨).

(٢) وردت هذه الآثار الخمسة في تفسير الخازن (٣٥٩/٤)، والبغوي، ونقل ابن كثير وابن الجوزي بعضها.

(٣) الدر المنثور (٢٨٣/١٥) عن سعيد بن منصور وابن المنذر. من ص ١٠٨

٧- وقال قتادة: شيء ما غرّ ابن آدم، هذا العدو والشيطان^(١).

٨- وعن بسر بن جحّاش القرشي، أن رسول الله ﷺ بصق يوماً في كفه، فوضع عليها إصبعه، ثم قال: قال الله عز وجل: ابن آدم، أتى تُعْجِزني وقد خلقتك من مثل هذه؟ حتى إذا سوّيتك وعدلتك، مشيت بين بُزْدَيْك وللأرض منك وئيد، فجمعت ومنعت، حتى إذا بلغت التراقي، قلت: أتصدّق، وأنى أوان الصدقة؟^(٢).

ومعنى الآية: يعاتب الله سبحانه الإنسان المقصّر في حق ربه المتجرئ على معاصيه: ﴿يَأْتِيهَا آلَافُنُّ﴾ المنكر للبعث ﴿مَا غَرَّكَ﴾ أي شيء خدعك وجرّأك على معاصي الله، فأشركت ﴿بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ﴾ وخالفت أمره، وتمرّدت عليه بالكفر والطغيان، وقابلت إحسانه بما لا يليق بجلاله، فصنعت ما صنعت، وضيّعت ما وجب عليك، وغرّك عفو الله، وعدم معاجلته لك بالعقوبة، وتوسيعه عليك في المال والجاه، فأمنت عقوبته، وتجرّأت على ربك، وتماديّت فيما أنت فيه إلى الممات، وكان الأجدر بك أن تشكّر وتطيع، فتؤمن بوحداية الله تعالى، وتُصدق رسوله وكتابه، وتؤمن بالبعث والنشور. فهل حدوث هذا منك تهاوناً في حقوق الله، أم عدم إيمان منك بجزائه، أم استخفافاً بعذابه؟

وهذا توبيخ وعتاب وخيم على تقصير الإنسان وجحوده، وتهديد له بسوء المصير إذا استمر في غفلته وغروره، وفي جهله وعنده، وعليه أن يحمده الله ويشكره على أنه لم يجعله في صورة، كلبٍ أو حمار.

ثم ذكر الله الإنسان بشيء من أفضاله عليه، فبين سبحانه أنه قد أوجده من العدم، وجعله مستوي الأعضاء، يسمع ويعقل ويُبصر، وجعله معتدل القامة منتصباً في أحسن

(١) حسن الطبري إسناده.

(٢) المسند (٢١٠/٤) برقم (١٧٨٤٤، ١٧٨٤٢) بإسناد حسن (محققه)، والحاكم (٥١٢/٢)، وابن سعد (٢٤٧/٧)، وابن ماجه (٢٧٠٧)، وقال البوصيري في الزوائد: (٣٦٥/٢) إسناده صحيح، رجاله ثقات والطبراني في الكبير (١١٩٤)، وحسنه الألباني في صحيح سنن ابن ماجه (٢١٨٨)، والسلسلة الصحيحة (٢١٠٩٩، ١١٤٣).

الهيئات والأشكال، فلم يجعل إحدى اليدين طويلة والأخرى قصيرة، ولم يجعل جانباً من الإنسان أبيض والآخر أسود، ولم يجعله يمشي على أربع، منكباً على وجهه كالحيوان، ولم يجعل عيناه، أو الجهاز الهضمي أو الرئتين أو القلب في الخلف.

قال تعالى: ﴿الَّذِي خَلَقَكَ﴾ أي أوجدك في هذه الدنيا من العدم ﴿فَسَوَّكَ﴾ أي جعل قَوَاك وجوارحك متعادلة غير متفاوتة، فهي تقوم بوظائفها من غير خلل ولا نقص في الإدراك أو الإحساس، ولا ينشأ انحراف ولا خلل في المزاج، ولا في أداء الوظائف المنوطة بالجوارح والأعضاء، لقد خلقك الله في أحسن تقويم، وركبك تركيباً قوياً معتدلاً في أحسن شكل وأجمل حياة.

ومن ذلك: التناسب في اليدين والرجلين والعينين وملامح الوجه، وخلق الذكر والأنثى. وقد خلق الله سبحانه جسد الإنسان وقسم أعضائه وجوارحه على جهتين، لا تفاوت بين جهة وأخرى، وجعل في كل جهة مثل الأخرى من الأوردة والأعصاب والشرابين قال تعالى: ﴿الَّذِي خَلَقَ فَسَوَّى﴾ (٢) ﴿وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَى﴾ (٣) [الأعلى: ٢، ٣].

وقال سبحانه: ﴿الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ﴾ [السجدة: ٧].

وقال جل وعلا: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾ [التين: ٤].

وقد خلق الله الإنسان وعدل خلقه، وركبه في أي صورة من الصور شاءها جل شأنه، لأداء وظائفه المنوطة به، كما قال تعالى ﴿هُوَ الَّذِي يُصَوِّرُكُمْ فِي الْأَرْحَامِ كَيْفَ يَشَاءُ﴾ [آل عمران: ٦] وقال أيضاً ﴿وَلَقَدْ خَلَقْتَكُمْ ثُمَّ صَوَّرْتَكُمْ﴾ [الأعراف: ١١] وهذه الصورة متفاوتة في درجات الحسن ونحوه.

عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رجلاً قال: يا رسول الله، إن امرأتي ولدت غلاماً أسوداً فقال: «هل لك من إيل؟» قال: نعم، قال: «ما ألوانها؟» قال: حُمْر، قال: «هل فيها من أورك؟» قال: نعم، قال: «فأنتى كان ذلك؟» قال: أراه عزق نزع، قال: «فلعل ابنك هذا نزع عرق؟»^(١).

قال قتادة: إن الله عز وجل قادر على خلق النطفة على شكل قبيح مثل الحيوانات

(١) صحيح البخاري برقم (٥٣٠٥، ٦٨٤٧، ٧٣١٤)، وهذا لفظه وصحيح مسلم برقم (١٥٠٠).

المنكرَةُ الخلق، ولكن بقدرته ولُطفه وحلمه يخلقه على شكل حسن، مستقيم معتدل، تام الخلقة، حَسَن المنظر والهيئة^(١).

إن عجائب الإبداع في خلق الإنسان، أضخم من أن يحيط به الإنسان، وهو أعجب من كل ما يراه حوله.

وخلق الإنسان على هذه الصورة السوية المعتدلة، الكاملة الشكل والوظيفة، أمرٌ يستحق التدبّر الطويل، والشكر الجزيل.

وقد كُتبت مؤلفات في وصف كمال التكوين الجسدي للإنسان، ومنه: التكوين العضلي، والجلدي، والهضمي، والدموي، والعظمي، والتنفسي، والتناسلي، والعصبي، والجهاز البولي، واللمفاوي، والغدد، وأجهزة الذوق، والشم، والسمع، والبصر: وإن جزءاً من أذن الإنسان (الجزء الأوسط) يتكون من سلسلة تُقدر بنحو أربعة آلاف جزئية دقيقة معقدة، متدرجة بنظام بالغ الدقة في الحجم والشكل.

ومركز حاسة البصر، يحتوي على مئة وثلاثين مليوناً من مستقبلات الضوء، وهي أطراف الأعصاب، ويقوم بحمايتها: الجفُن ذو الأهداب الذي يحميها ليلاً ونهاراً. وحركة العين تمنع جفاف العين، وما يُعرف بالدموع أقوى مُطَهِّر لها. ومن ذلك: جهاز الذوق في الإنسان (اللسان) ففيه مجموعة من الخلايا في حلّقات غشائه المخاطي.

ويغذّي هذه الحلّقات: الخيطية، والفطرية، والعدسية، فروع من العصب اللساني البلعومي، والعصب الذوقي، فينتقل أثرها إلى المخ، مع أن الجهاز في أول الفم. ولذا: فإن الإنسان يلفظ ما لا يستسيغه، ويَحسُّ بالمرارة والحلاوة والبرودة والسخونة، والحامض والملح، واللاذع وغيره.

ويحتوي اللسان على تسعة آلاف من نثوءات الذوق الدقيقة، وكل منها يتصل بأكثر

(١) تفسير ابن كثير (٨/٣٤٣).

من عصب.

ويتكون الجهاز العصبي من شعيرات دقيقة تمرّ بكافة أنحاء الجسم.
وتبلغ سرعة الإشارات والتنبيهات في الأعصاب، مئة متر في الثانية^(١).
سبحان الخلاق العظيم!!

عَدَمُ الْإِيمَانِ بِالْيَوْمِ الْآخِرِ هُوَ سَبَبُ الْغَفْلَةِ وَالْجُحُودِ

٩ - ﴿كَلَّا بَلْ تُكَذِّبُونَ^(١) بِالَّذِينَ^(٢)﴾

ثم بين سبحانه أنه لا عذر للإنسان في الإشراك بالله تعالى، إذ لا يوجد ما يغرّه أو يحمّله على ذلك، ولكن الذي حمّله على ذلك هو التكذيب بالبعث والنشور، فليس الأمر كما تقولون - أيها المكذبون - من أنكم محقّقون في عبادتكم غير الله تعالى، بل أنتم مكذبون بيوم الحساب والجزاء، فهو الذي حمّلكم على الجرأة في ارتكاب المعاصي والفسوق، ولو أنكم فكّرتم وتدبّرتم لازتدعّتم وانزجرتم، ولم تكذبوا بدين الإسلام، ولا بالبعث والجزاء، وعلمتم أن هناك ثواباً وعقاباً على الأقوال والأفعال.
فلا تغتروا - أيها الناس - بحلم الله تعالى، واعلموا أنكم محاسبون، ومجزّيون بالإحسان وإحساناً، وبالسوء سوءاً.

وقد أقام الله عليكم الحجة، فأرسل الرسل وأنزل الكتب، وسجلت عليكم الملائكة أعمالكم وأقوالكم، وعَلِمَ الله سرّكم ونجواكم.

أَرْبَعَةُ أَوْصَافٍ لِلْحَفْظَةِ

١٠-١٢ - ﴿وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ^(١) كِرَامًا كَنِينِينَ^(٢) يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ^(٣)﴾

واعلموا - أيها الناس - أن لكل واحد منكم ملكان يحفظان عليه أعماله ويحصونها،

(١) ينظر فيما سبق كتاب: الله والعلم الحديث، من فقرات وصفحات عدة بتصرف.

(٢) قرأ أبو جعفر بياء الغيبة في ﴿يَكْذِبُونَ﴾ والباقون بتاء الخطاب.

ويراقبونها ويسجلونها عليه كما قال تعالى: ﴿وَرُسُلٌ عَلَيْكُمْ حَفَظَةٌ حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَحَدُكُمُ الْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لَا يُفَرِّطُونَ﴾ [الأنعام: ٦١].

وكما قال سبحانه: ﴿إِذْ يُلْقَى الْمُتَلَقِّيَانِ عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ قَعِيدٌ ﴿١٧﴾ مَا يَلْفِظُ مِنْ قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَيْنٌ ﴿١٨﴾﴾ [ق: ١٨، ١٧].

وكما قال جل شأنه: ﴿أَمْ يَحْسِبُونَ أَنَّا لَا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُمْ بَلَىٰ وَرُسُلُنَا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ﴾ [الزخرف: ٨٠].

وقد أكد الله سبحانه ثبوت تسجيل أعمال العبد وإحصاءها عليه إحصاءً دقيقاً، كما أكد سبحانه ثبوت الجزاء على هذه الأعمال، فقال ﴿وَلَنَعْلَمَنَّكُمْ﴾ من الملائكة ﴿الْحَافِظِينَ﴾ رقباء على أعمالكم وتصرفاتكم، يحفظونها ويسجلونها عليكم دون أن يضيعوا منها شيئاً، والذي يكتب الحسنات والسيئات ملكان.

وجاء التعبير في الآية بلفظ الجمع باعتبار التوزيع على الناس: قال تعالى:

﴿لَهُمْ مَعْقِلَتٌ مِّنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ يَحْفَظُونَهُ، مِّنْ أَمْرِ اللَّهِ﴾ [الرعد: ١١].

عن أبي هريرة ؓ أن رسول الله ﷺ قال: «إن لله ملائكة يعرفون بني آدم - وأحسبه قال: ويعرفون أعمالهم - فإذا نظروا إلى عبد يعمل بطاعة الله، ذكروه بينهم وسموه، وقالوا: أفلح الليلة فلان، نجا الليلة فلان، وإذا نظروا إلى عبد يعمل بمعصية الله، ذكروه بينهم وسموه، وقالوا: هلك الليلة فلان»^(١).

وقد وصف الله تعالى الحفظة الموكلين بإحصاء الأعمال بأربعة أوصاف هي مهمة هؤلاء الملائكة: وهي الحفظ، والكرم، والكتابة، والعلم بما يعمل به الناس.

الصفة الأولى: حفظ أعمال العباد: وقد بدأ الله تعالى بصفة حفظه الملائكة لأعمال العباد، لأنه الغرض الذي سيق لأجله الكلام، وهو: إثبات الجزاء على الأعمال. والحفظ معناه الرعاية والمراقبة وهو الوظيفة الأولى للحفظة.

الصفة الثانية: أنهم كرام على الله تعالى: وهذه صفة كمال الحفظ والإحصاء،

(١) مسند البزار برقم (٢١٩٥)، قال البزار في (سلام) أحد رواه: أحسبه (سلام المدائني)، وهو لين الحديث.

والتنويه بشأن الملائكة الحافظين.

والكرم المذكور في الآية، صفة نفسية جامعة للكمال في المعاملة، وما يَضُدُّ عنهم من الأعمال النفيسة، فهم ملائكة ﴿كِرَامًا﴾ على الله، لهم كرامة ومنزلة حسنة. والصفة الثالثة: أنهم ﴿كَنِينٌ﴾ لِمَا وُكِّلُوا بِإِحْصَائِهِ، لا يفوتهم شيء من أعمالكم وأسراركم وأقوالكم، وهذه الكتابة للضبط والإحصاء، حتى لا تتعرض أعمال العبد وأقواله للنسيان، ولا للإنكار ولا للزيادة أو النقص.

ولم يرد حديث صحيح عن المعصوم ﷺ يبين كيفية كتابة الملائكة لأعمال الإنسان، فهي من الأمور الغيبية التي يجب الإيمان بها كما وردت. والصفة الرابعة للحفظة: أنهم ﴿يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ﴾ أيها الناس من خير أو شر، فهم يحيطون بما يصدر عنكم من أقوال وأعمال صغيرة أو كبيرة، ويحيطون بما يخطر ببالكم من تفكير يترتب عليه العزم والهم بالفعل.

كان الفضيل إذا قرأ هذه الآية قال: ما أشدها من آية على الغافلين. وقد فطر الله الحفظة على معرفة أقوال وأفعال العباد، ويدخل فيه الخواطر القلبية، أي ما يُعْمَلُ فيه الإنسان عقله، فيعزم عليه أو يتردد. وكل من يتول عملاً للأمة: كالعلماء والحكام، والأمراء والولاة، والقضاة وأهل الفتوى، وغيرهم، ينبغي أن يتوافر فيه هذه الصفات الأربع:

- ١- فيكون حافظاً أميناً غير مفرط فيما يقوم به من عمل.
- ٢- ويكون كريماً، زكياً الفطرة، طاهر النفس.
- ٣- ويكون ضابطاً لما يجري على يديه بالكتابة، بحيث لا تضيع مصالح العباد والبلاد.
- ومن وسائل ذلك: الحاسوب، والملفات، والفواتير، والدواوين، ودفاتر الشهود، وتوثيق الأحوال الشخصية، ونحو ذلك.
- ٤- ويكون هذا المسؤول محيطاً بما يتعلق بأحوال الناس المؤتمن عليها، فينتفي عنه الغلط والخطأ وعدم التمييز بين الأمور.

ويختلف العلم المطلوب من الحاكم، عنه في الوالي، عنه في قائد الجيش، عنه في العالم والمفتي، فيقدم في كل ولاية مَنْ هو أقوى كفاءة لإتقان عمله، وأكثر اضطلاعاً بممارستها.

مَصِيرُ الْأَبْرَارِ وَالْفُجَّارِ

١٣-١٦ ﴿إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ ﴿١٣﴾ وَإِنَّ الْفُجَّارَ لَفِي جَحِيمٍ ﴿١٤﴾ يَصَلُّونَهَا يَوْمَ الدِّينِ ﴿١٥﴾ وَمَا هُمْ

عَنْهَا بِغَائِبِينَ ﴿١٦﴾﴾

وللملائكة الحفظة غاية ونهاية ينتهي فيها قيامهم بإحصاء أعمال العباد، هو يوم الحساب والجزاء، الذي جحدته المكذبون.

ولما تشوّفت النفوس إلى معرفة هذا الجزاء على الأقوال والأعمال التي سجلتها الملائكة على العباد، بيّن تعالى أن الناس يوم القيامة فريقان: الأبرار، وهم أهل السعادة، والفجار وهم أهل الشقاء:

أما الأبرار: فهم المتقون، الذين بَرُّوا ربهم، فصدقوا معه، ووفّوا بما عهد لهم به من الأوامر والنواهي، وهم القائمون بحقوق الله تعالى وحقوق العباد، وكان البر ملازماً لهم في أعمال القلوب وأعمال الجوارح، وهؤلاء الأبرار الأتقياء لهم عند ربهم جنات النعيم، وهم سعداء في حياتهم الدنيوية والبرزخية.

فالمعنى: إن المؤمنين الصادقين الذين اتقوا ربهم في الدنيا، ووفّوا بما عاهدوا الله عليه، لفي نعيم دائم، وهناء مقيم، وفي بهجة وسرور، يتنعمون في رياض الجنة بما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر، وهم مخلدون فيها دائماً وأبداً ﴿يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُمْ بِرَحْمَةٍ مِنْهُ وَرِضْوَانٍ وَجَنَّاتٍ لَّهُمْ فِيهَا نَعِيمٌ مُّقِيمٌ ﴿١١﴾ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿١٢﴾﴾ [التوبة].

عن ابن عمر رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال: «إنما سماهم الله الأبرار، لأنهم بَرُّوا الآباء والأبناء»^(١).

(١) مخطوطة تاريخ دمشق (٤٠٠/١٧) مستفاداً من تحقيق تفسير ابن كثير (٣/٤٥٨)، ط. دار طيبة بالرياض.

أما الفجار الذين نقضوا عهودهم مع الله تعالى، وخرجوا عن طوعه، فعصوا ربهم، وقصّروا في حقه وحق العباد، فهم في نار مُخرّقة، متأججة بعضها فوق بعض، يضلّون لهيبها، ويقاسون حرها في يوم الجزاء الذين كانوا يكذبون به، ولأنهم شقّوا عصا الطاعة، وماتوا على ذلك.

معنى وصلي النار مس حرها، أما اصطلى بالنار: أي استدفا بها.

ورد أن سليمان بن عبد الملك قال لأبي حازم المزني: ليت شعري، ما لنا عند الله؟ فقال له: اعرض عملك على كتاب الله، فإنك تعلم ما لك عند الله، قال: أين أجد ذلك في كتاب الله؟ قال: عند قوله: ﴿إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ ۝١٣﴾ وَإِنَّ الْفُجَّارَ لَفِي جَحِيمٍ ۝١٤﴾ قال سليمان: فأين أجد رحمة الله؟ قال: ﴿إِنْ رَحِمْتَ اللَّهُ قَرِيبٌ مِنْ الْمُحْسِنِينَ﴾^(١) [الأعراف: ٥٦].

ثم إن الذين ماتوا على الكفر، ملازمون للنار ملازمة تامة، لا يفارقونها ولا يغيبون عنها لحظة، ولا يخرجون منها أبداً.

١ - كما قال تعالى: ﴿يُؤِيدُونَ أَنْ يُخْرِجُوكَ مِنَ النَّارِ وَمَا هُمْ بِخَارِجِينَ مِنْهَا وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّقِيمٌ﴾ [المائدة: ٣٧].

٢ - وقال سبحانه: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ نَارُ جَهَنَّمَ لَا يُقْضَىٰ عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ مِنْ عَذَابِهَا كَذَلِكَ نَجْزِي كُلَّ كَافِرٍ ۝٣١﴾ وَهُمْ يَصْطَرِخُونَ فِيهَا رَبِّنَا أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ﴾ [فاطر: ٣٦، ٣٧].

٣ - وقال عز وجل: ﴿كَذَلِكَ يُرِيهِمُ اللَّهُ أَعْمَلَهُمْ حَسَرَاتٍ عَلَيْهِمْ وَمَا هُمْ بِخَارِجِينَ مِنَ النَّارِ﴾ [البقرة: ١٦٧].

٤ - وقال جل شأنه: ﴿وَنَجْنِبُهَا الْأَشْقَى ۝١١﴾ الَّذِي يَصْلَى النَّارَ الْكُبْرَى ۝١٢﴾ ثُمَّ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَى ۝١٣﴾ [الأعلى].

٥ - وقال أيضاً: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يَأْتِيَنَا سَوَافٍ نُصْلِيهِمْ نَارًا كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُمْ بَدَّلْنَاهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا

(١) تفسير الخازن (٤/٣٥٩).

لِيَذُوقُوا الْعَذَابَ ﴿[النساء: ٥٦] .

فأهل النار لا يغيبون عنها ساعة، ولا يخفف عنهم من عذابها، ولا يجابون إلى ما يسألون من الموت أو الراحة، ولو يوماً واحداً.

وقد فَصَّلَتْ سورة المطففين التالية، نعيم الأبرار في الآيات من ١٨-٢٨ وَفَصَّلَتْ عذاب الفجار في الآيات من ٧-١٧ وكلا الفريقين لا يموت، ولا يخرج مما هو فيه. قال تعالى: مفخماً يوم الحساب والجزاء.

١٧، ١٨ - ﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمُ الدِّينِ ﴿١٧﴾ ثُمَّ مَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمُ الدِّينِ ﴿١٨﴾﴾

ثم عَظَّمَ الله تعالى أمر يوم القيامة وهول من شأنه، فالإنسان لا يدري كُتُه هذا اليوم، ولا حقيقة ما يجري فيه، فما أعظم شأن هذا اليوم، فأى شيء أدراك عِظَم وشدة يوم الحساب والجزاء.

ثم أكد الله سبحانه أن المخاطب لا يعلم شيئاً عما يجري في يوم الحساب والجزاء. والسؤال الأول في الآية السابقة ﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمُ الدِّينِ﴾ عن تهويل شأن يوم الدين. والسؤال الثاني في هذه الآية ﴿ثُمَّ مَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمُ الدِّينِ﴾ هو سؤال عن حقيقة يوم الدين. فليس بين هذه الآية والتي قبلها تكرار، وإنما كل منهما له معنى. فيوم القيامة بحقيقته وأهواله فوق الوصف والبيان، لا يعلم أحد حقيقته ولا يعلم مافيه من أهوال.

ومثل ذلك: ﴿الْحَاقَّةُ ﴿١﴾ مَا الْحَاقَّةُ ﴿٢﴾ وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْحَاقَّةُ ﴿٣﴾﴾ [الحاقة: ١ - ٣].

﴿الْقَارِعَةُ ﴿١﴾ مَا الْقَارِعَةُ ﴿٢﴾ وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْقَارِعَةُ ﴿٣﴾﴾ [القارعة: ١ - ٣].

اللَّهُ تَعَالَى هُوَ الْمُتَفَرِّدُ بِالسُّلْطَانِ وَالْحُكْمِ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ

١٩ - ﴿يَوْمَ ﴿١﴾ لَا تَمْلِكُ نَفْسٌ لِنَفْسٍ شَيْئًا وَالْأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِلَّهِ ﴿١٩﴾﴾

ويوم الحساب لا يقدر أحد على نفع أحد فيه، ولا يدفع عنه ضرراً، فلا يمكن لأحد أن يخلص أحداً مما هو فيه، إلا أن يأذن الله لمن يشاء ويرضى. وهو اليوم الذى يفصل

(١) قرأ ابن كثير وأبو عمرو ويعقوب برفع ﴿يَوْمَ﴾ خبر لمبتدأ محذوف أي هو يوم والباقون بنصبها على الظرفية.

الله فيه بين العباد ويأخذ للمظلوم حقه من الظالم.

قال تعالى: ﴿يَوْمَ هُمْ بَدْرُؤٌ لَا يُنْفَعُ عَلَى اللَّهِ مِنْهُمْ شَيْءٌ لِّمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ﴾ [غافر: ١٦].

وقال سبحانه: ﴿الْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ لِلرَّحْمَنِ وَكَانَ يَوْمًا عَلَى الْكَافِرِينَ عَسِيرًا﴾ [الفرقان: ٢٦].

وضعف الخلائق في هذا اليوم شديد، فلكل امرئ منهم شيء يغنيه، وكل نبي يقول: نفسي نفسي، وذلك حين يطلب الخلق من هذا النبي الخاتم، الشفاعة عند الله تعالى للفصل والقضاء بينهم من هول ما هم فيه، حيث يلجمهم العرق ويبلغ آذانهم، ثم ينتهي طلب الشفاعة إلى النبي ﷺ فيقول ﷺ: «أنا لها»^(١).

ومن ذلك أن النبي ﷺ يقول لابنته (يا فاطمة، سليني بما شئت، لا أغني عنك من الله شيئاً)^(٢).

والشاهد أن كل نفس كافرة لا تملك نفعا لنفس كافرة أخرى، فالنافع الضار هو الله تعالى، والمعطي المانع هو الله، والأمر كله بيد الله، لا ينازعه فيه منازع، ولا يغالبه فيه مغالب، ولا يقهره قاهر.

١ - قال تعالى: ﴿أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ [الأعراف: ٥٤].

٢ - وقال سبحانه: ﴿قُلْ إِنْ أَلَمْرُ كُلُّهُ لِلَّهِ﴾ [آل عمران: ١٥٤].

٣ - وقال عز وجل: ﴿لِلَّهِ الْأَمْرُ مِنْ قَبْلُ وَمِنْ بَعْدُ﴾ [الروم: ٤].

٤ - وقال جل شأنه: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ وَأَخْشَوْا يَوْمًا لَا يَجْزِي وَالِدٌ عَنْ وَلَدِهِ وَلَا مَوْلُودٌ هُوَ جَازٍ عَنْ وَالِدِهِ شَيْئًا إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِاللَّهِ الْغُرُورُ﴾ [لقمان: ٣٣].

فلا أمر مع أمر الله، ولا تقدّم على قضائه ولا بكلمة، إلا من أذن له الرحمن وقال صواباً. وكما فتحت السورة بالحديث عن يوم القيامة، ختمت به أيضاً ردّاً للعجز على الصدر.

تم تفسير (سورة الانفطار) والله الحمد والمنة

(١) من حديث ابن عباس في الشفاعة العظمى في المسند (٢٥٤٦، ٢٦٩٢)، وهو في البخاري عن أبي هريرة (٤٧١٢)، ومسلم (١٩٤)، وعن أنس في البخاري (٤٤٧٦)، ومسلم (١٩٣).

(٢) ينظر: حديث أبي هريرة في مسلم (٢٠٤، ٣٤٨)، والترمذي (٣١٨٥)، والمسند (٨٤٠٢) بإسناد صحيح والبخاري (٢٧٥٣).

تَفْسِيرُ سُورَةِ الْمُطَفِّينَ (٨٣)

مُقَدِّمَةُ السُّورَةِ

(سورة المطففين) هي السورة الثالثة والثمانون في ترتيب المصحف، والسادسة والثمانون في ترتيب النزول، نزلت بعد (سورة العنكبوت) وقبل (سورة البقرة). وتسمى (سورة المطففين) وهو الأشهر، وسميت في كتب السنة وبعض التفاسير (سورة ويل للمطففين) والأول اختصاراً له.

وعدد آياتها ست وثلاثون آية باتفاق، وهي مئة وتسع وستون كلمة. وسبع مئة وثلاثون حرفاً.

وهي من السور المختلف بين كونها مكية أو مدنية على أقوال ثلاثة:

١- فمن قال: إنها مكية نظر إلى قوله تعالى: ﴿إِذَا تُنْزِلُ عَلَيْنَا قَالِ اسْطِئِرُ الْأَوَّلِينَ﴾ [الآية: ١٣] فَإِنَّ رَفِيَّ الْقُرْآنَ بِهَذَا الْإِفْكَ كَانَ فِي مَكَّةَ، ومع هذا فَإِنَّ تَطْفِيفَ الْكِيلِ وَالْمِيزَانَ كَانَ فِي مَكَّةَ، كما هو في كل أمة وفي كل زمان، فهو أمر حاصل في كل بلد، لاسيما إذا كان أهلها كفاراً، وبهذا قال ابن عباس والشَّيْخُ وَالنَّقَاشُ^(١).
ومنهم من قال هي آخر ما نزل بمكة^(٢).

٢- وقال مقاتل: هي أول سورة نزلت بالمدينة.

قال ابن عباس: لما قدم النبي ﷺ كانوا أخبث الناس كيلاً، فأنزل الله تعالى ﴿وَيَلِّ لِلْمُطَفِّينَ﴾ فَأَحْسَنُوا الْكِيلَ بعد ذلك^(٣).

(١) أخرجه ابن الضريس (١٨، ١٧) عن ابن عباس.

(٢) ينظر: تفسير ابن عطية (٤٤٩/٥).

(٣) ينظر: سنن النسائي الكبرى برقم (١١٦٥٤، ١١٥٩٠)، وسنن ابن ماجه برقم (٢٢٢٣)، قال البوصيري: هذا إسناد حسن، وهو عند ابن حبان (٤٩١٩، ٤٨٩٨)، والمستدرك (٣٣/٢)، وحسن إسناده الألباني في صحيح سنن ابن ماجه (١٨٠٨)، وأخرجه الطبراني (١٢٠٤١)، والطبري (١٨٦/٢٤).

وقيل: إن النبي ﷺ لما قدم المدينة وبها رجل يقال له: أبوجهينة، ومعه صاعان يكيل بأحدهما، ويكتال بالآخر، فنزلت الآية^(١).

وبعض من قال: إنها مدنية، استثنى الآيات الثمانية الأخيرة فقال: إنها مكية. وقال القرطبي: كان بالمدينة تجاراً يطففون الكيل، وكانوا يتبايعون بالقمار ونحوه فأنزل الله الآية، فخرج النبي ﷺ إلى السوق وقرأها، وكانت عادة متفشية فيهم^(٢).

٣ - وقال بعضهم: نزلت السورة في الهجرة بين مكة والمدينة، وكان التطفيف متفشياً في البلدين، فأراد الله تعالى أن يطهر المدينة من فساد المعاملات التجارية، قبل أن يدخلها النبي ﷺ لئلا يشهد فيها منكراً عاماً، في الأسواق والمبادلات، وهذا مقصد حسن، ولذا فقد قيل إنها آخر ما نزل بمكة، وأول ما نزل بالمدينة^(٣).

عن أبي هريرة ؓ قال: (قدمت المدينة والنبي ﷺ بخير، ورجل من بني غفار يؤتمهم في الصبح، فقرأ في الأولى ﴿كَهَيْعَصَ﴾ وفي الثانية ﴿وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ﴾ وكان عندنا رجل له مكيالان، مكيال كبير، ومكيال صغير، يُعطي بهذا ويأخذ بهذا، فقلت: ويل لفلان^(٤).

موضوع السورة:

١- تأتي سورة المطففين بعد سورة الانفطار كأنها تكملها، فهي تفضل ما أجملته عن الأبرار والفجار، وقبل ذلك فإنها تُظهر المجتمع المسلم من المعاملات التي لا تتفق مع مبادئ الإسلام السامية، فهي تفضل علاقة العمل في الدنيا بالجزاء في الآخرة، كي يتدارك الإنسان نفسه قبل حلول الأجل، وانتهاء وقت العمل.

٢- وتبدأ السورة في آياتها الست الأول، بإعلان الحرب على المطففين في الكيل

(١) تفسير الخازن (٤/٤٥٩).

(٢) تفسير ابن عاشور (١٨٨/٣٠) وابن عطية وابن الجوزي.

(٣) زاد المسير (٥١/٩) وابن عاشور (١٨٧/٣٠).

(٤) صحيح ابن حبان (٧١٥٦)، قال محقق الإحسان: إسناده صحيح على شرط مسلم، وهو في البزار

(٢٢٨١) كشف، قال الهيثمي في مجمع الزوائد (١٣٥/٧) رجاله رجال الصحيح.

والوزن، ونحو ذلك من كل ما هو معنوي أو محسوس، سواء في تعامل العبد مع ربه أو تعامله مع الناس.

فمن لم يطمئن في ركوعه وسجوده فهو مطفف في عبادته.

ومن ظلم غيره وتعالى عليه فقد طفّ الصاع.

والذي يتقص من وقت العمل، أو لا يؤديه كما يجب، فقد نقص الكيل والوزن.

والذي يعامل الناس بمكيالين، لثراء وفقر، أو لسبب ما من الأسباب، فهو من المطففين.

والذي لم يسوّ بين زوجاته ولا بين أولاده، فهو من المطففين.

والذي يغشّ في البيع والشراء فهو من المطففين، وهكذا.

وقد وصف الله المطففين بأنهم لا يخافون حساباً ولا قياماً بين يدي رب العالمين.

٣ - ولأن مرتكبي جريمة التطفيف بكل صورته، يرتكبها الفجار الأشرار، فقد هدّهم الله تعالى وتوعدهم بعذاب جهنم، وصوّرت السورة جزاءهم يوم القيامة، حيث يساقون إلى الجحيم مع الزجر والتهديد، وهم محجوبون عن رؤية ربهم يوم لقائه بسبب كفرهم بآيات الله تعالى، وبسبب كثرة وقوع الذنوب منهم حتى رانت على قلوبهم، فطمست وطُبع عليها.

٤ - وبعد الحديث عن الفجار، تأتي الصفحة المقابلة للأبرار المتقين، وما أعدّه الله لهم من النعيم المقيم، فتصف طعامهم وشرابهم ومساكنهم، ونُصرة وجوهرهم، وشرابهم من رحيق ختامه مسك، ممزوج من عين التسنيم، وفي كل هذا جمع بين الترغيب والترهيب، والوعد والوعيد.

٥ - وختمت السورة ببيان جانب مما كان يلقاه الأبرار من الفجار في الدنيا، حيث كانوا يشخّرون منهم ويستهزؤون بهم، ويغمزون ويلمزون ضعفاء المسلمين احتقاراً لهم، وكانوا يظنون أنهم على حق، وأن هؤلاء الضعفاء من الأبرار المتقين في ضلال بين، فإذا كان يوم القيامة فإن الجزاء يكون من جنس العمل، فكما ضحك الكفار من

المؤمنين في الدنيا، فإنهم يفعلون بهم كذلك يوم القيامة، وهم على أسرّتهم ينظرون إليهم ﴿هَلْ تُؤْبَ الْكُفَّارُ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ﴾ [الآية: ٣٦].

نعم، لقد جُوزوا بمثل ما فعلوا في الدنيا أعدل الجزاء.

وعلى هذا فإن في السورة أربعة مقاطع:

المقطع الأول: عن المطففين في الكيل والميزان ونحو ذلك، من كل ما هو مادي أو

معنوي، وذلك في الآيات الست الأول.

والمقطع الثاني عن ردع الفجار وزجرهم، وتهديدهم بالويل والهلاك.

وهذا من الآية السابعة إلى الآية السابعة عشرة.

والمقطع الثالث عن الأبرار ونعيمهم ونُصرة وجوهم، والرحيق الذي يشربون منه،

والأرائك التي يجلسون عليها، وهذا من الآية الثامنة عشرة إلى الآية الثامنة والعشرين.

والمقطع الرابع فيما يحدث من سُخْرية الأقوياء من الضعفاء، واحتقارهم لهم في

الدنيا، وعقاب الله لهم في الآخرة من جنس ما كانوا يصنعون.

وهذا من الآية التاسعة والعشرين إلى انتهاء السورة، بالآية السادسة والثلاثين.

* * *

تَفْسِيرُ السُّورَةِ

وَصَفُ التُّطْفِيفِ فِي الْمَحْسُوسَاتِ وَالْمَعْنَوِيَّاتِ

١-٣- ﴿وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ ﴿١﴾ الَّذِينَ إِذَا أَكَالُوا عَلَى النَّاسِ يَسْتَوْفُونَ ﴿٢﴾ وَإِذَا كَالُوهُمْ أَوْ وَزَنُوهُمْ

يُخْسِرُونَ ﴿٣﴾﴾

بدأت السورة ببيان العذاب الشديد، والوعيد بالهلاك والثبور، لمن ييخس الناس حقوقهم في الكيل والميزان وما يشبههما، فالويل: كلمة تهديد ووعيد بالعقاب لكل مخالف. والتطفيف: النقص في المكيل والموزون، وغالباً ما يكون ذلك من كبار التجار، أصحاب رؤوس الأموال، فالمكاييل والموازين في قبضتهم. وقد كانت هذه الآفة متفشية بين التجار قبل الإسلام، وقد عدّها الإسلام من كبائر الذنوب، وأرسل الله نبيه شعبياً عليه السلام للقضاء على هذه الجريمة بين أهل مدين، وأصحاب الأيكة.

ولمّا نزلت هذه الآية، أحسن الناس الكيل والميزان بعدها. وفي الحديث عن ابن عباس رضي الله عنهما «ولا طفّفوا الكيل إلا مُنَعُوا النبات، وأخذوا بالسنين»^(١).

ثم وصف الله سبحانه وتعالى حال هؤلاء المطففين، فبين أنهم يكيلون بمكيالين، فإذا أخذوا الحق لأنفسهم أخذوه وافياً كاملاً، وإذا أعطوه لغيرهم بخسوه ونقصوه، وهي عادة ذميمة.

وممن اشتهر بهذا في المدينة في عصر التنزيل: رجل يكنى (أبا جهينة) واسمه (عمرو) كان له صاعان، يأخذ بأحدهما ويعطي بالآخر^(٢).

(١) من حديث ابن عباس عند الطبراني (١٠٩٩٢) وهو صحيح لغيره كما في صحيح الترغيب والترهيب (٧٦٥) وأخرجه ابن مردويه أيضاً.

(٢) ينظر: طبقات ابن سعد (٣٢٧/٤)، والبراز (٢٢٨١) كشف، والبيهقي (١٩٨/٤).

وقد وصف القرآن المطففين بأنهم إذا اكتالوا على الناس، أي أخذوا الكيل منهم على سبيل الشراء، أخذوه وافيّاً كاملاً لأنفسهم، وإذا كالوا للناس، أي باعوا لهم، ينقصون الكيل والوزن.

واكتفت الآية بذكر الوزن في البيع دون الشراء، لأن كلا منهما يدل على الآخر. والآية تحذّر من التساهل في أمر التطفيف لأنه يجمع ظُلماً واختلاساً ولُؤماً، وينشأ هذا من فساد الدين والأخلاق، فالأنانيون لا يعرفون إلا مطالبهم وإن كانت باطلة، ويَضيقُون بمطالب غيرهم وإن كانت حقاً، فهم كالوحوش لا يعرفون إلا ما يشتهون. وإذا فإن صورة التطفيف القريبة تُطلق على الكيل والميزان، ولكنها تطرّد في صور شتى للحياة.

وهناك أناس ترتفع في أعينهم قيمة كل ما يملكون، أما ما يملكه غيرهم فلا حرمة له عندهم.

والمعنى: أنهم إذا اشتروا من الناس شيئاً، استوفوا لأنفسهم الكيل والوزن، وإذا باعوا إليهم شيئاً، فإنهم يخسونهم حقوقهم، وينقصونهم الكيل والوزن. والوعيد الذي في أول السورة يلحق كل من يأخذ لنفسه زائداً في السلع ونحوها، أو يدفع لغيره ناقصاً، سواء قل ذلك أم كثر، ما لم يتب منه، فإن تاب ورد المظالم والحقوق إلى أهلها، تاب الله عليه، ومن أصر على ذلك واستمر عليه، فهو مصر على كبيرة من الكبائر.

قال نافع: كان ابن عمر رضي الله عنهما يمر بالبائع فيقول له: اتق الله، أوف الكيل والوزن، فإن المطففين يوقّفون يوم القيامة، حتى يُلجمهم العرق^(١). وقال قتادة: أوف يا ابن آدم، كما تحب أن يوفّى لك، واعدل كما تحب أن يُعدل لك^(٢). وقال الفضيل: بخس الميزان سواد يوم القيامة^(٣).

حتى تكون منهم كمقدار ميل» قال سليم بن عامر: فوالله ما أدري ما يعني بالميل؟ أمسافة الأرض، أم الميل الذي تكتحل به العين، قال: «فيكون الناس على قدر أعمالهم في العرق، فمنهم من يكون إلى كعبه، ومنهم من يكون إلى ركبتيه، ومنهم من يكون إلى حنطيه، ومنهم من يلجمه العرق إلجاماً» قال: وأشار رسول الله بيده إلى فيه^(١).

٦- وفي حديث أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ ﴿يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ بمقدار نصف يوم، من خمسين ألف سنة، فيهون ذلك على المؤمن، كتدلّي الشمس إلى الغروب إلى أن تغرب^(٢).

٧- وأخرج الطبراني عن ابن عمر رضي الله عنهما أنه قال: يا رسول الله، كم مقام الناس بين يدي رب العالمين يوم القيامة؟ قال: «ألف سنة، لا يؤذن لهم»^(٣). أما مقدار هذا اليوم الذي يقوم فيه العباد لرب العالمين فقد جاء تحديده في قوله تعالى: ﴿تَفْرُجُ الْمَلَكُةُ وَالرُّوحُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ﴾ [المعارج: ٤].

٨ - وفي حديث أبي هريرة رضي الله عنه «في يوم كان مقداره خمسين ألف سنة»^(٤). ولكن هذا اليوم يخف ويثقل، ويطول ويقصر باعتبار أحوال الناس. وقد كان النبي ﷺ على جلالة قدره يستعيز بالله من ضيق هذا اليوم. ففي حديث عائشة رضي الله عنها أن رسول الله ﷺ كان يفتح قيام الليل، يكبر عشراً، ويحمد عشراً، ويسبح عشراً، ويستغفر عشراً، ويقول: «اللهم اغفر لي، واهدني، وارزقني، وعافني، ويتعوذ بالله من ضيق المقام يوم القيامة»^(٥). قال ابن عطية عن قيام الناس لرب العالمين:

(١) صحيح مسلم (٢٨٦٤).

(٢) أخرجه أبو يعلى برقم (٦٠٢٥)، وابن حبان برقم (٧٣٣٣) قال محقق أبي يعلى: إسناده صحيح.

(٣) أخرجه الطبراني وقال الهيثمي: فيه هشام بن بلال، وبقية رجاله وثقوا: مجمع الزوائد (٣٣٧/١٠).

(٤) من حديث طويل في صحيح مسلم برقم (٩٨٧).

(٥) أبوداود برقم (٧٦٦)، وسنن النسائي (٢٠٨/٣)، وفي الكبرى (١٠٦٤٢، ١٣١٩)، وابن ماجه برقم (١٣٥٦)،

وابن حبان (٢٦٠٢)، وانظر: مسند أحمد (٢٥١٠٢) بإسناد حسن، وقد روى هذا الحديث عدة طرق.

يوم القيامة يوم يختلف الناس فيه بحسب منازلهم:

١- فروى عبد الله بن عمر رضي الله عنهما عن النبي ﷺ أنه قال: «يقام فيه خمسون ألف سنة»^(١) وهذا بتقدير شدته.

٢- وقيل: ثلاث مئة سنة^(٢).

٣- وقال ابن مسعود رضي الله عنه: «أربعين سنة رافعي رؤوسهم إلى السماء، لا يؤمرون، ولا يكلمون»^(٣). وقيل غير هذا، وفيه كله آثار مروية.

ومعناها: إن لكل قوم مدة ما، حسبما تقتضي حالهم وشدة أمرهم. وورد أن القيام في يوم القيامة يكون على المؤمن على قدر ما بين الظهر إلى العصر، أو بمقدار صلاة مكتوبة^(٤).

فمقادير بلوغ العزق منهم، وكذا طول الموقف بين يدي الله تعالى وقصره، كل على قدر عمله، فكل منهما يختلف باختلاف أحوال الناس.

عن القاسم بن أبي بزة قال: حدثني من سمع ابن عمر رضي الله عنهما قرأ ﴿وَيَلِّ لِلْمُطَفِّفِينَ﴾ حتى بلغ ﴿يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ فبكى حتى خر وامتنع عن قراءة ما بعده^(٥).

فالتطفيف في مظهره القريب يطلق على الكيل والميزان، ولكن معناه يطرد في صور شتى للسلوك الإنساني.

سَجِّلْ أَعْمَالِ الْمُطَفِّفِ فِي دِيْوَانِ أَهْلِ الشَّرِّ

٧-٩- ﴿كَلَّا إِنَّ كِتَابَ الْفَجَارِ لَفِي سِجِّينٍ ﴿٧﴾ وَمَا أَذْرَكَ مَا سَحَّيْنٍ ﴿٨﴾ كِتَابٌ مَرْفُومٌ ﴿٩﴾﴾

(١) الطبراني (٨٥)، والحاكم (٥٧٢/٤).

(٢) جاء هذا عن حذيفة وعن أبي هريرة كما في الدر المنثور (٢٩١/١٥).

(٣) جاء هذا عن ابن أبي حاتم وابن مردويه كما في الدر (٢٩١/١٥)، وانظر فيما سبق تفسير ابن عطية (٤٥٠/٥) وينظر: تفسير الطبري (٥٩/٣٠)، وابن كثير (٣٤٧/٨).

(٤) جاء هذا عن قتادة وعن كعب عند عبد بن حميد وابن المنذر، الدر المنثور (٢٩١/١٥).

(٥) أخرجه أحمد في الزهد (ص ١٩٢) وسعيد بن منصور وابن أبي شيبة.

ثم إن مطفف الكيل والميزان يُكتب عمله في سجل الفجار، من الكفار والمنافقين والفاسقين، لأنهم يحشرون في زمريتهم يوم القيامة، فالحديث عنهم واحد، والمصير الذي ينتظرهم واحد، والفاجر هو المتجاوز الحد في المعصية والإثم، وسجل عمله يودع في مكان، اسمه ﴿سَجِينٌ﴾ مكتوب عليه ﴿سَجِينٌ﴾ كتابة واضحة تشبه الرقم المنسوج في الثوب، وهو مكان ضيق كالسجن، يودع فيه أرواح الكفار.

قال تعالى: ﴿وَإِذَا أُلْقُوا مِنْهَا مَكَانًا ضَيِّقًا مُّقَرَّنِينَ دَعَوْا هُنَالِكَ ثُبُورًا ۚ لَا تَدْعُوا الْيَوْمَ ثُبُورًا وَجِدًا وَادْعُوا ثُبُورًا كَثِيرًا﴾ [الفرقان: ١٣، ١٤].

١- قال ابن عمر وعائشة ومجاهد وقتادة وغيرهم: هي الأرض السابعة السفلى، وفيها أرواح الكفار^(١).

٢- وروى البغوي بإسناد الثعلبي عن البراء أن (سجين أسفل سبع أرضين، وعليين في السماء السابعة تحت العرش)^(٢).

٣- وعن عبد الله بن كعب بن مالك قال: لما حضرت كعباً الوفاة أثنى أمُّ بشر بنت البراء فقالت: إن لقيت ابني فأقرئه مني السلام، فقال: غفر الله لك يا أم بشر، نحن أشغل من ذلك، فقالت: أما سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إِنَّ نَسْمَةَ الْمُؤْمِنِ تَسْرَحُ فِي الْجَنَّةِ حَيْثُ شَاءَتْ، وَإِنْ نَسْمَةَ الْكَافِرِ فِي سَجِينٍ؟» قال: بلى، قالت: فهو ذلك^(٣).

وقد ورد أن سجين كتاب جامع لأعمال الشر الصادر من الشياطين والكفرة والفسقة. وسجين في الأصل مشتق من السجل وهو الكتاب.

وقيل: هو المكان الضيق كالسجين، وقيل: هو أسفل الأرض السابعة، وهو ضد

(١) ورد هذا في آثار كثيرة، انظرها في المصدر السابق (٢٩٤/١٥).

(٢) تفسير الخازن (٣٦٠/٤).

(٣) ينظر: سنن ابن ماجه (١/١١٨٧)، والطبراني (٦٤/١٩) (١٢٢)، والبيهقي في البعث (٢٢٦)، وعبد بن حميد (١٥٦٩)، ومشكاة المصابيح (١٦٣١)، قال الألباني: ضعيف، والمرفوع منه صحيح، وهو في صحيح ابن ماجه أيضاً برقم (٣٤٤٦)، والسلسلة الصحيحة (٩٩٥).

عليين محل كتاب الأبرار.

وفي سجين: صحف أعمال الشياطين والكفرة من الجن والإنس، فكل ما كُتب من أعمالهم مسجل في هذا الديوان الضيق المتسافل، ومصير الفجار إلى جهنم في أسفل سافلين. وكل ما كان أعلى فهو أوسع، لأنه دركات كدركات جهنم بعضها دون بعض. فليس الأمر كما يزعم الجاحدون المنكرون للبعث والحساب والجزاء، ولا كما يظن المطففون أنه لا ثواب ولا عقاب، بل الحق أن البعث واقع ما له من دافع، وأن ما يفعله الفجار من الكفر والتطفيف في الكيل والميزان، مكتوب ومسجل في صحف أعمالهم، بديوان الشر الذي يوصلهم إلى قاع جهنم، فليرتدعوا عن فعلهم، حتى لا يصلوا إلى هذه النهاية.

ثم هؤل سبحانه من شأن هذا المكان الضيق الذي يودع فيه صحف أعمال الفجار وأرواحهم، بأنه مكان فظيع لا يعرف الإنسان حقيقته، ولا حقيقة ما يجري فيه، أما وصف هذا الكتاب المودع فيه:

فهو كالرقم في الثوب، مكتوب كتابة كالنسيج الذي لا يُمحي ولا يزول، ولا يزداد فيه ولا ينقص منه، وهذه الكتابة الثابتة ثبوت النسيج في الثوب، واضحة، يفهمها أصحابها فهماً بَيِّناً، لا لبس فيه ولا غموض، إنه ديوان الشر الجامع لأعمالهم السيئة.

ثَلَاثَةُ أَوْصَافٍ لِمَنْ لَمْ يُؤْمِنْ بِالْيَوْمِ الْآخِرِ

١٠-١٢ ﴿وَلِئَلَّيْئَمَ لِلْمُكْذِبِينَ ﴿١٠﴾ الَّذِينَ يُكَذِّبُونَ يَوْمَ الدِّينِ ﴿١١﴾ وَمَا يُكْذِبُ بِهِ إِلَّا كُلُّ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ ﴿١٢﴾﴾

والويل الشديد لهؤلاء الفجار المكذبين، إذا صاروا إلى ما توعدهم الله به من السجن والعذاب المهين، ويل لهم، ثم ويل لهم، وفي هذا تحذير مسبق للناس وهم في الدنيا، قبل أن يصل بهم المقام إلى هذا المصير.

ثم وصف سبحانه مَنْ كان هذا شأنهم، ويُنْشَأُ الإقدام على الجرائم، وارتكاب السيئات والموبقات هو عدم التصديق باليوم الذي يدان فيه العباد وهم قيام لرب

العالمين، ولو أنهم آمنوا بما فيه من أن الجنة دار الثواب، والجحيم دار العقاب، لأقلعوا عما هم فيه واستعدوا للقاء ربهم.

ولا يجحد هذا اليوم ويكذب بما فيه، إلا كل من تجاوز الحد في الكفر والطغيان، وبالع في ارتكاب الآثام والمعاصي، وهو جاحد لكتاب الله، منكر للبعث والنشور، فهذه ثلاثة أوصاف، ذكرت هذه الآية صفتان منها في قوله تعالى: ﴿وَمَا يَكْذِبُ بِهِ إِلَّا كُلُّ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ﴾ في أقواله وأفعاله، متجاوز الحلال إلى الحرام، ومتعدّ حدود الله تعالى وشرائعه، فهو ظالم لنفسه بالكفر والشرك، وارتكاب المحرمات، وإنكار الحساب والجزاء، وظالم للناس بأكل أموالهم، وإضاعة حقوقهم، ومنها تطفيف الكيل والميزان.

فالوصف الأول للمكذب باليوم الذي يدان فيه العباد أنه ﴿مُعْتَدٍ﴾ أي ظالم متجاوز للحدود فيما بينه وبين الله، وفيما بينه وبين الناس.

والوصف الثاني أنه ﴿أَثِيمٍ﴾ كثير ارتكاب الذنوب والآثام، أي أنه مبالغ في ارتكاب القبائح والخطايا. قال تعالى:

١٣ - ﴿إِذَا نُتِلَىٰ عَلَيْهِآبُنَا قَالَ أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ﴾

أما الوصف الثالث: فهو التكذيب بما جاء به محمد ﷺ ومنه اليوم الآخر، ومافيه من الثواب والجزاء، فهو إذا تليت عليه آيات القرآن، قال: هذه خرافات وأباطيل وحكايات من سبقونا، وكذب بما فيها من الآيات الدالة على وحدانية الله تعالى وقدرته، والدالة على صدق محمد ﷺ في رسالته ودعوته.

فهم يقولون: إنها حكايات وقصص، سطرها الأولون في كتبهم وزخرفوها، يقول بهذا كل من لا دين له من الدهريين والشيوعيين والملحدين والوثنيين .. إلخ.

وقد كان المشركون يصفون القرآن بهذا حين يستمعون إلى قصص القرآن، فحسبوا أن قصة أهل الكهف - مثلاً - وأضرابها من قصص الأساطير القديمة.

وممن قال بهذا: النضر بن الحارث، فقد كتب قصة رستم، وقصة إسفنديار، حيث وجدها في الحيرة، وكان يُحدّث بها في مكة ويقول: أنا أحسن حديثاً من محمد، فإنما

يحدثكم بأساطير الأولين.

والآية عامة في كل من كذب بالله ورسوله واليوم الآخر، وفي كل عصر ومصر، وفي كل من يصف القرآن بأنه أساطير الأولين!

ولهذه الآية نظائر منها قوله تعالى:

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ مَآذَا أَنْزَلَ رَبُّكُمْ قَالُوا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ ٢٤﴾ لِيَحْمِلُوا أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ الْقِيَمَةِ وَمِنْ أَوْزَارِ الَّذِينَ يُضِلُّونَهُمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ أَلَا سَاءَ مَا يَزِيدُونَ ﴿[النحل: ٢٤، ٢٥].

وقوله سبحانه: ﴿وَقَالُوا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ اكْتَتَبَهَا فَهِيَ تُمْلَى عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا﴾ [الفرقان: ٥].

والقرآن الكريم قد قامت الأدلة القطعية على أنه الحق المبين، فلا يكذب به إلا كل جاهل أو معاند مغرور.

كَثْرَةُ الذُّنُوبِ تَحْجُبُ الْإِيمَانَ عَنِ الْقَلْبِ

١٤ - ﴿كَلَّا بَلْ^(١) رَانَ عَلَى قُلُوبِهِمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ١١﴾

ثم بين سبحانه وتعالى أنه ليس الأمر كما زعم هؤلاء وأولئك، من أن القرآن أساطير الأولين، بل هو كلام الله تعالى ووحيه، وتنزيله على رسوله ﷺ وإنما الذي حجب قلوبهم عن الإيمان به، هو كثرة الذنوب والخطايا التي غطت على قلوبهم بسبب ما ارتكبه من المعاصي وعدم التوبة منها.

فالكفر والعناد هو الذي استولى على قلوبهم في الدنيا، فغطاها، وطمسها بحيث أصبحت لا تميز بين الحق والباطل، ولا بين الهدى والضلال، ولا تميز بين كلام الله تعالى وكلام الناس، وهذا هو الران على قلبه.

(١) قرأ حفص بخلف عنه بالسكت على لام ﴿بَلْ رَانَ﴾ سكتة خفيفة من غير تنفس، ويلزم منه إظهار اللام وقرأ غيره بعدم السكت مع إدغام اللام في الراء، ومعهم حفص في وجهه الآخر، وهو من طريق طيبة النشر، ويُقرأ به على قصر المد المنفصل.

والرّين هو: الصّدأ الذي يَكْسُوا الحديد والنحاس ونحوهما، وهكذا الكافر فإن أعماله الضالة تغطي على قلبه، فيصدأ، بحيث لا يقبل الاستماع إلى القرآن والسنة ومجالس العلم، وإذا سمع شيئاً منها فإن الفهم لا يدخل قلبه، وفي هذا بؤن شاسع بين هذا الرّين، وبين أساطير الأولين، فليرتدع ولينزجُر هؤلاء عما قالوه، فقد بَصَرهم القرآن بما في قولهم من باطل، حتى يُقْلَعُوا عما يقولوه ويفعلوه من الزور والضلال، من قبل أن يأتي يوم لا خلة فيه ولا شفاعة والكافرون هم الظالمون.

والأحاديث الصحيحة تُفسّر معنى الرّان، وهو أن العبد إذا أذنب ذنباً، ولم يتب منه، تَرَكَ هذا الذنب على قلبه علامة سوداء، ثم يتكرر ذلك منه مرات، دون توبة، ولا يزال الأمر كذلك: نكتة إلى جوار أخرى، دون أن يُمحى الذنب بتوبة، حتى يَسْوَدَ القلب وَيَعْلُوهُ الصّدأ والغشاوة، فلا يقبل هُدى، ويكره الخير وأهله، كما قال تعالى:

﴿إِنَّا جَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا﴾ [الكهف: ٥٧].

فعن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «إن العبد إذا أذنب ذنباً نكتت نكتة في قلبه سوداء، فإن تاب ونزع واستغفر، ضُفِلَ قلبه، فإن زاد زادت، فذلك الرّان الذي ذكره الله في كتابه ﴿كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾»^(١).

قال الحسن البصري في معنى الرّان: هو الذنب على الذنب، حتى يَغْمَى القلب ويموت. لقد غَطَّت المعاصي التي اكتسبها على قلبه حتى غمرته، فقسى قلبه، وزادت الغفلة، واستمرأها بالمداومة عليها، فأحاطت به من كل جانب، حتى مات القلب كما قال تعالى: ﴿بِكُلِّ مَنْ كَسَبَ سَيِّئَةً وَأَحَاطَتْ بِهِ خَطِيئَتُهُ فَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ [البقرة: ٨١].

(١) سنن ابن ماجة برقم (٤٢٤٤)، وحسنه الألباني في صحيح ابن ماجة (٤١٧/٢) برقم (٣٤٢٢)، وصححه الحاكم في المستدرک (٥/١ ٥١٧/٢)، ووافقه الذهبي، وأخرجه الترمذي من طريق آخر وقال: حديث حسن صحيح برقم (٣٣٣٤)، وسنن النسائي الكبرى برقم (١٠١٧٩، ١١٦٥٨، ١١٥٩٤)، وتفسير الطبري (٦٢/٣٠)، والمسند (٢٩٧/٢) (٧٩٥٢) بإسناد قوي، محمد بن عجلان، صدوق قوي الحديث، وباقي رجاله ثقات رجال الصحيح (محققوه)، والبيهقي (٧٢٠٣)، وابن حبان (٢٧٨٧، ٩٣٠).

وفي هذه الآية تحذير من الذنوب والخطايا، فإنها تُغْطِي القلب شيئاً فشيئاً حتى ينطمس نوره، وتموت بصيرته، فتتقلب عليه الحقائق، ويرى الباطل حقاً والحق باطلاً، وهذا من عقوبات الذنوب.

وبهذا يتبين أن مستقبل الناس عند الله تعالى: لا تقررهُ فلتات اللسان، ولا عثرات الطريق، وإنما تقررهُ مناهج مرسومة، وعدالة إلهية، إن الخطأ العابر، يَطْهَرُ منه العبد بمجرد التوبة والندم والعزم على عدم العودة، فإن عاد وتاب، تاب الله عليه. أما من وضع لنفسه برنامجاً لحياة هابطة، وعقيدة فاسدة، فقد أسس لنفسه المصير المهلك.

إن الذين يَأْلَفُونَ الدُّنْيَا ويعيشون لها، كعيشة الحشرات في السرايب والخُفَرِ.

﴿لَا تُفْتَحُ لَهُمْ أَبْوَابُ السَّمَاءِ وَلَا يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ حَتَّى يَلِجَ الْجَمَلُ فِي سَمِّ الْخِيَاطِ﴾ [الأعراف: ٤٠].

إنهم لم يحاولوا التسامي بأنفسهم، فكيف يرتفعون؟

الْأَفْجَارُ مَمْنُوعُونَ مِنْ رُؤْيَا رَبِّهِمْ فِي الْآخِرَةِ، دَاخِلُونَ جَهَنَّمَ

١٦، ١٥ - ﴿كَلَّا إِنَّهُمْ عَنْ رَبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَمَحْجُوبُونَ ﴿١٥﴾ ثُمَّ إِنَّهُمْ لَصَالُوا الْجَحِيمِ ﴿١٦﴾﴾

ثم يَبَيِّنُ سبحانه وتعالى سوء المصير الذي ينتظر الأفجار يوم لقاء الله تعالى.

وإذا كان أعظم نعيم أهل الجنة، هو رؤية الله تعالى بلا كيف ولا انحصار، فإن أكبر ما يُحْرَمُ منه أهل الجحيم: هو حَجْبُهُمْ عن رؤية رب العالمين يوم القيامة، إنهم ممنوعون من رؤية الله تعالى، وهذا معنى ﴿كَلَّا﴾ أي ليس الأمر كما زعم الكفار من أن القرآن أساطير الأولين، بل إن لهم منزلاً ضيقاً في سجين، بسبب إصرارهم على الكفر إلى الممات، وهم فوق ذلك محجوبون عن رؤية ربهم - جل وعلا - ﴿إِنَّهُمْ عَنْ رَبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَمَحْجُوبُونَ﴾ عن الله، كما حجبوا قلوبهم عن الحق.

قال الشافعي: في الآية دليل على أن المؤمنين يَرَوْنَ ربهم يوم القيامة^(١).

(١) رواه البيهقي في مناقب الشافعي (١/٤١٩).

وقال سلمان: الصلاة مكيال، فمن أوفى، أوفى له، ومن طفف فقد سمعتم ما قال الله في المطففين^(١).

وقد أمر القرآن الكريم بالوفاء بالكيل والميزان ونهى عن تطفيفهما في مواضع كثيرة منها:

- ١- في سورة الأنعام: ١٥٢ ﴿وَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ﴾
- ٢- وفي سورة الأعراف: ٨٥ ﴿فَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا﴾ في قصة أهل مدين.
- ٣- وفي سورة هود: ٨٤، ٨٥ في قصة مدين أيضاً ﴿قَالَ يَقَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ وَلَا تَنْقُصُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ إِنِّي أَرَانَكُمْ يُخَيَّرُ وَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ تُحْشَرُونَ﴾
- ٤- وفي سورة الإسراء: ٣٥ ﴿وَأَوْفُوا الْكَيْلَ إِذَا كَلْتُمْ وَزِنُوا بِالْقِسْطِ الْمُسْتَقِيمِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا﴾
- ٥- وفي سورة الشعراء: ١٨١ - ١٨٣ ﴿وَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُخْسِرِينَ﴾

بِالْقِسْطِ الْمُسْتَقِيمِ ﴿١٨٢﴾ وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تَعْتُوا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿١٨٣﴾

وكل ما طففه الإنسان من الكيل والميزان، فهو مما يقدمه لنفسه بعد موته من سوء العمل المسؤول عنه يوم القيامة، وسيندم عليه ويقول ﴿يَقُولُ يَلَيْتَنِي قَدَّمْتُ لِحَيَاتِي﴾ [الفجر: ٢٤] ولات ساعة مندم.

والآيات تشير إلى أن المطففين الذين يتهددهم الله بالويل، هم طبقة الكبراء، أصحاب النفوذ الذين يملكون إكراه الناس على ما يريدون، ولهم على الناس سلطان بأي سبيل، فهم يحضلون على ما يريدون قسراً، سواء في الكيل والميزان، أو في سائر الحقوق والواجبات.

وقد أدرك هذا المعنى الذين بايعوا النبي ﷺ بيعة العقبة الثانية قبل الهجرة من نقباء الأوس والخزرج.

(١) أخرجه سعيد بن منصور وابن أبي شيبة عن سلمان كما في الدر المنثور (٢٨٩/١٥).

قال ابن إسحاق: وحدثني عاصم بن عمر بن قتادة أن القوم لما اجتمعوا لبيعة رسول الله ﷺ قال العباس بن عباد: (يا معشر الخزرج، هل تدرون علام تباعون هذا الرجل؟ قالوا: نعم، قال: إنكم تباعونه على حرب الأحمر والأسود من الناس، فإن كنتم ترون أنكم إذا نهكت أموالكم مصيبة، وأشرافكم قتلى، أسلمتموه، فمن الآن! فهو والله بما دعوتموه إليه، على نهكة الأموال، وقتل الأشراف، قالوا: فما لنا بذلك يا رسول الله إن نحن وقينا؟ قال: «الجنة» قالوا: ابسط يدك، فبسط يده، فباعوه).

ومراقبة الغش في البيع والشراء، وتطفيف الكيل والميزان من مهام رجال الحسبة في الأسواق والمتاجر.

وقد كان عمر يتجول بنفسه في السوق، ويتفقد المكيال والميزان، ويُخرج من السوق من يجد في مكياله نقصاً، وهكذا يجب على ولاة الأمور.

قال علماء الحسبة: على الأمة أن تطيع السلطان في أربع: في نوع المكيال والميزان، ونوع العملة التي يطرحها للتعامل بها، وإعلان الحرب أو قبول الصلح.

وإذا كان هذا الوعيد على الذين يبخسون الناس بالمكيال والميزان، فالذي يأخذ أموالهم قسراً أو سرقة أو رشوة أو ظلماً أولى بهذا الوعيد، وقد دلت الآية على أن الإنسان كما يأخذ من الناس ماله، يجب عليه أن يعطيهم ما لهم، وهذا أمر عام في الأموال والمعاملات والحجج والمناظرات والحقوق والواجبات، وأن ينصف الناس كما يجب أن ينتصف لنفسه.

تَهْدِيدُ الْمُطَفِّفِينَ وَوَعِيدُهُمْ بِالْعِقَابِ يَوْمَ لِقَاءِ اللَّهِ تَعَالَى

٤-٦- ﴿أَلَا يَظُنُّ أُولَٰئِكَ أَنَّهُمْ مَبْعُوثُونَ ﴿٤﴾ لِيَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿٥﴾ يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٦﴾﴾

بين - سبحانه - أن الذي جرأ هؤلاء الظلمة على التطفيف، هو عدم إيمانهم باليوم الآخرة، وإلا فلو أنهم آمنوا به وعلموا أنهم سيقفون بين يدي ربهم للحساب والجزاء، لأقلعوا عن ذلك وتابوا إلى الله عز وجل، ولهذا فإن الله تعالى توعدهم وتعجب من

حالهم وإقامتهم على ما هم فيه من ضلال.

والذي يعصم الإنسان من الوقوع في هذه الدنيا، ويكبح جماحه، ويقيّد يده عن الحرام، وضميره عن الجور: هو الإيمان بالله واليوم الآخر، ولو أن المطففين للكيل والميزان يتقنوا أنهم سيعثون في يوم شديد الهول، كثير الفزع لما أقدموا على ذلك ﴿أَلَا يَظُنُّ أُولَئِكَ﴾ ألا يعلم ويستيقن هؤلاء المطففين، ﴿أَنَّهُمْ مَبْعُوثُونَ﴾ ﴿لِيَوْمٍ عَظِيمٍ﴾؟ لو كانوا يعلمون ذلك ما نقصوا الكيل والميزان، فكيف بحال من يسرق ويختلس، ويبخس الناس أشياءهم؟ إنه أولى بالوعيد من مطففي الكيل والميزان. وفي هذا إنكار عليهم وتعجب من حالهم في جرأتهم على أكل أموال الناس بالباطل.

عن عبد الملك بن مروان أن أعرابياً قال له: قد سمعت ما قال الله في المطففين - أراد الوعيد الشديد الذي توعدهم الله به - فما ظنك بنفسك وأنت تأخذ أموال الناس بلا كيل ولا وزن ولا نصب^(١)؟

والظن في الآية مستعمل في حقيقته، وهو هنا اعتقاد قيام الساعة اعتقاداً راجحاً. فلو أنهم خافوا لقاء الله، وخافوا نزول العقوبة بهم ﴿يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ﴾ من قبورهم استجابة لأمر الله تعالى، حيث يُلْقَوُا جزاءهم العادل، وحكمه النافذ، ويحاسبهم على القليل والكثير، وهم خاضعون فيه ﴿لِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ يوم لا تملك نفس لنفس شيئاً. لو أنهم خافوا هذا اليوم ما فعلوا ذلك. ومن الأحاديث التي توضح هذا المعنى ما ورد:

١- عن عبد الله بن عمر وابن مسعود رضي الله عنهما أن النبي ﷺ قال: «﴿يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ حتى يغيب أحدهم في رُشْحِهِ إلى أنصاف أذنيه»^(٢).

أي يقوم الناس للبعث حفاة غُراة غُراً، ويكونون في كُزْب وضنك، ويغشاهم من

(١) من تفسير القرطبي للآية وتفسير النسفي بحاشية الخازن (٤/٣٦٠).

(٢) المسند (٣١/٢) برقم (٤٦١٣) بإسناد صحيح على شرط الشيخين و(٥٨٢٣)، وصحيح مسلم برقم (٢٨٦٢)، وسنن الترمذي برقم (٣٣٣٥، ٢٤٢٢)، وصحيح البخاري برقم (٤٩٣٨، ٦٥٣١)، وابن حبان (٧٣٣١)، والنسائي في الكبرى (١١٦٥)، وعبد بن حميد (٧٦٣)، والبيهقي في الشعب (٢٥٧).

أمر الله ما تعجز القوى والحواس عن تحمله.

٢- وفي رواية أحمد عن ابن عمر رضي الله عنهما قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ» لعظمة الرحمن تبارك وتعالى يوم القيامة، حتى إن العرق ليلجم الرجال إلى أنصاف آذانهم»^(١).

٣- وعن المقداد بن الأسود الكندي ؓ أن رسول الله ﷺ قال: «إذا كان يوم القيامة أذنت الشمس من العباد، حتى تكون قيد ميل أو ميلين، قال: فتضهرهم الشمس، فيكونون في العرق كقذر أعمالهم، منهم من يأخذه إلى عقبه، ومنهم من يأخذه إلى حَقْوِيهِ، ومنهم من يلجمه إلجاماً»^(٢).

٤- وعن عقبة بن عامر ؓ أنه سمع النبي ﷺ يقول: «تدنو الشمس من الأرض فيعرق الناس، فمن الناس من يبلغ عرقه عقبه، ومنهم من يبلغ إلى نصف الساق، ومنهم من يبلغ إلى ركبتيه، ومنهم من يبلغ العجز، ومنهم من يبلغ الخاصرة، ومنهم من يبلغ منكبيه، ومن يبلغ وَسَطَ فِيهِ، وأشار بيده فألجمها فاه - رأيت رسول الله ﷺ يشير هكذا - ومنهم من يغطيه عرقه، وضرب بيده إشارة»^(٣).

فهذه ثمانى مراتب من الأدنى للأعلى:

١- العقب. ٢- ثم نصف الساق. ٣- ثم الركبتين. ٤- ثم العجز. ٥- ثم الخاصرة. ٦- ثم المنكبين. ٧- ثم الفم. ٨- ثم من يغطيه العرق ويلجمه إلجاماً. وهذا يمثل مختلف أحوال الناس في يوم الحشر العصيب.

٥- وفي لفظ آخر عند مسلم أن النبي ﷺ قال: «تُدْنِي الشَّمْسُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِنَ الْخَلْقِ،

(١) المسند (٤٨٦٢)، وهو حديث صحيح، وأخرجه الطبري في تفسيره (٩٣٣٠).

(٢) سنن الترمذي (٢٤٢١) وقال: حديث حسن صحيح، والمسند (٣/٦) برقم (٢٣٨١٣) واللفظ له، وأخرجه

ابن حبان (٧٣٣٠)، والبخاري في شرح السنة (٤٣١٧) قال محققو المسند: إسناده صحيح ورجاله ثقات.

(٣) المسند (١٥٧/٤) برقم (١٧٤٣٩) وهو حديث صحيح، أخرجه الطبراني في الكبير (٨٤٤ / ١٧)، وصححه

الحاكم بموافقة الذهبي (٥٧١ / ٤)، وأخرجه ابن حبان (٣٢٢٩).

وهذا الاستدلال على أن المؤمنين يرون ربهم في الآخرة، هو أمر حاصل بمنطوق قوله تعالى: ﴿وَهُمْ يَوْمَئِذٍ نَاضِرُونَ ۝٢٢﴾ [البقرة: ٢٢، ٢٣] وهي رؤية بصرية في عرصات القيامة، وفي روضات الجنات.

قال الحسين بن فضل: كما حجبهم في الدنيا عن توحيده، حجبهم في العقبى عن رؤيته. وقال مالك بن أنس: لما حجب أعداءه فلم يروه، تجلى لأوليائه حتى رأوه. ثم أخبر سبحانه أن الكفار مع كونهم محجوبون عن رؤية ربهم يوم القيامة، فإنهم يدخلون النار، ويصلون سعيها، والله تعالى لا ينظر إليهم نظر رحمة، ولا يزيكهم ولهم عذاب أليم، فقد سخط الله عليهم، ومنعهم من رحمته، وأدخلهم أشد طبقات النار حرا ﴿ثُمَّ إِنَّهُمْ﴾ أي الفجار ﴿لَصَالُوا الْجَحِيمِ﴾ أي داخلوها ومقاسون حرها. قال تعالى: ﴿ثُمَّ يُقَالُ هَذَا الَّذِي كُنْتُمْ بِهِ تُكَذِّبُونَ ۝١٧﴾

أي: وتقول لهم الخزنة تقريراً وتوبيخاً: هذا هو الجزاء الذي كنتم تكذبونه في الدنيا، وتنكرون وقوعه ﴿أَفَسِحْرُ هَذَا أَمْ أَنْتُمْ لَا تُبْصِرُونَ ۝١٨﴾ أَصْلَوْهَا فَاصْبِرُوا أَوْ لَا تَصْبِرُوا سَوَاءٌ عَلَيْكُمْ إِنَّمَا تُجْرَوْنَ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ [الطور: ١٥، ١٦].

لقد كنتم تقولون وأنتم في الدنيا ﴿مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِن كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ [الملك: ٢٥].

وفي هذه الآيات ثلاثة أنواع من العذاب للفجار المكذبين، وهي:

- ١ - عذاب الجحيم ﴿ثُمَّ إِنَّهُمْ لَصَالُوا الْجَحِيمِ﴾.
- ٢ - عذاب التوبيخ واللوم والتقريع ﴿ثُمَّ يُقَالُ هَذَا الَّذِي كُنْتُمْ بِهِ تُكَذِّبُونَ﴾.
- ٣ - عذاب الحرمان من رؤية الله تعالى في الآخرة ﴿كَلَّا إِنَّهُمْ عَنْ رَبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَمَحْجُورُونَ﴾ وهذا علامة على غضب الله تعالى وسخطه وهو أعظم من عذاب النار.

كِتَابُ أَعْمَالِ الْأَبْرَارِ فِي دِيْوَانِ أَهْلِ الْخَيْرِ

١٩، ١٨ - ﴿كَلَّا إِنَّ كِتَابَ الْأَبْرَارِ لَفِي عِلِّيِّينَ ۝١٨﴾ وَمَا أَدْرَاكَ مَا عِلِّيُّونَ ۝١٩﴾ كِتَابٌ مَرْفُوعٌ ۝٢٠﴾

يَشْهَدُهُ الْمُرْسَلُونَ ۝٢١﴾

وبعد أن فرغت الآيات من وعيد الفجار بالعذاب المهيّن، قابلت ذلك بوعد المتقين الأبرار: بالنعيم المقيم، على عادة القرآن في الترغيب والترهيب، والتبشير والإنذار. ولما كان الأبرار - وهم أهل التقوى وأهل التزكية - يساندون الحق، ويضربون على أعبائه، كان لهم شأن آخر يختلف عن شأن الفجار حيث يكافئهم الله تعالى على صدقهم، وحُسن اعتقادهم بدار النعيم وحسن الخاتمة، جزاء لهم على تحمّل السخرية والأذى بمقعد صدق ورحيق مختوم.

هذا معنى: ﴿كَلَّا﴾ أي ليس الأمر كما يزعم الفجار من أن القرآن أساطير الأولين، فالأبرار والفجار لا يستوون، بل إن محل كتاب أعمال الفجار في سجين، أي: في أسفل الأمكنة وأضيقتها، لأنهم لا يؤمنون بالبعث والحساب، و﴿إِنَّ﴾ محل ﴿كُتِبَ﴾ أعمال ﴿الْأَبْرَارِ﴾ المطيعين لله والرسول والمؤمنين باليوم الآخر ﴿لَنُفِئَنَّ﴾ أي: في أعلى الأمكنة وأوسعها وأفسحها، وهي المراتب العالية في الجنة، فهو في مكان رفيع تحت العرش، وهو ديوان أهل الخير، الذي دُونَ فيه كلّ ما عَمِلَهُ الصالحون من الإنس والجن. وعليون: اسم لأعلى الجنة.

ثم فخم الله تعالى من شأن هذا الديوان ونوه بشرفه، وبين سبحانه أن منزلته عالية لا يدركها عامة البشر.

وأعمال الأبرار المتقون مسطرة ومكتوبة في سجل أعمالهم، كالرقم في الثوب، لا يُنسى ولا يُمحى، ولا يزداد عليه ولا يُنقص منه، وهو كتاب واضح، يقرأه أهله بيسر وسهولة، لا يخفى عليهم منه شيء، فتُشرح له صدورهم، وتقرّ أعينهم.

وكتاب الأبرار المتضمن لصحف أعمالهم، في أسمى مكان وأعلاه، يطلع عليه الملائكة المقربون من الله تعالى، وكذا أرواح الأنبياء والصديقين والشهداء.

وفي هذا شهادة للأبرار أنهم محل رضا من الله تعالى وثواب وتكريم.

وقد ورد: أن روح المؤمن إذا قبضت صُعد بها إلى السماء، ففتحت لها، وتلقّتها الملائكة بالبشرى، ثم يخرجون معهم حتى يتنهبوا إلى العرش، فيخرج لهم رق، فيُكتب

فيه، ويختم عليه بالنجاة من الحساب والعذاب، ويشهده الملائكة المقربون.
وفي حديث أبي أمامة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «صلاة على إثر صلاة لا لغو بينهما كتاب في عليين»^(١).

أما روح الفاجر، فإنه يصعد بها إلى السماء، فتأبى السماء أن تقبلها، ثم يهبط بها إلى الأرض، فتأبى أن تقبلها، فتدخل تحت سبع أرضين حتى ينتهي بها إلى سجين^(٢).

أَرْبَعَةٌ مِنَ نَعِيمِ الْأَبْرَارِ

٢٢-٢٤ - ﴿إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ ﴿٢٢﴾ عَلَى الْأَرَائِكِ يَنْظُرُونَ ﴿٢٣﴾ تَعْرِفُ ﴿٢٤﴾ فِي وُجُوهِهِمْ نَضْرَةٌ ﴿٢٥﴾ النَّعِيمِ ﴿٢٦﴾﴾

وكما وصف الله تعالى عذاب الفجار، وصف نعيم الأبرار فقال ﴿إِنَّ الْأَبْرَارَ﴾ أي أهل الصدق والطاعة ﴿لَفِي نَعِيمٍ﴾ في الجنة، فهم ينعمون في الجنان الوارفة، والظلال الممتدة، في فاكهة مما يتخيرون، ولحم طير مما يشتهون، وخور عين كأمثال اللؤلؤ المكنون، وهو نعيم دائم لا يحول ولا يزول، والنعيم: اسم جامع لنعيم القلب والروح والبدن.
ثم ذكر سبحانه أربعة من أنواع هذا النعيم:

فهم أولاً: متكئون على السرر المزينة بفاخر الثياب والستور، ينظرون إلى ما أعد الله لهم من أنواع الكرامة والنعيم في الجنة، كما في حديث ابن عمر رضي الله عنهما أن رسول الله قال: «إن أدنى أهل الجنة منزلة لمن ينظر في ملكه مسيرة ألفي سنة، يرى

(١) المسند (٢٢٣٠٤)، وعبد الرزاق (١٥٢)، وأبوداود (١٢٨٨، ٥٥٨)، والطبراني في الكبير (٧٧٦٤، ٧٧٣٤)، وفي الأوسط (٣٢٦٢)، وحسنه الألباني في صحيح سنن أبي داود (١٢٨٨، ٥٢٢)، قال محققو المسند: حديث صحيح، وهذا إسناد حسن وأول الحديث (من مشى إلى صلاة مكتوبة وهو متطهر كان له كأجر الحاج المعتمر، ومن مشى إلى صلاة الضحى كان له كأجر المعتمر...).

(٢) جاء هذا المعنى في إجابة كعب الأحبار لابن عباس كما نقله الأعمش عن شمر بن عطية عن هلال بن يسار: وهو صحيح المعنى، ينظر: تفسير القرطبي ٢٦٠/١٩ والخازن ٣٦٠/٤ وذكره ابن كثير مختصراً ٣٥٢/٨ وابن المبارك في الزهد ١٢٢٣ زوائد الحسين

(٣، ٤)، قرأ أبو جعفر ويعقوب بالبناء للمفعول في ﴿تَعْرِفُ﴾ و ﴿نَضْرَةٌ﴾ بالرفع، نائب فاعل * والباقون بالبناء للفاعل في ﴿تَعْرِفُ﴾ ونصب ﴿نَضْرَةٌ﴾ مفعول به.

أقصاه كما يرى أدناه، وإن أعلاه لَمَنْ ينظر إلى الله في اليوم مرتين»^(١).

وهم أيضا ينظرون إلى عذاب أهل الجحيم ممن كانوا يسخرون بهم ويهزؤون منهم، فيزداد نعيمهم وشكرهم لله تعالى على ما جباهم به من نعمة، إنهم في نعيم دائم يجلسون على السرر المهيأة لجلوسهم تهيئة حسنة، ينظرون إلى كل ما يدخل البهجة والسرور عليهم.

وهم ثانياً: إذا نظرت إليهم ترى الحُسن والبهاء والنضرة والحبور، وهذا معنى (نضرة النعيم) فالنور يعلو وجوههم، والسرور يملأ قلوبهم، وهم ينظرون إلى ما أعده الله لهم من النعيم، وينظرون إلى وجه ربهم الكريم. قال تعالى في وصف شراب أهل الجنة:

٢٥، ٢٦ - ﴿يُسْقَوْنَ مِنْ رَحِيقٍ مَخْتُومٍ ﴿٢٥﴾ خِتْمُهُ ﴿٢٦﴾ مِسْكٌ وَفِي ذَلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ الْمُتَنَفِسُونَ ﴿٢٧﴾﴾

وهم ثالثاً: يقوم على خدمتهم في الجنة غلمان مخلدون فيها، يَمْرُون عليهم بالخمير الصّافية المحكمة الإناء، من تمام الترفه ولذة الراحة.

فالرحيق هو الخمير الصافية الطيبة، التي لا تغتال العقل ولا تُسقم الجسد.

ويكون هذا الرحيق في إناء مختوم، أي مسدود، لم تمسه يد قبلهم.

وجُعل ختام خمير الجنة بعجين المسك، يفوح في آخر شربه رائحة المسك ونكهته.

فهو خمير بيضاء لذة للشاربين، خالية مما يكدر أو يذهب العقل.

وقد جُعل الختم الذي عليها بالمسك، كما يُختم الشيء بالرصاص أو الطين

ونحوهما، لئلا يدخل عليه شيء ينقص لذته أو يفسد طعمه، فإذا شرب المؤمن من هذه

الخمير فإن ختام شربها تفوح منه رائحة هذا المسك.

(١) بنحوه في المسند (١٣/٢) برقم (٤٦٢٣) بإسناد ضعيف، والترمذي برقم (٣٣٣٠)، وأخرجه أبو يعلى

(٥٧٢٩)، والبيهقي في البعث (٤٣٣)، وكتاب النهاية في الفتن لابن كثير (٣٠٠/٢).

(٢) قرأ الكسائي (خاتمه) بفتح الخاء بعدها ألف مع سكون، اسم لما يختم به الكأس، أي آخره مسك،

والباقون بكسر الخاء وفتح التاء وألف بعدها ﴿خَتْمُهُ﴾ وهو الطين الذي يختم به الشيء، فجعل المسك

بدلاً منه.

عن أبي الدرداء: ﴿حَتَمَهُ مِسْكٌ﴾ قال: شراب أبيض، مثل الفضة، يختمون به شرابهم، ولو أن رجلاً من أهل الدنيا أدخل إصبعه فيه ثم أخرجها، لم يبق ذوروح إلا وجد طيبها^(١). ولعل هذه الخمر المختوم عليها بخاتم المسك، غير الخمر التي تجري في الأنهار الواردة في قوله تعالى: ﴿وَأَنهَرُ مِنْ خَرٍّ لَدَوٍّ لِّلشَّرِبِ﴾ [محمد: ١٥] لأن الأنهار لا يُختم عليها، فتكون الخمر الأولى أنفُس وألذ شراباً.

وإذا كان آخر الإناء من شراب الدنيا يُراق لما فيه من ترشبات وكدر، فإن آخر إناء شراب الآخرة هو المسك الإذخر، أطيب ما يكون من الأشربة وألذها. وعلى من يُرد الحصول على الرحيق المختوم، والنعيم المقيم، أن يسارع إلى الأعمال التي تقربه من رب العالمين، فهذا هو دليل الرغبة في الخير، وهو مجال التنافس والتسابق، والتزاحم إلى الوصول إلى دار النعيم. ولمثل هذا النعيم يعمل العاملون، ويحرصون عليه، ليحصل لهم نعيم الجنة، ومنه هذا الشراب المختوم بالمسك. وفي هذا تحريض للناس وحثّ لهم على العمل الصالح الذي يوصلهم لأعلى الدرجات.

وهذا هو التنافس الحقيقي وليس التنافس في تطفيف الكيل والميزان.

شَرَابُ التَّسْنِيمِ

٢٨، ٢٧ - ﴿وَمَزَاجُهُ مِنْ تَسْنِيمٍ ۖ ﴿٢٧﴾ عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا الْمُقَرَّبُونَ ﴿٢٨﴾﴾

ثم بين سبحانه أن شراب خمر الآخرة، المختوم بالمسك، ممزوج ومخلوط من ماء عين في الجنة، يقال لها (عين التسنيم).

فهم رابعاً: يشربون أشرف شراب أهل الجنة وأعلاه، وهو شراب يُنصب عليهم كلما رغبوا فيه، وهو موجود في أي مكان من الجنة، تمتلئ منه أوانيهم، فإذا امتلأت

(١) تفسير الطبري (٦٨/٣٠).

أَمْسِكْ، وهذا أعلى أشربة أهل الجنة على الإطلاق، والمقربون هم أعلى أهل الجنة منزلة، وهو شراب مخلوط بالرحيق بالنسبة لأصحاب اليمين.

وهذا مما قاله رب العالمين ﴿ فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ [السجدة: ١٧].

فتسليم: عَلَّمَ لِعَيْنٍ في الجنة، يشربها المقربون، وتُمزج لأصحاب اليمين^(١). ولغرابية هذه التسمية وهي ﴿ تَسْلِيمٌ ﴾ بينها سبحانه، فذكر أنها عين ماء في الجنة، يشرب منها على وجه الخصوص: المقربون من عباد الله، فهي لهم خاصة، وتُمزج مع الرحيق المختوم لسائر أهل الجنة، كما قال ابن عباس وابن مسعود ؓ.

وفي الآية دلالة على أن درجة المقربين فوق درجة الأبرار.

أَهْلُ الْإِجْرَامِ يَرْتَكِبُونَ أَرْبَعَةَ قَبَائِحَ فِي حَقِّ أَهْلِ الْإِيمَانِ

٢٩، ٣٠- ﴿ إِنَّ الَّذِينَ أَجْرَمُوا كَانُوا مِنَ الَّذِينَ ءَامَنُوا يَضْحَكُونَ ﴾ (٣١) وَإِذَا مَرُّوا بِهِمْ يَتَغَامَزُونَ ﴿ ٣٠ ﴾

في هذه الآية والآيات الأربع التي تليها، ذكر الله تعالى أربعة من قبائح أهل الكفر كانوا يرتكبونها في شأن ضعفاء المسلمين في الدنيا، وقد كان عرض صور النعيم الذي ينتظره الأبرار في الجنة، تمهيدا للحديث عما كانوا يلقونه من أذى الفجار في الدنيا، وتعاليمهم عليهم، واستخفافهم بهم، وقد طال عرض ذلك ليغضب الجزاء الموافق لما فعلوه في الدنيا، بسخرية المؤمنين منهم، وهم يصلون نار جهنم.

ولما ذكر سبحانه جزاء الفجار وجزاء الأبرار، أخبر في هذه الآيات عن حال الفجار المجرمين عند ما كانوا وهم في الدنيا يسخرون من ضعفاء المسلمين ويستهزئون بهم، فيضحكون منهم ويتغامرون عند مرورهم عليهم احتقاراً لهم، وهم في حالة فرح وسرور، قد جمعوا بين الإساءة إلى المسلمين وعدم الخوف من عقاب الله، ظانين أنهم

(١) أورد هذا المعنى: الطبري بسنده عن مسروق عن عبد الله بإسناد صحيح، رجاله ثقات، وهو في فتح الباري عن ابن عباس عن عبد بن حميد (٣٢١/٦).

على هدي وأن المسلمين على ضلال.

لقد كان الأغنياء وذو الجاه يسخرون من الفقراء وهم في الدنيا، لضعف حالهم، ورثاثة هيئتهم، ترفعاً عليهم، وتنقيصاً من شأنهم، فإذا كان يوم القيامة فإن المؤمنين يضحكون من الكفار وهم على الآرائك يوم القيامة، ينظرون إليهم على رؤوس الأشهاد. وقد قرر الله تعالى هذا الأمر في آيات أخرى، منها:

١ - قوله تعالى: ﴿زَيْنَ الَّذِينَ كَفَرُوا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَيَسْخَرُونَ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ اتَّقَوْا فَوْقَهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ﴾ [البقرة: ٢١٢].

٢ - وقوله: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا فَرِيقًا مِّنْ عِبَادِي يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّاحِمِينَ﴾ (١٠٩) فَاتَّخَذْتُمُوهُمْ سَخِرَاتٍ حَتَّىٰ أَسْأَلُكُمْ ذِكْرِي وَكُنْتُمْ مِنْهُمْ تَضْحَكُونَ ﴿١١٠﴾ إِنِّي جَزَيْتُهُمُ الْيَوْمَ بِمَا صَبَرُوا إِنَّهُمْ هُمُ الْفَآبِرُونَ﴾ [المؤمنون: ١٠٩-١١١].

ومن هؤلاء الفقراء الذين كانوا يضحكون منهم في عصر التنزيل: عمار، وخباب، وصهيب، وبلال، وأمثالهم من فقراء الصحابة.

أما صناديد الكفر الذين كانوا يضحكون من المؤمنين فمنهم: أبو جهل، والوليد بن المغيرة، وعقبة بن أبي معيط، والعاص بن وائل، والأسود بن عبد يغوث، والعاص بن هشام، والنضر بالحارث.

وهذا المنظر يتكرر في كل جيل، وفي كل عصر ومصر، فلا يزال يوجد من أهل الثراء والجاه والإلحاد والعلمانية وأضرابهم ممن يلمزون أهل الإيمان، ويتندرون بهم في المجالس!

وهؤلاء المؤمنون السابقون على قلة ما في أيديهم، كانوا أحراراً في عقولهم، كباراً في قلوبهم.

ولذا: فقد نصرهم الله تعالى بعد محنتهم، وملأوا الدنيا حضارة ونضارة! أما من حملوا لواء الإسلام بعدهم، فهم كأولاد العبقري الذين ورثوا شهرته، ولم يرثوا كفايته، ولا يُقبل منهم أن يُقدّموا الإسلام إلى غيرهم، وهم لم يُزكّوا به أنفسهم، ولم

يَزْفَعُوا بِهِ رُءُوسَهُمْ.

وقد ذكرت هذه الآيات الخمس أربعة قبائح للمجرمين كانوا وهم في الدنيا يرتكبونها بالنسبة لفقراء المسلمين وضعفتهم:

الأمر الأول: الضحك من فقراء المسلمين استهزاء بهم وسخرية منهم؛ أي أن من القبائح الأربع ضحك المجرمين على ضعفاء المؤمنين: ﴿إِنَّ الَّذِينَ أَجْرَمُوا﴾ بارتكاب المحرمات والآثام والذنوب ﴿كَأَنَّهُمْ﴾ في دنياهم يرتكبون أقبح المنكرات وأشنعها، فيتهكمون بالمؤمنين، ويعتبرونهم أراذل يجب الابتعاد عنهم، فقد كانوا في الدنيا ﴿مِنَ الَّذِينَ ءَامَنُوا يَضْحَكُونَ﴾ احتقاراً لهم وتنقيصاً من شأنهم.

في حديث بهز بن حكيم عن أبيه عن جده قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «ويل للذي يُحَدِّثُ فيكَ ذُكْبَ ليضحك به القوم، ويل له، ويل له»^(١).

والأمر الثاني: الغمز واللمز بهم. أي: أن المجرمين كانوا إذا مرّوا بفقراء المسلمين، يغمز بعضهم الآخر بيده، أو جفنه، أو حاجبه، أو عينه، بتحريك طرفه، لينظر إلى ما هو عليه من رثالة الهيئة، وشظف العيش، وغير ذلك من الأحوال.

وقد نزلت هذه الآية في صناديد قريش، كأبي جهل وغيره، مرّ بهم علي بن أبي طالب ﷺ وجماعة من المؤمنين، فضحكوا منهم، واستخفوا بهم^(٢).

قال بعض المفسرين: كان المشركون إذا مرّ بهم أصحاب رسول الله ﷺ تغامزوا بأعينهم عليهم، احتقاراً لهم وأزدراءً بهم، ويقولون عنهم: جاءكم ملوك الدنيا، يسخرون منهم، ومن إيمانهم واستمسكهم بالدين.

ويكون هذا الغمز دون إعلان السخرية بهم، اتقاء لتطاول المؤمنين عليهم. قال تعالى:

(١) سنن النسائي الكبرى (١١٠٦١، ١١٥٩١)، وأبوداود (٤٩٩٠)، والبخاري (٤١٣٠)، والطبراني في الكبير

(١٩/٩٥٠)، والترمذي (٢٣١٥)، والمسنند (٢٠٠٢١) بإسناد حسن.

(٢) التسهيل لعلوم التنزيل (١٨٦/٤)، وتفسير الخازن والنسفي (٣٦٢/٤)، وينظر: ابن كثير (٣٥٣/٨).

٣١، ٣٢ - ﴿وَإِذَا أَنْقَلَبُوا إِلَىٰ أَهْلِهِمْ^(١) أَنْقَلَبُوا فَكِهِينَ^(٢)﴾ وَإِذَا رَأَوْهُمْ قَالُوا إِنَّ هَٰؤُلَاءِ لَضَالُّونَ^(٣)﴾

والأمر الثالث: السخرية منهم. أي أن المجرمين كانوا إذا رجعوا من مجالسهم إلى منازلهم ومنازل ذويهم، تفكَّهُوا معهم بالسخرية من المؤمنين ﴿وَإِذَا أَنْقَلَبُوا إِلَىٰ أَهْلِهِمْ﴾. أي رجعوا إلى منازلهم ﴿أَنْقَلَبُوا فَكِهِينَ﴾ متلذذين بالضحك منهم استخفافاً بهم.

والأمر الرابع: وصف المؤمنين بالضلال. أي أن المجرمين كانوا إذا رأوا أصحاب محمد ﷺ وقد منَّ الله عليهم بالإيمان والهدى، لا يكتفون بالغمز واللمز، وجعلهم مادة للسخرية مع أهلهم، بل يقولون عنهم: إن هؤلاء تائهون خاطئون في اتباعهم محمداً ﷺ فقد تركوا دين آبائهم وأجدادهم، ودخلوا في دين محمد ﷺ وهم بهذا يجمعون بين الأذى بالإشارة والهيئة، وبين سوء القول حال غيابهم وعلى مسامعهم، لعلهم يرجعون عن الإسلام إلى الكفر.

وهذا أمر مكرر في كل زمان ومكان، فعندما يدخل جماعة من غير المسلمين في الإسلام، يضايقونهم وينبذونهم، ويسئون إليهم بالقول في غيبتهم وعلى مسامعهم، وهكذا أهل الشر يرون أن أهل الحق والتقى في ضلال!! قال تعالى:

٣٣ - ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ حَفِظِينَ^(٤)﴾

ثم إن الله تعالى أتبَّ أهل الكفر والضلال، ووبَّخهم على تصرفاتهم تجاه المؤمنين، فهم ليسوا أهلاً للحكم عليهم بالهداية أو الضلال، والله تعالى لم يكلفهم أن يكونوا رقباء عليهم، وإنما كلفهم اتباع محمد ﷺ.

(١) قرأ أبو عمرو ويعقوب بكسر الهاء والميم من ﴿أَهْلِهِمْ أَنْقَلَبُوا﴾ وصلاً وقرأ حمزة والكسائي وخلف بضم الهاء والميم وصلاً كذلك، وقرأ الباقون بكسر الهاء وضم الميم، ووقف الجميع على الميم بالسكون مع كسر الهاء.

(٢) قرأ حفص وأبو جعفر وابن عامر بخلف عنه بحذف الألف بعد الفاء من ﴿فَكِهِينَ﴾ صفة مشبهة، من فكه بمعنى فرح أو عجب أو تلذذ أو تفكه، والباقون بإثبات الألف بعد الفاء، اسم فاعل بمعنى أصحاب فاكهة، وهو الوجه الثاني لابن عامر.

وهذا يدل على نهاية غرورهم وجهلهم، وتعنتهم وعنادهم، فهم ليسوا حافظين لهم ولا وكلاء عليهم.

وفي هذا تهكم بالكفار وسخرية منهم، كأنه تعالى يقول: أنا ما أرسلتكم رقباء على ضعفاء المؤمنين، ولا وكلتكم بحفظ أعمالهم، حتى ترشدوهم إلى ما تزعمون أنه في مصلحتهم، وترمونهم بالضلال، فلم تشغلون أنفسكم فيما لا يعينكم؟ بلا دليل ولا مستند.

الْجَزَاءُ مِنْ جَنْسِ الْعَمَلِ

٣٤، ٣٥ - ﴿فَالْيَوْمَ الَّذِينَ آمَنُوا مِنَ الْكُفَّارِ يَضْحَكُونَ ﴿٣٤﴾ عَلَى الْأَرَائِكِ يَنْظُرُونَ ﴿٣٥﴾﴾

ثم بين سبحانه أنه إذا كان يوم القيامة، فإن الجزاء يكون من جنس العمل ﴿فَالْيَوْمَ﴾ أي يوم الجزاء العظيم، يضحك المؤمنون من الكافرين، حين يرونهم يتقلبون في ألوان من العذاب، والمؤمنون في غاية الراحة والطمأنينة.

والمراد باليوم، هو اليوم الحاضر في وقت نزول الآية، وذلك على حكاية ما يقال يوم القيامة، باعتبار ما كان وما يكون.

والآيات السابقة قد صرحت بيوم القيامة، وبينت أنه اليوم المراد بقوله تعالى: ﴿وَلِلَّيْمِزِ الْمُكَذِّبِينَ﴾ أي أن استهزاء الكفار بالمؤمنين في الدنيا، كان سبباً في جزائهم بما هو من نوعه في الآخرة، إذ جعل الله الذين آمنوا يضحكون من المشركين، فكان هذا جزاءً وفاقاً، وكما سخر الكفار من المؤمنين في الدنيا، فإن المؤمنين يسخرون من المؤمنين يوم لقاء الله.

وفي يوم القيامة يشاهد المؤمنون الكافرين الذين يعذبون في النار، والمؤمنون متكون على الأسرة، ناظرين إليهم، وإلى ما هم فيه من الهوان والصغار، بعد العزة والاستكبار. قال كعب الأحبار: بين الجنة والنار كوى، فإذا أراد المؤمن أن ينظر إلى عدوه في الدنيا من الكفار، اطلع عليه من تلك الكوى وهو يعذب^(١).

(١) تفسير الخازن (٢٦٣/٤).

كما أن المؤمنين ينظرون وهم على أسرّتهم، إلى ما أعطاهم الله من النعيم والكرامة في الجنة، وأعظمها النظر إلى وجه الله الكريم. قال تعالى:

﴿ هَلْ تُؤِيبُ الْكَفَّارُ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ ﴾ (٣٦)

وتختتم السورة ببيان أن الكفار يُجازون في الآخرة بالجزاء المناسب، لتهكُّمهم بالمؤمنين في الدنيا، لأن عدالة الله تعالى تقتض من المعتدين مهما طالت بهم الحياة. ﴿ هَلْ تُؤِيبُ الْكَفَّارُ ﴾ أي هل جُوزي الكفار - إذا فعل بهم ذلك - يوم القيامة ﴿ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ ﴾ بفقرء المؤمنين في الدنيا جزاءً موافقاً لما عملوه في الدنيا من الشرور والآثام؟ الجواب: نعم، جوزوا أتم جزاء، فكما ضحكوا في الدنيا من المؤمنين ورموهم بالضلال، ضحك المؤمنون منهم في الآخرة حين رأوهم في العذاب المهين.

ويا لها من سخرية تكمن في كلمة الثواب في هذا المقام.

كما قال تعالى في شأن الكافرين تهكما ﴿ فَيَشْرَهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾ [الانشقاق: ٢٤].

وهل العذاب يُبشِّر به؟!

وكما قال سبحانه في حق الكافر وهو يتجرع مرارة العذاب ﴿ ذُقْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ

الكَرِيمُ ﴾ [الدخان: ٤٩] فأى عزة وأي كرامة وهو يتجرع نار السموم؟

وفي هذه الآية تقرير وتوقيف لمحمد ﷺ وأمته، أن في هذه الآيات بلسم لجراح

القلوب من فقرء المسلمين في كل عصر ومصر، يمسح الله به آلامهم، ويضمّد جراحهم.

وفي الآية أيضاً وعيد أن يفعل بعدوهم في الآخرة، ما فعلوه بهم في الدنيا.

تم تفسير (سورة المطففين) والله الحمد والمنة

تَفْسِيرُ سُورَةِ الْإِنْشِقَاقِ (٨٤)

مُقَدِّمَةُ السُّورَةِ

(سورة الانشقاق) هي السورة الرابعة والثمانون في ترتيب المصحف، والثالثة والثمانون في ترتيب النزول، نزلت بعد (سورة الانفطار) وقبل (سورة الروم). وهي خمس وعشرون آية في العدد الكوفي والمكي والمدني، وعند أهل البصرة والشام ثلاث وعشرون آية، وأربع وعشرون آية في العدد الحمصي. وهي مئة وسبع كلمات، وأربع مئة وثلاثون حرفاً. وتسمى (سورة الانشقاق) وهو الأشهر، ويقال: (سورة انشقت) اختصاراً، وسماها الجعبري (سورة كذح) وسميت في عصر الصحابة (سورة إذا السماء انشقت) كما في الأحاديث التالية، فهذه أربعة أسماء، أشهرها الأول: وهي سورة مكية باتفاق.

سجود التلاوة في آخرها:

ومما جاء في سجود التلاوة قُزِبَ آخرها ما جاء:

- ١- عن أبي رافع قال: (صليت مع أبي هريرة العتمة، فقرأ ﴿إِذَا السَّمَاءُ انشَقَّتْ﴾ فسجد، فقلت له: قال: سجدتُ خلف أبي القاسم ﷺ فلا أزال أسجد بها حتى ألقاه^(١)).
- ٢- وعن أبي هريرة ؓ قال: سجدنا مع رسول الله ﷺ في: ﴿إِذَا السَّمَاءُ انشَقَّتْ﴾ و﴿أَقْرَأْ بِأَسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ﴾^(٢).
- ٣- وعن أبي سلمة أن أبا هريرة قرأ بهم ﴿إِذَا السَّمَاءُ انشَقَّتْ﴾ فسجد فيها، فلما

(١) صحيح البخاري برقم (١٠٧٢، ٧٦٨، ١٠٧٣، ١٠٧٨)، وصحيح مسلم برقم (٥٧٧، ٥٧٨)، وسنن أبي داود برقم (١٤٠٨)، وسنن النسائي (١٦١/٢) برقم (٩٦٧)، وابن أبي شيبه (٧/٢).
 (٢) صحيح مسلم برقم (٥٧٨)، وصحيح البخاري (١٠٧٤)، وسنن أبي داود (١٤٠٧)، وسنن الترمذي برقم (٥٧٣)، وسنن النسائي (٩٦٦)، وفي الكبرى (١٠٣٥، ١١٥٩٦)، وابن ماجه (١٠٥٩)، وابن أبي شيبه (٦/٢).

انصرف، أخبرهم أن رسول الله ﷺ سجد فيها^(١).

فهذه أحاديث صريحة صحيحة في سُنيّة سجود التلاوة في أواخر سور المفصل. وكان النبي ﷺ يقرأ بها في صلاة الظهر، كما في حديث بريدة ؓ أن النبي ﷺ كان يقرأ في الظهر ﴿إِذَا السَّمَاءُ انشَقَّتْ﴾^(٢).

موضوع السورة:

يمكن تقسيم سورة الانشقاق إلى أربعة مقاطع:

المقطع الأول: في الآيات الخمس الأول، وهو يتناول الحديث عن بعض مشاهد القيامة، وأحوالها الجسم، فبدأ بانشقاق السماء، واستسلامها لأمر ربها في طوعية وخشوع ويُشر.

والسما ليست هي القبة الزرقاء التي نراها فوقنا، ولا ندري شيئاً عن طباقها، ولا عن سُكّانها، ولا عن طبيعة الحياة فيها.

وقد أخبرنا الله تعالى في أول السورة بأن السماء ستشقق، ويظهر ذلك مع قيام الساعة. وثنت آيات السورة ببيان أن الأرض تتمدد يوم القيامة، وتتخلّى عما في باطنها من كل خسيس ونفيس، استجابة لأمر الله تعالى بخشوع وانقياد.

وكان الله تعالى عند بدء الخليقة قال للأرض والسماء ﴿أَتَيْنَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ﴾ [فصلت: ١١] وهما لا يملكان إلا السمع والطاعة.

وهذا التغير للسماء والأرض عند انتهاء العالم، سبق ذكره من هذا الجزء في سورة النبأ والتكوير والانفطار، ولكنه يتميز هنا ببيان استجابتهما لأمر الله تعالى، وانقيادهما له، تمهيداً للإلقاء الطاعة والخشوع في قلوب عباده الذين تتحدث عنهم الآية السادسة ﴿يَأْتِيهَا الْإِنْسُنُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَى رَبِّكَ كَدًّا فَمَلَقِهِ﴾.

(١) صحيح مسلم برقم (٥٧٨)، وسنن النسائي الكبرى برقم (١١٦٦٠)، وصحيح البخاري برقم (٧٦٨، ٧٦٦)، والمسنند (٩٣٤٨)، وابن حبان (٢٧٦١).

(٢) أخرجه ابن خزيمة برقم (٥١٢) قال محققه: إسناده صحيح، وأخرجه الضياء المقدسي في المختارة.

ولم يُذكر في هذه السورة من أحداث التغيير عند قيام الساعة سوى الأرض والسماء، فلم تُذكر الشمس ولا القمر، ولا النجوم، ولا الجبال، ولا البحار، ولا العشار، ولا القبور ولا غير ذلك، لأن المطلوب هنا هو هذا الطابع الخاص الذي تستسلم فيه السموات والأرض وما فيهما وما عليهما لإذن ربهما، كأنهما من ذوات الأرواح.

المقطع الثاني: يبين الله تبارك وتعالى فيه أن الدنيا دار تكليف، وامتحان شاق وجاد، فالإنسان يسعى في الأرض، يكّد ويتعب في تحصيل أسباب رزقه ومعاشه، ويجدّ ويجتهد فيما يُحصّله لآخرته وما يؤول إليه أمره، من خير أو شر، ليلقى في آخرته الجزاء العادل، وعلى المرء أن يختار ويحدّد مصيره، فإما أن يختار طريق السعداء، وإما أن يختار طريق الأشقياء، إذا أنكر وحدانية ربه، وأنكر ما في الآخرة من ثواب وعقاب، وقد استغرق هذا المعنى من الآية السادسة إلى الآية الخامسة عشرة من السورة.

المقطع الثالث: في الأربع آيات التالية، وفيها يُقسم ربنا سبحانه بالشفق، وهو حُمْرَةُ الأفق بعد غروب الشمس، وبالليل الذي يأوي الناس بظلامه ليسكنوا فيه، وبالقمر إذا تكامل نوره، وهذه الثلاث: الشفق، والليل، والقمر، مشاهد كونية تقع تحت عين الإنسان وبصره، يتقلب فيها ليل نهار، ويقسم ربنا بها على أن الإنسان تتطور أحواله وتتغير حالاً بعد حال، في الدنيا والآخرة:

١- ففي بطن أمه، يكون نطفة ثم علقة ثم مضغة ثم عظاماً، ثم لحماً، ثم إنساناً كاملاً الخلق، بشراً سوياً، بجسد وروح.

٢- وبعدهما ينزل إلى الأرض، يكون طفلاً، ثم صيباً، ثم شاباً، ثم كهلاً، ثم شيخاً.

٣- وتتغير عليه أحوال الحياة من فقر وغنى، وصحة ومرض، وحزن وفرح، ونصر وهزيمة، وسعادة وشقاء، وشدة ورخاء، وعسر ويسر، وقوة وضعف، وحياة وموت، وحساب وجزاء، وكلها أحوال دنيوية.

٤- أما أحوال الآخرة، ففيها: البعث، والحشر والنشر، والعرض والحساب، والميزان والصراط، وتطير الصحف، ثم المصير المحتوم في النعيم، أو الجحيم.

٥- وَمِنْ تَطَوُّرِ حال الإنسان في الدنيا والآخرة، إلى تَطَوُّرِ المشاهد الكونية من شفق عند الغروب، إلى ليل يغطي الناس بظلامه، إلى قمر يبدو هلالاً، ثم يتكامل حتى يكون بدرأ، ثم يتراجع حتى يكون كالعرجون القديم، والآية محتملة لهذه المعاني.

ويتوقع الشيخ محمد الغزالي - رحمه الله - أن يكون المراد بالشفق في الآية: هو الإشارة إلى تاريخ المسلمين، وما يغتره من نصر وهزيمة، وعسر ويسر، قال: وقد بدا لي ذلك وأنا أطلع حديثاً رواه الترمذي عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: «صلى بنا رسول الله ﷺ يوماً صلاة العصر»، ثم قام خطيباً، فلم يدع شيئاً إلى قيام الساعة إلا أخبرنا به، حفظه من حَفَظَه، ونسيه من نسيه، وكان فيما قال: «إن الدنيا خضرة حلوة، وإن الله مستخلفكم فيها فناظر كيف تعملون؟» ثم قال ﷺ: «ألا لا يمنعن رجلاً هية الناس أن يقول بحق إذا علمه» ومضى ﷺ في خطابه الجليل، قال: أبوسعيد: وجعلنا نلتفت إلى الشمس، هل بقي من النهار شيء؟ فقال رسول الله ﷺ: «ألا إنه لم يبق من الدنيا - فيما مضى منها- إلا كما بقي من يومكم هذا فيما مضى منه»^(١).

هذا الأمد القليل الباقي قبل قيام الساعة، هو تاريخنا، وما ظهر من دول وما يبقى!! لقد جئنا في أصيل العالم، أو في شفقهِ، والغروب مُوشِك. والسؤال الخطير: هل أدّينا رسالتنا، وأنصفنا الناس من أنفسنا؟ وركبنا طبقاً عن طبق، وانتقلنا من حال إلى حال؟ فهل اعتبرنا؟ فما لهم لا يؤمنون^(٢). قلت: وهذا اجتهاد منه مشكور في توسيع نطاق معنى الآية.

أما المقطع الرابع والأخير في السورة: فهو في التعجب من حال الناس إن لم يؤمنوا،

(١) من حديث طويل في سنن الترمذي (٢١٩١)، قال أبو عيسى: وفي الباب عن المغيرة بن شعبة، وأبي زيد بن أخطب، وحذيفة، وأبي مريم، وذكروا: أن النبي ﷺ حدّثهم بما هو كائن إلى أن تقوم الساعة، وهذا حديث حسن صحيح، وأخرجه البغوي في شرح السنة (٤٠٣٩)، والطيايسي (٢١٥٦)، والحميدي (٧٥٢). وانظر: مسند أحمد (١١٤٣ و ١١٥٨٧)، وفيه: ابن جدعان ضعيف، وبقيه رجاله ثقات رجال الصحيح.

(٢) نحو تفسير موضوعي لسور القرآن الكريم (ص ٥٠٧).

فيؤبخهم القرآن على عدم إيمانهم بالله تعالى، مع وضوح آياته، وسطوع براهينه.
وقد حذرثهم السورة وهم في فترة المهلة، فإن أصروا على كفرهم وماتوا عليه،
فلهم سوء العاقبة في دار البوار والجحيم، وإذا كان هذا مصير الكافر، فإن المؤمن له
أجر لا ينقطع.
وهذا المقطع من السورة، في الآيات الست الأخيرة منها، أي من الآية العشرين إلى
الآية الخامسة والعشرين.

تَفْسِيرُ السُّورَةِ

عِنْدَ نِهَايَةِ الدُّنْيَا تَنْشَقُّ السَّمَاءُ وَتَمْتَدُّ الْأَرْضُ ثُمَّ يَكُونُ الْحِسَابُ

٢٠١- ﴿إِذَا السَّمَاءُ انشَقَّتْ ۝١ وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُمَتْ ۝٢﴾

عند قيام الساعة يختل نظام هذا الكون، فتبديل الأرض غير الأرض والسموات، وتتغير هيأتها، إيداناً بانتهاء العالم الدنيوي، وبدء العالم الآخروي، فتصدع السماء وتتفطر، ويتميز بعضها من بعض، وتتغير الأجرام العظام لصعود الملائكة وهبوطهم يوم البعث والنشور، كما قال تعالى: ﴿وَيَوْمَ تَشَقُّ السَّمَاءُ بِالسَّحَابِ وَيَزُلُّ الْعَرْشُ وَنَزِيلًا ۝٢٥ أَلَمْ تَكُنْ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ لِلرَّحْمَنِ ۚ وَكَانَ يَوْمًا عَلَى الْكَافِرِينَ عَسِيرًا ۝﴾ [الفرقان: ٢٥، ٢٦].

وقد وصف الله تعالى السماء يومئذ بأنها تكون كالوردة الحمراء السائلة أو تكون كالمهل، وهو خثالة الزيت، قال تعالى: ﴿فَإِذَا انشَقَّتِ السَّمَاءُ فَكَانَتْ وَرْدَةً كَالدِّهَانِ ۝﴾ [الرحمن: ٣٧].

وقد أطاعت السماء أمر ربها فيما أمرها به من الانشقاق وغيره، وانقادت لحكم الله تعالى، وحق لها أن تسمع وتطيع، وتنشق من أهوال يوم القيامة، وهي حقيقة وجديرة بالاستماع والانقياد في جميع الأحوال.

وليس في وسعها الانفكاك عنه، فهي لا تخرج عن سلطان قدرته تعالى وإن عظم شؤمها، واشتد خلقها، وطال زمان رثقها، فكله بتقدير الله تعالى، وهو الذي إذا شاء أزالها ومعنى ﴿وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا﴾ استمعت وانقادت لأمر ربها، فألقت سمعها وأصاحت لخطابه، وحق لها أن تسمع وتطيع، لأنها لا تخرج عن سلطان قدرته سبحانه، فهي مسخرة مدبرة لا تعصي أمر ربها ولا تخالف حكمه.

٣-٥- ﴿وَإِذَا الْأَرْضُ مُدَّتْ ۝٣ وَأَلْقَتْ مَا فِيهَا وَخُلَّتْ ۝٤ وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُمَتْ ۝٥﴾

أما الأرض فإنه ستمد، وتبسط، وتوسع، وتُدكُّ جبالها، وتُنسف فتكون مستوية بلا

ارتفاع ولا انخفاض ﴿لَا تَرَىٰ فِيهَا عِوَجًا﴾ [طه: ١٠٧] .

ليس فيها بناء، ولا وهاد، ولا أودية، ولا جبال، ولا مرتفعات ولا منخفضات.
فترجف الأرض ويدك كل ما عليها من بناء ومعلم، فتسوى وتمدّ مدّ الأديم فتتسع
لأهل الموقف على كثرتهم بعد ما تُخرج ما في جوفها من الأموات والكنوز، وتتخلى
عنهم حين يُنفخ في الصور.

وإزالة الجبال عن أماكنها، ودكّها، وتسوية الوهاد، وتسجير البحار، وإخراج الأرض
لما في جوفها، يكون سبباً لبسط الأرض وخفّتها وزيادة بُقعتها:

﴿فَإِذَا تُفِخَ فِي الصُّورِ نَفْعَةٌ وَاحِدَةٌ ﴿١٣﴾ وَجُمِلَتِ الْأَرْضُ وَالْجِبَالُ فَدُكَّتَا دَكَّةً وَاحِدَةً ﴿١٤﴾ فَيَوْمَئِذٍ وَقَعَتِ الْوَاقِعَةُ ﴿١٥﴾
وَأَنشَقَّتِ السَّمَاءُ فَهِيَ يَوْمَئِذٍ وَاهِيَةٌ﴾ [الحاقة: ١٣-١٦] .

﴿وَسْتَلُونَكَ عَنِ الْجِبَالِ فَقُلْ يَنْسِفُهَا رَبِّي نَسْفًا ﴿١٥﴾ فَيَذَرُهَا قَاعًا صَفْصَفًا ﴿١٦﴾ لَا تَرَىٰ فِيهَا عِوَجًا وَلَا
أَمْتًا﴾ [طه: ١٠٥-١٠٧] .

عن علي بن الحسين رضي الله عنهما أن النبي ﷺ قال: «إذا كان يوم القيامة مدّ الله
الأرض مدّ الأديم، حتى لا يكون لبشر من الناس إلا موضع قدميه، فأكون أول من
يُدعى، وجبريل عن يمين الرحمن، والله ما رآه قبلها، فأقول: يا رب، إن هذا أخبرني
أنك أرسلته إليّ؟ فيقول الله عز وجل، صدق، ثم أشفع فأقول: يا رب، عبادك عبدوك في
أطراف الأرض، قال: وهو المقام المحمود»^(١).

وبمد الأرض يزول تكويرها، ويتمدّد جسمها وتكون أقرب إلى الاستطالة، وهذا
يؤذن باختلال نظام سير الأرض، وتغيير أحوال الجاذبية، وما يحيط بها من الهواء،
فيعقب ذلك زوال العالم.

(١) هذا حديث مرسل، قال ابن حجر في الفتح (٤٠٠/٨) رجاله ثقات، وهو صحيح إن كان الرجل صحابياً
١٠هـ وهذا الصحابي مختلف في اسمه عن الزهري، وقال الحاكم في المستدرک (٥٧٠/٥)، صحيح
الإسناد على شرط الشيخين ولم يخرجاه، ورواه أبو نعيم في الحلية (١٤٥/٣)، والطبري (٧٢/٣٠)
وعبدالرزاق في تفسيره (٣٢٨/١).

وعندئذ تُخْرِجُ الْأَرْضُ مَا فِي بطنها، من الأموات، والكنوز، والزروع، والأحياء، والمعادن، فلا يبقى فيها شيء كما قال تعالى: ﴿وَأَخْرَجَتِ الْأَرْضُ أَثْقَالَهَا﴾ [الزلزلة: ٢] فتطرح ما في جوفها من الأموات والكنوز وتلقيه على ظهرها، وتخلو منه خلواً تاماً، وتبرأ منه كما تلقي الحامل ما في بطنها من الحمل، ولا تُمسِكُ منه شيئاً.

وكما انقادت السماء واستمعت لأمر ربها فانشقت وصارت أبواباً، فإن الأرض كذلك انصاعت وانقادت لأمر ربها، فنقذت أمره سبحانه، وألقت ما في جوفها من الموتى والكنوز والمعادن وتخلت عنهم، وحُق لها أن تسمع وتطيع، فهي منقادة ومستجيبة لإذن ربها، وليس في وسعها الخروج عن سلطان الله تعالى وقدرته، وعند بدء الخليقة قيل للأرض والسماء ﴿أَتَتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ﴾ [فصلت: ١١].

وعند انتهاء العالم تستجيب الأرض والسماء لما يراد منهما كذلك، وهل يستطيعا إلا السمع والطاعة؟

لَا يَمَسُّهُ كَذَبُ الدُّنْيَا إِلَّا نَعِيمُ الْجَنَّةِ

٦- ﴿يَتَأْتِيهَا الْإِنْسَانُ إِنَّكَ كَادِحٌ^(١) إِلَى رَبِّكَ كَذَبًا^(٢) فَمُلْقِيهِ^(٣)﴾ ﴿٦﴾

يا أيها الإنسان إنك ساع إلى الله، عامل بأوامره ونواهيه، متقرب إليه بالخير أو الشر، ويوم القيامة تجد جزاء عملك بفضل الله وعدله.

وجواب ﴿إِذَا﴾ في المرتين ﴿إِذَا السَّمَاءُ انشَقَّتْ﴾ و﴿وَإِذَا الْأَرْضُ مُدَّتْ﴾ محذوف للتهويل، دل عليه ﴿فَمُلْقِيهِ﴾ أي إذا حدث ما تقدم، فانشقت السماء، وامتدت الأرض، لقي الإنسان من الشدائد والأحوال ما لا يحيط به الوصف والخيال.

والمعنى: ﴿إِذَا السَّمَاءُ انشَقَّتْ﴾ و﴿وَإِذَا الْأَرْضُ مُدَّتْ﴾ لقيت أيها الإنسان ربك، ورأيت الثواب والعقاب.

(٢٠١) انفرد الحمصي وحده بـ﴿كَادِحٌ﴾ و﴿كَذَبًا﴾ في الموضعين، وتركهما جمهور أهل العدد.

(٣) انفرد الحمصي بعدم عدّ (فملاقيه) وعدّها جمهور أهل العدد.

وقيل: إن الجواب، هو ﴿يَتَأْتِيهَا الْإِنْسَنُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَى رَبِّكَ كَدْحًا﴾ أي: إنك ساع إلى ربك سعيًا حثيثًا، وإنك ستلقى ما عملت من خير أو شر، أي أن السماء إذا انشقت، والأرض إذا مُدت: لقي كل كادح ربه بما عمل من خير أو شر.

ثم أخبر سبحانه عن كدح الإنسان وتعبه في الحياة، والمراد جنس الإنسان، وليس إنسانا معيّنًا، فالكل ساع إلى الله تعالى، وعاملٍ أعمالاً من خير أو شر، ثم يلاقي ربه يوم القيامة، فيكافئه على عمله بفضله وعدله، إن خيراً فخير، وإن شراً فشر، وقد كان الكافر وهو في الدنيا يُنكر وجود الله تعالى ويُكذب وحيه، ولا يعرف إلا المادة وفناءها.

فكن مسارعاً يا ابن آدم إلى الخيرات، مجتهداً في أعمالك الصالحة، فإن الزمان يطير، وكل لحظة تمر عليك تقطع شوطاً من عمرك، فأنت سائر ومسرّع إلى الموت، فتدارك نفسك قبل أن ينفذ السهم، وتأتيك المنية، وتلق ربك صفر اليدين، فالزم الكد المشروع والسعي للعمل الصالح، فأنت مُجازى بعملك:

عن جابر رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «قال جبريل عليه السلام: يا محمد، عش ما شئت فإنك ميت، وأحبب ما شئت فإنك مفارقه، واعمل ما شئت فإنك ملاقيه»^(١).

وعن عبادة بن الصامت رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «من أحب لقاء الله، أحب الله لقاءه، ومن كره لقاء الله، كره الله لقاءه»، قالت عائشة: - أو بعض أزواجه - إنا لنكره الموت، قال: «ليس ذلك، ولكن المؤمن إذا حضره الموت بُشِّرَ برضوان الله وكرامته، فليس شيء أحب إليه مما أمامه، فأحب لقاء الله، وأحب لقاءه، وإن الكافر إذا خُصِرَ، بُشِّرَ بعذاب الله وعقوبته، فليس شيء أكره إليه مما أمامه، فكره لقاء الله، وكره الله لقاءه»^(٢).

ولا راحة في الدنيا أبداً، ونعيم الآخرة هو الذي يمسح كدح الدنيا ونصبها. والكدح يكون للآخرة بالعمل والسعي إليها، ويكون للدنيا بالسعي في تحصيل الرزق والمعاش وأمور الدنيا.

(١) مسند الطيالسي برقم (١٧٥٥).

(٢) صحيح البخاري برقم (٦٥٠٧)، وصحيح مسلم برقم (٢٦٨٣).

أَهْلُ السَّعَادَةِ يَفْرَحُونَ بِنَتِيجَةِ امْتِحَانِ الدُّنْيَا

٧-٩ - ﴿ فَأَمَّا مَنْ أُوْتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ ^(١) ﴿٧﴾ فَسَوْفَ مُحَاسَبٌ حِسَابًا يُسِيرًا ^(٨) ﴾ وَنَقَلْتُ إِلَى أَهْلِهِ مَسْرُورًا ^(٩) ﴾

ويستمر كدح الإنسان في هذه الحياة إلى الموت، ثم تأتي نتائجه عندما يعود العبد إلى ربه في يوم العرض والحساب. فإما أن يكون من أهل اليمين، وإما أن يكون من أهل الشمال.

فأما مَنْ أُعْطِيَ صحيفة عمله بيمينه، وهو المؤمن الصادق في إيمانه، فإن هذا علامة سعادته وفوزه، لأن النجاة من النار ودخول الجنة هو الفوز العظيم، قال تعالى:

﴿فَمَنْ دُخِرَ عَنِ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ﴾ [آل عمران: ١٨٥].

وفي وصف نعيم أهل اليمين يقول سبحانه: ﴿وَأَحَبُّ إِلَيْنِ مَا أَحَبُّ إِلَيْنِ ^(١٧) فِي سِدْرٍ مَحْضُورٍ ^(١٨) وَطَلْحٍ مَنضُورٍ ^(١٩) وَظِلٍّ مَمْدُودٍ ^(٢٠) وَمَاءٍ مَّسْكُوبٍ ^(٢١) وَنُكْهَةٍ كَثِيرَةٍ ^(٢٢) لَا مَقْطُوعَةٍ وَلَا مَمْنُوعَةٍ ^(٢٣)﴾ [الواقعة: ٢٧-٣٣].

ومن يأخذ كتابه بيمينه: فإن أعماله تُعرض عليه دون مناقشة، فلا يطول زمن وقوفه بين يدي ربه، لأن حسابه سهل يسير بسبب أعماله الصالحة، فليست هناك مؤاخذه، بل عتاب وسُتْر، فتعرض عليه أعماله، ويعرّف بالطاعات والمعاصي، دون لوم، ولا مناقشة، ولا شدة، ولا طلب اعتذار ولا قيام حجة، ولا فضيحة في الموقف، بل يُعَجَّلُ به إلى الجنة، حيث يُجازى على حسناته، ويتجاوز عن سيئاته.

فالحساب اليسير هو السهل الذي لا مناقشة فيه، فيقرره الله بذنوبه حتى إذا ظن العبد أنه قد هلك، قال الله تعالى له: (سترتها عليك في الدنيا فأنا أسترها لك اليوم) فهذا الحساب اليسير، هو مجرد عرض للأعمال مع التجاوز عن الهفوات.

وقد جاءت الأحاديث بهذا:

(١) لم يغد البصري والشامي (يمينه) آية، وعدّها الكوفي والحجازيون.

١- عن ابن أبي ملكية أن عائشة رضي الله عنها كانت لا تسمع شيئاً لا تعرفه إلا راجعت فيه حتى تعرفه، وأن النبي ﷺ قال: «من حوسب عُذْب» قالت: فقلت: أوليس يقول الله عز وجل ﴿فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا﴾ قالت: فقال: «فإنما ذلك العرض، ولكن من نوقش الحساب عُذْب»^(١).

٢- وفي لفظ آخر: أن عائشة رضي الله عنها قالت: قال رسول الله ﷺ: «ليس أحد يحاسب إلا هلك» قالت: قلت: يا رسول الله، جعلني الله فداءك، أليس يقول الله عز وجل ﴿فَأَمَّا مَنْ أُوْتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ ۖ ﴿٧﴾ فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا﴾ قال: «ذاك العرض، يعرضون، ومن نوقش الحساب هلك»^(٢).

٣- وعن عائشة رضي الله عنها قالت: سمعت رسول الله ﷺ يقول في بعض صلاته: «اللهم حاسبني حسابا يسيرا، فلما انصرف قلت: يا رسول الله، ما الحساب اليسير؟ قال: أن يُنظر في كتابه فيُتجاوز له عنه، إنه من نوقش الحساب يا عائشة يومئذ هلك»^(٣).

٤- وفي حديث ابن عمر رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال: «يدنى المؤمن يوم القيامة من ربه عز وجل حتى يضع عليه كنفه، فيقرره بذنوبه فيقول: هل تعرف؟ فيقول: أي رب أعرف، قال: فإني سترتها عليك في الدنيا، وأني أغفرها لك اليوم»^(٤).

ومن حاسب نفسه في الدنيا، هوّن الله تعالى حسابه يوم القيامة.
وصاحب الحساب اليسير، يرجع إلى المكان الذي كان فيه قبل العرض على رب

(٢٠١) صحيح البخاري برقم (٦٥٣٧، ٤٩٣٩)، وصحيح مسلم برقم (٢٨٧٦)، والمسند (٤٧/٦) (٢٤٢٠٠)، (٢٤٦٠٥)، وسنن الترمذي برقم (٣٣٣٧، ٢٤٢٦)، وسنن النسائي الكبرى برقم (١١٦٥٩، ١١٥٥٤)، وتفسير الطبري (٧٤/٣٠)، وابن أبي شيبة (٣٦١/١٣)، وابن حبان (٧٣٧٠، ٧٣٦٩).

(٣) المسند (٨٤/٦) (٢٤٢١٥) وهو حديث صحيح (محققوه)، والحاكم (٥٧/٨) وقال: صحيح على شرط مسلم، والطبري (٢٣٦/٢٤)، والبيهقي في الشعب (٢٧٠)، وابن خزيمة (٧٣٧٢)، والطبراني في الأوسط (٣٦٦٢)، وابن حبان (٧٣٧٢).

(٤) ينظر: الحديث في صحيح مسلم (٢٧٦٨) وهذا لفظه، والبخاري (٧٥١٤، ٦٠٧٠، ٤٦٨٥، ٢٤٤١).

العالمين، وهو فَرَح مسرور، مبتهج بما أعطاه الله من الفضل والكرامة، وقد يكون له في هذا المكان أهل وعشيرة، وقد يوجد له نساؤه الذين كانوا معه في الدنيا، أو من الحور العين، أو منهما معاً فيقول لهم ﴿هَآؤُمْ أَقْرَأُكُمْ كِتَابَةَ﴾ [الحاقة: ١٩] كالناجح الذي يُطَّلَع أهله على نجاحه وهو فَرَح مسرور، وقد لا يكون له أهل ولا عشيرة، وليس المراد أنه يعود إلى منزله في الجنة، لأنه لم يكن فيه قبل ذلك.

والمعنى: أنه يستريح استراحة المسافر من طول السفر، فقد فارق المتاعب بعد الكد والكدح، ففاز بالثواب ونجا من العقاب.

ويصح أن يكون المراد بالانقلاب: الذهاب إلى المكان الذي أعده الله له في الجنة، وأنه سينزله أول مرة.

أَهْلُ الشَّقَاءِ يَدْعُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ بِالْهَلَاكِ

١٠-١٢ - ﴿وَأَمَّا مَنْ أُوْتِيَ كِتَابَهُ وَرَاءَ ظَهْرِهِ^(١) ﴿١٠﴾ فَسَوْفَ يَدْعُوا ثُبُورًا^(٢) وَيَصِلُ^(٣) سَعِيرًا^(٤)﴾

وأما من يأخذ صحيفة عمله بشماله من وراء ظهره بعد ليّها إلى الخلف على سبيل الإهانة والإذلال، وبعد أن تُغَلَّ يده اليمنى عن الحركة، فإن هذا يكون علامة على الشقاء للكافر بالله تعالى.

وعندما يعلم أنه من أهل النار، يدعو على نفسه بالويل والهلاك.

فالثبور: كلمة تقال عند الوقوع في الشقاء على سبيل التحسّر والتوجّع، فيتمنى الإنسان الموت، ويسأل الله الرجعة دون جدوى، لأنه ولا بد داخل نارا مستعرة، يقاسي عذابها ولهيبها، إنها نار شديدة الاشتعال، يتقلب فيها ليل نار، وكلما نضج جلده بُدِّل بجلد آخر.

(١) لم يعدّ البصري والشامي (وراء ظهره) آية، وعدّها الكوفي والحجازيون.

(٢) قرأ نافع وابن كثير وابن عامر والكسائي بضم الياء وفتح الصاد وتشديد اللام في ﴿وَيَصِلُ﴾ مضارع صلي مبنياً للمفعول مضعف، والباقون بفتح الياء وسكون الصاد وتخفيف اللام مضارع صلي مخففاً مبنياً للفاعل.

ويقال: إن هذه الآيات نزلت في أبي سلمة بن عبد الأسد، وكان من أفضل المؤمنين، وأخوه من عتاة الكافرين (١) والثبور: اسم جامع للمكاره كالويل.

سَبَبُ الشَّقَاءِ وَإِحَاطَةُ عِلْمِ اللَّهِ بِهِ

١٣-١٥ ﴿إِنَّهُ كَانَ فِي أَهْلِهِ مَسْرُورًا﴾ (١٣) إِنَّهُ، ظَنَّ أَنْ لَنْ يَحُورَ ﴿١٤﴾ بَلَى إِنَّ رَبَّهُ كَانَ بِهِ بَصِيرًا ﴿١٥﴾ ﴿

ومن أسباب عذاب الكافر أنه كان في دنياه مغروراً، مسروراً بين أهله، لا يفكر في العواقب، وكانت الغفلة، والملذات والشهوات، تُطغيه وتُليه عن العمل ليوم الحساب، ولم تخطر له الآخرة على بال، قال تعالى: ﴿فَلَا صَدَقَ وَلَا سَلَٰى﴾ (١٣) وَلَٰكِنْ كَذَّبَ وَتَوَلَّى ﴿١٤﴾ ثُمَّ ذَهَبَ إِلَىٰ أَهْلِهِ يَمَنَّاتُ ﴿١٥﴾ [القيامة: ٣١-٣٣] وقال سبحانه: ﴿وَإِذَا أَنْقَلَبُوا إِلَىٰ أَهْلِهِمْ أَنْقَلَبُوا فَكِهِينَ﴾ [المطففين: ٣١].

قال ابن زيد: وصف الله أهل الجنة بالمخافة والحزن والبكاء في الدنيا، فأعقبهم به النعيم والسرور في الآخرة، ووصف أهل النار بالسرور في الدنيا والضحك فيها، فأعقبهم به الحزن الطويل (٢).

ومن أسباب عذاب الشقي يوم القيامة، أنه كان وهو في الدنيا يعتقد أنه لن يرجع إلى خالقه حيّاً للحساب والثواب والعقاب، لقد أيقن أنه لن يرجع إلى الحياة بعد الموت، لأنه يكذب بالبعث والنشور، فلذلك كذب وفجر.

والْحُورُ: هو الرجوع والعودة، ومنه ما جاء في الأثر (اللهم إني أعوذ بك من الْحُور بعد الكُور) أي أستعيز بك من الرجوع إلى النقصان بعد الزيادة.

قال ابن عباس رضي الله عنهما: لم أعلم ما معنى (ويحور) حتى سمعت أعرابية تقول لِبُنْتَيْهَا: حُوري، أي ارجعي (٣).

ثم أجاب الله سبحانه عن هذا الزعم الفاسد: بأنه جل شأنه لا بد أنه سيعيد الإنسان

(١) تفسير ابن عطية (٤٥٧/٥).

(٢) تفسير القرطبي (٢٧١/١٩).

(٣) تفسير ابن عطية (٤٥٨/٥).

بعد موته، ويجازيه على أعماله، خيرها وشرها، وهذا معنى ﴿بَلَّغْ﴾ أي ليس الأمر كما يزعم هذا الشقي أنه لا بعث ولا حساب ولا جزاء، بل إن الله تعالى سيعيده كما بدأه ويجازيه على أقواله وأعماله، وهو سبحانه مطلع على أعمال عباده، لا تخفى عليه خافية من شؤونهم ﴿إِنَّ رَبَّهُ كَانَ بِهِ بَصِيرًا﴾ يرى مكانهم ويسمع قولهم، فعلمه محيط بأحوال خلقه ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَخْفَىٰ عَلَيْهِ شَيْءٌ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ﴾ [آل عمران: ٥٠] ﴿رَبِّنَا إِنَّكَ تَعْلَمُ مَا نُخْفِي وَمَا نُعْلِنُ وَمَا يَخْفَىٰ عَلَى اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ﴾ [إبراهيم: ٣٨].

ولا يحسن أن يترك الله الإنسان دون أن يأمره وينهاه، ويشبهه ويعاقبه.

وفي هذا إشارة إلى حكمة البعث والجزاء، فإن الله تعالى يعلم الكافر من المؤمن، ويعلم المصلح من المفسد، وهم متفاوتون في ذلك تفاوتاً كبيراً، ومن العيب أن يستوي من قَدَم حياته لآخرته، بمن نسي لقاء ربه واشتغل بدنياه.

ثَلَاثَةُ أَقْسَامٍ عَلَى أَنْ الْبَعْثُ حَقٌّ

١٦-١٩ - ﴿فَلَا أَقْسِمُ بِالشَّفَقِ ۖ ﴿١٦﴾ وَاللَّيْلِ وَمَا وَسَقَ ۖ ﴿١٧﴾ وَالْقَمَرِ إِذَا اتَّسَقَ ۖ ﴿١٨﴾ لَتَرْكَبُنَّ ۖ ﴿١٩﴾ طَبَقًا

عَنْ طَبَقٍ ۖ ﴿٢٠﴾﴾

وفي مواجهة إنكار البعث والجزاء الوارد في قوله تعالى عن الكافر ﴿إِنَّهُ ظَنَّ أَنْ لَنْ يَحُورَ﴾ أقسم سبحانه وتعالى بثلاثة من مخلوقاته المشاهدة، وهي: الشفق، والليل، والقمر، مع تأكيد هذا القسم، بحرف (لا) على أن ثمة حساباً يختلف فيه الناس اختلافاً كبيراً من حيث درجات الجنة ودركات النار.

أقسم سبحانه وتعالى - أولاً - باحمرار الأفق عند غروب الشمس، فالشفق: اسم للحمرة التي تظهر في الأفق عقب غروب الشمس، وهذا الشفق أثر من شعاع الشمس حين يحجبها جزء من الأرض عن عيون الناس.

(١) قرأ نافع وأبو عمرو وابن عامر وعاصم وأبو جعفر ويعقوب بضم الباء من ﴿لَتَرْكَبُنَّ﴾ خطاباً للجمع على إرادة جس الإنسان وقرأ الباقون بفتح الباء، على خطاب الواحد وهو الإنسان.

والمعنى: أقسم بالشفق، وهو ما يبقى من نور الشمس آخر النهار وما يُفتح به الليل من دخول الظلام.

وفي الحديث عن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال: «وقت صلاة المغرب إذا غابت الشمس»^(١).

ثم أقسم - ثانياً - بالليل، وما جمع وَلَفَّ في ظلمته وآوى إليه من الدواب والهوام والحيوانات والحشرات، فكل يأوي إلى مكانه وسربه، فمعنى ﴿وَسَقَ﴾ جمع الأشياء بعضها إلى بعض، وهذا الليل بسكونه وهدوئه وظلامه، يجمع الإنسان والحيوان وغيرهما، على ما هو الأصل في حياة الناس قال تعالى: ﴿وَمَنْ رَحِمَهُ جَعَلْ لَكَ آيَلًا وَالنَّهَارَ لِسَكُوفٍ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [القصص: ٧٣].

ومن يعكس هذه السنة الإلهية من خلق الله تعالى فيجعل ليله نهاراً بالسهرة فيه، ونهاره ليلاً بالنوم فيه، ولو كان ذلك تحت الأضواء الكهربائية الكاشفة، فهو مخالف لمقتضى الفطرة، إلا ما كان من باب الضرورات كحفظ الأمن وحراسة الحدود ونحوهما. وهكذا أقسم الله تعالى بالنهار مدبراً، وبالليل مقبلاً، وإذا كان الليل يجمع بظلمته ما كان منتشرراً بالنهار من الإنسان والدواب، فإن النجوم تظهر في الليل متناثرة هنا وهناك، ولفظ ﴿وَسَقَ﴾ يتسع للمعنيين.

وأقسم سبحانه - ثالثاً - بالقمر إذا اتسق، أي إذا اجتمع نوره وتكامل في الليلة الرابعة عشرة وصار بذراً ساطعاً قد امتلأ نوراً وازداد نفعاً وفائدة.

وفي القسم بهذه المخلوقات الثلاث وهي: الشفق والليل والقمر، دليل واضح على أن أحوال الكون تتغير من حال إلى حال، ومن حياة إلى حياة، فالشفق يأتي عقب الغروب، والليل يأتي بعد النهار، والقمر يكتمل بعد نقصان، وكلها أطوار متعاقبة.

ولعل في ذكر الشفق، ما يشير إلى انتهاء الدنيا، لأن غروب الشمس يشبه الموت.

وفي ذكر الليل ما يشير إلى شدة الهول يوم الحساب، وفي ذكر القمر ما يشير إلى

(١) من حديث عبد الله بن عمرو في صحيح مسلم برقم (٦١٢).

حصول الرحمة للمؤمنين^(١).

جواب القسم:

أقسم سبحانه بوقت الشفق، وبالليل إذا أقبل، وبالقمر إذا اكتمل نوره، على أن البعث حق، والجنة والنار حق، وأن المؤمنين متفاوتون في درجات نعيم الجنات وفق تفاوت أعمالهم الصالحة، درجة أعلى من درجة، كما أن الكفار متفاوتون في دركات النار، بعضهم أسفل من بعض، ومنافقوا العقيدة في الدرك الأسفل من النار، ولعل هذا ما يشير إليه قوله تعالى: ﴿لَتَرْكَبُنَّ طَبَقًا عَنْ طَبَقٍ﴾ طوراً بعد طور، وحالاً بعد حال.

ومن معاني (الطبق) المزتبة والمنزلة والمكان، أي مكاناً فوق مكان، أو مكاناً دون مكان، كما قال تعالى: ﴿لَكِنَّ الَّذِينَ أَتَوْا رَبَّهُمْ هُمْ عُرْفٌ مِّنْ فَوْقَهَا عُرْفٌ مَّيْنَةٌ﴾ [الزمر: ٢٠]. وقال: ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ زِدْنَاهُمْ عَذَابًا فَوْقَ الْعَذَابِ بِمَا كَانُوا يُفْسِدُونَ﴾ [النحل: ٨٨].

١ - فالمراد بالطبق: الحالة المطابقة لعمل صاحبها، ولعل هذا ما يشير إليه الحديث «لَتَرْكَبُنَّ حالاً بعد حال»^(٢). فهي طبقات في شدة العذاب، بعضها أقوى من بعض، وطبقات في نعيم الجنة بعضها أرفع من بعض.

وهذا المعنى هو الأنسب لسياق الآيات، جواباً للقسم في الرد على منكري البعث ﴿إِنَّهُ ظَنَّ أَنْ لَّنْ نَّحْيُوهُ﴾.

٢ - وقد يراد بالطبقات: أطوار خلق الإنسان، من نقطة إلى علقة، إلى مضغة، إلى نفخ الروح، إلى وليد وطفل وصبي مميز، ثم شاباً وشيخاً وهكذا. حيث يأمره ربه وينهاه، ثم يموت، ويُبعث للحساب والجزاء على ما قدمت يداه، وهي أطوار دالة على وحدانية الله تعالى، وعلى أن هذا العبد فقير عاجز تحت تدبير الله سبحانه، وعلى وجوب صرف العبادة إلى الله وحده.

٣ - ومن المعاني التي وردت: أن الآية تتعلق بالنبى ﷺ ليلة المعراج، أي لتركب

(١) تفسير ابن عاشور (٢٢٦/٣٠) بتصرف.

(٢) من حديث ابن عباس في صحيح البخاري برقم (٤٩٤٠)، وتفسير الطبري (٧٨/٣٠).

- أيها الرسول - سماء بعد سماء.

٤ - ومنها: أنها تتعلق بأعمال الأمة في تقليد من سبقها من الأمم، ومتابعتها منزلة بعد منزلة.

واستدلوا على ذلك بما صح عن رسول الله ﷺ «لتركبن سنن من كان قبلكم، حذوا القذة بالقذة، حتى لو دخلوا جحر ضب لدخلتموه» قالوا: يا رسول الله: اليهود والنصارى؟ قال: «فمن»؟

ولفظ البخاري عن أبي سعيد الخدري أن النبي ﷺ قال: «لتبعن سنن من كان قبلكم شبرا شبرا، وذراعا بذراع، حتى لو دخلوا جحر ضب تبعتموهم، قلنا: يا رسول الله، اليهود والنصارى؟ قال: فمن»؟^(١).

تَغْنِيفُ الْكُفَّارِ عَلَى عَدَمِ إِيْمَانِهِمْ مَعَ وَضُوحِ الْأَدِلَّةِ

٢٠، ٢١ - ﴿فَمَا لَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٢٠﴾ وَإِذَا قُرِئَ عَلَيْهِمُ الْقُرْآنُ لَا يَسْجُدُونَ ﴿٢١﴾﴾

ومادام البعث حقاً، والجزاء على الأعمال حق، فأى شيء يمنع الكافرين من الإيمان بالله ورسوله واليوم الآخر، بعد إقامة الحجج ووضوح الدلائل ﴿فَمَا لَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ بوحداية الله تعالى، ويقرؤون باستحقاقه للعبادة دون سواه، فهم لا يخضعون للقرآن، ولا ينقادون لأوامره ونواهيه، وماذا يمنعهم من التصديق باليوم الآخر والعمل للقاء ربهم؟ وهو استفهام يقصد به التوبيخ والإنكار عليهم.

﴿وَمَاذَا عَلَيْهِمْ لَوْ آمَنُوا بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ أَنْفَقُوا مِمَّا رَزَقَهُمُ اللَّهُ وَكَانَ اللَّهُ بِهِمْ عَلِيمًا﴾ [النساء: ٣٩].

(١) ينظر صحيح البخاري برقم (٧٣٢٠)، وصحيح مسلم برقم (٢٦٦٩).

(٢) قرأ أبو جعفر بإبدال همزة ﴿قُرِئَ﴾ ياء مفتوحة وصلا ساكنة وقفا، ولحمزة وقفا وهشام بخلفه بإبدال الهمزة ياء ساكنة، وتسهيلها بالروم.

(٣) قرأ أبو عمرو بكسر الهاء والميم من ﴿عَلَيْهِمُ الْقُرْآنُ﴾ وصلا، وبضمهما حمزة والكسائي ويعقوب وخلف، والباقون بكسر الهاء وضم الميم، وعند الوقف على ﴿عَلَيْهِمُ﴾ الكل يقف بكسر الهاء وسكون الميم ماعدا حمزة ويعقوب فيضم الهاء وسكون الميم.

وما لهم إذا بلغتهم الدعوة إلى الله تعالى لا يستجيبيون لها، ولا يُسلمون بما جاء فيها، وإذا تلى عليهم القرآن لا يؤمنون به، ولا يخضعون له، ولا يعملون بما فيه لإخراج أنفسهم من الظلمات إلى النور.

وفي هذا تعجب من إصرارهم على الكفر والجحود والعناد، كما قال تعالى:

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ اسْجُدُوا لِلرَّحْمَنِ قَالُوا وَمَا الرَّحْمَنُ أَنَسْجُدُ لِمَا تَأْمُرُنَا وَزَادَهُمْ نُفُورًا ۖ﴾ [الفرقان: ٦٠].

وقد صح أن النبي ﷺ سجد عند قراءة هذه الآية من سورة الانشقاق^(١).

وهي من آيات سجود التلاوة: سنة عند الشافعي وأحمد، وواجبة عند أبي حنيفة، وليست من آيات السجود عند مالك، اعتماداً على آثار غير صحيحة.

وعدد سجودات التلاوة في القرآن عنده إحدى عشرة سجدة، زاد عليها الشافعي وأبو حنيفة ثلاث سجودات في سور: النجم والانشقاق والعلق، وقال أحمد: هي خمس عشرة سجدة بزيادة السجدة التي في آخر سورة الحج، ففيها سجودتان عنده.

سَبَبُ الْكُفْرِ وَمَصِيرُ الْكَافِرِ

٢٢-٢٤ - ﴿بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا يَكْذِبُونَ ۚ﴾ (٢٢) ﴿وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُوعُونَ﴾ (٢٣) ﴿فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ۚ﴾ (٢٤)

ثم بين سبحانه السبب في عدم إيمانهم، وهو أنهم مستمرّون على الكفر والطعن في القرآن، يعاندون الحق بعد ما تبين، فلا يوجد سبب آخر يمنعهم من التصديق بالله ورسوله واليوم الآخر، وذلك لأن الفطرة لديهم قد فسدت، وأغلقوا قلوبهم، فلم يتفعوا بشيء من الهدى، وهذا معنى ﴿بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا يَكْذِبُونَ﴾ أي أن سجيّتهم التكذيب ومخالفة الحق، وحسد الرسول ﷺ على ما آتاه الله من فضله، فلا يُستغرب عدم إيمانهم وعدم انقيادهم للقرآن، فإن المكذب بالحق عناداً، لا يُرجى منه خير.

إنه لأمر عجيب حقاً يضرب السياق عنه صفحاً، ليدكر ما ينتظرهم من مآل..

حيث أنذر القرآن الكفار، فأخبرهم أن الله سبحانه يعلم سوء طويتهم، ويعلم ما بداخل نفوسهم، وأنه مجازيهم عليها ﴿وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُوعُونَ﴾ أي بما يظهرون وما

(١) كما سبق بيانه في مقدمة السورة.

يضمرون، فالله يعلم سرهم وجهرهم وسوف يحاسبهم ويجازيهم بأعمالهم.
وأصل الإيعاء: حفظ الأمتعة في الوعاء، فالله تعالى أعلم بحقيقة حالهم من تكذيبهم للحق، وجحودهم للقرآن، ومعاداتهم للمؤمنين، وهو أعلم بما يكتُمونه في صدورهم، وما يضمرونه في نفوسهم، فهم يعلمون على وجه الحقيقة أن ما جاء به محمد حق، ولكنهم لعنادهم يُظهرون التكذيب به، ليكون ضُودهم عنه مقبولا عند أتباعهم ومعارفهم.
فبشر - يا رسولنا - هؤلاء الكفار، بأن الله تعالى قد أعدَّ لهم عذاباً موجعاً يوم لقائه على كفرهم وعنادهم، والبشرى تستعمل فيما يَسُرُّ - عادة - وقد جاءت البشرى في الآية بما يسوء على وجه التهكم بهم، بدليل اقترانها بالعذاب الأليم، واستثناء المؤمنين منها. وسميت البشارة، بشارة، لأنها تؤثر في البشارة سروراً أو غمماً، والتكذيب بالحق حال أكثر الناس ومنهم فريق هداهم الله فآمنوا به وصدقوا رسله، وهم الذين استثناهم الله في الآية التالية:

أَجْرُ الْمُؤْمِنِ لَا يَنْقَطِعُ

٢٥ - ﴿إِلَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ﴾ (٢٥)

وهذا الاستثناء من الضمير في ﴿فَبَشِّرْهُمْ﴾ أي لكن الذين صدقوا الله ورسوله، وجمعوا بين الإيمان والعمل الصالح، وأدُّوا فرائض الله وحقوق العباد ﴿لَهُمْ﴾ في الآخرة ﴿أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ﴾ أي لهم ثواب غير مقطوع ولا منقوص، وهو أجر دائم مستمر، خال من شوائب الامتنان من أحد، فإن المَنَّ يُنْغَص على الإنسان حياته، والله تعالى له المنة على خلقه أجمعين في كل زمان ومكان، أما دخولهم الجنة فهو بفضل الله ورحمته بهم، وليس بأعمالهم، ولذا: فإن الملائكة يُلْهَمُونَ التسييح والتحميد كما يُلْهَمُونَ النفس.

وقد ختم الله السورة ببيان نعيم الأبرار وعذاب الفجار الذين سبق ذكرهم في أول السورة، وهو توضيح لما أُجمل في أولها، من ملاقة كل عامل لجزائه بعد أن ظل طيلة حياته يكدح إلى ربه كدحاً، ويسعى في الدنيا سعياً حثيثاً.

تم تفسير (سورة الانشقاق) والله الحمد والمنة

تَفْسِيرُ سُورَةِ الْبُرُوجِ (٨٥)

مُقَدِّمَةُ السُّورَةِ

(سورة البروج) هي السورة الخامسة والثمانون في ترتيب المصحف، والسابعة والعشرون في ترتيب النزول، نزلت بعد (سورة الشمس) وقبل (سورة التين). وهي اثنتان وعشرون آية باتفاق، ومئة وتسع كلمات، وأربع مئة وخمسة وستون حرفاً. وتسمى (سورة البروج) وهو الأشهر، وسميت في الحديث (سورة السماء ذات البروج) بدون واو قبلها، وهي سورة مكية باتفاق.

وروى أبو هريرة رضي الله عنه أن النبي ﷺ كان يقرأ بها وبسورة الطارق في صلاة العشاء الآخرة^(١). وعن جابر بن سمرة رضي الله عنه أن النبي ﷺ كان يقرأ في الظهر والعصر بـ ﴿وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْبُرُوجِ﴾ و﴿وَالطَّارِقِ﴾ وشبهها^(٢).

موضوع السورة:

أ - تتحدث السورة عن التضحية بالنفس في سبيل العقيدة، فتذكر قصة أهل الأخدود الذين شق لهم الطغاة شقوقاً في الأرض، وأوقدوا النيران، وأحرقوهم فيها على مرآى من الجموع المحتشدة، لمشاهدة مصارعهم، ولم يكن لهم من ذنب سوى أنهم آمنوا بالله العزيز الحميد.

(١) ورد ذلك في المسند (٣٢٦/٢، ٣٢٧) (٨٣٣٢، ٨٣٣٣)، (١٠٨٧٩)، وإسناده ضعيف لضعف يزيد بن سفيان أبو المهزم.

(٢) المسند (١٠٦/٥) (٢٠٩٨٢) قال محققوه: صحيح لغيره، وهذا إسناده حسن، من أجل سماك بن حرب، وباقي رجال الإسناد ثقات، رجال الصحيح وابن أبي شبة (٣٥٦/١) وأبو داود (٨٠٥) والترمذي (٣٠٧) والنسائي (١٦٦) وفي الكبرى (١١٥٩٨، ١٠٥٥) وابن جبان (١٨٢٤، ١٨٢٧) والبيهقي (٣٩١/٢)، والبغوي (٥٩٤)، والطيالسي (٧٧٤)، والدارمي (٢٩٥/١) وصحيح سنن الترمذي (٢٥٢) وصحيح سنن أبي داود (٧٢٢) والبخاري في القراءة خلف الإمام (٢٩٦).

وتبدأ السورة بثلاثة أنواع من القسم: فيقسم الله تبارك وتعالى فيها بالسماء ذات النجوم والمنازل، ويقسم بيوم الحساب والجزاء، ويقسم بكل شاهد يشهد، وبكل مشهود يشهد عليه، على أن أصحاب الأخدود ملعونون مطرودون من رحمة الله تعالى بسبب كفرهم وبغيهم.

ولله تعالى أن يقسم بما شاء من مخلوقاته، وليس للعبد أن يقسم إلا بالله تعالى.

ب - ثم تشير السورة إلى قصة تعذيب أهل الأخدود، وتُعقَّب عليها بالتهديد والوعيد الشديد لكل من يفعل مثل فعلتهم، ويموت على ظلمه دون أن يتوب ﴿فَلَهُمْ عَذَابٌ جَهَنَّمٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلْوَنٌ﴾ [الآية: ١٠] أي فلهم في الآخرة عذاب من جنس ما فعلوا بغيرهم.

أما المؤمنون الصالحون، فهم في جنات ونعيم وفوز عظيم، وكأن الله تعالى يقول لأهل الإيمان: اصبروا كما صبر السابقون من المؤمنين، واثبتوا كما ثبتوا، فإن العاقبة ستكون لكم، فالمقصود هو تثبيت المؤمنين على ما هم عليه من الإيمان، وتسليتهم عما لحقهم من تعذيب وأذى، وإعلامهم أن ما نزل بهم قد نزل أكبر منه بغيرهم.

ج - وفي نهاية الحديث عن أصحاب الأخدود وصف الله تعالى نفسه بأربعة أوصاف، فهو العزيز الحيمد، مالك الأرض والسماء، والشهيد على كل شيء ثم تأتي تعقيبات أربع:

يشير أولها إلى سنة الله تعالى في خلقه بالانتقام من الظالمين.

ويشير التعقيب الثاني في السورة إلى بطش الله الشديد بالطغاة والمتجبرين، وفيه وصف الله تعالى بخمسة أوصاف.

فهو سبحانه شديد البطش، وهو يبدئ الخلق ويعيده، يغفر لعباده ويتوب عليهم ويتودد لهم، وهو صاحب العرش المجيد، يفعل ما يريد، لا راد لقضائه ولا معقب لحكمه.

ويشير التعقيب الثالث في السورة إلى سبب ما لحق بالطغاة من عقوبة.

والتعقيب الرابع فيه ثناء على القرآن وتنديد بالمكذابين له.

د - وتُلَوِّحُ السُّورَةُ بِأَنَّهُ يَطْشُ اللَّهُ شَدِيدٌ لِّكُلِّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ، وَانْتِقَامُهُ تَعَالَى يَنْتَظِرُ كُلَّ مَنْ بَغَى وَتَجَبَّرَ، وَلَهُمْ عِبْرَةٌ فِي قِصَّةِ فِرْعَوْنَ الطَّاغِيَةِ الْجَبَّارِ، وَمَا أَصَابَهُ مِنَ الْهَلَاكِ وَالْدمَارِ، وَكَذَا فِي قِصَّةِ قَوْمِ ثَمُودَ الَّذِينَ جَعَلَ اللَّهُ بَيْوتَهُمْ خَاوِيَةً بِمَا ظَلَمُوا، لَهُمْ فِيهِمْ عِبْرَةٌ وَعِظَةٌ، لِلْإِقْلَاعِ عَنِ ظُلْمِ النَّاسِ وَالتَّكْبَرِ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ، قَبْلَ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لَا يَنْفَعُ فِيهِ مَالٌ وَلَا بَنُونَ إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ.

قصة أصحاب الأخدود:

هذه القصة ليست قصة واحدة، فقد حدثت أكثر من مرة، في أكثر من بلد، وأكثر من زمن، لأكثر من قوم فُتِنُوا في إيمانهم، في القديم والحديث، وما أكثر أمثالها في عالمنا المعاصر وغير المعاصر:

- ١- فقد عُدِّبَ في الأخاديد قوم اتبعوا النصرانية في بلاد اليمن، وعلى هذا أكثر الروايات.
 - ٢- وعُدِّبَ قوم آخرون بالأخاديد في بلاد الحبشة.
 - ٣- وعذب قوم من بني إسرائيل بمثل عذابهم على يد بختنصر في أرض بابل بالعراق.
- أما الطغاة الذين عذبوا المؤمنين في الأخاديد فقد:

- ١- كان منهم: (يوسف، ذو نواس) بنجران.
 - ٢- وكان منهم (بختنصر) بالعراق.
 - ٣- وكان منهم (انطانيوس) الرومي، بالشام.
- قال مقاتل: كانت الأخاديد ثلاثة: واحدة بنجران باليمن، والثانية بالشام، والثالثة بفارس. أما التي بالشام، فهو انطانيوس الرومي، وأما التي بفارس فهو بختنصر. وأما التي بأرض العرب فهو: يوسف ذو نواس. فأما التي بفارس والشام، فلم ينزل الله فيهم قرآناً، وأنزل في التي كانت بنجران^(١). وقصص الأخاديد كثيرة في التاريخ.

(١) ينظر: تفسير ابن كثير (٣٧٠/٨).

والتعذيب بالحرق بالنار طريقة قديمة، ومنها: نار إبراهيم عليه السلام. وممن حرق بالنار دون شق الأخاديد (عمرو بن هند التميمي) فقد حرق مئة من بني تميم بالنار.

قال ابن كثير بعد أن ذكر جملة من الروايات:

ويحتمل أن ذلك وقع كثيراً في العالم، كما قال ابن أبي حاتم عن عبد الرحمن بن جبيرة:

١- كانت الأخدود في اليمن زمان تُتبع.

٢- وفي القسطنطينية، زمان قسطنطين، حين صرف النصارى قبلتهم عن دين المسيح والتوحيد، فاتخذوا أتوناً، وألقوا فيه الذين كانوا على دين المسيح والتوحيد.

وفي العراق في أرض بابل، كان بختنصر، الذي وضع الصنم، وأمر الناس أن يسجدوا له، فامتنع دانيال وصاحباؤه، فأوقد لهم أتوناً، وألقى فيه الحطب والنار، ثم ألقاهم فيه، فجعلها الله عليهم برداً وسلاماً، وألقى فيها الذين بغوا عليه، وهم تسعة رهط، فأكلتهم النار.

وهذه أربع روايات من الروايات التي وردت في قصص أصحاب الأخدود:

الرواية الأولى: أن ملك فارس شرب خمرًا ووقع على أخته وهو سكران، فلما أفاق قال لها: ويحك، أين المخرج؟ فقالت له: اجتمع أهل مملكيتك، فأخبرهم أن الله عز وجل قد أحل نكاح الأخوات والبنات، فإذا مضى ذلك في الناس وتناسوه، خطبتهم مرة ثانية فحرمتهم، ففعل ذلك، فأطاعه أناس، وعصاه آخرون، فأبوا أن يقبلوا ذلك منه، فشق لهم أخاديد طويلة كالخنادق في الأرض، وأوقد فيها النار، وقذف فيها من أبي ذلك، وكان هذا الملك مجوسياً، أراد أن يحلل نكاح المحارم بين الناس^(١).

الرواية الثانية: عن عليّ ؑ أن أهل الأخدود كانوا بمزارع باليمن، وأن الذي شق الأخاديد هو ملك حمير، حيث اقتتل مؤمنوهم ومشركوهم، فغلب مؤمنوهم على

(١) تفسير الطبري (١٣٢/٣٠) عن علي بن أبي طالب ؑ وانظر تفسير البغوي والخازن وزاد المسير للسورة.

كفارهم، ثم اقتتلوا، فغلب الكفار المؤمنين، فخذوا لهم الأخاديد وأحرقوهم فيها. وقيل: إنهم كانوا من الحبشة، وفيهم كانت المرأة المؤمنة التي قادها الزبانية إلى الأخدود، فتقاعست قليلاً من أجل ولدها، فقال لها الطفل: امض إلى الأخدود، واثبتي فأنت على الحق، فاقتحمت النار!!

الرواية الثالثة: وهي القصة التي أشار إليها القرآن الكريم، وقد جرت هذه القصة في نجران، وهي أن الملك ذو نواس، كان له كاهن أو ساحر، وكان للساحر تلميذ اسمه (عبد الله بن الثامر) فكان إذا مشى إلى الكاهن، وجد في طريقه صومعة فيها راهب، يعبد الله تعالى على دين عيسى عليه السلام قبل رسالة محمد ﷺ وكان يقرأ الإنجيل، وظهر لـ (عبد الله بن الثامر) كرامات، وكلما ظهر له كرامة اتبعه عدد من النصاري، فكثُر المنتصرون في نجران.

وبلغ هذا الأمر الملك ذا نواس، وكان يهودياً، وكان أهل نجران مشركين، يعبدون نخلة طويلة، فقتل الملك الغلام، وقتل الراهب، وأمر بشق أخاديد، وجمع الحطب لها، وأمر بإشعال النار فيها، وعرض أهل نجران على النار، فمن رجع عن التوحيد تركه، ومن ثبت على الدين الحق قذفه في النار، حيث سار إليهم ذو نواس بجنده، فدعاهم إلى اليهودية، وخيرهم بينها وبين القتل، فحرق بالنار في الأخاديد من لم يدخل في اليهودية، وقتلهم بالسيف، ومثل بهم، حتى قتل منهم قريبا من عشرين ألفاً^(١).

قصة الأخدود في السنة:

ولعل هذا مجمل لما رواه صهيب رضي الله عنه عن النبي ﷺ أن ملكاً كان له ساحر، فلما تقدّم السن بالساحر، طلب من الملك أن يعطيه غلاماً يعلمه السحر.

وكان بين الملك والساحر راهب، كان الغلام يجلس إليه ويعجب به، ويلقى الأذى بسبب ذلك من الساحر ومن أهله، فرأى الغلام في طريقه ذات يوم دابة عظيمة قد

(١) ينظر: السيرة النبوية لابن هشام (٣٤/١) وما بعدها، بتصرف.

سدت الطريق وحبست الناس، ولم يستطيعوا اجتيازه، فأخذ الغلام حجراً، وقال: اللهم إن كان أمر هذا الراهب أحب إليك من أمر الساحر، فاقتل هذه الدابة حتى يمرّ الناس، ورمّاها بحجر فقتلها.

فأخبر الراهب بذلك، فقال له: أنت أفضل مني، وإنك ستبتلى، فإن ابتليت فلا تدل عليّ، وقد أيد الله الغلام ببعض الكرامات، فكان يبرئ الأكمه والأبرص، وسائر الأدواء. وكان للملك جليس أعمى، فأتى الغلام بهدايا كثيرة، وقال له: اشفني، قال الغلام: إنما يشفي الله عز وجل، فإن آمنت به دعوت الله فشفاك، فآمن، فدعا الله فشفاه. ثم إن الملك سأله: من ردّ عليك بصرك؟ قال: ربي، قال: أولك رب غيري؟ قال: نعم، ربي وربك الله، فلم يزل يعذبه حتى دلّه على الغلام، فعذّبه. ثم دلّه على الراهب، فأتى به، فقيل له: ارجع عن دينك، فأبى، فوضع المنشار في مفرق رأسه حتى وقع شقاه.

وقال للأعمى: ارجع عن دينك، فأبى، فوضع المنشار في مفرقه أيضاً. وقال للغلام: ارجع عن دينك، فأبى، فبعث به مع نفر من جنده يقذفونه من ذروة الجبل إن لم يرجع عن دينه، فلما علّوا به الجبل قال: اللهم اكفنيهم بما شئت، فرجف بهم الجبل وماتوا جميعاً.

ورجع الغلام إلى الملك، فبعث به مع نفر من جنده إلى البحر، وقال لهم: ألقوه في لجة البحر إن لم يرجع عن دينه، فقال الغلام: اللهم اكفنيهم بما شئت، فأغرقهم الله جميعاً، فرجع الغلام إلى الملك وقال له: إنك لست بقاتلي حتى تجمع الناس في صعيد واحد، وتصلبني على جذع، ثم تأخذ سهماً من كناتي وتقول: باسم الله رب الغلام، فإن فعلت ذلك قتلّني، ففعل، ومات الغلام، فقال الناس: آمنا برب الغلام.

فلما آمن الناس كلهم، شقّ الملك أخاديد في أفواه السكك وأضرّم فيها النيران، وقال: من رجع عن دينه فدعوه، ومن لم يرجع أقحموه فيها، فكانوا يتعادون ويتدافعون، فجاءت امرأة بابنٍ لها ترضعه، وتقاعت أن تلقيه في النار، فقال الصبي: اصبري يا

أماه، فإنك على الحق.

قيل: إن هذا الغلام وُجد في زمن عمر مدفوناً ويده على صدغه، كلما رُفعت خرج الدم من جُرحه، وإذا تُركت أعيدت على الجرح^(١) وهذه الرواية تفصيل لما أجملته الرواية الثالثة.

الرواية الرابعة: جاءت عن الربيع بن أنس، أن أصحاب الأخذود، كانوا قوماً في زمن الفترة، وذلك أنهم لما رأوا ما وقع في الناس من الفتنة والشر، وصاروا أحزاباً، اعتزلوا الناس، وأقاموا على عبادة الله وحده، فسمع بخبرهم أحد الجبارين، فأرسل إليهم، يأمرهم بعبادة الأوثان، وإلا قتلهم، فأبوا فحفر أخايد، وقال لهم: اختاروا هذه النار، أو عبادة الأوثان، فقالوا: هذه النار أحب إلينا.

وكان فيهم نساء وذرية، ففزعت الذرية، فقال لهم: لا نار بعد اليوم، فقبض الله أرواحهم، بأن بعث عليهم ريحاً قبضتهم من قبل أن يمسمهم حرّها، وخرجت النار من مكانها، وأحاطت بالجبارين على جانبي الأخذود، فأحرقهم الله بها، وفي ذلك أنزل الله الآيات^(٢).

* * *

(١) ينظر هذا المعنى في صحيح مسلم برقم (٣٠٠٥)، والمسنّد (١٦/٦) برقم (٢٣٩٣١) بإسناد صحيح على شرط مسلم، رجاله ثقات رجال الشيخين غير حماد بن سلمة فمن رجال مسلم، والترمذي برقم (٣٣٤٠)، والنسائي في التفسير برقم (٦٨١)، وفي الكبرى (١١٥٩٧)، وعبد الرزاق في المصنف برقم (٩٧٥١)، والتفسير (٣٦٢/٢)، والبخاري في مسنده (٢٠٩٠)، والطبراني برقم (٧٣١٩)، وابن أبي شيبة (٣١٩/١٠)، وابن حبان (٨٧٣).

(٢) ينظر: تفسير الطبري (٨٨/٣٠) بتصرف.

تَفْسِيرُ السُّورَةِ

ثَلَاثَةُ أَنْوَاعٍ مِنَ الْقَسَمِ، عَلَى الْإِنْتِقَامِ مِنْ كُلِّ مَنْ شَقَّ أَخْذُوداً لِمُؤْمِنٍ

١-٣- ﴿وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْبُرُوجِ﴾ ١ ﴿وَالْيَوْمِ الْمَوْعُودِ﴾ ٢ ﴿وَشَahِدٍ وَمَشْهُودٍ﴾ ٣

أقسم سبحانه وتعالى في هذه الآيات بثلاثة أنواع من القسم:

أولها: من العالم العلوي، وهو السماء ذات المدارات الفلكية، المنتظمة في سيرها أكمل ترتيب وأدق نظام يدل على كمال قدرة الله تعالى وسعة علمه وحكمته.

والمنازل التي تمر بها الشمس والقمر، والكواكب السيارة، وهي بروج تتلأ بأنوار النجوم اللامعة تلوح للناظرين في قبة الجوّ.

والقسم في هذه الآية يتضمن قسماً بأمرين هما: السماء، والبروج، للفت أفكار المتدبرين إلى ما فيهما من مخلوقات.

والبرج يتألف من مجموعة نجوم بعضها قريب من بعض، لا تختلف أبعادها.

وسميت بروجاً: لأن علماء الفلك يتخيلون أن الشمس تحلّ فيه لمدة شهر من السنة، فهو كالبرج أو الحصن لها، وقد تخيلوا أن كل برج منها يشبه صورة إنسان أو حيوان أو نبات أو آلات، فميزوها بإضافتها إلى ما يشبه تلك الصورة.

ويوقّت بهذه البروج، للأشهر، والفصول، والليل والنهار، عن طريق موقع الشمس نهاراً، في المكان الذي تطلع فيه نجوم تلك البروج ليلاً ﴿نَبَارَكَ الَّذِي جَعَلَ فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا وَجَعَلَ فِيهَا سِرَاجًا وَقَمَرًا مُنِيرًا﴾ [الفرقان: ٦١] ﴿وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا وَزَيَّنَّاهَا لِلنَّظِيرِينَ﴾ [الحجر: ١٦].

وهذه البروج أو المنازل الاثنا عشر هي: الحمل، والثور، والجوزاء، والسرطان، والأسد، والسنبلة، والميزان، والعقرب، والقوس، والجدي، والدلو، والحوت، وهي منازل خاصة بالكواكب السيارة، تشبه منازل الناس.

وهذه البروج تقطعها الشمس في سنة، ويقطعها القمر في ثمانية وعشرين يوماً.

حيث تقطع الشمس كل برج في شهر، ويقطع القمر كل برج في يومين وثلاثاً.

وأقسم جل شأنه - ثانياً - باليوم الآخر، الذي وعد الله به عباده، أن يجمعهم فيه، ويضم أولهم وآخرهم وقاصيهم ودانيهم، ليجزي الذين أساءوا بما عملوا، ويجزي الذين أحسنوا بالحسنى، فاليوم الموعود هو يوم القيامة، وعد الله به المؤمنين في قوله: ﴿لَا يَحْزَنُهُمُ الْفَزَعُ الْأَكْبَرُ وَتَتَلَقَّيْنَهُمْ أَلْمَلَتِيكَةُ هَذَا يَوْمُكُمْ الَّذِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ﴾ [الأنبياء: ١٠٣].

كما وعد به الكفار في قوله: ﴿فَذَرْهُمْ يُخَوْضُوا وَلْيَغْوُوا حَتَّى يُلَاقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِي يُوعَدُونَ﴾ [المعارج: ٤٢]. وهو اليوم الذي يجمع الله فيه الخلائق للحشر والحساب ﴿رَبَّنَا إِنَّكَ جَائِعٌ النَّاسِ يَوْمَ لَا رَبَّ فِيهِ إِنَّكَ اللَّهُ لَا يُخْلَفُ أَلَيْسَ كَذَلِكَ﴾ [آل عمران: ٩].

وليس في وسع أحد يوم القيامة أن ينكر وجود هذا اليوم، حيث يقول الجميع.

﴿هَذَا مَا وَعَدَ الرَّحْمَنُ وَصَدَقَ الْمُرْسَلُونَ﴾ [يس: ٥٢].

وهو يوم محدد لا يمكن أن يتغير، والله لا يخلف الميعاد.

ثم أقسم - ثالثاً - بكل شاهد يشهد، وبكل مشهود يُشهد عليه، وهذا يشمل كل مبصر ومبصر، وحاضر ومحضور، وراءٍ ومرئٍ، وقد ذكر المفسرون نحو عشرين معنى للشاهد والمشهود، وهو قسم عام، يدخل تحته صوراً كثيرة:

فالشاهد يطلق على: الرائي، والحاضر، والملائكة، والرسل، ومحمد ﷺ خاصة.

ويطلق على الإنسان بشكل عام، ويطلق على الأرض وهي تشهد بعمل الإنسان، كشهادة جوانحه وأعضائه، ويطلق على كل من يسمع المؤذن ويشهد له، كما يطلق الشاهد على يوم الجمعة، وغير ذلك، فهذه عشرة معاني للشاهد.

والمشهود يطلق على: المرئي، ويطلق على أصحاب الأعمال التي كانت في الدنيا ومن يُطلعهم عليها، ويطلق المشهود على يوم القيامة، وعلى الأمم المشهود عليها، وعلى الناس المشهود عليهم، كما يطلق على يوم عرفة.

فهذه ستة معاني للمشهود، ولكل منها أدلة من الكتاب والسنة:

١ - قال تعالى في شهادة الأمة على الناس وشهادة الرسول عليها: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ

أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾ [البقرة: ١٤٣].

٢ - وقال سبحانه في شهادة رب العالمين على الناس: ﴿قُلِ اللَّهُ شَهِيدُ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ﴾ [الأنعام: ١٩].

وقال ابن عباس: الشاهد هو محمد ﷺ والمشهود: يوم القيامة^(١).

٣ - قال جل شأنه في شهادة الرسول على أمته وشهادة الرسل على أممهم:

﴿فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَى هَؤُلَاءِ شَهِيدًا﴾ [النساء: ٤١].

٤ - وقال تعالى في شهادة أعضاء الإنسان عليه يوم القيامة:

﴿يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [النور: ٢٤].

٥ - وقال سبحانه في شهادة الأرض على عمل الإنسان يوم القيامة:

﴿يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا﴾ [الزلزلة: ٤].

٦ - وقال تعالى في شهادة الملكين على الإنسان:

﴿وَحَاجَّتْ كُلُّ نَفْسٍ مَعَهَا سَائِقٌ وَشَهِيدٌ﴾ [ق: ٢١].

٧ - وقال سبحانه في عموم الشهادة: ﴿وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ [البروج: ٩].

٨ - وقال تعالى في شهادته على صدق ما جاء به محمد ﷺ:

﴿قُلْ كَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَمَنْ عِنْدَهُ عِلْمُ الْكِتَابِ﴾ [الرعد: ٤٣].

٩ - وقال عيسى عليه السلام: ﴿وَكُنْتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَا دُمْتُ فِيهِمْ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنْتُ أَنتَ الرَّقِيبَ

عَلَيْهِمْ وَأَنْتَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ [المائدة: ١١٧].

١٠ - وقال تعالى في شهادة الرسل على أممهم: ﴿وَيَوْمَ نَبْعَثُ فِي كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا عَلَيْهِمْ مِنْ

أَنْفُسِهِمْ﴾ [النحل: ٨٩].

فهذه عشرة أنواع من الشهادة جاءت في كتاب الله عز وجل.

والآثار ترجح أن الشاهد: هو يوم الجمعة، والمشهود: يوم عرفة.

فعن أبي هريرة ؓ أن رسول الله ﷺ قال: «اليوم الموعود: يوم القيامة، واليوم المشهود:

يوم عرفة، والشاهد يوم الجمعة، وما طلعت الشمس ولا غربت على يوم أفضل منه، فيه

(١) السنن الكبرى للنسائي (١١٦٦٣) والبراز، كشف الأستار (٢٢٨٣) والطبري (٥٧٤/١٢).

ساعة لا يوافقها عبد مؤمن، يدعو الله بخير، إلا استجاب الله له، ولا يستعيز من شر إلا أعاهه الله منه»^(١).

وجاء هذا المعنى عن ابن عباس ومجاهد وقتادة عند الطبري بسند صحيح.
وقال أبوهريرة رضي الله عنه: الشاهد: يوم الجمعة، والمشهود يوم عرفة، والموعود يوم القيامة^(٢).

الْوَعِيدُ الشَّدِيدُ لِمَنْ يُعَذِّبُونَ النَّاسَ ظُلْمًا

٤-٧- ﴿قُلْ أَخَذْتُ الْقُرْآنَ وَأَخَذُوا إِلَهُي﴾ (٤) النَّارِ ذَاتِ الْوُجُوهِ (٥) إِذْ هُمْ عَلَيْهَا قُعُودٌ (٦) وَهُمْ عَلَى مَا يَفْعَلُونَ

بِالْمُؤْمِنِينَ شُهُودٌ ﴿٧﴾

خلاصة قصة أصحاب الأخدود: أن قوماً من الكفار، راودوا قوماً من المؤمنين على الدخول في دينهم، فامتنع المؤمنون من ذلك، فشق الكفار لهم أخاديد في الأرض وأضرموا فيها النار، وقذفوهم فيها، وقعدوا حول النار، وفتنوا المؤمنين، فمن تبعهم أطلقوه. ومن استمر على إيمانه قذفوه فيها.

وجواب القسم بالسماء وأبراجها، وباليوم الموعود للبعث والحساب والجزاء، وبكل شاهد، وكل مشهود، قوله تعالى ﴿قُلْ أَخَذْتُ الْقُرْآنَ وَأَخَذُوا إِلَهُي﴾ أي هلك، ولعن، وغذّب، كل من شق الأخاديد في الأرض، وأوقد فيها النار الشديدة لتعذيب المؤمنين، من كل طاغية في أي عضوٍ ومضِرٍّ، يتفنّن في تعذيب المؤمنين بأي لون من ألوان التعذيب:

كالصّغق بالكهرباء، أو قطع بعض الأطراف، أو إتلاف بعض الأعضاء، أو فعل الفاحشة بهم، أو بنسائهم ومحارمهم أمام أعينهم إمعاناً في تعذيبهم، أو بعمليات غسل

(١) سنن الترمذي برقم (٣٣٣٩) وقال: حسن غريب وصححه الألباني في صحيح سنن الترمذي (٢٦٥٩)، وفي الطبراني شاهد له من حديث أبي مالك الأشعري في المعجم الكبير برقم (٣٤٥٨) فيه ضعف وانقطاع، وحسنه الألباني بهذا الشاهد في السلسلة الصحيحة برقم (١٥٠٢)، وهو عند الطبري (٢٦٣/٢٤).

(٢) المسند (٢٩٨/٢) برقم: (٧٩٧٣)، بإسناد صحيح على شرط مسلم، عمار مولى بنى هاشم، من رجال مسلم، وباقي رجاله ثقات رجال الشيخين وأخرجه الترمذي (٣٣٣٩) وحسنه الألباني في صحيح سنن الترمذي (٢٦٥٩) والبيهقي في السنن (١٧٠/٣) والطبري (٢٦٣/٢٤) وبين الروايات زيادة ونقص وتقديم وتأخير.

المخ، أو أي نوع من طُرُق الإجبار، للإدلاء بأقوال مطلوبة لهم، ونحو ذلك، فكلّه من باب فتنّة المؤمنين والمؤمنات، وهو تعذيب لهم: بغير جريمة حدّ ولا قصاص ولا تعزير. ومن ذلك ماسبق ذكره من قصص لأصحاب الأخدود.

ونصّر الله تعالى حليف لهؤلاء المظلومين - إن عاجلاً أو آجلاً - وإن لم يحدث النصر في الدنيا، فإنه حليفهم يوم القيامة ﴿إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ ءَامَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ﴾ [غافر: ٥١] والعقاب وخيم للظالمين في يوم الموقف العظيم. وقيل: إن المقسم عليه، هو ما تضمنه القسم من آيات الله الباهرة، وحكمه الظاهرة ورحمته الواسعة. العبرة المستفادة من قصة أهل الأخدود:

١ - وماسبق ذكره في قصة الغلام الذي أبلى بلاءً حسناً في نشر الإيمان، فحكم عليه الطاغية بالقتل عن طريق التّردّي من قمة جبل عال تارة، وبالإغراق في البحر تارة، وتمّ ذلك على أيدي زبانية، فرجع الغلام إلى الملك المدّعي للألوهية، بعد أن نجاه الله من جنده، ويتكرر الفشل في محاولة قتله مرات.

ثم أراد الغلام أن يُغلي كلمة الله تعالى، ويبطل دعوى الملك للألوهية، ليُعمّ التوحيد، وتنتهي خرافة الملك الطاغية، فقال له: إن كنت تريد قتلي، فاضلّمني أمام الناس جميعاً، وصوّب إليّ السهم، وأنت تقول: باسم الله رب الغلام، فأطلق السهم عليه باسم الله، فقتله، وقُتلت معه خرافة فرعون المتأله، فعُرف أنه ليس بإله، وبذلك انتشر الإيمان، وعلّت راية التوحيد!

٢ - وثبات أهل الحق في مثل هذه الأحوال، يتمثل أيضاً في هذه المرأة المؤمنة التي قادها الزبانية إلى الأخدود، ومعها ولدها، فخافت عليه، فقال لها: اثبتي فأنت على حق، فاقتحمت النار بوليدها!

٣ - وكما سبق ذكره في رواية الربيع بن أنس: من أن الله تعالى نجّى المؤمنين الذي حُفرت لهم الأخاديد، فقبض الله أرواحهم قبل أن تمسّهم النار، وخرجت النار على شفير الأخدود من الكفار فأحرقتهم.

ثم فسرت السورة معنى الأخدود: فذكرت أنها نار متأججة، ذات حطب ولهب، يضرها الطغاة في تلك الشقوق العميقة في الأرض، لإحراق المؤمنين وتعذيبهم فيها، فهي نار لا يخمد لهيبها، لأن لها وقوداً من نفط أو غاز أو حطب.. وكلما خبث يُلقي فيها ما يوقدُها، ولو شاء الله لسلب هذه النار خاصية الإحراق، وجعلها برداً وسلاماً على من أُلقي فيها، كما حدث لإبراهيم عليه السلام.

ويدخل في معنى الأخدود: كل وسيلة من وسائل الحزق أو الصغق أو القتل أو التعذيب، قديمه أو حديثه، وكل ما يجد في المستقبل، وشأن الطغاة في كل زمان ومكان أن يتلذذوا بتعذيب المؤمنين، ويشهدوا ذلك بأعينهم.

وقد بين سبحانه أن اللعن والطرده من رحمة الله تعالى، يحلُّ بهؤلاء حين يشرفون على تعذيب المؤمنين بأنفسهم، ويشهدون بشاعته، ويأمرون أتباعهم وزبانياتهم بالجد في تعذيبهم حتى لا يتهاونوا في أمرهم، وهذا معنى ﴿إِذْ هَرَّ عَلَيَّهَا قُعُودٌ﴾ أي لعنوا وغضب الله عليهم حين قعدوا يشاهدون بشاعة التعذيب في الأخاديد.

وهؤلاء الطغاة الذين يعذبون المؤمنين أو يقتلونهم صلباً أو حرقاً أو صعقاً.. لا يرأفون بمن يعذبونهم، فتأخذهم الشفقة بهم، ولا يشمتزون من شناعة ما يفعل بهم، لقسوة قلوبهم وغلظتها، فهم يراقبون مَنْ وكلّوهم بتعذيبهم وإهانتهم، والتمثيل بهم، بعد إحراقهم أو قتلهم بصورة من الصور.

وهذا معنى ﴿وَهُمْ﴾ أي أن الذين شقوا الأخاديد وأضرموها فيها النار، والذين أقاموا وسائل التعذيب المختلفة ﴿عَلَى مَا يَفْعَلُونَ بِالْمُؤْمِنِينَ﴾ من التنكيل والتعذيب ﴿شُهُودٌ﴾ أي حضور، ملازمون له.

وهذا من أعظم أنواع التجبر وقساوة القلب، لأنه جمع بين الكفر بالله وتعذيب المؤمنين ومشاهدة عذابهم.

وفي الآيات تحذير ووعيد لكل من عذب مؤمناً بغير جرم يستحق عليه عقاباً شرعياً، وينطبق هذا على الأفراد كما ينطبق على الجماعات والأمم:

سَبَبُ تَعْذِيبِ الْمُؤْمِنِينَ فِي كُلِّ زَمَانٍ وَمَكَانٍ

٨، ٩ - ﴿وَمَا نَقَمُوا مِنْهُمْ إِلَّا أَنْ يُؤْمِنُوا بِاللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ ﴿٨﴾ الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴿٩﴾﴾

فكم من أمة غير مسلمة عَذَّبَتْ أمة مسلمة، لا لشيء، إلا لإيمانها بالله واليوم الآخر، وكم من حزب أو جماعة مخالفة في الدين قامت بتعذيب جماعات من المؤمنين لمجرد أنهم مخالفون لهم في الفكر والعقيدة، وكم من مجرم عذب مؤمناً تشفياً أو انتقاماً أو خوفاً على تقويض حكم ونحو ذلك.

وهكذا بين رب العالمين في قوله ﴿وَمَا نَقَمُوا مِنْهُمْ﴾ أي وما انتقموا منهم، وأخذوهم بمثل هذا العذاب الشديد، إلا بسبب خصلة واحدة هي الإيمان بالله رب العالمين، وهي خصلة يُمدحون عليها ولا يُذمُّون، فضلاً عن أن يعذبوا بسببها، وهذا معنى: ﴿إِلَّا أَنْ يُؤْمِنُوا بِاللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ﴾ وهذا تعجب من حال المجرمين الذين يعذبون المؤمنين، لا لشيء إلا من أجل إيمانهم بخالفهم. فليس هناك من ذنب اقترفوه، ولا من جريمة فعلوها، إلا أنهم أخلصوا العبادة لله تعالى، وليس هذا ذنب يستحقون العقوبة عليه، بل إن المؤمن بالله جدير بالتقدير والاحترام، وحقيق أن يُمدح ويثنى عليه.

ومن نظائر هذه الآية قوله تعالى: ﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ هَلْ تَنقِمُونَ مِنَّآ إِلَّآ أَنْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلُ وَأَنَّ أَكْثَرَكُمْ فَٰسِقُونَ﴾ [المائدة: ٥٩] ﴿ٱلَّذِينَ أُخْرِجُواْ مِن دِينِهِمْ بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّآ أَن يَقُولُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ﴾ [الحج: ٤٠].

أربعة أوصاف وصف الله تعالى بها نفسه:

ثم وصف الله نفسه ببعض الصفات التي توجب الإيمان به تعالى، وتجعله جديراً باستحقاق الوجدانية والتفرد بالعبادة لله وحده دون سواه، وهي صفات: العزة، والحمد، ومُلك الكون، والاطلاع المطلق على خلق الله تعالى، فهذه أربع صفات: الصفة الأولى: أنه سبحانه ﴿الْعَزِيزُ﴾ أي الذي لا يُضام من لاذ بجانبه، وهو الغالب الذي

لا يُقهر، والقادر الذي يُخشى عقابه، ومن كان كذلك، فهو المستحق للعبادة دون سواه.

الصفة الثانية: أنه سبحانه ﴿الْحَمِيدُ﴾ أي المستحق للحمد والشكر والثناء على جليل نعمه، وعظيم فضله، وعلى جميع أقواله وأفعاله، وأوصافه فهو أهل الحمد والثناء، وهو الذي لا يحمد على مكروه سواه، ومن كان كذلك، فهو الجدير بالعبادة دون سواه.

الصفة الثالثة: أنه سبحانه، مالك لهذا الكون بعالمينه: العلوي والسفلي، لم يشاركه أحد في خلق ذرة، وليس في مقدور الخلق أجمعين أن يخلقوا ذبابة ولو تضافرت قواهم على خلقها، ولا يمكن لأحد أن يخرج عن سلطانه تعالى، ولا أن يدبر أمر نفسه، والخلق والتكوين من خصائص الإله، فهو المستحق للعبادة دون سواه.

الصفة الرابعة: أن الله وحده هو المطلع على أحوال عباده ظاهرها وباطنها، لا تخفى عليه خافية من شؤونهم، ولا يغيب عن علمه شيء في الأرض ولا في السماء، فهو على كل شيء شهيد، علماً وسمعاً وبصراً، ومن ذلك: إحاطته التامة بما فعل بأهل الأخدود، ومن كان على شاكلتهم إلى يوم القيامة.

أفلا خاف هؤلاء المتمردون أن يبطش الله بهم، فهم مملوكون لله، وليس لأحد عليه سلطان، وهو القاد على الانتقام من كل ظالم مغرور، وفي هذا تهديد ووعد لكل من عذب مسلماً إلى يوم القيامة.

أَرْبَعُ تَعْقِيَّاتٍ عَلَى قِصَّةِ أَصْحَابِ الْأَخْدُودِ

١٠ - ﴿إِنَّ الَّذِينَ فَتَنُوا الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَتُوبُوا فَلَهُمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَلَهُمْ عَذَابُ الْحَرِيقِ ﴿١٠﴾﴾

قال الحسن: انظروا إلى هذا الكرم والجود، هم قتلوا أولياء الله وأهل طاعته، وهو يدعوهم إلى التوبة.

وفي هذه الآية بيان لسوء مصير المجرمين، يعقبه ذكر لحسن مصير المؤمنين، وذلك أنه بعد أن فرغت السورة من قصة أصحاب الأخدود، يأتي عليها أربع تعقيبات: التعقيب الأول: أن الجزاء من جنس العمل: حيث يبين سبحانه أن الله تعالى سنة عامة،

وقاعدة مطردة في خلقه، وهذه القاعدة تنص على أن كل من عَذَّبَ المسلمين والمسلمات ليضُرُّوهم عن دين الله، على أي شكل كانت هذه الفتنة، فقد أعد الله لهم يوم القيامة عقاباً من جنس العمل، إن استمروا على ذلك إلى الموت، وهو العذاب المحرق في نار جهنم ﴿إِنَّ الَّذِينَ فُتِنُوا﴾ أي عَذِّبُوا ﴿الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ﴾ ليفتتوهم عن دينهم ﴿ثُمَّ لَمْ يَتُوبُوا﴾ أي لم يرجعوا عن تعذيب المؤمنين، ولم يرجعوا عما هم فيه من الكفر والعدوان ﴿فَلَهُمْ﴾ في الآخرة ﴿عَذَابٌ جَهَنَّمُ﴾ بسبب إصرارهم على الكفر والاعتداء على خلق الله، ولهم فوق ذلك عذاب زائد من جنس ما فعلوه، وهو الإحراق بالنار في الدنيا ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلْوَنٌ﴾، وهذه عقوبة الظالمين.

ومفهوم الآية: أنهم إن رجعوا عن كفرهم وعن تعذيب المؤمنين، فإن الله تعالى يقبل توبتهم. ويستفاد من ذلك قبول توبة القاتل.

هذا: وممن فتن المؤمنين والمؤمنات عن دينهم في صدر الإسلام:

أبوجهل، وأمّية بن خلف، وصفوان بن أمّية، والأسود بن عبد يغوث، والوليد بن المغيرة، وأمّ أنمار، ورجل من بني تميم. وممن فتنوا في دينهم:

١- بلال بن رباح، كان عبداً لأمّية بن خلف، فكان يعذبه ليرجع عن التوحيد، فلم يزد عن قوله: أحد، أحد.

٢- وأبوفكّيهة، كان عبداً لصفوان بن أمّية، فكان يعذبه ليرجع عن إيمانه.

٣- وخبّاب بن الأرت كان عبداً لأمّ أنمار.

٤- وعمار بن ياسر، وأبوه، وأخوه: عبد الله، كانوا عبيداً لأبي حذيفة بن المغيرة، فوكل بهم أباجهل.

٥- وعامر بن فُهير، كان عبداً لرجل من بني تميم.

أما المؤمنات اللاتي فتن في دينهن في صدر الإسلام فمنهن:

١- حَمَامَةُ، أم بلال، أمة أمّية بن خلف.

٢- وزيّرة، أم عَنَس، كانت أمة للأسود بن عبد يغوث.

٣- والنَّهْدِيَّةُ وابْتَتَهَا، كانتا للوليد بن المغيرة.

٤- ولطيفة، ولبيبة بنت فُهَيْرَة، كانتا لعمر بن الخطاب قبل أن يُسلم، وكان يضربهما.

٥- وَسُمِّيَّة، أم عمار، كانت لعم أبي جهل.

وكم من أفراد وجماعات لَقُوا حَتْفَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ، وَكَسَبُوا الدَّارَ الْآخِرَةَ، وَكَانُوا فِي

عَدَدِ الشَّهَدَاءِ: ﴿فَمِنْهُمْ مَّنْ قَضَىٰ نَحْبَهُ وَمِنْهُمْ مَّنْ يَنْتَظِرُ﴾ [الأحزاب: ٢٣].

وقد فُتِنَ وَرَجَعَ إِلَى الشِّرْكِ:

١- الحارث بن ربيعة بن الأسود. ٢- وأبوقيس بن الوليد.

٣- وعلي بن أمية بن خلف. ٤- والعاص بن المنبه بن الحجاج.

وقد نصت الآية على المؤمنين لثلاثين أن هذه المزية خاصة بالرجال^(١).

وكم من أفراد وجماعات ماتوا في سبيل الله، وكسبوا الدار الآخرة، وكانوا في عداد

الشهداء. قال تعالى:

١١- ﴿إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ هُمْ جَنَّاتُ جَنَّةٍ مِّنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ذَلِكَ الْفَوْزُ الْكَبِيرُ﴾ (١١)

وتتمة لهذا التعقيب يأتي ذكر المؤمنين العاملين للصلاحات، وما أعد الله لهم في

الآخرة، مقابل ذكر الكافرين الذين صدّوا الناس عن دين الله، فأعد لهم عذاب جهنم في

الآخرة، وعذاب الحريق في الدنيا.

قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ الْيَوْمَ الْآخِرِ﴾ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ﴿أَيُّ

تَزُودُوا فَوْقَ الْإِيمَانِ بِالْعَمَلِ الصَّالِحِ﴾ هُمْ جَنَّاتُ ﴿بَسَاتِينِ وَحَدَائِقِ زَاهِرَةٍ﴾ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا

أَيُّ مِنْ تَحْتِ قُصُورِهَا وَأَشْجَارِهَا.

قال الطبري: هي أنهار الخمر واللبن والعسل^(٢).

﴿ذَلِكَ﴾ أي العطاء والثواب الجزيل الذي أعده الله للمؤمنين والمؤمنات هو ﴿الْفَوْزُ

الْكَبِيرُ﴾ الذي لا فوز يضارعه ولا يقاربه.

(١) ينظر: تفسير التحرير والتنوير لابن عاشور (٢٣٩/٣٠).

(٢) تفسير الطبري (٢٥٣/٣٠).

خَمْسُ صِفَاتٍ لِلَّهِ تَعَالَى فِي التَّعْقِيبِ الثَّانِي: مِنْهَا الْبَطْشُ بِالظُّلْمَةِ

١٢-١٤ - ﴿إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ﴾ (١٢) إِنَّهُ هُوَ يُدِي وَيُعِيدُ (١٣) وَهُوَ الْغَفُورُ الْودُودُ (١٤)

التعقيب الثاني على قصة أصحاب الأخدود: بيان أن الله تعالى شديد العقاب لمن مات على كفره وظلمه للمؤمنين، وأنه تعالى غفور رحيم لمن تاب وأناب إلى ربه.

ومن الطغاة الذين بطش الله بهم: فرعون وقوم ثمود، ويتكون هذا التعقيب من خمس نقاط: أولها: أن الله تعالى شديد البطش والانتقام من الظلمة ﴿إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ﴾ أي إن انتقام الله تعالى وأخذه للجبابرة، بالغ الغاية في العنف والشدة والسرعة، فعقابه تعالى حاصل لهم في الدنيا والآخرة، قال تعالى ﴿وَكَذَلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَىٰ وَهِيَ ظَالِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ﴾ فاصبروا - أيها المؤمنون - على أذاهم، فإن العاقبة الحسنة لكم إن شاء الله. وثانيها: أن الله وحده هو الذي يبدأ الخلق في الدنيا، ثم يعيده مرة أخرى بعد الموت، ليجازيهم على أعمالهم، فهو تعالى القوي المتين، ومن مظاهر قوته وقدرته التامة: أن يُبدىء الخلق كما شاء، وكيف يشاء، ثم يعيده كما بدأه، بلا ممانع ولا مدافع، فهو سبحانه المنفرد ببدء الخلق وإعادته بلا مشارك ولا مُعاون.

وثالثها: أنه تعالى يسرّ ذنوب الذين آمنوا وعملوا الصالحات، ويتجاوز عما فرط منهم، ويحب التوابين من خلقه، فيرحمهم ويتودد إليهم ﴿وَهُوَ الْغَفُورُ﴾ أي واسع المغفرة لمن تاب وآمن ﴿الْوَدُودُ﴾ كثير الودّ والمحبة لمن أطاع الله واتبع هداياه، والودود يحبه أحبابه محبة لا يشبهها شيء، كما قال تعالى: ﴿يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ﴾ والمودة هي المحبة الصادقة.

قال ابن عباس رضي الله عنهما: يود أوليائه، كما يود أحدكم أخاه بالبشرى والمحبة^(١). وفي قرن الودود بالغفور، ما يدل على أن أهل الذنوب إذا تابوا وأنابوا غفر الله لهم ذنوبهم وأحبهم، والله تعالى يفرح بتوبة عبده أكثر من فرح من وجد ضالته بعد ضياعها منه.

(١) قرأ قالون وأبو عمرو والكسائي وأبو جعفر بإسكان الهاء من ﴿وَهُوَ﴾ والباقون بضمها، ووقف عليها يعقوب بهاء السكت.

(٢) تفسير القرطبي (٢٩٤/١٩).

١٦، ١٥ - ﴿ذُو الْعَرْشِ الْمَجِيدُ^(١)﴾ ﴿فَعَالَ لِمَا يُرِيدُ^(٢)﴾

ورابعها: أنه جل شأنه صاحب العرش العظيم، وهو سرير الملك، وخص العرش بالذكر، لأنه أعظم المخلوقات، وأوسع من السموات السبع لإحاطته بها، وهى بالنسبة إلى العرش كحلقة ملقاة في فلاة بالنسبة لسائر الأرض، وهو يدل على عظمة الخالق سبحانه. وفي هذا تنبيه للعباد على وجوب عبادته تعالى.

ولفظ ﴿الْمَجِيدُ﴾ قرئ بالرفع على أنه صفة لله تعالى، بمعنى أنه سبحانه هو: العظيم في ذاته وصفاته وأفعاله، وقرئ بالكسر، على أنه صفة للعرش، أي السرير العظيم الذي لا يدرك حقيقته إلا خالقه سبحانه.

وخامسها: أنه تعالى إذا تعلقت إرادته بفعل شيء، فعَلَهُ على أكمل وجه، لا ينقص منه شيء، ولا يؤخر ما أراد تعجيله شيء، وفَعَلَهُ تعالى نافذ لا يعترض عليه أحد، ولا يعجزه شيء، ولا يمنعه مانع، يفعل ما يشاء، ويحكم ما يريد، لا راد لقضائه، ولا معقب لحكمه، ولا يمتنع منه شيء أراده.

ورد أن أبا بكر الصديق رضي الله عنه قيل له وهو في مرض الموت: هل نظر إليك الطبيب؟ قال: نعم، قالوا: فماذا قال لك؟ قال: قال لي: إني فعال لما أريد^(٣).

وليس أحد فعلاً لِمَا يريد إلا الله سبحانه، فإذا أراد شيئاً قال له: كن فيكون، ثم ذكر سبحانه أن من أفعاله الدالة على صدق ما جاءت به الرسل، هلاك الأمم المكذبة لرسول الله:

عَلَى كُلِّ طَاغِيَةٍ أَنْ يُعْتَبِرَ بِمَا حَلَّ بِغَيْرِهِ

١٨، ١٧ - ﴿هَلْ أُنَبِّئُكَ حَدِيثُ الْجُنُودِ^(٤) فِرْعَوْنَ وَثَمُودَ^(٥)﴾

وبعد أن ذكر سبحانه خمساً من صفات الجلال والكمال، ليتَّعَظَ من يتَّعَظ، فيخشى من يخشى، ويتوب من يتوب: قرر جل شأنه ما جاء في التعقيب الثاني: من أنه تعالى إذا أخذ

(١) قرأ حمزة والكسائي بخفض الدال من ﴿الْمَجِيدُ﴾ صفة لعرش، والباقون برفعها خبر بعد خبر، أو صفة لذو.

(٢) الأثر في تفسير ابن كثير (٣٧٢/٨).

الظالم، أخذه أخذ عزيز مقتدر، فبعد أن بين سبحانه أن بطشه شديد، أشار إشارة موجزة إلى ما فعله تعالى بالجبابرة الأقدمين، فقد أملى الله لهم، ثم أخذهم أخذًا شديدًا. وقد جاء هذا المعنى بأسلوب الاستفهام للتشويق ﴿هَلْ أُنْتُكَ حَدِيثُ الْجُنُودِ﴾ هل بلغك - يا رسولنا - وهل وصل إلى علمك - أيها المخاطب - خبر الجموع الكافرة المكذبة الذين جندوا أنفسهم لحرب الله ورسوله؟ ومن جملتهم فرعون الذي كذب موسى عليه السلام، وقوم ثمود الذين كذبوا صالحاً عليه السلام، هل علمت ما حلّ بهم من العذاب والنكال، كيف أن الله تعالى استأصلهم ودمرهم تدميرًا، جزاء كفرهم وبغيهم؟ وعلى كل طاغية أن يعتبر بما حل لغيره.

ثم إنه سبحانه بطش بفرعون وقومه، فأغرقهم في البحر، لما أصرّوا على كفرهم، وكذبوا موسى وهارون عليهما السلام، وقد ضرب الله المثل بقوم فرعون، لأنهم كانوا أكبر أمة تألّبت على أحد أولي العزم من الرسل، بعثه الله لتخليص بني إسرائيل من ذل العبودية لفرعون، كما بعثه لدعوة الناس إلى عبادة الله الواحد، وكان فرعون يزعم أنه إله المصريين وابن آلهتهم.

وهذه أربعة أوجه للشبه بين فرعون والملك الذي شق الأخدود:

١- فكما أن الملك الذي شق الأخدود، وعذب فيه المؤمنين، يدّعي الألوهية، حيث قال لجليسه: ألك رب غيري؟ فإن فرعون قد ادعى الربوبية والألوهية، ﴿فَقَالَ أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَى﴾ [النازعات: ٢٤]، وقال: ﴿مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَهِ غَيْرِي﴾ [القصص: ٣٨].

٢- وكما عجز فرعون عن إدراك موسى عليه السلام، عند البحر الأحمر، فإن الملك عجز عن قتل الغلام، فنجاه الله من الغرق ومن التردّي من قمة الجبل.

٣- وكما آمن الناس برب الغلام، فإن السحرة آمنوا برب هارون وموسى.

٤ - وكما جمع الله بين فرعون وثمرود هنا، فقد جمع بينهما في سورة الفجر في قوله تعالى: ﴿وَتَمُودَ الَّذِينَ جَاءُوا الصَّخْرَ بِالْوَادِ ۝١﴾ وَفِرْعَوْنَ ذِي الْأَوْدَادِ [الفجر: ١٠، ٩].

وكان أبوجهل، فرعون صدر هذه الأمة، وما أكثر الفراعنة في كل زمان ومكان.

أما قوم ثمود فقد كانوا مظهرًا من مظاهر القوة والطغيان، فكانوا أشد الناس بأسًا وأقوى مراسًا، ومع ذلك فقد ﴿فَأَخَذَتْهُمْ صَاعِقَةُ الْعَذَابِ الَّتِي لَمْ كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ [فصلت: ١٧].

وقال تعالى: ﴿وَأَنَّهُ أَهْلَكَ عَادًا الْأُولَىٰ ﴿٥٠﴾ وَثَمُودًا ثَانِيًا ﴿٥١﴾﴾ [النجم: ٥٠، ٥١]. قال تعالى:

٢٠، ١٩ - ﴿بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي تَكْذِيبٍ ﴿١٩﴾ وَاللَّهُ مِنْ وَرَائِهِمْ مُحِيطٌ ﴿٢٠﴾﴾

التعقيب الثالث على قصة أصحاب الأخدود أن سبب عذابهم هو إصرارهم واستمرارهم على الكفر والتكذيب، وفي هذا بيان أن سبب ما يلحق بالطغاة من مصير مؤلم في كل زمان ومكان، هو استمرارهم وإصرارهم على التكذيب بالوحي المنزل، وبالنبي الخاتم، وبالبعث والنشور.

فتكذيبهم متواصل، كحال مَنْ كان قبلهم، ولم يعتبروا بإهلاك الله تعالى للطغاة، وعدم اتعاضهم بمن سبقهم، ليس لخفاء حالهم عليهم، وإنما لعنادهم وكفرهم، فلا تنفع فيهم الآيات، ولا تُجَدِّ فيهم العظات.

وهؤلاء المستمرون على التكذيب بالله ورسله، لن يفلتوا من عقاب الله تعالى، إن عاجلاً أو آجلاً، فالله تعالى يسلط عليهم عذاباً في الدنيا والآخرة، وهم في قبضته تعالى في كل زمان ومكان.

فاعلم - يا رسولنا - أن الله تعالى محيط بالطغاة والجبابرة في هذه الأمة وفي كل أمة، محيط بهم بعلمه، ومحيط بهم بقدرته ﴿إِنَّ رَبَّكَ لَبَازِلِرِّصَادٍ﴾ [الفجر: ١٤].

وفي هذا وعيد شديد للكافرين وأهل الأخدود وأنهم لن يفلتوا من عقابه تعالى، فهم تحت قبضته وسلطانه، وسيُنزل الله بهم بأسه في الوقت الذي يريده سبحانه.

ثَنَاءٌ عَلَى الْقُرْآنِ وَتَنْذِيرٌ بِالْمُكَذِّبِينَ بِهِ

٢٢، ٢١ - ﴿بَلْ هُوَ قُرْآنٌ مَجِيدٌ ﴿٢١﴾ فِي لَوْحٍ مَحْفُوظٍ ﴿٢٢﴾﴾

(١) قرأ ابن كثير بنقل حركة الهمزة من ﴿قُرْآنٌ﴾ إلى ما قبلها ومثله حمزة عند الوقف، وسكت على الراء الساكنة بدون تنفس حمزة بخلف عنه وصلاً. وسكت عليها أيضاً ابن ذكوان وحفص وإدريس بخلف عنهم وصلاً ووقفاً.

(٢) قرأ نافع برفع ﴿مَحْفُوظٍ﴾ صفة لقرآن، والباقون بالجر صفة للوح.

أما التعقيب الرابع والأخير على قصة أصحاب الأخدود، فهو تعقيب عام، تختتم به السورة، وهو في بيان أن سبب استمرار المكذابين من هذه الأمة، ناشئ عن سوء اعتقادهم بصدق القرآن، فبعضهم ينكره، وبعضهم يقول إنه: أساطير الأولين، أو أنه إفك مفترى، والله تعالى يقول: ﴿بَلْ هُوَ قُرْآنٌ مَّجِيدٌ﴾ كتاب عظيم الشرف، رفيع المكانة، عالي الشأن، وهو كتاب محفوظ بحفظ الله له ﴿لَا يَأْتِيهِ الْبُطْلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ مُّحَمَّدٍ﴾ [فصلت: ٤٢].

وهو كتاب مُدَوَّن في لوح محفوظ من التغيير والتبديل، ومن الزيادة والنقص، ومحفوظ من وصول الشياطين إليه، ومن تحريف البشر له، ولا ينسخه كتاب آخر. واللوح المحفوظ من الغيب الذي لم يصل إلينا معرفة حقيقته من طريق صحيح يحتاج به. وهو كائن قُدسي من الكائنات المغيبات في العالم العلوي، أودع الله فيه القرآن وغيره من الكتب السماوية.

واللوح المحفوظ، والكتاب المكنون، وأم الكتاب: شيء واحد. فالمحفوظ هو: المصون عن التحريف والنقص والزيادة، ومنه نسخ القرآن وسائر الكتب السماوية.

والمكنون هو: الذي لا يباح لكل أحد أن يتناوله. وأم الكتاب: أصل الكتب المنزلة من عند الله تعالى، والذي أودع الله فيه كل ما كان وما يكون، وهو كائن إلى قيام الساعة.

تم تفسير (سورة البروج) والله الحمد والمنة

تَفْسِيرُ سُورَةِ الطَّارِقِ (٨٦)

مُقَدِّمَةُ السُّورَةِ

- ١- (سورة الطارق) هي السورة السادسة والثمانون في ترتيب المصحف، والسادسة والثلاثون في ترتيب النزول، نزلت بعد (سورة البلد) وقبل (سورة القمر).
- ٢- واشتهرت باسم ﴿وَالسَّمَاءِ وَالطَّارِقِ﴾ بدون الواو، ويقال: سورة ﴿وَالسَّمَاءِ وَالطَّارِقِ﴾ كما في حديث أبي هريرة ؓ أن النبي ﷺ كان يقرأ في العشاء الآخرة بالسماء ذات البروج، والسماء والطارق^(١).
- وغالبا ما تقتصر التسمية على (سورة الطارق) فهذه ثلاثة أسماء لها.
- ٣- وعدد آياتها سبع عشرة آية عند غير المدني الأول، وهي عنده ست عشرة آية. وهي إحدى وستون كلمة، ومئتان وتسعة وثلاثون حرفاً.
- ٤- وهي سورة مكية باتفاق، نزلت قبل سنة عشر من البعثة، كما في حديث عبد الرحمن بن خالد بن أبي أحمد العدواني، أنه (أبصر رسول الله ﷺ في سوق ثقيف، وهو قائم على قوس أو عصاً، حين أتاهم يبتغي عندهم النصرة، فسمعته يقول: ﴿وَالسَّمَاءِ وَالطَّارِقِ﴾ حتى ختمها)، قال: فوعيثتها في الجاهلية، ثم قرأتها في الإسلام، قال: فدعنتي ثقيف، فقالوا: ماذا سمعت من هذا الرجل؟ فقرأتها، فقال من معهم من قريش: نحن أعلم بصاحبنا، ولو كنا نعلم ما يقول حقاً لاتبعناه^(٢).

(١) المسند (٢٢٧/٢) وسنده ضعيف كما قال محققوه برقم (٨٣٣٣)، وانظر مقدمة سورة البروج.

(٢) المسند (٣٣٥/٤)، قال الهيثمي في مجمع الزوائد: (١٣٦/٧) عبد الرحمن، ذكره ابن أبي حاتم، ولم يخرج أحد غيره، وبقية رجاله ثقات، وأخرجه البخاري في التاريخ (١٣٨/٣) والطبراني في الكبير (٤١٢٦، ٤١٢٨) وضعفه محققوا المسند برقم: (١٨٩٥٨) لجهالة عبد الرحمن بن خالد العدواني، لم يوثقه غير ابن حبان.

وعن جابر رضي الله عنه قال: صلى (معاذ) المغرب، فقرأ البقرة والنساء، فقال النبي ﷺ: «أفتأتان أنت يا معاذ؟ أما كان يكفيك أن تقرأ بالسماء والطارق، والشمس وضحاها، ونحو هذا»^(١) ٥- ومدار سورة الطارق على إقامة الأدلة على توحيد الله تعالى، وكمال قدرته، وبلغ حكمته، وسعة علمه، وبطبيعة الحال، فإن القادر على البدء قادر على الإعادة من باب أولى، فأدلة البعث والنشور تملأ آفاق السورة.

وهي تبدأ بالقسم بذات الكواكب التي تَطْرُق، أي تظهر ليلاً وتختفي نهاراً، على أن كل نفس قد وكل الله بها مَنْ يحْرُسُها، ويتعهد أمرها، ويحفظ عليها أعمالها. ٦- ثم تستدل آيات السورة على وحدانية الله تعالى، فهو الذي خلق الإنسان من ماء دافق، وهو القادر على إعادته بعد موته ﴿إِنَّهُ عَلَى رَجْعِهِ لَقَادِرٌ﴾ [الآية: ٨].

وقد ساقَت السورة ثلاثة أدلة على البعث بعد الموت وهي:

أ- السماء والطارق، ب- وخلق الإنسان من نطفة، ج - وإحياء الأرض بعد موتها. ٧- وفي هذا اليوم العظيم تُهتَك الأستار، وتُكشَف الأسرار، حيث لا مُعِين للعبد ولا ناصر له إلا الله.

٨- وما جاء به القرآن من التوحيد، ووجوب الإيمان بالنبي الخاتم ﷺ، ووجوب الإيمان بالبعث والثواب والعقاب، كل ذلك قد أودعه رب العالمين في كتابه، وهو حجة الله البالغة، ومعجزة محمد ﷺ القائمة إلى يوم الساعة، فهو حق وليس بهزل.

وقد وعد الله المؤمنين بالجنة، ووعد الكافرين بالنار، وهو سبحانه يمهّلهم ولا يمهّلهم. ٩- هذا: والآيات الأربع الأول من السورة، فيها قسم على أن الله تعالى وكل على كل نفس رقيب من الملائكة، يحفظ عليها ما تكسبه من خير أو شر، وتحصيها له في صحيفة أعماله.

(١) سنن النسائي الكبرى برقم (٧٠٩، ١١٦٦٤)، وهو في البخاري (٧٠٥)، وأبوداود (٧٩٣، ٥٩٩)، وبنحوه في المسند (١٤١٩٠) بإسناد صحيح على شرط الشيخين، وابن حبان (٢٤٠١، ٢٤٠٤).

والآيات الست التي بعدها فيها استدلال على أن القادر على خلق الإنسان من نقطة قادر على بعثه يوم تبلى السرائر فيُجزَى بالإحسان إحساناً وبالسوء سوءاً.
 - ومن الآية الحادية عشرة إلى نهاية السورة فيها قسم من الله تعالى على أن القرآن حق وصدق، وأن كيد المكذبين له سيعود عليهم ، ويحل بهم عقاب الله إن عاجلاً أو آجلاً.
 سبب النزول:

١٠- قيل: إن أباطالب أتى النبي ﷺ فأتحفه بخُبزٍ ولبن، وبينما هو جالس يأكل إذ سقط نجم، فامتلاً ماءً ثم ناراً، ففزع أبوطالب، وقال: أي شيء هذا؟ فقال النبي ﷺ: (رُمي به، وهو آية من آيات الله تعالى) فعجب أبوطالب، فأنزل الله ﴿وَالسَّمَاءَ وَالْطَّارِقَ﴾^(١).

* * *

(١) تفسير الخازن (٤/١٦٨).

تَفْسِيرُ السُّورَةِ

الْقَسَمُ عَلَى أَنَّ لِكُلِّ نَفْسٍ حَافِظٌ يُسَجِّلُ أَعْمَالَهَا وَيَخْرِسُهَا

١-٤ - ﴿وَالنَّجْمُ وَالطَّارِقُ ۝١ وَمَا أَدْرَاكَ مَا الطَّارِقُ ۝٢ النَّجْمُ الثَّاقِبُ ۝٣ إِنَّ كُلَّ نَفْسٍ لَّمَّا ^(١) عَلَيْهَا حَافِظٌ ۝٤﴾

أقسم سبحانه وتعالى بمخلوقين عظيمين للدلالة على قدرة خالقهما، هما: السماء، والنجم، الذي يطرق ليلاً، وهو نجم عظيم معروف، هو النجم الثاقب، أي: المضيء الذي يثقب نوره فيخرق السماوات فينفذ حتى يُرى في الأرض، قيل: إنه رجل. وقيل: هو اسم جنس يشتمل سائر النجوم الثواقب.

وفي السماء كواكب مُغْتَمَةٌ، تُشَبِّه هذه الأرض التي نعيش فوقها، لا وَهَجَ فيها ولا نور. وفي السماء نجوم أخرى متألقة الكيان، كالشمس أو دُونِهَا، والطارق أحد هذه النجوم.

١- والطارق هو النجم الذي يأتي ليلاً، ويختفي بالنهار، ويسميه العرب الشاهد، وهو ما يَظْهَرُ مع الغروب.

٢- وربما قُصِدَ به جملة النجوم التي تظهر بالليل وتختفي بالنهار، فالنجم الذي يظهر نهاراً، يسمى طارقاً.

٣- وقد يُراد بالطارق جنس الشهب التي تنقُضُ على الشياطين فتحرقها. فهذه أقوال ثلاثة.

قال قتادة: إنما سُمِّيَ طارقاً: لأنه إنما يُرى بالليل ويختفي بالنهار.

ويؤيده ما صح عن رسول الله ﷺ من حديث جابر بن عبد الله رضي الله عنهما أنه «نهى أن يطرق الرجل أهله ليلاً»^(٢).

(١) قرأ ابن عامر وعاصم وحمزة وأبو جعفر بتشديد الميم من ﴿لَمَّا﴾ وهي بمعنى إلا وإن نافية، وقرأ الباقر بتخفيفها، فاللام هي الفارقة، والميم هي المرحلة.

(٢) من حديث جابر في البخاري برقم (٤٤٣، ٥٢٤٣)، ومسلم (٧١٥).

وفي الحديث عن عبدالرحمن بن حنبش: (أعوذ بك من شر طوارق الليل والنهار، إلا طارقاً يطرق بخير يا رحمن)^(١). فهو لفظ عام في كل ما يأتي فجأة. وأصل الطَّرْق: الدَّق، ومنه سميت المِطْرَقَة، وكل ما جاء ليلاً فهو طارق، وهذا النجم يظهر عقب غروب الشمس، وبه سميت صلاة المغرب: صلاة الشاهد. وفي الحديث: (إن هذه الصلاة «أي العصر» عُرِضَتْ على من كان قبلكم فضيئوها) إلى أن قال (ولا صلاة بعدها حتى يطلع الشاهد) قال أبو بصرة الغفاري - راوي الحديث -: قلت لابن لهيعة: ما الشاهد؟ قال: الكوكب، الأعراب يسمون الكوكب شاهداً لليل^(٢).

وفي لفظ آخر: والشاهد النجم^(٣) فهو إذا: النجم الذي يظهر في أول ظلمة الليل. ثم عظم سبحانه من شأن هذا النجم المضيء، فبين أنه نجم عظيم الشأن، فوق إدراك البشر.

فما أعلمك - أيها الإنسان - بحقيقته؟ ولم يكن أحد يعرف شيئاً عن هذا النجم، حتى يتنه سبحانه.

وقد وقعت جملة ﴿وَمَا أَدْرَاكَ﴾ في القرآن ثلاث عشرة مرة، كلها أخبر الله بها إلا ﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْحَاقَّةُ﴾ وهذه المواضع الثلاثة عشر، كلها في قصار السور، من الحاقة وما بعدها، وهي في سور: المرسلات والانفطار والمطففين والبلد والقدر، وفي القارعة مرتين، وكلها جاء خبرها في سورها إلا في سورة الحاقة.

أما ﴿وَمَا يَدْرِيكَ﴾ فقد جاءت ثلاث مرات: في الأحزاب والشورى وعبس.

(١) من حديث عبد الرحمن بن حنبش في المسند (٤١٩/٣).

(٢) النسائي في المجتبى (٢٥٩/١) وأخرجه أحمد في المسند (٢٧٢٢٧) قال محققوه: حديث صحيح، ابن لهيعة - وإن كان سيء الحظ - إلا أنه توبع كما في الروايتين (٢٧٢٢٨، ٢٧٢٢٥) وأخرجه الطبراني في الكبير (٢١٦٦).

(٣) المسند (٢٧٢٢٥) وهو حديث صحيح، وصحيح مسلم (٨٣٠)، وأبو يعلى (٧٢٠٥)، وعبد الرزاق (٢٢٠٩).

ثم فُسر الطارق بأنه ﴿النَّجْمُ الثَّاقِبُ﴾ أي المضيء، كأنه يثقب الظلام فينفذ فيه بضياه. أو هو ما يثقب الشياطين عند استراق السمع، كما قال تعالى: ﴿فَمَنْ يَسْتَمِعِ الْآنَ يَحِذْ لَهُ شَهَابًا رَصَدًا﴾ [الجن: ٩] وكما قال سبحانه ﴿فَاتَّبَعُهُ شِهَابٌ ثَاقِبٌ﴾ [الصافات: ١٠]. وإذا أطلق النجم عند العرب كان مُراداً به الثريا، والقسم بالنجوم: لعظم أمرها وكبر خلقها، كما قال تعالى: ﴿فَلَا أَقْسِمُ بِمَوْقِعِ النُّجُومِ ۖ وَإِنَّهُ لَقَسَمٌ لِّوَعْلَمُونَ عَظِيمٌ﴾ [الواقعة: ٧٥ - ٧٦] والمراد به: تنزيل القرآن نجوماً أي متفرقاً، وقد أقسم تعالى بالنجم إذا هوى، والذي هوى به هو جبريل عليه السلام، قال تعالى: ﴿وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ﴾ [النجم: ١].

ولله تعالى أن يقسم بما شاء من مخلوقاته وليس لأحد أن يقسم إلا بالله تعالى. وجواب القسم بالسماء والطارق، هو قوله تعالى: ﴿إِنْ كُلُّ نَفْسٍ لَّمَّا عَلَيْهَا حَافِظٌ﴾.

١- وفيه دلالة على انفراد الخالق بالخلق.

٢- وفيه دلالة على أن الصنعة تدل على الصانع.

٣- وفيه دلالة على إثبات البعث والنشور.

حيث وكل الله بكل نفس ملك رقيب يحفظ عليها أعمالها: خيرها وشرها، لتحاسب وتجازى عليه يوم القيامة، ولئلا تذهب أعمال الخلق سدى، ولو أهمل هذا الجزاء لكان ذلك منافياً لحكمة الله تعالى، حتى لا يستوي الصالح بالطالح، والمؤمن بالفاجر. وهذا يستلزم الحساب والجزاء بعد الموت، وإلا كان خلق الناس عبثاً.

قال تعالى: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ﴾ [المؤمنون: ١١٥].

وهؤلاء الحفظة هم الذين يحضون على الإنسان أقواله وأفعاله، وهناك ملائكة يحرسونه من الآفات، كما قال تعالى: ﴿لَهُ مُعَقِّبَتٌ مِّنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ﴾ [الرعد: ١١]. وفي حديث أنس عن النبي ﷺ قال: «إن الله وكل بالرحم ملكاً»^(١).

(١) الحديث بتمامه في مسند أحمد برقم (٢١٥٧) بإسناد صحيح على شرط الشيخين، وهو في البخاري (٣١٨)، ومسلم (٢٦٤٦)، وابن أبي عاصم في السنة (١٨٧).

وعن أبي أمامة رضي الله عنه مرفوعاً: إن لكل نفس حفظة من الله تعالى ، يذبون عنها كما يذب عن العسل، ولو وُكِّل المرء إلى نفسه طرفة عين لاختطفته الطير والشياطين^(١).
قال قتادة: عليك حفظة يحفظون عملك ورزقك وأجلك، إذا توفيته يا ابن آدم ، قُبِضَتْ إلى ربك^(٢).

وهذا أيضاً من باب الحفظ والحراسة من المضار، وأعمال العبد التي يحاسب عليها هي ما كانت بعد بلوغ سن التكليف، حيث يجري عليه القلم فيحفظ عليه عمله، والحافظ في الحقيقة هو الله، وحفظ الملائكة من حفظه تعالى لأنه بأمره.

الْخَلْقُ الثَّانِي أَهْوَنُ مِنَ الْخَلْقِ الْأَوَّلِ

٦،٥ - ﴿فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ مِمَّ خُلِقَ﴾ (٥) ﴿خُلِقَ مِنْ مَّاءٍ دَافِقٍ﴾ (٦) ﴿

قال عكرمة: إن هذه الآية نزلت في أبي الأشد، كان يقوم على الأديم، فيقول: يا معشر قريش، من أزالني عنه فله كذا وكذا، ويقول: إن محمدا يزعم أن خزنة جهنم تسعة عشر، فأنا أكفيكم وحدي عشرة، واكفوني أتم تسعة^(٤).
والآية تدعو الإنسان إلى التأمل في أصل خَلْقِهِ، حتى لا يتجبر ولا يتناول على الناس، هذا من جهة، ومن جهة أخرى فإن رأى بعض الناس أن البعث محال، فعليه أن ينظر في أصل خَلْقِهِ أيضاً، ليعلم أن إعادة خلق الإنسان ليست أصعب من الخلق الأول ﴿وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ﴾ [الروم: ٢٧] فلينظر الإنسان المنكر للبعث والنشور، نظر تأمل واعتبار، من أي شيء خلقه الله تعالى؟ ليعلم أن مَنْ أنشأه قادر على إعادته، ولا ينبغي للإنسان أن يتكبر أو يتجبر، وهو يعلم أصله الذي خُلِقَ منه.

(١) تفسير ابن عطية (٥/ ٤٦٥).

(٢) أخرجه الطبري بسند حسن وعبد الرزاق (٢/ ٣٦٥).

(٣) وقب البزي ويعقوب على (مم) بهاء السكت، والباقون بغيرها ومعهم يعقوب في الوجه الآخر.

(٤) أسباب الترول للسيوطي (ص ٣٣١)، وتفسير الطبري (٩١/٣٠)، والدر المنثور (١٥/ ٣٥٠)..

ثم بين سبحانه المادة التي خُلق منها الإنسان فقال ﴿خُلِقَ مِنْ مَّاءٍ دَافِقٍ﴾ مضبوب في الرحم، أي خُلق من منيٍ متدفق ينصبُّ بسرعة وقوة في رحم المرأة، فيتكوّن منه الولد بإذن الله تعالى كما قال الله تعالى: ﴿أَلَمْ تَخْلُقْهُمْ مِنْ مَّاءٍ مَّهِينٍ﴾ [المرسلات: ٢٠] أي قليل. وقال سبحانه: ﴿خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ نُطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُبِينٌ﴾ [النحل: ٤]. وقال جل شأنه: ﴿إِنَّا خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ نُطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَاهُ سَمِيعًا بَصِيرًا﴾ [الإنسان: ٢].

الصلبُ والثرائبُ

٨٧- ﴿يَخْرُجُ مِنْ بَيْنِ الصُّلْبِ وَالتَّرَائِبِ﴾ (٧) إِنَّهُ عَلَى رَجْعِهِ لَقَادِرٌ ﴿٨﴾

ثم وصف الله سبحانه هذا الماء الدافق، بأنه يُفرَز من فقرات صُلب الرجل في وسط ظهره، ويُفرَز أيضاً من عظام الصدر، بين الترقوتين والثديين، وهو موضع القلادة من المرأة. والثرائب تضاف إلى الرجل وإلى المرأة معاً، ولكنها تُنسب إلى النساء أكثر، لأن الرجال لا يحتاجون إلى وصفها فيهم. والمعنى: أن المنّي يتنقل من بين الصلب والثرائب معاً في الرجل والمرأة، وبعد أن يختلط الحيوان المنوي من نطفة الرجل، بِنُويضة من بُويضات الأنثى، وهي بويضات دقيقة كُروية الشكل، يتكوّن منهما الجنين في رحم المرأة. ومحل تكوين مني الرجل في خِصيتيه، حيث يندفع منهما الماء بقوة عبر القضيب إلى رحم المرأة.

وأصله مادة دموية تنفصل عن الدماغ، وتنزل في عِزقين إلى النخاع في الصلب، ثم ينتهي إلى الحبل المنوي، وهو مؤلف من شرايين وأوردة وأعصاب.

وينتهي إلى الغدتين اللتين تُفرزان المنّي في الخصيتين.

وللمرأة مبيضان في جانبي الرحم، كالخصيتين بالنسبة للرجل، كل مبيض يشتمل على عدد من الحويصلات يتراوح من عشر إلى عشرين، ويتم خروج البيضة من الحويصلة بعد نموها وقت الحيض في قناة تبلغ بها إلى تجويف الرحم.

ويتكون ماء المرأة من عرقين خلف الأذنين كالرجل، ولكنهما يمرّان بأعلى صدر المرأة من الثديين، وهذه العروق تتنفخ إبان الحيض، وتتقبض عقب الطهر من الحيض، والرحم يأتيها عصب من الدماغ.

وهذا من الإعجاز العلمي في القرآن الذي لم يكن لأحد به علم، كما في حديث أم سلمة وعائشة رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ سئل عن احتلام المرأة، فقال: «تغتسل إذا أبصرت الماء» فقيل له: أترى المرأة ذلك؟ فقال: «وهل يكون الشبه إلا من قبل ذلك، إذا علا ماء المرأة، ماء الرجل، أشبه الرجل أخواله، وإذا علا ماء الرجل ماءها أشبه أعمامه»^(١). وقد وضع ابن عباس رضي الله عنهما يده على صدره وقال: هذه هي الترائب.

وقال: هي موضع القلادة من الصدر. وقد خص الله الصلب والترائب بالذكر، لأن المني يتصبب في عرق في ظهر الرجل من العظام الفقريّة، بإشارة من الدماغ.

وينزل المني في عروق كثيرة من مقدّم بدن المرأة، وهي الترائب، أي عظام الصدر العلوية^(٢) وتفاصيل خلق الإنسان مشروحة في علم الأحياء، وكثير من علماء الأجنة في الغرب أعلنوا إسلامهم للدقة التي تحدث بها القرآن عن أطوار الخلق ومراحلها، ولا يُعرف هذا في كتاب سابق!

إن العامة والخاصة يُدركون أن بداية الخلق ماء يمر بمجري البول، تُشرف عليه غُدَد معقدة متصلة بالجهاز العصبي!

(ويشترك في تكوين الإنسان بعد ولادته أطعمة وأشربة شتى، تجمعت من الماء والأتربة في بلاد وأقطار شتى، ولو قيل لكل ذرة من لحم الإنسان وعظمه وشعره.. عودي من حيث جئت لتوزّعت على سطح الأرض كلها!)^(٣).

(١) صحيح مسلم برقم (٣١٣، ٣١٤).

(٢) تفسير التحرير والتنوير (٣٠/٣٩٣).

(٣) نحو تفسير موضوعي لسور القرآن (ص ٥١١).

يقول سيد قطب - رحمه الله -: ولقد كان هذا سرّاً مكنوناً في علم الله تعالى، لا يعلمه بشر، حتى كان نصف القرن الأخير - العشرين - حيث اطلع العلم الحديث على هذه الحقيقة بطريقته، وعرف أنه في عظام الظهر الفقارية يتكون ماء الرجل، وفي عظام الصدر العلوية يتكون ماء المرأة، حيث يلتقيان في قرار مكين فينشأ منهما الإنسان^(١)، وهذا القول على أساس أن الترائب تنسب إلى النساء أكثر من الرجال.

والمسافة هائلة بين المنشأ والمصير، أي بين الماء الدافق، وبين الإنسان العاقل المدرك، هذه المسافة الهائلة توحى بأن هناك يداً قادرة، تدفع بهذا المائع في رحلة عجيبة حتى تنتهي به إلى النهاية الماثلة، وتوحى بأن هناك حافظاً من أمر الله تعالى يرعى هذه النطفة في رحلتها الطويلة من مولده إلى مماته، إن الخلية الواحدة الملقحة لا تكاد تُرى بالمجهر، إذ أن هناك ملايين الخلايا في الدفقة الواحدة.

وكما أنشأ الله الإنسان من ماء مهين، فإنه تعالى قادر على رجعه إلى الحياة بعد الموت للحساب والجزاء ﴿إِنَّهُ عَلَى رَجْعِهِ لَقَادِرٌ﴾. أي: قادر على إعادته للبعث بعد الموت. فالضمير في ﴿رَجْعِهِ﴾ يعود على الإنسان السابق ذكره في الآية، أي أن الله تعالى قادر على إعادة الحياة إلى الإنسان بعد موته. ويرشح هذا المعنى الآية التي تليه ﴿يَوْمَ تَبْلَى السَّرَائِرُ﴾ فالسياق في إثبات البعث والنشور.

ويصح أن يعود الضمير على الماء الدافق، فيكون المعنى: أن الله تعالى قادر على رجوع هذا الماء المدفوق وإعادته من حيث خرج، كردّ اللبن إلى الضرع، وردّ الطفل إلى الرحم:

١- أي أنه تعالى قادر على رد النطفة في الإحليل، ورد الماء في الصلب الذي خرج منه.

٢- وقادر على ردّ الإنسان من الشيخوخة إلى الشباب، ومن الشباب إلى الصبا، ومن الصبا إلى النطفة.

٣- وقادر على حبس هذا الماء حتى لا يخرج.

(١) في ظلال القرآن (٦/٣٨٧٩).

٤- وهو تعالى قادر على خلق الإنسان بأسباب أخرى غير المنى والبويضة.

٥- وقادر على خلقه بدون شيء.

٦- وقادر على خلقه بدون أب، وعلى خلقه بدون أم.. الخ.

يَوْمُ الْقِيَامَةِ تَظْهَرُ فِيهِ مَكْنُونَاتُ الصُّدُورِ وَلَا يَجِدُ الْكَافِرُ وَالْمُنَافِقُ مَنَ يَحْمِيهِ

١٠، ٩ - ﴿يَوْمَ تُبْلَى السَّرَائِرُ ۖ قَالَهُ مِنْ قُوَّةٍ وَلَا نَاصِرٍ﴾ (١٠)

ويوم القيامة تظهر الخفايا، وما تكنه القلوب من عقائد، وما تستره من جرائم، وما تُسرّه من نيات، فتختبر السرائر فيما أخفته، ويُميّز الصالح من الفاسد، والخبيث من الطيب.

ويظهر ما كان في القلوب من خير أو شر على صفحات الوجوه، قال تعالى: ﴿يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ﴾ [آل عمران: ١٠٦] ففي الدنيا لا تظهر الأمور عياناً للناس، أما في الآخرة فيظهر برّ الأبرار، وفجور الفجار، وتصير الأمور علانية.

وفحوى الكلام يدل على أن الأقوال والأعمال الظاهرة تُبلى من باب أولى، وهذا مشعر بالمؤاخذه على العقائد الباطلة والأعمال الشنيعة ﴿هُنَالِكَ تَبْلَوْنَ كُلُّ نَفْسٍ مَا أَسْلَفَتْ﴾ [يونس: ٣٠] ﴿وَبَدَأَ لَهُمْ مِنِ اللَّهِ مَا لَمْ يَكُونُوا يَحْتَسِبُونَ﴾ [الزمر: ٤٧].

وفي حديث ابن عمر رضى الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال: «إذا جمع الله الأولين والآخرين يوم القيامة يرفع لكل غادر لواء قليل: هذه غدره فلان ابن فلان»^(١).

ومما يدخل في الآية محاسبة العبد على صحة العقيدة أو النفاق، وعلى أداء الفرائض وترك المنهيات ﴿وَأَسِرُّوا قَوْلَكُمْ أَوِ اجْهَرُوا بِهِ ۖ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾ [الملك: ١٣].

﴿أَفَلَا يَعْلَمُ إِذَا بُعْثِرَ مَا فِي الْقُبُورِ ۖ وَخُصِّلَ مَا فِي الصُّدُورِ﴾ [العاديات: ٩ - ١٠].

﴿وَإِنْ يَجْهَرُ بِالْقَوْلِ فَإِنَّهُ يَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفَى﴾ [طه: ٧].

فمن أدّى الفرائض وترك المحرمات، كان وجهه مشرقاً مستنيراً، ومن ضيّعها أو انتقص منها كان وجهه كالحا مغبراً ﴿وُجُوهٌ يُؤْمِنُ بِسَفَرَةٍ﴾ (٣٨) ﴿صَاحِكَةٌ مُّسْتَبْشِرَةٌ﴾ (٣٩) ﴿وُجُوهٌ يُؤْمِنُ عَلَيْهَا غَبَرَةٌ﴾ (٤٠)

(١) صحيح البخاري برقم (٣١٨٨، ٦١٧٧، ٧١١١)، وصحيح مسلم برقم (١٧٣٥) وهذا لفظه.

تَرْهَقَهَا قَنَرَةٌ ﴿١١﴾ أُولَئِكَ هُمُ الْكَفَرَةُ الْفَجَرَةُ ﴿١٢﴾ [عبس: ٣٨ - ٤٢].

وأياً ما كان الأمر، فإن الخلائق عائدون لحساب مُرّ، في يوم تُختبر فيه السرائر، فلا يجد المرء له غير الله تعالى ولياً ولا نصيراً.

ثم بين سبحانه أنه عندما تُكشف المكنونات، فتصبح ظاهرة للعيان، وتُرفع الحجب عما كان يُخفيه الإنسان في دنياه من عقائد ونيات.. فإن الإنسان الكافر لا يجد له في هذا اليوم قوة تحميه من الحساب والعزاء، يمنع بها عن نفسه ما يلاقه من شدائد وأهوال، ولا يجد ناصراً يدفع عنه عذاب الله، قال تعالى: ﴿يَوْمَ لَا تَمَلِكُ نَفْسٌ لِنَفْسٍ شَيْئًا وَلَا مَرْيُومٌ لِلَّهِ﴾ [الأنفطار: ١٩]. وقال سبحانه: ﴿وَلَمْ تَكُنْ لَهُ فِتْنَةٌ يَنْصُرُونَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَمَا كَانَ مُنْصِراً﴾ [الكهف: ٤٣].

وقال جل شأنه: ﴿مَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ حِمِيمٍ وَلَا شَفِيعٍ يُطَاعُ﴾ [غافر: ١٨].

وقد وصفهم القرآن بقوله: ﴿خَسِمَةٌ أَبْصَرُوهُمْ تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ﴾ [المعارج: ٤٤].

ويوم القيامة يحشرون مجردين من كل شيء: ﴿وَعَرِضُوا عَلَىٰ رَبِّكَ صَفًّا لَقَدْ جِئْتُمُونَا كَمَا خَلَقْتُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ [الكهف: ٤٨] ﴿وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَادَىٰ كَمَا خَلَقْتُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ [الأنعام: ٩٤] وهذا بخلاف الدنيا فقد يكون للإنسان فيها ما يرفع عنه الضر، وقد يجد من ينصره من المهالك.

الْقَسَمُ عَلَىٰ أَنَّ الْقُرْآنَ كُلَّهُ حَقٌّ وَصِدْقٌ

١١-١٤ - ﴿وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الرَّجْعِ ﴿١١﴾ وَالْأَرْضِ ذَاتِ الصَّالِعِ ﴿١٢﴾ إِنَّهُ لَقَوْلُ فَصْلٍ ﴿١٣﴾ وَمَاهُوَ بِالْهَزْلِ ﴿١٤﴾﴾

كان القسم السابق في أول السورة، على العمل والعزاء وهذا القسم على صدق القرآن.

١ - فقد أقسم سبحانه وتعالى بالسماء التي تفيض علينا بالماء، ويتكرر نزول المطر منها.

٢ - كما أن الشمس والقمر والنجوم يرجعن في السماء، فتطلع الشمس والقمر من

ناحية وتغيب في الأخرى.

٣ - أيضاً فإن الملائكة ترجع إلى السماء وهي تحمل أعمال العباد، كما أن السماء

ترجع بالمطر كل عام، ولفظ ﴿الرَّجْعِ﴾ يحتمل هذا المعاني الثلاثة، وهي: رجوع المطر

من السماء، ورجوع الكواكب في السماء، ورجوع الملائكة إلى السماء.

- كما أقسم الله تعالى على أن الأرض تُخرج لنا الثمار والنبات فتشقق عنه، وتولد النعم والخيرات التي بها بقاء الإنسان والحيوان، قال تعالى: ﴿فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ إِلَى طَعَامِهِ﴾ (٢٤) **أَنَا صَبَبْنَا الْمَاءَ صَبًّا (٢٥) ثُمَّ شَقَقْنَا الْأَرْضَ شَقًّا (٢٦) فَأَبْنَيْنَا فِيهَا جَبًّا (٢٧) وَعَبْنَا وَقَضَبًّا (٢٨) [عبس: ٢٤-٢٨].**

كما تتصدع الأرض عن الأموات ﴿يَوْمَ نَسْفُكُ الْأَرْضَ عَنْهُمْ سِرَاعًا﴾ .

وهكذا يقسم تعالى بالسماء صاحبة المطر وبالأرض ذات النبات.

- فقد أقسم الله تعالى بالسماء والأرض على أن هذا القرآن هو القول الفصل بين الحق والباطل، والهدى والضلال، والغي والرشد، وبه تُفصل الخصومات، ويُفصل به بين الطوائف والأحزاب، وليس فيه شائبة من الهزل أو اللعب أو المزاح، إنه كلام رب العالمين، وأحكم الحاكمين، جدُّ كله، قد بلغ الغاية في بيانه وتشريعه وإعجازه.

فجدير بكل من قرأه أن يتعظ بآياته، ويستنير بتوجيهاته، ويستضيء بإرشاداته.

وكل ما وعد به القرآن حق وصدق، ومنه الحياة بعد الموت للبعث والحساب والجزاء، والمنكر لذلك يخرج من دائرة الإسلام.

فالسماء تمطر لأرزاق العباد، والملائكة تنزل من السماء وترجع إليها بأعمال العباد.

والأرض تتصدع فتشقق عن الحبوب، والفواكه تُجنى وتصدر هنا وهناك.

(وحين وُلد ابن آدم كان وزنه كيلاً أو كيلين، وإذ به يصبح قنطاراً من العضلات والأعضاء! من حبوب القمح والأرز والجرجير والفجل، إلى جوار طاقات وعوامل يفكر بها المخ؟! من حوّل النبات واللحوم والأسماك إلى جسم تتوزع على جلده أعصاب الإحساس والوعي^(١)).

وهذا الماء الذي يتدفق من السماء مرة بعد مرة، والنبات الذي تنبت عنه الأرض، يشبه الماء الذي يتدفق من الصلب والترائب.

والجنين الذي ينبثق من ظلمات الرحم، مشهد قريب الشبه بالنجم الثاقب الذي يشق الحجب فينشر فيها الضوء.

(١) نحو تفسير موضوعي لسور القرآن الكريم (٥١٢).

ثلاثة أدلة على البعث والنشور:

هذا: ولما كانت السورة في معرض إثبات القدرة على البعث، وإعادة الإنسان بعد الفناء، فقد تضمنت ثلاثة أدلة على البعث:

الأول: السماء ذات الطارق، لعظم خلقها، وعِظَم دلالتها على القدرة، فالقادر على خلقها قادر على بعث الناس بعد موتهم ﴿لَخَلْقُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ﴾ [غافر: ٥٧].
 الثاني: خلق الإنسان من ماء دافق، كما قال تعالى: ﴿قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ﴾ [يس: ٧٩]، فالقادر على البداية قادر على الإعادة.

الثالث: إنزال المطر، وإنبات النبات، وهو إحياء الأرض بعد موتها: ﴿إِنَّ الَّذِي أَحْيَاهَا لَمُحْيِ الْمَوْتِ﴾ [فصلت: ٣٩].

الْوَعْدُ بِإِظْهَارِ الدِّينِ وَإِمْهَالِ الْمُبْطِلِينَ

١٥-١٧ - ﴿إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْدًا^(١)﴾ (١٥) ﴿وَأَكِيدُ كَيْدًا^(٢)﴾ (١٦) ﴿فَهَلْ أَكْفَرِينَ أَنهَلَهُمْ رَبِّي﴾ (١٧)

إن الناس الذين خلقهم الله تعالى من ماء دافق لا حول لهم ولا قوة، فتعهدتهم يد القدرة الإلهية إلى أن رجعوا إلى الله تعالى في يوم تبلى فيه السرائر، حيث يحاسبون ويُجزون بأعمالهم إن خيراً فخير، وإن شراً فشر، وهذه حقائق جاء بها القرآن، فكيف يُغرض عنه المكذبون، ويَرمُونه بالهزل والباطل، وهو الفاصل بين الحق والباطل، والهدى والضلال.
 ومما أخبر به القرآن أن الأموات سيعادون إلى الحياة مرة أخرى، وأن الكافر يستبعد ذلك. إن هذا لأمر عجيب، وما الحامل لهم على ذلك إلا خلق معاذير كاذبة، ينصرفون بها عن الإيمان بالقرآن والعمل بما فيه.

إن المكذبين للرسول والقرآن، يكيدون للإسلام في أقوالهم وأفعالهم، ويمكرون به للنيل منه ويدبرون له المؤامرات لرد أمره وليذفَعوا بكيدهم الحق، ويؤيدوا الباطل، يريدون أن يطفئوا نور الله بأفواههم، وما يمنعهم من الإيمان به إلا الجحود والاستكبار

(١) ترك المدنى الأول عدّ (كيداً) الأولى، وعدّها غيره، وكلهم متفقون على عدّ (كيداً) الثانية.

كما قال تعالى: ﴿فَإِنَّهُمْ لَا يَكْذِبُونَكَ وَلَكِنَّ الظَّالِمِينَ بِعَايَةِ اللَّهِ يَاجِدُونَ﴾ [الأنعام: ٣٣].

والله تعالى يمهلهم ويستدرجهم، ويجازيهم على أعمالهم، وهو سبحانه مظهر دينه ولو كره الكافرون، فلا تستعجل لهم - أيها الرسول - بطلب إنزال العذاب بهم، بل أمهلهم، وأنظرهم قليلاً، وسترى ما يحل بهم من العذاب والنكال، والعقوبة والهلاك.

كما قال تعالى: ﴿سَنَسْتَدْرِجُهُمْ مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الأعراف: ١٨٢].

وقال تعالى: ﴿ثُمَّ نَمُنْعُهُمْ قَلِيلًا ثُمَّ نَضْطَرُّهُمْ إِلَىٰ عَذَابٍ غَلِيظٍ﴾ [لقمان: ٢٤].

وقال أيضاً: ﴿وَمَكُرُوا وَمَكَّرَ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَكِرِينَ﴾ [آل عمران: ٥٤].

والمعنى: إن المعارضين يدبرون لك - أيها الرسول - المكاييد لإبطال دعوتك، وإني أقابل مكرهم باستدراجهم من حيث لا يعلمون، ثم آخذهم أخذ عزيز مقتدر، فلا تستعجل عقابهم فإن الله منفذ فيهم وعده، وهو واقع بهم لا محالة.

وسوف ترى - أيها المخاطب - أن الله تعالى مُعْلِي كلمته، ومُظْهِر دينه، وإن تخلل ذلك عقبات في بعض الأزمنة، فالعاقبة للمتقين إن شاء الله تعالى.

تم تفسير (سورة الطارق) والله الحمد والمنة

تَفْسِيرُ سُورَةِ الْأَعْلَى (٨٧)

مُقَدِّمَةُ السُّورَةِ

- ١- (سورة الأعلى) هي السورة السابعة والثمانون في ترتيب المصحف، والسابعة أو الثامنة في ترتيب النزول، نزلت بعد (سورة التكويد) وقبل (سورة الليل)، ولم يسبقها في النزول سوى سور: العلق، والمدثر، والمزمل، والقلم، والمسد، والتكويد.
- وعن جابر بن زيد أن سورة الفاتحة نزلت بعد سورة المدثر، فسورة الأعلى من أوائل ما نزل من القرآن الكريم، وقوله تعالى فيها ﴿سَنُفِرُّكَ فَلَاتَنسَى﴾ [الآية: ٦] يشير إلى ذلك.
- ٢- وهي تسع عشرة آية باتفاق أهل العدد، واثنان وسبعون كلمة، ومثنان وإحدى وتسعون حرفاً.
- ٣- وهي سورة مكية عند جمهور أهل العلم، واستثنى ابن عمر وابن عباس رضي الله عنهم قوله تعالى ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَنْ تَزَكَّى﴾ (١٦) وَذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِ فَصَلَّى﴾ [الآيتان: ١٤، ١٥] فقالا: إنها مدينتان، نزلتا في صلاة العيد وصدقة الفطر.
- ٤- واشتهرت السورة باسم (سورة الأعلى) وسمتها عائشة رضي الله عنها سورة ﴿سَبِّحْ﴾ كما سَمَّيْتُهَا بعض كتب السنة سورة ﴿سَبِّحْ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى﴾ فهذه ثلاثة أسماء، أشهرها الأول.
- ٥- والسورة تتضمن قواعد الإيمان في ثلاثة عناصر، هي مجموع عناصر القرآن المكي:
 - العنصر الأول: توحيد الله تعالى وتنزيهه عن كل ما لا يليق بجلاله، فهو الذي خلق فأبدع، وصوّر فأحسن، وأخرج العشب والنبات رحمة بالعباد.
 - جاء هذا في الآيات الخمس الأول من السورة.
 - العنصر الثاني: إثبات الوحي الإلهي، وتقرير أن هذا القرآن من عند الله تعالى، وتبشير الرسول ﷺ بتيسير حفظه له بحيث لا ينساه، وتيسير العمل به، وهذا من [الآية ٦-٨].
 - العنصر الثالث: تقرير الجزاء الأخروي، ببيان أن من يتفّع بالقرآن ويستفيد من نوره، ويتعظ بهديه، هم المتقون المفلحون الذين آثروا الآخرة على الأولى، وطهّروا أنفسهم من الذنوب والآثام.

أما الفريق الآخر الذي تجنب هذي القرآن، ولم يطهر نفسه من الكفر والشرك، وأثر الدنيا على الآخرة، فإن لهم نار جهنم لا يموتون فيها ولا يحيون، وهذه القواعد الإيمانية مقررّة في صحف إبراهيم وموسى، وجاء هذا العنصر من [الآية ٩-١٩] آخرها. ورد في الأثر عن علي بن أبي طالب عليه السلام أن النبي صلى الله عليه وآله كان يحب هذه السورة^(١). يحبها لأنها تجعل الكون كله مَعْبُدًا يسبح بحمد الله تعالى ويمجّده ويتزّهه عن كل نقص. ويحبها لما تحمل له من البشريات العظيمة، ومنها عدم نسيان الوحي وهدايته إلى أيسر الطرق وأقومها.

ويحبها لأن فيها توحيد الله تعالى، ومقومات العقيدة الصحيحة، وقواعد الإيمان الحقيقي.

٦- بعض ما ورد في سورة الأعلى من أحاديث:

١- ومما يدل على أن سورة الأعلى من أوائل ما نزل على رسول الله صلى الله عليه وآله: ما رواه البراء بن عازب رضي الله عنه قال: أول من قدم علينا من أصحاب النبي صلى الله عليه وآله (يعني بالمدينة) مصعب بن عمير، وابن أم مكتوم، فجعلنا يقرآننا القرآن، ثم جاء عمار، وبلال، وسعد، ثم جاء عمر بن الخطاب في عشرين، ثم جاء النبي صلى الله عليه وآله فما رأيت أهل المدينة فرحوا بشيء فرحهم به، حتى رأيت الولائد والصبيان يقولون: هذا رسول الله صلى الله عليه وآله قد جاء، فما جاء حتى قرأتُ ﴿سَبِّحْ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى﴾ في سور مثلها^(٢).

٢- وجاء في مشروعية التسييح بها في السجود: عن سعيد بن جبير عن ابن عباس رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وآله كان إذا قرأ ﴿سَبِّحْ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى﴾ قال: سبحان ربي الأعلى^(٣).

(١) جاء هذا في حديث عند أحمد برقم (٧٤٢)، والبخاري برقم (٧٧٥، ٧٧٦)، وضعفه محققو المسند لضعف ثوير بن أبي فاختة.

(٢) البخاري (٣٩٢٤، ٤٩٤١)، والمسند (٢٨٤/٤) برقم (١٨٥٦٨، ١٨٥١٢) بإسناد صحيح على شرط الشيخين، وابن أبي شيبة (٨٢/١٤)، وابن سعد (٢٣٤/١)، وسنن النسائي الكبرى (١١٦٠٢، ١١٦٠١)، والزبارة برقم (١٧٥٠).

(٣) قال الحاكم: هذا حديث صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه، ووافقه الذهبي، كما في المستدرک (٢٦٣/١)، وصححه الألباني في صحيح سنن أبي داود برقم (٧٨٥)، وهو في المسند برقم (٢٦٦)، والطبراني (١٢٣٣٥)، والبيهقي (٣١٠/٢)، قال محققو المسند: صحيح موقوف، ورجاله رجال الشيخين، وأخرجه عبد الرزاق (٣٦٧/٢)، وابن أبي شيبة (٥٠٩/٢).

- ٣- وعن عقبه بن عامر رضي الله عنه أنه لما نزلت ﴿فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ﴾ قال: (اجعلوها في ركوعكم) فلما نزلت ﴿سَبِّحْ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى﴾ قال: (اجعلوها في سجودكم)^(١).
- ٤- وعن أبي بن كعب رضي الله عنه قال: كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يوتر بـ ﴿سَبِّحْ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى﴾ و﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾.
- ٥- وعن عائشة رضي الله عنها قالت: كان النبي صلى الله عليه وسلم يقرأ في الوتر في الركعة الأولى بـ ﴿سَبِّحْ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى﴾ وفي الثانية ﴿قُلْ يَتَّخِذُ الْكُفْرُوتُ﴾ وفي الثالثة ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ والمعوذتين^(٢). كما كان صلى الله عليه وسلم يقرأ بها في العيدين والجمعة:
- ٦- وعن النعمان بن بشير رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يقرأ في العيدين وفي الجمعة بـ ﴿سَبِّحْ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى﴾ و﴿هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ الْفَلَسِيَّةِ﴾ وإن وافق يوم جمعة، قرأهما جميعاً.
- وفي لفظ: وربما اجتمعا في يوم واحد فقرأهما^(٣). وكان صلى الله عليه وسلم يقرأها في صلاة الظهر:
- ٧- عن جابر بن سمرة رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم كان يقرأ في الظهر بـ ﴿سَبِّحْ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى﴾^(٤) وقراءة المفصل في الصلاة من باب التخفيف بها:

(١) المسند (١٥٥/٤) (١٧٤١٤)، وأبوداود (٨٦٩)، وابن حبان (١٨٩٥)، والمستدرک (٤٧٧/٢)، والبيهقي (٨٦/٢) وسنده ضعيف، كما في ضعيف سنن ابن ماجة (١٨٦)، قال محققو المسند: وإسناده محتمل للتحسين، وأخرجه الطيالسي (١٠٠٠)، والترمذي (٢٦١) عن ابن مسعود.

(٢) أبو داود (١٤٢٣)، والنسائي (٢٤٤/٣) (١٦٩٨، ١٧٠٠)، وابن ماجة (١١٧١)، والدارقطني (٣١/٢)، وصححه الحاكم (٢٥٧/٢) ووافقه الذهبي، وابن حبان (٢٤٣٦)، والبيهقي (٣٨/٣)، وصحيح سنن ابن ماجة (٩٦١) وإسناده صحيح.

(٣) أبوداود (١٤٢٤)، والترمذي (٤٦٣) وقال: حديث حسن غريب، وابن ماجة (١١٧٣)، وصححه الحاكم على شرط الشيخين (٥٢٠/٢) ووافقه الذهبي، والبيهقي (٣٧/٣)، وصحيح سنن أبي داود (١٢٦١) بإسناد صحيح، وهو في المسند عن ابن عباس (٢٧٢٥، ٢٧٢٠)، حديث صحيح (محققوه)، وأخرجه النسائي في الكبرى (٤٢٦)، وابن أبي شيبة (٢/٢٩٩)، وأبو يعلى (٢٥٥٥).

(٤) المسند (٢٧١/٤) (١٨٣٨٣، ١٨٤٠٩) وهو حديث صحيح، ومسلم (٨٧٨)، وابن أبي شيبة (١٤١/٢)، والحميدي (٩٢٠)، وابن خزيمة (١٤٦٣)، وأبو داود (١١٢٢)، والترمذي (٥٣٣)، والنسائي (١٤٣٣)، وفي الكبرى (١٧٣٨)، وابن ماجة (١٢٨١).

(٥) صحيح مسلم (٤٦٠)، وابن أبي شيبة (٣٥٦/١).

- ٨- وفي الصحيح وغيره من حديث جابر رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال لمعاذ: (هَلَّا صَلَّيْتَ بِـ ﴿وَالشَّمْسِ وَضُحَاهَا﴾ وَ ﴿سَبِّحْ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى﴾ وَ ﴿وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَاهَا﴾ ^(١)).
- وفي لفظ البخاري زيادة ﴿أَقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ﴾ ^(٢) [العلق: ١].
- ٩- وعن سمرة بن جندب رضي الله عنه أن النبي ﷺ كان يقرأ في الجمعة بـ ﴿سَبِّحْ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى﴾ وَ ﴿هَلَّا أَتَاكَ حَدِيثُ الْغَدِيَّةِ﴾ ^(٣).
- ١٠- وعن ابن عباس وسمرة بن جندب رضي الله عنه أن النبي ﷺ كان يقرأ في العيدين بـ ﴿سَبِّحْ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى﴾ وَ ﴿هَلَّا أَتَاكَ حَدِيثُ الْغَدِيَّةِ﴾ ^(٤).
- ١١- وعن عمران بن حصين رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ صَلَّى الظهر، فلما سَلَّمَ قال: هل قرأ أحد منكم ﴿سَبِّحْ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى﴾ فقال: رجل: أنا، قال: (قد علمتُ أن بعضكم خَالَجْنِيهَا) ^(٥).
- فهذه جملة من الأحاديث تفيد أن من السنة قراءة سورة الأعلى في صلاة الوتر، وفي العيدين، وفي صلاة الجمعة، وفي صلاة الظهر، بالإضافة إلى غيرها.
- والسنة إذا التزمها المسلم بصفة دائمة كانت فرضاً، ولكي يُفَرَّقَ بين الفرض والسنة، فإنها تُترك أحياناً حتى لا تُشبه الفرض، وحتى لا يستنكر الناس عدم قراءتها أحياناً، وليستفيد المسلمون من تنوع ما يُقرأ عليهم، وحتى لا يكون الاستماع إليها مجرد عادة مكررة دون الانتباه إليها والتفكير فيها.

- (١) صحيح البخاري (٦١٠٦)، وصحيح مسلم (٤٦٥)، وابن أبي شيبة (٣٥٩/١).
- (٢) وعند ابن ماجة (٨٣٦)، كما في صحيح سننه (٦٨٢)، وهو في البخاري (٧٠٥)، والنسائي في الكبرى (١١٦٠٣)، والمسند (١٤١٩٠) بإسناد صحيح على شرط الشيخين (محققه)، وابن حبان (٢٤٠١)، والطيالسي (١٧٢٨)، وعبد ابن حميد (١١٠٢) من طرق أخرى.
- (٣) صحيح سنن ابن ماجة (٩١٩)، وعن سمرة بن جندب في المسند (٢٠١٦٤) ورجاله ثقات بإسناد صحيح (محققه)، والنسائي (١٤٢١)، وابن خزيمة (١٨٤٧)، وابن حبان (٢٨٠٨)، والطبراني (٦٧٧٥)، والبيهقي (٢٠١/٣)، والشافعي في مسنده (١٤٩/١)، وابن أبي شيبة (١٤٢/٢).
- (٤) صحيح سنن ابن ماجة (١٠٦١)، وفي سنن ابن ماجة (١٢٨٣)، والمسند (٢٠٠٨٠) بإسناد صحيح ورجاله ثقات (محققه)، والطبراني (٦٧٧٣) ومواضع أخرى.
- (٥) مسلم (٣٩٨)، وابن أبي شيبة (٣٥٧/١)، والبيهقي في السنن (١٦٢/٢).

تَفْسِيرُ السُّورَةِ

مُقَوِّمَاتُ التَّوْحِيدِ الْخَالِصِ وَالْإِيمَانِ الْكَامِلِ

١-٣- ﴿سَبِّحْ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى (١) الَّذِي خَلَقَ فَسَوَّى (٢) وَالَّذِي قَدَّرَ (١) فَهَدَى (٢)﴾

أمر الله تعالى رسوله ﷺ وأمر كل مخاطب بهذا القرآن أن يداوم على تسبيح الله تعالى بالقول والفعل، والخضوع لجلاله، والاستكانة لعظمته، وهذا التسبيح يشمل ذكره بأسمائه الحسنی، وذكره بأفعاله، ومنها أنه تعالى خلق المخلوقات فأَتَقْنَهَا وأحسن خلقها، وذلك بتنزيهه تعالى عن الشريك والولد، وجميع النقائص التي لا تليق بجلاله سبحانه، وتنزيهه الله تعالى في أسمائه يشمل ما يأتي:

أنواع التنزيه:

- ١- تنزيه أسماء الله الحسنی وصفاته العليا عن إطلاقها على ما يُعبد من دون الله تعالى، من الأصنام والأوثان، كالألآت، والعزى، ومناة، وهبل، والبقرة.. الخ.
فالتسبيح من الأسماء التي لا تضاف لغير الله تعالى، وكذا ما يُشتق منها من الأفعال مثل، نسبح، والمصادر مثل، سبحان، فلا يضاف شيء من ذلك لغير الله تعالى.
- ٢- وتنزيه أسماء الله تعالى عن اللهو، واللعب، والمزاح، والتمثيل، والتحريف، كالنطق بها في حالة من السخرية أو الاستخفاف، أو الاستهزاء، أو لإضحاك الناس، عبثاً ولهواً، أو نقشها في الثوب أو الفراش الممتهن ونحوه، فهذا وغيره يتنافى مع جلالها وعظمتها، والخشوع لها.
- ٣- ومن ذلك تنزيهها عن المَواطن غير الطاهرة، وكان ﷺ إذا دخل الخلاء نزع خاتمه لما فيه من نقش محمد رسول الله ﷺ.
- ٤- ومن تنزيه أسماء الله تعالى وصفاته: صيانتها من الابتذال والمهانة، بإلقائها في

(١) قرأ الكسائي بتخفيف الدال من ﴿قَدَّرَ﴾ من القدرة، والباقون بتشديدها من التقدير.

القاذورات، أو الأكل عليها وافتراشها، ونحو ذلك، كأوراق الصحف والمجلات وغيرهما^(١).
 ٥- ومن ذلك تنزيه أسماء الحسنی بإثبات المعاني الدالة عليها، فصفة (القدير) تدل على القدرة، وصفة (العليم) تدل على العلم التام، وهكذا.
 قال الجمل في معنى الآية: نزه ربك عن كل ما لا يليق به، في ذاته، وصفاته، وأسمائه، وأفعاله، وأحكامه:

١- أما في ذاته: فأن تعتقد أن ذات الله تعالى ليست من الجواهر ولا من الأعراض.
 ٢- وأما في صفاته: فأن تعتقد أن ذات الله تعالى ليست مُحدثة، ولا متناهية، ولا متناقضة.
 ٣- وأما في أفعاله: فأن تعتقد أنه - سبحانه - مطلق الإرادة، لا اعتراض لأحد عليه في أمر من الأمور.
 ٤- وأما في أسمائه: فأن لا تذكره - سبحانه - إلا بالأسماء التي لا توهم نقصاً بوجه من الوجوه.

٥- وأما في أحكامه: فأن تعلم أنه جل شأنه ما كلفنا لنفع يعود عليه^(٢).
 والمراد بالاسم في قوله تعالى ﴿سَبِّحْ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى﴾ جميع الأسماء الدالة على الله تعالى من الأعلام والصفات. هذا هو الاسم.
 أما المسمى فهو ذات الله تعالى، ومعناه: تنزيه المسمى بهذه الأسماء والصفات، وهو الله تعالى.

التسبيح باسم الله، والتسبيح لذات الله:

١ - أما التسبيح المتعلق بالذات العلية، فمن ذلك: التفكير في عظمة الله تعالى، والنظر في ملكوته، وتنزيهه سبحانه عن كل ما لا يليق به، واستحضار تلك المعاني في ذهن العبد، ويتجدد ذلك في نفسه دائماً، فإن هذا ليس تسبيحاً باسم الله تعالى وإنما هو تسبيح لذات الله تعالى.

(١) ينظر تنمة أضواء البيان (١٧٢/٩).

(٢) حاشية الجمل على الجلالين (٥٢٠/٤) بتصرف.

وفي هذا المعنى يقول تعالى: ﴿وَمِنَ اللَّيْلِ فَاسْجُدْ لَهُ وَسَبِّحْهُ لَيْلًا طَوِيلًا﴾ [الإنسان: ٢٦].
ويقول أيضا: ﴿سُبْحَانَ اللَّهِ حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ ﴿١٧﴾ وَلَهُ الْحَمْدُ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَعَشِيًّا وَحِينَ تُظْهِرُونَ﴾ [الروم: ١٧ - ١٨].

وقال تعالى: ﴿سُبْحَانَ رَبِّكَ رَبِّ الْعَزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾ [الصفات: ١٨٠].

فهذا النوع من التسبيح لذات الله تعالى.

وأما التسبيح باسم الله تعالى فمنه قوله: ﴿فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ﴾ [الواقعة: ٧٤].

وقوله: ﴿وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ فَادْعُوهُ بِهَا وَذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِهِ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [الأعراف: ١٨٠] ومنه قوله تعالى: ﴿هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْمَلِكُ الْقُدُّوسُ السَّلَامُ الْمُؤْمِنُ الْمُهَيَّمِنُ الْعَزِيزُ الْجَبَّارُ الْمُتَكَبِّرُ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٢٣﴾ هُوَ اللَّهُ الْخَلِيقُ الْبَارِئُ الْمُصَوِّرُ لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ يُسَبِّحُ لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [الحشر: ٢٣ - ٢٤].
فهذا من التسبيح باسم الله تعالى^(١).

من مواطن التسبيح:

وقد جاءت السنة بأنواع من التسبيح منها ما يقال في السجود: (سبحان ربي الأعلى)^(٢).

ومنها ما يقال في الركوع (سبحان ربي العظيم).

ومنها ما يقال عقب كل صلاة كما في حديث أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «تسبحون دبر كل صلاة ثلاثاً وثلاثين، وتحمدون ثلاثاً وثلاثين، وتكبرون ثلاثاً وثلاثين، وتختمون المئة بلا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير»^(٣).

وحديث عائشة رضي الله عنها أن النبي ﷺ ما صلى صلاة بعد أن نزلت عليه:

﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ﴾ [النصر: ١] إلا قال: (سبحانك اللهم ربنا وبحمدك،

(١) ينظر تفسير ابن عاشور (٣٠٢٧٣).

(٢) جاء هذا في حديث أبي هريرة عند ابن مَرْدَوَيْهِ وغيره كما في الدر المنثور (٣٦١/١٥).

(٣) ينظر: حديث أبي هريرة في البخاري (٨٤٣) ومسلم (٥٩٧، ٥٩٥).

اللهم اغفر لي) وقالت: (يتأول القرآن)^(١).

وهكذا جاء التسييح بمعنى الذكر، وجاء الأمر به في جميع تصرفات الكلمة: المصدر، والماضي، والمضارع، والأمر.

ومن حق أسماء الله تعالى وصفاته: الدعاء بها، وتنزيهه تعالى وتسيحه بها. ولفظ ﴿الْأَعْلَى﴾ ليس من أسماء الله الحسنى، لأن أسماء الله تعالى توقيفية، وإنما هو من العلو والارتفاع، ومن أسمائه تعالى ﴿الْعَلِيُّ﴾.

والمراد: وصف الله تعالى بعلو المكانة، ورفعة القدر، وشمو الذات. والمسلم يسجد لله تعالى مراراً في اليوم الواحد، قائلاً (سبحان ربي الأعلى) مؤكداً قوله: ﴿سُبْحَنَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يَقُولُونَ عُلُوًّا كَبِيرًا﴾ [الإسراء: ٤٣] ماذا لو أدرك الإنسان ومضة برق لتكشف له طرफاً من علوه سبحانه، في عالم تغيب عنا أبعاده وآماده؟ إننا نتيه في عالم الذرة، فماذا عسانا أن نفعل في عالم الغيب؟! إن مبدع هذا الكون من الصُّفْر، باهر العظمة، جليل القدر، عظيم الشأن (سبحانك اللهم وبحمدك، وتبارك اسمك، وتعالى جدك، ولا إله غيرك)^(٢).

وصف الله تعالى لنفسه بثلاثة أوصاف:

أولها: إتقان الخلق: خلق الله المخلوقات، وأتقن خلقها وأحسنه، فقد أبدع سبحانه صنعها، وجعلها بالغة الغاية في الكمال والتناسب والإحكام، فسوى جل شأنه في كل ذي روح يديه ورجليه وعينه وأذنيه.. الخ وجعله مستوياً، معتدل القامة، حسن الهيئة، جميل الشكل، ولم يجعله متفاوتاً غير ملتئم ولا متسق.

﴿الَّذِي خَلَقَ فَسَوَّى﴾ قَوْمَ وَعَدَّلَ، وجعل كل مخلوق على أحسن ما خلق له.

وقد خلق الله السموات، وقوى بناءها، وأعلى سُمكها، وأحكم سقفها، وزينها بالنجوم.

وخلق الأرض ودحاها، وأخرج منها ماءها ومرعاها، وجعلها فراشاً ومهاداً.

(١) ينظر الحديث في البخاري (٧٩٤، ٤٩٦)، ومسلم (٤٨٤)، والمسند (٢٤٦٨٥، ٢٤١٦٣)، وعبد الرزاق في

المصنف (٢٨٧٨)، وأبوداود (٨٧٧)، وابن ماجه (٨٨٩)، والنسائي (١٠٤٦)، وفي الكبرى (١١١/١٠).

(٢) من حديث أبي سعيد (١١٦٥٧، ١١٤٧٣) وإسناده ضعيف لضعف جعفر بن سليمان تفرد بهذا الحديث وهو

مختلف فيه، وأخرجه ابن أبي شيبة (٢٣٢/١)، والنسائي في الكبرى (٩٧٣)، وابن ماجه (٨٠٤) وغيرهم.

وجعل الجبال أوتاداً للأرض، وخلق الأشجار فسواها وجعلها صالحة للثمار والوقود، وغير ذلك: ﴿الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ﴾ [السجدة: ٧].

ثانيها: هداية كل مخلوق لما خلق له:

وضع الله سبحانه لكل مخلوق وظيفة وغاية، ووضع له نظاماً لا يَغْدُوهُ، وهَدَى كل مخلوق إلى ما خلق من أجله، وألهمه إلى ما يُصلح بقاءه وحياته.

فقدّر له رزقه، وهده لاكتسابه، وقدّر له عمله، وهده لاكتسابه، وقدّر له السعادة والشقاء، وهده لاكتسابهما، فالتقدير من لوازم الخلق، وهكذا هدى الله الإنسان لوجه الانتفاع بما أودعه فيه من ملكات، كما هده لاستخراج الأدوية والعقاقير النافعة من النباتات، وهده إلى استخدام الحديد في صنْع المدافع والطائرات، وهكذا قدّر الله تعالى أجناس الأشياء وأنواعها، وهَدَى كل مخلوق إلى ما يصدر عنه، ويسره لما خلقه له.

فهذه هداية عامة لجميع المخلوقات، ومن ذلك هداية الأنعام إلى مراعيها..

قال تعالى: ﴿قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدَرًا﴾ [القمر: ٤٩].

وقال سبحانه: ﴿قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدَرًا﴾ [الطلاق: ٣].

وقال تعالى على لسان موسى عليه السلام: ﴿رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ، ثُمَّ هَدَى﴾

[الطلاق: ٥٠].

وفي حديث عبد الله بن عمرو رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «كتب الله مقادير الخلائق قبل أن

يخلق السموات والأرض بخمسين ألف سنة» قال: «وكان عرشه على الماء»^(١).

وكل مخلوق ميسر لما خلق له:

١ - فقد قدّر الله في العالم العلوي مقادير، وهدى الملائكة لتنفيذها.

٢ - وقدّر سير الأفلاك، وهداها إلى ما قُدِّرَ لها ﴿وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾ [يس: ٤٠].

٣ - وقدّر للأشجار والزرور والنباتات أزماناً معينة لِنُضْجِها وإيتاء أكلها، وهداها إلى

(١) صحيح مسلم (٢٦٥٣)، والترمذي (٢١٥٦)، والبيهقي (٧٩٨).

ما قَدَّر لها.

٤ - وقَدَّر للإنسان إدراك وإرادة، وجعله قابلاً للنطق والعلم والصناعة بما أودع فيه من العقل والجوارح.

٥ - وقَدَّر للنحل إنتاج العسل، وألهمه أن يرعى الثمار، وأن يبني خلاياها السداسية.

٦ - وقَدَّر للبقرة دَرَّ الحليب، وألهمها الرغي، ورعاية ولدها، وحرث الأرض.

٧ - وقَدَّر للطيور غريزة العودة إلى الموطن بعد أن تغدو خماساً وتروح بطاناً.

٨ - وقَدَّر للحصان أن يلزم الطريق مهما اشتدت ظلمة الليل، فهو يرى ولو في غير وضوح.

٩ - وقَدَّر للعنكبوت أن يصنع لنفسه عُشّاً على شكل (بالون) ينسجه من خيوطه،

ليعيش فيه، ويلد صغاره ويربيها آمنة من هبوب الهواء.

١٠ - وقَدَّر للسماك الصغير أن يعيش سنوات في البحر، ثم يصعد إلى جانب النهر،

ومن ثم يرجع إلى مكان مولده^(١).

١١ - الوا: إن مقدار الماء في الأرض لا يزيد ولا ينقص، فالإنسان والحيوان والنبات

وشتى الأحياء، تستهلك منه الكثير، ثم إنه يعود مرة أخرى إلى البحار مَطَرًا، بعدما خرج منه

بخاراً، لا يزيد ولا ينقص!! وهذا من تقدير الله سبحانه وهدايته للكائنات.

أخرج الطبري بسند صحيح عن مجاهد في معنى ﴿قَدَّرَ فَهَدَى﴾ قال:

هدي الإنسان للشقوة والسعادة، وهدى الأنعام لمراتها.

ثَالِثُهَا: إِحْيَاءُ الْأَرْضِ بَعْدَ مَوْتِهَا

٥، ٤ - ﴿وَالَّذِي أَخْرَجَ الْمَرْعَى ﴿٤﴾ فَجَعَلَهُ غُثَاءً أَحْوَى﴾

أى: أنه تعالى أنبت الكلاً الأخضر الذي ترعاه الدواب من الحشائش والأعشاب،

فجعله بعد نُضْرته وخُضْرته متغيراً هشيماً يابساً أشوداً حتى يُقَدَّر له الفناء.

وقد خلق الله الأرض وقَدَّر فيها أقواتها لكل كائن حي يدب فوق ظهرها، أو يختبئ

(١) هذه النقاط بعضها مستفاد اختصاراً من كتاب في ظلال القرآن ٦/٣٨٨٣ وما بعدها.

في جوفها، أو يطير في جوها.

والمرعى يكون في أول أمره خَضِرًا، ثم يذبل، فإذا هو غشاء أحوى، أي يميل إلى السواد بعد أن كان ناضراً زاهياً.

وقد يصلح هذا المرعى للطعام وهو أخضر، وقد يصلح للطعام بعد أن يكون هشاً يابساً. وكل ذلك بتقدير الله تعالى، فهو الذي خلق فسوى، وهو الذي قدر فهدى.

فقد أنزل الله من السماء ماءً فأَنْبَتَ به النبات والعشب، فطعم منه الإنسان والحيوان. وبعد أن استكمل هذا النبات نُضِرته وخصرته ذبل واسود، وصار هشياً رميمًا. وهذا يُذَكِّر الإنسان بأصله ونشأته ونهايته.

قال تعالى: ﴿وَاضْرِبْ لَهُم مَّثَلًا الْخَيْوَةَ الدُّنْيَا كَمَا أَتْرَكْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ الرِّيحُ وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ مُّقْنَدًا ﴾ [الكهف: ٤٥].

وفي آية أخرى قال سبحانه: ﴿فَجَعَلْنَاهَا حَصِيدًا كَأَن لَّمْ تَغْنَبِ بِالْأَمْسِ ﴾ [يونس: ٢٤]. وقد مثل الله تعالى بهذا المثل كثيراً فقال أيضاً: ﴿كَمَثَلِ غَيْثٍ آتَجَبَ الْكُفَّارُ بَنَانُهُ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَاهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَكُونُ حُطَمًا ﴾ [الحديد: ٢٠].

وقال سبحانه: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَلَكَهُ يَنَبِيعَ فِي الْأَرْضِ ثُمَّ يُخْرِجُ بِهِ زَرْعًا مُّخْتَلِفًا أَلْوَنُهُ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَاهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَجْعَلُهُ حُطَمًا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرًا لِأُولِي الْأَلْبَابِ ﴾ [الزمر: ٢١]. والذي حوّل الزرع الأخضر إلى زرع يابس جاف، قادر على إحياء الإنسان بعد موته. وفي هذا دلالة على كمال قدرة الله تعالى وتنوع نعمه، وهكذا خلق الله الإنسان. ﴿مَنْ ضَعِفَ ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا وَشَيْبَةً ﴾ [الروم: ٥٤].

بَشَارَتَانِ عَظِيمَتَانِ لِلنَّبِيِّ ﷺ

٧، ٦ - ﴿سُنُقِرْتُكَ فَلَا تَسَى ۖ ﴿٦﴾ إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ إِنَّهُ يَعْلَمُ الْجَهْرَ وَمَا يَخْفَى﴾

البشرى الأولى: عدم نسيان الوحي: وبعد أن فرغت السورة من العنصر الأول فيها وهو إقامة بعض دلائل التوحيد والقدرة، شرعت في الحديث عن العنصر الثاني وهو: تيسير حفظ القرآن للنبي ﷺ وتوفيقه للعمل بما فيه، فقال تعالى عن الشق الأول ﴿سُنُقِرْتُكَ

فَلَا تَنْسَى ﴿٦﴾ سَنَقْرَأُكَ - يا رسولنا - هذا القرآن، فتحفظه في صدرك ولا تنساه.

وهذه بشارة عظيمة من الله تعالى لعبده ورسوله محمد ﷺ، أن الله تعالى سيعلمه علماً لا ينساه.

وكان جبريل عليه السلام إذا نزل بالوحي على رسول الله ﷺ لم يفرغ من آخر الكلمة حتى ينطق الرسول بأولها مخافة أن ينساها، فأنزل الله تعالى يقول له: اطمئن - أيها النبي - فإن الذي اختارك سيُعينك حتى تؤدّي رسالتك، كما قال تعالى: ﴿لَا تُخْرِكَ بِرَأْسِكَ لِمَسْأَلٍ يُسْأَلُ بِهِ﴾ (١٩) ﴿إِنْ عَلَيْنَا جُمُوعُهُمْ وَقُرْآنُهُ﴾ (١٧) ﴿فَإِذَا قَرَأْنَاهُ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ﴾ (١٨) ﴿ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ﴾ [القيامة: ١٦ - ١٩].

وهذا وعد وبشرى من الله تعالى لرسوله ﷺ بأن يقرئه قراءة لا ينساها، ولو شاء لأزاله من صدره كما قال تعالى: ﴿وَلَكِنْ شِئْنَا لَنَذْهَبَنَّ بِالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ﴾ [الإسراء: ٨٦]. وفي هذا معجزة للنبي ﷺ لأنه كان أمياً لا يقرأ ولا يكتب، ولم يأخذ عن نبي ولا عن كتاب قبله، ومع ذلك فهو لا ينسى، ما يقرأه، وهذا من أعظم البراهين على صدق الرسالة. والسورة من أوائل ما نزل على النبي ﷺ فالإخبار بذلك، إخبار بأمر غيبي.

استثناء النسخ والنسيان من البشري:

ثم استثنى سبحانه من عدم النسيان فقال: ﴿إِلَّا مَا شَاءَ﴾ أي إلا ما قدر الله أن ينسيك إياه، لحكمة اقتضت ذلك، أو لمصلحة يعلمها سبحانه، وهذا النسيان إذا شاء الله تعالى على نوعين: النوع الأول: نسخ تلاوة بعض ما أنزل على النبي ﷺ ونسخ حكمه فيأمره بترك قراءته وترك حكمه وترك العمل به لحكمة أرادها الله تعالى، وكل ما ورد في ذلك من أخبار الآحاد لم تثبت به رواية، وهذا بخلاف ما نُسخت تلاوته وبقي حكمه، فكثير من العلماء يرى أنه من أحاديث الرسول ﷺ ولم يثبت بالتواتر أنه من القرآن، كما في نسخ حكم الرجم.

كما ورد عن عمر رضي الله عنه أنه قال: كان فيما أنزل: (الشيخ والشيخة إذا زنيا فارجموهما البتة نكالا من الله والله عزيز حكيم) قال عمر: لقد قرأناها ووعيناها وعقلناها ورجم

رسول الله ﷺ وَرَجَعْنَا بَعْدَهُ^(١).

وأنه كان فيما أنزل «لا ترغبوا عن آبائكم، فإن كفرأ بكم أن ترغبوا عن آبائكم».

ولفظ أبي هريرة ؓ: «فإن من رغب عن أبيه فإنه كفر»^(٢).

وهذا مما أشير إليه في قوله تعالى: ﴿مَا نَنْسَخْ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِنْهَا أَوْ مِثْلَهَا﴾

[البقرة: ١٠٦].

النوع الثاني: ما يعرض للإنسان من النسيان البشري، نسياناً مؤقتاً، كما يعرض لحافظ

القرآن وهو يقرأ في صلاته أو غيرها، فيَقْضِي الله له من يذكره.

كما صح عن عائشة رضي الله عنها قالت: «سمع النبي ﷺ رجلاً يقرأ من الليل في

المسجد، فقال: يرحمه الله، لقد أذكرني كذا وكذا، آية، أَسْقَطْتُهَا، أو كنت أنسيتها من

سورة كذا وكذا» وكان النبي ﷺ قد أسقط آية في الصلاة، فسأله أبي بن كعب:

أَنْسِخْتَ؟ فقال: «نَسِيتُهَا»^(٣).

ثم بين سبحانه الحكمة في عدم نسيان الرسول ﷺ لما يقرأ، واستثناء ما يُنسخ تلاوته

وحكمه، وما يعتري البشر من النسيان العارض، كما قال ﷺ من حديث ابن مسعود ؓ

«إنما أنا بشر مثلكم أنسى كما تنسون، فإذا نسيت فذكروني»^(٤).

ولكن هذا النسيان لا يحصل بالنسبة لتبليغ الرسالة بحالة من الأحوال، ولا بإسقاط

شيء من الوحي، حيث يتبين جل شأنه أنه يعلم الجهر وما يخفى، وأن ما يقرأه الرسول

ﷺ من القرآن جهراً، فالله يعلمه، وما يُسقطه بسبب نَسْخِهِ فهو من قبيل الخفي الذي لا

(١) النسائي في السنن الكبرى (٧١١٣، ٧١١٥، ٧١١٨)، وهو عن أبي بن كعب في الطيالسي (٥٤٠)، وعبد الرزاق

(٥٩٩٠)، والمسند (٢١٢٠٧) بإسناد فيه عاصم بن بهدلة، وفي البخاري عن ابن عباس (٧٣٢٣، ٦٨٢٩)،

ومسلم (١٦٩١)، وأبو داود (٤٤١٨)، وابن ماجة (٢٥٥٣)، والترمذي (١٤٣٢).

(٢) من حديث عمر في المسند (٢٢١)، وعن أبي هريرة (١٠٨١٣) بإسناد صحيح على شرط الشيخين، ورواه

البخاري (٦٧٦٨)، ومسلم (٦٢)، والطحاوي في شرح مشكل الآثار (٨٥٣).

(٣) صحيح البخاري برقم (٢٦٥٥، ٥٠٣٧، ٥٠٤٢، ٦٣٣٥)، وصحيح مسلم (٧٨٨).

(٤) من حديث ابن مسعود في البخاري (٤٠١، ٤٠٤، ١٢٢٦، ٦٦٧١، ٧٢٤٩)، ومسلم (٥٧٢).

يعلمه إلا الله أيضاً.

﴿إِنَّهُ يَعْلَمُ الْجَهْرَ﴾ من القول والعمل ﴿وَمَا يَخْفَى﴾ منهما، أي يعلم السر والعلن، فلا تخفى عليه خافية في الأرض ولا في السماء.

وفي هذه الآية ضمان من الله تعالى بحفظ القرآن من النقص والزيادة، وفيها بيان أن الله تعالى يشرع لعباده ما يصلح شؤونهم في الدنيا والآخرة.

البُشْرَى الثَّانِيَّةُ: تَيْسِيرُ الشَّرِيعَةِ وَمَظَاهِرُهُ فِي الدِّينِ وَالدُّنْيَا

٨- ﴿وَيَسِّرْكَ لِلْيُسْرَى﴾^(١)

أما الشق الآخر المتعلق بجانب الوحي والرسالة في السورة، فهو بيان أن الله تعالى قد أنزل على رسوله كتاباً خالداً، وبعثه بالحنيفية السمحة، ويسره لليسرى في جميع أموره، وجعل شرعه ودينه يسراً، فقال سبحانه ﴿وَيَسِّرْكَ لِلْيُسْرَى﴾ أي نُهَوِّنْ عَلَيْكَ عَمَلَ الْجَنَّةِ، ونيسره لك، ونوفِّقك إلى جميع أمورك في الدين والدنيا، ومن ذلك إعانتة ﷺ في تلقي أعباء الرسالة وتبليغها للناس، وجعل دينه يسراً لا عسر فيه، سمحاً، مستقيماً، وسطاً، لا عوج فيه ولا حرج، فالإسلام هو أيسر وأسهل الشرائع السماوية.

وقد وعد الله تعالى أن يوفق أهل الفطرة السليمة لأسباب السعادة، فيقرب لهم البعيد، ويسهل عليهم العسير، ويسر لهم الخير في الدنيا والآخرة، والآية اشتملت على تيسيرين: أحدهما: تيسير ما كلف الله به أمته، وجعله سهلاً لا مشقة فيه، مع وفائه بالمقصود. وثانيهما: التيسير على الأمة في القيام بما كلفت به.

وفي الحديث عن علي عليه السلام أن رسول الله ﷺ قال: «اعملوا فكل ميسر لما خلق له»^(٢). ومن ذلك قوله ﷺ من حديث أبي هريرة عليه السلام «فإنما بعثتم ميسرين لا معسرين»^(٣).

(١) قرأ أبو جعفر بضم السين من ﴿وَيَسِّرْكَ﴾ والباقون بإسكانها.

(٢) رواه البخاري (٦٦٠٥، ١٣٦٢)، ومسلم (٢٦٤٧).

(٣) من حديث أبي هريرة عليه السلام في البخاري (٦١٢٨، ٢٢٠).

وفي الحديث عن عائشة رضي الله عنها أن النبي ﷺ «ما خُيّر بين أمرين إلا اختار أيسرهما ما لم يكن فيه إثمًا، فإن كان فيه إثم كان أبعد الناس منه»^(١).

ويوضح هذا قوله تعالى: ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى وَاتَّقَى ۖ وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى ۖ فَسَنِيَرُهُ لِلْعُسْرَى ۖ﴾ (٥) ﴿وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ وَاسْتَغْنَى ۖ وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَى ۖ فَسَنِيَرُهُ لِلْعُسْرَى ۖ﴾ [الليل: ٥-١٠] ومن مظاهر التيسير في أحوال الدنيا:

١- أن النبي ﷺ كان إذا خلا في بيته، كان ألين الناس، بساماً ضحاكاً. وكان يخصف نعله، ويرقع ثوبه، ويكون في خدمة أهله. وكانت الأمة تأخذ بيده فتنتلق به حيث شاءت.

٢- وكان ﷺ لا يتكلف في ملابسه، ويخص المجامع والأعياد بفاخر الثياب، ويلبس عمامة، يُزجي لها ذؤابة بين كتفيه أحياناً، وأحياناً يترك هذه الذؤابة، ويلبس ما تيسر من الصوف أو القطن أو الكتان وغير ذلك.

٣- وفي طعامه كان ﷺ لا يَزِدُّ موجوداً، ولا يتكلف مفقوداً، وما عاب طعاماً قط، فإن عافت نفسه شيئاً تركه من غير أن يُتَقَرَّ منه غيره، وكان يحب أكل الحلوى والعسل والتمر والرطب وشرب اللبن ونحو ذلك.

٤- وربما نام على الفراش، أو على الحصير، أو على التَّطْع، وهو فراش من جلد، أو نام على الأرض، أو على السرير.

٥- وكان النبي ﷺ سمحاً إذا باع، سمحاً إذا اشترى، سمحاً إذا اقتضى^(٢).

ويقول ﷺ: «إن من أحبكم إليّ وأقربكم مني مجلساً يوم القيامة: أحاسنهم أخلاقاً، الموطؤون أكنافاً، الذين يالفون ويؤلفون»^(٣).

(١) رواه البخاري (٦٧٨٦، ٣٥٦٠)، ومسلم (٢٣٢٧).

(٢) انظر صحيح البخاري برقم (٢٠٧٦) بلفظ «رحم الله رجلاً سمحاً» من حديث جابر، وفي المسند عن عثمان برقم (٤١٠).

(٣) ينظر حديث جابر في الترمذي (٢٠١٩) بإسناد حسن، وحديث أبي ثعلبة في المسند (١٩٣/٤)، وابن حبان (١٩١٧)، وحديث أبي هريرة في المسند (٣٦٩/٢)، وعبد الله بن عمرو (٦٥٠٤) بنحوه بإسناد صحيح على شرط الشيخين، وأبي بن كعب (٦٧٦٧).

وكان ﷺ يعالج الناس بما يصلح شأنهم، فمن كان همه المال أعطاه حتى يَرْضَى، ومن كان همه الفخر حقق له غرضه كقوله ﷺ: «ومن دخل دار أبي سفيان فهو آمن» علماً بأنه لا حاجة لأحد في دخول دار أبي سفيان، لأن من دخل المسجد فهو آمن، ومن دخل داره وأغلق بابه فهو آمن^(١).

أما التيسير في الدين فمن مظاهره:

قوله ﷺ فيما يرويه أنس ﷺ «إن هذا الدين متين، فأوغل فيه برفق»^(٢).

وقوله ﷺ فيما يرويه أبو هريرة ﷺ «إن الدين يسر، ولن يشاد الدين أحد إلا غلبه»^(٣).

وقوله ﷺ في حديث أبي هريرة ﷺ «إذا أمرتكم بشيء فأتوا منه ما استطعتم وإذا نهيتكم عن شيء فانتهوا»^(٤).

وعن بُريدة الأسلمي ﷺ قال: خرجت ذات يوم لحاجة، فإذا أنا بالنبي ﷺ يمشي بين يديّ، فأخذ بيدي، فانطلقنا نمشي جميعاً، فإذا نحن بين أيدينا برجل يصلي، يكثر الركوع والسجود، فقال النبي ﷺ: «أتراه يُرائي؟» فقلت: الله ورسوله أعلم، فترك يدي من يده، ثم جمع بين يديه، فجعل يَصُوبُئُهما ويرفعُهما ويقول: «عليكم هَذاً قاصداً، عليكم هَذاً قاصداً، عليكم هَذاً قاصداً، فإنه من يُشَادَّ هذا الدين غلبه»^(٥).

ومن الناس من يجعل نفسه أحرص على شرع الله تعالى من رسول الله ﷺ. ومنهم من يجعل نفسه أغير من الله تعالى على شرعه، وهذا تنطع وغُلُو، وتنفير

(١) من حديث النبي ﷺ يوم فتح مكة في صحيح مسلم (١٧٨٠)، عن أبي هريرة.

(٢) من حديث حسن بشواهد كما في المسند (١٣٠٥٢)، وأخرجه الضياء في المختارة (٢١١٥).

(٣) البخاري (٣٩)، ومسلم (٢٨١٦)، وانظر في البخاري (٧٢٣٥، ٦٤٦٣، ٥٦٧٣)، والنسائي (٥٠٤٩)، والبيهقي في الشعب (٣٨٨١).

(٤) ينظر: المسند (١٠٦٠٧، ٩٧٨٠، ٨١٤٤، ٧٥٠١) وإسناده صحيح، وأخرجه الطبراني في الدعاء (١٠٩)، والبخاري (٦٤١٠)، ومسلم (٢٦٧٧)، والترمذي (٣٥٠٨).

(٥) قال محققو المسند (٢٢٩٦٣): إسناده صحيح، وأخرجه الحاكم من طريق عبد الله بن أحمد (٣١٢/١)، وابن خزيمة (١١٧٩)، والبيهقي (٩٣٦) وغيرهم.

لنّاس من دين الله، ومُخالفةً لقول النبي ﷺ «يسروا ولا تعسروا وبشروا ولا تنفروا»^(١).
وقد وصف الله تعالى هذه الرسالة بقوله: ﴿لَا يَكْلَفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ [البقرة: ٢٨٦].
وقوله: ﴿وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ﴾ [الحج: ٧٨].
وقوله: ﴿مَا يَرِيدُ اللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُمْ مِنْ حَرَجٍ﴾ [المائدة: ٦].
وقوله: ﴿فَمَنْ أَضْطَرَّ فِي مَخْصَصَةٍ غَيْرِ مُتَجَانِفٍ لِإِثْمٍ فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [المائدة: ٣].
وهكذا فقد بشر الله تعالى رسوله ﷺ ببشارتين عظيمتين:
أولاهما: أن الله تعالى سيلهمه الذاكرة الواعية التي تحفظ ما يوحى إليه به، وهذا
معنى ﴿سَقَرْتُكَ فَلَا تَنْسَى﴾ [الأعلى: ٦].

وثانيهما: توفيق النبي ﷺ وهدايته إلى الشريعة السمحة الميسرة، وإلى الأخذ بما هو
أرفق وأيسر في كل أحواله، وهذا معنى ﴿وَيُسِّرْكَ لِلْيُسْرَى﴾.

يَنْتَفِعُ بِالمَوْعِظَةِ صَاحِبُ القَلْبِ النَّحِي

١٠، ٩ - ﴿فَذَكِّرْ إِنْ نَفَعَتِ الذِّكْرَى ۝ سِيذَرُكَ مَنْ يَخْشَى﴾

وبعد أن تكفل الله تعالى للرسول ﷺ بحفظ الوحي، ودفع النسيان عنه، وبشره بتسيير
أمور الدين عليه وعلى الأمة، أمره بالمداومة على البلاغ بتذكير الناس ووعظهم،
والاستمرار على ذلك، شخذاً للهمة، وتجديداً للنشاط.

﴿فَذَكِّرْ﴾ بشرع الله وآياته، وعظ - يا رسولنا - بالقرآن، من ينتفع بالموعظة، واتباع في
ذلك: أسلوب الحكمة والموعظة الحسنة، ومجادلة أهل الكتاب والتي هي أحسن،
واهتم في دعوتك بمن تتوقع منهم قبول الدعوة، وأعرض عن الجاحدين المكابرين بعد
الاجتهاد في تذكيرهم وإقامة الحجة عليهم ﴿فَذَكِّرْ بِالْقُرْآنِ مَنْ يَخَافُ وَعِيدِ﴾ [ق: ٤٥].

ذكّر مادامت الذكرى مقبولة، والموعظة مسموعة، سواء أحصل من الذكرى جميع
المقصود أو بعضه، فإن كانت الذكرى تزيد في الشر أو تنقص من الخير، فلا داعي لها.

(١) من حديث أنس بن مالك في البخاري (٦٩، ٦١٢٥)، ومسلم (١٧٣٤).

وفي قوله تعالى: ﴿إِنْ نَفَسَ الذِّكْرَى﴾ حث وتحريض للنبي ﷺ ولجميع الدعاة إلى الله عز وجل على تبليغ الدعوة، والمداومة على التذكير بها.

فلفظ ﴿إِنْ﴾ ليس شرطاً، وإنما معناه الذم لمن لم ينتفع بالذكرى، فإن لم ينتفع بها جميع الناس، فسيستفيع به بعضهم، فلا تخلو الأرض ممن يستمع للحق ويستجيب له. ففرعون وأبوجهل وأبولهب وهامان وقارون ونحوهم مدعوون للإيمان، والله تعالى يعلم أنهم لن يؤمنوا، لكن النبي ﷺ مأمور أن يدعو الناس جميعاً، وسيكشف الواقع، ويفرق بين أمة الدعوة وأمة الإجابة.

قال علي عليه السلام: ما أنت بمحدث قوماً حديثاً لا تبلغه عقولهم إلا كان فتنة لبعضهم. وقال: حدثوا الناس بما يعرفون، أتحبون أن يكذب الله ورسوله^(١).

ثم يتن سبحانه أنه سينتفع بالتذكير ويتعظ بالقرآن صاحب القلب الحي، الذي يخشى الله ويخاف عقابه ويرجو ثوابه ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا﴾ [الأنفال: ٢] ﴿ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ﴾ [البقرة: ٢] وغير المتقين لا يقبلون الهدى، فيستوى عندهم الإنذار وعدمه.

فالناس بالنسبة للذكرى على قسمين: متفعون تخشع قلوبهم، فيسعون في الخير ويتتهون عن الشر ﴿سَيَذَكَّرُ مَنْ يَخْشَى﴾ وغير متفعين بالذكرى، يزدادون شقاء في الدنيا وعذاباً في الآخرة ﴿وَيَنجَنِيهَا أَلسَفَى﴾ أي يتجنب الانتفاع بالذكرى أهل الشقاء.

مَصِيرُ مَنْ عَطَلَ عَقْلَهُ وَحَوَّاسَهُ عَنِ الْإِنْتِفَاعِ بِهِدْيِ الْإِسْلَامِ

١١-١٣ - ﴿وَيَنجَنِيهَا أَلسَفَى﴾ ⑪ الَّذِي يَصْلَى النَّارَ الْكُبْرَى ⑫ ثُمَّ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَى ﴿

أي فيبتعد عن هذه الذكرى، ولا ينتفع بها، الذي لا يخشى ربه ولا يخاف عقابه، بل يرفضها ولا يقبلها، ومعنى ذلك أن الناس على ثلاثة أقسام: منهم المقطوع بنفعه من الدعوة، ومنهم المقطوع بعدم نفعه منها، ومنهم المحتمل.

(١) تفسير ابن كثير (٣٨٠/٨)، والأثر في البخاري (١٢٧).

ومحل التذكير: هو الصنف الأول والثالث، أما الصنف الثاني فقد وصفه الله تعالى بالأشقى، لأنه شديد البُعد عن النصيحة، شديد الشقاوة والتعاسة، يأبى الإصرار على الكفر والعناد، وليس لخشية الله تعالى محلاً في قلبه.

وهذا الأشقى المصّر على الكفر حتى الموت، سيدخل يوم القيامة أشد طبقات النار سعيراً، في أسفل الدرجات، يُقاسى حرها ويخلد فيها، وهى نار موقدة تطلع على القلوب والأفئدة.

قال الحسن: النار الكبرى، نار الآخرة، والنار الصغرى، نار الدنيا^(١).

وقيل: وُصِفَتْ بالكبرى: للتهويل والإنذار، بالنسبة للمُصِرِّين على كُفْرهم.

ثم إن أهل النار الكبرى مخلدون فيها دائماً، لا يموتون فيستريحون، ولا يخفف عنهم من عذابها، ولا يزول عنهم الإحساس، ولا يحيون حياة تنفعهم.

﴿لَا يَفْضَنَ عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ مِنْ عَذَابِهَا﴾ [فاطر: ٣٦].

﴿كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُمْ بَدَّلْنَاهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا الْعَذَابَ﴾ [النساء: ٥٦].

إنه عذاب دائم من غير راحة ولا استراحة حتى إنهم يتمنون الموت فلا يحصل لهم.

وهم لا يخرجون من النار أبداً ﴿كُلَّمَا أَرَادُوا أَنْ يَخْرُجُوا مِنْهَا مِنْ غَمٍّ أُعِيدُوا فِيهَا وَذُوقُوا

عَذَابَ الْحَرِيقِ﴾ [الحج: ٢٢] وخازن النار لا يستجيب لاستغاثتهم:

﴿وَنَادُوا بِمَلِكِكُمْ لِيَقْضِيَ عَلَيْهِمُ تَارِكًا قَالَ إِنَّكُمْ مَرْكُوثُونَ﴾ [الزخرف: ٧٧].

ومعنى ذلك أن احتراق الكفار في النار لا يبلغ درجة الإهلاك، بل تبقى معه حياة

وإحساس ﴿إِنَّهُ مِنْ يَأْتِ رَبِّهُ بُحْرِمًا فَإِنَّ لَهُ جَهَنَّمَ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَى﴾ [طه: ٧٤].

﴿وَيَأْتِيهِ الْمَوْتُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ وَمَا هُوَ بِمَيِّتٍ﴾ [إبراهيم: ١٧].

وعن أبي سعيد الخدرى رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «إن أهل النار الذين لا يريد الله

إخراجهم، لا يموتون فيها ولا يحيون، وإن أهل النار الذين يريد الله إخراجهم، يميتهم فيها إماتة، حتى يصيروا فحماً، ثم يخرجون ضبائر فيلقون على أنهار الجنة، أو يُرْشُّ

(١) البحر المحيط (٤٥٩/٨).

عليهم من أنهار الجنة، فينبثون كما تنبت الحبة في حميل السيل»^(١).

ثَلَاثُ خَصَالٍ لِأَهْلِ السَّعَادَةِ

١٥، ١٤ - ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَنْ تَزَكَّى﴾ ① وَذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِ فَصَلَّى ﴿﴾

قد فاز وربح من طهر نفسه بالتوحيد، ونقاها من الشرك والظلم ومساوئ الأخلاق، وذكر الله تعالى في كل أحيانه، وفي مقدمة هذا الذكر أداء الصلاة المفروضة والنافلة، وأخرج زكاة ماله وتصدق به في وجوه الخير، ومن ذلك صلاة العيد وزكاة الفطر، وفي كل هذا ثلاث خصال:

الخصلة الأولى: تزكية النفس بالعقيدة الصحيحة:

وفي مقابل هذا الشقاء الدائم - السابق ذكره بالنسبة لأهل الجحيم - يفوز بالجنة والنعيم من طهر نفسه بالإيمان، وأخلص عمله للرحمن، وزكّى نفسه من الأخلاق الرديئة، لأنه قد جمع أنواع الخير والفلاح.

ونظير هذا قوله تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا﴾ ① وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا ﴿﴾ [الشمس: ٩ - ١٠] فقوله تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا﴾ تشمل أصول الإيمان، من تزكية النفس بالتوحيد وطهارتها من الشرك: والاستعداد للعمل الصالح.

كما تشمل زكاة الأموال، وهو قول ابن عباس وعطاء وعكرمة وقتادة.

وجاء عن أبي سعيد الخدري ؓ ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا﴾ قال: أعطى صدقة الفطر^(٢).

وقال أبو العالية: إن أهل المدينة لا يزون صدقة أفضل منها، ومن سقاية الماء^(٣).

قال ابن كثير: وكذا روينا عن أمير المؤمنين عمر بن عبد العزيز أنه كان يأمر الناس

(١) المسند (١١/٣) وهو حديث صحيح برقم (١١١٥١)، وصحيح مسلم برقم (١٨٥)، وأخرجه عبد بن

حميد في المنتخب (٨٦٣)، وابن خزيمة في التوحيد (ص ٢٨٧)، وابن حبان (٧٤٣٢).

(٢) تفسير الخازن (٤/٣٧٠).

(٣) تفسير ابن كثير (٨/٣٨١).

بإخراج صدقة الفطر، ويتلوا هذه الآية ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَنْ تَزَكَّى﴾ ﴿وَذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِ فَصَلَّى﴾.

الخصلة الثانية: استحضار عظمة الله تعالى بذكره وتسيحه:

أي قد أفلح وفاز ونجا من انتفع بالذكرى والموعظة، فطهر نفسه من العقائد الباطلة، وزكّاها بالتوحيد الخالص، والعقيدة الحقّة، وطهرها من سوء الأخلاق وفساد الأعمال والأقوال.

الخصلة الثالثة: الإقبال على الله تعالى بالطاعة والعبادة:

وذلك بأداء الصلوات الخمس التي فرضها الله عليه، وإضافة ما استطاع إليها من النوافل، وامتنال أوامر الله تعالى واجتناب نواهيه، وقد وردت آثار تخص بالذكر صلاة العيد وزكاة الفطر.

وذلك أنه بعد إخراج زكاة الفطر، يُخْرَج المسلم إلى صلاة العيد، مهللاً مكبراً، موحداً ربّه، عاملاً بما يُرضيه، ابتغاء مرضاة الله تعالى، وامتنالاً لشرعه.

قال أبو سعيد الخدري رضي الله عنه ﴿وَذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِ فَصَلَّى﴾ أي خرج إلى العيد فصلّى.

وكان ابن مسعود رضي الله عنه يقول: رحم الله امرأ تصدّق ثم صلّى، ثم يقرأ هذه الآية.

وقال نافع: كان ابن عمر رضي الله عنهما إذا صلّى الغداة، يوم صلاة العيد، قال: يا نافع، أَخْرَجْتَ الصَّدَقَةَ؟ فَإِنْ قُلْتُ: نعم، مضى إلى المصلّى، وإن قُلْتُ: لا، قال: الآن فأخرج، فإنما هذه الآية في هذه.

ولهذا: قيل: إن هاتين الآيتين نزلتا بالمدينة، وقال بعضهم: إن نزولهما سابق على حكمهما.

كما نزل قوله تعالى: ﴿سَبِّهْرُمُ الْجَمْعُ وَيَوْمَئِذٍ نَبَأٌ﴾ [القمر: ٤٥] قال عمر: كنت لا أدري،

أي جمع سبهزم، فلما كان يوم بدر، رأيت النبي صلى الله عليه وسلم يثب في الدرع ويقول: ﴿سَبِّهْرُمُ الْجَمْعُ وَيَوْمَئِذٍ نَبَأٌ﴾.

ومعنى ذلك أن هزيمتهم كانت في علم الله تعالى فأخبر بها مسبقاً.

ولهذا قيل: أراد بالذكر: تكبيرات العيد، وبالصلاة صلاة العيد.

قال أبو سعيد وابن المسيب وابن عمر: هذه الآية في صبيحة يوم الفطر.

ومعنى ﴿تَزَكَّى﴾ أدى زكاة الفطر، ومعنى ﴿وَذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِ﴾ أي ذكر الله تعالى وهو في

طريقه إلى أن يخرج الإمام إلى صلاة العيد^(١).

وهكذا رتب الله تعالى هذه الخصال الثلاث وهي:

تزكية النفس، وذكر الله تعالى، ثم أداء الصلاة، رتبها ترتيباً حسناً، حيث بدأ أولاً بتطهير النفس من العقائد الباطلة، وإزالة العوائق من طريق الإيمان الصحيح.

ثم ثنى باستحضار عظمة الله تعالى ومعرفة أسمائه وصفاته عن طريق ذكر اسم الله تعالى رجاء رحمته وخشية عذابه.

ثم ثلث بالإقبال على الله تعالى بالطاعة والعبادة وأهمها أداء الصلاة في أوقاتها.

التَّنَافُسُ عَلَى حُظُوظِ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ

١٦، ١٧ - ﴿بَلْ تُؤْثِرُونَ^(٢) الْحَيَاةَ الدُّنْيَا^(٣) وَالْآخِرَةَ خَيْرٌ وَأَبْقَى

وبعد أن ذكر سبحانه أهل الشقاء وأهل السعادة، بين تعالى أن التنافس على حظوظ الدنيا والآخرة، هو سبب السعادة أو الشقاء، فمن آثر الدنيا على الآخرة، فقد خاب وخسر، ومن آثر الآخرة على الدنيا فقد فاز وربح، والمؤمن يأخذ حظه المشروع من الدنيا ويترغّب فيما عند الله أكثر.

كما قال تعالى: ﴿وَأَتَّبِعْ فِيمَا أَمَرَكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ وَلَا تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا﴾ [القصاص: ٧٧]. وقال سبحانه: ﴿فَإِذَا فَرَغْتَ فَانصَبْ^(٤) وَإِلَىٰ رَبِّكَ فَارْغَبْ

فالفغلة، وإيثار الدنيا على الآخرة، والإعراض عن ذكر الله تعالى هو أساس كل بلوى، إنكم تفضلون زينة الحياة الدنيا على نعيم الآخرة، وتختارون النعيم الزائل على النعيم الباقي.

عن عائشة رضي الله عنها أن رسول الله ﷺ قال: «الدنيا دار من لا دار له، ومال من لا

(١) تفسير ابن عطية (٤٧٠/٥).

(٢) قرأ أبو عمرو بياء الغيب في ﴿تُؤْثِرُونَ﴾ والباقون بقاء الخطاب، وأبدل الهمزة ياء ورش وأبو جعفر وأبو عمرو بخلف عنه، وحمزة عند الوقف، وللأزرق ترقيق الراء وتفخيمها.

مال له، ولها يجمع من لاعقل له»^(١).

أما الدار الآخرة وما فيها من النعيم المقيم فهي خير من الدنيا وأبقى من حطامها، فالدنيا متاعها زائل، والآخرة خيرها باق قال تعالى: ﴿مَاعِنْدَكَ يَنْفَدُ وَمَاعِنْدَ اللَّهِ بَاقٍ﴾ [النحل: ٩٦]. وقال سبحانه: ﴿قُلْ مَنْعُ الدُّنْيَا قَلِيلٌ وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ لِمَنِ اتَّقَى﴾ [النساء: ٧٧] وقال جل شأنه ﴿لَا يَغْرَنَكَ تَقَلُّبُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي الْاِلْدَادِ﴾ (٣٣) ﴿مَنْعٌ قَلِيلٌ ثُمَّ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمِهَادُ﴾ [آل عمران: ١٩٦ - ١٩٧]. فالدنيا فانية، والآخرة باقية، والباقي خير من الفاني، والعاقل يُؤثر ما يبقى على ما يفنى. أخرج ابن جرير بسنده عن عرفة الثقفي قال: استقرأت ابن مسعود، أي طلبت منه أن يقرأ سورة ﴿سَبِّحْ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى﴾ [الأعلى: ١] فلما بلغ ﴿بَلْ تُؤْثِرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا﴾ [الأعلى: ١٦] ترك القراءة، وأقبل على أصحابه، وقال: آثرنا الدنيا على الآخرة! فسكت القوم، فقال: آثرنا الدنيا، لأننا رأينا زينتها ونساءها وطعامها وشرابها، وزويت عنا الآخرة، فاخترنا هذا العاجل، وتركنا الآجل^(٢).

وعن أبي موسى الأشعري ؓ أن رسول الله ﷺ قال: «من أحب دنياه أضر بآخرته، ومن أحب آخرته أضر بدنياه، فأثروا ما يبقى على ما يفنى»^(٣).

وقد وصف الله تعالى الدنيا في قوله: ﴿وَمَا هَذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَهُوٌّ وَلَعِبٌ﴾ [العنكبوت: ٦٤] روى القرطبي عن مالك بن دينار قوله: لو كانت الدنيا من ذهب يفنى، والآخرة من خزف يبقى، لكان الواجب أن يؤثر خزف يبقى، على ذهب يفنى، فكيف والآخرة من

(١) المسند ٧١/٦ (٢٤٤١٩)، قال الهيثمي في مجمع الزوائد: (١٨٨/١٠) رجاله رجال الصحيح غير زويد وهو ثقة، والبيهقي (١٠٦٣٨)، وقد ضعف إسناده محققو المسند، ورواه ابن أبي الدنيا في (ذم الدنيا) (١٨٢)، والبيهقي في الشعب (١٠٦٣٨).

(٢) تفسير الطبري (١٠٠/٣٠)، والطبراني (٩١٤٧)، والبيهقي (١٠٦٤٥)، قال الهيثمي: فيه عطاء بن السائب وقد اختلط وبقي رجاله ثقات، المجمع (٢٣٦/١٠).

(٣) المسند (٤١٢/٤) (١٩٦٩٧)، وصحيح ابن حبان برقم (٢٤٧٣) موارد الظمان من طريق يعقوب بن عبد الرحمن عن عمرو بن أبي عمرو، والبيهقي في الشعب (١٠٣٣٧)، وفي السنن (٣٧٠/٣)، قال محققو المسند: حسن لغيره وهذا إسناد ضعيف.

ذهب يبقى، والدنيا من خرف يفنى؟

وقد أجمل الله ألوان المتاع في الدنيا، وبين أنه يتمثل في: النساء والبنين، والمال والخيول، والأنعام، والأرض ﴿زَيْنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنْطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالْأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ذَلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاللَّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الْمَتَابِ﴾ [عمران: ١٤].

فمتاع الأنعام والأرض، لفئة من الناس، هم أهل الزراعة، وهم طائفة كبيرة من الخلق. والخيول متاع لطائفة أخرى من الناس مترفة.

وحب النساء يولع به طائفة أخرى، وهكذا المال والذرية والجاه..

وبعد ذكر شهوات الدنيا هذه قال تعالى: ﴿قُلْ أَؤْتِيكُمْ بِخَيْرٍ مِنْ ذَلِكَ لِّدِينٍ اتَّقُوا عِنْدَ رَبِّهِمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَأَزْوَاجٌ مُطَهَّرَةٌ وَرِضْوَانٌ مِنَ اللَّهِ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ﴾ [آل عمران: ١٥].

فأسباب إيثار الدنيا هو الشهوة وقسوة القلب، وطول الأمد، والتسويق هو أساس الغفلة وإيثار الدنيا كما قال تعالى: ﴿زَيْنَ لِلدِّينِ كَفَرُوا الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ [البقرة: ٢١٢]. وكما قال سبحانه: ﴿أَمْأَالٌ وَأَبْنُونَ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ [الكهف: ٤٦].

والخشية والتذكر، هما أساس إيثار الآخرة، وهى دار خلد وبقاء وصفاء، والدنيا دار فناء وأكدار، والعاقل لا يبيع لذة ساعة بسعادة دائمة، ولا يختار الأرد أو يترك الأجود.

وقد وصف الله الداء والدواء معاً في قوله تعالى: ﴿اعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهُمْ زِينَةٌ وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ الْكُفَّارَ نَبَأُهُ ثُمَّ يَهِيجُ فِتْرَتَهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَكُونُ حُطَمًا وَفِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٌ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ ﴿٢٠﴾ سَابِقُوا إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أُعِدَّتْ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾ [الحديد: ٢٠ - ٢١].

فبين الله تعالى أن الداء هو دار الغرور، وأن الدواء هو المسابقة إلى الخيرات.

جُذُورُ الْإِسْلَامِ فِي الرِّسَالَاتِ السَّابِقَةِ

١٨، ١٩ - ﴿إِنَّ هَذَا لَفِي الصُّحُفِ الْأُولَى ۝ صُحُفِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى﴾

وفي ختام السورة بين سبحانه وتعالى أن دعوة الإسلام عريقة في القدم، ممتدة الجذور في جميع الأزمنة والأمكنة ﴿إِنَّ هَذَا﴾ المذكور لكم في هذه السورة من الأوامر الحسنة والخصال الحميدة ﴿لَفِي الصُّحُفِ الْأُولَى﴾ وفسرت هذه الصحف الأولى بأنها نزلت على إبراهيم وموسى عليهما السلام.

والضمير في ﴿هَذَا﴾ إما أن يعود على كل ما جاء في السورة، كما قال أبو العالية وغيره. واختار ابن جرير وغيره أنه يعود على الآيات الأربع الأخيرة، وهي ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَنْ تَزَكَّى﴾ [الأعلى: ١٤] إلى ﴿وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَى﴾ [الأعلى: ١٧] قال: ومضمون هذا الكلام في الصحف الأولى، صحف إبراهيم وموسى^(١).

وعن عكرمة عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: لما نزلت ﴿سَبِّحْ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى﴾ قال: كلها في صحف إبراهيم وموسى. يعني ﴿أَمْ لَمْ يُبْنَأْ بِمَا فِي صُحُفِ مُوسَى ۝ وَإِبْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَّى﴾ [النجم: ٣٦ - ٣٧] وما بعدهما.

وقد ذكر الله عز وجل أشياء من صحف موسى، وصحف إبراهيم في ثماني عشرة آية من سورة النجم من قوله تعالى: ﴿أَمْ لَمْ يُبْنَأْ بِمَا فِي صُحُفِ مُوسَى﴾ [النجم: ٣٦] إلى قوله: ﴿فَقَسَّهَا مَا غَشَّى﴾ [النجم: ٥٤].

والمعنى: أن هذه المعاني المذكورة في جميع صحف الأنبياء، وفي صحف إبراهيم وموسى على وجه الخصوص، فجميع الشرائع متفقة عليها.

جاء في الأثر عن رزين^(٢) أن أباذر ؓ قال: دخلت المسجد، فقال رسول الله ﷺ: «إن للمسجد تحية» فقلت: وما تحيته يا رسول الله، قال: «ركعتان تركعهما» قلت: يا رسول

(١) تفسير الطبري (١٠١/٣٠).

(٢) كما في جامع الأصول.

الله، هل أنزل الله عليك شيئاً مما كان في صحف إبراهيم وموسى، قال: «يا أباذر، اقرأ ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَنْ تَزَكَّى﴾ الخ السورة.

قلت: يا رسول الله، فما كانت صحف موسى؟

قال: «كانت عبراً كلها: عجبٌ لمن أيقن بالموت كيف يفرح؟ عجبٌ لمن أيقن بالنار كيف يضحك؟ عجبٌ لمن رأى الدنيا وتقلبها بأهلها، كيف يطمئن؟ عجبٌ لمن أيقن بالقدر ثم ينصب؟ عجبٌ لمن أيقن بالحساب ثم لا يعمل»^(١).

ونظير هذا قول النبي ﷺ من حديث أبي مسعود الأنصاري: «إن مما أدرك الناس من كلام النبوة الأولى إذا لم تستح فاصنع ما شئت»^(٢).

وعن أبي ذر رضي الله عنه قال: قلت: يا رسول الله، كم أنزل الله من كتاب؟ قال: «مئة كتاب، وأربعة كتب، على آدم عشر صحف، وعلى شيث خمسين صحيفة، وعلى إدريس ثلاثين صحيفة، وعلى إبراهيم عشر صحائف، والتوراة، والإنجيل، والزبور، والفرقان»^(٣).

وفى حديث واثلة بن الأسقع رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال أنزلت صحف إبراهيم في ثلاث عشر مضين من رمضان، وأنزل الإنجيل على عيسى في ثلاث عشر ليلة مضت من رمضان وأنزل زبور داود في ثمانى عشرة ليلة مضت من رمضان، وأنزل الفرقان على محمد ﷺ في الرابعة والعشرين لست بقين^(٤).

تم تفسير (سورة الأعلى) والله الحمد والمنة

(١) ابن عساكر مطولا (٢٣/٢٧٦ - ٢٧٨).

(٢) من حديث أبي مسعود الأنصاري في البخاري (٣٤٨٤، ٦١٢٠)، والمسند (١٧٠٩٠، ١٧١٠٨) بإسناد صحيح على شرط الشيخين، وعن حذيفة (٢٣٢٥٤)، والبخاري (٢٨٣٥)، والطيالسي (٦٢١)، وعبد الرزاق في المصنف (٢٠١٤٩).

(٣) أخرجه عبد بن حيمد وابن مردويه وابن عساكر مطولاً (٢٣/٢٧٦ - ٢٧٨)، وهو في الدر (١٥/٣٧٨).

(٤) صححه الألباني في صحيح الجامع (١٥٠٩)، والسلسلة الصحيحة (١٥٧٥)، وصححه البنا عن الإمام أحمد في الفتح الرباني (١٨/٤٦)، وأخرجه الطبراني والبيهقي في الشعب وابن عساكر وغيرهم، وانظر مقدمة سورة القدر.

تَفْسِيرُ سُورَةِ الْغَاشِيَةِ (٨٨)

مُقَدِّمَةُ السُّورَةِ

- ١- (سورة الغاشية) هي السورة الثامنة والثمانون في ترتيب المصحف، والسابعة والستون في ترتيب النزول، نزلت بعد (سورة الذاريات) وقبل (سورة الكهف). وهي ست وعشرون آية باتفاق، واثنان وتسعون كلمة، وثلاث مئة وإحدى وثمانون حرفاً.
 - ٢- وشهرتها (سورة الغاشية) كما في حديث النعمان بن بشير رضي الله عنه أن النبي ﷺ كان يقرأ بـ ﴿سَبِّحْ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى﴾ والغاشية، في صلاة العيد ويوم الجمعة^(١).
 - وجاء تسميتها بـ (سورة هل أتاك حديث الغاشية) كما في رواية الموطأ وغيره أن الضحاك بن قيس سأل النعمان بن بشير رضي الله عنه: بم كان رسول الله ﷺ يقرأ في الجمعة مع سورة الجمعة؟ قال: ﴿هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ الْغَاشِيَةِ﴾^(٢).
 - وعَنُون لها ابن عطية في تفسيره بـ (سورة هل أتاك) اختصاراً.
 - فهذه ثلاثة أسماء أشهرها الأول.
 - ٣- وهي سورة مكية باتفاق.
 - ٤- وقد اشتملت السورة على موضوعين:
 - الموضوع الأول: الحديث عن القيامة وأهوالها، وما يلقاه الكافر فيها من العناء والبلاء، وما يلقاه المؤمن من السعادة والهناء.
 - وقد بدأت السورة برّد العباد إلى الله تعالى وحسابهم، في يوم تغشاهم فيه الداهية العظمى، وتغمرهم بشدائدها، فتغطي أفكارهم وتُدَوِّخهم، فمنهم أصحاب الوجوه
-
- (١) المسند (٢٧١/٤) (١٨٤٠٩، ١٨٣٨٣) وهو حديث صحيح، وصحيح مسلم برقم (٨٧٨)، وأبوداود (١١٢٢)، والترمذي (٥٣٣)، وسنن النسائي (١١٢/٣)، وفي الكبرى (١٧٣٨).
- (٢) أخرجه مالك (١١١/١)، ومسلم (٨٧٨)، وأبوداود (١١٢٣)، والنسائي (١٤٢٢)، وابن ماجه (١١١٩)، وسنن النسائي الكبرى (١١٦٠٥، ١٧٤٩).

الكثيبة البائسة المرهقة، وهم في عقاب وخيم، وكرب عظيم، شرايبهم ماء حار، يقطع الأمعاء ويشوي الوجوه، وطعامهم لا يسمن ولا يغني من جوع.

ومنهم أصحاب الوجوه الناعمة التي أرضت ربها في الدنيا، فرضي الله عنها وأرضاها في جنة عالية قطوفها دانية، وهذا من أول السورة إلى الآية السادسة عشرة.

والموضوع الثاني: إقامة أربعة أدلة على وحدانية الله تعالى، وقدرته الباهرة.

وقد ضربت السورة هذه البراهين للرجل الأول الذي نزلت عليه هذه الآيات، فهو رجل بدوي يفتش الأرض، ويلتحف السماء، ويتركب الإبل، ويشرب من ألبانها، ويأوي إلى الجبال والكهوف.

بهذه البيئة الصحراوية خاطب القرآن الناس في عصر التنزيل، ولو خاطبهم بالذرة والفضاء وشبكة المعلومات، وناطحات السحاب، وطائرات التجسس وما إلى ذلك.. لما صدق الناس ذلك.

وفي الأثر عن علي رضي الله عنه موقوفاً عليه: (حدثوا الناس بما يعرفون، أتريدون أن يكذب الله ورسوله)^(١).

ويستدل بهذه المخلوقات على أن الذي أوجدها من العدم، قادر من باب أولى على بعثهم بعد الموت.

فهي أدلة أربعة مطلوبة للإيمان بالبعث والنشور، وهذا من الآية السابعة عشرة إلى الآية العشرين.

وهكذا فقد بينت السورة أحوال الكافرين والمؤمنين يوم القيامة، كما لفتت أنظار الناس إلى مظاهر قدرة الله تعالى في خلقه، لكي يتفكروا ويتدبروا، فيذكروا أن الخالق لهذا الكون هو المستحق وحده للطاعة والعبادة دون سواه، وأنهم سيعودون إلى ربهم للحساب والجزاء فيجازي كلًّا بما قدمت يداه، ومهما طالت الأعمار أو قصرت، فالمصير إلى الله تعالى والمرجع إليه.

(١) صحيح البخاري (١٢٧)، كتاب العلم باب رقم (٤٩).

٥- وبعد هذا الوعد والوعيد، والترغيب والترهيب، تختتم السورة ببيان أن مهمة الرسول ﷺ وجميع الدعاة إلى الله من بعده، أن ينشروا دعوة الله تعالى بين الناس كافة، ليقموا دولة الإسلام على أرض المعمورة، ويحرروا العقول من رق العبودية لغير الله تعالى، وإخراج الخلق من عبادة الناس إلى عبادة رب الناس.

فليست دولة الإسلام دولة جنس ولا لون ولا لغة ولا نسب، ولا دولة تدق أعناق الناس، وتسلب خيراتهم ﴿فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنْتَ مُذَكِّرٌ﴾ ٦١ لَسْتَ عَلَيْهِمْ بِمُصَيِّرٍ ﴿[الغاشية: ٢١، ٢٢].

ومن لم يتبع دعوة الإسلام من الخلق كافة يعذبه الله تعالى العذاب الأكبر، والمصير العادل إلى الله وحده ﴿إِنَّ إِلَيْنَا إِيَابَهُمْ﴾ ٥٥ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُمْ ﴿[الغاشية: ٢٥، ٢٦].

وهذا من الآية الحادية والعشرين إلى نهاية السورة.

* * *

تَفْسِيرُ السُّورَةِ

أَصْحَابُ الْوُجُوهِ الذَّلِيلَةِ فِي سَاحَةِ الْحَشْرِ

١-٣- ﴿هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ الْغَلَشِيَّةِ ۝١ وَجُوهُ يَوْمَئِذٍ خَشِعَةٌ ۝٢ عَامِلَةٌ نَّاصِبَةٌ ۝٣﴾

تذكر هذه السورة شيئاً من أهوال يوم القيامة وأنها تغشى الناس بشدائدها، وأنهم يجزون فيها بأعمالهم:

منهم أهل النار، وجوهم ذليلة متعبة من العذاب، يشربون الماء الحار، ويأكلون الضريع. ومنهم أهل الجنة قد استنارت وجوهم لسرورهم بما قدموه في الدنيا من صالح الأعمال، وهم في جنة عالية وفواكه كثيرة في تناول أيديهم، وفي عيون جارية، وسرور مرفوعة، وأوان أعدت لهم، ووسائل من حرير وإستبرق، وبُسْطُ تملأ المجالس.

وقد ابتدأت السورة بذكر يوم القيامة في أسلوب استفهام محقق، أي قد جاءك - أيها الرسول - حديث القيامة التي تُغْشِي الخلائق بأهوالها وتُغْطِي عقول الناس عن التفكير في أي شيء، وإن لم يصل إلى علمك خبرها - أيها المخاطب - فهذه هي أحوالها:

لقد قَسَمَت آيات السورة أحوال الناس في يوم القيامة إلى قسمين:

القسم الأول: أصحاب الوجوه الذليلة المثعبة، فذكرت طعامهم وشرابهم في النار. والقسم الثاني: أصحاب الوجوه الناعمة، وهم في أعلى الجنان، وعلى أرفع السُرر، وفي أحسن النعيم.

﴿هَلْ أَتَاكَ ۝٣﴾ - يا رسولنا - ﴿حَدِيثُ الْغَلَشِيَّةِ ۝١﴾ حديث الساعة وخبر يوم القيامة، التي تغشى الناس بأهوالها، وتذهل فيه كل مرضعة عما أرضعت.

عن عمرو بن ميمون قال: (مر النبي ﷺ على امرأة تقرأ ﴿هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ الْغَلَشِيَّةِ ۝١﴾ فقام يستمع ويقول: نعم، قد جاءني^(١)).

(١) هذا حديث مرسل فيه انقطاع في السند بالنسبة لعمر بن ميمون.

وكانما يتلقى النبي ﷺ هذا الخطاب لأول مرة، فأخذ بمجامع نفسه، وملك عليه قلبه. وهو خطاب عام لكل شخص في هذه الأمة، إنه خطاب يُذَكِّر ويحذر، وينذر ويبشر، ويثير في النفس الخشية والترقب لما يكون في هذا اليوم من نعيم مقيم، أو عذاب أليم. والغاشية في أصل اللغة، هي الداهية العظمى، التي تغشى الناس بأهوالها، وأعظم أهوال الساعة: النار التي يَدْخُلُهَا أهلها ويغشاهم العذاب من فوقهم ومن تحت أرجلهم. وسميت يوم القيامة بالغاشية، لأنها تأتي الناس وتغشاهم بغتة، قال تعالى: ﴿أَفَأَمِنُوا أَنْ تَأْتِيَهُمْ غَشِيَةٌ مِّنْ عَذَابِ اللَّهِ أَتَأْتِيَهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ [يوسف: ١٠٧].

وتغشى الأولين والآخرين بشدائدها وأهوالها: ﴿يَوْمَ تَبْدُلُ الْأَرْضَ عَيْرَ الْأَرْضِ وَالسَّمَاءَ تُبَدِّلُهَا﴾ [الأنبياء: ١٠٤] وَتَرَى الْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ مُّقْرَّنِينَ فِي الْأَصْفَادِ ﴿١١﴾ سَرَّابِلُهُمْ مِّنْ فِطْرَانٍ تَقَعَتْ فِيهَا أَرْجُلُهُمْ وَجُوهُهُمْ نَارًا ﴿٥٠﴾ لِيَجْزِيَ اللَّهُ كُلَّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴿[إبراهيم: ٤٨ - ٥١].

ثم إن الناس في يوم القيامة فريقان: ﴿وَجُوهٌ يُّوْمَئِذٍ خَاشِعَةٌ﴾ وهم أهل النار.

و﴿وَجُوهٌ يُّوْمَئِذٍ نَّاعِمَةٌ﴾ [الغاشية: ٨] وهم أهل الجنة:

وقد وصف الله تعالى وجوه الكفار بثلاثة أوصاف فهي: ﴿خَاشِعَةٌ﴾ و﴿عَامِلَةٌ﴾ و﴿نَاصِبَةٌ﴾

إلى جوار ثلاثة ألوان من العذاب يوم القيامة، فهذه ستة أخبار عن وجوه أهل النار:

الخبر الأول: أن وجوههم ذليلة منكسرة:

أي أن وجوه الكفار في يوم القيامة تبدوا عليها آثار الهوان والخشوع والذلة والانكسار، وظهر أثر الهوان والانتكاس والخزي عليها، كما قال تعالى: ﴿وَتَرَبَّصُوا يَوْمَ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا خَشِيعَاتُ مِنَ الَّذِينَ يُنظَرُونَ مِنْ طَرَفٍ خَفِيِّ﴾ [الشورى: ٤٥] وقد وصف الله تعالى وجوه الكفار حين خروجهم من القبور بقوله ﴿خَشِيعَةً أَبْصَرُهُمْ تَرَهْقُمْ ذَلَّةٌ﴾ [المعارج: ٤٤].

والمراد بالوجوه في الآية: أصحابها، وخصت الوجوه بالذكر لأنها أشرف الأعضاء، ولأن آثار الحزن والفرح تظهر عليها كما قال تعالى: ﴿وَجُوهٌ يُّوْمَئِذٍ عَلَيْهَا غَبَرَةٌ﴾ [الأنبياء: ١٠٤] تَرَهَّقُهَا قَرَّةٌ

[عبس: ٤٠ - ٤١].

الخبر الثاني والثالث: أن وجوه الكفار يوم القيامة متعبة مجهدة من عذاب النار، تُجَرَّ عليها كَجَرِّ السلاسل، وصُعُودهم في النار وهبوطهم منها كحال من يترددون بين الجبال والوهاد والوديان.

كما قال تعالى عن الوليد بن المغيرة ﴿سَأْرِهْفُهُ صَعُودًا﴾ [المدثر: ١٧].

وقال سبحانه عمن أعرض وكذب بآيات الله:

﴿وَمَنْ يُعْرِضْ عَنْ ذِكْرِ رَبِّهِ يَسْلُكْهُ عَذَابًا صَعَدًا﴾ [الجن: ١٧].

فهم يَشْقُونَ في النار بِجَرِّ الأغلال والسلاسل والخوض فيها، كما قال تعالى:

﴿إِذَا الْأَغْلَالُ فِي أَعْنَاقِهِمْ وَالسَّلَاسِلُ يُسْحَبُونَ ﴿٧١﴾ فِي الْحَمِيمِ ثُمَّ فِي النَّارِ يُسْجَرُونَ﴾ [غافر: ٧١ - ٧٢].

والكفار يُؤْخَذُونَ من الدار إلى النار: ﴿خُذُوهُ فَغُلُّوهُ ﴿٣٠﴾ ثُمَّ الْجَحِيمَ صَلُّوهُ ﴿٣١﴾ ثُمَّ فِي سِلْسِلَةٍ ذَرْعُهَا

سَبْعُونَ ذِرَاعًا فَاسْلُكُوهُ﴾ [الحاقة: ٣٠ - ٣٢].

وهم يسحبون على وجوههم في نار جهنم:

﴿يَوْمَ يُسْحَبُونَ فِي النَّارِ عَلَى وُجُوهِهِمْ ذُقُوا مَسَّ سَفَرٍ﴾ [القمر: ٤٨].

ويُحْشَرُونَ وقد فقدوا حواسهم التي عطلوها في الدنيا عما خلقت له: ﴿وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ

الْقِيَمَةِ عَلَى وُجُوهِهِمْ عُمِيًّا وَيَضَعُ مَاؤُهُمْ جَهَنَّمَ كُلًّا خَبَتْ زِدْنَاهُمْ سَعِيرًا﴾ [الإسراء: ٩٧].

وثياب أهل النار من قطران، والنار تغشى وجوههم: ﴿وَنَرَى الْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ مُّقْرَنِينَ فِي

الْأَصْفَادِ ﴿٤٩﴾ سَرَابِيلُهُمْ مِنْ قَطَرَانٍ وَتَغْشَى وُجُوهُهُمُ النَّارُ﴾ [إبراهيم: ٤٩ - ٥٠].

والكفار شر الناس منزلة وأبعدهم عن طريق الحق:

﴿الَّذِينَ يُحْشَرُونَ عَلَى وُجُوهِهِمْ إِلَى جَهَنَّمَ أُولَئِكَ شَرٌّ مَكَانًا وَأَضَلُّ سَبِيلًا﴾ [الفرقان: ٣٤].

والنار تُصَبُّ فوق رؤوس الكفار صَبًّا: ﴿فَالَّذِينَ كَفَرُوا قُطِعَتْ لَهُمْ نِيَابٌ مِنْ نَارٍ يُصَبُّ مِنْ فَوْقِ

رُؤُسِهِمُ الْحَمِيمُ ﴿١١﴾ يُصْهَرُ بِهِ مَا فِي بُطُونِهِمْ وَالْجُلُودُ ﴿٢٠﴾ وَلَهُمْ مَقْذِيعٌ مِنْ حديدٍ﴾ [الحج: ١٩ - ٢١].

وهذا العذاب جزاء تكبرهم في الدنيا وموتهم على الكفر، وانهماكهم في الملذات

والشهوات دون رجعة ولا توبة، وذلك أن وجوههم لما لم تعمل في الدنيا لله تعالى، جعلها

الله تعالى تعمل في النار وتَنْصَبُ بمعالجة القيود والأغلال، وجَرَّهم على وجوههم، واتقاء

كل حذب وشوك بوجوههم، والخوض في النار كما تخوض الإبل في الوحل، وتكليفهم ارتقاء جبال من النار بالصعود فيها.

وعلى هذا فإن العمل والنصب للوجوه الذليلة يكون في الآخرة، وقد يقال: إن بعض أهل النار كانوا في الدنيا أهل عمل وعبادة، ولكن هذه العبادة لَمَّا فقد شرط الإيمان والمتابعة صار عملهم يوم القيامة هباءً منثوراً، وهكذا فإن هذه الوجوه عملت في الدنيا وتعبت في عبادات فاسدة، كعمل الرهبان والقساوسة والمبتدعة، وعملهم هذا قد ارتدّ عليهم، لأنه لم يكن خالصاً لله تعالى، فقد تعبت فيه الأبدان في الدنيا، وغُذبت عليه في الآخرة، فهي قد خشعت للأوثان، وعملت لغير الله، ونصبت في طاعة الشيطان.

والوجه الأول: وهو أن التعب والنصب يكون للوجوه الذليلة في الآخرة هو الأولى، لأن عمل الكفار والمبتدعة لا أجر لهم عليه، بل هو كالهباء المنثور، وعذابهم إنما يكون على كفرهم وتزكهم العمل لله وحده، وعقاب المبتدعة يكون على ما ابتدعوه في دين الله تعالى. وفي الآية زيادة توبيخ لأهل النار، لأنهم لَمَّا تركوا الخشوع لله في الدنيا، كان جزاؤهم الذل والعمل الشاق يوم القيامة.

ورد أن عمر بن الخطاب ؓ لما قدم الشام، أتاه راهب، شيخ كبير، عليه سواد، فلما رآه عمر بكى، فقيل له: ما يبكيك يا أمير المؤمنين، إنه نصراني؟ فقال: ذكرت قول الله تعالى: ﴿عَامِلَةٌ نَاصِبَةٌ﴾ (٢) تَصَلَّى نَارًا حَامِيَةً ﴿٤﴾ فبكيت (١) رحمةً عليه، فذلك الذي أبكاني، وقد بكى عمر على الرجل لاجتهاده في عبادته على غير هُدى، حيث لا ثمرة لعمله إلا النَّصَب، ومأواه النار.

اللَّهُ تَعَالَى يَصِفُ عَذَابَ الْوُجُوهِ الذُّلِيلَةِ

٤-٧ - ﴿تَصَلَّى﴾ (١) نَارًا حَامِيَةً ﴿٤﴾ تَشَقَّى مِنْ عَيْنٍ أَنِيرٍ ﴿٥﴾ لَيْسَ لَهُمْ طَعَامٌ إِلَّا مِنْ ضَرِيحٍ ﴿٦﴾ لَا يُسْنِنُ وَلَا

يُغْنِي مِنْ جُوعٍ ﴿٧﴾

(١) رواه عبد الرزاق في تفسيره (٢٥/٢٩٩)، والحاكم في المستدرک (٢/٥٢٢)، وفي سنده انقطاع بين راويه أبي عمران الجوني وبين عمر ؓ، لأنه لم يدرك زمانه.

(٢) قرأ أبو عمرو وشعبة ويعقوب بالبناء للمفعول في ﴿تَصَلَّى﴾ ونائب الفاعل ضمير يعود على الوجوه، والباقون بالبناء للفاعل، والفاعل ضمير يعود على الوجوه أيضاً.

وبعد أن وصف الله تعالى وجوه الكفار بأنها تكون يوم القيامة: خاشعة، عاملة، ناصبة، ذكر سبحانه في هذه الآيات، أن هذه الوجوه: تدخل يوم القيامة ناراً شديدة التوهج، وتشرب من عين شديدة الحرارة، وليس لهم من طعام يأكلونه إلا أخبث الطعام، كالضريع، فهو نبات له شوك يغص في الحلق، وهو طعام لا يحمي بدن صاحبه من الهزال، ولا يسد جوعه ولا رمقه، فهذه ثلاثة ألوان من العذاب:

والخبر الرابع: أن وجوه الكفار يوم القيامة تُشوى في نار جهنم، وتدخل ناراً مستعرة، شديدة الحرارة، قد اشتد لهبها على أعداء الله، فهي تُشوى بالنار الحامية.

﴿تَلْفَحُ وُجُوهُهُمُ النَّارُ وَهُمْ فِيهَا كَالِحُونَ﴾ [المؤمنون: ١٠٤].

﴿وَأِنْ يَسْتَغِيثُوا يُغَاثُوا بِمَاءٍ كَالْمُهْلِ يَشْوِي الْوُجُوهَ﴾ [الكهف: ٢٩].

إن وجوههم مع الذل والإرهاق في العذاب والألم، تذوق النار الحامية وتتجرع مرارتها كما قال تعالى: ﴿وَيُسْقَوْنَ مِنْ مَّاءٍ صَدِيدٍ ۖ يَتَجَرَّعُهُ وَلَا يَكَادُ يُسِغُهُ﴾ [إبراهيم: ١٦ - ١٧].

والخبر الخامس: شراب أهل النار: وحين يبلغ الاحتراق بالنار منهم مبلغه، فإنهم يحتاجون إلى إطفاء حرارتها بالشراب، فيجعل شرابهم من عين بالغة منتهى الحرارة، كما قال تعالى: ﴿يَطُوفُونَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ حَمِيرٍ ۚ إِنَّ﴾ [الرحمن: ٤٤].

وقال سبحانه: ﴿وَسُقُوا مَاءً حَمِيمًا فَقَطَّعَ أَمْعَاءَهُمْ﴾ [محمد: ١٥].

والخبر السادس: طعام أهل النار: أما طعام أهل النار، فهو مجرد إيلام وتعذيب دون نفع ولا فائدة، والطعام إما أن يسد الجوع، وإما أن يسمن البدن، وهذا الضريع ليس فيه شيء من هذين الأمرين، بل هو في غاية المرارة والتشنج، إنه ثبت له شوك لاصق بالأرض، معروف عند العرب، وهو شر طعام وأبشعه، وهو مرعى للإبل والحمر الوحشية، ويسمى ضريعاً إذا كان رطباً، ويسمى (الشبرق) إذا كان يابساً.

قال عكرمة: الضريع الشبرق، شجرة ذات شوك لاطئة بالأرض^(١).

(١) ابن أبي شيبة (٤٤/١٤).

والضريع في الآخرة هو الخارج من الغسلين، كما قال تعالى:

﴿فَلَيْسَ لَهُ الْيَوْمَ هُنَا حَمِيمٌ ﴿٣٥﴾ وَلَا طَعَامٌ إِلَّا مِنْ غِسْلِينَ ﴿٣٦﴾ لَا يَأْكُلُهُ إِلَّا الْخَاطِئُونَ﴾ [الحاقة: ٣٥ - ٣٧].

وهذه الآية تؤيد أن الضريع اسم لشجر في جنهم يسيل منه الغسلين.

ومن طعام أهل النار (الزقوم) كما جاء في قوله تعالى:

﴿إِنَّ شَجَرَتَ الزَّقُّومِ ﴿٤٣﴾ طَعَامُ الْأَثِيمِ﴾ [الدخان: ٤٣ - ٤٤].

وهذا الضريع لا يعود على آكله إلا بالضر، فهو لا يصلح أجسادهم، ولا يدفع عنهم

ألم الجوع.

ورد أن أهل النار يسلط عليهم الجوع فيضطرهم إلى الأكل من الضريع، فإذا أكلوا يسلط

عليهم العطش، فيضطرهم إلى شراب الحميم، فيشوي وجوههم ويقطع أمعاءهم^(١).

فهذه ستة أخبار عن عذاب (وجوه) أهل النار، الذين جاء ذكرهم في الآية الثانية من

السورة، فهي وجوه:

﴿خَشِيعَةً ﴿٢٤﴾ عَامِلَةً ﴿٢٥﴾ نَاصِبَةً ﴿٢٦﴾ تُشَقَّى مِنْ عَيْنٍ وَآخَرَةٍ ﴿٢٧﴾ لَيْسَ لَهُمْ طَعَامٌ إِلَّا مِنْ ضَرِيعٍ ﴿٢٨﴾﴾

هذه هي أحوال أهل النار! كما قال تعالى عنهم ﴿وَجُوهٌ يَوْمَئِذٍ بِآسِرَةٍ ﴿٢٩﴾ تَنْظُرُ أَنْ يَقَعَلَ بِهَا

فَاقِرَةٌ ﴿٣٠﴾﴾ [القيامة: ٢٤ - ٢٥].

وقال: ﴿وَجُوهٌ يَوْمَئِذٍ عَلَيْهَا غَبَرَةٌ ﴿٤٠﴾ تَرْفَعُهَا قَنَرَةٌ ﴿٤١﴾ أُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُ الْفَجَرَةُ ﴿٤٢﴾﴾ [عبس: ٤٠ - ٤٢].

تَسْعَةُ أَخْبَارٍ عَنْ وَجُوهِ أَهْلِ الْجَنَّةِ

١٠-٨ - ﴿وَجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاعِمَةٌ ﴿٨﴾ لِسَعْيِهَا رَاضِيَةٌ ﴿٩﴾ فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ ﴿١٠﴾﴾

الخبر الأول: أهل الوجوه الناعمة: ولما ذكر سبحانه حال الأشقياء أتبعه بذكر حال

السعداء، فبيّن تعالى أن وجوه أهل الجنة منعمة يعلوها الحسن والبهجة والرضى، فهي

﴿وَجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاضِرَةٌ ﴿١٢﴾ إِلَى رَبِّهَا نَاطِرَةٌ ﴿١٣﴾﴾ [القيامة: ٢٢ - ٢٣].

(١) تفسير أبي السعود (٢٥٩/٥).

وهي: ﴿وَجُوهٌ يُؤْمَرُ بِسُفْرَةٍ ۖ ضَاحِكَةٌ مُسْتَبْشِرَةٌ﴾ [عبس: ٣٨ - ٣٩].

وهي: ﴿وَجُوهٌ يُؤْمَرُ بِتَأَمُّمَةٍ﴾ في نعمة وبهجة وسرور، وإشراق ونُضرة، كما قال تعالى: ﴿تَعْرِفُ فِي وُجُوهِهِمْ نَضْرَةَ النَّعِيمِ﴾ [المطففين: ٢٤] وهم يتنعمون في الجنة بألوان النعيم، من كل ما تشتهي وتتمنى، هذا هو الخبر الأول عن أهل الجنة:

والخبر الثاني: الرضى عن الأعمال والرضى عن الأجر والثواب: إنهم يُحمدون على ما عملوه، ويجدون عقباه خيراً، فهم يستمتعون بالرضى عن عملهم، فقد رضي الله عنهم. وأصحاب هذه الوجوه ﴿لَسَعِيهَا﴾ الذي عملته في الدنيا بالطاعات ﴿رَاضِيَةً﴾ عنها في الآخرة، فقد أورثها هذا العمل: الفردوس، دار النعيم، وأعطاه الله من الأجر ما أرضاها، فهي لثواب سعيها راضية، إذ وجدته مدخراً لها في الآخرة، فحمدت عقباه وحصل لها ما تتمناه. الخبر الثالث: درجات الجنة: أي إن أهل التقوى يوم القيامة ﴿فِي جَنَّاتٍ عَالِيَةٍ﴾ فالجنة درجات، بعضها أعلى من بعض، ما بين كل درجتين كما بين السماء والأرض. عن أبي هريرة ؓ أن رسول الله ﷺ قال: «في الجنة مئة درجة، ما بين كل درجتين كما بين السماء والأرض»^(١).

فهي حدائق وبساتين مرتفعة المكان والقدر، وهم في الغرفات والمساكن العالية آمنون، وقد وصف الله تعالى الجنة بالعلو في المكان والمكانة، والشرف والرفعة، والحُسن والمنزلة. وثمار بساتين الجنة وفواكهها سهلة التناول، فهي في متناول أيديهم، لا يحتاجون إلى القيام لها، ولا إلى من يناولهم إياها، ولا يستعصى عليهم شيء منها.

الخبر الرابع: لَيْسَ فِي الْجَنَّةِ لَفْوَ وَلَا جِدَالٌ وَلَا خِصَامٌ

١١-١٣ - ﴿لَا تَسْمَعُ فِيهَا لَفِيَةً ۖ (١١) فِيهَا عَيْنٌ جَارِيَةٌ ۖ (١٢) فِيهَا سُرُرٌ مَرْفُوعَةٌ ۖ (١٣)﴾

(١) صحيح سنن الترمذي (٢٠٥٤)، والمسند (١١٢٣٦) وإسناده صحيح على شرط مسلم، وفي صحيح مسلم برقم (١٨٨٤) عن أبي سعيد، وعبد بن حميد (٩٢٢)، وله شاهد في البخاري (٢٧٩٠).

(٢) قرأ نافع بالتاء والبناء للمفعول في ﴿سَمِعَ﴾ و﴿لَفِيَةً﴾ بالرفع، نائب فاعل، وقرأ ابن كثير وأبو عمرو ورويس مثله ولكن بالياء في ﴿سَمِعَ﴾ والباقون بالتاء، والبناء للفاعل، و﴿لَفِيَةً﴾ بالنصب، مفعول به، وجاز تذكير الفعل وتأنيئه لأن الفاعل مؤنث غير حقيقي، وللفصل بالجار والمجرور.

إنك لا تسمع في الجنة لغواً ولا جدالاً ولا لجاجاً ولا خصاماً، ولا تسمع فيها كذباً، ولا فحشاً، ولا أذى، ولا باطلاً، فضلاً عن الكلام المحرم، بل يسمعون ما يسر القلوب ويشرح الصدور.

واللغو هو الكلام الذي لا فائدة فيه، وهذا تنبيه على أن الجنة دارٌ جدٌ وحقيقة، فلا يوجد فيها كلام إلا لفائدة، لأن النفوس فيها تخلصت من النقائص، فلا تنطلق إلا بما تريذ النفوس الزكية، ولا تلتذ إلا بالسمو العقلي والخلقي.

قال تعالى: ﴿لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا تَأْيِيمًا ۝١٥ إِلَّا قِيلًا سَلَامًا سَلَامًا﴾ [الواقعة: ٢٥ - ٢٦].

وقال سبحانه: ﴿لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا إِلَّا سَلَامًا وَلَهُمْ رِزْقُهُمْ فِيهَا بُكْرَةً وَعَشِيًّا﴾ [مريم: ٦٢].

وقال جل شأنه: ﴿لَا لَغْوَ فِيهَا وَلَا تَأْيِيمٌ﴾ [الطور: ٢٣].

الخبر الخامس: عيون الماء تجري في الجنة:

أي إن في الجنة عيون الماء الجارية تتدفق منها ولا تنقطع أبداً، ففيها:

عيون الكافور والسلسبيل والزنجبيل والتنسيم، وعيون أخرى في غاية الكثرة، تجري بالماء العذب الزلال المتدفق، والعيون الجارية، اسم جنس، تشمل جميع العيون التي يفجرها أهل الجنة ويصرفونها كيفما شاؤوا.

الخبر السادس: السرر العالية: أي إن في الجنة سرراً عالية، عليها فرش لينة وطيفة، يجلس عليها أهلها في أماكن مرتفعة، تنخفض وترتفع وتنقل لهم، حسبما أرادوا، ليرى كل منهم ما حوله من الملك والنعيم. قال تعالى:

١٤-١٦ - ﴿وَأكْوَابٌ مَوْضُوعَةٌ ۝١٤ وَنَارٌ مَّصْفُوفَةٌ ۝١٥ وَزَوَاجٌ مُّثْبَوَةٌ ۝١٦﴾

الخبر السابع: أكواب الجنة: أي إن في الجنة أكواباً معدة للشاربين، مهياة لهم، ممثلة بأنواع الأشربة اللذيذة وضعت تحت الطلب.

والكوب: إناء للخمر له ساق، ولا عروة له، فأكواب الخمر وغيرها، موضوعة بين أيديهم ليحصلوا عليها دون تعب ولا عناء.

الخبر الثامن: وسائد الجنة: وفي الجنة وسائد مصفوفة، الواحدة إلى جوار الأخرى، يتكىء عليها الجالس والمضطجع، أينما كان وجدها، فالنمارق هي الوسائد التي يتكىء عليها الإنسان في كل أحواله، وهي من الحرير والاستبرق قد صفت للجلوس والالتكاء عليها.

الخبر التاسع: فراش أرض الجنة: وأرض الجنة مفروشة بالبُسط الحسان المتفرقة في كل مكان، والطنافس أو السجاجيد الفاخرة، مبسوطة في أنحاء الجنة، ومملوءة بهامجالسهم.

فالزرابي جمع زُرْبِيَّة، وهي البساط أو الطُنْفَسَة من الصوف الملون الناعم، يُفرش في الأرض للزينة والجلوس عليه عند أهل الترف والغنى، وهو منسوب إلى (أذربيجان) لأنها اشتهرت بدقة صنعه.

وقد قوبلت صفات وجوه أهل النار بصفات وجوه أهل الجنة على النحو التالي:

وجوه أهل الجنة	وجوه أهل النار
﴿نَاعِمَةٌ لِّسَعْيِهَا رَاضِيَةٌ﴾	١ - ﴿خَشِيعَةً عَامِلَةً نَّاصِبَةٌ﴾
﴿فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ لَا تَسْمَعُ فِيهَا لَغِيَةً﴾	٢ - ﴿تَصَلَّى نَارًا حَامِيَةً﴾
﴿فِيهَا عَيْنٌ جَارِيَةٌ﴾	٣ - ﴿تَشْقَى مِنْ عَيْنٍ آَنِتٍ﴾
﴿فِيهَا سُرُرٌ مَّرْجُومَةٌ وَأَكْوَابٌ مَوْضُوعَةٌ﴾	٤ - ﴿لَيْسَ لَهُمْ طَعَامٌ إِلَّا مِنْ ضَرِيعٍ﴾
﴿وَنَمَارِقُ مَصْفُوفَةٌ وَزُرَّاقٌ مَبْنُوءَةٌ﴾	٥ - ﴿لَا يَسْتِينُ وَلَا يَغْنَى مِنْ جُوعٍ﴾

وقد قوبل طعام أهل النار بأربعة ألوان من نعيم أهل الجنة هي: السرر، والأكواب، والنمارق، والزرابي، وفي الجنة ما لا عين رأت ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر.

جاء في الأثر: ألا هل من مشمر للجنة، فإن الجنة لا خطر لها، هي ورب الكعبة نور يتلأل، وريحانة تهتز، وقصر مشيد، ونهر مطرد، وثمره نضيجة، وزوجة حسناء جميلة، وحلل كثيرة، ومقام في دار سليمة، وفاكهة وخُضرة، وحبرة ونعمة، في محلة عالية بهيئة؟ قالوا: نعم يا رسول الله، نحن المشمرون لها، قال: قولوا: إن شاء الله، قال القوم: إن شاء الله^(١).

(١) من حديث أسامة بن زيد عند ابن أبي داود برقم (٧١)، وابن ماجه برقم (٤٣٣٢)، قال البوصيري في الزوائد: (٣/٣٢٥) هذا إسناد فيه مقال، ففيه الضحاك المعافري، وسليمان بن موسى متكلم فيهما، وهو في ضعيف سنن ابن ماجه (٩٤٦)، والسلسلة الضعيفة (٣٣٥٨).

أَرْبَعَةٌ مِنْ دَلَائِلِ التَّوْحِيدِ

١٧- ٢٠ - ﴿أَفَلَا يَنْظُرُونَ إِلَى الْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ ﴿١٧﴾ وَإِلَى السَّمَاءِ كَيْفَ رُفِعَتْ ﴿١٨﴾ وَإِلَى الْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ ﴿١٩﴾ وَإِلَى الْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ ﴿٢٠﴾﴾

ثم ذكر سبحانه أربعة من دلائل وحدانيته تعالى وعظيم قدرته وهي: الإبل، والسماء، والأرض، والجبال، وذلك أنه لما ذكر الله تعالى ما في الجنة، من نعيم تعجب الكفار وكذبوا النبي ﷺ فذكرهم الله تعالى بهذه المخلوقات الأربع التي تملأ عليهم حياتهم: فالسماء، فوقهم، والأرض تحتهم، والجبال حولهم، وأول ما يقع بصر الرجل العربي الذي نزل عليه القرآن يقع على إبله.

وهذه الأربع هي أطراف البيئة العربية، فيبين تعالى أن الذي صنع لهم هذه الدنيا هو الذي صنع لأهل الجنة ما صنع، وذكر لهم هذه الدلائل الأربع:

الدليل الأول: الإبل: أفلا ينظر الكافرون المكذبون إلى الإبل، كيف خُلِقَتْ هذا الخلق العجيب، وكيف ذللها الله للعباد وسخرها لمنافعهم.

والإبل حيوان الرجل العربي الأول، عليها يسافر وعليها يحمل متاعه، ومنها يأكل ويشرب، ومن أوبارها وجلودها يلبس وينزل، فهي مورد الحياة الأول للإنسان البدوي. وهي على قوتها وضخامتها يقودها الصبي الصغير، وهي أصبر الحيوانات على الجوع والعطش.

ويوجه القرآن النظر إلى تأمل خَلْقها وتكوينها وإبداعها.

والإبل هي أعز أموال العرب، وأكثرها نفعا لهم، فهي متاعهم ورواحلهم، ومنها عيشهم، ولباسهم، ونسج بيوتهم، وحمل أثقالهم.

وقد جعل الله تعالى لها قوائم قوية، ويسر بُروكها، لحمل الأمتعة عليها، وجعل أعناقها طويلة ليتمكنها النهوض بما عليها من أثقال، وجعل في بطونها أمعاء، تخزن الطعام والماء إلى عشرة أيام قال تعالى: ﴿وَدَلَّلْنَاهَا هُمْ فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ ﴿٧٣﴾ وَلَهُمْ فِيهَا

مَنْفَعٌ وَمَشَارِبٌ أَفَلَا يَشْكُرُونَ ﴿٧٢﴾ [يس: ٧٢ - ٧٣].

وقال سبحانه: ﴿وَالْأَنْعَمَ خَلَقَهَا لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنْفَعٌ مِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿٧١﴾ وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرْجَوْنَ وَحِينَ تَسْرَحْنَ ﴿٧٢﴾ وَتَحْمِلُ أَنْفَالَكُمْ إِلَىٰ بَلَدٍ لَّئِمَّ تَكُونُوا فِيهِ إِلَّا بِشِقِّ الْأَنْفُسِ إِنَّ رَبَّكُمْ لَرءُوفٌ رَحِيمٌ ﴿٧٣﴾﴾ [النحل: ٥ - ٧].

الدليل الثاني: السماء: أفلا ينظر الكفار المكذبون، إلى السماء كيف رُفعت هذا الرفع العظيم بدون عمد، وقد نثر الله فيها النجوم بلا عدد، وجعلها بهجة للناظرين، وعلاماتٍ للمسافرين، ورجوماً للشياطين، بلا صدوع ولا شقوق، كي يعتبروا ويتعظوا؟

الدليل الثالث: الجبال: أفلا ينظر الكفار المكذبون إلى الجبال الشاهقة كيف نُصبت، لاستقرار الأرض وثباتها عند الاضطراب فهي قائمة في الهواء، وجُعلت رواسي ثابتة للأرض ومستقرّاً لها، والجبال هي الملجأ والملاذ، والأنيس والصاحب لسكان البادية. وقد تحنّث النبي ﷺ في غار جبل حراء قبل البعثة، واختبأ في غار جبل ثور ليلة الهجرة. قال تعالى: ﴿وَالْجِبَالِ أَرْسَسَهَا ﴿٣٣﴾ مَتَاعًا لَّكُمْ وَلِأَنْعَمِكُمْ﴾ [النازعات: ٣٢ - ٣٣].

الدليل الرابع: الأرض: أفلا ينظر الكفار المكذبون إلى الأرض كيف بُسطت ومُهّدت ومدت حتى صارت واسعة شاسعة، يستقرون عليها، ويعيشون فوقها، ويحصلون أرزاقهم منها. قال تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ الْأَرْضَ ذُلُولًا فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِنْ رِزْقِهَا وَإِلَيْهِ الشُّورُ﴾ [الملك: ١٥] وقال سبحانه: ﴿أَلَمْ يَجْعَلِ الْأَرْضَ مِهْدًا﴾ [النبأ: ٦].

وهذا لا ينافي كروية الأرض واستدارتها، فقد أحاطت بها الأفلاك من كل جانب، فهي في غاية السهولة ليستقر عليها الخلق، ويتمكنوا من حرثها وزرعها والبنيان عليها، وسلوك طرقها ونحو ذلك، لأن الكرة إذا كانت كبيرة، كانت كل قطعة منها كالسطح في إمكان الانتفاع به، وقد دل على كروية الأرض: العقل والنقل والحس والمشاهدة، والتسطيح ينافي كروية الجسم الصغير، وجسم الأرض في غاية الكبر والسعة، فهي كروية مسطحة.

قال أنس ؓ: (كان يعجبنا أن يأتي الرجل من أهل البادية، فيسأل النبي ﷺ ونحن نستمع، فجاء رجل، فقال: يا محمد، إنه أتانا رسول من طرفك، يقول: إنك رسول الله،

قال: (صدق).

فسأله: بالذي خلق السموات والأرض ونصب الجبال؟ (الله أرسلك؟) قال: (نعم).

قال: وزعم رسولك أن علينا خمس صلوات في يومنا وليلتنا؟ قال: (صدق).

قال: فبالذي أرسلك، (الله أمرك بهذا؟) قال: (نعم).

قال: وزعم رسولك أن علينا زكاة أموالنا؟ قال: (صدق).

قال فبالذي أرسلك، (الله أمرك بهذا؟) قال: (نعم).

قال: وزعم رسولك أن علينا حج البيت من استطاع إليه سبيلاً؟ قال: (صدق).

قال: ثم ولّى، فقال: والذي بعثك بالحق، لا أزيد عليهن ولا أنقص منهن شيئاً، فقال

النبي ﷺ: «إن صدق ليدخلن الجنة»^(١) والسائل هو: ضَمَام بن ثعلبة، أخو بني سعد بن بكر.

مَنْ أَعْرَضَ عَنْ دَلَائِلِ الْوَحْدَانِيَّةِ فَحَسَابُهُ عَلَى اللَّهِ

٢١، ٢٢ - ﴿فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنْتَ مُذَكِّرٌ ۚ لَسْتَ عَلَيْهِمْ بِمُصَيِّرٍ ۚ﴾^(٢)

ثم أمر الله تعالى نبيه ﷺ بوعظ الناس وتذكيرهم، فينذرهم ويبشرهم، ويخبرهم أنه رسول الله إلى الإنس والجن، وأنه لم يبعث مسيطراً عليهم، وأمره ألاّ يهتم بإعراضهم، بل يترك النتائج على الله تعالى، فداوم - يا رسولنا - على تبليغ الدعوة للناس، واستمر على ذلك، فهذه مهمتك، واترك أمرهم إلينا فنحن نتولى حسابهم وجزاءهم.

﴿وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِجَبَّارٍ فَذَكِّرْ بِالْقُرْآنِ مَنْ يَخَافُ وَعِيدِ﴾ [ق: ٤٥].

ولا تجزن على إعراضهم فإنما أنت واعظ لهم، وليس في مقدورك أن تكرهمهم على

(١) ينظر المسند برقم (١٢٤٥٧، ١٣٠١١) وإسناده صحيح على شرط مسلم ورجاله ثقات، وصحيح مسلم برقم (١٢)، والبخاري برقم (٦٣)، والترمذي (٦١٩)، وسنن النسائي الكبرى (٢٤٠١، ٢٤٠٢)، وابن ماجة (١٤٢٠)، والبعغوي (٤)، وأبو عوانة (٣، ٢/١).

(٢) قرأ حمزة ويعقوب بضم الهاء من ﴿عَلَيْهِمْ﴾ والباقون بكسرها.

(٣) قرأ هشام بالسین في ﴿يُصَيِّرُ﴾ وقرأ خلف عن حمزة بإشمام الصاد صوت الزاي، وقرأ قبل وابن ذكوان وحفص بالسین والصاد، وقرأ خلاد بالإشمام كخلف وبالصاد الخالصة والباقون بالصاد الخالصة.

الإيمان، فلست عليهم بجبار ولا متسلط، بل اترك شأنهم إلينا قال تعالى: ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَأَمَنَّ مِنَ فِي الْأَرْضِ كُلَّهُمْ جَمِيعًا أَفَأَنْتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّى يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ﴾ [يونس: ٩٩].

وقال جل شأنة: ﴿فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلْغُ وَعَلَيْنَا الْحِسَابُ﴾ [الرعد: ٤٠].

وقد شرع الجهاد لا لحمل الناس على الإيمان، وإنما لإزالة العقبات من وجه الدعوة، حتى تصل إلى الناس، فلا يُمنعون من سماعها، ولا يُفتنون عن دينهم. فالأصل هو التذكير والبلاغ، فمن يبقى على شركه وكُفْره بعد أن بلغته الدعوة، فإنه يُترك بحريته، ولا يقاتل إلا إذا قاتل المسلمين، أو وقف حائلاً بين وصول الدعوة إلى الناس، أو اغتصب أرض المسلمين.

وله في ديار الإسلام ما للمسلمين من حقوق وواجبات، فيدافع معهم عن حِمَى أرضهم، ويُساهم في أمن البلاد، ويدفع ما يقابل الخدمات العامة التي يتنفع بها من الضرائب التي تُفرضها الدولة عليهم خاصة، وهي ما يسمى بالجزية، كما يدفع المسلمون الزكاة.

ومن لم يدخل في الإسلام أصلاً، يختلف حاله عن حال من يدخل فيه ثم يرتد، فإنه يكون فتنة للناس وسبباً لردتهم عن الإسلام، فيستتاب ثلاثاً، فإن تاب وإلا قتل، لأنه يكون فتنة لغيره، وسبباً في الصد عن دين الله، واتهام الإسلام بما ليس فيه، فإن لم يُقدَّر عليه غُومل معاملة المحاربين، وكذا من أنكر أصلاً من أصول الإسلام معلوماً من الدين بالضرورة، كما قال تعالى عمن أنكر الصلاة والزكاة ﴿فَلَا صَدَقَ وَلَا صَلَّى﴾ (٣١) وَلَكِنْ كَذَّبَ وَقَتَّلَ ﴿[القيامة: ٣١ - ٣٢].

عن جابر رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله، فإذا قالوها عصموا مني دماءهم وأموالهم إلا بحقها وحسابهم على الله، ثم قرأ ﴿فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنْتَ مُذَكِّرٌ﴾ (٣١) لَسْتَ عَلَيْهِمْ بِمُصَيِّرٍ﴾ (١).

(١) مسلم (٤٥٢/٢١) برقم (٢١، ٣٥)، والترمذي (٣٣٤١)، وابن أبي شيبة (١٠/١٢٢)، والمسند (١٤٢٠٩، ١٤١٤١) بإسناد صحيح على شرط مسلم ورجال ثقات، دون الآية، والطبراني في الكبير (١٧٤٦)، والأوسط (٤٢٩٨)، والنسائي في السنن الكبرى (١١٦٧٠، ١١٦٠٦، ٣٤٢٥)، والحاكم (٥٢٢/٢)، والبيهقي في الأسماء والصفات (١٧٠)، ومصنف عبد الرزاق (١٠٠٢١)، وابن ماجة (٣٩٢٨).

مَصِيرُ الْكَافِرِ نَارُ جَهَنَّمَ

٢٣، ٢٤ - ﴿إِلَّا مَنْ تَوَلَّى وَكَفَرَ ۖ ﴿٢٣﴾ فَيُعَذِّبُهُ اللَّهُ الْعَذَابَ الْأَكْبَرَ ۖ ﴿٢٤﴾﴾

أي: وهذا الذي لم يقبل الدعوة، فتولى وأعرض، وداوم على كفره ولم يؤمن بالله وخاتم رسله، فإن الله تعالى يعذبه يوم القيامة عذاباً شديداً دائماً.

والعذاب الأكبر هو عذاب جهنم، وفي الدنيا عذاب أصغر بالفحط والجذب والجوع والهزائم، ومنه عذاب القبر، كما قال تعالى:

﴿وَلَنَذِيقَنَّهُمْ مِنَ الْعَذَابِ الْأَذَىٰ دُونَ الْعَذَابِ الْأَكْبَرِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ [السجدة: ٢١].

قال تعالى: ﴿فَأَذَاقَهُمُ اللَّهُ الْحَزْنَ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلِ الْعَذَابِ الْآخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾ [الزمر: ٢٦].

وفي الحديث عن خالد بن يزيد بن معاوية «ألا كلكم يدخل الجنة إلا من شرد على الله شراد البعير على أهله»^(١).

لَا مَفْرَءَ مِنَ الْحِسَابِ وَالْجَزَاءِ، فَالْمَرْجِعُ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى

٢٥، ٢٦ - ﴿إِنَّ إِلَيْنَا إِيَابَهُمْ ۖ ﴿٢٥﴾ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُمْ ۖ ﴿٢٦﴾﴾

فما عليك - أيها الرسول - إلا تذكير الناس بدعوة الحق دون إجبار لهم، ولا تسلط عليهم، فإن رجوعهم إلينا بعد الموت ﴿إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [هود: ٤]، وسوف نجمعهم في يوم لا ريب فيه.

ثم إن علينا حسابهم على أقوالهم وأعمالهم بعد بعثتهم من قبورهم، ونُجازيهم عليها

(١) من حديث خالد بن يزيد بن معاوية في المسند (٢٥٨/٥) برقم (٢٢٢٢٦) بإسناد حسن، قال الهيثمي في مجمع الزوائد: (٤٠٣/١٠) ورجاله رجال الصحيح غير علي بن خالد الدؤلي وهو ثقة، وصححه الحاكم والذهبي عن أبي هريرة في المستدرک (٥٥/١)، وهو في صحيح الجامع برقم (٤٥٧٠)، وابن حبان عن أبي سعيد في الإحسان (١٩٦/١)، والطبراني في الأوسط (٣١٧٣)، وفي الكبير (٧٧٣٠)، ونظيره حديث أبي هريرة في المسند (٨٧٢٨) بلفظ «كل أمي يدخلون الجنة إلا من أبى...».

(٢) قرأ أبو جعفر بتشديد الياء من ﴿إِيَابَهُمْ﴾ والباقون بتخفيفها.

بالجزاء الأوفى.

قال تعالى: ﴿مَنْ كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُ، وَمَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلَا نُفْسِهِمْ يَمْهَدُونَ﴾ [الروم: ٤٤].

وقال سبحانه: ﴿إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ ثُمَّ يُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [الأنعام: ٦٠].

وقال جل شأنه: ﴿ثُمَّ إِلَىٰ مَرْجِعِكُمْ فَأَحْكُم بَيْنَكُمْ فِيمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ﴾ ٥٥ ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ

كَفَرُوا فَأَعَذْبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ﴾ ٥٦ ﴿وَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا

وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ﴾ [آل عمران: ٥٥ - ٥٧].

والحساب في الآخرة عام لجميع الخلائق وليس خاصا بالكفار، فلا مفر من عودة

الجميع إلى الله تعالى، ولا محيص لهم من حسابه تعالى وجزائه.

تم تفسير (سورة الخاشية) والله الحمد والمنة

تَفْسِيرُ سُورَةِ الْفَجْرِ (٨٩)

مُقَدِّمَةُ السُّورَةِ

١- (سورة الفجر) هي السورة التاسعة والثمانون في ترتيب المصحف، والعاشر في ترتيب النزول، فهي من أوائل ما نزل من القرآن. نزلت بعد (سورة الليل) وقبل (سورة الضحى).

وعدد آياتها ثلاثون آية عند أهل الكوفة والشام^(١). وهي مئة وتسع وثلاثون كلمة، وخمس مئة وسبعة وتسعون حرفاً. ويقال: سورة ﴿وَالْفَجْرِ﴾ بالواو. وهي سورة مكية.

٢- عن جابر رضي الله عنه قال: صلى معاذ صلاة، فجاء رجل فصلى معه، فطَوَّلَ فصلى في ناحية المسجد، ثم انصرف، فبلغ ذلك معاذاً، فقال: منافق، فذكر ذلك لرسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله، جئتُ أصلي، فطَوَّلَ عليّ، فانصرف، فصليتُ في ناحية المسجد، فعلفتُ ناضحي، فقال رسول الله ﷺ: أفتان أنت يا معاذ؟ أين أنت من ﴿سَبَّحَ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى﴾ ﴿وَالشَّمْسِ وَضُحَاهَا﴾ ﴿وَالْفَجْرِ﴾ ﴿وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَاهَا﴾^(٢).

٣- وقد تحدثت آيات السورة عن ثلاثة أمور:

أولاً: بيان ما حل ببعض الأمم المكذبة لرسول الله من عذاب ونكال، كقوم عاد وثمود وفرعون، مع قوتهم وحضارتهم وطول أعمارهم، وكيف أنّ طغيانهم أوردتهم المهالك، كي يعتبر بهم كل من كذب خاتم الرسل ﷺ من أهل الغرب والشرق، والشمال والجنوب، وقد استغرق ذلك أربعة عشر آية من أول السورة.

(١) وتسع وعشرون آية عند أهل البصرة، واثنان وثلاثون آية في العدد المكي والمدني.

(٢) النسائي في التفسير (٦٩٣)، وفي السنن الكبرى برقم (١١٦٠٩، ١١٦٧٣)، والبخاري (٧٠٥)،

وأبوداود (٧٩٣)، والمسند (١٤١٩٠) بنحوه وإسناده صحيح على شرط الشيخين، وابن حبان (٢٤٠٤)،

والطيالسي (١٧٢٨)، وعبد بن حميد (١١٠٢)، وجاء هذا الحديث من طرق كثيرة متقاربة الألفاظ.

ثانياً: تحدثت السورة عن طبيعة سيئة في بعض البشر الذين يفترون بالحاضر وينسون الماضي والمستقبل، ولا يعرفون أن الله تعالى يداول الأيام بين الناس، فكثير منهم ينخدع بيومه الحاضر، فيغتر بغناه، ويجزع من فقره، ولا يدري أنه مُمتَحَن بالخير والشر، والنفع والضرر. إن الله تعالى يبتلي بالغنَى والفقر، والنصر والهزيمة، ولا يدل أي منهما على الرضى أو السخط من الله تعالى، إنه تقسيم يُمَحِّص الناس، ويحدد منازلهم يوم القيامة، والعاقبة للمتقوى.

وقد وقع التفاوت بين أرزاق الناس من بدء الخليقة، ليواسي الغني المحتاج ويفرّج كربته، وليضبر الفقير، ويكافح في طلب الرزق، ويتربى على العفاف، ولا يبكي على دنيا فاته، أو يحسد أحداً على رزق الله له، وقد استغرق هذا المعنى ست آيات من [الآية ١٥-٢٠].

ثالثاً: تحدثت السورة في الآيات العشر المتبقية منها، عن الدار الآخرة وأحوالها وشدائدها، فالناس في الدنيا يلتمسون الحرية فلا يجدونها، ويبحثون عن العدالة فيفتقدونها، ولن يتحقق لهم ذلك إلا في يوم تُدَكُّ فيه الأرض، ويأتي ربك للفصل بين الخلائق، وتأتي الملائكة صفوفاً، وتبرز جهنم للناظرين، ويصيح الإنسان بالندم في يوم لا ينفع فيه الندم، ويكون الناس فريقان: أهل الشقاء، ممن لا يعذب عذابهم أحد، وأهل النفس المطمئنة التي تدخل جنة ربها راضية مرضية..

تَفْسِيرُ السُّورَةِ

خَمْسَةُ أَيْمَانٍ عَلَى تَعْذِيبِ الْمُكَذِّبِينَ لِخَاتَمِ الْأَنْبِيَاءِ

١-٤- ﴿وَالْفَجْرِ ١﴾ وَلَيَالٍ عَشْرٍ ٢﴾ وَالشَّفْعِ وَالْوَتْرِ ٣﴾ وَاللَّيْلِ إِذَا يَسْرِ ٤﴾

أقسم الله تبارك وتعالى في أول السورة بخمسة من مخلوقاته، لشرفها وعظمتها، ودلالاتها على بديع صنعه تعالى وسعة قدرته، والمراد بها خمسة أزمنة:

١- وقت ظهور النور. ٢- وليالي عشر ذي الحجة على الأرجح.

٣- وليالي الشفع. ٤- وليالي الوتر. ٥- ووقت الظلمة.

ولله تعالى أن يقسم بما شاء من مخلوقاته، والعبد لا يقسم إلا بالله تعالى^(١).

وجواب القسم محذوف، دل عليه ﴿إِنَّ رَبَّكَ لَبَازِلٌ مُرْصِدٌ﴾ أي والله لتعذبُن أيها المكذبون لخاتم الرسل، كما عذب قوم عاد وثمود وفرعون، فتبعثن من قبوركم، وتُحاسِبُن، وتُعاقِبُن على عدم إيمانكم بالله ورسوله واليوم الآخر.

وقد يكون المقسم به هو نفسه المقسم عليه كما في هذه الآيات إذا كان أمراً ظاهراً مُهِمّاً، وهذا جائز لغة ومستعمل في مثل هذه الحالة، أما تفصيل ذلك ففي شرح الآيات:

القسم الأول: أقسم الله تعالى بميلاد النهار وذهاب الظلام ﴿وَالْفَجْرِ﴾ والمراد به فجر كل يوم، ويدخل فيه فجر يوم النحر، وفجر يوم الجمعة، وفجر أول يوم في عمر الدنيا.

والقسم بوقت الفجر لفضيحة صلاة الفجر التي تشهدا الملائكة، كما قال تعالى:

﴿وَقُرْآنَ الْفَجْرِ إِنَّ قُرْآنَ الْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا﴾ [الإسراء: ٧٨].

(١) قرأ حمزة والكسائي وخلف بكسر الواو من ﴿وَالْوَتْرِ﴾ لغة تميم، والباقون بالفتح، لغة قريش.

(٢) قرأ نافع وأبو عمرو وأبو جعفر بإثبات الياء وصلأ من ﴿يَسْرِ﴾ وابن كثير ويعقوب بإثباتها وصلأ ووقفأ، والباقون بحذفها في الحالين، وفي الرأء حال الوقف عليها وجهان: التفخيم، لأنها ساكنة للوقف بعد ساكن أصلي قبله فتح، والترقيق نظراً للياء المحذوفة، فأصلها (يسرى) وهذا لحفص وغيره.

(٣) أخرجه ابن أبي شيبة عن ميمون بن مهران.

وقد يراد بالفجر: أول فجر انبثق فيه النهار، وتفجرت به الحياة لما خلق الله هذا الكون. ويراد بالعشر: الأيام العشر الأول بعد أن خلق الله السموات والأرض. وفي إدبار الليل وإقبال النهار، آيات دالة على عظيم قدرة الله تعالى، وأنه سبحانه المدبر لهذا الكون، فلا تصرف العبادة إلا له جل شأنه.

وانفجار النهار من ظلمة الليل يقول الله تعالى عنه: ﴿وَالصُّبْحُ إِذَا تَنَفَّسَ﴾ [التكوير: ١٨]. القسم الثاني: أقسم تبارك وتعالى بالليالي العشر الأول من شهر ذي الحجة - على الأرجح - لأن فيها مناسك الحج: من الإحرام والطواف والوقوف بعرفة، وتنتهي المناسك بوقفة عرفة ويوم النحر (وليال عشر).

عن ابن عباس رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال: «ما من أيام العمل الصالح فيها أحب إلى الله تعالى من هذه الأيام» - يعني عشر ذي الحجة - قالوا: (ولا الجهاد في سبيل الله؟) قال: «ولا الجهاد في سبيل الله، إلا رجلاً خرج بنفسه وماله، ثم لم يرجع من ذلك بشيء»^(١). وعن جابر رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «إن العشر، عشر الأضحى، والوتر، يوم عرفة، والشفع يوم النحر»^(٢).

وهي عشرة ذى الحجة الأيام المعلومات التي قال الله فيها:

﴿وَيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ فِي أَيَّامٍ مَّعْلُومَاتٍ﴾ [الحج: ٢٨].

أما الأيام المعدودات فهي أيام التشريق التي قال الله تعالى عنها:

﴿وَأَذْكُرُوا اللَّهَ فِي أَيَّامٍ مَّعْدُودَاتٍ﴾ [البقرة: ٢٠٣].

(١) صحيح البخاري برقم (٩٦٩)، والبيهقي في الشعب (٣٧٤٩، ٣٧٥٢)، والمسند (١٩٦٨، ٣١٣٩) بإسناد صحيح على شرط الشيخين، وأبو داود (٢٤٣٨)، والترمذي (٧٥٧)، وابن ماجه (١٧٢٧)، والبخاري (١١٢٥) وغيرهم.
(٢) المسند (٣٢٧/٣) (١٤٥١١)، والنسائي في السنن الكبرى (٤١٠١، ١١٦٧١)، والبخاري (٢٢٨٦) كشف، والبيهقي في الشعب (٣٧٤٣)، وصححه الحاكم والذهبي على شرط مسلم من طريق علي بن عفان العامري عن زيد بن الحباب، المستدرک (٢٢٠/٤)، وعزاه الهيثمي في مجمع الزوائد (١٣٧/٧) إلى أحمد والبخاري وقال: رجالهما رجال الصحيح غير عياش بن عتبة وهو ثقة، وقال محققو المسند: إسناده ضعيف، وقال ابن كثير إسناده لا بأس به.

وأخرج الطبري بسنده الصحيح عن مجاهد ﴿وَلَيْلِ عَشْرِ﴾ قال: عشر ذي الحجة. وهذه الأدلة ترجّح أنه ليس المراد بها العشر الآخر من رمضان، على ما فيها من فضل لا شتمالها على ليلة القدر، ولا العشر الأول من شهر الله المحرم. القسم الثالث: ثم أقسم سبحانه وتعالى بكل شفّع من المخلوقات فقال ﴿وَالشَّفْعِ﴾ وهو ما يكون ثانياً لغيره، كالصلاة الثنائية، قال تعالى: ﴿وَمِن كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ [الذاريات: ٤٩].

فلكل شيء في الوجود مقابل: كالأنثى والذكر، والليل والنهار، والشمس والقمر، والسماء والأرض، والجبل والبحر، والنار والماء، والظلمة والنور، والإيمان والكفر، والشقاء والسعادة، والضلال والهدى، والعز والذل، والفقر والغنى، والصحة والمرض، والبر والبحر، والجن والإنس، والعلم والجهل، والموت والحياة، والضعف والقوة، والبصر والعمى، والجنة والنار، الخ.

كأن الله تعالى يُقسّم بكل شفّع من مخلوقاته، وفي مقدمة ذلك يوم النحر كما جاء في حديث جابر السابق.

وهذا القسم يشمل قوله تعالى: ﴿فَلَا أَقْسِمُ بِمَا تُبْصِرُونَ﴾ (٣٨) ﴿وَمَا لَا تُبْصِرُونَ﴾ [الحاقة: ٣٨ - ٣٩]. القسم الرابع: أقسم تبارك وتعالى بالوتر، وقد جاء في حديث جابر أنه يوم عرفة، فكان الله تعالى أقسم بعشر ذي الحجة كلها، وخص منها يوم عرفة ويوم النحر، لعظم شأنهما ومزيد فضلهما، ولا يمنع هذا أن يشمل القسم كل وتر، قياساً على القسم بكل شفّع، وهذا من ناحية استواء اللفظ بين الشفع والوتر.

ولكن إذا ثبت علمياً أنه لا يوجد كائن ما، جماداً أو غيره، بمعنى الوتر، فإنه لا يكون موجوداً، حتى في الحصاة الصغيرة، لأنها مكونة من ذرات، والذرة لها نواة ومحيط، وحتى الهواء، فإنه مكوّن من غازات وتراكيب، والماء مكون من عنصريّن: أوكسجين، وهيدروجين، فلم يبق شيء في الكون فرداً وتراً بذاته، إلا ما نص عليه الحديث (إن الله وتر يحب الوتر)^(١).

(١) من حديث عليّ (٧٨٦، ١٢١٤) وهو حديث صحيح، وأخرجه البيهقي في السنن (٢/ ٤٦٧).

كما في حديث أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «إن لله تسعة وتسعين اسماً، مئة إلا واحداً، من أحصاها دخل الجنة، وهو وتر يحب الوتر»^(١).

فهو سبحانه وثرٌ مستغنٌ بذاته عن غيره، واحد في ذاته، وأسمائه وصفاته وأفعاله. وعلى هذا فإن الشفع هو المخلوقات جميعاً، والوتر هو الله وحده^(٢). قال الخازن: الشفع هو الخلق، والوتر هو الله^(٣).

وأخرج الطبري بسنده الصحيح عن مجاهد رضي الله عنه ﴿وَالشَّفَعِ وَالْوَتْرِ﴾ قال: كل خلق الله شفع: السماء والأرض، والبر والبحر، والجن والإنس، والشمس والقمر، والله الوتر وحده. وهذا القسم يشمل قوله تعالى: ﴿فَلَا أَقْسِمُ بِمَا تُبْصِرُونَ﴾ [الحاقة: ٣٨ - ٣٩]. ومفهوم هذا: وجود وتر من المخلوقات يُشفع بغيره، ولا يستغنى بذاته عن غيره، فهو يحتاج إلى العنصر الآخر ولا بد.

وعليه: يحمل إطلاق الوتر على يوم عرفة، وإطلاقه على كل نظير يُضَم إليه فيكون شفعاً. ومنه حديث عمران بن حصين رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ سئل عن الشفع والوتر، فقال: «هي الصلاة، بعضها شفع وبعضها وتر»^(٤).

أما القسم الخامس فهو قوله تعالى ﴿وَاللَّيْلِ إِذَا يَنزَلَ﴾ أي أقسم بالليل وهو يسري بظلامه، ويُرخي ظلاله على العباد، فيسكنون ويستريحون ويطمئنون رحمة من الله بهم كما قال تعالى: ﴿وَاللَّيْلِ إِذَا أَدْبَرَ﴾ [المدثر: ٣٣] ﴿وَاللَّيْلِ إِذَا عَنَسَ﴾ [التكوير: ١٧] ﴿وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَى﴾ [الضحى: ٢] أي إذا تمكن ظلامه واشتد، وعندما يسري الليل يأخذ الناس حظهم من النوم، والمراد جنس الليل، وخصه بعضهم بليلة مزدلفة، والعموم أولى.

(١) صحيح البخاري برقم (٦٤١٠)، وصحيح مسلم برقم (٢٦٧٧).

(٢) ينظر بحث الشيخ عطية سالم في تمة أضواء البيان (٢١٠/٩).

(٣) تفسير الخازن (٣٧٤/٤).

(٤) المسند (٤٣٧/٤) برقم (١٩٩١٩، ١٩٩٣٥) وإسناده ضعيف لإيهام الراوى عن عمران، وبقية رجاله ثقات، وأخرجه الترمذى (٣٣٤٢)، والطبرانى فى الكبير (٥٧٩/١٨).

قَسَمَ مُقْنِعٌ لِكُلِّ صَاحِبِ عَقْلٍ

٥ - ﴿هَلْ فِي ذَلِكَ قَسَمٌ لِذِي حِجْرٍ ۝﴾

أقسم الله تعالى: بالفجر والليالي العشر، والشفع والوتر، والليل إذا يسر، ثم قال: أليس فيما أقسمتُ لكم به ما هو جدير أن تؤكّد به الأخبار عند كل ذي عقل سليم. ﴿هَلْ فِي ذَلِكَ قَسَمٌ﴾ مقنع لكل صاحب عقل يخجّر صاحبه عن ارتكاب ما لا ينبغي؟ والجواب: بلى، فإن مما لاشك فيه أن كل ذي عقل يعلم تمام العلم أن ما أقسم الله تعالى به من عظيم مخلوقاته، فيه تأكيد كاف ومقنع لصدق ما أقسم الله تعالى عليه، وبعض هذا القسم يكفي لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد. والله تعالى يقسم بأسمائه وصفاته لعلمه.

ويقسم بأفعاله لقدرته، كما في قوله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقَ الذَّكَرَ وَالْأُنثَى﴾ [الليل: ٣].

ويقسم بمفعولاته لعجائب صنعه كما في قوله تعالى: ﴿وَالْفَجْرِ ۝١ وَلَيَالٍ عَشْرٍ ۝٢﴾^(١).

فالأقسام الخمسة في هذه الآيات لما فيها من بديع صنع الله تعالى وعظيم قدرته.

إِهْلَاكَ أَقْوَى الْأُمَمِ فِي السَّابِقِ يُؤْذِنُ بِإِهْلَاكِ أَمْثَالِهَا فِي الْحَاضِرِ وَالْمُسْتَقْبَلِ

٦-٨ - ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ ۝٦ إِرَمَ ۝٧ ذَاتِ الْعِمَادِ ۝٨ آلِي لَم يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلَادِ ۝٨﴾

ثم ذكر الله سبحانه مقدمة دليل جواب القسم، وهو ما فعل بقوم عاد وثمود وفرعون من عذاب الاستئصال.

والمعنى: أن الله تعالى سيضرب العذاب صباً على كل من كذب بخاتم الرسل ﷺ كما صبه على أقوى الجبارين الذين عرفهم التاريخ القديم:

﴿أَلَمْ تَرَ﴾ ألم يصل إلى علمك - يا رسولنا - وترى بقلبك وبصيرتك ﴿كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ﴾

﴿بِعَادٍ﴾ وهم أهل الأحقاف الذين كانوا في الربع الخالي من جنوب الجزيرة العربية، الذين قال الله عنهم: ﴿وَلَيْكَ عَادٌ جَحَدُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَعَصَوْا رُسُلَهُ وَاتَّبَعُوا أَمْرَ كُلِّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ﴾ [هود: ٥٩].

(١) ينظر: تفسير القرطبي (٤١/١٩).

(٢) رقق الأزرق راء ﴿إِرَمَ﴾ وفخمها، والباقون بالتفخيم قولاً واحداً.

وقال سبحانه: ﴿وَأَمَّا عَادٌ فَأَقْبَكُوا بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ ۖ ﴿٦﴾ سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَنِيَةً أَيَّامٍ ۖ حُسُومًا فَتَرَى الْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَى كَأَنَّهُمْ أُعْبَازُ نَحْلٍ خَاوِيَةٍ ۖ ﴿٧﴾ فَهَلْ تَرَى لَهُمْ مِنْ بَاقِيَةٍ ۖ ﴿٨﴾﴾ [الحاقة: ٦- ٨].

وقوم عاد، نُسبوا إلى أبيهم: عاد بن عُوصي، بن إرم، بن سام، بن نوح. و﴿إِرم﴾ هو جدّهم الأول، وهم عادا الأولى، الذين أرسل الله إليهم نبيه هوداً عليه السلام، وكانوا أقوى القبائل في عصرهم، معروفين بالبطش والقوة، وضخامة الأجسام، وطول الأعمار، ومهارة البنيان في الأماكن المرتفعة، واتخاذ المصانع، وكانوا أهل زروع وجنات وعيون، كما كانوا أهل عُمد وخيام وماشية.

وكان لعاد ابنان: شداد وشديد، فملك (شديد) بعد أبيه البلاد وقهر العباد، ثم ملكها بعده (شداد) فبنى مدينة عظيمة وسماها باسم جده ﴿إِرم﴾ ووصفت هذه المدينة بأنها ﴿ذَاتِ أَعْمَادٍ﴾ وهي الأعمدة والدعائم القوية التي ترتكز في الأرض ليقوم عليها البيت أو القبة أو الخيمة، وكان لها أعلام بنوها في طرقهم ليهتدي بها المسافرون، وهي التي قال الله عنها ﴿أَتَتَّبِعُونَ يَكُلَّ رِيحٍ﴾ أي مرتفع من الأرض ﴿ءَايَةً﴾ أي علامة لمجرد العبث والفخر والزينة ﴿تَعْبَثُونَ﴾ [الشعراء: ١٢٨].

وقد وصف الله تعالى هذه المدينة بأنه لم يُبن مثلها في زمانها، فكانت بيوتهم ذات أعمدة ترتفع عليها خيامهم، ومبانيهم الفارهة، كما كان أهل القبيلة ضخام الأجسام، أقوياء الأبدان، عتاة، جبارين، متمردين، وقد وصفهم الله تعالى بقوله: ﴿وَاذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِنْ بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ وَزَادَكُمْ فِي الْخَلْقِ بَضْطَةً﴾ [الأعراف: ٦٩].

ومن الأمم في عصرنا الحاضر من يقول مقالة قوم عاد (من أشد منا قوة) كما قال تعالى: ﴿فَأَمَّا عَادٌ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَقَالُوا مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً﴾ [فصلت: ١٥].

ومع هذه القوة في الأجساد والبنيان والحضارة، فإن الله تعالى قد أهلك قوم عاد، وأتى عليهم، بجُند ضعيف من جنوده، هي الريح، كما جاء في قوله تعالى:

﴿وَفِي عَادٍ إِذْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الرِّيحَ الْعَقِيمَ ۖ ﴿١١﴾ مَا تَذَرُ مِنْ شَيْءٍ أَنْتَ عَلَيْهِ إِلَّا جَعَلْنَاهُ كَالرَّيْمِ ۖ﴾ [الذاريات: ٤١- ٤٢].

لقد سلط الله على أمم الأرض ريحاً فاستأصلتهم:

﴿إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِي يَوْمٍ نَحْسٍ مُّسْتَمِرٍّ ۖ تَنْزِعُ النَّاسَ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ مُّنْقَعِرٍ﴾ [القمر: ١٩ - ٢٠].

وقد استمرت هذه الريح ثمانية أيام: ﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِي أَيَّامٍ نَّحْسَاتٍ لِّنُذِيقَهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَخْرَىٰ وَهُمْ لَا يُصْرُونَ﴾ [فصلت: ١٦].

هَلَاكُ الْقُوَّةِ الثَّانِيَةِ فِي الْأَرْضِ

٩- ﴿وَتُمُودَ الَّذِينَ جَاءُوا الصَّخْرَ بِالْوَادِ^(١)﴾

وبعد أن ذكر الله تعالى هلاك أقوى الجبارين في الأرض من الأمم القديمة، في جنوب الجزيرة العربية، ذكر في هذه الآية هلاك أقوى الجبارين في شمال الجزيرة العربية، وهم قوم عاد الآخرة، الذين قال الله فيهم: ﴿وَتُمُودًا فَأَقْبَنَ﴾ [النجم: ٥١] بعد أن قال سبحانه: ﴿وَأَنَّهُ أَهْلَكَ عَادًا الْأُولَىٰ﴾ [النجم: ٥٠] وهم قوم عاد الذين سبق ذكرهم.

وقوم ثمود: نسبة إلى جدهم ثمود، وهم من بقايا (عاداً الأولى)، ممن هاجر منهم من جنوب الجزيرة إلى شمالها، ومنازل ثمود في (وادي القرى) وتسمى (الحجر) كما في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَذَّبَ أَصْحَابُ الْحَجَرِ الْمُرْسَلِينَ﴾ [الحجر: ٨٠] كما تسمى (حجر ثمود) وهو وادٍ بين خيبر وتيماء، في الطريق من المدينة إلى الشام، وبيوتهم موجودة إلى الآن، تعرف بـ (مدائن صالح).

وهم أول أمم البشر الذين نحتوا الصخر والجبال والرخام، وكانوا يُنْقَبُونَ الجبال ويجعلونها بيوتاً لهم، وقد بنوا ألف وسبع مئة مدينة كلها بالحجارة بوادي القرى^(٢). كما قال تعالى: عنهم ﴿وَتَنْحِتُونَ مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا فَرَهِينَ﴾ [الشعراء: ١٤٩] وهم أول من قطع الصخر واتخذ في الجبال بيوتاً ومساكن.

(١) أثبت الباء وصلأ من ﴿بِالْوَادِ﴾ ورش، وأثبتها في الحالين البزي ويعقوب، وأما قبل فقد أثبتها وصلأ، واختلف عنه فيها وقفنا بين الحذف والإثبات، وحذفها الباقون وصلأ ووقفأ.

(٢) تفسير القرطبي (٤٨/١٩).

وكما أهلك الله قوم عاد واستأصلهم لما كذبوا نبيهم هوداً، فعَل ذلك بقوم ثمود حين كذبوا نبيهم صالحاً، وعقروا الناقة ﴿فَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُ فَاسْتَبَعْنَاهُ وَاسْتَوْبَحُوا شِعَارَهُ بِالطَّاغِيَةِ﴾ [الحاقة: ٥].

وكما سَمَّى الله وسيلة هلاك قوم ثمود بالطاغية سَمَّاها أيضاً بالصاعقة وبالصيحة. فقال تعالى: ﴿وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَى عَلَى الْهُدَى فَأَخَذَتْهُمْ صَاعِقَةُ الْعَذَابِ الَّتِي لَمْ كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ [فصلت: ١٧].

وقال تعالى: ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ صَيْحَةً وَاحِدَةً فَكَانُوا كَهَشِيمِ الْمُخْتَطِرِ﴾ [القمر: ٣١]. وقال سبحانه: ﴿وَفِي ثَمُودَ إِذْ قِيلَ لَهُمْ تَمَنَّوْا حَتَّىٰ حِينٍ ﴿٤٣﴾ فَعَتَوْا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ فَأَخَذَتْهُمُ الصَّاعِقَةُ وَهُمْ يَنْظُرُونَ ﴿٤٤﴾ فَأَسْتَطَعُوا مِنْ قِيَامِهِمْ وَكَانُوا مُتَنَّصِينَ ﴿٤٥﴾﴾ [الذاريات: ٤٣ - ٤٥]. وقد وصف الله تعالى حضارتهم بقوله ﴿الَّذِينَ جَاءُوا﴾ أي نحتوا وقطعوا ﴿الصَّخْرَ بِأَلْوَادِ﴾ أي وادي القرى بمدائن صالح، واتخذوا فيها بيوتاً ومساكن.

هَلَاكُ فِرْعَوْنَ أَقْوَى الطُّغَاةِ

١٠-١٢ - ﴿فِرْعَوْنَ ذِي الْأَوْتَادِ ﴿١٠﴾ الَّذِينَ طَعَوْا فِي الْبَلَدِ ﴿١١﴾ فَأَكْثَرُوا فِيهَا الْفُسَادَ ﴿١٢﴾﴾

أما ثالث أقوى الجبارين في التاريخ القديم: فهو فرعون الطاغية، الذي قال لقومه: ﴿أَنَا رَبُّكُمْ الْأَعْلَى﴾ [النازعات: ٢٤].

وقال لهم ﴿مَا عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرِي﴾ [القصص: ٣٨].

وقال لموسى عليه السلام: ﴿لَئِنْ أَخَذْتُ إِلَهًا غَيْرِي لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ الْمَسْجُونِينَ﴾ [الشعراء: ٢٩]. وقد ذكر فرعون أن مقومات الإله متوافرة فيه، فقال:

﴿أَلَيْسَ لِي مُلْكٌ مِصْرَ وَهَذِهِ الْأَنْهَارُ تَجْرِي مِنْ تَحْتِي أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾ [الزخرف: ٥١].

ومع هذا الطغيان والجبروت الذي لا يضاهي، فقد علمت - أيها المخاطب - ما فعل الله بفرعون مصر، صاحب الجنود الكثيرين الذين ثبَّتوا مُلْكَهُ، وقوَّوا أمره. كما كان له أوتاد يضربها في الأرض ويشد فيها الناس لتعذيبهم كما فعل بآسية. وكان لجنوده خيام كثيرة يضربونها في الأرض حيث نزلوا، وهو باني إهرامات مصر على شكل الأوتاد.

تعذيب ماشطة بنت فرعون:

جاء عن ابن عباس رضى الله عنهما أن خازن فرعون (حزقيل) كان مؤمناً يكتُم إيمانه، وكانت امرأته ماشطة، لبنت فرعون، وكانت مؤمنة أيضاً، فوقع المشط من يدها يوماً فقالت: تعس من كفر بالله، فقالت بنت فرعون: هل لك من إله غير أبي؟ فقالت: إلهي وإله أبيك، وإله السموات والأرض واحد، هو رب العالمين وحدة لا شريك له، فلما ذكرت ذلك لأبيها طلب منها أن تُقرّ بأنه الإله، وتكفر بما تقول، فأبت فشدها في أربعة أوتاد، وأرسل عليها الحيات والعقارب، وذبح ابنتها الكبرى أمامها كي تكفر، فأبت، فجيء بابنتها الرضيعة، فلما أراد ذبحها أنطق الله لسانها - وهي من الأربعة الذين تكلموا في المهد - فقالت لأُمها: لا تجزعي يا أماء، فإن الله قد بنى لك بيتاً في الجنة، فاصبري، فذُبِحت الطفلة، وماتت الأم فأسكنها الله جنته.

تعذيب آسية امرأة فرعون:

وكان فرعون قد تزوج امرأة من بني إسرائيل هي (آسية بنت مزاحم) فلما رأت ما صنع فرعون بالماشطة أنكرت ذلك عليه، فأرسل إلى أبويها فأنكرا عليها قولها، فأعلنت إيمانها بالله وكفرها بفرعون، فشدها في أربعة أوتاد لتعذيبها، ففتح الله لها باباً إلى الجنة، ليهوّن عليها ما يصنع فرعون، فقالت عندئذ ﴿رَبِّ ابْنِ لِي عِنْدَكَ بَيْتًا فِي الْجَنَّةِ وَنَجِّنِي مِنْ فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِ وَنَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ [التحریم: ١١] فقبض الله روحها وأدخلها الجنة^(١).

وإلى جوار كثرة جنود فرعون، والأوتاد التي كان يربط فيها الناس لتعذيبهم: فقد أخرج ابن جرير وغيره بسنده عن قتادة أن فرعون كانت له مظال وملاعب يُلعبُ له تحتها، وأوتاد كانت تُضرب له^(٢).

وفسر بعض أهل العلم أن المراد بالأوتاد: الإهرامات المعروفة في مصر، فهي تشبه الأوتاد في منظرها، على شكل مثلث قاعدته إلى أسفل، وطرف قمته مُدبَّب في أعلاه

(١) ينظر: تفسير الخازن (٤/٣٧٦)، والبخاري وغيرهما.

(٢) أخرجه عبد الرزاق (٢/٣٧١)، والطبري (٢٤/٣٧١).

شبهه الوتد، وقد بناها الفراغة لتكون قبوراً لهم، وسخّروا شعوبهم في بنائها، ولعل هذا هو المراد بالأوتاد.

وموضع العظة والعبرة أن الله تعالى قد أهلك هذا الطاغية، باني هذه الإهرامات القائمة المشاهدة لكل جيل في كل زمان، لأنه كذب نبي الله موسى عليه السلام، وهكذا يهلك الله تعالى كل من كذب خاتم النبيين ﷺ وليس هناك ما يمنع الجمع بين أن يراد بالأوتاد: الأهرامات، أو الأوتاد التي كان فرعون يعذب فيها الناس.

ثم وصف الله تعالى: عاداً وثمود وفرعون، بشدة الطغيان والظلم والعصيان، فكان ظلم كل منهم في بلده بما أوقع من طغيان في كل جانب من جوانب الحياة، فأفسدوا فيها وتجاوزوا كل حد في العصيان والظلم.

ثم فسر سبحانه هذا الطغيان: بأن كُلاً من هؤلاء الثلاثة: عاد وثمود وفرعون، قد تجاوز الحد بالفسق والخروج عن طاعة الله تعالى، فأكثر من القتل والظلم والجور واستعباد الناس، وصد الناس عن دين الله، وهذا موجب لهلاكهم.

عَقَابُ اللَّهِ تَعَالَى لِلطَّغَاةِ وَالظَّالِمِينَ

١٤، ١٣ - ﴿فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ ۖ إِنَّ رَبَّكَ لَالْمُرْصَادُ ۝١٤﴾

أي: وكان هذا الإكثار من الفساد سبباً في غضب الله تعالى عليهم، فصب الله عليهم العذاب صبّاً، وتم ذلك بصورة مفاجئة قضت عليهم جملة ﴿فَكَلَّا أَخَذْنَا بِذُنُوبِهِمْ﴾ [العنكبوت: ٤٠].

١- أما عاد فقد رأوا السحب في الأفق، فظنوها تحمل المطر إليهم، وإذ به ربح فيه عذاب شديد ﴿تُدْمِرُ كُلَّ شَيْءٍ بِأَمْرِ رَبِّهَا فَأَصْبَحُوا لَا يُرَى إِلَّا مَسَكِنُهُمْ﴾ [الأحقاف: ٢٥].

٢- وأما ثمود فقد أخذتهم الصيحة فأصبحوا في ديارهم جائمين كأنهم لم يكونوا فيها.

٣- وأما فرعون وجنوده: فقد رأوا البحر قد انحسر ماؤه، وتجمّد، وصار كالجبل الأشم، وعبر موسى ومن معه طريقاً يابساً آمناً، فنزل فرعون بجنده البحر وراءهم في هذا الطريق اليابس الآمن، فلما اكتملوا داخل البحر أطبقه الله عليهم وأغرقهم ﴿فَفَشَّيْهُمْ

(١) راء (بلمرصاد) مفخمة لجميع القراء، لوجود حرف استعلاء بعدها.

مِّنَ اللَّيْلِ مَا عَاشَيْهِمْ ﴿٧٨﴾ [طه: ٧٨].

﴿فَأَخَذَتْهُ وَجُودُهُ فَنَبَذَتْهُمْ فِي اللَّيْلِ وَهُوَ مُلِيمٌ﴾ [الذاريات: ٤٠].

وهذا معنى: ﴿فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ﴾ أي أفرغ العذاب عليهم إفراغا فكان كالسوط في سرعته وشدته.

وهكذا يفعل الله بكل ظالم، وبكل طاغية مفسد في كل زمان ومكان.

﴿إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ﴾ يرصد عمل كل إنسان، ويحصيه عليه، ويجازيه به.

وفي هذا تهديد ووعد لكل من أصر على الجحود والعناد، أن يصيبه مثل ما أصاب أسلافه، والله تعالى يمهل الظالمين قليلاً، ثم يأخذهم أخذ عزيز مقتدر.

﴿أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ [الروم: ٩].

وإذا علم المؤمن أن ربه بالمرصاد لكل طاغية جبار، اطمأن قلبه، ونام ملىء جفونه، فلن يفوت أحد من الحساب والجزاء وفق ميزان دقيق لا يخطئ ولا يظلم، ولا يأخذ أحداً بذنب غيره ﴿إِنَّ أَخَذَهُ الْبَاسُ شَدِيدٌ﴾ [هود: ١٠٢].

كَثْرَةُ الْمَالِ وَالنَّجَاةُ لَا يَعْزِيَانِ رِضَى اللَّهِ تَعَالَى عَنِ الْعَبْدِ

١٥ - ﴿فَأَمَّا الْإِنْسَانُ إِذَا مَا ابْنَلَهُ رَبُّهُ فَأَكْرَمَهُ وَنَعَّمَهُ ۖ فَيَقُولُ رَبِّي أَكْرَمَنِ ﴿١٥﴾﴾

يخبر الله سبحانه أن الإنسان لا علم له بعواقب الأمور، فهو يظن أن إكرام الله له بالمال والصحة والجاه دليل رضا الله تعالى عنه، وأن هذا الإكرام سيستمر ويدوم، وهو لا يعلم أن السبب فيما أصابه هو عدم إيمانه بالله وإهانته لليتيم وعدم رحمته بالمساكين وحب المال حبا جمًا، وهكذا.

(١) عذ المدنى الأول والأخير والمكى والحمصى، قوله تعالى ﴿يَعْمَهُ﴾ آية، وتركها غيرهم.

(٢) قرأ نافع وابن كثير وأبو عمرو وأبوجعفر بفتح ياء الإضافة من ﴿رَبِّي أَكْرَمَنِ﴾ وصلًا، والباقون بإسكانها ومثلها ﴿رَبِّي أَهْنَنِ﴾ في الآية بعدها.

(٣) أثبت ياء بعد النون من ﴿أَكْرَمَنِ﴾ و ﴿أَهْنَنِ﴾ في حالة الوصل، نافع وأبوجعفر وأبو عمرو بخلف عنه، وأثبتها وصلًا ووقفًا البزي ويعقوب، والباقون بحذفهما في الحالين، هذا: وقد انفرد الحمصى وحده بترك عذ ﴿أَكْرَمَنِ﴾ وعذها غيره.

هذه سنة الله في خلقه - وفق علمه وحكمته - أن يراقب أعمال عباده ويحاسبهم ويجازيهم عليها، والإنسان العاقل هو الذي يفهم هذا المعنى، فيؤدي ما كلفه الله به، كي يسعد في الدنيا والآخرة.

أما الإنسان الشقي فإن النعمة تُبطره وتُطغيه، كحال الأمم الثلاث: عاد وثمود وفرعون وقومه، فقد توهّموا أنهم أهل كرامة عند ربهم بحكم ما هم فيه من نعمة وترف، فكذبوا رسل الله ولم يصدقوهم، ونفّوا أن يكون هناك يوم آخر، يُسألون فيه عما أُنذروا به في الدنيا.

فإذا أصيب هذا الشقي بما هو عكس لذلك، بأن سُلبت منه النعمة، أو ضيّق عليه في الرزق، فإنه يعتبر ذلك ذلة ومهانة فيسخط ويتضجر.

والإنسان في كلتا الحالتين مُخطيء مذموم، فهو يظن أنه أهل لكثرة المال، وأنه قد آل إليه عن طريق الخبرة والحكمة والعلم، كما قال قارون: ﴿إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ عِنْدِي﴾ [الفصلص: ٧٨].

وهو يحسب أن هذا المال دليل رضى من الله تعالى عليه ﴿يَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُم بِهِ مِن مَّالٍ وَبَيْنَ ۖ سَاعٍ لَهُم فِي الْآخِرَةِ ۚ بَلْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ [المؤمنون: ٥٥ - ٥٦] يظن أنه سيكون سعيداً في الآخرة - إن كان هناك آخرة على حد زعمه - كما هو سعيد في الدنيا، فيقول:

﴿وَلَئِن رُّجِعْتُ إِلَىٰ رَبِّي إِنَّ لِي عِنْدَهُ لَلْحُسْنَىٰ﴾ [فصلت: ٥٠].

ويقول: ﴿وَلَئِن رُّودْتُ إِلَىٰ رَبِّي لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِّنْهَا مُنْقَلَبًا﴾ [الكهف: ٣٦].

هذا في حالة ما إذا مسه الخير.

أما إذا مسه الشر والفقر فسرعان ما يسخط ويجزع، كما قال تعالى:

﴿وَلَئِن أَدْقْنَا الْإِنْسَانَ مِنَّا رَحْمَةً ثُمَّ نَزَعْنَاهَا مِنْهُ إِنَّهُ لَيَكُوفُ ۖ كَافُورٌ ۝١ وَلَئِن أَدْقْنَاهُ نَعْمَاءً

بَعْدَ ضَرَاءٍ مَّسَتْهُ لَيَقُولَنَّ ذَهَبَ السَّيِّئَاتُ عَنِّي ۚ إِنَّهُ لَفَرِحٌ فَخُورٌ﴾ [هود: ٩ - ١٠].

وقال سبحانه: ﴿وَإِذَا أَنْعَمْنَا عَلَى الْإِنْسَانِ أَعْرَضَ وَنَسَّ جَنَابَهُ ۚ وَإِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ فَذُو دُعَاءٍ عَرِيضٍ﴾

[فصلت: ٥١].

والمفهوم الصحيح أن يعتقد العبد أن الله تعالى يتبلي بسعة الرزق، كما يتبلي بتضييقه، وأن المال فتنة في كلتا الحالتين ﴿إِنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ﴾ [التغابن: ١٥].
 كما أن الله تعالى يتبلي بالمنصب والجاه، والصحة والمرض، والنصر والهزيمة، والخير والشر، كما قال الله تعالى: ﴿وَنَبِّئُكُمْ بِالْشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ﴾ [الأنبياء: ٣٥].
 وكثرة المال قد تؤدي بالإنسان إلى أسوأ المهالك قال تعالى: ﴿فَلَمَّا شَاءُوا مَا دُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمُ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّى إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً فَإِذَا هُمْ مُبْلِسُونَ ﴿٤٤﴾ فَقُطِعَ دَائِرُ الْقَوَمِ الَّذِينَ ظَلَمُوا وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [الأنعام: ٤٤ - ٤٥].

ولذلك فإن الله تعالى في هذه الآية، ينكر على الإنسان زعمه الفاسد واعتقاده الخاطيء في أن توسعة الرزق عليه إكرام من الله تعالى له، بل هو ابتلاء واختبار.
 ﴿فَأَمَّا الْإِنْسَانُ إِذَا مَا ابْنَلَهُ رَبُّهُ﴾ أي اختبره بالنعمة وبسط العيش ﴿فَيَقُولُ رَيْتَ أَكْرَمَ﴾ يظن أن ذلك لكرامته على ربه ورضاه عنه، هذا هو الصنف الأول من الناس.

الْفَقْرُ وَالضَّعْفُ لَا يَغْنِيَانِ سَخَطَ اللَّهِ تَعَالَى عَلَى الْعَبْدِ

١٦ - ﴿وَأَمَّا إِذَا مَا ابْنَلَهُ فَقَدَرَ ^(١) عَلَيْهِ رِزْقُهُ ^(٢) فَيَقُولُ رَيْتَ أَهْتَنَ ﴿١٦﴾﴾

هذه الآية وصف للكافر الذي لا يؤمن بالبعث، ويعتقد أن الكرامة والهوان في حظوظ الدنيا، أي أن الإنسان إذا اختبره ربه بتضييق الرزق عليه، فإنه يظن أن ذلك لهوانه على الله تعالى، وهذا عندما يخلو القلب من الإيمان، فلا يدرك أن قيمة العبد عند الله تعالى لا تتعلق بما يعطيه الله له من عَرْض الدنيا، وأنه لا يُستدل بذلك على رضى الله تعالى أو سخطه بالمنح أو المنع، وأن الله تعالى يعطي ليتبلي، ويمنع ليتبلي، غير أن الإنسان لا يدرك حكمة المنع والعطاء، ولا حقيقة القيم في ميزان الله تعالى، فإذا عمّر القلب بالإيمان، أدرك هذه المعاني، وعرف أن وراء الابتلاء حساب وجزاء، فيشكر على الخير، ويصبر على الضر.

(١) قرأ ابن عامر وأبوجعفر بتشديد الدال من ﴿فَقَدَرَ﴾ والباقون بتخفيفها، وهما لغتان بمعنى واحد هو التضييق.

(٢) عد الحجازيون (رزقه) آية، وتركها غيرهم.

وغير المؤمن هو الذي يعتقد أنه لا كرامة للعبد إلا في متاع الدنيا، ولا إهانة له إلا في الحرمان منها، لأنه لا يؤمن بالبعث، وهذا هو الصنف الثاني من الناس. أما المؤمن فيعتقد أن كرامته عند الله تعالى بالفوز برضاه والجنة عندما يحسن العمل للدار الآخرة.

فالكريم عند الله تعالى هو: من يوفقه لطاعته والعمل لآخرته ويدخله جنته. والإهانة عند الله تعالى: ألا يوفق العبد للطاعة وأن يكون من أهل النار.

أَرْبَعَةُ أَسْبَابٍ لِإِهَانَةِ الْعَبْدِ عِنْدَ رَبِّهِ

١٨، ١٧ - ﴿كَلَّا بَلْ لَا تُكْرِمُونَ^(١) الْيَتِيمَ^(٢) وَلَا تَحْضُرُونَ^(٣) عَلَى طَعَامِ الْمَسْكِينِ^(٤)﴾

ولما صحح سبحانه المفاهيم في العطاء والمنع، والسعة والضيقة، بين الحقيقة في فتنة الابتلاء بالمال: إيجاباً وسلباً، وجمعاً وبذلاً، وأنه ليس الأمر كما يزعم غير المؤمن، من أن الله تعالى يعطي العبد الثرى من المال والجاه لكرامته على الله تعالى، ويمنع العبد الفقير لهوانه على الله تعالى، وإنما هو ابتلاء اقتضته حكمته تعالى، ليختبر العبد، أي شكر أم يكفر؟ أيصبر أم يتضجر؟ وكرم المرء يكون بطاعة الله تعالى، وإهانته تكون بمعصيته، فليس الإكرام والإهانة في كثرة المال أو قلته، بل الإكرام: في التوفيق لطاعة الرحمن، والإهانة: في الحرمان والخذلان.

ثم ذكر سبحانه وتعالى أربعة أسباب لإهانة العبد عند ربه وعدم قيامه بشكر النعمة، فكان ذلك سبباً في فشله في الاختبار.

(١) قرأ أبو عمرو ويعقوب بخلف عن روح، بياء الغيبة في هذه الأفعال الأربعة (تكرمون، تحاضون، تأكلون، تحبون) والباقون بقاء الخطاب في الجميع على الالتفات وهو الوجه الثاني لروح.

(٢) قرأ عاصم وحزمة والكسائي وأبوجعفر وخلف بفتح الحاء وألف بعدها من ﴿وَلَا تَحْضُرُونَ﴾ على حذف إحدى التائين تخفيفاً، لأن أصلها تتحاضون، والباقون بضم الحاء وحذف الألف التي بعدها، مضارع حَضَّ يحض.

ومجمل هذه الأسباب هي: إهانة اليتيم، وعدم إطعام المسكين، وأكل المال الحرام، وحب الدنيا، وهذه نبذة يسيرة عن كل منها:

السبب الأول: هو عدم إكرام اليتيم، وعدم إحسان معاملته، فالذي يضمن بماله على اليتيم - وهو الذي مات أبوه وهو صغير قبل سن التكليف - فلا يُطعمه، ولا يقوم بكفالاته وتربيته، يكون قد رسب في فتنة الابتلاء بالمال، واستحق الإهانة، لأنه عصى الله تعالى بعدم جبر خاطر اليتيم والإحسان إليه، وربما نهره وأهانته.

وكفالة اليتيم من أفضل القربات إلى الله تعالى، وما أكثرهم في العالم الإسلامي اليوم، الذي ابتلي بالحروب في جنابات الأرض، وكثرت فيه الأراامل والشكالي واليتامى لاسيما في فلسطين وأفغانستان والعراق والبوسنة والشيبيان.. الخ.

عن سهل بن سعد رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «أنا وكافل اليتيم كهاتين في الجنة» وقرن بين أصبعيه: الوسطى والتي تلي الإبهام^(١).

والسبب الثاني: هو عدم الحث على إطعام المسكين:

أي أنهم لا يأمرهم غيرهم بسد حاجة الفقراء والمعوزين المحتاجين، وذلك للشح الذي استولى على نفوسهم وحب الدنيا الذي تمكن من قلوبهم.

ونفّي الحُض على إطعامهم، نفّي لإطعامهم من باب أولى، فهم لا يُطعمون المسكين، ولا يحثّون غيرهم على إطعامه، لأن قلوبهم قد خلّت من الرحمة والعطف، وهذا من أسباب الإخفاق في الابتلاء بالمال، لأنّ المبتلى لا يعلم أن إنفاق المال في عثق الرقيق، وإطعام اليتيم والمسكين، من أسباب تجاوز الشدة والعقبة يوم القيامة.

﴿فَلَا أَقْنَحَ الْعَقَبَةَ ۖ وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْعَقَبَةُ ۚ فَكُ رَقَبَةً ۚ﴾ (١٣) أَوْ إِطْعَمْتُ فِي يَوْمٍ ذِي مَسْغَبَةٍ ﴿١٤﴾ نَبِيًّا ذَا مَقْرَبَةٍ ﴿١٥﴾ أَوْ مَسْكِينًا ذَا مَتْرَبٍ ﴿١٦﴾ [البلد: ١١ - ١٦].

(١) سنن أبي داود برقم (٥١٥٠)، وهو في صحيح البخاري من طريق ابن أبي حازم برقم (٦٠٠٥)، وفي المسند (٢٢٨٢٠) بإسناد صحيح على شرط الشيخين، وأخرجه الترمذی (١٩١٨)، وابن حبان (٤٦٠) وغيرهم.

وعدم إطعام المسكين جاء مقروناً بترك الصلاة، وبالتكذيب بيوم الحساب والجزاء عندما يقال لأهل النار ﴿مَا سَلَكَكُمْ فِي سَقَرٍ ۚ ﴿٤٢﴾ قَالُوا لَوْ نَكُنَّ مِنَ الْمُصَلِّينَ ﴿٤٣﴾ وَلَوْ نَكُنَّ نَاطِقِينَ ۖ﴾ [المدثر: ٤٢ - ٤٤].

كما أن عدم الحض على طعام المسكين جاء مقروناً بالتكذيب بيوم البعث والنشور، كما في قوله تعالى: ﴿أَرَأَيْتَ الَّذِي يُكَذِّبُ بِالذِّبِّ ﴿١﴾ فَذَلِكَ الَّذِي يَدْعُ أَيْتَمَ ﴿٢﴾ وَلَا يُحِضُّ عَلَىٰ طَعَامِ الْمِسْكِينِ ﴿٣﴾﴾ [الماعون: ١ - ٣].

فهم لا ينفعون المساكين، لا يبذل أموالهم، ولا بالوساطة والشفاعة الحسنة في حث الناس على إطعامهم، فيبقى المسكين مغلوباً مقهوراً بينهم لا تمتد إليه يد بالعون.

السَّبَبُ الثَّالِثُ: فِي عَدَمِ اجْتِنَازِ فِتْنَةِ الْمَالِ بِنَجَاحٍ

٢٠، ١٩- ﴿وَتَأْكُلُونَ التَّرَاثَ أَكْلًا لَّمًّا ﴿١٩﴾ وَتُحِبُّونَ الْمَالَ حُبًّا جَمًّا ﴿٢٠﴾﴾

إن هؤلاء المفتونين بالمال يأكلون حقوق الآخرين في الميراث وغيره أكلاً شديداً بنهم، فربما أكل مال وصيه أو وليه، أو أخته، ولا يزال هذا موجوداً في بعض البلاد لدى بعض القبائل وبعض المجتمعات إلى وقتنا.

فالمراد بالتراث: هو المال الذي يتركه المورث لوارثه الصغير، أو الضعيف، أو الأثني، أو صاحب العاهة وغيرهم، ممن يكون عاجزاً عن حماية ماله، فيأكله من لا حق له فيه ﴿أَكْلًا لَّمًّا﴾ أي يضم مال الصغير إلى مال نفسه ويأكلهما جميعاً، ولا يبقى شيئاً كما قال تعالى: ﴿وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ إِلَىٰ أَمْوَالِكُمْ إِنَّهُ كَانَ حُوبًا كَبِيرًا﴾ [النساء: ٢].

فيأخذ أحدكم نصيب غيره في الميراث ويضمه إلى نصيبه، من غير تفرقة بين الحلال والحرام.

وكان العرب لا يعطون الأثني، ولا الصغير من الميراث، بل ينفرد به الرجال^(١).

وأكل التراث يشمل جميع الانتفاع والتصرفات المالية.

(١) التسهيل لعلوم التنزيل (٤/١٩٨)، والخازن والنسفي (٤/٣٧٨)، والشوكاني وغيرهم.

والسبب الرابع: محبتكم للمال حباً مفرطاً مع شدة الحرص عليه، ومنع حقوق الله وحقوق العباد منه، فأنتم مولعون بحب المال حتى استعبدكم وألهاكم التكاثر فيه:

قال تعالى: ﴿أَلْهَكُمُ التَّكَاثُرُ ۚ حَتَّى زُرْتُمُ الْمَقَابِرَ ۚ﴾ [التكاثر].

وقال سبحانه: ﴿بَلْ تُؤْثِرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ۖ وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَى ۚ﴾ [الأعلى].

وقال جل شأنه: ﴿كَلَّا بَلْ تُحِبُّونَ الْعَاجِلَةَ ۖ وَتَذُرُونَ الْآخِرَةَ ۚ﴾ [القيامة].

والإفراط في حب المال يوقع في اكتسابه من طرق غير مشروعة، كالغضب والسرقة والرشوة وأكل الأمانات، وغير ذلك.

والإفراط في حب المال، يجعل الإنسان يضمن به على نفسه وعلى من يعول، ولا ينفق منه في سبيل الله: في حديث عبد الله بن مسعود ؓ أن رسول الله ﷺ قال: «أيكم مال وارثه أحب إليه من ماله؟» قالوا: يا رسول الله، ما مِنَّا أحدٌ إلا ماله أحب إليه، قال: «فإن ماله ما قدم ومال وارثه ما أخر».

زاد في رواية: «ليس لك من مالك إلا ما أكلت فأفنيته، أو لبثت فأبليت، أو أعطيت فأمضيت»^(١).

فهذه الأسباب الأربعة تقول: إنكم أيها الأشقياء لا تذكرون معنى الابتلاء بالمال، فلم تحاولوا النجاح فيه: بإكرام اليتيم، والتواصي على إطعام المسكين، بل أنتم على العكس من ذلك، تأكلون ميراث غيركم أكلاً شرهاً، وتحبون المال حباً طاغياً، وهذه هي أسباب الإهانة وعدم الكرامة عند رب العالمين.

نَتِيجَةُ الْإِبْتِلَاءِ فِي الدُّنْيَا تَظْهَرُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ

٢١، ٢٢ - ﴿كَلَّا إِذَا دُكَّتِ الْأَرْضُ دَكًّا دَكًّا ۚ وَجَاءَ رَبُّكَ وَالْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا ۚ﴾ [٢٢]

ثم بين سبحانه وتعالى أن نتيجة الابتلاء بالمال وسعة الرزق تظهر يوم القيامة، فإن العذاب الذي لا محيص عنه، ينتظر من يفشل في الامتحان، حين يتذكر فلا تنفعه التذكيرة،

(١) البخاري (٦٤٤٢) والمسند (٣٦٢٦) من حديث طويل بإسناد صحيح على شرط الشيخين.

ويندم، ولات ساعة مندم، أما من نجح في الابتلاء فسيدخل الجنة راضياً مرضياً.
والمعنى: ليست الأموال ولا الملذات باقية لكم، بل أمامكم يوم عظيم تُدَكُّ فيه الأرض
والجبال، ويَجِئُ الله لفصل القضاء بين عبادة، وتَجِئُ الملائكة وأهل السموات صفّاً بعد
صف ثم يكون الحساب الجزاء.

ذلكم قول الله تعالى ﴿كَلَّا﴾ أي ما ينبغي أن يكون هذا حالكم، فارتدعوا وانزعجوا
عما أنتم فيه، فإن أمامكم أهوالاً عظيمة في يوم عصيب، إذا زلزلت الأرض، وكسر
بعضها بعضاً، فانهدم كل بناء وانعدم، فزالت معالم الأرض، واستوت الجبال بالوديان،
وكان ذلك إيذاناً بخراب هذا العالم وزواله، وقيام الناس من قبورهم للحساب والجزاء.
وجاء ربك مَجِئاً يليق بجلاله لفصل القضاء بين خلقه، ويطول انتظارهم في أرض
المحشر، فيستشفعون برسل الله، وعلى رأسهم أولوا العزم منهم، كي يقضي الله بينهم
إما إلى الجنة وإما إلى النار، فيعذر كل واحد منهم، حتى ينتهي الأمر إلى محمد ﷺ
فيقول: أنا لها، أنا لها، فيشفعه الله تعالى في خلقه، وهي أول الشفاعات، وهي المقام
المحمود، فيجيء رب العالمين لفصل القضاء بين الخلق، مَجِئاً لا يعلم حقيقته إلا هو
سبحانه، كما تأتي الملائكة صفوفاً صفوفاً، يأتي ملائكة كل سماء صفّاً، لتنفيذ أوامر الله
تعالى فيما يقضي به بين عباده، وهم مُحَدِّقُونَ بالإنس والجن من كل جانب.

جَهَنَّمُ فِي سَاحَةِ الْحَشْرِ، وَالْكَافِرُ يَتَحَسَّرُ عَلَى نَفْسِهِ

٢٣، ٢٤ - ﴿وَجَاءَ^(١) يَوْمَئِذٍ بِجَهَنَّمَ^(٢) يَوْمَئِذٍ يَنْذَكُرُ الْإِنْسَانُ أَنَّهُ لَمْ يَكُنْ لَهُ الذِّكْرَى^(٣)﴾ يَقُولُ

يَلَيْتَنِي قَدَّمْتُ لِحَيَاتِي ﴿٢٤﴾

أي وَأُخْضِرْتُ جَهَنَّمَ فِي عَرَصَاتِ الْقِيَامَةِ، تقودها الملائكة بالسلاسل، وَفُتِحَتْ
أبوابُها، فَأُظْهِرَتْ وَبُرِزَتْ لِلْكَافِرِينَ وَالْمُشْرِكِينَ يومَ الْقِيَامَةِ، كما قال تعالى:

(١) قرأ هشام والكسائي ورويس بإشمام كسرة الجيم للضم من ﴿وَجَاءَ﴾ والباقون بالكسرة الخالصة.

(٢) لم يعد الكوفي والبصري (بجنهم) آية، وعدها الحجازيون والشامي.

﴿وَبُرِّزَتِ الْجَحِيمُ لِلْغَاوِينَ﴾ [الشعراء: ٩١] قال سبحانه: ﴿وَبُرِّزَتِ الْجَحِيمُ لِمَنْ يَرَى﴾ [النازعات: ٣٦].
وأهل جهنم يساقون إليها كما تساق الإبل العطشى إلى موارد المياه، قال تعالى:
﴿وَسِيقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَىٰ جَهَنَّمَ زُمَرًا ۖ حَتَّىٰ إِذَا جَاءُوهَا فَتَحَتْ أَبْوَابُهَا﴾ [الزمر: ٧١].

وإذا رأت النار أهلها من بعيد، سمعوا لها غغيظاً وزفيراً، فهي تكاد تقطع من الجحني عليهم.
عن ابن مسعود ؓ أن رسول الله ﷺ قال: «يؤتى بجهنم يومئذ لها سبعون ألف زمام،
مع كل زمام سبعون ألف ملك يجرونها»^(١).

وفي هذا اليوم يتعظ الكافر ويندم على ما فرط منه، وما وقع فيه من كفر وفسوق
وعصيان، ومن أين له أن ينتفع بهذا الاتعاض وهذا الندم، وقد فات أوانه وفرط في جنب
الله وهو في دنياه، إلى أن جاء وقت الحساب والعقاب، وانتهى وقت العمل والنذير،
ومضى عهد الذكرى، فلا تفيد الحسرة على فوات الفرصة قال تعالى:

﴿أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُمْ مَا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَنْ تَذَكَّرَ وَجَاءَكُمْ النَّذِيرُ فَذُوقُوا فَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ نَّصِيرٍ﴾ [فاطر: ٣٧].
وقال سبحانه: ﴿أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِ رَبِّكُمْ وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا﴾
[الزمر: ٧١].

وقال جل شأنه: ﴿وَيَوْمَ يَبْعَثُ الظَّالِمُ عَلَىٰ يَدَيْهِ يَقُولُ يَلْتَمِسْنِي أَن أَخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَيْلًا﴾ [الفرقان: ٢٧].
وحين يتجلى الموقف للكافر يتحسر على نفسه ويتفجع، ويتقطع قلبه ألماً وتوجعاً،
فيقول: ياليتني قدمت في الدنيا من الأعمال الصالحة التي تنفعني في حياتي الآخرة،
فهي الحياة التي تستحق أن يستعد لها، كما قال تعالى: ﴿وَلِئَلَّكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ لِهِيَ الْحَيَوَانُ لَوْ
كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾ [العنكبوت: ٦٤].

وينتهي الأمر إلى عذاب لا ينقطع ﴿ثُمَّ لَا يَرْجُو فِيهَا وَلَا يَخَيُّ﴾ [الأعلى: ١٣].
وفي هذا دليل على أن دار الخلد والبقاء هي التي يجب أن يعمل لها العبد ويسعى
جاهداً في تقديم الزاد الذي ينفعه لهذه الدار.

(١) صحيح مسلم برقم (٢٨٤٢)، وسنن الترمذي برقم (٢٥٧٣)، وتفسير الطبري (٣٨٩/٢٤)، وابن أبي شيبة (١٥١/٣).

عَذَابُ الْكَافِرِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ لَيْسَ لَهُ نَظِيرٌ

٢٦، ٢٥ - ﴿فَيَوْمَئِذٍ^(١) لَا يُعَذِّبُ عَذَابُهُ أَحَدًا^(٢) وَلَا يُوثِقُ وَثَاقُهُ أَحَدًا^(٣)﴾

وفي هذا اليوم العصيب، لا يعذب أحد كعذاب الله للكاfer يوم القيامة، ولا يوجد فيما يعرفه الإنسان عذاباً أشد من عذاب الله تعالى لمن عصاه ولم يؤمن بخاتم الرسل ﷺ.

وليس في استطاعة أحد أن يعذب أحداً مثل تعذيب الله تعالى لمن كفر به:

قال تعالى: ﴿فَمَنْ يَكْفُرْ بَعْدَ مَنكُم فَأِنَّهُ أَعَذَّبُهُ عَذَابًا لَا أُعَذِّبُهُ أَحَدًا مِنَ الْعَالَمِينَ﴾ [المائدة: ١١٥].

وليس في قدرة أحد أن يوثق أحداً مثل وثاق الله لمن عصاه، ولا يبلغ مبلغه، فإن الكافر يقيد بسلاسل من نار، ويُسحب على وجهه في الحميم، ثم يسجر في النار، والوثاق هو: الأسر في الأغلال والسلاسل، كما يُربط الأسير، أو يقيد بالحديد مَنْ يُساق إلى القتل أو المحاكمة أو السجن..

وإذا كان هذا جزاء المجرمين، فما جزاء من اطمأن إلى الله تعالى وآمن به وصدق رسله؟

مَصِيرُ النَّفْسِ الْمُطْمَئِنَّةِ

٢٧ - ٣٠ - ﴿يَأْتِيَنَّهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ^(٢) ﴿٣٧﴾ أَرْجَىٰ إِلَىٰ رَبِّكَ رَاضِيَةً مُّرْضِيَةً ﴿٣٨﴾ فَأَدْخِلْ فِي عِبْدِي^(٣)

﴿٣٩﴾ وَأَدْخِلْ جَنِّي﴾

وعندما تُدك الأرض، وتُرجع الأرواح إلى الأجساد، أو تفارقها عند الموت، يقال للنفس التقية الزكية، الموقنة بالإيمان وتوحيد الله تعالى، التي لم يغترها ريب، ولم يخالطها شك في إيمانها، بل رضيَتْ بقضاء الله تعالى وقدره، وعلمتْ أن ما أخطأها لم يكن ليصيبها وما أصابها لم يكن ليخطئها، ويقال لهذه النفس عند الوفاة وعند تمام الحساب ﴿يَأْتِيَنَّهَا النَّفْسُ

(١) قرأ الكسائي ويعقوب بفتح الذال من ﴿يَعَذِّبُ﴾ والباء من ﴿يُوثِقُ﴾ على البناء للمفعول، ونائب الفاعل ﴿أَحَدًا﴾ والباقون بالبناء للفاعل، والفاعل ﴿أَحَدًا﴾.

(٢) وقف حمزة بالتسهيل فقط على ﴿الْمُطْمَئِنَّةُ﴾ وأمالها الكسائي وقفاً، وكذا حمزة بخلفه.

(٣) انفرد الكوفي بعد ﴿فَأَدْخِلْ فِي عِبْدِي﴾ آية، وتركها غيره.

الْمُطْمَئِنِّۗةُ ﴿٢٧﴾ إِلَىٰ ذِكْرِ اللَّهِ تَعَالَىٰ وَالْإِيمَانِ بِهِ فِي الدُّنْيَا، السَّائِكَةِ إِلَىٰ مُحَبَّةِ اللَّهِ، الَّتِي قَرَّتْ عَيْنَهَا بِهِ، وَالْمُطْمَئِنَّةُ بِمَا أَعَدَّ لِلْمُؤْمِنِينَ مِنَ النِّعَمِ فِي الْآخِرَةِ؛ وَيُقَالُ لَهَا: لَيْسَ عَلَيْكَ الْيَوْمَ خَوْفٌ وَلَا فِرْعَ، وَلَا حُزْنٌ، فَأَنْتِ فِي مَأْمَنٍ وَطَمَآنِيَةٍ، وَالنَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ مَكْرَمَةٌ فِي ضِيَاةِ الرَّحْمَنِ ﴿٢٨﴾ إِنَّ الْتَّقِيْنَ فِي جَنَّتٍ وَنَهْرٍ ﴿٢٩﴾ فِي مَقْعَدٍ صِدْقٍ عِنْدَ مَلِكٍ مُّقَدِّرٍ ﴿٣٠﴾ [القمر: ٥٤ - ٥٥] لَأَنَّهَا اسْتَحَقَّتْ وَعَدَ اللَّهُ تَعَالَىٰ عَلَىٰ أَعْمَالِهَا الصَّالِحَةِ. وَهَذَا النِّدَاءُ يَشْمَلُ كُلَّ نَفْسٍ طَاهِرَةٍ مُؤْمِنَةٍ.

ويليها في الدرجة: النفس التي تلوم صاحبها على فعل المعاصي، قترجع وتتوب. أما النفس الخبيثة فهي التي لا تأمر صاحبها إلا بالسوء.

ويقال للنفس المطمئنة عند الاحتضار وعند تمام الحساب: ارجعي إلى جوار ربك ودار كرامته ونعيمه، راضية بإكرام الله تعالى لك ودخولك جنته، فالله سبحانه قد رضي عنك. عن ابن عباس رضي الله عنهما أن هذه الآية نزلت وأبو بكر جالس، فقال: يا رسول الله، ما أحسن هذا؟ فقال ﷺ: «أما إنه سيقال لك هذا؟»^(١).

وفي رواية سعيد بن جبير أن النبي ﷺ قال له: «أما إن الملك سيقول لك هذا عند الموت؟»^(٢). وعن سعيد بن جبير قال: (مات ابن عباس بالطائف، فجاء طير لم يُرَ على خلقته، فدخل نعشه، ثم لم يُرَ خارجاً منه، فلما دُفِنَ، ثلثت هذه الآية على شفير القبر، ما يُذَرَى من تلاها)^(٣).

وذكر ابن كثير وغيره عن قُتَابَتِ بْنِ رَزِينِ أَبِي هَاشِمٍ قَالَ: أُسِرْتُ فِي بِلَادِ الرُّومِ، فَجَمَعَنَا الْمَلِكُ، وَعَرَضَ عَلَيْنَا دِينَهُ، عَلَى أَنَّ مَنْ يَمْتَنِعُ تُضْرَبَ عُنُقُهُ، فَارْتَدَّ ثَلَاثَةٌ وَامْتَنَعَ

(١) الدر المنثور (٥١٣/٨) عن الضياء المقدسي في المختارة برقم (١٢٤)، وابن مردويه كما في فتح الباري (٧٠٣/٨)، وابن أبي حاتم.

(٢) تفسير الطبري (١٢٢/٣٠)، وابن أبي حاتم، وأبونعيم في الحلية (٢٨٣/٤)، قال ابن كثير: وهذا مرسل حسن (٤٠٠/٨).

(٣) رواه الطبراني في المعجم الكبير (٢٩٠/١٠) (١٠٥٨١)، قال الهيثمي في مجمع الزوائد: (٢٨٥/٩) رجاله رجال الصحيح، وهو عن عبد الله بن أحمد عن أبيه.

الرابع، فضرب عنقه، وألقى رأسه في النهر، فرسب في الماء ثم طفا على وجه الماء ونظر إلى الثلاثة الذين ارتدوا وناداهم كل واحد باسمه، ثم قرأ عليهم ﴿يَأَيُّهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ﴾ (٢٧) أَرْجِعِي إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً ﴿٢٨﴾ فَادْخُلِي فِي عِبَادِي ﴿٢٩﴾ وَادْخُلِي جَنَّتِي ﴿٣٠﴾ ثم غاص في الماء، فكاد النصارى أن يسلموا، ووقع سرير الملك، ورجع الثلاثة إلى الإسلام، وجاء فداؤهم من أبي جعفر المنصور^(١).

ومما جاء في الأثر: (اللهم إني أسألك نفساً بك مطمئنة، تؤمن بقلائك، وترضى بقضائك، وتقنع بعطائك)^(٢).

وهذه النفس المطمئنة يقال لها يوم القيامة: ادخلي في زمرة عبادي الصالحين الذين لا خوف عليهم ولا هم يحزنون، زيادة في الثناء، وزيادة في إفاضة الإنعام، كما قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُدْخِلَنَّهُمْ فِي الصَّالِحِينَ﴾ [العنكبوت: ٩]. وقال جل شأنه: ﴿وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَٰئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصَّدِيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ﴾ [النساء: ٦٩].

والنفس تطلق على الذات كما قال تعالى: ﴿وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ﴾ [الإسراء: ٣٣]. وتطلق على الروح التي بها حياة الجسد، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ﴾ [يوسف: ٥٣]. والمراد بها في الآية: الجسد والروح معا.

حيث يقال لها: ادخلي جنتي في زمرة عبادي المتقين، في مقعد صدق عند مليك مقتدر، في دار الأبرار الصالحين.

كما يقال للنفس المطمئنة عند الموت: اخرجي إلى روح وريحان، ورب غير غضبان، فتخرج كأطيب ريح مسكٍ وجده أحدٌ في أنفه، وتُفتح لها أبواب السماء، ويوسَّع لها في القبر سبعون ذراعاً.

(١) تفسير ابن كثير (٤٠١/٨) وغيره.

(٢) المعجم الكبير للطبراني عن أبي أمامة (١١٨/٨).

ويقال للنفس الكافرة: اخرجي إلى جهنم، وعذاب أليم، وربك عليك غضبان^(١).
 وممن تنطبق عليهم هذه الآيات الثلاث: عثمان بن عفان رضي الله عنه، لما تصدق ببئر رومة.
 وحمزة بن عبد المطلب رضي الله عنه حين استشهد في سبيل الله تعالى.
 وخبيب بن عدي رضي الله عنه لما صلبه أهل مكة.
 وبلال بن رباح، وغيرهم وغيرهم من السلف والخلف ممن رضي الله عنهم ورضوا عنه.
 فالآية عامة في كل نفس مؤمنة مطمئنة، وتلك هي الكرامة التي لا تغدّلها كرامة.
 والخطاب الذي في الآية يخاطب الروح المؤمنة عند الموت، وتخاطب به الروح
 والجسد يوم القيامة.

تم تفسير (سورة الفجر) والله الحمد والمنة

(١) ينظر: تفسير الخازن (٣٧٩/٤) عن عبد الله بن عمر مختصراً

تَفْسِيرُ سُورَةِ الْبَلَدِ (٩٠)

مُقَدِّمَةُ السُّورَةِ

- ١- (سورة البلد) هي السورة التسعون في ترتيب المصحف، والخامسة والثلاثون في ترتيب النزول، نزلت بعد (سورة ق) وقبل (سورة الطارق). وعدد آياتها عشرون آية باتفاق. وهي اثنتان وثمانون كلمة، وثلاث مئة وعشرون حرفاً. سميت (سورة البلد) وترجم لها البخاري بـ (سورة لا أقسم). وهي سورة مكية عند الجمهور.
- ٢- ابتدأت السورة بِقَسَمَيْنِ عَظِيمَيْنِ، عَلَى أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى خَلَقَ الْإِنْسَانَ فِي شِدَّةٍ وَعَنَاءٍ، يَحْمِلُ أَثْقَالَ التَّكَالِيفِ الشَّرْعِيَّةِ، وَلِجَامِ الْحَلَالِ وَالْحَرَامِ، الَّذِي يَحْجُزُ بَيْنَهُ وَبَيْنَ الشَّهَوَاتِ، وَلَكِنَّ الْإِنْسَانَ قَدْ يَكْفُرُ، وَيُنْكِرُ الْبَعْثَ وَالنَّشُورَ، وَيَغْتَرِّ بِمَا أُوتِيَ مِنْ جَاهٍ وَمَالٍ وَوَلَدٍ، وَهُوَ لَا يُدْرِكُ أَنَّهُ لَا قِيَمَةَ لِهَذِهِ الْمَوَازِينِ إِذَا لَقِيَ الْعَبْدَ رَبَّهُ عَزِيزَانَا، لَا يَكْسُوهُ إِيمَانًا وَلَا صَلَاحًا، وَلَا يَدْرِي أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى سَائِلُهُ عَنْ مَالِهِ مِنْ أَيْنَ اكْتَسَبَهُ، وَفِيمَ أَنْفَقَهُ؟
- ٣- ثُمَّ إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى أَفَاضَ عَلَى الْإِنْسَانَ بِنَعَمٍ كَثِيرَةٍ كَالْعَيْنَيْنِ وَاللِّسَانِ وَالشَّفَتَيْنِ، فَهَلَاءُ كَسَرَ قِيُودَ الْكُفْرِ وَالتَّقْلِيدِ الْأَعْمَى، وَاقْتَحَمَ طَرِيقَهُ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى، بِإِنْفَاقِ الْأَمْوَالِ فِي وَجْهِ الْخَيْرِ، بَعْدَ أَنْ يَكُونَ مُؤْمِنًا مَتَزُودًا بِصَالِحِ الْأَعْمَالِ، مُتَوَاصِيًا بِالصَّبْرِ وَالْمَرْحَمَةِ، أَمَا مِنْ أَبِي اقْتِحَامِ الْعَقَبَةِ فَلَهُ عَاقِبَةٌ أُخْرَى!
- ٤- وَسُورَةُ الْبَلَدِ يَبْتَنِي أَنَّ الْأَنْبِيَاءَ الْعَرَبَ كَهُودَ وَصَالِحَ وَشَعِيبَ، قَامُوا بِوَاجِبِ الدَّعْوَةِ إِلَى اللَّهِ فِي أَطْرَافِ الْجَزِيرَةِ شِمَالًا وَجَنُوبًا، حَتَّى جَاءَ خَاتَمُ النَّبِيِّينَ ﷺ فَكَوَّنَ مِنْ وَسْطِ الْجَزِيرَةِ مَنْ حَمَلَ مِشَاعِلَ الْعِلْمِ وَالدَّعْوَةِ إِلَى الْعَالَمِ أَجْمَعٍ.
- ٥ - هَذَا: وَالْآيَاتُ الْأَرْبَعُ الْأَوَّلُ مِنَ السُّورَةِ، فِيهَا قِسْمٌ مُؤَكَّدٌ عَلَى أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى خَلَقَ الْإِنْسَانَ الْكَافِرَ فِي نَصَبٍ وَشَقَاءٍ وَمَكَابِدَةٍ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ.

وبقية السورة تصف هذا الإنسان بأوصاف الكفر وتذكره بنعم الله عليه، ولكنه لم يقتحم طريق النجاة، فكان من أصحاب الشمال الذين أطبقت عليهم نار جهنم. أما المؤمن الذي عمل الصالحات وأنفق أمواله في وجوه الخير، وكان من أهل التواصي بالصبر على طاعة الله والبعد عن معاصيه، ومن أهل الرحمة بالناس والشفقة على ضعفائهم، فهو من أهل اليمين السعداء في دار النعيم.

* * *

تَفْسِيرُ السُّورَةِ

الْقَسَمُ عَلَى أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى خَلَقَ الْكَافِرَ فِي شَقَاءٍ، دُنْيَوِيٍّ وَأُخْرَوِيٍّ

١-٤ - ﴿لَا أَقْسِمُ بِهَذَا الْبَلَدِ ۚ (١) وَأَنْتَ حِلٌّ بِهَذَا الْبَلَدِ ۚ (٢) وَوَالِدٍ وَمَا وَلَدَ ۚ (٣) لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي كَبَدٍ ۚ﴾

أقسم الله تبارك وتعالى بالبلد الحرام، مكة المكرمة، التي شرفها بيته العتيق، وجعله قبلة المسلمين في الشرق والغرب، والشمال والجنوب، ومهبط الرحمات، وإليها تُجْبَى الثمرات، وقد جعلها الله حرماً آمناً منذ خلق السموات والأرض، والقسام بها تشريف لها.

كما أقسم سبحانه بمكان نزول التوراة والإنجيل في قوله تعالى:

﴿وَالَّذِينَ وَالَّذِينَ وَالَّذِينَ (١) وَطُورِ سِينِينَ (٢) وَهَذَا الْبَلَدِ الْأَمِينِ﴾ [التين: ١ - ٣] فالبلد هي مكة باتفاق.

و﴿لَا﴾ من ﴿لَا أَقْسِمُ﴾ لتأكيد القسم، وهو أسلوب تستعمله العرب، لتعظيم المقسم به، وليبين أن المقسم به في ظهوره وثبوته أجلى وأكبر من أن يحتاج إلى قسم.

وجملة ﴿وَأَنْتَ حِلٌّ بِهَذَا الْبَلَدِ﴾ معترضة بين القسمين، للتنويه بشأن البلد الحرام، وللدلالة على أن الله تعالى: أقسم بمكة التي استحلّ فيها المشركون إيذاء النبي ﷺ بالبلد الحرام الذي يحرم صيده وشجره ونباته وطيره.

أو أن الله تعالى أقسم بمكة والرسول ﷺ مقيم فيها يدعو إلى الله على بصيرة.

وفي هذا القسم تشريف وتعظيم لقدر النبي ﷺ ولمنزلة مكة عند الله تعالى.

وقد أقام النبي ﷺ بمكة ثلاثة عشر عاماً يدعو إلى التوحيد، نزل خلالها عليه أكثر من ثمانين سورة، ومنها هذه السورة، حيث كان ترتيبها في النزول الخامسة والثلاثين.

١-ولفظ ﴿حِلٌّ﴾ يأتي بمعنى استحلال المحرّم، أي أن المشركين استباحوا في مكة العدوان على الرسول ﷺ وظلمهم له، وهو بلد حرام يأمن فيه الإنسان والحيوان والطيور والشجر والنبات على نفسه، وفي هذا تعريض بالمشركين، وذمّ لهم.

٢-أو أن ﴿حِلٌّ﴾ بمعنى (حَالٌ) من أَحَلَّ بالمكان أي أقام فيه، ومنه قولهم (في حله

وترحاله) فلأن الرسول ﷺ مقيم فيها بين أهله وأهلها، فكان مكة قد عظمَتْ مرتين:

مرة لوجود الكعبة بها، ومرة لوجود الرسول ﷺ فيها.

وسواء أكان المراد بإقامة النبي ﷺ في مكة: الفترة التي كانت قبل الهجرة، أم كان وغداً من الله تعالى لنبيه ﷺ بالفتح والنصر في المستقبل بعد الهجرة.

٣- ومن معاني ﴿حُلِّ﴾ بمعنى: أباح، أى أن الله تعالى قد أحل مكة يوم الفتح، ساعة من نهار، للنبي ﷺ يصنع فيها ما يريد من القتل والأسر، فأمر بقتل (ابن خطل) وهو متعلق بأستار الكعبة، وأمر بقتل (مقيس بن ضبابة) وأحل دماء قوم وحرّم دماء قوم، وقال: من دخل دار أبي سفيان فهو آمن.

عن أنس بن مالك ؓ أن رسول الله ﷺ (دخل عام الفتح وعلى رأسه المغفر، فلما نزعه جاء رجل فقال: إن ابن خطل متعلق بأستار الكعبة، فقال: «اقتلوه»^(١)).

وأخرج ابن عبد البر عن سعيد بن جبيرة ؓ أن النبي ﷺ لما افتتح مكة، أخذ أبو بزة الأسلمي هو وسعيد بن حُرَيْث: عبد الله بن خطل، وهو الذي كانت قريش تسميه ذا القلْبَيْن فأَنزَلَ اللهُ تعالى: ﴿مَا جَعَلَ اللهُ لِرَجُلٍ مِّنْ قَلْبَيْنِ فِيْ جَوْفِهِ﴾ [الأحزاب: ٤] فَقَدَّمَهُ أَبُو بَزَّةَ فَضْرَبَ عُنُقَهُ وَهُوَ مُتَعَلِّقٌ بِأَسْتَارِ الْكَعْبَةِ، بَيْنَ الرُّكْنِ وَالْمَقَامِ، فَأَنزَلَ اللهُ ﴿لَا أَقْسِمُ بِهَذَا الْبَلَدِ ۚ وَأَنْتَ حِلٌّ بِهَذَا الْبَلَدِ ۚ﴾.

وكان ابن خطل قد قال لقريش: أنا أعلم لكم علم محمد، فجاء إلى النبي ﷺ يطلب منه أن يجعله من كُتَّاب الوحي، فكان النبي ﷺ إذا أُملي عليه (عليماً حكيماً) يكتب حكيماً عليماً، فإذا قرأ ما كتبه على النبي ﷺ قال له (ما هكذا أُمليتُ عليك)، فلم يؤمنه النبي ﷺ وكان أحد أربعة لم يؤمنهم النبي ﷺ^(٢).

وفي حرمة مكة يقول تعالى: ﴿إِنَّمَا أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ رَبَّ هَذِهِ الْبَلَدَةِ الَّذِي حَرَّمَهَا﴾ [النمل: ٩١].

(١) صحيح مسلم برقم (٤٥٠)، والبخاري برقم (١٨٤٦).

(٢) ينظر: التمهيد (١٧٠/٦)، وكذا الطبري (٤٠١/٢٤)، وابن مردويه، وعبد بن حُميد.

ويقول أيضاً: ﴿أَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا آمِنًا وَيَنْتَضِلُّ النَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ﴾ [العنكبوت: ٦٧].

ومع أن الله تعالى قد حرّم مكة إلى يوم القيامة، وصان فيها حرمة الإنسان والحيوان والنبات والطير والشجر، ولم يحلّها إلا لرسوله ﷺ ساعة دخولها فاتحاً، لتحطيم الشرك والوثنية، فإن أهل مكة قد استباحوا حرمة النبي ﷺ فيها واستمروا العدوان عليه وهو بين أظهرهم، فأذوه كل الإيذاء حتى وضعوا سلاً الجزور عليه وهو يصلي، وأذوه في دعوته بالطائف، ومنعوه من دخول مكة مَسْقُطَ رأسه حين جاء إليها معتمراً، فكانوا يحزّمون أن يقتلوا صيداً في البلد الحرام، ويستحلون قتل النبي ﷺ فيه، وإخراجه منه.

عن ابن عباس رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال: قال النبي ﷺ يوم افتتح مكة: «لا هجرة بعد الفتح، ولكن جهاد ونية، وإذا استنفرتم فانفروا، فإن هذا بلد حرّمه الله يوم خلق السموات والأرض، وهو حرام بحرمة الله إلى يوم القيامة، وإنه لم يحلّ القتال فيه لأحد قبلي، ولم يحلّ لي إلا ساعة من نهار، فهو حرام بحرمة الله إلى يوم القيامة، لا يُعَصَّدُ شوكه، ولا يُنْفَرُ صيده، ولا يُلْتَقَطُ لُقْطَتُهُ إلا من عَرَفَها، ولا يُخْتَلَى خلاها» قال العباس: يا رسول الله، إلا الإذخر، فإنه لِقَيْنُهُم وليوتهم، قال: قال: «إلا الإذخر»^(١).

وأخرج الطبري بسند صحيح عن مجاهد في معنى ﴿وَأَنْتَ حَلٌّ بِهَذَا الْبَلَدِ﴾.

قال: لا تَوَاحِذُ بما عملت فيه، وليس عليك فيه ما على الناس.

فخلاصة المعاني في هذه الآية:

١ - وأنت حل: أي مقيم بمكة.

٢ - أو وأنت حل: أي أحل الله لك مكة ساعة من نهار.

٣ - أو وأنت حل: أي أن المشركين استحلوا العدوان عليك فيها وهم يحزّمونها.

٤ - أو وأنت حل: ليس عليك مؤاخذه فيما فعلت فيه مع الناس.

ولا تعارض بين هذه المعاني الأربعة، فالآية تشملهم جميعاً، وكلها قد حدثت ووقعت.

(١) صحيح البخاري برقم (١٨٣٤)، وصحيح مسلم برقم (١٣٥٣)، والطبري (٤٠٥/٢٤).

ثم أقسم تبارك وتعالى بقوله: ﴿وَالِدٍ وَمَا وَلَدَ﴾ تنبيهاً على قدرة الله تعالى وتعظيماً للتناسل والتوالد بين الناس.

وقد اختلف الناس في المراد بالوالد والمراد بالولد:

١- قال عكرمة: المراد بالوالد والولد: العاقر الذي لا يلد من الرجال والنساء^(١).

فما نافية، في ﴿وَمَا وَلَدَ﴾ وهو الذي عناه عكرمة.

٢- وقال ابن عباس: المراد: آدم وما تناسل منه من ولد^(٢).

٣- وقيل: هو عام في كل والد وولده من إنسان وحيوان.

٤- واختار بعضهم أن الوالد هو إبراهيم عليه السلام، والولد: الصالحون من ذريته،

لمناسبة أن إبراهيم هو الذي اتخذ مكة مسكناً لابنه إسماعيل وزوجه هاجر.

وهو القائل: ﴿رَبِّ اجْعَلْ هَذَا الْبَلَدَ آمِنًا وَاجْنُبْنِي وَتَنُجِّنِي أَنْ تَعْبُدَ الْأَصْنَامَ﴾ [إبراهيم: ٣٥]

فإبراهيم وابنه إسماعيل سكان البلد الأصليين، وإسماعيل جد محمد ﷺ.

وقد قال تعالى: ﴿قُلْ أَيْكُمْ إِلَهٌ إِلَّا إِبْرَاهِيمُ ۖ هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِنْ قَبْلُ وَفِي هَذَا﴾ [الحج: ٧٨].

وقال سبحانه: ﴿إِنَّ أَوَّلَ النَّاسِ بِإِبْرَاهِيمَ لَلَّذِينَ اتَّبَعُوهُ وَهَذَا النَّبِيُّ وَالَّذِينَ آمَنُوا﴾ [آل عمران: ٦٨].

وإبراهيم هو الذي دعا ربه أن يبعث في هذه الأمة رسولاً منهم يتلوا عليهم آياته ويعلمهم الكتاب والحكمة ويزكيهم.

فإبراهيم هو الوالد، ومحمد من ذرية إسماعيل، وهو ولده الذي خُتمت به الرسالات، وأقام دولة التوحيد في الأرض.

وكما أقسم الله تعالى بأُم القرى، أقسم بمن أقام قواعد البيت بمكة، وبمن ختم الله به الرسالات في أُم القرى وما حولها.

ومع وجهة هذا التحليل، فإنني أميل لما رجَّحه بعض أهل العلم من أن المراد بالوالد والولد: آدم عليه السلام وذريته، فهو قَسَم يشمل البشر جميعاً، وكأن الله تعالى قد أقسم بأبي البشر، كما أقسم بأُم القرى، وهذا قَسَم بأصول الموجودات وفروعها.

(١) أخرجه الطبري برجال ثقات إلا النضر بن عربي، لا بأس به، فالإسناد حسن، تفسير الطبري (٤٠٦/٢٤).

(٢) أخرجه الحاكم (٥٢٣/٢) وصححه من طريق مجاهد عن ابن عباس.

أما المقسم عليه فهو قوله تعالى ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي كَبَدٍ﴾ ويصح أن يراد به عموم الإنسان، المؤمن والكافر، أي أنه لا يزال يكابد شدائد الحياة من حمله حتى موته. وفي قبره إلى آخرته، ولكن سياق الآيات لا يرشح هذا المعنى. ويصح أن يكون المراد بالإنسان: الكافر، وهو الأنسب للسياق، لأن الآية التالية وصفته بأنه لا يؤمن بالبعث، وأنه يظن أن الله تعالى لا يراه ولا يحاسبه على ما قدمت يدها، والسورة مكية تخاطب المجتمع المشرك. والإنسان الشقي خلقه الله تعالى في تعب ونصب في الدنيا والآخرة بسبب انحرافه عن الفطرة:

أ - أما الكبد الذي يعانيه الكافر في الدنيا فمنه: التشتت في تعدد الآلهة، واضطراب العقيدة بين دعوة الشركاء، والتوجه إلى الله تعالى عندما يصاب بالضرر، ومنه: الإقرار بوجود الخالق الرازق والتوجه بالعبادة إلى غيره، وعدم الإيمان بالبعث والنشور مع اعترافه بوجود الله تعالى، وعدم التوجه المباشر إليه سبحانه بالعبادة، واتخاذ وسطاء بينه وبينهم.

ب - والكبد في الآخرة هو الثقل في النار والخلود فيها بلا حياة ولا موت:

قال تعالى: ﴿بَلِ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ فِي الْعَذَابِ وَالضَّلَالِ الْبَعِيدِ﴾ [سبأ: ٨].

١ - وقال تعالى: ﴿يَوْمَ نُقَلِّبُ وُجُوهَهُمْ فِي النَّارِ يَقُولُونَ يَلَيَّتْنَا اللَّهُ وَأَطَعْنَا الرَّسُولَ﴾ [الأحزاب: ٦٦].

٢ - وقال سبحانه: ﴿وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ عُمِيَٰ وَيُكْمَأُ وَصُمًّا مَا وَنَهُمْ جَهَنَّمَ كُلَّمَا

خَبَتْ زِدْنَاهُمْ سَعِيرًا﴾ [الإسراء: ٩٧].

٣ - وقال جل شأنه: ﴿فَالَّذِينَ كَفَرُوا قُطِعَتْ لَهُمْ نِيَابٌ مِّن نَّارٍ يُصَبُّ مِنْ فَوْقِ رُءُوسِهِمُ الْحَمِيمُ

﴿١٩﴾ يُصْهِرُ بِهِ مَا فِي بُطُونِهِمْ وَالْجُلُودُ ﴿٢٠﴾ وَلَهُمْ مَقْعٌ مِّنْ حَدِيدٍ ﴿٢١﴾ كُلَّمَا أَرَادُوا أَن يَخْرُجُوا مِنْهَا مِنْ غَيْرِ

أَعْبَدُوا فِيهَا وَذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ﴾ [الحج: ١٩ - ٢٢].

٤ - وقال عز وجل: ﴿كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُمْ بَدَّلْنَاهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا الْعَذَابَ﴾ [النساء: ٥٦].

٥ - وقال أيضاً: ﴿لَهُمْ مِنْ جَهَنَّمَ مِهَادٌ وَمِنْ فَوْقِهِمْ غَوَاشٍ﴾ [الأعراف: ٤١].

٦- وقال سبحانه: ﴿وَتَرَى الْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ مُّقَرَّنِينَ فِي الْأَصْفَادِ ۖ﴾ ﴿٦١﴾ سَرَابُهُمْ مِّنْ قِطْرَانٍ وَتَعْتَنِي وَجُوهُهُمْ النَّارُ﴾ [إبراهيم: ٤٩ - ٥٠].

٧- وقال عز وجل: ﴿إِنَّ الْمُجْرِمِينَ فِي عَذَابٍ مُّهِينٍ ۖ﴾ ﴿٧١﴾ لَا يُفَرِّقُهُمْ فِيهِ مُنْسَوْنَ﴾ [الزخرف: ٧٤ - ٧٥].

فالكبد الذي خُلِقَ فيه الكافر، هو كما وصف الله تعالى وجوه الكفار بأنها ﴿عَامِلَةٌ نَّاصِبَةٌ﴾ [الغاشية: ٣] أي أنها تكلف يوم القيامة بأعمال شاقة مُتَّعِبَةٌ، من الخوض في النار، والجر في السلاسل والأغلال ﴿إِذِ الْأَغْلَالُ فِي أَعْنَاقِهِمْ وَالسَّلَاسِلُ يُسْحَبُونَ﴾ ﴿٧١﴾ فِي الْحَمِيمِ تُرْفَى النَّارِ يُسْجَرُونَ﴾ [غافر: ٧١ - ٧٢].

فأي كبد أشد من هذا، يلاقيه الكافر الذي مات على الكفر في دنياه وأخراه! والواجب على الإنسان أن يسعى ليريح نفسه من هذه الشدائد، ويجلب لها الفرح والسرور، وإن لم يفعل فإنه لا يزال يكابد الشدائد بسبب الآباء. ج - أما ما يقاسيه الإنسان بوصف عام، من كبد ومشقة في الدنيا، من نفخ الروح فيه إلى نزعها منه، بما في ذلك مراحل التخلّق، والتعليم، والسعي على الرزق، ونحو ذلك، فلا يساعد عليه سياق الآيات.

إِنْكَارُ الْكَافِرِ لِلْحِسَابِ وَإِنْفَاقُهُ أَمْالَهِ لِلصَّدَّقَةِ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ

٧، ٥- ﴿أَيَحْسَبُ ۚ﴾ ﴿١﴾ أَنْ لَّنْ يَقْدِرَ عَلَيْهِ أَحَدٌ ۚ ﴿٥﴾ يَقُولُ أَهْلَكْتُ مَالًا لُبَدًا ۚ ﴿٦﴾ أَيَحْسَبُ أَنْ لَّمْ يَرَهُ أَحَدٌ ۚ ﴿٧﴾﴾ أَيْظُنُّ هَذَا الْكَافِرُ أَنَّهُ غَيْرُ عَائِدٍ إِلَيْهِ تَعَالَى فَلَا يَحَاسِبُهُ وَلَا يُجَازِيهِ؟ أَيْحَسِبُ أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى لَنْ يَقْدِرَ عَلَى جَمْعِ عِظَامِهِ وَبَغْثِ رُفَاتِهِ؟ وَأَنَّهُ قَدْ بَلَغَ مِنَ الْقُوَّةِ وَالْمَنْعَةِ بِحَيْثُ لَا

(١) قرأ ابن عامر وعاصم وحزمة وأبوجعفر بفتح السين من ﴿أَيَحْسَبُ﴾ في هذه الآية والتي بعدها، والباقون بكسرها فيهما.

(٢) قرأ أبو جعفر بتشديد الباء من ﴿لُبَدًا﴾ جمع لبد، والباقون بتخفيفها، جمع لبد، ومعناها واحد، وهو المال الكثير بعضه فوق بعض.

يقدر عليه أحد؟

- يقول هذا المغرور المفتون بماله على سبيل التفاخر والتباهي والتعالي على غيره: لقد أنفقتُ أموالاً كثيرة هنا وهناك، فهو يتبجح ويجاهر بإنفاق الأموال في المعاصي والشهوات، وإنفاقها من باب الرياء والسمعة، وفي عداوة الإسلام وأهله، وإيجاد العقبات في طريق الدعوة إلى الله تعالى.

- أیظن هذا الكافر أن الله عز وجل لا يراه ولا يحاسبه على الصغيرة والكبيرة. أیحسب أن الله تعالى غير مطلع عليه وهو ينفق أمواله في المعاصي والسيئات؟ وقد سمى الله تعالى من ينفق ماله في المعاصي إهلاكاً، لأن المنفق لا يتنفع بما أنفق، ولا يعود عليه إلا بالحسرة والندامة، وهذا بخلاف من ينفق ماله في وجوه الخير فهو في تجارة مع الله تضاعف له أضعافاً كثيرة.

ألا يعلم أنه سبحانه لا تخفى عليه خافية في الأرض ولا في السماء؟ وأنه سيحاسبه على النقيير والقطمير، وأنه (لن تزول قدما عبد يوم القيامة حتى يسأل عن أربع: عن شبابه فيم أبلاه، وعن عمره فيم أفناه، وعن ماله من أين اكتسبه، وفيم أنفقه). وهذه الآيات عامة في كل كافر تنطبق عليه الأوصاف السابقة: من كونه منكراً للبعث، مغترّاً بقوته وشدته، ظانّاً أن لن يقدر عليه أحد، مُنْفِقاً لأموال كثيرة في عداوة الإسلام وأهله، وظنه أن هذه الأعمال تخفى على رب العباد.

ورد أن هذه الآيات نزلت في (أبي الأشد بن كلدة) كان قوي البدن، مغترّاً بنفسه، وكان عنده جلد بقر متين يضعه تحت قدميه، ويقول: من أزالني عنه فله كذا وكذا، فيجذبه عشرة من الناس، فيقطع الجلد تحت قدميه قطعاً، ولا تزال قدماه، وكان يقول: لقد أنفقتُ أموالاً كثيرة في عداوة محمد ﷺ. وقيل: هو الوليد بن المغيرة^(١).

ومثل هذا الإنسان، هو الذي خلق في عناء وشقاء وقلق واضطراب، وإن كثرت

(١) ينظر: تفسير الخازن (٤/٣٨٠)، والألوسي (٣٠/١٣٦).

أمواله وعظمت دنياه، وهو الذي تسبب في هذا الكبد بانحرافه عن الطريق السوي، ومخالفته للعهد والميثاق الذي أخذ عليه بالتوحيد وهو في عالم الذر.

ويوضح هذا قوله تعالى: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ④ ثُمَّ رَدَدْنَاهُ أَسْفَلَ سَافِلِينَ﴾ [التين: ٤ - ٥] أي بسبب كفره وعدم استقامته.

فالأصل: الهداية والإيمان، أما الضلال والكفر، فيطرآن على العبد، كما قال تعالى: ﴿وَمَا يُضِلُّ بِهِ إِلَّا الْفَاسِقِينَ﴾ [البقرة: ٢٦] وقال: ﴿فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ﴾ [الصف: ٥].

الْكَافِرُ لَمْ يَسْتَتْمِرْ حَوَاسَهُ فِي اجْتِيَاازِ الْعَقَبَةِ الْمَانِعَةِ مِنْ دُخُولِ الْجَنَّةِ

٨-١٠ - ﴿أَلَمْ تَجْعَلْ لَهُ عَيْنَيْنِ ⑧ وَلِسَانًا وَشَفَتَيْنِ ⑨ وَهَدَيْتَهُ النَّجْدَيْنِ ⑩﴾

لقد أودع الله في الإنسان نعماً كثيرة تستوجب شكره سبحانه والامتنان له، فكان الأجدر بالعبد أن يسلك طريق السعادة بالإيمان بربه واليوم الآخر، وأن يترك طريق الشقاء بسبب كفره وعناده. ومن هذه النعم الموجبة للإيمان:

١- نعمة العينين. ٢- واللسان. ٣- والشفَتين. ٤- وبيان طريق الحق من طريق الضلال.

فمن الذي جعل للإنسان عينين يُبصر بهما؟ وهو سبحانه: ﴿يَعْلَمُ خَائِنَةَ الْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ﴾ [غافر: ١٩].

ومن جعل له لساناً يُنطق به؟ يُخصي عليه أقواله وأفعاله، كما قال تعالى: ﴿مَا يَلْفُظُ مِنْ قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾ [ق: ١٨].

ومن جعل للإنسان شفتين للجمال وتمام الخلق وحسن الهيئة؟

جاء في الأثر: أن الله عز وجل يقول: ابن آدم:

إن نازعك لسائك فيما حرمت عليك، فقد أعتكك عليه بطبقتين، فأطبق عليه.

وإن نازعك بصرك فيما حرمت عليك، فقد أعتكك عليه بطبقتين، فأطبق عليه.

وإن نازعك فزجك فيما حرمت عليك، فقد أعتكك عليه بطبقتين، فأطبق عليه^(١).

وخص العينين بالذكر لأنهما أنفع مشاعر الإدراك، وخص الشفتين مع اللسان، لأنه

(١) تفسير الخازن (٤/٣٨٠)، وذكره بنحوه ابن عساكر عن مكحول (٦٦/٢٢٩).

يتم بهما معاً الكلام والإبانة، وتناول الطعام والشراب، ولا ينطبق اللسان بدون الشفتين، ولا تنطق الشفتين بدون اللسان.

ومن انفتاح الشفتين وإطباقهما، تتكيف أصوات الحروف التي يحصل بها العلم والمعرفة، وتستمران الفم والأسنان، وهذا اللسان يأخذ بيد صاحبه إلى الجنة أو إلى النار: عن معاذ بن جبل رضي الله عنه قال: كنت مع النبي ﷺ في سفر، فأصباح يوماً قريباً منه ونحن نسير، فقلت: يا رسول الله، أخبرني بعمل يدخلني الجنة، ويباعدني عن النار، قال: «لقد سألت عن عظيم، وإنه ليسير على من يسره الله عليه: تعبد الله ولا تشرك به شيئاً، وتقيم الصلاة، وتؤتي الزكاة، وتصوم رمضان، وتحج البيت»، ثم قال: «ألا أدلك على أبواب الخير؟» قلت: بلى، يا رسول الله، قال: «الصوم جنة، والصدقة تطفئ الخطيئة كما يطفئ الماء النار، وصلاة الرجل في جوف الليل شعار الصالحين»، ثم تلى ﷻ ﴿تَجَافَى جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ﴾ [السجدة: ١٦].

ثم قال: «ألا أخبرك برأس الأمر وعموده وذروة سنامه؟» قلت: بلى يا رسول الله، قال: «رأس الأمر الإسلام، وعموده الصلاة، وذروة سنامه الجهاد».

ثم قال: «ألا أخبرك بملاك ذلك كله؟» قلت: بلى يا رسول الله، قال: «كف عليك هذا» وأشار إلى لسانه، قلت: يا نبي الله، وإنا لمؤاخذون بما نتكلم به؟ قال: «ثكلتك أمك! وهل يكب الناس في النار على وجوههم»، أو قال: «على مناخرهم، إلا حصائد ألسنتهم»^(١)؟
فها هو اللسان يكون أداة خير أو أداة شر.

وإلى جوار ذلك فقد أرشد الله الإنسان إلى طريق الخير والشر، فجعل له عقلاً مميزاً، وأرسل له الرسل، وأنزل عليه الكتب ليدلّه على أقوم الطرق، قال تعالى:

(١) رواه أحمد في المسند (٢٢٠١٦)، وهو حديث صحيح بطرقه وشواهده، وأخرجه الترمذي برقم (٢٦١٦)، والنسائي برقم (١١٣٣٠)، وفي السنن الكبرى (١١٣٩٤)، وابن ماجه برقم (١٩٧٣)، ومصنف عبدالرزاق (٢٠٣٠٣)، والبغوي في شرح السنة (١١)، وفي التفسير (٥٠٠/٣)، والبيهقي في الشعب (٣٣٥٠)، وغيرهم وهو صحيح بطرقه وشواهده.

﴿إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا﴾ [الإنسان: ٣].

وقال سبحانه: ﴿فَالْمُهْمَا تَجُورَهَا وَتَقُونَهَا﴾ [الشمس: ٨].

وفي هذا امتنان من الله تعالى بنعم الدين بعد أن امتنّ عليهم بنعم الدنيا. والنجد في الأصل: الأرض المرتفعة ارتفاعاً دون الجبل.

وسَيَّ طريق الخير والشر نجدان: لصعوبة اتباع أحدهما، فطريق الخير صعب في سلوكه محفوف بالمكاره، وطريق الشر صعب في عواقبه، وكلاهما كالطريق المرتفعة العالية، وفي كل منهما وُغُورَة، ولا يصل إلى طريق الخير إلا من صبر وجاهد نفسه وراضها. وهذه المنن تقضى شكر العبد لربه وألا يستعين بها على معاصي الله، ولكنه لم يفعل:

ثَلَاثَةُ أَسْبَابٍ لِاجْتِيَازِ الْعَقَبَةِ

١١-١٣ - ﴿فَلَا أَقْنَحُمُ الْعَقَبَةَ﴾ ١١ ﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْعَقَبَةُ﴾ ١٢ ﴿فَكَ﴾ ١٣ ﴿رَقِيَّةٌ﴾

والأجدر بالإنسان الذي أنعم الله عليه بهذه النعم أن يكسر قيود الكفر والتقليد الأعمى، ويقتحم طريقه إلى الله تعالى مؤمناً به، ومطيعاً لأمره. فهلاً اقتحم العبد العقبة التي تحول بينه وبين دخول الجنة؟ واقتحام العقبة يكون بما يأتي:

١- فك الأسير، وعتق الرقيق، وإعانة المكاتب.

٢- وإطعام الطعام في أوقات المجاعة على المحتاج الذي لا يجد شيئاً.

٣- وقبل ذلك يكون العبد مؤمناً بالله عاملاً للصالحات، آمراً بالمعروف ناهياً عن المنكر. وهذه العقبة لو تخطاها العبد، واقتحمها بما تتطلب من جهد، فإنه يزحزح عن النار، ويدخل الجنة، وهذا هو الفوز العظيم.

ذلكم قول الله تعالى ﴿فَلَا أَقْنَحُمُ الْعَقَبَةَ﴾ أي فهلاً تجاوز مشقة الآخرة بإيمانه وإنفاق

(١) قرأ ابن كثير وأبو عمرو والكسائي بفتح الكاف من ﴿فَكَ﴾ على أنه فعل ماضٍ، و﴿رَقِيَّةٌ﴾ بالنصب، مفعول به، و (أطعم) في الآية التالية بفتح الهمزة والميم، فعلاً ماضياً، معطوف على ﴿فَكَ﴾ والباقيون برفع كاف ﴿فَكَ﴾ خبر لمبتدأ محذوف أي هو فك، و﴿رَقِيَّةٌ﴾ بالجر، على الإضافة، و (إطعام) بكسر الهمزة وألف بعد العين وتوئين الميم المرفوعة عطفاً على ﴿فَكَ﴾ و (أو) للتخيير.

ماله في وجوه الخير، بدلاً من إنفاقها في عداوة الإسلام وأهله، والمجاهرة بالمعاصي. والافتحام هو الدخول العسير، وفي اقتحام العقبات تظهر المسابرة والمجادلة. والعقبة أعلى نقطة في الشيء المرتفع، ويراد بها في الآية: العمل الموصل للخير، فهي تُطلق على مجاهدة النفس والهوى، ومجابهة العمل الشاق، كأن يتكلف العبد سلوك طريق وعبر. والذي لم يشكر نعم الله تعالى عليه بفعل هذه المنجيات، فلا فك رقبة، ولا أطمع يتيماً ولا مسكيناً، فقد غمط نعم الله عليه، وكفر بالمنعم سبحانه.

ثم عظم تبارك وتعالى من شأن حمل النفس على فعل الطاعات فقال ﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا أَعَقَبُ﴾ أي شيء أعلمك بهذه المشقة التي تُعينك على تجاوز محنة الدار الآخرة؟ إن شأنها عظيم، تحتاج إلى جهد ومكابدة وجهاد وصبر.

وشبه بعضهم العقبة: بالصراط المضروب على متن جهنم، وعلى جانبيه كلاليب وخطاطيف، كأنها شوك السعدان:

فمن الناس من يمر عليه وقد نجا وسلم، ومنهم من يُخدش، ومنهم من يقع في النار، يمر بعضهم كالبرق الخاطف، وبعضهم يمر كالريح العاصف، وبعضهم يمر كالفرس، ومنهم من يمر كالرجل الذي يُسرّع الخطى، ومنهم من يسير سيراً، ومنهم من يزحف زحفاً، ومنهم من تزل قدمه، ومنهم من يسقط في النار. فمن سلم وهو يمر على الصراط، فقد سلك طريق النجاة، وتجاوز حالة الشدة، نسأل الله السلامة والعافية!

ثم شرعت الآيات في تفصيل أسباب اجتياز الحاجز بين العبد وبين دخوله الجنة: السبب الأول: ﴿فَكَرَبَةٍ﴾ أي عتق رقبة مؤمنة من أسر الرق، أو الإسهام في تخليصها من العبودية واستقلالها بحريتها.

وفك الرقبة أصل من أصول التشريع الإسلامي في الشؤف إلى الحرية، وإبطال الرق والعبودية، وذلك بأن يعتق الإنسان ما هو مملوك له، أو يعطي مكاتباً ويُعينه على دفع الفدية، أو يعينه على دفع الأقساط المتفق عليها مع سيده لتخليص نفسه من الرق، وقد

حث الإسلام على فك الرقاب بجميع الطريق:

- ١- في الصحيحين وغيرهما عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «من أعتق رقبة مسلمة، أعتق الله بكل عضو منها عضواً منه من النار، حتى يفرجه بفرجه»^(١).
- ٢- وعن أبي هريرة أيضاً أن رسول الله ﷺ قال: «أيما رجل أعتق امرأً مسلماً، استنقذ الله بكل عضو منه عضواً من النار».

قال سعيد بن مرجانة: فانطلقت به - أي بهذا الحديث - إلى علي بن الحسين، فعمد علي بن الحسين رضي الله عنهما إلى عبد له، قد أعطاه به عبد الله بن جعفر، عشرة آلاف درهم - أو ألف دينار - فأعتقه^(٢).

وكلما كانت الرقبة نفيسة، وثمنها أغلى، كان ذلك أفضل:

- ٣- عن أبي ذر رضي الله عنه قال: سألت النبي ﷺ: أي العمل أفضل؟ قال: «إيمان بالله، وجهاد في سبيله» قلت: فأَي الرقاب أفضل؟ قال: «أغلاها ثمناً، وأنفسها عند أهلها» قلت: فإن لم أفعل؟ قال: «تعين صانعاً، أو تصنع لأخرق» قال: فإن لم أفعل؟ قال: «تدع الناس من الشر، فإنها صدقة، تصدق بها على نفسك»^(٣).
- وفي عتق الرقبة فك من النار لمن أعتقها:

- ٤- عن أبي نجیح السلمي رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «من أعتق رقبة مؤمنة، فإنه يُجْزَى مكان كل عظم من عظامها، عظمًا من عظامه من النار»^(٤).
- أَي أن الله تعالى يحرر أعضاء المعتق من النار، مقابل تحرير العتيق من الرق.

(١) صحيح البخاري برقم (٦٧١٥)، وصحيح مسلم برقم (١٥٠٩)، وسنن الترمذي برقم (١٥٤١)، وسنن النسائي الكبرى برقم (٤٨٧٥)، والمسند (٤٢٢/٢) (٩٧٧٣).

(٢) صحيح البخاري برقم (٦٧١٥، ٢٥١٧)، وصحيح مسلم (١٥٠٩)، والترمذي (١٥٤١)، والمسند (٩٤٤١)، وابن حبان (٤٣٠٨)، والنسائي في الكبرى (٤٨٥٤).

(٣) صحيح البخاري برقم (٢٥١٨)، وصحيح مسلم برقم (٨٤) كتاب الإيمان.

(٤) ينظر: صحيح سنن أبي داود (٣٣٥٥)، والترمذي (١٦٣٨)، والنسائي (٣١٤٣)، وهو في سنن أبي داود (٣٩٦٥)، ومن حديث طويل في المسند (١٧٠٢٢).

٥- وعن عمرو بن عبسة رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «من أعتق رقبة مؤمنة كانت فداؤه من النار»^(١).

وعتق الرقبة أو المساهمة في عتقها من أسباب دخول الجنة:

٦- عن البراء بن عازب رضي الله عنه قال: جاء أعرابي إلى رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله، علمني عملاً يدخلني الجنة، فقال: «لئن كنت أقصرت الخُطْبَةَ، لقد أعرضت المسألة (أعتق النّسمة، وفكّ الرقبة) فقال: يا رسول الله، أوليست بواحدة؟ قال: «لا، إن عتق النّسمة: أن تنفرد بعتقها، وفكّ الرقبة، أن تعين في عتقها، والمنحة الوكُوف - أي غزيرة اللبن - وألفيء على ذي الرحم الظالم، فإن لم تُطِقْ ذلك، فأطعم الجائع، واسق الظمآن، وأمر بالمعروف، وانه عن المنكر، فإن لم تُطِقْ ذلك فكُفّ لسانك إلا من خير»^(٢).

الإسلام حرر العبيد من الرق:

وهكذا فقد جعل الإسلام عتق الرقبة، سُلّم اقتحام العقبة، وجعله عتقاً من النار للمُعْتِق، كل عضو بعضو، وجعله كفارة لليمين، وللظهار، والقتل الخطأ. فسوّى الإسلام في عتق الرقبة بين ما يقابله صيام ثلاثة أيام، ككفارة اليمين، بما يقابله صيام ستين يوماً، ككفارة الظهار!

وجعل كل ذلك نوافذ لإطلاق الأسرى وفك الرقاب.

ولم يُبق الإسلام للاسترقاق، إلا باباً واحداً، هو الأسر في القتال مع غير المسلمين في حرب إسلامية مشروعة.

وفي مطلع الإسلام كان الرق منتشرًا في العالم، وكان الرقيق يعامل معاملة قاسية، فلما أسلم بعضهم كعَمَار وأسرته، وبلال، وصهيب، وخبيب، وغيرهم، اشتد عليهم البلاء من ساداتهم، وعذبوهم تعذيباً لا يطاق، فكان هذا بدءاً خلاصهم من الرق، بِسَرَّائِهِمْ وتحريرهم:

(١) سنن أبي داود برقم (٣٩٦٦)، والمسند (٣٨٦/٤) برقم (١٧٠٢٠)، وعن عقبة ابن عامر برقم (١٧٣٥٧)، وهو صحيح لغيره (محققه)، وصححه الألباني في صحيح الجامع برقم (٦٠٥٠) وهو في الترمذي (١٦٣٨).
(٢) المسند (٢٩٩/٤) (١٨٦٤٧)، وأخرجه البغوي بسنده في شرح السنة (٢٤١٩)، وابن حبان (٣٧٤)، والبيهقي (٢٧٢/١٠)، وفي الشعب (٤٣٣٥)، قال محققو المسند: إسناده صحيح ورجاله ثقات، وأخرجه الطيالسي (٧٣٩)، والطحاوي في مشكل الآثار (٢٧٤٤).

فاشترى أبو بكر، بلالاً، من أمية بن خلف، وأعتقه لوجه الله، وأعتق معه ست رقاب:

١ - عامر بن فهيرة. ٢ - وأم عيس.

٣ - وزئيرة وقد عمي بصرها لما أعتقت، فقال المشركون: ما أذهب بصرها إلا اللات

والعزى، فقالت: كذبوا، وبيث الله، ما تضر اللات والعزى، ولا تنفعان، فرد الله بصرها.

٤، ٥ - وأعتق أبوبكر: المرأة النهدية وابنتها - وكانتا لامرأة من بني عبد الدار،

فأرسلتهما بطحين لها، وهي تقول: والله لا أعتقهما أبداً، فقال أبوبكر: تحللي من

يمينك، قالت: أنت أفسدتهما فأعتقهما، قال بكم هما؟ قالت بكذا وكذا، قال: قد

أخذتهما، وهما حُرّتان، أزوجا إليهما طحينها.

٦ - ومر أبوبكر بجارية مُسلمة من بني عدي، وكان عمر بن الخطاب - قبل إسلامه -

يعذبها لتترك الإسلام، فاشتراها أبوبكر وأعتقها.

قال أبو قحافة لابنه أبي بكر الصديق: إني أراك تعتق رقاباً ضعافاً، فلو أعتقت رجالاً

أقوياء يمنعونك، ويقومون دونك، فقال أبوبكر: يا أبت إنما أريد ما يريد الله^(١).

وقد انتهى الرق غالباً من بلاد الإسلام بسبب ترغيبه في عتق الرقاب بشتى السبل،

وتضييق الخناق عليه بعد أن كان متفشياً بكثرة.

ولكننا أصبحنا نقرأ عن أسواق للرقيق الأبيض والأسود في أنحاء كثيرة من العالم،

لاسيما شرق آسيا والهند وأفريقيا، فهل من مشيرين لاقتحام العقبة؟ وفي الحديث (ثلاثة

حق على الله عونهم) منهم (المكاتب)^(٢) وهو الرقيق الذي تعاقد مع سيده على أقساط

يدفعها له، ليفك أسره، وهو سهم من مصارف الزكاة، قال الله عنه ﴿وَفِي الرِّقَابِ﴾ [التوبة: ٦٠]

فقد شرع الله سهم المكاتبين لتخليصهم من الرق أو إعانتهم على ذلك.

(١) ينظر: سيرة ابن إسحاق فيما سبق.

(٢) ينظر حديث أبي هريرة في المسند (٧٤١٦) بإسناد قوي رجاله ثقات (محققوه)، وعبد الرزاق (٩٥٤٢)،

والترمذي (١٦٥٥)، والنسائي (٣١٢٠)، وابن ماجه (٢٥١٨)، وصحيح سنن ابن ماجه (٢٠٤١) بإسناد

حسن، وابن حبان (٤٠٣٠).

السَّبَبُ الثَّانِي مِنْ أَسْبَابِ اجْتِيَازِ الْعُقْبَةِ

١٤-١٦ - ﴿أَوْ إِطْعَمٌ فِي يَوْمٍ ذِي مَسْغَبَةٍ ۝ ١٦ يَتِيمًا ذَا مَقْرَبَةٍ ۝ ١٥ أَوْ مِسْكِينًا ذَا مَتْرَبَةٍ ۝﴾

والمراد إطعام الطعام حال شدة المجاعة، في أوقات المحن التي يعزّ فيها وجود الطعام. وإطعام الطعام في كل وقت مقربة إلى الله تعالى، ولكنه في أيام المجاعة يكون أشد على النفس، ولذا جاء التقييد به في الآية، لأنه علامة على قوة الإيمان في هذه الحالة، كما قال تعالى: ﴿وَيُطْعَمُونَ الطَّعَامَ عَلَى حُبِّهِ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا ۝ ٨﴾ إِنَّمَا نَطْعَمُكُمْ لَوَجْهِ اللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنْكُمْ جَزَاءً وَلَا شُكْرًا ﴿[الإنسان: ٨ - ٩].

وقال سبحانه: ﴿لَنْ نَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا حُبَبْتُمْ﴾ [آل عمران: ٩٢].

وقد مدح الله الأنصار حين أكرموا المهاجرين وقدموهم على أنفسهم فقال: ﴿وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ﴾ [الحشر: ٩].

وختم الله هذه الآية من سورة الحشر بقاعدة جليلة فقال:

﴿وَمَنْ يُوقِ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [الحشر: ٩].

والمسغبة: هي إطعام المحتاجين في يوم تشتد فيه المجاعة، فإطعامهم للطعام ليس تفاخراً ولا رياءً ولا سمعة، وإنما هو ابتغاء وجه الله تعالى:

في صحيح مسلم وغيره عن أبي هريرة ؓ أن رسول الله ﷺ قال:

«شر الطعام طعام الوليمة، يُمنعها من يأتيها، ويدعى إليها من يأبأها، ومن لم يُجب

الدعوة فقد عصى الله ورسوله»^(١).

وروى الطبراني (شر الطعام طعام الوليمة، يدعى إليه الشبعان ويحبس عنه الجائع).

أولى الناس بالإطعام:

وأولى الناس بإطعام الطعام في شدة المجاعة صنفان من الناس:

أحدهما: اليتيم، الذي مات أبوه وهو صغير، ولم يترك له ميراثاً يكفيه، وهو من ذوي

(١) صحيح مسلم برقم (١٤٣٢)، والمسنَد (٧٢٧٩، ٧٦٢٤، ٩٢٦١).

القراءة، فإنه يجتمع فيه فضل الصدقة، وفضل صلة الرحم، لأن الصدقة على البعيد لها أجر واحد، ومن كفل يتيماً فهو مع رسول الله ﷺ في الجنة.

وثانيهما: سد حاجة الفقير المعدم الذي لا يجد شيئاً، وهو المسكين الذي جاء ذكره في قوله تعالى: ﴿أَوْ مَسْكِينًا ذَا مَتْرَبٍ﴾ أي التصقت يده بالتراب من شدة الفقر، فهو ينام على التراب لأنه لا يجد ما يفرشه على الأرض.

وإذا ذكر المسكين فإنه يشمل الفقير، وإذا ذكر الفقير فإنه يشمل المسكين، أما إذا ذكر كلاهما فإنه يفرق بينهما.

وقالوا: في تعريف المسكين هو الذي يجد أقل مما يكفيه، والفقير هو الذي لا يجد شيئاً. ويرجع كون الفقير أشد حاجة من المسكين: وذلك أن الله تعالى قد سمى أهل السفينة مساكين، فقال: ﴿أَمَّا السَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسْكِينٍ يَعْمَلُونَ فِي الْبَحْرِ﴾ [الكهف: ٧٩].

وقوله ﷺ من حديث أبي سعيد ؓ «اللهم أحيني مسكيناً وأمتني مسكيناً واحشرنني في زمرة المساكين»^(١) أي في حالة الكفاف أو أدنى.

أما الفقر فقد استعاذ منه النبي ﷺ كما في حديث أبي هريرة ؓ «اللهم إني أعوذ بك من الفقر وأعوذ بك من القلة والذلة، وأعوذ بك أن أظلم أو أظلم»^(٢).

وعن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال: «من موجبات المغفرة: إطعام المسلم السَّعْبَانِ»^(٣).

وعن سلمان بن عامر ؓ قال سمعت رسول الله ﷺ يقول: «الصدقة على المسكين

(١) من حديث أبي سعيد في سنن ابن ماجه (٤١٢٦)، وصححه الألباني في صحيح سنن ابن ماجه (٣٣٤٥)، والسلسلة الصحيحة (٣٠٨)، وإرواء الغليل (٨٦١).

(٢) البخاري في الأدب المفرد (٦٧٨)، وأبوداود (١٥٤٤)، وابن ماجه (٣٨٤٢)، والنسائي في السنن الكبرى (٧٨٤٤)، والمسنَد (٨٠٥٣) بإسناد صحيح على شرط مسلم ورجاله رجال الشيخين إلا حماد ابن سلمة فمن رجال مسلم (محققوه)، وابن حبان (١٠٠٣).

(٣) البيهقي في الشعب (٣٣٦٤)، والمستدرک (٥٢٤/٢) قال الحاكم: هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه ووافقه الذهبي وابن الملتن وتكلم فيه الألباني في ضعيف الترغيب والترهيب (٥٥٠).

صدقة، وعلى ذي الرحم اثنتان: صدقة وصلة»^(١).

فمن أطعم هذين الصنفين في أيام المجاعات التي تُذهِل الإنسان عن نفسه، كان حريصاً على طاعة الله تعالى وعلى نفع عباده، فهو حريٌّ أن يكون من أصحاب اليمين.

أَرْبَعَةُ شُرُوطٍ لِقَبُولِ عَتَقِ الرِّقْبَةِ وَسَائِرِ الْأَعْمَالِ الصَّالِحَةِ

١٨، ١٧ - ﴿ثُمَّ كَانَ مِنَ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ وَتَوَاصَوْا بِالرِّحْمَةِ ۖ أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ ۖ﴾ (١٨)

ثم ذكر سبحانه شرط قبول عتق الرقبة، وشرط إطعام اليتيم والمسكين، لاجتياز العقبة يوم القيامة، فبين جل شأنه أن ذلك مشروط بأربعة شروط:

الشرط الأول: هو الإيمان ﴿ثُمَّ كَانَ مِنَ الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ أي من الذين أخلصوا دينهم لله، فآمنوا بقلوبهم، وعملوا الصالحات بجوارحهم، لأن الطاعات لا تُقبل بدون إيمان، ولأن المؤمن هو الذي يتبغى بعمله وجه الله تعالى، كما قال تعالى: ﴿وَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أَنَّىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَٰئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ نَقِيرًا﴾ [النساء: ١٢٤].

وقال سبحانه: ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أَنَّىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ﴾ [النحل: ٩٧].

فغير المؤمن لا يفتح له العقبة ولا تنفعه القُرب.

ومن ذلك حديث عائشة رضي الله عنها أنها قالت: يا رسول الله: إن ابن جدعان، كان في الجاهلية، يصل الرحم، ويُطعم الطعام، ويُفكِّ العاني، ويعتق الرقاب، ويحمل على إبله لله، فهل ينفعه ذلك شيئاً؟ قال: «لا، إنه لم يقل يوماً رب اغفر لي خطيئتي يوم الدين»^(٢).

ويفهم من هذا أن غير المسلم لو تقرب إلى الله تعالى بالطاعات قبل إسلامه، ثم أسلم، فإن أعماله السابقة تنفعه.

(١) قال الترمذي برقم (٦٥٨): هذا إسناد صحيح، وكذا قال النسائي في السنن (٩٢/٥)، وفي الكبرى

(٢٣٧٤)، وهو في المسند (٢١٤/٤) برقم (١٦٢٢٧)، وهو حديث صحيح لغيره (محققوه)، وأخرجه ابن

ماجه (١٨٤٤)، وابن خزيمة (٢٣٨٥).

(٢) ينظر: تمة أضواء البيان (٢٣٢/٩)، والحديث عند مسلم (٢١٤)، والحاكم (٤٠٥/٢)، والطبري (٥٦٦/٢٤).

وقد جاء هذا صريحاً في حديث حكيم بن حزام رضي الله عنه قال: قلت: يا رسول الله، أرايت أشياء كنت أتحنت بها في الجاهلية، من صدقة، أو عتاقة، وصلة رحم، فهل فيها من أجر؟ فقال لي النبي ﷺ: «أسلمت على ما سلف من خير»^(١).

والتحنت هو التعبد، ومعنى ذلك أنه لما أسلم نفعه ما عمله قبل إسلامه. والشرط الثاني لقبول العمل الصالح هو: التواصي بالصبر على طاعة الله تعالى، وعن معاصيه، وعلى الرضا بقضائه وقدره، وتوطين النفس على قبول الحق من الناس. أما الشرط الثالث: فهو التواصي بالرحمة بين الناس، لاسيما الشفقة بالضعفاء والمساكين. وقد وصف الله المؤمنين بأنهم ﴿رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ﴾ [الفتح: ٢٩] وأن بعضهم يوصي بعضاً على إطعام المسكين.

١- وفي حديث جرير بن عبد الله رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال:

«لا يرحم الله من لا يرحم الناس»^(٢).

٢- وعن عبد الله بن عمرو رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال:

«الراحمون يرحمهم الرحمن، ارحموا أهل الأرض يرحمكم من في السماء»^(٣).

٣- وعن عبد الله بن عمرو أيضاً قال: قال النبي ﷺ:

«من لم يرحم صغيرنا، ويعرف حق كبيرنا فليس منا»^(٤).

(١) المسند (١٥٥٧٥، ١٥٣١٨، ١٥٣١٩) وإسناد صحيح على شرط الشيخين (محققوه)، وهو في مصنف عبد الرزاق (١٩٦٨٥)، ومسلم (١٢٣، ١٩٥)، والبخاري (٢٢٢٠، ٥٩٩) من طرق متعددة.

(٢) صحيح البخاري برقم (٧٣٧٦)، وصحيح مسلم برقم (٢٣١٩).

(٣) أبوداود برقم (٤٩٤١)، والترمذي برقم (١٩٢٤)، والمستدرک (١٥٩/٤)، وفي صحيح أبي داود برقم (٣٢)، وكلها أسانيد صحيحة.

(٤) أبوداود برقم (٤٩٤٣)، والمسند (٢٢٢/٢) برقم (٧٠٧٣) بإسناد صحيح (محققوه)، وأخرجه الحميدى (٥٨٦)، والبيهقى في الشعب (١٠٩٧٦)، والترمذي برقم (١٩٢٠)، وصحيح أبي داود (٤١٣٤) بإسناد صحيح، وابن أبي شيبه (٣٣٩/٨).

أهل السعادة وأهل الشقاء:

والذين أنفقوا أموالهم في فك الرقاب، وإطعام المحتاجين من المؤمنين، هم أهل السعادة، يظلّون ناشطين في عمل الخير حتى يدركهم الموت، فيأخذون كتابهم بأيمانهم، ثم يؤوّلون إلى جنة رضوان على قدر سبقهم في الخيرات. قال تعالى:

٢٠، ١٩ - ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا هُمْ أَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ (١) عَلَيْهِمْ نَارٌ مُّؤَصَّدَةٌ (٢)﴾

أما أهل الكفر والضلال من مدمني الآثام الذين ماتوا على ذلك، فلم يؤمنوا بالله ورسوله، ولم يعملوا صالحاً، ولم يحسنوا إلى خلق الله، فلهم عاقبة أخرى، إنهم يأخذون كتابهم يوم القيامة بشمالهم، علامة الشؤم وسوء العاقبة، وهم أصحاب الشمال والمشأمة، أي النار المشؤومة.

فالكفر ينهي الموقف، فلا حسنة مع الكفر، ولا سيئة إلا والكفر يغطي عليها.

ثم يؤول الحال بالكفار إلى نار مطبقة تُغلق عليهم فلا يخرجون منها، فالعذاب ملازم لهم، محبسون فيه، كما قال تعالى: ﴿نَارُ اللَّهِ الْمُوقَدَةُ (٦) الَّتِي تَطْلُعُ عَلَى الْأَفْنَدَةِ (٧) إِنَّهَا عَلَيْهِمْ مُّؤَصَّدَةٌ (٨) فِي عَمَدٍ مُّمدَّدَةٍ (٩)﴾ [الهمزة: ٦ - ٩] إنه لا ضوء فيها، ولا فُرج، ولا خروج منها إلى الأبد، فهذه العمدة قد مُدّت من وراء النار، لئلا تفتح أبوابها فيظلموا في العذاب الشديد دائماً وأبداً.

اللهم نجّنا من نارك، ولا تهلكنا بعذابك، ولا تحرمنا جنتك ورضوانك، يارب العالمين، يا أرحم الراحمين.

تم تفسير (سورة البلد) والله الحمد والمنة

(١) وقف حمزة على ﴿الْمَشْأَمَةِ﴾ بالنقل.

(٢) قرأ أبو عمرو وحفص وحمزة ويعقوب وخلف بالهمز في ﴿مُؤَصَّدَةٌ﴾ من آصد بمعنى أغلق، والباقون بإبدالها واواً من أوصد، وبديلها حمزة عند الوقف واواً.

تَفْسِيرُ سُورَةِ الشَّمْسِ (٩١)

مُقَدِّمَةُ السُّورَةِ

(سورة الشمس) هي السورة الحادية والتسعون في ترتيب المصحف، والسادسة والعشرون في ترتيب النزول، نزلت بعد (سورة القدر) وقبل (سورة البروج). وعدد آياتها ست عشرة آية في المصحف المدني الأول، قيل: والمكي. وخمس عشرة آية في بقية المصاحف. وهي أربع وخمسون كلمة، ومئتان وسبعة وأربعون حرفاً. وهي سورة مكية باتفاق.

وتسمى (سورة الشمس) بدون واو، وعُثِنَ لها البخاري وغيره بسورة ﴿وَالشَّمْسِ وَضُحَاهَا﴾.

موضوع السورة:

تناولت (سورة الشمس) موضوعين، ثانيهما: مثَلُ تطيقي للأول: أما أولهما: فهو موضوع النفس الإنسانية، وما جُبِلَتْ عليه من خير وشر، وهُدًى وضلال، وذلك في الآيات العشر الأول منها، حيث أقسم سبحانه سبع مرات متتابعة في الآيات الثمانية الأول: بالشمس وضوئها الساطع، والقمر إذا أعقبها، والنهار إذا جَلَى ظلمة الليل، وبالليل إذا غَطَّى الكائنات بظلامه، وبالسماء وبناءها بلا عمد، وبالأرض وبسطها، وبالنفس البشرية وما زَيَّنَها به من الفضائل والكمالات. أقسم تعالى بهذا كله على شيء واحد هو: فلاح من زَكَّى نفسه بالتقوى، وشقاوة من أتبع نفسه هواها، وأخلد إلى الأرض، فأخفى نفسه في المعاصي، ودسَّها فيها، فأشقاها في دنياها وأخرها. وهذا في الآيات العشر الأول من السورة. وثانيهما: مثَلُ لمن أهلك نفسه بالإسفاف والغفلة، فطغى وتجبر، وخرج عن طاعة الله والرسول، وهذا يتمثل في قصة قوم ثمود لَمَّا كَذَّبُوا نبيهم صالحاً، وعقروا الناقة التي

هي معجزة الله لرسوله صالح عليه السلام، وقد فَجَرَتْ قَبِيلَةَ ثَمُودَ وَطَغَتْ، فكان عاقبتها أن جعلها الله مثلاً وعبرة لكل فاجر مكذب لله ورسوله، فأَمَسَتْ هَشِيمًا تُدَاسُ بِالْأَقْدَامِ، وكان هذا المثل التطبيقى للنفس الشقية فى الآيات الخمس الأخيرة من السورة. عن أبي بريدة رضي الله عنه أن النبي ﷺ كان يقرأ فى صلاة العشاء بـ ﴿وَالشَّمْسِ وَضُحَاهَا﴾ وأشباهاها من السور^(١).

وفى حديث أنس رضي الله عنه أن معاذ بن جبل رضي الله عنه أطال فى صلاته وهو يؤم الناس فقال له النبي ﷺ «أفتان أنت؟ لا تُطَوِّلْ بهم، اقرأ بـ ﴿سَبِّحْ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى﴾ ﴿وَالشَّمْسِ وَضُحَاهَا﴾ ونحوها»^(٢).

إن سورة الشمس من قصار السور، تتضمن معاني وجيزة، وتوجيهات سريعة، ولكنها كافية شافية لمن يُكثر قراءتها فى الصلوات الخمس، لتكون زاداً روحياً نافعاً.

* * *

(١) أخرجه أحمد (٢٢٩٩٤) بإسناد قوى ومتن صحيح، كما قال محققوه، وسنن الترمذي (٢٥٤)، والنسائي (٩٩٨)، والبخارى فى شرح السنة (٦٠٠)، والنسائي (١٧٣/٢).

(٢) ينظر الحديث بطوله فى سنن النسائي الكبرى (١١٦٧٤) والمسند (١٢٢٤٧) بإسناد على شرط الشيخين (محققوه)، وأخرجه الضياء فى المختارة، والبخارى (٤٨١)، وعن جابر فى المسند (١٤١٩٠)، وهو متفق عليه.

تَفْسِيرُ السُّورَةِ

سَبْعَةُ أَيَّامٍ عَلَى فَلَاحٍ مَنْ زَكَّى نَفْسَهُ بِالتَّقْوَى، وَشَقَاءٌ مَنْ اتَّبَعَ نَفْسَهُ هَوَاهَا

١-٨ - ﴿وَالشَّمْسُ وَضَحَّهَا ① وَالْقَمَرُ إِذَا لَلَّهَا ② وَالنَّهَارُ إِذَا جَلَّهَا ③ وَاللَّيْلُ إِذَا يَغْشَاهَا ④ وَالسَّمَاءُ وَمَا بَنَاهَا ⑤ وَالْأَرْضُ وَمَا طَحَّهَا ⑥ وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا ⑦ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا ⑧﴾

يُكثِّرُ الْقُرْآنُ الْكَرِيمُ مِنْ تَوْجِيهِ قُلُوبِ عِبَادِ اللَّهِ تَعَالَى إِلَى الْمَشَاهِدِ الْكُونِيَّةِ بِأَسَالِيِبٍ مُتَعَدِّدَةٍ، كَمَا يُلَفِّتُ أَنْظَارَهُمْ إِلَى آيَاتِ اللَّهِ فِي الْكَوْنِ، وَالتَّأَمُّلِ فِيهَا، لِلِاسْتِدْلَالِ بِهَا عَلَى وَحْدَانِيَةِ الْخَالِقِ سُبْحَانَهُ، الَّذِي يَقْسِمُ بِمَا شَاءَ مِنْ مَخْلُوقَاتِهِ الْعَظِيمَةِ، وَمِنْهَا ﴿وَالشَّمْسُ وَضَحَّهَا﴾ ضَمَّنَ سَبْعَةَ أَنْوَاعٍ مِنَ الْقِسْمِ فِي مَطْلَعِ هَذِهِ السُّورَةِ:

القسم الأول: أي: أقسم بالشمس حين تُشْرِقُ فِي وَقْتِ الضُّحَى، وَهِيَ تَرْتَفِعُ وَيَضْفُو ضَوْؤُهَا وَيَسْتَمِرُّ فِي النَّهَارِ كُلِّهِ، حَيْثُ يَسْطَعُ نُورُهَا وَيَنْبَسِطُ، فَيُضِيءُ الْكَوْنَ كُلَّهُ وَيُبَدِّدُ ظِلَامَهُ. وَالشَّمْسُ وَحْدَهَا آيَةٌ دَالَّةٌ عَلَى قُدْرَةِ خَالِقِهَا، لِمَا فِيهَا مِنْ طَاقَةٍ حَرَارِيَّةٍ فِي ذَاتِهَا تَفُوقُ كُلَّ تَقْدِيرٍ، وَهُوَ أَمْرٌ مُسْتَمِرٌّ عَلَى مَرِّ الزَّمَانِ دُونَ انْتِقَاصٍ.

يَقُولُ الشَّيْخُ مُحَمَّدُ الْغَزَالِيُّ: عِنْدَمَا أَنْظَرَ إِلَى الشَّمْسِ فِي كَبِدِ السَّمَاءِ، أَحْسَبْتُهَا تَزِيدُ قَلِيلاً عَنْ شِبْرِ فِي شِبْرٍ، ثُمَّ أَذْكَرُ أَقْوَالَ الْعُلَمَاءِ أَنَّهَا تَكْبُرُ أَرْضُنَا (مِلْيُوناً وَنِصْفَ مِلْيُونٍ مَرَّةً) وَأَنَّ الْمَسَافَةَ الَّتِي تَبَاعَدُنَا عَنْهَا (١٥٠ مِلْيُونِ كِيلُو مِتْرٍ) وَأَنَّ الْكَوَاكِبَ الَّتِي تَتَّبِعُهَا تَسْعَةُ كَوَاكِبٍ مِنْ بَيْنِهَا هَذِهِ الْأَرْضُ الَّتِي تَحْمِلُ سِتَّةَ مِلْيَارَاتٍ مِنَ الْبَشَرِ وَحَدَهُمْ!

وَأَنَّ هَذِهِ الشَّمْسُ وَتَوَابِعُهَا تَجْرِي بَيْنَ شَمُوسٍ أُخْرَى لَا تُحْصَى فِي مَجْرَةٍ مَدِيدَةٍ الْآفَاقِ، وَأَنَّ هَذِهِ الْمَجْرَاتُ عَلَى كَثَرَتِهَا الْمَذْهَلَةِ تَدُورُ فِي زَاوِيَةٍ مُحَدُودَةٍ مِنَ الْكَوْنِ الْفَسِيحِ الَّذِي تُعْرِفُ آمَادُهُ وَلَا تُدْرِكُ أَبْعَادُهُ!

يَقُولُ: قُلْتُ: وَأَنَا مَبْهُورٌ: مَا أَوْسَعَ الْكَوْنُ! وَمَا أَعْظَمَ قُدْرَةَ خَالِقِهِ، وَقَرَأْتُ قَوْلَهُ تَعَالَى: ﴿وَاللَّهُ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ فَأَيْنَمَا تُولُوا فَثَمَّ وَجْهُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾ ^(١) [البقرة: ١١٥].

(١) نحو تفسير موضوعي لسور القرآن (ص ٥٢٢) بتصرف.

وقد وصف الله سبحانه أثر الشمس المقسم بها في قوله ﴿وَضَحَّيْنَهَا﴾ وهو انتشار ضوئها في وقت الضحى نتيجة لحركتها، وهذا وحده آية دالة على قدرة الله تعالى: ﴿وَأَيَّةٌ لَهُمْ أَيْلٌ نَسْلَخُ مِنْهُ النَّهَارَ فَإِذَا هُمْ مُظْلِمُونَ ﴿٣٧﴾ وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَهَا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ﴾ [يس: ٣٧ - ٣٨].

وقد أقسم الله تعالى بالضحى وحده في قوله: ﴿وَالضُّحَى ﴿١﴾ وَالْأَيْلُ إِذَا سَجَى﴾ [الضحى: ١ - ٢]. وقدرة العزيز العليم اقتضت نظاماً مُعَيَّناً لبعده الشمس من الأرض، بحيث لو اقتربت درجة أو ارتفعت درجة، لما استطاع أحد أن ينتفع منها بشيء، لأنها تُحرق باقترابها ويتجمد العالم من بعدها^(١).

وحكمة القسم بالشمس أن الناس في غيبتها كأنهم أموات، فإذا بزغت الشمس دب فيهم الحياة، وصار الأموات أحياء فانتشروا في الأرض، وهذا يشبه أحوال يوم القيامة. وجاء القسم الثاني في السورة، وهو القسم بالقمر إذا تبع الشمس في ظهوره وأُفوله، لاسيما ليلة أربع عشرة، وخمس عشرة، وست عشرة وهي الليالي التي يطلع فيها القمر من المشرق ممتلئاً بعد غروب الشمس في ليالي الظهور، وهو بذر متكامل. ففي النصف الأول من الشهر، يَخْلُف القمر الشمس في النور، فتغرب الشمس ويتلوها نور القمر.

والآية تشير إلى أن القمر يستمد نوره من الشمس، عندما تتوجه أشعتها إلى ما يقابل الأرض من القمر، فهو ليس منيراً بذاته.

ولكنه تقدير العزيز العليم لمسيرة القمر، فهو لا يسبق الشمس ولا تفوته. ﴿لَا الشَّمْسُ يَنْبَغِي لَهَا أَنْ تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلَا أَيْلٌ سَابِقُ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾ [يس: ٤٠]. وبحركة القمر ترتبط مصالح الناس، وتتعلق به منافع العالم من تخفيف ظلمة الليل، وفوائده على النبات والزرع، وأهميته بالنسبة لمعرفة الشهور ومواسم العبادة وأوقاتها..

(١) تمة أضواء البيان (٢٣٨/٩).

وقد جاء القسم في القرآن بالقمر وحده في مثل قوله تعالى: ﴿وَالْقَمَرَ إِذَا انشَقَّ﴾ [الانشقاق: ١٨]. وقوله: ﴿كَلَّا وَالْقَمَرَ﴾ [المدثر: ٣٢].

أما القَسَمُ الثالث: فهو قَسَمٌ بالنهار إذا جَلَى الظلمة وكشفها بنوره فأضاء الكون، وإنما تتجلى الظلمة إذا ظهرت الشمس كالذي قبله، قال تعالى:

﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَالنَّهَارَ مُبْصِرًا﴾ [يونس: ٦٧].

وقد أقسم الله تعالى بالنهار إذا تجلى، في مقابلة ظلام الليل فقال:

﴿وَاللَّيْلَ إِذَا يَغْشَى ۚ وَالنَّهَارَ إِذَا تَجَلَّى ۚ﴾ [الليل: ١ - ٢].

أما القَسَمُ الرابع: فهو قسم بالليل عندما يغطي الأرض، فيكون ما عليها مُظْلِمًا، حين يغشى نصف الكرة الأرضية لِقُرْصِ الشمس، بدءًا من وقت الغروب، وذلك في الحركة اليومية لدوران الأرض تجاه مظهر الشمس.

والضمائر في هذه الأقسام الأربعة راجع إلى الشمس حال: ضُخوتها وتجليها وغروبها وتُلُوُّ القمر لها، وقد وصفها الله تعالى بهذه الأوصاف الأربعة لأنها أعظم المحسوسات.

فتعاقب الظلمة والضياء، والشمس والقمر، بانتظام وإتقان، أكبر دليل على أن الله تعالى بكل شيء عليم، وعلى كل شيء قدير، وأنه وحده المستحق للعبادة دون سواه.

القَسَمُ الخامس: قَسَمٌ بالسما وببناءها المحكم كما قال تعالى: ﴿وَالسَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا بِأَيْدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ﴾ [الذاريات: ٤٧] وخلق ما فيها من نجوم وكواكب وأفلاك ومدارات قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعَ طَرَائِقَ وَمَا كُنَّا عَنِ الْخَلْقِ غَافِلِينَ﴾ [المؤمنون: ١٧].

ولفظ ﴿وَمَا﴾ من ﴿وَمَا بَنَاهَا﴾ إما أن يكون مصدرًا، فيكون القسم بالسما وبينائها المتقن المحكم.

وإما أن يكون أسماً موصولاً، فيكون القسم بالسما وبينها وبالذي خلق السما، وهو رب العالمين وهكذا يقال في الآيتين بعدها ﴿وَالْأَرْضَ وَمَا طَحَّهَا﴾ ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا﴾.

القسم السادس: قسم بالأرض وبسطها، وجعلها ممهدة ممتدة واسعة، ميسرة للسكنى والزراعة والحياة، ولفظ ﴿طَحَّهَا﴾ مرادف للفظ ﴿دَحَّهَا﴾ فالطخو هو الدخو،

وهما بمعنى بسط الأرض في عين الرائي من كل جانب من جوانبها قال تعالى:

﴿وَالْأَرْضَ فَرَشْتَهَا فَنِعَمَ الْمَهْدُونَ﴾ [الذاريات: ٤٨].

وقال سبحانه: ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ ذُلُولًا فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِن رِّزْقِهِ﴾ [الملك: ١٥].

القسم السابع: قسم بكل نفس بشرية خلقها الله تعالى، وأعدّها لأداء مهمتها، فسوى أعضائها، وأكمل قواها الظاهرة كالسمع والبصر، وأكمل قواها الباطنة كالفهم والإدراك والتفكير، ووهبها العقل الذي تميز به بين الخير والشر، والهدى والضلال، وجعله مناط الرغبة والاختيار، والرفض والمنع.

فالمراد بالنفس: كامل خلق الإنسان بجسمه وروحه، وتفكيره وسلوكه.

ومعنى ﴿سَوَّيْنَهَا﴾ جعلها سوية مستقيمة على الفطرة القويمة ﴿فَطَرَتَ اللَّهُ إِلَهِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا﴾ [الروم: ٣٠] فكل مولود يولد على الفطرة، وأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه. ولعل الأرجح أن المراد بالنفس في الآية: نفس الإنسان المكلف فهو الذي ألهمه الله الفجور أو التقوى، وتطلق النفس على النفس البشرية صغيرها وكبيرها، كما تطلق على كل ذى روح من الإنسان والحيوان والطيور.

وقد بين سبحانه وتعالى أنه خلق تلك النفس البشرية، وجعلها قابلة للإلهام بقسميه (الفجور والتقوى) بما أودع في النفوس من إدراك المعلومات، وما تدعو إليه الشرائع الإلهية عن طريق العقل واستقباله لتلقي الإيمان والكفر، والهدى والضلال، ومقدّراته على الأخذ والمنع، والقبول والرفض، وقد أرشد الله تعالى العقل البشري إلى الأخذ بطريق الهدى والرشاد عن طريق إرسال الرسل وإنزال الكتب، وهذا كقوله تعالى:

﴿وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ﴾ [البلد: ١٠] وقوله: ﴿إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا﴾ [الإنسان: ٣].

وهذا على أن معنى الإلهام: هو هداية الدلالة والإرشاد عن طريق العقل والرسل والكتب. أما الإلهام بمعنى خلق الهدى في نفس الإنسان، فيكون ذلك وفقاً لعلم الله تعالى عما سيكون عليه العبد من الإيمان أو الكفر، والطاعة أو المعصية، عندما يكون إنساناً مكلفاً.

والآيات المذكورة تشير إلى حرية اختيار الإنسان، وتحمله تبعة مصيره، وضرورة

الرجوع الدائم إلى التعاليم الإلهية الثابتة التي تُوجه الإنسان إلى حُسن الاختيار، وعدم اتباع الهوى أو التقليد على غير بصيرة.

والنفس من أكبر الدلائل على قدرة الله تعالى وهي تشمل الروح، والإنسان بغير روح تمثال لا فائدة فيه، وبالروح تكون الحياة والحركة والانفعالات والإحساس والحب والبغض والهم والقصد والإرادة والتنقل والتأثرات النفسية.

وهذه الضمائر الأربعة التي تلت الضمائر الأربعة السابقة، تعود على الله تعالى فهو الذي بنى السماء، وبسط الأرض، وسوّى الأنفس، وألهمها التقوى والفجور. وفي ذكر النفس بعد السماء والأرض، جذب للعقل من عالم المحسوسات إلى عالم ما لا يدركه الإنسان بحسه.

النَّفْسُ الْبَشَرِيَّةُ قَابِلَةٌ لِلْكَفْرِ وَالْإِيمَانِ

٩-١٠ - ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا ۝ وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا ۝﴾

هذا هو جواب الأقسام السبعة، وهو أنه قد فاز بالمطلوب، ونجا من المكروه، من طَهَّرَ نفسه ونَمَّاها بالخير، فتجنب الشر والفجور، وسلك طريق التقوى والنجاة. وقد باء بالخسران من اتَّبَعَ هواه وشيطانه، وعصى مولاه، ووقع في المعاصي والآثام، فأوردها المهالك وخرج من عداد العقلاء والتحق بالجهلة الأغبياء. ومعنى ﴿دَسَّاهَا﴾ أخفى المعاصي وكتمها في نفسه، فتدنس بالردائل واقترب من الدنيا واستعملها فيما يشينهما ويدنسها.

وما يتزكى به العبد من الإيمان والعمل الصالح.

وتَزَكَّى المعاصي، إنما هو بفضل الله تعالى وتوفيقه، ورحمته بعبده، فالعبد يزكي نفسه بتوفيق الله تعالى وإلهامه.

والمعنى: قد أفلح من زكَّى نفسه واتَّبَعَ ما ألهمه الله تعالى من الهدى والتقوى، وخاب من اختار الضلال والفجور، بعد أن ألهمه الله التمييز بين الخير والشر، وكثيراً

ما كان النبي ﷺ يدعو ربه أن يرزقه طهارة النفس وتقواها، ومن ذلك ما جاء:

١- عن زيد بن أرقم ؓ قال: كان رسول الله ﷺ يقول: «اللهم إني أعوذ بك من العجز والكسل، والجبن والبخل والهرم، وعذاب القبر، اللهم آت نفسي تقواها، وزكها أنت خير من زكاها، أنت وليها ومولاها، اللهم إني أعوذ بك من علم لا ينفع، ومن قلب لا يخشع، ومن نفس لا تشبع، ومن دعوة لا يستجاب لها»^(١).

٢- وعن ابن عباس رضي الله عنهما أن النبي ﷺ كان إذا مر بهذه الآية ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا﴾ ﴿فَأَلَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا﴾ ﴿وَاقْضِ الْيَمِينَ﴾ وقف ثم قال: «اللهم آت نفسي تقواها، أنت وليها ومولاها، وخير من زكاها»^(٢).

٣- وعن عائشة رضي الله عنها أنها فقدت النبي ﷺ من مضجعه، فلمستهُ بيدها فوعثت عليه وهو ساجد، ويقول: «رب، أعط نفسي تقواها، وزكها أنت خير من زكاها، أنت وليها ومولاها»^(٣).

وخروج النفس عن هذه التزكية: خروج عن مقتضى الفطرة التي خلق الله الناس عليها، وهو من عمل الشيطان في انحراف الإنسان عن الطريق القويم.

٤- عن عياض بن حمار المجاشعي ؓ أن رسول الله ﷺ قال: «يقول الله عز وجل: وإني خلقت عبادي حنفاء كلهم وإنهم أتتهم الشياطين فاجتالتهم عن دينهم»^(٤).

(١) المسند (٣٧١/٤) (١٩٣٠٨) بإسناد صحيح على شرط الشيخين (محققه)، وصحيح مسلم برقم (٢٧٢٢)، وهو عند ابن أبي شيبة مختصراً (١٨٦/١٠)، والنسائي (٥٥٥٣، ٥٤٧٣).

(٢) المعجم الكبير للطبراني (١٠٦/١١) (١١١٩١)، قال الهيثمي في مجمع الزوائد (١٣٨/٧): إسناده حسن وهو عن زيد بن أرقم في المسند (١٩٣٠٨)، ضمن الحديث السابق وإسناد على شرط الشيخين (محققه).

(٣) المسند (٢٠٩/٦) برقم (٢٥٧٥٧) قال محققه: رجاله ثقات، رجال الشيخين غير صالح بن سعيد فقد روى عنه نافع بن عمر الجمحي، وله إسناد آخر صحيح برقم (٢٥٦٥٥)، وانظر (٢٤٣١٢)، والحديث عند مسلم (٢٧٢٢) عن زيد بن أرقم، وذكره ابن حبان في الثقات (٣٧٦/٤).

(٤) من حديث طويل في صحيح مسلم برقم (٢٨٦٥)، والطبري (٤٤٢/٢٤).

ومع أن القلم قد جف بما كان وما يكون، إلا أن العبد مكلف بالعمل الذي يأخذ بيده إلى رضوان الله تعالى وجنته، فإن ثوابه وعقابه مرتب على هذا العمل.

أما ما قضى به القدر فهو في علم الله تعالى، والإنسان لا يَدْرِي إن كان من أهل السعادة أو من أهل الشقاء، فهو يعمل ليصل إلى النتيجة التي علمها الله منه سلفاً قبل أن يكون بشراً سوياً:

١- عن أبي الأسود الدؤلي قال: قال لي عمران بن الحصين: أرأيت ما يعمل الناس اليوم ويكدحون فيه، شيءٌ قضى عليهم، ومضى عليهم من قدرٍ سبق؟ أو فيما يُستقبلون به، مما أتاهم به نبيهم، وثبتت الحجة عليهم؟ فقلت: بلى، شيءٌ قضى عليهم، ومضى عليهم، فقال: أفلا يكون ظُلماً؟ قال: ففرعْتُ من ذلك فرعاً شديداً وقلت: كل شيء خلق الله، ومِلْكُ يده، فلا يُسأل عما يفعل وهم يُسألون، فقال لي: يرحمك الله، إني لم أَرِدْ بما سألتك إلا لأُحرز عقلك، إنَّ رَجُلَيْنِ من مَزِينَةِ أَتِيَا رَسُولَ اللَّهِ ﷺ فقالا: يا رسول الله، أرأيت ما يعمل الناس اليوم، ويكدحون فيه، شيءٌ قضى عليهم، ومضى فيهم من قدرٍ قد سبق، أو فيما يُستقبلون به مما أتاهم به نبيهم، وثبتت الحجة عليهم؟ فقال: «لا، بل شيءٌ قضى عليهم، ومضى فيهم» وتصديق ذلك في كتاب الله عز وجل ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا ۖ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا ۗ﴾ (٨) ﴿١﴾.

٢- وعن جابر رضي الله عنه قال: جاء سراقه بن مالك بن جُعْشَمٍ فقال: يا رسول الله، بيّن لنا ديننا، كأننا خُلِقْنَا الْآنَ؟ فيم العمل اليوم؟ فيما جفّت به الأقلام، وجرت به المقادير، أو فيما يُستقبل؟ قال: «لا، بل فيما جفّت به الأقلام، وجرت به المقادير» قال: ففيم العمل؟ فقال: «اعملوا فكل ميسر لما خلق له» (٢).

(١) صحيح مسلم برقم (٢٦٥٠)، والمسنَد (٤٣٨/٤) برقم (١٩٩٣٦) بإسناد قوي على شرط مسلم، وأخرجه الطيالسي (٨٤٢)، وتفسير الطبري (١٣٥/٣٠).

(٢) صحيح مسلم برقم (٢٦٤٧) (٢٦٤٨)، وبنحوه عن علي رضي الله عنه في البخاري (٧٥٥٢، ١٣٦٢، ٤٩٤٥).

لقد منح الله الإنسان حرية الاختيار، فأمن مَنْ آمن، وكفر مَنْ كفر! وهكذا أقسم الله تعالى بسبعة أشياء هي: الشمس والقمر، والليل والنهار، والسماء والأرض، والنفس البشرية، على أن الفلاح لمن زكى نفسه بالتقوى، والخيبة والخسران لمن انغمس في الكفر والمعاصي.

قَوْمٌ ثُمُودٌ مِثَالٌ لِمَنْ دَنَسَ نَفْسَهُ بِالْمَعَاصِي وَحَجَبَهَا عَنِ الْهُدَى

١١-١٣ - ﴿كَذَّبَتْ ثُمُودٌ بِطَغْوَنِهَا ۖ ﴿١١﴾ إِذْ أُنْبِئَتْ أَشْقَنِهَا ۖ ﴿١٢﴾ فَقَالَ لَهُمْ رَسُولُ اللَّهِ نَاقَةَ اللَّهِ وَسُقْيَاهَا ۖ ﴿١٣﴾

ثم ذكرت الآيات مثلاً لمن دسّ نفسه بالآثام والذنوب، فحجبها عن الهدى، ودنسها بالمعاصي، فحلّ بها عقاب الله، وجعلها عبرة يتعظ بها كل من اتصف بالطغيان، وخرج عن تعاليم الإسلام، ولم يؤمن بخاتم النبيين ﷺ ويتمثل هذا في قصة قوم ثمود الذين كذبوا نبيهم صالحاً، فطلبوا منه معجزة دالة على صدق رسالته، وحددوا تلك المعجزة بأن يُخرج لهم ناقة عُشراء من صخرة صماء، فأيده الله بالمعجزة ظهرت أمام أعينهم، وكان الماء قليلاً، فأمرهم الله تعالى على لسان صالح عليه السلام أن الماء قسمة بينهم وبين الناقة ﴿قَالَ هَذِهِ نَاقَةُ لَهَا شَرِبٌ وَلَكُمْ شَرِبٌ يَوْمَ مَعْلُومٍ﴾ [الشعراء: ١٥٥].

وفي اليوم الذي تشرب فيه الناقة الماء، تسقيهم من لبنها وتكفيهم. ونهاهم أن يمسوها بسوء فقال: ﴿وَلَا تَمْسُوهَا بِسُوءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ [الشعراء: ١٥٦]. ولكن القوم كذبوا رسولهم صالحاً عليه السلام، بسبب طغيانهم وإفراطهم في الجحود والتكبر والعناد.

فانبعث وانتدب لذبح الناقة أشقى القوم وأتعسهم وهو (قُذَارُ بن سَالِف) وكان ذلك برضى القوم وتأميرهم، كما قال تعالى: ﴿فَادَاوَا صَاحِبَهُمْ فَتَعَاطَى فَعَقَرَ﴾ [القمر: ٢٩] وصاحبهم هو أشقى القبيلة، وكان زعيماً مطاعاً:

أخرج البخاري وغيره عن عبد الله بن زَمْعَةَ أنه سمع النبي ﷺ يخطب، وذكر الناقة والذي عقرها، فقال رسول الله ﷺ: ﴿إِذْ أُنْبِئَتْ أَشْقَنِهَا﴾ انبعث لها رجل عزيز عارم، منيع

في رهطه، مثل أبي زَمْعَةَ^(١). وأبو زمعة هو عم الزبير بن العوام ؓ.

وهذا الرهط هم الذين تأمروا على الفتك بنبي الله صالح، وعلى قتل الناقة. قال الله تعالى فيهم: ﴿وَكَاثِبَةٌ فِي الْمَدِينَةِ تَسْعَةُ رَهْطٍ يُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ﴾ [النمل: ٤٨]. والعقر: هو جرح البعير في يديه ليبرك على الأرض من الألم فيذبح من لبته، فذبح (قُدَّارُ بن سالف) الناقة بمعاونة قوم ثمود ورضاهم:

عن عمار بن ياسر ؓ قال: قال رسول الله ﷺ لعليّ «ألا أحدثك بأشقى الناس؟» قال: بلى، قال: «رجلان، أخيمر ثمود الذي عقر الناقة، والذي يضربك على هذا» يعني قرنه «حتى تبطل منه هذه»^(٢)، يعني لحيته.

وكان رسول الله صالح عليه السلام قد حذّره أن يقدموا على إيذاء الناقة، فنهاهم أن يمسوها بسوء، وحذّره أن يمنعوها من شربها، أي من شربها، ونصيها في الماء، وهكذا حذّره نبي الله صالح عليه السلام من أمرين هما: الاعتداء على الناقة بقتلها، والاعتداء على الوقت المحدد لشربها من ماء البئر، فلا يشاركوها في اليوم الخاص بها.

عَقَابُ اللَّهِ تَعَالَى لِمَنْ عَقَرَ النَّاقَةَ

١٤، ١٥- ﴿فَكَذَّبُوهُ فَمَقَرُّوْهُمَا^(٣) فَدَمْدَمَ عَلَيْهِمْ رَبُّهُم بِذَنبِهِمْ فَسَوَّاهَا^(٤)﴾ وَلَا يَخَافُ عُقْبَاهَا^(٥)

كذب قوم ثمود نبيهم صالحاً، ولم يقابلوا نعمة الله عليهم بشكرة على شربهم للبن الناقة تعويضاً لهم عن الماء.

(١) صحيح البخاري برقم (٣٣٧٧، ٤٩٤٢، ٥٢٠٤)، وصحيح مسلم برقم (٢٨٥٥)، والمسند (١٦٢٢٢)، وابن ماجه (١٩٨٣)، وابن حبان (٤١٩٠)، والترمذي (٣٣٤٣)، والنسائي في الكبرى (٩١٢١، ١١٦٧٥).

(٢) المسند (١٨٣٢١)، وأبو نعيم في الدلائل (٤٩٠)، والحاكم (١٤٠/٣)، والبخاري في التاريخ (٧١/١)، قال محققو المسند: حسن لغيره، واليزار في مسنده (١٤١٧)، والطحاوي في مشكل الآثار (٨١١).

(٣) عدّ المدني الأول والحمصى، قيل: والمكى ﴿فَمَقَرُّوْهُمَا﴾ آية، فيكون متروكاً لغيرها.

(٤) انفرد الحمصى بترك عدّ ﴿فَسَوَّاهَا﴾ وعدّها غيره.

(٥) قرأ نافع وابن عامر وأبو جعفر بالفاء بدلاً من الواو في ﴿وَلَا يَخَافُ﴾ للمساواة بينه وبين ما قبله (فقال لهم) والباقون بالواو، إما للحال، أو لاستئناف الأخبار.

فشق عليهم أن يكون للناقة يوم خاص بها في قسمة الماء مع استعاضتهم عنه بحليبها الذي يسد حاجتهم في يومهم هذا، وكذبوا صالحاً فيما توعدهم به من نزول العذاب بهم إن هم عقروا الناقة، فأقدموا على ذبحها يتقدمهم أتعس القوم وأشقاهم. فأملهم الله ثلاثة أيام ينزل بعدها عذاب الله بهم ﴿فَعَقَرُوهَا فَقَالَ تَمَنَّوْا فِي دَارِكُمْ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ ذَلِكَ وَعْدٌ غَيْرُ مَكْذُوبٍ﴾ [هود: ٦٥] وفي نهايتها أطبق الله عليهم العقوبة بجرمهم، فأهلكهم واستأصلهم عن آخرهم، وعمهم العذاب جميعاً فلم يفلت منهم أحد، وسوى الله في العقوبة بين الصغير والكبير، والرجل والمرأة، والقريب والبعيد، والغني والفقير. وهذا معنى ﴿فَسَوَّيْنَاهُ﴾ أي سوى بينهم فيما نزل بهم، ومعنى ﴿فَدَمَدَمَ﴾ أطبق عليهم الأرض، كما يطبق القبر على الميت، فجعل الأرض مستوية عليهم لا تظهر أجسامهم ولا بلادهم، وكان ذلك بصيحة الغضب الإلهي حين صاح بهم جبريل، فجاءهم صوت الصاعقة، ورجفت الأرض تحت أقدامهم: ﴿وَأَخَذَ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةَ فَأَصْبَحُوا فِي دِيارِهِمْ جِثِيًّا﴾ (٦٧) كَانَ لَمْ يَنْفَوْا فِيهَا ﴿[هود: ٦٧- ٦٨] أي كأنه لم يكن لهم وجود قبل ذلك على سطح هذه الأرض، فاستأصلهم عن بكرة أبيهم وصاروا تحت التراب وعمهم الله بعقاب! وربك الذي أنزل بهم العذاب لا يخاف تبعة ما أنزله بهم من شديد العقاب، فهو سبحانه الغالب الذي لا يقدر أحد على أخذ الثأر منه، وكيف يخاف - سبحانه - وهو القاهر فوق عباده، لا يخرج عن قهره وتصرفه مخلوق؟! والخوف صفة من صفات المخلوق وليس من صفات الخالق، فهو سبحانه العادل في أحكامه، وهو الذي لا يسأل عما يفعل، وهو الحكيم في كل ما قضاه وشرعه. والمقصود من القصة تحذير وإنذار من يكذب رسول الله خاتم النبيين ﷺ حتى لا يصيبهم ما أصاب قوم ثمود، إن عاجلاً أو آجلاً ﴿وَكَذَلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرْآنَ وَهِيَ ظُلُمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُ أَلَمٌ شَدِيدٌ﴾ (١٠١) إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِمَنْ خَافَ عَذَابَ الْآخِرَةِ ذَلِكَ يَوْمٌ مَجْمُوعٌ لَهُ النَّاسُ وَذَلِكَ يَوْمٌ مَسْهُودٌ ﴿[هود: ١٠٢- ١٠٣].

تم تفسير (سورة الشمس) والله الحمد والمنة

تَفْسِيرُ سُورَةِ اللَّيْلِ (٩٢)

مُقَدِّمَةُ السُّورَةِ

(سورة الليل) هي السورة الثانية والتسعون في ترتيب المصحف، والتاسعة في ترتيب النزول، نزلت بعد (سورة الأعلى) وقبل (سورة القمر). وعدد آياتها إحدى وعشرين آية، باتفاق. وهي إحدى وسبعين كلمة، وثلاث مئة وعشرة أحرف. وتسمى (سورة الليل) بالواو، وبدونها، وعنون لها البخاري والترمذي سورة. ﴿وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَى﴾

وهي سورة مكية عند الجمهور، وقيل: إن قوله تعالى ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى وَاتَّقَى﴾ نزلت في أبي الدرداء الأنصاري، فقالوا: إن بعضها مدني، والصحيح أنها مكية خالصة. قال ابن عباس رضي الله عنهما: إن هذه السورة نزلت في السماحة والبخل^(١).

موضوع السورة:

١- تُقرر (سورة الليل) حقيقة العمل والجزاء، وأن سعي الإنسان وكفاحه ونضاله في هذه الحياة، ثم نهايته إلى النعيم أو الجحيم، وفيها قسم بالليل حين يُغْطِي العالم بظلامه، وبالنهار وهو يكشف هذه الظلمة، وبخلق الذكر والأنثى، على أن سعي الخلق مختلف، وتوجُّهاتهم متباينة، فمع اختلاف الليل والنهار، يقضي الناس آجالهم، ويصنعون مستقبلهم إما إلى جنة، وإما إلى نار.

فالسعي الصالح يرشِّح صاحبه لمستقبل عظيم، والعمل السيء يمهّد لصاحبه نهاية مُخْزِية. وقد أساء قوم فهم القضاء والقدر، فجمّدوا طاقاتهم، ولاذّوا بالقعود عن العمل، ففشلوا وعجزوا، وفقدوا حاضرهم ومستقبلهم، هذا هو مضمون الآيات الأربع الأولى.

(١) فتح القدير للشوكاني (٥/٤٥١).

٢- وإنفاق المال مع إخلاص النية، والخوف من لقاء الله تعالى، وذم البخل بالمال مع الرياء، وعدم الخوف من لقاء الله تعالى، يرشمان الخط البياني لطالب السعادة وطالب الشقاء، ويُبينان صفات الأبرار والفجار، وكلاهما قد يَسِّر الله له طريق عمله، ووضَّح له طريق الهدى والضلال، وهذا هو مضمون [الآيات: ٥-١٣].

٣- ثم حذرت السورة وأندرت من تكذيب خاتم النبيين ﷺ وتكذيب الكتاب الذي نزل عليه، ومن التكذيب باليوم الآخر، ومافيه من بعث ونشور، فهذا الشقي المعرض عن هداية الله تعالى سوف يصلّى ناراً حامية، فيذوق سعيها وجحيمها، أما من آمن بالله ورسوله وكتابه وجنته وناره، وعمل صالحاً، ولم يبخل بماله، وزكى نفسه من الذنوب وطهرها، من الشرك فهو الفائز بالجنة، المبعد عن النار، المَرْضِي عنه يوم لقاء الله تعالى.

وبهذين المثليين لأهل الشقاء وأهل السعادة ختمت السورة.

عن جابر بن سَمُرَةَ قال: كان النبي ﷺ يقرأ في صلاة الظهر والعصر بـ ﴿وَاللَّيْلِ إِذَا يَنشَى﴾ ونحوها^(١).

* * *

(١) ينظر: صحيح مسلم (٤٥٩) والبيهقي في سننه (٣٩١/٢).

تَفْسِيرُ السُّورَةِ

ثَلَاثَةُ أَيْمَانٍ عَلَى أَنْ سَعَى الْإِنْسَانُ إِمَّا إِلَى جَنَّةٍ أَوْ نَارٍ

٤-١ ﴿وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَىٰ ۝ وَالنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّىٰ ۝ وَمَا خَلَقَ الذَّكَرَ وَالْأُنثَىٰ ۝ إِنَّ سَعْيَكُمْ لَشَتَّىٰ﴾

أقسم سبحانه وتعالى في مطلع هذه السورة بثلاثة أشياء - تشتمل على الزمان الذي تقع فيه أفعال العباد وتتفاوت أحوالهم - على أن عمل الناس في الدنيا مختلف: أولاً: أقسم جل شأنه بالليل عندما يغطي بظلامه الأرض وما عليها، فيأوي كل إنسان وحيوان إلى مأواه، وتسكن حركة الحياة بعد اضطراب، ويتحول الكون من تقلب الناس في معاشهم وأموال دنياهم، فيستقبلون الليل لنومهم وراحة أبدانهم كما قال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ لِبَاسًا ۝ وَجَعَلْنَا النَّهَارَ مَعَاشًا﴾ [النبا: ١٠، ١١].

وقد ابتداء سبحانه القسم في هذه السورة بالليل، على عكس ما في سورة الشمس حيث ابتداء القسم فيها بالنهار، لأن هذه السورة نزلت قبل سورة الشمس، والظلمة هي الأصل. ثانياً: أقسم سبحانه بالنهار إذا انكشف عن ظلام الليل بضياءه، فظهر وتجلّى بعد الظلمة، وانتشر الناس في الأرض لمصالحهم، لأن فيه حركة الخلق في السعي وطلب الرزق، وفي تعاقب الليل والنهار من مصالح العباد ما لا يحصى، ولو كان العمر كله ليلاً أو نهاراً لاختلت مصالح البشر، كما قال تعالى: ﴿وَمِنْ رَحْمَتِي جَعَلْتُ لَكُمْ أَيْلًا وَالنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [القصص: ٧٣].

ثالثاً: أقسم سبحانه وتعالى بخلق الزوجين: الذكر والأنثى، من الإنسان والحيوان والنبات، وسائر الكائنات الحية، وخصه بعضهم بالإنسان، لأنه أرفع المخلوقات، ولقول الله تعالى ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَىٰ﴾ [الحجرات: ١٣] وقوله: ﴿يَهْبُ لِمَنْ يَشَاءُ إِنِ شَاءَ وَيَهْبُ لِمَنْ يَشَاءُ الذَّكَورَ ۝ أَوْ يُرْجِيهِمْ ذَكَرًا وَنُثَاءً﴾ [الشورى: ٤٩، ٥٠].

والقسم هنا بخلق جسد الإنسان واختلاف صنفه بين ذكر وأنثى، أما القسم الذي في (سورة الشمس) فقد كان بتسوية النفس، أي بخلق العقل والمعرفة في الإنسان.

والتخالف بين الذكر والأنثى من دلائل المبدع الحكيم، العالم بما يفعل، المحكم لما يصنع. فالذكر والأنثى مخلوقان من ماء واحد ﴿وَأَنَّهُ خَلَقَ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالْأُنثَىٰ ۖ مِن نُّطْفَةٍ إِذَا تُنْفَخَتَانِ﴾ [النجم: ٤٥، ٤٦] وهذا المنى يختلط من الأب والأم، فيصير أمشاجاً أي خليطاً منهما. وأثبت القرآن الكريم أن المرأة حرث ﴿وَسَأَوْكُمْ حَرْثٌ لَّكُمْ﴾ [البقرة: ٢٢٣] والرجل هو الزارع، فسبب التذكير والتأنيث يكون من جانبه، والمرأة صالحة للأمرين معا.

وثبت علمياً أن خلية التلقيح عند الذكر تنقسم إلى قسمين: أحدهما: أربعة وعشرون جزءاً والآخر: ثلاثة وعشرون جزءاً، وذلك بالنسبة للرجل. فإذا أراد الله تعالى تذكير الحمل، سبق القسم الثاني، وإذا أراد تأنيث الحمل سبق القسم الأول.

فيندمج في كلا الحالتين مع قسيم خلية الأنثى، وهو أربعة وعشرون جزءاً دائماً وأبداً، وعند اختلاطهما يكون مجموعهما بالنسبة لخلق الذكر سبعة وأربعون جزءاً، وبالنسبة لخلق الأنثى ثمانية وأربعون جزءاً، وهكذا جميع الحيوانات^(١). هذا: ولفظ ﴿مَا﴾ من قول تعالى ﴿وَمَا خَلَقَ الذَّكَرَ وَالْأُنثَىٰ﴾. إما أن يكون حرفاً مضرباً،

(١) ينظر: تمة أضواء البيان للشيخ عطية سالم (٢٥٦/٩).

(٢) جاء في المسند (٢٧٥٣٥)، والبخاري (٦٢٧٨، ٣٧٤٢، ٣٢٨٧)، ومسلم (٢٨٤-٨٢٤، ٢٨٢)، والترمذي (٢٩٣٩)، وابن حبان (٦٣٣٠)، والكبرى للنسائي (٨٢٤١) وغيرهم، وفي سنده: داود بن أبي هند من رجال مسلم وبقية رجاله رجال الشيخين، جاء عن علقمة أن ابن مسعود ؓ كان يقرأ ﴿وَمَا خَلَقَ الذَّكَرَ وَالْأُنثَىٰ﴾ هكذا (والذكر والأنثى) بدون (ما) وأن أبا الدرداء شهد أنه سمعها من رسول الله ﷺ، وسماها الزمخشري صاحب تفسير الكشاف (قراءة النبي ﷺ).

قلت: إن هذه القراءة غير موجودة في القراءات المتواترة ولا الشاذة، وهي قراءة مخالفة للرسم العثماني، ولم توافق شرطاً من شروط صحة القراءة، ولم تثبت هذه القراءة في العرضتين الأخيرتين في آخر حياة النبي ﷺ بينه وبين جبريل عليه السلام ولم تُنقل هذه القراءة في شيء من المصاحف العثمانية التي أرسلت للأمصار، فلا يُعد ما جاء في الحديث قرآناً، فثبت بهذا أنها قراءة منسوخة، لأن المصحف الإمام الذي جمعه عثمان ؓ قد جُرد من المنسوخ، ومما كانت تحمله بعض المصاحف الخاصة بأصحابها من تفسير وحواشي أو معاني كتبها لأنفسهم، وليست من القرآن في شيء كمصحف عبد الله بن مسعود، وأبي بن كعب وغيرهما.

فيكون القسم بخلق الذكر والأنثى.

وإما أن يكون اسماً موصولاً بمعنى الذي، فيكون المعنى: أن الله تعالى أقسم بذاته العلية، أنه خالق الذكر والأنثى.

وقد خلق الله من كل كائن حي ذكراً وأنثى، ليبقى النوع ولا ينقرض، وجذب كلاً منها إلى الآخر بواسطة الشهوة، وجعل كلا منها مناسباً للآخر.

أما المقسم عليه فهو: أن الناس عملهم مختلف، منهم من يعمل للدنيا، ومنهم من يعمل للآخرة، وقد نتج عن ذلك أن كان منهم المؤمن ومنهم الكافر، منهم الشقي ومنهم السعيد، منهم الصالح ومنهم الطالح، فالفرق بين سعي الناس متباعد ومفترق.

وجواب القسم هذا كجواب القسم الذي في سورة الشمس ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا﴾ (١) وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا ﴿فكلاهما سعي وعمل وتوجه، ويوم القيامة يتفرقون أوزاعاً قال تعالى: ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُنْفِرُونَ﴾ [الروم: ١٤] أي يكونون أصنافاً، منهم من يتوجه إلى الجنة ومنهم من يتوجه إلى النار، وفي هذا يقول تعالى: ﴿يَوْمَ يَصْدُرُ النَّاسُ أَشْنَاًا﴾ [الزلزلة: ٦] فمنهم من عمل خيراً ومنهم من عمل شراً، وكلاً منهما مجزي بعمله.

ويفسر هذه الآية ما صح عن رسول الله ﷺ من حديث أبي مالك الأشعري ؓ قال: قال رسول الله ﷺ: «كل الناس يَغْدُو، فبائع نفسه، فمعتقها أو موبقها»^(١).

والمعنى: أن كل إنسان يسعى بنفسه، ويحصل أعماله، فمنهم من يشتري نفسه بطاعة الله، فيعتقها من العذاب، ومنهم من يبيع نفسه للشيطان والهوى، فيهلكها في عذاب جهنم، فسعيكم - أيها المكلفون - متفاوت تفاوتاً كبيراً بحسب تفاوت الأعمال ومقدارها والنشاط فيها، بحسب قصد الإنسان وإخلاصه في عمله من عدمه.

(١) صحيح مسلم (٢٠٣/١) برقم (٢٢٣)، والمسند (٢٢٩٠٩، ٢٢٩٠٢)، حديث صحيح ورجال ثقات رجال الصحيح إلا أنه منقطع فإن إيا سلام لم يسمع من أبي مالك الأشعري، وبينهما عبدالرحمن بن غنم، وهو ثقة (محققو المسند).

الْعَمَلُ الصَّالِحُ يُرْشِحُ صَاحِبَهُ لِمُسْتَقْبَلٍ عَظِيمٍ، وَالْعَمَلُ السَّيِّئُ يُرْشِحُ صَاحِبَهُ لِنَهَايَةٍ مُخْزِيَةٍ

٥-٧- ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى وَاتَّقَى ﴿٥﴾ وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى ﴿٦﴾ فَسَنِيَرُهُ لِلْيُسْرَى ﴿٧﴾﴾.

ثم فصل سبحانه ما أجمله جواب القسم، فبين أن الناس فريقان: الفريق الأول: يتصف بثلاث صفات هي: التقوى، والعطاء، والتصديق باليوم الآخر. وهذا الفريق: ميسر ليسرى، فهو موفق للإيمان والعمل الصالح، وبالتالي فهو يدخل الجنة بسهولة ويسر.

والفريق الآخر يتصف بثلاث صفات أيضاً وهي: البخل بالمال، والاستغناء عن ثواب ربه، والتكذيب باليوم الآخر، ومافيه من ثواب وعقاب. وهذا الفريق: ميسر للعسرى، فهو غير موفق للإيمان والعمل الصالح، وبالتالي فهو يدخل النار سريعاً بدون عوائق:

ثلاثة من أسباب السعادة:

- ١- فأما مَنْ بذل من ماله تطوعاً، فيما أمر ببذله فيه، مبتغياً بذلك وجه ربه.
 - ٢- واتقى الله تعالى، فامتثل أمره واجتنب نهيه، وكف عن محارمه.
 - ٣- وصدق بالبعث والحساب، والثواب والعقاب على أعماله وأقواله في الدنيا..
- فإن هذا الذي ينفق من ماله، ويتقي غضب الله تعالى، ويصدق بأن الجنة دارٌ للثواب، والنار دارٌ للعقاب، يكون قد بذل أقصى ما في وسعه ليزكي نفسه ويهديها، وهو حينئذ يستحق عون الله تعالى وتوفيقه له.
- وهذا معنى ﴿فَسَنِيَرُهُ لِلْيُسْرَى﴾ أي نرشده إلى أسباب الخير، ونوفقه إلى العمل الصالح، ونيسر له أموره، ونكتبه في أهل السعادة.
- وقد قطع الله على نفسه أن يهيء لهذا الصنف من الناس طرق السعادة، فضلاً منه وكرماً، ومناً وإحساناً، ومن يسره الله ليسرى، فقد وصل إلى رحاب الله تعالى وهو لا يزال فوق الأرض.

(١) قرأ أبو جعفر بضم السين من ﴿لِئْسَرَى﴾ و﴿لِئْسَرَى﴾ والباقون بإسكانها.

ومن أسباب النزول:

١- أن بلال بن رباح رضي الله عنه، كان عبداً مملوكاً لـ (أمية بن خلف) فكان يعذبه لإسلامه، ويُخرجه إذا حميت الشمس وقت القيلولة، فيطرحه على ظهره ببطحاء مكة، ثم يأمر بالصخرة العظيمة فتوضع على صدره، ثم يقول له: لا تزال هكذا حتى تموت، أو تكفر بمحمداً فيقول وهو في تلك الحالة: أحد، أحد، فمرّ به أبوبكر الصديق وهم يصنعون به ذلك، فقال لأمية: ألا تتقي الله في هذا المسكين، قال له: أنت أفسدته عليّ فأنقذه مما ترى. فاشتراه منه أبوبكر بريدة وعشرة أواق، وأعتقه في سبيل الله، فقال المشركون: إنما أعتقه ليُدّ كانت له عنده، فنزلت الآيات^(١).

ولما نزلت هذه الآيات اشترى أبوبكر ستة من ضعفاء المسلمين كانوا في أيدي أهل مكة يعذبونهم، فأعتقهم.

٢- وقيل: كان لرجل من الأنصار نخلة، كانت ماثلة في دار رجل فقير يجاوره، وهذا الجار له عيال، فربما سقطت التمرة في بيته فيأخذها صبيان هذا الجار الفقير، فينزل صاحب النخلة عن نخلته، ويأخذ التمرة من أيديهم، فاشتكى الفقير إلى النبي ﷺ فقال لصاحب النخلة: تعطيني نخلتك التي تميل في دار فلان، ولك بها نخلة في الجنة؟ فأبى الرجل. فسمع بذلك أبو الدحداح، فقال لصاحب النخلة: هل لك أن تبيعها ببستان فيه أربعون نخلة؟ فقال: هي لك، فدعا النبي ﷺ صاحب النخلة وجاره الفقير، وقال له: خذها لك ولعِيالك، فنزلت الآيات^(٢).

(١) حاشية الصاوي على الجلالين (٣٢٦/٤)، وتفسير الخازن (٣٨٤/٤)، وابن عاشور (٣٨٢/٣٠) وغيرهم.

(٢) تفسير الخازن (٣٨٤/٤) بتصرف، وضعف بعضهم هذا السبب لأن السورة مكية والقصة في رجلين من الأنصار، وهي في الدر المنثور (٥٣٢/٨)، وأخرجها ابن أبي حاتم بسند ضعيف عن ابن عباس عن عكرمة، وهي في تفسير ابن كثير (٤١٩/٨) وقال عنهما: حديث غريب جدا وهي في تفسير ابن الجوزي وابن عطية والشوكاني وغيرهم. قلت: إن القرآن المكي يعم أحداث المدينة وغيرها، ولا يلزم أن تكون القصة سبباً لنزول الآية.

وكان النبي ﷺ يقول «كم من عذق ردّاح في الجنة لأبي الدحداح»^(١) كلما مر بالأقناء التي كان يعلّقها أبو الدحداح في المسجد صدقة: ويقول ذلك أيضا كلما مر على الحائط الذي أعطاه أبو الدحداح لصاحب النخلة وقد تعلقت أقنأؤها.

وسبب النزول لا يخصص العموم، ولا يقتضي أن تكون السورة مدنية، فالآيات عامة تشمل قصة أبي بكر وأبي الدحداح، وكل من عمل مثل عملهما.

وقد يتعدد سبب النزول على الآية الواحدة أو الآيات، فيقولون: فأنزل الله في كذا، قوله كذا، وهم يريدون أن القصة مما تشمله الآية. وقد سبق ذكر قصة أبي الدحداح في سورة البقرة والحديد وغيرهما.

ثَلَاثَةٌ مِنْ أَسْبَابِ الشَّقَاءِ

٨-١٠ - ﴿وَأَمَّا مَنْ يَخْلُ وَاسْتَغْنَى ﴿٨﴾ وَكَذَّبَ بِالْحَسَنَى ﴿٩﴾ فَسَيَسِرُهُ لَعْنَتِي﴾

أما الفريق الآخر: الذي بخل بماله أن يُنفقه فيما وجب عليه، وفي وجوه الخير، واستغنى عن هداية ربه، وعن ثوابه له بالجنة في الآخرة، واستغنى عن دعوة محمد ﷺ وكذب بوحدانية الله تعالى، وكذب برسوله ﷺ وبكتابه الذي نزل عليه، ولم يصدق بأن هناك بعثاً وحساباً وجنة ونارا، فأعرض عن طاعة الله تعالى ورسوله واليوم الآخر.

فهو بهذا التكذيب والإعراض يكون قد بلغ أقصى ما يبلغه الإنسان في تعريض نفسه للهلاك، واستحق أن يعسر الله عليه كل شيء، ويحرمه كل تيسير، ويكتبه مع الأشقياء، بعد أن بيّن له أسباب الشقاء، ونهاه عنها، وتوعّده على فعلها، لأنه بسلوكه طريق الشيطان، قد انحرف عن طريق الفطرة، وسقط في العثرات، ونأى بنفسه عن رضوان الله تعالى.

والتكذيب بالحسنى، يعنى الشرك بالله تعالى وعدم القيام بما أوجب الله على العبد من الأحكام الشرعية، كما أن التصديق بالحسنى يعنى الإقرا بكلمة التوحيد والعمل بمقتضاها.

(١) من حديث أنس في المسند (١٢٤٨٢)، قال محققوه: وإسناده صحيح على شرط مسلم، وعن جابر بن سمرة (٢٠٨٣٤، ٢٠٨٩٤)، وأخرجه ابن حبان (٧١٥٩)، وعبد بن حيمد (١٣٣٤)، والبيهقي في الشعب (٣٤٥١)، وغيرهم.

النَّحْلُ بِأَمْوَالٍ سَبَبٌ لِلتَّوَدِّي فِي النَّارِ

١١ - ﴿وَمَا يُغْنِي عَنْهُ مَالُهُ إِذَا تَرَدَّى﴾

أما مال الإنسان الذي بخل به، وترفع وتعالى به على الناس، واستغنى به عن الهدى، فإنه لن ينفعه في شيء حين يتردى في نار جهنم، إنه سيهوى فيها، ولن يغني عنه ماله من الله شيئاً بل سيكون وبالاً عليه. والإنسان إذا مات فإن ماله لن يصحبه، ولا يصحبه إلا عمله الصالح وإيمانه الخالص ﴿وَنَرِثُهُ، مَا يَقُولُ وَيَأْتِنَا فَردًا﴾ [مريم: ٨٠].

﴿وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرْدَى كَمَا خَلَقْتُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَتَرْكُم مَّا خَوَّلْنَكُمْ وَرَاءَ ظُهُورِكُمْ﴾ [الأنعام: ٩٤].

فلا يستوي العطاء والبخل، والتصديق والتكذيب، واليسرى والعسرى.

ويصح أن يكون معنى ﴿فَسَيَرُهُ لِّلْيسْرِ﴾ أي سنجعل دخوله الجنة سهلاً يسيراً سريعاً، لأن التيسير هو جعل الشيء يسير الحصول، غير صعب ولا عسير.

ومعنى ﴿فَسَيَرُهُ لِّلْعُسْرِ﴾ أي سنجعل دخوله النار ميسراً سريعاً لا صعوبة فيه، كما قال تعالى عن يوم القيامة: ﴿فَذَلِكَ يَوْمٌ عَسِيرٌ ﴿١﴾ عَلَى الْكَافِرِينَ غَيْرُيسِرٍ﴾ [المدثر: ٩، ١٠].

وعلى المعنى الأول: فإن كلا الطرفين يجازى على قصده، فأهل الخير يُجزون خيراً بتوفيق الله لهم، وأهل الشر شراً يُجزون بالخذلان لهم، وكل ذلك وفق علم الله تعالى وتقديره، وبهذا جاءت الأحاديث:

١- عن علي بن أبي طالب ؓ قال: كنا مع رسول الله ﷺ في بقيع الغرقد في جنازة، فقال: «ما منكم من أحد إلا وقد كتب مقعده من الجنة، ومقعده من النار» فقالوا: يا رسول الله، أفلا نتكل؟ فقال: «اعملوا، فكل ميسر لما خلق له» ثم قرأ ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى وَاتَّقَى﴾ الآيات^(١).

٢- وجاء في الرواية الثانية عنه ﷺ قال: كنا في جنازة في بقيع الغرقد، فأتى رسول الله ﷺ فقعد، وقعدنا حوله، ومعه مخضرة، فنكس، فجعل ينكت بمخضرته، ثم قال: «ما

(١) صحيح البخاري برقم (٤٩٤٥، ٦٢١٧)، وصحيح مسلم (٢٦٤٧)، وأبو داود (٤٦٩٤)، والترمذي (٢١٣٦)، والنسائي في السنن الكبرى (١١٦١٥)، وابن ماجه (٧٨)، والمسند (١١١٠، ١٠٦٧)، وابن حبان (٣٣٥، ٣٣٤).

منكم من أحد، وما من نفس منقوسة، إلا كُتِبَ مكانها من الجنة والنار، وإلا قد كُتِبَتْ شقية أو سعيدة» فقال رجل: يا رسول الله، أفلا نتكل وندع العمل؟ فمن كان منا من أهل السعادة فسيصير إلى أهل السعادة، ومن كان منا من أهل الشقاء فسيصير إلى عمل أهل الشقاء؟ فقال: «أما أهل السعادة فييسرون لعمل أهل السعادة، وأما أهل الشقاء فييسرون إلى عمل أهل الشقاء» ثم قرأ الآية^(١).

والنكت هو ضرب الخطوط في الأرض بعضاً أو سوط في يده، وهو المخرصة.
٣- وفي حديث جابر رضي الله عنه أنه قال: يا رسول الله، أنعمل لأمر قد فُرج منه، أو لأمر نستأنفه؟ فقال: «لأمر قد فُرج منه» فقال سراقه: فقيم العمل إذا؟ فقال ﷺ: «كل عامل ميسر لعمله»^(٢).

٤- وفي حديث عمران بن حصين رضي الله عنه قال: قيل: يا رسول الله، أعلم أهل الجنة من أهل النار؟ قال: «نعم» قال: فقيم يعمل العاملون؟ قال: «كل ميسر لما خلق له»^(٣).
٥- وأخرج الطبري وغيره بسنده إلى بُشير بن كعب العدوي، قال: (سأل غلامان شابان النبي ﷺ فقالا: يا رسول الله، أنعمل فيما جفت به الأقلام، وجرت به المقادير، أو في شيء يُستأنف؟ فقال: «بل فيما جفت به الأقلام، وجرت به المقادير» قالوا: فقيم العمل إذا؟ قال: «اعملوا فكل ميسر لعمله الذي خلق له»، قالوا: فالآن نجد ونعمل»^(٤).

٦- وأخرج البخاري وغيره عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «ما من يوم يصبح فيه العباد إلا وملكان يقولان، فيقول أحدهما: اللهم أعط منفقاً خلفاً، ويقول

(١) البخاري برقم (١٣٦٢، ٤٩٤٨، ٧٥٥٢)، ومسلم برقم (٢٦٤٧)، وأبو داود (٤٦٩٤)، والترمذي (٢١٣٦، ٣٣٤٤)، وسنن النسائي الكبرى (١١٦٧٨، ١١٦١٤)، وابن ماجه (٧٨)، والمسند (٦٢١).

(٢) صحيح مسلم برقم (٢٦٤٨)، وتفسير الطبري (١٤٤/٣٠).

(٣) البخاري (٧٥٥١، ٦٥٩٦)، ومسلم (٢٦٤٩)، وأبو داود (٤٧٠٩)، والمسند (١٩٨٣٤)، وابن حبان (٣٣٣).

(٤) تفسير الطبري (١٤٢/٣٠)، وبشير ليس له صحبة، فهو حديث مرسل وذكر (سراقه) جاء في بعض طرق الحديث في صحيح مسلم.

الآخر: اللهم اعط ممسكاً تلفاً^(١).

زاد الطبري: وأنزل الله في ذلك ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى وَاتَّقَى﴾ الآيات.

ومعنى الأحاديث أن الله تعالى قد علم في الأزل أن فلاناً سيعمل بعمل الجنة، ويستمر على ذلك إلى أن يلقى ربه، أو يتحول من الطاعة إلى المعصية في مرحلة من مراحل حياته، أو يعمل بعمل أهل النار حتى يلقى ربه، أو يتغير حاله من المعصية إلى الطاعة فيختم له بالخير.

عَلِمَ الله تعالى أن ذلك سيقع بحرية العبد واختياره، وسوف يكون ذلك موافقا لعلم الله تعالى دون زيادة ولا نقصان، فذَوْنُ ذلك في اللوح المحفوظ، ليكون معلوما لدى الملائكة، وينكشف علم الله تعالى للخلق.

فلا بد للإنسان أن يسعى ويعمل ليكتسب الخير أو الشر، وقد أمر بالطاعة ونُهي عن المعصية، وحسابه وجزاؤه سيكون وفق عمله، وهو في النهاية لا يخرج عن علم الله تعالى الذي قَدَّرَه وكتبه عليه وفق علمه الأزلي السابق على وجود الإنسان، وهذا العمل هو وسيلة الحصول على الجنة أو الوقوع في النار، وهناك فزق بين تعلُّق علم الله تعالى بأعمال العباد قبل أن يعملوها، وبين ما يصدر عنهم من أعمال موفقة بالضرورة، لما سبق في علم الله تعالى.

بَيَانُ طَرِيقِ السَّعَادَةِ لِلْخَلْقِ

١٢، ١٣ - ﴿إِنَّ عَلَيْنَا لَلْهُدَىٰ ۖ وَإِنَّ لَنَا لَلْآخِرَةَ وَالْأُولَىٰ﴾

ثم بيّن تعالى أنه قد أعذر إلى عباده، فوضّح لهم طريق الهدى الموصِّل إلى رضوانه تعالى وجنته، من طريق الضلال، الموصِّل إلى نار جهنم، وكشف لهم حُسن عاقبة من أعطى واتقى وصدق بالحسنى، وسوء عاقبة من بخل واستغنى وكذب بالحسنى.

فقوله تعالى: ﴿إِنَّ عَلَيْنَا لَلْهُدَىٰ﴾ أي أن الله تعالى قد ألزم نفسه بمقتضى حكمته ورحمته بعباده أن يبين لهم طريق السعادة وطريق الشقاء بواسطة الرسل والكتب، فمن شاء

(١) البخاري (١٤٤٢)، ومسلم (١٠١٠)، والمسند (٨٠٥٤)، وابن حبان (٣٣٣٣).

فليؤمن ومن شاء فليكفر، وهو تفضل من الله تعالى وامتنان على خلقه. والهدى يوصل إلى الله ويقرب العبد من رضاه، والضلال طريقه مسدودة عن الله، لا توصل إلا للعذاب الشديد.

الكون كله ملك لله تعالى:

وهذا الكون كله، بما يشمل الحياة الآخرة والحياة الأولى، ملك لله تعالى، فمن طلب الدنيا أو الآخرة من غير مالهما فقد أخطأ الطريق، فالعطاء والمنع بيد الله وحده، والثواب والعقاب بيد الله سبحانه: ﴿لَهُ، مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ﴾ [الحديد: ٥] فهو رب العالمين، وهو مالك يوم الدين، وهو وحده المتصرف في الدنيا والآخرة، والجزاء الأخروي يجري على ما أعلم الله به عباده من الجزاء على الخير والشر، وأمور الدنيا تجري وفق الأسباب والمسببات التي وضعها الله تعالى لعباده وأرشدهم إليها، فمن فرط في شيء منها، فقد استحق ما تسبب فيه، والدنيا دار عمل، والآخرة دار جزاء.

تَحْذِيرُ الْعِبَادِ مِنْ سُوءِ الْمَصِيرِ

١٤-١٦- ﴿فَأَنْذَرْتُكُمْ نَارًا^(١) تَلْظَنُ^(١٤) لَا يَصْلَاهَا إِلَّا الْأَشْقَى^(١٥) الَّذِي كَذَّبَ وَتَوَلَّى﴾

وكما أرشد الله تعالى عباده إلى طريق الهدى الموصِّل إلى الجنة، فقد حذَّره وأنذره نار جهنم التي تتوهج وتتسعَّر، وتقطع غيظاً على أهلها، وهذا من الهدى الذي أبلغنا الله إياه.

وقد وصف الله تعالى النار بقوله ﴿إِنَّهَا لَطِنٌ^(١٥) نَزَاعَةٌ لِلشَّوَى﴾ [المعارج: ١٥، ١٦]:

١- عن النعمان بن بشير ؓ أن رسول الله ﷺ قال: «إن أهون أهل النار عذاباً يوم القيامة، لرجل توضع في أخمص قدميه جمرتان يغلي منها دماغه»^(٢).

(١) قرأ رويس والبزي بخلف عنه بتشديد التاء وصلًا من ﴿نَارًا تَلْظَنُ﴾ وعند البدء يقرأ بالتخفيف، كما قرأها بقية القراء وصلًا وبدءًا.

(٢) صحيح البخاري برقم (٦٥٦٢، ٦٥٦١)، وصحيح مسلم (٢١٣)، والمسنَد (٨٣٩٠، ١٨٤١٣) بإسناد صحيح على شرط الشيخين.

٢ - وعنه أيضا أن رسول الله ﷺ قال: «إن أهون أهل النار عذاباً، مَنْ له نعلان وشراكان من نار، يَغْلِي منهما دماغه، كما يَغْلِي المِزْجَل، ما يرى أن أحداً أشد منه عذاباً، وإنه لأهونهم عذاباً»^(١).

٣ - وقد ورد أن عمر بن عبد العزيز صُلِّيَ المغرب بهذه السورة، فلما بلغ هذه الآية ﴿فَأَنْذَرْتُكُمْ نَارًا تَلَظَّى﴾ أخذ يبكي، فلم يتعدها من البكاء^(٢).

ثم إن هذه النار التي تتوقد من شدة حرارتها، لا يدخلها إلا أهل الشقاء والضلال، فتحيط بهم من جميع الجوانب، ويحترقون بها بسبب إصرارهم على الكفر والمعاصي كما قال تعالى: ﴿فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ﴾ [البقرة: ٢٤].

ثم يَبَيِّنُ سبحانه مَنْ هو شديد الشقاء، فذكر أنه الذي كَذَّبَ نبي الله محمداً ﷺ وأعرض عن الإيمان بالله ورسوله فلم يطعهما، ولم يستجب لدعوة الإسلام، فكذَّبَ بقلبه ولم يعمل بجوارحه، واستمر على كفره وجحوده حتى الموت، والأشقى بمعنى الشقي وهو الكافر.

في حديث أبي هريرة ؓ أن رسول الله ﷺ قال: «كل أمتي تدخل الجنة يوم القيامة إلا من أبا، قالوا: ومن يأبى يا رسول الله؟ قال: من أطاعني دخل الجنة، ومن عصاني فقد أبى»^(٣).

سَبَبَانِ لِّلْبُعْدِ عَنِ النَّارِ

١٧، ١٨ - ﴿وَسَيَجْزِيهَا الْآتَى ۖ﴾ (١٧) الَّذِي يُؤْتِي مَالَهُ، يَتَرَكَّى ۖ﴾.

أي أن من سيباعد عن النار يوم القيامة ويزحزح عنها فلا يدخلها، هو من كان شديد التقوى لله عز وجل، فطَهَّرَ نفسه من الذنوب والعيوب، فيكون يوم القيامة في جانب

(١) صحيح مسلم برقم (٢١٣).

(٢) تفسير القرطبي للآية.

(٣) المسند (٣٦١/٢) (٨٧٢٨) إسناده صحيح على شرط البخاري، وصحيح البخاري برقم (٧١٣٧، ٧٢٨٠)، والحاكم (٥٥/١)، والطبراني في الأوسط عن أبي سعيد (٨١٢)، بلفظ مختلف وإسناده حسن.

والنار في جانب ﴿إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُمْ مِنَّا الْحُسْنَىٰ أُولَٰئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ ﴿١١﴾ لَا يَسْمَعُونَ حَسِيسَهَا وَهُمْ فِي مَا اشْتَهَتْ أَنفُسُهُمْ خَالِدُونَ ﴿١٢﴾﴾ [الأنبياء: ١٠١، ١٠٢].

والأتقى، بمعنى التقي وهو المؤمن عظيم الخشية لله تعالى.

ومن أهم صفات هذا الإنسان، شديد التقوى بالله تعالى، أنه يبذل ماله ابتغاء وجه الله تعالى، وطمعاً فيما عنده من ثواب وحسن جزاء، فهو لا يراني ولا يتفاخر، ولا يريد جزاء ولا شكوراً، ولا ينتظر ثواباً من أحد، وإنما يأمل في تطهير نفسه من الذنوب، ورفع درجاته عند رب العالمين، ويطلب المزيد من الأجر والمثوبة من الله تعالى.

ومعنى: ﴿يَتَرَكُ﴾ يتطهر ويستزيد من الخير، كما قال تعالى ﴿حُذِّمْنَ أَمْوَالُهُمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا﴾ [التوبة: ١٠٣] والمراد تزكية النفس، ونماء المال بالصدقة.

بَذْلُ الْمَالِ ابْتِغَاءَ وَجْهِ اللَّهِ تَعَالَى

١٩-٢١ - ﴿وَمَا لِأَحَدٍ عِنْدَهُ مِن نِّعْمَةٍ تُجْزَىٰ ﴿١١﴾ إِلَّا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِ الْأَعْلَىٰ ﴿٢٠﴾ وَلَسَوْفَ يَرْضَىٰ﴾

ثم بين سبحانه أن العبد التقي النقي، من شأنه أن ينفق ماله ابتداء، لوجه الله تعالى، وليس مكافأة لأحد أسدى إليه معروفاً، أو صنع له جميلاً، ولا يهدف إلى تحقيق غرض دنيوي، بل ينفقه متطوعاً مخلصاً، يتغني بنفقته وجه ربه الأعلى وطلب مرضاته، هذا هو هدفه، وهذه هي غايته.

ثم وعد الله المتصدق بالثواب الجزيل الذي يُرضي صاحبه، أي ولسوف نعطي هذا التقي - الذي أعطى ماله لله - نعطيه حتى نرضيه، فنُدخله جنة ربه، ونحلّ عليه الرضوان، ويا له من جزاء، ويا لها من نعمة كبرى! إنه يدخل من أي أبواب الجنة شاء: عن أبي هريرة ؓ أن رسول الله ﷺ قال: «من أنفق زوجين في سبيل الله، دَعَتْهُ خَزَنَةُ الجنة، يا عبد الله: هذا خير.

فمن كان من أهل الصلاة، دُعي من باب الصلاة.

ومن كان من أهل الجهاد، دُعي من باب الجهاد.

ومن كان من أهل الصدقة، دُعي من باب الصدقة.

ومن كان من أهل الصيام دُعي من باب الريان.

فقال أبو بكر: يا رسول الله، ما على أحد يُدعى من تلك الأبواب من ضرورة، فهل يُدعى منها كلها أحد؟ قال: «نعم، وأرجو أن تكون منهم»^(١).

وهذه الآيات التي توعدت الأشقي، وبشرت الأتقي، فيها تقرير مصير الفريقين وهما: من أعطى واتقى.. ومن بخل واستغنى.. وفيها جزاء التصديق والتكذيب.

والآيات من ﴿وَسَيُجَنَّبُهَا الْأَتْقَى﴾ إلى آخر السورة نزلت في أبي بكر الصديق ؓ لما أعتق بلالاً، وكان بعض المشركين قد قال: ما أعتقه إلا ليدّ كانت لبلالٍ عنده، فأنزل الله تكذيبهم في قوله ﴿وَمَا لِأَحَدٍ عِنْدَهُ مِنْ نِعْمَةٍ تُجْزَى﴾ فبلال داخل في عموم ﴿الَّذِي يُؤْتِي مَالَهُ يَتَزَكَّى﴾. قال ابن كثير: ولم يكن لأحد من الناس عند أبي بكر مئة يحتاج إلى أن يكافئه بها، ولكن كان فضله وإحسانه على السادات والرؤساء من سائر القبائل.

ولهذا فإن عروة بن مسعود - وهو سيد ثقيف - كان قد أغلظ له أبو بكر في القول يوم صلح الحديبية، فقال: والله، لولا يدّ لك كانت عندي لم أجزك بها، لأجبتك، فإذا كان هذا حاله مع سادات العرب، ورؤساء القبائل فكيف بمن عداهم؟^(٢).

فالآيات عامة، وأبو بكر ؓ هو أول الأمة، وسابقهم إلى الخيرات، كما ذكرته الآيات من أوصاف حميدة، وإنّ هذه الآيات وإن كانت قد نزلت فيه، لكن العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب، والله تعالى أعلى وأعلم.

تم تفسير (سورة الليل) والله الحمد والمنة

(١) صحيح البخاري برقم (٢٨٤١)، وصحيح مسلم برقم (١٠٢٧).

(٢) تفسير ابن كثير بتصرف (٨/٤٢٢).

تَفْسِيرُ سُورَةِ الضُّحَى (٩٣)

مُقَدِّمَةُ السُّورَةِ

- ١ - (سورة الضحى) هي السورة الثالثة والتسعون في ترتيب المصحف، والحادية عشرة في ترتيب النزول، نزلت بعد (سورة الفجر) وقبل (سورة الانشراح). وعدد آياتها إحدى عشرة آية باتفاق. وهي أربعون كلمة، ومئة واثنان وسبعون حرفاً. وسميت (سورة الضحى) بإثبات الواو وحذفها. وهي سورة مكية باتفاق، وأول سورة من قصار المفصل.
- ٢ - والسورة تتحدث عن فترة تأخر نزول الوحي على رسول الله ﷺ بعد أن أشاع المشركون الشائعات الكاذبة حول سبب تأخر نزوله، وقد حدث ذلك في أوائل نزول الوحي على رسول الله ﷺ، وكان ذلك لأسباب طبيعية، لأن نزول الوحي على رسول الله ﷺ في أول الأمر، كانت تصحبه معاناة شديدة، بسبب مُلاقاة الملك للبشر، فكان ﷺ يتدثر ويتزمل، ويشتد عليه الأمر، لذلك كان لابد من الاستجمام والراحة بعض الوقت، ليستأنف النزول بعدها، وقد حدث هذا مرة أو مرتين، وكان من آمن بالنبي ﷺ وقتئذ أفراد يُعَدُّون على الأصابع، وتتابع الوحي، واتسعت دائرة الدعوة بعد ذلك.
- وفي هذا الصدد يقسم تبارك وتعالى مرتين - لأن الخطاب لقوم مشركين منكبين للرسالة - على أنه سبحانه لم يهجر محمداً ﷺ ولم ييغضه كما زعموا، بل هو عنده رفيع القدر، جليل الشأن، ثم يشره بالعطاء الجزيل في الآخرة، ويذكره بما أنعم عليه في الصغر: من اليتيم، والفقر، والفاقة، والحيرة، فأواه ربه وأغناه، وأحاطه بعنايته ورعايته، فلا مجال للقول بالبغض أو الهجر.
- ثم إن الله تعالى وصّى نبيه ﷺ بمقابل هذه النعم: أن يعطف على اليتيم، وأن يرحم المسكين، ويمسح دمة البائس الفقير، ويتحدث بفضل الله عليه.

أسباب النزول:

أ - في الصحيحين وغيرهما عن جندب بن سفيان البجلي رضي الله عنه قال: دَمِثْتُ إصْبَعُ رسول الله ﷺ فاشتكى، فلم يقم ليلتين أو ثلاثاً، فجاءت امرأة، فقالت: يا محمد، إني لأرجو أن يكون شيطانك قد تركك، لم أَرُه قَرَبَكَ منذ ليلتين أو ثلاث، فأنزل الله **﴿وَالضُّحَىٰ ۝١ وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَىٰ ۝٢ مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ ۝٣﴾** ^(١).

والمرأة أم جميل بنت حرب، زوج أبي سفيان.

فقد أخرج الحاكم عن زيد بن أرقم رضي الله عنه قال: لما نزلت **﴿تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ ۝١ إِلَى قَوْلِهِ: ۝٢ وَأَمْرَأَتُهُ حَمَّالَةَ الْحَطَبِ ۝٣ فُقِيلَ لَامْرَأَةٍ أَبِي لَهَبٍ: إِنَّ مُحَمَّدًا قَدْ هَجَاكَ، فَأَتَتْ رسول الله ﷺ وهو جالس في الملاء، فقالت: يا محمد، علام تهجونني؟ قال: (إني والله ما هجوْتُك، ما هجَاكَ إلا الله) فقالت: هل رأيَني أحمل حطباً، أو رأيَ في جيدي حبلاً من مسد؟ ثم انطلقت، فمكث رسول الله ﷺ أَيْاماً لا ينزل عليه، فأثته فقالت: ما أرى صاحبك إلا وقد ودَّعَكَ وقلاك، فأنزل الله **﴿وَالضُّحَىٰ ۝١ وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَىٰ ۝٢ مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ ۝٣﴾** ^(٢).**

ب - وفي رواية الترمذي عن جندب أيضاً من طريق ابن عينة قال: كنت مع النبي ﷺ غازیاً، فدَمِثْتُ إصبعه، فقال: هل أنتِ إلا إصبع دَمِثْتُ، وفي سبيل الله ما لقيت، قال: فأبطأ عليه جبريل، فقال المشركون: وُدَّعَ محمد، فأنزل الله:

(١) صحيح البخاري برقم (١١٢٥، ٤٩٥٠، ٤٩٨٣)، وصحيح مسلم برقم (١٧٩٧)، والمسند (١٨٨٠٤، ١٨٧٩٦)، والترمذي (٣٣٤٥)، والنسائي في السنن الكبرى (١١٦١٧)، والطبراني في الكبير (١٧٠٩، ١٧١١)، وصحيح سنن الترمذي (٢٦٦٥)، وابن حبان (٦٥٦٥).

(٢) المستدرک (٥٢٦/٢)، وهو في البخاري (٤٩٥١)، ومسلم (١٧٩٧)، وأخرجه أحمد مختصراً في المسند (١٨٧٩٦) بإسناد صحيح على شرط الشيخين، و(١٨٨٠١، ١٨٨٠٤) بأطول منه.

﴿مَادَعَكَ رَبِّكَ وَمَا قَلَىٰ﴾^(١).

قال الخازن: فلما نزل جبريل عليه السلام، قال محمد ﷺ: يا جبريل ما جئت حتى اشتقت إليك، فقال جبريل: إني كنت إليك أشد شوقاً، ولكنني عبد مأمور، ونزل: ﴿وَمَا نَنْزِلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ﴾^(٢) [مريم: ٦٤].

هذا: واحتباس الوحي عن النبي ﷺ وقع مرتين: أولاًهما: كان بعد نزول سورتين أو ثلاث من القرآن. وفي هذه المرة خشي الرسول ﷺ أن يكون الوحي قد انقطع عنه، فرأى ﷺ جبريل عليه السلام على كرسي بين السماء والأرض. وقيل: إن الوحي انقطع هذه المرة أربعين يوماً، وكان ذلك قبل أن يقوم الليل بالقرآن في مبدأ نزول الوحي، فلم يشعر بها المشركون. وثانيهما: بعد نزول نحو ثماني سور من القرآن الكريم، وكان احتباس الوحي في هذه المرة اثني عشر يوماً، رفقاً بالنبي ﷺ كي تستجم نفسه، ويتعود على تحمّل أعباء الوحي. والظاهر أن هذه السورة (الضحى) نزلت بعد المرة الثانية التي فتر بعدها الوحي، بعد

(١) قال الترمذي: حديث حسن صحيح (٣٣٤٥) وفيه: كنت مع النبي ﷺ في غار، ولكن جُنْدَباً كان من صغار الصحابة، فلم يتفق له أن يكون مع النبي ﷺ في غار، قال أهل العلم: فلعلها تصحيف، وأن أصلها (كنت غازياً) كما أثبتّها في النص، والحديث في المسند (٨٧٩٧، ١٨٨٠٧)، بإسناد صحيح على شرط الشيخين، دون ذكر: كنت مع النبي ﷺ غازياً (محققوه)، وأخرجه الترمذي في الشمائل (٢٤٤)، بهذا الإسناد وأخرجه الطيالسي (٩٣٨)، والطحاوي في شرح المشكل (٣٣٣١)، والطبراني في الكبير (١٧٠٤)، وسعيد بن منصور (٢٨٤٦).

ومما قيل في أسباب النزول: أن تأخر جبريل كان بسبب وجود كلب صغير تحت سرير النبي ﷺ، قال ابن حجر في الفتح (٥٤٥/٨): في إسناده من لا يعرف، وهو مردود بما جاء في الصحيح، وورد أن احتباس الوحي كان بسبب سؤال اليهود للنبي ﷺ عن ذي القرنين، وأصحاب الكهف، والروح، فقال: سأخبركم غداً، ولم يقل: إن شاء الله فاحتبس الوحي، وهذا أيضاً ليس سبباً لنزول السورة، لبعدهما بين القصتين في الزمان.

(٢) تفسير الخازن (٣٨٥/٤).

أن أخذ ﷻ يقوم الليل، وشعر به المشركون^(١).

التكبير في قصار المفصل:

٤- أما مسألة التكبير من أول أو آخر سورة الضحى التي قرأ بها الإمام ابن كثير من القراء السبعة وغيره، فإن هذا التكبير لم يرد في حديث صحيح. ومن ذلك ما أورده ابن كثير في تفسيره، فهو غير صحيح، ولم يرد التكبير عن جمهور القراء، وقال به بعض الشافعية والحنابلة، ولم يقل به الحنفية والمالكية، وليس لأئمة الفقه مذهب فيما يتعلق بالقرآن.

هذا وقد ورد التكبير من طريق التلقي عن عشرات من أهل الأداء، عن ابن كثير المكي من أئمة القراءة، من آخر الضحى، أو أولها، كما ورد التهليل قبله والتحميد بعده. ولم يرد التكبير عن غير المكيين من القراء من طريق صحيح، ومنهم حفص، والقراءة سنة متبعة تؤخذ عن طريق الرواية المتواترة، ولا تثبت القراءة بالحديث. وقد ذكر ابن الجزري ثلاثين اسماً ممن رَوَوْا التكبير عن البزي في سور الختم، وهو أحد راويي ابن كثير المكي.

فالتكبير في آخر السورة بدءاً من سورة الضحى عند المكيين صح عن القراء بطريق التلقي، وكذا التهليل قبله والتحميد بعده. ورؤى التكبير عن جميع القراء بين جميع السور من طريق طيبة النشر في القراءات العشر^(٢).



(١) ينظر: تفسير التحرير والتنوير (٣٠/٣٩٦).

(٢) ينظر هذا البحث في كتابي فن الترتيل وعلومه، الجزء الثاني والحديث الذي أخرجه الحاكم في شأن التكبير (٣٠٤/٣) للإمام ابن الجزري، والبيهقي في الشعب (٢٠٧٩) غير صحيح، وينظر النشر في القراءات العشر.

تَفْسِيرُ السُّورَةِ

الْقَسَمُ عَلَى أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى لَمْ يَهْجُرْ نَبِيَّهُ حِينَ تَأَخَّرَ عَنْهُ الْوَحْيُ

١-٣- ﴿وَالضُّحَىٰ ۝١ وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَىٰ ۝٢ مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ ۝﴾

أقسم الله تبارك وتعالى بوقت الضحى حين ترتفع الشمس في صدر النهار، وأقسم بالليل حين يغطي كل شيء بظلامه، على أن الله تعالى لم يترك محمداً ﷺ منذ اختاره نبياً رسولاً، ولا أبغضه منذ اصطفاه وأحبه. ولا تركه منذ اعتنى به، ولا أهمله منذ رعاه وتولاه.

وفي القسم بالضحى وبالليل، دليل على قدرة الله تعالى في خلقه لهذا الكون بما فيه، وفي لقاء جبريل بالنبي ﷺ اتصال بالله تعالى، وزاد لروح النبي ﷺ وتخفيف له عما يُلاقيه من المكر والكيد والأذى من قومه، فإذا فتر الوحي انقطع الزاد، وانحبس النبوع، واستوحش قلبه ﷺ وبقي بلا زاد ولا غذاء، وهذا أمر شاق شديد الاحتمال، وقد نزلت هذه السورة لتفيض بالحب والود والإيناس للنبي ﷺ وتُعطيهِ الطمأنينة واليقين.

وهكذا فقد أصاب رسول الله ﷺ مرض في إصبعه، فتوقف عن قيام الليل بضع ليال، لم يسمع المشركون فيها صوت النبي ﷺ وهو يقرأ القرآن في صلاته، فزعموا أن الوحي قد انقطع عنه، وأن ربه قد تركه وقلاه، فأقسم الله تبارك وتعالى بوقت الضحى حين ينبثق نور الشمس وترتفع في الأفق، على أن الله تعالى لم يهجر نبيه ﷺ ولم يتركه كما زعموا. ويراد بوقت الضحى: النهار كله، لأنه في مقابلة الليل الذي جاء ذكره في القسم الثاني.

وخصّ وقت الضحى بالذكر، لأنه يشير إلى أن انبثاق ضوء الشمس، يشبه نزول الوحي واهتداء الناس به، وقد وصف الله تعالى القرآن بأنه نور فقال: ﴿فَقَامُوا بِاللَّهِ وِرْسُولِهِ وَالنُّورِ الَّذِي أُنزِلْنَا﴾ [التغابن: ٨] وقال سبحانه: ﴿وَلَكِنْ جَعَلْنَاهُ نَوْراً نَهْدِي بِهِ مَن نَّشَاءُ مِن عِبَادِنَا﴾ [الشورى: ٥٢] كما وصف الله رسوله ﷺ بأنه نور في قوله: ﴿قَدْ جَاءَكُمْ مِنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُبِينٌ﴾

﴿١٥﴾ يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلَامِ ﴿﴾ [المائدة: ١٥، ١٦] .

وقد كان الوحي ينزل شروقاً دائماً على قلب محمد ﷺ وقد ظل معه إلى آخر عمره .
ووقت الضحى هو الوقت الذي كلم الله فيه موسى عليه السلام، وهو الوقت الذي
جمع فيه فرعون السحرة لمقابلة موسى عليه السلام، فكانت النتيجة أنهم خروا لله
سجداً وقالوا ﴿إِنَّا نَرَى رَبَّ الْمَلَكِينَ﴾ ﴿١٧﴾ رَبِّ مُوسَى وَهَارُونَ ﴿﴾ [الشعراء: ٤٧، ٤٨] .

ثم أقسم تبارك وتعالى بالليل إذا اشتد ظلامه، وسكن فيه الخلق بعد الحركة
والنشاط، والليل هو الوقت الذي فقد فيه المشركون صوت النبي ﷺ بضع ليال وهو
يقوم الليل بالقرآن، ولعل قيامه ﷺ كان في المسجد الحرام أو في بيته .

ومعنى: ﴿سَجَى﴾ أي امتد ظلامه وغطى الكون، وكان النبي ﷺ يقوم الليل حتى
تورمت قدماه، وقد خفف الله عليه ذلك في قوله ﴿قُرْآنٌ لَّيْلًا قَلِيلاً﴾ ﴿٢﴾ يَضْفَعُهُ أَوْ أَنْقَضَ مِنْهُ قَلِيلاً
﴿٣﴾ أَوْزَدَ عَلَيْهِ ﴿﴾ [المزمل: ٢-٤] وقوله: ﴿فَاقْرَءْ مَا يَسَّرَ مِنَ الْقُرْآنِ﴾ .

وفي هذين القسمين بالضحى والليل، لفتُ الأنظار إلى الليل والنهار وما فيهما من
عظيم قدرة الله تعالى، والدلالة على وحدانيته سبحانه .

والله تعالى يقسم بما شاء من مخلوقاته، وليس للخلق أن يقسموا بغير الله سبحانه .
أما جواب القسم: فهو ردٌ لمزاعم المشركين، بأن الله تعالى قد ترك محمداً ﷺ حين تأخر
نزول الوحي عليه بعض الوقت، فالله تعالى لم يتركه كما زعموا، فإن هذا لا يليق بمقام
النبوة، فقد يترك الحبيب حبيبه أحياناً، لسبب اقتضى ذلك مع قيام المودة والمحبة
واستمرارها .

ومعنى ﴿وَمَا قَلَى﴾ أي وما أبغضك منذ أحبك، وقد جاء هذا المعنى في قوله تعالى على
لسان لوط عليه السلام ﴿قَالَ إِنِّي لَمَمْلِكٌ مِنْ أَقَالِينَ﴾ [الشعراء: ١٦٨] أي الكارهين المبغضين .
فالمعنى: ما قطع الله عنك وحيه، وما كرهك، كما زعم المكذبون .
هذا حال النبي ﷺ في الماضي والحاضر، وفي الآيات التالية بيان لحاله في الآخرة:

بِشَارَتَانِ عَظِيمَتَانِ لِلنَّبِيِّ ﷺ

٥، ٤ - ﴿وَالْآخِرَةُ^(١) خَيْرٌ^(٢) لَّكَ مِنَ الْأُولَى^(٣)﴾ وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَى^(٤)﴾

ثم بشر الله رسوله ببشارتين عظيمتين:

البشارة الأولى: أن ما أعدّه الله لنبيّه في الآخرة من نعيم لا يحيط به الوصف، خيرٌ له مما أعطاه في الدنيا من نبوة وكرامة واصطفاء على خلق الله، وهذه خصوصية له ﷺ فوق ما يعطيه الله للأبرار بصفة عامة وهو ﷺ على رأسهم.

قال تعالى ﴿وَمَاعِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ لِلْأَبْرَارِ﴾ [آل عمران: ١٩٨].

فالمراد بالآخرة في الآية: الدار الآخرة على الأرجح، أما حياة النبي ﷺ أولها وآخرها، فقد كانت كلها موضع الرعاية والعناية من الله تعالى، ومن صحبه الكرام، ومن زوجه خديجة رضي الله عنها، ومن عمه أبي طالب.

وقد كان النبي ﷺ يفضل ما عند الله تعالى على دنياه، فقد راودته جبال مكة أن تسير معه ذهباً أينما سار، فقال أجوع مرة فأشعر بأني في حاجة إلى ربي فأسأله، وأشبع مرة فأشكر فضل الله عليّ.

وروى ابن مسعود ؓ أن النبي ﷺ اضطجع على حصير، فأثر في جنبه، قال: فلما استيقظ جعلتُ أمسح جنبه، وقلت: يا رسول الله، ألا آذنتنا حتى نبسط لك على الحصير شيئاً، فقال ﷺ: «ما لي وللدنيا؟ ما أنا والدنيا؟ إنما مثلي ومثل الدنيا كراكب ظل تحت شجرة ثم راح وتركها»^(٣).

(١) رقق الأزرق راء ﴿وَالْآخِرَةُ﴾ وثَلَّث البدل، والباقون بالتفخيم القصر.

(٢) للأزرق في راء ﴿خَيْرٌ﴾ التريق والتفخيم، وفخمها باقي القراء.

(٣) المسند (٣٩١/١) برقم (٤٢٠٨، ٣٧٠٩) وهو حديث صحيح كما قال محققوه، وعن ابن عباس (٢٧٤٤) وعن ابن مسعود في سنن الترمذي برقم (٢٣٧٧)، وسنن ابن ماجه برقم (٤١٠٩)، وصححه الألباني في الأحاديث الصحيحة برقم (٤٤٠، ٤٣٩)، وأخرجه أبو يعلى (٥٢٩٢)، والطيالسي (٢٧٧).

أما البشارة الثانية: فهي أن الله تعالى سوف يعطي نبيه ﷺ ما يسعده ويرضيه في الدنيا بإعلاء كلمة الحق، وبالفتح المبين، والنصر العظيم، والتمكين في الأرض، فلم يزل النبي ﷺ يصعد في درج المعالي، ويمكن الله له دينه، وينصره على عدوه، ويسدد له في أحواله حتى وصل إلى ما وصل إليه، وسوف يعطيه ربه من نعيم الآخرة ما تقرُّ به عينه، وترضى به نفسه، ومن ذلك: ما أخبر به ﷺ أنه لا يرضى وأحد من أمته في النار.

ومما أعطاه ربه: المقام المحمود، والحوض المورود، والشفاعة في دخول الجنة، والشفاعة في الخروج من النار لأهل المعاصي من أمته، والشفاعة بتخفيف العذاب عن أبي طالب، وشهادته على الرسل، وشهادة أمته على الأمم:

١ - أخرج الطبري بإسناد صحيح عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال: عُرض على رسول الله ﷺ ما هو مفتوح على أمته من بعده كنزاً كثيراً، فسُرَّ بذلك، فأنزل الله تعالى: ﴿وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَى﴾ فأعطاه الله في الجنة ألف قصر، في كل قصر ما ينبغي من الأزواج والخدم^(١).

٢ - وفي حديث عبد الله بن عمرو ؓ أن النبي ﷺ تلا قول الله تعالى في إبراهيم ﷺ ﴿فَنَ تَعْنِي فَإِنَّهُ مِنِّي وَمَنْ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [إبراهيم: ٣٦] وقول عيسى ﷺ: ﴿إِنْ تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنْتَ الْغَفُورُ الْحَكِيمُ﴾ [المائدة: ١١٨] فرفع يديه وقال: «اللهم أمتي أمتي وبكى» فقال الله يا جبريل: اذهب إلى محمد، فقل له: «إنا سنرضيك في أمتك ولا نسوؤك»^(٢).

٣ - وعن جابر بن عبد الله أن رسول الله ﷺ دخل على فاطمة وهي تطحن بالرحى، وعليها كساء من جلد الإبل، فلما نظر إليها، قال: «يا فاطمة، تعجّلي مرارة الدنيا بنعيم الآخرة»، فأنزل الله ﷻ ﴿وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَى﴾^(٣).

(١) تفسير الطبري (٤٤٨/٨ ط)، الشعب وابن أبي شيبة (١٠٤/١٣)، والطبراني في الكبير (١٠٦٥٠)، وفي الأوسط (٣٢٠٩)، والبيهقي (٦١/٧)، والحاكم (٥٢٦/٢)، قال الحاكم: صحيح الإسناد، وتعبه الذهبي بقوله: تفرد به عصام بن رواد عن أبيه، وقد ضعف.

(٢) صحيح مسلم في الإيمان (٢٠٢).

(٣) تفسير الشوكاني (٤٥٨/٥)، والدر المنثور (٤٨٦/١٥).

٤ - وعن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «لكل نبي دعوة مستجابة، فتعجل كل نبي دعوته، وإنني اختبأت دعوتي شفاعة لأمتي يوم القيامة، فهي نائلة إن شاء الله تعالى من مات من أمتي لا يشرك بالله شيئاً»^(١).

ثَلَاثٌ مِنْ نِعَمِ اللَّهِ تَعَالَى عَلَى نَبِيِّهِ ﷺ

٦-٨ - ﴿أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَآوَىٰ ۖ وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَىٰ ۖ وَوَجَدَكَ عَائِلًا فَأَغْنَىٰ ۖ﴾

ثم ذكر الله نبيه بنعمه عليه حال صغره، حتى لا يتأثر بكلام المبطلين، ويعلم أن عناية الله به قد غمرته من مهده إلى لحده، وليعلم المرجفون أن ما وعد الله به نبيه أمر محقق، فذكر له في هذه الآيات ثلاث من نعمه عليه:

النعمة الأولى: رعايته ﷺ يتيمًا: أي: أنك - أيها الرسول - ولدت يتيمًا، تُوفي أبوك وأنت في بطن أمك، وماتت أمك وأنت في السادسة من عمرك، ومن شأن اليتيم ألا يجد من يتعهده بالتربية والتهذيب، فينشأ على النقائص وسوء الأخلاق، ولكن الله تعالى تكفل بعنايتك ورعايتك وتهذيبك ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ [القم: ٤] وتولى الله تأديبك، فكانت خيراً من تربية الأبوين (أدبني ربي فأحسن تأديبي) وهياً الله لك من يحسنون تربيتك، فلما مات أبوه ﷺ قبل ولادته، كفله جده عبد المطلب، ولما مات جده وهو في الثامنة من عمره، كفله عمه أبو طالب، الذي ظل يحميه ويدافع عنه وينصره ويدفع عنه الأذى حتى بعد أن ابتعثه الله تعالى على رأس الأربعين من عمره، وكان ﷺ قد تزوج من خديجة رضي الله عنها وهو في الخامسة والعشرين من عمره، فكانت له خير عون وسند.

النعمة الثانية: هدايته بالوحي: أي: أن الله تعالى وجدك ما تدرى ما الكتاب ولا الإيمان، والناس حولك يعبدون أوثاناً، فلم يُزق لك ذلك، وأخذت تعبد الله تعالى على ملة إبراهيم عليه السلام، وكنت في حيرة مما يفعل قومك، فأُنزل الله عليك الوحي، وعلمك ما لم تكن تعلم، علمك علم الأولين والآخرين عن طريق الوحي، ووفقك

(١) صحيح البخاري برقم (٦٣٠٤، ٧٤٧٤)، وصحيح مسلم برقم (١٩٩).

لأحسن الأعمال، وكان فضل الله عليك عظيماً.

وقد نشأ رسول الله ﷺ موحداً، لم يسجد لصنم قط، ولم يرتكب فاحشة قط، وعُرف بين قومه بالصادق الأمين، مع أن البيئة التي كان يعيش فيها النبي ﷺ كانت بيئة جاهلية، منحرفة في عقائدها وأخلاقها، والنبي ﷺ لم تطمئن نفسه إلى هذه البيئة، فظل حائراً متردداً، حتى هداه الله إلى الحق، وأنزل عليه الرسالة، بعد أن اعتزلهم وانفرد يعبد ربه في غار حراء.

فالمعنى: ووجدك - أيها الرسول - ضالاً عما أنت عليه الآن من معرفة الشريعة والدين، حتى هداك الله إليه، وكنت في حيرة من حال أهل الشرك حولك، فأعلمك الله أن هذا غير محمود، وهداك إلى طريق الحق والنور، وكنت لا تدري ما الكتاب ولا الإيمان، فأنزل الله عليك الكتاب والحكمة وعلمك ما لم تكن تعلم.

وليس المراد بالضلال في الآية: اتباع الباطل، فإن الأنبياء معصومون من الإشراك بالله تعالى قبل النبوة وبعدها بالإجماع، وهم أيضاً معصومون من الذنوب وارتكاب والفواحش، والنبي ﷺ كان معروفاً بين الناس ببُعده عن الرذائل والنقائص وما يخل بالمروءة، وقد لبث فيهم عمراً قبل النبوة وبعدها، فلم يتهمه أحد، ولم يقدح في سلوكه أحد، وكان يشهد له القاصي والداني بالورع والصدق والأمانة.

النعمة الثالثة: غنى النفس وجعل الدنيا في يده ﷺ: ووجدك ربك - يا رسولنا - فقيراً فأغناك، بأن ساق إليك رزقك، وأغنى نفسك بالرضا والقناعة والصبر.

ففي الحديث عن أبي هريرة ؓ أن النبي ﷺ قال: «ليس الغنى عن كثرة العرض، ولكن الغنى غنى النفس»^(١).

وعن عبد الله بن عمرو رضى الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال: «قد أفلح من أسلم، ورزق كفافاً، وقنعه الله بما آتاه»^(٢).

(١) ينظر البخاري برقم (٦٤٤٦)، ومسلم برقم (١٠٥١).

(٢) صحيح مسلم برقم (١٠٥٤).

وقد جاءت إليه الدنيا، ومنها غنائم خبير وحنين، فكان ﷺ يعطي عطاء من لا يخشى الفقر، وجاءه مال البحرين فقسمه بين الناس، ومع ذلك فقد مات ﷺ ودرعه مرهونة عند يهودي في صاع من شعير، فكان المال في يد النبي ﷺ حالاً مرتحلاً، وكان ﷺ أجود الناس. والعائل هو الذي لا مال له، كما قال تعالى:

﴿وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً فَسَوْفَ يُغْنِيكُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ إِنْ شَاءَ﴾ [التوبة: ٢٨].

وقد أغنى الله تعالى رسوله ﷺ غنائمين: أعظمهما غنى القلب، حين جعل الدنيا في كفه ولم يجعلها في قلبه.

والآخر: مُتْجَارُثُهُ ﷺ في مال خديجة، وما أعطاه من أموال الفيء والغنائم التي أفاء الله عليه بها.

فالذى أزال عنه هذه النقائص سيزيل عنه كل نقص، فقابل نعمته الله عليك - أيها الرسول - بالشكر والامتنان، فقد آواك الله ونصرك وهداك.

ثَلَاثُ وَصَايَا لِلنَّبِيِّ ﷺ بِشُكْرِ اللَّهِ تَعَالَى عَلَى نِعَمِهِ الثَّلَاثَ

٩-١١ - ﴿فَأَمَّا الْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ ۝٩ وَأَمَّا السَّائِلَ فَلَا تَنْهَرْ ۝١٠ وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ﴾

ثم أوصى الله تعالى نبيه بوصايا ثلاث تقابل النعم الثلاث، السابق ذكرها، فيها بيان لطريقة شكر المنعم سبحانه:

الوصية الأولى: لا تقهر اليتيم ولا تُهِنْهُ: بما أنك - أيها الرسول - قد وُلدت يتيماً فأواك الله، وأدبك وعلمك، فكن رحيماً باليتيم، عطوفاً عليه، ولا تُسْءِمْ معاملته، ولا تكن كأهل الجاهلية الذين كانوا يقهرون الأيتام، ويذلونهم، ويظلمونهم، ويأكلون أموالهم، ويضيعونها، فكما آواك الله، وحفظك من الضياع والحاجة وأنت يتيم، فكن مُكْرِماً لليتامى، رفيقاً بهم، ولا تعبس في وجوههم، ولا تُهِنْهُمْ، والقهر هو الغلبة والإذلال بالقول أو الفعل. الإحسان إلى اليتامي:

وقد أمرنا الله تعالى ألا نسيء إلى اليتامى في القول فقال ﴿وَقُولُوا لَهُمْ قَوْلًا مَعْرُوفًا﴾

[النساء: ٨] وأمرنا أن نعاملهم معاملة الإخوان فقال ﴿وَإِنْ تَحَايَظُوهُمْ فَاخْوَنُكُمْ﴾ [البقرة: ٢٢٠].
وأمرنا ألا نأكل أموالهم بالباطل فقال: ﴿وَأَتُوا إِلَيْنَا أَمْوَالَهُمْ وَلَا تَتَبَدَّلُوا الْخَبِيثَ بِالطَّيِّبِ وَلَا تَأْكُلُوا
أَمْوَالَهُمْ إِلَى أَمْوَالِكُمْ إِنَّهُ كَانَ حُوبًا كَبِيرًا﴾ [النساء: ٢]. وقد أمرنا ألا نقرب مال اليتيم إلا بالتي أحسن.
وخير بيوت المسلمين، بيت فيه يتيم يُحسن إليه، وشر بيوت المسلمين، بيت فيه يتيم
يساء إليه.

وفي حديث سهل بن سعد ؓ أن رسول الله ﷺ قال: «أنا وكافل اليتيم في الجنة
هكذا، وأشار بالسبابة والوسطى، وفرج بينهما»^(١).
ومن ولى أمر اليتيم واستحق أجراً على عمل عمله له، فإما أن يستعفف، وإما أن
يأخذ ما يُساوي عمله بالمعروف.

وقد توعده الله تعالى من يأكل مال اليتيم وعيداً شديداً مفزِعاً فقال: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ
أَمْوَالَ الْيَتَامَى ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا﴾ [النساء: ١٠].
وعندما يبلغ اليتامى رُشدَهم فَرُدُّوا إليهم أموالهم، وأشهدوا عليهم ﴿فَإِنْ عَاسْتُمْ مِنْهُمْ
رُشْدًا فَادْفَعُوا إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ﴾ [النساء: ٦].

وليحذر المسلم من إفساد مال اليتيم، أو إفساد أخلاقه، أو إساءة تربيته.

﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْيَتَامَى قُلْ إِصْلَاحٌ لَّهُمْ خَيْرٌ﴾ [البقرة: ٢٢٠].

وليحذر المسلم أن يكون أولاده غداً في موضع اليتامى الذين يسيء معاملتهم اليوم،
أو يأكل أموالهم، فليتق فيهم قبل أن يدور عليه الكأس: ﴿وَلْيَخْشَ الَّذِينَ لَوْ تَرَكَوْا مِنْ خَلْفِهِمْ
ذُرِّيَّةً ضِعَفًا خَافُوا عَلَيْهِمْ فَلْيَتَّقُوا اللَّهَ وَلْيَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا﴾ [النساء: ٩].

وبلغ من وصاية النبي ﷺ باليتيم أن قال ﷺ من حديث عوف بن مالك، عن امرأة
ترملت وحبست نفسها على تربية أبنائها «أنا وسغفاء الخدين كهاتين يوم القيامة»^(٢).

(١) صحيح البخاري برقم (٦٠٠٥، ٥٣٠٤)، وفي صحيح مسلم عن أبي هريرة ؓ (٢٩٨٣)، وصحيح سنن
أبي داود (٤٢٨٩).

(٢) أبوداود (٥١٤٩) عن عوف بن مالك باب فضل من عال يتيماً، كتاب الأدب.

وشكا رجل قسوة قلبه إلى النبي ﷺ فقال ﷺ فيما يرويه أبو هريرة ؓ: «امسح رأس اليتيم، وأطعم المسكين»^(١).

الوصية الثانية: لا تنهر السائل ولو كان على فرس:

وبما أن الله تعالى قد هداك - أيها الرسول - بعد حيرة، فاشكر نعمته عليك بأن تفتح صدرك للسائل، فلا تزجره، وأطعمه، واقض حاجته، وعامله برفق، ولا تعبس في وجهه، لا تسع معاملته، ولا يضق صدرك به ولا تنهره، بل أكرمه وأعطه ما تيسر. ولفظ السائل عام، يشمل: طالب المال، وطالب العلم، فإن حسن التعامل مع المتعلم وإكرامه يعين على تحصيل العلم، وكذا طالب النصيحة، وطالب المشورة، وطالب الطعام، وطالب العون، وغير ذلك، فهو يشمل كل سائل، فلا تتكبر عليه، ولا تغلظ له القول، ولا تعرض بوجهك عنه، ولا تكن فظاً غليظاً عليه.

١ - عن عبد الرحمن بن بُجَيد، عن جدته أم بُجَيد - وكانت ممن بايع رسول الله ﷺ - أنها قالت له: يا رسول الله، صَلَّى الله عليك، إن المسكين ليقوم على بابي، فما أجد له شيئاً أعطيه إياه، فقال ﷺ: «إن لم تجدي له شيئاً تعطيه إياه إلا ظُلْفاً محرَقاً، فادفعه إليه في يده»^(٢). والمراد ظلف الشاة.

٢ - وعن أبي سعيد الخدري ؓ أن رسول الله ﷺ قال: «إن الناس لكم تبع، وإن رجالاً يأتونكم من أقطار الأرض يتفقّهون، فإذا أتوكم فاستوصوا بهم خيراً»^(٣).

٣ - وقال هارون العبدري: كنا إذا أتينا أباسعيد يقول: مرحباً بوصية رسول الله ﷺ، وكان ﷺ إذا لم يجد ما يعطيه للسائل يَعدُّه وعداً حسناً إلى حين ميسرة، كما قال تعالى:

(١) المسند (٩٠١٨، ٧٥٧٦) بإسناد ضعيف، لأن في سنده انقطاع، كما قال محققوه، وانظر: عبد بن حيمد (١٤٢٦)، والبيهقي في الشعب (١١٠٣٥).

(٢) صحيح سنن أبوداود برقم (١٤٦٦)، وسنن الترمذي برقم (٦٦٥) وقال: حسن صحيح، والنسائي (٨٦/٥)، والمسند (٣٨٣/٦) برقم (٢٧١٥١)، وإسناده حسن (محققوه).

(٣) الترمذي برقم (٢٦٥٠)، وفيه أبوهارون العبدري متكلم فيه.

﴿وَأَمَّا تُعْرِضَنَّ عَنْهُمْ آيَاتَنَا رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ تَرْجُوهَا فَقُلْ لَهُمْ قَوْلًا مَيْسُورًا﴾ [الإسراء: ٢٨] .

الوصية الثالثة من شكر النعمة: التحدث بها من غير فخر ولا خيلاء:

وبما أن الله تعالى قد أغناك - يا رسولنا - بعد فقر، فإن من شُكر النعمة أن تتحدث بما أسبغ الله عليك من نعم ظاهرة وباطنة، ويكون ذلك بإظهار هذه النعم وعدم كتمانها أو سترها، وإذاعتها بين الناس دون تفاخر ولا سمعة ولا تطاول على الناس.

وجاء في الدعاء المأثور (واجعلنا شاكرين لنعمك، مثنين بها، قابليها، وأتمها علينا)^(١). وإظهار نعمة الله تعالى على العبد من باب شكر المنعم، ومن لا يشكر الناس، ولا يعترف بفضلهم عليه، ويتنكر لهم، لم يشكر الله تعالى كما في حديث أبي هريرة ؓ وأبي سعيد «من لا يشكر الله لا يشكر الناس»^(٢).

وفي حديث جابر بن عبد الله رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال: «من أعطي عطاءً فوجد، فليجز به، فإن لم يجد، فليئن به، فمن أثنى به فقد شكره، ومن كتمه فقد كفره ومن تحلى بما لم يعط، فإنما هو كلابس ثوبي زور»^(٣) ومن لم يشكر القليل لم يشكر الكثير. والنعمة تطلق على كل ما أنعم الله به على العبد من مال وعافية وهداية ونصرة وغير ذلك. ومن التحدث بنعم الله تعالى: أن يُبلِّغ العبد عن ربه ولو آية، ويُبلِّغ عن رسوله ﷺ ولو حديثاً، فإن كتمان العلم من أعظم الذنوب. وهو باب من أبواب عدم الشكر. ومن العلماء من خص النعمة على نبيه ﷺ في الآية: بنعمة القرآن والنبوة، والتحدث بها: تبليغها للناس، وتعريفهم بها، وعدم كتمانها.

(١) تفسير ابن كثير (٤٦٧/٨).

(٢) صحيحه الألباني برقم (٤١٧) في السلسلة الصحيحة عن أبي هريرة ؓ، وهو في صحيح سنن الترمذي (١٥٩٣)، والمشكاة (٣٠٢٥)، وصحيح أبي داود (٤٠٢٦)، والترمذي (١٩٥٤)، قال أبو عيسى: هذا حديث حسن صحيح والمسنند (٢٩٥/٢) برقم (٧٩٣٩) بإسناد صحيح على شرط مسلم ورجال ثقات، وانظر (٧٥٠٤) (محققه).

(٣) سنن أبي داود برقم (٤٨١٣)، وحسنه الألباني في صحيح سنن أبي داود (٤٠٢٨)، والصحيحة (٦١٨)، والضياء المقدسي (٨٣٦)، والترمذي (٢١٢٠).

وقد نهى الله تعالى العبد أن يزكي نفسه في قوله: ﴿فَلَا تُزَكُّوا أَنْفُسَكُمْ﴾ [النجم: ٣٢]
ولكنه إن كان غنياً، ويلبس ملابس الفقير، فإن لسان حاله كأنه يطلب الصدقة من الناس،
فإن من التحدث بنعمة الله تعالى على العبد أن يظهر عليه أثر النعمة.
أما الفقير الذي يظهر بمظهر الغني فهو كلابس ثوبي زور.
وليس من التحدث بنعمة الله تعالى أن يقول العبد: صمت كذا، أو صليت كذا،
أو تصدقت بكذا، أو اعتمرت كذا مرة وهكذا.
وفي الحديث مرفوعاً عن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما «من أسديت إليه نعمة
فذكرها، فقد شكرها، ومن سترها فقد كفرها»^(١).
قال الألويسي في معنى الآية: كنتَ يتيماً وضالاً وعائلاً، فأواك الله وهداك وأغناك،
فلا تنس نعمة الله عليك في هذه الثلاث: فتعطف على اليتيم، وترحم على السائل، فقد
ذقت اليشم والفقر، وأرشد العباد إلى طريق الرشاد كما هداك ربك^(٢).
والتحدث بنعم الله تعالى يشمل الأمور الدينية والدنيوية، فيثن العبد بها على الله
تعالى، ويخصها بالذكر، فإن التحدث بنعم الله يدعو إلى شكرها ويوجب محبة مَنْ
أسداها، فإن القلوب مجبولة على حُبِّ من أحسن إليها.

تم تفسير (سورة النجم) والله الحمد والمنة

(١) تفسير ابن عطية (٤٩٥/٥)، وقد رواه جابر بن عبد الله في سنن أبي داود (٤٨١٤) بمعناه، وصححه

الألباني في صحيح سنن أبي داود (٤٠٢٩).

(٢) تفسير الألويسي (١٦٤/٣٠).

تَفْسِيرُ سُورَةِ الشَّرْحِ (٩٤)

مُقَدِّمَةُ السُّورَةِ

- ١- (سورة الشرح) هي السورة الرابعة والتسعون في ترتيب المصحف، والثانية عشرة في ترتيب النزول. نزلت بعد (سورة الضحى) وقبل (سورة العصر). وعدد آياتها ثمانى آيات، باتفاق، وهي سبع وعشرون كلمة، ومئة وثلاثة أحرف. وهي سورة مكية باتفاق، وتسمى سورة: الشرح، والانشراح، وألم نشرح.
- ٢- وتتناول (سورة الشرح): مكانة الرسول العالية، ومقامه الرفيع، وما حباه الله به من شرح صدره بالإيمان، وتنوير قلبه بالقرآن، وتطهير ذنوبه وأوزاره، وتبيين رفعة مقامه في الدنيا والآخرة، وإعلاء منزلته في العالمين، وتبشيره بقرب الفرج والنصر، وتيسير العسير من الشدائد التي يلاقها في سبيل الدعوة.
- وفي سورة الشرح أمر للنبي ﷺ ولأمته بأن العبد إذا فرغ من عمله للدنيا، فليُنْصَبْ في عبادة ربه، وكل هذا من باب إزالة الهم، ورفع الحرج عن النبي ﷺ.
- والسورة توحى بأن النبي ﷺ كان متأثراً مما قاله المبطلون في شأن تأخر نزول الوحي عنه، وأنه كان مُثْقَلًا بهموم الدعوة، فأراد الله سبحانه أن يخفف عنه العبء ويؤنسه ويطمئنه.
- والاستفهامات التي بدأت بها هذه السورة، تكملة للاستفهام المتتابع الذي خُتِمَ به السورة السابقة.

معجزة شق الصدر:

معجزة شق صدر النبي ﷺ وقعت له ثلاث مرات:

أ - شق صدر النبي ﷺ وهو طفل مسترضع في بني سعد:

عن أنس بن مالك ؓ أن رسول الله ﷺ أتاه جبريل، وهو يلعب مع الغلمان، فأخذه فصرعه، فشق عن قلبه، فاستخرج منه علقة، فقال: هذا حظ الشيطان منك، ثم غسله

في طست من ذهب بماء زمزم، ثم لأمته، ثم أعاده في مكانه، وجاء الغلمان يسعون إلى أمه (مرضعته) فقالوا: إن محمداً قد قُتل، فاستقبلوه وهو منتقع اللون. قال أنس: وقد كنت أرى أثر ذلك المخيط في صدره^(١).

ب - شق صدره ﷺ ليلة الإسراء والمعراج:

وعن مالك بن صعصعة ؓ أن النبي ﷺ قال: «بينما أنا عند البيت بين النائم واليقظان، إذ سمعتُ قائلاً يقول: أحد بين الثلاثة، فأُتيتُ بطست من ذهب، فيها ماء زمزم، فشرح صدري إلى كذا وكذا.

قال قتادة: قلت لأنس بن مالك: ما يعني؟ قال: إلى أسفل بطني، فاستخرج قلبي، فغسل بماء زمزم، ثم أعيد مكانه، ثم حُشي إيماناً وحكمة...»^(٢).

ج - شق صدره ﷺ وهو في الحادية عشرة من عمره:

وعن أبي بن كعب أن أباهريرة ؓ كان جريئاً على أن يسأل رسول الله ﷺ عن أشياء لا يسأله عنها غيره، فقال: يا رسول الله، ما أول ما رأيت من أمر النبوة؟ فاستوى رسول الله ﷺ جالساً وقال: «لقد سألت أباهريرة؛ إني لفي صحراء، ابن عشر سنين وأشهر، وإذا بكلام فوق رأسي، وإذا برجل يقول لرجل: أهو هو؟ قال: نعم، فاستقبلاني بوجوه لم أرها لخلق قط، وأرواح لم أجدها من خلق قط، وثياب لم أرها على أحد قط، فأقبلا إليّ يمشيان، حتى أخذ كل واحد منهما بعضدي، لا أجد لأحدهما مساً، فقال: أحدهما لصاحبه: أضجعه، فأضجعاني بلا قضر ولا هضر، فقال أحدهما لصاحبه: إفلق صدره، فهوى أحدهما إلى صدري ففلقها فيما أرى، بلا دم ولا وجع، فقال له: أخرج الغلّ

(١) صحيح مسلم برقم (١٦٢)، وصحيح البخاري (٣٥٧٠)، وعن قتادة (٤٩٦٤، ٧٥١٧).

(٢) قال أبو عيسى في سنن الترمذي: هذا حديث صحيح (٣٣٤٦)، وهو في المسند (١٧٨٣٣-١٧٨٣٧) بإسناد صحيح، ورجال ثقات، كما قال محققوه، والبخاري (٣٢٠٧، ٣٤٣٠)، ومسلم (١٦٤)، والنسائي (٤٤٧)، وفي الكبرى (٣١٣).

والحسد، فأخرج شيئاً كهياة العلقمة، ثم نبذها فطرحها، فقال له: أَدْخِلْ الرَّأْفَةَ وَالرَّحْمَةَ، فَإِذَا مِثْلَ الَّذِي أَخْرَجَ يَشْبُهُ الْفَضَّةَ، ثُمَّ هَزَّ إِبْهَامَ رِجْلِي الْيَمْنَى، فَقَالَ: اغْدُ وَاسْلَمْ، فَرَجَعْتُ بِهَا أَعْدُوًّا، رَقَّةً عَلَى الصَّغِيرِ، وَرَحْمَةً لِلْكَبِيرِ»^(١).

وهكذا جاءت روايات مختلفة في زمان ومكان معجزة شق الصدر، وكلها كانت بمكة:

١ - فقد شق صدر النبي ﷺ وهو مسترضع عند حليلة السعدية، كما سبق بيانه، مما جعلها تسارع بعودته إلى أهله.

٢ - وشق صدره ﷺ وهو ابن عشر سنين، كما في رواية عبد الله بن أحمد، وهي الرواية السابقة.

٣ - وشق صدره ليلة المعراج، كما في رواية مالك بن صعصعة.
وهو شقُّ بدني لإعداد النبي ﷺ لأعباء الرسالة ولقاء الوحي وغزو الفضاء، واستخراج حظ الشيطان منه.

وفي عصر إجراء العمليات بالمنظار والليزر والليزك ونحو ذلك، ما يُقَرَّب ما جاء به الأحاديث في موضوع شق الصدر، وهو من المعجزات الخارقة للعادة الخاصة برسول الله ﷺ.

* * *

(١) أخرجه عبد الله بن أحمد في زوائد المسند (١٣٩/٥)، وقال الهيثمي في مجمع الزوائد (٢٢٢/٨): رجاله ثقات، وثقهم ابن حبان، وقد ضعف إسناده محققو المسند (٢١٢٦١)، لأن فيه مجهولاً، محمد بن معاذ ابن محمد بن أبي، وكذلك أبوه معاذ، وأخرجه ابن حبان (٧١٥٥)، والضياء المقدسي (١٢٦٢)، وأبو نعيم في دلائل النبوة (١٦٦)، والحاكم (٥١٠/٢)، وللحديث شواهد.

تَفْسِيرُ السُّورَةِ

ثَلَاثُ مَنَنِ يَمْتَنُّ اللَّهُ تَعَالَى بِهَا عَلَى رَسُولِهِ ﷺ

المنة الأولى: شرح الصدر:

١-٤- ﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ ﴿١﴾ وَوَضَعْنَا عَنكَ وِزْرَكَ ﴿٢﴾ الَّذِي أَنْقَضَ ظَهْرَكَ ﴿٣﴾ وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ ﴿٤﴾

أي لقد شرحنا لك صدرك - أيها الرسول - بنور القرآن، والهدي للإيمان، فوسعناه لك بعد حيرة وضيق، وفتحناه لشرائع الدين والدعوة، والاتصاف بمكارم الأخلاق، والإقبال على الآخرة، فلم يكن ضيقاً لا يتقاد للخير، بل كان متسعاً للخيرات، منشراحاً للمبرات كما قال تعالى: ﴿أَفَمَنْ شَرَحَ اللَّهُ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ فَهُوَ عَلَى نُورٍ مِنْ رَبِّهِ﴾ [الزمر: ٢٢].

وقال سبحانه: ﴿فَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ وَمَنْ يُرِدْ أَنْ يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصْعَقُ فِي السَّمَاءِ﴾ [الأنعام: ١٢٥].

وحقيقة الشرح: فضل أجزاء اللحم بعضها عن بعض، ومنه التشريح، وشريحة اللحم. والشرح أيضا هو: نبذ الضيق، وعدم الإحساس بالحزن والكمَد، كما قال تعالى: ﴿فَلَعَلَّكَ تَارِكٌ بَعْضَ مَا يُوحَىٰ ۖ إِلَيْكَ وَمَضَىٰ يَوْمَ صَدْرِكَ﴾ [هود: ١٢].

وفسرها ابن عباس رضى الله عنهما بأن الله تعالى قد شرح قلب نبيه بالإسلام. وشرح الصدر في الآية، يشمل الشق البدني لصدرة الشريف، كما يشمل الشرح المعنوي، عن طريق توسعته وتقبله للإيمان والهدى والفضائل، والاستفهام في الآية للتقرير. وخص الصدر بالذكر لأنه محل الوسوسة، كما قال تعالى: ﴿الَّذِي يُوسِّسُ فِي صُدُورِ النَّاسِ ﴿٥﴾ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ﴾ [الناس: ٥ - ٦] والشیطان يجري من ابن آدم مجرى الدم. والصدر: حِصْنُ القلب، فإذا وجد الشيطان مسلكاً بث فيه سُمومه، فيضيق الصدر، ولا يجد للطاعة لذة، وإذا طرده العبد من البداية حصل الأمن وانشرح الصدر.

(١) رقق الأزرق راء ﴿وَزْرَكَ﴾ و (ذكرك) في الآية: ٤؛ وفخمهما غيره.

وَشَرَحُ صَدْرِ النَّبِيِّ ﷺ تَمَّ بِمَا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَيْهِ مِنْ عِلْمٍ وَحِكْمَةٍ وَأَدَبٍ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَأَنْزَلَ اللَّهُ عَلَيْكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُنْ تَعْلَمُ وَكَانَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا﴾ [النساء: ١١٣].

لَقَدْ نَشَأَ ﷺ فِي بَيْتَةٍ مَظْلَمَةٍ، وَكَانَتِ الْوُثْنِيَّةُ تَعْصِفُ بِالْعَالَمِ كُلِّهِ، فَاسْتَمَدَ ﷺ رُشْدَهُ مِنْ ثِقَلِ الْوَحْيِ الَّذِي نَزَلَ عَلَيْهِ.

وَالْتَوْحِيدُ الَّذِي جَاءَ بِهِ مُحَمَّدٌ ﷺ لَا تَنَاقُضُ فِيهِ، وَلَا تَجْسِيدَ وَلَا تَثْلِيثَ وَلَا بُنُوَّةَ. وَكَثِيرٌ مِنَ الْبَشَرِ يَجْحَدُونَ وَحْدَانِيَّةَ الْخَالِقِ، وَيَحْسِبُونَ أَنَّ الْأَفْلَاقَ تَدُورُ وَحْدَهَا فِي السَّمَاءِ، وَأَنَّ الدَّمَاءَ تَنْطَلِقُ فِي الْعُرُوقِ وَحْدَهَا، وَالْإِفْتِرَاءُ عَلَى اللَّهِ تَعَالَى فَوْقَ الْإِفْتِرَاءِ عَلَى خَلْقِهِ. وَكَمَا شَرَحَ اللَّهُ صَدْرَ نَبِيِّهِ بِنُورِ الْوَحْيِ، أَعَدَّهُ أَيْضًا لِتَحْمُلِ أَعْبَاءِ الرِّسَالَةِ بِشَقِّ صَدْرِهِ الشَّرِيفِ لِيَكُونَ أَهْلًا لِلْإِصْطِفَاءِ، وَالصَّبْرِ عَلَى الْبَلَاءِ.

وَشَرَحُ الصَّدْرِ لِلنَّبِيِّ ﷺ أَعْظَمُ نِعْمَةٍ، وَأَقْوَى عُدَّةٍ فِي تَبْلِيغِ الدَّعْوَةِ، وَلِهَذَا فَإِنَّ اللَّهَ تَعَالَى لَمَّا أَرْسَلَ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ إِلَى فِرْعَوْنَ الطَّاغِيَةِ، تَوَجَّهَ مُوسَى إِلَى رَبِّهِ بِهَذَا الدَّعَاءِ:

﴿قَالَ رَبِّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي ۝ وَيَسِّرْ لِي أَمْرِي ۝ وَاحْلُلْ عُقْدَةً مِنْ لِسَانِي ۝ يَفْقَهُوا قَوْلِي﴾ [طه: ٢٥ - ٢٨].

وَشَرَحُ صَدْرِ النَّبِيِّ ﷺ أَحَدُ مِثَالِ ثَلَاثٍ فِي هَذِهِ الْآيَاتِ، اِمْتَنَّ اللَّهُ تَعَالَى بِهَا عَلَى نَبِيِّهِ ﷺ. وَالْمَنَّةُ الثَّانِيَةُ هِيَ: وَضْعُ الْوِزْرِ:

فَقَدْ حَطَّ اللَّهُ تَعَالَى عَنْ رَسُولِهِ ﷺ حِمْلَهُ الَّذِي أَثْقَلَ ظَهْرَهُ بِمَهْمُومِ الدَّعْوَةِ وَأَعْبَاءِ الرِّسَالَةِ. وَالْمَعْنَى: أزال الله تعالى عن رسوله ﷺ كل ما كان يتخرج منه من عادات الجاهلية التي كان يجدها في قومه، وهي عادات لا تلائم الفطرة، فوضع عنه ذلك عندما أوحى إليه بالرسالة، وَحَطَّ عَنْهُ مَا كَانَ يَجِدُهُ مِنْ ثِقَلِ الْوَحْيِ فِي بَادِيءِ الْأَمْرِ، فَيَسِّرَهُ عَلَيْهِ.

وَقَدْ غَفَرَ اللَّهُ لِرَسُولِهِ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِهِ وَمَا تَأَخَّرَ، وَهَذَا مِنْ بَابِ حَسَنَاتِ الْأَبْرَارِ سَيِّئَاتِ الْمُقْرِبِينَ.

وَهَذِهِ الْأَوْزَارُ الَّتِي أَنْقَضَتْ ظَهْرَ نَبِيِّهِ ﷺ أَيَّ أَثْقَلَتْهُ وَأَوْهَنْتَهُ، بِمَعْنَى: أَنَّ هَذِهِ الْأَوْزَارَ لَوْ كَانَتْ حِمْلًا يُحْمَلُ، لَسَمِعَ نَقِيضَ ظَهْرِ النَّبِيِّ ﷺ بِسَبَبِ مَا يَعَانِيهِ مِنَ الْأَلَمِ لَمَّا يَرَى مَا عَلَيْهِ

قومه من مخالفات شرعية، لم يستطع تغييرها، فحطَّ الله عنه هذا الهم النفسي وما كان يعانيه من عبادتهم للأوثان.

وأُنزل الله تعالى عليه الوحي، فيه الحلال والحرام، وفيه ما يفعلون وما يذرون، ونهاه الله عن التأسف والحزن عليهم إن لم يستجيبوا له ولدعوته، كما في قوله تعالى:

﴿فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسْرَتٍ﴾ [فاطر: ٨] وقد حفظ الله رسوله وعصمه من الصغائر

والكبائر قبل البعثة وبعدها؛ وفي هذا ثلاث حالات من العصمة:

أولاً: عصمة النبي ﷺ من الصغائر والكبائر بعد البعثة أمر مقطوع به:

لقد عصم الله رسوله، فحفظه من الذنوب، وطهره من الأرجاس والأنجاس قبل البعثة وبعدها، وعصمة النبي ﷺ من الصغائر والكبائر بعد البعثة: أمر يجب القطع به، فوضع الوزر عنه ﷺ يكون بهدايته إلى الحق بعد أن كان ضالاً حائراً فيما يعبده قوم، وبكفاية أمر المعيشة بعد أن كان عائلاً فقيراً.

ثانياً: عصمة النبي ﷺ من الكبائر قبل البعثة أمر مقطوع به أيضاً:

أما قبل البعثة فإن عصمته ﷺ من الكبائر أمر مقطوع به كذلك، والله تعالى قد تولاه بالرعاية والحفظ من صباه، لأنه تعالى يُعْذُّه لتحمل أعباء الرسالة، وكان من ذلك شق صدره الشريف وإخراج حظ الشيطان منه، ولو كان قد وقع من النبي ﷺ شيء من الكبائر قبل البعثة لأخذه عليه المشركون ولم يثقوا فيه، وتكلموا به، ولم يحدث من ذلك شيء.

ثالثاً: عصمة النبي ﷺ من الصغائر قبل البعثة:

فلم يبق بعد الذي سبق بيانه إلا فعل الصغائر قبل النبوة، فإن كان النبي ﷺ قد فعل منها شيئاً، فتكون هي المرادة في الآية، وأن الله تعالى قد حطَّ عنه ثِقَلَهَا وغفرها له. قال أبو طالب لأخيه العباس: لقد ضممتُ إلي وما فارقتُ ليلاً ولا نهاراً ولا ائتمنتُ عليه أحداً.

وكان ينقله من منامه في وسط أبنائه ليلاً، ويضعه محل أحد أبنائه حفاظاً عليه.

قال أبوطالب: ولم أر منه كذبة، ولا ضحكاً، ولا جاهلية، ولا وقف مع الصبيان وهم يلعبون^(١).

والمعنى: لقد شرحنا لك - أيها الرسول - صدرك، وأزلنا عنك ما أثقل ظهرك من أعباء الرسالة، وعصمتناك من الذنوب والآثام، وطهرناك من الأدناس والأرجاس، وأزلنا العقبات التي وضعها المشركون في طريق دعوتك، وأعناك على تبليغ الرسالة، ورفعنا عنك الحيرة التي كانت تغتريك قبل النبوة، حينما كنت تفكر في عبادة قومك للأوثان، وخففنا عنك ما قابلك به قومك من الإعراض عن الدعوة، ومن تكذيبهم لك. وعلى هذا: فليس الوزر في الآية ذنباً، ولكنه هم الرسالة وتبعة المسؤولية التي كان ينوء بحملها ﷺ.

كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ﴾ [الحجر: ٩٧].

وقال سبحانه: ﴿لَيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ﴾ [البقرة: ٢٧٢].

وسياق السورة عن النعم التي أنعم الله بها على نبيه ﷺ وليست عن ذنوب ارتكبتها النبي ﷺ قبل البعثة أو بعدها.

أما بعد نزول الوحي على رسول الله ﷺ فإن الله تعالى قد غفر لنبيه وحط عنه ما فعله من أمور الدنيا باجتهاد منه ﷺ في أثناء البعثة، وقد عاتبه الله عليها.

خمسة أمثلة من عتاب الله تعالى لرسوله ﷺ على ما خالف فيه الأولى باجتهاده:

١ - ومن ذلك قصة عبد الله بن أم مكتوم ؓ في سورة ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّى﴾ [عبس: ١]، وعتاب الله تعالى له عليهما.

٢ - ومن ذلك ما كان في غزوة تبوك، ممن قبل النبي ﷺ غدرهم وأذن لهم في التخلف، فقال الله تعالى له ﴿عَفَا اللَّهُ عَنْكَ لِمَ أَذِنْتَ لَهُمْ﴾ [التوبة: ٤٣].

٣ - ومن ذلك قصة أسارى بدر التي عاتبه فيها ربه بقوله: ﴿مَا كَانَتْ لِيَنِي أَنْ يَكُونَ لَهُمْ أَسْرَى حَتَّى يُتَخَذَ فِي الْأَرْضِ﴾ [الأنفال: ٦٧].

(١) ينظر: تفسير الألوسي للآية.

٤ - ومن ذلك أنه لما دعا ﷺ على أفرادٍ قد آذوه إيذاءً شديداً عاتبه الله بقوله:

﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذِّبَهُمْ فَإِنَّهُمْ ظَالِمُونَ﴾ [آل عمران: ١٢٨].

٥ - ومن ذلك اجتهاده ﷺ في إيمان عمه أبي طالب، فأنزل تعالى:

﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ﴾ [القصص: ٥٦].

وهذه الأمور حدثت بعد نزول هذه السورة، ولكنها تدخل تحت قوله تعالى:

﴿لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ﴾ [الفتح: ٢].

وقوله: ﴿وَأَسْتَغْفِرُ لَذُنُوبِكَ وَالْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ﴾ [محمد: ١٩] وكلها من باب حَطِّ الوزرِ.

والكلام شاملٌ لما كان قبل النبوة وما بعدها.

وقد جاء عن ابن مسعود ؓ موقوفاً (إن المؤمن يرى ذنوبه كالجبل يقع عليه،

والمنافق يرى ذنوبه كذبابة تطير فوق أنفه)^(١).

والمنة الثالثة التي امتن الله بها على نبيه ﷺ في سورة الشرح: أنه سبحانه رفع شأنه، وأعلى

مقامه وأعلى ذكره في الدنيا والآخرة، فرفع قدره وجعل له الشاء الحسن بين الخلق، وأودع

محبه في قلوب عباده، وقد فطر الله رسوله على مكارم الأخلاق، وبلغ شأواً عالياً في حسن

القدوة لم يبلغها أحد، وقد أمر الله تعالى الناس أن يذكروا نبيهم بخير، وألهمهم ذلك.

عن ابن عباس رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال: «سألتُ ربي مسألة، وددتُ أني

لم أكن سألتُه، قلت: قد كانت قبلي أنبياء، منهم مَنْ سَخَّرَ له الريح، ومنهم من يُحيي

الموتى، قال: يا محمد، ألم أجِدْك يتيماً فأويثُك؟ قلت: (بلى يا رب)، قال: ألم أجِدْك

ضالاً فهديثُك؟ قلت: (بلى يا رب)، قال: ألم أجِدْك عائلاً فأغنيثُك؟ قلت: (بلى يا رب)،

قال: ألم أشرح لك صدرك؟ ألم أرفع لك ذكرك؟ (قلت: بلى يا رب)^(٢).

(١) التسهيل لعلوم التنزيل (٢٠٦/٤)، والحديث في المسند برقم (٣٦٢٧-٣٦٢٩) وإسناده صحيح على شرط

الشيخين، وهو من قول ابن مسعود ؓ.

(٢) رواه الحاكم في المستدرک (٥٢٦/٢) وقال: صحيح الإسناد ولم يخرجاه، وأخرجه ابن أبي حاتم عن

عدي بن ثابت كما في الدر المنثور (٤٩٩/١٥).

خمسة أمثلة من رفع ذكر النبي ﷺ حسياً ومعنوياً:

١ - من ذلك: رفع شأنه ﷺ وعلو مكانته، وذكره في كتب الأنبياء السابقين، حتى عرفته الأمم قبل مجيئه، وأخذ الله الميثاق على جميع النبين أن يؤمنوا به ويصدقوه عند بعثته قال تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَا آتَيْتُكُمْ مِنْ كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ. وَلَتَنْصُرُنَّهُ. قَالَ أَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِي قَالُوا أَقْرَرْنَا قَالَ فَاشْهَدُوا وَأَنَا مَعَكُمْ مِنَ الشَّاهِدِينَ﴾ [آل عمران: ٨١].

٢ - ومن ذلك أن الله تعالى رفع ذكر نبيه ﷺ بهذا القرآن فجعله شرفاً وفخراً له ولأمته، كما في قوله تعالى: ﴿وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ﴾ [الزخرف: ٤٤].

٣ - ومن ذلك أيضاً أن الوحي لم يناديه ﷺ باسمه مُجَرِّداً - إلا ما كان من باب الخبر - مثل ﴿مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِنْ رِجَالِكُمْ﴾ [الأحزاب: ٤٠]، بل ناداه ربه بالرسالة والنبوة، وأمرنا ألا نذكره باسمه المجرد فقال تعالى: ﴿لَا تَجْعَلُوا دُعَاءَ الرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَاءِ بَعْضِكُمْ بَعْضًا﴾ [النور: ٦٣].

٤ - ومن ذلك أن الله تعالى صلى عليه وملائكته، وأمرنا أن نصلي ونسلم عليه كلما ذكر ﴿إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾ [الأحزاب: ٥٦].

٥ - ومن ذلك أيضاً أن الله تعالى قرن اسمه باسمه في الشهادتين وفي الأذان والإقامة والتشهد.

أخرج الطبري بسند حسن عن قتادة قال: رَفَعَ الله ذِكْرَه في الدنيا والآخرة، فليس خطيب ولا مُتَشَهِّد ولا صاحب صلاة، إلا ينادى بها: أشهد أن لا إله إلا الله، وأشهد أن محمداً رسول الله^(١).

فلو أن عبداً عبد الله تعالى وصدقته في كل شيء، ولم يشهد أن محمداً رسول الله، لم ينتفع من ذلك بشيء وكان كافراً، فقد فرض الله تعالى طاعته على الأمة بقوله:

(١) الطبري (٤٩٤/٢٤) والبيهقي (٦٣/٧).

﴿قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ﴾ [النور: ٥٤].

وقوله: ﴿مَنْ يُطِيعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ﴾ [النساء: ٨٠].

وقوله أيضاً: ﴿وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾ [الأحزاب: ٧١].

وكل هذا إنعام من الله تعالى وتفضل على نبيه.

وفي هذه المنن الثلاث كأن الله تعالى يقول لنبيه: لقد شرحت لك صدرك، وخففت عنك أعباء الرسالة، وغفرت لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر، ورفعت شأنك في العالمين، فلا تكثر بمخالفة المعارضين، ولا تحزن عليهم، فإن الله تعالى ناصرهم، ومظهر دينك على الدين كله، ولو كره المشركون والكافرون.

وَعَدُ مِنَ اللَّهِ تَعَالَى بِتَيْسِيرِ كُلِّ عَسِيرٍ

٦٥- ﴿فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا ۖ إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا﴾

وبعد أن وضع الله تعالى عن رسوله ﷺ هم أعباء الدعوة التي أثقلت كاهله، ورفع ذكره في العالمين، بشره بالفرج بعد الضيق، وباليسر بعد العسر، وأنه كلما وحد عُسْرًا وصعوبة، فإن اليسر يقارنه ويصاحبه، حتى لو دخل العسر جُحْر ضَبٍّ لدخل عليه اليسر فأخرجه قال تعالى: ﴿سَيَجْعَلُ اللَّهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسْرًا﴾ [الطلاق: ٧].

وفي الحديث: «وإن الفرج مع الكرب وإن مع العسر يسراً».

فقوي رجاءك في الله - أيها الرسول - واستعن به، ولا يُثْنِك أذى قومك لك عن الماضي قُدماً في نشر الدعوة، فإن الله تعالى سينصرك عليهم، ويظهر أمرك، ويبدل عُسْرَكَ يسراً، فلا تحزن ولا تتضجر، فإن مع الضيق فرجاً، إن مع الضيق فرجاً، فطُبْ نفساً، وقر عيناً، فإنه لن يغلب عُسْرُ يُسْرَيْنِ، ولا تكثر بأذى قومك، فإن الذي أعطاك هذه النعم سينصرك عليهم.

(١) قرأ أبو جعفر بضم السين من ﴿الْعُسْرِ﴾ و﴿يُسْرًا﴾ في الكلمات الأربع وسكنها غيره.

وفي الأثر عن أنس بن مالك، وابن مسعود، والحسن، وعبيدة بن الجراح (لو جاء العسر حتى يدخل هذا الحجر لجاء اليسر حتى يخرجته ولن يغلب عسر يُسرَيْن)^(١). وقد ذكر الله تعالى لفظ ﴿الْعُسْرُ﴾ وجعله معرّفاً مفرداً، وهذا التعريف يدل على أنه واحد، وكرر لفظ ﴿يُسْرًا﴾ وجعله مُنْكَرًا وهذا يدل على تكراره متعدّداً، فكأنه سبحانه قال: إن مع العسر يسراً، إن مع ذلك العسر نفسه يسراً آخر، لأن العسر مَعْرِفَة، واليسر نكرة، فوجب أن يكون عسراً واحداً، ويسراً مرتين.

ومهما بلغ العسر من العسوبة فإن التيسير في آخره ملازم له. وقيل في معنى الآيتين: إن مع العسر الذي في الدنيا، يسراً عاجلاً في الدنيا، كالفتح والنصر والغنائم، وفي هذا حث على الصبر والمجادة في مجابهة المكذبين. ثم ابتداء مرة أخرى فقال: إن مع العسر الذي في الدنيا يسراً آخر في الآخرة، وقد يجتمع اليُسْران معاً: يُسر الدنيا ويُسّر الآخرة، فعسر الدنيا لن يغلب اليسر الذي أعده الله للمؤمنين في الدنيا والآخرة، ويسر الآخرة غير زائل^(٢) وفي هذا وعد لكل مؤمن بتيسير كل عسير. كتب عمر إلى أبي عبيدة وهو في جموع من الروم: (أما بعد: فإنه مهما ينزل بعدد مؤمن من منزل شدة، يجعل الله بعده فرجاً، وإنه لن يغلب عسر يُسرَيْن)^(٣).

التَزَوُّدُ لِيَوْمِ الْمَعَادِ وَالْعَمَلُ لِلدُّنْيَا

٨،٧ - ﴿فَإِذَا فَرَغْتَ فَانصَبْ ۖ وَإِلَىٰ رَبِّكَ فَارْغَبْ﴾

ثم وجه سبحانه وتعالى عباده، وفي مقدمتهم رسول الله ﷺ، إلى أسباب انشراح الصدر، وطريقة التزوّد ليوم المعاد، وتيسير ذلك له، فكلفه بأنه إذا فرغ من أعمال الدنيا،

(١) مسند البزار برقم (٢٢٨٨) (كشف الأستار)، والمعجم الأوسط للطبراني برقم (٣٤١٦)، وفي الكبير (٩٩٧٧، ١٥٢٥)، والحاكم (٢٥٥/٢)، والأظهر أنه موقوف على ابن مسعود، وهو عند عبد الرزاق (٣٨٠/٢)، والبيهقي في الشعب (١٠٠١١)، وقال ابن حجر في الفتح (٧١٢/٨): إسناده جيد، وضعفه الألباني عن أنس في السلسلة الضعيفة (١٤٠٣) قلت: ولكن شواهد كثيرة تشهد لقول الحافظ ابن حجر.

(٢) ينظر: تفسير الخازن (٣٩١/٤)،

(٣) موطأ مالك.

ودعوة الناس إلى الله تعالى، فليلجأ إليه تعالى بالعبادة، وليُنْصَب، ويجدّ ويجتهد في طاعة الله تعالى، فإن هذا هو الزاد إلى لقاء الله سبحانه.

فالمعنى: إذا أتممت عملاً من مهام الأعمال الدنيوية، فأقبل على عمل آخر من أعمال الآخرة.

ويصح أن يكون المعنى: إذا فرغت من عملك فأشغل نفسك في عمل آخر، بحيث تُشغل وقتك كله بالعمل الأخروي أو الدنيوي المحمود.

والآية بهذا المعنى تحل مشكلة الفراغ، ولا تترك للمسلم وقتاً ضائعاً، فيما أن يُشغل المرء نفسه في عمل دنيوي نافع، أو يشغله في عمل أخروي من طاعة الله والرسول.

وبمثل هذا قال بعض الصحابة عند عودتهم من إحدى الغزوات، قال: (رجعنا من الجهاد الأصغر إلى الجهاد الأكبر).

ومن هذا أن ابن عباس رضي الله عنهما مرّ على رجلين يتصارعان، فقال لهما: ما بهذا أمرنا بعد فراغنا.

وقال عمر: إني لأكره لأحدكم أن يكون خالياً سهلاً، لا في عملٍ دنياء، ولا في عملٍ دين.

والتَّصَب هو التعب والعمل، سواء أكان ذلك في عمل الدنيا المشروع، أو في الطاعة والعبادة.

وهذه الآية من جوامع الكلم، ومن معانيها: إذا فرغت من عبادة، فأشغل نفسك في عبادة أخرى، وإذا فرغت من فريضة، فأشغل نفسك بنافلة، وإذا فرغت من جهاد عدوك فانصَب في عبادة ربك، وقد عمّر الصحابة أوقاتهم بالمواظبة على الأعمال الصالحة، ولم يكن فيها فراغ للهو ولا للهزل.

ولتكن رغبتك - أيها الرسول - وانصرف همك الأكبر إلى ما عند الله، كما قال تعالى: ﴿وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ وَلَا تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا﴾ [القصص: ٧٧].

فبالنسبة للآخرة: ابذل جهدك في العمل الأخروي، وبالنسبة للدنيا: خذ منها القليل، وليكن صَرْفُ همتك إلى ما عند الله أكثر وأعظم.

فاجتهد في الأعمال التي تقربك من الله تعالى، كالصلاة والتهجد والذكر والتسبيح وتلاوة القرآن، ونحو ذلك من سائر الطاعات وصالح الأعمال، ولا تنس نصيبك من الدنيا، وأحسن إلى الناس كما أحسن الله إليك.

تم تفسير (سورة الشرح) والله الحمد والمنة

تَفْسِيرُ سُورَةِ التِّينِ (٩٥)

مُقَدِّمَةُ السُّورَةِ

أ- (سورة التين) هي السورة الخامسة والتسعون في ترتيب المصحف، والثامنة والعشرون في ترتيب النزول، نزلت بعد (سورة البروج) وقبل (سورة قريش). وعدد آياتها ثمانين آيات، باتفاق.

وهي أربع وثلاثون كلمة، ومئة وخمسة أحرف.

وهي سورة مكية، وسميت سورة التين بالواو، وبدونها.

ب - أقسم الله تعالى بأربعة أيمان متتابعة، هي الأماكن المشرفة التي خص الله بها بعض رسله بنزول الوحي عليهم وهي:

١- جبل الجودي، حيث كان يكثُر التين فيه، وهذا إشارة إلى رسالة نوح عليه السلام.

٢- ثم أقسم بالزيتون، إشارة إلى بيت المقدس حيث رسالة عيسى عليه السلام.

٣- ثم أقسم سبحانه بجبل طور سيناء، موضع رسالة موسى عليه السلام.

٤- ثم أقسم بالبلد الأمين، مكة المكرمة، إشارة إلى رسالة خاتم الأنبياء ﷺ.

وجواب هذه الأيمان الأربعة، هو أن الله تعالى خلق الإنسان في أحسن صورة، وقامة معتدلة، واستقامة فطرة، ومع الحفاظ على هذه الفطرة يبقى الإنسان على الصلاح والتقوى.

أما إذا جفَّ الإيمان، وابتعد صاحبه عن الفطرة، فإنه ينتكس ويتردى في الهاوية.

وفي هذا توبيخ للكافر على إنكار وحدانية الله تعالى، وإنكار البعث والنشور، بعد

إقامة دلائل التوحيد وبراهين البعث.

وبعدل الله تعالى في يوم الدين وغيره، يثيب المؤمنين ويعاقب الكافرين.

فبعد أن أشارت السورة إلى أماكن أكبر الرسالات السماوية، واشترакها في أصول

الشرائع، بيّنت أن الله تعالى خلق الإنسان على الفطرة المستقيمة، ليعلم أن الإسلام هو دين

الفطرة كما قال تعالى: ﴿فَأَفْهَمَ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا﴾ [الروم: ٣٠] وما يخالف ذلك فساد وضلال.

ج - عن البراء بن عازب رضي الله عنه قال: (كان النبي صلى الله عليه وسلم في سفر، فصلّى العشاء، فقرأ في إحدى الركعتين بـ ﴿وَاللَّيْلِ وَالزَّيْتُونِ﴾ فما سمعت أحداً أحسن صوتاً، ولا قراءةً منه^(١).
وعن عبد الله بن يزيد رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قرأ في المغرب ﴿وَاللَّيْلِ وَالزَّيْتُونِ﴾^(٢).

د - فموضوع السورة التين: هو أن الله تعالى يُقسم أربعة أيمان، على أنه خلق الإنسان مستعداً بفطرته إلى قبول الإيمان والاستقامة عليه، فإن هو عطل فطرته وأفسدها بتأثير العوامل الخارجية، فإنه يتردى ويتكس إلى الدرك الأسفل من النار، أما المؤمنون العاملون للصالحات المؤمنون بالبعث والنشور، فأجرهم عند الله عظيم، والله سبحانه سوف يحكم يوم القيامة بين من آمن ومن كفر، ومن أطاع أو عصى، فيجازي كلا بما يستحق.

* * *

(١) صحيح البخاري برقم (٧٦٧، ٤٩٥٢، ٧٥٤٦)، وصحيح مسلم (٤٦٤)، ومالك (٧٩/١)، وابن أبي شيبة (٣٥٩١/١)، وأبو داود (١٢٢١)، والترمذي (٣١٠)، والنسائي (٧٠٢)، وابن ماجه (٨٣٤، ٨٣٥)، ومسند أحمد (١٨٦٣٩) بإسناد صحيح على شرط الشيخين، وانظر (١٨٥٦٦، ١٨٥٠٣).
(٢) ابن أبي شيبة (٣٥٨/١) في المصنف، وعبد بن حميد (٤٩٢) منتخب، والطبراني كما في مجمع الزوائد (١١٨/٢)، قال الهيثمي: فيه جابر الجعفي، وثقه شعبة وسفيان، وضعفه بقية الأئمة.

تَفْسِيرُ السُّورَةِ

أَرْبَعَةُ أَيْمَانٍ عَلَى أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى خَلَقَ الْإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ صُورَةٍ

١- ٣- ﴿وَاللَّيْنِ وَالزَّيْتُونِ ۝١ وَطُورِ سِينِينَ ۝٢ وَهَٰذَا الْبَلَدِ الْأَمِينِ ۝٣﴾

في هذه الآيات أقسم الله تبارك وتعالى بأربعة أماكن مباركة، هي أماكن وجود الرسالات الكبرى، وهي مكان وجود التين الذي يأكله الناس والزيتون الذي يعصرون منه الزيت، وجبل طور سيناء، ومكة المكرمة.

قال ابن عباس: هو تينكم الذي تأكلون، وزيتونكم الذي تعصرون منه الزيت.

القسم الأول: المكان الذي بعث فيه نوح عليه السلام :

وإنما خص التين بالقسم لأنه فاكهة مَخْلُصَةٌ من شوائب التنغيص، وفيه غذاء للبدن، وهو من أحسن الثمار صورة وطعماً، وسهولة مضغ، لا يحتاج في أكله إلى كثرة عمل ولا حركة، وهو أنفع الفواكه، سريع الهضم، يُلين الطبيعة، ويعالج بعض الأمراض كتقليل البلغم، وقطع البواسير، وشفاء النقرس، وهو من فواكه الجنة.

ويُذكر أنه أهدى إلى النبي ﷺ طبق من تين، فأكل منه وقال لأصحابه: «كلوا» وأكل

منه، ثم قال: «لو أن فاكهة نزلت من الجنة، لقلت: هذه...».

وورد أن آدم عليه السلام لما بدت له سوءته ذهب إلى أشجار الجنة ليأخذ من ورقها ويستتر نفسه، فكان كلما جاء إلى شجرة زجرته، ولم تغطه، حتى مر بشجرة التين فأعطته، فأخلفها الله: الثمرة مرتين في السنة، وكافأها بجعل ثمرتها باطنها كظاها، لا قشر لها ولا عجم.

جاء ذلك عند قوله تعالى: ﴿وَلَفِيفًا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِنْ وَرَقِ الْجَنَّةِ﴾ [الأعراف: ٢٢].

قال ابن عباس رضي الله عنهما: ينزعان ورق التين فيجعلانه على سوءاتهما.

ولما نبذ البحر يونس عليه السلام، وألقاه على شاطئه بالعراء، وهو عليل لما أصابه من بطن الحوت وظلمة البحر، أنبت الله عليه شجرة من يقطين، هي شجرة القرع،

لامتيازات لا تتوفر في غيرها، من رطوبة ظلّها، وورقها العريض، وتفرّع أغصانها يُمَنّة ويسرة ﴿فَبَذَلَتْهُ بِالْعَرَاءِ وَهُوَ سَقِيمٌ ﴿١٤٥﴾ وَأَبْتَنَّا عَلَيْهِ شَجَرَةً مِّن يَّطِينٍ﴾ [الصفات: ١٤٥- ١٤٦].

القسم الثاني: قسم بالمكان الذي بعث فيه عيسى عليه السلام :

أما الزيتون فإنه يخرج من شجرة مباركة، فيه إدام ودُهْن، يدخل فيه كثير من الأدوية، ولا يحتاج إلى خدمة ولا إلى تربية، وهو ينبت في الجبال، ويعيش سنين طويلة.

عن معاذ ؓ أنه استاك بقضيب زيتون وقال: سمعت رسول الله ﷺ يقول:

«نعم السواك الزيتون من الشجرة المباركة».

وقد ذكر الزيتون في القرآن الكريم عدة مرات مقصوداً به تلك الشجرة المباركة، كما في قوله تعالى مُحدّداً أول مكان تواجدّها:

﴿وَشَجَرَةً تَخْرُجُ مِنْ طُورِ سَيْنَاءَ تَنْبُتُ بِالذَّهْنِ وَصَبِغٍ لِلَّكِلَيْنِ﴾ [المؤمنون: ٢٠].

وضرب الله تعالى بشجرة الزيتون مثلاً لنوره:

﴿مَثَلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ الْمِصْبَاحُ فِي زُجَاجَةٍ الزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ يُوقَدُ مِنْ شَجَرَةٍ مُّبَارَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لَّا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ نُورٌ عَلَى نُورٍ﴾ [النور: ٣٥].

وذكرها الله تعالى ضمن أشجار أخرى في مثل قوله تعالى:

﴿وَجَدْتِ مِنَ أَعْنَابٍ وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَّانَ مُشْتَبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَبِّهٍ﴾ [الأنعام: ٩٩].

فالتين هو الثمر المعروف الذي يؤكل، والزيتون هو الثمر المعروف الذي يعصر ويؤكل.

وقد أقسم الله تعالى بهما تنبيها على بعض ما يخرج من الأرض، من دلائل قدرته تعالى، فلا أزوع ولا أبرع من أن ينشق الطين عن ثمر طعمه حُلُو، ورائحته زكية، ولونه زاهٍ. ولعله قد غُدّي بالأزوات، فمن الذي أخرج من الحمأ المسنون هذه الثمرات الشهية؟ إنه الله رب العالمين.

فالقسم بهما، قسم بحقيقتهما، ولكن أهل العلم ربطوا بين القسم بهما والقسم بطور سنيين والبلد الأمين، فقالوا: إن المراد هو القسم بمواطن الرسالات الكبرى، والشرائع الأولى، وذلك للجمع بينها.

جاء عن ابن عباس رضي الله عنهما: أن التين كان يكثر شجره في جبل الجودي الذي استوت عليه سفينة نوح بالعراق، وأنه قد بُني في أعلى الجودي بعد انتهاء الطوفان، مسجد يسمى مسجد نوح عليه السلام، وهذا هو موطن رسالة أول الرسل نوح عليه السلام^(١).
 أما المكان الذي ينبت فيه شجر الزيتون بكثرة، فهو المكان الذي بنى فيه إبراهيم الخليل، المسجد الأقصى، وقد بناه بعد بناء الكعبة بأربعين عاما كما جاء في الصحيحين.
 وقد يكون القسم بمكان شجر الزيتون، إشارة إلى شريعة عيسى عليه السلام.
 وبهذه المعاني قال جمع من الصحابة والتابعين^(٢).
 وجاءت آثار تشير إلى أن المراد بالتين: دمشق^(٣).
 ولعل ما جاء عن ابن عباس رضي الله عنهما هو الأولى، إذ ليس في دمشق موطن رسالة.
 والقسم الثالث: قسم بجبل طور سيناء:
 الذي كلم الله عليه موسى تكليماً، وشرفه بالرسالة، وسمى جبل سينين وسيناء لحسنه وبركته.

و﴿سِينِينَ﴾ هي البقعة المباركة عند الشجرة التي كلم الله موسى عليه السلام عندها.
 ١ - قال تعالى: ﴿وَنَدَيْنَاهُ مِنْ جَانِبِ الطُّورِ الْأَيْمَنِ وَقَرَّبْنَاهُ نَجِياً﴾ [مريم: ٥٢].
 ٢ - وقال سبحانه: ﴿وَمَا كُنْتَ بِجَانِبِ الْفُرْقَيْنِ إِذْ قَضَيْنَا إِلَىٰ مُوسَى الْأَمْرَ وَمَا كُنْتَ مِنَ الشَّاهِدِينَ﴾ [القصاص: ٤٤].

٣ - وقال جل شأنه: ﴿وَمَا كُنْتَ بِجَانِبِ الطُّورِ إِذْ نَادَيْنَا﴾ [مريم: ٥٢].
 ٤ - وقال أيضاً: ﴿يَبْنِي إِسْرَءِيلَ قَدْ أَفْجَيْتَكُم مِّنْ عَدُوِّكُمْ وَوَعَدَنَّاكُمْ جَانِبَ الطُّورِ الْأَيْمَنِ﴾ [طه: ٨٠].
 وجبل الطور يقع في صحراء سيناء، بمصر، وقد أقسم الله به في قوله:
 ﴿وَالطُّورِ ۝١﴾ وَكُنْتُ مَسْطُورًا [الطور: ١ - ٢].

(١) ينظر: تفسير ابن جرير (٢٤/٥٠٤، ٥٠٨، ٥١٣، ٥٢٥).
 (٢) ينظر: تفسير التحرير والتنوير (٣٠/٤٢٠) وما بعدها.
 (٣) ينظر: تفسير ابن جرير (٢٤/٥٠٣)، وابن عساكر (١/٢١٥) وما بعدها.

ثم يأتي القسم الرابع: بالبلد الأمين: من كل خوف، وهو مكة المكرمة، مهبط الإسلام، ومبدأ رسالة محمد ﷺ والحرم يأمن فيه الإنسان والحيوان والطير والنبات والشجر.. على نفسه في الجاهلية والإسلام، فلا يُنْفَر صيده، ولا يُعْضد شوكه، ولا تُلْقَط لُقْطته، وكل من دخله كان آمناً.

إشارة الأماكن الأربعة إلى أعظم الشرائع:

وعلى هذا فالإيمان الأربعة تشير إلى أماكن أعظم الشرائع:

١ - فالتين: إشارة إلى رسالة نوح عليه السلام، وهي أول شريعة لأول رسول وُجد الشرك في عهده.

٢ - والزيتون: يشير إلى شريعة إبراهيم عليه السلام الذي بنى المسجد الأقصى كما صح في الحديث. وربما كانت الإشارة فيه إلى شريعة عيسى عليه السلام.

٣ - وطور سيناء: إشارة إلى شريعة التوراة التي نزلت على موسى عليه السلام.

٤ - والبلد الأمين يشير إلى مهبط الوحي على خاتم الرسل ﷺ.

وهذه أشهر الشرائع الإلهية وأُمَمَاتُهَا، وأصول شرائع الله تعالى.

قال ابن كثير: وفي آخر التوراة جاء ذكر ثلاثة أماكن منها فقال: جاء الله من طور

سيناء، وأشرق من ساعير - يعني جبل بيت المقدس الذي بعث الله منه عيسى -

واستغلن من جبال فاران - أي جبال مكة التي أرسل الله منها محمداً ﷺ فذكرهم الله

تعالى على ترتيب وجودهم وأزمنتهم، وأقسم بالأشرف ثم الأشرف.

الْإِنْسَانُ بِعَقْلِهِ وَجِسْمِهِ وَاسْتِقَامَةِ الْفِطْرَةِ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ

٤ - ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾

أما جواب القسم بهذه الأيمان الأربعة فهو أن الله تعالى قد خلق الإنسان في أجمل

صورة، وأحسن هيئة، كامل الجوارح، متناسق الأعضاء، منتصب القامة، تام الخلق

مزوداً بوسائل العلم والفهم والإدراك والتمييز والنطق والأدب وحُسن الخلق، له قدرة

على حرية الاختيار، واستقامة الفطرة، وذكاء العقل.

وهذه المعاني تعني أن خلق الله تعالى للإنسان في أحسن تقويم تشمل أمران:
الأمر الأول: أنه أمر حسي، يتعلق بالجسد، وهو حُسن الشكل والصورة وتناسب الأعضاء.

كما قال تعالى: ﴿وَصَوَّرَكُمُ فَأَحْسَنَ صُورَكُمْ﴾ [غافر: ٦٤].

وقال سبحانه: ﴿الَّذِي خَلَقَكَ فَسَوَّاكَ فَعَدَلَكَ﴾ [الانفطار: ٧].

وقال جل شأنه: ﴿أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِن مَّنِيِّ يَتِمَّىٰ ۖ ثُمَّ كَانَ عَلقَةً فَخَلَقَ فُسُوًى ۖ ﴿٣٨﴾ فَعَمَلٌ مِّنْهُ الذَّكَرُ وَالْأُنثَىٰ ۚ﴾

[القيامة: ٣٧ - ٣٩]. وبهذا المعنى قال أكثر المفسرين.

الأمر الآخر: أنه أمر معنوي: يتعلق بالعقل والعلم، واستقامة الفطرة، ومناط التكليف

في الإنسان، وهذا هو الجانب الإنساني، المذكور في قوله تعالى: ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا ۖ ﴿٧﴾ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا﴾ [الشمس: ٧ - ٨].

وبهذا المعنى قال ابن عطية وابن عاشور وغيرهما.

وأحسب أن المقسم عليه هو استقامة الفطرة، وسلامة المعتقد، والعقل السوي، ذلكم أن الإنسان لا يشرف بصورته الحسنة، ولا بقوامه الممشوق، ولكن يشرف بعقله وعلمه وحُسن استقامته، وبهذا كرم الله الإنسان وميزه على خلقه، كما جاء في الحديث عن أبي هريرة ؓ أن رسول الله ﷺ قال: «إن الله لا ينظر إلى أجسادكم ولا إلى صوركم ولكن ينظر إلى قلوبكم»^(١).

فالعقل هو أشرف ما خص الله به الإنسان، والجسد آلة خادمة للعقل، وعن طريق العقل تكون استقامة الإنسان على الفطرة القويمة ﴿فَأَقْوَ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا﴾ [الروم: ٣٠] وفي حديث أبي هريرة ؓ «ما من مولود يولد إلا على الفطرة، فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه»^(٢).

فأنت بالعقل لا بالجسم إنسان، ولا يوجد عقل بدون جسد، فبين العقل والجسم

(١) رواه البخاري (١٣٥٨، ١٣٥٩)، ومسلم (٢٦٥٨، ٢٥٦٤).

(٢) رواه أحمد (٧٤٤٤، ١٠٢٤١) بإسناد صحيح ورجال ثقات، وهو من زيادات عبد الله بن أحمد بهذا اللفظ.

تلازم، وهذا المعنى هو الملائم لمقصد السورة.

وهذه النعم العظيمة توجب القيام بشكرها، ولكن أكثر الناس منحرفون عن شكر المنعم مشغولون باللهو واللعب، رضوا بأسفل الأمور وأرذل الأخلاق، فاستحقوا من الله العقاب. ذكر القرطبي أن (عيسى الهاشمي) كان يحب زوجته حباً شديداً، فقال لها يوماً: أنت طالق إن لم تكوني أحسن من القمر، فاحتجبت عنه، وقالت: طلقني، فحزن حزناً شديداً وذهب إلى الخليفة (المنصور) وأخبره الخبر، فاستحضر الفقهاء واستفتاهم، فقال جميع من حضر: قد طُلق، إلا رجلاً واحداً من أصحاب أبي حنيفة، فقد بقي ساكناً، فقال له المنصور: ما لك لا تتكلم؟ فقال الرجل: يا أمير المؤمنين، يقول الله تعالى ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾ فليس شيء أحسن من الإنسان، فقال: صدقت، وردّها إلى زوجها.

اِنْتَكَاسُ الْإِنْسَانِ بِفَسَادِ فِطْرَتِهِ

٥- ﴿ثُمَّ رَدَدْنَاهُ أَسْفَلَ سَافِلِينَ﴾

والإنسان مفطور على التوحيد ونبذ الكفر والشرك، وفي جبلته: جلب النفع والصلاح، وحب الخير والعدل والإنصاف، وإغائة الملهوف، ونُصرة الضعيف، والاشتمزاز من الظلم، وسوء الأخلاق، وسوء الاستقامة، ولكن الشهوة والهوى والشيطان تُزين للإنسان المعاصي والمفاسد، فينحرف عن الفطرة، ويثقل عليه نصح الناصحين، ووعظ الواعظين، ومن كان يعمل في شبابه الأعمال الصالحة، ثم عجز عنها في كبره، فإن أجر هذه الأعمال تجري له حتى يموت.

عن أبي موسى ؓ أن رسول الله ﷺ قال: «إذا مرض العبد أو سافر كتب الله له من الأجر مثل ما كان يعمل صحيحاً مقيماً»^(١).

وقال ابن عباس رضى الله عنهما: (أَيُّمَا رَجُلٍ كَانَ يَعْمَلُ عَمَلًا صَالِحًا وَهُوَ قَوِيٌّ شَابَ

(١) المسند (١٩٧٥٣، ١٩٦٧٩) بإسناد صحيح على شرط الشيخين (محققوه)، ورواه البخاري (٢٩٩٦)، وابن حبان (٢٩٢٩)، والبيهقي في الشعب (٩٩٢٨)، والحاكم (٣٤١/١).

فَعَجَزَ عَنْهُ، جَزَى لَهُ أَجَرَ ذَلِكَ الْعَمَلِ حَتَّى يَمُوتَ^(١).

فَإِذَا أَرَخَى الْإِنْسَانَ الْعَنَانَ لِهَوَاهُ وَشَهَوَاتِهِ أَلْقَتْ بِهِ فِي الضَّلَالَاتِ وَمَهَاوِي الرَّذِيلَةِ، وَتَغَلَّبَ عَلَيْهِ دَعَاةُ الضَّلَالِ، فَتَتَكَسَّ فَطْرَتَهُ، وَيَتَرَدَّى إِلَى أَسْفَلِ سَافِلِينَ فِي الْإِعْتِقَادِ وَالشَّرِكِ وَالْأَخْلَاقِ وَالرَّذَائِلِ.

وَهَلْ رَأَيْتَ أَسْفَلَ مِمَّنْ يَجْحَدُ وَجُودَ الصَّانِعِ وَهُوَ يَشَاهِدُ آيَاتِهِ فِي الْكَوْنِ. لَقَدْ خَلَقَ اللَّهُ الْإِنْسَانَ وَنَفَخَ فِيهِ مِنْ رُوحِهِ، وَهَذِهِ النَّفْخَةُ سَرَتْ فِي أَوْصَالِهِ فَجَعَلَتْهُ كَأَنَّ خَطِيرَ الشَّأْنِ، يَحْمِلُ فِي جَنَابَاتِهِ التَّوْحِيدَ وَالْإِسْتِقَامَةَ، فَإِذَا فَسَدَتْ فَطْرَتُهُ، اقْتَرَفَ آثَامًا تَقْشَعِرُ مِنْهَا الْأَبْدَانُ، وَتَنْكَرُ لِخَالِقِهِ، وَجَفَّ الْإِيمَانُ مِنْ قَلْبِهِ، وَهَذَا مَعْنَى ﴿ثُمَّ رَدَدْنَاهُ أَسْفَلَ سَافِلِينَ﴾ فِي دَرَكَاتِ النَّارِ، بِسَبَبِ مَا جَنَى عَلَى نَفْسِهِ.

أَمَّا أَطْوَارُ خَلْقِ الْإِنْسَانَ مِنْ ضَعْفٍ إِلَى قُوَّةٍ، إِلَى ضَعْفٍ وَشَيْبَةٍ، وَالرَّدُّ إِلَى أَرْدَلِ الْعُمُرِ. وَخَلْقُهُ مِنْ نَظْفَةٍ، ثُمَّ مِنْ عِلْقَةٍ، ثُمَّ مِنْ مَضْغَةٍ، إِلَى آخِرِهِ، فَلَيْسَ هَذَا رَدُّ إِلَى أَسْفَلِ سَافِلِينَ. وَإِنَّمَا مَعْنَى الْآيَةِ: الْإِنْحِرَافُ وَالْإِرْتِدَادُ عَنِ الْفِطْرَةِ، بِعِبَادَةِ غَيْرِ اللَّهِ تَعَالَى، وَاتِّبَاعِ الْهَوَى، ثُمَّ يَكُونُ مَصِيرُهُ نَارَ جَهَنَّمَ وَبُشْسُ الْقَرَارِ، وَهَذَا يَعْنِي غَيْرَ الْمُؤْمِنِينَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ.

أَجْرُ الْمُؤْمِنِ غَيْرُ مَقْطُوعٍ وَلَا مَمْنُوعٍ

٦ - ﴿إِلَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ﴾

اسْتَشْنَى سُبْحَانَهُ مِنَ التَّرَدِّيِّ فِي النَّارِ: الْمُؤْمِنِينَ الْعَامِلِينَ لِلصَّالِحَاتِ، فَإِنَّ اللَّهَ تَعَالَى قَدْ أَعَدَّ لَهُمْ أَجْرًا عَظِيمًا غَيْرَ مَقْطُوعٍ وَلَا مَنْقُوصٍ، بَلْ لَذَاتٌ مُتَابِعَةٌ، وَأَفْرَاحٌ مُتَوَافِرَةٌ، وَنَعْمٌ مُتَكَاثِرَةٌ، لَا تَحُولُ وَلَا تَزُولُ، أَكُلُّهَا دَائِمٌ وَظِلُّهَا، وَذَلِكَ لِأَنَّهُمْ سَارُوا عَلَى مَقْتَضَى الْفِطْرَةِ، وَإِخْلَاصِ الطَّاعَةِ وَالْعِبَادَةِ لِلَّهِ تَعَالَى، فَازْدَادُوا بِهَجَّةٍ إِلَى بِهِجَتِهِمْ، وَحُسْنًا عَلَى حُسْنِهِمْ. وَالثَّوَابُ الدَّائِمُ الَّذِي أَعَدَّهُ اللَّهُ لَهُمْ: هُوَ الْجَنَّةُ، وَمَا أَعْظَمُهَا مِنْ سَلْعَةٍ غَالِيَةٍ.

(١) الطبري (٥١٠/٢٤)، وابن المنذر، قال الحافظ ابن حجر في فتح الباري (٧١٣/٨): إسناده حسن.

﴿أَكُلْهَا دَائِمٌ وَظِلُّهَا﴾ [الرعد: ٣٥] ﴿إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَى﴾ (١١٨) وَأَنْتَ لَا تَنظُمُ فِيهَا وَلَا تَضْحَى ﴿ [طه: ١١٨ - ١١٩].

لَا عُدْرَ لِأَحَدٍ فِي التَّكْذِيبِ بِالْحَقِّ مَعَ ظُهُورِ دَلَالِهِ

٧- ﴿فَمَا يَكْذِبُكَ بَعْدَ بِالذِّينِ﴾

وبعد هذه البراهين الساطعة، والدلائل القاطعة على وجوب الإيمان بالله واليوم الآخر، فأى شيء يحملك - أيها الإنسان - على أن تكذب بالبعث والحساب والجزاء وأي شيء يدعوك إلى إنكار يوم القيامة، مع وضوح الأدلة على قدرة الله تعالى على ذلك؟ فقد رأيت من آيات الله ما يحصل به اليقين، ومن نعمة ما يوجب الشكر.

ولماذا يُنكر بعض الناس رسالة الإسلام ويحاربها ويضد عنها؟ ولماذا يؤمن بعضهم بالوحي الذي نزل على موسى أو عيسى عليهما السلام، ولم يؤمن بنزوله على محمد ﷺ؟ فبأي فكر يفكر الإنسان؟ وبأي عقل يستبدل بعض الناس بالإسلام شرائع انتهى مفعولها، أو شرائع من صنع البشر، تتبدل كل يوم وتتغير؟! إنه لا عذر لكم - أيها الناس - في التكذيب بالحق مع ظهور دلائل صدقه ﴿إِنَّ الذِّينَ عِنْدَ اللَّهِ أَلَسُّهُ﴾ [آل عمران: ١٩] ﴿وَمَنْ يَتَّبِعْ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ [آل عمران: ٨٥].

﴿إِنِّي عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي وَكَذَّبْتُم بِهِ﴾ [الأنعام: ٥٧].

فالتكذيب بالدين يشمل: الكفر بالله تعالى، ويشمل عدم الإيمان بخاتم النبيين ﷺ، ويشمل عدم الإيمان باليوم الآخر وما فيه من بعث وحساب وجزاء.

وكلمة ﴿بَعْدُ﴾ تعني: بعد تبين الحق، وظهور أدلته قال تعالى: ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كَانَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ ثَمَرٌ كَفَرْتُمْ بِهِ مِنْ أَضَلِّ مِمَّنْ هُوَ فِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ﴾ [فصلت: ٥٢].

مِنْ عَدْلِ اللَّهِ تَعَالَى: عَدَمُ التَّسْوِيَةِ بَيْنَ الطَّائِعِ وَالْعَاصِي

٨- ﴿أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ الْحَكِيمِينَ﴾

ثم بين سبحانه أنه وحده هو الذي يتولى الانتصاف ممن يكذب بالله ورسوله واليوم الآخر، فهو أفضى القضاة، وأقوى الحاكمين، وهو الذي يقطع دابر الباطل، وهو الذي لا يظلم أحداً، ولا يستوي لديه المصلح بالمفسد، والمؤمن بالكافر، والطائع بالعاصي، والمحسن بالمسيء.

ومن حكمته جل شأنه عدم التسوية بين هؤلاء وأولئك في الثواب والعقاب، أليس الله بأعدل العادلين، وأحكم الحاكمين خَلْقاً وإيجاداً، وُضْعاً وقضاءً وتديراً، وجزاءً للناس؟ وليس من الحكمة أن يترك الله خلقه سدى، فلا يأمرهم ولا ينهاهم، ولا يشبههم ولا يعاقبهم، إذ لابد أن يرجعوا إلى دارهم مستقرهم وغايتهم. فيجب عليهم أن يُفردوه تعالى بالعبادة، ويتبعوا خاتم أنبيائه ﷺ ويُقَرِّوا بالبعث والنشور، ففي ذلك سعادتهم في الدنيا والآخرة.

عن أبي هريرة ؓ أن رسول الله ﷺ قال: «من قرأ منكم بالتين والزيتون، فانتهى إلى آخرها ﴿أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَحْكَمَ الْحَاكِمِينَ﴾ فليقل: بلى، وأنا على ذلك من الشاهدين. ومن قرأ ﴿لَا أُقْسِمُ بِيَوْمِ الْقِيَمَةِ﴾ فانتهى إلى ﴿أَلَيْسَ ذَلِكَ بِقَدِيرٍ عَلَيَّ أَنْ يُخَيِّئَ الْوَقْدَ﴾ فليقل: بلى. ومن قرأ ﴿وَالْمُرْسَلَاتِ عُرْفًا﴾ فبلغ ﴿فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُ يُؤْمِنُ﴾ فليقل: آمنا بالله»^(١).

تم تفسير (سورة التين) والله الحمد والمنة

(١) سنن أبي داود برقم (٨٨٧)، والمسنَد (٢٤٩/٢) برقم (٧٣٩١) بإسناد ضعيف، لجهالة الراوى عن أبي هريرة ؓ، وسنن الترمذي برقم (٣٣٤٧)، والمستدرَك (٥١٠/٢) وقال: هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه، والبغوى (٦٢٣)، قال الشيخ أحمد شاكر: فيه يزيد بن عياض، رجل مجهول. فالحديث ضعيف السند وله شواهد أخرى.

تَفْسِيرُ سُورَةِ الْعَلَقِ (٩٦)

مُقَدِّمَةُ السُّورَةِ

١- (سورة العلق) هي السورة السادسة والتسعون في ترتيب المصحف، والأولى في ترتيب النزول، بمعنى أن الآيات الخمس الأول منها هي أول ما نزل من القرآن مطلقاً، وفيها الأمر بالنبوة، وقد نزل بقية السورة بعد ذلك. ثم أرسل ﷺ بعد ذلك بنزول سورة المدثر، وهي أول سورة نزلت بعد فترة الوحي الأولى وفيها الأمر بالرسالة.

ونزلت (سورة الضحى) بعد فترة الوحي الثانية.

أما أول سورة كاملة نزلت فهي (سورة الفاتحة).

٢- وسورة العلق تسع عشرة آية في المصحف الكوفي والبصري، والحمصى، وعشرون آية في المصحف المكي والمدني، وثمانى عشرة آية في المصحف الدمشقى. وهي اثنتان وتسعون كلمة، ومئتان وثمانون حرفاً، وهي سورة مكية باتفاق.

٣- وتسمى سورة العلق، وسورة اقرأ، أو ﴿أَقْرَأْ بِأَسْمِ رَبِّكَ﴾ وسماها ابن عطية وأبو بكر ابن العربي (سورة القلم) أما السورة التي سميت بهذا الاسم فسمّاها (سورة ن). فهذه أربعة أسماء لها.

٤- وتحدثت سورة العلق عن بدء نزول الوحي على رسول الله ﷺ والحث على طلب العلم والتعلّم من أول لحظة نزل فيها القرآن، ولفتت النظر إلى أصل خلق الإنسان، وذكر اسم الله تعالى على كل شيء.

وبيّنت السورة موقف الطغاة، وأهل الثروات، وأصحاب الجاه، من الدعوات الإلهية في كل زمان ومكان.

وضربت مثلاً على ذلك بأبي جهل - فرعون هذه الأمة - الذي وقف في وجه

الدعوة، يَنْهَى عن الْمُضِي فِيهَا، وَيَتَهَدَّد وَيَتَوَعَّد، فتَوَعَّدَهُ اللهُ تَعَالَى، وتَوَعَّدَ أَمْثَالَهُ بِالنَّهْيَةِ الْمُخْزِيَةِ الْأَلِيْمَةِ، وَأَمَرَ رَسُولَهُ ﷺ أَنْ يَسْتَمِرَّ فِي دَعْوَتِهِ وَطَاعَتِهِ لِرَبِّهِ، وَأَلَّا يَأْبَهُ بِهِ وَبِأَمْثَالِهِ، فَإِنَّ اللَّهَ تَعَالَى مُؤَيِّدُهُ وَنَاصِرُهُ، وَهَكَذَا شَأْنُ الدَّعَاةِ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى.

٥- وَخُتِمَتِ السُّورَةُ بِوَعِيدِ الطَّغَاةِ بِأَشَدِّ الْعِقَابِ إِذَا اسْتَمَرُّوا عَلَى ضَلَالِهِمْ وَطُغْيَانِهِمْ. عَنْ أَبِي مُوسَى الْأَشْعَرِيِّ ؓ قَالَ: كَانَتْ ﴿أَقْرَأَ بِأَسْمِ رَبِّكَ﴾ أَوَّلَ سُورَةٍ أُنْزِلَتْ عَلَى مُحَمَّدٍ ﷺ ^(١). وَعَنْ عِثْمَانَ بْنِ أَبِي الْعَاصِ ؓ قَالَ: آخِرُ كَلَامٍ كَلَّمَنِي بِهِ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ إِذْ اسْتَعْمَلَنِي عَلَى الطَّائِفِ أَنْ قَالَ: (خَفِّفِ الصَّلَاةَ عَلَى النَّاسِ) حَتَّى وَقَّتَ لِي ﴿أَقْرَأَ بِأَسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ﴾ وَأَشْبَاهَهَا مِنَ الْقُرْآنِ ^(٢).

فموضوع سورة العلق : يدور على بدء نزول الوحي على النبي محمد ﷺ، وبيان أن الدعوة إلى الله يقف في وجهها الطغاة والجبابرة في كل زمان ومكان، وعلى الدعاة إلى الله أن يَمْضُوا فِي طَرِيقِهِمْ وَأَنْ يَصْبِرُوا عَلَى أَذَاهُمْ، فَإِنَّ اللَّهَ تَعَالَى لَهُم بِالْمَرْصَادِ وَسَوْفَ يَعَاقِبُهُمْ عَلَى سُوءِ صَنِيعِهِمْ، وَهَذَا الْمَثَلُ التَّطْبِيقِيُّ لِمُحَارَبَةِ الدَّعَاةِ اسْتِغْرَاقُ بَقِيَةِ السُّورَةِ بَعْدَ الْآيَاتِ الْخَمْسِ الْأَوَّلِ مِنْهَا.

سبب النزول:

فِي الصَّحِيحِينَ عَنْ أُمِّ الْمُؤْمِنِينَ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قَالَتْ: أَوَّلُ مَا بُدِئَ بِهِ مِنَ الْوَحْيِ، الرَّؤْيَا الصَّادِقَةُ فِي النَّوْمِ، فَكَانَ ﷺ لَا يَرَى رُؤْيَا إِلَّا جَاءَتْ مِثْلَ فَلَقِ الصَّبْحِ، ثُمَّ حُبَّبَ إِلَيْهِ الْخَلَاءُ، فَكَانَ يَخْلُو فِي غَارِ حِرَاءَ، يَتَحَنَّثُ فِيهِ اللَّيَالِيَ ذَوَاتِ الْعَدَدِ، قَبْلَ أَنْ يَرْجِعَ إِلَى أَهْلِهِ، وَيَتَزَوَّدَ لَذَلِكَ، ثُمَّ يَرْجِعُ إِلَى خَدِيجَةَ، فَيَتَزَوَّدَ لِمِثْلِهَا.

حَتَّى جَاءَهُ الْوَحْيُ وَهُوَ فِي غَارِ حِرَاءَ، فَجَاءَهُ الْمَلَكُ، فَقَالَ: اقْرَأْ، قَالَ: مَا أَنَا بِقَارِئٍ، قَالَ: فَأَخَذَنِي فَغَطَّنِي حَتَّى بَلَغَ مِنِّي الْجَهْدَ، ثُمَّ أَرْسَلَنِي، فَقَالَ: اقْرَأْ، فَقُلْتُ: مَا أَنَا بِقَارِئٍ، فَأَخَذَنِي

(١) ابْنُ أَبِي شَيْبَةَ (٥٤٢/١٠)، وَالْحَاكِمُ (٢٢٠/٢)، وَأَبُو نَعِيمٍ فِي الْحَلِيَّةِ (٢٥٦/١)، وَالطَّبْرَانِيُّ كَمَا فِي مَجْمَعِ الزَّوَائِدِ (١٣٩/٧)، قَالَ الْهَيْثَمِيُّ: رَجَالُهُ رَجَالُ الصَّحِيحِ.

(٢) أَخْرَجَهُ ابْنُ سَعْدٍ (٥٠٩/٥)، وَهُوَ عِنْدَ أَحْمَدَ فِي الْمُسْنَدِ (١٧٩/٦) بِرَقْمِ (١٧٩١٦)، قَالَ مُحَقِّقُوهُ: إِسْنَادُهُ قَوِي، وَانْظُرْ (١٧٩١٤).

فغطني الثانية، حتى بلغ مني الجهد، ثم أرسلني، فقال: اقرأ، فقلت: ما أنا بقارىء، فغطني الثالثة حتى بلغ مني الجهد، ثم أرسلني، فقال: ﴿اقْرَأْ بِأَسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ۝١ خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ ۝٢ اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ ۝٣ الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ ۝٤ عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾ فرجع بها رسول الله ﷺ ترجف بوادره، حتى دخل على خديجة بنت خويلد، فقال: زملوني زملوني، فزملوه حتى ذهب عنه الروع، ثم قال لخديجة: أي خديجة، ما لي، وأخبرها الخبر، قال: لقد خشيتُ على نفسي.

قالت له خديجة: كلا، أبشر، فوالله لا يخزيك الله أبداً، إنك لتصل الرحم، وتصدق الحديث، وتحمل الكل، وتكسب المعدوم، وتقري الضيف، وتعين على نوائب الحق. فانطلقت به خديجة حتى أتت به ورقة بن نوفل بن أسد بن عبد العزى، وهو ابن عم خديجة، وكان أمراً قد تنصر في الجاهلية، وكان يكتب الكتاب العبراني، فكتب من الإنجيل بالعبرانية ما شاء الله أن يكتب، وكان شيخاً قد عمي، فقالت له خديجة: أي ابن عم، اسمع من ابن أخيك.

فقال له ورقة: (يا ابن أخي، ماذا ترى؟ فأخبره رسول الله ﷺ خبر ما رأى، فقال له ورقة: هذا الناموس الذي نزل الله على موسى، يا ليتني فيها جذعاً، ليتني أكون حياً إذ يخرجك قومك، فقال رسول الله ﷺ: أو مُخرجي هم؟ قال: نعم، لم يأت رجل قط بمثل ما جئت به إلا عودي، وإن يدركني يومك، أنصرك نصراً مؤزراً، ثم لم يلبث ورقة أن توفي، وفتر الوحي). زاد في رواية: حتى حزن النبي ﷺ حزناً، غدا منه مرارا كي يتردى من رؤوس شواهد الجبال، فكلما أوفى بذروة جبل لكي يلقي نفسه منه، تبدى له جبريل، فقال له: (يا محمد، إنك رسول الله حقاً، فيسكنُ لذلك جأشه، وتقر عينه، فيرجع، فإذا طالت عليه فترة الوحي غدا لمثل ذلك، فيتبدى له جبريل)^(١).

قلت: وهذه الزيادة من بلاغات الزهري وهي واهية ليست بشيء^(٢).

(١) ينظر: صحيح مسلم برقم (١٦٠)، وصحيح البخاري برقم (٦٩٨٢، ٤٩٥٣، ٣٣٩٢)، والمسند (٢٣٢/٦) برقم

(٢٥٨٦٥، ٢٥٢٠٢، ٢٥٩٥٩)، وعبد الرزاق في المصنف (٩٧١٩)، والبيهقي في الدلائل (١٣٥/٢) وغيرهم.

(٢) ينظر: ما قاله محققو المسند في الجزء (٤٣) ص (١١٤) عند الحديث (٢٥٥٩).

نزول الوحي في غار حراء غير مجرى التاريخ:

كان النبي ﷺ يذهب إلى غار حراء بين الحين والحين، يخلو بنفسه بعيداً عن لَغَطِ الجاهلية، يعبد الله تعالى على الحنيفية السمحة - ملة إبراهيم عليه السلام - ويتأمل في هذا الكون الفسيح، يستشعر اليقين والخشوع أمام مبدع هذا الملكوت، لقد كان يزُدي الأصنام وعبادتها، ويكره ما يراه من مراسم وتقاليد جاهلية، ولكنه لا يملك لهم شيئاً، ولا يعرف أكثر مما ترفضه فطرته.

وبينما هو يتعبد في غار حراء بجبل النور في الليلة المباركة، وهي ليلة القدر من شهر رمضان، إذ نزل عليه جبريل عليه السلام بعد بلوغ النبي ﷺ الأربعين من عمره، وكان مع جبريل نمط من ديباج فيه كتاب، وطلب من النبي ﷺ أن يقرأ، فقال عليه السلام: أنا أُمِّي، لا أعرف القراءة، ويتكرر هذا ثلاث مرات، وفي كل مرة يضمه جبريل إليه برفق، مُدْخِلاً الطمأنينة والسرور على نفسه، ثم يقرأ عليه الآيات الخمس الأولى من السورة .

وفيها بيان أن الله تعالى الذي خلق الإنسان من علق، قادر على أن يجعل هذا الأُمِّي عالماً عِلْمَ الأولين والآخرين، ولم يكن النبي ﷺ يتطلع إلى وحي أو رسالة، ولكنه فوجيء بذلك، ولم يكن له علم بالقراءة والكتابة كما قال تعالى: ﴿ قُلْ لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا تَلَوْتُهُ عَلَيْكُمْ وَلَا أَدْرَسَكُمْ بِهِ فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِنْ قَبْلِهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾ [يونس: ١٦]. وقال سبحانه: ﴿ وَمَا كُنْتَ تَتْلُوا مِنْ قَبْلِهِ مِنْ كِتَابٍ وَلَا تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ إِذَا لَأَزْتَابَ الْمُبْطِلُونَ ﴾ [العنكبوت: ٤٨].

وقال جل شأنه: ﴿ وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِنْ أَمْرِنَا مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ وَلَكِنْ جَعَلْنَاهُ نُورًا نَهْدِي بِهِ مَنْ نَشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا ﴾ [الشورى: ٥٢].

ولما نزل الوحي على رسول الله ﷺ غير مجرى التاريخ، وحول عقائد البشر وأخلاقهم، وعاش أهل الأرض في كنف الله ورعايته بتوجيه من الوحي الإلهي لهم بواسطة رسوله ﷺ وكان الصحابة يتوقعون في كل لحظة نزول جبريل عليه السلام، ويتربصون ما ينزل به، وظل

الوحي ينزل ثلاثة وعشرين عاماً على رسول الله ﷺ أقام النبي خلالها دولة الإسلام، كانت الأرض أثناءها موصولة بالسماء، وآيات الله تنزل فيهم، تنقلهم خطوة خطوة من أحوال الجاهلية إلى الإسلام.

عرف الصحابة رضوان الله تعالى عليهم مذاق هذه الفترة، وأدركوا حلاوتها، وشعروا بقيمتها. ولما انتقل النبي ﷺ إلى الرفيق الأعلى، وانتهت هذه الفترة، كان لذلك وقع شديد على نفوسهم لا يكاد العقل يتصوره:

عن أنس رضي الله عنه قال: قال أبو بكر لعمر، رضي الله عنهما، بغد وفاة النبي ﷺ: انطلق بنا إلى أم أيمن - حاضنة النبي ﷺ - نؤزرها، كما كان رسول الله ﷺ يزورها، فلما أتينا إليها، بكت، فقالا لها: (ما يُكيك؟) أما تعلمين أن ما عند الله خير لرسول الله ﷺ قالت: بلى، إني لأعلم أن ما عند الله خير لرسول الله ﷺ ولكني أبكي لأن الوحي قد انقطع من السماء، فَهَيَّجَتْهُمَا عَلَى الْبِكَاءِ، فَجَعَلَا يَبْكِيَانِ مَعَهَا^(١).

وتأثير هذا الوحي في البشر قائم إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها.

طلب العلم هو المطلب الأول في الإسلام:

ولأمر هام كانت أول كلمة نزل بها الوحي على محمد ﷺ: الأمر بالقراءة والكتابة، لعلها لمحو الأمية التي كانت سائدة في المجتمع الجاهلي، والإشارة إلى أن طلب العلم هو المطلب الأول في الإسلام.

ولذا: قدم الله تعالى العلم على العمل في قوله تعالى: ﴿فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ﴾ [محمد: ١٩].

وجعل العلماء في المرتبة الثالثة بعد الله تعالى وملائكته في قوله تعالى:

﴿شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأَوَّلُوا الْعِلْمَ قَائِمًا بِالْقِسْطِ﴾ [آل عمران: ١٨].

وبيّن سبحانه أن العالم والجاهل لا يستويان، فقال سبحانه: ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ

وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الزمر: ٩].

(١) صحيح مسلم برقم (٢٤٥٤).

وبمعرفة العلم الشرعي والعلم التجريبي المرتبط بالخالق المبدع، تشتد معرفة العبد لربه، وخشيته منه سبحانه: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾ [فاطر: ٢٨].
 فقد جاءت هذه الآية بعد ذكر علم النبات، وعلم الأرض، والجبال والناس والدواب.
 والذي عنده علم من الكتاب وهو من الإنس، تفوق بعلمه على العفريت من الجن في الإتيان بعرش (بليقيس) مَلِكَةٍ سَبَأً في طُرْفَةِ عَيْنٍ، بدلاً من نصف يوم.
 ومن سلك طريقاً يبتغي به علماً سهل الله له به طريقاً إلى الجنة.
 والملائكة تضع أجنحتها لطالب العلم رضى بما يصنع.
 والعلم هو ميراث محمد ﷺ فمن أخذه أخذ بحظ وافر، وساعة علم خير من عبادة سنة في نوافل العبادة.

ولقيمة العلم في الإسلام أقسم الله سبحانه بحروف الهجاء، وأقسم بأداة الكتابة وهي القلم، وأقسم بالكتابة نفسها فقال: ﴿تَ وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُورُونَ﴾ [القلم: ١] كما أقسم سبحانه بالورق الذي يُستعمل في الكتابة فقال: ﴿وَكُتِبَ مَسْطُورٍ ۝٢﴾ [الطور: ٢ - ٣] والرق: هو الورق المفتوح للاطلاع والقراءة.

لا بد من ربط العلوم التجريبية بخالق الكون:

والإنسان يبدل السبب في طلب العلم، ويُسند تحصيله إلى الله تعالى، فهو جل شأنه مصدر العلم، ومنه يُستمد، وهو الذي يعلم الإنسان ما لم يعلم، وكل علم غير متصل بالله تعالى لا خير فيه، وقد يضرُّ أكثر مما ينفع، فدراسة الطب لا بد فيها من الربط بالخالق، وكذا الأدوية، والكيمياء، والإحياء، والحاسوب، والهندسة، والجيولوجيا، وعلم النفس والحيوان والنبات، وحسابات البنوك والشركات، والأمن الداخلي والخارجي للبلاد، وكذا العلاقات الداخلية والخارجية، والشرطة وحراسة الحدود، وما إلى ذلك، كل ذلك، لا بد فيه من ربط علومه بخالق الكون، ودراسته على ضوء حكم الإسلام وتكييفه لها، فإذا دُرست هذه العلوم وغيرها على هذا النحو، فلن تجد في العالم مُلجداً، ولا علمانياً، ولا حائر متردداً بين الحلّ والحرمة في معاملات البنوك، وهكذا.

والدراسة على هذا النحو لا تكلفنا إلا تجريدها من النظريات البحتة الغربية، وربطها

بالشرع، واتصالها بخالق الكون.

هذا: ولأن علم الأجنة أول العلوم التي تصل المخلوق بالخالق، لأن فيه أطوار خلق الإنسان وتكوينه ونشأته.. كان هذا العلم هو أول العلوم التي لفت القرآن النظر إليها في كونه سبحانه خلق الإنسان من علق، ودعا إلى التأمل في هذا الخلق، فقال:

﴿وَفِي أَنفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾ [الذاريات: ٢١].

ولأن جميع العلوم لا بد أن ترتبط في دراستها برب هذا الكون، كانت أول لفظة وجه الوحي أنظارنا إليها هي قوله تعالى: ﴿أَقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ﴾ فأمر الله نبيه أن يبدأ قراءته باسم الله، وليس باسم مخترع الكهرباء ولا باسم رائد الفضاء، ولا باسم مخترع شبكة المعلومات، ولا باسم الشعب، ولا باسم الأمة.

ولأن فوق كل ذي علم عليم، والعلم كله مستمد من الله تعالى، ويوجد من علوم الغيب والكون، ما لا قبل لنا به إلا عن طريق الوحي، فإن الله تعالى وضح للإنسان هذا الأمر من أول لحظة، فأخبره بأنه جل شأنه علمه ما لم يعلم.

وأتى بوصف الربوبية، وهو الأليق في هذا المقام، لأنها تعني صفة الخلق، فهو سبحانه ﴿نَبِّ الْأَقْيَانِ﴾ خالقهم ومربيهم بنعمه.

ولم يأت أمر القراءة بوصف الألوهية، إنما جاء باسم الرب، الذي ربي خلقه بنعمه (اقرأ باسم ربك) لأن المقام مقام خلق وضيع وإبداع، وليس مقام عبودية وتوحيد.

قال تعالى: ﴿اللَّهُ خَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ﴾ [الزمر: ٦٢].

ولم يدع أحد من الخلق أنه خلق شيئاً في الكون، لا يوجد خلق بدون خالق.

قال تعالى: ﴿أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ﴾ [الطور: ٣٥].

والمشركون كانوا يعترفون بأن الله تعالى هو الخالق الرازق، كما قال تعالى: ﴿وَلَيْنَ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ﴾ [لقمان: ٢٥] قال سبحانه: ﴿وَلَيْنَ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ﴾ [الزخرف: ٨٧] ﴿وَاللَّهُ أَخْرَجَكُمْ مِنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْئًا﴾ [النحل: ٧٨].

ولا فرق بين الرجل والمرأة في طلب العلم والتعلم.

استهلال السورة وافتتاح الأعمال والأقوال بذكر الله:

لقد كان افتتاح نزول الوحي على رسول الله ﷺ (باسم الله) وهذا منهج رباني يتعلم منه المسلم أن يبدأ كل شؤونه باسم الله، لا باسم الأمة، ولا باسم الشعب، ولا باسم الوطن، ولا باسم فلان.. ولا باسم مذهب من المذاهب، ولا نحو ذلك بل ﴿أَقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ﴾ وحمده والثناء عليه، ابدأ كل تصرفاتك: أقوالها وأفعالها باسم الله وبحمده، ومن ذلك بعض ما علّمنا إياه رسول الله ﷺ:

- ١ - فكان إذا استيقظ من نومه قال: «الحمد لله الذي أحيانا بعد ما أماتنا وإليه النشور»^(١).
- ٢ - قالت عائشة رضي الله عنهما: وكان إذا هب من الليل، كبر عشراً، وحمد عشراً، وقال: سبحان الله وبحمده عشراً، وقال: سبحان الملك القدوس عشراً، واستغفر عشراً، وهلل عشراً، ثم قال: «اللهم إني أعوذ بك من ضيق الدنيا، وضيق يوم القيامة، عشراً، ثم يستفتح الصلاة»^(٢).
- ٣ - قالت: وكان إذا استيقظ من الليل قال: «لا إله إلا أنت سبحانك، اللهم أستغفرك لذنبي، وأسألك رحمتك، اللهم زدني علماً، ولا ترغ قلبي بعد إذ هديتني، وهب لي من لدنك رحمة إنك أنت الوهاب»^(٣).
- ٤ - وفي الحديث أن من استيقظ من الليل فقال: «لا إله إلا الله، وحده لا شريك له، له الملك، وله الحمد، وهو على كل شيء قدير، الحمد لله، وسبحان الله، ولا إله إلا الله، والله أكبر، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم، ثم قال: اللهم اغفر لي - أو دعاء آخر - استجيب له، فإن توضأ وصلى قبلت صلاته»^(٤).

(١) من حديث حذيفة وأبي ذر والبراء بن عازب في البخاري (٦٣١٢، ٦٣١٤، ٦٣٢٥)، والترمذي (٤٣٠١)،

والنسائي في عمل اليوم والليلة (٨٦٦)، والمسند (١٢٦٦، ١٨٦٠٣، ٢٣٤٥٩).

(٢) أخرجه أبو داود (٥٠٨٥)، والنسائي في عمل اليوم والليلة (٨٧١)، وفي السنن (٢٠٩/٣)، و(٢٨٤/٨)، وفي سننه عمر بن جُعْثَم قال في التقريب: مقبول.

(٣) أبو داود (٥٠٦١) عن عائشة، وفي سننه عبد الله بن الوليد، لئن الحديث، وأخرجه النسائي في عمل اليوم والليلة (٨٦٥).

(٤) رواه البخاري برقم (١١٥٤) عن عبادة بن الصامت.

٥ - وقال ابن عباس رضي الله عنهما ليلة مَبِيته عند النبي ﷺ: إنه لما استيقظ رفع رأسه إلى السماء وقرأ العشر الأواخر من سورة آل عمران: ﴿إِن فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ [آل عمران: ١٩٠] ثم قال: (اللهم لك الحمد، أنت نور السموات والأرض ومن فيهن، ولك الحمد، أنت قيوم السموات والأرض ومن فيهن، ولك الحمد، أنت الحق، ووعدك الحق، وقولك الحق، ولقاؤك حق، والجنة حق، والنار حق، والنبون حق، ومحمد حق، والساعة حق، اللهم لك أسلمت، وبك آمنت، وعليك توكلت، وإليك أنبت، وبك خاصمت، وإليك حاكمت، فاغفر لي ما قدمت وما أخرت، وما أسررت وما أعلنت، أنت إلهي، لا إله إلا أنت، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم^(١)).

٦ - وقالت عائشة رضي الله عنها: كان النبي ﷺ إذا قام من الليل قال: «اللهم رب جبريل وميكائيل وإسرافيل، فاطر السموات والأرض، عالم الغيب والشهادة، أنت تحكم بين عبادك فيما كانوا فيه يختلفون، إهديني لما اختلف فيه من الحق بإذنك، إنك تحكم وتهدي من تشاء إلى صراط مستقيم^(٢)».

٧ - وكان ﷺ إذا أوتر ختم وتره بقوله: «سبح قدوس رب الملائكة والروح»^(٣) ثلاثاً ويقول: «سبحان الملك القدوس»^(٤) ثلاثاً، ويمدّ صوته بالثالثة.

٨ - وكان ﷺ إذا خرج من بيته قال: «بسم الله، توكلت على الله، اللهم إني أعوذ بك أن أضل أو أضل، أو أزل أو أزل، أو أظلم أو أظلم، أو أجهل أو يجهل عليّ»^(٥).

٩ - وفي الحديث عن أنس رضي الله عنه: «من قال إذا خرج من بيته: باسم الله، توكلت على الله، ولا حول ولا قوة إلا بالله، يقال له: كُفيت، ووُقيت، وهُديت وتنحى عنه الشيطان».

(١) من حديث ابن عباس في مسلم (٧٦٩)، والبخاري (١١٢٠، ٦٣١٧، ٧٣٨٥، ٧٤٤٢، ٧٤٩٩).

(٢) من حديث عائشة في صحيح مسلم (٧٧٠).

(٣) من حديث عائشة في صحيح مسلم (٤٨٧).

(٤) من حديث أبي بن كعب عند أبي داود (١٤٢٣)، والنسائي في عمل اليوم والليلة (٧٢٩) وغيرهما بإسناد صحيح.

(٥) من حديث أم سلمة عند أبي داود (٥٠٩٤)، والترمذي (٣٤٢٧)، والنسائي (٥٤٨٦)، وابن ماجه (٣٨٨٤) وهو في المسند (٢٦٦١٦) بإسناد ضعيف لعدم سماع الشعبي وهو عامر بن شراحيل من أم سلمة (محققه).

- زاد أبوداود: فيقول الشيطان لشيطان آخر: «كيف لك برجل قد هُدي وكُفي ووقي»^(١).
- ١٠ - وكان ﷺ إذا خرج إلى صلاة الفجر قال: «اللهم اجعل في قلبي نوراً، واجعل في لساني نوراً، واجعل في سمعي نوراً، واجعل في بصري نوراً، واجعل من خلفي نوراً، ومن أمامي نوراً، ومن فوقي نوراً، ومن تحتي نوراً، اللهم أعظم لي نوراً»^(٢).
- ١١ - ومن دخل المسجد فقال: «أعوذ بالله العظيم، وبوجهه الكريم، وسلطانه القديم، من الشيطان الرجيم، قال الشيطان: حُفَظَ مِنِّي سائر اليوم»^(٣).
- ١٢ - وفي الحديث أيضاً «إذا دخل أحدكم المسجد، فليُصَلِّ وليُسَلِّمْ على النبي ﷺ وليُثَلِّ: اللهم افتح لي أبواب رحمتك» فإذا خرج فليُثَلِّ: «اللهم إني أسألك من فضلك»^(٤).
- وفي لفظ آخر أن النبي ﷺ كان إذا دخل المسجد صَلَّى على محمد ﷺ ثم يقول: «اللهم اغفر لي ذنوبي، وافتح لي أبواب رحمتك» فإذا خرج صَلَّى على محمد ﷺ ثم يقول: «اللهم اغفر لي ذنوبي، وافتح لي باب فضلك»^(٥).
- ١٣ - وكان ﷺ إذا صلى الصبح جلس في مُصَلَّاهُ حتى تطلع الشمس يذكر الله عز وجل، ثم يصلي ركعتين^(٦).

(١) من حديث أنس عند أبي داود (٥٠٩٥)، والترمذي (٣٤٢٦) وقال: حديث حسن صحيح، والنسائي في عمل اليوم والليلة (٨٩) بسند صحيح.

(٢) من حديث سلمة بن كهيل عن كُزَيْب عن ابن عباس في مسلم (٧٦٣)، والبخاري (٧٤٥٢، ٦٢١٥، ٤٥٦٩).

(٣) من حديث عبد الله بن عمرو في سنن أبي داود (٤٦٦) بإسناد جيد.

(٤) رواه مسلم من حديث أبي حُمَيْد أو أبي أُسَيْد (٧١٣) بنحوه، وفي المسند (١٦٠٥٧) بإسناد على شرط مسلم، وأخرجه ابن حبان (٢٠٤٩)، وأبو عوانة (٤١٤/١)، وعبد الرزاق في المصنف (١٦٦٥) وغيرهم بزيادة أو نقص «فليصَلِّ وليُسَلِّمْ».

(٥) ينظر: حديث أبي حُمَيْد أو أبي أُسَيْد في صحيح مسلم (٧١٣)، وأبي داود (٤٦٥)، والنسائي (٧٢٩)، وابن ماجه (٧٧٢) وغيرهم كما في الحديث السابق.

(٦) رواه مسلم (٦٧٠) بنحوه، وأحمد عن جابر بن سمرة (٢١٠٣٧، ٢٠٨٢٠) بإسناد حسن دون أن يصلي ركعتين، وابن خزيمة (٧٥٧)، والطيالسي (٧٥٨).

١٤ - وكان ﷺ إذا أصبح يقول: «اللهم بك أصبحنا، وبك أمسينا، وبك نحيا، وبك نموت، وإليك النشور» وإذا أمسى قال: «اللهم بك أمسينا وبك أصبحنا وبك نحيا وبك نموت وإليك النشور»^(١).

١٥ - وفي لفظ مسلم عن ابن مسعود (أمسينا وأمسى الملك لله، والحمد لله، ولا إله إلا الله، وحده لا شريك له، له الملك، وله الحمد، وهو على كل شيء قدير، رب أسألك خير ما في هذه الليلة، وخير ما بعدها، وأعوذ بك من شر ما في هذه الليلة، وشر ما بعدها، رب أعوذ بك من الكسل، وسوء الكبر، رب أعوذ بك من عذاب في النار، وعذاب في القبر، وإذا أصبح قال: ذلك أيضاً: أصبحنا وأصبح الملك لله.. الخ)^(٢).

١٦ - ولما سأل أبو بكر رسول الله ﷺ أن يأمره بكلمات يقولهن في الصباح والمساء قال: قل: «اللهم فاطر السموات والأرض، عالم الغيب والشهادة، رب كل شيء ومليكه، وما لك، أشهد أن لا إله إلا أنت، أعوذ بك من شر نفسي، وشر الشيطان وشركه، وأن أقترب على نفسي سوءاً، أو أجره على مسلم، قال: إذا أصبحت وإذا أمسيت، وإذا أخذت مضجعتك»^(٣).

١٧ - وكان ﷺ إذا لبس شيئاً جديداً يقول: «اللهم لك الحمد، أنت كَسَوْتَنِي، أسألك خيره وخير ما صنع له، وأعوذ بك من شره، وشر ما صنع له»^(٤).

١٨ - وكان ﷺ إذا رجع إلى بيته قال: «الحمد لله الذي كفاني وآواني، والحمد لله الذي أطعمني وسقاني، والحمد لله الذي منّ عليّ، أسألك أن تُجيرني من النار»^(٥).

(١) من حديث أبي هريرة عند أبي داود (٥٠٦٨)، والترمذي (٣٣٨٨)، وابن ماجه (٣٨٦٨) بأسانيد صحيحة.

(٢) صحيح مسلم عن ابن مسعود برقم (٢٧٢٣).

(٣) رواه أحمد (٦٣، ٨١، ٥١) بإسناد صحيح ورجالة ثقات، وأبوداود (٥٠٦٧) والترمذي (٣٣٩٢).

(٤) من حديث أبي سعيد الخدري عند أبي داود (٤٠٢٠)، والترمذي (١٧٦٧)، والنسائي في عمل اليوم والليلة (٣٠٩)، وإسناده صحيح.

(٥) من حديث عبد الله بن عمرو بن العاص عند ابن السني (١٥٧)، وهو حديث حسن بشواهد كما في صحيح مسلم بمعناه عن أنس برقم (٢٧١٥) وعند ابن أبي شيبة والبخاري عن عبد الرحمن بن عوف.

١٩ - وكان إذا دخل الخلاء يقول: «اللهم إني أعوذ بك من الخبث والخبائث»^(١).
وإذا خرج قال «الحمد لله الذي أذهب عني الأذى وعافاني»^(٢).

٢٠ - وكان إذا وضع يده في الطعام قال: باسم الله، ويقول: إذا أكل أحدكم فليذكر اسم الله تعالى، فإذا نسي أن يذكر اسم الله في أوله فليقل: «باسم الله في أوله وآخره»^(٣).
وهكذا: فكتب الأذكار مليئة بمثل هذا في كل تصرف وكل حالة من حياة الإنسان.

مُصَادَرَةُ الدَّعْوَةِ مِنْ غَيْرِ الْمُسْلِمِينَ مِنْذُ فَجْرِ الرِّسَالَةِ:

يوجد في كل زمان ومكان من يضدّ الناس عن دين الله، ومن يقف في وجه الدعوة، ويؤذي الدعاة إلى الله تعالى، والأمثلة على ذلك قائمة مدى التاريخ، ومنها الحروب الصليبية المعروفة في السابق، والحروب الصهيونية الصليبية في العصر الحاضر.
وفي أول سورة نزلت من كتاب الله تعالى ذِكْرٌ لوقوف أول طاغية في وجه الإسلام، وصده صاحب الدعوة عن المضي في دعوته، بل ومنعه له من القيام بأداء الشعائر والعبادات، وتهيج الناس عليه، وقيامهم بالتجسس عليه لإيذائه ومنعه من العبادة، وهذه هي الحادثة الأولى في تاريخ الإسلام، وتتمثل في تصدي أبي جهل لرسول الله ﷺ لمنعه من القيام بالدعوة إلى الله تعالى، ومن عبادة ربه.

وقد استغرق هذا المثل، سورة العلق كلها، بعد الآيات الخمس الأول منها.
وكأن الله تعالى يوجّه الأنظار في باكورة الدعوة، إلى أن الإسلام سيجد من يحاربه ويقف في وجهه، ويمنع الناس من ممارسته، ويُعزّل خطاه ليحول دون وصوله إلى الناس.
وسوف أذكر هنا ما جاء في هذه الآيات من الأحاديث الصحيحة الموضحة لهذه

(١) من حديث أنس وهشيم في مسلم (٣٧٥)، وفي البخاري (٢٣٢٢، ١٤٢).

(٢) من حديث أنس في سنن ابن ماجه (٣٠١، ٣٠٠)، وبزيادة لفظ «غفرانك» في الأول عن عائشة عند أبي داود (٣٠)، والترمذي (٧)، والنسائي في عمل اليوم والليلة (٧٩)، وصحيح ابن ماجه (٢٤٤)، وصحيح أبي داود (٢٣).

(٣) من حديث أمية بن مَحْشِي الصحابي عند أبي داود (٣٧٦٨) والنسائي في عمل اليوم والليلة (٢٨٢)، وصحيح أبي داود (٣٢٠٢)، وصحيح ابن ماجه (٣٢٦٤).

المعاني، وهي تبين أسباب النزول، وتبين حماية الله تعالى للدعوة وصاحبها ﷺ:

١ - في صحيح مسلم وغيره عن أبي هريرة ؓ قال: قال أبو جهل: هل يُعَفَّر محمد وجهه بين أظهركم؟ قال: فقيل: نعم، فقال: واللات والعزى، لئن رأيته يفعل ذلك لأطأن على رقبته! أو لأعفرن وجهه في التراب، قال: فأتى رسول الله ﷺ وهو يصلي، زعم ليطأ على رقبته، قال: فما فجعهم منه إلا وهو ينكص على عقبيه، ويتقي يديه، قال: فقيل له: ما لك؟ فقال: إن بيني وبينه لخندقاً من نار، وهولاً وأجنحة، فقال: رسول الله ﷺ: «لَوْ دَنَا مِنِّي لَاخْتَطَفْتُهُ الْمَلَائِكَةُ عَضُوءاً عَضُوءاً» قال: فأنزل الله عز وجل ﴿كَلَّا إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنَافٍ﴾ (الآيات، يعني أبا جهل)^(١).

٢ - وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: كان رسول الله ﷺ يصلي عند المقام، فمر به أبو جهل بن هشام، فقال: (يا محمد، ألم أنهك عن هذا؟ وتوعده، فأغلظ له رسول الله ﷺ وانتهره، فقال: يا محمد، بأي شيء تهددني، والله إني لأكثر هذا الوادي نادياً؟ فأنزل الله ﴿فَلْيَعْنِ نَادِيَهُ﴾ قال ابن عباس: لو دعا ناديه لأخذته ملائكة العذاب من ساعته)^(٢).

٣ - وفي رواية أخرى: أن أبا جهل قال: لئن رأيت رسول الله يصلي عند الكعبة لآتيته حتى أطأ على عنقه، قال: فبلغ ذلك النبي ﷺ فقال: «لو فعل لأخذته الملائكة عياناً، ولو أن اليهود تمتوا الموت لماتوا ورأوا مقاعدهم من النار، ولو خرج الذين يباهلون رسول الله ﷺ لرجعوا لا يجدون مالا ولا أهلاً»^(٣).

(١) ينظر: صحيح مسلم برقم (٢٧٩٧)، وصحيح البخاري (٤٩٥٨)، وتفسير الطبري (١٦٥/٣٠)، وعبد الرزاق (٣٨٤/٢)، والمسند (٣٧٠/٢) (٨٨٣١)، وسنن النسائي الكبرى برقم (١١٦٨٣)، وأبونعيم في الدلائل (١٥٨)، والبيهقي في الدلائل (١٨٩/٢).

(٢) المسند (٣٢٩/١) (٣٠٤٤، ٢٣٢١) بإسناد صحيح (محققه)، وسنن الترمذي برقم (٣٣٤٩) وقال: حسن صحيح، وتفسير الطبري (١٦٤/٣٠)، وابن أبي شيبة (٢٩٨/١٤)، والطبراني (١١٩٥٠)، والبيهقي (١٩٢/٢)، وصحيح سنن الترمذي (٢٦٦٨)، والنسائي في الكبرى (١١٦٨٤).

(٣) المسند (٢٤٨/١) برقم (٢٢٢٥)، وقد أخرج البخاري إلى قوله (عياناً) (٤٩٥٨)، والترمذي (٣٣٤٩، ٣٣٤٨)، والنسائي في الكبرى (١٠٩٩٥، ١١٦٢٠، ١١٦٢١)، وعبد الرزاق (٣٨٤/٢)، والطبري (٥٣٩/٢٤)، وأبونعيم (١٥٦)، والبيهقي (١٩١/٢).

تَفْسِيرُ السُّورَةِ

مَصْنَدُ الْعِلْمِ وَمَصْنَدُ خَلْقِ الْإِنْسَانِ هُوَ اللَّهُ سُبْحَانَهُ

١ - ٥ - ﴿أَقْرَأْ^(١) بِأَسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ^(٢) خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ^(٣) أَقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ^(٤) الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ^(٥) عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾

ونمضي مع تفسير آيات سورة العلق على ضوء ما سبق من أسباب النزول والمعاني العامة:
١- في أول خطاب إلهي وجهه رب العالمين إلى النبي ﷺ فيه أمر له وللأمة بالقراءة والكتابة وطلب العلم: ﴿أَقْرَأْ﴾ يا رسولنا ما سنلقيه عليك من القرآن، مفتتحاً ومستعيناً ﴿بِأَسْمِ رَبِّكَ﴾ الذي تفرّد بالخلق كله فأوجد هذا العالم العلوي والسفلي.
واستفتح أعمالك وأقوالك كلها باسم الله، لاسيما ما ستحمله من أعباء النبوة والرسالة، وكان الناس يقبلون على اسم اللات والعزى.

وهكذا بعض الناس في عصرنا وغيره، يفتتحون أعمالهم بشعارات وطنية أو قومية أو مذهبية أو حزبية، فبين سبحانه في أول آية للوحي أن الافتتاح والاستعانة تكون باسم خالق هذا الكون، والخلق هو أدل الأوصاف على وحدانية الله تعالى، وهو أول النعم، ولذا خصه الله بالذكر. وقد ذكر الله تعالى في الآية الأولى عموم الخلق، في قوله ﴿الَّذِي خَلَقَ﴾.

٢ - ثم ذكر سبحانه في الآية التالية أحد خلق الله، وهو الإنسان، وخصه من بين سائر المخلوقات، لأنه أشرفها، وفيه يكمن العالم الأكبر، قال تعالى: ﴿الَّذِي خَلَقَ﴾ أى خلق كل شيء في هذا الكون، ثم لفت الأنظار إلى أصل هذا الإنسان: فبين أنه خلقه من قطعة دم غليظ رطب قدر الأنملة، تشبه الدودة الصغيرة، تسمى علقة، وهذه العلقة تخلق من بويضة دقيقة جداً لا ترى إلا بالمكبرات، وهي في الأصل كروية الشكل، سابحة في دم حيض المرأة، ولا تقبل التخلق إلا بعد أن تمتزج بنطفة الرجل، التي تحتوي على حيوانات صغيرة جداً لا ترى إلا بالمجهر الدقيق، ولها رأس وذنب ﴿خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ﴾.

(١) قرأ أبو جعفر بإبدال همزة ﴿أَقْرَأْ﴾ ألفا في الوصل والوقف، وكذا حمزة وقفاً، وحققها الباقون.

وهذه العلة تكونت من نطفة الرجل والمرأة بعد اختلاطهما ومضي أربعين يوماً عليها، ثم تأخذ في أطوار التكوين إلى أن تكون بشراً سوياً فسبحان الخلاق العليم. وهذا الإنسان يحتاج إلى من يدبر أمره، ويفرق بين المؤمن بخالفه والكافر به، فكانت الرسل والكتب والأوامر النواهي والجنة والنار؛ والطريق إلى معرفة ذلك، عن طريق العلم والنظر، ومعرفة القراءة والكتابة:

٣ - إقرأ - يا رسولنا - ما أنزل إليك، وامض لما أمرتك به من القراءة، فإن ربك الذي أمرك بالقراءة، كثير الإحسان، واسع الجود، ومن كرمه سبحانه أن يمنح نبيه نعمة القراءة، ويفيض عليه من علومه، مع كونه أمياً لا يقرأ ولا يكتب. والقلم نعمة عظيمة، ولولاه لم يقم دين ولم يصلح عيش، ولا دُوت العلوم، ولا ضُبطت الأخبار.

ومع وجود الكتابة فإن العلوم والآداب تبقى وتزايد، فتسمو الأفكار، وتنمو الحضارات، وتُحفظ الأديان، وتُنشر الهداية، ويخرج الناس من ظلمات الجهل إلى نور العلم ﴿إِقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ﴾.

٤ - وحين طلب جبريل من النبي ﷺ القراءة، قال: كيف أقرأ، وأنا لا أحسن القراءة ولا الكتابة؟ فأجيب بأن الذي علّم القراءة بواسطة القلم، يُعلّمك ما لم تغلم، والذي علم آدم الأسماء كلها يُعلّمك ما لم تغلم، والذي علّم الناس الكتابة بالقلم، قادر على أن يُعلّمك القراءة وأنت لا تعلم الكتابة، والذي خلق الإنسان من علة، قادر على أن يجعل الأمي معلّم البشرية، فهو سبحانه: ﴿الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ﴾ بواسطة ﴿بِالْقَلَمِ﴾.

٥ - وهو سبحانه الذي علم الإنسان من أنواع العلم والهداية والبيان ما لم يكن يعلم، فنقله من ظلمة الجهل إلى نور العلم، ﴿عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾ لقد خلق الله الإنسان من بطن أمه لا يعلم شيئاً، وجعل له السمع والبصر والفؤاد، ويسر له أسباب العلم، فعلمه القرآن وعلمه الحكمة، وعلمه بالقلم الذي تُحفظ به العلوم وتضبط به الحقوق. وكما علّم الله الخلق بواسطة الكتابة بالقلم، علّم نبيه علم الأولين والآخرين بلا واسطة، مع كونه ﷺ أمياً.

قال القرطبي: نبه تعالى على فضل علم الكتابة، لما فيها من المنافع العظيمة التي لا يحيط بها إنسان، وما دُوت العلوم ولا قُيدت الحُكم، ولا ضُبِطت أخبار الأولين ومقالاتهم، وما كُتبت كتب الله المنزلة إلا بالقلم، ولولاها ما استقامت أمور الدنيا والدين^(١).

وقد شرف الله الإنسان وميزه بالعلم، والعلم تارة يكون في الأذهان، وتارة يكون في اللسان، وتارة يكون في الكتابة بالبيان، ولا بد أن يَرَيْن العلم بالعمل، وإلا كان وبالاً على صاحبه.

وقد جمعت هذه الآيات الخمس أصول الصفات الإلهية:

١- فوضفُ الرب: يتضمن الوجود والوحدانية.

٢- ووضفُ الخلق والعلم، يقتضيان صفات الأفعال.

٣- ووضفُ ﴿الْأَكْرَمُ﴾ يتضمن صفات الكمال والتنزيه عن النقائص.

وقد كُرر فيها ألفاظ (اقرأ وخلق وعلم) مرتان.

وقُيد العلم مرة بالقلم، وذكر مرة عامّاً بدون القلم، للإشارة إلى أن العلم يكون بالتلقي والتعليم على الآخرين، ويكون بمطالعة الكتب، وللإشارة إلى أن تحصيل العلوم يعتمد على ثلاثة أمور:

الأول: الأخذ عن الآخرين عن طريق القراءة والكتابة.

والثاني: عن طريق التلقي من الأفواه بالدروس والإملاء.

والثالث: ما يتقدح في النفس، وتستنبطه العقول من العلوم والمعارف.

وكل هذا يدخل تحت قوله تعالى ﴿عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾ وقوله: ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ

اللَّهُ﴾ [البقرة: ٢٨٢].

أما العلم عن طريق الوحي فهو الذي يقول الله فيه ﴿وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُنْ تَعْلَمُ وَكَانَ

فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا﴾ [النساء: ١١٣].

وعدم معرفة القراءة والكتابة لا تحُول دون هذا العلم، ولا يوجد برهان أقوى، ولا

دليل أقطع، على فضل العلم بجميع أنواعه، من افتتاح الله تعالى كتابه، وإبتدائه وحيه

(١) تفسير القرطبي (١٩/١٢٠).

بهذه الآيات البينات.

وقد لفتت هذه الآيات الخمس - التي كانت أول ما نزل من القرآن الكريم - أنظار البشر إلى أمرين هامّين:

الأمر الأول: أهمية العلم والتعلّم، وأن القرآن هو مصدر العلم والهداية، ومنهج الحكم والتشريع.

الأمر الآخر: ذُكر مادة خلق الإنسان المكلف بهذا القرآن، والمميّز بالعلم والمعرفة، والاستدلال بذلك على وحدانية الخالق سبحانه.

فالقرآن - وهو الصفحة المقروءة - والكون - وهو الصفحة المرئية - هما أساس العلم والنظر.

والقلم هو أداة العلم، وطريق القراءة والكتابة، وعن طريق القلم والبحث والتأمل، علّم الله الإنسان ما لم يعلم.

وفي هذا العلم مناط تكريم الإنسان، وتفضيله وامتيازه على غيره من الكائنات. ومصدر العلم، ومصدر خلق الإنسان، هو الله سبحانه، وهاتان أول حقيقتان نزل بهما الوحي على رسول الله ﷺ.

كُلُّ طَافِغِيَّةٍ مَصِيرُهُ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى يُحَاسِبُهُ وَيُجَازِيهِ

٦-٨ - ﴿كَلَّا إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنَافٍ ۚ (٦) أَنْ رَآهُ (١) اسْتَغْنَى ۚ (٧) إِنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ الرُّجُوعَ ۚ﴾

وبعد نزول الآيات الخمس السابقة، انقطع الوحي لمدة أيام، قيل أربعين يوماً، ثم نزلت سورة المدثر أو المزمل، ثم فتر الوحي ونزل بعده بسورة الضحى، وكان النبي ﷺ يقوم الليل متهجّداً قبل أن تُفرض عليه الصلوات الخمس ليلة المعراج، وكان ﷺ يصلي قبل طلوع الشمس وقبل غروبها، وربما تكون حياة الصلاة آنذاك فيها بعض الاختلاف عن الصلوات الخمس التي فُرضت عليه فيما بعد، ولكنها كلها كانت تشتمل على السجود،

(١) قرأ قبل بقصر همزة ﴿رَآهُ﴾ بخلف عنه والباقون بإثبات ألف بعد الهمزة.

لقوله تعالى ﴿وَأَسْجُدْ وَاقْتَرِبْ﴾ وبعد فترة ليست طويلة نزل فيها ما سبق ذكره من القرآن. ثم نزلت بقية هذه السورة في شأن أبي جهل بن هشام، ومهدت لذلك بأن كثرة المال إن لم يصحبها الإيمان والوازع الديني، فإنها تؤدي إلى الطغيان، والفساد في الأرض، والتطاول على الناس، وذلك لأن العبد مفتقر إلى الله تعالى فيما هو أهم من المال، فهو يفتقر إلى تزكية النفس، واتعاظ الضمير، واحترام الآخرين.

ذلكم قول الله تعالى: ﴿كَلَّا إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنَّاظٍ﴾ أي حقاً إن الإنسان ليتجاوز حدود الله تعالى، فيتعاضم ويتكبر ويتمرد على الحق، إذا أبطره الغنى، ورآى نفسه صاحب مال وجاه وعشيرة، فينسى لقاء الله ولا يخاف حساباً ولا جزاءً، وقد يصل به الأمر إلى أنه قد يترك طريق الهدى ويدعو الناس إلى تركه.

فكثرة النعم تؤدي إلى هذا الخلق الذميم، إلا إذا استعملها العبد في طاعة الله تعالى وشكره وتعدى نفعه إلى غيره، ولم يترفع أو يتطاول على خلق الله تعالى، أو يستعملها في معصية الله سبحانه.

ثم بين سبحانه أن كل طاغية مصيره إلى الله تعالى، فيحاسبه ويجازيه على ما جنت يدها ﴿إِنَّ إِلَهَكُمْ رَحِيمٌ﴾ وفيه تهديد وتحذير من عاقبة الطغيان، وهو أمر عام في كل من ينطبق عليه الوصف.

والمعنى: فلا تحزن - أيها الداعية إلى الله - مما يفعله الطغاة بالإسلام وأهله، في كل زمان ومكان، فإن مرجعهم إلى الله تعالى، وسوف يغلمون أن جاههم ومالهم لن يغني عنهم من الله شيئاً ﴿إِنَّ جَهَنَّمَ كَانَتْ مِرْصَادًا ۚ لِلطَّغْيَيْنِ مَتَابًا ۚ لَّيْسِينَ فِيهَا أَحْقَابًا﴾ [النبا: ٢١ - ٢٣]. وفي الأثر: منهومان لا يشبعان: طالب علم وطالب مال. أما صاحب العلم فيزداد رضى الرحمن، وأما صاحب المال فيزداد في الطغيان، ولا يؤدي الغنى إلى الطغيان إلا إذا صحبه إثارة الدنيا على الآخرة.

لَيْسَ هُنَاكَ أَبْشَعُ مِنْ مُلَاحَقَةِ النَّاسِ فِي الْمَسَاجِدِ وَمَنْعِهِمْ مِنْ ذِكْرِ اللَّهِ

١٠، ٩ - ﴿أَرَأَيْتَ الَّذِي يَنْهَى^(١) عَبْدًا إِذَا صَلَّى^(٢)﴾

ثم ذكر سبحانه حالة مستنكرة، يعجب منها الإنسان، لما فيها من الغرابة والشناعة: أَرَأَيْتَ - أيها المخاطب - أعجب من طغيان هذا الشقي الفاجر - وهو (أبوجهل) وكل مَنْ فَعَلَ فِعْلَهُ - ممن ينهى عبداً - هو محمد ﷺ، أو ينهى غيره على مدى التاريخ - إذا صَلَّى لربه؟ أَعْلَمْتَ حالاً أعجب وأشنع من حال هذا الطاغية الأحمق، الذي يمنع الناس من إقامة شعائر ربهم؟ ومن المتفق عليه أن المراد بالناهي في هذه الآية وقت التنزيل هو أبوجهل، وأن المنهي عن الصلاة وقتها، هو محمد ﷺ، والعبرة بالعموم، فالآية تشمل كل حالة مماثلة إلى يوم الساعة.

وقد تكرر لفظ ﴿أَرَأَيْتَ﴾ مرتين بعد ذلك، والرؤية في المواضع الثلاثة ليست بَصَرِيَّة، بل هي رؤيا علمية إخبارية، بمعنى: أَعْلَمْتُ، أو أخبرني، وفي كل هذا تعجيب من كل طاغية، مُصَرِّ على الكفر، وتهديد له بسوء المصير على أعماله القبيحة.

والضمير في الآية التالية يعود على المنهي عن الصلاة، وهو النبي ﷺ وكل من ينهى عن الصلاة بعده إلى يوم القيامة.

والضمير في الآية التي بعدها يعود على الناهي عن الصلاة، وهو أبوجهل في وقت التنزيل، وكل طاغية مثله إلى يوم القيامة، وقرينة المقام تقضي برجوع الضمائر إلى مراجعها المذكورة.

(١) قرأ الأصهباني وقالون وأبوجعفر بتسهيل الهمزة الثانية من ﴿أَرَأَيْتَ﴾ وللأزرق التسهيل والإبدال حرف مد مشبع وصلأ، وليس له عند الوقف إلا التسهيل، وقرأ الكسائي بحذف الهمزة الثانية، ولحمزة وقفاً التسهيل بين بين، وهذا في المواضع الثلاثة.

(٢) ترك المصحف الدمشقي عَدَّ (ينهى) وعدّها آية جمهور أهل العدد.

مَا أَعْجَبَ أَنْ يَنْهَى الْإِنْسَانَ غَيْرَهُ عَنْ طَرِيقِ الْهُدَى أَوِ الْأَمْرِ بِالْمَعْرُوفِ

١٢، ١١ - ﴿أَرَأَيْتَ إِنْ كَانَ عَلَى الْهُدَى ۖ ﴿١١﴾ أَوْ أَمَرَ بِالتَّقْوَى ۖ ﴿١٢﴾﴾

وهكذا وجه الله تعالى خطاباً ثانياً للنبي ﷺ يقول له: أخبرني - أيها الرسول - إن كان هذا العبد المصلي، على الهدى، متبعاً للحق، صالحاً، مهتدياً، مستقيماً في قوله وفعله، أينها أحد عن الهدى؟ هذا أمر عجيب!

أو إن كان هذا العبد يأمر غيره بالتقوى، ويدعوه إلى التوحيد والإخلاص والرشاد، فهل ينهيه أحد عن الأمر بالتقوى؟ كيف يزجره وينهاه؟ أينهى عبداً مهتدياً مطيعاً منياً إلى ربه، يدعو الناس إلى الخير؟ ما أعجب هذا؟ إن النهي عن الصلاة وعن طريق الاستقامة محادة لله والرسول.

مُرَاقَبَةُ اللَّهِ تَعَالَى لِمَنْ كَذَبَ وَأَعْرَضَ، وَمُعَاقِبَتُهُ بِمَا يَسْتَحِقُّ

١٤، ١٣ - ﴿أَرَأَيْتَ إِنْ كَذَّبَ وَتَوَلَّى ۖ ﴿١٣﴾ أَلَيَعْلَمُ أَنَّ اللَّهَ يَرَى ۖ ﴿١٤﴾﴾

أعلمني - أيها الرسول - إن كذب هذا الناهي بالقرآن، وبما يدعى إليه، فأعرض عن الإيمان بالله والرسول؟ ألا يعلم هذا الناهي أن الله يراه، وأنه سيحاسبه ويعاقبه على ما جنت يداة؟ إن هذا أعجب من سابقه.

والمعنى: أرايت الذي ينهى عبداً إذا صلى، وهو على الهدى، أمر بالتقوى، والناهى مكذب، معرض عن الإيمان، لا يخاف ربه، ولا يخشى اطلاعه عليه؟ أي شيء أعجب من هذا؟ ألم يعلم هذا الشقي، أن الله تعالى مطلع على أحواله، مراقب لأفعاله، وسيجزيه عليها، أرايت إن فعل ذلك، أفلا أرشده عقله إلى أن خالق هذا الكون سيعاقبه بما يستحق.

الْوَعِيدُ الشَّدِيدُ لِمَنْ صَدَّ النَّاسَ عَنِ دِينِ اللَّهِ

١٦، ١٥ - ﴿كَلَّا لَئِنْ لَمْ يَنْتَهِ ۖ ﴿١٥﴾ لَنَسْفَعًا بِالنَّاصِيَةِ ﴿١٦﴾ نَاصِيَةٍ كَذِبَةٍ خَاطِئَةٍ ﴿١٧﴾﴾

(١) عد الحجازيون (المدني الأول والثاني والمكي) ﴿لَنْ يَنْتَهِ﴾ آية، ولم يعدوها غيرهم.
(٢) قرأ أبو جعفر بإبدال همزة ﴿خَاطِئَةٍ﴾ ياء وصلًا ووقفًا، وكذا حمزة وقفًا، وأمالها الكسائي وقفًا وحمزة بخلف عنه.

ثم يأتي الوعيد الرادع لمن يفعل ذلك، فيصد الناس عن دين الله، ويحول بينهم وبين إقامة شعائر الله ﴿كَلَّا﴾ أي ليس الأمر كما يزعم هذا الفاجر الشقي وأمثاله ﴿لَئِنْ لَزَبْتَهُ﴾ ويرجع عن أذاه، ويكف عما هو عليه من الكفر والضلال، لنأخذ بناصيته أخذاً قوياً شديداً ونطرحه في النار.

والناصية هي مُقدّم شعر الرأس (الجبهة) وفي أخذ الإنسان بناصيته تمكّن من عدم الفرار والانفلات، وهو منتهى الإذلال، ويكتفى به عن شدة العذاب.

والسفع: هو الأخذ بعنف، والجذب بشدة، على سبيل الإذلال والإهانة.

ثم وصف الله سبحانه صاحب هذه الناصية، بأنها ناصية كاذبة في أقوالها، خاطئة في أفعالها، فصاحب هذه الناصية فاجر كاذب، كثير الذنوب والإجرام.

والخاطيء: هو الذي يفعل الذنب بدون قصد، أي لئن لم ينته هذا الفاجر المغرور عن كفره وإيذائه لصاحب الدعوة، لئذلته إذلالاً شديداً، ولنسحبته إلى النار من ناصيته التي طالما كذبت بالحق، وتعمدت الكفر، وداومت عليه.

وخُصّت الناصية بالذكر: لأنها جماع الفكر والتدبير، والكذب والخطيئة صفة لصاحب الناصية وليست صفة للناصية.

الْتَهْكُمُ بِكُلِّ مَفْرُورٍ وَنَهَائِيَّتُهُ الْوُخِيمَةُ

١٨، ١٧ - ﴿فَلْيَدْعُ نَادِيَهُ﴾ ﴿١٧﴾ ﴿سَدْعُ الزَّانِيَةِ﴾

وعندما يؤخذ بالكافر إلى النار، قد يخطر له أن يستنجد بأهله وعشيرته وصحبه، ومن يعتزّ بهم ويدعوهم لإيذاء صاحب الدعوة.

فليُخَضِرْ هذا الطاغية أهل ناديه الذين يستنصر بهم، وهذا على وجه التعجيز.

وكان أبو جهل قد هدد بأن يدعو ناديه وأهله وعشيرته ليسلطهم على النبي ﷺ.

والنادي: اسم للمكان الذي يجتمع فيه القوم، ومن ذلك دار الندوة التي اتخذها

قُصَيّ حول المسجد الحرام، لاجتماع قريش يتشاورون في مهامهم، وهذه الدار دخلت

في توسعة المسجد الحرام حالياً، إذا فليدع أبو جهل ناديه لإيذاء النبي ﷺ.

أما نحن من جانبنا فسنمدع زبانية جهنم، الموكّلون بعقاب الكفار، وهم ملائكة غلاظ شداد، لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون، فلينظر أي الفريقين أقوى وأقدر؟ وفي هذا تهكم واستخفاف بهذا المغرور، وبكل من يستنجد به، ولو دعا نادية لأخذته ملائكة العذاب من فوره، وقد سمع أبوجهل ورؤساء مكة، هذا التحدي وهذا التعجيز، ولم يصنعوا شيئاً!

هذا حال الناهي عن الطاعة وما توعدده الله به من عقوبة، أما حال المنهى عند الطاعة فقد أمره الله ألا يستمع لهذا الناهي ولا يستجيب دعوته.

الْأَمْرُ بِالثَّبَاتِ عَلَى الْإِيمَانِ

١٩ - ﴿كَلَّا لَا تُطِعْهُ وَاسْجُدْ وَاقْتَرِبْ﴾

وتُختم السورة بتوجيه المؤمن الطائع بالاستمرار على الطاعة، والثبات على الإيمان والإستمرار في دعوته إلى الله تعالى، ﴿كَلَّا﴾ ليس الأمر على ما يظن أبوجهل وأمثاله، فإنه ليس في وسعه أن ينال محمداً ﷺ بشيء من السوء، فلا تطعه فيما دعاك إليه - يا رسولنا - مِنْ تَرْكِ الصلاة، وامنض في طريقك إلى الله، وإلى الدعوة إليه، وواظب على العبادة والطاعة، ولا تَلْتَفِتْ إلى نهيه وكلامه، واسجد لربك، فإنهم أعجز من أن ينالوا منك شيئاً، والله تعالى حافظك وناصرك، وهو يعصمك من الناس، وداوم على التقرب إلى الله تعالى بالسجود، فإن أقرب ما يكون العبد من ربه وهو ساجد، واجتهد في القرب إلى الله تعالى بالصلاة ﴿وَمَنْ آتَلَ فَاَسْجُدْ لَهُ، وَسَبِّحْهُ لَيْلًا طَوِيلًا﴾ [الإنسان: ٢٦].

وهذه دعوة إلى كل مؤمن مطيع بالله والرسول، أن يزداد قرباً من الله تعالى. وهنا سجدة تلاوة مسنونة للقارئ والمستمع، كما جاء عن أبي هريرة ؓ قال: سجدنا مع النبي ﷺ في ﴿إِذَا السَّمَاءُ انشَقَّتْ﴾ و﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ﴾^(١).

(١) صحيح مسلم برقم (٥٧٨) وصحيح البخاري (١٠٧٤).

وعن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «أقرب ما يكون العبد من ربه وهو ساجد، فأكثروا الدعاء»^(١).

ومن المفسرين من فرق بين الضميرين في قوله: ﴿وَأَسْجُدْ وَاقْتَرِبْ﴾ فقال: واسجد - يا محمد - واقترِب - يا أبا جهل - من النار، تهديداً له^(٢).

تم تفسير (سورة الحلق) والله الحمد والمنة

(١) صحيح مسلم برقم (٤٨٢).

(٢) قاله زيد بن أسلم، كما في تفسير زاد المسير (١٨٠/٩)، وابن وهب كما في تفسير ابن عطية (٥٠٣/٥) وغيرهما.

تَفْسِيرُ سُورَةِ الْقَدْرِ (٩٧)

مُقَدِّمَةُ السُّورَةِ

١ - (سورة القدر) هي السورة السابعة والتسعون في ترتيب المصحف، والخامسة والعشرون في ترتيب النزول، نزلت بعد (سورة عبس) وقبل (سورة الشمس)، على القول بأنها سورة مكية.

وبعد سورة المطففين وقبل (سورة البقرة)، على القول بأنها سورة مدنية. والجمهور على أنها مكية، وقال الواقدي: هي أول سورة نزلت بالمدينة. وسورة القدر خمس آيات في العدد المدني والبصري والكوفي، وست آيات في العدد المكي والشامي. وهي ثلاثون كلمة، ومئة واثنان عشر حرفاً.

٢ - وهي السورة التي تتحدث عن ليلة الاتصال بين الأرض والسماء، وتتناول الحدث الجليل الذي لم تشهد البشرية مثله، وهو نزول القرآن على خاتم النبيين ﷺ. وتشير السورة إلى الفيوضات الإلهية التي تتجلى في هذه الليلة المباركة من نزول الملائكة، وعلى رأسهم أمين الوحي جبريل عليه السلام، وتقرر أنها ليلة سلام وأمان إلى طلوع الفجر، فهي الليلة التي يتم فيها تقدير الأمور، وتدبير أحوال العباد من كل عام، بإيجادها في أيدي الملائكة الموكله بها، وإظهارها لهم، ومن عظيم قدر هذه الليلة أنها أفضل عند الله تعالى من ألف شهر ليس فيها ليلة القدر.

وموضوع السورة: هو نزول القرآن الكريم في هذه الليلة المباركة، وبيان منزلتها وفضلها على سائر الليالي، وأن الملائكة تنزل فيها بالخيرات والرحمات وعلى رأسهم جبريل عليه السلام، وأنها ليلة سلام وأمان حتى مطلع الفجر.

في فضل ليلة القدر وأحيائها بالعبادة:

ورد في فضل ليلة القدر - فيما اطلعت عليه - اثنان وعشرون حديثاً، منها ما جاء:

أ - عن أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «من قام ليلة القدر إيماناً واحتساباً غفر له ما تقدم من ذنبه»^(١).

ب - وعنه ﷺ أنه: لما حضر رمضان قال رسول الله ﷺ: «قد جاءكم شهر رمضان، شهر مبارك، افترض الله عليكم صيامه، تفتح فيه أبواب الجنة، وتغلق فيه أبواب الجحيم، وتغلّ فيه الشياطين، فيه ليلة خير من ألف شهر، من حُرِم خيرها فقد حُرِم»^(٢).

ج - وعن عائشة رضي الله عنها قالت: يا رسول الله ، إن وافقت ليلة القدر فما أدعو، قال: قل: «اللهم إنك عفو تحب العفو، فاعف عني»^(٣).

د - وكان ﷺ يجاور العشر الآخر من رمضان، ويقول: «تحرّوا ليلة القدر في الوتر من العشر الآخر من شهر رمضان»^(٤) والمجاورة هي الاعتكاف في المسجد للطاعة والعبادة.

هـ - وكان ﷺ إذا دخل العشر الآخر، أحيا الليل، وأيقظ أهله، وجدّ، وشد المئزر^(٥).

(١) صحيح البخاري برقم (٣٥، ١٩٠١)، وصحيح مسلم برقم (٧٦٠)، والبيهقي (٣٠٦/٤).

(٢) رواه أحمد (٢٣٠/٢) برقم (٩٤٩٧، ٧١٤٨)، وهو حديث صحيح، وإسناد رجاله ثقات رجال الشيخين (محققو المسند)، وسنن النسائي (١٢٩/٤) برقم (٢١٠٥)، وصححه الألباني في صحيح سنن الترمذي (١٩٩٢)، وهو عند ابن أبي شيبة (١/٣)، وأخرجه عبدالرزاق (٨٣٨٣)، وابن ماجه (١٦٤٢)، وابن خزيمة (١٨٨٣) وغيرهم.

(٣) رواه أحمد (٢٥٣٨٤، ٢٥٤٩٥) بإسناد صحيح ورجاله ثقات رجال الشيخين (محققو المسند)، وأخرجه البيهقي في الشعب (٣٧٠٢)، وسنن الترمذي (٣٥١٣)، وسنن النسائي الكبرى برقم (١١٦٢٤، ٧٦٦٥)، وابن ماجه (٣٨٥٠).

(٤) من حديث عائشة في صحيح البخاري برقم (٢٠١٧، ٢٠٢٠)، وصحيح مسلم برقم (١١٦٩)، والمسند (٢٤٢٣٣، ٢٤٢٩٢)، والترمذي (٧٩٢)، وابن أبي شيبة (٥١١/٢).

(٥) من حديث عائشة في صحيح البخاري برقم (٢٠٢٤)، وصحيح مسلم برقم (١١٧٤)، والمسند (٢٤١٣١)، وابن حبان (٣٢١)، وأبوداود (١٣٧٦)، وابن ماجه (١٧٦٨)، وابن أبي شيبة (٧٧/٣).

- و - وكان ﷺ يجتهد في العشر ما لا يجتهد في غيرها^(١).
- ز - وعن أبي هريرة ؓ أيضاً أن النبي ﷺ قال: «من صام رمضان إيماناً واحتساباً غفر له ما تقدم من ذنبه، ومن قام ليلة القدر إيماناً واحتساباً غفر له ما تقدم من ذنبه»^(٢).
- ح - وكان ﷺ يعتكف العشر الأواخر من رمضان حتى توفاه الله، ثم اعتكف أزواجه من بعده^(٣).

مما ورد في تعيين ليلة القدر:

- أ - عن ابن عمر رضي الله عنهما أن رجلاً من أصحاب النبي ﷺ أُرُوا ليلة القدر في المنام، في السبع الأواخر، فقال ﷺ: «أرى رؤياكم قد تواطأت في السبع الأواخر، فمن كان متحريها فليتحرها في السبع الأواخر»^(٤).
- ب - وفي لفظ لابن عمر أيضاً أن رسول الله ﷺ قال: «إن ليلة القدر في السبع الأواخر»^(٥).
- ت - وعن ابن سلمة قال: سألت أباسعيد - وكان لي صديقاً - فقال: اعتكفنا مع النبي ﷺ العشر الأوسط من رمضان، فخرج ليلة عشرين فخطبنا، وقال: «إني أريت ليلة القدر، ثم أنسيها - أو نسيها - فالتمسوها في العشر الأواخر من الوتر، وإني أريت أنني أسجد في ماء وطين، فمن اعتكف معي فليرجع، فرجعنا، وما نرى في السماء قزعة، فجاءت

(١) صحيح مسلم برقم (١١٧٥) عن عائشة، وابن أبي شيبة (٥١٥/٢)، والنسائي في الكبرى (٣٣٧٦)، وابن ماجه (١٧٦٧)، والترمذي (٧٩٦)، والمسند (٢٤٩١٣).

(٢) صحيح البخاري برقم (٢٠١٤، ٣٥)، ومسلم (٧٦٠)، والبيهقي (٣٠٦/٤).

(٣) من حديث عائشة في البخاري برقم (٢٠٢٦)، ومسلم برقم (١١٧٢).

(٤) صحيح البخاري برقم (٢٠١٥، ١١٥٨)، وصحيح مسلم برقم (١١٦٥)، والموطأ (٣٢١/١)، والبيهقي (٣١٠/٤)، والمسند (٤٤٩٩)، وابن حبان (٣٦٧٥).

(٥) مسلم (١١٦٥، ٢٠٦)، وأبو داود (١٣٨٥)، والنسائي في الكبرى (٣٣٨٦)، والمسند (٤٨٠٨)، وابن حبان (٣٦٨١).

سحابة، فَمَطَرْتُ حتى سال سقف المسجد، وكان من جريد النخل، وأقيمت الصلاة، **سورة القدر**: في تعيين ليلة القدر في الماء والطين، حتى رأيت أثر الطين في جبهته»^(١).

ث - وفي رواية عند مسلم وغيره أن أبا سعيد الخدري رضي الله عنه قال: (اعتكف رسول الله ﷺ في العشر الأول من شهر رمضان، واعتكفنا معه، فأتاه جبريل فقال: إن الذي تطلب أمامك، فاعتكف العشر الأوسط، واعتكفنا معه، فأتاه جبريل فقال: إن الذي تطلب أمامك، ثم قام النبي ﷺ خطيباً صبيحة عشرين من رمضان، فقال: «من اعتكف معي فليرجع، فإنني رأيت ليلة القدر، وإنني أنسيتها، وإنها في العشر الأواخر في وتر، وإنني رأيت كأنني أسجد في ماء وطين» - وكان سقف المسجد جريداً من النخل - وما نرى في السماء شيئاً، فجاءت قزعة فَمَطَرْنَا، فصلى بنا النبي ﷺ حتى رأيت أثر الماء والطين على جبهة رسول الله ﷺ تصديق رؤياه)^(٢).

ج - وفي لفظ (في صبح إحدى وعشرين) بدل (ليلة عشرين).
قال أبو سعيد الخدري (بَصُرْتُ عينا رسول الله ﷺ على جبينه وأنفه أثر الماء والطين من صبح ليلة إحدى وعشرين)^(٣)

ح - وفي سنن الترمذي وغيره أن زَرَّ بن حُبَيْش قال لأبِي بن كعب: إِنَّ أَخَاكَ عبد الله ابن مسعود يقول: من يقيم ليلة الحول يُصَبِّبُ ليلة القدر، فقال: يغفر الله لأبي عبد الرحمن، لقد علم أنها في العشر الأواخر من رمضان، وأنها ليلة سبع وعشرين، ولكنه أراد ألا يتكل الناس، ثم حلف لا يستثنى أنها ليلة سبع وعشرين، قلت له: بأي شيء تقول ذلك

(١) صحيح البخاري برقم (٢٠١٦)، وفي صحيح مسلم برقم (١١٦٧).

(٢) صحيح مسلم برقم (١١٦٧)، وصحيح البخاري برقم (٨٣٦، ٨١٣، ٦٦٩)، والمسند (١١٠٣٤)، والموطأ (٣١٩/١)، وابن ماجه (١٧٧٥)، وابن أبي شيبة (٧٦/٣).

(٣) ينظر: البخاري (٤٠٢٠، ٢٠١٦)، ومسلم (٢١٦-٢١٣)، وأبوداود (١٣٨٢)، وابن ماجه (١٧٧٥)، والنسائي في الكبرى (٦٨٦)، والمسند (١١٠٣٤)، وابن حبان (٣٦٨٤).

يا أبا المنذر؟ قال: بالآية التي أخبرنا رسول الله ﷺ أو بالعلامة: أن الشمس تطلُع يومئذ لا شعاع لها^(١).

خ - وعن ابن عمر رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال: «التمسوها في العشر الأواخر من رمضان»^(٢).

د - وعن معاوية رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «التمسوا ليلة القدر آخر ليلة من رمضان»^(٣).

ذ - وعن ابن عمر أن رسول الله ﷺ قال: «التمسوا ليلة القدر، ليلة سبع وعشرين»^(٤).

ر - وعن ابن عباس رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال: «التمسوها في العشر الأواخر من رمضان، ليلة القدر، في تاسعة تبقى، في سابعة تبقى، في خامسة تبقى»^(٥).

ز - وعن عبد الله بن أنيس أنه سئل عن ليلة القدر فقال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «التمسوها الليلة» وكانت الليلة : ليلة ثلاث وعشرين^(٦).

س - وعن عبادة بن الصامت رضي الله عنه قال: خرج رسول الله ﷺ ليخبرنا بليلة القدر، فتلاحى رجلان من المسلمين، فقال: «خرجت لأخبركم بليلة القدر، فتلاحى فلان وفلان، فزُفِعَتْ، وعسى أن يكون خيراً لكم، فالتمسوها في التاسعة والسابعة والخامسة»^(٧).

(١) قال أبو عيسى: هذا حديث حسن صحيح، وصححه الألباني في صحيح سنن الترمذي برقم (٢٣٥١)، وأخرجه ابن أبي شيبة (٧٦/٣)، والمسند (٢١١٩٠، ٢١٢٠٩)، ومسلم (٧٦٢)، وأبوداود (١٣٧٨)، والنسائي في الكبرى (٣٤٠٨، ٣٤٠٦)، وابن حبان (٣٦٨٩)، والبيهقي (٣١٢/٤).

(٢) ابن أبي شيبة (٥١١/٢)، وهو عند مسلم (١١٦٥) وهذا لفظه.

(٣) ينظر: صحيح ابن خزيمة (٢١٨٩)، ومحمد بن نصر (ص ١٠٦)، وقال الألباني: حديث صحيح وهو في صحيح الجامع (١٢٥١).

(٤) المسند (٤٨٠٨) قال محققوه: إسناده صحيح على شرط الشيخين، وأخرجه عبد بن حميد (٧٩١) منتخب.

(٥) صحيح البخاري برقم (٢٠٢٢، ٢٠٢١)، وأبوداود (١٣٨١)، والبيهقي (٣٦٨٠).

(٦) ينظر: صحيح مسلم (١١٦٨)، وابن خزيمة (٢١٨٥)، والمسند (١٦٠٤٤-١٦٠٤٦)، وابن أبي شيبة (٥١٤/٢)، وبنحوه عند مالك (٣٢٠/١)، والبيهقي في الشعب (٣٦٧٥).

(٧) صحيح البخاري برقم (٤٩، ٢٠٢٣، ٦٠٤٩)، والمسند (٣٧، ٣٤٠)، وابن أبي شيبة (٥١٤/٢)، والبيهقي (٣١١/٤)، وفي الشعب (٣٦٧٩)، والطالسي (٥٧٧) بإسناد صحيح.

والتلاحي هو الخصام والتزاع.

سورة القدر: في تعيين ليلة القدر العبد ليحرم الرزق بالذنب يصيبه^(١).

وقوله ﷺ: (فرفعت) أي رفع تعيين وقتها، لا أنها رُفعت بالكلية.

وقوله ﷺ: «وعسى أن يكون خيراً لكم» لأنها إذا كانت غير مُعَيَّنة اجتهد الناس في

الطاعة، لعلهم يصادفونها.

وعلى هذا: فليلة القدر في العشر الأواخر من رمضان، وهي في ليالي الوتر منه

أقرب، وفي ليلة السابع والعشرين أرجح، وعليه أقسم أبي بن كعب كما في صحيح

مسلم وغيره^(٢).

ولكن ليلة السابع والعشرين ليست واحدة في جميع بلاد العالم، نتيجة اختلاف طلوع

القمر وغيابه، فإن مطالع الهلال مختلفة، لاسيما بين البلاد المتباعدة، مختلفة الأطوال.

وعليه: فإن ليلة القدر ليست ليلة معينة مطردة في كل السنين، وفي كل البلاد، بل هي

تتنقل من عام إلى عام، ومن بلد إلى بلد، فقد تكون في عام ليلة واحد وعشرين من

رمضان، وفي عام آخر تكون ليلة ثلاث وعشرين، وفي عام ثالث تكون ليلة تسع

وعشرين، وهكذا، وقد تكون في ليالي الشفع من العشر الأواخر أيضاً.

كما في الأثر عن أبي سعيد وبلال (ليلة القدر ليلة أربع وعشرين)^(٣).

(١) المسند (٢٢٣٨٦، ٢٢٤٣٨) بإسناد ضعيف لأن فيه عبدالله بن أبي الجعد، متكلم فيه، وابن ماجه

(٤٠٢٢، ٩٠)، وابن حبان (٨٧٢)، وفي إسناده ضعف، وقد ورد بأطول من هذا بزيادة «ولا يرد القدر إلا

الدعاء ولا يزيد في العمر إلا البر» وإسناده حسن دون هذه الجملة.

(٢) صحيح مسلم برقم (٧٦٢)، والمسند (٢١١٩٠)، وأبوداود (١٣٧٨)، والترمذي (٧٩٣)، والنسائي في

الكبرى (٣٤٠٦).

(٣) مسند الطيالسي برقم (٢١٦٧) عن أبي سعيد مرفوعاً، وفي الطبراني (١١٠٢)، والمسند (١٢/٦) عن بلال

برقم (٢٣٨٩٠) وإسناده ضعيف، لأن فيه ابن لهيعة.

ولعل ليلة القدر التي نزل فيها القرآن على النبي ﷺ كانت ليلة أربع وعشرين من شهر رمضان:

كما جاء عن واثلة بن الأسقع أن النبي ﷺ قال: «أُنزلت صحف إبراهيم في ثلاث مَضَيْن من رمضان، وأنزل إنجيل عيسى في ثلاث عشرة ليلة مضت من رمضان، وأنزل زبور داود في ثماني عشرة ليلة مضت من رمضان، وأنزل سورة القدر: مناسبة السورة لما قبلها الرابعة والعشرين، لست بّقين»^(١).

وإذا كان القرآن قد نزل في ثلاث وعشرين سنة، فإن صحف إبراهيم، والتوراة والإنجيل والزبور، نزل كل منها على النبي الذي أنزلت عليه جملة واحدة.

﴿كَذَلِكَ إِنُنَّيْتَهُ بِهٖ فُوَادَكَ وَرَزَّلْنَاهُ تَرْيَلًا﴾ [الفرقان: ٣٢].

مناسبة السورة لما قبلها:

سورة العلق تسع عشرة آية، وسورة البينة ثماني آيات، وقد وُضعت بينهما سورة القدر، وهي خمس آيات، وكأن العلة في ذلك هي: عَوْدُ الضمير في ﴿أَنْزَلْنَاهُ﴾ إلى القرآن الذي ابتدأ نزوله بسورة العلق، ولذلك فقد بدأت سورة القدر بضمير العظمة في ﴿أَنْزَلْنَاهُ﴾ واستغني به عن الاسم الظاهر، إشارة إلى أن القرآن حاضر في الذهن، سبق ذكره في أول سورة نزلت، بحيث لا يحتاج إلى إعادة.



(١) صححه الألباني في السلسلة الصحيحة برقم (١٥٧٥)، وصححه الجامع الصغير برقم (١٥٠٩)، وصححه البنا في الفتح الرباني عن الإمام أحمد (٤٦/١٨)، وهو في المسند (١٦٩٨٤)، وقال محققوه: حديث ضعيف، تفرد به عمران القطان، وهو مما لا يحتمل تفرده، قلنا وبقية رجال الإسناد ثقات رجال الشيخين، قلت: إن عمران القطان قال عنه أحمد وابن معين: صالح الحديث، وقال عنه البخاري: صدوق يهيم، فلعله كما قال الشيخ الألباني والبنا، وأخرجه الطبراني في الكبير (١٨٥/٢٢)، وفي الأوسط (٣٧٥٢)، والبيهقي في الشعب (٢٢٤٨)، وفي السنن (١٨٨/٩)، والأسماء والصفات (ص ٢٣٣)، وابن عساكر وغيرهم.

تَفْسِيرُ السُّورَةِ

ابْتِدَاءُ نُزُولِ الْقُرْآنِ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ

٢٠١- ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ ﴿١﴾ وَمَا أَدْرَاكَ مَا لَيْلَةُ الْقَدْرِ ﴿٢﴾﴾

إنا نحن أنزلنا القرآن المعجز على محمد ﷺ في ليلة الفضل والشرف، وابتدأنا هذا النزول بالآيات الخمس الأول من سورة العلق، والآية صريحة في أن هذا النزول كان ليلاً، وقد كان تعبد النبي ﷺ في غار حراء ليلاً، فكان ﷺ يتحنث الليالي ذوات العدد. وقد ابتدأ نزول القرآن في ليلة القدر، واستمر ينزل حسب الحوادث والوقائع والأحوال ثلاثاً وعشرين عاماً هي مدة الرسالة الخاتمة.

وقد جاء ذكر ليلة القدر هنا مُبْهِمًا، لَا يُدْرَى أَيُّ لَيْلَةٍ هِيَ، وجاء ذكرها في سورة الدخان: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ مُبَرَّكَةٍ﴾ [الدخان: ٣] فوصفت بأنها ليلة مباركة، فيها يُفْرَق كل أمر حكيم ويُتَبَرَم، حيث يُقَدَّر فيها أقدار الأفراد والأمم والشعوب من العام المقبل ﴿فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ﴾ [الدخان: ٤].

ولم تحدّد الآية، في أي ليلة هي، ليلة القدر، ولا في أي شهر؟ وجاءت آية سورة البقرة ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنْزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِّنَ الْهُدَىٰ وَالْفُرْقَانِ﴾ [البقرة: ١٨٥]. فحدّدت أنها ليلة القدر وهي الليلة المباركة، وهي في شهر رمضان. إذاً فليلة القدر في شهر رمضان، وجاءت الأحاديث لتبين أنها في العشر الأواخر من شهر رمضان.

وسميت ليلة القدر: لأن فيها تقدير وتدبير أمور الخلق والرزق والآجال، من حيث: الإحياء والإماتة، والشقاء والسعادة، والحوادث والنوازل، والفقر والغنى، والصحة والمرض، والنصر والهزيمة.. الخ، ويكون ذلك بإظهار هذه الأمور إلى الملائكة الموكله بالقيام بها من العام القادم.

فاسمها مشتق من الشرف وعِظَمَ القدر ورفعة الشأن، أو مشتق من التقدير، لأن الأمور تُقدَّر فيها:

الحكمة في إخفائها:

١- وقد أخفى الله تعالى ليلة القدر في شهر رمضان، ليجتهد الناس في طلبها بإحياء الليالي التي هي مظنة وقوعها.

٢- كما أخفى سبحانه اسمه الأعظم في كتابه، ليقرأ كله.

٣- وأخفى ساعة الإجابة في يوم الجمعة، ليدعى فيه كله.

٤- وأخفى عمر الإنسان في الأيام، كي يموت العبد على الطاعة، ويجتهد في عمره كله.

٥- وأخفى قيام الساعة في الأيام، ليستمر العبد في العمل لها ما بقي حياً.

٦- وأخفى الصلاة الوسطى في سائر الصلوات ليجتهد المسلم في طلبها، وهكذا.

وليست ليلة القدر (جِزْم) يُحَسَّ، ولا لها نور يظهر من نافذة، كما يزعم بعض العامة أنها شيء محسوس أو ملموس، فقد يصادفها العبد متعبداً، ويكتب من أهلها، وهو لا يشعر بذلك. وجاء في الأحاديث أن لها علامات تعرف بها:

منها: أن الشمس تطلع في صبيحة يومها بيضاء نقية، ليس لها شعاع، لأن أنوار الملائكة تتلاقى مع أشعة الشمس، فتحدث فيها بياض الضوء^(١).

وفي حديث ابن عباس رضي الله عنهما أنها (ليلة سمحة طلقة، لا حارة ولا باردة، تُضَبِّح الشمس يومها حمراء ضعيفة)^(٢).

وفي حديث واثلة بن الأسقع أنها (ليلة بلجة، لا حارة ولا باردة، ولا يرمى فيها بنجم)^(٣).

(١) ينظر: صحيح مسلم برقم (٧٦٢)، وأبوداود (١٣٧٨)، والترمذي (٣٣٥١)، والنسائي في الكبرى (٣٣٩٢)، والمسنَد (٢١١٩٠) حديث صحيح بإسناد حسن، وابن حبان (٣٦٨٩).

(٢) صحيح ابن خزيمة برقم (٢١٩٢) بتحقيق الأعظمي، ومسنَد الطيالسي برقم (٢١٦٧)، والبيهقي (٣٦٩٣)، ومحمد بن نصر (ص ١٠٨).

(٣) الطبراني في الكبير بإسناد حسن مجمع الزوائد (١٧٩/٣).

أي أنه لا يُرمى فيها بالشهب، ولا يكون فيها شياطين، وهي ليلة مضيئة ساكنة يهدأ فيها كل شيء.

هذا: ونزول القرآن في ليلة القدر معناه:

كما قيل إنه نزل جملة واحدة من اللوح المحفوظ إلى السماء الدنيا في ليلة القدر، وُضع في بيت العزة - كما قيل - ثم نزل به جبريل على النبي ﷺ نجوماً مفزاً، حسب الوقائع والحوادث والأحوال، في ثلاث وعشرين سنة.

عن سعيد بن جبير قال: أنزل القرآن في ليلة القدر جملة واحدة إلى سماء الدنيا، كان بموقع النجوم، فكان الله سبحانه ينزله على رسوله ﷺ بعضه في إثر بعض. قال عز وجل ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً كَذَلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلاً﴾^(١) [الفرقان: ٣٢].

وقال ابن عباس: نزل القرآن كله جملة واحدة في ليلة القدر في رمضان إلى السماء الدنيا، فكان الله تعالى إذا أراد أن يُحدِّث في الأرض شيئاً أنزله منه حتى جمعه^(٢) قلت: نزول القرآن من اللوح المحفوظ إلى ما يسمى (بيت العزة) في السماء الدنيا، هذا القول موقوف على ابن عباس، ومن ذلك ما قال الشعبي: أن القرآن ابتدأ نزوله في ليلة القدر، فكلما أراد الله تعالى إنزال شيء منه تكلم سبحانه بما يريد إنزاله فيسمعه جبريل، ثم ينزل به على محمد ﷺ.

وكان ابتداء ذلك أيضاً بنزول أول سورة العلق على النبي ﷺ في الليلة نفسها. واللوحة المحفوظ فيه كل ما هو كائن وما سيكون إلى يوم القيامة، ومن ذلك القرآن الكريم، فالقرآن موجود في اللوح المحفوظ ثم ينزل به جبريل منجماً.

(١) المستدرك (٢/٥٣٠)، الحاكم: حديث صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه، وأخرجه البزار في الزوائد (٢٢٩٠)، والطبراني (١٢٣٨٢)، وقال ابن حجر في الفتح (٤/٩)، إسناده صحيح، وعزاه لابن أبي شبة والبيهقي في دلائل النبوة.

(٢) ينظر: الطبري (٣/١٩٠)، وابن أبي حاتم (١/٣١٠) (١٦٥٠)، والحاكم (٢/٢٢٢)، والبيهقي في الدلائل (٧/١٣١).

ثم فخم سبحانه من شأن ليلة القدر، فقال: وما أعلمك يا رسولنا ما ليلة القدر والشرف، وفي هذا تعظيم لشأنها وتشويق إلى خبرها والاهتمام بشأنها، إنها ليلة جدية أن يُحتفى فيها بألوان الطاعة والعبادة والدعاء، فهي ليلة تمت فيها النعمة بنزول القرآن، ودخل العرب التاريخ بحملهم الرسالة الخاتمة إلى العالم أجمع.

فَضْلُ لَيْلَةِ الْقَدْرِ مِنْ ثَلَاثَةِ وُجُوهِ

الوجه الأول: أنها خير من ألف شهر:

٣- ﴿لَيْلَةُ الْقَدْرِ^(١) خَيْرٌ مِنْ أَلْفِ شَهْرٍ﴾

بينت هذه السورة أن فضل ليلة القدر من ثلاثة وجوه، مجملها:

١- أنها خير من ألف شهر. ٢- نزول الملائكة وجبريل فيها.

٣- أنها ليلة سلام وأمان حتى مطلع الفجر.

أي أن هذه الليلة المباركة، فضلها على سائر الليالي أنها خير من فضل ألف شهر ليس فيها ليلة القدر، أي أن العمل الصالح فيها يضاعف أجره بمقدار العمل في مدة تعادل ثلاثة وثمانين عاماً وأربعة أشهر، ليس فيها ليلة القدر، أي بما يزيد على متوسط أعمار الأمة. والتحديد بألف شهر، يمكن أن يكون مقصوداً، ويمكن أن يكون المراد منه التكثير والمبالغة.

ومما ورد في هذا ما رواه مالك في الموطأ أنه سمع من يثق به من أهل العلم يقول: إن رسول الله ﷺ أُرِي أعمار الناس قبله، أو ما شاء الله من ذلك، فكانه تقاصر أعمار أمته، ألاّ يبلغوا من العمل مثل ما بلغ غيرهم في طول العمر، فأعطاه الله ﴿لَيْلَةَ الْقَدْرِ خَيْرٌ مِنْ أَلْفِ شَهْرٍ﴾^(٢). وعن مجاهد أن رجلاً من بني إسرائيل، لبس السلاح في سبيل الله ألف شهر، فعجب المسلمون من ذلك، فأنزل الله الآية.

(١) عَدَدُ الْمَكِيِّ وَالشَّامِيِّ ﴿لَيْلَةُ الْقَدْرِ﴾ الثالثة، آية، وتركها الباقر.

(٢) الموطأ من رواية الزهري برقم (٨٨٩)، والبيهقي (٣٦٦٧).

وفي لفظ أنه كان يقوم الليل بالعبادة حتى يصبح، ويجاهد العدو بالنهار حتى يمسي، وفعل ذلك ألف شهر^(١).

وقيل: إن النبي ﷺ ذكر أربعة من بني إسرائيل عبدوا الله ثمانين عاماً لم يَعْصُوهُ طرفة عين، وهم: أيوب، وزكريا، وحزقيل بن العجوز، ويوشع بن نون، فعجب أصحاب النبي ﷺ من ذلك، فأتاه جبريل فقال: يا محمد، عجبك أمتك من عبادة هؤلاء النفر، ثمانين سنة، لم يَعْصُوهُ طرفة عين، فقد أنزل الله خيراً من ذلك، فقرأ عليه الآيات ثم قال: هذا أفضل مما عجبك أنت وأمتك منه^(٢).

هذا: ومن فضل الله تعالى على هذه الأمة، أن مَنْ عليها بهذه الليلة المباركة، وجعل أجر العمل الصالح فيها يزيد على عبادة ألف شهر، وهذا مما تحار فيه العقول، ففيه جبر لأعمار هذه الأمة، وتعويض لضعفها وقصر أعمارها، وهي من خصائص هذه الأمة.

الوجه الثاني في تفضيل ليلة القدر: نُزُولُ الْمَلَائِكَةِ فِيهَا

٤ - ﴿نَزَّلَ^(٣) الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِمْ مِنْ كُلِّ أَمٍ﴾

أي أنه يكثر تنزل الملائكة وجبريل عليه السلام فيها، بإذن ربهم، في كل أمر قضاء وقدّره من تلك السنة إلى السنة التي تليها، فقد ورد أن عدد الملائكة في هذه الليلة يكون أكثر من عدد الحصى^(٤).

ولفظ ﴿مِنْ﴾ في الآية بمعنى اللام، أي تنزل الملائكة من أجل كل أمر قُضي إلى

(١) هذا حديث مرسل كما في تفسير الطبري (١٦٧/٣)، والبيهقي في السنن (٣٠٦/٤)، وأسباب النزول للواحدي (ص ٣٧٣)، وزاد المسير (١٩١/٩) وغيرهم.

(٢) الدر المشور (٥٦٩/٨)، وابن كثير (٤٤٣/٨) مع عزوه لابن أبي حاتم.

(٣) قرأ البزي بتشديد التاء من ﴿نَزَّلَ﴾ بخلف عنه حال وصلها بما قبلها، ولا يكسر التنوين في (شهر) بل يجمع بين سكونه وسكون التاء، والباقون بعدم التشديد وهو الوجه الآخر للبزي.

(٤) المسند (٥١٩/٢) برقم (١٠٧٣٤)، والطيالسي (٢٦٦٨) عن أبي هريرة، قال محققو المسند: إسناده محتمل للتحسين.

العام القابل.

أو بمعنى الباء، أي تنزل الملائكة بكل أمر قضاء الله فيها من موت وحياة ورزق إلخ. ونزول الملائكة يكون للخير ويكون لعقاب مكذبي الرسل، كما قال تعالى: ﴿يَوْمَ يَرَوْنَ الْمَلَائِكَةَ لَا بُشْرَى يَوْمَئِذٍ لِلْمُجْرِمِينَ﴾ [الفرقان: ٢٢].

وقال سبحانه: ﴿مَا نُنَزِّلُ الْمَلَائِكَةَ إِلَّا بِالْحَقِّ وَمَا كَانُوا إِذَا مُنْظَرِينَ﴾ [الحجر: ٨]. ونزول الملائكة في ليلة القدر بشارة للمؤمنين الذين صاموا شهر رمضان وقاموا ليلة القدر، لتنفيذ أمر الله تعالى بنزول الخير للمسلمين في هذه الليلة المباركة.

الْوَجْهُ الثَّابِتُ أَنَّهَا لَيْلَةُ سَلَامٍ وَأَمَانٍ

٥- ﴿سَلَّمَ هِيَ حَتَّى مَطْلَعِ^(١) الْفَجْرِ﴾

أي أن ليلة القدر كلها ليلة أمن وسلام من شياطين الإنس والجن، فهي ليلة ليس فيها شر إلى مطلع الفجر، ولا يُقَدَّرُ فيها إلا الخير والسلامة للناس أجمعين، كما أن الملائكة تُسَلِّمُ فيها على المؤمنين.

فالسَّلامُ بمعنى السلامة من كل سوء، ويصح أن تكون بمعنى تسليم الملائكة على كل مؤمن، كما جاء في الأثر عن أنس ؓ (إذا كانت ليلة القدر نزل جبريل في كبكة من الملائكة، يصلّون ويسلمون على كل عبد قائم أو قاعد يذكر الله تعالى)^(٢).

تم تفسير (سورة القدر) والله الحمد والمنة

(١) قرأ الكسائي وخلف بكسر اللام من ﴿مَطْلَعِ﴾ وهو مصدر، أو اسم مكان، والباقون بالفتح، وللأزرق في اللام التخليط والترقيق.

(٢) الدر المنثور (٦/٣٧٧) عن البيهقي.

تَفْسِيرُ سُورَةِ الْبَيِّنَةِ (٩٨)

مُقَدِّمَةُ السُّورَةِ

(سورة البينة) هي السورة الثامنة والتسعون في ترتيب المصحف، وواحد بعد المئة في ترتيب النزول، نزلت بعد (سورة الطلاق) وقبل (سورة الحشر)، وكان ذلك في آخر سنة ثلاث أو أول سنة أربع هجرية.

و(سورة البينة) تسع آيات، في العدد البصري والشامي، وثمانى آيات في غيرهما، وهي أربع وتسعون كلمة، وثلاث مئة وتسعة وتسعون حرفاً، وهي سورة مدنية على الأرجح. والمشهور أنها تُسمى (سورة البينة) وذكر لها أسماء أخرى منها: ١- ﴿لَمْ يَكُنِ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ كما جاء في حديث أبي، ٢- و(سورة لم يكن) ٣- و(سورة القيمة). ٤- و(سورة أهل الكتاب)، ٥- و(سورة الانفكاك) فهذه ستة أسماء، أشهرها الأول. قال الألوسي: وتسمى سورة القيامة، وسورة البلد، وسورة المنفكين، وسورة البرية، فهذه أربعة أسماء أخرى. ومجموعها عشرة أسماء.

موضوع السورة:

١ - تقرر (سورة البينة) أن بعثة النبي ﷺ كان لابد منها، لتحويل الكفار - من: اليهود والنصارى وعبداء الأوثان والأصنام - عما هم فيه من الضلال والكفر والاختلاف إلى التوحيد والهداية، ولكنهم بعد أن جاءهم خاتم الرسل ﷺ بأوصافه وعلاماته التي عرفوها في كتبهم، وبعد أن سطع لهم الحق، وظهرت أنواره، كفروا به وكذبوه حسداً له، وعناداً وتكبراً بعد طول انتظار لمجيئه ﷺ.

فهم لم يختلفوا في شأن محمد ﷺ عن جهل وغموض، وإنما اختلفوا فيه بعدما جاءهم العلم الواضح أنه رسول الله.

وفي هذا توبيخ لهم على إصرارهم على الضلال، بعدما تبين لهم الحق، وتعجب من

تناقض أحوالهم، وفيه بيان أن كفرهم لم يكن لجهلهم بالحق وإنما لعنادهم وجحودهم وحسدهم للنبي ﷺ على ما آتاه الله من فضله، ولكي يسجل الله عليهم أنهم شرّ البرية، وأن المؤمنين هم خير البرية.

٢ - ثم تبين آيات السورة أن أصل هذا الدين واحد، وقواعده ليس فيها اختلاف، فقد أمر الله العباد كلهم في مختلف الشرائع بإخلاص العبادة له وحده، والتوجه إليه سبحانه بجميع الطاعات من الأقوال والأفعال.

٣ - وذكرت آيات السورة أن الذين كفروا بخاتم النبيين بعدما جاءتهم البينة، هم شر الخليقة، وجزاؤهم نار جهنم يخلّدون فيها، وقد كذّبتهم آيات السورة في دعواهم أن الله تعالى قد أوجب عليهم التمسك بما هم عليه من الباطل.

وبينت الآيات أن الذين آمنوا وتزوّدوا بالعمل الصالح، هم خير الخليقة، وأنهم يوم القيامة مع النبيين والصديقين والشهداء والصالحين، جزاء طاعتهم وإخلاصهم لله تعالى.

يأمر الله رسوله أن يقرأ سورة البينة على أبي بن كعب:

١ - عن أنس بن مالك ؓ أن النبي ﷺ قال لأبي بن كعب: «إن الله أمرني أن أقرأ عليك ﴿لَا يَكْفُرُ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ قال: وسَمَّاني لك؟ قال: نعم، فبكى»^(١).

٢ - وفي لفظ آخر عن معاذ بن أبي عن أبيه عن جدة عن أبي بن كعب ؓ أن النبي ﷺ قال: «يا أبا المنذر، إني أمرت أن أعرض عليك القرآن» قال: بالله آمنت، وعلى يدك أسلمت، ومنك تعلّمت، قال: فردّ النبي ﷺ القول، فقال: يا رسول الله، أدّكرت هناك؟ قال: «نعم، باسمك ونسبك في الملاء الأعلى» قال: فافراً إذا يا رسول الله^(٢).

(١) صحيح البخاري برقم (٣٨٠٩، ٤٩٥٩)، ومسلم برقم (١٢٢، ٧٩٩، ٤٩٦١)، والمسند (١٣٠/٣)، (١٤٠٣٢، ١٢٣٢٠) بإسناد صحيح على شرط الشيخين، وابن حبان (٧١٤٤)، والترمذي برقم (٣٧٩٢)، والسنن الكبرى (١١٦٢٧، ٨١٨١، ٧٩٤٥)، وابن سعد (٣٤٠/٢)، والضياء في المختارة برقم (١١٦٢)، قال محققه: إسناده صحيح، وقد أورد ابن كثير في تفسيره عدة طرق لهذا الحديث وكذا محققو المسند.

(٢) المعجم الكبير للطبراني (٢٠٠/١) وإسناده ضعيف.

٣ - وعن مالك بن عمرو بن ثابت الأنصاري قال: لما نزلت ﴿لَمْ يَكُنِ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ قال جبريل: يا رسول الله، إن ربك يأمرك أن تُقرئها أبيًا، فقال النبي ﷺ لأبي: «إن جبريل أمرني أن أقرئك هذه السورة؟» قال أبي: وقد ذكرتُ ثم يا رسول الله؟ قال: «نعم» فبكى أبي^(١).

٤ - وجاء في بعض الروايات أنَّ أبي بن كعب قال: قال لي رسول الله ﷺ: «إني أمرت أن أقرأ عليك سورة كذا وكذا» قلت: يا رسول الله، وقد ذكرتُ هناك؟ قال: «نعم» فقال (عبد الرحمن بن أبزى): فَفَرَحْتُ بِذَلِكَ يَا أبا المنذر؟ قال: وما يمنعني، والله تعالى يقول: ﴿قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ﴾^(٢) [يونس: ٥٨].

٥ - وعن الربيع بن أنس قال: قرأت القرآن على أبي العالية، وقرأ أبو العالية على أبي بن كعب قال: وقال أبي: قال لي رسول الله ﷺ: أمرت أن أقرئك القرآن، قلت: أو ذكرتُ هناك؟ قال: نعم، فبكى أبي قال: فلا أدري شوقاً أو خوفاً^(٣).

والمقصود من قراءة النبي ﷺ على أبي، أن يتعلم منه أبي صحة الأداء وحسن التلاوة، وضبط الألفاظ، لأن الله تعالى كان يُعِدُّ أبنياً ليكون أقرأ الأمة كما يتضح هذا المعنى جلياً في الحديث الخامس في قوله (أمرت أن أقرئك القرآن).

وحتى لا يستنكف صاحب الرتبة العالية أن يقرأ على من دونه، وفي ذلك تشريف لأبي، ورفع لمنزلته.

* * *

(١) المسند (٤٨٩/٣) (١٦٠٠٠، ١٦٠٠١)، والطبراني (٣٢٧/٢٢) (٨٢٣)، وابن أبي شيبة (٥٢٠/١)، قال محققو

المسند: صحيح لغيره وهو عن أبي حبة البدري، وفيه ابن جدعان وبقية رجاله ثقات رجال الصحيح.

(٤) المسند (١٢٣/٥) رقم (٢١١٣٦، ٢١١٣٢، ٢١١٣٧) وهو حديث صحيح، أخرجه الطيالسي (٥٤٥)، وأبو داود (٣٩٨١)، وابن أبي شيبة (٥٦٤/١٠)، والبخاري في (خلق أفعال العباد) (٥٣٦)، والنسائي في الكبرى (٧٩٩٨).

(٥) قال محققو المسند عند الحديث رقم (٢١١٣٦): وهذا إسناد حسن، وأخرجه الطبراني في الكبير (٥٣٩)، وفي الأوسط (٤٤٧).

تَفْسِيرُ السُّورَةِ

أَهْلُ الْكِتَابِ يُخْلَفُونَ وَعَنْدَهُمُ الْإِيمَانُ بِمُحَمَّدٍ ﷺ

١ - ﴿لَمْ يَكُنِ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ مُنْفَكِينَ حَتَّى تَأْتِيَهُمُ الْبَيِّنَةُ﴾

إن أهل الكتاب وعبداء الأصنام كانوا يقولون قبل بعثة النبي ﷺ: لا نترك ما نحن عليه من الدين حتى تأتينا البينة، أي علامات النبوة التي وعدنا الله بها في كُتُبنا بالنسبة لخاتم الأنبياء، وكان أهل الكتاب قد نشروا بين المشركين الوثنيين هذه العلامات فعرفوها. ومعنى: ﴿مُنْفَكِينَ﴾ تاركين ما هم عليه من الدين حتى يأتي نبي هذا الزمان بالحجة الواضحة.

أي: لم يكن الذين كفروا منفكين عن كفرهم وضلالهم الذي هم عليه حتى تأتيهم البينة وهي رسول الله ﷺ.

ثم أخبر سبحانه في الآية الرابعة أن أهل الكتاب تفرقوا بعدما جاءتهم البينة، أي بعد ما جاءهم رسول الله ﷺ.

والمعنى: لم يكن الذين كفروا من اليهود والنصارى وعبداء الأوثان من العرب والعجم، تاركي ما هم عليه من الكفر - سواء أكان هذا الكفر إشراكاً بالله تعالى، أو عدم إيمان بالرسول ﷺ - حتى يبعث الله النبي الموعود به في التوراة والإنجيل، وكانوا مصدقين بمجيئه، منتظرين قدومه كي يؤمنوا به.

فلما بعثه الله تعالى، اختلفوا في شأنه، فمنهم من آمن به، ومنهم من كفر، وكانوا قبل بعثته ﷺ مجمعين على الإيمان به حين يأتي، ثم تفرقت كلمتهم بعد مجيئه.

قال تعالى: ﴿وَلَمَّا جَاءَهُمْ كِتَابٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا مِنْ قَبْلُ عَلَى سَبِيلٍ﴾ أي قبل مجيء القرآن وصاحب الرسالة ﷺ ﴿يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَمَّا جَاءَهُمْ مَا عَرَفُوا كَفَرُوا﴾ أي يقولون: نحن أول من سيفتح عليه بالإيمان به ﴿فَلَمَّا جَاءَهُمْ مَا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ فَلَعْنَةُ

اللَّهُ عَلَى الْكَافِرِينَ ﴿ [البقرة: ٨٩] وقال سبحانه: ﴿ وَلَمَّا جَاءَهُمْ رَسُولٌ مِّنْ عِندِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ بَدَّ فَرِيقٌ مِّنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ كِتَابَ اللَّهِ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ كَأَنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ [البقرة: ١٠١].
وقال ابن عطية: لم يكن هؤلاء القوم منفكين من أمر الله وقدرته ونظره لهم، حتى يبعث إليهم رسولاً منذراً تقوم عليهم به الحجة، وتتم على من آمن منهم النعمة، فكأنه قال: ما كانوا ليُشْرِكُوا سدى^(١).

والمراد بأهل الكتاب: اليهود والنصارى، والمراد بالمشركين: عبدة الأوثان والأصنام.
وقد وَصَفَت الآية كلا الفريقين - وهم أهل الكتاب والمشركون الوثنيون - بالكفر، وذلك لأن كل من لم يؤمن بخاتم الرسل ﷺ فهو كافر.
قال تعالى: ﴿ وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴾ [آل عمران: ٨٥].
ولا يسمع برسالة محمد ﷺ عربي ولا عجمي ثم لا يؤمن به إلا مات كافراً، واليهودي المؤمن برسالة موسى عليه السلام، يقال له: مؤمن في الفترة من بعثة موسى إلى بعثة عيسى عليهما السلام.
ولا يقال لمن وُجد في عهد عيسى من اليهود مؤمناً، لأن مدة رسالة موسى قد انتهت بمجيء عيسى عليهما السلام.

وكذلك الشأن، في كل من وُجد من سائر الملل والنحل من لدن بعثة محمد ﷺ إلى قيام الساعة، لأن الإيمان بموسى أو عيسى وغيرهما انتهى، وتم نسخه بالرسالة الخاتمة.
ومن أدرك محمداً ﷺ من أهل الكتاب فآمن به، فإنه يؤتى أجره مرتين كما قال تعالى: ﴿ يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَآمِنُوا بِرَسُولِهِ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِنْ رَحْمَتِهِ وَجَعَلَ لَكُم نُورًا تَمْشُونَ بِهِ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ [الحديد: ٢٨].

وفي حديث أبي موسى الأشعري ؓ أن رسول الله ﷺ قال: «ثلاثة يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُمْ مرتين: رجل من أهل الكتاب آمن بنبيه، وأدرك النبي ﷺ فآمن به واتبعه وصدقته، فله أجران»^(٢).

(١) تفسير ابن عطية (٥٠٦/٥).

(٢) صحيح مسلم برقم (١٥٤)، وصحيح البخاري (٩٧).

وكان كُلاً من أهل الكتاب والمشرّكين قبل مبعث النبي ﷺ يقول: لا ننفك عما نحن عليه من ديننا، ولا نتركه حتى يُبعث النبي المكتوب صفته في التوراة والإنجيل وهو محمد ﷺ وقول المشرّكين هذا مبنى على إخبار أهل الكتاب لهم ببعثة النبي ﷺ ولذلك كان كُفْرُ أهل الكتاب أشنع وأقبح من عبدة الأوثان، ولذا قُدم ذكرهم على المشرّكين. وقد وصف الله اليهود بالشرك لقولهم ﴿عُزِّرْهُ ابْنُ اللَّهِ﴾ [التوبة: ٣٠].

كما وصف النصارى بالكفر لقولهم ﴿إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ﴾ [المائدة: ٧٢]. وقولهم ﴿إِنَّ اللَّهَ ثَلَاثُ ثَلَاثٍ﴾ [المائدة: ٧٣] ووصفهم بالشرك لقولهم ﴿الْمَسِيحُ ابْنُ اللَّهِ﴾ [التوبة: ٣٠].

ومن أدرك محمداً ﷺ ولم يؤمن به، فهو كافر بلاشك ولا ريب، لأن الأنبياء السابقين أخذوا العهد والميثاق على أقوامهم إن أدركوا محمداً ﷺ أن يؤمنوا به، فمن أدركه منهم فلم يؤمن به فقد كفر بمحمد وعيسى وموسى، لأنه كذب أقوالهم، كما في حديث أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «والذي نفس محمد بيده، لا يسمع بي أحد من هذه الأمة، يهودي ولا نصراني، ثم يموت، ولم يؤمن بي إلا كان من أصحاب النار»^(١).

كما أن الله تعالى قد أخذ العهد والميثاق على جميع الأنبياء أن يؤمنوا به عند مجيئه ﷺ قال تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَا آتَيْتُكُمْ مِنْ كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ، وَلَتَنْصُرُنَّهُ، قَالَ أَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِي قَالُوا أَقْرَرْنَا قَالَ فَاشْهَدُوا وَأَنَا مَعَكُمْ مِنَ الشَّاهِدِينَ ﴿٨١﴾ فَمَنْ تَوَلَّىٰ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴿٨٢﴾ أَفَغَيْرَ دِينِ اللَّهِ يَبْغُونَ وَلَهُ أَسْلَمَ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَإِلَيْهِ يُرْجَعُونَ﴾ [آل عمران: ٨١ - ٨٣].

ولما كان النبي ﷺ قد بُعث قبل نزول سورة البينة بسنين، وهم مستمرون على كُفْرهم وشركهم، فقد وَصَفَتْهُم الآية بالكفر، لأنهم كفروا بمحمد ﷺ، فأقامت الحجة عليهم بعدم إيمانهم به، وبينت أنهم مُتَنَصِّلُونَ من الحق، مُصِرُّون على كفرهم وعنادهم، ولا

(١) صحيح مسلم برقم (١٥٣).

يزيدهم مرور السنين إلا كفرًا.

ولذلك: فقد قَدِّمَت الآية أهل الكتاب على الوثنيين، لأن اليهود والنصارى هم الذين أخبروا المشركين عُبَاد الأصنام، بنبوة محمد ﷺ قبل مجيئه، حيث كان المشركون أميين لا يعلمون شيئًا عن الرسل والشرائع، فكان الأجدر بأهل الكتاب أن يكونوا أول من آمن به.

الْحُجَّةُ الْقَطْعِيَّةُ عَلَى صِحَّةِ الرِّسَالَةِ الْخَاتِمَةِ

٣، ٢ - ﴿رَسُولٌ مِّنَ اللَّهِ يَتْلُو صُحُفًا مُّطَهَّرَةً ﴿٢﴾ فِيهَا كُتُبٌ قَيِّمَةٌ﴾

فَسُرْتُ هذه الآية المراد بلفظ ﴿الْبَيِّنَةُ﴾ في الآية السابقة فينت أنها رسالة محمد ﷺ وقد أرسله الله تعالى إليهم ليقرأ على مسامعهم صُحُفًا من القرآن الكريم، منزّهة عن الكفر والشرك والباطل.

وليس المراد أن النبي ﷺ يقرأ عليهم القرآن من صحف، وإنما المراد أنه يقرأ عليهم ما تضمنته الصحف، لأنه ﷺ كان أميًا، والتلاوة: إعادة الكلام دون زيادة ولا نقصان، سواء أكان ذلك مكتوبًا أو محفوظًا، وكان النبي ﷺ يأمر أصحابه أن يكتبوا ما نزل من القرآن فيما هو متاح وقتها من وسائل الكتابة، كقطع الجلد والجريد ونحوها.

قال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ﴾ [العنكبوت: ٥١].

ثم وصف الله تعالى هذه الصحف بأنها تُبَيِّنُ الحق من الباطل، والهدى من الضلال، وليس فيها عوج ولا نقص، فهي كتب قيمة مستقيمة، كما قال تعالى: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ الْكِتَابَ وَلَمْ يَجْعَلْ لَّهُ عِوَجًا﴾ [الكهف: ١].

وقد سُمي القرآن كُتُبًا، لأنه ثمرة الكتب السابقة، وهو مشتمل على ما فيها، ومهيمن عليها.

تَفَرُّقُ أَهْلِ الْكِتَابِ بَعْدَ بَعَثَةِ النَّبِيِّ ﷺ بَيْنَ الْإِيمَانِ وَالزِّيَادَةِ فِي الْكُفْرِ

٤ - ﴿وَمَا تَفَرَّقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَةُ﴾

ذم سبحانه وتعالى من لم يؤمن من أهل الكتاب بمحمد ﷺ وهم اليهود والنصارى، فقد كفروا به بعد أن عرفوا أنه من العرب، فحسدوه، وكانوا من قَبْلُ متفقين على الإيمان به وعندما بُعث بالرسالة، اختلفوا في شأنه ﷺ وصاروا شيعاً وأحزاباً، فأمن به بعضهم وكفر أكثرهم، وكان تفرقهم عنه ﷺ بعد وضوح الحق وقيام الدليل، وبيان صدق أوصافه لديهم. كما قال تعالى: ﴿وَمَا اخْتَلَفَ الَّذِينَ أَوْتُوا الْكِتَابَ إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ بَيْنَهُمْ﴾ [آل عمران: ١٩].

فلم يزدتهم الهدى إلا ضلالاً، مع أن الكتب كلها جاءت بأصل واحد ودين واحد. علم أهل الكتاب بصحة نبوة محمد ﷺ من كتبهم:

وخص أهل الكتاب بالذكر، لأنهم كانوا يعلمون صحة نبوته ﷺ بما جاء في كتبهم من علامات لا ينكرها إلا حسود جحود، قال تعالى: ﴿الَّذِينَ ءَاتَيْنَهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ وَإِنَّ فَرِيقًا مِنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ١٤٦].

وقال سبحانه: ﴿وَالَّذِينَ ءَاتَيْنَهُمُ الْكِتَابَ يَعْلَمُونَ أَنَّهُ مُنْزَلٌ مِنْ رَبِّكَ بِالْحَقِّ﴾ [الأنعام: ١١٤]. وقد كانوا قبل بعثته، مجمعين على تصديقه ﷺ فلما بُعث من العرب جحدوا وتفرقوا، فأمن به بعض، وكفر آخرون.

ومما تعلل به أهل الكتاب في عدم الإيمان به حين دعاهم النبي ﷺ إليه أن قالوا: ﴿إِنَّ اللَّهَ عِندَ إِتِنَا أَلَّا نُؤْمِنَ لِرَسُولٍ حَتَّى يَأْتِيَنَا بِقُرْآنٍ تَأْكُلُهُ النَّارُ﴾ [آل عمران: ١٨٣].

وقد تحدث القرآن الكريم عن أهل الكتاب الذين استقبلوا الإسلام بترحاب، ودخلوا فيه برغبة، بعدما رأوا في نبوة محمد ﷺ تحقيق ما وجدوه في كتبهم من نغته، فقال سبحانه مشيراً إلى الفريقين ﴿وَالَّذِينَ ءَاتَيْنَهُمُ الْكِتَابَ يَفْرَحُونَ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمِنَ الْأَحْزَابِ مَنْ يُنْكِرُ بَعْضَهُ﴾ [الرعد: ٣٦].

وبعد أن ذم القرآن أكثر أهل الكتاب في سورة آل عمران قال تعالى: ﴿لَيْسُوا سَوَاءً مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ أُمَّةٌ قَائِمَةٌ يَتْلُونَ ءَايَاتِ اللَّهِ ءَانَاءَ اللَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ﴾ [آل عمران: ١١٣]. وهم من آمنَ بمحمد ﷺ.

قال تعالى أيضاً في شأن مَنْ آمَنَ به مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ:

﴿إِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مِنْ قَبْلِهِ إِذَا يُتْلَى عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْآذَانِ سُجَّدًا ۝ وَيَقُولُونَ سُبْحَانَ رَبِّنَا إِنْ كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا ۝ وَيَخِرُّونَ لِلْآذَانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا ۝﴾ [الإسراء: ١٠٧ - ١٠٩].

وقال عز وجل فيهم أيضاً: ﴿وَكَذَلِكَ أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ فَالَّذِينَ ءَانَيْنَهُمُ الْكِتَابَ يَوْمَنُوتُ بِهِ ۖ وَمِنْ هَؤُلَاءِ مَنْ يُؤْمِنُ بِهِ ۖ﴾ ﴿وَكَذَلِكَ أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ فَالَّذِينَ ءَانَيْنَهُمُ الْكِتَابَ يَوْمَنُوتُ بِهِ ۖ﴾ [العنكبوت: ٤٧].

أحزاب وفرق:

والآية تشير إلى افتراق أهل الكتاب واختلافهم شيعاً وأحزاباً:

وقد انقسم اليهود قبل بعثة عيسى ﷺ إلى طوائف خمس رئيسة، مع أن رسولهم واحد، وكتابهم واحد، ومن هذه الطوائف: الغلاة والمطرفون، ومنهم مَنْ دون ذلك، وهي: الصدوقيون، والفريسيون، والآسيون، والغلاة، والسامريون، ولكل طائفة منهم توجه.

وتفرق النصارى أيضاً على: يعقوبية، وملكانية، ونسطورية، وكل طائفة منها تحتها فرق وأحزاب.

وفي الحديث الذي ورد من عدة طرق: «إن اليهود اختلفوا على إحدى وسبعين فرقة، وإن النصارى اختلفوا على اثنتين وسبعين فرقة، وستفترق هذه الأمة على ثلاث وسبعين فرقة، كلها في النار إلا واحدة»، قالوا: من هم يا رسول الله؟ قال: «ما أنا عليه أنا وأصحابي»^(١).
وقد جاء الإسلام فوجد الشمال الأفريقي وغرب آسيا مليئين بالنصارى، يحكمهم الرومان، ووجد ما وراء ذلك من أرض الله الواسعة مليئاً بالمشركين حتى الهند والصين.

(١) من حديث أبي هريرة وأنس وسعد بن أبي وقاص ومعاوية، وعوف بن مالك، وأبي أمامة، وجابر بن عبد الله، وعمرو بن عوف المزني، وهو في سنن أبي داود برقم: (٤٥٩٦) والترمذي برقم: (٢٦٤٠) وقال: حسن صحيح، وابن حبان برقم (٦٢٤٧)، وابن ماجه (٣٩٩١)، والحاكم في المستدرک (١٢٨/١)، وصححه ووافقه الذهبي والمسنند برقم (٨٣٩٦)، وقد حسن إسناده محققوه بإشراف د/ عبد الله التركي، وانظر السلسلة الصحيحة (٢٠٣)، (١٤٩٢، ٢٠٤)، وروايات الحديث فيها نقص وزيادة.

انتشار الإسلام:

وقد غيّر الإسلام وجه الدنيا، فعمّ جزيرة العرب ووادي النيل، والأناضول والشام واليمن وغيرها.

ودخل كثير من النصارى في الإسلام، كما دخل فيه المجوس والبوذيون، ووثنيون كثير. والقرآن قائم إلى يوم الساعة، والإسلام ينتشر، لاسيما إذا وجد أناسا يخلّفون محمداً وأبأبكر وعمر وخالداً في نشره في الأفاق، ليعم أرجاء العالم، بدلاً من أن يُمثّل خمس العالم أو ربعه.

أَصْلُ الشَّرَائِعِ وَاحِدٌ

٥- ﴿وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ^(١) حُنَفَاءَ وَيُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ وَذَلِكَ دِينُ الْقِيَمَةِ﴾

ثم بين سبحانه أن الأصل في جميع الشرائع واحد، وهو أن يقصد الإنسان بعبادته وجه الله تعالى، مخلصاً له النية، وأن يجتنب الشرك بأنواعه، وأن يقيم ما أمر به من عبادات كالصلاة والزكاة.

وما أمر الله به عباده في جميع الشرائع على السنة جميع الرسل من التوحيد الخالص، وأداء الفرائض، وترك المحرمات، هو الملة المستقيمة، وهو الدين القيم في جميع الرسالات.

قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾ [النحل: ٣٦].

وقال سبحانه: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِيَ إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ﴾

[الأنبياء: ٢٥].

وقد ذكرت الآية: الأمر بإخلاص العقيدة من شوائب الرياء، والشرك والشقاق والنفاق في قوله تعالى: ﴿مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾، قاصدين بجمع عباداتهم الظاهرة والباطنة وجه الله، مائلين عما يخالف التوحيد، فهم (حنفاء) موحدون منقادين لله ورسوله.

(١) عد البصري والشامي (له الدين) آية وتركها غيرهما.

ثم أتبع ذلك بوجوب العمل بفرائض الإسلام، ﴿وَيُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ﴾ وبيّنت أن هذا هو الإسلام بمعناه العام، ﴿وَذَلِكَ دِينُ الْقَيِّمَةِ﴾ وهو إخلاص الدين وإسلام الوجه لله تعالى وتوحيده، وهذا هو الإسلام الذي اختاره الله للناس جميعاً كما في قوله تعالى: ﴿إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ﴾ [آل عمران: ١٩].

وهذا التوحيد وأصول العبادات يمثل مجموع الدين عند الله تعالى فهو ﴿دِينُ الْقَيِّمَةِ﴾ أي الدين القويم الموصل إلى جنات النعيم، وما سواه طرق موصلة إلى الجحيم، كما جاء ذلك بالنسبة لأهل الكتاب في قوله تعالى: ﴿قُلْ يَتَاهَلُ الْكِتَابُ تَمَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَّاهُ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ٦٤].

والإسلام بهذا المعنى العام هو ما وصّى به يعقوب بنيه في قوله تعالى:

﴿فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾ [البقرة: ١٣٢].

وهو ما دعا به إبراهيم وإسماعيل ربهما ﴿رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُسْلِمَةً لَكَ﴾ [البقرة: ١٢٨].

والإسلام هو الاسم العلم الذي اختاره الله للشرعة الأخيرة في الأرض، وهو دين الحنيفية، ودين الفطرة، كما قال تعالى: ﴿ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ﴾ [الروم: ٣٠].

وقال سبحانه: ﴿وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا إِلَهًا وَاحِدًا إِلَّا إِلَهُهُ﴾ [التوبة: ٣١].

والآية تشير إلى أن الله تعالى قد أمر أهل الكتاب من اليهود والنصارى، في التوراة والإنجيل أن يخلصوا العبادة لله وحده ولكنهم حَرَفُوا وَغَيَّرُوا وَبَدَّلُوا فَأَطَاعُوا أَحْبَارَهُمْ وَرَهْبَانَهُمْ فِي تَحْلِيلِ مَا حَرَّمَ اللَّهُ.

كما قال تعالى: ﴿أَخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا إِلَهًا وَاحِدًا إِلَّا إِلَهُهُ وَسُبَّحَنَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [التوبة: ٣١].

وقد أمر الله أهل الكتاب كذلك بإقام الصلاة على أكمل وجه، وإيتاء الزكاة لمستحقيها عن طيب نفس، وخُصَّت الصلاة والزكاة بالذكر، لأنهما في مقدمة العبادات.

وَمَنْ كَانَ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مُصَدِّقًا بِنَبِيِّهِ وَكِتَابِهِ فِي زَمَانِهِ قَبْلَ بَعْثَةِ النَّبِيِّ مُحَمَّدٍ ﷺ فَإِنَّهُ لَا يُعَدُّ كَافِرًا، وَمَنْ لَمْ يُؤْمِنْ مِنْهُمْ بِمُحَمَّدٍ ﷺ بَعْدَ بَعْثِهِ فَإِنَّهُ كَافِرٌ بِخَاتَمِ الْمُرْسَلِينَ ﷺ إِذْ الْكُفْرُ أَنْوَاعٌ: وَمِنْهُ الْكُفْرُ بِاللَّهِ تَعَالَى، وَالْكَفْرُ بِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَالْكَفْرُ بِالْيَوْمِ الْآخِرِ، وَالْكَفْرُ بِرُكْنٍ مِنْ أَرْكَانِ الْإِيمَانِ، وَمِنْ الْكُفْرِ: إنْكَارُ أَصْلِ مَعْلُومٍ مِنَ الدِّينِ بِالضَّرُورَةِ.

نَتِيجَةُ التَّفَرُّقِ: كُفْرٌ وَإِيمَانٌ. وَهَذَا عِقَابُ الْكُفْرِ

٦- ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ فِي نَارِ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا أُولَئِكَ هُمْ شَرُّ الْبَرِيَّةِ^(١)﴾
ثم ذكر سبحانه مصير كل من الأبرار والفجار في دار الجزاء والقرار، بعد أن يتن تفرق أهل الكتاب والمشركون الوثنيين، بعد ما جاءتهم البينة، فكان منهم من آمن، ومنهم من كفر. وقد استحق النار بكفره، من يقولون يوم القيامة ﴿فَهَلْ إِلَى خُرُوجٍ مِنْ سَبِيلٍ﴾ [غافر: ١١] فيقال لهم والنار تلهج وجوههم ﴿أَخْسَوْا فِيهَا وَلَا تَكْمُنُوا﴾ [المؤمنون: ١٠٨].
والمعنى: إن الذين جحدوا توحيد الخالق، وكذبوا رسله، وماتوا على ذلك، سواء من اليهود أو من النصارى، أو من المشركين عبدة الأصنام، لهم في جهنم مكان مهيباً، يدخلون فيه ولا يخرجون منه أبداً، ﴿لَا يُفْتَرَعُ عَنْهُمْ فِيهِمْ مَبْلِسُونَ﴾ وذلك لأنهم شر الخلق أجمعين، وقد جلبوا لأنفسهم هذا المصير.

قال سبحانه في شأنهم: ﴿إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللَّهِ الَّذِينَ كَفَرُوا فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [الأنفال: ٥٥].
وقال أيضاً: ﴿إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللَّهِ الصُّمُّ الْبُكْمُ الَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ﴾ [الأنفال: ٢٢].
فالدواب خير من الكافر، لأنها لم تعمل خيراً لتجاوزى عليه، ولم تعمل شراً فتعاقب عليه. والدواب مؤمنون بوحداية الله تعالى، يسبحون بحمده ويسجدون له، فكانوا بهذا خيراً من الكفار، لأن الكافر يعمل الشر ولا يسبح بحمد الله.

وَهَذَا ثَوَابُ الْإِيمَانِ

٧، ٨- ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَئِكَ هُمْ خَيْرُ الْبَرِيَّةِ^(٢) جَزَاءُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ جَنَّاتُ

(١) قرأ نافع وابن ذكوان (البريئة) والباقيون ﴿الْبَرِيَّةِ﴾ الموضعان معاً.

عَدَنَ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ذَلِكَ لِمَنْ خَشِيَ رَبَّهُ ﴿٨﴾

ثم يتن جل شأنه مصير الفريق الآخر، وهم الذين صدقوا بالله ورسوله، فوقر الإيمان في قلوبهم وأيقنوا به، فصدقته جوارحهم وعملوا الصالحات، إنهم خير المخلوقات، وهذا ثناء عليهم من الله تعالى، وبشارة لهم، بعكس الكافرين.

وقد أعد الله للمؤمنين في الآخرة ثواباً عظيماً، جزاء ما قدموه في الدنيا من الإيمان والعمل الصالح، وهو حدائق وبساتين، وجنات نعيم، يقيمون فيها إقامة دائمة، يمتعون بشمارها وأنهارها ونعيمها، وذلك لأن الله تعالى قد رضي عنهم فقبل أعمالهم وكافأهم عليها، وهم رضوا بما أعطاهم الله من نعيم. فالرضا على قسمين:

١ - رضى به، وهذا بالنسبة لمن يعمل الصالحات، فإنه يرضى بالجزاء على عمله ويحمد الله تعالى أن وفقه للرضا.

٢ - ورضى عنه، وهذا بالنسبة لمن كلفه بالعمل، وهو الله تعالى، وقد رضي الله عنهم بما قدموه لأنفسهم من الإيمان والعمل الصالح.

وهذا النعيم الذي أعدّه الله في الجنة، إنما هو لمن خشي لقاء الله، فأخلص في عقيدته، وأدى فرائضه، وترك نواهيه، كما قال تعالى: ﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّاتٌ﴾ [الرحمن: ٤٦].

وقال سبحانه: ﴿وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَىٰ ۖ ﴿١٠﴾ فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَىٰ﴾ [النازعات: ٤٠، ٤١].

وقال أيضاً: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِالْغَيْبِ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ﴾ [الملك: ١٢].

وفي حديث أبي هريرة ؓ أن رسول الله ﷺ قال: «ألا أخبركم بخير البرية؟ قالوا: بلى يا رسول الله، قال: رجل آخذ بعنان فرسه في سبيل الله، كلما كانت هيعة استوى عليه ... ألا أخبركم بشر البرية؟ قالوا: بلى، قال: الذي يُسأل بالله، ولا يُعطي به»^(١).

تم تفسير (سورة البينة) والله الحمد والمنة

(١) المسند (٣٩٦/٢) برقم (٩١٤٢)، وهو حديث صحيح كما قال محققوه، وعن أبي هريرة في المسند أيضاً

(٩٧٢٣، ١٠٧٦٦)، وينظر: حديث ابن عباس (٢١١٦) بإسناد صحيح.

تَفْسِيرُ سُورَةِ الزَّلْزَلَةِ (٩٩)

مُقَدِّمَةُ السُّورَةِ

(سورة الزلزلة) هي السورة التاسعة والتسعون في ترتيب المصحف، والرابعة والتسعون في ترتيب النزول، نزلت بعد (سورة النساء) وقبل (سورة الحديد). وعددها ثماني آيات في العدد الكوفي والمدني الأول، وتسع آيات عند غيرهما. وهي خمس وثلاثون كلمة، ومئة وتسعة وأربعون حرفاً. وتشتهر بأنها (سورة الزلزلة) وورد لها الأسماء التالية: (سورة إذا زلزلت) في كتب السنة و(سورة الزلزال) في بعض كتب التفسير و(سورة زلزلت) في مصحف كوفي قديم، وعند السيوطي وابن عطية، فهذه أربعة أسماء أشهرها الأول. وهي من السور المختلف في أنها مكية أو مدنية، ولكنها تُشبه القرآن المكي.

في فضل السورة:

١- عن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما قال: أتى رجل رسول الله ﷺ فقال: أقرئني يا رسول الله: قال: (اقرأ ثلاثاً من ذوات الرء) فقال الرجل: كبر سني، واشتد قلبي، وغلظ لساني، قال: (اقرأ ثلاثاً من ذوات حم) فقال مثل مقالته الأولى، فقال: (اقرأ ثلاثاً من المسبحات) فقال مثل مقالته الأولى وقال: ولكن أقرئني يا رسول الله سورة جامعة، فأقرأه ﴿إِذَا زُلْزِلَتِ الْأَرْضُ زِلْزَالَهَا﴾ حتى فرغ منها، قال الرجل: والذي بعثك بالحق لا أريد غيرها، - وفي لفظ - لا أزيد عليها، ثم أدبر فقال ﷺ: «أفلح الزُّوْجِلُ، أفلح الزُّوْجِلُ»^(١).

(١) المسند (١٦٩/٢) (٦٥٧٥) بإسناد حسن (محققوه)، وأبوداود برقم (١٣٩٩)، والنسائي في الكبرى برقم (١٠٥٥٢، ١٠٤٨٤، ٨٠٢٧)، وفي السنن (٢١٢/٧)، وصححه الحاكم على شرط الشيخين ووافقه الذهبي، المستدرک (٥٣٢/٢)، وهو عند البيهقي في الشعب برقم (٢٢٨٢)، والطبراني في الكبير (١٥٨)، وقد ضعفه الألباني في ضعيف سنن أبي داود (١٣٠٠).

- ٢- وعن أنس رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال لرجل من أصحابه: (هل تزوجت يا فلان؟) قال: لا، والله يا رسول الله، ولا عندي ما أتزوج به، قال: (أليس معك ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ قال: بلى، قال: (أليس معك ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ﴾ قال: بلى، قال: (ربع القرآن) قال: (أليس معك ﴿قُلْ يَتَّخِذُ الْكَافِرُونَ﴾ قال: بلى، قال: (ربع القرآن) قال: (أليس معك ﴿إِذَا زُلْزِلَتِ الْأَرْضُ زِلْزَالَهَا﴾ قال: بلى، قال: (ربع القرآن) تزوج تزوج) ^(١).
- ٣- عن عبد الله بن عمرو رضي الله عنه أن هذه السورة نزلت وأبوبكر قاعد، فبكى، فقال له النبي ﷺ ما يبكيك يا أبا بكر؟ فقال: أبكاني هذه السورة، فقال ﷺ: «لو أنكم لا تخطئون ولا تذنبن، لخلق الله أمة بعدكم يخطئون ويزنبن ويستغفرون فيغفر لهم» ^(٢).

أغراض السورة:

هذه السورة تتحدث عن الزلزال العظيم الذي يكون بين يدي الساعة، حيث يندك كل صرح، وينهار كل جبل، وتبديل الأرض غير الأرض والسموات.

وحين يحدث زلزال في هذه الدنيا في بقعة من العالم لمدة ثانية واحدة، أو جزء من الثانية، فإننا نشاهد الدمار والخراب الذي لا نظير له من جراء هذا الزلزال.

وقد يستمر الزلزال بضع دقائق فيترك العواصم أنقاضاً، والقرى تراباً، وإذا اقترن الزلزال بثوران البراكين من باطن الأرض تضاعف العذاب، وعمَّ الخراب والدمار، فأتى على الحرث والنسل.

وقد يكون هذا عقوبة من الله تعالى لسبب من الأسباب، قال تعالى: ﴿قُلْ هُوَ الْقَادِرُ عَلَى أَنْ يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِّنْ فَوْقِكُمْ أَوْ مِنْ تَحْتِ أَرْضِكُمْ أَوْ يَلْسِكُمْ سُوءًا وَيُذِيقَ بَعْضُكُم بَأْسَ بَعْضٍ﴾ [الأنعام: ٦٥].

والعذاب الذي من تحت الأرجل يكون بالرجفة والخسف والزلازل والبراكين.

(١) رواه الترمذي وقال حديث حسن، برقم (٢٨٩٥)، وأحمد في المسند (١٣٣٠٩) بإسناد ضعيف لضعف سلمة بن وزدان، وأخرجه البيهقي في الشعب (٢٥١٥)، وأبو يعلى (٤١١٨).

(٢) تفسير الطبري (٥٦٨/٢٤)، والبيهقي (٧١٠٣)، وابن أبي الدنيا (٨٦)، والطبراني (٨٧)، قطعة من الجزء (١٣)، قال الهيثمي في مجمع الزوائد (١٤١/٧): رواه الطبراني ورجاله ثقات.

قال سبحانه: ﴿ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ مِمَّا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُمْ بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ [الروم: ٤١].

وإذا كان الأمر كذلك بالنسبة لزلازل الدنيا، فما بالنا بالزلازل العظيم الهائل الذي يعم أرجاء الأرض عند قيام الساعة، حيث يفزع الناس فزعاً شديداً، فتذهل الأم عن ولدها الذي أَرْضَعَتْهُ، وتُسْقِطُ ما في بطنها من شدة الخوف والفزع، وترى الناس في ذهول وفقدان للرشد والصواب، كأنهم سكارى، وما هم بسكارى بشرب خمر أو مسكر، ولكنهم خافوا عذاب الله الذي ظهرت أماراته وبوداره.

وسورة الزلزلة مع أنها مدنية عند الجمهور، إلا أنها تتناول هذا الجانب المكي غالباً، وهو الحديث عن القيامة ومقدماتها وأحوالها، ومآل الناس في الآخرة. فتبين آيات السورة أنه قبل أن تقوم الساعة، يقع زلزال كبير يُدمِّر قَارَاتِ الدُّنْيَا كُلَّهَا، فتتفُضُّ الأرض ما في جوفها، وتُخْرِجُ ما يُثْقِلُهَا من أجساد ومعادن. وفي لمحة خاطفة، ترى الخلق في أرض المحشر، ليواجهوا حسابهم وجزاءهم على ما قدمت أيديهم.

فالسورة تتحدث عما يصاحب قيام الساعة من تغيير في الكون، وخروج الناس من قبورهم ليواجهوا أعمالهم التي كانت في الدنيا، حيث تشهد الأرض بما اقترفته أيدي الناس وهم على ظهرها، وبعد الحساب يكون الجزاء من جنس العمل، فيحصد العبد ما زرعه في دنياه، وَيَجْنِي ثَمَرَتَهُ فِي النِّعَمِ الْمَقِيمِ، أو العذاب الأليم. نسأل الله العفو والعافية والسلامة في الدنيا والآخرة، إنه سميع مجيب.

تَفْسِيرُ السُّورَةِ

الزَّلْزَلُ الْكَبِيرُ

١- ﴿إِذَا زُلْزِلَتِ الْأَرْضُ زِلْزَالَهَا﴾

هذه الجبال الرواسي، وهذه الأرض الثابتة، ترجف وتضطرب وتهتز بشدة وتحرك بقوة يوم لقاء الله: ﴿يَوْمَ تَرْجُفُ الْأَرْضُ وَالْجِبَالُ وَكَانَ الْجِبَالُ كَيْيَاً مَهِيلاً﴾ [المزمل: ١٤] فالأرض ترجف والجبال تتفتت: ﴿إِذَا رُجَّتِ الْأَرْضُ رَجًا﴾ [الفجر: ٢١] وتكون الجبال كالصوف المنفوش، الأرض دكا: ﴿كَلَّا إِذَا دُكَّتِ الْأَرْضُ دَكًّا دَكًا﴾ [الفجر: ٢١] وتكون الجبال كالصوف المنفوش، وتنفس نسفاً و﴿تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ السَّحَابِ﴾.

وهكذا تزلزل الأرض وترجف عند قيام الساعة وتخرج رجاً شديداً، ولا تسكن حتى تلقى ما على ظهرها من جبال وشجر وبناء، وتخرج ما في جوفها من أموات ودفائن، ويكون هذا إيذاناً بقيام الساعة، فتبدل الأرض غير الأرض والسموات.

إِخْرَاجُ الْأَرْضِ مَا فِي جَوْفِهَا عِنْدَ قِيَامِ السَّاعَةِ

٢- ﴿وَأَخْرَجَتِ الْأَرْضُ أَثْقَالَهَا﴾

تتحرك الأرض وتضطرب من شدة صوت إسرافيل، فتكشف عن أجساد وعظام ورفات وذرات، وتخرج ما في بطنها من الأموات فتلقيه على ظهرها ﴿يَوْمَ تَشْقَى الْأَرْضُ عَنْهُمْ سِرَاعًا ذَلِكَ حَشْرٌ عَلَيْنَا يَسِيرٌ﴾ [ق: ٤٤].

والأرض حينئذ تكون منفذة لأمر ربها ومستجيبة له، فلا يبقى فيها بناء ولا قصر، ولا جبل ولا مرتفع ولا منخفض إلا وسوي بالأرض: كما قال تعالى: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْجِبَالِ فَقُلْ يَنْسِفُهَا رَبِّي نَسْفًا﴾ [١٥] فَيَذَرُهَا قَاعًا صَفْصَفًا [١٦] لَا تَرَى فِيهَا عِوَجًا وَلَا أَمْتًا [طه: ١٠٥-١٠٧].
تطرح الأرض فلذة كبدها من الكنوز والموتى، وتتخلى عما كان في جوفها، ليلقى العبد ربه وحيداً فريداً كما خلقه أول مرة، تاركاً وراءه كل منصب ومال وجاه وولد:

﴿وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرْدَىٰ كَمَا خَلَقْتَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَتَرْكُم مَّا خَوَّلْتَكُمْ وَرَاءَ ظُهُورِكُمْ﴾ [الأنعام: ٩٤].

لقد كانت الأرض تُواري الإنسان في الدنيا، وكانت له كفاتاً، أحياء وأمواتاً، وكانت له فراشاً ومهاداً، وإذا بها عند النفخ في الصور تَلْفِظُهُ وتتخلَّى عنه ﴿وَأَلْقَتْ مَا فِيهَا وَتَخَلَّتْ﴾ ④ ﴿وَأَذْنَتْ لِرَبِّهَا وَحَقَّتْ﴾ [الانشقاق: ٤ - ٥].

في صحيح مسلم وغيره بسنده عن أبي هريرة ؓ قال: قال رسول الله ﷺ: «تقيء الأرض أفلاذ كبدها أمثال الاسطوان من الذهب والفضة، فيجيء القاتل فيقول: في هذا قَتَلْتُ، ويجيء القاطع (قاطع الرحم) فيقول: في هذا قَطَعْتُ رَحِمِي، ويجيء السارق فيقول في هذا (يعني بسبب هذا) قَطَعْتُ يَدِي، ثم يدعونه فلا يأخذون منه شيئاً»^(١). والمعنى أن الأرض تُخْرِج ما في جوفها من القطع المدفونة فيها، ومن الموتى، ويتعرف الإنسان على ما حدث منه فوقها.

وقد شُبِّه الإنسان في الحديث السابق: بالاسطوان: وهي السارية أو العمود، لشَبَّه به في عظمته، وكثرته.

والأفلاذ: جمع فلذة وهي القطعة المستطيلة، وخص الكبد في الحديث بالذكر، لأنه مستور في الجوف، واستعير القيء للإخراج.

والإنسان إذا كان في بطن الأرض فهو ثَقُل لها، وإذا كان فوقها فهو ثَقِيل عليها، ومنه سميت الإنس والجن بالثقلين، لأن الأرض تثقل بهم أحياء وأمواتاً.

تَعَجَّبُ الْإِنْسَانُ مِنْ تَغْيِيرِ حَالِ الْأَرْضِ

٣- ﴿وَقَالَ الْإِنْسَانُ مَا لَهَا﴾ ③ ﴿﴾

يتعجب الإنسان مما حدث للأرض من رجفة واضطراب، وقد كانت ثابتة مستقرة، فما الذي دهاها وجعلها تُخرج ما في جوفها وتزلزل وتتحرك، وهل المراد بالإنسان ما يعم المسلم والكافر؟ على أساس أن الزلزلة من علامات الساعة الكبرى؟ فيسأل

(١) صحيح مسلم برقم (١٠١٣)، والترمذي (٢٢٠٨).

بعضهم بعضاً عن ذلك، والظاهر أن الأمر كذلك.

وقيل: إن المراد بالإنسان خصوص الكافر، فهو الذي تأخذه الدهشة والذعر، أما المؤمن فإنه يعلم أن ذلك جزءاً من عقيدته، وهو يقول حين يرى ذلك - كما أخبر رب العالمين - ﴿هَذَا مَا وَعَدَ الرَّحْمَنُ وَصَدَقَ الْمُرْسَلُونَ﴾ [يس: ٥٢] فهو يطمئن لهذا الوعد الإلهي. أما الكافر فإنه يدعو على نفسه بالويل والثبور ويقول ﴿يَوَلِّكُنَا مِنْ بَعَثَانَا مَرْقَدًا﴾ [يس: ٥٢] وذلك بعد النفخ في الصور وخروج الموتى من القبور، حين قيام الناس لرب العالمين.

شَهَادَةُ الْأَرْضِ عَلَى الْإِنْسَانِ

٥، ٤ - ﴿يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا ۚ بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَىٰ لَهَا ۚ﴾

يخبر الله عز وجل أن الأرض تنطق يوم القيامة وتشهد على الإنسان من جملة الشهود الذين يشهدون بما عمله على ظهرها من خير أو شر، فتشكر المطيع وتذم العاصي، وتشهد للأول، وتشهد على الثاني.

والظاهر أن هذا الحديث من الأرض كلام حقيقي، إذ أن الأوضاع تتغير في ذلك اليوم، فالله تعالى يأمر الأرض ويأذن لها، فتشهد وتنطق بما عمل عليها من طاعة ومعصية، وتشهد على من فعل ذلك.

والمقصود أن كل إنسان في هذا اليوم سيتبين له جزاء عمله، وما أعدّه الله له، فيجازى به. وكما أن الله تعالى يُنطق الجلود والجوارح لتشهد على الإنسان يوم القيامة - حينما يتنصل من ذنبه، ولا يقبل شاهداً إلا من نفسه - كذلك فإن الله تعالى يُنطق الأرض لتشهد بما عمل عليها.

ومصادق ذلك من السنة، ما جاء في حديث المؤذن الذي أخرجه ابن خزيمة في صحيحه عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال:

«لا يسمع صوته شجر ولا مدر ولا حجر ولا جن ولا إنس إلا شهد له»^(١).

(١) وانظر صحيح البخاري (٦٠٩، ٣٢٩٦، ٧٥٤٨٠).

وأخبر النبي ﷺ أن الحجر ينطق ويقول: (يا مسلم هذا يهودي ورائي فتعال فاقتله)^(١). وفي حديث أبي هريرة ؓ أن رسول الله ﷺ قال: «أتدرون ما أخبارها؟ قالوا: الله ورسوله أعلم، قال: أخبارها أن تشهد على كل عبد وأمة بما عمل على ظهرها تقول، عمل كذا وكذا في يوم كذا وكذا، قال: فهذه أخبارها»^(٢).

ولما كانت الأرض تشهد للإنسان، فإنه ينبغي له أن يُكثر من تعدد البقاع التي تشهد له، فيعدد أماكن الصلاة، ولا يوطن نفسه في مكان واحد، وإذا دخل بلداً فليبدأ فيها بالصلاة لتشهد له كما كان النبي ﷺ يفعل، وهكذا جميع الطاعات، وليحاول الإنسان ما استطاع إلى ذلك سبيلاً ألا يقترب ذنباً وألاً يعدد أماكن المعصية حتى لا تشهد الأرض عليه يوم القيامة. والله سبحانه هو الذي أذن للأرض أن تتكلم وتُخبر عن حالها وما جرى عليها، وهو سبحانه الذي أمرها بذلك، وهي سماعة مجيبة منقادة لأمر الله عز وجل، وحق لها أن تسمع وتجب ﴿وَإِذَا الْأَرْضُ مُدَّتْ ۖ (٢) وَأَلْقَتْ مَا فِيهَا وَتَخَلَّتْ ۖ (٤) وَأَذْنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ ۖ﴾ [الانشقاق: ٣ - ٥]. أي استمعت وانقادت لأمر الله تعالى وحق لها ذلك.

مِنْ سَاحَةِ الْعَرْضِ وَالْحِسَابِ إِلَى الْمَصِيرِ الْمَحْتُمِ

٦ - ﴿يَوْمَئِذٍ يَصْدُرُ ۖ (٣) النَّاسُ أَشْتَاتًا ۖ (٤) لِيُرَوْا أَعْمَلَهُمْ ۖ﴾

تتشقق الأرض عن الموتى، ويخرجون من قبورهم سراعاً، ماذين أعناقهم، مُقبِلين نحو صوت الداعي (إسرافيل) ناظرين إليه بأبصارهم، وهم ينبعثون من شتى أرجاء

(١) من حديث أبي هريرة في المسند (٩٣٩٨)، وصحيح البخاري (٢٩٢٦)، وصحيح مسلم (٢٩٢٢).

(٢) المسند (٣٧٤/٢) (٨٨٦٧) بإسناد ضعيف لأن يحيى بن أبي سليمان متكلم فيه (محققوه)، وسنن الترمذي برقم (٢٤٢٩، ٢٣٥٣) وقال: حسن صحيح غريب، وسنن النسائي الكبرى برقم (١١٦٢٩)، وابن حبان (٧٣٦٠)، والحاكم (٢٥٦/٢)، والبيهقي في الشعب (٧٢٩٨)، وفي سنده مقال، وله شاهد، انظر: ضعيف سنن الترمذي (٦٤٤، ٤٢٨).

(٣) قرأ حمزة والكسائي ورويس وخلف بإشمام الصاد صوت الزاء من ﴿يَصْدُرُ﴾ والباقون بالصاد الخالصة.

(٤) لم يعد الكوفي والمدني الأول لفظ ﴿أَشْتَاتًا﴾ آية، وعدّها غيرهما.

الأرض كأنهم جراد منتشر، إنهم ذاهبون إلى حيث تُعرض عليهم أعمالهم، ليواجهوها ويواجهوا الجزاء عليها.

ومواجهة الإنسان لعمله السيء مواجهة مُرة وقاسية، فهو يحاول الهرب منها ما استطاع، ويشيح بوجهه عنها، ولا سيما وهو على رؤوس الأشهاد، قال تعالى: ﴿يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّخَضَّرًا وَمَا عَمِلَتْ مِنْ سُوءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُ أَمَدًا بَعِيدًا﴾ [آل عمران: ٣٠].

والآية تصور الناس وهم يصدرون عن موقف الحساب بعد العرض أشتاتاً، وينصرفون منه متفرقين ذات اليمين وذات الشمال، بين شقي ذاهب إلى النار - نعوذ بالله من النار - وسعيد ذاهب إلى الجنة - نسأل الله من فضله - ليُروا جزاء أعمالهم التي قدّموها في دنياهم من خير وشر، فالحسنات التي عملوها في الدنيا ورثتهم الجنة، والسيئات ورثت مُرتكبيها النار، وقد رأوا ذلك في صحف أعمالهم، وتم فصل القضاء بينهم في ساحة العدل الإلهية.

الْعَدَالَةُ الْمُطْلَقَةُ

٨،٧ - ﴿فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ﴾^(١) ﴿وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ﴾^(٢)

من يعمل وزن الذرة فما فوقها من الخير أو الشر، فإنه يجزى عليها يوم القيامة، وفي هذا ترغيب في فعل الخير ولو كان قليلاً، وترهيب من فعل الشر ولو كان حقيراً، فالذرة شيء لا يذكر، ولا يرى إلا بالمجهر:

في أسباب النزول أن هذه الآية نزلت في رجلين:

أحدهما: لا يبالي بارتكاب صغائر الذنوب.

وثانيهما: يحب أن يتصدق، فلا يجد إلا اليسير، فيستحي أن يتصدق^(٣).

(١) قرأ هشام بإسكان الهاء من ﴿يَرَهُ﴾ فيهما معا وابن وردان بالإسكان والاختلاس، ويعقوب بالاختلاس والإشباع، والباقون بالإشباع.

(٢) ينظر: الواحدي (ص ٣٧٣)، وزاد المسير (٢٠٥/٩)، والبغوي (٥١٦/٤) وغيرهم.

١- قال الربيع بن خيثم: مر رجل بالحسن، وهو يقرأ هذه السورة، فلما بلغ هذه الآية قال: حسبي، قد انتهت الموعظة^(١).

٢- وأخرج الطبري بسند حسن عن علي بن أبي طلحة عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: (ليس مؤمن ولا كافر عمل خيراً ولا شراً في الدنيا، إلا أتاه الله إياه، فأما المؤمن فيرى حسناته وسيئاته، فيَغْفِرُ له سيئاته، وأما الكافر فيَرُدُّ حسناته، ويُعَذِّبُهُ بسيئاته)^(٢).

٣- وأعطى سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه سائلاً ثمرتين، فقبض السائل يده، فقال له سعد: إن الله تعالى قبل منا مثاقيل الذر^(٣).

٤- وقد وصف النبي ﷺ هذه الآية بأنها «الآية الفائزة الجامعة» حينما سئل عن زكاة الحُمْر، فقال: ما أنزل عليّ فيها إلا هذه الآية الفائزة الجامعة ﴿فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ﴾ (٧) وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ (٤).

٥- وقدم رجل على النبي ﷺ فقرأ عليه هذه الآية ﴿فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ﴾ (٧) وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ (٤) فقال الرجل: حسبي - كافيي - أن لا أسمع غيرها^(٥). وكان المسلمون يرون أنهم لا يُؤْجَرُونَ على الشيء القليل، كالتمرة والكسرة، ويقولون: إنما نُؤْجَر على ما نُعْطَى ونحن نحبه.

وكان آخرون يرون أنهم لا يُلامون على اليسير من الذنب، كما يقال: هذه كذبة بيضاء، وكمن يَسْتَحِفُّ بالنظرة، أو الهَمْزَة أو اللَمْزَة أو السخرية ونحو ذلك، ويقولون: إنما توَعَّد الله بالنار أهل الكِبائر، فرَغِبَ الله سبحانه في القليل من الخير أن يعملوه،

(١) عبد الرزاق (٣٨٨/٢)، وابن المبارك (٨٢).

(٢) تفسير الطبري (٥٦٣/٢٤)، والبيهقي في البعث (٥٩).

(٣) تفسير ابن عطية (٥١١/٥).

(٤) من حديث أبي هريرة في البخاري (٤٩٦٢، ٢٣٧١، ٩٨٧)، ومسلم (١٨٣١، ٩٨٧)، ومالك (٤٤٤/٢)، والمسند (٨٩٧٩، ٧٥٦٣)، والنسائي (٣٥٦٤)، وابن ماجه (٢٧٨٨).

(٥) المسند (٢٠٥٩٥، ٢٠٥٩٣) عن صعصعة بن معاوية بإسناد صحيح ورجاله ثقات، والحاكم (٦١٣/٣)، والطبراني في الكبير (٧٤١١)، والنسائي في الكبرى (١١٦٩٤).

وحذّرهم من عمل اليسير من الشر.

معنى الذرة:

أما معنى الذرة فقد قيل قديماً: إن الذرة هي البعوضة، أو النملة، أو ذرة تراب، أو الهباءة التي تُرى في شعاع الشمس حين يدخل من النافذة.

وأثبت العلم الحديث أن الذرة أصغر من ذلك بكثير، فالهباءة: ترى بالعين المجردة، أما الذرة فلا تُرى ولا بالمجاهر في المعامل، بل إن الذرة تتفتت ولها أجزاء.

والقرآن الكريم يحتوي على هذه المعاني كلها، ويقرر أن هناك ما هو أصغر من الذرة، فقال تعالى: ﴿عَلِمَ الْغَيْبُ لَا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ وَلَا أَصْغَرُ مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْبَرُ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ﴾ [سبأ: ٣].

وقال: ﴿وَمَا يَعْزُبُ عَنْ رَبِّكَ مِنْ مِثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ وَلَا أَصْغَرُ مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْبَرُ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ﴾ [يونس: ٦١].

ولاحد لهذا الأصغر بأي نسبة كانت، فهو شامل لتفجير الذرة وأجزائها مهما صغرت تلك الأجزاء فعمل المرء مهما قل أو كثر، مدون في صحيفته وثابت في ميزانه.

التصدق بالقليل:

فَقَدْ هذا المعنى عائشة رضي الله عنها فقد ورد أنها تصدقت بعنبة وقالت: كم فيها من ذرة؟ وكان السائل قد استصغرها:

- ١ - جاء من عدة طرق أن سائلاً أتى عائشة رضي الله عنها، وعندها سلّة من عنب، فأخذت حبة من عنب فأعطته، فقليل لها في ذلك، فقالت: هذه أثقل من ذرّ كثير، ثم قرأت الآية^(١).
- ٢ - وأخرج البيهقي في شعب الإيمان عن عائشة رضي الله عنها أن سائلاً أتاه فقال لجاريتها: أطعميه، فوجدت تمرة، فقالت: أعطيتها إياه، فإن فيها مثاقيل ذرّ إن تُقُبِلت^(٢).

(١) أخرجه مالك (٩٩٧/٢)، وابن سعد (٤٩٠/٨)، والبيهقي (٣٤٦٦) وعبد بن حميد .

(٢) البيهقي (٣٤٦٥).

٣ - وأخرج ابن أبي شيبة أن سائلاً سأل عبد الرحمن بن عوف وبين يديه عنب، فناولته حبة، فكأنهم أنكروا ذلك عليه، فقال: في هذه مثاقيل ذر كثيرة^(١).

٤ - وهكذا فإن سعد بن مالك أتاه سائل وبين يديه طبق عليه تمر، فأعطاه تمرة، فقبض السائل يده، فقال السائل: ويحك، يقبل الله منا مثقال الذرة والخردلة^(٢).
قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ وَإِنْ تَكُ حَسَنَةً يُضْعِفْهَا وَيُؤْتِ مِنْ لَدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ [النساء: ٤٠].

وقال سبحانه: ﴿وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَمَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَإِنْ كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَى بِنَا حَاسِبِينَ﴾ [الأنبياء: ٤٧].

وقال لقمان لابنه: ﴿يَبْنِيْ إِنَّمَا إِنْ تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ فَتَكُنْ فِي صَخْرَةٍ أَوْ فِي السَّمَوَاتِ أَوْ فِي الْأَرْضِ يَأْتِ بِهَا اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ﴾ [لقمان: ١٦].

وفي الصحيحين عن أبي هريرة ؓ أن النبي ﷺ قال: «يا نساء المسلمين، لا تحتقرن جارة لجارتها ولو فرسن شاة»^(٣).

وحث عليه الصلاة والسلام على بذل القليل من العمل ولا يستصغره، فإن المنع والعدم أصغر منه، فلا يتم التصديق بالتمرة ونحوها، وفي الحديث عن عدي بن حاتم ؓ أن النبي ﷺ قال: «اتقوا النار ولو بشق تمرة»^(٤).

وتبسمك في وجه أخيك صدقة، ومساعدته في حمل متاعه، أو توصيله إلى مكانه في سيارتك، أو الوقوف له حتى يجتاز الطريق، كل هذا ونحوه خير، لا يُحتقر فعله.
محقرات الذنوب:

كما أن المرء لا يستصغر الذنب مهما قل، ولا يستمرئه ويتعوده، فإن هذا يؤدي به إلى المهالك.

(١) ابن أبي شيبة (١١٣/٣).

(٢) الدر المنثور (٥٩٤/١٥).

(٣) البخاري (٦٠١٧، ٢٥٦٦)، ومسلم (١٠٣٠) عن أبي هريرة ؓ.

(٤) صحيح البخاري برقم (١٠١٦، ٦٥٤٠) من حديث عدي بن حاتم، وصحيح مسلم (١٠١٦).

عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «إياكم ومحقرات الذنوب فإنهن يجتمعن على الرجل حتى يهلكنه»^(١).

قال ابن مسعود: المؤمن يرى ذنوبه كأنه قاعد تحت جبل يخاف أن يقع عليه، وإن الفاجر يرى ذنوبه كذباب مرّ على أنفه فقال به هكذا (يعني أشار إليها بيده) فطارت، كأنها شيء هين عليه.

عن عائشة رضي الله عنها قالت: قال لي رسول الله ﷺ: «يا عائشة، إياك ومحقرات الأعمال، فإن لها من الله طالباً»^(٢) ومعنى: (فإن لها من الله طالباً) أي لها ملك يسألك من قبل الله تعالى عنها، كالملكين اللذين يسألان العبد في قبره.

وكم من شخص أصرّ على صغيرة فألفها وهانت عليه، ولم يفكر في عظمة من عصاه، فأورثته ذلاً، وكانت سبباً في سوء خاتمته - والعياذ بالله -.

وعن سهل بن سعد رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إياكم ومحقرات الذنوب، فإنما مثل محقرات الذنوب، كقوم نزلوا بطن واد، فجاء ذا بعود، وجاء ذا بعود، حتى أنضجوا خُبَزَتَهُمْ، وإن محقرات الذنوب متى يؤخذ بها صاحبها تُهْلِكُهُ»^(٣). قال أنس بن مالك رضي الله عنه: إنكم لتعملون أعمالاً هي أدق في أعينكم من الشعر، كنا نعدها في عهد رسول الله ﷺ من الموبقات^(٤).

(١) المسند (٣٨١٨) من حديث طويل، وهو حسن لغیره لجهالة حال (عبد ربه) كما قال محققوه، وأخرجه الطيالسي (٤٠٠)، والبيهقي في الشعب (٢٨٥)، والطبراني في الكبير (١٠٥٠٠)، والأوسط (٢٥٥٠).

(٢) سنن ابن ماجه (٤٢٤٣)، قال البوصيري في الزوائد: هذا إسناد صحيح ورجاله ثقات. وصححه الألباني في صحيح سنن ابن ماجه (٣٤٢١)، والسلسلة الصحيحة (٥١٣)، وأخرجه ابن حبان في صحيح (٥٥٦٨) الإحسان، وقال محققه: إسناده صحيح على شرط البخاري، رجاله رجال الشيخين، وأخرجه أحمد في المسند (٧٠/٦) برقم (٢٥١٧٧، ٢٤٤١٥) بإسناد قوي، والدارمي في سننه (٣٩٥/١) برقم (٢٧٢٦).

(٣) المسند (٢٢٨٠٨) قال محققوه: إسناده صحيح، رجاله ثقات، رجال الشيخين، وأخرجه الطبراني في الكبير (٥٨٧٢)، والأوسط (٧٣١٩)، والصغير (٩٠٤)، والبيهقي في الشعب (٧٢٦٧)، والبخاري في شرح السنة (٤٢٠٣)، وصححه ابن حبان (٥٥٦٨).

(٤) أورده أحمد في المسند عن عبادة بن قرط برقم (٢٠٧٥٢، ٢٠٧٥١) بإسناد صحيح ورجاله ثقات، وأخرجه الطيالسي (١٣٥٣).

وفي الأرض قلوب لا تتحرك للجبل من الذنب والمعاصي، ولا تعباً إذا فاتها الخير كله. وفي الآية التفات للتحذير والتنبيه، والإنسان لم يزل حياً قبل أن يموت، فهي توحى إليه بالعمل الصالح وترك السيء:

فمن يعمل الآن في الدنيا مثقال ذرة من الخير يره في الآخرة، ومن يعمل الآن في الدنيا مثقال ذرة من الشر يجده في الآخرة، وهذا بالنسبة للمؤمن، أما الكافر فالمقصود من الآية بالنسبة له عقابه في الآخرة على عمل الشر، أما عمل الخير فهو غير مأجور عليه. **جزاء الكافر في الدنيا:**

والله سبحانه وتعالى لا يظلم مثقال ذرة، والكافر ممنوع من دخول الجنة، وقد تكون له في الدنيا أعمالاً حسنة، من حُسن خلقٍ وبرٍّ وصدقة وغير ذلك، فأين الجزاء على هذه الحسنات؟

إنه ينال جزاءه عليها في الدنيا، قد يكون ذلك في صورة وفرة المال، أو إعطاء المنصب والجاه، أو زيادة الأولاد، أو حُسن صحة، وليس له في الآخرة نصيب من الأجر، وهكذا، فالدنيا سجن المؤمن وجنة الكافر.

كان عبد الله بن جُدعان يُطعم الحجيح ويكسوهم ويصل الرحم ويطعم المساكين فسألت عائشة رسول الله ﷺ هل ينفعه ذلك في الآخرة، فقال عليه الصلاة والسلام: «لا، يا عائشة إنه لم يقل يوماً من الدهر رب اغفر لي خطيئتي يوم الدين»^(١) فهو لم يكن مؤمناً والكافر لا يقبل منه عمل.

قال تعالى: ﴿وَقَدِمْنَا إِلَىٰ مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَنْثُورًا﴾ [الفرقان: ٢٣].

وقال سبحانه: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَلُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْثَانُ مَاءً حَلَّىٰ إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا وَوَجَدَ اللَّهَ عِنْدَهُ فَوَفَّيْنَاهُ حِسَابَهُ وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾ [النور: ٣٩].

(١) المسند (٢٤٦٢١) قال محققوه: إسناده صحيح على شرط مسلم، وقد أخرجه مسلم (٣٦٥، ٢١٤)، وابن حبان (٣٣١)، والطحاوي في شرح مشكل الآثار (٤٣٥٧).

من جزاء المؤمن في الدنيا:

وقد يكون ما يصيب المسلم مما يكره من الشر، تعجلاً له بالعقوبة في الدنيا على بعض ما يقترب من معاصي، قال تعالى: ﴿وَمَا أَصَابَكُمْ مِّنْ مُّصِيبَةٍ فِيمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُوا عَنْ كَثِيرٍ﴾ [الشورى: ٣٠].

ورد أن أبا بكر الصديق ؓ كان يأكل مع النبي ﷺ ونزلت الآية ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ﴾ (٧) وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ ﴿ فرفع أبو بكر يده من الطعام وقال: إني لراء ما عملت من مثقال ذرة من شر؟ فقال: (يا أبا بكر، أرأيت ما نكره في الدنيا من مثاقيل ذر الشر، ويُدخِرُ لك مثاقيل ذر الخير حتى تُوفاه يوم القيامة^(١).

فلا ينبغي للعبد أن يحتقر شيئاً من المعاصي فيجرؤ على ارتكابها، ولا يستصغر شيئاً من الطاعات فيزهد فيها ويُحرَم أجرها.

وينبغي عليه أن يحاسب نفسه قبل أن يحاسب، ويزن أعماله قبل أن توزن عليه، ويندم قبل أن يأتي وقت لا ينفع فيه الندم، ويتمنى لو أنه كان قد زاد ركعة أو تسبيحة أو تحميدة أو خطوة إلى بيت الله في ظلم الليل.. الخ.

قال كعب الأحبار: لقد أنزل على محمد آيتان أحصتا ما في التوراة والإنجيل والزبور والصحف ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ﴾ (٧) وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ ﴿.

فالسورة جديرة بالتدبر والاهتمام، وفهم معانيها، والاعتبار بما فيها من الأخبار والمواعظ التي تهز الضمائر الحية، فحري بكل مسلم أن يتعلمها ويعلمها أهله وأولاده وإخوانه ويعملوا بما فيها من العلم، وصلى الله على نبينا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

تم تفسير (سورة الزلزلة) والله الحمد والمنة

(١) تفسير الطبري (٥١٣/٢٠، ٥٦٤/٢٤)، والطبراني (٨٤٠٧)، والبيهقي (٩٨٠٨)، وابن أبي حاتم وهو حديث مرسل، كما في علل الدار قطني (٢٢٧/١).

تفسير سورة العاديات (١٠٠)

مقدمة السورة

١ - (سورة العاديات) هي السورة تمام المئة في ترتيب المصحف، وفيها يبدأ ربع الحزب الأخير في المصحف، من قوله تعالى: ﴿أَفَلَا يَعْلَمُ إِذَا بُعْثَ مَا فِي الْقُبُورِ﴾. وكان الأولى أن يبدأ هذا الربع من أول سورة القارعة، أو من أول سورة العاديات، لاسيما وأن تحزيب المصحف قد وُضع بعد القرن الثالث فهو ليس توقيفياً^(١). وهي السورة الرابعة عشرة في ترتيب النزول، نزلت بعد (سورة العصر) وقبل (سورة الكوثر).

وعدد آياتها إحدى عشرة آية، وهي أربعون كلمة، ومئة وثلاثة وستون حرفاً. وتسمى (سورة العاديات) بالواو، وبدونها. وهي من السور المختلف فيها، بين كونها مكية أو مدنية. وما جاء في سبب النزول عن قتادة يرجح كونها مدنية، وهو أن النبي ﷺ بعث سرية فيها خيل إلى بني كنانة، وأمر عليها (المنذر بن عمرو الأنصاري) فتأخرت شهراً، فقال المنافقون، قُتلوا جميعاً، فأخبر الله عنهم بقوله: ﴿وَالْعَدِيَّتِ ضَبْحًا﴾ الآيات^(٢). وفيها إعلام بأن السرية لم يُقتل منها أحد، وأن الخيل قد فعلت جميع ما ورد في وصفها في الآيات الخمس الأول من السورة.

(١) ينظر في هذا كتابي: فن الترتيل وعلومه، الجزء الأول، وكتابي: تيسير علم التجويد الطبعة الثانية والثالثة.
(٢) الواحدي في أسباب النزول ورواه الحاكم، وفي سنده حفص بن جميع، وهو ضعيف، كما في مجمع الزوائد (١٤٢/٧) وهو في مسند البزار (٢٢٩١) كشف الأستار، وفي تفسير القرطبي (١٥٥/٢٠) وعند عبدالرزاق (٣٩٠/٢) والطبري (٥٧١/٢٤).

وفيها تنويه بشأن الخيل في الجهاد وإرسال السرايا لرد الاعتداء وإزالة العقبات من طريق الدعوة، وظهور النفاق، كان بالمدينة.

٢ - وآيات سور العاديات الأحد عشر، منها ثلاث آيات في أولها، تَحْمِلُ قَسْماً بأدوات الجهاد التي تختلف من وقت لآخر، وكان الخيل وقت التنزيل أعظم ما يُستخدم في الجهاد، وقد يضارعها في وقتنا: الصواريخ أو الطائرات أو الدبابات.. ولا تزال الخيل تُستخدم في بعض الحروب.

وتنويهاً بشأن الخيل أقسم الله تبارك وتعالى بها عندما تغدوا، وعندما تتردد أنفاسها في صدورهم، وعندما ينقذ الشر من تحت سناكبها لشدة جزيها.

كما أقسم سبحانه وتعالى بالرجال الذين يقتحمون بالخيول ساحة المعركة، وهم يستقبلون الموت دفاعاً أو هجوماً، وهذا القسم على أن الإنسان كفور لأنعم الله عليه، جحود لفضله، مع شدة حبه للمال، ونسيانه الحساب والجزاء يوم القيامة، وتحصيل ما في الصدور يوم البعث والنشور، ونسيانه أن الله تعالى رقيب ومطلع على العبد في جميع أعماله.

وفي هذا القسم حث على صالح الأعمال، وإشادة بشأن الجهاد، فإن الجهاد يحرس العقيدة، ويحمي الحقيقة، ويصون البلاد والحرمات، فيران الجهاد كالسوائل المبيدة للحشرات، تحمي الزرع والضرع، والحق يحتاج إلى من يذود عنه، ويستبقه على مر الأيام، والباطل يمتد كلما وجد فراغاً أمامه، فإذا وجد مقاومة ضعيفة اجتاحتها وبلغ غرضه، وأهل الباطل يسرقون العقائد والفضائل، ويفرضون الظلم على الناس، ويستولون على ثرواتهم وبلادهم وراثتهم.

وها نحن نعيش أحداث العراق وفلسطين وأفغانستان والبوسنة والهرسك والصومال والشيشان وكشمير، وغيرها، إن الحق لا يقوم بذاته، بل لابد له من قوة تحميه.

ولذا كان الإسلام: مصحفاً وسيفاً، ودعوة وجهاداً، ومسجداً ومعركة.

٣ - إن الإسلام بحاجة إلى خيل وخيالة، يفَضِّلون الموت على الحياة، ويؤثرون الآخرة على الدنيا، ويجتذِّون طاقاتهم المادية والمعنوية لتصنيع السلاح المضارع لسلاح العدو، مع وجوب توحيد الكلمة وعدم الفرقة.

ولهذا فإن الله تعالى أقسم بالخيَل وبوضف حركاتها في أرض المعركة، تعظيماً لشأن الجهاد..

فأقسم تبارك وتعالى بثلاثة أشياء هي: العاديات، والموريات، والمغريات، على ثلاثة أمور هي: جحود الإنسان، وشهادته على جحوده، وحبه للمال.

وعقب على ذلك بثلاثة أشياء هي: بَعَثْتُ ما في القبور، وتحصيل ما في الصدور، وإحاطة علم الله تعالى بهم، فيجازيهم بما عملوا.

وللمفسرين في المراد بالعاديات والموريات والمغريات، قولان:

أحدهما: أنها الخيل، تَعُدُّوا في الغزو، وهو الذي عليه أكثر المفسرين.

وثانيهما: أنها الإبل تَعُدُّوا بالحجيج من عرفات إلى مزدلفة ومنى، وهذا القول مبني على أثرٍ يحكي نقاشاً جرى بين عليّ وابن عباس رضي الله عنهم في معنى ﴿وَالْعَادِيَاتِ﴾ وأن علياً عليه السلام فسرها بأنها الإبل تعدو من عرفة إلى مزدلفة فترى النيران تحت سناكبها^(١).

وهذا وصف لها في بعض أحوالها وإلا فإن وصف الضبج وإثارة النقع، وتوسُّط الجموع المتقاتلة، كلها وصف للخيَل لا للإبل.

وهكذا تبدأ السورة بمشهد العاديات الضابحة، القادحة للشرر، المثيرة للغبار، المغيرة على العدو في الصباح. ويعقب ذلك مشهد النفس الإنسانية وما فيها من الجحود وحب المال وشدة البخل، ويأتي علاج هذه الرذائل بالعمل لليوم الآخر، ويأتي ذلك عن طريق النظر والتأمل في بعثرة القبور يوم البعث والنشور، وتحصيل ما في

(١) رواه الطبري في تفسيره (٧٦/٣٠)، وذكره الحاكم (١٠٥/٢)، وابن الأباري في كتاب الأضداد (ص ٣٦٤)، وهو في فتح الباري (٧٢٧/٨)، وأخرجه ابن أبي حاتم وابن مويه.

الصدور مما خفي على العباد، وعَلِّمه عند رب العباد، ومن ثم إلى النهاية والاستقرار في الجنة أو النار.

ويمكن تقسيم السورة على هذا النحو:

- ١ - الآيات الخمس الأولى هي مجموع القسم بالخيال حال إغارتها على العدو.
- ٢ - الآيات الثلاث بعدها هي المقسم عليه من أحوال الإنسان في منعه للخير وشهادته على ما يصرفه من نفسه وحبه الشديد للمال.
- ٣ - والآيات الثلاث الأخيرة في إحاطة علم الله تعالى بظاهر الإنسان وباطنه.

* * *

تَفْسِيرُ السُّورَةِ

ثَلَاثَةُ أَيْمَانٍ عَلَى أَنَّ الْإِنْسَانَ جَحُودٌ لِأَنْعُمِ اللَّهِ عَلَيْهِ

١-٣- ﴿وَالْعَدِيَّتِ ضَبْعًا ۝١﴾ ﴿فَالْمُورِيَّتِ قَدْحًا ۝٢﴾ ﴿فَالْمُغِيرَتِ ضُبْعًا ۝٣﴾

أقسم تبارك وتعالى - أولاً - بخيول المجاهدين وهي تجري في ساحة الجهاد في سبيل الله، كرهاً وفرًا على العدو، حين يظهر صوتها ويُسمع له ضُبح، وهو تردّد النفس في الحنجرة. وهذا الضُبح من أصوات الخيل والسباع وليس من أصوات الإبل. فالعدو هو الجزئي السريع، والضُبح هو: اضطراب النفس وظهور الصوت من سرعة العدو.

والعاديات هي الخيل التي تغدو حتى يُسمع لصوتها ضُجّ وحممة. وهذه الحالة خاصة بالخيول يشاركها فيها غيرها من الحيوانات. وأقسم جل شأنه - ثانياً - بخيل المجاهدين حين يخرج شرر النار من تحت أرجلها بسبب احتكاك حوافرها بالأرض، من شدة الجزي، فينقذ منها شرر النار. فالموريات هي الخيل حين ينقذ منها شرر النار ويتطاير تحت حوافر أقدامها وهي تضرب الأرض بأرجلها.

ثم أقسم سبحانه - ثالثاً - بخيول المجاهدين، وهي تُغير على العدو في الصباح الباكر، قبل طلوع الشمس حتى لا يشعر بهم العدو، كما قال تعالى: ﴿فَإِذَا نَزَلَ بِسَاحِطِهِمْ فَسَاءَ صَبَاحُ الْمُنْذِرِينَ﴾ [الصافات: ١٧٧].

ولله تعالى أن يقسم بما شاء من مخلوقاته، وليس للعبد أن يقسم إلا بالله تعالى.

وَصَفَّ لِحَرَكََةِ الْخَيْلِ وَهِيَ تُغِيرُ عَلَى الْعَدُوِّ

٤، ٥- ﴿فَأَنْزَلَ بِهِ نَفْعًا ۝٤﴾ ﴿فَوَسَطْنَ بِهِ جَمْعًا ۝٥﴾

ثم بيّن عز وجل أن من آثار الإغارة على العدو صباحاً، أن الخيل تثير الغبار وتُهَيِّجُه

من شدة الجزي، فالنقع هو الغبار والتراب الذي تثيره الخيل بأرجلها من شدة الحركة، وهذا وصف لحركة الخيل المسرعة.

ومن آثار الإغارة على العدو: أن خيول المجاهدين تتوسط بركابها جموع الأعداء، فتقتحمها وتفرقها وتثير فيها الرعب.

والقسم في الآيات الثلاث السابقة، هو قسم بالأوصاف الثلاثة الأولى فقط، وهي: العاديات والموريات والمغيرات.

أما الوصفان الأخيران وهما: إثارة الغبار، وتوسط الجموع، فليس مُقسماً بهما، وإنما هما صفتان ناشئتان عن الإغارة على العدو، ولذلك فإنهما جاءا بلفظ الفعل الماضي.

أما الأوصاف الثلاثة الأول فقد جاءوا بلفظ اسم الفاعل، إشارة إلى أن الكلام انتقل من القسم إلى الحكاية.

ثَلَاثَةُ أُمُورٍ جَوَابًا لِلْقَسَمِ

٦-٨- ﴿إِنَّا لَإِنْسَنٌ لَّرَبِّهِ لَكَنُودٌ﴾ ٦ ﴿وَإِنَّهُ عَلَىٰ ذَٰلِكَ لَشَهِيدٌ﴾ ٧ ﴿وَإِنَّهُ لَخَبِيرٌ لَّشَدِيدٍ﴾ ٨

وجاء جواب القسم على الأيمان الثلاثة السابقة، بأمور ثلاثة هي جحود الإنسان، وإقراره بذلك، وحبه للمال، وهذه الثلاثة هي المقسم عليها.

الأمر الأول: هو الجحود، أي أن الإنسان من شأنه أنه كفور لنعم الله تعالى عليه، جحود بها لا يشكرها، يمنع الحقوق المالية والبدنية، يذكر المصائب وينسى النعم، ينكر الخير، ويجزع من الشر.

يُكْثِرُ مِنَ التَّضَرُّعِ وَالِدُّعَاءِ إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ، وَيُنْسِي رَبَّهُ إِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ ﴿وَإِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ ضُرٌّ دَعَا رَبَّهُ مُنِيبًا إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَا خَوَلَهُ نِعْمَةٌ مِّنْهُ نَسِيَ مَا كَانَ يَدْعُو إِلَيْهِ مِن قَبْلُ﴾ [الزمر: ٨].

وهو لا يمل من طلب الخير، ويصاب بالإحباط إذا ألمت به نائبة.

﴿لَا يَسْتَمُ الْإِنْسَانُ مِنْ دُعَاءِ الْخَيْرِ وَإِن مَّسَّهُ الشَّرُّ فَيَئُوسٌ قَنُوطٌ﴾ [فصلت: ٤٩].

والمراد بالإنسان الموصوف بهذه الصفات، هو الكافر غالباً، لأن الله تعالى استثنى

المؤمنين من هذه الصفات في مثل قوله تعالى: ﴿إِنَّ الْإِنْسَانَ خُلِقَ هَلُوعًا ۝١٦ إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعًا ۝١٧ وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعًا ۝١٨ إِلَّا الْمُصْلِحِينَ ۝١٩﴾ [المعارج: ١٩-٢٢].

وأخذت الآيات تصف المصلين بصفات الإيمان..

ووصفت بعض الآثار، الإنسان الكنود، بأنه الذي يأكل وحده، ويضرب عبده، ويمنع رफده^(١).

فهو لا ينفع الناس بشيء من الخير، ويمنع أهل الحاجة من مشاركتهم له. وقال الفضيل: الكنود هو الذي تُنسيه سيئة واحدة، حسنات كثيرة، ويعامل الله تعالى على عقد عوض^(٢).

الأمر الثاني المقسم عليه: هو أن الإنسان مُقَرَّبٌ بجحوده لنعم الله عليه، ويظهر ذلك في فلتات لسانه، كقول المشركين ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى﴾ [الزمر: ٣]. ومن جهة أخرى فإن أثر هذا الجحود يظهر على الإنسان من حيث لا يقصد، فحاله يشهد عليه، وهو يعرف من نفسه المنع والشح، ويشهد عليها بذلك. وقيل: إن الضمير في ﴿وَأَنَّهُ عَلَىٰ ذَٰلِكَ لَشَهِيدٌ﴾ يرجع إلى الله تعالى (رب الإنسان). والمعنى حيثئذ يكون واضحاً، من أن الله تعالى شهيد عليه وعلى جحوده، وفي هذا تهديد ووعيد له.

الأمر الثالث المقسم عليه، هو: أن الإنسان كثير الحب لجمع المال وتحصيله، يحبه حباً جماً، ويحاول اكتسابه بالوجوه المشروعة وغير المشروعة، ويبخل به على من يستحقه، كما قال تعالى: ﴿قُلْ لَّوْ أَنْتُمْ تَعْلَمُونَ خَزَائِنَ رَحْمَةِ رَبِّي إِذًا لَأَمْسَكْتُمْ خَشْيَةَ الْإِنْفَاقِ وَكَانَ الْإِنْسَانُ قَتُورًا﴾ [الإسراء: ١٠٠].

(١) ينظر: تفسير الطبري (١٨٠/٣٠)، ويروى موقوفاً على أبي أمامة، وأخرجه البخاري في ضعيف الأدب المفرد (٣١)، وهو في الأدب المفرد (١٦٠)، وكذا الحكيم الترمذي (٧٢/٣)، وعبد بن حميد وابن مردويه كما في الدر المنثور (٦٠٥/١٥) وسنده ضعيف.

(٢) تفسير ابن عطية (٥١٤/٥).

وحب المال يجعل الإنسان حريصاً عليه، ضنيناً به في وجوهه المشروعة، بل إن حبه له يكون سبباً في عدم القيام بالحقوق الواجبة، فربما أكل أموال الناس بالباطل، وربما قتر على من يعول، وربما منع الزكاة، وربما خان الأمانة، وربما امتنع من سداد ديونه.. وكل هذا بسبب عدم الخوف من لقاء الله تعالى.

وَمِنْ وَضَفِ اللهُ تَعَالَى لِمَنْ يُحِبُّ الْمَالَ قَوْلَهُ: ﴿وَلَا تَخْضِبُوا عَلَىٰ طَعَامِ الْمَسْكِينِ ۝١٨ وَتَأْكُلُوا الثَّرَاكَ أَكْلًا لَمًّا ۝١٩ وَتُحِبُّوا أَلْمَالَ حُبًّا جَمًّا ۝٢٠﴾ [الفجر: ١٨-٢٠].

الْخَوْفُ مِنْ سُوءِ الْمَصِيرِ فِي الْآخِرَةِ يُعَالِجُ الصِّفَاتِ الذَّمِيمَةِ فِي الْإِنْسَانِ

١٠، ٩ - ﴿أَفَلَا يَعْلَمُ إِذَا بُعْثِرَ مَا فِي الْقُبُورِ ۝١٩ وَحُصِّلَ مَا فِي الصُّدُورِ ۝٢٠﴾

ثم يذكر الله تعالى علاج هذه الصفات الذميمة وهي: الجحود والشح والأثرة، ويبين سبحانه أن الذي يحطم قيدها، ويفك النفس من أسرها، هو الخوف من العرض على رب العالمين، في يوم يشتد فيه الحساب والجزاء، ويكون ذلك يوم يخرج الأموات من قبورهم. والمعنى: أيفعل الإنسان الكفور لأنعم الله عليه ما يفعل، فلا يعلم مآله وعاقبته؟ ألا يعلم أن العذاب ينتظره يوم تُبعثر القبور، فيقلب أسفلها أعلاها، وتتشقق الأرض عما في جوفها، فيخزجون منها سراعاً، ويُحشرون في عرصات القيامة للحساب والجزاء؟ ويعاقب الإنسان على جحوده ويُخله وشدة حرصه، أفلا يعلم مآله، فيستعد له.

وفي هذا وعيد صريح في وقت المهلة قبل فوات الأوان.

ويوم القيامة تحصل الأسرار التي انطوت عليها الصدور في الدنيا من خير أو شر، فيبرز ما فيها من الخفايا، ويظهر ما كان مستوراً، ولا يبقى شيء في الخفاء أو الكتمان. وأصل التحصيل: إخراج اللب من القشر، وكما أن الله تعالى يعلم ما تكنه الصدور، فإنه يعلم من باب أولى أعمال الجوارح.

١١- ﴿إِنَّ رَبَّهُم بِهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّخَبِيرٌ﴾ (١١)

إن رب المبعثون من قبورهم خبير بهم، عليم بما في صدورهم، مطلع على ظاهرهم وباطنهم، لا يخفى عليه شيء من أعمالهم الدقيقة والجليلة. وهكذا تختم السورة بهذا الوعيد، وهو أن الله تعالى يعلم أحوالهم، ولا يخفى عليه شيء منها، فهو سبحانه خبير بها، مطلع عليها، وسوف يجازي الذين أساءوا بما عملوا، ويجزي الذين أحسنوا بالحسنى ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ﴾ [الملك: ١٤] سبحانه، إنه يعلم السر وأخفى، وإذا علم الناس ذلك فإنه ينبغي عليهم ألا يشغلهم حب المال عن شكر ربهم وعبادته، ولا عن العمل ليوم البعث والنشور.

تم تفسير (سورة الحاديات) والله الحمد والمنة

تَفْسِيرُ سُورَةِ الْقَارِعَةِ (١٠١)

مُقَدِّمَةُ السُّورَةِ

- ١- (سورة القارعة) هي السورة الواحدة بعد المئة في ترتيب المصحف، والثلاثين في ترتيب النزول، نزلت بعد (سورة قريش) وقبل (سورة القيامة).
وعدد آياتها إحدى عشرة آية في المصحف الكوفي والمكي، وعشر آيات في المصحف المدني والمكي، وثمانين آيات في المصحف الشامي والبصري.
وهي ست وثلاثون كلمة، ومئة واثنان وخمسون حرفاً.
وهي سورة مكية، ولا يُعرف لها اسم آخر.
- ٢- والسورة تتحدث عن يوم القيامة، وبعض مشاهد أهوالها، حيث يتأثر بها الناس، فيكونون عند خروجهم من قبورهم وانتشارهم في ساحة الحشر والحساب في حيرة واضطراب، كأنهم فراش يتهافت على الهلاك، وهو لا يملك لنفسه شيئاً، فيذهب ويبيء، وهو في فزع ودهشة لا يعرف له هدفاً.
كما يتأثر الكون كله بيوم القيامة ومنه: الجبال الرواسي، فتُنسف وتتطاير في الهواء، وتكون في خفتها كالصوف المبعثر تتقاذفه الرياح، بعد أن كانت صخوراً صماء، كالأوتاد، تحفظ توازن الأرض لئلا تמיד في البحار.
والناس يوم القيامة صنفان: فمن رجحت كفة حسناته، فقد فاز بجنة عالية، وعيشة هنيئة راضية، ومن رجحت كفة سيئاته، فملاذه النار، تحتضنه وتضمه، وتحرقه بلهبها.
وهكذا يتساءل الله تبارك وتعالى عن يوم القيامة التي تفرع القلوب بأهوالها، فيأتي جواب السؤال بوصف أحوال الناس في هذا اليوم وأنهم يكونون في أرض المحشر والمنشر كأنهم فراش مبعثر هنا وهناك، وأن الجبال السَّامِ الرواسي كأنها صوف متناثر ممزق، ثم يكون العرض والحساب، والجنة أو النار، نسأل الله السلامة من النار والفوز بالجنة.

فالآيات الخمس الأول من السورة، فيها قسم بيوم القيامة وما يصحبها من فناء العالم.
والآيات الست بعدها قسمت الناس إلى قسمين: أهل السعادة وأهل الشقاء، وبينت
مصير كل منهم، من النعيم المقيم أو العذاب الأليم.

* * *

تَفْسِيرُ السُّورَةِ

الْقِيَامَةُ تَقْرَعُ الْقُلُوبَ وَالْأَجْرَامَ الْعَظِيمَةَ بِأَهْوَالِهَا

١-٣- ﴿الْقَارِعَةُ﴾^(١) ﴿١﴾ مَا الْقَارِعَةُ ﴿٢﴾ وَمَا أَذْرَكَ مَا الْقَارِعَةُ ﴿٣﴾

إذا عظم خطر الشيء، كثرت أسماؤه، وتعددت معانيه، ومن أسماء يوم القيامة: الواقعة والطامة والصاخة والساعة والغاشية والأزفة والقارعة والحاقة.. الخ.

وكثرة الأسماء تدل على كثرة المعاني:

فسميت بالحاقة: لتحقيق وقوعها، والواقعة: لصدق وقوعها.

والأزفة: لقرب وقوعها.

والغاشية لأنها تغشى الناس بأهوالها.. وهكذا.

ومن أسمائها ﴿الْقَارِعَةُ﴾ لأنها تفرع القلوب من شدة أهوالها.

ومن ذلك قوله تعالى: ﴿وَلَا يَزَالُ الَّذِينَ كَفَرُوا تُصِيبُهُمْ بِمَا صَنَعُوا قَارِعَةٌ أَوْ تَحُلُّ قَرِيبًا مِّنْ

دَارِهِمْ حَتَّى يَأْتِيَ وَعْدُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُخْلِفُ الْمِيعَادَ﴾ [الرعد: ٣١].

وقبل قيام الساعة، والناس في بيوتهم وأعمالهم وأسواقهم وطرقاتهم ومدارسهم ومصانعهم.. وإذ بصوت تنخلع له القلوب، ويفزع منه اليقظان، ويستيقظ له النائم، ويشعر

الجميع بالخطر المحدق، إنه صوت إسرافيل، يوم ينفخ في الصور ﴿وَأَسْمِعْ يَوْمَ يُنَادِ الْمُنَادُ

مَنْ مَّكَانَ قَرِيبٍ﴾^(٤١) يَوْمَ يَسْمَعُونَ الصَّيْحَةَ بِالْحَقِّ ذَلِكَ يَوْمُ الْخُرُوجِ﴾ [ق: ٤١ - ٤٢].

إنها الصاخة التي تخرق الأذان، وتفرع الأسماع، وهي صيحة النفخ في الصور، يوم

يقوم الناس لرب العالمين، ويحشرون على إثرها في أرض المحشر والمنشر.

فما حقيقة هذا اليوم؟ وأي شيء هي القارعة؟ إنها تفوق في أهوالها وشدائدها كل

وصف وكل خيال.

(١) اختص الكوفي بعدد ﴿الْقَارِعَةُ﴾ الأولى آية، ولم يعدها غيره.

وأى شيء أعلمك ما شأن القارعة؟ إنها لا تفرع القلوب بأهوالها فحسب، بل إنها تؤثر في الأجرام السماوية بالانشقاق، فتحدث فيها الفتحات، وتؤثر في الأرض الصلبة بالزلازل، وفي الجبال الراسيات بالذك والنسف، وفي الكواكب العظيمة بالانتثار، وفي الشمس والقمر بالتكوير والانكدار، وهي أعظم من ذلك كله.

وهذا التركيب كقوله تعالى ﴿الْحَاقَّةُ ۝١ مَا الْحَاقَّةُ ۝٢ وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْحَاقَّةُ﴾ [الحاقة: ١ - ٣] وكل ما جاء في القرآن من لفظ ﴿وَمَا أَدْرَاكَ﴾ فالنبي ﷺ يعلمه. أما ما جاء من لفظ ﴿وَمَا يَذِّرُكَ﴾ فإنه لا يعلمه.

وَصَفُ حَالِ النَّاسِ وَالْجِبَالِ عِنْدَ قِيَامِ السَّاعَةِ

٥، ٤- ﴿يَوْمَ يَكُونُ النَّاسُ كَالْفَرَاشِ الْمَبْثُوثِ ۝٤ وَتَكُونُ الْجِبَالُ كَالْعِهْنِ الْمَنْفُوشِ ۝٥﴾

وبعد هذا التخويف، وهذا التشويق، يأتي جواب السؤال عن القارعة، ببيان ما سيكون فيها، وليس بتعريفها وذکر ماهيتها، فقد جاء في الجواب وصف أحوال الناس في هذا اليوم: حيث يكون الناس كسراب الفراش، الذي يموج بعضه في بعض لا يدري أين يتوجه، فإذا أوقد له نار تهافت عليه لضعف إدراكه، وهكذا يكون حال الناس يوم القيامة كالجراد المنتشر، الذي يموج بعضه في بعض من شدة الفزع والهول.

والفراش: هو الحشرة الطائرة المعروفة، ويدخل فيها جميع الحشرات الطائرة كالبعوض والجراد، وجاء التشبيه بالفراش لأنه إذا ثار لم يتجه إلى جهة واحدة، كما أن الجراد يركب بعضه بعضاً ويموج بعضه في بعض.

وهكذا الناس يوم القيامة لا يلوي أحد على أحد، كل امرئ يبحث عن مستقبله الدائم ﴿يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ ۝٢٤ وَأُمِّهِ وَأَبِيهِ ۝٢٥ وَصَنْجِيهِ ۝٢٦ وَبَنِيهِ ۝٢٧ لِكُلِّ امْرِئٍ مِنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ﴾ [عبس: ٣٤-٣٧].

يخرج الناس من قبورهم متفرقين، منتشرين يموج بعضهم في بعض، فيكونون من الفزع والحيرة، كالجراد المنتشر، في همجية وغوغاء.

كما وصف الله تعالى يأجوج ومأجوج في قوله: ﴿وَرَكْنَا بَعْضَهُمْ يَوْمَئِذٍ يَمُوجٌ فِي بَعْضٍ﴾ [الكهف: ٩٩].

وكما وصف سبحانه المعرضين عن دعوة الرسل: ﴿يَخْرُجُونَ مِنَ الْأَجْدَاثِ كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُنْتَشِرٌ﴾ [القمر: ٧].

ففي ذلك اليوم الرهيب يكون الناس من كثرتهم وتفرقهم وحركتهم واضطرابهم كالفراش المنتشر المتهافت على النار للوقوع فيها. والفراش: طير دقيق يقتحم المصباح ونحوه حتى يحترق.

وفي حديث جابر رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «مثلي ومثلكم كمثل رجل أوقد ناراً، فجعل الجنادب والفراش يقعن فيها، وهو يذُبُّهن عنها، وأنا آخذ بِحُجَزِكُمْ عن النار، وأنتم تفلُثون من يدي»^(١).

وفي الحديث تصوير لرحمة النبي ﷺ بالامة، وخوفه عليها وحرصه على هديها، فهو يدعوهم إلى الجنة، وهم يتفلثون منه إلى النار، بسبب ما يقتربونه من الآثام والذنوب، هذا حال الناس.

أما الجبال: فإنها تفقد تماسكها، وتتساقط كقطع الصوف المندوف، تحسبها جامدة وهي تمر مر السحاب، تتفرق أجزاءها، وتتطاير في الجو، ثم تكون هباءً منثوراً، فتضمحل، ولا يبقى منها شيء يشاهد، وإذا كان هذا حال الجبال، فكيف يكون حال الإنسان الضعيف؟

وهكذا فإن الآيات حذرت من أهوال يوم القيامة، وحضت على الاستعداد له بالإيمان والعمل الصالح.

فقد ابتدأت بلفظ القارعة المؤذن بأمر عظيم، وثنت بالاستفهام المستعمل في التهديد، ثم أعادت اللفظ تعظيماً له، وشبهت الناس في هذا اليوم تشبيهاً تقشعر منه

(١) صحيح مسلم برقم (٢٢٨٥)، والمسند (١٤٨٨٧، ١٥٢١٣)، وعن أبي هريرة (١٠٩٦٣) وإسناده صحيح على شرط الشيخين، وهو في الطيالسي (١٧٨٤).

الجلود، ثم شبهت الجبال بالصوف المتناثر المتمزق، وبعد ذلك بينت حال السعداء والأشقياء في هذا اليوم.

الْإِنْسَانُ يَصْنَعُ لِنَفْسِهِ مُسْتَقْبَلًا حَسَنًا أَوْ مُسْتَقْبَلًا سَيِّئًا

٧، ٦- ﴿فَأَمَّا مَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ﴾ ^(١) ﴿٦﴾ ﴿فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَاضِيَةٍ﴾ ﴿٧﴾ ﴿

تبين هذه الآيات مصير الإنسان ومستقبله الذي صنعه بيده في الأيام التي خلّت، إنه قدّم لنفسه أسباب السعادة أو أسباب الشقاء، فأما من رَجَحَتْ موازين حسناته، فهو في حياة مرضية في الجنة.

والحسنة الواحدة تُرَجِّح كفة الميزان، كما أن الدرجة الواحدة لطالب الثانوية العامة - مثلاً - تحدد مستقبله، وتُغيّر مجرى حياته.

ولذلك فكل إنسان يندم يوم القيامة، حيث يتمنى المُحْسِن أنه لو ازداد حسنة واحدة في دنياه، لو ازداد تسيحة أو تحميدة أو تكبيرة أو تهليلة، لو ازداد خطوة إلى المسجد، لو قرأ حرفاً من كتاب الله، الخ.

وميزان الحسنات والسيئات، ميزان حسي كظاهر اللفظ، له لسان وكفتان، حيث يؤتى بحسنات العبد في أحسن صورة، فتوضع في كفة الحسنات، ويؤتى بسيئات العبد في أقبح صورة، فتوضع في كفة سيئاته.

قال تعالى: ﴿فَمَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ ﴿١٠٢﴾ وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَٰئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ فِي جَهَنَّمَ خَالِدُونَ﴾ [المؤمنون: ١٠٢ - ١٠٣].

ولم يرد حديث صحيح يحدّد صفة هذا الميزان. ويعذّب المؤمن العاصي بمقدار سيئاته ثم يصير إلى الجنة، ويعفو الله بفضله وكرمه عن يشاء.

(١) عدّ الحجازيون والكوفي ﴿مَوَازِينُهُ﴾ هنا وفي الآية الثامنة، آية، ولم يعدّ البصري والشامي الموضعان آية.

وثقل الموازين يكون باتباع الحق، وكثرة العمل الصالح وخفة الموازين يكون باتباع الباطل، وعلى رأسه الكفر والشرك، وحق لميزان يوضع فيه الباطل غداً أن يكون خفيفاً، كما قال أبو بكر رضي الله عنه. وحق لمن ثقلت موازينه أن يهنأ بعيشة كريمة، يرضاها صاحبها، ويرضى عنه ربه، والعيشة الراضية تشمل جميع النعم.

وقد قال تعالى في حق الكفار ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَلِقَائِهِمْ فَبُخِشَتْ أَعْمَالُهُمْ فَلَا تُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ وَزَنًا﴾ [الكهف: ١٠٥].

وقال في حق المؤمنين ﴿وَجُودٌ يَوْمَئِذٍ نَّاعِمَةٌ ۖ لِّسَعْيِهِمْ رَاضِيَةٌ﴾ [الغاشية: ٨ - ٩].

وقد يصنع العبد لنفسه مستقبلاً سيئاً كما قال تعالى:

٨-١١ ﴿وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ ۚ فَأُمُّهُ هَاوِيَةٌ ۚ وَمَا أَدْرَاكَ مَا هِيَةٌ ۚ

نَارُ حَامِيَةٍ ۚ﴾

أي: وأما من خفت موازين حسناته، ورجحت موازين سيئاته، أو لم تكن له حسنات أصلاً، فمأواه جهنم، يأوي إليها كما يأوي الإنسان إلى أمه، والمراد بأمه في الآية: النار، فالكافر يأوي إليها كما يأوي الطفل إلى أمه.

ومعنى هاوية: أنه يهوي فيها ويسقط، فهي اسم للمكان المنخفض.

وقيل: إن هاوية: اسم من أسماء النار، لعمقها وبُعْد قعرها.

وهذا التعبير ﴿فَأُمُّهُ هَاوِيَةٌ﴾ جرى على عادة العرب الذين يجعلون حال الأم

دليلاً على حال ابنها في الحزن والسرور.

ورد أن أعرابياً سمع الآية ﴿وَأَتَّخَذَ اللَّهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلًا﴾ [النساء: ١٢٥].

فقال: لقد قرّرت عين أم إبراهيم!!

وقد فحّم سبحانه وهول من شأن النار فقال: وما أدراك - يا رسولنا - ما هذه الهاوية؟ ثم فسر سبحانه معناها، فبيّن أنها نار قد حُميت من الوقود عليها، يلقي فيها الكافر

(١) قرأ حمزة ويعقوب بحذف الهاء الساكنة وصلاً من ﴿مَا هِيَةٌ﴾ وإثباتها وقفاً، والباقون بإثباتها في الحالين.

منكس الرأس فيهوي في قعرها، وهي أسفل دركات النار.

وفي الحديث عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «إن أحدكم ليتكلم بالكلمة من سخط الله لا يلقي لها بالاً يهوي بها في جهنم»^(١).

وهي ﴿نَارُ اللَّهِ الْمَوْفِدَةُ﴾ ^(٦) الَّتِي تَطْلُعُ عَلَى الْأَفْعَدَةِ ﴿[الهمزة: ٦ - ٧].

نار حامية:

١ - عن أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «نار بني آدم التي توقدون، جزء من سبعين جزءاً من نار جهنم» قالوا: يا رسول الله، إن كانت لكافية، فقال: «إنها فضّلت عليها بتسعة وستين جزءاً كلهن مثل حرها»^(٢).

٢ - وفي حديث النعمان بن بشير رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «إن أهون أهل النار عذاباً يوم القيامة، لرجل توضع في أخمص قدميه جمرة يغلي منها دماغه»^(٣).

وفي لفظ أبي سعيد عند أحمد «رجل في رجله نعلان يغلي منهما دماغه...»^(٤).

٣ - وعن أبي هريرة رضي الله عنه (إذا اشتد الحر، فأبردوا عن الصلاة، فإن شدة الحر من فيح جهنم)^(٥).

٤ - ورد أن النبي ﷺ قال لرجل: لا أم لك، فقال: يا رسول الله أتدعوني إلى الهدى، وتقول: لا أم لك، فقال ﷺ: إنما أردت لا نار لك، قال الله تعالى ﴿فَأُتْمُـهُـ هَـكَـوِيـةٌ﴾^(٦).

(١) صحيح البخاري (٦٤٧٧، ٦٤٧٨)، وصحيح مسلم (٢٩٨٨).

(٢) الموطأ من رواية الزهري برقم (٢٠٩٨)، ومن رواية يحيى (٩٩٤/٢)، وهو في البخاري برقم (٣٢٦٥)، ومسلم برقم (٢٨٤٣)، والمسنند (١٠٠٣٢، ٧٣٢٧)، والبيهقي في البعث (٥٤٧)، وعن أبي سعيد في الترمذي (٢٥٩٠)، وفي صحيح الجامع (٦٦١٩).

(٣) صحيح البخاري (٦٥٦٢، ٦٥٦١)، وصحيح مسلم (٢١٣)، والمسنند (١٨٤١٣، ١٨٣٩٠).

(٤) المسند (١١٧٣٩، ١١١٠٠) بإسناد صحيح على شرط مسلم ورجاله ثقات كما قال محققوه، وأخرجه البزار (٣٥٠٢)، والحاكم (٥٨١/٤).

(٥) صحيح البخاري برقم (٥٣٦، ٥٣٣)، وصحيح مسلم برقم (٦١٥، ٦١٧).

(٦) تفسير ابن عطية (٥١٧/٥).

وحر الصيف، وبرد الشتاء، نفّسان للنار، في الشتاء والصيف، كما صح ذلك عن رسول الله ﷺ.

٥ - في الصحيحين وغيرهما عن أبي هريرة ؓ أن رسول الله ﷺ قال: «اشتكت النار إلى ربها فقالت: رب أكل بعضي بعضاً، فأذن لها بنفسين: نفس في الشتاء، ونفس في الصيف، فأشد ما تجدون من الحر، وأشد ما تجدون من الزمهرير»^(١).
أعاذنا الله من النار ومن عذاب النار.

تم تفسير (سورة القارعة) والله الحمد والمنة

(١) من حديث أبي هريرة في البخاري برقم (٣٢٦٠، ٥٣٧)، ومسلم (٦١٧).

تَفْسِيرُ سُورَةِ التَّكَاثُرِ (١٠٢)

مُقَدِّمَةُ السُّورَةِ

- ١- (سورة التكاثر) هي السورة الثانية بعد المئة في ترتيب المصحف، والسادسة عشرة في ترتيب النزول. نزلت بعد (سورة الكوثر) وقبل (سورة الماعون). وهي ثماني آيات، وثمان وعشرون كلمة، ومئة وعشرون حرفاً. وتشتهر بأنها (سورة التكاثر) ويقال: (سورة ألهاكم) وسماها بعضهم (سورة المقبرة) وهي سورة مكية على الأصح.
- ٢- عن ابن عمر رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال: «ألا يستطيع أحدكم أن يقرأ ألف آية في كل يوم؟ قالوا: ومن يستطيع أن يقرأ ألف آية كل يوم؟ قال: أما يستطيع أحدكم أن يقرأ ﴿أَلْهَكُمْ التَّكَاثُرُ﴾^(١).
- ٣- اشتملت سورة التكاثر على ذم التفاخر والتكاثر بالمال والبنين وغيرهما، والاستمرار على ذلك حتى الموت، وحث على العمل بما ينجي الإنسان من الجحيم، وبينت أن العبد مبعوث يوم القيامة ومسؤول عن إهمال شكر النعم. وحذرت السورة من الاستغراق في حب الدنيا حتى لا يفاجئهم الموت وهم لاهون غافلون، فقد ترى في هذه الحياة شخصاً محبوباً من رؤسائه، ناجحاً في أعماله، مُجِدِّداً في أداء واجبه، نشيطاً بين أقرانه، حائزاً لأعلى الدرجات العلمية، حاصلاً على منصب مرموق، ومكانة عالية، ساعياً في جدِّ واجتهاد للترقي في الوظيفة، قد أخذ العمل جُلَّ وقته، فهو مشغول دائماً:

(١) صححه الحاكم (٥٦٦/١) وقال: رُواة الحديث كلهم ثقات، وعُقبه، غير مشهور، ووافقه الذهبي، وأخرجه أيضاً البيهقي في الشعب برقم (٢٥١٨، ٢٢٨٧) ورجاله موثقون، وضعفه الألباني في ضعيف الترغيب والترهيب (٨٩١).

إِنْ قُلْتُ لَهُ: هَلَمْ إِلَى الصَّلَاةِ، اعْتَذِرْ بِأَنْ عَمَلَهُ وَشُغْلُهُ الْمُسْتَمِرَّ لَا يَسْمَحُ لَهُ.

إِنْ قُلْتُ لَهُ: خُذْ مِنْ يَوْمِكَ بَضْعَ دَقَائِقٍ أَقْرَأْ فِيهَا بَضْعَ أُسْطُرٍّ مِنْ كِتَابِ اللَّهِ، أَوْ حَدِيثٍ مِنْ أَحَادِيثِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ أَوْ طَالِعِ حُكْمًا فِقْهِيًّا فِي كِتَابِ الْفَقْهِ، أَوْ احْضِرْ حَلْقَةَ عِلْمٍ، أَوْ مُحَاضِرَةً عِلْمِيَّةً لِعَالَمٍ بَارِزٍ، أَوْ أَقْرَأْ بَعْضَ أَذْكَارِ الصَّلَاةِ، أَوْ أَذْكَارِ الْيَوْمِ وَاللَّيْلَةِ، أَوْ تَابِعْ أَوْلَادَكَ فِي تَعَوُّدِهِمُ الذَّهَابَ إِلَى الْمَسْجِدِ، وَتَعْلِيمِهِمْ مَا لَا بَدَّ مِنْهُ مِنْ أَحْكَامِ الشَّرْعِ.. أَوْ .. الخ. فَإِنَّهُ يَعْتَذِرُ عَنْ كُلِّ ذَلِكَ بِأَنَّهُ لَا يَوْجَدُ لَدَيْهِ مِنَ الْوَقْتِ مَا يَسْمَحُ لَهُ بِذَلِكَ.

فَإِنْ كَانَتْ هُنَاكَ اجْتِمَاعَاتٌ تَتَعَلَّقُ بِعَمَلِهِ، مَا اسْتَطَاعَ أَنْ يَتَخَلَّفَ عَنْهَا، وَإِنْ كَانَتْ هُنَاكَ مُحَاضِرَاتٌ وَنَدَوَاتٌ لَهَا صِلَةٌ بِوُضُوعِهِ أَسْرَعَ وَبَادَرَ إِلَيْهَا، وَإِنْ كَانَتْ هُنَاكَ سَهْرَاتٌ أَوْ حَفَلَاتٌ فِيهَا اخْتِلَاطُ رِجَالٍ بِنِسَاءٍ وَشَبَّهَ ذَلِكَ، كَانَ لَدَيْهِ مِنَ الْوَقْتِ مَا يَتَسَّعُ لِذَلِكَ أَلْفَ مَرَّةٍ، وَإِنْ كَانَتْ هُنَاكَ طَرِيقَةٌ لَجَمْعِ الْمَالِ، أَوْ بِنَاءِ الْعِمَارَةِ، أَوْ مُشَاهَدَةِ مَبَارَاةٍ، أَوْ مُشَاهَدَةِ فِيلْمٍ وَنَحْوِ ذَلِكَ، فَإِنَّ الْوَقْتِ لَدَيْهِ يَكُونُ كَافِيًا.

وَيُظَلُّ هَكَذَا شَغُوفًا بِحُبِّ الدُّنْيَا، مُشْغُولًا عَنِ الْعَمَلِ لِلْآخِرَةِ، فَهُوَ فِي لَهْوٍ مُسْتَمِرٍّ، حَتَّى يَأْتِيَهُ الْمَوْتُ، وَهَذَا هُوَ مَا تُحَذِّرُ مِنْهُ السُّورَةُ، كَمَا تُحَذِّرُ مِنَ التَّفَاخُرِ بِالْأَحْسَابِ وَالْأَنْسَابِ وَمِنْ عَدَمِ شُكْرِ الْمُنْعَمِ سُبْحَانَهُ.

٤- وَبَعْدَ هَذَا التَّحْذِيرِ، يَأْتِي الْوَعِيدُ الشَّدِيدُ، وَالرَّدْعُ وَالزَّجْرُ عَمَّا فِيهِ هَذَا اللَّاهِي، بِأَنْ أَمَامَهُ نَارُ جَهَنَّمَ يَرَاهَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ بِأَمِّ رَأْسِهِ، فَيُخَلَّدُ فِيهَا الْكَافِرُ، وَيَأْخُذُ الْعَاصِي مِنْهَا عَلَى قَدْرِ مَعَاصِيهِ.

أَمَّا هَذِهِ النِّعَمُ الَّتِي كَانَ مَنْعَمَسًا فِيهَا فِي دُنْيَاةٍ فَإِنَّهُ يُسْأَلُ عَنْهَا سُؤَالَ شُكْرِ لَهَا أَوْ كَفْرِ بِهَا، هَلْ هُوَ مِمَّنْ حَفِظَ نِعْمَةَ اللَّهِ وَأَدَّى مَا عَلَيْهِ فِيهَا أَمْ هُوَ مِمَّا أَبْطَرَتْهُ النِّعْمَةُ فَلَمْ يَشْكُرْ اللَّهَ عَلَيْهَا وَلَمْ يُؤَدِّ خَقَّ اللَّهِ فِيهَا، وَكَانَ مِمَّنْ أَذْهَبَ طَيِّبَاتِهِ فِي حَيَاتِهِ الدُّنْيَا وَاسْتَمْتَعَ بِهَا؟ ﴿ثُمَّ لَنُنَازِلَنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ النَّعِيمِ﴾

تَفْسِيرُ السُّورَةِ

دَمُ السَّغْيِ وَرَاءَ الدُّنْيَا حَتَّى الْمَوْتِ

٢، ١ - ﴿أَلْهَكُمُ التَّكَاثُرُ ۚ﴾ ١ ﴿حَتَّى زُرْتُمُ الْمَقَابِرَ ۚ﴾ ٢ ﴿﴾

بعض الناس في لَهو دُنْيوي، يلهث وراء المادّة والشّهرة والشّهوة، ويجدّ وينشط في طلب ذلك، ويظلّ في غفلة وإعراض وجُزي وتكالب وراء الدنيا حتى يأتيه الموت، وهو في حالته هذه، يأتيه الموت وأعماله لم تنته بعد، يأتيه الموت وآماله لم تنفذ، يأتيه الموت وهو إلى آخر لحظة من حياته لم يزل يخطّط للحياة وللمستقبل المزعوم، وتأمين العيش السعيد له ولأولاده، فهذا المبنى لم يكتمل، وهذه السيارة يلزم تغييرها، وهذا الابن لم يتزوج، وهذا الصغير لم يكبر، وهذه البنت لم تُكْمَلْ تعليمها وهكذا، ذلك ما يشير إليه قوله تعالى: ﴿﴿أَلْهَكُمُ التَّكَاثُرُ ۚ﴾ ١ ﴿حَتَّى زُرْتُمُ الْمَقَابِرَ ۚ﴾ ٢﴾.

أي أنكم اشتغلتم - أيها الناس - عن العبادة التي خلقتكم من أجلها، فقدّمتم محبة المال والجاه والشّهوة والشّهرة على طاعة الله والرسول، فتكاثرتم بها وتفاخزتم، وألهاكم حب الدنيا، واستمرت بكم الغفلة حتى وصلتم إلى القبور.

كأن القرآن الكريم يقول: أيها اللاهون المتكاثرون بالأموال والأولاد وأعراض الحياة، وأنتم مفارقون.

أيها المخدوعون بما أنتم فيه عما يليه، أيها التاركون ما تتكاثرون فيه وتتفاخرون به إلى حُفرة ضيقة، لا تكاثر فيها ولا تفاخر، استيقظوا وانتبهوا وانظروا.. فقد ﴿﴿أَلْهَكُمُ التَّكَاثُرُ ۚ﴾ ١ ﴿حَتَّى زُرْتُمُ الْمَقَابِرَ ۚ﴾ ٢﴾.

عن أنس رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «يهرم ابن آدم ويبقى معه اثنتان: الحرص والأمل»^(١).

(١) المسند (١١٥/٣) برقم (١٢٧٢١، ١٢٢٠٢، ١٢١٤٢)، والبخاري برقم (٦٤٢١)، ومسلم برقم (١٠٤٧).

وعند التأمل في أحوال الناس، نجد من لا تَمُرُّ الآخرة بباله، قد يسمع عنها سماعاً عابراً لا يَحْمِلُهُ على ادخار شيء لها، وليس السبب هو انشغال المرء وراء ضرورات الحياة، وإنما هو منافسة الآخرين في جمع الحطام، والظفر بأكبر حظ منه، ولا تنتهي هذه المنافسة إلا مع خمود الأنفاس ومداهمة الموت.

والقبر ليس هو المثوى الأخير، إن العبد سيخرج منه ليسأل عما قدّم، ويلقى جزاءه المستحق.

لقد اشتغلتم - أيها الناس - والتَّهَيَّئْتُم بِالْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ، والمعاش والتجارة، والأعمال والمناصب، والجاه والسلطة، والمباهاة، والمفاخرة بأعراض الدنيا وزُخُرفها.

أشغلكم كل هذا عن طاعة ربكم، وما ينجيكم من سخطه وعقابه، حتى أدرككم الموت، وأنتم على تلك الحال، وصرتم إلى المقابر ودُفِنتُم فيها، وأنتم في هذه المقابر ضيوف وزُؤار، وسوف ترجعون منها إلى منازلكم الدائمة في الجنة أو النار، كرجوع الزائر إلى منزله.

ورد أن أعرابياً سمع هذه الآية فقال (بُعث القوم للقيامة ورب الكعبة، الزائر منصرف لا مقيم)^(١).

وقال عمر بن عبد العزيز عندما قرأ هذه الآية: ما أرى المقابر إلا زيارة، وما للزائر بدّ من أن يرجع إلى منزله^(٢).

والمؤمن العاقل هو الذي يكون شُغْلُهُ وَسَعْيُهُ في تقديم الأهم على المهم. وسعادة الدنيا ظل زائل، وهذه السعادة غير محظورة على المسلم في حدود ما رسم الله تعالى له، على ألا تشغله حظوظ الدنيا عن الأخذ بأسباب وتحصيل السعادة الأخروية التي لا تنتهي ولا تزول. والآية عامة في كل من ألَهَتْهُ دُنيَاهُ عن آخرته.

(١) تفسير ابن عطية (٥/٥١٨).

(٢) أخرجه ابن المنذر وابن أبي حاتم كما في الدر المنثور (١٥/٦١٩).

في حديث أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «ما أخشى عليكم الفقر، ولكن أخشى عليكم التكاثر، وما أخشى عليكم الخطأ، ولكن أخشى عليكم التعمد»^(١).

ذم التفاخر بالآباء والأجداد، سبب النزول:

وقد ذكر المفسرون في أسباب النزول لهذه السورة أن قوماً تفاخروا بالآباء وأجداد الأجداد، فعدّدوا الأحياء، ثم ذهبوا إلى المقابر، وعدّد كل منهم ماله من الموتى: هذا قبر فلان، وهذا قبر فلان، على وجه التفاخر والتباهي والتكاثر بتعدادهم ومنزلتهم. من ذلك ما أخرجه ابن أبي حاتم عن ابن بريدة أن الآية نزلت في قبيلتين من قبائل الأنصار، هما بني حارثة وبني الحارث، تفاخروا وتكاثروا، فقالت إحداهما:

فيكم مثل فلان وفلان؟ وقال الآخرون مثل ذلك، وهكذا، فقد تفاخروا بالأحياء.

ثم قالوا: انطلقوا بنا إلى القبور، فجعلت إحدى الطائفتين تقول: فيكم مثل فلان وفلان؟ - يشيرون إلى القبر - وفعل الآخرون مثل ذلك، فأنزل الله ﴿أَلْهَكُمُ التَّكَاثُرُ ۚ حَتَّىٰ زُرْتُمُ الْمَقَابِرَ ۚ﴾ ^(٢) لقد كان لكم فيما رأيتم عبرة وشغل^(٣).

والآية على عمومها، لأن العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب.

والتفاخر عادة ما يكون في الجاه والمنصب والأولاد والأموال: كما قال تعالى ﴿زَيْنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنْطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْأَفْئِصَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالْأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ۚ ذَلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ۗ وَاللَّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الْمَقَابِلِ﴾ [آل عمران: ١٤].

وقد حددت الأحاديث منفعة المال في الدنيا، من ذلك أنه:

إذا مات الإنسان لا ينفعه إلا عمله:

١ - فعن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «يقول العبد، مالي، مالي، وإنما له من

(١) المسند (٣٠٨/٢) (٨٠٧٤)، (١٠٩٥٨)، وابن حبان (٣٢٢٢)، والمستدرک (٥٣٤/٢)، والبيهقي في شعب

الإيمان (١٠٣١٤)، قال محققو المسند: وإسناده صحيح على شرط مسلم، كما صححه الحاكم، (٥٣/٢).

(٢) ينظر: الدر المنثور (٦١٨/١٥)، وتفسير ابن كثير (٤٩٣/٨)، وابن أبي حاتم عن ابن بريدة.

ماله ثلاثة: ما أكل فأفنى، أو لبس فأبلى، أو أعطى فأفنى - أي تصدق وأخر لآخرته - وما سوى ذلك فهو ذاهب وتاركه للناس»^(١).

٢ - وفي حديث عبد الله بن الشَّخِير وعن مطرف عن أبيه، أن النبي ﷺ قرأ ﴿أَلْهَمَكُمُ اتِّكَانًا﴾ ثم قال: «يقول ابن آدم: مالي مالي، وهل لك من مالك إلا ما أكلت فأفنت، أو لبست فأبليت، أو تصدقت فابقيت»^(٢).

٣ - وعن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «يتبع الميت ثلاثة، فيرجع اثنان ويبقى واحد، يتبعه أهله وماله وعمله، فيرجع أهله وماله، ويبقى عمله»^(٣). ومطلوب من المسلم أن يتحرر من أسر حب المال:

٤ - وعن ابن عباس رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال: «لو كان لابن آدم واديان من مال، لا بتغى ثالثاً، ولا يملأ جوف ابن آدم إلا التراب، ويتوب الله على من تاب»^(٤).

وقد جاء التحذير في كتاب الله تعالى من فتنة المال والولد، في قوله تعالى:

﴿إِنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ وَاللَّهُ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ [التغابن: ١٥].

أي احذروا أن يضر فؤوكم عن طاعة الله، ويوقعوكم في المعصية.

وكأنني بالقرآن الكريم في أدبه العالي يعبر عن حب شهوة الفرج وما يلازمها، بحب الأولاد.

ويعبر عن حب شهوة البطن وما يلازمها بحب الأموال.

وقد جاء التحذير منهما والنهي عن الإلتهاؤ بهما ابتغاء مرضاة الله تعالى في قوله:

(١) صحيح مسلم برقم (٢٩٥٩)، وانظر (٢٩٥٨).

(٢) مسند الطيالسي (١٢٤٤)، والمسند (١٦٣٠٥، ١٦٣٢٧، ١٦٣٢٢) بإسناد صحيح على شرط مسلم ورجال ثقات، ومسلم (٢٩٥٨)، والترمذي (٣٣٥٤، ٢٣٤٢)، والنسائي (٣٦١٥)، وفي الكبرى (١١٦٣١، ٦٤٠٧)، والطبراني في الأوسط (٢٨٨٨)، والحاكم (٥٣٣/٢)، وابن حبان (٣٣٢٧، ٧٠١).

(٣) اللؤلؤ والمرجان فيما اتفق عليه الشيخان، حديث رقم (١٨٦٥).

(٤) صحيح البخاري، كتاب الرقائق، باب ما يتقى من فتنة المال برقم (٦٤٤٠، ٦٤٣٩)، والطبري (٥٩٩/٢٤).

﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا لَّهُمْ فِيهَا ءَمَولُكُمْ وَلَا ءُولَدُكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾ [المنافقون: ٩].

إن المرء يستطيع أن يقي وجهه من النار في الدنيا، ولكنه لا يستطيع أن يمتنع منها في الآخرة، إن مات على كفره حيث تلفحه النار يوم الحساب والجزاء، قال تعالى: ﴿تَلْفَحُ وُجُوهُهُمُ النَّارُ وَهُمْ فِيهَا كَالِحُونَ﴾ (١٠) ﴿أَلَمْ تَكُنْ ءَايَتِي تُنْزِلُ عَلَيْكُمْ فِكْكُمْ بِهَا تُكْذِبُونَ﴾ [المؤمنون: ١٠٤ - ١٠٥].
وقد بين سبحانه وتعالى أن ﴿مَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ مِنَ اللَّهِو وَمِنَ الْجَزَاءِ وَاللَّهُ خَيْرُ الرَّزَاقِينَ﴾ [الجمعة: ١١].
وإذا كان المال والولد يسيبان للناس - غالباً - اللهو والفتنة والطغيان، فإنهما لا يأخذان بيد صاحبهما إلى القُرب من الله تعالى، ما لم يقترن بهما الإيمان والعمل الصالح، قال تعالى: ﴿وَمَا ءَمَولُكُمْ وَلَا ءُولَدُكُمْ بِالَّتِي تُقَرِّبُكُمْ عِنْدَنَا زُلْفَىٰ إِلَّا مَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَأُولَئِكَ لَهُمْ جَزَاءُ الْفَضْلِ بِمَا عَمِلُوا وَهُمْ فِي الْغُرُفَاتِ ءَامِنُونَ﴾ [سبأ: ٣٧].
وفي قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰ زُرْتُمُ الْمَقَابِرَ﴾ إشارة إلى سنة زيارة القبور، دون شدِّ رَحْلِ ولا قصد ضريح يطلب منه الزائر دفع ضرر أو جلب نفع، فإن زيارة القبور ترهّد في الدنيا، وتذكّر الآخرة، وترقق القلب، وتدعو إلى عدم التفاخر والتكاثر بزخرف الدنيا وهو موضوع هذه السورة.

التَّهْدِيدُ وَالْوَعِيدُ لِمَنْ شَغَلَتْهُ دُنْيَاهُ عَنْ آخِرَاهُ

٤،٣ - ﴿كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ (٢) ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿١﴾

وعيد بعد وعيد، فيه ردع وزجر، وتهديد وتنبية، على أنه لا ينبغي للناس أن يظّلوا على ما هم عليه من الانشغال والتلهي بالدنيا، والتكاثر والتفاخر بزخرفها ومتاعها، وعدم العمل لآخرتهم، فإنهم لو علموا ما أمامهم من الثواب العقاب علم اليقين لما ألتهتهم الدنيا، ولبادر والعمل للدار الباقية، وسوف يعلمون عاقبة تفاخرهم وتكاثرهم وتفريطهم في طاعة الله ورسوله إذا نزل بهم الموت، وعانوا أهواله وشدائده، ومن ثم إذا عانوا عذاب القبر، وما يكون بعده في الدار الآخرة من عقاب وخيم وأليم.

عن ابن عباس رضي الله عنهما: أن ﴿سَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ الأولى تتعلق بعذاب القبر. و﴿سَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ الثانية تتعلق بعذاب الآخرة^(١).

وعلى هذا فلا يوجد تكرار بين الآيتين.

وعذاب القبر دل عليه الكتاب والسنة كما هو معلوم.

فالقبر إما روضة من رياض الجنة أو حفرة من حفر النار.

رُؤْيَةُ الْجَحِيمِ يَوْمَ الْبُعْثِ رَأْيَ الْعَيْنِ

٥-٧- ﴿كَلَّا تَوْعَلَمُونَ عِلْمَ الْيَقِينِ ۚ لَتَرَوُنَّ الْجَحِيمَ ۚ ۝٦ ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ الْيَقِينِ ۚ﴾

أي لو علمتم - أيها الناس - حق العلم ما تجدونه عند موتكم، وفي قبوركم، ويوم بعثكم وحشركم ونشركم، لو علمتم حقيقة ذلك، لَمَا تشاغلتم بالأموال، ولما تكاثرت بها، ولما ألهتكم عن طلب الآخرة، حتى صرتم إلى الموت، ودُفِنتم في المقابر.

جاء في الحديث عن أنس ؓ أن رسول الله ﷺ قال: «لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلا ولبكيتم كثيرا»^(٢).

ولا بأس بالمال والولد والصحة والجاه وخلافه، لمن اتقى الله تعالى فاستعملها فيما أباحه الله، ولم يبددها في معاصيه.

قيل: إن مراتب العلم ثلاثة:

١- علم اليقين: وهو ما ينتج عن الأدلة والبراهين.

٢- وعين اليقين، وهو ما كان عن مشاهدة عينية.

٣- وحق اليقين، وهو ما كان عن ملابسة ومخالطة.

(١) تفسير القرطبي للسورة.

(٢) قرأ ابن عامر والكسائي بضم التاء من ﴿لَتَرَوُنَّ﴾ مبنيًا للمفعول، مضارع أرى، والواو نائب فاعل، والباقون بفتح التاء مبنيًا للفاعل، مضارع رأى، والواو فاعل، ولا خلاف بين القراء في ﴿لَتَرَوُنَّ﴾.

(٣) جزء من حديث في البخاري (٤٦٢١)، ومسلم (٢٣٥٩).

مثال ذلك: أن تعلم أن الكعبة موجودة، فذلك علم اليقين، فإذا رأيته بعينك، فذلك عين اليقين، فإذا دخلت في جوفها فذلك حق اليقين.

قال قتادة: كنا نحدث أن علم اليقين أن يعلم أن الله باعته بعد الموت^(١).

بعد ذلك يأتي تفسير للوعيد المتقدم.

ومعناه: أن الله تعالى يؤكد في جواب القسم على أن الناس سوف ترى النار بأعينها بعد الموت، وتشاهدها يوم القيامة، تراها عندما يتكشف الحال في القبر، وتراها عند المرور على متن جهنم، وتراها في عرصات القيامة يوم البعث. يراها الخلق جميعاً، وينجي الله المؤمن منها، ويضلها الكافر.

وهذه الرؤيا لجهنم رؤيا حقيقية بالمشاهدة العينية، كما قال تعالى: ﴿وَبُزِيَ الْجَحِيمُ لِمَنْ يَرَى﴾ [النازعات: ٣٦] وقال سبحانه: ﴿وَبُزِيَ الْجَحِيمُ لِلْغَاوِينَ﴾ [الشعراء: ٩١].

ووضع الصراط على متن جهنم، فناجٍ قد سلم من النار، ومدفوع به من ورائه قد سقط في جهنم.

قال عز وجل: ﴿وَرَأَى الْمُجْرِمُونَ النَّارَ فَظَنُّوا أَنَّهُمْ مُوَاعِعُوهَا وَلَمْ يَجِدُوا عَنْهَا مَصْرِفًا﴾ [الكهف: ٥٣].

وفي الحديث عن ابن مسعود ؓ أن النبي ﷺ قال: «يؤتى بجهنم يوم القيامة ولها سبعون ألف زمام مع كل زمام سبعون ألف ملك يجرونها»^(٢).

فما جدوى الاستمتاع المحرم، والمكاثرة غير المشروعة في الدنيا؟ فاستعدوا لعذاب الهون إن كنتم من هذا القبيل: ﴿ذَلِكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَفْرَحُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَبِمَا كُنْتُمْ تَمْرَحُونَ﴾ [غافر: ٧٥].

﴿وَيَوْمَ يُعْرَضُ الَّذِينَ كَفَرُوا عَلَى النَّارِ أَدْهَبْتُمْ طِبَنُكُمْ فِي حَيَاتِكُمُ الدُّنْيَا وَاسْتَمْتَعْتُمْ بِهَا فَالْيَوْمَ يُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ بِمَا كُنْتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَبِمَا كُنْتُمْ تَفْسُقُونَ﴾ [الأحقاف: ٢٠].

(١) الطبري (٦٠٢/٢٤).

(٢) أخرجه مسلم برقم (٢٨٤٢)، والترمذي بتصحيح الألباني (٢٠٨٢) عن ابن مسعود، وانظر صحيح الجامع الصغير حديث رقم (٧٨٧٨).

السُّؤَالُ عَنْ شُكْرِ النِّعَمِ سُؤَالُ حِسَابٍ وَامْتِنَانٍ

٨- ﴿ثُمَّ لَتُسْأَلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ النَّعِيمِ﴾ (٨)

هذا السؤال عام للكافر والمسلم، وهو بالنسبة للكافر سؤال حساب وتقريع وتوبيخ، وبالنسبة للمؤمن سؤال تقرير واعتراف بحسب شكره للنعمة وتصرفه فيها.

والمعنى: لتسألن يومَ تروُن الجحيم عين اليقين، عن النعيم الذي كنتم فيه في الدنيا، هل كنتم بشكره وأديتم حق الله فيه؟ ولم تستعينوا به على معاصيه؟ هل قابلتم هذه النعم بالشكر والطاعة أمر لا؟ وماذا عملتم في هذه النعم؟ وكيف وصلت إليكم؟ وكيف استعملتموها؟

والنعيم الذي يُسأل عنه الإنسان يوم القيامة عام في كل نعمة في الدنيا، حسية أو معنوية، صغيرة أم كبيرة:

عن عبد الله بن الزبير رضي الله عنهما قال: قال الزبير: لما نزلت ﴿ثُمَّ لَتُسْأَلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ النَّعِيمِ﴾ (٨) قالوا: يا رسول الله (أي نعيم تُسأل عنه، وإنما هما الأسودان: التمر والماء؟ قال: «أما إن ذلك سيكون»^(١).

وفي حديث محمود بن لبيد أنه لما نزلت هذه السورة قالوا: يا رسول الله، عن أي النعيم تُسأل، وإنما هما الأسودان: التمر والماء، وسيوفنا على رقابنا، والعدو حاضر، فعن أي نعيم تُسأل؟ قال: «أما إن ذلك سيكون»^(٢).

(١) أخرجه الترمذي برقم (٣٣٥٦)، وابن ماجه (٤١٥٨)، وابن أبي حاتم، راجع جامع الأصول في أحاديث الرسول حديث رقم (٨٨٣، ٨٨٤)، والفتح الرباني لترتيب مسند الإمام أحمد (ج ١٨) (ص ٢٦٠)، وفي المسند برقم (١٤٠٥)، وهو حديث صحيح كما في صحيح سنن الترمذي (٢٦٧٢)، وقد جاء هذا الحديث من عدة طرق.

(٢) أخرجه ابن أبي شيبة (٢٣١/١٣)، وأحمد في المسند (٢٣٦٤٠) بإسناد حسن (محققه)، والطبري (٦٠٨/٢٤)، والبيهقي في الشعب (٤٥٩٨).

وقد عَدَّ النبي ﷺ راحة النفس من النعيم:

فعن معاذ بن عبد الله الجهني عن أبيه عن عمه قال: خرج علينا رسول الله ﷺ وعليه أثر غُسل، وهو طيب النفس، فظننا أنه ألم بأهله، فقال: أجل، والحمد لله، ثم ذكر الغنى، فقال: «لا بأس بالغنى لمن اتقى الله، والصحة لمن اتقى خير من الغنى، وطيب النفس من النعيم»^(١).

ما يُعفى من السؤال:

ويعفى من السؤال أربعة أشياء لا بد منها لحياة الإنسان، جاءت في قوله تعالى لآدم ﴿إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَىٰ ﴿١٨﴾ وَأَنَّكَ لَا تَظْمَأُ فِيهَا وَلَا تَصْحَىٰ﴾ [طه: ١١٨ - ١١٩]. وهي: ما يسدّ به العبد جوعه، ويدفع به عطشه، ويستر به عورته، وما يسكن فيه، ويؤويه من الحر والقر.

إن هذه الأربعة ضرورات لا بد منها للإنسان، فيعفى المرء من السؤال عما هو يسير وضروري، ومن ذلك المأكل والمشرب والملبس والمسكن في حدود ما أحل الله. وجاء في الأثر: بيت يكتك، وخزقة تُواريك، وكِسرة تشدّ قلبك، وما سوى ذلك فهو نعيم. نَعَم يُسأل عنها العبد:

ونعم الله تعالى التي يُسأل عنها العبد لا تعد ولا تحصى:

أولها: نعمة الإسلام، فقد ذكرها القرآن في قوله تعالى: ﴿وَأَمِنْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا﴾ [المائدة: ٣].

والمرء مسؤول يوم القيامة عن القيام بواجب هذه النعمة - نعمة الإسلام - من عدمه، سواء أكان رسولاً، أو مرسلأ إليه، وهو أعظم سؤال ﴿فَلَنَسْأَلَنَّ الَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْأَلَنَّ الْمُرْسَلِينَ﴾ [الأعراف: ٦].

وثانيها: أن الإنسان مسؤول عن نعمة السمع والبصر والفؤاد، قال تعالى ﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَٰئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا﴾ [الإسراء: ٣٦].

(١) أخرجه أحمد (١٦٦٤٣، ٢٣٥١٨)، وهو في صحيح سنن ابن ماجه (١٧٤١) بتصحيح الألباني له، ورقمه في سنن ابن ماجه (٢١٤١).

وثالثها: أن يُسأل المرء عن نعمة الوجود في هذه الحياة، وعن فترة الشباب من عمره على وجه الخصوص، وعن العلم الذي علّمه الله إياه، وعن المال (مصدراً ومورداً).
عن أبي برزة الأسلمي رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ «لا تزول قدما عبد يوم القيامة حتى يسأل عن عمره فيما أفناه، وعن عمله فيما فعل فيه، وعن ماله من أين اكتسبه وفيما أنفقه، وعن جسمه فيما أبلاه».

زاد في رواية ابن مسعود: «وعن شبابه فيما أبلاه»^(١).

ورابعها: أن من النعيم الذي يسأل عنه الإنسان يوم القيامة: الصحة والماء البارد:
عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال النبي ﷺ: «إن أول ما يسأل عنه العبد يوم القيامة من النعيم أن يقال له: ألم نُصِحِّ لك بدنك، ونَزَوَّك من الماء البارد»^(٢).
وخامسها: أن يسأل العبد عن نعمة الفراغ .

عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: قال النبي ﷺ: «نعمتان مغبون فيهما كثير من الناس: الصحة والفراغ»^(٣)

قال ابن الجوزي: قد يكون الإنسان صحيحاً، ولا يكون متفرغاً لشغله بالمعاش، وقد يكون متفرغاً ولا يكون صحيحاً، فإذا اجتمعا، فغلب عليه الكسل عن الطاعة، فهو المغبون. وتمام ذلك أن الدنيا مزرعة الآخرة، وفيها التجارة التي يظهر ربحها في الآخرة.

(١) رواه الترمذي من حديث أبي برزة الأسلمي برقم (٢٤١٧) قال أبو عيسى: هذا حديث حسن صحيح، وبرقم (٢٤١٦) وفيه «حتى يسأل عن خمس» وهذا من رواية ابن مسعود وهو حديث حسن بشواهد، قال أبو عيسى: هذا حديث غريب لا نعرفه إلا من حديث ابن مسعود، وقد حسن الألباني رواية ابن مسعود برقم (١٩٦٩)، وفي السلسلة الصحيحة (٩٤٦)، والروض النضير (٦٤٨)، وصححه في رواية أبي برزة برقم (١٩٧٠).

(٢) حديث صحيح أخرجه الترمذي وابن حبان، راجع جامع الأصول في أحاديث الرسول حديث رقم (٨٨٥)، وهو في المسند من زوائد عبد الله (٣٣٥٨)، والمستدرک (١٣٨/٤)، والبيهقي في الشعب (٤٦٠٧)، وصحيح سنن الترمذي (٢٦٧٤) بتصحيح الألباني له.

(٣) أخرجه البخاري برقم (٦٤١٢)، والترمذي (٢٣٠٤)، وابن ماجه (٤١٧٠) وغيرهم.

فمن استعمل فراغه وصحته في طاعة الله فهو المغبوط، ومن استعملها في معصية الله فهو المغبون، لأن الفراغ يعقبه الشغل، والصحة يعقبها السقم^(١).
فالناس مقصرون في شكر هاتين النعمتين (الصحة والفراغ) لا يقومون بواجبهما، ومن لا يقوم بحق ما وجب عليه فهو مغبون، فمن أدى شكر النعم السابقة، من صحة وأمن وفراغ وطعام وشراب و.. و.. فقد نجا، ومن لم يؤد شكرها عوقب وجوزي.
شكر النعم:

وقد علّمنا النبي ﷺ أن نشكر الله تعالى على القليل من النعم، وأخبر ﷺ أن سؤال الشكر يعم هذا القليل ولو كان ظلاً بارداً أو ماءً بارداً.
فما بالكم بالمكيفات والثلاجات والسيارات والطائرات، والكماليات، وألوان الترف والزينة، وفضل الطعام الذي يُلقى في القمامة، وكثير من المسلمين في أمس الحاجة إليه؟
إن السؤال عن شكر النعمة سيكون عاماً وشاملاً:

١- عن أبي هريرة ؓ قال: خرج رسول الله ﷺ ذات يوم أو ليلة فإذا هو بأبي بكر وعمر، فقال: «ما أخرجكما من بيوتكما هذه الساعة؟» قالا: الجوع يا رسول الله، قال: «وأنا والذي نفسي بيده، لأخرجني الذي أخرجكما، قوموا»، فقاموا معه، فأتى رجلاً من الأنصار، فإذا هو ليس في بيته، فلما رآته المرأة قالت: مرحباً وأهلاً، فقال لها رسول الله ﷺ: «أين فلان؟» قالت: ذهب يستعذب لنا من الماء، إذ جاء الأنصاري، فنظر إلى رسول الله وصاحبيه ثم قال: الحمد لله، ما أجد اليوم أكرم أضيافاً مني، قال: فانطلق فجاءهم بعذق (قنو) فيه بُسر وتمر ورطب، فقال: كلوا من هذه.

وأخذ المُدِيّة (السكين) فقال له رسول الله ﷺ إياك والحلّوب! - أي احذر أن تذبح الشاة الحلوب - فذبح لهم، فأكلوا من الشاة، ومن ذلك العذق، وشربوا، فلما أن شبعوا وارتوؤا، قال رسول الله ﷺ لأبي بكر وعمر: «والذي نفسي بيده لتسألن عن هذا النعيم

(١) حاشية زاد المسير في علم التفسير، سورة التكاثر.

يوم القيامة، أخرجكم من بيوتكم الجوع، ثم لم ترجعوا حتى أصابكم هذا النعيم»^(١).
 ٢- ومن ذلك أن النبي ﷺ وأبأبكر وعمر رضي الله عنهم كما جاء في حديث أبي الهيثم الأنصاري «ابن التيهان» أنهم جلسوا تحت شجرة في ظل مشوب بالشمس والريح، وأكلوا رُطْباً وبُسْراً، وشربوا من الماء (من قربة) فقال ﷺ: «هذا من النعيم الذي تسألون عنه»^(٢).

ويبدو من النص أن المعفو عنه من السؤال، بالنسبة لضرورات الحياة، هو سؤال الحساب والمؤاخذه، لا سؤال الشكر والامتنان والإقرار.

٣- وفي حديث أحمد عن أبي عسيب مولى رسول الله ﷺ قال: «خرج رسول الله ﷺ فمرّ بي فدعاني، فخرجتُ إليه، ثم مرّ بأبي بكر فدعاه فخرج إليه، ثم مرّ بعمر فدعاه فخرج إليه، فانطلق حتى دخل حائطاً «بستاناً» لبعض الأنصار، فقال لصاحب الحائط «أطعمنا» فجاء بعذق فوضعه، فأكل ﷺ وأصحابه، ثم دعا بماء بارد، فشرب وقال: «لتسألن عن هذا يوم القيامة»، قال: فأخذ عمر العذق فضرب به الأرض، حتى تناثر البُسْر قبلَ رسول الله ﷺ ثم قال: يارسول الله: إنا لمسؤولون عن هذا يوم القيامة؟ قال: «نعم، إلا من ثلاثة: خرقه لفّ بها الرجل عورته، أو كسره سدّ بها جوعته، أو جُحر يدخل فيه من الحر والقر»^(٣).

٤- وأخرج عبد الله بن أحمد عن سلمان قال: بلغني أن في التوراة مكتوب، ابن آدم،

(١) ينظر: صحيح مسلم حديث رقم (٢٠٣٨)، وأبوداود (٥١٢٨)، والترمذي (٢٣٦٩)، والنسائي في السنن الكبرى (١١٦٩٧)، وابن ماجه (٣١٨٠)، والبيهقي (٤٦٠٢) وغيرهم.

(٢) أخرجه ابن مردويه عن ابن عمر كما في الدر المنثور (٦٣١/١٥)، قال في الفتح الرباني: الحديث سنده جيد، وله شواهد تؤيده (ج ١٩) (ص ١٠٤)، قلت: ومن هذه الشواهد حديث جابر بن عبد الله في المسند (١٤٦٣٧، ١٤٧٨٦)، والنسائي (٣٦٤١)، وصححه الألباني في صحيح سنن النسائي (٣٤٠٠)، وأخرجه البيهقي (٥٨٧٧، ٤٦٠٠)، والطبري (٦٠٥/٢٤).

(٣) المسند (٢٠٧٦٨)، وفي سنده: نباتة الأشجعي، مختلف فيه، وباقي رجال الإسناد ثقات (محققوه)، والطبري (٦٠٧/٢٤)، والبيهقي في الشعب (٤٦٠١) وغيرهم.

كسرة تكفيك، وخرقة تواريك، وجُحر يؤويك^(١).

ومن النعيم: باردُ الشراب، وظلال المساكين، وشيخ البطون، واعتدال الخلق، ولذة النوم، والزوجة الصالحة، وصحة الأبدان والأسماع والأبصار، والأمن والرخاء، وما إلى ذلك.

فاللهم ارزقنا شكر نعمك، وحسن طاعتك، وامثال أمرك، واجتناب نهيك، ولا تجعلنا ممن يبطر ويطنغي إذا اغتنى، ولا ممن يسعى في الأرض بالفساد إذا أوتي صحة وجاهاً وسلطاناً، ولا تخزننا يوم يبعثون، يوم لا ينفع مال ولا بنون، إلا من أتى الله بقلب سليم.

وصلّى الله على نبينا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

تم تفسير (سورة التكاثر) والله الحمد والمنة

(١) عبد الله بن أحمد في زوائد الزهد (ص ١٢).

تَفْسِيرُ سُورَةِ الْعَصْرِ (١٠٣)

مُقَدِّمَةُ السُّورَةِ

١- (سورة العصر) هي السورة الثالثة بعد المئة في ترتيب المصحف، والثالثة عشرة في ترتيب النزول، نزلت بعد (سورة الشرح) وقبل (سورة العاديات). وهي ثلاث آيات باتفاق، وأربع عشرة كلمة، وثمانية وستون حرفاً. وتسمى (سورة العصر) بإثبات الواو وحذفها، وهي سورة مكية عند الجمهور. وهذه السورة إحدى ثلاث سور، تتكون من ثلاث آيات هي: العصر والكوثر والنصر. أغراض السورة:

وسورة العصر على وجازتها لخصت عواقب النشاط الإنساني كله، على امتداد الزمان والمكان، ويثبت أن من انقطعت صلتهم بالله تعالى هم حطب جهنم، وأن من اتصلوا بالله تعالى هم الذين فازوا في معترك الحياة. وقد اشتملت السورة على عناصر أربعة هي أسس السعادة في الدنيا والآخرة وهي: الإيمان، والعمل الصالح، والتواصي بالحق، والتواصي بالصبر. وقد اتخذ الصحابة سورة العصر شعاراً لهم في لقاءاتهم، فكان الرجال إذا التقيا لم يفترقا إلا إذا قرأ أحدهما على الآخر سورة العصر، ثم يسلم عليه^(١). إن الحق مُرٌّ، والصبر عليه مطلوب حتماً، نظراً للاضطهاد الذي يلحق القائم به، والتشبث بالإيمان عند بعض الناس رجعية، فلا بد من عزيمة وجلد حتى يكسب المؤمنون المعركة. إنها سورة قصيرة، ذات آيات ثلاث، في سطرين اثنين، ومع هذا فهي تضع منهجاً متكاملًا لحياة البشر، وترسم لهم دستوراً واضحاً، وتبين مهام الأمة الإسلامية ووظيفتها

(١) المعجم الأوسط للطبراني برقم (٥٠٩٧)، وفي الكبير برقم (٥١٢٤)، ورجاله رجال الصحيح غير ابن عائشة وهو ثقة كما قال الهيثمي في مجمع الزوائد (٣٠٧/١٠)، وأخرجه البيهقي في الشعب برقم (٩٠٥٧).

على مر العصور والأجيال، وتأخذ بيد الإنسان إلى سعادتي الدنيا والآخرة، وتوضح له أسباب الخسران والهلاك في الدارين.

وللأزمة معالم متميزة تُعرف بها، وتضاف إليها، فيقال: عصر الصحابة، وعصر الذرة، وعصر الفضاء، لمن يظلمهم زمن واحد، يتشابهون في معاشهم وتقاليدهم، ولكنهم يختلفون في المصير الأخروي حسب إعدادهم له، فرب رجلين عاشا في زمن واحد، بل في بيت واحد، فذهب أحدهما إلى النعيم، والآخر إلى الجحيم، وسيُرَى الإنسان مع الغرائز والأهواء ينتهي إلى الخسران.

وحق للإمام الشافعي أن يقول: لو ما أنزل الله تعالى على خلقه حجة إلا هذه السورة لكتفتهم.

فقد بينت السورة حال الناس في عصر النبوة وما بعدها، وبينت أن المؤمنين منهم قد استوفوا أعمارهم في تحصيل أصول التجارة الرابعة.

عن عمرو بن ميمون قال: شهدتُ عمر رضي الله عنه حين طُعن، فأَمَّنَا - في الصلاة - عبدُ الرحمن بنُ عوف، فقرأ بأقصر سورتين في القرآن، بـ (العصر) و (إذا جاء نصر الله) في الفجر^(١).

وهكذا: فإن الله تعالى يقسم على أن جنس الإنسان في هلاك وخسران، ويستثنى من ذلك من آمن بالله ورسوله واليوم الآخر، وعمل صالحاً، وأمر بالمعروف ونهى عن المنكر، وصبر على جهاد الدعوة، وتواصى مع إخوانه المسلمين على كلمة الحق، والصبر على الأذى في سبيلها، فإن من اتصف بهذه الصفات الأربع، لن يخسر دنياه ولا آخرها، بل يفوز بالجنة ورضوان الله تبارك وتعالى.

* * *

(١) أخرجه ابن سعد (٣/٣٤٩).

تَفْسِيرُ السُّورَةِ

النَّاسُ فِي هَلَاكِ وَخُسْرَانٍ إِلَّا مَنْ اسْتَتْنَاهُمْ رَبُّ الْعَالَمِينَ

٢،١ - ﴿وَالْعَصْرِ ۝١ إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ خُشْرٍ ۝٢﴾

١ - يقسم الله تبارك وتعالى بالدهر كله، وهو الزمن الذي فيه عمر الإنسان، وفيه مرور الليل والنهار، وتعاقب الظلمة والنور، وهو محل أقوال العباد وأعمالهم. أقسم الله به لما فيه من العبر والعجائب والعظات والغرائب الدالة على قدرة الله تعالى وحكمته، وجاء هذا القسم على أن جنس الإنسان في خسارة ونقصان، إلا من كان مؤمناً عاملاً للصالحات، يوصي الناس بالحق، ويعتصم بالصبر. والدهر هو هو، لا يتغير: ليل يعقبه نهار، ونهار يطرده ليل، لا يعلم الخلق متى بدأ، ولا يعلمون متى ينتهي، أمة تذهب، وأمة تأتي، فيه السراء والضراء، والسعادة والشقاء، والصحة والمرض، والغنى والفقر، والخوف والأمن.

وعُمر الإنسان رأس ماله، فكل لحظة تمرُّ فهي نقص من أجله، وقد كُلف المرء بأن يُحسن استعمال عمره، (مدة وجوده في الحياة) ولاسيما فترة الشباب منه، فحياة الإنسان تشبه سوقاً أو تجارة، ربح فيها من ربح، وخسر فيها من خسر، فإذا استعمل الإنسان نفسه في الخير فقد أفلح ونجا، وإن استعملها في الشر فقد خاب وخسر، عياداً بالله. والدهر لا دخل له في شيء من ذلك أبداً، بل إن لهذا الزمن إله قادر متصرف، وكان الناس ولا يزالون ينسبون إلى الدهر النوائب والنوازل، فأقسم الله تعالى به تنبيهاً على شرفه: وليبان أن الله تعالى هو المؤثر الوحيد، وهو الضار النافع، وأن ما يقع للإنسان من بلايا ومحن، إنما هي بقضاء الله تعالى وقدره، ومن هنا فقد نهاهم الإسلام عن سب الدهر، فقال ﷺ من حديث أبي هريرة رضي الله عنه: «لا تسبوا الدهر، فإن الله هو الدهر»^(١).

(١) لم يعدّ لمديني الأخير ﴿وَالْعَصْرِ﴾ آية، وعدّها غيره.

(٢) أخرجه مسلم عن أبي هريرة حديث رقم (٢٢٤٦، ٢٢٤٧).

وإطلاق الدهر على الله تعالى فيه (تَجَوَّز) فهو لا يُعَدُّ اسماً من أسمائه الحسنى.
والعصر المفضل، هو - عصر النبي ﷺ - ثم الذي يليه، ثم الذي يليه، وعمر الإنسان جزء من العصر الذي يعيشه.

ووقت صلاة العصر جزء من الزمن، وهذه المعاني وغيرها داخلة في المعنى الأول.
قال ابن عباس رضي الله عنهما: العصر: ساعة من ساعات النهار. وهو آخر ساعة فيه.
وقد أقسم الله به كما أقسم بالضحى والفجر لما فيهما من تصرف الأحوال وتبدلها، ودالتها على وحدانية الصانع سبحانه.

٢ - وقد يكون المراد بالعصر، صلاة العصر لفصل هذه الصلاة عن غيرها، حيث جاء فيها قول الله تعالى: ﴿حَفِظُوا عَلَى الصَّلَوَاتِ وَالصَّلَاةِ الْوُسْطَى وَقُومُوا لِلَّهِ قَانِتِينَ﴾ [البقرة: ٢٣٨].
وقال ﷺ في حديث سالم بن عبد الله بن أبيه:
«من فاتته صلاة العصر فكأنما وتر أهله وماله»^(١).

وقد جاء التنبيه على صلاة العصر لأنها تأتي في وقت راحة بعض الناس من أداء عملهم، وفي وقت رواج التجارات والمكاسب آخر النهار لفئات أخرى من الناس.
وقد جاء في الحديث عن أبي هريرة ؓ أن رسول الله ﷺ قال: «ثلاثة لا يكلمهم الله يوم القيامة ولا ينظر إليهم: رجل حلف على سلعة: لقد أعطى بها أكثر مما أعطى، وهو كاذب، ورجل حلف على يمين كاذبة بعد العصر، ليقطع بها مال امرء مسلم، ورجل منع فضل ماء، فيقول الله يوم القيامة: اليوم أمنعك فضلي، كما منعت فضل ما لم تعمل يدك»^(٢).
والله سبحانه يقيم الحجة على الإنسان، بأن أعطاه غمراً ووقفاً كافياً للاعتبار والانتفاع والعمل، ولكن بعضهم أساء استخدامه ﴿أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُمْ مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ وَجَاءَكُمُ النَّذِيرُ﴾ [فاطر: ٣٧] أي أعطيناكم عمراً يكفي للاتعاظ وحُسن العمل لمن يريد ذلك، وجاءكم نذير الشيب والموت، وجاءكم النذير من الرسل والكتب، فلم تتعظوا وغرکم بالله الغرور.

(١) صحيح مسلم (٦٢٦)، وفي البخاري عن ابن عمر (٥٥٢).

(٢) صحيح البخاري (٧٤٤٦، ٢٣٥٨)، وصحيح مسلم (١٠٨).

قال ﷺ في حديث أبي مالك الأشعري: «كل الناس يغدو، فبائع نفسه فمعتقها أو موبقها»^(١). أي أن كل إنسان يسعى بنفسه، فمنهم من يبيعها لله تعالى بطاعته فيعتقها من العذاب، ومنهم من يبيعها للشيطان والهوى فيهلكها ويوبقها.

والمراد بالإنسان - في أصح القولين - عموم بني آدم.

المقسم عليه: وقد أقسم الله تعالى على أن جنس الإنسان في خُسران وهلاك إلا من استثناهم رب العالمين، وذلك لأن كل ساعة تمر من عمره إما أن تكون في طاعة أو في معصية، فإن كانت في معصية فهو الهلاك المبين، وإن كانت في طاعة، فلعله يكون قد ترك ما هو أعظم وأفضل من هذه الطاعة مع قدرته عليها، فيكون غير الأفضل تضييعاً لما هو أكثر أجراً وأعلى درجة، وقد يشعر الإنسان بالأسى والحزن في آخر عمره، حينما يشعر أنه ضاع في لهو، ولا يمكنه استدراك ما مضى منه.

فالخسارة مراتب متعددة متفاوتة؛ قد يكون خساراً مطلقاً كحال من خسر الدنيا والآخرة، ففاته النعيم واستحق الجحيم، وقد يخسر العبد بعض الوجوه دون بعض، ولهذا عَمَّم الله الخسار لكل إنسان إلا من اتصف بصفات أربع.

أَرْبَعُ صِفَاتٍ لِلْفِتَّةِ الرَّابِحَةِ

٣- ﴿إِلَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ^(٢) وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ

وقد أقسم الله تبارك وتعالى على أن الناس كلهم في خسر وهلاك، واستثنى سبحانه وتعالى فئة رابحة وناجية، هذه الفئة اتصفت بصفات أربع: هي:

الإيمان، والعمل الصالح، والتواصي بالحق، والتواصي بالصبر:

الصفة الأولى: الإيمان بالله ورسوله واليوم الآخر:

الوارد ذكره في قوله تعالى: ﴿إِلَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ والإيمان بالله، هو الذي يَصِلُ العبد

(١) من حديث أبي مالك الأشعري في صحيح مسلم رقم (٢٢٣) وأوله «الطهور شرط الإيمان»، وقد أخرجه أحمد في المسند (٢٢٩٠٢).

(٢) عد المدني الأخير وحده ﴿وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ﴾ آية، وتركها غيره.

بربه بلا واسطة، فيؤدع القلب نوراً، والروح طُمأنينة، والنفس أنساً وثقة، وينفي التردد والخوف والقلق والإضطراب، كما ينفي الاستكبار والاستعلاء على العباد، ويورث القلب استقامة على منهج الله تعالى، فلا يضل ولا ينحرف، ويجعل العبد يأنس بربه في سعادة لا تغدئها سعادة، وأنس لا يدانيه أنس، والإيمان بالله تعالى كسب لا يغدئه كسب، وفقدانه خسران لا يغدئه خسران، فهو أجل نعم الله على الإطلاق.

ولا يكون الإيمان بدون العلم بما أمر الله العبد أن يؤمن به، فالإيمان يترتب على العلم ولا يتم إلا به.

والإيمان يسمو بالإنسان عن الماديات، ويرتفع به عن الشهوات، ويحرر النفس من سيطرة غيره، ويبعث فيها روح الإقدام والشجاعة.

وإذا تحقق الإيمان في العبد، فإنه يتحول إلى قوة إيجابية في الحياة، فيحول الضعف إلى قوة، والهزيمة إلى نصر، واليأس إلى أمل، والأمل إلى عمل.

والإيمان في حقيقته: هو التصديق القاطع واليقين الجازم بأن الله سبحانه إله الأولين والآخرين، لا إله غيره، ولا معبود سواه، هو رب كل شيء ومليكه، فاطر السموات والأرض، عالم الغيب والشهادة، موصوف بكل كمال، ومنزه عن كل نقص، ليس كمثله شيء، له الأسماء الحسنى والصفات العليا، كما وصف نفسه سبحانه، وكما وصفه رسوله ﷺ من غير تأويل ولا تشبيه ولا تعطيل ولا تحريف ولا تمثيل ولا تجسيم.

ومنه الإيمان بملائكة الله تعالى وكتبه ورسله واليوم الآخر، وبالقضاء خيره وشره.

والإيمان بأن محمداً ﷺ خاتم المرسلين والنبين، والقرآن آخر الكتب..

والجمهور: على أن الإيمان اعتقاد بالجنان، ونطق باللسان، وعمل بالجوارح، وهو يزيد بالطاعة وينقص بالمعصية.

والاعتقاد لا ينفع صاحبه ما لم يكن مصحوباً بالعمل، فأبوطالب كان يعتقد بصحة رسالة محمد ﷺ ولكنه لم ينطق بكلمة التوحيد التي يحاج له بها النبي ﷺ عند ربه، كما لا ينفع العبد نطقه للشهادتين مع عدم صلاته وصيامه.. الخ.

فلا بد من تحقيق الأركان الثلاثة للإيمان الكامل، وهي: الاعتقاد الصحيح، والنطق باللسان، والعمل بالجوارح.

الصفة الثانية: العمل الصالح: الوارد في قوله تعالى: ﴿وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ والعمل الصالح ثمرة من ثمرات الإيمان، وأثر من آثاره، تزكو به النفس، ويَطْهَرُ به القلب، وتعمُر به الحياة، ولهذا جاء الإيمان في القرآن الكريم مقروناً بالعمل الصالح، لأن الإيمان إذا تجرد عن العمل الصالح كان إيماناً عقيماً، وكان كالشجرة التي لا تثمر ثمراً، ولا تُؤد ظلاً. والعمل الصالح إذا خلا من الإيمان، كان رياءً ونفاقاً.

ذلكم لأن الإيمان حقيقة إيجابية متحركة، ما إن تستقر في الضمير حتى تسعى إلى تحقيق ذاتها في الخارج في صورة عمل صالح، فهو يَصْدُرُ عن الإيمان كما تُصْدِرُ الشمسُ أشعتها، وشأنه شأن الزهرة لا تُمسك أريجها بل ينبعث منها انبعاثاً طبعياً. والعمل الصالح يشمل أفعال الخير كلها، الظاهرة والباطنة، المتعلقة بحق الله تعالى وحق عباده الواجبة والمستحبة.

فالعمل الصالح ميدان واسع فسيح، يشمل كل خير وبر وتقوى وطاعة، ولا يُعتبر العمل صالحاً إلا إذا كان مطابقاً لما جاء به النبي ﷺ، فكل عمل مخالف لهذي النبي ﷺ عمل باطل وليس بصالح.

ولا بد أن يكون العامل مخلصاً فيما بينه وبين الله تعالى، يبتغي بعمله وجه الله وحده، وقبل ذلك لابد أن يكون العامل مؤمناً صحيح العقيدة، فالإيمان قيد لذلك العمل الصالح. قال تعالى: ﴿مَنْ عَمِلْ صَالِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أَنَّىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهٗ حَيَوةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [النحل: ٩٧].

وكما لا ينفع عمل بدون إيمان صحيح كامل، كذلك لا ينفع عملٌ إلا أن يكون موافقاً لهذي النبي ﷺ فيكون هذا العمل صواباً خالصاً، أي موافقاً للسنّة وبعيداً عن الرياء:

قال تعالى: ﴿فَمَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا﴾ [الكهف: ١١٠].

ومن أهم الأعمال الصالحة: التوبة، كلما ألمّ العبد بذنب من الذنوب تاب إلى الله

منه، فإن من يعمل السيئات ولم يتب إلى الله منها قد تحقق فيه وصف الخسران.

الصفة الثالثة: التواصي بالحق الوارد في قوله تعالى: ﴿وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ﴾.

والتواصي بالحق، هو التواصي باتباع صراط الله المستقيم، والاستقامة عليه، والحق هو الإيمان والعمل الصالح، فيوحى به بعضهم بعضاً، ويحثهم عليه ويرغبهم فيه. والحق ضد الباطل، وهو يشمل إتيان جميع الطاعات وترك جميع المعاصي، فكأن كلمة الحق تعني الإسلام كله، ولأن الناس تُعادي من يدعوهم إلى الحق غالباً، فقد أمر الله تعالى بالصبر وتحمل الأذى، في سبيله.

والمطلوب أن يوصي الناس بعضهم بعضاً بالحق، بجميع ما في القرآن والسنة من أمر ونهي، وجميع ما تشتمل عليه الشريعة من أصول وفروع. فكأن سورة العصر تجمع أصول الرسالات كما قال الشافعي رحمه الله: (لو ما أنزل الله على الناس حجة إلا هذه السورة لكفتهم).

والتواصي بالحق وظيفة الأمة الإسلامية، ومناط خيريتها بين الأمم. والمعوقات التي تقف في طريق الحق كثيرة: كهوى النفس، وسُبل الشيطان، وميراث الآباء السيء، وطغيان الطغاة، وظلم الظلمة، وجور الجائرين. ولكي ينهض الحق لابد له من قوة تحميه وتسانده، ولا بد له من الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وهما من أكبر مميزات الجماعة المسلمة. ومن ثم كان الرجلان من أصحاب النبي ﷺ إذا التقيا، لم يفرقا حتى يقرأ أحدهما على الآخر سورة العصر، ثم يسلم عليه، لقد كانا يتعهدان على التواصي بالحق والتواصي بالصبر، وقبل ذلك على الإيمان والعمل الصالح.

والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، من أعظم الواجبات الإسلامية:

١ - ويكون تغيير المنكر باليد بالنسبة لولي الأمر، ومن قَدِرَ على ذلك كالأب والمدرس، ومدير العمل.

٢ - ويكون تغيير المنكر باللسان، بالنطق بكلمة الحق، ولو في وجه سلطان جائر،

وذلك بالنسبة للعلماء.

٣ - والمرتبة الثالثة من مراتب إنكار المنكر: هي الإنكار بالقلب، إنكاراً إيجابياً ينعكس على السلوك والمعاملة والولاء والبراء.

قال تعالى ﴿وَلَتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٤].

وقال سبحانه: ﴿وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ﴾ [التوبة: ٧١].

وقال عليه الصلاة والسلام فيما يرويه حذيفة رضي الله عنه: «والذي نفسي بيده لتأمرن بالمعروف ولتنهون عن المنكر، أو ليوشكن الله أن يبعث عليكم عقاباً منه، ثم تدعونه فلا يستجيب لكم»^(١).
وقال عليه السلام فيما يرويه قيس بن أبي حازم أن أبا بكر رضي الله عنهما قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إن الناس إذا رأوا الظالم فلم يأخذوا على يديه أوشك أن يعمهم الله بعقاب» وفي لفظ له: «إن الناس إذا رأوا المنكر ولم يغيروه...» الحديث^(٢).

ولا يكون العبد مهتدياً إلا إذا أمر بالمعروف ونهى عن المنكر، فقله تعالى:
﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَيْكُمْ أَنْفُسَكُمْ لَا يَضُرُّكُمْ مَنْ ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ﴾ [المائدة: ١٠٥] شرح معناها أبو بكر رضي الله عنه في الحديث السابق، ومعناه: لا يضركم من ضل إذا تواصيتم بالحق، فأمرتم بالمعروف ونهيتهم عن المنكر، ولا بد أن يكون الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر على بصيرة وفقه جيد بما يأمر به وينهى عنه، فيحتسب فيما هو متفق عليه، ولا يتعصب

(١) أخرجه الترمذي عن حذيفة بن اليمان برقم (٢١٦٩) وحسنه، وفيه عبد الله بن عبد الرحمن الأنصاري الأشهلي، لم يوثقه غير ابن حبان، وأخرجه البيهقي في السنن (٩٣/١٠)، وفي الشعب (٧٥٥٨)، وهو في المسند (٣٣٣٠١)، وقد حسن إسناده الألباني في صحيح سنن الترمذي (١٧٦٢)، وللحديث شواهد عند الطبراني عن ابن عمر وأبي هريرة، راجع جامع الأصول في أحاديث الرسول حديث رقم (١١٣) بتحقيق عبد القادر الأرناؤوط.

(٢) جزء من حديث أخرجه الترمذي (٣٠٥٧، ٢١٦٨)، وأبو داود (٤٣٣٨) عن قيس بن أبي حازم رضي الله عنه عن أبي بكر رضي الله عنه، وهو في ابن ماجه (٤٠٠٥)، وعند أحمد برقم (٥٣، ٣٠، ١٦، ١)، بإسناد صحيح على شرط الشيخين، وانظر: جامع الأصول رقم (١١١)، وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة (١٥٦٤).

لمذهبه أو دراسته أو تقاليد بلاده أو علمائهم، ويكون مع الدليل حيث كان متوخيا الحكمة والموعظة الحسنة والقول اللين، والجدال بالتي أحسن، وألا يؤدي تغيير المنكر إلى منكر أكبر منه.

الوصية الرابعة: التواصي بالصبر:

وقد ورد الأمر به في قوله تعالى: ﴿وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ﴾.

وذلك أنه إذا عرف الإنسان الحق، وعمل به، فإن عليه أن يعلمه من لا يعرفه، ويعلمه من لا يحسن العمل به، وهذا يحتاج إلى صبر على تعلم الحق، وصبر على العمل به، وصبر على تعليمه للناس.

فلا يكفي من المسلم أن يعمل الخير وحده، بل عليه أن يدعو غيره له بعد أن يصلح نفسه، وأن يوصي الناس بعضهم بعضاً بالصبر على تبليغ هذه الدعوة، وعلى تحمل الأذى من الناس، وما يواجهه من الأفراد والمجتمع.

فالصبر ضرورة لا بد منها لقيام الحق والنهوض به، والدعوة إليه، والثبات عليه قولاً وفعلًا واعتقاداً.

وكما يحتاج المرء إلى الصبر لجهاد غيره، فإنه يحتاج إليه في خاصية نفسه للقيام بالواجبات من الطاعات والأوامر، والصبر على ترك المنهيات، والصبر على أقدار الله المؤلمة، وكذا الصبر على قبول الحق من الناس.

ويظل العبد كذاك حتى يلقي الله تعالى وهو ثابت على هذا المنهج، متواصياً بالحق، متواصياً بالصبر، صابراً في نفسه.

والصبر في حقيقته: حبس النفس على ما تكره من عبادة الله تعالى وطاعته، وترك الشهوات والملذات غير المباحة، بأن يلزمها بذلك إلزاماً، ويمنعها من المعاصي، فلا يسمح لها باقترابها، ويعودها احتمال المكروه إذا نزل بها، فلا يجزع ولا يسخط بل يرضى ويُسَلِّم.

أما احتمال الأذى من الناس والصبر عليه، فإنه خلق الصديقين وشعار الصالحين.

وحقيقته: أن يؤدي المسلم في سبيل الله، فيصبر ويتحمل، ولا ينتقم لنفسه، ولا يتأثر

لشخصيه، مادام ذلك في سبيل الله، مؤدياً إلى طاعة الله ومَرْضَاتِهِ، فيكظم غيظه، ويعفو عمن أساء إليه، ويقابل السيئة بالإحسان.

قال عبد الله بن مسعود رضي الله عنه: كَأَنِّي أَنْظُرُ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ يَحْكِي نَبِيًّا مِنَ الْأَنْبِيَاءِ صَلَوَاتِ اللَّهِ وَسَلَامِهِ عَلَيْهِمْ، ضَرَبَهُ قَوْمُهُ فَأَدْمَوْهُ، وَهُوَ يَمْسَحُ الدَّمَ عَنْ وَجْهِهِ وَيَقُولُ: «اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِقَوْمِي فَإِنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ»^(١).

قال تعالى ﴿وَلَمَنْ صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَلِكَ لَمِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ﴾ [الشورى: ٤٣].

وقال خباب بن الأرت رضي الله عنه: شَكُونَا إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَهُوَ مُتَوَسِدٌ بَرْدَةً لَهُ فِي ظِلِّ الْكَعْبَةِ، فَقُلْنَا: أَلَا تَنْتَصِرُ لَنَا؟ أَلَا تَدْعُو لَنَا؟ فَقَالَ: «قَدْ كَانَ مَنْ قَبْلَكُمْ يُوْخِذُ الرَّجُلَ فَيَحْفَرُ لَهُ فِي الْأَرْضِ فَيَجْعَلُ فِيهَا، ثُمَّ يُؤْتَى بِالْمَنْشَارِ، فَيُوضَعُ عَلَى رَأْسِهِ، فَيَجْعَلُ نَصْفَيْنِ، وَيُمَشِّطُ بِأَمْشَاطٍ مِنَ الْحَدِيدِ مَا دُونَ لَحْمِهِ وَعَظْمِهِ مَا يَصِدُّهُ ذَلِكَ عَنْ دِينِ اللَّهِ»^(٢).

أَيْنَ هَذَا مِمَّنْ يَتَّبِعُهُ عَنْ دِينِهِ أَذْنَى أَذَى، وَأَقْلَ ضَرَرٍ؟ وَرَبِّمَا يَتَوَقَّعُ الْأَذَى تَوَقَّعًا، وَيَفْتَرِضُهُ قَبْلَ وَقُوعِهِ افْتِرَاضًا، وَالْوَاقِعَ لَيْسَ كَذَلِكَ؟

أَيْنَ هَذَا مِمَّنْ لَا يَرِيدُ أَنْ يَسِيءَ الْعِلَاقَةَ بَيْنَهُ وَبَيْنَ جَارِهِ أَوْ صَدِيقِهِ أَوْ زَمِيلِهِ، فَلَا يَنْصَحُهُ، وَلَا يَذْكُرُ لَهُ مَا يَرَاهُ مِنْ مَنكَرٍ يَقَعُ مِنْهُ، حِفَظًا عَلَى الْعِلَاقَةِ بَيْنَهُمَا؟ وَيَقُولُ: (كُلْ شَاةً مَعْلُوقَةً مِنْ عَرْقِهَا) يَرَاهُ لَا يَصْلِي، أَوْ لَا يَصُومُ، أَوْ يَسْهَرُ اللَّيْلَ وَيَضِيعُ صَلَاةَ الْفَجْرِ، وَيَضِيعُ وَقْتَهُ فِي كَذَا، أَوْ يَشْرَبُ كَذَا، أَوْ.. فَيَغْلِقُ فَاهُ، وَيَصْمُ آذَانَهُ، كَأَنَّهُ لَا يَرَى وَلَا يَعْلَمُ، وَلَا يَسْمَعُ شَيْئًا حِفَظًا عَلَى الْمَوَدَّةِ بَيْنَهُمَا، أَوْ لِأَنَّ هَذَا الْمَنكَرَ لَا يَضُرُّهُ فِي شَيْءٍ، فَهُوَ لَا يَغْضَبُ لِلَّهِ، وَلَا يَهْتِمُ لِأَمْرِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ! وَرَبِّمَا دَاهَنَ أَوْ نَافَقَ وَمَالَقَ، إِنْ كَانَ الْطَرَفَ الْآخَرَ أَعْلَى مَنْصَبًا، وَرَبِّمَا سَكَتَ لِحَاجَةٍ فِي نَفْسِهِ، وَهَذَا كُلُّهُ مُنَاقِضٌ لَوَاجِبِ

(١) متفق عليه، جامع الأصول في أحاديث الرسول، حديث رقم (٤٦٣٧ ج ٦)، والحديث في البخاري (٦٩٢٩، ٣٤٧٧)، ومسلم (١٧٩٢)، وابن ماجه (٤٠٢٥)، والمسند (٤٣٣١، ٤٢٠٣).

(٢) أخرجه البخاري (٦٩٤٣، ٣٨٥٢، ٣٦١٢)، وأبوداود (٢٦٤٩)، والنسائي في السنن الكبرى (٩٥٧٩، ٥٨٦٢)، جامع الأصول، حديث رقم (٤٦٣١ ج ٦)، وهو في المسند (٢١٠٥٧)، وابن حبان (٢٨٩٧).

الأمة الإسلامية (التواصي بالحق والتواصي بالصبر).

قال تعالى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِاللَّهِ فَإِذَا أُوذِيَ فِي اللَّهِ جَعَلَ فِتْنَةَ النَّاسِ كَعَذَابِ اللَّهِ﴾

[العنكبوت: ١٠].

قال مجاهد في معنى الآية: إلا الذين صدّقوا الله ووحدوه، وأقروا له بالوحدانية والطاعة، وعملوا الصالحات، وأدّوا ما لزمهم من فرائضه، واجتنبوا ما نهاهم عنه من معاصيه، واستثنى القرآن الذين آمنوا من الإنسان، لأن الإنسان بمعنى الجمع، لا بمعنى الواحد^(١). وقد اشتملت هذه السورة على الوعيد الشديد للناس إلا من اتصف بما فيها من الصفات الأربع، فدل ذلك على أن النجاة معلقة بمجموع هذه الأمور، وأن الهلاك في تركها. أربع صفات للفئة الخاسرة:

تُقسّم السورة الناس إلى فئة خاسرة وفئة رابحة.

وجاء وصف الفئة الرابعة في الآية الثالثة من السورة بصفات أربع هي:

١- الإيمان ٢- العمل الصالح ٣- التواصي بالحق ٤- والتواصي بالصبر. ومن هذه الصفات الأربع تؤخذ صفات الفئة الخاسرة التي أقسم الله تعالى عليها، أخذاً من مفهوم المستثنى، وتتصف أيضاً بأربع صفات هي:

١- الكفر والشرك، مقابل الإيمان.

٢- العمل الفاسد، مقابل العمل الصالح أو تركه.

٣- عدم التواصي بالحق، أو التواصي بالباطل.

٤- عدم التواصي بالصبر، أو الجزع والسخط.

وقد دل القرآن الكريم على خسران وهلاك كل فئة من هذه الفئات الأربع:

١- قال تعالى في شأن المشرك ﴿لَئِنْ أَشْرَكَتَ لَيَحْطَبَنَّ عَلَيْكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ [الزمر: ٦٥].

وفي شأن الكافر قال سبحانه: ﴿وَمَن يَكْفُرْ بِالْإِثْنَيْنِ فَقَدْ حِطَّ عَمَلُهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ

الْخَاسِرِينَ﴾ [المائدة: ٥].

(١) أخرجه الطبري بسند صحيح.

٢- وقال تعالى في شأن تارك العمل الصالح: ﴿وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَٰئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ فِي جَهَنَّمَ خَالِدُونَ﴾ [المؤمنون: ١٠٣].

وقال أيضاً: ﴿أَلَا إِنَّ حِزْبَ الشَّيْطَانِ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾ [المجادلة: ١٩] وقال جل شأنه: ﴿وَمَنْ يَتَّخِذِ الشَّيْطَانَ وَلِيًّا مِنْ دُونِ اللَّهِ فَقَدْ خَسِرَ خُسْرَانًا مُبِينًا﴾ [النساء: ١١٩].
والآيتان في شأن العمل الباطل الفاسد.

٣- والتواصي بالحق: هو التواصي بالإسلام كله، وتارك التواصي بالحق، يكون قد استبدل به التواصي بالباطل، أو تركه دون أن يعبأ به، فماذا بعد الحق إلا الضلال.
وفي الأول وهو التواصي بالإسلام كله، قال تعالى: ﴿وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ [آل عمران: ٨٥].

وقال سبحانه: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا بِالْبَاطِلِ وَكَفَرُوا بِاللَّهِ أُولَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾ [العنكبوت: ٥٢].
والذي لا يتغير وجهه غضباً لله تعالى وانتهاك حرماته هو من جملة الخاسرين.

٤- ويقابل التواصي بالصبر: الهلع والجزع، وقد وصف الله تعالى هذا الصنف من الناس في قوله: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَعْبُدُ اللَّهَ عَلَىٰ حَرْفٍ فَإِنْ أَصَابَهُ خَيْرٌ اطْمَأَنَّ بِهِ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ انْقَلَبَ عَلَىٰ وَجْهِهِ خَسِرَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةَ ذَٰلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ﴾ [الحج: ١١].

ويقابل التواصي بالصبر كذلك عدم التواصي به، وهو خسران وهلاك.
ونلاحظ أن الله تعالى وصف هذه الفئات الأربع بالخسران في ختام كل آية من الآيات السابقة.

ويتبين هذا الخسران للكافر؛ حينما تبقى منازل أهل النار في الجنة خالية، فيتوارثها أهل الجنة، وتبقى منازل أهل الجنة في النار خالية، فتوزع على أهل النار، وبذلك يكون الكافر قد ترك منزلته في الجنة لغيره، وأخذ بدلاً منها، وهي منزلة غيره في النار، بالإضافة إلى منزله الأصلي فيها، وذلك هو الخسران المبين، بالنسبة للكافر، والربح العظيم بالنسبة للمؤمن.

وهذا هو التغابن المشار إليه في الآية ﴿يَوْمَ يَجْمَعُكُمْ لِيَوْمِ الْجَمْعِ ذَٰلِكَ يَوْمُ التَّغَابُنِ﴾ [التغابن: ٩].

فالناس فريقان: فريق يلحقه الخسران وهو من لم يعمل صالحاً ولم يتب من سيئاته، وفريق لا يلحقه الخسران، وهو المؤمنون العاملون للصالحات، وهذا الخسران متفاوت، وأعظمه خسران من لم يؤمن بوحداية الله تعالى، ومن لم يصدق برسالة محمد ﷺ، ولعله مقصود الآية.

وأدنى من هذا الخسران: ارتكاب الكبائر والفواحش، وأدنى منه ارتكاب بعض اللطم وصغائر الذنوب من السيئات التي تُذهبها الحسنات.

وهكذا: فبالإيمان والعمل الصالح، يكمل الإنسان نفسه، وبالتواصي بالحق والتواصي بالصبر، يكمل غيره، وبتمام هذه الأربع يسلم العبد من الخسران ويفوز بالربح العظيم.

مشاركة الجن للإنس في الخسران:

الجن مكلفون بالدعوة الإسلامية والاستجابة لها، كالإنس تماماً، كما هو ثابت في الكتاب والسنة.

وقد أخبر القرآن الكريم أن الجن والإنس سواء في الخسران والهلاك إن كانوا كافرين: قال تعالى: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ فِي أَمْرٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنَ الْجِنَّ وَالْإِنْسِ إِنَّهُمْ كَانُوا خَسِرِينَ﴾ [الأحقاف: ١٨].

وقال سبحانه: ﴿وَقَيَّضْنَا لَهُمْ قُرَنَاءَ فَزَيَّنُوا لَهُمْ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَحَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ فِي أَمْرٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنَ الْجِنَّ وَالْإِنْسِ إِنَّهُمْ كَانُوا خَسِرِينَ﴾ [فصلت: ٢٥].

إن سورة العصر ترسم للمسلم منهجاً متكاملًا، ودستورا إلهياً، يحقق له سعادتي الدنيا والآخرة، فيكون من الناجين الراضين، ومن عباد الله المتقين: في جنات ونهر، في مقعد صدق عند مليك مقتدر.

وصلّى الله وسلّم على عبده وحبّيه محمد وعلى آله وصحبه وسلّم.

تم تفسير (سورة العصر) والله الحمد والمنة

تَفْسِيرُ سُورَةِ الْهُمَزَةِ (١٠٤)

مُقَدِّمَةُ السُّورَةِ

١- (سورة الهمزة) هي السورة الرابعة بعد المئة في ترتيب المصحف، والثانية والثلاثون في ترتيب النزول، نزلت بعد (سورة القيامة) وقبل (سورة المرسلات). وهي تسع آيات باتفاق، وثلاثون كلمة، ومئة وثلاثون حرفاً، وهي سورة مكية. وتسمى (سورة الهمزة) وهو الأشهر، وأطلق عليها: (سورة الحطمة) و (سورة ويل لكل همزة).

موضوع السورة:

تحدث (سورة الهمزة) عن الذين يعيبون الناس بالطعن في أعراضهم، وازدرائهم، وبالسخرية منهم، والاستخفاف بهم، وتذم من يغترُّون بأموالهم وسلطانهم، فيترفعون على الناس ويتنقصونهم، وتُبين أنهم من أهل الشقاء الذين استوجبوا عذاب جهنم. وفي صدر الإسلام وُجدت جماعة نصّبوا أنفسهم لِلْمَزِ المسلمين وسبّهم، والتنقيص من شأنهم، ومن هؤلاء: الوليد بن المغيرة، وأمّية بن خلف، وأبّى بن خلف، وجميل بن مَعمر - وقد أسلم يوم الفتح - والعاص بن وائل، والأسود بن عبد يغوث، والأخنس بن شريق، وكل هؤلاء من أهل الثراء والوجاهة بين الناس.

ومن الناس في كل عصر ومصر من يخلف هؤلاء في التنقيص من شأن الإسلام والمسلمين، وهذا من الحروب التي يشنها المجرمون على أصحاب الرسالة الأخيرة، لِفَضْ الناس من حولهم، وغالباً ما يكونون من أهل الجاه والثراء، فيتناولونهم بالكلمة، وبالحرّكة، وفي المسلسلات والأفلام والمسرحيات والروايات وبالرسم الهزلي في الصحف. وقد نُظمت هذه الحروب في العصور الأخيرة، عبر وسائل الإعلام المختلفة، ومنها: الصحف، وشبكة المعلومات، والفضائيات، وغيرها.

وقد أعد الله تعالى الويل لهؤلاء في الدنيا بفضحهم وكشف تدبيرهم وخزيهم.
ووصفت آيات هذه السورة عذاب نار الحطمة الذي أعده الله لهم في الآخرة بأربعة
أوصاف هي:

- ١- إنها نار موقدة، شديدة الاستعار واللهب.
- ٢- ومن شدة حرها أنها تنفذ من مسام الجسم إلى القلب، فتطلع عليه وتحرقه.
- ٣- وهي نار مغلقة عليهم لا يخرجون منها.
- ٤- ولهذه النار أبواب محكمة قد شُدَّتْ بأعمدة وأوتاد من حديد، بحيث لا يمكن
لمن بداخلها أن ينفكَّ منها. نسأل الله العفو والعافية والمعافة الدائمة في الدنيا والآخرة.
وهكذا: فإن الله تبارك وتعالى قد توعَّد بالويل والهلاك كل هُمَّاز لَمَّاز جامع للمال.
ثم بينت آيات السورة عذاب من اتصف بهذه الأمور الثلاثة يوم لقاء الله، وذلك في
الآيات الخمس التي تليهما.

تَفْسِيرُ السُّورَةِ

الْوَعِيدُ الشَّدِيدُ لِمَنْ يَعْيبُ النَّاسَ فِي حُضُورِهِمْ أَوْ غَيْبَتِهِمْ

١ - ﴿وَيْلٌ لِّكُلِّ هُمَزَةٍ لُّمَزَةٍ﴾

توعد الله بالعذاب الشديد كل من يهزم الناس أو يلزمهم بقوله أو فعله، فيعيبهم ويتنقصهم أو يهزأ بهم ويسخر منهم.

سبب نزول سورة الهمزة:

قيل نزلت في الأخنس بن شريق، فقد كان ضارباً في الغيبة والوقعة بين الناس، يلزمهم ويُعيبهم مقبلين ومدبرين، وقيل نزلت في غيره^(١).

والحكم في السورة عام، وخصوص السبب في عصر التنزيل لا يعني تخصيص الوعيد بالنسبة للأخنس أو لغيره، بل كل من اتصف بالهمز واللمز في كل عصر ومصر فهو داخل تحت الوعيد المذكور في الآية، وذنبه مثل ذنب من نزلت فيه.

قال ابن عباس رضي الله عنهما في تفسير الهماز اللماز، هم: (المشاؤون بالنميمة، المفروقون بين الأحبة، الباغون للبراء العيب)^(٢).

ومعنى ذلك أن الآية تتناول (النميمة) إلى جوار الغيبة، وتتناول أيضاً: تتبع العورات، والتماس العيوب للبراء، وقد جاء هذا المعنى في حديث أسماء بنت يزيد رضي الله عنها أن النبي ﷺ قال: «ألا أخبركم بشراركم؟» قالوا: بلى، يا رسول الله، قال: «الذين إذا رُؤوا ذكر الله تعالى» ثم قال: «ألا أخبركم بشراركم؟ المشاؤون بالنميمة، المفسدون بين

(١) راجع الأقوال الواردة في ذلك في زاد المسير في علم التفسير، سورة الهمزة.

(٢) تفسير الخازن، سورة الهمزة وقد أخرجه الطبري (٦١٦/٢٤)، وابن أبي الدنيا (١٢٦)، وسعيد بن منصور

كما في فتح الباري (٧٢٩/٨).

الأحبة، الباغون للبرآء العنت^(١) فما هي النميمة:

النميمة ودواعيها:

النميمة هي نقلُ الكلام بين شخصين أو دولتين أو عشيرتين على وجه الإفساد والوقعة بينهم، ويَحْمِلُ عليها: النفاق والتملُّق والحقد والحسد، وهي من كبائر الذنوب المحرمة بالإجماع، قال تعالى: ﴿وَلَا تُطْعَمْ كُلُّ حَلَّافٍ مَّهِينٍ ۖ هَمَزَ مَشَاءَ بَنِيمٍ﴾ [القلم: ١٠ - ١١].

وقد أمر الله سبحانه وتعالى بالتثبت والتبئين تجاه الأقوال المنقولة، ووصف القرآن الكريم النمام بالفسق في قوله تعالى: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِن جَاءَهُمْ فَاسِقٌ بِنَايَا فَتَئَيَّنُوا أَن تُصِيبُوا قَوْمًا بِمِثْلِهِ فَنُصِيبُوا عَلَى مَا فَعَلْتُمْ تَنِيمِينَ﴾ [الحجرات: ٦].

وقال ﷺ من حديث حذيفة ؓ: «لا يدخل الجنة قتات»^(٢) أي نمام.

وعامة عذاب أهل القبور من النميمة، ومن عدم الاستبراء من البول. والنمام منافق يأتي هؤلاء بوجه وهؤلاء بوجه.

والنميمة تُسبِّبُ العداوة والفتن بين الأفراد والجماعات، وتُفَرِّقُ بين الشريكين والزوجين والصديقين.. الخ.

ويجب على المسلم ألا يُصدِّق النمام، وأن ينهائه عن النميمة، وأن يَنْغُضَهُ في الله، وألا يُخْبِرَ بما قاله له، وإلا كان مثله، وألاً يظن السوء بمن قيل له فيه، وألاً يتجسس عليه، وليعلم أن من قال له قال فيه.

(١) المسند (١٧٩٩٨، ٢٧٥٩٩، ٢٧٦٠١)، وعبد بن حميد (١٥٨٠)، والطبراني في الكبير (٤٢٣)، والبخاري في الأدب المفرد (٣٢٣)، وابن ماجه (٤١١٩)، والبيهقي في الشعب (١١١٠٧، ١١١٠٨)، قال الهيثمي في مجمع الزوائد (٩٣/٨): رواه أحمد، وفيه شهر بن حوشب، وقد وثقه غير واحد، وبقي رجال أحد إسناده صحيح، وقال محققو المسند: حسن بشواهد.

(٢) متفق عليه، من حديث حذيفة، اللؤلؤ والمرجان فيما اتفق عليه الشيخان، حديث رقم (٦٧) وهو في البخاري (٦٠٥٦)، وفي الأدب المفرد له (٣٢٢)، وفي مسلم (٢٨٥٣)، وأبوداود (٤٨٧١)، والترمذي (٢٠٢٦)، والمسند (٢٣٢٤٧)، وابن حبان (٥٧٦٥).

والنميمة داخله في قوله تعالى: ﴿وَبَلِّغْ كُلَّ هَمْزٍ لَمَزَةٍ﴾ فالهمز أعم من الغيبة. واللمز أعم من النميمة.

والوعيد الذي في السورة يفيد أنهما أكبر إثماً وأعظم جرماً من الذنوب المماثلة لهما.

بواعث ودوافع الهمز واللمز:

الويل: وإد في جهنم يَسِيلُ فَيَحَا وَصديداً، أعدّه الله تعالى للهمّاز اللّمّاز، والمختار أنها كلمة وعيد وتهديد، فقد توعدّه الله بالعذاب الشديد والهلاك والدمار.

وسورة الهمزة تعكس صورة واقعية تتكرر في كل مجتمع، فيأتي الهمز واللمز ممن يلتمس رفع خسيسته بالطعن فيمن له مكانة مرموقة ومنزلة عالية بين الناس، أو بسبب الكبر والغرور، أو لتبرير أخطائه، أو إرضاء الآخرين؛ فهذه.

أربعة أسباب:

١ - فقد يحدث الهمز واللمز من مريض النفس، صغير الشأن، الذي يلتمس الرفعة بالطعن في الآخرين، والتنقيص من شأنهم، ولاسيما الناجحين في حياتهم، من أصحاب المنزلة عند الناس، فَيَحْدُثُ الطعنُ عليهم من الفاشلين الذين تعثروا في حياتهم، حَسَدًا لهم وحقدًا عليهم، فيحقرّون أعمالهم وصفاتهم، ويتصيّدون لهم الأخطاء، ويُلصِقون بهم التُّهم.

٢ - وقد يحدث الهمز واللمز من أصحاب المال أو الجاه، أو المنصب، أو الصحة والقوة، أو العصبية، بالنسبة لمن هُم دونهم في شأن من هذه الشؤون، بسبب الكبر والغرور، والنفخة الآثمة التي يملأ بها الشيطان صدورهم والعياذ بالله.

٣ - وقد يُبرّر الشخص أخطاءه بذكر أخطاء الآخرين ممن هم أكبر منه سناً أو علماً أو شأناً أو جاهاً وسلطاناً، أو منزلة ومكانة بين الناس.

٤ - وقد يكون الهمز تملُّقاً ونفاقاً لإرضاء طرف آخر محاكاةً له، أو تقديم يدٍ له عنده، فيتكلم في شأن من يبغضه مُحَدِّثَةً بما يَشْفِي غليله.

وفي جميع الحالات، صورة لئيمة حقيرة من أصحاب النفوس البشرية حين تخلو من المروءة، وتتعزى من الإيمان، والإسلام يمتث هذه الصورة الهابطة ترفعاً، فيشنع عليها، ويُقبّحها ويعاقب مرتكبيها.

ونريد أن نتعرف على معنى هاتين الصفتين القبيحتين.

أولاً: الهمز وأساليبه:

الهماز: هو الذي يعيب الناس، وَيَطْعُنُ فيهم في غيبتهم على وجه التحقير والتنقيص. ويكون الهمز قولاً باللسان: بإظهار عيوب الناس، وتثبّع عوراتهم، والخوض في أعراضهم.

ويكون الهمز فعلاً: عن طريق الحركة، أو الإشارة، أو الإيماءة، أو التمثيل، أو التعريض، أو الغمز واللمز، أو الكتابة، أو أي شيء يفهم منه تنقيص الطرف الآخر.

قال مجاهد: الهماز: هو الذي يأكل لحوم الناس، واللماز: هو الطعان.

ويدخل في الهمز واللمز مَنْ يُحاكي الناس في أقوالهم وأفعالهم وأصواتهم ليضحكوا منه.

مواطن الهمز:

والهمز: يكون في مظهر الإنسان وهياته، ويكون في جسمه وخلقه، وفي حسبه ونسبه، وفي أهله وقبيلته، ويكون كذلك في خلقه وعاداته وتقاليده.. بالإساءة إليه فيما ذكر ونحوه.

ويكون الهمز كذلك في الأمور الشرعية التي يخالف فيها المهموز حكم الشرع، ولم يطلع عليها أحد من الناس، ما لم يكن مجاهرًا بالمعصية، كاشفاً عن وجهه.

ويكون الهمز كذلك في الأمور الدنيوية، كالحرف والصناعات والمهن اليدوية.

مشاركة في الإثم: والأدب الإسلامي يحتم على المسلم ألا يجاري الهماز، وألا

يطيعه ويتابعه، وألا يشاركه في الإثم، فيصدقه فيما يقول أو يفعل، قال تعالى:

﴿وَلَا تُطِعْ كُلَّ حَلَّافٍ مَّهِينٍ ﴿١٠﴾ هَمَّازٍ مَّشَّاءٍ بِنَمِيمٍ ﴿١١﴾﴾ [القلم: ١٠ - ١١].

فيجب على المسلم ألاَّ يُجامل الهماز، كأن يسترسل معه ويُصغي إليه، ولكن يذب عن عرض أخيه في غيبته، ويدفع عنه ميتة السوء:

قال عليه الصلاة والسلام من حديث أسماء بنت يزيد رضي الله عنها: «من ذبَّ عن لحم أخيه بالغيب كان حقا على الله أن يعتقه من النار»^(١).

وقال ﷺ من حديث أبي الدرداء رضي الله عنه: «من رد عن عرض أخيه ردَّ الله عن وجهه النار يوم القيامة»^(٢).

ابداً بنفسك: وأولى بمن يغتاب الناس ويتتبع عوراتهم، أن يتفقد نفسه، ويشتغل بتهذيبها وإصلاحها، فيصلح عيوب نفسه، ويهتّم بها، قبل النظر في عيوب الناس، فما كان منها منكراً ظاهراً يتصدى لإصلاحه بوجه من وجوه الإصلاح، لئلا يكون جرثومة في المجتمع، وقدوة سيئة لغيره، وما كان منها مُنكراً مستتراً، فعليه أن يصلح ما بينه وبين نفسه حتى يصلح الله ما بينه وبين الناس.

قال عليه الصلاة والسلام فيما يرويه أبو برزة الأسلمي والبراء بن عازب رضي الله عنهما: «يا معشر من آمن بلسانه ولم يدخل الإيمان قلبه، لا تغتابوا المسلمين، ولا تتبعوا عوراتهم، فإن من تتبع عورة أخيه المسلم، تتبع الله عورته ومن تتبع الله عورته يفضحه ولو في جوف بيته»^(٣).

(١) حديث حسن، أخرجه أحمد برقم (٢٧٦٠٩، ٢٧٦١٠)، والطبراني في الكبير (٤٤٢)، والبيهقي في الشعب (٧٦٤٣) عن أسماء بنت يزيد، ينظر صحيح الجامع الصغير رقم (٦١١٦)، وقال الهيثمي في مجمع الزوائد: (٩٥/٨) رواه أحمد والطبراني وإسناد أحمد حسن، وأخرجه البغوي في شرح السنة (٣٥٢٩)، والطيالسي (١٦٣٢).

(٢) حديث صحيح أخرجه أحمد برقم (٢٧٥٣٦، ٢٧٥٤٣)، قال محققوه: حسن لغيره (١٥٧٥)، وأخرجه البغوي في شرح السنة (٣٥٢٨)، وأبونعيم في الحلية (٢٥٧/٧) وغيرهم، والترمذي عن أبي الدرداء (١٩٣١)، وصححه الألباني في صحيح سنن الترمذي وفي صحيح الجامع الصغير رقم (٦١٣٨).

(٣) حديث صحيح، أخرجه أحمد وأبوداود (٤٨٨٠)، وقال الألباني في صحيح سنن أبي داود (٤٠٨٣): حسن صحيح عن أبي برزة الأسلمي، وهو عن البراء بن عازب في البيهقي (١١١٩٦، ٩٦٦٠)، وصحيح الترغيب والترهيب (٢٣٤١)، راجع صحيح الجامع الصغير (ج ٦ ص ٣٠٨) رقم (٧٨٦١).

المغتاب: وعلى ضوء ما سبق من توضيح معنى الهماز، نستطيع القول - على المختار - إن الهماز: هو المغتاب العتاب الذي يذم الناس في غيبتهم بما فيهم من صفات أو خصال خَلْقِيَّة أو خُلُقِيَّة، دينية أو دنيوية، بحيث لو كان حاضراً، وسمع ما قيل فيه لَغَضِبَ واستاء، فهذا المعنى يدخل في الهمز دخولاً أولياً.

وللهمز معاني أشمل وأكثر.

أخرج الطبري بسند صحيح أن مجاهد قال في معنى الآية:

أحدهما: الذي يأكل لحوم الناس، والآخر: الطعان.

الغيبة (بكسر الغين): وقد عَرَّفَ النبي ﷺ الغيبة بأنها «ذكرك أخاك بما يكره»^(١) ويشترط أن يكون هذا في غيبته، وأن يكون ما يقال عنه موجوداً فيه فعلاً، فإن لم يكن ما قيل عنه موجوداً فيه، فإنه يسمى: بهتاناً وافتراءً.

قيل: أفرأيت إن كان في أخي ما أقول، قال: «إن كان فيه ما تقول فقد اغتبته، وإن لم يكن فيه ما تقول فقد بهته»^(٢).

والبهتان أعظم ذنباً من الغيبة، لأنه جمع بين الغيبة والكذب والافتراء.

الغيبة من كبائر الذنوب:

والغيبة محرمة بالإجماع، فهي من أقبح الذنوب وأخطرهما، وآفة عظيمة من آفات اللسان، تُقَطِّع أواصر الأخوة والمودة، وتَبْثُّ العداوة والفرقة، وتنشر الرذيلة بين الناس، وتُشجِّع على إشاعة الفاحشة فيهم.

وقد صَوَّرَ القرآن الكريم المغتاب بصورة شنيعة قبيحة: شَبَّهه بمن يأكل لحم أخيه وهو ميت لا يشعر به، فكَذَلِكَ من يغتاب الناس، يَنْهَشُ أعراضهم ويلوكها وهم لا يعلمون، قال تعالى: ﴿وَلَا يَغْتَابَ بَعْضُكُم بَعْضًا أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَنْ يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا

(٢٠١) أخرجه مسلم عن أبي هريرة، حديث رقم (٢٥٨٩)، وأبو داود (٤٨٧٤)، والترمذي (١٩٣٤)، وابن أبي

شيبه (٣٨٧/٨)، والطبري (٣٧٦/٢١).

فَكَرِهْتُمُوهُ ﴿١٢﴾ [الحجرات: ١٢] أي فإذا كرهتم هذا فاكرهوا الغيبة.

ولما اغتاب بعض القوم «ماعزاً» بعد أن أقيم عليه الحد ومات بعد الرجم، انتظر النبي ﷺ حتى مر على جيفة حمار متنتة، فقال: «أين فلان وفلان»، فلما أجاباه، قال: «انزلا فكلّا من جيفة هذا الحمار»، قالا: غفر الله لك يا رسول الله، وهل يؤكل هذا؟ قال ﷺ: «فما نلتما من أخيكما أنفا أشد أكلاً منه، والذي نفسي بيده، إنه الآن لفي أنهار الجنة ينغمس فيها»^(١).

لقد تاب ماعز، وجاء معترفاً بذنبه مقرأً به، وأقيم عليه الحد الشرعي، ولما اغتابه بعض القوم بعد موته، أعطاهم النبي ﷺ هذا الدرس العظيم في التنفير من الغيبة. ليس من الغيبة: وليس من الغيبة: التظلم، ولا ذكر الحال طلباً للفتوى، ولا الاستشارة، ولا الألقاب المعروفة، ولا التحذير من شر المُجاهر بالبدع، ومن شر الفاسق المعلن عن نفسه ونحو ذلك.

كفارة الغيبة: الغيبة تُعرّض العبد لسخط الله تعالى، وتُخِطُ حسناته، والتوبة منها تكون بالرجوع إلى الله تعالى وفق شروط التوبة المعروفة، ثم يُكثّر التائب من الثناء على من اغتابه، ويَرْجِع عن قوله أمام من اغتابه عندهم، ويعتذر لمن اغتابه إن كان قد بلغه ما قال عنه، وإلا فلا يوغر صدره بما لم يصل إليه، بل يكثر من الدعاء والاستغفار له، بعد الندم والعزم على عدم العوده لمثلها.

ففي الغيبة حق لله تعالى، وحق للعبد، وكلاهما يحتاج إلى توبة، وإذا ترتّب على ذكر الغيبة لمن قُلت فيه، مفسدة أكبر، فيكتفى بالتوبة والثناء عليه، ومَدَحُه بمقدار ما أساء إليه، ولا سيما في المجالس التي انتقص منه فيها.

(١) رواه ابن حبان في صحيحه، راجع النص في الترغيب والترهيب (ج ٣ ص ٥٠٩) باب ذم الغيبة عن أبي هريرة، وقد أخرجه عبد الرزاق (١٣٣٤٠)، والبخاري في الأدب المفرد (٧٣٧)، وأبو يعلى (٦١٤٠)، والبيهقي في الشعب (٩٦٥٧)، وصحح إسناده عنه السيوطي في الدر المنثور (٥٨٢/١٥).

ثانياً: اللمز وأساليبه:

اللمز: هو أن يعيب الإنسان أخاه في وجهه بكلام، ولو خفي، ورب لَمَزَ خفي أشد من طعن صريح، وأعمق جُرحاً في داخل النفس، لأن فيه بالإضافة إلى الطعن والتجريح بالعيب، استغفال الملموز وافتراس الغباوة فيه، كأنه لا يتنبه للطعن الذي يوجّه إليه.

فالهمز يكون في غيبة الشخص، واللمز يكون في حضوره.

واللمز: من القبايح الاجتماعية التي تُورث الأحقاد والضغائن والعداوة، وتُفرّق بين الناس، وتُقطع أواصر الأخوة والمحبة بينهم، وتُثير الغضب، وحب الانتقام. والمؤمن مطالب بستر عورة أخيه، وألا ينشر عيوبه ويفضح بين الناس، ولو كان بالرموز والإشارات والمعارض، وعليه أن يُخلص له النصيحة فيما بينه وبينه، ولا يفضح بين الناس.

والغالب أن اللماز لا يكون ناصحاً، بل باغياً للبراء العيب، مُلتمساً لهم الفضيحة، منقّباً عن مستور حالهم، كاشفاً لعوراتهم، مبرّراً بذلك عورات نفسه، ومشيراً إلى أخطاء الناس حتى تُغتفر له أخطاؤه عند الناس.

وقد يكون اللمز إشارة من اللامز على سبيل التحقير والتنقيص ببعض حركات أعضاء الوجه، بالجفن أو الحاجب، أو الرأس، أو باليد، أو.. أو.. وهؤلاء الساخرون من غيرهم أهل بطالة غالباً يعيشون في ظلال أموالهم التي آلت إليهم بطريقة أو بأخرى. وهذا الغمز: هو الذي كان يحدث من الفجار المجرمين بالنسبة إلى ضعفاء المسلمين وفقرائهم استهزاء بهم واستخفافاً، قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ أَجْرَمُوا كَانُوا مِنَ الَّذِينَ ءَامَنُوا يَضْحَكُونَ ۚ وَإِذَا مَرُّوا بِهِمْ يَتَغَامَزُونَ ۚ وَإِذَا انْقَلَبُوا إِلَىٰ أَهْلِهِمْ انْقَلَبُوا فَكِهِينَ ۚ﴾ [المطففين: ٢٩ - ٣١].

فكانهم يعجبون ويتفكهون بالضحك عليهم والسخرية منهم.

ويوم القيامة يَلْقَوْنَ الجزاء من جنس عملهم ﴿فَالْيَوْمَ الَّذِينَ ءَامَنُوا مِنَ الْكُفَّارِ يَضْحَكُونَ ۚ عَلَىٰ الْأَرَائِكِ يَتَطَرَّونَ﴾ [المطففين: ٣٤ - ٣٥].

وفي النهي عن اللمز قال سبحانه ﴿وَلَا تَلْمِزُوا أَنْفُسَكُمْ﴾ وقد حرمه الإسلام لما فيه من

الفسوق والإساءة إلى الآخر، قال تعالى: ﴿يَسْأَلُكُمْ الْفُسُوقُ بَعْدَ الْإِيمَانِ﴾ [الحجرات: ١١]
واللمز من ظواهر الكبر والاستعلاء على الناس، لما فيه من تحقير الآخرين وتنقيصهم
والاستهزاء بهم والسخرية منهم.

الْمَالُ هُوَ الْعِلَّةُ الْبَاعِثَةُ عَلَى انْتِقَاصِ النَّاسِ وَالتَّعَالِي عَلَيْهِمْ

٣، ٢- ﴿الَّذِي جَمَعَ^(١) مَالًا وَعَدَّدَهُ^(٢)، يَحْسَبُ^(٣) أَنَّ مَالَهُ أَخْلَدَهُ^(٤)﴾

يبين الله عز وجل أن الهمز واللمز سببه وعلته، والباعث عليه: هو الافتخار والكبر،
والنظر إلى مَنْ دونه مادياً باستصغار وسخرية واحتقار، فهو يظن أن المال هو مناط
التفاضل بين الناس.

ومن الصفات الذميمة لهذا الصنف من الناس أنه يجمع المال ويهتم به ويحصبه،
فيكنزه ولا يخرج زكاته وكلما كثر في يده ظن أن له مزية على غيره.

فهذا الإعجاب والغرور يكون غالباً بسبب ما أعطاه الله من مال، فهو يُعَدِّدُهُ ويجمعه،
ليكون ذخيرة له في المستقبل، يقضي به حاجاته وشهواته، فيكنزه ويحبسه عن وجوه
الخير، ويمنع منه حق الله تعالى، وهو يظن أن ماله الذي حفظه وأحصاه، سيخلِّدُه في
الدنيا، ولن يفنى من يديه، وهو لا يشك في الموت لأنه يراه بعينه، ولكنه يعمل عمل من
يزعم أنه يخلِّد ولن يموت - إنها الغفلة والغرور - ولو خلَّدَ المال أحداً لخلد قارون، وقد
غاب عنه أن البخل يقصف الأعمار ويخرب الديار، وأن البر يزيد في العمر ويبارك المال.

وحب المال واستيلاؤه على النفوس بهذا المعنى، صورة من صور عدم الإيمان، ومن
صور شغف النفس البشرية، التي تزعم أن المال هو القيمة العليا في الحياة، وأن مَنْ مَلَكَ
المال، فقد مَلَكَ كرامات الناس وأقدارهم، فاستهان بهم، واستعلى عليهم، ونفخ الشيطان

(١) قرأ ابن عامر وحمزة والكسائي وأبوجعفر وروح وخلف بتشديد الميم من ﴿جَمَعَ﴾ على المبالغة، والباقون
بالتخفيف على الأصل.

(٢) فتح السين من ﴿يَعْدَدُهُ﴾ ابن عامر وعاصم وحمزة وأبوجعفر، والباقون بكسرها.

فيه، فظن أن ثروته لن تبيد أبداً، وأنه في غنى عمن دونه من الخلق، وأنه أفضل من غيره.
عن أبي برزة الأسلمي رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «لا تزول قدما عبد يوم القيامة، حتى يسأل عن عمره فيما أفناه، وعن علمه فيما فعل فيه، وعن ماله من أين اكتسبه، وفيما أنفقه، وعن جسمه فيما أبلاه»^(١).

عِقَابُ مَنْ يَنْتَقِصُ النَّاسَ وَهُوَ مِنْ أَهْلِ الْكُفْرِ

٤-٦- ﴿كَلَّا لَيُنْبَذَنَّ فِي الْحُطَمَةِ ۚ ﴿١﴾ وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْحُطَمَةُ ۚ ﴿٢﴾ نَارُ اللَّهِ الْمَوْقَدَةُ ۚ ﴿٣﴾﴾

كلا - ليس الأمر كما زعم جامع المال - فهو لا يخلد في الدنيا، بل وعزتنا وجلالنا ليُطرحَنَّ في النار المسعرة التي تُحطَّم كل من يُلْقَى فيها وتلتهمه.
والحطمة اسم من أسماء النار، لأنها تحطَّم العظام وتكسرها، ومن أسمائها: سقر ولظى.
وفي إعادة لفظ ﴿الْحُطَمَةُ﴾ بذاته، تفخيم وتهويل لشأنها، فليست كنار الدنيا، بل هي نار مؤججة، وقودها الناس والحجارة، لا تخمد أبداً، ولا يطفأ لهيبها، ولا يحيط بكنهها غير خالقها، والناس فيها لا يموتون ولا يحيون، وهي تتغيظ، عليهم ولها زفير وشهيق.

النَّارُ تُحَطَّمُ مَنْ يَعِيبُ النَّاسَ وَتُطِيقُ عَلَيْهِ

٧-٩- ﴿الَّتِي تَطَّلِعُ عَلَى الْآفَاقِ ۚ ﴿٧﴾ إِنَّهَا عَلَيْهِمْ مُّوَصَّدَةٌ ۚ ﴿٨﴾ فِي عَمَدٍ مُمَدَّدَةٍ ۚ ﴿٩﴾﴾

(١) قال الترمذي: هذا حديث حسن صحيح، برقم (٢٤١٧) في السنن، وصححه الألباني في صحيح سنن الترمذي برقم (١٩٧٠)، وعزاه الهيثمي في مجمع الزوائد (٣٤٦/١٠) إلى الطبراني والبخاري من حديث معاذ، وقال: رجال الطبراني رجال الصحيح، وورد أيضاً عن ابن مسعود في صحيح سنن الترمذي (١٩٦٩)، والسلسلة الصحيحة (٩٤٦)، والروض النضير (٦٤٨).

(٢) وقف حمزة بنقل همزة ﴿الْآفَاقِ﴾ الثانية إلى الفاء مع حذف الهمزة، وله فيها السكت على (ال) سكتة خفيفة بدون تنفس.

(٣) قرأ أبو عمرو وحفص ويعقوب وخلف بالهمز في ﴿مُوصَّدَةٌ﴾ من آصدت الباب، أي أغلقته فهو مؤصد، والباقون بإبدال الهمزة واوا من أوصد يوصد، وأبو عمرو لا يبدل همزها لأنه مستثنى.

(٤) قرأ شعبة وحمزة والكسائي وخلف بضم العين والميم من ﴿عَمَدٍ﴾ جمع عمود، أو جمع عماد، والباقون بفتحهما، اسم جمع، لا واحد له من لفظه.

هذه النار تأكل الكافر حتى تنتهي إلى الفؤاد والجوف، فهي تنفذ من الأجسام إلى القلوب، والفؤاد هو موطن الكفر أو الإيمان، والنار تعرف أسرار القلوب، وتميز بين الكافر والمؤمن، فيبلغ ألم وجعها إلى الجوف، وتصل إلى الفؤاد، ويظل العذاب متجدداً، فالمعذب لا يحترق ولا يموت، بل كلما نضجت جلودهم بدلهم الله تعالى جلوداً غيرها ليزوقوا العذاب، فالإحراق والعذاب غير متناهي، وهو يصل إلى أقصاه وغايته، ومع هذا فهو متجدد لا ينتهي.

فالنار تأكل كل شيء في الكافر حتى تنتهي إلى فؤاده، فإذا بلغت فؤاده ابتدىء خلقه من جديد، ومن المعلوم أن هذا العذاب لا يستحقه إلا الهماز اللماز الكافر، أما المؤمن فإنه يعذب بذنبه في الآخرة إن لم يتب منه في الدنيا.

وجاءت صورة العذاب بالنار - في هذه السورة - في صورة حسية مادية، فريدة في القرآن الكريم، تناسب الهماز اللماز الذي يعيب الناس ويتعالى عليهم بماله، وهي صورة نفسية أليمة، فهي تصور الكافر مطروحاً في نار جهنم، تُحطَّم كبريائه وغروره، وتطلع على فؤاده، وهي مُطبقة عليه، فلا يخرج منها أبداً، وأبوابها محكمة مغلقة لا ينفذ منها أحد، فهم محبوسون فيها، قد أيسوا من الخروج منها ﴿كُلَّمَا أَرَادُوا أَنْ يَخْرُجُوا مِنْهَا أُعِيدُوا فِيهَا﴾ [السجدة: ٢٠]. فقاعدة هذا السجن: أعمدة ذاهبة في الطول، ينتشر العذاب فيها كلها ولا يستطيع أهلها الخروج منها.

هذه الصورة الفظيعة، وهذا العذاب الأليم، أعده الله تعالى للهماز اللماز الذي جمع المال واغترّ به وأنكر الحساب والجزاء. والكفار موثوقون في سلاسل وأغلال، شُدَّت بها أيديهم وأرجلهم، فَيُعَذَّبُونَ بِعُمد وأوتاد طويلة ممددة في نار جهنم، فلا ينفذ عليهم باب، ولا يدخل عليهم رُوح ولا ريحان - نعوذ بالله من نار جهنم وعذابها -.

وفي هذا عبرة وعظة، وأي عبرة لمن كان له قلب، أو ألقى السمع وهو شهيد. وصلى الله على نبينا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

تم تفسير (سورة الهمزة) والله الحمد والمنة

تَفْسِيرُ سُورَةِ الْفِيلِ (١٠٥)

مُقَدِّمَةُ السُّورَةِ

١- (سورة الفيل) هي السورة الخامسة بعد المئة في ترتيب المصحف، والتاسعة عشرة في ترتيب النزول، نزلت بعد (سورة الكافرون) وقبل (سورة الفلق) أو (قريش). وهي خمس آيات، وعشرون كلمة، وستة وتسعون حرفاً، وهي سورة مكية. والمشهور أن اسمها (سورة الفيل) ويقال: (سورة ألم تر). قال عمرو بن ميمون: صليت المغرب خلف عمر بن الخطاب رضي الله عنه فقرأ في الركعة الثانية ﴿الَّتِ تَرَ﴾ و﴿لَا يَلْفِ قُرَيْشٍ﴾. واستدل بعضهم بهذا على أنهما سورة واحدة، لأن الصحابة لم يكونوا يقرؤون في الركعة الواحدة من الفريضة سورتين^(١). قلت: الصحيح أنهما سورتان، فَصَلَّتِ البسملة بينهما، ولا يلزم من قراءتهما في ركعة واحدة أن يكونا سورة واحدة.

موضوع السورة:

تحدثت سورة الفيل عن قصة (أصحاب الفيل) حين قصّدوا هُذَمَ الكعبة، فردّ الله كيدهم في نحورهم، وأرسل على جيش «أبرهة» أسراباً من الطير، تحمل في أرجلها ومناقرها حجارة صغيرة، أهلكهم الله بها، وأبادهم عن آخرهم، بعد أن شعر أهل مكة بالعجز عن مقاومة هذه الحملة، ففروا إلى رؤوس الجبال، تاركين بيت الله وبيوتهم لحماية رب العالمين. ومن مقاصد هذه القصة: تذكير الناس جميعاً وأهل مكة بوجه خاص، بأن من أراد هذا البيت بسوء، قصمه الله، ولا يمنع هذا من حدوث العدوان على الكعبة بعد حادثة الفيل مرة أخرى أو مرات، فإن عقاب الله له بالمرصاد في الدارين، والله تعالى يتوعّد من

(١) تفسير التحرير والتنوير (٥٤٣/٣٠).

يُقدم على ذلك بالهلاك والخسران في الدنيا والآخرة.

ولم تتكرر هذه القصة في القرآن لأمرين:

أحدهما: إن إهلاك أصحاب الفيل ليس لأجل تكذيب الرسول.

وثانيهما: ألا يغتر المشركون، فيتوهمون أن لهم مكانة عند الله تعالى، كما توهم من كانوا يقومون منهم بسقاية الحجيج، وعمارة المسجد الحرام، بأن لهم منزلة عند الله وهم يصدّون الناس عنه.

وتبدأ سورة الفيل بتوجيه خطاب للنبي ﷺ في صورة استفهام تقريرية تعجّبي على حادثة لم يشهدها النبي ﷺ حال وقوعها، وكانت معروفة مشهورة لدى العامة والخاصة. ويأتي هذا الأسلوب التقريري في صورة امتنان من الله تعالى على رسوله ﷺ، وعلى قومه وأمته، بأن حمى الله بيته وصانه من مكّر الماكرين، ليكون مثابة للناس وأمناً إلى أن تقوم الساعة، وليكون نقطة انطلاق للرسالة الإلهية الخاتمة، وليكون إرهاباً بين يدي رسالة محمد ﷺ.

وفي هذا بشرى بأن الله تعالى يحفظ بيته دائماً من كل مكّر يراد به، ليظل البيت الحرام آمناً من عبث العابثين، وكيد الماكرين، كما يحفظ حرم رسوله ﷺ بحول الله وقوته ومشيتته.

عام الفيل:

جرت العادة أن الناس يؤرخون بالأحداث الهامة في حياتهم، ومن ذلك عام الفيل، نظراً لما لحادثته الفيل من أهمية كبرى لتعلقها ببيت الله الحرام، فقد كان الناس يؤرخون بها قبل الإسلام، وقد وقعت حادثة الفيل عام ٥٧٠ ميلادية وهو العام الذي ولد فيه النبي ﷺ وكانت هذه الحادثة من أعظم الإرهابات الدالة على صدق نبوته ﷺ.

سبب الحادثة:

لم يكن للعرب قبل الإسلام شأن يُذكر في دنيا الناس، وكان معظمهم تحت النفوذ الأجنبي:

١- وكانت الحبشة قد استولت على اليمن، بعد واقعة الأخدود التي عذب فيها

الملك ذو نواس، النصراني، وفرض سلطانه على اليمن، وكان أبرهة الأشرم أميراً على اليمن من قبل النجاشي، وقد أراد أبرهة أن يتقرب إلى النجاشي - النصراني - ليصرف العرب عن مكة وقبلتها، وذلك ببناء كنيسة يتوجه إليها الناس عوضاً عن الكعبة، وكان النجاشي قد غضب عليه وحلف ليطأَنَّ أرضه وليُجَزَّن ناصيته.

٢ - ولما رأى أهل الحبشة استمرار رحلات أهل اليمن في مواسم الحج إلى مكة، خافوا على اقتصادهم، فأرادوا أيضاً أن يصرفوا الناس عن هذه الرحلات التجارية، ليتحول اقتصاد الجزيرة وتجاريتها إلى بلادهم.

٣ - وكانت فئة من قريش، قد خرجت في تجارة، ونزلوا في طريقهم إلى جوار معبد للنصارى يسمونه الهيكل، فأوقدوا ناراً لحاجتهم، فلما ارتحلوا من المكان هبت ريح عاصفة فاحترق المعبد، فاستشاط القوم غضباً، وأتوا إلى أبرهة، وقرروا إحراق الكعبة وهدمها، وسبوا أهل مكة.

فهذه ثلاثة أسباب دينية وسياسية واقتصادية، وأهمها السبب الديني الأول.

كنيسة القليس باليمن:

وقد كان أهل الحبشة يدينون بالمسيحية، فأرادوا نشر هذا الدين في جزيرة العرب، بعد أن استولوا على اليمن، ولما رأوا تقديس العرب لمكة وللمسجد الحرام، بدأ أبرهة - القائد الحبشي على اليمن - في بناء كنيسة بصنعاء نقل إليها الأعمدة والحجارة الذهبية من قصر بلقيس، وبذل فيها جهداً كبيراً، ودعا العرب إلى حجّها بدلاً عن البيت الحرام، فغضب العرب لذلك.

وأقسم رجل من بني مالك ليغثنَّ بهذه الكنيسة، فقَدِمَ اليمن، ودخل الكنيسة، ولطّخ جدرانها بالقاذورات، ولما علم أبرهة بذلك حلف ليهدمَ الكعبة، فكتب إلى النجاشي بذلك وطلب تزويده بالفيلة.

خرج أبرهة قاصداً مكة، ومعه ثلاثة عشر فيلاً، منها: فيل كبير جسيم، يدعى «محمود» هو فيل النجاشي.

سمع العرب بذلك، فتصدّوا لقتاله: وخرج إليه ملك من ملوك اليمن، يقال له: ذو نفر، وقاتله، فهزمه أبرهة.

ولما وصل بلاد خثعم خرج إليه بعض منهم ومن القبائل الأخرى وقاتلوه، فهزمهم أبرهة. ولما وصل الطائف خرج إليه رجال من ثقيف، وأرادوا أن يصرفوه عن بيتهم الذي بنوه، وهو (اللات) وبعثوا معه من يدلّه على الكعبة.

فلما كان أبرهة بالمغمّس - مكان بين مكة والطائف - بعث أحد قواده فجمع إليه أموال أهل الحرم، وفيها مئتا بعير لعبد المطلب، وجرت مفاوضات بين أبرهة وعبد المطلب، انتهت بأن يرّد أبرهة إبل عبد المطلب.

وكان عبد المطلب سيد قريش تعلّوه المهابة والوقار، فأعظمه أبرهة، قال عبد المطلب: أنا رب الإبل، وإن للبيت ربّاً سيمنعه ويحميه، فرد أبرهة قائلاً: ما كان ليمنع مني، فأجابه: أنت وذاك..

وانطلق عبد المطلب إلى قريش يخبرهم، ثم تعلق بحلقة الكعبة وأستارها في ضراعة الخائف الوجل، وإنابة العائذ المستغيث، وأخذ ينشد أبياتاً مشهورة يطلب فيها عون الله تعالى وحمايته لبيته.

وكان عبد المطلب قد عرض على أبرهة ثلث أموال تهامة على أن يرجع عن هدم البيت، ولكنه أبى وأصر، فعاد عبد المطلب مردداً:

يارب لا أرجو لهم سواك يارب فامنع منهم حماكا

إن عدو البيت من عاداكا

وأمر عبد المطلب أهل مكة أن يتركوا البلد، وأن يلوذوا برؤوس الجبال بنسائهم وأطفالهم، كي لا يلحق بهم شيء من أذى القوم القادمين لتخريب الكعبة وهدمها.

وتحرك جيش أبرهة، وتهياً لدخول مكة، فبرك الفيل الكبير «محمود» وأبى أن يتّجه نحو مكة، فضربوه ضرباً شديداً، فلم ينهض، ثم وجهوه إلى اليمن والشام، فقام يهرول، ثم وجهوه إلى الحرم فبرك.

ولما كانوا في وسط وادي مُحَسِّر، وإذا بفرقٍ من الطير فرقة بعد أخرى، تُرْسِل على ذلك الجيش حجارة صغيرة الحجم، ما إن تَسْقُط على أحدهم حتى تُهْلِكُه ويتناثر لحمُه. وأصيب أبرهة، فجعل جسْمُه يتناثر ويتساقط حتى انصدع صدره ومات بصنعاء. وهكذا حَمَى الله بيته من عدوان الظالمين، وهكذا يحميه رب العالمين من كل كيد، ومن كل مكر إلى يوم الدين، وماتت الفيلة إلا الفيل الذي أبى التوجه إلى مكة.

سند الحادثة:

وهذه الحادثة ثابتة بقول النبي ﷺ يوم الحديبية حين بركت ناقته (القصواء) قال: خلأت القصواء، فقال ﷺ في حديث المسور بن مخرمة «ما خلأت القصواء، وما ذاك لها بخلق، ولكن حبسها حابس الفيل»^(١).

وفي الصحيحين من حديث أبي هريرة ؓ أن النبي ﷺ قال يوم فتح مكة: «إن الله حبس عن مكة الفيل، وسلط عليها رسول الله والمؤمنين، وإنه قد عادت حرمتها، كحرمتها في الأمس، ألا فليبلغ الشاهد الغائب»^(٢).

دلالة الحادث: والعبرة المستفادة من هذا الحادث:

١ - أن الله تعالى لم يُرد أن يكلّ حماية بيته العتيق إلى المشركين، حتى لا يكون لهم سابقة فضل، ولا يداً في حماية بيته الحرام، وفي هذا كرامة لبيت الله الحرام، وإنعام على قريش بدفع العدو عنهم.

٢ - وكان من أثر ذلك أن بادرت قريش وسائر العرب إلى الدخول في دين الله، حين جاءهم به محمد ﷺ حيث كانت هذه الحادثة من إرهابات النبوة، وتبشير النبي ﷺ بأن

(١) رواه البخاري في صحيحه في كتاب رقم (٥٦) باب (٥٩) عن المسور قبل الحديث رقم (٢٨٧١) وهو كتاب الشروط، باب الشروط في الجهاد والمصالحة مع أهل الحرب، وكتابة الشروط، ينظر البخاري مع الفتح (٣٢٩/٥)، وراجع رقم (٢٧٣١، ٢٧٣٢) في الصحيح.

(٢) رواه البخاري في كتاب العلم، باب كتاب العلم، انظر البخاري مع الفتح (٢٠٥/١)، وهو في البخاري برقم (١١٢)، وفي مسلم برقم (١٣٥٥) عن أبي هريرة ؓ.

الله تعالى كفيل برعايته ونصره على أعدائه، كما نصر أهل مكة على أبرهة وجيشه.

٣ - ولم يشأ الله سبحانه أن يحطم أبرهة وجنوده البيت الحرام، أو يسيطروا على البلد الحرام، ليبقى البيت مصوناً محفوظاً بحفظ الله تعالى، حتى تثبت العقيدة الإسلامية دون مهيمن عليها، ليهيمن الإسلام على جميع الأديان، وليقود البشرية ولا يقاد.

وجاءت نواة الإسلام وطليعته في مكة، ثم في المدينة، ثم في أرجاء المعمورة.

وأصبح للمسلمين قوة عالية، اكتسحت الممالك، وحطمت العروش، وتولت قيادة البشر، وهي التي كانت من قبل دون كيان ولا سلطان، تخضع لحكم هذا وذاك، فكانت حادثة الفيل مؤشراً إلى هذه المعاني، وإرهاصاً دالاً عليها.

* * *

تَفْسِيرُ السُّورَةِ

امْتِنَانُ اللَّهِ عَلَى الْمُسْلِمِينَ بِرَدِّ كَيْدِ أَمْرَةِ الْأَنْهَرِ عَنِ الْبَيْتِ الْحَرَامِ

٢٠١- ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ ﴿١﴾ أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِي تَضْلِيلٍ ﴿٢﴾﴾

لقد امتن الله سبحانه على المسلمين بهذه الحادثة، حين صرف عنهم أصحاب الفيل الذين عزموا على هدم الكعبة ومحوها من الوجود.

والمعنى: ألم يصل إلى علمك - يا رسولنا - فِعْلُ رَبِّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ الَّذِينَ قَدَمُوا مِنَ الْحَبْشَةِ لِتَخْرِيبِ الْكَعْبَةِ لِصَرْفِ النَّاسِ عَنِ الْحَجِّ إِلَيْهَا إِلَى الْحَجِّ فِي كَنِيسَةِ بَنُوها بصنعاء، لم يُرَ مثلها في زمانها، وكانت هذه القصة قد وقعت في العام الذي ولد فيه النبي ﷺ أي قبل بعثة النبي ﷺ بأربعين عاماً.

ألم يهلكهم الله ويجعل كيدهم وسعيهم لتخريب الكعبة في ضلال وضياع وبطلان وهلاك، فلم يَجْنُوا إِلَّا الْخِزْيَ وَالْدمَارَ.

وقد سماه القرآن كيداً: لأن البيت الذي أرادوا هدمه مذكور في كتبهم، وليبان أن ما فُعلَ بهم إنما هو من الله تعالى، وليبان أن الأصنام لا تملك شيئاً، ولتشيت النبي ﷺ وتذكيره بأن الله تعالى غالب على أمره ولكن أكثر الناس لا يعلمون.

إِهْلَاكُ أَصْحَابِ الْفِيلِ بِأَضْعَفِ خَلْقِ اللَّهِ تَعَالَى

٣-٥- ﴿وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ ﴿٢﴾ تَرْمِيهِمْ بِحِجَارٍ مِّنْ سِجِّيلٍ ﴿٤﴾ فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ

مَأْكُولٍ ﴿٥﴾﴾

وأرسل ربك عليهم جماعات جماعات من الطير، تحمل حجارة من طين قوي شديد، في أَرْجُلِها وَمَنَاقِيرِها، وهي حجارة محمأة من سجيل، فرمتهم بها وتتبع قاصيهم ودانيهم، فخدموهم وهدموا، وصاروا كهشيم المحتظر فالأبابل هي الجماعات المتتابعة من الطير،

تحيط بهم من كل جانب فتقذفهم وترميهم بالحجارة، ففتفت لحومهم كأنها قذائف حارقة، أو رصاصات ثاقبة لا تصل إلى أحد إلا قتلته، وكان مع كل طائر حجران في رجله وحجر في منقاره، لا يصيب شيئاً إلا هشمه، فإذا أصاب أحدهم الحجر، خرج به الجُدري.

قال عكرمة: كانت طيراً خُضراً خرجت من البحر، لها رؤوس كرؤوس السباع^(١). فأهلكتهم هذه الحجارة عن بكرة أبيهم، وجعلتهم كورق الشجر الذي أكلته الدواب وكسرت قوائمه وهشمته، والعصف المأكول هو التبن الذي تأكله الدواب.

ففي السورة ذكرى للعظة والاعتبار، وتوطئة لميلاد خير خلق الله ﷺ، ووعد بانتصار دعوته، كأن الله تعالى يقول لنبيه: لقد فعلت ما فعلت بأصحاب الفيل، تعظيماً لك، وتشريفاً لقدومك، وإذ قد نصرتك قبل قدومك، فكيف أتركك مع نبوتك ورسالتك.

تواتر ما فعل الله بأصحاب الفيل وبقاء آثارهم في عصر الصحابة:

وقد تواتر ما فعل الله بأصحاب الفيل بين أهل مكة، وثبت بعض آثار هذه الحجارة يشاهدونها:

قال أبو صالح: رأيت في بيت أم هانئ نخواً من قفيزين من تلك الحجارة سوداً مخططة بخمرة.

وقال عتاب بن أسيد: أدركت سائس الفيل وقائده أغميين مُقعدين يستطعمان الناس. وقالت عائشة: لقد رأيت قائد الفيل وسائقه أغميين يستطعمان الناس^(٢).

فهذه الرؤية التي ذكرتها الآية، رؤية بصرية بالنسبة لمن تجاوز سنه نيفاً وخمسين سنة وقت نزول هذه السورة.

وهذه الحجارة كانت بمقدار الحصى الصغير كحبة الحمص.

قال ابن عباس رضي الله عنها: كان الحجر إذا وقع على أحدهم لفظ أي (احترق)

(١) أخرجه الطبري بسند صحيح كما قال ابن حجر في الفتح (٢٠٧/١٢).

(٢) تفسير التحرير والتنوير (٥٤٥/٣٠)، والدر المنثور (٦٦٦/١٥)، وتفسير ابن كثير (٤٨٩/٨)، وابن إسحاق

(٤٤)، والبيهقي (١٢٥/١).

جَلَدَه، فكان ذلك أَوَّلُ الجُدَرِيِّ.

وقال عكرمة: إذا أصاب أحدهم حجراً منها، خرج به الجُدَرِيُّ.

ولم يكن الجدري معروفاً لدى أهل مكة آنذاك.

وكانت الحجارة من سجيل، أي من طين متحجر يابس مُحَرَّق بالنار، أو أنها كانت

من سجيل أي من ديوان عذاب الكفار، كما حدث لقوم لوط.

أخرج الطبري بسند حسن عن قتادة قال: أقبل أبرهة الأشرم من الحبشة يوماً ومن

معه من غزاة أهل اليمن إلى بيت الله الحرام ليهدمه من أجل بيعة (كنيسة) لهم، أصابها

العرب بأرض اليمن، فأقبلوا بفيلهم، حتى إذا كانوا بالصِّفَاح، وهو مكان بين حُثَيْن

وأنصاب الحرم على يسار الداخل إلى مكة من جهة طريق اليمن، ولما كانوا في هذا

الموضع بَرَكَ الفيل، فكانوا إذا وجَّهوه إلى بيت الله، ألقى بِجِرَائِهِ على الأرض، وإذا

وجَّهوه إلى بلدهم انطلق وَلَهُ هزولة، حتى إذا كانوا بنخلة اليمانية، بعث الله عليهم طيراً

بيضاً أبابيل، مع كل طير حَجْرَان في رِجْلَيْهِ، وحَجَر في منقاره، فجعلت ترميهم بها،

حتى جعلهم الله كعصف مأكول، فنجا أبرهة، ورجع إلى اليمن، فكان كلما قدم أرضاً

تساقط بعض لحمه حتى أتى قومه، فأخبرهم الخبر، ثم هلك^(١).

فكان ذلك آية من آيات الله تعالى، تُذكِّر العباد بقوة الله تعالى وحمايته لبيته العتيق،

وفيها دلالة على انتقام الله تعالى من كل من يُضمر سوء لبيت الله الحرام.

ودلالة على أن الله الذي أهلك أبرهة وجُنْدَه، بأضعف خلق الله، وهي الطير، التي

ليس من عادتها أن تُقتل، قادر على أن ينصر بيته، بسبب أو بآخر، إلى أن تقوم الساعة.

وفي السورة إحياء وتطمين واستبشار بهلاك كل من يُفْجِر ويمكُر بيت الله سبحانه،

وبمدينة رسوله ﷺ.

تم تفسير (سورة الفيل) والله الحمد والمنة

(١) ينظر: تفسير الطبري (٦٤٣/٢٤)، وعبدُ بنُ حُمَيْد، وعبد الرزاق (٣٩٦/٢).

تَفْسِيرُ سُورَةِ قُرَيْشٍ (١٠٦)

مُقَدِّمَةُ السُّورَةِ

١ - (سورة قريش) هي السورة السادسة بعد المئة في ترتيب المصحف، والتاسعة والعشرون في ترتيب النزول، نزلت بعد (سورة التين) وقبل (سورة القارعة). وهي خمس آيات في العدد المكي والمدني والحمصي، وأربع آيات عند بقية أئمة العدد. وهي سبع عشرة كلمة، وثلاثة وسبعون حرفاً. وسورة قريش سورة مكية عند الجمهور، مستقلة عن سورة الفيل بالإجماع. وشهرتها (سورة قريش) وتسمى (سورة لإيلاف قريش).

٢ - موضوع السورة:

تحدث هذه السورة عما أنعم الله به على أهل حرمه، بأن هياً لهم رحلتي الشتاء والصيف، في وقت كانت تتعذر فيه وسائل الاتصالات، ويصعب العيش فيه بين جبال مكة، دون طعام ولا شراب، وَيَقِلُّ الأَمْنُ فيها، نظراً لطبيعتها الجبلية الصحراوية فجعل سبحانه بلادهم آمنة، وأوقع قُدُسيتها في قلوب الناس حتى في الجاهلية، لتهيأ لهم سبل الحياة، وجَلَبَ إليهم الثمرات والخيرات من كل بلاد العالم:

إن جزيرة العرب تقع بين أوروبا وآسيا، وقد اشتغل أهلها بالتجارة بين هاتين القارتين، وكانوا همزة وصل بين الرومان في الشام، والهنود في الجنوب، وانتظمت رحلاتهم، تنقل السلع بين هؤلاء وأولئك، وقد امتن الله على العرب - في مكة وما حولها - بهذا الوضع الذي انتفعوا منه كثيراً.

وكلمات (سورة قريش) تشير إلى استتباب الأمن، وانتفاء الجوع، وهما أساس الحرية السياسية، كما أن وفرة الأقوات، وسهولة التبادل، هما أساس الحرية الاقتصادية، وكذا وجود السوق الدولية المشتركة.

وفي السورة تذكير بنعم الله تعالى على جميع خلقه، وعلى أهل مكة بوجه خاص، حيث مكّنتهم من السير والتنقل، دون خوف من عدوّ يعدّوا عليهم، في وقت لا يوجد فيه من يقوم على حماية الأمن في البلاد، كي يعبدوا ربهم فيقلعوا عما هم فيه من الشرك، وعبادة الأوثان، إلى عبادة رب العالمين، فهو المستحق للعبادة دون سواه.

والذي سنّ لهم هاتين الرحلتين: هاشم بن عبد مناف، وقد حمّله على ذلك: الجوع القاتل الذي تعرّض له أهل مكة، حتى كادوا يموتون جوعاً، فوقف فيهم خطيباً وجمعهم، ونظّم لهم رحلتين، وقسم أرباح التجارة بين الغني والفقير.

٣ - أصل تسمية قريش:

أ- وقريش هو: فهر بن مالك بن النضر بن كنانة، وهو لقب يجمع بطوناً كثيرة، وقد سئل النبي ﷺ: مَنْ قريش: فقال: «مَنْ وَلَدَ النَّضْر» وجميع أهل مكة من قريش، وكان بنو كنانة يسكنون بالخيف، في منى.

ب- وأخرج البيهقي أن معاوية سأل ابن عباس رضي الله عنهما: لم سميت قريشاً؟ قال: بدابة تكون في البحر، أعظم دوابّه يقال لها: القُرْش، لا تمرّ بشيء من الغث والسمين إلا أكلته^(١).

ج- وقال عبد الملك بن مروان: سمعتُ أن قُصياً كان يقال له: القُرْشِيّ، ولم تُسمّ قريش قبله^(٢).

د- وتسمية قريش جاءت من التقاريش، وهو الجمع والتكسب.

فهذه أربعة أسباب لهذه التسمية.

فضل قريش:

ومما ورد في فضل قريش من أحاديث:

(١) البيهقي في الدلائل (١/١٨٠).

(٢) أخرجه ابن سعد (١/٧١).

- ١- عن واثلة بن الأسقع رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «إن الله اصطفى كنانة من ولد إسماعيل، واصطفى قريشاً من كنانة، واصطفى من قريش بني هاشم، واصطفاني من بني هاشم»^(١).
- ٢- وعن جابر رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «الناس تبع لقريش في الخير والشر إلى يوم القيامة»^(٢).
- ٣- وعن أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «الناس تبع لقريش في هذا الشأن، مسلمهم تبع لمسلمهم، وكافرهم تبع لكافرهم»^(٣).
- ٤- وعن ابن عباس رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال: «اللهم أدقّت أول قريش نكالا، فأدقّ آخرهم نوالا»^(٤) والنكال هو العناء والمشقة، والنوال هو العطاء والخير.
- ٥- قال معاوية سمعت رسول الله ﷺ يقول: «الناس تبع لقريش في هذا الأمر، خيارهم في الجاهلية خيارهم في الإسلام إذا فقهوا، والله لولا أن تبطر قريش لأخبرتها بما لخيرها عند الله» قال: وسمعت رسول الله ﷺ يقول: «خير نسوة ركنن الإبل، صالح نساء قريش، أزعهن على زوج في ذات يدهن، وأخناه على ولد في صغره»^(٥).
- قلت: وركوب الإبل في زمانهم يعني قيادة سائر المراكبات في زماننا، والحديث نص في جواز ذلك للمرأة.
- ٦- وعن عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال: «إن هذا الأمر في قريش، لا يعاديهم أحد إلا كبه الله على وجهه في النار، ما أقاموا الدين»^(٦).

(١) صحيح مسلم برقم (٢٢٧٦) وهذا لفظه، وهو في المسند (١٦٩٨٧)، والترمذي (٣٦٠٥)، والبيهقي في الدلائل (١٦٥/١).

(٢) صحيح مسلم برقم (١٨١٩)، والمسند (١٤٥٤٥، ١٥٠٥٠)، وابن أبي شيبة (٦٧/١٢)، وابن حبان (٦٢٦٣).

(٣) البخاري برقم (٣٤٩٥)، ومسلم برقم (١٨١٨)، والمسند (٧٥٥٦) قال محققوه: صحيح، وأخرجه ابن أبي شيبة (١٦٨/١٢).

(٤) قال الترمذي: حديث حسن صحيح غريب (٣٩٠٨)، وهو في صحيح سنن الترمذي (٣٠٦٧).

(٥) ابن أبي شيبة (١٦٩/١٢)، والمسند (١٦٩٢٨، ١٦٩٢٩) قال محققوه: إسناده صحيح.

(٦) صحيح البخاري (٧١٣٩، ٣٥٠٠)، وانظر حديث أحمد في المسند (٢٧١٥٨) عن قتادة بن النعمان.

٧- وفي حديث ابن عمر رضي الله عنهما أن النبي ﷺ قال:

«لا يزال هذا الأمر في قريش ما بقي منهم اثنان» وحرك إصبعيه^(١).

٨- وعن أبي هريرة ؓ أن النبي ﷺ قال: «الملك في قريش، والقضاء في الأنصار،

والأذان في الحبشة والسرعة في اليمن»^(٢).

وجاءت الآثار بأن الله تعالى قد فضّل قريشاً: بالنبوة والخلافة والسقاية والحجامة

والسدانة، ونصرهم يوم الفيل، وأنزل فيهم هذه السورة^(٣).

٤ - الأسباب والمسببات مخلوقة لله تعالى:

السبب والمسبب مخلوقان لله تعالى، والمسبب مرتب على السبب، فالنصر على

العدو الذي وعد الله به المؤمنين، مرتب على الجهاد في سبيل الله، والشفاء من المرض،

مرتب على الأخذ بأسباب العلاج، وحصول الرزق للعبد، مرتب على السعي والبحث

عنه من طرقه المشروعة، فالسما لا تمطر ذهباً ولا فضة، والرزق لا يأتي للطيور وهي

ساكنة في أوكارها، بل إنها تسعى لرزقها في الصبح الباكر وهي جائعة، ثم تعود بعد أن

حصلت على رزقها فازتوت وشبعت.

- ولما كانت مكة المكرمة قبل الإسلام وادياً مُجْدِباً لا زرع فيه ولا ضرع، كما

وصفها رب العالمين على لسان الخليل إبراهيم عليه السلام في قوله ﴿رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنْتُ

مِنْ ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِنْدَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ﴾ [إبراهيم: ٣٧].

- لما كان الأمر كذلك، فإن قريشاً كان لها رحلتان في كل عام للتجارة، رحلة في الشتاء

إلى اليمن لأنها أدفأ، ورحلة في الصيف إلى الشام، يجلبون فيهما الميرة والطعام والثياب

(١) صحيح البخاري (٣٥٠١، ٧١٤٠)، وصحيح مسلم (١٨٢٠)، والمسنند (٤٨٣٢، ٥٦٧٧، ٦١٢١)، والطيالسي

(٢٠٦٨).

(٢) صحيح سنن الترمذي (٣٠٨٨)، والمسنند (٨٧٦١) قال محققوه: رجاله رجال الصحيح غير أبي مريم فقد

روى له أبو داود والترمذي وهو ثقة، واختلف في رفعه ووقفه والموقوف أصح وأخرجه ابن أبي شيبة

(١٧٢/١٢)، وهو في الترمذي (٣٩٣٦).

(٣) ينظر: الطبراني (٩٩٤)، والحاكم (٥٤/٤)، ومجمع الزوائد (٢٧/٧)، والدر المنثور (٦٧٠/١٥) وما بعدها،

وقد حسنها الألباني في السلسلة الصحيحة برقم (١٩٤٤)، وحسناها الحافظ العراقي.

إلى مكة عن طريق البحر في السفن إلى جدة، وعن طريق البر على الإبل وغيرها. وهكذا كانت الأرزاق تصل إلى بلادهم، فكانت سفن الحبشة تصل إلى ميناء جدة، محملة بالطعام لبيعه هناك، وكان رجال قريش يخرجون إلى جدة بالإبل والحمير، كي يشتروا الطعام، وكذلك كان أهل اليمن يحملون الطعام على الإبل لبيعه في مكة، وكان عندهم سوق عكاظ ومجنة وذى المجاز.

وكانوا يُقسّمون ربح تجارتهم بين الغني والفقير، حتى كان غنيهم كفقرهم على حد سواء.

وكانت القافلة المحملة بالبر والدقيق والزيت والثياب وغيرها تُستقبل بالفرح والبشر والترحاب، لأنها تحمل طعامهم وكساءهم لمدة نصف العام. ولم يكن يتعرض لهم أحد بسوء في رحلتهم، لأنهم سكان حرم الله الآمن، وؤلاة بيته العتيق.

وكانت العرب جميعاً تكرم قريشاً وتعظمها وتعزّها لهذا الشرف الذي حباها الله به، وهو خدمة بيته الحرام، وكونهم من سكان الحرم.

ورحلة الشتاء والصيف، ضرب من السعي إلى المعاش بالتجارة والربح، وفيها بذل السبب المأمور به في تحصيل الرزق.

قال ابن عباس رضي الله عنهما عن نعمتي قريش وإيلافهم: كانوا يُشْتَوْنَ بمكة ويُصَيَّفُونَ بالطائف، وقرأ السورة^(١).

* * *

(١) أخرجه النسائي في السنن الكبرى (١١٦٣٥)، وقد تفرد به من بين الكتب الستة.

تَفْسِيرُ السُّورَةِ

عِبَادَةُ اللَّهِ تَعَالَى مِنْ مُوجِبَاتِ شُكْرِ النِّعَمِ

٣-١- ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ﴾ (١) قَرِيشَ (٢) إِلَيْنِهِمْ (٣) رِحْلَةَ الشِّتَاءِ وَالصَّيْفِ ﴿فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَذَا

الْبَيْتِ﴾ (٤)

الإيلاف: صيغة مبالغة من الائتلاف والالتئام وجمع الشمل.

أفاد ابن عاشور: أن اللام من ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ﴾ للتعليل، وقُدِّمَ المجرور بها، وهو (إيلاف) للاهتمام به، لأنه من أسباب أمر قريش بعبادة الله التي انصرفوا عنها إلى عبادة الأصنام. قال: وأصل نظم الكلام: لَتَعْبُدُوا قريش رب هذا البيت، الذي أطعمهم من جوع، وآمنهم من خوف، لإيلافهم رحلة الشتاء والصيف.

والفاء من ﴿فَلْيَعْبُدُوا﴾ مُؤَذِّنَةٌ بَأَن ما قبلها في قوة الشرط، وهذا يقتضي تقديم المعمول على العامل (٣).

وقال كثير من المفسرين: إن الجارو والمجرور ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ﴾ متعلق بالسورة قبلها، أي فعلنا ما فعلنا بأصحاب الفيل لأجل قريش وأمنهم، واستقامة مصالحهم، وانتظام رحلتهم في الشتاء لليمن، وفي الصيف للشام، لأجل التجارة والمكاسب، فأهلك الله من أرادهم بسوء، وعظم أمر الحرم وأهله في قلوب العرب حتى احترموهم ولم يتعرضوا لهم في أي سفر أرادوا، لهذا أمرهم الله بالشكر (٤).

(١) قرأ ابن عامر بحذف الياء من ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ﴾ مصدر أَلَفَ ثلاثياً، وقرأ أبو جعفر بحذف الهمزة، وقرأ الباقر بإثبات الهمزة والياء مصدر أَلَفَ رباعياً، وأصلها إِلْأَفَا فأبدلت الهمزة الثانية ياء من جنس حركة ما قبلها، وعلى قراءة أبي جعفر حذفت الهمزة الأولى على غير قياس.

(٢) قرأ أبو جعفر بحذف ياء ﴿إِلَيْنِهِمْ﴾ والباقر بإثباتها.

(٣) ينظر: تفسير التحرير والتنوير (٥٥٤/٣٠).

(٤) ينظر: تفسير ابن سعدى للآية.

والمعنى على القول الأول: لَتَعْبُدْ قريش ربها من أجل تسهيل الله تعالى، وتديره وتيسره لقريش ما كانوا يألّفونه من رحلة الشتاء والصيف، حيث كانوا يسافرون، ويأتون بالطعام والثياب، ويزبحون في الذهاب والإياب، وهم آمنون مطمئنون، لا يتعرض لهم أحد بسوء، لأن الناس كانوا يقولون: هؤلاء جيران بيت الله، وشكّان حرمة.

وقريش قبيلة النبي ﷺ وكانت تخرج إلى تجارتها في الجاهلية، فلا يُغار عليها، لأن العرب يقولون: قريش أهل بيت الله عز وجل، فأمرهم الله أن يعبدوه لأجل تيسير رحلتي الشتاء والصيف لهم، وجعلهم يألّفونهما ويتعودونهما.

ولمّا أهلك الله أصحاب الفيل، ازداد تعظيم الأمراء والملوك لهم، فازدادت تلك المنافع والمتاجر، وعاش سكان حرم الله وبلده في رغد من العيش، وأمن من الخوف. وهاتان نعمتان يمتن الله بهما على قريش، ويذكّرهم بهما في هذه السورة ليعبدوه ويوحّدوه على ما يسر لهم الأسفار في بلاد العرب من جنوبها إلى شمالها في الأشهر الحرم وغيرها، وكان يلوذ بهم أصحاب الحاجات وأصحاب التجارات فيسافرون معهم ويحمّلونهم سلعهم، وهكذا.

أخرج ابن حاتم عن عكرمة قال: كانت قريش تتّجر شتاءً وصيفاً، فتأخذ في الشتاء على طريق البحر وأيّلة إلى فلسطين - وأيّلة - مدينة على ساحل البحر الأحمر مما يلي الشام - يلتمسون الدّفاء - أي ما يَسْتَدْفِئُونَ به من صوف ونحوه. وأما الصيف فيأخذون قَبْلَ بُضْرَى وأذرعات - بالشام - يلتمسون البُرْد^(١).

وقال ابن زيد: كانت لهم رحلتان: الصيف إلى الشام، والشتاء إلى اليمن في التجارة^(٢). ثم أوجب الله على سكان حرمة وسائر خلقه أن يعبدوه وحده، فهو سبحانه دافع الضر وجالب الخير، ومنه الرزق والأمن، وهو وحده المستحق للعبادة دون سواه، وقد

(١) ينظر: الدر المنثور (١٥/٦٧٧).

(٢) تفسير الطبري (٢٤/٦٥٢).

دفع الله تعالى الضر عن أهل الحرم، كما في سورة الفيل السابقة، وهما عند أبي بن كعب سورة واحدة، فَصَلَّتِ البسمة بينهما^(١).

قلت: ولم يكن الصحابة يعرفون انتهاء السورة وبدء السورة بعدها إلا بنزول البسمة كما صح في حديث ابن عباس^(٢).

فدلّ هذا على أن كلاً من سورتي الفيل وقريش سورة مستقلة.
هذا: وقد جلب الله سبحانه لأهل حرمه النفع والخير، ودفع الضر عنهم.

تَأْمِينُ أَرْزَاقِ الْعِبَادِ فَضْلاً مِنَ اللَّهِ تَعَالَى

٤ - ﴿الَّذِي أَطْعَمَهُمْ مِنْ جُوعٍ﴾^(٣)

وفي هذه السورة: نعمتان عظيمتان، امتن الله بهما على سكان الحرم وغيرهم، هما: نعمة الطعام، ونعمة الأمن.

وقد أمر الله عباده بالشكر عليهما، والاشتغال بعبادة رب البيت، أي فليجعلوا عبادتهم شكراً لله تعالى على هذه النعم. فهو سبحانه أحق أن يعبد، حيث أطعمهم من جوع، وآمنهم من خوف، فليعبدوه لهاتين النعمتين، إن لم يعبدوه لسائر نعمه.

ومع وجوب بذل الأسباب في طلب الرزق، فإن الله سبحانه وتعالى قد تكفل - تفضلاً منه - برزق خلقه جميعاً، وإطعامهم من جوع، قال سبحانه: ﴿وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا﴾ [هود: ٦].

والكائن الذي يضاعف عن تحصيل رزقه، ولا يستطيع جمعه، لا يتركه ربه يموت جوعاً، بل يهيء ويسر له أسباب الرزق، قال سبحانه: ﴿وَكَايْنٍ مِّنْ دَابَّةٍ لَا تَحْمِلُ رِزْقَهَا اللَّهُ يَرْزُقُهَا وَإِيَّاكُمْ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ [العنكبوت: ٦٠].

(١) تفسير الخازن للسورة.

(٢) ينظر هذا البحث في كتابي فقه التلاوة وكتابي من الترتيل وعلومه، المجلد الأول.

(٣) عدّ المدني الأول والأخير والمكي والحمصي، قوله تعالى ﴿مِنْ جُوعٍ﴾ آية، وتركها غيرهم.

وقد ضمن الله سبحانه هذا الرزق، وهو الإطعام من الجوع، وأقسم عليه، تأكيداً منه سبحانه على أن رزق العباد أمر حاصل لا محالة، وهذا التأكيد لهلع الإنسان وخوفه من الجوع، قال تعالى: ﴿وَفِي السَّمَاءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ ۝٢٢ فَوَرَبِّ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ لَحَقُّ مِثْلِ مَا أَنَّكُمْ نُنْطِقُونَ ۝٢٣﴾ [الذاريات].

وقد أخبر عليه الصلاة والسلام أنه لن تموت نفس حتى تستوفي رزقها وأجلها^(١). والإطعام من الجوع، وستر العورة، والري من الظمأ، والإيواء في مسكن يستر الإنسان. هذه أمور أربعة تكفل الله سبحانه بها - تفضلاً منه - لأبنا الأول آدم عليه السلام، وهي لذريته من بعده:

قال تعالى: ﴿إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَى ۝١٣٨ وَأَنَّكَ لَا تَظْمَأُ فِيهَا وَلَا تَصْحَى ۝١٣٩﴾ [طه]. وإذا أصيب الإنسان بالجوع، فإن هذا من باب الابتلاء الذي يتطلب الصبر. قال تعالى: ﴿وَلَتَبْلُوَنَكُمْ بَيْنَ يَدَيْ مِنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنْفُسِ وَالثَّمَرَاتِ ۝١٥٥﴾ [البقرة: ١٥٥]. وقد امتن الله سبحانه على أهل مكة، بجلب الخيرات والأرزاق إلى بلادهم التي كانت صحراء جرداء قال تعالى: ﴿أَوَلَمْ نُمْكِنْ لَهُمْ حَرَمًا آمِنًا يُجِبُّ إِلَيْهِ ثَمَرَاتُ كُلِّ شَيْءٍ رِزْقًا مِنْ لَدُنَّا ۝٥٧﴾ [القصص: ٥٧].

وفي هذا استجابة لدعوة خليل الرحمن عليه السلام كما حكى عنه ربه في قوله: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا بَلَدًا آمِنًا وَارْزُقْ أَهْلَهُ مِنَ الثَّمَرَاتِ مَنْ آمَنَ مِنْهُمْ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ۝١٢٦﴾ [البقرة: ١٢٦]. وقوله: ﴿وَارْزُقْهُمْ مِنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ ۝٣٧﴾ [إبراهيم: ٣٧].

وقد تكفل الله سبحانه ببسط الرزق لأهل الحرم وما حوله، وبين حُزْنَ أهل مكة، لما منع المشركون من دخولها في العام التاسع للهجرة، بنزول قول الله تعالى: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ آمَنُوا مِنْ الْمُشْرِكِينَ بَعْضٌ فَلَا يَقْرَبُوا الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَذَا ۝٢٨﴾ [التوبة: ٢٨].

(١) راجع ألفاظ الحديث في الترغيب والترهيب قال المنذري: رواه البزار ورواه ثقات إلا قدامة بن زائدة بن قدامة فإنه لم يحضرني فيه جرح ولا تعديل (٢٤٨/٤)، ورواه ابن حبان عن ابن مسعود، وأوله (إن روح القدس نفث في روعي...) وأخرجه أبونعيم في الحلية بسند صحيح.

وهو العام الذي نزلت فيه سورة براءة، فأراد الله تعالى أن يطمئنهم بأنه سيفتح لهم أبواباً من الرزق لا يعرفونها، وقد تحقق وعد الله تعالى، ففجر لهم الأرض، لِيُخْرِجَ ما فيها من نَفْطٍ ومعادن وكنوز، فرزقهم من حيث لم يحتسبوا بلا كد ولا عناء، وجعلهم من أكبر أغنياء العالم، ورفع منزلتهم بين الناس، قال تعالى: ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً فَسَوْفَ يُغْنِيكُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ إِنَّ شَاءَ﴾ [التوبة: ٢٨] .

أي: وإن خفتم فقراً - أيها المؤمنون - بسبب منع المشركين بتجاراتهم من دخولهم منطقة الحرم، فإن الله تعالى سوف يهيئ لكم الأسباب، ويجلب لكم الأرزاق عن طريق آخر، وسوف يهيئ لكم سبباً بعد سبب، وطريقاً بعد طريق، بمشيئته سبحانه، فلا تأسوا ولا تحزنوا، وهذه حقيقة مرئية، حيث ترفل البلاد السعودية بفضل من الله تعالى في ظلال نعمه التي لا تعد ولا تحصى، وستبقى كذلك إن شاء الله، مادامت متمسكة بكتاب الله، ومهتدية بهدي رسول الله ﷺ قائمة على شؤون الحرمين الشريفين، وتلتمس شرفها في خدمة ضيوف الرحمن، ونشر كتاب الله في العالمين، واحترام العلم والعلماء.

الشكريزيد النعم والكفريذهبها:

وتبين الآية أن هناك ارتباطاً وثيقاً بين الرزق والأمن والقيام بواجب الشكر والعبادة لله تعالى، بمعنى أن المؤمن يستحق هذه النعمة العظيمة طالما هو قائم بحق الله تعالى عليه، فإن هو طغى وجحد، وكفر بنعمة الله تعالى، وكذّب بالحق، فهو جدير في هذه الحالة أن يبدل الله حاله من اليسر إلى العسر، ومن الأمن إلى الخوف، ومن الصحة إلى المرض.

ورد في هذا أن أهل مكة لما كذبوا محمداً ﷺ دعا عليهم فقال: «اللهم اشد وطأتك على مضر واجعلها عليهم سنين كسني يوسف عليه السلام»^(١) فاشتد عليهم القحط، وأصابهم الجوع والجهد، فقالوا: يا محمد: ادع الله لنا فإننا مؤمنون، فدعا لهم، فأخصبت البلاد بعد الجذب والجهد، فذلك قوله تعالى: ﴿الَّذِي أَطْعَمَهُمْ مِنْ جُوعٍ وَآمَنَهُمْ مِنْ خَوْفٍ﴾.

(١) من حديث أبي هريرة ؓ في المسند (٧٢٦٠، ٧٦٦٩) بإسناد صحيح على شرط الشيخين، وأخرجه البخاري (٦٢٠٠)، ومسلم (٦٧٥)، وابن ماجه (١٢٤٤)، وأبو يعلى (٥٨٧٣)، والبغوي (٦٣٦)، وابن خزيمة (٦١٥).

فالشكر يزيد النعم، والكفر يذهبها إلا ما كان استدراجاً.

قال تعالى في شكر النعمة ﴿لَئِنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ﴾ [إبراهيم: ٧].

وفي عواقب كفران النعمة، وتبديل رغد العيش بالجوع، وتبديل الأمن بالخوف، جاء قول الله سبحانه: ﴿وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ ءَامِنَةً مُطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِنْ كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللَّهِ فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ ﴿١١٣﴾ وَلَقَدْ جَاءَهُمْ رَسُولٌ مِنْهُمْ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمُ الْعَذَابُ وَهُمْ ظَالِمُونَ ﴿١١٤﴾﴾ [النحل: ١١٣، ١١٤].

والرسول الذي كذبه هو محمد ﷺ والقرية المضروب بها المثل هي مكة، وهو مثل عام، مضروب لكل قوم أنعم الله عليهم فأبطرتهم النعمة، وعَصَوْا وتمردُوا، فبدل الله نعمتهم نقمة، وأذاقهم آلام الجوع والخوف والحرمان، بعد الرغد والأمن والاستقرار. الاستدراج بالنعم: وسنة الله تعالى في خلقه: أن الأمة التي تبدل نعمة الله كفراً، فتقسوا قلوبها، ويظهر منها نقيض الشكر على النعم، فتصير على الضلال، ويزين لها الشيطان المعاصي، ولا تأتمر بأمر الله تعالى، ولا تنتهي عما حرم الله سبحانه، وتترك ما توعظ به، هذه الأمة يستدرجها الله تعالى بالنعم والخيرات، حتى إذا بطرت، وفرحت فرح أشد وأبطر، أخذهم الله تعالى بالعذاب بغتة فاستأصلهم وأبادهم.

قال تعالى في هذا الوصف ﴿فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمُ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّى إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً فَإِذَا هُمْ مُبْلِسُونَ ﴿١١٤﴾﴾ [الأنعام: ٤٤] والآيات قبلها وبعدها تشير إلى هذا المعنى.

نِعْمَةُ الْأَمْنِ وَالطَّمَأْنِينَةِ

٥- ﴿وَأَمْنَهُمْ مِنْ خَوْفٍ﴾

وقد أشار القرآن الكريم إلى أن المؤمن الذي لا يشرك بالله تعالى، ولا يخلط إيمانه بظلم ولا بغي، القائم بما أمر الله به، المجتنب لما نهى الله عنه، الذي لا يعتدي على أموال الناس، ولا على أنفسهم ولا على أعراضهم.. هذا المؤمن: هو المستحق للأمن والاستقرار والهداية، والاستقامة على منهج الله سبحانه، قال تعالى: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولَٰئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُمْ مُهْتَدُونَ ﴿٨٢﴾﴾ [الأنعام: ٨٢].

وقد وعد الله سبحانه عباده المؤمنين العاملين للصالحات، القائمين على حماية دينه، أن يحقق لهم الأمن والطمأنينة، وأن يستخلفهم في الأرض، ويمكن لهم دينهم الذي ارتضى لهم، وأن يبذلهم بعد خوفهم أمناً، ماداموا متمسكين بدين الله تعالى، محافظين على شرعه ﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا أَصْلَحْنَا لَكَ فِي الْأَرْضِ وَكَانَ قَبْلُكَ مِنَ الْبَاقِينَ﴾ [النور: ٥٥].

وكما وعد الله عباده المؤمنين بالأمن في الدنيا، وعدهم كذلك بالأمن في الآخرة إذا فرغ الناس عند قيامهم لرب العالمين، ووقوفهم بين يديه قال تعالى:

﴿مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ خَيْرٌ مِنْهَا وَهُمْ مِنْ فَزَعٍ يَوْمَئِذٍ ءَامِنُونَ﴾ [النمل: ٨٩].

أمن الحرم: والأمن نعمة عظيمة أسبغها الله سبحانه على المؤمنين المخلصين من عباده بصفة عامة، وأضفاها على أهل بيته الحرام، بصفة خاصة قال تعالى:

﴿وَإِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ وَأَمْنًا﴾ [البقرة: ١٢٥].

وقد استجاب الله تعالى دعوة خليله إبراهيم في قوله: ﴿رَبِّ اجْعَلْ هَذَا الْبَلَدَ ءَامِنًا﴾ [إبراهيم: ٣٥] فجعل بيته الحرام آمناً عتيقاً من سلطة المتسلطين، وجبروت الجبارين، وجعل من يأوي إليه آمناً، والمخاوف حوله من كل مكان، كما قال تعالى:

﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا ءَامِنًا وَنُخَفِّطُ النَّاسَ مِنْ حَوْلِهِمْ﴾ [العنكبوت: ٦٧].

ولما توجه أصحاب الفيل لهذمه حفظ الله بيته وصانه، وكان لهذه الحادثة أثر عظيم في زيادة حرمة البيت في أنحاء الجزيرة، وزيادة احترام أهله وسدنته، مما ساعدهم على التجارة والضرب في الأرض آمنين.

وقد كانت حالات النهب والسلب في أرجاء الجزيرة شائعة، فكفلت حرمة البيت لجيرانه: الأمن والسلامة، وجلبت لهم الرزق والخير في طمأنينة واستقرار:

﴿جَعَلَ اللَّهُ الْكَعْبَةَ الْبَيْتَ الْحَرَامَ قِيَمًا لِّلنَّاسِ﴾ [المائدة: ٩٧].

وتقع مسؤولية الأمن في البيت الحرام على عاتق من شرفهم الله وحباهم بخدمة بيته وشرف حراسته، بإقامة العدل، وحماية المظلوم، ومنع الاعتداء، وإزالة الشعور بالخوف من العدوان على مر الأزمان.

وقد كسى الله سبحانه أهل مكة ثوب الأمن، فأمنهم من خوف، ومن دخل البيت الحرام يجب تأمينه وحمايته قال تعالى: ﴿وَمَنْ دَخَلَهُ كَانَ آمِنًا﴾ [آل عمران: ٩٧] .

والإخلال بالأمن فيه جريمة عظيمة، قال تعالى:

﴿وَمَنْ يُرِدْ فِيهِ بِالْحَافِ بِظُلْمٍ نُذِقْهُ مِنْ عَذَابِ الْبَرِّ﴾ [الحج: ٢٥] .

وقد وعد الله سبحانه رسوله ﷺ بإلقاء الأمن والطمأنينة في قلوب قاصديه من كل

مكان: فقال تعالى: ﴿لَتَدْخُلَنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ ءَامِنِينَ﴾ [الفتح: ٢٧] .

إن نعمتي الرزق والأمن، التي خص الله بهما أهل مكة في هذه السورة لا يحدهما زمان ولا مكان.

فلإطعام دائم، لا ينقطع بمشيئة الله تعالى في كل وقت.

والأمن والاستقرار مستمر، لا يزول بحول الله تعالى.

ولعل هذا المعنى يستفاد من تنكير لفظي: جوع وأمن، لإفادة العموم والاستمرار.

وهاتان النعمتان: الإطعام من جوع، والأمن من خوف لا يقتصران على أهل مكة

وحدها، بل هما نعمتان أنعم الله بهما على عباده المؤمنين في كل زمان ومكان، ماداموا

قائمين بواجب الشكر الفعلي والقولي.

قال تعالى ﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ

الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ

بِي شَيْئًا﴾ [النور: ٥٥] .

وهاتان النعمتان استدراج لغير المسلمين كي يعاقبهم الله على كفرانها في الدنيا، أو في

الآخرة، أو في الدنيا والآخرة معاً.

فاللهم اجعلنا من عبادك القائمين بشكر نعمك، الآمنين في أوطانهم، المهتدين بهداك.

وصلّى الله على نبينا محمد وآله وصحبه وسلم.

تم تفسير (سورة قريش) والله الحمد والمنة

تَفْسِيرُ سُورَةِ الْمَاعُونِ (١٠٧)

مُقَدِّمَةُ السُّورَةِ

- ١ - (سورة الماعون) هي السورة السابعة بعد المئة في ترتيب المصحف، والسابعة عشرة في ترتيب النزول، نزلت بعد (سورة التكاثر) وقبل (سورة الكافرون). وهي سبع آيات في المصحف المكي والبصري والحمصى، وست آيات في غيرهم. وخمس وعشرون كلمة، ومئة وخمسة وعشرون حرفاً. والمشهور أن اسمها (سورة الماعون) وورد فيها خمسة أسماء أخرى هي:
 - ١- (سورة أرأيت). ٢- (سورة أرأيت الذي). ٣- (سورة الدين).
 - ٤- (سورة التكذيب). ٥- (سورة اليتيم).
 وهي سورة مكية عند الجمهور، وقيل: إن الآيات الثلاث الأولى مكية، وبقيتها مدني.
- ٢ - أسباب النزول وموضوع السورة:

وَرَدَ أَنَّ أَبَاسْفِيَانَ بْنَ حَرْبٍ - قَبْلَ إِسْلَامِهِ - كَانَ يَنْحَرُ جَزْوَراً كُلَّ أُسْبُوعٍ، فَجَاءَهُ مَرَّةً يَتِيمٌ، فَسَأَلَهُ شَيْئاً مِنَ اللَّحْمِ، فَقَرَعَهُ بِالْعَصَا.

وقيل: إن أباجهلاً، كان وصياً على يتيماً، فأتاه غريباً، يسأله من مال نفسه، فدفعه دفعاً شنيعاً.

وهكذا كان شأن العاص بن وائل السهمي، والوليد بن المغيرة المخزومي، وعمرو ابن عائذ المخزومي^(١) وغيرهم.

وفي هذه السورة ستة أوصاف: ثلاثة منها للكافرين، وثلاثة أخرى للمنافقين. وهكذا فقد ذكرت السورة ثلاث صفات ذميمة متتابعة للكفار وهي:

(١) ينظر: تفسير ابن عاشور وابن الجوزي والخازن والبغوي وغيرهم للسورة.

١- التكذيب بيوم القيامة.

٢- إهانة اليتيم.

٣- عدم إطعام المسكين وعدم الحث على إطعامه.

ثم ذكرت ثلاث صفات أخرى للمنافقين وهي:

١- تأخير أداء الصلاة عن وقتها.

٢- الرياء.

٣- البخل بقضاء الحوائج اليسيرة.

والسورة عامة في كل مَنْ كان هذا شأنه.

ويمكن أن تكون الصفات الخمس بعد الصفة الأولى، صفات لكل مكذب بالإسلام، ومكذب باليوم الآخر، وهو الذي سنسير عليه في شرحنا للسورة.

ومن شأن أهل الدين أنهم يتعرفون على حاجات الآخرين، ويسارعون في قضائها، فالدين مع الضعيف حتى يقوى، ومع الفقير حتى يستغني، ومع اليتيم حتى يكبر، ومع الهائم حتى يستقر، ومع الضال حتى يهتدي.

ولو أن أهل الدين ارتبطوا بدينهم، وساروا به سيرة حسنة، ما ظهرت الشيوعية ولا الرأسمالية ولا غيرهما، فالإسلام يرى أن إعانة المحتاج شرط في الإيمان، وأن العبادة الصورية لا تصل العبد بربه.

وهكذا فإن السورة تنطبق على الكافر الجاحد لأنعم الله، المكذب بالحساب والجزاء، وتنطبق على المنافق الذي لا يقصد بعمله وجه الله تعالى، بل يرائي في أعماله وصلاته، وتوعدت الفريقين بالويل والهلاك وتعجبت من أحوالهم.

تَفْسِيرُ السُّورَةِ

آثَارُ التَّكْذِيبِ بِدِينِ الْإِسْلَامِ

١- ﴿أَرَأَيْتَ الَّذِي يُكَذِّبُ بِالْإِيمَانِ﴾ (١)

كلمة (الدين) بكسر الدال، تعني: الإسلام بما يشتمل عليه من الشهادتين، والصلاة والصيام والزكاة، والحج. وتعني الإيمان بما يشتمل عليه من التصديق اليقيني الجازم بالله تعالى وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر، والإيمان بالقضاء خيره وشره، فهي تعني الإسلام كله.

ويؤم الدين: هو يوم الجزاء والحساب، اليوم الذي يُدان فيه العباد.

والتكذيب بالدين، يعني التكذيب بالإسلام والإيمان، وما يشتملان عليه، من جميع الأعمال الصالحة، وأصول الإسلام وفروعه، فرائضه ونوافله، أو امره ونواهيه هذا هو المعنى السائد المفهوم للمكذب بالدين.

ولكن سورة الماعون تذكر لنا خمس صفات عملية للمكذب بالدين تشمل الكافر والمنافق، فهو:

١- يدع اليتيم. ٢- ولا يحض على طعام المسكين.

٣- ويسهى عن صلاته. ٤- ويرائي. ٥- ويمنع الماعون.

وهي صفات تمثل عقيدة المسلم وعبادته وسلوكه، وهذه الصفات الخمس، صور تطبيقية تعكس حقيقة الإيمان، وتبين أثره في السلوك الشخصي والجماعي.

فالدين الإسلامي ليس له مظاهر وطقوس، ولا أقوال جوفاء، وليس الإسلام أجزاء ولا قطعاً وأحزاباً، يأخذ الإنسان منه ما يشاء ويترك ما يشاء، بل هو منهج متكامل، تتضافر فيه العقيدة والعبادة والمعاملة والسلوك.. حتى يصل بالعبد إلى الغاية المرجوة منه.

والعمل يُصَدِّقُ الإيمان أو يُكْذِّبُه، فإذا قرَّ الإيمان في القلب، فإنه يؤدي ثماره، ويحقق ذاته في الخارج بالعمل الصالح، الذي يُترجم عن حقيقة الإيمان الصادق، ومن ذلك إكرام اليتيم،

والحث على إطعام المسكين، وإقام الصلاة، والإخلاص في العقيدة والعبادة، ونفع الناس بما يحتاجون إليه من أمور الحياة، فالإيمان يدفع إلى الخير والبر والنفع والاتصال بالله تعالى.

أما الآثار السيئة التي تظهر على العبد: كإهانة اليتيم، وعدم إطعام المسكين، والحث عليه، وترك الصلاة بالتهاون في أدائها في أول وقتها، والمراءاة، ومنع الماعون..

هذه الأعمال السيئة وأمثالها تعكس عدم وجود الإيمان في قلب فاعلها، فهو إذاً مكذب بالدين فيما يظهر عليه من سلوك، ولو كان مصداقاً به في الواقع وحقيقته مستقرة في قلبه، ما ظهرت عليه هذه النتائج السلبية السيئة.

فحقيقة الإيمان لا يطلع عليها إلا الله سبحانه، والآثار والسلوك الذي يتجلى في صورة العمل الصالح أو الفاسد، هو الذي يترجم عن هذه الحقيقة في الظاهر.

ومن هنا فإن هذه السورة قررت أن الموصوفين بهذه الصفات الخمس مكذبين بالدين. فإله تعالى يقول لرسوله: هل عرفت أسوأ وأعجب من الذي يكذب بالإسلام، ويكذب بالحساب والجزاء الأخروي، هل عرفت من هو؟ وما صفاته؟ إن أردت معرفته فهو الذي يفعل كذا و كذا.

والدين (بكسر الدال) لا يعني فقط الحساب والجزاء، بل يشمل: الديانة: وهي الإسلام، قال تعالى: ﴿إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ﴾ [آل عمران: ١٩] وقال سبحانه:

﴿وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ﴾ [آل عمران: ٨٥].

فالمكذب بالدين، مكذب بالإسلام كله جملةً وتفصيلاً.

ويذكر بعض المفسرين أن الآيات الثلاث الأولى من السورة نزلت بمكة، وهي تعني: الكفار.

وأن الآيات الأربع الأخيرة نزلت بالمدينة، وهي تعني المنافقين^(١).

وفيما يبدو لي - والله أعلم - أن معنى السورة مترابط، وأن آخرها لا ينفك عن أولها، وأن الصفات الخمس المذكورة فيها، وصف للمكذب بالدين، وفيها آثار عملية، تبين

(١) راجع تفسير ابن كثير والخازن والبغوي، وزاد المسير وغيرهما للآية.

حقيقة كذبه، وأنه لو كان مؤمناً حقاً ما صدرت عنه هذه الأعمال، وهذا أقرب ما يكون إلى النفاق العملي، وهو يدل على عدم وجود الإيمان الحقيقي، فهو منافق في عقيدته وعمله. سبب النزول، يدل على ذلك، فقد سبق في المقدمة أن أبا سفيان وأبا جهل وغيرهما كانوا يزجرون اليتامى ويُسيئون إليهم.

أقول: إن السورة بكاملها، تعطي أوصافاً عملية تطبيقية لغير المصدق بالإسلام كله، خاصة غير المصدق بالحساب والجزاء، وتدل كذلك على عدم صدق إيمانه. وقد جاء الوصف الأول والثاني في السورة، وهما زجر اليتيم، وعدم الحض على طعام المسكين، في القرآن الكريم مقترناً بالكفر، والعاقبة الأليمة في الآخرة، على نحو ما سيتضح من الكلام عنهما، مما يدل دلالة واضحة على أن هاتين الصفتين تدلان على الكفر، وسوء مصير فاعلهما في الآخرة. كما أن ترك الصلاة عمداً جحوداً لها، وإنكاراً لوجوبها، كُفر مخرج من الملة.

والمرائي أول من تُسعر عليه النار يوم القيامة، لأنه يقطع منفعة عن الناس، ولا يُحسنُ إليهم، فهو صاحب خلق ذميم. فالصفات الخمس في جملتها تدل على التكذيب بالدين، وتدل على الكفر والنفاق. وفيما يلي بيان لهذه الصفات:

خَمْسَةُ أَوْصَافٍ لِمَنْ يُكَذِّبُ بِالْإِسْلَامِ

الوصف الأول: أنه يدع اليتيم:

٢- ﴿فَذَلِكَ الَّذِي يَدْعُ الْيَتِيمَ﴾

دَعَّ اليتيم: إهانته ورذعته وزجره وقهره، ودفعه بعنف وقوة وجفوة.

وهذه المعاني تشمل كل من يظلم اليتيم فيأكل ماله، أو يمنعه حقه، أو يماطله فيه.

وتشمل كذلك كل من يترك مواساة اليتيم، وعدم الإحسان إليه والعطف عليه.

وتشمل أيضاً كل من يستخدمه أو يستذله أو يسخره، أو يقهره أو يستطيل عليه، وكذا

كل من يزجره أو يضربه أو يعتقه، أو يستخف به أو يهينه ويؤذيه، أو يحتقره ويتكبر عليه.

وقد بين سبحانه وتعالى أن من أسباب إهانة العبد والتضييق عليه في الرزق: إهانته لليتيم، أو عدم إعطائه الحق الثابت له في العمل أو في الميراث، أو ظلمه، أو عدم إكرامه، أو أكل ماله.

كما قال تعالى: ﴿وَأَمَّا إِذَا مَا ابْتَلَاهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ، فَيَقُولُ رَبِّي أَهَنَّنِ ﴿١٦﴾ كَلَّا بَلْ لَا تَكْرُمُونَ الْيَتِيمَ ﴿١٧﴾﴾ [الفجر].

ونهى سبحانه عن قهر اليتيم واحتقاره وأكل ماله، فقال: ﴿وَأَمَّا الْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ ﴿١٦﴾﴾ [الضحى: ٩]. وقد أمر سبحانه وتعالى بإصلاح شأن اليتامي، والإحسان إليهم، وعدم الاقتراب من مالهم إلا بالحسنى، وَرَدَّ ذلك في العديد من آيات الله عز وجل. وبين سبحانه أن إطعام اليتيم القريب، من أسباب اجتياز العقبة، وأنه دليل على حسن الإيمان^(١).

ومن يأكل أموالهم ظلماً فقد أكل نارا في بطنه ويصلى سعيراً يوم القيامة، كما في الآية العاشرة من سورة النساء ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَى ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا ﴿١٠﴾﴾ [النساء: ١٠].

وأخبر عليه الصلاة والسلام أنه وكافل اليتيم قرينان في الجنة. كما قال ﷺ من حديث سهل بن سعد ؓ «أنا وكافل اليتيم كهاتين» وأشار بالسبابة والوسطى^(٢).

وأن خير البيوت بيت فيه يتيم يُحَسَّنُ إليه، وشر بيوت المسلمين بيت فيه يتيم يُسَاءُ إليه^(٣).

الوصف الثاني: عَدَمُ الْحَثِّ عَلَى طَعَامِ الْمَسْكِينِ

٣- ﴿وَلَا يَحْضُ عَلَى طَعَامِ الْمَسْكِينِ ﴿٣﴾﴾

(١) آيات سورة البلد: فلا اقتحم العقبة وما بعدها.

(٢) البخاري (٦٠٠٥، ٥٣٠٤)، والمسند برقم (٢٢٨٢٠) وإسناده صحيح على شرط الشيخين، وأبو داود (٥١٥٠)، والترمذي (١٩١٨)، وأبو يعلى (٧٥٥٢)، والبيهقي (٣٤٥٤).

(٣) أثر رواه عبد الله بن المبارك عن أبي هريرة.

الحض هو الحث والترغيب والأمر بإطعام المسكين، وهذا الوصف يقتضي أن يكون العبد أولاً، مطعماً للمسكين الفقير الذي لا يجد حاجته، أو لا يجد ما يكفي حاجته الضرورية، فهو يُطعمه ويأمر بإطعامه.

والمكذب بالدين يخل بماله، فلا يطعم المسكين من ماله مع القدرة على إطعامه، ويبخل بمال غيره فلا يحث الناس على ذلك، فلا هو يطعم المسكين ولا يأمر غيره بالإطعام، وهذا غاية في البخل والقسوة والخسة، فضلاً عن أن يمنعه حقه أو يماطله. ولو أنه آمن بالحساب والجزاء، ما صدر عنه مثل ذلك، فإن للعباد بعضهم على بعض حق الإحسان والتعاون على البر والتقوى:

١ - وقد اقترنت هذه الصفة - عدم حث الآخرين على إطعام المسكين - بأعظم الذنوب جرماً على الإطلاق، وهو عدم الإيمان بالله تعالى، قال سبحانه وتعالى في وصف أهل الشمال وبيان سبب عذابهم: ﴿إِنَّهُ كَانَ لَا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ الْعَظِيمِ ۝٢٣ وَلَا يَحْضُ عَلَىٰ طَعَامِ الْمَسْكِينِ ۝٢٤﴾ [الحاقة: ٢٣، ٢٤] أي إنه لا يقوم بحق الله تعالى عليه، ولا ينفع خلقه ولا يؤدي حقهم، فلا هو أحسن إلى ربه ولا أحسن إلى خلقه، وقد كان عدم الإحسان إلى خلقه من أسباب عذاب الله له.

٢ - وفي بيان سبب عذاب المجرمين في سقر، يقول تعالى على لسانهم ﴿لَئِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ ۝١٢ لَئِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ الْمَسْكِينِ ۝١٣﴾ [المدثر: ٤٣، ٤٤] أي ما عبدنا ربنا، ولا أحسنا إلى خلقه من جنسنا.

٣ - ومن أسباب الإهانة والتقتير: عدم الحض على طعام المسكين، قال تعالى: ﴿كَلَّا ۚ بَلْ لَا تَكْرُمُونَ ۝١٧ أَلَيْسَ ۝١٨ عَلَيْنَا مَتَابُ الْمَسْكِينِ ۝١٩﴾ [الفجر: ١٧، ١٨].

أي لا يأمرهم بالإحسان إلى الفقراء والمساكين، ولا يحث بعضهم بعضاً على ذلك.

٤ - كما وصف الله تعالى الأنصار بأنهم ﴿يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ ۝٩﴾ [الحشر: ٩].

٥ - وإذا كان عدم الحث على إطعام اليتيم والمسكين، تكذيب بالدين والقيامه والحساب، فإن إطعامهما دليل على صدق إيمان الأبرار من عباد الله، قال تعالى في

وصفهم ﴿وَيُطْعَمُونَ أَلْطَعَامَ عَلَىٰ حَيْثُ مَسَكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا﴾ ٨ إِنَّمَا نُطْعِمُكَ لِوَجْهِ اللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنْكَ جَزَاءً وَلَا شُكْرًا ﴿١﴾ [الإنسان: ٨، ٩].

والمؤمن يفعل ذلك لأنه يخاف من الله يوماً عبوساً هو القيامة، إذا هو عبس في الدنيا في وجه اليتيم والمسكين، لضعفهما وعجزهما، فإن إيمانه قد منعه من ذلك، وردعه عن الإساءة إليهما.

أما المكذب بالدين فلا يوجد عنده هذا الدافع، ولا هذا الإحساس، فهو لا يبالي أن يعبس في وجههما ويسيء إليهما.

ويوم القيامة يكوى في نار جهنم: الجبهة التي عبست وتقطبت في وجه المسكين، والجنب والظهر اللذين استدارا وأعرضا عن المسكين والفقير حين السؤال عن الزكاة أو الصدقة من مال الله الذي حوله للغني، فكثره ولم يخرج منه حق الله تعالى. بل ويمثل المال لمانع الزكاة شجاعاً (ثعباناً) أقرع، كثير السم، يلدغه، وكلما لدغه قال له: أنا كترك، أنا مالك.

من هذا تبين أن إطعام المسكين والحض عليه من الإيمان والعمل الصالح، وأن ترك ذلك علامة على التكذيب بالدين، وعدم صدق الإيمان، فهي صفات ذميمة فيها دلالة على الرياء وعدم الإخلاص.

الْوَصْفُ الثَّالِثُ: السَّهْوُ عَنِ الصَّلَاةِ

٥، ٤ - ﴿قَوْلٌ لِلْمُصَلِّينَ﴾ ٤ الَّذِينَ هُمْ عَنْ صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ ﴿٥﴾

والسهو عن الصلاة: تركها وتأخيرها تهاوناً حتى يضيع وقتها، فلا يصلي الظهر حتى يأتي العصر، ولا يصلي العصر حتى يأتي المغرب، وهكذا شأنهم ودأبهم دائماً أو غالباً، فهم مضيعون لوقتها، متهاونون في أدائها، وهي أفضل القربات، وأهم الطاعات. والمراد السهو عن الصلاة وليس السهو فيها، فإن هذا يحدث من كل أحد.

وفي بيان هذا المعنى وردت آثار:

- ١ - روى البغوي وغيره بسنده عن سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه، في الذين هم عن صلاتهم ساهون، قال: (إضاعة الوقت)^(١).
 - أي أنه تركها كسلاً حتى يفوت الوقت أو يكاد، فهو لا يبالي صلى أم لا، وكأنه لا يرجو ثواباً ولا يخاف عقاباً.
 - ٢ - وقد توعد الله هذا الصنف من الناس بالويل والعذاب، كما في قوله تعالى: ﴿خَلَفَ مِنْ بَعدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا الصَّلَاةَ وَاتَّبَعُوا الشَّهْوَةَ﴾ [مريم: ٥٩].
 - ٣ - قال عمر بن عبد العزيز - رحمه الله - لم تكن إضاعتهم للصلاة تركها، لكن أضاعوا الوقت^(٢).
 - ٤ - وقال ابن عباس: (ليس معنى أضاعوها تركوها بالكلية، ولكن أخروها عن أوقاتها)^(٣).
 - ٥ - وقال سعيد بن المسيب: ((فمن مات وهو مصر على هذه الحالة ولم يتب وعده الله بغي، وهو واد في جهنم بعيد قعره، خبيث طعمه)^(٤) وهو معنى ﴿فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غِيًّا﴾^(٥). أي خساراً يوم القيامة، لأن من ضيع الصلاة فهو لما سواها أضيع.
 - ٦ - وقال ابن عباس رضي الله عنها في وصف الساهين عن الصلاة: هم المنافقون يتركون الصلاة إذا غابوا عن الناس، ويصلون في العلانية إذا حضروا معهم، ويمنعون العارية بغضاً لهم، لقوله تعالى: ﴿الَّذِينَ هُمْ بِرَأْوَتٍ﴾^(٦) وَيَمْنَعُونَ الْمَاعُونَ^(٧)﴾^(٨).
 - فكان الذين يراؤون وصف للساهين عن الصلاة، فهم إن صلوا صلوا رياء أمام الناس، وإن كانوا وحدهم تركوها. وقد وُصفت صلاة المنافقين بست صفات في كتاب
-
- (١) تفسير الخازن، وأخرجه أبو يعلى (٧٠٤)، والطبري (٦٥٩/٢٤)، والبيهقي في السنن (٢١٤/٢)، قال الحاكم والبيهقي: الموقوف أصح.
- (٢-٥) تفسير ابن كثير عند تفسير قوله تعالى: ﴿خَلَفَ مِنْ بَعدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا الصَّلَاةَ وَاتَّبَعُوا الشَّهْوَةَ﴾ بسورة مريم.
- (٦) تفسير الخازن، وأخرج هذا المعنى الطبري (١٦١/٢٤، ١٦٤) وأخرجه ابن المنذر وابن أبي حاتم، وابن مردويه، والبيهقي في الشعب، الدر المنثور (٦٨٦/١٥).

الله تعالى هي:

- ١- الكسل عند القيام لها.
 - ٢- مراعاة الناس في فعلها.
 - ٣- تأخيرها عن وقتها.
 - ٤- نقرها وعدم الطمأنينة فيها.
 - ٥- قلة ذكر الله فيها.
 - ٦- التخلف عن الجماعة في أدائها.
- وإلى هذه المعاني يشير قوله سبحانه: ﴿إِنَّ الْمُنَافِقِينَ يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَهُوَ خَدِيعُهُمْ وَإِذَا قَامُوا إِلَى الصَّلَاةِ قَامُوا كُسَالَى يُرَاءُونَ النَّاسَ وَلَا يَذْكُرُونَ اللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [النساء: ١٤٢].
- وقوله ﷺ من حديث أنس ؓ «تلك صلاة المنافق يجلس يرقب الشمس حتى إذا كانت بين قرني الشيطان، قام فنقرها أربعاً، لا يذكر الله فيها إلا قليلاً»^(١).
- ومن كان هذا شأنه، فقد توعدده الله تعالى بعذاب شديد في واد بجهنم، يسيل من صديد أهل النار وقيحهم، فيُغَمَّسُونَ فيه، أو يَطْعَمُونَ منه ويشربون، والعياذ بالله.
- السهو في الصلاة:**

السهو عن الصلاة من أفعال المنافق، والسهو في الصلاة من أفعال المؤمن، فقد سها رسول الله ﷺ في صلاته وقال: «إنما أنا بشر أنسى كما تنسون فإذا نسيت فذكروني»^(٢).

وهذا بخلاف السهو عنها فهو من صفات المنافقين.

قال بعض السلف: الحمد لله الذي قال ﴿عَنْ صَلَاتِهِمْ﴾ ولم يقل (في صلاتهم) لأنه لو قال: (في صلاتهم) لكانت في المؤمنين، والمؤمن قد يسهو في صلاته.

والفرق بين السهوين واضح، فإن سهو المنافق عن صلاته سهو ترك أو قلة التفات إليها، فهو لا يتذكرها ويكون مشغولاً عنها، والمؤمن إذا سها في صلاته تداركه في الحال، وجبره بسجود السهو، فظهر الفرق بين السهوين^(٣).

(١) مسلم (٦٢٢) في المساجد باب استحباب التذكير بالعصر، وأخرجه أبو داود (٤١٣)، والترمذي (١٦٠)، والنسائي في الكبرى (١٥٠٩)، وأحمد (١١٩٩٩)، وابن حبان (٢٥٩).

(٢) من حديث صحيح أخرجه أحمد برقم (٣٨٨٣، ٣٥٦٦)، وابن حبان (٢٦٥٦)، وابن ماجه عن ابن مسعود (١٢٠٣)، ومسلم (٥٧٢)، والبخاري (٤٠١)، وأبو داود (١٠١٩)، والترمذي (٣٩٢).

(٣) ينظر: صحيح الجامع الصغير رقم: (٢٣٣٤).

والسهو في الصلاة لم يسلم منه أحد، وحديث ذو اليدين مشهور معروف وفيه عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله صلّى الله عليه وآله وانصرف من ركعتين، فقال له ذو اليدين: أَقْصَرَتِ الصَّلَاةُ أم نسيت يا رسول الله؟ فقال صلّى الله عليه وآله: «أَصْدَقَ ذُو الْيَدَيْنِ؟» فقال الناس: نعم، فقام صلّى الله عليه وآله وعلّى ركعتين أُخْرَيَيْنِ ثم سلّم، ثم كَبَّرَ فسجد مثل سجوده أو أطول، ثم رفع ^(١) أي سجد للسهو. وفي الحديث عن أبي ذر رضي الله عنه أن النبي صلّى الله عليه وآله قال: «إِنَّ اللَّهَ تَجَاوَزَ لِي عَنْ أُمَّتِي الْخَطَأَ وَالنِّسْيَانَ وَمَا اسْتَكْرَهَا عَلَيْهِ» ^(٢).

الْوَصْفُ الرَّابِعُ: الرِّيَاءُ

٦- ﴿الَّذِينَ هُمْ يُرَاءُونَ﴾ ^(٣)

أي أن أعمال المنافقين غير خالصة لله تعالى، فهم يتظاهرون بالأعمال الصالحة للشهرة والرياء، فيصلون أمام الناس ويخشعون فيها للثناء عليهم، ويتصدقون ليقال: إنهم كرماء، ويتمم المرائي بلسانه ليقال: إنه صالح، ويُحَسِّنُ من قراءته أو غظه ليمدح، ويتملق ليقال: إنه مخلص، وهكذا.

والفرق بين المنافق والمرائي: أن المنافق هو الذي يبطن الكفر ويظهر الإسلام، وكذا كل من يُبطن ما لا يظهر، وهو صاحب الوجهين يلقي هؤلاء بوجه وأولئك بوجه، يعطيك من طرف حلاوة ويروغ منك كما يروغ الثعلب.

والمرائي هو الذي يُظهر الأعمال الصالحة ليقال: إنه من أهل الصلاح.

والرياء أعم من النفاق.

أما من يُظهر أداء النوافل لِيُقْتَدَى به، وهو يأمن على نفسه من الرياء، فليس بمراءٍ.

(١) حديث ذو اليدين أخرجه البخاري عن أبي هريرة برقم (١٢٢٨، ٤٨٢)، وهو الحديث الأول بعد المائة في عمدة الأحكام.

(٢) أخرجه ابن ماجه (٢٠٤٣)، وصححه الألباني في صحيح سنن ابن ماجه (١٦٦٢)، وأخرجه الطبراني عن ثوبان (١٤٣٠)، وانظر: صحيح الجامع الصغير حديث رقم (٣٥٠٩) (ج ٣ ص ١٧٩).

(٣) عَدَّ الْحَمَصِيُّ وَالْعِرَاقِيُّ ﴿يُرَاءُونَ﴾ آيَةً، وَتَرَكَهَا غَيْرَهُمْ.

والرياء يحبط العمل ويبطله، والمرائي مخادع، يكشفه ربه، ويهتك ستره، ويفضحه.

قال عليه الصلاة والسلام من حديث جندب بن عبد الله رضي الله عنه:

«من سمع سمع الله به ومن يرائي يرائي الله به»^(١).

وأول من تسعر عليهم النار يوم القيامة هم المراءون: في جهادهم وصدقهم وتلاوتهم للقرآن^(٢).

ومن عمل عملاً أشرك فيه مع الله غيره، تركه وشركه، وترك مجازاته لمن كان يرائيهم إن وجد عندهم جزاء.

ففي حديث أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «قال الله تعالى: أنا أغنى الشركاء عن الشرك، من عمل عملاً أشرك فيه معي غيري تركته وشركه»^(٣).
والإعجاب ببناء الناس لا ينافي الإخلاص^(٤).

ومن أنواع الشرك: الشرك الخفي، وكفارته: أن يضرع العبد إلى ربه قائلاً:
(اللهم إنا نعوذ بك من أن نشرك بك شيئاً نعلمه، ونستغفرك لما لا نعلمه)^(٥).
مع تحري الصدق والإخلاص في العقيدة والعمل وموافقته لهذي محمد صلى الله عليه وسلم.

(١) متفق عليه من حديث جندب بن عبد الله في مسلم (٢٩٨٦)، والبخاري (٧١٥٢، ٦٤٩٩)، وانظر: الترغيب

والترهيب حديث رقم (٢٤)، وهو في النسائي في الكبرى عن ابن عباس (١١٦٣٦)، وابن حبان (٤٠٧).

(٢) حديث طويل صحيح، أخرجه مسلم (١٩٠٥)، والنسائي (٢٣/٦) عن أبي هريرة، والترمذي (٢٣٨٣)، راجع نصه في صحيح الترغيب والترهيب رقم (٢٠).

(٣) ورد هذا في حديث صحيح، أخرجه مسلم في صحيحه (٢٩٨٥)، وأخرجه أحمد في المسند عن محمود البید، انظر صحيح الترغيب والترهيب حديث رقم (٢٩).

(٤) ورد هذا المعنى في حديث أخرجه الترمذي عن أبي هريرة.

(٥) أخرجه أحمد عن أبي موسى في المسند برقم (١٩٦٠٦) بإسناد ضعيف لجهالة أبي علي الكاهلي، وباقي رجال الإسناد ثقات رجال الشيخين غير عبد الملك بن أبي سليمان، فمن رجال مسلم (محققوه)، وأخرجه أيضاً الطبراني في الأوسط (٢٥٠٢)، راجع صحيح الترغيب والترهيب حديث رقم (٣٣).

الْوَصْفُ الْخَامِسُ: مَنْعُ الْمَاعُونِ

٧- ﴿وَيَمْنَعُونَ الْمَاعُونَ﴾ (٧)

الماعون: ما يستعيره الناس بعضهم من بعض، ولا سيما الجيران والأصدقاء والزملاء، كالأواني والقدر.. والفأس، والدلو، والماء والملح والنار، وما يحتاجه الناس في مناسباتهم كالأفراح ونحوها من الفرش والبسط والكراسي، ومن ذلك الكتاب والقلم.

قال ابن مسعود رضي الله عنه: كنا نعد الماعون على عهد رسول الله ﷺ عارية: الدلو والقدر والفأس والميزان، وما تتعاطون بينهم^(١) كالملح والماء والإبرة والأواني والكتب ونحو ذلك.

فإذا أراد المؤمن أن يستعير من المكذبين بالدين، شيئاً من هذا القليل، تعللوا وتعدّروا، فيمنعون الماعون، ولا ينفعون الناس، ولا يقضون حوائجهم، وذلك لبعثهم وشدة حرصهم على الدنيا.

وقد وصف الله سبحانه الإنسان بأنَّ مِنْ طَبْعِهِ أَنَّهُ يَمْنَعُ الْخَيْرَ، ويجزع من الشر، واستثنى سبحانه المصلين المؤمنين، فإن إيمانهم وصلاتهم تقيهم شر هذا الشح والبخل.

قال تعالى: ﴿إِنَّ الْإِنْسَانَ خُلِقَ هَلُوعًا ﴿١٩﴾ إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعًا ﴿٢٠﴾ وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعًا ﴿٢١﴾ إِلَّا الْمُصَلِّينَ ﴿٢٢﴾﴾ [المعارج: ١٩-٢١].

وقال سبحانه: ﴿وَمَنْ يُوقْ شَحْنُ نَفْسِهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [الحشر: ٩].

فخير الناس أنفعهم للناس، وقضاء الحوائج من أوصاف الصالحين.

قيل: والآية تشمل الزكاة، فكأن الله تعالى ذمهم على ترك الصلاة وعلى منع الزكاة.

وإخراج الزكاة، وقضاء الحوائج، ونفع الناس: آثار مرتبة على إقامة الصلاة وكمال الإيمان.

والسهو عن الصلاة من شأنه منع المعونة والبر والخير عن الناس.

(١) حسنه الألباني في صحيح سنن أبي داود (١٤٥٩) مختصراً على الدلو والقدر، وهو في سنن أبي داود (١٦٥٧)، وأخرجه البزار في كشف الأستار (٢٩٩٢)، والطبراني في الأوسط (٣٤١٩)، والكبير (٩٠١٤)، قال الهيثمي في مجمع الزوائد (١٤٣/٧): رجال الطبراني رجال الصحيح، وأخرجه النسائي في الكبرى (١١٧٠١)، وفي ط الرسالة (١١٦٣٧)، والبيهقي (١٨٣/٤)، وابن أبي شيبة (٢٠٢/٣).

فلإيمان الصادق آثار صالحة تنعكس على الفرد والمجتمع، وعكس هذه الآثار تكذيب بالإسلام، والعياذ بالله.

ومن شأن أهل الإيمان أن يتعرفوا على حاجات الآخرين، ويسارعوا في قضائها، فإن الإيمان أخوة وعطاء.

ولإعانة المحتاج شرط في الإيمان، كإقام الصلاة وأدائها بخشوع.

ومانع الماعون متوعد بالويل، كمن يسهُو عن صلاته فيؤخرها حتى يضيع وقتها.

وهكذا فإن هذه السورة تعطي مفهوماً آخر للإيمان والكفر، وتبين أن الدين ليس عبادات وشعائر فحسب، بل هو أيضاً إخلاص وتجرد وسلوك تصلح به حياة الناس، فهو منهج متكامل، تدل آثاره على حقيقته، فتطهر به القلوب وتصلح به الحياة، فإذا نأملت الخصال السيئة وجدتها متوافرة فيمن يكذب بالبعث والنشور، ولا يؤمن بالله ورسوله ﴿إِنَّهُ كَانَ لَا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ الْعَظِيمِ﴾ (٣٢) وَلَا يَحْضُرُ عَلَى طَعَامِ الْمَسْكِينِ ﴿٣٤﴾ [الحاقة: ٢٣ - ٣٣].

وهكذا: فإن سورة الماعون تحث على إكرام اليتيم والمسكين وتأمر بالحق على ذلك، وفيها حث على عدم تأخير الصلاة عن وقتها، وتحذير من الرياء ومن عدم قضاء الحوائج وتبادل المنافع.

تم تفسير (سورة الماعون) والله الحمد والمنة

تَفْسِيرُ سُورَةِ الْكَوْثَرِ (١٠٨)

مُقَدِّمَةُ السُّورَةِ

(سورة الكوثر) هي السورة الثامنة بعد المئة في ترتيب المصحف، والخامسة عشرة في ترتيب النزول. نزلت بعد (سورة العاديات) وقبل (سورة التكاثر). وهي ثلاث آيات باتفاق، وعشر كلمات، واثنان وأربعون حرفاً. وتسمى (سورة الكوثر) وفي البخاري والترمذي (سورة إنا أعطيناك الكوثر). وسماها بعضهم (سورة النحر). فهذه ثلاثة أسماء لها: وهي سورة مكية، وعن الحسن ومجاهد وقتادة وعكرمة أنها مدنية، نزلت في صلح الحديبية تطيباً لخاطر النبي ﷺ. قلت: وهو الأظهر، لما فيها من الإشارة إلى ذكر صلاة عيد الأضحى وذبح الأضحية. وهي أقصر سورة في القرآن في عدد كلماتها وعدد حروفها. وهي سطر واحد كسورة الإخلاص، ولكن سورة الإخلاص تزيد في عدد الكلمات، وعدد الحروف، وعدد الآيات. وتتفق مع سورة العصر وسورة النصر في كونها ثلاث آيات ولكنها أكثر كلمات، وأكثر حروفاً منهما. موضوع السورة: وسورة الكوثر تتحدث عن فضل الله تعالى على رسوله ﷺ بإعطائه الخير الكثير، والنعم العظيمة في الدنيا والآخرة، ومنها: القرآن العظيم، والحوض المورود، والشفاعة العظمى. وفي ذلك تطيب لخاطر النبي ﷺ لما حدث له يوم الحديبية حين صدّه المشركون عن المسجد الحرام. ولمّا قاله المشركون حين مات أبناء النبي ﷺ الذكور، ولم يبق إلا الإناث.

فنزلت هذه السورة تهنئ النبي ﷺ وتبشره بالعطاء الواسع في الدنيا والآخرة، والثناء الجميل في العالمين، ومضاعفة الأجر، ورفع الذكر، إنه ﷺ أسعد المخلوقات، فهو سيد ولد آدم، وإمام الأولين والآخرين.

عن عمرو بن ميمون قال: لما طعن عمر رضي الله عنه وهاج الناس، تقدم عبد الرحمن بن عوف، فقرأ بأقصر سورتين في القرآن ﴿إِنَّا أَعْطَيْنَكَ الْكَوْثَرَ ۝١﴾ و﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ ۝١﴾^(١).

حول سبب النزول:

(سورة الكوثر) تعكس صورة من الكيد والأذى للنبي ﷺ من المشركين في صدر الدعوة، لصرف الناس عن الحق الذي جاءهم به من عند الله، وكان من عادات العرب السيئة أن الرجل منهم إذا مات أبناءه الذكور، عيروه وأظهروا الشماتة به، وقالوا: بتر، يعني انقطع ذكره، ولم يبق له أثر.

فلما مات أبناء النبي ﷺ الذكور في حياته: كالقاسم وإبراهيم، قال سفهاء قريش، كالعاص بن وائل، وعقبة بن أبي معيط، وأبي جهل وغيرهم: إنه أتر - إشارة إلى موت أولاده ﷺ في حياته ومعنى ذلك أن ذكره سينقطع - ولا يبقى له أثر - على حدّ زعمهم - . وقال أحدهم: دغوه فإنه سيموت بلا عقب - أي بلا ذرية - وينتهي أمره، فأنزل الله سبحانه هذه السورة^(٢).

وهذه جملة من الآثار في هذا المعنى :

١ - جاء في الأثر عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: كان أكبر ولد النبي ﷺ القاسم، ثم زينب، ثم عبد الله، ثم أم كلثوم، ثم فاطمة، ثم رقية، فمات القاسم، وهو أول ميت من أهله وولده، ثم مات عبد الله، فقال العاص بن وائل السهمي: قد انقطع أثره، فهو

(١) أخرجه ابن أبي شيبة (٥٦/٢).

(٢) انظر سبب النزول في تفسير الطبري، وابن كثير، وفي زاد المسير في علم التفسير، وفي مسائل نافع بن الأزرق (٢٧٠).

أبتر، فأنزل الله السورة^(١).

٢ - وبعد أن توفي القاسم وعبد الله، رأى المشركون رسول الله ﷺ مع العاص بن وائل عند باب بني شيبه بالمسجد الحرام، فلما وصل إليهم العاص قالوا له: من الذي كنت تتحدث معه؟ قال: ذلك الأبتر، وكانوا يصفون من لا ولد له بالأبتر، فنزلت السورة^(٢).

٣ - وعن ميمون بن مهران عن ابن عباس رضى الله عنهما قال: ولدت خديجة من النبي ﷺ عبد الله، ثم أبطاً عليه الولد من بعده، فبينما رسول الله ﷺ يكلم رجلاً، والعاص بن وائل ينظر إليه، إذ قال له رجل: من هذا؟ قال: هذا الأبتر، يعني النبي ﷺ وكانت قریش إذا وُلد للرجل ولدٌ، وأبطاً عليه الولد من بعده، قالوا: هذا الأبتر، فأنزل الله ﴿إِنَّكَ شَانِئُكَ هُوَ الْأَبْتَرُ﴾^(٣) أي أن مبغضك هو الأبتر، الذي بُتر من كل خير^(٤).

٤ - وهكذا قال عقبة بن أبي معيط: إنه لا يبقى للنبي ﷺ ولد، وهو أبتر^(٥).

٥ - وعن ابن عباس رضى الله عنهما قال: لما قدم كعب بن الأشرف مكة، قالت قریش: أنت خير أهل المدينة وسيدهم؟ قال: نعم، قالوا: ألا ترى إلى هذا المنبتر من قومه، يزعم أنه خير منا؟ ونحن أهل الحجيج، وأهل السدانة، قال: أنتم خير منه، فنزلت ﴿إِنَّكَ شَانِئُكَ هُوَ الْأَبْتَرُ﴾^(٦) ونزلت ﴿لَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِّنَ الْكِتَابِ يُؤْمِنُونَ بِالْجَبَتِ وَالظَّغُوتِ﴾ إلى قوله: ﴿فَلَنَجْجِدَ لَهُ نَصِيرًا﴾^(٧) [النساء: ٥٢].

ولعل هذه المقالة تركت أثراً في نفس النبي ﷺ أو مسّته بشيء من الغم، فكانت هذه السورة تطيباً لخاطره صلوات الله وسلامه عليه، وتسرية عنه، وترويحاً عن نفسه، ثم

(١) أخرجه ابن سعد (٧/٣)، وابن عساكر (١٢٦/٣)، وهو في تفسير فتح القدير (٥١٠/٥)، وفي إسناده الكلبي وهو ضعيف.

(٢) تفسير البغوي (٥٣٤/٤).

(٣) أخرجه ابن عساكر (١٢٨/٣).

(٤) تفسير الطبري (٦٩٩/٢٤).

(٥) النسائي في السنن الكبرى (١١٦٤٣)، والبخاري في الكشاف (٢٢٩٣)، والطبراني في الكبير (١١٦٤٥)، وابن حبان (٦٥٧٢)، والطبري (١٤٢/٧)، وابن أبي حاتم (٩٧٣/٣).

هي تُبَيِّن حقيقة البُشر والقطع، وأنه ليس كما زعم هؤلاء الجهال، فأثار الشخص بما يُقَدِّم لأُمته، وإنَّ ذِكْرِي النَّبِيِّ ﷺ باقية على رؤوس الأشهاد، وشُرْعَه قائم على رقاب العباد، مستمر دوام الآباد، إلى يوم الحشر والمعاد، وقد أعطاه الله تعالى الخير الكثير في الدنيا والآخرة، بما يُخَلِّد أثره، وينفع أُمته، ويتعدى نفعُ هذا الخير من الثقلين إلى العالمين، فهو ﷺ مرسلٌ رحمة للعالمين.

وهكذا فإن السورة تهتة سريعة وبشرى حسنة للنبي ﷺ تبشره بوسع العطاء، والاصطفاء على العالمين، والثناء عليه في الأرض والسماء، فما من لحظة تمرّ إلا وصلاة تنبعث من ملك مقرب، أو عبد صالح، تضاعف أجره، وترفع ذكره.

* * *

تَفْسِيرُ السُّورَةِ

نَهْرُ الْكَوْثَرِ هُوَ الْحَوْضُ الْمَوْرُودُ

١ - ﴿إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ ۝١﴾

بمن الله سبحانه على نبيه ﷺ بأنه قد أعطاه الخير الكثير والفضل العميم، ومنه الحوض المورود يوم يقوم الناس لرب العالمين.

وقد فسر النبي ﷺ الكوثر بأنه نهر في الجنة، جاء ذلك في الصحيحين وغيرهما:

١ - عن أنس بن مالك ؓ قال: بينا رسول الله ﷺ ذات يوم بين أظهرنا في المسجد إذ أغفى إغفاءة، ثم رفع رأسه مبتسماً، فقلنا: ما أضحكك يا رسول الله؟ قال: (نزلت عليّ آناً سورة: فقرأ ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ ۝١﴾ فَصَلَ لِرَبِّكَ وَأَنْحَرَ ۝٢﴾ إِنَّكَ شَانِئَكَ هُوَ الْأَبْتَرُ ۝٣﴾ ثم قال: «أتدرون ما الكوثر؟» فقلنا: الله ورسوله أعلم، قال:

«فإنه نهر وعدنيّه ربي عز وجل، عليه خير كثير، هو حوض تردّ عليه أمّتي يوم القيامة، آتيته عدد نجوم السماء، فيختلج^(١) العبد منهم، فأقول: رب، إنه من أمّتي، فيقول: ما تدري ما أحدث بعدك»^(٢) ويختلج بمعنى يُبعد عن الحوض.

ويؤخذ من الحديث أن البسملة آية من أوائل السور، لأن النبي ﷺ قرأ البسملة جهراً في أول هذه السورة وأثبتها فيها.

٢ - وعن أنس ؓ قال: لما عُرج بالنبي ﷺ إلى السماء قال: «أتيت على نهر حافتاه قباب اللؤلؤ، مُجَوِّفًا، فقلت: ما هذا يا جبريل؟ قال: هذا الكوثر»^(٣).

(١) يختلج: يُجتذب ويُبتعد عن الحوض.

(٢) أخرجه مسلم (٤٠٠)، والترمذي وأبو داود (٤٧٤٧، ٧٨٤)، والنسائي (٩٠٣)، وفي الكبرى (١١٧٠٢)، وانظر: روايات الحديث في جامع الأصول في أحاديث الرسول لابن الأثير الجزري حديث رقم (٨٨٧) (ج ٢ ص ٤٣٥) تحقيق وتخريج عبد القادر الأرناؤوط، وهو في المسند (١١٩٩٦)، وعند ابن أبي شيبة (٤٣٧/١١).

(٣) صحيح البخاري (٤٩٦٤، ٣٥٧٠)، وانظر صحيح مسلم (١٦٢).

٣ - وفي بعض وصف هذا النهر قال ﷺ فيما يرويه ابن عباس رضي الله عنهما «الكوثر: نهر في الجنة، حاقته من ذهب، ومجراه على الدر والياقوت، ثمرته أطيب من المسك، وماؤه أحلى من العسل، وأبيض من الثلج»^(١).

ولا عدول عن تفسير النبي ﷺ بأن الكوثر هو نهر في الجنة، إلى قول أحد من الخلق. وقد بين النبي ﷺ أيضاً أن نهر الكوثر هو الحوض المورود يوم القيامة الذي من يشرب منه شربة لا يظمأ بعدها أبداً، والنبي ﷺ يتقدم الواردين عليه، فيهيء لهم ما يحتاجون إليه، ويشفع لأمته حين يتقدم عليهم إلى الحوض. والإيمان بهذا الحوض من العقيدة، والتصديق به من الإيمان، وهو على ظاهره عند أهل السنة والجماعة.

وأحاديثه متواترة: رواها خلق كثير من الصحابة رضي الله عنهم، من ذلك:

- ١- حديث سهل بن سعد ؓ في الصحيحين قال: قال النبي ﷺ «إني فرطكم على الحوض، من مَرَّ عليّ شرب، ومن شرب لم يظمأ أبداً، ليردّ عليّ أقوام أعرفهم ويعرفوني، ثم يُحال بيني وبينهم»^(٢).
- ٢- وفي حديث أبي سعيد الخدري ؓ عن النبي ﷺ يزيد فيه: «فأقول: إنهم مني، فيقال: إنك لا تدري ما أحدثوا بعدك، فأقول: سُخِّقاً لِمَنْ غَيَّرَ بعدي»^(٣).
- ٣- وفي حديث حارثة بن وهب ؓ: قال: سمعت النبي ﷺ ذكر الحوض فقال: «كما بين المدينة وصنعاء»^(٤).

(١) أخرجه الترمذي، وقال: حديث حسن صحيح (٣٣٦١) وإسناده صحيح، راجع جامع الأصول وحاشية في الحديث رقم (٨٩٠) (ص ٤٣٩ ج ٢)، وهو في صحيح سنن الترمذي (٢٦٧٧)، وعند ابن أبي شيبة (٤٤٠/١١)، وأحمد (٥٩١٣)، وابن ماجه (٤٣٣٤).

(٢) متفق عليه، راجع اللؤلؤ المرجان فيما اتفق عليه الشيخان رقم (١٤٧٦، ١٤٧٧، ١٤٨٢)، وهو في البخاري (٧٠٥٠، ٦٥٨٣)، وفي مسلم (٢٢٩٠).

(٣) البخاري (٧٠٥١، ٦٥٨٤)، ومسلم (٢٢٩٠).

(٤) البخاري (٦٥٩١)، ومسلم (٢٢٩٨)، وانظر البخاري (٦٥٩٢).

وهذا في بيان المساحة والسعة، ومن ذلك أن ماءه أشد بياضاً من اللبن وأحلى من العسل، وأن آنيته كنجوم السماء في كثرتها واستنارتها، وأن من شرب منه مرة لم يظماً بعد أبداً.

وجاءت روايات أخرى في قُدر الحوض وعرضه وسعته، وعدد أوانيهِ، بأنها أكثر عدداً من نجوم السماء، وهذا من باب التقريب على أفهام السامعين، وإعلامهم عِظَم بُعد المسافة، وسعة الحوض، وكثرة العدد في الأواني.

٤- من ذلك أن عائشة رضي الله عنها سئلت عن قوله تعالى: ﴿إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ﴾ قالت: هو نهر أُعْطِيَهُ نبيكم ﷺ في بطنان الجنة، شاطئاه عليه دُرٌّ مجوّف، فيه من الآنية والأباريق عدد النجوم^(١).

مَنْ يُحَالُ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ الْحَوْضِ الْمَوْزُودِ:

ويشرب من الحوض جميعُ الواردين عليه، إلا من يُمنعون عنه لارتدادهم وتبديلهم لدين الله تعالى، من أهل البدع والكبائر الذي لم يتوبوا، وكذا المنافقين والكفار، ممن طُردوا عن الحوض، عقوبة لهم بسبب المعاصي والارتداد، وتبديل دين الله تعالى، كما مرّ في الأحاديث السابقة.

والظاهر أن الشرب من الحوض يكون بعد الحساب والنجاة من النار، نسأل الله من فضله.

كَيْفَ يَعْرِفُ النَّبِيُّ ﷺ أُمَّتَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ:

والنبي ﷺ يعرف أفراد أُمَّته يوم القيامة عند وُرودهم على الحوض، بالغزّة والتحجيل من آثار الوضوء، من بين الأمم الكثيرة.

قال ﷺ من حديث أبي هريرة ؓ: «تَرُدُّ عَلَيَّ أُمَّتِي الْحَوْضِ، وَأَنَا أَذُودُ النَّاسَ عَنْهُ، كَمَا يَذُودُ الرَّجُلُ إِبِلَ الرَّجُلِ عَنْ إِبِلِهِ» قالوا: يا نبي الله أتعرفنا؟ قال: «نعم، لَكُمْ سِيمَا لَيْسَتْ

(١) ابن أبي شيبة (١٣/١٤٤)، والبخاري (٤٩٦٥)، والطبري (٦٨٠/٢٤).

لأحد غيركم، تَرِدُونَ عَلَيَّ غُرًّا مُحَجَّلِينَ مِنْ آثَارِ الْوُضُوءِ، وَلْيَصْدَنْ عَنِّي طَائِفَةٌ مِنْكُمْ، فَلَا يَصِلُون، فَأَقُول: يارب هؤلاء من أصحابي، فيجيبني ملك فيقول: وهل تدري ما أحدثوا بعدك»^(١).

نَهْرُ الْكَوْثَرِ مِنَ الْخَيْرَاتِ الْكَثِيرَةِ:

ولاشك أن هذا النهر، ضمن الخيرات الكثيرة التي أعطاه الله تعالى لرسوله ﷺ ويمتد أثرها في الأرض والسماء، والدنيا والآخرة، وعلى مدار القرون، وملايين الملايين من البشر، بما يَزِدُّ المعنى الذي أطلقه السفهاء على رسول الله ﷺ مِنْ انقطاع الأثر بموت ولده، ثم بموته صلوات الله عليه وسلامه.

فنهْر الكوثر من الخير الكثير الذي أعطاه الله تعالى لنبيه ﷺ.

كما صح عن سعيد بن جبير عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال في الكوثر: هو الخير الذي أعطاه إياه، قال أبوبشر: قلت لسعيد بن جبير: فإن الناس يزعمون أنه نهر في الجنة، قال: النهر الذي في الجنة من الخير الذي أعطاه الله إياه^(٢).

ومن الخير الكثير الذي فاض على البشرية في جميع أجيالها بسببه صلوات الله عليه: النبوة والقرآن والحكمة، وكثرة الأتباع، والعلم والشفاعة، والمقام المحمود، وإظهار شرعه على جميع الشرائع، والنصر على الأعداء، وكثرة الفتوح في زمنه وبعده إلى يوم القيامة. وأعطاه الله تعالى السبع المثاني والقرآن العظيم، وشرح له صدره، ورفع له ذكره، ووضع عنه وزره، وأعطاه ليلة القدر خير من ألف شهر، وجعل أمة خير البرية، وجعلها خير أمة أخرجت للناس، ورفع عن أمة الخطأ والنسيان وما استكروها عليه، ورفع عنهم الإصر والأغلال.. الخ.

وفي الحديث عن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما أن النبي ﷺ قال: «أُعْطِيْتُ خَمْسًا لَمْ يَعْطَهُنَّ أَحَدٌ قَبْلِي: نصرت بالرعب مسيرة شهر، وجعلت لي الأرض مسجداً

(١) في صحيح مسلم عن أبي هريرة برقم (٢٤٧).

(٢) البخاري (٤٩٦٦، ٦٥٧٨)، وابن جرير (٦٨٢/٢٤)، والحاكم (٥٣٧/٢).

وطهوراً، فأیما رجل أدركته الصلاة فليصل، وأحلت لي المغانم، ولم تحل لأحد قبلي، وأعطيت الشفاعة، وكان النبي يبعث إلى قومه خاصة، وبعثت إلى الناس عامة»^(١).

وقد قرن الله تعالى اسمه باسم رسوله ﷺ في الشهادتين و (في التشهد) في كل صلاة، وعلى المآذن والمنابر، وفي الأرض والسماء، حيث يصلي عليه الملائكة الأعلى، ويصلون على من يصلي عليه.

وهذا الذكر، وهذا الشرف، ورفعة الشأن، والتخليد للذكرى في الأولين والآخرين. هو المقياس الصحيح لبقاء الأثر في الدنيا والآخرة، بما لم يكن لأحد من خلق الله أجمعين. وماذا تُغني الذرية؟ وماذا تفيد؟ ﴿وَمَا أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ بِالَّتِي تُقَرِّبُكُمْ عِندَنَا زُلْفَىٰ إِلَّا مَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَأُولَٰئِكَ لَهُمْ جَزَاءُ الضَّعْفِ بِمَا عَمِلُوا وَهُمْ فِي الْغُرُفَاتِ ءَامِنُونَ﴾ [سبأ: ٣٧].

وكم تعمّر الذرية من الذكور أو الإناث في الدنيا؟

إن الكفر والجهل، هو الذي أعمى أبصارهم وجعلهم يصفون النبي ﷺ بالأبتر، كبرت كلمة تخرج من أفواههم إن يقولون إلا كذبا، وسلام على رسول الله محمد ﷺ في الأولين والآخرين، وسلام عليه إلى يوم الدين.

إِخْلَاصُ الصَّلَاةِ وَالذَّبْحِ لِلَّهِ تَعَالَى

٢- ﴿فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَانْحَرْ﴾

وبعد أن منّ الله على نبيه بالخير الكثير ومنه نهر الكوثر، أمره بشكر هذه النعمة:

- ١ - عن طريق أداء الصلاة لله تعالى، فهي تتضمن خضوع القلب والجوارح لله تعالى.
- ٢ - وعن طريق الذبح لله تعالى، ففيه تقرب إلى الله تعالى ببذل المال الذي جُبلت القلوب على حبه.

والصلاة من باب شكر النعمة، أي وكما أعطيناك هذا العطاء الجزيل والخير الكثير، ومنه

(١) أخرجه الشيخان البخاري برقم (٣٣٥، ٤٣٨، ٣١٢٢)، ومسلم (٥٢١)، وأبوداود عن البراء، انظر: صحيح الجامع الصغير حديث رقم (١٠٦٧) وهو من رواية جابر رضي الله عنه.

نهر الكوثر وهو الحوض المورود في الجنة، يوم لقاء رب العالمين.

وكما أعطيناك ما لا نهاية لكثرة من خيرى الدنيا والآخرة، فاعبد ربك الذي أعزك وشرّفك ورفع منزلتك على كافة الخلق، وداوم على صلواتك المكتوبة وعلى صلاة النافلة، واجعلها خالصة للواحد الأحد، الفرد الصمد، شكراً لله تعالى الذي أفاض عليك بهذا الخير العميم.

وخُصت الصلاة بالذكر، لأنها جامعة لجميع أقسام الشكر، هذا هو الشق الأول للآية ﴿فَصَلِّ لِرَبِّكَ﴾.

ثم يأتي الشق الثاني منها وهو: النحر:

أي وانحر البدن متقرباً إليه تعالى، ولا تشرك معه غيره في ذبيحتك، ولا في صلاتك، كما يفعل المشركون، فقد كانت صلاتهم عند البيت مكاء وتصدية، وكانوا ينحرون للأصنام، فيسجدون لغير الله تعالى، ويذبحون لغير الله تعالى، ويذكرون عليها غير اسم الله تعالى، وفي هذا تعريض بشركهم، وبيان لعدم قبول صلاتهم وذبحهم.

والذبح ضرب من ضروب العبادة، لا يتقرب به إلا إلى الله تعالى، ولم يزل يوجد إلى وقتنا من يذبح للأضرحة والقبور، كما كان المشركون يذبحون لألهتهم!!

ولمّا كان أناس يصلُّون لغير الله، ويذبحون لغير الله، أمر الله كل مسلم على لسان رسوله ﷺ أن يصلي له، وينحر له وحده دون سواه، فقال تعالى آمراً رسوله ﷺ والمؤمنين بإخلاص الصلاة والذبح والمحيا والممات لله وحده ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٢٢﴾ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ﴾ [الأنعام: ١٦٢ - ١٦٣].

ونهى سبحانه وتعالى عن أكل ما لم يُذكر عليه اسم الله تعالى عند الذبح فقال: ﴿وَلَا تَأْكُلُوا مِمَّا لَمْ يُذْكَرْ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ وَإِنَّهُ لَفِسْقٌ﴾ [الأنعام: ١٢١].

وخُص الذبح بالذكر بعد الصلاة لأنه من علامات الشكر لله تعالى على نعمه.

صلاة عيد الأضحى والأضحية:

وقد ورد أن المراد بالصلاة في الآية: خصوص صلاة عيد الأضحى، أو صلاة الفجر

في مزدلفة يوم النحر.

والمراد بالذبح في الآية: ذبح الأضحية يوم عيد الأضحى.

قال ابن كثير: والصحيح أن المراد بالنحر: ذبح المناسك، ولهذا كان رسول الله ﷺ يصلي العيد، ثم ينحر نسكه، ويقول فيما يرويه البراء بن عازب ؓ «من صلى صلاتنا ونسك نسكنا فقد أصاب النسك، ومن نسك قبل الصلاة فلا نسك له»^(١).

عموم الآية: قال ابن جرير الطبري: والصواب قول من قال: إن معنى ذلك: فاجعل صلاتك ونحر ككلها لربك خالصاً، دون ماسواه من الأنداد والأوثان، شكراً له على ما أعطاك وخَصَّك به من الكرامة والخير الذي لا كفء له، قال ابن كثير: وهذا الذي قاله في غاية الحسن^(٢).

وعلى هذا فصلاة عيد الأضحى ونحر الأضحية يدخلان في عموم الصلاة وعموم النحر، ولهما فضل وأجر جزيل، وهما من السنن المؤكدة. وخَصَّ سبحانه الصلاة والنحر بالذكر، لأن الصلاة مجمع العبادات، وعماد الدين. والنحر فيه إطعام الطعام، وفيه قيام بحقوق العباد. ففي الصلاة والنحر؛ القيام بحقوق الله وحقوق عباده، ولصلاة العيد والأضحية أحكام تتناولتها كتب الفقه.

مَقْطُوعُ الذِّكْرِ وَالْأَثَرُ هُوَ الْأَبْتَرُ

٣- ﴿إِنَّ شَانِئَكَ^(٣) هُوَ الْأَبْتَرُ

إِنَّ مُبْغِضَكَ وَمُتَّقِكَ - أيها النبي - هو المقطوع من كل خير، والمقطوع من كل ذكر.

(١) أخرجه الشيخان وأبو داود عن البراء، صحيح الجامع الصغير حديث رقم (٦٢٢٧)، وهو في البخاري برقم (٩٨٣).

(٢) تفسير القرآن العظيم للحافظ ابن كثير للآية (٥٠٣/٨).

(٣) قرأ أبو جعفر بإبدال همزة ﴿شَانِئَكَ﴾ ياء وصلأ ووقفأ، وكذا حمزة وقفأ، والباقون بتحقيق الهمزة.

وفي هذه الآية ردّ على من قال عن النبي ﷺ لما مات ابنه: إنه أبتّر، أي منقطع الأثر والذكر.

فبعد أن قرر سبحانه وتعالى أنه أعطى نبيه الخير الكثير، ورفع ذكره في العالمين، بين جل شأنه هنا أن مبغضي النبي ﷺ وكارهيه، أمثال العاص بن وائل - صاحب المقالة - وغيره، هو مقطوع الذكر والأثر.

وقد قطع الله دابر الكفار من الذين وصفوا النبي ﷺ بالأبتّر، وانقطع ذكْرهم، وانطوى أثرهم، فهم مقطوعون من رحمة الله تعالى، ولا يُذكّرون إلا باللعنة، فما أخزاهم في الدنيا، وما أتعسهم يوم لقاء رب العالمين، بينما امتدّ ذكْر النبي ﷺ وارتفع أثره من فوق المنابر والمآذن، وعلى ألسنة العابدين والذاكرين إلى قيام الساعة، وامتدت جذوره ﷺ في الأجيال، وخُلِدَت ذِكره في أرجاء الدنيا، وفي نفوس الخلائق إلى يوم الدين، وهو في الآخرة صاحب المقام المحمود، والدرجة الرفيعة، فأيهما المبتور، مقطوع الذكر والأثر؟

هل هو من كانت الصلاة عليه سبباً في دخول الجنة، وتزكّ الصلاة عليه حين يُذكر اسمُه ﷺ سبباً في دخول النار، رغم أنف تاركها، أم من تصاحبه اللعنة إذا ذكر اسمه إلى يوم القيامة!!؟

والآية عامة في كل من ينتقص النبي ﷺ فيذمه أو يعيبه أو يسخر منه أو يهزأ به بأي صورة من الصور، أو أي شكل من الأشكال في كل زمان ومكان.

أعداء الإسلام هم الذين يؤذون النبي ﷺ:

والمشركون لم يبغضوا رسول الله ﷺ لشخصه، فقد كانوا يلقّبونه بالصادق الأمين، ويضعون عنده ودائعهم، ويحكمونه فيما شجر بينهم، ولكنهم كانوا يبغضون ما جاء به من الهدى والحق، والبرهان الساطع، والنور المبين.^١

وكل من كره الإسلام، وأبغضه، أو كره بعض ما جاء به الإسلام، فسيكون مصيره الخذلان في الدنيا، وسوء المصير يوم القيامة.

وتنكير لفظ ﴿شَانِكَ﴾ يفيد العموم، فكل من أبغض محمداً ﷺ فيما مضى، وفيما حضر، وما هو آت من الزمان إلى يوم الدين، فهو الأبتى والأذل والأقل والأصغر. وجوب حب رسول الله ﷺ:

وإذا كان بُغض رسول الله ﷺ لذاته، أو بُغض ما جاء به كله أو بعضه، كُفِّرَ يؤدي بصاحبه إلى النار، وبئس القرار، فإن حب النبي ﷺ فَرَضَ واجب على كل مسلم، وكذا حب ما جاء به من الإسلام، أصوله وفروعه، وهو شرط من شروط الإيمان كما قال ﷺ من حديث أنس ﷺ: «لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من والده وولده والناس أجمعين»^(١). ومحبة الرسول ﷺ لا بد أن تكون مقدّمة على محبة النفس والذات، وكذلك حب ما جاء به ﷺ.

ولذلك فإنه لما قال عُمر بن الخطاب ﷺ يا رسول الله: لأنت أحبُّ إلي من كل شيء إلا من نفسي، فقال: «لا، والذي نفسي بيده، حتى أكون أحب إليك من نفسك» فقال عمر: فأنت الآن والله أحبُّ إلي من نفسي، فقال: «الآن يا عمر»^(٢). أي الآن كَمَلْ إيمانك، حيث ولا بد أن أكون أحب إليك من نفسك، وهَوَايَ مقدم على هواك، ورغبتى مقدمة على رغبة نفسك وشيطانك.

ومحبة النبي ﷺ لذاته، ومحبة ما جاء به من شرع الله، تأخذ بيد العبد إلى الدرجة العالية في الجنة:

جاء أعرابي إلى النبي ﷺ فقال: يا رسول الله متى الساعة؟ فلفت النبي ﷺ نظر السائل إلى ما هو أهم من سؤاله، حيث قال له: «ما أعددت لها؟» فقال: ما أعددت لها كثير صلاة ولا صيام - يعني من النوافل - إلا أنني أحب الله ورسوله، فقال له النبي ﷺ: «المرء مع

(١) أخرجه الشيخان عن أنس، البخاري (١٥)، ومسلم (٤٤)، وفي النسائي «من ماله وأهله والناس أجمعين» وانظر جامع الأصول في أحاديث الرسول حديث رقم (٢١)، وهو في المسند (١٢٨١٤، ١٣٩٥٩).

(٢) من حديث عبد الله بن هشام في المسند (٢٢٥٠٣) قال محققوه: حديث صحيح، ابن لهيعة، وإن كان سيء الحظ، قد توبع، وباقي رجاله ثقات، وانظر (١٨٠٤٧).

من أحب» قال أنس: فما رأيت المسلمين فرحوا بشيء بعد الإسلام فرحهم بذلك^(١).
من هدايات السورة:

وفي سورة الكوثر دلالات واضحة وبراهين ساطعة على صدق النبي ﷺ وصحة نبوته، وصدق وعد القرآن الكريم:

١- فقد انتشر دين محمد ﷺ وخُلدت شريعته، وكَثُر أتباعه، وأخزى الله مبغضيه رسوله، وجعلهم من الأخسرين أعمالاً.

٢- وأخبر الله تعالى رسوله ﷺ بما قاله القوم، ومادار في نفوسهم، وجرى على ألسنتهم فيما بينهم، من قولهم: إن محمداً قد انقطع أثره بموت ولده، فأطلعه ربه على ما كان من شأنهم، دون أن يبلغه أن هذا منهم ولا من غيرهم.

٣- لقد عجز فصحاء العرب وبلغاؤهم أن يأتوا بمثل هذه السورة القصيرة على وجازتها، وقلة ألفاظها، مع حرصهم على بطلان الدعوة وتكذيب صاحبها.

٤- وقد أخبر الله نبيه بقطع دابرهم، وسقوط شأنهم، وانتهاء أمرهم، وزوال دينهم، وكان الأمر كما أخبر الله تعالى رسوله ﷺ^(٢).

تم تفسير (سورة الكوثر) والله الحمد والمنة

(١) انظر رواية أنس وابن مسعود في رياض الصالحين رقم (٣٦٦) وما بعده، وهو في الصحيحين البخاري (٣٦٨٨، ٦١٦٧)، ومسلم (٢٩٥٣، ٢٦٣٩)، والنص موجود في مشكاة المصابيح، باب الحب في الله حديث رقم (٥٠٠٩).

(٢) الشيخ محمد محمود الصواف، ثلاث سور من الدرر في إطرء سيد البشر.

تَفْسِيرُ سُورَةِ الْكَافِرُونَ (١٠٩)

مُقَدِّمَةُ السُّورَةِ

- ١ - (سورة الكافرون) هي السورة التاسعة بعد المئة في ترتيب المصحف، والثامنة عشرة في ترتيب النزول، نزلت بعد (سورة الماعون) وقبل (سورة الفيل). وهي ست آيات، وست وعشرون كلمة، وأربعة وتسعون حرفاً، وهي سورة مكية.
- أ - وتسمى (سورة الكافرون) بالرفع، على حكاية لفظ القرآن، وسماها بعضهم: (سورة الكافرين) على الإضافة.
- ب - وعنون لها البخاري بـ (سورة قل يا أيها الكافرون).
- ج - وتسمى (سورة الإخلاص) فتشترك مع (قل هو الله أحد) في هذا الاسم.
- د - كما تسمى هي، وسورة الإخلاص، وسورة براءة (المقشقة) لأن السور الثلاث تُقَشِّشُ، أي تُبْرِئُ من الشرك والنفاق.
- هـ - ويقال لها أيضاً: (سورة العبادات) و (سورة الدين) فهذه ستة أسماء^(١).

٢ - موضوع السورة:

و(سورة الكافرون) هي سورة التوحيد والبراءة من الشرك والكفر، وفيها قطع أطماع غير المسلمين أن يدخل المسلمون في دينهم، فإن العقائد المختلفة لا تتوحد، ومن الخير أن تقوم العلاقات الدولية، على الاعتراف بتعدد الشرائع وفتح المجال للمناظرة والحوار، والجدال الحسن، فالإسلام لا يُكره أحداً على الدخول فيه، ولكنه يطرح مبادئه ومحاسنه في الساحة العالمية، لمن يرغب في الدخول فيه، ويدعو المسلمين على أن يُعرّفوا شعوب العالم بالإسلام في وسائل الإعلام المختلفة بلغاتهم.

(١) ينظر: تفسير التحرير والتنوير (٥٧٩/٣٠).

وقد شُرع الجهاد منعاً للفتنة، وإزالةً للعقبات التي تمنع الناس من الدخول في الإسلام، كما شُرع ردّاً للعدوان، وشُرع الجدل بالتي أحسن بالنسبة لغير الظالمين من أهل الكتاب.

وفي سورة هود نبذة من تاريخ البشر، تبين الصراع بين المؤمنين والكافرين على مدى العصور، وفي نهايتها يقول الله تعالى لنبيه: ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ ﴿١١٨﴾ إِلَّا مَنْ رَّحِمَ رَبُّكَ وَلَئِنَّكَ خَلَقَهُمْ﴾ [هود: ١١٨ - ١١٩].

والسورة التي بين أيدينا تُشبه قول الله تعالى: ﴿وَلَيْنَ أَتَيْتَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ بِكُلِّ آيَةٍ مَّا تَبِعُوا قِيلَتَكَ وَمَا أَنْتَ بِتَابِعٍ قِيلَتَهُمْ وَمَا بَعْضُهُمْ بِتَابِعٍ قِيلَةَ بَعْضٍ﴾ [البقرة: ١٤٥].

٣ - توحيد الربوبية يقربه غير المسلمين:

كان الكفار يقرون ويعترفون بالله تعالى، ولا يجحدون وجوده سبحانه، وقد ذكر القرآن الكريم أنهم كانوا يعترفون بالله رباً، خالقاً للسموات والأرض، مسخراً للشمس والقمر، رازقاً للكون، منزلاً للماء من السماء، يدبر الأمر، يحيي ويميت، يملك السمع والأبصار، بيده ملكوت كل شيء، يجير ولا يجار عليه.. الخ.

١- كما قال تعالى: ﴿وَلَيْنَ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ﴾ [العنكبوت: ٦١].

٢- وقال سبحانه: ﴿وَلَيْنَ سَأَلْتَهُمْ مَنْ نَزَّلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِ مَوْتِهَا لَيَقُولُنَّ اللَّهُ﴾ [العنكبوت: ٦٣].

٣- وقال جل شأنه: ﴿قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أَمَّنْ يَمْلِكُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَرَ وَمَنْ يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَمَنْ يُدِيرُ الْأَمْرَ فَسَيَقُولُونَ اللَّهُ﴾ [يونس: ٣١].

٤- وقال عز وجل: ﴿قُلْ لِمَنِ الْأَرْضُ وَمَنْ فِيهَا إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨٤﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ﴾ [المؤمنون: ٨٤ - ٨٥].

ومع هذا الاعتراف فهم يعبدون غير الله، وهذا تناقض، فإن الخالق الرازق المدبر،

هو الذي يُعبد، وهو الذي يُدعى ويُسأل، وهو أقرب إلى خلقه من حبل الوريد، لا يحتاج إلى شريك ولا وسيط.

٤ - من الشرك بالله: اتخاذ وسائل تقرب إليه سبحانه:

والمشركون مع إقرارهم بالله رباً، فإنهم في الوقت نفسه يتقربون إلى الله تعالى بأصنامهم، ويتوسلون بها إليه سبحانه، وكانوا يزعمون أن الملائكة بنات الله، وأن بينه وبين الجنة نسباً، وكانت لهم شعائر وتقاليد حيث يجعلون لآلهتهم نصيباً مزعوماً في زرعهم وأنعامهم وأولادهم، يقدمونه لهم، وغير ذلك، كتحريم البحيرة والسائبة والوصيلة والحام.

ولم يزل يوجد هنا وهناك، من يتوسل ويتقرب إلى الله تعالى بالأضرحة، وينذر لها، ويدبح لها، ويدعوها، ويسألها الخير ودفع الضر، ويطلب منها المدد والعون، ويزعم أنه لو لم يف بنذره، أو بعادته، فإن صاحب الضريح سيضره!! ونحو ذلك كثير، وهذا هو عين ما كان عليه أهل الجاهلية، ممن قاتلهم النبي ﷺ واستحل دماءهم وأموالهم.

ومع أن المشركين يزعمون أن الملائكة بنات الله، وأن بينه وبين الجنة نسباً، فهم يزعمون أنهم أهدى من اليهود الذين يقولون: عزيز ابن الله، وأهدى من النصارى الذين يقولون: المسيح ابن الله، ويعتقدون أنهم على دين إبراهيم، فلما جاء محمد ﷺ وقال: إنه على دين إبراهيم، قالوا نحن على دين إبراهيم، ولا حاجة بنا لأن نترك ما نحن عليه، وأخذوا يحاورون النبي ﷺ ليضعوا حلاً وسطاً، فطلبوا منه أن يسجد لآلهتهم مقابل أن يسجدوا لإلهه، وهذا ما تحدث عنه هذه السورة.

٥ - سورة الكافرون في السنة النبوية:

هذه جملة من الأحوال التي تُقرأ فيها سورة الكافرون:

أولاً: إن فيها البراءة من الشرك لمن قرأها:

١- قال الإمام أحمد: عن مهاجر أبي الحسن، عن شيخ أدرك النبي ﷺ قال: خرجت مع

النبي ﷺ في سفر، فمر رجل يقرأ؟ ﴿قُلْ يَتَأْتِيَ الْكَافِرُونَ﴾ قال: «أما هذا فقد برىء من

الشرك» قال: وإذا آخر يقرأ ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ فقال: النبي ﷺ: «بها وجبت له الجنة»^(١).

٢- وعن جابر بن عبد الله أن رجلاً قام فركع ركعتي الفجر، فقرأ في الركعة الأولى ﴿قُلْ يَتَّيْبُ الْكَافِرُونَ﴾ فقال النبي ﷺ: «هذا عبد عرف ربه» وقرأ في الثانية ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ فقال النبي ﷺ: «هذا عبد آمن بربه»^(٢).

ثانياً: يستحب قراءتها عند النوم في ختام أعمال اليوم:

أ - سأل فزوة بن نوفل الأشجعي، عن أبيه، سأل رسول الله ﷺ ماذا يقول عند منامه؟ فقال: «اقرأ عند منامك ﴿قُلْ يَتَّيْبُ الْكَافِرُونَ﴾ ثم نم على خاتمها، فإنها براءة من الشرك»^(٣).

ب - وعن عبد الرحمن بن نوفل الأشجعي عن أبيه قال: قلت: يا رسول الله، إني حديث عهد بشرك، فمُرني بآية تُبرئني من الشرك، فقال: ﴿قُلْ يَتَّيْبُ الْكَافِرُونَ﴾ قال: «فما أخطأها أبي من يوم ولا ليلة حتى فارق الدنيا»^(٤).

ثالثاً: فيها شفاء من لدغ العقرب مع المعوذتين:

عن علي رضي الله عنه قال: (لَدَعْتُ النَّبِيَّ ﷺ عقرب، وهو يصلي، فلما فَرَّغَ قال: «لعن الله

(١) قال الشيخ أحمد عبد الرحمن البنا في الفتح الرباني لترتيب مسند الإمام أحمد: وسنده جيد، وجهالة الصحابي لا تضر، راجع الفتح الرباني (٣٣٩/١٨)، تفسير سورة الكافرون وقال محققو المسند: حديث صحيح وهو برقم: (٢٣١٩٤، ١٦٦١٧، ١٦٦٠٥)، والحديث أخرجه الدارمي (٢/ ٤٥٨)، والنسائي في الكبرى (٨٠٢٨)، قال الهيثمي في مجمع الزوائد (١٤٥/٧)، ورواه أحمد بإسنادين في أحدهما شريك، وفيه خلاف، وبقيّة رجاله رجال الصحيح.

(٢) ابن حبان (٢٤٦٠) قال محققه: إسناده قوي وأخرجه أيضاً البيهقي (٢٥٢٤).

(٣) قال في الفتح الرباني: ورواته ثقات، فلا يضره مخالفة من أرسله، والسائل هو: فزوة بن نوفل الأشجعي عن أبيه، راجع النص الكامل للحديث في المسند: (٤٥٦/٥) (٢٣٨٠٧)، وابن أبي شيبة (٦٥٧٩)، وأبي داود (٥٠٥٥)، والنسائي (٧٢٩)، والترمذي (٣٤٠٣)، وصححه الحاكم (٥٣٨/٢)، ووافقه الذهبي والبيهقي في الشعب برجال ثقات (٢٢٩٠)، وهو في صحيح سنن أبي داود (٤٢٢٧).

(٤) قال محقق سنن سعيد بن منصور: سنده صحيح (١٢٨)، وأخرجه أيضاً ابن أبي شسبة (٧٤/٩) (٢٤٩/١٠).

العقرب، لا تَدْعُ مُصَلِّياً ولا غيره»، ثم دعا بماء وملح فجعل يمسح عليها ويقرأ: ﴿قُلْ يَتَّيِبُهَا لَكُمُ الْكُفْرُوتَ﴾ و﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ﴾ و﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ﴾^(١).

رابعاً: قراءتها في السفر:

ورد في الأثر استحباب قراءتها مع ما بعدها من السور الخمس في السفر، فإنها تكون سبباً في حسن الهيئة وكثرة الزاد لقارئها^(٢).

خامساً: القراءة بها مع سورة الإخلاص في الصلاة:

ورد أن النبي ﷺ قرأ بها، وَيَقُلُّ هو الله أحد، في ركعتي الطواف، وفي ركعتي الفجر (السنة) وفي صلاة المغرب، وفي الركعتين بعد المغرب، وفي السفر، وفي صلاة الوتر، وكان يكثر من ذلك:

١- فعن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما أن النبي ﷺ كان يقرأ في المغرب ﴿قُلْ يَتَّيِبُهَا لَكُمُ الْكُفْرُوتَ﴾ و﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾^(٣).

٢- وعن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما أن النبي ﷺ كان إذا طاف بالبيت ثم صلى ركعتين، قرأ فيهما بهما^(٤).

٣- وعن أبي هريرة ؓ أن النبي ﷺ قرأ بهما في ركعتي الفجر^(٥) أي في صلاة السنة.

٤- وقال ابن عمر رضي الله عنهما : رمقتُ النبي ﷺ خمساً وعشرين مرة - وفي لفظ:

(١) رواه الطبراني في الصغير بإسناد حسن (٢٣/٢)، راجع مجمع الزوائد ومنبع الفوائد للحافظ نور الدين الهيثمي (ج ٥ ص ١١١) الطبعة الثانية (١٩٦٧م)، وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة (٥٤٨).

(٢) ورد هذا في حديث أخرجه أبويعلى عن جبير بن مطعم برقم (٧٤١٩)، قال الهيثمي في مجمع الزوائد (١٣٣/١٠): وفيه من لم أعرفهم.

(٣) صحيح سنن ابن ماجة (٩٥٧)، ومشكاة المصابيح (٨٥٢)، والترمذي (٤٣٢).

(٤) من حديث طويل في صحيح مسلم (١٢١٨)، والبيهقي في السنن بسند صحيح (٩١/٥).

(٥) صحيح مسلم (٧٢٦)، والبيهقي في السنن (٤٢/٣)، وأبوداود (١٢٥٦)، وابن ماجة (١١٤٨)، والنسائي في الكبرى (١٠١٩، ١١٦٤٤)، وعن عائشة في صحيح سنن ابن ماجة (٩٤٤)، وابن أبي شيبه (٢٤٢/٢)، وابن حبان (٢٤٦١)، والبيهقي في الشعب (٥٢٥٢).

شهرًا - كان يقرأ بهما في الركعتين قبل الفجر، والركعتين بعد المغرب^(١).
سادساً: كونها تعدل ربع القرآن:

فقد جاء في الأثر أن هذه السورة تعدل ربع القرآن^(٢).

ووجه ذلك: أن القرآن مشتمل على الأمر والنهي، وكل منهما يتعلق بعمل القلوب أو الجوارح، فهي أقسام أربعة، وسورة الكافرون مشتملة على النهي عن عبادة غير الله تعالى، وهو جانب اعتقادي من أعمال القلوب، فكانت لهذا تعدل ربع القرآن.
وقيل: لأن القرآن يشتمل على التوحيد، والرسالة، وأحوال الدنيا، وأحوال الآخرة. وهذه أقسام أربعة، والسورة اقتضرت على التوحيد لتضمنها البراءة من الشرك، والتدين بدين الحق، وهذا هو التوحيد والدين الخالص^(٣).

٦- سبب النزول:

قال الواحدي وغيره: نزلت في رهط من قريش، قالوا: يا محمد، اتَّبِعْ دِينَنَا وَتَتَّبِعْ دِينَكَ، تَعْبُدْ آلِهَتَنَا سَنَةً، وَنَعْبُدُ إِلَهَكَ سَنَةً، فَإِنْ كَانَ الَّذِي جِئْتَ بِهِ خَيْرًا مِمَّا بِأَيْدِينَا، قَدْ شَرَكْنَاكَ فِيهِ، وَأَخَذْنَا بِحُظُنَا مِنْهُ، وَإِنْ كَانَ الَّذِي بِأَيْدِينَا خَيْرًا مِمَّا فِي يَدِكَ، فَقَدْ شَرَكْتَ فِي أَمْرِنَا، وَأَخَذْتَ بِحُظِّكَ، فَقَالَ: مَعَاذَ اللَّهِ أَنْ أَشْرِكَ بِهِ غَيْرَهُ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ تَعَالَى ﴿قُلْ يَتَّخِذُ الْكَافِرُونَ ۝١﴾ الْخ فَعَدَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ إِلَى الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ، وَفِيهِ الْمَلَأُ مِنْ قُرَيْشٍ، فَقَرَأَهَا عَلَيْهِمْ حَتَّى فَرَّغَ مِنَ السُّورَةِ، فَأَيْسُوا مِنْهُ عِنْدَ ذَلِكَ وَآذَوْهُ وَأَصْحَابَهُ، وَآمَعَنُوا فِي

(١) صحيح سنن الترمذي (٣٤١) بإسناد صحيح (الألباني)، والمسنند (٥٦٩١، ٤٩٠٩) بإسناد صحيح على شرط الشيخين (محققوه)، وابن أبي شيبة (٢/٢٤٢)، والنسائي (٩٩١)، وابن ماجه (٩٤٣)، وابن حبان (٢٤٥٩)، ومصنف عبدالرزاق (٤٧٩٠)، والمشكاة (١/٢٦٨).

(٢) في حديث عند أحمد وغيره من رواية أنس، قال في الفتح الرباني عند سورة الزلزلة: وفي إسناده سلمة ابن وردان ضعفه أحمد وغيره، وحسنه الترمذي، ولعل تحسين الترمذي له لكثرة طرده، وجاء أيضاً عن أبي هريرة وسعد بن أبي وقاص كما في الطبراني الصغير (٦١/١)، والبيهقي في الشعب (٢٥٢٧).

(٣) ينظر: الفتح الرباني لترتيب المسند (ج ١٨) (ص ٣٣٢).

ذلك فقالوا له: دع ما أنت عليه ونحن نُؤمِّلُكَ ونزوِّجُكَ من شئت ونُملِّكَك علينا، وإن لم تفعل فلتعبد آلِهتنا ونعبد إلهك حتى نشترك^(١).

وهؤلاء الرهط هم: الوليد بن المغيرة، والعاص بن وائل، والأسود بن المطلب، وأمّية بن خلف، قالوا للنبي ﷺ فلتعبد ما نعبد، ونعبد ما تعبد، فإن كان ما نحن عليه أصح، كنت قد أخذت منه حظاً، وإن كان ما أنت عليه أصح كنا قد أخذنا منه حظاً، فأنزل الله السورة^(٢).

والمعنى يشمل كل كافر على وجه الأرض، ويشمل كل مDAHنة ومتابعة ومناصرة وملاطفة للكفار في مجال العقيدة، أو الرضى بعقيدتهم، والمشاركة في طقوسهم وأعيادهم الدينية.

والكفر كله ملة واحدة، وكل من لم يؤمن بمحمد ﷺ نبياً ورسولاً فهو كافر، من أهل الكتاب أو من غيرهم.

* * *

(١) تفسير البغوي (٥٣٥/٤)، وتفسير القرطبي (٢٢٥/٢٠)، وتفسير الطبري (٧٠٣/٢٤)، والطبراني في الصغير

(١/٢٦٥)، وفي إسناده أبوخلف عبد الله بن عيسى، متكلم فيه.

(٢) ينظر: تفسير الطبري (٧٠٣/٢٤)، وأسباب النزول للواحدى النيسابورى.

تَفْسِيرُ السُّورَةِ

الْكُفْرُ انْفِصَالٌ لَا يُرْجَى مَعَهُ اتِّصَالٌ

١- ﴿قُلْ يَتَّيِبُهَا لَكُمُ الْكُفْرُ﴾ ﴿١﴾

النبي ﷺ مأمور بتبليغ الرسالة، وتبليغ جميع ما أوحى الله تعالى به إليه، والنبي ﷺ يؤدي ألفاظ الوحي كما سمعها من جبريل عليه السلام، ويبلغ للناس جميع ما أنزل الله تعالى عليه. ومن ذلك لفظ ﴿قُلْ﴾ في أول سور: الكافرون والمعوذات الثلاث، والجن، وغير ذلك في أوائل السور وأثنائها، فلفظ ﴿قُلْ﴾ قرآن يتلى ويتعبد به، وهو جزء من القرآن إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها.

وليس لفظ ﴿قُلْ﴾ قاصراً على مخاطبة الرسول ﷺ وقت وجوده حياً، ثم ينقطع اتصالها بالقرآن الكريم، كما زعم ذلك بعض الناس.

وكان النبي ﷺ بإيراده لفظ ﴿قُلْ﴾ يقول: أمرت بتبليغ جميع ما أوحى إلي من ربي، ومنه لفظ ﴿قُلْ﴾ من ﴿قُلْ يَتَّيِبُهَا لَكُمُ الْكُفْرُ﴾ و﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ الخ.

قال تعالى: ﴿يَتَّيِبُهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ مَا بَلَغْتَ رِسَالَتَهُ﴾

[المائدة: ٦٧].

والقرآن الكريم ينادي كل كافر على وجه الأرض، وفي مقدمتهم كفار قريش وقت التنزيل، كما ينادي كل كافر وثني إلى يوم القيامة، وينادي اليهود والنصارى، فقد كفروا بمحمد ﷺ وأشركوا بالله سبحانه، إنه يناديهم جميعاً بحقيقتهم، ويصفهم بوصفهم، ويبرأ إلى الله من شركهم، ويقطع بكفرهم، ويبين لهم أنهم وأمثالهم قد سبق في علم الله تعالى أنهم لن يؤمنوا، وأنهم كافرون جملة وتفصيلاً، فلا التقاء بينه وبينهم.

فالقرآن يُشعرهم في مطلع السورة بحقيقة الانفصال الذي لا يرجى معه اتصال، ومن هنا فهو يجابهم بلفظ الكفر، وينسبهم إليه، ولا يبالى بهم، مع علمه سبحانه أنهم

يَتَّعِضُونَ نَسَبَتَهُمْ إِلَى الْكُفْرِ، وكذلك الحال مع كل من لم يؤمن بمحمد ﷺ نبياً ورسولاً إلى الناس كافة فهو كافر أيضاً.

وقد وصف القرآن أهل الكتاب بالكفر لعدم إيمانهم بمحمد ﷺ ولإشراكهم بالله تعالى. وفي هذه السورة إشعار لهم بأن النبي ﷺ مبلّغ عن ربه، وأنه محروس من عنده، وأنه ليس فيهم خير، ولا يرجى منهم إيمان، ولذلك فقد شتّع عليهم فخاطبهم بالكفر، على غير ما هو مألوف في الإسلام، من أسلوب الحكمة والموعظة الحسنة، تقرّيعاً وتوبيخاً وإشعاراً لهم بالذم، ولبيان أن هذا الخطاب من عند الله تعالى وليس من رسوله ﷺ، والنداء يعم جميع من لم يؤمن بالله تعالى واليوم الآخر، وجميع من لم يؤمن بخاتم الأنبياء ﷺ إلى يوم الدين.

نُفْيُ الْإِتِّحَادِ بَيْنَ مَعْبُودِ الْكَافِرِ وَمَعْبُودِ الْمُسْلِمِ حَالاً وَمَالاً

٣،٢ - ﴿لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ ۚ﴾ ١ ﴿وَلَا أَنْتَ عَٰبِدُونَ مَا أَعْبُدُ ۚ﴾ ٢

قل لهم - يا رسولنا -: لا أعبد الأصنام والأوثان التي تعبدونها، ولا أعبد البقر ولا الجن ولا المسيح، ولا أتخذ القرابين التي تتقربون بها إلى الله تعالى شفعاء ولا وسطاء عند الله تعالى، ولن يحدث هذا مني في المستقبل.

فأنا أعبد الواحد الأحد، الفرد الصمد، الذي لم يتخذ صاحبة ولا ولداً، لا مثيل له ولا ند، ولا يحل في شخص ولا جسم، وهو غني عن الشفعاء والوسطاء، فلا يتقرب إليه بمخلوق. فأنا بريء من آلهتكم ومعبوداتكم التي لا تضر ولا تنفع، ولا تغني عن عابديها شيئاً، وأنا ثابت ومستديم على عبادة ربي، فلن أعبد في المستقبل آلهتكم التي تطلبون مني عبادتها، لأن بين ما أعبد وما تعبدون بؤن شاسع، وفرق كبير، فعبادتكم المقترنة بالشرك لا تسمى عبادة: ﴿قُلْ أَغْفِرَ اللَّهُ تَأْمُرُوكَ أَعْبُدُ أَيُّهَا الْجَاهِلُونَ﴾ [الزمر: ٦٤].

ولا أنتم في المستقبل عابدون ما أطلبه منكم من عبادة الواحد الأحد، فأنا أعبد الإله الحق، وأنتم تعبدون الحجارة والأوثان، وشتان بين عبادة الرحمن وعبادة الهوى والأوثان.

وقد حكم الله عليكم بالكفر الدائم لِمَا عَلِمَهُ عَنْكُمْ فِي الْأَزَلِ مِنْ ضَلَالِكُمْ، وفساد أعمالكم، وَخُبْتُ طَوَيْتَكُمْ، وَإِزَاغَةُ قُلُوبِكُمْ عَنْ الْحَقِّ وَالْهُدَى، وارتضائكم بالكفر، وعدم تحولكم عنه.

وقد أخبر الله نبيه بذلك لتظهر شقاوتهم وكفرهم في عالم الوجود. والسورة نزلت في كل من بقي على كفره حتى الموت، وذلك إلى يوم القيامة. وهاتان الآيتان تنفيان الاتحاد في المعبود بين المؤمن والكافر. فالمعبود مختلف بين الطرفين، ولا التقاء بينهما.

نَفْيُ الْإِتِّحَادِ بَيْنَ عِبَادَةِ الْكَافِرِ وَالْمُسْلِمِ حَالًا وَمَالًا

٥، ٤ - ﴿وَلَا أَنَا عَابِدٌ مَّا عَبَدْتُمْ ۖ وَلَا أَنْتَ عَابِدُونَ مَّا أَعْبُدُ ۚ﴾

أي ولست في الوقت الحاضر بعابد معبودكم، فعبادتي غير عبادتكم، ومعبودي غير معبودكم، عبادتي خالصة لله تعالى، لا يشوبها شرك، وعبادتكم كلها شرك وتوسل، وفي هذا قَطْعٌ لأطماع الكفار، كأنه قال: لا أعبد هذه الأوثان في الحال ولا في الاستقبال، فأنا لا أعبد ما تعبدون أبدًا ما عشت، لا أعبد أصنامكم الآن، ولا فيما يستقبل من الزمان، ولن يحدث هذا في وقت من الأوقات، لا في الحال ولا في المال، فعبادتي وعبادتكم مختلفة، ولا التقاء بينهما.

ولا أنتم أيها الكفار في وقتكم الحاضر بعابدين معبودي الواحد الديان. وكان التعبير في جانب الكفار بلفظ الماضي: ﴿عَبَدْتُمْ﴾ لأنهم كانوا متلبسين بعبادة الأصنام قائمين عليها ومتعاونين عليها.

وكان التعبير في جانب الرسول بلفظ المضارع الذي يفيد الحال والاستقبال: ﴿أَعْبُدُ﴾ باعتبار أن البعثة والدعوة إلى التوحيد أمر حادث.

وهاتان الآيتان تنفيان الاتحاد في العبادة، والآيتان قبلهما تنفيان الاتحاد في المعبود.

هل بين هذه الآيات الأربع تكرار؟

وعلى هذا فليس بين الآيات الأربع تكرار، فالآيتان الأوليان تتحدثان عن نفي اتحاد المعبود في المستقبل والحاضر، لأن (لا) لا تدخل غالباً إلا على فعل مضارع مستقبل^(١) ففيهما نفي الاتحاد في المعبود.

والآيتان الأخيرتان تتحدثان عن نفي اتحاد العبادة في الوقت الحاضر والمستقبل، ففيهما نفي الاتحاد في العبادة.

وقيل: إن الكفار راجعوا النبي ﷺ وعرضوا عليه عبادتهم لإلهه، وعبادته لآلهتهم، عدة مرات، فناسب هذا التوكيد والتكرار في السورة، لرفض طلبهم رفضاً جازماً، فحُسن التكرار مجازاة لهم في تكرار طلبهم، للحاجة إليه في نفي أن يكون المعبود واحداً لكل منهما، وعلى هذا فإن النفي الأول يدل على عدم وجود الفصل، والنفي الثاني يدل على أن ذلك قد صار وصفاً لازماً.

ثم نفى سبحانه أن تكون العبادة واحدة لكل منهما، وهذا ضرب من البلاغة والإعجاز، وقد راجع الكفار النبي ﷺ في ذلك مرارا فاحتاج الأمر إلى تأكيد.

عِبَادَةُ الرَّحْمَنِ وَعِبَادَةُ الْأَوْثَانِ لَا يَلْتَقِيَانِ

٦- ﴿لَكَرِّدِيكَرْ وَلِي^(٢) دِينِ^(٣)﴾

أي مادام أن هناك اختلاف تام في عبادتي وعبادتكم، ومعبودي ومعبودكم، وهما لا يلتقيان أبداً، فلکم شرککم وکفرکم، وعلیکم وزر ذلك وتبعته، ولي ديني وتوحيدي وإخلاصي، وعلی تبعه الدعوة إلى الله، فلا تتعلق أمانیکم بالأمر المحالة، لأن منهج التوحيد يختلف عن منهج الشرك، وبينهما ما بين السماء والأرض، وأنا أقرر وأؤكد

(١) تفسير أبي السعود للآية.

(٢) قرأ نافع وهشام وحفص والبيزي بخلف عنه بفتح ياء الإضافة وصلأ من ﴿وَلِي دِينِ﴾ وسكنها الباقون.

(٣) وقف يعقوب بالياء بعد النون على ﴿دِينِ﴾ وصلأ ووقفاً والباقيون بدونها.

لكم ذلك، وأنا نبي مبعوث من الله تعالى لأدعوكم إلى الحق والنجاة، فإذا لم تقبلوا مني ولم تتبعوني، فقد أبلغتكم ما أرسلتُ به إليكم، فدعوني وشأني، ولا تدعوني إلى الشرك بالله تعالى: ﴿قُلْ كُلُّ يَعْمَلْ عَلَى شَاكِلِهِۦ فَرَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَنْ هُوَ أَهْدَى سَبِيلًا﴾ (٨٤).

ونظير هذه الآية قوله تعالى ﴿وَإِنْ كَذَّبُوكَ فَقُلْ لِي عَمَلٍ وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ أَنْتُمْ بَرِيءُونَ مِمَّا أَعْمَلُ وَأَنَا بَرِيءٌ مِمَّا تَعْمَلُونَ﴾ [يونس: ٤١] وقوله: ﴿لَنَا أَعْمَلْنَا وَلَكُمْ أَعْمَلَكُمْ﴾ [الشورى: ١٥]. وهؤلاء هم الذين قال الله فيهم: ﴿وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِّنْهُمْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ طُغْيَانًا وَكُفْرًا﴾ [المائدة: ٦٤] والكفر ملة واحدة.

وهذا المعنى المقرر في السورة يشمل اليهود والنصارى وجميع الملل والنحل غير الإسلام إلى يوم الساعة، فالكفر كله ملة واحدة، والمسلمون دعاة وحكاماً وولاة، مسؤولون أمام الله تعالى عن القيام بواجب الدعوة والجهاد.
من هدايات السورة:

وفي السورة بيان البراءة الكاملة من الشرك والكفر، والمفاصلة الثامة بين الإيمان والكفر، والحسم الصريح لموقف الإسلام من الكفر، فلا مُهادنة، ولا مجاملة، ولا مُوادعة، فالكفر كفر، والإسلام إسلام، لا لقاء بينهما، ولا مغبر، ولا جسر، ولا طريق، وليس هناك حلاً وسطاً، ولا مقاربة بين الديانات، ولا توفيقَ بينهما، وليس هناك أنصاف حلول، ولا موافقة لملة الكفر ولا للحظة واحدة، لأن في ذلك مساواةً للحق بالباطل، واعترافاً به، ومشاركةً له في الكفر، فليس هناك وُحدة بين الديانات، ولكن هناك حوار ومناظرة لإبطال الديانات المنسوخة، وعرض لمحاسن الإسلام وتعريف به، ولماذا ختم الله به الديانات، وجعله ديناً عالمياً إلى قيام الساعة؟ وهذا هو طريق الدعاة إلى الله تعالى في كل زمان ومكان، وهو طريق الأمة الإسلامية، وطريق أبناء المسلمين وحُكَّامهم، إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها.

تم تفسير (سورة الكافرون) والله الحمد والمنة

تَفْسِيرُ سُورَةِ النَّصْرِ (١١٠)

مُقَدِّمَةُ السُّورَةِ

(سورة النصر) هي السورة العاشرة بعد المئة في ترتيب المصحف، والرابعة عشرة بعد المئة في ترتيب النزول، نزلت بعد سورة براءة، ولم ينزل بعدها سورة كاملة. وهي ثلاث آيات، وسبع عشرة كلمة، وسبعة وسبعون حرفاً. وهي أطول من سورة الكوثر في عدد الكلمات، وأقصر من سورة العصر، والسور الثلاث متفقة في عدد الآيات، ولكنها مختلفة في الطول والقصر. وشهرتها (سورة النصر) ولها ثلاثة أسماء أخرى هي:

أ - (سورة إذا جاء نصر الله والفتح) كما جاء في صحيح البخاري.

ب - (سورة الفتح) كما جاء في جامع سنن الترمذي، فتشترك مع سورة الفتح في هذا.

ج - (سورة التوديع) كما في الإتيان للسيوطي عن ابن مسعود رضي الله عنه، فهذه أربعة أسماء. وهي سورة مدنية، باعتبار أن كل ما نزل من القرآن بعد الهجرة فهو مدني، وإلا فقد نزلت في (منى) أيام التشريق في حجة الوداع، قبل موت النبي ﷺ بنحو ثلاثة أشهر، كما قال ابن عمر وابن مسعود رضي الله عنه.

وقيل: إنها نزلت مُنْصَرَفَ النبي ﷺ من خيبر، أي سنة سبع^(١) وهو قول مردود.

٢ - موضوع السورة:

نزلت هذه السورة في أواخر عُمرِ النبي ﷺ لتهنئته ﷺ بفتح مكة، ودخول الناس في دين الله أفواجاً، بعد أن سقطت الأصنام وذهبت دولتها، وامتألت الآفاق بالمؤذنين يُغْلِنون ليلاً ونهاراً أن الله تعالى واحد أحد، وأن الحجارة التي كانت تُعبد من دون الله قد تصلح لرصف الطريق أو بناء الدور!

لقد انتشر الإسلام، وتقلّمت أظافر الشرك والضلال، وارتفعت راية الدعوة بدخول

(١) رواه الطبري (٢١٥/٣٠)، والطبراني عن ابن عباس، المعجم الكبير (٣٢٨/١١) بسند مرسل فيهما.

الناس في دين الله أفواجاً.

لقد أذى محمد ﷺ رسالته بعد جهاد طويل، ومحا الخرافات التي كانت سائدة في المجتمع الجاهلي.

وبعد أن قام النبي ﷺ من الليل حتى تورّمت قدماه، بسبب استغراقه في عبادته ومناجاة ربه، مع أن الله تعالى قد وعده أن يغفر له مغفرة تامة، لا مؤاخذه عليه بعدها، في شيء مما كان يختلج في نفسه، من تقصير أو مخالفة الأولى ونحو ذلك.

لم يبق لرسول الله ﷺ بعد ذلك إلا أن يعود إلى ربه، لينعم بجواره مع المرسلين الأولين والملائكة المقربين، في مقعد صدق عند مليك مقتدر، ليجزيه خيراً عن جهاده الطويل.

٣ - آخر سورة نزلت:

فسورة النصر آخر سورة كاملة نزلت على رسول الله ﷺ نزلت بمنى أوسط أيام التشريق في حجة الوداع^(١) ونزل في حجة الوداع أيضاً آية ﴿الْيَوْمَ أَكَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَنْتُمْ عَلَيَّكُمْ نِعْمِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا﴾ [المائدة: ٣] وعاش النبي ﷺ بعدها سبعاً وثمانين يوماً، وقيل غير ذلك.

وآخر آية نزلت من القرآن: قوله تعالى: ﴿وَأَتَقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ﴾ [البقرة: ٢٨١] وعاش النبي ﷺ بعدها واحداً وعشرين يوماً^(٢).

عن عبيد الله بن عبد الله بن عتبة قال: قال ابن عباس رضي الله عنها: أتدرى آخر سورة نزلت من القرآن، نزلت جميعاً؟ قلت: نعم ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ﴾ قال: صدقت^(٣).

٤ - سورة التوديع:

وسورة النصر تسمى سورة (التوديع) لما فيها من الدلالة على توديع الدنيا:

(١) سنن البيهقي (١٥٢/٥)، وفي الدلائل (٤٤٧/٥)، وعبد بن حميد (٨٥٦) منتخب، والبخاري في الكشف (١١٤١).

(٢) حكاه ابن عبد السلام، راجع تحقيق زاد المسير في علم التفسير لابن الجوزي (٢٥٦/٩).

(٣) صحيح مسلم برقم (٣٠٢٤)، وسنن النسائي الكبرى (١١٧١٣)، وفي ط الرسالة (١١٦٤٩)، والمعجم الكبير للطبراني (٣١٩/١٠)، والحديث عند ابن أبي شيبة (١٠٤/١٤).

- ١- لأنها دلّت على نفي النبي ﷺ ودُنُوْ أجله، وقد عرف الصحابة ذلك، حين خطب النبي ﷺ وقال: «إِنَّ اللهَ خَيْرُ عَبْدٍ بَيْنَ الدُّنْيَا وَبَيْنَ مَا عِنْدَهُ، فَاخْتَارَ مَا عِنْدَ اللهِ»^(١).
- ٢- ولدلالة السورة على حصول التمام والكمال للدعوة الإسلامية، بحصول النصر والفتح، ودخول الناس في دين الله أفواجاً.
- ٣- ولأن الله تعالى قد أمر رسوله ﷺ بالتسبيح والتحميد والاستغفار، شُكراً لله تعالى على الفتح والنصر، وتنبهاً له على أن تبليغ الدعوة قد تم وكُمُل، وهذا يقتضي انقضاء الأجل.
- عن عائشة رضي الله عنها قالت (كان رسول الله ﷺ يُكثِرُ في آخر أمره من قول سبحان الله وبحمده، أَسْتَغْفِرُ اللهَ وَأَتُوبُ إِلَيْهِ) قالت: فقلت: يا رسول الله، مَالِي أُرَاكَ تَكثُرُ مِنْ قَوْلٍ: سُبْحَانَ اللهِ وَبِحَمْدِهِ أَسْتَغْفِرُهُ وَأَتُوبُ إِلَيْهِ قَالَ ﷺ: «إِنْ رَبِّي عَزَّ وَجَلَّ كَانَ قَدْ أَخْبَرَنِي أَنِّي سَأَرَى عَلَامَةً فِي أُمَّتِي، وَأَمَرَنِي إِذَا رَأَيْتَهَا أَنْ أَسْبِحَ بِحَمْدِهِ وَأَسْتَغْفِرُهُ، إِنَّهُ كَانَ تَوَاباً»، فَقَدْ رَأَيْتَهَا: ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ ۖ﴾ الخ السورة^(٢).
- لقد كان النبي ﷺ شديد الحرص على إيمان الناس، قَلِقاً على مستقبل الدعوة، فلما رأى ﷺ علامة ربه في الأمة، فَتُحِتِ البلاد المغلقة، والقلوب المقفلة، أدرك ﷺ أن واجبه في الأرض قد كَمُل، وأنه سيلقى ربه قريباً، فأقبل على ربه يشكره ويثني عليه، ونزلت عليه سورة النصر، وكان في هذا نعيه ﷺ للناس، ودلالة على قرب أجله بتمام الفتح والنصر، واللحوق بالرفيق الأعلى بعد كمال الرسالة، فأسرَّ عليه الصلاة والسلام بذلك إلى فاطمة رضي الله عنها كما سيأتي في الحديث الرابع، وأكثر من الصلاة والتسبيح والتحميد والاستغفار، وأشار ابن عباس رضي الله عنهما إلى هذا في رواياته السابقة، وفيها توديع للدنيا بعد فتح مكة، ودخول الناس في دين الله جماعات جماعات.
- ٥ - السورة تنعي رسول الله ﷺ:

١ - يشهد لهذا ما صح عن ابن عباس رضي الله عنهما أن عمر ؓ كان يُدخل ابن

(١) ينظر حديث أبي سعيد الخدري في البخاري (٤٦٦).

(٢) المسند (٣٥/١) برقم (٢٥٥٠٨) (٢٤٠٦٥) وهذا لفظه، وهو بإسناد صحيح على شرط مسلم ورجال ثقات

(محققوه)، وابن حبان (٦٤١١)، والبيهقي في الشعب (٢٥٢٩) وغيرهم، وصحيح مسلم برقم (٤٨٤).

عباس وهو صغير على كبار الصحابة ويُجلسه معهم، فدعاه ذات يوم، وسأل شيوخ بدر: ما تقولون في قوله تعالى ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ﴾؟ فقال بعضهم: أمرنا أن نحمد الله ونستغفره إذا نُصِرنا وفتح علينا، وسكت بعضهم فلم يقل شيئاً. فقال عمر ما تقول يا ابن عباس؟ فقال: هو أجل رسول الله ﷺ أعلمه له بظهور علاماته، وهو النصر والفتح، فقال عمر: ما أعلم منها إلا ما تقول^(١). ولما نزلت سورة النصر أخبر عليه الصلاة والسلام أن نفسه نُعيت إليه، وأنه مقبوض في تلك السنة.

٢- ولما نزلت السورة في منى بكى عمر والعباس رضي الله عنهما فُسَيْلاً عن السبب، فقالا: فيها نعي رسول الله ﷺ فقال ﷺ: «صدقتما نُعِيتُ إِلَيَّ نَفْسِي»^(٢).

٣- وعن سعيد بن جبيرة عن ابن عباس أن عمر رضي الله عنهم سأله عن قوله تعالى: ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ﴾ قالوا: فَتَحَ الْمَدَائِنَ وَالْقُصُورَ، قال: ما تقول يا ابن عباس: قال: أَجَلٌ، أَوْ مَثَلٌ ضَرِبَ لِمُحَمَّدٍ ﷺ نُعِيتُ لَهُ نَفْسُهُ^(٣).

٤- وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: لما نزلت ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ﴾ دعا رسول الله ﷺ فاطمة، فقال: «إِنَّهُ نُعِيتُ إِلَيَّ نَفْسِي» فَبَكَتْ، فقال لها: «لَا تَبْكِي فَإِنَّكَ أَوَّلُ أَهْلِي لِأَحَقِّ بِي»، فضحكت..^(٤).

٥- وأخبر ابن عباس عن عكرمة أنه لما نزلت السورة اجتهد النبي ﷺ أشد ما يكون الاجتهاد في أمر الآخرة، وطلبه مرضاة ربه، وقال بعد ذلك: «جاء الفتح والنصر، وجاء أهل اليمن»، فقال رجل وما أهل اليمن؟ قال: «قوم رقيقة أفئدتهم، لينة قلوبهم، الإيمان

(١) راجع نص الحديث في صحيح البخاري برقم (٣٦٢٧، ٤٤٣٠، ٤٩٧٠)، والترمذي (٣٣٦٢)، والمسند (٣١٢٧)، وفي الفتح الرباني (ج ١٨) (ص ٣٤٠)، والطبراني (١٠٦١٦)، والبيهقي (١٦٧/٧)، وسنن النسائي الكبرى (١١٦٤٧، ٧٠٤٠، ٣٩٠٤، ٣٦٥٤).

(٢) ينظر الآثار الواردة في ذلك في الدر المنثور (٧٢٢/١٥) وما بعدها.

(٣) ينظر صحيح البخاري (٤٩٦٩) وأخرجه ابن مَزْدُوَيْه أيضاً.

(٤) رواه الطبراني في الكبير والأوسط ورجاله رجال الصحيح غير هلال بن خباب وهو ثقة وفيه ضعف، انظر: الحافظ الهيثمي في مجمع الزوائد ومنبع الفوائد (ج ٩ ص ٢٣)، والبيهقي في دلائل النبوة (١٦٧/٧).

والفقه يمان، والحكمة يمانية»^(١).

٦- وكان عليه الصلاة والسلام قبل موته يكثر من قوله: «سبحانك اللهم وبحمدك، أستغفرك وأتوب إليك» فسألت أم سلمة: رسول الله ﷺ عن سبب ذلك، فأخبرها أنه أمر بذلك في سور النصر^(٢).

٧- قالت عائشة رضي الله عنها: ما سمعت رسول الله ﷺ منذ أنزلت هذه السورة إلا يقول مثلها «سبحانك اللهم ربنا ولك الحمد، اللهم اغفر لي»^(٣).

وهذا يفيد أن السورة نزلت بعد فتح مكة، لما في هذه الأدلة من قرب أجل النبي ﷺ بعد تحقيق فتح البلاد، والنصر على العباد، والأمر بكثرة التسبيح والاستغفار، والتهيؤ للقاء الله تعالى، وأن حياته الدنيوية قد أوشكت على الانتهاء، وبالتالي انتهاء أعمال الطاعات والقربات، فلم يبق إلا سؤال الله تعالى التجاوز عما يعرض للإنسان من استغلاله لبعض الحظوظ الدنيوية.

وطالّب الدنيا هم الذين يندون الاستمتاع بثمرات النصر الذي أحرزوه، ولكن النبي ﷺ وهو في قمة السلطة، وقد اندحرت جميع القوى أمام جيشه وانحسر المدّ الروماني وراء حدود الجزيرة، واستسلمت له المستوطنات اليهودية، ومع هذا فإنه ﷺ قد مات ودرعه مرهونة عند يهودي في طعام أتى به لأهل بيته!!

(١) رواه الطبراني في الكبير (١١٩٠٣، ١١٩٠٤) والأوسط، وأحد أسانيد رجاله رجال الصحيح، المجمع (٢٣/٩)، وسنن النسائي الكبرى برقم (١١٦٤٨)، وفي السنن برقم (٧٣٢)، وفي المسند برقم (٧٧٠٩) بتصحيح أحمد شاكر، وفي الدارمي (٣٧/١)، والطبري (٣٣٢/٣٠)، وابن حبان (٧٢٩٨).

(٢) رواه الطبراني في الصغير ورجال الصحيح، المجمع (٢٣/٩)، وتفسير الطبري (٢١٦/٣٠)، وانظر الفتح الرباني (ج ١٨) (ص ٣٤١).

(٣) هذا لفظ ابن جرير (٧١٠/٢٤)، وينحوه في البخاري (٤٩٦٧)، ومسلم (٤٨٤)، وابن حبان (٦٤١١)، والبيهقي في الشعب (٢٥٢٩) وغيرهم.

تَفْسِيرُ السُّورَةِ

النُّصْرُ وَالْفَتْحُ

١- ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ﴾

هذا امتنان من الله تعالى على رسول ﷺ بحصول النصر له على أعداء الإسلام، وافتتح مكة، ودخول الناس في دين الله أفواجاً وجماعات، بعد أن كانوا أعداء محاربين له، وكل ذلك قد تحقق:

أمثلة من نصر الله تعالى لنبيه:

بدأت الآية بالنصر قبل الفتح، لأن النصر سبب الفتح: ونصر الله تعالى لنبيه في المعارك الإسلامية واضح في معارك كثيرة، وكذلك نصره ﷺ بعوامل طبيعية ليس فيها حرب ولا قتال، ومن ذلك:

١- إلقاء الرعب في قلب العدو يوم بدر، واشتراك الملائكة في القتال، وتكثير عدد المسلمين في نظر العدو.

٢- وكما حدث في غزوة الأحزاب من تسليط الريح على العدو، فتقتلع خيامه، وتقلب قدوره، وتجعله يولي الأدبار، ويردّهم الله بغیظهم لم ينالوا خيراً، وكفى الله المؤمنين القتال.

٣- وكما حدث في بني قريظة من اليهود، حيث قذف الله الرعب في قلوبهم، فأخذ المسلمون يأسرون فريقاً ويقتلون فريقاً، بعد أن نصرهم الله عليهم ومكّنهم من رقابهم، وأورثهم أرضهم وديارهم وأموالهم.

٤- وهكذا حدث النصر في يوم خيبر، حيث استسلموا لأمر النبي ﷺ ونزلوا على شروطه.

٥- ويوم فتح مكة، نصر الله رسوله حيث حُطّمت الأصنام، وعُبد الواحد القهار، بلا حرب ولا قتال.

٦- وهكذا حصل النصر في سائر الفتوحات على أيدي قادة المسلمين المخلصين الجديرين بنصر الله تعالى لهم: ﴿وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ لَكُمْ وَلِتَطْمَئِنَّ قُلُوبُكُم بِهِ ۖ وَمَا النِّصْرُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ﴾ [آل عمران: ١٢٦].

قال ابن شهاب: غزا رسول الله ﷺ غزوة الفتح - فتح مكة - فخرج من المدينة في رمضان، ومعه من المسلمين عشرة آلاف، وذلك على رأس ثمان سنين ونصف سنة من مَقْدَمِهِ المدينة، وافتتح مكة لثلاث عشرة بقيت من رمضان^(١).

أهل النصر في كل زمان ومان:

وهكذا ينصر الله سبحانه المؤمنين في كل زمان ومكان، من كل من ينصر دين ربه، ويكون أهلاً للنصر باتباعه منهج الله تعالى والعمل على إصلاح البشر، والولاء أولاً وأخيراً لله وحده كما قال تعالى: ﴿وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الروم: ٤٧].

وقال سبحانه: ﴿إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ ءَامَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهُدُ﴾ [غافر]. وقال جل شأنه: ﴿وَلَنَنْصُرَنَّكَ اللَّهُ مِنْ نَصْرِهِ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ [٤٠] الَّذِينَ إِنْ مَكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَءَاتَوْا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ ۗ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالْأُمُورِ﴾ [الحج: ٤١]. وقال عز وجل: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنْ نَصُرُوا اللَّهَ يَنْصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ﴾ [محمد: ٧].

وعلى المسلمين إذا لم يتحقق لهم النصر على عدوهم، أن يراجعوا أنفسهم، ويتلمسوا جوانب التقصير فيهم، ويذرسوا أسباب الهزيمة، فالمساواة بالعدو في المعاصي والآثام، تجعله يتفوق علينا بالعتاد والعدة وقوة السلاح، ولا بد من الأخذ بأسباب النصر المادية، وتصنيع الأسلحة الحديثة، والاعتماد على النفس فيها.

أقول: لا سلاح مع الأخذ بالأسباب المادية أقوى من سلاح الإيمان، كما هو مقرر وثابت قديماً وحديثاً، والسلاح القليل مع الإيمان الكثير، أقوى في ساحة المعارك، من السلاح الكثير والإيمان القليل ﴿كَمْ مِنْ فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ [البقرة: ٢٤٩] إنه نصر الله

(١) ينظر هذا المعنى عند البخاري عن ابن عباس (٤٢٧٦)، (١٩٤٤)، وفي مسلم (١١٣) عن ابن عباس، وفي البيهقي (٢١/٥).

تعالى، يجيء به الله، في الوقت الذي يقدره الله، وفي الصورة التي يريدتها الله، وللغاية التي يرسمها الله، يُجرّيه سبحانه على أيدي من يشاء من عباده، فيقيمهم عليه خُرَاساً، ويجعلهم عليه أماناً.

فتح مكة هو المقصود في السورة:

واتفق جمهور المفسرين على أن المراد بالفتح في السورة فتح مكة، وأن حدوثه يدل على صدق محمد ﷺ ففيه ظهوره على قومه، وفيه ظفّره بالحرم، بعد أن أجاز الله أهل الحرم من أصحاب الفيل، وحمى حرمة منهم، وأظهر دينه بفتح مكة، وكانت العرب تنتظر هذا الفتح لما فيه من الدلالة على نبوته ﷺ.

وقد قال العرب بعد فتح مكة: لا طاقة لكم بمحمد، فكان الناس يدخلون في دين الله أفواجاً أفواجا، بعد أن كانوا يدخلونه واحداً واحداً، واثنين اثنين، فأظهرت جميع القبائل دخولها في الإسلام، ولم يمت النبي ﷺ وفي عرب الحجاز ونجد واليمن من لم يدخل في الإسلام، بل دخل الجميع في الإسلام بعد خُنين والطائف، منهم مَنْ قَدِمَ بنفسه على النبي ﷺ ومنهم من قدم وفده ورسوله إلى النبي ﷺ.

وقد ذكر بعض المفسرين فتح مكة وأحداثها في هذه السورة، بناء على أن المراد بالفتح فيها هو فتح مكة.

وعلى هذا فالسورة بمثابة تهنئة للنبي ﷺ بالفتح والنصر، وأمر له أن يسبح ربه ويحمده ويستغفره بعد الفتوح التي فتحت عليه، مكة وغيرها:

١ - ولما فُتحت مكة وأسلمت العرب أخذ ﷺ يُكثِرُ أن يقول:

«سبحانك اللهم وبحمدك، اللهم اغفر لي»^(١).

٢ - ويؤيد هذا حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال يوم الفتح:

(١) جاء ذلك عن عائشة في المسند (٢٦١٦١) بإسناد صحيح على شرط مسلم (محققوه)، وعن ابن مسعود (٣٧١٩) حسن لغيره، وهو عند مسلم (٤٨٤)، والطبراني في الدعاء (٦٠٤)، وغيرهم.

«هذا ما وعدني ربي، ثم قرأ إذا جاء نصر الله والفتح»^(١).

٣ - وكان النبي ﷺ قد أخبر أنه سيرى علامة في أمته، وأنه أمر إذا رآها أن يسبح بحمد الله ويستغفره قال: «فقد رأيتهما، وقرأ: إذا جاء نصر الله...» الخ^(٢).

٤ - وعن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: (لما نزلت هذه السورة ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ﴾ قرأها رسول الله ﷺ حتى ختمها ثم قال: «أنا وأصحابي حَيِّزٌ، والناس حَيِّزٌ لا هجرة بعد الفتح ولكن جهاد ونية»^(٣).

٥ - وعن مسروق عن عائشة رضى الله عنها قالت: (كان رسول الله ﷺ يكثر أن يقول قبل أن يموت سبحانك ويحمدك، أستغفرك وأتوب إليك) قالت: قلت: يا رسول الله، ما هذه الكلمات التي أراك أحدثتها تقول، قال: «جُعِلَتْ لي علامة في أمي إذا رأيتهما قُلْتُهَا: إذا جاء نصر الله والفتح إلى آخر السورة»^(٤).

٦ - وفي رواية ابن أبي شيبه: فقد رأيتهما وهي فتح مكة^(٥).

تحقيق وترجيح لوقت نزول السورة:

فإذا قلنا إن نزول السورة كان في حجة الوداع، في أواخر العام العاشر للهجرة، في شهر ذي الحجة، أيام التشريق الثلاثة بمنى، وأن النبي ﷺ قد توفي في يوم الإثنين الثاني عشر من شهر ربيع الأول من العام الحادي عشر للهجرة، فمعنى هذا أن النبي ﷺ عاش

(١) رواه الطبراني في الأوسط ورجاله ثقات، مجمع الزوائد للهيتمي (ج ٩ ص ٢٣).

(٢) انظر النص في الفتح الرباني لترتيب مسند الإمام أحمد (ج ١٤ ص ٢٣٠)، وأخرجه مسلم برقم (٤٨٤).

(٣) صححه الحاكم ووافقه الذهبي (٢/٢٥٧)، وعزاه الهيتمي في مجمع الزوائد (٥/٢٥٠) إلى الطبراني وأحمد، وقال: رجال أحمد رجال الصحيح وهو في المسند دون «أنا وأصحابي حيز والناس حيز»، وقال محققو المسند: صحيح لغيره دون قوله «أنا وأصحابي حيز والناس حيز» وهو برقم (١١١٦٧، ٢١٦٢٩)، وأخرجه الطيالسي (٩/٢٣) برقم (٢٣١٩)، وابن أبي شيبه (١٤/٤٩٨).

(٤) صحيح مسلم (٤٨٤)، وابن أبي شيبه (١٠/٢٥٨)، والطبري (٢٤/٧٠٦)، وانظر: تخريجه فيما سبق تحت عنوان (سورة التوديع).

(٥) ينظر: ابن أبي شيبه (١/٢٥٨).

بعد نزول السورة نحو سبعة وثمانين يوماً، وهذا وقت يسير ومتقارب في عدد هذه الأيام، بخلاف القول بأنها نزلت سنة سبع من الهجرة عقب منصرف النبي ﷺ من خيبر، فإن فتح مكة المراد في الآية لم يكن قد حدث بعد. وهو أثر ضعيف لا يقوى أمام الأدلة المتضافرة على أنها نزلت بعد ذلك.

وعلى هذا فإن لفظ ﴿إِذَا﴾ من قوله تعالى: ﴿إِذَا جَاءَ﴾ بمعنى قد، أي قد حصل وتحقق فعلاً الفتح والنصر، ودخل الناس في دين الله أفواجاً، فلم يبق أمامك - أيها الرسول - إلا التسبيح والتحميد والثناء والشكر على تمام نعمة الله عليك، وقد ذكر القرطبي وأبو السعود وغيرهما هذا المعنى.

وعليه: فإن القول بنزول السورة في منى أيام التشريق من حجة الوداع، هو الصحيح، للأدلة التي تنعي النبي ﷺ عند نزول السورة والتي سقنا بعضها في مطلع كلامنا عن هذه السورة. هذا أولى من القول بنزولها قبل فتح مكة، وأن المراد بالفتح ما هو أعم من ذلك، بحيث يشمل كل ما فُتح في عهده ﷺ كفتح مكة واليمن، وما بُشِّر بفتحه، كالشام والعراق والمدائن، والله أعلم.

أقول: ولهذا كبر النبي ﷺ يوم فتح مكة، وكبر يوم عِلْمِهِ بفتح اليمن، وقال في كليهما: جاء نصر الله والفتح.

فُتُوحَاتُ فِي الْعَهْدِ النَّبَوِيِّ

٢- ﴿وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجًا﴾

أطلق القرآن الكريم على صلح الحديبية (فتحاً) لأنه كان المقدمة للفتح الأكبر (فتح مكة) ففتح الحديبية وفتح مكة أعظم الفتوح، لأن الأول كان تمهيداً للثاني، ولأن الثاني قضى على دولة الشرك في الجزيرة، وكان الأول في العام السادس للهجرة، والثاني في العام الثامن للهجرة.

وقد جاءت الوفود إلى المدينة، تعلن إسلامها وتدخل في دين الله أفواجاً في العام

التاسع للهجرة.

وأرسل النبي ﷺ وفداً إلى اليمن بعد فتح مكة يدعوهم إلى الإسلام، وجاء وفد اليمن معلنين إسلامهم.

وقدم عليّ ؓ من اليمن في العام العاشر في موسم الحج، ففتحت اليمن في حياته ﷺ. ويؤيد هذا قول ابن عباس رضي الله عنهما قال: بينا رسول الله ﷺ بالمدينة، إذ قال: «الله أكبر، جاء أهل اليمن، الله أكبر، جاء نصر الله والفتح.. الخ»^(١).

أقول: ولعل رواية ابن عباس هذه كانت بعد عودة النبي ﷺ إلى المدينة من حجة الوداع، وبعد قدوم عليّ ؓ من اليمن. فتوحات بشر بها النبي ﷺ:

وكما أخبر عليه الصلاة والسلام بفتح اليمن أخبر كذلك بفتح الشام والعراق، كما في الموطأ عن سفيان بن أبي زهير، وقال بعد البشارة بفتح البلاد الثلاث: «والمدينة خير لهم لو كانوا يعلمون»^(٢).

قال ﷺ ذلك لمن أراد أن يرحل عن المدينة إلى هذه البلاد المفتوحة حديثاً. وفي غزوة الأحزاب يوم حفر الخندق، حين عَرَضَتْ صخرة للصحابة لم يَقْوُوا عليها، فتصدى لها النبي ﷺ وضربها ثلاث ضربات تفتت منها الصخرة وخرج منها نور، عندئذ أخبر النبي ﷺ بأن الله تعالى سيفتح على أمته مدائن كسرى ومدائن قيصر، ومدائن الحبشة، ودعا النبي ﷺ لأُمته بعد البشيرة بفتح مدائن كسرى وقيصر، ولم يدع لهم في الحبشة وقال: «دعوا الحبشة ما ودَّعوكم»^(٣).

(١) الفتح الرباني لترتيب المسند (ج ١٨ ص ٣٤٢).

(٢) راجع الحديث في موطأ الإمام مالك من رواية يحيى الليثي حديث رقم (١٥٩٩).

(٣) حسنه الشيخ الألباني في صحيح الجامع الصغير رقم (٣٣٧٩)، وانظر: تخريجه في سلسلة الأحاديث الصحيحة رقم (٧٧٢) مع رواياته، والحديث في سنن النسائي الكبرى (٤٣٧٠)، وأبى داود (٤٣٠٢)، وفي التحفة (١٥٦٨٩).

انتشار الإسلام:

وأوماً القرآن الكريم إلى أن الناس سيأتون إلى الحج من كل فج عميق، وهذا لا يكون إلا بعد انتشار الإسلام في الشرق والغرب والشمال والجنوب، في الأماكن البعيدة من المعمورة، بعد دخولهم في دين الله، فلا يأتي إلى الحج إلا المسلم، كما أوماً إلى استمرار النصر لهذا الدين، وأنه يزداد عند حصول التسييح بحمد الله والاستغفار، فإن هذا من الشكر، والشكر يزيد النعم، ﴿لَيْنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ﴾ وقد فتحت البلاد في عهد الخلفاء الراشدين، ولم يزل النصر مستمرا ولم يزل الناس يدخلون في دين الله إلى يوم الناس هذا.

شُكْرُ اللَّهِ تَعَالَى عَلَى النَّصْرِ وَالْفَتْحِ

٣- ﴿فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَأَسْتَغْفِرْهُ^(١) إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا

أي فإذا حصل هذا النصر والفتح فقابل به بالشكر والثناء والتزيه والتقديس لله عز وجل على ما أولاك الله به من نعمة، وخصّك به من نصر، وسبح بحمد ربك لنصر دينه، ونشر دعوته، واستغفر لربك.

وليس في الآية أمر للنبي ﷺ بالاستغفار من ذنب، فقد يكون الاستغفار طاعة وتقرباً ودعاءً، وقد يكون من ذنب، بالنسبة لغير الأنبياء، وحسنات الأبرار سيئات المقربين. وعلى هذا فالمراد: استغفر لذنبك مما يكون قد ساور قلبك من الضيق حال الشدة، أو من استبطاء النصر، أو من التقصير في حمد الله وشكره، أو من الزهو والشعور بالفخر، وما يعتري النفس حال انتصارها على عدوها، وفزحتها بالظفر عليه. استغفر لذنبك من مخالفة ما هو أولى من الأمور، واستغفر لذنبك لرفع درجاتك عند الله عز وجل.

(١) قرأ ابن كثير بصلة هاء الضمير بحرف مد من ﴿وَأَسْتَغْفِرُ﴾ وصلأ وحذفها وقفأ، والباقون بحذفها في الحاليين.

واستغفر لذنبك تعليمًا لأمتك، فإنَّ من لازم الاستغفار جعل الله له من كل هم فرجاً، ومن كل ضيق مخرجاً، وكان في أمان من عذاب الله تعالى:

﴿وَمَا كَانَتْ أَلَهَ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ وَمَا كَانَتْ أَلَهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾ [الأنفال: ٣٣].

استغفر لذنبك، فإن الاستغفار في حد ذاته طاعة وقربى إلى الله عز وجل، كالنسيح والتحميد.

واستغفر - يا رسول الله - لذنوب أمتك، واستغفر لما عسى أن يكون قد وقع منك من اللوم.

استغفر لذنبك هضماً للنفس واستقصاراً للعمل، واستعظماً لحق الله تعالى عليك. وداوم على التسبيح بحمد الله تعالى وداوم على الاستغفار والتوبة، شكراً لنعم الله عليك وعلى أمتك، فإن هذا يناسب النصر والفتح الذي منحك الله إياه، والشكر يزيد النعم ويديمها، وفيه زيادة في التواضع، وإظهار الافتقار إلى الله تعالى.

وفي الاستغفار توبة ورجعة إلى الله عز وجل، وطلب لمغفرة الذنوب، وختم للأعمال بالتوبة، والله تعالى تواب رحيم، يغفر ذنب من تاب، وإلى ربه رجوع وأتاب.

هذه المعاني وغيرها يحتملها الأمر للنبي ﷺ بالاستغفار في الآية.

وقد كان ﷺ يكثر منه بعد نزول السورة.

وقيل: إن المراد بالتسبيح: الصلاة، ومنها: صلاة الشكر لله تعالى على ما أفاء الله عليه به من فتح ونصر.

وقد ثبت هذا من صلاة النبي ﷺ يوم فتح مكة وقت الضحى، ثماني ركعات، ويُسْتَحَبُّ لأمير الجيش إذا فتح بلداً، أن يصلي فيه أول ما يَدْخُلُهُ، ثماني ركعات، كما فعل النبي ﷺ وهكذا فعل سعد بن أبي وقاص يوم فتح المدائن^(١).

(١) تفسير ابن كثير (٥١١/٨).

والتسبيح جزء من الصلاة، فأطلق القرآن البعض وأراد الكل، وإذ قد أدت الأمانة -أيها الرسول - وبلغت الرسالة، فعليك أن تتأهب لملاقاة ربك، فإن أجلك قد دنا، وعمرك عمر فاضل أقسم الله به في قوله ﴿لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِي سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ ﴿٧٢﴾ [الحجر] والأمور الفاضلة كالصلاة والحج تختتم بالاستغفار، فأمر الله لك بالحمد والاستغفار إشارة إلى أن أجلك قد أوشك على الانتهاء، فاستعد وتهيئاً للقاء ربك، واختتم عمرك بالإكثار من التسبيح والتحميد، وكان النبي ﷺ يفعل ذلك بعد نزول هذه السورة.

في فضل التسبيح بحمد الله:

أمر النبي ﷺ أن يشكر ربه على النصر والفتح، وأن يستبح ربه متلبساً بحمده. والتسبيح والتحميد كلمتان خفيفتان على اللسان، ثقيلتان في الميزان، حبيبتان إلى الرحمن، وهما أحب الكلام إلى الله تعالى، لما فيهما من تنزيه الله تعالى وشكره: ١- قال عليه الصلاة والسلام لأبي ذر رضي الله عنه: «ألا أخبرك بأحب الكلام إلى الله؟» فقال: «إن أحب الكلام إلى الله: سبحان الله وبحمده»^(١).

٢- وقال عليه الصلاة والسلام فيما يرويه أبو هريرة رضي الله عنه: «من قال: سبحان الله وبحمده في يوم مئة مرة غفرت له ذنوبه، وإن كانت مثل زبد البحر»^(٢). ٣- وقال عليه الصلاة والسلام من حديث أبي هريرة أيضاً: «لأن أقول: سبحان الله، والحمد لله، ولا إله إلا الله، والله أكبر، أحب إلي مما طلعت عليه الشمس»^(٣).

٤- وأخبر عليه الصلاة والسلام في حديث أم المؤمنين جُوَيْرِيَةَ رضي الله عنها عن الأجر العظيم الذي أعدّه الله تعالى لمن قال ثلاث مرات: «سبحان الله وبحمده، عدد

(١) رواه مسلم برقم (٢٧٣١)، والنسائي في الكبرى (١٠٥٩٢)، والترمذي (٣٥٩٣)، والمسنَد (٢١٣٢٠) وانظر: الترغيب والترهيب، باب الترغيب في التسبيح والتكبير والتلهيل.

(٢) رواه البخاري (٦٤٠٣، ٦٤٠٥)، ومسلم (٢٦٩١)، والترمذي (٣٤٦٤)، والنسائي عن أبي هريرة، والمسنَد (٨٠٠٩)، والموطأ (١٠٩/١)، وابن ماجه (٣٨١٢)، وابن حبان (٨٢٩).

(٣) رواه مسلم (٢٦٩٥)، والترمذي عن أبي هريرة (٣٥٩٧)، وابن حبان (٨٣٤).

خلقه، ورضاء نفسه، وزنة عرشه، ومداد كلماته»^(١). قالها ﷺ لإحدى زوجاته (جويرية) رضي الله عنها لما مكثت وقتاً طويلاً تتعبد، فأخبرها بأن هذه الصيغة تعدل هذا الوقت الطويل في الأجر.

٥ - وعن عائشة رضي الله عنها قالت: كان رسول الله ﷺ يكثر أن يقول في ركوعه وسجوده: «سبحانك اللهم وبحمدك، اللهم اغفر لي» يتأول القرآن، يعني: ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ﴾^(٢) [النصر: ١].

والأحاديث في هذا المقام أكثر من أن تحصى.

وقد أمرنا الله سبحانه بالتسبيح بحمده في العديد من الآيات الكريمة، وافتتح بهما سبحانه عدداً من سور القرآن، وأخبر عز وجل أن جميع الكائنات تسبح بحمده تعالى، ولكننا لا نفقه لغاتهم، وكل كائن من ذوات الأرواح وغيرهم عَرَفَ كيف يصلي ويسبح بحمد الله ﴿كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلَاتَهُ وَتَسْبِيحَهُ﴾ [النور: ٤١].

﴿تُسَبِّحُ لَهُ السَّمَوَاتُ السَّبْعُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِنْ لَا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ﴾ [الإسراء: ٤٤].

ومن هنا كان عليه الصلاة والسلام يكثر من التسبيح بحمد الله في آخر حياته، ولنا فيه ﷺ أسوة حسنة بالافتداء به، وتعليم أهلينا وأولادنا وذوينا وجميع المسلمين.

من فضائل الاستغفار:

أما الاستغفار فإنه سبب في سعة الرزق ونزول الخير والمطر، وكثرة المال، والولد،

(١) راجع الحديث في الترغيب والترهيب، باب الترغيب في جوامع من التسبيح والتحميد، وقد رواه مسلم برقم (٢٧٢٦)، ورواه أبو داود والنسائي في عمل اليوم والليلة (١٦٢)، وابن ماجه، والترمذي (٣٥٥٥) عن جويرية رضي الله عنها، وهو في المسند (٣٣٠٨)، حديث صحيح.

(٢) عبد الرزاق في المصنف (٧٨٧٨)، وأحمد في المسند (٢٤١٦٣، ٢٤٢٢٣)، والبخاري (٨١٧، ٧٩٤)، ومسلم (٢٨٤، ٢١٧)، وأبو داود (٨٧٧)، والنسائي (١٠٤٦)، وفي الكبرى (١١٧١٠)، وفي ط الرسالة (١١٦٤٦، ٦٣٩)، وابن ماجه (٨٨٩)، والطبري (٧٠٩/٢٤)، وابن حبان (١٩٣٠، ١٩٢٩).

وفضلاً عن ذلك، دخول الجنة، والنعيم فيها.

- ١- قال سبحانه على لسان نوح عليه السلام: ﴿فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا ۝ يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا ۝ وَيُمَدِّدُكُمْ بِأَمْوَالٍ رَيْنٍ وَيَجْعَلْ لَكُمْ جَنَّاتٍ وَيَجْعَلْ لَكُمْ أَنْهَارًا ۝﴾ [نوح: ١٠ - ١٢].
- ٢- وقال تعالى حكاية عن هود عليه السلام: ﴿وَيَقُولُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ﴾ [هود: ٥٢].
- ٣- وقال جل شأنه: ﴿وَمَنْ يَعْمَلْ سُوءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ اللَّهَ يَجِدِ اللَّهَ غَفُورًا رَحِيمًا﴾ [النساء: ١١٠].

ولا يلزم أن يكون الاستغفار من ذنب، فهو عبادة كالتمسيح، ولهذا كان عليه الصلاة والسلام يستغفر الله ويتوب إليه في اليوم مئة مرة.

- ١- كما في حديث الأغر المزني عليه السلام أن رسول الله ﷺ قال: «إِنَّهُ لِيُغَانِ عَلَى قَلْبِي، وَإِنِّي لَأَسْتَغْفِرُ اللَّهَ فِي الْيَوْمِ مِائَةَ مَرَّةٍ»^(١).
- ٢- وعن أبي هريرة عليه السلام أن النبي ﷺ قال: «وَاللَّهِ إِنِّي لَأَسْتَغْفِرُ اللَّهَ وَأَتُوبُ إِلَيْهِ فِي الْيَوْمِ أَكْثَرَ مِنْ سَبْعِينَ مَرَّةً»^(٢).

ويكون الاستغفار سبباً لتفريج الهم والكرب والغم، والخروج من الضيق والشدائد، وجلب الرزق من حيث لا يحتسب المرء:

جاء في الأثر عن ابن عباس رضي الله عنهما: من لازم الاستغفار، جعل الله له من كل ضيق مخرجاً، ومن كل هم فرجاً، ورزقه من حيث لا يحتسب^(٣).

- ٣- وقال عليه الصلاة والسلام فيما يرويه أبو هريرة عليه السلام: «وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَوْ لَمْ تَذْنِبُوا، لَذَهَبَ اللَّهُ بِكُمْ، وَلَجَاءَ بِقَوْمٍ يُذْنِبُونَ، فَيَسْتَغْفِرُونَ اللَّهَ تَعَالَى فَيَغْفِرُ لَهُمْ»^(٤).

(١) أخرجه مسلم عن الأغر بن يسار المزني برقم (٢٧٠٢)، وأبو داود (١٥١٥)، وجاء من طرق أخرى.
 (٢) البخاري (٦٣٠٧)، وابن ماجه (٣٨١٥)، والترمذي (٣٢٥٩)، والنسائي في الكبرى (١٠١٩٦)، والمسند (٧٧٩٣).
 (٣) أخرجه أبو داود عن ابن عباس (١٥١٨)، وابن ماجه (٥٨١٤)، والمسند (٢٢٣٤)، وفي إسناده الحكم بن مصعب قال الذهبي فيه جهالة.
 (٤) أخرجه مسلم عن أبي هريرة برقم (٢٧٤٩).

وليس في هذا حمل للمسلم على الوقوع في الذنب، بل هو بيان لطبيعة الإنسان، وسعة رحمة الله تعالى للمستغفرين.

٤- وفي الحديث القدسي عن أنس رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال فيما يرويه عن ربه عز وجل: «يا ابن آدم: إنك ما دعوتني ورجوتني غفرت لك على ما كان منك ولا أبالي، يا ابن آدم: لو بلغت ذنوبك عنان السماء، ثم استغفرتني غفرت لك ولا أبالي، يا ابن آدم: لو أتيتني بقراب الأرض خطايا، ثم لقيتني لا تشرك بي شيئاً، لأتيتك بقرابها مغفرة»^(١).

٥ - وفي الحديث القدسي أيضاً عن أبي ذر رضي الله عنه عن النبي ﷺ فيما يرويه عن ربه قال: «يا عبادي إنكم تخطئون بالليل والنهار، وأنا أغفر الذنوب جميعاً فاستغفروني أغفر لكم»^(٢).

٦ - وفي حديث شداد بن أوس رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «سيد الاستغفار أن يقول العبد: اللهم أنت ربي لا إله إلا أنت، خلقتني وأنا عبدك وأنا على عهدك ووعدك ما استطعت، أعوذ بك من شر ما صنعت، أبوء بنعمتك عليّ، وأبوء لك بذنبي، فاغفر لي، فإنه لا يغفر الذنوب إلا أنت، من قالها بالنهار موقناً بها، فمات من يومه قبل أن يمسي فهو من أهل الجنة، ومن قالها بالليل، وهو موقن بها، فمات قبل أن يصبح فهو من أهل الجنة»^(٣).

فكيف لا يكثر العبد من الاستغفار؟ وكيف لا يقبل على ربه كلما ألمّ بذنب؟ ولا سيما في مظانّ الإجابة كوقت السحر، وعصر الجمعة، وسائر الأيام والليالي الفاضلة؟ ﴿إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا﴾ يغفر سبحانه لمن تاب، ويفرح بتوبة عبده، ويقبل توبة العبد ما لم يغرر، ويسقط يده بالليل ليتوب مسيء النهار، ويسقط يده بالنهار ليتوب مسيء الليل حتى تطلع الشمس من مغربها، ويتوب الله على من تاب، والله تعالى يغفر كل ذنب حتى الشرك والكفر بالله تعالى إذا تاب العبد منه.

(١) رواه الترمذي عن أنس (٣٥٤٠) وقال: حديث حسن.

(٢) من حديث طويل أخرجه مسلم عن أبي ذر الغفاري في كتاب البر باب تحريم الظلم رقم (٢٥٧٧).

(٣) البخاري (٦٣٠٦).

ومهما أسرف العبد على نفسه في ارتكاب الذنوب، ثم رجع إلى ربه، وعرف أن له رباً يغفر الذنوب ويستر العيوب، تاب الله عليه، وغفر له ذنبه ﴿إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ [الزمر: ٥٣] وعلى العبد أن يُقبل بقلبه على ربه، وعدم الإصرار على الذنب أو معاودته، وأن يعزم عزمًا أكيداً على عدم معاودة الذنب، ويُخلص في ذلك، فإن ضعفت نفسه، وغلبه الشيطان والهوى، فليتب من جديد، ويسأل ربه حُسن التوبة، وليعلم أن الموت أقرب إليه من شراك نعله، لا يفرق بين صغير وكبير، ولا بين صحيح ومريض، ولا بين غني وفقير، حتى يلقي العبد ربه وما عليه شاهد بذنوب.

تم تفسير (سورة النهر) والله الحمد والمنة

تَفْسِيرُ سُورَةِ الْمَسَدِ (١١١)

مُقَدِّمَةُ السُّورَةِ

١ - (سورة المسد) هي السورة الحادية عشرة بعد المئة في ترتيب المصحف، والسادسة في ترتيب النزول، نزلت في السنة الرابعة من البعثة بعد (سورة الفاتحة) وقبل (سورة التكويد).

وهي خمس آيات، وعشرون كلمة، وسبعة وسبعون حرفاً، وهي سورة مكية باتفاق. وتسمى (سورة المسد) و (سورة تبت) وسماها بعضهم (سورة أبي لهب) وعنون لها أبو حيان بـ (سورة اللهب)، فهذه أربعة أسماء.

٢- تحدثت السورة عن قصة أبي لهب، وقد كان شديد العداوة لرسول الله ﷺ يترك عمله ويتبع الرسول ﷺ ليصد الناس عنه، وقد توعدّه الله تعالى في هذه السورة تعالى بالنار الموقدة، واختص زوجته بلون خاص من العذاب، بتطويق عُقْهَا بحبل من ليف لُتْجَذَبَ به إلى النار، فقد كانت امرأة شريرة متسلّطة، شديدة العداوة للنبي ﷺ. وزوجة أبي لهب (أروى بن حرب) أخت أبي سفيان، وكنيتها (أم جميل). وكان أبولهب أجراً الناس على رسول الله ﷺ وأسرعهم إلى تكذيبه، وقد انفرد من بين أعمام النبي ﷺ بالخصومة العنيفة له ﷺ ولزمها إلى أن مات.

وامتدت خصومته إلى بنات النبي ﷺ فأمر أولاده فطلقوا زوجاتهم من بنات محمد ﷺ. وقد نزلت هذه السورة في الأيام الأولى للإسلام، وكان في وسع أبي لهب أن يُكْذِبَهَا بالدخول في الإسلام، وأنّى له أن يفعل، وقد سبق علم الله تعالى بأنه لن يؤمن، وظل الرجل على عداوته للإسلام ورسول الإسلام، حتى مات، وصدق فيه قوله تعالى: ﴿سَيَصْلَى نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ﴾ (٢).

فلم تغن عنه أمواله، ولم يغن عنه نسبه، ولم يغن عنه جاهه، وقد أعمى الله زوجته

عندما أرادت أن تؤذى النبي ﷺ فصرفت بصرها عنه، فلم تره وهو أمامها، وقد حفظ الله نبيه منها ومن زوجها، وتوعدهما الله تعالى بالعذاب الأليم يوم لقاء رب العالمين، نصرة لنبيه وعبرة لأمثالهما إلى يوم قيام الساعة، من كل مَنْ وقف في وجه الدعوة إلى الله ومنع وصولها إلى الناس، ويؤذي صاحب الدعوة بشكل أو بآخر.

تَفْسِيرُ السُّورَةِ

١-٣- ﴿تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ^(١) وَتَبَّ^(٢) مَا أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ^(٣) سَيَصْلَىٰ

نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ^(٤)﴾

أبو لهب: أحد أعمام النبي ﷺ اسمه: عبد العزى بن عبد المطلب، كُنِيَ بأبي لهب: لِحُسْنِهِ وإشراق وجهه، وقد اشتهر بكنيته، وعُرف بها، فلو ذُكر باسمه ما عرفه أحد. وعبد العزى: اسم فيه شرك بالله تعالى، ومن هنا فقد عدل القرآن الكريم عن ذكر اسمه إلى كنيته التي اشتهر بها، والتي توافق مصيره في الآخرة، وهي النار ذات اللهب، فماله موافق لحاله، وليس في تكنية القرآن له تكريم ولا تشريف.

سبب نزول السورة:

١- أخرج البخاري وغيره عن عبد الله بن عباس رضي الله عنهما قال: لما نزلت ﴿وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ﴾ ﷻ صعد النبي ﷺ على الصفا فجعل ينادي: يا بني عدي، يا بني فهر، لبطون قريش، حتى اجتمعوا، فجعل الرجل إذا لم يستطع أن يخرج، أرسل رسولاً لينظر ما هو، فجاء أبو لهب وقريش، فقال ﷻ «أرايتكم لو أخبرتكم أن خيلاً بالوادي تريد أن تغير عليكم، أكنتم مصدقي؟» قالوا: نعم، ما جربنا عليك إلا صدقا، قال: «إني نذير لكم، بين يدي عذاب شديد» فقال أبو لهب: تباً لك سائر اليوم، ألهذا جمعتنا؟ فنزلت ﴿تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ^(٥)﴾.

والمراد بيد أبي لهب: ذاته ونفسه، وقد يكون المراد بها: اليد حقيقة.

وأبو لهب دعا على النبي ﷺ بالخسران والهلاك، فردَّ الله تعالى عليه قوله في هذه السورة، وتحققت فيه الدعوة.

٢- وجاءت روايات أخرى في أسباب النزول، منها أن النبي ﷺ عَمَّ في ندائه القبائل، وخصَّ أهله وعشيرته، وبيّن أنه ﷺ لن يغني عنهم من الله شيئاً إن لم يُنقِذُوا أنفسهم من

(١) سكن الهاء من ﴿أَبِي لَهَبٍ﴾ ابن كثير والباقون بفتحها، وهما لغتان.

(٢) البخاري برقم: (٤٩٧١) ومسلم برقم (٢٠٨).

النار بالإيمان به.

٣ - ومن ذلك ما أخرجه البخاري وغيره عن سعيد بن جبير عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: لما نزلت ﴿وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ﴾ ورهطك منهم المخلصين، خرج رسول الله ﷺ حتى صعد الصفا فهتف: «يا صباحاه» فقالوا: من هذا؟ فاجتمعوا إليه، فقال: «أرايتم إن أخبرتكم أن خيلاً تخرج من سفح هذا الجبل، أكنتم مصدقي؟» قالوا: ما جرننا عليك كذباً، قال: «فإني نذير لكم بين يدي عذاب شديد» قال أبو لهب: تباً لك، ما جمعتنا إلا لهذا؟ ثم قام، فنزلت ﴿تَبَّتْ يُدَىٰ أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ﴾ وقد تب، هكذا قرأها الأعمش يومئذ^(١).

٤ - وعن ابن مسعود ؓ أن النبي ﷺ لما دعا أقرباءه إلى الله تعالى، قال أبو لهب: إن كان ما تقول يا ابن أخي حقاً، فأنا أفندي نفسي بمالي وولدي، فأنزل الله تعالى: ﴿مَّا أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ﴾ وكان له مواش كثيرة وأبناء، فأخبر سبحانه أن أولاده وأمواله لن يحولوا بينه وبين عذاب الله تعالى.

صورة من كيد أبي لهب أثناء دعوة الرسول ﷺ للقبائل:

في مسند الإمام أحمد وغيره عن ربيعة بن عباد أن النبي ﷺ بينما كان يطوف على القبائل يدعوها للإسلام، ويقول لهم: «يا بني فلان: إني رسول الله إليكم، آمركم أن تعبدوا الله ولا تشركوا به شيئاً، وأن تصدقوني وتمنعوني حتى أنفذ عن الله ما بعثني به» وأبو لهب واقف خلف النبي ﷺ وهو رجل أحول، وضيء الوجه، ذو جُمَّه، فإذا فرغ النبي ﷺ من مقالته، قال أبو لهب يا بني فلان: هذا يريد منكم أن تسليخوا اللات والعزى وحلفاءكم من الجن.. فضلاً عما جاء به من البدعة والضلالة، فلا تسمعوا له ولا تتبعوه، قال الراوى فقلت لأبى من هذا؟ قال عمه أبو لهب^(٢).

(١) البخاري (٤٨٠١، ٤٩٧١)، ومسلم (٢٠٨)، والترمذي (٣٣٦٣)، والنسائي في الكبرى (١٠٧٥٣، ١١٣٦٢)، والمسند (٢٥٤٤)، وابن حبان (٦٥٥٠)، والطبري (٦٥٩/١٧)، وابن أبي حاتم (٢٨٢٥/٩)، والبيهقي (١٨١/٢)، وأبو نعيم (١١٦)، وهذه القراءة (وقد تب) شاذة وقد نسخت، كما أن «ورَهْطُكَ مِنْهُمْ الْمَخْلَصِينَ» ليست قرآناً.

(٢) المسند (١٦٠٢٥، ١٦٠٢٧) بإسناد ضعيف لضعف حسين بن عبدالله، وباقي رجاله ثقات (محققوه)، وأخرجه الطبراني في الكبير (٤٥٨٩)، قلت: وقد جاء الحديث في المسند (١٦٠٢٠) مختصراً بإسناد صحيح ورجاله ثقات، و(١٦٠٢١) بإسناد حسن، وهذا يشهد للرواية الأولى والثانية.

كان هذا موقف أبي لهب من الدعوة منذ اليوم الأول، يثبّع الرسول ﷺ خطوة بخطوة ليصدّه، ويصرف الناس عنه لاسيما وهو عمه.

صورة من الكيد لله ﷺ أثناء الدعوة بالأسواق:

وعن طارق المحاربي قال: بينما أنا بسوق المجاز إذ أنا بشاب حديث السن يقول: «أيها الناس: قولوا لا إله إلا الله تفلحوا» وإذا رجُلٌ خلفه يرميه، قد أذى ساقيه وعرقوبيه، ويقول: يا أيها الناس: إنه كذاب فلا تصدقوه، فقلت: من هذا؟ فقالوا: هو محمد، يزعم، أنه نبي، وهذا عمه أبو لهب، يزعم أنه كذاب^(١).

طلاق رُقِيّة وأم كلثوم من ابني أبي لهب:

وكان لأبي لهب ثلاثة أبناء (عتبة) و(معتب) و(عتيبة) وقد أسلم الأولان يوم الفتح، وشهدا حُتَيْنًا والطائف.

وأما (عتيبة) فلم يسلم، وكانت (أم كلثوم) بنت رسول الله ﷺ عنده، وأختها (رقية) عند أخيه (عتبة) فلما نزلت السورة قال أبو لهب لهما: رأسي ورأسكما حرام إن لم تُطْلَقَا ابنتي محمد، فطْلَقَا هُما، وكان قد زوَّجَهُما لولديه.

قال قتادة: تزوج أم كلثوم بنت رسول الله ﷺ عُتَيْبَةُ بن أبي لهب، وكانت رقية عند أخيه عتبة بن أبي لهب، فلما أنزل الله ﴿تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ﴾ قال أبولهب لابنته عتبة وعُتَيْبَةُ: رأسي من رأسكما حرام إن لم تُطْلَقَا ابنتي محمد، وقالت أمهما بنت حرب بن أمية - وهي حمالة الحطب: طْلَقَانِهُمَا، فإِنْهُمَا قَدْ صَبَا، فطْلَقَاهُمَا^(٢).

وقال قتادة: كانت رُقِيّة بنت النبي ﷺ عند عُتْبَةَ بن أبي لهب، فلما أنزل الله عز وجل ﴿تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ﴾ سأل النبي ﷺ طلاق رُقِيّة، فطْلَقَهَا، فتزوجها عثمان^(٣).

ولما أراد (عتيبة) الخروج إلى الشام مع أبيه قال: لَأَتِيَنَّ مُحَمَّدًا وَأُوذِيَنَّهُ، فأتاه، قال: يا

(١) سيرة ابن هشام (٤٢٣/١) والمسند (٤٩٢/٣) برقم (١٦٠٢٣) عن ربيعة بن عباد بنحوه، وهو حديث

صحيح لغيره، والمعجم الكبير (٦٣/٥)، وتفسير القرطبي (٢٣٦/٢٠).

(٢) أخرجه الطبراني (٤٣٥/٢٢) (١٠٦٠).

(٣) أخرجه الطبراني بإسناد حسن ورقمه (١٠٥٦).

محمد: إني كافر بالنجم إذا هوى، وبالذي دنا فتدلى، ثم تفلّ أمام النبي ﷺ وطلّق ابنته (أم كلثوم) فغضب ﷺ ودعا عليه، فقال: «اللهم سلّط عليه كلباً من كلابك» فافترسه الأسد^(١).

وكان بيت أبي لهب، قريباً من بيت النبي ﷺ فكان الأذى أشد وأكثراً.

ولما أجمع بنو هاشم بقيادة أبي طالب على حماية النبي ﷺ بدافع العصبية، وهم لم يتبعوه، خرج أبو لهب على إخوته، وحالف قريشاً، وكان معهم في الصحيفة التي كتبوها بمقاطعة بني هاشم وتخويعهم، حتى يُسلموا لهم محمداً ﷺ^(٢).

فكان أبو لهب شديد الأذى والبغضاء لرسول الله ﷺ كثير التنقص له ولدينه، وظل هكذا دون أن يثوب إلى رشده، ولا أن يرجع عن غيّه، إلى أن كان موته عبرة للظالمين الصادين عن سبيل الله.

قال ابن مسعود رضي الله عنه: لما دعا رسول الله ﷺ أقرباءه إلى الله تعالى، قال أبو لهب: إن كان ما تقول حقاً يا ابن أخي، فأنا أفتدي نفسي بمالي وولدي^(٣).

فأنزل الله تعالى يبيّن أن أمواله وأولاده لا يدفعون عنه شيئاً من عذاب الله تعالى إن لم يؤمن، فماله الكثير، وكسبه الوفير، وجاهه العريض، لن يغنياً عنه شيئاً من عذاب الله، ولن يمنع ذلك انتشار الإسلام في المعمورة، وكان أبو لهب صاحب أموال ولديه أبناء. ولما دعا أبو لهب على النبي ﷺ بالتّب، وهو الهلاك والخسران، أنزل الله تعالى هذه السورة رداً على أبي لهب بالخسران والهلاك في الدنيا والآخرة.

ثم أخبر سبحانه بأن هلاكه مُحقّق وفعلاً فقد خسر أبو لهب كل شيء في دنياه وأخراه. فلفظ (تب) الأولى من قوله تعالى: ﴿تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ﴾ فيها دعاء على أبي لهب بالقطع والهلاك. ولفظ (وتب) الثانية فيها إخبار من الله تعالى بتحقيق هلاكه.

(١) تفسير الألوسي (٢٦٢/٣٠)، وابن عاشور (٦٠١/٣٠).

(٢) تفسير روح المعاني للألوسي وتفسير الخازن والبغوي وغيرهم.

(٣) ذكره البغوي وابن الجوزي والخازن عن ابن مسعود رضي الله عنه، وذكره القرطبي عن ابن عباس رضي الله عنهما.

نهاية أبي لهب في الدنيا ومصيره في الآخرة:

وقد هلك أبو لهب بمرض خطير لم يتمكنوا معه من غسله ودفنه: فقد مات بعد وقعة بدر بسبع ليال بمرض مُغْدٍ كالطاعون يسمى (العدسة) وبقي ثلاثة أيام حتى أُنْتِنَ، فلما خافوا العار، حفروا له حفرة، ودفعوه إليها بعود - خوفاً من العدوى - حتى وقع فيها، ثم قذفوه بالحجارة حتى وَاَزَوْه، فكان الأمر كما أخبر القرآن به، وهذه نهايته في الدنيا.

أما نهايته في الآخرة: فإنه سيصلى ناراً موقدة مؤججة حامية، تحيط به من كل جانب لا يعرف قدرها ووصفها إلا خالقها، أما أولاده وأمواله - وهما من كسبه - كما في الحديث «وإن ولد الرجل من كسبه» فلن يدفعه عنه عذاب الله، بل إن امرأته سوف تكون عوناً على شدة عذابه، وتأجيج النار له.

وقد عبر القرآن ببعض - الذي هو اليد - وأراد الكل - جميع الجسد - لأن الجوارح هي التي تكتسب الهلاك والخسران بعملها، واليد أكثر اختصاصاً في كسب الحسنات، والسيئات، ولذا أسند القرآن إليها التّبّ دون سائر الجوارح، وكان هذا جزاء وفاقاً لدعائه على النبي ﷺ حين الجهر بالدعوة.

أعداء الأُمس جند الإسلام اليوم:

تصدى قوم من صناديد قريش للوقوف في وجه الدعوة، من أول لحظة نزل الوحي فيها على رسول الله ﷺ وحاربوه، وتزعّموا قيادة المعارك ضده، للقضاء عليه وعلى دعوته، واستمر هذا منذ فجر الدعوة في مكة، إلى أن هاجر ﷺ إلى المدينة.

وبعد سنوات طوال من الهجرة خاض فيها هؤلاء الأعداء، الحروب المتعددة ضد الإسلام ودعوته، شاء الله سبحانه أن تتغير الأحوال، وتبدل الأمور، فيصبح أعداء الأُمس، جُند الإسلام اليوم ودرعه الحصين، وذلك مثل أبي سفيان، وخالد بن الوليد، وعكرمة بن أبي جهل، وسهيل بن عمر.

عدم إسلام أبي لهب إعجاز للقرآن:

وأبولهب أحد هؤلاء الأعداء للإسلام الذين حاربوه من أول لحظة، ولكن الله

سبحانه عَلِمَ أن أبا لهب لن يدخل الإسلام أبداً، وسيموت على الكفر قطعاً، ولن تلين قناته للدعوة ﷺ رغم صلته القوية بصاحب الدعوة، ورغم رابطة النسب والعصبة بينهما، فنزلت سورة المسد، وفيها دعاء على أبي لهب بالهلاك، فلم تغن عنه ثروته الطائلة ولا جاهه الواسع. ونزلت السورة لتعلن ذلك، وتَقْطَعَ بدوام كفره إلى لحظة موته، وأنه سيصلى في الآخرة ناراً ذات لهب، وإخبار القرآن الكريم عن عذابه وعذاب امرأته من الأمور الغيبية التي أخبر عنها النبي ﷺ وهي من معجزاته.

وقد نزلت سورة المسد في أول مرحلة الأمر بالجهر بالدعوة، أي بعد الفترة السرية التي استمرت ثلاث سنوات، وأخبر الله سبحانه نبيه ﷺ فيها منذ ذلك التاريخ، بأن أبا لهب، سيصلى نارا ذات لهب نتيجة كفره وعدم إسلامه، وقد تحقق صدق ما جاء به محمد ﷺ فلم يدخل أبولهب في الإسلام، ومات على الكفر كما أخبر القرآن، رغم أن القرآن ظل ينزل بعد نزول هذه السورة عشرين عاماً، ولكنه قَطَعَ من أول لحظة أن أبالهب سيموت كافراً، ويصلى نار جهنم في الآخرة، وأمواله وأولاده لن يغنوا عنه من عذاب الله شيئاً.

امْرَأَةُ أَبِي لَهَبٍ (أُمُّ جَمِيلٍ): وَعُقُوبَتُهَا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ

٥،٤ - ﴿وَأَمْرَأَتُهُ حَمَّالَةَ الْحَطَبِ^(١) فِي جِيدِهَا حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍ ۝﴾

اسمها: أروى بنت حرب بن أمية، وهي أخت أبي سفيان. وكنيتها: أم جميل، وكانت من سادات نساء قريش؟ وكانت عوناً لزوجها على كفره وجحوده وعناده، ولهذا فإنها تكون يوم القيامة عوناً عليه في عذابه في نار جهنم، تحمل الحطب فتُلْقِيه على زوجها، ليزداد عذاباً على ما هو فيه، وهي مهياة لذلك، مستعدة له.

إيذاء ومعجزة:

وكانت أم جميل وزوجها شديدي العداوة لرسول الله ﷺ فلما سمعت ما نزل فيها

(١) قرأ عاصم بنصب هاء التأنيث على الدم، أي ذم حمالة الحطب، وقرأ غيره برفعها خبر امرأته.

وفيه، أتت رسول الله ﷺ وهو جالس في المسجد عند الكعبة، ومعه أبو بكر رضي الله عنه، وفي يدها مجموعة من الحجارة، فلما دنت من النبي ﷺ أخذ الله بصرها عنه، وحال بينه وبينها، فلم تر إلا أبا بكر، فقالت: يا أبا بكر: بلغني أن صاحبك يهجونني، فوالله لو وَجَدْتُهُ لضربتُه بهذا الحجر، وأنشدت شِعْراً تهجوا فيه النبي ﷺ ثم انصرفت، فقال أبو بكر يارسول الله: أما تراها رأيتك، قال: «ما رأيتني، لقد أخذ الله بصرها عني»^(١).

صورة أخرى من إيذاء امرأة أبي لهب للنبي ﷺ:

وكانت أم جميل من شدة عداوتها للنبي ﷺ تمشي بالنميمة، وتنقل الحديث على وجه الإفساد والعداوة بينهم، وتوقد نار الفتنة بينهم، كما توقد النار الحطب، فكانت تتحدث عن النبي ﷺ بالسوء لصد الناس عنه، وتسيء إليه بالسعي بالفساد بين الناس افتراءً وكذباً عليه ﷺ.

وكانت تَحْمِلُ بنفسها الشوك والحسك، والسَّغْدَان، بالليل، وتطرحه في طريق النبي ﷺ لتؤذيه وأصحابه.

قال سعيد بن المسيب: كانت لها قلادة فاخرة، فقالت: لأنفقَها في عداوة محمد، فأعقبها الله بها حبلاً في جيدها من مسد النار^(٢).

ولأن (أروى) كانت تضع الشوك في طريق النبي ﷺ عند ذهابه إلى صلاة الصبح بالمسجد الحرام، ولأنها كانت تسعى جاهدة في إيقاع العداوة بين النبي ﷺ وبين الناس، وتُشْعِلُ نار الفتنة وتوقد بينهم نار العداوة، فإنها ستدخل مع زوجها نار جهنم، حالة كونها حمالة الحطب الذي توقد به النار، جزاء وفاقاً لفعلها في الدنيا، وهي تحمل في عنقها حبلاً من مسد جهنم، تُشد به في النار، وكان عندها قلادة حلفت لتيبعتها في النفقة ضد رسول الله ﷺ فأعقبها الله بدلاً منها حبلاً مُحْكَمًا ليوضع في عنقها، وهي في

(١) بتصرف من مختصر السيرة للشيخ عبد الله بن الشيخ محمد عبد الوهاب (ص ١٢٥)، وانظر مجمع

الزوائد (ج ٧) (ص ١٤٤).

(٢) تفسير ابن كثير (٨/٥١٥).

نار جهنم، وقال ابن عباس: (سلسلة من حديد ذرعها سبعون ذراعاً)^(١).

أخرج الطبراني بسنده عن رجل من هَمْدَان، يسمى: يزيد بن يزيد، أن امرأة أبي لهب كانت تُلقِي في طريق النبي ﷺ الشوك، فنزلت سورة المسد، فبلغ ذلك امرأة أبي لهب، فقالت: عَلَامَ يَهْجُونِي محمد؟ هل رأيتُموني أُخِيلُ حطباً، وفي جيدي حبل من مسد؟ فمكثت، ثم أتته فقالت: إن ربك قلاك وودّعك، فأنزل الله تعالى: ﴿وَالضُّحَى﴾ إلى ﴿وَمَقْلَى﴾^(٢). أما عذابها في الدنيا، فقد ورد أنها بينما كانت تحمل حزمة الحطب ذات يوم لإيذاء النبي ﷺ أعيشتها الحزمة فقعدت على حَجَرٍ لتستريح، فأتاها مَلَكٌ فجذبها من خلفها فاختنقت بحبلها، وهلك.

من هدايات السورة:

- ١- مَنْ الذي أعلم محمداً ﷺ أن أبا لهب سيموت على الكفر، رغم كثرة المعارضين للدعوة، وأكثرهم قد أسلم فيما بعد، دون أبي لهب؟
- ٢- عاش أبو لهب بعد نزول السورة نحو اثني عشر عاماً، ولم يدخل في الإسلام، ومات بعد سبعة أيام من غزوة بدر بمرض مُعْجِلٍ خطير.
- ٣- بقي أبو لهب ميتاً ثلاثة أيام دون أن يُدفن، حتى عَفَنَ وأنتن، ثم دُفِنَ خوفاً من العدوى، وألقوا عليه الحجارة بعضها فوق بعض، وهذا مصير الظلمة في كل زمان ومكان.
- ٤- أعمى الله بصر أم جميل (العوراء) حين أرادت إيذاء النبي ﷺ بقذفه بالحجارة.
- ٥- كانت نهاية أبي لهب وأم جميل في الدنيا أليمة، وعقوبتهما في الآخرة وخيمة جزاء وفاقاً.
- ٦- إن الله ليملي للظالم حتى إذا أخذه لم يفلته.

تم تفسير (سورة المسد) والله الحمد والمنة

(١) انظر الفتح الرباني لترتيب مسند الإمام أحمد (ج ١٨) (ص ٣٤١)، ومسند الحميدي (١/١٥٣)، وأبو يعلى

(١/٥٣)، والبخاري (٢٢٩٤).

(٢) الطبري (٧١٩/٢٤).

تَفْسِيرُ سُورَةِ الْإِخْلَاصِ (١١٢)

مُقَدِّمَةُ السُّورَةِ

١ - (سورة الإخلاص) هي السورة الثانية عشرة بعد المئة في ترتيب المصحف، والثانية والعشرون في ترتيب النزول، نزلت بعد (سورة الناس) وقبل (سورة النجم). وهي خمس آيات عند أهل مكة والشام، وأربع آيات عند بقية علماء العدد وسورة الإخلاص خمس عشرة كلمة، وسبعة وأربعون حرفاً.

وشهرتها (سورة الإخلاص) ولها أسماء أخرى كثيرة منها:

أ - (سورة قل هو الله أحد). ب - (سورة التوحيد).

ج - (وسورة الأساس) لاشتمالها على أساس الإسلام وهو التوحيد.

د - (وسورة الصمد). فهذه خمسة أسماء.

وقد ذكر الجمل والفخر الرازي لها عشرون اسماً منها: التجريد، والتفريد، والنجاة، والولاية، والمعوذة، والمانة، والمنفرة، لأنها تنفر الشيطان، والمذكرة، والنور، والأمان. وهي سورة مكية عند الجمهور، وقال بعضهم: إنها مدنية، وقيل: إنها نزلت مرتين، مرة بمكة، ومرة بالمدينة، جمعاً بين روايات أسباب النزول، والصحيح أنها سورة مكية جمعت أصول التوحيد.

٢ - موضوع السورة:

و(سورة الإخلاص): سطر واحد، تعدل ثلث القرآن، لأنها لخصت أصول الاعتقاد، وتحدثت عن صفات الله تعالى الجامعة لصفات الجلال والكمال، وهو سبحانه المقصود على الدوام، الغني عما سواه، وهذه الصفات نزهته سبحانه عن كل نقص، وعن المماثلة، ونزهته عن المجانسة، وعن البنوة والتثليث.

ذلكم أن رب العالمين واحد، لا ثاني له، ولا ثالث، ولا والد له ولا ولد، فالقول بغير هذا عبث وهراء:

- ١ - قال تعالى: ﴿وَقَالَ اللَّهُ لَا تَتَذَكَّرُوا إِلَهَيْنِ اثْنَيْنِ إِنَّمَا هُوَ إِلَهٌُ وَاحِدٌ﴾ [النحل: ٥١].
- ٢ - وقال سبحانه في الرد على القائلين بالتثليث: ﴿وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلَّا إِلَهٌُ وَاحِدٌ وَإِنْ لَمْ يَنْتَهُوا عَمَّا يَقُولُونَ لَيَمَسَّنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [المائدة: ٧٣].
- ٣ - وقال جل شأنه في الرد عليهم أيضاً: ﴿وَلَا تَقُولُوا ثَلَاثَةٌ ۚ أَنْتَهُوا خَيْرًا لَكُمْ إِنَّمَا اللَّهُ إِلَهٌُ وَاحِدٌ سُبْحَانَهُ أَنْ يَكُونَ لَهُ وَلَدٌ﴾ [النساء: ١٧١].
- ٤ - وقال عز وجل: ﴿مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِنْ وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَهٍ إِذَا أَذْنَبَ كُلُّ إِلَهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَمَّا لَبَّيْنَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾ [المؤمنون: ٩١].
- ٥ - وقال جل جلاله: ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا﴾ [الأنبياء: ٢٢].
- وهذه أدلة عقلية تجعل القول بتعدد الآلهة أو الشرك خرافة، وصفر على الشمال. والقائلون بالتثليث يزؤون أن الآلهة ثلاثة، وهذه الآلهة الثلاثة، إله واحد، مكون من الأب والابن والروح القدس، وهي معادلة عسيرة الفهم، إذ كيف يكون الواحد ثلاثة، والثلاثة واحداً، وإذا كان الثلاثة واحداً، وهذا الواحد قد ضلّب - على حدّ زعمهم - فإن العالم يكون قد فقد إلهه حيناً من الدهر، وإن كان المصلوب هو الابن الوحيد، فإنه ليس بإله يقيناً، إذ كيف يصلب الإله؟ ولمن شاء أن يعتقد ماشاء، فالإسلام لا يحجر على إيمان أحد:
- أحاديث في السورة:

١ - عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «يوشك الناس أن يتساءلوا بينهم، حتى يقول قائلهم: هذا الله خلق الخلق، فمن خلق الله؟ فإذا قالوا ذلك، فقولوا: الله أحد، الله الصمد، لم يلد ولم يولد، ولم يكن له كفواً أحد، ثم ليتقل عن يساره ثلاثاً، وليستعذ بالله من الشيطان»^(١).

٢ - وفي صحيح مسلم وغيره عن أبي هريرة وعن أنس رضي الله عنهما أن النبي ﷺ قال: «لا يزال الناس يتساءلون حتى يقال: هذا الله خلق الخلق، فمن خلق الله؟ فمن وجد

(١) سنن أبي داود (٤٧٢٢) وحسنه الألباني في صحيح سنن أبي داود (٣٩٥٢) وابن السني في عمل اليوم والليلة (٦٢٧).

من ذلك شيئاً فليقل: آمَنْتُ بالله»^(١).

٣- وعن أبي هريرة أيضاً أن النبي ﷺ قال: «يأتي الشيطان أحدكم فيقول: من خلق كذا وكذا؟ حتى يقول له: من خلق ربك؟ فإذا بلغ ذلك؟ فليستعذ بالله ولينته»^(٢).

٣ - سورة الإخلاص في السنة النبوية:

أ - حُبُّ قِرَاءَتِهَا يُسَبِّبُ مَحَبَّةَ اللَّهِ تَعَالَى لِلْعَبْدِ:

عن عائشة رضي الله عنها أن رسول الله ﷺ بعث رجلاً على سرية، وكان يقرأ لأصحابه في صلاتهم، فيختم بـ ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ فلما رجعوا ذكروا ذلك لرسول الله ﷺ فقال: «سلوه: لأي شيء يصنع ذلك؟» فقال: لأنها صفة الرحمن، فأنا أحب أن أقرأ بها، فقال رسول الله ﷺ «أخبروه أن الله يحبه»^(٣).

ب - حب قراءتها يسبب دخول الجنة:

١- عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: جاء رجل إلى النبي ﷺ فقال: إني أحب هذه السورة ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ فقال رسول الله ﷺ: «حبك إياها أدخلك الجنة»^(٤).

٢- وفي رواية البخاري والترمذي عن أنس رضي الله عنه، أن رجلاً من الأنصار، كان يؤم الناس في مسجد قُباء، وكان يقرأ بعد الفاتحة سورة الإخلاص في كل صلاة، ويقرأ بعدها ما تيسر من القرآن، فاعترض الناس عليه، فأخبروا النبي ﷺ فسأله عن سبب ذلك، قال: إني أحبها، قال

(١) صحيح مسلم (١٣٤)، وانظر (١٣٦)، والبخاري (٧٢٩٦).

(٢) صحيح مسلم (١٣٤)، وصحيح البخاري (٣٢٧٦).

(٣) أخرجه الشيخان والنسائي، انظر جامع الأصول في أحاديث الرسول حديث رقم (٣٤٦٩) (ج ٥)، وهو في البخاري (٧٣٧٥)، ومسلم (٨١٣)، والنسائي (١٧٠/٢) (٩٩٢)، والبيهقي (٦٠٩، ٦١)، وصحيح الترغيب والترهيب (١٤٨٣).

(٤) أخرجه الإمام أحمد والبخاري تعليقاً (٧٧٤)، والترمذي (٢٩٠١)، انظر الفتح الرباني لترتيب المسند (ج ١٨) (ص ٣٤٦)، وهو في المسند (١٤١/٣) (١٢٤٣٢)، وهو حديث صحيح بإسناد حسن (محققوه)، وكذا (١٢٥١٢، ١٢٤٣٣)، وصحيح سنن الترمذي (٢٣٢٣)، والبيهقي في سننه (٦٠/٢)، وعبد بن حميد (١٣٠٦)، وابن حبان (٧٩٢)، وابن خزيمة (٥٣٧).

ﷺ: «حُبُّكَ إِيَّاهَا أَدْخَلَكَ الْجَنَّةَ»^(١).

٣- وعن أبي هريرة ؓ أن رسول الله ﷺ سمع رجلاً يقرأ ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ حتى ختمها: فقال ﷺ: «وجب» قيل يا رسول الله ما وجبت، قال: «الجنة»^(٢).
ولا عجب في ذلك فمحبها موحد، مُخْلِصٌ لله في عقيدته، وهو مُحِبٌّ لتوحيد الله تعالى وإفراده بالعبادة.

ج - فضل قراءتها مع المعوذتين:

١- عن عقبة بن عامر ؓ قال: لقيني رسول الله ﷺ فابتدأني فأخذ بيدي فقال: «يا عقبة بن عامر: ألا أعلمك خير ثلاث سور أنزلت في التوراة والإنجيل والزبور والفرقان العظيم؟» قال: قلت: بلى جعلني الله فداك، قال: فأقرأني ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ و﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ﴾ و﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ﴾ ثم قال: «يا عقبة لا تنساهن ولا تبث ليلة حتى تقرأهن» قال: فما نسيتهن منذ قال لا تنساهن، وما بت ليلة قط حتى أقرأهن^(٣).
٢- وعن عبد الله بن أنيس الأسلمي ؓ أن رسول الله ﷺ وضع يده على صدره، ثم قال: (قل) فلم أدر ما أقول، ثم قال: ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ ثم قال لي ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ﴾ حتى فرغت منها، ثم قال لي ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ﴾ حتى فرغت منها، فقال رسول الله ﷺ «هكذا نتعوذ، فما تعوذ المتعوذون بمثلهن قط»^(٤).

(١) راجع النص في جامع الأصول في أحاديث الرسول (ج ٥) حديث رقم (٣٤٦٨)، البخاري (٧٧٤)، والترمذي (٢٩٠١)، وقال: حسن غريب صحيح.

(٢) الموطأ (٢٠٨/١) والفتح الرباني لترتيب مسند الإمام أحمد الشيباني (ج ١٨) (ص ٣٤٧) وهو بإسناد صحيح ورجاله ثقات (٨٠١١)، والترمذي (٢٨٩٧) وقال: حديث حسن صحيح غريب، وصحيح سنن الترمذي (٢٢٣٩٠، ٢٣٢٠)، والحاكم وغيرهم سنده صحيح وهو في سنن النسائي (٩٩٣)، وفي الكبرى (١١٦٥١)، وقد صححه الألباني في صحيح الترغيب والترهيب برقم (١٤٧٨).

(٣) انظر المسند بأطول من هذا (١٧٤٥٢، ١٧٣٣٤) قال محققوه: حديث حسن.

(٤) النسائي في السنن الكبرى (٧٨٤٥)، والبخاري (٢٣٠٠)، كشف الأستار قال الهيثمي: رجاله رجال الصحيح، مجمع الزوائد (١٤٩/٧).

٣- وعن عليّ عليه السلام قال: بينا رسول الله ﷺ ذات ليلة يصلي، فوضع يده على الأرض، فلدغته عقرب، فتناولها رسول الله ﷺ بنعله فقتلها، فلما انصرف قال: «لعن الله العقرب، ما تدع مصلياً ولا غيره، أو نبياً وغيره» ثم دعا بماء وملح فجعله في إناء، ثم جعل يضربه على إصبعه حيث لدغته ويمسحها، ويعوذها بالمعوذتين.

وفي لفظ: فجعل يمسح عليها ويقرأ ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ و﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ﴾ و﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ﴾^(١).

وورد فضل قراءة سورة الإخلاص مع (سورة الكافرون) في صلاة المغرب، وسنة الفجر، والوتر، وركعتي الطواف، وغير ذلك كما سبق بيانه في تفسير سورة الكافرون.

د - مشروعية الرقية بسورة الإخلاص والمعوذتين عند المنام:

عن عائشة رضي الله عنها أن النبي ﷺ: (كان إذا أوى إلى فراشه كل ليلة جمع كفيه، ثم نفث فيهما، وقرأ فيهما ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ و﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ﴾ و﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ﴾ ثم يمسح بهما ما استطاع من جسده، يبدأ بهما على رأسه ووجهه، وما أقبل من جسده، يفعل ذلك ثلاث مرات)^(٢).

هـ - فضل قراءتها مع المعوذتين صباحاً ومساءً:

عن معاذ بن عبد الله بن خبيب عن أبيه قال: أصابنا عطش وظُلْمَةٌ فانتظرنا رسول الله ﷺ ليصلي بنا فنخرج فأخذ بيدي فقال: «قل: فسكُتٌ، قال: قل، قلت: ما أقول؟ قال: ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ والمعوذتين حين تمسي وتصبح ثلاثاً، يكفيك من كل شيء»^(٣).

(١) أخرجه البيهقي في شعب الإيمان (٢٥٧٦، ٢٥٧٥)، وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة (٥٤٨).

(٢) أخرجه البخاري برقم (٥٠١٧)، وأبوداود (٥٠٥٦)، والترمذي (٣٤٠٢)، والنسائي في السنن الكبرى (١٠٦٢٤)، وابن ماجه (٣٨٧٥)، وابن أبي شيبة (٢٥٢/١٠).

(٣) من زوائد الإمام عبد الله بن الإمام أحمد على مسند أبيه (٢٢٦٦٤) بإسناد حسن، ورواه أبوداود (٥٠٨٢)، وصحيح سنن أبي داود (٤٢٤١)، والترمذي (٣٥٧٥)، والنسائي (٥٤٤٣)، وقال الترمذي صحيح غريب من هذا الوجه، انظر الفتح الرباني (ج ١٨ ٣٤٩)، وأخرجه ابن سعد (٣٥١/١)، وعبد بن حميد (٤٩٣) منتخب.

أي أن قراءتها تكفي العبد في صباحه ومساءه من كل سوء وشر، فيظل محفوظاً بحفظ الله تعالى له، وفي مأمن من المحن والبلايا والآفات والشرور.

و - كونها تعدل ثلث القرآن:

١- في صحيح البخاري وغيره: عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه أنه سمع رجلاً يقرأ ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ يُرَدِّدُهَا، فلما أصبح جاء إلى رسول الله ﷺ فذكر ذلك له، وكان الرجل يتقَالَهَا، فقال رسول الله ﷺ: «والذي نفسي بيده إنها تعدل ثلث القرآن»^(١).
والرجل القارئ هو قتادة بن النعمان أخي أبي سعيد الخدري من أمه.

٢- وفي صحيح مسلم وغيره: عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «احشدوا» «اجتمعوا» فإني سأقرأ عليكم ثلث القرآن، فحشد من حشد، ثم خرج نبي الله ﷺ فقرأ ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ ثم دخل، فقال بعضنا لبعض: إني أرى هذا خبر جاءه من السماء، فذاك الذي أدخله، ثم خرج النبي ﷺ فقال: «إني قلت لكم: سأقرأ عليكم ثلث القرآن، ألا إنها تعدل ثلث القرآن»^(٢).

٣- وعن أبي سعيد وأبي أيوب وأبي الدرداء رضي الله عنهم قالوا: قال رسول الله ﷺ لأصحابه: «أيعجز أحدكم أن يقرأ ثلث القرآن في ليلة؟ فشق ذلك عليهم» وقالوا: أينا يطيق ذلك يا رسول الله؟ فقال: «الله الواحد الصمد، ثلث القرآن»^(٣).

٤- وعن أبي بن كعب وابن عباس رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال: «من قرأ

(١) البخاري (١٠٥/٦) باب فضل ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ وهو برقم (٧٣٧٤، ٥٠١٣)، وأبوداود (١٤٦١)، والنسائي

(١٧/٢)، وصحيح الترغيب والترهيب (١٤٨٢)، وانظر صحيح الجامع (٤٢٨٠) عن ابن عباس.

(٢) صحيح مسلم (٥٥٧/١) (٨١٢)، والترمذي (٢٩٠٠)، وصحيح الترغيب والترهيب (١٤٧٩).

(٣) المسند ٨/٣ (١١٠٥٣) ورقم (٢٧٥٢٢، ٢٧٥٢٤) عن أبي الدرداء، وهو في مسلم (٨١١)، والنسائي في

الكبرى (١٠٥٣٧)، والبخاري (٥٠١٥)، وصحيح الترغيب (١٤٨٠)، والترمذي (٢٨٩٦) وقال: حديث

حسن، وهو في صحيح سنن الترمذي (٢٣١٩)، وأخرجه عن ابن مسعود البزار (١٨٥٦٧)، والطبراني

(٧٠٧)، وفي الأوسط (٨٤٨٠)، قال الهيثمي: رجاله رجال الصحيح غير عبد الله بن أحمد وهو ثقة إمام،

مجمع الزوائد (١٤٨/٧) وألفاظه متقاربة.

﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ فكانما قرأ ثلث القرآن»^(١).

٥- وعن أم كلثوم بنت عقبة بن أبي معيط أن النبي ﷺ سئل عن ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ فقال: «ثلث القرآن أو يغدله»^(٢).

٦- وعن أبي أيوب الأنصاري رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «أبجز أحدكم أن يقرأ ثلث القرآن في ليلة؟ فلما رأى أنه قد شق عليهم قال: من قرأ ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ في ليلة فقد قرأ ليلتذ ثلث القرآن»^(٣).

والمعنى أنها تعدل ثلث القرآن في الثواب والأجر.

٧- وعن ابن عمر رضي الله عنهما قال: صلى بنا النبي ﷺ ذات يوم الفجر في سفر، فقرأ في الركعة الأولى ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ وقرأ في الركعة الثانية ﴿قُلْ يَتَّيَبَا الْكَافِرُونَ﴾ فلما سلم قال: «قرأت بكم ثلث القرآن وربعه»^(٤).

وعدلت السورة ثلث القرآن، لأنها تناولت جانب العقيدة وهو يمثل ثلث ما جاء في القرآن، والثلث الثاني: أحكام، والثالث: أخبار، وهي بهذا تعدل في الثواب والأجر ثلث القرآن بالنسبة لقارئها.

(١) المسند (٢١٢٧٥)، والنسائي في السنن الكبرى (١٠٥٢١)، وأبو عبيد في فضائله (ص ١٤٣)، قال محققو المسند: صحيح لغيره وهذا إسناد رجاله ثقات رجال الصحيح وصححه الألباني عن ابن عباس في صحيح الجامع الصغير (٤٢٨٠).

(٢) المسند (٢٧٢٧٤)، والنسائي في السنن الكبرى (١٠٥٣١)، والطبراني في الأوسط (٨٥٦٢)، والبيهقي في الشعب (٢٥٤٥)، قال محققو المسند: حديث صحيح ورجاله ثقات رجال الصحيح ومالك في الموطأ (٢٠٩/١).

(٣) صحيح سنن الترمذي (٢٣١٩)، والمسند (٢٣٥٥٤) وهو حديث صحيح لغيره (محققوه)، والنسائي (٩٩٥)، والبيهقي في الشعب (٢٥٤٤)، والترمذي (٢٨٩٦)، وعبد بن حميد (٢٢٢).

(٤) أخرجه ابن الضريس (٢٥٣) واللفظ له دون قوله «في سفر»، والطبراني في الكبير برقم (١٨٦) بنحوه، وصححه الألباني في صحيح الجامع (٤٢٨١)، قلت: ولعل هذا كان قبل العرضة الأخيرة التي استقر فيها ترتيب السور.

ز - اسم الله الأعظم:

عن ابن بريدة عن أبيه قال: دخلتُ مع رسول الله ﷺ المسجد ويدي في يده، فإذا رجل يُصَلِّي يقول: اللهم إني أسألك بأنك أنت الله، لا إله إلا أنت، الواحد الأحد الصمد، الذي لم يلد ولم يولد له كفوا أحد، فقال رسول الله ﷺ: «لقد دعا الله باسمه الأعظم الذي إذا سئل به أعطى، وإذا دُعي به أجاب»^(١).

ح - قراءتها تُسبِّب مغفرة الذنوب:

عن مِخْجَن بن الأَدْرَع قال: دخل رسول الله ﷺ المسجد، فإذا هو برجل قد صلَّى صلاته وهو يتشهد ويقول: اللهم إني أسألك بالله الواحد الأحد الصمد، الذي لم يلد ولم يولد، ولم يكن له كفوا أحد، أن تغفر لي ذنوبي، إنك أنت الغفور الرحيم، فقال ﷺ: «قد غُفِرَ له، قد غُفِرَ له، قد غُفِرَ له»^(٢).

٤ - سبب النزول:

أ- عن أبي بن كعب ؓ أن المشركين قالوا: يا محمد انشُب لنا ربك؟ فتزلت هذه السورة. زاد في رواية: لأنه ليس شيء يولد إلا سيموت، وليس شيء يموت إلا سيورث، وإن الله لا يموت ولا يورث، ولم يكن له شبيه ولا عدل، وليس كمثله شيء^(٣).

(١) سنن أبي داود (١٤٩٣)، والترمذي (٣٤٧٥)، والمسنند (٢٢٩٥٢) من حديث طويل بإسناد صحيح ورجاله ثقات رجال الشيخين (محققوه)، وابن حبان (٨٩١)، والطحاوي في مشكل الآثار (١٧٣)، والنسائي في الكبرى (١١٦٥٢)، وأخرجه عبد الرزاق (٤١٧٨)، وابن أبي شيبة (٢٧١/١٠)، وابن حبان (٨٩١)، والحاكم (٥٠٤/١)، وهو في صحيح سنن ابن ماجة (٣١١١)، وفي السنن (٢٨٥٧).

(٢) صحيح سنن أبي داود (٨٦٩)، وهو في السنن (٩٨٥)، وابن خزيمة (٧٢٤)، والحاكم (٢٦٧/١)، والنسائي (١٣٠٠)، والبيهقي في الأسماء والصفات (٩٧)، وهو حديث صحيح أخرجه أحمد (١٨٩٧٤) بإسناد صحيح ورجاله ثقات رجال الصحيح كما قال محققوه.

(٣) المسند (١٣٣/٥) (٢١٢١٩) بإسناد ضعيف لضعف ابن ميسرة وأبي جعفر الرازي (محققوه)، والترمذي (٣٣٦٤، ٣٣٦٥)، والطبري (٢٢١/٣٠)، وصححه الحاكم على شرط الشيخين ووافقه الذهبي (٥٤٠/٢)، وابن خزيمة في التوحيد (٤٥)، وابن أبي عاصم (٦٦٣)، وصحيح سنن الترمذي (٢٦٨٠)، والبيهقي (٤١٩/١)، وجاء هذا السبب بلفظ (انشب لنا ربك) فحسب عن جابر وابن مسعود، قلت: وبين التحسين والتضعيف شعرة في الجرح والتعديل.

ب - وقال عامر بن الطفيل لرسول الله ﷺ: إلام تدعوننا يا محمد؟ قال: إلى الله عز وجل. قال: صفه لي، أمّن ذهب هو، أو من فضة، أو من حديد، فنزلت هذه السورة.

ج - وسأل قوم من أحبار اليهود، قالوا: من أي جنس هو (أي الله عز وجل) وممن ورث الدنيا ولمن يؤرثها؟^(١).

د- وروى ابن عباس رضي الله عنهما أن اليهود دخلوا على النبي ﷺ فقالوا: يا محمد، صف لنا ربك وانسبه، فإنه وصف نفسه في التوراة ونسبها، فارتعد رسول الله ﷺ حتى خر مغشيا عليه، ونزل عليه جبريل بهذه السورة^(٢).

هـ - وجه التسمية:

سميت بسورة الإخلاص: لأن فيها إخلاص التوحيد لله تعالى، وفيها إخلاص الصفات وتوحيدها، ومقتضى ذلك: إفراد الله تعالى بالعبادة، والخلوص من الشرك، وأنه هو المقصود وحده في قضاء الحوائج، وأنه سبحانه لا مثيل له ولا نظير، ولا والد له ولا ولد.

* * *

(١) راجع هذه الأسباب الثلاثة لابن الجوزي في تفسيره للسورة، في زاد المسير في علم التفسير، وفي الدر المنثور (٧٤٢/١٥) والطبراني (٣٧٢).

(٢) تفسير ابن عطية (٥٣٦/٥)، وابن عدي (١٥٦٦/٤)، وابن أبي حاتم كما في مجمع الفتاوى (٢٢٢/١٧)، والبيهقي في الأسماء والصفات (٦٠٦) بإسناد ضعيف.

تَفْسِيرُ السُّورَةِ

الْوَحْدَانِيَّةُ الْمُطْلَقَةُ

١ - ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾

نزلت هذه السورة، ردًّا على الماديين والملحدين والكفار والمشركين، سواء في ذلك من سألوا النبي ﷺ وقت التنزيل عن نسب الله سبحانه، أو من ينسبون إلى الله سبحانه الولد، أو من يعددون الآلهة، من اليهود والنصارى، أو من يقولون بالحلول والاتحاد، أو من يتخذون أوثاناً يعبدونها من دون الله، وكل من يشرك مع الله غيره بصورة من الصور. قل - يا رسولنا - لهؤلاء جميعاً ومن على شاكلتهم: الله تعالى واحد في ذاته، واحد في صفاته، واحد في أفعاله، ليس له شبيه ولا نظير، فهو وحده المستحق للعبادة دون سواه.

وهذه هي الحقيقة الكبرى التي أرسل الله من أجلها الرسل جميعاً.

قال تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِيَ إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ﴾

[الأنبياء: ٢٥].

وكل رسول قال لقومه: ﴿اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ﴾ [هود: ٥٠].

وهي المهمة التي استغرقت أطول مدّتي الرسالة المحمدية، ثلاثة عشر عاماً بمكة المكرمة.

وآيات القرآن الكريم في هذا أكثر من أن تحصى، مثل:

١ - قوله تعالى: ﴿وَالْهَكَرُمُ إِلَهُ وَحْدٌ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ﴾ [البقرة: ١٦٣].

٢ - وقوله: ﴿وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا إِلَهًا وَحْدًا لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾ [التوبة: ٣١].

٣ - وقوله: ﴿وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلَّا اللَّهُ وَحْدٌ﴾ [المائدة: ٧٣].

٤ - وقوله: ﴿وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلَّا اللَّهُ الرَّحْمَنُ الْقَهَّارُ﴾ [ص: ٦٥].

٥ - وقوله: ﴿وَلْيَعْلَمُوا أَنَّمَا هُوَ إِلَهُ وَحْدٌ﴾ [إبراهيم: ٥٢].

فهو سبحانه واحد لا ثاني له، وهو واحد لا نظير له، ولا شريك له، وهو واحد لا ينقسم ولا يتبعض.

وقد عدلت هذه السورة ثلث القرآن الكريم لأنها تناولت مهمة الرسل التي تُحرّر الإنسان من الرق والعبودية، ومن جميع القيود، ومن سلطان الرهبة إلا للواحد القهار، وهذه المهمة هي جانب التوحيد.

وهذه العقيدة الخالصة ترسّم للمسلم منهجاً متكاملًا للحياة، تجعله يتجه إلى الله وحده، رغبة ورهبة، في السراء والضراء، والنعماء والبأساء..

وإذا صحّت عقيدة المسلم على هذا النحو، فإنها تُحقّق له سعادة الدارين، لخلوصها من الذنب الذي لا يغفر:

فكأن الله تعالى يقول لرسوله: قل - يا أيها النبي - لجميع المشركين والمستهزئين والكافرين والمكذّبين إلى قيام الساعة: إن ربي الذي أعبدته: والذي أدعوكم لعبادته، هو واحد أحد لا شريك له، ولا والد ولا ولد، فهو الأحد المنفرد بالكمال، له الأسماء الحسنى والصفات العليا، لا نظير له ولا مثل، وهو جل وعلا ليس كما يعتقد النصارى بالتثليث فيقولون: (الأب، والابن، والروح القدس) ولا كما يعتقد المشركون بتعدد الآلهة، وهو سبحانه لا ثاني له، ولا شريك، ولا نظير له، وهو واحد لا ينقسم، ولا يتبعض، ولا يحلّ في أحد.

قال في التسهيل: واعلم أن وصف الله تعالى بالواحد له ثلاثة معان كلها صحيحة في حقه تعالى:

الأول: أنه واحد لا ثاني معه، فهو نفي للعدد.

الثاني: أنه واحد لا نظير ولا شريك له، كما تقول: فلان واحد في عصره أي لا نظير له.

الثالث: أنه واحد لا ينقسم ولا يتبعض^(١).

إن النظام الكوني تضبطه إرادة واحدة، وتديره قدرة واحدة، فليس للعالم العلويّ إلَه،

(١) التسهيل لعلوم التنزيل (٢٢٣/٤).

وللعالم السفلي إله، وليس لشرق الأرض إله، ولغزبها إله، بل إن الإله الذي يُشرف على إفرازات الهضم في أحشاء الإنسان، هو الإله الذي يُشرف على مسارات الأفلاك في أقصى الآفاق ﴿فَسُبْحَنَّ الَّذِي يَدْرِءُ مَلَكَوْتُ كُلِّ شَيْءٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ [يس: ٨٣].

﴿فَلِلَّهِ الْحَمْدُ رَبِّ السَّمَوَاتِ وَرَبِّ الْأَرْضِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٣٧﴾ وَلَهُ الْكِبَرِيَاءُ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾

[الجاثية: ٣٦ - ٣٧].

هذا: ولفظ ﴿أَحَدٌ﴾ في الآية جاء إجابة لمن سألوا عن ماهية الله تعالى؛ من أي جوهر هو؟ فوصف الله تعالى ذاته بالأحدية، أي المنفرد بالألوهية، لا يشاركه فيها شيء من الموجودات، وفي هذا إبطال للشرك، وإبطال للتثليث، وإبطال للتعدد، كما قال تعالى: ﴿إِنَّمَا اللَّهُ إِلَهٌ وَاحِدٌ﴾ [النساء: ١٧١] أي أنه لا يوجد آلهة أخرى مع الله سبحانه.

ولفظ ﴿أَحَدٌ﴾ ليس من أسماء الله الحسنى، فليس فيها وصف ﴿أَحَدٌ﴾ وإنما فيها وَصْفٌ (واحد)، أي غير متعدد، وذلك في مثل قوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ كَرِيمٌ إِلَهٌ وَاحِدٌ﴾ [البقرة: ١٦٣]. ولفظ ﴿أَحَدٌ﴾ دال على أنه سبحانه واحد من جميع الوجوه، فهو لا ينقسم بحال، ولا يقبل النّد ولا التعدّد، وإنما يعنى الوحدة الكاملة، ولا يقبل الشك في هذا، فهو أبلغ في نفى التعدد من (واحد).

وقد فهم المسلمون هذا المعنى، فكان بلال ؓ إذا عُدّب على الإسلام يقول: أحد أحد، وكان شعار المسلمين يوم بدر: أحد أحد. براهين التوحيد الأربعة:

وقد أقام الله سبحانه في القرآن الكريم براهين قاطعة على وحدانيته تعالى، منها:

١- دليل الخلق والإيجاد، فإذا ثبت أن الله تعالى خالق لجميع الموجودات، لم يصح أن يكون واحدا منها شريك له سبحانه، قال تعالى: ﴿أَفَمَنْ يَخْلُقُ كَمَنْ لَا يَخْلُقُ﴾ [النحل: ١٧].

وقال سبحانه: ﴿أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ﴾ [الطور: ٣٥].

٢- دليل الإحكام والإبداع: قال تعالى: ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا﴾ [الأنبياء: ٢٢].

٣- دليل القهر والغلبة: قال تعالى: ﴿قُلْ لَوْ كَانَ مَعَهُ آلِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ إِذَا لَأَبْتَعُوا إِلَىٰ ذِي الْعَرْشِ

سَيِّلاً ﴿٤٢﴾ سُبْحَنَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يَقُولُونَ عُلُوًّا كَبِيرًا ﴿[الإسراء: ٤٢ - ٤٣].

٤- دليل التنازع والاستعلاء: قال تعالى: ﴿مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِنْ وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَهٍ إِذَا لَذَهَبَ كُلُّ إِلَهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَّ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُصِفُونَ﴾ [المؤمنون: ٩١].
(وقد جمع القرآن في هذه الأدلة بين العقل والنقل، ففيها رد على مشركي العرب، وعلى النصاري القائلين بالبنوة والتثليث، وعلى المانوية القائلين بوجود إلهين، إله للنور وإله للظلمة، وعلى الصابئة الذين يعبدون النجوم والأفلاك^(١)).

وفيها إخلاص التوحيد لله وحده، ومن ثم إفراده سبحانه بالعبادة دون سواه.
في الحديث القدسي كما في البخاري وغيره قال الله عز وجل: «كذبني ابن آدم، ولم يكن له ذلك، وشتمني، ولم يكن له ذلك، فأما تكذيبه إياي، فقله: لن يعيدني كما بداني، وليس أول الخلق بأهون علي من إعادته، وأما شتمه إياي، فقله: اتخذ الله ولداً، وأنا الأحد الصمد، الذي لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد»^(٢).

وقد صُدِّرت الآية بضمير الشأن، لفظ: ﴿هُوَ﴾ بعد توجيه الخطاب بـ ﴿قُلْ﴾ للتنبيه من أول الأمر على فخامة مضمونها، وجلالة حيزها، مع ما فيه من زيادة تحقيق وتقرير، لبيان أن الأمر من الخطورة بمكان، بحيث يجعلك تبحث عنه، وتلثفت إليه، لأن الضمير يدعو إلى ترقب ما بعده، فإذا جاء تفسيره وتوضيحه بعد ذلك، تمكّن في النفس أي تمكّن.
ولفظ ﴿أَحَدٌ﴾ أبلغ في إثبات الوجدانية من لفظ (واحد)^(٣).

لأن الواحد يقابله اثنين، أما الأحد فلا يقابله شيء.
والتوحيد روح الإسلام، ولُبَّاب القرآن، والصفات التي أسندها الله تعالى لذاته في السورة تجعل ماعداً عبداً عاجزاً لا يملك لنفسه ولا لغيره ضراً ولا نفعاً.

(١) الدكتور/ محمد محمود حجازي، التفسير الواضح، سورة الإخلاص والشيخ محمد علي الصابوني في صفوة التفاسير.

(٢) أخرجه البخاري والنسائي عن أبي هريرة، جامع الأصول حديث رقم (٨٩٥)، وهو في البخاري برقم (٤٩٧٤).

(٣) تفسير بي السعود والتفسير الواضح للآية.

الغنى المطلق

٢- ﴿اللَّهُ الصَّمَدُ﴾

الصمد: اسم خاص بالله تعالى، انفرد به سبحانه، فليس في الوجود صمد سوى الله تعالى، العظيم القادر على كل شيء، فهو سبحانه له الأسماء الحسنى والصفات العليا، وهو المقصود في جميع الحوائج، والكون كله مفتقر إليه، وهو الكامل في أوصافه وأفعاله.

قال الحسن: الصمد: الذي لا يخرج منه شيء^(١).

وأخرج الطبراني عن الضحاك وابن أبي عاصم عن مجاهد: الصمد، الذي لا جوف له^(٢). والمعنى اللغوي للفظ ﴿الصَّمَدُ﴾ هو السيد، الذي لا سيد غيره، فهو أحد في ألوهيته، والكل له عبيد.

وهو المقصود وحده بالحاجات فلا يُقضى أمر إلا بإذنه، وهو سبحانه المستغني بذاته، وكل ماعده محتاج إليه، فالكل (يضمّد) أي يلجأ إليه تعالى في طلب الحاجات، وهو سبحانه الذي يقضي حوائجهم ويدبر أمورهم، ليس فوقه أحد، فالكل محتاج إليه، وهو غني عنهم، لأنه سيدهم وخالقهم ومالكهم.

فالصمد هو الذي يصمد إليه في الحاجات، أي يقصده الناس في حوائجهم لكونه قادراً على قضائها.

وقال الزجاج: الصمد: السيد الذي انتهى إليه السؤدد فلا سيد فوقه.

أخرج الطبري بسند حسن عن علي بن أبي طلحة عن ابن عباس رضي الله عنهما في معنى ﴿الصَّمَدُ﴾ قال: السيد الذي كُمل في سُؤده، والشريف الذي كُمل في شرفه، والعظيم الذي قُدَّ عظم في عظمته، والحليم الذي قد كُمل في حلمه، والغني الذي قد كُمل في غناه، والجبار الذي قد كُمل في جبروته، والعالم الذي قد كُمل في علمه، والحكيم

(١) أخرجه البيهقي في الأسماء والصفات (١٠٢) وقال محققه: رجال إسناده ثقات.

(٢) ابن أبي عاصم (٦٧٣)، وابن جرير (٧٣١/٢٤).

الذي قد كَمُلَ في حِكْمَتِهِ، وهو الذي كَمُلَ في أنواع الشرف والسُّؤْدُود، وهو الله سبحانه، وهذه صفاته، لا تنبغي إلا له.

نَسْبَةُ الْوَلَدِ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى فَرِيَّةٌ عُظْمَى

٣ - ﴿لَمْ يَكِدْ^(١) وَلَمْ يُولَدْ^(٢)﴾

قوله تعالى: ﴿لَمْ يَكِدْ﴾: إن اتخاذ الولد، قد يكون بالولادة عن طريق الزوجة، وقد يكون بالتبني الذي منعه الإسلام، وقد جاء هذا التعبير في مثل قوله تعالى:

﴿وَقَالُوا أَخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا سُبْحَنَهُ بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ﴾ [الأنبياء: ٢٦].

وقوله: ﴿وَقَالُوا أَخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا﴾ ٨٨ ﴿لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئًا إِذَا﴾ ٨٩ ﴿تَكَادُ السَّمَوَاتُ يَنْفَطَرْنَ مِنْهُ وَتَنْشَقُّ الْأَرْضُ وَتَخِرُّ الْجِبَالُ هَدًا﴾ ٩٠ ﴿أَنْ دَعَوْا لِلرَّحْمَنِ وَلَدًا﴾ ٩١ ﴿وَمَا يَنْبَغِي لِلرَّحْمَنِ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَدًا﴾ ٩٢ ﴿إِنْ كُلُّ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا آتَى الرَّحْمَنِ عَبْدًا﴾ ٩٣ ﴿[مریم: ٨٨ - ٩٣] ونحو ذلك من الآيات.

ولأن هذه السورة مختصة بتوحيد الله تعالى، وتوحيد أسمائه وصفاته، جاء نفى (الولد) فيها أبلغ من غيرها، أي بطريقة مباشرة ﴿لَمْ يَكِدْ﴾ دون (اتخذ) والصَّمَدِيَّة تنفي الحاجة إلى الولد مطلقاً، وهذا ممتنع عقلاً ونقلاً: ﴿قُلْ إِنْ كَانَ لِلرَّحْمَنِ وَلَدٌ فَأَنَا أَوَّلُ الْعَبِيدِ﴾ [الزخرف: ٨١].

لأن الله تعالى حي باق لا يرث ولا يورث، له ملك السموات والأرض.

ونظراً لأن قضية نسبة الولد إلى الله تعالى، أهم من نسبة كونه سبحانه (مولوداً) حيث ادعى الأولى - وهي نسبة الولد إلى الله تعالى - فريق من البشر، كالمشركين واليهود والنصارى، ولم يدع ذلك أحد من المسلمين على الإطلاق.

أما الثانية: وهي دعوى أن الله تعالى (لم يولد)، فلم يدعيها أحد من الخلق كافة، فكانت دعوى الولد، فرية عظمية استحققت الابتداء بها.

وفي هذه الجملة ﴿لَمْ يَكِدْ﴾ رد على القائلين من المشركين وأهل الكتاب ومن

(١) عدّ المكي والشامي ﴿لَمْ يَكِدْ﴾ آية، وتركها غيرهما.

على شاكلتهم بأن لله ولد .

وردّ على من نسب (الزوجة) إلى الله سبحانه قال تعالى: ﴿بَدِيعُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَنَّى يَكُونُ لَهُ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُنْ لَهُ صَاحِبَةً وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ [الأنعام: ١٠١] أي زوجة.

فالله سبحانه وتعالى أزليّ قديم، هو الأول والآخر، متصف بجميع الكمالات، منزّه عن جميع النقائص، ومنها نسبة الولد والزوجة إليه سبحانه.

في الحديث القدسي السابق «يقول الله عز وجل: يشتمني ابن آدم، وما ينبغي له أن يشتمني، ويكذبني وما ينبغي له، أما شتمه إياي، فقلوه: إن لي ولداً، وأما تكذيبه فقلوه: ليس يعيدني كما بدأني»^(١).

وفي رواية: «فسبحاني أن أتخذ صاحبة أو ولداً»^(٢).

وفي الآية رد على قول النصارى: إن عيسى ليس ابناً لله عن طريق التناسل والولادة، إنما هو ابن لله تعالى لأنه نفخ فيه من روحه، فهو ابن معنوي.

قلت: إن هذا النفخ لا يختص بعيسى عليه السلام فقد نفخ الله في آدم ونفخ في ذريته، فهل يقال: نحن أبناء الله؟

كل مولود حادث، والله تعالى أزليّ قديم:

أما قوله تعالى: ﴿وَلَمْ يُولَدْ﴾: أي أن الله تعالى لم يولد من أب ولا أم، لأن كل مولود حادث، ولو توقّف وجوده سبحانه على الولادة لكان محتاجاً إلى من يوجده، ثم إن من يلدّه يكون في حاجة إلى والد، وهكذا.. وهذا التسلسل باطل.

فلا يصح أن يكون سبحانه (مولوداً) ولا أن يكون له (والداً) لأنه جل شأنه قديم أزلي، والنسب منفي عنه من جميع الجهات، فهو الأول الذي لم يتقدمه والد، ولا ابتداء لوجوده، وهو الآخر الذي لم يتأخر عنه ولد، ومن كان كذلك لم يكن له شبه ولا نظير.

(١) البخاري والنسائي عن أبي هريرة، كما في جامع الأصول حديث رقم (٨٩٥)، وانظر حاشية الآية الأولى من هذه السورة.

(٢) جامع الأصول حديث رقم (٨٩٦).

وقد نفت الآية إحاطة النسب بالله تعالى من جميع الوجوه فليس لله تعالى أب حتى يُنسب إليه، وليس له أولاد حتى يُنسبوا إليه، وليس له ند ولا شريك.

النَّفْيُ الْمُطْلَقُ لِلشَّبِيهِ وَالنَّظِيرِ

٤- ﴿وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا^(١) أَحَدٌ﴾

أي ليس له سبحانه من خلقه مثل ولا عدل ولا نظير ولا شبيه، لأن الكفاء هو المماثل، والله سبحانه لا يشبهه أحد في ذاته ولا في صفاته ولا في أفعاله، فهو فاطر كل شيء ومالكة، فكيف يكون له من خلقه نظير يساميه، أو قريب يدانيه ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ [الشورى: ١١] فله تعالى الأسماء الحسنى والصفات العليا كما أثبتتها في كتابه، وكما وصفه بها رسوله ﷺ دون تأويل ولا تعطيل ولا نفي ولا تشبيه ولا تحريف ولا تكييف ولا تجسيم.

الآيات الثلاث الأخيرة تفسير للآية الأولى:

الله سبحانه واحد أحد، خالق للكائنات كلها، ومن كان كذلك فهو قوي قادر عالم.. ليس محتاجاً إلى أحد مطلقاً، والكل محتاج إليه، لأنه الخالق الرازق.. وهو متفرد بصفات الجلال والكمال.

والمولود: ليس بأحد، لأنه جزء من والده.

والولد: ليس بأحد، لأن جزءاً منه في ولده.

ومن يكون له كفاء مماثل، فليس بأحد، لوجود النظير له.

فلفظ أحد في ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ يقررها ويثبتها ويفسرهما بقية السورة^(٢).

(١) قرأ حفص بإبدال همزة (كفوا) واوا وصلأ ووقفأ، والباقون بالهمز، وسكن الفاء يعقوب وخلف، وضمها

الباقون، ففيها ثلاث قراءات (كفوا) لحفص (كفأ) لحمزة ويعقوب وخلف (كفوا) لباقي القراء، ووقف

عليها حمزة بنقل حركة الهزة إلى الساكن قبلها وإبدال الهمزة واوا مع إسكان الفاء.

(٢) تنمة أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن، عطية سالم.

قال تعالى: ﴿يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِهِ عِلْمًا﴾ [طه: ١١٠].

تلخيص السورة:

وهكذا: فإن هذه السورة المكونة من أربع آيات قصار، غاية في الإيجاز والإعجاز، فقد وصفت رب العالمين بصفات الجلال والكمال، ونزهته عن صفات العجز والنقص: ففي الآية الأولى: إثبات الوجدانية ونفي التعدد. وفي الآية الثانية: نفي النقص والعجز. وفي الآية الثالثة: ثبوت الأزلية والبقاء، ونفي الذرية والتناسل. وفي الآية الرابعة: ثبوت العظمة والجلال لله تعالى ونفي الأنداد والأضداد. والمؤمنون يعلمون أن الله تعالى واحد أحد، وكل شيء يفتقر إليه، وهو سبحانه مستغن عن كل شيء، ويتنفي عنه كل ما لا يليق بجلاله.

تم تفسير (سورة الإخلاص) والله الحمد والمنة

تَفْسِيرُ سُورَةِ الْفَلَقِ (١١٣)

مُقَدِّمَةُ السُّورَةِ

١ - (سورة الفلق) هي السورة الثالثة عشرة بعد المئة في ترتيب المصحف، والعشرون في ترتيب النزول، نزلت بعد (سورة الفيل) وقبل (سورة الناس). وهي خمس آيات باتفاق، وثلاث وعشرون كلمة، وأربعة وسبعون حرفاً. وتسمى (سورة الفلق) و(سورة قل أعوذ برب الفلق) ويقال لها مع سورة الناس: (المقشِقِشَتَيْنِ) لأنهما تُبرئان صاحبهما من النفاق، وهذا وصف مشترك بينهما وبين سورتي براءة، والكافرون، كما يقال للفلق مع الناس: (المعوذتان) ويقال لهما مع الإخلاص المعوذات.

وهي سورة مكية على الأصح، وقيل إنها مدنية لأن سبب نزولها سخر اليهود. ٢- والغرض من السورة تعليم العباد أن يلجؤوا إلى ربهم، ويستعيذوا بجلاله وسلطانه من شر الحاقدين والحاسدين، ففي ذلك حِصْنٌ وحماية لهم من المخلوقات الشريرة، ومن الأوقات التي يكثر فيها حدوث الشر، وسائر الأحوال الضارة، وقد ثبت أن النبي ﷺ كان يتعوذ بهذه السورة وما بعدها، ويأمر أصحابه بالتعوذ بهما، فدل هذا على أن التعوذ بهما سنة سنّها رسول الله ﷺ.

٣ - المعوذتان في السنة النبوية:

جاءت عدة أحاديث صحت روايتها عن عقبة بن عامر رضي الله عنه، في شأن المعوذتين، قال عنها الحافظ ابن كثير: فهذه طرق عن عقبة كالمتواترة عنه، تفيد القطع عند كثير من المحققين في الحديث^(١).

(١) انظر تفسير القرآن العظيم للحافظ ابن كثير (ج ٤ ص ٥٧٢).

١ - في فضل المعوذتين والاستعاذة بهما:

أ- عن عقبة بن عامر رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال له: (ألم تر آيات أنزلت علي هذه الليلة، لم أر مثلهن قط ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ﴾ و ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ﴾^(١)).

ب - وعنه رضي الله عنه قال: قلت: يا رسول الله، أقرأ من سورة يوسف، وسورة هود، قال: «يا عقبة، اقرأ بأعوذ رب الفلق، فإنك لن تقرأ بسورة أحب إلى الله وأبلغ عنده منها، فإن استطعت ألا تفوتك فافعل»^(٢).

ج - وعن ابن عباس الجهني رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال له: «يا ابن عباس، ألا أخبرك بأفضل ما تعوذ به المتعوذون؟» قال: بلى يا رسول الله، قال ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ﴾ و ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ﴾ هما المعوذتان»^(٣).

د - وفي رواية النسائي: «ما سأل سائل بمثلهما، ولا استعاذ مستعيز بمثلهما»^(٤).

هـ- وعن ابن مسعود رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «لقد أنزل علي آيات لم ينزل علي مثلهن؛ المعوذتين»^(٥).

و- وعن عبد الله بن خبيب قال: كنت مع رسول الله ﷺ في طريق مكة فأصبحت خلوة من رسول الله ﷺ فدنوت منه، فقال (قل)، قلت: ما أقول، قال (قل)، قلت: ما أقول؟

(١) أخرجه مسلم (٨١٤)، والترمذي (٢٩٠٢)، وأبو داود، والنسائي (٩٥٣)، راجع جامع الأصول في أحاديث الرسول حديث (٦٢٧٠).

(٢) قال الحاكم: هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه (٥٤٠/٢) ووافقه الذهبي، وانظر في تصحيحه موسوعة فضائل سور وآيات القرآن (٥٠٩/٢)، والحديث في صحيح الترغيب والترهيب (١٤٨٥)، والبيهقي في الشعب (٢٥٦٦)، وفي المسند (١٧٤١٨) بإسناد صحيح (محققه)، وأخرجه الدارمي (٣٤٣٩)، والطبراني في الكبير (٨٦٢٦/١٧).

(٣) سنن النسائي (٥٤٤٧)، وصححه الألباني في صحيح سنن النسائي (٥٠٢٠)، وهو عند البيهقي (٢٥٧٤)، وابن سعد (٢١٢/٢)، وانظر الطبراني في الكبير برقم (٩٤٣) عن عقبة بن عامر.

(٤) جامع الأصول (ج ٨ ص ٤٩٢) وهو في النسائي (٥٤٥٣)، وهو في صحيح سنن النسائي (٥٠٢٦). وابن أبي شيبة (٣٥٨/١٠).

(٥) أخرجه الطبراني في الأوسط (٢٦٥٨) بإسناد حسن، وقال الهيثمي في مجمع الزوائد (١٤٩/٧): رجاله ثقات.

قال: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ﴾ حتى ختمها، ثم قال: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ﴾ حتى ختمها، ثم قال: «ما تعوذ الناس بأفضل منهما»^(١).

٢ - قراءة المعوذتين في الصلاة:

أ- قال النبي ﷺ لعقبة بن عامر: «ألا أعلمك سورتين من خير سورتين قرأ بهما الناس؟» قلت: بلى، فأقرأه ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ﴾ و﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ﴾ فأقيمت الصلاة فتقدم رسول الله ﷺ فقرأ بهما^(٢).

ب - وقال رسول الله ﷺ: «يا عقبة بن عامر ألا أعلمك سوراً ما أنزل في التوراة ولا في الزبور ولا في الإنجيل ولا في الفرقان مثلهن لا تأتي ليلة إلا قرأت بهن فيها ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ و﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ﴾ و﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ﴾»^(٣).

ج - وفي حديث عبد الله بن الشخير رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «إذا أنت صليت فاقراً بهما»^(٤) أي بالمعوذتين.

٣ - قراءة المعوذتين دبر كل صلاة:

عن عقبة بن عامر رضي الله عنه قال: أمرني رسول الله ﷺ أن أقرأ بالمعوذتين في دبر كل صلاة^(٥).

(١) أخرجه النسائي في الاستعاذة بإسناد حسن، انظر جامع الأصول في أحاديث الرسول رقم: (٦٢٧١)، وهو عن جابر بن عبد الله أيضاً في النسائي (٥٤٥٦)، قال الترمذي (٢٩٠٢)، حديث حسن صحيح، وفي صحيح سنن النسائي (٥٠٢٩) بإسناد حسن صحيح، وانظر مسند أحمد (١٧٣٠٣) بإسناد صحيح على شرط الشيخين (محققوه).

(٢) انظر جامع الأصول في أحاديث الرسول (ج ٨ ص ٤٠١)، وهو في صحيح سنن أبي داود (١٢٩٨)، وابن أبي شيبة (٣١٧/١)، والمسند (١٧٢٩٦) بإسناد صحيح ورجاله ثقات (محققوه)، وأخرجه أبو يعلى (١٧٣٦)، والبيهقي في الشعب (٢٥٦٣) وغيرهم.

(٣) قال الهيثمي حديث عقبة في الصحيح وغيره باختصار عن هذا، رواه أحمد ورجاله ثقات، انظر مجمع الوائد ومنبع الفوائد (ج ٧ ص ١٤٨-١٤٩) وهو في المسند (١٧٣٣٤، ١٧٤٥٢) قال محققوه: حديث حسن.

(٤) الحديث بإسناد صحيح ورجاله ثقات رجال الشيخين عند أحمد (٢٠٧٢٨٤، ٢٠٧٤٤، ٢٠٧٤٥) (محققوه).

(٥) صحيح سنن الترمذي حديث رقم (٣٠٧٩)، والحديث عند أحمد (١٧٧٩٢)، وهو حديث صحيح وإسناده حسن (محققوه)، وفي سنن أبي داود (١٥٢٣)، وصحيح سنن أبي داود (١٣٤٨).

٤ - قراءة المعوذتين عند النوم وعند الاستيقاظ:

في الصحيحين عن عائشة رضي الله عنها أن النبي ﷺ كان إذا أوى إلى فراشه كل ليلة، جمع كفيه ثم نفث فيهما فقرأ فيهما ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ و﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ﴾ و﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ﴾ ثم يمسح بهما ما استطاع من جسده، يبدأ بهما على رأسه ووجهه وما أقبل من جسده، يفعل ذلك ثلاث مرات^(١).

وقال عليه الصلاة والسلام لعقبة بن عامر: «يا عقيب: اقرأ بهما كلما نمت وكلما قمت»^(٢).

٥ - الرقية بالمعوذتين في المرض ومن العين:

أ- عن عائشة رضي الله عنها أن رسول الله ﷺ كان إذا اشتكى يقرأ على نفسه بالمعوذتين وينفث، فلما اشتد وجعه كنت أقرأ عليه بالمعوذات وأمسح بيده عليه رجاء بركتها^(٣).

ب - وكان ﷺ يأمر عائشة بأن تمسح بيده ﷺ على جسده لَمَّا ضَعُفَتْ يده على التنقل بنفسها، وكانت رضي الله عنها تلمس بركة يد النبي ﷺ بِرُقِيَّةٍ نفسه لنفسه، وهي التي تقرأ المعوذتين لعدم قوته على ذلك^(٤).

ج- وعن أبي سعيد رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ (كان يتعوذ من أعين الجان وأعين الناس، فلما نزلت المعوذتان أخذ بهما وترك ما سواهما)^(٥).

٦ - قراءة المعوذات في الصباح والمساء:

قال عليه الصلاة والسلام لعبد الله بن خبيب رضي الله عنه: «قل، قال: ما أقول؟ قال: ﴿قُلْ هُوَ

(١) رواه البخاري (٦٣١٩، ٥٧٤٨، ٥٠١٧) في فضائل القرآن.

(٢) من حديث عقبة بن عامر في مسند الإمام أحمد، الفتح الرباني (ج ١٨ ص ٢٤٩) قال: ورجاله ثقات وهو في المسند (١٧٢٩٦)، وصحيح سنن أبي داود (١٢٩٨)، وابن أبي شيبة (١/٣٦٧).

(٣) أخرجه البخاري برقم (٥٠١٦، ٤٤٣٩)، ومسلم (٢١٩٢) ومالك.

(٤) تفسير ابن تيمية وابن القيم للمعوذتين والحديث في البخاري (٥٧٣٥)، ومسلم (٢١٩٢).

(٥) أخرجه الترمذي (٢٠٥٨) وقال الترمذي: حديث حسن صحيح والنسائي (٥٥٠٩) وهو في صحيح سنن النسائي (٥٠٦٩)، وعند البيهقي (٢٥٦٢).

اللَّهُ أَحَدٌ ﴿١﴾ والمعوذتين، حين تسمي وحين تصبح «ثلاثاً» تكفيك من كل شيء»^(١).
وقد ذكرت في سورة الإخلاص طائفة أخرى من الأحاديث تشتمل على هذه المعاني ونحوها.

٧ - تَحْرِيمُ جَعْلِ الْمُعَوِّذَاتِ تَمِيمَةً:

رأى عبد الله بن مسعود ؓ في عنق امرأة من أهله سيراً فيه تماائم فقطعه، وقال: إن آل عبد الله أغنياء عن الشرك، ثم قال التولة والتماائم والرقى من الشرك، فقالت امرأة: إن إحدانا لتشتكي رأسها فتسترقى وتظن أن هذا ينفعها فقال ابن مسعود: إن الشيطان يخنس في رأسها، فإذا استرقت حُبس، فإذا لم تسترق نخس، فلو أن إحداكن تدعو بماء فتنضحه في رأسها ووجهها ثم تقول: بسم الله الرحمن الرحيم، ثم تقرأ الإخلاص والفلق والناس، نفعها ذلك إن شاء الله^(٢).

والتولة هي السحر الذي يُحبَّب المرأة إلى زوجها.
والتماائم ما يُكتَب من آيات أو أذكار وأدعية فيجعل حجاباً ويعلق.
والرقى غير المشروعة يُقصد بها ما كان بغير أسماء الله تعالى وصفاته وما جاء في صحيح السنة وكلامه من ألفاظ شركية ونحوها فكل ذلك حرام.

ج - مَا تُسَبِّإِلَى ابْنِ مَسْعُودٍ فِي شَأْنِ الْمُعَوِّذَتَيْنِ:

نسب إلى عبد الله بن مسعود ؓ أنه كان لا يكتب المعوذتين في مصحفه، وأنه كان يحكهما من المصحف، ويقول: إنما أمر رسول الله ﷺ أن يتعوذ بهما، والسبب في هذا أن ابن مسعود كان يرى النبي ﷺ يُعوِّذ بهما الحسن والحسين ولم يسمعه يقرأ بهما في شيء من صلاته، فظن أنهما للتعوذ فحسب، ولم يكن يقرأ بهما، ولم يتابع ابن مسعود على ذلك أحد من الصحابة، وثبت أن النبي ﷺ قرأ بهما في الصلاة كما تقدم في حديث

(١) أخرجه النسائي، جامع الأصول حديث رقم (٦٢٧١)، وهو في النسائي برقم (٥٤٤٣)، والترمذي (٣٥٧٥)، وصحيح سنن أبي داود (٤٢٤١).

(٢) ينظر هذا المعنى في صحيح سنن أبي داود (٣٢٨٨)، والمسند (٣٦١٥) بنحوه، والطبراني (٨٨٦٣)، وابن ماجه (٣٥٣٠)، وهو في سنن أبي داود (٣٨٨٣).

عقبة، أنهما أثبتتا في المصحف^(١).

والجواب على ذلك:

- ١- كما قال القاضي أبوبكر الباقلاني: أن ابن مسعود رضي الله عنه لم يُنكر قُرْآنَيْهِمَا، وإنما أنكر إثباتهما في المصحف، فإنه كان يرى ألا يُكْتَبَ في المصحف شيء إلا بإذن النبي ﷺ وكأنه لم يبلغه الإذن في ذلك، فليس فيه جَحْدٌ منه لقُرْآنَيْهِمَا وإنما هو مَبْلَغُ علمه في شأنهما.
 - ٢- وقال القسطلاني: ويحتمل أيضاً أنه لم يسمعهما من النبي ﷺ ولم يتواتر هذا عنده، ثم لعله قد رجع عن ذلك إلى قول الجماعة. فقد أجمع الصحابة عليهما وأثبتوهما في المصاحف التي بعثوها إلى سائر الآفاق.
 - ٣- وكان أُبَيُّ بن كعب رضي الله عنه يشهد بنزول جبريل بهما على النبي ﷺ^(٢).
 - ٤- وعن زَرِّ بْنِ حُبَيْش قال: قلت لأُبَيِّ بن كعب: إن ابن مسعود كان لا يكتب المعوذتين في مصحفه، قال: أشهد أن رسول الله ﷺ أخبرني أن جبريل عليه السلام قال له: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ﴾ فقلتها، فقال: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ﴾ فقلتها، فنحن نقول ما قال النبي ﷺ^(٣). أقول:
 - ١- وبشهادة أُبَيِّ بن كعب رضي الله عنه.
 - ٢- وثبوت قراءة النبي ﷺ بهما في الصلاة، كما صح ذلك من حديث عقبة بن عامر.
 - ٣- واحتمال أن ذلك لم يبلغ ابن مسعود عن طريق التواتر.
 - ٤- ولأنه لم يتابع ابن مسعود على قوله أحد من الصحابة على ذلك.
 - ٥- ولما ورد أنه قد رجع عن قوله ذلك إلى قول الجماعة.
- وبذلك تزول الشبهة فيما نُسب إلى ابن مسعود رضي الله عنه في ذلك.

(١) أخرجه أحمد في المسند (٢١١٨٨)، والبخاري (١٥٨٦)، والطبراني (٩١٥٢، ٩١٤٨) قال محققو المسند: إسناده صحيح، وانظر الفتح الرباني لترتيب مسند الإمام أحمد (ج ١٨ ص ٣٥١) باب (رأي ابن مسعود في المعوذتين).

(٢) اللفتح الرباني (٣٥٢/١٨) عن الإمام أحمد رحمه الله، وأخرجه أيضاً الطبراني، قال الهيثمي: ورجال أحمد رجال الصحيح، انظر مجمع الزوائد ومنبع الفوائد (ج ٧ ص ١٤٩) باب مجيء في المعوذتين.

(٣) المسند (٢١١٨٦)، والبخاري (٤٩٧٧، ٤٩٧٦)، وابن حبان (٤٤٢٩، ٧٩٧) وشرح مشكك الآثار للطحاوي (١١٨).

تَفْسِيرُ السُّورَةِ

الاستِعَاذَةُ بِفَالِقِ الْإِصْبَاحِ

١- ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ﴾

قل - أيها المخاطب - أعوذوألجأ واعتصم، برب هذا الكون، فالق الحب والنوى فالق الإصباح، من شر جميع ما خلق الله، من إنس وجن وحيوانات، أستعيذ بخالقها من الشر الذي فيها.

وهكذا: يوجه الله سبحانه وتعالى الخطاب لنبية ﷺ وللمؤمنين من بعده معلماً لهم كيف يُلَوِّذُونَ بجناب الله سبحانه، وكيف يعتصمون به، ويلجؤون إليه، ويحتمون بحماه، ويستعيذون بجلاله وسلطانه من كل ما يضرهم في دينهم ودنياهم، مما هو ظاهر لهم أو خاف عليهم، مما علموه أو جهلوه، ليدخلوا في ساحة الأمن والطمأنينة، وليكونوا في كنف الله تعالى وحفظه ورعايته.

فهو سبحانه فالق النور من الظلام، وفالق الحب والنوى، وفالق كل شيء: كالنبات من الأرض، والمطر من السحاب، والأولاد من الأرحام، والصبح من الليل. وهو سبحانه خالق الكائنات جميعاً، والقادر على أن يدفع عن المستعيذ به ما يخافه ويخشاه، كما قدر على انفلاق الصبح من الليل، وإزالة الظلمة عن العالم، فالمستعاذ به هو الله وحده، ولا يستعاذ بسواه، فهو رب الفلق، وهو الذي يُعِيذُهُمْ، ويعصمهم، ويمنعهم من الشر.

والمعنى: أعوذ بفالق الصبح أن ينجيني من شرور الليل وغيره، فهو القادر على أن ينجيني من الشر، كما نجى أهل الأرض كلهم، فجعل لهم الصبح كي يخرجون به من ظلام الليل. ولما كان بعض أهل الجاهلية يستعيذون بسادة الجن إذا نزلوا مكاناً، أخبر سبحانه وتعالى أن الجن زادوا الإنس رهقاً وإثماً وشرّاً بسبب استعاذتهم بهم، قال تعالى:

﴿وَأَنَّهُ كَانَ رِجَالٌ مِنَ الْإِنسِ يُؤْذُونَ رِجَالًا مِنَ الْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا﴾ [الجن: ٦].

وكانوا يستعيذون بسيد الوادي من الجن، من شر سفهاء قومه.

والمستعاذ منه في السورة شرور أربعة:

الشرُّ الأولُ: شرُّ كلِّ مخلوقٍ فيه شرٌّ

٢- ﴿مِنْ شَرِّ مَا خَلَقَ﴾ ﴿٢﴾

أمر المسلم أن يستعيذ بالله تعالى على وجه العموم من شر كل مخلوق فيه شر، ومن كل شر في الدنيا والآخرة، ومن شر شياطين الإنس والجن، وشر السباع والهوام، وشر النار والهواء وغير ذلك، فهو سبحانه المالك لهذا الكون، المتصرف فيه، القابض على ناصيته، القادر على تبديل أحوال خلقه وتغيير شؤونهم.

وفي الصحيح عن النبي ﷺ من حديث خولة بنت حكيم رضي الله عنهما أنه قال: «من نزل منزلاً فقال: أعوذ بكلمات الله التامات من شر ما خلق، لم يضره شيء حتى يرتحل من منزله ذلك»^(١).

وكان عليه الصلاة والسلام يستعيذ بالله تعالى في سفره حين يدخل الليل من شر ما خلق، ومن شر ما نزل من السماء، وما يعرج فيها، ومن شر ما خلق في الأرض، وما يخرج منها، ومن شر فتن الليل والنهار، ومن شر كل طارق يطرق إلا بخير^(٢). وكان ﷺ يستعيذ بالله من الحية والعقرب، ومن شر الأرض، وشر ما خلق فيها، وما يذُب عليها.

والشر المستعاذ منه هو الشر الذي يفعله الناس، ويحدث من المخلوقات، وليس المراد الاستعاذة من خلق الله تعالى، الذي هو فِعْلُهُ وَتَكْوِينُهُ، فإن الشر لا يدخل في ذات

(١) رواه مسلم في الذكر برقم (٢٧٠٨) من حديث خولة بنت حكيم السُّلَمِيَّة، ومالك في الموطأ (٩٧٨/٢)، والترمذي (١٤٣٣)، والدارمي (٢٦٨٣).

(٢) انظر النص في سنن أبي داود في الجهاد وفي مسند أحمد (١٣٢/٢، ٤١٩).

الله تعالى ولا في أسمائه وصفاته، ولا في أفعاله، فأفعاله سبحانه كلها خير لا شر فيها^(١). وهذا لا ينافي وجود الخير والشر، وأنهما مخلوقان لله تعالى، وقد أمر المسلم أن يستعيذ بالله تعالى من جميع الشرور، سواء أكانت شراً في ذاتها، أم كان ذلك من فعل العبد: كالاستعاذة بالله تعالى من إبليس وأعوانه، ومن شر كل ذي شر. وقد أمرنا أن نتعوذ بالله تعالى في نهاية التشهد في كل صلاة، من عذاب القبر وعذاب النار، ومن فتنة المحيا وفتنة الممات، وفتنة المسيح الدجال^(٢). وكان عليه الصلاة والسلام يستعيذ بالله تعالى من الهم والحزن، ومن العجز والكسل، ومن الجبن والبخل، ومن غلبة الدين وقهر الرجال^(٣). وكان ﷺ يستعيذ بالله تعالى من المأثم والمغرم^(٤). ويستعيذ برضا الله تعالى من سخطه، وبمعافاته من عقوبته^(٥). ويستعيذ بالله تعالى في خطبته من شرور النفس وأعمالها السيئة^(٦). ويستعيذ بالله تعالى من شر النفس، وشر الشيطان وشركه. ويستعيذ به أن يقترب سوءاً على نفسه، أو يجزّه إلى مسلم. ومن هذا يتضح عموم الأمر بالاستعاذة من كل شر في أي مخلوق فيه شر، سواء

(١) من تفسير ابن القيم للسورة.

(٢) انظر الحديث في صحيح الكلم الطيب لابن تيمية بتحقيق الألباني رقم (٨٤)، والحديث في صحيح مسلم (٥٨٨)، والبخاري (٢٣٩٧، ٨٣٢)، وأبوداود (٩٨٣).

(٣) انظر الحديث بنصه في رياض الصالحين برقم (١٤٧٢)، وقد رواه مسلم عن أنس (٢٧٠٦)، وهو في البخاري (٦٣٦٣، ٢٨٢٣)، وأبي داود (١٥٥٥) عن أبي سعيد.

(٤) في البخاري (٣٠٢/١) برقم (٧١٢٩، ٦٣٦٨، ٨٣٢)، ومسلم (٤١٢/١) برقم (٥٨٩)، والترمذي (٣٤٨٩)، وابن ماجه (٨٣٨٣)، وأبوداود (١٥٤٣).

(٥) رواه مسلم في الصلاة برقم (٤٨٦)، والموطأ (٢٤١/١)، وأبوداود (٨٧٩)، والترمذي في الدعوات (٣٤٩١).

(٦) خطبة الحاجة للنبي ﷺ بتحقيق الشيخ الألباني، وهي عند أبي داود عن ابن مسعود، والترمذي (١١٠٥)، وابن ماجه (١٨٩٢) وغيرهم.

أكان إنساناً، أم حيواناً، أم جنباً، أم دابة، أم هامة، أم ريحاً، أم عاصفة، أم صاعقة، أم أي نوع كان من أنواع البلاء والشُرور^(١).

الشَّرُّ الثَّانِي: شَرُّ ظَلَامِ اللَّيْلِ وَغِيَابِ الْقَمَرِ

٣- ﴿وَمِنْ شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ ۝﴾

أي: أعوذ بالله من شر ما يكون في الليل إذا غطّى الناس بظلامه، وانتشر فيه كثير من الأرواح الشريرة، والدواب المؤذية، ومن شياطين الإنس والجن:

أ - ويُفسّر الغاسق إذا وقب، بأنه الليل إذا أقبل ودخل، فأظلم واشتدت ظلمته، وأسدل ستاره على كل شيء، واختفى تحت جُنْحِه كل ما هو ظاهر، ويشهد لهذا المعنى قوله تعالى: ﴿أَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِكَ أَلَمْ تَرَ إِلَى غَاسِقٍ أَلْيَلٍ﴾ [الإسراء: ٧٨] وذلك لأن ظلمة الليل ينتشر عندها أهل الشر من شياطين الإنس والجن، وفيه تخرج السباع والهوام، وتخصّل فيه السرقة والحرائق، ويقلّ فيه الغوث والنّجدة.

وقد أمرنا بالاستعاذة بالله تعالى من شر الليل إذا أقبلت ظلمته من المشرق، لما فيه من انتشار الآفات، وتسلب الأرواح الشريرة الخبيثة، وانتشار الشياطين.

ففي الحديث عن جابر رضي الله عنه: «إِنَّ اللَّهَ يَبِثُ - أي ينشر - من خلقه ما يشاء»^(٢).

وأخبر عليه الصلاة والسلام من حديث جابر أن الشمس إذا غربت، انتشرت الشياطين، ثم قال: «فَاكْفُتُوا صَبِيَانَكُمْ، واحبسوا مواشيكم حتى تذهب فحمة العشاء»^(٣).

وأكفّوا صبيانكم يعني ضمّوهم إليكم واحبسوهم في البيوت، وفَحْمَةُ العشاء: ظلمتها: وفي الحديث عن جابر رضي الله عنه: «أَطْفُوا السِّرَجَ فَإِنَّ الْفَوَيْسِقَةَ

(١) راجع تفسير المعوذتين لابن تيمية وابن القيم وانظر البخاري في الأدب المفرد (٧٢١)، والترمذي (٣٤٥٠)، والمسند (٥٧٦٣)، والنسائي في الكبرى (١٠٦٩٧-١٠٧٠٠).

(٢) المسند (٣٠٦/٣)، وانظر حديث البخاري عن جابر (٣٣٠٤).

(٣) البخاري في بدء الخلق (٣٢٨٠)، ومسلم في الأشربة برقم (٢٠١٣) عن جابر.

- يعني الفأرة - تضررم - أي تدخل - على الناس بيوتهم ليلاً^(١).

ب - وفُتِر الغاسق إذا وقب أيضاً، بأنه: القمر إذا كان آخر الشهر، ثم سقط وغاب واختفى، واستدل على هذا بأن النبي ﷺ نظر إلى القمر فقال: «يا عائشة تعوذني بالله من شره، فإنه الغاسق إذا وقب»^(٢).
أي دخل في المحاق، وهو آخر الشهر، فإنه الوقت الذي يتم فيه السحر المؤدي إلى المرض.

ج - وقيل: المراد بالغاسق: إذا خسف القمر واسودّ وذهب ضوءه.
وغيب القمر آخر الشهر يتفق مع ظلمة الليل، ويشارك معه في بعض ما يكون بالليل، وظهور القمر واختفاؤه مرتبط بالليل، والظلمة لا تشتد إلا عند اختفاء القمر، وحينئذ تنتشر الشياطين والصوص، وينشئ أهل الفساد من الإنسان والحيوان..
قال ابن قتيبة: الفاسق: القمر إذا كُسف فاشودّ، ومعنى وقب: دخل في الكسوف، فالمسلم يستعبد بالله من شر كل غاسق، وهو الذي يسودّ ويظلم، فالليل إذا دخل في ظلامه غاسق، والنجم إذا أفل غاسق، والقمر إذا كسف غاسق.
ولهذا كان الأمر بالاستعاذة بالله تعالى من شر الليل وما فيه، لأن نور الصباح إذا انفلق من الظلام، فإنه يطرد كل مُفسِد في الليل، وكل خبيث وقاطع طريق، وكل شيطانٍ منتشر بالليل، وكل هامة خرجت من جحرها.
والمستعاذ به في كل هذا هو ربُّ الفلق: ربُّ هذه الكائنات جميعاً.

(١) من حديث جابر في صحيح مسلم (٢٠١٢)، وصحيح البخاري (٦٢٩٥).

(٢) أخرجه الترمذي (٣٣٦٦)، وانظر جامع الأصول وتحقيقه، حديث رقم (٨٩٨) (ج ٢ ص ٤٤٥)، وأخرجه النسائي في عمل اليوم والليلة (٣٠٦)، وهو في المسند (٢٠٦/٦) (٢٥٧١١) بإسناد حسن، والمستدرك (٥٤٠/٢)، قال الترمذي: حديث حسن صحيح، وصححه الحاكم والذهبي، وقال الألباني في صحيح سنن الترمذي (٢٦٨١) حسن صحيح، وأخرجه الطبري (٧/٢٤)، وأبو الشيخ في العظمة (٦٨١).

الشُّرُّ الثَّالِثُ: شُرُّ السَّاحِرِ الَّذِي يَنْفُثُ فِي عُقَدِ السُّحْرِ

٤- ﴿وَمِنْ شَرِّ انْفَثَرَتْ^(١) فِي الْعُقَدِ ۞﴾

أي وأعوذ برب الفلق، من شر النفس والأرواح الخبيثة، وهُنَّ السواحر اللواتي يَعْقِدْنَ عُقْدًا أو يَنْفُخْنَ فيها وَيُفَرِّقْنَ بين المرء وزوجه، قال تعالى: ﴿وَمَا هُمْ بِضَاكِرِينَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ ۞﴾ [البقرة: ١٠٢].

وسبب نزول المعوذتين: أن غلاماً من اليهود كان يخدم النبي ﷺ فأخذ ما يخرج من الشُّعْرِ في المِشْطِ مع أسنان المشط، وأعطاه لليهود لِيَسْحَرُوا بها النبي ﷺ كما طلبوا منه، فتولى سحره ﷺ لبيد بن الأعصم اليهودي، وكانت بناته تَنْفُثُ في العقد التي عقدها لسحره. وكانت أخت لبيد قد قالت: إن يكن نبياً فسيُخْبَر، وإلا فسيُذْهِله هذا السحر حتى يذهب عقله).

ودس اليهود السحر في بئر، فمرض النبي ﷺ أياماً، وقيل ستة أشهر، كان يُخَيَّلُ إليه أنه يأتي النساء وما يأتيهن، وأنه يفعل الشيء وما يفعله (..فأتاه جبريل قال: إن رجلاً من اليهود سحرَكَ، وعَقَدَ لذلك عُقْدًا، فأرسل رسول الله ﷺ عليّاً فاستخرجه، فجاء به، فجعل كلما حلَّ عُقْدَةً وجد لذلك خِفَّةً، فقام رسول الله ﷺ كأنما أنشط من عقال، فما ذَكَرَ ذلك لليهودي، ولا رآه في وجهه).

وقد استخرج السحر من تحت صخرة في البئر، ووُجِدَ بها غطاء طَلَعَ النخل، وفيه مُشَاطَةُ الرَّأْسِ، وأسنان المشط، وفيه إحدى عشرة عقدة مغروزة بإبرة.

فأنزل الله المعوذتين، وجعل كلما قرأ آية انحلت عقدة، حتى وجد خفة عند العقدة الأخيرة، ولمَّا حصل الشفاء والمعافة، أمر النبي ﷺ بدفن السحر ولم يستخرجه لئلا تحدث فتنة بينهم. والإشارة في ﴿انْفَثَرَتْ﴾ إلى بنات لبيد بن الأعصم اليهود، كُنَّ ساحرات، وهن اللواتي سَحَرْنَ مع أبيهم النبي ﷺ وعَقَدْنَ له إحدى عشرة عقدة، فأنزل الله تعالى إحدى

(١) قرأ رويس بخلف عنه (النافثات) جمع نافثة والباقون ﴿انْفَثَرَتْ﴾ جمع نفائة وهو الوجه الثاني لرويس.

عشرة آية بعدد العقد، هي مجموع آيات سورتي المعوذتين، والنفث شبه النفخ دون ثقل ريق، ويكون النفث على عقد تُعقد في خيوط ونحوها على اسم المسحور فيؤذى^(١).
وقد ورد في الصحيحين وغيرهما قصة لبيد بن الأعصم دون الإشارة إلى أن أنها كانت سبباً في نزول السورة.

قال البخاري: حدثنا عبيد الله بن إسماعيل، حدثنا أبو أسامة عن هشام عن أبيه، عن عائشة رضي الله عنها قالت: سُحِرَ النبي ﷺ حتى إنه ليُخِيلَ إليه أنه يفعل الشيء وما فعله، حتى إذا كان ذات يوم وهو عندي، دعا الله ودعاه، ثم قال: (أَشْعَزْتُ يَا عَائِشَةُ أَنْ اللَّهَ أَفْتَانِي فِيمَا اسْتَفْتَيْتُهُ فِيهِ) قلت: وما ذاك يا رسول الله؟ قال: (جاءني رجلان، فجلس أحدهما عند رأسي، والآخر عند رجلي، ثم قال أحدهما لصاحبه: ما وَجَعُ الرجل؟ قال: مطبوب، قال: ومن طَبَّهُ قال: لبيد بن الأعصم اليهودي من بني زُرَيْق، قال: فبماذا؟ قال: في مُشْطٍ ومُشَاطَةٍ وَجَفَّ طَلْعَةٌ ذَكَرَ، قال: فأين هو؟ قال: في بئر ذي أَرْوَانَ، قال: فذهب النبي ﷺ في أناس من أصحابه إلى البئر، فنظر إليها وعليها نخل، ثم رجع إلى عائشة فقال: والله لكان ماءها نُقَاعَةُ الْحِثَاءِ، ولكان نخلها رَوْوس الشياطين) قلت: يا رسول الله، أفأخرجته؟ قال: (لا، أما أنا فقد عافاني الله وشفاني، وخشيتُ أن أثير على الناس منه شراً، وأمرَ بها فُدِفَتْ)^(٢).

وجاء في بعض الروايات أن النبي ﷺ أتى البئر حتى استخرجه وقال: هذه البئر التي أُرِيْتُهَا^(٣).
وجاء عند البيهقي عن عائشة أيضاً أن الملكان أخبرا النبي ﷺ أن السحرتحت صخرة في أسفل البئر، وأن النبي ﷺ ذهب إليه مع بعض أصحابه، فنزل رجل فاستخرجه، فإذا فيه مُشْطٌ رسول الله وفيه من شَعْرِ رأسه، وَمَعَهُ تمثال لرسول الله ﷺ فيه إبر مغروزة، ووتر، فيه إحدى عشرة عقدة، فأتاه جبريل بالمعوذتين فقرأهما وحلَّ عقدة عند كل آية وعافاه الله^(٤) وفي السحر خمسة مباحث:

(١) ينظر: تفسير ابن عطية (٥/٥٣٨).

(٢) هذه إحدى روايات البخاري برقم (٥٧٦٦) ومثلها (٣١٧٥)، وانظر (٣٢٦٨، ٥٧٦٣)، وفي مسلم (٢١٨٩).

(٣) البخاري (٣١٧٥، ٥٧٦٥)، ومسلم (٢١٨٩).

(٤) ينظر البيهقي في الدلائل (٧/٩٢-٩٤).

أولاً: رقية جبريل للنبي ﷺ:

ثبت أن جبريل عليه السلام جاء إلى النبي ﷺ فقال: يا محمد اشتكيت؟ فقال: نعم، فقال: «باسم الله أرقيك، من كل شيء يؤذيك، من شر كل نفس، أو عين حاسد، الله يشفيك، باسم الله أرقيك»^(١).

وفي رواية أبي سعيد: «من شر كل كاهن وساحر»^(٢).

ثانياً: بماذا يبطل السحرويعالج؟

ويؤخذ من هذا أن إبطال السحر إن كان بالقرآن كالمعوذتين وآية الكرسي وآيات السحر الثلاث في سور: الأعراف ١١٧-١٢٢ ويونس ٨٠-٨٢ وطه ٦٩، ٧٠ ونحو ذلك مما تجوز به الرقية، فلا مانع منه شرعاً، وإن كان فك السحر بسحر، أو بما لا يفهم معناه، ونحو ذلك، فإنه ممنوع^(٣).

فإن عُرف مكان السحر بطريقة من الطرق، فإنه يؤتى به ويُبطل بوضعه في عين الحُمَام مثلاً إن لم يكن فيه اسم الله تعالى أو شيء من القرآن. فعلاج السحر يكون بالقراءة المشروعة على المسحور، ويكون باستخراج السحر وإبطاله، واستفراغ القيء أو الدم الذي في محل وجوده^(٤).

ولا يعالج السحر بالسحر، ولا يذهب إلى السحرة لفكه ولا يعتقد في كلامهم، فقد ورد في ذلك وعيد شديد، وأن من أتى كاهناً أو عرافاً فصدقه بما يقول، فقد كفر بما أنزل على محمد، وفي وإنه لا تقبل صلاته أربعين يوماً فأكثرهم دجالون مرتزقة.

(١) من حديث عبادة بن الصامت بإسناد حسن كما قال محقق صحيح ابن حبان (٢٩٦٨، ٢٩٥٣) وهو عن أبي سعيد في الترمذي (٩٧٢)، وقال: حسن صحيح، وابن ماجه (٢٥٢٢)، والمسند (١١٢٢٥، ١١٥٥٧)، وعن جابر بن عبد الله أو أبي سعيد الخدري، وقال محققوه: إسناده صحيح على شرط مسلم ورجاله ثقات، وهو في مسلم (٢٧٨٦)، وأبي يعلى (١٠٦٦).

(٢) وهي عند أحمد بإسناد صحيح كما قال محققو المسند (١١٢٢٥، ١١٥٥٧)، والنسائي في الكبرى (٧٦٦٠)، وانظر الحديث السابق.

(٣) راجع أضواء البيان في تفسير ﴿وَلَا يُلْقِ السَّاجِرُ حَيْثُ أَنْ﴾ بسورة طه.

(٤) الطب النبوي (ص ١٢٤) وما بعدها.

وكذا التعوذ بالله تعالى والتحصن به، وحفظ أوامره ونواهيه، وتقوى الله تعالى والتوكل عليه، والإقبال عليه والإخلاص له، وإخلاص التوبة له، وكثرة الصدقة والإحسان، والصبر على الأذى والإحسان إلى من أساء، وتجريد التوحيد لله تعالى^(١).

ففي هذا علاج وحصن لدفع السحر والحسد وغيرهما.

ثالثاً: السحر وعصمة الرسول:

والسحر الذي أصاب النبي ﷺ كان مرضاً عارضاً شفاه الله منه، ولا نقص في ذلك ولا عيب بوجه من الوجوه، فإن المَرَضَ يجوز على الأنبياء، وهو نوع من البلاء، ابتلي به النبي ﷺ من اليهود.

وقد تسلط السحر على جسد النبي ﷺ وظاهر جوارحه، لا على عقله وقلبه واعتقاده، وليس في هذا لبساً على الرسالة، ولا مطعناً لأهل الضلالة، ولا ما يقدر في عصمته ﷺ في تبليغ الرسالة، وصدقه في دعوته، وكل ما يعرض للبشر كالسحر والأمراض، فغير بعيد أن يحدث للنبي ﷺ لأنه من أمور الدنيا، وهو بشر من البشر، يعتري جسده ما يعتري أجساد البشر، دون أن يؤثر هذا في عقله، ولا يقدر في مقام النبوة والرسالة.

وليس هذا سحراً بالمعنى الذي وصف به المشركون النبي ﷺ في قولهم (ساحر) فالرسول ﷺ ليس ساحراً ولا مسحوراً، حيث لم يُصَبَّ بالذهول وفقدان الوعي، ولم يُضْدر عنه السحر الذي يصدر من السحرة مطلقاً، في جميع مراحل حياته.

هذا ما عليه جمهور المسلمين، فحديث السحر هذا ثابت في الصحيحين، ولم يتكلم في سنده أحد بكلمة، والقصة مشهورة عند أهل التفسير والسنن والحديث والفقهاء والتاريخ، وهي لا تقدر في مقام النبوة.

رابعاً: السحر لا يؤثر بنفسه:

وجمهور علماء الأمة على أن السحر ثابت وله حقيقة، يخشى من ضرره، وأنه لا يؤثر بنفسه، إلا بإذن الله تعالى، قال تعالى: ﴿وَمَا هُمْ بِضَاكِرِينَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ [البقرة: ١٠٢] ويستعاذ بالله منه ومن أهله. ومن السحر ما يكون وهمّاً وتخيلاتاً لا حقيقة له.

(١) رؤوس أقلام من بحث لابن القيم عند تفسير الآية في تفسيره للمعوذتين وقد ذكر فيها عشرة أسباب مبسطة.

خامساً: حكم تعلّم السحر وتعليمه:

وتعلّم السحر واستخدامه إن كان بتعظيم غير الله تعالى كالكوكب، أو بتسخير الجن، ونحو ذلك، فهو كفر لقوله تعالى: ﴿وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّى يَقُولَا إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ﴾ [البقرة: ١٠٢] أي بتعلّمك السحر، وإن كان عن طريق الاستعانة بخواص الأدوية، والدّهانات، واعتقاد أنه يؤثر بنفسه فهو حرام من الكبائر. وكذلك الحكم في تعليم السحر واستخدامه، والساحر الذي يبلغ به سحره درجة الكفر، يُقتل كُفراً^(١).

الشُّرُّ الرَّابِعُ: شُرُّ عَيْنِ الْحَاسِدِ

٥- ﴿وَمِنْ شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ﴾

الحسد المذموم هو: تمني زوال نعمة الآخرين، أو تمني عدم حصول النعمة لهم، شحاً بها عليهم.

والحسد المحمود هو: تمني أن يكون للإنسان مثل ما لغيره، وعدم تمني زوالها عنه، وهو الغبطة. والمؤمن يغبط، والمنافق يحسد.

ومن باب الغبطة: غبطة العالم على علمه، وتمني مثله للنفس، وغبطة المال الصالح للعبد الصالح، وتمني مثله، كما في حديث أبي هريرة ؓ أن النبي ﷺ قال: «لا تحاسد إلا في اثنتين: رجل آتاه الله القرآن، فهو يتلوه آناء الليل وآناء النهار، فهو يقول: لو أُوتيت مثل ما أُوتي هذا، لفعلتُ كما يفعل، ورجل آتاه الله مالاً، فهو ينفقه في حقه فيقول: لو أُوتيت مثل ما أُوتي، وعملتُ فيه مثل ما يُعمل»^(٢).

وقد نهى النبي ﷺ عن الحسد كما جاء في حديث أبي هريرة أيضاً أن النبي ﷺ قال: «إياكم والظن، فإن الظن أكذب الحديث، ولا تجسسوا، ولا تحسسوا، ولا تحاسدوا، ولا تباغضوا، ولا تدابروا، وكونوا عباد الله إخواناً»^(٣).

(١) راجع بحث السحر للشيخ الشنقيطي في أضواء البيان بسورة طه.

(٢) صحيح البخاري برقم (٥٠٢٥، ٥٠٢٦، ٥٠٢٨، ٧٥٢٨)، وصحيح مسلم (٨١٥).

(٣) صحيح البخاري برقم (٥١٤٣)، وانظر (٦٧٢٤، ٦٠٦٤)، وصحيح مسلم (٢٥٦٣).

والحسد قد يكون عن طريق الإصابة بالعين من الإنس أو من الجن، وقد يكون عن طريق النفس، بحسد الإنسان لنفسه، أو لغيره وإن كان غائباً.

وفي الحسد عشرة مباحث:

١- ماهية الحسد: والحسد شيء لا يرى، كالنفس والروح والعقل، وهو أشبه ما يكون بالأشعة التي تنفذ إلى داخل الجسم، دون رؤيتها، فهو إشعاع غير مرئي، ينتقل من قلب الحاسد إلى المحسود.

٢- أسباب الحسد: وترجع أسباب الحسد إلى الكبر وازدراء الناس، وإعجاب الحاسد بنفسه، وعدم الرضى بالقدر، فقد كان الكبر هو الحامل لإبليس في حسده لآدم، فوقع أول ذنب في السماء بسببه، وكانت عدم القناعة هي الحامل لقابيل في حسده لأخيه هابيل على أخته الحسنة، ف وقعت أول جريمة في الأرض بسبب الحسد.

٣- الحاسد خبيث الطوية: والحاسد ينطوي على نفس خبيثة، فينظر إلى المحسود بحدّة ومقت وخُبث، تنفذ سموه من خلال تلك النظرة الحاكمة إلى المحسود فتؤثر فيه.

قال تعالى: ﴿وَإِنْ يَكَادُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَيُزْلِقُونَكَ بِأَبْصَرِهِمْ لَمَّا سَمِعُوا الذِّكْرَ﴾ [القلم: ٥].

أي يصيبونك بالعين حقداً وبغضاً وعداوة لك.

٤- ما يصيبه الحسد: وعين الحاسد تصيب الإنسان والحيوان وغيرهما، ويكون الحسد في نعمة موجودة أو متوقعة، ويحسد الحاسد ما يراه وما لم يره.

٥- أعراض الحسد: وأعراض الحسد كثيرة: كحدوث المكروه للمحسود، مع ضيق في النفس، والتنهدات، والتثاؤب، وبعض المشكلات التي تحدث للمحسود.

٦- الحسد في الكتاب والسنة: والحسد ثابت في مثل قوله تعالى عن المشركين الذين حسدوا الرسول ﷺ ﴿أَمْ يَحْسُدُونَ النَّاسَ عَلَى مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ﴾ [النساء: ٥٤].

يعنى من النبوة والرسالة.

وكقوله تعالى عن أهل الكتاب أيضاً وقد حسدوا المسلمين على الإسلام:

﴿وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّوكُم مِّنْ بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِّنْ عِنْدِ أَنْفُسِهِمْ مِّنْ بَعْدِ مَا بَيَّنَّ لَهُمُ الْحَقُّ﴾ [البقرة: ١٠٩] يعني من النبوة والرسالة.

وكقوله تعالى عن المنافقين: ﴿فَسَيَقُولُونَ بَلْ نَحْنُ مُحْسِنُونَ﴾ [الفتح: ١٥].

يعني على النعمة المتوقعة وهي غنائم الحرب.

وقد صح في الحديث عن ابن عباس رضي الله عنهما أن النبي ﷺ قال:

«العين حق، ولو كان شيء سابق القدر لسبقته العين»^(١).

٧- ما يجب على العائن (الحاسد): وينبغي على من أُعجب بشيء، ويخشى أن يصيب الناس بعينه، أن يدفع هذا الشر عن نفسه، بأن يدعو للشخص بالبركة فيقول: اللهم بارك له أو عليه، لقول النبي ﷺ «ألا بركت»^(٢) أي دعوت له بالبركة.

يقول ذلك لئلا تسبقه عينه ويصيب بها أخاه، ويجاهد في نفسه نوازع الحسد بإعلامها أن الفضل بيد الله يؤتيه من يشاء، وأن ضرر الحسد لا يعود إلا على الحاسد لعدم الرضى بالقضاء، ويقول أيضاً من يتوقع صدور الحسد منه: «ما شاء الله لا قوة إلا بالله، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم: والحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات».

٨- بماذا يدفع الحسد: وعندما يتوقع الإنسان حصول الحسد من شخص ما، فإنه يكبر ثلاثاً عند خوفه من عينه فيقول: «الله أكبر ثلاث مرات»^(٣) فإن الله تعالى يدفع عنه العين بمشيئة الله تعالى.

٩- علاج الحسد: تثبت التجارب العلمية والعملية أن الطب الحديث والعقاقير والأدوية تقف عاجزة تماماً أمام علاج الحسد، وعلاج الحسد يكون بالقرآن والسنة، فمن قرأ سورة الإخلاص، والمعوذتين، صباحاً ومساءً كل يوم، لا يضره فيه حسد،

(١) رواه مسلم (٢١٨٨)، والترمذي عن ابن عباس (٢٠٦٢)، وهو في صحيح الجامع (٤٠٢٣)، والأذكار النووية (ص ٢٧٢)، وجامع الأصول رقم: (٥٧٣٧).

(٢) راجع النص الكامل للحديث في الموطأ برقم (١٧٠٢)، وجامع الأصول برقم (٥٧٤٠)، وهو في المستدرک (٤١١/٣)، والمسند (٤٨٦/٣) برقم (١٥٩٨٠) حديث صحيح، فيه أبو أويس قد توبع، وبقيّة رجاله ثقات رجال الشيخين (محققوه).

(٣) ينظر: تمة أضواء البيان، سور الفلق.

والتكبير والاستعاذة بالله تعالى، فيهما رد الحسد، والتحصن بالأذكار والأدعية صباحاً ومساءً فيه علاج للحسد.

قالت عائشة رضي الله عنها: كان يؤمر العائن أن يتوضأ، ثم يغتسل منه المعين^(١) (المحسود).

وقد أمر النبي ﷺ بالوضوء أو الاغتسال من العين على النحو التالي:

بأن يَغْسِلَ المتهم بالعين وهو (الحاسد) وجهه، وكفيه، والمرفقين، والركبتين والقدمين، وطرف الإزار الداخلي، ويكون ذلك في إناء لا يَسْقُطُ منه الماء على الأرض، ويفترغ هذا الماء على المحسود من خلفه، وَيُكْفَأُ الإناء خلفه^(٢).

فإن هذا علاجاً نبوياً للحسد يزول به بحول الله تعالى وقوته.

أصاب سهل بن حنيف وَغَكَّةً فقال ﷺ: هل تتهمون له أحداً؟ قالوا: نتهم عامر بن ربيعة، قال: فدعا رسول الله ﷺ عامراً فتغيط عليه (أي غضب منه) وقال: «علام يقتل أحدكم أخاه، ألا بركت (يعني هلا دعوت له بالبركة) اغْتَسِلْ له»، فغسل عامر: وجهه، ويديه، ومرفقيه، ورُكْبَتَيْه، وأطراف رجله، وداخل إزاره، في قَدَحٍ، ثم ضَبَّ عليه، فراح (سهل) مع الناس ليس به بأس^(٣).

(١) أبوداود بإسناد صحيح على شرط البخاري، ومسلم برقم (٣٨٨٠)، وفي صحيح أبي داود (٣٢٧٦)، وانظر الأذكار النبوية (ص ٢٧٢)، وجامع الأصول رقم: (٥٧٣٩).

(٢) انظر الأحاديث الواردة في الموطأ والطب النبوي والأذكار النووية وأضواء البيان وغيرها في الوضوء أو في الاغتسال من العين بألفاظ عدة.

(٣) انظر سياق حديثين في الموطأ برقم: (١٧٠١، ١٧٠٢) باب الوضوء من العين وانظر نص الحديثين في جامع الأصول (ج ٧ رقم: ٥٧٤٠) وهو حديث حسن صحيح، ورواه أيضاً: أحمد (١٥٩٨٠) حديث صحيح، والنسائي في الكبرى (٧٤٦٩)، وابن ماجه (٣٥٠٦)، وصححه ابن حبان، قال الزرقاني في شرح الموطأ: ظاهره الارسال، لكنه محمول على أن أبا أمامة (الراوي) سمع ذلك من أبيه، من تحقيق عبدالقادر الأرناؤوط على جامع الأصول.

قال ابن الأثير: وكان من عاداتهم: أن الإنسان إذا أصابته العين من أحد، جاء إلى العائن، فجرده من ثيابه، وغسل جسده ومعاففه، ووجهه وأطرافه، وأخذ المعين - أي المحسود - ذلك الماء فصبه عليه، فيبرأ بإذن الله تعالى.

قال: وداخل الإزار: الطرف الذي يلي جسد المؤتزر، وقيل: أراد موضع داخله إزاره من جسده، لا إزاره.

وقيل: أراد به مذاكيره، فكُنِيَ عنها، كما كُنِيَ عن الفرج بالسروايل، وقيل: هو الوزك^(١).

١٠- الرقية من العين مشروعة: فقد صح عن أم سلمة رضي الله عنها أن النبي ﷺ رأى في بيتها جارية، في وجهها سفعة، فقال: «استرقوا لها فإن بها النظرة»^(٢).

والسفعة سواد أو صفرة في الوجه من نظرة الجن.

وقالت عائشة رضي الله عنها: أمرني النبي ﷺ أن نسترقى من العين^(٣).

وقد رخص النبي ﷺ من حديث أنس في الرقية من العين والحمة، والنملة^(٤).

ويكون ذلك بالإكثار من قراءة المعوذات، وفاتحة الكتاب، وآية الكرسي، والأدعية النبوية، مثل:

١- (أعوذ بكلمات الله التامات من شر ما خلق)^(٥).

٢- (أعوذ بكلمات الله التامة من كل شيطان وهامة ومن كل عين لامة)^(٦).

(١) حاشية جامع الأصول (ج ٧ ص ٥٨٣) و (ص ٥٨٦).

(٢) نقله النووي عن الصحيحين في الأذكار النووية (ص ٢٧٢)، والحديث في البخاري (٥٧٣٩)، ومسلم (٢١٩٦، ٢١٩٧).

(٣) أخرجه البخاري (٥٧٣٨)، ومسلم (٢١٩٥)، وراجع الطب النبوي لابن القيم (ص ١٦٣).

(٤) أخرجه مسلم في صحيحه برقم (٢١٩٦)، وراجع الطب النبوي لابن القيم (ص ١٦٣).

(٥) من حديث أبي هريرة في صحيح مسلم (٢٧٠٩)، وابن ماجه (٣٥١٨)، والنسائي في عمل اليوم والليلة (٥٨٥، ٥٩٢) وغيرهم، ومن حديث خولة بنت حكيم في مسلم (٢٧٠٨) وغيره.

(٦) البخاري (٣٣٧١)، وأبو داود (٤٧٣٧)، وابن ماجه (٣٥٢٥) عن ابن عباس.

- ٣- ورقية جبريل للنبي ﷺ: (باسم الله أريقك.. من كل شيء يؤذيك، من شر كل نفس أو عين حاسد، الله يشفيك، باسم الله أريقك)^(١).
- ٤- ومثل (بسم الله الذي لا يضر مع اسمه شيء في الأرض ولا في السماء وهو السميع العليم)^(٢). إلى غير ذلك من الأدعية.
- ٥- وكان ﷺ يتعوذ من الجان ومن عين الإنسان، حتى نزلت المعوذتان، فلما نزلتا أخذ بهما وترك ماسواهما^(٣).
- ٦- ومثل: (اللهم رب الناس، أذهب البأس، واشف أنت الشافي، لا شفاء إلا شفاءك، شفاء لا يغادر سقماً)^(٤).
- ٧- ومثل (أسأل الله العظيم رب العرش العظيم أن يشفيك) سبع مرات^(٥).
- ٨- وعن عثمان بن أبي العاص ؓ أنه شكا إلى رسول الله ﷺ وجعاً يجده في جسده منذ أسلم، فقال ﷺ: (ضع يدك على الذي يألم من جسدك وقل: بسم الله، وقل سبع مرات «أعوذ بعزة الله وقدرته من شر ما أجد وأحاذر»)^(٦).

تم تفسير (سورة الفلق) والله الحمد والمنة

- (١) من حديث أبي سعيد في صحيح مسلم (٢١٨٦)، وصحيح سنن ابن ماجه (٢٨٥٨).
- (٢) من حديث عثمان بن عفان عند أبي داود (٥٠٨٩، ٥٠٨٨) بإسناد حسن، وهو في صحيح ابن ماجه (٣٨٦٩)، والترمذي (٣٣٨٥) وغيرهم.
- (٣) راجع هذه الأدعية في الطب النبوي لابن القيم (ص ١٦٨) وهذا الحديث عن أبي سعيد في سنن الترمذي (٢٠٥٩)، وابن ماجه (٣٥١١) وغيرهما وإسناده صحيح.
- (٤) من حديث عائشة في صحيح مسلم (٢١٩١)، وصحيح البخاري (٥٧٤٣).
- (٥) من حديث ابن عباس عند أبي داود (٣١٠٦)، والترمذي (٢٠٤)، وابن حبان (٧١٤)، وصححه الألباني في في صحيح الجامع (٦٣٨٨)، وصحيح سنن أبي داود (٣١٠٦).
- (٦) مسلم (٢٢٠٢)، وابن ماجه (٣٥٢٣)، والموطأ (٩٤٢/٢)، وأبوداود (٣٩١)، والترمذي (٢٠٨١).

تَفْسِيرُ سُورَةِ النَّاسِ (١١٤)

مُقَدِّمَةُ السُّورَةِ

١ - (سورة الناس) هي السورة الرابعة عشرة بعد المئة في ترتيب المصحف، فهي آخر سورة فيه، وهي الحادية والعشرون في ترتيب النزول، نزلت بعد (سورة الفلق) وقبل (سورة الإخلاص).

وهي ست آيات، عند المدني الأول والأخير، والعراقي (الكوفي والبصري) وسبع آيات عند المكي والشامي. وعشرون كلمة، وتسعة وسبعون حرفاً.

وتسمى (سورة الناس) وسماها ابن عطية (سورة المعوذة الثانية) وتسمى مع سورة الفلق (المعوذتان) والمقشّشتان، وتسمى سور: الإخلاص والفلق والناس: المعوذات. وهي سورة مكية على الصحيح.

٢ - موضوع السورة:

والسورة تأمر بالاعتصام بالله تعالى، والتحصن به من شياطين الإنس والجن، وما يُلقَوْنَه في الصدور من وساوس، ونحن لا ندري كيف يتصرف الجن، ولكننا نشعر بما يطلبوه منا، وبرغبتنا في تليته، فلجأ إلى الله تعالى أن يحفظنا منه.

والإنس يتلذذ بإتيان الشهوة، والجن يتلذذ بإغوائه للإنس، وتزيين المعصية له.

قال تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَاطِينَ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُورًا﴾ [الأنعام: ١١٢].

وهذا هو معنى استمتاع الجن بالإنس، واستمتاع الإنس بالجن كما قال تعالى على

لسان الإنس: ﴿رَبَّنَا أَسْتَمتعَ بَعْضُنَا بِبَعْضٍ﴾ [الأنعام: ١٢٨].

والشياطين ليست سُلطة تنفيذية، فهي لا تملك إلا الإغواء والوسوسة، والإنسان

يستجيب لها، والمؤمن المتحصن بالأذكار والأدعية في صباحه ومساءه لا يضره شيء بإذن الله تعالى، إنه يعيش داخل سور يحميه من هواجس الشيطان ووساوسه.

وَمَنْ تَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ تَعَالَى، وَصَدَّقْ فِي إِيمَانِهِ، وَكَانَ مِنْ عِبَادِ اللَّهِ الْمَخْلَصِينَ، لَمْ يَكُنْ لِلشَّيْطَانِ عَلَيْهِ سَبِيلٌ، فَإِنْ غَلَبَتْهُ نَفْسُهُ الْأَمَّارَةُ بِالسُّوءِ، وَأَحْسَ أَنْ الشَّيْطَانُ اسْتَغْلَّ غَفْلَةَ قَلْبِهِ، فَاقْتَرَبَ مِنْهُ وَحَامَ حَوْلَهُ، فَعَلَيْهِ أَنْ يَلْجَأَ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى، فَيَتَعَوَّذَ بِهِ، وَيَحْتَمِي بِحِمَاةِ، فَابِابِ اللَّهِ مُفْتَوِّحٍ، وَقَدْ أَمَرْنَا سُبْحَانَهُ أَنْ نُنْظِرَ لَيْلَ نَهَارٍ، فَهَذَا هُوَ الْمَلْجَأُ الْوَحِيدُ مِنْ إِبْلِيسَ وَذُرِّيَّتِهِ، وَمِنْ شَيَاطِينِ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ، الَّذِينَ يُزَيِّنُونَ لِلنَّاسِ الْمَعَاصِيَ وَالذُّنُوبَ عَنْ طَرِيقِ الشَّهَوَاتِ وَالشَّهَابَاتِ.

وأول مادة في تزيين المعاصي هي كشف العورات، فالشيطان: ﴿يَنْزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوْءَ بَيِّنَاتٍ﴾ [الأعراف: ٢٧].

والمادة الثانية هي الحسد والكبر ﴿قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِمَّنْ خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ﴾ [الأعراف: ١٢]. وعن طريق هاتين المادتين أخرج إبليس آدم من الجنة، دار النعيم والاستقرار إلى دار الهم والغم والأوجاع والآلام، وأحاط إبليس بذرية آدم من كل جانب، وقعد له كل مرصد فقال: ﴿ثُمَّ لَا يَأْتِيهِمْ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَنِهِمْ وَعَنْ شَمَائِلِهِمْ وَلَا يَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ﴾ [الأعراف: ١٧].

وقد فتح الله تعالى لنا ملجأ يحفظنا به من الشياطين: فلا ينالون منا، ووضع في أيدينا مفتاح الدخول في حماه بـ ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ﴾. وهذه السورة تبرز ثلاث قضايا، فهو سبحانه:

١- رب الناس ٢- وملك الناس ٣- وإله الناس.

وكل مؤمن يعتقد بهذه القضايا الثلاث، ويعمل بمقتضاها.

والمشركون قديماً وحديثاً آمنوا بأنه سبحانه رب الناس وملكهم فصدقوا بذلك واعتقدوه، وهذه هي القضية الأولى (توحيد الربوبية).

أما القضية الثانية فهي (توحيد الإلهية) وهذه القضية تصديق وعمل يستلزم اتباع منهج الله تعالى الذي وضعه لخلقه، لتحقيق السعادة في الدنيا والآخرة، بالتوجه إليه وحده في العبادة، ولكن هذه القضية أنكرها المشركون وخالفوها، وعمل بمقتضاها المؤمنون الصادقون.

تَفْسِيرُ السُّورَةِ

الْمُسْتَعَاذُ بِهِ وَالْمُسْتَعَاذُ مِنْهُ

١-٣- ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ^(١) ﴿١﴾ مَلِكِ النَّاسِ ﴿٢﴾ إِلَهِ النَّاسِ ﴿٣﴾﴾

قل - أيها المخاطب - أعوذ برب الناس، ومالكهم، وإلههم، من الشيطان الذي هو أصل الشرور ومادتها، أعوذ من فتنته ووسوسته وتزيينه للمعاصي وقبيح الأفعال. والمستعاذ به في السورة هو الله سبحانه، والمستعاذ منه هو الشيطان، وقد أمر الله سبحانه وتعالى المسلم أن يتحصن بالله تعالى من نزغات الشيطان، ومن كيد ومكره وهذه موازنة بين المستعاذ به والمستعاذ منه في السورتين:

أ - ففي سورة الفلق أمر الله سبحانه المسلم أن يستعيذ بصفة واحدة من صفاته عز وجل وهي: رب الفلق، والمستعاذ منه فيها أربعة أمور هي:

- ١- عموم مافيه شر من الخلق.
- ٢- الغاسق.
- ٣- النفاثات.
- ٤- الحاسد.

وفي سورة الناس، جاء الأمر بالاستعاذة بصفات عظمى ثلاث هي:

- ١- الرب.
- ٢- المَلِك.
- ٣- الإله.

والمستعاذ منه أمر واحد وهو: الشيطان.

والمستعاذ منه في سورة الفلق، شرور تأتي من خارج الإنسان، ويُعتدى عليه بها.

أما المستعاذ منه في سورة الناس، فهو شر واحد يأتي من داخل الإنسان، وقد يكون هاجساً لا يستطيع دفعه^(٢).

(١) قرأ الدوري عن أبي عمرو بالفتح والإمالة في كلمة ﴿النَّاسِ﴾ الخمسة في السورة.

(٢) الشيخ عطية محمد سالم في أضواء البيان بتصرف (ج ٩ ص ٦٧٦) وما بعدها.

والشر الخارجي الذي في سورة الفلق يصاب به الإنسان ويبتلى: كالحسد والسحر، هو ظلم يقع على الإنسان من غيره ولا يكتسبه لنفسه، وقد يكون الإنسان سبباً فيه. والشر الداخلي الذي في سورة الناس، كتزوين الشهوات والشبهات، فيه ظلم للنفس، وهو سبب المعاصي والذنوب، ومن المعاييب التي يعاب بها المسلم، ويعاتب عليها، لأنه يدخل تحت التكليف والكسب^(١).

ب - والمستعاذ منه في سورة الفلق أمور تضر البدن. أما المستعاذ منه في سورة الناس فهو أمر واحد يضر الروح، وما كان يضر الروح فهو أهم.

وقد أضاف الله سبحانه الصفات الثلاث وهي: (رب، وملك، وإله) إلى الناس:

- ١- وقُدِّمَتْ (صفة الرب) على غيرها، لأن الربوبية تتضمن الخلق، والتدبير، ودفع الشر، وجلب المصلحة للناس، وعمومها وشمولها لكل مربوب.
- ٢- وثُنِيَ (بالمَلِكِ)، لأنه سبحانه ملك الناس، المتصرف فيهم، له السلطان التام عليهم، وهم عبيده، يفزعون إليه عند الشدائد، ويستغيثون به، ويلجؤون إلى حماه، وهو سبحانه الإله الحق، والمعبود الذي لا معبود سواه، فلا يُخضع إلا له، ولا يتوكل إلا عليه، والخلق كلهم داخلون تحت الربوبية والملك، فكل دابة هو آخذ بناصيتها.
- ٣- وقد أُرِخَ سبحانه (وصف الألوهية) لتخصيصه بالله - سبحانه - المعبود بحق. واشتملت هذه الصفات الثلاث على جميع أسماء الله تعالى الحسنی وصفاته العليا. وكانت الاستعاذة بهذه الصفات الثلاث من أعدى الأعداء، وأشدّهم ضرراً، وأبلغهم كيداً وهو الشيطان^(٢).

وقد ذكرت هذه الصفات الثلاث في سورة الفاتحة.

- ١- في اسم الجلالة. ٢- وكلمة ﴿نَبِّ﴾. ٣- وكلمة ﴿مَلِكِ﴾.

(١) ينظر: تفسير المعوذتين لابن القيم (ص ١٤٧).

(٢) ينظر: تفسير ابن القيم (ص ١٤٣) وما بعدها.

وجاءت هذه الصفات الثلاث أيضاً في صدر سور البقرة:

١- في اسم الجلالة. ٢- وجملة ﴿اعْبُدُوا رَبَّكُمْ﴾.

٣- وآثار المَلِك سبحانه: من الخلق، وتسخير الأرض.

والله سبحانه وتعالى رب العالمين، ورب كل شيء.

وإضافة ﴿رَبِّ﴾ إلى ﴿النَّاسِ﴾ هنا، فيه مزيد اختصاص، لإشعارهم بأنه سبحانه هو الذي يجيرهم من شرور أنفسهم، ومن شر الشيطان، وفيه تقوية رجاء العبد بربه ليستعيد به ويحتمي بحماه، وفيه تشريف وتكريم للإنسان، وهو سبحانه ملك كل شيء.

وفي إضافة المَلِك وهو الله سبحانه إلى الناس، إشعار باستحقاقه وحده بالعبادة دون سواه.

وفي إضافة ﴿إِلَهِ﴾ إلى ﴿النَّاسِ﴾ ارتقاء إلى كمال العبودية، وإفراد الألوهية.

فإذا أقر العبد (أولاً) بأن له (رباً) وعرف (ثانياً) أن ربه، له (المَلِك) التام، والحكم الشامل، عرف (ثالثاً) أنه وحده (الإله) المعبود بحق، المفتقر إليه كل من عداه.

قال ابن كثير: هذه ثلاث صفات من صفات الرب عز وجل: الربوبية، والملك، والإلهية، فهو رب كل شيء ومليكه وإلهه، فجميع الأشياء مخلوقة له، مملوكة له سبحانه.

فأمر المستعيز أن يتعوذ بالمتصف بهذه الصفات من شر الوسواس الخناس، وهو الشيطان الموكّل بالإنسان، فإنه ما من أحد إلا وله قرين يزين له الفواحش، ولا يألو جهداً في إضلاله وإغوائه، والمعصوم من عصمة الله تعالى.

والمعنى: أعتصم وألوذ بخالق الناس ومدبر شؤونهم، ومالك أمرهم، ومعبودهم من شر الإنس والجن جميعاً.

الْوَسْوَاسُ الْخَنَّاسُ

٤- ﴿مِنْ شَرِّ الْوَسْوَاسِ الْخَنَّاسِ﴾^(١)

هذان وصفان للشيطان، فهو وسواس خناس، والموصوف بهما محذوف هو: الشيطان، وكان محذوفاً لقبحه، فالشيطان يوسوس للإنسان، ويُلقِي في نفسه حركة

(١) عَدَّ المكي والشامي لفظ ﴿الْوَسْوَاسِ﴾ آية وتركه غيرهما.

لا تُحَس، أو صَوْتًا خَفِيًّا لَا يُسْمَع، كلما كان غافلاً عن ذكر الله تعالى.
والشيطان يَخْنَس: أي يتوارى ويختفي، ويرجع ويتأخر، وينقبض وينحسر إذا ذَكَرَ
العبد ربه، واستعاذ به.

فالمؤمن يَعَذِّب الشيطان ويجعله هزيراً ضئيلاً مقموراً بذكر الله تعالى وطاعته،
والتوجه إليه، فكأن الذِّكْر والاستغفار، سِياط مُسَلَّطَة يَعَذِّب بها الشيطان.
ويشتد الشيطان وَيَقْوَى في كيدهِ للعبد، ويظل جاثماً على قلبه، طالما كان العبد بعيداً
عن ذكر الله تعالى، غافلاً عنه سبحانه، غارقاً في ذنوبه^(١).

وإذا فسد القلب بجثوم الشيطان عليه فسد كل شيء في الإنسان، والعياذ بالله.
جاء عن ابن عباس رضي الله عنهما «الشيطان جاثم على قلب ابن آدم، فإذا سها
وغفل وسوس، وإذا ذكر الله خنس»^(٢).

والوسواس الخناس يتناول وسوسة الجن وهي خفية، وقد تكون مشاهدة، ويتناول
وسوسة الإنس وهي ظاهرة.

فالذي يوسوس في صدور الناس، يكون من طائفة الإنس كما يكون من طائفة الجن.
وفي الإنس شياطين، كما أن في الجن شياطين، ولهذا قال تعالى: ﴿مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ﴾
فشياطين الإنس والجن يشتركان في الوحي الشيطاني، ويشتركان في الوسوسة^(٣).
والواس كما يكون من الجن يكون من الإنس والشيطان يدعوه حزبه ليكونوا من
أصحاب السعير.

وصدورُ الناس هي محلُّ الوسوسة من الجن ومن الإنس، فالشيطان ينفذ إلى صدر
ابن آدم وإلى قلبه بطريقة لا يعلمها إلا الله، فيجري منه مجرى الدم في العروق،
ويزخرف له القول والعمل.

(١) ينظر: تفسير ابن تيمية للسورة.

(٢) أخرجه الطبري (٧٥٤/٢٤)، وابن أبي شيبة (٣٦٩/١٣)، وانظر فتح الباري (٧٤٢/٨).

(٣) تفصيل هذا لابن تيمية وابن القيم في تفسير السورة.

قال تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيْطَانِ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ زُخْرَفَ الْقَوْلِ غُرُورًا﴾ [الأنعام: ١١٢].

وقال سبحانه في وسوسة النفس: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ وَنَعَلَهُ مَا تَوَسَّوْهُ بِهِ نَفْسُهُ﴾ [ق: ١٦]. فالجن يخنس بالاستعانة، وشيطان الإنس لا يخنس ولو قرأت عليه القرآن كله، بل إنه يزين لصاحبه الفواحش، ويغريه بالمنكرات، والإنسان يعمل عمل الشيطان في تزيين الشر، وتحسين القبيح. والإنسان شيطان ظاهر، أما الجن فهو شيطان خفي مستتر، قال تعالى: ﴿إِنَّهُمْ يَرْتَكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُ مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ إِنَّا جَعَلْنَا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [الأعراف: ٢٧].

الْقَرِينُ

٥- ﴿الَّذِي يُوسَّوْشُ فِي صُدُورِ النَّاسِ﴾

وكل إنسان له قرين من الجن، هو معه في جهاد، فإن تغلب عليه الإنسان، فقد ارتقى المرء بنفسه إلى منزلة عالية، وإن غلبه شيطانه، فقد انحط بها إلى درجة سفلى، وإن غلب كل منهما الآخر مرة ومرة، فهو في جهاد مستمر مع عدوه.

ويكون الْقَرِينُ مُسَلِّطاً عَلَى الْمُغْرَضِ عَنْ رَبِّهِ قَالَ تَعَالَى: ﴿وَمَنْ يَعْشُ عَنْ ذِكْرِ الرَّحْمَنِ نُقَيِّضْ لَهُ شَيْطَانًا فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ﴾ [النزف: ٣٧] وَأَنَّهُمْ لَيَصَّدُّونَهُمْ عَنِ السَّبِيلِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ مُّهْتَدُونَ﴾ [الزخرف: ٣٧].

وعن عبد الله بن مسعود ؓ أن رسول الله ﷺ قال: «ما منكم من أحد إلا وكل به قرينه من الجن» قالوا: وإياك يا رسول الله؟ قال: «وإياي، إلا أن الله أعانني عليه فأسلم، فلا يأمرني إلا بخير»^(١).

- ولفظ (فأسلم) برفع الميم، بمعنى أسلمت أنا من شره وفتنته. وبفتح الميم، بمعنى أن القرين أسلم، أي دخل في الإسلام، فصار مؤمناً، لا يأمر إلا بخير.

ففي الحديث إشارة إلى التحذير من فتنة القرين ووسوسته وإغوائه، حيث أعلمنا ﷺ

(١) صحيح مسلم (٢/٤١٦٧) برقم (٢٨١٤).

بأنه يوسوس لنا، لنخذَر منه ومن إغوائه، فهو موكل بالعبد لا يفارقه إلى الممات. قال القاضي عياض: والأمة مجتمعة على عصمة النبي ﷺ من الشيطان في جسمه وخاطره ولسانه.

خمس صور من وسوسة الشيطان وشروبه:

أولاً: الشيطان يجري من ابن آدم مجرى الدم؛ ويقذف الشر في نفسه باتهام الآخرين: قالت صفية بنت حُيَي أم المؤمنين رضي الله عنها: (كان رسول الله ﷺ معتكفاً فأتيته أزوره ليلاً، فحدثته ثم قُمت، فانقلبتُ، فقام معي لِيَقْلِبَنِي - يعني يوصلني إلى البيت - وكان مسكنها في دار أسامة بن زيد، فمرّ رجلان من الأنصار، فلما رأيا النبي ﷺ أسرعاً، فقال ﷺ على رِشْلِكُما، إنها صفية بنت حيي - يعني: زوجتي - فقالا: سبحان الله يا رسول الله ، فقال ﷺ: «إن الشيطان يجري من ابن آدم مجرى الدم، وإنني خشيت أن يقذف في قلوبكما سوءاً» أو قال: «شيئاً»^(١).

ثانياً: وسوسة الشيطان في الصلاة وحرصه على ذلك:

عن أبي هريرة ؓ قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا نودي بالصلاة، أدبر الشيطان وله ضراط، فإذا قضي النداء أقبل، فإذا ثوب بالصلاة أدبر، فإذا قضي أقبل، حتى يخطر بين الإنسان وقلبه، فيقول: اذكر كذا، اذكر كذا، حتى لا يدري أصلى ثلاثاً أم أربعاً، فإذا لم يدر أثلاثاً صلى أم أربعاً، سجد سجدة السهو»^(٢) والثوب هو إقامة الصلاة.

ثالثاً: الشيطان يشكك العبد في ربه:

عن أبي هريرة ؓ عن النبي ﷺ قال: «يأتي الشيطان أحدكم فيقول: من خلق كذا؟ من خلق كذا؟ حتى يقول: من خلق الله؟ فمن وجد ذلك، فليستعيذ بالله وليتته»^(٣).

(١) أخرجه البخاري برقم (٢٠٣٥، ٦٢١٩، ٧١٧١)، ومسلم برقم (٢١٧٤).

(٢) أخرجه البخاري في الأذان (١٢٢٢، ٣٢٨٥، ١٢٢٣١)، ومسلم (٣٨٩)، وفي المساجد (٨٢).

(٣) رواه البخاري في بدء الخلق (٣٢٧٦)، ومسلم في الإيمان (١٣٤).

رابعاً: والشیطان یعقد علی رأس العبد عند النوم:

عن أبي هريرة رضی اللہ عنہ أن رسول الله ﷺ قال: «يعقد الشيطان على قافية رأس أحدكم إذا هو نام، ثلاث عُقَد، يضربُ على كل عقدة منها، عليك ليل طويل فازقُدْ، فإن استيقظ فذكر الله انحلت عُقْدَةٌ، فإن توضأ انحلت عقدة، فإن صلى انحلت عُقْدُهُ كُلُّهَا، فأصبح نقيطاً طيب النفس، وإلا أصبح خبيث النفس كسلان»^(١).

خامساً: الشيطان يبول في أذن العبد حتى لا يصلي الفجر: ذكر عند النبي ﷺ رجل نام ليلة حتى أصبح ولم يقم إلى صلاة الفجر، فقال: «ذاك رجل بال الشيطان في أذنيه»^(٢).
سته من أهم شرور الشيطان:

وتنحصر شرور الشيطان في ستة أجناس، لا يزال الشيطان بابن آدم حتى ينال منه ما استطاع: أولها: شر الكفر والشرك: فإذا ظفر الشيطان بكفر ابن آدم، صيره من جُنده وأعوانه، وهذا منتهى هدف الشيطان، حي يُصبح الإنسان من دُعاة جهنم.

ثانيها: البدعة: وذلك أنه إذا يئس الشيطان من كُفر ابن آدم، حَبَّبَ إليه البدعة في الدين بالزيادة أو النقص فيه، وجعله من أهلها، وهي أحب إليه من الفسوق والمعاصي.

ثالثها: الكِبائر: إذا يئس الشيطان أن يجعل العبد من أهل البدع، حَبَّبَ إليه ارتكاب الكِبائر، ولا سيما إن كان من أهل العلم والفضل، ليكون قدوة سيئة، يَهْدِمُ به الآخرين.

رابعها: الصغائر: إذا عجز الشيطان أن يجعل العبد من أهل الكِبائر، هَوَّنَ عليه الصغائر وحبَّبه فيها، حتى تجتمع عليه فتُهْلِكْه.

قال عليه الصلاة والسلام في حديث عبد الله بن مسعود رضی اللہ عنہ:

«إياكم ومحقرات الذنوب فإنهن يجتمعن على الرجل حتى يُهْلِكُنَّه»^(٣).

(١) رواه البخاري في التهجد (١١٤٢، ٣٢٦٩)، ومسلم في صلاة المسافرين (٧٧٦).

(٢) رواه البخاري في التهجد من حديث عبد الله بن مسعود (١١٤٤، ٣٢٧٠)، ومسلم (٧٧٤)، والنسائي في قيام الليل.

(٣) رواه أحمد في المسند (٣٨١٨) وهو حديث حسن لغيره، ومن حديث سهل بن سعد في المسند بنحوه

(٢٢٨٠٨) بإسناد صحيح ورجاله ثقات (محققوه)، وهو عند الطيالسي في مسنده (٤٠٠)، والبيهقي في

الشعب (١٠٥٠٠)، والطبراني عن ابن مسعود، وفي صحيح الجامع الصغير، حديث رقم (٢٦٨٤).

وما يستصغره الناس اليوم من بعض المعاصي والذنوب من الأقوال والأفعال كانت في أعين السلف من الموبقات والأمور الجسام.

خامسها: الاشتغال بالمباحات التي لا ثواب فيها ولا عقاب، بعد عجزه عن تحبيب الصغائر إليه، وذلك لتضييع وقته، وتفويت الثواب عليه.

سادسها: أن يُشغل الشيطان العبد بالأمور المفضولة دون الفاضلة، ليفوت عليه ثواب العمل الفاضل، فيقتنع بالقليل من الأجر، ويضيع الكثير منه، فالشيطان يأمر العبد بسبعين باباً من الخير، ليتوصل بها إلى باب واحد من الشر، ليفوت عليه ما هو أعظم منها في الأجر، أو يوقعه فيما يفوقها باكتساب الذنب والإثم.

من صور كيد الشيطان لابن آدم:

١- والشيطان لصّ سارق للأموال، فكل طعام وشراب لم يُذكر عليه اسم الله تعالى، فله فيه حظٌ بالسرقة والخطف، والبيت الذي لا يُذكر فيه اسم الله تعالى، يأكل الشيطان فيه طعام الإنس بغير إذنهم.

٢- والعبد، حين يفعل الذنب ويستتره ربه، يجتهد الشيطان في كشف ستره وفُضِّحِه، سواء بحديث الإنسان عن نفسه، أو بإلقاء ذلك في نفوس الناس.

٣- والشيطان يقعد لابن آدم بكل طريق فيها خير، وقد أقسم ليقعدنَّ لبني آدم صراط الله المستقيم، وليأتينهم من بين أيديهم ومن خلفهم وعن أيمنهم وعن شمائلهم. وقد أخرج الشيطان آدم من الجنة، وجعل من أولاده شرطة للنار، وهو يعمل جاهداً على إبطال الدعوة إلى الله عز وجل، قاصداً بذلك دعوة الناس إلى عبادته وإطفاء نور الله سبحانه^(١).

تسعة أمور يعتصم بها العبد من كيد الشيطان:

أولاً: الاستعاذة بالله تعالى من الشيطان:

قال تعالى: ﴿وَمَا يَزَعْنَكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْعٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ ﴿٣٦﴾ [فصلت].

(١) راجع تفصيل هذه الشرور لابن القيم في تفسيره للمعوذتين.

عن عدي بن ثابت عن سليمان بن صرد رضي الله عنه قال: كنت جالساً مع النبي ﷺ ورجلان يستبان، فأحدهما احمر وجهه وانتفخت أوداجه، فقال: النبي ﷺ «إني لأعلم كلمة لو قالها لذهب عنه ما يجد، لو قال: أعوذ بالله من الشيطان الرجيم ذهب عنه ما يجد»^(١).

ثانياً: قراءة المعوذتين، فإن لهما تأثيراً عجيباً في التحصن بالله تعالى من شر الشيطان ودفعه، والتحصن منه، ولذا قال النبي ﷺ: «ما تعوذ المتعوذون بمثلهما»^(٢).

وكان ﷺ يقرؤهما كل ليلة عند النوم، وأمر عقبة بن عامر أن يقرأ بهما دبر كل صلاة، وفيهما مع الإخلاص، الكفاية والحفظ من كل سوء، ومن كل شر.

ثالثاً: قراءة آية الكرسي:

ففي الحديث عن أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «إذا أويت إلى فراشك فاقراً آية الكرسي، فإنه لن يزال عليك من الله حافظ، ولا يقربك شيطان حتى تصبح»^(٣).

رابعاً: قراءة سورة البقرة:

لقول النبي ﷺ من حديث أبي هريرة رضي الله عنه: «إن البيت الذي تقرأ فيه البقرة لا يدخله الشيطان»^(٤).
خامساً: قراءة خاتمة سورة البقرة: لقول النبي ﷺ من حديث أبي مسعود الأنصاري رضي الله عنه: «من قرأ الآيتين من آخر سورة البقرة في ليلة كفتاه»^(٥).

وقوله ﷺ عنهما في حديث النعمان بن بشير رضي الله عنه: «لا يقرآن في دارٍ ثلاث ليالٍ فيقرَّبها شيطان»^(٦) أي لا يسكن فيها.

(١) في الأدب المفرد (٩٩/٧)، وهو في الصحيح برقم (٦٠٤٨، ٢٢٨٢)، وعند مسلم (٢٦١٠).

(٢) راجع الحديث بكامله عن عقبة بن عامر في جامع الأصول (ج ٨ ص ٤٩٢) وهو مخرج في سورة الفلق.

(٣) من حديث أبي هريرة في البخاري (٣٢٧٥، ٢٣١١).

(٤) أخرجه مسلم من حديث أبي هريرة في صلاة المسافرين رقم (٧٨٠)، والترمذي (٢٨٧٧) واللفظ له، والنسائي.

(٥) حديث أبي مسعود الأنصاري في البخاري، فضائل القرآن (٨٠٧، ٤٠٠٨، ٥٠٥١)، ومسلم، صلاة المسافرين (٨٠٨).

(٦) أخرجه الترمذي عن النعمان بن بشير في فضائل القرآن (٢٨٨٢)، والنسائي في عمل اليوم والليلة (٩٦٧)،

وفي الكبرى (١٠٨٠٣)، وفي المسند (١٨٤١٤) إسناداً حسن ورجاله ثقات رجال الصحيح (محققوه)،

وابن حبان (٧٨٢)، والبغوي في شرح السنة (١٢٠١).

سادساً: قراءة الآيات الثلاث الأول من سورة غافر، إلى: ﴿وَالَيْهِ الْمَصِيرُ﴾ مع آية الكرسي، فإن من قرأ بهما صباحاً فهو في حفظ الله تعالى حتى يمسي، ومن قرأهما مساء فهو في حفظ الله تعالى حتى يصبح^(١).

سابعاً: عَظُمَ أَجْرُ من قرأ الأذكار:

عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «من قال لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد، وهو على كل شيء قدير، في يوم مئة مرة، كانت له عدل عشر رقاب، وكتبت له مئة حسنة، ومُحِيت عنه مئة سيئة، وكانت له حرزاً من الشيطان يومه ذلك حتى يمسي، ولم يأت أحد بأفضل مما جاء به إلا عمل أكثر من ذلك»^(٢).

ثامناً: وذكر الله أعظم ما يتحرز به العبد من الشيطان، وكذلك الوضوء والصلاة، فإنهما يُطفئان نار الغضب والشيطان.

تاسعاً: ومن ذلك: إمساك فضول النظر، وفضول الكلام، والطعام، ومخالطة الناس، فإن الشيطان يتسلط على ابن آدم، وينال منه غرضه من هذه الأبواب الأربعة^(٣).

شَيَاطِينُ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ

٦- ﴿مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ﴾

بَيَّنَّ سبحانه وتعالى في هذه الآية، صِنْفَيِ الذين يوسوسون في صدور الناس، فذكر أنهم الْجِنَّةُ - بكسر الجيم - أي الجنّ، وهي: اسم جمع (جنّي) بياء النسب، كما يقال (إنسيّ) فكما أن شيطان الجن يوسوس للإنسان تارة ويخنس تارة أخرى، فإن شيطان الإنس يوسوس للإنسان كالناصح له، فإن قَبِلَ، زاد في الوسوسة، وإن كَرِهَ خَنَسَ وانقبض.

(١) راجع ذلك عن أبي هريرة في الترمذي، فضائل القرآن، رقم (٢٨٧٩)، قال أبو عيسى: هذا حديث غريب، وقد تكلم بعض أهل العلم في عبدالرحمن بن أبي بكر بن أبي مليكة من قيل حفظه، وزرارة بن مصعب، هو ابن عبدالرحمن بن عوف، وهو جدّ أبي مصعب المدني.

(٢) رواه البخاري (٣٢٩٣، ٦٤٠٣)، ومسلم (٢٦٩١) بزيادة.

(٣) انظر تفصيل ذلك لابن القيم في تفسير المعوذتين.

ويصح أن يكون لفظ ﴿النَّاسِ﴾ مشتركاً بين الجن والإنس، فقد سَمَّى الله تعالى الجن رجالاً في قوله: ﴿وَأَنَّهُ كَانَ رِجَالٌ مِّنَ الْإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِّنَ الْجِنِّ﴾ [الجن: ٦].

ويقول العرب: جاء قوم من الجن فقيـل: من أنتم؟ قالوا: أناس من الجن. فيكون المعنى: أن الوسواس الخناس وهو من الشياطين حتماً، لأن الوسوسة من شأنه، فهو يوسوس للجن كما يوسوس للإنس.

في حديث أبي هريرة ؓ أن النبي ﷺ قال: «إن الله تعالى تجاوز لأمتي ما حدثت به أنفسها ما لم يعملوا أو يتكلموا»^(١) والغضب ينشأ عن وسوسة الشيطان.

لذا: فقد نهى ﷺ عن الغضب، وأوصى بتزكـه حين قال له رجل: أوصني، قال: «لا تغضب، قال: زدني، قال: لا تغضب»^(٢).

وذكرُ الله تعالى يُذهب الوسوسة والغضب، قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِّنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُمْ مُبْصِرُونَ﴾ [الأعراف: ٢٠١].

وقال قتادة: إن من الناس شياطين، ومن الجن شياطين، فتعوذوا بالله من شياطين الإنس والجن^(٣).

والمؤمن القوي ليس للشيطان عليه من سبيل، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ وَكَفَى بِرَبِّكَ وَكِيلًا﴾ [الإسراء: ٦٥].

وقد كان إيمان عمر ؓ أقوى من كيد الشيطان، فقال ﷺ: «ما سلك عمر فجاً إلا وسلك الشيطان فجاً غيره».

فاللهم جتـبنا وساوس الشيطان وهواجسه، ولا تجعل له علينا سبيل، واحفظنا بحفظك، واكـلأنا برعايتك يا أرحم الراحمين، والحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات.

تم تفسير (سورة الناس) والله الحمد والمنة

(١) صحيح مسلم (١١٦/١) برقم (١٢٧)، والبخاري (٢٥٢٨، ٥٢٦٩، ٦٦٦٤).

(٢) من حديث أبي هريرة في البخاري (٦١١٦)، والبيهقي في الشعب (٨٢٧٧)، والمسند (٨٧٤٤، ١٠٠١١، ١٥٩٦٤). قال محققوه: إسناده صحيح.

(٣) تفسير ابن عطية (٥/٥٤٠).

الآية	فهرس الموضوعات	الصفحة
	تفسير سورة النبا - مقدمة السورة - موضوعها وفصولها الخمسة	٥
٣-١	اختلاف الناس في البعث والنشور	٧
٥،٤	التهديد والوعيد لمنكري البعث	٩
	تسعة أدلة كونية على إمكانية البعث والنشور هي: أولاً: تذليل الأرض للبشر.	١٠
١٦-٦	ثانياً: تثبيت الجبال للأرض. ثالثاً: أصناف البشر. رابعاً: نعمة النوم. خامساً: جعل الليل راحة للأبدان.	١١
	سادساً: النهار وقت العمل والنشاط. سابعاً: السبع الطباقي. ثامناً: كوكب الشمس. تاسعاً: نعمة الماء	١٤
٢٠-١٧	تغيير معالم الكون عند قيام الساعة	١٧
٢٦-٢١	الحديث عن جهنم وصفاتها وعذاب أهلها	١٩
٣٠-٢٧	لعذاب أهل النار سببان:	٢١
٣٦-٣١	أربعة ألوان من نعيم المتقين في الجنة:	٢٣
	أ- الحداثق والبساتين. ب- الحور العين. ج- خمر الجنة. د- سماع الطيب من القول	٢٤
٣٨،٣٧	لا كلام ولا شفاعة في اليوم الرهيب إلا بإذن الله تعالى - شرطاً للشفاعة	٢٧
٣٩	النجاة من أهوال الآخرة بالإيمان والعمل الصالح	٢٩
٤٠	إنذار الناس قطعاً للأعداء قبل الموقف العصيب	٣٠
	تفسير سورة النازعات - مقدمة السورة - موضوعها - مقاطعها الأربع	٣٣
٥-١	القسم بالملائكة في أحوالها المختلفة على أن البعث حق	٣٦
٩-٦	حال الناس والكون عند النفخ في الصور	٣٩
١٤-١٠	أقوال المكذبين بالبعث والرد عليهم	٤١
٢٦-١٥	نموذج من مصير الطغاة	٤٢
٢٩-٢٧	خلق السموات والأرض أعظم من بعث الناس بعد موتهم	٤٨
٣٣-٣٠	دخو الأرض وتسخيرها لصالح العباد والبلاد كروية الأرض	٤٩
٣٦-٣٤	عرض الأعمال ويزور جهنم في ساحة المحشر	٥٢
٤١-٣٧	عبود الشهوة وعباد الله	٥٣
٤٤-٤٢	علم الساعة عند الله وحده	٥٤
٤٦،٤٥	وجوب الاستعداد لليوم الآخر	٥٦
	تفسير سورة عبس - مقدمة السورة. موضوعها. التعريف بابن أم مكتوم. مقاطع السورة سبب النزول	٥٧
٤-١	قصة عبد الله بن أم مكتوم	٦١
١٠-٥	منهج الدعاة في دعوة الفقراء والأثرياء	٦٤
١٢،١١	آيات القرآن هداية وموعظة	٦٦
١٦-١٣	صحف الملائكة وصحف القرآن	٦٧
١٩-١٧	أصل الإنسان ومنتهاه	٦٨
٢٢-٢٠	تيسير الله للإنسان سبيل معاشه ومعاده	٧١
٢٣	الإنسان لم يقم بجميع ما أمره الله به	٧٢
٣٢-٢٤	قصة نشأة الطعام وتكوينه	٧٣

الآية	فهرس الموضوعات	الصفحة
٣٧-٣٣	القيامة وأهلها وانشغال كل إنسان بنفسه	٧٧
٤٢-٣٨	وصف وجوه أهل السعادة وأهل الشقاء يوم القيامة	٧٩
٨١	تفسير سورة التكويد - مقدمة السورة وموضوعيها - ستة أحداث تقع في الدنيا عند قيام الساعة: وستة أخرى تحصل في الآخرة	٨١
١	الحدث الأول: توقف إشعاع الشمس	٨٥
٣، ٢	الحدث الثاني: تساقط النجوم - الحدث الثالث: زوال الجبال عن أماكنها	٨٦
٥، ٤	الحدث الرابع: توقف الحمل والإنجاب - الحدث الخامس: حشر الوحوش والحيوانات	٨٧
٦	الحدث السادس: تسجير البحار	٨٨
٧	ستة أحداث أخرى تقع في الآخرة بعد قيام الساعة	٨٩
٩، ٨	الحدث الأول: عودة الأرواح إلى الأبدان، وتلاقى كل نظير بنظيره	٩١
١٠	الحدث الثاني: تطيب خاطر الموءودة وتبكي من وأدائها - صور من وأدائها - تنظيم النسل	٩١
١١، ١٢	الحدث الثالث: توزيع صحف الأعمال	٩٥
١٣، ١٤	الحدث الرابع: مخوُ معالم السماء - الحدث الخامس: تأجيح النار واستقبالها للمجرمين	٩٦
١٥-١٨	الحدث السادس: تقريب النعيم من أهل الجنة - جواب الحوادث الاثني عشر	٩٧
١٩-٢١	الموضوع الثاني: ثلاثة أقسام على صدق القرآن وصحة الرسالة	٩٩
٢٢	جواب القسم - وصف جبريل بخمسة أوصاف	١٠٠
٢٣	إبطال بهتان المكذبين بخاتم الأنبياء	١٠٢
٢٤	رأى الرسول جبريل على صورته الحقيقية مرتين	١٠٣
٢٥-٢٨	نفى كتمان الوحي عن رسول الله ﷺ	١٠٤
٢٩	القرآن كلام الله ووحيه يتنم به من يتبع الحق	١٠٤
٣٠-٥	للعبد مشيئة وإرادة عَلِمَهَا الله من عبده قبل خَلْقِهِ	١٠٦
٦-٨	تفسير سورة الانفطار - مقدمة السورة ومقاطعها الثلاثة	١٠٧
٩	أربعة أحداث إذا تمت، قامت القيامة، وهي تصدع السماء، وتناثر النجوم	١٠٩
١٠-١٢	وانفجار البحار وخروج النار منها واختلاطها، وبغثرت الأموات	١١١
١٣-١٨	إيقاظ القلوب والضمائر وتذكير الغافل بعجيب خلق الله فيه	١١٦
١٩	عدم الإيمان باليوم الآخر هو سبب الغفلة والجحود	١١٦
٢٠-١٢	أربعة أوصاف للحفظة هي: الحفظ والضبط، وطهارة النفس، والاطلاع على أحوال الناس	١١٦
٢١-١٨	مصير الأبرار والفجار	١١٩
٢٢	الله تعالى هو المتفرد بالسلطان والحكم في الدنيا والآخرة	١٢١
٢٣	تفسير سورة المطففين - مقدمة السورة - موضوعها - ومقاطعها الأربعة	١٢٣
٢٤-٣	وصف التطفيف في المحسوسات والمعنويات-	١٢٧
٢٥-٦	تهديد المطففين ووعدهم بالعقاب يوم لقاء الله تعالى - أحاديث في يوم القيامة	١٣٠
٢٦-٩	سجل أعمال المطففين في ديوان أهل الشر	١٣٤
٢٧-١٣	ثلاثة أوصاف لمن لم يؤمن باليوم الآخر	١٣٦

الآية	فهرس الموضوعات	الصفحة
١٤	كثرة الذنوب تحجب الإيمان عن القلب	١٣٨
١٧-١٥	الفجار ممنوعون من رؤية ربهم في الآخرة، داخلون جهنم	١٤٠
٢١-١٨	كتاب أعمال الأبرار في ديوان أهل الخير	١٤١
٢٦-٢٢	أربعة من نعيم الأبرار وهي: الاتكاء على الأسرة، ونضرة الوجوه، والرحيق المختوم	١٤٣
٢٨، ٢٧	وشراب التسليم	١٤٥
٣٣-٢٩	أهل الإجماع يرتكبون أربعة قبائح في حق أهل الإيمان هي: الاستهزاء بهم، والتغامز والسخرية بهم، ووصفهم بالضلال	١٤٦
٣٦-٣٤	الجزاء من جنس العمل	١٥٠
	تفسير سورة الانشقاق - مقدمة السورة - موضوعها - مقاطعها الأربع - سجود التلاوة فيها	١٥٢
٥-١	عند نهاية الدنيا تنشق السماء وتمتد الأرض ثم يكون الحساب	١٥٧
٦	لا يسمح كدح الدنيا إلا نعيم الجنة	١٥٩
٩-٧	أهل السعادة يفرحون بنتيجة امتحان الدنيا	١٦١
١٢-١٠	أهل الشقاء يدعون على أنفسهم بالهلاك	١٦٣
١٥-١٣	سبب الشقاء وإحاطة علم الله به	١٦٤
١٩-١٦	القسم على أن البعث حق - جواب القسم	١٦٥
٢١، ٢٠	تعنيف الكفار على عدم إيمانهم مع وضوح الأدلة	١٦٨
٢٤-٢٢	سبب الكفر ومصير الكافر	١٦٩
٢٥	أجر المؤمن لا ينقطع	١٧٠
	تفسير سورة البروج - مقدمة السورة - موضوعها - قصة أصحاب الأخدود - أربع روايات منها - تعقيبات	١٧١
٣-١	ثلاثة أنواع من القسم على الانتقام من كل من شق أخدوداً لمؤمن	١٧٨
٧-٤	الوعيد الشديد لمن يعذبون الناس ظلماً - العبرة المستفادة من قصة أصحاب الأخدود	١٨١
٩، ٨	سبب تعذيب أهل الإيمان في كل زمان ومكان - أربعة أوصاف وصف الله بها نفسه	١٨٤
١١، ١٠	أربع تعقيبات على قصة أصحاب الأخدود	١٨٥
	التعقيب الأول: أن الجزاء من جنس العمل - من الذين فتنوا في دينهم	١٨٨
١٦-١٢	خمس صفات لله تعالى في التعقيب الثاني، منها: البطش بالظلمة	١٨٨
١٨، ١٧	على كل طاغية أن يعتبر بما حل بغيره - أربعة أوجه للشبه بين فرعون ومن شق الأخدود	١٨٩
٢٠، ١٩	التعقيب الثالث: أن سبب عذاب أصحاب الأخدود هو الإصرار على الكفر والتكذيب	١٩١
٢٢، ٢١	التعقيب الرابع: ثناء على القرآن وتنديد بالمكذبين به	١٩٢
	تفسير سورة الطارق - مقدمة السورة وموضوعاتها - ثلاثة أدلة على البعث سبب النزول	١٩٣
٤-١	القسم على أن لكل نفس حافظ يسجل أعمالها ويحرسها	١٩٦
٨-٥	الخلق الثاني أهون من الخلق الأول - الصلب والترائب	١٩٩
١٠-٩	يوم القيامة تظهر مكنونات الصدور ولا يجد الكافر والمنافق من يحميه	٢٠٣
١٤-١١	القسم على أن القرآن كله حق وصدق - ثلاثة أدلة على البعث والنشور	٢٠٤
١٧-١٥	الوعيد بإظهار الدين وإمهال المبطلين	٢٠٦

الآية	فهرس الموضوعات	الصفحة
	تفسير سورة الأعلى - مقدمة السورة - عناصرها الثلاث - ما ورد فيها من أحاديث مقومات التوحيد الخالص والإيمان الكامل:	٢٠٨
٥-١	أنواع التنويه - التسييح باسم الله، والتسييح لذات الله، من مواطن التسييح وصف الله تعالى لنفسه بثلاثة أوصاف:	٢١٢ ٢١٥
	١- اتقان الخلق، ٢- هداية كل مخلوق لما خلق له، ٣- إحياء الأرض بعد موتها	
٧، ٦	بشارتان عظيمتان للنبي ﷺ: الأولى: عدم نسيان الوحي - استثناء النسخ والنسيان من البشرى	٢١٨
٨	البشرى الثانية: تيسير الشريعة ومظاهره في الدين والدنيا	٢٢١
١٠، ٩	يتنفع بالموعظة صاحب القلب الحي	٢٢٤
١٣- ١١	مصير من عطل عقله وحواسه عن الانتفاع بهدي الإسلام	٢٢٥
١٤	خصال ثلاث لأهل السعادة - الخصلة الأولى: تزكية النفس بالعقيدة الصحيحة	٢٢٧
١٥	الخصلة الثانية: استحضار عظمة الله تعالى بذكره وتسييحه - الخصلة الثالثة: الإقبال على الله تعالى بالطاعة والعبادة	٢٢٨
١٧، ١٦	التنافس على حظوظ الدنيا والآخرة	٢٢٩
١٩، ١٨	جذور الإسلام في الرسائل السابقة	٢٣٢
	تفسير سورة الغاشية - مقدمة السورة وموضوعيها	٢٣٤
٣ - ١	أصحاب الوجوه الدلالية في ساحة الحشر: وأوصافهم - ستة أخبار عن وجوه أهل النار	٢٣٧
٧ - ٤	الأول: الذل والانكسار - الثاني والثالث: التعب والإجهاد - الرابع: وجوههم تُشوى في النار	٢٤١
	الخامس: شراب أهل النار - السادس: طعام أهل النار	
١٠ - ٨	تسعة أخبار عن وجوه أهل الجنة - الأول: أهل الوجوه الناعمة - الثاني: الرضي عن الأعمال وعن الأجر والثواب - الثالث: درجات الجنة	٢٤٢
١٣ - ١١	الرابع: ليس في الجنة لغو ولا جدال ولا خصام - الخامس: عيون الماء تجري في الجنة السادس: السرر العالية	٢٤٣
١٦ - ١٤	السابع: أكواب الجنة - الثامن: وسائد الجنة - التاسع: فراش أرض الجنة	٢٤٤
	مقابلة الآيات بين وجوه أهل الجنة وأهل النار	٢٤٥
٢٠- ١٧	أربعة من دلائل التوحيد وهي: خلق الإبل والسماء والجيال والأرض	٢٤٦
٢٢، ٢١	من أعرض عن دلائل وحدانية الله تعالى فحسابه على الله	٢٤٨
٢٤، ٢٣	مصير الكافر نار جهنم	٢٥٠
٢٦، ٢٥	لا مفز من الحساب والجزاء فالمرجع إلى الله تعالى	٢٥١
	تفسير سورة الفجر - مقدمة السورة وموضوعاتها الثلاث	٢٥٢
٤- ١	خمسة أيمان على تعذيب المكذبين لخاتم الأنبياء	٢٥٤
٥	قسم مقنن لكل صاحب عقل	٢٥٨
٨- ٦	إهلاك أقوى الأمم في السابق يؤذن بإهلاك أمثالها في الحاضر والمستقبل	٢٥٨
٩	إهلاك القوة الثانية في الأرض	٢٦٠
١٢- ١٠	إهلاك فرعون أقوى الطغاة - تعذيب ماشطة بنت فرعون - تعذيب آسية امرأة فرعون	٢٦١

الآية	فهرس الموضوعات	الصفحة
١٤،١٣	عقاب الله تعالى للطغاة والظالمين	٢٦٣
١٥	كثرة المال والجاه لا يعينان رضى الله تعالى عن العبد	٢٦٤
١٦	الفقر والضعف لا يعينان سخط الله تعالى على العبد	٢٦٦
٢٠-١٧	أربعة أسباب لإهانة العبد عند ربه هي: إهانة اليتيم - وعدم الحث على إطعام المسكين - وأكل المال الحرام - وحب الدنيا	٢٦٧
٢٢،٢١	نتيجة الابتلاء فى الدنيا تظهر يوم القيامة	٢٧٠
٢٤،٢٣	جهنم فى ساحة الحشر، والكافر يتحسر على نفسه	٢٧١
٢٦،٢٥	عذاب الكافر يوم القيامة ليس له نظير	٢٧٣
٣٠-٢٧	مصير النفس المطمئنة	٢٧٣
	تفسير سورة البلد - مقدمة السورة وموضوعها	٢٧٧
٤-١	القسم على أن الله تعالى خلق الكافر فى شقاء، دنيوى وأخروى	٢٧٩
٧-٥	إنكار الكافر للحساب، وإنفاقه المال للصمد عن سبيل الله	٢٨٤
١٠-٨	الكافر لم يستثمر حواسه فى اجتياز العقبة المانعة من دخول الجنة	٢٨٦
١٦-١١	ثلاثة أسباب لاجتياز العقبة وهي: الإيمان بالله تعالى، وعتق الرقاب، وإطعام الجائع بحث فى عتق الرقاب، وأحاديث فى الباب - أولى الناس بالإطعام	٢٨٨
٢٠-١٧	أربعة شروط لقبول عتق الرقبة وسائر الأعمال الصالحة، أهل السعادة وأهل الشقاء	٢٩٥
	تفسير سورة الشمس - مقدمة السورة - موضوعها	٢٩٨
٨-١	سبعة أيمان على فلاح من زكى نفسه بالتقوى، وشقاء من أتبع نفسه هواها	٣٠٠
١٠-٩	جواب القسم - النفس البشرية قابلة للكفر والإيمان - أحاديث فى العمل على تزكية النفس	٣٠٤
١٣-١١	قوم ثمود مثال لمن دنس نفسه بالمعاصى وحجبها عن الهدى	٣٠٧
١٦-١٤	عقاب الله تعالى لمن عقر الناقة	٣٠٨
	تفسير سورة الليل - مقدمة السورة - موضوعها	٣١٠
٤-١	ثلاثة أيمان على أن سعى الإنسان إما إلى جنة أو نار	٣١٢
٥	العمل الصالح يرشح صاحبه لمستقبل عظيم، والعمل السيء يرشح صاحبه لنهاية مخزية	٣١٥
١٠-٦	ثلاثة من أسباب السعادة - ثلاثة من أسباب الشقاء	٣١٥
١١	البخل بالمال سبب للتردى فى النار - أحاديث فى القدر	٣١٨
١٣، ١٢	بيان طريق السعادة للخلق - الكون كله ملك الله تعالى	٣٢٠
١٦-١٤	تحذير العباد من سوء المصير	٣٢١
١٨، ١٧	سيان للبعد عن النار	٣٢٢
٢١-١٩	بذل المال ابتغاء وجه الله تعالى	٣٢٣
	تفسير سورة الضحى - مقدمة السورة وموضوعها - أسباب النزول - انقطاع الوحي	٣٢٥
	التكبير بين السورتين فى قصار المفصل	٣٢٨
٣-١	القسم على أن الله تعالى لم يهجر نبيه حين تأخر عنه الوحي	٣٢٩
٥، ٤	بشارتان عظيمتان للنبي ﷺ هما: ما أعد الله له فى الدارين - ونزول الوحي عليه	٣٣١

الآية	فهرس الموضوعات	الصفحة
٨-٦	ثلاث من نعم الله تعالى على نبيه: ١- رعايته يتيماً ٢- وهدايته بالوحي ٣- غنى النفس وجغل الدنيا في يده	٣٣٣
١١-٩	ثلاث وصايا للنبي ﷺ لشكر الله تعالى على نعمه الثلاث هي: ١- لا تقهر اليتيم ولا تُهنئه، الإحسان إلى اليتامى ٢- لا تنهر السائل ولو كان على فرس من شكر النعمة: التحدث بها من غير فخر ولا خيلاء	٣٣٥
٤-١	تفسير سورة الشرح - مقدمة السورة وموضوعها- معجزة شق صدر النبي ﷺ مرات ثلاث ثلاث ممن يمتن الله بها على رسوله ﷺ وهي: أ - شرح الصدر، ب- ووضع الوزر، عصمة النبي ﷺ قبل البعثة وبعدها خمسة أمثلة من عتاب تعالى لرسوله ﷺ على ما خالف فيه الأولى باجتهاده ج- خمسة أمثلة من رفع ذكر النبي ﷺ حسياً ومعنوياً	٣٤٣ ٣٤٦ ٣٤٨
٦،٥	وعد من الله تعالى بتيسير كل عسير	٣٤٩
٨-٧	التزود ليوم المعاد والعمل للدنيا	٣٥٠
٣-١	تفسير سورة التين - مقدمة السورة وموضوعها أربعة أيمان على أن الله تعالى خلق الإنسان في أحسن صورة إشارة إلى أماكن أعظم الرسالات الأربعة	٣٥٣ ٣٥٥
٤	الإنسان بعقله وجسمه واستقامة الفطرة في أحسن تقويم	٣٥٨
٥	انتكاس الإنسان بفساد فطرته	٣٦٠
٦	أجر المؤمن غير مقطوع ولا ممنوع	٣٦١
٧	لا عذر لأحد في التكذيب بالحق مع ظهور دلائله	٣٦٢
٨	من عدل الله تعالى: عدم التسوية بين الطائم والعاصي	٣٦٢
٥-١	تفسير سورة العلق - مقدمة السورة وموضوعها - سبب النزول - نزول الوحي في غار حراء غير مجرى التاريخ - طلب العلم هو المطلب الأول في الإسلام - لا بد من ربط العلوم التجريبية بخالق الكون - استهلال السورة وافتتاح الأعمال والأقوال بالبسملة - مُصادرة الدعوة من غير المسلمين منذ فجر الرسالة	٣٦٤ ٣٧٥
٨-٦	مصدر العلم ومصدر خلق الإنسان، هو الله سبحانه - أصول الصفات الإلهية- ما يلزم لتحصيل العلوم كل طاغية مصيره إلى الله تعالى يحاسبه ويجازيه	٣٧٧ ٣٨٠
١٠،٩	ليس هناك أبشع من مُلاحقة الناس في المساجد ومنعهم من ذكر الله!	٣٨٢
١٢،١١	ما أعجب أن ينهى الإنسان غيره عن طريق الهدى أو الأمر بالمعروف!	٣٨٣
١٤،١٣	مراقبة الله تعالى لمن كذب وأعرض، ومعاقبته بما يستحق	٣٨٣
١٦،١٥	الوعيد الشديد لمن صدّ الناس عن دين الله تعالى	٣٨٣
١٨-١٧	التهكم بكل مغرور، ونهايته الوخيمة	٣٨٤
١٩	الأمر بالثبات على الإيمان	٣٨٥
	تفسير سورة القدر - مقدمة السورة وموضوعها - في فضل ليلة القدر وإحيائها بالعبادة مما ورد في تعيين ليلة القدر- مناسبة السورة لما قبلها	٣٨٧ ٣٨٩

الآية	فهرس الموضوعات	الصفحة
٢٠١	ابتداء نزول القرآن في ليلة القدر - تسميتها وعلاماتها وحكمة إخفائها	٣٩٤
٣	فضل ليلة القدر من ثلاثة وجوه: الوجه الأول: أنها خير من ألف شهر	٣٩٧
٤	الوجه الثاني: نزول الملائكة فيها	٣٩٨
٥	الوجه الثالث: أنها ليلة سلام وأمان	٣٩٩
	تفسير سورة البينة - مقدمة السورة - موضوعها	٤٠٠
	الله تعالى يأمر رسوله ﷺ أن يقرأ سورة البينة على أبي بن كعب	
١	أهل الكتاب يُخْلِفُونَ وعدهم بالإيمان بمحمد ﷺ	٤٠٣
٣٠٢	الحجة القطعية على صحة الرسالة الخاتمة	٤٠٦
٤	تفرق أهل الكتاب بعد بعثة النبي ﷺ بين الإيمان والزيادة في الكفر	٤٠٦
	علم أهل الكتاب بصحة نبوة محمد ﷺ من كتبهم - أحزاب وفرق - انتشار الإسلام	٤٠٧
٥	أصل الشرائع واحد	٤٠٩
٨ - ٦	نتيجة التفريق: كُفِر وإيمان، هذا عقاب الكفر - وهذا ثواب الإيمان	٤١١
	تفسير سورة الزلزلة - مقدمة السورة - فضلها وأغراضها	٤١٣
٢، ١	الزلازل الكبير - إخراج الأرض ما في جوفها عند قيام الساعة	٤١٦
٥ - ٣	تعجب الإنسان من تغيير حال الأرض - شهادة الأرض على الإنسان	٤١٧
٦	من ساحة العرض والحساب إلى المصير المحتوم	٤١٩
٨، ٧	العدالة المطلقة - معنى الذرة - التصديق بالقليل - محقرات الذنوب:	٤٢٠
	جزاء الكافر في الدنيا - من جزاء المؤمن في الدنيا	٤٢٥
	تفسير سورة العاديات - مقدمة السورة وموضوعها أقسامها	٤٢٧
٣-١	ثلاثة أيمان على أن الإنسان جحود لأنعم الله عليه	٤٣١
٥، ٤	وصف الخيل وهي تغير على العدو	٤٣١
٨-٦	ثلاثة أمور جواباً للقسمة هي: جحود الإنسان، وإقراره على ذلك، وشدة حبه للمال	٤٣٢
١٠، ٩	الخوف من سوء المصير في الآخرة يعالج الصفات الذميمة في الإنسان	٤٣٤
	تفسير سورة القارعة - مقدمة السورة وموضوعها	٤٣٦
٣-١	القيامة تفرع القلوب والأجرام العظيمة بأهوالها	٤٣٨
٥، ٤	وصف حال الناس والجبال عند قيام الساعة	٤٣٩
١١ - ٦	الإنسان يصنع لنفسه مستقبلاً حسناً أو مستقبلاً سيئاً - نار حامية - أحاديث في المعنى	٤٤١
	تفسير سورة التكاثر - مقدمة السورة وأغراضها	٤٤٥
	ذم السعي وراء الدنيا حتى الموت - ذم التفاخر بالآباء والأجداد - سبب النزول	٤٤٧
٢، ١	إذا مات الإنسان لا ينفعه إلا عمله	٤٤٩
٤، ٣	التهديد والوعيد لمن شغلته دنياه عن آخره	٤٥١
٧-٥	رؤية الجحيم يوم البعث رأي العين - مراتب العلم ثلاثة	٤٥٢

- السؤال عن شكر النعم سؤال حساب وامتنان
- ٨ - يعفى من السؤال ما يتعلق بضرورات الإنسان وهي: المأكل والمشرب والملبس والسكن
- ٤٥٤ - خمس من نعم الله الكبرى على الإنسان
- السؤال عن شكر النعم سيكون عاماً وشاملاً - ما يعفى من السؤال - نَعَم يُسأل عنها الإنسان- شكر النعم
- ٤٦٠ تفسير سورة العصر - مقدمة السورة وموضوعها وأغراضها
- ٢٤١ الناس في خسران وهلاك إلا من استثناهم رب العالمين
- ٣ أربع صفات للفتنة الرابعة: الإيمان، العمل الصالح، التواصي بالحق، التواصي بالصبر
- ٤٦٤ أربع صفات للفتنة الخامسة هي: الكفر والعمل الباطل وترك التواصي بالحق وبالصبر
- ٤٧١ مشاركة الجن للإنس في الخسران
- ٤٧٣ تفسير سورة الهزلة - مقدمة السورة - موضوعها
- ٤٧٤ الوعيد الشديد لمن يعيب الناس في حضورهم وغيبتهم - سبب النزول - النعمة ودواعيها
- ٤٧٩ بواعث ودافع الهزم واللمز
- ١ أولاً: الهزم وأساليبه - مواطن الهزم - مشاركة في الإثم - ابدأ بنفسك - المغتاب
- تعريف الغيبة - الغيبة من كبائر الذنوب - ليس من الغيبة - كفارة الغيبة
- ثانياً: اللمز وأساليبه
- ٣٤٢ المال هو العلة الباعثة على انتقاص الناس والتعالى عليهم
- ٤٨٤ عقاب من ينتقص الناس وهو من أهل الكفر
- ٦-٤ النار تحطّم من يعيب الناس وتطبق عليه
- ٩-٧ تفسير سورة الفيل - مقدمة السورة - موضوعها - عدم تكرار هذه القصة في القرآن وسببه
- ٤٨٧ عام الفيل - سبب الحادثة - كنيسة القليس باليمن - سند الحادثة ودلائلها
- ٢٤١ امتنان الله على المسلمين برّد كيد أبرهة الأشرم عن البيت الحرام
- إهلاك أصحاب الفيل بأضعف خلق الله تعالى
- ٤٩٣ ٥-٣ تواتر ما فعل الله بأصحاب الفيل وبقاء آثارهم في عصر الصحابة
- تفسير سورة قريش - مقدمة السورة - موضوعها - أصل تسمية قريش
- ٤٩٦ أحاديث في فضل قريش - الأسباب والمسببات مخلوقة لله تعالى
- ٥٠١ عبادة الله تعالى من موجبات شكر النعم
- ٣ - ١ تأمين أرزاق العباد فضلاً من الله تعالى - الشكر يزيد النعم، والكفر يذهبها - الاستدراج بالنعم
- ٥٠٣ نعمة الأمن والطمأنينة - أمن الحرم
- ٥٠٦ تفسير سورة الماعون - مقدمة السورة - أسباب النزول وموضوع السورة
- ٥٠٩ آثار التكذيب بدين الإسلام
- ٥١١ خمسة أوصاف لمن يكذب بالإسلام - الوصف الأول: أنه يدع البيت
- ٥١٣ الوصف الثاني: أنه لا يحث غيره على طعام المسكين
- ٥١٤ الوصف الثالث: السهو عن الصلاة - آثار في المعنى - السهو في الصلاة
- ٥١٦ ٥٤٤

الآية	فهرس الموضوعات	الصفحة
٧، ٦	الوصف الرابع: الرباء - الوصف الخامس: من الماعون	٥١٩
	تفسير سورة الكوثر - مقدمة السورة وموضوعها - سبب النزول - جملة من الآثار	٥٢٣
١	نهر الكوثر هو الحوض المورود - من يُحال بينهم وبين الحوض	٥٢٧
	كيف يعرف النبي ﷺ أمته يوم القيامة - نهر الكوثر من الخيرات الكثيرة	٥٢٩
٢	إخلاص الصلاة والذبح لله تعالى - صلاة عيد الأضحى والأضحية	٥٣١
٣	مقطوع الذكر والأثر هو الأثر - أعداء الإسلام هم الذين يؤذون النبي ﷺ	٥٣٣
	وجوب حب الرسول ﷺ - من هدايات السورة	
	تفسير سورة الكافرون - مقدمة السورة وموضوعها - توحيد الربوبية يقو به غير المسلمين	٥٣٧
	من الشرك بالله: اتخاذ وسائط تقرب إليه سبحانه - سورة الكافرون في السنة - سبب النزول -	٥٣٩
	قراءتها عند النوم وفي الصلاة - وللاستشفاء، وكونها تعدل ربع القرآن	
١	الكفر انفصال لا يُرجى معه اتصال	٥٤٤
٣، ٢	نفى الاتحاد بين معبود الكافر ومعبود المسلم حالاً ومآلاً	٥٤٥
٥، ٤	نفى الاتحاد بين عبادة الكافر وعبادة المسلم حالاً ومآلاً - ليس بين الآيات الأربع تكرار	٥٤٦
٦	عبادة الرحمن وعبادة الأوثان لا يلتقيان - من هدايات السورة	٥٤٧
	تفسير سورة النصر - مقدمة السورة وموضوعها - آخر سورة نزلت	٥٤٩
	سورة التوديع - السورة تنعى رسول الله ﷺ	
١	النصر والفتح - أمثلة من نصر الله تعالى لنبيه - أهل النصر في كل زمان ومكان	٥٥٤
	فتح مكة هو المقصود في السورة - تحقيق وترجيح لوقت نزول السورة	٥٥٦
٢	فتوحات العهد النبوي - فتوحات بشر بها النبي ﷺ - انتشار الإسلام	٥٥٨
٣	شكر الله تعالى على النصر والفتح - في فضل التسبيح بحمد الله تعالى	٥٦٠
	من فضائل الاستغفار - إنه كان تواباً	
	تفسير سورة المسد - مقدمة السورة وموضوعها	٥٦٨
٣-١	أبولهب - سبب نزول السورة - صور من كيد أبي لهب أثناء دعوة الرسول ﷺ للقبائل - صور من الكيد له ﷺ أثناء الدعوة بالأسواق - طلاق رقية وأم كلثوم من ابني أبي لهب - نهاية أبي لهب ومصيره في الدنيا والآخرة - أعداء الأمس جنداً لإسلام اليوم - عدم إسلام أبي لهب إعجاز للقرآن	٥٦٩
٥، ٤	امرأة أبي لهب (أم جميل) - إيذاء ومعجزة - عقوبة أم جميل في الدنيا والآخرة - صور أخرى من إيذاء امرأة أبي لهب للنبي ﷺ - من هدايات السورة	٥٧٤
	تفسير سورة الإخلاص - مقدمة السورة وموضوعها - سورة الإخلاص في السنة النبوية:	٥٧٧
	حبها يسبب محبة الله تعالى ويسبب دخول الجنة	
	فضل قراءتها مع المعوذتين، والرقية بهما - قراءتها صباحاً ومساءً	
	كونها تعدل ثلث القرآن - اسم الله الأعظم - قراءتها تسبب مغفرة الذنوب	
	سبب النزول - وجه التسمية	
١	الوحدانية المطلقة - للفظ أحد ثلاثة معان - براهين التوحيد الأربعة	٥٨٦
٢	الغنى المطلق	٥٩٠

الآية	فهرس الموضوعات	الصفحة
٣	نسبة الولد إلى الله تعالى فرية عظمى - كل مولود حادث، والله تعالى أزلّ قديم	٥٩١
٤	النفى المطلق للشبه والنظير - الآيات الثلاث الأخيرة تفسر الآية الأولى - تلخيص السورة	٥٩٣
	تفسير سورة الفلق - أ- مقدمة السورة وموضوعها- ب. المعوذتان في السنة النبوية:	٥٩٥
	١- في فضل المعوذتين والاستعاذة بهما، ٢- في قراءة المعوذتين في الصلاة	
	٣- قراءتهما دبر كل صلاة، ٤- قراءتهما عند النوم والاستيقاظ	
	٥- الرقية بهما في المرض ومن العين، ٦- قراءتهما في الصباح والمساء	
	٧- تحريم جعل المعوذتين تميمة	
	ج- ما نسب إلى ابن مسعود في شأن المعوذتين	٥٩٩
١	الاستعاذة بفلق الإصباح - المستعاذ منه في السورة شرور أربعة:	٦٠١
٢	الشر الأول: شر كل مخلوق فيه شر	٦٠٢
٣	الشر الثاني: شر ظلام الليل وغياب القمر	٦٠٤
	الشر الثالث: شر الساحر الذي ينقث في عقد السحر- سبب نزول المعوذتين	٦٠٦
٤	خمس مباحث في السورة: ١- رقية جبريل للنبي ﷺ ٢- بماذا يطلّ السحر وعلاجه	٦٠٧
	٣- السحر وعصمة الرسول ﷺ ٤- السحر لا يؤثر بنفسه ٥- حكم تعلّم السحر وتعليمه	
٥	الشر الرابع: شر عين الحاسد وفيه عشرة مباحث: ١- ماهية الحسد، ٢- أسبابه	٦١٠
	٣- الحاسد خبيث الطوية، ٤- ما يصيبه الحسد ٥- أعراض الحسد	
	٦- الحسد في الكتاب والنسبة ٧- ما يجب على الحاسد	
	٨- بماذا يدفع الحسد ٩- علاج الحسد ١٠- الرقية من العين مشروعة - أذكار	
	تفسير سورة الناس - مقدمة السورة - موضوعها وقضاياها الثلاث	٦١٦
٣-١	المستعاذ به واحد والمستعاذ منه	٦١٨
٤	الوسواس الخناس	٦٢٠
٥	القرين - خمس صور من وسوسة الشيطان وشروره وهي:	٦٢٢
	أولاً: الشيطان يجري من ابن آدم مجرى الدم	
	ثانياً: وسوسة الشيطان في الصلاة وحرصه على ذلك	
	ثالثاً: الشيطان يشكك العبد في ربه	
	رابعاً: الشيطان يعقد على رأس ابن آدم عند النوم	
	خامساً: ويول في أذنه حتى لا يصلّى الفجر	
٦٢٤	سته من أهم شرور الشيطان: ١- شر الكفر والشرك والنفاق - ٢- البدعة - ٣- الكبائر	
	٤- الصغائر - ٥- الاشتغال بالمباحات - ٦- الاشتغال بالأمور المفضولة - ثلاث صور أخرى	
٦٢٥	تسعة أمور يعتصم بها العبد من كيد الشيطان منها: الاستعاذة، وقراءة البقرة	
	والمعوذات، وآية الكرسي، وآخر البقرة، وثلاث آيات من أول سورة غافر، مع آية الكرسي،	
	وكثرة الطاعة والإخلاص	
٦	شياطين الإنس والجن	٦٢٧
	فهرس الموضوعات	٦٢٩

وقد تم بفضل الله تعالى ونعمته، الفراغ من هذا التفسير المبارك، وأسأل الله تعالى أن ينفع به، وأن يكتب له القبول، وأن يغفر لي خطئي وزلاتي، وأن يجعله علماً يُنتفع به فيما بقى من حياتي وصدقة جارية بعد مماتي ورحم الله من أهدى إلينا عيوبنا. وصلى الله وسلم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

أحمد بن أحمد محمد عبد الله الطويل

- ١ - مدينة الرياض في يوم الجمعة غرة شهر رجب ١٤٢٤ هـ الموافق ٢٩ أغسطس ٢٠٠٣ م.
 - ٢ - وتمت هذه المراجعة لكتابة القراءات بحاشية التفسير في يوم الأربعاء ٢٤ من شهر ربيع الآخر ١٤٢٦ هـ الموافق للأول من شهر يونيو ٢٠٠٥ م.
 - ٣ - وتمت هذه المراجعة لتخريج الأحاديث في يوم الاثنين الثاني عشر من شهر ربيع الأول ١٤٢٧ هـ العاشر من شهر أبريل ٢٠٠٦ م.
 - ٤ - وتمت هذه المراجعة العامة مع إضافة عدّ الآي في الحاشية، في يوم الأحد السابع والعشرين من شهر جمادى الأولى ١٤٢٩ هـ الموافق للأول من شهر يونيو ٢٠٠٨ م حيث بلغت السادسة والستين من عمري.
 - ٥ - وتمت هذه المراجعة لتغذية المعنى الإجمالى للآيات في صبحية يوم الجمعة الرابع والعشرين من شهر رجب سنة ١٤٣٠ هـ الموافق ١٧/٧/٢٠٠٩ م والحمد لله رب العالمين.
 - ٦ - وتمت هذه المراجعة الأخيرة في مدينة الرياض صبيحة يوم الاثنين السادس من شهر صفر سنة ١٤٣٢ هـ الموافق للعاشر من شهر يناير سنة ٢٠١١ م.
- اسأل الله أن يحسن ختامنا، وأن يجعل عملنا خالصاً لوجهه الكريم وألاً يحرمنا الأجر والثوبة، إنه سميع مجيب.

